مقالات

كتابة

د/ حسن بن فهد الهويمل

رئيس المكتب الإقليمي لرابطة الأدب الإسلامي بالرياض

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَقْمِيشَاتٌ مِنْ السِّيْرَةِ الذَّاتِيَّةِ .. ! (١) [١]

(واستقبل الفتى حَياته في مدينة (مونبلييه) سَعيداً بِها إلى أقْصَى ما تبلغُ السعادةُ، راضياً عنها كأحسن ما يكون الرضا. فقد حقق أملاً لم يكن يُقَدِّرُ أنه سيحققه في يوم من الأيام).

هكذا قال (طه حسين) في أيامه العذاب، حين قَدِمَ إلى (فرنسا) للدراسة، وكأنه بهذا القول يُجمْجِم عما في نفسي، حين قدمت إلى مصر للدراسة أيضاً، في مستهل العقد الثامن من الألفية الثانية للميلاد.

كان يوماً مشهوداً ذلك اليوم الذي دَخَلْتُ فيه مصر، وقرأت على بوابة المطار: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾. قدمت إليها، وفي نفسي أنها جنة الله في أرضه، مختزناً صوراً تراثية، وأخرى حديثة. وليس مهماً لديَّ أن يكون مبعث التصوُّر الخبرة أو التاريخ. كنت أفيض إعجاباً، وأتخيّل أنني قادم على جوف الفراء، كما يقول المثل العربي (كُلُّ الصَّيد في جَوْفِ الفراء).

كانت لمصر في مخيلتي ثلاث صور:

- الصورة الفرعونية، وتَجْسِيد الذكر الحكيم لها.
- الصورة الإسلامية، وتَفْصِيل التاريخ الإسلامي لها.
- الصورة المعاصرة، وتَضْخِيم الإعلام الثوري لها.

وقد كرّس هذه الصُّور سماعنا، وخلطتنا بالأزهريين الذين ابتعثوا للتدريس في المعاهد العلمية والكليّات، وكانوا من خيرة العلماء معرفة وطلاقة وسمتاً.

في مَمَرَّات المطار وصالاته بَدأت الصورُ الثلاث تذبل شيئاً فشيئاً، لتتشكّل صورة رابعة، هي صورة العيان:: - و(ليس الخبر كالعيان) و(وما راء كمن سمعا). لملمت شرودي، وخرجت مع زملائي، وكنا جميعا حُدَثاءُ عهد بمصر، لا نَدْرِي ما الأحياء، ولا الشوارع.

ومسافرون مِثْلنا يجهلون ما هم قادمون عليه، يلحُّون في الأسئلة، كنا قد عَهِدنا إلى سائق الأجرة أن يبلّغنا فندق (قراند) وهو ملتقى السواح المتواضعين، ولم نلبث أن وصلنا إليه، وأكملنا إجراءات السكن، وذهب كل واحد منا إلى غرفته.

لم أجد في غرفتي ما كنت أحلم به، كانت كئيبة، أثاثها قديم، وهواؤها معتل لا عليل. حاولت الخلود إلى الراحة، لأنّ أمامنا مهمات جسام، تتعلّق بالسفارة، واستبدال العملة، ومراجعة الأزهر، والتعرُّف على القاعات والمواعيد، والحصول على ما تبقّى من المقررات التي لم تصل إلينا، ثم البحث عن سكن، يستوعبنا جميعاً، ويكون قريباً من الأزهر، ولم يكن بد من الاسترخاء على السرير، وقراءة ما تيسّر من الأوراد. كنا قد أكلنا في الطائرة عيش الكفاف، واتفقنا على الاكتفاء به، إذ لم نكن من ذوي اليسار، بحيث نطلب المزيد.

مرت تلك الليلة كأشد ما تكون الليالي عناءً، وتعباً، وغربة، ووحدة، وروائح لا تريح، ومصعداً يهتز بك كأنه جان. ولما أشرقت الأرض بنور ربها، اجتمعنا في البهو، ثم أخذنا طريقنا إلى المطعم، فوجبة الإفطار مجانية، وتواصينا على الشبع، لتجاوز وجبة الغداء، إذ ربما لا نفرغ لأنفسنا مع تكاثر المهمات. انطلق بنا السائق، كانت القاهرة تجتر

---

(١) تاريخ المقال: ٢٢/ ١٠/ ٢٠١٣

بقايا العهد الملكي، إذ لم يُضِفْ لها العهد الجمهوري شيئاً يذكر، والزحام والتلوُّث في بدايتيهما. لن أفصل القول فيما لقيناه في مشاويرنا من عناء، وما عايشناه من إدارة فاشلة، ونظام إداري معقّد، أصاب بلادنا شَيْءٌ من دخنه، فنحن دولة لم تُسْتَعْمر، إذ نأت بها عن المطامع المقدّسات، والتصحُّر، وسياسة الاتقاء التي توسل بها الملك المؤسِّس، ومن ثم كانت إدارتنا، وعاداتنا، وأدبنا عربية خالصة العروبة.

قَدِمْتُ إلى مصر، وفي تَصَوُّري أنها بلد العمالقة، في الفكر، والفن، والأدب، وسائر شؤون الحياة. ومن ذا الذي لا يثيره ما يسمع عن أشيائها وإنسانها. لقد بَشِمَتْ أفكارنا من (صوت العرب) وبخاصة ما يكتبه (هيكل) لافتتاحية (جريدة الأهرام) يوم الجمعة، ثم يُتْلى بأجمل الأصوات، وأعذب الأساليب، وأمكر الحيل، وما تحمله (مجلة المصوّر) من جميل الصور، وروائع القول، وما تضيفه مجلتا (الهلال) و (الأزهر) من أفكار ينقض بعضها بعضاً. أحسست أنّ مصر الواقع غير مصر التوقع، لقد أنهكتها تصرّفات الفتية الذين كُنَّا نقرأ عنهم بأنهم (فتية آمنوا بربهم).

كانت القومية على أشدّها، والحرية في أوج تألُّقها، والاشتراكية في ذروة سطوعها، كل ذلك كان مع وقف التنفيذ. وبعد مجيئنا لم يكن ما كان على ما كنا نتصوّره.

لقد ثَوَى عمالقة الفكر والسياسة والأدب، وما بقي لم يكن بحجم من مضى.

كانت مصر منهكة من صراع الأجنحة، وحرب أكتوبر. وكان (السادات) أمام خيارات أحلاهما مر، لم يكن بد والحالة تلك من إعادة صياغة الصورة، ليلائم المسموع المرئي.

ذهبنا إلى الأزهر، وكنا نتصوّره قلعة من قلاع العلم الشرعي، والفكر الفلسفي، والأدب الأصيل، غير أنّا وجدناه متواضعاً، لم يسترد أنفاسه في أعقابِ ضربات الثوريين الذين سَخِروا بعلمائه، واستخفّوا بتاريخه، حتى لقد سمعنا من يقول: (ننتزع الفتيا بفرخة) كان مليئاًَ بالعلماء والأدباء، وهو بحق حصن اللغة، وملاذ الشرع، ولكنه جاء في زمن غير مواتٍ، ولسان حاله يردد مع المتنبي: -

أتى الزَّمانَ بنوه في شبيبته

فَسَرَّهم وأتيناه على الهرم

دخلنا أروقة (كلية اللغة العربية) على استحياء، وتساءلنا عن شؤون الدارسين، لنستبين ما نحن عليه، فما يصل إلينا في بلادنا، لا يروي غليلنا. لقد أحسسنا أننا نمارس حركة (مكوكية) كل كاتب يُسْلمنا لآخر، وساورنا الشك في أمر هؤلاء، أهو (الروتين) القاتل، أم (البيروقراطية) المسرفة، أم هو الجهل المُطْبِق بأبسط علوم الإدارة. مرّت الأيام الثلاثة، ونحن نطارد سراب القيعان، ولمّا أصبح عندنا علمٌ من الكتاب، وأتقنّا لعبة الاستمالة، جاءت الأمور إلينا تجرجر أذيالها. بعد هذا فرغنا لأنفسنا، وعُجْنا نَسْأل عن المقاهي، والمشاوي، والمنتزهات، والآثار، وشواطئ النيل الجميلة، والمكتبات الزاخرة بالكتب المؤلّفة والمترجمة والمحقّقة. لقد بدأنا نكتشف مصر على حقيقتها، سألنا عن بيوت العمالقة الأحياء منهم والأموات، ومنتديات الجهابذة: (محمود شاكر) بتراثيته و(مصطفى محمود) بتفكيره واستنباطاته و (نجيب محفوظ) بفنياته، وعن بيوت الراحلين (طه حسين) و (عباس محمود العقاد) و (أحمد شوقي) كرمة ابن هاني، والمكتبات (مدبولي) و (دار المعارف) و (دار الكتب) وبعض الناشرين والمحقّقين، وعن سراحين اللغة الثلاثة (محمد وعبد اللطيف وعبد السلام سرحان). لقد أحسسنا أنّ مصر أُمّ الدنيا، ولكنها ليست كما يصوّرها إعلامها الثوري، فيها الفوضى، والتلوُّث، والازدحام، واللامبالاة، والفضول،

والثرثرة. لقد تذكّرت رواية نجيب محفوظ (ثرثرة فوق النيل) ورواية غازي القصيبي (شقة الحرية) ومقولة أبي الطيب المتنبي في قصيدته الظالمة لمصر وأهلها:

جـودُ الرجـال مـن الأيـدي وجـودهم
مـن اللسـان فـلا كـانوا ولا الجـودُ

إنها مصر الصاخبة التي لا تحكمها صِفَةٌ، ولا يستوعبها واصِفٌ، وشأنها كشأن (الكوفة) التي قال عنها أحد الوافدين إليها:
(دَخَلْنا الكوفة بليل فذهب الأخيارُ إلى الأخيار، وذَهب الأشرارُ إلى الأشرار).
لقد تلاعبت بمشاعرنا، فحيناً نزهو حتى نظن أننا كممدوح أبي الطيب الذي يقول له:

-

تَرَكْتَنِـي أَصْـحب الـدنيا بِـلا أَمـلِ

وحيناً نخبو، ونتضاءل، ونكون كالمتحسّر على واقعه:
وبقيـت فـي خَلـفٍ كجلـدِ الأَجْـرب

إنها مصر المتفلتة على كل الحسابات، مصر العلم والعلماء، والفن، والفنانين، والإعلام والإعلاميين. ومنذ ذلك الحين، وأنا أُلِمُّ بها في كل عام مرةً، أو مرتين، سائحاً يبحث عن اللهوِ البريء، أو مؤتمراً يلتمس الوفاق العَصِيَّ. أذهب إليها بُجْر الحقائب، وأعود منها مَلِيء العياب تستهويني مطاعمها، وتستميلني مقاهيها، ويُسَلِّيني فضول مُعْسريها الذين يعيشون للحظتهم، لا تشغلهم سياسة، ولا تلهيهم تجارة، ولا بيع عن جلسات السمر حتى الهزيع الأخير من الليل في مداخل العمارات أو (بدروماتها).
أما الريف فَعَالَمٌ آخر، لاَ يمُتُّ بصلةٍ إلى صَخَبِ المُدُن وفُضُولِها، وسيكون له ولرحلاتٍ لاحقةٍ أحاديث أخرى.

تَقْمِيْشَاتٌ مِنْ السِّيْرَةِ الذَّاتِيَّةِ .. ! (٢) (١)

عندما وصلت إلى مصر، كنت مثقلاً بقراءات مهيمنة. والمشاهد الفكرية والسياسية كالمشاهد الإنسانية، يتمكن بعض الأناسي من السيطرة عليها، وإن كان المُهيْمِنُ شخصاً مفضولاً. وبمثل هذا تكون بعض القراءات مفضولةً هي الأخرى، ولكنها سبقت فاسْتبدَّتْ، وأصبح الخلف يجترونها ..

ويتوارثونها، وكأنها بُرْهان قَطْعِي الدلالةِ والثبوت. وحين تسود مثلُ هذه القراءات، يكون المشهد الأدبي مُفْتقِراً إلى مُتَمرِّدين لوجه الحق، لا يخشون فيه لومة لائم.

والمجددون: إما أن تَعِي الدهماءُ سلامة مقاصدهم، فيكونون أبطالاً مخلَّدين. أو تلتبس عليهم الأمور، ويثور عليهم الرأي العام، ويجد من يُهَيِّجه، ويؤزه أزَّاً، ثم يكونون مُجْرمين خونة، مصيرهم إلى السجون، أو المشانق. وكم من مصلح جاء في غير وقته، فاعتورته السهام، حتى إذا اثخنته الجراح: الحسية والمعنوية، رضي من الغنيمة بالإياب.

والتَّحري يكشف عن ضحايا أبرياء أدركتهم (صيحة العامة). وكم من حكيم استعاذ من تلك الصيحة. وتاريخ الرجال يكشف عن مثل ذلك. أذكر -على سبيل المثال -ما لقية أمام المفسرين والمؤرخين (أبو جعفر ابن جرير الطبري تـ ٣١٠هـ) الذي أوْذِيَ من عَوامّ الحنابلة -كما يقال - بسبب تَشْويه (الظاهريين) له، وافترائهم عليه. حتى لم يتمكن مُشَيِّعوا جنازته من دفنه إلا ليلاً. ومن المتأخرين (عباس محمود العقاد) الذي حَمَل عليه (الرافعي) وأُخِذَ قولهُ بالقبول، وتتابع الدارسون على تداول مقولاته، والتِماس مؤيدات لها. نجد ذلك عند الكاتب المندفع (غازي التوبة) وآخرين. مع أن (العقاد) أفضل بكثير من (الرافعي) رحمهما الله جميعاً.

في مصر كما قلت مُسَلَّمات لا يجوز المساس بها، وهي بحاجة إلى نَقْضِ إحكامِها، وإعادة صياغته. ولكن أين الذين يغامرون في الاقتراب من عِشِّ الدبابير؟.

لقد تحول (نجيب محفوظ) إلى رمز وطني بعد حصوله على (جائزة نوبل) للآداب، ولم يستطع أحد تفكيك أعماله الروائية: لغوياً، ودلالياً، وفنياً، بمعزل عن هيمنته، ولمَّا تَزَل قداسته تنمو يوماً بعد يوم، مع أن المشهد السردي يحفل بمن هو أفضل منه، لغة، وفنا، ودلالة. وهو مع هذا علمٌ في رأسه نار -ولا شك - ولكن فوق كُلِّ ذِي فَنٍّ رفيع مَنْ هو أرفع منه فناً.

لم أكن وأنا أنقب في مكتبات مصر، وأقضي بين رفوفها سحائبَ الأيام، و هزائعَ الليالي، واختلف إلى منتديات الأدباء قادراً على البوح بما أعانيه من تلك القراءات المهيمنة. فأنا غضُّ الإهابِ، ضعيف الجناب، وفي الأمثال: (يا غريب كن أديباً) ومن ثم أكتفي بالإشارة عن العبارة. ولم تكن مصر بِدْعاً من المشاهد، ففي مشهدنا المَحَلِّي قد لا يجرؤ أحد على المساس برموز الفكر والأدب، الذين أخذوا حكم رواة (البخاري) مِمن يقال عنهم: (تجاوزوا القنطرة). فمن ذا الذي يستطيع مراجعة تراث العلامة (حمد الجاسر) أو (عبد الله بن خميس) أو(محمد العبودي)؟ ومع أنهم ملء السمع والبصر، إلا أنهم في النهاية بشر، يؤخذ من قولهم ويرد.

وكان (أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري) ممن لا يتخوفون من مقاربة هذا الصنف من العمالقة، وقد لقي في مغامراته تلك نصبا. وكانت لي محاولات متواضعة مع بعض الرموز، قوبلت بالاستنكار الشديد، والتحامل الجائر، ولو دُفِعَتْ بالتي هي أحسن -بوصفها

---

(١) تاريخ المقال: ١٢/ ١١/ ٢٠١٣

حقاً مشروعاً- ونوقش ما يُتَوقَّع أنه تحامل، أو تعدي، لكان في ذلك إثراءٌ للمشهد، وحيلولةٌ دون التقديس الزائف، أو التصنيم الممقوت.

ولما آسفونا بعنف الردِّ، انطوينا على أضغاننا، وكدنا نعتزل القوم، وما يُعَظِّمون.

في مصر التقيت مع لفيف من لداتي، وتناوشت معهم بحذر شديد، وحاولت تَنْحية القراءات التسلطية، التي سَدَّتْ المنافذ، وعَطَّلت المراجعة السليمة. فَمِنْ سيئات التصنيم الإغماضُ في الحشف، وسوء الكيل، ولم يكن العرب بدعاً من الأمم. فالذي كتب عن (نهاية التاريخ) يقطع بأن الأنموذج (الأمريكي) يُعَدُّ آخر صيحات التغيير.

في مصر كانت مدرستا (الديوان) و(أبولو) طاغيتين على المشهد النقدي، منهما يَصْدُر الكتبة، وإليهما يَرُدُّون. ولقد تضَخَّم أثرهما، حتى أصبح كتاب (الديوان) بِجُزْءيْه، كـ(الكتاب) لسيبويه، من لم يقرأه فليس له نصيب في علم النحو، فكأن كِتاب (الديوان) دستور النقد وعنوانه.

عَيْبي الشائع أنني حين قدمت إلى مصر كانت قراءتي عن النقد ورموزه من ناتج القراءات التسلطية. وكم هو الفرق بين أن تقرأ الشيء، أو تقرأ عنه. لقد كنا نتوسل بالآخرين، لاستكناه مناهج المدارس ومستخلصاتها. وبهذا كنا مقلدين، لا مجتهدين، ومُؤْتَمِّين بالآخر، لا مستشرفين، وكم نحن بحاجة إلى الاعتراف بالحقيقة، فالشجاعة والثقة تُهوِّنان الاعتراف بالخطأ، وهو الخطوة الأولى للتصحيح.

كان من أولويات اهتماماتي أن أقرأ العمالقة من خلال ما قالوا، لا من خلال ما قيل عنهم، وهذا النوع من القراءة مغامرةٌ محفوفةٌ بالمتاعب، لأنها فَرْيٌ ذاتي، وتشكيلٌ لرؤيةٍ ذاتيةٍ، ورأي يتحمل الكاتب تبعاته، وإن كانت مثل هذه القراءة من أولويات الذين يريدون شق طريقهم بأيديهم. والقراء النبلاء هم الذين يستغنون عما سواهم، ليفترسوا القضايا بأنفسهم، ويشكلوا مواقفهم من خلال رؤيتهم الخاصة، التي يصنعونها بأيديهم، ولقد قيل: (الليث ليس يسيغ إلا ما أفترس) والمجتهدون من الفقهاء هم الذين تخطوا إلى النص، ولم يكتفوا باستنباط من سلف.

دخلت المكتبات، وزرت المنتديات، وجادلت، وجالدت، وذقت لذة الاكتشاف. كان المستشرقون في نظري جَهَلَةً كذبةً متآمرين. هكذا علمنا (محمود محمد شاكر) في مقدمة أحد كتبه الأطول، والمطبوعة منفردة تحت عنوان (رسالة في الطريق إلى ثقافتنا) وهو الكُتَيِّبُ الذي تفضل بإهدائه إلي معالي الأستاذ (عبد العزيز السالم) وأخذت ما فيه من نتائج بوصفها قضايا مسلمة، لا تشوبها شائبة من تحامل. وفي مصر امتدت يدي إلى كُتُبٍ أَلَّفَها المستشرقون، وأخرى حققها بعضهم، ولم تكن موجودة بأرض قومي، فكانت بالنسبة لي كما لحم (الضب) عند رسول الله ﷺ، يكرهه، ولا يحرمه، لأنه لم يكن في أرض قومه. لقد أحسست أني حُرِمْتُ من لذائذ الفكر، وغرائب الرؤى، وسليم المناهج. كان ذلك عند القلة منهم، ولم أكن خِباًّ، ولا يخدعني الخِبُّ. كان من المستشرقين من هو مُجَنَّدٌ لإشاعة الفتنة، وترويج قالة السوء. وكان منهم الصليبيون الذين يحاربون بالقلم، مثلما يحارب غيرهم بالسلاح، ولكن المسلم مُطالبٌ بالعدل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، فمن واجبنا، بوصفنا شهداء على الناس أن نقول الحق، ولو كان على أنفسنا، أو الأقربين.

المستشرقون ثلاث فئات:

- فئة عالمة تبحث عن الحق.

- وفئة جاهلة تَرْجُم بالغيب.
- وفئة عالمة تكيد للإسلام والمسلمين.

والخبير من يُفَرّق بين الفئات الثلاث، ولا يَحْرم نفسه من منجز المستشرقين المتمكنين، الذين ينشدون الحق، ليضيفوه إلى حضارتهم. وقد فعلوا ذلك حين دخلوا (الأندلس) ونقلوا علوم العرب وثقافتهم، ومن ثم سطعت شمس العرب على الغرب، كما قال منصفوهم.

ومنذ ذلك الحين، وأنا أتعامل مع الاستشراق بالعدل، لا أحْرم نفسي من لذيذ معارفهم، وجميل عرضهم، ولا انجر وراء مفترياتهم.

وفيما بَعْد وجدت ما كتبه معالي الدكتور (علي النملة) من أكثر المقولات انصافاً، وإحقاقا للحق. ولَمَّا يزل (محمود شاكر) رغم تحامله ملء سمعي وبصري، ومصدر إثراءٍ لثقافتي التراثية. ومن ذا الذي لا يعرف له قدره، وهو أمير البيان العربي؟. إذ لا يدانيه حامل اللقب (شكيب أرسلان) وهو الأكثر شهرة منه، والأقل معرفة ودقة أداء.

قلت إن مصر لم تكن على توهجها حين دخلناها لأول مرة، ولكنها تحتفظ بسمعة باذخة، وفيها من ورثة العلم والأدب من يحفظ لها شيئاً من مكانتها. الشيء الملفت للنظر أن نقاد (المغرب العربي) بدأ يَسْطعُ نجمهم بفضل مبادرتهم في تلقي المستجد من مناهج النقد اللغوي. لقد شُغِل النقاد المصريون بالحداثة، وما بعد الحداثه. وعلى الرغم من أن الناقد الأمريكي من أصل مصري (إيهاب حسن) كان رائد المنظرين لما بعد الحداثة، إلا أنه منذ أن هاجر إلى أمريكا عام ١٩٤٦م وحتى وجودنا في مصر عام ١٩٧٢م لم يعد إليها، ولم يصل إلى المشهد العربي كتابٌ واحدٌ من كتبه، التي تُرْجمت إلى مختلف اللغات. ولَمَّا أزل حتى الآن أقرأ عنه، ولا أقرأ شيئاً من مقالاته، أو دراساته، أو كتبه. ولو بادر المترجمون المصريون إلى ترجمة كتبه، لكان بإمكانهم التأسيس المعرفي للحداثة وما بعد الحداثة، ولكنهم لم يفعلوا، ومن ثم تضاءلت الحداثة، وبادرتها مناهج نقدية حديثة، نَحَّتْها عن المشهد، وانفض سامرها. ومن عجب أنها اشتعلت في أدبنا المحلي بشكل مزعج، وتبناها من لا يعرف أبجدياتها، ومع هذا الخلط كانت لها آثار جانبية، إذ حَرَّكت المشهد النقدي، وحَفَزَت التراثيين إلى تلميع تراثهم، وإحيائه، والرحيل به، أو الرحيل إليه، والتمترس خلفه (ورب ضارة نافعة)، ولو استرسلتُ مع حكايتي مع الحداثة لبعدت علي وعلى قرائي الشقة، ولكني قد أُلِمُّ بها بين الحين والآخر. ولقد وعدت بإصدار كتاب تحت عنوان (أَكْتُبُ ما حدث لأنه حدث) ونشرت بعضاً منه، وحاضرت في البعض الآخر، ولما يلتئم شمل البقية. وإن كان في العمر والجهد بقية، فسوف أعود إليه، وأخرجه للناس كشاهدٍ على العصر.

تَقْمِيْشَاتٌ مِنَ السِّيْرَةِ الذَّاتِيَّةِ .. ! (٣) [١]

في الرحلة الأولى إلى مصر، كان يشغلني همَّان: - هم الدراسة، وهم تحرير المسائل الأدبية، وتأصيل المعارف النقدية المكتسبة من القراءة والمخالطة. كان الأدبُ المصريُّ مهيمناً على كل الآداب العربية، وكان المؤلفون والمدرسون المصريون حين يحاضرون أو يكتبون عن الأدب المصري يعدون ذلك كلَّه عن الأدب العربي، وكأنهم سَلموا وسُلِّم لهم ألَّا أدب إلَّا الأدب المصري، وكنَّا في مدارسنا ومعاهدنا وجامعاتنا نعيش في ظل هذا المفهوم، ولا أحد يستطيع التساؤل عن أدب بلاده، فضلاً عن الآداب العربية في الشام أو في العراق أو في المغرب العربي.

وحين جِئْتُ متعاوناً مع فرع [جامعة الإمام في القصيم] لم أجد إلا كتاباً لـ[الدسوقي] تفيض به مستودعات الكتب في الكليَّة ويوزع بسخاء ومجانية. يتحدث فيه مُؤلِّفه عن الأدب المصري، بوصفه أدباً عربياً، يقوم مقام ما سواه من الآداب العربية، وكنا نعد ذلك عين الصواب، ونُسَلِّم له، ولا نجد فيه جوراً على سائر الآداب العربية. ومن ثم كنا نعرف تفاصيل حياة الشعراء المصريين، وقد لا نعرف أسماء من سواهم من شعراء بلادنا، ولم آت يَوْمَئذ إلا لإعطاء محاضرات عن الأدب العربي في المملكة العربية السعودية، حيث اعتذر الأستاذ [السوداني] الذي كان يُدَرِّس الأدب الحديث عن تدريس الأدب السعودي، لإنه يجهله، وحين ألَحَّتْ عليه العمادة، أنكر أن يكون هناك أدبٌ سعودي.

وكنت قد قَدَّمْتُ رسالة الماجستير عن [اتجاهات الشعر المعاصر في نجد] وهو أول كتاب أكتبه، وثاني كتاب أطبعه، بعد كتابي [حاتم الطائي بين أسطورة الكرم وحقيقة الشعر] وهي محاضرة أُلْقِيَتْ في [حائل] قبل أربعة عقود بدعوة من رئيس مكتب الرعاية المتألق [عبد العزيز القشعمي]، ثم توسعتُ فيها، وأضَفْتُ إليها، ونشرها [مكتب الرعاية] هناك. ولست أدري ماذا فعل الله به، إذ طبع ووزع في حينهْ. وكم تمنيت لو وَقعت في يدي نسخةٌ منه، لأعرف كيف كان مبلغي إذْ ذاك.

ولأن الأدب السعودي غائبٌ عن المشاهد، كأي أدب عربي، إلا الأدب المصري، فقد بهر المصريين كتاب [شعراء نجد المعاصرون] للأستاذ [عبد الله بن إدريس] حين وصل إليهم، مع أنه كتاب تراجم ومختارات.

وأول المسائل تحريراً، وأول المعارف تأصيلاً قراءة تاريخ المدرستين المهيمنتين: - [الديوان] و[أبولو] ونتائجهما، وأسباب نشوئهما، ومحاكاتهما في الحجاز، واستنساخ معاركهما، إذْ تَلَقَّى رايتيهما[العطار] و[العواد] و[الفلالي] و[القرشي] . وقاربهما على حذر [الزمخشري] و[سرحان] و[شحاته] . أما المستبدون فـ[الصبان] و[الفقي] فيما لزم المحافظة [الغزاوي] و[عارف] . وخالطهم في عُقْر دارهم مُهاجرون، كـ[الفلالي] و[شحاته] و[عبد الجبار] . والفلالي قَلَّد الديوان بكتابه [المرصاد] الذي تَصَدَّى له بالنقد كل من [عبد الله عبد الجبار] و[حسن القرشي] . ومثلما لم يَصْدق السياسيون في الحديث عن البدايات الهمجية لـ[الثورة الفرنسية] فإن مؤرخي الأدب الحديث لم يصدقوا في الحديث عن البدايات المتواضعة لـ[مدرسة الديوان]، وتَصَدِّيها لشاعر القصر [أحمد شوقي]، وسعي القصر لإنشاء مدرسة مُضَادَّةٍ، هي [مدرسة أبولو] لتجهز عليها، وقد انتصرت، وانتثر عقد الديوانيين.

كان الديوانيون ثلاثة شباب، هم أقرب إلى الصعلكة الأدبية جَمَعَتْهم الصُّدف في القاهرة، و[رب صدفة خير من ميعاد]، لم يكونوا على شيء من الكفاف، ولم يكن لهم

---

(١) تاريخ المقال: ١٩/ ١١/ ٢٠١٣

مَكَانٌ يذكر في المشهد الأدبي: [العقاد، والمازني، وشكري] . كان شكري أقواهم في الشعر. وكان العقاد أمكنهم في النقد. فيما بدا المازني أكثرهم تواضعاً في الشعر والنقد، وإن امتاز فيما بعد بالترجمة، وكتابة المقال الصحفي. التقى الثلاثة في القاهرة في مستهل القرن العشرين، واتفقوا على ضرب الرموز، ليتعجلوا الظهور والحضور.

فالعقاد أسرف في نقد شوقي. وتناوش المازني مع حافظ. واستاء الملك وحاشيته، من التطاول على شاعر القصر، وخشي شوقي على مكانته، وكان حَيِيًّاً لا يُنْشِد شعره. وكان العقاد حاد الطبع عنيف النقد، متحاملاً على شوقي، محاولاً أن يَسُدَّ المكان الذي سده، وكل ما فعله بحق شوقي ظلمٌ وعدوان، ولم يستطع أن يجاري بشعره شعر شوقي، ولا أن يدانيه، ولم تكن للعقاد ورفاقه نظرية نقدية واضحة المعالم، وشعر شكري بوصفه شاعر المدرسة لم يُضِفْ إلى الشعر المصري شيئاً، بل لم يَرْقَ إلى شعر شوقي وأضرابه، ولم يحتف المشهد النقدي بشيء من إبداعات الثلاثة، فكلهم شعراء، وكلهم أَمَدُّوا المشهد بقصائد مطولة، وكلهم أصْدَروا دواوين شعرية، ولكنها لم تضارع الشعر المتداول في المشهد المصري، فضلاً عن المشهد العربي. فالمشهد النقدي فوجئ بالأدب المهجري الذي اتسم بالرقة والعذوبة والتميز: لغة ودلالة.

ولو كانت [مدرسة الديوان] ذاتَ رسالة فنية، أو لغوية، أو دلالية لَشَدَّتْ إليها الأنظار. إنها محاولة شبابية، لم يكتب لها النجاح. ولم يتعملق العقاد، ويستقطب المشاهد كلها إلا بعد ما انفض سامر المدرسة.

في هذا الوقت المبكر لم أكن على علم تام بالمدرسة، بحيث أسمح لنفسي القول فيها، إذ لم أظفر بشيء من شعر الثلاثة، ولم أر كتاب [الديوان] الذي أقام الدنيا، ولم يقعدها. كان لـ[المازني] ديوانُ شعر مطبوع، وكان لشكري أكثرُ من ديوان، وكان للعقاد مثل ذلك.

وحين أسْنَدتْ إلي [كلية العلوم العربية والاجتماعية بالقصيم] إذ ذاك تدريس الأدب العربي الحديث لطلاب [الليسانس] إضافة إلى الأدب السعودي، كان لابد من الحصول على ما كتبه نقاد المدارس، وما أبدعه مبدعوها، إذ الحكم على الشيء فرع عن تصوره، ولمَّا كان المشهد الأدبي في مصر قد تجاوز المدرسة ورموزها، فقد أهمل كتبهم، وما أبدعوه، وأصبح من الصعوبة بمكان الظفر بشيء من ذلك. وأمام هذا التحدي جَنَّدْت طلابي للتنقيب عن تلك المصادر والمراجع، ولم يطل انتظاري، فقد جاؤوا بمصورات للدواوين، ولكتاب [الديوان]، وساعتها أدركت أن [سماعك بالمعيدي خير من أن تراه] .

مات [المازني] قبل زميليه، وكانت الخلافات وخيبات الأمل قد فرقتهم، فالمازني مَسَّه الفقر وامتطى قلمه ليسد به رمقه. وشكري مَسَّه الضر، وصُدِم من زميله المازني الذي وصفه بـ[صنم الألاعيب] .

ولم يبق إلا [العقاد] الذي شَمَخَ خارج أسوار المدرسة. أما المدرسة فقد حاربها القصر، وكتَّابُ السلطان، وقامت بإزائها [مدرسة أبولو] التي رُشِّح لرئاستها [شوقي]، ولم يلبث أن تُوُفِّي. ولم أنشأ الحديث عن [إمارة الشعر] وحشد القصر لأدباء الوطن العربي لمباركة هذه المبايعة، نكاية بـ[العقاد] الذي دَنَّس قداسة شوقي، وفتح شهية المتخوفين، وكان من بين المشاركين في هذه التظاهرة الشاعر السعودي [محمد بن بليهد] الذي نظم قصيدة، ولم يتمكن من الحضور لإلقائها. والحق أن شوقياً صنعته موهبته. إنه شاعر بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، والعقاد الذي أصدر أحد عشر ديواناً لم يبلغ مُدَّه ولا نصفيه.

قد يفاجأ القراء بهذه الآراء، فأنا فيما أكتب من قبل أثني على العقاد، وأعلي من شأنه، وأعده من رواد الأدب والفكر، ولما أزل أُلِمُّ بتراثه، وليس في ذلك تناقض، فحديثي عن

[العقاد] هنا حديثٌ عن دوره في المدرسة، وعن دور المدرسة في المشهد، ولم أتجاوز بآرائي كتاباته في [الديوان] .

عندما وقع كتاب [الديوان] بيدي لأول مرة، وفرغت من قراءته، أحسست أنني أمام كتابات متواضعة، تجاوزها الزمن) وأيقنت أن الريادة شيء، والجودة والتميز شيء آخر، فالرواد لهم فضل السبق ليس غير، وليس من العدل والإنصاف أن نَدَّعِي تفوق إنتاجهم على ما لحق به، وفضل السبق لا يقتضي الجودة. وصدق رسول الله ﷺ حين قال: «**فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أوعى من سامع**». وحين تحدثت عن رواية [التوأمان] لـ[عبد القدوس الأنصاري] ونلتُ من لغتها وفنها ودلالاتها، ثارت ثائرة البعض، ظَنَّاً منهم أن الريادة تقتضي التميز.

لقد صُدِمْت حين قرأت كتاب [الديوان] وصُدِمْتُ حين قرأت رواية [التوأمان] إذ لم أجد تميزاً في اللغة، ولا في الفن، ولا في الدلالة، ولكن الذي يشفع للرواد سبقهم.

فالسبق الزَّمنِيُّ فضيلة، لا تَسْتَحْوِذُ على كل الفضائل. وليس من العقوق، ولا من نكران الجميل وضع مثل هذه الكتب الرائدة في موضعها المناسب. إن من الخيانة أن نُسْتَرَقَّ للماضي، ومن العجز أن نُرْتَهن لآراء السابقين، وليس هناك تعارض بين العَدْل والاحترام، فاحترام الرواد لا يَعْني الإغماض في نواقصهم؛ أو الميل معهم.

لقد تَمَكَّنْتُ بعد عودتي من مصر من تصحيح كثير من قناعاتي، وأدركت أننا مهيؤون للسماع والتَّسْليم، دون التساؤل والمراجعة. ويقيني أن المشاهد كلها لو صَدَقَت القول لما طال زمن الوهم. وما من أمة ارتهَنها الماضي، وقعد بها عن اللحاق بالركب المحب إلا أعطت ثمن القعود عن يَدٍ، وهي صاغرة. وكم هو الفرق بين الرحيل للماضي والرحيل به، إن استدعاء الماضي ليتلاقح مع المستجد تحقيق للمقاصد الإسلامية، فالتغيير مطلب، والحق ضالة المؤمن، والتجديد رؤية إسلامية. والتعامل مع الماضي لا يقتضي تقديسه، لمطلق ما ضويته، أن للماضي مثلما للحاضر والمستقبل. وحفظ التوازن، ووعي المواقف منجاة من التخلف، ذلك بعض ما علمتني به الخلطة بمختلف الأطياف، وهو ما يتطلع إليه الناصح لله ولرسوله وللمؤمنين.

إن الاعتراف بالحق فضيلة، والأخسرون أعمالاً من تأخذهم العزة بالإثم. والواثقون بأنفسهم لا يجدون غضاضة من التراجع عما رأوه. لقد تقدمت برسالتي [اتجاهات الشعر المعاصر في نجد] إلى [كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر] وفي ظني أنها القول الفصْل، وأنه لا معقب لمحتوياتها، ومن ثم أقدمت على طباعتها دون تعديل أو إضافة، وحين أثقلت الحداثيين بالنقد، أخذوا هذه الرسالة من أطرافها، وأوسعوها ذماً وسخرية.

وحين لم أقف عند حد مُدْركي الدراسي، لم أستاء من نقدهم، بل قلت: - لو جَرَّدْت قلمي لنقد رسالتي لقلت فوق قولهم، هذا الكتاب الطلابي رَصْدٌ أمين لمستواي في مطلع شبابي، وكلما عدت إليه حمدت الله أنني تجاوزته بمسافات بعيدة، ومع ذلك لم آسف على إخراجه للناس، فالمنصفون يَعْرفون تجاوزي لما هو عليه من أراء، والذين ترددوا في طبع رسائلهم، تجاوزوها، وأحسوا أنها لا تمثل مَبْلَغهم من العلم، ومن ثم حُرِموا من الوقوف على مراحل حياتهم العلمية، وأضاعوا جهوداً كان يجب ألا تضيع.

ورسالتي المتواضعة لم تؤثر على مكانتي، والنقد العنيف الذي وجه إليها ثَبَّتَ قدمي في المشاهد كلها، وعَرَّف الناس بي، ولو لم أطبعها، لما كان لي ذلك الحضور الذي أنا عليه.

وعندما قلت في أحد لقاءاتي: إنني أقول الشعر، ولست بشاعر، أثار ذلك الاعتراف مشاعر معالي الأستاذ [عبد الواحد الحميد]، وأشاد بهذا الموقف، وتمنى لو أن الأدعياء عرفوا مبلغهم من الفن مثل معرفتي، وكفوا عن إغثاء النفوس بسرديات لا ترقى إلى مستوى الفن السردي، ونظم لا يؤبه به.

الشيء الذي أدْرَكْتُه، وكنت أتمنى لو أدركه المغثون للنفوس، أن قوْل الشعر يكون عن موهبة، أو عن اقتدار، أو عن ادعاء كاذب. والثلاثة يَجِدون من يحتفي بهم، ويشيد بما يفيضون به إلى الناس، ومثلما أصيب الإبداع بالأدعياء، أصيب النقد بالمجاملين الذين يفقدون المصداقية.

الشاعر الموهوب يولد شاعراً، والشاعرية تُصْقل ولا تكتسب، فالشاعر الشعبي كالشاعر الفصيح من حيث الموهبة. والاختلاف بين الشاعرين في اللغة، ولهذا يُبدع الشعراء الشَّعْبيون قصائد مثيرة ومكتملة من الناحية الفنية والدلالية، ولكنها مخفقة من الناحية اللغوية.

والمشاهد الأدبية حين يتوارث أهلها المتداول من القول دون تمحيص، أو تساؤل، أو شك، تأخذها الرتابةُ، ويستفحل معها الخطأ. وذلك بعض ما تعانيه مشاهدنا، وإذا نَدَّ ناقدٌ، وغرد خارج السرب اعتورته سهام النقد، وقُدِرَ عليه رزقه، وأحس بالغربة، ولكن العاقبة للصادق الناصح الذي لا تأخذه بالحق لومة لائم. ولربما يكون من المجددين الذين يأتون على رأس كل مائة سنة، يجدِّدون للأمة أمر دينها، فالأدب لا يقل عما سواه من المعارف بحاجة إلى مصححين لما التبس على الناس، ومجددين لما رَثَّ من العلوم.

تَقْمِيْشاتٌ مِنَ السِّيْرَةِ الذَّاتِيَّةِ .. ! (٤) [١]

فرصة العمر الذهبية تلك الثغرة التي فتحتها لنا [جامعة الأزهر] من خلال [كلية اللغة العربية] فيها. وهي تمكين حَمَلَةِ الشهادة الجامعية من الدراسات العليا، عن طريق الانتساب. ولقد كان نصيب [السعوديين] منها من أوفر الأنصبة، لكون الأساتذة المعارين لجامعاتها من أساتذة الأزهر، ولأن [جامعة الإمام] وفَّرت لهم أجواءً ملائمةً. وبخاصة بعد اختلاف الإسلاميين منهم مع المد الاشتراكي والقومي في بلادهم. فالعائدون منهم، والمقيمون سَعَوا لتوفير تلك الفرصة. ولو لم تُهيِّءِ [جامعة الأزهر] تلك الفرصة، لما أكملت دراستي العليا.

لقد تسابق الجامعيون، وتم تسجيل أعداد كبيرة منهم. وحين زُوِّدْنا بالمراجع، قال البعض مِنَّا: لا طاقة لنا بها. ورضي من الغنيمة بالإياب. وتحامل آخرون على أنفسهم، ولكن لم يحالف البعض منهم الحَظّ، وأصرَّ من بقي على مغالبة المصاعب، فكتب لهم النجاح. ولم يكمل الدراسة إلا القليل ممن بادروا هذه الفرصة. وفي عام التخرج كنت الأول، وكان بيني وبين الثاني من الخريجين عشر درجات، وتلك نعمة يمن الله بها على من يشاء من عباده.

هذه المكرمة من [الأزهر]، لم تُعْجِب القاعدين، فراحوا يصفونها بـ[شهادة الصيف] . ولما عدنا نحمل شهادة الماجستير، لم يُرَحِّبْ بنا [ديوان الموظفين] آنذاك، وتلكأ في ترقيتنا بموجب تلك الشهادة، متأثراً بما يشاع من اعتراض. ولما تظلمنا أمام [المقام السامي] جاء الرد حاسماً وعادلاً، ومضمونه: [إذا كنتم تَشُكُّون فيما منح من شهادات لأبناء البلاد، فليمتد شككم للمتعاقدين كافة من المصريين الذين يحملون ذات الشهادة من الأزهر] . وبعد أن كان الديوان يذودنا عن الموارد، أصبح يلاحقنا، ويستحثنا، لاستكمال مسوغات الترقية. وقضي الأمر الذي طال فيه الخصام. كنا نسافر إلى مصر بعد انتهاء الامتحانات في المملكة، ونقيم فيها كُلَّ العطلة الصيفية، نَدْرس، ونقابل الأساتذة، ونراجع مع الطلاب المنتظمين، ونحضر بعض مواد الصيف، ونحصل على ما لم يصل إلينا من المراجع، ونحاول اكتشاف المهم، ونستعطف الأساتذة للتخفيف عنا، وَنلْقَى في محاولاتنا خيراً كثيراً، فالمصريون طيبون إذا جِئتهم من الأبواب.

بعض الأساتذة يُقَرِّرُ علينا خمسةً من كتبه للمادة التي يُدَرِّسها. ويُلْزِم وكيلنا بشرائها لكل طالب منتسب. وهي كتب تجميع، وقص، ولزق، لا طعم فيها، ولا رائحة، ولكننا ملزمون بشرائها. ولربما تكون الوحيدة التي نَتْركها، حيث كنا بعد الامتحان. لقد اكتشفنا جشع البعض، ونزاهة الآخرين، ومن باب الاحتراس، مَنَعَتْ بعض جامِعاتنا تقرير الأستاذ لبعض مؤلفاته، مع أن في ذلك ما فيه من الحيف.

كنا في الامتحان نواجه تحدياً لا نظير له، ومواقف تشدد استثنائي، لأن طائفة من الطلاب المنتظمين من المصريين والمبتعثين يحسدوننا على ما آتانا الله من فضله. ولكننا صَمَدْنا، وقبلنا التحدي، ولم نبدِ أي تذمر، أذكر أن أستاذ [مادة النصوص] من ضمن ما قرر علينا [لامية الشنفرى] أكثر من سبعين بيتاً، حفظاً مُتَسَلْسِلاً، وشرحاً مفصلاً، وإعراباً شاملاً، وبلاغة، ولغة.

وكانت صيغة السؤال من أعقد الصيغ. فهو يطلب كتابة عشرة أبيات من اللامية، من حفظنا، مرتبة كما جاءت، ثم يطلب إعراب البيت الثالث، وتجريد مفردات البيت الخامس، واستخراج الوجوه البلاغية في البيت السابع، وتحديد المجرد والمزيد في كلمات البيت

---

(١) تاريخ المقال: ١٠/ ١٢/ ٢٠١٣

العاشر، وتقسيم الأبيات وفق الأشواط الدلالية في الأبيات العشرة، ومدى وحدتها العضوية والدلالية والموسيقية، وما الزحافات والعلل في عروضها؟. فلو لم يحفظ الطالب، أو أنه حفظ دون ترتيب، فإنه يخفق، وإن كان متميزاً فيما سوى هذا النص.

أقول هذا فيما يظل الفضل كل الفضل للأزهر، وللقائمين عليه، فهو بحق أهل الثناء والشكر. لقد أشعرنا بقيمة العلم، وعلمنا الاعتماد على النفس، وعرفنا بقيمة اللغة وآدابها. وما كنا لنعرف أسرار العربية، لو أنه جاملنا، أو تسامح معنا.

في مادة [التعيين] على ما أذكر، يحدد المُمْتَحِنُ للطالب صفحة معينة من كتاب تراثي، قبل موعد الامتحان بأيام، كي يقرءها أمام أستاذين، فإذا فرغ من قراءتها دون لحن، وجهت إليه الأسئلة: نحواً، وصرفاً، وبلاغة، ولغة.

وأذكر أنه قُرِّر علي صفحةٌ من كتاب [سر الفصاحة] لابن سنان الخفاجي، ولزمت سكني، أُعْرِب، وأُجَرِّد، وأشْرَح، واستخرج الوجوه البلاغية، وحين مثلت أمامهما بدأت القراءة: -

[يُرْوى أن هشام بن عبد الملك ...]

فقال الدكتور الممتحن [سليمان ربيع] رحمه الله: أين نائب الفاعل؟ فارتج علي، وكنت أعرف المصدر المنسبك، ولكنني استبعدت سبك الأعلام، فلم أُجِبْ. وقلت: لعلي أعرب بقية النص، فلم يقبل. غير أن قراءتي أعجبته، فَغَضَّ الطرف، وصرفني بلطف، وهو إذ علم أنني [صحفي] أحمل بطاقة [جريدة الجزيرة] إذ ذاك، قال لي: صحفي، ولا يعرف نائب الفاعل!. ومضيت، وأنا خائف من الرسوب، ولكن الله سَلَّم.

في الأزهر تبدو هيبة أعضاء التدريس، ولم أشاهد في حياتي طُلاَّباً يقبِّلون أَيْدي أساتذتهم، مثلما شاهدت في الأزهر، ولا طلاباً كأن على رؤوسهم الطير في القاعات. الشيء الملفت للنظر، أن في الأزهر أساتذةً متبحرين، يتدفقون علماً وهيبة، وآخرين مُقْوِين، متسطحين - ولا وسطية-. والذين يَفِيْضُون معرفة، تبدو على ملامحهم الهيبة، والصرامة، وقوة الشخصية. إذا دخل أحدهم القاعة، لا يدخل بعده أحد، ولا يجوز لكائن من كان أن يفتح باب القاعة. وإذا انطلق في الحديث، لا يجوز لأي طالب أن يُقَاطعهُ، فإذا فرغ فتح باب الأسئلة. وقد تنتهي المحاضرة قبل أن يَفْرَغَ، وقد تنتهي، وهو لم يكمل جواباً واحداً. وإذا خرج تتأجج الصالة باختلاف الطلاب حول ما قرره من آراء. وإذا جئته في مكتبه، لم تتح لك الفرصة للحديث من كثرة المتكدسين. فيما تظل أبواب الآخرين مشرعة، وهم وحدهم يجيلون نظرهم في المارة، وفي القاعة، لا يكف الطلبة عن تبادل الأحاديث، أو التثاؤب، أو الاشتغال لملء الفراغ، فالأستاذ يُرْغِي ويُزْبِد، ولكنه لا يقول شيئاً.

أعرف أساتذة كالنمل، وآخرين كالنحل، وكم هو الفرق بين دأب النمل في الجمع، وتحليق النحل، لامتصاص نسغ الأزهار. النمل يجمع لا غير، والنحل ينتج، وهكذا الأساتذة. منهم الجَمَّاع، ومنهم المتمثل، الذي يُحَوِّل لك المقروء إلى شيء آخر. وصدق رسول الهداية: - «**فَرُبَّ مَبَلَّغٍ أوعَى من سامع**». لقد درسنا [البائية] لأبي تمام، و[السينية] للبحتري، و[اللامية] للشنفرى على أساتذة، فما زادونا بها إلا جهلاً، وما أكسبونا إلا كرهاً لها ونفوراً منها. ودرسنا تلك القصائد العصماء على آخرين، فاكتشفنا عوالم لم نكن نعلمها، وَقَرَّبونا من الشعراء، فَضْلاً عن القصائد.

والكتب كالأساتذة، يخدعك العنوان، حتى إذا بدأت القراءة، أحسست أنك قد خُدِعْت. وكم من كِتَابٍ سَعَيتُ جهدي لشرائه، وحين اكتشفت ضَعْف أسلوبه، وتكرار معانيه، وضحالة معارفه، نبذته كالنواة، وأسفت على الوقت والمال المبذولين فيه. وأول تنبيه، وتحذير من خداع العناوين قرأته، للأستاذ [مصطفى لطفي المنفلوطي] في كتابه [النظرات]، مع أنه أجحف بحق [ابن إياس] و[الهاشمي]، فكتاباهما [بدائع الزهور]

و[جواهر الأدب] ليسا من السوء، بحيث تكون العناوين خداعات، ولكنه مع هذا حذرنا من جاذبية العناوين. ومناهج النقد اللغوي الحديثة، تنبهت لهذا، وشكلت مصطلحات حديثة كـ[عتبات النص] ويقابلها في التراث [الاستهلال] و [المطالع] وأهمية ذلك للإثارة والجذب.

قدري الحميد أنني أمضيت في التعليم نصف قرن ونيِّف، ولَمَّا أزل أستاذاً غير متفرغ في [جامعة القصيم]، بدأت مُدَرِّساً للابتدائي عام ١٣٧٩هـ وأنا إذ ذاك لا أحمل إلا شهادة الابتدائية، ومررت بكل المراحل حتى الدراسات العليا، إضافة إلى الإشراف على الرسائل العلمية: الماجستير والدكتوراه، ومناقشتها، والتحكيم في بحوث الترقية، والجوائز العالمية، وتلك من نعم الله. فله الحمد حتى يرضى، وله الحمد إذا رضي. وأحسب أنني قَدَّمت لطلابي ما كنت أتمنى أن يقدمه لي أساتذتي. كنت أعوض النقص بما أفيضه على الطلاب من محبة، فأنا لا أكره أحداً، ولا أفاضل بين الطلاب، قد أقسوا، ولكنني لا أحمل حقداً، ولا كراهية، وفضل الله علي واسع، لقد تخرج على يدي خلال نصف قرن آلاف الطلاب الذين تنازعتهم التخصصات واستقبلتهم المواقع، وما اختلطت في جَمْع من القوم، إلا بدر منهم من يحتفي بي، ويدعو لي، ويذكرني بِسِنِيِّ طلبه علي، وكم من خدمة قُدِّمتْ لي في مختلف القطاعات من موظفين لا أعرفهم، ولكنهم لم ينسوا فضل المعلمين. وتلك ثروة لا أعدل بها أي ثروة، ونصيحتي دائماً لطلابي الذين على مشارف التخرج أن يزرعوا مَحَبَّتَهم في قلوب طلابهم، وأذكرهم بقول الشاعر: -

مَن يَصْنَع المَعْروفَ لا يَعْدَم جَوَازِيَه

لا يذْهبُ العُرْفُ بين الله والنَّاسِ

ومما حفظت من تجارب المعلمين الأوائل، أن أستاذ تربية في إحدى الجامعات الغربية، عَنَّ له أخذ مجموعة من طلابه إلى إحدى المدارس في الأحياء الفقيرة، لجمع المعلومات عن أحوال طلابها الأسرية، فتبين له أن آباء وأمهات مئتي طالب من ذوي السوابق. وطلب من طلابه كتابة تَوَقُّعاتِهم المستقبلية لهؤلاء الطلاب. فأجمعوا على أنهم سيكونون كآبائهم، وأُمهاتهم منحرفين. وحفظ الأستاذ تلك البطاقات، وبعد عشرين عاماً، أخرجها، وطلب من طلابه اللاحقين متابعة أحوال أولئك الطلاب، والتعرف على مصائرهم، فأتضح أنهم تخرجوا بتخصصات نادرة، ولم ينحرف منهم إلا القليل. فطلب التعرف على هؤلاء الطلاب في مواقعهم، ليسألهم عن سِرِّ تفوقهم، وسلامتهم من الاقتداء بآبائهم وأمهاتهم. فكان جوابهم: ما لقيه كل واحد منهم من أستاذهم من حب، ورعاية، ومتابعة، وإحساس بالأبوية التي فقدها بعضهم، ولا شيء غير هذا الحب.

فتبين أن الحب وحده قادرٌ على تهيئة الأجواء التعليمية المناسبة.

تَقْمِيشَاتٌ مِنْ السِّيْرَةِ الذَّاتِيَّةِ .. ! (٥) [(١)]

ويمتد بنا الحديث الشَّيِّقُ عن مصر، وما لقيناه في أسفارنا اليها من نصب محبب إلى النفس، لارتباطه بالقراءة والمتعة البريئة. ولقد حفظنا عن أشياخنا فوائد الأسفار حين قال قائلهم:

[سافر ففي الأسفار خمس فوائد ...]

وإن لم يتحقق منها إلا اليسير. ومصر بالذات جامعة غير مانعة، ولهذا سميت بـ[أم الدنيا]، فيها انفلات وفوضى ولكنها مقبولة، ولربما تكون البلد الوحيد الذي يفيدك فيها درهمك ودينارك، وتحل بهما كل شؤونك.

تَخْرُج من مصر وقد مللت من كل شيء، ثم لا تلبث أن تحن إلى كل شيء فيها، بحيث تجمع أمرك لتتعجل العودة إليها.

في أول رحلة قمت بها إلى مصر، فُقِدَ مني [جواز سفري]، إذ كنا يومها مضطرين إلى مراجعة السفارة، لتسجيل وثائقنا. وقد تطوع أحد الإخوة الذين سبقونا إليها مرات عدة بِأَخْذِ جوازي لتسجيله في السفارة، ولكنه في نهاية الدوام عاد بدونه، مُدَّعياً أنه فُقِدَ على طاولة الموظف المختص. فكنت حينها كمن كان في قارب ضاع فيه المجداف والملاح، وانتابته الأعاصير من كل جانب. ومر ذلك اليوم كأثقل ما تكون الأيام وأصعبها. وأقبل الزملاء يواسون، ويأسون ويتوجعون، ولكنهم لا يقدرون مجتمعين على تحمل الرفد، فالأحوال دون الكفاف. كنت شاباً في مقتبل العمر، وكانت [الشيكات السياحية] لا تصرف إلا بـ[جواز السفر]، وما كان بد من احتمال الأذى، ورؤية جانية، والتحامل على النفس، والتفكير الجاد بالحل الناجز.

لم تكن الأنظمة في أمر الفَقْد على ما هي عليه الآن، وكنت إذ ذاك صحفياً، أحمل بطاقة محرر صحفي في جريدة [الجزيرة] وكنت أباهي بتلك البطاقة، وأبرزها في كل موقف، فصاحبها مهيب الجانب، تُخشى سلاطة لسانه وشباة قلمه: [وعداوة الصحفي بئس المقتنى] مع الاعتذار لسلطان الشعر الذاهب.

وعند الصباح لم يكن هناك حمدٌ للسرى، كانت ليلة ليلاء، نديرفيها معاً أساليب الحلول.

- ماذا نفعل؟.

- ومن أين نبدأ؟.

تحاملت على نفسي كالثَّمِل، وذهبت أقتاد الزميل الذي أضاعني [وأي فتى أضاع]، وفي السفارة قَدَّمت نفسي للمسؤول عن الرعايا السعوديين، من خلال بطاقتي الصحفية. فقام القوم ولم يقعدوا، والتف حولي عِلْية العاملين، يواسون، ويُهوِّنون الأمر، ويستبقون للخدمة، ويقدمون كروتهم. لقد رسموا لي الطريق القاصد، ولم يمض يومٌ وليلة، إلا والجواز البديل بيدي، أذرع فيه أرض مصر طولاً وعرضاً.

وبعد عقود من هذه الضائقة اجتالت عالمنا ظاهرةُ الإرهاب، وسيئت سمعةُ الإنسان العربي، والمواطن السعودي على وجه الخصوص، وحَرِصَت الدولة على قطع دابر الهُمَزَةِ واللُّمزَة، ومحاصرة الظاهرة.

وحين أصبحت المملكة مستهدفة في كيانها وإنسانها، وأصبح الإعلام الفضائحي ينال من سمعتها، وأصبح بعض الإرهابيين يحمل وثائق سعودية مزورة، شددت أجهزة الأمن العقوبات على المتساهلين بوثائقهم. وما من أحد ناله من لهب الإرهاب مثلما نال بلادنا

---

(١) تاريخ المقال: ٣١/ ١٢/ ٢٠١٣

وإنسانها، حتى لقد أصبحت صورة الإنسان السعودي مكروهة ظلماً وعدواناً، مع أنه طيب متسامح، كريم مسالم، لا يعنيه إلا شأنه، ومن شذ شذت به خطيئته. ولسنا بدعاً من الأمم، فكل جنس له شواذه التي لا تكسر القاعدة.

والمؤسف أن الإعلام المناوئ استغل هذه الظاهرة ليفت في عضد الدولة ويحول بينها وبين منجزاتها الإنسانية. والمنافسون للدولة تَحوَّل بعضهم من منافسين شرفاء، إلى حسدة أشقياء. من هنا لم يعد من السهل استبدال وثيقة بأخرى ضائعة إلا بعد محاسبة عسيرة، وعقاب غليظ.

في مصر طِيْبَةٌ و براءةٌ وحسنُ ظن، وفيها ما فيها من السلبيات، ولكنها سلبيات مقدور على احتوائها.

وأجمل ما فيها أنه لا يعوزك الوصول إلى مسكنك في أسرع وقت، وأقل جهد. ولما كانت [القاهرة] وحدها يزيد عدد سكانها على سكان دول الخليج مجتمعة، فإن عناوين المحلات والمساكن من الدقة، بحيث لا يحتاج السائح إلى عناء ليصل إلى ما يريد، فيما يظل الحي الذي أسكنه في [بريدة] يحمل ثلاثة أسماء مستعملة في الوثائق الرسمية؛ فالكهرباء والماء تسميه [حي الراشد] والأمانة تسميه [الحي الأخضر] وكتابة العدل تسميه [حي الأفق]، وقس على ذلك بقية الأحياء، وبقية المدن.

سبقني زملائي إلى [القاهرة]، وكان تأخري بسبب وفاة والدي -رحمه الله-، وطلبت منهم الإبراق لي بعنوان السكن، إذ لم يكن الاتصال الهاتفي ميسوراً، وبعد يومين وصلتني برقية، هذا نصها [الدقي _٢٧_ رفاعة] . ووصلت القاهرة في الهزيع الأخير من الليل، وركبت سيارة الأجرة، وناولت سائقها البرقية، فانطلق، وهو يردد:

- توكلنا على الله.

ولما كان السواح الخليجيون يسكنون الشقق المفروشة داخل القاهرة، والسكن الذي استأجره زملائي الستة يعد من القصور الفارهة، فقد وقف متردداً، ومضى مرة ثانية إلى الميدان، وانطلق إلى [شارع رفاعة]، ومضى حتى وصل إلى ذات القصر، والتفت إلي ليقول: - هذا القصر يحمل [رقم ٢٧]، وهذا [شارع رفاعة] .

في هذه الأثناء لمحت أحد الزملاء بلباسه السعودي. قلت له: - بارك الله فيك. هذا هو العنوان.

يتكون هذا القصر من ثلاثة أدوار [بدروم] للخدم، والدور الأرضي للاستقبال، والثاني للنوم. وتزين جدرانه لوحات زيتية، وأخرى منحوتة غاية في الروعة، ذكرتني بـ[إيوان كسرى] الذي وصفه [البحتري] وكانت صوره من الدقة والروعة بحيث أحس [البحتري] أنها حقيقية لا صورة، ومن ثم راح يصف مشاعره بقوله:

يَغْتَلِي فِيْهِمُ ارتِيابِي حَتَّى
تَتَقَرَّاهُم يَدَاي بِالمْسِ

كانت صوراً مثيرة للفضول تنكرها ثقافتنا، ولكننا قبلنا بقاءها على اختلاف في مواقفنا، وكلما نظرت إليها، راعتني الدقة، واغتلى ارتيابي في حقيقتها.

وممن زارنا في ذلك القصر المنيف الشيخ [صالح المنصور] رحمه الله، الذي كان ينوي الزواج من مصر، وقضاء شهر العسل في قصر كهذا، ولكنه اشترط نزع الصور، وتوسطنا بالاكتفاء بتغطيتها، فأبى، وأبوا، ومضى كل إلى غايته، الملفت للنظر أن القصر تملكه وتسكنه أسرة قبطية.

أمضينا في هذا القصر سحابة صيفنا كله، وشهدنا تصوير لقطة سينمائية فيه، سبق أخذ أولها. وحين جاء المخرج يستأذننا لاستكمال لقطة أخرى مكملة، لا تزيد على خمس

دقائق، أذنَّا له، وما كنا ندري أنها تحتاج إلى يوم كامل، يسعى لتجهيزها عشرات العاملين. لقد رأيت الممثلة [نجوى إبراهيم] ومن حولها عشرات الفنانين، الذين يصلحون شعرها، وبشرتها، وملابسها، ويلقنونها، ويرسمون لها الحركة، والمشاعر، وردود الأفعال. ولقد تم تصوير اللقطة أكثر من خمس مرات، في كل مرة يَعْترض المخرج على شيء من الحركات، أو النظرات. ويومها رحمت الممثلين، وكرهت التمثيل، وأدركت زيفه، وكنا من قبل نظن أن الحب فيه صادق، وأن الجمال حقيقة، وأن الممثلين يعيشون جنتهم، ويُذْهِبون طيباتهم في تمثيلهم. لقد أقبل الممثل إلى الممثلة قبل التصوير، ومشاعر كل واحد منهم كالصخرة الصماء، والكره باد على مشاعرهم. وحين بدأ العد التنازلي للتصوير، انداحت الابتسامات، وتهللت المشاعر، وطفحت كلمات الغزل، وانثالت مشاعر الحب، حتى إذا فُزِّع عن قلوب الممثلين، اكفهرت المشاعر، وازورت الوجوه، وظهر القبيح المستور.

كان السائحون في مطلع السبعينيات تشدهم المسارح، ودور السينما والأهرامات، وشارع الهرم. أما اليوم فلم يعد لشيء من هذا أو ذاك أثر يذكر. وتلك الأيام يداولها بارئ الكون بين الناس. ومن أمن تقلبات الحياة، بغتته بأخذها.

لقد تغيرت أنماط الحياة وأساليبها، وهي في دول الخليج أكثر تغيراً إذ تمثل قفزات متلاحقة، يمسي الخليجيُّ على حال ويصبح على حال أخرى.

في الريف المصري يبدو لك المعدن النقي لإنسان مصر، فيه الجد والدأب، وبساطة الحياة، ولقد كانت لنا أيام في عمق الريف، نشاهد الحياة البدائية التي قَصَّر عن تصويرها السرديون، أمثال [نجيب محفوظ]، و[يوسف السباعي] وأضرابهم، حيث توغلوا في تجسيد سفه المدينة، وخلاعتها. وانتزع [نجيب محفوظ] عالميته الزائفة من قعر الواقع في المجتمع القاهري، ولم يتجه صوب الريف المصري إلا قليلاً.

ومثلما يعتمد الخليجيون على النفط، يعتمد الريف المصري على ماء النيل. ولكن الخليجي مستهلك لنفطه، فيما يستثمر المصري ماءه.

وكان حقاً على الخليجي تقليل اعتماده على النفط، وحقاً على المصري تطوير آليته الزراعية، لتستوعب التقنية ما تواجهه مصر والدول الخليجية من الانفجار السكاني المخيف.

في الريف المصري يشعر الإنسان العربي بالأمن الغذائي، فالريفي يعمل طول يومه، وشطراً من ليله، كي يتوفر على الكفاف، فالأرض خصبة معطاء، والفلاح يستغلها، ويستغل جهد حيوانها وناتجه. وجُلُّ الشباب العاطلين في القاهرة يعتمدون على جهد آبائهم وأمهاتهم في الريف. ولو رحت أفصل القول عن دقة الفلاح المصري في الحرث واستغلال الحيوانات والطيور، ومدى استيعاب الأرض لفائض السكان، لبعدت علي الشقة.

ما أتمناه استفادة [وزارة الزراعة] عندنا من هذه الخبرات لتقليص ظاهرة البطالة، التي تسهم عملية ترشيد استهلاك المياه الجوفية في استفحالها، فحين قُضِيَ على زراعة القمح، تحولت آلاف الأسر العائلة إلى مَعُولةٍ. وخلف من بعد القمح زراعة الأعلاف، واستهلاكها من الماء أضعاف استهلاك القمح. والذين يخوفوننا من نفاد الماء، يستحثوننا على استنزاف النفط، وتلك مفارقة لم نحسب لها أدنى حساب، وأخوف ما أخاف احتناك النخيل بعد احتناك القمح، وساعتها يضاف إلى آلاف العاطلين آلاف أخرى. وكل الذي نرجوه عند اتخاذ القرارات المصيرية، أن يحسب للأعراض الجانبية حسابها.

تَقْمِيشَاتٌ مِنْ السِّيرَةِ الذَّاتِيَّةِ .. ! (٦) [1]

عِشْقُ الكلمة: استيعاباً وإنتاجاً، يُنْشِئ علائق وُدٍّ، أو توتر. وقد تمتد القطيعة، مثلما ينمو الود. وفي الحشود الثقافية تجد المثقفين كالطيور، تقع على أشباهها. إذ كل زمرة تتناجى: إما بالإثم، والعدوان، أو بالمعروف. وهذا التوصيف نسبي، وليس قطعياً.

فما تراه إثماً، يراه غيرك معروفاً. ذلك أن الشأن الثقافي لا يَسْتَمِد أحكامه من النص التشريعي؟، وإن ارتبط به، أو بمقاصده. و الأحكامُ في الجملة إما رؤى أو وانطباعات.

ومن الناس من يوزع رؤيته في خطابات كثيرة، كجسم «المتنبي»، بحيث لا يقطع المتابع لهذا الصنف باتجاه. وقد تكون التَّعددية، واتساع الأفق من المحامد، فيما يراها البعض من النفاق والمداهنة والتَّقِيَّةِ. والشأن الثقافي قابل لكل الاحتمالات، والسَّعيد من رَحُبَ، واحتوى، ولم يحتكر الحقيقة.

ولأنني محظوظ، فقد هُيِّء لي حضور العديد من الفعاليات التي تنفذها بعض الجهات: المحلية والعربية. وربما تكون لي إسهامات فيها، قد تَحْمِل المختلفين مَعِيَ على تَصَيُّد العثرات، والنفخ فيها. وحين أكون ضيفاً، لا مشاركاً، أتعمد المداخلات الساخنة، بحيث أتخطى من الهامش إلى المتن، ثم أكون بذلك أقوى أثراً، وأكثر حضوراً من المشاركين.

ما يحز في النفس غياب الكبار عن تلك الحشود: إما بالموت، أو بالعجز، أو بالتغافل عنهم، وحضور من دونهم، وحين يتقدم بالمرء العمر، يُحس بالغربة، ويشعر بالفراغ، رغم الامتلاء.

لقد حَضَرْت منتديات، ولقاءات داخل المملكة وخارجها، ذات طوابع متعددة، وأهداف متنوعة، وكنت فيها دون العمالقة، وفوق المبتدئين.

وممن عِشْتُ الخلطة معهم، وامْتَلأتُ بهم إعجاباً، وإكباراً من الأموات علامة الجزيرة [حمد الجاسر]، والشاعر اللغوي الأديب [عبد الله بن خميس]، والأديب الوديع [عبد العزيز الرفاعي]، والمربي القدير [عثمان الصالح]، والشاعر المؤرخ [أحمد العقيلي]، والإعلامي الفذ [عبد الله بالخير]، والشاعر السفير [حسن القرشي]، والشاعر الثَّر [محمد حسن فقي]، والموسوعي الراوية[أحمد المبارك]، والكاتب الساخر[محمد حسين زيدان]، والكاتب الجاد [عزيز ضياء]، والرائد السردي [عبد القدوس الأنصاري]، والمتعدد المواهب [غازي القصيبي]، وآخرون ندوا عن الذاكرة، رحمهم الله جميعاً.

وهم إن فارقونا بأجسادهم، فقد تركوا إرثاً يُكَرِّس حضورهم، ويحيي ذكرهم، ومامات من خَلَّف أبناءً صلبيةً، أو بنات أفكار أصِيْلَة. ولي مع هؤلاء ومع آخرين غيرهم ذكريات عذاب، لم أحتفظ إلا بالقليل منها، فالذاكرة تشيخ مع البدن، وتتلاشى فيها الذكريات.

وما أفلح إلا من قيد الأوابد، أمثال الدكتور [الخويطر] في وسمه على أديم الزمن. ولولا قيد بعضها لغابت مع أجسادهم الذاهبة.

عرفت العلامة [حمد الجاسر] قبل أربعين سنة عام ١٣٩٣هـ حين زرته في بيته للاستزادة من علمه في سبيل استكمال متطلبات رسالة الماجستير [اتجاهات الشعر المعاصر في نجد]، كنت يومها كبغاث الطير، مَنْكبٌ غَضٌّ، وجناحٌ قصير. لقد انتابني الخوف، وأنا أرقب طلعته، إذ دخلت بيته بعدما أذن لي حاجبه. ولم يكن في حسابي أنه رجل ودود، دمث الخلق مع من يحب، قصير القامة، رث الثياب، يغمرك ببساطته،

---

(١) تاريخ المقال: ٤/ ٣/ ٢٠١٤

وتواضعه، وحسن حديثه. وهو إذ أحس بارتباكي، وتلعثمي، صرف الحديث من الجد الصارم إلى التبسط والظرف، بحيث سَخِر من ضآلة ما قدم لي من فاكهة، يندر ظفري بها، وروى لي حكاية شعبية ممتعة. ثم أخذ يَصَّعَّدُ بالحديث، ولما شارفت على الانتهاء من استفساراتي، فتح أمامي بوارق الأمل، وأبدى استعداده لاستقبالي، متى شئت. قلت في نفسي:- تبت يدا المتعملقين على السيقان الخشبية، هذه الشخصية الفذة، تبادرك بالنفع، وكأنك تعطيها الذي أنت سائله.

بعد هذا اللقاء المربك، تعددت اللقاءات، وتنوعت المهمات، وأكثرت من التردد على [دارة العرب]، وبخاصة في خميسيته. وتعهد ابنه [معن] من بعده بالتواصل معي، واستضافتي، لعلمه بمكانة أبيه عندي، واحتفائه بي كلما زرته.

ومن الذكريات الأجمل معه، حين كنا معاً في [فندق السودة بأبها] بدعوة كريمة من أمير المنطقة آنذاك، الأمير المتعدد المواهب والقدرات [خالد الفيصل] . حيث كان رحمه الله يحمل معه أحد مجَلَّدات [تاج العروس] للاستدراك عليه، فيما يخص جغرافيا الجزيرة العربية، ولما كان بصره ضعيفاً، وأطرافه مسترخية، قمت بالقراءة عليه. ومتى استدرك شيئاً على [الزَّبيْدِي] استوقفني، ليسجل على الهامش بقلم الرصاص ما يلاحظه، أو ما يود إضافته.

ويقيني أن الشيخوخة أدركته قبل أن يكمل قراءة التاج، وقد أصدر ما استدركه في كتاب مطبوع. وكنت أتمنى على القائمين على مجلسه ومجلته استكمال ما بدأه. وتلك الخليقة من سنن السلف.

فالمجموع لـ[النووي] أتمه [السبكي] على ما أذكر، وتفسير الجلالين أتمه [جلال الدين السيوطي] وتفسير البيان لـ[الشنقيطي] أتمه تلميذه [محمد سالم عطية]، على أن اللاحق لم يبلغ شأو السابق، ولكن كتب الأمهات لا يجوز أن تترك مبتورة.

وحين كنت رئيساً لـ[نادي القصيم الأدبي] ألححت عليه، لزيارة المنطقة، وتجديد ذكرياته في بريدة بالذات، فلقد أشار إلى أنه تلقى بداية التعلم بـ[مدرسة الصقعبي] في بريدة، ولكنني لم أظفر منه بالزيارة، واكتفى بالموافقة على طبع كتابه [مع الشعراء] الذي ذَكَرَني فيه بخير. وقد طَبَع من الكتاب عشرة آلاف نسخة، زود النادي بنصفها، وسَوَّقَ النصف الآخر. فكنا كلما عرضنا على أحد المسؤولين شراء كمية من الكتاب. قال:- سبقكم الشيخ [حمد الجاسر]، فكان معنا كـ[عكاشة] ولم نستطع فعل شيء، لمكانته في نفوسنا، ولما استشرت الشيخ [عبد العزيز المسند] رحمه الله، بوصفه عضواً في مجلس الإدارة. قال:- يكفي النادي أنه طبع له. ومن ثم بقي الكتاب في مستودع النادي، ولست أدري ماذا فعل به الإخوان من بعدي.

والعلامة الجاسر من الشخصيات الأكثر حضوراً في المحافل العربية والعالمية، لسعة اطلاعه، واهتمامه بجغرافيا الجزيرة العربية، وعضويته في كافة المجامع اللغوية، وإسهاماته المتميزة في فعالياتها. ومن قرأ [سوانحه] أدرك مبلغه من العلم، وَجِدَّه في تحرير مسائله، وتأصيل معارفه، وحدته في النقد، وهو بهذه الإمكانيات يعد من العمالقة الذين لا تُسَدُّ الأمكنة التي سدوا.

وحين ألقيت في خميسيته محاضرة عن [إسهامات علمائنا ومثقفينا في المشاريع الثقافية] أشرت إلى مشروعه المتميز عن جغرافيا الجزيرة العربية، الذي جند له لفيفاً من ذوي الاهتمامات الجغرافية، كالشيخ [محمد العبودي] والأديب [عبد الله بن خميس] والمؤرخ [سعد بن جنيدل] والشاعر [أحمد العقيلي] .

الشيء الذي يحز في نفسي إلحاحه عَلَيَّ كلما زرته، لتمكينه من تكريمي، ودعوة من يحب، وتسويفي، وكان بودي تحقيق رغبته، لقد أدركته الشيخوخة، وأقعده المرض،

وقضى نحبه، دون أن أشرف بهذه الدعوة الكريمة، رحمه الله رحمة واسعة، ونفع الله بما خَلَّفَه من كتب محققه وأخرى مستأنفة، ولما يزل مجلسه ومجلته يسهمان في إحياء ذكره، ومواصلة عطائه، جزى الله القائمين عليهما خيراً.

وعندما هَمَّ مع الأستاذ [عبد الله بن خميس] بإنشاء نادي أدبي في الرياض على غرار [نادي جدة الثقافي] الذي سعى لإنشائه الأستاذ [محمد حسن عواد] والأستاذ [عزيز ضياء] رحمهما الله، وجه خطابات لكافة الأدباء لطلب الحضور، وتداول الرأي، وإبداء المشورة، وقد تلقيت دعوة كريمة بتوقيعهما، ظناً منهما أنني مقيم في الرياض، إذ كنت وقتها طالباً في قسم الدراسات العليا بجامعة الملك سعود، ولم يصل الخطاب إلي إلا بعد أربعة أشهر، بواسطة الدكتور [عبد الله بن علي الحصين] عندما كان طالباً في جامعة الملك سعود، ولم يكن لي شرف المشاركة.

ولما أزل احتفظ بالخطاب لأهميته، وقد أخذ نسخة منه الأستاذ [خالد الرفاعي] الذي ينوي إصدار كتاب عن حياتي الأدبية، وهو من الطلاب الجادين الأوفياء، إذ ما أحوج الأساتذة الذين غفل عنهم الناس إلى الأوفياء من طلابهم، ليحيوا ذكرهم، ويردوا بعض فضلهم، وقديما قيل:-

[من علمني حرفاً كنت له عبد اً] ولما كان العقوق متفشياً، والإهمال بادياً، أصبح من أوجب الواجبات على المريدين النهوض بهذه المهمات. وكم تنبري مجموعة من الطلاب لإصدار ملف، أو كتاب عَمَّن أسهم في بناء معارفهم. ومما أذكره وأشكره لطلابي في قسم الأدب بـ[جامعة القصيم] إصرارهم على أن أبقى معهم بعد التقاعد أستاذاً غير متفرغ، وفخري أن في القسم أكثر من عشرين دكتوراً شرفت بتعليمهم، وابتهجت بتميزهم. ومن شغلته الحياة من آلاف الطلاب، واحتفظ بالعلاقة الطيبة، ونَمَّاها، لا يقل عما سواه. ولكن من شرح للعقوق صدره، وانطبق عليه قول الشاعر:-

وكَــــمْ عَلَّمْتُــــــه نَظْـــــمَ القَــــوافِي

فَلَمَّـــــــا قـــــــالَ قَافِيَـــــــةً هَجَـــــانِي

فهذا الصنف مريض القلب واليد واللسان، شفاه الله، وهداه.

لقد كنت على صلة وثيقة بأساتذتي في كافة المراحل، وبخاصة المرحلة الإبتدائية، وكلما لقيت أحدهم أُقَبِّل رأسه، ولا أتقدمه في مجلس. أذكر من هؤلاء الأساتذة [محمد بن ناصر العبودي] و [عبد الوهاب أبوسليمان] و[عبد الله بن سليمان الربدي] و[محمد بن عثمان البشر] و[صالح الربدي] و[صالح الوابلي] و [صالح الطويان] وهم جميعاً أحياء يرزقون، وواجب طلبة العلم أن يتواصلوا مع الأحياء من أساتذتهم. فالفضل لا يعرفه لأهله إلا ذووا الفضل. علماً أن البعض من أولئك لا يحمل الشهادة الابتدائية، وما أكثر المباهين والمدِلِّين على من علموهم في مراحلهم الأولى.

لقد أدركت كغيري عقوق الطلبة، وعدم احترامهم لأساتذتهم، الأمر الذي انعكس أثره على العملية التعليمية، ولما كانت التربية تسبق التعليم، أصبح من الأهم، تقديمها عليه، إذ لا خير بعلم لا تُجَمِّله أخلاق. والأشد سوءاً ألا يكون المعلم مهتماً بأخلاقياته، فضلاً عن أخلاقيات من يُعَلِّم، وقديماً قال شوقي:-

وإذا المعلـــــمُ سَــــاءَ لَحْــــظَ بَصِــــيرةٍ

جَــــاءتْ عَلَـــى يَـــدِه البَصَـــائِرُ حُـــوْلا

تَقْمِيشَاتٌ مِنْ السِّيْرَةِ الذَّاتِيَّةِ .. ! (٧) (١)

ذلك ما يَحضرني عن علاقتي بالعلامة [حمد الجاسر] . وهو نزر قليل، لا يأتي على كل الذكريات، ولكنه جهد المقل، وما على أعرج الذاكرة من حرج.

أما الشاعر اللغوي الأديب [عبد الله بن خميس] رحمه الله، فلم أكن معه مثلما كنت مع الجاسر. إذ ربما حال بيني وبينه اهتمامه بالشعر الشعبي، وسوء الفهم لرؤية كلٍّ مِنَّا، ومحاولة تحريضه عَلَيَّ من قبل الكتبة الذين يعشقون الإثارة. وعداوة الصحفي بئس المقتنى.

لم أجرؤ على مواجهته بما أرى، ولم أكن في حقيقة الأمر مختلفاً معه، بالقدر المتصور، فأنا لست ضدَّ الإبداع العامي، من حيث التذوق، ولكني ضد اتخاذه أدباً يُدْرس ويُدَرَّس، كما الشعر الفصيح. وأحسب أن ابن خميس من الحب للغة العربية، والغيرة عليها، بحيث لا يرضى بها بديلاً.

لقد ضِقْتُ ذرعاً عندما أصدر كتابه [الأدب الشعبي في جزيرة العرب] وهو متزامن مع كتاب عميد الرحَّالين، الشيخ محمد العبودي [الأمثال العامية في نجد] وكلا الأديبين العالمين من أنصار اللغة العربية وآدابها. وأزعم أن مقالة الدكتور [طه حسين] عن الأدب في الجزيرة العربية، الذي أشاد فيها بالأدب العامي، والشعر العامي، قد أوحت إليه بفكرة التأليف عن هذه الظاهرة غير السوية .

الأشد غرابة في الأمر أن ابن خميس شاعر فصيح، جزل العبارة، قوي السبك، شديد الغيرة على اللغة. وهو فوق هذا عُضْو في مجمع اللغة العربية، وقد تقصى جهوده في مجمع الخالدين الدكتور محمد الربيع، في كتاب متداول. واهتمامه بهذا اللون يوحي بتذوقه، وتعلقه بالشعراء العاميين أمثال [راشد الخلاوي] الذي ألف عنه كتاباً.وفي برنامجه الإذاعي المتميز [من القائل] تفسح للشعر العامي، وقد برع في التنقيب عن عيونه، و ربطه بالشعر الفصيح، لغة، وشكلاً.

كان ابن خميس كاتباً متميزاً، وصحفياً بارعاً، وإدارياً صارماً. وله خصومات بلغت الذروة مع لداته ومجايليه.صدر له حتى الآن ثلاثة دواوين من الشعر الفصيح المنتمي لشعراء الاحياء، كـ[البارودي] و [ابن عثيمين] .

لم أظفر إلا بالديوان الأول [على ربى اليمامة]، وقد طبع أكثر من مرة، وفي كل مرة يزيد في تنقيحه، والإضافة إليه. وهو معدود من شعراء المناسبات.

وبعد كبر سنه، وضعف بدنه، هُيّءَ له من يتعقب آثاره الشعرية والنثرية بالجمع والدراسة. فالدكتورة [هيا السمهري] لها عملان أكاديميان، هما رسالتاها في الماجستير والدكتوراه، وهي التي جمعت ديوانه الثالث، وأصدرته. ولست بصدد تقويم أعمالها، فالمنهج السيري لا يتسع لمثل ذلك.

عرفت ابن خميس قبل معرفة الجاسر، ولكنني خالطت الجاسر، وألفته أكثر من ابن خميس. فابن خميس فيه أنفة، واعتزاز بذاته، وعمله الوظيفي نَدَّ بِهِ عن مجتمع الأدباء. ولم أجرؤ على القرب منه، وإن كنت من المعجبين به المشفقين عليه.

أنشأ [مجلة الجزيرة] وكانت متزامنة مع [مجلة الإشعاع] التي كان يصدرها الأستاذ [سعد البواردي] من المنطقة الشرقية و [مجلة الرائد] التي كان يصدرها [عبد الفتاح أبو مدين] من المنطقة الغربية، ناهيك عن [مجلة اليمامة] التي أصدرها الشيخ حمد الجاسر. كنت إذ ذاك شاباً يتهافت على الصحف والمجلات، ويود لو كان مذكوراً فيها.

---

(١) تاريخ المقال: ١١/ ٣/ ٢٠١٤

ولأني وَفَّيْتُ علاقتي بالصحافة في موقع غير هذا من السيرة، فإنني لن أفصل القول هنا عن تلك العلائق، فهذا من باب الإعادة والتكرار.

قد تكون علاقتي المبكرة بالأستاذ [عبد الله بن إدريس] من أسباب ابتعادي عن ابن خميس. فالرجلان خصمان لدودان، وقد فَصّل [ابن إدريس] في سيرته الذاتية بواعث الاختلاف بينهما. الشيء الغريب أن ابن ادريس في كتابه [شعراء نجد المعاصرون] لم يترجم لابن خميس، مع أنه من أفضل الشعراء، وانداهم صوتا، وذلك من أقوى المآخذ عليه، وإن برر تصرفه ذلك، وأشاد بالشاعر فيما بعد، ولكن يظل الخلاف قائماً بينهما، فابن إدريس من ألد خصوم الشعر الشعبي، وحين أطلعته على مخطوطة كتابي [الإبداع الأمي المحظور والمباح] استنكر كلمة [المباح] وعَدَّ ذلك تراجعاً مداناً. واختلاف الرجلين لم يكن قَصْراً على تلك القضية، ومن أراد استقصاءه، فليقرأه في السيرة الذاتية لابن إدريس [قافية الحياة] .

قلت إن ابن خميس كان في شبابه، وكهولته عنيفاً في القول والفعل، ولكنه على جانب كبير من الخلق الرفيع، والعلم الغزير، والإبداع المتميز. اهتم بجغرافية اليمامة، وتاريخها، وجبالها، وأوديتها، ونقلها بأكثر من كتاب.

لقيته في آخر أيامه، حين زار [منطقة القصيم] بدعوة من مدير عام التعليم الأسبق الأستاذ [صالح التويجري]، بعد أن وهن عظمه، واشتعل رأسه شيباً، وفقد القدرة على الاسترسال في الكلام، وضعفت ذاكرته. كان يومها لين الجانب، ودوداً، حفياً بمن حوله. وحين عَرَّفْته بنفسي أنكر ذلك، مؤكداً معرفته بي. ولقد أشرت من قبل عند حديثي عن العَلامة حمد الجاسر عن أول تواصلي المباشر به، حين تلقيت دعوة موقعة منه، ومن العلامة حمد للإسهام معهم في إنشاء نادي الرياض الأدبي، وذلك في عام ١٣٩٥هـ، على ما أذكر، و لم يتسن لي ذلك، لعودتي إلى القصيم بعد إكمال الدبلوم العالي التربوي بجامعة [الملك سعود] .

في شهر ربيع الثاني من عام ١٤٣٥هـ، حضرت اللقاء العلمي عنه، وقد تفضلت [دارة الملك عبد العزيز] بدعوتي لحضور الفعاليات، وكانت تلك الدعوة فرصة طيبة، جمعتني بأسرة الأديب، ومحبيه، والمسهمين بدراسة أعماله الأدبية، والجغرافية، والإبداعية. والكلمات والدراسات التي القيت أسهمت في تجلية جوانب من حياته، لم نكن على علم بها من قبل، وبخاصة الجلسة الأولى التي خُصِّصت للروايات والذكريات، وتحدث فيها المخالطون للأديب والقريبون منه في حياته.

الشيء الذي لم تظفر به المؤسسات الثقافية تكريم الأحياء، وإدخال السرور على أنفسهم، فتكريم الأموات فيه خير كثير، ولكن الأفضل منه مبادرة الأحياء.وهذا الفعل مُوْرس ببطء، وتسويف، وهو الأهم، فالمشاهد مليئة بالعلماء والأدباء والمبدعين، ورجال الأعمال، والإدارة، وكبار المحسنين الذين يدور في خلدهم قول [المتنبي] [لكافور] :-

أبـا المِسْـكِ هَـلْ فِـي الكَـأْسِ فَضْـلٌ أَنالُـه

فــإني أُغَنِّــي مُنْــذُ حِــينٍ وَتشْــرَبُ

لقد أعطوا كثيراً مثلما غَنَّى المتنبي كثيراً، ولكنهم لم ينالوا التقدير الذي يليق بهم. ولقد يُكَرَّمُ من دونهم لتأليف القلوب، وكسب الأصوات، فيما يترك المواطن لمواطنته، وذلك بعض ما فعله الرسول ﷺ، حين وزع الغنائم على الطلقاء في [غزوة حنين] ووكل المهاجرين والأنصار لإيمانهم، وحين وجدوا في أنفسهم، قال لهم الكلمة التي أبكتهم، وزهدتهم بلعاعات الحياة :- «**أترضون أن يعود أولئك بالشاة والبعير، وتعودون برسول الله**» قالوا جميعاً نرضى.

مع كل هذا لابد أن تفكر المؤسسات الثقافية بتكريم الأحياء، وإشعارهم بمكانتهم، وحث من دونهم على تلقي الرايات، ومواصلة المسيرة، إذ ليس من مصلحة الأكفاء أن يتحسروا على ما فاتهم، ويرددوا مع شوقي:-

أَحَـــرَامٌ علــــى بَلابِلـــــهِ الـــــدَّوْحُ

حَـــلالٌ للطَّيْـــرِ مِــــنْ كُـــلِّ جِــنْسِ

لقد شاهدت الحضوة، وحرارة الاستقبال للمدعوين لحشودنا الثقافية، فيما تظل الكفاءات الوطنية تخدم نفسها بنفسها، وتزاحم بالمناكب، لتحتل مواقعها الطبيعية.

ويقيني أن مثل هذا التقصير من التصرفات الشخصية من البعض، لا يقبل بها كبار المسؤولين. وكم خاب ظننا بمن صنعنا منه أبهة، وأغضبنا بتكريمه الأقربين. والبعض منا بدافع الطيبة، ينفخ في البالونات الفارغة. و أذكر أن الشاعر المدني [محمد هاشم رشيد] رحمه الله انطلق للسلام الحار على أحد المدعوين، فلم يحفل به، بل مَدَّ أطراف أصابعه بكل برودة، وهو يكمل حديثه مع أحد بلدياته، فما كان من شاعرنا الرقيق إلا أن عاد في حالة سيئة، فقلت له: أنت الذي عَرَّضت نفسك للإهانة فـ[يداك أوكتا و فوك نفخ] . لقد كان يكفيك أن تصافحه إذا لقيته، لا أن تنطلق إليه، وكأنك تَسْتبق المجد، أو الثراء.

لا أمانع من إكرام الضيف، وما دُعِيَ أولئك إلَّا لإكرامهم، وكسب ودهم، غير أن الأقربين أولى بالمعروف. وكم حضرت مع لداتي مؤتمرات في مصر، والعراق، والشام، والمغرب، وسائر العواصم العربية، ولم نجد ما يجده غيرنا في بلادنا. حتى لقد يتصور البعض منهم أننا قرويون مبهورون، وما أحد منهم يبلغ مُدَّنا، ولا نصيفنا، ولكنها عقدة الخواجة أعاذنا الله منها.وقديماً قيل :- [أزهد الناس بالعالم أهله] .

ومع أن ابن خميس لم يبلغ أرذل العمر في آخر لقاء معه، إلا أن ذلك الوهج الذي كنا نعايشه، ونهابه قد خبا، فلم يكن يحفل بالقول حتى يَسْتدرجه ابنه بإنشاد مطلع قصيدة، فيتمها بتلعثم.

ما أوده لعوالمنا الأدبية، والثقافية، والفكرية أن تظل متماسكة بعد رحيل العمالقة، وألا نكون كمن يردد [لم يترك الأول للآخر شيئا] إذْ ربَّ و ارثٍ أوعى من مُوَرِّث على سَنَنْ:-

إذَا طَـــلَّ مِنَّـــا سَـــيِّدٌ قَـــامَ سَـــيِّدٌ

قَـــؤُوْلٌ لِمَـــا قَـــالَ الكــــرمُ فَعُـــولُ

تَقْمِيْشَاتٌ مِنْ السِّيْرَةِ الذَّاتِيَّةِ .. ! (٨) (١)

ولدت وفي فمي ملعقة من مداد، على الرغم من أن بيتي لم يكن بيت علم، وظل الكتاب مناط آمالي، أجد نفسي حيث أجده، لهذا كنت أحرص كل الحرص على زيارة المكتبات وحضور [معارض الكتاب] الدولية، والمحلية، والعربية، مدعواً كنت، أو على حسابي، مشاركاً كنت، أو ضيفاً.

وقد أكتفي باستعراض كعوب الكتب، وقراءة العناوين، وقد تمتد قراءتي للمقدمات، والخواتيم، والفهارس. ثم يكون الشراء، أو العدول. وقراءتي مرتهنة للعلوم الإنسانية، أو للكتاب المشهورين.

والخلطة والخبرة زَوَتا لي أبعاد المعارف. وكنت من بعد اليسار أشتري ما هب ودب، ولا أفكر في جودة الأداء، ولا في سلامة الأفكار. وحين أُتخمت مكتبتي بالغث والسمين، وضاقت رفوفها، بدأت بالانتقاء، ثم صرفني عن النَّهَمِ مغالاة الباعة في الأسْعار، لغياب الرقيب، وتهافت الناشرين على التافه من الكتب، وارتفاع رصيد الغثائية، وبخاصة في السرديات الروائية، بحيث هبطت لغتها، وفنياتها، وقضاياها، وهَمَّ بها من لا يحسن التعبير، فضلا عن التوفر على أدبية النص والموهبة، والثقافة، والتجربة. وعزز ذلك ندرة النقد الجاد، المتوسل بالمعيارية والأخلاقية.

ولأن المملكة من دول النفط الثرية، والقوة الشرائية فيها لا تنازع، فقد وجد الوراقون فرصة الاشتراك في معارضها الدولية، وجلبوا لها ما لا يحتمل من الكتب الرديئة في أساليبها، وأفكارها، وأخلاقها.

والشباب بوَصْفِهِ غض الإهاب المعرفي، يتهافت على هذا النوع من الغثاء، مخدوعاً بالإخراج البارع، والعناوين المثيرة. ومَرَدُّ المشاكل افتقار بعض القائمين على المعارض إلى الخبرة بالكتاب وما له من صناعة وإدارة، لا يعرفها إلا العالمون، ومَرَدُّها -أيضاً- إلى عشق الناشئة لحرية القراءة والتعبير، وتعلقهم بالمُخْتَلَف حول مشروعية تسويقه من بعض الكتب، أو الكتبة.

ولما تزل مشاكل المعارض تنفجر بين الحين والآخر. فالزوار يختلفون في مشاربهم الثقافية، والمتدينون الورعون منهم يضيقون ذرعاً بتعدد الأصوات. فهم قبل التسوق متشبعون بانطباعات سيئة عن بعض المبدعين، وبعض المفكرين.

ولربما حُددت لبعضهم كتب، أو سُمِّي لهم مؤلفون، بل حددت لهم صفحات تحمل بين طياتها ألواناً من المخالفات غير المحتملة. فإذا وقفوا عليها، بدؤوا بمناكفة المسوِّقين، الذين لا يدرون ما الكتاب، ولا الانحراف، لأنهم مجرد موظفين، جيء بهم للبيع. وقد ترتفع الأصوات، ويتجمع المارة، وتسوء الأوضاع، حتى لا يجد رجال الأمن بُدًّا من التدخل، لفض الاشتباك، وتحويل القضية إلى مساراتها الرسمية. وعندها تشتعل المواقع الفضولية، ويتتابع النقد التشهيري، ويُسْرف المأزومون في النيل من أجهزة الدولة، ويتدخل الإعلام الفضائحي، لينفخ في تلك الوقوعات العارضة، ويُساء للأبرياء، ويشنَّع على المعرض، وعلى القائمين عليه، وقد يُسهم مُدَّعو التنوير في التأزيم، وتصعيد التنازع.

ولو أن الأطراف كلَّها عرفت حدود الواجبات والحقوق، لأخذت القضايا من خلال قواسمها المشتركة، ولم تجنح إلى الحِدَّة والحدية الموغرة للصدور، فكل عمل لا يخلو من

---

(١) تاريخ المقال: ٢٥/ ٣/ ٢٠١٤

أخطاء، و:- [كَفَى المَرْءَ نُبْلًا أَنْ تُعَدَّ مَعَايِبُه]، وآفة المشاهد واحدية الصوت والرؤية، وخطاب ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾.

ومعرض دولي يستقطب آلاف العناوين، ومئات الناشرين، لابد أن تحصل فيه الهفوات، وتلاطم التيارات التي لا يجوز التشهير بها، ولا استغلالها للإثارة والمناكفات.

لم تُتَحْ لي المشاركة فيما لحق من تلك المعارض، على الرغم من أنها تقع في صميم اهتمامي، وفي مجال هِوَايتي، وفي أتون خبرتي. ولكنني أدعى إليها، وسبق أن كُرِّمْتُ فيما سبق منها، وهذا فوق ما أستحق. ما أوده لكل تظاهرة ثقافية ألا يستقلَّ بها طيف دون غيره.

هذه الفلتات غير السوية من كل الأطراف، لو هيئ لها من يديرها بحكمة، ولو عُرِفَتْ دخائل النفوس، لأدت هذه المرافق دورها المأمول. فالمندفعون لا يُواجَهون بردة فعل مماثلة. ومن ثم لابد من امتصاص الاحتقان، واحتواء المخالف، وإبداء الاستعداد، لتلافي ما حصل، والتعهد بمتابعة الهنات، وتذكير المخالف لطبيعة البلاد ونسقها الثقافي والفكري.

ولما كانت المملكة بَلَدَ جذب، وأسواقُها تغري بالتهافت عليها، كان لزاما على المتنفذين أخذ الاحتياطات اللازمة. وذلك بوضع الضوابط الصارمة، التي تحول دون تسريب أي كتاب يثير المشاعر، أو يسيء لشريحة مجتمعية، لها حق المراعاة، لا حق الاستبداد. إننا نستاء من هذه التصدعات غير المبررة، وغير السوية ونود الخلوص من الاحتقانات التي تعد من المعوقات.

من المسلمات أن ثقافة البلاد محافظة، وذات أبعاد دينية مُعَيَّنة، قد لا يعرفها البعض، ومن ثم يندفع المُسَوِّقون وراء أطماعهم، دون علم بهذه الطبيعة.

من جهتي لا أجد الحساسية المفرطة، التي تعصف بالكثير من الطيبين. أود الحصول على أي كتاب يخالف سلفيتي، على سنن [حذيفة بن اليمان] رضي الله عنه، حين قال:- [كان الناس يسألون رسول الله عن الخير، وكنت أسأله عن الشر، مخافة أن أقع فيه] .

وأنا حين أواطئ من جندوا أنفسهم للدفاع عن حوزة الدين، وأظاهر من أصروا على تصفية نصاعة نصه من تحريف الضالين، وتأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين، لا بد أن أعرف ما عليه الآخر. فالحكم على الشيء فرع عن تصوره، كما يقول الأصوليون. ومكتبتي زاخرة بكتب الفلاسفة الماديّين، وأصحاب المذاهب المنحرفة، أقرؤها، ولا أقرأ عنها. لأن القراءات المجحفة عن التيارات، والمذاهب، والأناسي تعمق الفرقة، وتصعد الخلاف.

وأنا بهذا الانفتاح، لا أدعو إلى الانفلات، ولا أحلم بإسلام بلا مذاهب. وفي الوقت نفسه، لا أحبذ احتكار الحقيقة، ولا استفحال الأثرة، ولا تعمد الإقصاء للمخالف.

ولست أشك أن من واجب العلماء النادبين أنفسهم للدفاع عن حوزة الدين، أن يكونوا على علم تام بما يدور من حولهم، لكيلا يؤخذوا على غرة. فالتقوقع المذهبي، وأمية التخصص، لا تتيح للمتصدي للمذاهب المخالفة فرصة الحوار الحضاري، والحجاج المعرفي.

وكيف لا نُهَيِّئُ أنفسنا لمثل هذه المنازلات؟ والله جل وعلا يوجهنا إلى مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن، وإبلاغ المشرك مأمنه بعد سماعه للحق.

لقد حضرت معارض الكتاب في [القاهرة، ودمشق، وبغداد، والمغرب العربي، وسائر البلاد العربية] وبخاصة دول الخليج، ولم أر ما أراه في معارضنا من تصدعات، ومبالغات، ومظهريات.

معارضنا تهتم بالجانب الإعلامي. وقد تنفق الكثير في سبيل ذلك، وقد يُحَمَّل المتَسوِّقُ شطراً من هذا البذخ الذي لا يخدم الكتاب، ولا يعود بالنفع على القارئ. ثم إن لدى البعض منا حساسية مفرطة، تواجه المشاكل العارضة أو المتوقعة بنزق، وارتياب. ولا نتردد في قراءة مثل هذه الظواهر بعيون تقدم الشك على اليقين، وسوء الظن على حَسَنِه.

مع أن مثل هذه الجنح لا تحتمل مزيداً من التصعيد، فكل عمل بهذا الحجم، ينطوي على أخطاء، لو عولجت بحسن النوايا، وسلامة المقاصد، لمَرَّت دون شطط، أو تصدع.

لا أستطيع هنا التماس مناطات الأخطاء، فكلنا خطاؤون، وكلنا شركاء فيما يبدر من سوء التصرف، وعوج المواجهة للوقوعات. ونظراً لوجود خلفيات من الاستياء، فقد أصبح الحدث مجالاً لتصفية الحسابات.

والمعارض ضرورة حضارية، يجب أن يَحْتَفِي بها الجميع، وأن تُوَطَّأ لها الأكناف، ولا سيما أننا أمة القراءة، ومعجزة نبينا كتابٌ محفوظ، تُشَكِّل معارفه شطر الثقافة، والحضارة، والفكر الإنساني.

وما أوده في شأننا كله تقديم الظَّن الحسن، والتفسح للمخالف، وعدم تسابق الأطياف على التصعيد، والكف عن التشهير، والاستعداء، والميل إلى حفظ التوازن، والشعور بأن الكل مستهمون على ظهر السفينة.

الشيء المستغرب أن وحدتنا الفكرية مستهدفة، تماماً كاستهداف وحدتنا الإقليمية، وأن الذين ينعمون بفيوض مِنَحِنا، يتسابقون لتصعيد محننا. وتجربة تحرير الكويت خير شاهد. حتى لقد لجأنا إلى الاستعانة بالأجنبي. وواجب النخب أمام هذه الغرائبيات أن يَرْبعوا على أنفسهم، وألا يفرقوا بين ثرواتنا المادية، والروحية. فنحن على جانب كبير من هاتين الثروتين: [كعبتنا المشرفة بلباسها الأسود]، و[نفطنا المعشوق بلونه الأسود] .

وما لم يحفظ المتنفذون التوازن في رعاية المثمنات: المادية والروحية، وتنميتها، فإننا سنفقد بفقد الثروتين ما نحن فيه من هيبة عالمية، ومكانة متميزة.

ما نشاهده من توترات في معارض الكتاب، نجد مثله في مرافق أخرى. ومن الخير للبلاد والعباد أن تدير النخب دفة الأزمات بنفسيات مطمئنة لوَّامة، تقدم الثقة، والرفق، وتحسن الظن بمن تلقوا راية المسؤولية.

وعلى الجميع أن يتقبلوا النقد، والمساءلة، واختلاف الآراء بصدور رحبة.

فالصراع في النهاية إكسير الحياة، والاختلاف من طبيعة البشر:- ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾.

والناعمون بالأمن، والاستقرار، والرخاء لن يُتْركوا وشأنهم، فالمؤتمرون بالإثم والعدوان، لا يترددون في جر الأراذل، لتخريب مثمنات بلادهم بأيديهم.

عندما أنظر إلى ضخامة المعارض، وتعدد المعارف، وتنوع المشارب والسيولة النقدية، ثم أنتقل بذاكرتي إلى طفولتي، وشبابي المبكر قبل خمسة عقود ونَيِّف، أجد الفرق الشاسع، بينما كنا عليه إذ ذاك، وما كان عليه جيل النفط الذي يفرط بهذه الإمكانيات، ولسان حاله يردد:- ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِى﴾ ظناً منه أن هذه المكتسبات، من حقوقه المشروعة، التي لا تحول، ولا تزول.

لقد كنا في مطلع شبابنا نتبادل الكتاب الواحد، حين نظفر به بعد عناء وانتظار، وإذا كان صغير الحجم، لا نتردد في نسخه على نور السُّرج. وندرة الكتاب ليست في العجز عن شرائه، ولكنها في هذا، وفي ندرته. لا أستطيع أن أتصور الإمكانيات، وأنا أستعرض دور النشر في المعرض، وعبر الأجهزة الدقيقة.

بقي أن نعي هذه الإمكانيات المتعددة، وأن نقدرها قدرها، فالنعم إذا شكرت قرَّت، وإذا كفرت فَرت ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ إنه وعد الله ووعيده ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾.

تَقْمِيْشَاتٌ مِنْ السِّيْرَةِ الذَّاتِيَّةِ .. ! (٩)[١]

لم يكن من باب الصدفة، ولا من خليقة الفضول ملاحقة الإصدارات التراثية، والحديثة، الجديدة والمستعملة، والتنقيب عما لا يؤبه به من الكتب، مما لم تَرُقْ محتوياته لمشتريها.

كُتْبِيُّو المستعملات، متفاوتون في وعْيِهم، وفي ثقافتهم، وفي جشعهم.

فمنهم الوراقون الناسلون من بطون الكتب، المدركون لأهميتها. وهؤلاء يبيعون النوادر بأغلى الأثمان، وبخاصة المطبوعات القديمة.

ومنهم العمال الذين لا يُفَرِّقون بين البعر والدر. وهؤلاء يُقَوِّمون مبيعاتهم المستعملة على الحجم، أو الجِدَّة. فكتاب لا يساوي مداده، يُغَالون في ثمنه، لمجرد أن صاحبه أعلفه تِبْناً وماءً بارداً، حتى بدت همالة حُرُوفه بالتوافه.

قبل ثلاثة عقود، كتبت في هذه الجريدة عن جانب من ذكرياتي الممتعة عن [سور الأزبكية] في حي الأزهر بمصر، تحت عنوان [المجد المعتق لسور الأزبكية] وهو من الأسواق التي خَوَتْ على عروشها. وأصبحت أثراً بعد عين. وقد أقيم ليحول دون الراجلين وقطع الطريق. هذا السور يُظله [كُبْري] تعبر من فوقه السيارات. ولخلوه فقد استخدمه باعة الكتب المستعملة. وهي كتب موروثة من الوزن الثقيل -إذ ذاك-.

لهذا السور العتيد تاريخ حافل بجلائل الكتب. ومقالي آنف الذكر اسْتَدَرَّ ذاكرة الأستاذ الكبير [أحمد عبد الغفور عطار] رحمه الله، وحمله على سرد شيء من ذكرياته فيه، في [جريدة عكاظ] قبل أن أولد، كما يقول، في ثنائه عَلَيَّ، الذي لا أستحق أيسره.

ما أود الحديث عنه ظاهرة الباعة للكتب المستعملة، عندنا، وفي [شارع المتنبي] ومكتبات الباب الشرقي في بغداد و[سور الأزبكية] في مصر، وقرب الجامع الأموي بدمشق، وما يلاقيه أمثالي من صُدَفٍ نادرة، وأَصْدَافٍ ثمينة، بأسعار باهظة، أو مُيَسَّرة.

وظاهرة التخلص من الكتب ليست مذمومة على الإطلاق. فهواة القراءة، يقعون في خداع العناوين. والبعض منهم لا يتوفرون على مساكن فسيحة، فَيُخْلِي الضائق رفوف مكتبته مما لا يقع ضمن اهتمامه، والبعض منها تركة ورثها من لا يقيم لها وزناً.

ذات مساء ألممت بهذا النوع من المكتبات، فوجدت ما لا حصر له من المؤلفات المستعملة في مختلف فروع المعرفة. والمؤسف أن أكثرها من المقررات الجامعية، مما يشكل ظاهرة سيئة. فالطالب الجاد لا يمكن أن يفرط بهذا النوع من الكتب، لأنَّها وعاء تجاربه المعرفية، وذكرياته الطلابية. وبخاصة حين يعود إليها بعد أمة. ولا سيما الأمهات منها، ككتب النحو، والصرف، والبلاغة، والعلوم الشرعية، وأصولها، وموسوعات المعارف الأخرى، التي لا يجوز خلو المكتبات المنزلية منها.

والجهلة المفرطون من الطلاب من يطمسون وثائق الذكريات، ببيع هذه الكتب بثمن بخس، وبخاصة حين تمتلئ هوامش المتون منها بالتعليقات، والإحالات.

إن كتاباً واحداً من هذه الكتب يستدعي أساتذة أجلاء، وزملاء نجباء، وحكايات جميلة. ولكن هذا الصنف من الطلاب قوم لا يفقهون.

ليس مهماً لَدَيَّ التفريط بهذه الكنوز، فكل إنسان على نفسه بصيرة، ولكنني أستغرب مثل هذا التصرف من طلاب يُفْتَرَضُ فيهم الحرص على أوعية المعارف.

لقد نجوت بفضل الله من التفريط بهذا النوع من الكتب، ومن ثم احتفظت بمقررات مَرَّ عليها ستون عاماً، وذلك عندما كنت طالباً في [المعهد العلمي ببريدة] . وكلما فتحتها

---

(١) تاريخ المقال: ١٣/ ٥/ ٢٠١٤

تذكرت طفولتي، وشبابي المبكر، وأساتذة رحلوا، وزملاء شاخوا، وآخرين اخترمتهم يد المنون. وكم تتسمر نظراتي على سَطْرٍ حَبَّرْته، أو سَطْرٍ مطبوع، وضَعْت تحته أكثر من خط، أو قولٍ نسفته، أو آخر عززته، أو حِكمة قَوَّسْت عليها. ولكل أثر حكاية، لها تداعياتها المفرحة، أو المترحة.

جيل النفط الملول المترف، ومع الأسف أنه جيلٌ يتنامى بسرعة، هذا الجيل يفرط بتلك الوثائق، وكأنها تشكل عبئا عليه، أو تُذكره بمرحلة عصيبة، هي مرحلة الطلب، مع أنها من أمتع المراحل، لمن عرف قيمة التحصيل المعرفي.

عندما أعْبُر ممرات القاعات في الجامعة أيام الامتحانات، تبدو لي أكداس المذكرات، ولأنَّ أصحابها تركوها، فقد وُكِّل بها عُمال النظافة، يجمعونها، ثم يلقون بها في حاوية النفايات.

تلك ظاهرة سيئة، لم تكن في زماننا، لأسباب عدة. لعل من أهمها: ما يتسم به ذلك الجيل من جِدٍّ، واجتهاد، وحرصٍ على التحصيل، والعطاء، من الطلاب، والأساتذة على حد سواء. إضافة إلى ندرة الكتب، ومكانتها في النفوس، وانحصار المعارف فيها. أما جيل النفط -ولا أعمم- فعينه ليست على العلم، بل على الوظيفة، وهي حاصلة بعد التخرج، دون النظر إلى مستوى مُخَرَّجات التعليم، وأهليتها، ثم إن لديه مصادر معرفية أخرى.

ذات يوم مَرَرْتُ بتلك الأكوام التي تَرْكُلها الأقدام، فوقعت عيني على مذكرة من عشر ورقات، تحت عنوان [تنمية اللغة] فراقَ لي هذا العنوان، ولم أتردد في استخلاص تلك المذكرة لنفسي، وبعد قراءتها، حَفّزتني على كتابة سلسلة مقالات حول تنمية اللغة، نشرتها في جريدة [البلاد] -على ما أذكر- وهي تشكل بمجموعها نواة كتاب.

الجميل في الأمر أنني دفعت بهذه المقالات بعد نشرها إلى مجموعة من طلابي في قسم [الليسانس]، وأغريتهم برفع درجات أعمال السنة، إنْ هُمْ لاحظوا، أو أضافوا، أو صححوا. ومع تَخَوُّفهم، فقد غامر بعضهم، وأضاف، أو تساءل. وكان لذلك أثره فيما لحق.

الفضوليون، والجادون، يختلفون في مشروعية استثمار جهد الطلاب، وقد يَصِمون هذا النوع من الأساتذة بالسرقة، وأنا أختلف مع إطلاق الأحكام.

نعم، هناك أساتذة فارغون، يسطون على جهد طلابهم، وينشرونه بأسمائهم. وقد شكا إليَّ من أثق به من الزملاء سطو أستاذه على بحثه، ونشره باسمه، فنصحته بكظم غيظه، فحق الأستاذ حَقٌّ أبوي. والضعفاء المسترفدون من طلابهم، تتحول جهودهم إلى زبد يذهب جفاء، أو هشيم تذروه الرياح.

أما الجادون المتضلعون من المعارف، الحريصون على تدريب طلابهم، وترغيبهم في العلم، والتحصيل، المتدخلون فيما يمدهم به الطلاب، القادرون على المجيء بأحسن منه، لو أسعفهم الوقت، والجهد، فأولئك على حق، وعملهم مشروع، ومحمود.

من الأساتذة الكبار الذين اتهموا باستثمار جهود طلابهم الدكتور [شوقي ضيف] رحمه الله، لقد أدركت ذلك، وأبنته لطلابي، واستفتيتهم عن مشروعية هذا العمل، فاختلفوا فيما بينهم. كان ذلك عندما أسند إلي تدريس العصور الأدبية:- [الأموي، والعباسي، والمملوكي، والدول المتتابعة]، في سنوات خَلَتْ. وكان من أهم مراجعي كتاب [شوقي ضيف] الموضوعي [تاريخ الأدب العربي]، بمجلداته التسعة. وهو كتاب قيّم، فاق جميع من أرخوا للأدب العربي.

ومؤشرات استثماره لجهود الطلاب، تتضح من تباين مناهج التناول للظواهر الأدبية، وتباين المواقف، والأحكام، والإحالة إلى كتاب واحد من خلال ثلاث طبقات، وبخاصة [كتاب الأغاني] بوصفه من أهم المراجع لمؤرخي الأدب. فتاريخ الأدب لـ[شوقي ضيف]

يحيل إلى [الأغاني] تارة في طبعة [دار صادر] وتارة أخرى إلى طبعة [دار المعارف] وثالثة إلى طبعة [دار الكتب] . ومن المستحيل أن يعود مُؤَلِّفٌ واحد إلى مرجع واحد في طبعات مختلفة. ومع هذا فأنا لا أعيب على [شوقي ضيف] هذا الصنيع، بل أحمده عليه. لقد زود المشهد الثقافي بموسوعة أدبية نادرة، سدت فراغًا، لم يقدر على سده من سبقه، ولا من لحق به.

ومن العلماء من يركن إلى فريق عمل، وينجز مشروعات علمية عملاقة، وليس مهماً أن يشير في المقدمة أو على الغلاف إلى من شاطره الجهد، أو لم يشر. المهم أنّه أنجز عملاً سد أمكنة لن يسدها الشامتون.

ولعلنا نذكر المشروع العلمي العملاق الذي قطع منه معالي الدكتور [عبد الله بن عبد المحسن التركي] أشواطًا مثمرة، ربما كان من أهمها تحقيقه لمسند الإمام أحمد في خمسة وسبعين مجلداً، وكتاب [ابن كثير] التاريخي الموسوعي [البداية والنهاية] وأوسع كتاب في الفقه المقارن [المغني] لـ[ابن قدامه] في الفقه الحنبلي.

الشيء الجميل أن المذكرات التي أعْطيها لطلابي، هم الذين أنجزوها، وحرصاً مني على الأمانة العلمية، وضعت على غلاف كل مذكرة أسماء الطلاب الذين أسهموا في تجميع مادتها، وصياغتها. وهم اليوم أساتذة [أدِّ الدنيا] كما يقول إخواننا المصريون.

في الآونة الأخيرة كنت أوجه طلابي إلى المكتبات الرقمية، للتَّزود من المعارف، واستخلاص المطلوب منها. وأنا متأكد أن الفائدة منها وقفٌ على الجادين من الطلاب، وهم قليل.

لقد ضَمَّنْتُ كتابي [في الفكر والأدب] شطراً من ذكرياتي مع هذا اللون من المكتبات، ومع نوادر المخطوطات، وقَدْ أَسْتَلُّها، وأعيد صياغتها، لتكون شطراً من السيرة الذاتية.

تَقْمِيشَاتٌ مِنْ السِّيْرَةِ الذَّاتِيَّةِ..؟ (١٠)(١)

قدري المُخْرِج أنني من جيل يتهجى حاضره. فكم هو الفرق بين جيل يتمتع بإنسانيته، ويتوسل بإمكانياتها: الذهنية والجسمية لقضاء حاجاته كلها، وجيلٍ تَقُولُ له التقنية الحديثة:- [... فاقْعُد فإنَّك أنت الطَّاعمُ الكاسي] ؟.

أنا لا أغبط الجيلَ المُعَطَّل، الجيلَ الذي تَحَوَّل إلى إنسان آلي. عندما ينقطع التيار الكهربائي، أو ينقطع الاتصال، يُحِسُّ بأنه كومة من الأشْيَاء الهامدة.

جيلنا يستغل كل طاقاته التي استودعها الله فيه. يحرث بيده، ويزرع بيده، ويسقي على النواضح، ويمتح الماء بكلتا يديه، وإذا استوت الثمار على سوقها قطفها بيده، وأكلها طازجة، لأنه لا يملك وسائل الحفظ.

والمرأة في بيتها، وفي مزرعتها، وفي مرعاها، تحصد، وتطحن، وتحتطب، وتخبز، وتبقى كـ[أم زرع] لـ[أبي زرع] . فالرجل والمرأة يُعايشان كلَّ شيء، على حد سواء، من البداية إلى النهاية.

صحيح أنّ في ذلك مشقة، وإبطاء، ولكنه إبطاء المدل المنعم. والأناسي من جيل الآباء، وبدايات جيلنا أمام هذه المسؤوليات، يظلون متحفزين بكل طاقاتهم، وإمكانياتهم، لا يعتريهم خمول، ولا تنتابهم اتكالية، ولا يقعد بهم كسل.

الواحد منهم لا يأكل حتى يجوع، وإذا أكل لا يشبع، يجد اللذة في قليل المأكل، وكدر الماء، وخشن الفراش؟؟. يستمد من الشمس دفئها، ومن الرياح قَرَّها، وحرها. يغرس قدمه الحافي في الرمل، ويُعَفِّر جبهته، وأنفه في التراب تعظيماً لخالقه.

ولأنه من الأرض وإليها، فهو متصل بها، لا يحجبه عنها حاجب. يرى النجوم ساطعة في العشيات، والقمر مشرقاً في الليالي المقمرة، والأشجار وارفة الظلال، والرِّياضَ مزهرة، وكلها لم يتحرف لإنشائها إنس ولا جان. تختلف ألوانها، وأشكالها، وروائحها، وكل شيء بين يدي جيلنا على الفطرة.

أما اليوم فكل شيء مصنوع، الحدائق، والطرق، والتكييف، والماء، وكافة الوسائل. فالصناعات التي زيفت الحياة، وماثَلَتْ كل شيء، فَصَلَت الإنسان عن فطرته التي فطره الله عليها، وعطلت فكره، وشلَّت مهاراته، وأتت له بما يريد، حتى لقد أصبحت كعفريت سليمان، الذي عنده علم من الكتاب، يُحضر لجيل اليوم ما يريده، قبل أن يرتد إليه طرفه.

هذا الجيل فَصَلَته التقنية الحديثة عن جيلنا، وشق علينا اللحاق به، أو التعامل معه، وعشنا معه في حرج، لا نريد إبداء عجزنا عن مسايرته، وليس بإمكاننا التوفر على القابلية لهذه التقنية الدقيقة، التي أتقن استخدامها، ولم يحسن استثمارها، ولم يتوفر على صناعتها، فكان بهذا الاستهلاك غير السوي مرتهناً لنوال الآخر، المغاير له في شأنه كله، والمحاكي له في دقه وجله.

هذه المدنية الآلية التي سُمّيت حضارة من باب التفاؤل، لوَّثَت البيئة، وعطلت المهارات، ووأدت المواهب. ولما كانت البيئة: حسيَّة ومعنوية، كانت الصناعات، ونفاياتها، وأبخرتها تلوث الأرض، والفضاء. وكانت التقنية الدقيقة، وثورة الاتصال تزود الإنسان بالأخبار والصور، حتى لا يَخفَى عليه حَدَثٌ، ولا يتوارى عنه جَسَدٌ، ولا تند عنه حركة، ولما تَقَعَّرَتْ رؤيته للواقع، تعطلت عنده لغة الكلام، فكان السمع والبصر، وخَمُلَ ما سواهما.

---

(١) تاريخ المقال: ٢٤/ ٦/ ٢٠١١٤

لا أحد ينكر أزلية الصراع بين الأجيال المتعاقبة، وهو صراع لا يُجْدي الطرفين. فالجيل الذي ورث من سَلَفَه الحياة الهادئة الوديعة بأرضها العذراء، وسمائها الصافية، وهوائها النقي، يَمْضِي ليُوَرِّث لخلفه ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت. وهكذا الدنيا، أجيالٌ تأكل بعضها. والحياة في جزر ومد، سلفنا يَرْوي لنا ويلات الجوع، والخوف، والجهل، والمرض. ونحن نروي لأجيالنا شظف العيش، وضعف الوسائل، وشح الموارد، وصعوبة الكسب، وبدائية الأشياء.

وماذا سَيَرْوي خَلَفُنا لمن بعدهم؟ أيكون خلف الخلف في وضع كَمُلك سليمان؟ وتكون هذه الحياة المذهلة لنا بدائية عندهم، بمستوى السيف والرمح الرديني.

ومن ذا الذي يستبعد الغرائب؟ وفوق كل ذي علم عليم: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾.

ليس مهماً أن نظل في إطار التوقعات، كل الذي يجب على إنسان هذا العصر أن يهيمن على وسائله، وأن يستغلها بأسلوب حضاري، وأن يأتي بما لم تستطعه الأوائل، وأن يصنع فوق ما صنعوا. ثم:-

- هل نقطع بأنّ جيل النفط جيلٌ خائب، لأنه مَعُولٌ لا عائل، ومستهلك لا مستثمر؟
- وهل نُحَمِّل كنوز الأرض التي أمدَّ الله بها من شاء من عباده مَسْؤولية الترف المذموم، الذي عَطَّل القدرات، وشل الحركات؟

لابد أن نحدد المسؤول عن الخمول، وأن نَحُول بين عزماتنا والتردد.

هذه الثروة الباذخة التي تغمرنا دون عناء، عَطَّلت فينا العزمات، وأغرت بنا من لا يخاف عاقبة، ولا يرحم طريدة. نقف مذهولين لحظة مشاهدتنا لضحايا الجفاف، والمجاعات، والعنف، وانفلات الأمن، حتى إذا ذهب الصوت، واختفت الصورة، ابتلعتنا الملذات، واستعبدتنا الشهوات، وأنسانا الفرح ماهو مُحْدق بنا، والله لا يحب الفرحين. وتلك الظواهر تدفع باللاهين إلى الحِمى، ومن حام حولها يوشك أن يقع فيها.

لقد عَجِزتْ المنابر التي تضخ آلاف الخطب في الجُمَع، كل أسبوع أن تحرك شعرة في مفرق ذلك الجيل المترف، فيما استطاعت قالة السوء، وفحيح الأفاعي، أن تزج بشبابنا في أتون الفتن، وأن تُحييّ عندهم النعرات القبليّة، والتعصب المذهبي، والتكفير في زمن التفكير، والغلو، والتطرف، والأخذ بالرأي، ونفي النص، والتمرّد على المرجعية الدينية، والتفلّت على السلطة الشرعية: دينيّة كانت، أو سياسيّة، أو مجتمعيّة.

لم يكن جيلي على شيء من تلك الأخلاقيات، إذ لم يكن لدى أحد منا فراغ يملؤه الوسواس الخنّاس. فكل ساعة من ليل، أو نهار لا تفي بمتطلّباتنا. فعيشنا من كسبنا، وطاقاتنا ليست في باطن الأرض، ولكنها في أيدينا، وسواعدنا. نسير في مناكب الأرض، ونأكل من رزق الله الذي أودعه لنا، بذرة تنشق عنها الصحراء، بعد أن نبذل الجهد من أجل استثمارها.

فأين جيل اليوم من هذا الكدح المتواصل؟

إن الشـــــبابَ والفـــــراغَ والجِــــــدة
مَفْسَــــــــدةٌ للمــــــرءِ أي مَفْسَــــــدة

لا قيمة لمالٍ يَسْعى إليك، ولا لِكساء يُنَسَجُ لك، ولا لطعام يقدم بين يديك:-

فَـــامْنَعْ نَوَالَـــك عـــن أخيـــك مُكَرَّمـــاً

فاللَّيْـــثُ لـــيَس يَسِـــيْغُ إلا مـــا افتـــرس

ورضي الله عن الصحابي الجليل [عبد الرحمن بن عوف] الذي قال للأنصاري الذي آخا بينهما رسول الله ﷺ:- [بَارَكَ اللهُ لك في مَالِكَ وأهْلِك، دُلُّونِي على السوق] فكان من أغنياء الصحابة ومحسنيهم.

- فأين جيل النفط المسترخي الاتكالي الفضولي من هذه الأسوة الحسنة؟

لو رحت تسأل هذا الجبل عمن يخدمه في بيته، وسوقه، ومصنعه، ومزرعته، ويرعى إبله، وغنمه، ويحرث أرضه، ويطبخ طعامه، ويحلق رأسه، ويدرب لاعبه، ويُحَكِّمُ مباراته، ويصنع سلاحه، ووسائل راحته، ويبني داره، ويدير شأنه كله. لقال: هاه، هاه. وهو يدري أنه الطاعم الكاسي.

فتباً لحياة تقوم على جهد الأجنبي، وصناعة الأجنبي، حَياةٍ مترفة تفيض بالحشف، والغثائية، وسوء الكيل، وتفقد العصامية، وتفيض بالعظامية:-

ولـــو لَـــمْ يَعْـــلُ إلاَّ ذو مَحَـــلِّ

تَعـــالى الجَـــيْشُ وانْحَـــطَّ القَتَـــامُ

ما أكتبه، وأتأوّه منه، لا يُحْسب على صراع الأجيال الأزلي. إنه اعتراف مُرٌّ بالواقع.

لقد جَمَعْنا في طفولتنا، وشبابنا المبكر بين الدراسة، والعمل. ننام مبكرين، ونستيقظ مبكرين، ننظر تفتح الأزهار، ونسمع صدح الطيور، ولا نجد حرجاً من ركوب الحمير، وحمل الأشياء على رؤوسنا، والاحتطاب، وجني الثمار.

فهل يستطيع أحد من جيل النفط التخلي عن سيئ العادات، فضلاً عن سيئ الأخلاق؟.

السؤال المرعب:

- أرأيتم إن أصبح نفطكم غوراً؟

أتصحُو أم فُؤادك غيْرُ صاح .. !؟ (١)[1]

الإنسان العربي مسلوب الإرادة، مشلول التفكير، مغمور بالإحباط، مليء بالفشل، وكل خيار عنده أسوأ من الآخر.

والمتَقَرّي الوَجِلُ لأوضاع أمته المأزومة يقطع بأن ذَوِي الشأن ذاهلون عما يتململ من تحت أقدامهم، ومُزْوَرُّون عما يلوح من حولهم من بوادر سوء، لو اندلقت أقتابها لأهلكت الثاغية، والراغية، والحرث، والنسل.

وكأنهم ببلاهتهم فقهاء [بيزنطة]، الذين يدوكون ليلهم حول أسبقية البيضة أو الدجاجة، وحصون مدينتهم تُدَكُّ بالراجمات.

ومما أدرك الناس من كلام المجربين الأوائل: - أن فقيهًا أَعْمى تَقَرَّى بيده قذائف الأعداء المتساقطة من حوله، فقال: - [هذه زِبْدُ المعاصي]، ومثلها جزاء من فَرَّطَ في جنب الله ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾.

ولقد يسُوءُ العقلاءَ ما يرون، وما يسمعون، من تَبلدِ الأحاسيس، والتناجي الآثم، والمناكفات المذهبة للريح، والتنازع المحقق للفشل، في زمن يموج بالفتن.

وكأن القومَ عُنوا بقوله تعالى: - ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾.

لقد شارف السيل الزُّبَى، وبلغت الروحُ الحلقومَ، وكل شرذمة قليلة تظن أن من أولوياتها تصفية من يخالفها الرأي.

وكأني بالتأريخ يعيد نفسه للمرة الثالثة.

الأولى: حين قال علي -رضي الله عنه: - [أُكلت يوم أكل الثور الأبيض] .

والثانية: حين ضاعت الأندلس.

وليس ببعيد أن يعود للمرة الثالثة حين يضيع العالم العربي، وتكون الطامة الكبرى.

ثم لا يكون إسلام، ولا عروبة.

ومن ذا الذي يأمن هذا المصير: - ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

وكيف يتأتى النصر؟ وأفئدة الصَّفْوة غير صاحية، وغير مدركة لما يدور حولها، وشغلها الشاغل تضخيم الوقوعات العارضة، والنحيب على الخلافة الراشدة.

وكأنَّ [المَهدِي المنتظر] القابع في السرداب يتحفز للخروج، وامتطاء صهوة جواده، لأطر الخلق على الحق.

ومن ذا الذي لا يشقى في ظل أوضاع مخيفة؟ والدنيا بواقعها الرَّدِيء تخيف المخيفين: - [ذُو العقل يَشْقَى في النَّعِيم بَعَقْلِه: .. ..] .

لقد تداعت الأمم على أمن البلاد، وسائر معصوماته، ومثمناته، كما الأيدي المتداعية على قصعتها.

وحين اسْتَخَفَّ الصَّحابة هذا التخويف تساءلوا باستغراب: - أمن قِلَة نحن يومَئذٍ؟ وجاء الجواب المُرْعِبُ: -

«لا. ولكنكم غُثاء كغثاء السيل».

---

(١) تاريخ المقال: ١٧/ ١٢/ ٢٠١٣

ومن يتعقب أولويات النخب، بوصفها ردء الأمة، وحصنها، لا يقف على مشاريع فكرية مُؤَصَّلة، تنبعث من حاجة الأمة، وتلائم أوضاعها، وذلك مؤشر الغثائية.

ولظى الخوف الحقيقي والمشروع يكون من تململ الفتن، وإحاطتها، واستحكام حلقاتها.

هذا الاضطراب لا يثبته إلا إدارة حكيمة للأزمات الخانقة، الملتفة كحبل الفجيعة على الأعناق.

ورُؤْية مُسْتشرفة للمستقبل.

وتَصَرُّفٌ متعقل يستبطنُ التسامحَ، والتصالحَ، والتعاذرَ، وترك الفتن تَغُطُّ في نومها العميق.

لقد أغرقنا مشاهدنا بالهوامش والثانويات، وشغلتنا أحداث عربية، فرقت شملنا، وأوهت عزائمنا.

وشطت بنا قراءاتٌ غرائبية، ليست في عيرنا، ولا في نفيرنا.

وكأننا مَوَكَّلون بهموم الغير.

وكأننا فارغون من الهموم.

كما استهلكتنا ظَواهر اجتماعية محلية، لا تحتاجُ إلى تأصيل، ولا إلى تحرير، ولا تقع ضمن اختصاص المفكرين.

ثم هي وقوعاتٌ عارضة، لا تمس بنيتنا الفكرية، ولا مسيرتنا الحضارية، ولا مشاريعنا التنموية، وليس لها دور في تخلفٍ أو تقدم.

ولنضرب على ذلك مثلاً بـ [قيادة المرأة للسيارة] .

من المقبول أن تعتورها أقلام البسطاء، دون أن تكون قضية ساخنة، يمتاز فيها المجرمون، ودون أن تكون مؤشر انغلاق، أو انفتاح، ولا سبيل تقدم، أو تأخر.

وأحسب أن مثل تلك الظواهر من اختصاص السلطة التنفيذية.

فإذا أثارها الكتبة، دون المساس بسمعة الخائضين، وجب تفويض الأمر إلى الجهات المعنية بمثل ذلك.

فإذا قضت أمراً لا تكون لأحد الخيرة من أمرهم.

فالسلطة إن لم تكن مطاعة فسدت الحياة.

وحتى لو جاء قرارها على خلاف مراد المطالب، لزمه السمع والطاعة.

لأن مذهب أهل السنة والجماعة السمع والطاعة، في اليسر والعسر، والمنشط والمكره، وحتى مع الأثرة.

ذلك مثل أضربه، ولست مَعْنِيًّا بما ترتب عليه من خلاف عريض، وما خلَّفه من عداوة، واحتقان، وتصنيف.

علماً بأنني مع المنع في ظل الظروف القائمة، ولن يزعجني أي قرار يُتخذ؛ فتلك مسؤولية ولي الأمر، وهو الأدرى بمصالح الأمة.

لقد فَعَلَتْ هذه الظاهرة فِعْلها في التصنيف، والاستعداء والتنابز، وكأن في القبول أو الرفض صلاح الأمة أو فسادها.

الشيء الذي يملأ أوعيتي، ويستولي على كل اهتمامي، تلك الفتن التي تجيش كالجبال من حولنا، وتتكسر أمواجها على سفوح حمانا، وكلما تكسرت موجة، وعلا أسوارنا رذاذُها، لحقت بها أخرى، أشد اضطراباً، وأعلى زبداً.

وفي كل يوم نفقد ثنية، ونزداد إشكالية.

ودون هذا ما نعيشه من ضيق عطن، وتفاقم احتقان، وسوء ظن، وعجز عن احتمال الاختلاف المعتبر.

وحين لا يكون بُدٌّ من الاختلاف فإن الوضع يتطلب البراعة في إدارته، ولملمة ذيوله، والتخفيف من غلوائة.

ومن الخطلِ وسوءِ التدبير التفكيرُ في حَسْمه.

ومن الضروري التعامل معه بالحلم والأناة.

وكم نحن بحاجة إلى فقه الواقع، والتمكين، والأولويات.

ومن فَقَد شيئاً من ذلك فَوَّتَ على أمته فُرَصاً نادرة.

لقد بلغت الأمة العربية الدرك الأسفل من الهوان، وذهاب الريح، والفشل الذريع في كل مناحي الحياة، ولن نكون في معزل عن دخن ذلك، شِئْنا أم أبينا.

لقد أنهك أمتنا الاستعمار، وأردتها الانقلابات العسكرية، وأصْمَتْها الثورات الشعبية، وصار بها إلى اليأس والقنوط انبعاث الطائفيات، والحزبيات، واستفحال الغلو والتطرف.

وكلما شارفت على النجاة ارتكست في أوحال فتن، لا ناقة لها بها ولا جمل.

فِتن فُرِضَتْ عليها، واقتيدت إليها مكرهة لا مختارة.

وكأن قدرها أن تظل مرتهنة لتناسل المشاكل.

أتصحُو أم فُؤادك غَيْرُ صاحٍ .. ؟! (٢) (١)

وتبقى أوضاع الأمة العربية قابلةً لكل الرزايا، مُشْرعةَ الأبواب لكل الاحتمالات، وكلما نفذت بجلدها من طامة، تلقاها ما هو أَطَم. لقد ثارت الشعوب الأوربية، وأسقطت حكوماتها [الدكتاتورية]، وامتدت معها الفوضى، واستفحل العنف، ولكنها تداركت نفسها، قبل أن يُدقَّ بين فصائِلها [عِطْرُ مَنْشِم] .

وبادرت الاستقامة على الطريقة، وتحققت لها أهدافها. فكانت الحرية، والعدل، والمساواة، وتداول السلطة، واحترام الأنظمة، والدساتير، والقوانين، وبناء الذات. وأصبحت المصالح العليا فوق كل اعتبار. يختلفون، ولكنهم لا يدمرون مثمناتهم من أجل مصالحهم الذاتية.

أما العالم العربي فلم تزده الثورات إلا ارتكاساً في وحل الأثرة، و الفوضى، والعنف، والتشرذم. فكان أن تضخمت الطائفيات، واستفحلت العرقيات، وتعددت الانتماءات. وفي ظل هذه الترديات الأمنية، والاقتصادية، وتعارض المصالح، وتخلي دول الاستكبار عن تبني حلول، تُحْقن فيها الدماء، ويُنْزع معها فتيل الفتن، يتحتم على من هو في اللهب أن يحول دون الاحتراق.

ما يجهله المتذمرون، ارتهان عالمنا العربي تحت مجهر المراقبة الدقيقة. ترصد كلماته، وتحسب خطواته، وتُقَوَّم مُبادراته. والوجلون من المارد الإسلامي يتعهدون بأن يظل في قمقمه، خوفاً من عودة تاريخ الفتوح، والحروب الصليبية. هذا الوضع الاستثنائي، لم يكن حاضر أصحاب القرار. واستبعاد مثل هذه المراقبة المقعرة الرؤية، يحول دون تفادي الانتكاسات المتلاحقة.

أحسب أنه لو ترك العالم العربي وشأنه، لنام قرير العين هانيها، كما ينام متروك القطا.

إن على الرعاة الواعين لمثل هذه المنغصات، أن يعرفوا خطورة التقاعس عن المهمات، وضرر التخلي عن الأمة المهيضة الجناح، وضرر الاهتياج الأعزل. ولا سيما أن التجارب أثبتت خطورة الفراغ الدستوري، وتململ الفتن من تحت ركام المشاكل المعلقة.

لقد يئس الأبرياء المُصْطَلون بنار الفتن من الحل السليم، وخافوا من الفتن التي لا تصيب الذين ظلموا منهم خاصة، ومن ثم استفحلت ظاهرة اللجوء السياسي، هرباً من لهيب الحروب الضارية. وأخذ دافع الضرائب في دول الاستكبار انطباعاً سيئا عن الإنسان العربي، بحيث تأكد عنده أن العربي المسلم هو الأشقى، الذي يعشق الفوضى، ويسعى للتدمير، ومن ثم حَمل قادته على عدم المغامرة، والاكتفاء بالمراقبة عن بعد، والتحريش بين طوائفه، وأعراقه، لحفظ التوازن، وإمكان السيطرة. ولو قرئت صحائف [الفردوس المفقود]، وما صاحبها من همجية في القتل، وعنف في التشريد، لتسلل أحفاد الصليبيين من عار ما يقرؤون في تاريخهم، إذ لم يكن العرب بدعاً من الأمم في انبعاث الفتن، واسْتِشْراءِ التوحش. ولست هنا مبرراً، ولكنني مذكر بالتماثل.

لقد بلغ الإحباط ببعض المفكرين المبهورين بالرجل الأبيض حدَّ الإمعان في جلد الذات، والقنوط من لطف الله، و التيئيس من رحمته. حتى قال قائلهم: - [المجتمعات العربية والإسلامية فاقدة للقيم والأخلاق الإنسانية، وأنها نشاز عن البشرية، وأن أفرادها عاجزون عن أن يتفاهموا مع أنفسهم] أو كما قال عفا الله عنه.

---

(١) تاريخ المقال: ٢٤/ ١٢/ ٢٠١٣

وتلك السوداوية لا تليق من مثله، ولا تقبل بحق أمته على إطلاقها، ولكنها تظل مؤشر يأس، ودليل قنوط قاتلين. ولما كانت الخَيْرية باقية في الأمة، وقابلة للانبعاث من جديد، فإن واجب الناصحين التماس الطريق إليها. وليس ينفع في واقع مرير كهذا الذي تعيشه الأمة العربية من المحيط إلى الخليج إلا تماسك الجبهات الداخلية، والتخلي عن الملفات الثانوية الممكن تأجيلها، والحيلولة دون التصعيد الذي يصب في مصالح الأعداء.

على أنه من المسلمات قيام الحياة على الصراع، والاختلاف. ولا يمكن حسم شيء من ذلك. والأمم في أتون صراعها بين خاسر، ورابح، وحيادي، لا له، ولا عليه.

وحين لا نكون قادرين على الربح، فلا أقل من الحياد الإيجابي. وأتعس الأمم من يتربى شبابها على العنف، والدموية، والتهافت على بؤر التوتر، والاهتمام بصغائر الأمور، والتنازع حول الهوامش والثانويات.

والأمة العربية التي أصبحت مضرب المثل في الشقاق، يُتَخطف أنباؤها، ويتهافت البعض منهم على مناطق الحروب، طلباً للشهادة، واستجابة لدعاة الفتنة، على الرغم من تصدي دولهم لهم، وملاحقتهم. وتلك من الظواهر المخيفة. فثقافة العنف، وعشق الصدام، يحولان دون التفكير بما ينفع الناس. والأمة العربية تتوفر على مقومات القوة، في أرضها وإنسانها، ولكن عساكرها الذين أخلوا الثغور، وسكنوا القصور، عُمِّيَت عليهم الأمور، فاستدبروا ذلك، وسعوا إلى الفرقة، وتهافتوا على بؤر التوتر. فأي ثقافة تلك؟.

إن مصادر التشريع تدعو إلى الوفاق، والدفع بالتي هي أحسن، والقول السديد، والكلم الطيب، والجنوح إلى السلم، وإجارة المشرك، وإبلاغه مأمنه، وتلك من محققات الاستقرار والنماء العالمي، وإشاعة ثقافة الوفاق.

وما نشهده من عنف وحشي، واستخفاف بالدماء المعصومة، والأعرض المحرمة مؤشر جهل بالإسلام ومقاصده، وتَقَوُّل على الله بغير علم. والذين يَزُجُّون بالشباب في أتون الفتن، ويُحَرِّضونهم على القتل العشوائي الهمجي، يحتملون شطرا من الإثم، بل يتحملون الإثم كله. وأخوف ما نخاف منه على مصائرنا تبني هذه الخليقة ممن يعدون أنفسهم علماء شريعة، وفقهاء إفتاء، ورجال أمة، وأهل حل وعقد فيها.

ومن المؤكد أن الوضع العالمي لا يحتمل مزيداً من الإثارة، إنه وضع تذهل فيه المرضعة عما أرضعت. والعقلاء من يرتدون إلى الداخل، ويتمترسون وراء ما أبقته لهم الفتن من قوة: حسية، أو معنوية.

إن دول الاستكبار يهيئون بلعبهم السياسية أجواءً قابلة للاشتعال، تدفع إلى ردود أفعال هوجاء، يضيع معها الأمن، والاستقرار. وواجب العلماء والقادة أن يحولوا دون الوقوع في المصائد، ليفَوِّتوا على الأعداء ما يريدون.

ولقد يكون من أهون الضررين التحريض على التلاحي بالقول، والتناجي بالإثم. ولكن من المرفوض التحريض على قتل النساء، والأطفال، والشيوخ، وتهديم البيوت على ساكنيها، وتدمير البلاد، وتشريد العباد، مهما كانت المبررات. وليس من مقتضيات آيات التكفير والكراهية ما يدعو للقتل، أو قطع العلائق، أو الحيلولة دون تبادل المعارف، والمصالح، والخبرات. و[أسرى بدر] عَلَّموا أبناء المسلمين في المدينة، ومات رسول الله -ﷺ- ودرعه مرهونة عند يهودي.

إننا نمقت الحكام الظلمة، ونلعن المتسلطين العملاء، ونمتعض من دول الاستكبار، ولكننا لا يمكن أن نجد مبرراً لمقاتل يصوب بندقيته دون حاكم يأمر، أو قائد يُصَرِّف، أو قوة متكافئة تحمي.

إن شهوة القتل لذاته وحشية يمقتها الإسلام، وتعافها النفوس السوية، وهي سبيل قاصد لمقت الله. ومن مقته الله، لعنته الأرض التي تقله، والسماء التي تظله، والثياب التي

تستره. فليتق الله من في قلبه ذرة من إيمان. إننا نكره أقواماً، وتمقتهم ألسنتنا، ولو ظفرنا بهم، لوفرنا لهم الأمن، وأشعرناهم بإنسانيتهم، وبسطنا معهم الحديث، وأتحنا لهم فرصة الدفاع عن أنفسهم.

وكيف لا تحتدم إنسانية الإنسان، والله قد كرم بني آدم؟.

إن العنف الذي اجتاح عالمنا، إن هو إلا ردة فعل أمام عبث العابثين بالمقدرات والمقدسات. فالواقع مرير، والحياة قاسية، والآفاق مدلهمة، ولكن واجب العلماء، والمفكرين، وأهل الحل والعقد الربط على الأفئدة، وتثبيت الأقدام، ومواجهة الضوائق بالحكمة والتروي.

فليس من الحكمة أن نختار طريق التصعيد والصراع، ولاسيما أن أمتنا أمة منهكة، تعيش حالة من الخوف، والجوع، ونقص في الإمكانيات والثمار، وكل أمرها لا يساعد على المواجهة. إنها في زمن الاتقاء، والإكراه. والله يقول: - ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ و ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾.

ولم يبق والحالة قد بلغت منتهاها إلا أن نجنح إلى السلام، شعوباً وحكومات، ونعود إلى الداخل، لنصلح أنفسنا أولاً. وإذ لا يكون من السهل التنازل عن معتقداتنا، ومقدساتنا، وأفياء وطننا، فإن بالإمكان التصالح، والتعايش، والتعاذر، والاشتغال في القواسم المشتركة، حتى يأذن الله بصلاح الأمة، واجتماع كلمتها. وما ذلك على الله بعزيز.

ويكفى أن نتأمل آيتين هُنَّ جماع الأمر كله: - ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ و ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.

و[التغيير] و[النُّصْرة] يتحققان، أو يتحقق أيسرهما: بإتيان المستطاع من المأمور، وتقديم الأسوة الحسنة، والفعل الذي تتحقق معه مقاصد الإسلام، ومصالح الرعية، ومواكبة الجماعة، والرفق بالأمة، واتقاء الأقوياء، بما يبقي على أقل الحقوق، وإعداد الذات، بما يكفل لها العيش الكريم، والدفع بـ ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ و ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ و ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ مع طرح المشروع الإسلامي، دون تجاوز لحدود التبليغ، تماشياً مع: - «**بلغوا عني ولو آية**»، والتفسح لنواتج الاجتهاد المعتبر، وتغليب رأي الجماعة، وإن كان مفضولاً. فالذئب لا يأكل من الغنم إلا القاصية، وتعزيز الجبهة الداخلية بالمحافظة على سائر الوحدات: الفكرية، والدينية، والاجتماعية، والإقليمية. فكل صدع في الوحدة، يغري المتربصين بالنفاذ، واحتناك المكتسب.

ومتى أمنت الأمة، أمكن فتح سائر الملفات، وممارسة الإصلاح، وحمل المسؤول على التخطي إلى الأفضل.

اللهم ادرأ عن البلاد والعباد والمقدسات مضلات الفتن.

مِنْ خِيَانَةِ التَّرْجَمَةِ إلى خيانة القراءة..! (١) [(١)]

كتبت عن عتبات القراءة، بوصفها عتبات الفتنة، ما ظننته كافياً شافياً، وما كنت أحسبني مشدوداً لهذه الإشكالية الأزلية بهذا القدر، ولا وَجِلاً منها بهذا القدر. وما كانت عودتي من باب العود على البدء، ولكنها استبيان لجانب آخر، يندرج ضمن فتنة القراءة.

وليست القراءة التي أعني وقفاً على المسطور، إذ كُلُ ما استقر في الذهن فهو ناتج قراءة، فالكون كُله صفحات منشورة، يستلهم معانيها المعنيون، ولكنها كالقطر على الأرض، يختلف طعمُهُ، ولونهُ، وأثرهُ باختلاف التربة. والمقروء يتلبس بقناعات الفكر، وجاهِزيَّات التصور. وذلك مكمن الخيانة. ومن المُستحيل براءة القراءة، ولكن اللُّطف بِها أدنى المطالب.

والمسكونون بِهَمِّ القراءة يُدْركون شوارد المتداول، فضلاً عن المسلّمات.

ولقد تأخذ الإطلاقات سِمَةَ الاصطلاح الجامع المانع، ومما هو مستفيض على ألسنة الخاصة إجماعهم على أن ترجمة الشعر خيانة. ذلك أن الإعْجاز البياني لأي نص أدبي، لا ينتقل معه إلى لغة أخرى. ولهذا أجمع العلماء على أن [القرآن الكريم] لا يُترجم، وإنما تُترجم معانيه، فبالترجمة يفقد إعجازه البياني. ولما كان الشعر فَنَّاً، أصبحت ترجمته من باب الخيانة، والخيانة دَرَكات، إذ المترجِم لا ينقل الإبداع، وإنما ينقل المعاني.

وليس ببعيدٍ أن تكون الترجمة برمتها جناية على صاحب النص الأصلي.

ولأنني ممن لا يُحْسنون إلا لغة واحدة، فإنني من المكتوين بنار المترجمين، ولقد ينتابني الخوف من خيانة المترجم، فأتوسل بأكثر من مترجم لعمل واحد، وكم ينتابني التذمر حين أجد البون شاسعاً بين مُتَرْجِم وآخر.

وَجَدْتُ ذلك في ثلاث ترجمات لـ[الأرض اليباب] لـ[اليوت] حتى لقد غادر [اليوت] نصه مأسوفاً عليه، ولم تبق منه بقية، إذ حل محله المترجمون الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

إذاً لا أحد يُسَلِّم بأن الترجمة أمينة، ومع ذلك تبقى من الضرورات التي يجب أن تُؤخذ بقدرها، والقراءة كذلك، لأنها مرتهنة للنسق الثقافي.

ذلكم بعض ما يتعلق بالترجمة، بكل مستوياتها، وهي إشكالية متنامية، على الرغم من الدراسات التي تحاول محاصرة المشاكل، وتفكيكها، والحيلولة دون استفحالها.

أما القراءة فشأنها أدهى وأمرّ، لقد كان [المنتج] سيد الموقف، وكلمته نافذة بدلالتها الظاهرة، وليس من حق أي صَوْتٍ أن يعلو على صوت المؤلف، وظل الجميع ردحاً من الزمن يَغُضُّون أصواتهم عند صوت المؤلف. وفجأة تلاشت مكانته، وذهبت هيبته، وحَلَّ محله [النص] بوصفه الوثيقة التي تحمل دلالتها، حتى بعد موت المؤلف. وليس من حق أحد أن يسبق النص، بوصفه الرسالة المعبرة عن مقاصد المرسل. ولكي يستجلي المتلقي مضامين الرسالة دون الإخلال بمقاصدها، فقد هُيئت له الاستعانة على تفكيك النص بأدوات [النحو، والصرف، والبلاغة، واللغة]، وكل هذه الأدوات محاولة من المتلقي، للحيلولة دون التَّوهُّم. فالكلمة لبنة في الجملة، والجملة النحوية لبنة في بنية العبارة، والعبارات حلقات في سلسلة الأسلوب. والأدوات تخترق هذا التماسك لاستخراج الدلالة، وليس لإنتاجها. على أن الإنتاج بضوابطه المقاصدية إضافة إيجابية، ممن يحسن استثمار هذا الحق.

---

(١) تاريخ المقال: ٢٦/ ١١/ ٢٠١٣

وكم هو الفرق بين استخراج الدلالة من مكامنها، وإنتاجها من تأويلات القارئ. وسلطة النص قَلَّلت من احتمالات الخيانة في القراءة، وتقويل الكاتب ما لم يقل.

لقد أبقت هذه السلطة للنص حرمته، وللمنتج هيبته. ولما كان الإنسان ظلوماً جهولاً، فقد سطا على المنتج والنص معاً، وسلبهما أبسط حقوقهما. وبهذه الحركة البنيوية التفكيكية تحول مركز الكون النقدي إلى [المتلقي]، ليكون الآمر الناهي، الذي يرفع صوته فوق صوت المنتج والنص، ويقترف خطيئة إنتاج الدلالة، بدلاً من اكتشافها. ولذة استلاب الحقوق، حفّزت على تكريس [نظرية التلقي]، وتتابعت المؤلفات التي تنفخ في نظرية التلقي، وتمنح المتلقي السلطة المطلقة.

ولتحقيق هذا السطو نُحِّي الشَّرْحُ والتَّفْسِيرُ، والاكتشافُ. ليحل محلها التأويل، والتفكيك.

وتقصي الجذور [الأيدولوجية] لـ[نظرية التفكيك] تُبْعد النجعة، وتندلق معها أقتاب نظريات، لا أول لها، ولا آخر.

ولأنني لا أحمل في هذه المقاربة هَمّ تحرير المصطلحات، عبر التقصي للتاريخ، والدلالة، والمقتضى فإنني لن أمضي مع الأجواء التي تشكَّلت في فضاءاتها تلك النظرية المشكلة. وليس هناك من بأس حين نشير إلى [التوليدية] و[التحويلية] و (التأويلية) و (التفكيكية) وهي نظريات نشأت في ظل ثورة علم اللغة الحديث، وتُعد هذه النظريات من محققات الخيانة القرائية. ولأن الخيانة لم تكن قصراً على ثلاثية [التفكيك] و[التحويل] و[التوليد] وما يقابلها في التراث العربي من [التأويل] و[الكشف الصوفي] فإن ما هو أخطر من ذلك كله الخلفية الثقافية للمتلقي، والنوايا المبيتة، وسلطة المذهبية، والطائفية، والحزبية التي تصنع الدلالة المبتغاة، بصرف النظر عن كوامِنْ النص، ومقاصد المنتج. وتلك أم الخبائث، ورأس الفتنة.

مِنْ خِيانَةِ التَّرْجَمَةِ إلى خِيانَةِ القِراءةِ..! (٢) [(١)]

وقِرَاءات الملل، والنحل للنص التشريعي عند [ابن حزم ت ٤٥٦هـ] و[الشهرستاني ت ٥٤٨ هـ] تكشف عن محاولات جادة، لتكريس سلطة المتلقي المتلبس بالمذهبية المتعَصِّبة.

فـ[الاعتزال] الذي أدار النص في فلك العقل، يعد رائد القراءات التأويلية التعسفية. ومن بعدهم جاء المتطرفون من غلاة [الخوارج]، وغَنُوصِيِّي [المتصوفة]، ورافضة [الشيعة]، والتكفيريين من [السنّة] ممثلين لخيانة القراءة، بكل بشاعتها.

على أن مقاربتي لكبوات اليراع، وعثرات الكُتَّاب، لا تقف عند المتوسلين بالتأويل، والكشف، والحدس. ذلك أن هذه القراءات مفروغ من خيانتها، في بَعْض ما تذهب إليه، وإنما يمتد إلى قراءات تَدَّعي الحيادية، والعدل، واحترام مقاصد المنتج.

وتعقب [نظرية المعرفة] تكشف عن الشطح. إذ لكل عالم مجتهد نظريته المعرفية.

أقول قولي هذا، وأنا أقف بين ثلاثةٍ من الحقول المعرفية في مكتبتي: [حقل القرآن وعلومه] و[حقل السيرة النبوية]، و[حقل السياسة] . وقد حداني إليها ما أراه، وأسمعه من جنايات التقويل، وتحريف الكلم من بعد مواضعه، ومن قراءة شاطحة للأحداث العالمية، والعربية - على وجه الخصوص - بعيون نهمة، وبخاصَّة حين تحتدم الخلافات الحزبية، أو الطائفية، أو حين تتعارض المصالح، أو تنتاب الأمةَ فوضى الانتماءات، ويجتالهم شيطان السياسة، ويحلو لهم تعدد الخيارات، ثم يخفقون في إدارة الأزمات.

فكل قارئ لما سواه، يحكمه انتماؤه المعلن، أو المضمر، ويُصَرِّفه نسقه الثقافي، وتحيد به مصالحه العارضة، مما تتحققُ معه القراءة التآمرية.

والقارئ المتآمر حين يقترف جريرة التحريف، أو التصنيف لا يبالي بأي وادٍ هلكت مقاصد النص، وأهداف الكاتب. وتلك ذروة سنام الخيانة، التي أصابت الأبرياء، الذين تحرروا من ربقة الانتماء المتعصب، والتبعية المقيتة، وفتحوا أجواءهم لكل الخيارات، ولم تكن لهم حوزة يدافعون عنها، إلا حوزة [الكتاب والسنّة] .

وسأضربُ مثلاً بـ[الأشاعرة]، بوصفهم من أهل السنّة والجماعة. فهناك أشاعرة غير مُتعصبين، كـ[النووي] صاحب المجموع، و [ابن حجر] صاحب الفتح.

وأشاعرة مُتعصبون. فغير المُتعصبين ظلوا مقبولين عند الأشاعرة، و عند أهل السنّة والجماعة. فيما أحدث المُتعصبون من الفئتين شرخاً في وحدة أهل السنّة والجماعة، ودَعْك من المتعصبين في المذاهب الفقهية الأربعة المعتبرة، وتلاحيهم المقيت، وافترائهم في كتب المناقب.

ولقد تكون هناك قراءات، لا تتلبّس بالخيانة المتَعَمَّدة، ولكنها تُقَعِّر الرؤية الخاصة بالقارئ. الأمر الذي يضطره إلى تقويل النص ما لم يقل، ليخدم هَمَّه، وانتماءه. نجد ذلك عند طائفة من المفسرين، وكتّاب السيرة النبوية، من ذوي النزوع المذهبي، أو الحركي.

فالتفاسير التي تُعَد بالمئات، والدراسات القرآنية التي تُعَد بالآلاف، تحتفز إليها همومٌ مبيتة، تختلف نواياها، ومقاصدها.

وحياة الرسول ﷺ متعدِّدة الأطوار، والأحوال، والمواقف. وذلك شأن ذوي الشأن الرفيع. فالقائد، والزعيم تنتابه ظروف، وأحوال، تضطره إلى اتخاذ مواقف متنوّعة. وكل من وجد في هذه المواقف ما يخدم أهدافه، أطال الوقوف عندها. وقَعَّر الرؤية، وضخّم

---

(١) تاريخ المقال: ٣/ ١٢/ ٢٠١٣

الأحداث، واختصر حياة الأسوة فيها. ولو لم تتعدّد الاهتمامات، وتتنوع الأهداف، لما تعدّد كُتَّابُ السيرة النبوية، وكتّاب التفسير.

واحتباس القدوة في مرحلة من مراحل حياته، أو في خيار من خياراته، المرتبطة بظروف المرحلة، قد تقترب من الخيانة.

فـ[الموقف الجهادي] - على سبيل المثال - يحفز طلاب الجهاد على أطر القدوة في نطاق الجهاد، والتغاضي عما سوى ذلك من أساليب الحياة المتعدّدة. وحياة المصطفى ﷺ شمولية، لا يجوز اختصارها في خليقة واحدة.

ولعلنا نقرأ [عبقرية محمد] للعقاد، ثم نقرأ [فقه السيرة] للبوطي، و [فقه السيرة] للغزالي، و[حياة محمد] لهيكل و[الرسول] لِحَوَّى و[فترة التكوين في حياة الصادق الأمين] لخليل عبد الكريم، وآخرين من دونهم، لا يعلمهم إلاّ العالمون، لنرى كيف يتم توظيف جوانب السيرة لخدمة المضمرات المذهبية، والرؤى، والأفكار الحزبية. ومع أنّ بعض أولئك لم يخونوا أماناتِهم في قراءاتهم، إلاّ أنهم قعّروا رؤيتهم الخاصة، حتى ضلّ أكثرهم سواء السبيل.

و في أوج المد الاشتراكي، أُنْهكت شخصية [أبي ذر الغفاري] رضي الله عنه، لأنه خالف الصحابة في فهم آية [الكنز] .

هذا التباين في القراءات، قد يُضِل القارئ، ويحمله على القطع بأنّ الرسول ﷺ، لا يبرح تلك الرؤية التي عمد إليها مفكر، أو حركي، أو حتى عالم نفس.

ولقد تَحَفَّظ بعض الوقَّافين عند ظواهر النصوص على كثير من المقولات التي تجعل من الرسول ﷺ عبقرياً، أو معلماً، أو مقاتلاً. وما هو في النهاية إلاّ رسول مبلغ عن الله، مصنوع على عين الله، احتل من كل فضيلة ذروتها.

ويكفي شهادة الله له بأنه على خلق عظيم، ومقولة عائشة رضي الله عنها: - [كان خُلُقُه القرآن] .

ودعك من قراءة المسطور، وانظر إلى قراءة المنظور، بعيون متآمرة، ثم انظر إلى نتائج القراءة الخائنة، أو الخاطئة لأحداث العالم، والأُمّة العربية - على وجه الخصوص - . ويكفي أن تتحسّس عن قراءة [الولايات المتحدة الأمريكية] ومن شايعها لأحداث مَشْرقنا المأزوم، وتصرفها الضال المضل، والمضر بمصالح الأمة العربية، مما يؤكد [نظرية الغزو والتآمر]، التي يتحفظ عليها المستغربون. بل اقرأ تباين القراءات، وتنافرها لحدثين أمريكيين هامين: - اغتيال الرئيس الأمريكي [جون كندي] . وحدث [الحادي عشر من سبتمبر] لترى تداخل التناقض مع الخيانة، وليِّ أعناق الأحداث، لتوافق الأهواء والمصالح والتصوُّرات.

وخلاصة المقاصد: أن نأخذ حذرنا، حين نقارب المُتعصبين لآرائهم، أو مذاهبهم، أو مصالحهم. فالهوى يُعمي، ويُصمُّ. ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ و ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ .

فـ[الهوى] يفرض الدلالة التي تُعزِّز رُؤْية الهاوي، وإن كانت ضالة مُضلَّة.

و[البيّنة] لا تصرف المُتعصب عن رأيه.

و[السياسة] فَنُّ الممكن.

وتلك عين الخيانة القرائية التي نحذر من مغبتها، ونتجرّع مراراتها.

العم حمد .. !(١)

لم أكن في طفولتي وشبابي أعرف الشيخ حمد العبد المحسن التويجري ١٣١٥ - ١٤١٠هـ رحمه الله إلا بـ(العم حمد)، فالناس حين يلقونه أو حين يتحدثون عنه يرددون هذه الكلمة، وظل هكذا، إن كان حاضراً قيل له: (يا عم حمد) وإن كان غائباً قيل عنه (العم حمد)، والقليل من يكنه بـ(أبي عبد المحسن) وهو أكبر أولاده وأبرَّهم - رحمه الله.

ولقد هيئت له من الإمكانيات ما جعلته ملء السمع والبصر، فهو رجل استثنائي في أمور كثيرة فرضت على الناس محبته واحترامه، كنت أراه في طفولتي مقبلاً من عمله أو منصرفاً إليه، قصير القامة نحيل الجسم يرتدي أنظف الثياب وأخفها على الجسم، ولأنه من علية القوم فإنه لا يبدو للملأ إلا في زينته، وبكامل لباسه الرسمي، في زمن التقشف والخشونة، جاء إلى بريدة عام ١٣٥٦هـ بتكليف من الملك عبد العزيز لإدارة مالية بريدة، وكان من قبل قد خلف والده في إدارة مالية (المجمعة) وخلفه عليها من بعد أخوه الأصغر معالي الشيخ عبد العزيز العبد المحسن - رحمه الله. وتوجيه الملك له يتعلق بأهمية المنطقة، وقد قضى فيها زهرة شبابه ونضارة فتوته وهيبة شيخوخته، وأصبح من أعيان بريدة بل من وجهاء القصيم في وقت تزخر المنطقة بالوجهاء والأعيان والعلماء الذين واكبوا معركة التكوين وكانوا من أبرز رجالات الملك عبد العزيز، ومن ذا الذي يجهل رجالات الأسر الكبيرة في بريدة وفي أنحاء القصيم كافة، ومن ذا الذي لا يعرف البيوتات التي أنجبت القادة ورجال الأعمال والعقيلات، والعلماء الذين تفرقوا في أنحاء البلاد بتكليف من الملك عبد العزيز ليكونوا قضاة ومعلمين وخطباء. لقد برز رحمه الله في هذه الأجواء وكان من أعيانها، يسعى بمصالحها وينهض بالمهمات كافة، من استقبال لكبار الزوار واحتفاء بالمناسبات كافة. فبيته ومزرعته مثابة لذوي الهيئات وأصحاب الحاجات، ومن ثم عد من أبناء بريدة البررة ومن أعيانها البارزين الذين يشاطرون أولياء الأمور في تصريف المهمات الجسام.

ولأنه كان موطن ثقة الملك عبد العزيز وأبنائه من بعده فقد أصبحت له كلمته في الشأن العام، يبتدر القضايا أو يستشار فيها، يلتقي بأمير المنطقة وبقضاتها وبأعيانها، يتبادل معهم الرأي ويشاطرهم سائر الهموم، ولم يكن في ظل هذه الإمكانيات متعالياً ولا معتزلاً للكافة، بل عرف بسعيه في حاجات الناس واحتفائه بالفقراء والمعوزين يواسيهم بماله ويأسرهم بجاهه فضلاً عن متطلبات المنطقة.

ولأن والدي رحمه الله كان من أعز أصدقائه ومن أخلص خلطائه فقد عرفت الكثير من خصاله، كان يمر بدارنا في الصباح حيناً وفي المساء أحياناً أخرى، وكان يجلس مع أبي ويطول بينهم الحديث. ولما لم أكن إذ ذاك ممن يشغلهم الشأن العام فقد كنت أنصرف من مجلسهم غير عابئ بما يقولون، وأحسب أن راحتهم في الخلوة يحسون فناجيل القهوة ويصطلون على النار في الشياء أو يحركون (المهاف) المصنوعة من سعف النخل في الصيف لتجفيف العرق والتخفيف من لهيب الحر، وقد يتناولون شيئاً من التمر ثم ينهض كل واحد منهما إلى عمله، وكان حرصي في طفولتي أن أرافق والدي حين يُوْلم (العم حمد) لأحد الوافدين من خارج المنطقة، وما أكثر ما يُوْلم وكان ما يقدمه لضيوف المنطقة من أطايب الطعام يستهوي أمثالي من الأطفال وكنت فوق هذا ألهو مع لداتي وأعدوا في فيافي المزرعة في ضاحية (خضيراء) وفي قرية (قصيبا) أقطف من أعنابها ورمانها وتمرها وأسبح في مياهها ولم يرسخ في ذاكرتي مثلما رسخ عن مزرعة (العم حمد)، لقد

---

(١) تاريخ المقال: ١٥/ ١١/ ٢٠١٣

كان رحمه الله مغرماً بالمزارع يقضي فيها شطراً من وقته وينفق فيها ماله وجهده، ويدعو إليها لفيفاً من أصدقائه، وكان الناس إذ ذاك في شح وشظف عيش، فإذا خرجوا إليه وجدوا عنده أطايب الطعام وحلو السمر وأوسع المجالات لإحالة الأنظار بين النخيل والأشجار، وسماحته وتسامحه أكثرت من معارفه وأصدقائه ومحبيه، وإدارته الحكيمة لمالية بريدة مكنته من تطوير الأداء وتوسيع الخدمات، ولا سيما أن وزارة المالية إذ ذاك هي أم الوزارات فهي المهيمنة على كل القطاعات والمرافق ومن فروعها تصرف العوائد والمخصصات والرواتب وكل المساعدات العينية والنقدية، وتجبى إليها الزكوات وسائر الواردات، ومن ثم أصبحت مرجعاً لكل مواطن ومعيناً لكل محتاج. وإدارة الشيخ حمد -رحمه الله- لها أضفى عليها مزيداً من التألق وحسن الأداء.

وبعد تقاعده عام ١٤٠٠هـ لم يبرح مدينة بريدة ولم ينقطع عن المسؤولين، بل زادت أعباء مسؤوليته وتوسعت أعماله الخاصة وكثرت مهماته، ولاسيما أنه محظي عند ولاة الأمور يستطلعون رأيه ويستجيبون لمطالبه ويثمنون اهتمامه بالشأن العام ويأخذون ما يعرضه من آراء ومقترحات مأخذ الجد.

ولأنه نذر نفسه للسعي في حاجات الناس فقد كان لكلمته أثرها، ولاسيما أنه لا يريد من وراء إسهاماته إلا الإصلاح ما استطاع، على أنه بتجربته وتقدم سنه حين تبلغه شكوى أو يدار في مجلسه حديث عن أي قضية أو ظاهرة تبدو مزعجة أو مثيرة لا يتعجل في رد الفعل، بل يأتي الأمور من أبوابها ويتثبت ولا يتعمد الإساءة لأحد، وقد يواجه المسؤول مسائلاً أو مناصحاً، غير أنه حين لا يجد بداً من مواجهة الحدث لا يتردد في ذلك، وتلك خليقة عرفت بأعيان بريدة فلا ينفرد أحد في تصرف ولا يواجهون المسؤول حتى لا يكون بد من مواجهته، ولهذا حلت المشكلات وأصبح الأعيان بوصفهم موطن ثقة وتقدير من ولي الأمر يمثلون المجالس النيابية، وأصبح المسؤولون يحسبون لهم حساباً وأصبحت المشكلات تحل أولاً بأول ولم يعد هناك مشكلات معلقة ولا مستعصية، وإحساس الأعيان بقيمتهم ونفاذ رؤيتهم يشعرهم بمسؤوليتهم ويحملهم على التحري والتثبت وعدم التسرع، ولهذا أسهموا جماعات وفرادى في تصحيح كثير من الأوضاع دون إزعاج أو إثارة، ولربما أصبحت مجالس المناطق والمجالس البلدية تنهض بالأدوار التي يقوم بها الأعيان يوم أن كانوا مسموعي الكلمة، و(العم حمد) واحد من تلك الكفاءات الوطنية فسنه وخبرته وصدقه تحمل الكافة على قبول توجيهه وتثمين رؤيته.

لقد عاش حياته الحافلة بجلائل الأعمال سعيداً وحتى حين أقعده المرض والشيخوخة لم يمنعه ذلك من استقبال ذوي الحاجات وكبار المسؤولين ومناصحتهم وتخويفهم بالله. لقد كان رحمه الله واعظاً من الطراز الأول، فالذين يزورونه من أمراء ووزراء وقضاة ومسؤولين لا يكتفي بملاطفتهم والحديث معهم بل يبادرهم بالمناصحة وتذكيرهم بجسامة مسؤولياتهم، ولقد كنت أحفل مثل هذه الجلسات وأعجب من استغلاله مناسبة الزيارة، وتحويلها إلى جلسة عمل. ولقد زرته في مرضه الذي مات فيه فوجدته ذاكراً شاكراً محتفظاً بذاكرته، يسأل عن الصغير والكبير ويحث على الاستقامة ويزهد بالدنيا الفانية، وحين توفي والدي -رحمه الله- زارنا في البيت للتعزية، ولا أزال أذكر نصيحته لي بوصفي أكبر الأبناء والوكيل الشرعي، لقد قال لي بالحرف الواحد: كن أباً لإخوانك ولا تدع أحداً يتدخل بينكما، واحفظ حقوقهم واسع في حاجاتهم. وقبل أن يبرح المنزل عرض علي المساعدة، وكنت أزوره بين الحين والآخر وفي كل مرة يوجه اللوم لي على طول انقطاعي عنه ويذكرني بعلاقته الحميمة بأبي وصحبتهما التي لم تشبها شائبة، ولأنه عمر طويلاً وأدركته الشيخوخة فقد التف أبناؤه من حوله ولقي اهتماماً من أخيه معالي الشيخ عبد العزيز -رحمه الله- وتوفرت له رعاية صحية تليق بمكانته، وامتد عمره الحافل

بجلائل الأعمال زهاء خمسة وتسعين عاماً إذ ولد رحمه الله عام ١٣١٥هـ وتوفي عام ١٤١٠هـ. رحمه الله رحمة واسعة وجزاه عما قدم خير الجزاء. ولا شك أن تقديم سيرته العطرة رد للجميل وتقديم للقدوة الحسنة، فسير أعلام النبلاء تحمل على الاقتداء والتأسي، وما أحوج الأمة إلى قراءة السير العطرة فهي التاريخ الحضاري والتربوي للأمة وواجب الأبناء والأحفاد أن يبتدروا هذه المهمات.

فالرجال الأوفياء لدينهم ولأمتهم ولأوطانهم ولقادتهم يكون ذكرهم عمراً ثانياً، وتاريخ الرجال مجال لتربية الأجيال على فضائل الأعمال، وتسجيل التاريخ الشفهي تدارك له من الضياع. وما لم نبادر بمثل هذه المهمات فإن شطراً من تاريخ الأسر الكريمة سيضيع.

عفا اللّهُ عن طه حُسين مَا أظْلَمه لِنَفْسِه .. ! [(١)]

أنا أحب طه حسين حُبا جِبِلّياً، وأكرهه كرها: عقدياً وفكرياً. وما فرغت له، وانتبذت بأحد كتبه من مشاغلي مكاناً قصيًّا، إلا تمنيت أنه استقام على الطريقة، فَمِثْله مكسب لمن يَظْفر به، وفي الأثر المختلف في صحته ولفظه: -

«**اللهم أعِزَّ الإسلامَ بأحَبِّ العمرين إليك**». وليس هناك ما يمنع من الحب الجِبِلِّي، لأي إنسان، وإن كان كافراً. وطه حسين مَعْصُوم بكلمة التوحيد، مأخوذ بما قصر به من حقها. وكيف نَتَخَوَّفُ من إعلان حُبنا لعمالقة الفكر والأدب والسياسة الذين نختلف معهم، ونستفيد منهم، والله سبحانه وتعالى يقول لرسوله: - ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾. قد يقول قائل: إن في الآية إيجاز حذف، وأن النص بدون الإيجاز [من أحببت هدايته] ولست مع من يذهب هذا المذهب، ذلك أن الحُبَّ الجِبِلِّي مشروع بأكثر من نص، وبأكثر من فعل. خذ على ذلك إباحة الزواج من الكتابية، وإن بقيت على نصرانيتها أو يهوديتها. والزواج لابد له من الحب الجبلي والمخالطة. والمخالطة تنقلنا إلى حكم نجاسة الكافر. هل هي عينية أو حكمية؟. والصحيح أنها حكمية، ومن ثم أبيح طعام الذين أوتوا الكتاب، ثم إن الله لم يطلب منا مُعاداة من لم يقاتلونا في الدين، ولم يخرجونا من ديارنا، أن نَبَرَّهم، ونقسط إليهم، ونتبادل معهم المصالح، ونفي لهم بالعهود والمواثيق. ومن تصرف خلاف المقاصد، فهذه مسؤوليته.

و[طه حسين] الثائر المثير، ليس بكافر، ولا منافق. ولكنه ضال في بعض ما يذهب إليه. وحبي له مرتبط بغزارة علمه، وسعة ثقافته، وبراعة جدله، وجَمال عَرْضِه، وروعة أسلوبه المتأنق الذي يعد من السهل الممتنع. إنه بحق مرحلة فاصلةٌ، نستطيع استبانة أثره في التحولات الفكرية والأدبية والأسلوبية التي أحدثها مع مجايليه. وجناحه في مكتبتي الذي يشتمل على كل ما أملاه من كتب، وكل ما كُتِبَ عنه، لا يَعْلوه الغبار، لأنني أتَعَهدُهُ بالمراجعة، وهو من المؤثرين في أسلوبي. بل أكاد أقع في شرك التقليد، وبخاصة حين أهم بالكتابة، ثم أكون حديث عهد بأي كتاب من كتبه الممتعة.

لقد حارب خصومه بنعومة أسلوبه، وحُورب من بعض خصومه بخشونة الأساليب وركاكتها. والذين يصبحون يشمتون به، يغفون على إيقاعه الجميل. إنه بحق مدرسة من مدارس البيان، وإذ أقول بملء فمي: لا أدب لمن لم يقرأ كتاب [الأغاني] لأبي الفرج الأصفهاني، على الرغم من أنه من أكذب الكتب، وقد كتبتُ مقالاً، ونشرته في هذه الجريدة، تحت عنوان [أعذب الكتب وأكذبها] .

ولا أسلوب لمن لم يقرأ ما أملاه [طه حسين] . فهو أعمى، يُمْلِي على كاتبه. ولقد سمعت من شيخي [عبد القدوس أبو صالح] -إن لم تخنني الذاكرة- قوله: - [المتحدث الوحيد ارتجالاً بدون لحن، أو تلعثم طه حسين] . ومن أمتع الرسائل [الأكاديمية] رسالة تناولت أثر العمى على أسلوبه.

الشيء الذي غَفَل عنه أكثر الدارسين جمعه بين التراث والمعاصرة، فهو مُلِمٌّ بالتراث: شعره ونثره وقُرْآنِهِ، إلمام مقتدر مؤصّل، لا إلمام مثقف عابر. ولما استوت معارفه التراثية على سوقها، اتجه صوب اللغة الفرنسية والثقافة الفرنسية، وأسرف على نفسه وعلى ثقافته بالإشادة المطلقة بالثقافة الغربية، وحرصه على تغريب العالم الإسلامي، والأخذ بأسلوب الحياة الغربية. الأمر الذي ألَّب عليه الرأي العام العربي، وأثار

---

(١) تاريخ المقال: ٥/ ١١/ ٢٠١٣

العلماء الشرعيين، والأدباء التراثيين، وأدى إلى طرده من الجامعة، بل سبق ذلك محاولة حرمانه من استكمال دراسته في فرنسا.

أكتب تلك الخواطر العابرة، وأنا أتابع ما يكتبه خصومه وأنصاره بمناسبة مرور أربعين سنة ميلادية على وفاته.

لقد مات في أحرج اللحظات التي تمر بها الأمة العربية، في [حرب أكتوبر] التي شدت الأعصاب، وأذهلت الناس، ومن ثم عبر المشهد دون أن يحفل به أحد، وهو قد شغلهم حيًّا وميتًّا، مثلما شغل المتنبي مشاهد الأدب، وقال مباهيا:

أنـام مِـلْ جُفُـوني عـنْ شـواردها

ويسـهر الخلـقُ جَرَّاهـا ويختصـم

والخصوم والأنصار تجيش فيهم عواطف الكره والحب، ثم لا يقولون إلا كذبا، وكم تمنيت الفراغ للتوسط بين الأطراف المتنازعة.

[طه حسين] خرج من مصر يحمل أضغانه على طريقة الأزهر في التعليم، وتسوؤه الأحوال المتردية في عالمه العربي. وحين وجد [السوربون] فيه ضالتهم، وفروا له الأجواء الملائمة، ليصنعوه على عين الحضارة الغربية، فكان أن تلقفته [سوزان] زميلة ذكية وزوجة متنفذة، أغدقت عليه كافة المعارف الغربية، وأصرت على فرنسيتها، حتى فارقت الحياة، على الرغم من عشرات السنين التي قضتها في عصمته بمصر، وعلى الرغم من مرافقتها له في المؤتمرات العربية والإسلامية. وعَيْشُها في مصر طيلة حياتها معه فإنها لم تترك نصرانيتها، ولم تستبدل لغتها.

وحين أخرج إلى الناس كتابه [في الأدب الجاهلي]، أقام الدنيا، ولم يقعدها، لأنه قال [كلمة الكفر]، التي لا تقبل التأويل. ولما حُوكم أعيد طبع كتابه، وحذفت منه تلك العبارة الصارخة، ثم أعيد طبع كتابه على ما كان عليه من قبل. تلك واحدة من جناياته المُصْمية، وهو حين احتفى بالدارسين المنحرفين فكرياً، وتفسح لهم في أروقة الجامعة، أثار الرأي [الأكاديمي] . ثم تتابعت كتبه التي تحوم حول الحمى، وقد تقع فيه: [على هامش السيرة] [الفتنة الكبرى] [مستقبل الثقافة في مصر] [المعذبون في الأرض] [في الأدب الجاهلي] .

وحين عَمَّق العداوة مع الدين والتراث، وأمعن في التطرف، أخذه الغيورون على تراثهم أخذ عِزَّةٍ واقتدار، وأسرفوا في النيل منه. وما كان بودي أن تُفْقد المصداقية في الصراع الفكري، معه أو مع غيره، ذلك أن المقاصد الإسلامية تُعَوِّل على المصداقية: -

﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾.

[طه حسين] أنجز كتباً، وعالج قضايا، وتبنى أفكاراً، ليست سيئة بالقدر الذي يصفُ خصومه. والداء العضال المستشري عند كثير من المفكرين رفع القداسة عن [الوَحْيَيْن]، والخوض في المسكوت عنه، لاقتناعهم بأن حرية التفكير والتعبير لا تتحقق إلا برفع الأصوات فوق صوت النبي، والجهر له بالقول، وذلك بعض مقترفات [طه حسين] ومن هم على شاكلته. والرفع المنهي عنه في حياة الرسول ﷺ كان حِسِّياً، والرفع بعد وفاته يعني التطاول على النص القطعي الدلالة والثبوت من الكتاب والسنة.

والفكر المعاصر، والمفكرون المعاصرون، يَمَسُّهم دخنُ الشك والتجني والخوض في المحظور.

هلك [طه حسين] وفي نفسه أن يكمل كتابين من أنفس كتبه [الأيام] و[الفتنة الكبرى]، وليته أكمل الأول، وَدَسَّ الآخر في التراب، إذ لا طاقة لنا في أن نمسكه على هُوْن.

وهو إذ فارق الحياة، فقد خَلَّف ثروة أدبية واجتماعية وفكرية لم تستقر حولها الآراء.
وكلما احتدم الجدل بين أطياف المجتمع جُرَّ المفكرون من أجداثهم، للتشفي من الأحياء الموالين: - [كالثور يُضرب لما عافت البقر] . والاختصام حين تحكمه الانفعالات والأفعال وردود الأفعال يرتفع رصيد الغثائية، ولا تزداد المشاهد إلا خبالا، وأسوأ حالات الانفعال التسليم للتقلبات السياسية، ذلك أن الصراع الفكري حين تُصَرِّفه اللعب السياسية، يفقد مصداقيته ومرجعيته المبدئية. وذلك ما نعانيه في حاضرنا المضطرب، فبعض المفكرين تُجَرُّ قدمه من حَيْثُ لا يفكر ولا يقدر، فإذا فَكَّر وقَدَّر، وحاول الخلوص من ردغة السياسية، اعتورته السهام، وأردت سُمْعته، ثم حُوِّل كل منجزه الفكري لمزبلة التاريخ، بسبب جرائر السياسة التي لا تستقر على حال.
و[طه حسين] لم تُجَرَّ قدمه لمعترك السياسة، ولكنه يقاربها على حذر، وهو على خلاف [البوطي] و[سيد قطب] و[القرضاوي] وآخرين، استدبروا الفكر، واستقبلوا فَنَّ الممكن في السياسية وتقلباتها، فذاقوا وبال أمرهم، وتحملوا شطراً من أوزارها. وهو إذ قارب السياسة على حذر شديد، على خلاف مجايله [عباس محمود العقاد] فإنه خاض المعترك الفكري، ولم يتهيب منازلة أساطينه، والنيل منهم، والعمل على تهميشهم، بل والسعي لطردهم من الجامعة، فعل ذلك مع [زكي مبارك] الناقد الأعنف، الذي قال كلمته المضحكة [إذا قطع طه حسين رزق أولادي فسأطعمهم من لحمه، إذا أفتاني الفقهاء بجواز أكل لحم الكلاب] .
ولقد استوفى المريدون معاركه، ونافحوا عنه، واجتهدوا في تبرير استغرابه الذي استفتحه بكتابه الضجة [مستقبل الثقافة في مصر] وهو كتاب يتسم بالاندفاع المتهور صوب الثقافة الغربية، ويرى أنها المنقذ للتخلف العربي، وقد تصدى له كل من [سيد قطب] في كتابه [المستقبل لهذا الدين] و[محمود محمد شاكر] في كتابه [المتنبي] ومن قبل أولئك [مصطفى صادق الرافعي] في كتابه [تحت راية القرآن الصراع بين القديم والجديد] .
وفي عدد من مقالاته في كتابه [وحي القلم] .
والمعارك الفكرية والأدبية والسياسية في مصر استهوت أدباء الوطن العربي، وحاولوا نقلها إلى بلادهم، لأن فيها حيوية وإثارة واستقطابًا، ولربما يكون [العواد] و[العطار] و[الأنصاري] و[شحاتة] في الحجاز من أوائل الأدباء الذين تلقفوا تلك المعارك، وحاولوا محاكاتها، ولأني أشرت إلى شيءٍ من ذلك بالتفصيل في [سيرتي الذاتية] التي بدأت أنشر تقميشات منها، فإنني لن أطيل الوقوف عند هذا الجانب.
في النهاية سيبقى [طه حسين] إشكالية تَخْتَصم حول أفكاره الأجيال، وما نوده ترشيد هذا الخِصام والوسطية في إدارة مثل هذه القضايا الساخنة معه، ومع سائر من نختلف معهم، فقد مللنا التناجي الآثم، وتصديع وحدة الأمة الفكرية، وذهاب ريحها. ويكفي أن كُلاًّ يؤخذ من قوله ويرد، إلا قول من لا ينطق عن الهوى.
لقد اقتيد [طه حسين] إلى المحاكمة، وهو يردد: [ماذا تريدون من رجل يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله] . لكن الوثائق التي تركها وراء ظهره، لا تَمَكِّن المستبرئ لدينه وعرضه من التغاضي عنها ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا﴾.

كَيف تتألقُ الدولةُ بمشاريعها .. ؟![1]

المواطن الحق من يَحْمِل هَمَّ أمته في السراء والضراء، ويعرف دوره في سياقاتها المتعددة، بوصفه على ثغرٍ من ثغورها. وحَمْلُ الهَمِّ من أولويات المسلم الواعي.
ومن لم يَحْمِلْ هم المسلمين فليس منهم. فكيف به إذا كان الهمُ هَمَّ الأهل والعشيرة.
وحب الوطن جزء من العقيدة: -

وما حُبُّ الديارِ شَغَفْن قَلْبِي
ولكن حُبُّ مَنْ سَكَنَ الدِّيارَ

إن المواطنة النابضة بالحيوية هي حب الإنسان لأخيه الإنسان، لا يظلمه، ولا يُسلِمه، ولا يخذله. وحبه يستدعي حُبَّ ما يوفر له مقومات الحياة السوية. وفي الحديث: - «**أحِبَّ لأخِيك ما تُحِبُّ لِنَفْسِك**».
تداعت هذه الخواطر على ذاكرتي، وأنا أستعرض التغطية الإخبارية المبهجة في الجريدة عن المشروع العملاق في المشاعر المقدسة الذي تنفذه [شركة الفوزان للتجارة والمقاولات] واغتباطي يتضاعف لأسباب عدة: -
- فهو مشروع وطني عملاق.
- ومشروع إسلامي يتساوق مع عدد من المشاريع التي حَلَّت الأزمات، وفَكت الاختناقات في المشاعر المقدسة، وأعطت الدولة بُعْداً قِيمياً، تُجمع الأمة الإسلامية على تميزها. وهو تميز يُضاف إلى إسهامات إنسانية، وإسلامية، وعربية، عُرِفت بها [المملكة العربية السعودية] وحُقَّ لها أن تُسَمَّى مملكة الإنسانية، وأن تكون حاضرة في المغارم، غنيةً عن المغانم.
- ثم إن هذا المشروع نُفِّذَ من شركة وطنية، تَرْبِطني بصاحبها رابطة أُخُوَّةٍ وصداقة، امتدت لأكثر من ستة عقود.
فرئيس مجلس إدارتها الشيخ [محمد بن عبد الله الفوزان] صديق عمر وَفِيٌّ، زاملته في السنة الرابعة الابتدائية في المدرسة الفيصلية ببريدة عام ١٣٧٤هـ، ولما نَزَلْ على صِلةٍ تعمرها المحبة والصفاء.
ولقد عرفت فيه الصدق، والإخلاص، والثقة بالنفس، والحرص على الوفاء بالالتزامات، وفعل الخيرات، زاده الله من الخير، وثبته على الحق.
وشهادة الأمير [خالد الفيصل] بسرعة الإنجاز وجودة الأداء، دليل على ما تتمتع به الشركة من حرص على الوفاء بتعهداتها. فسمو الأمير عُرف بالصراحة، والصرامة، ودقة المتابعة، وعدم المداهنة، كل ذلك حَفزني على تناول هذا الموضوع، واستثمار معطياته الإيجابية.
فـ[المُجَمَّع الحكومي في حي المشاعر] يُعَدُّ واحداً من المشاريع العملاقة، التي بادرت الدولة في تنفيذها، لتمكين كافة المشاعر من توفير الراحة والسلامة للطائفين، والعاكفين، وهو مشروع تم إنجازه في وقت قياسي، ليتساوق مع عشرات المشاريع العملاقة في المشاعر المقدسة.
والطفرات التي تَمُرُّ بها البلاد، تتطلَّب شركات تفي بما التزمت به، وتنفذ المشاريع وفق المواصفات، وفي المدة المحددة. فعسى أن تعيد الشركات المقصِّرةِ حساباتها، وتلحق بالركب المُخِبِّ.

---

(١) تاريخ المقال: ٢٩/ ١٠/ ٢٠١٣

لقد ضاق المواطن ذرعاً بالشائعات التي يجترها الناس في مجالسهم عن إخفاق كثير من المشاريع بسبب الشركات المنفذة، وكم تسعده الإشادة بأي شركة وطنية، نفذت التزاماتها، وأنهت مشاريعها وفق المواصفات، وفي الوقت المحدد.

وحين تَتَجلَّى قُدُراتُ أيِّ شركةٍ وطنية في تنفيذ أيِّ مشروع يُحس المواطن بالسعادة، لأننا بَرِمْنا من فيض الاتهامات المبالغ فيها عن كثير من مشاريع وطننا، واستأنا من صيحات التذمر التي لا تجد من يأخذها بحقها.

وما نَحْمده لكبار المسؤولين في الدولة مبادراتهم بالإشادة حين تتميز شركةٌ مَّا في تنفيذ التزاماتها، وعدم ترددهم في محاسبة أي مقصر.

وإن كان ما تنفذه الشركات الملتزمة حقاً واجباً عليها، فإننا نود في الوقت نفسه أن نجد القدوة في التنفيذ، وتقليص التذمر والاتهام والتقليل من قيمة مشاريع الدولة، بسبب تقصير الشركات المتعهدة. فنحن في بلد يعيش ربيعه الحقيقي، وتعج مُدُنُه وصحاريه بالمشايع الخِدْمِيَّة والاستثمارية، ولا نود أن يُعَكرَّ صَفْوُ هذا الربيع، ولا أن يقلل من قيمة إنجازاته.

وأيُّ مواطن مُخلصٍ لوطنه، صادقٍ في محبته، يود أن ينقطع دابر التذمر والشك والاتهام والتصعيد. وفي المقابل فإن أيَّ مشروعٍ يُنْجز في وقت قياسي، وعلى ضوء المواصفات، يجب أن يقابل بالرضا والإشادة.

فالدولة حين تطرح المشاريع [المليارية] بالتعميد المباشر، تود أن تتم بالشكل الذي تريد، وفي الوقت القياسي، كي ينعم المواطن بهذا الإنجاز، فهو منه وله. وتعثر المشاريع، يؤجل الانتفاع، ويُبَطِّئُ بمشاريع أخرى تنتظر دَوْرها.

وإذا كنا بحاجة إلى [هيئة لمكافحة الفساد] وقد قامت، فإننا بحاجة إلى من يعرف الفضل لذويه، ويقول للمحسن أحسنت، وللمسيء أسأت. فمن أمن العقاب أساء الأدب.

ذلكم بعض ما حفزني على الحديث عن مشاريع الدولة في المشاعر المقدسة، وعن الشركات التي وُفِّقَتْ بالوفاء بالالتزام.

وإذا أصبح من حقنا أن نقول للمخطئ أخطأت، فإن من واجبنا أن نقول لمن أصاب أصبت. ومن لم يشكر الناس لا يشكر الله.

وواجب كل مواطن أن يكون عيناً للدولة، رائداً لها. و[الرائد لا يكذب أهله] . فمن أشاد بالمقصر، فقد خان أمانته، ومن كتم شهادته بحق المُجَلِّي، فقد عُد من الساكت عن الحق.

وكل مواطن حين يَسْمع بمشروع عِمْلاقٍ نُفِّذ في أي بقعة من وطنة، يتمنَّى أن يكون لمسقطِ رأسه نصيبٌ من ذلك، إلا مشاريعِ المقدسات، فهو يطلب لها المزيد.

ومشاريع الحرمين الشريفين بَلَغَتْ ذُروتها في التوسعة والجودة، وسرعة التنفيذ.

وذلك فضل من الله نذكره ونشكره، ونتمنى المزيد منه. وهل بعد أم القرى من أمهات؟.

لقد كنا من قبل نَعُدُّ رَمْي الجمرات من المغامرات المحفوفة بالمخاطر، وهي اليوم من المتع التي يسعى إليها الحاج، وهو مُطْمئن النفس، وكذلك التنقل بين المشاعر، فحين أُنْجِزَ مشروعُ [قطار المشاعر] بدت الانسيابية، وفكت الاختناقات. وما نتمناه أن يكون المطاف بعد مشاريع التطوير كذلك، حتى تكون المشاعر الثلاثة: [المطاف، والمسعى، والجمرات] من السعة والأمان، بحيث لا تُضْطر الدولة في عام من الأعوام إلى تقليص عدد الحجاج، وإقناع الرأي العام العالمي بمشروعية مثل هذا القرار الاضطراري.

إننا لكي نَقْطَع دابر اللغط المُسِيء لمشاريع بلادنا فإن على جهات الاختصاص وضع سجل شرف لكل شركة تلتزم بتعهداتها، وتنجز ما أُسَنِد اليها من مشاريع في الوقت المناسب، وعلى مستوى الجودة المطلوبة.

وما لم تكن هناك محاسبة عسيرة لكل مُقَصِّر، فإن التقصير يتحول إلى إفساد، والخطأ يتحول إلى خطيئة. وذلك ما لا نريده لوطن يتعملق في زمن الأقزام.

أَشَرٌ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً .. ؟! (١) [(١)]

من العادات المتوارثة نزعتا: التفاؤل والتشاؤم. وما من أحد له وزنه في الحياة إلاّ هو على شيءٍ من هذا أو ذاك، فمقل أو مكثر. والمحمود من الخصال التوازن، وكان الرسول - ﷺ - يعجبه الفأل. ومثلما يراوح الناسُ بين تلك السّمتين، تجدهم كذلك،

يراوحون بين (الغبطة والحسد)، إذ لا يخلو جسد من حسد - كما قال (ابن تيمية) -. واليد واللسان مجال تجليات الخصال الحميدة، أو الذميمة.

ولما تداول المراقبون مصطلح (الربيع العربي) تفاءلنا خيراً، وأحْسَنَّا الظنّ بمن غامروا في كسر القيود التي أدمت المعاصم، وسلبت الحريات، وعَفَّرت الكرامات. وحين لم تكن الأمور على ما يرام، تبادر إلى الأذهان ما كان يطلقه الأوائل من باب التفاؤل، وذلك حين يسمّون (اللديغ) سليماً، والأرض المتاهة (مفازة) وعلى شاكلة ذلك سمّوا الخريف العربي ربيعاً.

وما كان في حسابات أباطرة السياسة اجتياحُ الفوضى لعالمنا العربي بهذا القدر، وبذلك التسارع. وفي أتون الفتن، تساءل المستهدفون، كما تساءل عالم الجن: - ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً﴾.

و(الربيع العربي) فاجأ المشاهد، كما فاجأها تفكيك (الاتحاد السوفييتي)، ونشوء (الاتحاد الأوربي).

ومن أراد أن يتحسّس عن النوازل السياسية، فإنّ عليه أن يتخلّى عن المتداول من القول، كي يتسنّى له الغوص في أعماق القضايا المتداعية، وضرب الظواهر بعضها ببعض. لينكشف ما ادّارَءَ فيه المختصمون، ويُعْرف قاتل الكرامة العربية.

فاللّعب السياسية حلقاتٌ يمسك بعضها برقاب بعض، أو هي موجات يتكسّر بعضها فوق بعض.

ومنذ التناوش بين (العرب) و(الفرس) في عهد الخليفة الراشد (عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والحروب سجال بين العنصرين.

حروبٌ باردة، وقودها الكلمات، وحروب ساخنة، وقودها الناس والمثمنات.

وما (التشيُّع) إلاّ تحرفٌ ما كِرٌ، اتخذ ساحة الدِّين ميداناً للتفاني، وتفجير الأحقاد الدفينة. وما (الشعوبية) إلاّ مفردة من مفردات التناوش فجرت مواهب الشعراء.

والساحات الرئيسة للمنازلات المصمية ثلاث: (اللغة، والدين، وضرب الرقاب).

والتقصّي للمراوحات يَمُرُّ بالمتقصّي على جيف الفتن النتنةِ، ويكشف عن المخبوء الذي لا يصل إليه إلاّ أولو العلم بالتماكر السياسي.

هذه العداوة العِرْقية والعَقَدِيَّة بين العنصرين: (العربي والفارسي) استثمرها عنصر صَلِيبي ثالث، هو الغرب المادّي الذي أتقن كُلَّ مقوّمات القوة، وتمكن من كل محقّقات التفوّق المادي، وعقلنة الحياة، وغَلَّبَ جانب المصالح على المبادئ.

من هنا التبست الأمور على الأمّة العربية، وامتد معها زمن التيه، وأصبحت النوازل ظاهرها فيه الرحمة، وباطنها من قبله العذاب.

وحُقَّ لها أن تتساءل بذهول: - أَشَرٌّ أريد بالعروبة أم أراد بهم ربهم رشدا؟.

إن الواقع العربي، والمصير العربي من الغموض والالتباس، بحيثُ لا يعرف السالكون دربهم.

---

(١) تاريخ المقال: ٨/ ١٠/ ٢٠١٣

وليس بمقدور الخاصة أن يراهنوا على مصير مُرْتَقب. وهنا يعلو قدح التفاؤل والتشاؤم، ولعبة المسمّيات الباذخة كالربيع، وما يقتضيه هذا المسمّى من تصرُّفات وإجراءات، غير أنّ الواقع يكذب التَّوقُّع، ويكشف زيف الرهانات الخاسرة.
لقد اجتاحت العالم العربي انقلابات عسكرية دامية، تستعين على قضاء جرائمها بالكتمان. ولو صاحبها ما صاحب (الربيع العربي) من وسائل الاتصال، لأشابت الوقوعات رؤوس الولدان.
ولتعميق المآسي فقد واكب هذه الانقلابات التي سمّيت ظلماً وعدوناً بالثورات، إعلامٌ كذوب، يُقَلِّب للسذّج الأمور، ويُزيِّف الحقائق، ويُزَوِّر الأحداث، ويُصَنِّم المدنس: -

أمتـي كـم صَـنمٍ مَجَّدتـه
لـم يكـن يَحْمـلُ طُهْـر الصَّـنم

لقد جاءت عصماء (أبي ريشه) (أمتي) مُجَسِّدةً الجرح الغائر في كرامة الأُمّة العربية، ولكن أحداً لم يلتفت إلى تلك البكائية المقعرة لرؤية المأساة العربية التي أحكم صنعها (بلفور) بوعده المشؤوم، ونفّذت غوائلها اتفاقية (سايكس بيكو) بتقسيماتها الظالمة. عداوة (الفرس) وتربّص (الغرب) وتبادل المكائد بين هذين الطرفين من الحقائق الغائبة.
وليس بمستغرب أن يتلقّى الجسد العربي المنهك الطعنة الغادرة تلو الطعنة، ولكن المستغرب أن ينبري من أبناء الأُمّة من يتولّى كبر هذا التآمر بالقول الصريح، أو الفعل القبيح، ومن أراد أن يعكّر صفو حياته، فما عليه إلاّ أن ينقب في وسائل الاتصال والإعلام عن المتداول من التناجي الآثم، ليقطع بأنّ الأخسرين أعمالاً من أبناء الأُمّة العربية، يخربون بيوت أمتهم بأيديهم وألسنتهم، ويركنون طوعاً أو كرهاً، رهبة أو رغبة، إلى الذين يسوقونهم كالقطيع إلى معاطن الذل، وخسف المهانة.

أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً .. ؟! (٢) (١)

لقد قلت، ولما أزل مصراً على القول: إن الكلمة الزائفة مِعْولُ هدمٍ لوحدة الأمة الفكرية، ومهادُ فتن تُصَدِّع هذه الوحدة، وكل من أصر واستكبر على رأيه، وفارق الجماعة باجتهاده،

واستهوته زيوف الحضارة الغربية، واستمالته الأحزاب بمعسول الوعود البراقة، فهو شر مستطير على أمته، وعلى وحدتها الفكرية والإقليمية.

لقد كنا أمة واحدة، نحترم السلطة الشرعية: دينية كانت، أو سياسية، أو مجتمعية، ونحيل خلافاتنا بعد مقاربتها للنضوج لأهل الذكر، ونبدي رؤيتنا، ولا نفرضها، وندفع بآرائنا، ولا نصر عليها، ونجادل ولا نلزم، ونقول ولا نصر على ما نرى، ولا نحتكر الحقيقة، ولا تستميلنا البروق الخُلَّب. ولما كشر الأعداء عن أنيابهم، واجتاحت عالمنا اللعب السياسية القائمة على مبدأ (فرق تسد) وعلى سياسة (جَوِّعْ كلبك يتبعك) تهافت الخليون على بؤر التوتر ومناطق الفتن بالقول والفعل، وأصبحنا بسذاجتنا واندفاعنا طريدة للأقوياء، وأصبح عالمنا يتجرع مرارات الضربات التأديبية، والدسائس القذرة، وإحياء النعرات، والطائفيات، والإقليميات؛ مما أدى إلى تلاحق الترديات في أشيائنا وأخلاقنا، وفي كل يوم نخسر موقعاً، ونفقد لحمة، ونزداد من الفتن كيل بعير.

- فما الذي يراد بنا؟
- وما الذي يراد لنا؟
- أشرٌّ أم رَشَد؟

وحين تتعرى الحقائق، وتتكشف الزيوف، ويُحَصْحَص الحق .. ماذا يجب أن نفعل؟

- هل نمضي في غَيّنا، ونُمَكِّن أعداءنا من رقابنا؟
- أم نتقي الفتن، ونعتزل القوم، ونفكر في سبل النجاة؟

من الحكم المتداولة مع وقف التنفيذ: (العاقل من وُعظ بغيره)، ونحن نرى الفواجع والبواقع في أنفسنا، ولا نكترث، ولا نتساءل، ولا نراجع فِعْلنا الذي أردنا. فإلى متى نظل رهينة المجازفات والمغامرات؟

لقد ثبت خَطَلُ فِعْلنا؛ فهل نحترف لأسلوب جديد، يُبقي على رمق الحياة، ويُوقف الهرولة إلى الهاوية؟

الأمة العربية مستهدفة في عقيدتها التي هي عصمة أمرها، وفي دنياها التي فيها معاشها، وفي أمنها الذي فيه سعادتها، وفي أخلاقها التي فيها شرفها. ونجاتها لن تكون على يد أحد سواها، فمن عَوَّل على الشرق أو الغرب فقد أضاع الجهد والوقت، وفوت على نفسه فرص التفكير والتدبير والتقدير. إن مقومات النجاح كامنة في الأرض العربية، وفي أعماق الإنسان العربي، ولم يبقَ إلا أن يكتشف الإنسان العربي كوامنه، وأن يقول للآخر بملء فمه: -

فـامْنَعْ نَوالـك عـن أَخِيـك مُكَرَّمـاً

فاللَّيـثُ لـيس يَسـيغُ إلَّا مـا افْتَـرس

لقد خَدَعْنا أنفسنا قبل أن يخدعنا الماكرون، حين تصورنا أن الحل بيد الشرطي الغربي، وأن حلَّ العُقد بيد المؤسسات العالمية.

---

(١) تاريخ المقال: ١٥/ ١٠/ ٢٠١٣

والحقيقة أن الشر المستطير من البيتين: (الأبيض) و(الكرملين)، وما تم إنشاؤه من مؤسسات تقول ولا تفعل، وحين تتحامل على نفسها، وتقول بعض الحق لا يطاع لها أمر.

لقد فوجئ العالم بامتناع (المملكة العربية السعودية) على لسان وزير خارجيتها عن إلقاء كلمتها في الأمم المتحدة، احتجاجاً مُهَذَّباً على المماطلات والتحيزات التي بدت من تلك المؤسسات التي تشبه بفعلها وأهدافها [مسجد الضرار] . وتلك خطوة أولى في طريق التخلص من التبعية.

فهل يعي أصحاب القرار العربي ما بلغته أمتهم من الذل والهوان، ويتخذون مبادرات مماثلة، تعيد للأمة شيئاً من مكانتها وكرامتها، ونزراً يسيراً من حقوقها المهدرة أو المسلوبة؟

لقد لعب الشرطي الغربي لعبه الفاشلة في [العراق] و[الشام] ومن قبل في [الصومال] و[باكستان] و[أفغانستان] وأحل الأمة العربية بمبادراته دار البوار، ولم يبق إلا أن تتولى الأمة العربية جميع أمورها: -

ما حَكَّ جِلدك مِثْلُ ظُفِرك

فَتَولَّى أَنْتَ جَمِيع أمْرِك

وقبل أن تتولى الأمة جميع أمورها، أو بعض أمورها، يجب أن تعرف النخب العربية المتصدرة لإعلامها أنها بأمسّ الحاجة إلى تقويم مواقفها، وتصحيح مسارها. فالتنازع، والتنابز، وتبادل الاتهامات، وممارسة الإقصاء، والتصنيف، والاستعداء والاستعلاء، والاستبداد بالرأي، والإصرار على القول، وخيارات التقليد والاستلاب لم تعد مجدية، ولن تشكل أرضية مناسبة لبدء الاستقلال بالرأي، وتولي أمور الذات، والخلوص من ربقة التبعية.

إننا أمة نمتلك حضارة ولغة وعقيدة وتاريخاً، والتفريط بشيء من ذلك تكريس للتبعية. فلنستبد (والعاجز من لا يستبد).

والاستبداد لا يعني الصدام أو الصراع أو الرفض. الاستبداد أن نفترع شواخص الآخر، لنأخذ أحسن ما عنده، وأن نوفر للآخر حقه وكرامته، ليأخذ، ويعطي على قدم المساواة، وأن نَكفَّ عن سَبِّ مقدسه ومبادئه وأنظمته، ليكف عن سب مقدسنا عَدْواً بغير علم.

الاستبداد أن نتفاعل مع الآخر، وأن نصالحه ونتعايش معه، وأن نوفر له أمنه، ليحقق الإنسان رسالته في الحياة: - عبادة لله، وعمارة للكون، وهداية للبشرية.

لِكَيْلا يَقْتَصِرَ حُبُّ الوَطَن على الشِّعارات .. ! [١]

فَضَّلْت هذا العام ألاَّ أشارك الناس فرحتهم بالكتابة عن [اليوم الوطني]، إذ قلت ما بي في مناسبات سلفت. واكتفيت من ثم بالمراقبة والمشاركة الوجدانية.

وجِيلي الذي أدرك المؤسِّس في مرحلة الطفولة المبكرة، وخالط طائفة من رجاله الأشدّاء، وسمع شطراً من أحاديثهم العفوية عن المؤسِّس، وعن منجزاته، وعن مدى تعطُّشهم إلى أيامهم الخوالي التي قضوها على ظهور الجمال، وفوق صهوات الخيل.

ولما لم نكن على وَعْيٍ تام بتلك الأمجاد، فقد تلاشت حكاياتها العذاب في تلافيف الذاكرات الضعيفة.

لم يكن إذْ ذاك - وفي إطار [البروتوكولات] الرسمية -[يوم وطني] ولكننا كنا نسمع عن [عيد الجلوس] الذي تحتفي به الصحافة في الحجاز من قبل، وفي نطاق ضيّق.

وحين أصبح من مقتضيات السياسة أن يكون لكلِّ دولة مناسبةٌ سعيدةٌ، تُمكِّنها من تبادل التهاني مع الدول الشقيقة والصديقة، فقد اختار الملك [فيصل] رحمه الله عام ١٣٥١هـ يوماً وطنياً، وهو عام أمِنَ الناسُ فيه من خوف، وطَعموا من جوع، وأغيثوا بعد قحط، فكان بحق يوماً نسعد بذكراه، ونحمد الله على جمعه لكلمة الأُمّة، وتوحيد أقاليمها. إذْ كان الملك عبد العزيز - رحمه الله - من قبل يُسمَّى [ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها]، وكانت المناطق تتفاوت في مستوياتها التعليمية، والاجتماعية، وفي أزيائها، ولهجاتها، وسائر شؤونها.

ولما كانت معركة البناء موازية لمعركة التكوين، فقد أدار الملك عبد العزيز المعركتين بحكمة ورويّة، وبُعْد نظر.

كانت الحجاز على جانب من المدنية والتعليم وأبجديات المؤسسات المدنية، فيما ظلّت بعض المناطق دون ذلك، وكانت البادية تعيش حالة من التَّموُّج السكاني، واعتمادها المعيشي على الرَّعْي، وتتبُّع مساقط المطر، والتنازع على الموارد والمراعي، وهذا التَّموُّج يحول دون الاستقرار، ويحرم أبناء البادية من التعليم، ومن سائر الخدمات. وتَحْويل ذِهْنية البادية من سمة الترحُّل إلى الاستقرار، ومن الوبر إلى المدر وتوطينها أشَدُّ صعوبةً من تحويل الجبال الرواسي. ومن ثم بادر الملك عبد العزيز ببناء الهجر، وبعث المعلمين، ونصب الأمراء، وكلَّف بالاحتساب.

أما في المدن [النجدية] و [الجنوبية] فقد بادر بفتح المدارس، وندب إليها من أبناء الحجاز من يضع الأُسس النظامية للتعليم، واستعان بخبرة المصريين وعلمائهم، وانقرضت ظاهرة الكتاتيب. وكان جيلي ممن أدرك الأنواع الثلاثة من التعليم: الكتاتيب، والتعليم النظامي، وحلقات الدروس في المساجد.

ويقيني أنّ جيل النفط لا يعي تلك المراحل، ولا يدرك شيئاً من تفاصيلها، ولم يُتح للجيل المُخَضْرم التواصل مع هذا الجيل، لنقل الصورة المشرقة لجيل الآباء والأجداد، كي تتجلّى قيمة [اليوم الوطني] .

لقد اكتفى الإعلام بالثناء والتمجيد، ومع أنه حقٌّ، إلاّ أنه حقٌّ مفضول، فلو نُقِلَتْ مراحل التَّشَكُّل للمجتمع المدني بكلِّ تفاصيلها، لأمكن لهذا الجبل أن يدرك المخاضات والبدايات المتواضعة، ولو درست شخصيات متميّزة أسهمت في تنفيذ السياسة المباركة للملك عبد العزيز، لكانت للوطن صورة أكثر دقّة ووضوحاً وجاذبية.

---

(١) تاريخ المقال: ١/ ١٠/ ٢٠١٣

فمن يعرف على سبيل المثال دور المعلمين، أمثال الشيخ [القرعاوي] في الجنوب، والشيخ [صالح العُمري] في القصيم، وآخرين لا يقلّون عنهم مكانة، برزوا في مجالات الإدارة والتجارة والأمن. إنّ هناك أبطالاً تميّزوا في معركة التكوين، وأبطالاً تميّزوا في معركة البناء، وكان يجب أن يكون للفئتين مكانة في هذه المناسبة. لقد كانت محاولة الاحتفاء برجالات الملك عبد العزيز بداية موفّقة، ولكنها لم تواكب [اليوم الوطني]، وهي من مكوّنات أهميته.

ما كنت أود تناوله في هذه المناسبة المواءمة بين مظاهر الفرحة والأداء الإيجابي، فهل تحوّلت هذه المظاهر الصاخبة إلى تثقيف مُنَظَّم؟

وهل تُرْجِمت تلك الفرحة إلى عمل يخدم الوطن؟

هذا ما أرجوه، وأتمناه. غير أنّ التفاؤل الساذج يكرّس السلبيات، بحيث تألفها الأجيال، ويظنون أنّ المظهرية وحدها كافية للتعبير عن مشاعر الفرحة.

لقد رأيت كغيري أمواجاً من الشباب، وأكداساً من السيارات، وأعلاماً تخفق، وحناجر تهتف، ورجال أمن وجلين، وأفراد مرور حذرين، يحاولون السيطرة على هذا التدفُّق المخيف. وكل هذه الجموع لم يدفعها أحد إلى الشوارع والميادين، ولم يكن لها تنظيم من جامعات أو مدارس، بل هو تدفُّق عفوي حر، أملاه الحب للوطن. وعدت أسأل: ما مفهوم الوطنية عند هذا الجيل العاطفي؟.

أهو حُبٌّ جِبِلّيٍ للأرض التي وُلدوا على أديمها، ودرجوا فوق غَبْرائها، أم هو شيء آخر؟.

إنّ الحب الجِبِلّي غير كافٍ، فكل الناس، بل الحيوانات تحب أرضها وتأوي إليها:-

بلادي وإن جارت عَليَّ عزيزة

وأهلي وإن ضنوا عليَّ كرام

ولكي نتجاوز الحب السّلبي، لا بُدَّ مِنْ تحرير مصطلح الوطنية. فالشباب يحبون أرضهم وأهلهم وقيادتهم، وهذه ربما تكون من المسلّمات، ومن ثم نرى الأمواج المتدفقة تحمل الرايات والصور وتتشح باللون الأخضر بوصفه لون العلم، ولكنه حب غير موجَّه، حبٌّ عاطفيٌّ جيّاش، يشتعل في المناسبة، ثم يخبو لتعود السّلبيات والاتكاليات ومناقضة المقتضيات.

الوطنية: [دينٌ وجماعةٌ وأرضٌ، وفعلٌ] تلكم هي المواطنة الصحيحة. فلا وطن بدون عقيدة، ولا عقيدة بدون قيادة حكيمة مهيبة، وهي الجماعة التي يد الله معها، ومن شذّ عنها شذّ في أتون الفتن، وهي الأرض التي يُمارس فوقها الدين ووحدة الصف والهدف والكلمة، وهي فِعْلٌ تتحقق معه عمارة الكون. فالإنسان المسلم مطالب بثلاث مهمات: عِمارة الكون، وعبادة الخالق، وهداية البشرية.

ولما كانت [المملكة العربية السعودية] متوفّرة على تلك المكوّنات منذ بداية [اليوم الوطني]، كان من أوجب الواجبات أن يعي أبناؤها ذلك، وأن يسعوا من أجله، وأن يحافظوا على كافة المكتسبات.

السؤال الأهم: - هذا الشباب البريء الفطري المتدفّق كالأمواج في الشوارع والساحات: هل يعي هذه المكوّنات للوطنية؟

وهل يعمل للمحافظة عليها؟.

إننا نجد من بيننا من لم يع ذلك، ونجد من بيننا من يشقّ عصى الطاعة تحت أيّ مسمّى ما أنزل الله به من سلطان، ويقع في نواقض الايمان من حيث لا يحتسب، ويفارق

الجماعة، ظناً منه أنّ معالجة التقصير لا تتم إلاّ بالاستبداد بالرأي، وتبنِّي الرؤية الذاتية، وإن فارقت رأي الجماعة، و فَتَّتْ في عضد اللُّحمة الوطنية.

إنّ التنقيب في الظواهر الغريبة والتصرّفات الأَغْرب، والاعتماد في كافة الحرف والصناعات وسائر المهمات على الوافد الأجنبي التي ما كان جيلي يعرف شيئاً منها. والدخول على المواقع، وملاحقة التغريدات، وتقصّي أخبار المتفلّتين على السلطة والمتقاطرين على بؤر التوتر، والإساءة إلى سلفية الأمة السِّلْمِيَّة. كل ذلك يوحي بأنّ حبّ الوطن كائن مع وقف التنفيذ عند طائفة من الشباب المغرّر به. ومتى ألفنا هذه الانشقاقات، وعايشنا هذه التصدُّعات دون مواجهة حوارية لا صدامية، فإننا سنفقد هذه المكتسبات التي يغبطنا عليها الأصدقاء، ويحسدنا عليها الأعداء.

فمتى نتجاوز الهتافات إلى العمل؟.

إنها مطالب أولية لا تحتمل التسويف.

تَقَلُّبُ الحيوات، والأناسِي: ماذا أعددنا له..؟ (١) [(١)]

عاش جيلي حَيَواتٍ مُتَباينة، تباين الأضداد، لو سُقْتُ أطرافاً من بداياتها لأحفادي وجيلهم، لكنت كمن يُحَدِّث الناس بما لا يعقلون. والتقلبات والمتغيرات: حسية، وفكرية. والعامة قد لا تعي إلا الحسِّي منها. أما المعنوي فينساب كالخدر في مفاصل الأمة، بحيث لا تعي أثره إلا بعد ما يكون جزءًا من تكوينها.

لم أكن من جيل النفط المترف، وإن عِشْتُه بكل أفراحه، وأتراحه، وترفه، واسترخائه، ومفاجآته.

كما لم أكن من جيل القحط والأمية وشظف العيش. ومن ثم فأنا من الجيل المخضرم، الذي أخذ من كل شيءٍ بطرف، وحُقَّ له أن يكون شاهد العصر.

المفاجآتُ الغرائبية تُحْدِثُ بعد كل تَغْيِيرٍ تغييراً مناقضاً، لا يمُتُّ إلى سلفه بصلة، ولا يَمُدَّ بسبب إلى خَلَفِه. هذه التقلبات المتسارعة كما الصخور التي حَطَّها السيلُ من علي، تحتاج إلى نظراتٍ ثاقبة، وتصرفات متأنية، وتفكير دقيق،، تُثَبِّتُ الأقدام، وتَرْبِط على الأفئدة، وتقي الأمة مصارع المغامرات الطائشة.

فجيلُ النفط لم يُدرك بدايات المدَنِيّه، بخطواتها الوئِيدة، وممانعاتها العنيدة، وتحفظاتها المستريبة من كل جديد، والتلويح بِسَدِّ الذرائع، ودرء المفاسد، واستخدام هاتين القاعدتين الرائعتين بإسراف، كاد يفقدهما المقاصد الإسلامية.

لقد عاش جيلي البدايات الساذجة، ووعينا معًا المخاضات المؤلمة: الطبيعي منها، والمبتسر، وغالبْنا عيش الكفاف، وشظف الحياة، واجتهدنا ما وسعنا الاجتهاد، لكسر الطوق التحفظي، الذي أحكم صُنعه أناسٌ طَيِّبون، طلَّقوا الدنيا، وخافوا المُسْتَجِد. فكل الذين شارفوا الثمانين، - وإنا بِهِم من اللاَّحِقين - يعون تفاصيل الحياة بكل قَسْوَتها، وشح عيشها، وطمأنينة أهلها، ووداعَةِ شأنها كله. ويدركون رفع القواعد السياسية، والاقتصادية، والتعليمية، وسائر متطلبات المجتمع المدني، بجهود ذاتية، وإمكانيات شحيحة. لأنهم عاصروا سِتَّة ملوك، يستبقون الخيرات، وتختلف فيما بينهم الأولويات.

فالملك [عبد العزيز] - رحمه الله - شُغِل بمعارك التوحيد، واهتم بجَمْع الكلمة والصف والهدف، فكان بحق رجل العصر بكل ما تعنيه تلك الكلمة. والملك [سعود] - رحمه الله - كان رائد التأسيس للمجتمع المدني بكل تواضعه وبدائيته. فيما جاء الملك [فيصل] الشَّاهِد والشَّهِيد، ليواجه بحنكته تنازع الشرق والغرب على الطريدة العربية.

ولما اندلقت اقتاب [النفط] تلقاها الملوك الثلاثة: - [خالد] و[فهد] - رحمهما الله - و[عبد الله] سدد الله على الدرب خطاه باليمين، فكان الرخاء والإعمار، وللحاق بركب الحضارة المُخِبِّ.

أبنائي، وبناتي، وأحفادي، وأسباطي لا يعرفون الكتاتيب، ولم يمارسوا الجثو على الغبراء، والتحاف السماء، ولم يسكنوا بيوت الطين، ولم يستنيروا بالسُّرج، ولم يَكْتفوا بالأسودين: التمر والماء، ولم يركبوا الحُمُر الأهلية، ولم يناموا بعد العشيات، ويستيقظوا قبل الفجر، ولم يمتحوا المياه الآسِنَةِ من الآبار، ويجلبوها على الرؤوس، والأكتاف، وظهور الحمير، ولم يَمْشُوا على الرمضاء حفاة.

هذه الحياة التي أغْرَقَها طوفان النفط، خَلَفَت من بعدها حياةٌ مترفة مُرَفَّهة مَصْنوعة، أضاعت الجِدَّ. وأنتجت جيلاً، تتنازعه رغبات الجد والترف، وسواده الأعظم تلبَّس بعادات، لا تَمُتُّ بصلة إلى جيل ما قبل النفط. جيلاً عايش أحْدَث وسائل والنقل، وأدق

---

(١) تاريخ المقال: ١٧/ ٩/ ٢٠١٣

أجهزة التواصل، وأبرع التِّقانة المعلوماتية، وسائر وسائل التكييف والتصريف، التي كادت تسلب الإنسان إنسانيته، لتحوّله إلى جُثَّةٍ آلية، يُحَرَّك، ولا يتحرك. عَطّلَتْ عضلاته، وأرهقت فكره، وأحلَّت الآلة محل مهاراته، ولما يزل في صراع مستحر مع ما سلف من أجيال.

ولقد تَتَمَخَّضُ الحياةُ إِنْ دام ترفُها، واسترخاؤها عن جيل ثالث، ليس في العير، ولا في النفير. وفي هذه الأجيال الثلاثة يكمن تاريخٌ أغربُ من الخيال، لو هيئ له من يُجَسِّد تفاصيله، ويَرْوي أحداثه، ويُتابع تحوُّلاته، لكان عبرة للمعتبرين، وموعظة وذكرى للغارقين في لجج الحياة الدنيا وزينتها، على الرغم من تنوع التعليم، وتعدد مناهجه، وانتشاره، وضَعْفِ مُخَرَّجاته.

هَذِهِ الأَجْيال الثلاثة تتسع لِكُلِّ الاحتمالات، وسائر القراءات، ويَصْدُق من أشاد بها، ومن سخر منها، لأنها جمعت المتناقضات، واستوعبت المتماثلات، وفاق الجادون من أبنائنا شباب الأمة العربية ببراءة الاختراعات، ولله في خلقه شؤون.

نَجْواي تلك نَبْشٌ لما آلت إليه أحوال الناس من التنافر والتقارب، والتواصل والتدابر والاختلاف والتنازع، والتوتر والاحتقان، والشك والارتياب، عبر قنوات التواصل والمواصلات، والقطيعة التي قد تصل حَدَّ الجفوة، مع تقارب المسافات بين الأشتات، وتواصلهم بالصوت والصورة. وهو تقارب أذاب الفوارق، وقضى على السمات، وكشف عن المضمرات، ولم يعد بمقدور أَحَدٍ أن يتقي من الآخرين تُقَاة. وزمن تلك سمته، وأحياء تلك أوضاعهم، يحتاجون إلى أدبيات مناسبة، وسلوكيات خاصة، وإلى ضوابط صارمة، تحول دون تَصَوُّحِ الماضي، الذي أصبح كهشيم المحتضر.

هذه الأدبيات، وتلك الضوابط يجب أن تناسب ما هيأ الله لهذه الأمة من تقنيات دقيقة، فَوَّتَتْ على المسَوِّف القدرة على الادعاء، والتضليل، والكذب، وفرضت الشفافية. فالمسْؤول وسط هذه الوسائط مُبْلَى السرائر، بحيث لا تخفى منه خافية.

لقد عاشت الأمم ردحاً من الزمن، لا يأتيهم بالأخبار إلا من يزودون، وقد يَغِبُّ الحدثُ، وتزول آثاره، وهو بعد سِرٌّ من الأسرار. أما اليوم فالدنيا كلها بين يدي الإنسان كالمدينة الذكية، يقلب أشياءها كيف يريد، يَطَّلِعُ على تقلباتها، وأحداثها، ويكشف أسرارها، ويرى الممسكين بأزمة الأمور في حلهم وترحالهم، وجدهم وعبثهم، ولهوهم واحتشامهم. ويستدعي المعلومة الواحدة من مئات المصادر في لحظة واحدة، بالصوت والصورة، ومن ثم لا مجال للادعاء، ولا مكان للمزايدات، هذه الشفافية صعَّدت الخلافات وعمقت النفرة والارتياب، وتغير الزمن في أمدائه ومضمراتِهِ.

هذا الزمن الغريب بكل ما يحمله من إمكانيات، لم يزد الإنسان إلا وحشة، ورهبة، وقطيعة، حتى لا يعرف الجار جاره، ولا القريب قريبه! ولم يزد المجتمعات إلا تفلتاً على الثوابت، والمسلمات!.

تَقَلُّبُ الحَيَوات، والأَناسِيّ: ماذا أعْدَدْنَا له..؟ (٢) [(١)]

والفجيعة حين يلم أحدنا بالمواقع المحتقنة، أو يلاحق التغريدات المُسِفَّة، فيرى أنّ كل خَلِيٍّ أمَّةٌ بحالها، وأنّ الجميع: نخبة ودهماء في حالة من الارتياب والتوتُّر، دونما أي سبب، يستدعي مثل هذه الشحناء.

هذه الإمكانيات المدهشة، التي لم نخترعها بأفكارنا، ولم تُصْنَع بأيدينا، ولا على أعْيُننِا، ولم نحسن استثمارها، وسَّعت قاعدة الفضول، وانداحت معها رَقْعةُ الفوضى، إذ لم يَعُد الإنسان مشغولاً بِخُويْصة نفسه، وما كان مستطيعاً اعتزال الناس، وما يمارسون، ثم هو بعد هذا لا يحسن إدارة الأزمات معهم، هذه الخلطة المستحكمة، والرؤية المقعَّرة، رفعت وتيرة الخوف والقلق، وجعلت الحياة تافهة، لا قيمة لها. فالاطلاع العميق على دقائق الأشياء، يقلل من دَهْشتها، وتكاثرها يقلل من قيمتها، ويُهَوّن من أمرها، ويحول دون لذّة الاكتشاف، والتوفُّر على ما لم يتوفّر عليه الآخرون، والشاعر يقول:

فالليــثُ لــيس يَسِــيغُ إلا مــا افْتــرس

ومن المذمَّة أن يكون المرء قاعداً، يتلقّى طَعامه وكساءه، على شاكلة مهجو (الحطيئة): -

فاقْعُــد فإنــك أنــت الطــاعم الكاســي

و(ابن عَوْفٍ) - رضي الله عنه - قال للأنصاري المؤاخي: بارك الله لك في مالك وأهلك، دلُّوني على السُّوقِ.

والأخطر من كل التقلّبات، أنّ العُرْي الذي ينتاب شؤون الحياة، ويكشف عن المضمرات، والنوايا المُبيتة، والتلاعب بالمَقدَّرات، طال الأفكارَ، والعقائدَ، وكشف عن سخافة العقل الإنساني، الذي يؤمن بالخرافة، ويُقَدِّس المدَّنس، ويعبد الشيطان، والفرْج، والبقر. ويؤذي الذات، اعتقاداً مِنْه بأنّ ذلك من سُبِل التطهير، هذه التعرية قَزَّمَتْ الإنسان، ووضعته بحجمه القَمِيْء.

لقد كانت دراسة (المِلل والنّحل) وقفاً على العلماء المتخصصين، وكان (علم الكلام) مُتَحَفَّظاً عليه، أما اليوم فإنّ الأجهزة الدقيقة تستحضر للمبتدئين التاريخ، والعقائد، وسائر المشكلات والمتشابهات ومُعْضِل المسائل وشواذها وشواردها، وتُموضِع الذات الإلهية وتُغالبُ المغيبات، وتفكِّك كل وجوه الحياة، بكل تفاصيلها، وتتنقّل بالمتابع من عالم إلى آخر في أقل من لحظة، وكأنّ ذلك الجهاز مُنْتسَخٌ من ذلك المخلوق الغريب، الذي أحضر عرش (بلقيس) قبل أن يرتد إلى (سليمان) طرفه.

أفلا يكون ذلك أو بَعْضُه من التحوّلات المذهلة، التي لم نحسب لها بعض ما تسْتحِق؟.

ولولا هذه الإمكانيات المعرفية المذهلة، لما أصاب بلداً - حَفِظَتْ دعوته الإصلاحية جناب التوحيد - دَخَنُ الإلحاد، وتدنيس المقدس، والتفلّت على سلطة: الدين، والسياسة، والمجتمع، ولما وُجِد التطرُّف والإرهاب.

هذه التقلّبات الأغرب من الخيال، جعلت مخلوقاً ضعيفاً مثلي، يعيش حيوات متناقضة، ويختزن ذكريات متباينة، حتَّى لكأني وسط أهلي وعشيرتي الأقربين، غريبُ الوجه، واليدِ، واللسانِ.

---

(١) تاريخ المقال: ٢٤/ ٩/ ٢٠١٣

فكم هي المسافة بين حياة (نجدية) بدائية، تعيش على الفطرة، وعبر الوسائل البدائية، وبجهود ذاتية، تكاد تقترب من الحياة الحجرية، وحياة اليوم التي تمتلك من الوسائل، والإمكانيات ما لا يخطر على قلب بشر.

إنه زمنٌ غريب، زمنٌ لا يستطيع أحد أن ينفرد فيه بشيء، ولا أن يلفت نظر الآخرين بشيء، تحمل في جيبك جهازاً يحتوي على معلومات، لو مَكَثْتَ مائة عامٍ لاستعراضِها، لانقضت الأعوام، وأنت في أبجدياتها، ذلك فضلاً عما حققته الحقول المعرفية المتعدّدة من طفرات مذهلة، في مختلف جوانب الحياة، ثورات يُكذِّب بعضها بعضاً، ويطمس بعضها معالم بعض، ونظل نردّد: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

السؤال المعضل: ماذا أعددنا لتلك الحياة غير السَّوِيَّة؟.

كل طفل غَضِّ الإهاب، ضَعيف الجناب، يحمل معه جهازاً يُعرِّضُه لفقدِ الهوية، ويَصْنعه على عين ليست بعين مجتمعه، فضلاً عن عين أبويه ومعلميه، هذا الجهاز هَمَّشَ البيت والمسجد والمدرسة والمجتمع.

وكل شاب يتوفر على إمكانيات، وآليات دقيقة، بحيث لا تغيب الشمسُ عن مطارح غُدُوِّه، ورواحه، هذه الإمكانيات نحَّت الإعلام والتعليم.

وكل كَهْلٍ يُمسي على حال، ويصبح على نقيضها، على حد يصبح المؤمن كافراً، والكافر مؤمناً، وذلك من أشراط السَّاعة.

وأمام هذه المستجدات أصبحت المؤسسات: الدينية، والتعليمية، والإعلامية (في لُجَّةِ أَمْسِك فلاناً عن فُلِ)، لقد استطاع المصلحون الأوائل تغيير وجه الحياة البدائية بإمكانياتهم المتواضعة، ووسائلهم البدائية، بما لا يمكن تحقيق أيسره في ظل الإمكانيات المذهلة، والذين يعولون على البيت والمسجد والمدرسة في تشكيل الوعي والسلوك أشبه بأهل الكهف وَوَرِقهِمْ.

فالدعوة الإصلاحية لـ(محمد بن عبد الوهاب) وما زامنها، أو خلفها من الدعوات المماثلة كـ (السنوسية) و(الباديسية) و(الأفغانية) لما تزل آثارها بادية للعيان، فيما تظل حركات متلاحقة، ومشاريع فكرية متتابعة، يطمس بعضها معالم بعض، لأنَّها هَشَّةٌ مُجْتَثَّة ما لها من قرار.

فأين (القومية) و (الاشتراكية) و(البعثية) التي ألْهت أمَّتنا عن كل مكرمة؟ حتى قال قائلها:-

آمنت بالبعث رَبًّا لا شريك له

وبالعروبة دِينا ما له ثاني

بل - أين عشرات المشاريع الفكرية؟، من أمثال مشاريع (العَرَوي) و(الجابري) و(الوردي) و(الخضري) و(أركون) و(حنفي) وسائر الحداثويين، والعلمانيين، والليبرليين، والصحويين، وسائر المشاريع الفكرية، التي تشبه الأمواج في اليوم العاصف.

ولما تزل المشاريع و(الأيديولوجيات) وموضعة (العقل) و(اللغة) كالماء المنهمر، وكلها تعصف بالذهن العربي، دون أن تجد الإجابة الشافية.

فهل وجد العقل العربي التائه حلاً لـ(الوجود) و(النص والنوازل) و(التراث والمعاصرة) و(العقل والنقل)؟.

ومن قبل شكَّل تخلُّف الأُمّة الإسلامية أسئلة حائرة، عالجها مفكرون معاصرون، من أمثال (أرْسلان) و(البستاني) و(البوطي) و(العرفي)، ومن دونهم (مالك بن نبي) و(المودودي) و(الندوي).

إنه انفصام حضاري، واكب تقلُّب الحيوات، ولما تزل الإشكالية تنداح، وزمن التيه يتواصل، وليس في المنظور القريب مشاريعُ تولِّدُها الحاجة لا التبعية، لمواجهة هذه التقلّبات، وليس هناك محاولة جادة لوضع (خارطة طريق) تحدد مسار الأُمّة، وتقيها مُضِلات الفتن، فالحيوات تتقلّب والأناسي يتغيّرون، والكُلُّ يخبطون كالعشواء في مفازات يحار فيها القطا.

إنّ إنهاء زمن التيه مسؤولية العلماء، ووسائل (التربية والتعليم)، وأجهزة الإعلام، التي لمَّا تزل تعيش للحظتها.

-فهل أُعِدَّت خُطَّة (استراتيجية) لمواجهة طوفان التقلّبات؟.

أم أنّ الأمور تسير على البركة.

فإن كان ثمة خُطَّةٌ فالنتائج مُتَواضِعة، وإن لم يكن ثمة خُطَّة، فالزمن يستدعيها بدون تسويف.

ألا يُمْكِنُ لأمَّتِنا تَأجيل السَّنواتِ الخَدّاعَات .. !؟ (١)

قَدَرُ جيلنا المأزوم، أنه جاء في زمن العُرْي الذي لاتخفى فيه خافية. وما أنا إلاَّ واحد من هذا الجيل موكَّلٌ بفضاءات الفكر المكفهرَّة ومفازات السياسة المُضِرة، أذرعها جَيْئة وذهابا. وهي فضاءات ومفازات عربية وإسلامية، تفيض بالأزمات الزُّقُوميَّة، ولمَّا تزل تزداد قتامة، وإيغالاً في التفاقم، وسوء الأداء. وكلٌ يَدَّعِي براءته مما يحدث، حتى لقد ضاع دم الفضيلة بين فئات المتنفذين، الذين تراهم رأي العين، وهم يخوضون خبال الفكر ومكر السياسة. ويُصَعِّدون الأزمات فيهما، ثم لا يترددون في التخلي عن المسؤولية، وكأن البراءة المُلْتَحفة (ليلى) المؤَسْطرة، التي يَدَّعِي وَصْلَها كل عاشق، فيما لا تُقِرُّ لهم بذاكا.

وكل مأزوم يجد الزاد والراحلة، للتنقيب في مُعْضِل الفكر، ومُشْكل السياسة، والرحيل إلى آفاقهما المتفاقمة، وهو متكئ على أريكته في عُقر بيته. فأمامه (شاشة) يستعرض من خلالها كل القنوات المسيَّسة و(المؤدلجة)، والمأجورة. وفي حِجْره (لوحٌ سحري)، يستحضر له ما شاء من المعلومات والمشاهد. وهي في النهاية وجبات سريعة تَضْوى بها الأجْساد.

وإذا كنا نَسْتَغْرب ما أوتي (سليمان) عليه السلام من ملك لا ينبغي لأحد من بعده. فإن من لم يعش ما نحن فيه من تقنية دقيقة، تشبه جِسْم المتنبي الذي يصفه بقوله: - (لولا محادثتي إياك لم ترني) يَعيشُ الاستغراب نفسه، والدهشة ذاتها. ولقد تكون أمتنا فيما هي عليه، تعيش في قَعْر (السَّنَواتِ الخَدَّاعات).

ففي مجال السياسة، لاتَسَلْ عنا، ولا كيف شقانا، وما راءٍ كمن سمعا.

وفي مجال الفكر يُمِضّك ما ترى، ويَسُوؤك ما تسمع من تجاوزات لا مبرر لها، ومن تقحمات جريئة من أنصاف المتعلِّمين. والزَبَّدُ الرابي في مشاهد الفكر إن هو إلا اجترارٌ لهشيم التُّراث، وتَسْخينٌ مُمِلٌّ لطبيخ مُغِبٍّ، كما قال (مارون عبود) عَمَّا يجتره (طه حسين) من آراء شاذة للمستشرقين.

فالفلتات المثيرة للرأي العام استدعاء غَبِي لمقولات سلفت، وعَفَتْ معالمها. أتى بها الفارغون الخاملون، ليملؤوا بها أوعيتهم الخاوية، ويطردوا بها غربتهم الخاملة.

والرأي العام من حولهم مُحْتقن متوتر، ذاهل عما يألف ويحب، واضع ثقله في سبيل الخلوص من مآزقه، وقد زويت له الأرض، ليرى أدق ما فِيْها. وأنَّى له الخلوص، ووسائل الاتصال، وثورة المعلومات ترصُد الأحداث لحظة بلحظة. ومثل هذه التَّململات البركانية مُرْبِكة للمسيرة السَّوِيَّة، ومعطلة للحركة الجادة، وحائلة دون مواصلة الأداء السليم. وأيُّ إخلال في الأمن الفكري مَدْعَاة لضياع الجهد والمال والوقت، وإرباك لخطط التنمية وخرائط الطريق.

واضطرابُ الجبهاتِ الداخلية، يشل الحركات القاصدة، ويستنزف الطاقات الموجهة، ويعيق الحركة الهادفة. وما أضاع الشعوب العربية إلا عُنْفُ الوُصولية، والأصولية، والحزبية، والطائفية، والعُنْف المضاد، الناشِئُ من فوضى التفكير، وسفه التعبير، وخطل السياسة. وما من خلل في الأمن إلا هو ناتج اضطرابات فكرية، جناها البراقشيون على أهلهم.

ولنضرب مَثَلاً آخر بالمتذيلين لشذاذ المفكرين، الذين يَنْدِلُون شواذ فكرهم نَدْل الثعالب، مُدَّعِين أن الأخذ بها سبيل النجاة.

---

(١) تاريخ المقال: ١٠/ ٩/ ٢٠١٣

ومثلٌ ثالث نضربهُ، متمثلاً بطلعات المتفيهقين الذين يودون أن يكون لأحدهم في بؤر الضوء ولو مفحص قطاة.

ودَعْك من سَفهِ المسْتغربين، ونـزق المتعلمنين، وتهافت المتَعَوْلمين. فكُل هؤلاء وأولئك يخادعون الرأي العام بما يبدونه من آراء مُسْتَلَّة من كتب الاختلاف، ورؤى مُسْتلبةٍ من أنهر الصحف، وما يشيعه المتفيهقون من فتاوى شاذة، وما يختارونه من مسائل غريبة، وما يؤيِّدونه من مواقف تخالف رأي الجماعة، سَطْوٌ في رابعة النهار، وقضايا مضطربة، استلوها من مثواها الأخير في كتب التراث، وأعادوا تشكيلها، وتلوينها بلغة العصر. حتى ظن المبتدئون أنها من عند أنفسهم، وما هي إلا اختلاسات متذاكية. ولو أقيم على هذا الصنف حد السرقة لقُطِّعت أيديهم وأرجلهم من خلاف، ولنفوا من مشاهد الفكر والعلم، لأنهم لصوص محترفون، ينقلون المثير من خلافات أساطين العلماء المحصورة فيما بينهم إلى العامة، فيكونون كمن يُحدِّث الناس بما لا يعقلون. والخليفة الراشد «علي بن أبي طالب» قال لمن يخوض في المتشابه: (حَدِّثوا الناس بما يعقلون، أتريدون أن يُكفر بالله ورسوله) أو كما قال - رضي الله عنه -. وكل هذا من دوافع (الشهوة الخفية) كما يسميها (شيخ الإسلام)، وهي حب الظهور، وتكثير المريدين.

وكيف يُسَوِّغ الخِلِيُّون لأنْفُسِهم مفارقَةَ الجماعة، ويَدُ الله معها. والأسوأ من هذا أن يبلغ التشبع بالبعض من أولئك حد الادعاء بأنه من أصحاب (المفردات) أو (المختارات). وقد يبلغ به الهوسُ حد التجنِّي، فَيُؤَلِّف كتاباً عما انفرد به من المسائل. ولو نودي بها لِتَعود إلى أصحابها، لما بقي في كتابه مسألة واحدة.

وإذا كنا نتابع ظاهرة (السرقات الشعرية)، ونستاء من ذلك، مع أن مثل هذه السرقات لا تتجاوز البيت أو الشطر أو المعنى الخفي، فإن سرقات المشاهد العلمية والفكرية بالجملة.

وكم من خطباء شدوا الانتباه، وأثاروا الدَّهْشة، وليس لهم مما يقولون إلا جهورية الصوت، وحسن العرض، ودقة المخادعة. وما أكثر المسَيِّسين للمنابر و(المؤدلجين) لها الذين يلملمون آراءهم ومواقفهم من زبالة الإعلام. وكم من مؤلفين يأخذون من هنا، ويضعون هنا، ثم لا يتردد أحدهم في القول: - مُؤلِّفه أنا.

وما نحن ببعيدين عن ظاهرة النِّخاسَة المعرفية، والمتجارة بالشهادات الوهمية، وبيعها في وضح النهار. وهذا مدعاة للاشمئزاز، والحكم على مجتمعات المتنخوبين بالفساد. وحين يدب الغش إلى مثل هذه المحافل الفكرية والعلمية، فقل على الأمة السلام.

-وهل بعد فساد هذه الشريحة من فساد؟

وكيف يُلام مَنْ دونهم باللَّمم!. وهم يقترفون الكبائر. لقد مُلئت مشاهدنا بمتعالمين يفاجئون الناس بآراء، وأحكام، وأقوال تبلبل الأفكار، وتوغر الصدور. فرغ منها العلماء، وتجاوزها الزمن، وثبت لكل ذي عينين ولسان وشفتين أنها لم تعد مجدية لمنشئيها، فضلاً عن مستلبيها. لقد سطوا عليها، ونقبوا عنها في بطون كتب التراث، ليبنوا لأنفسهم أمجاداً زائفة.

ومما يزيد الحالة سوءاً أن يتصدى لهم من لا يُحْسِنُ إدارة الأزمات. والاهتياجُ الأعزل، والحماسُ غير المحكوم بلغة التفاوض، يُضيف إلى المشاهد أعباءً إلى أعبائها، ويُحمِّل الأمة مشكلات مضاعفة. وكل هذا يغري المتربصين بنا الدوائر باستغلال الثغرات، وتهييج بعضنا على بعض، ونزع الثقة ممن يُتَوَقَّع منهم معالجة الجنح بالدراية والرواية والدفع بالتي هي أحسن.

هذه الغنائم الباردة التي ظفر بها الفارغون، أغرت المترددين، وحملتهم على ممارسة الخطيئة، للظَّفَرِ بِقِسْطٍ من الأضواء الزائفة عبر الكتب، والصحف، والقنوات، والمواقع.

وأخطر شيءٍ على مشاهد العلم والفكر، فَقْد العلوم المؤَصَّلَة والمواقف الشريفة. ومن ذا الذي ينكر الضحالة المعرفية، والتَّلَوُّن الحرباوي. ومتى تذبذب المتنازعون بين الولاءات والمرجعيات، انفلت العقد، وعَمَّت الفوضى، وشاع الوهن، ولاذ الورعون بالصمت، وخلت الساحة للرجال الجُوْف. ولما كانت المرجعية قِسْمة بين (النص) و(الذات)، فإن طائفة من المتنفذين من المنتسبين لأهل السنة والجماعة، المغرمين بالقنوات والتغريدات، لا يحسنون الرجوع إلى النص القطعي، ولا يُقَدِّرون العلماء الأفذاذ قدرهم. ومن ثم ضعفت سلطة النص، وذهبت هيبة العلماء. فيما نجد مَنْ هم دون أهل السنة والجماعة مَنْ يُقَدِّسون (ولاية الفقيه) و(بيعة المرشد).

أفلا يَكون أولئك ببعض ما ذكر جيلاً خائباً، يستحث ما حَذَّر منه (النذير العُرْيان).

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، -رضي الله عنه- أنه قال: قال: رسُول الله - ﷺ- :

«**سيأتي على الناس سَنَواتٌ خَدَّاعات، يُصَدَّقُ فيها الكاذب، ويُكذَّبُ فيها الصَّادقُ، ويُؤتَمنُ فيها الخائِنُ، ويُخَوَّنُ فيها الأمينُ، ويَنْطق فيها الرُّوَيْبضَةُ**»، قيل: وما الرُّوَيْبِضَةُ؟ قال: «**الرَّجلُ التَّافه**» -وفي رواية -: «**السَّفيهُ يتكلم في أمر العامة**». (حديث حسن رواه الترمذي).

فهل نعيد لمؤسساتنا الدينية هيبتها، وفاعليتها، ولِنَصِّنَا القطعي الدلالة والثبوت سلطانه، ولعلمائنا مكانتهم التي تليق بهم، ونحسم الفوضى غير الخلاَّقة بمرجعية مطاعةٍ، ونَصٍّ مُحَكَّمٍ، وحُكْمٍ عَدْل. ومن ثم نُؤَجِّل الوَعْد التحذيري من (السنوات الخدَّاعات).

عتبات القراءة عتبات الفتنة .. !(١)

شكوت إلى كل من لاقيت فتنة القراءة، ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ٤] .

فما من فتنة هي أشد من القتل إلا هي وليدة قراءة غير راشدة.

وإذا كانت القراءة أول ما أُمِرت به الأمة في أول سورة نزلت من السماء، فإن هذا دليل على أهمية القراءة، وخطورتها.

وما من ضال إلا هو مصاب بفتنة القراءة غير السوية. الشيء المزعج والمخيف أن يقرأك الآخرون حين لا يصل إليهم خطابك وفق مرادك. وحينئذ لا يتردَّدون في تصنيفك، وتصفية سمعتك، وتجهيز الرد الأعنف على ضوء مُدْركاتهم. والحق أنهم فهموا شيئا، وغابت عنهم أشياء.

والشاعر المُشْكِلة [أبو الطيب المتنبي] . أدرك القراءات المعوجة لشعرة، وحاول جاهداً ثني المتسرعين. ولما لم يفلح، ندب المسْتَشْكلين إلى [الشيخ الأعور ابن جني] بوصفه الأدرى من المتنبي بشعره، بل اعترف المتنبي بأن [ابن جني] يُقَوَّله ما لم يقل. ولكنه تَقْوِيل لصالح النص.

وكم من قارئ قَوَّل مقروءة ما لم يقل، وعَرَّضه للمساءلة، والتكذيب، وغرائبية القراءات تضع الكاتب في مواقف محرجة، قد يمسه منها عذاب اليم. وما أكثر العلماء، والأدباء، والمفكرين، الذين جَنَتْ عليهم القراءات الخاطئة، وعرضتهم للإيذاء والتهميش.

واليوم بعد ما أصبح المقال السياسي والفكري سيد الموقف، وأصبح الكُتَّاب يلاحقون الأحداث، ويرصدون الوقوعات، ويحللون القضايا، كثرت القراءات الغرائبية.

والمتابعون الذين يسارعون في الاتهامات، والتصنيفات يخيفون الكتبة، وقد يُحَملونهم على مزيد من التحفظات، والاحتراسات التي تُقيد حرياتهم. ومع هذا تظل القراءة فتنة، وبخاصة من أولئك المتحزِّبين الذين يضُيِّقون على أنفسهم، وعلى قبيلهم، ولا يجدون حرجاً في لَيِّ أعناق النصوص، والذهاب بها كل مذهب.

وهذا الصنف من القراء، لا يبالون بأي واد هلك خصومهم، وما من مُتَعِّصبٍ لمذهب إلا هو سَبَّاق إلي الاتهام، والتجريح، والشتم، والشماتة. ذلك أن تعصبه يلقي في روعه أن كلَّ من لا يدين بمذهبه متمردٌ على الحق، خارج من الملة، حلال الدم والعرض. وقد توحي له نفسه الأمارة بالسوء، أنه بهذا الافتراء يتقرب إلى الله، وأن تَحْطيم مجاديف الآخر من الأعمال الصالحة.

ولو امتدت نَظراتنا إلى التراث، لوجدنا صراع المذاهب، والملل، والنحل، يفيض بمثل تلك الجنايات. ولو أن قراءة المتمذهبين اتسمت بالعدل والإنصاف والحيادية، لكان بالإمكان التقريب بين وجهات النظر. فما من مذهب إلا وله قسط من الصوب، وعلية كِفْل من الأخطاء. وإذ يكون بالإمكان التعايش، والانشغال في القواسم المشتركة، فإن العدول عن ذلك جنوح إلى المفصول. وما من مُؤَلَّفٍ، أو مقال اتخذ صاحبه مجال النقد المحكوم بالمذهبية المتعصبة، إلا وتفوحُ منه رائحةُ الكراهية، وحب الانتصار. ولو أن كل الأطراف استهدفوا البحث عن الحق، لخفتت حِدَّةُ النقد، وقَّلت رغبة التجريح والإدانة.

المستفيض في كافَّة الحُقُبِ أن المتعصبين لمذاهبهم، وأحزابهم محكومون بمقاصد تلك المذاهب والأحزاب، ومنطلقاتهم مبيتة النوايا. وفي هذه الأجواء المشحونة بالكراهية

---

(١) تاريخ المقال: ٢٧/ ٨/ ٢٠١٣

والأثرة، لو بان لأحدهم وجه الصواب، لازْوَرَّ عنه، ولاذ بالتأويل، وأستنجد بالتحريف، واستعان بالانتحال. والمتابع لهذا الصنف من الكتاب، يقف على مقترفات لا تحتمل.

قبل أيام أَهْدَى لي أحد المحبين كتاباً يرد صاحبه على أحد المفكرين الحزبيين الحركيين، وينقض آراءه عقدة عقده. ومع أن هَواي مع هذا الناقد، ومع أن الناقد يمتلك ناصية القول المعرفي، والتأصيل الفقهي، إلا أن سِمة التحامل واضحة.

فالحركي الذي أختلف معه أشدَّ الاختلاف، يمتلك مُثَمنات معرفية، وآراءً صائبة، وله حيزه في السياقات الفكرية، وله مكانته المعرفية، والرؤيوية، شئنا أم أبينا. وليس من مقتضيات الاختلاف أن تصادر حق خصمك، ولا أن تجرده من أي فضيلة. وقدوتنا الخليفة الراشد [على ابن أبي طالب] -رضى الله عنه - الذي قال في حق الخوارج الذين قتلوه: - [إخوان لنا بغوا علينا] والإمام [أحمد] الذي سأل طلابه: - من أين أقبلتم؟. قالوا من مجلس [أبي كريب] . وكان يذم أحمد. فقال: - اكتبوا عنه. فقالوا: - إنه يطعن عليك. قال: - وماذا أفعل. شيخ صالح قد بلي بي.

وليس من مقتضيات الاختلاف مع الآخر أن يكون ضالعاً في الجهل والحمق والتقول. فكم من مخالف لا يبلغ معارضه مُدَّه ولا نَصِيفه. وكم من مخالف يستفيد من خصمه أكثر من استفادته من الموالين له. وما أكثر الخصوم الذين استفدت منهم، وتتلمذت عليهم، واقتديت ببعض خصالهم، وتمنيت أن يكون لي شيءٌ من معارفهم وقوة حجاجهم. والرسول - ﷺ - قال: «**اللهم أعز الإسلام بأحب العمرين إليك**» وهذا من الاعتراف بحق الخصم. ثم إن الحياة ليس فيها صوابُ محض، ولا خطأ محض، فالصواب دُوْلَةً بين كل المذاهب، والأحزاب، والعلماء، والمفكرين. والخطأ كذلك مشاع بين كل الأطراف. والمسألة تقوم على التغليب، وعلى الفاضل والمفضول. والأقل ما يحكمه الصواب، والخطأ. وعلى ضوء ذلك فإن من الحصافة أن يتخلى المجادل عن جاهزية الأحكام، والنيل من الخصوم، وأن يوجه جهده إلى القضايا المختلف حولها.

وأخسر الناس من يملك ناصية الحق، ثم يلهو عنه بالمناكفات التي تحول دون إبلاغ ما لديه من الحق.

لقد حرض الرسول - ﷺ - على أن نُبَلِّغ عنه ولو آية، لا أن نناكف الآخرين، وننازعهم. وقد نهينا عن سب معبودات الآخر، خشية أن يسبوا معبودنا عَدْواً بغير علم.

وحاضرنا الفكري والسياسي يفيض بالقول ونقيضه. وما نوده لحاضرنا البراعة في إدارة الاختلاف، وإتاحة الفرصة للوفاق والتعايش، وتمكين كل مفكر من أن يبدي رؤيته. وعلينا أن نعرض ذلك على [الكتاب وصحيح السنة] فما وافقهما، أخذنا به، وقبلناه، وأشعناه، وباركنا لصاحبه موافقته للحق. وما خالفهما التمسنا للمخالف العذر، وتلطفنا في الرد عليه، وأحسنا الظن به. فالمخالف لا يكون بالضرورة مُتَعمداً للمخالفة. لقد التمس الحق، ولكنه لم يهد إليه. وإذ وجدنا أنفسنا مع الحق، فعلينا العض عليه بالنواجذ، ورد الفضل إلى الله، والإفاضة به إلى من حُرم الهداية. وليس من حقنا أن نُدِلَّ، ولا أن نمن، والله يقول: ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فالمنة لله وحده، وتطاولنا على المخالف غرور، وإعجاب بالذات. إن القراءات الخاطئة تحتاج إلى تَصَرُّفٍ حكيم، لتنبيه الغافلين، ورد المخالفين.

ومما لا نوده لمشاهدنا الحِدَّة والحَدِّيَّة، وأحسب أن هذه الخليقة سيدة الموقف. فالعلماء الذين ينطلقون من مذاهبهم، لا ترحب صدورهم لمخالفيهم، ومن ثم يسلبونهم كل حقوقهم، وهذا بعض القراءات الخاطئة. وكم خَسِرَتْ المشاهد مفكرين أشداء، بسبب حِدَّتِهم

وحَدِّيَّتِهم. ولربما يكون [ابن حزم] الفيلسوف والأديب والفقيه الظاهري من أبرز النماذج للحِدَّة والحَدِّيَّة، وبدايات شيخنا [أبي عبد الرحمن بن عقيل الظاهري] تكاد تستبطن هذه الخليقة، ولكن سعة اطلاعه، وغزارة علمه، وطول تجاربه، ونفاد عزماته ألان عريكته، ورده إلى الرفق رداً جميلا. والمشاهد العلمية والفكرية مليئة بالعلماء، والأدباء، والمفكرين الأجلاء الذين نختلف معهم، أو نتفق، ولكننا لا نستطيع أن نجادل عنهم، ولا أن نبرر حِدَّتَهم وحَدِّيَّتهم.

فأين نحن من [الرَّافعي] و[العقاد] و[عبد الرحمن بدوي] و[زكي مبارك]، ثم أين نحن من [الألباني] و[البوطي] و[بكر عبد الله أبو زيد] و[الغزالي] و[شاكر] . إنهم جميعاً أشداء على خصومهم، رحماء فيما بينهم وبين من يشاطرهم الفكر، مع أن الأطراف كلها لا تعدم الخيرية.

-أليس ذلك كله ناتج القراءة المرتابة المتحفزة؟

لقد قال كلٌّ واحد من أولئك في حق خصومه، مالا يقره عقل، ولا يقبله منصف. وإذ نقطع بأن [زيداً] من الناس مخالف للحق في مسائل، فأنه مُتَوفِّر على الحق في مسائل أخرى. ولو كنا منصفين، لأبرزنا مسائل الخلاف، ووقفنا عندها، ولم نوجف على الخصم بالخيل والرجل. إن له حَقَّ الوجود الكريم، وعلينا أن نحسن الظن به، وأن نمتلك سياسة الاحتواء، وصناعه الأصدقاء، ولن يتأتى ذلك إلا بالقراءة المتأنية المتأملة البعيدة عن الإعجاب بالذات، واحتكار الحقيقة.

وفي النهاية فكلٌ يؤخذ من قوله، ويرد، ألا من لا ينطق عن الهوى.

إن هذا الشعور يربط على القلوب، ويثبت الأقدام، ويشيع القراءات الراشدة التي تَقِينا مصارع السوء.

أخَلِيقَةٌ أوْضَاعُنا أم هي مَكِيْدَةُ ماكِرٍ .. ؟! [١]

يُخْطئ كثيرٌ من مُفَلْسِفي التاريخ، حين يقطعون بأن الإسلام انتشر بالسيف. وتلك من مفتريات المستشرقين التي صدَّقها المغفلون.

الإسلام انتشر باللسان، والسنان، والأسوة الحسنة. والحكَّام الحكماء، يُقدرون، ويدبرون، ومن ثم لا يضعون السيف في موضع البلاغ:

وَوَضْعُ النَّدى في مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالعُلى
مُضِرٌّ كوضعِ السَّيفِ في مَوْضِعِ الندى

وما أضر بالإسلام إلا اختلال الموازين. جِيْلُ السَّنوات الخدَّاعات ضَرَرُهم أكبر من نفعهم، ذلك أنهم لا يتمثلون الإسلام، لا في أنفسهم، ولا في تعاملهم. يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم.

لقد جاء الإسلام نعمةً مهداة، ورحمة مسداة. ولما لم تَسْتَوعِب الدهماءُ تلك السِّمات، تحول بممارسة المنتسبين إليه إلى ما نحن عليه. هذه الصورة السيئة التي قدموها عن العالم الإسلامي للعالم المادي، أوقف المد الإسلامي، وأذكى روح العداوة والبغضاء فيما بين المسلمين، وفيما بينهم و بين غيرهم. ولما كان العالمُ الإسلاميُّ عالماً ثالثاً، أو نامياً، أو متخلفاً صفر اليدين من المكتشفات الحديثة، والعلم التجريبي، عاجزاً عن تأمين حاجاته الضرورية، فاشلاً في السياسة، مخفقاً في التأسيس للمجتمع المدني، متمرداً على الدساتير والقوانين التي أنشأها بطوعه واختياره، محاكياً أو مبادراً، أصبح المسلمون قابلين للتبعية، محكومين ممن يملكون زينة الحياة الدنيا، ويعلمون ظاهراً منها. وأصداء المَدِّ الإسلامي في عهود الازدهار، ودخول الناس في دين الله أفواجاً، وأصداء الحروب الصليبية، لما تزل حاضرة الرجل الأبيض. هذا الخوف المبرر جعل الغرب يراقب المارد الإسلامي المستكين، ولا يتيح للمسلمين فرصة التفكير في صناعة الذات، والعودة إلى الشِّرْعةِ والمنهاج الرباني، وفق المقاصد الإسلامية. ومن عجب أن ينكر التبعيون تلك المراقبة الدقيقة، فيما يُضَخِّمها المُتَحمِّسون، ليُحَمِّلوا غيرهم جرائرهم. والغرب الغازي المتآمر، يكيد للإسلام والعروبة، ويتفنن في لعبه المُصْمِية. ومقاربة مكائده تكشف عن عداوة ومكر لا يبور، وممارسات الإسلاميين غير السَّوِيَّة هيأت الأجواء الملائمة لمزيد من الإذلال.

المسلمون اليوم غثاء كغثاء السيل، لأنهم يقولون ما لا يفعلون، ويخشون الناس، والله أحق أن يخشوه. جهلة يَدَّعون العلم، واتكاليون يَدَّعون التوكل، ومتفرقون يَدَّعون الاعتصام بحبل الله، عَصَوُا الله، فسلط عليهم أعداءهم، وجعل بأسهم بينهم شديد، إلاّ مَنْ رحم ربك، وقليلٌ مَّا هم، و هذا القليل هم الأمة المنصورة، كما أخبر الهادي الأمين، جعلنا الله محبين لهم، محشورين معهم:

أحب الصالحين ولستُ منهم
لعلي أن أنال بهم شفاعة

يُرْوى أن أحد الأسرى العرب، قال لأحد زعماء اليهود: إننا سنقتلكم شَرَّ قِتْلَة بعد تجمُّعكم في فلسطين، وأن الشجر والحجر سيقول للمسلم: هذا يهودي ورائي، تعال فاقتله، إلا شجر الغرقد، الذي تقومون باستنباته في أرضنا، هكذا أخبر من لا ينطق عن الهوى. فقال له اليهودي: نعلم ذلك، ولكنكم لستم المسلمين الذين يستحقون هذا الوعد.

---

(١) تاريخ المقال: ٣/ ٩/ ٢٠١٣

فهل وعينا عيبنا، وتلافينا أخطاءنا؟.

اليهود يعرفون الإسلام الفاعل، ويعرفون المسلمين الصادقين في إسلامهم، المتمثلين لمقاصده. ولو كان المُسْلِمون كما تركهم الرسول -ﷺ- لنُصِروا بالرُّعْب مسيرة شهر.

واستبعاد العواطف الجياشة، وقراءة أحوال المسلمين على ما هي عليه، تشي بأن الإسلام الحقيقي مغيب، ولم يبق منه إلا شعارات وشعائر، تُحَرِّض الأعداء، ولا تَشُدُّ عَضُدَ الأتباع.

والذي أردى المسلمين أخلاقٌ زائفة، ومكائدُ أعداءٍ مُحْكَمة. والمسلمون لم يتخلوا عن تلك الأخلاق، ولم يتصدوا لأولئك الأعداء، بل ظل بعضهم يَضْرِبُ رقاب بعض.

ولقد تَحْمِلُ هذه الأوضاع المُتَرَدِّية الشباب المثالي، و من يعبد ون الله على حرف على التخلي عن الإسلام، إذ كيف لشاب مثالي أن يحتمل مثل هذه الأوضاع. أمم كافرة، متفوقةٌ في أنظمتها، وقوانينها، ودساتيرها، قويَّةٌ في صناعاتها وتقانتها، مُرْهِبة بقواتها الدفاعية والهجومية، تحكم الفضاء الفسيح بأقمارها و طائراتها، وتحكم البحار العميقة بغواصاتها، وتحكم اليابسة الشاسعة بِدَبَّاباتها وراجمات صواريخها. تحترم إنسانها، وتُسَلِّم لإرادة شعوبها، وتُذْعِن لصوت لناخب، وإن كان الفائز عبداً حبشياً، كأن راسه زبيبة، فيما لا يكون شيء من ذلك في عوالمنا.

العالم الإسلامي عالم متخلف: حسياً ومعنوياً، متفرق في دياناته، وأعراقه وأقاليمه، ومصالحه، وأحلافه. حتى لقد بلغ الأمر في مناطق التوتر أن يُقْتل المُسْلمُ على هويته الطائفية، فيما يظل اليهود يسرحون، ويمرحون، ويذلون المواطن الأصلي.

سَأَل مفكرٌ غَرْبيٌّ عالِمًا إسلاميا: ما أهم الخلاف بينكمَ وبين الشيعية؟ قال: هم يرون [عليًّا] أحق بالخلافة، ونحن نرى [أبا بكر] أحق بها. فقال الغَرْبِي، وهو يحاوره: وهل عليٌّ وأبو بكر على قيد الحياة؟ قال: - لا ماتا قبل أربعة عشر قرنا. فضرب كفا بكف، وولى، وهو يردد: أضعتم إسلامكم، وأذهبتكم ريحكم، وهيأتم أنفسكم للعبودية باختياركم. هذه حقيقة لا ينكرها إلا مكابر.

إن العالم الإسلامي يُقَدِّم للعالم المادي بهذه الأخلاقيات صورةً سيئةً تنفر الباحثين عن الحق. فـ[سلمان الفارسي] رضي الله عنه، بوصفه رائد الباحثين عن الحق. لم يجده إلا في ظل الإسلام، ولو أن باحثا عن الحق اليوم زار العالم الإسلامي، وشاهد أوضاعه، وأخلاق أهله، وممارساتهم لما اختار الإسلام.

يُرْوى أن غَرْبياً قرأ عن الإسلام فأسلم، ولما اختلط بالمسلمين أصابته نوبة من الإحباط. وقال: قرأت عن الإسلام، فأسلمت، ولو خالطت المسلمين لما أسلمت.

وطاف رَحَّالةٌ متحرر في ديار الشَّرْق والغرب، وخالط المسلمين فقال: - وجدت في الغرب إسلاماً، ولم أجد مسلمين، ووجدت في الشرق مسلمين، ولم أجد إسلاماً. تلك حكايات نسمعها، ونرددها، ونصدقها، ولكنها لا تبلغ تراقينا، مثلما أن البعض مِنَّا يرتل القرآن ترتيلاً، فيقيم حروفه، ولا يقيم حدوده. نشيد المساجد ونطيل المآذن، ونزدحم في المشاعر، ولكننا لا نتمثل الإسلام عقيدة ولا منهج حياة.

كُلُّ شَيْءٍ في ديار المسلمين غَرْبي: أسواقُنا، وبيوتُنا، و مآكلنا، و ازياؤنا. ونحن بذلك نحقق مقولة من لا ينطق عن الهوى: - «**لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه**» ولقد حَدَّدَ القِبْلِيِّين بأنهم اليهود والنصارى. هذه التبعية انستنا محاسن الإسلام. ومن ثم لا نتردد في نسبة الحرية [لليبرالية] والعدالة [للديموقراطية] والمساواة [للماسونية] مع أن الإسلام سبق ذلك كله بالنص و الممارسة. فمن نشد الحرية وجدها في الإسلام، وهذا [عمر] يقول: -[متى استعبد تم الناس، وقد

ولدتهم أمهاتهم احرارا]، ومن نشد العدل وجده في الإسلام: - ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ [النحل: ٩٠]، ومن نشد المساواة، وجدها في الإسلام ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] .

والله يأمر بإجارة المشرك، وإبلاغه مأمنه، و مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن، و يعفو عن الحب الجبلي عند الزواج من الكتابية.

لقد قُدِّم الإسلام من ذويه بصورة مشوَّهة، نَفَّرت منه الآخر، وشككت الناشئة الذين ولدوا على الفطرة. والراصدون لظاهرة [الإلحاد] يَرُوعُهم ارتفاع نسبته بين أوساط الشباب، ولو عُرِف السبب لبطل العجب. إن ثورة الاتصالات والمعلومات عَرَّت السَّوْءات، وكشفت المستور، ولم يعد هناك مجال لخصف الأوراق، وستر العورات.

وهل أحد يستطيع نفي الإرهاب والعنف والتطرف عن المسلمين؟. وأتباع القاعدة يؤكدون انتماءهم للإسلام، ثم لا يجدون حرجاً من القتل العشوائي، والغدر بالآمنين.

وهل يَقْدِر أحدٌ على تكميم الأفواه، وكف المصورين والمراسلين عن ملاحقة الفتن، والبحث عن بؤر التوتر في العالم الإسلامي. و يكفي أن نشهد الوحشية في [العراق] و [الشام] .

أحزاب إسلامية، ومنظمات إسلامية، وطوائف، وأطياف، تعرف منها وتنكر، تجر عالمنا الإسلامي إلى درك الشقاء، وشماتة الأعداء.

ودعك من متعصبة الباطنية الذين يقتلون على الهوية، ويقولون عبر قنوات الضرار منكراً من القول وزورا، يَذُمُّون الخلفاء الراشدين، ويقذفون أمهات المؤمنين، ولا يجدون حرجاً من نسبة الرَّذائل لأكابر الصحابة، وينسفون التاريخ الإسلامي، وينكرون الفتوحات الإسلامية، ويستخفون بمنجزها الحضاري، و يَعِدُون بخروج المختبىء في السِّرْداب، مع أن هذه الطوائف محسوبة على الإسلام، وهي منه، وعملها منسوب إليه، وهم وحدهم الذين يُقَدِّمون صورة الإسلام للغرب.

فهل ما يعتقدون يَصْمُد أمام العقل والعلم وعَصْر المكتشفات المذهلة؟. إن المعتقدات الخرافية تُحْرِجُ عقلاء المسلمين، وتُهْدر طاقاتهم في سبيل تصحيح المفاهيم.

لقد بلغ السيل الزبى، وأصبح المسلمون يُخْرِبون بيوتهم بأيديهم. فمن ذا لذي يَجِدُ مبرراً لحمامات الدم في بلاد الإسلام؟. ولم يبق بعد هذه الترديات إلا انتظار المجدد الذي يبعثه الله على رأس كل مائة سنة، عسى أن تكون على يديه صحوة إسلامية حقيقية، تجمع كلمة المسلمين، وتردهم إلى خالقهم رداً جميلاً، يتمثلون الإسلام قولاً وعملاً، ولينا، وتسامحاً، وتَفَسُّحاً للمخالف، وتعايشاً، وتعاذراً، وسعياً دؤوباً لبناء الحياة التي فيها معاشنا، وتجويد الآخرة التي إليها معادنا.

السؤال الأكثر إحراجاً: - من المسؤول عن هذه الأوضاع المتردية؛ أهو عالمنا أم العالم الآخر؟.

لقد تركنا رسول الرحمة على المحجة البيضاء. فهل ظلت كما تَرَكَنا عليها أم أنها اعْوَجَّت و أظلمت، وضاع في متاهاتها المِجْدافُ والملاّح؟.

أَوْرَدَهَا سَعْدٌ، وسَعْدٌ مُشْتَمِلْ .. ! [١]

قد تلتبس الحقائق على المُتَلَقِّي، فيخرج بتساؤله من الحقيقة إلى المجاز، ليكون تساؤله تساؤلَ استغراب، لا تساؤل استعلام. وفي الآثار الصحاح: -[وهل نحن مؤاخذون بما نقول؟]، ويأتي الجواب الرادع: -«**ثكلتك أمُّك، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ، أو عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ**».

ولمَّا كان الكلامُ كالفِعْل مسؤوليةً، وجب ألاَّ يقول المستبرئ لعرضه ودينه إلا مايُرضِي فِطرته السليمة التي فَطَره الله عليها. ولأهمِّيَّة الكلمة، تواترت التوجيهات، والتحذيرات، والحث على القول السديد، والكلم الطيب. فالمتكلم في شؤون غيره بِغير علم، يتحمل شطراً من الأوزار: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

والفتن التي تعصف بعالمنا العربي، من قتل، وهدم، واختلال أمن، وتدمير اقتصاد، وإيغارٍ للصدور، وتنازع، وتدابر، وتفرق للكلمة، وتَعَصُّبٍ طائفي، وتكتل حزبي، وتحالف مريب، وتنازلات مخلة بالسيادة والكرامة، كل ذلك يَتِم بتحريضٍ من الكتبة الخليِّين الذين يَتَفَوَّهون بالكلمة، لايلقون لها بالاً في شأن أمَّتِهم، تهوي بمثمناتها سبعين خريفاً في قعر الفتن.

والوطن العربي الذي عصفت به القلاقل، وانتابته المؤامرات من كل جانب، وأريقت على أديمه الدماء البريئة، وتفرقت كلمة أبنائه، وتصدعت وحدتهم الفكرية، والإقليمية، يتولى شطراً من الآثام مفكرون مجازفون، وخُطباءُ مُتحَزِّبون، وإعلاميون [متأدلجون]، ظناً منهم أن كُلَّ مايجري من أحداث تتم بإرادة حرة، وتصرف حكيم. ومن لم يكن على عِلْم بقواعد اللعب السياسية، ونوايا الأحزاب النائمة، وتعارض المصالح، يكون ضرره أكبر من نَفْعِه.

و[مصر] عيبة الأمة، وصَمَّام أمانها، وسَنَام صمودها، تجتاحها خلافات حِزْبية، وصدامات إعلامية، ماكنا نود أن تكون لأن الأمة العربية جَسَدٌ واحد، إذا اشتكى منه عُضْوٌ، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى. والعقلاءُ المجربون أمام مايجري من تجاذبات حائرون، يُقَدِّمون رِجْلاً، ويؤخرون أخرى. فالخطب جلل، والمصائر مُخِيفة، والنار من مستصغر الشرر:

وأَخْشَى أن يَكُون لها ضَرام

ومع كل التحفظات لايسع القادرين السكوت، ومايتفوه به المتألمون معذرةٌ إلى رَبِّهم، ولعل أَحَداً من أطراف المشكلة يُذْعِن للحق، ولَأَنْ يُنْقِذَ الكاتب مُواطِناً واحداً من تلك المصائر المظلمة خَيْرٌ له من حُمْرِ النَّعَم.

ولما كان للوضع في [مصر] ذيولٌ محلية وعربية وعالمية بدأ يذرُ قرنها، كان من واجب القائمين على وسائل الإعلام العربية، وسائر المؤسسات الفاعلة، أن يتقوا الله في كل المختصمين، لأنهَّم جميعاً في القُرْبِ سواء:-

إذا احتَرَبَتْ يَوْماً فَفَاضَتْ دِماؤها

تَذَكَّرَتِ القُرْبَى فَفَاضَتْ دُمُوعُها

فإن أمكن الإصلاح بين الأطراف المتنازعة، وإلا فالموعظة، والتحذير، والمناشدة، ومما يسوء الصديق، ويسر العدو أن الإعلام العربي يخوض في الأحداث للتأليب،

(١) تاريخ المقال: ١٦/ ٧/ ٢٠١٣

والإثارة، دون النظر في العواقب الوخيمة التي تحيط بالأمة. وكأنَّ مايجري من سَفك للدِّماء، وهدم للممتلكات، وانتهاك للحرمات أمر عادي، لايَمَسُّ الآمنين. والله قد حَذَّرنا، ونَاشَدنا بِاتِّقاءِ الفتن التي تصيب المحسِن والمسيء على حَدٍّ سواء.

والعاقل المشفق على أمته يرى المصائر العصيبة رَأْيَ العين، وهي قائمةٌ عند الإقدام والإحجام:

وقْــعُ السِّـــهام ونَـــزْعُهُنَّ ألــــيمُ

ومع هذا اليأس، والإحباط لابد من تَصَرُّفٍ حكيم يبادره عُقلاءُ الأمة من المصريين، وسائر المُتنفذين، وبخاصة [دول الخليج]، التي عُرِفَت بالتدخل المتوازن، والسَّعْيِ الدؤوب، لِفَكِّ الاشتباكات، وتهدئة الأوضاع، إذ لم يعد هناك مجال للانحياز المطلق، ولا للحياد المطلق، ومن ثم لابد من أن يقف الوسطاء على مسافة متوازنة من كل الأطراف.

إنَّ هناك أخطاءً مشتركةً، ومغامراتٍ غير محسوبة. والمسألةُ لاتتعلق بالبحث عن المخطئ، فالكل [في لُجَّةٍ أَمْسِكْ فلاناً عَنْ فُلِ] .

أَنْ يكون الرئيس المنتخب فاشلاً، فذلك حق لا مراء فيه. وأَنْ تكون الأوضاع السياسية والاقتصادية متردية، فتلك حقيقة لاجدال فيها، وأن يكون من الضروري التحرف لإنقاذ البلاد من الانحدار، فذلك عين الصواب.

لكن الأمور لاتُوردُ مواردَ الهلكة:-

أَوْرَدَهــــا سَـــعْدٌ، وسَـــعْدٌ مُشْـــتَمِلْ

ماهكـــذا ياســعد تُـــوْرَدُ الإبــــل

وعلى ضوء ذلك فإن بإمكان المشفقين على مصائر [مصر] من الأحزاب المتنازعة، والتجمعات المتناحرة، والمعارضين الأحرار أن يِتَجرَّعوا مرارات الصبر والتربص، حَتَّى تنتهي مُدَّةَ الرئيس المنتخب، ولاسيما أن الرئيس وصل إلى سِدَةِ الحكم بالانتخاب، والمُنتَخِبون حتماً سيمارسون الصدام تحت تلك الذريعة.

وكم من مريض يَخْتَلِفُ أطباؤه حول صيغة التدخل، لإنقاذ حياته، إذ لو تركوه لمات، ومع ذلك لايبادرون أي صيغة، حتى تكون احتمالات النجاح أقوى من احتمالات الإخفاق.

والمعارضة الشعبية التي حَرَّضت الجيش على حسم الموقف أمام انهيارٍ اقتصادي وسياسي، أو انهيار أَمْني، وأَحَدُ الانهيارين حاصلٌ مع الإقدام، أو مع الإحجام. ولأنِّي ضِدَّ التصعيد الإعلامي المؤَجِّجِ للمشاعر فإنني لن أجاهر باللوم، لأي طرف من الأطراف، إذ ليس كل مباح مُمْكِن. وكَم كان بودي ألا تكون الإجراءات المَصِيرِّيةُ بهذه السرعة، وبتلك المغامرة.

لقد وقع ماهو أسوأ من التربص، فالشعب المصري المتماسك، البعيد عن العنف تصدعت لحمته، وتفرقت كلمته، وأصابه ما أصاب غَيْرَه من عنف دموي، ما كنا نوده لدولة مِحْورية، وشعب عظيم.

والصدامُ الدموي الذي فرضته تلك الاجراءات سيُفقد الشعب إرادته، ويُنشئ فيه ثقافة العنف والحقد. وهي ثقافة شيطانية سريعة الانتشار، قوية التجذر، ومن العسير الخلوص من عقابيلها. لقد استوطنت في [العراق] و[أفغانستان] وستظل في [سوريا] .

إن العنف، والعنف المضاد السائد في الساحات العربية، وفي وسائل الإعلام سوف يزداد، ويتشعب، مالم يتداركه عقلاء الأمة من مؤسسات، وحكومات، وعلماء.

وفي النهاية فالكاسب الوحيد هم أعداء الأمة المتربصون بها الدوائر.

و[ابن غوريون] الصهيوني سَوَّى بين التوفر على قوة الردع النووي، وتحييد [مصر] و[العراق] و[سوريا] . والصهيونية العالمية حَيَّدت[العراق]، وهي بسبيل تحييد [سوريا] و[مصر] عن طريق العنف، والتدمير، والتفكيك.

لقد تابعتُ قَنواتٍ، واستعرضتُ تغريداتٍ، وتقصَّيت كلمات، واسْتَمعتُ لخطباء، وساءلت علماء، وتَحَسَّسْتُ عن الحقيقة، فلم تَلُح لي بارقةُ أمل. إذ كل يقول، ويعمل على شاكلته غَيْرَ عابئ بالنتائج. والضحية في النهاية وطن يضم الجميع، وسفينة يمخر بها المستهمون عُباب الفتن. وكأن آية: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً﴾ تَتَنزَّل لِلتَّوِّ على أطياف مصر، وطوائفها، وأحزابها، وسائر مؤسساتها.

فهل من حكماء يتداركون أرض الكنانة، ويوردونها موارد النجاة؟.

التَّصْنيفُ والاسْتِعداءُ كحَبْلِ الحَلَبَةِ .. ! (١) (١)

المصارعة الحرة من أحط أنواع الرياضة في نظري، ومن أكثرها جاذبية. وحاشا أن تكون امتداداً لمصارعة الرسول -ﷺ- للأشدّاءِ من خُلَطائِه، وإن اجتمعتا في التسمية.

عَرَفْتُ المصارعة الحرة منذ النَّشْأة الأولى لافتتاح محطة التلفاز في المملكة، يوم أن كان لا يتاح لنا سواها. وكنت إذ ذاك قد عُيِّنْتُ مدرساً في [ضرماء] التي كانت إذْ ذَاك كما وصفْتها في قصيدة هي الأولى والأخيرة:

بَلَــــدٌ أصــــاب فِجَاجَهــــا إعْصــــار

فَسَــــــماؤها مَسْــــــجورة غبــــراء

ولمَّا لم يكن لدى الناس أجهزة تِلْفازِية في بيوتهم، فإن هوات المصارعة يتكدسون في مقهى [المحطة] . وكان من أشهر المعلِّقين يومها المرحوم [عبد العزيز الراشد] . وكنت لا أجد بداً من البحث عن مُسَلِّياتٍ، أقطع بها ضَوائِق الغربة، والتخفيف من أعباء التدريس. ومن ثم أذهب على استحياء مع الذاهبين، وأتابع المصارعة مع المصارعين.

وكنا نَسْتَخِفُّ بالمصارع الذي يَلْجأ إلى الحبال، حين يرهقه الخصم، أو حين يشرف على الهزيمة، ليفوِّتَ على خصمه لذَّة النصر.

تذكرت ذلك، وأنا أقرأ بين الحين والآخر جنايات بَعْض الكُتَّابِ عندنا، وَتَعَدِّيهم على حُرمات الغير. وبخاصة حين يلجأ الكاتب إلى تصنيف خصومه، تمهيداً لاستعداء السلطات عليهم. وكاتبٌ يُغَلِّب الانتصار بأي ثمن على الحق، ضرره أكبر من نفعه. والمشاهد الثقافية قد تُبْلى بهذا الصنف الرديء من الكُتَّاب، ولاسيما أنهم يَجِدون من يُحَرِّضهم على التجريح، وافتراء الكذب، ليتحول الجدل إلى مراء، والحوارُ إلى تنازع مُفْشِلٍ، ومُذْهِب للرِّيح. والمشهد حين يعلو فيه القتام، تَنْحطُّ القيم، وقد لا يجد من ينفي عنه الموجِفين بالبُهْتِ، والمشاهد حين تَتَلَبَّس بهذه الأخلاقيات، يتحاماها حَمَلَةُ الكلمةِ الطيبة، لتخلو لهذا الصنف من المجازفين، ومن ثم يؤذن بالتصوح، ثم لا يكون بُدٌّ من رعي الهشيم.

ولقد أكون ابْنَ بَجْدَةِ هذه المشاهد، وشاهدٌ من أَهْلها، إذ عِشْتُها منذ نصف قرن، ولا فَخْر، وعرفت دخائلها، وإخفاقاتها، وتجلياتها. ومن هنا فلا مجال للمزايدة عَلَيَّ، أو الادعاء بأنني متطفل عليها. كنت طرفاً في صراعات عِدَّةٍ، أنتصر مرة، وأغطِّي تراجعي بلغة الاحتمالات مرة أخرى، وأُسلِّم لخَصْمي، حين يُجْري اللهُ الحقَّ على لسانه.

وفي هذه المعَامِعِ عَرفْت خُصُوماً شرفاء، واسْتَفَدْتُ من تجاذب الآراء مع البعض منهم، وترفعت عن مخاطبة المُسِفِّين. وأدركت فيما بعد تقصيري في إدارة بعض الصراعات. وتعلمت من خصومي طرائِق ومعارف، لم يتهيأ مِثْلُها لمن جنحوا للسلم، وآثروا السلامة. وأيْقَنْتُ أن العاقبة للكلمة الطيبة، والقول السديد. وكيف لا تستوي لُغَةُ الوَقَّافِ عندَ الحدود، وهو يقرأ قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنّاسِ حُسْناً﴾ أزعم ذلك، ولا أزكي نفسي، امتثالاً لأمر الله: ﴿فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾.

واللجوءُ إلى تصنيف الآخرين، لإضعافهم، وتشويه سمعتهم، أو استعداء السلطة عليهم، لتخويفهم ظاهرةٌ جدليةٌ مَفْضُولة، عُرِفَتْ في التاريخ الحضاري. والمتعقب لكتب الجرح والتعديل، وتاريخ الرجال، وكتب المناقب، وجدل المذاهب، يقف على أمشاج من

(١) تاريخ المقال: ٢٣/ ٧/ ٢٠١٣

ذلك. وقد تَصَدَّى بعض العلماءِ المنصفين لمثل هذه المقترفات، وفَنَّدوا كثيراً من تلك الاتهامات.

وإذ يَسُوؤُنا مثلُ تلك الجنايات، فإننا نعلمُ يقيناً أنَّ صِراعَ الحقِّ والباطل أزليٌّ، ولا يمكن حَسْمه بِجَرَّة قلم، ولكن الموعظة حق على كل مقتدر، معذرة إلى ربهم، ولعلهم يهتدون.

ومن الظواهر السيئة في مشاهدنا الفكرية، والأدبية، والسياسة التسرع في الأحكام، والجرأة على الفتيا، واستمراءُ خطيئة التصنيف، والاستعداء، واستدبار القضايا، والقول في النوايا. وتلك خصال تَصمُ المتلبسين بها من كل الأطراف، إذ لا نزكي على الله أحداً، ولكل طائفة سُفهاؤها الذين يجنون عليها، مثلما جنت براقش على أهلها، وكل الناس خطاؤون، وخيرهم الذين يتوبون من قريب.

ومن ادَّعى العصمة من الخطأ، هلك وأهلك. والإشكالية ليست في الخطأ ابتداء، ولكنها في الإصرار عليه، وويل لمن أخذته العزة بالإثم. وما أكثر المعاندين، والمنكرين لأخطائهم، والمعتزين بآثامهم. وويل لمن لم يجد المرايا المقعَّرة التي تريه ذاته على حقيقتها. ومَنْ مِنَّا لا يحتاج إلى مُذَكِّر. والقرآن الكريم تَعَقَّب مبادرات الرسول -ﷺ- البشرية، فثناه عنها: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾. ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾. ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾. ﴿وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً﴾. ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾. ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ﴾.

ومما أدركنا من كلام المجربين الأوائل القول: بأن المقدمات الخاطئة، تؤدي في النهاية إلى نتائج خاطئة. والذين يفترون الكذب على مخالفيهم، يُصِرُّون على كتابة المقدمات الخاطئة؛ ولقد يَجُرُّ الافتراءُ إلى افتراء مضاد، وفي هذه الأجواء، تُفْقَدُ المصداقية، وتَشِيعُ قالة السوء. وهذا ما نلمسه من بعض الأطراف؛ وأخطر شيءٍ على حملة الأقلام استمراء الكذب، وكيف يستسيغ البعض تلك الخليقة، والمسلم يكون جباناً، ويكون بخيلاً، ولكنَّهُ لا يكون كذَّابا. وحسب الكَذَّابِ أن يُكْتب عند الله كذَّاباً.

لقد استأت من تلك الظاهرة، وأَحْسَسْتُ أنَّ مشاهِدنا بحاجةٍ ماسة إلى حَمْلةِ تطهيرٍ، تنفي عنها تراكم النفايات، وتكشف زيف الكتَّاب الذين يسيئون، ولا يحسنون. وكم من مُفْترٍ أَلَجُّ من خنفساء، حين ترهقه البراهين، وتلجمه الحقائق، وتُكَسِّر مجاديفه أمواج الحق، لا يفتأ يُحَاول العبور إلى مُضْمراته، المتمثلة بإشاعة الإفك على من يخالفهم الرأي. والخطورة حين تشيع تلك الخطيئة في أوساط المتدينين الذين يَدَّعون أنهم أولياء الله وأحباؤه.

وليس بمستغرب، ولا مستبعد أن يتلبس المتدِّين بتلك الخصال الذميمة، ذلك أن الشيطان تَوعَّد أن يقعد للمكلفين صراط ربه المستقيم، والصراط المستقيم لا يسلكه إلا الملتزمون، ومُقْتَرفُ المتَدَيِّن مُغَلَّظُ العقاب، كالأُشَيْمِط الزاني، والعائل المُسْتكبر. وليس في مقدور أحدٍ أن يدَّعي أنه فات الشيطان، أو أنَّه نفذَ من حبائله. وكيف يتأتى ذلك، والشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وتكمن فيه نَفْس أمَّارة بالسوء، ومن حوله قرناء سوء، يُزَيِّنون له سوء عمله، ليراه حسنا.

التَّصْنِيفُ والاسْتِعداءُ كحَبْل الحَلَبَةِ .. ! (٢)[1]

والمقلقُ أنّ المشاهد العربية تفيض بالمذاهب المتَعَصِّبة، والأحزاب [المؤدْلجة]، والمنظمات المشبوهة، والطوائف المتطرفة. هؤلاء وأولئك أطياف قد تتقاطع، وتتداخل في [أجِنْدَتِها]، ويلجأ إليها البعض حين تَفْشَل مشاريعهم المستقلة، طمعاً في التكثُّر من سوادها..

وعِشْقاً للتخريب باسم التجريب، وحُبَّاً للظهور، وتهافتاً على الشُّهْرة والأضواء. وبهذا تلتبس الأمور على الراصدين، ويختلط الحابل بالنابل.

وحين يَقْطع المُصَنِّفُ بأنّ زيداً من الناس قد تلبس بهذا المذهب، أو ذاك، يكون لا بُدَّ في نظره من استعداء السلطة عليه، للأخذ على يده، وأطره على ما تَشْتهي نَفسُه. وقد لا تستبين الأمور للمُصَنِّف، ولكنه يتوهّم، ثم يصدق الوهم، ثم لا يجد حرجاً من مُبادَرَةِ الاعتداء على سُمْعةِ الآخرين، والتشهير بهم، وتحريض الدولة على قمعهم، والأخذ على أيديهم. وفي ذلك التسرع فساد كبير، وتفكيك لوحدة الأمة، وتلاحمها، وتصعيد للاحتقان، وتَهْيئة الأجواء للصدام، وماذا على كل الأطراف لو تَفسَّحوا في المجالس للمخالف، وأشاعوا لغة الحوار، والتَمَسوا الحق لا الانتصار.

إنّ من حق العالِم، والمفكِّر، والسياسي الماهر أن يتداولوا الآراء حول كافة الظواهر الفكرية والسياسية والدينية بحرية تامة، ومصداقية لا شائبة فيها، وواجبهم أن يُشِيعوا الثقافة المتوازنة، وأن يُفيضوا على الرأي العام بما يُثَبِّتُ الأقدام، ويَرْبِطُ على القلوب، ويبين الحقائق، ويهدي سواء السبيل. ليكون الجميع على بيّنة من أمرهم.

وليس من حق أي أحد كائناً من كان أن يَحُول دون حُرِيَّة الاجتهاد، والتعبير، والتفكير بضوابطها الشرعية. ولا أن يُصَنِّف خصومه، لمجرّد أنهم اجتهدوا، وأبدوا رؤيتهم حول القضايا المتداولة، ولا أنْ يقترف خطيئة تَحْصِيل ما في الصدور، ولا أن يتعمد ابتلاء السرائر. فذلك لا يقدر عليه إلاّ الله. فهو وحده الذي يبتلي السرائر. ويُحَصِّل ما في الصدور. وهو وحده الذي يعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور. فليقف الكتبة عند حَدِّهم، وليعرفوا قدر أنفسهم، ومبلغ علمهم، ليتمكن العالمون من تمحيص الأمور، وكشف المخبأ، وتنوير الرأي العام، وتمكين السلطات الثلاث من استبانة النّصح، قبل فوات الأوان، وإذ يتعيّن الجهاد المُسَلّح حين تُحْتلُّ الأوطان، فإنّ الجهاد بالكلمة يتعيّن حين تُخْتَرقُ أجواؤنا، وتُصَدَّعُ وحدتنا الفكرية، والله قد ندب رسوله إلى الجهاد بالقرآن ﴿ فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾.

وحين يبادرنا كاتب مُتَديّن مُرْتاب، أو [ليبرالي] مُتفلّت، أو علماني مُخادع، أو عميل مجند للإفساد بمقترفات لا تليق بخصومهم، نُحِسَّ أن مشاهدنا موبوءة، وأنّ فكرنا مضطرب، وأنّ علينا واجب الأخذ على أيدي المجازفين، وأطرهم على الحق. لأنّ هذا الصنف متلبس بأخلاق السفهاء. والتدخل من الاحتساب، بل هو لب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، الذي يحقق لنا الخيرية ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ ويَقِينا الطرد من رحمة الله ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي

---

(١) تاريخ المقال: ٣٠/ ٧/ ٢٠١٣

إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾.

ومتى اشتبهت الأمور على المتابع للحراك الفكري، أو الثقافي، أو السياسي، وغلب على ظَنِّه أنّ مَقْروءَهُ [مؤدلج]، وأنّ هواه مع طائفة أو حزب، أو تنظيم، فإنّ عليه أن يلجأ إلى التساؤل، والتحذير، واستجلاء الحقائق. إذ لا يمنع من أن يقول المستوضِحُ لخصمه: إنّ في قولك ما يوحى بأنك مُنْتَمٍ إلى الحزب الفلاني، أو الطائفة الفلانية. فإن كُنْتُ قد فَهِمْتُك خطأً، فَأَبِنْ لي وجه الحق. فإن سكت، أو لاذ بالفرار، فإنه مَضِنَّةُ التصنيف. وليس هناك ما يمنع، ـ والحالة تلك ـ من استعداء السلطة للأخذ على يده، فأمن الأوطان، ووحدة أهلها الفكرية والسياسية والدينية والإقليمية لا يمكن أن تترك دُوْلَةً بين الذواقين، الذين لا يُقدِّرون الأمور.

وفيما دون ذلك فإنّ من السفاهة والتفاهة وسوء الخلق أن يبادر الكاتب التصنيف قبل التثبت، والاستعداء قبل الإدانة. واسْتِسهال أحدنا القبض بيمينه حفنة من خصومة، وبشماله قبضة أخرى. ثم القول: هؤلاء إلى السجون، ولا أبالي، وأولئك إلى المقاصل، ولا أبالي. إنَّ ذلك من المقترفات التي لا يقبلها عقل، ولا تقرها شريعة، ولا تستقيم معها أمور الأمة.

وإذ يَفْرُقُ الكاتب من تصنيف الآخرين له، فإنهم أشدُّ فَرَقاً منه، وإذا أَدَنْتَ خصومك بممارساتهم، فإنّ عليك أن تحاسب نفسك على مقترفاتك قبل أن تُحاسب.

والتصنيف، والاستعداء، وافتراء الكذب بضاعة المفلسين، ومتكأ الفارغين، وملاذ المنهزمين. ومتى نزع الناس إلى الانتماء الطائفي، أو المذهبي، أو القبلي دَبَّ فيهم الوهن، وطمع فيهم الأعداء، واستشرت فيهم القابلية للفتن.

والله قد أمرنا بالاعتصام بحبله، وليس من حَبْله أن تكون حزبياً، تقدم مبادئ الحزب على كتاب الله، وسنّة رسوله، ومصلحة الأمة، ولاسيما إذا كان الحِزْبّ [مؤدْلجاً] وله [أجِنْدَةٌ] تناقض مقاصد الإسلام.

ومن احتج بأنّ تَصْنيفه للآخرين من باب الدفاع عن النفس، والاعتداء بالمثل، واجهناه بقول الحكيم جلّ وعلا: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ وبقول الشاعر:

إذا جَارَيْتَ فِي خُلُقٍ دَنِيءٍ
فأَنْتَ وَمَنْ تُجَارِيْهِ سَوَاءُ

ما نوده لمشاهدنا العدل، والإنصاف، وحسن الظن، والخلق، والرفق في الأمر كله، والدفع بالتي هي أحسن، والتثبت، وحفظ المثمنات، ومعرفة الفضل لذويه، والحرص على اجتماع الكلمة، فالزمن مَوْبوء، والفتن تموج من حولنا، وأعداؤنا يتربصون بنا الدوائر.

دَعُوا صَخْرة (سِيزيف) تَقَرُّ في قَعْر الوادي .. !(١)

لا أحد يملك الشجاعة ليقولَ الحق، بحيث لا تأخذه فيه لومة لائم، ولا أحد يملك القدرة على التخلي عن عقدة الأبوية، بحيث يفكر بما يجب أن يكون.

ولا أحد يملك الثقة بالنفس فيشهد ولو على نفسه، لتسود المصداقية. ومن شَذَّ عمَّا ذُكِر، فقد كرَّس القاعدة.

طوفان القول الذي تتكسر أمواجه لتعود من جديد مرتهنٌ لتزكية الذات، وتَضْخيمها، وإدانة الآخر، وتحقيره. ولو تَخلَّت النخب عن تأليه الهوى، ولو ساعة من نهارلبدت للجميع السوءة تماماً مثلما بدت لآدم وزوجه، حين أكلا من الشجرة.

وكم كان بودي لو كانت هناك شَجَرَةٌ فاتنةٌ، يكمن في ثمرهاكشف الزيف، ليتعرى الساسة الحِرْباويُّون، والمفكرون المُضِلُّون، والعلماء المُدْهِنُون، والإعلاميون المُتَزَلِّفُون، وينتهي الدوران في الحلقات المفرغة. العالم الثالث لمَّا يزل طَرِيدةً منهكةً، يتنابه الأقوياءُ من كل جانب، يستغلون خيراته، ويستثمرون طاقاته، ويُحَرِّشون بين أطيافه. وكلما نهض من كبوة تردى في أخرى. وكأنه بهذه النمطية يُمَثِّل [سِيزيف] وصَخْرتِه التي ظل يَحْملها من أسفل الجبل إلى أعلاه، فإذا وصل بها القمة تدحرجت إلى الوادي، فيعود إلى رفعها إلى القمة من جديد، ومن ثم أصبح بهذه الأسطورة رمز العذاب الأبدي.

هذا العذاب السَّرْمدي هو واقع عالمنا العربي. لقد اقتسمه الأقوياء غنيمة باردة، وحطوا في أرجائه رحالهم، ليصنعوه على أعينهم، فكان أن فرقوا ليسودوا، وجَوَّعوا ليُتْبِعُوا، وأخافوا ليسيطروا، وحين تجرع العرب مرارة الذل والهوان تململوا من تحت ذلك الركام، فولَّى الاستعمار الأدبار. ولكنه ظل كالشيطان يجري في الجسم العربي مجرى الدم، وقامت دويلاته التي رسمتها اتفاقية [سايكس بيوكو] على أنظمة مختلفة.

ولما تنفس الصُّعداء، وبدأ يذوق طعم الحرية بمقدار، بدأت الانقلابات العسكرية، وتفرقت الشعوب العربية من بعد ما حُكمت من أبنائها، فكانت شِيَعاً يضرب بعضها رقاب بعض، وتولى كِبْر ذلك جنرالات الجيش، فكان الظلم والجور. وتمنت بعض الشعوب العربية عودة الاستعمار الأجنبي الذي يختلف معها ديانة، وحضارة، ولغة.

لقد تطلعت الشعوب العربية إلى الوعود المعْسُولة من الانقلابيين، وظهر مصطلح [الحُرِّية] و[الديموقراطية] و[حقوق الإنسان] ومُلئت الصحف بلذيذ القول، وسديد الكلام. ولكن الشوارع والساحات مُلئت حَرَساً شديداً وشهباً، وعاد الشعب العربي مستعبد اً من أبنائه، وهذا من ظلم ذوي القربى. وتوسل المبدعون بالأسطورة والرمزلتجسيد الواقع المرير، ولكن الرأي العام لم تَرْقَ ذهنيته إلى هذا المستوى، ليتلقى الرسالة، ومن ثم أصبحت السرديات السياسية دُوْلَةً بين صَفْوة الصَّفْوة.

ولما لم تُفلح الانقلابات: البيضاء والحمراء، بدأت ثورات الشعوب، وتساقط المتسلطون كورق الخريف، وأصبحوا هشيماً تذروه الرياح.

وخلت القصور، والثكنات من المتَفَرْعِنين، وتنفست الشعوب عبق الحرية، وذهب الخوف، وأقْوَت السجون والمعتقلات إلا من رموز الأنظمة الظالمة، وتفاءل الناس خيراً، واتجهوا إلى صناديق الاقتراع، واختيرت حكومات شعبية، وكان من المتوقع أن يَتْرك [سيزيف] صَخْرتَه في قعر الوادي، غير أن العذاب الأبدي، ظل كالمارد يلاحق الإنسان العربي. لقد قامت الأحزاب، والمنظمات، والتنظيمات، وتنازعوا أمرهم بينهم، وها هي الشعوب التي أَسْقَطَتْ أنظمتها بالمظاهرات، والاعتصامات، والإضرابات، تعود لتُسقط

---

(١) تاريخ المقال: ١٣/ ٨/ ٢٠١٣

زعماءها الجدد بذات الطريقة. لا لأنها لم تفعل ما أمرت به من الشارع، ولكن لأن الأحزاب الخاسرة، والنخب المهمشة، والطوائف، والأطياف المُجَنَّدة، والقوى الكبرى الخائفة على مصالحها، كل أولئك يريدون أن يعرفوا حصتهم من الكعكة، ثم إن الأحزاب الفائزة قَدَّمت مصالحها على مصالح الوطن، وجاءت مثقلة بـ[أجِنْدة] لم تكن من أولويات الشارع السياسي. وكل تكتل تمتد إليه أيدٍ خارجية بالدعم، والتحريض تظل فيه الشعوب العربية مرتهنة للعذاب الأبدي، الذي تمثله تلك الصَّخْرة، وذلك الرجل الأسطوري. إن العالم العربي التعيس الذي رَمَّتْ جروحه على فساد بحاجة إلى تفكيكٍ جَسُور لكافة أبنيته، كي يعرف عِلَّته، ويسلك الطريق القاصد، مُتخلصاً من دعاوى الحياد، والانحْياز، واللعب القذرة.

المؤكد أن السياسة العربية موبوءة، وهي في غدوها ورواحها إما: شرقية أو غربية، ومفهومها المعوج: أن الأمانة غنيمة، وليست مسؤولية. ولهذا فالأحزاب تريد حَقَّها من تلك الأنفال. ولو عَرَفَتْ أن الأمانة عُرِضت على السماوات والأرض والجبال، فأبت حملها، وأشفقت منها، وحَمَلَها الإنسان لظلمه وجهله لتدافعتها، وأشفقت منها.

لقد أجريت الانتخابات، ووصل من وصل إلى سِدة الحكم، ولكن بعض منهم جاء بمفاهيمٍ لا يستقيم معها العدل، ولا تتحقق المساواة، فكانَ أن عادت الشعوب إلى مربعاتها الأولى، واضطرت لاستعادة آلياتها التي أسقطت بها الظَّلَمة، ولربما تتآكل الأحزاب لتُهيِّئ الأمةُ لمفترس جديد.

داء الشعوب، أن هناك جيوباً لا يمكن الفكاك منها، فالأنظمة الساقطة، سَقَطَ رموزُها، وبقيت ذيولها. وقطْعُ ذنب الأفعى دون اتباع الرأس للذنب، يُبْقِي الخطر، ويذكي أوار الفتن.

والاستعمار البغيض بغزوه وتآمره، مزروع في وجدان الطابور الخامس، والملفات الملغومة جاهزة للفتح في أي لحظة، إذ كلما شارف شعبٌ على السلامة حُركت تلك الملفات، فعاد إلى الشقاء، مثلما تتدحرج صخرة [سيزيف] من القمة إلى السفح، محققة بهذا استمرار العذاب الأبدي. وفي النهاية فإن الشعوب العربية هي التي تصنع مأساتَها، ذلك أنها كمن يقرأ القرآن، ثم لا يبلغ تراقيه، ومن ثم يمرقون من الشعارات الزائفة، كما يمرق السهم من الرمية.

في الميادين والساحات تحلو لك الشعارات، وتطربك الهتافات، ولكن الأصابع التي تحرك العرائس على مسرحها، تمتلك لغة عصية الفهم، بعيدة المنال. وأمام انهيار القيم، وتعري السَّوْءات لابد من تفكيك البنى التحتية بقوة وجسارة، وإعادة البناء من جديد، فالهتافات، وزائف القول لا تصنع الأمة الواعية. والنخب يعجبك قولهم، ويبهرك تنظيرهم، وتروق لك وعودهم، ولكن المسافة بين الواقع والمؤمل مسافة ضوئية، ومن المستحيل تلاقيها.

لقد ظلت الشعوب العربية تُحْكم بالمؤَمَّل، وهي قد مَرَدَتْ على الواقع بكل زيفه وزبده. فهل إلى عودة راشدة من سبيل؟ لا شيء مستحيلا، متى كان الوطن للجميع، وفوق الجميع، بحيث لا يكون ولاء للحزب، ولا تصنيم للأناسي، ولا تزكية للأنفس، ولا طموح يُنسي الممكن والمباح، ولا أثرة تُصادر حق المستضعفين، لقد تخطت [الثورة الفرنسية] فوضويتها ودمويتها، واستقامت على الطريقة. فشرب الشعب ماء غدقاً. وأذعن الغرب لشعاراتهم، وحققوا آمالهم، فساد العدل، والحرية، والمساواة، وأصبحت الشعوب عاملة وعائلة للدولة، وأصبحت الدولة خادمة للشعوب.

فهل تستطيع الشعوب العربية تَرْك الصخرة في قعر الوادي بعد هذا العذاب المستطير.

﴿إِنّ اللّه لا يُغَيّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتّى يُغَيّرُوا مَا بِأَنفُسِهِم﴾ [الرعد: ١١] .

أما آن لِلْفكر المُتوتِّر أن يَرْبَع على نَفْسِه .. ؟[(١)]

قد يُعاب حاضِرُنا بما هو عليه من تَشَرْذم في الفكر، واحْتِدامٍ في المشاعر، وتنافر في القلوب، وارتياب في الأنفس. ويُضْرب المثل بما مضى من زمن كان الناس فيه أمة واحدة. وهذا الصنف العائب معه شَطْرُ الحقيقة، إذا عَمَّم رؤيته، ولم يقصرها على الواقع المَحَلِّي.

على أنّ الإشكالية ليست في ظاهرة الاختلاف، وإنما هي في إدارته، وفي تقحم غير المؤهلين للجدل، و في الجسارة عند التعاطي مع القضايا المصيريَّة، دون أهلية تُخَول المُتَقحِّم، وتَمْنَحه حق البت فيما هو احتمالي، وليس قطعياً. وفوق هذه الإشكاليات يأتي الاحتقان، والإقصاء، والقطع بأنّ المخالف يمارس الخطأ الذي لا يحتمل الصواب، وأنّ الذات المتضخّمة تمارس الصواب الذي لا يحتمل الخطأ.

وهنا يجب أن تُسْتَحْضر مقولة [الشافعي] : - [قولُنا صوابٌ يحتمل الخطأ، وقول غيرنا خطأ يحتمل الصواب] . وهذا الاستحضار يستدعي ملابسات الموقف، فـ[الشافعي] بعلمه الغزير، وتأصيله الدقيق، واتساع أفقه للمخالف، يمتلك الحق في مثل هذه المقولة. تماماً مثلما تُقْبل مقولة: نحن رجال، وهم رجال، ممن يملكون النِّدِّية.

فالعلماء الكبار، يتوفّرون على شرط الاجتهاد، وهم مأجورون حين يخطئون، أو حين يصيبون. إذ ليس كل مجتهد مأجور، فكم من مقتحم لمضايق الاجتهاد، وهو صفر اليدين من العلم، والفهم، وفقه الواقع. وداء الأمة من أنصاف الأطباء، وأنصاف المتعلمين. وليس ببعيد أن نكون في زمن الرويبضات التي خُوِّفْنا من نُطْقها.

وقراءة التاريخ المحلِّي الحديث، تكشف لنا عن منعطفات حَسَّاسة، لم يجتازها المعنيّون إلاّ بثمن باهظ. ويكفي أن نستعيد مشكلة (الإخوان) في زمن الملك عبد العزيز - رحمه الله - ومحاولاته الجادة، والصادقة لاحتوائها، وتجاوزها بأقل الخسائر، غير أنه لم يَحْسمها إلاّ بمواجهة حربية، ولما تزل لها ذيولها التي تنبعث بين الحين والآخر، من متطرّفين لا يَقْبل بهم الجمهور، ولا يقبلون به. وحسم المشكلة عسكرياً جَعَل بعض الجيوب ترم على فساد، ولكن حكمة الملك عبد العزيز، وبُعد نظره، وتسامحه، وقدرته الفائقة على الاحتواء، وتجاوز المنعطفات الخطيرة أعادت الأمور إلى مجاريها. ومن ثم لم تَمْض أربع سنوات على أخطر فتنة داخليه إلاّ وقد تم إعلان توحيد أقاليم المملكة تحت مسمّى [المملكة العربية السعودية] .

والتصدُّعات الفكرية التي أعقبت تلك الفتنة ظلّت فردية، و كامنة في النفوس، ومن اليسير السيطرة عليها، واحتواء ذيولها. وكم بدت من بعض العلماء، والأدباء، والمفكرين، والإعلاميين تجاوزات تخطّت رؤية المؤسسة الدينية، أشار إلى بعضها بعض كتّاب [السير الذاتية] . أمثال [الجاسر] و[ابن إدريس]، ولكن سرعان ما يتم احتواء الموقف، وحسم المشكلة، دون امتدادات مخلّة بالأمن، أو مؤثرة على الوحدة الفكرية.

فالاختلاف قائم ومتوقّع، ولا يمكن تصوُّر حسمه. والمصلحون والصالحون قد يفقدون السيطرة على بعض المواقف، ولكن السلطة: السياسية، والدينية تبادر تلك المواقف قبل تخطيها نطاق السيطرة. والمتابعون يعرفون مثل هذه الفلتات الفردية. نذكر منها على سبيل المثال مشكلة (القصيمي) وكتابه الذي أثار الرأي العام (هذه هي الأغلال) لقد كان بالإمكان احتواء الموقف، والحيلولة دون تمادي (القصيمي) في الغي، ولكن عنف المواجهة عَمَّق الخلاف، وزاد من نفور (القصيمي).

---

(١) تاريخ المقال: ٦/ ٨/ ٢٠١٣

أما مشكلة (اقتحام الحرم) فشيء آخر، فوجئ به المشهد العلمي، والديني. والغريب في الأمر أنّ مثل هذه الإزعاجات تمر بالبلاد، ثم لا تلبث أن تخبو دون آثار جانبية.

أما اليوم فالأمر مختلف جداً، فالتنازع المخيف ينبعث من كل زاوية، وكل كاتب يرى أنه أمة وحْدَه، وأنه أحق برسم خارطة الطريق للأمة. والمؤسسات المعنية بضبط الإيقاع كـ[خراش] الذي تكاثرت عليه الطرائد، فما يدري ما يصيد.

ومما يزيد في استحكام حلقات الإشكاليات ذلك التوتر غير المبرّر، واستفحال مفهوم: إنْ لم تكن معي فأنت ضدي. وسلب المخالف أبسط حقوقه، والقول في حقه بدون تثبُّت، والاحتقان، والارتياب، والخوض في الثوابت، والمسلّمات. وتلك من الظواهر السيئة التي صَدَّعت وحدة الأمة الفكرية، ورفعت درجة الحساسية.

ولما كانت السياسة تقوم على المصالح، والدين يقوم على المبادئ والمواقف، أصبحت الإشكالية أشَدَّ استحالة. فالمتديّن يريد إيقاف عجلة التغيير السياسي. والسياسي يُريد أن يعصف بالمبادئ والمواقف، وكلٌّ يدّعي أنه الأحق بإدارة الكون.

والتوفيق بين السياسي، والديني ممكن، ولكن الأطراف تبحث عن الانتصار، والأثرة، ولا تهتم بالحق، ولا يسعدها أن يجري الله الحق على لِسانِ غيرها.

ولما كانت بلاد الحرمين تمتلك مثمّنات حسِّية، ومعنوية، ومنجزات حضارية، وتنعم بالأمن، والاستقرار، والرخاء. وجَبَ على كافة أطيافها أن يَسُودهم ميثاق شرف، لا يجوز تخطّيه تحت أي ظرف.

دعونا نجادل، ولكن دون احتقان، أو توتر. ودعونا نحاور، ولكن دون اتهام، أو تصنيف. ودعونا نفكر في شأننا كله، ولكن دون صدام، أو صراع. ومن يُحِبُّ الخير للبلاد والعباد لا بُدَّ له من شعرة معاوية عند الجذب والإرخاء، ومن يُحِبُّ اللهَ فعليه أن يتبع الرسول - ﷺ -، ليحبه الله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، وليس شرطاً أن تكون التبعيّة للرسول الله ﷺ مرتبطة برؤية فلان من الناس. فالصحابة رضوان الله عليهم اختلفوا فيما بينهم، واختلفوا مع رسول الله - ﷺ -. ولكن المصلحة العليا تمثِل ميثاق الشرف الذي ننشده، ومن ثم تتدخل في الوقت المناسب، لتفك الاشتباك، وتعيد الأمور إلى مسارها الطبيعي. إنّ الفكر المتوتر لا يمكن أن يحسم المواقف لصالح الجماعة، والفكر المرتاب المتردّد الشكوكي يفرق كلمة الأمة، ولا يزيدها إلاّ خبالاً، والمؤسف أنه هو السَّائد.

لقد توتّرت العلاقة بين [العروبة] و[الإسلام] وأصبح القوميون العرب يؤصلون لوجودهم بنفي الإسلام. ولو أنهم واءموا بين تلك الثنائية المتلازمة، لكان خيراً لهم. إذ لا عروبة بدون الإسلام، ولا إسلام بدون العروبة.

وفي ظل هذا التنازع تفرّقت السبل بـ[طه حسين] و[ساطع الحصري] و[ميشيل عفلق] و[قسطنطين زريق] . وعلى الرغم من وعي أولئك لرؤيتهم، إلاّ أنهم لم يتمكنوا من استغلال القواسم المشتركة، ليتخطّوا بالأمة محنة التشرذم التي فتحت شهية القوى الاستعمارية، لاستغلال الوهن والحزن الذي يجتاح عالمنا. ومثلما امتحنت الأمة بتنازع العروبة والإسلام جاء ما هو أدهى وأمر. فالعلمانية، و[الديمقراطية] و[الليبرالية] دعوات أدارت الرؤوس، وصَدَّعت وحدة الأمة، وأذاقتها لباس الذل و الهوان. فيما لم تتهيأ أجواء الأمة لأيّ دعوة من تلك الدعوات، ذلك أنّ الإسلام كامن في الفطر السليمة، وليس من السهل اجتثاثه. والمتعلّقون بتلك المبادئ يرون أنها لا تكون في ظل الإسلام، مع أنه

بالإمكان استغلال القواسم المشتركة، وترك الرأي العام دون إثارة لمشاعره، و[لو ترك القطا لنام] .

شمولية الإسلام، وعالميته قادرتان على التفاعل مع تلك التيارات السياسية الحديثة، ولو أنّ دُعاة القومية أو[الليبرالية] أعطوا الإسلام حقّ الوجود الكريم، وتفاعلوا مع ذويه لكان خيراً للجميع.

إنّ علينا - وقد نَجَّانا الله من الانقلابات العسكرية، والثورات الشعبية - أن نتصالح مع أنفسنا.

وكيف لا يتأتى ذلك؟. والبعض من أمتنا العربية تَصَالَح مع أَعْدائِه المُغْتَصبين، دافعاً بالتي هي أحسن، بحيث استطاع أن يأخذ نَفَسَه، وأن يفكر بذاته، وأن يدفع عن عشيرته غوائل الدهر.

إنّ على كافة المفكرين أن يدركوا أنّ الإسلام قضية أزلية، ومن ثم عليهم أن يعيدوا قراءته من جديد، ليواكب المرحلة المُعَقَّدة، وكيف لا يتأتى ذلك، والرسول - ﷺ - بَشَّر بالمبْعُوث على رأس كل مائة سنة، كي يُجَدِّد للأمة أمر دينها.

فليحقق المفكرون هذه البشارة، وليعيدوا النظر في رؤاهم، وتصوُّراتهم، ولا يجعلوا الإسلام عقبة في طريقهم، وهو الأقدر على استيعاب المستجدات. وفشل المشاريع السياسية الإسلامية، لا يعود إليه، وإنما يعود إلى ذويه الذين لم يحسنوا إدارة الأزمات من خلاله. وحين نختلف مع حزب، أو طائفة ترفع شعار الإسلام، فإنّ من واجبنا استلال الإسلام من الصراع، كما تسلّ الشعرة من العجين. ذلك أنّ الإسلام شيء، ومعتنقيه شيء آخر.

معضلات قراءة النص .. ! (١) [(١)]

غُمِرتْ المشاهدُ النقدية في الوطن العربي بطوفان من المذاهب والتيارات والظواهر: الإبداعية والنقدية.

حتى كِدْنا نقطع صلتنا بتراثنا. بل وجدنا من ينقم عليه، ويراه معوقاً للآخذين بعصم المستجد. والمشهد النقدي سِيءَ من الموالين والمناوئين للتراث، على حد سواء. ذَلك أن الانكفاء على الذات، والاستغناء بما سلف انعزالٌ مُخلٌّ بالأهلية.

ولايقل عنه سوءاً استدبار التراث، وإقصاؤه. والخيرون من يَلِجُون سَمَّ الخياط، بحثاً عن أيَّةِ إضافة تُجَسِّر الفجوة بين التراث والمعاصرة.

فالحضارة الإنسانية فضاءٌ رحب، يَسْتوعب كُلَّ الحضارات. وآنفاً قلت، ولمَّا أزل مُصراً على القول: بأن كل الحضارات تتعالق مع ماسواها. فالحضارات يكمِّلُ بعضُها بعضاً. ويكفي استحضار ثلاث مقولات شرعية، لتكون مطمْئنة لاستقبال الآخر، والتفاعل معه.

المقولة الأولى: حديث: «**إنما بُعِثْتُ لأتَمم مكارم الأخلاق**».

والمقولة الثانية: حديث: «**الحق ضَالَّة المؤمن**».

والمقولة الثالثة: وصْفُ الرسول ﷺ الإسلام بأنه لبنةٌ في قصر منيف.

وإذ نختلف مع الموغلين في مقولة: - الإسلامُ مُحَصَّلَةُ إرث جاهلي، فإننا نستشعر استيعاب الإسلام للكثير من الحضارات القائم منها والحصيد.

هذه الإشارات اللاَّهِثَة تأكيدٌ على أهمية سَماع الآخر، والأخذ بأحسن ماعنده، فالحضارات الإنسانية لايُحْكَمُ بفسادها المطلق، ولا بخيريَّتِها المُطلقة، ومن ثم فلا مجال للاعتزال. وفي الوقت نفسه لامجال للذوبان في الآخِرِ، وطَمْس المعالم.

والمتوازنون هم أولئك الذين يُحْسنون التعامل مع مُسْتَجدَّات الحضارات الإنسانية. بحيث يَذُوبُ فيهم مايأخذون، ولا يذوبون فيه، ويتفاعلون معه بندية، ولا يَنْفعلون إزاءه، ويرحلون بالتراث، ولايرحلون إليه، ولما كان الحراكُ الأدبيُّ- بشقيه: الإبداعي، والنقدي- شطراً من اشكاليات التواصل مع الآخر، كان لزاماً على المقاربين لهذه الإشكالية، أن يحسنوا إدارة مايترتب على ذلك من أزمات، شَغَلَتْ المشاهِد، وأهْدرت قدراً من الجهد والوقت، دون التوصل إلى حلول توفيقية، تتفرغ في أجوائها النخبُ، لمزيد من التأصيل للمعارف، والتحرير للمسائل.

وتَحَفُّظُنا على فيوض المناكفات بين المحافظين والمجددين، والمجددين والحداثويين، لايحول دون العدل في الحكم، وتقصي الإضافات التي جادت بها جهود الخصوم وقرائحهم. فالاحيائيون استحضروا التراث، وأعادوا قراءته، ووطؤوا أكنافه، وجعلوه في متناول أيدي الدارسين: تحقيقاً، ودراسة.

والمعاصرون جَسَّروا الفجوات بين العربي الخالص، والغربي الخالص. وإيجاف التبعيين مِنْهم باقْلامهم والسنتهم على الأدب العربي أثار حميَّة الأدباء والنقاد الإحْيائيين، للدفاع عن حَوْزة الأدب واللغة، والنهوض بمشروع إحياء التراث، ليكون فيما بَعْد ظاهرةً عُنِيَ بها المستشرقون، الذين عرفوا قَدْره. لقد أصبح في متناول أيدينا تُراثٌ كاد يطويه النسيان، ومُسْتَجِدٌّ لو لم يَجْلِبُه المتيَّمون به، لظل بعيد المنال.

---

(١) تاريخ المقال: ٢١/ ٥/ ٢٠١٣

ولا سيما أن لفيفاً من النقاد والدارسين لايجيدون لغاتٍ أخرى. واعتمادهم على الترجمة، يحملهم على التماس مخلَّفات هذا الصراع، ليُكْمِلوا به نقص الترجمة، وتفاوت المترجمين.

ثم إن الصراع إكسير الحياة، فلا حياة بدون سُنَن التدافع، والتداول، وتبادل المواقع. وعلى الوجلين من هذا الاندلاق المَعْرفي، والاستفاضة للمستجد، أن يُثَبِّتوا أفْئدتَهم، فما في الأمر مستنكر، ولا مخيف.

وعلى ضوء ذلك تَمَنَّيْتُ أَنْ يَصْرف المعنيون شَطراً من الجهد والوقْت للتأصيل والتحرير، ليكون المشهدُ على بينةٍ من أمْره، فلا مجال للاعتزال، ولا قدرة على نفي الآخر. ولا سيما أن الكون أصبح قرية ذكية تداخلت فيها الأشياء إلى حد الخلطة المستحكمة.

والمتابعون لفيوض المستجد، عند غياب التأصيل والتحرير لايملكون التوازن، وإعطاء كلِّ ذي حَقٍّ حقه. فللتراث حَقُّ الرحيل به، لا الرحيل إليه، وللمستجد حقُّ الاكتشاف، والأخذ بأحسنه.

ومن يتهيب مقاربة المستجد، يَعِشْ أبد الدهر مُرْتهنا لماضيه، فيما يظل المستجد بين فِئتين: فئةٍ تذوب فيه، وتتنكر لماضيها، وفئةٍ تتخوف منه، وتتكفئ على نفسها. والخيرية فيمن يَخْفِق بجناحي التراث والمعاصرة. ولن يتحقق ذلك إلا بالتأصيل والتحرير الغائبين عن المشتغلين بالتراث والمعاصرة، وبخاصة النقاد بوصفهم القراء الحقيقيين للنص.

من هنا عَنَّ لي أن أخوض مع الخائضين في ظواهرَ شغلت المشاهِد، وألْهتْها عن حفظ التوازن، أملاً في أن نجد من يَرْحُبُ صَدْرُه للمستجد، ويُبقي على تراثه، ليحفظ التوازن، وتلك معادلة صعبة، لايؤتاها إلا ذوو العزمات، والأدباء والنقاد المتميزون هُم الذين يَمُدُّون بِسبَبٍ إلى التراث، وتَغْدو أعينُهم مُسْتَشْرفةً للمستقبل.

و[قراءة النص] من تلك الظواهر التي حَفَلَتْ بها المناهج الألسُنِيَّة. والقراءة عَتَبَةُ الافتتان، ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ٤]، وما أختلف الناس إلا من بعد ما أقدموا على قراءة النصوص بطرائق متعددة. ولو ألممنا بنظريات المعرفة، لاسْتَبَنَّا فتنة القراءة.

وأمام طوفان المناهج، لابُدَّ من الضوابط والقواعد والأصول، وهي عين التأصيل والتحرير، فلو أُصِّلَتْ المناهج، وحُرِّرت الآليات، ووحِّدت المصطلحات، وحُدِّدَت المفاهيم لما تفرق الأدباء والمفكرون، ولما تناسلت الملل والنحل من عباءة القراءة. ولَمَّا تزل مُحاولة الاحتواء لهذا التعدد قائمةً، وسبيلها التأصيل والتحرير.

وَلقد أشَرْتُ من قبل إلى تحولات مركز الكون النقدي، وقلت: إن السلطة المطلقة كانت للمنتج، فهو المُتحكِّم بالنص، وبالمتلقي، وما على المتلقي إلا القبول بمراد المنتج. هذه السلطة نشأ في ظِلِّها [المنهجُ التاريخي] الذي يَتَقَصَّى شخصية المنتج، وبيئته، وأحواله: النفسية والاجتماعية، ويستشف من أنساقه، ومن أجواء النص المراد.

فلم يكن النص، ولا المتلقي مُهمَّين، ولا مُهيمنين، ولقد كانت لهيمنة المنتج آثارٌ جانبية، تجاوزت تحرير المنهج التاريخي، إلى تأصيل مناهج أخرى، ذات صلةٍ بالمنتج، كـ[المنهج النفسي] الذي تبناه لفيف من النقاد أمثال [عباس محمود العقاد] و[المنهج الاجتماعي] الذي تبناه [طه حسين] . و[اللانْسُونِيَّة] التي تبناها [محمد مندور]، ولا عِبرة بفلتات الأقلام المواكبة لتلك المناهج، إذ جاءت محاولات فَرْدية، غيرُ واعية، كادت تُحَيِّد المُنتج قبل بروز المناهج الحديثة، التي أماتت المؤلف، وكأنها ضاقت ذرعاً بِتسلُّطه. والخطرات لاتَرْقى إلى مستوى النظريات، وإن أرهصت لها.

وحين جاءت [الألسنية] بكل مسمياتها، وتفريعاتها، وتناسل المصطلحات من عباءتها، وارتفع شأن اللغة، نُحيِّ المُنتجُ، وفصل عن نصه، بل حكم بموته، لتسقط سلطته. وأصبحت البِنْية اللغوية حجر الزاوية، وتتابَعَتِ المناهج النقْدية من [تفكيكية] إلى [تأويلية] إلى [تحويلية]، إلى [تداولية]، وظهرت مُصْطلحات تتعلق بالعلامات، والسياقات، والأنساق، وأصبح النَّصُّ سَيِّد الموقف، لا يساويه في العملية الأدبية شيء. فالعمل الإبداعي يُحَلَّلُ بوصفه لغة مَكوَّنةً مِن حروف، وكلمات، وجُمَلٍ، وعبارات، وأساليب، واسْتُدعْيت الصوائت والصوامت والشعرية والتداولية والتفاوضية، لتعزيز مكانة اللغة.

وأخيراً انتقلت السلطة إلى المتلقي، بحيث أصبح مبدعاً رديفاً، وظهر مصطلح ״علم الدلالة״، وتناسلت من بعد آليات نعرف منها وننكر كـ[النقد الثقافي] على سبيل المثال.

ومن شاء أن يتناول الحركة النقدية، وتحولاتها، فلا بد أن يلم بالحركة النقدية في كل من [أوروبا] و [أمريكا] لأن نقادَهُما حَذَامِ النَّقْد، والقول ماقالوه. وذلك مكمن الخطأ، إذ يجب استتنان منهج، واتخاذ آليةٍ، تمتص أنساغ المشاهد كلها، فالتراث النقدي جدير بالحضور، وتقاسم السلطة مع المستجد.

فليس يَعيب مشاهدنا استيعابُ المستَجِدِّ ومبادراته، ولكن العَيْب ألا يكون للنَّقد العربي القديم حضورٌ فاعلٌ، ولا سيما أن له آلياتٍ دقيقةٍ اهْتمت بالبنية اللغوية. كـ[النحو] و[الصرف] و[البلاغة] فالأوْليان يهتمان بصحة البناء، والثالث يهتم بجمالياته. فيما يأتي علم [العروض] و[القافية] مُهْتماً بالإيقاع الجميل. ومتى اتسعت مناهج النقد القديم للعناية بالبناء اللغوي، كان لزاماً على نقادنا أن يصتصحبوه، ليأخذ من النَّقْد الغَرْبي أحْسَنه.

على أن المذاهب النقدية كـ[التفكيكية] لاَتخلو من جُذُور فَلْسفيَّة، ليس هذا مجالُ استجلائها، ويقيني أن الظروف التي أنشأت مصطلح [التأويل] في التراث قريبةٌ من ظروف نشأة مصطلح [التفكيك] في الغرب.

وليس مهما لدى الناقد العربي تَلَبُّس أيِّ مذهب نقدي بنوازع فكرية، أو فلسفية، متى كان النَّصُّ المستهدف مُنْتَجاً بَشرياً. فالخطورة في اقتراف خطيئة تفكيك النص القرآني، بوصفه نصاً مقدساً، ذا بُعْدٍ عَقَدِيٍّ، أو تشريعي. ولقد اقترف أمثال [أركون] و[نصر حامد أبوزيد] خطيئة التعامل مع النص القرآني من خلال مناهج الألسنية وآلياتها. على أنّ المذاهب الكلامية كـ[المعتزلة] اقترفوا ذات الخطيئة، وذلك حين توسلوا بالبلاغة لصرف النص القرآني، عن دلالته المخالفة لمذهبهم.

ويدخل في التأصيل والتحرير تَحْديد المجال، وإدراك المحضور والمباح، وما من عالم تفسير سلفي إلا هو على علم بهذا التحايل المذْهبي، ولقد عَوَّل البعض على [المجاز] و [التأويل] الأمر الذي حَمَل المتشددين من السَّلفيين على التَّصَدي لأولئك. حتى لقد نُفِي المجازُ عن اللغة، فَضْلاً عن نفيه عن القرآن.

والحقيقة أن [المجاز] و[التأويل] ظاهرتان لغويتان مَوْجُودتان في الشعر العربي، والقرآن الكريم على حد سواء. واستعمال المُبْطلين لهما لتحريف الكلم عن مواضعه، لايُخَوّلنا نَفْيهما عن اللغة، ولا عن مُسْتَعْملِها.

والقرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، ومن كمال اللسان العربي أن يتسع للمجاز والتأويل، لانهما من ظواهر اللغة، وجمالياتها، و ثرائها الدلالي، ومن عوَّل عليهما لتوصيل باطله، يؤخذ بجريرته.

أما [التفويض] فليس وجهاً بلاغياً، ولا يمت إلى اللغة بصلة، ولا يَسْتَنْبطنه النص الشرعي، ولا الإبداعي، وإنما هو نوع من التوقف، وتعليق الدلالة، ثم إنه لايمارس تحقيقه عبر الآلية النقدية.

وحين نَقْطَع بأن النَّقد العربي الحديث مُتَلَبُّسٌ بالمستجد النقدي الغَرْبي نكون مضطرين إلى التَّعرف على نظريات ذلك النَّقْد المُهيْمن. ولعدم انضباط الترجمة، فقد تَحَوَّل المصطلحُ النقديُّ إلى اشكالية معقدة، وقراءة كتاب [اشكالية المصطلح في الخطاب النَّقْدي العربي الجديد] للدكتور [يوسف دغليس] يَكْشف عن أبعاد الأزمة التي لم نُحْسِن إدارتها.

فلو نظرنا إلى حقول المصطلحات لوجدنا فيها اختلافاً كثيراً، فالحقل [البنيوي] تَتَنازعه اللغة والموضوع. والحقل [الأسلوبي] يتنازعه التركيب والانزياح، والأسلوبية بكل دقائقها.

والحقل [السِّيميائي] تتنازعه العلاقات، والتشاكل، والشعريَّة، ومفاهيمها الهلامية.

والحقْل [التفكيكي] يتنازعه التأويل بمفاهيمه العربية والغَرْبية والتناص.

وهكذا نجد أن دائرة الإشكاليات تنداح، كلَّما تلقَّف أدِيْبُ أو ناقد مُصْطلحاً مترجماً بِعِدَّةِ صِيغ، وبِعِدَّة مفاهيم.

والعالم العربي يتخبط في عمليات الترجمة، ولكل مُتَرْجمٍ طرائقه في صياغة المصطلح، ومَفْهومه للمقاصد.

معضلات قراءة النص.. (٢) (١)

ومن المُتَعذَّر في ظل هذه الفَوْضى غير الخلاقة تَوحيد المصطلحات النَّقْدية. ولكي نُوقِف هذا التشرذم، لابد من تنسيق عَرَبيّ مُوَحِّد، يَضع للمصطلح صِياغةً واحدةً، وتعريفاً واحداً، ومفهوماً واحداً، سواء تُرْجم إلى اللغة بما يناسب النص الأصلي، أو نقل دون تعريب، أو عُرِّب على صيغة صرفية. وعلى الأشْكال الثلاثة قد لايُضْمن الاتفاق.

فلقد وجدنا في النقل اللفظي اختلافاً كثيراً، فضلاً عن التعريب، أوالترجمة. ولكيلا نكون متشائمين احباطيين، فإننا نشير إلى مُحاولات جادَّة من بعض المَعْجَمِيين، لتفادي هذا الاضطراب، ولكنها جهود مُبَعْثرة، وغير متواصلة. وفي مقدمة هؤلاء العلماء [عبد الواحد لؤلؤة] و[الشاهد البوشيخي] و[أحمد مطلوب] و[عبد السلام المسدِّي] وآخرون، تناولوا جوانب من الاشكالية، مستشعرين خطورتها، وضرورة تفاديها، ولكنها جهود لم تُفَعَّل بالقدر الكافي، ولم يطع لها أمر، وإن كانت في مُتَناول أيدي المُهْتَمِّين من الأدباء والنُّقادّ.

قد يتوهم البعض أن ثمة فوارق بين المُصْطلح بَوصْفِه نصاً، والمنهج والآلةِ بوصفهما إجراءاً. والحقيقْة أن المنهج والآلة يُخلقان في رحم النص، ويُتَرْجمان مفهومه، ويحققان مقاصده. والمصطلح يقوم في المنهج والآلة كقيام الروح في الجسد، إذ لاقيمة للجسد بدون روح، ولا تصور للروح بدون جسد! وتلك العلاقة تُحتِّم على المتلقي أن يَسْتَكْنه المُصْطلح نصاً ومفهوما، ومقصداً، ومنهجاً، وآلة. وحين تتجسد تلك الرغبة، ثم لايكون المتلقي أمام مصطلح واحد بلفظه فضلاً عن مفهومه ومقاصده، يَضطرب عنده المنهج، وتَكِلُّ الآلة. وقد يأخذ ناقدٌ بمصطلح ومنهج، وفْق نصه الذي ظفر به، فيما يأخذ غيره بذات المصطلح، ومايصحبه من منهج وآلية مغايرة، لأنَّه تَلَقَّى الترجمة، أو التعريب، أو النقل، أو التعريف من مصدر مغاير.

والذين يتلقون من المترجمين الذين قد لايسيطرون على اللغتين المنقول مِنْها والمنقول إليها، ولايلمون بالأدب وتياراته، يَحْمِلون الدَّاء ويشيعون الخطأ.

ومن ثم أصبح من الضروري التأصيل والتحرير، قبل البدء في النقد من خلال تلك المذاهب الوافدة. ومكمن الخطورة في قراءة النص التشريعي بالمناهج والآليات الحديثة، ذلك أن النَّصَّ رسالة تَعبد ية وأحكامية وأخلاقية، ومناهج النقد الحديث حين تتحكم بالنص الإبداعي تكون الخطورة أقل، لأنها محصورة بين المنتج والمتلقي، والنص الأدبي لايحمل مادة دستورية ولاقانونية، ولاينْطوي على أمرٍ، أو نهيٍ، أو إقرار. وتلك بعض مصادر التشريع الإسلامي.

والأصوليون، حين يقولون: - [لا اجْتِهاد مع النص] فإن مفهوم النص لديهم يختلف عن مفهومه عند الأدباء والمبدعين والنقاد: المطبقين والمنظرين.

ومتى اختلفت الحقول المعرفية، اختلفت بالضرورة المسميات والمناهج والآليات. ومن ثم لزم أن يكون لكل حقل معرفي مصطلحه، ومفهومه، ومنهجه، وآليته. وذلك بعض التطلع إلى التحرير والتأصيل الغائبين عمن يتعاطون مع النص بمختلف حقوله المعرفية والإبداعية.

فالنص عند الأصوليين: هو الدليل البرهاني القطعي الدلالة والثبوت، ومن ثم لايكون القول الاحتمالي الدلالة والثبوت نصاً، فيما يكون النص عند الأدباء والنقاد مجرد القول الأدبي، سواء أكان قطعيَّ الدلالة، أو احتماليَّها. ولربما يقع بعض المتعالمين في الخطأ،

---

(١) تاريخ المقال: ٢٨/ ٥/ ٢٠١٣

حين يتصور أن تلك القاعدة الأصولية [لا اجتهاد مع النص] تمنع الاجتهاد. وآفة هذا التصور الفهْم السَّقيم. والنص الإبداعي أو التشريعي حين يتلقفه المتلقي، لايكون المتلقي بالضرورة بريئاً، ولايكون النص قَطْعي الدلالة، وذلك مكمن الخطورة.

فالمتلقي محكوم بأنساقه الثقافية، وانتماءاته الدينية، والفكرية. وقد يبلغ تَحكُّم الأنساق مَبْلَغ عُقْدَة الأبوية، ومن ثم يُعطل المتلقي قدراته الذاتية، وحَقه في الفهم، ليقرأ بعيون الآخرين، هذا فضلاً عما يقترفه النص من مراوغة، لاتمكِّن المتلقي من السيطرة عليه.

ولهذا قال الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رضي الله عنه:-

[لاتجادلوهم في القرآن فإنه حَمَّال أوجه] . فالنص يعتريه الغموض، والتعقيد، والغرابة، ولاتخلو جمله النحوية من تنوع مصادرِ الدلالة، فهنالك دلالة وضعية، ومجازية، وسياقية. وقد تكون الدلالةُ الوضعية مرتبطةً بأكثر من أصل. فأصول الدلالة تكون واحدة، كـ[جَنَّ] وتكون متعددة الأصول كـ[ثَبَر] إذ أصوله ثلاثة تعني:-

-السُّهُولة.

-والهلاكُ.

-والمواظَبَةُ.

ومالیس بأصل، كـ[بَيْص]، لأن بَيْص إتْباع لِحَيْص. وقد تكون الكلمة من الأضداد، كـ[الظن] فإنها تعني: الشك واليقين.

وكم من كلمة لو لَمْ يكن وَراءَها سِياقٌ يحدد مفهومها، لانقلبت إلى ضدها. وذلك بعض تحرير قراءة النص، التي لم يُعرها البَعْض أيَّ اهتمام، وهي من الأهمية بمكان، يقول الله تعالى:- ﴿وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٩] فرأسُ المال: يعني مابدأ به التائب في المضاربات الرَّبَويَّة. ويعني مافي ذمم المرابين قبل التوبة، بصرف النظر عما يملكه من المضاربات السابقة. وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠] يعني أن رأس المال هو ما في ذمم المرابين. فكأن قوله تعالى: ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾ تُصَاغ هكذا: -[فلكم رؤوس أموالكم التي في ذمم المرابين، وتحصيلُها يكون مع اليسار]، فوضع الزيادة الربوية، لايقتضي فورية التحصيل، مالم يكن المدين قادراً على السداد. علماً أن طائفة من الفقهاء لايأخذون بالتفسير السياقي، ويحكمون بالتخلي عن كل ماحصل عليه المرابي منذ أن اقترف خطيئة المراباة.

وتلك من المسائل الخلافية التي يراها بعض الفقهاء من الاخْتلاف غير المعتبر. ولسنا بصدد الحكم بصحة أحد القولين. ولكننا نشير إلى تأثير الدلالة السياقية، وهي من أهم قضايا تحرير قراءة النص وتأصيلها، ولك أن تجري الدلالة السياقية في آية الأنعام ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ ... [النحل: ٥]، فلما فرغ من المباح أكله، شرع بذكر المحرَّم فقال:- ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨] إذ لم يقل هنا [ومنها تأكلون] . وهذه الدلالة السياقية لم يأخذ بها كل الفقهاء. وهي من الأهمية بمكان، وبخاصة في نطاق التشريع، واستنباط الأحكام. تلك أمثلة، وليست فُتْياء، أردت منها إبراز أهمية السياق. ولم أرد فض الخلاف بين الفقهاء، وحتى لولم يأخذ البعض في هذه الدلالة، فإن المقتضى البنائي يحتم النظر اللغوي. والمفسرون يشترطون في المفسر توفره على اللغة وعلومها. ولن نمضي مع نظريات نسخ القرآن بالسنة، ولا مع العموم والخصوص.

ولما كان النص مُتَشَكَّلاً وفق نظام بنائي، وذا أبعاد دلالية وجمالية، فإن للدلالة عِلْمَها، وللجمال فلسفته، كان لابد من التوفر على امكانيات مناسبة لمستوى النص وعالمه، ليكون النص في إطار الممكن، ومالم يكن النص مُنْتَج ظروفٍ يَعِيْشُها المنتجُ والمتلقي، فإن الفجوة بين الطرفين ستكون عميقة وعصية على السيطرة. وقد تصنَّف عملية التواصل مثلما صُنِّفَتْ ترجمة الشعر، ووصفت بأنَّها خيانة، ولقد لمسنا تباين الظروف بين إنتاج النص، وتلقيه في تفسير القرآن الكريم. فالصحابه تلقوه بفهم يكاد يكون جماعياً، وحين دخل الناس في دين الله أفواجاً، وتَلَقَّى القرآن من لم يعيشوا أجواءه اختلفت القراءات، ونشأت الفرق والطوائف.

فقراءة النص محكومة بمؤثرات خارج البناء اللغوي، ولعلنا نستذكر أجواء النص، وتحكم هذه الأجواء وانطواءها على معطيات دلالية ليست مرتبطة بالدلالة المُنْبَعِثَةِ من ذات النص، وليس هناك فرقٌ بين الابتسار من النَّصِّ، وابتسار النص.

فالمُبتَسِر من النص يخل في أدبيات التلقي وأمانته، وابتسار النص هو الآخر يحول دون استكناه طبيعته وأجوائه وجغرافيته.

فالابتسار من النص تحريف للكلم من بعد مواضعه، وابتسار النص عزل له من أجوائه. ومالم يكن القارئ مستشعراً أهمية الأشواط الدلالية وهيمنة الأجواء، فإن القراءة ستكون غيرَ أمينة، وغيرَ مؤتمنة، وكم من قارئ متسطح يُقَوِّل المنتج مالم يقل، وكم من قارئ لما تحت السطور يكتشف دلالات لم تكن من أولويات المنتج، وقد تكون من مُضْمَراته.

وهذا [المتنبي] حين يُسْأل عن مُشْكِل شعره، يوجه السائل إلى الشيخ الأعور [ابن جني] ويقول:- اسألوا الشيخ الأعور فإنه أعلم مني بشعري، وإنه ليقولني مالم أقل. فما هي إذاً آليات [ابن جني] ومناهجه؟

إنها لاتختلف عن آليات غيره ومناهجه. وقدراته الزائدة مردُّها إلى معرفة [ابن جني] بنفسية المتنبي ومضمراته. و[العقاد] حين كتب عن [ابن الرومي] فاق غيره من الدارسين، ومرد ذلك فهمه الاستثنائي لنفسية الشاعر، وتوظيفه لآليات علم النفس، لتثوير النص الشعري.

إن العملية القرائية، مرتبطة بـ[علم الدلالة]، وبأجواء النص. ونفسيةُ المنتج. وتفاوتُ القراءات، تعطي مؤشرات تنفصل عن دقة المنهج وحِدَّة الدلالة.

وعلوم اللغة قد يلم بها من لايحسن استخدامها. وهنا لابد من استدعاء اشكاليات النحو المعياري، والنحو التطبيقي. وكم حافظٍ لمتون النحو لايحسن القول، ولا يتوفر على سلامة الكتابة. ولنا أن نقول: كم حافظ للقرآن، لايحسن كتابة نص أدبي.

ومعتصر المختصر أن قراءة النص لاتقل خطورة عن إنتاجه، وإذا كنا نشترط في الشاعر الموهبة، والثقافة، والموقف، والأجواء المساعدة لإنتاج النص، واللغة الشعرية. فإننا نشترط في المتلقي المتذوق والناقد، الهيمنة على النص، وذلك بالتوفر على الثقافة ذاتها، وتصور الموقف ذاته، واستكناه جغرافية النص، والالمام بأدوات اللغة من نحو، وصرف، وبلاغة وفقه للغة، ومعرفة بجمالياتها.

وجغرافية النص تدخل فيها الحالة النفسية، والاجتماعية، وحضور السلطات الثلاث: السياسية والدينية والمجتمعية.

أحسب أنني بهذا حددت المراد بالتَّأصيل والتحرير. ويقيني أن فوق كل ذي علم عليم.

الخويطر وسيرته الغرائبية .. ! (١)

ثلاثونُ مجلَّدةً أفضى بها المؤرخ الأديب، ورجل الدولة الأريب، معالي الدكتور عبد العزيز بن عبد الله الخويطر لمشاهد الأدب، ولما يزل في الكأس بقايا، فكأنه أبو المِسْك، وكأننا أبو الطيب.

والبقية هي ما في جوف الفراء، مما لم تأتِ بعد. وقد لا تأتي بالقدر الذي نريد، وسنظل نُردد بحرقة:-

أبا المِسْك: هل في الكأس فضلٌ أنا لـه؟

فـإني أغنِّـي مُنْـذ حـينٍ وتشْـربُ

وإذا كان [المتنبي] يُعَرِّض بطَلَبِ الولاية. فإننا نُعَرِّض بطلب مزيد من التجارب الثرية، التي يَطوُفُ حول حماها، ويعطي من أطراف القول ما لا يطلبه المستمعون. وستظل نفوسُنا تتطلع إلى مقدار ما تنطوي عليه ذاكرته المليئة بكل مثير، وبكل مفيد.

ونعود نَتَغَنَّى مع المتنبي:

ونَفْسِـي علـى مِقْـدار كَفَّيْك تَطْلُـبُ

فنفوسُنا تطلب من معاليه مقدارَ ما هو مُضْطلعٌ به من جَسِيم الأعمال. وسواء استجاب، أم عوَّل على أسلوب الحكيم، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ﴾ [البقرة: ١٨٩] فإن [السير الذاتية] كالشِّعر، لكل شاعر نَكْهته وأوْدِية هِيامه. فَمِن الكتَّابِ من يقول ما لا يفعل، ومنهم من يقول بعض ما يفعل، والقليل من يقول أهم ما يفعل. والمغرمون بالقراءة يتذوَّقون تلك الأقاويل. والذوائق هي الأخرى تختلف في استلطاف بعض القول، أو الاشمئزاز منه.

ولقد كنت، وما زِلْتُ شاهد أهْلٍ في هذا الفن الجميل، فن [السير الذاتية] أقروها: محكَّماً، ومناقشاً، ومشرفاً، ومتطوعاً، ليس لأحد عَلَيَّ إمارة، كما أنا مع [وسمٍ على أديم الزمن] . ولكل سيرة خصوصياتها، ومنطلقاتها، وأهداف أصحابها. والكثير منها زَبَدٌ يذهب جُفاءً. والقليل منها، ينفع المتلقي، ويمكث في ذاكرته، يقتات منه، كلَّما فاجأته الحياة بمصائبها.

ولقد كان لأدبنا المحلي، وأدبائنا النصيبُ الأوفى. وكثير من الأدباء وعِلْية القوم تداركوا الأمر، وسجلوا شطراً من حياتهم، وامتلكوا الجرأة في مَوْضعة ذواتهم. وأصعب شيءٍ على الحذرين تقديمُ أنفسهم بأقلامهم.

- فماذا يقولون؟

- وماذا يَدُسُّون في التراب؟

ولا سيما أن تزكية النفس مَذمَّة. وكَتَبَةُ السير تَجِيءُ سيرهُم على قدر قاماتهم. فَكم من أقزامٍ حاولوا عَمْلقة سيرهم على سيقان خشبية.

وكلَّما هممت بمَوْضعة نفسي، خشيت أن أكون من هذا الصنف. وقد يكون في الجعبة ما يفيد، ولكنَّ بعض الأفواه، لا تخلو من ماءٍ، يحول دون الإفصاح عما يُفيد. وكثيرٌ من أدبائنا، وعلمائنا، ومسؤولينا يساورهم خوف الرأي العام، ويثني من عزائمهم، الأمر الذي فَوَّت علينا كثيراً من الفوائد، وإن كنا على خير كثير.

(١) تاريخ المقال: ٤/ ٦/ ٢٠١٣

فحين حُظِيتُ بمناقشة رسالة [السيرة الذاتية في الأدب السعودي] للدكتور [عبد الله بن عبد الرحمن الحيدري] . أدركت أبعاد هذا الفن، ومبلغ أدبائنا منه، وتفاوت أدائهم، ومدى اندفاعهم في الاعتراف.

و[أدب الاعتراف] من ظواهر الإبداع الغربي، ولربما يكون امتداداً للاعتراف [الكنسي]، ليُنْعم [الكاهنُ] بالتطهير.

ولأن [السير الذاتية] هي مجال الاعتراف فإن طائفة من كتابها وقعوا فيه، من حيث لا يريدون.

وكاتب السيرة: إما أن يكون حَذِراً، بِحَيْثُ يطيل الكلام، حتى يُدْركه الصباح، فيسْكُتَ عن الكلام الأهم، أو يقول ما لا يريده المتلقي، ولسان حال المتلقي يقول:

قالوا: أقترح شيئًا نُجِد لك طَبْخه

قلتُ: اطبخوا لي جبةً وقميصا

ولربما تكون سيرة صاحبنا من هذا الصنف. ومن الصُّدَفِ الغريبة أنني حديث عهد بقراءة [من سَوانِح الذكريات] للعلامة حمد الجاسر -رحمه الله- وسيرته تلك من السير الانتقائية، ثم إنها مجموعة مقالات، كان ينشرها في [المجلة العربية] بطلب من الأستاذ [حمد القاضي] الذي استدرج بلباقته [الجاسر] و[أبا عقيل] وكلاهما جَمَعا ما كتباه في أسفار، تمثل السير الذاتية الممتعة.

والثلاثة [الجاسر، والخويطر، وأبو عقيل] يختلفون في بناء سيرهم، ومع ذلك فكل بناء له خصوصيته، ومشروعيته، وقيمته الموضوعية والأسلوبية.

فـ[ابن عقيل] يمتاز عنهما بالاعتراف، فيما يمتاز [الخويطر] بالتسجيلية، والتسلسل الزمني، وتَغْليب الإمتاع على الفائدة. وتبدو الجدِّيَّة الصارمة عند [الجاسر] . وآخرون يراوحون بين الجِدِّ والهزل، والتفاؤل والتشاؤم، والعنف والاعتدال، والنيل من الخصوم، والبساطة في العرض. نجد ذلك التفاوت عند كل من كتب سيرته، والدراسات التطبيقية تكشف عن تفاوت الأبنية الأسلوبية والموضوعية.

والسيرة الغرائبية [للخويطر] بطولها، ودقة معلوماتها، وتسلسل أحداثها، تكاد تكون الأوفى من بين مِئات السير الذاتية في الداخل والخارج.

ولا سيما أنها تحفل بِوُقُوعات، تراوح بين الأهم والمهم، وما دون ذلك من عوارض، لا يلقى لها المرءُ بالاً.

والخويطر معروف بطول نفسه، ودقة ملاحظاته، وغزارة معلوماته، وأناته، وعمق تجاربه، وأهمية ممارساته، وحرصه على التقصي. فهو قد أتحف المشهد الثقافي بسلسلتين ماتعتين: [أي بني] و[إطلالة على التراث] وله فيما بين هذا وذاك إلمامات ومُخْتارات عَجْلى، تنم عن ثقافة واسعة، واهتمامات متعددة. ولربما يكون نَصِيبُ تخصصه أقلَّ مما سواه. فمعاليه متخصص بالتاريخ، ولم يكتب فيه متطوعا إلا القليل. وهو حين يلم بقضايا التاريخ، تبدو تراثيته ومنهجيته ودقة توثيقه، وبراعة استنتاجه. نجد ذلك في كتابه عن الظاهر بِيْبرَس و[يوم وملك]، وهو وإن كان مجموعة مقالات، ذات علاقة بالملك [عبد العزيز] رحمه الله، إلا أنه أفاض عليها من تخصصه، بما يجعلها كالوثائق المَعْرفية.

وحين أكون من المحظيين عنده، فقد زودني بطائفة من تلك المؤلفات. وحقله في [مكتبتي] من أوسع الحقول، ويأتي بعد حقل العلامة [محمد العبودي] من حيث الكم، ولكل منهما مناحيه واهتماماته، وكل واحد منهما لا يُستغنى عنه، ولا يُستغنى به عما سواه، وكم كان بودي حين فرغ لتسجيل سيرته الحافلة بجلائل الأعمال أنه قَرَى لنا الأحداث والوقوعات، واتقى كشف المستور الذي أقسم على عدم إفشائه. ولقد سبق إلى تلك المهايع الاستثناء

[غازي القصيبي] -رحمه الله- وكتب [حياة في الإدارة] و[الوزير المرافق] و[سيرة شعرية] ونجح أيما نجاح في التعالق بين السيرة والرواية في [شقة الحرية] ومع ذلك لم يَتَسوَّر المحراب.

و[الخويطر] رجل دولة، وسيرته التي نتطلع إليها، ولم تكتب بعد تستبطن تاريخ أُمَّه، وهو الأقدر على تقديم هذا التاريخ المُشْرِق، بكل ما يَعُجُّ به من أحداث، وبكل ما يفخر به من مبادرات، رأبت الصدع، وجَمعت الكلمة، ونزعت فتيل الفتن.

والرحلات المكوكية بين [الرياض] وعواصم العالم تنطوي على حقائق، تكشف عن تجليات الوطن، وهو ضالع فيها، ولا أشك أنه يَعْرِفُ القدر المسموح به.

فهل سيكتب بَعْدَ سيرتهِ التسجيلية [الوسم] سيرةً تحليلية تقويمية، ترصد تاريخ البلاد من خلال ممارساته.

لقد رصد تاريخه الذاتي من خلال تواريخ الأحداث، والتسلسل الزمني، وذلك شطر من الحكاية، ولكن الحكاية الأهم لم تأتِ بعد.

وكما قلت: لَمَّا يَزَلْ للحديث بقايا. فمتى يبوح بها؟ والخويطر أمدَّ الله في عمره، قادر على أن يقول بعض ما نود، إذ لم يدرك شهرزاد الصباح.

أذكر أنني تمنيت على آخرين من لِداتِه كتابة تاريخ البلاد من خلال تدوين سيرهم، وضربت مثلاً بالراحل [عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري] رحمه الله الذي كَتَبَ وأطال الكتابة، ولكنه رَحَل وفي جعبته ما كان يجب الإفضاء به، وكل مواطن مُحِبٌّ لوطنه، يتمنى ألا يظل تاريخ وطنه المُشَرِّف في صدور الرجال.

وإنَ كان ثمة مَنْ نَسْتَعديه على الصندوق الأسود، فإنها [دارة الملك عبد العزيز] .

-فهل تَسْتَدِرُّ الدارةُ أَخْلاف ذاكرة تاريخ عتيد، يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق؟

وتبقى سيرة [وسم على أديم الزمن] ثَرْوة مَعْرفية ممتعة، أفاض بها علينا عالم مُجَرِّب مُعَمَّر، مَتَّعه الله بالصحة والعافية حتى يفضى بما نريد.

إلى متى يَظَلُّ أَمْرُ أمتِنا في سَفَال ..!؟[1]

عندما أتحدث عن أوضاع الأمة العربية، وتتابع انكساراتها، ثم لا أكون صادقاً معها، عاكساً لأوضاعها، مُحذِّراً من مصائرها، أكون في النهاية عِبْأً يضاف إلى أعبائها، ومُضِلاً يزين لها سوء أعمالها.

ورأس المقصرين في مسار الإمَّةِ المتعثر إعلامُها: المسموعُ، والمرئيُّ، والمقروء. إذ لم يَصْدق معها في مسارها المتعثر مرة واحدة. وحين يتلبس بالصدق، لا يطاع له أمر. وقد يُغْرِق بعض الصادقين في المثاليات، فيصبح امتثال أمره من المستحيلات. والمصير المفجع، والمفزع الذي بلغته الأمة العربية في شأنها كله، لا يحتمل المزيد، و من ثم لابد من العمل الجاد، لإيقاف هذا التدهور، وتَهْيِئَةِ الأجواء المناسبة للتفكير، والتقدير، والتدبير، أملاً في الوصول إلى الحل المناسب، الذي يَحْسِبُ للواقع حسابه، ويعي فِقْه التمكين.

**فالمريض الخاضع للعلاج، لابد أن تكون له فترة نقاهة، قد تطول، وقد تحتاج إلى تَحَرُّفٍ، أو تحيز. ولقد تكون الخطوة الأولى في طريق الرشاد مُتَمَثِّلَةً: بنبذ الخلاف. والاعتراف بالواقع. وتوقِّي المثاليات والعنتريات. ورفع الملفات الساخنة، والمفْتَعَلة. ورَدْم بُؤَر التوتر. والحيلولة دون تصدع الوحدة الفكرية. وتجنب البحث عن مناطات الأخطاء، تمشياً مع قول الله جلَّ وعلا: ﴿ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ﴾ [المائدة: ٩٥].

**فالشر متجذر، والمتلبسون به، يَسْعون جهدهم، لإجهاض أي تصرف حكيم. وللحيلولة دون إيقاظ شِرَار الخلق، يجب تحامي الصدام معهم. ولنا في تعامل البر الرحيم مع [المنافقين] قدوة حسنة. فالمُفْسِدون إن نيل منهم بالقول، أو بالفعل، استشروا، واستماتوا في إفساد المشاريع الإصلاحية، على أي مستوى، ومن أي جهة.

**ومن الممكن أن يدع المصلحون الفتنة نائمة، وأن يبدؤوا رحلة العودة إلى جادة الصواب، دون إثارة، أو مواجهة، تمشيا مع ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة: ١٠٥]، ومتى نهض المصلحون وباشروا إصلاح أنفسهم أولاً وتقديم الأسوة الحسنة من خلال ممارساتهم، انجرَّ العامة إليهم، وكثر سوادهم، وضيقوا الخناق على الخَطَّائين، والمقَصِّرين، والمترددين.

فالأسوة هي الخيار الأول، ولا سيما أن الأمة العربية لا تملك زاداً ولا راحلة. وقد تكون بوضعها الحالي كالمريض، والأعرج اللذين ليس عليهما بالقعود حرج. وتأثير الأسوة بوصفها خياراً حُرَّاً ومقدوراً عليه، أمكن في إشاعة القيم، وترسيخها. والفِطَرُ السليمة كالبذور المطمورة، تحتاج إلى أجواءٍ ملائمة، كي تنشق عنها الأرض، لتنمو، وتُوْرق، وتؤتي أكلها ضعفين.

والأرجح أن الإسلام انتشر بالقدوة الحسنة، والدعوة الحكيمة، حتى لقد دخل الناس في دين الله أفواجا، بالاقتناع الطوعي، والانصياع الذاتي. ففي ظل الأنظمة العالمية، والقوى الكبرى التي تحكم العالم، لم يكن هناك مجال للجهاد المسلح، وليس من مصلحة الأمة الإسلامية، أن تجعل الجهاد المسلح هو الخيار الأول، وإن كان الجهاد ذروة سنام الإسلام. وتأجيل الاضطرار، لا يلغي الحكم، ولا القيمة، ولا يخل بالأهلية. وخيار الجهاد

(١) تاريخ المقال: ١١/ ٦/ ٢٠١٣

مؤذن بتأليب الأعداء، والله حين يعلم الضعف، يخفف عن المكلفين، وفي ظل تلك الظروف، لم يبق إلا جهاد الدعوة والقدوة. ولقد أدت المراكز الإسلامية في الغرب دوراً إيجابياً في هذا المجال، ولولا [أحداث الحادي عشر من سبتمبر] لكان أداء تلك المراكز، والجمعيات، يفوق ما سواها من أساليب الصدام.

على أن أوضاع الأمة العربية لا تتيح لها فرصة التفكير بالدعوة، فضلاً عن الجهاد، فهي أحوج ما تكون لي التفكير في أحوالها المتردية، وإيجاد الحلول المناسبة، لإيقاف التدهور. فالزمن زمن جهاد النفس، إنه بحق الجهاد الأكبر.

ويقيني أن الدور الرئيس اليوم للكلمة الطيبة، والرأي السديد:

[الرأي قبل شجاعة الشجعان: هو أول، وهي المحل الثاني] .

ولن يبتدر المقتدرون أَزِمَّة الأمور حتى يُدركوا ما هم عليه، وما هم بحاجة إليه. فحين يكون بأسُ الأمة بينها شديداً، تكون أحوالها أولى بالمعروف، وأحق بالجهاد.

ومن جَهِل حاله ظَلَّ أمره في سفال. وبوادر ذلك الجهل أن الجهود مبذولة في التخلي عن المسؤوليات، وفي تبادل الاتهامات، وتعمد التصنيفات والتصْفيات، وهز الثوابت، وتدنيس المقدسات. فكل فئة تَدَّعي أنها بريئة من الخطايا، والخطيئات. وأن خطابها هو القول الفصل، الذي لا معقب له، وذلك الاعتقاد الخاطئ مؤذن بتعميق هوَّة الخلاف، وتأليهِ الأهواء.

ولو أن الأمة تقبلت قَدَرَها، وتحمَّلت أخطاءها، واعترفت بواقعها، وأخذت بالحلول المرْحلية، لكان بإمكانها أن تنهي زمن التيه، وأن تبدأ الخطوة الأولى في الطريق القاصد.

وأُمَّاتُ المصائب بِعَدِدِ المتَصَدِّرِين لقيادة الأمة، فكل مقتدر يرى أنه أمة وحده، وأن رأيه مكمن الحل، وأن المفاتيح السحرية بيده، وأن النجاة لا تكون إلا فيما يرى. فكأنَّه بمعتقده الأهوج، وتصوره الخاطئ، ورهانه الخاسر [فرعون] الذي صاح في قومه: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩] .

-وأين هو من الرشاد؟.

والساسة والعلماء والمفكرون والإعلاميون يتحملون ما وصلت إليه الامة من ضعف، وهوان، وقلة حيلة. ولو أن هذه النخب أدركت ما هي عليه، وحَمَّلت نفسها جرائر فِعْلها، وحاسبتها قبل أن تحاسب، لكان بإمكانها إيقاف هذا التدهور المريع.

إن الحقيقة المؤلمة تتمثل في استمرار التيه، والتخبط العشوائي، وضياع مصالح الأمة بين جرائر نخبها.

-فهل ينجو الساسة الدمويون الذين حكموا شعوبهم بالحديد والنار، وقتلوا شبابها، وأتلفوا ثرواتها، بحروب مجانية، لا داعي لها، وخلافات وهمية لا حقيقة لها، وأذاقوا شعوبهم الويل والثبور، في ظل أنظمة ثورية، لا تفكر إلا بالكر والفر، وشراء السلاح بخبز الجياع، وأدوية المرضى؟

فيما تظل الشعوب تبحث عن الأمن من الخوف، والإطعام من الجوع.

-فأين المشاريع التي أقاموها؟.

-وأين السياسة الحكيمة التي اتخذوها؟

-وأين الأمن والاستقرار الذي أشاعوه؟.

إن تصنيم الخونة، وتبرير مقترفاتهم، توطين للتخلف، وتزكية للسفهاء.

والشعوب في ظل هذه الأنظمة، لا تعدوا كونها قطعان ماشية، تساق إلى المسالخ. فلا مجالس نيابية، ولا انتخابات نزيهة، ولا تداول سليم للسلطة، ولا احترام للعلماء، ولا تسليم إذا قضى الله ورسوله أمراً.

ومع كل تلك الموبقات، يقترف الإعلامُ قلب الحقائق، وتبرئة المقترفين، وتجريم المتسائلين عن مقدَّرات الأمة، ومصائرها.

ولما ضاقت الشعوب ذرعاً بأوضاعها، ونفد صبرها، تململت من تحت ركام المصائب، لتستأنف انتاج مصائب أخرى، من نوع جديد. وكأن قدرها أن تكون الثورات لها عدوّاً وحزنا.

لقد أزيح الانقلابيون العسكريون بِطوفان المتظاهرين، أو بالمواجهات المسلحة، ودخلت البلاد العربية طائعة، أو مكرهة في حروب أهلية، أو طائفية. والذين جاءت ثوراتهم بيضاء، أو رمادية، ثم احتكموا لصناديق الاقتراع، لم يتيحوا للفائزين فرصة الأداء السليم، مع أن الشعوب أراقت دماءها، وعطلت تنميتها في سبيل لحرية، والانتخابات الصادقة.

وإلى جانب خلافات الثائرين، وتنازعهم على السلطة، وطغيان الانتماءات الحزبية والطائفية على الولاء للوطن، هناك مجندون يتعمدون التنافي والصدام، وتبادل الاتهامات، وهز الثوابت، وتدنيس المقدس، واستفزاز الرأي العام في زمن الفقر، والفاقة، والخوف، وتعسف دول الاستكبار.

إن التحريض على الجهاد، مع إمكانية الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والجنوح إلى السلام. وتفضيل الانتماءات الحزبية، والطائفية مع امكانية التعايش، والتعاذر. وتعمُّدِ فتح الملفات الممكن تأجيلها. واقتراف تصديع الوحدة الفكرية والاقليمية من خلالها. كل ذلك، أو بعضه كفيلٌ بارتهان أمتنا في ردغة الخبال. فجهاد أنفسنا أولى من جهاد الغير.

-فهل نحن منتهون؟

ذلك ماكنا نبغي.

متى تُلْقِي أُمَّتُنا عصاها، ويستقر بها النَّوى .. ؟! [(١)]

عندما يرفع الأطباءُ أنظارهم عن المريض الممدد بين أيديهم، ثم يحملقون ببعضهم: بِصمْت، وترقب، وذهول. تكون حالة المريض ميئوسا منها، ولم يبق إلا أن يُسَجُّوه، ويَنْفَضَّ سامرهم.

وحالة أمتنا العربية تُشْبِه حالة ذلك المريض.

وحالةُ النُّخَب، وأهْلِ الحل والعقد تشبه ذهول الأطباء وحيرتهم.

إذ لم يَعُد بمقدورهم في ظل أوضاع أمتهم أن يسمعوا. وإذا سمعوا، فإنه ليس بمقدورهم أن يفهموا. وإذا فهموا، فإنه ليس بمقدورهم أن يَتَمَثَّلوا.

وفي مثل تلك الحالة، يُفْقد التوازن، وتغور الحلول، ويَحَارُ القطا.

تلك حقيقة لا ينكرها إلا مغالط. فالأمة بَلَغَتْ الدرك الأسفل من الفتن، ولمَّا يستقر بها النوى.

لقد عِشْتُ سَبْعةَ عُقُودٍ من حياة أمتي المهيضة الجناح. ووعيت ستة عقود من ترددياتها في أمكنة سحيقة. واصطليت بلهيب خمسة عقود ماضية. ونَقَّبتُ عما سبق من أحوالها عبر الكلمة المدونة، فما وقَعَتْ عيني على بارقة أمل.

ولست أشك أن المتمردين على كافة أشيائها، إنَّما فاضَتْ أوعيتهم، وضاقت حِيَلُهم، ولم يَعُد باستطاعتهم احتمال الأذى، ورؤية جانيه.

وهاجس كل طيف يردد: - ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

فكأنهم بتلك المغامرات الطائشة، يمارسون التغيير المنشود، بحثا عن أطواق النجاة، بعدما تكسَّرت الألواح، وتَخَلَّعت الدُّسُر، وغرق المُسْتَهِمون على السفينة.

والأحداثُ الخلِيُّون، - وهم السواد الأعْظم - كذلك الرجُلَيْن اللذين أخبر من لا ينطق عن الهوى، أنهما يَنْطلقان إلى المعصية، فَيُخْسَفُ بأحدهما، ويَمْضِي الآخر إلى معصيته، غير مُكْتَرِثٍ بما حدث لصاحبه.

وكيف لا نتوقع ما هو أسوأ من ذلك، والوطن العربي من المحيط إلى الخليج مُشْتَعِلٌ بالفتن: الأمْنِيَّة، والفكرية، مُصاب بالهرج والمرج. والفارغون من أبنائه يَدُوكون ليلهم، حَوْل الفن وأحواله، والرياضة وأنواعها، والسياحة ومطارحها. فالمسارح مليئة، والملاهي مكتظة، ومدرجات الملاعب تموج بالمتفرجين والمشجعين المُتَهَلْوِسين، وسجون المخدرات، ومِصَحَّات الأمل، تعج بالأحداث والكهول، وحوادث المرور تَحْصد الأرواح. والخارجون على الشرعية تتلقفهم قنوات الضرار، والمتطرفون يَغْدِرُون بمن يقول: ربي الله. فيما يعيش القاعدون حالة من الخوف، والجوع، ونقص من الأموال والأنفس، والثمرات، يُقَتَّل الرجال، وتذل الحرائر، ويشرد الأطفال، وتدمر الممتلكات، وتُكَشِّر الطائفية عن أنيابها. فكأننا في زمن [التتار]، حتى لتبادر الضحية بنفسها، وكأنها ترأف بحال المعتدي، وتوفر عليه الجهد، والوقت، والمال. ومع وضوح اللعبة، يظل الممسكون بأزمة الأمور في أمْرٍ مريج، يُذْهِبُ ريحهم التدابر، ويفنيهم التناحر، ويفشلهم التنازع.

لقد مرت الأمة العربية بطامَّات كبرى، وقوارع عظمى، وضوائق خانقة، وكل نازلة نتوقع أن تكون عِبْرة وعِظَة، ولكنها تقع في أزمة مماثلة، ثم لا تستفيد مما سبق، ولا تستعد لما هو آت.

---

(١) تاريخ المقال: ١٨/ ٦/ ٢٠١٣

ومن ذا الذي يجهل المصائب المتجانسة التي تُحاك من الخارج، أو يصنعها الأبناء من الداخل.

ولما هيِّئَتْ الأجواء للخديعة الكبرى، وزُرِعت الخليَّة السرطانية في الأَرْض المقدسة، ارتفعت أصوات الاستنكار، وطيف بالقضية في كافة المحافل الدولية، وبلغ الاستياء ذروته. ثم بدأت المشاعر تهدأ، والخلافات بين أصحاب القضية تنشأ، وتحولت الألسنة الصالقة، وفوهات البنادق الحارقة من جهة العدو، إلى صدور الأهل، وسمعتهم. وأصبحت [دولة اسرائيل] الأقوى، والأقدر، على إدارة اللُّعْبة القذرة في المنطقة، والأمكن في تحريك الجيوش، ووسائل الإعلام، للتناوش بالسنان واللسان.

وكلما اسْتوى الشأن العربي على سوقه، ضَرَبت ضَرْبتها الموجعة، لتأخذ نَفَسَها عِقداً من الزمن، مُبيّتة النوايا السَّيئة، والمكر السَّيء، وعسى أن يحيق المكر السِّيء بأهله.

لقد انتفض الجزائريون في وجه[الفرنسيين]، والليبيون في وجه [الايطاليين]، والعراقيون والخليجيون، وسائر الدول العربية المُسْتَعمرة، وطُرد الاستعمار المتمثل بالثكنات والمناديب، واستفتحت الشعوب خيراً، حين حكمها أبناؤها. غير أن الأبناء ساموها سوء العذاب، وأذاقوها لباس الجوع، والخوف، والذل، والهوان. وتفرقت بهم الحزبيات، والطائفيات، والثقافات، وأنماط الحكم، وتقاسمهم الشرق الماركسي، والغرب الرأسمالي، وأسرفوا على أنفسهم، وعلى شعوبهم بتنفيذ اللعب السياسية القاتلة، وأعيدت في عهدهم اتفاقية [سايكس بيكو]، بحيث ذَرَّتْ بوادر تقسيماتٍ جديدة، بدأت بفصل [السودان] عن مصر، وفصل [دارفور] عن السودان، وتقسيم العراق إلى شيعة، وسُنّة، وأكراد، والحبْلُ على الجرار، إذ المسألةُ مسألةَ زمن. فهلا تغنى الآيات والنذر؟.

لقد سَجّلَتْ الأمة في سِجِلِّ شرفها خلال سبعة عقود ثوراتٍ دموية، ومؤامراتٍ قذرة، ودسائس دنيئة، وتنازعاً، وتنابزاً بالألقاب، وحروباً طاحنة بادرتها بالإنابة. إذ لم تدافع بها عن مبادئ، ولم تذد بها عن كرامة، ولم تحقق منها إلا الفقر، والفاقة، وزرع الضغائن، والأحقاد، وخوف الجار الجنب من جاره.

وهي اليوم تخوض أشرس معركةٍ وأخطرها، معركةٍ طائفية، لو قدر لها أن تنتصر، لطمست معالم العروبة والإسلام، ولأصبحنا [أندلساً] أخرى. هذه الحرب التي تقودها المجوسية الحاقدة، ويلتف تحت رايتها حزب طائفي، نسل من مزبلة [حركة أمل]، وعصابةٌ نُصَيْرية دموية، وشرذمة شيعية [مالكيه] .

-وكيف لا نرثي لحال أمتنا؟ ونحن نرى عاصمتي الحضارة الإسلامية: [بغداد] و [دمشق] تغوران في وحل الفتن، وتعاد فيهما حروب: التتار والصليبيين.

ومن يتصفح [تاريخ بغداد] و[تاريخ دمشق] بمجلداتهما الضخام بوصْفِهما التاريخ الحضاري للأمة العربية الإسلامية، ويقف على ما وسعته المدينتان من علم متنوع، وعلماء متخصصين، وقصور مشيدة، ومساجد عامرة، ومكتبات مكتظة، وآثار عربية، وما خلَّفتاه من كتب وموسوعات في مختلف المعارف، وما سجله التاريخ للخلافتين: [الأموية] و[العباسية] من فتوحات، ينتابه الحزن. فما تفعله الطائفية المتوحشة من حقد دفين، يفوق ما فعلته أمواج الصليبيين، والتتار.

والأنكى من القتل والتدمير تباين المواقف. فدول عربية تبارك، ودول تلتزم الصمت، وأخرى لا تزيد المقاومين إلا خبالا. ودول الاستكبار: إما داعمة بالسلاح، والتأييد، والتحذير من التدخل. وإما ملتزمة الحياد، مكتفية بتسجيل المواقف الإنسانية، والوعود المؤجلة، والمقاومون الشرفاء يتساقطون بنيران التحالف الطائفي.

-فأين الأمة العربية؟

-وأين جامعتها من هذا التحالف المكشوف؟

أليس من الحق والواجب تسليح المعارضة، وحفظ ساقتهم، والسعي في المحافل الدولية، لإيقاف المجازر، وتخليص منطقة الخليج العربي من حرب عربية فارسية طائفية، لا تبقي ولا تذر.

لقد بدت بوادر التحرك، ولكنها متأخرة، وبطيئة، وجميل أن تأتي في الوقت المناسب.

من يدفع «فاتورة» الانفلات العربي .. ؟! (١) (١)

أطَوِّف ما أطَوِّف ثم آوي إلى غرفة قعيدها [التلفاز] و[اللوح السحري] . فعَبْرهما تُزْوى لي الأرض! لتكون قرية ذكية. أعرف دِقَّها وجلَّها.

كان ذلك بِفُنْدق [الأنتركونْتيننتال] بعد حضور ندوتي اليوم الأول من [الملتقى التنسيقي للجامعات، والمؤسسات المعنيَّة بالعربية] الذي ينفذه [مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية] استعداداً لجولة ثانية، ينداح فيها الادعاء العريض، من المتحدثين الممثلين لتلك المؤسسات، المرتهنة للتنظير وحَسْب، إذ لا مكان للغة العربية في المطارات، والمستشفيات، والبنوك، واللافتات.

فالعربي في الخليج يكاد يكون غريب الوجه، واليد، واللسان، لأن اللغة في عقر دارها مَفْضُولة.

وكان عليَّ وقد فرغْتُ من لغط المؤتمرين، أن أمُرَّ بالمُهِمِّ من القنوات الفضائية، قبل النوم، للوقوف على آخر المآسي، والانكسارات العربية. وتلك وجبة استخبارية ملوثة، لابد منها لرجل مثلي، يَحْمِل همَّ أُمَّته، ويتمنى لو أطيع له أمر، لإيقاف هذا النَّزيف، وتجْفيف حمامات الدم المراق، كالماء في الأسواق، حتى لكأنه من سخائه، لا يثير اشْمئزازاً، ولا يحرك مشاعراً.

ونَوْمٌ في أعقاب هذه المشاهد المؤذية، لن يكون سعيداً، ولا مريحاً؛ وستكون أحلامه مزعجةً، وكوابيسه ثقيلة. وحين اضطررت إلى قطع تلك الجولة، وإقفال أجهزة الاتصال الفاضحة، تذكرت تعريف [نِيتْشه] للثقافة حين قال: - [هي ما تفهمه بعد ما تنسى كل الذي قرأته وشاهدته] . فلقد حاولت نسيان ما شاهدت، و لكنني لن أتخلَّص من تأثيره المنشئ للثقافة، كما يتصورها "نِيتْشه".

هذا الفهم الناشئ من السماع، والقراءة، والمشاهدة، ولَّد ذلك التساؤل، عَمَّنْ سَيدْفع [فاتورة] الانفلات العربي. وهو تساؤل مشروع، وبخاصة حين تجاوزت [الفواتيرُ] الثمنَ المتمثل بالدرهم والدينار.

فالمال في نظر العقلاء أيسر الأثمان، وأهونها، على أنَّ المتبادر إلى الذهن السائد هو الثمن النقدي. والحق أن الفاتورة ذاتُ شِقَّيْن:

-شق حِسِّي عَيْنِي نَلمسه ونشاهده، ولا نُوقى شُحَّ الأنفس حين نسمع ونرى تلاحق المدفوعات، مع أنها أهون الضررين.

-وشقّ معنوي نعانيه، ولا نعاينه، وهو الأنكى، والأمَرُّ.

والمتجرع لمرارة المآسي. إما أن يَدْفع الشِّق الأول: اختياراً، أو اضطراراً. وهو حين يدفع على الحالين، أو على أحدهما، يكون هو - أيضاً - ذا حالين:

-فإما أن يكون من جُناة المأساة.

-أو لا يكون.

ولكنه بالضرورة مُصطلٍ بحرِّها. وما أكثر الذين يتحملون الجرائر، وهم ليسوا من جناتها، على شاكلة [امرئ القيس] الذي قال بعد قتل بني أسَدٍ لأبيه:

[ضَيَّعني أبي صغيراً، وحمَّلني دمه كبيراً]

أو على شاكلة "الحارث بن عباد البكري" الذي جُرَّ إلى حَرْبٍ اعتزلها، وذلك حين قُتِل ولده غِيْلَةً، وقيل عند قتله على يد أشقى بني تغلب:-

[بُوء بِشِسْعِ نعل كليب]، فقال أبوه:-

---

(١) تاريخ المقال: ٢٥/ ٦/ ٢٠١٣

لـــــم أكُــــنْ مـــــن جُناتهـــــا عَلِـــــمَ اللهُ

وإنـــــي بِحَرِّهــــــا اليــــــوم صَـــــال

والخليجيون وحدهم الذين يُشْبهون هذين المَدْفُوعين إلى الحرب، والاصطلاء بحرها:-

[وما الحرب إلا ما علمتم و ذقتم]

والذين لا يحملون همَّ أمتهم لا يُحِسُّون إلا بالثمن النقدي. أما الشجيون فهم الذين لا يقيمون وزنا لـ[فاتورة] النقد. لأنها تقي مصارع السوء.

فراجمات الدرهم والدينار أخف ضرراً من راجمات الصواريخ، لأنها تُعَدُّ من باب ارتكاب أخف الضررين، ومن باب الدفع بالتي هي أهون. فالفُلْكِ المشحون بالنفط أهون من قطرة دم بريئة.

ولسنا بصدد الموازنة بين التكاليف، ذلك أن [أخاك مكره لا بطل] . ولم يعد أمام قادة الخليج خِيار، وهم في اللهب، ولمَّا يحترقوا، إلا أن يَرْمُوا بثقلهم. فالحرب الطائفية المجوسية إن حَقَّقت النَّصْر، كانوا الوجبة التالية. فحق إنسان الخليج أن يأوي إلى مأمن يَعْصِمه من القتل الهمجي. وقدرنا العصيب أن يكون هَمُّنا أُمَمِيًّا، وليس اقليمياً، ولا آنياً، بحيث تُقَوْقِعُنا الأنَوِيَّةُ. فَنَحْن أمة من المحيط إلى الخليج، منذ الناموس الذي أَلَمَّ بالرحمة المهداة، والنَّعمة المسْداة في [غار حرى] إلى تلك اللحظة التي نكتب فيها، أو نقرأ. ومن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم.

لقد تذكرت والذكرى مُؤَرِّقة، وأنا أكتب هذه التأوهات شاعرين، أدركا بوادر النكبة، وجَسَّداها، كما لو كانا حاضرين معنا في [ملتقى اللغة]، أو في أجواء الأمة المؤلم:-

-حافظ إبراهيم، الذي تَحَدَّث على لسان اللغة بما يَنْدى له الجبين.

-ومحمود غنيم، الذي جَسَّد الوضع الإسلامي بما تتقطع معه نياط القلوب.

وسيكون لي حديثٌ مستقل -إن شاء الله- عما جَسَّداه في قصيدتيهما اللتين تُولدان في كل يوم مرة، أو مرتين، لأن مأساة اللغة، ونكبة الأمة الإسلامية تولدان كل لحظة.

وإذا قلبنا ركام الفواتير، وتنوعها، وجدنا أن الخطورة تكمن في شِق [الفاتورة] المعنوي الذي نعانيه، ولا نعاينه.

فالإنسان الخليجي يَعِيشُ ربيعه حقيقة، لا ادعاءً، ولكنَّه خائف يترقب، ومن ثم لم تنقلب جيوشه على أُمرائه، ولم تثر شعوبه على سلاطينهم، ومع ذلك لما يزل جَسَدُه يتداعى بالسَّهر والحُمَّى، وكلُّ مكلوم يُوْقِظه لهمُومه.

لقد زلزلت الأرض من تحت الأقدام، أثناء المد القومي الاشتراكي، والبعث العربي، والتضامن الإسلامي، وقيل عن حكام الخليج فَوْق ما قال [مالك] في الخمر. ومات المُوجِفون في غيظهم، لم ينالوا شيئاً.

وظل الخليج كما الجبل الأشم، تتلاطم أمواج الفتن على سفحه. وفِتَنُه مِنْ قَبْل جاءت من الأشقاء، الذين وعوا الدرس، ولكن بعد فوات الأوان.

أمَّا اليوم فإنَّ الأمواج بلغت الزُّبى، والطوفان بلغ الذرى، والفتن تَنْبعث من كل جانب، تُذكيها الطائفية، والعنصرية، والحزبية، وصراع [الأيديولوجيات]، والمصالح، والنفوذ. زاحفة من المشرق، من حيث يطلع قرن الشيطان، وسَوْف يبوء المعتدي بإثمه، وإثم المُعتدى عليه، ولكنَّ الثمن سيكون باهظاً، والحَسْمُ بطيئاً. فقد يُمَحِّص الله الذنوب بالابتلاء: - ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾ و[لو ترك القطا لنام] .

لقد أيقظتنا هموم العِدَى، وكنا نظن أن بإمكاننا حين نوقظ النفط أننا قادرون على أن ننام نوم قرير العين هانيها.

[النفط] وإن كان لمَّا يزل متيقظاً، إلا أن لهيب الفتن، تَقْرِضُنا ذات اليمين، وذات الشمال. وذلك هو الثمن الباهظ الذي تتجرع الأمة العربية مراراته. والحرب الضروس في [دمشق] الأمويين، والفتن العمياء في [بغداد] الرشيد، والتناوش الدموي في [اليمن] التَّعيس، وتململ الفوضى في [لبنان]، والاضطرابات في [الكويت] و[البحرين] وبقايا الثورات في [مصر] و[ليبيا] و[تونس] كل ذلك رسائل واضحة لحكام الخليج، الذين لم يكونوا بعد على قلب رجل واحد.

والخليج اليوم آخر القلاع أمام الأحلام الصفوية.

فلنأخذ الأحداث بجد، قبل أن يفجأنا بأس الله بياتا، ونحن نائمون، أو يأتينا ضحى، ونحن لاعبون، ﴿فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

من يدفع (فاتورة) الانفلات العربي .. ؟! (٢) [(١)]

ومن المُسْتفيضِ أن (الفواتير) تنوَّعت، وتعددت، وأصبحنا نعرف منها وننكر. وانعكاسات الأوضاع العربية على أحوالنا باديةٌ للعيان. بل نكاد نشك في جَدْوى التمترس خلف طوفان النفط، ولربما نرهقه صَعُوداً، ثم لا نجده في ساعة العسرة.

وحين لا يكون، لا نكون. لأننا في نظر صُنَّاع الفتن، كما لونه وطَعْمه ورائحته: أسود، نتن، أجاج.

وتواصلُ الحروب الأهلية، والطائفية، والثوراتُ الحمراء، وحضورُ الاستكبار العالمي، وخَوْفُ الجار من جاره، كل هذا جعل المشاكل تسْتحكم حلقاتُها، ويَصعبُ احتواؤها.

ولقد أشَرْت من قبل إلى استباق "الصَّفوية" و"العثمانية" على المتردية العربية، لملء الفراغ الذي تركته مصر بخروجها على الصف العربي، بعد أحداث النَّكْسة، ومعاهدة (الكانب).

والصَّفوية الأخطر شدَّت عَضُدها الطائفية الشيعية، والعنصرية الفارسية، ورواسب المجوسية، ودول، وأحزاب تَظُنَّ أن رَحِمَ الطائفية آمَنُ مِنْ رحم الإسلام .. إن الخليج بأمْنه، واستقراره، ورخائه طريدةُ كل الطامعين، وهدفُ كل اللعب، وهو الذي يدفع (الفواتير)، ويتجرع المرارات. وإذا مُدَّت الأيدي إلى الغنائم، لم يكن بأَعْجلها.

والقارئ النبيه لأحداث التاريخ الإسلامي، يقف على المُصْميات، المتمثلة بالصراع العنصري بين (العرب) و(الموالي)، بَعْد أن جاء المُلْكُ العضوض. وبين (العرب) و(الفرس)، بعد أن أسهم الفرس في سقوط (الخلافة الأموية).

وحين استفحلت العنصرية الفارسية، تَوَسَّل العرب بالعنصر التركي، بعد ضعف العصبية العربية. وعلى يد الأتراك فَشلَتْ العروبة، وذهبت ريحها، وخرجت من قصور الخلافة، بعد مجيء عصر الدول المتتابعة. والتاريخ يُعيد نفسه، فإذا كانت (الأندلس) قد ضاعت بالتناوش بين الدُّويلات، فإن العرب يُمارسون ذات الطريقة التي مارَسَتْها الدويلات المتناحرة من قبل.

وكم نحن بحاجة إلى استعادة مقولة علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-: (أكلت يوم أكل الثور الأبيض). عسى أن نستبين النصح قبل فوات الأوان. لقد التَفَّ حبل الفجيعة على عنق الخليجيين، وتَعَرَّت الطائفية. وأطياف الخليج كفقهاء (بيزنْطة) في مِرَاءٍ ظاهر وباطن.

والراصد النَّبيه يرى أن الأوضاع العربية تُهرول باتجاه الهاوية.. والأعداء المتربصون يتحسسون مناطق الضعف للإجهاز على الطريدة المنهكة. إن الدول التي أُسقِطت أنظمتُها، لمَّا تزل تعيش أجواء الثورة، وحين لا تَحْسِم تلك المرحلة، تتعطل كل المشاريع، وتتجمد كل الحركات، إلا حركات التدمير والفوضى. ولما كان الخليجيون تُجْبى إليهم ثمرات كل شيء، وهم على شيءٍ من اليسار، ودَعْمُهم السخي يُغْني أشقاءهم عن استجداء الآخر، فإنهم في غفلة عما يدور في المشاهد.

ومن ثم دُبِّرت لهم المكائد، وأغريت نخبهم بفتح ملفات كانت مغلقة، وتَحَكَّم في طوائفهم، ومفكريهم، ومذاهبهم من لا يألوا جُهداً في الوقيعة بينهم.

والغريب أن الخليجيين ليسوا على قلب رجل واحد. ومحاولة الانتقال من التعاون إلى الاتحاد، تكاد تكون من أحلام اليقظة، مع أنها الفريضة الغائبة. إن هناك مُصْميات نَسْمع

---

(١) تاريخ المقال: ٢/ ٧/ ٢٠١٣

حسيسها، ونُراهن على أنها أعناق الفتن، تنهض من كل مجثم، ومع ذلك لم نرتب أمورنا، لنكون في مستوى الأحداث.

لقد نُبّه المُتدِيّنون، وضُخِّمت الأمورُ أمامهم، وألقي في روعهم أن كلَّ فعل هدفه الإقصاء، واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير.

ونُبِّه (الليبراليون) وأشْعِروا بأن المتدينين أعداء ما جهلوا.

وأذكيت الطائفية، وفُرّقت كلمة الأطياف، وصار بأسهم بينهم شديداً، عبر كافة وسائل الاتصال.

ولو عَقَلَتْ أطياف الخليج، وأتْقَنوا سَبْرَ قواعد اللعب القذرة، لكان بالإمكان تخطي المنعطف الخطير.

ولو تُرِك الخليجيون وشأنهم، لسارت أمورهم على ماهي عليه من قبل: ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾.

فنحن في (المملكة العربية السعودية) على ما كان عليه آباؤنا وأجدادنا، نعيش بمختلف أطيافنا، وطوائفنا، ومشاربنا، والمقيمين بيننا من غربيين في تلاحم، وتعاون، ووئام. وماكنا متناحرين، ولا مُسْتَعدين، ولا مُصَنِّفين، ولا متدخلين في شئون الغير، وما كانت الجهات الأمنية إذ ذاك بحاجة إلى متابعة أحدٍ أو مساءلته.

بل لم نكن نَعْرف إلا إداراتها الخِدْمية، كالجوازات، والمرور، والدفاع المدني، والأحوال.

أما وقد حَرَّكَتْ ضُعفاء المواطنة (أجِنْدةٌ) خارجيةٌ، فقد بَدَتْ وزارة الداخلية بشكل لم نكن نألفه من قبل.

ذلك لون من ألوان الانفلات العربي، ما كان الخليجيون يَسْتهدفونه، وما كانوا مضطرين إلى شيء منه.

لقد كان المهندسون الأجانب، والمنقبون عن النفط من الغربيين، يخالطوننا في الأحياء، والأسواق، وبطون الأودية، ومنابت الشجر. وكان أبناء الشيعة يملؤون الأسواق، والمتاجر، والمزارع، لا يُسأل أحد، ولا يُضارَّ أحد، ولا يُخَافُ أحد. كلٌ يعمل على شاكلته، وبين هؤلاء وأولئك الدعاة، والوعاظ، والمحتسبون، يدعمهم القاصي والداني، ويهابهم الجميع. وأفراد الحَسْبَة على معرفة تامة بحدود مسؤولياتهم، لا يشكُّون بأحد، ولا يتحسسون، ولا يتجسسون، ولا يسيئون الظن، ولا يتعدون حدودهم، وما من أحد يضيق بهم، أو يتذمر منهم. والمريبون يُخْفون خطيئاتهم، ولا يبدون صفحتهم. والحياة كلها هادئة مطمئنة.

أما اليوم فكل شيء قَلقْ، وكل طَيف مُحْتَقِن، والعدو يحرك هؤلاء وأولئك، ولا يَعْنيه بأي وادٍ هلك هذا، أو ذاك.

المصالح، والمطامع، ومناطق النفوذ هي التي تحرك الفتن، وتحرض كلَّ طائفة على أختها. ومع وضوح اللعبة فإننا عنها غافلون.

-فمن سيدفع (الفاتورة) المعنوية..؟.

الأنكى من كل ذلك أن بإمكان الخليجيين أن يبتعدوا عن الفتن، وبإمكانهم أن يتحدوا، ليحولوا دون التفاف الأفعى الطائفية على أعناقهم، ولكنهم لم يفعلوا.

وإذ تحملوا (فاتورة) الانفلات العربي، فإن عليهم أن يصطلحوا مع أنفسهم، ليتجاوزوا ما يبيته لهم أعداؤهم.

-فهل يَسْتَبينون النصح، ويَتداركون عبساً وذبيان قبل أن يتفانوا..؟.

كُلُّ من لاقيْتُ يَمْشِي وَجِلاً .. !![1]

عدت للتو من رحلة فرغت فيها لنفسي. لا لجيبي، ولا لفكري. وما أقل الذين يمنحون أنفسهم إجازة، يُروِّحون فيها عن قلوبهم، ويُمتِّعون بها مشاعرهم، تمشياً مع الأثر: - [ساعةً وساعةً] .

لقد كنا من قبل، لا ندري، ما السياحة! وما التَّرْوِيْح!.

فشظف الحياة، وشح الموارد استأثرا بكل الجهد، والتهما كل الوقت. وجيلي المُخْشوشِن اضطراراً لا اختياراً، والذي لم يعش طفولة مريحة، ولا شباباً مُرَفَّها، يستبق الزمن، ليعوض ما فات. وأنَّى له ذلك، وهو يَجِدُّ ويَحْفِد في الوقت بدل الضائع.

ولربما أكاد في تلك الغيبة أقطع صلتي بمن حولي، وبما حولي من الأناسي، والأحداث الجسام. وكثير من الناس من يشغله كِيْسُه، ويهتم بما حوله، وبمن حوله. مع أنَّ الترويح عن النفس، واللهو البريء مطلب جسدي، ومقتضى شرعي.

لقد كانت لي ذكريات عذاب في منتجع [بلودان] في شام الأمويين، أنقذها الله مما حل بأهلها المستضعفين. ولما لم يكن في بقاع الوطن العربي موطئُ قدم آمن، وجهت وجهي شطر المطارح الآمنة، سائلاً المولى أن يعيد لأرض العروبة أمنها، واستقرارها، ووعيها باللعب السياسية القذرة، لكيلا تؤخذ على غِرَّة. وهي قد أُخِذَت بائتة، أو قائلة. ولكن الأمل بالله متين: - [ويبقى العود ما بقي اللحاء]، وتفاؤلنا أن في اللحاء بقية.

وفي تلك الغيبة، غير [السِّرْدابِيَّة] على الملة الشيعية، لم أصحب معي إلا قبضة من أثر المفكرين، والسياسيين، في بضعة كتب، خفيفة الحمل ثرية النفع، من بينها كتاب [كنت شيوعياً] لـ [بدر شاكر السياب] . وهو مجموعة مقالات، نشرها تباعاً عام ١٩٥٩م في جريدة [الحرية] في بغداد، ثم جمعها، وأضاف إليها أحد عشر مقالاً، ثم أخرجها إلى الناس في كتاب مليء بالعبر، التي لها صلة بما نحن فيه من ترديات موجعة.

وحين عدت، وافر الراحة، وارف الأنس، وجدت بانتظاري ما لا يسر. فالأمة العربية مغلوبة على أمرها. وأحداثها الجسام تُصْنَع على عُيونٍ غير عيونها. وقدرها أن تخرج من فتنة، لترتكس في فتنة أخرى، أشد بأساً، وأشد تنكيلا. حتى لقد أيْقنتُ أن كل من لاقيت يخوض في حمامات الدم، ويمشي على ركام الجثث، ويَسِيخ في حمأة الخبال.

ومن الأحداث اللافتة للنظر، خليجياً، وعربياً: تنازل [أمير قطر] عن الحكم لنجله. وأحداث [مصر] الأليمة. واستمرار تردي الأوضاع في سوريا. واستفحال الطائفية البشعة.

واحتقان السنة والشيعة، بعد مصالحة وتعايش. وفيما دون هذا وذاك، تأزم الأوضاع في بقاع كثيرة من وطننا، المتخذ غرضاً لكل السهام المسمومة.

حتى لكأنه جسم [المتنبي] الذي اعتورته سهام المصائب، فصاح بها: -

أبِنْتَ الدَّهر، عِنْدي كُلُّ بِنْتٍ
فَكَيْفَ خَلُصْتِ أَنْتِ مِنَ الزِّحامِ؟

وحين أخذه اليأس، لم يزد على وصف حاله: -

وَكُنْتُ إذا أصَابَتْنِي سِهامٌ
تكسَّرتِ النِّصالُ على النِّصالِ

---

(١) تاريخ المقال: ٩/ ٧/ ٢٠١٣

واللعب السياسية تعيد نفسها، حذو القذة بالقذة، منذ [حملة نابليون] إلى أن تدرك الشعوب العربية أنها الطريدة المنهكة، وأن خلاصها يكمن فيمن تَخَطَّى بها رَعْي الأنعام إلى رِعاية الأنام.

وكتاب [السياب] الذي جمجم عما في نفسي، على الرغم مما فيه من العهر والكفر، يحكي خديعة الشيوعية له بمعسول الوعود. وهي خديعة تعيد نفسها في عالمنا المتذاكي في زمن الذكاء، ولكننا في غفلة عن هذا.

ولم يكن بُدٌّ من الإشارة إلى التحولات الطائشة في فكر [السياب] الحركي، لا في فَنِّه الأدبي، لأنها تتشخصن في أفكار البعض منا. وهي تحولات قاصمة، وغير متصورة. فلقد راقت له [جمعيات إلْحادية]، و[أحزاب شيوعية]، وهو إذ أنهكه البحث عن الحقيقة، فقد استهوته دعاية الأحزاب، والجمعيات. وإذا كان [سلمان الفارسي] - رضي الله عنه - قد طاف يبغي نجوة من هلاك فنجا. فإن [السياب] طاف يبغى نجوة من هلاك فهلك.

الجميل في كتابه الاعتراف الصارخ، والندم [الكُسَعِي] . غير أنه ظل متبعا لـ [كاذب مضر] .

والأجمل أنه حين لحق بـ [حزب توده الشيوعي] في [إيران] كشف عن عِلَّتين باطنيتين: -

-التبعية العمياء لما سماه [كعبة موسكو] .

-الشعوبية المجوسية الحاقدة على العروبة والإسلام.

ولن أدخل في تفاصيل ما يحدث الآن، وتلاقيه مع ما كشفته اعترافات [السياب] الذي خرج من حاكمية الإسلام، ولم يعد إليها.

والأحداث التي أشرت إليها، قُرِئَت على عدة مستويات، وبِعِدَّة رؤى. وعتبات القراءة: تؤدي إلى أحَدِ النَّجْدين.

وفتنة القراءة تزيد في التعقيد. لأن القُرَّاءَ لا يملكون البراءة، ولا الخلوص من أنساقهم الثقافية.

وإذا امتلكوها، فإنهم لا يتوفرون على القدرة والمعرفة. فهم: إما [مؤدلجون]، أو مغفلون، يتَّبعون كل ناعق. ونتائج القراءتين واحدة.

وفوق هذا فإن أمور عالمنا مرتهنة للفعل، ورد الفعل. فالنخب لا تبتدر الأمور، ولا تنطلق من قعر الواقع، وحراكها تبعي خالص التبعية. وهي حين تثار، تهتاج عُزْلا من فقه الواقع، والتمكين، والأولويات، ودرء المفاسد. وحراكها يساعد على استفحال المشاكل، والضلوع في التنازع، والفشل، وذهاب الرِّيح.

والأحداث التي مرت بها الأمة، أسهمت في تعميق الفرقة بين نخبها، وتشتيت الآراء، وتباين القراءات.

لقد مللنا القراءات المتسطحة، والقراءات المجامِلة، وضقنا ذرعاً بغفلة المؤمن، وجلد المنافق، والضخ العاطفي، الذي ينساب كالخدر في مشاعرنا، وأحاسيسنا.

إننا حين نختلف مع [الأدلجة] الحزبية، والأخطاء الإجرائية، والجهل السياسي، ونسعد بتخليص [مصر العروبة] من منزلق خطير.

فإنه يجب أن نقرأ ما تحت السطور، فالأمر لم يعد مجرد تنحيةٍ لفريق، وتقريب لآخر. الوضع في مصر لم يعد طبعياً، ولا محتملاً، ومن الخير لنا ألا ننزلق، ونسطح الأحداث، وإذ نَجَّانا الله من إعمال سيوفنا في الفتن، فلا أقل من أن نكف ألسنتنا، ونرفع أقلامنا. فكم كلمة قالت لصاحبها دعني.

لقد أشرت في مقالات سلفت إلى أن فوز [حزب الإخوان] في الانتخابات في تلك الظروف العصيبة سيكون على حسابهم. وأشرت ثانية إلى ظاهرة الأثرة، و[الأدلجة]

الحِزْبِيَّة، والتصرف المجازف. وأشرت ثالثة إلى تقحم المسؤوليات الدولية بعزيمة جامحة، وخبرة قليلة. وما آلت إليه الأمور متوقع، لأن المؤشرات تؤدي إليه، وبخاصة أن حزب الإخوان أخطأ في التعامل مع [المصالح الأمريكية] .

وكم كان بودي أن تكون قراءة النخب متأنية، وغير [مؤدلجة]، فالمقدمات الخاطئة تصير بأصحابها إلى ما هو أسوأ، و[مصر] العزيزة على كل عربي مسلم، لما تزل رهينة التجييش العاطفي. والشارع يجب ألا يكون مصدر التشريع، والتنفيذ معاً.

ذلك بعض ما نستطيع قوله في الشأن المصري، فالليالي حُبَالى، يلدن كل عجيب. والقراءات المتواترة تقتسم الحقيقة، إذ ليست هناك قراءة تحتكرها، غير أن بعضها يبعد النجعة، ويرجم بالغيب، ويداوي بالتي كانت هي الداء. وخوفنا على الراي العام الذي تتخطفه هذه القراءات الآثمة، ثم تضله سواء السبيل، وإن كانت تلك الأحداث تتسع لكل القراءات.

وعلى كل مستويات القراءة، فالتنازل والانسيابية لا يحتملان كل هذا الانبهار، ولا يتسعان لكل هذا التمجيد، إذ سُبِقا بانقلاب عَقُوق، لا يُحتمل على أي وجه، ولأن مسرح السياسة ليست له [كواليس]، فقد لزمت مبارحته بعد استكمال الأدوار.

في النهاية نقطع بأن [مصر] تسير باتجاه فِتن عمياء، أدناها تمزيق الهوية.

و[قطر] يتجه صوب الخلود للراحة، ليأخذ نفساً طويلاً، يناسب أعماقه المتواضعة، إذ لم يكن دولة محورية، وليست له أعماق [استراتيجية] تناسب ممارساته من الوزن الثقيل.

إيران تَنْخُرُ كِيانَ نفسِها .. ! [١]

فيما أنا ألوب الذاكرة الحرون، بحثاً عن موضوع جديد لمقالي الأسبوعي الرتيب، تذكَّرت النّحوي (عيسي بن عمر) الذي سقط من على ظهر حماره فتسابق المواسون والآسون إليه، فلمّا أفاق، صاح بهم قائلاً: (ما لكم تكأكأتم عليَّ كتكأكئكم على ذي جنة، أفرنقعوا عني).

تذكّرت تلك الحكاية المصنوعة من (خصوم النّحاة)، حين تكأكأت عليّ الموضوعات، وكنت أذودها بحثاً عما له مساس بأحوال الناس.

وما قطع دابر هذه الفوضى الخلاّقة إلاّ مجلة (البيان) التي يتكرّم ذووها بإهدائها لي، على الرغم من أنني لا أستطيع مكافأتهم إلاّ بالدعاء، وذلك أضعف المكافآت، وأهمها. فدعاء المسلم لأخيه في ظهر الغيب، أدعى للاستجابة. والكثير منا لا يعبأ بتلك المكافأة الأجدى، والأكثر نفعاً، والأقل تكلفة. وكم أتلقّى من الإهداءات التي أدعها في أغلفتها [البلاستيكية] لأنها كـ[لحم جمل غث على رأس جبل وعر]، كما جاء في حديث أم زرع وأبي زرع.

ولما كانت مجلة (البيان) قد أعَدَّت ملفاً عن الظاهرة الإيرانية القلقة المقلقة، فقد جَعَلَتْ محور الملف (إيران تنخر كيان الأمة) وتلك رؤية لها ما يبررها، ولكن القراءات السياسية كما التقلُّبات الطقسية، أشتات متفرقة، ولأنّ السياسة [فَنُّ الممكن]، فقد كان بالإمكان أن تتسع الظاهرة الإيرانية لأكثر من قراءة، وكل قارئ يملك من الحيثيات والبراهين ما يمنح رؤيته الصواب الذي يحتمل الخطأ. وقبل أن أخوض في غمار المقالات والملفات والدراسات، قطعت بأنّ إيران إنما تنخر بمغامراتها كيان نفسها، وليس هناك ما يمنع من أن يمتد ضررها إلى من حولها، على سنن الفتن التي لا تصيبين الذين ظلموا خاصة. فقد يسلطها الله على من يشاء من عباده، للعقاب، أو للابتلاء، أو للاعتبار، وقد تكون بمغامراتها من محققات سنن (التداول) أو (التدافع)، وتلك من سنن الله الكونية، (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ)، وحين أختلف مع بعض الرؤى السياسية، يتحتّم عليّ نقض غزلها من بعد قوة أنكاثاً، فالدليل لا يُفُلُّه إلاّ البرهان القطعي الدلالة والثبوت. وما على المجتهدين من سبيل، إذا توفرت لديهم شروط الاجتهاد وآلياته، وخالط ذلك حسن نية، وسلامة قصد، وكان اجْتِهادهم بحثاً عن الحق، لا عن الانتصار.

(إيران) التي رمى بها الغرب هدوء الشرق، واتخذ منها مخلب قط غبي، ستظل كالنار التي تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله، متى أتقن المستهدف لغة اللُّعبة. لقد كانت، ولمّا تزل مَصْدر قلق لدول الجوار، وكلما خَبَتْ مغامراتها زادها المتآمرون واللاعبون في مصائر الشعوب سعيراً. وقراءة التاريخ القديم والحديث خير شاهد على أنّ [إيران] كما الجرح الغائر، الذي يَرِمُّ في بعض فتراته على فساد، ليكون على موعد مع الانفجار، كلما زاد احتقانه، غير أنه بهذا الكر والفر ينخر في كيان نفسه، فالأمة العربية والإسلامية تعي مضمراته، ومثيراته العنصرية والطائفية. ولقد أشرت في مقالات سلفت إلى أنّ العصبيات والتعصُّبات لا تزيد المستهدف إلاّ قوة، وتلاحماً، واستعداداً لجولات لا تبقي ولا تذر. ومشكلة الأقليات أنها ورقة رابحة بيد أعداء الأمة والدين. وتجربة [الصفوية] شاهد حيّ على فشل المشاريع الطائفية، أو العرقية.

وتقصي ردود الفعل المجوسي مُنْذ الفتح الإسلامي، يؤكد أن الفرس كما الأعراب الذين قال عنهم أحكم الحاكمين: - ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَـٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا

(١) تاريخ المقال: ١٩/ ٢/ ٢٠١٣

وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾، فمحاولاتهم لا تقف عند تقاسم السلطة، والغنائم. وجريمة (أبي لؤلؤة)، ومقتل (أبي مسلم الخرساني) و(نكبة البرامكة) تؤكد هذه الهواجس عندهم.

ثم إنهم بنواياهم المبيتة بما لا يرضي الحق، حفزوا خلفاء (بني العباس) على التخلُّص من تفرد العنصر الواحد بتعدُّد العناصر، فكان على يد هذا الحل الاضطراري سقوط الخلافة العباسية، ونشوء ما عُرف بـ(الدول المتتابعة).

والظاهرة الإيرانية تمكن التاريخ من إعادة نفسه، حذو القذة بالقذة، وحين أقطع بأن إيران تلعب بالنار، وتنخر كيان نفسها، لا أنطلق من رهانات خاسرة، فالمشهد العربي مر بظاهرة مماثلة، تولى كبرها المد القومي بزعامة (الثورة المصرية)، وتحت أجواء ملائمة، تمثلت بصراع الشرق الشيوعي، والغرب الرأسمالي. وهو صراع جَذَّاب، غَيَّب العقل العربي، وأجّج العواطف الجيّاشة، وقضى على القيم الحسية والمعنوية.

وأذلّ الأُمّة العربية، وفرّق كلمتها، وأوهن عزائمها، فكان أن طرح الجناح الغربي المشروع العربي الإسلامي، لمواجهة المشروع القومي الاشتراكي، ولما سُقِط في أيدي الطرفين، وبدت آثار [نكسة حزيران] المشؤومة، وكَشَّر اللاعبون الماكرون عن أنيابهم، رُفع شعار [عفى الله عَمَّا سلف] والتقت الأطراف على ما بقي من أشلاء، لا تخيف الخائفين، فضلاً عن المخيفين. وكأني بالظاهرة الإيرانية تمارس الدور ذاته، الذي أردى الأمة، وأذهب ريحها، ولكن من خلال خطاب طائفي عرقي، يلوذ به المضطر رهبة لا رغبة، واضطراراً لا اختياراً. وبقدر الغرور الذي اجتاح القوميين العرب، جاءت عزمات الطائفية العرقية، فكانت أحلام الهلال الشيعي الممتد من الشرق الأقصى إلى الشرق الأدنى. من (باكستان) و(أفغانستان) وانطلاقاً من (إيران) باتجاه (العراق) وانتهاءً بـ(سوريا) و(لبنان).

ولقد تَوَّهم البعض أنّ (إيران) حَليف خَفِيٌّ لأمريكا، وأنه يشكل الخوافي لقوادم الأجنحة الأمريكية الصهيونية. ويستدل أولئك المتوهّمون بتسليم (العراق) لـ(إيران). وتلك الظواهر الفاقعة اللون، لا تصلح أن تكون شواهد لمكر اللعب السياسية الكبرى، والقراءة الأعمق للأحداث، تكشف عن فشل أمريكا الذريع في العراق، وعجزها عن حسم الفتنة، ولكي تُرْدي طريدتين بسهم واحد، وتخرج من المستنقع العراقي، بما بقي من ماء الوجه، وتزج إيران بذات المستنقع، فقد سلّمته العراق، كأعقد مشكلة، وأخطر مهمة. وفي يقينها أنّ (العراق) و(إيران) سيخسران نفسيهما، ويكفيانها مؤونة تحقيق توازن القوى بالمال الإيراني والدم العراقي. ولا أحسب أنّ أحداً يملك مصادرة حقي في طرح قراءتي، وإن كانت غرائبية في نظر البعض. وكيف لا أتوقع التفسح لي في مشهد يفيض بجهلة القراء المتحكمين به، والممسكين بمفاصله.

وإيران بعد سقوط (الشاه) خاضت مستنقع الفتن، فـ(الخميني) الذي جاء محمولاً على الأكتاف، لم يكن سياسياً محنكاً، ولا طائفياً ماكراً، لقد ركن إلى غوغائية الشارع العام، وراهن على النصر من خلال الحناجر التي لا تملك إلاّ الزعيق، وقيّض الله له ثورياً بعثياً، ينكسب عن ذكر العواقب جانباً، فتسابقا معاً في طرق الغي، وتهافتا في أتون الفتن، وأشعلا في المنطقة حرباً ضروساً، حصدت الملايين، ودمّرت كل شيء أتت عليه، ولما تزل ذيولها قائمة.

وعقدة تصدير الثورة واكبها تصدير الطائفية، والتقت الفتن على أمر قد قدر. ولما زهقت روح (الخميني) تحت وابل الهزائم، خلف من بعده من استنّ بسنّته، وتمسّك

بشعاراته، الأمر الذي جر المنطقة كلها إلى بؤر التوتر، ومكَّن اللاعبين من طرح لعبهم، وتمكين نفوذهم، وارتهان المنطقة لاحتمالات الانفجار في أي لحظة.

وما كانت (إيران) بملاليها وآياتها بمعزل عن أسوأ النتائج، ورهاناتهم تقوم على تصدير الثورة والطائفية، وهي أحلام طائشة، لا تسندها إمكانيات، ولا تُسَهِّل نفادها شرعية، وهي فوق ذلك طموحات معقّده (يتداخل فيها الديني بالقومي والثورية بالبرجماتية) كما يقول عضو منتدى المفكرين المسلمين (صباح الأحوازي) والذي برّر الحراك الإيراني بقيامه على أربعة مرتكزات: (الجغرافي، والتاريخي)، و(الديمغرافي، والعقائدي) وهي مرتكزات تضليل، وشَحْنٍ للعواطف، وقفز على الواقع.

والملف الذي أثار كوامن النفس، يتطرّق إلى الممارسات الإيرانية في (العراق) و(سوريا) و(تركيا) و(غانا) و(اليمن)، وسائر مناطق النفوذ الطائفي، وكلها تقوم على التخويف، واستنهاض الهمم لوضع (إستراتيجية) تطوق هذا الإخطبوط الدموي. وفي تقديري أن مغامرات (إيران) ليست مدروسة، إذ ليس من مصلحتهم التعرِّي بهذا القدر، وكان من مصلحتهم تفعيل عقيدة (التقية)، فالعقيدة الشيعية لا تصمد أمام العقلية العلمية، وما طرحت (التقية) عبثاً، إنها الملاذ الآمن لمذهب يقوم على الخرافة، ويتعمّد هدم التاريخ السياسي والحضاري للأمة الإسلامية.

ورهاني يقوم على أنّ (إيران) بكل ممارساتها تنوب عن أعدائها في تدمير ذاتها، ومن الخير للأمة الإسلامية إلاّ تضع الحسم هدفاً، فالزمن كفيل بالقضاء على هذه الأحلام الطائشة.

وبمثل ما انتهى المد القومي الاشتراكي، سينتهي المد الشيعي الفارسي، ومتى واجهناه بنيَّة الحسم الناجز رفعنا قيمة (فاتورة المعركة)، وتلَقّينْا رَفْسَة الذبيح.

الاغتسال في الأوحال .. !؟[1]

لا أحد يستطيع التخلص من [خارطة طريقه] التي فُرِغ من رسمها قبل أن يستوي الخالق جل وعلا إلى السماء، وهي دخان. والمحاولات اليائسة إن هي إلا استجابة للتوجيه النبوي: - «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له**».

خارطتي الغرائبية لها رسمان، أما أحدهما: فَخَرْبشاتي التفاؤلية، وتلك تتغير، وتتبدل في كُلِّ طرفة عين، تمشياً مع أحلام اليقظة. وأما الآخر فأزلي موثق في [أم الكتاب]، وتعويل الخربشات على ما دون ذلك التوثيق، وفي إطار [يمحو الله ويثبت] . وبين أم الكتاب، والمحو والإثبات، تاهت أفهام، وزلت أقدام، واستدارت رؤوس، مُراوحَةً بين التخيير والتسيير، وخلق أفعال العباد، والإرادة الكونية والشرعية، و[العدل] بوصفه أصلاً من أصول المعتزلة.

فمن مفردات تلك الخارطة المحدثة، أنني حين أعود من صلاة الفجر، أرمي بجسمي النحيل المنهك على أقرب أريكة، أمام شاشة [التلفاز]، ثم استدعي ذلك اللوح السحري [الآي باد]، وأخوض مع الخائضين في مستنقعات المواقع، والتغريدات، والتعليقات، والمناكفات، وصراع الطوائف، وتناحر الأقليات، والمذاهب، والحزبيات، والصحف: الورقية والرقمية، وسائر المنتديات.

وقد تطول تلك الجولات، فيحصل التلوث والالتياث مَعاً، وأفقد في ظلِّهما الراحة والاطمئنان، ويستفحل عندي سوء الظن، ثم لا أفيق من هذا الوضع إلا بعد أن أسمع خَشْخَشَةَ نَعْلِ العاملة المنزلية، وهي تتهادى موقرة بأطايب الطعام، لتناول ما تيسر منه، ثم التهيؤ لممارسة ما رسم من عمل في الجامعة، أو المكتبة، أو ما قام من مشاغل طارئة. ولقد تمر ساعة، والإفطار بين يدي، لم التفت إليه، لأنني شارد في مطاردة أقوال لا تحتملها مشاعر، ولا يصدقها عقل، وقد أنهض من مجثمي متجها صوب السيارة، ولا تكون لي رغبة في الأكل، فقد بشمت من الشتائم والتنابز والتلاحي، وافتراء الكذب، وقول الزور، و النفاق، وسوء الأدب والأخلاق.

ولربما أتساءل بصوت مرتفع:

-إلى متى هذا التيه؟

-ومن سيوقف هذا النزيف الكلامي البذيء، وغير المسؤول؟.

-ومتى يكون في أمتي رجل رشيد، ينهي هذه المهازل؟

تساؤلات شاردة، تركض في مفازات مخيفة. لا أحد يسمع، ولا أحد يستجيب، شرود، وضياع، فكأنهم ممن لهم قلوب لا يفقهون بها، وأعين لا يبصرون بها، وآذان لا يسمعون بها، ومع هذا فكل يدّعي أن ما يلفظ به الحق، وأن رأيه الفصل، وأنه لا معقب لقوله. إنه الوحل الملوث الذي نسبح فيه بمحض إرادتنا.

وحتى لو حَطَّمْتُ هذا اللوح السحري، وألقيته في لجة البحر، والتمست شويهات، أرعاها في الشعاب، أو عضضت على جذع شجرة، حتى ألقى الله على ذلك.

-فهل أغير هذا الكون الموبوء، أو أسهم في إنقاذ الأمة من هذه الانهيارات الأخلاقية؟.

لقد جاءت التقنية الدقيقة [النانو] وجاءت معها عوارض ممطرة مطر السوء، فالتقى الطوفان على أمر قد قدر. ولم يعد بالإمكان مبادرة الأَزِمَّة، إذ لا أزِمَّة. ولم تبق إلا العناية الربانية، لإنقاذ الأمة من تلك الأوحال.

---

(١) تاريخ المقال: ٢٦/ ٢/ ٢٠١٣

لقد توسلت من قبل بطلب إنشاء هيئة على غرار [هيئة مكافحة الفساد] لإلجام العوام، وقطع دابر قالة السوء، ومحاسبة المسيء على حصائد لسانه. ولربما تكون هذه الهيئة بارقة أمل في لجة الهرج والمرج، غير أن مجيئها بعد ما تمرد الخِلِيُّون على السفاهة، لا يكون مجدياً، ولا حاسماً لفتنة قول الزور، وشهادة الزور، والجهر بالسوء لمن ظُلِم، ولمن لم يُظلم. ومن بوادر السوء أننا نستخف بالكلمة، ولا نلقي لها بالاً، والرسول ﷺ يقول: - «**إن العبد ليتكلم بالكلمة في سخط الله، لا يلقى لها بالاً، يهوي بها في جهنم**» فحصائد الألسن جزء من العمل، بل هما صنوان، ومن استخف بالكلام أضاع العمل. والخاسر من كانت حسناته في ميزان غيره، وسيئات غيره في ميزانه. وهذه الخسارة تتحقق حين لا يُهْدى المرء إلى الطيب من القول.

قد ينحي المصابون بعقدة المؤامرة باللائمة على الغرب، الذي أوجف على الأمة بخيله ورجله، واحتنك ثوابتهم ومسلماتهم، وأتاهم من بين أيديهم، ومن خلفهم، وعن أيمانهم، وعن شمائلهم، وطرح مشروع [العولمة] ليذوبوا في خضمِّه، ثم لا تكون لهم ريح، ولا كيان.

والأخطر من ذلك كله تشكيل الوعي الجمعي للأمة في غفلة من الرقيب، فالمواقع، والمنتديات، والتغريدات كالوابل، تتصدع منه الأرض عن نوابت سوء، تفرقُ كلمة الأمة، وتوهن عزماتها، وتسيء لأخلاقها.

ومن يظن أن وعي الأمة ثانوي الأهمية، أو أنه سهل الاستدراك، حين يُصْنع على عين الفوضى، فإنه يضرب في فجاج التيه، ويتعثر في سبل العماية. ولاسيما بعد الظواهر الأكثر إثارة وإخافة.

فالتطرف، والعنف، والإرهاب، والتعصب، وفرض الرؤى، وصراع المذاهب، وتصدير الثورات والطائفيات، والإقصاء، والأثرة، والافتراء، كل ذلك أثبت أن وعي الأمة من الأهمية بمكان، وأن الغافل عنه، كمن يرعى غنما في أرض مَسْبعة، ثم ينام عنها.

والوعي كالأرض الموات، يَسْتَنْبِتُها من يسبق إليها، وحين تكون النوابت كرؤوس الشياطين، تدير الرؤوس، وتغثي النفوس، وتشعل الحرب الضروس. وذلك اليقين الذي لا يحتاج إلى برهان.

-فمن ذا الذي تخطف الناشئة، وجاءهم من بين أيديهم ومن خلفهم؟

إنه التطرف في القول، والفعل، والمعتقد، والتعصب المقيت.

-وتلك الآراء الشاذة، والتصورات الغريبة، من أيقظها في النفوس؟

إنها ثورة الاتصالات، وانفجار المعلومات، وتحول الكون الفسيح إلى قرية ذكية متعرية، لا تَخْفى فيها خافية، واستفحال الغفلة المعتقة.

هذا المستجد أصبح بدون سلطة تأطره، وبدون أهل ذكر يرشدونه، وبدون عقلاء، إذا ما أُصْدِر الأمرُ أوردوا، وبدون حُسْبة تأخذ بحجز الواقعين في الحِمَى، لتحول دون الوقوع في المهالك، وبدون مرجعية محكَّمةٍ مطاعة، تتحرك في الوقت المناسب، لِفَضِّ الاشتباكات، وحسم المواقف، ورأب الصدع.

إنها الأوحال التي يرد على كدرها الكافة، ثم لا يسلمون من تلوثها.

لقد أصبح بإمكان الكبار والصغار نساءً ورجالاً الوصولُ إلى أخطر الآراء، وأضل التصورات، وأفصح القول، وأهجنه، دون عناء، ودون رقيب.

وهذه الحرية غير المسؤولة، وغير المنضبطة، وتلك الإمكانيات المذهلة، حين لا يَعْقِلها العالمون، تكون نذير شؤم على وحدة الأمة الفكرية، و على أخلاقها النقية.

وذلك عين الاغتسال في الأوحال.

عِنْدما تُذَاد البلابلُ عن دَوْحِها .. !(١)

"زامر الحي لا يُطْرِب" مثل ينبض في كل الشرايين، ويفيض بكل المعاني، ولكنَّه لا يوقظ الكهفيين، وكلنا ذلك الصنف المَذُودِ عن دوحه، تصوروا معي، لو وقع في يد أحدنا كتابٌ يتحدث فيه صحفي عن تجربته الصحفية، من بلاد ما وراء البحار، لكنا إثره متيمين، ولم نُفْد مكبَّلين.

ولو تحدث، أو كتب صحفي مثل "المالك" أو "السديري" أو "هاشم" أو ما شئت من تلك الصفوة عن تجربته الصحفية الثرية، والطويلة، لأصبح لسان حاله، كـ"نوح" مع قومه: ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾، وحتى لو أَسَرَّ أولئك، أو جهروا، فإنهم لن يحركوا شعرة في مفرق البسطاء، فضلاً عَمَّنْ سواهم من الكتبة.

ثم ارجعوا البصر كرتين، وتصوروا ثانية، أو أكثر من ذلك. لو أن ناقداً معرفياً كـ[سعد البازعي] أو مُنَظِّراً جريئاً كـ[الغذامي] أو مترجماً متمَكناً من اللغتين كـ[حمزة المزيني] أو روائياً مبدعاً كـ[يوسف المحيميد] أو شاعراً فذاً كـ[الفقي] أو كاتب سيرة ذاتية كـ[القصيبي] أو تراثياً متوازناً كـ[المانع] أو باحثاً محققاً كـ[الجاسر] أو موسوعياً كـ[ابن عقيل]، أو رحالة كـ[العبودي]، أو ما شئت من أولئك الآباء الذين لن نأتي بمثلهم، لو أن أحداً من أولئك استدعي على استحياء.

-أيعرفه منا أحد، على ما هو عليه من قدرات استثنائية؟

وتلك الشنشنة التي نَعْرِفها من أنفسنا، لا تحفل بالمبدعين المتألقين، ولا بالعلماء المحققين، ولا بالتراثيين المؤصِّلين. ذلك أن أزهد الناس بالعالم أهله الأقربون.

شعراء، وسَرْدِيون، ونقاد، وصحفيون، وفنانون تشكيليون، وعلماء: شرعيون وطبيعيون، وأطباء ماهرون، يمرون بنا كسحائب صيف، لا تلبث أن تنقشع، ثم يأوون إلى كهف النسيان، فيما يُنْشر ذكر غيرهم من أبناء العمومة.

ولو كان الاحتفاء وقوداً للأداء، لتعطلت عَجَلَةُ الحياة. وكم من مُصْلح ديني، أو سياسي، أو اجتماعي، تحطم على صخرة الواقع. ذلك أنهم كمن ﴿يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾.

وإذا كان المتعذبون من الصدود والتصدي، ينقمون على جور أهلهم، فليتذكروا الأنبياء، وما يلاقونه من أقوامهم، ليتأسوا بردة الفعل الأكثر حميمية: «**اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون**».

فأين الساخطون من ذلك الصدود؟. ولا غرو، فلقد كان لنا في رسول الله أسوة حسنة.

قلت ذات مرة لأحد المثاليين، بعد أن أدى القسم بين يدي ولي الأمر، ليبدأ رحلة العمل في أهم وزارة، مباركا، ومثبتا لفؤاده:

أخشى ما أخشاه أن تتحطم على صخرة الواقع. فامتعض، واستبعد ذلك، ولسان حاله يقول: [فأل الله لا فألك] . وتلاحقت الأيام والشهور، وهو يحفر في الصخور. ولما خرج مُجْهداً من الوزارة، لقيته محاولاً تذكيره بما سلف، فلم يزد على التأوه، ولملمة مشاعره المبعثرة، والفرار إلى الأحلام، بعيداً عن منغصات الواقع الأمر.

لقد كنت فيما أثير من تساؤلات، وما أحلم به من تطلعات حيال الوفاء للمتميزين من كفاءات الوطن، كمن يعظ قوماً الله مهلكهم أو معذبهم، وما كففت عن تلك المحاولات

---

(١) تاريخ المقال: ٥/ ٣/ ٢٠١٣

اليائسة، معذرة إلى اللائمين، أو تطلعاً إلى تدارك الأمر، قبل فوات الأوان.

ومن السهل أن يُمْنى المتميزون بالتهميش، ولكن الفداحة أن يُفْترى عليهم الكذب، أو أن يصادر حقهم المشروع. وما أكثر ذوي الفضل، الذين لم يُعْرف لهم فضلهم، ومن ثم رضوا من الغنيمة بالإياب.

لقد عرفنا أدق التفاصيل عن شعراء مصر والشام والعراق وأدبائهم، ومفكريهم، وبِشِمْنا من تمجيد الأدباء والنقاد، ولم تخف منهم عند أدنانا خافية.

-فمن ذا الذي يجهل "شوقي" و"حافظ"؟

-ومن ذا الذي لا يعرف "العقاد" و"الرافعي" و"طه حسين"؟

-ومن ذا الذي ينكر "نجيب محفوظ" أو "توفيق الحكيم"؟

بل من ذا الذي لا يعرف أدق التفاصيل عن "الرصافي" و"أبي ريشة" و"أبي ماضي"؟.

ولو تردد أحدنا في سرد شيء من سير أولئك الأعلام، لوُصِف بالجهل، واتهم بالعقوق بأدبه وأدبائه. ولو جهل أحدنا أسماء الشعراء في بلاده، أو الأدباء في وطنه، لما سيء بجهله، ذلك أنهم كزامر الحي.

ولو طلب من أحدنا أن يكتب عن عَلَمٍ من الأعلام، لما تردد في استدعاء الأبعدين، ممن شاع ذكرهم، وملأ الأسماع مدحهم. ومع التسليم بأن هذه الخليقة تملأ الرحب، فإننا نخالها تخفى على الناس، ومن ثم لم نحاول التخلي عنها.

وتكريم الراحلين، وإن كان قضاءً لا أداء في وقته، يعد استدراكاً جاء في غير زمنه المناسب، ولكنه أفضل من تواصل التنكر، وأن تأتي متأخراً خير من ألا تأتي.

ومما أذكره، وأعجب منه أن [الأدب السعودي] ظل مهمشاً في أروقة الجامعات السعودية. والمناهج تقر دراسة الأدب الحديث، والقائمون عليه يذودون عنه الأدب والأدباء السعوديين، وإذا ذُكِّروا بأدب بلادهم، وُصِفَ المذكِّر بالإقليمية، والعصبية، وضيق العطن. ومرت الأيام وبلابل الدوح يُذاد عن دوحه، فيما هو حلال للطير من كل جنس.

ولما أحست [جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية] - آنذاك - بهذا الغبن، حاولت تدارك الأمر، فوجهت بتدريس هذا الأدب، فلم يقبل بعض المتعاقدين بهذا التوجيه، بل أنكر بعضهم أن يكون هناك أدب سعودي يستحق العناية، وكنت ممن استعين به للنهوض بهذه المهمة، لأنني ربما كنت الوحيد - آنذاك - الذي يحمل شهادة [الماجستير] عن الأدب السعودي في القصيم، وبدأت التجربة على استحياء، وتردد، وواكب ذلك توجيه طلاب الدراسات العليا إلى أدب البلاد وأدبائه. ومع كل تلك الجهود، ظلت الدراسات حبيسة الأدراج، والمطبوع منها حبيس المستودعات، وظلت هيمنة الآخر هي سيدة الموقف. لقد طُفنا، ورأينا جهل الآخر بنا، ومعرفتنا به، وعزوفه عنا، واحتفاءنا به، وخلو محافلهم من أدبنا وأُدبائنا، وامتلاء محافلنا بأدق تفاصيلهم، فأسواقنا، ومكتباتنا، ومعارض الكتاب عندنا، وحتى المناهج تفيض بالإبداعات، والأعمال، والدراسات، والسير، وسائر الكتب، وليس متاح لنا في أرضهم مفحص قطاة.

أكتب ما تقرؤون، وأنا أعيش أجواء مفعمة بعبق الوفاء، لرموز، قضوا نَحبهم، وآخرين ينتظرون، وما بدلوا تبديلا.

وتلك من سنن الهدى، عسى أن تكون فاتحة خير، يعود فيه الدوح إلى بلابله، ولحم الثور إلى جحاه.

ماذا دهاك يا وطني .. ؟! (١) (١)

تَمْتحِن هذه المقالة ظواهرَ، لم نألفها من قبل، تحف بها نوابت سوء، لا تراعي بمكتسبات الوطن إلاًّ ولا ذمة.

ولأن أطياف المجتمع في النهاية مستهمون على سفينة، تمخر عباب بحر لُجّي من الفتن، فإن من واجب المقتدرين الأخذ على أيدي المتسرعين، الذين يُنكِّبونَ عن ذكر العواقب جانباً، وذلك هو الإصلاح الذي نفى الله أن يعذب ذويه ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧] .

ولربما صَوَّرَتْ لي نفسي أنَّني في زمن رَعْيِ الشُّويْهات في الشعاب، أو العضّ على جذوع الشجر، أو القبض على الجمر. ولست أدري أي النفوس تلك: أهي الأمَّارة، أم اللوَّامة، أم المطْمَئِنَّة؟.

وعلى كل الأحوال، فَضَّلَت - من قبل - الحياد، ولزوم الصمت، وأقنعت نفسي بأنه حياد إيجابي، ولم أتردد في تقويم المواقف، ونثر كنانة الاحتمالات، والاختيارات، والتأمل فيها، بحثاً عن السهم الذي يمرق من الرمية. ولم أجد وقْتها أفضل من مقولة: [عليك بِخُويْصة نفسك]، لكن ذلك الخيار لم يُتَح، ومن ثم كنت المقصود بالمثل: [مُكْرَهٌ أخاك لا بطل] . ووجدت نفسي من حيث لا أدري، ولا أريد وسط المعمعة. وكنت كواحدٍ من جيش ”طارق بن زياد“ حين قال للمجاهدين بعد إحراق سفنه: [العَدُوُّ أمامكم، والبحر خلفكم] إن صدقت تلك الفرية.

والعقلاء الذين يَشْقون في النعيم بعقولهم وسط أحداث أمتهم العربية والإسلامية، يعيشون حالة من الذعر والترقب، ودعاؤهم المتلاحق: اللهم سلم، سلم. فهم كمن قامت قيامته، حتى لقد صوّر القرآن الكريم تلك اللحظات أدق تصور: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢] .

إن الوضع العربي والعالمي قاب قوسين، أو أدنى من تلك الأوضاع العصيبة. والخليون المترفون هم الذين تشغلهم [الكرة] و[مزايين الإبل] و[الأرقام المميزة] ويسرق وقتهم الركض وراء المواقع، والمنتديات، والمجازفة في الأقوال، وافتراء الكذب، والتّشفي بتجريح الأبرياء، واتّهام الأوفياء، دون تبين أو تثبت. وكل أولئك يُصْبحون على ما فَعَلوا نادمين، ولكنه ندم بعد فوات الأوان. [ولات ساعة مَنْدَم] .

وطني المعطاء، ورجالات وطني الأوفياء، ككل الأوطان، وككل الرجال، لا أحد منهم يَدَّعي العصمة، ولا التفوق، ولا التّسامي فوق المساءلة، والنقد، والمناصحة، كما لا يدّعيها لهم عاقل. ومن طاوع نفسه الأمارة بالسوء، وتصورها فوق الشبهات، عرضها للاغتياب. وكيف يُزَكِّي أحدٌ منَّا نفسه، والرسول ﷺ، حين مَرَّ به الصحابة رضوان الله عليهم، وهو يكلم امرأة من محارمه، بادر إلى القول: [إنها فلانة]، ولما استغرب الصحابة هذا التحفظ قال: «**إن الشيطان يَجْري من ابن آدم مجرى الدم**». وحين لا أُزَكِّي على الله أحدًا، لا أطاوع المداهنين فأدهن، ولا المخذِّلين فأخذِّل.

---

(١) تاريخ المقال: ١٢/ ٣/ ٢٠١٣

لم يكن بودي أن أحوم حول الحمى، فالواقع المخيف يتطلب المكاشفة، والشفافية، والمواجهة، كما وَجَّه إلى ذلك وليُّ الأمر. إذ لا مكان للتلميح، ما أمكن التصريح.

ومن أعلن [سلفيته] غير [المؤدلجة] وغير المُسَيَّسَة، وأكدَّ على التزامه بمحققاتها، وعُرِف أنه مُتَمَسِّكٌ بمقتضيات البيعة الإسلامية، وبالسمع، والطاعة، في المنشط، والمكره، والعسر، واليسر، وحتى - لا سمح الله - مع الأثرة. فإنه - والحالة تلك - مُلْزم بأن يكون ناصحاً لله، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم، وأنه ملزم بأن يقول خيراً أو ليصمت. وتلك من البدهيات التي لا يختلف حولها اثنان.

لقد ساءتني، كأي عاقل رشيد، يُؤْثر مصلحة الأمة على هواه تلك الظواهر التي انتابت مسقط رأسي، ومرتع صباي [بريدة] مدينة الوفاء، والولاء. وحاولت جاهداً احتمال الموقف، واحتساب الأداء من فروض الكفاية، ولا سيما أنني واثق بالسلطات الأمنية والقضائية، ومطمئن إلى حلم الدولة، وأخذها الأمور بالقوة الناعمة، وتوخي أيسر الحلول. ولم أشأ التعرف على مجمل الأحداث.

أعرف كغيري أن هناك موقوفين، تختلف جرائرهم، وتتفاوت قضاياهم، وأنهم أمضوا سنوات وراء القضبان، وأبطأ القضاء في حسم شأنهم. وكان بودي ألا يكون لذوي الموقوفين حجة تحدوهم إلى مخالفة الأنظمة، والتعليمات، وفتح شهية الأعداء المتربصين، لسرقة هذه الظواهر لحسابهم، وتضخيمها، والادعاء بأنها مؤشرات الربيع العربي: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٩] .

كما كان بودي ألا يكون أحدٌ من أبناء الوطن موقوفاً تحت ذمة التحقيق، فهم في النهاية إخواننا، وأبناؤنا، وأبناء عمومتنا، يسوؤنا ما يسوؤهم، ويسرنا ما يسرهم. وأعرف جيداً أن وراءهم أباءً وأمهاتٍ وأبناءً وبنات وأزواجًا وإخوة وأخوات، يَصْطرع في نفوسهم حُبُّ الوطن، وعاطفةُ القرابة. ولا غَرْو فقد ضجر الرسول ﷺ، وسهر، وبانَ عليه أثر الحزن، عندما سمع أنين عمه [العباس] في القيد، وهو - إذاك - مشركٌ محارب من أسراء بدر، وحين رأى الصحابة منه ذلك، بادروا إلى حل قيده، شفقة على رسول الله ﷺ. وهؤلاء المتظاهرون، أو بَعْضُهم - على الأقل - موالون، وحريصون على مكتسبات الوطن. وهم حين يستاؤون من التحفظ على من تربطهم بهم قرابة، ممن استزلهم الشيطان، لا يمس استياؤهم نظامَ الحكم، ولا رموز الوطن، هكذا نحسبهم، والله حسيبهم.

ونحن نشاطرهم الألم، ونخالفهم في التصرف، على حد: [ويلي عليك، وويلي منك يا رجل]، ونتمنى سرعة البت في شأن الموقوفين من أقاربهم. ولن ندخل في التفاصيل، فنحن نجهل الحقائق، ولا يجوز لنا أن نحكم على شيء لم نتصوره.

لقد تَدَخَّلْتُ من قبل في بعض القضايا كشافع، يَطْلُبُ الأجر، وكنت أظن الأمر كما يرويه لي المُسْتَشْفِع. وحين وَصَلْتُ إلى المسؤول، تبين لي أن بعض الحقائق غائبة، وأننا نَرْجُم بالغيب، ونجتر الشائعات. ومن ثم عَدَلْت عن التدخل، واكتفيت بامتصاص الاحتقانات، وإقناع المتظلمين، وتسهيل وصولهم إلى من يملك البت في قضاياهم.

ولا أظن أن لدى وزارة الداخلية رغبةً في التحفظ على أي موقوف، ولكنها العواطف الجياشة، تضخم الأمور. ولست هنا متهمًا لأحد، ولا محرضًا على أحد، ولا مبرئًا لأحد. فأنا أجهل هذا الملف، وليس من حقي القطع في شيء منه، وأجهزة الأمن كفتنا مؤونة الاشتغال بما لا يعنينا، وواجبنا الدعاء لها بالتوفيق والسداد، وحثّها على قفل هذا الملف بأسرع وقت.

وقضيتي الملحة هي أن تبقى مثمّنات وطني في منأى عن الزوابع، فمصلحة الوطن فوق الجميع، وليس من حق أحدٍ كائنًا من كان أن يزايد عليها. ولما كان من قواعد

الأصوليين: [الحكم على الشيء فرع عن تصوره] كان لزاماً على كل فضولي [أن يسعه بيته، وأن يبكي على خطيئته] وألا يزيد على حثّ المسؤول، لقفل هذه الملفات الساخنة.

ماذا دهاك يا وطني .. ؟! (٢) [(١)]

وحين كثرت التجمعات، والاعتصامات، والمخالفات الأمنيَّة، والرسائل الأسرية، والبيانات، غير المبررة، وغير المشروعة، وتلقفها الإعلام الفضائحي المناوئ، وبدأت التحرّكات المشبوهة من أعداء البلاد بالتحريض على حمل السلاح، وفرض الإرادة بالقوة، كان لزامًا على كلِّ مقتدر مبادرة الظَّاهِرَة لإجهاضها. ولأني مواطن يهمني أمن وطني، وسمعة بلدي، أحسست أن من واجبي أن أخرج عن صمتي، وأبوح بتذمري، كي يعلم الجميع أنني مع الأمن، والاستقرار، والعدل، واحترام حقوق المواطن، وتنفيذ مقتضيات البيعة الإسلاميَّة. وحسم الفوضى، مهما كانت مبرراتها، وحيثياتها، إذْ لم نَعُدْ نحتمل شماتة الأعداء الذين يحسدون النَّاس على ما آتاهم الله من فضله.

وفي الوقت نفسه أتحفظ على الذين يتهمون المتظاهرين بأنّهم إخوانيون، أو قاعديون، أو إرهابيون؛ فالخطأ لا يبرر الخطأ، والمقدمات الخاطئة تُؤدِّي في النهاية إلى نتائج خاطئة، والولاء الحقيقي، يقتضي الصِدق لا التصديق.

فالمتجمعون، والمعتصمون، يطالبون بحقوق، يعتقدون أنّها مهدورة. وممارساتهم تلك خاطئة، وليست موفّقة، ولا نقرهم عليها. ولكننا في الوقت نفسه، لا نمضي مع الذين يُهوِّلون الأمر، ويزعمون أن هؤلاء من فلول القاعدة، أو من بقايا الإرهاب. فهذه الرَّؤَى والتصورات، يطير بها الأعداء، وتحفزهم على إذكاء نار الفتنة، كما أن مثل هذا الإجحاف يقدح في مصداقية أجهزة الأمن، التي تدعي القضاء على الإرهاب، والإرهابيين.

ذلك أن الإرهابيين لا يَبْدون للعيان، ولا يتصدون لرجال الأمن بكلمات، لا تتعدى المطالبة بالإفراج عن الموقوفين. ونحن هنا لا نستبعد أن يندس فيهم من له أهداف دفينة، وقد يحرّكهم كذلك من هو قاعديٌّ، أو إرهابيٌّ، كل ذلك متوقع. والأجهزة الأمنيَّة، والرقابية ليست من الغباء، بحيث تتشابه عليها الأمور، ولو أن المتظاهرين من القاعدة، أو من فلول الإرهاب، لما أتاحت لهم أجهزة الأمن فرصة التفرق، والعودة إلى منازلهم، دون أن تتعرف عليهم. ولمَّا لم يتفرَّقوا اضطرت قوات الأمن إلى اعتقالهم، حتَّى إذا انفَضَّ سامرُ المتفرجين، أُخْلَتْ سبيلهم، دون محاكمة، أو محكومية.

فهل يُعْقَل أن يوصفوا بالإرهاب، ثمَّ لا يُتحفظ عليهم؟ علمًا بأن أجهزة الأمن تبذل كل ما تستطيع للقبض على الإرهابيين الهاربين، والبحث عن المختفين منهم، ولديها قوائم، تزيد، وتنقص. إن هؤلاء المتجمعين، لم ينقضوا البيعة، ولكنهم أخلّوا بمحققاتها، ولم يكونوا من الإرهابيين، وإن طالب بعضهم بالإفراج عن كل الموقوفين، دون استثناء، مع أن من بين الموقوفين من هو ضالع في الإرهاب.

وما قيل من تأييدٍ، أو حثٍّ لهم من قبل فلول الإرهاب في [اليمن]، أو من أعداء الأمة: السافرين، أو المتقنعين، إن هو إلا سرقة مكشوفة لهذه الظَّاهِرَة غير السوية، والمحصورة بعدد قليل.

لقد طار الأعداء بها فرحًا، وعزّز بها أصحاب القراءات الخاطئة قراءاتهم، بحيث جنحوا إلى التصنيف، والاستعداء، وأخذ المقيم بالظاعن.

بعد هذه التصرَّفات المؤذية لمشاعرنا، ذهبت مع مجموعة من [أعيان بريدة] لمقابلة المسؤول الأول في المنطقة، لإبداء استيائنا، لما حصل، وفي الوقت نفسه الرَّغبة في الإسراع بالبت في شأن الموقوفين، الذين تباطأ القضاء في إنهاء قضاياهم، وردم بؤر

(١) تاريخ المقال: ١٩/ ٣/ ٢٠١٣

التوتر، وقطع الطَّريق أمام المغرضين. وبعد نشر الخبر في بعض المواقع، سيئت وجوه البعض، وحُمِّلنا ما لا نحتمل، على حدِّ المثل العامي: - [لا بُدَّ للحجَّاز من ضربة عصا] .

لقد انهالت الاتهامات من نكرات، لا تدري أين تكمن مصلحة الوطن؟ ولست معنيًّا، ولا مهتمًا بما يقال، لأنّه زبدٌ يذهب جفاء، فالمعتصمون والمجتمعون شرعوا لأنفسهم ما لم تأذن به مصلحة الوطن، ونحن سعينا لإصلاح ذات البين، وتهدئة الأمور، وفك الاشتباك، ولم نذهب مستعدين، ولا محرضين. ولا معتذرين، ولا متعهدين، وإنما نحن مستاءون مما حصل، متمنون معالجة الموقف، مستنهضون لهمم المسؤولين لحسم ملف الموقوفين الذي أصبح مناطًا لِكُلِّ من هبّ ودبّ.

وأجهزة الأمن بِكلِّ ما عليه من متابعة دقيقة، ورصد أمين، أدرى بواجباتها، وأحرص على سلامة ممارساتها. وكم يتمنى المهتم بأمر أمَّته ألا يحصل شيء يُعكِّر صفو الأمن والاستقرار. فالزمن موبوء، والمناعة ضعيفة، والمتربصون يأتون المثمنات والمكتسبات الوطنيَّة من قواعدها، ويلتفون على أشيائنا مثلما يأتي الشَّيطان من بين الأيدي ومن الخلف.

لقد سيء فهمنا، ولم تقدّر مبادرتنا، ولن نزيد في ردة الفعل على قول الرَّسُولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، حين آذاه قومه: «**اللهم اهد قومي فإنّهم لا يعلمون**».

إن من واجب كل مواطن مقتدر مبادرة الأزمات، وفك الاشتباكات، والحيلولة دون التصعيد، فالوطن في النهاية سفينة تمخر عباب الفتن، وحين تغلبها الأمواج العاتية، يغرق الجميع، الصالح، والطالح، والمحسن، والمسيء: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾[الأنفال: ٢٥] فلا أقل من أن يَتمَّعر وجه المواطن من أجل الحق، ليكون له عملٌ يتوسّل به أمام الشدائد، فمن غلَّب السَّلامة، ودَّسَ رأسه في التراب، استحكمت بين يديه حلقات المشكلات، وأصابه دخن الفتن.

والمغرِّدون، والكتَّاب المتنكرون أسوأ حالاً، وأشدُّ خطرًا من الذين يعلنون آراءهم، وإن كانت خاطئة، فهؤلاء كالخطائين، وأولئك كالمنافقين. وما أقرؤه، وأسمعه، في سائر وسائل الاتِّصال، وما أشاهده على الأرض، لا يبشر بخير، وحتى الذين اهتاجوا عُزْلاً، وتدفقت حماستهم الفارغة عبر أنهر الصحف، يسيئون من حيث يريدون الإحسان، فمن أراد الإصلاح فإنَّ عليه تَجْسِير الفجوات، والتقريب بين وجهات النظر، ولا سيما أن المتربّصين والماكرين والكائدين يودّون أن نغفل عن ثنياتنا، فيميلوا علينا ميلة واحدة. فالذين يُبْدون اعتراضهم، ويُخْطِئون في تصور المشكلات، يسهمون في التصعيد. فالخطأ لا يبرر الخطأ، والحكومة بأجهزتها الأمنيَّة والرقابية تودُّ من كل مواطن أن يقول خيرًا أو ليصمت. ومن أوغل في الذم، وشط في الاتهام، وأسرع في التصنيف، وأسرف في الاستعداء، حال دون الحلول المتوخّاة من الدولة، ومن المجتهدين الناصحين الذين يسعون لتأليف القلوب، وفتح صفحة جديدة، تعيد المغردين خارج السرب إلى سِرْبهم.

وفي النهاية فإنّه لا مزايدة على الأمن، والإيمان، والاستقرار، ومحققات البيعة الإسلاميَّة، والتفريق بين المطالبة المشروعة، والمواجهة المحظورة.

ورجل مثلي نَيّف على السبعين، لا يمكن أن تأخذه في الحقِّ لومة لائم، ولا يمكن أن يختار إحباط عمله، ولا يمكن أن يُعين ظالمًا على ظلمه من كل الأطراف. ولا سيما أنّه حُرٌّ في القول، وفي الصمت، وكل الذي يتطلَّع إليه رجل مثلي الجنوح إلى السَّلام، وخيار الحلم والرِّفق والأناة والاحتواء، أو التحييد على الأقل، وتجنُّب الإثارة. فالفتن نائمة، وملعون على كلّ لسان من أيقظها. وبلادنا بلاد المقدسات والخيرات مستهدفةٌ من شرار

الخلق، وعلينا الحيلولة دون نفاذ المكائد، وقطع الطَّريق على المشبوهين. فالخاسر من لم يُوْعظ بغيره، والأخسرون أعمالاً، من كانوا موعظة لغيرهم.

وعلى الذين يظنون أنهَّم ظُلموا، أن يأتوا البيوت من أبوابها، وألا يخرقوا السَّفينة العائمة فوق ظلمات الفتن، وأن ظَنّوا الإبطاء في الاستجابة، فليصبروا وليصابروا وليرابطوا عند أبواب المسؤولين، فلن يضيع حق وراءه مطالب. ولأننا لم نعهد هذه الممارسات في إبداء الرأي، وإعلان المواقف فإننا نظل ننكرها، ونبرأ إلى الله منها، ومثلما نقف ضد هذه الممارسات غير السوية، فإننا في الوقت نفسه نقف ضد القراءات الخاطئة للأحداث، ومواجهة الساعين للإصلاح غير المُسَدَّدِ بأعنف الاتهامات. إن من الإصلاحيين من يباهي بإصلاحه، ويصرّ على أن قوله الفصل، ويسعى لتشكيل جماعات الضغط، ولا يمانع من تحويل الحوار إلى صراع، وهذا ضرره أكبر من نفعه، وآخرون من المصلحين يصادمون الواقع، ويُحَمِّلُون المسؤول فوق ما يحتمل، وكل ذلك يحول دون خيار الرفق.

لقد كثر المزايدون والانتهازيون والمتهافتون على أجهزة الإعلام، لإعلان المواقف البطولية، أو الوطنيَّة، وكان بالإمكان أن يجعلوا ممارستهم تلك كالصدقات، التي لا تدري شمائلهم ما تنفق أيمانهم، فالناصحون والمخلصون يُسِرُّون القول. وعلينا جميعًا أن نفرق بين نصيحة المشفق وتعيير الشامت.

ولهذا فإننا ضد الكتبة التصعيديين، الذين يزيدون الاحتقان، ويغرون على الإصرار والعناد، وضد الذين يطيرون فرحًا بالشائعات، وافتراء الكذب، ومع المحسنين الظن، ومع التوفيقيين الذين يستلُّون الضغائن، كما تسلّ الشعرة من العجين، ويفتحون باب الأمل للخطَّائين. ولله المثل الأعلى، فهو جلّ وعلا، يبسط يده في اللَّيل ليتوب مُسِيء النهار، ويفرح بتوبة عبده فرح أحدنا بعودة راحلته، ونحن ضد مدعي الإصلاح الذين يباهون بأقوالهم، ونؤكد أننا بأمس الحاجة إلى الإصلاح المتوازن، بِكلِّ شموليته، وتجذره. وعلى الأمة حكامًا ومحكومين أن يصلحوا ذات بينهم، وأن يَحُولوا دون نفاذ الأعداء المتربصين، فالزمن الموبوء لا يحتمل مزيدًا من الفتن. فالمتظاهرون مخالفون، والكتبة المحرضون مخالفون، والمصلحون المُصَعِّدون للمشكلات مخالفون.

ومِنْ ثمَّ فلست مع هؤلاء، بل مع قول الشاعر الحكيم:

تَرَفَّقْ أيها المولى عليهم
فإن الرِّفق بالجاني عقاب

أيها الموجِفُون بشَبَا أقْلامِهم ارْبَعُوا على وطنكم .. !![1]

عندما كنت أرتجل محاضرتي "تجاربهم في القراءة" في مكتبة الملك عبد العزيز بالرياض، نَدَّتْ عن ذاكرتي أشياء كثيرة، أعفت رسومها عوادي الزمن. وألمحت إلى أشياء تَصَيَّدْت شواردها من مغارات الذاكرة الكلَّة، ووقفت على أخرى (وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمة).

ومن أهم المحطات القرائيَّة ذلك الشيخ الحضرمي الوقور، الذي جاء به ابنه العامل في أول بنك وضع للناس في بريدة، وكان يتعهد مكتبتها العلمية بزيارات منتظمة. ولما كنت من رواد المكتبة، ومن أصغرهم سناً، رغب في أن يسهم في صياغة ذهني، وكسر النمطية القرائية، لقد فجر في أعماقي أشياء، ما كنت أحتمل تململها، فضلاً عن تفجيرها.

وحين تفرقت بنا السبل، ظلت مقولاته الملغمة محفورة في أعماقي. لقد أيقظ عندي الشك والتساؤل، والبحث عن المضمرات، وقراءة ما تحت السطور، وروضني على التفريق بين الاختلاف والعداوة، ومكَّنني في وقت مبكر من الإلمام بكافة النظريات المعرفية عند الصوفيين والسلفيين والنصوصيين والعقلانيين وأصحاب الكشف والأحلام والتأويل، وتحررت عندي مسائل كانت غائمة عائمة.

فالمذهب العقدي، والانتماء الفقهي، والرؤية السياسية، وسائر الأنماط الاجتماعية التي أنتمي إليها شيء، والتواصل المعرفي مع المخالف شيء آخر. والتعصب الأَعْمى خَلِيْقَةٌ لا تمتّ إلى الانتماء السليم بصلة، والأخذ بمحققات الانتماء تكون، وإن تفسحنا للمخالف، وأنْصَفْناه، وعرفنا له فضله، وغفلنا عما لا يعنينا من أمره. وفي هذا الخضم المتلاطم تمنيت لو بُعِثَ ذلك الشيخ الحَضْرمِي ليلقن المتخللين بأقلامهم وألسنتهم شيئاً مما تركه في أعماقي.

لقد أَقَرَّ في تصوري في وقت مبكر أن الاحتفاء بالمخالف، وتعقب ما يكتب، يعني تصور رؤيته كما هي، والكشف عن الثنيات والثغرات ومقارعتها بالحجة البالغة، والأخذ بأحسن ما يقول، إذ ليس في الكون شَرٌّ محض. كل ذلك عَدْلٌ يفرضه الشارع، ويدعو إليه، ومن ثم فاضت حقول مكتبتي بالكتب التي تُخالف رؤيتي، ولمَّا أزل أعْرف للمخالف فضله، ولا أجدني راغباً في مصادرة حقه، ولا تفضيل الصدام على الوئام، ولا الصراع على الحوار، ما أمكن ذلك، وإن اضْطَرَرْتهُ إلى أضيق الطرق، ونقضت غزله من بعد قوة أنْكاثا، دون أن أتهمه بجهل، أو أَصِفَه بما لا يليق بمثله من مثلي. وحين يحتدم الخلاف بيني وبينه، أحَيِّدُ ذاته، وأفري بنات أفكاره، ولا أتيح له أي فرصة لاستفزازي، وحملي على فقد احتشامي.

-فهلا ارْعَوَيْنا، وأَدَرْنا أزمة الاختلاف باحترافية؟

وعيب المشاهد أن المستبدين بها يسلقون خصومهم بأقلام تقعقع كالشنان، وإذا بلي أحدنا بالبحث عن حقيقة واحدة في هذا النعيق، ليسْتَرْفِد بها، لم يجد إلا حشَفاً وسوء كيل. ذلك أنهم أجهل الناس بحقيقة المناوئ لهم، وأعجزهم عن دحض شبهه، وتفنيد آرائه، وظنهم الذي أرداهم زين لهم أن الإيجاف بالاتهامات كاف لانهاك الخصم، وهي ظاهرة تكاد تكون أزلية، فَمُقِلٌّ منها ومكثر، وناقل لم يتثبت، وكذَّاب أَشِرْ، يفتري على الناس الكذب. هذه الخليقة جعلتنا بارعين في صناعة الأعداء، غير قادرين على مقارعة الحجة بالحجة.

---

(١) تاريخ المقال: ٢٦/ ٣/ ٢٠١٣

ولقد يؤدي الإيغال في الذم إلى تلبس خطابنا بالإقصاء، ومصادرة حقوق الآخرين، والضيق بالمخالف، وإن لم يترتب على مخالفته ضرر، أو مُعَوِّقٌ لمسيرتنا. ومنطق العدل والعقل أن لكل مُسْتَهِمٍ في القرية الكونية رؤيته التي تخدم مصالحه، مثلما أنَّ لنا رؤيتنا. وإذ نكون أحراراً في موضعة الآخر، وتفكيك خطابه، والكشف عن نواقصه، فإن الحرية لا تخولنا التعويل على إصدار الأحكام، ومبادرة التصنيف، واستنزاف جاهزيات الأقوال المهترئة من الترديد، وملاحقة الكلمات القادحة، والتمترس خلفها. فبقدر اعتزازنا بمبادئنا، ومسلماتنا، وغيرتنا عليها، يكون المخالف كذلك، له مسلمات، ومبادئ، يغار عليها، وإذ لا يكون من مصلحتنا، ولا في مَقْدورنا تقويضها، نكون كـ(براقش) التي جنت بعوائها على أهلها، حين دَلَّتْ عليهم الأعداء.

وكم من مهتاج خال الوِفَاض، مَكَّن للعدو من رقبته، وشغل عشيرته بالمناكفات الملهية عن كل مكرمة، كما أنه بِهُرائه الفضائِحي يُشَرْعِن للخصوم إعداد القوة، لا لمجرد إرهابنا، ولكن لتحين الفرصَ، والانقضاض علينا في ساعة الغفلة، والاشتغال بالمفضول.

لقد جاء (الربيع العربي) بما لم يكن في الحسبان، فالمهمشون والمنفيون من الأرض، تسنموا المناصب، وتقدموا الصفوف، وكان القول ما قالوا، ومجيء هذه الشريحة بهذه السرعة، وبتلك المفاجأة، ربك المسيرة، وضاعف الأخطاء، وفَوَّتَ فُرص التقدير والتدبير. ذلك أن طائفة مِنَ المتسنِّمين للمناصب تنقصهم التجارب، وتعوزهم الخبرات. ومن ثم لا يذكرون العواقب، ولا يرقبون المشاهد، ولا يضعون حساباً للقوى المتحكمة بمصائر العالم. ولما لم يتدبروا تحركت المكائد، وفتحت الملفات، ونثرت كنانة العراقيل، وأشيعت الفوضى، ونشط الطابور الخامس، لإذكاء الطائفيات والأقليات، والحيلولة دون تقاسم الحقائب، وتداول المسؤوليات، وإنجاز الدستور، وتفعيل القانون، والفصل بين السلطات. وبهذا عادت حليمة إلى عادتها القديمة. حكومات تصل إلى سدة الحكم عبر صناديق الاقتراع، لتكون من الوطن وللوطن، فإذا بها تكون من الحزب وللحزب، ومن الطائفة وللطائفة. وفي ظل استحكام حلقات الفتن فإن علينا أنفسنا، إذ لا يضرنا من ضل إذا اهتدينا. وحين نقدم النصح، فإنه يجب علينا أن نَتَخَوَّل المتلقي، ونتلطَّف في التبليغ.

أما حين ينبري الخليون لتحقير مثمنات المخالفين، والنيل من رموزهم، وتسفيه أحلامهم، فإنهم يعيدون العداوة جذعة، ومن ثم يبادلوننا بالمثل، ثم لا نجد متسعاً من الجهد والوقت لتدبير أمورنا، والاشتغال بما يعنينا، وفي ذلك مخالفة صريحة لمبدأ (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه). وعلى سبيل المثال نجد أن البعض منَّا يوغل في تجريح "الإخوان المسلمين" واتهامهم بأقذع الأوصاف، واستدعاء الأحياء منهم والأموات، وهم منتشرون في أقطار الدنيا، متفاوتون في مناطاتهم وممارساتهم.

ووصولهم إلى سدة الحكم بالاقتراع، يتطلب العمل على احتوائهم، فإن لم يكن، فلا أقل من تحييدهم، أما معاداتهم، واستعداؤهم، والتنازع معهم فخيار مفضول، ولاسيما أنَّهم لم يبادرونا بعداوة، ولم يستعدوا علينا أحداً، ونحن وهم نتفق في المرجعية، ونتحد في الهم، وإن اختلفت مفاهيمنا، وتنوعت أساليبنا. لقد عشنا معهم من قبل خلطة كادت توحد بيننا، فمنهم تعلمنا، وعلى كتبهم تثقفنا، ولكبارهم استضفنا، وعن مضطهديهم دافعنا، وتلك الوشائج تستدعي اتخاذ واحد من موقفين:

إما الاحتواء، أو التحييد. ولاسيما أن حزب الإخوان في مصر وصل إلى الحكم بإرادة شعبية، وحين لا يُحْسِن الحزب إدارة البلاد، فإن هذا شأن المواطن المصري، وليس من حقنا التدخل في شؤونهم الداخلية، وممارسة الهجاء المقذع. وإذا مسنا الضر منهم، أو اقترفوا خطيئة تصدير المذهب أو الثورة فإن علينا مواجهتهم بأخطائهم، عبر الوسائل المشروعة.

وإذا راق لبعض كُتابنا ومفكرينا موضعة الآخر، فليكن عادلاً، مهذباً بعيداً عن التجريم والتجريح. فالله يقول: ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ﴾ ويقول: ﴿وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾. لقد كانت مواجهات البعض منا للمشروع الإخواني مدعاة إلى المبادلة بالمثل، وبلادنا قبلة المسلمين، ومهوى أفئدة الموحدِّين، وتَعَمُّدنا لخلق العداوات، وصناعة الخصوم، تحول دون تطهير بيت الله للطائفين والعاكفين والركع السجود. والذين يضيقون ذرعاً بدعوى الخصوصية، يجهلون تلك السمة، التي لم تكن لأي بقعة من ديار المسلمين. وخدمة المقدسات تتطلب تجسير الفجوات مع كل الأطياف والطوائف.

وإذ يكون من حق كتابنا ومفكرينا مشاركة النخب العربية في تشكيل الوعي السياسي والفكري والديني للأمة العربية، وإسماع الصوت، وطرح الذات بكل رؤاها، وتصوراتها، فإنّ ذلك لا يكون بالصراع والصدام، ولاسيما أن بلادنا طرحت مشاريع الحوار، وأكدت على التقارب والتعايش، ولقي ذلك قبولاً وترحيباً في الأوساط العالمية. وكيف يتأتى لنا تَمَثُّل هذه الرؤية، ونحن نستدعي بين الحين والآخر رموز الفكر العربي بأساليب غير حضارية، وغير معرفية، وغير إنسانية. فـ(سيد قطب) على سبيل المثال عالم جليل، وسياسي "راديكالي"، و(مناع القطان) وآخرون قضوا نحبهم، علماء أجلاء، يعلنون إخوانيتهم، وعلينا النظر إليهم على ضوء (تلك أمة قد خلت)، لقد ساءني ذلك الأسلوب العدواني، الاستعدائي. فالعلماء الذين امتلأت المكتبة العربية بكتبهم، وشاع ذكرهم، وتجذرت مكانتهم، وعرفهم القاصي والداني، لا يمكن التعدي على مكانتهم، والنيل منهم، مع أنهم قضوا نحبهم، وقَدِموا إلى ما قدموا. وإن كان أحد من أبنائنا قد حفل بهم، أو تقمص آراءهم، أو أشاع مذاهبهم، في زمن لا يحتمل مثل ذلك، فإن الأمور تعالج بأسلوب حضاري، بعيد عن التجريح، والتجهيل، والتقليل من الشأن. وكيف يبيح كاتب لم يبلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه لنفسه مثل هذا الأسلوب الهجائي. علماً بأن العلماء الأموات المنتمين لهذا الحزب، أو ذاك، لا يتحملون أخطاء الأحياء، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾. ثم إن الصراع في النهاية (أيديولوجي) نعرفه من لحن القول.

وكم يحز في نفسي أن تصل المناكفات إلى حد القول:

(فغض الطرف إنك من نمير)، لرجل ينتمي إلى أسرة ندين لها بالفضل، وعسى أن يكون المتصدي قَصَدَ الانتماء الفكري، لا الأسري. وعلى أية حال فالخطأ لا يبرر الخطأ، والشاعر العربي يقول:

إذا جارَيـــتَ فـــي خُلُـــقٍ دَنيئـــاً
فَأَنـــتَ وَمَـــن تُجاريـــهِ سَـــواءُ

... ليتَ شِعْري هذه الدنيا لِمَن .. ؟! (١)

لا أحد فوق الشقاء والكبد، مثلما أنه لا أحد فوق النقد والمساءلة.
ولو اجْترحْتُ مغامرة البحث عن محققات السعادة، لانقضى الوقت المتاح، قبل أن أمسك بطرف الخيط.
وغير المجربين هم وحدهم الذين يراودون شبح...
... السعادة، ويظنون أنهم قادرون عليها: [وأخو الجهالة في الشقاوة يَنْعمُ] .
وكم هارب من واقعه، تمنى العودة إليه!.
وكم باك من زمانه، لمَّا انقضى بكى عليه!.
وتلك الأوضاع دُوْلة بين مختلف الأطياف.
يُطَلِّق الرجل امرأته، لأنَّه شقي في معاشرتها، ويتزوجها آخر، ليجدها، كـ[أم زرع لأبي زرع] .
وذات مرة تَسَلَّلت امرأةٌ من بيت زوجها، في جنح الظلام، لمعاناتها، فلما مَرَّت بأحد المساجد، سمعت الإمام يرتِّل: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤] .
وحين انقطع صوته، انقلبت على أعقابها راجعة إلى بيت زوجها، وهي تردد: كَبَدٌ في بيت نعرفه، أحب إلينا من كَبدٍ في بيت لم نألفه: [وأي الناس تصفو مشاربه] .
وما من كبير، أو صغير.
شَجِيَّ أو خَلِيّ، إلا هو مترع بالمنغصات، مكتنف بالمخاوف.
حارس المنشأة في قرية نائية، والوزير الذي تتبعه تلك المنشأة، كلاهما برم يتأوه.
فـ «**كُلٌّ ميسر لما خلق له**».
وأرباب الخَوَرْنَقِ، والسَّدير، يصطرعون فيما بينهم على الحدود، والمبادئ، والمصالح.
ورعاة الشَّاءِ، والبعير، يحتربون فيما بينهم على الموارد والمراعي.
وكل صنف من الناس يحمل من الهموم ما تنوء به الجبال الراسيات.
وحتى الأمم الأخرى من دَوَابٍّ، وطيور، وزواحف، وهوام، وخشاش، وأسماك يطارد بعضها بعضا، على سنن الدورة الغذائية.
وإن كنا لا نفقه شيئا من عوالمها، مثلما أننا لا نفقه تسبيحها: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨] :

والظُّلْمُ مِنْ شِيَمِ النفوسِ فإنْ تَجِدْ
ذا عِفَّةٍ فَلِعِلَّةٍ لا يَظْلِمُ

[وما من ظالم إلا سيبلى بأظلم]
-فهل من عاقل يجد مبرراً لمؤامرات الغرب، وغزواته، وتحريشه، واستبداده، وفضائع ضرباته؟.
-فماذا ترك في أرجاء المعمورة؟.
لقد أوسعها دماراً للممتلكات، وإفساداً للأخلاق، واحتكاراً للحقائق، واحتقاراً للآخر.

---

(١) تاريخ المقال: ٢/ ٤/ ٢٠١٣

ولو أنَّه عَقَلَ، لَحِرصَ على تسمين الحلائب، وتوفير الأجواء الملائمة لكسب مزيدٍ من الخيرات.

لقد دَمَّر دولاً، كانت تمده بالثروات، والمعادن، والخامات، وتستقبل صناعاته ومنتوجاته، ومع هذا لم يجد بُدًا من ضَرْبها بفلذات أكباده.

حتى إذا أهلك الحرث، والنسل، والسمعة، والهيبة، لاذ بالفرار، لا يلوي على شيء، وهو فيما يأتي، ويذر، إنما يبحث عن بواعث السَّعادة.

إنها سُنَّة التدافع، والتداول، والابتلاء، والعقاب، والاعتبار: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢] .

وكم من أمم أُقْحِمت في أتون الفتن، ولسان حالها يقول:

لم أكن من جُنَاتِها علم الله

وإنِّي لِحَرِّها اليوم صالي

وذلك الاصطلاء المجاني قدر [الخليج العربي]، بكل ما يعج به من خيرات، وما يقوم بينه وبين قادته من وفاق.

فليملأ الله بطون المفسدين ناراً، لقد شغلونا عن مُراوَدَةِ السعادة، والعمل للآجلة، كما شغل المشركون رسول الله ﷺ، وأصحابه رضوان الله عليهم عن الصلاة الوسطى.

والقدر العصيب الذي تعيشه الأمة العربية، لا طاقة لأحد باحتماله.

والذين بادروا واقعهم بالمواجهة، كادوا يَدُقُّون بينهم عِطْرَ مَنْشَمِ.

وحتى الذين أزاحوا عن كواهلهم ما يودون إزاحته، لم يكن باستطاعتهم تحقيق ما يحلمون به من حرية، ورخاء، وسعادة.

وهم إذ غنموا أعز ما يفقدون، لم يحسنوا اقتسام الأنفال، ولم تكن لهم مرجعية تُفْتيهم في قسمتها، وليس التنازع غريباً حول الفيء.

وكيف لا نتوقع ذلك.

والصحابةُ رضوان الله عليهم، سألوا عن الأنفال، وجاء الجواب الرباني، ليحسم الموقف، وينهي الخلاف.

والمُقَعِّرون للرؤية في مصائر الثورات، ينتابهم الخوف.

فالمعطيات محبطة.

والعائدون من الجهاد الحربي، يخوضون جهاداً أكبر.

ومن تصور أن الجهاد المسلح لا ينطوي على جهاد أكبر منه، لا يلتقي فيه المحتربان بسيفيهما، وإنما يلتقيان بالفكر والكلمات، فَوَّت على نفسه مبادرة الأزمات.

وأخطر ما تواجهه الأمة تصدع وحدتها الفكرية، والأفدح من ذلك كله، ألا يكون للمختلفين مرجعية: شخصيةٌ أو نصيَّةٌ، تبادر الأزمات في ساعة العسرة، وتحقن فيوض الآراء، والتصورات المتضاربة.

وذلك واقع الأمة العربية! من المحيط الهادر، إلى الخليج المضطرب.

وهو واقع تنداح فيه دوائر الفرقة والاختلاف، ويجد المغرضون والمتآمرون فيه أجواء ملائمة للتفريخ والصفير.

كما قُبَّرة في مَعْمَرِ.

كلُّ أولئك يضاربون على سمك في البحر، أو على طير في الهواء، بحثا عن السعادة.

وما نحن عليه من فيوض النعم، لا نملك تثبيته، ذلك أن الفرقاء كالمستهمين على سفينة، أي عابث فيها، يعرضها للغرق.

والأخذ على يَدَيْه في الوقت المناسب، قد ينقذ الجميع.

فهل نحن متفقون، أو متعاذرون، أو ناجحون في إدارة أزمة الاختلاف؟.

إن الإشكاليةَ ليست في الأخذ بحجز المندفعين، ولكنها في التوقيت الدقيق، وحسن الأداء، ودقة التدبير والتقدير، والقدرة على إقناع المُسْتَدْرَك بضرورة التدخل، وأسلوبه.

وكم من مسؤول راهن على حل، ولكنه لم يزد الأمر إلا تعقيدا واستعصاء، ولربما تأخذه العزة بالإثم، فَيُصر على رؤيته المفضولة، ويتولد من إصراره معاندون، يسهمون في توسيع هوة الخلاف.

وإذ لا ينجو أيُّ مجتمع من ملفات ساخنة، متفاوتة الخطورة، والأهمية، فإنها قد تُحَرَّك في تلك الظروف، فلكلِّ مجتمع بؤره المتوترة، المقدور على تطويقها، أو تحييدها، والحيلولة دون انفجارها.

وذلك لن يتأتى حين لا يطاع لقصير أمر.

والفرادة في مواجهة العَصِيّ من المشاكل، قد يمكنها من الاستفحال.

ومن أمن المشاكل، فاجأته في ساعة الغفلة.

وشرار الخلق يتوفرون على جَلَد الفاجر، وإحساسهم بالمطاردة، يحملهم على التربص، والمكر، والبحث عن الثنيات المهملة.

ومتى استطاع القائم على بؤر التوتر رَدْمَها، ثم لا يفعل، جاء يوْم لا تتوفر عنده الإمكانيات، وكلُّ النَّاس يغدو، فمعتق أو موبق، وكم من طائف: [يبغى نجوةً من هلاك فهلك] .

وكم من مشكلة بَدَتْ صغيرة، وغير مثيرة، ولكنها مع الإهمال والتسويف، وتنكبُّ ذكر العواقب جانباً، تستفحل، ثم تتحول إلى عبوة ناسفة، تغري الأعداء على مبادرتها: [والنار من مستصغر الشرر] .

ولقد يساور الصَّفْوةَ هَمُّ المشاركة الوجدانية، أو العملية، ثم لا يجدون لهم في لجة المشاكل بارقة أمل.

ولربما يستبد بالأمر من لم تكتمل عنده مفردات القضايا، ثم لا ينفعه الصدق، ولا الإخلاص.

وحين تَرِمُّ الجروح على فساد، تكون على موعد مع الانفجار.

و:

إذا مـــا لجُـــرْح رَمَّ علـــى فَســـاد

تَبَـــيَّن فيـــه إهْمـــالُ الطَّبِيـــب

وما من متابع، يعي واقعه إلا هو على علم بما يحيط به من مشاكل، وما يحاك ضده من مؤامرات.

فالتجارب والخبرات تمكن من التنبؤات، وفراسة المؤمن كمسؤول الأرصاد، له توقعاته.

ومواجهة المشاكل لحلها، لا يستدعي البحث عن المسؤول، لأن مثل ذلك يؤزم الموقف، ومن ثم فالاحتواء يتطلب مبدأ [العفو عما سلف] .

ولأن كل ذي نعمة محسود، فإن بلداً كـ[المملكة العربية السعودية] بما أنعم الله عليها من أمن، وإيمان، واستقرار، واستقامة على الحق، وامتثال لأمر الله، وتصالح مع قادتها.

لن ينجو من كيد الكائدين، وحسد الحاسدين، وإذ لا نراهن على النجاة من كل المعوقات، فلا أقل من محاصرتها، وتضييق الخناق عليها، والخلوص من بؤرها، بأسرع الأوقات، وأقل التكاليف، وسنظل نردد مع الشَّجِي:

كُــلُّ مــن لاقيــت يشــكو دهــره
ليــت شِــعْرِي هــذه الــدنيا لمــن

وسيظلُّ قَدَرُنا مشدوداً بأمْراس كِتَّان إلى عِطرْ المرأة الحميرية [مَنْشَمِ] بوصف عِطْرِها مدعاة للشر، والحرب:

أَرَانِــي وعَمــراً بيننــا دَقُّ مَنْشَــمِ
فلــم يَبْــق إلاَّ أن أُجَــنّ ويَكْلَبــا

إنفاق بتَبْذِير.. وأداءٌ بتَقْصِير.. ! (١) [١]

كل من لاقيت عائداً من (دبي) رأيته يَضْرب كفًّا بكف، ويتحسر على المسافة الشاسعة بيننا وبين تلك المدينة المتخمة بكل مثير.

نحن الخليجيون كافة، نقف على حافة الترف. والترف مُذَمَّمٌ بكل لسان، حتى لقد تكرر جِذْره في القرآن الكريم أحد عشر مرة، كلها جاءت في سياق الذم. فالترف إذاً عَتَباتُ المساوئ. ولكن البعض مِنَّا يضبط إيقاعه، ويحسن استثماره، ويتقي عواقبه الوخيمة.

وفُضُولِيٌّ مثلي، يتساءل: كيف أثارت (دبي) إعجاب العائدين بانضباطها، والتزام الكافة بأنظمتها: عاملين، وسائقين، ومتسوقين، وتجاراً، وسائحين؟

من حقنا التعرف على محققات الانضباط كي نوازن، ولا نتحرج من ذكر محاسن الغير، لنأخذ بأحسنها، وفي الوقت نفسه لا نظلم أنفسنا، فنجهل ما لنا من تجليات، وما لرجال أمننا من منجزات.

(دبي) مدينة منضبطة، تهفو إليها أفئدة السياح والتجار على حد سواء، وهي تلهث وراء تحقيق كل الرغبات، وَدَرْءٍ كل المفاسد، لكي تظل مدينة جَذْب. قد لا تكون أسطورة، كما يحلو للمبالغين، ولكنها ملفتة للنظر، شِئْنا أم أبينا. وقد لا تكون كما يقال، ولكنها على أية حال متميزة، لو تَحَقَّقَ لها بعض ما يقال.

أمنُها، نظامُها، نظافتُها، انضباطُها، كلُّ ذلك يبعث على التساؤل والإعجاب. والأسئلة الأكثر تحدياً.

- هل تنفق دولة الإمارات أكثر مما ننفق على سائر المرافق؟
- وهل أهلها مُحِبُّون لها أكثر من حبنا لأرضنا؟
- وهل سُكَّانُها خلق آخر؟

لا شيء من هذا، ولا ذاك تمتاز به، ولكنَّ السَّرَّ يكمن في تفعيل النظام، واحترام التعليمات، وشعور القادم أنه متابع حين يتحايل، مُحْتَرَمٌ حين يَنْضبط.

يذهب أحدنا بكل ما يستبطنه من الفوضى، و(اللامبالاة)، فإذا دخل أرضها كان منضبطاً، واعياً، مراعياً لكل شيء. حتى إذا لفظته حدودها، عادت إليه فوضويته و(اللامبالاته). متهوراً في القيادة، مخالفاً للأنظمة، متحايلاً على المراقبة.

- فأين يكمن الخلل؟

لدينا من الأنظمة، والتعليمات، والضوابط فوق ما لديهم. ولدينا من أفراد الأمن والمرور والرقابة أكثر مما لديهم، ولدينا من الإنفاق أضعاف ما ينفقون.

ويعود السؤال: - أين يكمن الخلل؟

إنه في إيقاف التنفيذ، تعليمات صارمة، ولكن بعضها حبر على ورق. وأنظمة دقيقه، ولكنها رهينة الأدراج.

سلوا الخليجيين عن انضباط العمالة لديهم، والتزامها بما عليها، واسألوا أنفسكم عن فوضوية العمالة عندنا، وتهاونها، وتسيبها، واستبدادها، وثرائها غير المشروع، واشتغالها في غير ما استُقْدمت من أجله.

المفارقة العجيبة أن الصحف الفضائحية تلوك سُمْعتنا، وتمتعض من سوء تعاملنا، وتشتكي بين الحين والآخر لمنظمات حقوق الإنسان من سوء تصرفنا، ومتاجرتنا بالبشر.

---

(١) تاريخ المقال: ٩/ ٤/ ٢٠١٣

يُقْتَلُ أطفالنا الأبرياء، ولا تتمعر الوجوه الباسرة، ويُقْتص من المجرمين، ونوصف بأقذع الأوصاف، ويُستَعْدى علينا البَرُّ والفاجر، وفي ذلك تَدَخُّلٌ سافر في سيادة الدولة.

-فهل بعد هروب عشرين ألف عاملة من فوضى؟

-وهل بعد تسلل الآلاف، وتَصَدِّيهم لرجالنا بالسلاح من دليل؟

تلك حقائق صارخة، وشواهد دامغة.

-فماذا عملت جهات الاختصاص إزاء هذه الفوضى المستحكمة؟

-وهل حولتها إلى ظاهرة مقلقة، أم أنها لَمَّا تزل تراها واقعة، تمر دون اكتراث؟ ثم:-

-هل عُوِّض المتضرر مِنَّا، وحفظت حقوقه؟

أكاد أتميز من الغيظ، حين تذهب العاملة الهاربة إلى أقرب مركز شرطة، لتُسَلِّم نفسها، بكل رباطة جأش، بعد ثلاث سنوات، أو أربع، وقد بشمت من الكسب، لتطلب الترحيل، أو حين تصل العاملة، ثم لا يناسبها الوضع، فتعود أدراجها، دون اكتراث، والخاسر الوحيد المواطن.

كل الذي يعمله المركز مع الهاربة، هو الاتصال على الكفيل المسكين، ليقوم بتولي استكمال أوراقها، وترحيلها على حسابه، ولم يكلف المركز الموقر نفسه بمحاسبة الهاربة، أو التعرف على الأسرة التي آوتْها ثلاث سنوات، أو أكثر، بل لم يكلف المركز نفسه بالتواصل مع قنصلية الهاربة، لتسجيل موقف على الأقل، ووضعه أمام واقع رعايا دولتها. وإن أمكن فالمطالبة بتعويض الكفيل الذي خسر أكثر من عشرين ألف ريال، وانتظر أكثر من ستة أشهر.

هنا مكْمن الخلل، المواطن هو آخر من يُفَكَّر بمصلحته، بل لا يَحْلُم بأن جِهَةً ما ستتولى متابعة حقوقه، وحفظها. إن للمواطن حقوقاً مهدورة، وللعامل حقوقاً مهدورة. وحين يتخلى المسؤول عن الطرفين، يمارس كل من العامل والكفيل لعبته الذكية، وفي كل يوم تُضَاعف الأنظمة، وتُغلَّظ العقوبات، ولكن مع وقف التنفيذ، أو العجز عن التنفيذ.

عمال، وعاملات، متسللون وهاربون، ومهربون للمخدرات، والأسلحة المضادة للطائرات، والدبابات، ومواطِنُون مواطِنُون يُهَرِّبون أولئك لأنحاء البلاد، بثمن بخس. وكل أولئك يمارسون أقبح الأفعال من سرقات، وغش، وتزييف: وثائق، وعملات، ومصانع خمور. فإذا ضُبِطوا بالجُرْم المشهود، لم يَزِدْ العقابُ على الترحيل، وجعل الكفيل طرفًا في العملية.

في (دبي) -كما يقال والتبعة على الراوي- لا أحد يستطيع أن يلعب بهذا الحجم، وبتلك الفظاعة، كل الحقوق محفوظة، العامل مطمئن على حقوقه، ولكنه مع هذا خائف يترقب من صرامة الأنظمة. والمواطن مطمئن على حقوقه، وهو أخوف من العامل. وكل من سَوَّلَتْ له نفسه التهاون، كانت (الكاميرات) له بالمرصاد، فكلا الطرفين كراكب الأسد، يخيف الناس، وهو منه أخوف. وهذا ما كنا نبغي: صرامة في الأخذ، وحِدَّة في العطاء، ودقة في المراقبة، ومبادرة في العقاب: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢] .

إننا نريد مسؤولاً نُوقظه للمشاكل، فيتتبع أقصى دائها، ويمكننا من أن ننام نوم قرير العين هانيها. إننا بحاجة إلى إعلان حالة الطوارئ، وتفتيش البيوت، والأسواق، والمصانع، وسائر المواقع، لقطع دابر الفوضى المستحكمة، وما نسمعه الآن بادرة خير، عسى ألا يخبو الحماس، وتعود الفوضى جذعة، إذ لسنا بحاجة إلى الاهتياجات، وسحائب الصيف، نريد عملاً مؤسَّسِيًّا دائما، وإن قلَّ، على حَدِّ: «**أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قَلَّ**».

لقد استمرأنا اللعب، وأصبح ظاهرة مألوفة. والذكي من يمرر لعبته على الجميع، إننا مطالبون بمواجهة أنفسنا: مواطنين، ومسؤولين، كلنا مستخفون، ومتهاونون، ومتحايلون. إن لدينا على الأقل عشرين ألف أسرة خائنة لأمانتها، فكل عاملة هاربة، لا يُؤْوِيها إلا خائن لأمانته.

-فمن رَوَّضَ هؤلاء على خِيانة الأمانة؟

إنه النظام المعطل، أو المسؤول العاجز، أو المتهاون، أو المواطئ، سَمَّهِ ما شئت.

إنفاق بتبذير، وأداء بتقصير .. ! (٢) [١]

ولكي نَحْسم الفوضى المستوطنة، لابد من العصف الذهني، فالمواطن والمسؤول يُشَرْعنان للخطأ، ويؤسسان له، وحسم الشَّرْعنة والتأسيس يتطلبان تغيير الذهنية المتمثلة بالنسق الثقافي، ومن ثم لابد من تجنيد الشباب العاطل، ليعمل ليل نهار، بالأجر اليومي، أو بالمكافأة على الإنجاز، على حد:

(كُلُّ من أسر أسيراً فله سلبه) إننا بأمس الحاجة إلى تطهير المجتمع من العمالة السائبة والهاربة، وبأمس الحاجة إلى أطر الناس على النظام، وكشف المتواطئين، والمتلاعبين، والمتحايلين.

لقد خسر العامل على كسب (التأشيرة) وخسر الكفيل على الاستقدام ومُعَوَّلُ الطرفين على الفوضى المستوطنة والرقيب المواطِئ، ودون القضاء على الفئتين خرط القتاد.

إن عشرة ملايين عامل أو أكثر، ومثلهم معهم من المتسللين والهاربين، وأكثر من هذا وذاك من المواطنين المتلاعبين، لا يمكن أن تدار أمورهم من قبل وزارة لا تتوفر فيها الكفاءات البشرية، التي قد لا تُغَطِّي الأعمال الورقية، ولا تحسن تصريف الأعمال المكتبية.

ثم إن مضاعفة الضرائب، ووضع الأنظمة الجائرة التي لا يمكن تنفيذها مدعاة إلى التفلت والتحايل، وكل نظام لا يوجد من يرود له، ويحمي ساقته، يفتح على الأمة باباً من أبواب الشَّر.

ولو أن العامل والعاملة وصلا إلى الكفيل بأقل الأسعار، لما اقترف المعسرون إيواء الهاربات، وتشغيل العمالة السائبة، ولو أن العاملة وصلت إلى الكفيل بأسرع الأوقات، لما تجرأ المحتاجون على الأنظمة. إن الضرائب التي تؤخذ من الكفيل، والإجراءات المعقدة، والمدد الطويلة مدعاة إلى استغلال ثغرات النظام. ثم إن التهاون مع العامل المتلاعب، والاكتفاء بالقبض عليه، وترحيله، دون محاسبة عسيرة، مدعاة إلى الهروب. تلك هي بعض أدوائنا المتجذرة والمتنامية، أنظمة صارمة، لا يقدر المسؤول على تنفيذها ومتابعتها، وضرائب تصاعدية باهظة، يدفعها المعسرون، لتضاف إلى ميزانية (تِرْلِيُوْنِيَّة). فماذا تستفيد الدولة من ثلاثين ملياراً تؤخذ من محدودي الدخل، وتكون مبرراً لرفع الأسعار والأجور، وإرباك السوق. يجب أن نفكر، وأن نقدر، وأن نعيد النظر في شأننا كله، فالسيل قد بلغ الزبى، وهم بأمن البلاد، واستقراره من لا يدفع عن نفسه أيَّ غائلة: ولسان حال كل مواطن يردد:

إذا كُنْتُ مأكولاً فَكُنْ خَيْرَ آكل
وإلاَّ فَأدْرِكْني ولمَّا أُمزَّقِ

وبعد:

فلست مع الشامتين، ولا الشاتمين، ولا مع المفترين، وسيظل موقفي مع أي مسؤول محكوماً بالكلمة الطيبة، والقول السديد. ومهما اختلفت مع أمير أو وزير أو مع من دونهما، فإنني لن أدع لأحد من أولئك جميعاً الظفر بتكذيبي، أو اتهامي بالتحامل، وسوف أجتهد ما وسعني الاجتهاد لمعرفة الفضل لذويه، والإشادة به. وفوق هذا كله، سأظل أرقب الرد الرصين الذي يهديني سواء السبيل، فما أقوله مجرد تساؤل، وعلى المُسْتهدف ألا يلتزم الصمت، وألا يلوذ بالفرار، فالصمت دليل على العجز، أو الاستخفاف بتأوهات

---

(١) تاريخ المقال: ١٦/ ٤/ ٢٠١٣

المواطن، وليس هو من مرور الكرام باللغو؛ فأنا في النهاية مجرد ناقل للتأوهات، ولحديث المجالس. وعلى كل مسؤول أو مواطن أن يأتي ببرهانه إن كان صادقاً، فَكُلُّنا خطاءون.

لقد ظلت (وزارة العمل) مثار جدل منذ أمد بعيد، وكل وزير تسوقه المقادير إليها يقول متضجراً:

وَكُنْتُ إذا أصابَتْنِي سِهامٌ
تَكَسَّرتِ النِّصالُ على النصالِ

وهي اليوم أشد إثارة، وأكثر تساؤلاً، وأَدْعى لاحتقان المواطن واستيائه. والناس يكادون يجمعون على تعثرها، وعجزها عن مواجهة مسؤولياتها بالآليات والمناهج والإجراءات المناسبة.

ولأمة لا تجتمع على ضلال، وواجب المسؤول أن يصيخ إلى نبض الشارع العام، فهو المرآة المقعرة، والرائد الذي لا يكذب أهله، فإن قدر على تطويق المشكلة، وفك الاشتباك وإلا فليقم قبل أن يُقام عنه.

وإحقاقاً للحق فإن لكافة المسؤولين قيماً ومبادرات، لا يستهان بها، ولا يجوز إنكارها، ولا الاستخفاف بها. ومهما اختلفنا مع أحدهم، فإننا لا نشك في إخلاصهم، وصدقهم، وتفانيهم، وبحثهم الدؤوب عن أنجع الطرق وأفضل الحلول، لتفادي المشاكل الماثلة للعيان، وأملنا ألاَّ يطول زمن التيه.

ولقد قلت، وسأظل عند قولي: إن المساءلة والنقد حق للمُسْتَهْدف بخدمة أي قطاع حكومي. وواجب المسؤول أن يصيخ، وأن يستوعب النقد، وأن يتلقاه بصدر رحب، وثقة، وألا يمنع المَصْدُورِين من الفيضان، إذ (لابد للمصدور من فيضان)، كما يقول أهل العشق، وليسوا وحدهم المساكين، إن المواطن الذي توظف كل الإمكانيات لخدمته، ثم لا يناله منها شيء، أو يناله عكس ما يُؤَمِّله، ويتطلع إليه أسوء حالاً من العاشقين المحرومين، وما أكثر المرافق التي تسيء من حيث تريد الإحسان، وتكون كالطبيب الذي يداوي الناس، وهو عليل.

وبعض الجهات المعنية قد يكون لها عذر ونحن نلوم، ولكنها لا تحسن الاعتذار ولا إدارة الأزمات، ومن ثم سنقول بعض معاناة المواطن. وعلى المسؤول أن يقول بأعلى صوتها: (الآن حَصْحَص الحق) أنا أهملتُ أو أُهْمِلت، وأُلْقِيتُ في اليم مكتوفاً وقيل لي: (إياك إياك أن تبتل بالماء) إذ لابد من الاعتراف بأن الإمكانيات والصلاحيات أقل من الإشكاليات القائمة والمتجذرة، فلا نريد للأفواه أن تظل مُمْتَلِئَةً ماء.

إن المسؤول حين يدعي، أو يكابر، وينفي عجزه وفشله في مواجهة كثير من المشاكل يكون مدعاة لمزيد من النقد، والتجريح، والتقول. وإن كانت في النهاية من الأسنة التي يضطر الطرفان إلى ركوبها.

والذين يحملهم الفضول إلى المواقع والمنتديات والتغريدات يهولهم ما يرون، ويسمعون. وهو قول لا ينطلق من فراغ، ولا تجوز إحالته إلى التحامل، أو الافتراء، أو كلام الجرائد. وواجب أي مسؤول أن يتعقب تلك المواقع، وأن يحولها إلى مرايا ينظر فيها ذاته، فإذا كَذَبَ أكثرها، فإنها لن تفقد شيئا من الصدق، وهي رصاصات، إن لم تُصِبْ فإنها تَرْبِك، وتبعث على التساؤل. وقدر المسؤولين وجود مثل هذه الرِّئة التي يتنفس منها كل محق أو مغرض، إننا في زمن (ويأتيك بالأخبار من لم تُزَوِّدِ)، فلنعد للزَّمن الفضائحي عدَّته.

إنني مُسْتاء من تلك البذاءات، ومتضايق من تلك الافتراءات، والتذمرات، والاستياء، والضيق لا يَحْسِمان شيئا من المواقف، ولا ينهيان شيئا من التساؤلات، والمعاناة، فما يقال تحكمه في النهاية مقولة:

قـد قِيْـل مـا قيـل، إنْ صِـدْقاً، وإن كَـذِباً

فمـــا اعتـــذارُك مِـــنْ قَـــوْلٍ إذا قِـــيْلا

كانت لنا أعوام في الجنادرية .. !(١)

هذه هي المرة الأولى التي لم أدع فيها لحضور فعاليات الجنادرية منذ ربع قرن ونَيِّف.

وهي المرة الأولى التي أكتشف فيها الجنادرية على حقيقتها.

لقد ارتَبطْت بها منذ أن كانت أرضاً عذراء، محاطةً بِرِدْميات ومخيمات، حتى أصبحت مدينة تعج بكل مثير.

وكنت طوال ربع قرن مغموساً فيها، ومشاركاً في فعالياتها، وعضواً في مجموعة المشورة فيها.

ويكفيني فخراً أن خادم الحرمين الشريفين قَلَّدنِي فيها أشْرف وسام، وأن الأمير متعب بن عبد الله افتتح الموسم الثقافي الذي دُرِسَتْ فيه أعمالي الأدبية بوصفي شخصية العام، وأنها طبعت رسالتي العلمية.

وبهذا كنت [جُنْدُبُها] المدعو لِحِيْسِها اللذيذ. آتيها محاطاً بكوكبة من المرافقين والمنظِّمين، أتقلد بطاقتها، وأتحرك في مواكبها، وأذهب حيث يراد للضيوف الذهاب، وتربطني بكافة فعالياتها ورجالاتها روابط وُدٍّ وعمل.

في كلِّ موسمٍ ننطلق من مَقَرَّات الإقامة جميعاً على الحافلات، لحضور الفعاليات، هنا أو هناك، ثم نأوي إليها استِعْداداً لجولات متلاحقة.

فالحركة والسكون مفروغ منهما، ومَعْلُومَةَ المقدارِ والزمان والوِجْهة. كنت أظن أننا الأكثر حظاً، والأوفى مُتْعَةً، والأحسن حالاً.

وفي هذا العام جئت إليها بمحض إرادتي، لم أضع في برنامجي موضعاً، ولا فعالية. ولم أرتبط بِمَوْكبٍ، ولا بمقابلة.

أتحرك متى أريد، وأذهب حيثُ أريد، وأَقْضِي من الزمان ما أُشْبع به فضولي، أختار المواقع، وأتذوق المُشْتَهى من المأكولات والمشروبات المناطقية، وأتحدث بصوت مرتفع مع من شئت من الأناسي وأسأل عَمَّا شِئْت.

لقد شعرت يومها أنني أتمتع بهذه المنجزات، وأتفاعل معها بحرية مطلقة. كنت من قبل أنظر إلى الجنادرية بعين رسمية:

[وعين الرضا عن كل عيب كليلة] .

واليوم أنظر إليها بعين المواطن. وليسَ شرطاً أن تكون عين سُخْط، ولسان حالي يردد:

عَـــدَسْ مـــا لِعَبّـــادٍ عَلَيـــكِ إِمــــارَةٌ
نَجَـــوتِ، وَهَـــذا تَحمِلـــينَ طَليـــقُ

فشكر الله لكل الزملاء الذين غيروا النمطية، وأتاحوا لغيري ما أتاحوه لي على مدى ربع قرن، فذلك عين الصواب، وإن جاء متأخراً. فالجنادرية حق لكل مواطن، وعندئذ لم أكن كـ[أبي حَزْرَة] الذي نادى، وهو محجوب عن القصر:

يـــا أيهـــا الرجـــل المُرْخِـــي عِمامَتـــه
هـــذا زمانُـــك فاســـتأذن لنـــا عمـــرا

(١) تاريخ المقال: ٢٣/ ٤/ ٢٠١٣

لقد جئتها اليوم بمحض إرادتي، وبدون دعوة، ولا استئذان، وأحسست أنني أمام تظاهرة ثقافية، مليئة بكل جميل. والمحروم منها من يتعامل معها من خلال الرسميات. فالضيف محكوم بِحِلِّه وترحاله، وبمأكله، ومشربه، وتحركه، وسكونه. لا يستطيع أن يتخلص من هذا النظام الصارم.

وكيف لا يكون صارماً .. ! والذين يتولَّون تنفيذه نخبةٌ من الضباط المنضبطين الدقيقين في كل شيء. إن الضيف عزيز، مكرَّم، ولكنه مُقَيَّد ببرنامج دقيقٍ، فالضيوف يربو عددهم على ثلاثمائة مدعو، من الأدباء، والمفكرين، والسياسيين، وعِلْيَةِ القوم، ومن ثم لا بد من وضع برنامج صارم، تتوفر فيه الراحة، ولكن تقل فيه الحرية.

لقد أعطتني الجنادرية فوق ما أستحق. وأنا مدين لرجالاتها، الأحياء منهم والأموات، العاملين والمتقاعدين، المدنيين والعسكريين. لقد كانوا جميعاً في مستوى مسؤولياتهم تواضعاً، واستباقاً للخيرات، وحرصاً على راحة الضيوف، والتماساً للمفيد، ومبادرة في الاعتذار عن كل تقصير.

إن من نكران الجميل أن ننسى الراحِلَيْن الكبيرين: [بدر بن عبد العزيز] بدماثة خلقه و[عبد العزيز التويجري] برجاحة عقله، وبعد نظره، وحسن تصرفه، رحمهما الله. ومن التقصير ألا نتذكر [أبو حيمد] و[السبيت] و[أبي عباة]، وآخرين أبلو بلاءٍ حسنا، ولم يبق إلا ذكرهم الجميل:

[والذكر للإنسان عُمْرٌ ثاني] .

لقد كانت الجنادرية، ولما تزل كوَّةً يُطِلُّ منها الإنسان العربي، ليرى المملكة بكل ما تعج به من خيرات لإنسانها، ولكل عربي، ومسلم. وكيف لا تكون ملء السمع والبصر .. ! وهي قد جَسَّرت الفجوات بين النخب العربية، واستطاعت تصفية الخلافات الفكرية بينهم، وصنعت ما لم تَصْنعه سائر وسائل التواصل، إذ مكنت أدباء البلاد من التعارف، والتواصل مع أدباء العالم العربي، ومفكريه، وكانت لي كما كانت لغيري من الأدباء مصدراً ثراً، أرتوي من مَعِيْنه المتدفق.

وكم كان بودي لو دُرست آثارها، ومنجزاتها، الأدبية، والفكرية، دراسة [أكاديمية] . ولاسيما أن الرأي العام لم يتصورْها على حقيقتها، لقد واَكبْتُها منذ السنة الأولى، كنت واحداً من الفاعلين فيها، وأصحاب القرار، وكانت [مجموعة المشورة] تَجْتمع في العام مرة أو مرتين، يفتتح جلساتها سمو الرئيس أو معالي النائب، ثم يُخليِّ بين المجموعة وما تريد، فَتَدْرسُ المجموعةُ كافَة الفعاليات المقترحة، وتقترح الفعاليات المهمة، وتختار الضيوف، وتحاول التركيز على المفكرين الذين يختلفون معنا، وترشح الشخصية المكرَّمة. وكم من خلافات، ومشادات، تدور بين الأعضاء، حول قوائم الاختيار، وكان لرزانة كبار السؤولين في الحرس الوطني، وبعد نظرهم الأثر الفاعل في حسم المواقف، والتقريب بين وجهات النظر، وتبرير هذه السياسة الحكيمة في صناعة الأصدقاء.

وحين ينتهي الموسم، تعود المجموعة لتقويم الموقف، فتَبيْنُ لنا حكمة هذا التصرف القائم على الاحتواء، أو التحييد.

والفعاليات المتعددة والمتنوعة يتم إعدادها، والإعداد لها بكل دقة وانضبط، ووفق شروط، تراعَى فيها متطلبات المرحلة، وخصوصية البلاد.

من الطائف هذا العام أن المنظمين يَعْرفونني، ويظن بعضهم أنني لمَّا أزل ضيفاً، ومن ثم يتسابقون لتهيئة الأجواء الرسمية، وحين أتغافلهم، أَتَسَلَّلُ لواذاً، لأتنفس بحرية، غير أني حين رغبت مغادرة الموقع لسيارتي، قَبِلْتُ هذا الظن، وامتطيت إحدى السيارات الرسمية، وحين مررت بالمواقف، أخذت طريقي إلى سيارتي سَرَباً كـ[حوت موسى]،

ليمضيَ كُلٌّ منا إلى غايته، فما شئت، ولكن شاءت الأقدار أن أمُجَّ من فمي الماء، وأبوح بما فِيَّ.

الجنادرية بدأت متواضعة، ومع الزمن أصبحت مدينة سياحية، تبدو فيها صورة [بانورامية] للمملكة، عبر مواقع المناطق التي صُمِّمت مبانيها لتحكي التاريخ والآثار، وتبدي الأزياء، والعادات، والمقتنيات، والمأكولات. وهي فوق هذا سوق اقتصادية، تباع فيه الصناعات المحلية من ملبوسات ومأكولات، وتنفذ فيها الفعاليات الأدبية والفكرية، وتلتقي فيها أطياف الأمة العربية، ينجزون من التقارب، والتعارف مالم تنجزه كافة المؤسسات التواصلية.

ومطبوعاتها المتنوعة وملفاتها المتعددة بلغت آفاق المعمورة، واحتلت رفوف المكتبات الخاصة والعامة، فكانت بمثابة تواصل آخر.

والبعض منا يتصور أنها شاخت، واستهلكت نفسها، ولم يعد باستطاعتها أن تضيف شيئاً. وآخرون يظنون ظن السوء، بحيث يتصورون أنها مجال للإنفاق الباذخ، ولست معنياً بالدفاع عنها، أو تزكية العاملين فيها، إذ من الطبيعي أن تتشعب الآراء، وتختلف التصورات.

كُلُّ الذي يعنيني بعد هذا العمر المديد أن تُشَكَّل لها هَيْئَةٌ رسمية من الجهات ذات العلاقة الوثيقة بفعالياتها كقطاع التعليم، والسياحة، والشباب، والإعلام، ونخبة من الأدباء والمفكرين والعلماء. وأن يتم تحويلها إلى مؤسسة مستقلة، ترتبط إدارياً برئاسة الحرس الوطني، وأن يقام فيها فندق وقاعات، بحيث تمارس نشاطها الأدبي، والفكري، والاجتماعي في موقعها. وبهذا تتحمل مسؤولياتها أمام الرأي العام، الذي يجهل كثيراً من إيجابياتها، فليس من الحصافة أن تظل بمعزل عن الناس طوال العام، مع أن فيها منشآت أُنفق عليها بسخاء، وبمقدور هذه المنشآت أن تفتح أبوابها طوال العام للسائحين والمتسوقين. لقد شبَّت عن الطوق، وحق لها أن تَسْتَقِلَّ، لتواكب المتغير، وتُشْبِعَ النَّهَم، وتَحْمِي نفسها من مراودة الأطياف، وتنازع الفئات.

ولقد يكون من الأفضل فتحها على الأقل في العطل الموسمية والأسبوعية. فالمطاعم الشعبية التي تمثل كافة المناطق، والمشغولات الشعبية، والحرف اليدوية، تعد وسيلة جذب لأهل الرياض، ولمن حولها وللوافدين عليها. والمدركون لإمكانياتها يودون تحويلها إلى منطقة سياحية، تمتص فائض الوقت، وتملأ الفراغ، وتُشْبِع الرغبات. ولاسيما أن سكان الرياض من أبناء المناطق، ويَحْلو لكل أبناء منطقة أن يُلموا بتراثهم، ولو ساعة من نهار. فلماذا تعطل هذه المقرَّات عاماً كاملاً، ليتدافع أبناء المناطق بالآلاف عند افتتاحها في موسمها المحدود؟.

لقد استوت الجنادرية على سوقها، واستكملت وضعها الطبيعي كموقع متميز، وصالح لاستقبال المواطنين، والمقيمين، والزائرين، وقضاء العطل الرسمية بمدينة أخذت زخرفها وازَّينت.

وبعد: - لقد اصطرعت في نفسي مشاعر محتدمة متناقضة.

فموسمها لهذا العام، واكبته مفاجآت غير سارَّة، حالت دون استكمالها لزينتها. فرجل الجنادرية الأول الذي صُنِعت على عينه، لم يُطِل على شعبه من خلالها. وحفلُها الخطابي حال دون تنفيذه وفاة الرجل الثاني في الحرس الوطني. والشخصية المكرمة لم تعد من رحلتها العلاجية. وضيوف الجنادرية لم يلتقوا بالملك عبد الله، وهو لقاء ميمون، يحسب له الضيوف كل الحساب.

ومع كل تلك المعوقات فقد تجلَّدت، وظهرت بمظهر مَشَرِّف، لِتُرِيَ الجميع أنها لريب الدهر لا تتزعزع.

فشكراً للأمير متعب بن عبد الله الذي بادر كُلَّ الأَزِمَّةِ، ومضى ثابت الخطو. وشكراً لكل الجنود المجهولين الذين لا يألون جهداً، ولا يدخرون وسعا.

وكل الأسف لتلك المعكِّرات الناتجة عن الضَّعف في إدارة الحشود من كل الأطراف، وهي معكِّرات عابرة ومحتملة، وإن نَفَثَتْ فيها أَلْسِنة الفضوليين.

وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ .. ! (١) [1]

أما قبل:

فإن مَهَرة المتكلمين والبلاغيين يبرعون في تلقي مشكل القرآن وتأويله، والمتشددون من [السلفيين] يتَهَيَّبُون التأويل، والمجاز في القرآن. حتى لقد بلغ من تخوفهم القول بنفي المجاز عن اللغة، وهو قول مرجوح نُسِب إلى [ابن تيمية] رحمه الله. ولست أمضي مع نفي المجاز عن القرآن فضلاً عن نفيه عن اللغة، لِأَنَّه من جمالياتها، والقرآن نزل في أجمل صورها.

وإقرارُ المجاز في القرآن يحتاج إلى تفصيل وضوابط، ليس هذا مجالها. ولقد أشرت من قبل إلى شيء من ذلك في مقالات سلفت. وبودي لو أَفْردْتُ لهذه الإشكالية دراسة معَمقة موسَّعة مستقلة، لأنها من الأهمية بمكان، إذ من الأهم تحرير مسائلها، وتأصيل معارفها. ولا تقل إشكالية [التأويل] عن إشكالية [المجاز] الذي يَعُدُّه البعضُ طاعون القراءة، ويَجْعل جِذْره من [الآل] وهو السَّراب.

والقول في إسناد [المكرِ] إلى الله هو الآخر، يحتاج إلى مزيد من التفضيل. وللخلوص من هذا المأزق سلكَّ البلاغيون مصطلح [المُشَاكلة]، وهي: [أن تذكر الشيء بلفظ غيره، لوقوعه في صحبته]، والمشاكلة من مسكوكات [أبي علي الفارسي] وللمشاكلة نَظْرةٌ أخرى، خلاف ما أردناه، للخلوص من إسناد المكر والنسيان إلى الله، وهذا الاستطراد لا يتسع لمزيد من البسط.

وأما بعد:

فإن من الخَطَلِ أن يقنط المَرْءُ من روح الله، في ظل ما يكتنف الأمة من فتن يرقق بعضها بعضا، واليأس والإحباط حين يعتريان المبتلى، يكون بهما كمن يَهْدِم بنيانه بيده.

ولقد ذم الله القنوط من رحمته، وعد ذلك من الظلم، وهو بلا شك معدود من نواقض الإيمان، مثله كمثل الذي يأمن مكر الله.

وأمام طوفان المصائب، واحتكام حلقاتها، يبدو بصيص الأمل، ولولاه لفسدت الحياة.

وفي أقوى رثائية نثرية أشار الأستاذ [أحمد حسن الزيات] وهو يتفجع على وحيده "محمد" الذي جاءه على كِبَر إلى أن من نعم الله العظمى على خلقه[النسيان والأمل] . وذهب يُفَصِّلُ القول في هذه الثنائية، حتى خشيت أن أفقد الإحساس بالمصائب. وكيف لا يبرع مثل [الزيات] في هذه المهايع، وقد هيِّئَتْ له القدرةُ واللَّوْعةُ .. !. وحين لا يكون أملٌ ولا نسيان، يكون الصبر والاحتساب.

والله جل وعلا أقسم بالعصر، ليؤكد خسارة الإنسان الذي لا يصبر على الطاعة، وعن المعصية، وعلى الأقدار المؤلمة، وكلها من الله وإليه.

ومن المعضلات التي تزداد استحكاماً واستفحالاً العلاقة الجدلية بين [المادية الغربية] و[الروحانية الشرقية]، والتي تتخذ في كل عصر لبوساً مغايراً، وتُقْرأ على مستويات متعددة، ويُقَارِبها مغرمون متيمون، وكارهون مشمئزون، وناعقون في جحفلها اللجب، ومُلَطِّمون لها بأيديهم، صارخون أمامها بألسنتهم.

وهي ماضية تُضرِّسهُم بأنيابها، وتطؤهم بمناسمها. والذين يشفقون عليها من ذويها، وممن يتذيلون لها، يرون أنها محاربةٌ من ثلاث فئات:

من الإسلاميين. والإسلامويين. والنصوصيين، الذين يُطْلَق عليهم مصطلح الأصوليين. وهم الذين يتمثلون ظاهر النص، ولا يتأولون.

---

(١) تاريخ المقال: ٣٠/ ٤/ ٢٠١٣

والحق أن الصراع الأزلي بين الغرب، والشرق، ليس وقفاً على هذه الفئات الثلاث. إنه صراع قيم، ومبادئ، وحضارات، ومصالح، تختلف في مرجعياتها، وتصوراتها للكون، والحياة، والقوة الفاعلة المطلقة الأزلية. إذ لو اختفى الإسلاميون، والإسلامويون، والأصوليون، والحداثيون، والعلمانيون، وسُلِّمت وثائق الحضارتين الشرقية، والغربية إلى أمة أمية فطرية، لانقسمت على نفسها، واحتربت فيما بينها ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ مع استبعاد إيجاز الحذف، الذي يُعَوِّلُ عليه البعض للخلوص من مآزق الدلالات المباشرة. ذلك أن لكل معتنق رؤيته ومسلماته وثوابته التي يصنعها هواه أو فهمه أو عقدة الماضوية عِنْده، ومن ثم لا بد من التفكير، والتقدير، والتدبير، والخروج بخارطة طريق، تفك الاشتباكات، وتحول دون الصراع، وتقر التعايش والتعاذر.

ولو أننا نَحَّيْنا جانباً العلاقةَ الجدليةَ بين مادية الغَرْب وروحانية الشرق، وَنقَّبنا في تحولات الشرق ذاته، لوجدنا فيه من الصراع، والصدام ما يفوق في عنفه، ودمويته صراع المادية، والروحية. ولكننا قوم نجهل، أو نتجاهل أحداث التاريخ.

لقد أسْرفَت [القومية] في التصدي لنزعة [التتريك]، ودخلت نظرية [الخلافة] ومفاهيمها، لتفتَّ في عضد القوميين العرب، وتَرِثَ تركة الرجل المريض.

ومعلومٌ أن [ساطع الحصري] تولَّى كِبْر الفلسفة القومية. وحين خاف النصارى العرب على أنفسهم من صراع القومية والدينية والتتريك، طرحوا مشروع [الفرعونية] الذي اجْتَرحَهُ [سلامة موسى]، وحين لم يكن بمقدور هذه المشاريع أن تؤصل لنفسها في ظل مكائد الاستعمار التقليدي بثكناته، ومناديبه، وطابوره الخامس، وسلاطينه وفقهائهم، تحولت المنطقة برمتها إلى مسرحٍ لِمُضْمِيات اللعب السياسية الكبرى. بحيث دَخَلَ الشرق بـ[ماركسيته] والغربُ بـ[رأسماليته]، وانشق المستضعفون على أنفسهم. فكان منهم الماركسي الأكثر تعصبا للماركسية من [كارل ماركس]، ومنهم الرأسمالي الأكثر تعصبا من أساطين الرأسمالية، مثل [آدم سمث] . وبدأ التناوش بين الأخ وأخيه بالسنان، واللسان، ثم بدت سوءة الطرفين، فكانت الفرصة مواتية للصحوة الإسلامية، لتدخل الحلبة، وتخوض اللعبة مع اللاعبين، ولكنها لم تَسْلم من الصراع الداخلي بين أطرافها، وأطيافها، وفلول الملل، والنحل الثاوية في كهوف النسيان، والوقوع في [الأدلجة]، أو [الحزبية] التي نقلت الولاء والبراء للمبادئ الطائفية أو الحزبية. الأمر الذي هيَّأ الأجواء لِلَاعبٍ لا يراعي في الأمة إلاً ولا ذمة.

ومن ثم بدأت الانقلابات العسكرية، التي سميت ظُلْما وعودنا بالثورات، وهي أبعد ما تكون عن فلسفة الثورة. وتمترس العسكر بادئ ذي بدء وراء الإخوان المسلمين، وجيء بـ[محمد نجيب] ليكون غطاءً مؤقتا لتمرير اللعبة الأكثر [دكتاتورية] وتعاقبت الانقلابات، وهُيِّئَ لها إعلام مخادع، يقلب الحقائق، ويزيف الوعي.

ولقد جسد هذه التقلبات المخادعة لفيف من الكتاب، مِنْهم [توفيق الحكيم] بكتابيه [عودة الروح] و[عودة الوعي] وعُقِّبَ عليه بكتاب [الوعي المفقود]، وطويت صفحة العسكر، أو كادت بالربيع العربي، لتأتي أحزاب، ومنظمات، وطائفيات، وأقليات، يضرب بعضها رقاب بعض.

وما من أحد يَعِي إعادة التاريخ لنفسه، فالجميع كالغزليين، يدَّعون وَصْلاً بالمبادئ، والمبادئ لا تُقر لهم بذاك.

وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ .. ! (٢) (١)

وكلُّ راصدٍ لهذا الصراع السافر الخاسر بين كل المستهمين على السفينة، لا تفوته الخروقات البين عورها في مسارات الصراع الفكري، المعادل للصراع السياسي، وهي وإن أثْرت المشاهد، وأمدَّتها بالمناهج والآليات والرؤى، وشدت وثاقها في سوح الماديات، وملأت أوعيتها بفيض المصطلحات والمفاهيم، إلا أنها عكَّرت صفو عقيدتها، وشطت بها عن محجتها البيضاء.

لقد تلاحقت المشاريع الفكرية المتواشجة مع حضارة الغرب، المستدبرة لحضارة الإسلام، بل المسرفة في زعزعة ثوابتها، وهز إيمانها، ومتى ضاع الإيمان فلا أمان، ومتى أميت الدين فلا حياة:-

إذا الإيمانُ ضاع فلا أمانٌ

ولا دُنْيا لمن لم يُحْيي دِيْنا

ومن ذا الذي لا يعرف لفيفا من المفكرين الذين لُمِّعوا، وصُنِّموا، وأحيطوا بهالات التَّمْجيد، والتَّحْمِيد، ولما قضى الغرب منهم وطره، ألقاهم في مزبلة التاريخ مُذَمَّمِين، والتمس مَغْمورين آخرين، يتهافتون على الأضواء تهافت الفراش على اللهب، ثم فعل معهم ما فعله مع من سلف، مِمَّن خُدِعوا، كالسمك بالطعم.

والمتَعقِّبون للحراك يَرْصُدون تتابعَ المفكرين الذين وُصِفوا بالعمالقة، ووُصِف زمنهم بزمن العمالقة، وهم وإن امتلكوا نواحي القول، ونواصي العلم، وسحروا أعين الناس، إلا أنهم مَسَخوا أنفسهم، وأحَلُّوا قومهم دار البوار.

وليس من العدل والإنصاف أن نجعلهم في الخطيئة سواء، مثلما أننا لا نجعلهم في العلم، والفهم أندادا. لقد تفاوتوا في علمهم، وفي عمق تفكيرهم، وفي شمول ثقافتهم، وفي قوة حِجَاجهم. وإذ يكون بَعْضُهم أُمما قد خلت، فإن الإيغال في تقصي مذاهبهم يتطلب العدل والإنصاف، فَمَعَهُما لا نقطع بقبول كل ما قيل بحقهم، وفي الوقت نفسه لا نُسلِّم بكل ما يجتره المريدون ببلاهة معتقة.

لقد تتابعت مشاريع المفارقين للثوابت، فَمنْ ذا الذي يجهل مشروع [طيب تيزيني] الماركسي اللَّجوج، ورؤيته المادية الصرفة للتاريخ، والتصدعات التي تركها في المشاهد الفكرية، واللجاج الذي أثاره، ثم لم يُحْسم من بعده؟.

وغير بعيد نجد مشروع [حسين مروة] الشيعي اللبناني المتعصب بكل إغراقاته المادية، وهو أعمق، وأشمل من قرينه في الهوى [تيزيني] ورؤاه تنم عن تَشَرُّبِه للمادية الماركسية التي اجتاحت مشرقنا العربي، وهيأ الأجواء لها كُرْهُنا للغرب الذي تَولَّى كِبْر الاستعمار، واقترف غَرْس الجسم اليهودي الشاذ في مقدساتنا، واجْتَرحَ سيئةَ التمزق العربي.

ودون هذين يأتي [محمد عابد الجابري] الذي تعقب العقل العربي بأربعة مجلدات، ترسم بها خطى [أحمد أمين] في فجره وضحاه وظهره، وإن لم يظفر باحتراسه الاعتزالي، وقد فككها خصمه اللدود [جورج طرابيشي] وكشف عن عوارها، على الرغم من نصرانيته، وعلمانيته. وإذا كان [الجابري] قد أرخ للعقل العربي فإن [محمد أركون] قوض العقل الإسلامي بعنف، لائذاً بعباءة الثقافة الفرنسية، على سَنَنْ [طه حسين] الذي راد لهؤلاء جميعاً بكتابه: -[مستقبل الثقافة في مصر] .

(١) تاريخ المقال: ٧/ ٥/ ٢٠١٣

لقد أسرف [أركون] في أنسنة التراث، ليتيح لرؤيته، ومنهجه تفكيك النص المقدس، بوصفه منجزاً إنسانياً.

وإذا كان هؤلاء الأربعة قد أوغلوا في الماديات الصرفة فإن [أدونيس] النصيري، الباطني، الحاقد، قد شط في الروحانيات، متخذاً الباطنية منهج فلسفة، وآلية تصور.

والمشهد الفكري تعاقب عليه متمردون لِوُجوهٍ شتَّى، لَيْسَ من بينها وجه الله، متمردون لايراعون في النص الشرعي إلاًّ ولاذمَّة، نجد في مقدمتهم [نصر حامد أبو زيد] و[عبد المجيد الشرفي] و[حسن حنفي] و[سعيد العشماوي] و[خليل عبد الكريم] و [القمني] وآخرون تَعْرِفُ منهم وتنكر.

لقد كان لهؤلاء، ولمن لَحِق بهم أثرهم السيئ في مسار الفكر العربي، ولغير هؤلاء أثر في المسار الأدبي على الطريقة الحداثوية، كـ[جابر عصفور] و [كمال أبو ديب] وذيل السلسلة القبطية الصَّدِئَة التي تلقت الراية من [جرجي زيدان] و[سلامَهْ موسى]، ولكل من هؤلاء وأولئك اندفاعه غير المحسوب، ومغامراته الطائشة التي صدعت وحدة الفكر العربي، وعددت مسارب الأدب العربي.

لقد لعبت [الحداثوية] ورموزها في قطع الصلة بالتراث، والتواشج مع رموز الحداثة الغربية، وثارت معارك عنيفة بين المجددين، والمحافظين من جهة، وأساطين الحداثوية من جهة أخرى. ولأن الأدب مُنْتج إنساني فقد أثرى ذلك التناوش سائر المشاهد، وحمل المجددين، والمحافظين على استعادة التراث، وإبراز قيمه: اللغوية، والفنية، والدلالية.

قَبِلَ المجددون التجديد، ورفضوا الانحراف الفكري، والسقوط الأخلاقي، والانقطاع، والعبث، والغموض، والنثرية. ومما صعد الخلاف الخلط بين [الحداثة الفنية]، و[الحداثوية الفكرية] .

وبعد صولات، وجولات لأفرادٍ، ولمذاهب وجودية ورمزية ودَادية سُوِّيت الأوضاع الأدبية، واصطلح الجميع، وتفسحوا لبعضهم في المشاهد. أما صراع المفكرين فإنه يَمَسُّ العقائد، والأفكار، ويَقْدح في خصوصية الأمة، ويطمس معالم الهوية، ومن ثم فإن من المتعذر المصالحة ومن المستحيل التَفَسُّحُ، لأن ذلك كله محسوب على صراع الحق مع الباطل، وليس من العقل إعطاء الدنية في الدين، على حد:- ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩] .

والصراع المستميت بين أطياف المُتَنَخْوِبين، جعلنا قاب قوسين أو أدنى من تفكك الوحدة الفكرية. وهو صراع لصالح غيرنا، فما كان لنا أن نختلف، وفينا مالو تمسكنا به فلن نَضِلَّ أبداً [كتابُ الله وسنَّةُ نبيه] وكم يُطَمئِن بعضنا بعضاً بأن الأمر سحابة صيف، وموجة غبار عارضة، ولكنني لست متفائلاً، فأنا ممن:

[يرى خلل الرماد وميض نار]

ويقيني أنَّها تَأَجَّجَتْ، وتَرَمَّدَ إرْثُها، ولمَّا تزل النخبُ في غيِّها تَعْمَه، ولن يَصْلُحَ شأنها إلا بالعودة النَّصوح إلى منابع الحضارة، وإتقانِ إدارةِ الصراعات السياسية والفكرية، وفهم قانون اللُّعبِ السياسية، فَأيُّ لاعب لا يحفظُ شفراتِ اللعبة، يكون كـ[الأطرش في الزَّفَّة] .

والمغفلون من يسقطون المبادئ بجرائر الممارسات، ويستجيرون من الرمضاء بالنار، ويُنكرون الغزو والتآمر، أو يحملونهما كل الاخفاقات، ليتخلصوا من تأنيب الضمائر.

عبد الله يَسَّرها وأنتم عَسَّرتموها .. !(١)

لَقِيْتُها، يا ليتني ما كنت ألقاها، تلوب ممرات إحدى القطاعات الخِدْميَّة، وفي يدها قبضة من قصاصات أرقام، وإحالات، يبللها العرق. وهي تتمتم بصوت مسموع:-

-عبد الله يَسَّرها، وأنتم عسَّرتموها.

لم أشأ اعتراضها، ولا التَّعرف على شكاياتها، فهي صاحبة حق. ولصاحب الحق مقالة، وتساؤلي، وقد سِيئَتْ مشاعِري: -

- هل أسْمَعَتْ صَوْتها لمن يملك القرار؟

- وحين سُمِع صوتُها، هل اسْتُجِيبتْ دعوتُها؟

تلك أم المشكِلات.

أصوات متذمرة، وأصوات شاكية، وأصوات باكية، يفجرها الضجرون، والمراجعون، والمتضررون.

ولكنها كمن ينعق بما لا يَسْمع.

هذه المرأة البرزة، تبوح بمعاناتها. ولو دخل المسؤول عنها جُحْر ضب، لدخلته عليه. والإشكالية ليست في المستفيد الطوَّاف، ولكنها في المتعفف الذي يَحْسبه الناس مُكْتفياً، متمكناً من حقوقه. وما أكثر المنطوين على آلامهم وآمالهم، يَسْمعون بالتسهيلات، ثم لا يلاقونها. وما لم يَسْبِق المسؤول إليهم، تجاوزتهم سُحُب الصيف. وتأوهات تلك المرأة البرزة، تُجَسِّد الحقائق المرة. فالأبواب مفتوحة، ولكن في بعض الآذان وقراً.

الملك عبد الله -حفظه الله- تتلاحق مُبادراته، وتَتَتَابع أوامره، ويلح على الإسراع في الإنجاز، وتعميم الخدمات، وتوازن التنمية، وشمولها. ولا يُنكر ذلك إلا ذو فهم سقيم. وما من أمر أصدره، إلا هو يَصُبُّ في مصلحة المواطن. ولقد كان، ولماَّ يزل يُحَذِّرَ المسؤولين، ويستحثهم على إسعاد المواطن، ولكن المقصرين قوم لا يفقهون.

إن هناك تقصيراً، وفساداً، وسوء توزيع، دَفَعا إلى إنشاء هيئات للمتابعة، والمراقبة، والمظالم، ومكافحة الفساد.

وكم تبرأ -حفظه الله- من مثل هذا التقصير، وواجه مَجْلِسَيْ الوزراء والشورى بمسؤولياتهم. وإذ نَطْمئن إلى الدولة، ونَرْضى عنها، بوصفها سُلطة تشريعية، فإننا متحفِّظون على الحكومة، بوصفها سلطة تنفيذية. والمؤسف أن بعض القطاعات وقعت في مقولة [برناردشو] : - [غزارة في الإنتاج، وسوءٌ في التوزيع] .

وعندما يضيق الراصدون بالأثرة، وتفشى المحسوبيات، والواسطات والتقديم والتأخير، وانبعاث رائحة الإقليمية، يتصور البعض أن هذا من الشماتة، وجَلْدِ الذات، ونُكْران الجميل، وعقوقِ الوطن. والحق أن مثل هذا هو عين الصدق، والإخلاص، وحب الوطن. فالإهمال، والتهاون، والتلاعب بِمُقدَّراتِ الأمة، لا يحتمله، ولا يقبل به إلا مداهن، يعطي الدنية في مواطنته.

نحن نحب وطننا، ونحب قادتنا، ونقدِّر للمخلصين إخلاصهم، ولا نتردد في إعلان ولائنا، والتأكيد على أن هذه الدولة هي خيارنا الوحيد.

ومن نواقص الفهم الحكيم، ونواقض الإدراك السليم، الخلطُ بين [الدولة] و[الحكومة] . فالدولة مُشَرِّعة، والحكومة مُنَفِّذة. ومن حق المواطن أن يتابع السلطة التنفيذية، وأن يسائلها عن أي تقصير، أو عجز، أو خلل في التصرف، وأن يناصح الدولة عبر القنوات المشروعة. ولأن المواطن شَاهِدُ أهل، فإنه يكتشف النقص والتقصير من خِلال استثمار

---

(١) تاريخ المقال: ١٤/ ٥/ ٢٠١٣

المرافق، التي أنشئت لخدمته. فواجبه أن يكون رقيباً، يقول الحق، ولو على الأقربين. ولا يُعَدُّ قوله جَلْداً للذات، ولا غمطاً للحق، ولا نكراناً للجميل. فالوطن وطنه، والمال ماله، وكل شيء على أرضه، فهو منه وإليه. والملك عبد الله يصيح بأعلى صوته: أنا خادم الشعب، ومن ذا الذي يشك في حبه، وصدقه، وإخلاصه وتفانيه.

وكيف يتأتى الإغماض في التقصير، وقبول الفوضى، والدولة على رأسها ولي أمْرٍ يَسْتحث المسؤولين، ويتبرأ من تقصيرهم. والقسم الذي أدوّه بين يديه، يُؤكِّد على الأداء بأمانة، وصدق، وإخلاص.

فالتلاعب ينافي الأمانة. وسوء التوزيع ينافي الإخلاص. والمماطلة تنافي الصدق. ونحن نشاهد الحالات الثلاث، على مستويات متفاوتة. ولو كانت الأمور سَمْناً على عسل، لما أنشئت هيئة مكافحة الفساد، ولما عُزِّزت الدوائر الرقابية والمحاسبية. وما يُعوِّل عليه المداهنون من مشاريع عملاقة، وأمن، واستقرار، يَعْرِفُها الناقد تَمام المعرفة، ويعتز بها، ولكنها لا تُبرر الخطأ، ولا تشفع لأي مقصر، وهي محسوبة للدولة التي بادرتها، وليست للحكومة التي قصرت، وماطلت، ولم تحسن التوزيع ولا الشمول.

إن المواطن الحق هو مَنْ يتعقب الحكومة، من الوزير إلى أصغر مسؤول، ويُشْعِرُهم بأنه مُفَتَّح العينين، عارف للناصح، كاشف للغاشّ.

ولولا الخوف من الرقيب، لا استفحل الفساد، واستشرت الأثرة. الشيء المؤسف، أن بعض المسؤولين استمرأ الخطأ، ووضع في أُذُنٍ طيناً، وفي أُخْرى عجيناً، ولم يبال بالنقد والمساءلة، ولسان حاله يقول: - هذا كلام جرائد، ولغط دَهْماء. ونحن لا ننكر أن بعض الكتبة، لا يتوفر على المصداقية، ولا يأخذ بالتثبت الذي حَثَّ الله عليه، وندب المؤمنين إليه. وكم أصيبت سمعة مسؤول بجهالة وظلم. وأنا ممن يلح على أَخْذِ الكلمات بالجد، فما صح منها، نوقش المسؤول فيه، وأخذ بجرائره، وما كَذَبَ منها حوسب الكاتب، وأخذ على يده. فافتراء الكذب لا يقل خطورة عن [تطنيش] المسؤول. ونحن لا ننكر الخطيئتين، وبودنا لو أنشئت [محكمة للآداب]، لملاحقة الكُتَّاب المفترين، وبودنا لو كلفت [هيئة مكافحة الفساد] بمتابعة المسؤولين من خلال تجميع كل المقالات الناقدة أو المطالبة. فالمواطن حين يُدْرك أنه مسؤول عن قوله، يحسب لكلمته ألف حساب، قبل أن يفضي بها إلى الناس. إننا أمام مسؤول مخالف، وكاتب مجازف، وقطاعاتٍ ضررُها أكبر من نفعها. ولن يستقيم أمر الأمة في ظل هذه الظواهر غير السَّوِيَّة. وما لم تُفَعَّل المجالس النيابية كـ[مجالس المناطق] و[المجالس البلدية]، ومن قبلها [مجلس الشورى] بحيث تَوَسَّع صلاحياتها، ويدقق في ترشيح أعضائها، وتُفْصَل عن المؤسسات التنفيذية، ويَسْعى كلُّ عضوٍ في التنقيب عن وجوه التقصير، ويكون من حقها استدعاء المسؤول، ومناصحته فإن لم يَسْتَجب أُخِذ على يَدِه. ونحن واثقون أن إنشاء تلك المجالِس لم يكن اعتباطاً، ولا مُسَايرة. وهي قد مَرَّت بمراحل التجارب، وكان على الدولة أن تعيد النظر في شأنها كله، وأن يَشْعر المواطن بأهميتها، وأن تَعيشَ حضوراً في ذاكرته، وأن يجد فيها الملاذ لشكايته، وتأوهاته. وولي الأمر يُسْعده أن تكون على مستوى مسؤولِيَّاتها، وما لم تتحسس الأوضاع، وترصد اللغط، وتبادر الحسم، فإنها ستفقد أهميتها وأهليتها. وأخطرُ شيء على الأجهزة كافة إهمالُها لنبض الشارع العام، فالناس شهود الله في أرضه، وللمجالس أحاديث، يسمعها القاصي والداني. والقول بأن هذه الأحاديث ليس لها دور في تشكيل الذهنيات والمواقف، قول تنقصه الخبرة. وحديث المجالس يُؤكِّد أن لدينا فساداً، وتقصيراً، وأثرة، وكلها بادية للعيان، وليست رؤية المتشائمين وحْدَهم.

- فمن ذا الذي يُنْكِر النقص والتقصير وأخطاء التنفيذ؟.

- ومن ذا الذي لم يَسْتكثِرْ التأوهات والتذمرات؟.

وأعود لأقول بملء فمي، وهو قول لا أخشى فيه لومة لائم: إننا بخير، وبلادنا تنعم بالرخاء والاستقرار، وأن ما يُشاع من فقر وبطالة إن هو إلا خطيئات مشتركة، يسهم المواطن بقسط منها.

لقد مُلِئت أرجاء البلاد بالمشاريع العملاقة، ولكن بعض المسؤولين التنفيذيين قد لا يكون بإمكانياته قادراً على مسايرة الطموح والتطلع، ولو دخلنا في التفصيلات لوجدنا بعض القطاعات دون المؤمل، وهذا من نقص القادرين على التمام. والقطاعات المتميزة، وهي معروفة، إذ لا يخفى على المواطن شيء منها، تُمارسُ مهماتها باقتدار، وما تقوم به هي، أو غيرها حَقٌّ مشروع، لامِنَّة فيه. إننا مُضْطرون إلى المكاشفة، والشفافية، وملاحقة أي مقصر، وعلى كل مسؤول أن يتلقى النقد والمساءلة بصدر رحب، وأن يستمع لما يقال، وأن يرد عليه مُعْتذراً، أو متعهداً، أو نافياً للإدِّعاء مثبتاً للصحيح. فالمشكلة أن المسؤولين يلوذون بالصمت، وهذا يزيد في الاحتقان، ويضخم الشك، ويدفع إلى مزيد من الشكاية. وهو ما لا يجب، في ظل ما يدعو إليه ولي الأمر من الشفافية والصدق. ولو استمع المسؤول إلى ما يتداوله الكتاب في الصحف كل يوم، وبادر إلى مواجهته، أو الإذعان له، لكنا قد فرغنا من المناكفات، والتذمرات.

فالمؤلم أن طائفةً من المسؤولين يَمُرُّون بما يقال، وكأنه لا يعنيهم. وهذا من الهروب إلى الأمام، ومن أسباب تراكم الأخطاء.

- فأين الناطق الإعلامي لكل قطاع؟

وأين مكاتب الوزراء التي من واجبها تجسير الفجوات بين المواطن والوزير؟

وأين أجهزة الرقابة التي جَهَّزَ لها الكتَّابُ الوثائق، ومكَّنها من التعرف على التقصير؟

إننا مطالبون بالمناصحة، وإتيان البيوت من أبوابها، وإن لم نفعل ضاعت مكتسباتنا التي يغبطنا عليها الأصدقاء، ويحسدنا عليها الأعداء.

فلنضع أيدينا مع بعض، ولنترسم خطوات قادتنا، الذين لا يألون جهداً في سبيل الوصول بهذا الوطن إلى مدارج العز والتمكين، ودعونا نأخذ بمبدأ ﴿عَفَا اللَّه عَمَّا سَلَف وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّه مِنْهُ وَاللَّه عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾.

اللّه وحده الذي لا يُسأل عمّا يفعل .. ! (١) (١)

الحق ضالة المؤمن، فأين وجده فهو أحق به. بقي أن نذرع أمداء الحق المتصيدةِ شوارده، لنتعرف على محققاته، ومواصفاته. ومن ثم نقطع بأنه المنشود، لتأخذ الشريعة زينتها. ولكيلا تتفرق بنا السبل، وتتداح رقعة الخلاف، كما تتداح دائرة في صفحة اليم، يرمى فيه بالحجر، دعونا نَفُكُّ الاشتباك بين آية: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] وتصيد ضوال الحق، بوصفه من المكمِّلات. وتلك مهمة علماء الأصول، الذين تحفظ بعضهم على تحري حكمة التشريع، لأنَّهُ مساءلة لمن لا يسأل عما يفعل. كما تحفظ آخرون على [القياس] لارتباطه بالتعليل. والتعليل هاجس المتسائلين، مع أن جانباً من التشريع مجهول الحكمة. ونحن مطالبون بالامتثال. ومن هنا تفرد الخالق بأنه لا يسأل عما يفعل، وتسامى فوق النقد والمساءلة، واتَّصف بما هو عيب في حق غيره كـ[الجبار المتكبر] وهي الصفات التي تورط في نفيها المفكر [حسن حنفي] .

ولأني لست معنيا بتلك المآزق والمزالق، التي أدارت الرؤوس، وحيرت الأفهام، وأزلت الأقدام، وأبعد الباحثون النجعة في تحرير مسائلها، وتأصيل معارفها، فأنني سأصرف النظر عنها، وإن كانت في النهاية رياضةً فكرية ممتعة، أَفِرُّ إليها، لأملأ بها فراغاتي المملة.

وهواجسي الآنية، تدور حول تردد الوجلين من ملاحقة بعض المسؤولين، ممن يَسْتَرْعِيْهم وليُّ الأمر على شأن من شؤون الحياة، بوصف الثقة تزكية، والمغامرة في مساءلتهم.

وولي الأمر مهما اجتهد، واستشار، واستخار، وقرأ، واستنار، هو في النهاية بشر، لا تعصمه القوة، ولا تحميه الأمانة، ولا ينقذه العلم، ولا يقيه الحفظ من الوقوع في الخطأ ابتداء، لا تعمداً، ولا إصراراً.

وحتى لو اكتملت فيه الأهلية، وتوفر على الصدق، والإخلاص، وسلامة النية والقصد، فإنه محتاج إلى من يشد عضده، ويثبت فؤاده، ويربط على قلبه، ويرود له المجاهيل، ويستشرف له المستقبل.

ومن ظن أنه فوق النقد والمساءلة، فقد أضاع أمانته، وفَرْعَنَ ذاته. والمجتمعات المدنية تتحصن بالمجالس النيابية، وبالأنظمة الوضعية، وباللوائح التفسيرية، وبالهيئات الرقابية.

والفكر السياسي الإسلامي شرع [الشورى]، لتكون مضارِعَةً لما جد من آليات ومناهج رقابية ومحاسبية. وقد تكون بعض آليات المجتمعات المدنية ومناهجها من ضوال الأمة الإسلامية، فهي بذلك بعض الحق المنشود، والأجدى والأهدى أن نشتغل معها في القواسم المشتركة.

ولو أن رهانات ولي الأمر تقوم على العصمة المطلقة لمن يشاطره المسؤولية، لما أنشئت [هيئة مكافحة الفساد] و[ديوان المظالم] و[ديوان المراقبة العامة] وسائر الدوائر الرقابية، والمحاسبية، ولما تلاحقت الإعفاءات، والمحاكمات، لمن ضعفت أماناتهم، أو ساءت تصرفاتهم، أو تضخمت ثرواتهم، فضلاً عمن انتهت صلاحياتهم. ولنا في [الفاروق] أسوة حسنة، فهو أول من شرع [من أين لك هذا؟] وأول من ناصف عُمَّالَه ثرواتهم، وأول من تحسس، ونثر العيون للحيلولة دون استغلال غفلة الرقيب، بل هو أول من فكر بتحديد الولاية، وتفادي التدوير والتمديد.

---

(١) تاريخ المقال: ٥/ ٢/ ٢٠١٣

وإذ نقطع بأن هناك أخطاءً فادحة، وتقصيراً واضحاً، وتلاعباً مكشوفاً، وسوء تصرف إداري، فإننا نقطع أيضا بأن هناك نقداً مُغْرضاً، واتهامات كاذبة، وإشاعات مضللة، وافتراءات مزورة، تمس كفاءات وطنية.

وقول الزور أخطر من تلاعب المسؤول، وكيف لا نأخذ حذرنا من هذا النوع من الافتراء، والرسول ﷺ حين قال: - «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر**» فلما وصل إلى قوله: «**ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور**»، وكان متكئاً فجلس، ومازال يكررها، حتى قال السامعون: [ليته سكت] فهناك الجلوس، وهناك التكرار، اللذان يؤكدان خطورة قول الزور، وموقف الإسلام منه.

ومن عَجبٍ أننا نستخف بهذه الظاهرة، ولا نلقى لها بالاً، ونتلذذ بجلد الأعراض وافتراء الأقاويل، وتصفية السمعة، وتقعير الرؤية في الهنات والتجاوزات.

والنقد حق، متى تخلَّص من الأهواء والأغراض، وقام على التَّثبت، غير أن إلجام المزورين، وكشف عوارهم أحق، عسى أن لا نكون في زمن الغثائية والسنوات الخدَّاعات، التي يُصَدَّق فيها الكاذب، ويكذب الصادق، ويؤتمن فيها الخائن، ويخوَّن الأمين، وتنطق الرويبضة. ونحن بهذه الأخلاقيات مغموسون إلى الاذقان في الغثائية، والسنوات الخدَّاعات، إن لم يتداركنا ربنا بلطفه ورحمته.

فالعاقل المنصف المستبرئ لعرضه ودينه، بمثل ما يستاء من التلاعب بأموال الدولة، ويضيق ذرعاً من التباطؤ في تنفيذ المشاريع، ويحذر الوقوع في سوء التوزيع، يستاء من قالة السوء، وافتراء الكذب، واتهام المسؤول، دون التثبت. والله سبحانه وصف المفتري بالفاسق، حين قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦] وفي قراءة ﴿فتثبتوا﴾. والتبين والتثبت مطلبان إسلاميان، لحماية الأعراض، وصيانة السمعة. ويكفى المفسدين عقاباً ما جاء في الآثار المتواترة: «**كل لحم نبت على السحت النار أولى به**» و«**لعن الله الراشي والمرتشي والرائش**» و«**أطب مطعمك تجب دعوتك**».

والذين لا يتحرون الصدق، ويجازفون في الأقوال، يجهضون الكلمة الطيبة، ويقيمون الحجة على أنفسهم، ويمنحون الفاسدين فرصاً للتمترس خلف قالة السوء، ويهيئون نافقاء، ينفذ منها اللصوص والمتلاعبون بجلودهم. فما يقال في حق المذنبين من صدق، يخالط ما يقال في حق الأبرياء من إفك. ومن ثم يختلط الزور مع الصدق، فتصير الأمور كـ[بقرة بني اسرائيل] .

وإذا كنت أشاهد التقصير، والتبذير، وسوء التدبير ماثلاً كالشمس في رابعة النهار، فإنني أشاهد التزوير والافتراء والاتهامات الجائرة، تملأ الرحب، وتزكم الأنوف. وأحس بأن كلتا الحالتين تحتاجان إلى نقد ومساءلة، وكلتاهما مضرتان بمصلحة الأمة. والتهاون بإحداهما، أو بكليهما مخل بالأهلية.

وإذا كنت أطالب بإيقاع أقسى العقوبات على المقصرين والمخطئين والمتلاعبين والفاسدين، فإنني في الوقت نفسه أطالب بملاحقة المفترين الذين يَلِغُون في أعراض المسؤولين. وأمام ظاهرة الفساد المستَشْرية أنْشِئَت الهيئة، وبدأت تتحرك وسط الركام. وأمام ظاهرة قول الزور وشهادة الزور، لم تنشأ محكمة للآداب، لقطع دابر الافتراء والقدح في أعراض الأبرياء، والحيلولة دون التصنيف، واستعداء السلطة، والمسارعة في شرذمة الأمة إلى طوائف، وأطياف، وخلع رداء الحياء، والرتع في الأعراض المصونة، وهي ممارسات نراها رأي العين.

إن في الصحافة، والمواقع، وعبر التغريدات كُتَّاباً، خلعوا رداء الحياء، وأوغلوا في الخطيئة، وخطرهم على الأمة أكبر من المتهافتين على حُطام الدنيا، والأمة أحوج إلى محكمة للآداب، تقمع هذه الفئة الضالة حقاً.

اللّه وحده الذي لا يُسأل عما يفعل .. ! (٢)[1]

ومن المسلمات أن ثورةُ الاتصالات قلبت الأوضاعَ رأساً على عقب. وجاءت ثورة الشعوب، لتنهي تكميم الأفواه، وغَلَّ الأيدي، وتمد التافهين بالغي، وستظل قضايا الزور والتزوير مُعلَّقة، حتى تُنشأ لها هيئةُ، تكافحها. وإن كانت قرينتها في بدايتها، إذ المتبادر إلى الذهن أن [هيئة مكافحة الفساد] لمَّا تزل مرتبكة، ولما تزل دون المؤمَّل منها، وحين تستوي على سوقها، وتستكمل عدتها، وتتجاوز مرحلة التجريب، ستجد نفسها كـ [خراش] الذي تكاثرت عليه الضباء، فما يدري ما يصيد، ويقيني أن الهيئة مطالبة بملاحقة أي مسؤول كائناً من كان.

ولكي تكون في مستوى تطلع المواطن، ولكي تصيد عصفورين بحجر، فإن عليها تفريغ ما يقال في القنوات والإذاعات، وما يكتب في الصحف والمجلات، وما يتداول في المواقع والتغريدات المعروف مَصْدرها، والتوجه به إلى المسؤول المستهدف، ومواجهته بتلك الاتهامات، وإتاحة الفرصة له للدفاع عن نفسه، فإن ثبت أن ما قيل صحيح حوسب عليه، وإن ثبت أن ما قيل كذب وافتراء، أعين على المطالبة بحفظ حقوقه، تمشياً مع: - «**أعن أخاك ظالماً أو مظلوماً**».

لقد كنت مع لفيف من ضيوف [سوق عكاظ] العام المنصرم، أتابع ندوة [الشباب ما يريدون، وما يراد منهم] وفي الحديث الموجه لـ [معالي وزير الثقافة والإعلام]، قال أحد الشباب، وهو بصدد الحديث عن اللوح السحري [اليوتيوب] : - [إننا في النهاية نقول ما نشاء، وإن المسؤولين يفعلون ما يشاءون] . وتلك مقولة لها ما بعدها، فمقتضاها أن كلاً يعمل على شاكلته. فلا المسؤول يرتدع، ولا الكاتب أو المتحدث يتثبت.

وكم أواجه من اللوم والتقريع من بعض العاطفيين المتأججين، لا لشيء، إلا لأني لا أعالج بعض الأوضاع المحلية، المتمثلة بتقصير بعض المسؤولين في سائر القطاعات الخدمية، وقطاعات البُنى التحتية، والقطاعات الرقابية، وغياب المجالس النيابية. ولقد يكون لبعض أولئك العتب حتى يرضوا، ولكن الإقدام على النقد، يتطلب التعرف على الإمكانيات والصلاحيات، فلربما يكون للمُعنَّف عذر، ونحن نلوم. وكم من مسؤولٍ ممتلئ فمه ماء، بحيث لا يستطيع أن يبوح بشكايته، ولا يَقْدِر على الكشف عن تقصير مرجعه، الذي يقتر عليه، ولا يستمع إلى شكايته.

والمؤلم أن كل من لا قيت يشكوا وضعه، وكل المرافق الخدمية لا تستوعب مسؤولياتها، وبخاصة في العواصم التي تخدم المحافظات، ويهفو إليها ذوو الحاجات من كل فج عميق، ولو تَفَرَّغْتُ للتفصيل، لبعدت عليَّ الشقة. والمؤكد أن التقصير واضح، وجلي، وهو كالمعاني مطروحة في الطريق. ولو أن الجهات الرقابية اضطلعت بمسؤولياتها، لكان بالإمكان تلافي التقصير، وتدارك الأمر، لكن التبلد، واللامبالاة، والاتكالية أدواء مستشرية في جسد الإدارة المحلية. والإصلاح لا يتم بالترقيع، إذ لابد من إتيان الأوضاع من قواعدها.

لقد تجرأ الناس على القول، ومَرَدَ المسؤول على اللامبالاة، وبين نكارة القول، وسوء العمل ضاعت مصالح الأمة.

ويكفى أن أضرب المثل بـ[وزارة العمل]، وبـ[معالي وزيرها]، الذي أثار الرأي العام، بقرارات ثانوية، وتمترس خلف قرارات مجلس الوزراء، التي اتخذها المجلس بناء

---

(١) تاريخ المقال: ١٢/ ٢/ ٢٠١٣

على اقتراحه، فمجلس الوزراء لا يبادر الأشياء، وإنما يتلقى الدراسات، والمقترحات من جهات الاختصاص، ثم يمنحها الشرعية.

و[معالي الوزير] الذي شغل الناس في وقت لا يحتمل المزيد من الإثارة، وتسبب في رفع الأسعار والأجور، وحمَّل المواطن ما لا يحتمل، لم يفتح صدره للمتذمرين، ولم يجادل بالتي هي أحسن. والوزارة أنشْئت لخدمة العمالة، ومراقبتها، وحفظ حقوق المواطن، ولا أحسبها مسؤولة عن [البطالة]، لأن المواطن لا يبحث عن ذلك النوع من الحرف والمهن التي يغطيها الوافد. والمنافسة غير قائمة، لأن العامل يكفيه دخول البلاد، ليجد التحايل واللعب متاحين، والرقابة غائبة، والفرص سائبة، والمواطن يجرجر مآسيه من إدارة لإدارة، ثم لا يجد من يواسيه.

فأين الوزارة من عشرين ألف خادمة هاربة، تتراوح خسارة كل كفيل من عشرة آلاف إلى عشرين ألف ريال، هي التكلفة الفعلية لجلبها؟.

وأين الوزارة من خمسة ملايين عامل إقامتهم غير نظامية؟.

وأين الوزارة من ركام المشاكل التي أغرت العمالة بالتلاعب والاستخفاف بأموال المواطنين وحقوقهم؟.

وأمام هذه التساؤلات الشاردة، ستجد الوزارة ملاذاً منها، وستجد المعذرين، والمخاصمين عنها، ولكن ذلك لن يحفظ حقوق المواطن، وحين لا تكون الوزارة مسؤولة، فمن المسؤول؟

إنني أحترم معالي الوزير، وأكن له التقدير، وأعلم علم اليقين أنه يلتمس الحق، ويسعى إليه، ولكنه لم يجد الطريق القاصد إليه. وارجو ألَّا يطول زمن التيه.

ومع ما يعانيه المواطن من إجراءات غير مسددة من قبل [وزارة العمل]، فإننا مستاؤون مما يقال بحق معالي الوزير. وكم نود أن يكون الحوار موضوعياً، وبعيداً عما لا يليق بحق رجل مثل معاليه.

وفوق كل ما سبق فإن مسؤولية البطالة على [وزارة الخدمة المدنية]، لأن العاطلين مؤهلون، وليس في مقدور أحدهم أن يعمل حداداً، أو نجاراً، أو عامل بناء، أو طباخاً، أو حلاقاً.

والقرارات التي اتخذتها [وزارة العمل]، لا تحل الإشكال، بل تحول دون استفادة أصحاب المؤسسات الصغيرة، وبهذه الإجراءات التعسفية ستنهار آلاف المؤسسات الصغيرة، وسيتحول أصحابها وأسرهم إلى عاطلين، وهذا الإجراء يذكرنا بسحب البساط من تحت أقدام المزارعين، وتحويلهم مع أسرهم إلى عاطلين، وقد تناولت ذلك بالتفصيل فيما سبق.

ذلكم مثل من عشرات الأَمْثِلة. وفي النهاية فإن أمورنا كلها تحتاج إلى إعادة النظر، فلا حرية التعبير ضُبط إيقاعها، ولا مسؤولو القوى العاملة أحسنوا التدبير، وعلينا أن نواجه كل مقترف بما يلائمه.

فالفساد شيء. والتقصير شيء. وسوء التدبير شيء، والخطأ ابتداء شيء، ولكل خطاء حسابه، وأسلوب مواجهته.

ووضع الندى في موضع السيف بالعلاء

مضر كوضع السيف في موضع الندى

كَبُرَت كَلِمَةً تَخْرُجُ من فَمِ [بانكي مون] .. ! (١)[(١)]

لن يستزلّني سلْقُ الألسنة الحداد، ولن تُزلقني حملقة الأبصار المريبة. وسأظل على الرغم من كل التداعيات المؤلمة محترِماً لفخامة الأمين العام للأمم المتحدة [بانكي مون] لمكانته العالمية، وإن جار في تصرفه، وضَنَّ على المستضعفين بكلمة الحق، وجنح إلى الأقوياء، يتملقهم، ويداريهم. فهو الأحرص على بقائه على سدة مسؤوليته الأممية. فله في سلفه [بطرس غالي] موعظة، و[العاقل من وعظ بغيره] .

فالأمين السابق عندما سُئل عن سبب إخفاقه، وخروجه من الأمانة، قال: - إنني لم أتقن أسلوب التعامل اللائق مع [الولايات المتحدة الأمريكية]، ولم أقدرْها حق قدرها. مشيراً إلى أن شرط البقاء في هذا المنصب الباذخ، يتطلب الوفاق مع هذا الأخطبوط، وغض الطرف عن تجاوزاته، وتعدد مكاييله.

ومثل هذه الخليقة مخلة بالأمانة، موهنة للعزمات، ومدنّسة للشرف. ولكنها قد تكون ضرورة عند المصلحيين، الذين يُؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة. وما حيلة المضطر إلا ركوب المكاره.

غير أن الأمين القائم بنقده المعلن للقصاص من العاملة [السيريلانكية] [ريزانا نافيك] في غنى عن مثل هذا المقترف المخل بشرف المهنة. إذ لا تنقصه الأضواء، بحيث يطلق مثل هذه المفرقعات الفارغة، ولا تنقصه المشاكل التي يشيب من هولها الوليد، بحيث يبحث عن مثل هذه القضايا الهامشية، التي لا تعني مثله، والتي كُفِيَ مؤونتها. وأمريكا التي يخافها، ويتزلف إليها بالتملق، متصالحة مع المملكة، مطمئنة على سلامة تصرفاتها الحقوقية.

ولربما أنه بذلك الخطل، يود كسب الرأي العام العالمي، وذلك بإيهامه أنه يفيض بالإنسانية، وأنه متيقظ لأي مقترف لا إنساني، يُمَارسُ في الكون البشري.

لقد كان مثله في غنى عن مثل هذه الإثارات السخيفة، فالمملكة العربية السعودية تتقي الرأي العام تقاة، وتزن تصرفاتها بِكُلِّ دقَّة، وهي أبْعَد ما تكون عن المساس بالقيم الحضارية، وأزهد الدول في ممارسة الأعمال المستفزة للآخر، أو المسيئة لسمعتها. فهي دولة مسالمة، تدفع بالتي هي أحسن، وتستخدم القوة الناعمة، لاحتواء الآخر، أو تحييده، وتحرص على صناعة الأصدقاء.

وكيف يبيح [بانكي مون] لنفسه نقد تصرف قانوني، مستمد من شريعة سماوية، يؤمن بها السعوديون كافة، ويَعُدُّون تنفيذ أحكامها من أصل عقائدهم، ومن مكملات عباداتهم. ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، والتصريح الذي أشاعه الأمين العام عبر مكتبه الإعلامي، يُعدُّ تدخلاً سافراً في سيادة دولة مستقلة، وعضو في هيئة الأمم المتحدة، التي يرأسها.

والمملكة حين تعلن دستورها، وتحدد مصدره، وتقر قانونها، وتفصل أحكامه، وترتضيهما لنفسها، وتقبلهما للأمة، يكون لِزاماً على كل دولة حرة، وكل مسؤول أممي القبول بمقتضياتهما، إذ لا تكتمل سيادة الدولة، ما لم تكن حرة في تنفيذ أحكام قوانينها.

وهل تسمح [الولايات المتحدة الأمريكية]، وسائرُ الدول الخمس الدائمة العضوية في الهيئة، ومن دونها من دويلات العالم الثالث لرجل مثل [بانكي مون] أن يتدخل في شؤونهم الخاصة، أو أن يستنكر عليهم تطبيق قوانينهم؟.

---

(١) تاريخ المقال: ٢٢/ ١/ ٢٠١٣

والمملكة العربية السعودية تعلن عن أنظمتها وقوانينها، وتمارسها في رابعة النهار، ولا تدسُّ شيئاً منها في التُّراب. وكل قادم إليها، إنما يأتي إليها بمحض إرادته، وعليه أن يقبل بأنظمتها وقوانينها، وأن يطمئن لقضائها، وأن يثق بقضاتها. وإذا رابه أمرٌ فليأت البيوت من أبوابها. بحيث يقيم المحامين، أو يطلب اللطف في الأحكام. وقد فعلت الحكومة [السيريلانكية] ذات الشأن، حين تقدمت على لسان رئيسها، مطالبة بتخفيف الحكم، ظناً منها أن أمر القصاص بيد الدولة، ممثّلة بالملك، وما درت أن الشريعة الإسلامية لا تقبل الشفاعة في الحدود، وأن القضاء مستقل، لا سلطان لأحد عليه، وأن القصاص حق لولي أمر القتيل المغدور. فالله يقول ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا﴾ [الإسراء: ٣٣] فإن طلبَ ولي الدم القصاص، فلا يستطيع أحدٌ تخليص المحكوم، لا ملك، ولا أمير، ولا وزير.

والحكومة [السيريلانكية] حاولت جاهدة تخفيف الحكم، وهذا حق من حقوقها، وولي الأمر من حقه أن يطلب من ولي القتيل أن يتنازل عن القصاص، ولكنه لا يملك إكراهه على التنازل، وحين يصر ولي القتيل على القصاص، فلا مناص من تنفيذ القصاص، وهذا ما حصل.

لقد أشار بيان الدولة الاستنكاري إلى أن الدولة حاولت جاهدة إقناع ولي القتيل بالتنازل عن حقه. وكم كان بودنا استجابة ولي الدم، وعتق رقبة العاملة. فالأمة لا تريد مزيداً من الإزعاج، ولكن ذلك لم يحصل، فكان أن نُفذ القصاص ومن ثم [سبق السيف العذل] .

والمملكة بتنفيذها للقصاص، لم تظلم، ولم تعتد، ولم تخالف الأعراف الدولية. وكل دولة مَدَنِيَّةٍ لديها دستورها، وقانونها، وأنظمتها. ولا يجوز لكائن من كان أن يعيب عليها تنفيذ الأحكام الصادرة من محاكمها، ما دامت متمشية مع ما تعلنه من قوانين.

فالمملكة بمثل هذا الحكم، لم تُفاجئ العالم، ولم تكن بدعاً من الأمم. وتدخل [بانكي مون] بهذا الأسلوب، وبتلك الطريقة وصمة عار، تلحق بالمنظمة، التي يفترض فيها مباركة العدل، والمساواة، وملاحقة المجرمين، وقطع دابر الجريمة، وأنصاف المغدور، وتنفيذ ما تقتضيه القوانين السائدة.

كَبُرَت كَلِمَةً تَخْرُجُ من فَمِ (بانكي مون) .. ! (٢) [1]

ومن المسلمات أن لكل دوله قوانينها، وأعرافها، التي تختلف عن قوانين غيرها، وأعرافها. وما من أحد ضاق ذرعاً بهذا الاختلاف، أو تطلع إلى التماثل، حتى الولايات داخل الدولة الواحدة تتمتع بهذا الحق.

ثم إن العاملة (السيريلانكية) أقدمت بمحض إرادتها، وبكامل قواها العقلية على إزهاق روح بريئة، ليس لها ذنب، ولا تعي ما دار بين الأم والعاملة من خلاف. والعاملة حين فقدت إنسانيتها، ومارست جريمتها بكل وحشية، وبلا إنسانية، لم نسمع لا من (بانكي مون) ولا من الصحف (البريطانية) ولا من سائر المنظمات من استنكر أو جَرَّم الفعل، مع أن الطفل البريء أحق بالتعاطف من القاتلة المذنبة، التي لا تحمل ذرة من رحمة، ولا نفحة من إنسانية. فالطفل قُتِل بلا ذنب، والعاملة قُتِلَت بعد ارتكابها أفظع ذنب، والطفل بهذه المفارقات أحق بالمناصرة، ولما كان (القتل أنفى للقتل) كما تقول العرب، و (ولكم في القصاص حياة) كما يقول الله جل وعلا، فإن قتل القاتل قطع لدابر الجريمة، وخالق الكون أدرى بمصالح خلقه. وقوانين العالم الوضعية والسماوية تختلف فيما بينها، وعلى الكافة القبول بما رضيته كل دولة لرعاياها، وللمقيمين على أرضها.

لقد نُفِّذَ حكم القتل في سعوديين، وحُكِمَ على بعضهم بالمؤبَّد خارج المملكة، ولم نسمع من أحد استنكاراً.

وكم هو الفرق بين التظلم المشروع، والاستنكار غير المشروع. وإذا أحس أحد بالظلم، أو بالجور، فإن عليه أن يحدد بكل دقة وجهة نظره، إذ ربما تكون المحاكمة غير مستكملة لشروطها، أو يكون الحاكم جائراً في حكمه.

على أن حكم القصاص في المملكة، يمر بأربع مراحل، أو أكثر، والمرحلة الأولى لا يحكم فيها قاض واحد، بل يشهدها، ويحكم بها ثلاثة قضاة. ثم ترفع إلى هيئة التمييز، ومنها إلى المجلس الأعلى للقضاء، ومنه إلى الملك. وخلال تلك المراحل، يكون هناك تقويم دقيق للحدث وملابساته، فلقد يُحكم على الجاني بالقصاص، وجرمه أقل خطورة من سائر جرائم القتل، وهنا يتدخل المحسنون والشفعاء لحمل ولي أمر الدم على التنازل، وعتق رقبة المحكوم، وقد تُدْفع له الملايين، لحمله على العفو، وقد يتدخل الملك بنفسه، ويقابل أهل الدم، ويطلب منهم التنازل، ومن ثم يتنازلون برضاهم، أو يصرون على طلب القصاص. ثم لا يكون بد من التنفيذ.

إن تنفيذ القصاص ليس من السهولة، بحيث يتعرض لتجاوزات مخلة بالعدالة، والمستنكرون إما جهلة، أو مغرضون.

والدول التي عدلت قوانينها الوضعية، وتحولت من الإعدام إلى المؤبد، لم يُسَاومها أحد، ولم ينتقدها فضوليو زمن الإعدام، لأن ذلك من شأنها، ومن حقها، ولكل دولة قانونها، ومصادر هذا القانون. ولا يجوز لكائن من كان أن يحول بين الدولة وتنفيذ مقتضيات القانون المعلن، والمعروف من القاصي والداني. وكيف تُفرض على دولة إسلامية قيمٌ ومبادئ وقوانين ليست من عند الله.

لقد أقرت المملكة إعدام مهربي المخدرات تعزيزاً، لفظاعة مقترفاتهم، ولاستفحال ظاهرة التهريب، وترويج المخدرات، وأعلنت ذلك في الموانئ والمطارات، ومارست الإعدام في عدد كبير من المجرمين، وهذا حق مشروع لها. والذين يغامرون، ويُهربون

---

(١) تاريخ المقال: ٢٩/ ١/ ٢٠١٣

المخدرات، يعلمون يقينا أن مصيرهم القتل، ومع ذلك يقدمون على الجريمة، وسجون المملكة مليئة بالمهربين والمروجين، الذين ينتظرون تنفيذ الأحكام.

ومقترف (بانكي مون) يعضده إعلام غوغائي، ينبعث كفحيح الأفاعي من هنا وهناك، وليس مثيراً بقدر إثارة ذلك التصريح الذي أطلقه رجل بوزن الأمين.

ونحن لا ندري ماذا يريد (بانكي مون) من هذا الاستنكار المُسْتَنْكَر بكل المقاييس.

فهل يعترض على حكم الله في قتل القاتل؟

أم يعترض على الحكم الصادر بحق العاملة؟

وإذا استقبلت الدولة هذا الاعتراض.

فهل من حقها أن تحقن دماء كل الموقوفين بجرائم القتل، وتهريب المخدرات؟.

أم تميز بين الوافدين والمواطنين في الأحكام القضائية؟

وكيف يستتب الأمن في دولة تحتضن أكثر من عشرة ملايين وافد، لو أنها قبلت بمثل هذا التدخل في شؤونها الداخلية.!

ومن ذا الذي يملك الحق، فيضع القانون الذي يرتضيه لدولة يختلف معها عقيدة وثقافة؟.

ومن ذا الذي يملك الحق، فيمارس الوصاية على شعب له حضارته، وثقافته، وعقيدته، وقانونه، ودستوره؟.

ودعونا نستجيب لداعي السماء:- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦] .

فنسأل:

هل ما تناقلته المواقع عن المكتب الإعلامي لمعالي الأمين صادر منه بحذافيره، وبذات المفهوم المتداول، ولم يتقول عليه أحد بعض الأقاويل؟

وحين تصح نسبة القول والمفهوم إليه، نتساءل:

هل هو ينتقد المبدأ أو الإجراء؟

فإن كانت الأولى فتلك كارثة. وإن كانت الثانية، فعلى الدولة المستهدفة أن ترشده إلى جادة الصواب. عسى أن يكون شجاعاً فيبدي اعتذاره وأسفه.

على أن ما يبدو من التصريحات والتدخلات (شنشنة نعرفها من أخزمِ)، وهي توحي بأن العالم يعاني من أزمة ضمير.

فأصحاب المبادئ والمواقف يتساءلون عن غياب الضمائر في كثير من الحوادث.

فأين (بانكي مون) عن مجازر دموية في بقاع كثيرة من العالم، لسنا بحاجة إلى ذكرها، لأنه يعلمها علم اليقين؟

وأين هيئات الأمم، ومنظمات حقوق الإنسان من انتهاكات عرقية، وطائفية، ومنظمات إرهابية، أزهقت الأرواح، وأتلفت الحرث والنسل؟

وأين هؤلاء جميعاً من تدخلات دولية، سلبت الحريات، وأشعلت الفتن، وأزهقت الأرواح البريئة، وأخلت بالأمن، وزعزعت الاستقرار، وسلّحت الأخ ليقتل أخاه؟

ولربما نكون في ضجة المآسي، واستفحال الظلم، وتسلط الأقوياء بحاجة إلى ترديد قول الشاعر:-

قتْلُ امرئٍ في غابة - جريمةٌ لا تغتفر

وقتلُ شعب آمن - قضيةٌ فيها نظر

وبعد: يا فخامة المسؤول الأممي. إن كنت تدري أنك بهذا التصريح الفج تجرح كرامة شعب بأكمله، فتلك مصيبة.
و إن كنت لا تدري بحجم هذه الإساءة، فالمصيبة أعظم .. !

الوضع العربي أعيا الطبيب المداويا .. ؟ (١)[1]

ما كنت من هواة جَلْدِ الذات، ولست من الشامتين. غير أن مقاربة الوضع العربي المأزوم، يتقاطع مع الجلد والشماتة. والمقاربة تقتضي النبش في ركام الأخطاء، والتثوير لعفن المقترفات.

والمقاصد وحدها تجليَّ الأهداف، وتحدد الغايات. ولأن ذلك من المضمرات، فالله وحده المحصِّل لما في الصدور، وهو وحده القادر على ابتلاء السرائر.

وحين يحفزنا الاشفاق على إبانة النصح، نجد أنَّ من القانطين من يقول: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أو مُعَذِّبُهُمْ﴾ فيما يكون لسان حال من أَضْوَتْ أجسادهم تردِّيات الأحوال، يقول ﴿مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

وسكوتُ القادرين عن النصح، والتحذير، وتنبيه الغافلين، شيطنةٌ خرساء. فالأمة حين يطول عليها زمن التيه، تَفْتقِر إلى من يمارس معها العصف الذهني، والصعق (الكهربائي)، عسى أن تفيق من سباتها، وتستبين النصح، ولو بعد ضحى الغد.

لقد مني العالم العربي بأوضاع، لا يمكن احتمالها، ولا السكوت عليها، والتاريخ الحديث يفيض بالهزائم، ويتلطخ بالمقترفات.

والفوادح ليست في الهزائم، ولكنها في استمرائها، أو في تبريرها. والأفدح من ذلك كله، الدعوى بأنها انتصارات، وإكراه الأمة على قبول تلك الدعاوى الكاذبة، وتحفيز النخب على تدبيج المقالات، وإبداع القصائد، وتأليف الكتب، لتمجيد الهزائم، وتصنيم المنهزمين.

والعقلاء المجربون الناصحون لله، ولرسوله، ولأولي الأمر منهم، الفارون من الفتن فرارهم من الأسد، يودون أن تُسْمع تأوهاتهم، وأن تُؤَوِّبَ العامَّةُ معهم، وأن يثَمَّن تخوُّفهم. فما عادت الأوضاع العربية تحتمل مزيداً من الترديَّات، ولا فائضاً من التدليس، وقلب الحقائق.

والأمة المكلومة بتصرفات أبنائها، ومكائد أعدائها، مرت بثلاث جولات، كل واحدة منها أَشَدُّ بأساً، وأشد تنكيلاً.

تمثلت الجولة الأولى بالاستعمار الغربي الذي استفتحه (نابليون) المغامر العنيد، وكان بالإمكان أن تكون حملته المتعددة الأهداف من فواتح الخير على أمة شرذمتها الفرقة، وخيم عليها الجهل، واستفحلت فيها الخرافة، لو أحسن المستهدفون استثمار ما حمله (نابليون) معه من أجهزة، وما أصطحبه من علماء، ولو أنهم أخذوا من ذلك الشكل الاستعماري ما ضَلَّ عنهم من الحق، كالعلم، والمعرفة، والتقنية، والانضباط، واطَّرحوا ما سوى ذلك من ثقافة وفكر وأسلوب حياة.

وتلك المغامرة (الفرنسية) فتحت شهية القوى الأجنبية. وبلغ الاستعمار ذروته بعد انتصار الحلفاء، في الحرب العالمية الأولى، وخروج (تركيا) من العالم العربي. حيث خلف من بعدها خلف سام العرب سوء العذاب، تمثل بالاستعماريين (البريطاني) و(الفرنسي) وتبعات الاتفاقية السرية عام ١٣٣٥هـ المعروفة من بعد بـ(اتفاقية سايكس بيكو) والذي جاء من نتائجها (وعد بلفور) المشؤوم. هذه الاتفاقية مزقت الأوصال، وأثارت النعرات، وأحيت الطائفيات، وعززت القبليات، وأعطت مفهوماً خاطئا للمواطنة،

---

(١) تاريخ المقال: ٨/ ١/ ٢٠١٣

وتصنيما للحدود، وعِداء مستحكماً بين الأخ وأخيه، وجعلت الولاء للتراب، لا للتراث، واختلقت الملفات الساخنة، ودعمت (الدكتاتوريات) البغيضة، وأشعلت الفتن العمياء. حتى إذا أكلت تلك المؤامرات الحرث والنسل، هَبَّ المستعمر لإصلاح ذات البين، ليغسل بتلك الخِدْعة ما علق بأظافره من أشلاء الضحايا والمخدوعين. وحين تلتقط الضحية نَفَسَها، يكون الاستعمار قد فرغ من مكيدة أخرى، تدمر كل شيء أتت عليه.

وجاءت الجولة الثانية مُمثلة بـ(الثورات العربية)، الهاتفة بالحرية، والمنادية بالاستقلال، والمبشرة بالعدل والإحسان، والمساواة، وتكافؤ الفرص، وتداول السلطة، وتعزيز المجالس النيابية، والاحتكام لصناديق الانتخاب، مع وقف التنفيذ. وطويت صفحة الاستعمار التقليدي بثكناته ومناديبه، لينشأ استعمار جديد، أشد وأعتى. لقد جاء الثوريون على ظهور الدبابات وخَلْف الراجمات، وتردت بمجيئهم من قاع المجتمع أوضاعُ البلاد العربية، حيثُ سُلِبت الحريات المكفولة من المستعمر، وأهينت الكرامات المصونة من الأجنبي، وضاعت مقدرات العالم العربي المعززة والمستثمرة زمن حكم المناديب والثكنات، كما ضاعت الخلافة الإسلامية من قبل، بين (وصيف وبغاء) الذي يقول عنها الشاعر:

خَلِيفةٌ في قفصٍ: بين وصيفِ وبغاء

يقول ما قالا له: كما تقول الببغاء

وقامت الأحزاب، ملتاثةً بـ(أيديولوجيات) شرقية أو غربية، واحتربت فيما بينها على غنيمة منهكة، خرجت من ظلم الاستعمار إلى بطش الثوار.

وما درى المحتربون أن نور الله يُوقَدُ من شجرة زيتونة، لا شرقية ولا غربية.

ولو أن الثوريين استقاموا على الطريقة، وتمثلوا مبادئ ثوراتهم، لعاشت الأمة رغد العيش، ودف الأمن، وعبق الحرية، ولأصْبَحت الشعوبُ العربية كالشعب (الياباني) الكادح من أجل كرامته. لو أنها فعلت بعض ذلك، لفوَّتت على الغرب فرصة الهيمنة، ولكن الثوريين خاضوا في وحل اللعب القذرة، وأخذوا من الغرب ما لا حاجة لهم به، وهم حين أخْرجوا المستعمر من الأبواب، تسلق اليهم المحاريب، منساباً كالحذر، متنكراً وراء طابوره الخامس، ومتقنعاً بلعبه، ومؤامراته، موهناً عزائم الأمة بالتحريش بين قبائلها، وطوائفها، ونخبها. حتى أصبحت كل قبيلة دولةً داخل دولة، وكلُّ طائفة تلعن أختها، وكل نخبوي له مذهبه الذي لا يزايد عليه، ولا يبالي بأي واد هلكت المذاهب الأخرى، وحتى أصبحت الدولة الفقيرة تنطوي على أكثر من أربع مئة حزب، كل حزب بما لديهم فرحون. وفي هذه الأجواء الموبوءة استفحل الجهل، والفقر، والمرض، والعبودية، وشاعت ثقافة النفاق، والشقاق، وسوء الأدب، والأخلاق.

الوضع العربي أعيا الطبيب المداويا .. ! (٢) (١)

وبعد أن تجرّعت الشعوب ظلم ذوي القربى، الأشدِّ مضاضة، جاءت الجولة الثالثة، ممثّلة بـ[الربيع العربي]، وبما يحمله من فوضى غير خلاّقة.
واستفتحنا بهذا الربيع خيراً، ولمَّا يأت الفتح بعد بما تشتهي الأنفس، وتلذّ الأعين. إذ البوادر لا تبشر بالخير الذي كنا نأمله، ولا بالعدل الذي نتطلّع إليه.
والمؤكد أنّ الشعوب نجحت في كشف الزيف، وتعرية الخونة، ودفن الرِّجْس، وتكسير الأوثان مردِّدة:

أُمّتِي كَمْ صَنَمٍ مَجَّدَتِهِ
لم يكن يحمل طُهْرَ الصنم

لقد أمنت الشعوب الخوف من بطش الطُّغاة، وتوفّرت على حرية التفكير والتعبير، وشارفت على حُكْم نفسها بنفسها، والاحتكام إلى صناديق الاقتراع النزيهة، واستبشر الناس بإزاحة الكوابيس وزوّار الفجر، وغياهب السجون، وأخْذ المقيم بالظاعن. غير أنّ هذه الجولة التي صنعتها الشعوب بإرادتها، وتحمّلت تبعاتها بنفسها، واستبدّت في تصرفاتها، [والعاجز من لا يَسْتَبِد] وفاجأت العالم بنتائجها، كادت تحور رماداً بعد سطوع وتوهُّج.
لقد انبعثت المشاكل من مدافنها، كما تنبعث الهوامُّ والحشرات من بياتها الشتوي، لتفسد في الأرض، والله لا يحب الفساد.
إنّ لكلِّ شعب خلائقه، ومثبّطات عزماته. فما نشاهده من إشكاليات في [ليبيا] و[اليمن]، يختلف عمّا نشاهده في [تونس] و[مصر]، وما سيكون في [سوريا] بعد سقوط النظام.
وإذ يكون من المتوقع عند الفراغات الدستورية، أن تنسل الحزبيات، والطائفيات، والقبليات من جحورها، وأن تتنازع السلطة فيما بينها، فإنّ مصلحة الأُمّة فوق الجميع، وصوت صناديق الانتخاب، يقطع قول كل خطيب. فمن لم يذعن لهذا الصوت، فهو خائن لأمانته، موقظ للفتنة النائمة.
ومن غَلَّب صوت الطائفية، أو الحزبية، أو القبلية على صوت الأُمّة، فقد سَرَقَ الثورة، وأجهض الحرية، وخيّب الآمال، وأعاد الأُمّة إلى مرّبعاتها الأولى.
وحين نُسَلِّم بأنّ المرحلة الانتقالية كلحظات المخاض، لها آمالها، وآلامها، ومخاوفها، فإنّ على النُّخب أن تربط على أفئدة العامة، وأن تثبت أقدامهما، حتى تهدأ العاصفة، ويألف الناس ما يَجِدُّ من مسارات، وما يقوم من خيارات، لا أن يتحوّل النَّخْبويّون إلى ريش في مهبّ الريح، أو إلى محرّشين يزيدون في الاحتقان. وما لا يدرك كله لا يُترك كله، وشاعر الحكمة يقول:

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى
ظمئت. وأيّ الناس تصفو مشاربه؟

وحين لا يكون الرئيسُ المنتخب معقدَ الآمال، فإنّ مُدَّة الرئاسة محدودة، وعندها يكون بإمكان المتعضين التربُّص بالرئيس الفائز بأصوات حزبه، حتى تنتهي ولايته، ومن ثم سحب الثقة منه، واختيار من يتخلّى عن [أيديولوجية] حزبه، أو رغبة طائفته، أو

---

(١) تاريخ المقال: ١٥/ ١/ ٢٠١٣

شهوة قبيلته. والزمن كفيل بنفي الرديء، وغير المناسب، فصناديق الانتخاب متى كانت نزيهة، فإنها تنفي الانتهازيين، كما تنفي النار خبث الحديد. فليكن موعد المتخوّفين صناديق الانتخابات. وإذا جيء برئيس، ولم ترضَ عنه طائفة أو حزب، فإنّ إرادة الأُمّة فوق الجميع، ولا يسع المخالف إلاّ التسليم، احتراماً لإرادة الأُمّة، وتجنيباً للبلاد من ويلات الفتن، ولمتعشّقي [الليبرالية] أُسوة حسنة بأصحابها، فماذا كان من [ميت رومني] الأبيض، حين اكتسحه [أوباما] الأسود، لقد سلَّم للأمر الواقع، وهنأ الفائز عليه، ودخل حزبه في السّلم كافة. وتلك بعض أخلاقيات الإسلام، ونحن أحقّ بها.

أقول قولي هذا، رغبة في الحفاظ على مكتسبات الثورات العربية، وحرصاً على نجاح الانتفاضات المباركة، وقطعاً لدابر المؤامرات القذرة، إذ ليس لي هوى مع حزب أو طائفة، وإنما هواي مع الرأي العام، الذي تجسِّده صناديق الانتخاب.

هذه الجولات الثلاث التي أصابت الأُمّة بمفاصلها، لم تستفد من مواعظها، ومن ثم مَرَّت كالريح العقيم، تدمِّر كلَّ شيء أتت عليه. وخوفي ألاّ تغني الآيات والنّذر، فالشعوب التي انتزعت حريتها بدم الشهداء، لم تجتمع على مبدأ، ولم تأتلف على غاية، ولم تحتكم إلى المبادئ التي جعلتها شعار ثورتِها، والنُّخب التي تُريق المداد، لم تُصِخْ للشهداء الذين أراقوا الدماء.

لقد تفرّقت بالجميع السُّبل، وتنازعتهم الأهواء، وأذهب ريحهم اختلاف الآراء، وأرداهم تدنيس المقدس، وهز الثوابت، والتشكيك بالمسلّمات. وأخوَف ما أخاف أن يكون تصدُّع الوحدة الفكرية سبيلاً لتصدّع الوحدة الإقليمية، ومن يتحسّس عن واقع الأُمّة بوعي، يجدها شيعاً، محققة تخوف الرسول ﷺ حين قال: «**لا تعودوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض**»، إنّ النُّخب المُعَوَّل عليها، تحوّلت إلى معاول هدم، وكلُّ حزب يرى أنّ مبادئ حزبه لا معقِّب لها. فيما تظل الحاجات الأولية معطّلة. فالحكومات المنتخبة، تجالد، وتجاهد، لتهدئة الأوضاع، وإصلاح ما أفسدته الثورات، والثورات المضادة. والطوائف والأطياف تتنازع حول السُّلطة، ولا تبالي بأيِّ وادٍ هلكت الأُمّة، وتختلف حول صياغة الدستور، والبلاد تتآكل، والفتن تنقصها من أطرافها، والأعداء يحوكون المؤامرات، ويحرضون البسطاء، ويغرون السفهاء. فلا الاقتصاد انتعش، ولا البطالة تقلّصت، ولا الأمن استتب، ولا البنى التحتية استكملت، ولا العلاقات الدولية حُسِّنت، ولا دول الجوار أمنت. وستظل الشعوب ثائرة مائرة، تحركها الحزبيات، والطائفيات، والدسائس، والمؤامرات. وحين تتفاقم الأمور، يتصوح نبت الربيع العربي، ثم لا يكون بد من رعي الهشيم.

إنّ على عقلاء الأُمّة من حَمَلَة الأقلام، والمقتدرين على الكلام، وذوي النفود، والعلاقات الدولية، أن يجنبوا أُمّتهم ويلات الفرقة والشتات، وأن يعتصموا بحبل الله جميعاً، وأن يؤثروا المصلحة العامة، وأن يتجنّبوا الأثرة. فالتاريخ لا يرحم، ومن الخير للمقتدرين ألاّ يختاروا مزبلته التي فاض وعاؤها، [فالذِّكر للإنسان عُمْر ثاني]، ولن يُصْلح آخر هذه الأُمّة إلاّ ما صَلُح به أولها، مع مراعاة المتغيّرات، والمقاصد، والمباح الممكن وغير الممكن، وفقه الواقع والتمكين والأولويات، فالله لا يكلِّف نفساً إلاّ وسعها، والتقوى بالاستطاعة، والرسول ﷺ يقول: «**إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم**»، ومن ثم لابد من إيثار هَمِّ الجماعة على الْهَمِّ الفردي والفئوي. وعلى الأُمّة أن تبتدر الاشتغال في إطار قواسمها المشتركة، فذلك خير من تنازعها على لعاعة الحياة.

والتعاذر والتعايش خير من التدابر والتنابز، وخيرٌ من ذلك كله الحيلولة دون تدخُّل الغير فيما يقع بين دول المنطقة من خلافات إقليمية. ولنا في [دول الطوائف] الأندلسية موعظة.

وللتقريب بين وجهات النظر لا بد من العمل على تعزيز المؤسسات والمنظمات المشتركة وتفعيلها، واحترام قراراتها ما أمكن ذلك.

وتلك التطلُّعات ممكنة، ومقدور عليها، متى حسنت النوايا وسلمت المقاصد.

اتجاهات النقاد العرب في دراسة الإبداع السعودي .. ! (١) (١)

من المسلمات غياب الإبداع الأدبي في المملكة العربية السعودية عن المشهد الأدبي في الوطن العربي. وهو غياب نسبي، أحس به الأديب السعودي في وقت مبكر، وامتعض منه، ولقد يكون من المسلمات -أيضاً- حضور الآداب العربية كافة في مشهدنا المحلي، واندياح هذا الحضور بشكل ملفت للنظر، وبخاصة [الأدب المصري] حتى إن إلمام الأديب السعودي بهذا الأدب يفوق إلمامه بأدب بلاده، الأمر الذي حفز بعض الجامعات المحلية على تدريس [الأدب السعودي] وتغليبِه على كافة الآداب العربية، وإنشاءِ مادة خاصة به، وتجنيدِ المتخصصين فيه لتدريسه، وتحريضِ طلاب الدراسات العليا على اتخاذه موضوعاً لرسائلهم. هذا الشعور المبكر حمل طائفة من رواد الأدب السعودي على توصيله عبر عدة قنوات، ولربما يكون الأستاذ [عبد الله عبد الجبار] رحمه الله، رائداً في عملية التوصيل من خلال كتابه [التيارات الأدبية في قلب الجزيرة العربية] بجزئيه عن الشعر والنثر، ومن قبله كانت هناك محاولةٌ متواضعةٌ لـ[عبد الله بالخير وعبد المقصود خوجه] في كتابهما [وحي الصحراء] الذي قدمه [محمد حسين هيكل]، وبعد تلك الريادة، جاءت مبادرات متعددة، وتنوعت قنوات التواصل، بحيث قام المبدعون والدارسون بإهداء أعمالهم لعمالقة الأدب في مصر، وطلب تقديمها، ومن قبل تلك المحاولات جاءت الدراسة التاريخية لـ[طه حسين] عن [الحياة الأدبية في جزيرة العرب] رائدة للتواصل. وإذ بدأ التواصل في وقت مبكر، إلا أنه كان متواضعاً، ومتقطعاً، وغير كاف لإعطاء صورة كاملة عن تلك الحركة الأدبية. والتقصير في التواصل والتوصيل مسؤولية الأدباء، ودور النشر، وسائر المؤسسات الثقافية في البلاد، ولاسيما أن مشاهدنا ظلت متاحة لكل الأدباء العرب، وكانت مهمة الأديب السعودي مقتصرة على الاستقبال والاستهلاك، ولم يكن الإحساس بأهمية التفاعل والتبادل كافياً، هذه الأجواء تركت أدبنا ردحاً من الزمن خارج دائرة الضوء، على الرغم مما يتوفر عليه من إمكانيات المشاركة والتكافؤ. وإدراكنا لسلبيات ذلك الغياب يَنداح عندما يتاح لنا حضور المؤتمرات والمهرجانات في الخارج، حتى إن النقاد العرب يفاجؤون بما يشاهدونه، ويستمعون إليه، ولا يترددون في توجيه اللوم عن هذا التقصير، إلى أنفسهم، وإلى من حولهم من المسؤولين، وظل حسيس التذمر يتسع، ليتحول إلى محاولات جادة من كل الأطراف، ولكنه تحول مشتت المسار، لا تحكمه منهجية، ولا توجهه [إستراتيجية]، وإنما ظل يراوح بين الإقدام والإحجام.

ولو نظرنا إلى زمن العمالقة في مصر، ومدى احتفائهم بآداب الأمة العربية، لوجدناهم أكثرَ الناس عزوفاً عن أدبنا، وأكثرهمَ تصديراً لآدابهم الإقليمية. ولا عبرة لبعض الدراسات والمقدمات التي كتبوها على عجل لبعض الإبداعات الشعرية، التي طُلب منهم تقديمُها، ولقد يكون من الإنصاف الإشادة ببعض الأدباء الذين ابتعثوا للتدريس في بعض العواصم العربية، فكان أن عاشوا حضوراً فاعلاً، نجد ذلك عند "زكي مبارك" و"أحمد حسن الزيات" حين ابتعثا للتدريس في العراق، ولقد كان لمن دونهم إسهامات مشهودة في [المملكة العربية السعودية]، ممن سنعرض لهم في ثنايا هذا الحديث؛ والعلاقات المبكرة والوطيدة التي أقامتها طلائع الشباب في المملكة مع عمالقة الأدب في مصر، لم يكن لها أدنى أثر، وإن كان اهتمام الأدباء السعوديين بمن تعالقوا معهم واضحاً. نجد ذلك عند "أحمد عبد الغفور عطار" مع "عباس محمود العقاد" فما كتبه "العطار" عن "العقاد" لم يكافأ بالنزر اليسير من "العقاد" لا عن "العطار" ولا عن الأدب

---

(١) تاريخ المقال: ٢٩/ ٥/ ٢٠١٢

السعودي. وهذا العزوف البين عوره، ترك استياء في الأوساط المحلية، وحفز طائفة من الأدباء إلى محاولة تصدير أنفسهم، فضلاً عن الهجرة المبكرة لبعض الأدباء السعوديين إلى مصر، ومشاركتهم المتميزة في الحركة الأدبية، نجد ذلك عند "عبد الله عبد الجبار" و"حمزة شحاتة" و"إبراهيم فلالي"، ومن بعد أولئك بزمن "سعد البواردي" و"حسن القرشي" وهذا التواصل الذاتي لم يحرك ساكناً، بل ظل العزوف الذي أقض مضاجع الأدباء والمبدعين السعوديين، وحملهم على التحرف الجاد لإسماع الصوت، وإثبات الوجود.

ولقد يكون من العدل الإشادةُ بدور "نادي جدة الثقافي" ورئيسه الأستاذ "عبد الفتاح أبي مدين" في تجسير الفجوة بين أدباء المملكة وأدباء الوطن العربي، وبخاصة في مصر والمغرب، إذ تبدت أواصر العلاقات الفاعلة عبر الملتقيات والمحاضرات والملفات والمجلات، ولست بهذه الإشادةُ أغمط الإسهامات المذكورة والمشكورة لقطاعات وأناسِيَّ، ولكن من حق المتميزين الإشادة بهم، بوصفهم مثلا يحتذى، لقد كان لـ[قراءة النص] التي يُستقطب لها لفيف من كبار النقاد في الوطن العربي، وتكون من بين القراءات قراءة لنصوص إبداعية محلية أثرها الفاعل. هذا فضلاً عن تجسير الفجوات بين الحركة الأدبية في المملكة وسائر الآداب العربية، التي كان أدبنا في معزل عنها، وتلك المبادرة إضافة فاعلة، ما كان لها أن تتحول إلى شكليات، لا تحمل وهج القراءات السالفة، ولربما تكون الأندية الأدبية ومختلف المؤسسات الثقافية مسؤولة عن مثل هذا التواصل، إذ لمّا يزل أدبنا يفتقر إلى التصدير، وأخذ حقه. فلقد كنا الأكثر حماساً في استقبال آداب الأمة العربية، وتسويقها، والأقل حماساً في المبادلة بالمثل، ولا سيما أن الأدب السعودي شب على الطوق، واستطاع أن يكون بمستوى الآداب العربية: كماً وكيفا. والتقصير في التصدير من نقص القادرين على التمام، إننا بلد غني، واستقبالنا للثقافة العربية عبر معارض الكتاب والمهرجانات والجامعات وسائر المؤسسات الثقافية لا يدانيه مستقبل آخر. وحقنا أن نتحرف لتوصيل أدبنا إلى المثقف العربي، الذي ربَّما يتخيلنا دولة نفط وثراء واسترخاء. وما نحققه من حضور وانتشار، لا يمنع من طلب المزيد. فالإمكانيات والأهلية والحق، كل ذلك متوفر، وأي تقصير في التصدير يكرس حرمان أدبنا من الحضور المشروع. وإذ أشرت إلى جهود [نادي جدة الثقافي]، وتميزه في تكثيف التواصل مع أدباء الوطن العربي، فإن من حقي، وقد أحسست في وقت مبكر بأهمية تجسير الفجوات، وإبلاغ صوتنا لآفاق الوطن العربي، أثناء دراستي العليا في مصر، وأثناء قيامي برئاسة [نادي القصيم الأدبي] إذ ليس هناك ما يمنع من الإشارة إلى إسهامات النادي المتواضعة في هذا المجال، فقد طبع النادي سبعة كتب تمثل التواصل، هي:

١- دراسات أدبية ونقدية لمجموعة من الدارسين العرب.

٢- سوق الأدب والنقد في القصيم.

د. دريد يحي الخواجه.

٣- العناصر البيئية في الفن القصصي في المملكة العربية السعودية.

د. طلعت صبح السيد.

٤- اللغة العربية والتعبير الاصطلاحي.

د. أحمد يوسف علي.

٥- محمد هاشم رشيد: شعره وشاعريته.

د. مرزق محمد سيد أحمد داوود.

٦- الأدب السعودي بأقلام الدارسين العرب.

د. محمد عبد الرحمن الربيع وآخرين.

٧- ظاهرة الخلط في التراث النقدي وفهمه.

د. عبد الحكيم راضي.

وكانت رسالتي للماجستير في كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر عن الشعر السعودي.

وبعد مماطلات وممانعات، وجد النقاد والدارسون العرب ألاَّ مناص من تناول الإبداعات الأدبية في المملكة بالدراسة والنقد والتأريخ والمعجمة. غير أن هذا الفيض من الدراسات لم تتهيأ له فرصة الانتشار والوصول إلى يد القارئ العربي، وتلك من إشكاليات المشهد الأدبي، وعلى الرغم من تصدي الدولة لكافة المناشط، وتحملها لكافة النفقات، وإقامتها للمعارض الدولية، ومشاركتها المتميزة في مختلف المهرجانات، إلا أننا لما نزل نحس بأننا أقلُّ حضوراً، فالجهل بأدبنا ظاهرةٌ يتداولها الأدباء والنقاد عند كل لقاء، والدارسون العرب الذين فرغوا لدراسة الإبداعات الشعرية والسردية في المملكة بحاجة إلى مزيد من الدعم، لتسويق إنتاجهم في بقاع كثيرة من وطننا العربي، وما لم نجد أطرافاً من الإبداعات متداولة في مناهج التعليم، فإننا سنظل كما كنا من قبل، ذلك أن مدرِّسي مادة الأدب الحديث في المدارس والجامعات العربية، لا يمرون بشيء من الأدب ولا عنه، فيما يجدون آداب الدول العربية ماثلة أمامهم. والدارسون والنقاد العرب الذين حدتهم الرغبةُ والترغيبُ لتناول الإبداعات الأدبية خلَّفوا دراسات متعددة، تتباين في جديتها ومنهجيتها ومستوى نتائجها، ولسنا نشك أن شطراً من تلك الدراسات لم تكن جادة، ولا ذات منهجية، ولكنها قائمة ومندرجة ضمن تلك الظاهرة التي نحن بصدد استكناهها، على أن هذا النَّزْر من الدراسات، لم يُواجه كله بالترحيب، بل وُوْجه بعضه بردود أفعال، قد لا تكون مقبولة بجملتها، ولكنها تكشف عن بعض التقصير. والمتصدون لبعض هذه الدراسات، وصفوها بالمجاملة والتسطح والابتسار، وإن كان بعضها كذلك، فإن البعض الآخر يرقى إلى مستوى الجودة، وعلى كل الأحوال فإننا أمام ظاهرة نقدية لا يستهان بها، ولا يمكن أن نقلل من شأنها. والدارسون للأدب السعودي لم يكونوا سواء، غير أن المصداقية تقتضي التفريق: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ فإذا قصَّر أحد من الدارسين أو داهن فإن آخرين اتسمت دراستهم بالجودة والعمق، والأصالة والمنهجية، وليس من العدل ولا من الإنصاف الإطلاقُ والتعميمُ في الأحكام. واستعراضُ الدراسات على مستوى الرسائل الأكاديمية والكتب والدراسات والبحوث الأخرى يؤكد أن ثمة إسهاماً متميزاً، بادر إليه عدد من الدارسين والنقاد، وأصبح في مجمله عملاً يستحق الإشادة.

اتجاهات النقاد العرب في دراسة الإبداع السعودي .. ! (٢) (١)

ولما كان هذا الملتقى بصدد قراءة هذا اللون من الدراسات وتقويمها وتوصيفها، كان لزاماً علينا تحري الصدق، وتوخي الإنصاف. فالدارسون لهم وعليهم، وليسوا سواء في إمكاناتهم ومقاصدهم، وحق أدبنا علينا أن نيسره للدراسة، عسى أن يتضاعف عدد الدارسين، إذ من خلال الدراسات..

.. المتعاقبة نخترقُ أجواءَ الآخرين، ونعيش حضوراً مماثلا لحضورهم في مشاهدنا، فما كان لأدبنا أن يشاطر الآداب الأخرى اقتسام المشاهد، لولا اعتوارُه بالأقلام الجادة والمتمكنة من فنها. من محققات المصداقية أن نشيد بجهود فردية بادر إليها أدباء وشعراء سعوديون، واستطاعوا بجهودهم الشخصية تجسير الفجوات بين أدبنا وسائر الآداب العربية. وإذ أشرنا إلى إسهام مؤسسات ثقافية، كالأندية، فإن من العدل والإنصاف أن نشيد بجهود شخصية استطاع ذووها من الحضور المبكر في مشاهد الآداب العربية.

لقد كان للهجرة الاضطرارية أو الاختيارية التي قام بها بعض الأدباء إلى مصر أثرُها في التواصل المبكر مع الأدباء العرب، نجد ذلك عند (عبد الله عبد الجبار) و(حمزة شحاته) و(إبراهيم فلالي) و(حسن القرشي)، وبعد جيل الريادة خلف جيلُ التأسيس الذي ابتدره الشباب، خاصة (الأكاديميين) منهم، فلقد جُسِّرت الفجوات، وزاد التواصل، وتبادل أدباء العرب ونقادهم المواقع، وكانت الخلطة التي نرقبها منذ أزمان. وإن كان ثمة شوائبُ عكرت صفو هذا الحراك، فإنها شوائب لم تلبث أن ضوت. والمعارك الأدبية التي خاضها بعض الأدباء، لم تزد الأدب إلا تجذراً وانتشارا، والذين امتعضوا من تلك النبرات الحادة، اكتشفوا أنهم على غير هدى. فالمعارك الأدبية مؤشر حيوية، وسبيلُ ثراء، وطريقٌ للتعريف بمنطويات الأدب في البلاد. ولقد كنت واحداً ممن خاض تلك المعامع، ولقي في مشواره بعض النصب، ولكن العواقب كانت حميدة. ومن بعد استقبلت الجامعات والمنتديات والأندية طائفة من ذوي الانتماءات المذهبية، فكانت (الحداثة) و(البنيوية) و(التفكيكية) وسائر المذاهب والتيارات والظواهر، وتعالق معها من تعالق، وتصدى لها من تصدى، وحُسِبَ ذلك كله في مصلحة الحركة الأدبية في المملكة. هذا الحراك اللجوج، أفسح المجال لأدباء العرب ونقاده، ليكونوا أطرافاً فاعلة في تلك المعارك، الأمر الذي أغراهم بقراءة الإبداعات الأدبية في المملكة، واستخدام كل المناهج لدراستها، والتواصل مع كل الاتجاهات. وتلك من الظواهر الصحية التي وسَّعت قاعدة التواصل مع آداب الأمة العربية.

والعائدون من البعثات، وبخاصة أولئك الذين أُتيح لهم التواصل مع المذاهب والتيارات الأدبية، تولوا كِبْر التواصل مع أدباء الوطن العربي والتناغم معهم. وجر أقلامهم للتنقيب في ثنايا أدبنا المحلي، وإنجاز دراسات ومحاضرات ومقالات وكتب، تَشَكَّل منها ذلك التواصل المنشود.

وباستعراض كتاب (الأدب السعودي بأقلام الدارسين العرب) وهو عمل (ببليوقرافي) شَرُفْت مع الزميلين الدكتور (محمد الربيع) والدكتور (حمد الدخيل) بإنجازه على عجل، نجده إضاءة في هذا السبيل، ومن قبلنا أنجز الدكتور (منصور الحازمي) وآخرون دراسة من نوع آخر، حول هذا الموضوع، ومن بعد أنجز الدكتور إبراهيم المطوع كتاباً ترجم فيه لمن ألف عن الأدب السعودي من الأدباء العرب، ففي هذه الكتب

---

(١) تاريخ المقال: ٥/ ٦/ ٢٠١٢

الثلاثة إشارات لعدد من الدراسات والمقالات والبحوث التي أنجزها الأدباء العرب عن الأدب العربي في المملكة العربية السعودية.

ولقد كنت، ولم أزل حريصا على خدمة هذا الأدب، منذ أن أنجزت رسالتي للماجستير والدكتوراه عنه، وقيامي بتدريسه منذ أربعة عقود والإشراف على رسائل الماجستير والدكتوراه المتعلقة به.

أشرت في مستهل الحديث عن اتجاهات الدارسين، واختلاف مواردهم ومصادرهم وإمكاناتهم ومدَّخلاتهم وأهدافهم. والإطلالة المتأملة لمنجزهم تُمكِّن الباحث من حصر تلك الاتجاهات، ومدى جديتها. وهم فيما أعلم وفوق كل ذي علم، لا يخرجون بمجمل دراساتهم عن أربعة اتجاهات، وليسوا بأعيانهم حكراً على تلك الاتجاهات، كما أن من بدت عليه ملامح الاتجاه لا تكون حكراً عليه، إذ ربَّما تكون له إلمامات في الاتجاهات الأخرى. غير أننا ننظر إلى التغليب. لقد تبدى لي (المنهج التاريخي) في دراسة الأدب السعودي لدى الأستاذ الدكتور (محمد صالح الشنطي) والدكتور (بكرى الشيخ أمين)، ودراسات (الشنطي) أكثرُ دقة وشمولية ومنهجية من دراسات الشيخ أمين، علماً أن دراسته الأخيرة أطروحة دكتوراه، غير أن له فيما بعد إلمامات أخرى، ولكنها عبارة عن مقالات متفرقة، تتفاوت قوة وضعفاً. وهي بمجملها إسهامات تشي بالاهتمام والتفاعل، وإن لم تصل إلى المستهدفين، لأنها دراسات تكتب داخل البلاد، وتستهلك داخله، ولا تصل إلى شرائح الأدباء والنقاد في الوطن العربي.

ودراسة (الشنطي) تراوح بين التاريخية، والموضوعية، والوصفية، وهي أميل إلى التاريخية، ولأن (الشنطي) مارس التعليم في مواقع كثيرة من المملكة، فإن ما كتب يدخل في المناهج المدرسية، لقد كان له تواصله الإعلامي مع الأدباء والشعراء والنقاد. وإسهاماته التي امتدت لأكثر من ثلاثة عقود، تناولت التجديد والمحافظة، وأشارت إلى بعض المستجدات النقدية. أما المنهج الموضوعي الذي ركز على البعد الدلالي، فيمثله مجموعة من الدارسين والنقاد، وحين أفرق بين الدارسين والنقاد، فإنما أرمي إلى أن الدارس يَعد نفسه وسيطاً شارحاً، فيما يضطلع الناقد بالكشف عن السمات والخصائص ومواطن الضعف والقوة والترجيح، وهي رؤى متواضعة، ولكنها تنم عن مشاركة فاعلة، كنا نتمنى أن تعقبها دراسات أكثرَ قدرة على اكتشاف الأبعاد الدلالية والفنية واللغوية. وممن اضطلعت تناولاتهم بتلك الأبعاد الدكتور (عزت محمود عليَّ الدين) والدكتور (علي المصري). والاستاذ (الشوادني منصور) والدكتور (نبيل راغب) والدكتور (محمود رداوي). ويأتي الأخير أطول نفسا، وأعمق رؤية، وأقدر على استجلاء البعدين الموضوعي والفني، ولكن المنهج الموضوعي أشد وضوحاً عنده من غيره.

إن هذا التقسيم الذي اخترته ورضيته، ليس دقيقاً، ولا شاملاً لكل المناهج، ولكنه تقسيم قصدت منه تقريب مادة الدراسة، ولست أشك أن التناول المفصل سيكشف عن ظواهر أخرى، ولكنها لم تكن من الوضوح والكثرة، بحيث تشكل اتجاها أو منهجا.

وعلى كل الاحتمالات فإن الاتجاهات والمناهج التي توصلنا إليها تعد جماع الاتجاهات والمناهج، ولا عبرة بما يند من دراسات أخرى، وحين ندع المنهجين: (التاريخي) و(الموضوعي) وأبرز ممثليهما، يتبدى لنا منهجان هامان ورئيسان، من حيثُ العمقُ والدقةُ والغوصُ في أعماق الأدب السعودي. فـ (المنهج الفني) الذي تجلت من خلاله دراسات الأستاذ الدكتور (سعد أبو الرضا) والدكتور (نصر محمد عباس) والدكتور (طلعت حاج السيد) والدكتور (بدوي طبانة) تكشف عن الأبعاد الفنية، للأدب السعودي، ومدى تعلق الشباب بالمستجدات الفنية، وبخاصة تحولات القصيدة العربية في بعدها الشكلي، ونحن نعرف أن هذه التحولات بلغت الدرك الأسفل عند ظاهرة (قصيدة النثر)

بكل ما هي عليه من انطفاء وغموض، ولكننا وإن ضقنا ذرعا بهذا الانحراف الشكلي، إلا أننا نُشيد بتجارب متجاوزة، تمثلت بالقصيدة التفعيلية عند طائفة من الشعراء الشباب. والدراسات الفنية التي اهتمت بالأبعاد الفنية أشارت إلى التألق والإخفاق، ولكنها مسته مساً خفيفا، ولم تكن واضحةً ولا صريحة، وقد تميل إلى التوصيف والتسجيل، وتتوقى النقد والتقويم.

أما المنهج الأخير والأهم، فالمنهج اللغوي، ويمثله الأستاذ الدكتور (أحمد يوسف علي) والدكتور (عبد الحميد إبراهيم). وخيرهم الأستاذ الدكتور (علي البطل).

ودراساتهم تمد بسبب إلى المناهج الحديثة، ولكنها لا تتقصى، ومجمل الدراسات تفتقر إلى الاتساع والشمول والتصدير، بحيث تكون في متناول يد المستهدفين من مثقفي الوطن العربي وأدبائه.

وإشكالية التواصل مع نقاد الوطن العربي وأدبائه أنها لا تمكن من تجسير الفجوات، ولا تتيح للأدب السعودي ما أتيح لغيره من حضور فاعل. والكتاب الفهرسي الذي شرفت بالاشتراك في إنجازه يؤكد أن هناك كماً لا بأس به من الدراسات، ولكنها كما أشرت حبيسة المستودعات، ولم تصل إلى شرائح الأدباء في الوطن العربي.

ولقد توصف تلك الدراسات من البعض بالتسطح والمجاملة، وعجز الدارسين عن التقصي. وهي صفات قائمة في بعض الدراسات، ولكنها لا تؤثر على مجمل الأعمال، فكل جهدٍ له جوانبه السلبية والإيجابية، ولسنا معنيين بالتقويم الدقيق، ولكننا نود الإشارة والإشادة بهذا الجهد المذكور والمشكور، وإن كان متواضعاً في نظر البعض.

الذي أوده في تلك العجالة، أن نرشد هذا المسار، وأن نصحح ما يعرض له من هنات، وأن نسعى جهدنا على تصدير تلك الدراسات، وأن تستبق الأندية والجامعات والمكتبات العامة تنفيذ ملتقياتٍ لدراسة الأدب السعودي بأقلام النقاد العرب، وأن تكون هذه الدراسات في متناول يد الأديب العربي، ليعرف عن أدبنا قدر ما نعرفه عن الآداب العربية الأخرى. فنحن بإمكاناتنا أهلٌ لأن نعيش ذات الحضور، الذي تعيشه الآداب العربية فوق أرضنا، وفي كافة محافلنا الأدبية. ما أستطيع القطع به أننا نمتلك القدرة والأهلية، وبلادنا بما هيأ الله لها من سخاء ورخاء واستقرار ومأسسة ثقافية وأدبية وتعليمية تمتلك آلية الفعل الثقافي القادر على الحضور والندية وتكافؤ الفرص، وعلى المؤسسات المعنية وضع (الاستراتيجية) ورسم خريطة الطريق ومباشرة الفعل المنسق، لنكون حاضري المشاهد العربية.

إيران والإخوان وكتّاب الرأي .. ؟[١]

لن أكون طعَّاناً ولا لعَّاناً، ولا معاقباً بمثل ما عوقبت به، أملاً في التشبه بخلق من إذا خيّر بين أمرين، اختار أيسرهما عليه، وعلى من حوله. والحديث عن صراع الأفكار، وصدام المصالح، ونهم المطامع، لا يتطلب بالضرورة لدد الخصام، ولا التنابز بالألقاب. ولاسيما أن الأوضاع العالمية والإسلامية والعربية والإقليمية تنحدر باتجاه الفتن، كصخرة حطها السيل من عل. وخيار الحياد الايجابي أو الاحتواء الناعم أجدى وأهدى من تنازع البقاء، والاحتراب الذي تسيل معه الدماء والدموع معاً ثم:-

إذ احتربت يوماً فسالت دماؤها
تذكرت القربى فسالت دموعها

والمملكة حين تكون في ذروة عزها، وأوج تألقها حمالةَ المآسي مبلسمةَ الجراح آسيةً مواسيةً، يكون من شأن كتاب الرأي من أبنائها التحرف للكلمة الطيبة، والدفع بالتي هي أحسن، حفاظاً على مثمناتها وعلاقاتها، وتطهيراً لمقدساتها، وتجنيباً لإنسانها من تجرع مرارات الفتن، التي تعصف بكل أصقاع وطننا العربي، والتحيز للوفاق أو التعاذر والتسامح والتعايش، ما أمكن ذلك، اقتداء بمن يميل لأيسر الخيارين، على أن مجاراة المناوئ في خلقه أو في تصرفه تحقيق للمثلية التي عناها الشاعر بقوله:

إذا جاريت في خلق دنيءٍ
فأنت ومن تجاريه سواء

والعقلاء المجربون من يحسنون إصدار ما أورده الجهلاء، وإذا كان خيارنا المعاقبة بالمثل، فإننا من حيث نريد، أولا نريد، نسهمُ في تصعيد الهرج والمرج، ونسف جسور التواصل، وتعطيل قنوات التفاهم. ومتىَ خُيِّر العقلاء بين الطاولات المستديرة وساحات القتال، فإن خيارهم بلا شك يجنح إلى حقن الدماء، ورأب الصدع. وعلينا ونحن أمام خيارات أصعب، أن نفرق بين الوهن والهوان، والتواضع والضعة، والتسامح والخنوع، والسلام والاستسلام. إذ ربما لا يكون أمام الإنسان إلا خيار واحد و:

إذا لم تكن إلا الأسنة مركباً
فما حيلة المضطر إلا ركوبها

وقديما قيل: [مكره أخاك لا بطل]، والتعاطي مع الأخطبوط الإيراني البشع، وفلتات اللسان الإخواني المريبة، يتطلبان الحلم والأناة واللين وركوب أهون الضررين. وقذيفة حشوها الكلمة الطيبة أجدى من قذيفة مليئة بالشظايا المدمرة وبالمتفجرات المهلكة، على سنن «**كن عبد الله المظلوم ولا تكن عبد الله الظالم**» فالكلمة الطيبة لها وقع السهام: [وما قتل الأحرار كالعفو عنهم] . وقد يتساءل المتردد: [ومن لك بالحر الذي يحفظ اليدا]، وندرة الأحرار لا تحول دون التجربة، وتقديم حسن الظن. ولقد ينبري من يقول:

إذا قيل: رفقاً. قال: للحلم موضع
وحلم الفتى في غير موضعه جهل

---

(١) تاريخ المقال: ١٢/ ٦/ ٢٠١٢

ولسنا نشك أن لكل مقام مقالا، وأن لكلِّ شيخ طريقته، ولكن ما دخل الرفق في شيء إلا زانه، وليس من الحصافة والرصانة اللينُ في موضع الشدة، ولا الشدة في موضع اللين:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلى

مضر كوضع السيف في موضع الندى

وحين يملك المتأذي كل الخيارات، فإن عليه الجنوح إلى السّلم، حتى وإن تأبىَّ المناصب بالعداوة. واستصحاب الرفق واللين خلق الأنبياء: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وماذا فعلت مقولة المصطفى لأهل مكة: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**» و«**من دخل دار أبي سفيان فهو آمن**»، وتمنعه عن قتل خصومه، خشية أن يقول الناس: [إن محمداً يقتل أصحابه]، وفي [غزوة حنين] رجع المؤلفة قلوبهم بالشاء والبعير، ورجع المهاجرون والأنصار برسول الله ﷺ.

لقد رابنا وراعنا ما نراه من تدخلات إيرانية سافرة، لتقويض قواعد الأمن، وتعكير صفو الاستقرار، وتصديع تلاحم الأمة، في دول عربيه، تفيض أوعيتها بالفقر والفاقة، تمارسها بكل جرأة دولة ترفع شعار الإسلام، ثم لا تني في تصدير العنف والطائفية والحلم الصفوي والعنصرية الفارسية. كما ساءنا ما نسمعه من فلتات ألسنة الإخوان المسلمين في مصر، من تبرير للشغب الإيراني، وارتياب من مواقف المملكة، ولقد ضقنا ذرعاً بتصريحات وتلميحات، ما كان لشيء منها أن يصدر من عوام الإخوان فضلاً عن خاصتهم، ولاسيما أننا وإياهم نسعى لإعلاء كلمة الله، وتحكيم شرعه، وقمع الفواحش ما ظهر منها وما بطن، واشتراكنا في الأهداف، يستدعي اتحادنا في الصف والكلمة. وتخلل الأعداء بألسنتهم ودسائسهم ومكائدهم تفويت لمصالح الطرفين، بوصفها مصالح مشروعة، تصب في أوعية الشعوب الإسلامية وتطلعاتهم. وإسراع أي طرف في تعميق الشقاق، وتصعيد الاختلاف حيلولة دون رأب الصدع، وتدارك الأمر، قبل فوات الأوان. إن عالمنا العربي والإسلامي يمارس حرباً كلامية، ليست بأقل خطورة من الحرب العسكرية. وإمعان الكتاب من الطرفين في الطعن واللعن تفويت لمصالح الأمة الإسلامية، وتمكين للمتربصين الذين يحتنكون، ويستدرجون، ويغوون، كما الشيطان الذي أقسم بعزة الله أن يغوي الأمة، ويضلها، ويأتيها من بين أيديها ومن خلفها وعن أيمانها وعن شمائلها، ويقعد لها كل مرصد. وهل هناك صراط أفضل من الصراط الذي تسلكه المملكة، ويتطلع إليه الإخوان المسلمون فيما يدَّعونه، وما تحمله مشاريعهم وخطاباتهم؟ ومع الاستياء من بوادر الفرقة فإن الأمل في عقلاء الإخوان ومجربيهم كبير، وكيف لا تنداح دائرة التفاؤل، والمملكة كانت ملاذهم يوم أن ضاقت بهم ديارهم، تمكنهم من التعليم والتأليف والدعوة، وتمنحهم ثقة لم يكونوا بالغيها تحت أي سلطة، ولو كانت سلطتهم. وحتى لو لم يحالف الطرفين التوفيقُ في الممارسات والعلاقات، فإن إيغال كتاب الرأي في تعميق الخلاف، والتيئيس من التقارب، وتضخيم نقاط الاختلاف، يصب في مصلحة المتربصين، الذين يظنون كل الظن ألا تقارب بين الشتيتين. وكلما مرت العلاقات العربية بلحظات فتور، أوجف المتسرعون من الكتاب بألسنتهم وأقلامهم، وأسهموا في التصعيد، ونسف قنوات التواصل. وعندما تتغلب النوايا الحسنة، وينخنس المرجفون، وتتحول أوهامهم وتهويماتهم إلى هشيم تذروه رياح التغيير، تنداح دوائر التفاؤل، وتندمل اجراح الغائرة، ويبادر الطيبون إلى رأب الصدع والتقريب بين وجهات النظر، وكم من لحظات ملتهبة، يحسن

بالكتاب أن يدخلوا مساكنهم، ويرقبوا هدوء العاصفة. إن ساعات الحرج والعسرة كساعات الغضب لا يجوز اتخاذ أي قرار فيها، وتلك الحال كحال الضعف، لا يجوز أن تقحم المشاكل فيها. والكتاب الذين أوغلوا في الذم والتجريم والتخوين، يرفعون رصيد الأعداء، ويكثرون سواد الخصوم. فالإخوان ليسوا على قلب رجل واحد، وكثير من ممارساتهم تخالف مبادئهم، وهم من الكثرة والانتشار والتأثير بحاجة إلى خطاب يؤلف القلوب، وينزع الضغائن، ويضعهم أمام مسؤوليتهم. وحين نعتمد الجاهزيات من الأحكام والتعميم في الاتهام، نؤلب الرأي العام العربي، وقد نوهم المتلقي بأننا ضد خطابهم الداعي إلى أسلمة المجتمع، وتفعيل الفكر السياسي الإسلامي. وإذا لزم التصدي لأي رؤية أو قرار أو تحيز أو تحرف، لا يتفق مع مقاصد الوحدة الإسلامية فإن على الكاتب أن يحدد رؤيته، وأن يركز على نقطة الخلاف، وأن يستبعد التصدي للمبادئ والممارسات، دون تفريق، وبخاصة عند الحديث عن رموز الإخوان الأحياء منهم والأموات، ذلك أن الإطلاقات العامة، والجور في الأحكام، يسقط العدالة، ويشكك في المصداقية، ومن ثم لابد من تحديد المختلف حوله، والإشادة بنقاط الاتفاق، وبالرموز الذين لم يسهموا في محاربتنا براجمات البلاغة، ولاسيما أننا كنا من قبل ملاذا للمشردين منهم، وعونا لمستضعفيهم، ومساعدين على تصدير خطاباتهم، وإذا اختلفنا مع خلفهم الذين أضاعوا محققات التقارب، فإن الواجب على كتاب الرأي أن يركزوا على نقاط الاختلاف، وألا يتعمدوا نسف مشروعهم، فذلك خير من الإيجاف بكل إمكانياتهم، والإسهام في تقطيع الأوصال، والإمعان في القطيعة، بحيث لا يكون هناك مجال للعودة. ولأن السياسة فن الممكن فإن من واجب المفكرين وحملة الأقلام، ألا يضيقوا الخناق على المناوئ، ومن خطط المعارك النافذة، أن تدع لخصمك بصيص أمل، يحول دون اندفاعه، واستماتته في المقاومة، تحت شعار: [عليَّ وعلى أعدائي]، ثم إن على كتاب الرأي أن يعرفوا أننا أصحاب رسالة، وأن علينا إبلاغها بالتي هي أحسن، وأننا مهوى أفئدة العالمين، والله ندبنا لتطهير بيته للطائفين والعاكفين والركع السجود. والتطهير: حسي ومعنوي، والتصدي لكل مخالف تعكير لصفو العلاقات الإنسانية مع قاصدي المقدسات، إن لنا خصوصية، تتطلب منا خيار التقارب والتعاذر، فلنكن في مستوى مسؤوليتناولنطهر أجواء بلادنا من أي كلمة نابية، قد نتمكن من تحقيق أهدافنا بأحسن منها، وإيران التي تولت كِبْر إيقاظ الفتن، لن تجني من الشوك العنب، والمملكة عبر تاريخها الحديث منيت بمواقف مشابهة، مع [مصر] و[اليمن]، واستطاعت بحكمتها أن تحسم المواقف لصالحها، وأن تعيد [مصر] و[اليمن] إلى ما كان يجب أن يكونا عليه، ولها مواقف مماثلة مع ظاهرة الإخوان داخلياً وخارجياً، وفي كل فلتة يدٍ أو لسان، يسبق حلمُها غضبَها، وأناتُها اندفاعها، وتكون العاقبة لها، وليس أجدى ولا أهدى من أن نضع الآخر أمام نفسه، ولا نُشَرْعِنُ له المبادلة بالمثل، ثم إن لنا أرحاماً يجب أن نصلها، فمصر تشكل عمقاً لمشاريعنا الإنسانية والإسلامية، وما ندم أحد مع العفو، فلنعف ولنصفح، فذلك خير لنا ولأجيالنا والعاقبة للمتقين.

اطّرحوا ذيول الصدمة وبادروا الثغور.. ![1]

لقد كان نبأُ الوفاة زلزلةً هزَّت أركان البلاد، وصدمةً ربكت المشاعر، وطوفاناً غمر السكون. في هذه الظروف الحالكة المسالك، المدلهمة الأرجاء، المضطربة الأحوال، فوجئ الشعب السعودي بنبأ وفاة الأمير نايف بن عبد العزيز (١٣٥٣-١٤٣٣هـ) بكل ما يحمله من مسؤوليات، وبكل ما يتوفر عليه من نجاحات، وبكل ما يسده من ثغرات. وحين يفاجأ الآمن بمثل هذا النبأ يفزع بآماله إلى التكذيب، وهل أحد أقوى عزيمة من عمر بن الخطاب، ومع ذلك كاد يفقد صوابه وحسن تصرفه حين نزل عليه نبأ وفاة الرسول كالصاعقة، ومن نحن إزاء هذا الحدث، وإلى جانب هذا العظيم.

إنها زلزلة على مستوى العالم العربي تجتاح النفوس الآمنة المطمئنة التي عرفت رجلاً عاش حضوراً فاعلاً على مدى ستة عقود، وأدار الأزمات المحلية والعربية بحكمة وروية وحنكة، وقضى نحبه في ساعات العسرة.

الأمير نايف بن عبد العزيز فاجأت وفاته المواطن السعودي في وقت هو أحوج ما يكون إلى مثله، ولم يعد بالإمكان احتمال الصدمة الكبرى دون الإيمان والتسليم والرضى بقضاء الله وقدره، إذ لكل أجل كتاب، والمؤمن يلوذ بالتسبيح والصبر والاسترجاع وسد الثغرات التي سيتركها الفقيد، كي يظفر بوعد الله .. من هداية وصلوات ورحمة.

وحق الوطن على أبنائه أن يتجاوزوا الصدمة، وأن يلتفوا حول قادتهم لتطويق هذا الحدث الجلل، في ظرف لا يحتمل الخور.

لقد كنا نرقب عودة سموه ليشد عضد أخيه ويباشر مهماته الجسام، فإذا بنا نفاجأ برحيله إلى دار البقاء، تاركاً وراءه ثغرات مهمة ومتعددة.

لقد شكَّل هذا النبأ صدمة مذهلة لأهل الحل والعقد في البلاد، لأن رحيل مثله سيترك فراغاً هائلاً أجزم أن رجالات الأسْرة سيملؤونه بالسرعة الممكنة، فالوضع العربي والعالمي لا يحتمل التردد ولا البكاء على فقيد أعطى كل ما يملك:

إذا طُـلَّ منـا سـيدٌ قـام سـيدٌ
قـؤول لمـا قـال الكـرامُ فَعُـول

وحق الفقيد علينا أن نملأ الأفئدة الفارغة بالدعاء الصادق والترحم، فالفقيد قضى حياته في خدمة أمته العربية والإسلامية، وقدَّم من جليل الأعمال وعظيم النجاحات ما يستحق معه الوفاء له وللبلاد بتلقي الراية بثبات وصدق، فسعادته في قبره أن نخلفه في مهماته الجسام.

لقد كان -رحمه الله- رجل أمن يتمتع بالحكمة والحلم والأناة وبُعد النظر، واستطاع أن يوجه أحلك الظروف بتصرف نوعي حسم به تلك الظواهر غير السوية.

وسموه -رحمه الله- حقق نجاحات كثيرة ولكنه امتاز بإدارة ثلاثة ملفات ساخنة ومصيرية:

-ملف الحج والعمرة، ولا سيما أن بعض المريدين للظلم فيه اقترفوا خطيئة التسييس للشعائر وتحويل المشاعر إلى ساحات للتعبير عن المواقف السياسية، وفي ذلك إفساد وإيذاء وظلم، وهم على موعد مع وعيد الله لكل مريد للظلم.

-ملف الإرهاب، إذ لم يواجه العنف بعنف مضاد، ومن ثم حاول الاحتواء وطرح مشروع المناصحة والحوار، ولم يعاقب بالمثل، فكان أن أسقط في يد المتربصين.

---

(١) تاريخ المقال: ١٩/ ٦/ ٢٠١٢

-ملف المخدِّرات الذي يغزو البلاد من كل الجهات ومن كل المنافذ البرية والبحرية والجوية، وتمارسه عصابات ومنظمات تمتلك كل الإمكانيات وتتفنن في التمويه، ولما تزل الحرب مع تلك العصابات على أشدها.

لقد تحولت معالجته لهذه الملفات نظريات يأخذ بها المسؤولون عن أمن بلادهم، فثقافة الحشود من الظواهر الجديدة التي ترافق بعض التصرفات الجماهيرية وهي في المشاعر من أعقد الأحوال، وخلفيات سموه الإدارية أرست الكثير من القيم، ومكنته من توحيد الآراء حول كافة القضايا المختلف حولها.

وثقتنا التي لا تتزعزع أن البلاد فقدت الكثير من الرموز ولم تتعرض لأي فراغ ينعكس أثره على الأمن والاستقرار. وعندما تفقد البلاد رجلاً بحجم نايف بن عبد العزيز فإنها لن تفقد المنجزات، ولن تفقد المقتدين بسيرته والمستلهمين لحكمته، وإذا غاب بشخصه فإنه سيظل حاضراً بمنجزاته وسيرته العطرة، وحاضر بالعاملين معه.

لقد أمسك ملفات كثيرة محلية وعربية واستطاع بخبرته الطويلة واحتكاكه المباشر بالملوك الذين عمل معهم بدءاً بالمؤسس وانتهاء بخادم الحرمين الشريفين أن يبلغ بها شاطئ السلامة، لقد شهد ببراعته كل الذين عملوا معه، وشاركوه في إدارة تلك الملفات مؤتمرين أو عاملين، وهو إذ شغله الأمن بمفهومه التقليدي طوال ستة عقود فقد امتد اهتمامه للأمن الفكري، ومن ثم عمد إلى دعم الكراسي البحثية في الجامعات، ويكفي أن نشير إلى كرسيه لدراسات الأمن الفكري، وبخاصة ما يتعلق بالتطرف الذي نسل من عباءته الإرهاب العملي، وكذلك اهتمامه بالمؤسسة الوطنية لمكافحة المخدرات وغيرها من المؤسسات.

لقد كان -رحمه الله- رجل العدل والتسامح والاحتواء والمواقف الثابتة.

واختيار خادم الحرمين الشريفين له ليكون ولياً للعهد ونائباً لرئيس مجلس الوزراء أضاف إليه أعباء أخرى أسهمت في تجنيب البلاد ويلات الفتن التي اجتاحت الوطن العربي وعرضته لفراغات دستورية أدت إلى فقد الأمن والاستقرار وتفرق الأمة. ووزارة الداخلية لها علاقاتها المتعددة والمتجذرة في جميع مفاصل البلاد وإدارته لها في أحلك الظروف أكسبه خبرات متعددة المصادر، وتمرسه مكنه من إدارة الوزارة بكل اقتدار، إنه رجل دولة ورجل مهمات، والوظائف التي شغلها والملفات التي عالجها والمسؤوليات التشريعية والتنفيذية التي اضطلع بها صنعت منه شخصية فذة.

لقد كان -رحمه الله- من أحرص الناس على استبعاد الصورة التقليدية عن وزارة الداخلية، ومن ثم أحدث أساليب حضارية لمواجهة النوازل، وتمكن من تجفيف منابع كثيرة بأسلوب حضاري، ويكفي أن نشير إلى ظاهرة الإرهاب التي فاق في معالجتها كل مجايليه من مسؤولي الأمن في العالم.

وتحمله لتلك المسؤوليات الأمنية لم تحل دون إسهاماته الإنسانية، لقد قاد حملات الإغاثة الإنسانية بكل اقتدار واستطاع أن يأسو ويواسي ويتألم مشاركاً الأشقاء والأصدقاء مآسيهم. رحم الله الفقيد رحمة واسعة، وعَوَّض البلاد والعباد خيراً منه، لتواصل مسيرتها الآمنة المطمئنة بقيادة الرجال الأوفياء من أبناء البلاد وعلى رأسهم خادم الحرمين الشريفين حفظه الله وشد عضده بالشرفاء من أبناء البلاد.

من الأتراح إلى الأفراح .. !(١)

طاوعني يا عقلي.. كلمة أرددها، وأناجي بها عقلي، كلما ضاقت علي الأرض رحبت، مناشداً إياه، تخفيف التشاؤم والبرم والخروج من ضوائق الخوف، وظلال الفجر، وتطلعاً إلى التسليم بأن الإنسان خلق في كبد، وأن الله جل وعلا مثلما يداول الأيام بين الناس، فإنه يداول المصائب والأرزاق والأخلاق والصحة والمرض، وأن البقاء في النهاية لله وحده، فهو الذي يرث الأرض ومن عليها. وكيف يتطلع مخلوق إلى الخلود والله قد خاطب أحب الناس إليه بقوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ وقضى بأن ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ وأن ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ وفوق هذا وذاك، فإن كل الذي فوق التراب تراب، وأن الأنفس التي تملك الأشياء ذاهبة، وليس من الحصافة أن يبكي الذاهب على ذاهب مثله، ومهما أحب الإنسان، وأسرف في الحب فإنه مفارق، وفي الحديث: «**أحبب حبيبك هونا ما...**».

هذا القلب الحساس إلى حد التشنج لم يذعن ولم يطاوع وكيف يتأتى منه ما أريد؟ ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ ومتى يتداركه الله برحمته فيكون من الطائفة المستثناة: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾

وبلادنا ليست بدعاً من البلدان، فهي معرضة للأتراح والأفراح، وكل ذي نعمة محسود، ثم إنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون، والمؤمن الحق من يقف وسطاً بين اليأس والرجاء.

وتاريخنا الحديث مليء بالأحداث الجسام المفرحة والمترحة، وكل حدث مؤلم نقطع بأنه الأصعب، وأنه الحاسم، ولكن رحمة الله تسبق غضبه، ولطفه يحول دون عقابه، ومن حيث لا نحتسب يقي الله البلاد والعباد عقابيل المصائب، ويملأ فراغهم بما يعوضهم عما فاتهم.

والخلقُ المؤمن على موعد مع الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، والبشارة للصابرين المسترجعين.

ولو نقبنا في تاريخنا الحديث، لتبدت لنا لحظات حرجة وساعات مؤلمة، ومن فضل الله علي وكرمه أنني عاصرت ستة ملوك، ورصدت وفيات خمسة منهم.

سمعت وأنا طفل لم أبلغ الثانية عشرة بوفاة الملك عبد العزيز، مما أثار دهشتي وأنا ألهو مع لداتي نداء المؤذن بعد صلاة الجمعة وهو يدعو إلى صلاة الغائب على روح الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن، وحين أسرعت إلى البيت وجدت أبي رحمه الله جالساً القرفصاء في حالة حزن وخوف وترقب واسترجاع وكان الناس حينها يتوقعون تفلتاً في الأمن، وعودة إلى ما قبل التوحيد، ومرت الأيام ولم يتغير شيء، إذ خلف من بعده من تلقى الأمانة ونصح للأمة، وتعاقبت الوفيات، وفي كل مرة نحس بالخوف والقلق ونضطرب في حسابات الربح والخسارة وعلى مدى سنتين تعرضت البلاد لهزات حزن عنيف، فلقد مات سلطان بن عبد العزيز، ولحق به نايف بن عبد العزيز رحمهما الله، والرجلان ملء السمع والبصر، لما يتمتعان به من أخلاقيات فاضلة ولما يتوفران عليه من إمكانيات استثنائية ولما يضطلعان به من مسؤوليات جسام، وفي كل حدث جلل، ينتابنا الحزن والخوف.. الحزن على فقد عزيز، والخوف من فراغ في المسؤولية، قد يطول أمده

---

(١) تاريخ المقال: ٢٦/ ٦/ ٢٠١٢

ولكننا في لحظات الارتباك وذهول الصدمة نسمع ونرى سداً للخلال، وحماية للثغور، ونهوضاً بالمسؤولية، وإذ بالخلف يترسم خطى السلف، وإذ بالخيرية تتوفر بالطرفين، وتلك من نعم الله على البلاد والعباد، فالفراغات الدستورية وشغور المناصب السيادية يعدان من طاعون الشعوب.

وبلادنا من عهد المؤسس رحمه الله لم تشهد فراغاً دستورياً؛ فولي الأمر من أحرص الناس على تجاوز اللحظات الحرجة، وبعث الثقة والاطمئنان في نفوس الوجلين، ولاسيما أن العقود الثلاثة الأخيرة جاءت حبلى بظواهر الإرهاب والحروب والمخدرات والثورات التي انفلت معها الأمن، وانطلقت فيها الأيدي والألسن ونسلت (الأيديولوجيات والطائفيات، وكنا ولم نزل وسط اللهب.

وغياب مسؤول بحجم نايف بن عبد العزيز في ظل هذه الأوضاع مدعاة إلى الخوف والترقب، فحين قضى نحبه في هذا الزمن الموبوء مُني الوطن والمواطنون برجفة المصاب غير المتوقع وانتابهم الخوف والترقب، ولم تمض ساعات على مواراة جسده الطاهر في الأرض المقدسة حتى جاءت بشائر الخير، معلنة سد الثغرات.

فـ(سلمان بن عبد العزيز) الذي تلقى الراية ونهض بالمسؤولية واستلم ثلاث مسؤوليات جسيمة: ولاية العهد، ونيابة رئيس مجلس الوزراء ووزارة الدفاع، جدير بها، لما يتمتع به من إمكانيات ذاتية وخبرات عملية، وعلاقات حميمة مع مختلف أطياف المجتمع ولاسيما أنه يمسك بثلاثة ملفات جانبية ليست من صميم مسؤوليته: ملف الأسرة الحاكمة، وملف المثقفين والإعلاميين، وملف تاريخ الجزيرة الحديث، وهذه الملفات الثلاثة وفرت له خبرات وتجارب لا يستهان بها.

ما يحمد لقادة البلاد سرعة اتخاذ القرارات الحاسمة في اللحظات الحاسمة والانسيابية في تداول السلطة، وهذا مؤشر إيجابي تضوى به أجسام المتربصين الذين تخسر رهاناتهم عند كل موقف حرج، يظن المناوئون كل الظن أنه بداية النهاية لاستقرار البلاد، وسلمان بن عبد العزيز يعيش حضوراً فاعلاً، ويشارك في القرارات المفصلية، وهو رجل دولة، ومن ثم فلن يفاجأ بالمسؤوليات ولن تفاجأ به المسؤوليات، إنه ابن بجدتها وإنسانها الذي تقلب معها منذ نعومة أظفاره.

وحاجة سلمان ليست في ذكر المآثر والخيرات والثناء عليه بما هو أهل له، ولكنها في الدعاء الصادق، وشد الأزر، والمناصحة، وحفظ الغيبة، فكل مواطن راع، وكل راع مسؤول. ويكفيه أن الأمة راضية متفائلة ومتفقة على القبول به والثقة بمواصلة المسيرة الخيرة، إذ تلقت النبأ بالارتياح والاطمئنان والثقة، ومصير مثله إلى هذه المسؤوليات الجسام دليل على أن البلاد تجاوزت محنتها بسرعة، ولم تتعثر، ومبادرة خادم الحرمين الشريفين بسد الثغرات من بشائر الخير، فوزارة الداخلية لا تقل أهمية عما سواها، وبخاصة في ظل الظروف العربية وما تعانيه دول المنطقة من اضطرابات لن ينجو من دخنها أحد، وسمو الأمير أحمد بن عبد العزيز عاش شطراً من حياته نائباً لوزير الداخلية، وهو بهذه الخبرة جدير بأن يخلفه في مسؤولياته.

رحم الله الأموات وسدد على طريق الخير خلفهم وحفظ البلاد وأهلها ومقدساتها من كل سوء، وأيد الله بنصره وتمكينه خادم الحرمين الشريفين وجعله وأخويه وسائر أعوانه ووزرائه وبطانته من الساعين في حاجات المواطنين.

وشعب وفيّ لقادته وحفظ ساقتهم وأسر المحبة، جدير بأن يتوفر على كل مقومات الحياة الكريمة، وما تلك القرارات الحكيمة إلا جزء من حق هذا الشعب الوفي.

رحم الله ناصر السنة نايف بن عبد العزيز

وسدد على طريق الخير خطى سلمان بن عبد العزيز

ووفق الله تعالى أحمد بن عبد العزيز لحفظ الأمن
ورزقنا جميعاً شكر نعم الله الظاهرة والباطنة؟

غسان و مطر المصائب .. !(١)

تذكرت (أبا الطيب) حين نُعي (غسان تويني ١٩٢٦ - ٢٠١٢ م). وما غاب (أبو الطيب) عن ذاكرتي ساعة من نهار، ولكن التداعيات تعيده من زاويته المناسبة للحدث المثير.

وما ضاق أحد بالمصائب ضيق أبي الطيب وما جسد أحد صراعه معها مثلما جسده.

وغسان الذي أثخنته الجراح، تحداها بالكلمة، وواجهها بالإصرار.

لقد غالبت المصائبُ أبا الطيب، ولم تغلبه، ولمَّا يني في مجادلتها ومجالدتها ومساءلتها باستغراب:-

أبنــت الــدهر عنــدي كــلّ بنــتٍ
فكيــف خلصــت أنــت مــن الزحــام

كما هوّن من جراحها: -

جَرَحْــت مجرَّحــاً لــم يبــق فيــه
مكــان للســيوف وللســهام

ومع مناصبة الحياة له، لم يتردد في استسقائها: -

أظمئتنــي الــدنيا فلمــا جئتُهــا
مستســقياً مطَــرَتْ علــي مصــائبا

وغسان وإن وهن عظمه فإنه لم يهن، بل ظل ممتشقاً قلمه يذود عن وطنه حراب التآمرات المسمومة. لقد مات شامخاً بتضحياته، صامداً بتحدياته، وموته مرتقب من حيث الزمن، غريب من حيث الكيفية، إذ المتوقع أن يُغتال كما اغتيل سائر المناوئين للتدخلات السورية في الشأن اللبناني.

لقد أمضى ثمانية عقود ونيفاً، أمضّته، وأضوت جسمه.

وكيف لا يضوى؟ وهو الوطني الحر، الرافض لكل تبعية تسلب وطنه السيادة، الراكض في فيافي المعالي، ولقد عجب المتنبي ممن يجد الطريق إليها، ثم لا يذر المطي بلا سنام.

والعقود الثمانية الطافحة بالفجائع، المليئة بالهزائم والانتصارات كافية. فالحياة صراع متواصل، إنها حلبة عنفٍ لا تهدأ، وكل من فيها مصارع مخاتل لخصمه: -

كلمــا أنبــت الزمــان قنــاة
ركّــب المــرء للقنــاة سـنانا

ولقد وُصف الإنسان بأنه حيوان مقاتل. ولهذا ظل "تويني" محارباً منذ نعومة أظفاره، حتى بلغت به السلامة أرذل العمر.

وهو في معركته الممتدة على مدى ستة عقود، كان سلاحه القلم الجريء، وذخيرته البلاغة الأخاذة "وفي البدء كانت الكلمة".

---

(١) تاريخ المقال: ٣/ ٧/ ٢٠١٢

ولما كانت الحروب والكوارث والنكبات من سنن الله الكونية، فقد تلقاها الإنسان بجهله وظلمه وجبروته ووحشيته، حتى لا تخبو في مكان إلا لتنفجر في أمكنة أخرى، ثم تكون أشد بأساً وتنكيلا.

وموت غسان يذكرنا بالمآسي والنكبات، إذ كان هو آخر أفراد أسرته موتاً. ماتت زوجته وابنته وولده، ثم لحق بهم وحيده جبران إثر تفجير سيارة مفخخة، كما ضاع وطنه في ظل اللعب القذرة، ولما تُجْد مقاومته العنيفة وإصراره العنيد.

وبعد أن تجرع كل تلك المرارات، أقعدته الشيخوخة وأمضه اليأس، ليموت على فراشه وهو يردد: -

"لا نامت أعين الجبناء"

وطول السلامة وحده العلة التي لا دواء لها، ومن ثم قالت العرب من قبل: - "ما رأيت علة كطول سلامة".

وكم من عربي ضاق بما بعد الثمانين:-

إن الثمـــــــــانين - وبلغتهـــــــــا -

أحوجـــت ســـمعي إلـــى ترجمـــان

وهذا "لبيد" يتأوه، وكأنه مل الحياة وطولها:-

ولقـــد ســـئمت مـــن الحيـــاة وطولهـــا

وســـؤال هـــذا النـــاس كيـــف لبيـــد

ولو تعقبنا أدبيات المعمرين ووصاياهم، لا سودت الحياة في وجوهنا، ولكن الأمل والنسيان يزيحان ضوائق التفكير بالمصائر، وهل من مصير أشد وقعاً من الموت؟ وهو وحده اليقين الذي لا ينجو منه مخلوق: - ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾.

وما من أحد يدري ماذا يكسب في غده: - ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾

واختفاء المصائر رحمة من الله، فلو عرف الإنسان ساعة موته، لما نامت له عين، ولا قر له قرار.

والموت بكل رهبته من أبعد الأشياء عن التفكير، وإذا استحضره الإنسان ساعة من نهار، ضاقت عليه الأرض بما رحبت. على أن الإنسان يتذكر النهاية كلما تقدمت به السن، وخارت عنده القوى.

وحياة "غسان" تفيض بالمصائب والنكبات والإحباطات، ولكنه ظل يغالبها حتى أثخنته وأقعدته على سريره الأبيض، يعاني الأمراض، ويتجرع مرارات الأحزان، وضوائق الوحدة، وسقوط قلمه، دون أن يحقق حرية وطنه من قذارة اللعب السياسية.

إن قضيته الكبرى "لبنان"، وعدوه اللدود تدخل الأقربين لزرع الطائفيات، وتفريق الكلمات، وفي كل جولة يسيخ قلمه في وحل المؤامرات التي تحاك لأجمل أرض عربية، وأقوى شعب عربي.

علمت بوفاته، وأنا أمتطي متن الريح بين القصيم والباحة، ومسافر اليوم طاعم كاسي، كما "الزبرقان بن بدر" الذي هجاه "الحطيئة" بقوله: - "وقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي".

فهو يضيق بالفراغ، ويمزق ساعاته بفلي الصحف.

أجمل تأبين، وأكثره إيغالاً في المبالغة، تأبين ''جهاد الخازن'' الذي استهله بقوله: - ''آخر أمراء الصحافة اللبنانية، وأيوب العصر'' ومن حق نصراني مثله، أن يوسعه تمجيداً، وإن تدارك اندفاعاته بشطر بيت: - ''أي الرجال المهذب''. لست معترضاً على التأبين، فـ''غسان'' أحد الرموز السياسية والوطنية الشرفاء.

لقد كان واحداً من عشرات الكتاب الذين أسهموا في تشكيل وعيي، ولفْت نظري، وإثارة فضولي، وشد انتباهي.

كانت ''الأهرام'' في مصر، وكان مقال رئيسها المثير ''هيكل'' ''بصراحة''. وكانت ''النهار'' و''الحياة'' و''غسان تويني'' و''كامل مروة'' في لبنان، وطائفة من كتاب هذه الصحف، هم الأكثر شداً للانتباه، واستقطاباً للشباب المتحمس أمثالي آنذاك. لقد كان جيلنا جيلاً مبهوراً بهذه الأصوات المدوية، مصغياً لهديرها، يتسلل إليها في جنح الظلام خشية الرقيب.

وكانت البلاد في حرب باردة وساخنة ضروس مع المد القومي والاشتراكي والثوري. وما كنا في شبابنا ندري عن مخاتلة اللعب السياسية، وما كنا نتوقع الكذب. فالكلمة التي يطلقها عمالقة الصحافة أمثال ''هيكل'' و''النشاشيبي'' و''بهاء الدين'' و''تويني'' و''مروة'' تبلغ مداها في أذهاننا، وقد نسهر جراها ونختصم. ومن نعم الله علينا أن ربط على أفئدتنا، وثبت أقدامنا، ولم يدب خدر البيان الساحر في أوصالنا، وإن أطربنا ذلك البيان الأخاذ، بل رقصنا، كما رقص بيت جرير: - ''ألستم خير من ركب المطايا'' ''عبد الملك بن مروان''. وحين فُزِّع عن قلوبنا، وسقط النصيف، ولم تكن يد للاتقاء، عرفنا من بكى ممن تباكى، وأدركنا الكذبة الإعلامية الكبرى، التي أضلت أقواماً كثيرين.

وإن كان ثمة فضل نذكره ونشكره، فهو عائد برمته للملك الشهيد ''فيصل بن عبد العزيز'' الذي ضبط البلاد بقوة ليس فيها عنف، فنجونا بهذا الحزم من مزالق الإعلام الثوري بكل إغراءاته واستدراجاته.

وإذ يقول الشعوبي الماجن: -

عاج الشقي على رسم يسائله
وعجت أسأل عن خمارة البلد

فإنني أقول: - عاج المبهورون يبرزون إصرار ''غسان'' على النصر والتغلب على المصائب، وعجت أقرأ ما فعلته التدخلات السورية في الشؤون اللبنانية وشل سيادتها المشروعة، فلقد طاردت المناوئين لتدخلاتها وإحيائها للنعرات الطائفية، وكان ''غسان'' وابنه ''جبران'' من أكثر المعارضين، حتى لقد تلقى ابنه تهديدات ومساومات، ولكنه أصر، ولقي حتفه ليكون واحداً في سلسلة المغدور بهم.

والنظام السوري الذي يترنح أمام ضربات المقاومة، ستظل آثاره السيئة قائمة في لبنان، ماثلة لكل ذي عينين ولسان وشفتين، ولما يزل الحزب الطائفي حكومة داخل حكومة، يعبئ السلاح، ويزرع الضغائن، ويشل الحرية، ويدمر الاقتصاد، ويغري بالاختطاف والتفجير.

وفي كتابه ''فلندفن الحقد والثأر'' توجع يدمي القلوب، لقد تحدث عن الذين اغتيلوا وعن الذين نجوا، وأصابعُ الاتهام كلها تتجه صوب النظام السوري، حتى أصابته الطعنة النجلاء باغتيال وحيده، وأفضع تعبير في التأبين، حين تمنى لو قُتل ولده دون أن يتمزق جسمه، بحيث لم يجد فيه ما يمكن تقبيله، أو إلقاء النظرة الأخيرة عليه، إنها مأساة الأمة العربية، وليست مأساة لبنان وحده.

كان "غسان" داعية سلام، حتى في أحلك الظروف، ففي جنازة وحيده دعا إلى التعالي عن الأحقاد، والسعي إلى التسامح، ولكن النظام السوري الطائفي جر وطنه إلى الهاوية، وهو الآن يحاول جر المنطقة بأسرها إلى الجحيم مهيناً نفسه، عاقاً لعروبته، ممكِّناً للحقد المجوسي من الانتشار والاستشراء. لقد كتب "غسان" آلاف الافتتاحيات لجريدته "النهار" معبراً عن فلسفته في الحياة، وعن رؤيته السياسية، كما لملم أطراف رؤيته السياسية عن وطنه لبنان في كتابين: "اتركوا شعبي يعيش" و"حرب من أجل الآخرين" وفي كل كتاب تعبير صادق عن معاناة الشعب اللبناني الذي فقد ألقه ونصاعة حريته وحياته الدستورية المتجذرة، وفي آخر زيارة قمت بها للبنان، شاهدت آثار الدمار والخوف والترقب البادين على وجوه الشعب المقهور.

ولبنان الذي فقد رجالاته الأوفياء، أنجب آخرين، يقولون ما يقول سلفهم ويفعلون فوق فعلهم. وإذا اشتدت الأزمات فإنها مؤذنة بالانفراج.

تحوُّل الخطاب الفكري بعد الربيع العربي .. ! (١) [1]

ينتاب المَشاهد الفكريةِ والسياسيةِ والدينيةِ طائفٌ من التساؤلات الحائرة، في أعقاب الثورات: العلمية والتقنية والشعبية.

ولست أشك بأن ما يسمى بـ(الربيع العربي) ناتجٌ طبعي لتلك الثورات.

وإن كان إطلاق الربيع إطلاقاً متفائلاً باذخاً، إذ المرحلةُ الانتقالية المفتقرة إلى ثقافة المستجد، وإلى الوضع الملائم، ستكون عصيبةً، وموجعةً، وقد يطول أمدُ عودتها إلى جادة الصواب. والبوادر تشي بأن تتفرق بالثائرين بُنيات الطريق، ثم يلاقيهم ما يفرون منه من فرقةٍ واستبدادٍ وظلم، كملاقاة الموت للفارين منه. وكل المؤشرات لا تبشر بخير. فالحرية التي داهمت الشعوب، وهم بعد لم يتهيئوا لها، أحدثت عندهم صدمةً مربكةً، وأحيت نعراتٍ، تفتخرُ بالأحساب، وتطعن في الأنساب، كما أنها حرّكت كوامن الطائفيات المضمرة. ولما لم يأخذوها بحقها، فقد تحولت إلى فوضى مستحكمةٍ، وغير خلاقة. ولاسيما أن المكبوت والمكنون وجدا أجواءً آمنةً للفيضان، ومن ثم اختلطت الأصوات.

وثورات الشعوب التي امتدت كما النار في الهشيم، والتهمت القلاع الورقية، تختلفُ عن الانقلابات العسكرية بعنفها، ودمويتها، وتسلطها، وكبتها للحريات، ولقد سميت الانقلابات ظلماً وعدواناً بالثورات، وما هي كذلك، وكم هو الفرق بين الثورة والانقلاب.

ولقد يصاحب العنفُ الثورةَ الشعبية، إذا دخل الجيش طرفاً فيها: قامعاً أو مدافعاً.

لقد أيقظت تلك الثورات الشعبية الحريةَ من مرقدها. والحريةُ حين لا تُكتنفُ بثقافتها، تصير فتنة عمياء، لا يصيب ضررها أهلها خاصة، وقد لا ينقطع دابر فتنتها إلا بفتنةٍ أشد من القتل، وذلك ما نشاهده في الساحات والمواقع والقنوات. ولأن الثورات السياسية ناتجُ متغيرات متعددة وثورات متنوعة، فإن ضبطها لم يكن بالقدر الكافي. والداخلون على المواقع، والقارئون للصحف (الإلكترونية) تفاجئهم سفاهاتٌ وبذاءات وتنابز بالألقاب، وهو فسوق بعد الإيمان.

والمؤلم أن تلك النقائض الموغلةِ في الرذيلة، يُشَرْعَن لها باسم الحرية المكتسبة. والظاهرة السلوكية الناشئة عن ثورتيْ الاتصالات والمعلومات، عزّزتها ثورةُ الشعوب على حكّامها، المُكمِمين للأفواه، ومن ثم التقى الهرج والمرج على أمرٍ قد قُدر.

ولست بهذا القول متشائِماً، ولا متحاملاً، ولا محبطاً، ولا يائساً. ولكني أتوسل بالمصداقية، وأطّرِحُ المجاملة والتفاؤل غير المشروع، وغير المبرر.

فالتقنية الدقيقة، أو ما يسمى بـ(النانو)، أسهمت بالشفافية التي تجاوزت التعري، دون أن يكون هناك وَرِقٌ ليُخصف عليه. ولقد استعاذ (أبو هريرة) - رضي الله عنه - من زمن العري، وهو يتحدث عن أشراط الساعة. وقصة (آدم) - عليه السلام - وخروجه من الجنة مرتبطةٌ بِبُدو السوءة: الحسية والمعنوية.

وما نشاهده ونعايشه من تعرية فاضحة لكل الأوضاع، ونقلٍ فوري لكل الأحداث، وملاحقة ملحة لكل المقترفات، وتحبيسٍ بالصوت والصورة لكل الممارسات، على مختلف المستويات، قلب الأوضاع، وغيّر القناعات، وكسر النمطيات.

هذا الفضول جاء بفضول مثله، حتى لا ينفك المتابع للمواقع من الشيء ونقيضه.

فالغلاة والجهلة والمبطلون في كل نحلة أو ملة، يحتلون القنوات والمواقع وسائر وسائل الإعلام، ويقولون منكراً من القول وزوراً، يسيء لمللهم ونحلهم، ويكشف عوارهم، ويبعث على النفور منهم. وما أتيحت هذه الفرص لمثل هؤلاء المتعفنين إلا من

---

(١) تاريخ المقال: ١٠/ ٧/ ٢٠١٢

بعد ما تململت الشعوب المقهورة من تحت وطأة الظلم والاستبداد، ومن بعد ما تقدمت التقنية التي هتكت الحجب، وعرّت المستور. وهذا الغثاء الممل الذي يتقيؤه الناقصون عقلاً وديناً، سيكون له أثره السيئ على المعتقدات والسلوكيات. وقد تضمحل معه نِحلٌ موغلة في الخرافة و(اللا معقول)، وتعلو به أخرى، محترمةً للعقل، متصالحة مع العلم، وتبيد خطاباتٌ كانت سائدة، وتتصدر رؤى كانت مهمشة. فما عادت الفتاوى وقفاً على أهل الذكر، وما كان العلم المضنون به على غير أهله مرتهناً لذويه. فالقنوات الطائفية والفكرية والحزبية تستبق في سبيل التعرية والافتراء وقول الزور. والمتابعون من العامة - وهم المقصودون بالفتنة النائمة الملعون موقظُها - لا يملكون المعرفة التي تمكنهم من التمييز بين الحق والباطل، وتحميهم من مضلات الفتن. ويقيني أن العالم الإسلامي يقف على مفترق الطرق، وأن الرابح الوحيد في هذه اللجاجة هم أعداء الأمة العربية والإسلامية. وكيف لا نتصور تحولات مخيفة للفكر العربي والإسلامي؟ وكل مَوْتور يمتلك الحرية المطلقة في قول ما يريد، والرأي العام مغرم، بل هو مهووس بملاحقة ذلك الطفح الرخيص، الذي يخيف المخيفين. وكيف لا يخاف المسلم، ورسول الله ﷺ قد غضب حين رأى ورقةً من (التوراة)، في يد عمر بن الخطاب؟ ومَنْ مثل عمر في قوة إيمانه، ومعايشته للوحي والإعجاز؟ ومَنْ مثله في قوة العقل، ونفاذ البصيرة؟ إن الخوف من خطورة التحول في ظل هذه المتغيرات في محله، ومن يستخف بما يجري، يؤتى من مأمنه. وفي ضوء هذا الخلط العجيب، لن نتمكن من تصوُّر المصائر، وليس لدينا رهانٌ حول طبيعة التحول، وإن قطعنا بحتميته. ولسنا متشائمين، ولا متفائلين، ولكننا حين نكون متوقفين، نخاف من أن يتفلت شبابنا من بين أيدينا، وما الفئة الضالة إلا مؤشرٌ خطيرٌ لهذا التفلت. ومن تعقب التغريدات التي هي بمنزلة فلتات الألسُن، يدرك أن وراء الأكمة ما وراءها، وها نحن بين الحين والآخر نصدم بتغريدةٍ تدنس المقدس، أو تتطاول على الذات الإلهية، أو تشكك بالمسلَّمات والثوابت. وتلك من الظواهر الغريبة على مجتمعٍ سلفي تربى في أحضان علماء حظوا جناب التوحيد، وهذا يؤكد ضعف تأثير المؤسسات التقليدية: البيت، والمدرسة، والمجتمع، ويقلل الثقة بخطبة الجمعة التي تنيف على خمسين ألف خطبة في السنة.

تحول الخطاب الفكري بعد الربيع العربي .. ! (٢)[(١)]

وأخطر شيء تواجهه الأمة في زمن التحول فشلُ هذه المؤسسات التقليدية، وعجزها عن ملء الفراغ، والحيلولة دون نفاذ دعاة السوء. وأخطر من هذا كله عجز المؤسسة الدينية عن تلقي الراية، وتوجيه المعركة، واحتواء الموقف. بل أكاد أقطع بأن المؤسسة الدينية على الرغم من ضعفها تتآكل من داخلها، وتتفلت ألسنةُ بعض المحسوبين عليها بآراء وفتاوى وتصوراتٍ مخالفةٍ لمسلماتها الصحيحة أو الراجحة على الأقل. وإذا اجتمع الضعف والتصدع قويت شوكة الخصم، وتبدت له الثغرات المهملة. وخوفنا وتخويفنا من تلك الأوضاع غير الملائمة، ليس إحباطاً، ولا تخذيلاً، ولكنهُ تساؤل شاردٌ واستنهاضٍ ملح.

على أن هذه الأوضاع الناشئة من الحرية والشفافية حالت دون التزييف المتعمد لوعي الأمة، وأحبطت احتكار السلطة للخطاب، ومنعت من تفشي الادعاء العريض، الذي يشبه الخدر المنساب في أوصال الأمة. ومن هنا كان التعالق بين ثورة المعلومات والاتصالات من جهة، وثورة الشعوب على أنظمتها من جهةٍ أخرى. ولما كان لكل وضع خطابه، ولكل حال أسلوب حياتها، فإن المتوقع تبدلُ الخطابات الفكرية، وتحولُها، واستشراءُ التغيير، وعجزُ المؤسسات التشريعية والتنفيذية عن ملاحقة التطلّعات والتحولات.

ومن ثم كان اختياري لظاهرة تحول الخطاب الفكري بعد الربيع العربي مناسباً إلى حدٍ ما، ليكون مجالاً للحديث، والتماساً لأسلوب التعامل مع المتغير السريع والمفاجئ.

إن طائفةً من المتنفذين في مختلف المؤسسات، يتصورون أنه بالإمكان تخطي هذا المنعطف الخطير، دون استجابةٍ لمقتضى تلك التحولات، ظناً منهم أن الربيع العربي منتجٌ إقليمي، وأن لكل حدث حديث، ولكل شيخ طريقته.

ولقد يتواشج هذا الهاجس مع زعم (ابن نوح) الذي قال لأبيه: ﴿سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾. وما كان يدري إلا عاصم من أمر الله.

ولأنه لا يعلم جنود ربك إلا هو، فإن ما يجتاح العالم من ثورات مُتَعدِّدة، ومتنوعه: حسيةٍ ومعنويةٍ، إن هو إلا من جنود الله التي يسلطها على من يشاء من عباده.

ولا بد - والحالةُ تلك - من الإيمان الجازم بالتحول الفعلي للخطاب الفكري. والإيمان يقتضي التهيؤ للمواجهة الحضارية، وإعادة ترتيب كل المؤسسات، لتكون قابلة وقادرة على تخطي المنعطف الخطير.

وحين يكون التحول حتماً مقضياً، فإن واجب المسؤولين والمقتدرين ترتيبُ أوراقهم، للتعايش السليم مع هذا التحول، ولا مجال بعد اليقين للمغالطة ولا للمكابرة.

لقد أجمع المؤرخون المعاصرون للحضارات على أن داء الأمم مرجعهُ إلى: تسلط أمةٍ على أمة. أو تسلط حاكم على محكومين. أو تسلط متعالمٍ على متّبعين. وعلينا أن نفرق بين السلطة المشروعة والتسلط المحظور. ومتى ارتبكت المفاهيم، شاعت ثقافات الخنوع والتمرد في آن. فتسلط الأمم القوية على الأمم الضعيفة المستضعفةِ، المعروف لدى الفكر السياسي المعاصر بـ(الاستعمار) من الشرور المستطيرة، فهو إلى جانب استغلال الخيرات، يمارس التجهيل، والتضليل، ودعم الأقليات المتناحرة، وخلق الجماعات الضاغطة، ومن تحت عباءته نسل (الغزو) و(التآمر). وهما مصطلحان، تختلف الضحايا

---

(١) تاريخ المقال: ١٧/ ٧/ ٢٠١٢

حول مفهومهما، وحقيقة وجودهما، أو مقدار هذا الوجود، حتى لقد أنكرهما البعض، فيما ركن إليهما آخرون، محمّلين الاستعمار كلَّ بوادر التخلف والاختلاف. ولست أشك أن خطأ الفهم لا يقل سوءاً عن إنكار الوجود، أو الاضطراب في تقدير حَجْمه. كما أن تسلط المستعمر لا يقل سوءاً عن تسلط الحكام، واستغلالهم السيء للحكم. وفوق هذا وذاك، فإن ظاهرة المتعالمين بمختلف نواقصهم التقليدية والتعصبية والجمود والتضليل، ممن يحلو لهم النبش في شواذ المسائل، تؤدي تلك الظاهرة إلى ذات المصير الذي يؤدي إليه الاستعمار البغيض أو الحكم الجائر.

وتحول الخطاب الفكري مرتبط بطبيعة الحياة المجبولة على التغير والتبدل، إذ هي كالنهر الجاري، لا يقر له قرار، وعثرات الحضارات مقترف قادة الفكر المنحرف، فحين لا يعي المفكرون السنن الكونية، يزعمون أنهم منارات يهتدى بها، ومن قبلهم قال فرعون لقومه:- ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾.

تلك الإشارات التحذيرية، لا تحول دون التحرف، أو التحيز، لمواجهةٍ حضارية، تستوعب المستجد، وتتفاعل معه، وترتب أمرها لمعايشته، أو مصالحته، والأخذ بأحسنه.

والتجديد مقتضى إسلامي، فالبشارة بِبَعث من يجدد لهذه الأمة أمر دينها حقيقةٌ إيمانيةٌ، بشر بها من لا ينطق عن الهوى، والإشكالية ليست في قبول هذه البشارة وتصديقها، ولكنها في تصور التجديد وأبعاده، وحسن إدارته، والتفاعل معه، وما فرق الأمة إلى أكثر من سبعين فرقة إلا الفهم الخاطئ لمقتضيات التجديد.

وما كنا نوده، ونتطلع إليه تهيئةَ مساحةٍ مشتركة لفهم المصطلحات. فتجديد الدين ظاهرة متفق عليها، ولكن طبيعة التجديد وأمدائه هما المعضلة. والمتعقب لأسباب تخلف المسلمين، وتقدم غيرهم، يكتشف تصورات متناقضة، لأنها منتج أفكار ذات انتماءات متعددة، ومنطلقات متنوعة.

والثورات العربية فرضت واقعاً مغايراً، من الصعوبة بمكان استيعابه، والسيطرة عليه. ولهذا ظل الشارع والساحات مصدري السلطة والتحكم، ولم تستطع الشعوب الثائرة أن تتخلص من النفس الثوري، المتمثل بالمظاهرات والاعتصامات والتجمعات والهتافات. ولم تستطع الانتقال من روح الثورة إلى سدة الحكم المدني بمؤسساته: التشريعية والتنفيذية والقضائية. ولما يزل الرأي العام في ريبة من الحكومات الانتقالية، ومن الانتخابات التمهيدية، ومن الصعوبة بمكان التخلص من رواسب الماضي، على أن التكتلات الحزبية والطائفية حين لا يروق لها الوضع، تتوسل بالاتهامات، وتلجأ إلى الشوارع والساحات، وقد لا تكون هذه الظواهر من التحولات الإيجابية، ولكنها من المعوقات التي يستفيد منها البعض داخل الوطن أو خارجه. وهذا بعض ما يقلق المتطلعين إلى ترشيد الثورة الشعبية، ولقد يذهب البعض إلى أنه ليس من شرط التحول أن يكون إلى الأحسن، أو أن يكون من النخب التي تعي ما تقول، وما تفعل، ولا يعنينا مثل هذا الاختلاف في وجهات النظر. فنحن ننظر إلى المتغير من حيث هو، ولا نشترط منتِجاً واعياً، فالأمة حين تتلبس برؤيةٍ مغايرة، تكون قد أخذت بشيءٍ من التحول، وعلى الراصد أن يعوّل عليه، بصرف النظر عن مصدره أو قيمته.

تحوُّل الخطاب الفكري بعد الربيع العربي .. ؟ (٣) [(١)]

والتلبس بالمظاهرات، والخنوع للعقل الجمْعي، يحولان دون التصرُّف السليم، والإسراع في الانتقال من سُلطة الشارع إلى سُلطة الدولة المؤسّساتية. وحريٌّ بمن أنجزوا هذه الثورات، وأسقطوا تلك الأنظمة، أن يعيدوا قراءة الأحداث وتداعياتها، وأن يرتِّبوا أمورهم لحسم الفوضى ونقل سُلطة الشارع إلى سُلطة المشرِّع.

ولن تكون التنبؤات وتصوُّر التحوُّلات دقيقةً في ظل تلك الفوضى العارمة. ولاسيما أنّ الأنظمة الجائرة حين سقطت، أحسّت الطائفيات والأطياف والعرقيّات والأحزاب بالحرية غير المنضبطة، وغير المسؤولة، وجاء استغلالها لهذه المعطيات غير سوي وغير متّزن.

ولو أصاخ المراقب لفيض الخطابات، لوجدها تمعن في تكريس الذات الاعتبارية، وإقصاء المخالف. فالمشاهد تفيض بلعبة التفاضل، وتزكية المذاهب والتيارات والأفكار. ولم يفرغ الرأي العام للبحث عن الروابط والقواسم المشتركة، وجمع الكلمة، وتوحيد الصف والهدف، والتسامي فوق الخلافات الجانبية. لقد أوغلت الطائفيات في احتكار الحقيقة، وأسرف المتحرّرون في تهميش المتأدلجين، وكلٌّ يدّعي وصلاً بالحرية، والحرية براء من الأثرةِ، واحتكار السُّلطة. و(الليبراليون) الذين يتغنّون بالحرية يستخلصونها لأنفسهم، ويظنّون أنهم يحققون مبادئها، وهم في ممارساتهم من أبعد الناس عنها.

وبعد أن كان الناس يختلفون حول شرعية السُّلطة الغالبة، ويركنون إلى السُّلطة المختارة، تعدّدت من بعد الربيع العربي التساؤلات والاختلافات. فالطائفيات تنتهب الخطى، لتكون البديل الأمثل، والأحزاب تستبق المنابر، لتكون الآمر الناهي، والمستقلّون يطرحون البدائل وفق خلفيّاتهم الثقافية وأنساقهم المعرفية، وفي كل يوم تضيق المساحات المشتركة، وتنداح بؤر التوتُّر، وتتعدّد البدائل، بحيث لا يمكن التنبؤ بوصول الفرقاء إلى قاسم مشترك، يركن إليه المصطرعون، لتتكافأ الفرص، وتُتَداول السُّلطة، ويتساوى الفرقاء تحت القوانين والأنظمة والشرائع.

ولقد يكون من أخطر التحوُّلات، تعدُّد المرجعيّات، وتنوُّع المفاهيم، وشطح التأويلات، وتباين المناطات، وقراءة التراث الشرعي بعيون معاصرة، لا تدري ما الكتاب ولا الإيمان. والراصد يقطع بأنّ التاريخ يعيد نفسه. واستبانة ذلك بقراءة التاريخ الحضاري للأمّة الإسلامية، فالذين رصدوا التاريخ من خلال سير أعلام النبلاء، وتاريخ الملل والنحل، كـ(ابن حزم) و(الذهبي) في القديم، و(أحمد أمين) في الحديث، يروعهم افتراق الأمّة الذي أخبر به الرسول صلّى الله عليه وسلم، وحذّر منه. وفي التاريخ الإسلامي نجد التاريخ السياسي، قد هيمن على التاريخ الحضاري، ووجّهه لصالحه، حتى أن كثيراً من الملل والنحل، نسلت من عباءة السياسة فـ(المعتزلة) منتج فارسي، عندما كانت السُّلطة لـ(البرامكة) في ظل (المأمون) وهو من أولاد (أمّهات الخلفاء). يوم أن كنَّ يجلبن الأعراق، ويجذبن الأولاد، و(العرقُ دسَّاس) - كما في الأثر- .

وقد أُستُغلّ هذا التناقضُ لإرساء دعائم السُّلطة، لأنه يملأ الفراغ، ويوغر الصدور. والتاريخ الأموي والعباسي مليء بمحاولات تشتيت الرأي العام، وما ظاهرة (النقائض) الشعرية وشَخْصَنَة (القبليّات) إلاّ واحدة من تلك الاستثمارات غير السوية، وتحقيق للملك العضوض الذي أخبر به الرسول صلّى الله عليه وسلم.

---

(١) تاريخ المقال: ٢٤/ ٧/ ٢٠١٢

أما بعد الربيع العربي، فإنّ الأمر من بعده مختلف جداً، ومن المتوقّع أن ينخنس التاريخ السياسي بسُلطته المطلقة، ليحلّ محلّه التاريخ الحضاري، ذلك أنّ القائد الذي حملته الانتخابات إلى السُّلطة، ليس بحاجة إلى أن يستدرّ الشعبُ عطفه بالمدائح. والدليل على ذلك تفكيك المؤسسات الدينية تبعاً لتفكيك المؤسسات السياسية، لإعادة صياغتها على ضوء تطلُّعات الشعوب.

وإذا كانت الحاكمية دُوْلةً بين السُّلطات الثلاث: - السياسية والدينية والمجتمعية، فإنّ الربيع العربي صيّرها إلى المجتمعية، ومنطلقها: الشارع، والرأي العام، بوصفه سُّلطة مجتمعية، مهمّته تفكيك السُّلطتين: الدينية والسياسية، وإتاحة الفرصة لنهوض سلطات أخرى. قد تعيد ترتيب السُّلطتين السالفتين، ولما لم يكن الرأي العام راشداً بالقدر الكافي، ولا متماسكاً، فإنّ الفرصة متاحة لتفعيل جماعات الضغط والأقلِّيات، وذلك من مؤشرات التحوُّلات الفكرية.

ومن أخطر التحوُّلات الفكرية، تحوُّل الخطاب الإسلامي، لقد كان من قبل الربيع العربي دعوياً حجاجياً، يراقب وينتقد ويقوّم، ولكنه اليوم يتحوّل من مهمّته الدعوية إلى مهمّات عملية، إذ ينازع على السُّلطة، وهو وإن كان محقاً في تقحُّمه، إلاّ أنّ عليه أن يعيد النظر في خطابه السالف. لقد كان بالأمس مهمّشاً، ومراقبته على استحياء. وهو اليوم مسؤولٌ ومشرعٌ، وشريك في صناعة القرار. والفرق بين المراقبة والممارسة يستدعي استبدال خطاب النقد والإقصاء والتصنيف بخطاب الاحتواء، وتساوي الأبعاد بينه وبين مختلف الخطابات. بحيث يقف موقفاً وسطاً، تكون المسافات بينه وبين الآخرين متساوية، إذ لا مجال للإقصاء، ولا للأثرة، ولا لاحتكار الحقيقة، وحين يستأثر أيُّ خطاب بالسُّلطة، فإنّ مسؤوليته تختلف عن خطاب المراقبة والمعارضة، نقول هذا ونحن نؤمن بأنّ الحكم لله.

ولأنّ العالم العربي يتشكّل من أطياف وطوائف وأحزاب فكرية ودينية وطائفية، ولكلِّ حزب (أيديولوجية) مغايرة، فإنّ من يختاره الشارع لتسنُّم المسؤولية، مُطالَبٌ باستيعاب كلّ الأطياف، والوقوف منها موقفاً متساوياً مع موقفه من ذاته ومن الآخر.

ومعتصر المختصر أنّ التحوُّلات الفكرية سوف لا تتخذ سبيل المصالحة وتقاسم المواقع، ولكنها ستصبح حجاجية إقصائية، وسيكون الرأي العام ألعوبة للمتنفّذين، يحركونهم كلّما أحسّوا بفوات الفرص.

وإذا كان الفكر العربي من قبل استسلامياً توافقياً، فإنه اليوم سيكون حجاجياً تصادمياً، ومن المستبعد أن تلتقي الأطياف حول كلمة سواء. إنّ هناك العلمانيين و(الليبراليين) والطائفيين والقبليين والإقليميين، وكلُّ حزب يودُّ أن يستأثر بالحكم، ولن يرضيه أخذ نصيبه، وتمكين الآخرين من أخذ أنصبتهم. وعلى ضوء هذا التنازع سيكون هناك خياران:

خيار التصالح وتقاسم الحقائب.

وخيار الأثرة واحتكار السُّلطة.

ولكلِّ خيار سلبياته وإيجابياته. وما نودّه للمشهد الفكري العربي وعيَ الواقع، وإدراك المباح الممكن وغير الممكن، واستيعاب المخالف، وتغليب المصلحة العامة، والتفاني في تثبيت محقّقات الحضارة.

فالعالم العربي تقوم حضارته على ركنين أساسيّين:

-الدِّين

و

-اللغة.

وهذه الثنائية واكبت التاريخ الحضاري، ولم يتحقق العز والتمكن إلاّ بمثولهما بكل محقّقاتهما، فلا لغة بدون عقيدة، ولا قوة بدون لغة: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾.

فالدِّين واضحٌ، ومحجّته بيضاء، ومرجعيّته: الكتابُ وصحيحُ السنّة. ولا يحمله إلاّ العلماء العدول الذين ينفون عنه تحريف الغالين، وتأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين.

واللغة واضحة بضوابطها ومقاييسها ومعاجمها ونحوها وصرفها وبلاغتها.

وما لم نلذْ بهما، فإننا سنظل مكشوفين للأعداء، الذين يلتفُّون من حولنا، كما حبل الفجيعة الملتف حول العنق، ومن ذا الذي يعاتب مشنوقاً إذا اضطربا.

لمَّا يحن بعد سقوط النظام السوري .. ![1]

عندما اندلعت المظاهرات في سوريا في إطار الربيع العربي، كنت مع لفيف من الزملاء في قسم الأدب بـ[جامعة القصيم]، وهم خليط من جنسيات عربية شتى، ولدى الكثير منهم حِسٌّ سياسي، وللبعض منهم يد في الانتفاضات الشعبية في بلادهم، وكان منهم من يراهن على سقوط النظام السوري بزمن أقصر وخسائر أقل، بحجة أنه نظام طائفي متسلِّط، والأغلبية السنية محتقنة، وتنتظر من يبدأ الانتفاضة.

ولم أكن متفائلاً، فالثمن الباهظ الذي سيدفعه الشعب السوري بمقاومته غير المتكافئة، لن يحقق الانتصار الذي يراهن عليه البعض بالسرعة واليسر. ولقد قلت، ولما أزل أقول: إن السقوط آتٍ لا محالة، ولكنَّ الثمن سيكون شاقا ومرهقا، وغير متصور الفداحة من الدماء والدمار. والذين رصدوا الحراك الشعبي في [تونس] و[ليبيا] و[مصر] و[اليمن] ظنوا أن الحراك في سوريا لن يكون بعيداً عما يجري في تلك الأقطار، باستثناء [ليبيا] القبلية الأعرابية، وتلك حسابات خاطئة، فسوريا لها أبعادها الطائفية والإقليمية، وقبضة نظامها الفظ الغليظ، وهي ضالعة في المحاور الإقليمية والدولية، وليس من السهل تفكيك أحلافها ومهماتها في المنطقة بذات الطريقة التي تحدث هنا أو هناك، ومن ذا الذي يتوقع سهولة سقوطها، وهي قد تنكرت لقوميتها، وقامرت بمصالح أشقائها، وباعت عروبتها للمجوسية، واستغلَّت مهماتها المخولة لها من [جامعة الدول العربية] في [لبنان] استغلالاً طائفياً، أدى إلى تشبع المنطقة بالولاء الطائفي، والتسلح الحزبي، ولما تزل تحفظ الحدود مع إسرائيل، وحين احتاجت المدد كشفت جبهتها مع العدو فضلاً عن تمكين الثورة الإيرانية من تصدير طموحاتها الصفوية، بشكل لا يمكن احتماله. والوهن الذي انتاب الأمة العربية، مكن للطَّامعين من تمرير لعبهم القذرة، ويسَّر للماكرين والمتربصين النفاذ بشكل وقح ومكشوف.

وإشكالية الانتفاضة السورية أنها ليست مقتصرة على الدولة والشعب، بحيث تُحسم في الساحات، وعبر الهتافات والاحتجاجات السلمية، إنها شبكة من المصالح المتداخلة وسط الأراضي السورية، فـ[الروس] المفلسون يودون أن يُبقوا على موضع قدم لهم، يتنازعون من خلاله من أجل البقاء. و[الإيرانيون] المتهورون يودون أن يتنفسوا من تلك الرئةالمعطوبة، ويصدروا هلوستهم التي أغثت الرأي العالمي، وكشفت عن الخرافات الطائفية والأحقاد المجوسية والغل الفارسي. و[حزب الله] الذي خدع نفسه -كما الغواني- بأوهام النصر، لا يمتلك إلا شرياناً واحداً مَعْطوباً يمتد إليه عبر الأراضي السورية، ومتى انقطع، هلك كما السمك حين يغور عنه ماء البحر، كل أولئك ترتبط مصائرهم ومصالحهم بوجود الطغمة النصيرية الحاكمة، بكل مُضمرِها الطائفي، وانغلاقها الحزبي، وجبروتها، ودمويتها.

والشعب السوري الأعزل المخذول عالمياً وإسلامياً وعربياً لا يمكن أن يفرط بالإنجازات التي حققها، وهو ماض في مواجهته العنيفة غير أنه سيواجه حرب إبادة شرسة، تحت غطاء التخبط العالمي والعجز العربي والغثائية الإسلامية. وعلى الرغم من فداحة الثمن، وتشعب القضية، فإنه سيظل صابراً مصابراً مرابطاً، ومصراً على تحقيق النصر بأي ثمن.

وإشكاليته الأصعب فيما بعد سقوط النظام القادم بِبُطْء، إذ لم نسمع عن تشكيل حكومة في المنفى، تهيئ نفسها لملء الفراغات، وتفِّوت الفرصة على المؤتمرين من أجل وضع

---

(١) تاريخ المقال: ٣١/ ٧/ ٢٠١٢

خطة لما بعد النظام، فالثوار بعد لم يتفقوا على شيء فضلاً عن أن يرسموا سياسة مستقبلية، ويضعوا خارطة طريق. فهم جميعاً لإسقاط النظام، وقلوبهم شتَّى في الرغبات والانتماءات. وهذا الانفلات والتفرق سيؤديان إلى فوضى سياسية، تكون حتما أسوأ مما سواها في دول الربيع، وإذا كان الصراع في [ليبيا] قبلياً، فإنه في سوريا سيكون (أيديولوجياً) كما أن الموقع الجغرافي السوري حسَّاس وخطير، ولن يترك إلا إذا كان مؤدياً إلى التآكل والضعف وذهاب الريح. وتجربة [الربيع العربي] لما تزل تراوح في مكانها، ولما يتمكن الثوار من سد الفراغات الدستورية، والانتقال من روح الثورة إلى سِدَةِ الحكومة المدنية بمؤسساتها وأنظمتها وقوانينها ورجالاتها الذين يبتدرون المسؤوليات. وهذا الإبطاء سيؤدي في النهاية إلى التدخلات الخارجية، وشل السيادة الوطنية، فالدول التي تعرضت للفراغات الدستورية بأمس الحاجة إلى تدارك الأمر، وملء الفراغات، وإن لم يبادر عقلاء الأمة أزِمَّةَ الأمور، فإن الاستعمار الذي خرج من الأبواب مدحوراً، سيتسور المحاريب منصوراً.

ولأن الوضع السوري معقد، والحكومة المأزومة رمت بثقلها في اللعب السياسية الثقيلة الوزن، فإن مشارف النهاية بعيدة المنال، غالية الثمن، وسلعة الحرية و[الديموقراطية] غالية، ولها ذيول كالمتاهات. والشعب السوري الذي واجه الآلة العسكرية المتَشيّعة بالطائفية بكل عنفها وعفنها وبشاعتها، سيدفع وحده الثمن، المتمثل بشلالات الدم وركام الجماجم. وحين يتخلى [الروس] عن الحكومة السورية، وهم متخلون في ساعة العسرة -ولا شك- تصبح الأطماع الإيرانية في العراء، ولن تستطيع ملء الفراغ، ومن ثم سَتَنْتَكِص على عقبيها، وينكشف أزلام النظام، وينقطع الحبل السري عن [حزب الله]، ويبدأ الأخذ بالثارات الدَّفينة على الأراضي السورية واللبنانية، ولم تعد هناك إمكانيات إقليمية، لمبادرة الأزمة ووأدها في مهدها، وتمكين الشعب السوري من ترتيب أموره، وتضميد جراحه.

الحكومة السورية ساقطة لا محالة، والتحالف الشيعي النصيري البغيض ذاهب لا محالة، والخشاش الطائفي الذي نسل من جحوره هنا وهناك باسم الحرية، سيعود إليها خاسِئاً وهو حسير، ولكن من يصطلي بحرِّها؟ ومن يتحمل نفقاتها؟ ومن يملك معالجة المرحلة الانتقالية؟ تلك هي معضلة المعضلات، وأي حسابات تنكِّبُ عن ذكر العواقب حسابات خدَّاعة.

سقوط الحكومة السورية العَصِيُّ سيكون له ذيول خطيرة على المنطقة، إذ ليس من السهل تصفية نظام محوري بحجمه وبمهماته المعلنة والمضمرة دون فوضى قاتلة. وهانحن نسمع بأسلحة الدمار الشامل وإمكانية تسريبها أو استخدامها. ولو كان الحزب الجمهوري في [أمريكا] هو الحاكم، لانفتحت شهيته للحرب تحت أي تبرير [مُفَبْرك] . على أن كل الأطراف تدرك حجم الكارثة مع الإقْدام أو الإحجام. وهذه الحسابات ستمد أمد المقاومة، وفي النهاية فإنه ليس باستطاعة حلفاء النظام السوري المتفانين في لملمة أشلائه وإطالة أمد بقائه تَحَمُّل النتائج، وسقوطها لن يكون سقوط نظام وحسب، إنه سقوط مشروع طائفي خطير. والثلاثي الروسي الإيراني السوري، لن يذعن، ولن يتقبل المصير القاتل بسهولة، وبدون ثمن، ما لم يكن هناك استعداد عربي وإسلامي وعالمي لمواجهة المتغيرات.

[روسيا] من السهل أن تبيع موقفها بثمن بخس، كما باعته في [العراق]، ولكنها في الوقت نفسه تعرف كم خسرت من سمعتها وإنسانيتها وعلاقاتها.

و[أمريكا] التي لدغت في أكثر من جحر، لن تقامر، وبخاصة أنها في زمن الحمائم، وهي راضية بالمناورات، وترقب النتائج، و[تركيا] تحسبُ ألف حساب للأقلية النصيرية

عندها، والتي تناهز العشرين مليون، و[إسرائيل] أمام خيارات أحلاهما أمَرُّ من العلقم، إنها خلطة غريبة ومعقدة، وتثويرها يزكم الأنوف.

والنظام الإيراني ذاق طعم المكاسب من مغامرات [أمريكا] وإخفاقاتها، فلقد كان محاصراً بمتشددين سنيين في [أفغانستان]، وبمتعصبين قوميين في [العراق]، ولقد هيئت له أجواء الموقعين، ليكونا في صالحه، ومن فواتح الشهية أن العراق سلم لعملاء إيرانيين، يسبَّحون بحمد الآيات والملالي، غير أنه سيظل في اضطراب. ولن يكتب له الاستقرار إلا بالتعددية وتقاسم الحقائب.

و[إيران] الموتورة من الخليجيين لن تفرط في سوريا، لأنها أسُّ الهلال الشيعي، ولن تسمح بسقوطها إلا مكرهة، فسقوط النظام في سوريا مؤذن بسقوط المشروع الفارسي والحلم الصفوي. ودول الاستكبار لن تقضي على ذلك الحكم بدون بديل يضمن لها مصالحها، ولن تمكن العالم العربي من أخذ أنفاسه، والارتداد إلى الداخل ليبني نفسه، ويعالج أوضاعه. إن من مصلحة اللعب الكبرى واللاعبين الكبار أن يكون هناك توازنُ قُوى بين المتصارعين، ومن ثم ستظل [إيران] و[تركيا] لاعبين متساويين، وسيبقى العرب بحاجة إلى مظلة غربية، تحميه من صراع الأعراق والطائفيات والمصالح، ومصر التي أحس نخبها بفوات الزعامة، لا تملك آليات استعادتها.

وسقوط النظام السوري في النهاية سيغير نظام اللعب وأساليبها، ولكنه لن يحسمها. ودون سقوطه خرط القتاد، وعلى دول الجوار في ظل المتناقضات أن يعيدوا ترتيب أوراقهم، وأن يلتفوا حول بعضهم، وليعلموا أن سقوط النظام السوري سيضاعف المسؤوليات، ويعقد الأوضاع، والرماح المتفرقة يسهل تكسيرها.

نسأل الله السلامة والخروج من هذه الضوائق لنا ولا علينا.

أبني التشيُّع أحْكموا سفهاءَكم .. !(١)

أطرُ السفهاء من أي طائفة واجبُ السلطة الشرعية، بوصفه من أولويات مسؤولياتها الأمنية، فهي مسؤولة عن استتباب الأمن النفسي والفكري، وحفظ الضرورات الخمس، وتنظيم كافة أساليب الممارسات الفردية والجماعية، ومنع الفوضى في الفقهين: الأصغر والأكبر.

ولا يتم ذلك إلاّ من خلال ربط كل الأطراف بمرجعيات علمية مؤسساتية احتوائية، لا إقصائية، تحسم الخلاف، ولا تحول دون جدل الاختلاف. وما لم تتناغم السلطات الثلاث: - التشريعية والتنفيذية والقضائية، وتعرف كلٌ سلطة حدود ما أنزل الله، فإنّ الأمن في الأوطان والصحة في الأبدان سيدخلان دوامة الفتن.

وحرية التفكير والتعبير والنقد والمعارضة التي يتوسّل بها كلّ من يَهرف بما يعرف وبما لا يعرف، لا تكون على إطلاقها. فالسلطة الأمنية لها حق التدخل، متى أخلّ فرد أو جماعة بمحقّقات الأمن. فأهل الذِّكر يجب الرجوع إليهم عند جهل الحكم. واحترام المرجعية، والرد إليها واجب عند نضوج القضايا المختَلَف حولها. وتمثل الشرع الحكيم بمقاصده خيار وحيد، لا محيد عنه، ومن استبدله فقد ابتغى حكم الجاهلية. واستحضار مقتضيات الدستور شرط رئيس، لملء الفراغ، وتنظيم التعامل مع ولي الأمر. وتكافؤ الفرص حق مشروع لكل كفاءةٍ وطنية في دولة المؤسسات المدنية، ليحصل كل مستحق على ما هو أهلٌ له. كل ذلك من محققات السلطات الضرورية للتجمع الإنساني، بوصف الإنسان حيواناً اجتماعياً، لا يمكن تحقيق حياته السوية إلاّ بتنازله عن شطر من حريته، لتنظيم التجمع. والشائع أنّ حُرية الإنسان تنتهي، حيث تبتدئ حرية الآخرين. وتحقق المصلحة العامة والخاصة يعني الخضوع لمقتضيات العقود المكتوبة أو المضمرة، ولكل تجمع إنساني عقائده وعقوده وعباداته وأنظمة تعاملاته وشعائره ومشاعره وأسلوب حياته.

والفرد ملزم أراد أو لم يرد بتقبُّل القيود والضوابط، التي ينشئوها المجتمع من تلقاء نفسه، أو من رسالات سماوية، تتوارثها الأجيال.

كل هذه الأشياء مسلّمات، لا تحتاج إلى تعليم، واستدعاؤها من باب التذكير، وأطر المخالف، وإنكار المنكر. وأي إخلال بشيء من ذلك مؤذن بشرٍ مستطير، وبفساد كبير، لا يعلم مداه إلاّ الله، وقد أمرنا باتقاء الفتن، التي لا تصيب الذين ظلموا خاصة. واتقاؤها يتحقق بجمع الكلمة، وتوحيد الصف والهدف، والتعاون على البر والتقوى، والتخلِّي عن الإثم والعدوان. وليست في الهرج والمرج، والفوضى، والإقصاء، ومصادرة الحقوق، والأثرة، وسوء الظن، والتطاول على رموز الأمّة، وتدنيس مقدسها.

لقد تابعت بامتعاض شديد ما يقوله دَعِيَّان موتوران عبر وسائل الإعلام. أما أحدهما فـ[كويتي] سُحبت جنسيته بعدما كان أمره فرطا. وأما الآخر فـ[سعودي] أمهلته الدولة، وأكرمته، ووفّرت له ما لم توفره للداته، ولكنه كفر بأنْعم الله، بتعمُّده إيقاظ الفتنة، وخدمة أعداء الأمّة، واستعداء السلطة، والإساءة إلى من أحسن إليه، ومن ثم لقي بعض ما يستحق. ولقد قيل: - [من يَعُضُّ اليد التي تُحسن إليه، يُقَبِّل القَدَمَ التي تَرْكله]، والإثنان: مُشَرَّد من بلده بكل خطاياه، وموقوف مصاب. وكانا معاً في غِنى عن هذه المصائر المزرية، والمسيئة لكلِّ الأطراف، إنهما بحق عميلان، لم يحسنا تنفيذ ”الأجِندة“، ومأجوران لم يكونا قويين ولا أمينين، وما أضعف الطالب والمطلوب. فالحق منصور،

---

(١) تاريخ المقال: ٧/ ٨/ ٢٠١٢

والأمّة واعية لما يجري من دسائس. وما يضر هذا الصنف إلاّ نفسه وعشيرته ومن جَنَّده لبث الفتنة، وزعزعة الأمن، وفك الاختناق عن مولاه. ومن الرزيّة أنّ المشاهد الإعلامية، وسائر المواقع والقنوات منيت بشرذمة براقشية، تجني على أهلها بما تروّجه من قول بذيء، ينم عن نقص في العلم والعقل والتجربة، وضرره عائد إلى قائله، لأنه يذكي العداوة، ويوغر الصدور. وحين تتعرّى المضمرات يتعذّر رأب الصدع، وتتقلّص القواسم المشتركة، وقد تستخف تلك الشرذمة بعض المتحمسين، الذين ينكبون عن ذكر العواقب جانباً، ثم يكون ما لا تحمد عقباه. والعقلاء المجربون من كل الأطياف والطوائف، يودون التعاذر، والتعايش، ودفن الضغائن والأحقاد، والجنوح إلى السلام، والاشتغال في القواسم المشتركة، وهي كافية، وقادرة على تجاوز المحن والإحن. وتلك الشرذمة المأجورة، تفسد ما أصلحه الوفاق، وليس من مصلحة الأمّة الآمنة في دُوْرها تثوير الأحقاد، لأنّ ذلك من الفساد، والله لا يحب الفساد.

والإشكالية لا تكمن في تعدّد الطوائف، ولا في تنوّع الخطابات، ولكنها في إدارة الاختلاف فيما بينها. إنّ الانتماء ضرورة، والاختلاف أَمْر مَقْضِي "ولهذا خلقهم" ومن يوفق في إدارة الاختلاف، يحقق تلاحم الأمّة، وتآزرها، والحيلولة دون الصدام، ومن الخير للفرقاء أن يكفوا عن إثارة مسائل الاختلاف، وأن يشتغلوا في "مسائل الجمهور" المتفق عليها.

وإذ يتعذّر التقارب بين المذاهب المختلفة في مرجعياتها وتأويلاتها، فإنّ بالإمكان الكف عن تكريس الذات بإثارة الآخر، ولنا في الدول المتحضّرة أسوة، لقد استوعبت أطيافها وطوائفها وجنحت للتعاذر والتعايش، وذلك ما يتطلع إليه عقلاء الأمّة والمشفقون عليها من ويلات الفتن. وقبل هذا بأربعة عشر قرناً ونيّف، وسع المجتمع المدني في عهد الرسول صلّى الله عليه وسلم المهاجرين والأنصار واليهود والمنافقين، وما شُرد اليهود إلاّ من بعد نقضهم للعهود. والأمة الإسلامية موعودة بالتفرق إلى ثلاث وسبعين فرقة، ومحكوم على الكل بالضلال، إلاّ واحدة، وكل طائفة تدّعيها، ولكنها جميعاً ضمن الإطار الإسلامي، والعلماء لم يحكموا بكفر طائفة واحدة من تلك الفرق، وهذا كافٍ للتعايش، ونبذ الخلاف، على أنه لا يجوز لأي إنسان كائناً من كان استفزاز مشاعر الجماعة، أو النّيل من رموزها. لأنّ ذلك مؤذن باحتقان، قد يؤدي إلى الانفجار.

والمؤسف أنه بالإمكان إلجام الطغام، وإحكام السفهاء من ذوي الرأي والعقل. فالتخلّي ولزوم الصمت من المقتدرين غير كاف في ظروف كهذه الظروف التي تعيشها المنطقة، والدولة حين لا يجدي عندها الرفق والإمهال، تضطر إلى الأخذ على أيدي السفهاء والمأجورين. وتَدَخُّل الدولة له ثمنه، ولا سيما أنه بالإمكان تفادي مثل هذا التحرك، واجتثاث الشر من جذوره. لقد سمعنا بتكذيب أولئك السفهاء من ذويهم، وحمدنا ذلك، ولكن الأفضل استباق الأحداث، واحتواء المشاكل، وتكميم أفواه المستفزين، والحيلولة دون فلتات الأقوال والأفعال، التي تضطر ذويهم إلى التدخل، بعد فوات الأوان، لتفادي الصدام غير المتكافئ.

لقد ولغ أقذر من سمعت في أعراض كبار الصحابة وأمهات المؤمنين، مما أثار غضب مئات الملايين من المسلمين، الأمر الذي اضطر طائفة من زعماء المنظمات الشيعية إلى تكذيبه، والنّيل منه، والاستخفاف به، واستهجان ما أفضى به من منكر القول، والبراءة منه. ورجل وقح يجنّد نفسه للوقوع في رموز السنّة، يسيء إلى طائفته، ويكشف مضمرها، ويستعدي عليها الغيورين على مقدساتهم، ويحول دون التعايش السلمي بين طوائف الأمّة. وهذا التحريض يعود ضرره على طائفته، فالسنّة أكثرية، وليس من مصلحة الأقلية إثارة الفتن، واستعداء الأمّة.

أما الخارج السعودي، فقد قطع قولُ وزير الداخلية قولَ كل خطيب، فإذا كان يطالب بالحقوق، فقد أوتي ما لا يستحق، ويكفي أن تعالج زوجته على حساب الدولة في أرقى مستشفيات [أمريكا]، وأن يبتعث أولاده إليها للدراسة، والأغرب من ذلك كله، أنه يتصدى لدولته المحسنة، وللغرب المستضيف: معلماً ومعالجاً. فالله وحده المطلع على خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

ما نودّه من المقتدرين من علماء السنّة والشيعة مبادرة الفتنة، والإسراع في لملمة أطرافها، وإلجام ناقصي العقل والعلم، قبل فوات الأوان، وإن لم يفعلوا، فإنّ تدخل الدولة سيكون له ثمنٌ باهظُ التكاليف، وسيتحمل جرائره من عَرضت له الفرصة، ولم يبادرها. و[إيران] التي حَرَّضَتْ، ولما تزل تحرض على الفتنة، والتي استدرجت ضعاف العقول، ستتخلّى عمن خدعته، ولسان حالها كما الشيطان الذي قال لأتباعه: - ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. فهل نستدرك الأمر، ونأخذ على أيدي السفهاء، ولا نكون كمن استدرك عَبْساً وذبيان [بعدما .. تفانوا ودقّوا بينهم عطر منشم] .

أيها المؤتمرون على أطهر مكان وفي أشرف زمان .. !(١)

خيراً فَعَلْتَ أَيها الإمام الناصح لله وللرسول ولأئمة المسلمين وعامتهم، حين دعوت قادة العالم الإسلامي، ليأتمروا بينهم بمعروف، وخيراً فعلوا حين استجابوا لدعوتك التي جاءت في وقتها المناسب.

وهم حين تهفوا قلوبهم، وتُقْبل جموعهم، ويلتقون في حرم الله الآمن، فإن الله الذي هداهم وحداهم إلى هذه البقاع الطاهرة، سائلهم عما يدخرونه من جهد، أو ما يكتمونه من قول، أو ما يزورون عنه من حق. أمَّتُهم أحوجُ ما تكون إليه في ساعة العسرة.

هذا النداء المبارك، الذي وجهه خادم الحرمين الشريفين لقادة العالم الإسلامي، وضعهم أمام مسؤولياتهم المصيرية. وحق أمتهم عليهم أن يرودوا لها مراتع السلامة، و[الرائد لا يكذب أهله]، وأن يسْموا فوق الأهواء والشهوات والأعراض الزائلة. فهذا الاجتماع الميمون من فروض العين، ومن الفرص النادرة، وهم إن فوَّتوها، فوَتوا على أنفسهم، وعلى من ولّاهم الله أمرهم خيراً كثيراً. ومن جاء لهذا اللقاء المصيري بأوضار الحياة، ورواسب العلاقات، ومعوقات التفاوض، ورضي أن تُذِلَّه الأهواء، وتُصَرِّفه الشهوات، وتتحكم به الحساسيات، وتلعب به الشكوك، وتثبِّطه التخوُّفات، عاد بأوزاره وأوضاره، وخيب ظن أمته فيه.

إن الأوضاع العربية والإسلامية والعالمية في الدرك الأسفل من الفتن القاصمة، والفوضى العارمة. والعالم الثالث وحده الذي يتجرع المرارات، ويدفع التكاليف، ولا يرضى من الغنيمة بالإياب، بل يتحمل أوزاراً مع أوزاره. وشعوبه سئمت الذل، وملَّت الهوان، وبشمت من القتل، وأُتْرِعت من التشريد، وشبعت من الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق، وألِفت الجوع والخوف ونقص من الأموال والأنفس والثمرات. جزع منها من جزع، وصبر من صبر، ولم يبق إلا أن يتحرف المؤتمرون لعمل، يقيل العثرة، ويضمد الجراح، ويجبر الكسور، ويكشف الغمة، ويزيل الضر. وليس شيء من ذلك بعزيز، متى حسنت النوايا، وسلمت المقاصد، وقامت الثقة مقام الشك، وساد التعاون على البر والتقوى. فالأمة الإسلامية ليست بدعاً من الأمم، لقد قادت العالم، ونشرت العلم، وأشاعت فضائل الأعمال، وشرعت الدساتير، وعاشت الأعراق والأديان في ظلها راضية مطمئنة، متمتعة بالعدل والإحسان والمساواة.

وتجربة الخلافة الإسلامية تقطع قول كل خطيب، والتاريخ الحضاري وثيقة دامغة. فالإسلام عقيدة ومنهج حياة، يمتلك مقومات العالمية والشمولية، متى أديرت حاكميته على هدْي من الكتاب وصحيح السنة. وما مُني به العالم الإسلامي في عصور التخلف، إن هو إلا من عند أنفس المسلمين، بسبب تفككهم، وتباغضهم، وتدابرهم، وتهافتهم على الشهوات، وتحكيمهم للأهواء، وتنازعهم، واستمرائهم للظلم، وعدولهم عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحكمهم بغير ما أنزل الله، وتسلل المتطرفين والغلاة، ومبادرتهم لأزمَّة الأمور في حين غفلة من الرقيب، مع ما يحاك لهم من مؤامرات، استجابوا لها، ومع ما هم عليه من قابلية للاستعمار ونفاذ اللعب.

واليوم أيها القادة، وأنتم تلتقون ببعضكم في أول بيت وضع للناس ببكة، ورفع قواعده إبراهيمُ وإسماعيلُ - عليهما السلام - تتطلع إليكم أنظار شعوبكم، وتتمنى عليكم نبذ الخلاف، والصدق مع الله، والتخلي عن النوايا السيئة، والتنازع المُذْهب للريح. فالشعوب بسبب القابلية لِلُّعب القذرة، ذاقت الذل والهوان، واحْتَربَتْ فيما بينها، وتآمرت على

---

(١) تاريخ المقال: ١٤/ ٨/ ٢٠١٢

بعضها، وتحالفت مع الأعداء ضد مصالحها، وركن بعض قادتها إلى الذين ظلموا، وما جنت إلا الضعف والخذلان. إن مؤتمراً في مكة، وفي العشر الأواخر من رمضان، لجدير بأن تغسلوا فيه أوضاركم، وأن تغيروا فيه ما بأنفسكم، وأن تنشدوا فيه خير شعوبكم، وسلامة الإنسانية عامة وحريتها، وأن تكونوا دعاة سلام، وخُطَّاب وئام، ورسل رحمة.

وإذ دُعِيتم لإجارة المشرك، وإبلاغه مأمنه، والدفع بالتي هي أحسن، فإن عليكم أن تَدْعوا دول الاستكبار جميعاً ليجنحوا معكم للسلم، فما عاد باستطاعة شعوبكم أن تتحمل مزيداً من المغامرات الطائشة، والثورات الدموية، والحروب الطائفية، وتعطيل المصالح بالمظاهرات والاعتصامات والصدامات. فكونوا فيما تستقبلون من أيام رحمة لشعوبكم، بحيث تعيدون ثقتهم بكم، لقد ملوا الكذب، وسئموا الغش، وارتابت أنفسهم من التصرفات الطائشة وغير المسؤولة، فبادروا الإصلاح، وارتدُّوا إلى الداخل، لصناعة الإنسان، والصناعة له، واستثمار خيرات بلادكم، وحفظ ثرواتكم، إن الفقر لا يصنع الكرامة، والظلم لا يحقق العز، والكذب لا يملأ البطون الجائعة، والقمع لا يطيل الأعْمار، ولا يثبت الأقدام.

إن مؤتمراً كهذا، في ظروف كتلك، جدير بأن يكون له ما بعده، وأن يُحْدِث تحولاً جذرياً في السياسات، والعلاقات، وأساليب الحياة. فاطِّرِحوا الماضي بكل مآسيه، ولا تقلِّبوا أوراقه، واعتمدوا قول الله عز وجل: ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾.

واتقوا وعيده: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾.

إن نبش الماضي كنبش العفن، يزكم الأنوف، ويُضَيِّعُ الجهد والوقت، ويفوِّت الفرص، وما فات مات: [ولك الساعة التي أنت فيها] .

ومن الحتم - وقد بلغ السَّيْل الزُّبى - أن تستأنفوا بعد مؤتمركم هذا حياة جديدة، تقطع صلتكم بحاضركم الموبوء، على أن تعودوا من مؤتمركم كيوم ولدتكم أمهاتكم، بحيث تتخلون عن أحقادكم، وأضغانكم، وتتسامحوا، وتتصافحوا بصدق. واسألوا الله أن يؤلف بين قلوبكم، وأن يجمع كلمتكم على الحق، وأن يخذل عدوكم، وأن يجعل شعوبكم عوناً لكم، لا عوناً عليكم.

لقد دمَّرت شعوبَكم الحروب، وفرقتهم الدسائس، وأوهن عزائمهم الغزو والتآمر، وأجهدتهم اللعب السياسية، وأضْوت أجسامهم روح الثورة، وأطماع التوسع، والتصدير، والأحلاف المشبوهة، فاطِّرِحوا ذلك كله، وافتحوا صفحة جديدة، تحافظ على المصالح، وتحترم الخصوصيات، وتذكي روح الحماس للأعمال المشتركة، التي تقوي الجانب، وتشد الأزر، وتخيف الأعداء.

وكيف يكون شيء من ذلك، وكل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه. إن أمامكم دولاً مَرَدَت على الشَّر، واستمرأت الظلم، وأعدت لذلك قوة ردع مرعبة، ودَسَّتْ عملاءها ومخبريها، للتحريش، والتخويف، وجمع المعلومات، ورصد الأنفاس والتحركات، كما عززت الطائفيات، وأنشأت جماعات الضغط، ونَوَّعت الأحزاب، ودعمت الأقليات، واستمرأت التحريش، وأشاعت قالة السوء، واجتهدت ما وسعها الاجتهاد، للحيلولة بينكم وبين ما تشتهون لشعوبكم، فأعدوا لذلك عدته، واعلموا أن العدل والإحسان سلعة الله، وسلعة الله غالية.

واجعلوا من هذا المؤتمر بداية خير، ترسمون فيه [إستراتيجية] متوازنة، ومقدور على تحقيقها، وتنجزون فيه خارطة طريق معقولة، تقيل العثرة، وترأب الصدع، وتشفي صدور قوم مؤمنين.

اللهم اجعل هذا الاجتماع اجتماعاً مبروراً، وتفرق القادة تفرقاً معصوماً، ولا تجعل فيهم كاذباً ولا مخادعاً، ولا عميلاً.

أهرطقة هي أم نظرة في النجوم السياسية .. ؟! (١) (١)

(الهرطقة): [كلمة يونانية، تعني الآراء المناوئة للسائد من العقائد، وليست وصفاً موضوعياً، وإنما هي وصف لما لايوافق الواصف في أي مجال] ويُقْصد منها الإدانة في التصنيف، وهي كلمة يتوسل بها المتجانِف إلى الذم، وبخاصة المخالف عقدياً، ولقد عنَّ لي أن أتهرطق سياسياً لا عقدياً لسبر أغوار الراجمين في غياهب السياسة، وادِعاً لخيالي مطلق الحرية في طرح أغرب التصورات. وعلى القارئ وهو يتحسس النتائج أن يتمتم بكل مايعنُّ له من أوراد، وأن يعلِّق ماشاء من التمائم، وأن يستعين بمن شاء من البشر، ليتخلص مما يشبه دُوَار البحر، وليس من حقه تحميلي أوزار ذلك الخَبِّ والوضْع، فأنا أمام أوضاع يشيب من هولها الوليد، حتى [لتخافها النطف التي لم تخلق] -على حد قول الشاعر المبالغ- وكل كاتب مغموس إلى الأذقان بوحل السياسة، وإن لم يكن من جناتها، يمسه في بعض المواقف طائف من الهلوسة، ولست أشك أن كتَّاباً مدمنين على الكتابة اليومية في الصحف والمواقع عن تقلبات الطقس السياسي يعانون مايعانيه وزراء الخارجية والسفراء والمندوبون الدائمون والموفدون من قبل الجمعيات العمومية والمجالس الأمنية، إذ لكلٍّ من هؤلاء وأولئك رهاناتهم وتصوراتهم وتخيلاتهم ونجاحاتهم وإخفاقاتهم. والشعوب المغلوبة هي التي تدفع الثمن طوعاً أو كرهاً، وكل الذي يصيب المخفق من هؤلاء نتيجة المغامرات أو المجازفات، لايتجاوز الإعفاء من المناصب، ثم يلي ذلك الانسحاب من أضواء الإعلام، والانكفاء على الذات، لتزوير المذكرات واليوميات، وممارسة الإسقاطات، وتلميع الذوات.

-فَمَنْ مِنَ الكتَّاب الذين زوروا، وكذبوا، وخادعوا، وأثاروا الرأي العام، وأشعلوا الفتن مَنْ حُوسِب حساباً يسيراً أو عسيراً..؟.

-ومَنْ من جمعيات حقوق الإنسان مَنْ تمعر وجهها من أجل شعوب ذَرَتْها الرياح، بسبب معسول الكلام المداف بالكذب والافتراء..؟.

وهرطقتي لن تماري إلاَّ مراء ظاهراً حول مايجري في وطننا العربي المأزوم من بعض حكامه الذين لايرقبون فيه إلاًّ ولا ذمة.

كما أنها لن تكون من النجوى الآثمة، فلقد مللت من التحري والدقة والبحث والتنقيب، وإذ حرصت فيما سلف على الجدية في القول، والتبين فيما يتداول من الأنباء، والمراوحة بين التردد واليقين، وتوسعت في التساؤل، واتقيت جاهزية الأحكام فإنني سأتحرر من بعض ذلك في سبيل التحَسُّسِ عن المتوقع من [سيناريوهات] الوضع [السوري] الذي تجاوز الغليان إلى الانفجار، وهو انفجار أهلك الحرث والنسل، وفعل ما لا يتوقع فعله من ألد أعداء الأمة العربية والإسلامية، والتحري لا يتأتى إلا مع الهرطقة، وحتى لو قطعْنا بألاَّ مناص من الجدية في القول، فإن من حقنا التساؤل عما حققتهُ الجدية من صدق في التنبؤات، لقد مُنِيَ العالم العربي بنكسات وحروب وانفصالات وثورات ومؤمرات، لم يجر شيء منها على ألسنة الجادين.

وحين استبعدتُ سقوط النظام بالسرعة المتوقعة من المراقبين في مقالي السالف [لمَّا يحن بعد سقوط النظام السوري] امتعض البعض، وعدُّوني متشائماً، بل محبطاً. وماكنت هذا ولا ذاك، فقراءة الأحداث المصيرية لاتنفع فيها العواطف الجياشة، ولا الدعاوى العريضة، إذ لابد من التقدير والتدبير، والبحث عن الحقائق، وإن كانت مُرَّة، وكم هو

---

(١) تاريخ المقال: ٢١/ ٨/ ٢٠١٢

الفرق بين صديقٍ يُصَدِّقك في كل ماتقول، وآخر يَصْدُقُك القول، وإن كان مزعجاً لك. ولهذا قيل: - [صديقك من يَصْدُقُك لا من يُصَدِّقك] .

والخائض في تصورات الأحوال في دول الربيع العربي وفي سوريا القائم مِنْها والحصيد يدخل في الهرطقات السياسية، من حيث لايريد، لأن الوضع فيها لم يعد مقبولاً ولا متصوراً، وإن كانت الأحوال متفاوتة، أما في سوريا فقد دخلت الأزمة حرباً أهلية متوحشة وصراعاً دولياً مخيفاً، والذين أعمتهم الأطماع فسكتوا، أو أعانوا على الظلم، سيحاسبون حساباً عسيراً، وقد تدور عليهم الدوائر، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] وهو حين يملي للظالم فإن كيده متين، ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢] .

والهرطقة التي أتوسل بها لفك الرموز العصية، وتحليل الشيفرات السياسية المعقدة، بإمكانيات [صوفي نوفو] و [روبرت لانغدون]، وهما الشخصيتان المتخصصتان بفك الشيفرات في رواية [شيفرة دافنتشي] التي تعد هي الأخرى من الهرطقات الدينية. وهرطقتي لاتتكئ على الفرضيات، ولاتغرق في التخيل، وعلى المتابع أن يتمالك نفسه من الضحك الهستيري، حتى يشارف على النهاية. والهرطقة السياسية تدور حول [سيناريوهات] الوضع السوري.

-فهل يسقط النظام على شاكلة نظام [القذافي] ..؟.

-أم يلوذ الرئيس المطارد إلى جبل الطائفة النصيرية..؟. ثم يشكل حكومة طائفية لاتموت في جبلها ولاتحيا، وإنما تظل في تناوش مع الحكومة المركزية في [دمشق]، بحيث يجد فيها اللاعبون الكبار مسرحاً لتصفية الحسابات، وتجارب الأسلحة والمخططات.

وحين تلتف الطائفية حول نفسها، وتجد من يمدها بالمال والسلاح، أو بالدعم [اللوجستي] كيف تكون الأوضاع بالنسبة للطائفية النصيرية في [تركيا] . لقد كانت التجربة العرقية في [العراق] من النذر الأولى لـ[تركيا] التي لمَّا تزل تطارد فلول [حزب العمال الكردستاني التركي "بي. كيه. كيه"] بوصفه جزءاً من شعبها، تمرد على الشرعية. وأكراد العراق على مشارف الانفصال، إذ لم يكتفوا بكرسي الرئاسة. وقد وجدوا مداهنة ومهادنة من أطراف تحارب التشرذم، ولكن الحكومة الطائفية المركزية في [بغداد] حَدَتْ بدول الجوار إلى احتمال المرّ خوفاً من الأمَرِّ منه، فالتحالف الطائفي بين [طهران] و[بغداد] و[سوريا] و[لبنان]، ضرره أكبر من ضرر انفصال الأكراد في الشمال، وتشكيل حكومة مستقلة. والأنكى والأمَرّ أن [تركيا] ستقع بين المطرقة والسندان في أعقاب تلك الأحداث. فتركيبتها السكانية لفيف من الأكراد والنصيريين، وحين ينجح الأكراد في العراق، والنصيريون في سوريا، تتطلع الأقليتان: الكردية والنصيرية في تركيا إلى حكم [كونفدرالي] على الأقل، يأخذ طريقه فيما بعد إلى الانفصال. وهذا التشرذم هدف رئيس لدول الاستكبار، وإن لم يكن معلناً فلسان حالها يقول: - لم أسعَ للانفصال، ولكنه لايسوؤني.

أهرطقة هي أم نظرة في النجوم السياسية .. ؟! (٢) [(١)]

والمتهرطقون وغيرهم لا يقطعون بمصير محدَّد، فتقلُّبات الأوضاع والمفاجآت، تأتي بما ليس في الحسبان: [وتقدرون وتضحك الأقدار] .

والنظام السوري الذي فَقَد مشروعيته، لا يقاتل من أجل استعادتها، ولكنه يود أن يوهن الثوّار، فهو لا يريد غير ذات الشوكة، ليحتفظ فيما بعد بتوازن القوى، وليكون قادراً على التكتُّل الطائفي، وجعل [القرداحة] بإزاء [دمشق] . قد يقال بأنّ هذه التخرُّصات من باب الهرطقة السياسية، وحتى لو مضينا مع القائلين، فإننا نود من الممانعين إعادة قراءة الأحداث وتطوّراتها، للتخفيف من حدّة السخرية.

الشيء الذي يجب أن يعرفه المتابعون أنّ [أمريكا] لا ترضى لنفسها النهوض بمهمة الشرطي، المتهيئ لمواجهة أيّ انهيارات سياسية في المنطقة، وهي إذ لا تكون كذلك، فإنها ذات مصالح في المنطقة، وهي قادرة على إدارة أزماتها بالقوة الخشنة أو الناعمة، ونظرتها في النجوم السياسية، تختلف عن نظرة غيرها من ذوي الشأن، أو من نظرة المراقبين الجادين أو الفضوليين.

والذين لا يهرطقون، يُنْحون باللائمة على الغرب، ويرون فشله في إدارة الأزمة، وظنُّهم الذي أرداهم أنه مسؤول عما يتفجّر في المنطقة من فتن طاحنة، وتلك التخرُّصات هي عين الهرطقة. فالغرب إذ لم يكن وصياً ولا شرطياً فإنّ له مصالح، ولا يمكن أن يكون إنفاقه من أجلها يفوق مكاسبه منها، وتجربته الخائبة في [العراق] و[أفغانستان] جعلته يفكر ويقدّر، وقد يتهيّب المغامرة، وإن لم تكن محفوفة بالمخاطر، على حَدِّ: [من خاف سَلِم] .

والنظام السوري لم يتلقَّ تأييداً من الغرب، ولا موقفاً جاداً منه، كما أنه لم يكن في تصدِّيه للثوار لاعباً، وحساباته أنّ الغرب لن يتدخل عسكرياً، وسمعته المتشوّهة من قبل ومن بعد، تجعله لا يبالي، وكيف للغريق أن يخشى من البلل؟ ولهذا فإنه سيظل يصعّد من عنفه، وحساباته تتحكّم بها مقولة: - [عليَّ وعلى أعدائي]، والزمن في خدمته، فكل يوم يمر، يقضي فيه النظام على شطر من إمكانيات الثوّار البشرية والمادية والمعنوية، كما أنّ اللجوء إلى المجالس الأممية يمكنه من الإثخان في الأرض، وخيارات الحل واستقالة مندوب وترشيح آخر، وملاحقة السراب، تذهب ريح الثوار، وتقلل من معنوياتهم. والنظام يعرف أنه ماضٍ إلى الهاوية، غير أنه لا يريد أن يكون ثمن المضي هيناً على خصومه، ولقد تكون حساباته أنه باقٍ كطائفة ملتفّة على نفسها، لا تمانع دول الجوار من قيامها. بوصفها من الحلول المرّة، التي لا مناص منها على البعض، وقد تكون من الحلول المعسولة على البعض الآخر.

ولتكن كل هذه الحسابات هلامية، غير أنّ الثمن الباهظ الذي يدفعه الثوار، لا يمكن أن يعوّض. ولقد يكون من مصلحة الثوار اختراق الطائفية، وإشعارها بأنها جزءٌ من هذا الشعب، وأنها لن تضار في شيء بعد سقوط النظام الطائفي، عسى أن تتخلّى الطائفية عن هواجس الانتحار أو الانفصال، ولكن من يملك هذه [الدبلوماسية] الاستدراجية، ولاسيما أنّ الثوار أنفسهم لم يتفقوا على شيء سوى إسقاط النظام.

ومن نكد الدنيا على الثوار أنّ الذين مع النظام يرون معيّتهم مصيرية. فـ[إيران] تشكِّل نهايةُ النظام نهايةً لمشاريعها التوسعية. و[روسيا] تحلم بالندية مع [أمريكا]،

---

(١) تاريخ المقال: ٢٨/ ٨/ ٢٠١٢

وسقوط النظام تحويل لتلك التطلُّعات إلى أضغاث أحلام، و[حزب الله] من أجِنَّةِ النظام ومن ثم فإنه يموت بموته.

ولما كان لكلِّ جهة نظراتها، وحساباتها ومنْطلقاتها ومصالحها، ولكل حزب فرحه أو ترحه، فإنّ التوقعات تختلف، والرهانات تتباين، وتناقضها يجعلها عند المخالف من الهرطقات السياسية.

واليوم وقد توفّرت وسائل الاتصال، وهيئ لكلِّ شقي أن يَعوُجَ إلى ما تهواه نفسه، فإنّ احتمال التوصيف المدين بالهرطقة، لم يَعُد مقبولاً، ولاسيما أنّ الخوض في المقترف السياسي ينزع عن الخائضين شطراً من مسؤولياتهم عما يقولون، إذ ما من مقترف إلاّ وله أكثر من قراءة، فالسياسة [فن الممكن] والعقلاء المصطلون بنارها، يتبرؤون من كلمة ساس ويسوس وما تصرف منها. وكم نفكر ونقدّر، فنخطئ، حيث يكون التفكير والتقدير، وعيب المتوقعين والراسمين لخرائط الطريق الاستبداد في الرأي، واحتكار الحقيقة، وعدم التفسُّح لِسنَّةِ التداول والتدافع، خوفاً من الخسران المبين. فكل متداولٍ للحديثِ عن المتغيّرات السياسة، يهيئ لنفسه المكان المناسب في تصوُّر المستقبل، ومصائر الأمور، ولا يفكر بأنّ الإمساك والإرسال بيد الله وحده، فلا ممسك لما أرسل، ولا مرسل لما أمسك، وكأنّ الله عناهم بقولة تعالى: - ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨) أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٦- ٣٩] .

ومن المهرطقين من يقول: إنّ "أمريكا" و"إيران" حليفان، لإنجاز عمليات قذرة، وأنّ إيران تتولّى كِبْر التجهيز لشرقٍ أوسطي جديد، تكون فيه الآمر الناهي والمفاوض، ومنهم من يقول: [تركيا] جادّة لإعادة الخلافة، وآخرون يقولون: إنّ خروج مصر من زعامة الأُمّة العربية مؤذن بصراع طويل الأجل، لملء الفراغ. بل إنّ من المهرطقين من يقول: إنّ "أمريكا" هي التي هدمت بُرْجَيها التجاريين، لتمتلك مشروعية التدخُّل، لوقف الزحف الإسلامي، والسعي لعودة [الدولة الصفوية]، التي تحد من المدِّ السَّنيِّ. وكل ذلك من الهرطقات التي لا سند لها، ولكنها متداولة، شئنا أم أبينا، وقد يكون لشيء منها نصيب من الصواب.

المخيف أنّ السفينة تجري على الماء وعلى اليبس، والكل محكوم بالإرادة الكونية الإلهية، وما علينا إلاّ الإلحاح بالدعاء، ألاّ نشهد تلك التنبوءات المرعبة.

ولقد سمعنا عن [بلد الحرمين] من الهرطقات ما يشيب له الوليد، وكلما استحكمت حلقات الفتن، قلنا هذه النهاية، ولكن الله يدافع عن الذين آمنوا، ولما نزل نردِّد مقولة الرسول ﷺ لرفيقة في الغار: - «**ما ظنك باثنين الله ثالثهما**»، وكيف لا نتفاءل، والله عند حسن ظن عبده فيه. وهل من الهرطقة التحسُّس عما سيكون بعد سقوط النظام السوري..؟. فالرغبات الآن كلها محصورة في إسقاط النظام، وحين يسقط، أو تنفصل الطائفة، تنبعث رغبات أخرى من مراقدها، وقد يحترب المشاركون في الثورة فيما بينهم، بذات العنف والدموية. وحينئذ تجد البلاد نفسها داخل فوضوية ثورية، مثلما كان في [ليبيا] ومثلما هو كائن في بقاع أخرى، وقد تتفاوت الحساسيات من تلك التنظيمات، فينشق الصف العربي، وتتدخّل كل دولة لمناصرة من يوافق هواها، فـا [الأدلجة] لا تقبل [اللبرلة] و[الغربنة] لا تقبل [العوربة] . وتلك مصائب الثورات التي لا تضع [أجِنْدتها] ثم تنطلق منها ولها. وهذا الربيع العربي، فَمَن من الربيعيين من انتقل من روح الثورة الصاخبة إلى هدوء المدنية الراغدة؟

إنّ من حق كل متحدث أن يتخفّف من جد الحديث إلى هرطقة توصف بالسخرية، على حد: - [لا بُدَّ للمصدور من فيضان] .

المؤسسة الدينية تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد .. ! (١) [1]

قدر المملكة العربية السعودية الحميد، أنها دولة إسلامية، ترد اختلافها إلى الله والرسول، وتَحْكم بما أنزل الله، وتحيل السائل غير العالم إلى أهل الذِّكر، بوصفهم حملة القرآن، وحفّاظ السنّة. هذا القدر الثقيل، يفرض عليها الإحالة إلى آليات ومناهج، ليست أولوية عند غيرها، وليست على وفاق تام مع خطابات العصر، ولكنها عاصمة، ومنجية، ومحققة للتمكين في الأرض، متى أخذت بحقها، وبَحَثت عن ضالّتها في مظانِّها.

وقدرها الآخر أنها الأطول عمراً، والأثبتَ أصولًا، والأسمق فروعًا، والأصبرَ عند اللقاء.

كانت قبل ثلاثة قرون إمارة صغيرة، لا يتجاوز حجمها حجم قصر من قصور الموسرين في دول النفط، وأرض تلك الدولة الصغيرة أصبحت اليوم حيًّا من أحياءِ الرياض، بل تحوّلت الإمارات الثلاث المحتربة معها إلى أحياء ثلاثة داخل عاصمة تلتهم الوهاد والنجاد وبطون الأودية ومنابت الشجر.

وبعد أن التقت السلطة مع الدين بحلف يشبه [حلف الفضول] بين المحمّدين: محمد بن سعود ومحمد بن عبد الوهاب، تجذَّر الحكم وانتشر، وأصبح كخامة الزرع، يميل مع الريح حيث تميل، ولكنه لا يمضي معها حيث تمضي، ولأنها دولة ثابتة الأركان، فإنها لم تُجْتث، ولم تفقد القرار، تُمْنى بهزائم، وتسقط، ولكنها لا تلبث أن تنهض من مجثمها، لتعيد بناء نفسها. وإذ منيت الدولة الأولى في الإسلام بهزيمتين في [أُحد] و[حنين] ولم تزدها هاتان الهزيمتان إلاّ قوة وتلاحمًا وتطهيرًا، فإنّ تلك الدولة منيت بهزيمتين موجعتين، وكانت الحسابات السياسية أنها كفيلة بالقضاء على ذلك الكيان، ولكن القدر يخيِّب تلك الظنون، ويقيل تلك العثرات المرّة تلو الأخرى. كانت الهزيمة الأولى على يد الدولة العثمانية، التي أنهكتها الحروب، وأضلّتها الخرافة، وقعدت بها عن مسؤولياتها الشيخوخة المتأخرة. وكانت الهزيمة الثانية على يد أبنائها الذين احتربوا فيما بينهم، فسالت دماؤهم، ولم يتذكروا القربى فتسيل دموعهم. ومن ثم فقدوا أنفسهم بعد فقد أرضهم، ولمَّا يطل زمن التيه. فقد انشقت الصحراء عن المؤسِّس، ليعيد بناء الدولة، وفي كل هزيمة تكون المؤسسة الدينية في حالة ضعف أو غياب أو ارتباك عند اتخاذ القرار.

وهي اليوم مغمورة تحتَ طوفان الثورة المعلوماتية، ومنهكة أمام ثورة الاتصالات، وغير قادرة على مواجهة النوازل الطبية والاقتصادية والعلمية والسياسة، لأنها مرتهنة في كتب الأمهات، ومحجوبة أو محتجبة عما جدّ من معارف، ولأني بضعة منها، أتداعى معها بالسهر والحمَّى، فإنّ ما أقول شكاية لا شماتة، وتنبيه لا تثبيط، فإنْ أصَبْت فمن الله، وإنْ أخطأت فمن نفسي والشيطان.

ولربما يكون بإمكانها استعادة قوّتها وحيويّتها وهيبتها وسلطتها المشروعة. وهو ما كنا نبغي، ونتطلّع إليه. ولاسيما أنّ لديها إمكانيات التلافي، وشيئاً من الهيبة، كما أنّ البلاد لا تخلو من علماء أجلاّء، داخل المؤسسة وخارجها. والحل ليس بيدها وحدها، بحيث ننحي باللائمة عليها، إنها جزء من هذا الكيان المؤسّسي لها وعليها، ومريد الإصلاح يبدأ بالخطوة الأولى، فلتكن خطواتها وئيدة، وليكن تحرفها سديداً، مستحضراً لكلِّ المستجدات، مستعدًا للماكرين والمتربصين والمخذلين.

---

[1] تاريخ المقال: ٤/ ٩/ ٢٠١٢

وإذ تجتاح العالم كلَّه موجات من التغيير، وطوفان من التحديات، فإنّ عليها أن تواكب المتغيّرات، وأن تأوي إلى جبل من الاستعداد، يعصمها من طوفان التحديات. وانطواؤها على نفسها، واعتزال الناس وما يخوضون فيه تقليص متعمّد لدورها المنشود.

لقد اندلقت أقتاب الخطابات الفكرية والسياسية والعلمية والدينية، وأصبح العلماء والمفتون يملؤون الرحب، وبدت أعناق الطائفية، وأعيدت قراءة النص التشريعي بعيون شتى، وفُلِيتْ الأمَّهات من كتب السّلف، وقعرت رؤية الهنات، واستحضرت شواذ المسائل، وقربت المفردات والاختيارات، واصطرع المحدثون والفقهاء، والعالمون والمتعالمون، وما من صحيفة أو مجلة أو قناة أو موقع أو طائفة إلاّ وعندها من العلماء والأدباء والمفكرين ما يُفَلُّ به الحديدُ، ويُواجه به أيُّ عالم عنيد. ومن دون ذلك مهرجون من رقاة ومفسِّري أحلام ومتفيهقين ومتطرّفين، وهؤلاء وأولئك يجمعهم الآخر في سلةٍ واحدة، ليشكِّل منهم جميعًا أبشع صورة للإسلام، وهذا الانفلات يتطلّب صلابة في التصدِّي، والتحدِّي والصمود، ومرونة في الاستيعاب والاحتواء، وبراعة في المنازلة والمجادلة والمحاورة، وقدرة على استحضار الدليل، والتوسُّل بالمقاصد، تمشيًا مع مقولة:

- [إذا كنت ناقلًا فالصحة، وإذا كنت مدعيًا فالبرهان] .

ولا يجوز أن تكتفي بعد الحكم أو الحسم، أن تقول كما قال الجاهلي: - [هذا فزدي] فالناس اليوم متوفرون على مفاتيح العلوم.

والانفجار المعرفي، وثورة الاتصالات، قربت المذاهب والآراء والأحكام، وخلطت الأوراق. والمؤسسة الدينية المغمورة بطوفان المتعالمين والجريئين على الفتيا والمهووسين بمقولة: - [نحن رجال وهم رجال] لا تنفذ من طوفانها إلاّ بسلطان العلم، والعقل، وفقه الواقع، والتمكين والأولويات والنوازل، واللين والرحمة، والدفع بالتي هي أحسن، والتفسّح لكل شاك أو متردّد أو متسائل على حد: - ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة: ٦] . فكيف بمن لم يكن مشركًا. فتوطين النفس لا يتحقق إلاّ إذا استحضر المرابط أنه في زمن الغربة والقبض على الجمر، وتذكُّرِ: - ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءامَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢] .

ولقد يكون من معضلات العصر تكريس المذهبية، وفقاعة الانتماء، واحتكار الحقيقة، وتصنيف المتحرّر من ربقة المذهبية، وإقصاء المخالف في المسائل الفرعية، والعجز عن مواجهة الخطابات، وحسم الخلافات، وأطر السفهاء، وصراع الفقهاء والمحِدّثين، وإن غَرَفوا من عيبة واحدة.

المؤسسة الدينية تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد .. ! (٢) [(١)]

وإذ يكون من الحتم وجود مرجعية دينية في مثل هذه الأنظمة التي اختارت لنفسها هذه السمة، وتلك المهمة، لتراقب المشهد، وتحدد آفاق التغيير، وتمنح الشرعية، وترصد تحرك المجتهدين، وتملك القدرة على التدخل والحسم في الوقت المناسب، فإن هناك تكوينا، ومهمة، وصلاحيات.

يجب أن تكون في أفضل أحوالها، لتكون للمؤسسة فعالياتها وآثارها. وليس من المصلحة أن يختل التكوين، ولا أن تهمش المهمات، ولا أن تقلص الصلاحيات.

لقد تواصلت المؤسسة مع الأحداث، منذ الدور الأول، وكانت فاعلة مؤثرة ومطاعة. وهي إذ لم تكن من السلطات الثلاث، فإن يدها تمتد إلى تلك السلطات كلها، تؤثر فيها، وتشاطرها مهماتها، وقد تحسم الشقاق في أخطر المواقف، وأكثرها حساسية. أما اليوم فقد تغيرت الأحوال، وتبدلت الأمور، ولم يعد لها كل الحضور الذي كان لها من قبل، ولا الهيبة، ولا التسليم المطلق، وحقها أن تستعيد ذلك كله، أو يعاد لها، ولاسيما أنها ملء العين لدى السلطة. وإذ لا نريد لها الهيمنة المطلقة، فإننا لا نجد بدًا من حضورها الفاعل، لحسم الخلاف، ورأب الصدع، وحفظ جناب التوحيد، والتقريب بين وجهات النظر. وهي اليوم تواجه مستجدات عصيَّه بإمكانيات ضئيلة، ولقد تكون المستجدات العربية أكثر صعوبة، بعد الربيع العربي، الذي أطلق الألسنة، وكفل الحريات، وفصل بين السلطات.

وفوق هذا فإن حوار المذاهب الإسلامية الذي دعا له خادم الحرمين الشريفين، ولقي استحسانًا من كل الأطراف، يتطلب مؤسسة دينية مستوعبة لكل الخطابات. وعند قيام الحوار، ستكون مسؤولية المؤسسة الدينية صعبة، لما تتطلبه الحالة المستجدة من امكانيات معرفية، من أهمها الفقه المقارن، والتضلع من علم الكلام، وتاريخ الحضارات. وتلك الأولويات قد لا تكون متوفرة بالقدر الكافي لدى بعض الأعضاء الفاعلين، وحين لا تتكافأ الإمكانيات مع المتطلبات، يختل التوازن، وتتكشف الساحة، ويملأ الفراغ من يتحقق بوجودهم انتزاع العلم، إذ العلم لا ينتزع انتزاعًا من صدور الرجال.

ومثل ما سبق فإن المشهد الفكري مقبل على ما يسمى بـ[مقارنة الأديان]، وتلك الظاهرة المعرفية تتطلب قدرات استثنائية ونوعية، تربط على القلوب، وتثبت الأفئدة. وحين لا تدار تلك النازلة بقدرة استثنائية، تكون مدخلًا من مداخل الزندقة والإلحاد، لتفاوت القصص، وتزاحم الأساطير والإسرائيليات، وتعارض المناهج العلمية مع الرؤى الدينية. مع أنه لا تعارض بين المعقول والمنقول، ولا بين العلم والدين.

ومن المعضلات أن البنية السكانية في المملكة تتسم بخصوصية لم تكن لغيرها. فالعنصر الشبابي فيها تتجاوز نسبته الستين بالمئة. والشباب لهم رؤيتهم واهتماماتهم، واسلوب التعامل معهم، إنَّهم استشرافيون، مندفعون، متسائلون، عاطفيون. فتلكم [عائشة] أم المؤمنين -رضى الله عنها -، تقول في عنفوان شبابها: - [أو يعلم ربي ذلك] -إن صح هذا الخبر التاريخي -.

لقد لحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى، وهي لم تبلغ الثامنة عشرة من عمرها، وبهذه السن كان لها أسلوب حياة، يختلف عن كافة أساليب أمهات المؤمنين، ومع ذلك وسعها خُلُق الرسول ﷺ، إذ جاء لها بالجواري المغنيات، وأوقفها على الأحباش، وهم يرقصون، وسابقها، ومنحها من الرعاية مالم يمنحه أحدًا من نسائه، حتى كانت بهذه المداراة أفقه الأمهات، وإن كان حديث: - «**خذوا شطر دينكم عن الحميراء**» لا يصح، ومن ثم كانت

---

(١) تاريخ المقال: ١١/ ٩/ ٢٠١٢

بهذه الرعاية الاستثنائية الأكثر حضورًا في عصي المسائل، وعصيب المواقف، بأبي هي وأمي. وما لم تكن المؤسسة الدينية في مستوى تلك الأحداث والسمات والمطالب، فإنها لن تجد مكانا في السياق، ولا في الأنساق، ولا في النفوس. وفراغ المشهد من حضور المؤسسة الفاعلة في ظل هذه الظروف، مؤذن بفساد كبير، فهذا الزمن في ظل تلك الإمكانيات المذهلة يتكشف عن أشياء يشيب من هولها الوليد، ويحار في متاهاتها القطا، وهي أشياء تهز الثوابت، وتكشف عن زيف المسلمات، التي كان الناس يسترخون عليها، كوسائد من ريش، ثم يغفون هادئين مطمئنين، بدون أحلام مزعجة. والوقوف في وجه هذا الطوفان يتطلب قدرات مناسبة، فالحديد لا يفله إلا الحديد، والمؤسسة الدينية المتآكلة من الداخل، بحاجة إلى إعادة صياغة، يراعى فيها الوضع العالمي، والتنوع المعرفي، والتعدد الطائفي، والتناكف المذهبي، والتفلت القولي. وفي النهاية فأنا من أمتي في السراء والضراء، ولست ضدها، ولكنني مضطر لكي أكون كـ[دريْد بن الصمة] شاعر غزية، الذي يتأوه معلنًا ولاءه لقبيلته في حال قبول نصيحته أو رفضها، وقد عبر عن ذلك بالرشد والغواية:

أمرتهم أمري بمنعرج اللِّوى
فلم يستبينوا النصح إلاضُحى الغد

فلماعصوني كنت منهم وقدأرى
غوايتهم وأنني غير مهتدي

وهل أنا إلا من غزية إن غوت
غويت وإن ترشد غزية أرشد

والغواية هنا لا تعني الضلال، وإنما تعني تغليب المفضول على الأفضل، جمعًا للكلمة، ورأبًا للصدع، وتغليبًا للمصلحة.

والمؤسسة بوصفها مصنَّفة من أعدائها، مستهدفة من خصومها، مُنْشَقٌ عليها بعض المحسوبين منها، فإن أمامها مسؤولية تصحيح المفاهيم والتصورات عن رؤيتها، وتجديد مسارها، بما يوائم العصر، ولا يلغي المهمة.

لقد اجترحت طائفة من الباطنية جرائر التسميات، في سبيل تحقيق الإدانة، وأعطيت طائفة منهم بسطة في البلاغة، وشطرًا من قلة الحياء، ومُكِّن لطائفة منهم اختراق أجواء أهل السنة والجماعة، وفيهم سَّماعون لهم. فـ[الوهابية] مصطلح أطلق على علماء نجد، وحددت ظلما وعدوانًا مهماته ومقاصده في التطرف والتكفير، ولقد تلقى هذا الإفك العظيم [العلمانيون] و[اللبراليون] و[المتصوفة] و[المغفلون] و[من في قلوبهم مرض]، وصدقوا الفرية، واتخذوا موقفًا ضرارًا من علماء أجلاء، ضالتهم الحق، وليست لهم مذهبية تفصلهم عن كتاب الله، وسنة رسوله، وسيرة السلف الصالح، وما كان عليه الأئمة الأربعة. وإن كان ثمة تجاوزات أو تطرف في الآراء من بعض المنتمين لهذه الدعوة المباركة، فتلك جرائر، يَحْسِم شأنها قوله تعالى: - ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

وقوله تعالى: - ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

والعاقل لا يزكي نفسه، فضلًا عن أن يزكي غيره، والحي لا تؤمن عليه الفتنه، ولا يفوت النفسَ الأمارة، والشهواتَ، والغرائزَ، والأهواءَ، والقرينَ، إلا من لحق بالرفيق الأعلى، وهو على ما كان عليه محَمدٌ وأصحابه.

إن طائفة من علمائنا الأفاضل على وعي تام بما يجري في كافة المشاهد، وواجبهم ترجمة مواقفهم إلى فعل رشيد، وقول سديد، فالأمة المستهدفة بأمس الحاجة إلى تغيير ما في الأنفس، ليفي الله بوعده في التغيير إلى الأحسن. ولن أدخل في التفاصيل، ولن أضع تصورًا لما يجب أن تكون عليه المؤسسة، ولن اجترح رسم خريطة طريق، تمشيًا مع:-

وفي النفس حاجات وفيك فطانة
سكوتي جواب عندها وخطاب

إن المؤمل من كافة مؤسساتنا الدينية، والتربوية، والأمنية، والإعلامية أن تعيد النظر في كافة مناهجها وآلياتها، لتكون حاضرة بندية، وقادرة على أن تكون في مستوى مانحن عليه من إمكانيات: حسية ومعنوية، غير أن مراجعة إمكانيات المؤسسة الدينية من الأولويات التي لا مناص من أخذها بقوة وثقة، فلنتوكل على الله ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] .

كتابَ الرأي والإعلام ألْجموا الأقلام .. !(١)

نصيبي المأزوم، أنني مُسْتَرَقٌ للحرف، يسرق جهدي ووقتي وشطرًا من مالي. أمتطيه فيسبح بي في آفاق المعارف، ومضان الآراء، وأتعلم منه ما لم أكن أعلم. وإذ رغبت عن سرج السابح، فقد استهواني خير جليس في الزمان.

هذه الخُلطة المستحكمة، جعلتني خبيرًا بالكُتابِ، كـ[بني لِهب]، مُصَدَّقًا فيهم، كـ[حَذَامِ].

وكم يسوؤني ما يقترفه الألَفُّ الأعزل من الكتاب، وبخاصةٍ حين تهتاجه الظواهر أو الوقوعات، ثم لا أجرؤ على أطره، ولا على إرشاده، خشية أن ينال من عرضي المصون، إذ ما أكثر السفهاء الذين لا يتحرجون من الوقيعة في أعراض الآخرين، ولا يبالون من النيل من أعراضهم، التي لم يصونوها، وكأن الشاعر عناهم بقوله:-

ينيلك منه عرضًا لم يصنه
ويرتع منك في عرض مصون

والكف عن هذا الصنف اللَّجوج، استجابة لأمر الله ﴿خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وأَعْرِضْ عَنِ الجاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] .

وأنهر الصحف تتدفق بالزبد، وبما ينفع الناس. كما أن المواقع والمنتديات تفيض بالغث والسمين، وقد تتحول [التغريدات] فيها، لتكون من أنكر الأصوات، وأبشع الأقوال، وأكذب الحديث. ومثلي يمر بهذا، ويسمع ذاك، وكأن أحدًا لم يقل، وكأني لم أسمع، وقد لا أجد ما أحمل نفسي عليه، لأعتزل القوم، حتى يخوضوا في حديث غيره. ومن ذا الذي يستطيع اعتزال الحرف، بعد ما دخل معه مرحلة الإدمان، والذين جربوا عشق الحرف، هم وحدهم الذين يعرفون سلطانه، وكم من صاحب شوق غالب شوقه، وحاول الخلوص من وضر المشاهد، فما زادته تلك المغالبة إلا ارتكاسًا في الوحل: -

وذو الشوق القديم وإن تعزَّى
مشوقٌ حين يلقى العاشقينا

والإعلام اليوم لم يكن كإعلام الأمس، لا من حيث الكم، ولا من حيث الكيف، ولا من حيث الوسائل. كنا نسعى إليه في مضانّه، وقد يَغِبُّ قبل الوصول إليه. وهو اليوم ينساب إلينا في مضاجعنا كالخدر، تحمله أجهزة ليست بأقل قدرة من ذلك العفريت الذي عنده علم من الكتاب، مكَّنه من وعد سليمان - عليه السلام - بأن يأتيه بعرش [بلقيس] قبل أن يرتد إليه طرفه، وقد فعل.

ووسائل الإعلام اليوم توافيك بأي حدث - صوتا وصورة - حيًّا على الهواء، فترى ما يدمي القلب، ويجرح المشاعر. تلكم هي وسائل الإعلام اليوم، تأتيك بالمعلومة في لحظات، وإن لم تزوّدْها، وهذه الإمكانيات ضاعفت المعاناة، وألقت على كواهلنا ما لا طاقة لنا به، وكم تبلغ المعاناة بأحدنا حد التأوه، و الجأر بالدعاء: - ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦] . والمتَيَقَّن أن هذا الجيل التعيس، قد حُمِّل من فيوض القول

(١) تاريخ المقال: ١٨/ ٩/ ٢٠١٢

بما لا طاقة له به، و إن كان قد أَلِفَ ذلك، كما هي حال الجهنميين الذين لبثوا في قعر جَهَنَّم أحقابا، لا يذوقون فيها بردًا ولا شرابا.

فنحن والحرف كالماء والسمك، وشياطينه كشياطين الجن، يأتون أحدنا من بين الأيدي ومن الخلف، وعن اليمين، وعن الشمال، ومن الفوق، وقد يغتالونه من تحته.

وكم أعود من صلاة الفجر، ثم ألقي بنفسي على الأريكة، وأستدني جهازًا كالألواح، لأطل من خلاله على سائر الصحف العربية، التي لم تصل بعد إلى القُراء الذين هم في مَرْمَى الحجر من مصدرها، فأختار ما أشاء من صفحات، أو مقالات، أو تحليلات، ثم أدع ذلك، لألحق بالمواقع والمنتديات. حتى إذا أشرقت الأرض بنور ربها، تلقيت من شركة التوزيع ما اشتركت به أو ما أُهدي لي من الصحف المحلية، فلا أجد بدًا من فليْها صفحة صفحة، وفيما بين اللَّوح والصحيفة، أُلِمُّ بقنوات التلفاز، أتابع الأخبار، واستمع إلى بعض التحليلات والتعليقات، وحين أمل من ذلك كله، تستدرجني مكتبتي، لاقف أمام رفوفها، أجيل نظري في كعوب الكتب، فأسحب هذا، وأعيد ذاك، أقرأ جادًا أو متسليًا في حقول المعارف التي لا تحصى، وحين أتخلص من تيك وتلك، أجد نفسي تخُب وتضع في أروقة الجامعة، وفي قسم الأدب فيها، أحَدِّث هذا، واستمع إلي ذاك، وكل أستاذ جاءَ يحمل آراءه وآراء من قرأ له أو لقيه، فتمضي سحابة اليوم، وأنا رهين الحرف المرقوم، والحرف السابح على صهوة الأثير.

رجل تتهاداه المواقع بهذا القدر، يكون خبيرًا بأدواء الإعلام، ومقترفات الكتاب، وجديرًا بأن ينادي بصوت مبحوح، لترشيد الكلمة، وتسديد القول. فما عاد يطيق الطفح الرخيص، ولا الإفك العظيم، وما أكثر المفترين والمضلِّين والمرجفين.

ومن أدواء المشاهد أن الكُتَّاب الذين يقلبون لنا الأمور، تحكمهم أهواء، وتصِّرفهم شهوات، وتذلِّهم مصالح، وتضلهم شائعات، وقد تتضخم عندهم [الأنا]، وتستفحل عندهم شهوة الظهور، فيسرفون في الحب إن أحبوا، وبالكره إن كرهوا، ويحرفون الحقائق، ويزيفون القول، وينافحون عن الباطل، ويغمطون الحق، ولا يتحرج أحدهم مِنْ أن يكون للخائنين خصِيما. وكل هذا التناجي الآثم، والمراء الباطل، يسطو على جهد المتلقي ووقته وشيئًا من درهمه أو ديناره، وقد يفسد علاقات المتلقي مع المفترى عليهم، فيزل لسانه بكلمة جائرة، حتى إذ فُزِّع عن الحقيقة، لم يعد باستطاعة المتسرع أن يستعيد قوله، ولا أن يستدرك تعدياته. وهل أحد يستطيع رد الدَّر إلى الضرع بعد احتلابه؟. إن على حملة الأقلام أن يأطروها، وأن يراعوا بالقراء العهد الذي أخذ عليهم:-

﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣] و ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]

و ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [الحج: ٢٤] .

إن من الكتاب من هو [حُطَيْئي] لا تراه إلا هجاءً، يفتري الكذب، ثم لا يجد حرجًا من الرد المفحم عليه، بل يكاد ينتشي، لأنه استطاع أن يجري سمعته على ألسنة الآخرين، وهو إذ لا يستحي، فإنه يصنع ما يحلو له، ثم لا يبالي بما يقال عنه. وإذا أكثر مساسه بالكذب، قل إحساسه بالإهانات، ولا يزال هذا النوع يكذب، حتى لا يراه الناس إلا كذّابًا، وإن صدق.

ومن الكتاب من يوظفون أقلامهم للنيل من جهة أو قطاع خدمي، أو تعليمي، أو احتسابي، أو غير ذلك. ثم لا يتحرجون من تضخيم الوقوعات، وتعميمها، والزيادة عليها، كمسترقي السمع. ولقد يَمنح بتجنيِّه حصانة لهذا القطاع، واستمراء للافتراء عليه. وحين يلمس المتلقي هذه الشهوة، يصرف نظره عن المتابعة والتصديق. ومتى فقد الكاتب

مصداقيته، أصبح ضرره أكبر من نفعه، ووجد المستهدفُ مشروعية الإحالة إلى هذه المفتريات.

والراصد لفيوض القول، يقف على طائفة من الكتاب، جندت نفسها لخدمة [أجِنْدة] أو [أيديولوجيات] ليست في العير ولا في النفير، وقد يستعدي هذا الصنف من الكتاب على عشيرته من هم أقدر منه تعبيرًا، وأندى صوتًا، فيكون كـ[براقش] التي جنت على أهلها بنباحها. ولقد يكون من مصلحة المُحِق أن يكف عن المناكفة، لحفظ السمعة، وعدم استدراج الخصوم للنيل من مثمنات الأمة ومقدساتها. وحجة المحجم قوله تعالى: - ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨] .

ثم إن المسلم ليس بالطعان ولا باللعان. ومن الكتاب من يستعذب إثارة الرأي العام ومقاربة الحِمى. ولقد قلت، ولما أزل أقول: إن الرأي العام هو الفتنة النائمة، وإيقاظها مناقضة للدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالأحسن، ومن غلَّب جانب الإثارة، وتوتير الأعصاب، فَقَد الموالين، فضلًا عن كسب الأعداء. وأين هذا الصنف من أساليب الدعوة الرشيدة، التي تثير الانتباه، وتستميل المتلقي، وتقنع المتردد، وتحوِّل العدو إلى ولِيّ حميم؟.

وما أحوج كتاب الرأي إلى إتقان لغة التفاوض، وضوابط الحوار الحضاري، وتمكين المستهدف من التلقي المُطْمَئِن. فلنتق التنفير، ولنجنح إلى التأليف، وإشاعة الثقة، وبعث الطمأنينة في نفوس الخصوم، إذ ما دخل الرفق في شيء إلا زانه.

ثم لنطّرِحْ الإطلاقات العامة، والاتهامات الجائرة، وحصائد الألسُن، وجرائر الأقلام. فكم من كلمة قالت لصاحبها: - دعني.

وكم من حكيم قال: - تحدث حتى أراك.

وكم من حصائد ألسنة أكبت صاحبها على منخريه في النار.

التفكير خارج الجاذبية .. ! (١)[(١)]

إحدى الكُبر أن تبوح بمكنونك، وإحدى الكبر -أيضاً- أن تُكَتِّم هواجسك المؤرقة لك. فالأولى تكشف عوارك، والثانية تبري جسدك، على شاكلة: (مالي أكتِّمُ تفكيراً برى جسدي) مع الاعتذار لـ"المتنبي"..

ولقد يكون من المنفِّسات التفكيرُ بصوت مرتفع، عندما لا يكون بحضرتك إنسٌ ولا جانٌّ.

حَتْمًا سيحكم عليك الخليون بالجنون، لو سمعوك تحدث نفسك بتلك النَّبْرة العالية. وكيف لا تَسُوغُ لك مناجاةُ النَّفْس؟.. وفي داخلك شركاء متشاكسون. فالإنسان مخلوق عجيب، ولهذا قال الله تعالى: - ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] وقال: - ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣] . فالنفس كون مدهش، وبخاصة حين هبطت في جسدها المادي من المحل الأرفع، بما هي عليه من خصوصية، لا تمت بصلة إلى المحسوس، ولا إلى المعقول، لتكون كما تصورها "ابن سيناء": محجوبة وإن سفرت ولم تتبرقع. ولِمَ لا تنبعثُ الدهشة على أشدها؟.. وكل واحد منا مكتنف بعقل فضولي، وعاطفة جياشة، وغرائز ثائرة، وشهوات مائرة، وأهواء جامحة، ونفس ثلاثية الأبعاد: أمَّارة، ولوَّامة، ومُطْمئنَّة، وشيطان مُقَيَّض: ﴿فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] . ثم إن الإنسان في القرآن موصوف بأقذع الأوصاف، فهو: ضعيف، يؤوس، قنوط، كفور، ظلوم، خصيم، عجول، قتور، جدل، هلوع، طاغ، كنود. ولأنه بهذه الصفات المفزعة. فإن تفكيره، وتساؤله، لا يقفان عند حد. ولما نزلت آية: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] أشكل ذلك على الصحابة، رضوان الله عليهم، وهم من هم في الامتثال، وقوة الإيمان. وماسكن روعهم حتى نزلت آية: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٦٨] .. وكيف لا يُشْكل هذا الوعيد، والإنسان مفكر في طبعة، ألدُّ الخصام في جدله، لا يتردد في خوض عالم الغيب، والبحث عن المجهول، والقول فيما لا يمكن تصوره. فالله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] والجنة «**فيها مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»، وأحوال أهل القبور، لا يعلم كنهها إلا الله، ومن وكل بها من الملائكة. و ﴿الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥] ومع ذلك فجها بذة العلماء، وأساطين المفكرين، وعمالقة العقلانيين والفلاسفة، لا يترددون في موضعة الذات الإلهية، وتصور الجنة، وتخيل النار، واستكناه عذاب القبر .. فأصحاب الرقائق يمعنون في توصيف الجنة ونعيمها وحورها العين، والنار وقعرها، و عقاربها، و حيَّاتها، وعذاب القبر، وأهواله، والروح وخصائصها، والقضاء والقدر ومفاجآتهما. والمتيقن أن القدر سر الله في خلقه، كما يقول "علي" عليه السلام، ومن ثم لم يستوعبه موسى عليه السلام، فكان أن واجه "اخضر" بتساؤلاته: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ [الكهف: ٧١] .

---

(١) تاريخ المقال: ٢٥/ ٩/ ٢٠١٢

﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ [الكهف: ٧٤] .. ﴿لَوْشِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: ٧٧]، وكل ذلك من فضول الإنسان، والرجم بالغيب.

لقد سمع العرب القرآن، فبهرهم، وشد انتباههم، وخافوا على أنفسهم من تأثيره، حتى بلغ بهم الخوف حد التواصي: ﴿لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦] ومع ذلك فإنهم لم ينشغلوا إلا بإعجازه البياني، ولم يوغلوا في البحث عن متشابهه وغيبياته، وجدالهم مع الرسول ﷺ كان في بداياته حول عالم الشهادة ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً﴾ [النازعات: ١١] لقد قنعوا بالحياة الدنيا، وقطعوا بأن الحياة الآخرة ﴿كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ [النازعات: ١٢]، ولم تكن لهم طموحات فيما بعد الموت، كانت تلك رؤيتهم، يوم أن لم يكن بين أيديهم قرآن يتلى، ولا أهل كتاب يحاجون في المتماثلات، أما وقد فَتَّق القرآن أذهانهم، وفَصَّل القول في عالم الغيب والشهادة، وأثار الكتابيون انتباههم، فقد استهواهم ذلك العالم المجهول، ووجدوا فيه مغامرة فكرية، داخلها مفقود، وخارجها مولود. ويقيني أن تقحم المجهول من ذلك التفكير الخارج عن محيط الجاذبية.

ولأن التفكير من لوازم الإنسان، فقد عفي له عما حَدَّث به نفسه، مالم يعتقد أو يقل، ففي البخاري قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تجاوز عن أمتي ما وسوست به صدورها، مالم تعمل به، أو تَكَلَّمْ**». ولعلنا نذكر تلك الهواجس المزلزلة لليقين، التي تبلغ بالإنسان حد التساؤل عَمَّنْ خلق الله، والسؤال عن بدء الخلق، و إعادته، وعما تنقص الأرض من الأحسام، بعد أن صار أديم الأرض منها، كما يقول "المعري"، وكما يقول المتصوفة عن الفناء الباقي.

لقد راقت لي ملاحقة علماء الفلسفة، من عرب وعجم، وموحدين وملحدين ممن قضوا حياتهم في الحفريات المعرفية، والإيغال في المجهول، وأشفقت عليهم، إذ لم يجنوا من وراء ذلك إلا خيبة الأمل، حتى قال قائلهم:

نهاية إقدام العقول عقال
وأكثر سعي العالمين ضلال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا
سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

وأثار فضولي فضولُ الحديث عن الذات الإلهية، وتصورها، واختلاف العلماء، وتكفير بعضهم لبعض، وإيغالهم في تصور الأسماء والصفات وتوحيد الربوبية والألوهية، والاعتراض الصارخ على التقسيم الثلاثي للتوحيد عند "ابن تيمية"، وتصور الجهة والتحيز والإستواء واليد والرجل والأصابع والوجه، والمجئ والنزول، ومحترزات تلك المسائل، وإعادتها جذعة، كلما خبت في كل عصر ومصر، وما من مغرم بهذه الغيبيات، إلا هو مكرر لما قيل من قبل، وكأن الشاعر عناهم بقوله:

ما ترانا نقول إلا معاراً
أو معاداً من قولنا مكروراً

وهل غادر العلماء السابقون من متردَّمٍ؟، ولكنها فتنة الله، التي يضل بها من يشاء، ويهدي بها من يشاء. وكلما أجَلْتُ نظري في حقول الفكر والفلسفة وعلم الكلام في مكتبتي، أشفقت على نفسي، ورثيت لحال الذاهبين الأولين، ممن اجترحوا تلك المهايع، سعياً وراء القبض على الريح أو تصيد الهباء المنثور.

فالملل والنحل، كالأشاعرة، والمعتزلة، والمرجئة، والجهمية، والقدرية والجبرية، وما تفرع منها، كلها تدور حول تصور الذات الإلهية، ومدى تعلق صفات (الله) به، كقولهم: عالم بلا علم، بصير بلا بصر، لا تحويه جهة، ولا يراه في الجنة أحد. ولما كان العقل تصورياً، فقد ارتُهِن لحواسه، بوصفها مصدر كسبه المعرفي. والثابت أن ما قصرت دونه الحواس، يمتنع معه التصور، ومن ثم كان الله فوق التصور والتخيل، وغيبه مثله، لا يظهر عليه أحداً ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ [الجن: ٢٧] وحينئذ لا يكون من الغيب.

التفكير خارج الجاذبية .. ! (٢)[1]

وشهوة الخصام تذكي نار العداوة كلّما خبت، وتزيدها سعيراً.

وذات مرَّة أثار البعْض من المتحذلقين مثل هذه التساؤلات، متصورًا أنّ الأسباب ستتقطّع بي.

فقلت له: أليس الزمان والمكان من خلق الله.

قال: بلى.

قلت: هل تتصوّر لأحدهما بداية أو نهاية؟

قال: لا.

قلت: لو فَرَضَ عليك لجوج مثلك، أن تتصوّر البداية والنهاية، فكيف يكون تصوُّرك؟

قال: لا يمكن، ومن المستحيل أن تتصوّر البداية أو النهاية للزمان أو المكان.

قلت: إذا كنت عاجزًا أمام تصوُّر مخلوق، فكيف تبيح لنفسك تصوُّر الخالق، فبُهت، ولم يحر جواباً.

إنه العبث والتفكير المهدور بدون عائد، ولو طويت هذه الصفحة، وانشغل العلماء بالمحكم، وآمنوا بالمتشابه، لكنَّا أُمّة واحدة.

لقد عن لِمُفَكِّرٍ جَبَّار مثل [عباس محمود العقاد] أن يكتب عن [الله] كتابًا يلخِّص فيه آراء المفكرين الغربيين حول [العلة العلية]، فكان أن عثرت عليه، وأنا بَعْد غضّ الإهاب، ضعيف الجناب، فتصوّرت أنه قد أحاط بما لم يحط به مَنْ سلف، وأنه قادر على أن يضع يدي على القول الفصل، الذي لا معقّب له، بحيث لا أحتاج معه إلى مزيد من الكتب، فما زادني إلاّ إيغالاً في الجهل، واستشرافاً لمزيد من المعرفة، مع أنه من أسلم المفكرين المعاصرين، وأحكمهم. ولقد قرأت لعشرات العلماء كتباً في الإلهيات، واستهواني من بينهم [المعتزلة] و[الفلاسفة] كـ[الفارابي] و[الرازي] و[ابن سيناء] وطائفة من فلاسفة [وحدة الوجود]، وكلّما فرغت من كتاب، تناولت آخر، ولمَّا أزل في لهاث، أشرب من محيطات المعرفة شرب الهيم، وأيقنت فيما بعد أنّ الجميع يدورون في حلقة مفرغة، وأنّ ما كتبوه رياضة فكرية، لا تبلغ بالمتابع غاية.

ومع يقيني بأنّ الإيمان وحده المنقذ، وأنه إذا ضاع، فلا أمان، فإنّ العلماء كافة، لم يبلغوا بأتباعهم شاطئ السلامة، إذ كل عالم رَادٌّ ومردود عليه، والجدل في النهاية تحصيل حاصل، وملء فراغ، وإزجاء وقت، وإيغال في الوحل المعرفي. وفي النهاية لابد من الأمن النفسي، وما أخطر فَقْد هذا الأمن على الإنسان. وكم من مفكر اجتالته الهواجس، وأرهقه البحث عن الحقيقة، فصاح في آخر النفق المظلم: [اللهم إيماناً كإيمان العجائز] .

وبعد ذلك التطواف الممل، والمضني، والمخيف، بحثت عمّن كَتَبَ عن [الإيمان] من علماء السلف، كـ[ابن تيمية]، ومن علماء الحديث كـ[ابن منده]، ومن علماء الفلسفة كـ[نديم الجسر]، وعندها أحسست بشيء من الهدوء، ولكنه هدوء قلق، تعقبه عاصفة التساؤل الملح عن الكون، ما حقيقته، والمصير ما مراحله، والحساب ما تفاصيله، والجزاء ما درجاته، وما دركاته. فالعقل في صراع مع النص، وكلاهما يتبادلان المواقع. فالمعتزلة ينصرون العقل على النص، والسلفيون يقيّدون العقل بالنّص. ومن الخطأ الكبير أن نقول: إنّ المعتزلة عقلانيون، إذ لا تكليف بدون عقل، كما أنه ليس من العدل أن نسمّي السلفي بالنصوصي المعطّل للعقل، حتى [الظاهري]، يوائم بين النص والعقل، فالعقل مطلق الحرية عند المعتزلي، ومقيّدها عند السلفي. صحيح أنّ هناك مستويات في التفكير،

---

(١) تاريخ المقال: ٢/ ١٠/ ٢٠١٢

ولو تصوّرنا الدرجات أو الدركات، لقلنا: إنّ السلفي وسط بين المعتزلي والظاهري، وهي وسطية تقسم السلطة بين النص والعقل، بحيث يُحْترم النص، بوصفه رسالة، ويحترم العقل، بوصفه متلقياً للرسالة، ومنظماً لامتثالها، فلا عدل مع النص بدون العقل، ولا مع العقل بدون النص. ويبقى الإنسان مخلوقاً عجيباً، يصنع من عصي المسائل مشكلة، ثم يشقى في تصوُّرها، والتماس الحلول لها، ولو أنه تركها في مستقرها لاستراح وأراح.
وطوبى لذلك الأعرابي الذي نظر إلى قافلة من الجِمال مشيُها وئيْد، فلما سأل عما تحمله قيل له: إنها تحمل كتباً، تثبت وجود الخالق، فصاح بهم:
[إنّ البعرة تدل على البعير، وإنّ الأثر يدل على المسير، فسماء ذات أبراج وأرض ذات نجاج ألا تدل على العليم الخبير] .
فذلك صوت الفطرة، فطرة الله التي فطر الناس عليها:-

وفي كل شيء له آية
تدل على أنه واحد

وفي الأثر: - [فكروا في خلق الله، ولا تفكروا في ذات الله] .
ومع كل التحفظات، يظل الإنسان مغرماً بالتفكير خارج الجاذبية، مع أنّ الله لم يتعبد نا بما أستأثر به من علم الغيب، ولم يطلب منا إلاّ الإيمان، ولو أنّ مثل هذا التفكير لم يفرق الأُمّة، ولم يحملها على التكفير للمخالف، لكان في الأمر متسعٌ. فهل نطوي تلك الصفحات الملتهبة، ونتجه إلى ما الأمة بأمس الحاجة إليه، ونقول في حق المخالف ما قاله [علي بن أبي طالب] - رضي الله عنه - في حق الخوارج: [إخوان لنا بغوا علينا] ؟
لقد نُهي الصحابة عن رَفْع أصواتهم الحسية فوق صوت الرسول - صلى الله عليه وسلم - وكل من فكر خارج المعقول، فقد رفع صوته فوق صوت الرسول - صلى الله عليه وسلم - معنوياً أو حكمياً، فلنتأدب مع إرث النُّبوّة، ولنخفض أصواتنا بين يديْ هذا الإرث. ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣] بإرثك المطاع ﴿وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُون﴾ [الأنفال: ٣٣] عن التقصير بحق هذا الإرث، أو التجاوز لمقتضياته الدلالية، ولقد يتساءل بعض الورعين عن هذا التوجيه لتلك الآيات، ولمَّا كان القرآن حمَّال أوجه، والرسول ﷺ يقول: - «**بلِّغوا عني ولو آية فربّ مُبلَّغ أوعى من سامع**» فقد تبلغنا، ووجدنا الآيات تحمل مثل هذا التوجيه وذلك التخريج.
اللهم إنا نسألك الثبات على أمرك، حتى نلقاك، وأنت راض عنا، ونسألك ألا تجعل في قلوبنا غلاً للباحثين عن طريق النجاة، وإن ضلوا السبيل، فهم من النار هربوا.

من الحكمة أن نُخَالِصَ الموافق، وأن نُخَالِقَ المخالف .. ‍!(١)

ولدْتُّ سلفياً بالتقليد على سنن: - [إنا وجدنا آباءنا]، وفتحت عيني، وتفتق ذهني على [الطحاوية] و[كتاب التوحيد] وامتدت يدي إلى [رياض الصالحين] و[تفسير ابن كثير] و[الروض المربع] . وراعتني فيما بعد نظرية التأويل والأرجاء والتفويض والتشبيه والتعطيل والتكييف والتوقف، وامتعضت من تشتت الأمة بين جهمية وقدرية ومرجئة ومعطلة ومعتزلة. واستعصت عليَّ دقائق المسائل حول القرآن: أمخلوق هو، أم هو كلام الله، وماذا عن الأحبار والأوراق واللفظ، وما لا يمكن الخلاص من دخنه. وعجبت من موجة الزندقة، وخطورة تسْيِيْسِها، وتلاحق الفتن، وامتحان العلماء، والتضييق على المخالف، وأيقنت بافتراق الأمة، وعودتها إلى ما حذر منه رسول الرحمة:- «**لا تعودوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض**»، وخشيت على الكافة من تحذيره عليه السلام:- «**سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر**»، وحديث: «**إنك لا تدري ماذا أحدثوا بعدك**»، وإن قصد به الذين مردوا على النفاق، ممن لا يعلمهم الرسول، وممن ارتد مع [مسيلمة] .

وأسأل الله أن يتوفاني سلفياً، متبعاً لا مبتدعاً، لم أخُطّ فُحشاً بيميني، ولم ألفظ سوءاً بلساني، ولم أصب دماً حراما بيدي. وأسأله أن أتمكن من صناعة سلفيتي على عيني، بما يرضي الله عني، بعد تقليب المذاهب، وفلي الملل، وتفكيك النِّحل، وأن أكون قادراً على القول لكل عالم أو متعالم يملي علي ما توصل إليه، أو يُفَصِّل لي لباس التقوى على عينه:

فـامْنع نوالـك عـن أخيـك مُكرَّمـاً

فالليـث لـيس يسـيغ إلا مـا افتـرس

لتتشكل سلفيتي التي لا تخذلني: - ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾.

لقد تفسحت للعقلانيين، والظاهريين، وسائر الفلاسفة، والمفكرين. فما وجدت الاطمئنان إلا بالسلفية، على أني لن أنازع عالماً بجهل، ولا متبعاً بهوى، فيما أكون مديناً لكل من أرشدني إلى صواب، أو أخذ على يدي دون أي ضلال، فأنا بشر حي، والحي لا تؤمن عليه الفتنة، إذ ما أكثر الذين اتخذوا أهواءهم آلهة، فأضلتهم عن سواء السبيل. وليس لي في الاتباع المطلق، وبين يدي من كتب التفسير، والفقه، والحديث، والأصول، والعقائد ما يغني ويقني. غير أن الرجوع إلى العلماء المتخصصين، والاستئناس بما توصلوا إليه، وعرض ما أجنح إليه على ما أنجزوا من أحكام، يعد مِنْ إبراء الذمة، وأخذ الحيطة.

وسؤال أهل الذكر مطلب إسلامي، فهم كالمختبرات، يكتشف السائل من خلال أقوالهم مدى صحة ما أخذ به. وما من قضية تَوصَّلْتُ فيها إلى رؤية، إلا واستَنْجَدتُ بالفقهاء، والمحدِّثِين، وعلماء الكلام، والأصول. لأرى مدى صحة ما ذهبت إليه، فالإنسان وإن كان يحلو له الاستغناء والاستبداد، أحوج ما يكون إلى مرايا الآخرين المسطحة والمحدبة والمقعَّرة، ليرى فيها أدق تفاصيله. وهل أحد يظن أنه في غنى عما في صدور الرجال؟. والله يقول: - ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ ويقول: - ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾. وهذا موسى عليه السلام كليم الرحمن، ومن أولي العزم من الرسل يقول

---

(١) تاريخ المقال: ٩/ ١٠/ ٢٠١٢

للخضر: - ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦] . وكم يهديك من لا تُلقي له بالاً، [ويأتيك بالأخبار من لم تزود] . ومن لطائف المتداول، أن عالماً نِحْريراً متبحراً، تضرب له أكباد الأبل، سئل عن ميراث الخنثى المشكل، فلم يحر جواباً: أيكون ذكراً أم أنثى؟، وكان قريباً منه رجل معتوه، فلما رأى ارتباك العالم، قال بصوت خافت: [أتبِعْ المالَ المبالَ] فتنبه العالم، وأفتى بأن يُنْظر من أين يبول الخنثى، لتتحقق أنوثته، أو ذكورته. ومن الصفاقة والحماقة أن يستبد المتعالم ببضاعته المزجاة، أو أن يركن العالم الفذ إلى ما يتداوله أنداده من أحكام:-

فكلا طرفي قصد الأمور ذميم

وها نحن نفاجأ كل يوم بنسف مسلمات توارثناها، على أنها مما علم من الدين بالضرورة، ولم يخطر على بال أحدنا أنها ستكون يوماً ما مرجوحة، وأن في بطون الكتب ما ينقضها عروة عروة:- «**ومن يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً**». والْعَظُّ بالنواجذ على السنة اعتقادًا وعملًا من محققات السلفية.

وأمام كل احتمالات الاختلاف، فإن علينا أن نتفسح للمجتهدين من العلماء، والمتميزين من المحققين والثقات، وألا نضيق بالتساؤل، ولا بالمخالف، إذا كان متأولاً. فهل ضاق الرسول ﷺ من الشاب الذي طلب منه أن يبيح له الزنا؟

وهل ضاق الرسول ﷺ مما يخطر على بال أحدنا من أسئلة، حتى ولو كانت عمن خَلَقَ الله؟

ومع لينه ﷺ، ورفقه بأمته، فهو من أبرع المفاوضين، وأشد المحاورين، والمجادلين رباطة جأش. ولعلنا نذكر جدله مع المشرك [عتبة بن ربيعة]، فقد جاء في الحديث عن أبي عبد الله الحافظ، "قال: قال محمد بن كعب حُدِّثْتُ أن عتبة بن ربيعة، وكان سيداً حليماً، قال ذات يوم، وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالس وحدهْ في المسجد: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى هذا فأكلمه، فأعْرِضُ عليه أموراً، لعلَّه أن يقبل منها بعضها، ويكفَّ عنا، قالوا: بلى يا أبا الوليد. فقام عتبة، حتى جلس إلى رسول الله ﷺ، فذكر الحديث بطولة وما قال له عتبة، وما عرض عليه من المال والملك وغير ذلك، فلما فرغ عتبة، قال رسول الله ﷺ: «**أفرغت يا أبا الوليد**» قال: نعم. قال: «**فاسمع مني**». قال: أفعل.

فانظر كيف استطاع الرسول ﷺ، بكل رحابة صدر، ورباطة جأش، ورجاحة عقل، أن يصغي بكل هدوء إلى ذلك المشرك الجلد، الذي حاول أن يثنيه عن إبلاغ الرسالة، مقابل رئاسة ومال ونساء، وأن يدعه حتى فرغ من هرائه، بل لم يبادره بالرد، وإنما سأله: هل لديه مزيد قول؟ ودعاه بأحب الأسماء إليه: - «**أفرغت يا أبا الوليد**».

-فأين نحن من لغة التفاوض؟

-وأين نحن من ضرورة العدل مع الأعداء، والأصدقاء، على حد سواء؟

-وأين نحن من التوجيه الكريم:-

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾؟.

ومما تتداوله العامة، مما هو محسوب من التاريخ الشفهي زمن استفحال فتنة الإخوان في [نجد] قبيل [حرب السبلة] التي أنهى الله بها أخطر فتنة بين المسلمين في عهد المؤسس رحمه الله. أنهم كانوا يعتدون على كل مخالف بالسلب والقتل، وذات مرة، لقيهم ركبٌ، فسألوهم عما هم عليه من الاعتقاد. فقال ذكي ماكر من الركب: - [نحن مشركون] والله يقول: - ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾ إلى آخر الآية.

فعصموا أنفسهم من السلب والقتل، ولو قالوا: - نحن مسلمون، ولسنا من الإخوان، لكان مصيرهم السلب والقتل.

ولو قرئ التاريخ بالبصائر لا بالأبصار، لحسمت فتن كثيرة، ولكننا قوم تقع على سوادنا الأعظم مقولة: - [العرب لا يقرؤون، وإذا قرؤوا لا يفهمون] . فلْنُعِدْ قراءة الملل والنحل، والتاريخين الحضاري والسياسي، وسير أعلام النبلاء، لنرى مدى ما نحن عليه من جهل في تراثنا الذي سبقنا إليه المستشرقون، وحرفوه من بعد مواضعه. ولقد يسوؤني كثيراً ما أسمع، وأرى عبر القنوات من مناكفات فكرية وطائفية، وتنابز بالألقاب، وتسرع في التصنيف، ومجازفة في الأحكام، بحق مجتهدين، نختلف معهم، وحقهم علينا أن نتفسح لهم، ونحترمهم، ونجلهم. وكان بالإمكان أن نخفف من وطأة تطرفهم، لو أحسنا الجدل معهم، إذ كيف نضمن تراجع المخالف، ونحن نصفه بالزندقة، أو نحكم عليه بالتشيع، وهو مسلم موحد، يدعي انتماءه لأهل السنة والجماعة، ولديه غزارة في العلم، وقدرة على الاستنباط.

والمؤسف أن القنوات الفارغة، تستعدي أنصاف العلماء، والأحداث على علماء متبحرين، نقطع بأن ما يذهبون إليه مفضول، أو مخالف لمحققات السلفية، غير أن أخطاءهم لا تُخوِّلنا من تصنيفهم، ولا الحكم عليهم، ولا سيما أننا نثق بالنصر حين ندرأ بهم في نحور المارقين.

لقد كنت أتابع علماء أجلاء من آفاق المعمورة، وأعجب من تعصبهم لقضايا محسومة، وخوضهم في شُبَهٍ اهترأت من التقليب، ولكن هذا لا يخولني النيل منهم، ولا الحكم عليهم، ولا التسرع في تصنيفهم. وليس يمنع شيء من ذلك من الرد عليهم بالحكمة، والموعظة الحسنة، مع الاحتفاظ بقيمتهم، ومكانتهم، وأهليتهم للاجتهاد. وحين أحسُّ بعجزي عن التصدي والصمود، وامتلاك الأعصاب، ورباطة الجأش، فإن من الخير لقضايا أمتي أن ألوذ بالصمت، فالخروج إلى المشاهد بالإمكانيات الضعيفة، لا تزيد الأمور إلا خَبَالاً. وشهوة النقائض بضاعة الشعراء، وليست سمة العلماء، وبلادنا مثابة للناس، وأمنا، وإليها تهفوا أفئدة المؤمنين، وحين يتسم العلماء منَّا والمتعالمون بالنزق، والتسرع، والسخاء بالأحكام، على المخالفين، وتصنيفهم، نعطي صورة غير سوية، ولا سيما أن لكل عالم مريدين، ولكل نحلة أتباع، وخسارة العالم خسارة لأتباعه، ونحن في غنى عن صناعة الأعداء، وهل يضيرنا أن نكون بارعين في صناعة الأصدقاء، وتحييد من لم نستطع كسبه؟.

إن زمناً يفيض بالمتناقضات، وتستفزه ثورة المعلومات والاتصالات بحاجة إلى علماء ومفكرين يدرؤون عن بلادهم ويلات الفرقة والعداوة.

فَلْنُخَالِصْ الموافق، ولْنُخَالِقْ المخالف، فلربما يكون في رضاه دَرْءٌ للمفاسد، وجلب للمصالح. وهذا [أبو الدرداء] -رضي الله عنه- يتهلل في وجوه أقوامٍ، وإن كرههم قلبه.

فماذا لو امتثلنا قوله عزّ وجل: - ﴿وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ واستجبنا لقوله:

﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ﴾.

ماكان ضرَّك لو مَنَنْتَ بقراءة بريئة .. ؟[١]

عندما قلت في غمرات الانفعال: ليس هناك حضارة بريئة، حتى الحضارة الإسلامية. اشتط غضب الورعين، وثارت ثائرتهم. وكادت هذه المقولة ترهقني صعودا.

وتذكرت في ضجة التساؤل المقولة الراشدة:

(حدِّثوا الناس بما يعقلون، أتريدون أن يكذّب الله ورسوله)، مع أن مقولتي مقولة صدق، كما الشمس في رابعة النهار:

وليس ينفع في الأذهان شيءٌ

إذا احتاج النهار إلى دليل

والذين صَرَّحوا بالحقائق العلمية في غير وقتها المناسب، لقي البعض منهم حتفه. ومن قبل قيل: - (ماترك قول الحق لي صديقاً)، والحقيقة مرة، وثقيلة على النفوس، غير أن العاقبة حميدة للطرفين، ولكن بعض القراء نفعيون، أو متربصون، أو مزايدون. وهذا الصنف لايرجى لعداوتهم بُرْء.

ولأن الأسد في النهاية مجموعة خراف مهضومة، فإن الحضارات تتوارث التجارب الإنسانية، وماترانا نقول إلا معاراً أو معاداً من القول المكرور. ومن ليس له سلف يقتدي بهم، ويرث خصالهم الحميدة، فلن يكون له خلف عدول، يحملون رسالته. والرسول صلى الله عليه وسلم قال: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»، ولقد أثنى على (حِلْف الفضول)، واستعذب شيئاً من شعر الجاهلية، واستنشده، وتمنى رؤية بعض من سلف من الشعراء، وأثنى على شعر «أمية ابن أبي الصلت».

«وعباس محمود العقاد»، حين كتب عن «بلال بن رباح» مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم، استهل كتابه بمقدمة طويلة، كادت تستأثر بالأهمية، كما استأثرت (مقدمة بن خلدون) بأهمية تاريخه. وخلاصة ماتوصل إليه «العقاد» أن الإسلام لم يُشرِّع (الرق)، ولكنه هذبه، وحصر موارده، وعَدَّد منافذ العتق. وهو قد فعل مثل ذلك مع (الطلاق) و(التعدد) و(الإيلاء)، وغيرها، مما أقَرَّ من عادات الجاهلية.

وفي النهاية فإن الشريعة الإسلامية بكل ماتحمله من مقومات البقاء، والشمول، والعالمية، لبنة في قصر مُنيف، هو رمز الحضارة الإنسانية.

وتطلُّعي إلى القراءة البريئة، لبعض ما أكتب، مما يحمل الإشكاليات، والمتشابهات، كمن يلتمس في الماء جذوة نار، أو كمن يبحث عن الغول والعنقاء والخلِّ الوفي. ولما لم يكن للأمل حَدٌّ، فإن الأمل في أن نسعد، ولو للحظة واحدة بقارئٍ غير مبرمج، وغير مشدود بأمراس كتان إلى صم الطائفيات، والمذاهب، والأهواء.

والأماني قد لايتحقق أَيْسَرها، ولكن المتَمنِّي يعيش فيها زمنا رَغْداً، على حد قول الشاعر:-

مُنىً إن تَكُن تَكُن غاية المنى

وإلا فَقَد عِشنا بها زمناً رَغْدا

والكاتب المحكّك لكتابته، المُنَخِّل لآرائه، كلما أطلّ على قرائه، أقبلوا عليه يَزِفُّون بمناجلهم، ومعاولهم، وأدوات تثويرهم، ومقامعهم الحديديَّة، ليُحدِّدوا مايريدون، ويحمِّلوا

---

(١) تاريخ المقال: ١٦/ ١٠/ ٢٠١٢

النص مايشتهون. وهو إذ يرضى منهم قراءة ماتحت السطور، فإنه يمتعض حين يقوِّلونه مالم يقل، وكم من مظلوم لُويت أعناق نصوصه، وحُرّفت دلالاته، فصاح في ملئه:
(اقرؤوا ماتحت السطور، ولكن لاتقوِّلوني مالم أقل).
وهل يتطلع مُحِبٌّ للسلام مِثْلي إلى قراءة بريئة، وفي الناس من يحرف الكلم من بعد مواضعه، ويفتري على الله الكذب، على الرغم من وعيده لرسله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِاليَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوَتِينَ﴾؟.
فمن ذا الذي يتوقع السَّلامة، وكل إنسان مخبوء تحت لسانه، ولايُرى على حقيقته حتى يتكلم.
ومامن مقال أنخِله، وأحكِّكه، وأصنع فيه مايصنع أصحاب الحوليات في قصائدهم، ممن أُثِر عنهم إبداع القصيدة في أربعة أشهر، ومراجعتها في أربعة أشهر أخرى، وعرضها على النقاد في أربعة أشهر ثالثة. ثم الإفضاء بها إلى المتلقين. ومع ذلك تنطلق القراءات المتعددة، لتَعْبث في دلالاتها، وتنقصها من أطرافها، وتلحق بها القراءات التأويلية، لتحمِّلها من الدلالات مالا تحتمل، ولا تتقيد بالدلالات الوضعية، أو المجازية، بل تذهب إلى السياقات، والأنساق، والخلفيات الثقافية، ولَحْنِ القول، والمضمرات، والدخول في النوايا، والمقاصد غير المرادة. والله وحده المحصّل لما في الصدور، وهو وحده الذي يبتلي السرائر، ويعلم خائنة الأعين، وماتخفي الصدور.
ومن ذا الذي يملك إرادة «المتنبي»، وجنون العظمة عنده، ليقول بملء فمه:

أنام ملء جفوني عن شواردها
ويسهر الخلق جراها ويختصم

إننا مع الرِّقَّة، والهلع، نخاف على كلماتنا من التأويلات الجائرة، كخوف يعقوب على يوسف، وحين نرسل كلماتنا إلى القراء، نكون كـ«أم موسى»، حين تضعه في التابوت، ثم تلقيه في اليم. ولاسيما أننا لانريد إلا الإصلاح، ولكن سلطة القارئ تسلبنا حقنا، وتَحُول بيننا وبين الدفاع عن وجهة نظرنا، ولا تبالي بصيحات الاستعطاف.
وحين تحدثت عن تحولات مركز الكون النقدي، أشرت إلى سلطة المبدع، ثم سلطة النص، ثم سلطة القارئ. وأشرت إلى أن سلطة القارئ تُخَوِّله تحديد الدلالة، دون النظر إلى مراد الكاتب، بوصف المتلقي مبدعاً رديفاً، يتنفس من رئة المقال، وسلطة المتلقي آخر صيحة في عالم النقد.
وليس لرجل مثلي، أن يجزع من تحريف كلامه، وكلام الله لم يسلم من تخرصات المفسرين، والقول على الله بغير علم. والله إذ تعهد بحفظ القرآن نَصّاً، لم يتعهد بحفظه فَهْماً ولا تأويلاً.
وذات مرة عَنَّ لي أن ألتمس تحريفات أهل الأهواء، والملل، والنحل في التفسير، وأن أستعرض (الرسائل العلمية) التي تقصت شطحات المفسرين من معتزلة، وشيعة، وجهمية، وقدرية، وصوفية، ومرجئة، وأسطوريين. وحين فرغت من التنقيب في ذلك العبث، تنفست الصعداء، وحمدت الله على السلامة، وأيقنت أن تلك القراءات غير البريئة، التي تتعرض لها مقالات المفكرين، والسياسيين، وسائر الأدباء والكتاب، لاتساوي شطحة واحدة من شطحات المفسرين المبرمجين من أهل الأهواء، والملل، والنحل، وبعض المتطفلين كـ(شحرور)، ومن قبله (طه حسين) و(محمد خلف الله)، ومن بعدهم (أركون)

و(أبوزيد)، ولفيف ممن أضلهم سامري الإستشراق، ودعك من مناهج النقد الحديث، وإماتتها للمؤلف، لتتحكم في الدلالة، كما هي عند (البنيويين).

ويكفي أن يقول الضالُّون: إن الجبت والطاغوت في القرآن هما «أبو بكر» و «عمر»، وأن ثاني الأثنين في الغار، ليس هو «أبوبكر»، وأن البقرة المأمور بذبحها، هي «عائشة»، وأن «عليا» رضي الله عنه، ذكر في القرآن أكثر من مئة مرة، بصفاته الدالة عليه، وليس باسمه، وأن حديث الإفك نزل بحق «مارية القبطية». فضلاً عن تحريف الأسماء والصفات، والتخبيص في الإعجاز العلمي، والقصص القرآني. والذين طنْطَنوا حول (المنتمي) و(اللاَّمنتمي)، ﴿كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾ فما من أحد إلا ولَه انتماؤه.

إن القراءة البريئة المنشودة أضغاث أحلام، إذ مامن قارئ إلا هو مؤهل لقراءةٍ معينة، أُعد لها، وهو بقراءته يتعمد تحميل النص مايريد توصيله، مما يحقق هواه، لا مايريده الكاتب. وحتى لو صاح الكاتب بملء فمه، لتبرئة نفسه من معطيات تلك القراءات التآمرية، لقيل له: - (قد قيل ماقيل إن صدقاً وإن كذباً).

و»المتنبي» مر على قوم يتجادلون حول بيت من شعره، فراعه فهمهم الخاطئ، وحين سئل عن القول الفصل، لم يجرؤ على تحديد مراده، بل ندبهم إلى ذلك الشيخ «الأعور»، ويعني به «ابن جني»، حيث قال لهم: (اذهبوا إلى الشيخ «الأعور» فإنه أعلم مني بشعري، وإنه يُقَوِّلني مالم أقل).

والذين كتبوا عن مشكل القرآن، والحديث، ومتشابههما انطلقوا من مناهجهم المذهبية، فـ«ابن فورك» في تناوله لمشكل الحديث، يختلف عن «ابن قتيبة». و»القصيمي» قبل إنحرافه، حين كتب عن الأحاديث المشكلة، يختلف عن ذاته بعد إنحرافه. و«الغزالي» و«البوطي و«أبو شهبة»، عندما كتبوا عن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، إختلفوا فيما بينهم، لأن كل واحد منهم ينتمي إلى فكر معين، ومن ثم يحاول توظيف السيرة، لتكون عضداً لرؤيته، و«محمد حسين هيكل» حين كتب عن (حياة محمد) أراد تكريس السنن الكونية، ونفي المعجزات النبوية، وقد تصدى له «القصيمي» قبل إنحرافه، وفنَّد آراءه، ونقضها عروة عروة، ولو عاد «القصيمي» إلى تلك التصدِّيات، لنقضها على نفسه، علما بأن النص هو النص، والمراد هو المراد. وهذه التحولات تؤكد استحالة القراءة البريئة، التي نتفيأ ظلالها، ونود لو استرحنا فيها، ولو ساعة من نهار. ولكن أنَّى لنا أن نجد قارئاً منصفاً، يبحث عن الحقيقة، ولا يهتم بالانتصار، وسيان عنده أن يُجري الله الحق على لسانه، أو على لسان خصمه. فضالته في النهاية الحق، وحين يظفر به، لا يسأل من أين أتى.

وفي النهاية، هل لأحد منا أن يُقرأ، ولو لمرة واحدة، قراءة بريئة، فيسعد بأنه بلغَّ رسالته، وتلقتها أيدٍ أمينة؟. أقول ماتقرؤون، وأعلم أنكم ستتساءلون:

*أي مقال يريد؟

*وأي قارئٍ يعني؟

أرأيتم إنْ أصبح نفطكم غورا .. ؟ (١) [(١)]

من التأويلات المضحكة المبكية - وشرُّ البليّة ما يُضحك - قول "الكليني" الشيعي، في تفسير قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾، أي: - "إذا غاب عنكم إمامكم، فمن يأتيكم بإمام جديد". وحين نستعير بعض تلك الآية التحذيرية، لمعالجة معضلة اقتصادية، فإنما نعني ما نريد.

فـ[دول الخليج العربي] يشكِّل النفط لمجمل كياناتها، ما يشكِّله الماء لكلِّ وجوه الحياة الإنسانية، ثم هي إلى جانب الاتكالية، لا تتوفر أرضها على مقوّمات الحياة السَّويَّة، فهي في مجملها صحراء مشمسة.

وحين يتجذّر النفط في حياتنا بهذا القدر المخيف، وعلى هذه الأوضاع المفْضُولة، فإنّ علينا أن نفكر ونُقدِّر، لكيلا نظل مرتهنين له، بحيث نكون معه وجوداً وعدماً.

وإذ يصطلح الخليجيون مع أئمتهم، وولاة الأمر فيهم، فإنهم مضطرون إلى التفكير في تعدُّد مصادر رزقهم، ومن الخير لهم تنويعُها، وتوازن هذا التنويع، وإشاعة ثقافة الاستهلاك المرشّد، فالمستفيض عن الخليجيين البذخ، والتبذير، واستنزاف الثروات بنهم شديد.

والعقلاء المجرّبون من الناس استباقيون، يضعون لكل احتمال خطته، قبل حدوثه، حتى لا تروعهم المفاجآت، فيهتاجون عُزْلاً من كلِّ الواقيات.

ثم يكونون كذلك العَلِّ الألفَّ، الذي عناهُ الشاعرُ بقوله:

ولسْـــتُ بِعَـــلٍّ شَـــرُّه دونَ خيـــرِهِ
أَلَـــفَّ إذا مـــا رُعْتَـــهُ اهتـــاجَ أعْـــزَلُ

والكوارث، والمصائب، والأزمات، التي تجتاح العالم، لا يقتصر حُدوثُها، ولا ضررها على المتسبّب وحده.

والذِّكر الحكيم يناشد المؤمنين اتقاء الفتن التي لا تصيبنَّ الذين ظلموا خاصة.

كما أنّ الكوارث الطبيعية لا تكون بالضرورة نكالاً، ولا عقاباً.

إذْ ربما تكون ابتلاءً، للنظر في أسلوب المواجهة.

أيصبر المبتلى، ويحتسب الأجر على الله، أم يجزع، ويناكف القدر؟.

ولأنّ الله جَلَّ وعلا يعظ عباده الصالحين بالابتلاء، ليعتبر أولو الألباب منهم، ويعاقب المذنبين بالعذاب للتمحيص أو للإنذار، فقد وجّه بالاستعانة بالصبر والصلاة عند الابتلاء، وهو إذْ علم أن صَدْرَ رسوله، يضيق بما يقول المناوئون، فقد ندب إلى التسبيح بحمده، والسجود له، لتفريج الكربات.

والحياة قائمة على الكدح والكَبَد، واللهو واللعب، والكيد والمكر: ﴿فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾، والمؤمن الحق من يكون بين الرجاء واليأس، فلا يأمن مكر الله، ولا يقنط من رحمته.

من هنا تَبَدّى لي هذا السؤال:-

ماذا سنفعل، لو غار النفط، أو كسد، أو نُحِّيَ بالبدائل عقاباً، أو ابتلاءً، أو تحذيراً، أو تحوُّلاً طبعياً في الحياة؟.

---

(١) تاريخ المقال: ٢٣/ ١٠/ ٢٠١٢

وما الحياة الدنيا في تحوّلاتها إلاّ كالمرآة في كف الأشل. والله وحده الصمد الذي لم يلد، ولم يولد.

فكل شيءٍ قابل للتَّغيُّر والتبدل، وكل حَدَثٍ متوقّع. وليس من باب التشاؤم أن نضع في حسابنا مثل هذه الاحتمالات.

والماء الذي جعل الله منه كلَّ شَيْءٍ حي قابلٌ للنضوب، ونحن - ومن باب الاحتياط - نحاول إشاعة ثقافة الترشيد، قولاً وعملاً، وذلك أضعف الحلول، لمواجهة التصحُّر.

والمعنيون يخوِّفون الناس، ويستحثُّونهم على حفظ الثروة المائية. إذاً نحن أمام احتمال نضوب الماء، ولم يستبعد أحد مِنَّا هذا التخوُّف، حتى الغرب يتطوّع بتحذيرنا، وما أحد حذّرنا من نضوب النفط، مع أنّ نضوبه أكثر احتمالاً من نضوب الماء، والخبراء متفقون على نضوب النفط، مختلفون حول نضوب الماء.

فلماذا نصاب بالهلع من نضوب الماء؟. والله قد دحى الأرض، وأخرج منها الماء والمرعى.

وفي فترة من فترات الاندفاع غير المحسوب، استُدْرِجت إمكانياتنا، لنكون مصِّدرين للقمح، مستوردين للمعدّات الزراعية. وبدون مقدِّمات، أصبحنا مستوردين للقمح، مصدِّرين [للخردوات]، لا لشيء إلاّ الخوف على مخزون الماء، حيث قبلنا بهذا التخويف، وتحوّلت المعدّات التي استوردناها بعشرات المليارات إلى كتل حديدية، تتآكل مع الزمن، وتحوَّلَتْ آلاف الأُسَر من الأرياف والقرى إلى المدن مَعُولةً، بعدما كانت عائلة، تبحث عن العمل، بعد تقليص الزراعة. إذاً نحن أمام خوف محتمل، ومشروع، ولا بد من التَّحرُّف لمواجهة خوف آخر، أكثر احتمالاً.

-وكيف بنا إذا غار الماء ونضب النفط؟.

ربما يختلف الاقتصاديون حول البدائل، ولأنني أجهل حقائق معارفهم، لعدم تخصُّصي، فإنّ من الحصافة العدول عن التفاصيل، ولو اشتغلت بالمتداول من الآراء، لكان بالإمكان استقصاء شطرٍ من تطلُّعات المواطنين الوجلين، إذ لابدَّ من وضع حَدٍّ لبطر المعيشة، ونهاية للترف المذموم في أحد عشر موضعاً من القرآن الكريم.

ولعلّ من أوائل المتداول استغلال الطاقات: [النووية] و[الشمسية] و[الهوائية]، لتكون رِفْداً للطاقة النفطية، ولاسيما أنّ المملكة تستهلك حسبما أسمع من إحصائيات أكثر من مليوني برميل يومياً، وهذا الرقم مخيف، إذ ربما يأتي يوم لا تستطيع البلاد فيه إنتاج ما يسدّ حاجتها من الاستهلاك المحلي. والمليونان المستهلكان محلياً، لو قُوِّما، لكانت قيمتهما تعادل ميزانية ست دول أفريقية. وقدرة الدولة اليوم على توفير هذا الكم الهائل للاستهلاك، لا تمنع من التحرُّف لبدائل تقلِّص الكمية، ولو إلى النصف، وذلك ممكن، وبخاصة في المناطق الجبلية والصحراوية، ذات الحرارة الشديدة، إضافة إلى التوسُّع في إنشاء [السكك الحديدية]، و[الأنابيب الأرضية] الناقلة، لتقليص الشاحنات، وحفظ الطرق، وتوفير الطاقة.

ولكي تصبح الطاقة البديلة قليلة التكلفة، مألوفة الاستعمال، لابد من إيجاد مصانع للشرائح والأجهزة المنتجة للطاقة البديلة عن النفط، ودعم المُصَنِّعين والمستثمرين لها، وبيعها بأسعار مغرية، حتى تشيع تلك الطاقة، ويألف الناس استعمالها.

أمَّا [الطاقة الهوائية] فقد عرفناها في طفولتنا، وشاهدناها على الآبار [الارتوازية]، ويحسن استعمالها، لاستخراج المياه السطحية على الأقل، لرَي الحدائق، والمسطحات الخضراء، وكذلك نقل مياه السُّدُود، ومياه الصرف الصحي إلى مزارع الأعلاف المقامة حولها، وإغراء أصحاب المزارع الصغيرة، والاستراحات، ممن يعتمدون على المياه السطحية من استعمال الطاقة الهوائية، لتوفير المخزون، وتقليل التلوث.

أما [الطاقة النووية] فمن الأفضل استغلالها للتحلية، ثم التوسُّع فيها لكافة الأغراض السلمية، وإن كانت في البداية بالغة التكاليف، وتشكِّل حساسية عالمية.

وحين لا أكون متشائماً، ولا مرجفاً في المدينة، فإنّ واجب أهل الحل والعقد أن يرتّبوا أمورهم على أسوأ الاحتمالات.

أرأيتم إن أصبح نفطكم غورا .. ؟ (٢) [(١)]

وأخذ الحذر مطلب إسلامي، ولاسيما أن الواقع العالمي مأزوم من كل الوجوه، وأن المصالح تسيّر السياسة. وإذ نكون آمنين في سِرْبِنا، متعافين في أبداننا، متوفرين على أقْواتنا، فإن من أوجب ما يجب علينا التلبس بالشكر: قولا وعملا:

﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾، والتحرف الحصيف لتحري البدائل، وتمحيص الخيارات، فالمصدر الواحد كالحبل الواحد، قد يَنْبَتُّ في ساعة العسرة، والحبال الثلاثة أفضل من الحبلين، لأنها تبعث على الثقة. وما لذي يمنع من التفكير الجاد في البدائل في الرخاء، لتكون عضداً لنا في ساعة العُسْرة، على افتراض أن النفط مُعَرَّض للنفاد، أو البدائل الأيسر، أو الأرخص، أو الكساد، وهي آفات متوقعة، فعلى الرغم من أن زيادته مواكبة لزيادة السلع، فإن المستورد جاد في اكتشاف البدائل.

وقد تعرضت دول أقوى منا لآفة من هذه الآفات، أدى بها إلى اختناقات معيشية، وأزمات اقتصادية، لم تستطع الخلوص منها.

وهذا "القطن" يتعرض للكساد، لوجود البدائل. وحتى لو كانت [الطاقة النفطية] أرخص من غيرها، فإن تعويد الناس على تنويع المصادر، وإشاعة ثقافة البدائل تمهيداً لمواجهة الاحتمالات السيئة أفضل من الركون إلى مصدر واحد للطاقة والرزق.

إننا اليوم نمتلك أكثر من خيار، وقد نفاجئ العالم بمبادرات لا تخطر له على بال، ونحن اليوم، وفي ظل التضخم، نتعرض لفوائض في الميزانية، تضطرنا إلى البحث عن مشاريع، ربما لا تكون من الأولويات، وننسى أنَّ بلادنا صحراوية جافة لاهبة. إن بإمكاننا التحرف لإنشاء غابات كثيفة، وبحيرات صناعية، وذلك بنقل مياه البحر عن طريق أنابيب أو قنوات، يُدْفع الماء فيها بالطاقات البديلة إلى الصحاري الشاسعة، بحيث تساعد على الرطوبة، وقد تتم التحلية منها، وتنمية الثروة السمكية بكل أنواعها.

لقد سمعنا من قبل بمحاولة نقل [جبال الثلوج] عن طريق البحر، وهي رؤية من تلك الرؤى التي لم نستوعبها، ولم نحاول مناقشتها، أو منافستها ببدائل أخرى. وبلادنا إذ تكون صحراءً محاطةً بالبحار فإن من الحصافة أن نخترقها بالقنوات، وأن نصدعها بالبحيرات، وماذا جنت مصر من [قناة السويس] .

ومما يُعقِّد الاشكالية أن المملكة تواجه انفجاراً سكانياً، وتُمنى بتركيبة سكانية عمرية لم تتعرض لها أي دولة في العالم. وهذه الظاهرة مخيفة، وتحتاج إلى مزيد من التفكير في إيجاد مجالات للعمل المنتج، وليس للبطالة المقنعة، فالمملكة دولة شباب، إذ تشكل التركيبة السكانية الشبابية فيها نسبة غير متوازنة. والشباب مقبلون على الدنيا بكل شهواتهم، وتطلعاتهم، وطموحاتهم، فهم يعيشون مرحلة التكوين القائمة على المطالب الملحة، ومن ثم يحتاجون إلى الدراسة، ولقد استطاعت الدولة حل هذه الإشكالية كَمًّا على الأقل، وهم بحاجة إلى مجالات العمل والسكن ولما تزل تلك الإشكاليات مستحكمة الحلقات. فالعمل لا يمكن أن يُحل بالتوظيف الحكومي، لأنه لا ينهي الإشكالية، ولكنه يزيدها تعقيداً وتراكمية. فالشباب بهذا الحجم، وبهذا التكاثر، بحاجة إلى عمل منتج، تتحول فيه الأمة من معولة إلى عائلة، ومشكلة البطالة لاتحل بإحداث وظائف مفتعلة في الأجهزة الحكومية، على شكل كتبة، لاستيعاب الفائض من الخريجين، دون أي [استراتيجية]، تضع للإنتاج أهمية.

---

(١) تاريخ المقال: ٣٠/ ١٠/ ٢٠١٢

ولعلنا ونحن نشير إلى معضلة التركيبة العمرية الأكثر تعقيداً أن نشير إلى معضلة أخرى، وهي استغلال الرؤية الإسلامية في التعدد والإنجاب. وأي رؤية لا تؤخذ بضوابطها ومحققاتها الإيجابية، تتحول مع الزمن إلى عقبات في سبيل الإصلاح. فدعوة الرسول- ﷺ- لمستطيعي الباءة من الشباب إلى الزواج، وتفضيله للمرأة الودود الولود، وإباحته للتعدد، تحتاج إلى قراءة واعية. فالزواج مسؤولية، والإنجاب مسؤولية، ومتطلبات التربية والتعليم باهظة التكاليف، ولكل مسؤولية تبعاتها. وجدير بمن أقدم على ذلك أن يحسب للمسؤوليات حسابها المناسب. فالأبناء يحتاجون إلى تربية وتعليم وحماية ومتابعة. ولاسيما أن الزمن موبوء، وبلادنا مستهدفة بالمخدرات، والأفكار الضالة، وموبوءة بمشاكل العمالة، ومهددة بحوادث المرور.

وفوق هذا فإن كل الكماليات الثانوية تتحول إلى ضروريات أولية، ومهما ارتفعت الدخول فإن أبوابا من الكماليات والضروريات تُكسْر، ولا تفتح، ومن ثم تظل مشرَّعة، لتشكل ضغطاً على الدخول، وكل من لاقيت من موظفي الدولة يشكو وضعه المالي، وهذه المطالب الملحة قد تحمل على فقد الأمانة، والركون إلى مصادر دخل غير مشروعة.

وإقدام الدولة على إنشاء "هيئة لمكافحة الفساد" دليل على تفشي تلك الظاهرة. والصحابة رضوان الله عليهم المتمثلون لأمر الله، كان بعض منهم يعزل والقرآن ينزل، كما في الأثر الصحيح، وفي متون الفقه: - [يجوز إلقاء النطفة بدواء مباح قبل الأربعين] . وهذه الشواهد من التشريعات المبكرة تؤكد إحساس خير القرون بأهمية تنظيم النسل.

وفي ظل هذه التشريعات، والإشارات فإن على الجهات المعنية، وهي تواجه عدة أزمات، أن ترتب أمرها، لتواجه النوازل بما يليق بها، واستجابة الأمة مرتبطة بإشاعة ثقافة البدائل:

فأزمة الطاقة.

وأزمة البطالة.

وأزمة الإنفاق.

وأزمة الانفجار السكاني.

وأزمة السكن.

لا يمكن تفاديها بالمسكنات والتأجيل إذ لابد من تحرف معرفي، يحسم المشكلة، ويمكن من التوجه لغيرها.

إننا في مجمل مواجهاتنا لانحسم المشاكل، ولكننا نؤجلها بالمهدئات. ولقد نكون اليوم قادرين على التأجيل، ولكننا في مستقبل الأيام لن يتأتى لنا الحل المؤقت، وإن كان المثل الغربي يقول: "لا يدوم إلا المؤقت".

وتنويع مصادر الطاقة له عوائد كثيرة من أهمها: تعدد مصادر الدخل، وتوفير فرص العمل الإنتاجي، وليس الاستهلاكي.

فلنبادر إلى التفكير الجاد، ولنَسْع إلى تشكيل هيئات، ومنظمات، وخبراء، ومستشارين، للبحث عن البدائل، وفك سائر الاختناقات، فالزمن موات، والأوضاع مناسبة، والجبهة الداخلية متصالحة مع السلطتين التشريعية والتنفيذية، ومالم نتداركه اليوم لن نكون قادرين على تداركه غداً.

تهيب تفكيك النصوص مظنّة الضمور الفكري .. ! (١)[1]

عرفت علماء، وجالدت أدباء، وتناوشت مع مفكِّرين، وناكفت ساسة، وراوحت بين سويعات لاهية في القراءة، وأخرى عازمة، وخلوت بكتب غَيَّرت مجرى التاريخ، وخضت مع الذين خاضوا في لجج الأفكار والمذاهب، ومضائق النِّحل، وعويص الملل.

وعجبت من علماء فرُّوا من كتب الخصوم فرارهم من الأسد. وتَرَضَّيت على (حذيفة بن اليمان) الذي كان يسأل رسول الله ﷺ عن الشر، مخافة أن يقع فيه. وليس متهوِّكاً من سمع رأي الخصوم.

وقول المبلغ عن ربه لـ(لابن الخطاب) رضي الله عنه، حين رأى في يده ورقة من التوراة، لا يعني المنع من سماع الرأي الآخر. فسماعه تحقيق للقاعدة الأصولية: - (الحكم على الشيء فرع عن تصوُّره).

وفوق هذا، فليس هناك شرٌّ محض، ولا خير محض، إلَّا ما جاء به المعصوم عن ربه، مما هو قطعي الدلالة والثبوت. فالحياة خليط من الخير والشر. والحكم مرتبط بالتغليب، على حدِّ قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩] .

وعلى ضوء ذلك، لا تخلو نحلة من مقصد حسن. والحق ضالّة المؤمن، والشيطان يَصْدق، وإنْ كان كذوباً. ولقد يُؤْمِن لسان الكافر، ويكفر قلبه، وكل المذاهب المادية تتقاطع مع بعضها، وما من نحلة إلاّ وتغرف غُرْفَةً من معين الإسلام.

ولقد قلت من قبل: - ليس هناك حضارة بريئة، فكل مفكِّر ينشد الخير لذويه، ومن ثم يُنَقِّب في الحضارات عما يراه مفيدًا، والإسلام ينشد الخير للإنسانية كافة، ورسوله جاء لإتمام مكارم الأخلاق. والمفكرون ورثة حضارات سادت، ثم بادت، وجُلُّ رؤيتهم مستلبة من تراث الحضارات البائدة.

وفي كل لحظة من لحظات التأمُّل، ومراجعات الحساب، تتبدّى للمتابع الحصيف إخفاقات، وتلوح له تجليات، تحمله على الإيمان بأنّ لكل شيء بقية، لم تأت بعد: (... ويأتيك بالأخبار من لم تزود).

ويظل صانع هذه الأشياء إنساناً محدود الإمكانيات، والتنبوات: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨] . ولهذا فهو يُجلِّي في مجالات، ويخفق في أُخرى. والكمال المطلق في النهاية لبارئ الكون: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [سورة النساء: ٨٢] . ويأبى الله إلاّ أن يتم نوره، ونور الله هنا كلامه.

وما من متحدث في قوم، أو مُحَبِّرٍ لرأي، إلاّ تمنّى بعد الإفضاء بما لديه، لو تريّث، وراجع، واستشار، واستخار، قبل أن يبدي رأيه للناس. وما من مؤلِّف إلا هو مُستهدف. والرسول ﷺ اختلف مع أصحابه، والصحابة اختلفوا فيما بينهم، وأئمة المذاهب تفرّقت بهم السبل. والقرآن حمَّال أوجه، والنص المفتوح مظنَّة الاختلاف، ومن كل هذا تراكمت

---

(١) تاريخ المقال: ٦/ ١١/ ٢٠١٢

المعارف، وتنوّعت المفاهيم، وانفتحت شهية العلماء على البحث عن رؤى وتصوُّرات متباينة.

ومن تصوّر أنّ قوله الفصل، وأنه لا معقِّب لقوله، فقد عزل نفسه، وعطل مواهبه. كما أنّ مزيد الإعجاب بالذات موهن للعزمات، ومشتت للنظرات، وفاصل بين الذات والآخر. ولقد قرئ كتاب أحد الأئمة عليه - وأظنه (الشافعي) - عِدَّة مرات، وفي كل قراءة يزيد، وينقص، ولما ملَّ من التعديل، صاح في طلابه: (أبى الله أَلَّا يتم إلاّ كتابه).

والعلماء الأشداء يرفضون الإذعان والتسليم للرأي الفطير، وكلمتهم التي امتطتها المتردية والنطيحة: - (نحن رجال وهم رجال) كلمة لها ما بعدها، ولكنها ليست مَقُولة حق مع كل من ادعاها.

ومن تعالى على النقد والمساءلة، فهو أشبه بالدخان، تعلو به خفته. و(عقدة الأبويَّة) ليست وقفاً على العامة، فالوجلون ينكفئون على ما توارثوه، ثم لا يتيحون للمقتدرين منهم فرصة البحث عن الأجدى والأهدى. وفترات التخلُّف والجمود والانحطاط هي الفترات الموبوءة بالاجترار، والتشبُّع بمقولة: (ما ترك الأول للآخر شيئاً).

والسلفية التي أدين الله بها، لا تمت للمقلّدين بصلة، ولكنها تصدر من النص التشريعي، الممتثل لتوجيه الرسول ﷺ: «**عليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء الراشدين المهديين، عضّوا عليها بالنواجذ**» أو كما قال.

وإغلاق باب الاجتهاد مؤذن بفساد كبير، وقد تصدّى لهذا الفَرَقِ فريق من العلماء. فالأُمّة تُمْنَى بنوازل، تحتاج إلى أحكام، والأحكام كامنة في النصوص، ولا يجليها لوقتها إلاّ العلماء الجريئون بإمكانياتهم، لا بدعاويهم.

ومتى سلَّم العلماء لمن سلف، واكتفوا بالنقل والتقليد، جمدت الحياة، وأسنت مواردها. والمحطات المضيئة في حياة الأُمّة، هي لحظات الانتفاضات الفكرية المحسوبة، انتفاضات المتضلّعين من العلم، المتوفّرين على العقل، المتمكنين من البصائر، والمؤهّلين للاجتهاد.

وكم من عصر برز فيه لفيف من العلماء والمفكرين، أصبح مرحلة مفصلية في حياة الأُمّة، بدت فيه التحوُّلات، وصححت فيه المسارات، وأعيدت مراجعة الثوابت والمسلّمات.

ولقد بشّر الرسول ﷺ بالعلماء العدول، الذين ينفون عن الدين ما علق به. كما بشّر بالمجدِّدين على رأس كل مئة سنة. فحملة الدين من كل خلف عُدوله، ممن ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين. وهؤلاء لا يمكن أن يكونوا مقلّدين.

فنفي التحريف والانتحال والتأويل الباطل، لا يتأتى لمن يجترون قول من سبق، لأنّ التحريف والانتحال والتأويل من ذلك الإرث الذي تعاقب عليه المقلّدون، وسلَّموا له. والتاريخ الحضاري للأُمّة الإسلامية مرَّ بفترات مضيئة، برز فيها مجدّدون، أحيوا موات السنّة، وصقلوا مرايا الدين، وأشعلوا في النفوس الحماس، لحماية جناب التوحيد، وامتثال أمر الله.

تهيب تفكيك النصوص مظنّةُ الضمور الفكري .. ! (٢) [(١)]

وفيما أنا أتصيد الكلمات الحُبلى بكل عجيب، تبدت لي منارات هداية، وكنفُ علم، ظلت كما لو كانت حية حياة سوية، وإن غابت أجسادها.

-وهل الأجساد إلا حفنة من تراب، منه خلقت، وإليه تعود، و[الذكر للإنسان عمر ثاني]، فالخالدون والعباقرة يظلون منارات تشع بالنور، وإن كانوا عظاماً نخرة.

والتاريخ الحضاري للأمة الإسلامية مليء بالشخصيات العظيمة، في علمها، وسيرها، ومبادئها، ومواقفها الشريفة. وإن اختلف الرأي حولها، إذ ما من عالم إلا هو راد ومردود عليه.

فأين نحن من [ابن عبد البر] و[ابن حزم] و[الذهبي] و[ابن تيمية] و[ابن عبد الوهاب] و[الألباني] وآخرين غيروا مجرى التاريخ، وخلدهم اجتهادهم، وما توصلوا إليه من مفردات، واختيارات، وتمحيص للنصوص، ونفي لما علق بالدين مما لا يتفق مع مقاصده، وصولات وجولات في كافة فروع العلم.

وكيف لا يختلف الرأي حول هذه الشوامخ، وشواهد العبقرية تكمن في الاختلاف.

فـ[العقاد] حين كتب عَبْقرِيَّاته، لحظ ظاهرة تلازم العبقرية، هي [الاختلاف] حول تقويم العبقري. وضرب مثلا بـ[علي بن أبي طالب] رضي الله عنه. فقد أحبه قوم حتى عبدوه، وكرهه آخرون حتى قتلوه، ولقد أشاد [قَطَرِيُّ بن الفجاءة] شاعر الخوارج بقاتله [ابن ملجم] - قبحهم الله جميعاً- وظل ابن أبي طالب عبقرياً في كل شيء رضي الله عنه، وأرضاه.

ومشاهير العلماء، ورواد النهضة، وزعماء الإصلاح، والخالدون، يمرون بمحن، يشيب من هولها الوليد، لا لشيء، إلا أنهم استخدموا عقولهم، ونقبوا في النصوص عما غاب عن سلفهم، وخرجوا بمسلمات وثوابت، لم تكن حاضرة في أذهان من سبق. ومن جهل شيئاً أنكره، حتى لقد أُلِّفت كتب في تراجم الممتحنين في أفكارهم، وعقائدهم.

وأين نحن من محنة خلق القرآن الكريم، وما لقيه إمام أهل السنة [أحمد بن حنبل] رحمه الله؟

وتغليب السلامة عند من تتوفر فيه شروط الاجتهاد، قد يفوت الفرص على العلماء والمفكرين، وبخاصة حين لا تؤدي المغامرات إلى فتن عمياء، تُخِلُّ بالأمن، أو تصدّع وحدة الأمة، أو تفرق كلمة العلماء، ومن المعلوم أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح.

وما أكثر الذين تهيبوا تقحم المعضلات، وغلبوا جانب السلامة، فكان أن طواهم النسيان:

ومن يتهيب صعود الجبال
يعشْ أبد الدهر بين الحفر

والتفكيك الذي أتوسل به، وأراه من سبل الهداية، هو البحث عما تَطَلَّعَ إليه المبلِّغ عن الله، حين قال: «**فَرُبّ مُبَلَّغ أوعى من سامع**». وليس ما يعنيه المفككون الماديون المتعلمنون، أمثال [أركون] و[نصر حامد أبو زيد] وأضرابهم، ممن يحمّلون النصوص ما لا تحتمل، ويقوّلونها ما لم تقل، ويدنّسون المقدس، ويؤنسنون الوحي.

---

(١) تاريخ المقال: ١٣/ ١١/ ٢٠١٢

ولربما يكون من حق المتلقي أن يمنح المصطلح المُتَرْجَم مقتضى ينسجم مع متطلبات رؤيته الفكرية، ونسقه الثقافي. ذلك أن ترجمة المصطلح إلى كلمة تفكيك، أو تشريح، أو تقويض، يرتهنها للدلالة الوضعية للكلمة المستعملة.

ثم إن المصطلح حين انتقل من حضارة إلى أخرى، أصبح مضطراً للجناس، بحيث يتخلى عن شيء من مقتضياته. وإن كنت في بعض تصدِّياتي للمسترفدين، أذكرهم بمقاصد المخترعين للمصطلح، ولكن هذه الرؤية قد تُحَلْحِل موقفها، وتساير بعض المبررين للأخذ ببعض المناهج الوافدة، بعد تهجينها، متى حسنت النوايا، وسلمت المقاصد، وأمنت الشبهات، واتَّسم المُسْتَرفِد بوعي حضارته ومحققاتها.

ولما لم يكن المقام مقام تحرير لهذا الاختلاف حول مشروعية تفريغ المصطلح من محتواه، وملئه بمقتضيات المسترفد، فإنني قد أعرج عليه، حين يتوفر الجهد، وتتيسر المرجعيات، ويسود حسن الظن، وتخف حِدَّةُ التوتر.

وعلى ضوء ذلك فإن من الخير للحضارة أن يبتدر سكونيتها من يُعَرِّضها للعصف الذهني، لكي تستبين ما ينقصها زمن الثورات المعرفية، والتواصلية، والخلطة المستحكمة، التي حولت الكرة الأرضية إلي قرية كونية. ولاسيما أن الأنظمة السياسية، والمضاربات الاقتصادية والمطارحات الفكرية، أجبرت العالم على التماهي، ومن الخير لنا أن نمتلك الجرأة لاستيعاب العالم من خلال طرح مشروعنا، لأنه ضالة الإنسانية التائهة، وهل الإسلام إلا رحمةٌ مهداة، ونعمةٌ مسداة؟

وواجبنا أن نبلغه نصاً وسيرة، على أننا بما نحن عليه من تفكك وتخلف، غير قادرين على إقناع الآخر، واحتوائه، ومن ثم لابد من التفكير والتقدير والتدبير، عسى أن نكون قدوة بسيرتنا، بحيث لا نخذل نَصَّنا.

ولن يتأتى ذلك بجهود فردية، ولا بمبادرات متفاوتة، ولا بمغامرات فجة أو متباعدة. إن المبادرات المنظمة، والمحسوبة مسؤولية الأمة من خلال مؤسسات مجتمعها المدني، وأضعف الإسهامات أن نتفاعل مع الآخر من خلال القواسم المشتركة، بوصفنا جزءاً من الحضارة الإنسانية، وحين تنهض تلك المؤسسات بمهمة المراجعة لكل الثوابت والمسلمات، تلحق الأمة بركب الحضارة المُخِبِّ. ولن تمتلك المؤسسات المعنية زمام المبادرة، حتى تتوفر على كل ما تحتاج إليه من كفاءات بشرية، وأجواء ملائمة، وثقة مطلقة، ودعم متواصل، وإمكانيات استثنائية، وعودة واثقة ومقتدرة إلى مصادر الشريعة، كما جاءت، لا كما تصورها المتهوِّكون.

وعندها يكون العمل راشداً، والمسيرة قاصدة، والجهود موجهة، والخبرات ميسرة، والنتائج سارة ومفيدة.

فلنمض على بركة الله، تحفنا الثقة، والمحبة، وحسن الظن والنوايا الحسنة، والمقاصد السليمة.

أما آن لِعبثِ السرديين أن ينتهيَ .. ؟!(١)

ماكان الأوائل من العرب يَعُدُّون النثر من الإبداع، وإن ظهر في وقت مبكر سجعُ الكهان، واشتهر الخطباء، وحُفظت الوصايا والرسائل، وقصص الأمثال. ولو كان للنثر بعضُ سلطان الشعر، لكان للقصاص والمذكرين في العصر الأموي شأن عظيم، وهم قد ملؤوا الرحب، وشدوا الانتباه، ووجد فيهم المُلْكُ العضوض سبيلاً من سبل التلهية، وملءِ الفراغ لدى الرأي العام، وكانوا إلى جانب أصحاب النقائض الشعرية، ولو أدرك النقاد مَكْر الساسة، ونشوء اللعب السياسة مع نشوء السياسة، لكان للقَصِّ الشفهي شأن عظيم، ولقُرِئَت النقائض الشعرية بطريقة أخرى. ولوعُدَّت السرديات إبداعاً لكان لها شأن لايقل عن شأن الشعر. وإذ احتفى اللغويون والبلاغيون بالشعر وحده، وقوي سلطانه، وعلا شأنه، فقد فقدت الحضارة العربية شطراً من البعد الفني للسرديات.

والمؤرخون للأدب من مستشرقين ومستغربين يستبعدون الدور الرائد للتُّراث العربي في مجال السرديات، ولهذا طغت السرديات الغربية، وأصبح التنظير الذي وضعه الغربيون لكافة أنواع السرد مرجعاً وحكماً للمبدعين العرب، وتلك التبعية انْسَتْنا مافي تراثنا من إشارات رائدة، ماكان لنا أن ننساها، ولست هنا بصدد تحرير مَوْطن النزاع حول القيمة الفنية واللغوية والدلالية للسرديات العربية، وإن كان يحزنني ذلك التسليم الخانع لجاهزيات الأحكام، التي نتوارثها على أنها أقوال لامُعَقب لها.

قبل سنوات كان [نادي جدة الثقافي] ينظم لقاءات فاعلة، وصاخبة عن النَّصّ وقرآءته، وكان يُدعى لها أساطين الفكر والأدب العربي، وكنت ممن شارك في بعض مواسمه، وكان حديثي إذ ذاك عن [ملامح النقد التراثي في النقد الحديث] وكانت تلك الورقة مثار جدل عريض، وصدامات حادة، واعتراضات عنيفة، وسخرية مُرَّة. والورقة ومداخلاتها موثقة في سلسلة "علامات"، وكلما عدت إليها أحسست أن الجيل المندهش بالمستجد لمَّا يزل استسلامياً ومهيمنا على المشاهد كلها، على الرغم من ضمور تفكيره وتسطح معارفه. وليس أدل على ذلك من ظاهرة "التغريدات" التي كشفت عن التفاهة، والضحالة، وسوء الأدب، والفشل الذريع في إدارة الأزمات. والسَّيِّءُ ألاَّ نخترع، والأسْوء منه ألاَّ نُحسِنَ استثمار المخترعات. ورحم الله "حافظاً" حين صاح في أُمَّتِه المهزومة:-

أتَـــوْا أهْلهـــم بـــالمعجزات تَفَنُّنـــا

فيـــاليتكم تـــأتون بالكلمـــات

ويقيني أن هذا الجيل الطاعم الكاسي بحاجة إلى من يهديه سواء السبيل، ويربط على قلبه، فعواصف التغيير لم تكن بالحجم المُسَيْطَر عليه، ومن ثم اقتلعت الثوابت، ونسفت المسلمات، وجاءت بأخلاقيات لم يألفها عقلاء الأمة، وهي إن تُركت على سجِيَّتها، أهلكت الحرث والنسل، ومَسَخَتْ الأخلاق، وأضاعت القيم. ولما كانت السرديات جزءاً من وسائل التبليغ، فإننا مضطرون إلى ضبط إيقاعها، وترشيد مسارها.

وإذ تَخلّفَ شأن الشعر في المشهد الحديث، فإن النثر خَلَفَه، والزمن زمن الرواية كما يقال، ولكن عبث الروائيين أسهم في ضياع الفن والأخلاق، ومعاذ الله أن أبادر بالأحكام دون برهان، فالمشهد الأدبي يكاد المنصفون من نقاده يجمعون على إخفاق الرواية فيه لغوياً وفنياً ودلالياً. ولقد كنت، ولما أزل ألِمُّ بالإبداعات السردية، بين الحين والآخر، و أكاد أقطع بأنها لم تكن مغرية، فالإبداعات القصصية والروائية كتبت بأقلام مقتدرة،

---

(١) تاريخ المقال: ٢٠/ ١١/ ٢٠١٢

وليست موهوبة، وهناك فرق شاسع بين كاتب مقتدر، ومبدع موهوب. على أن عيب الموهوبين يكمن في ضعفهم اللغوي، وضحالتهم الثقافية، وتوسلهم بالإثارة، ومقاربة المسكوت عنه.

والقصة والرواية ليستا بأقل أهمية من الشعر، واستخفاف الكتاب حَوَل جُلَّ الإبداعات إلى غثاء كغثاء السيل. وداء المشهد من النقاء المجاملين والمتشايلين، فكل من أصدر عملاً قصصياً أو روائياً، وجد من يُمجِدّه، ويعلي من شأنه، ويمنح إنتاجه المدح الباذج، والتزكية العريضة.

ولربما يتبادر إلى الذهن أن القول بعبث السرديين استلابُ مكشوف لمقولة [المعري] : [عبث الوليد] وارتباطٌ برؤيته، فـ[المعري] ذَوَّاق معاني، ومن ثم بهره "المتنبي" وشرح ديوانه تحت مسمى [معجز أحمد] ولأن "البحتري" بارع في الفنيات، فقد وصَفَ شعره بالعبث. ولقد شاعت مقولة: - [أبو تمام والمتنبي حكيمان والشاعر البحتري]، ووصفي للإبداعات السردية، بالعبث لايمت إلى رؤية "المعري" بصلة، فالموضوع لايعدو كونه توارد الخواطر، ووقوع الحافر على الحافر. ولو أحسن النقاد الأقدمون تفهم [نظرية التناص] لما وسَّع التراث القول في نظرية [السرقات الأدبية] .

وعلى أية حال فالسرديون أوغلوا في العبث، وتمادوا في الإسفاف، ولم يهيأ لهم نقادٌ يأخذون على أيديهم، بل وجدوا من يمدهم بالغي. ومامن ناقد متضلع من لغته، مستوعب لفنيات أدبه، إلا ويستاء مما بلغته الرواية العربية من ترد مشين، بلغ الدرك الأسفل من الإسفاف، والضحالة، والركاكة، وسوء الأدب. والنصيب الأوفى من هذه الترديات يمس الرواية السعودية، ومن المؤسف أننا نباهي بالكم، ولا نقيم وزناً للكيف، وهذه المواطأة أغرت الكتبة المبتدئين على متابعة الإصدارات، ولو ظفر المشهد بنقاد لاتأخذهم في الحق لومة لائم، لما تدافع الشباب والشابات، وأقدموا على اقتراف مثل هذه الخطيئات، ولما تجرؤوا على إصدار تلك الأعمال الروائية الفجة التي قد لاتساوي المداد والورق. فاللغة منطفئة، والعبارات مفككة، واللحن مستشرٍ، والمعاني هابطة، والعهر سيد الموقف، والتجاوزات الفكرية والسياسية سمة بارزة في كثير من الأعمال، والتمرد على الضوابط الفنية ديدن السواد الأعظم منهم. وحين اجترحت النقد لبعض الظواهر المسيئة للإبداع السردي، كنت كمن تقحم [عش الدبابير] حتى لقد وُصفت بالمتطفل على النقد السردي، بوصفي متخصصاً في نقد الشعر، ولكي أهزم الجَمْع، تفرغت لدراسة النقد البنيوي للرواية العربية، ونشرت نيّفا وثلاثين حلقة، في جريدة [المدينة] وكتبت مدخلاً تاريخياً للسرديات المحلية، واستحضرت آليات النقد السردي ومناهجه، ومع ذلك لم تُسَلِّم لي المتردية والنطيحة. ومأردت من اطلاقاتي الضجرة إلا الإصلاح، وترشيد المسار، ولكن المبتدئين قومٌ لايفقهون، لأنهم يجهلون مايضرهم، ويتهافتون على الأضواء، تهافت الفراش على اللهب.

ما أوده، وأتمناه لمشهدنا خاصة، ولكافة المشاهد العربية، تنقية الأجواء، ونفي الخبث، وكشف الزيف، والتفريق بين العبث باللغة، والفن من جهة وإحياء اللغة وتحقيق الفن من جهة أخرى.

والرواية الحقة لايجليها في صورتها السوّية إلى الموهوب المجرب، الممتلئ ثقافة، والمتضلع لغة. والذين يستخفون بالعمل الروائي، ويظنونه مجرد كتابة عفوية، يغثون النفوس، ويعكرون صفو المشاهد.

إن العمل الروائي أشد عناء من الشعر، ولقد حَذَّر الشعراء من مقاربة الإبداع الشعري بدون امكانيات، حتى قال قائلهم: - [الشعر صعبٌ وطويلٌ سلَّمه]، فالرواية أصعب وأطول سلَّماً.

لقد غالبت نفسي، واستقبلت عشرات الأعمال الروائية شِرَاءً وإهداءً، ولم أجد في أكثر ماقرأت عملاً واحداً يستحق إنفاق الجهد والوقت. ومن ثم عدت أضرب كفاً بكف، وأترحَّم على أساطين السرديات الذين وضعوا أسس الإبداع السردي، وأثبتوا اقتدارهم، ومواهبهم. ومتى تواصل الدفع بالروايات الخاوية، فإن السرديات سَتُمْنى بفشلٍ ذريع، وسيجني النقاد المواطئون على مشهدهم، وسيكتب التاريخ جناياتهم التي لن تغفرها لهم الأجيال القادمة، أقول ماتقرؤون، وأنا على علم بمن أبدعوا وأجادوا، ولكن الحكم على الأغلبية.

وخير لنا أن نأتي متأخرين من ألا نأتي أبداً، وعلينا أن نمتلك الشجاعة، والموقف، لنقول للتافهين: هلموا إلى مقاعد الدراسة، فالوقت لم يحن بعد لممارسة الكتابة الإنشائية، فضلاً عن الإبداع السردي.

القصيمي والصَّعْلكةُ الفكرية .. ! (١)[1]

الشرط الأساسي لكل مفكر يحمل هَمَّ الاستبراء لدينه وعرضه، أن يتوفرَّ على تصور المخوض فيه، وأن يعرف نواقض دينه، ليأمن على ضروراته الخمس، ويتوقى الوقوع في المحذور. فمن تلبس بالحديث عن ظاهرة أو مُتَمَظْهر دون استكمال المعلومات، والضوابط، والمناهج، والآليات فقد جنى على نفسه وعلى قبيله. ومن جهل محققات حضارته ناقضها من حيث يريد موافقتها. كما أن من تحدث في غير فنَّه أتى بالعجائب. والجناية والمناقضة تفسدان الحياة والعلاقات، وتُضلاَّن السبيل، وتُفْقِدان الأهلية والمصداقية. وليس عيبا أن يُخطئ المُفكر، ولكن العيب أن يُصر على الخطأ، وليس عيباً أن يَشُك، ولكن العيب ألاَّ يبحث عن اليقين. و[أبو الأنبياء] عليه السلام سبق [ديكارت] في التساؤل، حين قال: ﴿ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ [البقرة: ٢٦٠] . والذين تاهوا في بنيات الطريق، ثم أدركتهم عناية الله تداركوا أنفسهم، وجَدُّوا في تنقية أجوائهم الفكرية. وكم عرفت مِنْ أساطين الفكر مَنْ عصفت بهم الأهواء، أو قعدت بهم التبعية الأبوية، ولم يطل عليهم الأمد، بل هَبُّوا من تحت ركام الأقاويل، وخَدَرِ الأهواء، وأُمَّةِ الآباء، فكان أن تَحَرَّفوا للتفكير السليم، وتحيزوا للفئة المنصورة، فاستقام شأنهم، واستوى اعوجاجهم، وتمكنوا من البراءة مما بدر منهم، أو اكتفوا بما أفاضوا به من قول سديد، ورأي رشيد. غير أن المتعقبين لهم خلطوا بين المرحلتين، ولم يتحروا المصداقية، فكان اضطراب المفاهيم واعوجاج الآراء.

والحديث عن المفكرين مدحاً أو قَدْحاً أشبه شيء بالمرافعات القضائية، يتطلب الاستبانة والبرهان والمصداقية.

فالاستبانة تقي من الخطأ بحق الغير. والمصداقية تقي من الخطأ بحق الذات. والبرهان يقطع قول كل خطيب، فمن استمرأ المجازفة في الأحكام كُتب عند الناس كذَّاباً، ومن ثم لا يُصَدَّق، وإن صدق. وكفى المَرْءَ عِبْرة بعلم الجرح والتعديل الذي رفع أقواماً، ووضع آخرين. وظاهرة التجني بحق الظواهر والمتمظهرين قديمة قدم الإنسان، فالتاريخ الحضاري للإسلام مليء بالتعديات على الأعراض والأنفس والآراء والمعتقدات. ولو أنصف المؤرخون للحضارة الإنسانية، لكنا خير أمة أخرجت للناس.

وبمثل ما نضيق ذرعاً من القدح المُفْتَرى، نضيق بالتزكية الكاذبة، وما أكثر الذين يخوضون في آيات الله بغير علم، ولا هدى، ولا كتاب منير، فَيَضِلُّون، ويُضِلُّون، ويُصَدِّعون وحدة الأمة الفكرية، من حيث لا يشعرون. وعلى كل مقترف لمثل هذه الجنايات، أن يتذكر أنه مسؤول عما اقترف، ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨] فكل نفس تأتي يوم القيامة معها سائق وشهيد. والوَرِعُ من فَكَّر وقَدَّر، قبل أن يلفظ بحكم، أو يخطَّ بيده شهادة تزكي، أو تجرم مخلوقاً سيأتي يجادل عن نفسه يوم القيامة. وكيف بمن يجادل عَمَّن يختانون أنفسهم أحياء أو أمواتا في الدنيا أو في الآخرة؟

﴿ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [النساء: ١٠٩] ومن ذا الذي يجرؤ على الجِدال عَمَّن يجترحون السَّيِّئات. والورِعُون من علماء الجرح والتعديل يتوقفون عن مجهول الحال أو الذات، والمتسرعون من الكتبة أو المتحدثين حين لا يتورَّعون عن حصائد الألسن، يَجْنون على أمتهم، لأنهم يزيفون وَعْيها،

---

(١) تاريخ المقال: ٢٧/ ١١/ ٢٠١٢

ويَرْبِكون مسيرتها، ويُرَوِّضونها على استمراء المجازفة في الأحكام. والراصدون لفيوض القول يضيقون ذرعا بتلك السلوكيات المعيبة. ووسائل الإعلام تطفح بالمراء الباطن، والتناجي الآثم، وشهوة الكلام دفعت بالعديد من الفضوليين إلى خلط الأوراق، وتضليل الباحثين عن الحق، واحتقان الرأي العام، وتحفيزه لردة فعل عنيفة.

والحديث عن ظاهرة قلقة مقلقة كـ(عبد الله القصيمي ت ١٩٩٦م) يحتاج إلى تبصر في الأمور، وتأصيل للمعارف، وتحرير للمسائل، ومعرفة بالأصول والقواعد والمناهج، فالرجل قضى نحبه بعد أن بَدَّل تبديلا، وترك وراءه كتباً، لا يمكن تخليصه من وضرها. والقول بحقه سلباً أو إيجاباً له معقبات من وثائق لا يمكن الفكاك منها، ويجب علينا أن نَطَّرِح ذات المفكر لنخوض في الفكر ذاته، عبر كتب هي بنات أفكاره، لقد رمَّتْ عظامه، ولَمَّا تزل أفكاره حية تتجدد، وليس هناك ما يحول دون القول بأن جرأته على تدنيس المقدس، سَنَّت سننًا سيئة، لمن جاء بعده، واجترح السيئات.

لقد اعتدت بعد صلاة الفجر من كل يوم أن أَقْضِي سويعات من ذلك السكون، أركض بها في فجاج المواقع، وأخوض في أنهر الصحف، عبر ذلك الجهاز المعجزة، وما عدت من مثل تلك الرحلة إلا مُمْتَلِئاً بالوحْشَةِ و الاشمئزاز والاستغراب، مما أسمع وأرى.

ومما أثارني تلك التغطية الصحفية عن محاضرة للأستاذ الدكتور (عبد الله القفاري) في أحدية الأستاذ الدكتور (راشد المبارك) في أكثر من موقع. والاثنان أخوان عزيزان عَلَيَّ، و أثق أنهما على جانب كبير من الثقافة والغيرة على مثمنات الأمة، وأنهما أهل للحديث عن مثل تلك المعضلات. ويقيني أَنَّهُما لا يَرْضيان أبداً أن يكونا فوق النقد والمساءلة، ويقيني -أيضا- أنهما يبحثان عن الحق، وأنه لا يسُوؤهما أن يُجْرِيَهُ الله على أي لسان. وحديث الأستاذ الدكتور عبد الله حسب التغطية -إن صدقت- محاولة لتبرئة القصيمي مما نسب إليه من إلحاد، وذلك ما نخالفه فيه. وثناء على قُدُراته، وذلك ما لا نختلف معه فيه، وإن كان دون المدح الباذخ. ومداخلة الدكتور راشد معاضدة، وتأييد لرؤية المحاضر، دون تفصيل.

القصيمي والصَّعْلكةُ الفكرية .. ! (٢) [(١)]

وقدري أن القصيمي شغلني حياً وميتاً، وسعيت للوصول إلى أدق تفاصيل حياته، وكتبت عنه أكثر من مقال ودراسة، وناكفت أكثر من متحدث عنه، وبالأخص في مقالاتي: - [تداعيات قراءة دمشقية] . وفيها أشرت إلى حِراكِه الفكري، ومنطلقاته.

.. واقتنيت كُلَّ كتبه، وجُلَّ ما كُتِبَ عنه. وحقله في مكتبتي من أوسع الحقول. وأعرف جيداً أنه سيظل مزلة أقدام، ومضلة أفهام. والمقتربون منه لن ينجوا من دخنه، فهو وأمثاله أشبه بـ[مثلث برمودا] الأكثر خطورة وغموضاً، بوصفه غابة من المتناقضات، وذا شمولية ثقافية، وتنوع معرفي، وتبحر لغوي. ولهذا فهو يتلاعب باللغة، ويتوسل بتدفقها، كي يتلاعب بالأفكار، ولقد يظل القارئ يلهث وراء مراوغاته وسبحاته والتواءاته، حتى تَبْعُد عليه الشقة، ويستوي عنده المُضِيُّ معه حتى النهاية، أو الرجوع من حيث أتى. وكم أغالب نفسي، وأروِّضها للتعايش مع اللت والعجن، والصعود والهبوط، والإقبال والإدبار، واللف والدوران، والقول ونقيضه، عبر كلام طويل ممطوط ومترادفات لا تنتهي. وهو في هذا الترهل لم يكن بليغاً:

فـالْعِيُّ معنـى قصـير
يَحْويـه لفـظ طويـل

وحين أفرغ من القراءة، لا يستقر في ذهني ألا قعقعة كلام، ممتلئ بلاغة مُتَصوّح دلالة. فالرجل مصاب بداء الهذر، واستنزاف اللغة، للإيجاف على الحقائق، ومحاولة نسف الثوابت والمسلمات، وتدنيس المقدس، والعجز عن البرهنة، والإخفاق في جلب البدائل. يقال هذا في مرحلة ما بعد الرِّدَّة. والقصيمي كالأرض السبخة الموحِلة، كلما توغلت فيه، ساخت أقدامك، وتلوثت ملابسك. وما لا ننكره، تبحره بشطر من العلوم والمعارف، وخصامه المبين فيما سلف من كتبه، لقد خلَّف كتبا قيمة، لمَّا تزل متداولة، ومنها يلبس مريدوه على الناس. وما لا ننكره أيضا طائفة من مقالاته السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والفكرية التي صَدَق فيها، وجمجم عما في النفوس.

ولما كان الحق ضالة المؤمن، فنحن أولى بها، لقد كان في مطلع حياته سلفياً ناصع السلفية، وجاء كتابه [هذه هي الأغلال] محطةً فاصلةً بين كتبٍ قيمةٍ، وأخرى سيِّئة، ورِدَّته تضع ذلك كله تحت طائلة الإحباط والهباء: - ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (٣) تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية: ٢- ٤]، و ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] وذلك مصير كل عمل يفقد الإخلاص والموافقة، وهما شرطا القبول للأعمال.

ولكي يقطع المتردد بأنه مُلْحِد، فإن عليه أن يُلِمَّ بآخر كتبه، الذي غاب عن كثير من مُرِيديه: [الكون يحاكم الإله] وهو كتاب لا يجادل حول وجود الخالق وصفاته، ولكنه هِجَاءٌ مُقْذِع للخالق. ولم أر مفكراً ينال من الذات مثلما ينال القصيمي من ذات الله جل وعلا، لقد تعدى مقولة اليهود: - ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٥] . والمفكر الحق يُمَوْضِعُ الذات الإلهية، دون المساس بها سخرية أو هجاء، بحيث يتحدث عن وجودها،

---

(١) تاريخ المقال: ٤/ ١٢/ ٢٠١٢

وقدرتها، وعلمها، وصفات الكمال فيها. أما أن يُوْسِعِ الذات هجاء وسبا وسخرية، فأمر لا يمكن تصوره، فضلاً عن احتماله. والكتاب يقع في أكثر من سبعمائة صفحة، كله ينضح بالفحش، والقذارة، وسوء الأدب. وحتى الملحد الذي يحترم نفسه، لا يقبل التردي إلى هذه المستويات، وأنا متيقن بأن أكثر المتقحمين لعوالم القصيمي لم يقرؤوا هذا الكتاب الفضيحة، لأن قارئه وإن كان علمانياً شمولياً، أو شيوعياً مادياً، يربأ بنفسه عن قبول مثل هذا الهراء الساقط: علماً وأخلاقاً. ولو أن أحداً من المتحدثين عن القصيمي توفر عن هذا الكتاب، لما تردد في سحب (جهاز الطرد) عليه، والصيرورة به إلى قعر المجاري، إذ لا يليق بمثله إلا ذلك المكان، ألم يقرأ هؤلاء قوله تعالى: - ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً﴾ [مريم: ٥٩].

والمفسرون يكادون يجمعون على أنه واد في جهنم، بعيد القعر، خبيث الطعم، من قيح ودمٍ، يَسيلُ فيه صديد أهل النار. ورجل وقِحٌ يَسُبُّ الذات الإلهية، وينال منها، لا يليق بمثله إلا ذلك الغي. والكُتَّاب والمحاضرون المعذِّرون، لو قرؤوا هذا الكتاب، لفكروا، وقدروا قبل أن يحاولوا إنقاذ سمعته، أو تزكيته. وإذا كان [القصيمي] قد تبرأ من مثل هذا الكتاب، فليأتوا به، لنترحَّم عليه، فنحن لا نود للإنسانية إلا النجاة في الدنيا والآخرة. وكم من مفكر، شط به فكره، ثم صَحَى ضميره، فعاد، وتبرأ مما بدر منه، نجد ذلك عند [مصطفى محمود] و[سيد قطب] و[خالد محمد خالد] وإن ظل فيما أفاضوا به من بعد شيءٌ من دخن الماضي. ولكنهم لم يلحدوا، ولم يعاندوا، ولم يصروا على الحِنْثِ العظيم، مثلما فعل القصيمي، الذي لا أتردد في القطع بإلحاده على ضوء ما ترك من وثائق.

و[ظاهرة الإلحاد] في العصر الحديث، ليست غريبة، ولا نادرة. وعلى الطيبين أن يقرؤوا تاريخ الإلحاد، والتعرف على أساطينه، ممن قضوا نحبهم على ما كانوا عليه، وممن صحت ضمائرهم، فتابوا، وأنابوا. وبِوُدِّي لو أسْعَفني الجهدُ والوقت لتحرير مصطلحات [الزندقة] و[الإلحاد] و[الرِّدَّة] التي واكبت الفكر العربي.

والقصيمي فوق ما أشرنا إليه هدام، لا يدعوا إلى نجله، ومرتزق لا ينطلق من مبدأ، وهجاء لا يعف عن عرض، ومهذار لا يمل من الترديد، ومتناقض لا يتردد في ضرب النظريات بعضها ببعض.

ومن ركن إليه فإنه جاهل به، أو مكابر، شاء أم أبا. بقي أن أقول: إن المتحدثين عنه ابتداء، يجب حسن الظن فيهم، وتذكيرهم بما غاب عنهم، فإن بلغتهم الحجة، وأصروا على رأيهم الفطير، فهم شركاء في المقترفات. فالمنصف يُرْشِدِ الجاهل، ولكنه لا يحكم عليه، ومَنْ أجْهل وأضل ممن يؤمن بالله ورسوله، ثم لا يتحرج من التعذير، والتبرير لمن بَدَا عَوَارُه، وعَمَّتْ أضراره.

وإذا كان [عبد الرحمن بدوي] حطيئة الفلاسفة، فإن [عبد الله القصيمي] صعلوك المفكرين.

...لا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ... ! (١) [(١)]

ليس عيباً أن نختلف، ولكن العيب أن نخفق في إدارة الاختلاف. والأصوليّون يُفَرّقون بين الاختلاف المعتبر، وغير المعتبر. فيقبلون الأول، ويتحفّظون على الثاني.

وفقهاء الواقع قد لا يجدون غضاضة من رفع الأحكام في بعض المواقف، خشية أن يؤدي تنفيذُها إلى ما هو أسوأ من رفعها.

والنصوصيّون يتمسّكون بحرفية الدلالة، ولا يلْقون بالاً للمقاصد والمصالح. والنَّص الشرعي يَعْتوره ثلاثة قُرَّاء: ظاهريّون حرفيّون، وعقلانيّون متأوّلون، ومراوحون بين القياس والتأويل. وهؤلاء يميلون مع المصلحة حيث تميل، ولكنهم يَمُدُّون بسبب إلى الحكمةِ المستمدّة من النَّص، فلا يعطلون مقصداً، ولا يحرفون دلالةً.

ولقد تفرّقت بالصحابة رضوان الله عليهم سبل التلقّي. فمنهم المستجيب الفَوْري الذي لا يُعَقِّب، وعلى رأسهم [أبوبكر الصديق] رضي الله عنه. ومنهم المستجيب الذي لا يتهيّب المراجعة والتساؤل، وعلى رأسهم الفاروق [عمر بن الخطاب] رضي الله عنه. وفيما بين هذا وذاك، تتفاوت مستويات التلقّي وفورية القبول.

ولقد كانت [لأبي ذر] رضي الله عنه رؤية، تختلف عن رؤية جمهور الصحابة، الأمر الذي حمل الخليفة [عثمان] رضي الله عنه على نفيه إلى [الربذة]، اتقاء الفتنة، مع أنه لم يُبَدِّل في تأوله الذي انفرد به، ولم تَهْتَز مكانته، بل لمَّا يزل يُعد من أفاضل الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، ولقد سيء فهمه زمن المدِّ الاشتراكي. إنه أمة، يموت وحده، ويبعث وحده، وإن خالف. ومن بعد خير القرون، تفرّقت بالعلماء والمفكرين السبل، حتى جاءت [نظرية التلقّي] كأخطر مَرحْلة نقدية، أغفلت المنتج والنَّص. وتشعّبت في أمدائها المسالك، وتنوّعت الآراء، وتعدّدت المناهج والآليات، واحتدم الخلاف، واتسعت رقعته. وفي أثناء ذلك أصبح للسياقات والأنساق القدحُ المعلَّى، وأوجفت [البنيويَّةُ] و[التفكيكية] و[التحويلية] بخيلها ورَجِلها، لتشتّت المدارك، والمفاهيم، وتجهض النصوص، وتجعل من المتلقي مُبْدعاً رديفاً، لا يبالي بأيِّ وادٍ هلكت مقاصد المنتج ودلالاته. وكم أجد المتعة في اختلاف الأساطين، حول مجمل القضايا، فيما أجد الغثائية في مماحكات المتسطّحين، والمتذيّلين لثقافة الغير. إنّ للاختلاف ما للاتفاق من القيم، متى أحسن المختلفون إدارة التناجي بحكمة وموضوعية.

والفقهاء الذين أنشؤوا المذاهب الفقهية، ولقيت قبولاً من العامَّةِ والخاصة، لم يكن اختلافه متعمّداً، ولا فضولياً، إنه اختلافٌ مبرّر، ومحكوم بضوابطه، ومناهجه، وعلله، وشواهده. والعالِمُ المنصف يقف إجلالاً وإكباراً لعلماء المذاهب، حين يتعقّب أدلّتهم، وشواهدهم، ودفاعهم المتعقّل عن رؤيتهم. ومع اختلافهم فإنهم متصافون متحابُّون، كل واحد منهم يجل صاحبه، ويُكبره، ويحترم رؤيته، ولسان حاله يقول: أختلف معك، ولا أتردّد في بذل كل ما استطيع، لتقول رأيك. إلاّ من استحوذ عليهم شيطان العجب، وتلبّسوا بعصبية الطائفية، وكثيرٌ مَّا هم. وما وصل الخيِّرون إلى هذا الكم الهائل من المعارف، إلاّ لما ينطوون عليه من العلم والفهم والإخلاص، والبحث عن الحق بوصفه ضالّتهم. وخَوَافِي أجنحتهم وقوادمها: الموافقة والإخلاص. وليس كذلك خلاف المتكلمين، الذين يرجمون بالغيب، ويحكِّمون العقل بالمجهول. على أني لا أتهيّب التحسُّس عن الحقيقة، عند هؤلاء، وأولئك. فأحترم الفقهاء، وأهاب المتكلمين. ولربما يكون كتاب [بداية المجتهد ونهاية المقتصد] الذي ظَفِرْتُ به في زمن مبكر من الكتب التي روَّضت جماحي، وهدَّأت

(١) تاريخ المقال: ١٨/ ١٢/ ٢٠١٢

من روعي، وحملتني على قبول الاختلاف في الفروع، والتعاطي مع المختلفين من الفلاسفة والمتكلمين، فـ[ابن رشد في البداية] يسوق الآراء، ثم يَشْفعها بأسباب الاختلاف، ثم يدع لك حرية الترجيح. فهو لا يسعى لفرض رؤيته، ولكنه يَنْشُد استعراض الآراء، وتمكين المتلقِّي من الوقوف على الرأي ونقيضه. وأوسع منه كتاب [المغني] لـ [ابن قدامه]، بوصفه من كتب الفقه المقارن، المكتظ بالأدلة والقواعد والترجيح، ولاسيما حين يقول: [ولنا]، وفوق هذا وذاك [المُحلَّى] لـ [ابن حزم]، وإن كان ظاهرياً. والاختلاف المذموم هو الاختلاف المُسْتَتْبع للعداوة، والبغضاء، والشحناء، والأثرة، والإقصاء، وتأليب الخصوم، واستعداء السُّلطة، وتجهيل المخالف. ومثله الاختلاف الذي لا يعضده النَّص بدلالته أو بمقصده. ومتى كان النَّص حمَّالاً، يصبح المختلفون في حل من الاختلاف.

والخليفة الراشد [علي بن أبي طالب] رضي الله عنه، يَنْهَى عن مجادلة الخصوم في القرآن، لأنه حمَّال أوجه. وفضاءات النَّص كلَّما اتسعت، أصبحت مشروع اختلاف. وإذ لا نرى أن ّالاختلاف رحمة، ونرى أنّ حديث [اختلاف أمتي رحمة] لا يصح، فإنه مفيد، متى أصبح بين العلماء المتبحِّرين الناصحين المخلصين. فالنصوص الحمَّالة تنطوي على دلالات، لا يتمكن من تثويرها، والغوص في أعماقها إلاّ العلماء المثارون المحتدمون، على حد:-

لـــولا اشــتعالُ النــــار فيمـــا جَـــاورت
مـــا كـــان يُعـــرف طِيـــبُ عَـــرْفِ العـــود

فالعلماء لا يَقْدح زنادَهم إلاَّ الجدل والتساؤل. وكم يفرح الصحابة بالأعرابي العفوي، الذي لا يتردّد في المساءلة والمراجعة بين يدي معلِّم الأُمّة.

والرسول ﷺ أبان عما جاء به، وصوَّر مستويات التلقِّي. حيث وصف ما جاء به بالمَطَر، وجعل التلقِّي ثلاثة مستويات: قيعان، وأجادب، ورياض. وهو حين نَدَبَ إلى التبليغ أشار إلى الحِفْظ والفهم، بقوله: - «**فَرُبَّ مُبَلَّغ أوْعى من سامع**».

إذاً النَّصُّ واحدٌ، والدلالة الظاهرةُ واحدة، ولكن الأنساق. والسياقات. والمجازات. والعموم والخصوص. والناسخ والمنسوخ. والعام والخاص. والمتقدم والمتأخر. والتعارض. والصحيح. والضعيف. وعدم التبلغ. واختلاف الأزمنة والأمكنة، والإمكانيات، كلُّها تختلف، وباختلافها تختلف الدلالة والأحكام، وتتنوع المفاهيم، وتتفاوت الحكمة والمقاصد في التشريع. والعلماء المتبحّرون يضعون كل الأهمية لفقه الواقع، والأولويات، والتمكين، ولا يتردّدون في إحلال حكم مكان آخر، لمجرّد أنّ الزمان غير الزمان، وأنّ الإمكانيات غير الإمكانيات. ألم يمتنع الفاروق [عمر] من دفع الزكاة للمؤلّفة قلوبهم، بحجّة أنّ الإسلام قَوِيٌّ، وليس بحاجة إلى تأليف القلوب؟. ثم. ألم يتوقف عن تنفيذ حدّ السرقة في [عام الرمادة] لدخول السارق في حكم المضطر؟. مع أنّ تصرُّفه لا يُعَد تعطيلاً للأحكام، ولكنه مراعاة للأحوال.

ونقول مثل ذلك عندما أقدم [الملك فيصل] - رحمه الله - على [تحرير الرقيق]، لعدم قيام [جهاد الطلب]، الذي يكون بسببه الرق. ومن المؤسف أنّ البعض يتصوّر أنه لا مكان البتة للرق، ولا لجهاد الطلب، وكأنّ الإسلام لم يَعُد صالحاً للعصر. وذلك ما يود إشاعته المستشرقون والعلمانيون. إنّ الإسلام صالحٌ لكلِّ زمان ومكان، ولكن لابد أن يحمله إلى الناس علماء عدول، يعرفون مقاصده، ويراعون مصالح الأُمّة. فالحكم دائماً يدور مع المصلحة حيث تدور. ودوران الحكم يتطلّب عَالِماً ربّانياً، يسعى جهده لاكتشاف المقاصد والمصالح، وإنزال الأحكام منازلها.

...ولا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ... ! (٢)[1]

وأي اختلاف لا تسوده الثقة، والمحبة، والرغبة في إحقاق الحق. ولا يديره العلماء المتمكنون علماً وتأصيلاً، يعد اختلافاً مُضِراً بمصلحة الأمة. وكم هو الفرق بين الحوار والتنازع. والجدل والمناكفة. ونشدان الحق، وطلب الانتصار. والاختلاف في الفروع وضرب الأصول. وتحرير المسائل والقدح في المبادئ.

إن ما نسمعه من الرويبضات والمتفيهقين لا يعدو كونه فحيح أفاع، واستهزاء بالله ورسوله وآياته، وخوض في قضايا الأمة المصيرية بغير علم. وكم من متعالم يقع في نواقض الإيمان، من حيث لا يحتسب، وحين تعظه، يستغشي ثوبه، ويصر، ويستكبر استكبارا. ومن الخطأ الفادح عَدُّ المماحكات الفارغة من الاختلاف المثري للمعارف.

ووسائل الاتصال والإعلام تفيض باللجاجات والتفاهات والمكابرات. وفقد المرجعية كفقد القائد أو كسقوط الراية عندما يحمى الوطيس، وبوادر ذلك واضحة للعيان، والله المستعان.

إن الاختلاف ظاهرةٌ أزلية، والخطورة ليست في وجوده، بل في إدارته، وتصوره. والذين يتهافتون عليه، وهم فارغون من كل محققاته ومقوماته، يُعمِّقون هوة الخلاف، ويزرعون الضغائن والأحقاد، ويُصَدِّعون وحدة الأمة، ولا يزيدونها إلا خبالاً، ويفرقون دينهم شيعاً. وما كان العلماء الربانيون من هذا الصنف، وإن اختلفوا. إن للاختلاف دواعيه، وضوابطه، ومؤهلاته. ومن تلبس به خالياً من ذلك، زاد في ضعف الأمة، وتفرق كلمتها. ومن لم يَرْعَ أهمية وحدتها الفكرية، وتلاقي أطيافها على كلمة سواء، يكون من جناة الفتن، ومن المصطلين بحرها. وما نراه، ونسمعه من نتاج آثم، عبر الصحف، والمجلات، والقنوات، والمواقع، ليس من الاختلاف المقبول، الذي يجذر المعلومات، ويكشف عن الحقائق، ويجدد الدين. ولا سيما أن الأمة من الضعف، والتفكك، وتسلط الأعداء، بحيث لا تحتمل مزيداً من المناكفات بين أطيافها.

إن هناك مساحات مشتركة، وأهدافاً متناغمة، ونوايا حسنة، ومقاصد سليمة، لا نشك بأنها مشاعة بين الأطياف. ولوْ هُيِّءَ للأمة من يحسن إدارة الاختلاف، لكان بالإمكان ترشيد مساره، وضبط إيقاعه، والمصير به إلى إحقاق الحق، والتفاف الأمة على المتفق عليه، والتعاذر فيما اخْتُلف حوله، وليس بعزيز على مفكري الأمة، وعلمائها، تجسير الفجوات، والتقريب بين وجهات النظر، وحسن الظن بالجميع، والجنوح إلى السلام، والتعاذر، والتعايش، وتوسيع رقعة القواسم المشتركة.

وتراث الأمة مليء بكتب الاختلاف، وضوابط الاجتهاد، وإذا اشتدت الأزمات في فترة من الفترات، بادرها العقلاء الحريصون على جمع الكلمة، ورأب الصدع، فطمأنوا النفوس، وجمعوا بين الأشتات، وأشاعوا الثقة، وحَكَّموا المؤسسات، وغلَّبوا مصلحة الجماعة على انتصار الأفراد.

لقد اختلف الفقهاء، والمتكلمون، وعلماء التفسير، والحديث، والنحو، وسائر العلوم، ورصد كلُّ عالم رؤيته في كتب، يتداولها العلماء، عبر القرون، وأصبحت مصدر علم ومعرفة، وسبباً في إثراء الحضارة، وخصوبة التراث. وكم نود لو أن علماء العصر اتخذوا من سلفهم قدوة حسنة، فاجتهدوا في تحرير مسائلهم، وتحقيق مذاهبهم، وأفاضوا بها إلى الناس، دون تنازع أو سباب، أو استخفاف بالخصوم.

---

(١) تاريخ المقال: ٢٥/ ١٢/ ٢٠١٢

ولقد تكون التيارات والظواهر الحديثة من أسباب تصدع وحدة الأمة فكرياً، وعلينا لكي نواجه قدرنا العصيب أن نتعرف على بواعث الاختلاف ودواعيه، وأن نتجنب تزييف الحقائق، إن ظاهرة الاختلاف عند السلف تتعلق باختلاف المفاهيم، ولكنها الآن تنبعث من اختلاف الانتماءات، والتسليم لمحدثات الأمور من المبادئ والأحزاب. ولقد يكون القول بأن مثل هذا الاختلاف مشروع من تزييف الحقائق، إن ما نشاهده ونسمعه صراع تيارات [علمانية] متحللة و[ليبرالية] متحررة و[سلفية] موغلة في الدين بغير رفق و[مادية] مُتَحَيْونَة، ومن وراء ذلك كله مصالح متعارضة و[استراتيجيات] متناحرة، تمدها بالغي، وإذا لم تُنْزع الأقنعة، وتُنَحَّى التَّقِيَّة، فإن الأمة ستتآكل، ثم تفشل، ثم تصبح خبراً بعد عين.

إن ما نسمعه من لجاجة، تصم الآذان، وتغثي النفوس، وتوتر الأعصاب، لا يعدو أن يكون لغواً تفرزه ثقافة التذيل للآخر، والتنكر للمبادئ، وليس هو من الاختلاف الناتج عن تباين المفاهيم، وتعدد التصورات، وتنوع التأويلات. وما أحوج الأمة إلى العلماء المتضلعين من المعارف، المتوسلين بالمناهج، والآليات، المتحصنين بالقواعد والأصول، الرادِّين إلى الله والرسول وأولي العلم منهم، فذلك سبيل النجاة والنجاح.

والاختلاف الذي نتوسل به لتثوير النصوص، ليس هو بالاختلاف الذي حذر منه الرسول ﷺ، حين خط خطاً، وخط خطين عن يمينه، وخطين عن شماله، ليوضح الصراط المستقيم، وليس هو ممن حذر منه بقوله:- «**فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم**». وليس هو من أخلاقيات أولئك القوم الذين تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته.

وإخبار الرسول ﷺ بافتراق الأمة دليل على حتمية الاختلاف. ولقد تصدى العقلانيون لذلك، وأنكروا الحديث، وعللوا لإنكارهم بما يتماهى مع معطيات العقل المستقل عن النقل. وتلك رؤية مرجوحة، تولَّى كبرها المفكر الوجودي [عبد الرحمن بدوي].

ولسنا بصدد تقصي حيثيات رؤية العقلانيين، ولكننا نود أن يفرق الراصدون للاختلاف بين ما هو ممكن ومباح، وما هو خلاف ذلك، ولعل ما سبق من قول يحدد الرؤية التي أميل إليها، ويقضي على الاحتمالات.

وحديث الافتراق حَرَّض المتطرفين على تكفير الفرق الأخرى، بينما المقتضى اللفظي له يؤكد أن الفرق كلها لم تخرج عن مفهوم الأمة الإسلامية، وهذا ما ذهب إليه العلماء العدول الوسطيون.

وسبيل النجاة تحرير المسائل، وتأصيل المعارف، والانطلاق عبر المناهج، والقواعد، والأصول. وعدم الخوض في المجهول، فالحكم على الشيء فرع عن تصوره.

الثوريون إمْساكٌ بعنف أو تَسْريحٌ بانتقام .. !![1]

كل من لاقيت يبوح بمفهومه للأحداث الجسام التي تجتاح عالمنا المثقل بأنْكى الجراح، ولسان حاله يقول لكل عارض ممطر مطر السَّوْء:-

أبنـــت الـــدَّهْر عنـــدي كـــلُّ بِنَـــتٍ
فكيـــف خلصـــت أنـــت مـــن الزحـــام

أو يقول:-

وكنــــــت إذا أصــــــابتني سِــــــهامٌ
تَكَسَّـــرت النصـــالُ علـــى النصـــال

ومن ذا الذي يجرؤ على القول بأن في العالم العربي بقيةً، تتسع لمزيد من المصائب. وإذ لا يتصوَّرُ مثلَ ذلك عاقلٌ، فإن الخليين من أبنائه، يتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، فيما يظل جسم الأمة كجسم (ابن الوليد) الذي اعتورته السهام وأثخنته السيوف، حتى لم يبق فيه شيءٌ لمزيد من الجراح، وكم هو الفرق بين وَضِيع يُداس وأبيِّ يُطارَد. وعلى كل التصورات، فالعالم العربي يتبادل حمَّى الانتفاضات، وقادته النَّشَامى يتساقطون كورق الخريف، ثم يكونون حطاماً، ثم تذروهم الرياح، حتى لا يبقى إلا ذكرهم الرَّديء، فكأنهم يولدون من جديد، ولكنهَّا ولادة خداج، يتجرعون معها مرارات، جادوا بمثلها على شعوبهم، ولحظات الاحتضار عادة ما يسودها الهذيان المحْمُوم، وتختلط فيها الكلمات، وتتسع رقعة الاحتمالات، وتتعدد القراءات.

و(الربيع العربي) الذي تحول إلى إعصار فيه نار، خلط الأوراق، وحَيَّر الأفهام، وأنشأ لغة جديدة، لم يألفها الناس من قبل. وإذ كان المد الشيوعي، والطوفان الثوري، والاهتياج القومي، والحلم الوَحْدوي قد طمست معالم ما سبقها، بأقاويل لا تتجاوز تَراقِيَ مُقْترِفِيْها، فإن (الربيع العربي) فِعْلٌ أغرب من الخيال، تعطلت معه لغة الكلام، لتحلَّ محلَّها لغةُ الفعل، ولكنه فعل كطحن القرون. وفي كل انتفاضة شعبية، تحتضر لغة الماضي، لغة الخنوع والاستسلام والركوع والتصنيم، وتنشأ إلى جانبها لغة حادة النبرة، أبيَّة التعبير، شموس الرؤى، ولكنها فارغة المضامين. والمثير للاشمئزاز أن الإعلام الرخيص يظل بمعزل عن الأحداث، وكأنه (ابن نوح) الذي تصور أن الجبل سيعصمه من الماء، وما كان في حسبانه أن الماء من أمر الله، وأنَّهُ لا عاصم من أمره.

الحكام الثوريون نسلوا من قعر الفقر بكل ضغائنه، وامتطوا الدبابات، وتقدموها بألسنة حداد، كألسنة البقر، يتخللون بها إلى مشاعر المخدوعين بوعود معسولة، وآمال سرابية. ولما أحكموا قبضتهم، ولم يكن مَنٌّ بَعْدُ ولا فداء، أصبحوا فيما بينهم كالهرة، تأكل أولادها. لقد بغى بعضهم على بعض، وحين لم تبق إلا المتردية، والنطيحة، وما أكل السبع، أتقنوا قبضتهم، فتوسعوا في المخابرات والسجون وزيف الإعلام، واستمرؤوا التصفيات، واختاروها كحل أمثل لاستتباب الأمن، وبقاء التسلط، ولما أمنوا، وظنوا أنهم قادرون على قمع الشعوب، استرخوا على صدور المواطنين، يأكلون الكثير، ويشربون النمير، ويدفعون إلى الكادحين بالحقير، وكل من رفع بالحق صوتاً، فهو الخائن العميل، والإرهابي الدموي، المتنكر لدينه وعروبته ووطنه. ولم يسلم من بأسهم مواطن، ولا مقيم، ولا جار جنب. فالحكام المتصالحون مع شعوبهم عملاء ورجعيون واستسلاميون

---

(١) تاريخ المقال: ١١/ ١٢/ ٢٠١٢

ومتاجرون بقضايا أمتهم. والأشد غرائبية أن العميل الرجعي هو العيبة الملئية بالدرهم والدينار، وهو الملاذ الأخير لفك الاختناقات، وتدارك الأمور في أحلك اللحظات، بل هو العمق (الاستراتيجي) المتعدد الأبعاد لدول الجوار، وكأنه معهم ذلك الصحابي الذي شكى حاله من قرابته، وحين جَسَّدها، قال له الرسول ﷺ: «**إن كنت كما تقول فكأنما تُسِفُّهم الملَّ**».

بقي أن نتساءل بعد أن تهاوت الأصنام، وذهب الخوف، وأصبح الإنسان العربي بين خيارين:-

فإمـــا حيـــاةٌ تَسُـــرُّ الصـــديقَ

وإمـــا ممـــاتٌ يســـوءُ العـــدى

أيهما أجدى، أن يأخذ الظلمةُ ما خَفَّ حَمْلُه وغَلا ثمنه، ويذهبوا كأم عَمْرو، حين امتطت حمارها، فلا رجعوا، ولا رجع الحمار؟ أم يُدَمِّروا ما بنته الشعوب بدموعها ودمائها، يقتلون أبناء الأمة، ويُذلُّون نساءها؟ وحين لا يبقى إلا الأعرج والأعمى وركام الخراب، يكونون بين خيارين أحلاهما مُرٌّ: فإما أن يَسْقطوا بأيد الثوار، أو أن يلوذوا بالفرار. وإذ تكون المواعظ مطروحة في الطريق، يعرفها الخاص والعام، والعاقل من وُعِظ بغيره، فإننا لن نكلف أنفسنا ضَرْبَ الأمثال مفصَّلة، وإن استدعينا أدناها إشارة، والحرُّ تكفيه الإشارة.

ولعلنا نضرب الأمثال بطاغية كـ(بشار) الذي لازال يحصد الأرواح، ويدمر المباني والبنى التحتية، ويمطر الشعب بالقذائف والراجمات. وهل يتصور عاقل وحشية تفوق وحشية أزلامه؟ ومثل آخر، نضربه، بصقيع هالك كـ(القذافي)، الذي لم يسقط أذل من الجرذان إلا بعد أن قضى على زهرة شباب الوطن، ودمر ثاغيتهم وراغيتهم، وأحرق نوابتهم، وهدم شواخص مبانيهم، وأحيا النعرات القبلية فيما بينهم.

هذان أنموذجان للثوريين الذين أغثونا برغائهم وعوائهم. ثم آسفونا بموائهم كالقطط، بعد أن أدركهم الغرق.

إننا حين نقطع بأن أزمة الأمة العربية أزمة ثورات طائشة، وثوريين جائرين، يلعنون الاستعمار بألسنتهم، ويقبلون أحذيته بشفاههم. يمجدون الوطن، ويباهون بالمواطنين، ثم لايألونه خبالاً، فإننا بعد الربيع العربي أحوج ما نكون إلى دساتير تحكم العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وقوانين تصون الحق، وتقمع الظالم، وتأطر المعتدي، ويكون الناس جميعاً سواسية أمامها، فالعصر عصر المجتمع المدني، بمؤسساته، وأنظمته، وقوانينه، ومجالسه النيابية.

وما لم يحترم الحكامُ الدساتير، وما لم تحترم الشعوب القوانين فإن حليمة ستعود إلى عادتها القديمة. إننا بحاجة إلى ثقافة العدل والحرية والانتخاب، فلا حرية ولا عدل بدون ثقافتيهما، ولا وصول للأكفاء إلا بثقافة الانتخاب. وإشكالية الشعوب أنها تُمْطَرُ بوابل من الأنظمة والتعليمات، وهي أبعد ما تكون عن فهمها، وإمكان التعامل معها، ولهذا ظلت الأنظمة والتعليمات حبراً على ورق، يسمع بها المواطن العربي، ولا يراها ماثلة للعيان: ممارسةً وتطبيقا.

لقد ثارت الشعوب على أنظمتها الظالمة، وهدفُها العدل، والحرية، وتداول السلطة، والعيش الكريم، عبر مؤسسات نيابية، لا مكان فيها لحكم الفرد. وجاء الحكام المنتخبون، وقامت المؤسسات، ولكنَّ الشعوب لمَّا تزل تشك برموزها الجُدُد، وتثير التساؤلات حول مصداقيتها، وتمارس التظاهرات، والاحتجاجات، والاعتصامات، وكل شيء معطل، والفقر والبطالة على أشدهما. ومن ثم تحول الصراع بالسلاح إلى الصراع بالصراخ،

فالأول يقضي على الأرواح، فيما يقضي الثاني على الأمن الغذائي والاجتماعي، ولربما تبلغ الحال الدرك الأسفل، فيترحم الناس على أنظمتهم السابقة، مثلما ترحم أهل العراق على (صدام).

فهل مُنِحت الثقةُ لمن جاء عبر صناديق الاقتراع طوعاً، وهي قد مُنِحت لمن جاء على ظهور الدبابات كرهاً؟ إن داء الشعوب العربية الشك والخوف. الشك بالسلطة، والخوف من التسلط، والتغني بنظم الغرب، دون التشبع بثقافتها. وأخطر من ذلك الاستسلام للطائفية أو الحزبية، لتظل المواطنة شعار الهتافات، وكل من جاء عمل لحزبه لا لوطنه والمقتضى وقد حُطِّمَتْ الأصنام، وكسرت القيود، وأتيحت حرية التعبير أن تتاح الفرصة للحكومات المنتخبة، كي تمارس مسؤولياتها، لتدارك الأوضاع المتردية، وإقالة العثرات المتجذرة، فالزمن لم يعد يحتمل مزيداً من المشاكل، وعلى الأطياف والطوائف والأحزاب والأذناب أن يعودوا إلى جحورهم، فالوحدة الفكرية ليست بأقل أهمية من الوحدة الإقليمية، وإرادة الشعب حددت مرشحها، وعلى المرشح أن يكون مواطناً لا حزبياً.

ومن جاء للسلطة محمولاً على الأكتاف أحق ممن لم يجد كتفاً تحمله، وعلى الأحزاب والمنظمات التي لم تفز في الانتخابات أن تقتدي بالمنهزمين في الدول (الديموقراطية)، وإذ لا يسع المهزوم إلا الاعتراف والتسليم، وتشكيل حكومة ظل، تراقب وتنتقد، وتقدم الخبرة والمشورة، فالوطن في النهاية سفينة، والأخذ على يد السفهاء نجاة لهم وللأبرياء، والانتصار لن يكون إلا لحزب واحد، والشعب وحده الذي يختار حكومته، وهو قد اختارها بمحض إرادته، وحين لا يكون المنتخب كما أريد له، فإن تمكينه من الإيغال في الخطأ، أجدى من الدخول في دوَّامة الفتن، وموعد الجميع يوم الانتخابات، والتربص خيرٌ من التَّحمُّس، ولطم الخدود، وشق الجيوب، والدعاء بالويل والثبور.

وبعد: فإمساكٌ بمعروف، أو تسريحٌ بإحسان.

لكيلا يتآكل الفلسطينيون بمحض إرادتهم .. ![1]

منذ أن جنحت المقاومة الفلسطينية إلى المؤسسة المدنية، وأنا خائف أترقب، والمقام لا يستدعي استعراض سلبيات خطيئة العصر، التي حوَّلت الصقور إلى حمائم. وكيف يتلبس المُتْرفون من أبناء الشتات الفلسطيني بزعامة المقاومين المساكين المَتْربيّن، الذين يفترشون الغبراء، ويلتحفون السماء.

إنها اللُّعب القذرة، والتآمر الماكر، والغزو المنظم، التي زَيَّنَتْ للمغفلين تجميع الجهود في مؤسسة مدنية، تقدم اللِّسان على السِّنان.

تنظر بعين المشردين، وتمشي بأرجلهم، وتبطش بأيديهم، مُبَرِّرة وجودها، بأنها الموحدة لصفوفهم، المحددة لأهدافهم.

وما درى أولئك أن المؤسسة المدنية ستأتي المقاومة تنقصها من أطرافها.

ولم تكن تلك الدعاوي الكاذبة إلا خِدْعة، أطلقها الماكرون، وصدقها المغفلون.

وحين حصل ما حصل، لم يكن بُدّ من التفاعل معه، فذلك فعل النخب الفلسطينية بأيديهم، وخيارهم بمحض إرادتهم.

ولما يزل الخداع والتماكر ينسابان كالخدَرِ من ثدي اللعب الكونية، حتى بلغ السيل الزبى باعتراف المنظمة بالكيان الصهيوني، وحتىَّ أخذ (عرفات) (مناحم بيجن) بالأحضان، على مسمع ومرآى من العالم، وتحت رعاية ومباركة من دولة القطب الواحد.

ولما أسْقط في أيدي الممانعين، دُمِغوا بشهادة الأهل.

وهل بعد شاهد الأهل من شاهد؟

ثم جاءت الطَّامَّة الثانية بـ(علمنة) الدولة المنتظرة، انتظار الإمام الغائب في السرداب.

وهذا التملق الذليل لدول الاستكبار أفقد القضية التعاطف الإسلامي.

ليْس هذا ما أردت، فما مضى دَرٌّ فارق ضرعه، ومن المُتَعذَّرِ رَدُّه، ولكنها شواهد سقناها، لترقيق الأنفة التي أتوقع أن من الفلسطينيين من ينطوي عليها، ظناً منهم أنها تُفَوّت الحقائق على متجرعي مراراتها.

لقد قلت: بأن تجميع فلول المقاومة تحت مظلة المنظمات المدنية إجهاض لها، وتخذيل لعزماتها، حتى يأذن الله بنصر، لن يتحقق على يد المزايدين على قضاياهم المصيرية، وهو آت، فالله يقول: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ولن يغلب عُسْرٌ يُسْرَيْن ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾.

فَسُنَّةُ التدافع والتداول قائمة إلى قيام الساعة، لقد ظل بيت المقدس بيد النصارى قرنا من الزمن، وما يئس المسلمون من عودته، وحين شاءت إدارة الله الكونية عودته، عاد على يد قائد مسلم غير عربي.

ما أريد الحديث عنه وفيه، لا يتعلق بتاريخ فلسطين، ولا بتقلبات الأحوال الفلسطينية، فذلك مفروغ منه، وهو أشبه بالمعاني المطروحة في الطريق، وما من قضية أفاض المؤلفون والمتحدثون والكتاب فيها كالقضية الفلسطينية، ومامن قضية أمْرُها في سفال كالقضية الفلسطينية، لا لشيء إلا لأن الناس كلهم أجمعون لم يقولوا كلمة الحق، ولم يُهْدَوا إلى الطيب من القول، والفلسطينيون كلهم أجمعون لم يَخْطوا خُطْوة واحدة صحيحة في سبيل القضية.

---

(١) تاريخ المقال: ١/ ١/ ٢٠١٣

قد أوصف بالمبالغة، وأتهم بالإحباط، وأدان بالتخذيل.

ولست -عَلِم الله- من ذلك كله في شيء، فأنا عربي مسلم أحب لأمتي العربية والإسلامية العزة والنصر والتمكين، ولقد تكون لي تصوراتي التي تختلف مع الأغلبية، اختلاف تنوع، لا اختلاف تضاد.

وسيان عندي عندما أبوح بما فِيَّ، أن يصدقني المتلقي، أو لا يصدقني، المهم أن أُبرِّئ ذمتي، وأن أقول ما أعتقد، غير هياب ولا وجل.

فيما تظل أبوابي ونوافذي مشرعة، لسماع الرأي الآخر، والأخذ بأحسنه، إذ لا يزال رأيي مشروع اقتراح، قابل للإلغاء، أو التعديل، ولكن بما هو مسنود بالبرهان القطعي.

والفلسطينيون في الشتات والمخيمات، وعبر الفصائل والمنظمات، ليست لهم كلمة ذات وزن، فهم أشبه شيء بـ(تيم) الذي يقول عنهم الشاعر:

وَيُقْضَى الأَمْرُ حِينَ تَغِيبُ تَيْمٌ
وَلا يُسْتَأْمَرُونَ وَهُمْ شُهُودُ

إلا أنهم يزيدون عن (تيم) بأنهم يتجرعون مرارات التصرفات الرعناء، فيما يستأثر المترفون من المسؤولين منهم بالأمن، والأمان، ورغد العيش، والرحلات المكوكية المتشبعة بأوفى (البروتوكولات).

والمُنَظّمةُ الأمُّ والمنشقون عليها من مختلف الفصائل التي تعرف منها وتنكر، يخوضون مغامرات قاصمة، تبعث على الشك والارتياب، وتزيد من احتقان الشعوب المضيفة للمخيمات أو اللاجئين، وتطفئ الحماس للقضية، وتحبط التفاعل معها.

وكيف يُسَلِّم عاقل لمتناقضات بادية العيان، ومقترفات لا يمكن احتمالها، فَمَعَ من يكون المسكونون بهمّ القضية؟ وكل طائفة تخوِّن أختها، وتتهم من شايعها بالعمالة، وتخذيل الشرفاء.

والراصدون للأحداث العربية، يعرفون المقترفات الواحدة تلو الأخرى، لقد ارتكب (ياسر عرفات) حماقات لا يمكن احتمالها، ولن تجد لها مخرجاً في القاموس السياسي، مع أن السياسة فن الممكن.

تمثلت بالاعتراف في الكيان الصهيوني، وفي شد عضد (صدام حسين) في مغامراته الطائشة، وفي إشعال حرب أيلول الأسود، وحروب لبنان التي سحقت المقاومة، وأذلت الشعب الفلسطيني.

وهل بعد (صبرا) و(شاتيلا) من مجازر؟

ومن بعد (ياسر) ماذا فعل (الحمساويون) من تصديع للوحدة، وتَفْريق للكلمة، وتحييد للعرب، وتمكين للفرس؟

ولئن كانت عواطفنا معهم، فإن عقولنا مع جمع الكلمة، ورأب الصدع، واحتمال الأذى، حتى يأذن الله بنصر من عنده.

وأخيراً ماذا فُعِل بالمخيمات في (سوريا)، وَزَجّها في أتون حرب مجنونة، لا تبقي، ولا تذر، أشعلها واحد من أبناء المخيمات، حتى لم يبق في مخيم "اليرموك" إنس ولا جـــان.

ومن المسلمات أنه ليس من حق الفلسطينيين، ولا من واجبهم الدخول في النزاعات العربية، لا بالقول، ولا بالفعل.

إن على الفلسطينيين أن يلتزموا الوحدة فيما بينهم، والحياد في القضايا العربية الساخنة، وأن يعرفوا أن واجب الغريب أن يكون أديباً، فهم ضيوف على الأراضي

العربية، والضيف في حكم المُضَيِّف، وإن كان ثمة شجاعة، أو بطولة، فإن عليهم أن يحتفظوا بها لقضيتهم، فالنافقون بالآلاف من الأبرياء والمستضعفين في (الأردن) و(الكويت) و(لبنان) و(سوريا) وغيرها، من الأفضل أن يكونوا شهداء على أرض فلسطين.

لقد خسر المغامرون من زعماء المنظمات والفضائل بتصرفاتهم غير السوية مواقع كثيرة، ودعماً قوياً، وتعاطفاً إيجابياً، وأنفساً بريئة، ولم تعد قضيتهم كما هي من قَبْلِ المنظمة.

لقد كان العربي مليئاً بالحماس، والإقدام، والإخلاص لقضيتة فلسطين، وكانت القضية التي لا يعلو على صوتها صوت.

أما اليوم، وبعد أن دخل زعماؤها اللُّعب القذرة، فقد تحولت إلى حدث ثانوي (روتيني) يمر كأي حدث عارض، وذلك ما يتطلع إليه الصهاينة.

ولكيلا تتآكل القضية، وتصبح أثراً بعد عين، فإن على العقلاء من أبناء فلسطين أن يتدرروا أزمتها، وأن ينأوا بها عن الأحداث العربية العارضة، وأن يوحدوا صفوفهم وأهدافهم، وأن يقولوا لمن استثارهم ما قاله (عبد المطلب) لأصحاب الفيل: - (أنا رب الإبل وللبيت رب يحميه).

تعالوا نختلف ولكن ضمن الأطر الحضارية .. !(١)

كلما انفض سامرُ مؤتمر، أو لقاء، أو ندوة، اندلقت أقتاب التناجي بالإثم والعدوان، ونَسْف جسور التواصل، وتكريس القطيعة، والبلوغ بالتلاحي حد (اللاعودة). وهو ما نسمعه، ونراه بين الحين والآخر من كتاب كنا نعدهم من الأخيار.

وهذا التنازع يكون في زمن تعيش فيه الأمة العربية زلازل رُعْبٍ تتصدع مِنْها وحداتُها الدينية والفكرية، ويختل منها الأمن والاستقرار، وتنسل الطائفيات والحزبيات والقوميات والإقليميات من كل حَدَبٍ، لانتهاب الأنفال والغنائم.

وما نفذت المؤتمرات، وما أقيمت اللقاءات، وما تتابعت الندوات إلا من أجل إمتاع النخب وإفادتهم، ومن أجل تنشيط الحركة الفكرية والأدبية وإشاعتها، ومن أجل ملء الفراغات التي تعاني منها شعوب كثيرة، لم تتهيأ لها الإمكانيات، ولا الظروف، ولا القيادات الواعية لمتطلبات المرحلة المأزومة.

وكم هو الفرق بين قراءة واعية مشروعة لفلول المؤتمرات وبقايا اللقاءات وهنات الندوات وشماتة بها، وافتراء عليها، وتفخيم لوقوعات عارضة، ليست مطلوبة ولا مرغوبة. ومع هذا التجني، فإننا لما نزل نتطلع إلى عودة حميدة للثقة المتبادلة، والتسامح الواثق بين الفرقاء من كل الأطراف، وإقالة للعثرات. فالزمن لا يحتمل مزيداً من التنازع، ولاسيما أن مثمناتنا ومنجزاتنا مستهدفة، وأننا وسط طوفان من الأعداء الذين يكادون إزلاقنا بأبصارهم. وإذ يكون من حق كل مقتدر أن يشهد بما علم، وأن يطالب من كافة الحشود الفكرية والأدبية استكمال ما ينقصها، وتلبية الرغبات المشروعة، وتحقيق التطلعات الممكنة، فإن من الخطأ الفادح أن تعمم الأحكام، وأن تحِّمل الحشود مسؤولية الوقوعات الفردية المتوقعة من أي تجمع بهذا الحجم، وبذلك التنوع.

لقد مرت البلاد بـ(مؤتمر للسلفية)، و(لقاء للمثقفين)، ومعارض كتب عالمية، وفعاليات دينية وأدبية وفكرية واقتصادية، لا ينطوي منظومها إلا على الخير، وتلك من الظواهر الحميدة، فالإسلاميون حقيقون بأن تُقرأ مفردات اهتماماتهم، والمثقفون جديرون بأن تدار كؤوس المعارف في منتدياتهم، ومتى نَدَّ متحدث، أو جنح ضيف عما يجب أن تكون عليه الفعالية، فإن من واجب المراقب أن يأخذ المذنب بذنبه، متى تبين له التعمُّدُ، واستشرى من المقترف الإصرار، وظهرت بوادر الترصد، ثم لا يكون في النقد تعد ولا تشفٍ، ولا تعميم ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾، ومتى عممت الجنح، وهولت المقترفات الفردية، سقط كل تجمع، وكف كل فاعل، فمثل هذه الممارسات تخيف الأسوياء، وتحملهم على الكف عن المبادرات الإيجابية، وذلك ما لا تريده الأمة التي أعطاها الله وأوسع في العطاء.

ومما هو سائد ومعلوم من الممارسات بالضرورة، أن المؤتمرات واللقاءات والندوات لها خطط وأهداف ومجالات، ومن ثم لا تجوز مناكفتها بما اقترفه مشارك، لم يأذن المنظمون بجنحته، وفي الأثر (من نوقش الحساب عُذِّب). ولربما يقصر المنظمون عما يجب أن يقدم لمشارك، يرى أنه مغموط الحق، فتثور ثائرته، ويحدوه الاحتقان إلى خلق القبة من الحبة. ولأن الإثارة الإعلامية مهنة الفارغين، فإن مثل هذه التأوهات، تفسح المجال لهذا الصنف من الناس، كي يملؤوا الرحب بفضول القول، وتصعيد القضايا العارضة، ولربما تكون المفتريات من الوزن الثقيل، بحيث لا تستطيع الأطراف المقصودة احتمالها، ولا تمريرها، أو المرور بها دون اهتمام، وقد تكون المعاقبة بالمثل،

(١) تاريخ المقال: ٢٤/ ١/ ٢٠١٢

فيدخل الأطراف بمهاترات، لا تليق بالمشاهد، وكل ذلك مبعثه الاحتقانات، وتهيؤ المشاعر للإثارة، ولو أن المشاهد جنِّبت أي قابلية للإثارة، لكان بالإمكان تمرير أي تأوه دون تصعيد، يبلغ بالأطراف المستهدفة إلى المقاضاة الحقوقية ومحاكمة الجناة.

إننا نسعد بالنقاد الجريئين، وبالمتابعين المقوِّمين لكل فعالية، ولا نود أن تمر الفعاليات دون مساءلة أو تقويم، تقول للمحسن أحسنت، وللمسيء أسأت، ونستاء من السكوت أو المداهنة، ونمقت المدَّاحين، ونود لو قدرنا على حثو التراب في وجوههم، كما أوصانا الأسوة الحسنة، ولست هنا معنياً باستعراض ما أثير عبر المواقع والقنوات وأنهر الصحف من صدامات تجرح الكرامات، وتحدو بالمهتمين إلى استخدام ذات النبرة العالية، لكبح جماح المسرفين على أنفسهم، وعلى عشيرتهم الأقربين. ولأنني نزاع إلى إطفاء اللهب، وفك الاشتباك، والتقريب بين وجهات النظر، فإنني لن أفصل في تلك اللجاجات، وأرجو أن يكون هناك متسع من المشاعر، لإصلاح ذات البين، وطي اللغط، والكف عن تبادل الاتهامات. ذلك أن المجتمعات العربية سالت دماؤها بسبب اختلاف وجهات النظر، ومن الحصافة أن نوعظ بغيرنا، وأن نكون نزاعين إلى الوفاق والمصالحة، ونقل الخلاف من الصدام إلى الحوار، ومن الحدَّة والحديَّة إلى اللين وقبول الآخر، وتلك من أخلاقيات الرسل: - ﴿فبمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ. وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾.

والإسلام ركز على إشاعة الكلم الطيب والقول السديد، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ و ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً﴾ وكيف نجنح إلى منكر القول، ونحن مطالبون بالقول المعروف، حتى لقد أصبح القول المعروف خيراً من الصدقة التي يتبعها أذى. وبلادنا التي تخب وتضع في ربيعها المتواصل منذ قرن، دون إراقة قطرة دم، جديرة بأن يكون نخبها أقدر على إشاعة الكلمة الطيبة، وتقديم حسن الظن، واطِّراح الخوف، والترفع عن كشف السوءات التي سترها الله، وإذا كان لابد من نقد أو توجيه فإن الطريق السوي أن تستخدم لغة التورية، فالرسول ﷺ، يعرف المقترفين، ومع ذلك يقول: «**مالي أرى قوماً يفعلون كذا وكذا**» إن التنقيب في المواقع، وتعقب ما تتداوله النخب من اتهامات عبر كل الوسائل الممكنة، تقف بنا على مستوى أخلاقي، لا يليق بالسوقة، ولا شك أنه مؤشر احتقانات لا مبرر لها.

ونحن أمة مسؤولة عما نقول: - ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ وبلادنا التي وحَّدها المؤسس: إقليمياً وفكرياً، جديرة بأن تظل كما تركها، ومن تعمد الإخلال بشيء من هاتين الوحدتين، فقد اقترف إثماً عظيما، وجاء شيئاً إدًّا.

والذين زلت ألسنتهم بالاتهامات، والذين تصدوا لهم بعنف، ولم يكظموا غيظهم، من الخير لهم جميعاً، أن يحسنوا الظن ببعضهم، وأن يطَّرحوا سوء الظن، والجزاء بالمثل. ولست هنا داعياً للسكوت عن الحق، ولكنني أود معالجة الجنح بالتي هي أحسن، الشيء الذي أراهن عليه أن هذه المؤتمرات، وتلك اللقاءات إنما قصد منها إشاعة المعرفة مجردة من كل نوايا سيئة، وأن ما يعرض لها من إخفاقات أو جنح، لم يكن عاماً، ولا مقصوداً، وإطلاق الاتهامات إجحاف بحقها وحق المنظمين لها، وإذا اندس من يحمل النوايا السيئة - وهذا ممكن ومتوقع- فإن بإمكان الغيورين على قيمهم تحديد الأهداف، وتجنب الإطلاقات الطائشة.

لقد كنت ولما أزل حفياً بالمعارك الأدبية، وخائضاً لغمارها، وكان خصومي لا يدخرون وسعاً في التأليب علي، ولكنهم مع تحرفهم وعنفهم، لا يصادرون حقي، ولا يستأثرون بالمشاهد، فكم أفاجأ بأن أحدهم يلح في أن أشارك في مؤتمر أو ندوة أو تحكيم أو عضوية، وحين نلتقي في مؤتمر نتبادل كلمات المجاملة، وكم أشرت إلى فضلهم علي، وحفزهم لي على التنقيب عن المستجد، لأكون قادراً على مقارعتهم، ولم يتبادل أحد منا الاتهام ضد خصمه، كما لم يقترف أحد منا استعداء السلطة، أما ما نراه ونسمعه في المواقع والمنتديات وعبر أنهر الصحف فمختلف جداً، وهو مالا نود استشراءه، لأن قضايانا واحدة، وهمومنا واحدة، وديننا واحد، ووطننا واحد، ومن الخير أن نختلف، ولكن يجب أن يكون الاختلاف معتبراً ومحكوماً بضوابطه وآدابه.

لكيلا تحترق السلفية .. ![1]

لست أدري ماذا فعلت (جامعة الإمام)، وماذا فعل المشاركون داخل أروقتها في الشأن السلفي، إذ لم أدع للمشاركة ولا للحضور، وأنا بِضْعَةٌ منها و(جُنْدبُها)، ولست عاتباً ولا متطلعاً، ولكن ذلك من باب الاحتراس، حتى لا تحسب تأوهاتي من بواعث المناسبة، وأملاً في أن يكون مقالي هذا بمعزل عما قيل فيها، وما قيل عنها من تأييد أو تحفظ أو نقد، وحين لا يكون لديَّ تصورٌ عما جرى، لا يكون من حقي الحكم لها أو عليها، ومتى أفرج عن البحوث والمداخلات، وظفرت بنسخة منها، فقد يكون ذلك محفزاً لقراءة حيادية متعمقة. الذي أغراني بالحديث عن السلفية تحريضات تلقيتها ممن يشاطرونني سلفيتي، ويتصورونها مثلي: معرفةً وسلوكاً.

وكأني بالمحرضين يخشون أن تتعرض (السلفية) لقراءات غير سديدة أو آراء غير رشيدة، إذ ربما يقترف قراؤها ربطها بالممارسات غير السوية من بعض مدعيها، أو ارتهانها بـ(علم الكلام) أوبـ(فقه الأحكام) أو أنها فترة، وليست مذهباً.

و(السلفية) ليست حكراً على أحد، بحيث يُفَصِّلها على قدر قامته، كما لا يؤطرها زمان ولا مكان، وإن كانت منطلقاتها من القرون الثلاثة الأولى، التي وصفها من لا ينطق عن الهوى بالخيرية. ولئن كان من حقي أن أحدد مفهومها ومقتضاها ومنهجها في التعاطي مع النص التشريعي، فإنه ليس من حقي احتكارها، ونفي المخالف، فأنا بحكم معرفتي لتاريخها وتحولاتها أجد أكثر من مبرر للقول في محكمها ومتشابهها ومحطاتها التاريخية، وحين أدعي السلفية، لا ألتف بأي عباءة، ولا أتحمل مسؤولية أية ممارسة تضاف إليها، وليست منها، وسلفيتي عقيدة وعبادة ودعوة ومنهج حياة، لا حزبية، ولا حركية، تلك هي سلفيتي، التي أدين الله بها، وكيف أقلد، والله يقول: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [النحل: ١١١]، وأخذي بقول من سبق من العلماء، ليس تقليداً، ولا تسليماً مطلقاً، إذ متى ما تبين لي وجه الصواب، فهو مذهبي، به أحيا وعليه أموت، لقد كنت، ولما أزل أتصورها شاطئ سلامة، يؤوب إليه المبحرون في لجج الآراء، ليتخلصوا من شوائب المذاهب، وشطح التيارات، والتواء المناهج، وجور القراءات التأويلية. والعلماء كلما أوغلوا في الخلاف، وتراكمت لديهم الرؤى والتصورات، وبعدت عليهم الشقة، تراءت للتائهين منهم منارات الشاطئ، فعادوا إليه مجهدين، لتنقية الرؤى، وتصفية التصورات، مما علق بها من شوائب. والرسول ﷺ الذي بَشَّر بالمجددين على رأس كل مائة سنة، لتخليص الدين من تحريف الضالين، وتأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين، إنما قصد العودة إلى السلفية، التي حددها بقوله: «**ما أنا عليه وأصحابي**»، وليست المعيةُ رفْضَ المستجد، ولكنها تحقيق المقاصد الإسلامية: عقيدة وعبادة، والدوران مع المصلحة حيث تدور، وإعداد القوة الحسية والمعنوية، واستكمال مؤسسات المجتمع المدني المستنير بنور الله، واستثمار القواسم المشتركة مع أي حضارة.

ومما لا يليق تجاهله، أن لكل عصر خطابه، فسلفية (ابن تيمية) فرضت خطاباً جهادياً، لأنه عاش محنة (التتار)، وسلفية (محمد بن عبد الوهاب) فرضت خطاباً تَصْفَوِيًّاً للنص من الشوائب، وتربوياً للأمة، لأنه عاش محنة البدع والجهل والتفرق. ولقد تكون هناك سلفيات متخلية عن بعض ثوابتها اضطراراً، لأنها تعيش أقلية وسط أكثرية علمانية أو غير إسلامية، فهي إن لم تصالح، وتكسب بعض الحق، غُلِبت، وفقدت كل الحق،

---

(١) تاريخ المقال: ١٧/ ١/ ٢٠١٢

ومتكؤها ﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ﴾ [النحل: ١٠٦]، و ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] . والإشكالية الأصعب أن السلفية لافتة جذابة، كل طائفة تعلقها على كيانها، وتدعي أنها الأحق بهذا الشرف، وقبل الادعاءات الحزبية والحركية، كانت هناك ادعاءات مذهبية، فالمحدثون يَدَّعونها، والفقهاء يَدَّعونها، والمفسرون يَدَّعونها، ومن تقصى معركة (الألباني) و(البوطي) وتناوش (أبي غدة) و(أبي زيد) وتلاحي (الفوزان) و(الصابوني) يقف على شيء من حسيس الخلاف. ولما لم تكن هناك دولة تتبنى هذا المفهوم غير (المملكة العربية السعودية) فإن من حق مؤسساتها الدينية أن تبلغها، وأن تطرح تصورها، وأن تبدي مفهومها الذي تعرضه ولا تفرضه، ولا تصادم المخالف من أجله، لأنها مطالبة بالإبلاغ والدعوة، وتقديم الأسوة ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وليس من حق أحد أن يُحِّمل السلفية ومعتنقيها المفاهيم الخاطئة للتنظيمات المتعاقبة، ولا أن يسقطها لتشرذم أهلها، ولا أن يسقط الآخرين أو يصادر حق الوجود الكريم لأهل القبلة، أو لمن لم يحاربونا في الدين، ولم يخرجونا من ديارنا، ذلك أن الأمة ستفترق إلى ثلاث وسبعين فرقة، لا يجوز تكفير واحدة منها، وإن دخلت النار، ولم تخلَّد. والراصد والمتابع للحركات الإسلامية، يجدها تلح في دعوى السلفية على حد:

وكلٌّ يدعي وصلاً بليلى
وليلى لا تقر لهم بذاكا

ولقد يبلغ الجور بالبعض إلى تحميل المؤسسات الدينية والتعليمية في المملكة مسؤولية الجهاد بدون سلطان، والتكفير بدون بيان، والتحريم بدون برهان. وعلماء المملكة لما يزالوا حريصين على تحرير المسائل، وتحديد المفاهيم، ولما تزل الدولة تمارس سلفيتها متصالحة ومتعايشة مع الكافة، دافعة ومجادلة بالتي هي أحسن. ويكفي أن الملك (عبد العزيز) في أوج سلفيته، فتح بلاده للمنقبين عن النفط والمستخرجين له من غير المسلمين، ولقد عاشوا مع المواطنين جنباً إلى جنب، آمنين مطمئنين، ولم يغدر أحد بذمة، فكان حسن الإجارة وتبليغ المأمن، بل لقد تبنت البلاد مبادئ التيسير والحوار، بوصفها من مبادئ السلفية العملية والتعبدية، وحين يند عالم أو متعالم من المحسوبين على السلفية، ويختلف مع المؤسسات الدينية الرسمية، فإن ذلك لا يحمِّل الدولة ولا مؤسساتها المسؤولية، ولقد يكون الاختلاف معتبراً ومقدوراً على احتوائه، وحين لا يكون كذلك، فإنه من الشاذ الذي يمكن علاجه بواسطة قطاع الأمن أو المناصحة.

وبقدر تساؤل المرتابين عن السلفية المطلوبة، وقولهم بتعذر قيامها في ظل هذا التشرذم فإن السلفي نفسه، يتساءل عن اضطراب المفاهيم حول (الديموقراطية) و(الليبرالية)، فالغربيون أنفسهم يختلفون حول مفهوم تلك المصطلحات ومحققاتها، فطائفة تراها مجرد آليات ومناهج، لتسوية الخلافات حول الأنظمة السياسية، فيما يلتمس آخرون جذوراً فلسفية و(أيديولوجية) لهما، فإذا كانتا ذات طابع أداتي إجرائي، أمكن الأخذ بالمناسب منها، بل ربما تكونان بهذه المفاهيم من الحق، أما حين تكون لهما جذور فلسفية أو (أيديولوجية) فإن السلفية تنفيهما لمناقضتهما للمقتضى السلفي. واستمع إلى قول علم من أعلام السلفية، هو (ابن القيم) في الشأن السياسي: (فإذا ظهرت أمارات العدل وأسفر وجهه بأي طريق كان، فثم شرع الله ودينه) (الطرق الحكمية ص١٩) فالفقه السياسي

مُشَرَّع الأبواب للاجتهاد، وليس من الحصافة أن يُعْطى الناسُ بدعواهم. فـ(المأسونية) أغرت المأزومين بدعوى (العدل والإخاء والمساواة)، وهي من معطيات الإسلام وثوابته، قبل مجيء (المأسونية) التى تعد وتمني، وما تعدهم إلا غرورا.

وعندما يُحمِّل العلماني أو (الليبرالي) السلفية مسؤولية مقترفات الطوائف المتطرفة، بحجة أن ممارسات القتل والتكفير ممن يدَّعونها، فإن الاحتكام لا يكون إلى الممارسات غير السوية، وإنما يكون إلى المبادئ، فالثوريون يَدَّعون (الديموقراطية) وأنظمتهم (دكتاتورية) متسلطة، والسلفية كذلك، ينضوي تحتها المقلد الجامد، والورع المتشدد، والمتفتح المتسامح، والجريء المتطرف، والتكفيري المعاند والجهادي الدموي، والراحل إلى التراث، والراحل به. واطِّراحها بحجة تناقض المنتمين إليها، تفويت للإسلام الحقيقي، لأنه تفويت لما أتى به الرسول ﷺ، وما تركنا عليه من قول أو فعل أو إقرار، والسلفية بمفهومها الصحيح هي الحل الإسلامي الأقدر على إقالة العثرة، واجتماع الكلمة، ونفي الخبث، وتجديد الدين، واستيعاب المخالف، واستحضار النص، وتفعيله. وإذا شرعن بعضنا للتساؤلات عن السلفية المقصودة وسط التعددية، تمهيداً لإسقاطها، فإن ذات التساؤلات، يمكن أن تثار حول أي نحلة. فهل (الليبراليون) متفقون على منهج أو آلية أو (أيديولوجية)؟ وقل مثل ذلك عن أي نحلة أو ملَّة. لقد حاول (جون لوك) بعد أن راعه التناقض حول (الديموقراطية) أن يخفف من حِدَّة التناقض، وذلك بتقريب وجهات النظر، واستبعاد الجزئيات التي يعول عليها المختلفون. و(السلفية) أوغلت في التناقض، حين سيسها الحركيون، دون تأسيس أو تأصيل للفكر السياسي الإسلامي، أما هي بعيداً عن السياسة فإنها من الوضوح، بحيث لا تحتاج إلى مزيد من التقليب، والسلفية المتداولة هي سلفية العقيدة والعبادة، ومتى سيست فإنها قد تحتاج إلى بعض آليات (الليبرالية) و(الديموقراطية) والمؤسسات النيابية، ذلك أن (الفكر السياسي الإسلامي) يحتاج إلى تقنين، يكبح جماح المتأولين، كما يحتاج إلى تفعيل تتحقق من خلاله مقاصد الشريعة. والاستفادة من النظم والمناهج والآليات الحديثة، لا يحول دون قيام محققات الحضارة، فالقواسم المشتركة لا تقتضي الانسلاخ من المبادئ، بوصفها شعارات وشعائر.

لقد عايشنا تطلعات جائرة، وتساؤلات حائرة، تدل على أن حالة الارتباك لمَّا تزل قائمة، وليس أدل على ذلك من اختلاف السلفيين أنفسهم حول المفهوم والمقتضى، ولعل من أفضل الإجابات التي قطعت قول كل خطيب مقولةَ الملك (عبد العزيز) حين أسهم في تأسيس (هيئة الأمم المتحدة) لمَّا سئل عن دستور بلاده. قال: (القرآن الكريم) وليس هناك ما يمنع من استخلاص المواد الجامعة المانعة من القرآن، لتكون دستوراً، يملأ الفراغ، ويحقق العدالة والحرية والمساواة، ويقطع دابر التساؤلات الهائمة العائمة.

من لشبابنا المتخطف من بين أيدينا .. ؟[١]

بين الحين والآخر يهاتفني بعض الشباب، متسائلين عن موقف الفكر الإسلامي من نازلة سياسية أو شاردة فكرية. وآخرون يطلبون اللقاء بي في منتدياتهم، وقد لا أكون في بعض الحالات مهيأ نفسياً للحديث، أو لا أكون مستعداً معرفياً للقول الفصل في القضايا المصيرية، وقد لا أكون خالياً من المشاغل للاجتماع، فأعتذر، وحين أتهيأ وأتوفر وأخلو، ألم بهم على وجل، ثم أفتي عن بعض تساؤلاتهم بـ(لا أدري) ومن قال: لا أدري فقد أفتى، ومن جهلها هلك وأهلك، وأذكر أن أحد الأئمة وأظنه الإمام (مالك) رحمه الله، سئل عن أربعين مسألة، فقال في ست وثلاثين منها: لا أدري، وما زاده ذلك إلا عزّاً وتمكينا، ولا يقولها إلا عالم، يعرف قدر نفسه، و يعرف خطورة القول بغير علم، وإذا هيئت لي إجابة الدعوة، والتف حولي عدد من الشباب، اكتشفت أننا لم نؤد ما أوجب الله علينا، وأيقنت أن شبابنا يُتخطفون من بين أيدينا، ولست أشك أن للباطل دعاةً على أبواب جهنم، وأنهم متفانون في خدمة باطلهم، متقنون لفنون الجذب والإغراء، فالشباب الذين أستمع اليهم، وأفجر كوامنهم، وأمنحهم دفء الثقة، وحرية البوح، لا ينطلقون من فراغ، وقد لا يبحثون عن جواب، وإنما يبلغون رسالة، فهم يعتقدون ثم يتساءلون، وما كانوا فيما يذهبون إليه طلاب فتنة، ولا عشاق خروج على الجماعة، ولكنهم بمثاليتهم، وطهرهم، وخلو أذهانهم، وغفلة الرقيب عنهم، أصبحوا مشروع فتنة عمياء، لا تبقي ولا تذر، لا أقول ذلك على عمومه، ولكن الظاهرة موجودة، شئنا أم أبينا، ونحن مسكونون بغفلة المؤمن أمام جلد الفاجر، وغفلتنا المعتقة التي فوتت علينا أشياء كثيرة، حملتنا على حسن الظن بكل من بدت عليه مخايل التقوى والورع، ومن اليسير جداً أن نسلِّم القياد لكل طارق، تحت طائلة (زامر الحي لا يطرب) ولا نجد في أنفسنا شكاً ولا ارتيابا، حتى يتبين لنا الداء العضال، كما الخيط الأبيض من الخيط الأسود، وإذا وقع الفأس على الرأس، لا ينفع الندم. وعيبنا الطيبة الزائدة عن حدها، وتسليم أبنائنا لمن يمر بهم على نائم الفتن.

ولو أن المقتدرين الناصحين المعتدلين من العلماء والمفكرين عرفوا حق أبنائهم عليهم، واقتطعوا جزءاً من وقتهم للتوعية والإرشاد، ولو أنهم بحثوا عن الشباب في منتدياتهم وأماكن تجمعهم لكان خيراً للبلاد والعباد، وكم على الأرض من علماء ومعلمين وخطباء وإعلاميين يمتلكون الجهد والوقت والمعرفة، ولكنهم لا يؤدون حق الله عليهم، وكيف يفوّتون الفرصة، وهم يعرفون أن هداية الضال خير من حمر النعم، ولا سيما أننا في زمن الغواية، وما أكثر الشباب الذين فقدهم أهلهم ووطنهم، بل فقدوا أنفسهم، وماتوا في سبيل الشيطان، وهم يحسبون أنهم يجاهدون في سبيل الرحمن. ومن ذا الذي يتصور أبناء الفطرة يتمردون على أهلهم، ويجتازون الحدود، تحت ذريعة الجهاد، فمن علمهم ذلك، ومن حملهم على المغامرة؟ إنهم أبناء الفطرة، ولدوا على السلفية، ونهلوا من معينها الصافي، ولكن دعاة السوء صرفوهم عن سواء السبيل، فأردوهم في مهاوي الهلكة، لقد كانت لي تجاربي في هذا المجال، بحكم ارتباطي بالشباب في حقل التعليم العام والجامعي، وأدائي المتواصل من خلال المؤسسات الثقافية والأدبية والإعلامية، طوال خمسة عقود أو تزيد، ولقد أدركت بالخلطة أنهم يعيشون ضوائق نفسية، وتَجول في خواطرهم أسئلة حائرة، ننهرهم عند سماعها، وكيف لا تحتدم مشاعرهم، والوضع العالمي يمارس أقسى الضغوط عليهم، والتحديات تحبط المشاعر، وتفجر الغضب، وتزيد الاحتقان، والمؤسسات العالمية التي أنشئت لكفالة الحرية ورعاية حقوق الإنسان، تصرِّفها اللعب

---

(١) تاريخ المقال: ٧/ ٢/ ٢٠١٢

السياسية، وتحكمها المصالح الوقتية، وكيف لا يمس الإنسان طائفٌ من الرفض والتمرد، وهو يرى هذه الانهيارات في سائر القيم، دول قوية متغطرسة، تحكم العالم بقوة العتاد والاقتصاد، وتسلب الحريات، وتنهب الثروات، وتفسد الأخلاقيات، وتتدخل في أدق الخصوصيات، تقاطع، وتحاصر، وتعاقب، وتحاكم، تنصر الظالم، وتخذل المظلوم، وتدعو إلى محققات حضارتها من (علمنة) و(عولمة) وفوضوية أخلاقية، وانفلات فكري، وتسويق لمصطلحاتها كـ(الليبرالية) و(الديموقراطية) وسائر المناهج في سائر العلوم، حتى إذا استجاب لها العالم الثالث، وحقق بهذه الآليات ما يريد، نكثت ما عاهدت عليه، وتصدت للحكومات الشرعية التي وصلت إلى المسؤولية بالانتخاب، بوصفه آخر ما توصلت إليه (الديموقراطية)، وأي حرية أو عدل أو مساواة في ظل الحسم العسكري لقضايا يمكن أن تحسم عبر اللقاءات والمؤتمرات وبالتداول الحر للآراء، وتلك الناقضات الصارخة تثير السذج والمبتدئين وتحتدم معها مشاعر الشباب المثاليين، وهذه الأوضاع المتردية والثورات الدامية، وتلك الحروب الأهلية المدمرة، وذلك التنازع بين السلطات والمذاهب والأحزاب وهذا الهوان والفشل والفقر والعوز وركون البعض إلى الأعداء والمداهنة والموالاة، كل ذلك يشكل ضغطاً موجعاً لناشئة الأمة العربية، ويهيئهم لقبول أي خطاب، يعدهم ويمنيهم، وإن كان وعده زوراً وغروراً، وهذه الظروف المعقدة تعد حالة استثنائية لا يحسم أمرها الأداء (الروتيني) الرتيب، بكل بطئه وتردده، إذ لا بد من تفكير عميق، يمنع من التدهور الذريع، ويمكن من الحيلولة دون احتناك الشباب الشارد بنظراته، المضطرب في تصوراته.

وإذا لم يبادر القادرون من علماء ومفكرين وخطباء وكتاب وإعلاميين لإنقاذ شبابنا من تحت براثن الإحباطات ودعاة السوء، فإن الأحوال ستزيد سوءاً على سوءٍ.

لماذا تكتب السير الذاتية وكيف تكتب .. ؟! [(١)]

بعد إلحاح طويل ممن لا يرد لهم طلب، بدأت تَسْويد (السيرة الذاتية) ببطء وتردد واخترت لها مسمى: (تلك أيام قد خلت) ولقد أشرت من قبل إلى صعوبة تلك المهمة: صعوبة انتقاء للأحداث و صعوبة اختيار للمنهج، فالذين سبقوني بكتابة سيرهم تنازعتهم عدة مناهج، وتوازعتهم عدة اهتمامات، وراوحوا بين الاطناب الممل والإيجاز المخل، وماكنت حفياً بمنهج دون منهج إذ لكل شيخ طريقته. ومن الخير للقارئ ألاَّ يستأثر منهجاً بالموقف، على أن بعض السير التي تملأ الرحب، قد لا تساوي المداد والورق الذي كتبت به، ولكنها تظل ملء العين والبصر عند أصحابها فـ(كل فتاة بأبيها معجبة). ولقد يحسن عند قوم ما هو قبيح عند آخرين، وقديما قيل: - (حَسَنٌ في كل عين من تود). والراصد لمراحل حياته، لو طاوع نفسه، لأخرج للناس عشرات المجلدات، فالوقوعات لا يعبأ بها الإنسان أثناء المعايشة، ولكنها تكون مهمةً حين يطويها الزمن، وكل شيء تبتعد عنه، يصغر في عينك، إلا الأحداث، فإنها تكبر، كلما باعد بينك وبينها الزمن، والناس في أحاديثهم يتولهون على الماضي ويقدسونه، وإن كان شحيحاً أو مدنَّسا. على حد:

ربَّ يـــومٍ بكيـــتُ منـــه فلمَّـــا

عِشْــتُ فـــي غيـــره بكيـــت عليـــه

ولما لم يكن تاريخنا الإقليمي الحديث على ما يرام، فقد حفل بأحداث وحوادث جسيمة، اتسم بشح الموارد، وشظف العيش. وآباؤنا مروا بأيام عصيبة، ذاقوا فيها مرارة الجوع والخوف، والرواة والقصاص يحدثوننا عما مر بـ (نجد) من فقر وفاقة وخوف وفرقة وجهل وأوبئة، ولو أنها رصدت بالصوت والصورة، كما ترصد الأوضاع في (السودان) و(الصومال) لكان لها وقع أليم، ولكنها ظلت أحاديث يأتيها النسيان فينقصها من أطرافها، وقد يراها الجيل المترف من نسج الخيال، وجيلي مَسَّه في طفولته طائف من ذلك الشطف، إذ ولدنا في أتون (الحرب العالمية الثانية) وهي حرب مجنونة، غيرت مجرى التاريخ، ونسلت من تحت ركامها أوضاعاً تردت معها أحوال العالمين العربي والإسلامي. لعل من أسوئها، اقتسام الغنائم، وتفتيت العالم العربي، كما برز ساسة ماكرون، ومفكرون متشائمون، ونشأت في أعقابها فلسفاتٌ قلقة، ومذاهبُ مضطربة، كـ(الوجودية) و(الدادية)، وسائر النحل العبثية، والمقتفي للابداعات الشعرية والسردية، يلمس التحول الموضوعي والفني، وكأن الرفض للعنف امتد ليشمل كل وجوه الحياة، بما فيها الإبداع: شكلاً ومضمونا، وكل حرب ضروس، لا يقتصر أثرها على الأحياء والأشياء، بل يمتد إلى سائر القيم، وعمالقة الفن والفلسفة الذين تجرعوا مرارات الحروب الهمجية، جسدوا معاناتهم، ورصدوا تجاربهم، وأخرجوا للناس سيراً ذاتية، لا يمل قارئها. والحس السِّيري تلمسه عبر إبداعاتهم السردية وفي نظرياتهم الفلسفية، ولما لم يكن آباؤنا وأجدادنا على شيء من الإمكانيات التعبيرية، فقد تفلتت الأحداث، إلا ماثوى منها في كتب التاريخ، ولو رصدت كلها لكان لها شأن كبير. ولهذا يتطلع أمثالي إلى مبادرة النخب إلى تسجيل سيرهم بوصفها جزءاً من تاريخنا الحديث. وما يتطلع إليه القارئ المرتبك كـ(خراش) أمام تكاثر المعارف وتعدد المصادر وتنوع الثقافات، يختلف عما هو سائد، فكتَّاب السير الذاتية أمام تحديات كثيرة، وما لم يكونوا على مستوى المرحلة، فإن الزمن سيتجاوزهم، ثم لا يكون لهم أثر يذكر، ويكون مايكتبون من سقط المتاع، الذي لا يؤبه به.

---

(١) تاريخ المقال: ٣١/ ١/ ٢٠١٢

ورجل مثلي نيف علي السبعين يعد من شهود العصر، بحلوه ومره، وعجره وبجره، ولست أشك أن كتَّاب السير كالمصورين، كل واحد منهم يلتقط صُوَرة من الزوايا التي تهمه، ولما كانت السير تمد بسبب إلى التاريخ، كانت أحوج ماتكون إلى المصداقية والدقة وانتقاء الأحداث المفيدة، والتخلي عن الحشو الممل ولاستطراد المخل، ولا سيما أن المتلقي أمام خيارات عدة، ومغريات مستبدة، وما لم يتوفر الكاتب على قدرات ومواهب وأحداث تثير وتقنع و تستميل، فإن الناس يمرون به وكأنه لا يعنيهم، وفوق هذا فإن السير الذاتية مفردة من مفردات الإبداع السردي، ومن ثم لابد من التوفر على أدبية النص، التي تعد معادلاً لشعرية الشعر، فالشعر لا يتحقق بالوزن والقافية، وإن كانا من سماته الرئيسة، بل لابد من الشعرية. و(الشعرية) مصطلح حديث، ليس وقفا على الشكل أو العمودية، وإن أخذ بشيء منها، كما لا يكون الشعر شعراً ما لم تتحقق الشعرية فيه، أما (الأدبية) فمصطلح تراثي، لا يكون النص أدبياً إلا بتوفر أدبيته، وعيب السرديات المعاصرة أن سوادها الأعظم، يفتقر إلى الأدبية بمفهومها الحديث، و(السير الذاتية) التي يدفع بها الناشرون، تقعد بها لغتها وفنياتها. ذلك أنها لا ترقى بكلماتها وجملها وعباراتها إلى الأدبية، وهي إذ لا تكون تاريخاً خالص التاريخية، فإنها بأمس الحاجة إلى فنياتها ولغتها الأدبية بإيجازها ومجازها وخيالها. و(الشعرية) و(الأدبية) من المصطلحات العصية على التحديد، والنقاد المبدعون، هم وحدهم الذين يميزون بين الأساليب المتأنقة، على أن من يفقد جاذبية الأسلوب، قد لا يفقد جواذب أخرى، وكم من سير ذاتية هابطة في أساليبها، ولكنها متألقة بأحداثها، وكم من السير الذاتية الخالية من الأدبية والحدث المثير، وإن تشايل معها النقد، واحتفت بها المشاهد، وتلك من عيوب المشاهد التي لا تُغْتفر.

وأمام طوفان السير المختلفة الأشكال والألوان، يجد القارئ نفسه مضطرة إلى الانتقاء واقتناء فائدة لغوية أو دلالية، وبقدر مودتنا كف البعض عن الهراء الفارغ من كل معنى، نود لو أن الرجال المليئين بالثقافة والخبرات، والمتوفرين على الإبداع مارسوا كتابة سيرهم، لتكون مجالاً للإمتاع والفائدة.

لقد مرت بلادنا بأحداث جسام، وخرجت من أزمات عظام، دون أن ينال مثمناتها نقص فادح، ووراء ذلك رجالات يمتلئون خبرة وحكمة وأناة، ومع ذلك قضوا نحبهم ولم يسجلوا حدثاً، ولم يشيروا إلى موقف، مع أن فعلهم جزء من تاريخ بلادنا، وضياعه ضياع للتاريخ. وإذا يقول الحداثيون: إن الزمن زمن الرواية، لاضطلاعها بمهمة تشكيل الوعي فإن السيرة الذاتية لا تقل عنها أهمية ولا قيمة.

إننا نكتب السيرة لنخلِّد الأمجاد ونربي الأجيال، ويبقى السؤال الحائر: كيف نكتبها؟ لقد ناشدت من رجالات الدولة تدوين ما أنجزوا من أحداث، والإشادة بمن وراءها، فالتاريخ إن لم يتداركه صانعوه، فإنه يضيع، وتضيع معه قيم كثيرة. فهل يتكلم الصامتون.

أبوعبد الرحمن.. ومن أبو عبد الرحمن .. ؟[(١)]

الكاتب الأمكن كالمصوّر البارع، يرى الشواخص من عدة زوايا، ثم يلتقطها من الزاوية الأجمل، إن كان محباً للجمال، أو من الزاوية الأشمل إن كان محباً للتقصي، ومكمن الصعوبة في التعدد والتعلق، فبعض الواجهات الشخصية كالحلقات المفرغة، وهنا يكون الملتقط كـ«خراش».

ذلك بعض إحساسي، وأنا أغامر بالاقتراب من أبي عبد الرحمن بن عقيل الظاهري .. وهذا اسم مخلوط، يسميه أهل المنظمات بـ«الاسم الحركي»، ويسميه أهل الفن بـ«الاسم الفني».

أما اسمه الحقيقي فهو [محمد بن عمر بن عقيل] من أهل «شقراء»، وفد إلى الرياض عام ١٣٨١هـ طلباً للدراسة والوظيفة، والإشكالية ليست في أطوار حياته الغرائبية والمثيرة، ولكنها في تلافيف العلاقة الشخصية بيني وبينه، وهي علاقة يحسبها الناس علاقة أدب وثقافة وحسب، هذه العلاقة التي بلغت في بعض مراحلها حد الخلطة، كشفت لي جوانب من حياته الخاصة والعامة، مما يستحق التقصي والتسجيل، فأبو عبد الرحمن تجده حيث تطلبه، ويثير إعجابك حيث تجده.

يمارس الشفافية بأقصى معانيها، ويمارس البوح، وكأنه زفرات مصدور، لا يخفي الخطرات، فضلاً عن الممارسات، ولقد استغل خصومه تلك الثنيات، فأوغلوا في توهين عزماته، وحديثه عن خصوصياته، ليست منْ تعالي الذات، ولا من تزكيتها، وإنما هو أدب اعتراف نادم على فوات الفرص، التي يظنها طرقت بابه، ولم يشرع لها الطريق، وحياته حافلة بكل شيء، بالجد والهزل والأوبة واللمم والصدام والوئام، وهي حياة لاشية فيها، ولكنها من خلال رؤيته المأخوذة بالجد تارة وبالمثالية تارة أخرى، مظنه كل شيء، ولأنه ذوّاقة، كلما حل في مشهد معرفي، أطال الوقوف فيه، وشارك ذويه الدرس والتأليف، ثم ولاّه الأدبار، بعدما أضاع شيئاً من الجهد والوقت فيما لا يليق بمثله، ولقد خسرت المشاهد الفكرية والأدبية والعلمية ما لو حفظه لكان فيه خَيْر كثير، وهو قد أبدى ندمه على ما أضاعه من جهد، وقد لا يوافقنا حين نَعُدُّ اشتغاله بـ[الشعر العامي] من الجهد المضاع، ولك أن تتصور كم احتاج من الجهد والوقت لإصدار سلسلة «ديوان الشعر العامي بلهجة أهل نجد» وإسهامة في إصدار ديوان [التميمي]، وكم أضاع من الجهد والوقت لإصداره سلسلة كتب عن الأنساب والأسر والقبائل، وتفسير [البَسْملة] ثم النكول عن كل ذلك، ثم انظر إلى كتبه الجادة العازمة كـ[جدليات العقل] و [الذخيرة في المصنفات الصغيرة] و [القصيدة الحديثة وأعباء التجاوز]، وما كتبه عن اللغة العربية وأساطينها، وعن الشعر العربي وتحولاته، وما كتبه عن الظاهرية وإمامها [إبي محمد بن حزم الظاهري]، وما كتبه عن الفلسفة والفلاسفة والإلحاد والملاحدة، مثل [هكذا علمني ورد زورث] و [لن تلحد] وحواراته مع [القصيمي] وماتضمنته سلسلة [الفنون الصغرى] وكتب التراث التي حققها، لقد كان في نيتي أن أكتب «هكذا علمني الظاهري» وهي رغبة قائمة، ومعرفتي المبكرة به، جعلتني أخبر دواخله، وأعرف رغبته في التأصيل، وامتعاضه من أغيلمة يُخرجونه عن طوره، فلا يجد بداً من القسوة والتعالي، حتى إذا توغل في شجبهم، تهافتوا عليه، والكثرة تغلب الشجاعة، كما يقولون، لقد تعلمت منه استكمال علوم الآلة من نحو وصرف وأصول تلك المعارف، وقواعد إملاء وعلامات ترقيم، واستقصاء لكل معلومة من مظانّها. وعلمني أن الكتاب للناقد كالسلاح للمقاتل، وأن

---

(١) تاريخ المقال: ٢١/ ٢/ ٢٠١٢

الغلبة لمن يتمترس خلف كتبه ومكتبته، وعلمني أن القراءة لا ترسخ إلا بالاستثمار، وأن المعلومة لا يوهنها إلا الشك [الديكارتي]، وأن الظهرية زلزلة للمسلمات، وأن «ابن تيمية» محصلة واعية لـ«ابن حزم» و«ابن عبد البر»، وأشياء كثيرة، لو قلتها لارتاب المبطلون، ولمَّا أزل ألم به، وبما كتب وما يكتب، وأزوره في دارته في فترات متباعدة، نظراً لكثرة مشاغله وأسفاره، وضعف جسمه، وتبكير شيخوخته وعوارض الأمراض التي ألمت به، وكان آخر زيارة لي يوم أن كرَّم العلامة «ابن عقيل» رحمه الله، لقد شرق بالفرحة، حتى كادت تشرق به، على حد قول المتنبي:

شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي

وتلك مبالغة ممجوجة في مقام الرثاء.

وفوق هذا فأبو عبد الرحمن شاعر، لم يسلّم له المشهد بالشاعرية، و لم يكن همه أن يكون شاعراً، بل لم يرق له أن يُعْرف شاعراً، على شاكلة [العقاد] و [الرافعي] وآخرين يقرضون الشعر ثم يوارونه، والعالم والمفكر والتراثي، لا يريدون أن تطغى صفة الشاعرية على أحد منهم على حد:

ولولا الشعر بالعلماء يزري

لكنت اليوم أشعر من لبيد

ومع هذا، فقد تعجل بإصدار مجموعته الأولى «النغم الذي أحببت» وندم ندامة الكسعي على ذلك، إذ قال قبل عقدين [وأنا نادم عليه غاية الندم]، وندمه يشبه إلى حد كبير ندم [غازي القصيبي] رحمه الله على إصداره ديوان [أنت الرياض] .

غير أنه في ديوانه الثاني [معادلات في خرائط الأطلس] أعاد ثقة المتلقي، وأثبت أنه شاعر أمكن، واسم الديوان عنوان قصيدة عصماء، لو لم يكن له غيرها لكفته، ولكنها ضاعت بين مقولتي:-

[لا نفقه كثيراً مما تقول] للحداثيين، و[نسأل الله العافية] للتراثيين. ولأنها جواده الذي يراهن عليه، فقد ألح في تكريسها، إذ نشرها مشروحة، ثم ضمنها كتابه [القصيدة الحديثة وأعباء التجاوز]، وقد تجعله بتميزها من [شعراء الواحدة]، وهم الشعراء الذين خلدتهم قصيدة واحدة. ومحورها جلدٌ لشاعر العصر شاعر الهروب والنَّهْدين والمنفى والليل والمساء والقمر. ولا أستبعد أن تكون بإزاء قصيدة اليباب [لاليوت] والطلاسم لأبي ماضي، وموسة [السياب] وبحيرة [المهندس]، وأطلال [ناجي]، وافعوان [نازك] فهو أراد لها أن تكون شاردة سعودية، كما قال في مقالة التحسّر [ألم ترني ظاهريا] .

ومثلما كان أبو عبد الرحمن معجباً كل الإعجاب بهذه القصيدة، حتى جعلها عنواناً لديوانه الثاني، فإنه معجب أشد الإعجاب بقصة كتبها تحت عنوان «الذقن المزيف»، وأذكر أنني قرأتها أكثر من مرة، وأشعتها بين الناس، لأنها تجسد واقعاً متنامياً، يعضد اللعب السياسية، و«ابن عقيل» المتعدد المواهب والقدرات لا يُسلِّم لنفسه بشيء، فهو يقول عن شاعريته: [بل أنا إلى هذه اللحظة أشكو إلى الله ضيق العطن في شاعريتي]، وقُدُرَاتُ أبي عبد الرحمن المتعددة لا تدعه يصبر على فن واحد، إذ كلما أوجس في نفسه رغبة للمبارحة، ترك الفن وأهله، وكأنه لم يتلبث عندهم طويلاً، وقد لا يعود إليه، وإذا عاد فإنما هي للملمة ما ترك من قبل.

وهو قد كتب السيرة الذاتية، كما كتب الشعر، ونشر تباريحه مفرقة ومجموعة، وانتقى منها «تباريح التباريح» و «شيء من التباريح» وممن درسها الدكتور [عبد الله الحيدري] في «إضاءات» والحيدري متخصص في نقد السرديات ورسالته للماجستير

عن السيرة الذاتية في الأدب السعودي، ولقد سعدت بالاشتراك في مناقشتها، وكانت لي اهتمامات متأخرة في الإبداع السردي، وذلك حين توسعت في دراسة الإبداع السردي ونقده، فلقد أحسست أننا أسارى لسلطان الشعر ردحاً من الزمن، وقد نشر لي في [ملحق الأربعاء] زهاء أربعين حلقة عن النقد البنيوي للرواية العربية، ورد علي بعنف الأستاذ [عابدخازندار] وآخرون وبادلتهم التحية بمثلها، وما زادني ذلك إلا ثقة وإصراراً، فالتحامل لا يغني من الحق شيئاً.

وأبو عبد الرحمن، إضافة إلى كل ماسبق، يعشق الأفذاذ من الموسوعيين والفلاسفة والمفكرين، ويجتهد في إعادتهم إلى الذاكرة، فهو حين استهام بـ [أبي الوفاء علي بن عقيل البغدادي الحنبلي الأشعري] من خلال كتابه (الفنون) الذي نيف على الأربع مئة جزء، ولم يطبع منه سوى جزأين، حاول محاكاته في إصدار سلسلة من الكتب تحت عنوان [الفنون الصغرى] حيث أصدر خمسة أجزاء، هي مجموعة مقالات مختارة، وقد عدل عن عنوان كان ينوي مواصلة الكتابة من خلاله، وهو [ساحة الملوك] حتى لقد أدرج بعض موضوعاته في بعض أجزاء سلسلة [الفنون الصغرى] .

عيب أبي عبد الرحمن اهتياجه المدجج بالمعرفة، وغضباته المضرية، ثم إنابته النادمة. وعيبنا تخذيل أعلامنا، حتى إذا قضوا نحبهم أجهشنا بالثناء والتفجع.

ذلكم هو أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري، مؤمن قوي الإيمان، سلفي ناصع السلفية، عاطفي متأجج العاطفة، ذواق كالمرآة في كف الأشل، عنيف أوَّاب، سريع الغضب، سريع الندم، ولما أزل أمني نفسي بفلي تراثه، وتقريبه إلى من يود استكناهه .. سلمت براجمنا جميعاً من الأوخاز.

جناية الفصل من السياق .. !؟[1]

هناك سياق لغوي، يعرفه الأسلوبيون، وسياق تاريخي، يستكنهه فلاسفة التاريخ، وقراءة النص، أو تعقب الحدث خارج سياقه جناية لاتغتفر، يقع فيها الجهلة، ويتعمدها المتربصون، وبخاصة حين يكون النازع من السياق يبحث عن الدلالة أو عن دواعي النزوع الفعلي، ولقد يكون الفصل عن غير قصد، وهنا يقع الخطأ دون الخطيئة.

فالقاصد للتقويم، أو الاستكناه مطالب بتحقيق العدالة واستصحابها، وإذا نَكَّبَ عنها جهلاً أو قصداً، وقعت الواقعة. والرسول -ﷺ- غضب من فعل الجهلة، حين أفتوا الموجوء بالاغتسال، ولما اغتسل مات، حيث وصفهم بالقتلة، ونبه إلى أن دواء العي السؤال. وماذا تكون المواقف لو أن كل مجاهد أو محرّضٍ على القتال، نُزع تحريضه أو فعله من سياقه، ثم وصف بالعنف والدموية، مع أن الممارسة أو التحريض لو أخذ أحدهما أو كلاهما بسياقه، لوصف الفعل والقول بالمشروعية والمعقولية. فالمفكر والعالم والداعية والمصلح والزعيم، حين لا يجد أحدهم بداً من خوض الحرب أو التحريض عليه، لإنقاذ كرامة، أو تحقيق حرية، أو حفظ حقوق، ثم يجعل خطابه سلمياً استسلامياً، فإنه يعد ممن يولون الأدبار، ويفرون من الزحف. والفرار من الزحف كبيرة من كبائر الذنوب، وإذ يكون من أولويات الخطاب الإسلامي الجنوحُ إلى السلام، فإن خيار الحرب والإعداد له محكومان بموقف الطرف الآخر، ومن عيوب المشاهد العالمية كلها بعد كارثة [البرجين] نزوع الجميع إلى السلم إرضاء لغطرسة الجريح، دون تقويم صحيح للظروف التي يجب أن تحكم المواقف، وهذا النزوع المدان، لا يفرق بين تقلب الأوضاع، وتباين الأحوال، وحتمية أن يكون لكل مقام مقال، ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ واستلال الخطابات من سياقاتها، لكي توافق الروح الاستسلامية أو العدوانية، يُفقدها شطراً من حقها، ذلك أن لكل وضع خطابه، ولايتحقق العدل والإنصاف بالتخلي عن السياق. لقد ظلم علماء أجلاء، ومصلحون نبلاء، وشنع عليهم، لأنهم أطالوا الحديث عن الجهاد، وحرضوا عليه، ولو أنصف الشامتون، لنظروا إلى عدوهم اللدود، الذي لا يألو جهداً في عسكرة نفسه، ومخادعة خصمه، وتَحَيُّنِ الفرص ليتقحم على الآمنين المسالمين أرضهم، ويتسلق عليهم أسوارهم، ويقتل أبناءهم، ويستذل نساءهم، ويصادر أبسط حقوقهم ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ هناك أمر وهنا نهي، لأن المقامات فرضت المواقف، فالمؤمن يقاتل المؤمن الباغي، حتى يفيء إلى أمر الله، ولا يقاتل الكافر المسالم ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾.

والقارئ لأبواب الجهاد في الفقه الإسلامي، يراه في حالةِ فرض عين، وفي حالةٍ فرض كفاية، فيما يراه في أحوال كثيرة غير مشروع بحق الجموع أو بحق الأفراد، ومن تصور الجهاد مشروعاً في كل حال، أو محظوراً في كل حال، فقد جار في الحكم، وخالف مقاصد الإسلام. ومن الاندفاعات العاطفية التي يقع فيها العامة والخاصة مانراه، ونسمعه من تصديات لبعض الظواهر المفهومة على غير مراد المشرع، فـ[التكفير] و[الجهاد] من مصطلحات الإسلام الرئيسة، وحين فُهمت على غير مقاصد الإسلام، تصدى لها البعض

(١) تاريخ المقال: ١٤/ ٢/ ٢٠١٢

على أنها من المحدثات المحظورة دون تفصيل، ولو أخذت بحقها لما كانت مثيرة، ويقال مثل ذلك عما جدَّ من مصطلحات شرقية أو غربية في مختلف الفنون والمعارف.

ومثلما يقع الخطأ في ابتسار الخطابات، يقع في ابتسار العبارات، فكم من سياق لغوي، أُعطي دلالة مخالفة للجملة أو العبارة، حين تنزع من سياقها، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ﴾ وهذه جملة تامة، لأنها نهي ومنهي عنه وفعل وفاعل ومفعول، ولكنها حين نزعت من سياقها كانت دلالتها أشد نقصاً من الجملة الناقصة، في غير هذا السياق، ومن عبث الشعوبي الماجن قوله:

ما قال ربك ويل للأولى سكروا

وإنما قال ويل للمصلينا

ولقد يتعمد بعض النقاد الابتسار، لحاجة في نفسه، ولو أنصف المختصمون وصدقوا لحسمت المشاكل في مهدها، ولكن الأهواء تبلغ حدَّ التأليه.

وإذ يكون هناك سياق في الخطاب، وسياق في اللغة، يكون هناك سياق في الظروف والأحوال والأحداث ولهذا فُرِّق بين الأُشَيْمط الزاني ومن دونه والعائل المستكبر ومن فوقه. ولنا أن ننظر إلى سائر المعارك، وبخاصة المعارك الفكرية والأدبية، فكم من ناقد فُرض عليه العنف وحِدَّة النبرة، وكم من مؤرخ للمعارك النقدية وصف ناقداً بالعنف، ولو أخذه بسياقه، ونظر إلى لغة مناوئيه، لوجد لعنفه ما يبرره، ذلك أن البعض يجيد لغة الاستفزاز والإثارة، ولربما يعمد إليها الرياضي في الملعب والمحامي في المحكمة، لإثارة الخصم، وحمله على فقد توازنه. فالرياضي المنفعل يفقد فنياته، وقد يعتدي على خصمه، والخصم الغاضب يفقد توازنه، وتنفلت منه كلمات مُدينة، وفقد الفنيّات أوالتوازن يقلل من فرص النجاح، ولو ليم أحدهما دون استحضار لعبة الإثارة والاستفزاز لكان في ذلك ظلم له، ولاشك أن امتلاك المشاعر، وتفويت الفرصة على المتحايل من بوادر الذكاء، ولكن مثل هذه المواقف قد تُفقد الإنسان غير الحصيف وغير المجرب توازنه، وكم نرى ونسمع خصوماً غير شرفاء يتعمدون عزل الخطابات من أجوائها، وتمكين الخصوم من توهينها، لأنها بمجرد عزلها من أجوائها تكون فظنة الإدانة. ولقد كنت واحداً من ضحايا هذه المكيدة، وكم قلت لخصومي: «اقرؤوا ما تحت السطور، ولكن لا تقوّلوني ما لم أقل. وقضية احترام السياق، والأخذ به يمتد إلى كل مجالات الحياة، والنقد المنصف من يضع للسياق احترامه، ولا يظلم الخصوم شيئاً بفصل القضايا من سياقاتها، وأية قراءة لا تستحضر السياقات والظروف والملابسات تعد قراءة مضلِّلة وجائرة، ولقد تكون مثل هذه القراءات على كل المستويات هي سيدة الموقف، وذلك من فقد الأمانة والمصداقية، وقد حذر الرسول -ﷺ- من فقد الأمانة، واستبعد أن يكذب المؤمن، فيما لم يستبعد جبنه أو بخله، ولن يسود الوئام في مجتمع يخاتل بعضه بعضًا، ولو أنصف الناس لاستراح القاضي.

تداعيات الرحلة المغربية .. ! (١) [(١)]

حين تقضي في الفضاء زهاء سبع ساعات ثقال، بعلو مرتفع، وسرعة فائقة، في الطريق إلى بلد قصي كالمغرب العربي، يتبادر إلى ذهنك أبطال مغاوير، وصلوا إلى تخوم [أوروبا] على صهوات الخيل والبغال والحمير، وسطروا ملحمة النصر التي أذهلت الرحالة والمستشرقين، وأرجعت إليهم أبصارهم خاسئة وهي حسيرة، فيما لم تحرك تلك المعجزات الباهرات شعرة في مفارق الشاردين من شبابنا المنبهرين ببريق المدنية الزائفة. ومن ذا الذي يتصور تلك العزمات الأبية التي حملت أعراب الجزيرة العربية على ركوب البحر، وذرع الفيافي والقفار، واستمراء المغامرات المحفوفة بالمخاطر، في سبيل هداية البشرية، وإبلاغهم صوت الرحمة المسداة، والنعمة المهداة، ورد البشرية التائهة في تنائف العماية والغواية إلى سبيل الرشاد، امتثالاً لقول الرسول ﷺ:- «**بلغوا عني ولو آية**» وقوله: «**لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم**».

وما من غادين أو رائحين إلا وتتفرق بهم السبل، على حد: - [دخلنا الكوفة بليل] فمن ضالع في ملذاته، مسرف في شهواته، ومن متبتل في محطات التاريخ المضيء منها والمعتم، يفكر في قوة الإيمان التي حدت بالحفاة إلى انتعال الصحراء وافتراش الغبراء لإبلاغ الرسالة وأداء الأمانة، ومتى حطت رحال الوافدين المجهدين في تلك الأنحاء، تبدى لهم الفردوس المفقود، وسمعوا هاتفا يتمتم بكلمات العتاب واللوم، وكأنه الشاعر الجريح الذي صاح بقومه: - [أضاعوني وأيَّ فتى أضاعوا] . إن ضياع الأندلس لم يتم بين عشية وضحاها، لقد مرت به فتن كقطع الليل المظلم، وصدَّعته خلافات وهمية، إنسابت من أثداء الشهوات والأهواء، ولما نسل العدو من الثغرات الضعيفة، لم يبادر المختصمون إلى نبذ الفرقة، بل توسل البعض منهم به ليقضي على خصمه، وهو في الحقيقة إنما يقضي على نفسه، وما أُكِلَ الثوران الأحْمر والأسود إلا بعد ما أكل الثور الأبيض.. ومما ينسب إلى علي -كرم الله وجهه- قوله: - [أكلت يوم أكل الثور الأبيض] .

وأخرى غير التذكر والتحسر من التداعيات الممتعة أو المفيدة، ذلكم هي الخوف الذي ينتاب البعض منا، عند ركوب الطائرة، أو عند الدخول في المصعد، أو الصعود إلى قمم الجبال وشواهق الأبراج، فكل واحد منا لديه [فوبيا] من شيء ما، مغروسة في أعماقة، قد تنتابه حين يطل من مرتفع، أو يشاهد مخلوقاً غريباً، كالحشرات والهوام والزواحف، وذلك العارض من الأمراض النفسية غير المبررة وغير المعقولة. أما صاحبكم فأخوف ما يخاف منه «المصعد» إذ كلما دخلته مكرهاً مضطراً، أحبس أنفاسي وأغبط الذين يتحدثون داخله بكل عفوية.

الأغرب من هذا أن المصعد توقف ذات مرة، ومعي رجل وامرأتان، كانوا يتحدثون ويقهقهون، ولم يكترثوا، فيما انتابني خوف لو وزع على الناس لشملهم، كما تشمل الرحمة التي ألمت بالصحابي [ماعز] رضي الله عنه بعد رجمه كافة العصاة، لو رحموا. وبقدر خوفي من المصعد، أجد الراحة والطمأنينة في الطائرة، ولقد تقتضي الرحلة سبع ساعات أو تزيد، لا أشعر فيها بشيء، فكأنني في غرفة نومي، وكم ينتاب الخوف الشديد مَنْ حولي، ولو حدثتكم عن بعض المواقف، لأخذتكم الشفقة، واجتاحكم الإعجاب، ولكن ذلك يند بنا عما نود الإلمام به.

ومن باب التداعيات أنني كلما ركبت الطائرة أو تقصيت اختراعات العصر، من [كهرباء] و[كمبيوتر] ووسائل نقل واتصال واختراعات دقيقة، واكتشافات مذهلة في

---

(١) تاريخ المقال: ٢٨/ ٢/ ٢٠١٢

الآفاق والأنفس، زاد إيماني بخالق الكون ومدبره، فهذا الإنسان الضعيف الذي لا يطير كالصقور، ولا يغوص كالحيتان، ولا يسيخ في الأرض كالهوام، ولا يحتمل الحر ولا القر ولا الجوع ولا العطش كبعض الحيوانات، يخترع ما يسخر له ذلك كله، ومتى استغرقني التأمل في ملكوت السماوات والأرض، فررت إلى القرآن الكريم، ألتمس فيه دفء الإيمان، وأتقرى لفتاته الإعجازية المحيرة. ولاسيما أن الذي جاء به أعرابي أمي، لا يقرأ ولا يكتب، نسل من واد غير ذي زرع، وحين أمتطي صهوة الطائرة تتداعى بعض آيات الله، وأقطع بأنه كلام الله، نزل به الروح الأمين على قلب رسوله الكريم، ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٦]، وقراءة الآيات المنطوية على أحكام أو إعجاز أو تذكير أو إخبار، تتجدد دلالاتها مع النوازل، حتى لقد تصورت النازلة كالقنبلة الضوئية، تضيء عتمة النصوص، وتفجر فيه كوامن الدلالات التي لم يكتشفها من سلف من العلماء، لعدم قيام الحاجة، وذلك تحقيقاً لتوجيه المصطفى ﷺ:- «**فَرُبَّ مُبلَّغٍ أوعى من سامع**» فالتفضيل هنا مرتبط بقدرات غيرية، كالنوازل التي تكشف عن كوامن النص الدلالية، وعندي أن للسياق النصي مثلما للنازلة، ومن نكب عن دلالة السياق، فوت على نفسه إضاءة مهمة، فالكلمة والجملة والعبارة والأسلوب أبنية دلالية لاينفك منها إلا جاهل بعبقرية اللغة العربية، فقول الله تعالى:- ﴿وَيَخْلُقُ ما لَا تَعْلَمُونَ﴾ لمحة إعجازية، من حرم تأمل دلالتها حرم خيراً كثيراً.

لكن دعني أدلك على فصاحة السياق التي لا تقل عن بيان البناء وفصاحة اللغة، من حيث دلالة الجمل فيها.

لقد فرق القرآن في السياق بين الأنعام ووظائفها والخيل والبغال والحمير ومهماتها. هذا الفصل يؤكد دلالة لا يتضمنها البناء الجملي.

فالله يقول:- ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾، وتأمل قوله تعالى: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ وقبل نهاية الشوط الدلالي قال:- ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وهنا لم يقل ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ وهناك لم يقل وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ، فالسياق تضمن حكماً وإعجازاً. فأما الحكم فعدم خلق الخيل والبغال والحمير للأكل، ومن ثم اختلفت المذاهب حول حِلّ هذه الأصناف الثلاثة، والرجح عندي أنها غير مباحة الأكل، ولن أخوض في الناسخ والمنسوخ واختلاف العلماء حول نسخ السنة الصحيحة للقرآن، فذلك شأن المتخصصين، ولكني أريد التأكيد من خلال دلالة السياق، أنها خاصة للركوب والزينة. وأما الإعجاز ففي قوله:- ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فهو إذ خصها بالركوب على خلاف الأنعام التي يكون الركوب جزءاً من مهماتها، فقد جاء بهذه الجملة في سياقها الدلالي، وليس في سياقها اللغوي وحسب، وما نشاهده، ونستعمله في حلّنا وترحالنا براً وجواً وبحراً من تلك المخلوقات التي لا نعلمها، فضلاً عمن نزل عليهم الذكر الحكيم، وهل أحد يتصور ما أنجزه المخترعون من وسائل اتصال ونقل، وذلك ملمح إعجازي لا يدركه إلا العالمون.

لقد ندت بي تلك التداعيات شيئاً قليلاً عما كنت أود الإشارة إليه في سفرنا هذا الذي لم نلق فيه نصباً، ولم يُنْسِنا الشيطان شيئاً مما رحلنا من أجله، والرحالة الذين رصدوا مشاهداتهم أمتعوا القراء، وحفظوا شطراً من التاريخ، وقدراً من الجغرافيا، وأمشاجاً من أدبيات الأسفار، أمتعت وأفادت، وأين نحن من [ابن بطوطة الطنجي - ت ٧٧٩هـ] و[ابن جبير البلنسي - ت ٦١٤هـ] وعمدة الرحالين المعاصرين [محمد العبودي البردي]، لقد كانوا فيما يكتبون كجوف الفراء في جعبتهم كل الصيد، وما كنت متخذاً شيئاً من مناهجهم أو مقاصدهم، إذ ما أكتبه خواطر، نتوسل بها للفت الانتباه، وتوجيه الناشئة إلى تراث مجيد بأيدينا أضعناه، ولكل سفر تداعياته، ومن نفشت في ذاكرته آفة النسيان مرت به الذكريات كريح عقيم، ومن تدارك أمره، وقيد أوابده، وثنى عنان شوارده، بقيت للمنتفعين، ومنحته عمراً ثانياً: - [والذكر للإنسان عمر ثاني] .

تداعيات الرحلة المغربية .. ! (٢)[(١)]

واستكمالاً لما سبق، فقد تلقيت دعوة كريمة من (وزارة التعليم العالي)للمشاركة في فعاليات (معرض الكتاب الدولي في الدار البيضاء) الذي يخص المملكة بوصفها ضيف شرف، إذ لم يسعها إلا أن تقدم نفسها من خلال نخبها، وخيراً فعلت، لقد مرت الأيام التسعة بجْر الحقائب، بكل مفيد، ندوات ومحاضرات وأماسي وأصبوحات، وجناح يفيض بالكتب والصور والمجسمات والمرشدين، وبدا جناح المملكة كخلية نحل، كل من فيها مضطلع بمسؤوليته على وجهها، لقد قدمت المملكة لزوار المعرض أطرافا من منجزاتها، ولقي جناحها إقبالاً مشرفاً، والمملكة حين تضع العمامة يعرفها الجميع، لقد كانت منجزاتها ومبادراتها على مختلف الصُّعد ذات بهجة، فالمواطن حين يرى أن نماذج مثمنات وطنه تسر الناظرين، تنداح أسارير وجهه، ويشعر بالإعتزاز، ويسعد حين يتقرَّى الانطباعات في وجوه زوار الجناح، ومن ذا الذي لا يحب الثناء، و(حب الثناء طبيعة الإنسان).

كانت مشاركتي عن دور الأندية الثقافية في تنشيط الحركة الأدبية، بوصفها واحدة من مؤسسات شتى، تعج بالأداء الثقافي والأدبي والفكري المتنوع، ولكل مؤسسة موفدها الذي يُعرِّف بها، إنها تظاهرة ثقافية مختلفة الأشكال والألوان. والمغاربة الذين يحنون إلى المقدسات، ويتطلعون بشوق إلى جذورهم الأولى، يودون لو حُملوا على الطائر الميمون إلى بلاد الحرمين الشريفين ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾، وحين لا تسعفهم ظروفهم يرضون من الرحيل بمشاهدة تلك العينات، وكم نحن بحاجة إلى مثل هذه الكُوى التي يطل منها أبناء الدول الشقيقة والصديقة، ليروا بعض ما أنجزناه على أديم الأرض وفي الأنفس، فالإعلام اليوم سيد الموقف، ودولة يُفترى عليها، ويتعمد أعداؤها تحريف الحقائق من بعد مواضعها بأمس الحاجة إلى أن يقول كل واحد منا ها نحن، وما حطت رحالنا في موقع، وقلنا قولاً كريماً إلا وجدنا التحولات الإيجابية في المشاعر والانطباعات، فكم من طالب للحقيقة تلقفه مُغْرض لا يرقب فيه، ولا في المملكة إلاًّ ولاذمة.

وما لم نَحل بين هذا الصنف وما يشتهى، فإن تشكيل الوعي عن المملكة سيظفر به المتربصون.

والفعاليات التي نفذت في مواقع كثيرة من الدار البيضاء وما حولها من مدن، أجابت على تساؤلات كثيرة، والمرشحون لتنفيذ تلك الفعاليات استبقوا الخيرات، واجتهدوا في إبلاغ الرسالة التي ينشدها وطنهم، ولأن المغرب يعج بالكثير من الاتجاهات والتيارات والمذاهب، ولأن معرض الكتاب تلتطم فيه المعارف والأفكار، وتلتقي تحت قبته آداب العالم العربي وثقافاته وأفكار فلاسفته ومعارف علمائه.

فقد تنازعتنا مسؤوليات المهمة ورغبات النفوس، وتاقت أنفسنا إلى شيءٍ من المتع واللهو البرئ على شواطئ تحكي أمواجُها زفرات الضنك العربي، والبحر الذي يطفو زبده مع كل موجة تتكسر على الشاطئ، يجسد تململ الإنسان العربي وخوفه من مصيره المظلم.

لقد وقفت على رمل الشاطئ وانغمست قدماي في الماء وبلغ الموج الزبى، لقد كانت مناسبة تفيض بمختلف المناشط والمباهج، ومن ثم نفذ على هامش الاستضافة عدد من الفعاليات الأدبية والثقافية والأماسي الشعرية واللقاءات الأخوية، ولقيت الفعاليات إقبالاً

---

(١) تاريخ المقال: ٦/ ٣/ ٢٠١٢

من زوار الجناح، ومن بين المحاضرات محاضرة نقدية اعتمد المحاضر فيها على منهج النقد المقارن.

فقد ألقى الأستاذ عبد الله الناصر محاضرة عن سرقة أدبية عالمية تمثلت برواية (الخيميائي) بطلها مرّ بتلك الديار، مثبتاً بالمقارنة أنها مسروقة من حكاية أوردها (التنوخي) في كتابه (الفرج بعد الشدة)، وهذا الاكتشاف يذكر بتسرب التراث العربي إلى الآداب الغربية، وإقبال أدباء الغرب ومفكريه على الاستفادة منه، وبخاصة ما وضعوا أيديهم عليه، وما نفذ إليهم من الفردوس المفقود. وكم كان بودي لو وسَّع الناقد دراسته، وأمعن بتوثيقها وإخراجها في كتاب يقرؤه الناس، ويترجم إلى عدة لغات، لدفع الحيف عن موروث عربي استطاع أن يعيد نفسه بلغات شتى، وممن تحدث وأجاد معالي الدكتور (النملة) والشيخ (العبودي) و(المعطاني) والدكتور (العوفي) وآخرون لم نسعد بحضور إسهاماتهم، وكل المتحدثين شدوا الانتباه، وأثاروا التساؤلات.

وكعادتنا فقد عمد بعضنا إلى توهين تلك الفعاليات، وتلك خليقة لا تخفى على الراصدين، وما كنا نود أن يتعمد هذا البعض التقليل من شأن المناسبات التي تحييها بعض الوزارات أو الجامعات، والنقد الموضوعي مطلب حضاري، ولكن ما نشاهد وما نسمع لا يمت بصلة إلى الموضوعية، لأن المجترحين للتشنيع لا يسلطون الضوء على الهنات، ولا يطرحون البديل، ولا يقدمون النصيحة، ولا يحسنون الظن، ومثل هذا المراء الظاهر والباطن يوغر الصدور، ويثبط العزائم، ويغري بمزيد من المناكفات، والذين ابتدروا النقد أو التصريحات في جريدتي: (الحياة) و(الشرق) لم يكن نقدهم محدداً، ولا موضوعياً، ولست هنا مصادراً لحقهم في القول، ولا مجارياً لهم بالتنقص، ولكنني متمنياً عليهم أن يعرفوا قدر أنفسهم ومكانتهم، وحق من يوجهون اللوم إليهم، والحكماء تقول: - (تكلم حتى أراك) و(البلاء موكل بالمنطق) وتصحيح المسارات لا يكون بمثل هذه اللجاجات والإطلاقات العامة، وكم كان بودي لو أن قنوات الاتصال ملئت بالنقد والتوجيه والتقويم والتساؤل والمشورة والنصح، ولكن مثل هذا المراء لا يمت بصلة إلى مثل هذه الرغبات، وما أنشده لا يقتصر على تلك الفعالية، وإنما يمتد ليشمل كل المناشط التي تبادر إليها الجهات والمؤسسات، فواجبنا التفريق بين اللجاجات والمناكفات من جهة والنقد الموضوعي الرفيق من جهة أخرى. ولعلنا نذكر ما قيل عن (ملتقى المثقفين) و(ندوة السلفية) ومع أننا لا نزكي أحداً، فإننا نناشد الكتبة بتوخي الحق، والبعد عن الإطلاقات العامة والأحكام المطلقة.

لقد طفنا وشفنا، واستعدنا مخزون الذاكرة عن معارض سلفت في الرياض والقاهرة والشام والعراق، أعاد الله لها الاستقرار والنماء، فلم يكن معرض الدار البيضاء يداني شيئا مما سلف، إذ لم يكن المعرض بحجم معارض الرياض ومن حولها من حيث السعة والتصريف فـ(المتفرجون) كثيرون، وبخاصة طلاب المدارس، الذين يأتون جماعات كالأمواج المتدفقة، والقوة الشرائية دون المؤمل، والأسعار فوق المتوقع، والمساومات على أشدها، لعدم تحديد الأسعار، ويظل جناح المملكة العربية السعودية الأكبر والأبرز والأكثر فعاليات.

لقد لاحظنا كثرة المرشدين في جناح المملكة، وتلك مبادرة تحسب لوزارة التعليم العالي وللملحقية الثقافية في المغرب وللمشاركين من المملكة من مختلف القطاعات والأطياف، ولأن المملكة تعيش حضوراً فاعلاً في كافة الأوساط، فإنها عرضة للمنافسة غير الشريفة، التي تدفع بضعفاء النفوس إلى النيل منها والتعريض بها، ومن ثم لابد من تكثيف الحضور في مثل هذه التظاهرات الثقافية، وتنفيذ المناشط وتنويع اللقاءات، واختيار الكفاءات الوطنية التي تمتلك القدرة على إعطاء الصورة المشرقة عن المملكة،

وليس من المصلحة أن نمر دائماً باللئيم الذي يسب، وكأنه لا يعنينا، إن الإعلام اليوم له تأثيره، وله إمكانياته، بحيث يصل إلى المتعقب في بيته، ونحن بأمس الحاجة إلى تقديم أنفسنا، دون أي مناكفات، فالمنجزات الحضارية والمدنية حين يراها الآخر رأي العين تصحح كثيراً من الانطباعات التي تشكلت من زائف القول.

ولكيلا تأخذنا غفلة المؤمن أمام جلد الفاجر فإن علينا أن نعترف بأن صورتنا عند الآخر ليست كما نود، وواجبنا أن نستبق إلى تصحيحها، وألا تأخذنا العزة بالإثم، ولما كانت تلك الرحلة من أطول الرحلات إلى المغرب، فقد تبدت لي أحوال ما كنت أعرفها من قبل، لقد كانت المغرب هادئة وجميلة، وأهلها طيبون، وليست في مدنها زحمة المدن الخليجية، وإن كان مستوى المعيشة مرتفعاً على الرغم من الدخول المتواضعة، ولم تكن مدنها على شاكلة العواصم الإفريقية المختنقة.

المزعج أن اللغة العامية المغربية غير مفهومة وأن اللغة العربية الفصيحة غير مستعملة في كافة المرافق العامة، وغربة اللغة من إشكاليات الدول التي أوغل الاستعمار في تغريبها.

لقد سعدت بمقابلة عدد من أساتذة الجامعات، ولمست الجدية والعمق وتنوع الثقافة والانفتاح الواثق على الآخر، ظواهر الأسلمة في السلوكيات والأزياء بادية بكل وضوح على طالبات المدارس والجامعات، إذ ليس هناك تبرج مثلما كنا نشهده في بعض العواصم العربية.

والمغاربة يكنون للإنسان السعودي احتراماً وتقديراً، ويشمون فيه عبق المقدس، وواجبه أن يعطي صورة مشرفة، بحيث لا يحطم تلك الصورة الجميلة، لقد لمست ذلك الحب الديني الدفين، وهذا التطلع الواله إلى أرض القداسات، إن بلدا كالمملكة تهوي إليها أفئدة الملايين من المسلمين، وتعلق الشعوب الإسلامية على إنسانها آمالاً جساماً تتضاعف معها المسؤولية، ولهذا تكبر أعباء المسؤولية على سفير أمته عابراً أو مقيماً.

السفارة في المغرب حاضرة، تراها بموظفيها ومسؤوليها، وبخاصة الملحقية الثقافية رأي العين، والسفير (محمد البشر) خير من يمثل بلاده، ولقد كفتنا إشادة الأستاذ عبد الله الناصر به في جريدة الرياض والملحق الثقافي عاش المناسبة بكل إمكانياته، ومن لحق به من وزارة التعليم العالي سدُّوا خلالاً كثيرة، فللجميع الثناء والشكر والدعاء، ولقد تكون لي عودة أكثر معرفية وموضوعية حين أفلي ما عدت به من كتب قيمة.

وتظل إشكالية الاستشراق مستشرية .. !(١)

قد يؤخذ علي تكريس [الأنوية] في بعض تناولاتي المقالية، وتلك السمة ليست مذمة على إطلاقها. واللجوء إليها لتأكيد المواقف حق مشروع، وحين أنطلق منها أو أعود إليها، فإن ذلك لتأكيد الرؤية والموقف ليس غير، ولقد رغب بعض طلاب الدراسات العليا في تناول التجليات الذاتية في كتاباتي المقالية، وبخاصة الموقفية منها، فالكاتب يكون معرفياً يحكمه المنهج والمرجع والخطة، وموقفياً تحكمة التجربة والانطباع، أو الشهوة والهوى.

ولربَّما يعتمد بعض الكتاب الحيادية، بحيث يعرض القضايا كما حدثت، ويترك للقارئ تحديد الموقف واستخلاص النتائج، وقد ينغمس في الحدث، ويوجف عليه بالشواهد والقرائن، ثم يصدر حكمه متوسلاً بالحيثيات والملابسات، لتكون قادرة على الإقناع والاستمالة، وهذه الرؤية مكمن التضليل، وبخاصة حين لا يكون الكاتب باحثاً عن الحق، أو حين لا تكون المعرفة والمنهجية بالمستوى المطلوب، إذ ما أكثر الذين يبحثون عن الانتصار، ثم لا يبالون بأي واد هلك خصومهم، ونفقت قضاياهم، وما أكثر الجهلة المتعالمين.

وحين أتحدث عن ظاهرة الاستشراق، أجد نفسي مضطرة إلى الإلمام بـ[الأنوية] بكل فقاعتها وإثارتها، إذ كانت لي تجربتي وخبرتي وقناعاتي الذاتية. وليس يضير القضايا أن تكون وليدة تجربة أو معرفة، متى كان المتحدث مسكوناً بهم أمته، مفتوحاً على كل الخطابات والاحتمالات، متفسحاً للآراء، متوفراً على آلية الاجتهاد ومادته، غير هياب ولا وجل من مقاربتها والتعاطي معها، شريطة أن يكون باحثاً عن الحق في مظانه، قابلاً به، ولو كان مرَّاً، أو كان من عند غير حضارته.

والاستشراق بوصفه ظاهرة مثيرة، قارْبتُه في فترة متأخرة من حياتي المعرفية، فلقد كنت من قبل عربياً خالص العروبة، معتقداً أن في التراث العربي الغنية والقنية، وأن التخطي إلى غيره من الجنايات الفادحة الآثار. وفجأة وجدت نفسي وسط المعمعة. لأرى الإرث العربي لبنة في قصر الحضارة الإنسانية، يملك الخيرية، ولا يستأثر بالحق، ولا يحتكر الحقيقة، وبالفعل فقد أحسست أننا بحاجة إلى الحوار، واكتشاف الآخر، والتفسح للثقافات والحضارات، فالإسلام دين عالمي شمولي. والمتعقب للتشريع يجده قد ترك مساحات شاسعة للعقل والتفكير والنوازل. وأحاديث: «**أنتم أدرى بأمور دنياكم**» و«**استفت قلبك**» وأحاديث أخرى وسياقات دلالية، تؤكد على أن باب الاجتهاد مفتوح، وأن الإسلام بدونه يفقد مرونته وحراكه واستمراره، ثم إن الاستشراق بمثابة مرايا مقعرة أو محدبة أو مسطَّحة، ينظر فيها المرء نفسه، ويعرف من خلالها ما هو عليه، وما يجب أن يكون عليه.

وموضعة الاستشراق بادرها عدد من الدارسين المتخصصين والمتطوعين والمعرفيين والعاطفيين، فكان العدل، وكان التجني، وكان العلم، وكان الجهل، وكانت المزايدات الرخيصة. ومثلما يتفاوت المستشرقون قوةً وضعفاً وصدقاً وكذباً، فإن المموضعين لهم كذلك، والحَذِرُ من المزالق لا يحط رحلة عند أي دارس، ولا يحجم عن متابعة أحد منهم، فالجميع تحت طائلة التساؤل والتقويم واحتمال الخطأ وإمكانية الصواب. غير أن التراكم المعرفي، يزيد من العناء وقابلية الوقوع في الخطأ. لقد راعني ذلك الإقبال المحموم على ظاهرة الاستشراق، وتهافت المحققين والغيورين والمهتاجين العزَّل. وإذ لا نماري حول ثوابت الأمة وتراثها، ولا نقبل العبث بشيء منها، فإننا في الوقت نفسه لا نود

---

(١) تاريخ المقال: ٢٠/ ٣/ ٢٠١٢

أن نكون وجلين بهذا القدر، ولا منكفئين على الذات معتزلين للآخر، فالحضارة الإسلامية كأي حضارة، لها جاذبيتها وإغراءاتها. وستظل مجال بحث للمستشرقين وغير المستشرقين. وجنايات العلمانيين والعقلانيين والماديين لا تقل سوءاً عما سواها من جنايات استشراقية، والجناة من أبناء المسلمين جنساً ولغة وعقيدة، يقترفون من الخطيئات فوق ما يقترفه أشد المستشرقين عداوة للإسلام. وأين نحن من عشرات الفلاسفة المعاصرين؟ الذين ظهر عوارهم في العقائد، فضلاً عن العبادات والمعاملات والعلاقات والتصورات والمناهج. ثم أين نحن من الشعراء الماجنين والروائيين المتهتكين، الذين أيقظوا بتجاوزاتهم فتناً نائمة، وأثاروا مشاعر هادئه، وكادوا يصدعون تلاحم الأمة، ولن أضرب الأمثال، فهي من الوضوح كالنهار الذي لا يحتاج إلى دليل.

والجدل والمراء والمماحكات من السنن الكونية الماضية إلى قيام الساعة، لأنها جزء من صراع الحق والباطل. والمحظوظ من استعمل إمكاناته ومواهبه في نصرة الحق، وإعلاء كلمة الله. ومما هو مجال اختلاف متنام مع الزمن [الموقف من الاستشراق] وما من أحد إلا هو مع الاستشراق على الإطلاق أو ضده. والأقل من يفصل القول، ويتحرى الدقة في الأحكام، فكم من مستشرق تحدوه الرغبة في الوصول إلى المعلومة مجردة من أي عاطفة، أو هوى، وأين نحن من [بلاشير] و[بروكلمان] و[فنسيك] وآخرين رادوا لنا مجاهيل التراث ونحن إذا لم نبحث عن القواسم المشتركة مع الحضارات والخطابات، ونذكي فيها روح الأداء السليم، الذي يخدم الإنسانية، ثم لا يحيف على العروبة ولا على الإسلام، تضوي حضارتنا، وتجف ينابيع المعرفة عندنا، وما أكثر الأداء السليم الذي وضع نصب عينيه خدمة الإنسان كإنسان، بصرف النظر عن لونه أو جنسه أو عقيدته أو إقليمه، وذلك مطلب إنساني، لا يمنع من قبوله حمل الهم القومي أو الإسلامي أو الإقليمي. والمستشرقون أوزاع بين رغبات وتطلعات واهتمامات شتى، وقد تكون طائفة منهم مجندة لأهداف استعمارية أو دينية، وعلى الجهة المستهدفة أن تميز بين هذه الأصناف، ثم لا تكون المواجهة خياراً وحيداً. إن الحوار الهادئ الهادف منجاة من تلك المؤامرات القذرة، التي تغمط الحق، وتصادر الوجود الكريم، ولو أن المتأذي من تلك الجنايات ضرب بعض المستشرقين ببعض، وخرج من اللعبة بكشف الزيف لكان خيراً له ولحضارته.

وإن أنس لا أنس كتيباً مليئاً بالزخم العاطفي والغيرة الجامحة على مثمنات الحضارة وتراث الأمة، بعث به إليَّ معالي الأستاذ [عبد العزيز السالم] للعلامة [محمود محمد شاكر] رحمه الله عن الثقافة العربية، وكان بجملته حملة قاسية على الاستشراق، وتجهيلاً مطلقاً للمستشرقين، وتحذيراً من الإلمام بمنجزاتهم، ولقد كان لهذا الكتاب العاطفي أثرة البالغ على موقفي من الاستشراق، قبل أن أشب عن الطوق، وحين تجاوزت النمطية والاستسلام المباشر لأول متحدث، أدركت أننا بحاجة إلى تشكيل موقف متوازن من ظاهرة الاستشراق، وحين أَصَخْتُ إلى مواجهات معرفية، نهض بها علماء وأدباء ومفكرون، بدأت تتضح الرؤية، ويتحدد الموقف، ولعلي أشير إلى طائفة من أولئك، ليكونوا منطلقاً لمن أراد العدل في الأحكام، ولعل معالي الأستاذ الدكتور [علي النملة] أحد المحاورين المعرفيين الذين وضعوا أسس الحوار الحضاري مع الآخر، وأسهموا في هذا المجال الذي نحن بحاجة إلى مثله، ومع تزايد المحاورين المعتدلين فإن الإشكالية ستظل في نماء، ولن يحسم اللجاجة إلا الانصياع للحق، وقبوله من أي مصدر لأنه في النهاية ضالة المؤمن.

الكراسي البحثية بين المظهرية والمخبرية .. !(١)

الكاتب الملتزم يظل مرتهناً للطوارئ من الأحداث والحوادث، يتتابها كما لو كانت طريدته، والحياة مليئة بالطرائد، وهو معها كـ(خراش) الذي عناه الشاعر بقوله:

تكاثرت الضباء على خراش
فما يدري خراش ما يصيد

والمخلِّص من تزاحم الأَضْداد (فقه الأولويات). فمن لم يع هذا الفقه، تراه يمسك من القضايا ما يليه، أو ما تيسر منها، وعجبي من كُتَّاب أَعُدُّهم من المتمكنين، تراهم يرضون من النوازل بما دون المهم، ولسان حال الأمة معهم كحال الشاعر الذي يقول:-

قالوا اقترح شيئاً نُجِدْ لك طبخه
قلت اطبخوا لي جبة وقميصا

ولقد ظننت أن حديثي عن الكراسي العلمية بوصفها ظاهرة جديدة، استبقت إليها جامعاتنا العريقة والفتية من الأخذ بالمهم دون الأهم، وحين أهم بالكتابة تنثال عليَّ القضايا من كل جانب، وكأنها جراد منتشر، ومن ذا الذي لا يغمره طوفان القضايا المدلهمة في ذلك الزمن العصيب، الذي أصبحت فيه كرامةُ الشعوب وأعراضُها ودماؤها لا تساوي عند عبد ةِ الكراسي جناح بعوضة، وكاتب لا يتمعر وجهه من أجل أمته المسلوبة أبسط حقوقها خائن لأمانته، وكم من كاتب بح صوته وجفَّت مآقيه، وأصبح كمن ﴿يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء﴾ لأن المجترحين لكرامة الأمة ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾.

ولكن الإصرار والصبر والمصابرة والمرابطة مؤذنة بانفراج الأزمات، وحل العقد، ولقد يكون من المعقول أن يراوح الكاتب في التناول بين النوازل، فإذا أَمَضَّتْنا الأوضاع المؤلمة، أخذنا بمثل تلك الظواهر، كي نبعث في النفوس شيئاً من الآمال والأماني، لتكون في النهاية:

مُنىً إن تكن حقا تكن غاية المنى
وإلا فقد عشنا بها زمناً رغدا

والحديث عن ظاهرة الكراسي البحثية التي ابتدرتها جامعاتنا، ودخلت بها مضامير اللزز، سيكون في النهاية من إشكالياتها، وطبيعي أن يختلف الناس حول الأهميات والمهمات والمفاهيم والنتائج، ولربما يكون اختلافُ وجهات النظر ناراً هادئةً، تُنْضج الأشيْاء، متى كانت مجالاً لِلْحِجاج، وتجاذب أطراف الحديث، وكل قضية يمر بها المعنيون ثم لا تثير فضولهم، تعبر الساحة كما الأصوات التي تلامس الآذان، ولكنها (لا تلامس نخوة المعتصم) فتسمعه، ولا تستمع إليه، وكم هو الفرق بين السماع والاستماع، ولهذا فَرَّق الفقهاءُ بين سماع المنكرات واستماعها، وجميل جداً أن يتلقى الكتبة سائر المستجدات بالتساؤل والنقد والتقويم، وأجمل من ذلك كله، أن يختلفوا، ليكون المستهدف على بينة من أمره، وما كانت الشفافية وحرية التعبير لتؤدي نتائجها إلا بالجسارة على المساءلة ورفع الحصانة عن أي قضية استهدفت حاجات الأمة.

---

(١) تاريخ المقال: ١٣/ ٣/ ٢٠١٢

لقد جاء اهتمامي بظاهرة الكراسي مرتبطاً ومدفوعاً باشتراكي في ورشة العمل لبعضها، وسعيي كوسيط بين الموسرين ورغبة بعض الجامعات لتمويل كراسي جديدة، وأنا بهذه المقاربة والخلطة أكون خبيراً، كـ(بني لهب)، ولن أعتمد الإطلاقات والتعميمات والمثاليات في مقاربتي لتلك الظاهرة، فالإطلاقات العشوائية كخرق السفينة من أحد ركابها، ومن يتوسل بحرية القول والفعل ليغرق في المدح الزائف أو القدح الجائر يعطل الجدوى من تداول القضايا، ولقد تفشت في أوساطنا المجاملات والمناكفات، وكلتا الطريقتين لا تغنيان من الحق شيئاً. والظاهرة من حيث هي ملمح حضاري، واقتداء بمن سبق، والخوف مما تخلفه الكثرة من سوء في التقدير، أو خطأ في التدبير، وفوق هذا فإن من جهل شيئاً أنكره، وإن كانت الكراسي من السنن الحسنة المأجور سانُّها.

وحضوري ورشة العمل وتدشين (كرسي معالي الشيخ عبد العزيز التويجري للدراسات الإنسانية) بجامعة الإمام، كشف لي عن رؤية ثاقبة لأبناء الفقيد، وتحرف رشيد من الجامعة. وتحرك معرفي بمثل هذه المسؤوليات يعد تجاوزاً موزوناً من أروقة الجامعات إلى سوح الأداء، ومن أولويات مهمات الجامعات أن تكون بكل إمكانياتها وسط المجتمع، فرسالتها ليست قصراً على المخرجات البشرية، وتخطي الجامعات بكل إمكانياتها إلى سوح المجتمع إسهام إيجابي جاء متأخراً أو متعثراً، وهو من خلال مثل هذه الكراسي سيكثف الحضور، ويسد الخلال، وما كنت من قبل حفياً بهذه الظاهرة، لولا ما شاهدته من حراك حضاري، ما كنا نحسب الكراسي قادرة على أدائه، وورشة العمل التي ضمت لفيفاً من المثقفين والأكاديميين، أثبتت أن الجامعة تبحث عن الطريق القاصد، وما كشفه المؤتمرون في حفل التدشين يدل على أبعاد حضارية وثقافية واجتماعية، أجزم أن الكرسي سيتوفر عليها، ويوفرها للإنسان السعودي الذي تحتنكه ثورة الاتصالات وانفجار المعلومات، ومن يمد بسبب إلى هذه الكوى يصاب بالذهول والخوف على شباب الأمة الذين يتهافتون تهافت الفراش على تلك المواقع الموبوءة، ومن ذا الذي لا تخيفه تلك التقنيات الدقيقة المذهلة والإمكانيات المتاحة لناشئة الأمة والاستخدام غير الرشيد وغير السَّديد لها، ولقد سمعنا منكراً من القول يتفوه به، ويحبره بعض أبنائنا ممن زلت أقدامهم وضلت أفهامهم، وما لم تسهم الجامعات من خلال هذه الكراسي بتوعية الشباب، وتثبيت أفئدتهم، فإن الخرق سيتسع على الراقع، ثم لا ينفع التحرك بعد فوات الأوان.

والكرسي الذي يحمل مشروعه هماً إنسانياً، يجب أن يتصور منفذوه المشاكل الأكثر أهمية وإلحاحاً، ثم ليقيموا الدراسات الميدانية والمعرفية، وحين تستوي البحوث على سوقها، يجب أن تتخطى مرحلة التنظير إلى سوح التفعيل، وما لم تُفَعَّل النتائج، فإنها ستكون حلقة في سلسلة البحوث والدراسات المغيبة في خزائن المكتبات:

وما انتفاع أخ الدنيا بناظره
إذا استوت عنده الأنوار والظلم

والمجتمع الخليجي والمجتمع السعودي بالذات يتجرع ضريبة الترف، وهي من أفدح الضرائب، ومؤشراتها استفحال حوادث المرور، وفشو المخدرات، وتفاقم العنف الأسري والطلاق والعنوسة والاتكالية وانعكاسات النسق الثقافي على قناعات الشباب وخياراتهم المتمثلة بالعزوف عن المهن بوصفها منقصة، وما لم نضيق الخناق على تلك الظواهر، فإنها ستؤدي إلى بطالة مصطنعة وكسل مستشر واتكالية معطلة للمواهب والمهارات، ومهمة الكراسي الدخول المباشر في تلك الغياهب، ومواجهة الذات بكل ما هي عليه من تشوهات. وهل أحد فكر وقدر، وعرف كم تزهق حوادث المرور من أنفس شابة، وكم تسقط المخدرات من كفاءات بشرية، وكم يؤدي النسق الثقافي إلى اتكالية موهنة، وكم

يفكك العنف الأسري من روابط اجتماعية. ولو كشفت وزارة الداخلية ووزارة العدل ووزارة الشؤون الاجتماعية عما لديها من إحصائيات لأصيب الطيبون الغافلون بالذهول. وفوق ذلك كله ذلك الغزو الفكري الذي وسع قاعدة الغلو والتطرف والتمرد على سائر المؤسسات وأسهم في تصدع الوحدة الفكرية.

إننا نعيش حرباً ضروساً تتساقط في سوحها فلذات الأكباد، أجساماً وأفكاراً وأخلاقاً، وإذا عجز الإعلام والتعليم والمؤسسات الدينية عن محاصرة تلك الظواهر، فإن على تلك الكراسي أن تمارس تجاربها، لما تملكه من سخاء ومرونة في الإجراءات، وأن تتخطى إلى الشارع المضطرب، لتستوعب المشاكل، وتضع الحلول، وليس هناك أفصح من لغة الأرقام، ولقد تكون المكاشفة بداية التلافي، ذلك ما كنا نبغي لهذه الكراسي، وذلك ما كنا نتطلع إليه من ذوي الاقتدار. فهل يضع الموسرون أيديهم مع المتخصصين، لإيقاف التدهور المخيف؟ أرجو ذلك.

وتُقدِّرون وتضحك الأقدار.. ![1]

فوجئت بموعد بَعْثِ المقال على [إيميل] رئيس تحرير، ولما أكن أعددته من قبل، وساعتها تذكرت مقولة العلامة [حمد الجاسر] رحمه الله عن نفسه: [إنني رجل نساء] وهو قد قالها في سياق مطبات الأخطاء المطبعية، إذ استبدل الناسخ [الفاء] بـ[النون] .

ولما لم أجد القدرة على التعاطي مع القضايا الساخنة، وهي من الكثر والتنوع، بحيث لا تدري ما تصيد، فقد رصدت عوارض ساعتي التي أنا فيها، تمشيا مع قول الشاعر: - [ولك الساعة التي أنت فيها]، وكم يُقَدِّر الإنسان، وتضحك الأقدار، ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾.

لقد كان في نيتي قضاء نهاية الأسبوع في [روضة التنهات] مع لفيف من أصدقاء الطفولة، الذين طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا. وهم لفيف من رجال الأعمال والمتقاعدين الذين استدبروا الغرائز والشهوات أو استدبرتهم، وفرغوا لاجترار الماضي، وتقليب الأوراق القديمة، على شاكلة الأثرياء المفلسين، وهل بعد السبعين من تطلعات لزينة الحياة الدنيا؟ وفيما أنا أحزم أمري، سمعت هاتفاً ينقل لي خبر وفيات لبعض المعارف والأقارب، فعدلت عن رحلة المتع إلى رحلة العبر، وخضت في لجج الأحزان بدل مياه الغدران، وأقل الحقوق أن تتبع جنازة عزيز عليك، وأن تصلي عليه، وأن تقف على قبرة، وأن تشهد تلك المراسم التي ترقبك في نهاية الطريق، فلكل حي نهايته الخاصة به، وهي اليقين الذي لايحتاج إلى برهان ﴿وَاعبد رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ واليقين الموت، ولا عبرة بشطحات الصوفية، وليهم أعناق النصوص، وإسقاطهم الواجبات بتأويلات ضالة مضلة.
واسألوا الله معي أن أوفق وأعان من لطيف خبير على استكمال بحث، أحسبه مهماً عن خوض المفسرين في آي الذكر الحكيم، عبر مناهج تعرف منها وتنكر. فمن عقلاني يستدبر الرواية والدراية، إلى وجداني يضل بخطراته طلاب الحقائق، إلى نصوصي ظاهري، لا يريم عن الدلالة الوضعية. والقرآن كما المورد العذب المتدفق لا تعكره الدلاء؛ لأنه حمال أوجه.

وظاهرة الجنائز وخدمتها واتباعها من الظواهر الحسنة، التي بادر إليها المحسنون، وهيؤوا لها كل الممكن من الخدمات. لقد شهدت وشاهدت مراسم دفن كثيرة، أحِسُّ معها أننا بخير، وأن في أهل الدثور خيراً، فـ[جامع الراجحي] في الرياض، حين تشهد فيه جنازة، تشعر بالارتياح؛ لأن الخدمات التي تقدم للميت ولذويه تبعث على الاطمئنان، وتلك من نِعَم الله على خلقه، فالمصابون قد يذهلون عن أشياء مهمة، وليس لديهم لحظة الصدمة ما يمكنهم من التوفر على كل متطلبات التجهيز والدفن. وإذا وجد من خارج المصابين من ينهض بمثل هذه المهمات، كُفي أهل الميت السعي وراء متطلبات الغسل والتكفين والنقل. ولقد روى لي أخي العزيز الوجيه [سليمان الراجحي] أمد الله في عمره، ما دفعه إلى السعي في هذا الطريق الذي غفل عنه كثير من المحسنين، وهو تهيئة متطلبات الميت، وذلك حين لقي العنت عند وفاة والده أو والدته، لست أدري.

فهل يقتدي الموسرون بتلك السنن الحسنة ويسدون بعض الخلال في مدن ومحافظات لم تتوفر على مثل تلك الخدمات؟

---

(١) تاريخ المقال: ٣/ ٤/ ٢٠١٢

واتباع الجنائز من السنن الحسنة؛ لأن فيها جبراً لخاطر ذوي الميت، وكسباً للأجر، وتذكيراً بالموت، وترقيقاً للقلوب، ولقاءً بمن تعرف في حالة نفسية، قد تحمله على التخلي عن مواقفه. و[كفى بالموت واعظاً]، وحضور تلك المراسم الأُخْروِيَّة قربة ومواساة وموعظة، حث عليها الإسلام، ولها تجلياتها، لمن يتأمل في أحوال الميت. إذ لكل جنازة ظروفها وملابساتها وأحوالها، وتجليات المواقف حولها، والمتدبر من يرصد تلك الظواهر، ويقوِّم هذه المواقف. فمن ميت ترك من خلفه ذرية صغاراً، لا يدري ماذا يفعل الله بهم، ومن ميت ترك وراءه أموالاً طائلة، لا يدري ماذا يفعل الورثة بها من بعده، فهو قد حمل مرَّها، وترك حلوها لمن أورثه، ومن هالك ترك وراءه منكراً من القول، يعلم علم اليقين أنه باق كما شاهد الإدانة، يقرؤه البر والفاجر، ويفعل فعله في أجيال لم تولد بعد. ومن ظالم موغر للصدور، مُسْتَعْد للمظلومين بالدعاء المستجاب، رحل معه بأوزاره وأوزار من ظلمهم أو أضلهم، ومن ميت مسالم، قاصد في مشيه، غاض من صوته، مسلم وجهه لله، وهو محسن، متمسك بالعروة الوثقى، مُثَبَّتٌ عند السؤال. تلك تداعيات تخطر بالبال في تلك اللحظات الأخروية.

لقد شهدت جنائز كثيرة، أوجف من خلفها خلائق، يتفاوتون في أحوالهم، ويتباينون في مواقفهم، ولربَّما يعودون المرَّة تلو الأخرى، حتى يؤتى بهم، ثم لا يعودون. وعُدْتُ من تلك المشاهد بما لم تستطع توفيره مجلدات من الكتب، ولكن الأمل والنسيان يعيدان الإنسان إلى الحياة، كما كان من قبل، وتلك من نِعَم الله على العبد، فهو لا يستطيع استدامة الحزن، ولا يقدر على تذكر الموت وما بعده في كل لحظات حياته، ولن يعمر الكون إلا بالأمل والنسيان. فالفقير يأمل الغنى، والمريض يأمل الصحة، والسجين يأمل الحرية، والمدين يأمل القضاء، والمصاب ينسى المصائب ويسلو، وكأن شيئاً لم يكن. وإذا كان الاستغفار مغسلة الأدران واللمم، فإن النسيان مغسلة المصائب، وكم من باكية على حبيب أو وحيد، ملَّت البكاء، ولم تمل الحياة، وكم من مفجوع يئس من العوض، فعوضه الله خيراً مما فقد. وتلك [أم سلمة] رضي الله عنها، راوية حديث الخَلَف الخيِّر، تستبعد أن تعوض خيراً من [أبي سلمة] فكانت من بعده أم المؤمنين، ولولا ذلك الأمل لما استطاع أحد أن يعمل، وهو يعلم علم اليقين أنه ميت، وأنه مدفون في التراب، وأن هذا الجسم المادي لا يختلف عن أي جسم آخر ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ و[كل الذي فوق التراب تراب]، وما أعدت قراءة رائعة "المعري" الرثائية إلا أيقنت أننا نمارس دوراً مسرحياً في هذه الحياة، وأن الملقن وراء "الكواليس" وأن الخروج على النص من المستحيلات. وقصة "موسى" عليه السلام مع "الخضر" خير شاهد ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ إنه القضاء والقدر ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾، ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾.

و"المعري" المفكر الشاك، يعلن أنه لا يجدي في ملته واعتقاده نواح الباكيات ولا ترانيم الشدات، ورؤيته التشاؤمية تكاد تكون سيدة الموقف عند العقلاء:-

[ذو العقل يشقى في النعيم بعقله]

وكل من عمق الرؤية، ودقت عنده الملاحظة، أدرك أن هذه الحياة بدون الإيمان شر مستطير: - [إذا الإيمان ضاع فلا أمان].

تلك خطرات عرضت لي، وأنا أودع رفاق درب كنت أحسبهم مقيمين ما أقام عسيب، فإذا بهم يمرون بحياتنا كالطيف، ليعودوا إلى منابتهم، ومن أصدق من الله قيلاً

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ وليست الإشكالية في الخلق، ولا في الإعادة، ولكنها في الاخراج ثانية: - ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ فبعد هذا الإخراج أهوال، تذهل فيها كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها. تلك التداعيات كالأوابد، لو استبقها المتذكرون بالقيد، لكانت لحظات من صحوة الضمائر، وما أحوجنا إلى سويعات نتذكر فيها ما نحن فيه وما نحن قادمون عليه، [فتعالوا نؤمن ساعة] كما في الأثر، وأخيراً تذكرت المثل "الأمريكي": - [عليك ألا تأخذ الحياة بشكل جاد فغداً ستموت] .

البراعة في إدارة ثقافة الحشود .. ![1]

في المحافل والمنتديات والمعارض والمهرجانات والأسواق والملتقيات التي أتشرف بحضورها، مشاركاً أو مباركاً، أسمع حسيس التذمر من طلائع الشباب، الذين يودون أن يكون لهم الصدر في الأمكنة، والصدارة في الممارسة: وجوداً فاعلاً أو رؤية متنفذة، في سائر التظاهرات الثقافية، ثم لايعدّون تلك الرغبات من باب الأثرة ولا من باب احتكار الحقيقة.

وأولئك المتذمرون من أطياف شتى، نختلف مع بعضها كل الإختلاف أو بعضه، ولا نقترف خطيئة الإقصاء ولا الإستعداء، مادام الجميع في إطار الإختلاف المعتبر، الذي يراعي الثوابت والمسلمات المسنودة بالنص القطعي الدلالة والثبوت.

إشكاليتي الميؤوس من حلها، مع هذا اللفيف الفسيفسائي أنني بحاجة إلى أن يُعرِّف كل شاب بنفسه المرة تلو الأخرى، فأنا في كثير من التظاهرات الثقافية كـ(المتنبي)، (غريب الوجه واليد واللسان). لقد انقرض جيلي ومن أجايل أو كاد، ولما أزل أجالد وأجاهد، لأكون حاضراً، مكتمل الأهلية، وحسناً يفعل المتنفذون، حين يزجون بي في أتون الفعاليات: متحدثاً أو مديراً أو مداخلاً. ويقيني أن الذين قعدت بهم الشيخوخة، أو إنتابتهم عوارض الأمراض من لداتي، يودون لو أسعفتهم ظروفهم الصحية، ليشهدوا منافع لهم، ولكنها الحياة الخؤون، وسنن الكون التي لاتتبدل ولاتتحول، وكم تنتابني رجفة التأمل والتألم، وأنا استعرض الحشود، ثم لا أجد من بينهم من أكلت معه وشربت، واختلفت معه واتفقت، وحاججته وحاجني، وافترقت بنا السبل على صفاء ومحبة، وحين اتحسس عنهم كإخوة يوسف، أجد من أخبارهم مايبعث على الرحمة، فمنهم من تخلت عنه قدماه، ومنهم من خلطت أوراقه عوارض (الزهايمر)، ومنهم من قضى نَحبه، ونحن على أثارهم سائرون.

وثقافة الحشود تضع رجلاً مثلي، بوصفي مخضرماً، أدركت البدايات، وتوغلت في مرحلتي التأسيس والإنطلاق في حيرة من أمره، فالشباب الذين تلقوا الرايات، وملؤوا الفراغات، يودون استعجال النتائج، والاستئثار بالمباهج، ولاسيما أنهم في زمن مُشرَّع الأبواب على كل الثقافات، مترع الأوعية بكل المتناقضات، حتى لقد أصبحت المعارف والمذاهب والظواهر في متناول اليد، لاتصدها رقابة، ولا تغتالها سياسة، ولايسيطر عليها احتساب، وزمن تتفلت فيه الأشياء، وتتدفق فيه المعارف، تصعب فيه الصدارة فضلاً عن السيطرة.

لقد نشأت في زمن شحيح، الناس فيه كالأسرة الواحدة، محدودة المأكل والمشرب، فهم متجانسون في آمالهم وآلامهم وإمكانياتهم وأجوائهم. يفوضُون أمرهم إلى سلطاتهم الثلاث: السياسية والدينية والمجتمعية، حتى لاتجد أحداً يجروء على الكلام غير المباح، وإن لم يدركه الصباح، يقرأ، ولا يقرأ من الكتب إلا متون المذهب، وكتب الرقائق. ولقد تلقيت من الضوابط، ووعيت من الشروط، مال سَمِع بها جيل اليوم لملّ الحياة.

ومع هذا فقد توارثنا تمجيد الماضي بكل تصحره وتسلطه. وعقدة الماضوية امتداد لعقدة الأبوية:- ﴿إِنَّا وجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وإنّا عَلَى آثَارِهِم مُقْتَدُونَ﴾، والماضي الذي خلفناه وراء ظهورنا، مليء بالجد والعزمات، فنحن فيه إما: عاملون أو متعلمون، ومع شظف العيش، واعتمادنا على أنفسنا في كل شيء، لاتسمع منا شاكياً، ولا ترى متذمراً.

---

(١) تاريخ المقال: ٢٧/ ٣/ ٢٠١٢

نحمد الله على السراء والضراء وحين البأس، وكم ينطوي جيلي على ذكريات، لو فُزِّع عنها، لأثارت كوامن الشفقة والإستغراب. (والذكريات صدى السنين الحاكي).

أقول قولي هذا بين يدي حديث، كنت أسمعه، يتردد في كل مؤتمر، ويعاد في كل لقاء، وقد يأخذ أشكالاً تضيق بها الصدور ولاتنطق بها الألسنة. فالشباب الذين أنسوا من أنفسهم رشداً، يودون لو ابتدروا المناسبات، وتمتعوا بالحقوق، ونعموا بالجوائز، واستأثروا بالخيرات التي تهمي كالسحاب على النخل والقتاد، فهم إذ يمتلكون المواهب، ويشاطرون أمتهم بالكلمة الشاعرة والعبارة الجميلة والخلق الرفيع، فإن حقهم أن يتلقوا الراية باليمين، تلك دعواهم، وعلى المتمنعين أن يقولوا: - (هاتوا برهانكم). ويقيني أن معهم شطراً من الحق، وشيئاً من المبالغة. ومن العدل أن تبتدر الوزارات المعنية، وبالذات وزارة الثقافة والإعلام، ووزارة التعليم العالي ذلك التذمر، فإن كان ثمة حق مضاع، وجب إحقاقه، وإن كانت التذمرات والمطالبات مجرد إهتياجات عاطفية، فليس هناك مايمنع من التنوير، ومن المفيد استحضار ذلك التململ المخيف الذي نراه رأي العين بادياً في أروقة الجامعات، وفي الحشود الثقافية، وعلينا أن نستحضر قول الشاعر:

أرى خلـــل الرمـــــاد ومـــــيض نـــــار

وأخشــــى أن يكـــون لهـــا ضـــــرامُ

فالطلبة الذين عبروا عن معاناتهم وتطلعاتهم، لايختلفون عما نسمعه ونراه في المناسبات، كالمعارض والمهرجانات وسائر المناسبات من شباب شبوا عن الطوق. وهذه الشكايات التي يتفوه بها الشعراء الشباب والقصاص والروائيون والنقاد، لايمكن أن تنطلق من فراغ، فطائفة منهم يريدون سعودة التظاهرات الثقافية: تجمعاً وإسهاماً. وإن كان ثمة رغبة لدعوة رموز الثقافة العربية، فليكونوا مستمعين مشاهدين مطلعين على ماينطوي عليه مبدعونا وموهوبونا من إمكانيات لاتقل بحال عما هم عليه.

لقد شرفت بدعوات كريمة لحضور الكثير من ورشات عمل الحشود الثقافية، للإسهام في إعداد برامج لتلك الفعاليات، وكان همُّ الجميع مُنصباً على إبراز أدبنا وثقافتنا، وتجسير الفجوات مع الثقافات العربية، وأخذ الحيز في سوحهم بمثل ما أخذوه في سوحنا. لقد كنا على علم بآداب الأمة العربية، نعرف شعراءهم ومفكريهم وأدباءهم ومبدعيهم، ولاتخفى علينا خافية من دقيق أمورهم وجليله. في حين أننا نعيش غياباً مخلاً بالأهلية، ولقد أشرت إلى شيء من ذلك، عندما كتبت عن مشاركاتي في فعالياتنا الخارجية. والشباب الذين يتذمرون، ويودون ابتدار الفعاليات، يضيقون ذرعاً من الإقصاء غير المتعمد، يصيبون كبد الحقيقة. فنحن أحق بشأننا، وأحسبنا تجاوزنا مرحلة الوصاية، وحق لنا أن نبتدر شأننا الثقافي كله، وألا يستأثر به غيرنا، تحت أي تبرير، وحق لنا -أيضا- وقد توفرنا على الندية- أن نقول بملء أفواهنا: (إن بني عمك فيهم رماح).

ومن ذا الذي لا يود أن يكون مكتمل الأهلية في كل لقاء. ولكي نكون على بينة من أمرنا، دعونا نعيد قراءة برامج اللقاءات والمهرجانات والملتقيات والمعارض، ونرى المساحة المتاحة لأدبنا وفكرنا ومبدعينا، وعندئذ نجد العذر كله لشباب يضيقون ذرعاً بالتهميش. وإذا دعُوا فإنما يدعون للإستماع، وكأنهم لايجدون مايقولونه في مثل هذه الحشود. وكأني بهم كأولئك النفر الذين ﴿تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾. لقد مللنا تغريد الطيور من كل جنس على دوحنا، وحق لنا أن نقول:

أحـــــرام علـــــى بلابلـــــه الـــــدوح

حــــلال للطيــــر مــــن كــــل جــــنس

إطّرحوا الحساسيةَ المفرطة .. ! [1]

لمَّا أزل أتلقى المهاتفة تلو المهاتفة، من محبين متحمسين غيورين، يناشدونني الدخول على شتيت المواقع، ومشاهدة بعض الوثائق بالصوت والصورة أو بالكلمة، عن تجاوزات أخلاقية أو عقدية أو سياسية أو ما شئت من تلك الهنات واللمم والموبقات التي يقترفها البعض من المسؤولين والمفكرين والكتاب وسائر المتنفذين.

ومن المهاتفين من يستنصرني في بادئ الأمر، فإن لم أبادره، تحول إلى مستصرخ، وما أنا وسط طوفان الصراع الحضاري وافتراء الكذب إلا خائف أترقب، ولن أقول لأحد من هؤلاء المتذمرين ما قاله موسى عليه السلام: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ [القصص: ١٨] ولكنني أقول ما قاله الله لرسوله ﷺ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦] . وإذ لا أجد مبرراً لهذه الحساسية المفرطة، وردة الفعل الأعنف، وفي الوقت نفسه لا أتردد في استنكار أي مخالفة عندي فيها من الله برهان، فإن مواجهة الواقع يتطلب فقهه، إذ لا يكفي التسلح بفقه الأحكام: هذا حلال وهذا حرام، وحين يصيخ المحتسب لهذا اللغط، ولذلك الترويج المحموم للشائعات والمخالفات والخروقات، عبر المواقع والصحف والمجلات، مما يُشْمِتُ بنا الأعداء، يجتاحه اهتياج العامة، واندفاعات العقل الجمعي، ومن ثم يفقد توازنه، ولا يجد فرصة للتقدير والتدبير وتحرير المسائل. ومن فقد السكينة والحلم والأناة أساء من حيث يريد الإحسان. ومع أننا نقدر تلك الغيرة، ونحمد للمحتسب تمعر وجهه من أجل ربه وانتفاضته من أجل وطنه، إلا أننا لا نود لردة الفعل أن تكون منطوية على سيئة تفوق سيئة المبتدئ.

لقد جاءت التقنية الدقيقة مغرية لكل متابع، والداخل في لججها لا يختلف عن ذلك الصعلوك المنحوس الذي قالت عنه أمه:

طـــــــاف يبغـــــــي نجـــــــوة
مـــــــن هـــــــلاك فهلـــــــك

وحين سُئلت عنه، وقد تأبط سيفه، واستجاب للفتنة. قالت: [تأبط شراً وخرج] فسمي بذلك.

والمتأبطون لتلك الأجهزة إن لم يحسنوا استخدامها، لا يختلفون عن ذلك الصعلوك الشقي.

ونحن إذ نكون أبناء عصرنا، لا أبناء تاريخنا، فإن علينا أن نتخذ من الحلم والأناة والدراية والرواية وتصور الأشياء على حقيقتها قبل الحكم عليها رِدْءاً لتصرفنا، فما من سبيل للربط على القلوب، والتثبيت للأفئدة إلا بالاعتصام بحبل الله، ونبذ الفرقة، والإيجاف بالآليات والمناهج المناسبة في الوقت المناسب.

ولما كانت تلك التقنيات الدقيقة وسائل مراوحة بين الخير والشر، كان بإمكاننا أن نجعلها مصادر خير، وموارد علم، ومراتع عقول، وأمداء تثقيف. لا حبائل سوء وحلبات صراع، نستدرج بها وإليها الغافلين، فنقضي على سمعتهم، وندمّر كل أشيائهم. ومن جرفته الشائعات واحتنكته الاتهامات فإن عليه التثبت ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ

---

(١) تاريخ المقال: ١٠/ ٤/ ٢٠١٢

﴿فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦] لأن تصديق الشائعات، وترويجها مخالفة صريحة لمقتضى الأمر الذي استهله الله بالنداء، وأعقبه بالأمر، وإذا سمع الممتثل لأمر الله نداء ربه، فواجبه إلقاء السمع وهو شهيد، واستيعاب الأمر وامتثاله، فنداء الله لأمْرٍ فيه خيرٌ يدل عبد ه عليه، أو لشر يحذره منه.

وكم يمر بنا [حديث الإفك] وما خلفه من تصدع في وحدة الأمة الإسلامية، وإيذاء لبيت النبوة، وقذف لأم المؤمنين. فالتخلي عن التثبت وانعدام حسن الظن، أديا إلى تعرض ثلاثة من الصحابة لخطيئة رمي المحصنات، فهذا [حسان بن ثابت] و[حمنة بنت جحش] و[مسطح بن أثاثة] رضي الله عنهم، استفزهم رأس الفتنه، وزعيم النفاق، وحملهم على قبول الشائعة، وترويج قالة السوء عن أم المؤمنين. ولهذا طهَّرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بحد القذف، وترك المنافقين الذين أعد الله لهم الدرك الأسفل من النار، ولما قال حسان رضى الله عنه في مدح الصديقة بنت الصديق:

حصانٌ رزانٌ ما تزنُّ بريبةٍ

وتصبحُ غَرْثى من لحوم الغوافل

قالت في سرها، أو في علنها - لست أدرى -: [ولكنك لم تصبح أغرثا] أي جائعاً عافًّا عن أعراض المحصنات.

تلك الحادثة لو وعيناها بأفئدتنا، ورعيناها ببصائرنا، لكانت درساً تربوياً، يمكن السمَّاعين للكذب من وأْدِ الشائعات في مهدها، وعدم نفاذها للآخرين بالترويج، ولو أن المتهافتين على المواقع تحروا الرشد، والتمسوا الفوائد، لما طفح كيل التغريدات المؤذية لله ولرسوله وللمؤمنين، إلا من رحم ربك، ولَمَا تنوعتْ مناحيها. ومن أراد أن يدير الرؤوس بكؤوس الرذيلة، ويخنق النفوس بالأنفاس النتنة، فليطرح اسما من الأسماء الهامة أو قضية من القضايا الحساسة، ثم لينظر تداعيات الهراء الفارغ من كل مكرمة، الطافح بكل رذيلة. لا أقول ذلك على إطلاقه، ولكن الرؤى يحكمها التغليب.

ومعاذ الله أن أقترف الخطيئة بالحيلولة دون التعبير عن وجهات النظر، والبوح بنتائج الاجتهاد المعتبر، ولا دون التصريح بالمواقف من الأشياء والأناسي الذين يتحكمون بمصائر الخلق، وتعرية أي تقصير أو مخالفة. ولكن يجب على كل مقتدر أن يقوِّم المواقف، وأن يزن الأمور، وأن ينظر للعوائد، وأن يتقي الظلم والتعدي والافتراء. فالمستهدف في النهاية مسلم له أو عليه، ومن القواعد الأصولية: [المتهم بريء حتى تثبت إدانته] والحكم نافذ حتى ينقض بما هو أقوى منه، وكم من بريء في غياهب السجون، وكم من نزيه مدنس العرض بالشائعات، ولا أستبعد أن من الأبرياء من ابتلاه الله بهذه الفئات التي لا تتحرى الدقة، ولا تستبرئ لعرضها ولا لدينها.

ولقد سئلت عائشة رضى الله عنها عن قوم ينالون من صحابة رسول الله ﷺ.

فقالت: لعل الله قد أعد لهم نزلاً في الجنة، لم يبلغوه بعملهم، فسلط الله عليهم من يؤذيهم، وينال من أعراضهم، ليكتب لهم الأجر، ويأخذ لهم من أعمال هؤلاء المتسلطين عليهم بالسب أو بإشاعة الأخبار الكاذبة. ولهذا فإنني لا أحبذ الحساسية المفرطة في المواقف ضد هذا الصنف المسلَّط: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، إذ ربما يكون في بعض المقول شيءٌ من الصحة، ومن ثم يكون هذا الصنف ممن يُهدي العيوب لذويها و[رحم الله من أهدى عيوبنا إلينا] . أو يكون من باب الابتلاء وتمحيص الذنوب.

ومع كل استيائي وتذمري من تلك الظواهر المؤذية فإن هناك شطراً مما يقال له مشروعية القول، وواجب المستهدف: عالماً كان أو مسؤولاً ألاَّ تأخذه العزة بالإثم، فمراجعة النفس، والنظر إليها في مرايا الآخرين من حسن الخلق. وإذا كانت الكلمات أو التغريدات أو فلتات الألسن عبر أي وسيلة إعلامية تهز الثوابت، أو تدنس المقدس، أو تشكك في المسلمات فإن هناك أكثر من طريقة للتمعر والاحتساب، لا يكون من بينها المعاقبة بالمثل ولا التجريم ولا الاتهام ولا الاستعداء ولا إثارة الرأي العام. فكم من مجتهد خانه اجتهاده، وقصرت أخادعه، وضعفت وسائله عن مواجهة النوازل، فأساء من حيث يريد الإحسان، وكم من متأول أبعد النجعة، وكم من مفهوم على غير مراده. وهنا لا بد من خيار الاحتواء على المواجهة، والاستبانة على الإدانة، فلقد يخطئ المفكر أو العالم أو المسؤول خطأ لم يقصده، فإذا أوجف الآخر عليه بالخيل والرجل، زاد نفوره، واستفحل عناده، وأخذته العزة بالإثم، واستعان عليه الشيطان بالتحريش بين الأطراف، ومثل هذه المواقف المتشنجة والحساسيات المفرطة توسع هوة الخلاف، وتصدِّع تلاحم الوحدة الفكرية، وكم قيل: [لعل له عذر وأنت تلوم] وفوق هذا ما دخل اللين في شيء إلا زانه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩] . ولقد ندم كثير من المتصدين للمخالفات، حين جاءت النتائج عكس المتوقع. فهذا الملحد [عبد الله القصيمي] حين أصدر كتابه [هذه هي الأغلال] بدت فيه بوادر انحرافه، ولو أن علماء عصره احتووه، وتلطفوا بالحديث معه، وحاولوا مقارعة الحجة بالحجة، وحيدوا الأشخاص، وفككوا القضايا، لكان بالإمكان التوصل إلى حل وسط، يبقي على عالم ومفكر، لا ينازع داخل إطار السلفية، ولكن المواجهة كانت عنيفة،، والاستنكار كان شديداً، وإصدار الأحكام الجائرة لم يتح له فرصة مراجعة النفس، ومن ثم أمعن في غيه، وأسرف على نفسه وعلى سلفيته، فكان ما كان، من احتواء المذاهب المادية له، وتجنيده لخدمتها، وتهيئة الأجواء الملائمة له، ودعمه بالمال، وتوفير كل الإمكانيات. فكان أن دُفع الشرُّ بما هو أشر منه، ومن قواعد الفقهاء [درء المفاسد مقدم على جلب المصالح] .

إن التقنية الحديثة عرَّت الأشياء، وأصبح كل إنسان تحت المجهر، وتسابق الهجاؤون على رصد التجاوزات وافتراء الكذب، واستعداء الرأي العام. وعلى الكافة من مسؤولين وعلماء ومفكرين أن ينظروا إلى مواقع أقدامهم، وألا يقدموا على قول أو فعل إلا بعد الاستشارة والاستخارة، فالزمن أصبح بلَّوْرِياً، يكشف عن دخائل النفوس، وخطرات الأذهان.

ثم إن علينا جميعاً أن نألف هذا الواقع، وأن نتعايش معه، وأن نتقبل قدرنا المأزوم بكل رحابة صدر، ففي ذلك تفويت للفرص التي يرقبها المرجفون، وما لم تبادر صفوة الصفوة إلى الأخذ على يد المخالف والمجازف بالحكمة والموعظة الحسنة والرفق واللين، فإن المشاكل ستتداح، والخطر سيعم ويطم، وعندئذ يسبق السيف العذل.

عودة إلى مراتع الطائي .. !(١)

ربما أكون المشارك الوحيد في منتدى حاتم الطائي الذي اخترقت عوالمه في وقت مبكر، وجست خلال شعره وحيواته المتعددة والمثيرة، وتجاسرت على إخراج كتابٍ عنه، أثار عنوانهُ حوافظ الكثيرين، ممن لم يستوعبوا مقاصده العنوان ومنطلقاته، ولم يستفزني تحفظ البعض على نتائج بحثي، ولم أكترث باختلاف وجهات النظر حول ما ذهبت إليه من رؤية، يحسبها الظمآن للمعارف تغريداً خارج السرب، وما هي في النهاية إلا حصيلة آراء توارثها المشهد الأدبي، كاتباً عن كاتب إذ ما ترانا نقول إلا معاراً أو معاداً من أقوال من سلف، ثم إن الاختلاف ضرورة لأي فعل مهم، وأيُّ عمل لا يثير كوامن الآخرين، ويحفزهم على التناوش يَعْبُر الساحة بهدوء، ثم لا يترك أثراً، ولا يؤكد حضوراً. ويقيني أن الذين تساءلوا عن مقاصد [أسطورة الكرم] عند حاتم بوصفها جزءاً من العنوان، أرادوا الوقوف على مراد الباحث: أهو مُنْكِرٌ للكرم أم مُنكرٌ لمستحيله؟ ولما كان متن الكتاب قاطعاً لقول كل متسائل، فقد لزمت الصمت، ونمت ملء جفوني عن مثيراته.

ولأني لم أتخذ منهج [النقد الأسطوري] في مقَاربتي لحياة الشاعر وشعره، إذ ما زدت أن أشرت إلى أن القُصَّاص والمذكرين بمثل ما اقترفوا خطيئة الكذب على الرسول ﷺ، لشد عضد حكاياتهم الخرافية، لم يترددوا في اقتراف الأسطرة للشخصيات الاستثنائية، سواء: أكانت سياسية أم أدبية. نجد ذلك مع الخليفة الراشد "علي بن أبي طالب"، رضي الله عنه بوصفه رجل سياسة وحرب فاق أقرانه ولداته، وكل الشخصيات الاستثنائية يغمرها الرواة بالحكايات الخرافية والأسطورية، التي يستحيل وقوعها، كما هو عند [عنترة بن شداد] بوصفه رجل شعر وآلِه، وفارس حرب ضروس، ومثلما هو عند الأعلام، يكون عند الأحداث، كحرب [داحس والغبراء] والمؤكد تاريخياً وجود [ابن شداد] وقيام حروب العرب في الجاهلية، وأيامهم وأمثالهم وثائق إثبات، غير أن الرواة أغرقوا في المبالغات المستحيلة، فأثَّروا على الجوانب الحقيقية في الحيوات والأحداث. و[حاتم الطائي] شاعرٌ لا غبار على شاعريته، وكريم من كرماء العرب لا جدال حول كرمه، ولكنه بشاعريته دون الفجول، وبكرمه فاق مُجايليه، ولكنه لم يبلغ الحد الذي يتناقله القصَاص والمذكرون.

وإذا كان [طه حسين] قد شكك في الشعر الجاهلي، معتمداً في تشكيكه على خلو الشعر الجاهلي من تصْوير الحياة الجاهلية، كما صورها القرآن الكريم، فإنه لم يعرض فيما أعلم لشعر حاتم، ولا لشخصيته، ولا لأخلاقياته، ولكن حاتِماً يندرج ضمن إطلاقاته العازمة، لأنه نفى الشعر، ولم يقف على أشخاص بأعينهم، إلا لضرب الأمثال، لقد كان كتابي [حاتم الطائي بين أصالة الشعر وأسطورة الكرم] باكورة إنتاجي طباعة، وإلا فقد سبقه في الإعداد كتابان: - أما أحدهما فرسالة الماجستير [اتجاهات الشعر المعاصر في نجد] وقد طبع بعده بثلاثة أعوام، أما الآخر فـ[شوقي بين التدينالمجون]، ولمَّا يزل مخطوطاً قد تجاوزه الزمن، وانتهت صلاحيته. وفكرة الكتاب جاءت عندما طلب مني [مدير المكتب الرئيسي لرعاية الشباب بحائل] آنذاك الأستاذ [عبد العزيز القشعمي] إلقاء محاضرة في الموسم الثقافي للمكتب، فكان أن ألقيتها مساء يوم الأربعاء الثامن والعشرين من شهر صفر من عام ١٤٠٠هـ وبعد المداخلات والاستدراكات والإضافات، هيئت للطبع لتكون بشكلها المتداول منذ ثلاثة عقود ونيف. ولم أشأ العودة إليها، لأن موضوعها لا يقع ضمن اهتماماتي الآنية. وحين بادر [نادي حائل الأدبي] لقراءة [حاتم الطائي] شرفت مرة ثانية بدعوة كريمة للمشاركة، وكم يساورني الشك حول إمكانية التوفر على عمل تجاوزي،

---

(١) تاريخ المقال: ١٧/ ٤/ ٢٠١٢

يضيف شيئاً لعوالم الطائي، إلى جانب الإسهامات الجادة من المشاركين المقتدرين فلقد تحدثت من قبل عن نسب الشاعر وعن أسرته وموطنه حياً وميتاً، وعن أخلاقه التي أشاد بها الرسول ﷺ، وهو يوجه بفك أسر [سفانة بنت حاتم]، غير أني ترددت حول ما أضيف إلى كرمه من مبالغات، شارفت حد الأسطورة، كما حاولت تناول الجانب المشكوك فيه من شعره، واستكملت الحديث عن الأمثال العربية المتداولة عن الكرم العربي بوصف حاتما رأس الكرماء العرب. ولقد أشرت إذ ذاك إلى أن المحاضرة كتبت على عجل، ومن ثم ظلت بحاجة إلى مزيد من الإضافات والتَّعْديلات. واليوم أنا أعود إلى عالم حاتم بعد ثلاثين عاماً، أجد نفسي تواقة إلى النشاط والحيوية الذين كنت أتمتع بهما آنذاك، فلقد كنت يومها في عنفوان شبابي، ومن السهل عليَّ تقصي المراجع، ومغالبة الآراء، ومقارعة الحجج، أما وقد وهن العظم واشتعل الرأس شيباً وشغلتني هموم الأمة وتقلبات الطقس العربي فإن هذا العنفوان وذلك الفراغ قد وليا، وشهوة الجدل انطفأت، والجنوح إلى السلام قد غلب، ومن ثم لم أشأ توسيع القاعدة، ولا البحث عن القضايا المختلف حولها، ونبش المسكوت. عنه ولعل المشاركين بما يملكونه من قدرات معرفية، ودقة منهجية، ووفرة حيوية، يسدون الخلال ويأتون بما لم تستطعه الأوائل. والعودة المتأخرة لعوالم حاتم ربما تغريني بمحاولة الإضافة المتصالحة مع الآخر وبخاصة أنني لما أزل أتقلب مع الحرف، وأقف على مناهج وتيارات أدبية ونقدية، لا أشك أنها ستمنحني شيئاً مما فقدته، قد آنس فيه رشدا، هذه المناسبة أغرتني بقراءة كتابي بعد انقطاع دام ثلاثة عقود، كما اجتهدت ما وسعني للاجتهاد للتجرد من عاطفة الأبوة، بوصف مؤلفات الإنسان كأبنائه، حتى لقد أثرت أكثر من تساؤل، حول ما حققت من الموضوعية والمعرفية، وماذا ينقص ذلك العمل بعد تلك المدة، واتضح لي أن الكتاب رصدٌ دقيق لمرحلة تاريخية لحياتي المعرفية، وأن الزمن والإمكانات قد تجاوزته، ولم يعد الجُهْد كافياً لإعادته، ولكنه يظل محتفظاً بقيمته التاريخية. وأنا سعيد حين كنت جريئاً ووافقت على طباعته بهذا الوقت المبكر من حياتي الأدبية، وبتلك الإمكانات، ويقيني أنه لما يزل جديراً بالبقاء، ذلك أنه اعتمد المنهج التاريخي، وهو منهج يغالب النسيان، وليس هناك ما يمنع من الانطلاق منه أو الانطلاق به، ليعيش مرحلة تاريخية جديدة من حياتي. فحين أتحدث عن حاتم الطائي منطلقاً من مسارح طفولته، ومراتع شبابه، ومرابع كهولته، ومثوى شيخوخته، ومستقر جسده، وأحاول إعمال مدركاتي وآلياتي الجديدة أجد نفسي أمام شخصية تصنع المكان، ويصنعها المكان، وقد نختلف حول تلك الثنائية: الإنسان والمكان، بمثل ما اختلف النقاد حول ثنائيته [المتنبي-وسيف الدولة] و[زهير- وهرم بن سنان]، أيهما صنع الآخر، ومثلما اختلف فقهاء بيزنطة حول [البيضة والدجاجة] . قد يسهل علينا الحكم بأن زهيراً صنع هرماً، ولكن من الصعوبة بمكان أن نحسم الخلاف حول المتنبي وسيف الدولة، ومثلما يقال عن أولئك يقال عن [حاتم] ومراتع شبابه، لقد كان للأمكنة عبقرياتها، وأثرها، والنقاد حاولوا استبانة ذلك التأثير، وذلك بدراساتهم لعبقريات الأمكنة وجمالياتها، ومدى التصاقها بمن كرسوا وجودها في إبداعاتهم. فهل صنع حاتم المجدَ للمكان أم أن المكان فتق ذهنه وأذكى حماسه وفجر مواهبه، وسلك به طريق الكرم. قبل التفكير في حسم مثل هذه التساؤلات السوفسطائية، دعونا ننظر إلى شاعرية حاتم من حيث الفحولة والسيرورة والكثرة، وموقف النقاد الأقدمين. وهل كان وحده المتغني بالكرم وجلائل الأعمال. المتفق عليه لدى المؤرخين للأدب ونقاده أن حاتماً من الشعراء المقلين، وأن شعره رقيق الحواشي، سهل العبارة، قريب المأخذ، وتلك سمات لا يتمثلها الشعر الجاهلي، ولكي نقطع دابر الشك في الشعر المنسوب إليه، وهو جاهلي قريب من البعثة، نشير إلى طبيعة المكان الذي درج على أديمه الشاعر، فالرقة والعذوبة تمد بسبب إلى طبيعة المكان وأهله، ومن جاس خلال

الديار من قبل ومن بعد، يقطع بأن الرقة واللين من سمات تلك البقاع، ولأن حاتماً من الشخصيات التاريخية الذين يؤكد وجودهم عقبهم، فإن الإشكالية ليست في ذات الشاعوجوداً وعدماً، ولكنها في ذلك الشعر القليل الذي يمثل حياة الطائيين وأخلاقهم، ولا يمثل لغة الجاهليين ولا لهجة الطائيين، وحين أقطع بصحة ما نسب إليه من شعر، أجد من يقطع بوجود الشاعر، ويتردد في نسبة كل الشعر إليه. و[طه حسين] الذي شغل الناس وأسهرهم، توسل بأكثر من حجة، فالشعر الجاهلي المتداول لا يمثل حياة الجاهلية، ولغة الشعر المتسمة باللين وقرب المأخذ، لا تمثل لغة الجاهليين، والموضوعات والمعاني المطروقة لا تمثل ما عليه الجاهليون. ذلك قول [طه حسين]، وإذ نختلف معه في بعض ما يذهب إليه، إلا أننا لا ننكر أن المتداول من الشعر يغري بالتساؤل، ويحرض على الشك، فالحياة الجاهلية يصورها القرآن أدق تصوير وأشمله، فيما لا يصور الشعر المدون الحياة الجاهلية، وإذ لا نمضي مع [طه حسين] في إنكار الشعر الجاهلي، نجد أن لتساؤله نصيباً من المشروعية، ولقد تساءل من قبله النقاد والمستشرقون، وتساؤلنا عن سمات الشعر الحاتمي لا يعني الرغبة في توسيع هوَّة قاعدة الشك، ولكنه مجادلة معرفية للانطلاق من التسليم التقليدي، والخلوص من الزخم العاطفي، ورقَّةُ شعر حاتم وانقطاعه لمكارم الأخلاق في بيئة تختلف بعض الاختلاف عما ينطوي عليه شعره، تُشَرْعِنُ لمزيد من التساؤلات، ولاسيما أن صحراء الجزيرة لا تتوفر على دواعي الرقة والعذوبة، ولقد نسلِّم طوعاً أو كرهاً لمقولة: إن أهل الشمال يتمتعون برقة الحواشي، ودماثة الأخلاق، ولطافة المعشر، وكرم الحديث، واستباق التلطف مع الضيف، فذلك غالب طباعهم، ومن كانت تلك طباعة، رقت لغته، وعذبت لهجته، تلك الخصال تبرر هذه الرقة وتلك العذوبة. قلت: إن حاتماً من الشعراء المقلين، ولقد تقصيت في كتابي عنه ما نسب له ولغيره، وما نسب لغيره وهو له، وما نسب له وهو لغيره، واتضح أن خالص شعره لا يتجاوز بضع مئات من الأبيات، والملفت للنظر أن حاتماً حظي باهتمام الدارسين الأقدمين والنقاد المعاصرين، وطبع ديوانه عبر أكثر من عالم تراثي، وذلك الاهتمام مؤشر أهمية واهتمام، ومسرد نسخ الديوان المطبوع تجاوزت العشرة، وهو ما لم يتأتى لكثير من الشعراء الجاهليين، وأفضل التحقيقات والدراسات دراسة الدكتور [عادل جمال سليمان] وإن استدرك عليه علامة الجزيرة [حمد الجاسر] إلا أنه أثنى على جهده المتميز، واشتهار حاتم بالكرم، حمل الرواة إلى عزو المجهول من شعر الكرم إليه، وهم قد فعلوا مثل ذلك مع الشعراء المشهورين بالشجاعة أو بالغزل الكشوف. ولربما يكون الوحيد من بين شعراء الجاهلية الذين جاء الشك في بعض ما نسب إليه، وليس في أشعاره جميعها، ولأن حاتماً شاعر أصيل، وصاحبُ منهج شعري، فقد تعاقب النقاد على جعل شعره مقياساً لوصف بعض سمات الشعراء الشعرية. يقول حبيب: - [وكان أبو عمرو يشبه شعر النمر بن تولب بشعر حاتم] ولا يقاس على شعر ضعيف، أما عن رقة شعره فمرده إلى أن قبيلة طي قوية الصلة بالحواضر العربية في الشام والعراق، وقد أرجع علامة الجزيرة [حمد الجاسر] سهولة شعر حاتم إلى حضرية حاتم، فهو يسكن قرية ويستثمر نخلاً، ويخالط قوماً متحضرين، وإلى صلة قبيلة حاتم بالحواضر الشامية والعراقية، وقد أضفت إلى ملاحظة العلامة معرفة حاتم بالكتابة التي أشار إليها في بعض شعره، ولأن حاتماً فلاح كريم فإنه يقول:

إذا آزروا بالشوك أعجاز نخلهم

رأيت عذاقي بينها ماتؤزر

وإذا امتدت الأسطورة للصعاليك، فإنها قد امتدت إلى [حاتم] وهو حضري مزارع على علم بالكتابة، وقد يكون من أهل الكتاب كابنه [عدي] وقد أشار [النويهي] إلى أن الكثير من شعره موضوع، لتدعيم أسطورة الكرم عنده، الشيء الملفت للنظر أن شعره خال من اللهجة الطائية، وقد ناقش النقاد هذا الملحظ، وهم بصدد الرد على [طه حسين] .

وشعر الطائي الذي تنبه له المؤرخون الأقدمون والدارسون التراثيون، ينطوي على خصوصيات لغوية ودلالية وإشارات حضرية، تجعله استثناء بين لداته ومجايليه من الشعراء الجاهليين. والمقاييس التي اتخذها المستشرقون والمتشايلون معهم لهز الثقة بالشعر الجاهلي، قد لا يكون تطبيقها على شعره دقيقاً ولا أميناً ولا عادلاً، ذلك أن تعميق الرؤية في تاريخ "طي" وتلمس خصائصهم الاجتماعية تمنح شعر حاتم وثوقية لا يتوفر عليها غيره، وما لم يعطه الدارسون أهمية في تفكيك شعره تنصر ابنه [عدي] . فشعر حاتم حافل بالقيم الغيبية والإيمانية، وذلك معطى نصراني، وليس انتحالاً. فالجاهليون مشركون، وليسوا أهل كتاب، مع أن لـ[أمية بن أبي الصلت] شعراً إيمانياً يفوق إيمانيات حاتم، إن تنصر [عدي]، ورفضه عبادة الأوثان دليل على وجود خلفية ثقافية، تختلف عن ثقافة جاهلية الصحراء. ولو نظرنا في شعر [عدي بن زيد] شاعر الحيرة المشهور، ورفض اللغويين أو بعضهم الاحتجاج بشعره لاتضح أن الشعراء القريبين من الحواضر، يرق شعرهم، وتلين عريكتهم.

ما نتوقف عنده تلك القصص الخرافية التي يستحيل وقوعها، أو تلك الأبيات الشاردة التي تستحيل جاهليتها. ونحن فيما سوى ذلك أمام شاعر لا ينازع في شاعريته، وأمام كريم لا يدانى في كرمه، فلنطرح المبالغات والمنحول، ثم لْنقطع بما سوى ذلك، وأي حساسية حول التساؤل، ستحول دون الوصول إلى الحقائق الجلية.

تلك عودة عجلى، إلى مراتع حاتم حاولنا فيها التوفيق بين وجهات النظر، وتظل مصلحة الشاعر مرتهنة بمزيد من الاختلاف، فلينم حاتم الطائي قرير العين وليسهر الأدباء والنقاد حول مجمل قضاياه ويختصموا، وفي النهاية يجتمع الخصوم حول الحقائق.

الشباب والخطاب الأدبي المعاصر البعد النقدي .. ! (١)[1]

لم يكن في وسعي إضافة شيءٍ جديد إلى لجج النقد الحديث من خلال أبعاده: التنظيرية والتطبيقية والتاريخية، إلا حين أربطه بمرحلة تاريخية، أو بشريحة عمرية. فعندئذ ينحصر وفي كل جولة حول المفهوم أو المنهج أو الآلة، تتسع هُوَّةُ الخلاف. حتى يظن الراصدون كل الظن ألا تلاقيا، ويقيني أنه بالإمكان الجمع بين الفرقاء.

ولأن الاستهلال يتطلب التعريج على ذلك الحراك المستحر، ولاسيما أننا نلتمس تحرير ما نحن بصدده من المسائل النقدية وبخاصة مالها مساس بالشباب، المنبهر بثورة الاتصالات، وانفجار المعلومات، وتعدد المصطلحات.

فالخطاب النقدي الآني بوصفه يبارى الإبداعات الشعرية والسَّردية، كما تباري الخيل أعنتها، ويراوح بين أبعادها: اللغوية، والفنية، والدلالية، ويسير في ظلالها ملتمساً خصوصياتها ومعطياتها، فإنه يحمل ذات الأهمية التي يحملها النص، وهي الاستمالة والتوصيل والإقناع ثم الاحتواء.

ولأن الشباب شريحةٌ من الشرائح المستهدفة بالإبداع والنقد، فإن مقاربتها للنص بآلية النقد، تعطيها سمة متميزة عن بقية الشرائح والفئات والأطياف.

ومن البدهيات أن تختلف مقاربة (النص) بين شرائح الوسط النخبوي، وبالذات من حيث الفوارق العمرية، والتفاوت الزمني، أو التنوع في الاهتمامات، أو من حيث المضمرات الفكرية.

فالرواد الشيوخ.

والمؤسسون الكهول.

والمنطلقون الشباب.

لكل منهم شأنه ورؤيته وأهدافه. وإذ يكون الشباب في حقل الانطلاق فإن نبرة الجدل، وعنفوان الصراع سيكونان الأكثر احتداماً. فالشباب بطبعه توَّاق إلى التجديد، ميال إلى التجريب والمغامرة، ولقد يبلغ في بعض مجازفاته حد التخريب.

والحديث عن النقد متلبساً بشريحة من شرائح النقاد، يتطلب تصور الطرفين:-

-النقد.

-والشباب.

ذلك أن الحكم على الشيء فرع عن تصوره.

-فما النقد؟

-وما تحولاته؟

-ومن الناقد؟

أسئلة على الرغم من تقليديتها، إلا أنها تجر قدم المجيب إلى مزيد من التناوش مع المخالف، إذ لكل شريحة أو طيف مفهومها وتصورها، وبخاصة الشباب، بكل ما يحمله من احتدام في المشاعر، وتنكب عن ذكر العواقب، وتطلع إلى التجديد دون تروى أو مساءلة. ولسنا ضجرين من ذلك الاحتدام، متى استطاع الشباب التأسيس المعرفي لمنطلقاته، فنحن أحوج ما نكون إلى الحراك الموزون، الذي يقضي على العزلة، ويمكننا من المشاركة الفاعلة في الحضارة الإنسانية، التي نحن جزء منها. وإشكالية المصطلح تكمن في تعدد التعريفات، وتنوع المقتضيات، واختلاف الصيغ والتركيبات، وتناقض المترجمين والمعربين والناقلين في الصياغة والمفهوم. وجميل أن نتوقع الاختلاف، ثم

---

(١) تاريخ المقال: ٢٤/ ٤/ ٢٠١٢

نألفه، ونتعايشُ معه، وأجمل منه أن نحسن إدارته، ومن يتهيب بؤر التوتر، يعش أبد الدهر في الظل، لتضوى معارفه، وتضمحل مدركاته، ويتقلص دوره في تشكيل الحضارة الإنسانية المشتركة. ولقد تدلهم الأمور، وتستحكم حلقاتها، بعد [أدلجة الأدب] ونهوض النقد بهذه المهام الجسام، واصطراع الأطياف حول الأدب ونقده، لاحتوائهما لتنفيذ [أجندتهم] وخدمتها.

ولو ذهبنا نستعرض بالتفصيل بعض مناهج النقد على سبيل المثال، لوجدنا [المنهج التاريخي] المعتمد على الرواية والرصد محكوماً بالنوازع والمنازع، ومن ثم تتسرب إليه الدراية، وقد تحرف الكلم من بعد مواضعه، فمن ذا الذي يستطيع التخلص من نسقه الثقافي وانتماءاته الفكرية؟.

إذ كل محدد لمفاهيم المصطلحات ومقتضياتها، ينطلق من مهاده الفكري، ونسقه الثقافي. ولاسيما بعد أن استدبر الأدب مهمته الإمتاعية، وخلص للنفعية.

الشيء الوحيد الذي يفض النزاع، ويؤلف بين القلوب الإيمان بأن الصراع إكسير الحياة، ومتى امتلأنا بهذا الشعور، تعاذرنا، وتقاربنا، ورشدنا اختلافنا. إن صراع الأجيال جزء من هذا الصراع الأزلي، والشباب دائماً يبادرون الأزِمَّة والأزمات، ويخوضون بؤر التوتر، ذلك أنهم وقودها. وأزلية الصراع تجعل الشباب يتبادلون الراية، ويتناوبون على المهمات، ويجعلون الصراع جزءً من أولويات مهماتهم. وبهذه الروح المتوقدة والمتوترة كانوا مصدر الجدل ومورده.

والشباب الذين يقفون على مفترق الطرق، ثم لا يعتصمون بحبل المعرفة، ولا يأوون إلى جبل التجربة، يجرفهم طوفان المستجدات، ويصمهم صخب المناكفات، وتطوح بهم المغريات، بعيداً عن تحرير المسائل، وتأسيس المعارف، وتلاقح الحضارات. وأخطر شيء عند اللحظات الحاسمة استدبارهم حضارة الانتماء، وتهاونهم بمحققات حضارتهم.

وإذ أحبذ الاستشراف، واستقبال المستجد، فإنني أود التحصين بالمعرفة، والثبات على المبادئ، والخلوص من إقصاء الآخر، كما أفضل قصر الجدل حول القضايا، وتحييد الشخصيات. ذلك أن القضايا مَرْبط الاختلاف، وسيان عندي أن يكون المخالف متبحراً أو متسطحا، عالماً أو جاهلاً، مؤكداً انتماءه أو هائماً على وجهه، وكيف أبخع نفسي والرسول ﷺ المعصوم من الناس والمنصور من الله لا يهدي من أحب؟.

والمشاهد الفكرية والسياسية والأدبية بأمس الحاجة إلى إتقان إدارة الاختلاف ومحققات التبليغ بالتي هي أحسن، إذ كلما اشتغل المختصمون بالمناكفات والإقصاء، فوَّتوا علينا الفائدة المرجوة من الاختلاف المعتبر، الذي يدار بضوابطه وشروطه وآدابه. ولقد يكون الشبابُ بما هم عليه من حماس وإصرار أكثرَ المختلفين وقوعاً في المحاذير، وأي جدل لا تسوده المعرفة ولا تمده التجربة ولا يعطره قول المعروف، يكون ضرره أكثرَ من نفعه.

لقد شطت بنا التحفظات عن صلب الموضوع، وهو تحرير مفردات العنوان. وخلوصاً من الاستطرادات، نتساءل عن مفهوم النقد.

فما النقد إذاً؟

إنه بكل بساطه القراءةُ الواعية المتوسلة بالمناهج والقواعد والأصول والآليات، المدعومةُ بالخبرة والذائقة. إنه الاستيعاب الواعي، والتقويم السليم، والحكم العادل. إنه استنتاج الدلالة، إنه التفكيك والتأويل والتفاعل المتوازن مع معطيات النص ومقاصده والمقاربة الذكية. النقدُ في النهاية رديف الإبداعٌ، إذ لا إبداع بلا نقدٌ، ولا نقد بدون إبداع. فالمبدع حين يقرأ نصه، فيحدث عنده انطباعاً، يكون ناقداً، والناقدُ حين يبدع من خلال النصِّ نصاً، وينزح من جوف الدلالة دلالة، لا يقصدها المبدع، يكون ناقداً مبدعاً. غير أن

النقد بمفهومه الاصطلاحي، يتجاوز ذلك، إنه عمل منظم وقصدي، ولن ندخل في جدل النقد والإبداع. أيهما الأهم؟ وأيهما الأول؟ وأيهما الأجدى للمشهد؟ فالنص يكون متمنعاً، ويكون الناقد وسيطاً موصِّلاً، وشارحاً مبسطاً. ويكون حمالاً فيسبح الناقد في آفاقه، وعلى ضوء ذلك التحديد، لا يكون القارئ بذائقته وانطباعيته ناقداً، وقد لا يكون المؤرخ للأدب، وكاتبُ المختارات ناقدين. ولسنا بصدد فض التنازع بين الفرقاء، حول من يكون الناقد، فأصحاب الموسوعات والمختارات والمؤرخون للأدباء، قد لا يَتَفَسَّح لهم النقادُ المعياريون المنهجيون في سوح النقد. وسيان عندي الاتفاق حول مفهوم النقد، وتحديد الناقد، أو الاختلاف، فنحن بصدد الحديث عن دور الشباب في العمليات النقدية بمفهومها السائد، وحين لا يكون الجدل حول تلك المفاهيم، فإن استدعاءها من باب الربط والتمهيد، ليس غير.

الشباب والخطاب الأدبي المعاصر البُعد النَّقدي .. ! (٢)[(١)]

وحين يبطئ بنا الاستطرادُ عن تحديد تلك المفاهيم، ينتابنا تساؤل آخر، عن المقصود بالتحوُّلات النقدية، بوصف الشباب من المصطلين بجدلها، ومن المبادرين إليها، والمحتفين بها، على علم، وبغير علم، وبعقل متأنٍّ وبعاطفة جموح.

الشيء المتفق عليه أنّ الحياة بكل تشكلاتها في حراك مستمر، كما النهر الجاري، لا تستقر على حال، والذين يتردّدون في قبول التحوُّلات، يجدون أنفسهم في أُتونه عاجلاً، أو آجلاً، طوعاً أو كرهاً. إذ لا مكان للتردُّد، ولا للتحفُّظ، وشرط القبول والتسليم استيعاب المستجد، والتعرُّف على تفاصيله، قبل الدخول فيه. فنحن أمة لنا حضارتنا، وخصوصيتنا، شأننا شأن كل الحضارات. ونحن مطالبون بتمثُّل تلك الحضارة، وتكريسِ مبادئها، ومتى قضى الله ورسوله أمراً، فلا خيرة. غير أننا - وتحقيقاً لسنّة الصراع - لا نكاد نتفق على مقتضى الأمر، ولا على محققات القضاء. بحيث نجد أنفسنا مع التسليم لقضاء الله ورسوله في جدل متنامٍ، فالمحافظون والمقلِّدون والمجدِّدون يتسلّحون بنصٍّ تشريعي حمَّال، ثم لا يتفقون على مقتضاه، لأنّ كل فئة تقرؤه بطريقتها، وعلى ضوء نسقها الثقافي، وحتى القراءة [المحايثة] بوصفها قراءة للنص في ذاته، لا تسلم من نص مراوغ أو حمَّال. ولو أنّ كل الأطراف استوعبوا متطلّبات المرحلة، ومحققات الحضارة، وحتمية الاختلاف، لكانوا أكثر تعاذراً وتقارباً. وإشكالية الصراع أنّ بعض الأطراف تركنُ إلى الادعاء وحده، وحين يحتدم الخلاف، لا يذعن الجميع للمرجعية، إمعاناً في المكابرة.

لقد كانت لي إلمامات سابقة حول تحوُّلات [مركز الكون النقدي]، وليس هناك ما يمنع من الإشارة إليها، للوقوف على دور الشباب فيها.

فحين نقطع بأنّ [مركز الكون النقدي] مرَّ بثلاثة تحوُّلات رئيسة، أغنته ورفعت من وتيرة خطابه، فإننا نشير إلى تأثير التحوُّلات الحديثة في النقد الغربي على كل مسارات النقد العربي الحديث.

ولما كان جيلُ الانطلاق جيلاً شبابياً، كان بعضه منفتحاً على كافة المستجدات، متفاعلاً مع كل التيارات، متمكناً من الوصول إلى مصادر تلك التحوُّلات، عن طريق البعثات أو الترجمة. وإذ لا نعيب تواصل الحضارات، وتلاقحها، وتسديد بعضها لبعض على مختلف الصُّعد، فإننا لا نقبل التبعية، ولا الاندفاع غير المحسوب، ولا الانسلاخ ولا الانمساخ، كما لا نرضى النّيل من التراث ولا تهميشَه، وفرق كبير بين الرحيل به، والرحيل إليه، والانقطاع له، والانقطاع عنه. إنّ التجديد لا يعني نبذ القديم، ولكنه يعني إضافة ما هو بحاجة إليه. وإشكالية بعض الشباب الاهتياج الأعزل، والاندفاعُ الأرعن، ومع تلك الهنات المتوقعة، فإننا نجد التواصل مع المستجدات الغربية، قد أتت ببعض ما نرجوه، وحفزت حراس التراث على إعادة قراءته، وإبراز كوامنه، وإضافة ما هو بحاجة إليه. لقد سار التراث جنباً إلى جنب مع المستجدات، وتفاعل معها، ولقد يكون للنقد الأكاديمي قصبُ السبق في هذا المجال، فهو قد استحضر علم الآلة النقدية، كـ (البلاغة) و(النحو) و(الصرف) و(العروض) وسائر مناهج النقد القديم، بوصفها ضوابط تُمَعْيِر النقد العربي المعاصر، ليكون نداً للنقد المعياري الغربي، ولم يتردّد في اللحاق بما تيسّر من المستجدات، والأخذ منها بمقدار، وإن كان ثمة عتبٌ - وكنَّا من المعتبين - فهو مُنصَبٌّ على الذين غيّبوا المصطلح النقدي في التراث، وأحلوا مكانه ما جدَّ من مصطلحات نقدية،

---

(١) تاريخ المقال: ١/ ٥/ ٢٠١٢

قد يغني عنها ما سلف، وليس هناك ما يمنع من تمكين المصطلحات النقدية التراثية من الحضور والمشاطرة، فهي أولى بمشاهدها.

والشباب بوصفه متلقياً طيعاً للمستجدات، لم ينج من مُنازعة النقد المحافظ أو المجدّد بمقدار، وهو تنازعٌ يراوح بين الموضوعية والعاطفية، وأياً ما كان الأمر، فإنّ التحوُّلَ فرضَ نفسه، وأصبح من المسلّمات، ومقياس الوضع السليم ينطلق من التوازن والوسطية، إذْ لا عبرة بالشباب المندفعين، ولا بالكهول المنكفئين. إنّ هناك أكاديميين ونقاداً شباباً استطاعوا بموضوعيتهم وواقعيتهم، أن يوائموا بين التراث والمعاصرة، وأن يأخذوا من كل شيء بطرف. ومع هذا فالخلاف قائم، وسيظل. لأنّ الصراع عصب الحياة، وأزعم أنه في النهاية محسوب للمشهد الأدبي، وليس محسوباً عليه.

وعلى ضوء ذلك فإنّ أقصى ما نملكه توصيف تلك التحوُّلات على ما هي عليه، وإن أمكن تقويم المواقف، بما لا يصعّد الخلاف، كان أجدى وأهدى، وتوصيف تلك التحوُّلات تجعلها حاضرة المشهد، ومكملة للحديث عن الشباب وعلاقتهم بالنقد الحديث، بوصفه خطاباً قائماً ينتابه الشيوخ والكهول على حدٍّ سواء، وأملاً في أن يعيد الشباب حساباتهم إزاء المستجدات، ويرتبوا أوراقهم لمواجهة الطرفين: المحافظين الذين يرفضون كل جديد، والمجدّدين الذين يرفضون كل قديم.

بعد تلك المقدمة [الخلدونية] أشير إلى أنّ المستفيض في الوسط الأدبي تَنَقُّل [مركزِ الكون النقدي] بين:

-المبْدِع.

-والنص.

-والمتلقي.

وفي كل حقل تتجلّى المناهج والآليات التي تخدم المتمركز في هذا الكون، وتحقق وجوده، طاغياً على سائر الحقول المشاركة له.

لقد كان النقد من قبل مرتهناً لـ[لمبدع] دون غيره من أطراف العملية الإبداعية. بحيثُ تجلّى سلطانه، وانطلق الناقد منه، وعاد إليه، فكان المنهج التاريخي، والمنهج النفسي والمنهج الاجتماعي، وكافة الاهتمامات المتعلّقة بتجلية كل أشياء المبدع. حتى لقد غُيّب [النص] و[القارئ] معاً. وطغت كل محققات المنتج، فكأنّ الناقد والدارس موكلان بكتابة سيرته. واستمر ذلك الاهتمام طوال مرحلة الريادة النقدية، بوصفها امتداداً للحركة النقدية في مصر والشام والعراق، التي أعقبت حملة [نابليون] . وكل المستجدات داخل سلطان المبدع تكرّس وجوده، واستدعاؤها لمزيد العناية به، فـ[المنهج النفسي] مثلاً الذي تبنّاه [النويهي] و[العقاد] و[المنهج الاجتماعي] الذي تبنّاه [طه حسين] وحتى [لانْسُونية] [محمد مندور] جاءت كلها لتساعد على التماس حياة الشاعر من شعره. فهو إذاً جزء من الاهتمام بالمنتج. وروّاد النقد في المملكة ترسّموا خطى من سلف، ولم يضيفوا شيئاً، فكان [تاريخ الأدب الحديث] رصداً لمراحل حياة الأديب، وإن فرغ النقّاد شيئاً قليلاً للشرح، تحقيقاً لمهمة التوسُّط بين المنتج والمتلقّي، وتلك ممارسة ساذجة، لا تتجاوز تقريب الدلالة للمتلقّي، وإذا قيست بما يقال عن المنتج، لا تكون شيئاً مهماً.

ولما بدأت مرحلة التأسيس للحركة النقدية، كان الغرب قد نقل مركز الكون النقدي من [المنتج] إلى [النص]، فكان أن هُمش المنتجُ، وبلغ تهميشه حداً لا يحتمل، حيث كرَّسَ الإمعانَ في إقصائه مصطلحُ [موت المؤلف] ولكي يهيمن النص، جاءت المناهج اللغوية، كالنصوصية والأسلوبية والبنيوية والتحويلية والتفكيكية والقراءة [المُحَايِثة]، وبرزت أهمية اللغة بوصف النص كياناً لغوياً، ولقد مارس الشبابُ هذا الدورَ جنباً إلى جنب مع المؤسسين للحركة النقدية، وعماد التأسيس: المعرفيةُ والمعياريةُ، وتحريرُ المصطلحات،

والحدُّ من الانطباعية والذوقية. وفي ظل الاهتمام بالمعيارية والشكلانية، فَقَدَ النقدُ شيئاً من فنيته، بوصف الناقد رديف المبدع، وحين اختفى المنهج النفسي، حلّ مكانه المنهج الجمالي، وسائرُ النظريات الجمالية، و[المنهج الثقافي] ومناهج أخرى، لم تَرْقَ إلى حد الظواهر، لأنها أكثر لصوقاً بالنص، وأقدر على تكريسه وانديـاحه، ولم يتلبث [مركز الكون النقدي] في رحاب النص، بل تخطّاه إلى [المتلقي] الذي أصبح سيد الموقف، غير أنّ الناقد، وهو يلغي سلطة المبدع والنص، توسّل ببعض المناهج اللغوية، لتمكنه من التفكيك والتأويل، وتحقيق رغبة المتلقي في إنتاج الدلالة التي يتطلّع إليها، وتبع ذلك ظهور مصطلحات واختفاء أخرى، فيما تهافت المنظّرون على الدفع بنظريات هلامية، تصب في مصلحة القارئ، وتلغي المنتج، وتهمش النص بوصفه رسالة، وتحويله إلى مجرّد مثير، لإنشاء دلالات لم تخطر على بال المبدع، وقد لا يحتملها النص. وهذا من باب التحريف الذي أشار إليه الذِّكر الحكيم. والنص بوصفه رسالة المنتج إلى المتلقي، وبوصفه كياناً لغوياً، أصبحت السيطرة عليه من خلال المناهج اللغوية الجديدة كـ [علم الدلالة]، ومن ثم كان سلطان المتلقي امتداداً لسلطان النص، والفاصل بين السلطتين: سلطةِ النص وسلطةِ المتلقي، تكمن في المقاصد والغايات، وهي في النهاية من المضمرات المخبوءة، ولا تتميّز إلاّ من خلال مآلات القراءة وأهدافها. وأياً ما كان الأمر فإنّ للشباب دورَهم الأهمَّ في تلك المهايع، وكل الذي نتطلّع إليه أن يكونوا في ظل هذه التحوّلات واعين لمهماتهم، مدركين لأبعاد المناهج والمصطلحات، متفاعلين معها بوعي، مسيطرين عليها باقتدار. ولكيلا نؤخذ على غرّة، فإنّ علينا أن ندرك الظروف والحواضن التي أنتجت تلك المذاهب، وتلك المناهج. فـ [التفكيكية] التي تلقّيناها بالقبول، نشأتفي ظروف مشابهة لظروف [التأويلية] التي نشأت في التراث. لقد وجد العقل المتعالي نفسه محرجاً أمام النص المقدس بكل قطعياته، فهو لا يقدر على إجهاضه لِيُمضي رؤيته، ومن ثم توسل بالتأويلية ليجهض قطعية الدلالة والثبوت، مع الاحتفاظ بقدسية النص، على حَدِّ زعم المعتزلة والفلاسفة والباطنية. وكذلك [التفكيكية] حملت ذات الهم أمام النص [التوراتي]، فهي لكي تنشئ دلالة مغايرة، توسّلت بهذا المنهج التفكيكي. وعلى ناشئة الأمة أن يضعوا في اعتبارهم محققات حضارة الانتماء، وهم يستقبلون المستجدات النقدية، فالاستقبال الواعي، والتفاعل الإيجابي من مقوّمات الحضارة الواعية لمهماتها في الحياة. الشيء المغيّب تراثنا النقدي، بكل غناه، وتنوُّع آلياته ومناهجه، والعيب المجهول العجز عن السيطرة على محدثات المناهج والآليات، والتعالق معها دون استيعاب، ودون فهم، ودون سيطرة. ومعتصر المختصر تمكين التراث النقدي من الحضور بنديَّة وتكافؤ، واختراق أجواء الآخر به، وتصوّره على ما هو عليه، وتوطين النفس على أنّ الحضارات تتقارب، وتتفاعل، وتتبادل المعلومات والآليات والمناهج، وفي النهاية ليس هناك نص بريء، ولا حضارة بريئة، والحضارات والديانات تُتَمِّم بعضها، وكلٌّ يؤخذ من قوله ويترك، إلاّ من لا ينطق عن الهوى.

هل تأرزُ اللغةُ إلى جُحْرِها .. !؟[1]

شَرُفْت بحضور فعاليتين فاعلتين، لخدمة اللغة العربية والذّود عن حياضها، والسعي بحاجاتها:

-فعالية الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

-وفعالية مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدُّولي لخدمة اللغة العربية.

اشتركت في الفعالية الأولى بإدارة جلسة من جلساتها الساخنة وداخلت في الثانية على عجل. ولما لم تكن إسهاماتي من الوزن الثقيل، فقد اطَّرَحْتُها، وصرفت النظر عن استدعائها. ويمّمت شطر الفعاليات التي أدارها المشاركون ممن يحملون الهَمَّ، ويتوفّرون على المعرفة، ويستبطنون الخبرة، ويشتملون على النوايا الحسنة. والفعاليتان تمخّضتا عن أعمال وتوصيات ووعود مبهجةٍ، لو تحقق شطرٌ منها، لانتعشت اللغة التي تتعرّض كلَّ يوم على مدارجها لمزالقَ، تدنيها من الهلكة بغير أناة، كما يقول الناطق بلسانها (حافظ إبراهيم).

ما أريد تحييده قبل البدء، الفهم الخاطئ، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

فالفهم الدارج على الألسنة أنّ هذا الوعد المؤكد بالنون واللام المزحلقة، تطمين للأمّة العربية، وإنابة عنها في حفظ اللغة في أرضهم وعلى ألسنتهم. وما هو كذلك، بل أكاد أجزم بأنّ هذا النص الجلي تحذير، وتخويف من التفريط في جنب اللغة. حتى لقد نبّه العليم الخبير رسوله وعشيرته الأقربين بقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ والسؤال عن إضاعة القرآن إضاعة مزدوجة: إضاعة حروفه والتفريط بحدوده. فالحفظ إذاً للغة، وليس لألسنتنا. فنحن نتكلّم العامية، ونتعلّم العربية من خلال نحوها وصرفها وتراكيبها ودلالاتها، ثم لا نقدر على استعمالها في مخاطباتنا، وإن استعملها بعض العلماء في مؤلّفاتهم وقليل من المبدعين في إبداعاتهم. ثم إنّ الاحتجاج باللغة توقَّف منذ القرن الثاني، وسُمِّي من جاء من الشعراء بعد ذلك بـ(المولّدين). ومتى أوغلنا في العامية - ونحن موغلون ولاشك - حُرمنا من عوائد هذا الحفظ، وليس أدلّ على ذلك من تلقينا تجويد القرآن على مُقْرئين أعاجم، إذ ما كان (النجديون) يجوِّدون تلاوة القرآن على وجهها، ولا يعرفون القراءات. وبعد أن أفاء الله على البلاد بالأمن والرخاء، أحَسَّ الخيّرون بحاجتهم إلى إشاعة تجويد القرآن وقراءاته قراءة مرتّلة، ومن ثم أُنْشِئت جمعيات تحفيظ القرآن، للتوفّر على مقرئين مجوِّدين، فكان أن استُقْدم الأعاجم لتدريس أبناء العرب. وهذا تبيان لوعد الله بحفظ القرآن، إذ ليس شرطاً أن يكون الحفظ في صدور من ينتمون إلى العربية وعَبْر ألسنتهم، لقد كنَّا في الكتاتيب نقرأ القرآن هذرمة غير مجوّدة على معلمين، يحفظون القرآن، ويقيمون حدوده، ولكنهم لا يقيمون حروفه. والاسترخاء على هذا الفهم الخاطئ لآية الحفظ مدعاة إلى خُروجِنا من دائرة اللغة العربية، وتحوّلنا بلهجاتنا وعامياتنا إلى أمم غير عربية، كالهنود والباكستانيين. ذلك أنّ من نطق العربية فهو عربي. فهل أحد منا يفهم الشعر الجاهلي، ويتذوّقه، ويحذو حذوه في التعبير عن حاجاته ومعاناته؟ لقد ابتدر الراية الشعرُ العامي، ووجد من يعزّزه ويشيعه، وذلك مكمن

---

(١) تاريخ المقال: ٢٢/ ٥/ ٢٠١٢

الخطورة. إنّ علينا أن نصحِّح فهمنا، ونحفظ لغتنا، ونزداد تمسُّكاً بها، ليشملنا الوعد بالحفظ.

ثم أما بعد: فإنّ هاتين المناسبتين - وإنْ عبّرتا المشهد بدون ضجيج - سيكون لهما بعض الأثر الحميد، فحمل الْهَمِّ والشعورِ بالتقصيرِ بدايةُ التفكير السليم، لتلافي ما يمكن تلافيه من رسيس الفصيح.

وللغة العربية وإنْ حَمَل همّها مؤسسات وجامعات ومجامع فإنها محاصرة في عُقْرِ دارها. ويكفي استعراض بكائيات الشعراء الذين أدركوا ضعفها، وهوانها، وقلّة حيلتها، وطغيان العاميّات واللغات الأعجمية. والمواقف المتخاذلة ضيّقت عليها الخناق، وحرمتها من الحضور الكريم، ولما تزل الجهات المعنية تراوح في مكانها، وممارساتها لا تحمل على التفاؤل، لأنها لم تحقق أيّ تقدم، ولم تدفع أية غائلة. ذلك أنّ المدارس والجامعات تدرِّس قواعد اللغة ولا تدرسها، وكلما زادت الساعات، وتحرّفت للمناهج والمواد، زادت العامية، وطغت اللغات الأجنبية. وانتشار اللغات إنما يكون بالممارسات، وبالحضور الفعلي في المؤسسات، وهو ما لم يتحقق للغة العربية.

هذه التردِّيات المتلاحقة، حفزت القطاعات التربوية والأدبية والإعلامية على التماس أطواق النجاة، إذ ما عاد الوضع مُحْتمِلاً لمزيد من التردِّيات. والمؤسف أنّ الخطط والمناهج، لم تضف شيئاً، ولم توقف التدهور. فاللغة اليوم كقبور الأولياء، يمر بها الخرافيون ساعة من نهار، ليتمتموا بتعاويذ ببغائية، ثم يولّون الأدبار، عائدين إلى عوائدهم القديمة، يتكلمون العامية، ويديرون أعمالهم باللغات الأجنبية، وتلك حال مؤسسات اللغة. فالمشهد العملي قسمة بين العامية واللغات الأجنبية. واللغة الفصحى حبيسة الكتب التراثية، والذين يلمون بها، لا يلمون سليقة، وإنما يلوكون ألسنتهم، ويتكلّفون تصيد شواردها.

ما قلته عين الحقيقة، بل هو بعض ما علمت، وليس لقولي هذا هدف إحباطي، ولا رغبة تيئيسية، ولكن البدء بأيّ مشروع دون تصوُّر دقيق لما هو عليه، يبعث على الاسترخاء، وترك الأشياء تجري، كما لو كانت آمنة مطمئنة.

ومتى أخذ المؤتمرون حذرهم، وأعدّوا عدّتهم، وتصوّروا واقعهم، حصّنوا فعلهم من المتربصين الذين يبحثون عن الثغور المهملة.

واللغة العربية لم تَعُد عرضاً زائلاً، إنها قضية الأمّة منذ (أبي الأسود الدؤلي) و(سيبويه) وأساطين اللغة الذين ذبّوا عن حياضها، وجنّدوا إمكانياتهم لصيانتها وحمايتها، فما لانت قناتها، وما وهنت عزائمها إلى يومنا هذا، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. واليوم لا نملك إلاّ التباكي والتحسُّر، والخروج من مؤتمر والشروع في آخر.

عدت من الجامعة الإسلامية بتسعة مجلدات أَعِدُ نفسي وأمنيها بقراءة متأنّية، وتصوُّر سليم، لِما يساور المشاركين من خوف، وما يحدوهم من أمل.

وعدت من مركز الملك عبد الله بشحنة عاطفية، وتطلُّع واله، وأمل باسم. انفضّ سامر الجامعة، وراح المعنيّون يبحثون عن قضية أخرى، لا تتعلق باللغة.

وانفض سامر المركز، وعاد المعنيّون يفكرون بذات اللغة، ويعدّون العدّة لجولة أخرى في صميمها. ولم يَعُد مركز الملك عبد الله وحده الذي يحمل همّ اللغة، ولكنه حلقة في سلسلة طويلة، مجاورة لسلاسل أخرى. ولعلّ ما ينفرد به الخروج على النمطية، وتوفر الإمكانيات والخبرات، والتفكير بالبدء من حيث انتهى الآخرون، ولما تزل تساورني الرغبة الملحّة في أن يرى (المجمع اللغوي) في المملكة النور، كي يمارس مهماته جنباً إلى جنب مع المركز، ومع سائر المجامع العربية، وكافة المؤسسات والجامعات التي تعمل في خدمة اللغة، وما نعقده من آمال على المركز، لا يمنع من أن

تُعْقد آمالٌ مماثلة على المجمع المرتقب، وسيجد المجمع كما وجد المركز مجالات عدّة للممارسة والأداء، فاللغة بأمسِّ الحاجة إلى تحرف أبنائها القادرين على إقالة عثرتها. وإذا كنا في المملكة أحسن حالاً من غيرنا، فإنّ هذا لا يمنع من استغلال تلك الإمكانيات، وبذل مزيد من الجهود، لإشعار الأمة العربية بخطورة الموقف، إذ لو عدنا إلى الإحصائيات ولغة الأرقام لهالنا الوضع، وأيقنا بأن اللغة كما وصفها الشاعر (حافظ إبراهيم) تعاني من عقوق أبنائها، وإيغال أعدائها في النَّيل منها.

ومركز الملك عبد الله بكل ما يتوفّر عليه من إمكانيات، وما يضمه من كفاءات، وما يضمره من مقاصد حسنه، جدير بأن يتلقى الراية، وأن يتخذ طريقاً قاصداً لمعالجة أوضاع اللغة، وتمكينها من الحضور الفعلي والفاعل. ولعلّ أولى الخطوات مواجهة الشارع الذي تُجَسِّد شواهده وممارساته أبشع صور العقوق. فالمحلات والمطاعم والمؤسسات كافة لغاتها قسمة بين العاميّات واللغات الأعجمية، فالعامة لا تملك إلا عاميتها، والخاصة تباهي بإدارة شؤونها باللغة الأجنبية. والعربية قابعة في بطون الكتب وأروقة المؤسسات المعنية، وكأنه محرّم عليها أن تتخطى إلى الألسنة والشواخص والمحلات. و(الحلقة النقاشية) التي نفّذها المركز، ارتفعت فيها نبرة الحجاج والتساؤل والتطلُّع، وأثبتت استياء العلماء والمهتمين، وكشفت عن مضمرات تدل على أنّ بالإمكان التحرف لعمل يقيل العثرة، ويعيد بعض الحق.

ومجلس الأمناء ومن حولهم من أمين ومستشارين ومتعاونين ومؤتمرين، لديهم تصوُّرات سليمة، ومشاريع قيّمة، وطموحات تبعث على الأمل. لقد خرجوا من تلك الحلقة بحزمة من الآراء والتصوُّرات، ووعودهم تبشِّر بخير، وثقتهم تبعث على الاطمئنان، وإمكانياتهم المادية والبشرية من المبشرات. والأمل معقود على ما ستتمخّض عنه تلك الحلقة الصاخبة، وليس لديّ مزيد من الآراء، فقد مارس المشاركون حقهم في الجلسات، وسجلت آراؤهم وتطلُّعاتهم وتساؤلاتهم، وهم على وعد بالإفراغ والتصنيف للمتداول من الآراء. كل ذلك يحملنا على الترقُّب والانتظار. ومبادرة الملك عبد الله، لم تنطلق من فراغ، ولن تنتهي إلى فراغ. لقد ضم المركز نخبة من المتخصصين والعاملين المخلصين، وهيئت له أجواء ملائمة للمارسة الحضارية، ولم يبق إلاّ أن ترتب الأمور على ضوء نتائج تلك (الحلقة النقاشية) التي استُقْطِب لها عشرات المحاضرين والمعقبين، ومئات المداخلين، وضبطت بالصوت والصورة. والمشاركون نَسَلوا من كل حدب وصوب، فلم تَعُد المشاكل مناطقية، بل شملت كافة أرجاء الوطن العربي، وذلك سر نجاح المركز، ومشروعية التفاؤل في الزمن العصيب.

ولم يبق إلاّ الشكر والدعاء.

الشكر للجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، التي وثَّقت أعمالها في تسعة مجلدات، ستكون في أيدي أصحاب القرار. والدعاء لمركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدُّولي لخدمة اللغة العربية، ليكون في مستوى تطلُّع المنشئ، بحيث يحقق نتائج إيجابية، تمكِّن اللغة العربية من استعادة عافيتها، وانتقالها من محابسها إلى ألسنة الأمة العربية، لغة كتابة وتخاطب. وما لم تَعُد اللغة إلى حقول الممارسة فإنّ مختلف الجهود ستكون هباءً، وتكون سدى.

ويبقى الود ما بقي العتاب .. ![1]

قرار حاسم.. وتصرُّف حكيم. قرار خادم الحرمين الشريفين باستدعاء السفير، قرار وقائي. وتصرّف الصفوة من أبناء مصر، تصرف احتوائي. عملان نبيلان، خَفَتَ معهما فحيح الأفاعي، وانقطع بهما دابر المتآمرين.

هناك متفائلون يحسنون الظن، ومتشائمون يجهضون الآمال، ولكل قناعة حيثياتها، وتظل كل التوقعات محتملة الوقوع. ولكن العاقبة في النهاية للمصداقية والمبدئية والموقفية.

من قبل هذا التحرُّف المرتقب، وفي أوج التصعيد الإعلامي المغرض، فرَغْتُ ساعة من نهار، للركض في فيافي المواقع العربية، عبر الشبكة العنكبوتية، من صحف ومجلات، وقنوات مسيَّسة أو "مؤدلجة" أو مأجورة. وفؤادي كفؤاد (أم موسى)، وحزني كحزن (يعقوب)، وخوفي كخوف (الكليم).

وما كنت حفياً هذه الأيام بتقلّبات الطقس العربي، ولا متفائلاً بمستقبل سعيد في ظل تلك التداعيات غير المسؤولة، والتدخلات غير المقبولة.

والمتابع للتاريخ العربي الحديث، في جزره ومدِّه، منذ أن احترف (العسكر) السياسة، وأديرت شؤون الأمة من جوف دبَّابة أو من قعر ثكنة تمتلئ أوعية مشاعره بما لا يسر. وكلمات المجاملة والإطلاقات العاطفية، لا تملأ البطون الجائعة، ولا تثبت الأفئدة الفارغة. والمؤسف حقاً ما يثار بين الحين والآخر من إشاعات كاذبة، يتلقّاها إعلاميون ماهرون بلدد الخصام، ثم يكونون معها كمسترقي السمع، افتراء ومبالغة، كي تهيج الرأي العام، وتحمل السَّماعين على ممارسات همجية. تعكِّر الصفو، وتوهن العزمات، وتفوّت الفرص. والرعاع على ما هم عليه من سلبية وبدائية وهمجية، يمارسون غوغائيتهم باسم الحرية والمواطنة، ولا يخادعون إلاّ أنفسهم.

أنْ تحافظ الدولةُ على حقوق رعاياها المغتربين عبر القنوات الرسمية، فذلك حقٌّ مشروع، وواجبٌ وطني. وأنْ تخشى الحيف على المذنبين من أبنائها المهاجرين، فتلك طبيعة إنسانية، لا ينفك منها أحد. وأنْ تطلب مؤسسات الدولة المعنيّة حضور مندوبيها جلسات المحاكمة، أو تجنيد المحامين للمرافعة والدفاع عمن أذنبوا من رعاياها خارج وطنهم، فذلك عين الصواب، وأدنى حقوق الأبناء على سلطاتهم. إلى هذا الحد لم يكن في الأمر ما يستدعي الارتياب وردّ الفعل المناسب. لكن الأمر مختلف جداً. و(مصر) التي نُعُدّها عيبة الأمة العربية، وعمقها (الإستراتيجي) والبشري والحضاري، يسوؤنا أن يمسّها طائف من الفوضوية، أو أن يخطفها حزب أو طائفة، أو أن تظلّ مرتهنة لما يشبه الفراغ الدستوري. لقد أنجز الشعب المصري أفضل مشروع سياسي، وأشْرفَ تحركٍ وطني، لتصحيح الأوضاع، وتحقيق الحرية، وإقصاء حكم الفرد، وإجهاض سلطة الحاشية، والحد من ممارسة القمع، وعزل الرأي العام عن تقرير مصيره بنفسه. ولقد كنا نود بعد هذا الإنجاز الحضاري أن تدخل الجماهير مساكنها، وأن تراقب التحرُّك المرحلي للمجلس العسكري، وأن تستحثّ المؤسسات المؤقتة، لاستكمال متطلّبات الحكم المدني المعروفة خطواته. إذ ليس من مصلحة الأمة أن يبقى الشارع مصدر السلطات، وأن تظل قابلية الاختراق قائمة. لقد عبّرت الأمة من خلال التدفّق الجماهيري عن همومها وتطلُّعاتها، وأسقطت النظام بحسناته وسيئاته، وأتاحت الفرصة لنشوء نظام منتخب. وما لم تَعُد الجماهير إلى مدرجات الرصد والمراقبة، وتدع الفرصة للمؤسسات النيابية، لوضع

---

(١) تاريخ المقال: ٨/ ٥/ ٢٠١٢

الآليات الكفيلة بتحقيق العدالة والمساواة، وتكافؤ الفرص، وتداول السلطة، وفرض إرادة الأمة، فإنّ الفوضى ستسود، ومن ثم تحول دون استتباب الأمن وممارسة العمل السياسي و(الدبلوماسي) على وجهه، وتبادل المصالح مع دول العالم. ذلك الحراك الفوضوي، وغير المسؤول ما نشاهده، ونستاء منه، ويصيبنا شيء من دخنه. فمصر أغلى من أن نتخلّى عنها في ساعة العسرة، وأهم من أن نأخذها بما فعل السفهاء منها وفيها. غير أنّ تكرُّر المحاولات الاستفزازية، لا يمكن احتمالها، ولا الصبر عليها.

وفي ظل ما حصل من مقترفات، تعرّضت لها سفارة المملكة وقنصلياتها في بلد نعيش معه الخلطة، وتتقوّى بيننا وبينه العلاقات، وتتعدّد مجالات المصالح المشتركة، اتخذ خادم الحرمين الشريفين قراره الفوري والحكيم، لإيقاف التدهور، وقطع الطريق أمام اللعب القذرة. ورهان الزمن أنّ ريح الأمة العربية مرتهنة لما بين البلدين من علاقات متعدّدة الفوائد والعوائد، لهما، وللأمة العربية. هذه الحوادث التي تتكرّر، ويسعى لإضرامها إعلاميون نفعيّون، لا يبالون بأي وادٍ هلكت أمتهم، ولا في أي فضاء ذهبت ريحها، لا يمكن القبول بها، ولا احتمالها، ولا تمريرها على مبدأ (عفا الله عمّا سلف)، إذ لابد من محاسبة الفاعل، ومساءلة المُغْوِي والمغرِّر، وإشعار الفارغين والمزايدين بأنّ العدالة بالمرصاد، لكلِّ من استخفّ بمقدرات الشعب، وحرض على الفتنة، وعرَّى سوءة أمّته، وعرضها للنقد والمساءلة، وألجأها إلى الاعتذار والاسترضاء.

هذه الزوابع المعهودة والمتوقّعة من أعداء الأمّة المندسِّين وسط الرأي العام المحتقن، لا يمكن قطع دابرها بالعفو والصّفح، فاللئيم لا يأطره على الحق إلاّ القرع بالدرة، والحر وحده الذي تكفيه الإشارة. لقد تجاوزت المملكة تجنّيات وتعدِّيات، أحسبها كافية لمراجعة النفس، وكم تفاجأ بين الحين والآخر بجنايات مماثلة، هنا وهناك، ومن شرائح ليست مهمة، وليست عاقلة، وهي لا تفهم، ولا ترعوي إلاّ بلغة السوط وحده، بمعزل عن (الجزرة)، ولابد والحالة تلك، من تعقُّب المسيئين ووضعهم في القائمة السوداء، بحيث يطال هذا الصنف الحرمان من أي فرصة تتاح لغيره، وما أكثر الفرص الإيجابية التي تتاح لهذا النوع من الإعلاميين المحرّضين على الفتنة، كنوع من العلاج، وعادة اللئيم أن يتمرّد مع الإكرام، والكريم وحده الذي تملكه بالإكرام: (وما قتل الأحرار كالعفو عنهمُ). وهاهي الصّفوة من أبناء مصر الذين قَدِموا بقضّهم وقضيضهم، لإثبات الوفاء بالعهد والوعد، والعرفان بالجميل، ولقد قُوبلوا بما هم أهلٌ له.

من المؤكد أن تكتب مقالات متفاوتة: قوّة وضعفاً، وأن تقدّم برامجُ تبريرية أو انتقادية أو تحريضية، وسيختلف الناس حول مستوى المواجهة وأسلوب الحلِّ، فالإعلام الكسبي يبحث عن مادة مثيرة. وليس مهماً ما يكون بعد هذه التظاهرة الحميدة التي قطعت قول كلِّ خطيب. الشيء الأصعب أن يقف المسكونُ بهم أمّته بين خيارين أحلاهما مرٌّ: فإما أن يصر على مواجهة التحدّي بتحدٍّ أقوى منه، والمملكة تمتلك هذا الخيار، ومن حقها بمنطق العقل ووحي الضمير أن تمارسه، بوصف ذلك واحدة بواحدة، والبادي أظلم. وذلك من باب الذّود عن حياض كرامتها:-

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه

يُهدم ومن لا يتق الشتم يشتم

وإما أن تعفو عما سلف، بدوافع إنسانية، وتحت وطأة الظروف التي لا تحتمل مزيداً من الإرهاق للواقع المصري المأزوم، وتقديراً لهذه النخبة العاقلة التي تمثل كل الأطياف، والتي جاءت بمحض إرادتها. هذان الخياران: خيار المعاقبة بمثل ما عوقب به المرء، أو

العفو المدفوع بالحب والتقدير، من أصعب الخيارات، وأقساها على نفس المواطن الذي يشعر بأهمية كرامته، وأهمية معاناة الطرف الآخر، بوصفه أخاً له مكانته وحقه.

وخادم الحرمين الذي بادر بتطييب خواطر القادمين بدافع المحبة، لا يمكن أن يصفح عما بدر، إذ على الجهات الأمنية في مصر أن تلاحق تلك الخلايا، وأن تعرف الأصابع القذرة التي تحركها في الخفاء، لتفسد ما بين البلدين الهامين في المنطقة، ثم إن على الجهات الأمنية في المملكة أن توقع أشدّ العقوبات على المستخفّين بأمن البلاد وأنظمتها، وسلامة المواطنين، فما بعد تهريب المخدرات من ذنب. وفي النهاية (لا تزر وازرة وزر أخرى) فالشعب المصري والحكومة المصرية أحقّ بالإكرام ورأب الصدع. وواجب الأطراف كلها الاحترام المتبادل للسيادة والقبول الطوعي لأنظمة الدولة المضيفة وقوانينها، والثقة بعدالتها، وتقدير حسن تعاملها. لقد أحرج الغوغائيون دولتهم، وأشمتوا بها أعداءها، في وقت هي أحوج ما تكون إلى الهدوء والسكينة وشدّ الأزر، ومن مصلحة مصر قبل مصلحة المملكة تعقُّب تلك الفئات المأجورة، وأخذها بعزّة واقتدار (ومَنْ أمِنَ العقاب أساءَ الأدب).

كم كلمة قالت لصاحبها دعني .. ؟[1]

لم يكن باستطاعة رجل مثلي، خبر وقع الكلام أن يتجاوز قدره، في القول أو في الفعل، ولا أن يحمل نفسه فوق طاقتها معتدياً بالمثل على المعتدي أو مجازياً سيئة بمثلها. غير أن خطلل القول وتلاحق الإخفاقات تنسي المصطلي بحرها لحظات التقدير والتدبير، فيقع في المحذور...

...أو يجاري في مثل ذلك العوار، ولما كان الخطأ من ذرية العمل، وأن من لا يعمل لا يخطئ، ومن لا يملك شيئاً لا يضيع له شيء، كان ترويض النفس على التعايش مع خطل القول وناقص الفعل العارضين ممن لا يصرون على الحنث العظيم، ولا يكابرون، ولاتأخذهم العزة بالإثم، حين يحاسبون أو يساءلون من الخصال الحميدة التي يندر وجودها في زمن التوتر والإحتقان وسوء الظن والأخذ بالسرائر والمضمرات، وكيف يسوغ مخلوق ضعيف لنفسه أن يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، أو أن يبلو السرائر، ويأخذ الناس بنواياهم التي لا يعلمها إلا الله، ومن عايش الكتاب وتابع المتحدثين في جدهم وهزلهم واندفاعهم وترويّهم يصطدم بأقوال غير سديدة وكلمات غير رشيدة، وفي البدء تكون الكلمة، لأنها تحرض على القتال المشروع وغير المشروع، فضلاً عن التنابز بالألقاب.

والعقلاء هم الذين يدرؤون عن أنفسهم عثرات الأقلام وحصائد الألسنة، فالكلمة حين تنطلق لا يمكن اللحاق بها، ودسها في التراب أو الإمساك بها على هون، (وكم من كلمة قالت لصاحبها دعني) بـ (تكلم حتى أراك)، فالمتكلم بما يقول والكاتب بما يحبر يكشف كل واحد منهم عن خبيئة نفسه، ويعرض عقله على العقول، وكتب المواعظ والأخلاق زاخرة بفضائل الصمت والتحذر من حصائد الألسن.

ولقد يحلو للمبتدئين والأضوائيين اختيار الكلمات الصارخة والعبارات المستفزة، والطبل الأخوف هو الأندى صوتاً، وإذا صدمت بكلمات نابية أو مثيرة فاعلم أن وراءها أناساً فارغين تصوح نبت المعرفة في أدمغتهم وتصرمت ظلال الحكمة في صدورهم وفي الأثر: -(وكل ميسر لما خلق له) كما أن (حب الأذية من طباع العقرب)، والذين زلت بهم الأقلام أو ندت بهم الألسن، ثم تبين لهم أنهم ليسوا على حق، فبادروا إلى الاعتراف أو الاعتذار فإن على المتأذي القبول والصفح، والله يقبل التوبة عن عبادة، بل يبدل السيئات حسنات، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، والذين اعتمدوا الإثارة طريقاً للشهرة واستخفوا بما ينال سمعتهم وأهليتهم يسيئون إلى سمعة النخب الذين يدعون الانتماء إليهم، وكم يمر المتابع بإطلاقات هوجاء، لا تليق بمثلهم، ولاسيما أن الواقع الفكري بوصفه زعيماً غارماً للواقع السياسي، لا يحتمل الصدمات القوية التي تصدع أركانه وتهدم بنيانه، ومن ذا الذي يحتمل ثورة الرأي العام وسلق ألسنتهم.

لقد استمرأ كثير من الناس الجرأة على الدين والرسول، بل تجاوز ذلك إلى الذات الإلهية، ومثل هذه التجاوزات تصدع وحدة الأمة الفكرية، وتنشئ الضغائن والأحقاد وتوقظ الفتن النائمة، ولو أن هذا الصنف من الناس قدروا الله حق قدره، وعرفوا حق عقيدتهم وثوابت دينهم ونواقض إيمانهم وحق وطنهم ومواطنيهم لما كان منهم مثل هذه التجاوزات التي تضطرهم إلى التسلل لواذاً ومحاولة سحب مقالاتهم من التداول، والكلمة السيئة تشيع كما الرائحة الكريهة، ومن الصعوبة بمكان تفادي آثارها:-

قد قيل ما قبل إن صدقاً وإن كذباً

---

(١) تاريخ المقال: ١١/ ١٠/ ٢٠١١

فمـــا اعتـــذارك عـــن قـــول إذا قيـــل

والحكماء تقول: - إن محاولة إعادة الكلمة إلى مصدرها كمحاولة إعادة الحليب إلى ضرعه.

فليتق الله هؤلاء، وليقدروا الله حق قدره وليحترموا مشاعر المواطنين وثوابت الأمة، ولينقبوا في البلاد عن قضايا يعود نفعها إلى وطنهم الذي علمهم الرماية ونظم القوافي، وليحذروا أن يكونوا كمن عناهم الشاعر بقوله:-

أعلمـــــه الرمايـــــة كـــل يـــــوم

فلمــــا اشـــتد ســـاعده رمـــاني

وكـــم علمتـــه نظــــم القـــوافي

فلمــــا قــــال قافيـــة هجـــاني

والذين يستزلهم شيطان الشهرة وشهوة الأضواء، ينكبون عن ذكر العواقب الوخيمة جانباً، وفي الحديث الصحيح:- «**ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت**» وهل من الخير شطح الكلام وشاذ الآراء وجور الأحكام، على حين أنه لا يترتب على ذلك الخطل تصحيح أخطاء ولا إقالة عثرة ولا نصرة مظلوم، وإذا كان الصمت عن فضول القول محمدة، فإن إغثاء النفوس برديء الكلام مذمة وقديماً قيل: - (إذا كان الكلام من فضة فإن الصمت من ذهب)، وإذا كنا نؤاخذ المتجرئين على الثابت والمقدس والسائد فإننا في الوقت نفسه لا نود التوتر واحتدام المشاعر ونسف جسور التواصل، ومادام في الوقت متسع للحوار وإرشاد الضال بالحكمة والموعظة والدفع بالتي هي أحسن فإن القطيعة مجاراة في الأخلاق الذميمة التي حذر منها الشاعر بقوله:

إذا جاريـــت فـــي خلـــق ذمـــيمٍ

فأنـــت ومـــن تجاريـــه ســـواء

عقدان مُتْرَعان بكلٍّ جميل .. !(١)

لم أكن أتصوّر سرعة مرور عشرين سنة على تولِّي صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن بندر بن عبد العزيز مقاليد الأمور في (منطقة القصيم) ممثلاً لوليّ الأمر في تحمُّل الأمانة، والنهوض بمسؤولية المتابعة لكلِّ قطاعات الدولة، منفذاً لأوامر القيادة بكلِّ أمانة وإخلاص، وهذان العقدان أطول فترة في حساب الزمن، يقضيها أمير في المنطقة، وأقصر فترة في حساب المشاعر. والأهالي إذ يُبيِّتون استقبال عقود أخرى واعدة بكلِّ خير، فإنّ عليهم تهيئة الأجواء الملائمة للحراك المثمر، كي يتحقّق المزيد من العطاء في الزمن المواتي، وواجب المقتدرين من المواطنين أن يعبّروا عن مشاعر الاغتباط، كل حسب إمكانياته وبالأسلوب الذي يعجبه، لأنّ النفوس جبلت على حُبِّ المحفزات. و: (حُب الثناء طبيعة الإنسان). وليس هناك ما يمنع من أن تكون هذه المناسبة فترة مراجعة وتقويم وشكر لله الذي هيأ لهذه البلاد قيادة راشدة، تتحمّل المسؤولية على وجهها، وتستبطن همّ الأمة، وتحث الخطى في دروب العزة والكرامة، في وقت تغلي فيه مراجل الشعوب، وتُسلب فيه الحريات، وتُنهب الثروات، ويحرَّم الدّوحُ على بلابله، ليهيأ للطير من كل جنس.

ولأنّ حرية التعبير عن المشاعر بالشكل الذي يراه المعبِّر متاحة، فإنني سأطرح جانباً الثناء المباشر، والإشادة المعتادة بالمنجزات المادية، لمعرفتي عن سموه ما لا يعرفه الكثيرون، وبخاصة تحرُّجه من جاهزيات الثناء، على الرغم من أنّ العارفين بالفضل والمعرّفين به، لا يتجاوزون حدّ المباح والمعقول، والمواطنون والمسؤولون من واجبهم أن يشهدوا بما علموا، وأن يكافئوا من أحسن إليهم ولو بالثناء والدعاء.

لقد فوجئت بالملحق الصحفي الذي بادرت إليه جريدة (الجزيرة) عن تلك المناسبة السعيدة، واستطلعت فيه بعض الآراء والانطباعات، وعبّرت بمواده وإعلاناته عن المشاعر، وجمجمت به عما في النفوس. وكان بودي أن تكون صيغة الابتهاج بشكل أوسع، بحيث يُعَدُّ للمناسبة، لتكون في حجم الحدث، وبحيث يتفادى المبتهجون النمطية، ليعرجوا على الرغبات والتطلّعات والسمات الشخصية، التي أسهمت في استثمار تلك الطفرة، وإذ ينطلق المثنون من حجم الإنجاز وشواخص المشاريع بوصفها شواهد إثبات، فإنّ مثل ذلك في تصوُّري من الثانويات. فالبلاد من أقصاها إلى أقصاها حققت الكثير من المشاريع، والقصيم وقد هيئت له الأجواء الملائمة، أصبحت كل التوقعات تؤكد أنه يسير على الطريق الصحيح، وأنه يسبق ظله، لاستكمال متطلّبات المجتمع المدني. ولقد تكون هناك مشاريع ملفتة للنظر، يجدر بنا إبرازها في هذه المناسبة، وبخاصة في (جامعة القصيم) و(أمانة المنطقة) و(التعليم).

والأمير بمواهبه المتعدّدة وإمكانياته المتوفرة ومتابعته المباشرة أسهم في صناعة الأجواء الملائمة، وتذليل العقبات المثبطة، وكنت أود أن تكون هذه الذكرى مناسبة لإبراز هذه الخصوصيات في شخص سموه، لأنها الطاقة المحركة، أما الإجراءات الروتينية فإننا نراها هنا وهناك، لتجانسها في الحراك. لقد كنت ولمّا أزل أعوّل على تلك المواهب والإمكانيات والأخلاقيات، وأتمنى أن نعيها، وأن نحسن التفاعل معها، ونروّض النفوس على الأداء من خلالها، ثم لا نجد حرجاً من ضوابطها الصارمة.

الأمير - وتلك شهادة أدين الله بها - يحمل همّ مسؤوليته، ويعيش حضوراً فاعلاً، يذكي مشاعر المسؤولين من حوله، ويحرضهم على حسن الأداء واستمراره، ولقد يود

(١) تاريخ المقال: ١٨/ ١٠/ ٢٠١١

أحدنا لو يخفف من كثافة هذا الحضور، وتلك المراقبة، وعمق الرؤية، ليأخذ الآخرون أنفاسهم، فكم من مسؤول يبارك لمن تحت مسؤوليته بنظرة عجلى، ثم يدع المهمات تجري في أعنتها، أما سموه فإنه يغرس نفسه في عمق المسؤولية ويجري في عروقها، كما لو كان نبض الحياة فيها، ولا يرسل الأشياء للعراك، حتى يضمن اكتمال كل المتطلّبات، وحتى يستعرض أدق التفاصيل، وحين يستمع إلى حديثه من لا يدرك تلك الخصيصة ينبهر بذلك الإلمام الواسع بتفاصيل الأشياء. والمسؤولون الذين يختلفون إليه للعرض أو لطلب التوجيه والمباركة، يفاجؤون بما ليس في الحسبان، لأنهم يحاورون من يتوفر على كل متعلقات مسؤولياتهم، هذا الحضور الشخصي والمتابعة المباشرة عبر أي وسيلة اتصال، فوّتت على أي متثائب فرصة الاسترخاء أو التمرير المتسطح للأشياء، وحصرته في زاوية التحدي. وفوق هذا فإنّ تنامي هذا الاهتمام مكن المسؤولين من تدارك أمورهم، ومباشرة المسؤولية بأنفسهم، والتعبئة الذهنية لتوقع أي سؤال محرج، يبده به المسؤول في ساعة غفلة. ولقد سمعت حسيس التأوّه ممن يضيقون ذرعاً بتلك الرؤية المقعرة، فالنابهون منهم يراجعون أوراقهم ويحصنون قراراتهم، ثم يفاجئهم بثغرات لم تكن في الحسبان، ولقد كنت أتصوّر أن ثمن الإنضاج يكون على حساب الزمن، غير أنه تبيّن لي أن في التأني السلامة، وفي العجلة الندامة، ولهذا تبدو المشاريع في المنطقة متقنة الصُّنع، مكتملة الإجراء، مأمونة العواقب. والمسؤولية والرقابة تتطلّبان مثل تلك الخاصية، فالمنفذ إذا أمن الدقة في المساءلة والمتابعة، تأخذه الغفلة، ويحلو له الاسترخاء، وفي الأمثال (المال السائب يعلِّم السرقة)، وبلادنا التي تعج بالمشاريع المتعددة والمتنوّعة، وبخاصة ما يتعلق منها بالبنية التحتية بأمسّ الحاجة إلى هذه النوعية من المراقبة الواعية الدقيقة والشاملة، وما أنشئت (هيئة مكافحة الفساد) إلا لتدارك الأمر، ولو حمل كل مسؤول همّ مسؤوليته، لاستقام الجميع على ما أمروا.

وخاصية أخرى لا تقل أهمية عن المتابعة المستمرة والحضور الواعي، تلكم هي:- قطعه لدابر المحسوبيات والمجاملات على حساب سير العمل، فسموه حريص على أن تسير الأعمال وفق نظام دقيق، يرضي كل الأطراف، ويحمي كل الحقوق، ولهذا قلَّ أن يظفر أحد بغير حقه لصداقة أو قرابة، وهذه الخليقة لا تمنع من تسهيل الإجراءات وإكرام ذوي الهيئات، ولكن ذلك كله لا يكون على حساب حقوق الآخرين. وسمو الأمير بهاتين السمتين: استبطان المسؤولية، وسيادة النظام، قلّص حجم الإهمال والأثرة.

وخاصية ثالثة تضطرنا إلى استدعاء طرف من المنجزات، وهي حرص سموه على حجز الأراضي الحرة داخل النطاق العمراني للمصلحة العامة، وعدم التفريط بشبر منها، وتمكين المشاريع المتعثرة من تلك الأراضي لتنفيذها، الأمر الذي مكن جميع القطاعات الحكومية والأهلية من الظفر بمقرّات ملائمة. وشارعا: (خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله) و(أمير المؤمنين علي بن أبي طالب) في (بريدة) بما يقوم على جوانبهما من مبانٍ عملاقة شاهد على ذلك، ولقد تعهّد سموه لكل إدارة بمقر، متى اعتمدت المشاريع. و(نادي القصيم الأدبي ببريدة) أحد القطاعات التي ظفرت بأرض ثمينة، تقدّر قيمتها بملايين الريالات، ولما تزل المشاريع الحكومية والأهلية تجد بين الحين والآخر مقرات وفّرتها تلك السياسة الحكيمة من سموه. ذلك طرف من سمات سموه، ولن نعرج على مشاطراته لأفراح المواطنين وأتراحهم، ولا إشادته بمن يسميهم زملاءه في مختلف القطاعات عند تدشين أي مشروع أو إحياء أية مناسبة.

ولعله لا يكون من تعكير ضجة الفرح، أن نجس نبض الشارع العام وتطلّعاته، ليكون فاتحة خير لعقود أخرى، تحمل في طياتها بشائر الخير، ويقيني أن سموه على علم بهذا

النبض، ولكن التذكير منهج رباني:- ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾. إن منطقة كالقصيم بمدنها ومحافظاتها ومراكزها وهجرها ومجمل قطاعاتها العلمية والصحية والزراعية والصناعية والتجارية، وبوصفها منطقة جذب بحاجة إلى التوسل بـ(لغة الأرقام) أمام الممانعين والمماطلين، لتكون مشاريعها متساوقة مع الاتساع والنمو المتسارع، وكثافة السكان، فالراصد يجد أن جميع مرافقها لا تغطي احتياجاتها القائمة، ويكفي أن نضرب المثل بـ(جامعة القصيم) التي نيف طلابها وطالباتها على ستين ألف طالب وطالبة، هذا الانفجار السكاني ضاعف الاختناقات، وعددها، ونوعها، فهي في الصحة والمرور والطرق والتعليم، وسائر المرافق، وسمو الأمير بمتابعاته الشخصية واتصالاته الملحة يعرف دقائق هذه الاختناقات، والقصيم الصاخب في كل شيء بحاجة إلى جامعتين في محافظتي (عنيزة) و(الرس) وإلى الرفع من كفاءة المستشفيات في المحافظات، لتخفف العبء على مستشفيات (بريدة) مع مضاعفة الطاقة الاستيعابية للتخصصي والمركزي والولادة فيها، واستعجال المشاريع القائمة. وفوق هذا تحسين مداخل العاصمة، وازدواج الشمالي منها، وتحفيز مشاريع وزارة النقل، وبخاصة (طريق الملك فهد) و(الدائري الداخلي)، وتعزيز المجالس النيابية، وتسهيل تأسيس (لجنة الأهالي)، ولست أشك أنني بضخ هذه الهموم كـ(جالب التمر على هجر)، ذلك أن سمو الأمير يعيش الإشكاليات، كما لو كانت من أولويات مسؤولياته، ولكنها حاجة في نفس كل مواطن و(لا بد للمصدور من فيضان): - لقد بهرت المنطقة كل زائر، باتساعها، وكثافة سكانها، وقوة حركتها، ونهضتها الزراعية، والتجارية، وحدائقها ومنتزهاتها، وأسواقها، ومواسمها الاستثنائية، وخير شاهد على براعة التخطيط وتفوق الإنجاز (منشآت الجامعة) و(مدينة التمور) و(مدينة الأنعام) و(منتزه الملك عبد الله). ولكننا سنظل مرتهنين لسياسة (خذ وطالب):-

وفي النفس حاجات وفيك فطانة
سكوتي جواب عندها وخطاب

طبت..
وطاب مسعاك..
وكل عقد وأنت بخير.

عليك سلام الله حياً وميتاً .. !(١)

لم يكن من السهل على أمة خبرت فقيدها سبعين عاماً أن تتحمل صدمة الفراق، أو أن تصبر على فقده إلى يوم يبعثون ولكنه الإيمان بقضاء الله، والرضا بقدره، والتسليم لأمره، والخضوع لسنته التي لا تتبدل ولا تتحول، بها تسلو، ومنها تستمد الرضى والقبول، والأمة المؤمنة ترضى بقضاء الله، وتصبر على بلواه، وتحتسب الأجر عنده.

وعزاء المفجوعين أن الموت نهاية كل حي: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾، ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾.

وفقد رجل بوزن (سلطان بن عبد العزيز) حدث جلل، تتعطل معه لغة الكلام، وتتجمد الآمال على الشفاه، وهي تؤمل.

فهو رجل استثنائي، اجتباه ربه، فوهبه من الأخلاق أحسنها، ومن السير الحميدة أجلها، ومن السماحة أجملها، فكان قريباً من القلوب، محبباً إلى النفوس، عاش حياته للوطن والمواطنين، يؤثر ولا يستأثر، ويطعم لوجه الله، ولا يريد جزاء ولا شكوراً.

أوقف جهده، وسعى دهره لدروب الخير، وفي دروب الخير، يضمد الجراح الفاغرة، ويواسي القلوب المكلومة، ويتوجع للمصابين المدنفين، ورجل بهذه المسؤوليات وبتلك المهمات والاهتمامات والسمات جدير بأن تبكي عليه البواكي.

لقد عاش حياة حافلة بالمسؤوليات الجسام، والمهمات العظام، واكب ملوك البلاد - رحمهم الله- منذ عهد المؤسس الملك (عبد العزيز) إلى ملك المبادرات (عبد الله بن عبد العزيز)، وخيرة الناس من نعومة أظفاره، بتودده وكرمه ودماثة أخلاقه وسعيه في حاجة الأرملة والمسكين، وحبه للخير، وتحمله لمعضلات المشاكل، واضطلاعه بالملفات الساخنة، ومهارته في تفكيكها وإعادة ترتيبها على الوجه الذي يرضي كل الأطراف، ويبث الثقة بين كل الفرقاء.

لقد كان (سلطان بن عبد العزيز) دوحة عز وارفة الظلال، يفيء إليها الضاحون، ونبع ماء عذب ترووده قوافل المضمين، ومستوع خبرة يتزود منه العاملون، ومنارة هداية يستضيء بها التائهون.

وكيف لا يكون مثابة لهؤلاء وأمناً لأولئك، وهو قد ولد في بيت ملك عريق، وتربى على يد مؤسس عظيم، وعاصر ستة ملوك راشدين، شاطرهم أعمالهم وقاسمهم معضلات مسؤولياتهم، ونهض بمهمات جسام حملوها إياه، وخاض معترك السياسة العربية والعالمية، في جزرها ومدها، وصفوها وكدرها، وطاف العالم مؤتمراً مع المؤتمرين، ومدافعاً عن قضايا المقهورين، ومطالباً بحقوق المضطهدين، ومشيراً ومستشيراً، ومجادلاً ومحاوراً ومصالحاً ومصلحاً بين الفرقاء .. إنه جامعة علم في إنسان وأمة في رجل، وسجل حافل بأشرف المنجزات، وأعقد القضايا، وعلى مدى سبعين عاماً تقلب في عدة مناصب مختلفة المهام والأهميات، وما حل في موقع إلا شد الأنظار، وبهر الأفكار، وانتزع الأعجاب، وفرض الاحترام.

ابتسامته تسبق عبوسه، وكلمته الطيبة تسبق عزماته الصارمة، ويده المبسوطة بالعطاء تسبق كفه الآخذة بالحق.

تـــراه إذا مــــا جئتـــــه مـــــتهللاً

---

(١) تاريخ المقال: ٢٤/ ١٠/ ٢٠١١

كأنــــك تعطيــــه الـــــذي أنــــت ســــائله

وإذا كان الرسول -ﷺ- قد تفاءل حين أقبل عليه المفاوض (سهيل بن عمرو)، فإن سلطان الخير مجال للتفاؤل الحسن، فما وضع يده في قضية إلا حل عقدها، وما تعقب مشكلة إلا فكك تلاحمها، وما رمى به ملك بؤر التوتر إلا أطفأ لهيبها، وما دخل بين شتيتين إلا جمع بينهما بخير.

رحمك الله يا أبا خالد رحمة واسعة، وجعلك ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾، لقد تركت فراغاً هائلاً، ورحلت، وأمتك أحوج ما تكون إليك.. وعزاؤنا بمن خلفك من تلك الدوحة المباركة.

إذا طـــل منـــا ســـيد قـــام ســـيد

قـــؤول لمـــا قـــال الكـــرام فعـــول

وعزؤانا بالسيد المنجب ابن السادة النجب (عبد الله بن عبد العزيز) ملك الإنسانية ورجل المبادرات، وفي أشقائه من حوله وفي الشعب الذي نهل من معين الوفاء، فكان أوفى الأوفياء .. عزاؤنا بدولة حضارية وشعب يتجلى معدنه في الأزمات.. عزاؤنا في هذا الكيان المتماسك.

وإذ رحلت بجسمك فإن ذكراً حميداً، وسيرة عطرة، وقيماً أخلاقية تركتها خلفك، تتجدد بها صورتك، وتتكرس بها شخصيتك، ويتحلى بها من بعدك: (والذكر للإنسان عمرٌ ثاني).

فعليك من الله الرحمة والمغفرة، ولنا من الله العزاء وجبر المصاب، وإذا كانت العين تدمع، والقلب يحزن، فإننا لا نقول إلا ما يرضي ربنا: ﴿إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ﴾.

إذا طلّ منا سيد قام سيد .. !![1]

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

لم تَرْق دموعُ المفجوعين، ولم تسكن تأوّهات المكلومين، بعد فراق من ملأ القلوب محبة، والأفئدة رضاً واطمئناناً، والآفاق سمعة وذكراً حسناً، حتى بعث فيهم عبد الله وخادم بيته ما تسكن به لوعة الفراق، ويخف معه هلع الفراغ. ذلكم هو الأمر الملكي الكريم بتعيين صاحب السمو الملكي الأمير «نايف بن عبد العزيز» ولياً للعهد ونائباً لرئيس مجلس الوزراء ووزيراً للداخلية. فالفضاءات التي كان يملؤها سلطان الخير، والثغرات التي كانت تسدّها حنكته وحكمته وبُعد نظره، لا يمكن أن تظل فارغة ولو للحظة واحدة، بعد مفارقته دار الفناء إلى دار البقاء، ومن ثم لم تمض خمس عشرة دقيقة بعد نهاية أيام العزاء، حتى بادر - حفظه الله - بأمره الملكي المرتقب، معلناً فيه ما نزلت به السكينة على الأمة، وعمّتهم به الفرحة، على ضوء (النظام الأساسي للحكم) ووفق إجراء محكم الإعداد، وثابت الخطو. لقد تلقّت الأمّة هذا القرار الحكيم، وتقبّلته بقبول حسن، وأطمأنت النفوس بهذه البشارة المرتقبة، وغنم الشعب بهذا الاختيار الموفّق مغانم كثيرة، بوصفه اختياراً سديداً، قطع دابر التخرُّصات والتخوُّفات. فصاحب السمو الملكي الأمير «نايف بن عبد العزيز» بما وهبه الله من قدرات فذّة، وما مارسه من أعمال متنوّعة، وما جسره من فجوات بين مختلف أطياف المجتمع، جدير بهذه المهمّات الثلاث.

واضطلاع مثله بتلك المهمّات من المبشّرات، لقد خبرته الأمة برزانته، وبُعد نظرة، وأناته، وحكمته، وحلمه، واختياره لأيسر الأمور، وامتحنته المواقف العصيبة، وكشف عصي المعضلات عن معدنه الكريم.

وبلادنا التي انشقت صحراؤها عن رجل مثل «عبد العزيز» جديرة بأن تجود بكفاءة مثل «نايف بن عبد العزيز»، وسموه الذي خبر دقائق الأمور من خلال مسؤولياته المتعدّدة وممارساته المتواصلة، أهل لمثل هذه المسؤوليات الجديدة، وهو إذ قضى شطراً من حياته مهندساً للأمن في البلاد، في فترة من أصعب الفترات، قمين بأن ينهض بمهمات أصعب وأشمل. لقد عركته التجارب المتعدّدة، وحنكته القضايا الأمنية الجسيمة، التي اختير لها من قبل. وما جدَّ من مسؤوليات ستُفجر عنده مواهب جديدة، تمكنه من تحقيق مزيد من النجاحات ومزيد من الإضافات.

والأمة التي ظلّت ترقب الخَلَف الصالح، بعد رحيل سلطان المهمّات، عاشت أيام الفراق بين مرارة الحزن وضجر الترقُّب، نامت آمنة بعد الأمر الملكي مطمئنة في مستهل عشر ذي الحجة، لتملأها بالدعاء الصادق لخادم الحرمين الشريفين الذي وفقه الله بمعاضدة إخوانه أعضاء «هيئة البيعة» إلى اختيار الكفاءة الوطنية، لتلقي المهمّات، وتحمُّل المسؤوليات التي تركها الراحل العزيز وهي تردد:

إذا طلَّ منا سيد قام سيد
قؤول لما قال الكرام فعول

(١) تاريخ المقال: ٣/ ١١/ ٢٠١١

وتلقى سموه لهذه المسؤولية الجديدة، بكل ما تحمله من مهمات داخلية وخارجية، دليل على أنّ مصير البلاد بأيدٍ أمينة تراعي حق الله وحق الأمة، ولا تدع سبيلاً للفراغ الدستوري، ولا مجالاً للمتناجين بالإثم والعدوان.

والأمر الملكي المرتقب، لم يكن مفاجئاً ولا صدفة، وإن أفاض على الأفئدة الفارغة ما يملؤها سكينة وثقة، ويشد عضدها لاستشراف المستقبل، وتلقي الأمة له بالرضى والقبول، إنما ينبعث من خلفيات معرفية ومعهودات ذهنية، فرجل بحجم «نايف بن عبد العزيز» واكب بوعي تام وحصافة رأي ملوك البلاد منذ عهد المؤسِّس - رحمه الله - حتى عهد خادم الحرمين الشريفين الملك «عبد الله بن عبد العزيز» - حفظه الله - وعَرَف من خلال تقلبّاته الوظيفية ومهمّاته السياسية دخائل الأمور، لقد عركته التجارب، وحنكته المواقف.

والاختيار الموفّق لمثله من الظواهر الطبيعية، فالقيادة الراشدة تضع نصب عينيها المصلحة العليا للبلاد، لقد اختاره خادم الحرمين الشريفين «نائباً ثانياً» قبل سنتين، واستقبلت الأمة هذا الاختيار بالارتياح والتفاؤل، وها هو اليوم يختاره ولياً للعهد، ونائباً له إضافة إلى عمله السابق وزيراً للداخلية، وبذات الشعور قوبل هذا الاختيار.

و «نايف» كما قلت من قبل: نايف الذات والتجربة والموقف. والأمة إذ تنتقل من التفجُّع والتأبين إلى التفكير والتقدير، تجيل نظرها في واقع العالم العربي، وما ينتابه من أحداث تكاد تقضي على أمنه ومقدراته واستقراره، تحمد لولي الأمر تلك المبادرة السديدة، التي قطعت دابر الخوف والترقُّب، فأمن البلاد، واستقراره، وملء فراغات القيادة فيه من أولويات المسؤوليات.

وتلك أمانة جسمية لا يؤديها على وجهها إلا من وفّقه الله، وهداه لأقوم السُّبل. إنّ (ولاية العهد) جزء من البيعة الكبرى، واستعداد مبكر لتفادي أي فراغ دستوري مفاجئ، تتعرض له البلاد، ومن ثم ظلت الأمة ترقب النبأ بفارغ الصبر، وحين وفّق الله ولي الأمر إلى أحسن القرارات وأصوبها، عادت الطمأنينة إلى النفوس، ذلك أن ولي العهد الجديد سيملأ الفراغ، ويسد الخلال، وسينهض بالمهمة على أحسن وجه، وسوف يترسم خطى سلفه، لتظل البلاد آمنة مطمئنة. ونحن إذ نستقبل هذا النبأ بالسعادة، لنسأل الله لبلاد المقدسات حياة كريمة وقيادة حكيمة، تدرأ عنها عاديات الزمن.

والأسرة الحاكمة التي قدمت للأمة كفاءة وطنية بحجم «نايف بن عبد العزيز» وخبرته العملية، وحبه لوطنه وإخلاصه لأمته، جديرة بأن تلي أمره وتدير شؤونه.

حفظ الله عبد الله رائداً لا يكذب أهله.

وغفر لسلطان ما تقدّم من ذنبه وما تأخر.

وسدد الله على دروب الخير خطى نايف بن عبد العزيز، ليشد أزر أخيه وليشاركه أمره.

في اللهب ولا تحترق .. !(١)

هذا عنوان مقال لطيف، يستهويني اقتناصه في مناسبات كثيرة متفاوتة، كتب قبل ثمانية عقود أو تزيد، بقلم أمير من أمراء البيان العربي، يضارع حامل اللقب: «شكيب أرسلان» في ثرائه اللغوي وفصاحته الأسلوبية، ذلكم هو «مصطفى صادق الرافعي». وللمقال قصة طريفة، على الرغم من أن توارده على الخاطر استدعته تلك الظروف العصيبة، التي يمر بها العالمان: العربي، والإسلامي. و«الرافعي» - رحمه الله - ثالث ثلاثة نسل من بين أساليبهم أسلوبي، وهم (أحمد حسن الزيات) و(طه حسين) ومن قبل هؤلاء (مصطفى لطفي المنفلوطي). وهؤلاء هم أصحاب الأساليب المتأنقة.

أما (العقاد) فقد أثر بي فكرياً ليس إلا، وحين فضَّلْت (العقاد) على (الرافعي)، ثارت ثائرة الكتَّاب ذوي النزعة الإسلامية، وهذا اللغط كشف لي عن خلل واضح في النَّسيج الفكري، يتمثل بالقراءة عن الأشياء، لا قراءتها، وتلك إشكالية السواد الأعظم من الكتاب، ذلك أنهم لو قرؤوا «الرافعي»و»العقاد» من خلال ما كتبا، لا من خلال ما كتب عنهما، لما أثارهم تفضيلي «للعقاد» على «الرافعي».

أما قصة مقال (الرافعي) الطريفة، فتتمثل في مكيدة حبكها طلابه ومريدوه. ذلك أنه كان رجلاً متدينا، ومتصوفاً، ومصاباً بعاهة الصمم، فلا يسمع الأصوات، وتواصله مع الآخرين عن طريق الكتابة. وكان بعض طلابه ينقطعون عنه في بعض الليالي، لحضور حفلة رقص وغناء، ويجدون حرجاً من ذلك، حين يعاتبهم، وللخلوص من حرج المساءلة لفقوا له حكاية طريفة، مفادها: أن فتاة جميلة تشبه (رابعة العدوية) تحيي أول الليل في الرقص والغناء، وآخره في الصلاة والتهجد، وطلب المغفرة، وأنها عفيفة متدينة، وحببوا إليه حضور سهرتها. و(الرافعي) بقلبه الطفولي، وعاطفته الجياشة، وحبه الدفين، وغزله الرقيق، يُصدِّق مثل تلك المفتريات، ولم يتردد من الذهاب معهم في إحدى الليالي، ولما سهر، وأشبع ناظريه من مفاتن تلك الفتاة الراقصة، بهره جمالها، وأثاره تدينها، وأعجبته عفتها، فكتب مقالته: (في اللهب ولا تحترق).

* * *

هذا العنوان يلح بحضوره، كلما أجلت النظر في القنوات الفضائية، وشاهدت وسمعت الأحداث الجسام، والكوارث العظام، والنكبات الموجعة، والنكسات المؤلمة، التي تجتاح عالمنا العربي والإسلامي: - ثورات دامية، و(دكتاتوريات) متسلطة، وفقر مدقع، وبطالة مستحكمة، وكساد خانق، وتصحر مترمد، وجفاف معجف، وكوارث مدمرة، وأوبئة مستشرية، وتنازع طائفي، وتناحر عرقي، وتدخلات مريبة، تدمر كل شيءٍ أتت عليه. وبلاد الحرمين الشريفين وسط هذا اللهب آمنة مطمئنة، تتدفق عليها الخيرات من كل جانب، وتهوي إليها أفئدة ذوي الحاجات من كل صقع، ويتفجر من تحت أقدام أهلها معبود الماديين، وتنشق صحراؤها عن كفاءات بشرية، تتلقى رايات العز باليمين، وأهلها متلاحمون فيما بينهم، متصالحون مع حكومتهم، تمتلئ بهم ساحات المساجد، وتفيض بهم أروقة الجامعات، وتئط منهم أسواق التجارة، وتجبى إليهم ثمرات كل شيء، وسلطتها مدعومة من جبهتها الداخلية. وإسهاماتها الإنسانية و»اللوجستية» تمتد عبر كل الاتجاهات، جسور جوية للإغاثة، وقوافل أطعمة وأدوية، للبلاد المنكوبة أو الموبوءة، ومشورات ونصائح، واستقبال وتوديع، ومبادرات وقرارات، وأوامر ملكية، تبادر الخلال، وتسد الثغرات، وفي كل يوم تطلع فيه الشمس تنداح دوائر العطاء، من دعم للسلع

---

(١) تاريخ المقال: ١٥/ ١١/ ٢٠١١

أو فك للاختناق، أو تسوية للمشكلات، أو محاصرة للأزمات التي تجتاح العالم، وتحز الرقاب: كالبطالة والإسكان والغلاء والجوع والخوف. إنها في (اللهب ولا تحترق). وليس غريباً أن تتلاحق القرارات الإيجابية والأوامر السديدة والمبادرات الكريمة، ولكن الغريب أن هذه البلاد تعيش وسط لهب المشكلات العربية والإسلامية، ثم لا يمسها سوء، ولا تخترقها فتنة، ولا يطالها مكر، وتلك من النعم التي يمن الله بها على من يشاء من عباده.

والأهم من كل تلك الغرائبيات، أن يعي المواطن هذه الحياة الاستثنائية، وأن يعرف أنها تفضّلٌ من الله، وأن الله وضع بين يدي العامة ترهيباً وترغيباً:- ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾. فهل نحن وسط هذا اللهب دون أن نحترق، نتعامل مع هذه النعم بما يقرها؟ أم أننا نقترف بالتقصير ما يساعد على فرارها، إن على المواطن السعودي، وهو ينعم بالأمن والرخاء والاستقرار، ويستقبل كل يوم مبادرة كريمة، أن يعرف الفضل لذويه، وأن يسعى جهده لشكر المنعم المتفضل، وأن يجتهد ما وسعه الاجتهاد لقيد أوابد النعم بالشكر لله أولاً، والشكر قول وعمل: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾. والدعاء ثانياً لمن أجرى الله هذه النعم على يديه، فمن لا يشكر الناس لا يشكر الله، وأن يوازن بين الاستغلال المفرط لهذه الخيرات والتفاعل معها، والأداء السليم من خلالها، وليجتنب التبذير: - ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾. والوضع العربي والعالمي المتقلب يتطلب من عقلاء الأمة حمل العامة على وعي المرحلة، والتعامل معها بحذر شديد، وإذ عرف المشركون خالقهم عند ركوب الفلك، لوقوعه في أتون الخطر، فإن على المسلمين، وهم الأدرى بخالقهم، أن يلوذوا به، وهم في وضع أشبه ما يكون بركوب البحر الهائج المائج، وكيف لا يخاف العاقل والعالم العربي في أتون اللهب:

-دماء تتدفق.

-وقلاع تهدم.

-وأمن يتهاوى.

-وكساد يستشري.

-وخوف يشيع.

-وتسلط همجي يتحكم.

وقنوات فضائية فضولية، ترصد الأحداث، وتنقلها بكل بشاعتها ووحشيتها.

فهل تغني الآيات والنذر، بحيث نفر إلى الله امتثالاً لنصائح الرسل:

﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

لكيلا يتحول الربيع العربي إلى عصف مأكول .. !(١)

هناك فرق بين التشاؤم السلبي والتخوف الإيجابي، وعلماء الفلك يتوسلون بالتنبؤات، ويحذرون من سيول جارفة أو رياح قاصفة، وعلماء السياسة ليسوا كعلماء الفقه والتفسير والحديث، فهؤلاء أمام نصوص تحمل دلالات ظاهرة أو باطنة، تكشف مقاصدها عبر آليات النحو والصرف والبلاغة ومناهج اللغة الحديثة وسائر آليات القراءة ومستوياتها، ويحدو ذلك ويرود له، نوايا حسنة، ومقاصد سليمة، كالعلامات التي يهتدى بها.

أما علماء السياسة فوسيلتهم الخبرة والحدس والتخمين، وقليلاً ما تصدق توقعاتهم، ولترشيد مسار السلطة، ندب الخالق إلى الاستشارة والاستخارة، وفي ظل انبهام الشأن السياسي والتواء دهاليزه، كثرت اللعب السياسية، وتنوع اللاعبون، وما يقال عن قواعدها لا يعدو التوقع، فالمحترفون يجترون تجاربهم الفاشلة والناجحة، ويلتقطون منها ما يسمونه بالقواعد، والراسخون في علم السياسة والمتسطحون والأدعياء ممن زجوا بأنفسهم في أتونها، تشظى بعضهم، واحترق آخرون، والسالمون منهم خلصوا نجيا، والعقلاء الذين مسهم طائف منها، لعنوا (ساس ويسوس وما تصرف منها) لأنها تدور مع المصالح، ولا تهتم بالقيم، ولا تحترم المواقف، والغلبة فيها للقوة الرعناء، والتسلط البغيض، وهدفها الانتصار الجائر، وإن لم يكن حقاً.

ولأن الصراع إكسير الحياة، ولأن تنازع البقاء بين الحق والباطل أزلي، فإن مضامير السياسة يتقحمها، الراغب والراهب والمكره والبطل، وليس لأحد الخيار فيما يأتي ويذر، والمغلَّبون للمواقف والمبادئ يمرون بها سراعاً كما سحائب الصيف، وفي كل مرحلة تاريخية يبدو مثل هذا البصيص الخافت، ولكنه سرعان ما يخبو، ولعلنا نذكر (عمر بن عبد العزيز) الذي عد من بقايا الخلافة الراشدة، ولأنه جاء نشزاً في سياق الملك العضوض فقد وجدت الفرق والأحزاب في ظل تسامحه فرصة لإعادة لملمة أشلائها، وإشاعة مبادئها، والتخطيط لجولة حاسمة.

حتى قيل: إن سقوط الدولة الأموية كان بسبب تلك التنظيمات التي وجدت فرصتها في ظل هذا العهد المتسامح، وعلى ضوء تلك المفاهيم، تظل السياسة شراً مستطيراً لا بد منه، وعندما يتلبس بها أصحاب المواقف وحماة القيم، تكون مهماتهم صعبة، ونجاحاتهم محدودة.

والعالم العربي الذي ظل في صراع مستحر مع الاستعمار الذي رحل بمفهومه التقليدي، وأعاد نفسه بأقنعة مختلفة، وبوجوه متباينة، مني بخلف، أضاعوا العدل، واتبعوا الشهوات من حكام سوء، ليسوا بأحسن منه حالاً ولا مآلاً، وبعد عقود من الاحتقان والضجر، تململت البراكين من تحت الأقدام، فمنها من انفجر وصهر الصخر، وأذاب الحديد، ومنها من اهتزت من فوقه قشرة الأرض وزلزلت شواخص العمران زلزالاً شديداً، أتى على كل المثمنات، واستبشر الناس بهذا الحراك الإيجابي الذي جاء ليضع حداً للظلم والاستبداد والأثرة وحكم الفرد ومصادرة الحقوق ونهب الثروات وتشريد الكفاءات، وبدت بوادر الخير كما لوكانت الشعوب على موعد معها.

لقد بذلت الشعوب تضحيات كبيرة، ما كان لها أن تغيب عن البال، ولا أن يستخف بها المنتصرون، والشهداء الذين قضوا نحبهم، يرقبون من ينتظر، وعسى ألا يبدلوا تبديلاً، وإذ خلد التاريخ شهداء (الجزائر) في معارك التحرير مع الفرنسيين، وشهداء (ليبيا) في معارك التحرير مع الإيطاليين، وشهداء (فلسطين) مع الصهاينة، وشهداء

---

(١) تاريخ المقال: ٨/ ١١/ ٢٠١١

آخرين في بقاع كثيرة من الوطن العربي، فإنه سيخلد شهداء ليبيا واليمن وسوريا ومصر وتونس في صراعهم مع أبناء جلدتهم. ولما تزل قوائم الشهداء في نمو مطرد، وإذ نال الشهداء شرف الشهادة، فإن واجب الأحياء أن يحترموا مشاعرهم، وألا يضيعوا ما يتطلعون إليه، وهم أحياء عند ربهم يرزقون، لقد هبت الشعوب، وليس في (أجندتها) إلا رفع الظلم، ودفع الجور، وتحقيق العدل والإحسان والحرية والمساواة وتكافؤ الفرص وبناء الإنسان وتعمير الأرض، ولم يكن الولاء إلا لله، ولم يكن الحب إلا للوطن، ولم يكن الحق إلا للمواطن، وأي طائفية أو عرقية أو إقليمية أو أثرة تبدي أعناقها، تؤذن بتحول الربيع المرتقب إلى عصف مأكول، يعقبه ريح قاصف، تدمر كل شيء أتت عليه، وتلك بوادر ليست من رجم الغيب، إن ما نراه ونسمعه لا يبشر بخير، ولما كان الهدف الرئيس دفع الظلم وإحقاق الحق، وقد تحقق بسقوط الأنظمة الظالمة ومصير السلطة إلى الشعب، فإن الواجب رعاية تلك المكتسبات. وتلك فرصة ذهبية إذا مرت دون متلق رشيد، فإنها لن تعود، لقد حطمت الأصنام، وكسرحاجز الخوف، واستطاع المواطن أن يقول: (لا) بكل حرية، وبدون خوف أو وجل، وتلك لحظات مشرقة، وواجب الجماهير أن تعود إلى هدوئها، لتملأ النخب الفراغات الدستورية، وتعيد الحياة إلى طبيعتها، وتبدأ رسم خطة البداية وخارطة الطريق لحياة جديدة، لم تألفها الأمة العربية من قبل. وحق الرأي العام أن يراقب دون تعجل أو تشنج، ودون تدخل مباشر، يعيق الحراك، وأي تكتل فئوي أو حزبي، وأي تنازع طائفي على الغنائم سيكون من باب التنازع الذي يؤدي إلى الفشل وذهاب الريح.

إن على الأمة أن تعي خطورة المرحلة، فالفرص الثمينة لا تطرق الباب أكثر من مرة واحدة، والرأي العام الذي ألهب المشاعر، وجيش العواطف، وهد العروش، وأحرق القلاع الورقية، يحسن به أن يعود إلى منطلقاته، ليبدأ أهل الحل والعقد مرحلة البناء، فالفوضى لا يمكن أن تكون خلاقة، والغوغاء لا يمكن أن تكون راشدة لا بد من التقدير والتدبير وحساب الخسائر والأرباح، وذلك لا يكون بيد الشارع، ولا يمكن أن تتمخض عنه الغوغاء. إن المتربصين والمرجفين والمنافقين كالشياطين يجرون في شرايين الوطن مجرى الدم في العروق، وإذا لم نضيق الخناق عليهم فإنهم سيحولون ربيع الأمة إلى خريف، تتصحر معه فيافي الإنجازات، لقد سمعنا بحسيس المشاكل، متمثلاً بنبش العفن، وتجريم الآخر، واستعداء الأقوياء واتهام الأبرياء، وتخوين الأمناء، والمطالبة بتصفية الحسابات الوهمية، وخلق العداوات في زمن الضعف ومرحلة النقاهة، والمصلحة تقتضي فقه الواقع والأولويات، وتأمين أدنى حد من الأمن النفسي والغذائي، وتجاوز تقعير الرؤية في الأشياء حتى يأذن الله بالقوة والنصر والاستقرار.

فليتق الله من هم قادرون على إعادة المياه إلى مجاريها، وليتذكر المبذرون للمكتسبات قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾.

ربيع الأندية الأدبية وممانعة النخب .. !(١)

أما قبل:

من المؤكد أن (الأندية الأدبية) ستعيش ربيعها المرتقب، وهي تدخل مراحل جديدة من حياتها، مرحلة: (الجمعيات العمومية) و(الانتخابات الحرة) و(الدعم السخي) و(اتساع فضاء الصلاحيات) و(المجالات).

وهي إلى جانب تلك المكتسبات الثرة والثرية، تواجه تحديات صعبة، لأن المستهدفين بخدمتها وهم الشباب، تتنازعهم القنوات والمواقع وسائر المصادر الثقافة، والأندية في خضم هذا الدعم، لم يخل لها الجو، كما خلت (للقبَّرات) التي تبيض، وتصفر، وتنقر ما شاء لها أن تنقر. وحين تدخل لزز التنافس غير المتكافئ مع أنداد أقوياء، تكون مهماتها عصيبة وعصية، على أن هذا الإعداد وذلك الدعم السخي سيتيح الفرصة لرموز النقد والإبداع والثقافة ممن كانت لهم قدم صدق في المشهد الأدبي خارج أسوار الأندية من قبل كي يتسوروا محاريب الأندية لممارسة الأدوار في أجواء ملائمة.

وإذ لا تكون الأندية الأدبية شيئاً مذكوراً بالمادة وحدها، فإن الكفاءات الأدبية والثقافية خير من يشد عضدها، ويركض بها في فيافي الثقافة وآفاق المعرفة وسوح الأدب الرفيع، ومتى فقدت الأندية الأدباء والمثقفين فقدت كل شيء.

والذين لم يظفروا بمفحص قطاة في الأزمنة الغابرة بإمكانهم الآن أن يتوفروا على ميادين بسعة الميادين الرياضية، وبجماهير بحجم جماهير الأندية الرياضية، لو أنهم أحسنوا استغلال تلك الإمكانيات.

ولما لم يكن هناك أصدق من صناديق الاقتراع فإن عتبي - إن كنْت من المعتبين - على نقاد ومثقفين ومبدعين تسللوا لوذاً من الجمعيات العمومية ومن الترشيح للعضوية، ونذروا للرحمن صوماً فلن يكلموا من خلال الأندية إنسيا، وهم قد شككوا في الانتخابات، وطعنوا في نزاهتها، ولو أنهم تعاونوا على البر والتقوى، وانغمسوا في التظاهرة الثقافية، وكشفوا عوارها من الداخل، إن كان ثمة عوار، لكان خيراً لهم وللحركة الأدبية في المملكة، التي تعد منتجعاً لأدباء العالم العربي، ومثابة لرغباتهم وتسويق إنتاجهم. وهل أحد من مثقفي العالم العربي لا يود أن يكون له حضور في مشاهدنا الناشطة؟

ولكيلا أدين نفسي بهذا العتاب، حيث أنني لم ألحق بالجمعية العمومية لنادي القصيم، ولم أرشح نفسي للعضوية، فإن لي عذراً، أثق أنني حين أبديه، أكون بذلك محقاً، ولا أحتاج إلى مجادلين، ولا إلى معذرين. فرجل مثلي قضى في النادي رئيساً سبعاً وعشرين سنة، من واجبه، وقد أعطى كل ما عنده أن يفسح المجال لدماء شابة، كي تمارس حقها، ولو عدت بعد هذا العمر وتلك السنوات، لكنت ممن لا يؤثرون على أنفسهم، وعزوفي عن الجمعية والعضوية ليس احتجاجاً على تصرف الوزارة، التي اتخذت قرارات فورية، نحَّت بِموجبها جميع الرؤساء والأعضاء، وكان عليها قبل هذه التنحية الجماعية والفورية أن تسبق فعلها بتهيئة الظروف الملائمة، وذلك بتكوين جمعيات عمومية، وإجراء انتخابات حرة، وأن تمارس التجربة بشكل مرحلي، حتى إذا استقام لها الأمر، طرحت المشروع للتنفيذ، ووجه الاستغراب أنها اتخذت قراراتها بشكل فوري، وبدون أي مقدمات، لقد كنت من المباركين للتغيير، ولكن بأسلوب مغاير ولهذا لم أستقل كغيري، وتقبلت الإقالة، والوزارة إذ تبادر فيما بعد إلى الإجراء السليم، فإن واجب الجميع مباركة تلك الخطوات ودعمها، غير أن البوادر لا تبشر بخير، والمتابع للإعلام يسمع حسيس

---

(١) تاريخ المقال: ٢٩/ ١١/ ٢٠١١

التذمر والتنصل والتسلل والاتهام. والوزارة من خلال وكالتها تحاول جاهدة استيعاب هذا الحراك، وامتصاص هذا الاحتقان، واحتواء المشاكل عَبر آليات الحوار.

ولما كان لكل حدث قصة فإن بدايات التأسيس لكل نادٍ تنطوي على حكاية طريفة، ولقد شرفت بمعايشة تأسيس (نادي الرياض الأدبي) وأسهمت بتأسيس (نادي القصيم الأدبي) حيث تلقيت رسالة موقعة من الرائدين الجليلين: حمد الجاسر وعبد الله بن خميس رحمهما الله، يطلبان الإسهام في تأسيس (نادي الرياض الأدبي)، وهذا الطلب أذكى عندي الرغبة في التفكير لتأسيس نادي مماثل في القصيم، وظلت الفكرة تراودني، حتى أذن الله بترجمتها إلي فعل مشترك مع لفيف من الزملاء.

فلقد كنت في مستهل هذا القرن الميمون مع عدد من الزملاء في (بريدة) نحلم في أن يكون للقصيم مثلما كان لغيرها من مدن المملكة ومحافظاتها أندية أدبية، تجمع شتيت الثقافات والمثقفين، وتهيئ الأجواء الملائمة للمبدعين، وتدعم الحركة الأدبية، وتجمع شعثها. وحين أبدينا الفكرة لمن حولنا، لقينا دعماً سخيا وتشجيعا معنوياً، من الأعيان والمسؤولين وهذا الدعم عزز من رغبتنا، وشد من أزرنا، ومن ثم بدأنا بالتواصل مع (الرئاسة العامة لرعاية الشباب)، وتلقينا نسخة من اللائحة، وشرعنا في التأسيس، على أمل أن يكون لأبناء محافظات القصيم جهود مماثلة، وبخاصة أبناء (محافظة عنيزة) الزاخرة بالأدباء والشعراء بشكل ملفت للنظر، غير أن المحافظات كلها رضيت من اللحم بعظم الرقبة، وأكرهت على أن يكون (نادي القصيم) قسمة بينهم، دون أن يكون لكل محافظة شرب يوم معلوم، وبعد إقالة مجلسنا المنتخب، تم التشكيل الإداري على ضوء اقتسام المقاعد بين أبناء المحافظات، غير أن التشكيل الجديد الذي سيتم عن طريق الاقتراع، ربما يحرم المحافظات نصيبها المفروض من العضوية، لأن الانتخاب سيتم في (بريدة) دون غيرها، على أنني لا أدري عن آلية الانتخاب، هل وضعت في حسابها هذه الإشكالية؟ ولقد علمت من مصادر ربما أنها غير دقيقة أن الجمعية العمومية، لنادي القصيم لم تتجاوز الخمسين، وهذا عدد ضئيل، لا يمكن أن يستوفي أدباء المنطقة، وكان بودي إذا كانت الوزارة مصرة على الاكتفاء بنادي أدبي واحد لثلاث مدن رئيسة (بريدة، وعنيزة، والرس) أن يكون لكل محافظة جمعيتها العمومية وأن يتم الانتخاب في ساعة واحدة في العاصمة وفي محافظتين على الأقل، لأن الجمعية العمومية بعددها الأقل من بين الأندية لن يمكن النادي من ممارسة مهماته على وجهها.

تلك قصة الأدب في القصيم، وذلك تقويمُ مجرب للحراك المرتقب. فهل يكون الآتي خيراً من الماضي؟ أرجو ذلك، كما أرجو ألا نكون بانتظار ما لا يأتي.

وأما بعد:

فما سبق من قول كتب قبل إجراء الانتخابات في (نادي القصيم الأدبي)، وتأخر نشره في ظل ما مر على البلاد من أحداث شغلتنا عما كنا نود قوله في الشأن الأدبي، وما يعتمل في مشاهده من حراك له ما بعده، ولا يفوتني أن أبارك للمجلس الجديد ولرئيسه الدكتور حمد السويلم تلك الثقة التي منحوا إياها، وهم لها أهل، وشهادتي لهم مجروحة فمنهم زملاء أعزاء وطلاب أوفياء، أثق أنهم سيتلقون الراية باليمين، وسيتحقق على أيديهم ما يصبو إليه أدباء المنطقة، وعتبي وتحفظي ورؤيتي لما تزل قائمة، وبخاصة حين لا يكون في نية وزارة الثقافة اعتماد أكثر من نادٍ أدبي في المنطقة، وها هي نتائج الانتخابات جاءت بما كنا نتوقعه ونتخوف منه فلا (الرس) منها عضو ولا (عنيزة) منها عضو وبهذا عُدْنا إلى حيث بدأنا.

ما الذي يحتاجه الأمير سلمان منا .. ؟[(١)]

لقد أفاض الناس كلهم أجمعون بما في نفوسهم من محبة وإعجاب وإكبار وثقة، وهم شهود الله في أرضه، وكلمة الأمة لا تجتمع على ضلال، وما سجله الناس كتابة أو قولاً عبر وسائل الإعلام، يعتبر مادة التاريخ ومداده، وسموه بهذا الكم الهائل من كلمات الثناء سيتعملق على صفحاته، وهو إذ قد دخله من قبل بطائفة من منجزاته، فإن تلك الأحداث أسهمت في تثوير أعماقه، والكشف عن أصول معدنه الكريم. وتلك الضجة الكبرى التي تتدفق عبر أنهر الصحف، وترف فوق موجات الأثير، لمجرد أن سموه يتخطى من مسؤولية إلى أخرى، ثم هو إذ برح [قصر الحكم] فإنه لن يخرج من أقطار [الرياض]، وستظل منجزاته كبناته، يحفها بعنايته، ويتابعها بمساءلته، ويباركها بدعمه، وخلفه الذي تلقى الراية باليمين عضده الذي خبر سيرته، واستلهم خبرته، واتبع سنته، حذو القذة بالقذة، غير أن الإلف والاندماج، وطول التواصل، أنشأت نوعاً من التوحد، يصعب معه الفصل، [والرياض] التي تربَّت في كفه، ونمت في كنفه، تودعه مسؤولاً، وتحتضنه مواطناً، ولسان حالها يقول:

تمتع بما بذلت، وأهنأ بما أسلفت في الأيام الخالية.

وكأني به وقد أغمض عين المسؤول، وفتح عين المواطن، ستكون الرياض غير الرياض، وسيكون ناسها غير ناسها، فيا لك من إله يقلب الليل والنهار.

فمن يتصور «سلمان بن عبد العزيز» يجوب شوارع الرياض كأي مواطن، وهو قد خبرها لبنة لبنة، وجداراً جداراً، وأسواقاً وحدائق وأبراجاً وجسوراً وأنفاقاً، وعرف دقها وجلها. إنها الحياة الدنيا المتدفقة كالنهر، فسبحان الذي يغير ولا يتغير. ولقد يكون فؤاد الرياض فارغاً، كفؤاد أم موسى، ولكنه مردود إليها، بما يحمله لها من هم، وما يحسه نحوها من حب، بوصفه مواطناً انشقت صحراؤها عن آبائه وأجداده وأمجاده، إن فجيعة [الرياض] بمفارقة «سلمان» لا تقل عن فجيعة وزارة الدفاع بفقد «سلطان»، وإذ ملأ «سلمان» الفراغ الذي تركه «سلطان» فإن «سطام بن عبد العزيز» و«محمد بن سعد» قد سد المكان الذي سده سلمان، وبلاد يسد خلفُها الأمكنة التي يبرحها سلفها هي بحق بلاد ودودة ولودة، تستحق من أهلها الوفاء وبذل الممكن من العطاء.

وسلمان الذي يرى، ويسمع مشاعر المواطنين، ويحس بثقل المسؤولية، لا تكون المسؤولية عنده مجرد إدارة الملفات أو تسيير العمل الرسمي، ولكنها في رد الجميل لهذه الأمة الوفية، التي يتضاعف حقها بقدر ما تبديه من ثقة ومحبة وولاء. وإذ يعجب الناس من فيض المشاعر، فإنني أشفق على من تتدفق تحت أقدامه تلك المشاعر، إن كل سطر يكتب، وكل كلمة تنطلق دين في ذمة «سلمان»، وهو إذ يكون الوفي والراد للجميل، فإنه سيظمي نهاره، ويحيي ليله، ليرد بعض هذا الجميل.

فالله وحده المسؤول أن يعينه على أن يكون كما يريد إخوانه وأبناؤه ومحبوه وكما يطمح هو، ويتطلع. و«سلمان» في تلك الأجواء المفعمة بكل جميل بأمس الحاجة إلى الدعاء الصادق بأن يسبغ الله عليه نعمه ظاهرة وباطنه، وأن يستعمله في طاعته، وأن يشد عضده بمن حوله من أبناء وطنه، ليحقق تطلعات ولي الأمر وطموحات الأمة. و«سلمان بن عبد العزيز» لم يعد مسؤولاً فحسب، إنه رجل دولة، تراه في كل موقع، وتعايشه في كل مشهد، يشاطر إخوانه في صناعة القرارات، واتخاذ التدابير لكل عارض، لقد كان أميراً للرياض، وتحت يده عدة مسؤوليات، ومكتبه مثابة للأمراء والأدباء والعلماء وذوي

---

(١) تاريخ المقال: ٢٢/ ١١/ ٢٠١١

الحاجات من جميع الأفاق، له يد في السياسة الخارجية، وله أيد في القضايا الداخلية، وله علاقاته مع مختلف الأطياف، وكل شريحة من شرائح المجتمع تقول: - سلمان منا. ولسان حاله يقول: - [أوزع جسمي في جسوم كثيرة] ودقته ومتابعته وسط طوفان تلك الاهتمامات مثار إعجاب المراقبين والمستهدفين، وهو إذ يكون وزيراً للدفاع، فإنها ستتسع رقعة مسؤولياته، لأنه سيضيف إليها ما كان فقيد الأمة يرعاها، ومن ذا الذي يجهل الأدوار التي يقوم بها «سلطان» الخير، ومن هنا أشرت إلى ما يحتاجه منا الأمير سلمان، إنه الدعاء الصادق، والمؤازرة الواعية، وشد العضد، وتقديم النصح، وحفظ الساقة، فهو المدين لهذه المشاعر، وهو المتطلع إلى مناصرتها ومؤازرتها. والشفافية وسياسة الباب المفتوح مدارج، يستطيع من خلالها كل مقتدر أن يعطي، وأن ينصح، وأن ينتقد، وأن يشير، فاليد الواحدة لا تصفق، والحبل الواحد أقل قوة من مجموعة الحبال. على حد: - [تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسراً] وبلادنا بمثمناتها الدينية والدنيوية، وبحضورها الفاعل في كل القضايا المصيرية وعلى كل المستويات أشد تطلعاً إلى القادرين من أبنائها، ليكونوا رِدْءاً ويداً واحدة متناصحين متصافين، يحب كل واحد منهم ما يحبه لأخيه، وهذه الإمكانيات الاستثنائية التي تنعم بها بلاد المقدسات بحاجة إلى كفاءات الأمة لكي، تثبت الأقدام، وتربط على الأفئدة، وتدرأ عن البلاد عاديات السوء، ومن ذا الذي لا يخاف من تلك [السوناميات] الهادرة من بين أيدينا ومن خلفنا، فلننظر جميعاً ماذا تحتاجه بلادنا منا ولنبادر إليه قبل فوات الأوان. بوركت يا وطني وبوركت رجالاتك وزاد الله تلاحم أطيافك.

متى نتخلّى عن ثقافة القابلية لكل رزية .. ؟!(١)

لا شيء يتم إلا من خلال النسق الثقافي، بوصفه الحاكم بأمره، الذي يتشكل منه وعي الأمة، ويدخل في تصرفات أفرادها وحراك جماعاتها، وخطورته أنه ينمو، ويتجذر مع الزمن، ويثبط أوابد الرؤى والتصورات البرمة من معطياته غير السوية في سلوك الحكام والمحكومين على حد سواء.

وما من تجديد ينهض به مصلح ديني أو اجتماعي أو سياسي إلا هو محاولة للخلوص من عقابيل تلك الأنساق المنسابة كالخدر من أفواه المنتفعين وسلوك المنحرفين.

وعقدة [الأبوية] تسليم طوعي للهيمنة الماضوية، التي تخلط بين العادة والعبادة ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا﴾ ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا﴾. وثقافة القابلية فيض من زخرف القول، يُزَوِّره المنتفعون، ويصدِّقه المغفلون، ولقد تبلغ السذاجة بالبعض، فينبري لتكريس هذا الإفك المفترى، وتفعيله، والذب عن حياضه، وكأنه الشرف الرفيع الذي لا يسلم حتى يراق على جوانبه الدم.

وانتفاضة الشعوب العربية في وجه الظَّلَمَةِ من الحكام، يجب أن تكون لقطع دابر تلك الثقافة المهيمنة، وإنشاء ثقافة جديدة تنبذ الإتكال والإسقاط والاستهلاك وتزكية الذات والعظامية وتستمد لحمتها من قيم الإسلام الآمر بالعدل والإحسان وحرية الإنسان، وحفظ ضروراته الخمس. هذه الثقافة المتجذِّرة من إفرازاتها أن طائفة من الحكام، لا يفرقون بين الأشياء والإنسان، بحيث يعدون الشعوب كما الأشياء غنيمة باردة، لا يجوز انتزاعها من بين أيديهم. إنها ثقافة القابلية لكل رزية، ومع كل الانتفاضات، فإنها لما تزل متكرسة في أذهان الحكام، ومن ثم ظلوا متمسكين بمناصبهم، مقاومين لكل من يطالب بالحرية والعيش الكريم. والصدام الدموي بين فئات الأمة، بوصف الجيش ورجال الأمن والحكام جزءاً منها، سيخلق ثقافة أخرى، لا تقل سوءاً عما سلف، ثقافةً تتسم بالعنف والتطرف، واستمراء القتل، وتصفية الخصوم، ومن الصعوبة بمكان الخلوص من تالد الثقافات وطريفها.

فثقافة القابلية استسلامية، وثقافة العنف صدامية، واستدامة حياة الاستسلام أو الصدام لا يحقق الحياة السوية. والشعوب التي ظلت مرتهنة للنَّفَس الثوري، لم تحقق أدنى حد من الحياة الكريمة، والأمة الآخذة بعصم المدنية والدينية منيتْ بثورات العسكر، وظلت محكومة من الثكنات، ولم يفرغ الثوريون لإقامة حكومة مدنية، ترعى الشؤون العامة والخاصة، وتفعِّل المؤسسات النيابية، وتمكن من تداول السلطة وتكافؤ الفرص عبر صناديق الاقتراع، ولم تسلم المقاليد لحكومة مدنية، تعتمد الشورى والنيابة والانتخابات الحرة النزيهة. وحين تُحكم الشعوب بهذا النفس الثوري، تتكرس عندها ثقافة التَّصْنيم والاستسلام والخنوع، ويستبد المنتفعون بالخيرات والمناصب، ثم تنمو عند هذا الصنف من الحكام أخلاقيات التَّفَرْعن، حتى يقول قائلهم: - ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ وما تشيعهُ وسائل الإعلام عما يجري من مواجهات دموية، وصراعات طائفية، وتجاذبات حزبية، ومظاهرات فارغة من أي معنى مؤشر على استشراء تلك الثقافة في الآفاق، وتكرُّسها في الأعماق.

---

(١) تاريخ المقال: ٦/ ١٢/ ٢٠١١

ولقد أشرت إلى شيء من ذلك في مقال سابق عن [الثورة العربية التي لم تأت بعد]، فالشعوب تحمل بتصرفاتها غير الراشدة ومفاهيمها غير السوية شطراً من الخطيئة، وثقافتها التصنيمية هي التي أنشأت هذا الصنف من الحكام:-

أمَّتِــــــي كـــــم صَـــــنَمٍ مَجَّدْتِـــــهِ

لـــــم يكُـــن يَحْمـــلِ طُهْـــر الصَّـــنَمِ

وعلى الشعوب وقد دبَّ فيها الوعي أن تعرف أنها هي النافخة بأفواهها وهي الموكية بأيديها، ولابد - والحالة تلك - أن تتلطف في معالجة أمورها، وألَّا تبرئ نفسها من إسهامها في صناعة هذا النسق الثقافي ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾. والثورة لكي تكون سوية، يجب أن تبدأ من الذات وعلى الذات، ﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِم﴾ فالتغيير لا يكون في الوجوه، ولكنه في السلوك والثقافة والمفاهيم.

والحكام المتمسكون بمناصبهم المتمترسون خلف ترساناتهم، سيكونون في النِّهاية هباء، ويكونون سدى، وسيلقيهم التاريخ في مزبلته المليئة بالظلمة والطُّغاة، ولكن الثمن سيكون باهظاً. والإشكالية ليست في المطاردة والقتل والتشريد، وتدمير المنشآت والبنى التحتية وإشاعة الخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات، فذلك وقتي، ومآله إلى الزوال، وكما يقول العامة: -[لا دم إلا بفصد عرق] و[شِدَّة وتُعَدِّي] ولكن الإشكالية في الثقافة المستدامة، التي هيأت تلك الأجواء، وفي الثقافة البديلة التي ستحل محل ثقافة القابلية. فهل الشعوب مهيأة لصناعة ثقافة حرة أبية تصالحية تعايشية واقعية، تشيع الأمن والاستقرار والمساواة وسيادة القانون، وتهيئ الأجواء لتتصدع الأرض عن كفاءات الوطن من ذوي العلم والحفظ والنزاهة والخبرة والقوة والأمانة وبعد النظر وفقه الممكن والأولويات؟ أم أن الغنيمة التي أُنْقِذَتْ من براثن الحكام الظلمة سيتهافت عليها ظلمة آخرون تحت مسميات براقة، يمارسون الظلم نفسه، ويشيعون ثقافة القابلية عينها؟ أم أن الفوضى المستشرية والاضطراب المستحكم سيظلان سيدا الموقف؟ بحيث يجد المتربصون والماكرون أوكاراً لهم وثغرات ينفذون من خلالها، فيستبدون بالأنفال، ويسرقون الغنائم، وتظل الشعوب المعذبة متأذية من قبل الانتفاضة ومن بعدها، على حد:- ﴿أُوذِينَا من قَبل أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ تستبدل ثقافة بأخرى، لا تقل عنها سوءاً ولا رزية، إن البوادر التي نراها، ونسمعها في بقاع كثيرة من وطننا العربي تؤكد أن الثورات الشعبية أزاحت عن كواهلها أثقال الظلم وكلاكل الإستبداد، ولكنها لم تجتث الثقافة التي صنعت تلك الاثقال. وتلك مصائب لا تقل عن رزية الحكام الهالكين.

إن على الشعوب أن تفقه الواقع، وأن تعي متطلباته، وأن تستشعر خطورة الفراغ الدستوري، وأن تعرف المصلحيين المستبدين من دول الاستكبار والاستعمار، الذين يتربصون بالضعفاء الدوائر. فالمرحلة المعاشة أشد خطورة، وأدق حساسية من مرحلة التطهير، لقد طويت صفحات الحكومات الجائرة المستبدة، وانكسر حاجز الخوف، وتمكنت الشعوب من ممارسة المعارضة والمساءلة، ومن حقها أن تتنفس الحرية، وأن تستأثر بالأنفال، وأن تنعم بالغنائم، دون أن تشيع الأثرة البغيضة والإقصاء المقيت والتصنيف المشرذِم. وواجبها أن تتمثل شرط التمكين في الأرض المتحقق بإرساء حضارة الانتماء:- ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِى الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا

بِالْمَعْروفِ ونهَوا عنِ المُنْكَرِ وَللهِ عَاقِبَةُ الأمورِ﴾ ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذيـنَ آمَنُـوا مـنكُمْ وَعَمِلُـوا الصَّالحَات لَيَسْتَخْلفَنَّهُم فى الأَرْض﴾.

كما أن من واجبها أن تتفادى هيمنة الطائفية والحزبية والقبليَّة، لأنها عقبات في طريق الأمة الناهضة من تحت أنقاض المهانة إلى فضاء الحياة الكريمة، وعلى الثائرين من الشباب المدججين بالسلاح والممسكين بأزمة الأمور، أن يدركوا خطورة المنعطف وصعوبة الموقف، وواجبهم أن يحققوا الشعارات التي ألهبوا بها العواطف، وجيشوا بها المشاعر، وحملوا بها الرأي العام على التدفق في الميادين والساحات والأسواق، وكسروا بها ظهر الظلمة. وعلى كل مكلوم أن يئد مظلمته، وأن يستقبل حياته الجديدة بروح التسامح والعفو والصفح، فالخطيئات مشتركة، والحكام البائدون منتج تلك الثقافة، واستبدادهم وظلمهم مبارك من تلك الثقافة المأزومة، التي صنعتها الشعوب، وتقبلتها، ولكي يحقق المهتاجون تطلعات الأمة، يجب أن يمكنوا لثقافة تسامحية تصالحية، تضع في [أجِنْدتها] : - مبدأ: - «عفا الله عما سلف» متوخين سيادة القانون، وحكم المؤسسات، وإطلاق يد العقلاء والمجربين وأهل الحل والعقد، وتمكينهم من التقدير والتدبير والتفكير، للتخطي بالبلاد والعباد إلى شواطئ السلامة ومراتع العز، مُسْتَصْحِبين الشعور بأن ما دمِّر بعشرات السنوات لا يمكن إصلاحه بلحظات، وأن الأمة لا يمكن أن تصلح بالفوضى، ولا بالتنازع، ولا بسيادة الغوغاء، وأنه لابد من السراة، ولا سرات إذا ساد الجهلة، واستبد الشارع بتصريف الأمور.

إن ثقافة الخنوع والعبودية والتصنيم لا يمكن أن تنشئ الشعوب الكريمة، وثقافة الطائفية والقبلية والإقليمية واحتكار الحق والحقيقة إرث ثقيل، لا مناص من رحيله مع الحكام الظلمة وأعوانهم، والسنوات العجاف تقتضي سنوات سمان مماثلة تزيل آثارها. ولتحقيق ذلك كله لابد من قيام حكومة مدنية، تنتخبها الأمة، ويحكمها الدستور، وإن لم تفعل ارتكست في أوحال الظلم والمهانة والاستبداد.

ومع كل ما سبق فأنا متفائل إلى حد ما، فالثورات قلصت الفساد في القطاعين: الخاص والعام، كما حولت الرقابة من المؤسسات المحكومة إلى الشارع الحاكم، وجعلت كل مسؤول يخاف من طوفان الشارع العام، وتبقى هناك إشكاليات الثقافة المقيمة ما أقام عسيب.

فهل يستطيع الرأي العام اجتثاثها من تخومها، كما استطاع إسقاط الحكومات المتنمرة؟ تلك هي رهانات الغد.. وإن غداً لناظره قريب.

وأخيراً: ليس بالخبز وحده يعيش الإنسان، لا بد من تجاوز المطالب الحيوانية إلى المطالب الروحية مطالب القيم والمواقف وصنع الإنسان، ومن هنا لابد من ثورة على الثقافة تواكب الثورة الشعبية على السياسة.

إشكاليات العمالة وارتباك الوزارة .. ! (١) (١)

تنتاب العمالة ووزارتها أقلامٌ ثائرةٌ وألْسنةٌ مائرةٌ، ومن كثرة المساس قلَّ الإحساس، وأصبح غير مجدٍ في المشهد العمالي نوح باك ولا ترنم شادي. ولما لم أجد بداً من الخوض في لجج المشكلات قراءةً ومعايشةً، تذكرت مقولة: «لعلَّ له عذراً وأنت تلوم»، وكدت أرفع قلمي وأطوي صحفي، وألتمس قضية فكرية أو سياسية أخرى، لأكون كمن يداوي نفسه بالتي كانت هي الداء.

غير أن الوزارة والعمالة تتمخضان كل ساعة عن دويهية تصفر منها الأنامل، ولا أحسب أن أحداً يجروء ممن يحمل هموم أمته على السكوت، بعدما يرى ويسمع، لأنه من الشيطنة الخرساء، ولا سيما أن الصحف المحلية تطالع القراء بفيوض القول عن مشكلات العمالة وهي بحاجة أشبه بخبط العشواء، ومع هذا فليس هناك بوارق أمل لحلحلة المشكلات النامية بعشوائية والمستشرية بفوضوية، ولربما يسهم الكتاب في تعقيد القضايا، ذلك أن منهم متسرعين ومبالغين ومرتجلين، والمقدمات الخاطئة تؤدي إلى نتائج خاطئة. ومما أدركنا من كلام الحكماء: - «إذا أردت أن تطاع فاطلب ما يستطاع».

ومن المؤكد أن هناك مشكلات كقطع الليل المظلم، من العمالة ومن الوزارة، ومن المواطنين، واختلاط المشكلات وتداخلها يتطلبان فرق عمل مدربة، لإعادة ترتيبها، وفك الاشتباك فيما بينها، ومن ثم مباشرة الدراسة الموضوعية والمنهجية، ووضع الحلول المرحلية أو الناجزة، والمقدور على تنفيذها، وأي مشكلات نمت مع الزمن، وتوفرت لها الأجواء المناسبة بحاجة إلى زمن مماثل لحسمها، وتوفير أجواء ملائمة للقضاء عليها، فالمسؤول لا يملك عصى موسى، ولا عفاريت سليمان، ولا قوة ذي القرنين، وأي جرح يرمُّ على فساد، يتبين من خلالة إهمال المسؤول، ولابد له من لحظة انفجار رهيب ونزيف مزمن، يضيق معهما نطاق الخيارات. وبين يدي حديثي لا أجد حرجاً من استدعاء الخطائين، ووضع النقاط على الحروف.

والخطاؤون ثلاثة:-

-العامل والمسؤول والمواطن. وما لم يدرك الخطاؤون أنصبتهم من ركام المشكلات فإن القضية سيضيع دمها بين قبائل المتنصلين والمواطنين على الخطايا. الشيء المؤكد أن السلطتين: - التشريعية والتنفيذية تودان إصابة المحز، وحماية المستهدف من أي خطأ يقع عليه، والمؤكد أن منشئ الأنظمة يود أن تنفذ، وأن يكون مقدوراً على تنفيذها، غير أن العمالة والمواطنين في سباق محموم للتحايل على الأنظمة، و«وزارة العمل» بوصفها المصدر والمورد لا يمكن أن تنهض بمهماتها على ضوء إمكانياتها المتواضعة، ولن يتأتى لها أن تشفي صدور المتأذين من تفاقم المشكلات، وهي بهذا المستوى وبتلك الإمكانيات، وهي بوضعها الحالي معذورة، فكيف يتأتى لها بإمكانياتها البشرية والمادية أن تحكم قبضتها على «عشرة ملايين» وافد، وآلاف المتسللين والمتخلفين والهاربين والمتسترين ومثلهم معهم من المستفيدين، ولاسيما أن المواطنين وذوي النفوذ يمارسون الاحتيال، ويتلمسون ثغرات الأنظمة واللوائح، ولا يصدقون الحديث معها، وما لم تكن الوزارة قوية وقادرة ومنتشرة ومتصالحة مع المستفيدين ومعتمدة على أنظمة واضحة ومحددة فإن المشكلة ستتفاقم، وقد يمتد الخلاف، ويتسع حتى يمس القضايا السياسية بين المملكة ودول العمالة. ولقد بدت بوادر ذلك، وبخاصة حين تدخل الإعلام المتوسل بالإثارة، واستغل بعض الوقوعات العارضة، لتهييج الرأي العام، وتحشيد مشاعره. وما

---

(١) تاريخ المقال: ١٣/ ١٢/ ٢٠١١

يعانيه المواطن من شح في العمالة المنزلية إن هو إلا ناتج التدخل الإعلامي، وتضخيمه لبعض القضايا، ولو كانت «وزارة العمل» في مستوى مسؤوليتها، لكان بإمكانها أن تئد المشكلات في مهدها، ونحن هنا لا ننحي باللائمة على طرف من الأطراف، لا على العمالة، ولا على الوزارة، ولا على المواطن، ولكننا نود أن يعترف كل طرف بدوره في المشكلات، ذلك أن التنصل لا يوقف إندياحها في كل الاتجاهات، واستفحال المشكلات وتناميها مؤشر على أن هناك أخطاء مجهولة أو غير مقدور على تلافيها، لنقص في الأجهزة أو خلل في الأنظمة أو قوة في الطرف الآخر، وفي الدعاء: - «**اللهم إني أشكو إليك ضعفي وقلة حيلتي وهواني على الناس**». فهناك ضعف في البنية، وقلة حيلة في الممارسة، وقوة في الطرف المستهدف تجهض أي محاولة للإصلاح.

ومما يصعد الإشكاليات أن العمالة تفد إلى البلاد، وقد وعت الثغرات، وأتقنت أسلوب التخفي، وعرفت طرائق الكسب المشروع وغير المشروع، بل عرفت المناطق والقطاعات ومستوى الجدية فيها، وهي قد انفقت كل ما تملك، لكي تصل إلى البلاد، وحين لا يرضيها الكسب الحلال، تحتال للكسب غير المشروع، ومن الشركات والمؤسسات والأفراد من لا يَقْدر على صرف الاستحقاقات في حينها، ومنهم من تكون الرواتب عنده دون الكفاية، ومن ثم لا يجد مانعاً من عمل مكفوليه في وقت راحتهم، لسد احتياجاتهم، وكفهم عن التظلم، والأسواق مليئة بالعمالة السائبة التي تعمل في الصباح بضع ساعات، لا تفي بالحاجة المطلوبة في المؤسسات كالبلديات والمستشفيات والجامعات وسائر القطاعات، ثم تنطلق لممارسة الأعمال الحرة هنا وهناك، والمتابع يلحظ الإرهاق والاسترخاء واللامبالاة في أوساط العمالة في الدوائر الرسمية، لأنهم يرهقون أنفسهم في ساعات راحتهم. ومن ثم لابد -والحالة تلك- من أن تكون هناك متابعة وإشراف، وليس هناك ما يمنع من صرف رواتب العمالة من قبل المؤسسة الرسمية، وتحسم الرواتب من أساس العقد في نهاية كل فترة. وإشكالية أخرى تتمثل بالمؤسسات الوهمية، التي تزوِّر العقود، وتستقدم بها الحرفيين والمهنيين، ثم تتركهم يعملون لحسابهم، على أن يدفعوا للكفيل مبلغاً رمزياً، قد لا يتجاوز «مأتي ريال» عن كل شهر من كل عامل، وهذه ظاهرة يعرفها القاصي والداني، وما لم يكن هناك متابعة ومحاسبة فإن الخَرْق سيتسع على الراقع.

إن هناك تلاعباً واضحاً، وكسباً غير مشروع، وظاهرة الفساد بادية للعيان، ولا يمكن احتمالها، وفوق هذا فإن هناك تداخلاً في المسؤوليات بين قطاعات حكومية تتيح الاتكالية والتنصل، وهذا التداخل لم يتح لأطرافه التنسيق، بل ترك الأمر على البركة.

وعشرة ملايين مقيم لا يمكن ضبط إيقاعهم بما هو قائم من الإمكانيات المتواضعة، فوزارة بحجم «وزارة العمل» لا تشفي صدور قوم متأذين من تعدد المشكلات وتناميها، ولو مورست الشفافية، لبدت سوءات لا يمكن احتمالها.

إشكاليات العمالة وارتباك الوزارة .. ! (٢)[1]

.. والعمالة في المملكة بهذه الإشكاليات المتفاقمة من أخطر الظواهر، وأشدها حساسية، فالمقيم قد يختلف جنساً ولغةً وثقافةً وأسلوب حياة، وقد يكون من أصحاب السوابق، وهذه السمات تعمق الخلاف بينه وبين المواطن، الذي استقدمه، ليكون في النهاية عدواً وحزناً، والطرفان مع هذا التناقض مرشحان للاختلاف غير المشروع عند أي احتكاك، وحين نعمق الرؤية في إشكاليات المقيم، فإن العدالة والمصداقية تتطلبان استدعاء مثالب الطرف الآخر، ذلك أننا نلتمس الحلول المتوازنة، ولا نبحث عن المشاجب والإسقاطات، ومن شغلته المشكلة توخى أخذها من أقطارها، وإذ تكون المملكة جاذبة ومغرية وقارة مترامية الأطراف، فإن أهلها كذلك، واختلاف عاداتهم وتقاليدهم وأسلوب حياتهم، يزيد من تعقيد المشكلة، وفوق هذا فإن هناك ضعاف نفوس، يعطون الدنية في مواطنتهم، ويمارسون التستر واستقبال الهاربين وإيواءهم وتيسير تحركهم، بل نجد عصابات تحترف ذلك، وتكسب من ورائه السحت، وجسم نبت على السحت لا يكون مؤهلاً لحماية بلاده وسمعتها، ومساندة المسؤولين في حفظ الحقوق المهدرة لكل الأطراف ومن كل الأطراف.

وكم من مواطن مستور الحال وفَّر من قوته وقوت عياله واقترض، ثم ظل شهوراً يرقب قدوم سائقه أو شغالته، حتى إذا حطَّ أحدهما رحاله، تخطفه المتربصون، ويسروا له الهروب، وكيف لا نتصور أن ظاهرة الهروب ظاهرة منظمة وعدد الشغالات الهاربات نيف على عشرين ألفا، وكيف لا نخاف من ضعف الولاء للوطن، وكل الهاربين يجدون من يؤويهم، ويخفيهم عن أنظار رجال الأمن، وكيف لا نتصور ضعف الأجهزة المعنية والمشاكل بازدياد. لقد سمعت وسمع غيري حكايات خرافية مضحكة مبكية (وشر البلية ما يضحك) وأجهزة الأمن تنطوي ملفاتها على قضايا، لو سربت للرأي العام لما قَرَّ له قرار.

إننا لكي نبدأ الخطوات القاصدة في سبيل الحل يجب أن نعترف بالضعف والتقصير والمواطأة، من كل الأطراف، وإدراك الخطأ والاعتراف به بداية الحل السليم. والداء العضال الذي لم يجرؤ أحد على كشفه المتاجرة بـ«الفيز» وبيعها في السوق السوداء، وقد تمنح لطالبيها رغبة أو رهبة، والوضع لم يعد يحتمل السكوت، فأمن البلاد واستقراره وأخلاقياته واقتصادياته فوق الجميع، والشفافية التي ننادي بها، ليست غاية في ذاتها، إنها وسيلة لمبادرة المشاكل، ووأدها في مهدها، وعلى السلطة التشريعية أن تفكر بجد، لوضع آليات تطبيقية لحسم مثل هذه المشاكل، فـ«وزارة العمل» لا تستطيع اجتثاث مثل هذه الظواهر المتجذرة، والمنهج الطبيعي والسليم أن تستلم الوزارة كافة الأعمال بعد قطع دابر المشاكل المتجلية للعيان، وعلى المسؤول ألاَّ يجد غضاضة من الشفافية، ومواجهة المجتمع بما هو قائم من أخطاء وتجاوزات، ووضع كل مقترف أمام مسؤوليته، وليس هناك ما يمنع من أن نقول: ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ ولكن يجب أن نضع إلى جانبها ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ وفي ظل تفاقم المشاكل، لم تعد الحلول المؤقتة والجزئية مجدية.

في ظل استشراء المشاكل وتنوعها وتعقدها، لابد من تفكير سليم يأتي الظواهر السلبية من قواعدها، وأهم الحلول: تهيئة الوزارة لتكون بإمكانياتها المادية وكفاءاتها البشرية كماً ونوعاً وأنظمتها الواقعية في مستوى المسؤولية الملقاة عليها، ولا بد من

---

(١) تاريخ المقال: ٢٠/ ١٢/ ٢٠١١

التوازن في حماية كل الأطراف، فالمواطن يلح في الشكوى، ويرى أن الأنظمة وأجهزة الأمن ووزارة العمل كلها في صالح العمالة، وأنه مظلوم، ودول العمالة وقناصلها يشكون من استغلال العمالة والإساءة لها، وهيئة حقوق الإنسان بفضولها وتدخلها غير المشروع تطلق التصريحات بين الحين والآخر: (وكل من لاقيت يشكو وضعه).

وإذ تكون البلاد منطقة جذب، ومجالاً للكسب، والدول بحاجة إليها، فإن من حق المسؤولين أن يضعوا من الأنظمة ما يحمي الوطن وحقوق المواطن والمقيم على حد سواء، ولتكن الأنظمة قوية وحازمة وصارمة ومنفذة، ذلك أن [من يخطب الحسناء لا يغلها المهر] . وإذا شعر المقيم بصرامة الأنظمة ووضوحها وحزم المسؤولين وقدرتهم على تنفيذها، استبعد من تفكيره العبث، وعلى أجهزة الدولة أن تضع قنصليات الدول التي تنتمي إليها العمالة في الصورة، بحيث تزود كل قنصلية بأي تصرف مخل بالأخلاق أو بالأمانات أو بالعقود صغيراً كان أو كبيراً، و لابد أن تكون القنصليات شريكة في المتابعة والمحاسبة، ومتى استفحلت المخالفات في جالية من الجاليات، وجب استدعاء مسؤولي السفارة، لتدارس الأمر، وتداركه، إن إطلاع دولة المقيم على أي مخالفة مدعاة للانضباط وتقليص للمخالفات، إن المواطن والمسؤول والمقيم (في لجة أمسك فلاناً عن فُلِ)، وعسى أن تفرج الأمور بعدما استحكمت حلقاتها، ولن يغلب عسرٌ يسرين.

وللخروج من المأزق بأسرع وقت وأقل تكلفة، لا بد من الخطوات التالية:

أولاً: الرفع من كفاءة الوزارة مادياً وبشرياً، بحيث تواجه مشاكل عشرة ملايين مقيم باقتدار.

ثانياً: وضع نظام واقعي لا مثالي، مقدور على تنفيذه وحمايته، بحيث يكفل حقوق الأطراف كلها.

ثالثاً: إلغاء المؤسسات الضعيفة والوهمية أو تقليصها بضم بعضها إلى بعض.

رابعاً: إلغاء الكفيل بمفهومه القائم، واستبداله بعقد ملزم: أداءً ومدةً ونوع عمل.

خامساً: إلزام مكاتب الاستقدام في المملكة والخارج بالكفالة الغارمة عن الإخلال بالعقد أداء أو مدةً، وذلك باقتطاع قدر من الراتب حتى نهاية العقد والوفاء به.

سادساً: أي مخالفة متعمدة، يجب فرض العقوبة المناسبة وتنفيذها والتشهير بالمخالف.

سابعاً: استخدام البصمة للمخالفين المعادين إلى بلادهم، بحيث لا يعودون إلى المملكة.

ثامناً: تحديد الإقامة بسنتين من صلاحيات المكاتب، وأربع سنوات من صلاحيات وكيل الوزارة، وست سنوات من صلاحيات الوزير، ثم لا يجوز التمديد بعد ذلك إلا بأمر سام، وتستثنى العمالة المنزلية.

تاسعاً: منع قيادة السيارة إلا للمستقدم لها.

عاشراً: منع العمل إلا في نطاق العقد.

أحد عشر: منع العمالة من ممارسة التجارة والتسويق إلا من خلال كيانات قائمة، وعلى ضوء عقود تخول مثل ذلك.

إثنا عشر: إيجاد محاكم فورية داخل مكاتب العمل ودوائر الأمن لحسم المشاكل واعتماد الغرامة والخروج النهائي بدل السجن.

ثالث عشر: تكثيف الدوريات والاستعانة بالمتعاونين والمتعاقدين لملاحقة المخالفين.

رابع عشر: تشكيل لجان لتجميع المشاكل، ودراستها، وتحليلها، والخروج بتوصيات وضوابط تحد منها.

خامس عشر: حصر العمالة في مجالات محدودة، فليس من مصلحة البلاد والعباد أن تكون العمالة في كل بيت وفي كل موقع وبطريقة فوضوية، بحيث لا ترى مواطناً في أي موقع.

سادس عشر: وضع ضرائب تصاعدية على كل المحلات التجارية الكبيرة التي تكل أمرها للعمالة.

سابع عشر: وضع عدة أنواع للإقامة مثل: إقامة سائق، مهني، مُسَوِّق، إداري، فني. ولكل نوع عدة مستويات، ومعاقبة أي مخالف لمهنته.

ولن يتحقق ذلك إلا بمتابعة دقيقة وحازمة ومن خلال حملات مكثفة وعبر فرق بشرية تغطي أكثر من عشرة ملايين وافد ومثلهم معهم من المستفيدين.

تلك بعض الهموم التي لا أشك أنها تساور كل مسؤول، ولأن الوضع لا يحتمل المزيد فإن مبادرة المشاكل مطلب رئيس من كل الأطراف.

مواقف التفعيل والتخذيل .. ؟[(١)]

تظل الأندية والمنتديات حواضن لإخصاب الفكر والثقافة والأدب، وبمثل تفاوت الحوامل في الإنجاب، تتفاوت تلك المنشآت، وحقُّها على الكافة مجتمعة أومتفرقة العدل في الحكم، والصدق في القول، والمعقولية في المطالب، بحيث لا تتحكم بنا عينُ الرضا، فَتَكِلَّ عن كل عيب، ولا عين السخط فتتنكر لكل فضل، وكم تتلاعب في البعض منا عواطف كره محبطة، أو عواطف محبة جامحة، حتى لا نقبل من تلك المنشآت صرفاً ولا عدلاً، أو لا نسمح لأحد أن ينبس ببنت شفة عنها. والمجازفات في الأحكام قد تحبط العاملين من ذوي الفروض أوالمتطوعين، فـ[حب الثناء طبيعة الإنسان]، وكل عامل يشد الثناءُ من عضده، ويشعره بحيوية الموقف. وداء البعض من الكتبة أنه محكوم بمصالحه، فهو[أنويٌّ] لا ينظر إلى الأشياء إلا من خلال ذاته. واختصار الأشياء في العوائد الذاتية مخل بالنزاهة، وقادح في المصداقية. والإسلام يحث على النظرة الشمولية، ويحذر من الأثَرة، ويمجد الإيثار: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾. وإذ يكون الاختلاف سيد الموقف، والصراع إكسير الحياة، فإن ممارستهما الحتمية بالحكمة والرويَّة وبعد النظر، واستيعاب المخالف من محققات النجاح لكل الأطراف.

ومتى حققت تلك المنشآت بعضَ ما يصبو إليه المنتفع والمتطلع، فإنها بذلك تملك مشروعية الوجود الكريم وحق الدعم المتواصل، ذلك أن الأحكام تقوم على التغليب، وإدارة الأشياء في فلك الذات مؤذن بالفشل، فالناس شركاء كما أصحاب السفينة، واختلاف حاجاتهم وتصوراتهم ورغباتهم لا تُخَوِّل أحداً منهم احتواء كل الفعاليات، وقديما قيل: - [وللناس فيما يعشقون مذاهب] إن علينا تفادي احتكار الحقيقة والأثرة والاستقطاب حول الذات، والخضوع للغرائز والشهوات والأهواء. ومن يوق هذه الرزايا يكن مثالياً وجديراً بأن يرود للأمة مراتعها ومواردها. وقدري الحميد، شدني منذ أربعة عقود إلى الأندية الأدبية والمنتديات والصالونات، رائداً ومشاركاً وعاملاً ومكرَّماً، وعندما ينتابني شعورٌ بالقول الفصل، أحس بأن فمي مليء بالماء، فأنا من جهة مسؤول، أتحمل شطراً من الإخفاق، ومن جهة أخرى مدين بالفضل لمن أسدى إليَّ معروفاً، غير أن المشهد الثقافي لا يغفر المواطأة، ولا يقبل السكوت، وبخاصة حين يكون المتردد في القول كـ [جُنْدب] الذي كلما حيس الحيس دعي، ليأكل حتى الشبع، ومن باب الاعتراف بالفضل لذويه، لا أجد غضاضة من الاعتراف بفيض الأفضال التي غمرتني من كل حدب وصوب، وحق تلك المنشآت أن نصدقها القول، على حد: [صديقك من صَدَقَك لا من صَدَّقك] . وبلادنا التي أفاء الله عليها بالأمن، ومَنَّ عليها بأن هداها للايمان، يتسابق موسروها في دروب الخير، ولم يذهبوا وحدهم بالأجور، كما أصحاب الدثور، ولكن الدولة أنشأت الأندية والجمعيات والمراكز والمهرجانات والدارات والمكتبات، وأسبغت عليها النفقات السخية، ولم يكن الحراك الفكري والأدبي والثقافي وقفاً على تلك المنشآت، بل أسهمت الجامعات وسائر القطاعات التعليمية والدعوية بالدعم والإنجاز. ولهذا أصبحت البلاد تعج بالحركة الأدبية والثقافية والفكرية، وأصبحت أفئدة الأدباء والمثقفين والمفكرين العرب تَهوِي إليها بأبدانها وبمنجزاتها، وأصبح كل ناشر أو أديب لا يجد أحدهما أوكلاهما له في تلك البلاد ولو مفحص قطاة، يَعُدُّ نفسه خاسراً أو مهمشاً. وواجب الأفراد والجماعات والمنشآت معرفة هذه الإمكانيات الاستثنائية، وتفادي أي تقصير يعطل تلك الفعاليات. والحديث عن المؤسسات الثقافية الرسمية أو التطوعية على سبيل الإشادة

(١) تاريخ المقال: ٢٧/ ١٢/ ٢٠١١

أو التقويم أو النقد، يتطلب سلامة المقاصد وحسن النوايا، وتوفر المعلومات، ودقة التصور، والخلوص من الأهواء والرغباتلذاتية، ذلك أنها جزء من مؤسسات المجتمع المدني، والمساس بها تحت أي دافع غير شريف مساس بمكونات الوطن، لقد سيء لهذه المؤسسات، إما بالإهمال أو بالتهميش أو بالتقليل من شانها أوبالتشكيك في أثرها، أوبالقدح غير العادل، المؤدي في النهاية إلى الاحباط والفشل وذهاب الريح، ولكي نخلِّصَ أنفسنا من الجور في الحكم أو السلبية في المواقف، فإن علينا تنقية الكلمة من الشوائب المزرية بمكانتها، وعلينا استذكار قوله تعالى: - ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ و وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً و وَهُدُوا إلى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾. تلك هي مهمة حملة الأقلام إزاء أي مرفق من مرافق الدولة، ولا سيما مرافق العلم والثقافة، فحمدها بما لم تفعل افتراء، وغمطها حقها تنكر لوطن أظلتنا سماؤه، وأقلتنا أرضه، ونبت لحمنا، ونشر عظمنا من خَيْراتِه، ومع هذا أو فوقه أو دونه تناسي رواد الأدب والثقافة والفكر، ممن يعود إليهم الفضل في الريادة أو التأسيس أو الانطلاق للحركة الأدبية في البلاد، وبخاصة الأحياء منهم، فكم تعاقب على [الأندية الأدبية] من رؤساء، وكم أسهم في الدراسات والمحاضرات والمقالات من رجالات، وكم بذل الأثرياء من الجهود والأموال والأوقات لإحياء المناسبات، واستقطاب الكفاءات، ومع هذا طَوى هؤلاء وأولئك النسيان، وأضر بهم التنكر، ولك أن تضيف إلى هؤلاء لفيفاً من الإعلاميين الذين أصبحوا خبراً بعد عين، ولست بحاجة إلى الشواهد، فهي كالمعاني مطروحة في الطريق، يعرفها القاصي والداني.

إن مشاهدنا تكاد تكون مرتبكة، وبعض أشيائها مرتجلة، لولا بشائر الخير المتمثلة في التوسع في المأسسة الثقافية، وفي مشاريع الجوائز وفيوض التكريم في بعض المؤسسات الثقافية، وفيما بادرت إليه الدولة من سنن حسنة، تمثلت بالجوائز والتكريمات، كل ذلك نراه كوميض خافت في أجواء مكفرة، نجد ذلك في [المهرجان الوطني للثقافة والتراث] وفي [مكتبة الملك عبد العزيز] وفي طائفة من المؤسسات والمراكز الثقافية، وهذا قليل إذا قيس بما نحن عليه، وما نعيشه من حراك ثقافي على مختلف الصعد.

إن على المؤسسات الثقافية أن تتدارك الوضع، قبل فوات الأوان، وعلى الكتاب والإعلاميين أن يعرفوا لذوي الفضل فضلهم، وأن تكون الإشادة بقدر الأداء، وأن يكون النقد ايجابياً، لا يعتمد التشهير، ولا تعكر صفوه الرغبات الدنيئة، وعلى كل مسؤول أن يوطن نفسه، وأن يعرف أنه مسؤول أمام الرأي العام، وأن من واجبه أن يذعن للمساءلة والنقد، وأن يكون نزيه اليد والجيب، قادراً على إدارة مهمته بالصدق والإخلاص، وكيف لا يستحضر كل مسؤول مهماته، وهو قد أدى القسم أمام ولي الأمر، إن عليه أن يستذكر قوله تعالى: - ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ وقوله تعالى: - ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْؤولُونَ﴾ و«**الكيّسُ من دان نفسه**». ذلك ما كنا نبغي، وما كنا نتطلع إليه: عدل وإنصاف وإحسان ومساواة، وتفان في سبيل الآداء السليم، ومتابعة، ومساءلة، ومحاسبة من الرأي العام، لكلّ من ولِيَ من أمر الأمة شيئاً. فلا خير فينا إن لم نقل كلمة الحق، ولا خير في المسؤول إن لم يسمعها، راضياً متأسفاً مبادراً إلى تلافي أي نقص، وبين المجاملة والافتراء والصمت مسافات وهمية، فهي مجتمعة أو متفرقة من الخصال الذميمة، وإذ يكون الحق وسطاً بين طرفي: الإفراط والتفريط، فإن علينا أن نتخذ الطريق القاصد، لكيلا

تضيع مثمناتنا بين جاحد أو مداهن، وفي النهاية فإن الوسطية جماع الخير كله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ وفي الأثر:

[أحبب حبيبك هوناً ما، وأبغض بغيضك هونا ما] .

ومن وراء [جوبز] [ولسون] .. ؟[1]

القارئ المفتوح على كل الخطابات كحاطب الليل، لا يدري ماذا تقع يده عليه، ولاسيما حين يكون «حاطبَ ليلٍ ضجر» كما هي حال المفكر الجريء معالي الشيخ عبد العزيز التويجري - رحمه الله.

ولست مدعياً، ولا متشبعاً حين أزعم أنني من هذا الصنف الباحث عن الحقيقة، ولقد أشرت من قبل في محاضرة لي عن [تجاربي القرائية] في مكتبة الملك [عبد العزيز] إلى عجوز «حضرمي»، حين لقيته، وأنا على عتبات الشباب، في [مكتبة بريدة العلمية] التي توارثها العلماء من [آل سليم]، وأحياها من بعد فضيلة الشيخ [عبد الله بن حميد] رحمهم الله جميعاً، وبخاصة حين حبب للملك [سعود] - رحمه الله - إقامة أول بناء مسلح لها في الثمانينات من القرن المنصرم، كانت تلك المكتبة المتواضعة مُنطلقي.

وإذ تكون تراثية علمية، تهتم بالعلوم الشرعية والعربية، فإن ذلك العجوز الحضرمي يختلف إليها منقباً في رفوفها الخشبية عما يريد، وحين لا يجده لا يني في احتناك روادها من أمثالي، يثير بينهم تساؤلات تدير الرؤوس؛ لأنها لم تكن حاضرة الذهنية المحلية. لقد حرَّضني على تخطي النمطية والتراتبية في القراءة، وأغراني بالخلوص من هيمنة الماضوية، وحبب إليَّ استشراف العقلانية، وعرفني بـ [المعتزلة] وتساميهم بالعقل على النص، وبـ[المتصوفة] وتساميهم بالوجدان على العقل والنص معاً، وبـ[الخوارج] وتمردهم على الواقع، وأسرَّ لي بلعبة الظاهر والباطن، وحَذَّرني من سلطة النص، وظاهرية الدلالة، ولم أكن يومها أدري ما المذاهب، ولا الاختلاف، ولا مستويات القراءة، ومن ثم ثوت مواعظه في قعر الذاكرة، غير أن أصداء حديثه عادت، كما لو كان أمامي بلحمه ودمه وحبوته، وزج بي في لجج الأفكار، فكنت جريئاً، لا أتهيب تلقي الخطابات، ولكن بعد أن تشبعت من [السلفية] مؤصلاً لمعارفها، ومحرراً لمسائلها، ومقتنعاً بمنهجها، وملتزماً بمذهبها، وعارفاً ببعدها التاريخي، ومفهومها الموضوعي، ومقتضياتها العقدية والتعبدية، لقد أرسلت فكري ليقتنص الشوارد ويفترس الطرائد [فالليث ليس يسيغ إلا ما افترس] .

وفي رحلتي المعرفية مررت بعلماء وأدباء ومفكرين، ليسوا على ما كان عليه محمد - ﷺ - وأصحابه، ولكن الجاهل بهم جاهل بشطر مهم من المعرفة الإنسانية؛ فهم على جانب من الدراية والعمق والشمولية والمنهجية، وإذ أَخَذَتْهم بنيات الطريق فقد فرَّ منهم المتورعون فرارهم من الأسد، وكل عالم قَيَّد نفسه في متون مذهبه يظل كما لو كان نسخة مكررة، بحيث لا يسمن ولا يغني من جوع، كما لا يجد عنده المتلهف للمعرفة ما يغني ولا ما يقني، وتلك الجرأة في تلقي الركبان عرفتني بلفيف من الفلاسفة والمفكرين، الذين كشفوا لي مجاهيل الحضارات الإنسانية، وعرفوني على مذاهب ومناهج وظواهر، لا تخلو من فائدة، بل أسهمت في اكتشاف دقائق ما أنا بأمسّ الحاجة إليه، وبخاصة عندما تحرفت لقراءة النصوص التراثية، التي ظلت كما لو كانت غابات ملتفة الأغصان، مخيفة المسارب. ومن بين ما عرفت في رحلتي الجريئة مفكر غربي معاصر، هو [كولن ولسون]، الذي تمرد على فكر قومه في [إنجلترا] المحافظة، ورحبت به [أمريكا] المتمردة على ذاتها، فكان بحق واحداً ممن أشتري ما يقع في يدي عنهم، وأصبح حقله في مكتبتي ينمو يوماً بعد يوم، ولا أجد حرجاً من الإلمام به، كلما وجدت متسعاً من الوقت، ووفرة في الجهد، وهو كما هو معروف عنه [وجودي] متمرد، حتى على [الوجودية]،

---

(١) تاريخ المقال: ١٠/ ١/ ٢٠١٢

ومتشائم لا ينفك عن التساؤل، ولا يتوقف عن البحث، ولا يتردد في التحول من رؤية إلى أخرى، إنه ناقد جريء للمذاهب والأناسي، وهو بهذا يُعَدّ جماع التيارات الفلسفية والفكرية المعاصرة، وهو في تيار الفلسفة الحديثة كـ[ابن تيمية] في تيارات المذاهب الكلامية والفقهية؛ فكلاهما جمع وأوعى، وقرَّب شتيت المعارف في عصره.

عرفت [ولسون] أول ما عرفته حين قرأت سيرته الذاتية [رحلة نحو البداية] وكتابيه: [اللامنتمي] و[ما بعد اللامنتمي] وكتابه: [الوجودية الجديدة] . ولأنني مغرم بالسير الذاتية فقد أوغلت في قراءة سيرته الذاتية الذهنية، وعرفت جرأته في التحول والتغيير، وسيرته تلك أفاضت عليَّ بملامح شخصيته، لقد كان قارئاً نهماً، وفيلسوفاً لا يقف به التجريب عند حد، وتشاؤمه وتساؤله فَتَقَا له حجب المجهول، ومكناه من تقعير الرؤية. ورؤيته الجريئة تشكلت من تجاربه الذاتية واكتشافاته القرائية. وتصديه العنيف لواقعه جعله تحت طائلة الاتهام بتحريض الناشئة ضد الحضارة الأوروبية، حتى لقد وصفه بعض المفكرين بـ«الكلب الراقص». واعتناقه للوجودية، ومحاولته الدخول في معمارها لتجديدها عائد إلى فشل الحضارة الصناعية في تهيئة الأجواء الإنسانية، التي تفسح المجال للعواطف والمشاعر، ومن عاش ويلات الحروب، وتجرع مرارات أسلحة الدمار الشامل، وشاهد المشردين والمعوقين والمعوزين ضاق ذرعاً بكل الأنظمة والدساتير، وتشفى بهدم المبادئ والمسلَّمات، والبحث عن منقذ للبشرية. فالتحول الذريع من الإنسانية إلى المادية فجَّر ملكات الموهوبين، ودفع بهم في أتون الثورة العلمية والفكرية.

والفلسفة الحديثة بجانبها العملي لا الفكري تمد بسبب إلى تلك الوحشية التي استعرت في أوروبا، وزجت بالساسة إلى الممارسات الوحشية، وأوغلت في إنتاج أسلحة الدمار والردع. لقد أحس بضياع كرامة الإنسان، وخاف على مصيره، وأيقن أن الإيغال في التقدم العلمي مؤذن بالفراغ الأخلاقي، والإمعان في استعباد الإنسان. على أن فلسفته المثيرة تشكلت من تلك الظواهر العدوانية؛ لتكون فلسفة عملية إجرائية، وليست حدسية ظنية. وأوروبا التي فاضت دماؤها ودموعها أيقظها خطاب التنوير، وأسرع في تلاحمها، على الرغم من تعدد لغاتها وقومياتها، فيما لم يتهيأ للأمة العربية خطاب يؤلف بينها، مع توحد لغتها وقوميتها. وميزة كتب [ولسون] أنها تنبعث من أعماقه، وتجسد رؤيته؛ إذ لم يكن ناقلاً من الآخرين، وإنما كان مستوعباً ومحللاً وناقداً ومتمثلاً، وهذا مكمن الفاعلية والحيوية، وإثراء القارئ، سواء اختلفنا معه أو اتفقنا فإنه يشكل منعطفاً مهماً في مسار الجدل الفكري، وتعالقه مع [الوجودية] لم يجعله مرتهناً لمنجزها، بل تجاوزها إلى رؤية جديدة، غيرت ملامحها، وحملتها من القول إلى الفعل، وحاجة الإنسانية إلى تفعيل الرؤى والتصورات، فالنظريات المثالية تظل حلماً يسترخي عليه المأزومون، وحين يُفَزَّع عن قلوبهم يجدون أنفسهم كما كانوا.

إن هناك مسافةً فلكية بين مسلم سلفي وعلماني وجودي متمرد، ولكن القواسم المشتركة تحدو بالمسكونين بَهمِّ أمتهم إلى التنقيب في تلاقيف الحضارة الإنسانية، بحثاً عن ضالتهم القائمة إلى قيام الساعة. وحين لا يكون بد من الجدل فإن علينا استحضار قوله تعالى: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، ومتى أمكن حوار الحضارات فإنه الخيار الإسلامي، ومن بادر الصدام فقد صار إلى المفضول. إننا بحاجة إلى الانفتاح على الآخر، تمشياً مع قاعدة: - [الحكم على الشيء فرع من تصوره] . وما لم نبعث الثقة والاطمئنان في نفس المعادل، ونجسر الفجوات بين الحضارات، فإننا سنفلس في تبليغ الرسالة التي أمرنا بإبلاغ ولو آية منها. إن لعن الظلام لا يشرق بالنور ﴿وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ

﴿يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، وثورة الاتصالات والمعلومات حصرت الإنسانية في قرية صغيرة، تتقاسم المواقع، وتتبادل المنافع، وحاجتنا إلى مُبلِّغ يجمع بين البيان والسيرة الحميدة، ومبادئ الإسلام أنفذ إلى العقل، وأدعى إلى الامتثال، وانحسارها بالتخلي والتجني، والتفاعل يعني استيعاب الآخر ومجادلته، دون الذوبان والانْمِساخ. ولما كانت إشكاليتنا في قابلية التبعية فإننا بقدر تواصلنا مع الآخر يكون بعدنا عن هُويتنا ومحققات حضارتنا، ومن ثم تكون قراءتنا دونيّة وليست نديّة.

وتقصي رموز [الوجودية]، ومن بينهم [ولسون]، من خلال إبداعاتهم الروائية، يفضح أغيلمة التفسخ الروائي؛ فهم عالة عليهم، بل هم سارقون، لا يحسنون خصف الورق لمواراة السوءات، واقرؤوا إن شئتم رواية [كولن ولسون] : [ضياع في سوهو] ؛ لتعرفوا أن ما يقال في روايات العهر والتفسخ والاعتراف المشين مُسْتلب منها، ومن أمثالها عند [سارتر] و[ألبير كامو] .

وقدرنا المأزوم الاستهلاك العلمي كما هو حالنا مع [جويز] والتقليد الأبله لفكر [ولسون] وإبداعاته ومن عاصرة، فهل نَشبُّ عن الطوق، لنقول للآخر:-

فاحبس نوالك عن أخِيك مُكرَّماً

فالليثُ ليس يسيغُ إلا ما افترس

وفيات مثيرة للتساؤل والاعتبار..![1]

نحن معذورون حين تمر بنا وفيات الأعيان، ثم لا نتمكن من المشاركة في التفجع والتأبين، وسيان: أكان المتوفون ممن نحب أو ممن نحترم، وبين الحب والاحترام محترس عقدي. فلقد تخترم يد المنون أناساً متميزين، خدموا الإنسانية، ولكنَّهم ليسوا من بني جلدتنا، ولا ممن يتكلمون لساننا، فيما تكون حياتهم استثنائية، لما تنطوي عليه من ذخائر، يجدر بنا تقصي شطراً منها، متى كان فيها مايصلح للإقتداء، فالحق ضالة المؤمن، والحق والفضيلة تنطوي عليهما ملل ونحل سماوية أو وضعية، ولكنها لاتحتكر شيئاً منها، وعذرنا عن عدم المشاطرة أن الأمة العربية من المحيط إلى الخليج تعيش في زمن تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت. والذين وجدوا متسعاً من الوقت، وفضلةً من الجهد، شاطروا المؤبنين والمتفجعين، ولكن البعض منهم شطَّ به الحماس، وأبعدته العواطف، وطوحت به الإمَّعيَّة عن المحجة البيضاء، وفوت على المتلقي الفائدة المرتقبة، ومهما اتسعت رقعة الإنسانية عند المتوفى، فإن المصداقية والعدل يتطلبان كبح الجماح العاطفي، وبخاصة حين يكون المؤبَّن من قومية أو ديانة أخرى، فحين أنشبت المنية أظفارها في (أبي طالب) عم رسول الله ﷺ، وكافله، ومناصره، حرص على أن يموت عمه على الشهادة، ليحاجَّ له بها عند الله، وأدى إلحاحه العاطفي إلى تَنْبيهٍ رقيق: ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ وحين ألحَّ في المساءلة والاستغفار، جاء الأمر العازم الجازم ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أصحاب الْجَحِيمِ﴾ ذلك أن الرسول ﷺ فيما يُرْوى عنه، قال: - «**والله لأستغفرن لك مالم أنه عنك**» فنزلت هذه الآية، وكل مفجوع مُحبٍّ لمفقوده أو معجب به، قد تشطح به رغبات غير مشروعة، فيسدي من الثناء ما لا تتسع له حياة المؤبّن، ومن ثم يفوِّت الفائدة الخالصة من الشوائب، ويفقد بذلك شطراً من المصداقية، وقد يبلغ به الحماس إلى الترحم على غير المسلم، أو القول بهاشميته، أسوق تلك المحاذير، وأعوذ بالله أن يجرمني شنآن قوم على ألا أعدل، بعد أن مات «ستيف جوبز» مؤسس شركة «آبل» = التفاحة المقضومة، ومطوّر اختراع «الفأرة» ورائد رؤية «الآيفون»، بعد أن امتلأت الآفاق من لغط الفضائيات، وفاضت أنهر الصحف من تحبير المقالات، وماكنت أعرفه من قبل، إذ لم يكنمفكراً، ولا أديباً، ولا فيلسوفاً، ولا سياسياً. ولقد حملني الفضول على تقصي تلك الحياة التي أثارت الكتاب والإعلاميين، وحرصت على الوصول إلى أدق دخائلها، والتعرف على الظروف التي صنعت منها تلك النجومية، ومن ثم جَنَّدت أبنائي وبناتي، ليتحسسوا منه في كل المواقع، ولا ييئسوا من روح الله، فكان أن تراكمت المعلومات، إلى حدِّ الاستفاضة والتواتر، حتىَّ لا أدري ماذا آخذ، وماذا أدع. و»جوبز» الذي أجْهَشَتْ عليه أمريكا، ورثته على لسان رئيسها بما هو أهل له، جدير بمثل هذا التفجع، وليست الكلمات التي أضفاها «باراك» عليه مُسْتَدَرَّةً بعامل التشابه بين ظروف حياتيهما، بوصفهما معاً ناتج زيجتين من وافدين مسلمين على بلاد الجذب والإغراء. أما أحدهما فـ«كيني» أسود، وأما الآخر فعربي سوري حمصي. ومكمن القبح والرذيلة عند الرجل الأبيض في (السواد) و(العروبة) و(الإسلام). وهنا لامناص من الوقوف طويلاً عند ملمح أو ملامح مهمة، ماكان لها أن تفوت، دون تفكيك لبنيتها، وتقص لتفاصيل معطياتها. لأن

(١) تاريخ المقال: ٣/ ١/ ٢٠١٢

تلك الملامح بعض مايشغلني. فلقد أشرت من قبل إلى سلطان (النسق الثقافي) على كل أمة، وشاهد ذلك لو أن «باراك» لحق بأبيه في (كينيا) وأن «جوبز» لحق بأبيه في (سوريا). أيكون لهما من التألق والتعملق ماكان لهما في (أمريكا)؟ ولسائل أن يسأل: ماهو سر هذا التألق لطفلين مشردين، عاشا في كنف أسر أمريكية، إما بالتبني، أو بمرافقة أحد الأبوين؟ إنه (النسق الثقافي) فأمريكا وفرت لإنسانها حياة كريمة، وهيأت له فرص التألق والتفوق، فسلطاتها الثلاث: - الدينية والسياسية والإجتماعية متناغمة، ومتآزرة، ومتفقة على تكافؤ الفرص، وتداول السلطة، وإحترام النظام، وتوفير الحرية، وحفظ الكرامة، وتهيئة الأجواء الملائمة لصناعة الإنسان، عبر مؤسسات تتوفر على كل مقومات الحياة السوية، هذا (النسق الثقافي) حمل الإنسان الأمريكي على تبادل الإحترام مع الأشياء والأناسي، وإستبطان الثقة بالنفس من خلال إمكانياتها الذاتية، بحيث لايتعدي على حقوق الآخرين، ولا يستغل الأشياء بهمجية، وبحيث يسود الدستور على الدولة والقانون على الحكومة، ويكون الناس سواسية كأسنان المشط، تمكن كل فرد من معرفة ماله وماعليه، فلايتجاوز حده، ولايستغل أخاه، ولايقفز على الحواجز، ولايتسلق المحاريب، بهذا استطاع الأطفال النكرات الوافدون أن يكونوا معارف، يسودون بالعصامية لا بالعظامية. فكان «باراك» رئيساً لأكبر دولةي العالم. وأصبح «جوبز» عبقرياً مبتكراً لأحدث التقنيات الدقيقة (النانو) وثرياً يملك (المليارات). فلا اللون حال دون «باراك»، ولا التشرد والتبني حال دون «جوبز». تلك واحدة من سمات الجاذبية لحضارة الغرب، لانريد من سياقها إلا العدل في الحكم، والتنبيه على نقص القادرين على التمام. فهل يكون للأمة العربية والإسلامية مالهؤلاء من تلك المثل؟. وأخرى ذات مساس بحياة المؤبن، تعد حلقة صدئة في سلسلة الرذائل، فـ»جوبز» تخلى عنه أبواه، وأعطياه لأسرة ترغب التبني، ولكنها ليست كأم (موسى) التي رده الله إليها، وحين شب عن الطوق، نظر إلى أبويه على أنهما مُنْتِجان «بيولوجيان» ليس إلاَّ، ومن ثم كفر بالديانتين الإسلامية والمسيحية، لتصوره أنهما عاجزتان عن احتمال عاطفة الأبوة والأمومة، فكان «بوذياً نباتياً»، ومات على ذلك. وما أكثر الذين يحمِّلون المبادئ أخطاء التطبيقات. وفات «جوبز» وآلاف الواهمين أن التسيب الجنسي والعلاقات الحيوانية الشهوانية تملأ الأسواق باللقطاء والمشردين، الذين يعكسون الوجة الحقيقي للحضارة، و»جوبز» الذي نسل من تحت ركام الرذيلة، يُعدُّ حالة نادرة، لايمكن التعويل عليها، ولا الإحتجاج بها، ولا اتخاذها قدوة، لقد كان موهوباً، وذكياً، وحين فَوتَّ على نفسه الدراسة، لم يفوت عليها صقل هذه الموهبة، ورعايتها. ولقد كنت أقول لطلابي: - مثلما أن كل مولود يولد على الفطرة، فإنه يولد ومعه موهبة، علمها من علمها، وجهلها من جهلها، وتفويت الموهبة أخطر من تفويت الدراسة، وماأكثر الذين جنوا على أنفسهم، أو جنت عليهم أنساقهم الثقافية، فخسروا مواهبهم، ولم تجد دراستهم شيئاً، فكانوا كسقط المتاع، مانوده من النخب الراصدين لحيوات الإستثنائيين أن يفرقوا بين المبادئ والممارسات، والوقوعات والظواهر، والندرة والشيوع، ولن يكون لغطهم مجدياً حتى يكون الحكم فرعاً عن التصور، وحتى يكون كل شيء عندهم بمقدار، لايجازفون في الأحكام، ولايستخفون بالعقول، ولايهدرون التجارب، ولايفوتون الفرص.

الاهتياجات العاطفية وانعكاساتها السلبية .. ! (١) [(١)]

لفيف من الكتاب بدافع الحب المفرط أو الكره المفرط أو الجهل المفرط يتوسلون بالمبالغة والتهييج العاطفي فيما يثيرون من قضايا ذات أهمية ولقد يسعون ويحفرون ليكونوا حديث المجالس ومثار الانتباه ومجال المداخلات، ومتى طغى الحب أو الكره وتحكم الجهل طفحت الوسائل الإعلامية بالإثارات الفارغة.

ولكيلا تتضاءل صورة هذا الصنف من الكتاب المتشبعين بالجعجعة فإنهم لا يتورعون من تحويل الحبة إلى قبة وتصيد الوقوعات العارضة والإيجاف بالقلم واللسان لتتحول إلى ظواهر خطيرة تعم الوهاد والنجاد وتحتنك القيم الأخلاقية، والاقتراب من بعضهم لكبح الجماح وطمر المبالغات قد يدفع بهم إلى محاولة تصفية السمعة ومصادرة أبسط الحقوق والدخول في جدل عقيم تفوت معه الفرص.

وخروج هذا الصنف من الكتبة عن متْن القضايا إلى التشكيك بمشروعية المساءلة والتلويح بعدم أهلية المتَصدِّي لتلك الاحتدامات الهوجاء ينحِّي القضية عن مسارها السليم ويصرف الأنظار عن خطل التناول، إذ إن تناول القضايا مع المسائل مجردة من أطراف التنازع يكشف العوار ويعري الخطل.

ولو أن المتأذين من تلك الاهتياجات وجدوا من يأطر التناجي في محيط القضايا لما ترددوا في قمع الطيش وتعرية السوءات وإسقاط المتشنجين كورق الخريف، ولكن المهيجين للعواطف المسرفين في المبالغة والنفخ في البالونات الفارغة لا يتورعون من النيل الشخصي لخصومهم واجتراع الأوصاف المضحكة، وكم من متأذ فكَّر وقدَّر ووازن ثم غلَّب السلامة بالصمت المدان، وتلك أمنية هذا الصنف من الكتاب، فالجو حين يخلو لهم يكونون كـ(القبرة) التي عناها الشاعر بقوله:

يالـــــك مـــــن قبـــــرة بمعمـــــر

خـــلا لـــك الجـــو فبيضـــي واصـــفري

والتصدي لخطل أولئك أو اعتزالهم خياران أحلاهما مر، فالكاتب الذي يحترم نفسه وقارئه ومجتمعه وسائر مؤسساته يسوؤه أن تكون الكلمة للمهتاجين العزل ثم لا تكون هناك كوابح تحد من شططهم وترد شاردهم إذ لا خير في جهل لا تكون له بوادر عقل تحمي صفو الحياة أن يكدرا.

ونحن إذ نتفق على أن الخطأ والتقصير والفساد وسوء الأخلاق موجودة وأن المجتمع بكل أطيافه واتجاهات أبنائه يتسع لكل الاحتمالات وأن واجب النخب أن يكونوا مرايا مسطحة ومحدبة ومقعرة يمر بها كل من ولي من أمر الأمة مسؤولية كبيرة كانت أو صغيرة، وأن الجميع يقعون تحت طائلة المساءلة والنقد وأن الخطأ والتقصير متوقعان من كل عامل وأن كل عاقل راع في موقعه وهو مسؤول عما استرعاه الله عليه، فإنه يجب أن نعلم بأن مصلحة البلاد والعباد رهينة التداول الإعلامي وصراع المصالح وأن المتربصين لا يتوانون في التقاط سقط الكتبة البراقشيين بوصفه وثائق إدانة وحفظ فيوض القول الذي لا يلقي له المتهيجون بالاً يتراكم ثم يتحول إلى عدو وحزن في ساعات العسرة، وفي ظل هذا التربص المريب لا يكون هناك حذر ولا سوء ظن، ومن ثم يكثر التهافت على الإثارات الفارغة ظناً منهم أن كلام الليل يمحوه النار، وما كان في حسبان أولئك أن الأعداء لا يغادرون صغيرة ولا كبيرة إلا أحصوها، حتى بيانات وزارة الداخلية

(١) تاريخ المقال: ٢٦/ ٧/ ٢٠١١

في القصاص الشرعي تدخل البيانات الإحصائية وتزود بها منظمات حقوق الإنسان على الرغم من أن الوزارة تمارس حقها المشروع وتنفذ مقتضيات البيعة وتحكم شرع الله الذي هو دستور البلاد.

إن الدول المستبدة تكتب ما يقوله الصادق والكاذب والعقلاء والعاطفي والمجحف والمنصف وتستغله في الوقت المناسب.

والمتابع للصحافة وسائر وسائل الإعلام تسوؤه بعض الإثارات الفارغة والاتهامات المجحفة لبعض مؤسسات المجتمع المدني أو لفرد معين من المواطنين عالماً كان أو تربوياً أو لشريحة من شرائح المجتمع، ولسنا بحاجة إلى ضرب الأمثال، لقد حُوِّلت بعض الوقوعات الفردية إلى ظاهرة عامة تمس كل أفراد المؤسسة ومن ثم نِيل من تلك المؤسسة أو هذه الجمعية وأُمطرتا بوابل الانفعالات غير المرشَّدة، ولقد يخلط البعض بين النقد الموضوعي والمحاسبة المشروعة وبين كيل الاتهامات مجازفة وبدون تحديد، ولقد يخلط آخرون بين المبادئ والممارسات.

إن الصحافة عين الأمة ولسانها الناطق ولن تستقيم أمور الأمة حتى تملك الصحافة حريتها ويملك الكاتب حقه في أن يقول كلمته، ولكن كم هو الفرق بين حرية الصحافة وحق الكاتب وما نقرؤه ونشاهده أحياناً عبر وسائل الإعلام من تجريح واتهام ومصادرة لأبسط الحقوق، وما اضطرت الدولة إلى إصدار نظام المطبوعات وحقوق الملكية الفكرية وتشكيل مجالس تأديبية لمحاكمة أي متعد على سمعة المؤسسات أو المواطنين إلا بعد استفحال هذه الظاهرة التي نضيق ذرعاً بوجودها في ظل ثورة الإعلام والاتصالات وتدخّل المنظمات العالمية في أدق تفاصيل الحياة ظلماً وعدواناً. فكم من مجرم حرب زكِّي، وكم من مجاهد جُرِّم وطورد، وكم من مجرم باع كل شيء في سبيل النجاة ببدنه وكم وكم، ولما يزل الحبل على الجرار.

والمتابع الحذر يرى أن المشهد الإعلامي يتمخّض كل يوم عن مقال أو حملة إعلامية عفوية أو منظمة يتدافع في أتونها لفيف من الكتاب المتسرعين بالاتفاق أو بالتداعي، والمجتمعات المؤسسية لا تدع شيئاً يطير في الهواء، إنها تقيد شوارد الكلمات ليكون سلاحاً توهن به الخصوم، ومن المسيء تدافع بعض الكتبة والتقاطهم وقوعات عارضة صدرت من فرد ينتمي إلى مؤسسة تربوية أو دينية أو من مواطن لا يمثل بتصرفه أخلاقيات مجتمعه والنفخ فيها حتى تكون قضية كبرى لا يحسن السكوت عليها وحتى تصبح بقدرة قادر سمة من سمات هذه الأمة وهي منها براء براءة الذئب من دم يوسف. ولقد يبلغ الاهتياج العاطفي حد استعداء السلطة مع أن الواقعة خاصة وقد تكون عارضة، وبالإمكان حسمها بإجراءات روتينية تمارسها الإدارة المختصة بمجرد لفت النظر ثم لا يكون لها أي أثر على مجريات الأحداث العامة.

ولعلنا نذكر ما قيل من قبل عن المنهج الخفي وعن جمعيات تحفيظ القرآن وعن أفراد استزلهم الحماس الديني ثم استبانوا الرشد قبل فوات الأوان، ولما تزل آثار تلك الاهتياجات باقية، وهي إذ أصبحت خبراً بعد عين خلف من بعدها قضايا تكاد تؤكد أن التاريخ يعيد نفسه، وما نوده أن نتعظ بركام الأخطاء وغثاء التجاوزات، فالعاقل من وعظ بغيره، ودونه من وعظ بنفسه والخاسر من لم يوعظ بغيره ولا بنفسه.

الاهتياجات العاطفية وانعكاساتها السلبية .. ! (٢)[١]

لقد بلغ الصراع العالمي في مختلف المجالات ذروته، وتمخض هذا الصراع بشقيه البارد والساخن عن حركات إرهابية لم يسلم منها أحد.

وهي حركات وتنظيمات ومنظمات لا تنتمي إلى دين ولا إلى دولة ولا إلى عرق، وإن جالد وجاهد المغرضون لإلصاقها بالدين الإسلامي وبالدول الإسلامية، ومن ثم تدافعتها وسائل الإعلام، وروَّج لهذا التدافع كتبة متسطحون ومهتاجون عاطفيون، وكادوا يلصقونها بدولهم وبمؤسساتهم الدينية والتربوية. لقد قَبِل هذا الصنف من الكُتّاب الاتهام رغم فداحته وما يترتب عليه من مسؤوليات لا قِبل لدولة باحتمالها، بل شايعوه وأنحوا باللائمة على مؤسساتهم، وتبادلوا الاتهام معها، وكاد يكون بأسهم بينهم شديداً. وهذه المعارك الكلامية الصاخبة قدَّمت لأعداء الأُمَّة أقوى الوثائق. وفي رسالة جوالية تلقيتها من أحد المهتمين تقول: «أوضح التقرير الدوري حول الإرهاب في دول الاتحاد الأوروبي أن مائتين وتسعة وأربعين هجوماً إرهابياً حدثت في أوروبا العام الماضي، تم تنفيذ ثلاثة منها فقط من قِبل جماعات إسلامية، في حين نُفِّذ معظمها (٢٤٦) هجوماً على أيدي متطرفين محليين، يُعرف عن أكثرهم عداؤهم الشديد للمسلمين وللتعددية الثقافية». ولعل آخر الشواهد ما تعرضت له «النرويج» على يد متطرف يميني ليس عربياً ولا مسلماً.

والدولة المتصالحة مع كل الحضارات المسانِدة لكل المظلومين والمنكوبين والساعية لإصلاح ذات البَيْن والمتسامحة والمحاورة لا تنفك من المواجهة والدفاع عن الذات جراء التلاحي غير المسؤول بين أطيافها. وبدلاً من أن تمضي في طريقها الإنساني تأسو وتواسي وتتوجع تراها مكرهة في استنزاف طاقاتها في المجاهدة والمجالدة لتصحيح المفاهيم الخاطئة عن سلفيتها المستنيرة.

لقد بسطتُ القول حول هذه الظاهرة العالمية في كتابي «أبجديات سياسية على سور الوطن»، وأبنت عن خطل هذا الصنف من الكُتّاب. والإشكالية أن الصراع بين دعاة «الليبرالية» والعلمانية وسائر التيارات المعتدلة والمتشددة يدفع إلى تبادل الاتهامات.

وناتج هذا الصراع الفارغ يقيد على حساب الأمة البريئة من وضر التطرف.

وأخف من هذا ما يُثار حول بخس العمالة الوافدة حقها أو ظلمها والتعدي عليها وظاهرة الكفيل وجَوْره، حتى لقد دخلت في تلك الزوبعة منظمات حقوق الإنسان واتهمت المملكة، وسيء الظن بأنظمتها ظلماً وعدواناً. ولقد تابعتُ بامتعاض ما يُثار حول عاملة المدينة المنورة، وتتابع كلمات الاستنكار والتهييج من كتبة متسرعين، مما أدى إلى إيذاء الكفيلة وتشويه سمعتها وإثارة الغوغاء في إندونيسيا. وفي ظل هذه الشنشنات الأخزمية تحوَّل الموضوع إلى قضية سياسية خلطت الأوراق وأزَّمت المواقف بين دولتين تتبادلان المصالح، وانعكس أثر هذه الزوبعة الفارغة على المواطنين الذين لا ناقة لهم في الموضوع ولا جمل، وبعد هذه الحوسة تكشفت الأمور، وثبتت براءة الكفيلة، ولم يأسف أحد عما بدر منه، واليوم تُثار قضية أخرى حول اعتداء شاب عشريني على عامل آسيوي بالضرب المبرح، ومستند المتذمرين توثيق الحدث بالصوت والصورة، والحادثة إذا صحت، ولم تكن حيلة غبية لمجرد الإثارة، فإنها واقعة متوقعة، وسبيل حلها وإنصاف الأطراف بيد الجهات الأمنية والقضائية، وليس هناك ما يدعو إلى التباكي والعويل وحشد الاتهامات والتحذير والاستعداء للسلطة، وكأن الملايين من العمال يلاقون ما يلاقيه ذلك

---

(١) تاريخ المقال: ٢/ ٨/ ٢٠١١

العامل الذي وجد مَنْ يتطوع ويصوّر الحدث ويوثّق الاعتداء، وما من أحدٍ فنَّد ما تتعرض له البلاد من مفاسد لا تُحتمل تتمثل بالقتل والسرقة وإشعال الحرائق والتزوير وبيوت الدعارة ومصانع الخمور والهروب، ولو كشفت الجهات الأمنية عما لديها من ملفات مرعبة لما نبس مثل أولئك الكُتّاب بكلمة امتعاض واحدة. لقد انهارت مؤسسات تجارية وأفلست مصانع ومزارع وصناع مستثمرون بسبب فَقْد الأمانة عند العمالة، وشكَّل هروب العاملات رقماً لا يُحتمل، حتى لقد تجاوز في آخر إحصائية عشرين ألف عاملة فيما يخسر الكفيل على الاستقدام أكثر من عشرة آلاف ريال، وينتظر أكثر من نصف عام لكي تصل إليه عاملته، وإذا قدر وعثر على الهاربة بعد عام أو أكثر طولب الكفيل بإعطائها حقوقها وترحيلها على حسابه، ولا يترتب على هروبها أي غرامة أو عقوبة، والهاربون والهاربات حين يملؤون جيوبهم يغودون إلى كفلائهم لاستكمال إجراءات السفر، وثغرات الأنظمة يستغلها العامل بأسلوب ذكي، ولم تتم دراسة أي ظاهرة عمالية لا من الكُتّاب ولا من الجهات الرسمية ووضع الحلول والضوابط التي تحمي كل الأطراف وتصون الحقوق وتحفظ البلاد والعباد من عبث العابثين، فأين الكُتّاب من تلك المخالفات المضرة بمصالح الوطن والمواطن؟ ومن ذا الذي ينكر المخالفات التي تقترفها العمالة والأموال الطائلة التي تُحوَّل بطرق مشروعة وغير مشروعة، والتي تُقدَّر بعشرات المليارات؟ إن المواطن مظلوم، والنظام لما يزل في صالح العمالة، والناس جميعاً يتذمرون من جور العمالة وهروبهم وما يصدر منهم من إيذاء وتهديد وإفساد، وكل الذي أرجوه من الجهات الأمنية الإفراج عن الحوادث والمخالفات والجرائم التي تقترفها العمالة في البيوت والأسواق والمتاجر والمزارع وتزويد قناصل دولهم بقوائم الوقوعات وتزويد الصحافة بتفاصيل الأحداث؛ ليعرف المتباكون حجم الإيذاء. إننا لا ننكر أن من بيننا ضعاف نفوس وفاسدي ضمائر وسيئي أخلاق، وأن إيذاء العمالة وأكل حقوقهم والجور عليهم حاصل، وأنهم ضيوف علينا، وحقهم الإكرام وحُسْن التعامل ودرء الظلم عنهم، غير أن ما يلاقيه البعض منهم على يد شراذم قليلة لا تمثل أخلاقيات المجتمع السعودي لا يُقاس بما تعانيه البلاد من مفاسد تضر بالأخلاق والاقتصاد والأمن، وكم كنت أتمنى من كل متسرع لا يهتم إلا بتجييش العواطف واستعداء الضمير العالمي على بلاده أن يتحسس عن نبض الشارع العام، ويطلع على المخالفات والجنايات الجارحة.

إن بلاداً تهفو إليها أفئدة المتعبدين والمتاجرين والعاملين بأمسّ الحاجة إلى أنظمة صارمة تحمي حق المواطن والمقيم، وتضع كل طرف أمام مسؤوليته. إن المواطن حين يخطئ يؤخَذ الحق منه؛ لأنه شاهد ومقتدر ومقدور عليه، أما العمالة فإنها تُبدي إفلاسها ولا تجد من يسدد عنها الغرامات والحقوق، وقد تختفي عند ضعاف النفوس، وقد تجد من الكُتّاب من يضخم معاناتها ويسهم في استغلال عواطف الأبعدين الذين لا يعرفون معاناة المواطن والخسائر الفادحة التي يتعرض لها. والعدل والمساواة لن يتحققا إلا بحفظ حقوق كل الأطراف. والقادم إلى البلاد يأتي بطوعه واختياره، ويبذل الغالي والنفيس للحصول على «فيزة» دخول، ومن حقنا أن نضع الشروط الكفيلة بحفظ حقوق المواطنين، ولكي يحسب المتلاعب حسابه علينا أن نشترط شخصية اعتيادية غارمة متى تحمّل العامل مسؤولية ذات ارتباط مالي، وعلينا توعية المواطن بحيث لا يضع أمواله تحت تصرف عمالة فقيرة فاقدة للأمانة. إن علينا إشعار كل قادم بأن أنظمتنا فوق الجميع، ومن رآها جائرة فليزم أرضه، ومن رضي بها فعليه وعلى دولته وإعلامه بأن يقبل بها وأن يتحمل تبعاتها، فما أكرهنا أحداً وما غررنا بأحد «ومن يخطب الحسناء لا يغلها المهر».

إننا دولة جذب، والعمالة تفد إلى البلاد وفي نيتها الكسب السهل والسريع، وحين تجد الأجواء الملائمة للعبث والفساد بمواطأة من ضعاف النفوس تعيث في الأرض الفساد،

وحين تنفِّذ الحكومة أنظمتها المستمَّدة من الشريعة الإسلامية تثور وسائل الإعلام لتزييف الحقائق واستدرار عواطف العالم، وقد تجد تلك الوسائل من أبناء البلاد من يشايل ويساند، وأنظمتنا جزء من سيادتنا، والقادمون قابلون بها على ما هي عليه، وليس هناك ما يمنع من التعديل والتبديل متى وجدت الخيرة في ذلك. لقد بلغ الاهتياج العاطفي حدود وصفنا بالمتاجرة بالبشر، ولو وقف المرجفون على حجم الخسائر المادية والمعنوية التي تتعرض لها البلاد والعباد لما أنحوا باللائمة على شيء من إجراءات البلاد. لقد سيء فَهْم الكفيل، واضطرت الدولة إلى مواصلة التعديل والتلطيف، وظاهرة الكفيل ظاهرة طبيعية، فهو يبرم عقداً لإنجاز عمل منزلي أو تجاري أو صناعي أو زراعي لمدة سنتين مقابل راتب شهري، والعامل أو العاملة يقدمون على ذلك، ولا يدخلون المملكة إلا بموجب هذا العقد، ولا يمكن الوفاء بمقتضياته حتى يكون الطرف الآخر كفيلاً لهذا القادم ملتزماً بما يترتب على عمله وفق أنظمة مساندة يعرفها العاملون، ومغادرة العامل مقر العمل إضرار بالكفيل وتعطيل للعمل ومن ثم وُجدت القيود، وهي واجبة وضرورية، ومع ذلك أُلغيت، وأصبح من حق العامل التنقل من مكان لآخر بحرية، الأمر الذي عرَّض المشاريع للتعطيل أو التأخير، وإذا طالب الكفيل بتقييد تحرك المكفول لضمان الإنجاز دست المنظمات أنفها، ورأت أن مثل ذلك لون من ألوان المتاجرة بالبشر، ولما كانت أنظمتنا مطروحة في الطريق عند سائر القنصليات ولدى مكاتب الاستقدام، والعمالة لديها حسن دقيق تعرف من خلاله كل شيء، وتعرف تبعات ذلك، فإن من الخطأ التشهير بالكفيل ونظامه. إننا بأمسّ الحاجة إلى حفظ حقوق المواطن والوطن وصيانة البلاد من أي فساد، وعلى كُتّابنا أن يوازنوا بين الحقوق والواجبات، ولاسيما إذا كان المواطن مقاولاً محكوماً بزمن، وتسرب العمالة مُخلّ بالالتزام.

بعد هذا هل يكف المرجفون والمهيجون والمهتاجون ويوازنون بين مقترفات العمالة وجناية ذوي النفوس الضعيفة من المواطنين؟ إن هروب عشرين ألف خادمة لا يمكن أن يحال إلى سوء معاملة ربة البيت، والمؤسف أن هذا الكم الهائل يجد من يؤويه ويؤجره. لقد بلغ التأجير للخادمة الواحدة أربعة آلاف في شهر رمضان، وهذا الكسب غير المشروع أغرى العاملات على الهروب من الكفلاء.

كل الذي نوده من الكتبة المهتاجين أن يكونوا ردءا لسمعة بلادهم، وأن يعلموا أن حصائد الألسن والأقلام تكبُّ الناس على وجوههم في النار.

القراءةُ التآمريّة والقراءةُ التفاعلية .. ؟[1]

لمَّا ضاق أحد المفكِّرين ذرعاً بخصومه الذين يتسلّلون إلى ثغرات التأويل ويستنجدون بآليات التفكيك، ليوهنوا عزماته ويغتالوا سمعته ويجيشوا عليه العامة، بدافع التنافس غير السوّي صاح بهم قائلاً: «اقرؤوا ما تحت السطور وإياكم تقويلي ما لم أقل» ... وكم من ناهض بالحق وإلَيْه خانه سوءُ التعبير وصَفَّتْ سمعته صيحةُ العامة وتربصُ الخصوم غير الشرفاء.

والحضارة الإسلامية كأي حضارة تلتهم ما حولها وسعت أشتات المذاهب والتيارات والطوائف والأهواء، والملل والنحل المتصارع عليها من أجل الحق أو من أجل الانتصار لوجه الله أو لوجه الشيطان، ولم يخل فريق من كَذَبَةٍ متعصبين أو نفعيين يحرِّفون الكلم من بعد مواضعه ويفترون الكذب، ولو أنّ أهل كل نحلة دفعوا بخطابهم، وقالوا كلمتهم ومضوا لشأنهم على سَنَنْ: «**بلِّغوا عني ولو آية**» لأصبحت الحضارة مجالاً خصباً لإنتاج الفكر الحي والحكمة البالغة، ولكن أنى للمتمنّي مثل هذه الحياة الهادئة الهانئة المطمئنة التي تفور بالماء الغدق والظل الظليل. والمغرمون بالقراءة يتعلّلون بقول الشاعر:

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى

ظمئت وأيُّ الناس تصفو مشاربه

فالآراء الضالة والأهواء المضلّة والافتراءات الكاذبة تحتنك قول الحق، ومن المأثور الاستعاذة من جَلَدِ الفاجر وغفلة المؤمن، وما انتصر الباطل إلا بتقويل المحن وتحريف قوله والتوسّل بكل مستويات القراءة ومناهج النقد لتطويع النصوص وتمكينها من إنتاج المراد، وللمرتاب أن ينظر إلى «الزمخشري» كيف انتصر لمذهبه الاعتزالي باستخدام آليات البلاغة لإجهاض النصوص وتحميلها ما لا تحتمل، ودعك من المفسرين الآخرين الذين أوغلوا في التصوف أو التشيع وسائر الملل والنحل، ومن ذا الذي يتوقع السلامة من القراءات التآمرية، فالقرآن الكريم لم يسلم من ذلك، هذا فضلاً عن أنّ تحاسد العلماء من الظواهر الشائعة في التاريخ الحضاري، ولا يذكي حماس الفرق إلاّ الأشياع والأتباع وأنصاف المتعلمين والأحداث، وقد يستغل الأضوائيون والنفعيون هذا الحماس غير الرشيد بحيث يكرّسون الانتماء والتعصب الأعمى بالتأليف في المناقب والمثالب، ويتعمدون تصنيم الأشخاص والارتفاع بهم عن مستوى المساءلة والنقد وتجريم من سواهم، ولقد تذهب بالبعض مذاهب الادعاء العريض فيدعي أنّ طائفته هي الطائفة المنصورة والفرقة الناجية، ومسألة الطائفة المنصورة من مسائل الجمهور، فقد أخبر بها وعنها من لا ينطق عن الهوى، وليست لنا الخيرة فيما صحّ عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وإيماننا بالخبر الصحيح إيمان لا مزايدة فيه، فنحن نؤمن بقيام هذه الطائفة وبقائها، فالمبلغ عن الله يقول: «**لا تزال طائفة**» وعدم الزوال يعني البقاء والاستمرار. ويقول: «**ظاهرة على الحق**» وهذا يعني القوة والانتصار. ويقول: «**لا يضرهم من خذلهم**» وهذا يعني أنها لن تسلم من التخذيل والمخالفة، كل ذلك حق لا يماري فيه إلاّ جاهل أو مكابر، غير أنّ احتكار ذلك على طائفة قائمة أو أهل بلد محدد كما قيل إنهم أهل الشام ومناصبة الطوائف الأخرى العداوة والبغضاء فكل ذلك فيه نظر، فالإنسان يختار المذهب أو الطائفة، وقد يولد في أجوائها ثم يتلبس بها تقليداً لا اختياراً، معتقداً أن طائفة الانتماء هي الفرقة الناجية وهو اعتقاد تقليد لا استبانة ولا اقتناعاً، وأقل ما يوصف به هذا الادعاء أنه

---

(١) تاريخ المقال: ١٩/ ٧/ ٢٠١١

حق من حقوقه، ولكن ليس من حقه أن يتبع هذا الادعاء مناصبة الآخرين العداوة، ولا أن يكيد لهم فذلك سبيل الفشل وذهاب الريح، وإذ شرذمت الأمة الإسلامية إلى دويلات ضعيفة فإنها في سبيل الشرذمة الطائفية.

لقد وقفت على تلاحي الفقهاء والمحدثين وإصرار كل منهم على أنهم وحدهم المقصودون بالفرقة الناجية كما تلاحوا حول المقصود بالعلماء الذين يخشون ربهم، ويقيني أنّ أهل السنّة والجماعة بمفهوم المصطلح الواسع أقرب إلى الأمة المنصورة، لتمثلهم الكتاب وصحيح السنّة، والتزامهم بذلك، ولا عبرة بالاختلاف القائم بينهم فسيّان عندي الاختلاف في الفروع وإنما الإشكالية في الاختلاف غير المعتبر والاختلاف العقدي واختلاف المرجعية والتعويل على القراءات التآمرية التي لا تبقي ولا تذر لأي دلالة يحتملها النص، على أنّ مثل هذا الاختلاف إذا كان ناتج اجتهاد سليم وتأول محتمل مع اتحاد في المرجعية وخلوص من البرمجة المذهبية، فإنه يظل في إطار المقبول أو المتسامح معه على الأقل، كاختلاف السلف مع الأشاعرة أو الماتريدية، واختلاف علماء الحديث في التصحيح والجرح والتعديل واختلاف الفقهاء، إذ من السلف وأهل الحديث من هو على المذهب الأشعري كأبي زكريا يحيى بن شرف النووي، وأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، وهذان العالمان الجليلان معدودان من أهل الحديث، والمتواتر عند العلماء أنّ أهل الحديث هم الفرقة الناجية والقول بهذا دون تعصب أو تعنت له مبررات واقعية، فأصحاب الحديث ليست لهم شطحات بعض المفسرين والمؤرّخين والفقهاء والفلاسفة والمتصوّفة والباطنية، ولست هنا مبرراً ولا متعصباً ولكنني راصد ناقل، فبعض الأحكام تأخذ سمة الاستفاضة، ولقد يأنس بذلك من له إلمام بتاريخ الحضارة ومن هو على علم بما تركه التنازع من أثر سيئ على لحمة الأمة وتماسكها. وكلما أحس المتابع بالبعد عن مقاصد الشريعة، تلمس مذهباً يتحقق من خلاله الارتباط المباشر بالنص التشريعي وبالمقاصد الإسلامية القائمة على تغليب المصلحة والتيسير ومسايرة العقل، وبما كان عليه سلف الأمة، فلا يجده صافياً نقياً إلا عند المرتبطين بالنص المجرّد من أي إضافات، ولقد يكون أهل الحديث هم الأقرب لأنهم يحرصون على نفي تراكم التأويلات الجائرة، ولأنهم الألصق باللغة ودلالاتها، وخلوصهم من القراءة التآمرية يتأتى من القصدية الدلالية، ومن الاهتمام بتحرير المسائل وتأصيل المعارف والتعرف على نقلة النصوص من خلال ضوابط الجرح والتعديل، وكل هذه الضوابط تحول دون الجور والتحامل وتحريف الكلم عن مواضعه، ولقد تتبّعت سير أعلام النبلاء وكتب الطبقات والمناقب، فوجدت هذا الصنف من العلماء أكثر توازناً واتزاناً، وكم كان بودي لون المترددين قرؤوا بعض تراجم هذا الصنف من العلماء، وليكن على سبيل المثال أصحاب الصحاح والمسانيد والسنن والمصنّفات الحديثية كافة، ليقفوا على طائفة من علماء السلف الحريصين على براءة الذمة وسلامة المقاصد، والانطلاق من النص بكل نصاعته والبُعد عن التأويلات الجائرة والمماحكات الفارغة والتعصب المقيت، والأمة الإسلامية بما هي عليه من ضعف وتشرذم وإعجاب كل ذي رأي برأيه وتكاثر الرويبضات، بأمسِّ الحاجة إلى استغلال القواسم المشتركة والتخلي عن المراء والجدل العقيم، ولا يحسم الخلاف ويقرب وجهات النظر إلا الرجوع إلى النص المحرَّر من كل إضافة. وهذه الصيرورة تحقيق للرد إلى الله والرسول وخلوص من تراكم القراءات التآمرية التي حمل عليها التعصب المقيت للمذاهب، ومؤدى الانصياع لتناسل المذاهب والأيديولوجيات، يفرض على المشاهد مثل هذه القراءات غير الرشيدة وهي قراءات فرقت الأمة وحالت دون الارتباط بنص الخطاب القطعي الدلالة والثبوت، فالرجوع إلى القرآن وصحيح السنّة عين الرد المأمور به، ولقد يكون هناك اختلاف في المفاهيم وإن عدنا معاً إلى النص. فالذين

من قبلنا انطلقوا من النصين وكان هناك اختلاف، وتلك حجة يتعلل بها أسرى المذاهب، ولها شيء من المشروعية ولكنها مشروعية مفضولة بالتجربة والخبرة، فالتجديد الذي بشّر به الرسول ﷺ على رأس كل قرن، لا يتحقق إلا بالرجوع إلى منهج السلف الصالح، والعلماء الذين اجتهدوا داخل مذاهبهم نفوا كثيرا من تراكمات الأخطاء والأحكام المفضولة، وعلى ضوء ذلك فالرجوع إلى الكتاب والسنّة وطلب رئيس لكل مذهب مهما ادعى أصحابه سلامة مقاصدهم، وفصل الأمة عن القرآن وصحيح الحديث بمنجز المذاهب يكرّس الفرقة ويعزز التنازع، وذهاب كل نحلة برأيها تفرض القراءة التآمرية وتجعلها سيدة الموقف إذ كل نحلة تحكم نسيج حماها بتشويه مقاصد الآخر، ولن يتحقق الانتصار إلا بهذا اللون من القراءات. لقد قيل عن علماء أجلاء ما لو صدق بعضه لكانوا خارج الملّة وما على المتردد في قبول هذا التوقع من القراءات الآثمة، إلاّ أن يقرأ ما يقوله خصوم (ابن تيمية) و(ابن عبد الوهاب) ثم ليقرأ ما قالاه في كتبهم مما قد يتفق مع ما يعتقد خصومهم، والذين ينالون منهم تقليداً لو قرؤوهم لكانوا لهم تبعاً، وكل ذلك ناتج القراءة التآمرية التي فرضتها المذاهب. ونحن هنا لا نتطلع ولا ندعو إلى إسلام بلا مذاهب كما ذهب إلى ذلك الدكتور مصطفى الكعة رحمه الله وأثار بقوله هذا كل المذاهب، ولكننا ندعو إلى مذاهب متصالحة مذاهب قادرة على إعادة المراجعة والقراءة لما توصلت إليه مما هو مخالف لرأي الجمهور وإجماع الأمة ومنهج السلف الصالح على سنن الإمام الشافعي رحمه الله الذي قال: «إذا صح الحديث فهو مذهبي»، وسنن الإمام مالك رحمه الله الذي قال: «كلٌ يؤخذ من رأيه ويترك إلاّ صاحب هذا القبر» وأشار إلى قبر الرسول ﷺ.

ولما كان القرآن الكريم هو القول الفصل، فقد حاول أصحاب الأهواء وأساطين القراءات التآمرية الالتفاف على دلالاته القامعة لأهوائهم، وذلك بإجهاض آياته البيّنات لتكون ظهيراً لما يذهبون إليه، ولقد يجدون في النص الحمّال ملاذاً لتبرير أقوالهم. وفي سبيل قطع دابر القراءات التآمرية، وضع علماء التفسير ضوابط وشروطاً للمفسرين، غير أن بعض القراء يضربون صفحاً عن تلك الضوابط ومن ثم يكون استنباطهم معوجاً. واختلاف المفسرين بضوابطه لا يكون من المحظور فالاختلاف متوقع لأنّ هناك اختلافاً في وجوه الإعراب وفي المعاني واشتراكاً في الألفاظ كما أن هناك خصوصاً وعموماً وإطلاقاً وتقييداً وحقيقة ومجازاً وإظهاراً وإضماراً وسياقاً وتقديماً وتأخيراً ومحكماً ومتشابهاً وناسخاً ومنسوخاً، واختلافاً في الرواية صحةً وضعفاً، ولكن علماء الأصول أحكموا وجوه الترجيح ورتبوا مراحل التفسير وأفضلياته من تفسير للقرآن بالقرآن ثم بصحيح السنّة وأقوال الصحابة وإجماع الأمة. ولن يحسم الخلاف ويجهض القراءات التآمرية إلا البحث عن الحق واعتباره ضالة المؤمن والإلمام بمصادر التفسير وكبح جماح الهوى والتعصب المقيت والولاء للحق لا للرجال.

وماذا بعد قَفْصَنَةِ مبارك ومحاكمته .. !؟[(١)]

مثلما تابع العالم كله حكم الإعدام وتنفيذه بحق (صدام حسين) تابع الجلسة الأولى لمحاكمة (حسني مبارك) وانفضَّ سامر القوم المتابعين للحدثين المثيرين عن خلافات حادة في وجهات النظر تتسع هوتا بقدر ما تنداح دائرة في صفحة اليم يرمي فيه بالحجر، إذ لكلٍّ قراءته ومناطاته ومحققات خطابه.

وصدام الظالم المظلوم سيق إلى حبل المشنقة تحت ضغط الشارع الشيعي الناقم عليه، وإن كان طاغية شرعن برعونته لدولة القطب الواحد كي تحتل العراق بلد العراقة التاريخية والأمجاد الإسلامية بغداد الرشيد وفتح الشهية للتدخلات غير المحقة في سيادات دول المنطقة. وبقتله على يد من لا يملكون تنفيذ العقوبة دخلت العراق متاهة الفراغ الدستوري الذي لم تستطع دول العالم كله أن توصده، كما تفاقم الصراع الطائفي والحزبي المكبوت في عهده.

أما (مبارك) المتهالك حسياً ومعنوياً فقد سيق إلى قفص الاتهام تحت ضغط الشارع العام بكل تهيجه وغوغائيته وضغائنه واحتقاناته، إذ لم تكن كافة المؤسسات المؤقتة في الداخل حفية بهذا الإجراء الإرضائي ولما يكن الرأي العام العالمي متوقعاً مثل ذلك.

والعقلاء المجربون قد لا يتفق سوادهم الأعظم على افتعال تلك الإجراءات غير المجدية، والانصياع لهتافات العقل الجمعي سيفتح أبواباً يشقى بإغلاقها المعنيون بالمرحلة الانتقالية بكل حساسيته كما لا يرضون ببقاء السلطة بيد الشارع الفاقد للتقدير والتدبير والتفكير، ولا سيما أن تجربة الثورات العربية التي ظلت كلها مرتهنة للنفس الثوري المعسكر ولما تنتقل بعد إلى سلطة المؤسسة المدنية أرهقت الشعوب العربية بالأحكام العرفية والمؤسسات البوليسية والسجون والمقابر الجماعية وفوتت عليها فرص التشكل (الديموقراطي) والتأسيس النيابي.

والحكومة المؤقتة ومقدرات الأمة المحكومة بصيحة العامة مدعاة إلى مزيد من الفوضى غير الخلاقة، وهذا الوضع غير السوي لا يقل خطورة عن بقاء السلطة بيد العصابات الثورية بلغتها العسكرية، فالعامة تظن أن الهتافات واللافتات والتكتلات الحزبية والطائفية هي الحل الوحيد للخروج من رواسب الماضي ومآزق الحاضر، ومن المتفق عليه أن دور المظاهرات ينتهي بمجرد كسر حاجز الخوف وتعويض الأصنام التي لا تحمل طهر الصنم الجاهلي. والمؤكد أن إصلاح ما أفسده تعاقب الحكومات الثورية المعسكرة لا يتم بين غمضة عين و انتباهتها، والهدم وإعادة للبناء لكل منهما متطلباته من الجهد والوقت والمال والتخطيط فما تم بناؤه لسنوات يمكن هدمه بساعات. ولمحدودية التفكير لدى الرأي العام يصور للأمة أنه بمجرد سقوط الأنظمة تتدفق الخيرات من كل جانب ويعم الرخاء ويشيع الأمن ويبدو الاستقرار، هذا التفكير المتسطح أبقى على المظاهرات والاعتصامات وشكل حركة الحكومة الانتقالية وأكرهها على الاستجابة لمطالب ثانوية تؤخر ولا تقدم لأنها جاءت على حساب مهمات أولية. ولعل من بينها فتح ملفات الفساد ومحاكمة رموزه.

والظروف العصيبة تؤكد أنه ليس من مصلحة الشعب المصري المنهك تصعيد مشاعر الانتقام وملاحقة المتهمين الذين لم يعد لهم أثر على مجريات الأمور وإفراغ الشحنات العاطفية بملء شاشات القنوات الفضائية بفصول مهزلة المحاكمات وصور الرموز وهم أذلة صاغرون فـ(أجندة) الثورة الشعبية مليئة بالمهمات الجسام المهمشة

---

(١) تاريخ المقال: ٩/ ٨/ ٢٠١١

بسبب الاحتقانات وحب الانتقام، وما لم تع الأمة فقد الأولويات فإن الثورة البيضاء ستذروها الرياح، وملاحقة مسؤولي النظام السابق لا يملأ بطناً جائعاً ولا يستر جسماً عرياناً ولا يبل عرقاً ضامئاً ولا يعيد أمناً مفقوداً ولا يبني اقتصاداً منهاراً. والإمعان في التشهير وتصفية السمعة أو الأجساد ليست من أولويات الثورة الشعبية وقد يخلق هذا التصرف ثورة مضادة فالشعب المصري ليس لديه إجماع على تجريم الحكومة السابقة، قد يتفق على سوئها، ولكنه حتماً لن يتفق على تجريمها، ولقد شهدنا صدامات بين الناقمين والمتعاطفين على رموز النظام السابق، والرئيس (حسني مبارك) الذي أمضى نصف قرن في مختلف قطاعات الدولة ونيف عمره على الثمانين لا تليق بمثله هذه المظاهر والشعب المصري عرف عنه التسامح والصفح، وقدوته رسول الرحمة الذي قال لمن آذوه وطاردوه وأخرجوه من أحب البقاع إليه: (اذهبوا فأنتم الطلقاء) (ولو كانت المحاكمة ستحلحل الأوضاع إلى الأحسن لقلنا: حيّ هلا ثم إن (مبارك) ومن معه جزء من أنظمة ثورية عسكرية ليست خيار الأمة، فالانقلابات العسكرية الدموية أخرجت للأمة العربية أنظمة مستبدة فيها فظاظة في الأخلاق وغلظة في القلوب والرئيس المنحوس وحاشيته ليسوا بدعاً من الزعماء الذين صَنَّمهم الإعلام وماتوا على ذلك، فهل يبلغ الاهتياج بحكومة الغوغاء حد نبش القبور وفتح الملفات المنتنة ومساءلة ما سلف من أنظمة ليست باقل سوءاً من نظام (حسني مبارك) الذي أدركته حرفة التداعيات الثورية وبطأت ببقائه ثقته بنفسه وبزملائه العسكر عن النفاذ بجلده كما فعل (زين العابدين بن علي). وإذ سقط النظام الذي لم يكن بدعاً من الأنظمة بإرادة شعبية حرة فإن من الخير للمنتصرين لأنفسهم أن يتيحوا الفرصة لإصلاح ذات البين. وملاحقة رموز النظام السابق لن يقف عند الرؤوس المدبرة ولا عند الأحياء الذين أدركتهم غضبة الشعب المتأخرة، فـ(حسني مبارك) لا يختلف عن (جمال عبد الناصر) ولا عن (أنور السادات) ومن شايعهم ومثلما أن (بشار الأسد) نجل أبيه فإن (علي عبد الله صالح) حلقة في سلسلة صئة بُدئت بـ(عبد الله السلال) ومن تمسك بفتح ملفات الحاضر وجب عليه استدعاء ما سلف ونبش القبور، وفي ذلك استنزاف للجهد والوقت والمال واشتغال بالمفضول وتلطيخ لتأريخ اجترح الإعلام تلميعه وتزييفه، ومن ذا الذي لا يتصور فداحة الفساد والاستبداد وسلب الحريات الممتد منذ ثورة «حسني الزعيم» وفوق هذا فتاريخ مصر الحديث يمتد من ثورة «يوليو ١٩٥٢م» والعقود الثلاثة التي قضاها «مبارك» على سدة الحكم جزء من هذا التاريخ فإذا كشفت المحاكمة عواره تداعت عقوده وأحقابه ولم يعد لمصر تاريخ حديث مشرف، وتقصي المقترفات والتفتيش في الدفاتر القديمة يلوث التاريخ الذي نشأت الأجيال على تمجيده وتصنيمه، والحل المناسب أن يقول قادة الثورة ومحركوا الجماهير «عفا الله عما سلف» على أن توجه كل الطاقات وتكثف كل الجهود لصياغة الدستور السياسي والقانون المدني بحيث يحفظان الحرية ويتوفران على العدالة والمساواة وتكافؤ الفرص وتداول السلطات وتوفير الأمن والرخاء والاستقرار وتجنيب البلاد خطر الفراغات الدستورية وبناء الاقتصاد والتعليم وسائر المؤسسات المدنية وإشاعة ثقافة الانتخاب والخلوص من الولاءات الجانبية فمصر واسطة العقد العربي ومن مصلحة الأمة العربية أن تستعيد عافيتها وأن تبني كياناتها بعيداً عن الغوغاء والاهتياجات العاطفية، ومحاكمة رموز النظام في هذه الظروف العصيبة ستلهي الشارع عن كل مكرمة، وسواء ظل الرموز وراء القضبان أو تحت الثرى فالمهمات الجسام تجاوزتهم وليست مرتهنة لحياة أحد منهم أو موته. والحكومات المؤقتة لن تقدم حلاً للمشاكل المستعصية إنها لمجرد تصريف الأمور وإطالة أمد بقائها سيكون على حساب أهداف الثورة وإشغالها بالمحاكمات والمحاكات سيلهيها عن إتمام مهماتها المؤقتة. كما أن المجلس العسكري المرتبك لا يقدر

على بدء مرحلة العودة إلى الحكم المدني فضلاً عن حل المشاكل القائمة، وبخاصة حين يحمل كرهاً على إدانة رمز من رموز القادة العسكريين الذين أبلوا بلاء حسناً في حروبهم مع إسرائيل.

إن على الشعب الذي أسقط الحكومة القائمة بالغلبة لا بالاختيار أن يستحث الخطا لإقامة حكومة مدنية منتخبة تفكر وتقدر وتنقذ البلاد من الفوضى والانهيارات الأمنية والاقتصادية.

والناصح لمصر يود لو أن الجهود كلها صرفت لوضع البنى التحتية حسية كانت أو معنوية، فلم يعد باستطاعة مصر أن تحتمل مثل هذه الأوضاع المتردية. ومحاكمة رموز النظام السابق يتطلب تجهيزات أمنية وقضائية وفتح ملفات متعددة واستدعاء شهود وكشف عورات تمس سمعة مصر، وكل ذلك من الاشتغال بما دون الواجب، والنتيجة بعد سنوات عجاف حكم توافقي يعيد المتهمين من الأقفاص إلى الزنازين، فدعوهم في زنازينهم حتى تأخذ الأمة أنفاسها. ولا أحسب أحداً من تلك الرموز يحتمل مزيداً من العذاب فمجرد السقوط جماع الويل والثبور وفي ظل هذه الاهتياجات والاحتجاجات ستظل الثورة الشعبية في مصر تعيش زمن التيه، ولما تهدِ قومها سبيل الرشاد، وإدارة نوازل مصر بالهتافات والاعتصامات والاضطرابات يحرض على فتح ملفات الطائفيات والتنظيمات والأقليات ويعرض وحدة البلاد للخلل، ومن ثم تشفي بعملها الفوضوي صدور الحاقدين والمتربصين والمخذلين برهاناتهم المخيبة للآمال ويجعل الربيع صهيونياً لا عربياً.

فليعتصم المصريون الأوفياء لوطنهم ولأمتهم العربية بحبل الله جميعاً ولا يتفرقوا وليعطوا القوس باريها وليوطنوا أنفسهم على مراقبة المرحلة الانتقالية مرحلة النقاهة والإنعاش فما أفسدته الأنظمة البائدة في عقود لا يمكن إصلاحه في أيام. وعلى أولياء الشهداء احتساب الأجر عند الله.

عبث الثقافة وثقافة العبث .. ! (١) (١)

في رمضان تنقلب الأوضاع رأساً على عقب، والناس فيه كما الداخلون في «الكوفة» يذهب الأخيار إلى الأخيار ويذهب الأشرار إلى الأشرار، كما في الخبر المشهور. ورمضان إلى كونه موسم سباق في الخيرات فإنّ أيامه مترعة بالروحانيات، نهاره صوم وتلاوة، وليله صِلة وصلاة، واستمتاع بالطيّبات.

ولأنّ طيّباتي ما بين السطور فإنني أعتكف في مكتبتي وينصب اهتمامي على القرآن وعلومه، وإنْ تخلّل ذلك فلتات بين الكتب والناس، من باب الترويح وتفادي الكسل الممل، والمشاهد الثقافية والفكرية والسياسية تعصف بها رياح التغيير وتجتاحها أمواج سونامية يصبح فيها الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، وليس الكفر بمفهومه العقدي المخرج من الملّة، ولكنه قد يمتد ليكون كفراً بالثوابت والمسلّمات وأنماط الحياة التي وَجَد الإنسان نفسه فيها تقليداً لا اختياراً. والبدائل التي يحتملها سيل الإعلام المتدفّق كما الزبد الرابي تعشي العيون وتصم الآذان وتثير أتربة الشك حتى يتدنّى مدى الرؤية وتتعطّل حركة النخبويين، وإذ يكون من المبادئ السليمة ترويح القلوب، فإنني كلّما كلَّ الذهن لُذْتُ بكتب المختارات والموسوعات والإبداعات، وقد يمتد الاسترخاء إلى القنوات الفضائية والمواقع العنكبوتية، وقد أداوي الكلل والملل بالتي هي أعمق وأعقد بالفلسفة الحديثة، وهل أحد يتخفف من عناء القراءة بقراءة الأصعب إنها طريقة ولكل شيخ طريقته.

على أية حال هذا الذي حصل وعلى الله قصد السبيل. وقدري أنني مغموس إلى الأذقان في طوفان الأحداث السياسية ومتابع وجل يعتمل في نفسه اليأس والقنوط، ولهذا أعيش عذابات الإخفاقات على كل المستويات. فحكومات تُقَتِّل أبناءها وتُرَمِّل نساءها وتحطّم اقتصادها وتسحق كرامات شعبها وتعطي للعالم المتَحَضِّر صورة سيئة عن الأخلاقيات السياسية. وشعوبٌ حققت النصر وأسقطت الأنظمة، ولكنها ظلّت تتخبّط في متاهات الخيارات ودياجي الرغبات، ولما تهتد إلى قصد السبيل والخلوص من جائرها، ومن ثم ظلّ أمرها في سفال وتدبيرها في اعتلال وأصبحت مشروعاً لفتن مدلهمّة، تنبعث من كلِّ جانب. وفي الوقت نفسه فإنني متابع للمتغيّرات الاجتماعية والفكرية والأدبية، وتلك الأوضاع في اضطرابها وتضارب الآراء فيها لا تقلُّ سوءاً عن الأوضاع السياسية، وإذا كانت هذه تعتمد على تصفية الأجسام، فإنّ تلك لا تتردّد في تصفية السمعة، ولقد يبلغ الإفك مبلغ القتل ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾. وعنف الإقصاء ومصادرة الحقوق وقهر الرأي العام على الرأي الفرد الفطير نوع من التسلُّط الذي استفحل في ظلّ الصراعات العالمية، وما الإرهاب إلاّ مفردة من مفردات الثقافة المعوجة ثقافة العبث. فالصراعات الفكرية بوصفها المجهّز الرئيس للصراعات السياسية تمارس العنف وتستبق التصفيات والتصنيفات والإقصاءات وتبتسر الأحكام المخرجة من الملّة.

هذه الأجواء المرعبة تجنح بالعقلاء إلى الأودية والشعاب ومنابت الشجر تلمُّساً لجذع شجرة يعظون عليها حتى يأتيهم الموت وهم على ذلك.

في رمضان يتوقّع الناس هدوء العاصفة والجنوح إلى التعاذر، ولكن الشيطان الذي قاسم ربه قائلاً كما حكاه الله عنه: ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.. يثير الحزازات والضغائن ويغري المتسرّعين بالخوض في الأعراض والدماء والآيات المحكمات

---

(١) تاريخ المقال: ٢٣/ ٨/ ٢٠١١

والمتشابهات، ليظلّ الصراع والاختلاف الأزليان ﴿وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ والثقافة بمفهومها الأوسع تتسع لكل منتج إنساني، قولياً كان أو فعلياً، لأنها كل ما يجده الإنسان ويتربى عليه، والإرث بكل أنواعه الحسِّي والمعنوي، الإنساني والربّاني يصنع الإنسان ويسهم في توجُّهه وفي رؤيته للآخرين ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ - هذه الشمولية المفزعة لابد أن تتسع لعبث الثقافة وثقافة العبث وبين التركيبين اختلاف دقيق، فالأولى ممارسة فعل والثانية ممارسة إنتاج، ولكي أقرب الأمر حسب مفهومي الشخصي وعلى مسؤوليتي الشخصية أقول:

-القراءة المنحرفة للتراث داخلة في عبث الثقافة.

-وإنتاج المسلسلات والتمثيليات الهابطة وبرامج التسلية والترويح كل ذلك داخل في ثقافة العبث، وفي الأولى إفساد للمفاهيم وفي الثانية إفساد للأخلاق، والاثنتان مضيعة للجهد والوقت والمال، وقدر الأُمّة المأزوم أنها مكتنفة بالمهمتين الدنيئتين. والمشهد العربي يفيض بالشواهد، والناجون من اللوثة والتلويث هم المتضلّعون من معين التراث المؤصّلون لمعارفهم المحرّرون لمسائلهم على هدي من الكتاب وصحيح السنّة وأقوال العلماء يوائمون بين الرواية والدراية. واعتكافي في مكتبي في ليالي رمضان وأيامه يمكنني من استقراء التحوّلات الجديدة والثاوية في غياهب التاريخ، إذ لكل عصر ومصر تحوّلاته ومشاكله ومستجداته وصراعاته، بل أكاد أجزم بأنّ لكل عقدٍ من الزمن ما تفيض به أوعية التاريخ، ومن أخذته الرجفة من سرعة التحوّلات وتنامي الصراعات ذهب كما الزبد جفاء، والفاعلون هم الذين يوطنون أنفسهم على القبول والإلف للتقلبات المستمرة، واستشرافي للتقلبات عبر الكتب والقنوات والمواقع الأخطبوطية وما أمكن من وسائل الإعلام المقروء، ذلك أنّ الحياة السوية كالنهر المتدفّق، والرّاصدون للحياة المتقلّبة كالمحملقين في عقارب الساعة يشهدون التحوّل لحظة بلحظة. ولقد تحملهم هذه التقلّبات على القطع بأنّ التاريخ يعيد نفسه، وعقيدة التناسخ الفاسدة، قد تبدي عنقها في تعاقب الأحداث.

الشيء الذي أجزم بأنه يقمع العبث بشقيه هو التجاوز إلى الشيء ذاته، إن الثقافة المكتسبة بوسيط لا تكون ثقافة تأصيلية ولا تحريرية، لأنها ناتج قراءة تآمرية، وحين كتبت عن القراءة التآمرية والقراءة التفاعلية، تردّد البعض ممن تفضّل بقراءة المقال، حول دقّة الأحكام وتوازن الآراء محيلاً بعض المستخلصات إلى ذات القراءة، بحيث تصوّر المتحفظ أنني محكوم بذات العلّة فقراءتي ستكون تآمرية إزاء من لا أتفق معه، فأنا في النهاية منتِمٍ، وكل منتمٍ محكوم بأصول وقواعد انتمائه.

وما كنت لأجهل مثل هذا التصوُّر، ولكن هناك تشدُّد وتعصُّب واحتكار للحقيقة يمارسه بعض المتمذهبين، فيما ينفتح آخرون وتكون لديهم مساحات واسعة لقبول الرأي الآخر، ومفهوم الاختلاف عندهم أنه اختلاف تنوُّع لا تضاد وفاضل ومفضول وليس اختلاف خطأ وصواب، والأهم عند هذا الصنف، وأرجو أن أكون منهم، أن تكون القراءة لذات المفكر ولمنتجه الفكري الذي خطه بيمينه لا القراءة عن الذات عبر وسائط تآمرية، فإذا قرأت العالم أو المفكر أو المذهب من خلال نصوصه تشكّلت رؤية لا وسيط فيها وعندئذ يقل احتمال التآمرية في القراءة، وذلك بعض ما قصدت في مقالي السابق.

عبث الثقافة وثقافة العبث .. ! (٢) [1]

والقول بعبث الثقافة ليس من باب التشاؤم ولا من باب التجني، فهو واقع، بل يكاد يكون من المسلّمات ولا مجال لإنكاره أو التردد في قبوله، ومن الخير للمشاهد أن تدرك هذا وأن توطِّن النفوس عليه، فمعرفة الخطأ خطوة أولى في سبيل الحل، والقول في الماعيب لا يقف عند حد الشماتة، بل يتخطاها إلى التحرف أو التحيز:

التحرف لحلول تضيِّق الخناق على هذا العبث المستشري، وإن لم تكن هناك قدرة على التحرف فلا بد من الاعتزال أو التحيز إلى الطائفة المنصورة، واستبطان أدنى درجات إنكار المنكر، وهو الإنكار بالقلب.

وإذ لا يكون هناك أقدس من القرآن الكريم، فهو كلام الله الذي أنزله بلسان عربي مبين، فإن المفسرين قد اختلفوا وتعددت اتجاهاتهم وكثر انحرافهم واستشرى عبثهم، وظهرت مدارس ومذاهب واتجاهات لا حصر لها فكان تفسير الرواية والدراية والإشارة والتفسير البياني والأدبي والعلمي والصوفي والباطني. ولكل ملة ونحلة مفسرون، فالفقهاء والفلاسفة والنحاة واللغويون خاضوا مع الخائضين، ولما يزل القرآن مشروع مبادرات سليمة وأخرى سقيمة، وذلك شاهد على عبث الثقافة.

ولكي أضع القارئ أمام شواهد حيَّة تثبت أن هناك تزييفاً للوعي وتضليلاً متعمداً للفكر الإنساني أسوق ثلاث قضايا يراها الناس رؤية مناقضة تماماً لواقعها، ولقد تدخل بالتضليل المركب كما الجهل المركب، ومرد ذلك أننا دائماً نعتمد رؤية الآخرين ولا نكلّف أنفسنا النفاذ إلى ذات القضايا وقراءتها مجردة من أي تدخل فكري متآمر.

والشواهد الثلاثة موزعة بين الأدب والفلسفة والسياسة.

فعلى الصعيد الأدبي عرفنا الروائي الأكثر حضوراً وشيوعاً «نجيب محفوظ» من خلال ما كتب عنه، والقليل الأقل من تطوّع بقراءة بعض روايات واستكناه منطوياته ورؤاه، وبعد حصوله على جائزة «نوبل» انداحت دائرة الحديث عنه وتصنيمه، حتى لقد أصبح المساس به مساساً بكرامة الأمة، ولو قرئ بمعزل عن طوفان التحميد والتمجيد لبدت سوآته، ولنأخذ على سبيل المثال أشهر أعماله الروائية وهي التي مهدت الطريق إلى «نوبل» (أولاد حارتنا) لقد جمع فيها بين هبوط اللغة والفن والفكر، وفكرتها الإلحادية لم تكن من عندياته، ولكنها مسروقة من كتاب (الدجالون الثلاثة) للفيلسوف الفرنسي الملحد (بولنفيلييه ت١٧٢٢). والدجالون الثلاثة هم: (موسى، وعيسى، ومحمد) عليهم صلوات الله وسلامه.

لقد اتّهمهم بالكذب والتزوير والدجل على أممهم، وهذه الأفكار هي التي تناولها «نجيب محفوظ» في روايته، ولأن الرأي العام يسمع ولا يقرأ، فقد تضخمت شخصية «نجيب محفوظ» وأصبح علماً في رأسه نار، وواجب النقاد المنصفين أن يقوّموا الأعمال الروائية لأي مبدع روائي والأعمال الشعرية لأي مبدع شعري من خلال أبعادها اللغوية والفنية والفكرية فقد يكون المبدع متألقاً في فنه أو في لغته أو فيهما معاً، ولكنه مخفق في فكره أو في أخلاقه، ولقد يكون مخفقاً في لغته أو فنه أو فيهما معاً ولكنه متألق في فكره أو في أخلاقه، ومن ثمّ لا يجوز أن نجاري كل الأطراف، بل علينا أن نضع المبدع وإبداعه على حقيقته أمام القارئ، فالناقد الشريف بمنزلة القاضي الشريف وخيانة أحدهما في مستوى واحد فالقاضي يحكم بين خصمين والناقد يحكم بين مبدع وأمة، وقد يكون الضرر المترتب من حيدة الناقد أفدح ضرراً من حيدة القاضي، ومثلما أن شرف اللغط وحده لا

---

(١) تاريخ المقال: ٣٠/ ٨/ ٢٠١١

يشفع لصاحبه فكذلك شرف المعنى. وعلى الصعيد الفلسفي نجد «الدادية» وهي تيار فلسفي ملأ أرجاء المشهد الفكري وتساقط في مستنقعه عدد كبير من مفكري العالم، وضج الفارغون في تصنيم رموزها وعدها مرحلة مفصلية في المشوار الفلسفي الحديث، وفكرتها العدمية والعبثية والغثائية، نشأت في (كَبَريه) تتجمع فيه حثالات السوقة والدهماء للسكر والعربدة. والمصطلح كلمة فرنسية تعني (حصان الأرجوحة) وقصة نشأتها تدل على شرود الذهن وضياع الهوية، وفكرة المجموعة معارضة فلسفة الفن القائم على الجماليات، فكلمة (داد) فيها ازدراء لكل القيم، وأبرز صفاتها: الانحلال والإباحية والفوضى والسلبية والعدمية والتخريبية، وحجتهم الواهية مباشرة الهدم لممارسة البناء من جديد كما في (الشيوعية) يقول أحد الدارسين بعد أن عدَّد رموز (الدادية): «وكل هؤلاء كانوا حثالة من الفنانين وزبالة من الفلسفة» ولقد حاول بعض المنتمين إليها في أمريكا إنقاذها وتحسين سمعتها، ولكنها تآكلت واضمحلت وقام على أنقاضها فلسفات متعاقبة كـ«السريالية» و«الوجودية» وهي فلسفات لا تقل في عبثيتها وغثائيتها عما كانت في «الدادية» ولقد لفت نظري وأنا أقرأ في تاريخ الفلسفات الحديثة أن رموزها ومنشئيها من اليهود. فهل يحال ذلك إلى المكيدة أم إلى الذكاء؟ أتمنى أن أجد متسعاً من الجهد والوقت لتقصي هذه الظاهرة الملفتة للنظر، وتقرير ما إذا كان ذلك مؤشر خبث في الفكر اليهودي وسعي لتدمير العالم المعادلليهودية أم أنه من تحديات الأقليات في العالم وإثبات الوجود ولما لم أجد دراسة من هذا النوع فإنني أعوّل على الأشداء من المثقفين الذين آتاهم الله بسطة في العلم والنشاط عسى أن يستبقوا الخيرات ويرشدوا أخاهم إلى مكامن المعلومات التي تسهم في تحرير مثل هذه القضايا المهمة في سياق الفكر اليهودي، وكم ترحَّمتُ على المفكر العربي الكبير «عبد الوهاب المسيري» حين قرأت له أحاديثه المستفيضة عن إشكاليات النفوذ والعبقرية والجريمة والخصوصية اليهودية في موسوعته «موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية» وهو بحق مفكر عميق تخصص في تعقب اليهودية مثلما تخصص «إحسان إلهي ظهير» في تعقّب التاريخ الشيعي، ومثلما تعقّب صديقنا أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري الظاهرية مع الفارق بينهم. أما على المستوى السياسي فحدّث ولا حرج، لقد جسدت الثورات العسكرية العربية أبشع صور العبث والتسلط والاستبداد والاستعباد وإنتاج ثقافة الكذب والتزلّف والنفاق والاسترزاق.

ومن ذا الذي لم يتجرع غسلين الثورات الدموية ويصطلي بحرّها وإن لم يكن طرفاً فيها. لقد امتد ضررها إلى دول الجوار التي تدفع بالتي هي أحسن واضطرها إلى ركوب أهون الضررين، الأمر الذي فوَّت عليها فرصاً ذهبية كان يمكن أن يتحقق فيها ما كانت تحلم به شعوبها. ذلك أنهم مارسوا العبث ولم يعظموا شعائر الولاية، وها هم اليوم يتجرعون مرارة المطاردة. تلك هي شواهد عبث الثقافة وثقافة العبث. فهل يرعوي النخبويون ويلتمسون الطريق القاصد لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، ولاسيما أن الشعوب العربية هبت لممارسة حقها المشروع في تقرير مصيرها. إن على النخب أن تقعد لهذه الاهتياجات كل مرصد عسى أن تعي الشعوب المضطربة خطورة الموقف وتباشر العودة إلى الحياة السوية حياة الانضباط والإنتاج.

... وَدَمْعٌ لا يكفكف يا دمشق .. !(١)

لو رحت أسأل عن مستقر الأحوال الوطني المهيض الجناح من المحيط الهادر إلى الخليج الثائر، لكنت كحال الشاعر الجريح المشاعر الذي عبَّر عن تأوهاته بقوله:

كـم عِشْـتُ أسـألُ أيـن وَجْـهُ بـلادي
أيـن النخيـلُ وأيـن دفءُ الـوادي؟
لا شـيء يبـدو فـي السـماء أمامنـا
غَيْـر الظـلام وصـورة الجـلاد

وتلك هي مشاعر العقلاء الذين يعيدون التاريخ المأساوي الذي حكى طرفاً منه الذكر الحكيم:

﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾.

تلك هي حال الطيبين الذين يتفجعون على حال أمتهم ومصيرها المظلم. لقد جمجم عن مشاعر هذا الصنف من المحسنين النداء المثير الذي وجهه الملك عبد الله إلى قادة سوريا وشعبها المقهور. إنه مثال التوازن والتوقيت وبراءة الذمة وجهد المقل، ولهذا أجمع المراقبون على مفصليته ومجيئه على قَدَرٍ، لأنه قطع دابر التساؤلات عن الموقف العربي، ولو تقبله المستهدفون بقبول حسن لكان بالإمكان حقنُ الدماء والعودة إلى مائدة المفاوضات والخلوص من ضرب الرقاب والإثخان وشد الوثاق، ثم لا يكون مَنٌّ ولا فداء، ولكن قتل أو تأبيد.

ولما كانت الأوضاع في دمشق الأمويين كما هي في بغداد الرشيد شائكةً ومعقدةً كان لا بد من مبادرات غير متحيزة ومناصحات لا مزايدة فيها ولا إثارة تضع المتنازعين أمام أنفسهم، عسى أن يثوبوا إلى رشدهم ويجنحوا إلى السلام.

وإذ لا مناص من فك الاشتباك وإطفاء لهيب الفتن وإرجاع الأفاعي إلى جحورها فإن من مصلحة الأمة العربية أن تَحُكَّ جلدها بظفرها وأن تتولى جميع أمرها، فتجربة التدخلات الخارجية تجربة فاشلة، والشواهد حية يراها الناس رأي العين في العراق وأفغانستان، وتدخل الأمة العربية عبر مؤسساتها في الوقت المناسب أدعى إلى الطمأنينة والاطمئنان والربط على الأفئدة الفارغة، وقد يحول ذلك دون تدخل دولي يتطور من (اللوجِسْتيةِ) إلى العسكرية ومن الإنسانية إلى الوحشية، ومن الندية إلى سلب الحرية.

وسوريا العصية على كل التوقعات تعيش حالة استثنائية بين الدول العربية التي تعرضت للانتفاضات الشعبية، فهي دولة محورية وسقوط النظام يستتبع سقوط تحالفات مشبوهة واندحار تدخلات مضرة بأمن المنطقة وهي إذ تكون من قبل ذات تاريخ عروبي عريق قاوم التتريك فإنها مُنيت بداء (الطائفية) و(البعثية) ونفذت إليها الأفعى الفارسية،

---

(١) تاريخ المقال: ١٦/ ٨/ ٢٠١١

فاستحكمت حلقاتها، وظن أهلها أنهم غير قادرين على استرجاعها وأنها بهذا التعقيد لن تنفرج، غير أن المتشائمين يقدِّرون وتضحك الأقدار، فالمدبِّر في السماء، وهو وحده الذي يداول الأيام بين الناس ويؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء، ويأتي المفرطين في جنبه من حيث لم يحتسبوا وقد يجعل عالي أرضهم سافلها ويمطرهم بحجارة من سجيل منضود ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ الظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ فكل الذين يوغلون في الظلم ويأمنون مكر الله يأتيهم بأس الله بياتاً وهم نائمون أو يأتيهم ضحى وهم يلعبون.

والخوف من الثمن الباهظ الذي ستدفعه كل الأطراف من دماء تراق وأمن يختل واقتصاد ينهار ولحمة تتمزق وتخلف يستحكم وأحقاد تستشري وتدخلات مشبوهة تسلب المقدرات والحريات وتدع البلاد خاوية على عروشها وفرقاء يقتسمون الأرض المحروقة والأشلاء المبعثرة ويرضون من اللحم بعظم الرقبة بعدما كانوا أعزة. والمتابعون الوجلون يتخبطون في تصور (السيناريوهات) وكلها محتملة ومضرة بأوضاع الذين ظلموا وبمن حولهم على سنن الفتن التي لا تصيبن الذين ظلموا خاصة.

ولعل أهون الأضرار سبيلان:

-إما اعتزال الجيش للفتنة وعودته إلى ثكناته والمراقبة من بُعْد والحيلولة دون مطاردة المتظاهرين وإراقة دمائهم وحفظ الثغور من تدخلات أجنبية.

-وإما تدخل عربي عبر مؤسساته المعتبرة يحمل كل الأطراف على الإذعان والقبول ويكون على مستوى مسؤوليته القومية والإسلامية والإنسانية معتمداً قاعدة: (لا ضرر ولا ضرار) بحيث لا يتحيز إلى فئة دون أخرى. وتجربة الجيش المصري خير مثال على حقن الدماء واستتباب الأمن والخروج من الفتنة بأقل الخسائر، وإن ظلت الثورة تراوح مكانها تحت تأثير انتشاء النصر.

وتجربة درع الجزيرة والقرار الحكيم لمجلس التعاون الخليجي في البحرين شاهد عدل على تدارك الأمر وإجهاض التآمر القذر على أمن البحرين واستقراره.

لقد عاندت أنظمة وركنت إلى الجيش والتجييش الإعلامي المداجي لإجهاض انتفاضة الشعوب فأنهكت نفسها وشعوبها وأهلكت شعوبها وشوهت سمعتها واستعدت على نفسها أطماع العالم، ولما تزل مصائرها في مهب الريح.

على أن الحل العربي المنشود لا يقف عند مجرد التنديد ولا عند استدعاء السفراء أو تجميد العلاقات. إنه الدخول المباشر في صلب القضايا والتصرف العملي الموحَّد وممارسة المهمة التي تحقق مفهوم الأخوة الصادقة بحيث لا يكون هناك تخذيل ولا تسليم لأي طرف، ومتى أصرت الشعوب على إسقاط الأنظمة واجتمعت كلمتها على ذلك وتوفرت الحيثيات فإن ذلك حق مشروع، ولكن إتمام هذه الرغبة يتطلب تقديراً وتدبيراً لا تصنعه المظاهرات وحدها، وحق الشعوب التي أجهدتها الأنظمة الثورية التحول إلى أنظمة مدنية يسود فيها القانون ويعم فيها العدل وتتوفر الحرية والمساواة وتكافؤ الفرص وتداول السلطة. وأحداث سوريا ليست بدعاً من الأحداث التي مرت بالدول العربية وكان بإمكان النظام أن يتفادى الصدام الدموي بالحوار الحضاري فالشعب ملَّ القمع وسئم الفقر ورفض الخروج من الصف العربي واستنكر التخلي عن الموقف القومي الذي امتازت به سوريا، والنظام السوري قبل ممارسة العنف في مواجهة الانتفاضة يملك عدة ورقات، ولكنه بعد المواجهة الدموية لم يبق بيده إلا الآلة العسكرية والمخابرات، وهو لكي يخرج من المأزق أمام خيارَيْن أحلاهما مُرّ فإما أن ينسف العلاقات مع إيران أو يُفرط بالموقف القومي واللحمة العربية.

والمواقف والأوضاع إزاء القطر السوري قد لا تختلف عما هي عليه بالنسبة للدول التي تعرضت للانتفاضات الشعبية، فالعالم الغربي بقيادة أمريكا يمارس حراكاً مكروراً لم يحقق ما تتطلع إليه الشعوب المنكوبة، والعالم الإسلامي ينطوي على ثلاثة اتجاهات: عربي، وإيراني، وتركي.

وأضعف الثلاثة هو أجداها وأسلمها، أما إيران فالخاسر الأكبر فهي تستبق الأحداث وتعمل من تحت الطاولة، وإن مارست تلطيف الأجواء وتهذيب الخطاب مع المملكة ومصر ولكنها ممارسة في الوقت الضائع، أما تركيا فهي الأندى صوتاً والأقل جدوى ذلك أنها كمهاجر أم قيس لديها «أجندة» تمس النوايا الحسنة، وهذا الاندفاع وتلك اللهجة الحادة مرتبطة بأوضاع ضاحية للعيان، فالتركيبة السكانية فيها تمد بسبب إلى التركيبة السكانية السورية، فلديها «أكراد» و«نصيريون» وأي تغيير جذري في سوريا سيوقظ العرقيات والطائفيات، ثم إنها على أبواب انتخابات ويود الحزب الحاكم استكمال التعبئة العامة، وفوق هذا فقد أسال لعابها ما ظفر به الموقف العربي من خلال النداء الحكيم الذي وجهه الملك عبد الله للأطراف المتنازعة وكأني بها تريد سحب البساط وسرقة الأضواء، ثم هي معرضة لالتفاف إيراني على خطابها. وعلى كل التصورات والتوقعات نتمنى نجاح أي مساع خيّرة.

لَقد أجمع المراقبون على أن موقفها لما يزل صوتاً إعلامياً صاخباً. والنظام السوري أمام تلك المواقف المتفقة على الإدانة والمتفاوتة في الإجراءات والتأثيرات بحاجة ملحة إلى مراجعة الحساب وتغيير المسار. فالقرار المستأثر بكل الغنائم من المستحيلات والوعود المؤجلة لن تطفئ لظى الثورة التي بلغت حد اللارجعة، فهو إما أن يتحول عن طائفيته وبعثيته وعلاقاته المقلقة مع إيران، أو أن يبيع كل شيء في سبيل هذا الثالوث الخطير، وعندئذ لا يكون بيده إلا الحل العسكري والدعم الإيراني والتكتل الطائفي والحربي. إنها معضلة القرن، وليس أمام الشعب السوري إلا الصبر والمصابرة والمرابطة.

وعلى كل الأحوال فإنه من الصعوبة بمكان تخلي النظام عن شيء من مكوناته، ومن الصعوبة بمكان تراجع الشعب عن انتفاضته ومطالبه وتلك المعضلة مقلقة لكل الأطراف ومضرة بكل الأطراف، والله وحده الملاذ الأخير ومعيته مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

من أفراح الأعياد إلى أتراح الأهلة .. !![1]

منذ أن نزلت آية: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ﴾ والناس حولها في أمر مريج، لأنها مواقيت للناس والحج والارتباط بها أزلي والمحيد عنها إخلال بمحققات حضارة الانتماء، وليست الإشكالية في الظاهرة من حيث هي مجال أخذ ورد واجتهاد يحتمل الخطأ والصواب، ولكنها في الأساليب الإجرائية، إذ في كل عام يأتي من لا يورد القضايا مواردها، وكأن الشاعر عناهم بقوله:

أوردها سعدٌ وسعدٌ مشتمل
ما هكذا يا سعد تورد الإبل

والفضوليون لا يتحرجون من الخوض في أمر الأهلة والاعتراض على الرؤية الشرعية.

والخائضون أوْزَاع: فمن عالم بالأحكام الشرعية ومناطاتها ومقاصدها وأدلتها المحكمة والمتشابهة والظنية واليقينية والقطعية والاحتمالية ولكنه يجهل علم الفلك ودقائق المشارق والمغارب ومواقع النجوم، ومن عالم في الفلك ومواقع الأهلة ولكنه يجهل العلم الشرعي، ومن جاهل بكلا العلمين وكل همه أن يكون في الصورة على حد: «من الخيل يا شقراء» أما أنا فجاهل بعلم الفلك وطالب علم نهم في العلم الشرعي، ولا أجد غضاضة من سؤال أهل الذكر متى حزب الأمر، كما أنني لست وجلاً من الاختلاف المؤطر بضوابطه المحكوم بآدابه، ولا أجد حرجاً من تجاذب الآراء حول الرؤيتين الشرعية والفلكية، حتى إذا قالت المؤسسة الدينية المخولة من ولي الأمر كلمتها فلا قول معها ولا بعدها، لأن في ذلك إخلالاً في الأمن الفكري والوحدة الفكرية التي لا تقل بحال عن الوحدة الإقليمية، ولأن كل الأقوال ظنية هي في النهاية تراوح بين الفاضل والمفضول فإن اللحاق بجماعة المسلمين جزء من العقيدة ومن ثم فإنني أمقت الأدعياء ومثيري الشغب ومشيعي التشكيك والجهلة بمقاصد الشريعة ومحققات الرؤية الشرعية، وأشفق على النخب الذين يفيضون علماً وذكاء، ولكنهم يفتقرون إلى الزكاء والخبرة، وأتقي الخوض في الحديث مع ألد الخصام.

والمشهد الإعلامي مليء بكل الأصناف، ولكن معرفة الخائضين على حقيقتهم قد تخفى على كثير من المتابعين والمشاركين ومن ثم يجد الحذر نفسه وقد أتي من مأمنه.

ومن المؤسف أنه في كل عام يعكر الفضوليون صفو العيد بإثارتهم المراء الظاهر والباطن، وبتكاثرهم وتلاحيهم بالأقلام الصالقة والألسنة الحداد وصبّ جام غضبهم على العلماء الوقافين عند حدود النصوص المؤكدة على الرؤية الشرعية بالعين المجردة تمشياً مع قول الرسول ﷺ: «**صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته**».

وفي هذا العام كثرت الرهانات والاتهامات والتراشق بسيئ القول من أناس يدَّعون المعرفة بعلم الفلك، حتى لقد قاسم البعض منهم المتطلعين على أن رؤية الهلال مساء يوم التاسع والعشرين من رمضان مستحيلة، وكاد الجميع يذعنون لهذا الزعم، بل سلموا على أن يوم الثلاثاء هو المكمل للثلاثين، وأن يوم الأربعاء هو يوم العيد وأوشك أن ينفض سامر القوم على هذا الرهان، وبدت أعناق «الملاقيف» ينتهبون نثار الأخبار ويبنون منها نصباً تذكارية لأنفسهم.

---

(١) تاريخ المقال: ٦/ ٩/ ٢٠١١

وقبل اندياح اللغط قطع (الديوان الملكي) قول كل لجوج وأعلن الرؤية الشرعية التي تعبد نا الله بها مدعومة بمحققاتها الشرعية ووفق تسلسل في المسؤولية من شهود عدول وتوثيق شرعي من المحكمة العليا وبيان من السلطة العليا، ودولة المؤسسات حين تتخذ مثل تلك الخطوات الواثقة يلزم كل عاقل امتثال الأمر والتسليم المطلق، فالحج حين يحج الناس والصوم حين يصوم الناس، والإجراء المتخذ من قبل الدولة لا يدع مجالاً لشاك ولا لمتردد، والخوض في الحديث بعد بيان الدولة إخلال بمقتضيات البيعة وتقليل من قيمة المؤسسة الدينية المعول عليها في حسم الخلاف وتوخي المصلحة والتيسير على الأمة.

وفي اليوم الثاني تجلى القمر للعيان ليلجم الأفواه ويحسم الخلاف لصالح البيان الرسمي وتطوعت (جريدة الجزيرة) بنشر صورته كما بدت على شكل لا يدع مجالاً للشك، والغريب أننا حتى هذه اللحظة لم نسمع اعتذاراً ولا تأسفاً ولا اعترافاً بالخطأ من الفضوليين والمرجفين، لقد بلبلوا الأفكار وشككوا في الرؤية الشرعية وطنطنوا حول استحالة الرؤية وعززوا رأيهم بقطعيات بعض الأدعياء من الفلكيين والجمعيات الفلكية، والغريب أن يتولى كبر هذا التشكيك من يعدون أنفسهم من علماء الفلك.

لقد جاءت الرؤية الشرعية واثقة الخطى رابطة الجأش هادئة المشاعر، وقالت كلمتها الحاسمة وسلم العقلاء لها وطارت أقاويل الفضوليين هباء وضاعت سدى. ولكننا نود أن يوضع حداً لهذا الهرج ولتلك التمردات غير الراشدة التي تعكر صفو الفرحة بالعيد وتشكك في سلامة الإجراءات الشرعية والنظامية، وفوق ذلك فإن التلاحي بعد صدور البيان -إلى كونه مخالفة وخروجاً على الإجماع- يعكس صورة سيئة عن مساراتنا الثقافية والفكرية، ولاسيما أن المملكة قبلة المسلمين والعالم الإسلامي يهرع إلى علماء المملكة إذا حزب الأمر، ثم إن الدين لا يتحقق إلا بسلطة تشيعه وتحميه والقضايا العامة من عقائد وعبادات ومعاملات لا يكون مصدر تلقيها من اجتهادات الأفراد وإنما يكون تلقيها من المؤسسات الدينية أما القضايا الخاصة فالناس أحرار في اختيار ما تطمئن نفوسهم إليها وهي مقتضى قول الرسول ﷺ: «**استفت قلبك**» والتنازع حول القضايا العامة وعدم الإذعان والتسليم للمرجعية المؤسساتية مدعاة إلى الفشل وذهاب الريح، والأمة المتماسكة هي الأمة المعتصمة بنصها التشريعي ومؤسستها الدينية بوصف المرجعية المطاعة أكسير الحياة السوية، إذ لا مجال لذهاب كل إنسان بما يرى لأن ذلك عين الفوضى واختلال الأمن الفكري، وسؤال أهل الذكر والفتيا فيما يعترض الفرد في تعبد ه اليومي، أما قضايا الأمة فإلى مؤسساتها. لقد تهافتت القنوات على المتسرعين واشتعلت المواقع وزجت بهم في أتون التناجي الآثم وكشف ذلك التهافت عن المتسطحين وفاقدي الاتزان، وبخاصة بعدما حسم الأمر ولم يعد هناك مجال للمراجعة أو الحيرة، إننا ندرك أهمية الرؤية في الحج والصوم وسائر الشعائر ونقدر حرص الناس على الصواب وسلامة شعائرهم من أخطاء الرؤية أو التقدير، وندرك اضطراب الأحوال في البلاد غير الإسلامية ذات الأقليات الإسلامية، فارتباط كل أقلية برؤية دولتها الإسلامية مدعاة إلى الاختلاف غير السوي، وليس هناك ما يمنع من دراسة شأن الأقليات بمعزل عما سواها والخروج برأي يدرأ عن الأقليات الاختلاف المخل بوحدة الأمة الإسلامية فلكل ظرف أحكامه، وما استعصى على قوم مقال إذا ساد حسن النوايا وسلامة المقاصد، ولا أحسب الدول العربية والإسلامية عاجزة عن التوصل إلى صيغة توفيقية تحول دون اختلاف مناسبات الأقليات الدينية الذي قد يسيء سمعة الأمة، ويجب أن يعالج الاختلاف حول الرؤية بأسلوب شرعي بحيث يتعرف الجميع على سماحة الإسلاواتساعه للاختلاف وأن لكل بلد رؤيته وأن الصوم يوم يصوم الناس والحج يوم يحج الناس وأن الرؤية المجردة هي المقصد الشرعي وكل ما يترتب عليها لاحق بها وأن الناس في حل من ذلك، فليس

الهدف أن تصيب عين الحقيقة ولكن الهدف أن تحقق المقصد الشرعي والمقاصد الشرعية قائمة على التيسير والمستطاع وأن الأمة مُعفاة من الخطأ والنسيان وما استكرهت عليه، واجتماع الكلمة في القضايا العامة مقصد رئيس للإسلام، والفقهاء عالجوا الرؤية بما لا مزيد عليه واستحضروا في المعالجة الشرعية اختلاف المطالع والاستعانة بالآلة والحساب، وتعويل الشرع على الرؤية المجردة تخليص للأمة من التكليف والمشقة، وإذا اجتمعت الأمة على أمر وجب على العامة التسليم فالناس لاتصلحهم الفوضى واستبداد الآراء وواجب الخائضين أن يتضلعوا من أقوال العلماء في هذا الشأن وحق التفكير وحرية التعبير وحق الاجتهاد لا يتعارض شيء منها مع تدخل المؤسسات في الوقت المناسب لحسم الخلاف وقطع دابر التناجي الآثم والتسليم للمؤسسات الدينية جزء من الحرية الإسلامية المنضبطة.

إنني أدعو إلى الاجتهاد والمراجعة وقراءة الأحكام والفتاوى بعيون العصر وتوصيل الرؤى والتصورات عبر القنوات المشروعة، وما أبديه من تحفظ وتذمر لا يصادر حق أي مقتدر ولا يحول دون مواجهة النوازل برؤية مؤسساتية تراعي المصالح وتحقق المقاصد وتضبط الإيقاع وترشد المسار وعلى الذين جازفوا في القول وشككوا في الرؤية الشرعية ووسائلها أن يعودوا إلى رشدهم والرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل ومن أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم وبئس المصير.

تداعيات شعر زهير في سوق عكاظ «ت ١٣ ق هـ» .. !(١)

عندما يلم قارئ مثلي بالشعر الجاهلي، تتبادر إلى ذهنه تلك الضجة الكبرى التي أطلقها «طه حسين» عندما أخرج للناس كتابه «في الأدب الجاهلي» وهو إذاك شاب يتوقد حماساً وذكاء وحباً للإثارة والعصف الفكري.

وهو قد خرج من الأزهر ومن جامعة فؤاد مغاضباً، ووجد ضالته في «السوربون» الفرنسي، إذ تعلق بالمناهج وتبنى الأفكار واستهوته مغامرات المستشرقين، وتمثل كتاب «مرجليوث» «أصول الشعر الجاهلي» حتى اتُهم بسرقته. ورب ضارة نافعة. لقد كان بكل إمكانياته الاستثنائية ودعم المحافل الغربية له سبباً في تجلي مواهب النقاد والدارسين للتصدي له، وشكلت بداياته النقدية منعطفاً هاماً للحركة النقدية وإضافة مهمة للشعر الجاهلي تمثل في عدد من الدراسات الثرية لأدباء ونقاد لا يقلون مكانة عنه، وتبلور مصطلح «الانتحال» بشكل معرفي منهجي، وهو قد ظهر في العصور الأولى، وتداوله مؤرخو الأدب، ولكنهم لم يحرروه بالشكل المعرفي الذي جاء على يد المستشرقين وتعريب «طه حسين» له، وفكرة الانتحال التقطها «مرجليوث» بعد تحقيقه لـ «معجم الأدباء».

والحديث عن حياة زهير وشعره يضعنا على مدرجة الانتحال من حيث نريد أو لا نريد. وحسناً فعل «طه حسين» ومعارضوه، فنحن أمام كمٍّ هائل من الدراسات المتفاوتة في علميتها ومنهجيتها وموضوعيتها واندفعاتها العاطفية، وتلك إضافة مكنت الشعر الجاهلي من الحضور وشغل حيز من المشهد النقدي المعاصر، ما كان له أن يتهيأ لولا تلك الضجة الكبرى التي أطلقها «طه حسين» وتلقفها الأزهريون بامتعاض شديد ونفي مطلق.

وإذا كان الخوض في لجج التنازع يستهويني فإن محدودية المجال تحول دون تحقيق تلك الرغبة، ولقد كانت لي إلمامات متفاوتة بظاهرة «الانتحال» لأنها تمد بسبب إلى عثرات المستشرقين والاهتياجات العاطفية في مواجهتهم.

لقد قاد العلامة «محمود محمد شاكر» الاهتياج العاطفي بعلميته العميقة بالتراث فيم قاد «ناصر الدين الأسد» الحراك الموضوعي باتزانه، ولكل من الطرفين إيجابياته وسلبياته؛ فـ«شاكر» لا يقبل الاستشراق ولا ينصفه، ولكنه يحدث باقتدار عن التراث. وقراءة شعر «زهير بن أبي سلمى» تمر بالقارئ طوعاً أذكرها على ذلك الإرث الحديث، إذ إن معارك «الانتحال» قد طويت صحفها ورفعت أقلامها، ولكنها لما تزل قادرة على إمداد الدارسين بمزيد من الإضافات المعرفية والمنهجية، ومن راد استجلاء خصائص الأدب الجاهلي فعليه أن ينطلق من الانتحال. و«زهير بن أبي سلمى «لم يكن كلداته من شعراء الجاهلية الذين امتد إليهم الشك وأغرقتهم الأسطرة، إذ لا تنازع حول وجوده ولا حول شاعريته وشعره؛ وإن كان ثمة شك فإنه حول المعاني التي طرقها بوصفها إسلامية خالصة الإسلامية وهو جاهلي خالص الجاهلية، وإن جاءت إشارات خاطفة إلى تعمد نسبة أبيات إليه وليست له، أو إضافة أبيات من بعض الرواة إلى قصائد، و «طه حسين» الذي فجر قضية الانتحال اتكأ على دوافع لها وزنها، فهو يرى أن الشعر المروي لا يمثل الحياة الجاهلية وهذا يصدق على شعر «زهير بن أبي سلمى»، كما أن هناك اختلافاً في اللغة واللهجات لم يظهر في الشعر الجاهلي، ووجود دقة في الموازاة بين القرآن والحديث والشعر الجاهلي، ولقد وطأ لهذا التواق اللغوي والتناقض الدلالي أن الرواية شفهية، ولقد

---

(١) تاريخ المقال: ٢٠/ ٩/ ٢٠١١

عزز رؤيته بأن تقصى أسباب النحل المتمثلة بالسياسة والدين والقصص والشعوبية ومواطأة الرواة للمضطرين إلى النحل، والملفت للنظر أنه تعرض لعدد من الشعراء بأسمائهم وليس من بينهم «زهير» وهذا لا يعني إيمانه بصحة شعر زهير، وإن كان زهير من أمكن الشعراء لتماسك الرواية عنه.

وزهير بن أبي سلمى إذ يكون ثالث ثلاثة يقدمون شعراء الجاهلية وشعراء المعلقات، فإنه يفوق كافة مجايليه بأنه ربيب بيئة شعرية ورأس مدرسة شعرية عرفت بالتنقيح، ولأن معانيه زاخرة بالقيم الأخلاقية التي بعث الرسول ﷺ لإتمامها فقد عاش شعره وذكره حضوراً لم يتهيأ لغيره من شعراء المعلقات، ولقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه من المغرمين به والمقدمين له والمستشهدين بشعره والمثنين عليه، ولربما كان ابناه كعبٌ وبجيرٌ سبباً في حضوره إذ هما من شعراء الصحابة المنافحين عن الرسول ﷺ، وفوق هذا فإن تصديه للحرب وتعميقه لمآسيها وتحذيره منها وتمجيده للمصلحين كان من عوامل شيوع شعره، لأن مثل هذا الشعر يجمجم عما في أنفس المصطلين بنارها:-

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتموا
وما هو عنها بالحديث المرجم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة
وتضر إذ ضريتموها فتضرم

ولأنه من المعمرين فقد زخر شعره بالحكم والأمثال وسارت بنوادره الركبان.

ولقد يتسرب الشك إلى نفوس قارئيه حين يحدون في شعره ما لا يجدونه في شعر لداته ومجايليه، أو حين يجدون مصطلحات إسلامية لم تكن معروفة ولا متداولة في الجاهلية كـ «التقوى» واقرأ معي هذين البيتين من معلقته:-

فلا تكتمن ما في نفوسكم
ليخفى ومهما يُكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر
ليوم حساب أو يعجل فينقم

فهل ترى فيهما مسحة جاهلية، وكيف يتأتى ذلك والمشركون ينكرون البعث ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ [النازعات: ١١، ١٢] . ومثل هذه المعاني تفتح شهية المرتابين وتكون ظهيراً لآرائهم التي تضيق بها ذرعاً، ولا نقبل المساءلة حولها، مع أنها تثير الشك في نفوسنا. وطه حسين لو لم يأخذه الحماس والنفي المطلق والإطلاقات المعممة لكان فيما يقول أقرب إلى الحقيقة وإذا تجاوزنا المعاني إلى اللغة، وجدنا زهيراً يختلف كثيراً في شعره عما يتسم به الشعر الجاهلي، فشعر زهير خال من الحوشي والتعقيد والغموض، وفي طبقات ابن سلام والشعر والشعراء لابن قتيبة إشارة لمقولة عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إنه لا يعاظل بين الكلام ولا يتبع حوشيه»، وليس من سمات الشعر الجاهلي الوضوح والجلاء وإنما من سماته الغموض والالتواء، ومع الوضوح فإن أفكاره عميقة، وكل سمات شعره لا تنطبق إلا على الشعر

الإسلامي، وإذا كان من مدرسة أوس بن حجر زوج أمه وبشامة بن الغدير أخوها فإن شهر الرجلين يختلف كثيراً عن شعره.

وحين نتفق على جاهليته من حيث وجوده الزمني فإننا نتفق على أن شعره إسلامياً حضرياً أشرب روح المدنية والتحضر، وتلك إشكالية تشرعن للشك والتردد، ومهما تحفظنا على تلك الظاهرة الاستشراقية فإننا مضطرون للخوْض مع الخائفين حول حقيقة هذا الشعر بتلك السمات الفنية والأبعاد الموضوعية، وللمتردد أن يقرأ معلقة «امرئ القيس» ومعلقة «زهير بن أبي سلمى» ليرى كم هو الفرق بين المفردات والتراكيب والصور والمعاني، وحين يبين له الفرق ينتابه الشك الذي انتاب «طه حسين» وانتاب من قبله «مرجليوث»: إنني لا أنكر وجود الشاعر ولا وجود شعره، وكيف يتأتى ذلك وولداه شاعران صحابيان والناس في صدر الإسلام يرددون شعره ثم لا يجدون في أنفسهم حرجاً من نسبة الشعر إليه، على أن اهتمام القبائل بشعرائها وبشعرهم يبعث الشك والارتياب، لقد ذكر «الآمدي ت٣٧٠» ستين ديواناً من دواوين القبائل، سردها «ناصر الدين الأسد» في كتابه «مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية» وهذا التهافت على تدوين شوارد الشعراء يوحي بأن هناك شعراً منحولاً، وبخاصة حينما لا يكون المروي من الشعر في مستوى القبيلة لا كماً ولا كيفاً.

ومهما تنازعتنا الآراء فإن زهير بن أبي سلمى يظل شاعراً استثنائياً خلده شعره وخلدته تجاربه وسمت به أخلاقياته، لقد مدح وهجا، ولكنه كان متوازناً في مدحه وهجائه، وعالج قضايا لم يحفل بها الشعر الجاهلي وعاش في أتون حرب ضروس امتدت لأكثر من أربعة عقود.

ومن يتجافى عن أقاويل المؤرخين والنقاد والمستشرقين ويباشر الشعر بكل نصاعته يجد نفسه أمام شاعر مثير ينم شعره عن روح تأملية روح متدنية تتناول الظاهر السياسية والعسكرية والاجتماعية والدينية بعقلية محنكة عركتها التجارب، ومكمن الحكمة شعر المعمرين، وزهير الذي لم يشغل المشهد بكرمه كـ«حاتم الطائي» ولا بشجاعته كـ«عنترة بن شداد» ولا بمجونه وتهتكه كـ«امرئ القيس» ولا بخمرياته كـ«الأعشى» ولا بأنفته كـ«عمرو بن كلثوم» عبر المشهد بهدوء يشبه هدوء شعره وبوضوح يشبه وضوح معانيه.

وإعادة قراءته قد يتمخض عن رؤى وتصورات جديدة تجلي كثيراً عن غموض متعلقات الشعر الجاهلي الذي ظل شفهياً حتى عادت القبلية واستشرى الملك العضوض وانتقل الولاء من الإسلام إلى القبيلة، وذلك يستدعي تصرف الرواة بالشعر الجاهلي كماً وكيفاً ولكنه لا يلغي وجوده كما فكر وقدَّر المستشرقون فقتلوه كيف قدروا وتبقى في زهير وشعره بقايا لمن استهوته المغامرة المحفوفة بالمخاطر، لأنه لم يحظ بما حظي به لداته من الشعراء.

﴿وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ .. ﴾[1]

يحدوني الفراغ في بعض الأوقات إلى فَلْي الصحف كلها وقراءة أدق التفاصيل عن أتفه الأشياء، حتى الإعلانات والأخبار المحلية من زواج وولادة ووفاة وترقية ونقل ونزول وارتحال، وتلك الفترات التي لا يطول أمدها- وإن كانت مملة- فإنه تضع يدي على لفتات ما كان لها أن تفوت على مثلي.

ولقد تذكرت وأنا أبحث عن شيءٍ يملأ فراغ الوقت ظاهرة (النقائض) في العصر الأموي التي أنشأها المكر السياسي للتلهية بالتهاجي المقذع بين شعراء عمالقة لو تركوا وأرسلوا على سجيتهم لخلفوا لنا شعرا يفيض بشرف اللفظ وشرف المعنى، ومما توارد على الذاكرة قول أحدهم:

إنـــا لنضـــرب رأس كـــل قبيلـــةٍ

وأبـــوك خلـــف أتانـــه يتقمـــل

وكل قارئ ينتابه الفراغ لا يجد بدأً من تقمل المقالات والبحث عن الهنات وقدري الذي دعني في أتون القراءة دعّا منذ ستة عقود أفاء عليَّ بمسلمات خففت من ضجر المعايشات المقلقة، وهل هناك أضجر من احتمال الأذى ورؤية جانيه، وعدم القدرة على كم الأفواه المتعمدة للافتراء والقائلة في أخطر القضايا بغير علم، وانغماسي في لحج الفكر وانفتاحي على كل الخطابات والملل والنحل وطن نفسي على قبول الاختلاف ومعايشته وعده كالماء والهواء وأكد لي أن فقده إلى الأبد من تحويل السنن الكونية وتَبْدِيلها، ومثل هذا الشعور يثبت الأفئدة ويربط على القلوب، ويهدّئ من روع الراصد والمتابع للنقائض الفكرية والسياسية المشبهة للنقائض الشعرية، ويحمله على الجنوح إلى التصالح أو التعاذر أو التعايش، وذلك كله في الاختلاف المعتبر القائم على التأويل الصحيح الذي يحتمله النص، أما التحريف والانتحال واجهاض النصوص فشيء آخر، وعلى كل الأحوال فقارئ مثلي خَبَّ ووضع بين السطور لا تردعه الشطحات ولا تبخع نفسه الضلالات وإن تمنى الهداية والتوفيق لأهل القبلة من المسلمين ومما أدركت عبر مسيرتي الحافلة بالمتاعب والمفاجآت المفزعة وفَرْط القتاد أن بعض الكتاب تعصف بهم المبادئ والتيارات المادية من حيث لا يشعرون.. ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾

ولقد تبلغ بهم الجرأة إلى الوقوع في نواقض الإيمان دون قصد متعمد منهم، الأمر الذي يرزح بالمتسرعين في اقتراف جريرة التصنيف والحكم والاستعداء وهذا يوقع كل الأطراف في الإخلاء بوحدة الأمة الفكرية. وما أكثر الذين يحومون حول الحمى، ذلك أنهم يفتقرون إلى التأصيل المعرفي، وكم من كاتب أعزه واعتز به عثرت شبات قلمه من غير قصد، وحين أسررت له بالنصيحة تميز من الغيظ على تسرعه وجهله وأقسم الإيمان المغلظة أنه لم يقصد ما يقتضيه كلامه. ولقد كنت من أحرص الناس على تفادي الصدام والتسهيد، فلعل لبعض المتعثرين عذراً ونحن نلوم، وقدوة المصلحين رسول الرحمة الذي يعرف المقترف بسيماه ولكنه لا يزيد على قوله: «**مالي أرى أقواماً يفعلون كذا وكذا**» أو كما قال عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم. واعتماد التصنيف ومبادرة الأحكام في الجدل الفكري يبقي على الإشكاليات ويعمق الخلاف بين الأطراف المتنازعة. ولقد يضطر المصلح إلى المجازاة بالمثل متى أسيء الفهم واستفحل الإصرار والاستكبار، وما أكثر

---

(١) تاريخ المقال: ١٣/ ٩/ ٢٠١١

اللجوجين المعاندين ولو كنت أكر حرصاً على أطر القضايا في نطاق الجدل العلمي المتعالي عن الأنوية والأبوية وما أكثر الذين يخوضون في آيات الله بغير علم ثم لا يرعوون عند التذكير، وما قتل الغيورين إلا المغالطة والإصرار، ومن خلال فلي الصحف في لحظات الفراغ الممل صدمت بمقالات تعتمد الإطلاقات العامة والأحكام المرتجلة وتخوض في قضايا عامة وحساسة لا ينفع فيها إلا التأصيل المعرفي والدقة في الأحكام بوصفها قضايا مثيرة للجدل وليس من مصلحة أحدنا تداولها دون أية مبالاة وبأسلوب يتوسل بالقطعيات والناجز من الأحكام ثم لا يبالي بما يترتب على هذا الابتسار من تصدع في المفاهيم وتناطح بين الآراء واحتقان في المشاعر وتوتر في الأعصاب. واللافت للنظر استفحال اللجاجة والمراء والتنقيب الفضولي للمثير والمستفز من الآراء، في أجواء مشحونة بالفتن، وأي متهالك على القضايا الساخنة إذا تداركه الناصحون لج في عتوه ونفوره. ومما حدى بي إلى القول عن محصلة فلي الصحف ما قرأته عن (عبد الله القصيمي) في إحدى صحفنا ومن أحد كتابنا، ومن الخير له ولمشهدنا أن يُتْرك في جدثه ففي مشاهدنا من القضايا والأناسي ما يشغلنا عن نبش العظام النخرة ومن أراد استعادته فليقرأه متقصياً كل مراحل حياته وكل تحولاته وتناقضاته. وأذكر أنني تناولته في مقالات سلفت تحت عنوان (تداعيات قراءات دمشقية) وأبنت عن فكره الهدام وعقيدته الإلحادية، ومع وضوح فكره ومناقضاته الصارخة لفكر البلاد وعقيدة الأمة فقد قال عنه الكاتب بصريح العبارة: إننا بحاجة لأن نعلمه لأبنائنا، أن نعيشه وننهل من عظمه ما خلفه لنا من تراث فكري عملاق نباهي به ولو أن صاحبنا قرأ فكره لحذر الناشئة من الاقتراب منه ولو أن صاحبنا عرف أنه سيسأل عن مقترفه ويطلب مه إثبات العظمة والعملقة لما نبس ببنت شفة ولو أنه عرف أنه بقوله هذا يسيء إلى نفسه وإلى فكر أمته القائم على السلفية المستنيرة لتوارى من القوم من سوء ما عرف به، وكل الذي أريده من هذا الفضولي المتسرع المخاطر بنفسه وبعقيدته وبأبناء وطنه أن يتحامل على نفسه ويقرأ كتاب القصيمي (الكون يحاكم الإله) ليرى الكفر البواح والإلحاد المتمرد، و هل عاقل يريد من أبناء المسلمين المولودين على الفطرة اقتفاء أثر مهرج هدام ملحد، والقصيمي لا يمثل فكر المملكة ولا يعد من مفكريها، وكيف يتأتى الوفاق بين فكره التلفيقي العشوائي الهدمي وفكر المملكة السلفي المستنير بنور الإيمان، ولو أن أحدا من المتربصين بالملكة التقط مثل هذه المقولات غير السوية والتي أفاض بها إلى الناس كاتب سعودي وفي جريدة سعودية وحدد من خلالها فكر البلاد وحراكها الثقافي لكان من حق المتلقي من خارج البلاد ألا يرانا أهلاً لتطهير بيت الله للطائفين والعاكفين والركع السجود، بوصف التطهير حسياً ومعنوياً. لقد اتسع المشهد الفكري والديني في المملكة لمختلف الأطياف واستوعب عدداً من الخطابات، وغلب جانب الحوار، وركن إلى التسامح والتيسير وقبل الاختلاف المعتبر بضوابطه، ولكنه لماَّ يزل وسيظل مشهداً واعياً لمهمته مدركا لرسالته وقَّافاً عند حدود الله معتمداً على الكتاب وصحيح السنة، ومن تصور أن التسامح والحوار يعنيان الفوضى والانفلات وتمييع الإسلام وتلميع الطغام فقد ضل ضلالاً بعيداً. المملكة ستظل مأرز العقيدة الإسلامية وملاذ الحضارة الإسلامية ومستقر الحكومة الإسلامية المحكمة للشريعة المستوعبة للمذاهب الإسلامية. ولن تحيد عن سلفيتها التي أرسى دعائمها المحمدان: ابن سعود وابن عبد الوهاب ومثلما نضيق بهذه الشطحات، نود أن نرشد الاختلاف وأن نأطره في إطار القضايا وأن نحيد الأطراف الذين تمتعوا بحقهم في الاجتهاد والاختلاف، لا نحكم بكذب أحد ولا بجهله ولا نشق عن صدره لنعرف نواياه، فالله وحده المحصل لما في الصدور. ومثلما نضيق بهؤلاء وأولئك نضيق بالذين لا يفرقون بين المبادئ والتطبيقات، فالإسلام من حيث هو مبدأ، وممارسات المسلمين

تطبيق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مبدأ وممارسات الهيئة تطبيق فالمطبق المخطئ حين يحتمي بالمبدأ يسئ إليه، والمتأذي من المطبقين حين يضيق بالمبدأ يعرض نفسه للفتنة والوقوع في نواقض الإيمان. لقد وقفت وأنا أفلي كثيراً من المقالات على هنات موبقة وإصابات معتقة، وفي النهاية كل الكتاب يغدون فمعتق نفسه أو موبقها، وما أحوج مثلي إلى سويعات غير عازمة يتقمل فيها نثار المقالات غير المسؤولة ويجتهد ما وسعه الاجتهاد والإرشاد ضال المسلمين بالحكمة والموعظة الحسنة.

ذو العقل وأخو الجهالة والسوناميات السياسية .. !(١)

قدر الكاتب المسكون بهم أمته، المتضلع من قواعد اللعب السياسية، المتفحص لأشلاء القيم والمثمنات، أن يكون أبداً مقيماً على عتبات العصي من المشاكل، ليشقى بها، ويصطلي بحرها، وهو بهذا القدر المأزوم يلتقي مع الفتن كماء الطوفان على أمر قد قدر.

فالوضع العربي برق فيه البصر، وخسف القمر، وشأن المفكر السعودي أن يمد عينيه إلى تعاسات الآخرين، ليأسو، أو يواسي، أو يتوجع. لأنه مع أحداث أمته على سنن:

فـــلا نزلـــت علـــي ولا بأرضـــي

ســـحائب لـــيس تنـــتظم الـــبلادا

وليس على سنن:

[إذا مت ظمآنا فلا نزل القطر]

وحين يتناوش هذا الصنف من الكتاب مع الجبهات الباردة يجد نفسه في اللهب ولا يحترق، كمن (لا يموت فيها ولا يحيا) واجترار المآسي غذاء تضوى به الأجسام، فاحتماله الفكري كاحتماله الجسدي، والجسد حين لا يحتمل الصدمات العنيفة، يدخل في الغيبوبة، بحيث لا يعي ولا يحس ما حوله، وتلك نعم الله على الإنسان، فهو يحس ويتألم، وحين يتفاقم الألم يفقد وعيه، وقد لا يفيق، ولربما يكون الجنون أو الانتحار، وهما طريقان من طرق الرفض للواقع والخلوص من المواقف المتفاقمة، وهنا يأتي دور الإيمان الذي يحسم المواقف بالتسليم المطلق والإذعان الطوعي.

وإذا ضاع الإيمان فلا أمان، والأمل وحده يشد العضد ويؤجل الاستسلام، ولولا الأمل لضاقت الأرض على المرضى والمعوزين والمقهورين بما رحبت، وتلاحق الانهيارات في أنحاء الوطن العربي آيات ونذر لمن ألقى السمع وهو شهيد، والمدكر يقطع بأن هذا الطوفان الجارف الذي يجتاح الوطن العربي ليس طبيعياً، ولاسيما أنه يتتابع بأشكال منتظمة، وبنتائج متشابهة، وبأسباب وأساليب متقاربة، والمواطن العربي المأزوم، يعايش حكومات متسلطة، ذات بأس شديد وظلم عنيد، وأحلاف مذلة، تمدها بحبل من الناس.

وعلى الرغم من بوليسيتها ومخابراتها ومباحثها، فقد تهاوت كما لو كانت مؤسسة على شفا جرف هار، أحداث مربكة ومتسارعة وعصية على القراءة، ومستحيلة على التصور، ومحيرة للفكر، إنها نوازل لاتذعن لرهان، ووقوعات أوابد، لا يلحق بها حدس، مجرد بائع خضار على عربة في (تونس) يختلف مع مراقب البلدية، وتضيق عليه الأرض بما رحبت، ثم لا يجد لغة يعبر بها عن رفضه واحتجاجه إلا أن يشعل النار في جسده، ليمتد لهيبها من المحيط إلى الخليج ملتهما الأصنام الصدئة، ومرمِّداً القلاع الورقية، وشافياً صدور قوم مؤمنين، ولما يزل ضرامها ينتهب الخطى، ليضع (خارطة طريق) جديدة، ولغة سياسية جديدة تنهض من حولها حرية الإرادة والتعبير، ويسقط حاجز الخوف ولغة التصنيم.

وتلك نتائج لم يحلم بها أحد من قبل، والثوريون العسكريون الذين تلاحقت انقلاباتهم الحمراء والبيضاء منذ سبعة عقود لم يقدموا بين يدي ممارساتهم ما يدرأ عنهم دعوة المظلوم ولاسطوة المقهور ولا مقت الله.

---

(١) تاريخ المقال: ٤/ ١٠/ ٢٠١١

لقد سلكوا الطريق إلى سدة الحكم على الجماجم والأشلاء وبحيرات الدم، وظلت تلك الصور المرعبة فاصلة بينهم وبين الذين يتجرعون مرارات القهر والحرمان.
وحين شحنوا مشاعر الشعوب بالأحقاد والضغائن، وشدوا الوثاق، ولم يكن هناك من ولا فداء، غرقوا إلى الأذقان بالنعيم، وسخروا مقدرات الشعوب لتوفير الشهوات وإشباع الغرائز وتشييد القصور.
وكلما حاولت الشعوب التقاط أنفاسها وُوْجهت بمقامع من حديد، ولما أترفوا أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾، إن الضربات الساحقة للطغاة والمستبدين مواعظ عملية، ومشاهد حية لمن خلفهم. وبأس الله يأتي الموغلين في الإيذاء بياتاً وهم نائمون، وقد يأتيهم ضحى وهم يلعبون، ولو أنهم رعوا ما تحت أيديهم من مسؤوليات حق رعايتها، لفتح الله عليهم بركات من السماء والأرض، ولكنهم ظلموا وسرقوا وأترفوا، ونسوا ما ذكروا به، فأخذهم الله بما كانوا يكسبون، ومن ذا الذي يأمن مكر الله؟ ﴿فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾، وكل من أورثه الله ملكاً أو مكنه من سلطة، ثم لم يرع حق الله فيها وحق من ولي شأنهم، يؤخذ بذنبه، وكم من جبابرة نسوا الله فأنساهم أنفسهم.
وأساطين (البرامكة) من الفرس الذين نكبهم (الرشيد) يتناجون داخل السجن، ويحيل عقلاؤهم سبب ماصاروا إليه إلى دعوة مظلوم بليل غفلوا عنها، واليوم وقد بلغ السيل الزبى، لم يبق إلا الاتعاظ والتذكر ومحاسبة النفس (والكيس من دان نفسه) والعاقل من وعظ بغيره. وبلادنا التي أنجاها الله من تلك الويلات بما هيأ لها من سياسة حكيمة وقيادة رشيدة جديرة بأن يعتصم أبناؤها بحبل الله جميعاً ولا يتفرقوا، وأن يتقوا أخذ البغتة والإبلاس فالله يملي ويستدرج ولكن كيده متين، ولاسيما أن اللعب السياسية من حولنا ترمي بشرر كالقصر، كأنه جمالة صفر، والويل كل الويل لمن زج نفسه في أتونها طوعاً أوكرهاً، ولقد تفتح اللعب ملفات ملغومةكالطائفية والعرقية والتشتت الفكري لتفرق الكلمة وتشتت الشمل وتضرب الوحدة الاقليمية والفكرية في الصميم، هذه المخاضات الطبيعية والمبتسرة يخوض غمارها ذو العقل الذي يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة المتنعم في الشقاوة، وكلاهما في النهاية يعبر الحياة ليكون خبراً بعد عين وذكرى للذاكرين.
ويبقى الأمل كمشكاة فيها مصباح تعصف بنوره الخافت رياح هوج، تريد إطفاءه، ولكن الله متم نور الأمل ليظل العقلاء بين اليأس والرجاء.

الطائف من الهامش إلى المتن .. ! (١)

كتبت عن سوق عكاظ قبل هذه المرة، وتحدثت عن خالد الفيصل أكثر من مرة، وتفتق ذهني في عمارة نجمة وساحات الطائف الشهيرة قبل نيف وخمسين سنة، يوم أن كنت طالباً في إحدى صيفيات وزارة المعارف، ولتلك السفرة حكايات غرائبية قد نقيد شواردها يوماً ما.

وتهجيت الكتابة عن أوضاع الطائف ما تحتاجه مصايفه ومتنزهاته بوصفه المصيف الوحيد للدولة، فما كان لدى الناس إذ ذاك متسع من الوقت ولا بسطة في الرزق ولا وفرة في الرواحل ليصطافوا، وتلاحقت زياراتي له بعد ذلك، وبعد أن سحبت «أبها» البساط من تحته سحبتنا معه، وما كانت شهوة الكتابة قادرة على أن تخلص من زحام القضايا الملتهبة في محيطنا العربي الذي يغمره طوفان الأحداث الجسام، ومن ذا الذي يجد فسحة من الوقت وراحة في البال ليقول كلمة ثناء أو رجاء يشد فيها عضد المسؤول أو يلفت نظره إلى نقص أو تقصير ووطنه العربي يغفو على انكسار ويفيق على اندثار، غير أن التظاهرات الثقافية تثير كوامن النفوس:

وذو الشـــــوق القــــديم وإن تعــــزى
مشـــــوق حـــــين يلقـــــي العاشـــــقينا

والمبادرات الثرية المتلاحقة في سوق عكاظ حرية بأن يقرأها المستهدفون بها والمستفيدون منها فهي منهم ولهم وإليهم وإن أجْراها الله على يد من اصطفاه للنهوض بها والله أعلم حيث يجري نعمه على يد من يشاء من عباده.

وسوق عكاظ الذي اجتمعنا فيه وتناجينا تحت أفيائه وتحدثنا عبر منافذه القولية وفعالياته المتعددة يَعِدُ بكل جديد، فجادَّته وساحاته وقاعاته مشرعة الأبواب لكل الأطياف العربية والمحلية ولكل طيف وجهته التي هو موليها، والقائمون على تلك التظاهرات الثقافية لن يترددوا في استيعاب كل التساؤلات والأخذ بأحسنها، ومهندس تلك الفعاليات حين لامست أذنيه دفقات الثناء وزخات الشكر كاد يكمم الأفواه ويصرف الأنظار إلى ما يجب أن يكون لا إلى ما هو كائن، وطارت بإبائه الركبان لأنه وجّه الأقلام إلى محض النصح والإرشاد، وحديثي لن يرتهن للثناء والشكر وإن كان من حق من أسدى إلينا معروفاً أن نكافئه وليس من الثناء المفضول أن يعرف كل منا لذوي الفضل فضلهم، فالنفوس جبلت على حب الثناء وتلك طبيعة الإنسان، والعيب أن يحب المرء الحمد بما لم يفعل، أو أن يقول المادح ما ليس في الممدوح، وأصدقكم القول إننا لو نفذنا حثو التراب لأصبحت الأرض قاعاً صفصفاً على أن الرسول ﷺ قبل المدح وكافأ عليه، غير أن الإسراف فيه والانقطاع له والتعود عليه من التلبسات المفضولة.

ولأن سوق عكاظ بنسخته الخامسة لامس رغبات الأدباء والمثقفين وأثبت أن في كل نسخة متسعاً للإضافات والتحديثات فقد تلاحقت المطالب في اللقاء المفتوح مع سمو الأمير، وأسرف المؤتمرون على أنفسهم وبالغوا في المطالب وجاءت صورة السوق في أذهانهم متناقضة ولمّا تفرّقت بهم السبل وشطت بهم الرغبات جاء الرد ليلملم نثار الآراء ويضع المتطلعين أمام مشروع حضاري ينتهب الخطى ولن أتجاوز مداخلتين حضاريتين وهامتين:

- مداخلة الإدريس في أن نمد بسبب إلى اليونسكو.

---

(١) تاريخ المقال: ٢٧/ ٩/ ٢٠١١

- ومداخلة دحلان في أن نمد بسبب إلى تمويل ثابت للإنفاق، فالمداخلة الأولى تتيح للسوق العالمية وهو حقيق بها والمداخلة الثانية تخلص السوق من ربط مصيره بالذات الاستثنائية وهذا تخوف مشروع.

والذين أتيح لهم حضور فعاليات السوق أدركوا أن وراء هذه المنجزات تجارب وخبرات وعزمات تنكب عن ذكر العواقب جانباً وبمثل ما تحقق في عسير من منجزات تباينت حولها الرهانات، فقد بدأت بوادر منجزات مماثلة تبدي أعناقها في الحجاز ستنقل الطائف من الهامش إلى المتن، ولم تكن المبادرات وقفاً على سوق عكاظ ومتطلبات المصيف المهجور الذي بدأ يتململ من تحت ركام النسيان.

ومثلما استأثرت أبها بكل مقومات السياحة، فإن الطائف على موعد مع التخطي من الهامش إلى المتن، وخير معين على هذه الانتفاضة استدراج هيئة السياحة لتلقي حبالها وعصيها فتمكن الطائف من الصدارة، ولاسيما أن الأمير سلطان بن سلمان أعلن في كلمة الافتتاح عن أوامر سامية ضجت عند سماعها القاعة بالهتاف والتصفيق من أبناء الطائف ومتى وفّق المعنيون بتنفيذ تلك الأوامر على وجهها، فإن «الطائف» ستكون بلد السياحة الأول، وهو جدير بأن يبتدر الراية، فالأميران خالد وسلطان والدعم السخي من الدولة وطبيعة «الطائف» المعطاء كلها من مقومات النجاح.

وسوق عكاظ بوصفه حدثاً تاريخياً أهمله التاريخ حقيق بأن يعود بصورته الأولى، مجسداً الحضارة العربية بحروفها الأولى وليس مجرد لقاء تقدم فيه الفعاليات دونما استقراء للتاريخ وتجسيد للتراث الحسي والمعنوي، وليس هناك ما يمنع من مسرحة أحداثه وشخصياته بحيث تعود تلك المفردات بلحمتها العربية وبلغة المعلقات وأزياء الأعراب وقبتهم الحمراء ورواحلهم وكل أشيائهم، إنه مرحلة تاريخية مضيئة يود العربي أن يراها كما كانت في الجاهلية الأولى، وإن كان ثمة ضرورة إلى عصرنة الأشياء وتحميلها بعض الهموم المعاصرة، فإن ذلك مباح ومتاح ولكنه كالضرورة تقدر بقدرها، ولقد جاءت المسرحيتان في الدورتين الرابعة والخامسة على جانب كبير من النجاح والإثارة وتضارب الآراء، إذ مارس الكتّاب والمخرجون عمليات إسقاط وترميز ذكية على مبدأ التاريخ يعيد نفسه فـ«عمرو بن كلثوم» رفض القهر والتسلط وحكم التفرد. و«زهير بن أبي سلمى» رفض الحرب المجانية والتدخلات الأجنبية، وكل تلك العلل مستشرية في عالمنا المعاصر، ومن العيب أن يقاومها شعراء الجاهلية ثم لا تكون لنا ذاكرة تعي تلك المواعظ.

لقد جاءت سوق عكاظ هذا العام بإضافات تبشر بمستقبل واثق الخطو، وإن كان ثمة فضلة من شكر وثناء فإنه يزجى لفريق العمل الذي أتقن كل متعلقات التظاهرة الثقافية، وهيأ للضيوف العرب والمحليين أجواء ملائمة للتفاعل الإيجابي.

هدايا المهرجان كثيرة ومتنوعة وفعالياته كثيرة ومتنوعة، كان في مقدمة الهدايا «ورد الطائف» و«كلمات» للأمير خالد الفيصل، وهي مجموعة كلمات منبرية ألقاها في مناسبات متعددة بأسلوب أخّاذ وبيان جلي وتركيز وترميز قد نسعد بقراءتها بآلية النقد ومنهج البلغاء حين يتوفر الجهد والوقت.

في النهاية نزجي وافر الشكر لمعالي المحافظ فهد المعمر وللأستاذ الدكتور سعد بن محمد المارق ولكل الذين أضافوا إلى أجواء الطائف الجميلة أجواء أحلى وأبهى، ولكي أخترق سياج المنع الذي نصبه خالد الفيصل أستنجد بمقولة شخصية المهرجان زهير ين أبي سلمى:- «عموا صباحاً إلا خالداً وخيركم استثنيت».

أَلَيْس في إيران رجلٌ رشيد .. ؟! (١) [1]

الخطاب الثوري طائش لا يفيق.
والخطاب الطائفي متعصب صفيق.
والخطاب العنصري متطاول لا يليق.
ولإيران الآيات، وولاية الفقيه والنَّفَس الصفوي من الخطابات الثلاثة نصيبها الأوفى، ولهذا...

فهي تشكل نشزاً في السباق الخليجي والعربي والعالمي، والتعامل معها في ظل هذه الأوضاع المأزومة يحتاج إلى بصر وبصيرة وحلم وأناة، وبحث متأنٍ للنفاذ من المأزق بأهون الضررين ومن المستحيل الوصول مع إيران إلى شاطئ السلامة بلا ثمن باهظ، وعلى الأمة العربية ترتيب أوضاعها وفق معطيات هذه الأوضاع الشائكة والضاربة في عمق التاريخ، إذ لم تكن إيران بما هي عليه بدعاً من الأمر، وتجاربها الممتدة عبر التاريخ الإسلامي مروراً بالدولة الصفوية تجعل مجايلتها ذات أبعاد مزروعة بالألغام، ومن قبل هذا فالتاريخ الإسلامي منذ فجره يفيض بالأحداث الجسام ذات الأثر البالغ على مجمع أوضاع الأمة الإسلامية، ومَرَدُّ ذلك ما يتعرض سبيلها من معوقات ليست من الدين في شيء، ومما بادرها إبان البعثة الإسلامية وتشكيل الدولة في المدينة مكائد المنافقين ومكر اليهود، ولأن المكر والمكيدة واكبتا نزول القرآن فقد أنبأ الله رسوله بأخبارهم وحسم أمرهم لصالح الأمة الإسلامية.

وبعد أن فُتِحت المدائنُ في عهد الفاروق كاد له المجوس وتربصوا به الدوائر، وجاءت الغدرة القاصمة باغتياله، وهو قائم بالمحراب يؤم المصلين في صلاة الفجر من يد آثمة لمَّا تزل رمز الطهر والفداء والاستشهاد عند المجوس الحاقدين فـ(أبو لؤلؤة المجوسي) الذي انتحر مجوسياً، يقدِّسه الإيرانيون وهم يدَّعون الإسلام، لا لشيء إلا لأنه غدر بفاتح المدائن، لقد كان عمر حذراً من دخول غير المسلمين إلى عاصمة الإسلام، ولكن المغيرة بن شعبة أغرى عمر بهذا الغلام الصُّناع، الذي توعد عمر بكلمة رامزة أدركها عمر، ولكنه لم يأخذ الحيطة منه. ومنذ ذلك الحين والعنصر الفارسي يكيد للإسلام والمسلمين، إذ فوجئ بالفتح الإسلامي وبانتشار الإسلام على يد العنصر العربي وبدخول الناس فيه أفواجاً، وما كان لهذا العنصر المتعالي كالدخان أن يحتمل ندية العنصر العربي فضلاً عن تصدره لقيادة العالم وحمله الرسالة إلى آفاق المعمورة، فلقد كان العنصر الفارسي على جانب من القوة الحسية والمعنوية والطموح التوسعي ولم يدر بخلده أن تكون الرسالة الإسلامية على يد رجل عربي وبلسان عربي مبين، ثم يكون هذا الذكر سبيلاً لعزة العنصر العربي، وإن كان أكرم الناس عند الله الأتقى، لقد شرف العرب بحمل الرسالة ونزول القرآن بلسانهم وتجلت مِنَّةُ الله على العرب بقوله جلَّ وعلا لنبيه: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

وحين تتابعت الفتوحات ظل العنصر الفارسي المجوسي على شيء من الحقد والتربص، وما القلاقل التي واكبت العصر الراشد إلاَّ بعض صنائعهم، وما ثورة العباسيين على الأمويين إلا بتدبير وتنفيذ فارسي، وما مكيدة «أبي مسلم الخرساني» التي آلت به إلى القتل إلا بداية للصراع بين العنصرين العربي والفارسي، وما نكبة البرامكة التي ملأت صفحات التاريخ وتحولت إلى لون من الأساطير إلا واحدة من الجولات

---
(١) تاريخ المقال: ١٢/ ٤/ ٢٠١١

والتصفيات، وما صراع الأمين والمأمون وزبيدة والبرامكة إلا حلقات في سلسلة الصراع بين العرب والفرس، وما تعزيز العنصر التركي على يد «المعتصم» إلا محاولة لتفكيك العنصر الفارسي الذي قويت شوكته ولم يستطع الخليفة حسم الموقف معه مثلما فعل «هارون الرشيد» مع البرامكة، وما قيام المذهب الشيعي إلا مفردة من مفردات الصراع، وفي أثناء الحرب العراقية الإيرانية استطاع الإعلام العراقي قراءة التاريخ الإسلامي وتقصي مراحل الصراع المستميت بين الفرس والعرب، وسيظل الصراع قائماً على أشده، وهو صراع مفعم بالمجوسية والشيعية، وعلى الأمة العربية أن ترتب أوضاعها على ذلك، وما الإشارات الحمقى التي تمارسها عصابات المجوسية في مواسم الحج تحت أي مبرر إلا حلقات في تلك السلسلة الصدئة.

والهزيمة القاتلة التي تجرع مرارتها «آية الله الخميني» في حربه الضروس مع العراق، والتي راح ضحيتها أكثر من مليون قتيل من الطرفين وتعرضت الدولتان لخسائر فادحة تقدر بمليارات الدولارات، ومقولته المتحسرة عند توقيعه المكره لإيقاف القتال كل ذلك يدل على أن الحروب تهدأ ولا تحسم إذ لما تزل نار الحقد تأز في صدورهم، وكأنهم بمحاولاتهم البذيئة يودون اجتثاث ذيولها من أعماق نفوسهم المتحسرة.

لقد تدارك درع الجزيرة دولة البحرين، وحال دون نفاذ المؤامرة الشيعية المجوسية، وحين أسقط في أيديهم جن جنونهم وبدأ إعلامهم ومجالسهم النيابية تهذي كالمحموم، وتتهم المملكة العربية السعودية باحتلال «البحرين» مثلما فعل «صدام حسين» حين احتل «الكويت» وتلك محاولات مكشوفة ما كان يجب سكوت الأمة العربية عليها والاكتفاء بدفاع مجلس التعاون الخليجي، ذلك أن القضية أكبر من الخليج وإذا كان العالم بقيادة أمريكا وتسهيلات المملكة وتضحياتها قد حررت الكويت، فإن واجب الأمة العربية وجامعتها أن تبتدر المشكلة وأن تجهض النوايا السيئة المبيتة لاحتواء الخليج وتفكيك وحدته، إن هناك أفعى مجوسية فارسية شيعية تريد أن تلتف على عنق الخليج، وهي إذ حققت بعض الحلم في «لبنان» وفي مواقع كثيرة فإنها تود أن تكمل المشوار، وتمضي حيث تأمرها أطماعها وتسوّل لها نفسها الأمارة بالسوء، وتطلعات الآيات والملالي وأطماعهم التوسعية بعيدة المنال ولكن صدها وإحباطها يتطلب تضحيات محلية وعالمية، فإيران تعسكر نفسها منذ أن قامت الثورة المشؤومة وبذات النَّفس الشاهنشاهي ولا شك أنها بهذه الأماني الجامحة ستفقد كل شيء ثم تكون عليها حسرة، ولكنها لن تبالي بالخسائر والنكسات ولسان حالها يقول: «عليَّ وعلى أعدائي».

أليْس في إيران رجل رشيد.. ؟! (٢) (١)

لقد كانت هناك أحلام توسعية لدى (الشاه) ولهذا عمد إلى عسكرة نفسه وأصبح يمتلك خامس قوة عسكرية، ولكنه كان عدواً عاقلاً، يزن الأمور، ويراعي المصالح، ويحترم الأحلاف، ويرضى بجنون العظمة، ولم تكن رؤيته (أيديولوجية) ولا (عنصرية) وما كان ثورياً كما كانت الآيات والملالي.

وإشكالية (إيران) الراهنة أنها لم تزل حكومة ثورية توسعية، مسكونة بهمِّ التصدير للثورة والطائفية واستبداد العنصر الفارسي، وتلك أدواء تقعد بها دون الصيرورة الحتمية إلى مقتضيات الحكومة المدنية التي تراعي المتطلبات الضرورية للمواطن التواق إلى الأمن بكل أبعاده النفسية والغذائية والصحية، وما يستصحبه ذلك من صناعة واعية للإنسان، بحيث يكون عضواً عاملاً في صناعة الدولة الحضارية، وبحيث لا يكون نشزاً في السياق الإنساني، فالدولة القُطْرِيَّة المنكفئة على نفسها لم يعد لها مكان في ظل الثورات العلمية والانفجارات المعرفية وثورة الاتصالات المذهلة، فالدول اليوم أصبحت كأفراد داخل مصنع مشترك، ولا أحسب رؤية كرؤية الآيات والملالي صالحة للإسهام في إدارة عجلة الإنتاج بمثل هذه المفاهيم والتصورات، وارتهان الدولة للمنازع الثورية التوسعية حال دون ترقيها إلى مستوى الدولة المدنية، ومجازفاتها التي تناهز حد الانتحار متوقعة بين عشية وضحاها، فالدولة الثورية لا تبالي بأي واد هلكت وأهلكت، والفاحص لأوضاعها وأوضاع شعبها المشحون بالتوتر يدرك أنها تعيش حالة من الإفلاس والغوغائية، وكل شعب ليست له مثمنات حسية أو معنوية يظل ربيب الهتافات والمظاهرات، فيما تظل عجلة الإنتاج عنده معطلة، وكل شعب تحكمه الشعارات تتحكم فيه الفوضى وتستشري في ربوعه الاضطرابات، وقد تضطر السلطات المهيمنة إلى التنفيس عن نفسها بتصدير الفوضى تحت أي مسمى، والأزمات الاقتصادية والاجتماعية حين تتجذر ثم لا يكون هناك بارقة أمل يلجأ أهل الحل والعقد إلى افتعال الأزمات السياسية أملاً في الخلوص من شبح الانفجارات المدمرة التي تبدو بوادرها بين الحين والآخر، وهذا ما يسمى بالهروب إلى الأمام وهو عين ما تفعله القيادة المرتبكة في إيران، وافتعال المشاكل والأزمات السياسية محاولة يائسة لإبطاء ساعة الانفجار.

والعقلاء الذين يعول عليهم لإقالة العثرة وردم هوة الخلاف بين الأطراف إما أن يكونوا في المنافي أو في غياهب السجون أو تحت الإقامة الجبرية، والممسكون بأزمة الأمور لما ينفكوا من الصهيل والهدير، واستعراض العضلات، وإبداء القوة العسكرية بتدشين صاروخ أو مصنع للسلاح، وتلك شنشنة سمعناها من حكومات عربية ثورية كنا نحسبها الأقدر على إقالة العثرة فإذا بها تكون عالة على الصامتين الذين يقضون حوائجهم بالكتمان، وسيكون مصير هؤلاء كؤلئك، فلقد ألفنا تحول الهدير إلى رغاء والصهيل إلى مواء.

وقراءة الصراع بين إيران الآيات والملالي والحوزات من جهة والدول الخليجية والعربية بمعزل عن التاريخ الإسلامي القديم والثوري العربي الحديث قراءة منقوصة، ومن تصور أن بإمكان أي مبادرة سياسية أن تجتث الأحقاد والضغائن فقد أخطأ الطريق، غير أن الخلوص من هذه المنعطفات الخطيرة بأقل الخسائر مطلب إنساني، ذلك أن الجنوح للسلام من مقاصد الفكر السياسي الإسلامي، ومتى أمكن تحييد إيران وكف أذاها بالوسائل السلمية فإن التصعيد اختيار مفضول، ولا يتفق مع سياسة الدول الخليجية عامة

---

(١) تاريخ المقال: ١٩/ ٤/ ٢٠١١

ولا مع سياسة المملكة العربية السعودية على وجه الخصوص، وإذ أكَّدْنا على استصحاب المؤثرات الضاربة في عمق التاريخ بين الفرس والعرب فإنه يجب أن نستصحب الخطاب الثوري عربياً كان أو غير عربي، وإيران محكومة بالنَّفس الثوري منذ أن سقطت الامبراطورية الإيرانية.

ما أود تقديمه بين يدي حديثي أو تداركه من باب الاحتراس أن العقلاء الناصحين لأمتهم الإسلامية على مختلف أطيافها وطوائفها لا يودون لأي بلد إسلامي وإيران حكومة وشعباً من بينها إلا الخير والأمن والاستقرار والسيادة متى استقاموا على الطريق وجنحوا للسلام وأدركوا أن مرتع الظلم وخيم، وحين نحب لإيران ما نحب لأنفسنا لا نجد بداً من مراقبة الأوضاع وتقويم التعديات على كل المستويات العملية والإعلامية وإنزال الأمور منازلها فقد عيب على الذين لا يقدرون الأمور بحيث يضعون الثقة في غير موضعها، فنحن أمة ذات رسالة وأصحاب مثمنات، ونعيش حالة من الأمن والرخاء والاستقرار، ولدينا تطلعات حضارية ومدنية، وأي تصعيد مع أي طرف سيكون له أثره على مشاريعنا العملاقة وسياستنا الوسطية المحترمة على كل الصعد، ومن ثم سنكون مكرهين حين نضطر للمواجهة، لأن ذلك سيفوت علينا فرصاً كثيرة، فنحن نتطلع إلى الأفضل، ولن نريد لسمعتنا تدنيساً ولا لمنجزاتنا تكسيراً ولا لمسيرتنا تعويقاً، ولن نسمح لأحد أن يعكر صفو حياتنا ولا أن يؤثر على سيادتنا، ولا أن يعمل على إرهابنا وتخويفنا فإما حياة كريمة تسر المحب وإما ممات شريف يسوء العِدَى. وصدق الله: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ النصر أو الشهادة. وما كنا تحت أي ظرف لنتخلى عن الدفع بالتي هي أحسن، غير أن ما تفعله الحكومة الثورية في إيران وما تتناجى به مجالسها النيابية والتشريعية من الإثم والعدوان لا يبشر بخير ولا يبعث على التفاؤل وما هم عليه عين الإساءة والترصد مع سبق الإصرار، وإيران الحكومة والملالي والمجالس في مجمل خطاباتهم الاستفزازية يحاولون الانتشار وتوسيع مواقع النفوذ ظناً منهم أن أصحاب الشأن عاجزون عن التصدي والصمود وقطع دابر الشر، أو أن دول العالم ذات المصالح والمسْتَهِمة على سفينة الكون لا يأخذون على يد السَّفيه.

والدول الخليجية بما هي عليه من سياسة الاعتدال واتقاء الشر بأيسر الحلول وسعيها لحل مشاكلها عبر الدوائر المستديرة لا تود أن تطوقها أفعى الطائفية ولا أن يستشري في جسدها المد الثوري، ولا أن تتنازع عليها الفارسية والتركية، ولا أحسبها تجهل ما تبيته إيران من نوايا سيئة وما تسعى في سبيله جاهدة في لبنان والكويت والبحرين واليمن وجزر القمر وما تود أن تفعله في بقية دول الخليج وما تفعله مراكزها وسفاراتها وعملاؤها في أنحاء العالم، وهو فعل مبيت ومخطط له والدول الخليجية أول ضحايا هذه الاضطرابات المفتعلة، لقد كانت الطائفية مغيبة ولم يكن هناك خلاف بين أبناء الخليج فهم أخلاط في أسواقهم ومدارسهم ومكاتبهم لا يفرق الرائي العابر ولا الراصد المدقق بين أحد منهم، ولا يطرح أحد منهم عبر أي وسيلة ما يوحي بالفرقة ولا العداوة، والسائد فيهم ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾؟ وحين تنفست الأفعى المجوسية، بدأ التفتيش في غياهب التاريخ.

صحيح أن الأوضاع الإيرانية والخليجية والعربية تستمد توتراتها من خلفيات تمتد مع الزمن الحديث، فالحروب العراقية الإيرانية التي ناصرت فيها دول الخليج الجانب العراقي ستترك في النفوس شيئاً من الضغائن والأحقاد، والجزر الثلاث الإماراتية التي تحتلها إيران هي الأخرى لن تدع الأمور تجري في أعنتها والمفاعلات النووية التي تخشى دول الجوار تجاوزها لمهماتها السلمية بحيث تشكل تهديداً للدول الخليجية

والصراع الطائفي والعرقي البادي للعيان والتدخلات السافرة والخفية التي تمارسها إيران عبر سفاراتها وشبكاتها التجسسية في كثير من البقاع العربية وخروج إيران على القوانين الدولية وساند المنظمات كل ذلك ومثله معه لن يترك الأوضاع على ما تود الأطراف أن تكون عليه، ولكن بإمكان إيران والدول الخليجية أن تتجاوز هذه الاحتقانات لا لمصلحة دول الخليج وحدها ولكن لمصلحة الجميع ومصلحة إيران بالذات، فالأوضاع الإقليمية والعالمية لن تدع إيران تغامر أو تقامر ولا أن تلعب بالنار، ولا سيما أن الخليج العربي والمملكة العربية السعودية تشكل حدقة العين العالمية، ومكانة المملكة عربياً وإسلامياً وعالمياً وثقلها الديني والسياسي وتوازنها في كثير من القضايا تحول دون نفاذ شيء من (أجندة) الحكومة الثورية العنصرية التوسعية الإيرانية، ومع ثقتنا التامة بأن العاقبة للمتقين إلا أن الثمن سيكون باهظاً، وإن يمسنا قرح فقد يمس الآخر أكثر من قرح، وما يوده العقلاء والمجربون حقن الدماء والمصير إلى أيسر الطرق، ومما يخافه المشفقون على مصائر أمتهم القراءات التآمرية للحراك العربي الإيراني وارتهان ذلك كله للصراع الطائفي، ويقيني أن الطائفية مجرد ورقة تستخدم بشكل نهم، وليس من مصلحة الأمة الإسلامية أن يفتح في مشاهدها ملف الطائفية وهي قد عايشته منذ القرون الأولى وكان بإمكانها تجاوزه بالتسامح والتعايش ومتطلبات الأخوة الإسلامية التي تتسع لكل الأطياف وإذ لا يكون بمقدور إيران ومن هم وراءها تحقيق شيء مما يطمحون إليه من توسع وهيمنة وحكم طائفي أو عرقي فإن من الخير التراجع من أول يوم، وليس الخوف من ظفر إيران بما تريد وما تحلم به ولكن من المفاسد التي ستتركها تلك المغامرات الطائشة، وإذا كانت إيران قد عودت شعبها على احتمال الفوضى والقتل والتشريد والمغامرات غير المحسوبة فإن دول الخليج لا تقبل مثل ذلك لشعوبها وإذا كانت إيران لم تتوفر على مجمل البنى التحتية التي تتطلبها المدنيَّة الحديثة فإن دول الخليج تسابق الزمن للحاق بالدول المتقدمة، ولا ترضى بأن يصرفها صارف عن مسارها في توفير العيش الكريم لشعوبها، إن بإمكان دول الخليج أن تجهض الأطماع الفارسية والأحلام الصفوية والروح الثورية والطائفية، ولكنها تعرف جيداً أنها ستدفع ثمناً باهظاً من جهدها ومالها ووقتها الثمين ومن ثم فإنها تحاول الدفع بالتي هي أحسن، وإذ كان بإمكانها إقناع إيران بخطورة المواجهة فإنها ستظل تنفق من الجهد والمال والوقت والوساطات والوجاهات لتفادي الصدام العسكري الذي ستبوء بإثمه إيران وستكون المغامرة الرعناء عليها ندامة وخسارة.

ودول الخليج تفضل الحلول السلمية وإن اضطرها ذلك إلى بعض المداراة والمجاملات، وإذا لم يكن بد من ركوب أصعب الضررين فإنها مستعدة لركوبه لأن الحرية والكرامة والسيادة فوق كل اعتبار.

إن أمام إيران اليوم أكثر من خيار ولكن يوماً ما سيأتي ثم لا تجد فيه إيران إلا خياراً واحداً ينتهي بها إلى حتفها والدول الكبرى ذات المصالح و(الاستراتيجيات) قد تَعِد وتمني وتنفخ الأوداج ولكنها تنخنس في ساعة العسرة لتجعل بأس الفرقاء بينهم شديد ولتفرغ لقطف ثمار لعبها الكونية.

فهل في إيران رجل رشيد يقرأ الأحداث وينذر قومه إذا رجع إليهم لعلَّهم يرشدون؟.

لقاء الوفاء والثناء .. ![1]

لكل لقاءٍ متون وهوامش كما الأودية والشعاب والبحار والسواقي (ومن قصد البحر استقل السواقيا) وإلفي للمؤتمرات واللقاءات وما يحف بها من (كواليس) و (لوبيات) وتحكم صارم بأوقاتها القليلة أصلاً يجعلني أعدو برؤيتي إلى ما وراء المتون والمتداول واللقاء الذي شرفت بحضوره واستفدت من مداولاته فرض علي لملمة أطرافه وتجميع خيوطه، والخلوص فيه ببعض الفوائد التي نحن بأمس الحاجة إلى مثلها في زمن المخاضات والابتسارات.

لقد كان لقاءً ممتعاً ذلك اللقاء الذي تم في (قاعة المؤتمرات) بمقر إمارة منطقة القصيم ببريدة، تلك القاعة المستديرة ذات القبة الواسعة والأشياء التي تبعث على الابتهاج والارتياح.

لم أكن أدري ماذا يراد بي ولا بالمدعوين مجرد دعوة كريمة تلقيتها من مسؤول العلاقات العامة بناء على توجيه من صاحب السمو الملكي أمير المنطقة، وما كانت تلك أولى الدعوات وعسى ألا تكون الأخيرة.

كنت على موعد لقضاء إجازة نهاية الأسبوع في منتجعات يلوذ بها الفارون من لظى المهمات والمسؤوليات، ولهذا كنت أرقب نهاية هذا اللقاء لألحق بالسلف الذي سبقني للسّلو والخلوص من شغب الحياة ومنغصاتها، ومن ذا الذي يحتمل بعض ما يعصف بعالمنا العربي وما يرقبه من متغيرات معتقة أو موبقة، غير أن معطيات اللقاء وأجواءه الممتعة استلت لحظات الترقب وأتاحت الفرصة للاندماج مع الحدث.

كان الحضور من صفوة الصفوة، محافظو المحافظات وأعيان المنطقة وشيوخ القبائل وطائفة من ذوي الاهتمام بالشأن المحلي أمثالي، كان اللقاء مهيباً ومنظماً ألفنا مثله في كثير من اللقاءات لم تكن هناك مقدمات ولا فواتح، وإنما هي لحظة هدوء تعقب أخذ الأماكن بعدها استهل سمو الأمير الحديث المرتجل مشيراً إلى دواعي هذا اللقاء شاكراً الحضور على استجابتهم، مبلغاً رسالة القائد لمواطنيه المتمثلة بشكره للوفاء بالعهد وتجلى المعدن الكريم في أتون الفتن التي تعصف بعالمنا، وحثه -حفظه الله- على التواصي بالحق والصبر على ما يصيب البلاد من دخن الفتن المحدقة بها.

فالمملكة عضو فاعل في جسد الأمة وتداعيها بالسهر والحمَّى يتطلب الصبر والمصابرة والمرابطة علىثغور المسؤوليات ومواجهة التداعيات بالحلم والأناة وأقصى درجات الوعي والترقب، وظروف كتلك التي تواجهها الأمة العربية تستدعي رفع درجة اليقظة وأخذ الحذر وحماية الأبناء من مضلات الفتن.

لقد كانت رسالة أبوية حانية نقلها حكيم بكل أمانة وبعد إبلاغها طلب سموه المداخلات المقتضبة للخلوص من سيف الوقت المصلت، فتقاطر المتحدثون ببعض مايعتمل في نفوسهم من مشاعر الحب والارتياح، فمنهم من أجاد وأفاد وأفاض بالحديث إلى مُقِرَّاتِ النعم، ومنهم من تكلم ولم يقل شيئاً، ولكن الجميع ردوا المشاعر كما التحية بمثلها أو بأحسن منها، ولم تكن هناك مطالب ولا ملاحظات فالأوامر الملكية الكريمة التي تواصل صيِّبُها النافع كادت تجعل المواطن يصحب الدنيا بلا أمل كما يقول (المتنبي) في إحدى مدائحه المغرقة في المبالغة، ولما لم يكن هناك مزيد من الوقت لتزاحم المسؤوليات وتداخلها لدى سموه فقد ختم اللقاء في عنفوان أدائه، وفي ذلك الخضم زوَّرت في نفسي

---

(١) تاريخ المقال: ٢٦/ ٤/ ٢٠١١

كلمات كنت أود الإفاضة بها لكن تكاثر المتحدثين ومقاطعة المطيلين حملني على الإيثار، فلقد تكون لي مداخل أخرى ربما لا تتاح لغيري.

ومجمل القول ان الظروف العربية التي نصطلي بحرها بأمس الحاجة إلى مثل هذا اللقاء وإلى تواصل المسؤولين على مختلف مستوياتهم بمختلف شرائح المجتمع، فالأوضاع التي تعصف بعالمنا لا تبشر بخير وهي وإن كانت مبررة في بعض أحوالها إلا أنها باهظة التكاليف غير مأمونة العواقب، فالفراغات الدستورية كما فقد المناعة تجعل جسم الأمة قابلاً لأي عارض مذهب للريح، والشعوب العربية محكومة بثقافات متباينة وبتركيبات سكانية متنافرة وبطائفيات متناحرة وتلك الظروف قد لا تمكن الحكومات المؤقتة أو المنتخبة من ضبط الإيقاع، وبخاصة في ظل تلك الانهيارات المتلاحقة والسريعة، فالثورات البيضاء يخاتلها مُنْدسُّون مغرضون تملأ الأحقاد جوانحهم ويجدون في تلك الأجواء الموبوءة ما يمكنهم من نفث السموم وإفراغ الأحقاد الدفينة، ولسنا بحاجة إلى ضرب الأمثال، فالمؤامرات والدسائس والتدخلات تعج بها مشاهدنا حتى لقد همَّ بالبلاد من لا يدرأ عن نفسه عوائل الحياة.

وأي مجتمع مهما بلغ من الخيرية لا يخلو من الضعفاء والمنافقين القابلين للتجييش حتى مجتمع المدينة في حياة الرسول ﷺ قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ وهذا نقد وتوجيه للمرجفين في المدينة زمن الرسول، فكيف بمجتمع القرن الخامس عشر وما هو عليه من جهل ذريع بفقه الأحكام والمقاصد والواقع والأولويات والتمكين.

والعلماء والمجربون وعقلاء الأمة هم أولو الأمر والمستنبطون لتقلبات الأحوال من خوف وأمن، وواجب المقتدرين التواصل مع شرائح المجتمع الذين يسهل اقتناصهم وتضليل أفكارهم وتجنيدهم لإحداث الفوضى والإخلال بالأمن، ومسؤولية التواصل تتعين على أهل الحل والعقد من علماء وخطباء ومعلمين وأدباء ومفكرين وإعلاميين فكل واحد من هؤلاء على ثغر من ثغور الأمة الإسلامية وواجبه أن يحفظ ثغره ولاسيما أن الأمة تعيش حالة استثنائية من ثورة الاتصالات والانفجار المعرفي واختراق الأجواء بالعهر والكفر ومضلات الفتن، والتصدي لهذا الفيض من فروض العين على كل مقتدر.

والمملكة لم تكن في منأى عن تلك المفاسد، لقد منيت بمثل هذا التضليل واختطف بعض شبابها ليكونوا عدواً وحزناً لأمتهم، وكان حقاً على كل مقتدر العمل على استعادة المضلَّلين من أبنائنا الذين فرطنا بهم وأطْرِهِمْ على الحق والحيلولة دون تهافتهم في حبائل دعاة السوء. فالأمن الذي ننعم به والاستقرار الذي نغبط عليه وتماسك الجبهة الداخلية التي بهرت أصحاب الرهانات الخاسرة لم تكن بلا ثمن، ومن تصور أن ما نحن عليه أوتيناه على علم من عندنا فقد عرض نفسه للخسارة الفادحة ودخل في وعيد الله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾.. إن نسيان النفس يعني نسيان ما يحفظها من أمر الله.

والبلاد التي استقامت على الطريقة بالحكم بما أنزل الله وكسبت الخيرية بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأعانت الأخ ظالماً أو مظلوماً وأحبت له ما تحب لنفسها وأفاضت من خيراتها على الأقربين حققت وعد الله.. ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ

أَقْدَامَكُمْ﴾، فالله وحده المنعم المتفضل وما نفعله ونجنيه تفضل من الله من غير حول منا ولا قوة: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾.

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾.

لقد جاء هذا اللقاء مثيراً لكوامن الأنفس فالأوضاع العربية لمَّا تزل مضطربة وغير مأمونة ودعاة الفتنة يلحون بمعسول القول وينفثون سمومهم عبر وسائل الإعلام وفينا سماعون لهم شئنا أم أبينا غالطنا أو استكبرنا وحينئذ يصبح مثل هذا اللقاء مطلبا رئيسا من مطالب تلك المرحلة.

نسأل الله أن يجنب البلاد والعباد مضلات الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأن يحفظ لهم دينهم كما أنزله وكما أمر به ودنياهم التي فيها معاشهم وأن يوفق ولاة أمرهم إلى ما فيه الهداية والرشاد، وأن يجمع كلمة علمائهم ومفكريهم وأولي الأمر منهم وأن نؤجر بالشكر على النعم لا بالصبر على النقم إنه ولي ذلك والقادر عليه.

الجنادرية وشاهد من الأهل .. ![1]

عاصرت (المهرجان الوطني للثقافة والفنون) (الجنادرية) زهاء ربع قرن، أختلف إليه كما لو كنت من أهله الأقربين مدعواً أو مشاركاً أو مستشاراً بما يفتح الله به علي وعلى زملائي مجموعة المشورة من مختلف الأطياف.

ولقد كنت بهذه الدعوات الكريمات وبتلك الإسهامات المتنوعة وبذلك التواصل المستمر من شهود العيان الذين خبروا كل شيء، وحين أتحدث عن تلك التظاهرة الثقافية الحولية وما خلفته من إنجازات موثقة بالصوت والصورة والحرف وما جسرته من فجوات بين النخب والثقافات العربية فإنما أتحدث عن أشياء أعتز بأني مزروع فيها ومتفاعل معها، ومواكبتي لتلك الفعالية الثقافية من أول يوم أضافت إلي معارف ومعرفة وتجارب وإسهامات وتقدير تمثل بوسام الملك عبد العزيز من الدرجة الأولى قلدني إياه خادم الحرمين الشريفين -حفظه الله- وتلك مكاسب تفوق تطلعاتي.

وحديثي المعاد عن تلك المنشأة الواسعة الانتشار المتعددة المهمات لن يكون ثناء على المنجزات ولا شكراً للمنجزين، وإن كانا معاً أهلاً للثناء المستفيض فهو من باب إشهار الفضائل وتقريب القدوة كما أنه ليس تذكيراً بما حصل إذ هو حاضر في المشهد والذاكرة ولا تزكية لمن أنجز، فالمنظومة ومن فيها كتصور (الجاحظ) للمعاني بوصفها مطروحة في الطريق، وما أنجزوه من أعمال إنما فعلوها لأنها جزء من حقوق الوطن والمواطنين عليهم وممارستهم جزء من رسالتهم في هذا القطاع الأمني الذي عمد منذ النشأة الأولى إلى توسيع مجالات عمله ولئن كان ثمة شكر أو دعاء فإن ينصرف للمتوفين والمتقاعدين الذين ترجلوا عن صهوات جيادهم ممن عايشناهم وخبرنا معدنهم الكريم وأداءهم السليم، ونخص بالذكر والشكر صاحب السمو الملكي الأمير بدر بن عبد العزيز -حفظه الله- ومعالي الشيخ عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري -رحمه الله- ومعالي الدكتور عبد الرحمن السبيت وسعادة الأستاذ عبد الرحمن الشثري -حفظهما الله- وآخرين لا أذكرهم وإن وعى تاريخ المهرجان بعض ما صنعوا، والقائمون على الفعاليات عبر تاريخ المهرجان ليسوا بحاجة إلى الثناء أو المجاملة ولكنهم أحوج ما يكونون إلى النصيحة والمشورة لتدارك بعض الهنات التي هي من طبيعة البشر وبخاصة بعد أن تسنم المسؤولية صاحب السمو الملكي الأمير متعب بن عبد الله بن عبد العزيز خلفاً لمؤسس الحرس وراعيه الحقيقي خادم الحرمين الشريفين -حفظه الله وأمده الله بعونه وتوفيقه.

لقد كنت ولما أزل عضواً في مجموعة المشورة، وكان صاحب السمو الملكي الأمير متعب بن عبد الله ومعالي النائب وبقية الكوكبة من أحرص الناس على سماع الرؤى والتصورات، وكان هناك فريق من العاملين الذين يرصدون بكل دقة ما يتداوله فريق المشورة، ولقد يتمادى بعض الطامحين في مطالبهم ويسرفون على المهرجان وعلى أنفسهم وكانت الطموحات والتطلعات من المباح غير المملكن ومع ذلك لم يكن هناك امتعاض ولا تردد في توسيع قاعدة الحوار بين كافة الأطياف، وسر نجاح المهرجان في هذا الانفتاح وتلك الرغبة في استجلاء الآراء ورصد التصورات والأخذ بأحسنها.

ولأن المنظمين تواقون إلى الأجد والأجدى فقد نوعوا في مجموعة المشورة بحيث كان من بينهم العالم والأديب والمفكر والإعلامي والمجدد المسرف في التجديد والمحافظ الموغل في المحافظة والمقلد المتهالك على التقليد، ولقد يكون لهذه التشكيلة المتنوعة آراء متباينة، وقد تعلو نبرة الجدل ويحتدم النقاش وتتشعب الآراء، ويظل سقف الحرية ينداح

---

(١) تاريخ المقال: ٣/ ٥/ ٢٠١١

شيئاً فشيئاً حتى لا تكاد تشعر بقيد، وتتباين وجهات النظر حتى يستبعد المحافظون الوصول إلى كلمة سواء ترضي كل الأطراف وتحافظ على خصوصية البلاد، وفي ذروة التصعيد والتعقيد تأتي لحظة التنوير ونفض سامر القوم عن توصيات متوازنة مرضية لكل الأطراف مستجيبة لكل الرغبات وعندما تبدأ الفعاليات يمتعض البعض، ولكن الروح السائدة والأهداف السامية تستل السخائم وتذيب التحفظات وتمر النشاطات كما لو كانت من صنع الرأي العام.

والجنادرية بدأت بسباق الهجن في أرض فضاء كنا نقضي فائض الوقت في مخيمات مؤقتة وفي كل عام تتسع مهماتها وتتعدد نشاطاتها وتتنوع اهتماماتها حتى أصبحت على ما هي عليه اليوم مدينة سياحية مكتملة الخدمات يأتيها الزوار من كل جانب، ولا يستوعبون في يوم كامل جانباً من مواقعها ومعروضاتها وأسواقها ولا يأتون على الأكلات الشعبية فيها، والذين يمرون بها وهم يجهلون إمكانياتها يصابون بالدهشة مما فيها، ومن الخطأ الكبير أن تكون معطلة طوال العام مع هذه الإمكانيات وحقها على جهات الاختصاص أن تكون مشرعة الأبواب طوال العام بحيث تتضافر الجهود للوصول بها إلى مدارج الكمال فما عادت مناسبة أدبية حولية تمر كأي فعالية، ولقد يكون من الأجدى والأهدى أن تتعهدها جهات ذات اختصاص تقع في صميم مهماتها كوزارة الإعلام والتعليم العالي ورعاية الشباب وهيئة السياحة والشؤون البلدية والقروية وسائر المؤسسات الثقافية من أندية وجمعيات لأنها بإمكانياتها تعد حدثاً وطنياً.

والذين يدعون إليها من أنحاء الوطن العربي وبخاصة أدباء ومفكرو المنافي الذين حرموا من دفء الوطن يبدون إعجابهم وتطلعهم ويودون لو كان لكل واحد منهم دوره في الفعاليات الثقافية والأماسي الشعرية والقصصية، وما أكثر ما قدم من مقترحات حول بناء مساكن شعبية للضيافة وقاعات لتنفيذ الفعاليات في موقع الجنادرية ليتمكن الضيوف من الداخل والخارج من المرور على كافة المواقع التي أنفق في تأسيسها وتشغيلها الشيء الكثير من الجهود والأموال فكل إمارة منطقة تبعث الموظفين والمرشدين وأصحاب الحرف والفنون وتنفق عليهم عن طريق الرعاة أو من صناديق النشاط المنشأة لهذا الغرض وقد لا تتكافأ الاستفادة والإنفاق الجهدي والمالي واستثمار مثل هذه الجهود يتطلب تكثيف الحضور وبخاصة للذين يأتون مدعوين من أنحاء العالم من أدباء ومفكرين وعلماء وساسة.

لقد أحسنت الجنادرية في دورتها السادسة والعشرين حيث نفذت بعض الفعاليات في بعض المناطق وتلك مبادرة طيبة ولكنها لما تزل في مرحلة التجريب وعسى أن تطور هذه الفكرة ليكون هناك توسع في الفعاليات وتعدد في المواقع على أن هذه المنشآت وتلك الميادين والساحات ومقرات المناطق والشركات والمؤسسات والأسواق ومختلف المناشط الاستثنائية لا يمكن استيعابها بثلاثة أسابيع من كل عام لتطوى صفحاتها إلى العام القادم، ثم إن نهوض الحرس الوطني بالمهمات كلها إجحاف بحقه وحق المهرجان ذلك أن ما ينفذ ويمارس يتطلب قطاعاً وظيفياً يفوق طاقة وزارة بحالها، فالصالات والقاعات والمباني والحدائق والأسواق تأكل عمرها الافتراضي ما لم يكن هناك تكافؤ بين ما يبذل من جهود وأموال وما يستفاد.

لقد أصبحت الجنادرية بمنشآتها ومعروضاتها وإسهام المناطق فيها مدينة سياحية مكتملة الخدمات، وليس هناك ما يمنع من تمكن المنتفعين من خدماتها بحيث تنفذ الوزارات والجامعات وسائر المؤسسات مؤتمراتها ولقاءاتها ومهرجاناتها طوال العام، فهذه المنجزات لا يمكن قصر خدماتها على فترة الجنادرية كل عام هذا من جهة ومن جهة أخرى لابد من تطوير خدماتها ومهماتها وتوسيع أدائها بحيث تواكب المرحلة

المعاشة فالمملكة تتطور يوماً بعد يوم وإمكانياتها وظروفها تؤهلها لتكون من دول العالم المتقدم وحق منشآتها الثقافية أن تأخذ بعداً عالمياً يمكنها من طرح ذاتها على ما هي عليه من شمولية في التقدم وتوازن في التغيير.

من رابطة العقلانيين العرب إلى رابطة المجانين .. ! (١) [(١)]

في كتاب «سير أعلام النبلاء» للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ت ٧٤٨هـ رحمه الله بمجلداته الخمسة والعشرين حكايات وأخبار ممتعة يسترخي تحت أفيائها المتوترون مما ينتابهم من أوضاع أمتهم من إحنٍ ومحن وشتات فكري، وكم من عاقل شقي بعقله يلوذ بدفء التراث حين تضيق عليه الأرض بما رحبت، ومما علق بالذاكرة الحرون من لطائف الأخبار وغرائب الآثار ومما أخاف أن أكون معنياً به لأنني لا أنفك من ذكر مكتبتي والإحالة إليها والانطلاق من حقولها، وهو ما يمتعض منه البعض ويحملهم على تلمس الأشباه والنظائر ممن يماثلونني بالتباهي بمقدراتهم ما قرأته منذ حين عن سبب تسمية «ابن خلكان» بهذا اللقب أنه كان كثير الترديد لكلمة «كان أبي» فقيل له: «خَلِّ كان» أي أترك الفخر بأبيك وتحدث عن نفسك وما أنجزت.

وحين أحيل بعض المثيرات إلى ما في مكتبتي من حقول معرفية متعددة ومتنافرة فإنما أفعل ذلك لأنني في الغالب أكتب مقالي الأسبوعي وسط مكتبتي وبين كتبي، وكثيراً ما أنهض إلى أي حقل من حقولها المعرفية ذات العلاقة بموضوع المقال لأستزيد مما في ذلك الحقل من علوم وشواهد، فالذاكرة لم تعد كما عهدتها من قبل أن المعلومات تتفلت منها كما تتفلت الإبل من عقلها، وتلك سنة الله في خلقه إذ كلما تقدمت السن بالإنسان وهن عظمه وضعفت ذاكرته واشتعل رأسه بالوساوس والكوابيس والخوف من المجهول، ونسي بسبب ذلك ما كان يحفظه من قبل، ولا عبرة بمقولة «العلم في الصغر كالنقش في الحجر» وكيف لا يخشى العقلاء تفلت الأوابد ورسول الله ﷺ يخاف تفلت الوحي فكان يسابق جبريل عليه السلام في القراءة حتى قال الله له: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾. والقليل من المسنين من تظل ذاكرته قوية كما لو كان في مقتبل العمر، ولكن الشاذ لا يكسر القاعدة ولكنه يقويها.

فذكري إذاً لمكتبتي لم يكن من المباهاة، ولكنه حق مشروع، تستدعيه المواقف، ولقد يكون ذكرها شاهد عدلٍ لتعزيز رؤيتي وتثبيت فؤادي، وهي لي بمثابة قوة الردع لصد الاعتداء وإرهاب الأعداء وحفظ الساقة.

أقول قولي هذا وأنا أكتب هذا المقال عن العقل العربي وما انتابه من دراسات مسرفة في النقد وأخرى تراوح بين العنف واللين. وحقل العقل في مكتبتي من أوسع الحقول وأحفلها بالدراسات والمترجمات والرؤى والتصورات، ولقد أثار فكرة الحديث عن العقلاء والمجانين لقاء ضم نخبة من المفكرين العرب ممن استضافهم المهرجان الوطني للثقافة والفنون، وكان من بين الحاضرين الأستاذ «هاشم صالح» وهو وإن كنت أختلف معه فإن احترامي له بحجم اختلافي معه لأنني أبحث عن الكفاءات العلمية التي تضيف إلى معارفي معارف، ولقد استفدت من أطروحاته ومترجماته، ولاسيما أنه ربما يكون الوحيد الذي تعهد فكر «محمد أركون» بالترجمة الدقيقة والتوصيلية، والاثنان ربما يكونان من مُوَثِّني العقل، وفي هذا اللقاء الهامشي، وأجمل اللقاءات اللقاءات «اللوبية» لأنها تتوفر على فضاءات رحبة، أفضنا بالحديث عن العقل العربي، وما ينتابه من تحولات، وما يتعرض له من تمردات تصل إلى حد الجنون، ولقد يكون الهدامون والملحدون والوجوديون والفوضويون بعض فلول الصراع بين الدين والعقل والعلم وتنازع السلطة فيما بين هذا الثالوث الأخطر في حياة الفكر العالمي والعربي على وجه الخصوص ولقد

---

(١) تاريخ المقال: ١٠/ ٥/ ٢٠١١

جر الحديث العقلاني «رابطة العقلانيين العرب» التي ينضوي تحت مظلتها لفيف من المفكرين العرب المنتمين وغير المنتمين المتمردين والمنضبطين وما أكثر الروابط والمؤسسات والمنتديات التي يجمعها فكر واحد وهدف واحد وإن تعددت المسميات وتنوعت الأساليب والآليات والمناهج.

ومكمن الداء أن المفكرين العرب يحسّون بالتخلف العربي ويعانون مرارة الانكسار والفوات الحضاري، ولكنهم لا يحسنون القول فيه ولا يجيدون فن التخلص من عقابيله وعقباته، والسمة الجامعة لهم جلد الذات والتمرد على الدين والأخذ بالحرية على غير وجهها، واطِّراح عالم الغيب أو أخذه بدون قداسة. والداء العضال الذي قعد بالنخب العربية من خلال منظماتهم وتنظيماتهم وألهاهم عن كل حل سليم يقيل العثرة ويحفظ ماء الوجه أن للساسة خطابهم وللمفكرين خطابهم ولأهل الذكر من علماء الشريعة خطابهم، والرأي العام المستهدف بكل هذه الخطابات لا يدري ماذا يدور، فهو إما يَعْمه في لهوه وتسليته أو ممتحن لا يأمن على نفسه ولا يجد قوت يومه وليلته، ومن ثم فهو آخر من يعلم، وهو كمن تؤخذ الدنيا باسمه ثم لا يحصل منها على البلغة. وكل فئات النخب تقدر ولكن الغرب المهيمن بإمكانياته ومؤسساته تضحك تقديراته النافذة، وإذا كان المموضعون أو المؤلِّهون للعقل العربي قد وضعوا لهم رابطة تجمع كلمتهم وتوحد جهدهم ويعرفون من خلالها شؤونهم فإن حالة من الإحباط والتمرد والرفض بلغت ذروتها حتى أصبح المفكر يهذي كالمحموم، وهو بأمس الحاجة إلى رابطة تسمى «رابطة المجانين» لتعي واقعه وترأف بحاله وتقبل هذيانه وتوفر له الأجواء الملائمة لوضعه المأزوم والخلطاء المماثلين له الذين يبادلونه القول، و»رابطة العقلانيين» بما هي عليه من صراع مستحر مع الذات ومع الغير من الممكن أن تكون من خلال واقعها لا من خلال مسماها رابطة لهذا الصنف من الناس فما تديره من آراء وما تعالجه من قضايا وما تطرحه من رؤى مدعاة إلى اختلاط العقلاء بالمجانين، فالذين يكتبون في الهواء الطلق ثم لا يقيمون وزناً لنسق ولا لسياق ولا يحفلون بمرجعية ولا يحتكمون إلى نص ولا يهتمون بمحققات الحضارة ولا بمؤشرات الخصوصية هم في الحقيقة مجانين وإن كانوا ألد الخصام، أو لا يكادون يبينون. ومن استعاد ظواهر الفلسفة الحديثة من خلال تياراتها ومذاهبها وأعلامها وقضاياها راعه ما يسمع ويرى، ومن تعقب مخلفات الحداثة وما بعد الحداثة، أصيب بالذهول وخيبة الأمل، ولقد يكون الجنون في ظل هذه الظروف وتلك النتائج سيد الموقف إن لم يتدارك العقلاء الحقيقيون الأمر.

من رابطة العقلانيين إلى رابطة المجانين .. ! (٢)[1]

وحين نقول بضرورة رابطة المجانين فإننا لا نهزأ ولا نسخر؛ ذلك أن الواقع الفكري والسياسي والاجتماعي المعاش لا يمت بسبب إلى العقول السوية، ثم إن الجنون لم يعد كما هو في مفهومه التراثي الذي يكون فيه صاحبه غير مسؤول، والإفاقة منه لا تعني عودة المسؤولية، فالمسؤولية قائمة، لأن جنون العصر نمط سلوكي مشروع في مفاهيم الحداثة والوجودية والفوضوية، وتلك مبادئ قائمة لها أشياعها وأتباعها ومريدوها، بل أكاد أجزم أنها المتسيدة، إن الجنون في ظل المذاهب نوع من الرؤية المشروعة فله عند الحداثيين شأن آخر أو هو مجرد موقف من الأشياء محسوب على التنوع لا على التناقض والرفض، والجنون كما يقول المخالطون فنون ولقد تنبه علماء النفس إلى التداخل بين العبقرية والجنون والأقدمون كتبوا عن عقلاء المجانين، ومن شذ في تصرفه أو في تناوله للقضايا فقد وافق المجانين وإن لم يكن منهم حقيقة.

لقد كان لقائي مع المفكر العربي هاشم صالح يدور حول محورين في فكره: التزامه ترجمة أعمال (محمد أركون) وكتابه.. (الانسداد التاريخي) وهو تساؤل ملحّ وعنيف عن فشل مشروع التنوير في العالم العربي، ولقد تزامن صدور هذا الكتاب الاجتماعي مع صدور كتاب ضجر هو.. (هدم الهدم) للأستاذ عبد الرزاق عيد، متناولاً إدارة الظهر للأدب السياسي والثقافي والتراثي ولربما كان الإحباط والفشل اللذين مُني بها (الليبراليون) وسائر طوائف التنوير فاتحاً لشهية البلغاء للإمعان في جلد الذات العربية وتبادل الاتهامات، وبدل أن يتجه الجميع لرسم الطريق وتحشيد العزائم وتصفية الخلافات فقد أوغلوا في الاتهامات وأسرفوا في الهدم، بل أكاد أقطع بأن كل طائفة انشقت على نفسها وتبادل أعضاؤها الاتهامات فيما بينهم ومن يتعقب فيوض الخطابات يقطع بأن الجميع ليسوا عقلاء.

وما بعد العقل إلا الجنون، لقد أصدر هاشم صالح بعد عام واحد من صدور كتابه (الانسداد) كتاباً آخر مواكباً لسلفه تحت عنوان (معضلة الأصولية الإسلامية) ولقد أشرت من قبل إلى خطأ التسمية فالأصولية في المصطلح العربي تعني علم الأصول المرتبط بدراسة النصوص إنه فكر آليّ وليس عقيدة عملية كالتطرف. والفكر الأصولي بهذا المفهوم مفخرة للحضارة الإسلامية وليس مثلمة ولا مثلبة، والروابط والمؤسسات والمنتديات وسائر التجمعات التي تتحقق بموتها وحياة بعضها على أنقاض بعض وتوارث مهماتها عقيدة التناسخ لم تتخلص من عقدة حققت بثبوتها معضلة الفوات الحضاري. فالأمة العربية تدري عن تخلفها وفشل مشاريعها الوحدوية والقومية والحزبية ولكنها لا تدري ما الحل الأجدى والأهدى، فهي لما تنفك تمتهن الطعن واللعن.

وظاهرة الترديد الممل للرؤى والتصورات تكاد تكون السمة الأبرز للمتداول من القول، ذلك أن المفكرين ينطلقون من رؤية واحدة التقطوا خيطها من كتاب (مستقبل الثقافة في مصر) للدكتور طه حسين الذي تصدى له (سيد قطب) بكتابه (المستقبل لهذا الدين) ومن بعدهما جاء العالم العربي (أحمد زويل) بمقاله الأكثر شيوعاً (مستقبل العلم في مصر) وإذا كان طه حسين قد فرَّط في الدين وأغرق في الفرنسية فإن سيّداً قد أفرط في الدين وأغرق في الترثنة، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم. نعم المستقبل لهذا الدين، ولكن هذه المستقبلية لن تتحقق بالمشاريع والطرق التي طرحتها الأحزاب والمنظمات، ذلك أنها تعيش حالة من الفعل ورد الفعل، ثم هي حين تشارف على تصفية الخصوم ترتد

---

(١) تاريخ المقال: ١٧/ ٥/ ٢٠١١

إلى المتخندقين معها لتأكلهم الواحد تلو الآخر، ولنا أن نتساءل عما فعله (الترابي) في السودان و(الغنوشي) في تونس، وآخرون في بقاع كثيرة وأزمنة متعددة، ثم ما نسمعه ونراه من جلد مميت للسلفية واتهام مقيت لكل ما هو إسلامي، وإن كان متسامحاً ومستعداً للتعايش والحوار، وأطياف هذه مهنتها لا يمكن أن تكون عاقلة فالعقل السليم يحول دون الظلم والجور في الأحكام ويجنح إلى السلام، وعلى الرغم مما نتأذى منه من مراء ظاهر وباطن فإنني متفائل، وكل ما أستطيعه الابتهال إلى الله أن يهدي ضال المسلمين وأن يجمع كلمة العلماء والمفكرين على الحق، فالناصح لأمته الصادق معها يحاول جاهداً فك الاشتباك وإطفاء لهب الخلاف والسعي لحقن الدماء وحفظ السمعة؛ على أن العقلانية المعاصرة لا تريد إدارة شؤونها بحكمة وروية وأناة، وإنما تريد لهذا العقل المادي الصرف أن يتصدر الأحكام وأن يزيح الدين، فالمسألة مسألة عقدية صرفة، وذلك مكمن الخطورة، العقلانية المعاصرة تريد الاستبداد والتحكم، وإذ لا تجد حرجاً من مصادرة حق الدين، فإنها قد تتصالح مع العلم وتمنحه مساحة أكبر مما يتطلع إليه، وذلك المكمن الثاني وهو مكمن الجنون، وكيف تتأتى تنحية الدين والله يقول: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ﴾، كما يأمر عند التنازع بالرد إلى الله والرسول.

فهل نحن في ظل هذا الاضطراب الخطير بحاجة إلى رابطة للمجانين تجمع الشمل وترأف بالحال وتسوي الخلاف وتهدئ الروع أحسب أننا بأمسّ الحاجة. ولما كانت المقدمات الخاطئة تؤدي حتماً إلى نتائج خاطئة فإن المتهافتين على الحل الغربي يخرجون من مشروعهم الحضاري ويقعد بهم نسقهم الثقافي عن اللحاق بالمشروع الغربي الذي هو في سداه ولحمته من المادية والعلمية والعقلية المهمِّشة للروحية والنص التشريعي ليظلوا في زمن التيه الإسرائيلي دون وعد بالخروج منه. وللهاث وراء التسميات لا يحل عقد الإشكالية، وفيض الكتب والدراسات والمهرجانات والندوات واللقاءات لا يزيد المتوحلين إلا ارتكاساً، وما نقرؤه من كتب العقلانيين لا يعدو كونه ضجرا وملا وتمردا وتراشقا بكلمات السِّباب وإحباط وتيئيس وتشكيك في جدوى الفعل حتى من الذات ومن ذات الطوية، ودراسة هذا الفيض من اللغط عند علماء النفس يكشف عن جنون في لباس عقل ضجر.

ولو أن (رابطة العقلانيين العرب) وما سبقها أو واكبها أو خلفها من مسميات حين حكّمت العقل وسعت لإسقاط ما سواه من سلطات وازنت بين السلطات الثلاث: الدين والعقل والعلم، ولم تسمح بصراع مستمر بين تلك السلطات لكان بالإمكان الخلوص من هيمنات غير سديدة، لقد انصاع قوم إلى سلطة الدين من خلال فقه الأحكام، هذا حلال وهذا حرام، فيما انصاع آخرون لسلطة العقل، والعقول محكومة بمستوياتها ومصادرها المعرفية وحواضنها البيئية وخلفياتها الثقافية وأنساقها وسياقاتها وتلك شبكة معقدة، وجاء الماديون ليرتهنوا الفكر لنتائج البحث العلمي البحت وما تؤدي إليه مختبراته ومعامله في عبادة ضمنية للمادة وأصبح الفكر الإنساني نهباً لصراعات مجنونة لا تنفك من الهدم والبناء.

وإذا استمر الصراع الفكري غير المرشد وغير المحكوم بضوابط الشرع الحكيم ومقاصده السليمة فإن الحاجة إلى رابطة للمجانين العرب أهم من أي مؤسسات أو روابط أخرى.

وبعد، فكل من تخلى عن دينه وفارق الجماعة وتنكّر لمجتمعه ولحق بالمذاهب الهدّامة - كما يسميها العقاد - فأولى له ثم أولى له أن يكون من عداد المجانين وليكن

للجنون مفهومه الشرعي أو الحداثي أو الوجودي أو ما شئت من المفاهيم المتدافعة بجنون إلى مشاهدنا التي عناها شوقي بقوله:

أحـــــرامٌ علــــــى بلابلــــــه الـــــدوح

أحـــــرامٌ علــــــى بلابلــــــه الـــــدوح

أهي نكهة مكية واحدة أم نكهات متعددة .. ؟! (١)

جئت مكة حاجاً وأنا طفل صغير لم يبلغ الحلم، كان ذلك قبل ستة عقود ونيف، وما عشته وشاهدته في تلك الأيام الخوالي راسخ في الذاكرة كما النقش على الحجر، وأنا اليوم أكتب في ربوع مكة هذا المقال بعد أن قضيت عمرتي ومشيت في الأسواق وأكلت الطعام وسكنت شواهق العمارات وعبرت الأنفاق والكباري وذرعت الساحات والمجمعات واستخدمت المصاعد والسلالم الكهربائية واستمعت إلى كل اللغات وشاهدت كل السحنات وشممت كل الروائح، ولقد اجتهدت ما وسعني الاجتهاد لتلمس تلك النكهة المحببة التي اختزنتها الذاكرة لمكة وشعابها ولذة طعومها ونقاء أجوائها وصفاء أرضها وهدوء أهلها وحميمية الغادين والرائحين، وهي نكهة قل أن تعود، وإن قبعت في قعر الذاكرة كأعذب الذكريات وأجملها.

لم أنقطع عن مكة وشعائرها ومشاعرها، ولكن هذه الزيارة شدتني بأمراس كتان إلى تلك الأيام الخوالي، حتى لقد تذكرت قدميّ الحافيتين وهما يغوصان في حصباء الحرم أو تسيخان في بطون الأودية. وحتى الغنم السائبة وهي تعطو إلى وارف الشجر وإلى الرعاة الحفاة العراة وهم يهشون بعصيهم على أغنامهم، لقد انتابني في هذه الزيارة شعور غريب لم أدر عن بواعثه، ولكنه غيبني بحيث تصورت نفسي طفلاً يذرع الأزقة والحواري، وابتلعت سرحات الذهن ضجة الهدم والبناء وأعمدة الرافعات ودوي المعدات وهي تستبق الزمن لإنجاز أضخم مشروع توسعة عرفته المشاعر في الجمرات والمسعى والأروقة والساحات، إنه شعور لم أتمالك فيه نفسي أمام التداعيات والذكريات العذاب، حاولت أن أقارن بين مكة اليوم ومكة قبل ستين سنة، لقد جئتها إذ ذاك وكل شيء على الفطرة التي فُطرت عليها الطبيعة والأشياء، فالجبال شامخة راسية لا يقدر أحد على نقبها أو هدها، والشوارع على ما هي عليه بصخورها وحصبائها ونوابتها، والأودية بالتواءاتها ونتوآتها وأشجارها المتدلية على حوانيها والدواب وهي تسرح وتمرح وتأكل مما أفاء الله به عليها من الأشجار الوارفة الظلال والكلاب الأليفة والقطط الطوافة كل ذلك يبهرني ويشد انتباهي، فما ألفت شيئاً من ذلك، فصحراء نجد تلال ورمال وبيوت طينية، لقد كان لمكة وشعابها نكهة خاصة تختلف عما هي عليه الآن، فهل إغراقها في المدنية أضاع تلك النكهة؟ أم أن أذواقنا ورؤيتنا للأشياء تغيرت؟ على حدّ: «وتصغرفي عين الكبير الكبائر» بحيث تكون الاشياء نسبية، إن هناك مسافة ضوئية بين المسجد الحرام قبل ستين سنة والمسجد الحرام اليوم، ولست بدعاً من الانطباعيين. لقد التقيت بزملاء وأصدقاء وأساتذة من أبناء مكة المكرمة ممن عاشوا بمكة في طفولتهم فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، وقرأت لبعضهم أمشاجاً من الذكريات والمذكرات.

ولعل أقرب من لقيت ومن قرأت له أستاذنا معالي الأستاذ الدكتور عبد الوهاب أبو سليمان، إذ كانت أحاديثه وذكرياته وانطباعاته عن مكة الأمس تكاد تتقاطع مع ما نحن عليه، وكتابه القيم «باب السلام» خير من يجسد لك تلك المشاعر، ويحدثك عن مكة الأمس بأسواقها ومكتباتها وكثير من أشيائها التي انقرضت وكاد يجهلها أبناؤها فضلاً عن الآفاقي.

كانت حجتي الأولى التطوعية قبل التوسعة الأولى في العهد السعودي، وهي المعروفة بتوسعة الملك سعود- رحمه الله- أذكر جيداً الأزقة والحواري والتصاميم الخارجية للمساكن مما يحيط بالحرم ويلاصقه، وأذكر مقام إبراهيم الذي تعلوه زخرفة

---

(١) تاريخ المقال: ٣١/ ٥/ ٢٠١١

خشبية وبناءه الذي يخنق المطاف، وأذكر إلى جانبه بئر زمزم في حجيرة ضيقة يتوسطها بئر زمزم مكشوفة للعيان واستخراج الماء المبارك من قعر البئر والرجال الأشداء الذين يمتحون الماء بالدلاء للحجاج المتحلقين على فوهة البئر ثم يريقونه في «طست» كبير يقع على حافة البئر المرتفع لأكثر من متر والشاربون يغترفون منه بأكواب نحاسية ليشربوا ويبللوا ثيابهم، وقد يضعون في الطست بعض العملات المعدنية هدية للماتحين. كان لطعم الماء نكهة ومذاق وللمنظر هيبة وجلال وللتصاميم روعة وجمال لما أزل أشعر بها كما لو كانت ماثلة أمامي، ولك أن تتصور الأروقة والمطاف والساحات والخدمات، والمسعى الذي تقوم على جوانبه دكاكين الباعة ويختلط فيه الساعون والمتسوقون بل تختلط الكلاب والقطط في قلب المسعى بحيث يركلها المارة بأقدامهم، وما كنا في نجد نعرف الكلاب الأليفة إلى حد النوم تحت عتبات الدكاكين لقد بهرتني تلك المشاهد، ولاسيما أنني طفل لم يبرح مدينته، ثم يفاجأ برحلة إلى مكة والمدينة مع حملة كويتية كان جدّي لأمي من أحد العاملين معها، وحملات الحج تختلف عما سواها من حيث الخدمات والتجهيزات وبطء التحرك وطول الإقامة ونصب الخيام وكثرة الحجيج من الرجال الطاعنين والنساء العجائز. كنت مع جدي على ظهر شاحنة الزاد والمزاد ترود للحاج وتحفظ ساقتهم، ترفعنا النجاد وتحطنا الوهاد وتعوق سيرنا الصخور والرمال والأودية والأشجار والسوافي والسقي والاحتطاب بحيث نقضي الشهر في رحلة كتلك وتمر الأيام والليالي ونحن في نزول وارتحال نستظل تحت الأشجار أو في المغارات، وفي كل منزل نحتطب ونستقي وننصب الخيام ونوقد النيران ثم لا نلبث أن نرحل لنحط رحالنا في مكان آخر، هذه الرحلة شدتني إلى كتب الرحالة الذين دونوا ذكرياتهم ومعاناتهم، وتكاد كتب الرحالة تشكل مكتبة علمية متعددة الفوائد لعل من أمتعها «مرآة الحرمين» في مجلدين، لقد كان من حسنات الملك المؤسس عبد العزيز بن سعود تأمين طرق الحج وقطع دابر السراق الذين يخيفون الحجاج ويسلبونهم أموالهم وقد يزهقون أرواحهم، ولقد أدركت من يلهج بالدعاء والثناء على الملك عبد العزيز ممن أدركوا قطاع الطرق، أما نحن فد ولدنا وعشنا في أمن وأمان، ولم ندرك الفوارق الجذرية بين الأمس واليوم وأين هؤلاء مما نشاهده ونعيشه في سفرنا البري والجوي وما نجده في المشاعر من التسهيلات والخدمات، ومع أننا ألفنا هذه الأوضاع الاستثنائية إلا أن الحنين لأول منزل لقد تاقت نفسي إلى شعاب مكة وأوديتها وجبالها وبطحائها وخيام الحجيج في (محبس الجن) ومياهها المجلوبة على أكتاف السقائين وأطعمتها الشهية وهوائها العذب وحياة أهلها الفطرية، لقد كان الحج على الإبل قليلا ولكننا كنا نمتع أنفسنا بمشاهدة قوافل الحجيج وهم يريحون ويسرحون ومن وراء قوافلهم الهدي وعلى ظهور الجمال متاعهم ونساؤهم، إنها مناظر جميلة تذكي في النفس التوله إلى ذلك الماضي الجميل، كانت مكة حرسها الله وشرفها جميلة بمبانيها المزخرفة وأسواقها الضيقة وحوانيتها الصغيرة وأطعمتها اللذيذة ومضارب الحجاج في أطرافها، كان كل شيء فيها طفوليا عفويا فطريا تشعر معه بالوداعة وراحة البال، أما اليوم وعلى الرغم من التوسعات الباهرة والتنظيم الفريد والخدمات الواسعة والتسهيلات ووفرة الزاد والمزاد فإن الإنسان قلق يستعجل الأشياء وينتهب الخطى، حتى لقد قضيت عمرتي وبارحت مكة إلى جدة في خمس ساعات. إنه القلق والتوتر والزحام والدولة- حفظها الله- في سباق مع الزمن تنوع في الخدمات والترتيبات وتمعن في التوسعات، لقد كانت الجمرات ذروة الأزمة والاختناق، وأصبحت الآن متعة الحاج وكان المسعى غولاً يحسب له الحاج والمعتمر ألف حساب وأصبح الآن بسعته وانفتاحه عشق الحاج والمعتمر ولما تزل الدولة تتحرف للمطاف ليكون هو الآخر في سعته وأمانه كالجمرات والمسعى، والتوسعة الأخيرة ستضيف إلى المسجد الحرام سعة وجمالاً وجلالاً، ومع ذلك فمكة بلد

لن نبلغها إلا بشق الأنفس عمرها الله بالطاعة وغمرها بالأمن وقطع دابر المتآمرين على أمن الحجاج وراحتهم.

من هذا الذي قضى نحبه .. ؟! (١)

لو سئل أحدنا عَمَّن رحل عنا في خريف عمره الحافل بكل جميل وجليل، لاستذكر ما قيل شعراً لمن أثاره ما أحيط به ابن الزهراء من أمواج المريدين حين سأل مستغرباً: من هذا؟

وفقيد النخب الأدبية والإعلامية الأديب الشاعر المؤرخ الشيخ عبد الله بن محمد بن خميس الذي أثار رحيله هذا الكم من المؤبنين والمتفجعين، قد يحمل هذا الاحتفاء من لا يعرفه على التساؤل.

ومن حق الجاهل أن يتساءل ومن واجب العارف له والمنتفع بفيوض عطائه أن يبسط القول في جوانب حياته المليئة بكل مفيد، ولقد أحسنت جريدة الجزيرة كعادتها بهذه التغطية الشاملة، وذلك مؤشر وفاء للرجال الأوفياء لوطنهم وأمتهم، وابن خميس رحمه الله قضى حياته يتقلب في المسؤوليات ويفيض قلمه بالعطاء المتنوع، فهو بحق رجل فذ وعصامي جاء مع ثلة من الأولين وقليل من الآخرين ليؤسسوا للأدب والصحافة في بدايتها القوية، وحين قعدت به الشيخوخة وأثقله المرض تلقى الراية باليمين خَلَفٌ تعهد مشروعاته الإعلامية بما أثبت وجودها الفاعل وسط منافسة قوية.

لقد تلقيت نبأ وفاته عبر سيل من رسائل الجوال ضحى يوم الأربعاء ١٥-٦-١٤٣٢هـ وأنا منهمك في مناقشة رسالة دكتوراه في نقد النقد عن الشعراء النقاد في البلاد، ولأن الفقيد واحد من الشعراء والنقاد فقد كنت ساعتها أناقش الطالب حول رؤية ابن خميس النقدية في توظيف التراث في النص الشعري، ومدى ارتباطه بمصطلح التَّناص، ولأن الفقيد محافظ مقتدر وتراثي عميق المعرفة بمسارب التراث الأدبي فقد كانت رؤيته مغايرة لرؤية النقاد المحدثين الذين وصلوا حبالهم بمدارس النقد الغربي ومستجداته التي لم تكن حاضرة المشهد المحلي إبان صولات وجولات رواد الحركة الأدبية في البلاد، وعلى ضوء هذا الالتزام الذي أخذ به الفقيد نفسه أصبحت أدبيات جيل الرواد لا يستغنى عنها ولا يستغنى بها، فهو بما هو عليه من إلمام بالمذاهب الأدبية عبر عصور التاريخ الأدبي العربي القديم يعد تجسيراً للفجوات بين الناشئة وتراثهم المهمش كما أنه بإبداعه يمت بصلة قوية إلى شعراء الصنعة والتنقيح وابن خميس من أين نظرت إليه يملؤك إعجاباً وإكباراً وهو بحق بقية الرواد الذين ملؤوا المشهد الأدبي بفيوض المعارف ولطائف الأدب وعيون الشعر بكل محققاته التراثية.

كان من أبرز كتاب المقالة بكل أبعادها الدلالية والفنية وعندما تقرؤه يذكرك بأساطين المقالة العربية في مصر والشام والعراق من حيث أدبية النص وصفاء الديباجة ومتانة اللغة. وهو من أعرق الشعراء المحافظين وأقدرهم على تمثل عمودية الشعر والتوفر على الشعرية التي يدعيها المتفلتون على ضوابط الشعر، ومتانة شعره تذكرك بالشعراء الرواد الذين أقالوا عثرة الشعر وخلصوه من معرة النظم، فلقد كان «البارودي» في مصر و«ابن عثيمين» في نجد، وجاء ابن خميس امتداداً لهذا الصنف من الشعراء.

ولأنه على جانب من الشعرية والأدبية والمعرفة التاريخية والجغرافيا الإقليمية فقد كان غيوراً وعنيفاً في مواقفه، وكانت معاركه الأدبية تشبه إلى حد كبير المعارك التي أثارتها مدرستا «الديوان» و«أبللو» وصلفه لم يحل بينه وبين الموضوعية والمعرفية ومقارعة المحجة بمثلها، وعلى الرغم من تضلعه اللغوي والأدبي وغيرته على سلامتها إلا أنه كان حفياً بالأدب الشعبي، منافحاً عنه، مدعياً أن الشعر الشعبي امتداد للشعر

(١) تاريخ المقال: ٢٤/ ٥/ ٢٠١١

العربي، ولقد خضت مع دعاة العامية معارك حامية الوطيس غير أني لم أجرؤ على منازلته لمكانته الأدبية، ولرؤيته بأنه لا تعارض بين خدمة اللغة العربية والأدب الشعبي وتلك رؤية غرائبية، ولقد ظل عنيفاً في آرائه معتزاً برؤيته لا تلين عريكته ولا يذعن لخصومه، وكنا نحن الجيل الرديف الذي نهل من معين معارفه وأكبر فيه حضوره وإصراره وثباته على رؤيته نتهيب منازلته إشفاقاً عليه وخوفاً على أنفسنا، وكان احتفاؤه بهذا اللون من الإبداع العامي مدعاة لمزيد من التناوش مع من يرون أنفسهم حراساً للغة، ولم يكن في دخيلته إلا واحداً منهم، ولكنه بتأولاته الغرائبية ظل يصر على أنه لا تعارض بين الاهتمامين، وعلى الرغم من تحفظاتي على تلك الرؤية فقد ظلت علاقتي به طوال حياته علاقة التلميذ بأستاذه أضيق ذرعاً باحتفائه بالعامية ولا أجد الشجاعة لمنازلته، وأبتهج بأدبية النص النثري وشعرية النص الشعري عنده، وفي كتابي المخطوط «الإبداع الأمي المحظور والمباح» قراءة منهجية لرؤيته أرجو أن ترى النور. وعلى الرغم من تعدد اهتماماته وتنوع تناولاته فقد ظل محتفظاً بالأصالة والعمق وجد العلماء كتب في التاريخ الحديث، وجغرافيا البلاد وأدب الرحلات وخاض معترك المعارف كلها، فكان بحق الفارس الذي لا يشق له غبار، وهو بالجزالة والمتانة وسعة الاطلاع رائد من رواد الأدب سيحفظ له التاريخ الأدبي مكانته كما حفظها لمجايليه من الأدباء، والشعراء.

عرفت الفقيد أول ما عرفته من خلال كتابين بادر بنشرهما «شهر في دمشق» و«الأدب الشعبي في جزيرة العرب» الأول من أدب الرحلة الممتع والثاني دراسة تاريخية وتحليلية للشعر الشعبي في نجد، وحين صدرت الطبعة الأولى من ديوانه الشعري الوحيد «على ربى اليمامة» تجلت للمتابعين مواهبه الشعرية وتفاعله الواعي مع قضايا أمته ومناسبات وطنه، ولقد كان لغيابه عن المشهد الأدبي لعدم ترجمته في كتاب «شعراء نجد المعاصرون» للأستاذ عبد الله بن إدريس أثر كبير على نفوس مريديه، ولاسيما أنه عاش حضوراً فاعلاً قبل صدور الكتاب بعقود وعرفت شاعريته منذ أن كان طالبا بـ«دار التوحيد» وممارسته الصحفية المبكرة شغلته عن الشعر وجدِّ البحث المواكب لحياته الأدبية، ولكنه تدارك أمره وخاض معترك التأليف ومعارك الأدب. ومن ثم أسهم بكتب قيمة رفدت المكتبة المحلية كان من أقواها كتابه «المجاز بين اليمامة والحجاز» وكتابه الذي جمع فيه ما قدمه في برنامجه الإذاعي المتميز «من القائل» وإسهامات في الأدبيات الشعبية، وبخاصة ما يتعلق بأهازيج الحرب واهتمامه بهذا الجانب مكنه من سد فراغات ليست من الأدب العربي في شيء ولكنها أثرت «الفلكلور الشعبي» وأشبعت رغبات شريحة كبيرة من المجتمع، ومع هذا لم ينس نصيبه من اللغة العربية الفصيحة وآدابها، ومن يقرؤه في كتبه الجادة يعده من رواد اللغة بلا منازع ومن شعراء الفصيح بلا منازع ومن علماء التراث بلا منازع، وتلك إشكالية من إشكالياته، وليس غريباً أن يجمع الله له رئاستين، فلقد عرف في مصر آل «تيمور» و«أحمد أمين» وآخرون في العراق والشام تنوعت اهتماماتهم وبرزوا في تلك المجالات المتناقضة وما عيب على أحد منهم.

واحتفاؤه المبكر بالأدب الشعبي جعل من أوائل كتبه ما كتبه عن الأدب الشعبي في نجد، ولم تكن له حظوة كتبه التالية كما لم يكن حفيا به ولم يكن المشهد الأدبي حفياً بمثله، ولربما كانت كلمة «طه حسين» عن الأدب في جزيرة العرب التي عرج فيها على هذا اللون من الأدب مدعاة لكثير من الرواد إلى تناول هذا الشق المتحفظ عليه من الإبداع الأمي فلقد تعاقبت التراجم والدراسات والمختارات مارس ذلك عدد من رواد الحركة الأدبية في المملكة أمثال: محمد بن أحمد العقيلي ومحمد بن ناصر العبودي وأحمد السباعي، وجاءت طائفة من الأكاديميين يتقدمهم الدكتور سعد الصويان وآخرون غير أكاديميين وليسوا من الرواد ولكنهم كثروا سواده، وحضور الفقيد الفاعل والمتنوع مكن له من

المشهد الأدبي وأصبح علماً من الأعلام، ولقد هيئ لتراثه الإبداعي والجغرافي والتاريخي والأدبي من خصه بدراسات أكاديمية تجلت من خلالها كل أبعاده الفنية والدلالية، والكتاب التوثيقي الذي أصدرته الجزيرة الثقافية عنه يكشف عن جوانب مهمة من حياته الحافلة بجلائل الأعمال والكتاب الذين تدافعوا لتأبينه والتفجع عليه وأخذوا حياته من زوايا مختلفة مكنوا رواد المشهد الأدبي من التوفر على معلومات مهمة نحن أحوج ما نكون إلى مثلها.

ذلكم هو الفقيد بما له وما عليه وما شهدنا إلا بما علمنا رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته وألهم أهله وذويه ومحبيه ونحن منهم الصبر والسلوان، والأمل معقود بأقسام الأدب والتاريخ بجامعاتنا فهي وحدها القادرة على تقصي حيوات الأدباء والعلماء والمفكرين وبخاصة من جندوا أنفسهم وارتهنوا إمكانياتهم لخدمة وطنهم وأمتهم وابن خميس رحمه الله واحد من عشرات المقتدرين الأفذاذ الذين تركوا من ورائهم علماً وأدباً هو جزء من تاريخ البلاد وأدبه وهو جدير بالتنقيب والتجميع وإعادة القراءة.

جهاد الخازن من الهدير إلى الهديل .. ![1]

في أعقاب الضجة الكبرى التي أثارها (جهاد الخازن) في إحدى مقالاته اليومية (عيون وآذان) بجريدة (الحياة) يوم الاثنين ١٤٣٢/٦/٢٠هـ الذي (تجنى به على التاريخ الإسلامي، حين تساءل عن شكل الخلافة التي يدعو إليها الإسلامويون) إذ لم تكن الخلافة المنشودة سوية في نظره إلا في خلافة الصديق التي لم تتعد سنتين من أربعة عشر قرناً وثلاثة عقود ونيف. ناشدني أكثر من غيور كشف الزيف وقمع الحيف وصد التجني وإبداء السوأة التي لم يخصف عليها من ورق التورية لينجو من سلق الألسنة الحداد. وما عهدت (الخازن) مجازفاً ولا مثيراً ولا صدامياً، لأنه محترف لا يفتأ يقدم بين يدي نجواه كلمات حمَّالة أوجه هي أشبه بالمجسات التي تجوس له خلال الطريق، وترود له المفازات، وتروِض له جماح المتحمسين لمسلماتهم الحقيقية والوهمية، وكل عمالقة المقال الصحفي لا ينفذون إلى قرائهم إلا بسلطان الحذر والتحري والتقية والمداراة والتورية، ولكن الحذر لا ينجي من القدر وقد يؤتى الحذر من مأمنه، فحين استطلعت الخبر واستشرفت الضجة وحرصت على تطييب الخواطر وتطمين القلوب وتثبيت الأفئدة تكرم معالي الأستاذ الدكتور خالد الحمودي وضخ لي عبر (إيميلي) المقالين: الاقتراف والاعتراف. كما بادر الزميل الأستاذ (رشيد الحصان) وبعث بالعددين من جريدة الحياة، وكنت من قبل أوجست خيفة من ردة فعل عنيفة عندما استعرضت رؤوس الأقلام في المقال المثير وأنا على متن طائرة الخطوط السعودية بين جدة والقصيم غير أني تركت الجريدة حيث وجدتها متوقعاً ألا يؤبه به ولكن انتفاضة الوجلين التي تشبه الطقس السياسي العربي أعادتني لمدرجة الخطوب مكرهًا لا بطلا لأرسل واردي وأدلي دلوي.

ولما لم أجد بداً من تقحم المعمعة لتصفية الأجواء وفك الاشتباكات بين الكاتب وقرائه الذين ما فتئوا يلمون ببعض ما يكتب لأنه يجمجم عما في نفوسهم بحرصه على الرصد الدقيق لنبض الشارع العام، فقد توسلت بالتأويل والتعليل والتماس المعاذير، والتذكير بماضي الكاتب وحرصه على استدرار العواطف غير أن عفن المقال لم يدع لمصلح مجالاً فهو كما السيف الذي سبق العذل، ولربما يكون ماضي الكاتب خير معين له على النفاذ بجلده لا له ولا عليه، وهو باعتذاريته النابغائية قد توسل بماضيه الكتابي، وكم من مقترف شفع له ما قدم نجد ذلك - مع الفارق - في البدري الذي تجسس لصالح المشركين.

والإشكالية ليست في اقترافه انتقاء السوءات، ولكنها في تلك الظروف المتوترة التي تسكن عالمنا والحساسيات المفرطة التي تتلبس الرأي العام، فما قاله (جهاد الخازن) قيل من قبل ما هو أسوأ منه، ولأن الزمن غير الزمن فقد قعرت الرؤية والحساسيات والتوترات أعادت قراءة مقترفات مرَّت من قبل بهدوء لأن الزمن زمن غفلة ولعل أقرب مثال على تفاوت أزمنة التلقي رواية (وليمة لأعشاب البحر) لقد نشرت من قبل وتقبلها الرأي العام بقبول حسن، وحين أعيد نشرها في زمن غير مواتٍ قامت الدنيا ولم تقعد، ولست في هذا الاستدعاء والاستشهاد مبرراً ولا معذراً، فالمسلمات والثوابت لا مزايدة عليها، ولكنني أود من حملة الأقلام وفرسان المنابر والقنوات أن يحسبوا للظروف المتوترة حسابها وأن يعرفوا أن ما يقال بالأمس لا يمكن أن يقال اليوم فلكل مقام مقال، والمتضلعون من فقه الواقع يطابقون بين الكلام ومقتضى الحال بل إن مشاعر الشك والارتياب تستدعي فقه التوقع فضلاً عن فقه الواقع، وليس في استصحاب الفقهين سلب لحرية التعبير، فمن قواعد الفقهاء (درء المفاسد مقدم على جلب المصالح) والحلماء لا

---

(١) تاريخ المقال: ٧/ ٦/ ٢٠١١

يوقضون الفتن النائمة، وقدوتهم في ذلك رسول الله - ﷺ - الذي يعرف المقترفين بأسمائهم ثم يفضل التلويح على التصريح ويقول: «**ما بال أقوام يفعلون كذا**» ويقول لعائشة رضي الله عنها: «**لولا أن قومك حدثاء عهد بكفر لأعدت بناء الكعبة على قواعد إبراهيم**» أو كما قال بأبي هو وأمي. وحتى الذين قالوا كلمة الكفر ورغب الصحابة ضرب أعناقهم لم يمسهم الرسول بسوء لكيلا يقال بأن الرسول يقتل أصحابه، مع أنه ليس لهم من شرف الصحبة إلا المعايشة والمخالطة.

والتاريخ السياسي الإسلامي له وعليه، ولقد أدرك الرسول - ﷺ - عظمة البيان وقوة تأثيره حين قال أحد المادحين والذَّامين في آن: (والله ما كذبت في الأولى وإني لصادق في الثانية) قال - ﷺ -: «**إن من البيان لسحرا**»؛ فجهاد الخازن انتقى من الوقوعات أسوأها وغفل عن المحاسِن لسوء تقدير أو سوء طوية. وما كنت أجهل شيئاً من أمره ولهذا لم أفاجأ بمثل هذه التجنيات ولم أعبأ بها لأنها في النهاية أشبه بجيفة ألقيت في بحر لجي، لقد عرفت (الخازن) شكلاً ومضموناً منذ أمد بعيد بوصفه من الضيوف الثابتين للمهرجان الوطني (الجنادرية) فلقد كنت من قبل أتصوره خلقاً آخر فهو يكتب يومياً في أعرق الصحف العربية وأكثرها سيرورة ويعتمد على مركز معلومات وفريق عمل، وبقدر سبحات قلمه في مختلف القضايا فإن جسمه هو الآخر يسبح في آفاق المعمورة مُسْتضافاً من دول ومنظمات وأحزاب وكل داع يستدرجه ليكون لسان صدق لترويج قضاياه، وليس من السهل أن يغامر ويفرط بهذه الحفاوة وما حدث منه كبوة جواد لم يراع فيها مقتضيات الأحوال، رأيته قبل عقدين من الزمن رأي العين ناحل الجسم رشيق القوام مكباً على وجهه لا يبادر أحداً بتحية ولكنه يردها بأحسن منها فيه بشاشة وحياء ولسانه دون قلمه، فهو كاتب أفضل منه متحدثاً، ولهذا لا يملك لسانه جاذبية قلمه ولكم يقول من خبره: (سماعك بالمعيدي خير من أن تراه) والكتَّاب عندي أصناف، فمنهم من يفري القضايا ويغوص في الأعماق ويراهن على النتائج، ومنهم من يتصيد الشوارد ويقيد الأوابد ويثير التساؤل ولكنه كعارض غير ممطر، ومنهم الصادق والصدوق وصاحب الموقف الذي لا يميل مع الريح حيث تميل، ومنهم المفتري الذي يحرف الكلم من بعد مواضعه ومنهم الصائح المحكي والآخر الصدي، وهم جميعاً كأصناف الطعوم المعروضة لا يستغنى عنها ولا يستغنى ببعضها، ولقد يكون الخازن القاسم المشترك، غير أنه يجنح إلى المعلوماتيين الذين يمتحون من مراكز المعلومات (المؤرشفة) فهو موسوعي بهذه المرجعية تجد عنده المادة وقد لا تجد الحل وتجد القص ولا تجد التنوير، وفي كل جيل مراوحة بين هذه الأصناف؛ فهناك أجيال طواها الموت كـ(مصطفى أمين) و(أحمد بهاء الدين) و(ناصر النشاشيبي) وأجيال تحتضر كـ(هيكل) و(نافع) و(هويدي) و(أنيس منصور) وأجيال أخرى تتحرك نحو الصدارة ممن تعرف وتنكر، ولكل جيل نكهة تخصه وأسلوب يميزه بحيث يمكن التعرف على أحد منهم من لحن الول.

وشاهد من الأهل مثلي قضى نصف قرن عايش تقلبات الطقس الفكري والسياسي والاجتماعي وعاضل الاحتقانات والتوترات والإفراط والتفريط قد لا يخيب ظنه و(الخازن) في دخيلته ممن يودون مد الجسور وتنقية الأجواء مع كل الأطراف، فهو في عالم السياسة كـ(نجيب محفوظ) في عالم الرواية، ليست له قضية وليس له حزب فهو من فئة (اللامنتمي) الحريص على إرضاء كل الناس بحيث تكون شعرة (معاوية) عنده سيدة الموقف، وحين تهوي به شعاث قلمه في مكان سحيق لا يتحسس جسمه ولكنه يستقرئ مشاعر الآخرين؛ لأنه يكتب لجيبه ولا يكتب لِنَفْسِه، لقد كتب مقالاً لا يُقْدِم على مثله مبتدئ وكتب اعتذاراً لا يلومه من بعده أحد، ولكن ذيول القول ليست كدرن الملابس تزال بالمساحيق، فالمتلقي يظل واقعاً تحت تأثير الصدمة الأولى على حد:

قد قيل ما قيل إن صدقاً وإن كذباً

فما اعتذارك عن قول إذا قيلا

وتجنيه على الخلافة الإسلامية وهو نصراني غير ملتزم وعلماني غير متعصب قد يزيد مشاعر الاستياء عند الذين لا يعرفونه على الرغم من تعاطفه الواضح مع الفكر الإسلامي والقومي على حد سواء وتوازنه في مقاربة القضايا الإسلامية وحرصه الشديد على تقليص الرؤية وتكثيف المعلومات، وهذا الصنف من الكتاب يعولون على المواقع والمراجع والتداعيات ويقلصون التحليل والتنبؤ وطرح الرؤى والتصورات التي يسألون عنها. وخير لنا اجتياز هذه الكبوة وأخذ الحذر من أن يعود لمثلها، فهذا الصنف من الكتاب يتسعون للشيء ونقيضه، ولقد يعولون على مرجعيات غير موثوقة فالمستشرقون سلطوا الضوء على سلبيات التاريخ السياسي الإسلامي وملؤوا المشاهد بالنقد الرائج وكذلك الناقمون على الفكر الإسلامي من أبناء الإسلام الذين تهافتوا على المذاهب العلمانية والحداثوية والقومية والماركسية والوجودية وسائر الملل والنحل المادية.

لقد وقع (الخازن) في هذا المستنقع من حيث لا يحتسب وحين أدركه الغرق قال: آمنت، واعتذاره ذكاء ومصلحة وليس تحرجاً وتراجعاً وحقه علينا أن نقيل عثرته ونقبل اعتذاره وحقنا عليه أن لا يعود لمثلها وأن نضعه حيث يجب أن يكون نصرانياً متعلمناً لا يدري ما الإيمان ولا الكتاب.

لابد من التنوير ولكن على شاكلة أخرى .. ![1]

فرغتُ للتوِّ من قراءة متأنية للفيف من المفكرين العرب: نصارى ومسلمين، مقيمين في ديارهم أو مهاجرين، متخرجين من جامعاتهم أو مبتعثين، متأسلمين أو متعلمنين، وتوسلت بالتفكيك والتأويل لاستجلاء ما تحت السطور، وتنقلت بين القنوات الفضائية أنظر الفضائح والفظائع والقمع والمطاردة، وأرجعت البصر كرتين، ورجعت من هذا وذاك بنتيجة أكاد أجزم بأنها حتمية، وهي أن العالم الإسلامي بشقيه: العربي والأعجمي بأمس الحاجة إلى التنوير، وما أتمناه يختلف شيئاً قليلاً عما يتبناه الجم الغفير من المفكرين العرب الذين استحوذ عليهم سلطان التنوير الغربي الناسل من صراع العلم مع الدين والعقل مع الخرافة على أنه استحواذ مرتبك تماهياً مع تداعيات المصطلح المراوغ؛ فالتنوير مصطلح تتناسل مفاهيمه بعدد الأزمنة والأمكنة والأناسي، ومن ثم تتناقض النظرية مع التطبيق، فالمتلبسون به بوعي أو ببلاهة يعانون من ضياع الهوية، والتماهي معه مجرد دعوى لا دليل عليها، لأن بلد المنشأ لا يميل إلى مصطلح جامع مانع، وحين يفقد المصطلح شرطه تضيع الفئات المتلبسة به، لقد تعلق الكافة من هذا الصنف المتعولم بالشعار ووضعوه نبراساً يستضيئون به، ولكن تعويم مفاهيمه أدخلهم في دوامة التيه. ولو كانوا على بصر وبصيرة لما ذهبت ريحهم منذ (رفاعة الطهطاوي) الذي خرج مع المبتعثين يلتمس لهم نجوة من هلاك فهلك، حتى آخر صوت لما تزل تتردد أصداؤه في أرجاء المعمورة، ولو أن الآيات البينات والنذر الواضحات تغني لكان بإمكان القوافل التائهة أن تجد الطريق القاصد، وكان بإمكان المفلسين أن يفتشوا في دفاترهم القديمة وأن يراجعوا حساباتهم ويقوموا منجزاتهم. والتنوير بضوابطه الحضارية يتماهى مع التجديد ومواكبة الحياة والاستجابة لمطالب المرحلة المعاشة، ومبدأ التجديد مبدأ إسلامي بشر به الرسول -ﷺ- حين وعد الأمة بالمجددين على رأس كل مائة عام، والتجديد يعني نفي ما علق بالدين من أحكام لا تحمل مقاصد الإسلام ولا تراعي مصالح الأمة في راهنها وفي ظل ظروفها المأزومة. والعدول المجددون هم أولئك الذين ينفون ما لحق بالدين من تحريف الغالين وتأويل الجاهلين وانتحال المبطلين، فينفون ذلك الوضر كما ينفي الكير خبث الحديد، ومن ركن إلى الجمود والتقوقع، واكتفى باجترار ما خلفه الأوائل، وتمسك بمقولة: (لم يترك الأول للآخر شيئاً) فقد قعد بالأمة عن اللحاق بالركب المخب في فيافي العلم والتقدم. وهل عاقل يتصور قفل باب الاجتهاد ومواجهة النوازل؟ وهل عاقل لا يتصور أن في الخلف من هو أوعى من السلف؟ وهل أحد يجهل قول المبلغ عن الله: «**فرب مبلغ أوعى من سامع**»؟ وفي المقابل فإن من اهتاج اهتياج الأعزل الغر، واندفع وهو خالي الوفاض من العلم صفر اليدين من التجارب، وقال في كتاب الله بغير علم ولا هدى ولكتاب مبين، واستهوته البروق الخلب وخدعه الخب أضاع الأمة، وأذهب ريحها، وجعل أمرها في سفال.

وعلى شاكلة هذا الصنف من ملك آلة الاجتهاد وشروطه وتوفر على العلم الشرعي والمعرفة بمستجدات الحياة ومطالبها، ثم غلَّب السلامة واعتزل العراك وفضل العض على جذع شجرة حتى يأتيه الموت تحت أي تبرير. هذا الاعتزال يهيئ الأمة لقادة سوء يمرون بها على جيف الكلاب، لقد هيئت الفرص لدعاة سوء تضلعوا من آسن الغرب وأشربوا في قلوبهم حب المستجد على علاته، فأجادوا الهدم، ولم يحسنوا البناء، ومن ثم استنزفت طاقات الأمة في الفعل غير السديد ورد الفعل غير الرشيد.

---

(١) تاريخ المقال: ١٤/ ٦/ ٢٠١١

إن واقع الأمة بأمس الحاجة إلى علمائها ومفكريها وساستها ورجال التربية والاجتماع والاقتصاد فيها، وبأمس الحاجة إلى المأسسة وتوسيع قاعدة المجتمع المدني بمفهومه الإسلامي لا بالرؤية الغربية المادية، وضرر الأمة في هجرة الأدمغة أو تخليها أو تهميشها لا يقل عن ضرر الغزو والتآمر اللذين واكبا مسيرتها، منذ (ابن سبأ) و(ابن سلول) حتى (نابليون) و(سايس بيكو) ودعوى أسلحة الدمار الشامل وإحياء النعرات العرقية والتعصب الطائفي والإثني الإقليمي، وما لم يتلق المقتدرون أزِمَّتَها بإيمانهم وأزماتها بعزماتهم ويرودون لها المجاهيل فإن عَجَزَة وفارغين سيبتدرون سدة المسؤولية وساعتها تكون الطامات الكبرى، وفي ظل هذه الظروف المدلهمة يكون من فروض العين على كل مقتدر أن يحفظ ثغره، وأن يهدي ضال المسلمين، ولا سيما إذا كان عائد المقْتَرَف عاما لا يصيب الذي ظلم خاصة، بحيث لا يغلو ولا يفرط ولا يقسو ولا ينفر، وكيف تتأتى النتائج في ظل الصلف والعنف والقسر والقهر والظلم أو التفريط والتواكل، والله يقول لرسوله -ﷺ-: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ والرسول -ﷺ- وقوله وحي وفصاحته تبهر فصحاء العرب لا يبادر أصحابه إلا حيث يكون الاستعداد والتهيّؤ، ولهذا فهو يتخول أصحابه بالموعظة، ويقول للمطيل الصلاة بالمأمومين، «**أفتان أنت يا معاذ**» .. فهَمُّ الإصلاح يقي مصارع السوء، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ إن التنوير المطلوب تركيبة معقدة أشبه بالتركيبات الكيميائية فالمتعقب لأساطين التنوير يروعه تصورهم لإسلام الماضي والحاضر والمستقبل، ولأن القرآن هو حبل الله المتين فقد تهافتوا على نقضه وجعله أنكاثاً، متوسلين أساليب وطرقا مخادعة، ولعل أخطرها المطالبة بتطوير الفكر العلمي بماديته البحتة، وهذا الفكر لن يتأتى له التطوير حتى تعاد قراءة القرآن الكريم بمنهج النقد التاريخي على ضوء تنظير (ثيودور نولدكه) في كتابه (تاريخ القرآن) الذي ترجمه (جورج ثامر) (وهي ذات الرؤية التي تبناها (محمد أركون) في العديد من كتبه، ولن نتوغل بحيث نربط بين تلك الرؤية، وما سبقها من قراءات للعهدين الجديد والقديم النصرانيين إذ قرئا على ضوء منهج التاريخ النقدي، الأمر الذي أدى إلى إجهاضهما. وفي كتاب (أركون) (قراءات فيلقرآن) مناشدة ملحة لممارسة منهج التاريخ النقدي مع القرآن الكريم واستهجان لموقف العلماء والمفكرين الإسلاميين من هذا المنهج، وذلك بعض رؤية التنوير المعاصر، والسواد الأعظم من الذين يطالبون بالتنوير ويتبنونه لا يعرفون دخائله حق المعرفة، وعندما نواجه بأوباش يهرفون بما لا يعرفون نحتاج إلى مرحلة انتقالية، تمكن هذا الصنف من تجاوز مرحلة الجهل المركب، وهو أنهم يجهلون، ويجهلون أنهم يجهلون، وعندما يزعنون لمعرفة مبلغهم من الجهل، يكون من السهل الدخول معهم في حوار حضاري يحملهم على احترام محققات حضارة الانتماء، وطرح مشروع تنويري مؤسلم. إن ناشئة الأمة المسيطرين على المشاهد يتطاحنون حول قضايا هامشية، ووقوعات جانبية فيما يدير المفكرون المتضلعون مشاكلهم الرئيسة وقضاياهم الأهم عبر مؤسسات عريقة لها نظراتها المستقبلية، أولوياتها وتوازنها وتفسحها للرأي ونقيضه. إننا بأمس الحاجة إلى التنوير، وهل أحد يستطيع إيقاف عجلة الحياة، إن الجمود يعني إيقاف دورة الزمن، والإشكالية ليست في المبدأ ولكنها في أسلوب الأداء، ولكي نبتدر المهمة بتفكير سليم لا بد أن نضع التصور السليم للتنوير المطلوب، فما يتطلبه التنوير الغربي لن

يكون بالضرورة صالحاً للتنوير الإسلامي، إذ لكل أمة شرعة ومنهاج، ولم يعد المسخ طريقاً للنجاة.

والغربيون وإن بدأوا التنوير من عقود فإنهم يرون أنهم لما يزالوا بأمسّ الحاجة إلى ديمومة الفعل التنويري، فالحياة كالنهر تتدفق بالتغيير، وما لم يكن هناك استعداد لمواجهة المستجدات وإمكانيات استثنائية للتوفر على فقه الواقع والتوقع والتمكين والأولويات والنوازل السياسية والاجتماعية والاقتصادية والطبية فإن التعثر سيعتري مسار الأمة ويحول الممانعة إلى قابلية للاستسلام والخنوع، ومهمة التنوير تهيئة الأجواء لقبول المستجد متى كان أجدى وأهدى، ومتى وافق المقاصد والمصالح، وتبنته المؤسسة الدينية المعتصمة بحبل الله، والمتوفرة على المنهج والآلية والمعرفة.

إن التنوير العربي يعيش حالة من البؤس والإفلاس؛ لأنه يفتقر إلى التأصيل والتأسيس والانطلاق من قعر الواقع وتلمس الحاجات الفعلية والتقدير والتدبير، وما لم نمتلك الشجاعة لإعادة قراءة المشروع فإن زمن التيه سيظل كما هو، وما لم نحترم ثوابت الأمة فإننا سنتحطم على صخرة اليأس. ولما كانت حياة الغرب تجنح للمادة وترفض البحث فيما وراء الموت، واكتشاف الأجدى عنده مرتبط بحسابات الربح والخسارة المادية فإن حياة الشعوب المتدينة تتطلب المواءمة بين الممكن والمرجعية؛ ذلك أن الحكم لله وليس للبشر، وحين يواجه المجتمع بلحظة التحول لا بد من الرد إلى الله، ومن هنا تختلف آلية التنوير ومنهجه في العالم الإسلامي عن التنوير في العالم الغربي المتعلمن.

وما لم يع قادة الفكر وأساطين السياسة هذه المفارقة فإن أي مشروع يكون معرضا لخلخلة الوحدة الفكرية في الأمة، ولا شك أن ما تعانيه الأمة العربية من انتفاضات إن هو إلا محصلة التراكمات والاحتقانات والإخفاقات التي يأتي في مقدمتها إخفاق التنوير، إن علينا أن نملك الشجاعة ورباطة الجأش ونسأل: - لماذا فشل مشروع التنوير العربي؟ وليس شرطاً أن تكون الإجابة هي ذات الإجابة التي طرحها «هاشم صالح» في كتابه «الانسداد التاريخي» ذلك أنه مستغرب متعلمن ونسخة مكررة ومشوهة لفكر «محمد أركون». وإذا أقر الفرقاء بالفشل فإن على الناصحين أن يعيدوا التجربة، ولكن بمنهج مغاير، والأمة العربية وهي تعيش حالة من العصف الذهني والسياسي بأمس الحاجة إلى مشروع تنويري يطرح كل التجارب الفاشلة ويقدم مشروعاً من عند نفسه متصالحاً مع إمكانياته وخلفياته الثقافية والدينية والاجتماعية. والتنوير الغربي الذي اجتاح مشاهد الأمة لم يكن قادراً على اجتثاث جذوة الإيمان من أعماق النفوس، وهذا هو السبب الرئيس للممانعة المعطلة لكل حراك، والذين يوازنون بين اتصالنا المبكر بالغرب واتصال (اليابان) ثم ينحون باللائمة على الأمة العربية التي لم تكن موفقة في استثمار هذا الاتصال يجهلون أو يتجاهلون أن الغمد لا يتسع لسيفين، فالإسلام بقيمه وأنظمته وتعاليمه يملأ جوانح الأمة، ولو كان تواصلنا مع الغرب علمياً بحتاً بوصف العلم إنسانياً لا عرق له ولا دين لكان ذلك أجدى وأهدى، ولكننا أخذنا منه ما لسنا بحاجة إليه من آداب وأفكار وعلوم إنسانية، ومن ثم شغلت الأمة العربية بما هي في غنى عنه واستقبلت ما لا حاجة لها به.

إن الثورات الشعبية التي تعصف بعالمنا العربي قد توفق في صناعة خطاب سياسي مغاير، وعسى أن تجد متسعاً من الجهد والوقت لصناعة أسلوب جديد للتنوير ينهي زمن التيه، ويعيد الأمة إلى المحجة البيضاء التي تركنا عليها المبعوث رحمة للعالمين.

ويَسْألونك عن اليتامى .. !(١)

البلد الطيِّب تخرج مشاريعه بسمات ثلاث:
- المبادرة، والانسيابية، والمواءمة. فيكون الشكل الجميل والطعم اللذيذ والرائحة الزكية، ويتحقق عنصرا الزكاء والنماء.
وبلاد الحرمين حباها الله بنعم ثلاث:
- نعمة الإسلام، بحيث تمثلته المملكة ممارسة وتحكيماً.
- نعمة المقدّسات، بحيث هفت إليها أفئدة الطائفين والعاكفين والُّركّع السّجود.
- نعمة الخيرات المتدفّقة من باطن الأرض، بحيث خطب ودّها القاصي والداني وأصبحت ذات تأثير قوي في مصائر الطاقة والاقتصاد.
وهذه النعم الثلاث وفّرت لها أعماقاً سياسية واقتصادية ودينية مكّنها الله من استغلالها على الوجه الأكمل، فكانت بذلك ملء السمع والبصر؛ ومن ثم أصبحت بلداً طيباً بكل ما تعنيه هذه الكلمة، فيما ضاعفت المسؤولية على كل من ولي شيئاً من أمورها المتعلقة بالداخل أو بالخارج:

وإذا كانــــت النفــــوس كبــــاراً
تعبــــت فــــي مرادهــــا الأجسَــــامُ

و:

علــى قــدر أهــل العــزم تــأتي العــزائم
وتــأتي علــى قــدر الكــرام المكــارم

في هذه الأجواء المتحفّزة لكل خير عِشْت إحدى المناسبات الخيّرة، فأحسست بفيوض المشاعر الجميلة.
لقد نهض لفيف من الخيّرين من أبناء مدينة «بريدة» يتقدمهم زميل الدراسة والعمل الأستاذ عبد الكريم الجاسر لإنشاء جمعية للأيتام سمّوها «أبناء»، ولما استوت على سوقها دشّنوها بحفل بهيج أبرزوا من خلاله بوادر الإنجاز، رعاه سمو أمير المنطقة وباركه الموسرون وشدَّ من أزره الكافة، فكان الحفل بحق فاتحة خير، وكشفاً للمنجزات الخيّرة في هذا السبيل القاصد ﴿وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ وبلادنا الآمنة في زمن الخوف، المطمئنة في زمن الاضطرابات، الغنية في زمن الفقر المتلاحمة في زمن التفكك بأمسّ الحاجة إلى معرفة حق الله وحق عباده، ورعاية هذه المثمّنات حق رعايتها:

ومــن رعــى غنمــاً فــي أرض مَسْــبعَةٍ
ونــام عنهــا تــولّى رعيهــا الأَســد

ومعرفة الحقوق والمبادرة في أدائها من مؤشرات التوفيق، فالنعم كشوارد الإبل ما لم يتعهّدها الرعاة الروّاد الذين لا يكذبون أهلهم تخطّفها دعاة السوء من كل جانب، ولا سيما أن بلدنا مستهدفة بدوافع مادية وسياسية وطائفية، ومن ألقى السمع وهو شهيد عرف حجم الفتن المحدقة، وفداحة المهمات لتفاديها وصدّ كيد الكائدين.

---

(١) تاريخ المقال: ٢٨/ ٦/ ٢٠١١

وسعيُ الموسرين للإنفاق في وجوه الخير واستباق العلماء والمفكرين لمنابر الإعلام وبذل ما يقدرون عليه من بوادر الخير، وصنائع المعروف تقي مصارع السوء، والصدقات تصارع الفضاء بين السماء والأرض، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]، وانظر كم هو الفرق بين «صالحين» و«مصلحين» فالصلاح في الذات غير كاف لدرء العذاب، بل لا بد من الإصلاح والذي يمتد إلى الآخرين من فقراء ومساكين وأيتام وجهلة ومستضعفين، ولقد عثرت على تفسير لهذه الآية مغمور وسط تفسيرات أحسبها مفضولة، وكم كان بودي إشاعة هذه الرؤية التي ساقها «الطبري» بأسلوب تمريضي، إذ قال: (وقد قيل: معنى ذلك لم يكن ليهلكهم بشركهم بالله وذلك قوله: «بظلم» يعني: بشرك، وأهلها مصلحون فيما بينهم لا يتظالمون ولكنهم يتعاطون الحق بينهم وإن كانوا مشركين إنما يهلكهم إذ تظالموا).

ومن ثم فإنّ التظالم بين الحاكمين والمحكومين والأغنياء والفقراء مدعاة لأخذ الله: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢] .

ولقد نُسب إلى «ابن تيمية» ما يؤيد هذه الرؤية فالإصلاح أساس الصلاح.

وبلاد الحرمين الشريفين بما أفاء الله عليها من حكم رشيد ورخاء عميم يستبق فيها الحاكم والمحكوم سائر وجوه الخير، وهذا مدعاة للطف الله وتثبيته ومزيد إنعامه، ومهمّات جمعية (أبناء) من الإصلاح المنشود.

فالموسرون بهذه المبادرات وبمعرفتهم لحق السائل والمحروم واليتيم والظاعن والمقيم، يحاولون درء الفساد الذي كرهه الله ونهى عنه، إنّ هذه الظواهر الإنسانية تقدر الله حق قدره، وفي تلك المناسبة الثرية بكل جميل تذكرت والذكرى مؤرقة أزمنة سلفت عشتها متجرّعاً مرارة اليتم وإن لم أكن يتيماً، وخبرت اليتم معلماً للأيتام ومديراً للضمان الاجتماعي ووكيلا للأيتام وعائلاً لطائفة منهم، إذ ما زلت مغموساً مع هذه الفئة إلى الأذقان، أخرج من حقل لأدخل في آخر، ففي السادسة من عمري فرّق الطلاق بين أبوي لتكون أمي مع زوج لا يحمل حنان الأب ويكون أبي مع زوجة لا تحمل حنان الأم، ولقد عشت بين بيتين غريب الوجه واليد واللسان، وتلك المعاناة التي لا يعرف مرارتها إلا من تجرّع غصصها حملتني على تحذير كل من شكا إلي سوء علاقته مع زوجته بألاّ يفكر في الطلاق وأن يعدَّه انتحاراً بطيئاً لأنه لا يقضي بالموت الناجز ولكنه يقضي على الحياة السوية. وكم من أبناء وبنات يعيشون حياة اليتم بين آبائهم وأمهاتهم الذين فرّق الشيطان بينهم بالطلاق، ولربما يحتاج هذا الصنف من الأبناء المنكوبين أكثر مما يحتاجه الأيتام الحقيقيون لأن هذا الصنف يشبهون من يحسبهم الناس أغنياء من التعفف.

وبعد حصولي على الشهادة الابتدائية قبل نصف قرن ونيف تعيّنت مدرساً ابتدائياً بدار الأيتام ببريدة، فعرفت بالمخالطة دخائل الأيتام وما يعانيه اليتيم من وحشة وفراغ روحي، على الرغم مما يتوفر له في المدرسة من رعاية ومخالطة ومأكل ومشرب ومأوى قد لا يتوفر مثله للمدرسين الذين يعلمونهم، فاليُتم جرح غائر في شغاف القلب لا تضمده اللفائف ولا تلينه المراهم، وكسرٌ للخواطر لا تجبره الأربطة ولا تشدّه الجبائر، غير أن اليتيم حين يرى الاحتفاء والاحتفال ويجد أن المجتمع سبّاق إلى المواساة وتخفيف الآلام، تخف آلامه وتقل وحشته وتتفتح أبواب الأمل أمام ناظريه، ومثل هذه الجمعيات تملأ الفراغ النفسي الذي يعانيه الأيتام.

وكل مصاب لا بد له من ذي مروءة (يواسيه أو يأسوه أو يتوجع) وسائر الجمعيات الخيرية إن هي في النهاية إلا تجميع للجهود وتنظيم لأدائها وترشيد لإنفاقها، ولقد يكون

بعض الموسرين مستهلك الجهد والوقت وحاجته إلى مؤسسة مساندة تنوب عنه في ممارسة الإحسان، وهذه المؤسسات المدنية التي تشرف وتنفق وتعظ وتملأ الفراغات، بحاجة ماسة إلى الدعم المادي والمعنوي، لقد وجدت في دور الأيتام من الرعاية للأيتام ما لم يكن متوقعاً في زمن مبكر، واختلاطي بهم مدرساً ومراقباً ومشرفاً وعضواً في كثير من اللجان، أثبت لي أن هذه الشريحة بكل معاناتها بحاجة إلى مثل هذه الرعاية التي ترفع المعنوية وتثبت الأفئدة وتربط على القلوب الفارغة، ومهما بذل من العطاء والرعاية فإن فَقْد الأبوين أو أحدهما لا يمكن أن يعوّض، ولكن التكافل الاجتماعي مطلب إسلامي وواجب إنساني والمجتمع المدني بأمسّ الحاجة إلى المؤسسات الحكومية والجمعيات الأهلية، وهذا من سمات المجتمع المصلح، فإذا اجتمع الصلاح في الذات والإصلاح في المجتمع تحقق الإنسان الكامل:-

و مــا أحســن الــدين والــدنيا إذا اجتمعــا

وأقــبح الكفــر والإفــلاس فــي الرجــل

وبعد مفارقتي للتدريس في مدارس الأيتام وإدارتي للدار التي تحوّلت فيما بعد إلى مسميات مناسبة قصد منها طرد شبح اليتم بحيث سميت بـ«دور التربية الاجتماعية» ولم تكن الدراسة فيها داخلية كما كانت من قبل، التحقت بمصلحة الضمان الاجتماعي موظفاً وباحثاً اجتماعياً للأسر المستحقة ثم مديراً لمكتب الضمان الاجتماعي ببريدة لمدة خمس سنوات، ومن خلال عملي الميداني تعرفت على معاناة الفقراء والأيتام وأحسست أنّ الدولة والمجتمع سبّاقون للتصدي لتلك الآفات المجتمعية ولا سيما ما لقيه قطاع الضمان الاجتماعي من دعم سخي وفَّر عيش الكفاف للفقراء والمساكين والأيتام. والدولة الغنية والباذلة لا تستغني عن العمل التطوعي وبث روح التراحم بين الناس، والمجتمع السعودي من المجتمعات الغنية وواجب الموسرين أن يسهموا في مكافحة أي ظاهرة غير سوية كظاهرة اليتم، وغيرها من الظواهر السلوكية، كالفساد والرشوة والتدخين وترويج المخدرات والطلاق والعنف الأسري والاستهتار بضوابط السلامة كافة، ولن تتحقق التوعية والإرشاد إلا بإشاعة الأعمال الخيرية من خلال المؤسسات والجمعيات ووسائل الإعلام.

ولما مات أبي في عنفوان كهولته خلَّف أيتاماً كنت الرقيب عليهم بتوصية منه رحمه الله، وكان قيامي عليهم بما أستطيع من فواتح الخير، فلقد كنت صفر اليدين إلا من ذلك الراتب الزهيد الذي لا يسد الرمق، وحينما أسديت لهم بعض الجهد تدفقت عليّ الخيرات والبركات من كل جانب، وشعرت بلذة البركة التي حرم منها خلق كثير والمحروم من حرم بركات السماوات والأرض، والماديون ينكرون سر البركة، وبالذات ما تضمنه حديث زيادة الصدقة للمال كما أخبر الرسول ﷺ: «**ما نقص مال من صدقة بل تزده بل تزده**»، أو كما قال، فالماديون يعتمدون لغة الأرقام وهي لغة دقيقة ولكن لا مكان لها مع سر البركة الذي بشّر به من لا ينطق عن الهوى.

واليوم تشرق أرجاء بيتي بثلاثة أيتام هم أبناء الشهيد المقدم المظلي إبراهيم الطاسان زوج ابنتي أم فيصل، لقد دخلوا بيتي تحدوهم البركة وترود لهم الخيرات وتحوّل بيتي بوجودهم إلى جنان وارفة الظلال فنفس اليتيم كالرياح اللواقح حين تهب في أرجاء البيت تورق أرجاؤه وتتدفق خيراته وتجلله السكينة.

هكذا أراد الله لي عيشاً متواصلاً مع الأيتام وتمتعاً بالبركة التي يمنحها الله لكل من شرفه بخدمة اليتيم.

لكل هذا أحسست أنّ الصفوة من رجال الأعمال الذين يتدافعون لدعم مثل هذه الجمعية إنما يقدمون لأنفسهم ويدفعون عن أنفسهم، ولم استغرب التبرعات السخية والأوقاف العملاقة التي تدفقت بالملايين قبل الحفل وفي أثنائه، وما يقدمونه من خير يجدونه عند الله، فالله تعهد بتربية الصدقة كما يربي أحدنا فلوَّه. إنني أبارك لأخي عبد الكريم الجاسر ولزملائه وللجنود المجهولين الذين لا تدري شمائلهم ما تنفق أيمانهم، أبارك لكل محسن هذه المبادرات الإنسانية وأرجو أن يجدوا الدعم والمؤازرة مادياً ومعنوياً فبالشكر تدوم النعم، وكيف لا يتسابق المقتدرون وكافل اليتيم يقف إلى جنب الرسول ﷺ مثلما يتجاور الأصبعان السبابة والوسطى فلنستبق الخيرات قبل فوات الأوان.

دعوا الإقليميات فإنها منتنةٌ .. !(١)

تنبعث بين الحين والآخر أصوات فضولية في زمن تفيض أوعيته السياسية والفكرية والاجتماعية بقضايا ربما أنها تجاوزت مرحلة الغليان، وذلك مؤشر خُواءٍ، وتصحرُ أجواءٍ، وتفويت للقضايا ذات المساس بحياة الناس.

ومع انعدام الجدوى من تلك الأصوات النشاز، إلا أنها تثير نعرات أكثر خواء وأقل جدوى، وحين لا يكون أمام الكاتب الفضولي شيء يملأ ذهنه ويشغل فكره لا يجد بداً من تثوير أكوام المهملات ليملأ الفراغ بفراغ مثله.

والقارئ الجاد الذي يحترم نفسه وقارئه، ويثمن وقته، ويحرص على غذاء فكره حرصه على غذاء جسده يود لو أن بينه وبين هذا الصنف من الكتاب أمداً بعيداً، وإن من القراء إلا ملم بهذا النوع من الكتابات التي تثير الحزازات.

وما كنت وجلاً من حسيس التنافس بين جهة وأخرى، أو من ضرب بالأمثال عند مطالبة المسؤول، وإحلال لغة الأرقام محل الاحتياجات العاطفية، وأنا بقضي وقضيضي مع أي كاتب لا يقبل الحيف ولا يتردد في وضع المسؤول أمام نفسه حين يميل كل الميل ويدع الأخرى كالمعلقة، وأرجو أن نكون واعين في التفريق بين الحراك السلبي والتحرك الإيجابي، واستدعاء المدن والأقاليم لضرب الأمثال مكتنف بالحساسيات، ومن ثم يجب أن يكون كالضرورات التي تقدر بقدرها ثم لا يكون إيحاء بالسخرية أو بالحرمان.

ومثلما أن هناك حساسية مفرطة في موضعة الأنساب، فإن الحساسية نفسها تكون بالنسبة للمدن والأقاليم، ومن استدعى مدينة أو إقليماً فلا يلومن إلا نفسه، لأن حب الديار غريزي:

كم منزل في الأرض يألفه الفتى
وحنينه أبداً لأول منزل

وكم من قرية في مفازة من الأرض لا تجود بماء ولا بمرعى، يأوي إليها الرجال الأشداء، ولو عرض عليهم استبدالها بأقطار الأرض لما قبلوا، وتلك سنة الله التي لا تتبدل ولا تتحول، وعمارة الكون، وملء الفراغات تحكمه الغرائز لا المفاضلات ولا العقول، وكم من سائح غارق في الترف والمناظر الطبيعية، والأنهار المتدفقة والشلالات والأجواء الممتعة ينفلت كالسجين ليتدارك سموم قريته وغبارها وصحراءها. وذلك ما جسده المتنبي بقوله:

يقول بشعب بوان حصاني
أعن هذا يسار إلى الطعان
أبوكم آدم سنَّ المعاصي
وعلمكم مفارقة الجنان

مع التحفظ على سوء الأدب مع أبي البشر.

وكل ما نوده التفريق بين السلبيات والإيجابيات والحب الغريزي الذي قد يدفع الكاتب يوماً من الأيام ليقول بعض تأوهاته أو تولهاته.

---

(١) تاريخ المقال: ٢١/ ٦/ ٢٠١١

والمتابع لبعض كتاب الأعمدة، يرى بعض الجنوحات غير المتوقعة من مثلهم، وكم يود وأد ذلك اللغط في مهده، وتهيئة مجاري الصحف لتكون أنهاراً تتدفق بكل جميل، ولكن أنى ذلك والفضوليون يستبقون الظهور ويزاحمون الجادين الذين يبتدرون القضايا المهمة في زمن يغلي بالمشاكل، ويفيض بالقضايا ذات المساس بالأمن والمعاش والمستقبل.

أقول ما تقرؤون بعدما أحسست بالملل من موضعة مدينة كـ«بريدة» وتداولها على أكثر من قلم، وهي بهذا الاستدعاء السلبي والإيجابي من الكتاب والروائيين والمؤلفين لم تكن بدعاً من المدن، وإن ظلت مفتوحة على كل الاحتمالات منذ أن تخطى بها الأمير السلفي «حجيلان بن حمد» إلى عتبات التاريخ وحتى قيض الله لها من أمن سبلها وفجر ينابيعها وصنع إنسانها وأحيا ذكرها على يد المؤسس الرشيد والقائد السديد الملك عبد العزيز آل سعود -رحمه الله- ولما تزل تركض برجلها في فيافي التقدم على يد أنجاله، ولقد أصبحت بفضل الأمن والرخاء مدينة جذب تتسع يوماً بعد يوم وليس الخبر كالعيان ولأني من أبنائها وممن عنوا بتاريخها وتقلبات الأحوال فيها وشرفوا بالتأليف عنها يسوؤني أن تُزاحم شموخها المناكب الغضة والأجنحة القصيرة من كتاب لا يحترمون مشاعر الغير ولا يعرفون أن استدعاء المدن لضرب الأمثال مساس بكرامة أهلها، ولأنني أكره عفن الإقليميات وأعده مؤشر تخلف وضيق أفق فإنني أتحامى الدخول في أي مناكفات من هذا النوع، وما عهدني قرائي إن كان ثمة قراء متحركاً داخل هذه الأقفاص الضيقة، حتى أن المتعاطفين المسكونين بالإقليمية يلومونني حين لا أتعرض لقضايا التنمية فيها، وما انصرفت نفسي عن مثل هذه القضايا إلا لكرهي للاحتياجات العاطفية واستيائي من المرتهنين للمناكفات الإقليمية، وليقيني بأن المسؤولين لا يألون جهداً في سبيل التفور على متطلبات المدينة الفاضلة من خلال مسؤولياتهم وعلى ضوء صلاحياتهم وإمكانياتهم، على أنه ليس هناك ما يمنع من المشاطرة، مطالبة أو مشورة، فالصحافة هي لسان الأمة ومن أمن المساءلة استرخى في الأداء، وما لا أوده بعض التجاوزات التي لا تليق، سواء جاءت بحق مدينة أو بحق مسؤول، ثم إن الكاتب تقاس أهليته ومكانته بالقضايا التي يلم بها، وكم أسمع وأرى كتاباً كنا نعدهم من المتميزين تجر أقلامهم إلى مثل هذه المناكفات الإقليمية، ولقد يطغى طوفان العاطفية عند من نتوسم فيهم الخير فيقول عن قريته مالا يقبله عقل ولا يصدقه رشيد فإذا خبرها القراء سقط من عيونهم وسقطت معه قريته، وفي الآونة الأخيرة بدت قضايا واهتمامات لا تبشر بخير وهي مؤشرات ضعف في الانتماء الأوسع والأشمل والأهم، إذ ما عهدنا من قبل مبادرات البحث عن الأصول وشجرة الأسرة وصندوق العائلة والتكتلات القبلية والإقليمية والأسرية التي استفحلت في مسابقات مزايين الإبل، وعهدي بتلك المبادراتنها للتسلية والإمتاع وربط الجيل الحاضر بماضيهم عبر سفينة الصحراء، وإذا بتلك المسابقات تتحول إلى تظاهرة قبلية أو إقليمية يتسابق الأثرياء بنصب المخيمات وإقامة الولائم ووضع اللافتات وتنظيم الهتافات واستعمال المكبرات والتكتل في المسيرات والتغني باسم القبيلة أو المدينة، فيما جاء نظام الحكم مؤكداً على أن الأسرة هي نواة المجتمع للحيلولة دون النعرات الإقليمية أو القبلية أو الطائفية، وتلك من الظواهر غير السوية شئنا أم أبينا.

ولقد تذمر كثير من الخيرين من تلك الظواهر بما فيهم المباركون لتلك المسابقات والداعمون لها ذلك أنهم لم يتوقعوا مصير الأمور إلى ما هي عليه الآن.

لقد عَنَّ لي ذات عام أن أرى بعيني ما يتداوله المريدون والمخالفون وحين خبرت الوضع ثبت لي أن الظاهرة وظواهر أخرى بحاجة ماسة إلى إعادة النظر، وليس ما يثار بين الحين والآخر في الصحف أو في المواقع بأقل سلبية من تلك التجمهرات المنظمة في

مفازات من الأرض ولك أن ترجع البصر إلى ظاهرة القنوات الفضائية ذات النزعات الإقليمية أو القبلية وما يدار فيها من حفلات ورديات، ليتأكد للجميع أن وراء الأكمة ما وراءها واللغط الذي يتداوله بعض الكتاب بين الحين والآخر جزء من تلك الظواهر السيئة في عهدنا مثل ذلك من قبل وبقاع الأرض كلها فضلاً عن المملكة لا يستأثر جزء منها بالفضل والأناسي والأزمنة والأمكنة تتبادل الصدارة والعجز تمشياً مع سنة التداول ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ وتقتسم الخير والشر ومن تصور أن زماناً أفضل من زمان أو أن مكاناً أفضل من مكان أو أخذ بعلم الأجناس البشرية وما آل إليه من طبقية ممقوتة فقد ضل سواء السبيل أما ما أخبر به من لا ينطق عن الهوى من تفضيل بعض القرون على بعض أو تفضيل الأمكنة على بعض فذلك حق لا جدال فيه ولا اجتهاد مع النص والمسلم الحق يسلم للنص القطعي الدلالة والثبوت، ولا خيرة لنا فيما قضى الله ورسوله .. وما سوى ذلك فالناس سواسية كأسنان المشط والمدن تتداول المكانة وفق ظروفها وإمكانياتها، وتلكم (نجد) على سبيل المثال كانت منطقة طرد حتى قيل: تلد ولا تغذي وها هي اليوم منطقة جذب يتهافت عليها الناس من كل جانب وتهفو إليها أفئدة طلاب الدنيا والآخرة.

وحين نضيق ذرعاً بالاهتياجات العاطفية فإننا لا نجد غضاضة من التغني بالأمجاد وإبراز المواقف المتميزة لبلد أو لطائفة من الناس أو لبطل من الأبطال في لحظة من لحظات الأداء وذلك من باب معرفة الفضل لذويه، ومن ذا الذي ينكر تميز عالم بعلمه أو بمواقفه ومن ذا الذي ينكر تميز قائداً ومسؤول، غير أن هذا التميز لا يكون حكراً على رجل بعينه أو زمان أو مكان، فكل أولئك مهيئون للتميز متى توفرت الإمكانيات.

والذين يتندرون من أهل قرية أو مدينة لمجرد أن الحظ لم يحالفهم في موقف من المواقف يكشفون عن سفاهة وتفاهة وسوء أدب، فالقرية والمدينة كالأناسي ليس شيء من ذلك مرتهن للإخفاق المطلق ولا للنجاح المطلق، فالإخفاق والنجاح عارضان، وليس من حق أي كاتب أن يعتمد الإطلاقات والتعميم في الأحكام، وإن كان المعهود أن الشجر المثمر هو وحده الذي يرمي بالحجارة.

إننا بأمس الحاجة إلى مواكبة إمكانياتنا والتفكير بمستوى ظروفنا المواتية، والحب الجبلِّي كامن في كل نفس وليس شرطاً في ترجمته المساس بالآخر، والتربية الوطنية التي أصبحت ضرورية في ظل هذه التفلتات يجب أن ترشد الانتماء بتجديد مفهومه الصحيح، والاعتصام بحبل الله لا يتحقق إلا بالتأكيد على الوحدة الإقليمية والفكرية وبقية الحق أن نسموا فوق النزهات ولتحقق الانتماء الوطني كما يريده العقلاء والمجربون وأن نكف عن الاستدعاءات المخلة بالمواطنة والمروءة معاً، فكل قرية أو مدينة تفيض مشاعر أهلها بالحب لها والغيرة عليها وكأني بكل واحد يخاطب مسقط راسه بقول الشاعر:

ولــو لــم تكـوني بنـت أكـرم والـد

لكـان أبـوك المجـد كونـك لــي أمَّــا

مَنْ ينصع الرأي العام ومَنْ يثيره .. ؟[(١)]

لقد هممت أن أصرف النظر عن التخطِّي إلي رحاب الرأي العام في سبيل موضعته، لا خوفاً ولا استخفافاً، وإنما لتشعُّب قضاياه، وتشتُّت الآراء حوله وشحّ المرجعية المعرفية وتعدّد المتنابين له تصوّراً أو صناعة أو إثارة، وأيّ حقل تنهكه الأقلام وتتداوله الآراء وتقوضه الأفكار، تكون مساربه متاهة ومُدَّخلاته محيِّرة، ومغاراته مربكة، ثم إنّ من عادتي قبل التلبُّس بأي قضية أن أجدّد معلوماتي وأراجع حساباتي وأستجلي رؤية من يكربني سناً أو يسبقني زماناً، إذ ما ترانا نقول إلاّ معاراً أو معاداً من القول المكرور، و«هل غادر الشعراء من متردِّمِ». ومن ظنّ أنه لا يُفْري فَرْيه فَقَد وَهِمَ، وهل بعد: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**» من دعوى لبراءة أي فكر أو حضارة، وما الأسد إلاّ مجموعة خرافٍ مهضومة، وفي النهاية ما من خطاب إلاّ هو لبنة في قصر الحضارة الإنسانية المشيّد.

وما زجّ بي في أتون الرأي العام إلاّ تلك الأحداث الجسام التي انهمرت على مشاهدنا السياسية كما زخّات البرد، وتلك المخاضات جعلت الرأي العام من القضايا الأكثر أهمية والأشد إلحاحاً، ولقد أراهن على أنّ الرأي العام هو المقصود بالفتنة القائمة التي لعن الرسول ﷺ موقظها، وهو من أوائل من اتقى إيقاظها عام الفتح. والعلماء المجربون يستعيذون من ضجة العامة، وكم من خليفة أو عالم جرفته صيحة العامة، وما الفتنة الكبرى التي قصمت ظهر الخلافة الراشدة إلا ناتج الإثارة وإيقاظ الرأي العام، وما طورد العلماء وما أحرقت مؤلّفاتهم إلاّ بالتهييج الأهوج للعامة. والمتابع المدقّق يعرف كم هو الفرق بين صناعة الرأي العام وإثارته، والمراهن عليه كراكب الأسد يخيف الناس وهو منه أخوف. لقد أصبحت للرأي العام أهميته بعد الانفجارات المعرفية وثورة الاتصالات وهيمنة الإعلام عبر قنواته المتعدّدة ومواقعه المختلفة وصحفه المنتشرة، فهو بهذا الاستهداف المكثف يمسي على حال ويصبح على حال، وتلك الوسائل التوصيلية بكل مغرياتها كما الشيطان الذي توعّد الخلق بأن يأتيهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ويقعد لهم صراط ربهم المستقيم. ومن ذا الذي يجهل أهمية الرأي العام وخطورته، بعد تلاحق المظاهرات وتتابع الاحتجاجات وتوالي الاعتصامات، التي أدّت إلى سقوط الأنظمة الظالم أهلها، وبعد أن كشفت عن قلاع ورقية ونمور من كرتون وهشاشة في العظام.

لقد أصبح من الضروري موضعة الرأي العام بطريقة تختلف عن موضعة رجال التربية ورجال الاقتصاد، وما لم تسبر أغواره وتعرف مكوّناته وترصد اهتماماته ويتحسّس عن هواجسه، فإنه سيتخطّف من بين أيدي قادته وحماته.

وأهمية الرأي العام تزداد بعد الحراك المتدفّق عبر الشوارع والساحات كالإعصار والحكومات المتسلّطة المستبدّة التي أحكمت القيود وخانت العهود لم تصمد أمام هبة الشعوب لأنها لم تكن على علم بمكوّنات الرأي العام ولا على معرفة بمطالبه ولم تتوفّر على آليات صناعته، وتساقط الأنظمة المهترئة كورق الخريف مؤشر فشل ذريع أمام الرأي العام، وفشل في صناعته، هم خادعوه ولكنه في النهاية خدعهم، وأتقنوا إثارته وحاجته إلى صُنّاع، يحولون دون الإثارة والتهييج، لقد انتهت لغة الزعيم الأوحد وتلاشت ثلاثية: الله والوطن والزعيم، فالزعامة الحقة تتجسّد في حزم المنجزات في سيادة القوانين والأنظمة والدساتير في دولة القانون أياً كانت مرجعيتها، فالشعوب حين تُصنع على أية

---

(١) تاريخ المقال: ٥/ ٧/ ٢٠١١

عين يكون تسليمها عفوياً واستجابتها طوعية بحيث لا تكون الصناعة الجادة والمحْكمة إلاّ من خلال الحاكمية التي تنبعث من مرجعية نصية قطعية تحسم الخلاف وتحمي وحدة الفكر والمنطلق والهدف وتقي من التلفيق الذي يطيل زمن التيه، إنّ شعوباً أوغلت سلطاتها في العلمانية الشاملة، وأخرى أوغلت في الماركسية الملحدة حتى ظن الراصدون ألاَّ عودة إلى الجذور بعد طمرها بالرغاء الإعلامي والحمل القسري. وحين أحكمت بعض الأحزاب خطابها، وأثبتت قدرتها على العودة إلى الأنساق الثقافية المتجذّرة في الأعماق والكامنة في اللاوعي، تحركت البواطن لتقول لهذا الخطاب: نعم. كل الثورات العسكرية اعتمدت الإثارة ولم تعتمد الصناعة، ومن ثم ركنت إلى الغوغائية والوعود المعسولة، والمثاليات الزائفة، وانْساب ذلك الحذر لتغفو الشعوب ردحاً من الزمن، ولقد جسّد «توفيق الحكيم» شيئاً من تلك التحوّلات غير المستقرة في كتابه «عودة الوعي» وكان ممن خدع بخطاب الإثارة فكتب من قبل «عودة الروح» الأمر الذي خفر بعض المخدَّرين إلى إصدار كتاب «الوعي المفقود» وآخرون تحدثوا عن الصامتين في كتاب «الصامتون يتكلمون» و«مشيناها خطاً كتبت علينا». هذا الحراك القولي يجسِّد الفرق بين صناعة الرأي العام وإثارته، لقد واكبت الإثارة المد الثوري ردحاً من الزمن. زمرٌ من المرجفين بالخيل والرجل يقترفون الإثارة ولا يمارسون الصناعة، يعرفهم الناصحون بسيماهم إنهم الذين عناهم الشاعر بقوله «مفتحة عيونهم نيام». الخطيب الأهوج والمفكر الطائش والإعلامي المداهن والمذهبي المتعصّب والطائفي المنغلق والمعلم الأحمق والحاكم الكذاب.. كل أولئك لا يملكون إلا إثارة وزج الرأي العام في أتون الفتن. ونقيض أولئك هم الأقدر على صناعة الرأي العام وتمكينه من الوعي والانضباط وتحامي الصدام وتفادي الانغلاق والجنوح إلى الحوار والتعايش وتبادل المصالح والمنافع. الصانعون للرأي العام هم المصلحون الاّ الأنانيون الصالحون في ذواتهم ولذواتهم، ذلك أن المجتمع المصلح يملك مقومات البقاء أما الأفراد الصالحون المنكفئون على ذواتهم المعتزلون لقومهم فهم أقرب إلى السلبية والأنَوِيَّة، ولهذا جاء الخبر عن العبد الصالح الذي بدئ فيه بالعذاب لأنه لم يتمعر وجهه من أجل الحق، صناعة الرأي العام بيد المصلحين لا الصالحين فقط، ولاسيما بعد تلاحق الثورات العلمية والإعلامية.

ثورة الإعلام والاتصال تسببت في إفاقة الرأي العام وتفكيره بمصالح ومحققات وجوده الكريم وحفظ مثمّناته الحسية والمعنوية والتخطّي به إلى الندية، وتفريقه بين من يثيرونه ويهيجون مشاعره ويزجونه في أتون الفتن ومن يُحكمون صناعة تفكيره وتثبيت أفئدته. والدول الكبرى التي كانت تحرك الأوضاع من وراء «الكواليس» وعبر حَمَلَة الحقائب والمناديب المتجولين أصبحت مواقفها مرتهنة لنبض الشارع. وأزلامها الذين ركنوا إليها لم يجدوها في ساعة العسرة، ذلك أنها مع مصالحها وليست مع مبادئها. وحيث تكمن المصلحة يكون الوجود، والمتابع للتحوّلات يقطع بأنّ الرأي العام سيكون سيد الموقف، ولكنه لكي يتخلص من رواسب الإثارة التي واكبته عَبْر المد الثوري لا بد أن يتحمل ويلات المرحلة الانتقالية.

ولقد أشرت من قبل إلى مرحلة الإفاقة، فالجماهير التي هتفت بسقوط الأنظمة جمعتها المعاناة ووحّدتها الشكاية، غير أن صنّاع الإثارة تركوا فيها رواسب أشبه بتسرب الغازات السامة، إن هناك أطيافاً وطوائف وانتماءات متعدّدة بدأت تطفو على السطح، ولكل طيف خطابه الذي يختلف عن خطاب الطيف الملاصق له، ومرحلة الإفاقة ستتمخض عن أكثر من خطاب مصادم أو مصارع، وحينئذ نعود لنقول: من يصنع الرأي العام؟ ومن يثيره؟ هناك الحواضن التقليدية: البيت، المدرسة، المسجد. وهناك البدائل من الحواضن الضاحية والخفية، ولقد كثر الجدل حول المنهج الخفي وهو جدل عقيم لأنه

يرجم بالغيب، ولكنه خيط - وإن كان باهتاً - قد يفضي إلى شيء مهم، وكم من حاضن خفي ربما لا يُرى بالعين المجردة ولكنه خَدَرٌ ينساب في المفاصل فيدفع الأفكار، فالقبيلة والطائفة والإعلام الذي لا يعف حتى عن ملاحقة فساتين سيدة العالم الأولى ما شكلها وما لونها وكأنه بقرة بني إسرائيل، وطول المعايشة يقلب الموازين، ولقد سُئِلَت أعرابية صَبَتْ إلى غلامها، ولما سئلَت قالت «طول الرقاد وقرب الوساد». إن تشكيل الوعي لا يتم بين عشية وضحاها، وصناعة الرأي العام تحتاج إلى طول المعايشة وقرب المجالسة لتكون الصبوة، ولقد يصاب البعض باستعجال النتائج، وإن يوماً في صناعة الرأي العام كألف يوم مما تنجز فيه سائر المطالب، أما الإثارة فقوامها الصوت والفهلوة وتجييش العواطف، وذلك بعض معايشاتنا مع المد الثوري، الذي طرح أكثر من مشروع وضم أكثر من أجوف. لقد راهنت مواقع كثيرة متخصصة برصد تصوّرات الرأي العام على أن بعض الدول أقوى من تدفّق المتظاهرين في الشوارع، واتضح أن المنظومة كشجرة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، لأنها ظلت تتقن فَنَّ الإثارة، فيما جاءت رهانات أخرى تتوقّع سقوط دول دون ذلك فيما اتضح أن الرأي العام متصالح مع قيادته، الفرق بين هؤلاء وأولئك أن صانع الإثارة يلهث وراء سراب القيعان، أما صانع الرأي العام على الثوابت والقيم فهو كمن يملأ عيبته بالعتاد والعدة ويجدها في ساعة العسرة.

إن الواقع المعاش فرض على المشاهد كلها لغة جديدة لا مكان فيها لأي حسابات تستمد أرقامها من السبعين العجاف التي خَبَّ ووضع فيها من عناهم الشاعر بقوله:

أمتـــــي كـــــم صـــــنمٍ مجَّدتـــــه

لـــــم يكـــن يحمـــل طهـــر الصـــنم

لقد تقاذف الرأي العام مستغربون وعروبيون وإسلامويون وإقليميون وساسة فارغون وعاش حياته بين جزر ومد، وحاجته اليوم إلى من يقيل عثرته ويضمد جراحه ويعيده إلى جذوره الأولى فما صلاحه إلا بما أصلح سلفه الأول، ولكن عبر خطاب يعي متطلّبات المرحلة ويتوفر على فقه التمكين والواقع والتوقع، وصناعة الرأي العام سهلة ويسيرة على من يسّرها الله عليه، وقد لا تحتاج إلى ذكاء مفرط ولا إلى إمكانيات استثنائية، فقط نوايا سليمة ومقاصد سليمة وآليات محكمة ومناهج دقيقة، لقد سئمت الشعوب اللعب بعواطفها والمتاجرة بمثمّناتها، وتلك الانهيارات المتلاحقة دروس عملية لمن أراد الله به خيراً ومكّنه من الخروج بأمّته من عنق الزجاجة بأقل التكاليف.

أتجعلون الغَرْبيَّ كالبَدْريِّ .. !؟[(١)]

عندما عُثر على أحد الصحابة الذين شهدوا غزوة بدر الكبرى متلبساً بتزويد العدو بخبر الرسول -ﷺ- احتدمت مشاعر الغيورين من الصحابة رضوان الله عليهم فاستأذنوا بقتله، فلم يأذن لهم قائلاً: «**لعل الله تجلى لأهل بدر، وقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**».

والذين أشربوا في قلوبهم حب الغرب يكادون يجعلونه أفراداً ومؤسسات من البدريين الذين لا يُسألون عما يفعلون، وجدير بكل عاقل سوي أن يتساءل مستنكراً: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾، والتزكية المطلقة من المستغربين تجعلهم كلما ضج المعتدلون وناصحهم الوسطيون يجعلون أصابعهم في آذانهم ويستغشون ثيابهم ويتولون وهم يجمحون، وكأن الغرب معصوم من الأخطاء مبرًّأ من العيوب، وما لجّوا في عتوهم ونفورهم إلا من بعد ما دبَّ في أوصالهم خدر الانبهار، فما عادوا يملكون القدرة على السماع، بل يكادون يتواصون باللغو لعلهم يغلبون، مع أن الغرب نفسه لا يتردد في نقد ذاته وتقويم اعوجاجه، وحكومات الظل وأحزاب المعارضة والأغلبية البرلمانية لا تستنكف من التنقيب عن مقترفات الحزب الفائز بمقاليد الأمور، وما يقال في الحملات الانتخابية من سخرية وتهكم وحرب نفسية لا يليق بالدهماء فضلاً عن النخب الفكرية والسياسية.

ثم إن النقد المنصف للغرب لا يتعدّى إلى شأنه الداخلي ولا يغمط منجزاته العلمية ولا يمس مؤسساته المدنية. ولكنه إذ مارس الوصاية على ما يسميه جوراً بالعالم المتخلف واقترف التعدي بخيله ورجله فإن من حق المغلوب على أمره أن يسائله عما يفعل؛ تطلعاً إلى اللطف بالفعل ولو تُرك القطا لنام، وهل أحد يجهل تدخله ظلماً وعدواناً في الشأن العربي والإسلامي. واستغلال خيرات الشعوب وتقييد الحريات المكفولة للإنسان من مختلف المنظمات العالمية ودعم الأنظمة المتسلطة على شعوبها والمساس بالسيادات المشروعة وإيقاظ الفتن الطائفية والعرقية والإثنية والإقليمية، وهذه الجنايات السافرة والتقلبات المصلحية المثيرة تجعل من حق كل ذي لُبٍّ أن يرصد حراكه وأن يقوّم اعوجاجه وأن يحذّر من مكائده، والنقد الموضوعي لا يتعارض مع الجنوح للسلام بوصفه خياراً إسلامياً ولا يمنع من تبادل المصالح والخبرات، كما أن النقد المتوازن ومواجهة الفكر غير الرشيد لا يعني تزكية الذات ولا الحيلولة دون التواصل الحضاري، كما لا يعني المفاضلة ولا تصدير الخطاب، وقد ندب الحق سبحانه إلى القول: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾، وهذا التوجيه الرباني لا يتعارض مع الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والدفع بالتي هي أحسن، ولست مع الذين يتمثلون خطاب التمكين ويتمسكون بآية السيف والادعاء بأنها نسخت مائة وأربع عشرة آية من القرآن، وحري بالأمة الإسلامية أن تستفيد مما سبقوا إليه من علوم وأنظمة ومؤسسات مدنية فاعلة وليست معطلة ولا شكلية، فبعض ما عند الغرب حق، والحق ضالة المؤمن أنى وجده فهو أحق به، ولا سيما أن العالم الثالث يفتقر إلى مؤسسات المجتمع المدني بضوابطها الشرعية وبالشكل الذي يكفل تحقيق حضارة الانتماء، ثم إن الحاجة الماسة إلى مصحاته وجامعاته ومكتشفاته وصناعاته وتلقي العلم في أرضه وطلب تأييده عند الأزمات لا يحول شيء من ذلك دون

---

(١) تاريخ المقال: ١٢/ ٧/ ٢٠١١

موضعته ومكاشفته ومواجهته بالحق وحمله على كف أذاه وتقويم اعوجاجه، إن للغرب أخطاءه الفادحة وتصرفاته الجامحة وخرافاته المضحكة، وله في مقابل ذلك مؤسساته السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتعليمية التي يفتقر إلى مثلها العالم الثالث، كما أن أبناءه يتمتعون داخل أرضهم بالحرية والمساواة وتكافؤ الفرص وتداول المسؤولية على ضوء الكفاءة فيما لا يوجد أيسر ذلك لدى شعوب العالم الثالث التي عاشت تحت طائلة التخريب باسم التجريب واستزلها شيطان اثورات الدموية. ونقد الغرب ليس مبادرة ولا تعدياً، وليس هو من باب الفضول إنه حاجة قائمة وفريضة غائبة لأنه متواصل مع العالم العربي تواصلاً لا يخلو من العنت والجور وهضم الحقوق والحيلولة دون استشراف المستقبل، كما أن النقد المطلوب ليس موجهاً لمنجزاته العلمية ومكتشفاته المذهلة وأنظمته ودساتيره وقوانينه المتسيدة داخل أرضه، والمستغربون بفعلهم يكادون يستعدون على شعوبهم ومقدراتهم وكأنه مناط عزهم وتمكينهم، إن خطاب النخب تأليب واستعداء وشرعنة لسلب الحريات.

والغرب الذي ضرب بسهم في الحضارة الإنسانية وأخذ بقسط وافر من المدنية بأمس الحاجة إلى النظرة الإنسانية واحترام كرامة الإنسان أياً كانت لغته أو جنسه أو لونه أو ديانته.. وليس من حق القارئ لحضارات الأمم أن يعتقد التلازم بين الكفر والتقدم ولا بين التدين والتخلف، وإن انعتق الغرب بعلمانيته الشاملة، وتقدمه لن يضار لو أن دينه سماوي لم يحرف، وعرقلة مسيرة الحياة ناتج الفهم البشري السقيم والتطبيق الإنساني الخاطئ، ولقد أخبر الرسول -ﷺ- عن تفرق الأمة الإسلامية إلى ثلاث وسبعين فرقة، وهذا التفرق معوق حضاري ومدني، وهو منتج إنساني وليس وحياً ربانياً، ومن المسيء أن الذين يقدسون الغرب ويذبون عن عجيزته يحيلون نجاحاته إلى تخلصه من الدين، وهم محقون لو وقفوا عند هذا، ولكنهم يستحثون العالم الإسلامي على التخلص من دينه باعتناق العلمانية الشاملة اقتداء بالغرب وتمثلاً لمناهجه دون تحفظ أو تفريق.

والغرب الذي يزكيه لفيف من المفكرين والإعلاميين يقع في مآزق الأخطاء الفادحة شأنه في ذلك شأن أي متصدر لزعامة العالم، ولسنا نشك أن الفشل الذريع الذي تتعرض له الممارسات السياسية والعسكرية لا يعني تفوق الآخر، وتفكيك الوقوعات غير السوية لا يحول دون التفاعل الإيجابي معه ما أمكن ذلك. والعاقل من وعظ بغيره، فالمغامرات الغربية التي تقودها أمريكا لا يكشف خطلها ولا يبين عورها المتجرع لمراراتها وإنما يتقصاها ويجليها لوقتها الغرب نفسه، فهو الذي لا يجد غضاضة من تقويم ذاته ومساءلتها، وهذه الجرأة الواثقة من مؤشرات القوة، فالنقد المواكب يحول دون تراكم الأخطاء واستعصائها، وداء العالم الثالث المغالطة الكاذبة وادعاء الزكاء والنماء في زمن الدنس والإخفاق وما أضاع مثمنات الشعوب إلا المديح الكاذب، ونظراً لخطورته على الأمة جاء في الحديث: «**إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب**» ومن الابتسار والاكراه ولوي أعناق النصوص تفسير الحثو بالأعطيات والاستشهاد لهذه القراءة الغرائبية بالبردة التي خلعها الرسول -ﷺ- على الشاعر كعب بن زهير، وكم هو الفرق بين من يعرف الفضل لذويه ومن يفتري الكذب، والشاهد بما يعلم وشاهد الزور، ولما حذر الرسول -ﷺ- من بعض الموبقات وجاء على ذكر شهادة الزور كان متكئاً فجلس وردد التحذير لخطورة الموقف.

والشيطنة الخرساء ليست بأقبح من افتراء الكذب، فالذين يكتمون الحق وهم يعلمونه والذين يجترحون السيئات سواء، والمشهد الإعلامي يتسع لهؤلاء وأولئك، ومتى تشكل وعي الأمة على عين هذه الطوائف أصبحت الرؤى زائفة، والمقدمات الخاطئة تؤدي إلى نتائج خاطئة، وذلك ما نشهده ونعايشه، ولسنا بصدد التزكية ولا التحريم ولكننا نود أن

نشهد ولو على أنفسنا والوالدين وليس هناك ما يمنع من التلميح إن كان في التصريح إيذاء أو ضرر، ولقد قيل: إذا كان الكلام من فضة فإن الصمت من ذهب، وما نوده من حملة الأقلام امتلاك الجرأة والمصداقية مع الذات ومع الغير، وعلى كل متردد في مواجهة الغرب بأخطائه الفادحة ومغامراته المجنونة أن يستدعي ما تفضي به مؤسساته ذات المهمات الإحصائية أو الشورية التي لا تداهن ولا تخشى بالحق لومة لائم، وتلك المواجهت الواثقة هي التي مكنته من تفادي الأخطاء أولاً بأول، وحملت أي مسؤول على الصدق والإخلاص والنزاهة لعلمه أن الجزاء من جنس العمل، ومن أمن العقاب أساء الأدب، ولو كان حملة الأقلام على مستوى المسؤولية لما اضطرت الدولة إلى إنشاء هيئة لمكافحة الفساد، ولما رصدت بعض الأحداث ولاحقت الأطراف المتهمة بها.

ولكي نقدم شاهداً من الأهل نشير إلى ما توصل إليه الباحثون في (جامعة براون) الأمريكية وليست العربية؛ لقد ساءهم ما توصلوا إليه من معلومات تهز الضمير العالمي مارسها الحزب الجمهوري الحاكم في أمريكا ولم يستطع أن يتخلص منها الحزب الديمقراطي الذي وعد بمراجعة كل القرارات اللا إنسانية بعد فوزه في الانتخابات.

لقد اهتاجت أمريكا بعد الحادي عشر من سبتمبر من عام ألفين وواحد ميلادي، وخاضت معارك واحتلت دولاً واسقطت أنظمة وطاردت جماعات وأحزاباً وتكبدت وكبدت خسائر فادحة لا يتصورها العقل الإنساني، والمؤذي أن المنبهرين بها لم ينبسوا ببنت شفة، ولم تتمعَّر وجوههم من أجل الإنسانية المعذبة بلا جريرة.

هذه الجامعة وباحثوها الغربيون، لا المستغربون، قدموا نقداً لاذعاً بلغة الأرقام التي تقطع قول كل خطيب.

وخلاصة التقرير أن المواجهة العنيفة التي خاضتها الولايات المتحدة بكل آلياتها العسكرية وإمكاناتها الاستخباراتية ومؤسساتها النيابية كبدتها وحدها ثلاثة آلاف وسبعمائة مليار دولار، وكبدتها مع العالم كله المستهدف والمشارك بالتبعية نصف مليون قتيل، وضعف ذلك جريح أو معوق، ولم تحقق حتى الآن أي مكاسب، بل كسبت سُبَّة الدهر وعار التاريخ، ولمَّا تزل تواصل عنادها وتصر على بقائها في المناطق الساخنة، ولو أن هذه المغامرة الطائشة اقترفتها دولة نامية ماذا سيقوله عنها الصامتون المخدرون بعشق الغرب.

إنني بهذه الإشارات لا أدعو إلى المواجهة ولا إلى المقاطعة، ولا أنكر ما حققه الغرب في مجالات كثيرة ولا أزكي النفس ولا أدخل في لعبة المفاضلة وتصدير المبادئ، ولكنني أود من المبهورين الصامتين والمسبِّحِين بحمد الغرب أن يتفسَّحوا لغيرهم في المشاهد وأن يعرفوا أن في بني عمهم رماحا، إن علينا جميعاً أن نملك شجاعة الغربي ومصداقيته وحرصه على مواجهة منتخبيه بلغة الأرقام، فلا خير فينا إن لم نقل كلمة الحق ولا خير فينا إن لم نسمعها بثقة ورحابة صدر ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾، ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِى الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾.

أرجو ألا يكون فينا ولا منا من قصد بهذه الآيات.

عندما يكون «القصيبي» شخصية العام .. !؟[(١)]

كتبت في الثلاثاء ٢٩-١-١٤٣٢هـ عن الشخصيات الثلاث التي كُرِّمت خلال أسبوع واحد، وكنت أحدَ المدعوين والمداخلين في بعضها. وفي مساء الخميس ٢-٢-١٤٣٢هـ أذيع نبأ تكريم الفقيد «غازي بن عبد الرحمن القصيبي» في المهرجان الوطني للتراث والثقافة بوصفه شخصية العام وسيُمنح وسام الملك عبد العزيز من الدرجة الأولى أو وشاحه - شَكَّ الراوي -، وفي الثالث عشر من هذا الشهر ستُعلن أسماءُ الفائزين بجائزة الملك فيصل العالمية، وفي ذات المساء يكرّم «نادي الرياض الأدبي» الأديب العلاّمة عبد الله بن محمد بن خميس مشاركاً «صحيفة الجزيرة» التي أصدرت كتاباً احتفائياً عنه، ولقد توخّيت من قبل التماس فلسفة هذه الخليقة في بلاد أذن الله أن تكون سبّاقة إلى مكارم الأخلاق، إذ لا تنفك من استباق الخيرات وتتويج الأحياء ونثر الورود على قبور الخالدين، والقصيبي الذي فجع المشاهد كلها بوفاته في ذروة عطائه لمَّا يزل حاضر المحافل الثقافية والإعلامية، وكأنّ ذوي الشأن نادمون على رحيله قبل أن يشهد ما يكنّه العلماء والأدباء والإعلاميون وسائر المؤسسات الثقافية والإعلامية له من محبة وتقدير وإكبار.

لقد تنادى الكتَّاب وتسابقت المنتديات وتبارت الصحف والمجلات واكتظت المواقع في التقاط عدد من زوايا شخصيته المتعدّدة المواهب والاهتمامات، وجماع ما أبداه الكتّاب حواه كتاب «الاستثناء» وما كان لمجتمع وفِيٍّ أن يفرغ من الاشتغال بهذه الكفاءة الوطنية، ولهذا بادر «المهرجان الوطني للتراث والثقافة» إلى تكريمه ليكون حلقة مضيئة في سلسلة التكريمات التي تدفّقت بالكلمات والقصائد والكتب والمحاضرات، والذين لا يعرفون الفقيد عن قرب قد يثيرهم تواصلُ التكريم وتنوعُه، لقد وهب الفقيد ما وسعه من جهد ووقت ومال لوطنه ومواطنيه، وعاش همَّ أمته، يكافح ويناف ويشيد. ولقي في مسيرته تلك نصبا، ولأنه صاحب رسالة، فقد تقبّل الصعوبات بصدر رحب، ولم يعبأ بكلِّ المثبطات، وميزة العظماء أنّ الأيام كفيلة بالكشف عن معدنهم الكريم، فالذين يتحفّظون على بعض ممارساته لم يتردّدوا في مباركتها بعد مماته، والذين يقفون على الحياد من آرائه أثناء طرحها بادروا الانصياع لرؤيته، وسيظل القصيبي في صعود وكأنّ الشاعر عناه بقوله:

عُلُوٌّ في الحياة وفي الممات

لحقٌّ أنت إحدى المعجزات

فالقصيبي لم يعش في الظل، بل ظلّ طوال حياته في بؤرة الأضواء متجاذباً مع اللدات والمجايلين مختلف الآراء والتصوّرات، ولم تشغله تلك النجاحات العملية والإبداعية والعلمية عن أداء رسالته الوطنية.

وكم سمعت ورأيت من يأخذه العجب من قدرة القصيبي على استقطاب مختلف الأطياف والسيطرة على القواسم المشتركة، والذين لا يملكون الإمتاع والإقناع والاستمالة في خطاباتهم قد لا يسلِّمون له بسهولة، وقد يقترفون التقليل من شأنه محيلين نجاحاته وتجلياته إلى جاذبيته الشخصية لا لشيء آخر، بوصفه شخصية «كارزمية» و«الكاريزما» مصطلح غربي لا ينطبق بحذافيره على شخصية قيّدت نفسها في ذرى الإسلام محبة وإعجاباً وامتثالاً لأنّ «الكارزمية» نمط من أنماط سلطات ثلاث كما حددها «ماكس فيبر» وهي كما يقول علماء «الانثروبولوجيا»: (هبة من السماء) ويطلقونها على

---

(١) تاريخ المقال: ١١/ ١/ ٢٠١١

الأنبياء والأبطال والقادة، وعلى كل من يحقق نجاحات متواصلة دون أن تكون له قوة أو يأوي إلى ركن شديد، ولكم نقول عن بعض من يبهرنا بنجاحاته: إنه شخصيه قيادية .. أو شخصيته موهوبة، ولقد تَصْرِفُنا جاهزيات الأحكام والإحالات عما يتمتع به المتميّز من إمكانيات ذاتية غير الجاذبية الشخصية، والقصيبي ممن جمع فأوعى، فلم يكن «كارزمياً» وحسب، ولكنه ملء إهابه إمكانية وأهلية.

فهو شاعر حاضر البديهة سلس العبارة عميق الفكرة بعيد الرؤية، لا ترى في شعره العمودي عوجاً، ولا في شعره التفعيلي أَمْتا، مستوى النسق معتدل السياق، يجمجم عما في نفسك فكأنه يتحدث باسمك ويجسِّد مشاعرك، وما تمنى دَسَّه في التراب من المقطعات التي تعجل فيها لا تعاب عبارتها ولا ينتقص تشكيلها ولكنه بنظرته الطموح يتقالّ عمقَ رؤيتها.

وهو كاتب عفوي، رقيق الحواشي، دقيق الملاحظة، جدلي التعبير، مثقف النص، يغري الأحداث ويركب متونها. وهو قاص لبق يندس في عباءة الأبطال ويتراءى في ملامح الشخوص، حتى لكأنّ رواياته وحكاياته وقصصه تتعالق وتتعانق مع الإبداع السِّيري، فهو يكتب ذاته بذاته.

وإبداعاته الشعرية والسردية كما شعر «المتنبي» مغروس فيها بحيث يبدو لك من بين العبارات والكلمات، وهو إداري محنك يطلق يد مرؤوسيه ولكنهم لا يبرحون فلكه، مستشرف للمستقبل، عاشق للمبادرات، مولع بالتجريب، حفي بالمغامرات، فحين أدرتُ إحدى أماسيه الشعرية قلت فيما قلت: «ما عرَّس في مكان إلا ترك ما يسهر الخلق جرّاه ويختصم» فما كان منه - وهو اللماح - إلا أن ابتسم، ونبّه القوم إلى مفهوم «التعريس» لغوياً ليكلا يظن بنا الظنون.

ذلكم هو غازي بن عبد الرحمن القصيبي الذي شغل المشاهد كلها حباً، وأشْعَلها بعد مماته، وحفر اسمه في ذاكرة الأمة ونام قرير العين في لحده الذي أرجو من الله الرحيم الكريم أن يجعله روضة من رياض الجنة، وترك الناس يدركون ليلهم فيما ترك من قول أو فعل.

والنار من مستصغر الشرر.. !![1]

سأطرح طائفة من القضايا الساخنة ذات المساس بمشهدنا المحلي، وإن بدت لذويها وكأنها الأهم، لتعالقهم معها، وانشغالهم عما سواها، وتلاحيهم من أجلها، وما من مرحلة إلا ولها قضاياها الملحة، وإن كانت في نظر المخالفين ثانوية.

ولقد يَهِمُ البعضُ فيؤثرون الأدنى ويستغرقهم المفضول ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ﴾، وكم زين للذين غفلوا سوء عملهم وكأن الشاعر عناهم بقوله:

يُقْضى على المرءِ في أيَّام محنته
حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن

والأمة العربية ذات الهم المشترك والقضية المشتركة والمصير الواحد، تمر بمرحلة عصيبة، لن تصيب عقابيلُها قِطْراً دون قِطْر، والاشكالية أن الرِّدْءَ من المفكرين وسائر النخب يتمارون حول ثانويات إقليمية مقدور على تأجيلها، وهي بالاستدعاء أو بالتأجيل لا تقدم ولا تؤخر، ومخاضات الشارع السياسي العصيبة لن تمر بسلام، لأنها تستهدف الأمة كلها وإن انطلقت من إقليم لا يؤبه به، ولربما يتمكن الإطفائيون ودول الاعتدال من تأجيل الانفجار، والإرجاءات الوقتية إن هي إلا لحظات تسبق العاصفة، وما من جرح يرم على فساد إلا ولانفجاره موعد لن يخلفه، وساعتئذ لا ينفع الندم ولا إقبال البعض على البعض بالتلاوم.

ولكم يكون مفيداً لو أن حملة الأقلام وعوا مرحلتهم واستوعبوا أولوياتها واطرحوا فضول القول، وارتهنوا أقلامهم للتهدئة والتوعية فما عدنا بحاجة إلى مزيد من تبادل الاتهامات والإمعان في الاقصاء وكشف السوْءات وتمكين الأعداء من التقاط فيوض اللغط بوصفها وثائق إدانة وتوهين.

وليس لدينا مزيدٌ من الجهد والوقت لإراقتها تحت أقدام النفوس الأمارة نحن أمة على بينة مما ينقصها واضحة المحجة ظاهرة الحجة، واستدبار القضايا المصيرية وإهدار الطاقات في قيل وقال استدامة لزمن التيه، والشارع السياسي ليس أقل خطورة من الشارع العام، إنه مليء بالألغام، وفتنة لا تصيب الذين أيقظوها خاصة.

وإذ نكون أهل قرية آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ولها عراقتها وثباتها ومحجتها البيضاء ومثمناتها وتطلعاتها وإمكانياتها الاستثنائية وظروفها المواتية، وهي على جانب من الاستقرار والتلاحم فإن واجبنا ألا يأخذنا بطر المعيشة والظن بأننا قادرون على عبور الألغام بسلام، إن على الجبهة الداخلية أن تعي مسؤوليتها ودورها في هذه الظروف العصيبة التي تجتاح مشرقنا الجريح مشرق الفتن العمياء واللعب الرهيبة والانهيارات المريعة.

لقد كان بإمكان المؤثرين على القرارات المصيرية أن يتحركوا في الوقت المناسب لتطويق الأزمات والحيلولة دون اتساع رقعتها، وبإمكان الجبهات الداخلية أن تكون ردءًا وظهيراً للجبهات الأمامية، وحينئذ تنجو الأمة من مصير مظلم سيمتد أمده، ويستفحل خطره، وتستشري مشاكله ومن ذا الذي لا يأبه بمؤشرات ذلك الواقع المؤلم، فهل نحن قادرون إلى الأبد على الجِمالة، وامتصاص الاحتقانات في مواقع بلغت أحوالها درجة الغليان، إن واقعاً مشتعلاً في كل بقعة من وطننا العربي لجدير بأن توظف له كل الطاقات

---

(١) تاريخ المقال: ١٨/ ١/ ٢٠١١

وأن توجه له كل الإمكانيات، لكي يتجاوز لحظاته العصيبة، فأين حملة الأقلام مما يجري في السودان ولبنان واليمن وبوادر الفتن في مصر والجزائر وتونس، وأين حملة الأقلام من ضجر الشارع العربي من استشراء الفساد والبطالة والمجاعة والطائفية، لقد كنا ولما نزل في غفلة عن ذلك، وكأن الأمر لا يعنينا، وكأننا في معزل عن رياح التغيير القائم على تمزيق العالم العربي إلى دويلات طائفية وعرقية وإقليمية.

وإذْ أدَّت اتفاقية (سايكس بيكو) نتائجها المرجوة ومزقت وحدة عربية كان يجب أن تكون لوجود محققاتها من لغة وحضارة وعقيدة ومصير مشترك فإن تطاول الأمد وظهور دول قوية ومؤثرة حقيق بأن يحْمل دول الاستكبار والاستبداد على التفكير الجاد والماكر لطرح مشروع آخر، لا يقوم على التقسيم الجغرافي وحسب، وإنما يمتد إلى التقسيم الطائفي والعرقي. فما الذي يعانيه السودان؟ وما الذي يجتاح اليمن؟ وما الذي يرقبه لبنان؟ وما الذي يخيف مصر؟ ودعك من العراق. إنها فتن محكمة الصنع خطيرة النتائج، وهذه الفداحة لم تعد تشكل حافزاً للتفكير بالخلاص أو على الأقل إيقاف التدهور.

وإذ يكون من المؤكد تلون الغزو والتآمر الذي يتحفظ على تداوله البعض، رغم أنهما من المسلمات فإن نفاذهما موكل بالقابلية ومصطلح (القابلية) حرر أبعاده المفكر الإسلامي المعتدل (مالك بن نبي) - رحمه الله- ولم يلاق آذاناً صاغية ولا عقولاً واعية ولو تقبلته المشاهد واحتفت به النخب لكان بالإمكان الخلوص من مخققات القابلية، فالشعوب العربية لم تكن دون غيرها من شعوب العالم، ولو هيئت لها قيادات حكيمة وأتيحت لها ظروف مناسبة، لاستطاعت أن تعي واقعها، وأن تشب عن الطوق، وأن تبادر مسئولياتها مثلما فعلت شعوب العالم التي مرت بظروف مشابهة، وخاضت حروباً أهلية مرعبة، وتناوشت مع بعضها، وحين وجدت أن من مصلحتها المصالحة والمعايشة، نسيت كل شيء وأقبلت على بعضها لبناء ذاتها والسيطرة على المشاهد كلها، لقد توحدت شعوب أوربا وتبادلت المصالح والخبرات على الرغم من تناقضها لغوياً وعرقياً وجغرافياً، وظلت الشعوب العربية في تنافر وتناحر، على الرغم من التجانس اللغوي والحضاري والعرقي، لقد كنا وما زلنا يداً سفلى نتلقى المستجدات وكأنها صنعت من أجلنا، نتناحر حولها، ونتعادى من أجلها، ونستنزف كل طاقاتنا في سبيل طرد الغربة عنها.

فأين نحن من العلمانية والعولمة والحداثة و(الليبرالية) و(الديموقراطية) و(العالم الجديد) وسائر المصطلحات والتقليعات؟ لقد أنفقنا الجهد والوقت والمال، وما من مصطلح واحد أحسنا فهمه ولا أتقنا تمثله، وسنظل في جدل عقيم وكأننا موكلون بالمستجد نذرعه جيئة وذهاباً، ونطَّرِحه متى ذر قرن مصطلح جديد.

إن علينا وعالمنا العربي والإسلامي يعول علينا أن نكون في مستوى إمكانياتنا ومكانتنا، فما عاد في الوقت ولا في الجهد متسع للتجريب، فضلاً عن التخريب، إن علينا أن نبادر مسؤولياتنا على الوجه الذي يحفظ الكرامة والحرية والندية، ويحول دون نفاذ الغزو والتآمر وإحداث التصدعات في وحدة الأمة فكرياً وإقليمياً، وما الفتن التي تستيقظ بين الحين والآخر إلا وليدة أيدٍ خفية وجدت الأجواء الملائمة لامتدادها في جنح الظلام لتصديع العلاقات وإيغار الصدور وفتح الملفات الساخنة وستظل الأمة تخرج من فتنة إلى أخرى، حتى تتحقق فيها الغثائية التي أخبر بها من لا ينطق عن الهوى.

عائدةٌ من تونس .. ! [(١)]

ابنتي أم عبد الرحمن، حرم الملحق الثقافي في سفارة خادم الحرمين الشريفين في تونس، الطالبة في قسم الدراسات العليا بجامعة الزيتونة، عادت من تونس في أوج تدفق الجياع والمقهورين في شوارع المدن التونسية.

وكان مقرراً أن تناقش رسالتها للماجستير خلال أسبوع، ولكن الأحداث المتلاحقة خلطت الأوراق، وحملتها مع طائفة من العوائل السعودية على العودة إلى دفء الوطن وأمنه، وإن بقيت كالمعلقة؛ لأن زوجها لمَّا يزل هناك مع بقية زملائه لإدارة أعمال السفارة.

وما كان أحد من المراقبين ولا أهل الشأن يظنون أن الأحداث ستكون بهذا التسارع وبتلك التحولات، وما كان أحد يتوقع أن المؤسسة السياسية بهذه الهشاشة القابلة للانهيار، بحيث تعصف بها ثورة الياسمين كما يقولون. والمتابعون للأحداث يُحدقون في الشاشات البيضاء، ويلاحقون المواقع، ويحملقون في أنهر الصحف بحثاً عن سر هذا الانهيار المفاجئ والسريع للمؤسسة السياسية التي استطاعت أن تحكم البلاد عقدين ونيفاً، غير أن اهتياج حملة الأقلام في أعقاب الأحداث الجسام المتسم بالزخم العاطفي وتدفق المشاعر وخلق القُبَّةِ من الحبَّة يُضِلُّ الرأي العام، ويحجب الحقائق.

كما أن المزايدين يهتبلون الفرص؛ ليكون لهم مواطئ قدم كاذب في الأحداث. والناس الخليون يُسيغون ما يُقال في لحظات التوتر، ويكون للمستساغ فعله في تضليل الوعي وارتباك المواقف، ولربما يطول أثر التهييج العاطفي، حتى لا يكون هناك متسع لقبول الحقائق الناسلة من تحت ركام التخرصات والمزايدات الرخيصة.

وتونس الوطن والدولة تملأ فضاءات الإعلام، وأحداثها تكاد تطغى على أحداث السودان واليمن ولبنان، ولكن الحقائق متلفعة بضباب التشنجات العاطفية، وقدر المملكة دائماً يأتي بحجم إمكانياتها، فهي الأبعد عن أحداث تونس، ولقد تكون حكومتها السابقة الأكثر سعياً في الإقصاء والانتباذ من الأهل مكاناً قصياً، وما كانت تشكل ثقلاً سياسياً في سائر الأحداث.

ولعلنا نستذكر موقفها من أحداث الخليج ومن احتلال الكويت بالذات، ولقد كنت أحد المرشحين كوفد صداقة إلى تونس، وفي اللحظات الأخيرة تلقينا بلاغاً بعدم الموافقة على استقبال الوفد، فكان أن حُرمنا من مواجهة الشعب التونسي المغرر به، وشرح موقفنا من قضية احتلال الكويت والاستعانة بقوى عالمية لحسم الموقف لصالح الشرعية؛ إذ ما كان خلافنا مع حكومة صدام حسين يتعدى احتلاله بلداً عربياً كامل السيادة، وبخروجه تنتهي الإشكالية، وتعود القوى العالمية إلى قواعدها، وذلك ما حصل بالفعل. ولم يكن فيما أعلم بين المملكة وحكومة تونس السابقة أية علاقة استثنائية بل هناك اختلافات في وجهات النظر، ولكن حكمة المملكة وقدرتها على إدارة الأزمات وامتصاص التوترات جعلتها تُمضي الأمور مصانعة:

ومن لم يصانع في أمور كثيرة
يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

وجعلها تشرب على القذى:
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى

---

(١) تاريخ المقال: ٢٥/ ١/ ٢٠١١

ظمئـــت وأي النـــاس تصـــفو مشـــاربه

ولم يجد «ابن علي» من يؤويه، لم يتردد في الاستنجاد بالمملكة لما لها من سوابق، ولقد عبّر الأمير سعود الفيصل عن مواقف المملكة بما لا مزيد عليه ولا مزايدة، وتلك سجية وخليقة لا تخلُّق.

أحسب أن المملكة ربما تكون الوحيدة التي تحسم أمرها في أحلك الظروف، ولقد تفاجئ المشاهد بما لا تتسع له أذهان الدهماء، ولكن العاقبة للحق والتعقل والتوازن ومواجهة الأحداث المفاجئة برباطة جأش وعقلانية وخروج متوازن من شرنقة الحدث.

تلقيت العائدة الواجفة، وسعدنا بسلامتها وسلامة أبنائها، وبدأت أستجلي الأخبار ممن لم أزود.

- ما الذي أوقد النار في الهشيم؟
- ومن الذي حمل الكتل البشرية على التدفق بعنف ومواجهة قوى الأمن بهذه الشجاعة؟
- أهي المؤامرة كما كنا نحيل عليها؟
- أم هما الجوع والقهر؟

لقد سبحت التخرصات في فضاء الظاهرة، وخاضت الأقلام في لجج المشاكل، وكل يدعي وصلاً بالحقائق، ولكن الحقائق لا تقر لهم بذاكا.

الحكومة التونسية سبحت ضد التيار حيث طرحت علمانية متطرفة تدخلت في أخص خصوصيات الناس، وأكرهتهم على التخلي عن جذورهم الدينية، ولم تقم بينها وبين الرأي العام أية علاقة وُدٍّ. لقد استأثر الأقربون بالأعمال والصفقات والثروات حتى بطرت معيشتهم وشعروا أن ما عندهم من مال وجاه من عند أنفسهم، فلما نسوا ما ذُكِّروا به أخذهم الله بغتة، ولا يعلم جنود ربك إلا هو، كما مارست الدولة كبت الحريات ومصادرة الحقوق المشروعة لذوي الكفاءات، ولم توفر للعامة فرص العمل ولا المستوى المعيشي الذي يحفظ الكرامة ويصون الأعراض، واستَعْدت عليها العلماء والأدباء والمفكرين، وملأت المنافي برموز الوطن، ولم تبنِ لها ولاءات عند أي طائفة سياسية أو دينية أو عرقية، وعولت على ثلاث قوى خذلتها في ساعة العسرة:

- الأمن والحرس الجمهوري ومن ورائهما الجيش. وكل هذه الفئات الثلاث لن تمضي مع حكومة مجتثة من فوق الأرض. لقد تخلى الجميع، وبقي القصر مكشوفاً للمتظاهرين؛ الأمر الذي عجّل برحيل الرأس المدبر. لقد كانت تلك الحركة مفاجأة مذهلة لكل المراقبين حتى للمتظاهرين أنفسهم الذين لم يكن في حسابهم أن يرحل الرئيس بهذه السرعة ودون خسائر تُذكر، كانوا يطالبون بحقوق مضاعفة، ولم يدر بخلدهم سقوط النظام.

ومثلما فوجئ العالم بانهيار الاتحاد السوفييتي فوجئ الشعب التونسي ومن ورائه العالم بسقوط الحكومة وهروب الرئيس، وذلك مصير أي دولة لا تملك مشروعية بقائها إلا من ثكنات الجيش وغياهب السجون.

إنَّ هناك علاقة يستخف بها كثير من قادة العالم الثالث، هي علاقة الود والموالاة المتشكلة من العدل والمساواة والحرية وتكافؤ الفرص وتداول السلطات والعمل على حفظ الضرورات الخمس التي أكد عليها التشريع الإسلامي، إنها الموالاة العفوية التي تفرض نفسها وتنطلق من أعماق النفوس، وليست من فوهات البنادق.

لقد سقط «ابن علي»، وضاقت عليه الأرض بما رحبت، وفي إمكان كل زعيم آل إليه الحكم بالغلبة أو بالاختيار أن يجسر الفجوات بينه وبين رعيته بالشفافية والمصداقية والعدل والحرية والمساواة.

وما نوده للشعب التونسي الذي لمَّا يزل يعيش صدمة الأحداث أن يعي خطورة المرحلة؛ فالفراغ الدستوري وانفلات الأمن وتقحم المزايدين والمتطفلين والانتهازيين سيوسع رقعة الاضطرابات، ويخلط المفاهيم، ويربك التصورات، وما لم يمتلك الشعب أزمته بنفسه فإن قيادات متربصة ستقوده إلى الهاوية، والذين يؤججون عواطفه ويوغرون صدور أبنائه ويضللون مفاهيمه بالإطلاقات المعممة والاتهامات الطائشة يقودونه إلى الهاوية، لقد سمعنا من الإفتاءات والتصريحات ما تَعِد بمصير مظلم وتستعدي على دول ليست في العير ولا في النفير.

المرحلة الانتقالية ستكون صعبة، ومرحلة أخذ الأنفاس ستكون قاسية، وعودة المؤسسات الدستورية والتشريعية والتنفيذية إلى وضعها الطبيعي تتطلب الصبر والمصابرة، فالتغيير السياسي كالعمليات الجراحية تحتاج إلى فترات نقاهة وساعات ترقب، وإذا استطاع المزايدون والانتهازيون تشكيل وعي الأمة فإن الأمور ستؤول إلى الأسوأ، وستستمر الفوضى والتصدعات والتكتلات الفئوية التي تقطع أوصال البلاد وتذهب ريحها.

والأمة التي أزاحت عن كاهلها أثقال الظلم والتسلط وحطمت القيد وأرادت الحياة الكريمة جديرة بأن تستقبل أياماً باسمة وادعة مليئة بالآمال العذاب، وليس من حق مزايد أن يعكر صفو منجزها. فليع الشعب التونسي مرحلته وإمكانياته وليوطن نفسه على معضلات المرحلة الانتقالية ولينتظر ما تتمخض عنه أيامه الحبلى.

وليثق بأن المملكة العربية السعودية وشعبها معه في العسر واليسر والمنشط والمكره.

المظاهرات بين التداعي والاضطرار.. !(1)

تمر المشاهد العربية في راهنها المأزوم بموجة حرجة من المظاهرات غير المنضبطة، وهي صور من صور الغضب والتعبير عن الاستياء أو رغبة التغيير في الأنظمة السياسية أو استبدالها، وليس لأحد أن يحكم لها أو عليها بإطلاق..

وكذلك فإنها لم تكن بهذه الصورة من مستحدثات الفكر السياسي الحديث ولا من عنديات النظم الحديثة كما يحلو للبعض ادعاؤه وإحالته إلى الثورة الفرنسية بوصفها أم الثورات العالمية التي حوّلت الأنظمة القديمة إلى أنظمة دستورية «ديمقراطية» «ليبرالية» نيابية تداولية انتخابية، فغيّرت بذلك أنماط الحُكْم في بقاع كثيرة من العالم باتجاهاته الثلاثة: الشرقي الماركسي والغربي الرأسمالي، وما عرف بالعالم الثالث بكل تناقضاته وادعاءاته وتذبذباته.

والمنقب في غياهب التاريخ السياسي، وبخاصة الفكر السياسي الإسلامي، يجد أن العامة قد تُعبِّر عن استيائها ومعارضتها بالمسيرات الجماعية والهتافات الصاخبة؛ إذ عُرفت التنظيمات السرية والعنف الطائفي والتعصب المذهبي والتكتل الحزبي منذ فجر التاريخ الإسلامي، وأول تنظيم بعيد الغور واضح الأثر ما قام به العنصر الفارسي تحت غطاء «الهاشمية» لإسقاط الدولة الأموية على يد «أبي مسلم الخراساني»، وفي شيخوخة الدولة العباسية نشط الموالي وقامت الدول المتتابعة. وفي العصر الحديث اختلط الموروث بالمستجد، وتبدت أنظمة متعاصرة متجاورة، في ظاهرها الوفاق وباطنها من قبله العداوة والشقاق، فيما أخذ الغرب وضعه السوي عبر حكومات مدنية متعلمنة ومؤسسات فاعلة غيّبت حكم الفرد، وبعثت في النفوس الثقة والاطمئنان، وإن لم تسلم مشاهده السياسية من معارضات عارضة، لا تلبث أن تضمحل، وإن تخطت سلطة المؤسسة فإنها حراك منظم ومحكوم بضوابطه ومشروعيته، وكذلك المؤسسة قد لا تتلاءم مع الأغلبية، وقد تضيق الأقلية ببعض إجراءاتها، ولكن الجميع حاكماً ومحكوماً وأغلبية وأقلية محكومون بنُظُم وقوانين ودساتير لا فكاك من مقتضياتها إن عاجلاً أو آجلاً، وكم نرى ونسمع رئيساً أو مسؤولاً يُسْتدعى ولو بعد حين للمحاكمة أو المساءلة، ولقد تُفتح ملفات معارك أو تدخلات مضرة بالمصلحة ليكون الرأي العام على بيّنة من أمره، «ومَنْ أَمِنَ العقاب أساء الأدب».

ولمَّا نرَ في العالم الثالث شيئاً من ذلك، وإن ادعى التعالق مع العلمنة «واللَّبْرلة»؛ ذلك أن شعوبه لم تُهيأ جدياً لاستيعاب المستجد والتفاعل معه، ورهان المؤسسات موكول بثقافتها، فمتى أريد للمؤسسة أن تؤدي دورها وجب أن تُشاع ثقافتها وأن تُجسَّر الفجوات بينها وبين المحكوم بها؛ فالإكراه على القبول وفرض الأنماط مظنة الاحتقان ثم الانفجار في أي لحظة، ومثل هذا التبني الظاهري لأنظمة الشرق أو الغرب يحول دون التفعيل الإيجابي، فيما يظل الرأي العام متذبذباً بين القبول الضجر والرفض المستبطن، وهذا التململ البركاني يحفز المؤسسة السياسية المهيمنة على ممارسة الأطر بالإكراه عبر مؤسسات قمعية تُكره الناس على أن يسمعوا ويطيعوا، وقد لا تملك القدرة على الحوار والاستمالة والإقناع، والأدهى والأمرّ انشقاق الرأي العام على نفسه، بحيث تلتطم أمواجه الصاخبة بين معارض ومؤيد ومطيع ومتمرد، وعندها تتجلى القابلية للتدخلات الخارجية وتسريب اللعب السياسية القذرة، وقد تُصَعَّد المعارضة وينجر المتظاهرون إلى التعبير عن الاستياء بتجاوزات تخل بالأمن وتُعرّض الممتلكات للتدمير؛ الأمر الذي تضطر معه السلطات الحاكمة إلى المواجهة المسلحة لحفظ الأمن وصيانة الممتلكات وأطر التعبير عن

---

(١) تاريخ المقال: ١/ ٢/ ٢٠١١

المواقف بالمسيرات والهتافات السلمية بوصف ذلك من مقتضيات حرية التعبير التي يكفلها الدستور ويؤكد عليها الناشطون في حقوق الإنسان، وليس شرطاً أن تكون المظاهرات ضد النظم السياسية؛ لقد رصد التاريخ تدفق العامة ضد العلماء الذين يخالفون السائد، وكم من عالِم سجنه العامة في بيته ومنعوه من شهود الجماعة، أو طاردوه في سوقه، وقد يمتد الاستياء إلى إحراق كتبه أو تمزيقها، وقد يضطر الحاكم تحت ضغط العامة إلى سجن العالِم أو نفيه أو إكراهه على التخلي عن رأيه. وسِيَر أعلام النبلاء «للذهبي» مليء بالأخبار المثيرة.

ولقد يكون الغلاء كالغلو في الدين؛ فحين ترتفع أسعار السلع الاستهلاكية أو حين يشح وجودها في الأسواق يندفع المتظاهرون إلى التجمهر على أبواب السلطان ومطالبته بالتدخل لتوفير السلع أو التسعير والحدَّ من التضخم، وفي أبواب البيوع عند الفقهاء حديث مستفيض عن حكم التسعير، ولقد حصل هذا في زمن الرسول ﷺ، ولم يستجب لمطالب العامة مشيراً إلى أن الله وحده المسعر، وفي الأثر: «إني أحب أن ألقى الله وليس لأحد عندي مظلمة». ومَنْ خلف من مجتهدي الفقهاء عالجوا هذه المسألة، وتوصلوا إلى جواز التسعير بضوابطه بحجة اختلاف الفتيا باختلاف الأحوال، وبخاصة إذا كانت الدولة تسهم في دعم بعض السلع أو تخص المستوردين ببعض المساعدات والتسهيلات، واللغط الدائر حول تغيير الفتوى يحتاج إلى فقهاء وأصوليين يستطيعون ضبط المسألة والحيلولة دون انفلات الأحكام. ولقد نظر العلماء في تصرفات الرسول - ﷺ - وفرقوا بين الفتيا والأحكام والخاص والعام وما فعله بصفته الشخصية البشرية وما قاله أو فعله أو أقره بصفته النبوية فيما هو معدود من التشريع الملزم. وتقصيات العلماء أتت على كل التساؤلات، والذي يهمنا بهذا الصدد أن اعتراض الرأي العام وتعبيره عن مواقفه يأخذ أشكالاً متعددة ليست كلها من معطيات العصر الحديث ولا من عنديات الثورة الفرنسية، والمؤرخون لها من العلماء المحايدين يضعونها في حجمها الطبيعي، ويحُدُّون من تدفق العواطف غير المتوازنة.

والعالَم العربي هذه الأيام يعيش حالة من المخاضات الموجعة، وتداعياته العاطفية أججت المشاعر وأبدت هشاشة السلطات، حتى لقد خيف من انفلات الأمن في مواقع كثيرة، والتحمس لهتافات الجماهير وتدفقاتهم المحمومة يجد أنها تنادي بإسقاط السلطة، ومحاكمة رموزها، دون طرح مشروع بديل، يتلقى الراية، ويصرف الأمور، وينشئ دولة ذات دستور ومؤسسات مدنية ومجالس نيابية وآلية حضارية لتداول السلطة، وتحقيق الشطر الأهم من المطالب سيُحدث فراغاً دستورياً لما بعده، فالاختلافات بين المنتصرين ستكون بشعة؛ لأنها خلافات متجذرة في الأنساق الثقافية، وصراع الأفكار يسبق الصراع المسلح ويجهز له، وفي كل دولة عربية تعددية طائفية ودينية وفكرية وعرقية، وأولويات سياسية وقومية، فالمتظاهرون لا يجمعهم هدف، ولا توحدهم رؤية، ولا يرضيهم صف، وذلك مكمن الخطورة، فالشوارع المكتظة بالبشر تجتمع أجسامهم وتتناغم هتافاتهم، ولكن المؤجل من الرؤى والتصورات والانتماءات الطائفية الحزبية والعرقية والفكرية هي الأخطر والأصعب على الحل، ومتى سقطت السلطة التي يلتقون على معارضتها وتخوينها قامت الخلافات حول شكل البديل، ومنطلقاته وأحلافه ومشاريعه.

وأخطر شيء في مثل هذه الظروف العصيبة صراع الإسلاموية والعلمانوية والعرقية والإثنية، وما من بلد إلا وله قسم معلوم من هذه الأطياف، ولقد يجمعها الاهتياج العاطفي، حتى إذا ذر قرن الفراغ الدستوري أقبل بعضهم على بعض بالتصفيات العنيفة التي يصمت فيها اللسان وينطلق السنان، فمن يحكم؟ وبماذا يحكم؟ وما آلية الوصول إلى

الحكم؟ وإذا اقتسم المتناحرون الحقائب واستأثر الطيف الأقوى بالحقائب السيادية عادت حليمة إلى عادتها القديمة، وأصبحت الأمة غُنْماً لا غرماً.

والدساتير في العالم الثالث كالتاريخ لا يكتبها إلا المنتصر، ولقد يكون من السهل العبث في مواد الدستور بالتغيير أو الحذف أو الاستبدال متى فوجئ الحاكم بأمره بأن مادة في الدستور تحول دون مصالحه الشخصية، وقد يعطل الدستور وتعلن حالة الطوارئ لسنوات عجاف لا يأتي من بعدها عام فيه يُغاث الناس وفيه يعصرون. وتراكم المشاكل وتعاقب الحكومات يخلق واقعاً رديئاً ليس من السهل الفكاك منه، ومن ثم تنشأ أخلاقيات وأزمات واختناقات ومراكزُ قوى وعِصابات وجماعات ضغط، مما يدفع بالدولة إلى تنازلات وأحلاف تَشل حركتها، وتسلبها الحرية، وتحملها على الوعود الكاذبة والتمويه والتسويف واستغلال الوقت لإرجاء الانفجار، وكل هذه الظواهر مؤذنة بتدفق الكتل البشرية في الشوارع بحركات جنونية تحكمها مقولة: «عليّ وعلى أعدائي» و«إذا مت ظمآناً فلا نزل القطر». وعندما تبلغ الروح الحلقوم ويبلغ السيل الزُّبى تُقال الحكومة ويَعِدُ المستهدف بحزمةٍ من الإصلاحات، وكأني به وقد أدركه الغرق قال: آمنت، والاستدراكات المتأخرة لا تطفئ لظى الغضب، بل تفتح الشهية لمزيد من التنازلات حتى لا يكون بُدٌّ من الهرب في جنح الظلام مثلما فعل «ابن علي».

ومع كل ذلك فإن على المتدفقين في الشوارع أن يعرفوا الثمن الباهظ الناتج عن الفراغ الدستوري، إنه طاعون الشعوب، وعلى الحكام أن يعوا خطورة الغضب الجماهيري، وأن يستبقوا الإصلاح لنزع فتيل الانهيارات الأمنية والفوضى السياسية.

..وبعد:

كنت ولمَّا أزل أشفق على أي بلد عربي تجتاحه الفوضى أو المجنزرات؛ فالاضطرابات كالحرائق إنْ لم يمْسَسْك لهبها أصابك دخنها الخانق، والبلاد التي تجتاحها المظاهرات ستكون في نظر السائحين والمستثمرين موبوءة وغير جاذبة. وتعويض الخسائر وحفظ العملة وإنعاش «البورصة» وإعادة الثقة باهظة التكاليف بطيئة الإفاقة.

ولهذا لا بد من الحسابات الدقيقة قبل الإقدام على مغامرات أقل نتائجها الفراغ الدستوري واختلال الأمن وانهيار الاقتصاد وفَقْد الثقة، وكم من زعيم أماتته الأحداث وإن أكل الطعام ومشى في الأسواق.

من القابلية للاستعمار إلى القابلية للدمار.. !(١)

تمر بالمشاهد الفكرية والعلمية والسياسية على مرِّ التاريخ الحضاري مصطلحاتٌ جامعةٌ مانعةٌ وشخصياتٌ متجذرة في الأعماق متألقة في الآفاق مؤثرةٌ في مجمل التحولات الفكرية والعلمية والسياسية متجاوزة بمفاهيمها ومنجزاتها المحلية.

إلى العالمية، تزخر بها المعاجم والموسوعات وكتب السير والطبقات. وكم هو الفرق بين جوامع الكلم ومراء الكلام، وبين الشخصيات المحدثةِ والرجالِ الجوف، وبين الجيل الخائب بتلصيصياته وتطفلاته والجيل الطُّلعةِ السباق إلى المبادرات وافتراس القضايا وتقحم المعضلات وافتضاض الأبكار من الأفكار.

والحضارات المتوازنة المتعاصرة تظل متجافية متدافعة حتى يأتي من يجسد ما بينها من الفجوات ويغريها بالتواصل والتفاعل والحوار. ولست بالقادر على تقصي هذا النوع من المصطلحات، ولا تلك العينات من الشخصيات فهي الأكثر والأشهر والأقرب إلى المتابعين من حبل الوريد، أو هي كالمعاني المطروحة في الطريق، وأياً ما كان الأمر فإن مصطلح (القابلية للاستعمار) الذي غفل عنه كثير من صناع القرار يكاد يكون من عنديات المفكر الإسلامي (مالك بن نبي)، والمتابعون لمعطياته الفكرية والسياسية وبخاصة ما كتبه عن واقع الأمة العربية في أربعينيات القرن الميلادي الماضي ورؤيته الحصيفة لشروط النهضة وخطوات المراحل الانتقالية من جفر التخلف إلى شواهق العز يقفون على رؤى وتصورات كأنها تنبوءات بما سيصيب الأمة من نكبات ونكسات تجعلها قابلة للاستعمار أو الدمار، وعزاء المسكونين بِهمِّ أمَّتِهم أن الإسلام والعروبة صنوان قائمان ما قامت السماوات والأرض، وإن خضعا لسُنن التدافع والتداول مع أمم وملل أخرى، والأنفسُ المستيقنة بوعد الله ووعيده لا يحبطها اليأسُ ولا يشلُّها القنوط، وما أصاب الأمة العربية من خذلان ووهن، وما هي عليه من قابلية للفتن الأشد من القتل إن هي إلا عارض قد يطول أمده ويمتدُّ أثرُه ويستعصي حلُّه ولكنَّه مع هذا ومثله معه لن يقضي عليها، وقد لا يسلِّم لهذه الرؤية المتفائلة مَنْ اكتووا بذهاب الأندلس وما انطوى عليه من حضارات أشرقت شمسها على الغرب وأمدته بالبدايات ومفاتيح المعارف والفلسفات، وبدايات العلوم التجريبية التي تنعم بها الإنسانية.

وبالعودة إلى الحديث عن فيوض المصطلحات وعمالقة الفكر والعلم والسياسة نجد أن الأمة العربية والإسلامية غنيةٌ بذلك، والتاريخ الحضاري لها خير شاهد، غير أن التعويل على التاريخ وبلسمة الحاضر بمراهم الأمجاد الخالية لا يغني من الحق شيئا، ومن استذكارها لتأكيد القابلية للنهوض من جديد أفضل ممن يفتخر بها، إذ ما أحوجنا إلى العصامية ونبذ العظامية، والخلوص من عقدة الأبوية، وشابٌ يقول: هاأنذا، خير من شاب يقول: كان أبي، وما سمي (ابن خَلِّكان) بهذا الاسم إلا لأنه كان يقول: كان أبي، فقيل له: خلِّ كان، وأمتنا اليوم تكاد تكون كابن خلكان، اجترار أبله للماضي المجيد. وكيف لأمة تفرقت السبل بعلمائها ومفكريها وعَلَتْ نيرة الرويبضات أن تستقيم على المأمور وأن تبني قواعد المجد بسواعد أبنائها وأفكار علمائها.

لقد دعت طائفة إلى العلمنة متجاهلة جذور الأسْلمة، وأوت طائفة إلى القومية متنكرة للأخوة الإسلامية، وتعلقت طوائف متتابعة بالغربنة أو المركسة وكأن حضارتها عجوز عقيم، واختلفت آراء المتصدرين للإعلام بقنواته وصحفه ومنتدياته حول مفهوم الحرية ومقتضيات حضارة الانتماء وحقوق المرأة والإنسان وتأويل النصوص وتفكيكها وأساليب

---

(١) تاريخ المقال: ٨/ ٢/ ٢٠١١

الحكم والفرق بين المؤسسات المدنية والدينية وتعدد الدساتير والقوانين والمصالح والأحلاف، كما تباينت المستويات والطبقات فمن جهل مطبق إلى فقر مدقع، ومن ترف مسرف إلى جشع في الاستهلاك، ومن حكم طائفي يلتف على الرقاب كالأفاعي إلى أقليات مهمشة متربصة، وفيما بين هؤلاء وأولئك أوباش يهرفون بما لا يعرفون، يوغرون الصدور ويؤلبون الأعداء ويقولون منكراً من القول وزوراً.

واليوم والشعوب العربية تزحف صوب الحرية والعدالة والمساواة وتهتف بسقوط الأنظمة ورحيل القيادات ألا تدفع بفكر سياسي ناضج يملأ الفراغ ويتلقى الراية مستبطنا دستوره وقانونه وأنواع مؤسساته وسمات حكامه، إنه ضجيج لا يفصح عن شيء واندفاع نحو الهاوية، وأمة تلك سجية أبنائها ستظل مهمشة وقابلة للدمار.

فتلك (تونس) تعيش فراغاً دستورياً، والمعارضة فيها أوزاع كل يحمل مشروعه، فمن مُطالب بحكومة دينية تعيد ولاية الفقيه والمرشد الديني، إلى مطالب بنظام علماني (ليبرالي) يعزل الدين عن السياسة، وقد تغلوا المطالبة بحيث تصل إلى عزل الدين عن الحياة، وبين هؤلاء وأولئك من له رؤية سياسية لا تستحضر الأسلمة ولا العلمنة وكل الأوزاع لا تتجاوز (أجندتها) الهاجس، إذ لا يحمل أحد مشروع الجاهز للتطبيق، فيما تظل الإشكاليات غائبة والنسق الثقافي مستبعد.

و(مصر) تزحف نحو الهاوية بملايينها الجائعة وكسادها الاقتصادي ومشاكلها المستعصية على الحل، وكأن رحيل الرئيس مؤذن بتفجر الأرض بالخيرات وانهمار السماء بالخبز أوالدولار، وكأن الخلف المرتقب (موسى) القوي الأمين أو (يوسف) الحفيظ العليم، إنه الانتقال من القابلية للاستعمار إلى القابلية للدمار، والشعوب العربية في ظل هذه الترديات بأمس الحاجة إلى الحلول المرحلية والإصلاح المتدرج، فأين المشاريع الممكنة في ظل هذه الاهتياجات؟ وأين الأحزاب والفئات والأطياف المستجيبة لتطلعات المقهورين؟ وأين الرموز الوطنية الجامعة للكلمة؟.

الإسلاميون يطالبون بتحكيم الشريعة وتحويل الدولة بين عشية وضحاها إلى حكومة عمرية، والعلمانيون يطالبون بدولة علمانية تستمد دستورها وقانونها من دول الغرب، و(الليبراليون) يريدون الحرية المطلقة، أصوات متداخلة ورغبات متناحرة ومن دون ذلك معداتٌ جائعة وأدمغة فارغة ومشاكل مستعصية وموارد شحيحة وديون باهظة ومساعدات مشروطة ودول متسلطة تفرق لتسود وتحتفظ بملفات ملغومة من طائفية وعرقية وإثنية تفتحها متى شاءت.

ولبنان واليمن والسودان على مشارف الانفجار، فيما دخلت العراق والصومال مرحلة الموت الدماغي.

والشعوب المتململة تحت وطأة المشاكل تفتقر إلى سكن المضطر وعيش الكفاف ومجال العمل المناسب والتعليم المستجيب لطلب السوق والحرية المنضبطة: حرية التعبير والتفكير التعددية وما لم يستطع الرأي العام استيعاب المشكلة والممكن والمستحيل فإن الدول العربية التي انتصرت على الاستعمار التقليدي بثكناته ومناديبه ستفتح أبوابها لهيمنة أخرى أشد نكاية سوف تغيب فيها الثكنات ويرحل المناديب ليقوم طابور خامس يبيع وطنه للشيطان.

لقد رصدت بعين الشجي وتابعت بدقة الخلي زحف المتظاهرين في الساحات والميادين والأودية والشعاب في مصر واليمن وفي أنحاء متفرقة من وطننا العربي، وتقريْتُ ما تتجاذبه الكتل البشرية المتدفقة من كل حدب وصوب من هتافات تأدِّب معها شواهق المباني وقمم الجبال، فلم أقف على رؤية صائبة، ولم أطمئن إلى بديل أمثل، ولست معترضاً على حق الشعوب في تقرير المصير، ولا متدخلا في خصوصياتها،

وليس لي من الأمر شيء، فهم أدرى بمشاكلهم، ولكنني راصد متابع، ومستهم على السفينة، ومهتم بأمر الأمة، وواقع تحت حكم التداعي، فالأمة الإسلامية كالجسد الواحد وتحسري من المآلات المحتومة لمثل هذه الحركات الفوضوية التي لا يحكمها عقل ولا يصرفها تفكير ولا يجمعها هدف ولا يوحدها صف، وإن اجتمعت على الغضب والرفض فإنها الأبعد عن اجتماع الكلمة وسمة البديل وإدراك الممكن والمستحيل.

ثم إن المصائد المظلمة والأجواء الخانقة التي حركت الجموع وأيقظت الفتن لم تكن وليدة لحظة ولا صنع إنسان بعينه بحيث يكون في إقصائه أو محاكمته حل ناجز لما هو قائم من أزمات متعددة ومتجذرة، لقد تعاقبت حكومات وتتابعتترديات وتراكمت مشكلات، والمتظاهرون بعقلهم الجمعي يطالبون برحيل الرئيس وبطانته، ولقد يكون من السهل أن يغور في الأرض أو تهوي به الريح في مكان سحيق، ولكن الرحيل أو المحاكمة لن يغيرا من الأمر شيئاً، فالبلاد مرتهنة لأوضاع متجذرة والأمة محكومة بأخلاقيات سائدة لا خلاص منها، ورغبة الإصلاح متعثرة بقيود لا يمكن حلها بهتافات الغوغائيين بين عشية وضحاها، و(مصر) التي اهتزت لأحداثها أرجاء المعمورة ستنقلها الانتفاضة غير المتوازنة من حالة الفقر إلى حافة المجاعة، ومن البطالة إلى الكساد ومن الاستكانة إلى الفوضى المستحكمة.

وإذ يكون من الضروري التحرك للإصلاح ومقاومة الظلم والفساد فإن التقدير والتدبير يقتضيان ألا يعالج السوء بما هو أسوأ منه و(درء المفاسد مقدم على جلب المصالح).

والعقل الجمعي المسيطر سيفوِّت الفرصة على العقل الفردي المتدبر، فالإنسان الفرد له حساباته وأولوياته وتحفظاته وخياراته ولست هنا أنادي بحكم الفرد، ولكنني أحذر من اندفاعات العقل الجمعي الذي لا تؤطره مؤسسة ولا يحكمه نظام، وسيكون لنا حديث مستفيض -إن شاء الله- عن العقول الفردية والجمعية متى تيسر ذلك.

أربعة أيام في الكويت .. ![1]

في خضم الأحداث المصيرية يلجأ الوجل إلى مُدَّخل أو مغارات ليدس مشاعره وانفعالاته في ترابها بعيداً عن تحولات متلاحقة لا يدري ماذا وراءها وإن كانت بوادرها تبشر بخير، إلا أن الواقع العربي كالأرض الموحلة تمسك بمن يمر بها وكل تجاربها الوحدوية والقومية والاشتراكية باءت بالفشل وكرّست الإحباط.

في هذه الأجواء عنَّ لي أن أولي وجهي شطر الكويت مع من بقي عندي من الأبناء والأحفاد، لنشهد طرفاً من أعيادهم الوطنية، وأمشاجاً من منجزاتهم المدنية، ونمتع أنفسنا بتغيير نمط الحياة اليومية، فالإنسان مجبول على حب التغيير، إذ يبرح بيته صوب الأودية والشعاب والآكام والضراب ومنابت الشجر، ليستنشق الهواء الطلق، ويمتع ناظريه بالآفاق الفسيحة، ويمكن جسمه من الحركة الدائمة التي صادرتها رتابة العمل. وقبل تلك التحولات المخيفة في حيواتنا الخاصة والعامة لم ترق لي الكتابة في أدب الرحلات، لوقوعها أو وقوع أغلبها في فضول القول، وإن كنت في فترات مضت (بطُوطِيًاً) لا يحط من سفر إلا إلى سفر عبر رحلات ذات دسامة ووسامة، غير أن أحداثها تفلتت من الذاكرة مع مرور الزمن.

وأنا ممن استهوتهم قراءة كتب الرحلات بمختلف أغراضها واهتماماتها لعلماء ومؤرخين وأدباء وساسة ومستشرقين ومبشرين.

وكان من أقربهم إلى نفسي وأجملهم أسلوباً وأنفسهم دلالة (أمين الريحاني) وهذا الصنف من الرحالة يحملون هموماً ومهمات متعددة، ويؤدون وظائف ذات مساس بمصائر الأمم، فمنهم من أنجز مهمته على وجهها، ومنهم من أنجزت عليه مغامراته والنابهون من السائحين والرحالة يقيدون أوابد المشاهدات وشوارد المواقف، حتى إذا عادوا إلى ديارهم محصوا ذلك وأخرجوه إلى الناس أدباً وتاريخاً وتجارب ومعلومات يمتع فيها المتابع ناظريه وأسفي أنني لست من هذا الصنف، ومن ثم أضعت أشياء كثيرة ما كان من حقي أن أفرط فيها وليست لدي ذاكرة حافظة وإن كنت على شيء من ملكة التداعي، ولقد يكون لبعض الرحلات قيم يستفيد منها المتابع وحديثي عما انطوت عليه الأيام الأربعة في ربوع الكويت لن يكون خالصاً لهذه الرحلة فهي رحلة لا تلوي على شيء، ولكنه حديث عن تداعياتها، لقد استدعت هذه الرحلة ذكريات صعاب، مرت عليها ستة عقود، وذكريات عذاب وأخر يابسات راوحت بين ذلك، عرفت الكويتيين قبل أن أعرف الكويت، وذلك حين كانت قوافلهم وحملات الحج منهم تمر بمدينة بريدة خفاف العياب وتبارحها بجر الحقائب، وكنت إذ ذاك طفلاً لم يبلغِ الحلم، وعندما ينصبون خيامهم في أطراف المدينة ننطلق إليهم زمراً ببراءة وعفوية، نتزود منهم بالحلوى وبقايا الأطعمة التي لم تكن حاضرة في بلادنا، ندخل على النساء في خدورهن ونعجب من براقعهن التي لم تألفها نسوة نجد، فالبعض منهن يقدمن لنا الحلوى، والبعض الآخر يقدمن ألوان الطعام وغريب المكسرات وأشياء لم نكن نعرفها من قبل، كان ذلك في السبعينات من القرن الهجري الماضي، وكنا نخرج من خيمة إلى أخرى فنعرِّض أنفسنا لمساءلة الأهل، وقد تمتد المساءلة إلى الضرب غير المبرح، وبخاصة حين يشمون بعض الروائح الغريبة في أيدينا أو على ملابسنا، على الرغم من غسلنا لها سبع مرات إحداهن بالتراب ليذهب ما علق بها، وما هو بذاهب.

---

(١) تاريخ المقال: ١٥/ ٢/ ٢٠١١

تلك الذكريات الطفولية أحببنا فيها أنواعاً من المأكولات من محشيات ومعجنات ومقليات ومطبقات، حتى أنني وبطريقة عفوية أبحث عنها في الأسواق الشعبية ك(سوق المباركية) و(فريج صويلح) وآكل منها بنهم طفولي وأعطي أبنائي وأحفادي، غير أني لا أجد اللذة التي كنت أجدها من قبل ولا النهم الذي كان ينتابنا إذ ذاك، ثم إن المأكولات الشعبية تغيرت بعدما استنسخها الوافدون على غير هدى، وواجب الهيئات السياحية في الخليج العربي وفي المملكة على وجه الخصوص العمل على إحياء هذه الأكلات والصناعات وسائد الحرف اليدوية، ونقلها من الأجداد إلى الأحفاد بأجور مغرية وبإشراف مؤسسي، حتى تكون حاضرة في الأسواق الشعبية بشكلها وطعمها الحقيقي، ولقد أحسنت طائفة من المؤسسات بمباركة ودعم من هيئة السياحة ومن المسؤولين في المنطقة بإنشاء جمعية (حرفة) بحيث استقطبت أسراً فقيرة ومكنتها من ممارسة الحرف الصغيرة وإنتاج المأكولات الشعبية، وتلك مبادرة تحتاج إلى مزيد عناية ودعم سخي من الهيئة، لتكون من المشاريع المستدامة.

لقد مني الخليج العربي بمتغيرات سريعة واجتاحته مدنية شرقية وغربية وساعد على ذلك استقراره السياسي ورخاؤه المعيشي وشيء من خططه الخمسية، غير أن طفراته أكبر من حجم تقديراته، ولهذا مُني بزحام شديد واستقدام أجنبي غير سديد، وكدنا نسمي نهضاته ومدنياته بحضارة الأبراج والخرسانة والكباري والأنفاق.

كانت أول زيارة قمت بها للكويت في حج عام ١٣٨٧هـ أي قبل خمس وأربعين سنة، فلقد أردنا الصيد وأراد الله الكويت، دخلنا بدون جوازات فالأمور إذ ذاك ميسرة، والأمن مستتب، وحسن النوايا قائم، كنا نحمل سلاح الصيد وأنواع الذخائر ونطارد الأرانب والطيور حول خطوط (التابلين) وداخل الحدود، وإذا التقينا بدوريات زعمنا أننا تائهون، فما يكون منهم إلا إرشادنا. إنها أيام مليئة بالثقة والاطمئنان، أما اليوم فالأمر مختلف جداً، كل شيء مريب.

فمن حمل الناس على الخوف؟

ومن جعلهم يظنون بكل قادم ظن السوء؟

إنه الإرهاب، واللعبة السياسية القذرة، والتآمر البغيض، والحرص على تفريق الكلمة، وارتياب الأخ من أخيه والتناجي بالطائفية والعرقية والقطرية.

حفظ الله الخليج من كل سوء ورد كيد الحاقدين في نحورهم، ومكَّن قادته من إدارة شؤونه بما يكفل السعادة والرخاء والاطمئنان لأبنائه الموالين لقادتهم المتطلعين إلى مزيد من التواد والتراحم بين أعضاء الجسد الخليجي.

في زيارتي الأولى للكويت لم نكن قد سبقناها في خطط التنمية، ومن ثم كانت مثار دهشة، وكان كل شيء فيها يكاد يكون غريب الوجه واليد واللسان، أما اليوم فلم يكن شيء في أرض الله الواسعة يلفت النظر ولا يثير الفضول.

لقد سبقنا في كل شيء، وتلك من منن الله علينا، ولكيلا يستحوذ علينا الغرور فإن هناك لمسات جميلة وظواهر مريحة كنا نتمنى أن يكون لنا مثلما أوتي هؤلاء، فالخليجيون في سباق مع الزمن، ولا سيما أنهم يعيشون لحظاتهم الذهبية، استقرار ورخاء وخيرات تنشق عنها الأرض، وما لم يستو الخليجيون على سوقهم في تلك الأيام فإن الفرص لن تعود.

كانت الكويت يوم ذاك وادعة تزخر بالخيرات، وتبدو شواطئها كما خلقها الله صخور سوداء ورمال ذهبية ومياه زرقاء صافية وأمواج تتحطم على الشاطئ الجميل، ولقد عرفت يومها (عبد الله القصيمي) من خلال كتبه المبذولة هناك والممنوعة عندنا، وقرأت كتاب (العالم ليس عقلاً) ولما كانت الرقابة الفكرية على أشدها كنت كلما قرأت ورقة من

الكتاب نزعتها لأخي سليمان الفهاد شفاه الله، يوم أن كان مديراً لمكتب العمل في (ميناء سعود) وإذا قرأها مزقها ورماها في البحر ولم نبرح الكويت وفي الكتاب ورقة لم تقرأ ولم تمزق، أما اليوم ففي مكتبتي حقل ل(عبد الله القصيمي) يشتمل على ما كتب وما كُتب عنه وهو جزء من حقل الملاحدة والدهريين والماديين، لا أوقد الله لهم ناراً.

وبعد تلك الزيارة الحافلة بالمفاجآت زرته مراراً وأحسست فيما بعد أن المواطنة متجذرة متجلية عند أبنائه ولا سيما بعد أحداث الخليج المريرة وجنون (صدام حسين). لقد أحس الكويتيون بمرارة الاغتصاب فكانت عودتهم إلى بلادهم وعودة الحرية إليهم كمن وجد راحلته التي عليها طعامه وشرابه بعد يأس واستسلام للموت، حتى قال من شدة الفرح: «**اللهم أنت عبد ي وأنا ربك**» كما في الحديث. ولهذا يحس القادم إلى الكويت أنه في عيون الكويتيين وقلوبهم.

مررت بالشاطئ الجميل، وكدت أكون (رومانسياً) يسائل البحر عن عمقه وغدره واضطرابه وتكسر أمواجه، لقد تصورته مع الأرض زوجين يتبادلان الحياة والثبات، مثلما يكون الرجل والمرأة، فالزوج حياة للمرأة والمرأة ثبات للرجل، وتمنيت وأنا أجوب الشاطئ الجميل لو حُمل أمناء مدينة جدة على بساط الريح لينظروا كم هو الفرق بين الشاطئين، وتمنيت أن يعود الشاعر (حمزة شحاتة) مترنماً بقصيدته:

النهى بين شاطئيك غريق
والهوى فيك حالم ما يفيق

والتي تبلغ تسعة وخمسين بيتاً ليسأل: هل لهذه القصيدة مكان بعدما نال جدة ما نالها من البأساء والضراء.

ثم نظرت إلى المرور وكمرات المراقبة، وتمنيت لو حُمل رجال المرور على البراق لينظروا كيف يكون النظام، قبل كل كمرة تنبيه (أمامك كمرة). كان الكويتيون يريدون التثقيف وكان مرورنا يريد الكسب وشتان بين هذا وذاك.

إنها رحلة التداعيات، لقد وجدت الخليج متجانساً في كل شيء وإذ ينقصه الشيء الكثير فإنه من نقص القادرين على التمام:

ولم أر في عيوب الناس عيباً
كنقص القادرين على التمام

إلى ورثة امبراطوريات الراجحي .. !(١)

كنت في الطريق عائداً من الكويت، وكانت رسائل الجوال تلاحقني كإعصار فيه نار عما يجري في مصر التي أنستنا كل المخاضات العصيبة في أرجاء وطننا المهيض.

حتى لقد كنت أطمسها قبل أن أقرأها، إذ مللت حتى من الملل، وفجأة خَلُصَتْ من زحام الرسائل رسالة لها دوي صاخب ووقع أليم، تنبئ بوفاة رجل الأعمال والإحسان والعصامية الشيخ صالح بن عبد العزيز الراجحي ألحقه الله مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا، وما ذلك على الله بعزيز، فلقد أنعم الله عليه فشكر، ثم ابتلاه فصبر، ولقد كنت أسأل عنه أخاه سليمان كلما التقينا، ولم يكن متفائلاً ولا مرتاحاً من معاناته التي امتدت لأكثر من عقد ونيف، حيث ظل يغالب الشيخوخة و«الزهايمر» وحفنة من الأمراض، وإذ شارف على القرن، وفقد مُتع الحياة فقد جاءت وفاته راحة له ولمن حوله، فالحياة مخيفة متى كان الإنسان على وفاق معها، فكيف بها إذ استعصى منالها، وقلبت ظهر المجن، والفقيد العزيز بما أنجزه من جلائل الأعمال، وما قدمه لوطنه من مشاريع، وما أداه من صدقات وزكوات وما أنشأه من مؤسسات وطنية وخيرية سيترك رحيله فراغاً في مجالات عدة، ورحيله المتوقع سيحمّل خلفه مسؤوليات جسام، لقد كان مثال العصامي المجالد والمجاهد الذي شق طريقه بجهده وذلل صعوبات الحياة بإصراره، وخلف وراءه مدرسة اقتصادية صاغ منهجها بتجاربه وتفكيره وعانق بها أعرق المدارس الاقتصادية وجايلها بندية وامتازت مبادراته وتجاربه بما تملكه من سمعة حسنة تفوق ما تملكه مؤسساته من درهم ودينار وضياع، والأثرياء الذين عرفوا حق الله في أموالهم واستبقوا الخيرات يكون لرحيلهم أثره على المُحب والمستفيد، وتلك الأسرة وعلى رأسها الفقيد وأشقاؤه الثلاثة من الأسر الكريمة التي أسهمت في نهضة البلاد ووزعت جهودها بين المصارف والمصانع والمزارع والإعمار محققة المعنى الحقيقي للمواطنة بكل قيمها، ولم تكتف بالعمل المصرفي وتكديس الأموال وعشق الأرقام، وكم نود لو أن أهل الدثور ذهبوا بالأجور كما ذهب به أثرياء الصحابة الذين لم يستطع المعسرون منافستهم حتى في العبادة، وبلادنا ثرية بأثريائها الحاضر منهم والباد، والتفاضل في استباق الخيرات.

وقصة حياة الفقيد حافلة بجلائل الأعمال، والناشئون من القاع يعرفون حق الله في أموالهم، فقد ولد الفقيد وليس في فمه أية ملعقة بل أكاد أجزم بأن فمه مليء بالعلقم، فأنا من خلطاء شقيقه سليمان وكان يستعذب الحديث عن بدايات الأسرة، وعما كانوا يعانونه من شظف العيش وخشونة الحياة، ولا يجد غضاضة من الحديث عن بداياته مع أخيه، وعما كان يعانيه في صغره، حتى لقد كتب هذا في سيرته وسجله على أشرطة وتحدث به في عدد من المنتديات، وفي تلك الاعترافات الواثقة تثبيت لمن يأنفون من ذكر ماضيهم، فكم من أثرياء يتسللون لواذاً لكيلا يعرف الناس عن ماضيهم المأساوي شيئاً، وماضيهم العصيب هو الذي صنع حاضرهم الخصيب وواجب كل موسر أن يحدث بنعمة الله، ولن يتأتى الحديث إلا بذكر الماضي وما فيه من معاناة ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.

وأمجاد الأسرة ليست فيما صنعته من إمبراطورية مالية عالمية فما أكثر الإمبراطوريات المالية هنا وفي جميع أنحاء العالم، ولكنها فيما عملته في وجوه البر ومن تلبسته من سمعة طيبة، وتلك إمبراطوريات ثلاث: مال .. سيرة، وعمل صالح.

(١) تاريخ المقال: ١٦/ ٢/ ٢٠٠١

والفقيد الذي قضى نحبه بعد تسعة عقود ونيف أنشأ مع إخوانه تلك الإمبراطوريات، وبموته ستتشظى إمبراطورية المال بين عشرات الأبناء والبنات والزوجات، وتلك سنة الله في خلقه، وهي سنة عادلة وحكيمة، أما إمبراطوريتا السمعة والبر فتلك باقية متى أحسن الخلف تلقيها وتعهدها، وذلك ما نؤمله في عقبه وصلاح الآباء قمين بأن يمتد للبنين وفي الذكر الحكيم: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف: ٨٢] فبركة الصلاح تعم، وذلك ما كنا نرجوه ونؤمله، وما خلّفه الفقيد من قيم معنوية أمانة في أعناق أبنائه، وحين يتلقون المهمات بصدق وإخلاص وحسن نية وصفاء علاقات فيما بينهم يسهل الله أمرهم، ويشد من عضدهم، فوالدهم طوق رقابهم بمهمات جسام وحمّلهم مسؤوليات إنسانية وواجبهم أن تكون من المشاريع المستدامة، وأن تمتد الخدمات والصدقات إلى من كانت تمتد إليهم في حياة والدهم، والفقيد الذي ترك فراغات متعددة بأمس الحاجة إلى خلف رشيد يتلقى الراية باليمين ويتعهدها بالعلو والثبات وذلك ما كنا نؤمله في عقبه، وما كنا نود تحققه لدى كل الأسر الثرية حين تحترم المنايا عمداءها فاجتماع الكلمة وتبادل الثقة وتوازع المسؤوليات والشفافية مدعاة إلى إقالة العثرات، وكم يسوؤنا ما نسمعه عن بعض الخلافات التي تنشأ بين الإخوة والأخوات في مثل هذه الظروف مما يؤدي إلى تعطيل مشاريع الأسر الثرية، فالأثرياء الكبار ثروة للبلد واستمرار مشاريعهم وشركاتهم ومؤسساتهم الخيرية استمرار لاقتصاديات الوطن واستقرار له، والخلف الذي يسد الخلة وينفذ الوصية ويسعد الراحل في قبره يستكمل بره وصلته، ويريح فقيده في قبره.

والأسرة الرباعية التي فقدت واحداً من أهم عمدها لما تزل تحتفظ بأشقاء الفقيد وهم يمارسون من الأعمال وينفقون من الصدقات وينشئون من المؤسسات الخيرية والمشاريع الزراعية والصناعية والعمرانية ما تتواصل معه مهمات الأسرة، ولكن المؤمل أن تظل المؤسسات الخيرية والسمعة الطيبة التي خلفها الفقيد قائمة كما كانت في حياته، بتنوع اهتماماتها وتعدد قنواتها وتحضر منجزاتها.

وإذ نسأل الله أن ينسئ في أجل أخويه عبد الله وسليمان نسأل العلي القدير أن يلطف بأخيهم محمد الذي يغالب الأمراض وهو بما قدم ويقدم لا يقل عنهم، فالأشقاء الأربعة يتبارون في أعمال الخير وواجب حملة الأقلام أن يبرزوا هذه الامتيازات لتكون قدوة ومحفزة للمترددين، ولقد عرفت الدولة الرشيدة ما لمثل هذه الأسرة من إسهامات فأحلتهم المكانة التي تليق بهم تقديراً لجهودهم وتسهيلاً لأعمالهم وتحفيزاً لمجايليهم وتلك طبيعة الحياة السوية تتضافر فيها الجهود في القطاعين الخاص والعام، وبلادنا الداعية إلى التآلف والحوار واستغلال القواسم المشتركة تملك لحمة قوية بين السلطات ورجال الأعمال، وما أكثر ما يردد الشيخ سليمان: (لولا تسهيلات الدولة ما بنينا هذه الثروة) رحم الله الفقيد فقد أثار رحيله كوامن النفوس وتداعت في أجواء تأبينه هموم وتطلعات، وهكذا الكبار يمتلكون تحريك الأوساط أحياء وأمواتاً، وعزاؤنا لإخوانه الذين لما يزالوا على العهد والوعد ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾. ومواساتنا لأبنائه وبناته وأحفاده وأسباطه وزوجاته ومحبيه ومن شملهم عطفه وإحسانه. فكم من محتاج يرقب من يسد حاجته، وكم من معسر ينتظر من ينقله إلى الميسرة، وكل أولئك يتمنون من عقب الفقيد أن يكونوا مثله في إيثاره.

وفي النهاية فالحياة مجموعة قيم وليست حفنة من دراهم، وسمعة حسنة، وليست وجوداً غرائزياً وشهوانياً، ولا يعتبر إلا أولو الألباب لقد أنسئ للفقيد في أجله حتى ناهز المائة ووسع له في رزقه حتى أصبح من كبار الأثرياء، وسلطه الله على ماله ينفقه في

وجوه الخير ويمتع نفسه من طيبات ما أحل الله، وفي النهاية رحل. والعرب تقول: (ما رأيت علة كطول سلامة) رحل تاركاً كل شيء، والميت ينطلق وراءه المال والأهل والعمل. فيعود المال والأهل ويظل معه العمل ضجيعاً مسعداً أو مشقياً، فلينظر كل عاقل في أحوال مرافقه وإذ نغبط الفقيد على ما أنجز نسأل الله أن يكون ما عمل خالصاً لوجهه، وأن تكون آخرته خيراً من دنياه وغده خيراً من أمسه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

الثورة العربية التي لم تأتِ بعد .. !(1)

كنت ولمَّا أزل ناقماً على الثورات العربية التي لم تُزِد الواقع العربي إلا خبالاً، وما الشعوب العربية في ظلها إلا غنائم، كل ثائر يهش عليها بعصاه التي ليست فيها منافع أخرى، ثم هي ثورات لا تنطلق من إرادة الأُمَّة، ولكنها تنسل من الثكنات وتُحسم بفوهات البنادق.

وعلى غير ما كنا نعهده بدأت مظاهرات تنطلق من الأحياء الفقيرة، وتهتف باسم الجياع والضائعين؛ إذ لم نسمع مَنْ يهتف باسم القومية، ولا مَنْ يلعن الشيطان الأكبر، ولا مَنْ ينادي بإلقاء إسرائيل في البحر، وتلك هتافات يُخدِّر فيها الثائرون العقول، ويثيرون بها العواطف والشهوات. ومع كل هذه المتغيرات في المظاهرات فإن العقلاء المجربين لا يقطعون بأن الثورة المطلوبة قد قامت، ومن ثم فإن رهانات حملة الأقلام والناهضين بوقود الإعلام غير مقبوضة، فهم يقطعون بما لا يرونه رأي العين، ويقاسمون المترددين أن ما يقع سيكون وَفْق رهانهم، حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم تنكروا لما قالوا، ونسوا ما ذُكروا به، ولم يترددوا في مباشرة القول المناقض، وكأنهم لم يراهنوا على شيء من قبل، وما دروا أنهم في رهانهم يفترون على وطنهم ومواطنيهم الكذب. وحين يهون على النخب الإفك والافتراء يجودون على قرائهم بغذاء تضوى به الأفكار، وتضمحل به المعارف، وتدلهم به السبل.

ثورة الحفاة كان يجب أن تكون على الذات بكل ما تنطوي عليه من سلوكيات وتصورات، وسلبيات وقلة مبالاة وتعلُّق بالتوافه، وإثارة للعدادات، وتكتل فئوي يؤدي إلى التنازع بكل ما يحمله من فشل وذهاب ريح واستشراء للغش والتطفيف والرشوة والمحسوبية وسرقة للمال العام وبُعد عن منهج الله ومقتضيات رسالته، وتعلق صفيق بكل نفاية غربية.

وحين لا أكون من المتشائمين فإنني لستُ من المتفائلين، وما كنت في يوم من الأيام إلا قارئاً للواقع مقعراً للرؤية في كل تفاصيله ومعوقاته. والواقع العربي لا يفتح أبواب الأمل ولا يساعد على التفاؤل، والمتعاطي مع قضايا أمته المصيرية مسؤول عما يقول، ومن واجبه ألا يفترسه اليأس والقنوط والإحباط، وفي الوقت نفسه يجب ألا تعصف به الأماني العِذَاب وألا يسلكه الركض وراء سراب القيعان على حد:

نبيـــت مـــن المنـــى نبنـــي قصـــوراً
فنـــــــدعمها ويهــــــــدمها النهــــــار

والأمة العربية تمر بين الحين والآخر بمنعطفات خطيرة وأحداث مفصلية لها ما بعدها، وما تلك الثورات الشعبية إلا صورة من صور تلك الأحداث، فهل ستحل بدارهم أنماط جديدة من الحكومات أم أن المسألة مجرد استبدال وجه بوجه فيما تظل الحياة من سيئ إلى أسوأ، وذلك ما يَفْرقُ من استفحاله ذوو الخبرات والتجريب، وما من وضع سيئ يشبه ما عليه الوضع العالمي، فضلاً عن الوضع العربي المدلهمة أرجاؤه، وذوو الألباب يشقون في زمنهم المواتي فكيف بهم إذا اكتنفوا بالمحبطات، وبالمصائر التي لا يملكون السيطرة عليها ولا الخلاص من عقابيلها، فهل من متسع للتفاؤل في ظل تلك الانهيارات؟ والبلاد - أي بلاد - أشياء وأناسي، وعلاقة الطرفين بينهما كعلاقة الروح بالجسد، فلا قيام لروح بلا جسد ولا حياة لجسد بلا روح، وأشياء البلاد المعنوية والحسية في بقاع كثيرة

---

(١) تاريخ المقال: ٢٢/ ٢/ ٢٠١١

من عالمنا الثالثي لا تسمن ولا تغني من جوع، فأناسيه فئات وأطياف وطوائف وطبقات وزمر متناقضة متناحرة مختلفة في انتماءاتها وتصوراتها وأولوياتها بل وفي مستويات معيشتها وتفكيرها وولاءاتها، وما من أحد من هذا الخليط المتناقض فكَّر في حلحلة الشتات ولو خطوة واحدة باتجاه التقارب، ولا أحسب هذا التناقض قادراً على تفادي مشاكله بدون ثورة على الذات تسبق الثورة على الآخر، وحين يُقضى على الأمة في أيام محنتها ترى جماعاتُ الضغط فيها أن المسافة بين الفقر والبطالة وسائر الأزمات وتفاديها لهذه المعضلات هي إزاحة الرموز والإمعان في تجريمهم واستعداء السلطة القضائية لمحاسبتهم وأخذهم من فاره المعيشة وفسيح القصور إلى غياهب السجون وحبال المشانق بعد أن كانوا ملء السمع والبصر وفوق السؤال عما يفعلون. وأحوالٌ تراوح بين التصنيم والعصمة والتسامي بالرموز فوق المساءلة والنقد والإمعان في التجريم والتخوين والسحل في الشوارع لا يمكن أن تصنع الأمة وَفْق مقتضيات العصر.

وكيف يمكن لذهنيات خالية أو مليئة بالزيف أن تستوعب مثل هذه المتناقضات بين عشية وضحاها: زعيم يُصنَّم ثلاثة عقود ثم في لحظة يكون العدو المبين؟ ويقيني أن التغيير الحقيقي ليس هو ناتج الظلم والاستبداد والأثرة وضياع المثمنات وانتهاك الحقوق وسلب الحريات، ولكن ناتج ثورة ثلاثية الأبعاد: المعلوماتية والاتصالية والإعلامية. وتلك صيَّرت العالم جميعه قويه وضعيفه، عادله وظالمه، في قبضة المتابع فيما جعلت أشياءه مطويات بيمينه، وكل متابع يبسط يده ليرى تفاصيل ما فيها وفق رغباته وإمكاناته. والشعوب الغربية العالمة بظاهر الحياة الدنيا بما تعايشه من حكومات نابعة من إرادة الشعوب محكومة بدساتير وقوانين يستوي أمامها الغني والفقير وما هي عليه من مؤسسات مدنية مستوعبة ومنظمة لمختلف التناقضات ما زادتها تلك الثورة الثلاثية الأبعاد إلا تألقاً وزكاء ونماء وثباتاً وتصالحاً مع مختلف شرائح المجتمع، أما حكومات العالم الثالث فقد تعرَّت أمام الرأي العام العالمي، وظلت تغالب الطوفان، وتُخفي بشرتها المتجعدة بالمساحيق والأصباغ، إلا أن وهج الثورة الثلاثية الأبعاد كادت تسيل معه تلك المساحيق وتعري البشرة البشعة وتكشف عن حقيقة الثورات العربية التي صادرت أبسط الحقوق، وعملقت أقزام مخلوق.

والواقع العربي كالظلمات الثلاث المتراكم بعضها فوق بعض، فالشعوب تُقاسم حكوماتها المسؤولية، فيما تحتمل الدول الاستعمارية شطراً من الخطيئات، وإذ تكون الثورة الثلاثية الأبعاد متضافرة في التعرية فإن الحكومات المحلية والاستعمارية والشعوب العربية بوصفها الأشبه بمثلث «برمودا» تتولى كبر الخطيئات.

ومن ثم لا بد من ثورة على الذات العربية بكل ما تحمله من سلبية واتكالية وأنفة زائفة وقابلية لكل عارض غير ممطر، ولا بد من ثورة في وجه الغزو الفكري والتآمر القذر واللعب السياسية التي جعلت الأخ يقتل أخاه والجار يرتاب من جاره، ثورة لا تُسال فيها الدماء ولا تُخرَّب فيها المثمنات، ولا يختل معها الأمن، ثورة من الذات وعلى الذات، تعري الذات كما عرّت المظاهرات الحكومات، وتكشف خبايا المؤامرات، كما كشفت الهتافات سوءات مراكز القوى والبطانات السيئة، ثورة على فساد الذات وليست على فساد الأنظمة، ثورة على الغثائية والاتكالية والقابلية لكل عارض، ثورة على الشهوات الجامحة والغرائز العنيفة، ثورة على العظامية وعقدة الأبوية، ثورة على سيئ العادات ووَهْم الثوابت والمسلَّمات، تلكم هي الثورة المرتقبة، الثورة التي لم تأتِ بعد وإن طال الانتظار، وعندئذ يكتمل المشروع الحضاري الذي ينشده الأسوياء، ويتطلع إليه العقلاء، وتتخطى فيه الأمة العربية قعر التخلف إلى قمم العزة والتمكين والندية.

غيمةٌ أنت ونحن أفياءُ الغدق .. !![1]

تهمي بعقل، وتتدفق بمقدار، وتُرْوِي بعدل، فتهتز النفوس، وتربو القيم، وتبسق المبادئ، وتتحول الأرجاء إلى جنات معروشات، وغير معروشات يتفيأ ظلالها ذات اليمين وذات الشمال.

يحدوك الشوق إلى قلوب ظمئت إليك، وأفئدة هفت إلى لقائك، عدت من مشفاك، ومنتجع نقاهتك تحمل بشائر خير ومقدمات الرخاء، وعادت بعودتك الآمال العذاب والتطلعات الواثقة.

كان الناس على موعد مع العطاء العميم، فجاء كالغيث الهتون غدقاً مجللاً، عمَّ النجاد والوهاد، وشمل كل العباد، ولم يكن مقطوعاً ولا ممنوعاً، وخير العطاء أدومه وإن قلَّ، فكيف به إذا جمع بين الجزالة والشمول والدوام، فلك من بارئك البرء من كل سقم، ومن الثواب أجزله، ومن الدعاء أصدقه، ومن الثناء أجمله:

المجد عُوفي إذ عُوفيت والكرم
وزال عنك إلى أعدائك السقم

وما أخُصّك في بُرْءٍ بتهنئةٍ
إذا سلمت فكل الناس قد سلموا

بلد يضج أهله بأهازيج الفرح، وتتدفق شوارعه بفيض المشاعر، وسط عالم يعج بالنحيب، وتلتطم أرجاؤه بأمواج الفتن وتمتلئ فضاءاته بالتذمر والشجب والرفض، وتدلهم أجواؤه بقتام المشاعر الساخطة.

وأمة آمنة مطمئنَّة تتدفق عليها الخيرات رغداً من كل مكان وتتفجر أرضها بكل الطاقات، تمد البشرية بنور الله دعوة وقدوة وبنور الحياة طاقة ودفئاً، وتحمل عقول قادتها النصح والنصيحة لكل البشرية وسط أمم خائفة تترقب، تمسها البأساء والضراء والزلزلة.

وشعب متلاحم منذ أن فرغَ المؤسس من توحيد عقيدته وصفه وهدفه فهو في توادّه وتراحمه كالجسد الواحد، تتداعى أعضاؤه عند كل ملمة، وسط شعوب متنافرة توهن عزائمها قبليات وطائفيات وإقليميات، وقيم حسية ومعنوية يمسك بعضها برقاب بعض مُشَكِّلَةً حزاماً أمْنِيّاً يحيط بأرجاء الوطن لِصَدِّ الأعاصير وتثبيت الأركان، وسط دول تحكمها المصالح وتصرفها الأطماع وتعصف بها الأهواء.

عُدْتَ أيها الرائد الذي لا يكذب أهله، وفي يمينك قبضة من المشاريع وقبس من الخير، وفي ضميرك فيض المحبة، وفي محياك زخم التفاؤل، فكانت عودة البشائر.

تدفَّقَتْ أوامرك بالعطاء الثر وبالمواساة الحانية وبتفريج الكربات، وتدفق الناس في الساحات والأسواق فرحاً باللقاء الميمون، فالتقى الخير والفرح على أمرٍ قَدْ قُدِر.

غبت بدناً وأقمت بيننا أثراً فأنت الغائب الحاضر، وبقَدْر ولهك كان اشتياقنا، وبقدر فرحك بالعودة كانت سعادتنا باللقاء فأنت منا القلب النابض ونحن منك السواعد القوية.

حفظنا ثُنَائِيَّتك الجامعة المانعة: العقيدة والوطن فكنا مخلصين لعقيدتنا محبين لوطننا، ولأنك من دعاة العقيدة وحماة الوطن، فقد كنت ملء السمع والبصر، حفظك الله لتجيب داعي الله وتحفظ أوامره، وشدَّ من أزرك لتكمل مسيرة الخير والعطاء، وأخذ بناصيتك إلى

(١) تاريخ المقال: ١/ ٣/ ٢٠١١

سواء السبيل لتقود أمتك إلى مدارج العز والتمكين، وتنجو بالسفينة من أعاصير الفتن، يشد عضدك أنجال المؤسس وأحفاده.

لقد تبدت الشواهق والساحات في يوم عرس بهيج تملأ أرجاءها هتافاتُ الفرح وتفيضُ أطرافها بأهازيج النصر على كل معوقات الحضارة، فنحن في بلدٍ أذن الله أن يمد بسبب إلى كل جديد، فالجامعات تجسّر الفجوات بين الواقع والمؤمل، عبر الابتعاث الذي لا تحده حدود والاستقدام للكفاءات العلمية العالمية. هذا التلاقح أعطى البلاد وأهلها قيماً لم تكن مهيأة لغيرها، وجعلها على موعد مع الثورة العلمية؛ وتلك التسهيلات الواثقة والمحكومة بضوابطها أشعلت نور العلم وعانقت كل المستجدات الحضارية.

واليوم وقد تلاحقت أوامرك الكريمة كزخات المطر، فنحن أحوج ما نكون إلى من يتلقاها باليمين ليفعلها كما أردتها، لقد ألقيت بالمسؤولية، وأديت الأمانة ونصحت للأمة، فكنت القوي الأمين والحفيظ العليم.

لقد ساءتك بوادر البطالة وأزمات الإسكان، ومقدمات الغلاء وبطء التنفيذ، ومن ثم تلاحقت أوامرك لتطويق المشاكل وإيقاف التمادي، والمنتفعون يودون أن تُتَرجم أياديك البيضاء دون إبطاء، فبلادنا تعيش عصرها الذهبي، ومن حق كل مواطن أن يتمتع بهذه الإمكانيات الاستثنائية.

مؤهلون يبحثون عن فرص عمل تغنيهم عن أهلهم، وخاطبون يبحثون عن سكن لإتمام شطر دينهم، ومستأجرون يبحثون عن مُلْكٍ يستظلون به، ويظلون به أبناءهم، وموظفون يودون التوازن بين الدخل والإنفاق، ومغمورون بوابل الفواتير والجزاءات والضرائب والغلاء يودون عودتها إلى أدنى حد بحيث يوائمون بينها وبين دخولهم، وأراضٍ بور داخل النطاق العمراني لو هُيئت لفكّت الاختناق.

أشياء كثيرة بانتظار رجل المبادرات الذي قال لشعبه المتسائل عن صحته: (إذا كنتم بخير فأنا بخير) ولسان حال شعبه يقول: (إذا كنت بخير فنحن بخير).

المواطن السعودي الذي يعيش أفراح العودة الميمونة لقائد المسيرة المظفرة مسيرة الحضارة والمدنية والوسطية والحوار والدفع بالتي هي أحسن مسيرة النماء والإنسانية، ويعيش عصراً ذهبياً تتلاحم فيه القيادة مع الأمة، من حقه أن يلاحق المسؤولين، وأن يستحثهم على انتهاب الخطى، ومواصلة الجهود للتوفر على العيش الكريم، بحيث لا يمسه لهيب الأزمات التي تجتاح العالم، فأرضه مليئة بالخيرات وقيادته مفعمة بالإخلاص، وأي تقصير يحول دون المتوفر على الضروريات يجب أن يُسأل المتسبب، فولي الأمر يعطي عطاء من لا يخشى الفقر وأوامره تتلاحق لتختصر الزمن والجهد وتنجز الوعد؛ إن علينا أن نتساءل وأن نلح بالتساؤل ليكون المسؤول في مستوى مسؤوليته محققاً لتطلعات القائد، فالحب لم يُفرض بالقوة، ولكنه نبع من القلب:

[ومن وجد الإحسان قيداً تقيدا] .

أفلا يتدبرون الأوضاع أم على قلوب أقفالها .. ؟! (١) (١)

... إذ ما من حرب تقع اختياراً أو تعسفاً أو اضطراراً أو ثورة أو سقوط قوة مؤثرة إلا ولها عقابيل تتغير معها ملامح الحياة؛ فحروب الخليج وأفغانستان وسقوط الاتحاد السوفييتي واستشراء الفتن في إفريقيا وقرنها المشؤوم ونشوء الحكومات الطائفية وحكم الأقليات غيَّرت (الأجندة) والخطابات، حتى أصبحت كما الغازات الخانقة التي أيقظت الفتن وأخرجتها من كهوفها عبوساً قمطريراً. ولقد يكون هناك تنبؤات في الزمن الرتيب، تماماً كتوقعات الأرصاد لتقلبات الطقس، أما حين تدلهم السماء، وتعصف الرياح، وتقصف الرعود، وتخطف البروق الأبصار فإنه لا يكون مجال للرهان ولا للتوقعات، والأيام الحبلى لا يُدرى متى تلد ولا ماذا تلد ولا أين تلد ولا كيف تلد، مخاضات كالراجفة أو كالقارعة. والفتن التي حذَّر منها المشرِّع ولعن موقظها تبدو صغيرة في نظر الخليين، ولكنها كمستصغر الشرر تؤجج الحرائق، حتى يكون لها ضرام، وحين تندلق أقتابها لا يستطيع أحد لملمة أطرافها.

وفي مثل هذه اللحظات القواصم يجب أن تُلتمس العواصم، وذلك بتنحية العواطف وتعليق الأهواء والاحتكام إلى العقل العملي المجرب، العقل المؤسسي المتضافر مع عقول متجانسة؛ لتربط على الأوضاع كافة. فالعقل هو الأقدر على درء الخطر والخلوص من عنق الزجاجة بأقل الخسائر، أما هَوَج العواطف، وعنف الأهواء، وذهاب كل ذي رأي برأيه فتلك الموبقات. والمتربصون الذين ينسلون من رحم الفتن تتحكم بهم الأهواء، وتسومهم الشهوات، وتعصف بهم الغرائز، وأمام مثلث الرعب: الطائفية وخلل الوحدة الفكرية والوصاية الأجنبية قد يعتزل العقل وتنخنس الفِطَر السليمة، حتى لا يدري المقتول لماذا قُتل ولا القاتل لماذا قَتَل، وذلك عين الهرج الذي أخبر به مَنْ لا ينطق عن الهوى. والرأي العام حين يُهيّجه دعاة السوء يكون رأس الفتن النائمة.

ولقد يظن البعض أننا ضد إحقاق الحق ورفع الظلم والنقد والمساءلة لكل مَنْ ولي من أمور المسلمين شيئاً قلَّ أو كَثُر. وتلك الرؤية العجلى تحول دون التدبر والتفكر، وأحداث الأمة العربية خير شاهد على سلبيات الاهتياجات العَزْلى والفارغة من التدبر. لقد بكى الشعب العراقي من (صدام حسين) حتى جفت مآقيه، ومسَّ الأمة العربية ودول الجوار طائف من رعونته واندفاعاته الطائشة، فلما انتقم الظافرون منه على مسمع ومرأى من العالم خلف من بعده خلف أضاعوا الأمن والاستقرار، ومزقوا الوحدة وأحيوا الطائفيات والعرقيات؛ فأجهش الشعب نفسه بالبكاء عليه على حد:

ربَّ يـــــوم بكيـــــت منــــــه فلمــــا
صــــرتُ فــــي غيــــره بكيـــتُ عليــه

وبالأمس القريب هتف المتظاهرون ضد «حسني مبارك» وأسقطوه ولا يزالون يطالبون بالحجر عليه ومحاكمته، فيما تزداد أوضاع مصر تعقيداً وهرولة نحو الفوضى غير الخلاقة، وسيأتي اليوم الذي يبكون عليه، فالثائرون يتفقون على الهتاف ويمعنون في الاختلاف، ولو أنهم استبانوا الرُّشد قبل التدفق في الشوارع والميادين وإفلات الأمن وتعريض البلاد للفراغ الدستوري لكان خيراً لهم ولبلادهم وللأمة العربية، وللمتابع أن يجيل نظره في كل بلد أسقط حكومته قبل أن يرتب صفوفه ويسوي خلافاته ويوحِّد أهدافه ويشيع في أوساطه ثقافة التغيير وضوابط الإصلاح.

---

(١) تاريخ المقال: ٨/ ٣/ ٢٠١١

إنَّ مشروعية الانتفاضات من أجل الحرية وحق الشعوب في تقرير مصيرها مما هو معلوم من السياسة بالضرورة؛ فلا أحد يرضى الإقامة على الضيم، إلا الأذلان: عير الحي والوتد. ولكن أسلوب التعدي والتحدي والصمود وتوقيف التحرك ونوعه ومداه هي مظنة الخلاف المستطير، فكيف تكون الانتفاضات؟ ومتى تكون؟ وما مدى قدرة السيطرة عليها إذا كانت؟ وما البديل الذي سيتلقى الراية ويمضي على بركة الله. إنَّ التوقيت والتقدير وحساب الخسائر والأرباح والممكن وغير الممكن من الفروض الغائبة؛ ولهذا فكم من حق مشروع أضاعه محامٍ فاشل. لقد تفاوتت المظاهرات الاحتجاجية بين مطالبة بالإصلاح وإصرار على سقوط النظام، وبين تحرك سلمي وآخر عنيف؛ وأنَّى للأنظمة أن تسقط وهي قد مارست التعبئة المعنوية والحسية الممتدة مع الزمن، لحمتها المديح وسداها التزلف وألوانها النفاق وأشكالها الزيف، فيما ظلت الشعوب خارج الثكنات في خلاف وتنازع، وتلكم «ليبيا» التي دخلت في حرب أهلية شرسة. ولأن المظاهرات غير مدروسة وعلى غير هدى فقد تفلتت على السلم ودخلت في الفوضى والعنف، وامتدت إلى إزهاق الأنفس المعصومة ونهب الأموال المملوكة، وانتهاك الحرمات، ورفع شعار «لا نسمع ولا نرى ولكننا نهتف»، حتى أصبح الذين يتمنون الاحتجاج لو أن بينهم وبينه أمداً بعيداً. ولو أدرك المختصمون محققات الفكر السياسي الإسلامي أو الفكر السياسي (الديمقراطي) لما آلت الأمور إلى ما هي عليه من قبل ومن بعد. ولأن الانتفاضات غير محكومة بمثل هذه الضوابط وغير واضحة الأهداف وغير محددة المطالب فقد كانت الاستجابة للممكن منها محرضة على مزيد من العنف ومزيد من الشجب والتخوين، حتى لم يبقَ لكريم مكانة ولا لذي هيبة احترام. وكلما اقتربت السلطات من المتظاهرين أمعنوا في المطالب وأغرقوا في الرفض، وكلما انفض سامر قوم بمطالبهم الفورية والتعجيزية خلفهم قوم آخرون بمطالب أخرى.

والدليل على ذلك أن السلطات القائمة استجابت لبعض المطالب وفضلت الاستجابات المرحلية، ولكن نشوة الانتصار أفقدت التوازن فامتدت المطالبات إلى إسقاط الأنظمة ومحاكمة الرموز، وكأن ذلك مؤذن بفتح قريب تجتمع فيه الكلمة ويتوحد الصف وتتحقق الأهداف وتنحل المشاكل المستعصية على الحل.

والأسوأ من كل هذا تحول بعض المتظاهرين إلى لصوص ومخربين يحرقون ويكسرون وينهبون ويروعون الآمنين. وما من عاقل رشيد يسوؤه الإصلاح ومحاربة الفساد والقضاء على الفقر والبطالة والتوفر على العيش الكريم: حرية وعدلاً ومساواة، وتكافؤ فرص، ولكن الوضع السيئ لا يُعالج بما هو أسوأ منه، ومن قواعد الفقهاء: «درء المفاسد مُقدَّم على جلب المصالح».

أفلا يتدبرون الأوضاع أم على قلوب أقفالها .. ؟! (٢) (١)

من قبل أشرتُ في مقالي السالف: «الثورة العربية التي لم تأتِ بعد» إلى ضرورة النظر في أحوال الذات، لا من حيث كينونتها المحسوسة، ولكن من حيث قيمها ومسلَّماتها وأنماط سلوكها ومدى قدرتها على الإسهام بما تُطالب به، بوصفها بنية فاعلة في كيان الأمة؛ إذ ربما تكون الذات العربية بما هي عليه من اتكالية وضعف في المواهب والمدركات والمهارات والأمانات من معوقات الإصلاح المنشود. وبناء الكيانات وفق متطلبات المرحلة لا يتأتى من الهتافات الغوغائية، ولا من التدخلات الخارجية، ولكنه من السُّرات، ولا سرات إذا ساد الجهلة والأحداث، وتحكمت الأهواء والعواطف، ومن المؤسسات ولا مؤسسات إذا سادت الفوضى. وإذ يكون من طبيعة الإنسان الضيق والضجر والتمرد على السلطة، أياً كان نوعها، وأياً كان أسلوب ممارستها لحقها، فإن التمرد عليها لا يكون بالضرورة بداية للإصلاح؛ فالإصلاح المرحلي أو الناجز يحتاج إلى تهيئة الأجواء وإشاعة ثقافة التغيير، فالناس أعداء ما جهلوا، وكم من شعوب شكَّلت عقبة في طريق المبادرات الإصلاحية. لقد أسقط المصريون سلطتهم ظناً منهم أنها تحبس عنهم عصب الحياة وتشيع فيهم بوادر التخلف، ولما لم يستطع الخلف المؤقت أن يدفع أي غائلة ولا أن يرفع أي معوق ظلوا في ثورتهم يعمهون.

والمؤكد أن الأمة العربية تعاني من فساد يصطرع مع كوامن الخيرية في الطائفة المنصورة.

- فساد في الذات.
- فساد في الغير.
- فساد في الأنظمة.
- فساد في الأوضاع. وهو فساد متفاوت قد يتخلف بعضه ويتفاقم بعضه الآخر، وقدر الأمة العربية تأثير بعضها على بعض، فالسياق العربي يعوق دون الاعتصام من الغرق، والثورات العربية لم يقتصر أثرها السلبي على مناطقها الإقليمية؛ فدول الخليج العربي على سبيل المثال لم تتعرض لثورات عسكرية، ولكنها لم تسلم من تجرع مرارات فوَّتت عليها فرصاً ثمينة، ولما تزل تعاني من آثار ذلك، بل تكاد تفاجأ كل يوم بقاصمة تحز إلى العظم، حتى أنها لم تسلم من عاصفة المظاهرات مع إمكانية الوصول إلى الحق عن طريق الأبواب المفتوحة، ولكنه التأثر والتداعي، وقدر الأمة العربية ما هي عليه من «استراتيجيات» وما تتوافر عليه من كوامن الإمكانيات لو استبدت بها لناهزت الندية. وذلك ما لا تريده دول الاستكبار ومن دونها الصهيونية العالمية، وستظل أبداً أمام تحديات إقليمية وعالمية، وإشكاليتها أنها تمارس عملها تحت تأثير ضغوط لا فكاك منها وبالفورية والفردية، فيما يمارس الآخر سياسة بإرادة مطلقة وعبر مؤسسات عريقة ومتخصصة؛ الأمر الذي هيأ الأمة العربية لتكون مشروع مؤامرات ولعب سياسية بحجم ما آلت إليه أوضاع العراق والسودان والصومال ولبنان. وعلى هذا الضوء فإنه من السهل التغرير بطوائفه وجماعات الضغط فيه والأحداث من شبابه، وفي ظل هذه الأجواء فإن إصلاح الأنظمة أجدى من إسقاطها، وسياسة الأبواب المفتوحة أجدى من تسور المحراب، وإن كانت بعض الأنظمة تستحق الإسقاط لتعذر إصلاحها. وإذ يكون الإسقاط مجازفة محفوفة بالمخاطر لأنه سيؤدي حتماً إلى فراغ دستوري قد يمتد أجله فإن مبادرة أهل الحل والعقد من مقتضيات المرحلة المتوترة على مختلف الصعد. والفراغ الدستوري يفتح شهية

---

(١) تاريخ المقال: ١٥/ ٣/ ٢٠١١

الطامعين من الداخل والخارج لنهب الغنائم؛ إذ لا تخلو أي دولة من فتن نائمة تتربص الدوائر، ولقد قيل من قبل: «تقوم الثورات على يد الشجعان ويستثمرها الجبناء». ولقد أسرَّ لي أحد الزملاء المصريين خوفه من ضياع الثورة.

قلت: وما ضياع الثورة؟

قال: الضبع لا يستطيع افتراس البقر الوحشي، ولكنه إذا رأى أسداً قد افترس بقرة تكاثرت عليه الضباع وأزاحته عن البقرة الفريسة.

ولما كانت التداعيات في الوطن العربي قائمة على أشدها فإن الآمن في سِربه المعافى في بدنه المتوافر على كماليات دهره وضرورياته يخشى أن ينتابه السهر والحمَّى من تلك الأوجاع التي تنتاب الجسم العربي المنهك، والمؤكد أنه ليس من حقنا أن نتدخل في أي شأن عربي داخلي، وإن آلمنا القتل الهمجي والفوضى المستحكمة وترويع الآمنين تحت أي ذريعة، وأمور الأمة العربية لن تستقيم ما لم يُدرك كل طرف ما ينقصه منها؛ ليكون جاداً في تلافي هذا النقص بأقل التكاليف وأسرع الأوقات، والخطوة الأولى تكمن في الوضوح الذي يعرف من خلاله المواطن إمكانيات وطنه حسياً ومعنوياً، ومدى قدرة السلطة على التغيير المرحلي أو الفوري، وفي ظل هذه الدوامة من الفتن لا بد من العودة الواعية للفكر السياسي الإسلامي؛ لأنه وحده القادر على استيعاب هذا الاضطراب، والنجاة بالسفينة من بين الشُّعَب المرجانية، ولقد حمدتُ لعلمائنا ومفكرينا استعادتهم الواعية لموقف الإسلام من الفتن، ولجوءهم إليه لتخطي تلك الأعاصير الهوج، والفكر السياسي الإسلامي داخل في نسيج سائر الأنظمة السياسية العالمية حين هيأ لها المادة الخام، ومكَّنها من تحويل الظواهر إلى نظريات ذات بُعْد مؤسسي، وتعلقنا بالمستجد من النظريات إدامة لغفلتنا عما لدينا من إمكانيات مغنية لو رعيناها حق رعايتها ووعيناها وأتحنا لها فرصة النفاذ بكل ما هي عليه من عدل ومساواة وحرية وتكافؤ فرص. ولَكَم يسوؤني برم المستغربين من القول بالخصوصية والغزو والتآمر، وتهافت المبهورين على منجز الآخر حسية ومعنوية دون وعي به ودون وعي بإمكانيات حضارة الانتماء، وكم كان بودي لو اطلع المبهورون بمصطلحات الغرب السياسية على منجز مفكري الإسلام وعلمائه، وبخاصة مَنْ أتيح لهم تلقي الفكر الغربي في جامعاته وعلى يد أساطينه، وممن شغلوا بالسياسة المقارنة، ولعلي أقتصر على مرجع واحد أحسبه كافياً شافياً، ذلكم هو كتاب (مبادئ نظام الحكم في الإسلام) مع المقارنة بالمبادئ الدستورية الحديثة للأستاذ الدكتور عبد الحميد متولي، وهو أستاذ متبحر في القانون الدستوري والأنظمة السياسية في مختلف الجامعات العربية، وأزعم أن مثله خبير عليم بمثل هذه المهايع، وليس هو مثل المبهورين الذين لا يلوون على شيء. والخلوص من هيمنة الآخر والتعايش معه بندية بداية الرشد، فالشعوب العربية ملَّت زمن التيه، وضاقت ذرعاً بالمتذوقين الذين أذهبوا ريحها، وأقصوا إمكانياتها، وظلوا كما لو كانوا (كومبارساً) يرددون ما يُوكَل إليهم إلقاؤه، يجيدون التمثيل ولا يحسنون التمثيل.

والاستياء نفسه ينتابني من المقيِّدين أنفسهم في ذرى سدِّ الذرائع ودرء المفاسد دون فقه بالمقاصد، ومصير البلاد حين تتنازعه تلك الفئات تتآكل إمكانياته وتخور عزماته وتطيش سهامه.

والمملكة العربية السعودية ذات خصوصيات في كل أبعادها السياسية والفكرية، يجليها نظام الحكم الذي يأخذ بعصم الإسلام، ويحتكم إليه، وبإمكانياتها الاقتصادية التي تجعلها طريدة لكل جائع نهم، وبمقدساتها التي تفرض عليها التهيؤ لكل طائف وراكع وعاكف وساجد من مختلف الأطياف والطوائف.

ولقد يكون من العسير تمثل الخصوصية وتوفير الأجواء الملائمة لكل قادم من كل فج عميق لولا الانفتاح المحسوب والتوازن المطلوب والدفع بالتي هي أحسن والقدرة على استيعاب كل الخطابات وامتصاص كل الاحتقانات.

ولقد يكون من الأعسر التوفر على مستوى متوازن يوائم بين الحضارة والمدنية دون إخلال بمقتضيات نظام الحكم الذي هو بمثابة دستور قائم.

وحين نعود إلى مفرزات الأحداث العربية، وما ستخلفه من تحولات في الخطابات كافة، نجد أننا أمام مراحل انتقالية عصيبة لا يمكن تصور مآلاتها، فمصر - على سبيل المثال - تعيش حالة من الانفجار السكاني وتهالك البنية التحتية مع ضعفها وضعف الموارد الاقتصادية وسوء الإدارة والكساد والبطالة وأزمة الإسكان، ففي ظل هذه الأوضاع لا يمكن لأي حكومة مؤقتة أو منتخبة أن تحلحل الأوضاع بين عشية وضحاها، والمتظاهرون الذين أسقطوا النظام لن يكونوا قادرين على تحقيق التطلعات.

ولقد راهنتُ على أن هذه الانتفاضة ستنقل مصر من حافة الفقر إلى درك المجاعة، ولاسيما أن المتظاهرين لما يزالوا يتدفقون من كل صوب لفك الغوائل التي يعانون منها من قبل الانتفاضة، وكأني بلسان الحال والمقال يردد مقولة قوم موسى: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾. ولن يجدوا من يرد عليهم مطمئناً: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾. ولقد يظن المتفائلون أن حُسْن الظن والرفق بالجاني من بوادر الانفراج، ومصر التي تُشكِّل عمقاً عربياً لا يستهان به يسوء الوجلين أن تكون مقدراتها ريشة في مهب الريح، وما أبديه من محاذير ليس تشاؤماً ولا تحاملاً ولا سوء ظن، وليس فيه قسوة ولا تيئيس ولا إحباط، ولكنه واقع ملموس، وإذا أصر المتظاهرون على مواصلة الانتفاضة حتى يلمسوا الحلول بأيديهم فإن الأمر لن يزداد إلا تعقيداً، وسوف تتلاحق استقالات الحكومات، وسيضطر الجيش إلى استخدام القوة لاستدراك ما يمكن استدراكه؛ فالفوضى لن تكون خلاقة، ومصر التي تعتمد على الدعم (اللوجستي) وعلى الموارد الشحيحة بأمسّ الحاجة إلى سواعد أبنائها وتحرك عجلة الإنتاج المعطلة، والبوادر لا تبعث على التفاؤل، والعقلاء من أبناء مصر يضعون أيديهم على صدورهم ويرددون: «اللهم سلم سلم». وما أحوج الأمة العربية إلى عودة الأمور في أرض الكنانة إلى وضعها الطبيعي، وعودة مصر لملء الفراغ، وكيف يتأتى الاطمئنان والتفاؤل والأمة العربية كالهشيم الذي تذروه الرياح؟ وإذا كانت سحائب الخير تهطل في كل زاوية من أرضنا فإن أملنا أن تنتظم البلاد العربية والإسلامية؛ فنحن لا نرضى أن نكون كمن يقول: «إذا مت ظمآناً فلا نزل القطر»، ولكننا نقول:

فـــلا نزلـــت علـــيّ ولا بأرضـــي

ســـحائب لـــيس تنـــتظم العبـــادا

وبعد: المَجْدُ لملك بادل شعبه الحب، ولشعب وفيّ لقيادته وردّ كيد الحاقدين إلى نحورهم، وأخسر رهانهم، وخيّب آمالهم، وإذا كانت أيامنا حبلى فإنها ستلد العلقم في أفواههم والعسل على شفاهنا، (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون).

ثورة ملك ومباركة شعب .. !(١)

حتى العَرَق لم يتفصد من وجوه المواطنين في سبيل تحقيق مطالبهم وتطلعاتهم، وما يحلمون به، وما لا يحلمون، فضلاً عن قطرة دم زكية، أراقتها بغزارة شعوب مغلوبة على أمرها، أرهقها التطلع وأزهقها الانتظار وأجهدها الخبب في سبيل البحث عن الكفاف والعفاف والدواء والإيواء، وتأمين أدنى حد من العيش الكريم، ولما تحصل على شيء منه بعد على الرغم من إسقاطها الحكومات، وتعرضها لطاعون الفراغ الدستوري.

بل أكاد أجزم بأنها فقدت ما بين أيديها وما خلفها من رسيس الأمن الغذائي والنفسي، كما تحوَّلت هي وأشياؤها إلى طريدة منهكة يجتالها الطامعون من كل جانب، ويقعدون لها كل مرصد، ويتنازعها الفرقاء من طائفيات متناحرة، وعرقيات متفانية، وحزبيات متطاحنة، وجماعات مُفرِّطة أو متطرفة، ودول متسلطة ذات مصالح، لا يهمها في سبيل تحقيقها أن تضوى أجسام الشعوب، أو أن تُذل كرامتها حتى يقول الناجي: اللهم لا أسألك إلا نفسي، وحتى يتمنى المنتظر قبر من قضى نحبه.

وإن دولة أحكم بناءها رائدُ أُمَّة لا يكذب أهله، وحافظ ساقة لا ينام عنها، وأقام شوامخها على كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة، ستظل بين (لا) و(إلا): لا للفرقة ولا للتنازع ولا للعصيان.. (إلا) أن تمس كلمة التوحيد أو وحدة الكلمة أو تهان كرامة الأمة.

لقد كان هذا الكيان الذي أطعم اللهُ أهلَهُ من جوع وآمنهم من خوف على موعد مع نجل المؤسس، والنجل بعض من نجله؛ ليقوم بثورة إصلاحية شاملة، يقودها بنفسه، طاقتها الثقة بالله وبمَنْ ولي أمره، وشعارها المحبة في الله، وسبيلها المحجة البيضاء التي تركنا عليها رسول الله ﷺ. وما إنْ كانت قاب قوسين أو أدنى بات المستهدفون يدوكون ليلهم: كيف يكون مسارها؟ وكيف يكون شعارها؟ أتكون وعوداً معسولة يمحوها النهار؟ أم تكون زخات من العطاء المدرار، تقول للناس: هاؤم اقرؤوني عياناً لا خبراً، وتَقَمَّروني بلَمْس لا بحَدْس.

لقد تدفقت الأوامر الملكية لا كسحابة صيف بصواعقها وبروقها وسرعة انقشاعها، ولكنها ديمة مثقلة بالعطاء، تهمي برفق، وتروي بشمول، تُنبت الزرع، وتدر الضرع، وتغمر الوهاد والنجاد، وتكتظ منها الأودية والشعاب، حتى لقد نال كل مواطن منها نصيباً، جاءت متوازنة، تراوح بين القيم المادية والمعنوية؛ فهي من جهة تتعرض لنفحات الله من معية ونصرة ودفاع: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

وهي من جهة أخرى تأخذ بالأسباب المادية ومتع الحياة المباحة..

﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾.

تتوكل ولا تتواكل: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾.

---

(١) تاريخ المقال: ٢٢/ ٣/ ٢٠١١

أوامر مسددة جمعت وأوعت، ومن أين أتيتها تجدها كما القول المحكم تجمجم عما في نفوس الناس، وتترجم تطلعاتهم، وتحقق رغباتهم، وتسعى لإصلاح أوضاعهم وسلامة أجسامهم، وحفظ أخلاقهم وتقويمها، وحفظ كرامة علمائهم، وتوفير أمنهم بكل صوره ومناحيه، محققة مقتضيات الحديث النبوي الشريف: «**من بات آمناً في سربه معافى في بدنه عنده قوت يومه وليلته فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها**». وماذا بعد الغذاء والدواء والاستقامة على أمر الله وحفظ الدين وإكرام حَمَلته وتحرير مسائل الفقه وتأصيل معارفه وترشيد الفتوى وعمارة المساجد وشد أزر المرشدين وحَفَظَة كتاب الله وفك الاختناقات وحل الأزمات ومراقبة الأسواق ومكافحة الفساد وإيجاد فرص عمل للعاطلين وتوسيع المشافي وتحسين أوضاع المجمعات الطبية ودعم الأمن والجيش.. ولما تزل السحائب تهمي بالخير العميم.

لقد كان للشارع العام نبضه وتطلعاته ومطالبه وملاحظاته وعتابه ورهانه، ومن الحصافة الإنصات إليه وإلقاء السمع ووعي اللغط والتقاط ما يدوكه الناس في مجالسهم ويكتبونه في مواقعهم ويقولونه في قنواتهم ويخطونه في صحفهم وتحليل ذلك كله وتصنيفه، ومبادرة الحلول الفورية أو المرحلية حسب الطاقة والإمكانيات، فكل ذلك من فروض العين على السلطتين التشريعية والتنفيذية، وذلك بعض منطلقات ثورة الإصلاح المباركة التي بادرها صادق الوعد وباركها وفيّ العهد.

لقد كان الناس أوزاعاً، فمن متفائل يُطمئن الوجلين، أو متردد يُبطئ خطوات المنطلقين، أو متشائم يهز ثقة الواثقين، ومثلما خاف الناس الآمنون مما يوجف به أعداؤهم ويراهن عليه حسادهم انتاب المواطنين خوف من ألا تكون الرياح لواقح فتتفرق السحب وتمطر حيث لا تكون ثاغية ولا راغية، ولكنّ الله سلَّم وسدد الحذف وخيّب الظنون الكاذبة.

ولما لم يكن المسؤول بعيداً عن كل اللغط فقد رصد النبض بكل تفاصيله وقرأ الملامح بكل تجاعيدها، وجاءت الأوامر على قدر كما لو كانت مكتوبة بأنامل المتطلعين إليها والمستهدفين بها، ومن حفظ الله حفظه، ومن عرف الله في الرخاء عرفه في الشدة، ورُبّ ضارة نافعة.

لقد اجتاحت عالمنا العربي زلزلة عاتية أعقبها طوفان جارف فار فيه التنور، وبلغ السيل الزبى، وكنا أحرص الناس على الاعتصام من الطوفان، وتجنيب البلاد ويلات الفتن التي لا تُبقي ولا تذر.

ولما لم يكن بد من التحرك دون ثمن باهظ تدفعه الأمة من أمنها واستقرارها وضروراتها بادر رجل الملمات والمبادرات المباركة فكانت ثورة سلمية بيضاء كشفت عن معادن كريمة.

معدن الأسرة الحاكمة التي خبرها ابن الجزيرة منذ ثلاثة قرون ومعدن الشعب الوفي، والتقى النقاء والصفاء والوفاء على أمر قد قدر؛ ليكون مثلاً يُحتذى وقدوة صالحة يتمثلها الناجون.

لقد كانت جمعة السادس من ربيع الآخر جمعة الوفاء بالعهد لتكون جمعة الثالث عشر منه جمعة الوفاء بالوعد، وكيف لا يكون الوفاءان والشعب يبادر قيادته بالولاء الصادق في يوم كان تقدير الأعداء ورهان الحاقدين أن يكون بداية انفجار، فكان تفكيرهم وتقديرهم حسرة عليهم إذ ماتوا في غيظهم حيث فكروا وقدروا.

وفي يوم الوفاء بالوعد المفعم بالخيرات والمسرات تدفق الشباب ينثرون الورود، وتخفق راية التوحيد بأيدهم، فيما ظلت شعوب مغلوبة على أمرها تتلقى زخات الرصاص ودوي الراجمات.

إن صناديق الاقتراع التي ينادي بها دعاة (الديمقراطية) هي الشوارع والساحات التي تتدفق بالشباب وهم يهتفون بحياة قائد مسيرتهم.

لقد جاءت ثورة الملك ومباركة الشعب و ﴿قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

استباق الصفوية والعثمانية على المتردية العربية .. ![1]

المؤامرات والتحالفات، وتعارض المصالح، والثورات العسكرية، واللعب السياسية، والحروب الباردة والساخنة، وصراع النفوذ، والحكومات غير المؤتمنة والشعوب المتواكلة، التقت كلها فوق وهاد الأمة العربية ونجادها كما طوفان نوح يوم التقى على أمر قد قدر، وتلك المثبطات والموهنات مجتمعة أو متفرقة فعلت فعلها الذي أنهك الأمة العربية وأحلها دار البوار، وصيدها كالمتردية والنطيحة وما أكل السبع، بحيث أصبحت قابلة لأي تحرك مشبوه أو تمرد مأجور، وتواصل الإخفاقات المرْدية جعلها كالجسم الذي فقد مناعته والمتضلعون من الفكر السياسي ما فتئوا ينذرون قومهم كلما ذر قرن الفتن وأصبحت لدى أمتهم قابلية لأي مكيدة لا يُسِرُّها أعداؤهم، وأقرب مثل الاستعداد والاستعداء للقوى الكبرى ما فعله (صدام حسين) حين احتل دولة عربية، وما يفعله (معمر القذافي) من مواجهة دموية مع شعبه الأعزل، وما فعلته (إيران) في كل من (البحرين) و(لبنان) ولو لم تتهيأ الأجواء للتدخلات الأجنبية باستقامة الحكومات على المأمور به من العدل والإحسان وإيتاء كل ذي حق حقه والتوفر على الحرية وتكافؤ الفرص وحفظ العهود والأموال العامة وقمع الفساد لما هم بالأمة من لا يرقبون فيها إلاً ولا ذمة، ولما احتاجت إلى من يمدها بالقوى الحسية و(اللوجستية).

وما كان القول بالغزو والتآمر الذي يمتعض من ذكره المستغربون والمتعلمنون والمتسطحون إلى الأحداث حديثاً يفترى، إنه من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى دليل، ومن جهله أو تجاهله أو تعمد إنكاره، فكأنما أنكر النهار بشمسه المتوهجة وبنوره الذي يملأ أقطار السماوات والأرض، وتلك الذهنيات الضالعة في الخطأ والخطيئة لا ينفع فيها شيء، لأنها تحمل أوزار الجاهزيات من القول الذي يوحي بزخرفه شياطين الإنس، وتركن إلى الذين ظلموا.

والأمة العربية التي نسلت من تحت عباءة الرجل المريض تلقفها الرجل الأبيض بسوطة وجزرته وتخويف أوليائه، وقلب لها الأمور حتى تشرذمت وذهب كل أناس بمعتقدهم فمن متغربن إلى متعلمن ومن جانح إلى الشرق، إلى مهرول، صوب الغرب، ونور الله يوقد من شجرة زيتونة مباركة لا شرقية ولا غربية، وهاهي أمتنا اليوم تُجْتال من كل جانب، ويهم بها من لبسوا منها، لتكون في المحافل الدولية ك(تيم) التي يقضى الأمر بغيابها ولا تستأمر عند حضورها، بحيث تؤخذ الدنيا باسمها ثم لا تحصل منها على البلغة، وما استعصى على طامع منال إذا استطاع أن يفرق الكلمة والصف والهدف والمصلحة ويوقع البغضاء بين الإخوة الأشقاء.

ولكي تكون الأمة المعتصمة بعقيدتها الموحدة ولغتها الواحدة وتاريخها العريق ومصيرها المشترك لقمة سائغة فقد عمد عرافا الرجل الأبيض:

- مارك سايكس ١٨٧٩-١٩١٩م السياسي البريطاني.

- جورج بيكو السياسي الفرنسي إلى تقطيع أوصالها أرضاً وإنساناً، وإعادة صناعة كل قطعة من أرضها المليئة بالخيرات على عينه، بحيث يتعذر الالتئام من جديد، فكانت النعرات القبلية والحقد الطائفي والثقافات الأوزاع والعادات الأشتات والمستويات الاقتصادية والاجتماعية المتباينة، ومن ثم ساغ ابتلاعها، لقد راهن المستعمر على فاعلية هذا التنويع الغريب بحيث حول تلك اللوحات الفسيفسائية إلى فتن نائمة يناصرها تارة ويناصر عليها تارة أخرى، معتمداً في نفوذه على الاحتقانات وارتياب الأخ من أخيه،

---

(١) تاريخ المقال: ٢٩/ ٣/ ٢٠١١

واتخذ لهذه التلونات الحرباوية أقنعة لا ينخدع بها إلا الخب الأعزل، فهو تارة مع حقوق الإنسان، وتارة أخرى مع حرية الشعوب وحقوقها في تقرير المصير واختيار النظام، ولسان حال الشعوب معه يقول:

قتل امرئ في غابةٍ جنايةٌ لا تغتفر

وقتلُ شعبٍ آمنٍ قضيةٌ فيها نظر

كما أن له في كل يوم خطابا يستدرج به المغلوبين على أمرهم، وكل تدخل سافر أو مقنع تكمن وراءه مصلحة عاجلة أو آجلة، ولقد تمر فترات تأخذ فيها بعض الحكومات أنفاسها، وتنهض بما يصلح شأنها ولا تجد بداً من تفضيل التقارب والتعاذر والتعايش على التطاول والتطاحن، ولكنها تفاجأ من حيث لا تحتسب بفتح ملفات ساخنة وإيقاظ فتن نائمة توجف بخيلها ورجلها من الداخل أو من الخارج، ومن ورائها غوغاء لا يفكرون ولا يقدرون، الأمر الذي يضطرها على الانصراف عما أخذت به نفسها وما خلقت من أجله، من عمارة للكون وعبادة للخالق وهداية للبشرية، حتى إذا أنهكتها الفتن تلمست السلام المداف بالاستسلام.

وتلك المراوحات غير المختارة حولت الأرض العربية والإنسان العربي إلى مجال رحب للحروب الباردة والساخنة بين شرق شيوعي وغرب رأسمالي وانشقت الأمة العربية على نفسها، الأمر الذي فتح عليها أكثر من ثغرة وأغرى بها دولاً دون ذلك، لتملأ الفراغات وتبتز الخيرات، وعند الرمق الأخير يتدارك العرب أنفسهم ويميلون اضطراراً إلى الوئام والسلام، وترتيب الصفوف والأوراق وفي تلك الأجواء الحميمية تقدم الأمة العربية (مصر) بما لها من أعماق تاريخية و(الاستراتيجية) وبشرية، ولما لم يطل أمد زعامتها بتغريد (السادات) خارج السرب فقد ظل المكان شاغراً يرقب من يملؤه هذا الفراغ فتح شهية إيران وتركيا وحدا بهما إلى صراع خفي، ودون تلك الأماني خرط القتاد، ولكنه سيكون مثار إشكالات وتناوشات وكر وفر، وقوده الناس والأموال وكافة المقدرات، وقد يصرف الأمة عن قضاياها المصيرية ويعوق مشاريعها الإنمائية، وبخاصة دول الخليج التي لا لها ولا عليها، ثم هي متصالحة مع شعوبها، والأمة العربية وإن كانت منهكة ومتفرقة إلا أن هناك سقفاً لا يمكن تجاوزه، ثم إن الطائفية التي تستمد منها (إيران) طاقاتها لم تعد قادرة على النفاذ إلى الأعماق، وإن حققت بعض الانتصارات في مواقع كثيرة فإنه لن تجد الثقة ولا الاطمئنان، أما (تركيا) فتاريخها القومي ونزعة التتريك التي أيقظت القوميات أفقدتها الشرعية وظلت هاجساً يحول دون أي تقارب مرتقب، وإن كانت أخف الضررين والإشكالية في دخول الأمة العربية في عهد جديد سيكون له خطابه وأسلوب تعامله مع الأحداث المصيرية والمستجدة، وذلك أن الذين حكموا شعوبهم على مدى أربعة عقود أو تزيد ذهبوا وذهبت معهم آلياتهم ومناهجهم ومناحي سياساتهم وأحلافهم ومواقفهم والدول القادمة ستكون نيابية وبرلمانية ولكنها لن تصل إلى هذا المستوى في المنظور القريب، وإلى حين وصولها يكون الطامعون قد رتبوا أمورهم وأحكموا قبضتهم والمد الطائفي ربما يكون في بعض الفترات أقوى من إرادة الشعوب التي تدفقت في الساحات والشوارع وهي لا تحمل (أجندة) ولا مشروعات سياسية بينة المعالم جاهزة القادة إذ لم تفكر بعد بتفاصيل النظام الذي ترضى عنه.

ولقد يكون من الخير لها أن تدفع بالتي هي أحسن وأن تفقه الأولويات المتمثلة بتحريك عجلة الإنتاج وصناعة الإنسان ليكون فاعلاً في إعادة البناء إذ لا استبعد أن يكون سقوط الأنظمة بهذا التلاحق وبتلك السرعة وبذلك الاتساع شبيها بسقوط الاتحاد السوفيتي، ذلك أن الحكومات الجديدة لن تكون على شاكلة القديمة، وقد لا تكون الشعوب

على وعي تام بما سيحدث إذ لكل نظام ثقافته ونسقه وهو ما لم يكن بعد، وبعد الحماس ينجلي الغبار ويقف المواطن على المباح غير الممكن وعلى الإمكانيات غير المواتية.

واليوم وقد انتفضت الشعوب العربية للإطاحة بأنظمتها كشر الطامعون عن أنيابهم وبدت التدخلات والتصريحات والتلويح بالمواقف.

وأيا ما كان حق هذه الانتفاضات من الشرعية ومبلغها من فقه الواقع ومتطلبات المرحلة فإن وراءها امتحانات عصيبة وتحديات عصية فالفراغات الدستورية تعني رفع الحجارة عن جحور الأقليات والطائفيات والحزبيات والقبليات وجماعات الضغط، وكل فريق يفاوض لتعزيز جانبه، ويعطي من التسهيلات ما يمكنه من الوصول إلى سدة الحكم، وأصحاب المصالح لا تعنيهم إلا مصالحهم، هذه الأوضاع القابلة لكل الاحتمالات مهدت الطريق أمام دولتين كبيرتين:

(إيران) و(تركيا) لتكون إحداهما المتمكن الأمكن بالوصاية والناطق الرسمي باسم الأمة العربية والمفاوض الرئيس في القضايا المصيرية والمستأثر الوحيد بالخيرات، ولن يكون هذا الهاجس صعباً ولا مستحيلاً، فالفوضى السياسية قابلة لتفريخ كل عجيب.

وصراع الطرفين الصفوي والعثماني تبدو بوادره بين الحين والآخر وقد يحرص الطرفان على التكتم لكيلا تصحوا الطريدة وتنفذ من بين ثغرات الخلاف واعتراض ثلاث طائرات شحن عسكرية إيرانية من قبل تركيا من مؤشرات الصراع، وحملة التشويه على التدخل الخليجي في (البحرين) من قبل إيران دليل على أن وراء الأكمة ما وراءها، والمتابع المعني بجمع الخيوط سيقف على مؤشرات ومشروعات خطيرة ما كان من مصلحة الأمة العربية الاستخفاف بها، وإذ تقتضي مصلحة القوى الكبرى أن يكون في المشرق العربي قوى تحفظ التوازن فإن من مصلحة الأمة العربية معالجة الأوضاع بما يحول دون الانفجار وضياع ما في اليد من رسيس النفوذ.

مع فعاليات الجامعة التي لا تغيب عنها الشمس .. !(١)

لم أكن أتصور دعوى (الجامعة التي لا تغيب عنها الشمس)، وإن كان ثمة محفزات لاستساغة مثل هذه الدعوى غير المتصورة فإنما هي في سمة الخطاب المستفيض بالمبالغة، وفي سمة الشعر العربي المترعة مدائحه بمثل هذه المستحيلات، على شاكلة (إذا بلغ الرضيع...) (وأخفت أهل الشرك...)، هكذا كان تصوري من قبل لمثل هذه الإطلاقات الباذخة في المبالغة، ولا أحسبني وحدي في هذا التصور، بيد أني ارعويت بعدما استبنت الخبر بالخُبْر والسماع بالتصور، وعشت في تلك الأجواء المفعمة بكل جميل، و»ما راء كمن سمعا»، وحين عرفت المقاصد من تلك المقولة تأكد لي أن الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة فعلاً لا تغيب عنها الشمس، وتلك حقيقة لا مراء فيها، ولك أن تتصور ثلاثين ألف خريج تلقوا التعليم فيها حين أتوها رجالاً وركباناً من مأتي دولة. ودعك من تباين أجناسهم وألوانهم ولغاتهم، وهؤلاء الخريجون بعد عودتهم إلى ديارهم انتشروا في آفاق المعمورة دعاة وخطباء ومعلمين ومسؤولين في مختلف القطاعات الحكومية والأهلية، يشيعون بالقول والفعل مذهباً سلفياً وسطياً لا عوج فيه؛ لأنه ينطلق من الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومن صحيح السنة، وهم بما هم عليه من تأصيل معرفي ينفون عن الدين تحريف الغالين وتأويل الجاهلين وانتحال المبطلين، وكل خريج يحتل ولو مفحص قطاة مضيئاً فوق المعمورة، هذه البقعة المضيئة تنتمي لهذه الجامعة، وحينئذ فالشمس بهذا التأويل الصحيح لا تغيب عن الجامعة.

والمملكة العربية السعودية بما حباها الله من نِعَم رعت حق الله فيها، فطهَّرت بيته للطائفين والعاكفين والركع السجود، وهيأت الحرمين بالتوسعات والخدمات للحجاج والمعتمرين والزائرين، وأسمعت كلام الله بالطباعة وترجمة المعاني، وبلغت به مشارق الأرض ومغاربها بمختلف اللغات.

وتلك بعض مفاخر المملكة؛ فمفاخرها كبيرة وكثيرة، ولكننا نكاد بالإلف نتقالُّها، والجامعة بوصفها بعض مكرمات البلاد بهذه الإمكانيات، وبفضل فريق العمل الذي يمثل رأس الحربة فيه معالي مديرها، استطاعت أن تعيش حضوراً متعدد الجوانب، حتى لقد تبوأت مكانتها العلمية والعالمية والدعوية، كما أنها واءمت بين الحضور الإعلامي والمعرفي بوصفها مؤسسة تربوية وتعليمية ومعقلاً من معاقل الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، كما أنها تضطلع بصناعة الإنسان على عين المقاصد الشرعية التي تحفظ التوازن بين مطالب الحياة الدنيا والآخرة. ولقد كنتُ ولما أزل على وعي بتجاوزاتها المحسوبة التي مكنتها من شد الانتباه والتذكير بالدور الدعوي والإصلاحي الذي تضطلع به المملكة؛ فلم تكن مجرد جامعة للتعليم والتخريج، ولكنها تخطت تلك المهمة الرئيسة إلى مهمات لا تقل أهمية عن الرسالة الرئيسة، وتخطي الجامعة لأروقتها وتمكين العامة من الاستفادة من إسهاماتها الأدبية والثقافية دليل وعي برسالة الجامعات، وذلك ما استطاعت تحقيقه في ظل معايشة العالم للتدفق الإعلامي والانفجار المعرفي وثورة الاتصالات التي كادت تخلط الأوراق وتفوت فرصة المحافظة على الخصوصيات ومحققات الهوية. وفي ظل هذه الأجواء شرفت بدعوات كريمات لحضور عدد من الفعاليات المتلاحقة من معالي الأستاذ الدكتور محمد بن علي العقلاء مدير الجامعة، وفعاليات الجامعة من الوزن الثقيل، ولربما كانت الدعوى الموسمية تلك التي أحياها رجل الدولة وأمير المؤرخين وعضد الأدباء والمفكرين صاحب السمو الملكي

(١) تاريخ المقال: ٥/ ٤/ ٢٠١١

الأمير سلمان بن عبد العزيز، ولاسيما أن هذا اللقاء جمع فأوعى؛ حيث استقطب لفيفاً من أصحاب السمو الملكي الأمراء وأصحاب الفضيلة العلماء وطائفة من المفكرين والأدباء والإعلاميين. ومعتصر المختصر الذي ألقاه سموه عن (الأسس التاريخية والفكرية للدولة السعودية (فتح شهية الحضور لمزيد من الإضافات والتهميشات والاستفسارات، ولكن سيف الوقف المصلت فوّت على الحضور أشياء كثيرة، ولاسيما أن سموه اختار القراءة على الارتجال، وهو عائق أشرت إليه عندما شرفت بالحديث مع سموه، فبلاغة الأمير في انطلاقته على سجيته.

واللقاء لا يقوّم من خلال الكلمة المقتضبة التي ألقاها سموه واستغرقت أحدى عشرة دقيقة، ولكن التقويم يمتد ليشمل ما بين وصول سموه إلى طيبة الطيبة ومبارحته إياها، فبرنامج سموه حافل بالمهمات واللقاءات والتوجيهات التي كان وراء ترتيبها أمير المدينة المنورة صاحب السمو الملكي الأمير عبد العزيز بن ماجد بكل ما هو عليه من أريحية وشعور بأهمية اللقاء. وذلك فضلاً عن المداخلات ورد سموه على مجمل الاستفسارات أثناء المحاضرة وفي سائر اللقاءات التي حظيت بها جهات عدة. وأيا ما كان الأمر فإن هذا اللقاء الثري تمخض عن أشياء تستدعيها الظروف المعاشة، وما يجتاح عالمنا المأزوم من فتن طاحنة أكلت الرطب واليابس، وأهلكت الحرث والنسل.

فسموه كان واعياً للمرحلة مدركاً لتداعياتها ومتطلباتها، وأحاديثه المقروءة والمرتجلة تحاول تثبيت أفئدة الأمة الوجلة من تلك الريح التي فيها صِرٌّ.

وعلى ضوء تداعيات العنوان والمرحلة ألمح سموه إلى مسيرة الدولة وأبعادها السياسية التي كان لها الفضل في إرساء قواعد الحكم وصمودها أمام الأعاصير الهوج، فهي كما يقول سموه: لم تؤسَّس على العصبية ولا على القبلية ولا على الإقليمية، وإنما أُسِّست على التقوى ومحققات الدين والمدنية على حد سواء.

وإن كان ثمة تصديات لها في أدوارها الثلاثة فإنما هو بسبب انتشارها وتأثيرها، ومن باب التشويه والتخويف سُمِّيت بالدولة الوهابية. لقد افترى المغرضون عليها وعلى المصلح الكذب، فما هي إلا دولة سلفية مستنيرة ودعوة سلفية تحترم التعددية وتناصر المذاهب وتجنح إلى السلام والدفع بالتي هي أحسن والمجادلة بالحق والصدق والندية وتكافؤ الفرص، وابن عبد الوهاب لم يأتِ بجديد؛ فهو يحترم المذاهب الأربعة، ويتبنى آراء سلف الأمة. ولقد دعا سموه الخصوم إلى قراءة مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب وعرضها على الكتاب والسنة لاستبانة الحق.

ومما يُحسب لسموه إشارته إلى إسهامات الأمة في قيام هذا الكيان ورسوخه، وذلك حين قال:

«لا يوجد أسرة في المملكة إلا ولها إسهام في تكوين هذا الكيان والحفاظ عليه». وهذا إلى جانب كونه اعترافاً بالفضل لذويه - ولا يعرف الفضل لذويه إلا أهل الفضل - فهو تنبيه لشباب الأمة الذين تجتالهم الدعوات الهدامة، وحث لهم على مواصلة الإسهامات التي بدأها آباؤهم وأجدادهم، فالمحافظة على هذا الكيان المستقيم على أمر الله إسعاد للأموات من الآباء والأجداد؛ فهم الذين بنوه، وواجب أبنائهم وأحفادهم المحافظة عليه؛ ليتوفروا على العزة والكرامة ووحدة الصف والفكر والهدف.

لقد كانت تلك الاحتفالية من المناشط الاستثنائية التي ظفرت بها الجامعة، فالحضور اللافت للنظر في كمه وكيفه اكتظت به كمًّا ثلاث قاعات، وكيفاً تنوعت أطيافه بلفيف من الأمراء والعلماء والوزراء الأدباء والمفكرين والإعلاميين والمداخلات التي استهلها إماما وخطيبا الحرمين الشريفين فضيلة الشيخين علي الحذيفي وسعود الشريم. كل ذلك أضفى على اللقاء فيما لم تتهيأ لأي لقاء سلف، وأحاديث سموه المرتجلة في سائر اللقاءات

الهامشية وتدفق الأسئلة والاستفسارات أعطت هذا اللقاء هوامش تكاد تنازع صلب اللقاء أهمية.

ما نوده من الجامعة وقد ظفرت بمثل هذا اللقاء أن توثق كافة مفرداته والحصول على نص الحاضرة التي وعد بها مدير الجامعة وتحويل ذلك كله إلى إصدار يسهم في توسيع مساحة الاستفادة منه.

فالشباب بأمسّ الحاجة إلى مَنْ يُذكِّرهم بتاريخ بلادهم والثمن الباهظ الذي أنفقه الآباء والأجداد بقيادة الملك عبد العزيز - رحمه الله - وأنجزوا هذا المشروع الحضاري بوحدته الإقليمية والفكرية والدينية فتجربة الملك عبد العزيز جديرة بأن يعيها شباب الأمة ليعرفوا المواطنة على وجهها، ولاسيما أن إحدى المداخلات مع سموه طلبت السعي لتحرير مفهوم المواطنة.

كانت لنا أيامٌ في سوق عكاظ .. !(١)

لست أدري، لماذا اخترت هذا العنوان؟ ألأني حديث عهد بكتاب «أنيس منصور» .. «كانت لنا أيام في صالون العقاد»، أم لشيء آخر سمَّه توارد خواطر، أو وقوع الحافر على الحافر، ولك أن تُعدَّه من السرقات الواضحات. المهم أنه عنوان راق لي واستهواني، لأنه في حكم المصطلحات الجامعة المانعة، ومثله يحدو المشاعر، ويجسد الانطباعات، فتلك الأيام التي عشناها في ربوع الطائف، أعادت لي الأيام الخوالي، يوم أن كنت في ريعان الشباب؛ إذ تلقيت دورة صيفية بعد حصولي على الشهادة الابتدائية قبل نصف قرن، وكنت أتصور الطائف كما عهدتها فهل تغيرتْ أم تغيرتُ أنا؟ كان ذلك في صيف عام ١٣٨١ هجرية، وعمري إذ ذاك تسع عشرة سنة، لقد راعتني المناظر الجميلة، وأبهجتني الأجواء الباردة، واستمتعت بالمأكولات الشهية، وحين عدت إليها بعد نصف قرن لم أجدها فيها إلا ما أجده في بلدي، قلاع خرسانية وخطوط إسفلتية وحدائق مصنوعة، كل شيء فيها من صنع الإنسان، لقد تلمست «الحماط» و«البرشوم» و«الكوارع» و«البرَّاد» والمقاهي المنتشرة في الشعاب والأودية، فلم أظفر بشيء من ذلك، وفوق ذلك بحثت عن شبابي بقوته وشهوته وفراغ باله، فلم أجد شيئاً من هذا ولا ذاك. لقد كنا نمشي على البطحاء الساعات الطوال ترفعنا النجاد وتحطنا الوهاد؛ لنصل إلى متنزهات أبكار لم تعبث بها يد الإنسان، نحمل معنا زادنا، ولقد تمر بنا مواكب الأمراء وكبار الشخصيات فنلوح لهم بأيدينا الفارغة فيبادلوننا الإشارة بمثلها، ولقد شهدت يوم ذاك موكب الملك سعود - رحمه الله - وضيفه الملك حسين بن طلال ملك الأردن على بضع سيارات تشق طريقها جيئةً وذهاباً وسط الرمال والأشجار الوارفة الظلال، وكان المارة يضيقون الخناق على الموكب ليشاهدوا الملك وضيفه، فيصفقون أو يلوحون بأيديهم، وكان الملك يبادلهم التحية، ولقد يضطر الموكب إلى التوقف أو التريث؛ حتى يُشبع المواطنون أنظارهم .. إنها أيام البراءة والطهر والعفوية والفطرية التي يحن إليها مَن ذاق بردها، جئت إلى الطائف بدعوة كريمة لحضور فعاليات سوق عكاظ؛ لنشم عبق التراث، ونلتقي بأحبة وخصوم شرفاء وسط مخاضات أدبية وفكرية يهمي صَيِّبُها النافع على آكام أدبنا وضرابه وشعابه، وتهطل ديمتها ماءً غدقاً على صحرائه؛ لتدحو أرضه بما ينفع الناس.

وبلادنا بما أفاد الله عليها من عراقة سياسية وأعماق دينية وجغرافية وسكانية واقتصادية تعيش ضجة المؤتمرات والندوات واللقاءات، وإذ تهفو إلى مقدساتها أفئدة الطائفين والعاكفين والركع السجود، فإن مؤسساتها الثقافية تخب وتضع صوبها زمر الأدباء والمبدعين والمفكرين، وإن تنوعت هجرتهم إليها بتنوع نواياهم، «**وإنما لكل امرئ ما نوى**»، وما كنت لأسيء الظن بقادم أجاب الدعوة، وسعى لتوطيد العلاقة، وحَفَد لمجايلة الأقران، وأخذ وأعطى على قدم المساواة، وبلادنا التي حباها الله بنعمه الظاهرة والباطنة، وأغناها عما سواه، عرفت حق الله، وحق السائل والمحروم، وحق شركائها في العقيدة، واللغة، والمصير المشترك؛ فكانت مثابةً لسائر الأطياف، وأمناً وردءاً لذوي الحاجات، وحُقَّ لها أن تسمى بـ«مملكة الإنسانية»، وتدفق خيراتها ومساعداتها ومواساتها جعل المواطن يشفق على نفسه وعلى أولي الأمر من ذلك الحضور المتعدد الأغراض والمتنوع المقاصد.

---

(١) تاريخ المقال: ١٢/ ١٠/ ٢٠١٠

ومثلي بسنِّه وحضوره الذي نيف على نصف قرن يُدعى لبعض المناسبات الثقافية، والقائمون عليها يأسرونني بأفضالهم: «ومن وجد الإحسان قيداً تقيدا»، ولربما أكون عند مَن يغبطونني ك»جُنْدُب» الذي غبطه بعض خصومه فقال:

وإذا تكـــون كريهـــة أدعـــى لهـــا

وإذا يحـــاس الحـــيس يـــدعى جنـــدب

وما كنت لأفوت فرصة كتلك التي يلتقي على أديمها أطياف الفكر والأدب، ولا سيما أن وراء نجاحاتها أميراً تستبيه الكلمة الجميلة، شكلاً ومضموناً، أميراً عشق المبادرات والمفاجآت، وترك بصماته الواضحات على شواخص كثيرة هنا وهناك. ولقد شرفت بدعوتين: دعوة لحضور فعاليات السوق، وأخرى لحضور جلسة مشورة مصغرة حاول سموه استطلاع الرأي حول ما يستقبل من أمر السوق، وأحسب أن سر النجاحات يكمن في تداول الآراء على حد ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾، وذلك مكمن الأهلية؛ فسمو الأمير خالد الفيصل بن عبد العزيز، وهو الذي عاش الجزر والمد، يدرك تماماً أن المشاريع العملاقة في أمسّ الحاجة إلى تضافر الجهود، وبوادر السوق في دورته الرابعة تبشر بمستقبل رشيد. وإذا كان «المهرجان الوطني للتراث والثقافة» و«جائزة الملك فيصل العالمية» قد تجاوزا المحلية والإقليمية إلى العالمية، وحققا حضوراً فاعلاً في كافة المحافل الدولية، فإن «سوق عكاظ» حقيق أن يكون مضارعاً لهما؛ لمتكئه التاريخي، وأهلية القائمين عليه.

وأملي كبير في أن تتبنى الدولة من خلال وزارة الثقافة والإعلام، وأقسام الأدب والتاريخ والحضارة في الجامعات، وبخاصة جامعات منطقة مكة المكرمة، والأندية الأدبية الثلاثة، فعاليات السوق؛ إذ لم يعد السوق مناسبة ثقافية عابرة يزجي المحيطون بها وقتهم؛ فما شاهدته وشاهده المدعوون من فعاليات، وما أقيم ويقام في الموقع التاريخي من نشاطات ومنشآت يشي بما وراء ذلك من تطلعات تتجاوز الوقتية والإقليمية.

ولقد يكون من بوادر الخير التوجيه بإصدار مجلة فصلية محكمة باسم السوق تحمل اسم «سوق عكاظ» لخدمة الشعر الجاهلي وتاريخه وحيوات شعرائه بحيث تصدر كل ثلاثة أشهر، وتقدم إصدارات كل عام مجلدة لرواد السوق ومدعويه، على أن يتولى الإعداد لفعاليات السوق ومطبوعاته وتحكيم أعماله وإدارة ندواته وأماسيه نخبةٌ من الأدباء والعلماء والأكاديميين ذوي الاهتمامات التراثية من أدباء الوطن العربي ومن المملكة؛ فالسوق حق عربي، ومن الخير له أن يتغذى من روافد الأمة العربية. ومما أود الاهتمام به أطياف المدعوين؛ فالسوق ذو نزعة تراثية، ومن حق ذوي النزعات المشابهة أن يكونوا حاضري فعالياته، وليس هناك ما يمنع من التعددية المتوازنة؛ لتكون الفعاليات أكثر حرارة وجدلية؛ فالسمة الواحدة أدعى للحميمية والسكونية، وذلك ما لا نودُّه لأي احتفالية بهذا المستوى.

ولأن مفرزات الكواليس (واللوبيات) أقوى تأثيراً وأجدى فإن تعدد الأطياف وتوازنها يعطيها مزيداً من حرارة الحراك وقوة التفاعل، ولقد كنت في معمعة الجدل في أبهاء الفندق مستمعاً وراصداً ومقوِّماً، وقليلاً ما تكون لي مداخلات أشبه بالإطفائية التي تتوخى الترشيد والواقعية وتفادي الإطلاقات الطائشة والتعميمات المهومة، ولأن السمة البارزة في نوعية المدعوين الشبابية فإن جدلهم مناقض تماماً لطبيعة السوق، وما أوده من السوق نقل التراث، لا الانتقال إليه، ولا الانتقال منه، وكم هو الفرق بين الترثنة الخالصة والعَصْرنة الخالصة ومحاولة التوفيق بين الشتيتين، وفوق هذا وذاك لابد من تحديد معالم

الموقع والمحافظة عليها دون أي تدخل، وتنفيذ بعض الفعاليات عليها كما كان يفعل الأولون من التحكيم المباشر؛ إذ لابد أن يكون هناك أماسي وأصبوحات على أديم الموقع وبين أكماته، وبذات الشكل الذي يمارس من خلاله إنشادهم في السوق، ومع كل النجاحات فما اختلف مدعوون كاختلاف ضيوف السوق حول القصيدة الفائزة والمسرحية الرئيسة، وهو اختلاف مشروع ومعتبر؛ إذ القصيدة والمسرحية مظنَّة الاختلاف لما تنطويان عليه من مفارقات واحتمالات وقراءات، والاختلاف حين يكون حول فاضل ومفضول لا يكون مثيراً كما لو كان بين خطأ وصواب، ولا أحسب المسؤولين عن الفعاليات والتحكيم يضيقون بهذا الاختلاف؛ لأنه مؤشر تألق وتفوق، ولقد كنت، ولما أزل، متحفظاً على القصيدة لأسباب متعددة، ولكنه تحفظ لا يتجاوز اختلاف وجهات النظر، والحث على وضع ضوابط أكثر دقة، تحول دون إثارة اللغط وفتح أبواب المناكفات، وترك الذَّوائق الأخرى كالمعلقة.

وبعدُ: لقد قضيناها أياماً مليئةً بالمفاجآت، ومشيناها خطوات مفعمة بعبق التاريخ؛ فللأمير شكرنا الصادق على مبادراته ونجاحاته، ولأهل الطائف ثناءنا العاطر على الحفاوة وملء الفارغات بالمفيد والمبهج، ومزيداً من النجاحات والمناسبات الثقافية الثرية.

أعذب الكتب وأكذبها .. ! (١)

لاحظ بعض المريدين تعلقي بكتاب «الأغاني» وإشادتي به والتوجيه إلى قراءته، مع ما له من سمعة سيئة، واحتوائه على منكر من القول وزورا، ومن المريدين شباب يفعمهم الطهر وتلفهم البراءة، ومن ثم استحوذت عليهم الحدة والحدية، وواحدية الخيار، دون النظر في فقه الواقع والمباح غير الممكن، وقد يظنون بي الظنون، لأن المتشبث بأهداب السلفية والمحب للخيرين وإن لم يكن منهم لا بد أن يكون صواماً قواماً معرضا عن الجاهلين جادا في السر والعلن لا يروح عن نفسه، ولا يسترسل مع متع الحياة الدنيا وأن تكون نظرته لما سوى العبادة المتبتلة لهواً ولعباً، وما كنت برِما من هذا الصنف ولا ضائقاً بهم صدري، وإن لقيت من صحبتهم نصيباً، فهم من براءتهم وفطرهم السليمة يجتازون مفازات مسبعة وحاجتهم إلى من يرود لهم ويحفظ ساقتهم، وما لم يدرأ عنهم المجربون سهام المتربصين فإنهم سيكونون غنيمة باردة لمن يستدرجهم من حيث لا يعلمون، ولقد شهدت علماء ومفكرين يفرون من هذا الصنف فرارهم من الأسد، ولا سيما إذا أمطروهم بأسئلة محرجة ظناً منهم أنها أسئلة مفحمة ومسبقة الصنع واستدراجية، ومتى لم نستوعب أبناءنا في مرحلة المراهقة والطيش وعلى مفترق الطرق تخطفهم دعاة السوء وبخاصة أن الأمة العربية والإسلامية تمر بمرحلة عصيبة ويقيمها أعداؤها بأنها تفرخ الإرهاب، وما كان لها أن تذعن لهذا الاتهام، ولا أن تسمح باستشراء التطرف بين أوساط الشباب، وما من عالم أو مفكر فرض على نفسه الحضور في بعض المحافل إلا ويلحق به من المريدين من يود اقتناصه لمراده، فالشباب المتحمس كالجمهور الذي يود من ممثله الخروج على النص، ولقد تغري الهتافات الممثل فيستدبر النص ويغرق في المفاجآت والتغريد خارج السرب، وقد يوغل في التهريج لذاته دون هدف، والعلماء الورعون يعدون اللحاق بهم والتكدس من حولهم من بوادر الفتن ولهذا يصرفون طلابهم عن اللحاق بهم في الأسواق، والعالم والمفكر حين يستجيبان لاستدراج لا يختلفان عن الممثلين الخارجين على النص، فهما تحت وابل الهتافات وسحر الأضواء ينسيان نفسيهما وحدود ما تقتضيه مصلحة الأمة وما يتطلبه راهنها، حتى إذا بدت سوآتهما طفقا يخصفان عليهما من التراجعات وتناسي حصائد الألسن وما حبرت أقلامهما من تجاوزات ما كان لها أن تكون في ظل ظروف عصيبة يمر بها علمنا الثالث المنكوب بجهل أبنائه وتسلط أعدائه.

تلكم خواطر جَرَّ إليها الحديث عن كتاب موسوعي تفتقت عنه موهبة أدبية نادرة من رجل جمع الأدب وأسلوب العرض الجميل من أطرافها.

وكتاب «الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني ت ٣٥٦-٩٧٦م» من كتب الأدب التي لا يعد أديباً من لم يقرؤه، وكل الذين أرخوا للأدب العربي أو درسوا شعراءه منه يصدرون وإليه يعودون، وجاذبية الكتاب في أسلوب العرض وطريقة التناول، وما كنت ألمُ به إلا حين أمل من القراءة الجادة لأن ما يضيفه من متعة ومعرفة وبراعة في (العنعنة) و (الأنأنة) تنسي الإنسان ما يعانيه من مغالبة الأفكار ومعاضلة الفلسفات، وقارئ مثلي لا ينفك من القراءة الجادة ثم لا يحتمل تبعاتها بهذه السن المتقدمة لا بد أن تكون إلى جانبه كتب خفيفة الظل غزيرة المادة، ولقد خفف من أعباء الكتاب تلك الروح المرحة وخفة الظل والكتابة المستعذبة، فالأصبهاني مأخوذ بالرواية، إذ لا يعنيه أن يكون الرواة

---

(١) تاريخ المقال: ٢٦/ ١٠/ ٢٠١٠

المتناقلون للأخبار بالعشرات، حتى ولو كان المرويّ سطراً أو بعض سطر، وقد يأتي بالرواية من طرق أخرى، وكأنه يريد تعزيز رؤيته.

وأغلب الظن أنه يلفق هذه الأسانيد وقد ينشئها إنشاء دون أن يكون لها أصل في الواقع، ولقد اعتمد عليه مؤرخو الأدب، وبخاصة «شوقي ضيف» في تاريخه بل أكاد أجزم بأنه استفرغ الأغاني، وبخاصة حين كتب عن الغناء والمغنين في مكة والمدينة، وتلك رؤية بالغ فيها، وأخذها مأخذ الجد، وقد انبرى له من نقض غزله من بعد قوة أنكاث وليس مهما أن يكون فيما كتب على بينة من أمره أم لم يكن، فقد قضي الأمر الذي فيه يختف المؤرخون للأدب، ولسنا بصدد توثيق ما جاء في الأغاني أو تكذيبه تمهيداً لإسقاطه، نحن نقطع بأن الكتاب من أكذب الكتب، ولكنه من أمتعها وأنفعها وعلى المتمتع أن يحسن الجني على حد:-

ولقد جنيتك أكمؤاً وعساقلاً

ولقد نهيتُك عن بنات الأوبرة

وإلماماتي المتلاحقة والمتقاربة في كتاب «الأغاني» تركت في نفسي انطباعاً حسناً عن كتب التراث عامة، وحين سئل المرحوم «غازي القصيبي» عن أحب كتب التراث إلى نفسه بادر إلى إحضار العقد الفريد لابن عبد ربه وما كان ليفوق الأغاني في الجاذبية والشيوع، ولقد كنت أود لو أن المتعقبين لهذه الأمهات التمسوا شخصيات المؤلفين من طرائفهم ومن لحن القول عنده، ذلك أن للأصفهاني في نكهة خاصة لا يشاركه فيها أحد، وإن تشابهت المناهج والأساليب، فهو يكتب عن موهبة ومعرفة، ومؤلفاته الأخرى لم تكن بمستوى الأغاني، لأنها كتب معرفة فقط، ومن الجنايات تعمد اختصاره أو تهذيبه، أو تجريده من الأسانيد لقد قرأت (الأغاني، موجزاً عند (الفيروز آبادي) وعند (طه حسين) وآخرين. فأحسست بثقل العمل وغثائيته، وفقد الكتاب لروحه المرحة وأسلوبه الجذاب، ولو أن المتكلفين ضبطوا النصوص وشكلوها وشرحوا ما انغلق منها لكان خيراً لهم، فطبعات (الأغاني) المتكررة وسرقة الطبعات المحققة والتصوير والتشويه لم تكن جميعها بالمستوى المطلوب، والمحققون لم يفوا بمتطلبات التحقيق العلمي الدقيق الذي نراه بما سوى الأغاني. ولربما يكون مرد ذلك تحرج العلماء الجادين من إسفاف المؤلف وفحشه، أو أن طول الكتاب حال دون التوفر على متطلبات التحقيق العلمي الدقيق الذي نجده في كثير من كتب التراث التي لم تبلغ قد (الأصفهاني) ولا نصيفه، ولعل طبعة (دار الكتب) هي الأوفى والأدق، والمشكل أن المتوفر في الأسواق مصورات منها، وليست طبعات، والناشرون اللبنانيون من أجرأ الناشرين على السرقات، ولهذا يتأذى المحققون المتميزن في تحقيقهم من عمليات السطو غير المشروع وحماية الحقوق لا تجد من يصونها، وإن وجد قانون يحدد العقوبات فإنه لا يوجد سلطة تنفذ القانون، ولقد يكون من فضول القول أن نتحدث عن طريقة (الأصفهاني) الفريدة في التأليف فهو قد اختار مائة صوت غنائي لعدد من الشعراء والشواعر وكل شاعر يسجل له صوتاً يتقصى أخباره بطريقة هي الأخرى ممتعة وفريدة، وكل مؤلف ينتاب الأغاني للتزود فيه يقتل ما فيه من روح المرح وذكاء العرض وبراعة التناول ولو تعقبنا ما فيه من مادة ثرة لوجدناها موزعة بين عشرات الدراسات ولكنها كما الأعضاء المفصولة من أجسادها فهي في مكانها من الكتاب في أحسن تقويم ولكنها فيما سوى أما كثرة أشلاء مبعثرة، وذلك سر تعلقي بالأغاني وللجوء إليه للراحة والمتعة والفائدة والأغاني بطريقته الفريدة ك(الكتاب) ل(سيبويه) الذي لقي اهتماماً من القراء والدارسين وظلت قراءته الشرط الرئيس لمن أراد أن يكون أديباً

مؤسساً لمعارفه مثلما كان (الكتاب) الشرط الرئيس لمن أراد أن يكون نحوياً مؤسساً لمعارفه.

الغريب أن كتاب (الأغاني) لم يكتمل ونهايته مبتورة ولم يصل المحققون إلى نهاية طبيعته له، ولم ينبر أحد لإكماله مثلما فعلوا مع كتب أخرى فقد أكمل (السبكي) كتاب (الودري) (المجموع) فيما أكمل (محمد سالم) كتاب (الشنقيطي) (البيان).

أفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ .. ! [١]

أَنْ تكون حِزْبياً منْغلقاً، أو طائِفياً متزمّتاً، أو ثورياً متمرداً، أو سلفياً متشدداً، أو «ليبرالياً» متفلتاً، فذلك أمر يسير، يشهده الناس، ويألفه الراصدون لحراك الحضارات والمجالدون للأفكار والملل والنحل، والتاريخ الحضاري والسياسي حافل بالجَزْر والمد، وكم من شبابٍ طائشين، وكهولٍ متصابين طاشت سهامهم، وضلت أفهامهم، وزلّت أقدامهم في تلك المسارب، ثم ادَّكروا بعد أمة، فاستقاموا على الطريقة فأسقاهم وطنهم ماءً غدقا.

ولكن المحيِّر حتى الذهول، والمضل حتى التيه أن تكون إرهابياً، لا يطلب عَرَض هذا الأدنى ولا الدار الآخرة ونعيمها، ولستُ أقصد الإرهابي الذي يخاتل ضحاياه بياتاً أو هم قائلون، ويقعد لهم كل مرصد، وإنما أعني الذي يلف جسمه بالمتفجرات أو يحشو دُبره بأصابع الديناميت أو يفخخ مركبته، ثم يقدم طائعاً مختاراً رابط الجأش على إزهاق نفسه ومن يليه مِمَّن يعرف ويستهدِف ومِمَّن لا يعرف ولا يستهدِف من الأبرياء والمستهدفين على حد سواء. كيف يقدم بعزيمة لا تلين وإصرار لا ينثني؟

-من أعَدَّه؟

-ومن جنَّده؟

-وما الخطاب الذي صنعه؟

لقد عرفنا اللعب الأقذر والجواسيس الأمهر والمأجورين للقتل أو للخطف أو الشغب من يَضْربون وَيَهْرُبون، كما لم يخفَ علينا المتاجرون بأقلامهم وألسنتهم، وعرفنا أن الصراع بين الحق والباطل أزلي وسمعنا قسم الشيطان: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وتوعده: ﴿لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ وتهديديه: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. ولكننا لم نعرف ولا أحسبنا قادرين في المنظور القريب على معرفة المغوين والمحتنكين والقاعدين على الطرق من البشر لهؤلاء الأغرار.

-ما منهجهم؟

-وما خطابهم؟

-وما همهماتهم. أسحَرَةٌ هم أ أم مشعوذون أم علماء نفس ماهرون، أم عندهم علم من الكتاب؟

تلك مدارسنا ومعاهدنا وجامعاتنا وجمعياتنا وخطباؤنا وكتابنا وكل من له أمر علينا من علماء ووعاظ ومؤسسات دينية يرغون ويزبدون ويوجفون بالقلم واللسان، ويأتون الناشئة من بين أيدهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم، ثم لا تجد أكثرهم مكترثين بكل هذا الفيض العميم من القول، وكلنا مدعومون وآمنون وعلى المحجة البيضاء ودعاة السوء خائفون يترقبون ومجرمون يخاتلون وضالون مضلون وفي كل يوم نسمع من يفجر نفسه بحزام أو يفجرها بسيارته المفخخة، والسجون مليئة والجحور والكهوف منها ينسلون وإليها يأوون.

-من غسل أدمغتهم؟

-وبماذا غسلها؟

-وكيف استطاع غسلها؟

---

(١) تاريخ المقال: ٢٦/ ١٠/ ٢٠١٠

ألم يكن للحيطان آذان؟ ﴿أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾.

لقد كتبت عن الإرهاب فَصْلاً كاملاً في كتابي «أبجديات سياسية على سور الوطن» وكنت أظن ألَّا مزيد على ما فتح الله به علي، وأنني جئت بما لم تستطعه الأوائل، وكتبت سلسلة مقالات لا أحسبها تبلغ مُدَّ أحدٍ من العلماء والأدباء والمفكرين الأجلاء الذين سبقوني أو واكبوني ولا تبلغ نصيفهم، وكأننا جميعاً ك ﴿الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء﴾.

ومع أنني بلغت من العناء في البحث عن ضالتي ما بلغه «يعقوب» عليه السلام حين ابيضت عيناه من الحزن على ولديه إلا أنه وجدهم، ولما أَهْتدِ إلى صناع الإرهابيين المهرة ومسانديهم ولم أقف على مقاصدهم ومراميهم، و«إيرك هوفر» صاحب كتاب «المؤمن الصادق» الذي ترجمه الفقيد «غازي بن عبد الرحمن القصيبي» يقارب المشكلة ولكنه يُقِيلُ دون مُعَشَّاها، إذ تكون مقاربته للحواظن وليست للجاهزيات، إنه يدرس الأجواء ولا يفكك النتائج.

لقد استهل كتابه بمقولةٍ ل«بليز باسكال ت ١٦٦٢م» الفرنسي: «يود الإنسان أن يكون عظيماً، ويرى أنه صغير، ويود أن يكون سعيداً، ويرى أنه شقي، ويود أن يكون موضع الحب والتقدير من الناس، ويرى أن أخطاءه لا تجلب له سوى كراهيتهم واحتقارهم، إن الجرح الذي يقع فيه نتيجة هذا التناقض يولِّد لديه أسوأ النزعات الإجرامية التي يمكن تخيلها، ذلك أنه يبدأ في كره الحقيقة التي تدينه وتريه عيبه».

و«القصيبي» رحمه الله يرى أن الإرهاب وليد التطرف، وأن التطرف وليد الإحباط، وهذا الكتاب مَعَنيٌّ بالتطرف، وكيف ينشأ وهذا يطرح توصيات لتفادي الإحباط، ولقد شدَّته المعادلة التي يعرضها المؤلف، وملخصها كما يقول: (تبدأ بالعقل المُحْبط يرى المحبط عيباً في كل ما حوله ومن حوله وينسب كلَّ مشكلاته إلى فساد عالمه ويتوق إلى التخلص من نفسه المحْبَطة وصهرها في كيان نقي جديد).

والتخلص الذي يقصده المؤلف والمترجم ليس في الإزهاق ولكنه في الانصهار بجماعة ثورية «راديكالية» تستغل ما ينوء به المحبط من مرارة وكراهية وحقد، والكتاب كما يود له المترجم رسالة للدول العربية مؤداها ملء فراغاتهم بالفرص وازدهارها بالأنشطة والقضاء على الإحباط بين الشباب، فالمترجم يرى أنه بزوال الإحباط يزول التطرف وبزوال التطرف ينتهي الإرهاب.

والقصيبي -رحمه الله- يقطع بل يراهن على ذلك ويقول بالنص: «هذا - في رأيي هو الأسلوب الوحيد الناجع لمشكلة تقض مضاجع العالم كله».

والكتاب بكل ما ينطوي عليه من رؤى صائبة لم يؤَوِّل رؤياي بعد، فأنا لا أسأل عن الحواظن بقدر مساءلتي عن طبيعة دعاة السوء على أبواب جهنم، وإمكانياتهم المذهلة وتناميهم رغم الضربات الموجعة والإجماع العالمي على مواجهتهم بكل الوسائل الممكنة، ولست أجهل السياسة وتلوناتها واتِّساعها للشيء ونقيضه، ولست أجهل أن الصراع من السنن الكونية الأزلية، وأعلم علم اليقين جدل الدين والإثنيَّة والعلمانية والأصولية وأزمة الحرية و«الأيديولوجية» والطوباوية والوفاق الهش وتجدد الأزمات كما تتجدد الخلايا في الجسم كل ذلك دقيقه وجليله مستحضر لا يغيب، غير أن تأويل الرؤيا في ظل هذه الإمكانيات من المستحيلات، ولقد أَنْصَاعُ إلى رؤية «إيريك هوفر» بإرادتي لا بعقلي، وكم هو الفرق بين الرؤيتين:

-رؤية يعضدها الإيمان اليقيني.

-وأخرى يخذلها الارتياب الإيماني.

فتساؤل عمن يصنع الإرهاب بهذه القوة التي تفوق كل قوة، وبذلك النفاذ الذي لا يُرد، وهل بعد الجود بالنفس من إيمان، أعرف جيداً أن العقل يغيب في تلك اللحظات العصيبة، ولقد توسلت بكتاب: «الموت اختياراً» بوصفه دراسة نفسية واجتماعية موسعة لظاهرة قتل النفس، على أنني متيقن أن المنتحر يُنهِي نفسه ولا يقدمها قرباناً للقتل العشوائي والمجاني للآخرين، ولقد يكون هناك محرض على الانتحار مستغل لظروف المنتحر للتخلص من الحياة، غير أن الإرهابي لا ينتحر للتخلص من الحياة، ولكن يجود بنفسه ثمناً لإزهاق أرواح أخرى ليس له عندها ثأر.

وبعد: دعونا نبحث عن مقدمات صحيحة لنصل إلى نتائج صحيحة، أن نخفي عيوبنا أن نتسلل لواذاً وندس بعض عيوبنا في التراب ونمسك ببعضها فذلك لا يزيد الوضع إلا ارتكاساً في حمأة المشكلة العالمية.

لقد حولنا كل شيء إلى مشاجب، قلنا عن المناهج وقلنا عن الصحوة وقلنا عن الحاكمية، وقلنا عن اللعب وعن الإحباط وعن التطرف بشقيه: «الديني» و«الليبرالي» وقلنا عن الغرب ما قاله مالك في الخمر، وسنظل نقول وسيظل الإرهاب في توسع وتلون حرباوي ومتى أصبنا المحز بطل سحر الساحر، لا بد من مؤسسات من كل أطياف المجتمع ومفكريه ومجتهديه تشرح وتفكك وتقوض وتقول الكلمة الفصل فشبابنا ومثمنات وطننا ورجالات وطننا وكل أشياءنا الاستثنائية فوق المزايدة.

دعونا نفكر في أنفسنا ونُسائلها قبل أن نفكر في الآخر ونسائله. وساعتها نبدأ رحلة العودة من زمن التيه، فالأمر لم يعد مواتياً والأجواء لم تعد مساعدة وما لم نملك الحس الأمني والقدرة على الإقناع والاستمالة والاحتواء ضاع في لجج المشاكل المجداف والملاح.

هل الأدب في خطر.. !؟[١]

لفت نظري وأنا أُلوب ممرات معرض الكتاب أحد الزملاء إلى كتيب صغير الحجم كبير الفائدة للناقد «توزفيتان تودوروف» تحت عنوان «الأدب في خطر» ونحن عشاق التجميع للكتب نتبادل الخبرات، ويسعى بعضنا في حاجة بعض، والغريب...

... أن الكتاب الذي لا تتجاوز صفحاته السبعين يباع بأضعاف قيمته المتوقعة لأن الناشر يحتكر، ولا يدع فرصة لمسوق آخر أن ينافسه، ولهذا أضربت أن أدفع الثمن مكرهاً لا كريماً، فالكتاب مهم لمثلي، والكاتب أهم والذين ينقبون عن أساطين الفكر والنقد وسائر العلوم النظرية يتعرفون على الكتَّاب والكتب، وتكون لديهم معهودات ذهنية تساورهم كلما دخلوا معرض كتاب أو مكتبة، ولا يثنيهم عن الشراء غلاء الأسعار ولا التلاعب فيها.

وأول ما تعرفت على «تودوروف» كان من خلال مقالين مترجمين له تحت عنوان «الإرث المنهجي للشكلانية» و«علاقة الكلام بالأدب» وهما مسيلان من كتابه:

«شعرية النثر» في إثر اهتمامي بالمسجد النقدي الذي سيطر على المشهد العربي وانصاع إليه من يحسن التلقي ومن لا يدري ما الأدب وما النقد. كان ذلك قبل عشرين عاماً، وكان المترجم «أحمد المديني» قد اختار مجموعة من المقالات الأدبية لأشهر النقاد الأسلوبيين وهم: «تودوروف، وبارت، وأمبرتو، وأنجينو» معتبراً هذه المقالات مشتملة على أصول النقد الجديد.

و«تودروف» عند المحدثين من النقاد علم في رأسه نار لأنه جدَّ في الابتكار وتلقف المستجد من الآليات والمناهج، والنقد الحديث لم يصبر على طعام واحد، بل ظل في تحول مستمر، حتى لقد أصيب معتنقوه بشهوة التغيير لذاته واستباق المستجدات، ولقد يمر في بعض فتراته بفوضوية مربكة، وكم تناولت التحولات في مقالات ودراسات ومحاضرات لا أحسبني مضطراً إلى إعادتها، فالذين يحملون هم النقد يلمون بشيء منها، وليس هناك ما يمنع من الإشارة إلى ثلاثة تحولات تعد فيما أرى جماع التبديل والتعديل: فلقد كان مركز الكون النقدي قائماً على المبدع منه ينطلق وإليه يعود، وفي زمن تسلطه وهيمنته شاعت مناهج نقدية، كالمنهج التاريخي والنفسي والاجتماعي، وحين انتقل مركز الكون النقدي إلى النص أوجفت مناهج وآليات أخرى وفي نسختها المناهج اللسانية. حتى لقد حكمت ب»موت المؤلف» وفي محطة النقد الأخيرة جاء دور المتلقي حيث فاضت أوعية النقد بنظريات التأويل والتلقي والتفكيك، وقد يكون في الأفق نظريات نقدية أخرى ولكنها لن تكون بمستوى النظريات الثلاث المتحكمة فالنقد الثقافي لا ينظر إلى المبدع ولا إلى النص ولا إلى المتلقي وإن ألمَّ بشيء من مناهجها وآلياتها.

و«تودوروف» في كتابه أو محاضرته التي تحولت إلى كتاب مثير يحذر من هيمنة المناهج والآليات التي لا تمد بسبب إلى أدبية النص أو شعريته، وهو إذ يدق ناقوس الخطر يحذر من التلاعب بالأدب فهو يقول بالنص: «لا نتعلم عماذا تتحدث الأعمال الأدبية وإنما عماذا يتحدث النقاد» وكأنه بهذا يحذر من طغيان النظريات على الأعمال الإبداعية، فالأديب مستهلك بالآلة.

ولقد مني النقد العربي القديم بشيء من هذا، فالنحاة والصرفيون والبلاغيون مغرقون في المعيارية، وهم يقرؤون علم الآلة لذاته وقد لا يستطيعون استثماره في النقد ولا في

---

(١) تاريخ المقال: ٢/ ١١/ ٢٠١٠

الممارسة الإبداعية ولو قيل لأساطين النحو والصرف والبلاغة: إن ما تجوِّدونه وتعلمونه وتجالدون من أجله لا يعدو كونه آلة من آلات النقد لثارت ثائرتهم.

ولقد ينظرون إلى الأدباء والنقاد والمبدعين نظرة دونية وما هم في حقيقة الأمر إلا آليات من آليات النقد، ومن يجرؤ على مثل هذا القول، والجامعات فربما لا تقيم للنقد وزناً بقدر ما تقيمه للنحو والصرف والبلاغة، ولو أذعن علماء الآلة لهذا المفهوم الواقعي لكان بالإمكان الاستفادة التامة من تلك العلوم التي ظلت مقصودة لذاتها.

ولقد كنت ولمَّا أزل في مناكفات حادة مع هذا الصنف من المتخصصين في النحو والصرف والبلاغة، ولو اعتقت المناهج من صلف المعيارية واتخذت المنهج التطبيقي أو الوظيفي لكانت النتائج إيجابية، ولكن أنّى لهم الإذعان للواقع. و«تودوروف» في تأوهاته وإشفاقاته على أدبية السرد وشعرية الشعر يجمجم عما في نفوس الأدباء والنقاد المدركين للمشكلة.

ومثلما تأذى النقد العربي من انعزال علم الآلة واستغلالها وكونها غاية في ذاتها، فقد تأذى «تودوروف» إذ يقول وهو يرى استشراء المنهج «البنيوي»: التحديدات التي حملتها المغاربة البنيوية في العقود الماضية مُرحباً بها شرط احتفاظها بوظيفة الأداة هذه عوض أن تتحول إلى غاية لذاتها، والخطير الذي يخشاه على الأدب مرده إلى الاهتمام بعلم الآلة وجعلها غاية في ذاتها، وذلك ما نعانيه في التراث والمعاصرة، فالذين يقرؤون الأدب لا يلمون بالنصوص الإبداعية إلا في أضيق نطاق، وطغيان النظريات واستفحالها حال دون التذوق ومباشرة التعاطي مع النصوص، وتخوف «تودوروف» يمتد إلى ما هو أخطر من ذلك إذ يرى المذهبية الكفرية، وأدلجة الأدب جناية على الأدب، ولقد تذكرت في هذا الصدد الحملة العنيفة التي شنها «زكي ومبارك» على «أحمد أمين» حين اتخذ من الظواهر حكماً معمماً وجعل الأدب العربي أدب «مَعِدَة» وظاهرة تعميم الأفكار انتاب عدداً من المتسرعين، و«تودوروف» في تعقيبه للمشهد الأدبي راعه غياب النصوص الإبداعية وحضور النقد بآرائه ونتائجه ومناهجه وآلياته، ومثلما حضر النحو العربي بقواعده ومعاييره ومدارسه وعلمائه وخلافاتهم ونظرياتهم الهلامية كـ«نظرية العامل» وأدى ذلك إلى غياب التطبيق وضعف مخرجات الجامعات فقد حضر النقد والنقاد وغاب الإبداع والمبدعون، وقامت الأحكام والآراء مقام وثائق الإثبات.

فهل لا زال الأدب في خطر أحسب أن الخوف قائم والتحرف لإعادة الإبداع والمبدع واجب على المقتدرين والمتنفذين و»تودوروف» يختم تخوفه بقوله:-

«كل المناهج جيدة بشرط أن تظل وسيلة بدل أن تتحول إلى غاية في حد ذاتها» فهل يعي الخلف تحذيرات السلف.

دعوا الشقاق وأجيبوا داعي الوفاق .. !(١)

الواقع العالمي تعصف به اهتياجات المطامع، وجشع المتربصين والمهيمنين، ومصاصو الدماء لا يبالون بأي واد هلك المستضعفون. والواقع الإسلامي تجتاله النزاعات الطائفية والإثنية والإقليمية، ويوهن قواه التخلف العلمي والاستهلاك الجشع، وتتحكم بمصائره دول الاستكبار وضعف البنى السياسية.

والواقع العربي ناتج طبيعي للعصف والاجتيال والدسائس والتخويف والاختلاف وتنوع النظم وتعارض المصالح والأحلاف، وتحت كل شاخص وفي جوف كل مغارة قضية وهمية ساخنة تتململ، وانفجارها مؤذن بفساد كبير، وملفات القضايا المأزومة بين نشر وطي.

ومن لم يهتم بأمر أمته في ظل هذه الظروف المأزومة فليس منها، وأضعف الاهتمام أن يتحرك المقتدرون في الوقت المناسب لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، والعالم المتطاول بإمكانياته المدل بقوته يحسن الهدم ولكنه لا يقدر على إعادة البناء، وفي ظل قابلية الأمة للاستعمار بشكله الجديد لا يجد غضاضة من ارتكاب فظائع الأمور بوعود معسولة تعطو إلى وارقها أعناق المقوين، ثم لا تصل إليها فترتد خاسئة حسيرة. والأمة العربية وإن تفرقت بها السبل لا يزال أملها معقود بناصية الخيرية التي بشر بها من لا ينطق عن الهوى، والخيرية وإن بطأ بها ركام المشاكل فإنها بذرة كامنة، تنشق عنها الأرض بمجرد إغداق الماء، وأية مبادرة ناصحة هي بمثابة وابل أو طل تصيب جنة بربوة.

ورائد الوفاق وتجسير الفجوات والتقريب بين وجهات النظر وتحمل المشقة في سبيل جلب المصالح ودرء المفاسد عن أمته يهب بندائه الإنساني في ساعة العسرة لتغليب العقل على هوج العواطف والإيثار على الأثرة ولسان حاله يقول:-

لم أكن من جُنَاتِها علم الله

وإنّي بحرّها اليوم صالي

وكيف لا يشاطر العراقيين مآسيهم وهو معهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى؟

والمملكة قيادة وشعبا يسوؤهم ما يتعرض له بلد شقيق من خلافات لم تحسم بالجدل والحوار والموائد المستديرة بل نقلت خلافاته إلى ساحات القتال وأصبح وقودها الناس الأبرياء والممتلكات المعصومة ووسائل التنمية والبنى التحتية، ونتائجها العداوة والبغضاء واختلال الأمن وزراعة الأحقاد والضغائن وهجرة الكفاءات والتدخلات المخلة بالسيادة والكرامة، وكل هذه الفوضى والقتل المجاني يجتاح العراق بلد الحضارات الإنسانية وشواخص التاريخ ومستقر الآثار ومسيرة العلماء والفلاسفة والأدباء. ومن المؤسف أن يتحول برجاله الأكفاء وأرضه المعطاء وتاريخه المجيد إلى أتون حرب ضروس أحرقت الأرض وكسرت العظم وأذهبت الريح وفرقت الكلمة، ولن يخبو أوار الفتنة العمياء إلا بإرادة الأمة واستجابة قادتها لنداء ملك الإنسانية المسكون بهم أمته، وواجبهم بعد نفاد الصبر واستحكام حلقات المشكلة أن يقفوا لله ويصلحوا ذات بينهم، لقد ضجرت الأمة العربية من تواصل الحروب وانبعاث الفتن الداخلية وانفلات الأمن من مواقع كثيرة من عالمنا المنكوب بأبنائه وأعدائه على حد سواء، الذين يستخفون بالفتن أو يسهمون في إشعالها، يقترفون جرائم إنسانية تعمق المآسي وتخيف الآمنين، ويمتد دخانها

---

(١) تاريخ المقال: ٩/ ١١/ ٢٠١٠

إلى المجاورين، وأحداث العراق المتواصلة خير شاهد على ذلك، والأمن والاستقرار إرادة الأمة السوية وهدفها الرئيس، ومن أخل بشيء من ذلك فقد اكتسب الإثم وسبَّه التاريخ كائناً من كان.

والعراقيون الذين أنهكتهم الثورات والحروب وقمعتهم النظم الجائرة يودون أن يذعن المسؤولون لنداء الملك عبد الله المجرد من كل شرط، لقد توصلوا بالقوى الكبرى لإزاحة الظلم وإقامة الحكم العادل، وقد تمت الإزاحة بثمن باهظ، وكان يجب وقد استعادوا حريتهم وإرادتهم أن يحترموا إرادة الأمة التي مارست حقها في الانتخابات واختارت حكومتها، ولم تبخس حق الوطن، وكيف يعودون إلى الأثرة والطائفية والاستبداد وهم قد أراقوا الدماء في سبيل تحقيق العدل والمساواة وتداول السلطة وفق أحدث الآليات العصرية، إنهم بالإصرار على فرض الإرادة الطائفية أو العرقية أو الحزبية يعودون إلى مربعاتهم الأولى مربعات القهر ومصادرة الحريات، وحتى لو انتصرت طائفة على أخرى، أو حَيَّد عرقٌ من الأعراق ما سواه أو استأثر حزب على حزب بالحكم فإن إرادة الأمة لن تقهر، وستنبعث الفتنة من جديد وستمتلئ السجون، وتشتعل المظاهرات، وتعود المقابر الجماعية، وواجب العقلاء أن يحقنوا الدماء وأن يقبلوا دعوة محب لهم لا يريد من ندائه إلا إشاعة السلام والسلامة، وكف الأيدي الخفية التي تأز الفتن أزاً.

لقد التزمت المملكة بالحياد الإيجابي وعدم التدخل في الخلافات بين الفرقاء احتراماً لسيادة الدولة الشرعية وأملاً في أن تعود الأمور إلى أوضاعها السوية، وهي تعرف من يعصف بالأوضاع، وكان أملها أن يتملك العراقيون حل مشاكلهم بأنفسهم وأن يكونوا قادرين على الحيلولة دون أي تدخل خارجي، لكن الأمور تزداد سوءاً والتدخلات المشبوهة تسهم في تعقيد الأمور وتصعيد الخلاف وتحريك الجيوب النائمة، ولما ضاقت واستحكمت حلقات الفتن جلجل صوت رجل الملمات ولمؤدِّبات يقول صداها: «فُرِجَتْ وكت أظنُّها لا تفرج».

إن الكرة في شباك أطياف العراق وأعراقه وأحزابه، وهم يعلمون علم اليقين ويدركون أن الإيضاع في مسارب الفتن ستؤدي إلى أمكنة سحيقة، وكيف يفوتون الفرصة الذهبية وهم بمثابة العلم والتجارب وتقدير الظروف. والنداء الرحيم الذي أطلقه خادم الحرمين الشريفين لا يمكن أن يكون صيحة في مقبرة، إنه نداء مفعم بالثقة والتفاؤل، والشعب العراقي بكل أطيافه ملَّ الدماء والفوضى والصراع الطائفي والعرقي والإقليمي، ولما يزل يستشرف المنقذ. فهل يستجيب ذوو الفعاليات السياسية والصيحة الإنسانية التي انطلقت ملء أفواه المخلصين ممثلة بصوت الصدق والرأفة والتداعي صوت الإنسان في ساعة العسرة ستلامس آذان المخلصين ونخوتهم ولن تضيع سدى، إذ هي آخر فرصة للمصطرعين، والفرص الثمينة لا تدق الباب أكثر من مرة، والمؤمل أن يبتدرها المتنازعون على السلطة.

وإذ جاءت نداءات مماثلة سعت لحقن الدماء في لبنان وفلسطين وأفغانستان والصومال وفي مواقع أخرى فإن نداء اليوم ينطلق من أرض الطهر والقداسة وفي الأشهر الحرم ليقول للفرقاء: دعوا الشحناء والأثرة والإقصاء والتقوا على كلمة سواء فقد مل الشيوخ والأطفال رؤية حمامات الدماء.

من الأضحية إلى التَّضحية .. ! [1]

ما مِنْ مُلِمٍّ بشيء من التراث الأدبي إلا ويأتي على أسئلة لسانه التساؤل الضجر الذي فجَّره «أبو الطَّيب المتنبي»:

«عيد بأية حال عدت يا عيد».

والمتنبي الذي استبدل «كافوراً» بـ«سيف الدولة» أحسّ بفداحة مقترفه وصلف عناده، فانطلقت تلك الصيحة المدوية التي اقترف بها مظالم كثيرة، ليست ببعيدة عن أخلاقياته، وفي كل عصر ومصر يجرجر البرمون من العيد تلك التأوهات الحرّى.

عيد بأية حال عدت يا عيد
بما مضى أم بأمر فيك تجديد

فهو لا يريد قربه وقد نأت بالأحبة عوارض الزمن، ولقد برر خروجه مغاضباً من بلاط «سيف الدولة» إلى بلاط «الأخشيدي» بسعيه وراء المعالي:

لولا العلى لم تجب بي ما أجوب بها
وجناءُ حرْفٌ ولا جرداء قَيْدودُ

ولكن الزمن النكد سلبه كل شيء حتى لم يبق فيه ما تتيمه عين ولا جيد.

وفي العيد -أي عيد- يعود شريط الذكريات المرة والعذاب لتجدد الموقف وتجسد المشاعر، وعيد الأضحى تلتقي فيه شعائر كثيرة يعظمها المستجيبون لداعي الله، فالحج والأضاحي والليالي العشر وما تتسع له من عبادات وتكبيرات مطلقة ومقيدة بعض تلك الشعائر، والناس في الحج يتسابقون على الهدي، وفي غيره يصطرعون على الأضاحي، وكل متسابق ومصطرع يلبي حاجة في نفسه، وإذ لا ينال الله لحومها ولا دماؤها فإن هيمنة العادة والإلف تغري الناس بالتسابق على النحر والتباهي بالأشكال والألوان والأسعار والأعداد دون وعي بالمقاصد.

فالأضاحي تحيل إلى مفاهيم قد لا يدركها إلا المتأملون لمقاصد التشريع. ولسنا ندعو إلى الترك، وإن كانت أحكامها تتراوح بين الوجوب والاستحباب والسنة، حَسْب ما يذهب إليه العلماء، وفي اختلافهم رأفة ورحمة، ما لم يجتالهم شيطان التعصب الآثم، وإنما ننظر في فلسفة الشعائر وحكمتها وما تبعثه في النفوس من تأمل.

فالعبادات كلها لها حكمتها التي يعلمها من علمها ويجهلها من جهلها، ومعرفة الحكمة تقود إلى تشرُّب روح العبادة وممارستها وفق مقاصد المشرع، والبحث عن الحكمة مدعاة إلى تفعيل الأداء والتجاوز به حد النمطية والشكلية.

ولقد تُخفى الحكمة على ملتمسها، وقد يظن البعض أن التماسها من باب سؤال الله عما يفعل، وكأن الباحث يقول: لماذا شرعت تلك العبادة؟

ولقد يتصور البعض حكمة ليست صحيحة، وكل التوقعات والتصورات لا تمنع من التأمل والتفكير ليكون للشعيرة عائد مصلحي للفرد والمجتمع، والفقهاء المتضلعون إذ يختلفون في الحل والحرمة والإباحة ثم لا يجدون حرجاً ولا تأثيماً في ذلك، فإنهم حين يختلفون في الحكمة من باب أولى، وحديثنا ليس وقفاً على التماس حكمة الأعياد وما يواكبها من شعائر وما يهبه الله للأزمنة والأمكنة من فضل على غيرها، فذلك معروف ومألوف وإنما نريد تجاوز ذلك إلى تفعيل الشعائر ومد ظلها إلى جوانب من حياتنا

---

(١) تاريخ المقال: ١٦/ ١١/ ٢٠١٠

المتصحرة والمأزومة، فنحن إذ نهب لإجابة داعي الله في أوامره ونواهيه فإن للدين ظلالاً ما كان لنا أن نحسرها عن جوانب الحياة. فالمستجيب لداعي الله يسخو ويضحي بما له وينحر أضحيته ويجد في ذلك متعة وطمأنينة، وكم يكون واعياً ومتحضراً لو أنه ضحى بقليل من الجهد والوقت والمال لوطنه وعشيرته الأقربين، وكيف لا يجود لوطن أقلته أرضه وأظلته سماؤه وتدفقت عليه خيراته ولمواطنيه الذين يشاطرونه الأفراح والأتراح. هذا الوطن الذي أوصى الله بحمايته ورعايته والدفاع عنه بالنفس والنفيس. وربط الإخراج منه بخروج الروح من الجسد لم نرع حقه ولم نمحضه النصح، إن الحب الجبلي فطرة فُطر الناس عليها، وتفعيلها في ممارسة الحب بما يتخطى به إلى عتبات المجد والسؤدد والعزة والتمكين ومشاطرة الإنسانية أعباء الحياة العصيبة.

فالمواطن حين يستمرئ الكذب والكسل والخيانة والاتكالية واللامبالاة لا يكون مضحياً وإن هتف بالأمجاد وأحيا المناسبات ولهج بالثناء. وكيف تتحقق الإنسانية السوية وفي النفس ما فيها من العثرات.

الوطن ليس حفنة تراب إنه قبضة قيم، فمن شارك بالثناء والهتاف ثم لم يستقم على الطريقة فإنه مخادع لكنه لا يخدع إلا نفسه، إن ترجمة لمواطنة في احترام القيم التي لا تتحقق حضارة الانتماء إلا من خلالها: قيم تشريعية في التعامل وقيم تشريعية في التعبد . فالأضحية قيمة تعبدية والتضحية قيمة تعاملية. فالدين المعاملة، والدين النصيحة والدساتير والقوانين والأنظمة والتعليمات واللوائح قيم لا تستقيم الحياة إلا بتمثلها والخضوع لها وحمايتها وإشاعتها، بل لا تتحقق الحرية المنضبطة إلا باحترامها والتقيد بها، وليست المواطنة في الاستقطاب حول الذات والانطواء عليها واستفحال الأثرة وإشاعة مبدأ «إذا مت ظمآنا فلا نزل القطر» بل بإشاعة مبدأ:

فلا نزلت علي ولا بأرضي
سحائب ليس تنتظم العبادا

المواطنة في المشاركة والمشاطرة والإحساس بالمسؤولية الجماعية، فلتكن الأضحية مذكرة بالتضحية، حاملة على نحر السلبيات وإحياء الإيجابيات، ولنكن في مستوى شعائرنا، إن الغرب المادي ينظر إلى بعض شعائرنا نظرة ازدراء واستخفاف ومن حقه أن يتندر متى كنا نمارسها شعارات شكلية جوفاء لا يمتد أثرها إلى ما نأتي ونزر ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ فحين يقف الغافلون في الصف كالخشب المسنّدة ويمارسون الحركة ببلاهة وغفلة وجفوة تكون الصلاة عبثاً وعبئاً وإضاعة للجهد والوقت ويتحقق فيها قول المصطفى «**ثم تلق كالثوب الخلق ويرمي بها وجه صاحبها**» أو كما قال إنها مجموعة أقوال وأفعال لا تختلف عن أي ممارسة قولية أو حركية إلا بالنية والاحتساب والتمثل للمقتضيات، والحج حين لا يستشعره الحاج شعيرة وحدة وتوحيد وأخوة ومساواة ومودة ورحمة، يتجنب فيه الحاج الرفث والفسوق والجدال يكون تجمعاً فوضوياً ينقل الأوبئة ويشيع التنافر والتنابز ويهدر الطاقات والأموال. والأضحية حين يراق دمها ثم لا يعرف حق السائل والمحروم وذوي القرابة تكون تبذيراً لثروة البلاد وتلويثاً للبيئة ووصية الرسول «**اتق الله حيثما كنت**» تعني التلبس بفلسفة العبادة. إن الإسلام بشموليته وعالميته وصلاحه لكل زمان ومكان لا يتحقق أداؤه السليم كما أراد له المشرع إلا بوعي مقاصده وسعيه لجلب المصالح ودرء المفاسد، ومن أقام حروفه فعليه أن يقيم حدوده وأن يحفظ التوازن بين مطالب الروح والجسد.

وإذ أقام الله الكون عن سنن لا تتبدل ولا تتحول فإنه أقام الإنسانية على مثل ذلك، واتقان شفرة الحياة تحقق عالمية الإسلام وشموليته وصلاحيته، فلنكن حملة أمناء لهذا الدين نعظم شعائره ومشاعره بالانضباط والالتزام واحترام النظم والتعليمات ومشاطرة المسؤولين مهماتهم الجسام، فكل مواطن رجل أمن شاء أم أبى وإن لم يحمل هذا الشعور أصبح عبئاً وسقط متاع ووقف عند الأضحية ولم يتجاوزها إلى التضحية.

الطَّلعة المُطْمَئنة .. ![1]

عيدٌ سعيدٌ حين تحاملت على نفسك وقطعت قول كلّ خطيب وقلت بعفويتّك وحميميتّك: لستُ أدري أهو انزلاق أو عرق نساء، وما كان شعبك قبل رؤيتك مطمئناً على صحتك، ولأنك لا تريد لشعبك أن تمضي به الشكوك ويقضي هذه المناسبة السعيدة تحت وابل التساؤل، فقد خرجت عليهم تتوكّأ على عصاك، لقد تنفّس الجميع الصعداء لأنّ طلعتك البهيّة وخطواتك الوئيدة أعادت إليهم السعادة، وأراحت نفوسهم، وفتحت أمامهم أبواب الأمل، وعدت إليهم كما كنت صمّام أمان ومبعث عز واطمئنان:-

هــذه دولـــة المكـــارم والـــرأف
ة والمجـــد والنـــدى والأيـــادي
كســفت ســاعة كمــا تكســف الشــم
س وعـــادت ونورهـــا فـــي ازديـــاد

لقد كان لقاؤك بأبناء شعبك أغلى هدية يتلقّونها في مساء العيد، لله قلبك ما يخاف من العناء، ويخاف أن يقلق عليك محبُّوك، ولسان حالك يقول لهذه الأمة المترقِّبة لأخبار الوعكة التي ألمّت بك:

كـن حيـث شـئت فمـا تَحُـول تَنُوفَـةٌ
دون اللقـــاء ولا يشـــط مـــزاد

لقد أطلت عليهم طلعتك البهيّة لتبعث السكينة والثقة، وكيف لا يتطلّعون وأنت مبعث أنسهم وراحتهم ومناط آمالهم:-

ألبســـك الله ثـــوبَ عافيـــةٍ
فـــي نومِـــك المعْتـــري وفـــي أرقـــك
يخـــرج مـــن جســمك الســقام كمــا
أُخْـــرج ذَمُّ الفِعـــال مـــن عنقـــك

وإذ غبت عن قيادة الحجيج بشخصك، فقد حفّتهم مشاعرك ووسعتهم خدماتك، وشملتهم توصياتك، ونهض بهمّك واهتمامك رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وكلُّ حاج يرفل بتلك الحلل يلهج بالثناء والدعاء، أجزل الله لك المثوبة وعظم لك الأجر ودرأ عنك مصارع السوء وأسبغ الله عليك نعمه ظاهرة وباطنة:

وإن تَجِـــدْ علَّـــةً نُعَـــمُّ بهـــا
حتَّـــى ترانـــا نُعـــاد مـــن مَرضِـــك

والقلوب التي تهفو إليك ها هي قد أناخت بين يديك تمحضك المحبة وتصدقك الدعاء، وتلهج بالشكر للمتفضّل المنعم الذي أسبغ عليك الصحة والعافية، فأنتم ذخر الوطن وسنده

---

(١) تاريخ المقال: ١٨/ ١١/ ٢٠١٠

ومحط آماله، فلتعش في قلوبهم رمز محبة وبلسم شفاء وصمّام أمان. حفظك الله لتكمل المسيرة، وتحقِّق طموحاتك وتطلُّعاتك وآمالك فأنت:-

بصـير بأخـذ الحمـد مـن كـل موضـع

ولــو خَبَّأتْــه بــين أَنْيابهــا الأُسْــدُ

وإذا كان القادة قد حسموا بعض المواقف العصيبة بالذخيرة الحيّة، فأنت تحسمها بالكلمة الطيبة والقول السديد، وذلك سر تألُّقك وانتزاعك للمحبة والإعجاب والتقدير من كافة الأوساط العربية والعالمية، وحقّ لك أن تسمّى: بملك الإنسانية وأن تدرأ عن أمّتك ما تشيعه قالة السوء من أنّ الأمة العربية والإسلامية مصدر التطرُّف والإرهاب، وأمام طوفان الإشاعات المغرضة، بادرت المشاهد بمشاريعك السلمية (حوار الحضارات) (الوسطية) (التسامح) وتنشيط (القواسم المشتركة) بين الحضارات، وأرجأت كلّ الملفات الساخنة، مؤكداً للعالم أنّ الإسلام دين السلام والوئام، ولقد رضيت بالمشترك الإنساني لتطفئ لهيب المشاكل والويلات، فوجدتْ الإنسانية بلسمها بكلماتك ومبادراتك:-

المجــد عــوفي إذ عوفيــت والكــرم

وزال عنــك إلــى أعــدائك الســقم

ومــا أخُصُّــك فــي بــرءٍ بتهنَئــةٍ

إذا سـلِمت فكـل النـاسِ قـد سـلموا

ويُقْضى الأمر حين تغيب هندٌ .. ! [(١)]

قلت في سياق إحدى مقالاتي: إن موضعة الشقائق مهنة من ليست لديه مهنة، ولم تَرُقْ هذه المقولة لكلتا الطائفتين:

-طائفة المسكونين بالريبة والشك المأخوذين بالخلط بين الشرع والعادة وتلك الطائفة ترى أن موضعة المرأة مؤامرة ضد الفضيلة، وأن الذين يتناوبونها بين الحين والآخر مواطئون لدعاة السفور والتبرج وموالون للمذاهب المادية المتحللة من كل القيم، وأن أحبارهم كلعاب الأفاعي وحرير أقلامهم كفحيحها.

-وطائفة المدَّعين للتحرير والتنوير واستشراف المستقبل ممن يرون الموضعة قضية الساعة ويتهافتون عليها لأتفه الأسباب.

وما أنا من هؤلاء ولا أولئك في إطلاقاتهم وتعميماتهم وتشنجاتهم وتبادل الاتهام والتصنيف فيما بينهم، وتنازع القضايا كتنازع البقاء بين الأمم: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ فالأمميات تتنازع البقاء فيما بينها، أما الأمة الواحدة فيتنازع أطيافها الصدارة، وكم هو الفرق بين التنازعين، وتلك سنة في خلقه. ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ﴾.

على اختلاف المفسرين في توجيه الدلالة، بين إيجاز الحذف، أو الوحدة على الكفر أو على الإيمان ثم اختلفوا، فالكينونة بين (آدم) و(نوح) ومنذ ذلك الحين والاختلاف على أشده، ﴿وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾، فالاختلاف من سنن الله الشرعية والكونية، ولا يكون مذموماً حتى يفضي إلى التنازع والعداوة والبغضاء والتصنيف والإقصاء، وذلك ما تعانيه الأمة في راهنها المأزوم.

وغير مُجْدٍ في الملل والنحل والعقائد الانتقال من تنازع الصدارة إلى تنازع البقاء، وتحويل الجدل من اللسان إلى السنان، ومن تبادل الحجج إلى التراشق بالاتهامات، وحين نتحي باللائمة على الذين يرتهنون أقلامهم لقضايا المرأة ويَقْدُمونها في شأنها، وهي الأقدر على تداول قضاياها، فإن ذلك لا يعني التجني ومصادرة الحق ولا المضي إلى ابتلاء السرائر وتحصيل ما في الصدور.

فالكاتب المندفع يكون مشروع اتهام وتصنيف، لأن انقطاعه لقضايا المرأة بحماس وانفلات وإطلاقات عمومية يفتح عليه أبواب الرياح الهوج، والواقع العربي بكل حراكه وتوجهاته الاستغرابية مدعاة إلى الشك والممانعة والتساؤل واهتياجات الكتاب العزَّل لأتفه الأسباب، والنفخ في التوافه مؤشر فراغ وشك في الأهلية، وحين تنطوي الأمة على قضايا مصيرية ثم لا يحفل بها من يعدون أنفسهم من النخبة، يشرع التساؤل.

وما أضر بالأمة إلا تحويل الوقوعات العارضة إلى ظواهر ملحة، وأمر الوقوعات لا يستدعي الاهتياج والإيجاف بالخيل والرجل والتداعي. والراصد للمشاهد ينتابه الارتياب ويسوؤه التكاثر عند الهضات العارضة، ولا سيما إذا كانت الوقوعات منوطة بمؤسسات، أو حين يكون الخطأ أو التقصير في إطار المعقول والمتوقع والمقدور على تلافيه بتظافر الجهود وسلامة المقاصد ومراجعة النفس.

والإسلام حين أعطى لكل شيء ما يناسبه أراد للمرأة أن تمارس حقها وفق ضوابط تحول دون إثارة الفتنة، وما جد من مفاهيم ومهمات وقضايا حمَّالة وسَّعت رقعة الاختلاف

---

(١) تاريخ المقال: ٢٣/ ١١/ ٢٠١٠

وعمقت الجدل واضطرت المتجادلين إلى الحلقات المفرغة المستنزفة للجهد والوقت والسمعة، ومما جد من مفاهيم: (النقاب)، و(العمل)، و(قيادة المرأة للسيارة) وكل ما يؤدي بالضرورة إلى الاختلاف بوصفه اختلاط ضرورة واختلاط اختيار منظم، ومثل تلك النوازل لا يمكن تداولها بين الكتاب الذين لا يدرون ما الفقه ولا الأصول ولا المقاصد، كما لا يجوز حسم الخلاف بين الأطراف المختلفين ما دامت الدولة تدين بالإسلام، وتفوض أمر الفتياء إلى مؤسسات شرعية مكن الله لأفرادها من العلم والفقه وسلامة المقاصد، ولن نحافظ على وحدتنا الفكرية إن لم نفوض مناط الاختلاف لتلك المؤسسات والذين يقلِّبون للمراة الأمور ويَلِجُون في أخص خصوصياتها أكثرهم فضوليون، ليست لديهم قضايا تشغلهم، والذين يتصدون لهم تحت وابل العواطف الجياشة ويصعِّدون المشاكل، ويعقِّدون الأمور، ويحمِّلون المؤسسات ذات الشأن مسؤولية تخلية المشاهد من ركام المشاكل والمتقصي لفقه المرأة بشقيه: التعبد ي والعملي يجد أنه على المحجة البيضاء فالإسلام نظر إليها مكملة للرجل ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وليست مماثلة له، إذ لو ماثلته لكانت أنوثتها من باب العبث، فالحياة قسمة بين الرجل والمرأة، فوجود الرجل في مجال يستدعي أن تكون المرأة في مجال آخر، وليس هناك ما يمنع من تبادل المواقع عند الضرورة، وفي أضيق نطاق، وللضرورات أحكامها ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾، ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، والفقهاء والأصوليون فصَّلوا القول في الضرورات وأحكامها.

ومن ثم فليس من الرشد أن تكون المرأة في المصنع أو في الثكنة فيما يكون الرجل في البيت والمطبخ، مع أنه ليس من المحظور أن تمارس المرأة التجارة، وأن تكون كما الرجل (امرأة أعمال) ولكن بحدود الاحتشام كما أنه ليس من المحظور أن يكون الرجل طاهياً والمرأة عاملة عند الضرورة والذين يخوضون في آيات الله بغير علم يعمقون الفرقة ويؤزمون المشاكل: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾، ومن الخائضين من يطالب للمرأة بممارسات تناقض أنوثتها، وتضايق الرجل في مجاله، وتفقد معها رسالتها في البيت والتربية فهذا الصنف من الكتبة يعاكسون الطبيعة، وعلى سننهم من يصادرون حقوق المرأة ويرونها من سقط المتاع، ويعطلون مقاصد الشريعة تحت ذرائع لا تسلم لهم ك(درء المفاسد)، و(جلب المصالح) والخلط بين درجات الاختلاط ودركاته.

وليس شرطاً أن يكون هؤلاء وأولئك متآمرون أو مأجورون، فالأخطاء ابتداء متوقعة، ولكن الإصرار عليها مذمة ولكي نصل إلى كلمة سواء لابد من استبعاد سوء الظن والكف عن تبادل الاتهامات، فالمرأة جزء من هذا الوجود بل هي شريك فاعل ولا يمكن أن تعطل مهماتها في الحياة تحت أي ذريعة، والأمة مطالبة بالاستجابة لداعي الله، والحلال بين والحرام بين، وعلى المستبرئ لدينه وعرضه أن يتحرى الحق ويتفادى المجازمات وردود الأفعال المتشنجة، ولن تتم السلامة إلا بسؤال أهل الذكر، ومن استخف بالمرجعية النصية أو المؤسساتية أو جاهر بالمعارضة وقطع بصحة رأيه الفرد مغلباً رؤيته على رؤية الجماعة عرض نفسه للغيبة، ولأن الزمن زمن مؤسسات ومجتمع مدني فإن الخلاف يظل مشروعاً حتى تبادره المؤسسة، فإذا أعطت رؤيتها لزم الجميع القبول، وإن كان قرارها في نظر البعض مفضولاً فالناس تتفرق بهم الطرق، وتعصف بهم الآراء

والأهواء، وإذا لم يكن هناك صمامات أمان اختلط الحابل بالنابل وارتفعت نبرة التنازع وتحقق الفشل وذهاب الريح، وإن كان ثمة مساءلة أو مراجعة وهي حاصلة لا محالة، فليس هناك أحد فوق المساءلة والمراجعة فإن هناك قنوات وأسلوب خطاب ومقارعة الحجة بحجة أقوى منها، حجة تستمد مشروعيتها من مصادر التشريع ووفق الأصول والقواعد والمناهج، ولا تحكمها الأهواء والرغبات، والأخذ بما جد دون تمحيص، وتغير الفتوى بتغيير الأحوال والنتائج من مقتضيات الفقه الإسلامي، والشافعي رحمه الله خير شاهد في مذهبه القديم والجديد.

وقضايا المرأة ليست بهذا التعقيد ولا بهذا التأزيم، وليست الحلول غامضة ولا بعيدة المنال، فالتشريع الإسلامي واضح وموقف الإسلام من المرأة لا يحتاج إلى تنقيب ولكنه يحتاج إلى استحضار وتمثل، وما كان لأمة تركت على المحجة البيضاء أن تتفرق بها السبل ولا أن توغل في التيه، واختلاف الأئمة الأربعة وأتباعهم لم يكن مدعاة للتصنيف أو الإقصاء والذين يخوضون في قضايا المراة في معزل عن فقه النصوص الشرعية ومقاصدها وفي خلو الذهن من واقع المرأة العربية وما تردت به من تبرج جاهلي لا يقره رجل سوى، هؤلاء يعرضون أنفسهم للاتهام والآثام، ولأن الإسلام من المذاهب الشمولية والعالمية فإن الحياة مرتهنة له، ومن فضل الله على أمته أن عدد مصادر التشريع بحيث تجاوزت الأحد عشر مصدراً منها المجمع عليه ومنها المختلف حوله، والتفسير والشرح والتأويل ودلالات السياق والمجاز والإطلاق والتقييد والناسخ والمنسوخ والقطعي والاحتمالي وفقه الواقع والتمكين والأولويات والمباح غير المقدور على تنفيذه وتقوى الاستطاعة كل هذه التسهيلات من باب الرأفة والرحمة ولكن الناس استغلوها للخلاف والعداوة والبغضاء والتعددية في المصدرية والمفهومية قد تحيد بالنص عن مقاصده، واختلاف المذاهب وتعدد الآراء تفسح المجال أمام التوحلات والمتغيرات، وصلاح الإسلام لكل زمان ومكان مرده إلى احتمالات النصوص لدلالات متعددة تفسح المجال وتنفي الحرج وتحل المعضلات والاشكالية في النهاية ليست في الإسلام ولكنها في فهمنا الخاطئ وضيق عطننا، والفقهاء المتبحرون ينظرون إلى المقاصد والمصالح ويستنزفون طاقات النصوص ويتعاملون مع المخالف بالتي هي أحسن، المهم أن لا يخوض في هذه اللجج إلا من هو على معرفة بالنص والمقصد والمصلحة، وقدرة على استيعاب المخالف.

الفشل في إدارة الصراع .. ! (١) [1]

كلما نظرت في مكتبتي إلى حقول:

-الصراع السياسي.

-الصراع الفكري.

-المعارك الأدبية.

تمنيت أن يكون إلى جانبها حقول مماثلة مثل:

-حوار الحضارات.

-التفاوض السياسي.

-النقد الأدبي التطبيقي.

ولربما يكون هناك رسيس من طلول العقول ولكنه لا يصيب جنان الروابي، إذ ما أقل الذين يفضلون الوئام على الخصام، وكما أن الجنون فنون فإن الصراع هو الآخر فنون، وإذ لم يشأ الله ومن خلال سُننه الكونية حسم الخلاف إلى الأبد، فإنه وَجَّه إلى إدارة حكيمة للصراع الأزلي، وبخاصة بين أطياف الأمة الواحدة، ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ و ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾ و ﴿وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ﴾ و ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ و ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

ولما كان أهون الصراع خطراً وأعنفه ممارسة صراع الأدباء، فقد استفحل منذ القرون الأولى، وأشده ضراوة الصراع بين القديم والحديث، فمن أفظهم وأغلظهم مَنْ ينفي الأدبية والشعرية عن المولودين، ويتحمس إلى حدِّ التشنج للشعر الجاهلين، ويحذر طلابه من كتابة الشعر المولَّد، إذ يراه وبالاً على اللغة وآدابها.

ومؤرخو الأدب يتفسحون لهذا الصنف من المأزومين وضيقي العطن ولن تُعدم هذه النوعية في مختلف حقول المعرفة وعلى مر العصور، ولقد يستغرب البعض لحظات الانفعال والاهتياج بعد أربعة عشر قرناً عند بعض النقاد الذين جاسوا خلال الديار المتعلمنة والمتعلمة ويستكبر جرأتهم في الحكم بالموت الناجز على (النقد الأدبي) و(علم النحو)، لا لشيء إلا لأن مدارس الغرب المأخوذة بالتجريب طرحت بدائل لم تستقم لها المشاهد في بلد المنشأ، ك(النقد الثقافي) و(التحويلية)، وما واكبها من (تداولية) و(بنيوية) و(تفكيكية) و(تأديلية)، والذين تلهب وجوههم مثل هذه اللفحات يألفون هذا الصلف وردود الأفعال، ولا سيما أن مثل هذا العنف يصدر من نقاد وعلماء متمكنين في فنهم وممن لهم حضورهم الذي لا يختلف حوله رشيد، بل لهم تأثيرهم وأشياعهم الذين يتلقفون ما يلفظون من قول ويتسابقون في إشاعته والقبول به.

وضيقوا العطن الوجلون يتذمرون من مثل هذه المجازفات، ويرثون لحال المشاهد، ظنا منهم أن مثل هذه الإطلاقات سيكون لها ما بعدها وما هي إلا سحابة صيف عما قريب تتقشع.

ولو تجاوزنا الراهن إلى أقرب مرحلة لوجدنا ذات الصراع وعين الغرائبيات، ف(العقاد) بكل ما يملكه من عملقة وتأثير وأشياع، وضع كل بيضة في سلة (المنهج النفسي) في النقد ودرس الأدب والشخصيات التاريخية على ضوئه، وأحدث تحولاً جذرياً وما استطاع بجبروته أن يظفر لهذا المذهب الطارئ ولو مفحص قطاة.

---

(١) تاريخ المقال: ٣٠/ ١١/ ٢٠١٠

و«طه حسين» الذي تنساب رؤاه في شرايين الأفكار كالحذر سلك المهيع نفسه حين اتخذ «المنهج الاجتماعي» في النقد واستنزف كل طاقاته واستخدم كل إمكانياته ليقف هذا المنهج الكسيح على قدميه.

ومضى «العقاد» و«طه حسين» بوصفهما علمين شامخين ومضت معهما رهاناتهما الخاسرة، فيما ظلت مكانتهما ساطعة على الرغم من فشل مشاريعهما وفي كل محطة تاريخية ينجم عالم يُحوّل أنظار التاريخ لصلفه وعنف تداوله للآراء بين لداته ومجايليه، ثم لا يلبث أن يطويه التاريخ، ويكون خبراً بعد عين، ومن منا لا يذكر منجنيق الفقهاء وحجاجهم «أبا محمد علي بن حزم الظاهري» رحمه الله وحملته الدامية على الفقهاء، ولقد تلقف الراية من بعده سلفه الأعنف أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري الذي حنكه كر الجديدين وأصبح من بعد الأكثر رزانة وروية بعد جماح أرهب المشاهد كلها.

ومشاهدنا المحلية بوصفها الأكثر تأثراً بالمتغيرات والأسرع في قبول الطارئ والأجرأ على تلقي الركبان تعيش حالة من الاشتعال والانطفاء، ولا ينجيها من داومة الجور إلا التخليات الطوعية بعد خور القوى.

لقد هبت رياح «الحداثة» وقام إليها من يحسن استيعابها ومن لا يدري ما هي، وثارت حولها معارك طاحنة وسيئت وجوه كثيرة، وشوهت سمعات بريئة، وتحول المختصمون حولها والمحتفون بها كما الجلساء حول نافخ الكير لم ينالوا خيراً، وإنما أحرقت أطرافهم، ودنست ملابسهم، وزكمت أنوفهم، ولوثت مشاهدهم، ولم يتصوح نبتها إلا من بعد ما ملأت النفوس أحقاداً وضغائن، وحين ثوت كهشيم المحتظر بدأت مضمراتها تَضْحَى وعوادها ينكشف. وما ذاك إلا من سوء الإدارة. وما انتاب المشاهد في «مصر» خير شاهد على استفحال الصراع، والفشل في إدارته، ويكفي استدعاء عصر العمالقة وما كتب عن معاركهم الأدبية والفكرية، وما اكتشف من سرقات للأفكار والمناهج، وما بلغته أخلاقيات الصراع من اتهامات واستخفافات وتسفيهات لا تليق بالبسطاء من الناس، ويكفي استعراض معارك «العقاد» و«طه حسين» و«زكي مبارك» و«الرافعي» ذلك على المستوى الأدبي.

أما على المستوى الاجتماعي فأعْتى المعارك ما دار حول «قاسم أمين» وآرائه في تحرير المرأة، أما المعارك السياسية فلا تزال قائمة على أشدها، ولها في كل عِقْد مثيراتها، ولعلنا نذكر من بدايتها ما دار حول رؤية «مصطفى عبد الرازق» حول الخلافة، وعلى المستوى الفلسفي نسترجع ما دار بين «عبد الرحمن بدوي» وخصومه، هو ما أشار إليه في سيرته الفضائحية، ولو مضينا في التنقيب لراعنا ما نسمع ونرى في أقطار العالم فضلا عن الوطن العربي وراهنه.

الفشل في إدارة الصراع .. ! (٢) [(١)]

وتقصي الفشل الذريع في إدارة الصراع يذكي في النفس حُبَّ الاستطلاع وتعقب تاريخ المذاهب؛ ولما تزل مشاهدنا تعيش احتدام المشاعر حول مجمل التجاوزات الفكرية والسياسية والأدبية فضلاً عن الدينية التي تمخضت عن التطرف والصدام بدل الصراع والحوار.

ولربما تكون «الرواية» العربية يراهنها بؤرة التوتر من خلال التخليات في أبعادها الثلاثة: اللغوي، والدلالي، والفني. والراصد للحراك قد يتنبأ بصراع لا يحكمه نقل ولا عقل ولا ذوق سليم. وستظل المشاهد تخرج من دوامة لتدخل في أخرى، وليست الإشكالية في تنامي الصراع وتشتت الآراء واختلاف وجهات النظر، ولكنها في شيئين:-

- الفشل في إدارة الصراع.
- الدخول فيه دون تصوُّر سليم للآخر وللقضايا وللذوات.

والأصوليون يقولون: «الحُكْم على الشيء فرع من تصوره». وحذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - يسأل عن الشر مخافة أن يقع فيه، وكم من أحكام جائرة مرتجلة نُطلقها فنصيب بها أبرياء، وما ذلك إلا ناتج العجلة والارتجال والتعميم وعدم التحري والتثبُّت.

وكل الأزمات لا يزداد ضرامها إلا إذا فشل ذووها في إدارتها، وكل الخلافات لا تتعمق ولا تتجذر ولا تخرج عن مدرجها السليم إلا إذا تقحمها الغوغائيون ودرج فيها الفضوليون الفارغون من الهمّ، الذين لا يفرقون في جدلهم بين خلافٍ مع أمثالهم، وفي قضايا جانبية أو في وقوعات عارضة لا تقدّم ولا تؤخر، وسيان فيها أن تصيب المحز أو تطيش سهامها، وخلافٍ مع أهل الذكر وأرباب الحل والعقد ومن بيدهم مصائر الأمة، وقد نسمع ونرى غوغائياً أو فضولياً ينازع بلغة شوارعية وعلو كالدخان عالِماً متمكناً من فنه متضلعاً في تخصصه وقافاً عند حدود ما أنزل الله، لا تأخذه في الحق لومة لائم، وليس مهماً أن تكون القضية نضجت أو لم تنضج بعد، أو يكون العالِم المتخصص قد أخطأ الطريق، إن المهم البراعة في إدارة الحوار، والتأدب في مراجعة المسائل المتعلقة بالقضية، التي لم تكتمل بعد، ولقد قلت ولما أزل أقول: - لا أحد فوق المراجعة والمساءلة، ولا عصمة ولا قدسية لأحد، وكلٌّ يؤخذ من كلامه ويُردّ إلا مَنْ لا ينطق عن الهوى الذي ترك أُمَّته على المحجة البيضاء، وحين يفقد المختلفون أو بعضهم أدبيات الحوار أو حين لا يكونون متكافئين في المكانة والتخصص، أو حين لا تتضح لبعضهم الرؤية يستفحل فيما بينهم الشقاق، وقد يضطرون أو يضطر بعضهم إلى استدبار القضايا والإيغال في النَّيل الشخصي، ولقد تكون مشروعية الملتزمين في القول: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ فالاقتداء التقليدي يُشكّل عمى بَصر وبصيرة، وهو السائد في كثير من المشاهد، ودون هذا مَنْ يبني أمجاده على التغريد خارج السرب، وتعمد النبش في المسكوت عنه، وشبق الأضواء يستهوي الفارغين كما يستهوي اللهبُ الفراش، والمتابع لفيوض المشاهد يروعه تكاثر هذا النوع، ومن نكد الدنيا على العقلاء أن هذا الصنف يجد مَنْ ينفخ فيهم ويجر أقدامهم إلى المغامرات الطائشة، وزيارة دور النشر النهمة يجد فيها زوايا مليئة بهذا النوع من كتب المخازي في السياسة والفكر وسائر المعارف لمؤلفين مغمورين لا يفكرون بسمعة ولا يخشون من عقوبة؛ إذ كل همهم رواج أسمائهم ونفاد كتبهم، وملء جيوبهم، وحُب الاستطلاع يجر أقداماً لا تخوض مع الخائضين للشراء، والشراء دعمٌ وإغراءٌ لمثل هذه الحثالات، فالكاتب المتاجر بسمعته لا يعنيه من أمر ما يكتب إلا الكسب. والفشل في

---

(١) تاريخ المقال: ٧/ ١٢/ ٢٠١٠

إدارة الصراع يكون مع الأناسي ومع القضايا، فلقد يفشل الكاتب أمام قضية من القضايا؛ لأنه لم يستوعبها، وقد يحييها ويثريها لمصلحته إذ لم تكن من أولويات القضايا، ولقد أشرنا مراراً إلى أهمية فقه الواقع وفقه الأولويات، والذين يتندرون من مسلَّمات الأمس يجهلون فقه الواقع، فقد تكون بعض القضايا من أولويات الأمس وثانويات الغد، وجهل التراتب والأولويات يحول دون سرعة التكيف مع التقلبات؛ فلقد يُعاب على عالِمٍ إيغاله في لغة الجهاد وإعداد القوة ثم لا ينظر إلى الظروف التي تمرّ بها الأمة؛ فحالة جهاد الدفع تتطلب خطاباً تحريضياً تعبوياً، وحالة السِّلم والتعايش تتطلب خطاباً تصالحياً، ومَنْ استبعد السياق والأنساق في تقويمه للخطابات وقع في فشل إدارة الصراع.

وتظل الإشكالية متعلقة بالفشل الذريع في إدارة الصراع؛ فالاختلاف قائم وأزليّ ولا مناص منه، وقد تتسع المشاهد للمذاهب والآراء والملل والنحل، وقد يكون لبعضها مناطات نصية، ولبعضها الآخر مناطات تأويلية، وقد يكون في الاختلاف إثراء وسعة وتحفيز لتعزيز المواقف بمزيد من التحصيل المعرفي والتصحيح المنهجي، ونحن حين نطالب ونُلحّ في المطالبة بالمحافظة على وحدة الأمة فكرياً لا نريد واحدية الرأي ولا واحدية المذهب، ولا نفكر في مصادرة الحقوق المعرفية، والأمة الإسلامية وسعت المذاهب الفقهية، واتسع فكرها للجدل الفكري، وأصبحت مدارسها منارة عالمية، فالفقهاء والمحدِّثون والنحاة والصرفيون والأدباء والمؤرخون والمفسرون والفلاسفة لكل طائفة منهم مناهجه وقواعده وأصوله وآراؤه، وبذلك خلف لنا السلف ثروة علمية لا تنازع، وإن وقعت بعض المذاهب في مستنقع الفشل في إدارة الصراع ولكنه فشل مسيطَرٌ عليه.

وأخطر شيء مَنْ يتخذ إلهه هواه ثم لا يتيح الفرصة لمزيد من الإنضاج للأفكار، فالحسم بالقوة يرجئ المشاكل ولكنه لا يحسمها، وليس من مصلحة الأمة أن تَرِمَّ جروحها على فساد؛ فذلك ينذر بالخطر؛ فقد تمتلك القوة في بعض فتراتها على تحمُّل المواقف غير السوية، والتفاني بين المتنازعين لا يقتصر على الأبدان بحيث يكون تفاديه الحل المرتقب، إنه يمتد إلى الجهود والأموال والأوقات، وفيه تفويت للفرص وتوهين للقوى، ومن نتائج التنازع - وهو مؤشر الفشل في إدارة الصراع - الفشل وذهاب الريح، وهو ما أشار إليه الذكر الحكيم.

والأمم الناصحة لنفسها تعض على الوحدة الفكرية بالنواجذ، وليس شرط الوحدة الفكرية أن نطرح الاختلاف في وجهات النظر، ولا أن يُسلّم الخلف للسلف دون وعي، ولا أن نتهيب استشراف المستقبل وحوار الآخر وتبادل المصالح معه والاستفادة مما عنده من الحق، ولكن شرطها ألا نتبنى أفكار الآخر ومناهجه ومسميات فكره، والاشتغال بالقواسم المشتركة لا يعني الذوبان ولا الخلوص من محققات حضارة الانتماء، إن هناك مفهوماً للتجديد والتقليد، والخلطة والاعتزال لو عرفناها حق المعرفة لكنا الأكثر قدرة على إدارة الصراع بحِكْمة وتسديد.

ولعل من أبرز الإخفاقات في إدارة الصراع الخلط بين «المبادئ والتطبيقات» و«الظواهر والوقوعات» و«الأهواء والالتزامات» و«الخوض في عويص النوازل» دون تحرير للمسائل ولا تأصيل للمعارف، والتفلُّت على المرجعيات المؤسساتية بآراء فردية فجة، وقول المبتدئين للمتضلعين: «نحن رجال وأنتم رجال».

وعندئذ يتأوه المكتوون بلهيب الطيش مرددين:-

إذا وصف الطائي بالبخل مادرٌ

وعَيَّر قسًّا بالفهاهة باقلُ

وقـــال الســـهى للشـــمس: أنـــت خفيـــةٌ
وقـــال الـــدجى: يـــا صـــبح لونـــك حائـــلُ
وطاولـــــتِ الأرضُ الســـــماءَ ســـــفاهةً
وفـــاخرتِ الشـــهبَ الحصـــى والجنـــادلُ
فيـــا مـــوت زُرْ إن الحيـــاة ذميمـــةٌ
ويـــا نفـــسُ جـــدي إن دهـــرك هـــازلُ

تدارك السير الذاتية قبل فوات الأوان .. ![(١)]

في مساء هذا اليوم - إن شاء الله - سأكون المتحدث في منتدى (مكتبة الملك عبد العزيز العامة) عن (تجاربهم في القراءة)، وذلك ضمن فعاليات المشروع الثقافي الوطني لتجديد الصلة بالكتاب، وهذا الملتقى يهدف إلى استعراض تجارب عدد من مثقفي المملكة في القراءة ورحلتهم مع الكتاب، في محاولة تربوية جادة لإغراء الشباب بالكتاب والقراءة، وأملي ألا يكون المنظمون لهذه الدعوة ممن استسمنوا ذا ورم، أو ظنوا أن وراء المتحدث من التجارب ما يضيف للمشهد القرائي شيئاً ذا بال، وأياً ما كان الأمر فإن الفكرة مناسبة لهذه المرحلة، فالقراءة لم تكن من أولويات الهوايات عند الشباب، إذ زوحمت بمغريات وصوارف كثيرة جعلت أمة القراءة لا تقرأ، ولن نمضي مع الاتهامات المتحاملة، إذ الخيرية قائمة وإن كانت بحاجة إلى المزيد، وأعيذها نظرات من القراء أن يحسبوا تجربتي ذات غناء، فأخاهم مكره لا بطل حين أقحم في الحديث عن تجربة متواضعة أحسبها دون المؤمل.

وحديث كهذا يدخل في أدب (السيرة الذاتية) وهو أدب يغري الكاتب والقارئ على حد سواء، فلقد تهافت على هذا الفن أدباء ومفكرون وعلماء وسياسيون وحركيون متضلعون في فنهم ومجالهم وآخرون لا يلوون على شيء، والتطم سوق الأدب بسير تعرف منها وتنكر.

و(السيرة الذاتية) جزء من الإبداع السردي، ومن تقحم عوالمه ببضاعة مزجاة وبقدرات هزيلة كشف عن ضعفه، والإبداع القولي يكون شعراً ويكون نثراً، ولكل نوع محققاته اللغوية والشكلية والفنية والدلالية، ولقد كان لي نصيب أوفى من هذا النوع من الإبداع، إذ تقصيت ما كتب عن تاريخ فن السيرة الذاتية وعن نظرياتها، كما قرأت دراسات تطبيقية وأعمالاً إبداعية متفاوتة، وأشرفت على دراسات ورسائل جامعية وناقشت أخرى وحكمت في بعضها وتناوشت مع بعض كتابها.

وهذه الإلمامات المتأنية جعلتني أتهيب كتابة السيرة على الرغم من إلحاح بعض المحبين، ذلك أنني أدركت خطورة الموقف وصعوبة متطلباته من تجارب مهمة ذات مساس بحياة الأمة وقدرات تعبيرية ومصداقية في القول وحيادية في الأحكام. وكم من المجازفين من زجوا بأنفسهم، وكشفوا عن ضحالتهم، ذلك أن الإبداع السردي بحد ذاته يتطلب قدرات متعددة، لعل من أهمها الموهبة القصصية القادرة على استكمال بناء السيرة، وما تتطلبه من براعة في اختيار الأحداث والمواقف والتجارب ومن تجارب مهمة تتجاوز الخصوصية وثقافة عميقة، وثراء لغوي يستطيع الكاتب معه أن يختار بدقة مفردته المناسبة وتركيبه الجميل وعبارته الشيقة وأسلوبه الأنيق.

وكُتّاب السير أو أكثرهم على الأقل لا يتوفرون على كل تلك القدرات والإمكانات، وإن تفاوتوا فيها، والمقوون منهم يغثون المتلقي، ويكشفون عن ضحالة ثقافتهم وتفاهة تجاربهم وتعثر لغتهم، ولهذا فإن ترددي في كتابة السيرة ليست في غير محلها كما يتصور البعض، وعندما تطلب مني مؤسسة ثقافية أن أقارب جزئية من سيرتي الثقافية أحس بالخوف والتردد ليس على مبدأ: (رضى الناس غاية لا تُدرك) ولكن على مبدأ (رحم الله امرأ كف الغيبة عن نفسه). أقول قولي هذا وإن كنت قد أمضيت أكثر من نصف قرن في القراءة والكتابة والتعليم وطلابي ينيفون على عشرة آلاف ومكتبي ناهزت عشرين ألف كتاب.

---

(١) تاريخ المقال: ١٤/ ١٢/ ٢٠١٠

إن الإقدام على كتابة السيرة مغامرة محفوفة بالمخاطر ومن تابع وقرأ في فن السيرة الذاتية أدرك حجم الإخفاقات والمغامرات الفاشلة، وكم من كاتب يشفع له منصبه أو مكانته أو سنه ولكنه لا يستطيع أن يقدم السيرة بكل متطلباتها اللغوية والفنية والدلالية، ولقد كنت أحد الذين يلحون على المقتدرين بكتابة سيرهم، وبخاصة من ذوي المسؤوليات الحساسة كصناع القرار في الدولة وقادة الفكر فيها، وفي رثائياتي لبعض رجالات الوطن من أمثال معالي الشيخ عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري ومعالي الشيخ إبراهيم العنقري، ولقد أنحيت باللائمة على المفرطين الذين لم يدونوا تجاربهم وإنجازاتهم، ولم يكن إلحاحي ولومي جزافا، بل هو موجه لرجالات أعرف جيداً أنهم يتوفرون على تجارب وتاريخ حافل بجلائل الأعمال.

وشخصيات المجتمع متعددة المهمات والاهتمامات والتخصصات ومجموعها يشكل تاريخاً لم يحتل متن التاريخ، وإنما ظل هامشياً شفهياً يتداوله الناس في مجالسهم.

فأين سير العلماء والأدباء والمعلمين..؟

وأين مغامرات رجال الأعمال ومبادراتهم؟

وأين تاريخ الصحافة من خلال سير كبار الصحفيين؟

بل أين تاريخ رجالات الدولة الذين أسهموا في صناعة هذا الكيان. لقد نفذت (دارة الملك عبد العزيز) مؤتمرات وندوات عن جوانب من حيوات القادة، وطبعت رسائل علمية عن بعض إنجازاتهم فكان لها أثرها الكبير في إثراء المشهد الثقافي.

وما تفعله (مكتبة الملك عبد العزيز العامة) من ندوات ومحاضرات وما تطبعه من أعمال يصب في هذا المجال، لأنه جزء من السير الغيرية.

وكم نحن بأمس الحاجة إلى سير ذاتية يكتبها ذووها ولا تكتب بالإنابة عنهم بعد رحيلهم، فحملة الأقلام وأساطين الصحافة ينطوون على تجارب وإنجازات تهم الأجيال القائمة والقادمة، ولعلهم يفعلون مثلما فعل الذين من قبلهم فـ(العقاد) كتب (حياة قلم) و(المازني) كتب (إبراهيم الكاتب) وآخرون تداركوا تجاربهم وسجلوها لمن بعدهم فكانت نبراساً للمبتدئين، فأين سيرة (خالد المالك) الصحفية؟ وأين سيرة (تركي السديري) الصحفية وهما من مشاهير رؤساء التحرير في المملكة. وأين سير من سبقهم ومن واكبهم من صحفيين أسسوا لصحافة عربية تنازع لداتها المكانة والانتشار، فمن سيخلف هؤلاء بأمس الحاجة إلى تجارب أساطين الصحافة.

وإذ نتذمر من تسويف البعض فإننا نحمد للمبادرين مبادرتهم في تدوين جوانب من حيواتهم العلمية والفنية والعملية.

وممن تدارك أمره وأثرى مشهده وكتب جوانب من سيرته الذاتية فقيد الوطن (غازي القصيبي) رحمه الله. فكتاب (حياة في الإدارة) و(سيرة شعرية) و(الوزير المرافق) وحتى روايته (شقة الحرية) تعد من السير الذاتية الغنية بفنها ولغتها ودلالاتها.

وآخرون كتبوا على استحياء، لكنهم تداركوا ما يمكن تداركه، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر العلامة حمد الجاسر في سوانحه وإن لم تكن في بُعدها الفني متوائمة مع الفن السردي السيري، ولكنها رصد أمين لجوانب من حياته الحافلة بجلائل الأعمال، وعلى شاكلته ما يكتبه أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري في تباريحه، وما كتبه الأستاذ عبد الرحمن السدحان في قطراته، وما يتابع كتابته الدكتور عبد العزيز الخويطر في وسمه على أديم الزمن، وما كتبه ويكتبه عبد الفتاح أبو مدين في (الفتى مفتاح) و(تلك الأيام).

و(دارة الملك عبد العزيز) حين أنشئت حرصت على تقصي ما أهمله التاريخ من سير رجالات الملك عبد العزيز، ومن ثم بدأت مشروع تدوين التاريخ الشفهي ومشروع

جمع الوثائق بمختلف مستوياتها وأغراضها كالرسائل وغيرها، ولما تزل تواجه عقبات كثيرة وكبيرة وهي تحاول مسابقة الزمن وانتهاب الخطى لتفادي فوات الفرص بموت المستهدفين، ولو أن رجالات الدولة سجلوا سيرهم وأعمالهم لكان في ذلك استدراك للفوات التاريخي بوصفه المادة الثرة للسير الذاتية.

وإذ أتحدث هذا المساء عن تجربتي القرائية فلقد كتبت من قبل عن حكايتي مع القلم، وذكرياتي في التعليم وما تلك إلا حلقات مفرقة بتلاحمها تتشكل السيرة الذاتية.

ولست بهذه المناشدة أرغب في الإبداع الروائي المتعالق مع السيرة، ولقد سعدت بالإشراف على رسالة علمية للدكتورة عائشة بنت يحيى بن عثمان الحكمي تحت عنوان (تعالق الرواية مع السيرة الذاتية) الإبداع السردي السعودي نموذجاً. حيث تناولت مجموعة من الروايات السيرية، من أهمها (سفينة الضياع) و(ثقب في رداء الليل) للروائي إبراهيم الناصر. و(الغيمة الرصاصية) لعلي الدميني و(شقة الحرية) لغازي القصيبي، و(ثمن التضحية) لحامد دمنهوري و(الوسمية) ل عبد العزيز مشري وآخرين. فتلك لا تلتزم الدقة في نقل الأحداث ولا تكون مصدراً تاريخياً وثائقياً، والذي يهمني بهذا الصدر ما قام بدراسته زميلنا الدكتور عبد الله الحيدري، فلقد تناول بالدراسة التحليلية والنقدية والوصفية السيرة الذاتية بالمملكة، وكان لي شرف مناقشة هذه الرسالة التي تعد إضافة علمية. المهم أن نحفظ تاريخ بلادنا بحفظ تاريخ الرجال.

التخبيصات والتحويصات في خطاباتنا الفكرية .. !![1]

عَنَّ لي أن أكتب عن مستقبل الثقافة في مشهدنا العربي والمحلي، منطلقاً مما أرى وأسمع عَبْر دفق القنوات، وتدفق الصحف، وفيض الكتب، وصخب المنابر. وحديث كهذا بتشعباته ومعضلاته، يتطلب قدراً من التجرد والحياد، والتعرف على دخائله ولن يتأتى ذلك إلا باستشراف المشاهد كلها، وإن كان لا يعود إلا بالإرهاق والتتبيب، فهي متداخلة الأصوات مشتتة الآراء مؤلهة الأهواء مُتَقَحِّمة من الخليين والفارغين. وتكاثر الأصوات وتنافرها ليس من الظواهر السوية، بحيث يعد من الحراك الموجه، أو من تباين وجهات النظر المستهمة على شطرٍ من الحقيقة. وما كنا بهذا الصخب نشبه فجر الإسلام ولا ضحاه ولا ظهره كما تقصاها «أحمد أمين». وليست عقليته كالعقليات الأربع التي رصدها «محمد عابد الجابري». ولهذا فالتقصي والرصد يكشفان عن إخفاقات ذريعةٍ وتصدعات زجاجية لا يمكن التحامها.

والاختلاف حين لا تكون له مرجعية يأوي إلى ركنها الشديد بعد التقصي والتمحيص واستنزاف الطاقات وإنضاج الآراء، تتهاداه التنائف، وتتفرق به السبل عن سبيل الحق، ولقد مَلَّ مِنَّا الملل من كثرةِ الترديد للآراء والتوجيهات حول وضع صيغ وضوابط للجدل الديني والفكري والسياسي والاجتماعي، ولكن أنَّى لنا أن نُسْمعَ العقول التي لا تفقه والأعين التي لا تبصر والآذان التي لا تسمع، وما نحن وبعض أولئك إلا كمن ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء.

ومسارح الفكر أشبه باستطبلات الخيول الهائجة المائجة كحيص بيص، والراصدون لفيوض المفكرين يمرون باتزان وجموح، ومن ألقوا بأنفسهم في تلك المهايع فكمن ألقاها في التهلكة، فهم بين «ترثنةٍ» تمسك بحجز المتهافتين و«حدثنة» تدفع بالمترددين و«سلفية» تستظل بشواخص النصوص و«عصرنة» تمتطي صهوة التأويل و«علمنة» تُسَوّي كلَّ شاخص بالأرض و«لَبْرلةٍ» تبيح كل محظور وتتيح كل ممكن، ومنابرُ القول كلوحات الإعلانات، كلُّ داعٍ يُشَوّق ويزوق ويزور، والبعض منهم كمن هو على أبواب جهنم.

وإذ يكون الاختلاف حتماً فإن المعالجة ليست من أجل حسمه، ولكنها في أحكام المناهج وضبط الآليات ودقة الأصول والقواعد التي تحكمه وتوجهه، ومثلا أن للاجتهاد شروطه ومحققاته فإن للاختلاف مثل ذلك، وفي ظل الضوابط والمسوغات لا يكون للمتعالم أن يجتهد ليظفر بأجر المخطئ، ولا للخلي أن يخوض معترك الاختلاف ليجرد المسائل ويؤصل المعارف، ومن استحوذ عليه شيطان الحضارة المادية المهيمنة فليس من حقه أن يخوض معترك الفقهاء والمفكرين الملتزمين بمحققات حضارة الانتماء، ذلك أن لكل حضارة خطابها وقراءاتها ومرجعياتها ومنطلقاتها، ولن تتحقق النِدّية بين الحضارات حتى تتبادل الاحترام فيما بينها وتعترف بحق الوجود الكريم لكلٍّ منها.

وإذا غُلِبت الحضارة على أمرها وامتلك المرتمي في أحضان الغير حق التناوش حول القضايا المصيرية فإن عليه ألا يلبس الحق بالباطل ويكتم الحق وهو يعلم، ذلك أن مواجهة الآراء بالمعتقد المعلن دون تدليس أو تلبيس يعد مطلباً حضارياً، فالصادق مع نفسه ومع الغير يعد من ذوي المواقف الذي يُحترمون على مصداقيتهم فمن «تعلمن» أو «تلبرل» أو «تمركس» فليعلنها صريحة ليكون خصماً شريفاً، إذ ليس من النبل ممارسة «التَّقية».

---

(١) تاريخ المقال: ٢١/ ١٢/ ٢٠١٠

وإذا افترضنا أننا جميعاً مشمولون بحضارة واحدة، وأن افتراقنا منشؤه اختلاف المفاهيم لا تناقض الانتماء، وأننا جميعاً نسعى لتحرير مسائل الحضارة وتأصيل معارفها وأن الاختلاف القائم بين أطيافنا من الاختلاف المشروع ومما يتسع له النص التشريعي بوصف دلالته احتمالية وليست قطعية، فلماذا نوغل في التصنيف ونمعن في الإقصاء ولا نتورع من مصادرة الحقوق واستعداء السلطة. بل لماذا يتهم بعضنا بعضاً، ويزايد بعضنا على بعض، ونتعمد القراءة التآمرية لرؤانا وتصوراتنا ألسنا جميعاً ندَّعي استباق الخيرات ونبحث عن طريق النجاة، ما الذي يحملنا على التفاني، ونحن طلاب الحقائق، وما الذي يحفزنا على التداعي كلما حزب أمر لنكون شيعاً يقتل بعضنا سمعة بعض.

إن مشهداً تلك خليقته مشهد يحتاج إلى تصفية وتربية: تصفية ما تراكم فيه من هوج الآراء ومعوج القول، وتربية على حسن التعامل مع المخالف ليكون كأنه ولي حميم.

ولسنا فيما نقول نرجم بالغيب فالشواهد كالنهار الذي لا يحتاج إلى دليل. إننا على بينة ممن يزايد على مفاهيم الولاء والبراء والمواطنة والسمع والطاعة، ويخوف بالإرهاب والتطرف والإخوانية ومن يتهم بالعلمانية و»الليبرالية» وكل مُرْهَقٍ يلوذ بشيء من هذه الاتهامات، للخلوص من راجمات الحقائق الدافعة، وخطل المشاهد في استدبار القضايا وإنشاب الأظفار بالخصوم، وكأن المسألة في التصفية الشخصية لا في استجلاء الحقائق، ومتى انسقنا مع هذه الترهات أسهمنا في خلل الوحدة الفكرية التي لا تقل أهمية عن الوحدة الإقليمية، والتوسل بالدعاوى غير المحررة طعن في السمعة وهز للمكانة ولا سيما أن الإمكانيات المعرفية متوفرة عند المراقبين للحراك، كما أن التخصصات العلمية في مختلف العلوم الإنسانية والشرعية وأصولها تملأ الرحب، وذووها الأقدر على كشف التشبع واستعراض العضلات.

فما كان لكاتب أن ينجو بنفسه بِبَذْلِ ما تطرَّفَ من آية أو حديث أو قول مقتضب، بدعوى أنه من أهل الذكر، وأن منطلقاته الكتاب والسنة.

كما أن الحقيقة التي يتنازع احتكارها العديد من الكتبة عصية المنال، ما لم تكن مستمرة من النص القطعي الدلالة والثبوت، ومتفقة مع مراد الله ومقاصد شرعه. وإشكالية المشاهد أنها تتداول المفهوم من النص، ولا تتداول النص ذاته، وتغييب النص يعني استبداد النص الرديف، وهو مجال الاختلاف. والرسول ﷺ يقول: «بلغوا عني ولو آية» ولم يقل بلغوا عني ما توصل إليه فهمكم، وفهم العالم أو المتعالم للنص لا يعني بالضرورة الحقيقة المطلقة بل ربما يكون عين الخطأ ومصدر الشقاق، ومن هنا افترقت الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة وهذا الوعيد لا يقتضي الحكم بكفر أي من تلك الفرق، ولعلماء السلف رؤية ثاقبة في حكم تكفير «المعين» أو «القول» دون القائل وليس هذا مجال تقصيه، ولكن الإشارة إليه من باب الاحتياط.

ومع أن الاختلاف أزلي ومحتمل لانفتاح النصوص واختلاف الفُهوم والأحوال والأنساق والسياقات فإن هناك إمكانية للتعايش والتصالح، فلقد وسع الفكر الإسلامي حراك العلماء وآراءهم وأمكنهم من التعاذر وتلاقح الأفكار.

ونوابت السوء من المتعالقين مع معطيات حضارة الغير هم الذين يعمقون الخلاف ويحفزون على التنازع، وما من أحد يستبعد الاختلاف، فالفهوم تختلف، والعقول تختلف، والأصول والقواعد والمناهج وطرائق القراءة ومستوياتها ومنازعها وخلفياتها الثقافية والمذهبية والطائفية تختلف، وقلَّ أن تجد قراءة بريئة تنشد الحق لوجهه إذ مجمل القراءات لتعزيز الآراء والتصورات المذهبية أو الانتمائية، وفي ذلك تعميق للخلاف، والعلماء المتضلعون الناصحون المجربون يحترمون المخالف إذا انطلق إلى النص بحسن

نية وسلامة قصد، ولم يكن متشبعاً برؤية مستمدة من حضارة الهيمنة والمادية والعلمانية، حضارة المدنية المحكومة بالعقل الخالص والعلم التجريبي.

ولن يتأتى الوفاق في ظل تنحية النص أو تحميله ما لا يحتمل، فالحضارة الإسلامية محكومة بنصها، وعقليتها تدور في فلك النص، بينما الحضارة المستبدة محكومة بالعلم والعقل المطلق.. ومتى اختلفت الضوابط والمرجعيات تعذر الاندماج وأمكن التعايش وتبادل المصالح والخبرات واستغلال القواسم المشتركة وما من حضارة إلا هي جماع حضارات خلت وأخرى قائمة، وليس الإسلام بدعاً من الحضارات، وليست هناك حضارة بريئة، وما بُعث الرسول إلا ليتم مكارم الأخلاق.

ولأنني عشت مشاهدنا العربية أكثر من نصف قرن فإنني شاهد من أهلها أعرف كم عصفت بنا القوميات والقطريات والاشتراكيات والبعثيات والإخوانيات والحداثويات والعلمانيات و«الليبراليات» ولقد سقتها بصيغة الجمع تمشياً مع تعدد الخطابات إذ لك لمرحلة وأمة رؤيتها فماركسية «الصين» تختلف عن ماركسية الاتحاد السوفيتي وبعثية سوريا تختلف عن بعثية العراق، وهكذا كل يغني على ليلاه، وكم خرجنا من خندق إلى خندق ومن صف إلى آخر وما زادتنا خطواتنا التي مشيناها إلا خبالاً، ولم يبق إلا أن نتداعى إلى كلمة سواء نعبد الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، وعند التولي لا نملك إلا أن نقول: «اشهدوا بأنا مسلمون».

المآزق والمزالق في موضعة الذات الإلهية .. !(١)

من الصدف الغرائبية أنَّ من أوائل ما وقع في يدي من الكتب كتاب (الله) ل(عباس محمود العقاد) وأنا بعد لم أبلغ الحلم، ويومها لم أكن أدري ما المحاذير من الخوض في تصورات العلماء والمفكرين للذات الإلهية ... ولقد غامرت في قراءة مقاطع منه، ولمَّا لم أفهم منه شيئاً لم أتردد في ملء فراغات الأسطر بكلمات نابية تنال من شخص العقاد وعقيدته وعلمه ووصفه بأقذع الأوصاف. ولمَّا اشتد ساعدي، واستبانت لي مسارب الأفكار ومستقرات الحكمة وفصل الخطاب، وعرفت أنه عمد إلى عرض آراء الفلاسفة والمفكرين الغربيين حول الذات الإلهية، وأنه بذاته مؤمن قوي الإيمان، لم أجد بداً من شراء نسخة أخرى من ذات الكتاب، وإحراق النسخة المشوهة بالتعليقات الهجومية غير المبررة، خشية أن يطلع عليها أحد من بعدي، فتكون سخريتهم أمرَّ من سخريتي به. ومنذ ذلك الحين وأنا أخب وأضع في فيافي تلك المهايع المحفوفة بالمخاطر والمحاذير، حتى لقد أصبح حقل (الله) في مكتبتي من أكثر الحقول وأشملها وأحفلها بشتيت العقائد، ففي هذا الحقل تختلط كتب السلف مع سائر الملل والنحل والفلاسفة الأوائل والأواخر والمترجمات، وما تصفحت شيئاً منها إلا أحسست أنني كعصفور بلله القطر، لأن الملاحدة منهم يوغلون في النيل من الذات الإلهية ومساءلتها، ويكفي أن أذكر من بين أولئك الملاحدة .. (عبد الله القصيمي) في كتابه (الكون يحاكم الإله)، وهو كتاب يقع في سبعمائة صفحة كلها تنضح بالكفر البواح والإلحاد الصراح، وما كنت أشفق على أحد إشفاقي على الذين يوالونه أو يعلون من شأن فلسفته الهدامة ظناً منهم أن انحرافه وقف عند حد (هذه هي الأغلال).

وهذا الكتاب لو عولج في زمانه بالتي هي أحسن لكان بالإمكان تداركه، ولكن السلفية المتوترة أشعلت فتيل المواجهة العنيفة فما زاده ذلك إلا عتواً ونفوراً، وزاد من عناده ما مَسَّهُ من الفقر المدقع والمطاردة العنيفة من السلطة المصرية إذ ذاك، حتى لقد حاول الحصول على البلغة من سباب العقائد والمذاهب والأفكار، فصارت فلسفته هدامة. والذي أحمد الله عليه أنني سلفي خالص السلفية فيما يتعلق بالذات الإلهية، فلقد عضضت على ذلك المعتقد بالنواجذ بعد أن خبرت آراء المعتزلة والجهمية والقدرية والمرجئة والشيعة والفلاسفة وسائر الملل والنحل والأهواء وعرفت دقائق تصورهم للذات الإلهية، وبخاصة ما يتعلق بالقرآن الكريم.

أقول ما تقرؤون بعدما رصدت بإشفاق وخوف العراك المستمر بين أعلام السلفية المعاصرين:

-أبي عبد الرحمن بن عقيل الظاهري.

-عبد الرحمن البراك.

-عبد الله العنقري.

سدد الله على المحجة البيضاء خطاهم وأخذ بنواصيهم إلى ما يحب ويرضى، وصرف أقلامهم وألسنتهم إلى ما الأمة الإسلامية بأمس الحاجة إليه، وألهمنا جميعاً رشدنا، ووقى البلاد والعباد مضلات الفتن، لقد خبرت ما يدوكون بألسنتهم وأقلامهم، وهضمت متعلقات (المحنة) التي تعرض لها إمام أهل السنة (أحمد بن حنبل) -رحمه الله- في قضية خلق القرآن، وأدركت ما تعرض له المحدِّثون والفقهاء والمفسرون من صلف العامة حين يَقْدِمون على بلد في سبيل رحلتهم لطلب الحديث أو العلم، إذ لا يتردد العامة

(١) تاريخ المقال: ٢٨/ ١٢/ ٢٠١٠

من مخاتلتهم، واستغلال براءتهم بأسئلة مفخَّخة، إذ لا يترددون في أسئلتهم عن معتقدهم في شأن القرآن، أمخلوق هو أم غير مخلوق وهل لفظ القارئ وأحبار النساخ وورق الكاغد تدخل في الخلق أم في التنزيل. ولقد يحزنني ما يتعرض له جهابذة العلماء من مضايقات ومحاصرات وسجن أو ترحيل لمجرد أن إجابتهم حمَّالة. وما كانت الأسئلة والاستفتاءات إلا فخاخاً وألغاماً لا يراد منها العلم، وكم من عالم أوقعته هذه الأسئلة التآمرية في تلك الحبائل ودرجت به في تلك الطرقات الملغمة فحرمنا من علمه الذي ظعن من أجل نشره أو استكمال ما ينقصه، وما كنت أود أن يعيدها بقية السلفيين جذعة، والأمة غير الأمة والزمن غير الزمن. لقد شُلَّت حركة العلم في زمن ذهبي كانت الغلبة فيه للأمة الإسلامية، فكانت الأجواء العلمية والسياسية والفكرية مواتية، أما اليوم فالأمة الإسلامية مستضعفة، وعلماء السوء على أبواب جهنم، والمدُّ الطائفي على أشده والغزو والتآمر يغتالان الأمة من تحتها، وأفكار الغرب ومذاهبه ومناهجه من (علمانية) و(ليبرالية) و(حداثوية) على أشدها، وأخشى ما أخشاه أن نكون كـ(فقهاء بيزنطة) تحاصر الجيوش أسوار مدينتهم وهم في جدل عنيف حول ما إذا كانت البيضة من الدجاجة أم الدجاجة من البيضة.

وكم نود ممن أعطاهم الله بسطة في العلم ألا يجرجوا ملفات الأمس المهترئة من الترديد، فما بين أيديهم من القضايا والنوازل والمشكلات أهدى وأجدى، وما أحوج الأمة إلى جهودهم وعلمهم.

والقرآن الكريم الذي استنزف طاقات العلماء وأرهقهم لما يزل طرياً كأنه لم ينته من التنزل، والأمة بأمس الحجة إلى مقاربات واعية تمتح من معينه، وتواجه به النوازل والمشكلات، فهو رسالة السماء للأرض، وما بدر من خلاف بين سلف الأمة أدى إلى السجن والقتل والتشريد لا تقوم الحاجة إلى استدعائه، فالناس لا تعنيهم معضلات المسائل.

وخلق القرآن أو عدمه قضية لا تتطلب المزيد إذا استوفاها العلماء الأوائل، وقالوا فيها ما لا مزيد عليه، وما قلتموه وما ستقولونه مُعار أو مُعاد، فهل غادر العلماء من متردم؟

وما كنت أود أن يفهم المتابع أنني ضد الفلسفة أو التفكير أو إعادة القراءة لتراث الأمة في ظل النوازل والمكتشفات وثورة المعرفة والاتصالات، فأنا حفي بكل حقول المعرفة، تواق إلى كل مخلفات المذاهب، حريص على تقصي رؤية المخالف، سعيد بالتراكم العرفي، آنس بمن يملك منهجاً وآلية قادرين على مزيد من الاكتشاف، سباق إلى من ينطوون على خلفية ثقافية ونسق معرفي يمكنان من قراءة النص المشترك بطريقة مغايرة، ولقد أشرت من قبل إلى ما استفدته من أبي عبد الرحمن وإلى ما أضافه خصومي إلى معارفي وطرائق تناولي، وما أود إضافته إن كنت قادراً على الإضافة أن نفرق في طرحنا بين ما طريقه العقل وما طريقه النقل، فالبحث في الذات الإلهية والتفكير المجرد فيها لتقرير مستخلصات عقلية مشروع انزلاق في متاهات الوهم، والتفكير في الأدلة عليها مشروع إيمان قوي لا يتزعزع. و .. (نهاية إقدام العقول عقال).

أسبوع الوفاء للأعْلامِ النبلاء .. !(١)

تلقيت ثلاث دعوات كريمات ممن لا أعصى لهم أمراً، وما كنت حفياً بأمر كاحتفائي بالوفاء لذوي الحقوق الممطولة من أبناء وطننا السباق إلى معالي الأمور، وليس غريباً أن يستبق الموسرون والأدباء والإعلاميون إشاعة محاسن الأحياء والأموات فيحيوا ذكراً أو يردوا جميلاً، فهم بما يبذلون من عمل يؤدون بعض ما يجب عليهم من فروض الكفاية، فمنهم من ينفق من مال الله الذي آتاه من غير سرف ولا مخيلة، ومنهم من يبسط جاهه شفيعا لذوي الحاجات، ومنهم من يُسخِّر قلمه أو يُطلق لسانه لإشاعة الذكر الحسن وحمل المترددين على مبادرة الإحسان على حد:

لا خيل عندك تهديها ولا مال

فليُسْعد النطق إن لم تسعد الحال

والمناسبات الثلاث توسلت بالمال والجاه واللسان والقلم عبر تظاهرة ثقافية عَرَفت لذوي الفضل فضلهم، ولقد قيل من قيل:

(لا يعرف الفضل لذويه إلا ذوو الفضل).

كانت المناسبة الأولى محاضرة تأبينية تَعُدُّ المآثر وتَسْتعيد الذكريات ألقاها معالي الدكتور عبد العزيز محيي الدين خوجة وزير الثقافة والإعلام عن رجل العطاء معالي الدكتور محمد عبده يماني - رحمه الله - وأدارها الأستاذ خالد بن حمد المالك رئيس تحرير جريدة الجزيرة، واستضافتها (خميسية) حمد الجاسر.

وكانت المناسبة الثانية تكريماً للمربي القدير الأستاذ محمد بن عثمان البشر وتدشينا لسيرته الذاتية (حبَّ الحصيد).

استضافها الدكتور محمد بن عبد الله المشوح في (ثلوثيته).

وكانت المناسبة الثالثة احتفاءً بمرور خمسين عاماً على (ندوة الرفاعي) وإشادة بمآثر مؤسسها معالي الأستاذ عبد العزيز بن أحمد الرفاعي رحمه الله، أحياها رجل الأعمال الشيخ أحمد باجنيد الذي تلقى راية الندوة بعد وفاة صاحبها تحت مسمى (ندوة الوفاء) ورعاها وزير الثقافة والإعلام الصديق والقريب للمحتفى به.

والمناسبات الثلاث تقاطرت مساءي الثلاثاء والأربعاء وصباح الخميس ٢٤-١-١٤٣٢هـ في (ثلوثية) المشوح و(مركز الملك فهد الثقافي) و(دارة العرب) ولقد شرفت بحضورها جميعا، والإلمام ببعض ما دار فيها عبر المتون والهوامش، وحمدت للرعاة المنفقين والراعين المباركين كرمهم وأريحيتهم وتغلبهم على ظروفهم وفاء للأحياء، وإشادة بالأموات، وإذا كان المسلم مأجوراً حين يلقى أخاه بوجه طلق، فكيف تكون العاقبة إذا بُذل في سبيل الإسعاد شيء من المال والجهد والوقت، وإذ لم يشهد الأموات ما هم أهل له من الاحتفاء والإشادة، فإن أبناءهم وأحفادهم وذوي رحمهم يبتهجون بهذا التكريم الذي كان بودي لو أنه جاء وهم أحياء يرزقون ليعرفوا قدرهم.

والتقدير وإن جاء متأخراً فإنه إسعاد لخلفهم وتحفير للداتهم ومجايليهم ممن يترددون في سدِّ المكان الذي سَدُّوا.

في أصبوحة (دارة العرب) كان الحديث المستفيض عن جوانب من شخصية النقيد محمد عبده يماني، وكان المتحدِّث الرئيس زميله وقريبه ومخالطه في مواقع كثيرة معالي

---

(١) تاريخ المقال: ٤/ ١/ ٢٠١١

الدكتور عبد العزيز خوجة، وحديثه المقتضب عُزِّز بتقديم سخي مداخلاتٍ ثريةٍ، فكان الحديث ذا ثلاث شعب:

-استهلال الأستاذ خالد المالك الذي كان قريباً من الفقيد بحكم عمله الصحفي.

-ومحاضرة معالي الدكتور عبد العزيز خوجة الخبير بدواخل الفقيد في الجامعة والوزارة وبعد التقاعد.

-ثم استوى اللقاء على سوقه بمداخلات الحضور ممن عمل مع الفقيد أو رصد نشاطه الرسمي و التطوعي أو ممن أصابه وابل من أفضاله. ولقد تفاوت المداخلون بين جدٍّ صارم وتلطف غير عازم وشهوة للكلام لا تقول شيئاً ولكنهم جميعاً استدركوا فوات المحاضر وسلطوا الأضواء على جوانب من حيوات الفقيد الحافلة بجلائل الأعمال، وإن أجمعوا على الثناء العريض، الأمر الذي حفز معالي الدكتور سليمان السليم على استدراك هذا الفوات مشيراً إلى ما كان الغرب يفعله في التأبين من ذكر الإيجابيات والسلبيات موطئاً لرؤيته بحديث: «**كلكم خطاؤون وخير الخطائين التوابون**». ومصححاً مفهوم: (اذكروا محاسن موتاك)، وعلى النقيض من مداخلته مداخلة الأستاذ محمد بن ناصر الأسمري الذي وصف مجايلي الفقيد بالظلاميين، حيث جمع بين التعميم والاتهام، وما كانت العصمة متأتية ولا مشهوداً بها لأحد بعد الرسل فيما يبلغون عن الله، وكيف يتأتى مثل هذا الوصف والمؤبَّن نفسه كان منصفا لمخالفيه في بعض ما يذهب إليه محترماً لهم مجتهداً في مجادلتهم بالتي هي أحسن، والفقيد الذي تقلد عدة مناصب، وكتب وحاضر وألف ونذر نفسه لخدمة أمته في المنشط والمكره والعسر واليسر لا يمكن أن ينجو من الخطأ والنسيان، وكيف لا نستشعر أخطاءنا ونقبل الناصحين والله جل وعلا تعقب رسوله بالعتاب والمساءلة: (عَبَسَ)، ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ﴾، ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى﴾، ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾، ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾، ﴿تَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ ولقد أُلِّفت كتبٌ تقصت عقاب الله لرسوله الذي قال عنه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، والفقيد الذي نُكن له المحبة والاحترام ونثمن سعيه الحثيث في سبل الخير نحسبه كما قيل عنه والله حسيبه، ولو لم يكن لأبي (ياسر) من لاعلم الذي ينتفع به إلا دفاعه المسدد عن الصحابي الجليل (أبي هريرة) رضي الله عنه، وتفنيده العلمي لدعاوي المرجفين والمفترين للكذب لكفاه، وإني لأرجو أن يكون ذلك العمل الجليل شفيعه عند الله.

لقد استهل المداخلات معالي الدكتور أحمد الضبيب واختتمها معالي الدكتور سليمان السليم وتدفقت فيما بين هذا وذاك الرؤى والتصورات، ولقد حفل التقديم بلفتات مفيدة، حيث أشار الأستاذ خالد المالك إلى محطات مضيئة من حياة الفقيد ولفت الأنظار إلى أن التقاعد عند الجادين بداية حياة مفيدة لمن انتصر على نفسه، وضرب مثلا بالفقيد الذي وظف جهده ومال ووقته وخبرته وعلاقاته للعمل الإنساني وقال: بقي قلباً نقياً ينبض بخدمة الناس وتلمس احتياجاتهم وعقلا يفكر دائما بما يمكن أن يقدم من أعمال إنسانية واجتماعية لخدمة وطنه وإخوانه المواطنين وظل صديقا للكتاب قارئاً ومؤلفاً وصوتاً حاضراً بقوة في المنتديات ومنابر الرأي بالكلمة الجميلة التي تتميز بالصدق والموضوعية والهدوء.

فيما أشار بعض المداخلين إلى مبادرات إيجابية تمثلت ب(المؤتمر الأول للأدباء السعوديين) و(إنشاء المجلس الأعلى للإعلام).

ذلك بعض ما كان من أمر الاحتفاء بالفقيد، أما الاحتفاء بالمربي القدير أبي عثمان محمد بن عثمان البشر حفيد المؤرخ النجدي ومؤلف كتاب (حب الحصيد) والحاضر في كل عمل إنساني أو ديني فهو احتفاء يليق بمثله لقد تحدث في هذا اللقاء لفيف من طلبته ومحبيه، في مقدمته معالي الدكتور صالح بن عبد الله بن حميد رئيس المجلس الأعلى للقضاء، وما كان لي أن أتخلف عن هذه المناسبة، وهو الأستاذ والمرشد والحاضر في كل المناسبات دعماً وإسهاماً وسعياً في حاجات الناس، لقد كان بودي حضور لفيف من طلابه الذين يكنون له المحبة والاحترام، ومن بين أولئك معالي الدكتور محمد بن سليمان الجاسر ومعالي الدكتور حمود البدر ومعالي الدكتور علي الغفيص وآخرون من ذوي المؤهلات العلمية أو المناصب العليا ولربما أنهم لم يعلموا بهذه المناسبة السعيدة، ولما أزل أمني نفسي بقراءة نقدية لكتابه (حب الحصيد) لأنه رصد أمين لسعي الدولة الحثيث في تطوير التعليم وكافة مؤسسات المجتمع المدني.

دامت أفراح البلاد ومناسباته السعيدة.

وهل يُؤَنْسِن أبو زيد الفيروس .. ؟![1]

قضى المفكر المثير إلى حد الصدام نصر حامد أبو زيد نحبه بتأثير فيروس مجهول وقدم إلى رب وسعت رحمته كل شيء، وليس من حق أحد أن يشهد لموحد بجنة أو نار، ومن تجرأ على الله في أحكامه فقد عرض نفسه للوعيد وفي الأثر: (من هذا المتألي علي) ونحن حين يستدعينا رحيل مفكر قلق مقلق فإننا لا نشهد إلا بما علمنا ولقد يكون المؤمل أن نذكر محاسن موتانا، ولكن ذلك يكون في حق من مات ولم يترك أثراً يقرؤه الناس، فينعكس أثره على من بعده، وفي الأثر (يموت بن آدم وينقطع عمله إلا من ثلاث) منها (علم ينتفع به) وإذا أجر العالم بعلمه المفيد، فإنه يأثم حين يترك علماً يقدح في العقيدة أو يسيء إلى الأخلاق. وبدون هذه الرؤية لا يمكن أن تصان العقائد والأخلاق، و(أبو زيد) من أولئك المفكرين الذين صدعوا الفكر المتناظر، وأحدثوا توتراً في الوسط المصري، ولما لم يحتمل المجتمع المصري الرؤى والتصورات التي أخذ بها أبو زيد اضطر إلى الهجرة من مصر، وحين هدأت الأوضاع عاد ليفاجأ بفيروس مجهول يقضي على حياته القلقة المقلقة، وينشئ حياة جديدة قد يسهر الخلق جراها ويختصمون.

وفي ضجة الصراع الدائر حول فكر أبي زيد كنت حاضراً في مصر وعبر الكتب التي أخرجها للناس أو أخرجها الناس حول فكره، ولم أكن في يوم من الأيام مكتفياً بما يقال عنه، لأن تجاذب القضايا قد يفقد معه الأطراف العدل والمصداقية، وكم من عالم أو مفكر ظلم بسبب التحامل عليه، والتاريخ الحضاري مليء بالضحايا والمظلومين، ولو أن المتابعين للجدل الفكري تجاوزوا إفرازات المواقف إلى المواقف نفسها، وقرؤوا المبادئ والأفكار مجردة من الأهواء الجامحة والاصطدامات الفاقدة للاتزان لكان بالإمكان أن نتفادى كثيراً من الصدامات والتصنيفات، وأبو زيد اجترح خطيئات لا يمكن القبول بها، وإن خلف فكراً لا يستهان به، ودخل متاهات فكرية وجنح عقلية لا يمكن السكوت عليها. غير أنه بالإمكان معالجة الأوضاع بأساليب لا تصل إلى حد الحكم عليه بالردة والمطالبة بتطليق زوجته وقتله مرتداً، إذ هناك حلول أخف مما آلت إليه الأمور. نعم أبو زيد قال في القرآن الكريم ما يصل بصاحبه حد الكفر، وربما تكون لديه تأويلات تدرأ عنه حد الردة، وكان بالإمكان مسألته قبل محاكمته ومحاورته قبل الحكم عليه. وجدل الديني والعقلي جدل قديم تعرض له علماء ومفكرون وفلاسفة، وكلما ضيق الخناق على أحد منهم لجأ إلى الفصل بين الدين والرؤية المتنازع حولها. نجد ذلك عند (ابن رشد) حين طلب الفصل بين الدين والفلسفة، وعند (الأصمعي) عندما طلب الفصل بين الدين والشعر، وعند كافة العلمانيين حين طالبوا بالفصل بين السياسة والدين، أو بين الحياة والدين في العلمانية الشاملة الكافرة. وفكر أبي زيد خليط غريب، فهو عقلاني علماني بنيوي تفكيكي صوفي باطني، رفض قداسة النص وعصمة النظم القرآني ويلح على الأنسنة التي ينادي بها (محمد أركون). ولقد يكون في بداياته منطلقاً من عباءة الإسلام المتجدد، إذ لم يقل بتنحية الإسلام، ولكنه طالب بتجديده تجديداً يحيله إلى منتج إنساني، وأكاد أقطع أن فكر أبي زيد يقوم على قضية واحدة لا يتعداها وهي قضية (النص) بوصفه مصدر التشريع والتكوين الفكري، وهو بهذا الهاجس يلتقي مع (على حرب) ولكنه يختلف معه في أهداف الدخول في عوالم النص المقدس، على أن لأبي زيد مجازفات غير راشدة، وذلك حين درس ثلاثة خطابات: خطاب المؤسسة الدينية ممثلة ب(الأزهر) والخطاب الأصولي ممثلاً باليمين واليسار الإسلاميين. والخطاب التنويري. وخرج من الثلاثة بخطاب عقلاني علمي

---

(١) تاريخ المقال: ١٣/ ٧/ ٢٠١٠

معرفي صوفي. وأبو زيد بداياته مغرم بالثنائيات ك(النص - والحاكمية) و(الفقهاء - والوعاظ) و(الفكر - والدين) و(الاعتدال - والتطرف). وقضيته الملحة تتمثل في تهميش الشريعة وتجديد العقيدة والعقيدة عنده تقتضي أنسنة النص القرآني واستبعاد القداسة، بوصفه متلبساً باللغة التي هي إنسانية وليست ربانية فالقرآن عنده نص خاضع للنقد والتفكيك، والمسوغ لهذه الرؤية كونه بلسان عربي، واللسان العربي ليس ربانياً بحيث يحتفظ بقدسيته وإن كان قبل التلبس مقدساً، وإذا كان (ابن تيمية) قد تصدى لانحرافات المفسرين المتوسطة ب(المجاز) وأنكره حتى من اللغة فإن أبا زيد التقط الخيط من (المعتزلة) دون أن يستشعر خطورته في البحث عن الذات الإلهية والأحكام الشرعية وحقيقة المغيبات وهي القضايا الثلاث التي زلت بها أقدام وظلت بها أفهام، وقد تقصى ذلك في كتابه (الاتجاه العقلي في التفسير دراسة في قضية المجاز في القرآن عند المعتزلة). وقد عرض لإشكاليات القراءة وآليات التأويل، وحاول التخلي عن مجموعة القواعد والمعايير التي قيد المفسرون أنفسهم بها في فهم النص، مستشعراً أن علاقات النص تؤثر في تفسيره، وهو لا يريد هيمنة القداسة على النص، بحيث تتحكم في الرؤية والتأويل، وهو بهذا يتماهى مع نظرية (موت المؤلف) وهذا التحرر عرضة لشطحات موجعة، أثارت الرأي العام عليه، وأكاد أجزم بأن كتابه (إشكاليات القراءة) يعد مقدمة لتجاوزاته المخلة بعقيدته، ولأنه سباق إلى إجهاض الدلالة الظاهرة فقد أغرم ب(محيى الدين بن عربي) وأصدر عنه كتابين: (فلسفة التأويل) و(هكذا تكلم ابن عربي) واستدعاؤه لابن عربي محاولة ذكية لتبرير رؤيته للنص القرآني الذي اجتهد في أنسنته، لكي يتمكن من قراءته قراءة نقدية كأي نص أدبي تراثي. وإذا كان ابن عربي أجهض النص بالتأويل الباطني فإن أبازيد أجهض النص بالتفكيك والتأويل وإذ لا يمكن تصور فكر أبي زيد بمعزل عن الجدل العميق الذي دار حول فكره فقد قرأت أربعة كتب تكاد تكون جماع أمره، وإن فقدت في بعض مناحيها المصداقية والموضوعية من كل الأطراف بما فيهم أبو زيد وإشياعه: الكتابان الأولان من جمع أبي زيد وإعداده (الفلسفة في زمن التفكير ضد الجهل والزيف والخرافة). وهو مجموعة وثائق ومقالات حول ما أثير حوله من جدل و(القول المفيد في قضية أبو زيد) ويشمل على أكثر من ستين مقالاً وحواراً للمدافعين عن حرية الرأي و(قضية أبو زيد وانحسار العلمانية في جامعة القاهرة) للخصم اللدود الذي أشعل فتيل القضية الدكتور (عبد الصبور شاهين) وهو مجموعة مقالات كتبت بأقلام مناوئة لفكر أبي زيد، وكتاب (بين التكفير والتنوير) وإذ قضى أبو زيد نحبه بعد ضجة لم تحسم بعد، فإن التاريخ سيبقى على إفرازاتها ولا أحسبها ستصير إلى مزبلته، فهي قضية كبرى خلخلت الفكر العربي وأحدثت تصدعات لا يمكن رأبها، وأبو زيد لم يكن وحده الذي انتهك قدسية النص المقدس، لقد سبقه عدد من الكتاب والدارسين والمفكرين وسيظل القرآن الكريم مجالاً خصباً لتناسل الأفكار والمبادئ. على أنه من الخطورة بمكان أن ينسى المفكر انتماءه ومعتقده ويدهن مع المدهنين ومن ثم لابد من رفض فكر أبي زيد والتخلي عنه، فهو فكر منحرف فكر أنْسنَ المقدس، بحيث أصبح النص القرآني منتجاً إنسانياً قابلاً للأخذ والرد في بنائه وأبعاده الموضوعية وتلك رؤية عقلية، لم تكن جديدة، لكنها مجددة، إضافة إلى أخطاء تاريخية وموضوعية ارتكبها في كثير من كتبه حتى أن بعض المعارضين لرؤيته أشار إلى أن الاعتراض على جهله لا على فكره، جاء ذلك حول كتابه عن الشافعي. وأبو زيد سيعود إلى المشهد الفكري بعد وفاته وسيقال فيه وعنه ما يشكل ركاماً قد يكون له ما بعده.

كيف يتشكل خطاب الأمة في ظل الخلطة .. ؟! [(١)]

كنا في بلادنا أمة فكر واحد ومذهب واحد أثرت علينا حَنْبلية نصوصية تتوقى شطحات المتصوفة وإغراق المعتزلة وتأويل الفلاسفة. تقدم النص على سائر مصادر التشريع ولا تمضي مع احتمالاته، إذ تأخذ منه ما يتيسر مستشعرة حديث: «**إن هذا الدين متين فاغلوا فيه برفق**» وحديث: «**بعثت بالحنيفية السمحة**» وحديث: «**ما خيَّر رسول الله بين أمرين إلا اختار أيسرهما**» ومستحضرة قاعدتي الأصوليين: «سد الذرائع» و «درء المفاسد» .. والدين إسلامي بمصدريه نزل على أمة فطرية عفوية لها خصائصها وبيانها وجدلها الساذج، ومن ثم جاء الذكر الحكيم بلسان عربي مبين، وحمله إلى الأمة عربي أمي من قريش التي تعد لغتها من أنقى اللغات وأقدرها على استيعاب التنزيل. وحين دخل الناس في دين الله أفواجاً حملوا معهم لوثة الأفكار وعجمية الألسنة ورواسب العقول الملحة في التساؤل والتنقيب عما وراء الظواهر، وقالوا في النصوص الشرعية ما لم يأذن به الله، ومن ثم هب العلماء يدرؤون عن اللغة ما يفسدها وعن الدين ما ينحرف به عن محجته البيضاء التي تركهم عليها رسول الله -ﷺ-. فكان علم النحو والصرف وفقه اللغة وعلمها، وكان علم الأصول وقواعد الفقه، ولكن طوفان المتغير طغى على السدود والحدود مما اضطر العلماء إلى تعلم المنطق والفلسفة والتوسع في علم الكلام، ولأن الاجتهاد مجال تحرير المسائل فقد اتسعت رقعة الاختلاف، وتعددت المذاهب ونشأ التعصب البغيض الذي نشأت في ظله العداوة والبغضاء. وما كان التعصب ليكون لولا وجود أنصاف المتعلمين، وركون الساسة إلى العلماء لحمايتهم وتعزيز وجودهم، والتاريخ السياسي والعلمي والحضاري مليء بالصدامات التي أسهمت في تخلف الأمة وضعفها وتفككها، ولقد أدى نزوع العلماء إلى تعلم ما جد من علوم تمشياً مع القواعد الأصولية: الحكم على الشيء فرع من تصوره إلى وقوع البعض منهم في شراكها والتحول من الطريق المستقيم إلى بنيات الطريق، حتى لقد أصبح فريق من العلماء كما (تأبط شرا) الذي تقول عنه أمة: (طاف يبغي نجوة: من هلاك فهلك) وحين أصيب المغامرون لإنقاذ الغارقين في لجج الفلسفة وعلم الكلام والمنطق هب علماء آخرون يحذرون مما جد من علوم لم تكن معروفة من قبل عند سلف الأمة ويدعون إلى هجرها والعودة إلى ما كان عليه محمد وأصحابه، وفي ظنهم أن مثل هذه الدعوة ممكنة وقادرة على إيقاف التدهور، وانشق العلماء والفقهاء والمتكلمون والمفسرون وسائر المشتغلين بمصادر التشريع على أنفسهم وبدت بينهم العداوة والبغضاء، وكل طائفة تتقرب إلى الله بذم الطائفة الأخرى، ظناً منها أنها الطائفة المنصورة، وتلبست معارف الأمة بالفعل ورد الفعل الأمر الذي فتح المجال للنقد الجارح والتضليل الصريح والتحذير الملح. ومن الأخطاء الفادحة التي يقترفها المنقبون في التاريخ الحضاري للأمة أخذ الظواهر من سياقاتها وظروفها التي كان من الطبيعي أن تنشأ في ظلها، وتلك سمة تفقد معها المشاهد مصداقيتها، ذلك أن لكل ظاهرة سياقها و نسقها، ولا تجوز معالجة أي ظاهرة بمعزل عن ذلك، فحالة الصراع المحتدم تتغير معه لغة الخطاب، ويكون تغيرها مشروعاً وحين يصطلح القوم وتهدأ الأمور تكون لغة الخطاب هادئة، وللراصد أن يستدعي زمن الفتن الفكرية ليرى الحدة والحدية والنبرة المرتفعة والتصنيف والإقصاء والاستعداء. نجد ذلك في فترة المحنة التي تعرض لها الإمام «أحمد بن حنبل» وفترة التحدي التي تعرض لها شيخ الإسلام «ابن تيمية» وفترة المواجهة العلمية والعسكرية التي تعرض لها المصلح «محمد بن عبد

(١) تاريخ المقال: ٢٠/ ٧/ ٢٠١٠

الوهاب» فكل خطاب اتخذه هؤلاء لا يمكن معالجته بمعزل عن ظروفه الضاغطة، كما لا يمكن تبنيه في ظروف مغايرة.

فالذين ينتقدون أي ظرف خارج انساقه وسياقاته، والذين يقتحمون أي خطاب في ظل سياقات وأنساق مغايرة لا يختلفون عن بعضهم في الخطأ وسوء التقدير، فحالة الحرب وخطابها يختلفان عن حالة السلم وخطابها. ومما زاد الطين بلة أنه لما تعددت بنيات الطريق وكثر الزيف تقحمت السياسة على الفرقاء وأفسدت ما بقى من رسيس الصفاء، وكان كل فريق يخطب ود السياسة لتكون إلى جانبه، بحيث يفرض رأيه من خلالها. ومن أوائل الخلفاء الذين انصاعوا إلى صراع المذاهب «المأمون» لقد اصطرع في عهده أهل السنة والمعتزلة وكانت محنة خلق القرآن التي عذب فيها علماء واتهم فيها آخرون. حتى لقد أصبحت مصيدة لكثير من العلماء؛ إذ كلما وفد إلى المصر عالم فوجئ باستفتاء مفخخ كان يسأل عن اللفظ القرآني أو الكتابة أو الأحبار التي كتب فيها القرآن، فحين يقول المسؤول لفظي في القرآن مخلوق يسأل وأي شيء من القرآن غير مخلوق إذا كانت الحروف والألفاظ والأحبار والأوراق مخلوقة، وتلك مماحكات أضاعت الأمة وشتتت شملها، ولقد تعرض «البخاري» رحمه الله وهو من هو في دقته وسلفيته وصدقه وورعه لمثل هذه الأسئلة المغمة، ولما دالت دولة الاعتزال وأخذ أهل أسنة بزمام المبادرة بدت التكتلات والتصفيات وأصبح للحنابلة شأن كبير، وهكذا تصدعت وحدة الأمة وتفرقت إلى أكثر من سبعين فرقة، بحيث فاقت تفرق اليهود والنصارى وفي خضم التطاحن تشكلت خطابات يأكل بعضها بعضاً، وطوال تلك القرون لم يدرك الخلف سر التفرق بل ظلت الخلافات والتعديات تنمو يوماً بعد يوم.

من قبل كنا نرقب التطاحن الديني والفكري والسياسي في أرجاء الوطن العربي ونسمع بالثورات والمظاهرات والاعتقالات والحراسات المشددة والكشف على الغادي والرائح خوفا من المتفجرات، ونحمد الله على ما نحن عليه من اجتماع كلمة، غير أن ثورة الاتصالات وانفجار المعلومات وتدفق العلماء والدعاة و الحزبيين والحركيين عاملين أو لاجئين واتساع التعليم وارتفاع سقف الحرية للصحافة ومبادرة أنصاف المتعلمين لعويص القضايا والنوازل وشهود الناشئة لصراع المذاهب والأحزاب والطوائف ونفاد ذلك كله بعد وسائل الإعلام والمواقع ودور النشر وتعاقب البعثات وتوغل الفكر المنحرف ووجود سماعيين له وعجز المؤسسات الدينية والدعوية عن مواكبة المستجدات إضافة إلى استفحال اللعب السياسية واستغلال العواطف الدينية ورفع لواء الجهاد في النزاعات العالمية وتصفية الحسابات، كل ذلك خلط الحابل بالنابل وحير العقول بل أذهلها، حتى لا يدرك العاقل ماذا يجري في الكون السياسي والفكري. وتحديد معالم الخطاب المتوازن في ظل الفوضى المستحكمة من المستحيلات، وكم من خطاب أخذ بأدنى حد من الحق المشروع، عصفت به هوج الرياح واضطر إلى تمثل قول الشاعر:

وما أنا إلا من غزية إن غوت

غويت وإن ترشد غزية أرشد

وإذ تكون الثقافة بكل أبعادها وتعقيداتها هي المسؤول الأول عن صياغة الخطاب فإنها حين لا تحسن اختياره ولا تعي تقلباته تكون ثقافة مجتثة من فوق الأرض مالها من قرار، ولما لم يعد للقطرية مكان في هذه الخلطة المستحكمة فإن قصر الهم على الشأن الداخلي يعرض الأمة ومصالحها لمزيد من المخاوف، ومهما استطاعت أي دولة داخل منظومتها الإقليمية أو القومية أو الدينية أن توفر لنفسها محققات الحياة السوية فإنها لن

تكون في معزل عن الطوفان وربما يربطها هذا الهاجس بمقولة ولد نوح: ﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾، إن تشكيل الخطاب في ظل التقلبات المخيفة من أخطر العمليات وأكثرها حساسية. لقد أفرزت الأوضاع العربية عدة خطابات تراوح بين العقلية والفكرية والسلفية والثورية والعلمانية و«الليبرالية» ولم ينجح أي خطاب من هزة عنيفة تكاد تؤدي بكل محققات وجوده الكريم، ولقد يكون كل خطاب جديداً ملائماً لأوضاعه وإمكانياته، ولكن ليس بالضرورة أن يكون ملائماً للسياسة العالمية التي تقضي أمور العالم بغياً به، وقد لا تستأمره عند حضوره، والقرارات المصيرية حين تقضى ثم لا يضع الصغار لها دورها عند صياغة خطاباتهم، تكون نافذة على أي شكل.

وعلى الخطاب المحلي أن يتفسح لها في الطريق وفي المجالس، والأمة الواعية لذاتها هي التي تشكل خطابها المستجيب لمرحلتها دون النظر إلى نجاحات ما سلف من خطابات، ولقد يكون من المضحكات المبكيات استحضار شخصيات تاريخية طاوعتها ظروفها واصطلحت معها، ولعل من أكثر الشخصيات الإسلامية استحضاراً «صلاح الدين» وذلك دأب المبدعين المكتوين بنار الهزيمة المذلة يقول عمر (أبو ريشة):

رب وا معتصماه انطلقت
ملء أفواه الصبايا اليتم
لامست آذانهم لكنها
م تلامس نخوة المعتصم

ربما يكون الخطاب المخفق سبق زمنه، ومن ثم لم يعد صالحاً لمعالجة الأوضاع القائمة، وإن كان سليماً في ذاته، لقد تصور البعض أنه بإمكان الإسلام أن يكون بلا مذاهب وتلك دعوة مثالية لا يمكن توقعها لأنها تسقط المذاهب كلها دون أن تضع مذهباً جامعاً مانعاً يرضي كل الأطراف. وحوار الأديان والطوائف لا يعني الالتقاء على دين أو طائفة كما لا يعني المصير إلى ما يسمى ب (الإبراهيمية) ولكنه يعني الاشتغال في القواسم المشتركة والتعاذر فيما سوى ذلك. وإذ يمكن التعايش السلمي فإن المصير إلى الصدام مصير من الفاضل إلى المفضول، وإذ لا يكون من الممكن تفادي الفرقة فلا أقل من صياغة خطاب يعتمد المصالحة وإتاحة الفرصة للتعايش وتبادل المصالح، وتمكين كل الأطراف من ممارسة حقها المشروع في ظل ميثاق يحقق مقتضيات الجنوح إلى السلام ولا سيما أنه الخيار الأول للإسلام؟

باكثير في مسرحيته الإسلامية الكبرى .. ! (١) [1]

لم أكن ميالاً إلى الفن المسرحي المقروء، ولم يكن مجتمعي حفياً بهذا اللون من الفن التمثيلي. وظل اعتزالي له ردحاً من الزمن حتى اضطررت إليه في سياق قراءة وظيفية لتحكيم طائفة من الإبداعات الشعرية والسردية المسرحية...

... وعندئذ كان لا بد من التأسيس المعرفي عبر قراءة معقمة وشاملة لما أمكن من كتب في التنظير والتطبيق للنقد المسرحي، ثم البدء بتذوق النصوص الإبداعية عند رواد المسرح الشعري أمثال «أحمد شوقي»، والمسرح النثري أمثال «توفيق الحكيم» وحينئذ أدركت أن غياب هذا اللون من القراءة والتذوق نقص في البنية الثقافية للمشتغل بالدراسات الأدبية، والمجيء المتأخر خير من عدم المجيء.

بالطبع لم أكن منقطعاً البتة عن هذا اللون من الإبداع ولكني لم أكن حفياً به بالقدر الكافي. لقد كانت لي إلمامات عجلى بهذا اللون من الفن، وبخاصة حين فرض علينا في الدراسات العليا بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر إعداد بحث عن «شوقي بين التدين والمجون» إذ كان لا بد من استعراض مسرحياته الشعرية بحثاً عن نصوص في التدين أو المجنون، ولقد تمنيت أن يمثل هذا النوع من المسرحيات المتميزة لغة ومضموناً على المسرح، إلا أن هذه الإلمامات غير العازمة لم تؤسس معرفياً لهذا النوع من الإبداع، مما أدى إلى اضمحلالها من الذاكرة، بحيث لم تخول مثلي الخوض في التفاصيل، لقد تمخضت هذه القراءة الإكراهية عن اكتشاف عوالم ليست بأقل من عوالم الأغراض والأشكال والأنواع الإبداعية الأخرى، حيث تبدت لي نجاحات مبهرة وإخفاقات موجعة وجنح فكرية وأخلاقية لا قبل للإنسان السوي باحتمالها، وما كان مني إلا التفرغ لكتابة بحث تطبيقي تحت عنوان «الشعر المسرحي الواقع والمؤمل». وأملي أن يظفر هذا البحث بالمراجعة النهائية ليرى النور مشكلاً إسهاماً متواضعاً في هذا المجال المكتظ بألوان شتى من التألقات والإخفاقات. وحين بادرت «رابطة الأدب الإسلامي العالمية» بإعادة قراءة الأديب والمبدع الكبير «علي أحمد باكثير ١٣٣٢-١٣٨٩هـ الموافق ١٩١٠-١٩٦٩م» وجدت من الأفضل أن أتناول جانباً من إمكانياته الإبداعية، وهو الإبداع المسرحي السردي وتخصيص الحديث عن أفضل مسرحياته «الملحمة الإسلامية الكبرى عمر» بل أكاد أقطع بأنها من أفضل الملاحم العربية على الإطلاق كماً وكيفاً. والملاحم العربية تتنازعها المطولات البطولية والمسرحيات السردية والشعرية، وليس مهماً أن يتفق المصطلحيون على المفهوم والمقتضى أو لا يتفقوا، متى كانت ملحمة باكثير عملاً متميزاً في أدبيته وفنيته ولغويته ومضمونه، وليس غريباً أن تكون حدثاً أدبياً له ما بعده، فلقد تفرغ لإعدادها حولين كاملين مع ما توافر عليه من عمق في الثقافة واعتزاز بالتاريخ الإسلامي، ولاسيما أن الحضارة الإسلامية استهدفت في تاريخها المجيد ونظمها السياسية الرائدة، وتلك الملحمة تعد رداً ضمنياً على المستشرقين والمستغربين بلغ من خلالها مقطعاً انتزعه من سياقه المشرف، وذلك الانتزاع المسدد دليل وعي تام بالمراحل المضيئة في تاريخ الإسلام، فخلافة عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- نقلة حضارية مكّنت الأمة الإسلامية من التأسيس للخلافة بمفهوم أوسع وأشمل، وإن كان ثمة تأسيس حكيم للخلافة على عهد الرسول -ﷺ-، تقصى بوادرها الدكتور «هاشم يحيى الملاح» في كتابه «حكومة الرسول ﷺ .. دراسة تاريخية دستورية مقارنة» حيث أسس للسلطات العامة في الدولة الإسلامية، وبخاصة السلطة التشريعية والتنفيذية وما ينضوي تحتها من

---

(١) تاريخ المقال: ٢٧/ ٧/ ٢٠١٠

دعوة وتربية ونظام مالي واقتصادي وعلاقات خارجية تتمثل بالجهاد والإعداد والعلاقات، وكل متعلقات الدولة من حقوق وواجبات ومساواة وحريات، كما أشار إلى أطراف من ذلك الدكتور زياد عميدان في كتابه «مناصب النبي ﷺ وأثرها في التشريع» بحيث تناول «الإفتاء والتشريع والقضاء والقيادة العسكرية». غير أن ممارسات عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- جاءت بمثابة التأسيس للخلافة الإسلامية ومواجهة النوازل برؤية ثاقبة وتصرُّف حكيم وتسجيل تاريخي تبادله الخلفاء من بعده، وكان بمثابة الدستور للدولتين الأموية والعباسية. وعمر بن الخطاب رضي الله عنه خير من يعطي تصوراً سليماً للرجل السياسي المحنك بعقليته الجبارة وعبقريته الفذة ومنهجه السليم وسياسته الشرعية وحسن اختياره للرجال والمواقف والأعمال، ودقته في تدوير الأمور وقوته في الحق وهيبته التي تحول دون استغلال غفلته أو غيابه عن مشهد الأحداث.

ولا شك أن المثل الأعلى يساعد على تفجير المواهب وإطلاق العنان للقدرات الذاتية، نجد ذلك عند (المتنبي) مع سيف الدولة، وشرف المعاني يستدعي شرف اللفظ، لقد كتب الملحمة بروح المبدع وعاطفة المحب المعجب وخلفية المثقف الواعي لمتطلبات المرحلة المعاشة، وفي فترة من النضوج العقلي والمعرفي والسياسي، وهذه الأرضية مكنته من إبداع ملحمة متماسكة ومتناغمة: فكرة وأسلوباً وحنكة، وتجليات باكثير الإبداعية حفزت طائفة من الأدباء والنقاد على تعقب أعماله، فلقد خصه عدد من الدارسين والنقاد بدراسات شاملة ومعمقة، بحيث تناولوا بناءه الملحمي ونزوعه الإسلامي في سائر إبداعاته وكتاباته، وإن غفل عنه بعضهم تحت تأثير المد الثوري والقومي والحداثوي، وهي مخاضات عنيفة لم يحفل بها، ولم تحفل به، ثم إن كونه وافداً على مصر محتفظاً بانتمائه الإقليمي، حرض طائفة من المتنفذين على تهميشه، ومن ثم تجريده من كل مناصبه وانعكاس ذلك على نفسيته، وباكثير المهمش لتراثيه والتزامه لم يرتهن للتراث ولا للمعاصرة العربية، بل تخطت اهتماماته إلى المسرح العالمي، لقد التمس بعض الدارسين تعالقه مع «شكسبير» فيما تقصى آخرون الرؤية والفن عنده، وخير من حاول إعادة ترتيب تركته الفنية والأدبية والصحفية الأستاذ الدكتور محمد أبو بكر حميد، وهو وحده الذي أمدني بما ينقصني من المراجع، فله منا الشكر ومن الله المثوبة. إذ أعاد باكثير إلى المشهد العربي بقوة من خلال ما تركه من كتب مخطوطة ودراسات ومقالات ولقاءات مفرقة في الصحف والمجلات، وهذه الإعادة الموسعة ستمكن المهتمين من إقامة دراسات موثقة عن شخصية فذة، أسهمت في تشكيل الأدب المعاصر، واكتناف الدارسين والنقاد على قلتهم لأعماله جعل من الصعوبة بمكان التمكن من إضافة جديدة: و(ما ترانا نقول إلا مُعاراً أو معادا) والمسرحية التاريخية عند المبدع والدارس تتطلب إمكانيات قرائية مستوعبة للتاريخ بمختلف مراحله، تتجاوز الإلمام بالأحداث إلى المآلات والنتائج، وإذ تألق باكثير فنياً فإنه توفر على علاقات وثيقة بالتاريخ الإسلامي مكنه من امتصاص نسغه، ولما كان المشهد الأدبي يتسع لشعراء وسرديين ونقاد وأدباء فإن باكثير جماع ذلك كله، وهو إذ جمع الأدب من أطرافه، فقد كانت له حياته الخاصة التي كان لها أثرها على سائر إبداعاته وتوجهاته، فقد ولد في بلد غير عربي لأبوين عربيين وتنوعت بيئاته بين (اندونيسيا) و(حضرموت) و(مصر) و(الحجاز) وكانت له علاقات مع الخاصة والعامة، وهذا الخليط من البيئات والمعارف شكل ثقافة متعددة المصادر ومكنته عقليته من التفاعل الإيجابي؛ فالبيئات التي مر بها أو مكث فيها تعتمل فيها تيارات أدبية وفكرية، وتتفاعل فيها أطياف متعددة المشارب والانتماءات.

والمتقصي لحياة باكثير لا يستطيع الفصل بين تعلمه النظامي والمضطرب وثقافته المتنوعة.

با كثير في مسرحيته الإسلامية الكبرى .. ! (٢)[(١)]

والملفت للنظر أن الاغتراب عمّق ثقافته، ولم يشتت رؤيته، إذ تجلت بكل وضوح عروبته وإسلاميته، وتواصله مع الثقافات لم يزده إلا إصراراً على انتمائه الإسلامي...

... وحياة باكثير التي لم تصفُ له، ولم يصطلح معها، أضفت على إبداعه خصوصية يجليها الدرس العميق لحياته، ولقد يكون الشاعر الأكثر تمثلاً لشعره، بحيث لا يجد الملتمسون لحياته من شعره أية صعوبة. وتمكنه المسرحي لم يأت من الدربة وحدها، وإنما تشكل من الموهبة والدربة والتنمية. ومسرحيته الشعرية الأولى (همام في بلاد الأحقاف) مؤشر قدرات ذاتية مبكرة، وفوق هذا فالشاعر من ذوي النفس الطويل في إبداعه الشعري، وتلك الخاصية من متطلبات الأعمال المسرحية، وليس أدل على ذلك من مطولته المبكرة (نظام البردة) التي نيفت على مئتي وخمسين بيتاً. لقد كان فيها محافظاً يترسم خطى الأوائل. وبعد التحاقه بالأزهر والتقائه بالأدباء وخوضه لجج المعارك وتناوشه مع المدارس الأدبية، اتجه صوب التجديد في الأشكال والمضامين والأساليب، وهذه المرونة والاستجابة السريعة مكنته من الحضور الفاعل في مصر، بوصفها ملتقى العمالقة ومسرح المعارك ومستقر التيارات الفكرية والفنية.

واتصاله بالأدباء والشعراء في مصر لا تكفي معه الإشارة، و من ثم لم يتمكن من استكمال التحولات الفنية والموضوعية أثناء إقامته بمصر، وإن كانت تلك الحياة الحافلة بجلائل الأعمال فإنها تفوق سائر حيواته في كافة المواقع التي ألمّ بها، أو أقام، لقد كانت صلاته بأساطين العلم والفكر أمثال (محمد رشيد رضا)، و(محب الدين الخطيب) مؤشرات تفوق وتألق وتميز، وإذ أصيب بعض لداته وأترابه ومجاليه باضطرابات فكرية وتحولات غير محسوبة، فقد سلم مما أصاب غيره، وظل محتفظاً بسمات التوازن والوسطية والجنوح إلى الأدب العربي الخالص من شوائب العامية والاستغراب. واحترامه للمحافظة والالتزام لم يحُل دون التفاعل الواعي مع المستجد. وباكثير بمواهبه المتعددة وسعة اطلاعه حيز له جملة فضائل، تمثلت باقتداره الإبداعي والنقدي والمسرحي بشقيه: (السردي والشعري)، ومثل تلك التعددية مطلب رئيس للعمل المسرحي بكل دواعيه الفنية واللغوية والموضوعية. وإن كان ثمة ريادية فإن با كثير رائد الشعر التفعيلي ورائد الرواية التاريخية الإسلامية، والمؤسف أن كثيراً من الدارسين لتعالق الروائيين المعاصرين مع التراث يضربون صحفاً عنه، فيما يطيلون الحديث عن المسرحية العربية والتراث الديني والسير الشعبية و الحكايات الشعبية، ثم لا يعرجون على المسرحية والتاريخ الإسلامي من خلال أعماله المتميزة. وهم إذ يحفلون بمن هم دونه ومن هم متأخرون عنه زماناً وإمكانيات، لا يلتفتون إليه إلا لماما، فكتاب (الشعر المسرحي في الأدب المصري المعاصر) لم يشر إليه بشيء مع أن باكثير لا يقل في إبداعه المسرحي كماً وكيفاً عمن درسهم، بدءاً بشوقي وانتهاء بالشرقاوي وعبد الصبور. لقد أدرك هذا التقصير بحق باكثير كثير من المنصفين، ففي مقال ل(محمد حسناوي): (باكثير بين العقوق والانصاف) المنشور بمجلة الآداب أغسطس سنة ١٩٧٠م ص ٤٤، إشارة إلى تنازع ريادة الشعر التفعيلي المسرحي بين (السياب) و(نازك) و(باكثير) والسياب نفسه يعترف بالريادة ل(باكثير). و ترجمة باكثير لكثير من المسرحيات العالمية تمثل منعطفاً هاماً في تطور المسرحية الشعرية والموسيقى الشعرية عنده، ولقد جاءت ذروة النضوج عنده عندما أبدع مسرحيته (اخناتون ونفرتيتي) ولأن ثقافته موسوعية واهتمامه متعدد، فقد

---

(١) تاريخ المقال: ٣/ ٨/ ٢٠١٠

استثمر التاريخ القديم، فيما يحدوه إلى استثمار التاريخ الإسلامي اعتزازه بتراث الأمة الإسلامية، وما يمثله من حضارات، ولقد أومأ إلى ذلك في كتابه (المسرحية من خلال تجاربي الشخصية)، على أن بداياته كانت متأثرة بشوقي وبخاصة في مسرحيته الأولى (همام) وفيها محاولة إصلاح المجتمع والتصدي لكل التقاليد، وتأثره بشوقي يرتبط بالإيقاع على حساب الحركة الداخلية، وهو قد سبق غيره في نقد هذه المسرحية في كتابه (من المسرح من خلال تجاربي الشخصية)ومواهب باكثير مكّنته من استكمال أبنية المسرحيات المتعددة ا لأشكال والموضوعات، ولقد قسي عليه (عز الدين اسماعيل) ونعى إخفاقه في محاكاة شوقي. والمؤكد أنه تدارك النقص ولحق بالعمالقة، وأثبت قدرة اللغة العربية والعروض العربي على استيعاب كل الأشكال، ومن ثم استثمر وزن المتدارك وتفعيلته المتكررة (فاعلن) لمرونتها. والمسرحية الشعرية يختلف بناؤها عن المسرحية السردية. ولأنه على وعي تمام بالبناء المسرحي فقد شده الضجوج الإنجليزي الذي توفر عليه بعد أن مارس الترجمة. وإذ يختلف البناء الروائي عن البناء المسرحي، فقد استطاع الخلوص من تداخل الأبنية، وهو تميز لم يتوفر لكثير من لداته، وفوق هذا فإن (الحبكة) وهي الأدق والأصعب، وبخاصة في المسرحيات التاريخية تتميز عنده بالتنسيق والتسلسل والنمو المطرد، فهناك ترتيب للوقائع وإدارة للصراع وتأزم للمواقف. وتقسيمه للمسرحية إلى فصول لم يكن اعتباطاً ولا ت خفقاً من الإطالة، ولكنه لهدف التعددية الموضوعية وإبراز الفني الإسلامي في مواقع مختلفة. وعند نضجه عاد إلى المسرح النثري فكتب (إبراهيم باشا) و(عمر المختار) و(فارس البلقاء) و(مسمار جحا). ولما لم أكن بصدد الحديث التفصيلي عن مجمل الأبعاد الدلالية و اللغوية والفنية للمسرحية الكبرى فإن الإشارات الموجزة تغني عن الإطالة المسهبة، علماً أن الإبداع المسرحي: (الشعري والسردي) المعاصر وفاه دارسون مختلفو المشارب حقه. وتناول (باكثير) من خلال عمل من أعماله يحول دون تقصي ماله من مواهب جاس من خلالها سائر الفنون والأغراض. والمسرحية الكبرى أنشأها حين حصل على منحة تفرغ لمدة عامين من سنة ١٩٦١ - ١٩٦٣م، وتقع في مجلدين كبيرين تجاوزا الألف صفحة، ويشتملان على تسعة عشر شوطاً دلالياً يحمل كل شوط عنوانا تاريخياً، وإذ يكون مسرحه قد مرّ بثلاث مراحل، كما يشير أحد الدارسين. تتمثل بالواقعية، والواقعية التجريبية والواقعية الشعرية، فإن الإغراق في التاريخية ربطة بالواقعية الموضوعية البحتة. ولو ذهبنا نلتمس مدى التزامه بعناصر الإبداع السردي مسرحياً كان أو روائياً كالحدث والشخصيات والزمان والمكان والصراع والحوار والحركة والأسلوب بين السردية والتصويرية فإننا نجد على وعي تام بذلك كله، وإن خرج على بعض العناصر أو قصر في استكمال متطلبات بعضها، ولأن الحوار إكسير الإبداع المسرحي بوصفه الأداة الوحيدة للتصوير فإنه مسؤول عن نقل المعلومات والعواطف في آن، وكم هو الفرق بين توصيل المعلومة وتجسيد المشاعر، وفوق النقل المعرفي والشعوري يحمل الحوار مهمة الكشف عن الشخصيات من حيث نواياها وأخلاقها، وبا كثير وهو مثقل بالأحداث التاريخية والمشاعر، يعطي الحوار سمة قد لا تكون حركية بالقدر الكافي، وشفيعة في السكونية والطول أن البعد التاريخي لا يسمح بالخفة واللمحة والحركة، والنقاد يرون أن الحوار السكوني المثقل بالقضايا حوار مفضول، وباكثير يشغله نقل الأفكار والمعلومات واضحة مفهومة، وعلى الرغم من أنه مسيطر على مادته ولغته وفنه، إلا أنه لم يستطع تخليص الحوار من الإطالة والسكونية في بعض المواقف، نجد ذلك في المشهد الأول من (أبطال اليرموك) ومع مأخذ السكونية نجد أن كل كلمة في الحوار تكشف عن حقيقة. وشاعريته لم تغره بالزخرفة والأناقة الزائفة، فهو صاحب رسالة، ومن ثم صب اهتمامه على توصيل المضمون بلغة فصيحة،

ومع الزخم المعرفي فإنه في مقاطع كثيرة تمكن من نقل المعلومات في كلمات قليلة. وشاعريته التي لم تغره بالزخرفة أسعفته بنغمة ملائمة واءمت بين اللفظ والمعنى، وهو ما يعرف بالائتلاف بينهما. والمسرحية مليئة بالشخصيات المتناقضة إسلامية وغير إسلامية شجاعة وجبانة ماكرة ومخادعة قوية وضعيفة. والحوار مسؤول عن الكشف عن الشخصيات ومراحلها، والمبدع البارع هو الذي ينقل بالحوار شخصياته كما ينقل أفكاره، وإذ يبرز الحوار الأفكار فإنه يحدد الشخصيات، والشخصية مكتنفة بأبعاد مادية واجتماعية ونفسية، ومهمة الحوار الكشف عن تلك الأبعاد وعما وراءها وعن أسباب تصرفاتها ومقاصدها، ولأن الشخصيات تمثل زمراً فئوية، وهي متباينة داخل الفئوية الواحدة فإن مهمة التشخيص صعبة، ولن تتأتى للكاتب بسهولة. ومثلما تتعقد علاقة ا لحوار بالشخصيات، فإنها تتعقد في علاقتها بالأحداث، واستعراض قدرات المبدع على تخطي تلك العقبات يتطلب قراءة تحليلية للأسلوب الحواري، وهو ما لم يستطع تغطيته بالقدر الكافي، ولكننا لا نعدم سمة من سمات الحوار المتميز. ومدى تفوقه في تجليه عناصر المسرحية و(باكثير) يتوفر على إمكانيات لغوية وثقافية هيأت له السيطرة على فنه، وإشكالية هذا العمل المتميز أنه لا يؤتي ثماره المرجوة إلا على المسرح، ويمنع من ذلك تردد الفقهاء في جواز تمثيل الصحابة رضوان الله عليهم، وخيراً فعلوا، وإشكالية أخرى تتمثل بحرية الإبداع في تخطي الحقائق التاريخية، وإذا بتّها في السياق الفني بحيث لا تصلح أن تكون مصدراً معرفياً، إذ هي للإمتاع والفائدة المحدودة. ولو ذهبنا نوازن بين المسرحية بكل ما هي عليه، وكتاب (أخبار عمر) ل(علي الطنطاوي) من حيث الزخم المعلوماتي لوجدنا أخبار عمر أكثر معلوماتية مع أنه كتاب لا يتجاوز بحجمه نصف المسرحية، على أن هذه الموازنة لا تعني المفاضلة، فالإبداع المسرحي له وظائفه وقراؤه والحاجة إليه، وعلى كل الأحوال فإن (علي أحمد باكثير) قدم عملاً عملاقاً مأجوراً إن شاء الله. نسأل الله أن يجعله في موازين حسناته، وأن يجد هذا العمل طريقه إلى عشاق المسرحيات المقروءة، وحضور التاريخ الإسلامي في الفن المسرحي ضرورة ملحة، لأن للتاريخ قراؤه وللشعر قراؤه، وللمسرح الشعري والسردي قراؤه، ومن ثم لا يمكن القبول باحتكار التاريخ للأحداث والشخصيات.

هرطقات الفتاوى لحساب مَنْ .. ؟!(١)

الحديث عن ظاهرة «الفتاوى» المشروع منها وغير المشروع حديث معاد أتخمت المشاهد من تكراره، وأغثيت الأنفس من ترديده، والتبس الأمر وتباينت وجهات النظر بين العلماء من طيف واحد حول مطلق المشروعية.

واضطرابات الفتاوى وتنازع المفتين وتقحم المتعالمين لمهايعها أسهم في تصعيد الخلاف بين الفرقاء، والذين تولوا كبر اللجاجات تتنازعهم رغبات وتطلعات لا يحاول استكناهها إلا الراجمون بالغيب؛ لأنها بمجملها قائمة، ولكنها بتفاصيلها تمد بسبب إلى النوايا الخفية، وتحصيل ما في الصدور من الأمور غير المقدور عليها، وتقويمنا للظواهر لن يكون بشق الصدور وتحصيل ما فيها، ولكنه من خلال ما تتركه من آثار سيئة، تربك المشاهد وتفتح أبواب الشك على مصاريعها. وإشكالية الفتوى ليست من حيث هي سؤال حائر وإجابة عالم؛ إذ لا تمت تلك إلى الإشكالية بصلة، فالذكر الحكيم ندب إلى سؤال أهل الذكر، ودواء العي السؤال. فالخلاف لا يعني ما كان الناس عليه من مفت عالم ومستفت جاهل ينشد الحكم. والحيلولة دون مثل هذه الممارسة أو الاختلاف حول مشروعيتها من الظواهر غير السوية، والمحتجون بمثل ذلك أمام تلك الإشكالية من الماكرين الذين يطلقون كلمة الحق ويريدون بها الباطل. والفتاوى التي لا نود تفشيها ولا نرحب بممارستها هي تلك التي يبادرها الفضوليون الفارغون من همّ الأمة، ثم يطلقونها كالمفرقعات لإزعاج الرأي العام النائم المطمئن، والمطلقون لمثل تلك الفتاوى لا يُعلّمون جاهلاً ولا يداوون عياً، ولا يجيبون سائلاً التبس عليه الأمر. ومهما تفاءلنا وقدمنا حسن النوايا فإن الظاهرة لم تعد قادرة على مساعدتنا لتجاوز المنعطف الخطير. ومن ثم لا بد من الشجاعة في مواجهة الواقع المضطرب بكل بشاعته، فالذين يفاجئون المشاهد بفتاوى استفزازية ظناً منهم أنها مبادرات من عند أنفسهم لا يخدعون إلا السذج من الناس، فالمتضلعون من العلماء والفقهاء والمثقفين يعرفون حجم الاختلاف في الفروع، لا بين المذاهب وحسب، ولكن بين علماء المذهب الواحد، ولا يروعهم شيء من ذلك، حتى لقد استبعد المتبحرون منهم مطلق الإجماع في كثير من المسائل، ومع علمهم بالاختلاف فإنهم يدرؤون الإفضاء بشيء من ذلك للمشاهد العامة، والدين الإسلامي يراعي مشاعر العامة ويحترم الرأي العام، والخليفة الراشد «علي بن أبي طالب» يقول: (حدثوا الناس بما يعقلون). وفي الحديث: أفأخبر الناس؟ قال: «**لا. فيتكلوا**». فالخاصة من العلماء لديهم من رباطة الجأش والعلم بالمناطات والمقاصد ما يفتح أمامهم آفاقاً من المعرفة، أما العامة فإنها لا تمتلك ما يمتلكه الفقهاء وعلماء الأصول وعلماء اللغة، فالنص الحمّال يستجيب للنوازل والمتغيرات. وتفكيك النصوص واستنتاج أحكام جديدة منها لا يؤتاه إلا الخواص من العلماء، وإذا كانت للعالم مفردات أو اختيارات مبررة فإن من واجبه ألا يماري بها العامة وألا يوقع الريبة في نفوسهم ولا الاضطراب في عواطفهم، ما لم يترتب على سكوته ضرر أكبر؛ إذ ربما يكون من مصلحة الأمة الإبقاء على المفضول، ولقد فعلها رسول الله ﷺ حين فتح مكة وأراد إعادة بناء الكعبة على قواعد إبراهيم وما منعه من ذلك إلا الخوف من إثارة الرأي العام. وفقهاء الأحكام المقلدون الذين يتصيدونها من مظانها ولا يستنبطونها من النصوص ليس من حقهم شغل الرأي العام لأنهم عالة مقلدون، وما يأخذون به لا يُعدُّ اجتهاداً من عند أنفسهم وإنما هو ندل الثعالب لجاهزيات الأحكام؛ إذ كل الذين شغلوا المشهد بالفتاوى الاستفزازية نقلة مقلدون لا يملكون القدرة على الترجيح ولا

---

(١) تاريخ المقال: ١٠/ ٨/ ٢٠١٠

يملكون القدرة على استنباط الأحكام من النصوص، وليسوا على شيء من علم الأصول، وقيادة الأمة في فكرها ودينها لا يكون حقاً فردياً يبادره كل من سولت له نفسه الدخول في دوائر الضوء، وإذا اجتمعت الأمة على رأي، ولم يستدعِ الواقع استبداله فإن من التزيد والمزايدة والتشبع الفارغ الخروج بخلافه، وشغل المشهد بفضول القول، ولأن العصر عصر المجتمعات المدنية فإن تولي الشأن الديني لعامة الأمة يجب أن يكون مؤسسياً بحيث لا يواجه الرأي العام بموقف مناقض للسائد إلا من خلال المؤسسة الدينية، وتلك القيود حق مشروع لولي الأمر القائم بأمر الله؛ ذلك أن تنظيم الشأن الديني لا يعني سلب الحقوق ولا الحيلولة دون الإفتاء بصيغه التي كان الناس عليها، والذين يتمسكون بحق التعليم ويعولون على حرمة كتمان العلم لا يحق لهم قيادة الأمة في فكرها وقضاياها الدينية العامة، واستفتاء أفراد العلماء فيما يحتاجه السائل لذاته من أمور العبادات حق مشروع لا تحتكره مؤسسة ولا يستبد به مسؤول، أما حين تكون النازلة وفتوى العموم فإن لذلك مؤسساته التي تتوفر على لفيف من الفقهاء في مختلف العلوم ومن مختلف المذاهب ممن يتقنون فقه الأحكام وفقه الواقع وفقه التمكين والأصول والقواعد؛ إذ لا تسوغ مبادرة القضايا ذات الشأن العام وإطلاق الأحكام التي قد لا يكون مقدوراً عليها، ولو تفرق العلماء باختياراتهم وتلاحوا أمام الرأي العام بترجيحاتهم لتفرقت الأمة واختلت وحدتها الفكرية والدينية، على أن الاختلاف بين العلماء لا يجوز نقله إلى العامة، ولولي الأمر عزمات ندب إليها الذكر الحكيم، وهي عزمات تحاصر الاختلاف ولا تخوض به معترك الرأي وتحمل الأمة على الراجح، ولقد تكون مثل هذه المغامرات الفردية من المباهات المذمومة، ولو أن المبهورين بمثل هذه المفاجآت من الفتاوى جاسوا خلال موسوعات المذاهب واطلعوا على اختلاف العلماء في كثير من المسائل لما راعهم ما يطلع به المرجفون. فالمذاهب الأربعة في الفروع تختلف فيما بينها، ولكل مذهب أدلته وترجيحاته وتخريجاته، وعلماء المذهب الواحد بينهم من الاختلاف ما لا يتصوره عقل، (وابن رشد) في كتابه القيم (بداية المجتهد ونهاية المقتصد) يذكر أسباب الخلاف حول المسائل، وتنافس علماء المذاهب فيما بينهم حفزهم على عرض الأدلة لكل مسألة، كما أن الذين ألفوا في الفقه المقارن أشاروا إلى الاختلاف ورجحوا. نجد ذلك عند (ابن قدامة) في كتابه القيّم (المغني)، فهو من أهم كتب الفقه المقارن؛ إذ يعرض أقوال المذاهب الأخرى في المسألة ثم يعرج على مذهبه بقوله: (ولنا ..) ذاكراً الدليل. والعلماء المطلعون على الاختلاف لا يروعهم ذلك، ولا يستدرجهم لمفاجأة العامة بما شذ من الأقوال، والذين يجترون القول في (الغناء) أو في (الحجاب) أو في (الرضاعة) أو في (قيادة المرأة للسيارة) أو في زكاة (العروض) أو (الحلي) أو في (صيغ عقود الزواج) أو غير ذلك يعرفون اختلاف الفقهاء، وليس لأحد من أولئك إضافة جديدة، والمتشبع المتعالم فيما يذهب إليه لم يصدر من النصوص وإنما التقط جاهزية الأحكام التي توصل إليها العلماء الأوائل، وجاء بها ليماري بها العامة، بل لا يعد فيما يجلب من فتاوى من أصحاب الاختيارات فضلاً عن أن يكون من أصحاب المفردات، فأصحاب الاختيارات هم الذين يطلعون على آراء العلماء وأدلتهم ويوازنون ويقارنون ثم يملكون القدرة على الترجيح. ومرجع ذلك (القراءة الذكية) المتوفرة على النصوص ومستوياتها وأحوالها والأصول والقواعد وطرق الاستنباط.

فإذا قيل مثلاً مختارات العالم الفلاني فهو معدود من المجتهدين المقيدين الذين يملكون القدرة على استعراض الآراء والأدلة في مختلف المذاهب والعصور ويعرفون مصادر التشريع ثم يميلون مع الحق لا مع الهوى، والمفرقعات التي تستغلها وسائل الإعلام وتستدرج لها الفارغين لملء الفراغات وكسب المشاهدين والقراء لا تمتّ إلى هذا

اللون من التمحيص والترجيح بصلة، ولكل عالم متضلع مختارات يميل إليها، ولكل مذهب مفردات لا يشاركه فيها غيره، ولكل مذهب مقدم بحيث يكون في المسألة الواحدة في المذهب أكثر من قول، ولكن يكون بعض الأقوال مقدما يتفق عليه علماء المذهب، فكتاب (زاد المستقنع) على صغر حجمه اختصره مؤلفه من عدة أقوال بحيث اختار المقدم من المذهب الحنبلي، ولهذا عني به العلماء بالشرح والمراجعة.

وفصل الخطاب أن المشهد بحاجة إلى الأطر وقمع كل متلاعب بعواطف العامة مغرق في الهرطقات، ولا يكفي التراجع والندم بعد اكتشاف السوءات، فرسيس العلم مع هوج العواطف يأتيان بالعجائب، وغير المستحي يصنع ما يشاء.

ومات الاستثناء .. ![1]

على الرغم من معايشتنا للمرض الذي ألمَّ بالفقيد غازي بن عبد الرحمن القصيبي وتقبلنا للفراق وتوقعه في أي لحظة إلا أن نبأ وفاته جاء كما الرجفة؛ فرجل مثله بإمكانياته وأخلاقياته وإنجازاته ومواقفه النبيلة وتواضعه وتواصله وإسهاماته الفكرية والأدبية والاجتماعية والسياسية المتميزة لابد أن يكون رحيله استثنائياً كما هو بين لداته ومجايليه استثنائياً.

لقد عرفته منذ أن بده المشاهد كلها بما ينفع الناس ويمكث في ذاكرتهم من قول حكيم وعمل رشيد.

والقصيبي الذي فارق الفانية إلى الباقية حببه إلى الناس ثلاث خصال: الهمُّ، والموقف، والرسالة.

فهو في سائر أطوار حياته يحمل هم أمته يفنى فيها ويفني فيها كل ما يقدر عليه، لا يتهيب ولا يتردد ولا يزايد ولا يساوم ويستسهل في سبيل ذلك الصعب، ولقد جرَّ عليه إصراره في سبيل وطنه وأمته الكثير من المتاعب، والكثير من الخصومات، ولكنه ظل صابراً محتسباً، وكلما استبان له وجه الصواب أخذ به لأنه ضالته، وثقته بنفسه وإيمانه بمبادئه تحفزانه على قبول التراجع، ومبادراته الشجاعة تثير بعض الحفائظ وتزكي نبرة الخصوم، ولكن الحق الأبلج يحمل المنصفين منهم على التراجع ومظاهرته في مبادراته، وهو في سائر إنجازاته الإبداعية والعملية صاحب موقف لا تكيفه الظروف ولا تحركه المصالح ولا يميل مع الريح حيث تميل، وكل صاحب موقف تمر به المتغيرات والمجاملات وأنصاف الحلول وهو ثابت لا يريم ولقد كنت ولما أزل أكبر في خصومي مواقفهم وقناعاتهم الذاتيه وأمقت في البعض منهم تلونهم الحرباوي وانتهازيتهم المقيتة، وهو صاحب رسالة نبيلة يحملها إلى الناس، ولقد جسد رسالته من خلال أقواله الإبداعية: الشعرية والسردية، ومقالاته في سائر شؤون الحياة، ومن خلال أفعاله في مختلف القطاعات الخدمية، ومن ذا الذي يجهل إنجازاته في كل المواقع التي مر بها ويوم أن شرفت بإدارة الأمسية الشعرية التي أحياها ضمن نشاطات المهرجان الوطني للثقافة والتراث قلت في كلمة التقديم: (ما عرس في مكان إلا وترك فيه ما يتركه المتنبي في شوارده .. إذ يسهر الناس جراها ويختصمون .. ولقد كان القصيبي بالفعل كما شوارد المتنبي، ولأنه صاحب هم وموقف ورسالة، فقد ظل حتى اللحظات الأخيرة من حياته ينتج، وكأني به يستلهم قول الرسول الكريم: إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن يغرسها فليغرسها - أو كما قال - فكم من فسيلة علم أو أدب أو فكر سارع إلى غرسها وهو يعاني من المرض ويغالب أوجاعه).

والقصيبي الذي تودعه أمته إلى مثواه، الذي نسأل الله أن يجعله روضة من رياض الجنة، يولد بذكره، والذكر للإنسان عمر ثانٍ ولقد ينقطع عمله ولكن ما تركه من آثار حسنة وسمعة طيبة ومكانة متميزة في نفوس محبيه سيبقى، وفي الحديث: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو ولد يدعو له أو علم ينتفع به**»، ويقيني أن القصيبي يمد بسبب إلى تلك الأمور الثلاثة، وكتبه التي حملت خلاصة تجاربه ومجمل مواقفه وأمشاجاً من سيرته الذاتية وإبداعاته ستكون حاضرة المشاهد، وحاجة الأمة إلى القدوة الحسنة في القول والفعل، وفقيد الأمة قدوة حسنة في أعماله الجليلة التي مارسها،

---

(١) تاريخ المقال: ١٦/ ٨/ ٢٠١٠

ومن ذا الذي ينكر ما فعله في وزارتي (الصحة) و(الكهرباء)؟ ومن ذا الذي لا يقدره قدره في إبداعاته وإنجازاته وحيواته الحافلة بجلائل الأعمال.

لقد عرفته وعرفت عزماته يوم أن قرأت قصيدة (موانئ) ولكل شاعر قصيدة يعيش فيها حضوراً مشرفاً ولكل قصيدة بيت القصيد.

وإذا كان المتنبي والبحتري وعمر أبو ريشة قد خلدتهم قصائدهم التي اقتطعوها من لحمهم فإن للقصيبي أكثر من قصيدة جسد فيها تجاربه ومعاناته، وإذا كان في إبداعاته قد ألهب المشاهد فإنها ستكون بعد وفاته أقدر على تحريك الركود، فالذين ترددوا في موضعته في حياته لن يجدوا بداً من العودة إليه ليكملوا تاريخه الذي استأنف عمله ليكتب ما يخلد ذكره..

رحم الله غازي القصيبي رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته، وألهم أهله ومحبيه الصبر والسلوان.

الثقافة وتنمية القيم السلوكية .. ! [1]

من لوازم البحث المنهجي، ومن مقتضيات الدقة الموضوعية أن يتجه الباحث صوب التحرير والتأصيل للمسائل والمعارف التي يقاربها، قبل أن يخوض لججها، ليكون المتلقي على بينة من أمره، فالنجوى العائمة لا تزيد المشاهد إلا ارتباكاً وتيهاً في عتمة الغموض وحمأة التشتت، ولا سيما أن العصر يعيش حالة من الانفجار المعرفي وتحكمه ثورة الاتصالات.

حتى لا تخفى على المتابع خافية، إضافة إلى تعدد الخطابات وصدام الحضارات والتكتلات الطائفية و العرقية والحزبية. وأولويات الباحث أمام هذا التكاثر العشوائي للعلوم والمعارف والوسائل والتحزبات والتعصبات وتعمد التصفيات والتصنيفات أن يكون بارعاً في الانتقاء ودقة الترتيب وحسن العرض. ومقاربة الثقافة بأنساقها وسياقاتها وأطوارها بوصفها جماع المعارف والتجارب والمواقف يزيد في الالتباس بسطة، وقدر الثقافة أنها جماع أشتات كما الفلسفة التي نسلت منها المعارف. فما من منظمة أو هيئة ذات مساس بها إلا هي أمام فيض من اضطراب المفاهيم، ولعل أعقد سؤال وأبعده عن التصور السؤال عن مفهوم الثقافة ومتعلقاتها من أشياء وقيم وأناسي، والباحث أي باحث حين يتعاطى مع ظاهرة لم يصل أهل الحل والعقد فيها إلى التعريف الجامع المانع يدخل عوالمها خائفاً يترقب، ولقد كانت لي إلمامات متأنية مع الثقافة ومجالاتها عبر البحوث والمحاضرات تمخضت عن كتاب حاولت في مستهله أن أقترب منها عبر جذورها اللغوية ومفهومها الاصطلاحي، وكلما استعصى على عالم منال المصطلح هرع إلى الدلالة اللغوية الوضعية للمنطوق، ومع ذلك لم أقطع بشيء، ولكنني أرسلتها العراك، فالذين عنوا بها من قبل أو من بعد قنطوا من إمكانية الحسم حول المفهوم والمشمول ويكفي أن يكون للثقافة أكثر من مائة تعريف، ولما يزل المجال مفتوحاً للإضافة، وأحسب أن المعهود الذهني عن الثقافة يقطع قول كل خطيب، ومن ثم فإنه يشكل أرضية كافية لممارسة الحديث عن الثقافة وأبعادها المتعددة. فما الثقافة؟ وكيف نتصور إسهامها في تنمية القيم السلوكية أو المحافظة عليها. ومن المثقف؟ وهل تتحقق بالكم المعرفي، أم بالنوع المعرفي، أم بالتمثل السلوكي، أم بها معاً؟. فيض من التساؤلات الحائرة التي لا تزيد المتلقي إلا تردداً وحيرة. ففي بحوث سلفت وأخذت طرقها إلى الإلقاء والنشر ثم الجمع والطبع، حاولت عبثاً أن أنطلق من جذر الكلمة اللغوي (ث ق ف) إذ كلما تعددت الطرق وتنوعت الخيارات على الباحث توسل بالدلالة الوضعية للغة، وإن كان المعنى الاصطلاحي لا يقيد مفهومه بالدلالة اللغوية، ولكن الخطوة الأولى تكون من الدلالة الوضعية للكلمة، والمعجميون والموسوعيون حصروا المعنى اللغوي لجذر الثقافة بثلاث دلالات: (الوجادة - التعديل - والحذق) فأنت تثقَّف الشيء إذا وجدته. وأنت تثقف المعوج إذا عدَّلته. وأنت إذا حذقت الشيء فأنت مثقف. والدلالة المصطلحية لن تخرج عن هذه الدلالات اللغوية الثلاث. فالثقافة كسب وممارسة وتأثر، وكلها تؤديها الدلالة اللغوية. وحين يخيل إلينا أننا فرغنا من معرفة الثقافة مجردة من تلبسها، فإننا أمام معضلات لا تقل تعقيداً عما سلف، وذلك حين تتلبس الثقافة بمكونها ومتمثلها، وهذه المعضلات تتمخض عن تساؤلات أشد نفوراً مما سلف:

-فما القدر المعرفي؟ وما النوع المعرفي اللذان يجليان الثقافة؟

-ومن هو المثقف؟

---

(١) تاريخ المقال: ١٧/ ٨/ ٢٠١٠

-وهل الثقافة كسب وحسب، أم هي كسب وممارسة؟

وهنا أقول بكل ثقة: إن الثقافة إشكالية في حالة التجرد والتلبس، ولكنها إشكالية مغرية وممتعة. وإذ نتفق طوعاً أو كرهاً على الدلالة اللغوية ونصطلح على الاكتفاء بالمعهود الذهني عنها، لا نجد السبيل ميسراً للاتفاق والاصطلاح حول الكم والنوع المعرفي، وتحديد المثقف بنوع المحصول وكمه أو بممارسة العمل الحضاري. لا أريد تخويف القارئ بهذه التساؤلات، ولست متشائماً، فما من شيء إلا وله حده ومفهومه، علمه من علمه وجهله من جهله، والمسألة في النهاية تسليم طوعي للمكن، أو تفويض لعلام الغيوب، غير أن العقلية الإنسانية جريئة بحيث أوغلت في المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله، ولم تتهيب صعود الشواهق من جبال المعرفة، فكيف تضيق اليوم عن فعالية الثقافة بكل تعقيداتها.

والثقافة من حيث هي كسب معرفي متنوع، ونسق سلفي متأصل واستيعاب واع لهذا الخليط من التشكلات، لكنها في النهاية وعي وموقف وتوظيف عملي للمكتسب، ولكيلا أقيد نفسي في مفهوم معين أدع الأمور تجري على سجيتها، وأدع لكل متلق مفهومه وقناعته، إذ لن أعدم أرضية مشتركة أبادل المتلقي فوقها بعض ما يساورني من رغبات حول إسهام الثقافة في تنمية القيم السلوكية، لكي تحقق وجودها. وقبل الخوض في هذا المعترك أود أن نتصور معاً مفهوم القيم السلوكية المطلوب تمثلها، ومن السهل أن نلتقي، فنحن أبناء حضارة فصَّلت القول في قيمها، وما فرطت في شيء منها، وحضارة الانتماء لا تتحقق إلا من خلال تمثل هذه القيم. وتجليتها معرفياً وسلوكياً من مهمات الثقافة السوية، ولو تلبثنا ملياً لاستكناه فلسفة الأخلاق في الإسلام لوجدناها جلية عند ذوي الاختصاص، فالأخلاق في الإسلام جزء من التكاليف يثاب سائلها ويعاقب تاركها، وليست نفعية آنية تقوم من خلال الربح والخسارة المادية، وهذا التميز أعطى الأخلاق الإسلامية مساحة واسعة في القول، ولو ذهبنا نستنطق مصدري التشريع الإسلامي النصيين: (الكتاب) و (السنة) لكنا أمام فيض من الآيات المحكمات وسيل من الأحاديث الصحاح، فلقد عن لي استعراض كتاب (نظرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم) ووقفت أتأمل حقل الآداب العامة والسلوكيات فيه، وكم أتمنى لو أن أحدنا تدبر المرجعية النصية للحضارة الإسلامية ليرى أنه على محجة بيضاء لا يزيغ عنها إلا هالك. فالله ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ وهدى الإنسان النجدين. وصدق الله ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾

وإشكالية الثقافة في العصر الحديث أنها لم تستمد من قيم الحضارة أو لم تحكم بها على الأقل، فالأجواء الفكرية لم تنج من التلوث الفكري والسلوكي، الأمر الذي أثار الشبهات أمامها، وجعلها مثار تساؤل وتحفظ. وإذ كنت مغرماً بإثارة التساؤلات بوصفها أسلوباً تربوياً فقد تحاميت الحشو المعرفي، ولا سيما أن المعرفة مطروحة في الطريق، وتلقيها دون عناء مؤذن بذهابها دون أثر، وقد أجد بعد إثارة الانتباه أن الأجواء النفسية مهيأة لاقتناص بعض النصوص التي لا أشك أنها حاضرة الذهن، حتى يقول المتلقي بعد سماعها ﴿هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾. والحديث عن دور الثقافة في تنمية القيم السلوكية يتطلب تحديد نوع الثقافة وأسلوب أدائها، فالتراث حافل بمختلف المعارف، ولكن حيث لا يستدعي من غياهب التاريخ ويمحص ويفعل لا يؤدي الدور المطلوب منه، وكيف نغمط الإسلام حقه ودوره والرسول الكريم يقول: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**» ويقول الله عنه ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، وحين تتشبع الثقافة من النصين الكريمين تكون الأقدر

على تهذيب السلوك وتنقية الأخلاق، ولكيلا يختلط العذب الفرات بالملح الأجاج فإن علينا أن نقوي البرزخ الفاصل بين الثقافة كما نريد والثقافة المنفلتة من الضوابط، والثقافة من حيث هي تتسع للخير والشر، لأنها جماع المكتسبات، وعلينا في ظل الخلطة المستحكمة بين الثقافات تكريس مفاهيم التميز والخصوصية والهوية. فالخلطة مظنة الفساد وفقد الهوية. وليس من مقتضيات الاحتفاظ بالهوية المفاضلة أو التصدير كما يتصور المتخوفون وليست عامل عزلة وجمود كما يشيع المرجفون، والوجود السوي لا يمكن أن يتحقق في ظل المسخ والذوبان في الآخر، كن متفاعلاً ولكن كن قبل هذا متميزاً بمحققات وجودك والذين يؤكدون على خصوصية المطعون والملبوس والمستعمل يوصفون بالماضوية. والحق أن استصحاب تلك المحققات من مقتضيات التجديد. فالتجديد لا يعني التخلي عن محققات الذات، والثقافة إن لم تكن ممارسة فإن الإنسان يصبح مجرد وعاء لا قيمة له والثقافة في النهاية تراوح بين العقم والنماء والمسخ. فأي الأنواع أحق بالبقاء؟.

مخاتلة النصوص المُلزمة .. ! [(١)]

كثيرون هم أولئك الذين لا يفرقون بين السلطة المشروعة والتسلط المحظور، وآخرون يرونها نصباً تذكارياً للبركة والأكثرون منهم من يديرون مواقفهم في أفلاك منافعهم الشخصية على سنن (إذا مت ظمآناً فلا نزل القطر) ولقد تمر بالراصد مواقف لا يجد لها أي مبرر، وهي مواقف آنية عاطفية نفعية لا يقيم صاحبها أي وزن للتقويم والمساءلة، ولا للمصلحة العامة، ولا لحدود الحرية، ومثل هذه الاهتياجات الرعناء وإن كانت في النهاية كالهشيم الذي تذروه الرياح، إلا أنها في نظر البعض حلقة في تاريخ المرحلة، قد تتمطى قماءتها على صفحاته، ومهما استخف الواثق بمثل هذه التجشوءات الفارغة فإن المرجفين يحملونها محمل الجد، وهي عند الخصوم وثائق لتعويق المسيرة أو إرباكها ولكنها في النهاية سراب بقيعة. وعلى كل الاحتمالات فإن القول كما الطلقات الفارغة تملأ الرحب بالصخب، واستقبال القرارات والأوامر والأنظمة والضوابط يتفاوت بتفاوت القراء، وكل قارئ له ثقافته واهتماماته ومصالحه وأولوياته وخلفياته المتعددة.

ومهما حاولنا تقريب وجهات النظر فإن لكل متابع قراءته وما من رسالة تبلغ المستهدفين إلا هي حمالة أوجه، والنص -أي نص- رهين قراءته، وليست كل قراءة بريئة أو سليمة. وكل متلق برم يتوسل بالتفكيك والتأويل المناسب له لإجهاض سلطة النص، والمجتمع أي مجتمع خليط من الفرقاء والأطياف المتضامين، وحين تحكمهم مقتضيات النص يتوسلون بكل شيء لمخاتلته وتطويعه، ليكون متصالحا معهم، أو محايدا، على الأقل. وبلادنا ليست بدعا من الأمم غير أنها تمر بمرحلة استثنائية، من حيث طفراتها المتعددة الأوجه، والعالم كله محكوم بحراك عصيب لا يمكن تجاهله ولا اعتزاله، وحين تكون الأمة رهينة تنازع الآراء والمواقف، تكون في وضع دقيق، لا ينجيها منه إلا التقدير والتدبير والتوقيت وتوخي النفاذ من عنق الزجاجة. وذلك الاستعداد لا يؤتاه إلا العقلاء المجربون. وتقويم الدولة لا يكون من خلال مكتوبها، وإنما يكون من خلال مفعولها، وخلوصها من المواقف الحرجة بأقل التكاليف وأسرع الأوقات، والرهان على الدليل البرهاني، دليل الواقع والممارسة، إذ ما من دولة إلا وأنظمتها وتعاليمها وأوامرها في قمة الإغراء والجاذبية، والمحك في التطبيق والممارسة العملية. ولكل فعل رد فعل معوق. ومعوقات المسيرة تنبعث من فئتين: فئة متعالية بمثالياتها منقطعة عن سياقاتها غير مدركة لإمكانياتها وظروفها. ويكفي أن نضرب مثلا بطائفة من الخطابات المفصولة من واقعها، خطابات تنطلق من التاريخ مستخفة بسلطان الواقع وحضارة الهيمنة، وكأن الحل عندها مرتهن بمبادرة المشكلة، وليس بدراستها ووضع كل الاعتبار للإمكانيات والاستعدادات الذاتية وإمكانيات الآخر واستعداداته. وفئة نفعية أنانية مصلحية تدير كل شيء في فلكها، ولا تبالي بأي واد هلكت مصالح الأمة. ولأن الواقع المعاش يفيض بعقد الخلطة المستحكمة فإن استقلالية النص كالعنقاء والخل الوفي، وتلبسه بالمؤثرات التي تفرض نفسها، يفتح شهية القراءات التآمرية والانتهازية. ولقد تكون الرسالة وليدة اختيار، ومن ثم تكون متشبعة بالوضوح والتناغم، وقد تكون وليدة اضطرار، ومن ثم تكون منطوية على كثير من الاحتمالات والتحفظات. والسذج من المتابعين لا يفرقون بين ظروف المخاضات، بحيث يتعاملون مع النصوص بمستوى واحد، ويفككونها بآليات واحدة. لقد قرئ التوجيه الكريم بوضع ضوابط للفتوى برؤى متعددة، وكل الذين استقبلوه بالارتياح يختلفون في تحديد مجالاته وامدائه، والقراءة البريئة لا تتجاوز به مقاصده النبيلة، ولا

---

(١) تاريخ المقال: ٢٤/ ٨/ ٢٠١٠

تحاول مصادرة أي حق شرعه الله لحملة العلم، ثم هو في النهاية قرار اضطرار، وليس قرار اختيار. فالواقع المتجاوز لحدود ما تقتضيه السلطة المشروعة والمصلحة العامة فرض مثل هذه المبادرة الحكيمة، والمحك الحقيقي لتفعيل هذه الإرادة الناصحة في التطبيق، فالذين كلفوا بالتنفيذ والمتابعة ستكون لهم رؤيتهم وقراراتهم، وسيجد المتحايلون والمخاتلون بعض الثغرات التي قد تضطر المسؤول إلى تتابع اللوائح التفسيرية والضوابط الإضافية، ولو فهمت المقاصد الراشدة على وجهها لما حصل الاختلاف حول المفاهيم والأهداف. الأمر واضح وجلي إنه ردة فعل لما يبدو بين الحين والآخر من تجاوزات لا تليق بمجتمع مُجْتَمِعِ الكلمة واضح المقاصد، فالمملكة التي شرفها الله بخدمة الحرمين، وما تقتضيه من انفتاح واستيعاب لكل الخطابات المنطلقة من مقاصد الشريعة، وهيأ لها مؤسسا أحكم البناء فجمع الكلمة ووحد الصف والهدف وأقام الناس على المحجة البيضاء ووضع أسس عقيدة سلفية وسطية تشكل القاسم المشترك لكل الأطياف والخطابات المتزنة، لابد أن تمارس قيادتها ووسطيتها، وأن تتحامى الاستفزازات والإثارات وإرباك الرأي العام، وذهاب كل عالم أو متعالم بما يرى مغرداً خارج السرب مربكا المسيرة مشتتا الكلمة. لقد جاءت كلمتي (هرطقات الفتاوى لحساب من) قبل القرار الرشيد بيومين تعبيرا عما يعتمل في نفوس المواطنين وتطلعاتهم لحسم الموقف من رجل المبادرات، والناس المجربون يتوقعون مبادرة الدولة لوضع حل لهذه الفوضى في الفتاوى، ولقد جاءت كما تعودنا في الوقت المناسب وبالصيغة المناسبة، إذ لم تسلب الحرية، ولكنها نظمتها وضبطتها، ولم تحل بين العالم والنفع العام، ولكنها رشدت خطابه، وضبطت إيقاعه، وما من شك أن قراراً بهذه القوة وبهذه الفعالية سيتداعى عليه القراء كما تتداعى الأيدي على القصعة، وهذا التداعي من الظواهر الإيجابية، غير أن هناك مخاتلات تحاول أن تتوسل بالتأويل الفاسد، لتوظف القرار لمصالحها، ولست مع هذه القراءات، لأن هناك دلالة لفظ وضوابط مقاصد، وواجب المتلقي الناصح أن يوائم بين الدلالة والمقاصد، فولي الأمر أبعد الناس عن الحجر وسلب الحريات وتعطيل الفوائد، وكيف يتوقع أحد شيئاً من ذلك، وهو الواضح كما النهار الذي لا يحتاج إلى دليل، إن من حق العلماء جميعا أن يمارسوا مهماتهم ورسالاتهم غير هيابين ولا وجالين، فالقرار مساند ومساعد وداعم لهم، وليس فيه سلب للحرية ولا تعطيل للمنافع ولا احتكار للفتوى، إنه ممارسة للحق في اللحظات الحرجة، وكل الذي يتمناه المسكون بهم أمته أن يُقرأ الأمر الملكي بتجرد، وأن يؤخذ به وفق مقاصده النبيلة، فالواقع المضطرب بتناحر الخطابات بأمس الحاجة إلى الضوابط والعمل المؤسساتي الذي يقي الأمة الاضطراب والتشتت وبلبلة الأفكار وفتح الثغرات لأعداء الأمة، وحين نستبعد استهداف البلاد نكون طيبين أكثر من اللازم، ونكون مهيئين لاختراقات موجعة، فلنضع أيدينا بيد رائدنا الذي لا يكذب أهله، ولنفعل ذلك الأمر الحكيم، فنحن أحوج ما نكون إلى مثله، وعلينا أن نحول دون القراءات التآمرية والتأويلات الفاسدة والتنازع حول مفهومه ومقاصده، فالذين يحكمون الضوابط ويصادرون الحقوق متوسلين بالقراءة المتشددة لا يختلفون عما يتسللون لواذاً عبر تغراته، ولأنه رسالة لفئة تعرف نفسها فإن من الغفلة أن نذعن لكل مخاتلة تريد أن تجعل من عقبه، إذ كل متحدث عبر أي وسيلة هو بمثابة مفت لأنه يبعث برؤية وموقف، وذلك التصور البدهي يضع الأمر الملكي في موضعه السليم، ويحول دون مراوغة القراءات التآمرية، وليس من مصلحتنا أن نكون كما بني إسرائيل وبقرتهم، فنحن في النهاية ملزمون بالامتثال لتحقيق المصلحة والسمع والطاعة لولي الأمر، ولن تتحقق السلطة المشروعة إلا بالامتثال والقبول. نسأل الله أن يدرأ عنا الجدل والمراء فما استفحلا في أمة إلا أصيبت بالوهن.

إيران بين الإبْهار والانْهيار.. !؟[1]

الانبهار حالة نفسية طبعية، تعتري الإنسان السوي وغير السوي، حين يرى أو يسمع ما لا يتوقع صدوره أو حصوله في لحظة معيّنة أو من إنسان متحدِّث أو فاعل، ولقد يكون الانبهار في محلِّه، وقد لا يكون، ولسنا بصدد الحديث عما تحدثه (البهلوة) و (الشعوذة) و (السحر) فذلك ما لا نود استدعاءه في حديث نزعم أنه جاد، وذا بُعْدٍ أُمَمِي. فَمِن الناس من لا تثير مشاعرهم عظائم الأمور، ولا دقائق الأشياء، وكأنهم المتنبي في تضجُّره:

أَصَخْرةٌ أنا مالي لا تُحرِّكني

تلك المدامُ ولا هذي الأغاريد

رجل طاف أرجاء العالم، واطلع على أحواله ومبتكراته ومنشآته وصناعاته وقدراته وإمكانياته، لا يثيره ما يثير سواه ممن لزم بيت ومسجده وبلدته، وآخر عاش حياته يقرأ ويتابع وينقب في بطون كتب التاريخ والسياسة والسير والوثائق المفرج عنها وسائر المعارف والفنون ويفْلي سير أعلام النبلاء والعباقرة وصنّاع المعجزات وبناة الحضارات والدول، ويتمترس خلف مكتبة شاملة لكافة الحقوق المعرفية، ويتابع الصحف ويستمع إلى وسائل الإعلام بكافة أنواعها ويرصد الحراك السياسي ونتائج اللعب الكبرى، فهذا وذاك لا يثيرهما هدير الحناجر ولا ضجيج الغوغاء ولا تشبع المقوين، ومن الناس ألَفٌ إذا رعته اهتاج أعْزَلا وكل بقدره فمقل ومكثر، ولقد كنت ذات مرة أصغي إلى الكاتب السياسي المخضرم (محمد حسنين هيكل) وهو يتحدث في برنامجه التلفازي (مع هيكل) وأنظر إلى بعض الوجوه المبهورة من ترسله وتداعي الأحداث والمعلومات وإحاطته بتقلّبات السياسة المصرية والعربية، ولم أكن ساعتها مكترثاً ولا منبهراً مما حدا بأحدهم إلى السؤال الإنكاري: ألم تسمع لقوله؟

قلت: وهل قال شيئاً؟

إنه يسخِّن طبيخاً، لو قرأت كتابيه (الغليان) و (الانفجار) لما زدت على قول الشاعر الجاهلي:

ما ترانا نقول إلا معاراً

أو معاداً من قولنا مكروراً

وهذا ينطبق على الخبطات الإعلامية والخطابات الجوفاء والتصريحات الملتهبة والادعاءات العريضة التي يطلقها بين الحين والآخر بعض الزعماء الثوريين لإثارة الغوغاء واحتقان الخصوم وتأزيم المواقف والتلهية بمعسول الكلام. ولو أنّ المبهورين قرؤوا التاريخ السياسي الحديث منذ الخمسينيات من القرن العشرين الميلادي، وقارنوا بين الهدير والزئير والرغاء والهديل، ونظروا في خواتيم الأعمال، لمضوا وكأنهم لم يسمعوا ولم يروا، ولقد يمر الخبير على أرتال المعدات العسكرية وآلاف المدجّجين بالسلاح، ويمضي وكأنها لا تعنيه، لأنه يدري ما الذي وراءها، ولقد قرأت في بعض مذكرات مناديب الاستعمار التقليدي عن احتدام المشاعر وصخب المظاهرات وعدم اكتراثه لأنّ المتظاهرين لا يملكون سلاحاً وإذا ملكوه فإنّهم لا يملكون ذخيرة، وإذا ملكوهما فإنّهم لا يملكون إرادة ولا إدارة بالمواصفات التي تنجز الوعد وتفي بالعهد.

---

(١) تاريخ المقال: ٣١/ ٨/ ٢٠١٠

وحال بعض الدول كحال هؤلاء، وأولئك وكأنّ المثل العربي يعنيهما بقوله: (أسمع جعجعة ولا أرى طِحْنا).

و (إيران) بكل ما هي عليه تعد جماع التاريخ الثوري العربي الذي ألهب المشاعر، وأحل قومه دار البوار، لقد عشنا ثورة الضباط الأحرار في مصر، وعايشناها في بقاع كثيرة، وكنت أحتفظ بأحد الكتب الدعائية الذي تصدّرت صفحته الأولى صورة جماعية للضباط الأحرار متوّجة بآية ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ وكان يجب أن يتصدّر الصورة عبارة (إنهم فتية أكلوا بعضهم) ويا ليت الثوريين اقتصروا على أكل بعضهم، لقد أكلوا شعوبهم واستعبدوهم وما زادوا أمتهم إلاّ خبالا، ولو امتد سلطانهم لأسرعوا خلال أمتهم يبغونها الفتنة.

وفي المناورات والعروض العسكرية نشاهد عربات كالجبال تحمل صواريخ كتب عليها القاهر والناصر والظافر والفاتح، ونسمع الخطابات الرنّانة والكلمات الطنّانة ومن ورائهم غوغاء الشعراء الذين يهيمون في أودية الكذب ويقولون ما لا يفعلون، وقد حفظنا منهم:

قـد وعـدنا الأسـماك أنـا نريهـا
مـن لحـوم اليهـود لحمـاً طريـاً

وإيران تطالعنا بين الحين والآخر مدشّنة صاروخاً عابراً للقارات أو مفاعلاً أو طائرة بدون طيار، ولما تزل تتفنن في توتير مشاعر العالم المهيمن وتحفزه على ضربة قاضية بما تفعله وتدعيه من إنجازات(نووية) وعسكرية، ومثلما هدد (صدام حسين) بإحراق نصف إسرائيل، وضرب المصالح الأمريكية وبهر الناس وأوقع الرعب فيمن حوله صار رماداً بعد إذ هو ساطع، فأحْرق نفسه وشعبه وربك أمته وفتح عليها باب سوء لم يغلق، ولا أحسبه سيغلق في المنظور القريب ومن قبله جمال عبد الناصر ومن بعدهم نجاد. فالمد الثوري الإيراني كالمد الثوري الاشتراكي والبعثي فرَّق كلمة الأمة العربية، وشرعن للتدخلات العسكرية، وهو إذ يموّل الأحزاب والطوائف والقبائل وحتى الإرهاب ويحرّض على التمرد والصدام، فإنه يفعل ذلك ليستدرج الأقوياء، المتربّعين على الإقدام على عمليات موجعة تعيد إلينا نكسة حزيران، وغزو العراق، ومع ما نعانيه من إيذاء وتخويف، فإننا لا نكن لشعب مسلم مثله إلاّ الخير، وإذ يبهر الخطاب الإيراني السذج والمقوين من المعرفة، فإنّ الذين استظهروا التاريخ الثوري يعرفون مآلات التشنجات واستعراض العضلات ولو لم تفِضْ أوعية الحكومة الإيرانية بالمشاكل الداخلية المستعصية والخلافات الحزبية والطائفية والسياسية والأزمات الاقتصادية لما نقلوها إلى خارج أرضهم ليتنفسوا الصعداء، والزعماء الموفون بعهدهم إذا عاهدوا يحقنون دماء شعوبهم، ويجنحون إلى السلام، ويدفعون بالتي هي أحسن، ويرتدُّون إلى الداخل ليوفروا لشعوبهم الأمن والغذاء والحرية والرخاء والعيش الكريم، وكيف يحلو للزعماء المتألهين أن يدسوا أنوفهم في شؤون الغير، وشعوبهم تعيش في أوضاع مأساوية، وديارهم خاوية على عروشها، تفتقر إلى أبسط مقومات المدنية والحياة السوية.

وما نودّه لإيران وما نودّه منها أن تكف عن الدخول بين الفرقاء أو التدخل في شؤون الغير، وأن تتحامى تجييش الحضارة المهيمنة واستعدائها وأن تتبصّر في نفسها، وما هي بأمسّ الحاجة إليه، وإن كان ثمة رغبة في تصدير الثورة أو الطائفية أو فرض النفوذ، فإنّ ثمن ذلك باهظ التكاليف ولا أحسبها قادرة على احتمال ما يترتب عليه من ردود أفعال عنيفة يقول قائلها: (عليّ وعلى أعدائي)، والأمة العربية وإن كانت مشتتة الآراء متعدّدة

المواقف متنوّعة المصالح، إلاّ أنها في الشدائد ستكون أمة أخرى، فالأزمات تقلب الأوضاع وتخرج الأثقال من باطن الأرض، وحين لا تغنيها الآيات والنذر فإنّ فتنة عمياء ترقبها المنطقة، وحين تندلق أقتابها لا تبقي ولا تذر، وإذا كانت قادرة على إشعالها فإنها ستكون الأعجز عن إخمادها حين تشعلها، وإن كانت عاقلة فستوعظ بغيرها، فهذه أمريكا بقضها وقضيضها لم تستطع حسم الأوضاع في العراق وأفغانستان وهي من هي في إمكانياتها العسكرية والسياسية، ولو أنّ المتمردين في العراق وطالبان في أفغانستان بسطوا أيديهم للصلح لهرولت أمريكا إليهم طائعة مختارة.

وإيران التي تتوسّل بخطابها الثوري وادعائها العريض وعروضها العسكرية وصناعاتها واكتشافاتها وأخلافها وتدخلاتها، ستكون في ساعة العسرة نمراً من ورق، ولو أنّ النكسة المتوقّعة ستقتصر عليها لقلنا لها: (يداك أوكتا وفوك نفخ) ولكنها بفعلها ستجر الويل والثبور إلى المنطقة وإلى دول الجوار بالذات.

وقدَر بلادنا أنّ مشاكلها ومصائبها من دول المنطقة ودورها دور الإطفائي الذي قد لا يسلم من الاختناق أو حرق الأطراف، فهل من ساعة نغفو فيها ثم لا نجد من ينغص علينا أحلامنا السعيدة؟.

مكتبتي في مقرها الجديد .. !(١)

هذا أول مقال أخطُّه بيميني في مكتبتي بمقرها الجديد، ولكل جديد لذة إلا جديد الموت، وما كنت لأبرح المقر القديم لولا إلحاح الأبناء احتراماً للزائرين، وتوسيعاً عليّ بتوفير وسائل الراحة، واستيعاب ما تشتت من كتب هنا وهناك، لم يتسع لها المبنى القديم، واستكمال ما جدّ من تقنيات نحن أحوج ما نكون إلى مثلها في زمن تبدَّلت فيه المعارف غير المعارف والكتب، وبرزت إمكانيات مذهلة، تمكن المتابع من خلالها استحضار ما يريد من كل آفاق العالم، وهو متكئ على أريكته، وإذ لم يكن أحد من أبنائي يحمل الهم الذي أحمله في جمع الكتب وترتيبها والانغماس في لججها لإطفاء لظى العوز المعرفي فإنهم جادون في توفير الأجواء الملائمة، لأقضي فيها أمتع سويعات الفراغ، ولقد كنت متردداً في قبول انتقالي من مكان ألفته وألفني، وعشت فيه أكثر من عشر سنوات سمان، ولقد:

مـن لحـوم اليهـود لحمـاً طريـاً

لفارقـت شـيبي موجـعَ القلـب باكيـا

ولا سيما أن الحنين أبداً لأول منزل، وتنقيل الفؤاد بين الأنداد لا يقطع الصلة بالحبيب الأول. ولهذا يقول الشاعر:

قِّـل فـؤادك مـا اسـتطعت مـن الهـوى

مـا الحـب إلا للحبيـب الأول

كـم منـزل فـي الأرض يألفـه الفتـى

وحنينـه أبـدا لأول منـزل

وهذان البيتان محفوران في ذاكرة النساء الضرائر، فالزوجة الأولى التي شوطرت في زوجها تسلي نفسها حين تتقلص عشرتها بزوجها الذي فجعها بأخرى بترديد هذين البيتين، ولقد يكون مني مثل ذلك. فقد توسلت إلى أبنائي أن يبقوا على المقر الأول للمكتبة كي ألم به بين الحين والآخر، وإن كان من اليقين الفراق؛ فالدنيا نزول وارتحال، ولابد من مفارقة الحبيب طال الزمن أو قصر، ولكنها السنن الكونية التي ألفت بين القلوب وبينها وبين الأمكنة والأزمنة. وفي الحديث (أحبب حبيبك هوناً ما).

وفواتح الأعمال كفواتح القصائد، لها معانيها المكثفة والرامزة، ومن ثم فقد وددت أن يحتملني القارئ على استعادة شريط الذكريات الخوالي مع الكتاب والمكتبة، وإذا ضاق بهذا الفضول الممل فإنه مثير للغرام:

وذو الشـوق القـديم وإن تعـزى

مشـوق حـين يلقـى العاشـقينا

لقد دخلت المكتبة الجديدة التي بذل فيها الأبناء من الإصلاحات والإضافات فاجعلها مرتعاً خصباً للفكر ومسرحاً مترامياً لأطراف للتفكير، فالأجواء الملائمة تستدر الذاكرة، وتنعش الأمل، وتفتق الأذهان، غير أن ذهني الحرون قفز كما الخائف المترقب حين

---

(١) تاريخ المقال: ٧/ ٩/ ٢٠١٠

يراع، متذكراً أول مقر اتخذته لما معي من كتب. وكان ذلك قبل نصف قرن ونيف، بل أكاد أقطع أنه قبل ستين سنة، إذ تعلقت بالكتاب والمكتبة، وأنا لما أزل أتعلم بالكتَّاب، ولم ألتحق بالتعليم النظامي بعد.

وأنا الآن على مشارف السبعين، ولقد أثارت قصيدتا المرحوم غازي القصيبي (حديقة الغروب) و(السبعون) شجوني في حين لم ألتفت إلى قصيدة (عبد العزيز الرفاعي) (سبعون) ولا إلى سيرة (ميخائيل نعيمة) (سبعون) لأني قرأتها في عنفوان الشباب، وأيقنت أنه من المحدثين، والمحدثون أناس لهم فراستهم وتنبؤاتهم التي لا تخيب، وكأني به يرثي نفسه، ويودع الحياة الدنيا، ولقد حبرت مقالاً لم أبيضه بعد، تحت عنوان (دع السبعين تفعل ما تشاء) ونبشت في كتب التراث عما كتب عن المعمرين وما قاله المنكسون في الخلق. وحين فوجئت بموته لم تعد مناجاة السبعين والثمانين مجدية، لقد ذهب وذهبت معه بعض آمالنا، وأسوأ فترات الحياة أن تصحب الدنيا بلا أمل، وبلا نسيان، وكم من فاجعة مؤلمة تصادر الأمل والنسيان معاً، وحين جاء الرحيل في أجواء رمضانية مفعمة بالرحمات، وحين أجمع الناس على التفجع والتأبين، سألت الله أن يقول وجبت، وقد قالها كما أخبر الرسول -ﷺ-، فالناس شهود الله في أرضه. لقد شطت بي هذه المناسبة المؤلمة عما أردت الحديث عنه، وهو جانب من حديث الذكريات: (والذكريات صدى السنين الحاكي) وما نحن في النهاية إلا خبر بعد عين.

قلت: إن العقود يطوي بعضها بعضاً، وكل الصيد في أجوافها، ولو رصد العلماء والأدباء والساسة المفكرون ما فعلوا أو ما فعل الله بهم، لكان في ذلك ذكرى للذاكرين، وما الحياة إلا جامعة مشرعة الأبواب، والمتضلع منها من تدق ملاحظته وتعمق نظرته، ويكثر تساؤله، ولقد قيل من قبل (العاقل من وعظ بغيره) والقدوة الحسنة جزء من التشريع ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ ولقد نجد من العلماء والنبلاء من هم مصاحف تمشي في الأسواق، غير أنهم مضوا، ومضت معهم سيرهم العطرة.

لقد عرفت المكتبة يوم أن كانت صفة طينية ترابية الأديم مظلمة الأرجاء مليئة بخشاش الأرض لا ينفذ إليها النور ولا الهواء، وكان في زاوية منها (سحارة) مهترئة فوقها ثلاثة كتب، هي كل ما ظفرت به في بيت أبي - رحمه الله: (رياض الصالحين) و(جواهر الأدب) و(المستطرف) وعندما ألحقت بها (النظرات) وهي مجموعة مقالات (للمنفلوطي)، كان ينشرها، ثم جمعت في ثلاثة أجزاء، صدمت بمقال له عن (خداع العناوين) وهو مقال يسخر به من بعض عناوين الكتب الجذابة، وإذ عدَّ من بينها (جواهر العناوين) وكنت أعده جماع المعارف، وبعد التحاقي بالمعهد العلمي ببريدة عام ١٣٧٤هـ فتحت لي منافذ كثيرة، فكانت (مكتبة المعهد) وكانت المكتبة العامة التي أمر الملك سعود -رحمه الله- بإنشائها على حسابه، ولما تزل قائمة على أحدث الطرق، غير أن المكتبة المنزلية لا يعادلها مكتبة، فهي كالأم لطفلها تمنحه حنانا لا يجده في أي حضن، إذ تمكن صاحبها من قيد الأوابد، وما رثيت لأحد رثائي لعالم أو أديب لا يتمترس وراء ترسانة كتب تنجيه من سهام المغرضين، وما التبس عليَّ أمر أو تقحمتني عين إلا وجدت فيها ما يدحض كيد الكائدين، ويحق الحق ويبطل الباطل، وحين بلغت مبلغ الرجال بالزواج والوظيفة والاستقلال في بيت مستأجر خطت المكتبة خطوات، كنت أظنها بعيدة التحقق فاشتريت دولابين من خشب بخمسين ريالا، حتى لقد عجب من حولي من إقدامي على هذه الصفقة الباذخة، ووضعتها تحت سقف السلم، وافترشت حصيراً، من الخوص، وأحسست يومها أن الدنيا حيزت لي بحذافيرها، وواكب ذلك التزود من كتب التراث حيث اشتريت (تفسير الجلالين) و(مقامات الحريري والبديع) وبعض كتب المختارات، إضافة

إلى مقررات المعهد العلمي، ومنها البلاغة الواضحة والنحو الواضح (للجارم) ورفيقه، ومن بعد ذلك (شرح ابن عقيل) و(الروض المربع) و(كتاب التوحيد) و(الأصول الثلاثة) و(ديون ابن مشرف) و(على هامش السيرة) ل (طه حسين) وبعض الروايات الإسلامية ل(جورجي زيدان) وقبضة من أثر الصحف والمجلات كالمنهل والبلاد وأم القرى والإشعاع والرائد وبعض المجلات المصرية كالهلال وآخر ساعة والمقتطف، على أن بعض الكتب نجلبها للسمعة إذ لا ندري ماذا يقول أصحابها، ولكنها تستهوينا، ولما تزل المكتبة في نمو مطرد، حتى نيفت على عشرين ألف كتاب، منها أربعة آلاف تخص الأدب العربي في المملكة وتاريخ الجزيرة العربية وآثارها وما يتعلق بها من كتب الرحلات والسياسة والجغرافيا، ولم يبق لي بعد هذا العمر الطويل والكدح الممل إلا مكتبتي؛ ففيها أطمر همومي كما تطمر الدول النووية نفايات مفاعلاتها، وأعتزل العراك على لعاعات الحياة.

ولقد قلت، ولما أزل أكرر القول لطلابي ومريدي: إن المكتبة لا تشكل في ساعة من نهار، إنها تنمو كما الأبدان والأشجار، وكم من كتاب يمر ثم لا يعود، وكم من قضية تثور كما الإعصار ثم يتهافت المؤلفون عليها، فإذا خبت انفض سامرهم، وطويت صحفهم ورفعت أقلامهم، فإذا لم تكن حاضر المشهد متابعاً للحراك فاتك الركب، وتعهد المكتبة طوال السنوات ينميها دون شعور بالخسارة، ويمكنها من رصد الحراك الفكري والسياسي والأدبي، وما استأت من شيء استيائي من غفلة عن حراك المشاهد، فذلك يفوت عليَّ الرصد والمتابعة، والتوفر على وثائق الحراك، وما حللت في بلد إلا عجت أسأل عن مكتباتها، وما عدت من دولة إلا وقد تزودت من مكتباتها بما يغني ويقني، ولقد كانت لي ذكريات عذاب في (سور الأزبكية) بمصر، وفي (شارع المتنبي) في بغداد، وكانت لي عناية بنوادر المطبوعات وما تقادم منها، ولست فيما أقول مفاخراً ولكنني أذكر الغافلين والمسوفين، ولقد قيل عنا (أمة القرآن لا تقرأ) وهل يعدل القراءة لذة، وهي أول كلمة تفوه بها (جبريل) عن الله (اقرأ).

والقارئ النهم يبحث عن مقروء، وهنا تكون العلاقة الحميمة بين الإنسان والكتاب.

وماذا بقي من (المتنبي) .. ؟! (١) [(١)]

مقاربة عوالم (المتنبي) يتنازعها حبٌّ مسرف، أو كره مسرف، وما حظي بوسطية تنشد الحق لوجهه إلا فيما ندر، وذلك قدر العظماء، ومؤشر العبقرية، فالمتنبي جاء نشزاً في سياقه، ولقد ساعدت إمكانياته وأخلاقياته وأحواله كلها على اضطراب المفاهيم والمواقف حوله، إذ كان مُدِلاً بموهبته، مُباهياً بشخصيته بازاً لأقرانه، مستأثراً ببلاطات ممدوحيه، حتى لقد استنجد بهم للخلاص من حسّاده:

أزل حسد الحسَّاد عني بكبْتهم
فأنت الذي صيَّرتهم لي حُسَّدا

ولقد وسَّع هوَّة الاختلاف ما يعتري نسبه وعقيدته من غموض، وما يكتنف اجتراحاته اللغوية من إشكاليات، وما يزخر به شعره من ثقافات وتجاوزات للمألوف، وما ظفر به شعره، من سيرورة وقبول.

ولقد تمر فترات يراجع فيها الحفيون به والبرمون منه أنفسهم فيهدأ النقد، ويستقيم على الطريقة، والحفيون كالمناوئين يَصُدُّون عن الحق صدودا، وفي غمرة التنازع حول شوارده تتقاطر جاهزيات الأحكام ومجازفاتها، وفي غمرة الولاء والبراء يكون لكل جواد كبوة ولكل عالم زلة، وليس بدعاً أن يهم العالم أو يشطح المفكر، مثلما عرض للأستاذ القدير أبي عبد الرحمن إبراهيم البليهي مع ما له من أبواع طويلة في معارف شتى، وهو يعيش صَدْمَةَ الحزن على فقيد الكل الدكتور غازي القصيبي رحمه الله، والبدع من الأمر لا يكون إذا كان العالم والمفكر أحدهما أو كلاهما صادقاً مع نفسه معبراً عن وجهة نظره، شريطة أن يكون متوفراً على معلومته ذات المناط، مقتدراً في اجتهاده، متصوراً لمحكومه، عادلاً في حكمه، ومتى استطاع التغلب على هواه مع امتلاك الشجاعة في تحمل تبعات التغريد خارج السرب، وقدر المشهد أنه إذا قيل للمخطئ أخطأت تنازعه موقفان:

-مراجعة النفس بثقة.

-أو الوقوع في إثم الاعتزاز بالرأي.

ولو ظن العلماء والمفكرون بأنفسهم خيراً لما استفحل التنازع، على أن إعجاب كل ذي رأي برأيه واحتساب أحكامه من المقدس والمعصوم يوسع هوة الخلاف، ويفسد للود كل قضية.

وما أثير حول المتنبي في مجال المفاضلة إنما استزل المفاضل أخذ المتنبي خارج سياقه وأنساقه، فالمتنبي سلك سبيل من سلف من الشعراء محتفظاً بعموديَّة الشعر ومحققاته، ولكنّه فاق الأوائل والأواخر بالموهبة الفذة والثقافة الشاملة والتجربة العميقة والأجواء الملائمة، وبزهم بسيرورة شعره وجمجمته عما في نفوس الناس، وما استطاع أحد من خصومه الأقوياء أن يحولوا بين شعره والمتلقفين له ومنشديه في كل مناسبة، وإن استطاعوا أن يحولوا بينه وبين مثله الأعلى (سيف الدولة) مما اضطره إلى البحث عن مَثَلٍ أدنى (كافور) نكاية واضطراراً:

إذا ترحلت عن قومٍ وقد قدروا
ألا تفارقهم فالراحلون همُ

---

(١) تاريخ المقال: ١٤/ ٩/ ٢٠١٠

يـــا أعـــدل النـــاس إلا فـــي محـــاكمتي

فيـك الخصـــام وأنـــت الخصـــم والحكـــم

وفي قمة الضجر والتحدي وصف نفسه بما يليق بها:

أنـــا صـــخرة الـــوادي إذا مـــا زوحمـــت

وإذا نطقـــــــت فـــــــإنني الجـــــــوزاء

وأعذب شعره أكذبه، وهو كذب فني يتمثل في جنون العظمة والمبالغة والإحالة، ولقد جّدَّ المريدون من النقاد في توجيه ذلك كله وإذا عيب عليه المدح المسرف والفخر الممجوج فإن ذلك سمة العصر وعنوان، وليست سمة الشاعر، ولقد جاء والشعر لسان السلطان وسلاح الفارس ودعوى الزعيم وصوت القبيلة، ووسيلة إعلام العصر، والحكم عليه خارج سياقه ظلم له، والإغماض عما شاع من حكمه وروائعه إجحاف في حقه، وحضوره عبر أحد عشر قرناً إثراءٌ للأدب والنقد العربيين، وبهذا الحضور الفاعل لا يمكن التفكر له ولا المفاضلة بينه وبين كائن من كان، وقانون السياق شرط في أي مقاربة، وتناسيه تجنٍّ متعمد وغمط واضح لحقه.

ولو قيل شعر (عمر أبو ريشة) أو (محمود درويش) أو غيرهما في زمن (المتنبي) لحثي في وجههم التراب، ولو بعث (المتنبي) من مرقده على ما هو عليه ووفق نسقه وسياقه الماضوي لما احتفت به المحافل، إذ لكل زمان دولة ورجال.

ومثلما نخطئ بحق المتنبي عندما نحاسبه من خلال النسق والسياق المعاصرين، فإننا نقع بذات الخطأ حين نناشد عودة (صلاح الدين الأيوبي) لإقالة عثرة الأمة ورفع المهانة عنها، إذ لو عاد صلاح الدين، على ما كان عليه وبإمكانياته وأساليبه ومفاهيمه وخطابه لكان مكانه الطبيعي أحد المتاحف وليس إحدى سدات الحكم. وإذا كان المتنبي ينام قرير العين عن شوارده فإن الخوف عليه من فضول القول فضول مثله، ومنذ أن غدر به أشأم القوم والناس حوله في سهر واختصام، فمن صاعد به فوق هام السحب ومن هاوٍ به إلى مكان سحيق، وكتاب (رائد المتنبي) فهرسة لمئات الكتب وآلاف الدراسات التي تناولت المتنبي في القديم والحديث، وما من متذوق لإبداعاته أو متابع لأخباره إلا وتساوره الرغبة الملحة في مقاربة شعره بدراسة تكشف عن براعته وحسن أدائه .. وليس غريباً أن يطلُعَ عليه مفكرٌ حاد الطبع حَدِّي الموقف طلوع المنون، ليقول إنه دون من يَعُدُّون أنفسهم من أصغر تلاميذه، ولا أستبعد كونه مشمولاً بالموقف من الحضارة الإسلامية عند صاحبنا الأعز...

وماذا بقي من (المتنبي) .. ؟! (٢) [(١)]

والمتنبي بكل ما هو عليه من قبول مطلق أو مقيد أو رفض مطلق أو مقيد شرع للنقاد بما أفاض به عليهم مما لم يكن عليه سلفهم، وفتق أذهانهم عن مصطلحات ومناهج لم تكن معهودة من قبل..

..فحين اتهم بالسرقة وألفت الكتب عن سرقاته وأسرف خصومه بالاتهام، نهض من يحرر مفهوم السرقة، ويضع لها ضوابط، ويحدد المقبول منها والمرفوض، فكان أن عرف الخلف كيف تعالج مشكلة السرقات، حتى لقد ألفت أطروحات علمية عن هذه الإشكالية التي كانت من قبل المتنبي اعتباطية ومرتجلة.

والمتنبي الذي وضع لبان عمالقة الشعر كـ«جرير» و«الفرزق» و«الأخطل» و«البحتري» و«أبي تمام» سرق الأضواء من بين أيديهم واستقطب النقاد والشراح، بحيث مثَّل مرحلةً مفصلية تغيرت فيها المناهج والآليات والاهتمامات، حتى كان بوسع المؤرخ للنقد الأدبي أن يفرق بين سمات النقد وخصائصه قبل المتنبي وبعده، إذ كان أقدر الشعراء قاطبة على إحداث متغيرات يراها المعنيون رأي العين.

ولم يكن النقد بهذا الزخم ولا بتلك النوعية إلا لأن مجاله الجديد قد هيأ له مزيداً من الرؤى والتصورات، ولم يظفر شاعر من قبله ولا من بعده باختلاف الأنصار والخصوم وكثرتهم وثراء النقد فيما بينهم، وتلك مؤشرات تقطع قول كل خطيب، والأحكام المرتجلة، والأقوال القطعية لا يمكن القبول بها في ظل هذا الكم الهائل من القول ونقيضه.

والنقد بكل أنواعه ومستوياته الذوقية والانطباعية والمعيارية والتحليلية والوصفية والحكمية، الموضوعية واللغوية والفنية والشكلية خاض معترك شعره، وتوصل كل ناقد إلى مسلمات لم تتهيأ لغيره، ولم تزل فيه بقية، بل بقايا لمن تسول له نفسه خوض لججه، ولقد أدرك المتنبي مقاصد خصومه من شعراء ونقاد وسلقهم بلسان حاد أخمل طائفة منهم، وحرض المقتدرين من العلماء والأدباء، والنقاد على تجنيد كل طاقاتهم للنيل منه وافتراء الكذب عليه، ويكفي توصل الكائدين له إلى اتهامه بـ«القرمطية» والطعن في نسبه، وسيظل إشكالية نقدية مثيرة للجدل، في كل عوالمه الأدبية والاجتماعية والدينية والسياسية.

والسؤال المشروع: ما الذي بقي من المتنبي بعد هذه القرون الحبلى بالمفارقات العجيبة والغريبة؟ لقد مر على وفاته أحد عشر قرناً تخللها جزر ومد وأخذ ورد ومطارحات جادة وأخرى هازلة، فمن الناس من سيقول: بقي فيه كل شيء، ومنهم من سيقول لم يبق فيه شيء و:

ما ترانا نقول إلا معاراً
أو معاداً من قولنا مكروراً

وذلك شأن العظماء الذين يتهافت عليهم المبتدئون، ويبادرهم المتضلعون، وتختلف نوايا الراحلين إلى عوالمهم، فمن كان هجرته لبناء شهرة أو إثبات وجود فلن يكون كمن أراد اكتشاف جواهره المليئة بالمستجدات اللغوية والتعبيرية والأسلوبية والدلالية.

والمقاصد كالمطايا تكون بقدر النوايا، وإن عرض للحق سوء تعبير، والذين اتخذوا من تباين الآراء ذريعة لتمرير رؤيتهم الغرائبية لن يعدموا الأشياع والاتباع، إذ بمناسبة مرور ألف عام على وفاته، أي في عام ١٣٥٤هـ نهض الأدباء والنقاد في مصر لإعادة

---

(١) تاريخ المقال: ٢١/ ٩/ ٢٠١٠

قراءته على ضوء المستجدات ونَفَسُ المصريين لم يكن مع المتنبي لأنه خرج من بلادهم مغاضباً وأقذع في هجائهم وهجاء «كافور» غير أن هناك من أنصفه وذب عن عقيدته ونسبه وشاعريته، ومنهم من فضل «شوقي» عليه كما فعل صاحبنا.

والمؤكد أن نقاداً كباراً متضلعين كشفوا عن رغبات غير سوية، فهذا (طه حسين) امتطى لعبة التساؤلات والاحتمالات ليقول في نسبه ما لا يليق، ولقد تصدى له (محمود شاكر) وكشف عن زيف رؤيته وسطوه على منجزه في مجلدين كبيرين، وآخرون من ذات المكانة حدتهم إلى عوالم المتنبي رغبات خالص لوجه العلم، فما كان منهم ما كان من (طه حسين). ولما ضاقت عوالم المتنبي واستحكمت حلقاتها ظهر ما يسمى ب»»نقد النقد» إذ أعيدت قراءة المتنبي على ضوء ما سبق من دراسات لمريدين ومناوئين، وهذا المنهج كشف عن اتجاهات ومذاهب نقدية لم يكن أحد يستحضرها بكل تفاصيلها. فالمتنبي بين نقاده في القديم والحديث كما المرآة في كف الأشل لا يدري المتابع مع من يكون، ولكن يتوفر على مناهج وآليات واتجاهات قد تساعد على اكتشاف عوالم شعراء آخرين، وإذ قيل: لولا الفرزدق لضاع ثلث اللغة، فإنه من المعقول أن يقال: لولا المتنبي لضاع نصف النقد العربي، لقد أسهم المتنبي في تحريك المشاهد كلها وتمخضت عن مدارس نقدية تشكلت في ظل شعره.

والمؤكد أنه لا أحد يستطيع أن يضيف معلومة إلى عالم المتنبي لم يسبق إليها، ولكنه يستطيع بكل بساطة أن يضيف حكما له أو عليه. والمتنبي الذي تكسرت النصال على النصال في جسم سمعته ومكانته تظل جاذبيته تجر أقداماً وتغري أقلاماً، والذين تتخطفهم سمعته ومكانته يكشفون عن هويتهم وإمكانياتهم فيما يظل المتنبي عصياً على الحسم النهائي، وكل نص مراوغ لا يسلم مخاتِله من التعري بكل منطوياته أمام النظارة. والمؤكد أنه يكاد يكون شعره مجالاً للتجريب النقدي أو سوقاً لترويج الاتجاهات، ومثلما أنهكت رواية (موسم الهجرة إلى الشمال) بالدراسات التجريبية فقد لقي شعر المتنبي من اللغويين والبلاغيين والصرفيين والأدباء والشعراء المنافسين مثل ذلك، وخصومه المعاصرون قعدوا له كل مرصد، ولا سيما في بلاط سيف الدولة حتى أرهقوه وفجروا فيه موهبة العتاب المر:

يا أعدل الناس إلا في معاملتي
فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

إذا ترحلت عن قومٍ وقد قدروا
ألا تفارقهم فالراحلون هم

وتاريخ المتنبي مليء بالأنصار المهووسين والخصوم الحاقدين، وأنصاره وإن بالغوا في الإعجاب والإغماض يتوفرون على صريح المعقول وصحيح المنقول فيما يظل خصومه في حومة الفرضيات.

ويكاد يكون المتنبي وحده الذي قتله شعره وخلَّده، وقدره أنه أوزاع بين هوج المريدين، ووهج المناوئين، ومهما أمعن الخصوم في تطويق عبق شعره ولملمة سيرورته فإنه كالليل المدرك للمتأذين منه، وكيف يتسنى لمحاصري شعره أن يحكموا قبضتهم وهو الأقرب لكل مستشهد ومنشد وخطيب ومتمثل.

وعظمة المتنبي تتجلى في تباين الآراء، وعبقريته تتحقق في الاختلاف حول ما لا يمكن الاختلاف فيه، لقد مضت قوافل الخصوم والأنصار وبقي المتنبي شامخاً كبواسق

النخل ثابتاً كرواسي الجبال وعلى الأعزاء الذين اقتربوا من وهجه أن يتسللوا لواذاً فلا طاقة لهم بمغالبة شعره الذي استعصى مناله على أقوام أشداء.

ولولا ما لأبي عبد الرحمن من مكانة في النفس وفي المشاهد لمسه فيما أفاض به نقد يحز إلى العظم، ولقد تذكرت وأنا أفرغ من هذه الشحنة العاطفية قول الشاعر:

إذا احتربـــت يومـــاً ففاضـــت دماؤهـــا

تـــذكرت القربـــى ففاضـــت دموعهـــا

فليكن العام كله يومًا وطنيًا .. ! [١]

لسنا ملزمين بأن نضج بالشكر أو بالشكوى عندما توقفنا المناسبات السعيدة، ولاسيما أن الاحتفالية يوليها الخاصة والعامة جلَّ اهتمامهم، ومن المحتمل أن تكون طائفة من ناشئة البلاد لا تدري ما اليوم الوطني معتمدين على الحب الجِبليّ؛ فكل مولود يحنّ إلى مسقط رأسه، و«ما الحب إلا للحبيب الأول»، والحب الجِبليّ لا يكون ذا قيمة ما لم يُترجم إلى موقف، والموقف لا يكون مُجدياً حتى يستجيب لمتطلبات المرحلة المعاشة، وقيمة الإنسان فيما يحسنه من أداء يجعله عائلاً لا معولاً، ووطن بهذه المكانة والإمكانيات يتطلب إنساناً بمستواه يتناغم مع إمكانياته، ويدرأ عنه عوادي الزمن وكيد الأعداء.

وقدر الأمة السعيد أن اليوم الوطني لم يكن من الشعارات الفارغة، إنه لحظة تاريخية لها ما بعدها، فالمؤسس الذي أنفق من عمره ثلاثة عقود ونيفاً في معركة التكوين توّج تلك الجهود الموفقة بإعلان قيام دولة حضارية تقف جنباً إلى جنب في مصاف دول سبقتها في المؤهلات والإمكانيات، وهي إذ جاءت متأخرة فقد انتهبت الخطى لتدارك ما فات. هذا الإعلان المسدد الذي جاء في وقته وأنهى عقوداً من الفوضى والتشرذم مكّن المؤسس وأبناءه من بعده من تخطي كل العقبات المستعصية، وهل من عقبات تماثل التعصب الإقليمي والقبلي المسكون بالفقر والجهل والمرض، وهو الثالوث البغيض الذي أردى أمماً ونفاها من متن التاريخ.

وإذ يكون الوطن مجموعة قيمة لا حفنة تراب فإنها بادية للعيان، ومن فضول القول تكرار ما هو معلوم بالضرورة، والأهم أن نمتلك الآليات والذهنيات القادرة على استيعاب تلك الإمكانيات والتعامل من خلالها بوعي، فالنعم إنْ شُكِرت قرَّت، وإن كُفِرت فَرَّت، والشكر ليس مجرد قول نُطلقه من أفواهنا ثم لا نُتبعه بعمل مناسب، والله سبحانه وتعالى حين أنعم على آل داود بأن هداهم إلى الدين القويم وأمدهم بالأموال طلب منهم الشكر القولي والعملي: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾، فهو سبحانه حين سخّر الريح وأسال عين القِطْر وسخّر الجن يعملون له محاريب وتماثيل وجفاناً وقدوراً راسيات طلب الشكر لتثبيت تلك النعم، ولو نظرنا نحن في أوضاعنا وما أفاء الله به علينا من نِعَم ظاهرة وباطنة لكنا أحق من غيرنا بالشكر.

لقد فجَّر الله لنا الأرض عن كنوز يسيل لها لعاب العالم المتقدم، وشرَّفنا بخدمة أقدس البقاع، وجعل أفئدة الناس تهوي إلينا، وهيأ لنا حكومة تُحكِّم شرع الله وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتدفع بالتي هي أحسن، وجُبِيَتْ لنا أحدث الصناعات وأدق التقنيات وأطيب المأكولات وأجمل الملبوسات، فكنا قادرين على الشراء متمكنين من الانتفاع، هذه النِّعَم التي نُحسد عليها لا يمكن أن تقرَّ مع المعاصي ولا مع التنكُّر؛ فلله حق، وللوطن حق، وللقادة حق، وليس هناك تعارض بين تلك الحقوق، ومن استخف بها أو بشيء منها عرّض نفسه للعقاب، وعاش تحت طائلة قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾.

وحاجة الوطن إلى جهود أبنائه قائمة في كل الأحوال، وهي اليوم أشد قياماً، فالبلاد مكتنفة بفتن عمياء، إرهاب مُستشرٍ وأفكار منحرفة ومفاسد متنوعة، وقنوات ضرار لم تُؤسَّس على تقوى، ومواقع شريرة تشيع الفاحشة وتفتري الكذب، ولعب سياسية قاتلة،

(١) تاريخ المقال: ٢٨/ ٩/ ٢٠١٠

وتصدير ثورات وطائفيات وتكوين أحزاب تُفسد ولا تُصلح، وأخبار لا يتصدرها إلا القتل والتفجير والفيضانات والزلازل والأمراض المستعصية، وحين تدلهم الأمور وتستحكم حلقات الفتن يكون دور المواطن من أوجب الواجبات، وليس الدور في اعتزال الفتن ولزوم الصمت، وإن كان هذا أضعف الأدوار، إلا أن الدور المطلوب أن يمتلك المواطن حساً أمنياً وعيناً واعية تستبق الأحداث وتحول دون استغلال الغفلات، فالأعداء والمناوئون يسرحون ويمرحون، ولو تحمَّل المواطن مسؤوليته الوطنية لحال دون تلك العصابات والنزوان على صهوات الفتن.

إنَّ الوطن اليوم ليس بحاجة إلى ضجيج الهتاف في ساعة من نهار ثم النوم إلى العام القادم، الوطن بحاجة إلى جهد أبنائه وتفانيهم ويقظتهم، فليكن العام كله يوماً وطنياً نُسائل فيه أنفسنا ونستحث فيه جهودنا وندرأ فيه عن أرضنا كل العاديات، وإن لم نفعل أصبحنا مشروع فتنة عمياء تأكل الحرث والنسل.

ولقد يكون لنا فيما يتعرض له العالم الإسلامي من نكبات ونكسات عبرة وموعظة، والعاقل من وعظ بغيره.

وبعد: فهنيئاً لهذه الأمة بوطنها، وهنيئاً للوطن بقادته، وكل مناسبة ونحن من خير إلى خير ومن عزّ وتمكين إلى عزّ وتمكين، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

وماذا بعد هُلْكِ «أركون» .. ؟![1]

من العلماء والمفكرين وسائر حَمَلَة الأقلام والإعلام مَنْ يشق على أمته، ويرهقها صعوداً، تحت أي مسمى، حتى إذا ادَّارك معها في الفتنة نكص على عقبيه، أو قضى نحبه تاركاً وراءه إرثاً يشقى به خلفه، وعداوات الفكر وفتنة القلم واللسان امتدت عبر التاريخ، وراح ضحيتها نخب مكَّن الله لهم في سوح الفكر فما رعوا نعمة الله حق رعايتها. ويكفي أن نضرب مثلاً بـ«فتنة خَلْق القرآن» في العصر العباسي.

وداؤنا الدَّوي يتمثل في العجز عن الفصل بين القدرة الذاتية والإخفاق في استغلالها، فالمخفق في نظر البعض مفلس جاهل وإن كان قد أوتي بسطة في الذاكرة والعقل والعلم، وداؤنا الأعمق أن هذا البعض يتكئ في مواجهاته على جاهزية الأحكام، وقد لا يقرأ المحكوم عليه بل يقرأ عنه، ويعتمد على الآخر في تشكيل الرؤية، وحين يكون معوَّلُ سوادنا الأعظم على الغير لا يشعر بالتبعية ثم لا يحيل إلى مصدرها، بل يدعي مبادرته ومسؤوليته عمَّا أفضى به، ولن تتحرر المسائل في ظل توارث المواقف وتهيُّب الخوض في لجج الفكر ومعضلات المسائل.

ولستُ بهذه الإشارات والتحفظات والملاحظات بصدد إنقاذ «محمد أركون ١٩٢٨م - ٢٠١٠م» المفكر الجزائري المتفرنس من ترديياته الفكرية، ولكنني أودُّ أن نكون أكثر مصداقية مع من نُحب أو نكره، وأدق رؤية مع الموافق والمخالف، بحيث لا تجْرفنا عواطف الحب ولا يجرمنا شنآن الكره على عدم العدل. و(أركون) شئنا أم أبينا يُشكِّل منعطفاً في المسار الفكري التنويري كما يسميه مقترفو جناياته، وهو قد عول على إمكانات معرفية متميزة وتسهيلات غيرية، وجدت فيه مركباً موطأ الأكناف لتمرير رؤية ليست في عير الإسلام ولا نفيره. وهو إذ يكون عربي الأرومة فإنه غربي الفكر والمنشأ والهمِّ، استشراقي الرؤية، علماني المصدر والمورد، حداثي التوجُّه، وتبعيته المنحازة ضد قيم حضارته وفَّرت له تعاطفاً استشراقياً ودعماً غربياً مكَّنه من الإسهام في اختراق الفكر العربي المعاصر وطرد الغربة عن الفكر المادي العلماني الطارئ.

ولستُ أشك أنه ثالث ثلاثة خَبُّوا ووضعوا في فيافي الاستغراب: «الجابري» و«أبوزيد» و«أركون»، ولا شك أن موتهم بالتتابع سيترك أثراً في صفوف الفكر الاستغرابي، ولقد كان أركون الأمكن والأعمق أثراً وتأثراً والأقوى حجَّة، فلم يكن جمَّاعاً كـ «الجابري» ولا نادلاً ندل الثعالب كـ «أبي زيد»، والمؤكد أن النَّفَس الأكاديمي الذي قيد نفسه في هواه مكّن له من المنهجية والموضوعية، وأعطاه بُعداً آخر لم يكن متوافراً لدى صاحبَيْه، والثلاثة ذرعوا أروقة الجامعات، وأحدثوا صخباً في مشاهد النقد، وصنعوا الأعداء باقتدار بيد أنه فاق صاحبَيْه في تحقيق متطلبات البحث والتنقيب والتفكير العلمي الدقيق، وقُرْبُه من الخطاب الغربي مكّن له من سوح البحث العلمي الرصين، فصاحباه سارحا ولكنهما لم يمارحا، أما هو فقد سارح ومارح وهُيِّئ له ما لم يتهيأ لغيره من الفرص في سائر الجامعات الغربية.

وقدري الأصعب أن «أركون» مات، ومكتبتي بعد لم تأخذ نفسها بعد الرحيل بها إلى مقرها الجديد، فحقول «أركون» و«أبي زيد» و«الجابري» مبعثرة، فإذا وجدتُ بعض ما كتبوا غاب عني ما كُتِب عنهم، وإذا ظفرتُ بآراء مناوئيهم لم أجد كتب مريديهم.

---

(١) تاريخ المقال: ٥/ ١٠/ ٢٠١٠

وما كان من عادتي الاكتفاء بمحفوظ الذاكرة؛ فلربما يند عنها ما لا تهواه، ثم يكون الجور الذي لا نريده بحق الآخرين، وما سخرت من شيء سخريتي من كاتب يستخف بقارئه، ولا يجد معرة من اجترار الكلام والاتكاء على الإنشاء.

ولقد كنتُ ولما أزل ألم بخصومي وأطوي بِيْد أفكارهم كطي السجل للكتب، وبخاصة «أركون» الذي تضلع من التراث والمعاصرة واستطاع التفاعل المقتدر مع الفكر الغربي بوعي، إلا أنه أعطى الدنية في فكره الأصيل؛ فلقد ارتمى في أحضان الثقافة الفرنسية واستجاب لنهمها السلطوي، وميله كل الميل حال دون الركون إليه؛ فمياهه وإن كانت غمراً إلا أنها لا تخلو من تلوث وأسن عصيَّيْن على التنقية، وتهافته على الاستغراب حمله على التوسل بآليات نقدية حديثة تقوض شواخص الحضارة الإسلامية لا رغبة في مزيد من الاكتشاف وإعادة البناء، ولكنه إصرار على الإحْلال والاستبدال، وأحسبُه أوتي قدرات خارقة على المخاتلة والمخادعة والمكر، لقد كان همه - بل مشروعه طويل الأجل - أنسنة المقدس لتفادي محاذير المساءلة والمحاكمة.

والغريب في أمر الذين استحوذ عليهم بريق الحضارة الغربية الأخاذ تفاوتهم في الولاء والبراء والتبني والانتقاء، وداء أترابه أن الثقافة الفرنسية كالعارية الكاسية المائلة المميلة ينجذب لها الراضعون من لبانها ويمحضونها جهدهم ونصحهم ومودتهم، ولقد راد للمتهافتين «طه حسين» الذي أخرج للناس كتابه التبشيري بالثقافة الفرنسية «مستقبل الثقافة في مصر» وكأني به يجعل من الثقافة الفرنسية قِبْلة المفكرين، الأمر الذي حدا ب (سيد قطب) إلى تأليف «المستقبل لهذا الدين»، ومراع الانتماءات باد للعيان منذ حملة (نابليون) التي جاءت والأمة العربية في سبات أهل الكف، وهو صراع مستميت فوَّت على الأمة ما كان يجب أن تكون عليه، فالذوبان في الآخر ومسخ الذات تولى كبره من يسمون أنفسهم ب «التنويريين»، وإذ لا نجد حرجاً من التنوير والتجديد للحاق بركب الحضارات فإن تلك الرغبة مشروطة باحترام محققات حضارة الانتماء، وإذ لا تعارض بين المعقول والمنقول في الرؤية الإسلامية فإنه لا تعارض أيضاً بين العلم والدين، وحين يتعانق العقل والعلم مع الدين يكون الخطأ في سوء التصرف من الناهضين بمهمة الإصلاح والتجديد والتنوير، ولو أدرك التنويريون خطأ المقدمات لتلافوا خطأ النتائج، وأخطاء الممارسة تولد عنها ردة فعل أعنف أدت إلى نسف جسور التواصل واستحالة الحوار البناء، ويقيني أن دعاة الاستغراب أسسوا لصنع العنف الفكري الذي تولد عنه ما هو باد للعيان من عنف مضاد، والعنف الفكري صدَّع وحدة الأمة وفرَّق كلمتها وشغلها عن عمارة الكون وهداية البشرية وعبادة الخالق وهي المهمات الثلاث المطلوبة من كل عالم ومفكر، وإذ أفل نجم الاستعمار التقليدي بثكناته ومناديبه فقد بزغ نجمُ نحسٍ أشد نكاية وأعمق أثراً، وهو ما يمكن تسميته ب(الغزو الفكري)، والذين استشرى في أدمغتهم داء التبعية وتضلعوا من ثقافة الفرار يستنكفون من ترويج مصطلحَيْ (الغزو والتآمر)، وإذا كنا نمضي معهم في بعض ما يذهبون إليه إلا أننا لا نجد بداً من الاعتراف بوجود غزو مكشوف وتآمر مفضوح لم نحسن التعامل معهما ولم نعالجهما بالتي هي أحسن، فالذين يلوذون بالفرار ويناصبون الغرب العداوة والبغضاء ويحملون الآخر إخفاقات الذوات يعمقون المآسي ويهيئون كل الإمكانات للمتكبر المهيمن، والذين لا يجدون بداً من الحوار الحضاري والتفاعل الإيجابي وتبادل المصالح والخبرات وبث روح الثقة ضاعت جهودهم بين شهوتَيْ الصدام والذوبان.

وخطاب التغريب الذي يتوارثه علماء ومفكرون ويتعهدونه بما أوتوا من قدرات ذاتية وتمكين غيري تنداح دوائره وتتعدد مواقعه ولو لم يكن هم الحضارات المهيمنة لما ظل في تجذر واتساع.

لقد كان «أركون» واحداً ممن أعادوا قراءة الإسلام بعيون غربية مرتهنة للعلم التجريبي والمادية الماركسية، ومن حق أي مفكر يتوفر على الآليات والمناهج وشروط الاجتهاد وضوابطه أن يعمل فكره وأن يقارب ما أنجزه العلماء والمفكرون الأوائل، وأن يتفق معهم أو يخالفهم، فالنص المقدس مشرع الأبواب لمزيد من القراءات، والنص الرديف: - شرحاً أو تفسيراً لا يحمل القدسية ولا العصمة التي يحملها النص الرئيس، على أن النص المقدس حمَّال أوجه وقابل لعدة قراءات، والتفكيك والتأويل بمواصفاتهما التراثية والمعاصرة قادران على توليد دلالات لا تخطر على البال، ومتى تناسلت الدلالات وكانت مرتهنة للمقاصد موافقة للضوابط فإنها تكون في إطار الخلاف المعتبر، غير أن قراءة «أركون» لم تنطوِ على هذه الضوابط وتلك الهواجس ضوابط الإثراء، وهواجس الاكتشاف، فالقراءات المشروعة هي القراءات التي تستصحب المقاصد وتحترم المحققات، فالحضارة - أي حضارة - لا يمكن أن تستوي على سوقها بالاستبدال. و«أركون» أراد أن يعيد صياغة الإسلام على هوى الاستشراق، ولم يرده على هدى المجددين الذين بشر بهم الرسول ﷺ على رأس كل مئة سنة. «وأركون» الذي قدم إلى ما قدم كانت له إلمامات صائبة ورؤى لا نختلف معه حولها، غير أنه مع ما ينطوي عليه من قدرات نثمنها وثقافة عميقة نكبرها وحضور فاعل لا ننكره يكاد يكون إثمه أكبر من نفعه؛ فهجومه السافر على سلف المفسرين والفقهاء واستخفافه بما خلفوه من بنية فكرية وعلمية لا يمكن القبول بهما ولا التسامح معهما، ولقد يكون من المفسرين والفقهاء من يقطع بالرأي المفضول ويصر عليه، وقد يعادي من أجله، غير أن «أركون» لم يكن ناقداً للمخالفات الظاهرة المحددة، وإنما يطلق أحكاماً تجمع بين الجور والتعميم، وإكبارنا لإمكانياته لا يحول دون أخذه بجرائره، وبخاصة حين تطاول على الثوابت والمسلَّمات المتفق عليها. إننا حين ننكر هذا الصوت النشز في سياق تداخل الأصوات ونكارتها ونتمنى لو وُئِد فكره معه في ضريحه لا نجرؤ على غمطه حقه في إمكاناته وإسهاماته وقدرته الفائقة على إيصال الخطاب العربي إلى أروقة الجامعات الفرنسية.

وحين نقف ضد فكره فإن مرادنا لهذه الحضارة المعقوقة من أبنائها أن تكون كما أُريدَ لها حضارة مادية روحية تقف جنباً إلى جنب مع سائر الحضارات؛ لتسهم بتشكيل الحضارة الإنسانية، ولن يتحقق لها الوجود الكريم والمقتدرون من أبنائها يمارسون المسخ والذوبان في الآخر.

وما قدمه «أركون» عين المسخ وذات الذوبان، فلنأخذه بحذر شديد ولنوفِّه حقه، وفي الحديث «**لا ضرر ولا ضرار**».

سلبيات منهج النقد اللغوي .. ؟ (١) [1]

لم أعد مترعاً بالقوة كما كنت في طفرة الشباب وعنفوان الكهولة. ولم أكن حفياً بالجدل العنيف، كما كنت أفعل فيما سلف مع كل من لاقيت من عشّاق الطواري ومروّجي المذاهب والتيارات، وما أنا عليه من قبل وما أتمثله من بعد لا يعد اضطراباً ولا تراجعاً ولا ضعفاً ولا استدراكاً لفوات معرفي، ولكنه من باب التحوّلات الطبيعية التي يفرضها المتغيّر الكوني، والذين أُنْسِئَ لهم في آجالهم تتغيّر أفكارهم مثلما تتغيّر أجسامهم، والمعمرون لا يخلعون أجساماً ليلبسوا غيرها، بحيث يكون أحدهم قصيراً بعد إذ هو شامخ، ولا حالك السواد بعد إذ هو ناصع البياض، وإنما هي تحوّلات لا تلغي ما سلف ولكنها لا تبقي عليه كما هو، والله وحده الصَّمد الذي كمل في كل شيء واستكمل كل شيء. وإذا كانت الصورة الشمسية تُجمد لحظةً أزليةً من سبع عشرة لحظة من الثانية، فإنّ القلم المفترع للمسائل والنوازل يفْعل مثل ذلك، يسجل الفكرة البكر ثم لا يدوم عليها في حين يظل منتجه اللحظي وثيقة لمرحلة سلفت وليست لازمة لحياة خلفت.

هذه المقدمة بين يدي حديثي المقتضب عن (سلبيات منهج النقد اللغوي) لا تعني غمط هذا المنهج حقه، ولا التخلِّي النهائي عما سلف من علوم الآلة، وإنما تعني اتخاذ صيغة جديدة في التعامل مع هذه الظواهر ومريديها، تجنح إلى التفسح والتعايش ومحاصرة السلبيات من الفعل ورد الفعل، حتى لا يكون شيء من مراد الطرفين متنفذاً نافياً لما سواه، واستحالة استئصال أي طرف للآخر لا يمنع من محاولة تكافؤ الفرص، فالظواهر حين تتحوّل إلى نظريات تصعب حلحلتها وحسم الموقف لإحْدَى الطائفتين، إذ لا يخلو منجز من فائدة لا تكون متنفذة ولا نهائية وقدر المشهد النقدي المأزوم أنه يفيض بمتعالقين مع المستجد من النظريات ممن يعتقدون أنّ من شرط التعالق موت ما سلف من نظريات تراثية.

ولقد سمعنا بـ(موت النقد) و(موت النحو) تماهياً مع (موت المؤلف) وكأننا في موكب جنائزي، وإذ أخذنا بسحر الوفيات، فقد أخذنا بدعوى (الما بعديات) وتلك دعاوى هلامية ألهتنا عن كل قضية حقيقية.

وهذه الشهوة الجامحة أدخلت كل الأطراف في دوامة الصراع الفارغ من كل مفيد، وهو صراع من أجل البقاء وليس صراعاً من أجل التصحيح أو التوضيح. وهل أحد سوي يرضى بالحكم على ما ألف من مناهج بالموت الناجز؟

وكم هو الفرق بين الصراع من أجل البقاء والصراع من أجل الصدارة أو الصراع من أجل التعايش المتكافئ وتقاسم المشهد، وما احتدمت المشاعر إلاّ من أجل البقاء الكريم وتكافؤ الفرص وسيادة المعرفة على الأهواء الجامحة.

وأحسب أنّ التوتر والاحتدام الذي اتّهِمْتُ به لا يتعلّق بمشروعية المناهج المستحدثة وتعدُّدها ولا بصحّتها أو بزيفها، ولكنه من باب تنازع البقاء.

ولربما أنّ تقدم السن عند الفرقاء وتعَمُّق التجارب وتعَدُّد المشارب حَمَلَ كل الأطراف على القبول بالتعايش، ومن هنا هدأت المعارك وأخذت مساراً آخر، كان يجب أن يكون من أول يوم، ومع هذا فما أنا حفي بإلقاء الأقلام وطي الصحف والقبول المطلق بكل المتداول، فالتأصيل والتأسيس وتحرير المسائل وتصحيح التصورات سبيله الاختلاف بضوابطه المعرفية والأخلاقية وقيام الحاجة إليه.

---

(١) تاريخ المقال: ١٣/ ٤/ ٢٠١٠

وحديثي عن السلبيات لا يعني التفكير بمصادرة الحق لصالح رؤية قائمة أو مرتقبة ولا التقليل من شأن المستجد الألسني سواء أخذناه بِرُمَّتِهِ أو أفرغنا المصطلح من محتواه، كما لا يعني التنكُّر للإيجابيات التي خلفتها مناهج اللغة الحديثة ولا نفي الأثر البالغ الذي نراه رأي العين ونتوسل بشطر منه لاكتشاف أعماق الدلالات. كما لا يعني الرغبة في إعادة المعارك جذعة. وإنما يعني تفادي طرد المخالف والحمل على الصبر معه وتقاسم المشهد بين المستهمين، وتضلع كل متعالق مما هو متعالق معه، ويقيني أنّ ذلك من الوسطية التي لا مزيد عليها.

ولست أرى سلبية تعدل في أثرها كالأثرة وضحالة المكتسب وسوء استعماله، وتلك مثالب بادية للعيان يعرفها الضالعون والمتضلّعون.

وحين أبدي تحفظي على بعض الممارسات التنظيرية أو التطبيقية، فإنّ هذا سعي لحفظ التوازن وتحديد المفاهيم والتوفر على الإمكانيات المخولة للممارسة السوية، ومعاذ الله أن يكون ما أبديه لنفي الآخر والاستئثار بالمشهد. ولو أنصف المتلاحون حول القضايا لاستوى المشهد على سوقه.

والحركة النقدية لا تكون شيئاً مذكوراً إلاّ بالتعدُّدية المنهجية والاختلاف المحكوم بضوابطه، إذ ما استبان لي وجه الصواب في المشهد النقدي إلاّ من بعد فالتطمت المناهج والآليات وتعدّدت المشارب والانتماءات والحضارات الأكثر ثباتاً واتساعاً هي الحضارات القادرة على استقبال الآخر واستيعابه وتمثله تمثلاً غذائياً واستكمال متطلّبات الراهن والتكيف مع المعاش والانفتاح الموزون على كافة المستجدات وهضمها وتفادي الذوبان فيها، وبسط الأيدي وغلِّها لا يحمدان لذاتهما.

والحضارة الإسلامية ظفرت بالشمولية والعالمية حين استوعبت الحضارات الفرعونية والبابلية والفينيقية والآشورية والسبئية وصبغت ما فيها من حق بصبغتها، ومشهدنا النقدي لكي يكون كذلك لابد له من الانفتاح الواعي واستيعاب المستجد والمراوحة بين النقل والتعريف والترجمة اقتداءً بعلمائنا الأوائل.

وبالعودة لى الحراك النقدي عربياً وعالمياً ورصد تحوّلاته نجد أنه استوعب مرحلته بمرونة الحراك واستشراف المستقبل وذلك ما نودُّه لمشهدنا. ولقد أشرت في مواقف متعدّدة إلى تحوّلات مركز السكون النقدي وأنجزت دراسات ومحاضرات بسطت القول فيها عما جاء مجملاً هنا.

ولست حفياً بإعادة ما سلف، ولا سيما أنه معهود ذهني لدى المتابعين وإعادته من باب البضاعة التي ترد لأصحابها.

ومن أشمل البحوث التي شرفت بإعدادها وإلقائها ونشرها في أوقات متفاوتة:-

-«تحولات النقد الأدبي»

-«الحركة النقدية المعاصرة: المعطيات.. والآفاق»

-«تحولات مركز النقدي»

-«النقد الأدبي في المملكة: قضايا وإشكالات..»

كما قمت بدراسات تطبيقية عن بعض الأعمال النقدية ذات المنهج البنيوي ولست معيناً بتكرار القول، ولا الإشادة أو التذمُّر مما بدر من كل الأطراف غير أنّي أود استحضار ذلك كله لأكون بين يدي المتابع كما أنا في إمكانياتي وتصوُّراتي وتطلّعاتي الخالصة لوجه المعرفة الحقة المجرّدة في الأثرة والهوى.

ومما أشرت إليه سلفاً حول تحوُّلات مركز الكون النقدي أنّ المؤلف كان الأهم، ومن ثم كان مركز الكون النقدي، مما استدعى تاريخ الأدب وهيمنته الدلالة الظاهرة بوصفها مقصد المرسل، ثم تحوّل المركز إلى النص فكانت مناهج النقد اللغوي وتحولاتها: -

(التكوينية) و(التمويلية) ومترادفاتها: (التفكيكية) و(التشريحية) و(التقويضية) وتشعباتها (الشكلانية) و(الأسلوبية) و(النسقية) و(السيميائية) و(البنيوية). حتى بلغت الأمور ذروتها بـ(ما بعد الحداثة) و(ما بعد البنيوية) ومأزوميتها بحيدة الفن عن فنيته واستفحال المعرفية والمعيارية وتداخل المنظومات الثبوتية والتحولية وهي مآزق تعرض لها النقد الأدبي بكل تحوُّلاته الحديثة.

وإذا كان الأوائل قد استنزفوا أقصى طاقات النحو والصرف والبلاغة لتوسيع مهايع التأويل إرضاءً لمذاهبهم العقلية وإمعاناً في تحميل النصوص ما لا تحتمل، فإنّ الأواخر لم يدّخروا وسعاً في ممارسة حقهم لتطويع النصوص وتحميلها ما يساورهم من هموم، وواجب المقتدرين تخليص النصوص من تعنُّت المناهج وتسلُّطها، وبخاصة بعد استفحال المناهج اللغوية التي قضت على حق المرسل ومكّنت المتلقي من استعباد النص وقد ولده المبدع حرَّاً. وها نحن نمارس تأويل الفهم بعد ما كنا نتهيّب من تأويل المعنى وكم هو الفرق بينهما.

وبعد تحوُّل مركز الكون النقدي إلى (المتلقي) توسل بكل المناهج لصالحه وكل مرحلة استدعت ما يناسبها من المناهج والآليات والمعارف وظلّت قائمة فاعلة، وهي في مجملها ثروة لا يستهان بها، وإن كان ثمة اختلاف أو تحفظ فإنه لا يعدو حفظ التوازن وتقاسم السلطة ومساحات الحضور، إذ ما كنت في يوم من الأيام متخذاً أي مركز غاية أرتمي في أحضانها. وتصدياتي لم تكن ضد مركز دون آخر، ولكنها ضد الانقطاع ونفي الآخر ومصادرة حقوقه، وتصدياتي لـ(البنيوية) أنها تضرب صفحاً عن خصوصية النص الأدبي بوصف (البنيوية) منهجاً لغوياً صرفاً، وليست منهجاً نقدياً بل أكاد أقول: إنها آلية يتوسل بها كل مذهب: نفسياً كان أو اجتماعياً ماركسياً كان أو رأسمالياً.

والتعامل مع النص الإبداعي كقطعة جامدة تصادر نبضه الإبداعي والركون إلى مناهج اللغة دون اعتبار لخصوصية النص الإبداعي مصادرة مجحفة إذ عالم النص الأدبي أكبر من أن يحجم ليكون مرتهناً للمناهج اللغوية وحدها، ولقد كنت ولمّا أزل أدعو إلى التكاملية التي تتفسح للمرسل والرسالة والمتلقي على حد سواء، وما يشتمل عليه كل مركز من أبعاد دلالية وفنية ولغوية ونفسية واجتماعية وجمالية وثقافية وبنائية. وطغيان المناهج اللغوية يصادر حق المرسل والمتلقي وفي ذلك تقزيم للعملية النقدية.

واستفحال البناء والشكل بوصفهما منهجين هروبيين استدعى البنيوية التكوينية وعلم الدلالة ولكنه استدعاء جزئي في حل الأثرة وتخليص النص من تسلُّط المناهج المحدودة الفعالية.

ومناشدتي للتكاملية حملت البعض على اتهامي بالتلفيقية فيما حَمَلَتْ آخرين على وصفي بالتناقض فأنا أعترض على الحداثة وأستخدم لغتها ومناهجها وأساليبها وشيئاً من تراكيبها، وليس فيما أفعل من بأس فالحق ضالّتي وإن استخرجته من بين فكّي الحداثوية.

سلبيات منهج النقد اللغوي .. ! (٢) [(١)]

.. وأحاديثي المسهبة أو المقتضبة عن (البنيوية) أو (التحويلية) أو (التفكيكية) ليست نفياً لها، وإنما هي محاولة لقمع أثرتها وكشف لوهم الآخذين بعصمها دون استيفاءٍ لمحققاتها ولا قدرة على استعمالها كما أريد لها، ومحاولة لتلمس جذورها الفلسفية ومدى انعكاس ذلك على النص المقدَّس، وهو ما صُدمنا به في ممارسات «نصر حامد أبي زيد» ومَنْ سايره، ممن أوغلوا في تدنيس المقدس أو أنسنة الإلهي كما هو عند (أركون).

والمستجد الغربي يحتاج إلى استقبال واعٍ يحدد الحاجة والمشروعية ومن ثَمَّ لا يُستقبل بصغار مهين، ولا يُنْفَى بأنفةٍ زائفةٍ، وما هو في النهاية إلا خطاب تستوعبه الحضارة الإنسانية بوصفها وعاء لكل الحضارات.

وحق الحضارة الإسلامية أن تبحث عن الحق بوصفه ضالتها، فما قامت الحاجة إليه وكان من المباح الممكن وجب تلقيه وإذابته في الكيان الحضاري؛ ليكون نسيجاً لا رقعة فاقعة اللون غريبة الشكل. وعيب المشهد النقدي أنه أصبح كطيلسان ابن حرب الذي طغت فيه الرقع؛ حيث لم تُبْقِ على الشكل ولا على اللون الأصليين، وهذا من المسخ المخل بأهلية الوجود الكريم.

والتحوُّلات الحتمية لمركز الكون النقدي تستدعي التعديل والتبديل في الآليات والمناهج، فهيمنة المبدع لا تصلح له مناهج اللغة وآلياتها، وهيمنة النص لا تصلح له مناهج التاريخ الأدبي، وهيمنة المتلقي بحاجة إلى آليات ومناهج تمكنه من إنتاج الدلالة التي تُساوره. ولقد اتهم (المتنبي) (ابنَ جني) بأنه يقوِّله ما لم يقل. ولقد يمر بشُرَّاح شعره وهم يتعمدون تحريف الكلم من بعد مواضعه، ثم لا يجد بداً من الانصراف دون استدراك أو تصحيح مردداً:

أنــام مــلء جفــوني عــن شــواردها

أنــام مــلء جفــوني عــن شــواردها

والنقد اللغوي الذي نحن بصدد الحديث عنه لم يعد ترفاً نقدياً، وليس من السهل السيطرة عليه، وقد أصبح نظرية ضاربة الجذور، وليس هو أضعف المناهج ولا أقلها خطورة، وبدونه لا ينتزع النص والمتلقي حقهما، غير أن هذه المميزات لا تمنحه العصمة ولا الحصانة ولا تخوله الاستئثار بالمشهد، كما يود المتعالقون معه. وبقدر خطورته وأهميته تكون المراجعة والمؤاخذة. وكيف لا يكون النقد اللغوي مهماً؟ هو قسمة بين النص والمتلقي، وهما ركنان أساسيان في سائر العمليات الأدبية إبداعاً ودراسة. والمتلقي لأي نص لا تتحقق سيطرته على النص ولا يتوفر على حقه إلا بآلية اللغة ومناهجها، ثم إنَّ الأدب لغة، بل إنَّ الإنسان لغة، والله إذ علَّم آدمَ الأسماء كلها، وعلم بالقلم علَّم الإنسانَ ما لم يعلم، أراد أن يعلي من شأن اللغة، وأهميتها تضفي على مناهجها الأهمية ذاتها، ومعاذ الله أن نقلل من شأن تلك المناهج، ولكننا نكره الأثرة، ونمقت الادعاء، ونحبذ التفسح لكل المناهج والآليات. وأيا ما كان الأمر فإن حِدَّة المناهج اللغوية وحدِّيتها وتلقيها خالصة من الغرب دون تحيز للتراث أو تحرف للتعريب أذهبت ريح الفن، وشوهت جمالياته، وقطعت أوصال النص، ونفت ما سوى اللغة. ثم إنَّ تعدد المناهج اللغوية وتنازع البناء والشكل والدلالة أيقظا الفتنة داخل المنظومة اللغوية، والاشتغال بالبناء الأصم أوغر الصدور المهتمة بعلم الدلالة. والذين شغلتهم الدلالة أوغلوا في هلاميات وفرضيات

---

(١) تاريخ المقال: ٢٠/ ٤/ ٢٠١٠

حاولت التأسيس لدراسة الدلالات، وفرضيات حاولت التأسيس لتحليل المعنى إلى عناصر دنيا، والبحث عن مجالات لعلم الدلالة كالتسمية والتصور والحس والإشارة والسياق والمقابلات والتضام.

ولو ذهبنا نستعرض فهارس الكتب التي تناولت علم الدلالة لما انتهينا إلى حد، وماذا لو استعرضنا تشقيقات الشكلانيين والبنائيين والتقويضيين ثم ارتهنا النص الإبداعي لها دون تحفظ؟ إنها متاهة يفقد معها الأدب أدبيته والشعر شعريته. والنص الإبداعي يستمد أهميته من الجمال الصوتي والصورة البلاغية الأخاذة ومن المجاز والإيجاز، والمنهج اللغوي لا يلتمس هذه المؤثرات بل يتخطى ذلك إلى مقاصد لا يعلمها إلا العالمون بدخائل تلك المناهج ومآلاتها. والتفكيك لا يحافظ على تلك الجماليات وإن تمكَّن من تجلية دلالات خفية، ومع هذا التحفظ والاستدراك فإننا لا نمضي مع المناوئين للمناهج اللغوية بدافع الانتماء لمناهج أخرى؛ فالمبالغة في التوهين تُفْقَد معها المصداقية، وما كنا مؤاخذين إلا بقدر ما يحفظ التوازن بين المناهج، وإذا كنا نقبل المنهج الاجتماعي كما هو عند (طه حسين) والمنهج النفسي كما هو عند (العقاد) والمنهج الثقافي كما هو عند (فِنْسنْت لينش) والنقد الظاهراتي والتكويني عند غير هؤلاء فإننا لا نقبل استئثار أي منهج بالمشهد النقدي؛ فالنص الإبداعي عوالم متعددة، واستكناهه لا يتم إلا من خلال مفاتيح كثيرة، والنقد الألسني حين يستأثر بالنص يُفقده عوالمه التي لا تقل أهمية عن عالمه اللغوي، وعلى الرغم من أهمية النقد اللغوي إلا أن الأهمية لا تخول المتلبس به الاستخفاف بما سواه؛ ذلك أن النص حقل متعدد الرؤى والتصورات والعوائد، ولكل عائد وسائل اكتشافه والتقاطه، وإذ تكون بوابة الحقل هي اللغز فإن مناهجها هي الأهم، والأهمية تؤخذ بقَدْرها، وليس من حقها الاستئثار بالنص، ولا نفي ما سواها من متعلقات النص بوصفه عالماً من العلاقات.

وما كان من مقاصد التقصي للسلبيات تنحية هذا المنهج. ولقد أشرت من قبل، وليس من باب التكرار ولا المعاد، أكثر من مرة إلى أننا مع المناهج كلها متى عدلت في اقتسام المهام، والذين يستحوذ عليهم التعصب يقوِّلون خصومهم ما لم يقولوا، ويتهمونهم بجهل الأهمية أو بتجاهلها. وقد يكون ذلك صحيحا بحق مَنْ يمارسون التعصب المذهبي المضاد، ومن حق المشمول بهذا الاتهام ظلماً وعدواناً أن يدافع عن نفسه، وأن يتحامى المجاراة في الاتهام؛ لأن في ذلك تصعيداً لفضول القول، وتأزيماً للمواقف. والمشهد النقدي بما هو عليه من فوضى وتنازع لا يتطلب المزيد؛ فالمناكفات حيدت النص وعطَّلت فوائده، وألهى النقاد ما هم عليه من تنازع البقاء، ولقد عيب على النقاد استهلاك التاريخ والتنظير لجهودهم، فيما قل الاهتمام بالنقد التطبيقي الذي يرشِّد الإبداع والنقد معاً، ولذة النقد في اكتشاف غياهب النص وتوليد الدلالات وتقويض البنية لاستخراج كوامنه واستخدام كل ما أمكن استخدامه من المناهج والآليات، فالنص كون كامن على خامات وطاقات لا يجوز التفريط بها في سبيل التحيز لمنهج أو مذهب.

والتنقيب عن السلبيات لا يحملنا على بسط القول عن مناهج النقد اللغوي ولا الإشارة إلى تحولاتها المتلاحقة، وإن كان بودنا أن نقدمها كما هي لكي تكون بين يدي القارئ، ومثل هذه الرغبة تمتد بنا إلى الكشف عن مصادرها وجذورها الفلسفية، وأحسب أن ذلك من المعهودات الذهنية عند الذين يحملون همَّ الحركة النقدية، وما نود تناوله ما يعرض لتلك المذاهب من هنات هي فيما أرى من نقص القادرين على التمام، والمشهد النقدي حين لا يتشايل ذووه يتعرض للذبول والضمور، ومشهدنا المحلي بتواصله مع كافة المشاهد وتوافره على قدرات استثنائية وانفتاحه غير المشروط على سائر الخطابات بأمسّ الحاجة إلى مَنْ يضبطون إيقاعه ويوجهون مساره ويباركون خطواته.

وليس في المراجعة والمساءلة والنقد ما يدعو إلى الخوف والتذمر، ولاسيما أن طائفة من النقاد المتنفذين متحفزون للمبادرات والتبني للمستجدات، وقد لا تتوافر لبعضهم الإمكانيات الكافية للفرز والاختيار السديد. والألسنيات المتعددة والمتنافرة التي اقتحمت مشاهدنا بمصطلحاتها الهلامية أنستنا ما كنا عليه وما خلفه الأسلاف، مما لا يُستغنى به ولا يستغنى عنه.

ولقد يكون من فضول القول الحديث عن جهود العلماء الأوائل، وهي - على ما هي عليه - تمثل قواسم إنسانية تخولها الوجود المشترك وليس الوجود المستبد كما يحلو للبعض، وكان يجب حين حلَّت بمشاهدنا أن نلتمس فيها ما نحن بحاجة إليه، وأن نعيد قراءة تراثنا للمواءمة بين الطارف والتليد؛ فالمذاهب المستجدة حين تخترق أجواء الثقافات القائمة لا يُلبسها لبوسه إلا إذا كانت مصابة بداء القابلية للتبعية على ضوء نظرية (مالك بن نبي): «القابلية للاستعمار»، وما عمدت إليه من تحذير لم يكن الأول، والتخوف من هيمنة الآخر يساور المفكرين الجادين، ولقد أشار صاحب (دليل الناقد الأدبي) إلى الرغبة في «تنامي المثاقفة النقدية الأكثر اتزاناً ونزوعاً للإبداع».

وفي غمرة الاستياء والتحذير من مغبة التهافت نود الإشارة إلى أن شطراً من (الألسنيات) تلقفها مَنْ هم أهل للتلقي والتفاعل ممن كان لهم باع طويل في التأصيل المعرفي والتطبيق النقدي، وهذا التفوق والتألق الذي بادر إليه المغاربة وقليل من المشارقة المعاصرين لا يمكن أن يصرف أنظارنا عن إخفاقات موجعة مست المشهد النقدي بالضر، وهي إخفاقات منشؤها اللجاجة والاهتياج الأعزل.

ونحن إذ نسلم بتفوق الغرب وتمكنه من المأسسة والمنهجة فإن ذلك حافز للاستثمار لا للاستسلام، ونحن أحق باقتفاء الأثر واستشراف المستقبل، وطلابنا المبتعثون وعلماؤنا المترجمون ونقادنا المتابعون خير مَنْ ينهض بهذه المهمات وينهي زمن التيه وفترة الانبهار والتبعية.

ولن نتوافر على المصداقية إلا إذا نظرنا إلى مشهدنا بعين الناقد البصير المنصف؛ فليس كل نقادنا مخفقين، وليسوا كلهم تبعيين؛ لقد كنا ولما نزل على موعد مع مبادرات تطبيقية أثرت النصوص وأغدقت على المشاهد بلفتات ذكية، وكان لبعض الوافدين العرب أثر لا يستهان به وإن تلقف رؤية بعضهم مَنْ لم يقف حيث يجب الوقوف. ومهما كان الأمر فلا بد من أن نشير إلى إسهامات جليلة من لفيف من الأساتذة، أذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: الأستاذ الدكتور لطفي عبد البديع وعبد السلام المسدي ومنذر العياشي، كما أشير إلى نقاد محليين سيطروا على مناهجهم في بعض ما ذهبوا إليه، وكانوا قد تلقوا تعليمهم في أمريكا وأوروبا، وجمعوا في دراساتهم بين التنظير والتطبيق، وأسهموا في الترجمة. ومشهدنا النقدي له وعليه؛ شأنه شأن كافة المشاهد العربية، ولكننا إذ نرى تجلياته من الواجبات فإننا نرى إخفاقاته من نقص القادرين على التمام.

والمؤمَّل أن تكون هذه الورقة بمثابة المدخل لما سبق من دراسات كتبتها أو ألقيتها في فترات متباعدة عن سائر الألسنيات سواء منها ما كان تنظيراً أو تطبيقاً أو مناوشات مرتفعة النَّبرة مع إخوة أكنُّ لهم الاحترام وأُدين لهم بالفضل.

وإن فُهمت على غير مرادي فإن أملي أن يعيد المرتابون نظرهم؛ فنحن في زمن أحوج ما نكون فيه إلى الوفاق. ولقد قرأت في ملامح البعض الرغبة الملحة في رأب الصدع والتعاون على البر والتقوى، وتلك مبشرات ما كنا نود تأخرها إلى هذا الوقت.

في مشرقنا المترع مخاضات لها ما بعدها .. ![١]

مشرقنا العربي مسرح للصراعات الإقليمية والعالمية التي أوهت قواه وأذهبت ريحه وأطمعت فيه من لا يدفع عن نفسه. والشعوب المحظوظة من كان قادتها في ظل هذا الغليان المؤذن بالانفجار يجنحون إلى السلام، ويدفعون بالأحسن، ويهدِّئون ردود الأفعال، ويرتدُّون إلى الداخل، ويمدون أرجلهم على قدر ألحفتهم، وحين يكرهون على المواجهة لا يتجاوزون جهاد الدفع وفتح أبواب العودة لمناوئيهم على شريعة: ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾.

صحيح أن الجهاد ذروة سنام الإسلام وأن إعداد القوة واجب إلا أنه لا يكون الخيار الأول، ولا يكون بدون عدة وعتاد من صنع أيدي المحارب ثم إن الإسلام انتشر بالدعوة والقدوة، ولو قرئ ما كتبه الداخلون فيه بطوعهم واختيارهم عن كيفية إسلامهم لوجد أنه ناتج القراءة أو القدوة الصالحة. وذلك سِرُّ قول الرسول ﷺ: «**بلغوا عني ولو آية**» فالنص المحكم جاء مخاطباً للفطر السليمة وموافقاً للعقول الحكيمة ومستجيباً لجامات الإنسان في أي زمان ومكان، وهو وحده الأقدر على الإقناع والحمل. ولقد قدم كما أراد لنفسه أن يكون، ومافقد المسلمون أهلية القيادة للعالم أجمع وما فقد الإسلام عالميته وشموليته إلا بسبب النهم الخاطئ والتأويل الفاسد والتعصب المذهبي المقيت واستغلال العواطف الإسلامية الجياشة لأهداف ومصالح ليست من الإسلام في شيء.

ولن نمضي في تعداد الأسباب المؤدية إلى هذا المصير المذل لأنها من الكثرة بحيث لا يأتي عليها متحدث مخفّ. ولقد يثير هذا العزوف عن التقصي الكثير من الفضول، غير أن ذلك لا يمنع من توادد الخواطر، فالأمة بحاجة إلى من يوقظ فيها روح التحدي ونوازع الإيمان، والخيرية باقية فيها، وهي باقية على مسرح الأحداث بما هي عليه ترقب المجددين الذين بشر بهم من لا ينطق عن الهوى، ومهما بلغت من الضعف والضعة فإن إمكانيات التألق والتفوق كامنة فيها كمون السقط في الزند وعجزها في غياب قادح الزناد، وهي قابلة للعيش الكريم بإمكانيات مبادئها لا بتطبيق مدعيها.

والعالم الثالث بوصفه المستوعب للعالمين: العربي والإسلامي يعيش حالة من الاضطراب والفوضى والفتن بفعل أبنائه وتآمر أعدائه وقلة إمكانياته، وقبل سقوط الماركسية كان ميدان الصراع، وكان للعالم العربي النصيب الأوفى، ولقد تمخض هذا الصراع عن سلسلة من الثورات الدامية التي جعلته كالرميم. ولما تزل فلول القوميات والماركسيات والعلمانيات فيها القائم والحصيد، وحين سقط القطب الموازي وتردى العالم كله في واحدية القطب واضطرابه في إدارة الأزمات بدأت أعناق النعرات البديلة تظهر متمثلة بالقبلية والقطرية والطائفية، ولم يعد العالم العربي قادراً على مواجهة تلك الأزمات والتقلبات السياسية إلا بحبل من الله أو بحبل من الناس.

ودون الحبلين خرط القتاد. والمتفائلون والمتشائمون يرون العقبات بحجمها الطبيعي، وهو حجم مخيف كما أنها محكمة الصنع وقابلة للتصعيد، ومهما استحكمت حلقاتها فإن وراء الخلق إرادة ربانية كونية تحسم الموقف غير عابئة بتقدير الخلوق. ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ﴾.

---

(١) تاريخ المقال: ٢٧/ ٤/ ٢٠١٠

والأمة العربية عبر مؤسساتها ومؤتمراتها تدير بينها ما تعانيه وما يجب أن تفعله، وهي إدارة واعية ولكنها غير مسنودة وغير قابلة للتنفيذ لعوارض الفقر والفرقة وتعارض المصالح وتباين الخطابات وتوهم العداوات، وهي أسباب في غاية التعقيد والتصعيد.

وصراع القوى الأجنبية على فرض السيادة وسلب الحريات واستنزاف الخيرات يواكبه صراع إقليمي يحس ذووه بأنهم قادرون على فرض السيادة المناطقية بعد انكماشها عربياً، وأحسب أن دولتين إسلاميتين غير عربيتين تتنازعانها، ولكل واحدة معوقاتها ومؤهلاتها هما: (تركيا) و(إيران) فـ(تركيا) تتعثر بسلطة العسكر المتشبعة بالعلمانية العنيفة، و(إيران) تتعثر بسلطة الآيات المشبعة بالطقوس الطائفية غير المقبولة على المستوى السني بوصفه الأكثرية الكاسحة في العالم العربي. والقوة المرجحة لإحدى الطائفتين تكمن في بواطن الخطط المبيتة للشرق الأوسط الجديد، وأياً ما كان الأمر فإن مخاضات خطيرة ومتكاثرة ترقبها كافة المشاهد السياسية والفكرية ولو على المستوى النخبوي المستشري تنازعه بين أطيافه داخل المنظومة الواحدة.

فالسلفية على سبيل المثال نسل منها مستنيرون لم يؤطروا رؤيتهم بضوابط وشروط تبعث الاطمئنان في نفوس المترددين بين التقليد والاستنارة المحسوبة.

وجاذبية القنوات والمواقع وتهافت المبتدئين والفضوليين للظفر بالحصة من دوائر الضوء أفقد البعض توازنه واحتشامه وهيبته بل إن الرغبة في الاستئثار دفع البعض الآخر إلى التدافع دون استيفاء لمتطلبات الغرب في فجاج التنازع الفكري. وهذا الاهتياج كشف الساحة وفتح الثغرات وأكد المجازفة والارتجال، ولقد ملئت الساحة بقضايا جانبية منحت الصدارة والأهمية، وجاء الاشتغال بها على حساب قضايا مصيرية، كما أن الارتباك أصبح سمة المرحلة حتى أن الوقوعات العارضة أعطيت أهمية الظواهر المتفشية، وانعدام القدرة والمنهجية مؤداه هدر الطاقات وضياع الجهود وارتباك الأمة ومبادرة الآخر لأزمة الأمور، وهذا التنازع يمتد أثره إلى القضايا الكبرى والمصيرية، فإما أن يبادرها من لا يملك هولاً ولا طولاً في إدارتها أو يجهضها من لا يستقيم أمره بسلامتها.

وقادة الفكر والإصلاح أحوج ما يكونون إلى التداعي إلى كلمة سواء، توقف نزيفه الجهود وتحفظ ماء الوجه وتوجه الطاقات إلى تفادي المزيد من الانهيارات، ولن يتحقق الالتفاف بدون التفكير الجاد لوضع آلية ومنهجية ملائمة ومستجيبة للمرحلة ومتناغما مع الإمكانيات، والواعي لهذا النزيف يروعه ما يرى من غفلة معتقة واندفاع غير محسوب ونزق ورعونة في الرؤى والتصورات.

وبعض المراحل المأزومة لا تستدعي الخطاب الأممي والنظرة الشمولية بل لا بد من التقدير والتدبير وحساب الخسائر والأرباح واتخاذ الخطوات الأكثر ثباتاً واتزاناً، وذلك ممكن متى وعت النخب واقع الأمة العربية على ما هي عليه وما يرقبها من مخاضات لها ما بعدها.

رحم الله أديب الفقهاء وفقيه الأدباء .. ![1]

كان أحمد المبارك واحداً من أفاضل مَنْ عرفت، ولم يكن الحرف وحده المؤاخي بيني وبينه، كما لم يكن بُعدْ المزار حائلاً دون افتعال المناسبات للظفر بأكبر قدر من الوقت معه، سمعت به وكان ملء السمع والبصر، وحين لقيته لم أقل: «أهذا المغيريُّ الذي كان يذكر» بل طابق الخبر الخبر.. وكل من لاقيت يبدي إعجابه وإكباره؛ وفي كل مؤتمر أو تجمع نخبوي تراه واسطة العقد، يتحلق الكبار والصغار من حوله لينهلوا من معينه الصافي والمتدفق، ذاكرة قوية حافظة، يتدفق علماً ومعرفة وسيرة تاريخية، إن تحدث عن لداته ومجايليه نفحك بسير عطرة وأخبار جليلة، وإن تحدث عن نفسه قدم لك أطرافاً من التاريخ المحلي الحديث بوصفه واحداً من بُنَاته، وإن روى لك طرائف التاريخ وعلم الرجال أغدق على سامعيه سير الأبطال وبناة الحضارة، عاصر الملك عبد العزيز ورافق أبناءه من بعده، وسجلت ذاكرته القوية أطرافاً من سيرهم العطرة، ودعك من حفظه للمعلقات والمقامات ومقتطفات الغزل العفيف واللطائف والنوادر، إنه يتوفر على ذاكرة قوية لا يند عنها ما قرأه وما شاهده وما مارسه، ولهذا لا يبيح أحد من جلسائه لنفسه أن يتحدث بحضرته، فالجميع آذان صاغية وعيون محدقة، ومع سخائه في إمتاع المجالس بشهي القول فإنه كريم حين تزوره في «أحديته» التي كان لي شرف الإسهام في بعض مناشطها، وبيته كان مثابة للزوار من الأصدقاء والعلماء والطلاب وعشاق الكلمة الطيبة.

لقد كان وفياً لحكومته حين نهض بكثير من مهماتها، ووفياً لها بعد أن أقعدته الشيخوخة ينشر فضائل قادتها ويروي تاريخ رجالاتها، سليم العقيدة نظيف السريرة يلقى مريديه بالهشاشة والبشاشة واللطافة والتواضع، ينطوي على ثقافة واسعة ويشارك في قضايا متعددة ويغلب على أحاديثه الإمتاع، فهو لا يثقل على سامعيه ولا يضايق مستمعيه، متفائل ينظر إلى الوجه المشرق من الحياة، جاد لا يزجي الوقت بفائض القول، وحافظة تتداعى عنده الآيات والأحاديث والأبيات والحكم والأمثال فهو بحق موسوعة ثقافية تمشي بالأسواق.

كرمته الدولة وقلده ملك الإنسانية وسام المؤسس من الدرجة الأولى، وكنت ممن شرف بترشيحه في مجموعة المشورة التي يعقدها المهرجان الوطني للتراث والثقافة ويفتتح جلساتها معالي الشيخ عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري رحمه الله، وحين طرح اسمه أجمع الكل على أهليته وأحقيته، وذكرياته في سفارته وأسفاره وابتعاثه حين يرويها تتمنى لو وقفت دورة الفلك ليقف الزمان ويمضي في روايته.

لقد قرأت عن القصاص والمذكرين وأصحاب المقامات فوجدته حين يتحدث خير شاهد على براعتهم وإمتاعهم.

وسيرته التي كتبها والحلقات الممتعة التي أغراه بكتابتها في (المجلة العربية) زميلنا وصديقنا الأستاذ حمد القاضي من أمتع السير الذاتية، وكم نحن بحاجة إلى مزيد من السير الذاتية يكتبها العلماء والأدباء ورجال الدولة أمثال معالي الدكتور عبد العزيز الخويطر وأبي عبد الرحمن بن عقيل وأضرابهم، ففي جعب هؤلاء ما يمتع الفؤاد ويفيد الناشئة.

رحم الله أديب الفقهاء وفقيه الأدباء العالم العلامة الشيخ أحمد بن علي المبارك (١٣٣٧-١٤٣١هـ) الذي جعل من «أحديته» رابطة أدبية يدعو إليها الأدباء والعلماء وكبار الشخصيات، وبوفاته تكون أحديته قد تجاوزت العقدين من عمرها المديد، فالأمل

---

(١) تاريخ المقال: ٢٩/ ٤/ ٢٠١٠

بأنجاله وأسرته أن يتعهدوها وأن تظل رافداً أدبياً وعلميا، كما ظلت «خميسية» علامة الجزيرة الشيخ حمد الجاسر رحمه الله.

لقد ظل وفياً للعلم والأدب طول حياته وأجزم أنه سيظل كذلك بعد وفاته، وليس غريباً أن يكون الفقيد بهذا المستوى المشرف وأن يصل أنجاله وأحفاده ما انقطع، فالأسرة كلها أسرة علم وكرم واحتفاء بجلائل الأعمال، ولقد أشرت في رسالتي للدكتوراه إلى الأسر العلمية في مناطق المملكة وأثرها المتميز في فترة التكوين وفترة البناء وفترة الانطلاق.

من آل باشا في نجد إلى آل بوش في العراق .. !![1]

أتلقى بين الحين والآخر مظروفاً محشواً بأشهى المأكولات، وهل شيء أعز من كتاب يحكي قصة كفاح، أو يصف سيرة بطل، أو يؤرخ لحقبة غابرة، أو يسجل رؤية أجنبية لرحّالة أو مستشرق جادٍ أو فضولي منصف أو متجنٍّ يرصد ما يعتمل في صحراء الجزيرة العربية، مهبط الوحي ومنطلق الهداية ومعقل اللغة العربية.

ولقد كنت ولمَّا أزل، أحس بعجزي عن شكر من يذكرني في غمرات الذهول، ويهدي إليَّ أعز جليس وأحب نديم: (وخير جليس في الزمان كتاب). وكلما أتلقى بريدي وفيه مظروف من هذا النوع أحس بالسعادة، ولا سيما أن تَوْقي لتاريخ الجزيرة العربية الحديث من صميم اهتماماتي، حتى لقد خصصت غرفة لمتعلقات (المملكة العربية السعودية) من كتب أدب وجغرافيا وتاريخ نيفت على أربعة آلاف كتاب، ويظل إحساسي في استيفاء هذا التاريخ ورصده، ومن ثم إشاعته في تنامٍ مستمر و(دارة الملك عبد العزيز) حين أنشئت لتحمل هذا الهم وتضطلع بهذه المسؤولية كانت الرائد الذي لا يكذب أهله، وهي بمنهجها والتزامها وعلميتها أبعد ما تكون عن الاستهلاك الدعائي والإعلامي، فكل كتاب أتلقاه منها أحس بأنه لبنة تأخذ مكانها الطبيعي في ذلك الصرح الشامخ.

والدارة التي كان لي شرف التعاون معها في حقول كثيرة تؤسس لحركة علمية وتنجز مشاريع ثقافية. وكلما استلمت هدية من إصداراتها هممت بالحديث عنه لتعميم الفائدة ليس غير، ولكن التسويف يبطئ بالوفاء، وما كنت لأضيع في غمرة المشاغل آخر إصداراتها، وهو كتاب (حملة إبراهيم باشا على الدرعية وسقوطها) للأستاذة فاطمة بنت حسين القحطاني، ويأتي هذا الكتاب في سلسلة الرسائل الجامعية، وحين انتبذت من مشاغلي مكاناً هادئاً لاستعراضه أحسست بتعالق شعوري مكنني من قراءته في جلسات متلاحقة تبين لي من خلال ذلك أننا نجهل تاريخنا الحديث، ولا ندري ما الثمن الباهظ الذي دفعه الآباء والأجداد لإنجاز هذا الكيان، ولقد نركن في ظل هذا الفراغ المعرفي إلى الشائعات والحكايات غير الموثقة وكم أشرت في مناسبات عدة إلى أن التأسيس للتربية الوطنية يجب أن ينطلق من التاريخ، فهو وحده الذي يبعث في النفوس النشوة والاعتزاز والإكبار، ويكشف عن أهمية المكتسبات والمثمنات التي لم يكن لها أن تتحقق إلا بالجهود المضنية والتصديات الدامية والتضحيات بالأنفس والأموال.

والأوضاع المخيفة التي تمر بها المنطقة العربية بأمسِّ الحاجة إلى قراءة مرحلة التكوين لهذا الكيان والوقوف على المراحل العصيبة التي مر بها بُناة هذا الكيان، والكتاب يحكي بمنهجية ومعرفية موثقة فظائع الحملة المشؤومة التي قادها (إبراهيم باشا) تذكرنا بذات الحملة الأشأم التي قادها (جورج دبليو بوش) في العراق. وما خلفته حملة (إبراهيم باشا) من قتل وهدم وإحراق وتشريد وتمزيق قبلي واقليمي، يتماهى مع مخاضات الحملة (البوشية)، والأوهام التي اعتمدها (محمد علي) لتكون مشرعة ومبررة لحملته قد لا تختلف كثيراً عما بنى عليه (بوش) مبررات حملته.

وكاتبة الرسالة تتوسل بكل ما سلف من كتب ووثائق وتاريخ شفهي أسهمت الدارة في تجميعه وتوفيره للباحثين، ومما يمنح الرسالة مصداقيتها ذلكم الكم الهائل من المراجع المتنوعة المصادر. والذي شدني إليها ما أبلاه أبناء القصيم من التصدي للحملة وبخاصة أبناء (مدينة الرس) التي جاء سقوطها مؤذناً بسقوط القصيم كافة، وهو شرف يجب أن نسجله لتعيه الأجيال كلها، وهذا أضعف ما نقدمه للرجال الأوفياء في مناطق المملكة كلها.

---

(١) تاريخ المقال: ٤/ ٥/ ٢٠١٠

لقد جاءت الحملة زلزلة أنهت الدور الأول من أدوار الحكم السعودي وللقارئ أن يتصور فداحة الكارثة حين تسقط دولة بحجم السعودية ثم لا يستطيع (الباشا) إقامة بديل ولو دون ذلك بحيث تتحول السلطة المركزية الشاملة إلى حيازات قبلية وإقليمية تصطرع فيما بينها، وما جنت من ممارساتها المتوحشة إلا خيبة الأمل. لقد حققت سقوط الدولة وإشاعة الفوضى والعودة إلى زعامات الأودية والشعاب، ولكنه سقوط أعقبه التحرف والتحيز وإعادة الكرة مرة ثانية وثالثة فالحملات والمؤامرات والدسائس والتكتلات القبلية والاقليمية والطائفية أضرت بالأمة وأخلَّت بالأمن وزرعت الضغائن والأحقاد، ولكنها امتحان وابتلاء ودروس عملية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، ورسوخ الكيان في دوره القائم إن هو إلا ناتج تلك الدروس العلمية ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾.

ولقد يكون من المناسب أن نُلقي الضوء على البلاء الحسن الذي أبلاه أبناء القصيم وفي ذروته ما أبلاه أبناء (الرس) الذين خسروا مع من معهم صفوة الفرسان والمقاتلين. لقد كنا نسمع أن بإمكان الإمام عبد الله بن سعود تفادي الحملة بالخروج من المدن إلى الشعاب والضراب وبطون الأودية ومنابت الشجر إذ كان تصورنا أن الدولة السعودية في دورها الأول ضعيفة لا تقدر على الصمود والتصدي واجهاض الحملة، ومجريات الأحداث التي رصدتها الرسالة تدل على تكافؤ الامكانيات وعلى قدرة السعوديين على تكبيد الحملة أفدح الخسائر، ولولا الخيانات التي مني بها الإمام من بعض القبائل لكان بإمكانه إجهاض الحملة، والقصيم الذي لقن الحملة أقسى الدروس لمّا يزل حاضراً وفاعلاً ومؤثراً بحيويته وإمكانياته. والرسالة رصدت تضحيات القصيم منذ أن أخذت الحملة تعد العدة في معسكرها في (الحناكية).

ولو قرأنا أولى المعارك على مشارف القصيم وهي (معركة ماوية) التي بلغ الجيش السعودي فيها عشرة آلاف مقاتل، وما خلفته تلك المعركة من خسائر فادحة من الطرفين لعرفنا أن امكانيات الدولة السعودية كافية لمواجهة الحملة، وكانت التعبئة الأقوى والأكثر بعد هذه الصدمة التي مني بها إبراهيم باشا إذ ما كان يتوقع هذه الامكانيات، ولا سيما أنه على مشارف نجد وتوغله فيها يتطلب حماية الحملة من الالتفاف أو قطع الإمدادات، وهي الخطة التي اتخذها منذ أن انطلق من (الحناكية) وتاريخ الحملة في القصيم مليء بالمفاجآت والمغامرات، ويكفي أن نشير إلى ثلاث حملات هجومية شرسة على مدينة الرس وحدها وبسقوطها بعد أغلى الأثمان وأفدح الخسائر على الطرفين أصبح من اليسير سقوط ما سواها.

وأصبح الطريق ميسورا إلى الدرعية، والرسالة قمينة بالقراءة لأنها تجسد فظاعة الاعتداء الآثم ومراتع الظلم الوخيم، وتؤكد لناشئة البلاد الذين ولدوا على بُسط من حرير ورضعوا لبان الأمن والرخاء والاستقرار أن هذه المكتسبات لم تأتهم على علم منهم، ولم تصنع على أعينهم إنها منجزات بذلت في سبيلها الأموال والأنفس، وأن الآباء والأجداد من رجالات الملك عبد العزيز وضعوا هذه الأمانة في اعناقهم، وأن برّهم لن يتحقق إلا بحفظ هذا الكيان من أي معتد أثيم. وحماية هذا الكيان بالتعاون على البر والتقوى والحيلولة دون نفاذ الدسائس والمؤامرات، والعاقل من وعظ بغيره؛ فهذه دول لها باعها الطويل في العلم والسياسة والفكر والعدد والعتاد لعبت المؤامرات في عقول أبنائها فتحولت إلى بؤر توتر ونتن وحمامات دم، ولسنا بحاجة إلى ضرب الأمثال.

إن بلادنا في ظل المخاضات المؤلمة من حولنا بأمس الحاجة إلى التربية الوطنية، وأُسها تاريخها الحديث فسقوط الدور الأول بسبب تدخل خارجي وخيانات داخلية، وسقوطها الثاني بسبب تنازع داخلي ودسائس خارجية، وفي كل سقوط تدفع الأمة من

أمنها واستقرارها ورجالاتها أفدح التكاليف، والأودية تتدفق من القطرات، والنار من مستصغر الشرر، وفي البدء كانت الكلمة، ومن استخف بالصدام الفكري فوجئ بالصدام المسلح، والأطفال الذين أشربوا في قلوبهم الرياضة والتفاني في تشجيع الأندية والتباهي باللاعبين قد لا يعرفون حق وطنهم عليهم، ولا يباهون برجال هيأوا لهم هذا الكيان: فمن المقصر التعليم أم الإعلام، الآباء أم العلماء، أم هو الإخفاق في تجهيز تربية وطنية تنفذ إلى شغاف عقولهم بعفوية لا تكلف فيها.

وحاجتنا ليست بالاستمرار في التلاوم أو البحث عن المشاجب، انها تكمن في مباشرة العمل لانتزاع وطننا بكل مثمناته من واقع عربي وعالمي مخيف، إذ ليس بيننا وبين الله نسب، ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا﴾.

وبعد، فالشكر موصول إلى الدارة فهي وحدها الأقدر على وضع الأسس المعرفية للتربية الوطنية بمنهجها القائم على المصداقية وإعادة التاريخ بكل ما هو عليه.

العقل العربي يُودِّع ناقده .. !(١)

حين طوى الآفاق العربية نبأ وفاة المفكر العربي الكبير (محمد عابد الجابري ١٩٣٦-٢٠١٠م) كنت ولفيف من الأساتذة والزملاء في (تبوك) نحيي أو نتابع فعاليات ملتقى النادي الأدبي حول تحديات الثقافة، وكنا قد علمنا من قبل بوفيات أخرى لعلماء ومفكرين في حقول معرفية مختلفة أمثال (محمد البنكي) الناقد البحريني، و(عبده راجحي) العالم اللغوي المصري و(فؤاد زكريا) الفيلسوف المصري أيضاً، ولكل راحل أحباؤه ومريدوه وآثاره المتفق عليها أو المختلف حولها، نسأل الله لكل من مات وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله المغفرة والرحمة، ولمن خلفهم الاعتبار والإدِّكار.

والمفكرون والعلماء والأدباء حين تخترمهم يد المنون يرحلون بأجسادهم وهي الأقل شأناً والأسرع تحللاً، والباقيات من معارفهم وآرائهم المضل منها والهادي، النافع والمضر هي مربط الإشكالية، وحق الأحياء على الملمِّين بتراث الراحلين أن يصدقوهم القول حين تحدوهم الوفيات إلى التأبين أو التفجع فلوثة الأفكار ليست بأقل خطراً من تلوث البيئة، وما من مفكر معاصر خاض معترك الفكر إلا أصابه شيء من دخن الفلسفات المعاصرة، وبخاصة أولئك الذين لم يتضلعوا من تراثهم السلفي النقي ممن رحلوا عن التراث ولم يرحلوا به، وذكر محاسن الأموات لمن فارق الحياة وانقطع عمله، أما الذين تركوا علماً تتداوله الأجيال وأفكاراً تجتال المثقفين وآراءً تربك المشاهد فمن الواجب أن يقال عنها ما يحرر مسائلها وينبه قراءها.

واحتراسي هذا لا يتعلق بفكر الجابري وحده، ما دام أن كل عالم يؤخذ من كلامه ويرد، وما من أحد من العلماء والمفكرين إلا راد ومردود عليه، والاختلاف من سنن الله الماضية إلى قيام الساعة.

والجابري علم من أعلام الفكر الحديث هداه اجتهاده إلى الخوض في معترك الفكر، وما تركه من كتب تعد إضافة معرفية مؤثرة في سياق التدفق الفكري، ومكانته في الحركة الفكرية باقية لا يؤثر فيها مريد أو ناقم.

وبموته دخلت منجزاته الفكرية ذمة التاريخ، وسيسهر الناس جراها ويختصم، يصيبون أو يخطئون ينصفون أو يتحاملون، ولقد قيل عن رؤيته الفكرية في حياته من مؤيدين ومعارضين ما هو كفيل بتحديد موقعه في غمرة التدفق المعرفي، وسيقال بعد وفاته فوق ذلك، ولربما يكون الجابري من أولئك القلائل الذين تبنوا مشروعات فكرية تقصّوا مفرداتها ولملموا شعثها. وهل أحد يجهل مشروعه عن (العقل العربي) الذي أجمل الحديث عنه في أربعة كتب سمان، ولما كان المشهد الفكري العربي إبان التواصل غير الواعي مع الفكر الغربي مجال تنازع بين الفرقاء فقد تفرقت السبل بكفاءاته المعرفية، فمن هارب إلى التراث يتمترس به ويعوذ برحاله، ومن هارب منه يسلقه بألسنة حداد، وينحي باللائمة عليه بوصفه السبب الرئيس في التخلف. والنظارة أوزاع بين هؤلاء وأولئك. والجابري في نقده للعقل العربي يتقاطع مع سائر المفكرين، وإن اختار تخوم الثقافة العربية ومكوناتها الأولى، ولمَّا كان قدري أن أكون مغرماً بالعقل بوصفه موضوعاً، وبالعقلانية بوصفها سبيلاً من سبل المعرفة فقد تشعب حقله في مكتبتي، وفاض بالمؤلفات والمترجمات المؤصلة والناقدة، فكان الجابري واسطة العقد، وإذ لا أتفق مع رؤيته العقلانية الملفقة من عقلانية الاعتزال والعقلانية العلمية الغربية؛ فقد كنت ولمَّا أزل أنظر إليه بحذر شديد، وأتقصى ناقديه أمثال (إلياس مرقص) في كتابه (نقد العقلانية

---

(١) تاريخ المقال: ١١/ ٥/ ٢٠١٠

العربية) و(جورج طرابيشي) في ثلاثة كتب، وإذا اجتالت المشاهد الفكرية والدينية والسياسية عدة اتجاهات تمثلت بالتحديث والحداثوية والتغريب المتعلمن والمتعولم والماركسية والقومية فإن الجابري يأتي على رأس الاتجاه التحديثي، وهو اتجاه متلبس بكل احتمالات التجديد، ومن ثم توسل بالعقل بوصفه القادر على الخلوص من هيمنة النص الماضوي، ولكي يُحَيِّد النص فقد اتخذ سبيله إلى مبرِّرات، أوهى من بيت العنكبوت استخفَّ بها قومٌ واستخفَّت آخرين، وأصبحت منطلقاً لعدد من معارضيه، ولتحقيق الخلوص من هيمنة النص أغرم بمحدِدات، منها ينطلق وإليها يعود، ويقيم عليها أهراماته الرؤيوية، وإذ لا نختلف مع سك المصطلحات إلا أننا لا نمضي معه في اختصار الحراك العربي والإسلامي فيها.

ومن هذه المحددات المزلقة: (البيان) و(البرهان) و(العرفان) و(العقيدة) و(القبيلة) و(الغنيمة) ومع أنها محدِدات قائمة إلا أنها لا تكون بالضرورة المنطلق الوحيد لتجهيز خطاب عربي بديل، فلقد تكون (السياسة) بوصفها فن الممكن ذات الأثر الأكبر، وقد يكون تسلط الآخر بإمكانياته المذهلة مجهضاً لأي حراك ينطلق من أي خطاب ماضوي أو معاصر، فالجابري ينطلق من المعلومة فيما ينطلق آخرون من الممارسة بوصفها تجربة محكومة بالمنجز، وهذا الارتباك جعل خصومه يقللون من أثره ويصفونه بالتناقض الصارخ والتلفيق المهلهل والاجترار التاريخي.

والجابري ثالث ثلاثة جدّوا في المركسة والعلمنة والعقلنة وهو أهونهم خطيئة إذ سعى للعقلنة المُدوَّفة من العقلية الاعتزالية والعقلية العلمية التجريبية المعاصرة، فيما أوغل (العَرَوي) و(أركون في العلمنة والمركسة) ومع هواجسه الموغلة في الحداثوية إلا أنه يتحامى الصدام المعلن مع الفكر الإسلامي، ويرى أنه يمارس رؤيته في سبيل خدمة الأمة العربية من خلال روحها الإسلامية المعدَّلة. ومشروعه يراوح بين الرصد التاريخي والتقويم المعرفي والرؤية المعاصرة، وهو قد مهد لمشروعه في نقد العقل العربي بكتابين هما: (نحن والتراث) وهو قراءة معاصرة للتراث الفلسفي والتاريخي، و(الخطاب العربي المعاصر - دراسة تحليلية نقدية تناول فيه الخطاب النهضوي والسياسي والقومي والفلسفي وإشكاليته في تصوره هي ذات الإشكالية التي وقع فيها لداته ومجايلوه، أمثال (فؤاد زكريا) و(حسن حنفي) ومن قبلهم (زكي نجيب محمود) فهناك لغة وشريعة وعقيدة وتاريخ، وماض عربي وحاضر غربي وعقلية علمية وعلم بحت كلها تتنازع الخطاب. والخلوص من تلك المرجعيات المتناقضة والمتنازعة وتحييد ردود فعلها هي المقاصد المضمرة تارة والمعلنة أخرى عند كل المفكرين المسكونين بِهَمِّ التصور للمسار.

وقد تصدى لمشروعه الضجة (نقد العقل العربي) عدد من المفكرين لعل من أعنفهم وأعمقهم وأشملهم (جورج طرابيشي) في مشروع يكاد يكون مماثلاً تحت عنوان (نقد نقد العقل العربي) على غرار (التهافت) و(تهافت التهافت)، وإذا ستوفى الجابري دراسته في أربعة أجزاء تناولت التكوين والبنية والعقلين: السياسي والأخلاقي، فإن (الطرابيشي) فيما أعلم قد استوفى نقده في ثلاثة أجزاء تناول النظرية والإشكاليات ووحدة العقل، وقد وصف مشروع الجابري بضخامة التزييف وسوء التأويل وفداحة العسف والغلط، ولقد فرق بين أسئلة الجابري وإجابته، وعَدَّ الخطورة في الأسئلة لأنها ملغومة.

الملحظ المهم الذي كان يجب أن يقف عنده كل ناقد العصبية الإقليمية المقيتة بين المشارقة والمغاربة التي تحكمت في فكر الجابري، وهي إشكالية لها جذورها، ولقد أعود إليها بمزيد من التفصيل متى تيسر ذلك، وفي (مذبحة التراث) (للطرابيشي) و(الموقف المعاصر من المنهج السلفي) (للقوسي) إشارات مهمة عن جنح الجابري، على أنه لم يكن علمانياً ولا ماركسياً ولكنه منجرف مع التجديد غير السوي.

الشيء الذي لا يستطيع أحد أن يماري فيه نزوع الجابري إلى عقلانية ليست عربية ولا غربية، عقلانية أراد أن يرسم مسارها ومكونها وبنيتها، فلقد وقف على منازع متعددة ووجد أنها أحسنها العقلنة المتحررة من الماضوية، والرؤية الإسلامية المعتدلة هي التي يتقاسم فيها العقل والنص مسؤولية التشريع، وفي الذكر الحكيم ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أو نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أصحاب السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠] فالسمع الشهيد والعقل السديد المتوازنان هما مصدر الهداية والعاصم من القواصم.

والجابري بكل ما يتوافر عليه من عمق في المعرفة وشمولية في الثقافة يعتريه في بعض اهتياجاته العاطفية تصرف غير مسؤول يستدرجه لمواجهة النصوص القطعية الدلالة والثبوت، وما علم من الدين بالضرورة، واقتراف خطيئة التعطيل بحجج واهية لا يقوم مثلها بصد المسلمات واقتلاع الثوابت، وتلك القواصم تمس أهليته الفكرية، وتشكك في مواءمة منهجه وآلياته للمجال المعرفي الذي يخوض معتركه، وفي خريف عمره عمد إلى قراءة معاصرة للقرآن الكريم، لم أتمكن من استكناه مقاصدها، ولكنني من خلال تصوري لمواقفه ومنازعه أشك في جدواها وسلامتها، ولقد أشار بعض الدارسين إلى موقفه من أسباب النزل والخروج من مقولة الأصوليين بعموم الدلالة وارتهانه بخصوص السبب.

نسأل الله أن يعامله بعفوه ورحمته، وأن يقينا مضلات الفتن.

أوكلما هَمَت السماءُ بكينا .. !؟[1]

قدر العصر الصَّعْب دخول الصحافة بوصفها سلطة رابعة «وآية هذا الزمان الصحف»، وقدره الأصعب ثورة الاتصالات وانتشار القنوات والشبكات العنكبوتية ومراكز المعلومات والتقاط...

... الأخبار الفورية بالصوت والصورة في زمن قياسي، وكأن الملتقط عفريت سليمان الذي عنده علم من الغيب، بحيث أصبحت الكرة الأرضية في قبضة كل متابع يقلبها كيف يشاء، وبحيث لم يعد بإمكان أي مضطلع بمسؤولية تمس حيوات الناس أن يواري سوءات منشآته ولا أن يتمكَّن من إطالة زمن التمويه على الناس. وها نحن نشهد بين الحين والآخر استرجاع مُقتَرفٍ نَخِرتْ وثائقه ورفعت أقلامه وجفت صحفه، حتى أصبح كل مقصر يود أن بينه وبين مقترفاته أمداً بعيداً. وإذ غفل الرقيب وأمن المسيء العقاب وتفشت المخالفات وتذمر الناس فقد كشفت السماء خطيئة الأرض، ولم يعد بالإمكان - والحالة تلك - الخلوص من عقابيل المسؤولية وشبح المساءلة، طال الزمن أو قصر، وكأني بالمتهاونين والمقصرين والمتلاعبين ينظرون إلى السحاب وهو يهمي ولسان حالهم يقول:

فلا نزلت عليَّ ولا بأرضي
سحائب ليس تجتنب العتابا

مع الاعتذار «لأبي العلاء».

لقد تعرضت مدن كثيرة كبيرة وأخرى دون ذلك لزخات غير متوقعة من الأمطار والعواصف، وأدت إلى كوارث حملت المتضررين على الجأر بالشكوى والجهر بالتذمر ومناشدة الجهات الرقابية والمحاسبية التحقيق مع المقصرين ممن لم يكونوا في مستوى مسؤولياتهم. ولقد بالغ المشاطرون للمنكوبين من الكتّاب، وأمعنوا في الاتهام، وبالغوا في تجسيد الفساد، وانحصرت الأحداث عندهم في فساد المسؤولين دون غيرهم، وأحسب أننا نظلم أنفسنا ونبالغ في التهويل حين لا نفصل القول؛ فالفساد موجود، وسوء التصرف الإداري موجود، والجهل والتسرع شائعان في الأوساط الوظيفية، ولكن ذلك دون ما نتصور، وحين تأخذنا المبالغة نفقد المصداقية ونصيب أقواماً بجهالة، والقاعدة العريضة من المواطنين المتضررين والمشاطرين بمشاعرهم يودون تدارك الأمر والحيلولة دون حدوث مفاجآت مماثلة، وعدم استهلاك الجهد والوقت في التلاحي والمحاسبة.

والكوارث من زلازل مدمرة وحرائق موجعة وطوفان مهلك تجتاح البلاد والعباد في كل زمان ومكان، وليس شرطاً أن يكون ما تخلفه هذه النكبات من دمار ناتج إهمال أو فساد، غير أن واجب المقتدرين تلافى فداحة ذلك، سواء جاء بسبب التلاعب أو الجهل أو جاء بسبب تقلبات الأجواء غير المتوقعة، ولست هنا معذراً ولا مدافعاً عن أحد ولا مستبعداً وجود ضعاف النفوس ممن يبيعون مصالح أمتهم بثمن بخس، ولعلنا نذكر قصة الصحابي «ابن اللُّتْبِيَّة» الذي قال: «هذا لكم وهذا أهدي لي»، ظناً منه أن قبول الهدية أثناء تأدية العمل الرسمي مباح؛ الأمر الذي أغضب رسول الله - ﷺ - واضطره إلى توجيه نقد لاذع حسم التلاعب بمصالح الأمة، وكان ذلك في زمن هو خير القرون على الإطلاق، فكيف بنا ونحن في القرن الخامس عشر؟!

---

(١) تاريخ المقال: ١٨/ ٥/ ٢٠١٠

وكل الذي أوده في خضم التلاحي التفريق بين كارثة منشؤها الفساد الصريح أو الجهل المطبق أو التقصير المشين أو الإهمال المدين، وكارثة لا طاقة لأحد بتلافيها تحت أي ظرف وفي ظل أي إمكانيات، وسنن الله الكونية ماضية، وما نفعله مجرد أسباب تنقلنا من التواكل إلى التوكل، ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ﴾، كما يجب أن نستحضر دور المواطن ممن هو خارج المسؤولية في صنع الأخطاء الموجعة.

والناظر المنصف في كوارث السيول لا يمكن أن ينحي باللائمة على جهة دون أخرى، ولا أن يغض الطرف عن دور المواطن. إنَّ الخطيئة مشتركة، والمواطن عليه كِفْل من المسؤولية، وحين نخطئ في تحديد المسؤولية نخفق في الحل، ولو نجحت التربية الوطنية في صناعة المواطن الملتزم بكل متطلبات المواطنة لما تفشت المقترفات بهذا القدر وعلى مختلف المستويات، والمؤمل أن يخرج المواطن من هذه الكوارث بدروس تمكّنه من مراجعة نفسه ومحاسبتها قبل البحث عن مصادر الخطأ، وعلى السلطات المعنية تقصي الحقائق لتفادي الوقوع في مآزق أخرى أشد فداحة وأنكى أثراً، تضر بالمصلحة العامة وتعرض الوطن والمواطن لمزيد من الخسائر؛ فالأودية والشعاب والمنخفضات ماثلة للعيان، يعرفها القاصي والداني، والمواطن حين ينتهز الغفلة ثم يقيم المنشآت في بطون الأودية والشعاب يكون عليه كِفْل من الخطيئة، وإن كان من واجب المسؤول ثنيه عن هذا التصرف الخاطئ والحيلولة دون تعرضه للخطر، والمسؤول حين يقيم نفقاً أو جسراً في بطون الأودية ثم لا يجعل ضمن المتطلبات لاستكمال المشروع تصريف السيول يكون عرضة للمساءلة، ونحن في غمرة الاستياء والتساؤل بأمسّ الحاجة إلى تحديد المسؤولية؛ فالاهتياجات واللجاجات تعمق المأساة ولا تؤدي إلى حل حاسم يقي البلاد والعباد تكرر الكوارث؛ فالسيول حين تتدفق لا تقيم وزناً لأوضاع البلاد ومدى وعيها، ولا لممالأة المسؤول وإهماله.

إنَّ ما حدث من قبل في القرى والهجر والمحافظات والعواصم، وما يحدث الآن في مواقع مماثلة، وما هو متوقع الحدوث فيما نستقبل من مواسم ممطرة، لا يحسم أمره التلاحي ولا تبادل الاتهامات ولا ممارسة الإحباط والتيئيس، ولكيلا يستهلكنا التلاوم والتحريض على المسؤول دعونا نستحث الجهات المسؤولة عن رسم الخطط التنموية والضالعة في ترتيب الأولويات والأهميات على إعادة النظر في كل ما سبق، ولقد وجَّه خادم الحرمين الشريفين إلى ذلك دون أن يغفل محاسبة المقصر. لقد أنفقت الدولة على البنية التحتية مليارات الريالات، وقطعت كبريات المدن مسافات لا بأس بها في مجال البنية التحتية التي يفترض أن يكون تصريف السيول من أولوياتها، ونُفِّذت طرق وأنفاق وساحات قد لا يوجد لها نظير في أي بلد عربي، ولو أن الإنفاق السخي وُضِع في مواضعه لكان بإمكاننا توقي أسوأ الاحتمالات، على أن الصدمات المعارضة يجب ألا تنسينا ما نحن فيه وما نحن بانتظاره.

والأخطاء المتعلقة بكوارث السيول تكمن أسبابها في أربعة أشياء: -

الأول: - لم يكن تصريف السيول من أولويات المخططين للبنية التحتية، ومن ثم جاءت اعتمادات المشاريع خالية من عمليات التصريف.

الثاني: التوسع العشوائي الذي لا يقيم وزناً للضراب والآكام وبطون الأودية؛ فحيث وجدت أرض فضاء وجد تخطيط وبناء.

ثالثاً: تفشي الجهل أو التقصير أو المحسوبيات المواكبة لتنفيذ بعض المشاريع في بعض المدن وفي بعض الفترات مع غياب الرقيب.

رابعاً: استبعاد تعرض البلاد لزخات الأمطار الموسمية غير المعتادة، وذلك من أخذ السلامة عادة.

ولكيلا نصيب أقواماً بجهالة ونتهم البريء فإن علينا أن نؤمن بمبدأ «المواطن بريء حتى تثبت إدانته»، وعلينا أن نستحث الجهات الرقابية للمبادرة في التحقيق، وتحري الدقة ومساءلة أي مقصر لا يجد مبرراً لتقصيره، إذ لربما نقسو في لوم مَنْ له عذر على حد: «لعل له عذرا وأنت تلوم». وبعض المسؤولين لا يكون على جانب من التخصص ولا يحف به من يسد النقص، أو يكون مغموراً بالمهمات التي لا تمكنه من استيعاب مسؤوليته، أو يكون مسبوقاً بمسؤول مفرط؛ فيتسع الخرق على الراقع بحيث تمر به المشاريع، ويكون همه في اختصار الجهد والوقت، وغمرة المسؤوليات وتداخل المشاريع والطفرات العمرانية والسكانية والمرورية والتدفق المالي والتركيز على مشاريع التحسين والترفيه والتطوير تضيع في غمراتها دقائق الأمور التي ربما تكون صمام أمان. ولقد تتراكم الأخطاء والتجاوزات ويتعاقب المسؤولون، وكل مسؤول ينحي باللائمة على سلفه ويحمِّله مسؤولية ما وضعه فيه من أمر واقع، ولكيلا يعوقه تلافي مقترفات من سلف عن استكمال ما يود استكماله يرجئ ويسوِّف حتى يفاجأ بانفجار الأوضاع عبر أي سبب لم يحسب له أي حساب.

وإذا قضى الله وقدر وحصل ما حصل فإن أمامنا طريقاً صعباً وتخطيطاً أصعب، نرجو أن تذللها التوجيهات السامية بوضع التصريف من أولويات اهتمام الخطط المستقبلية، والتحديات المرتقبة لا يحسمها التنابز بالمثالب، وكم نود أن يفرغ ذوو الشأن للتفكير الجاد في الخلوص من نكبات أخرى. إن علينا أن ندع ملفات الإخفاقات السالفة بأيدٍ محاسبية ورقابية وقضائية تحق الحق وتواجه المخالف بخطيئته فيما تتجه الأقلام لرسم الطريق القاصد لتفادي ما حصل، وإذ لا نكون بدعاً من الأمر فمفاجآت السيول تتعرض لها دول كثيرة، وليس كل مفاجأة مؤشر فساد أو تقصير، وقضايانا المصيرية لا يمكن أن تُحسم بردود أفعال لا تلبث أن تنقشع.

نسأل الله أن يدرأ عن بلادنا كل سوء؛ إنه ولي ذلك والقادر عليه.

زمن الرواية أم زمن التهريج .. ؟!(١)

الشعر والقص حاجة إنسانية أزلية فُطر عليها البشر وولدت مع الإنسان وستموت بموته، ومن ادَّعى حيازة شيء من ذلك ونفيه عمن سواه تحت أي تأثير عرقي أو مبرر ديني، فقد ادَّعى بدون بيِّنة وقال بغير علم...

...والصانع الحكيم الذي أتقن كل شيء أشاع بين الناس المواهب والقدرات، ولم يجعلها حكراً على جنس أو لون أو دين، فبادرها قوم ورعوها حق رعايتها فكانوا هم الأعلون حساً ومعنى، وقعد عنها آخرون فكانوا هباءً وكانوا سدى.

وكل مولود يولد على الموهبة التي تمكنه من مواكبة الحياة والتكيف معها، وتعدد المواهب وتفاوتها في سلم الأهمية إنما ذلك لحفظ التوازن واستمرار الوجود، والخلل يأتي من جهل المواهب والإمكانات. ومن جهل شيئاً من ذلك كان من سقط المتاع، ومن الموهوبين من يستنزف طاقاته في سبيل مواجهة التيار المضاد لفرض موهبته واستغلالها، ومن الناس من يتصالح مع الحياة فتتفجر مواهبه ويخلد ذكره. والنجاحات والإخفاقات لا ترتبط بفوارق الأجناس التي أطلقها الرجل الأبيض وصدقها الملونون، والمثل الإنجليزي يقول: (لن تكون عبداً إلا باختيارك)، فالعبودية قد تفرض بالقوة وتمضي إلى حين ولكنها لا تستقر إلا بالقبول والتسليم. والملونون الذين استعبد هم الرجل الأبيض ظلوا كذلك حتى كسروا القيد وانتزعوا الحرية وفرضوا الوجود الكريم ودخلوا البيت الأبيض متحكمين بالرجل الأبيض، والأدباء والمفكرون والساسة الغربيون يدَّعون أن جنسهم الآري جاء بمذاهب وفنون ونظريات ومناهج لا يقدر على الإتيان بمثلها جنس سواهم، وتحت وابل الادعاء العريض غُلب البائسون على أنفسهم وسلَّموا لهذه المفتريات، ونسوا ما قدمه الأوائل من فيوض القول الفصل في مختلف العلوم والفنون.

والإبداع القولي بوصفه مجال التفاضل وميدان الادعاء العريض قسمة بين الشعوب والقبائل يتألق فترة ويجوِّده قوم ويخبو أخرى والحضارة دُوْلةٌ بين الأجناس البشرية من فرس وروم وبابليين وآشوريين وفينيقيين وعرب، والعرب قبل البعثة بلغوا قمة الفصاحة والبيان، وجاء القرآن الكريم متحدياً لهم حتى لقد بُهتَ الذين رصدوا لظاهرة الإعجاز البياني وتفرقت بهم السبل حتى قالوا ب(الصِرْفة) وهي الحيلولة والصرف الإلهي دون المحاولة الجادة للإتيان بمثل هذا القرآن.

ولما لم أكن حفياً بمثل هذه المهايع إلا بقدر ما أوطئ به للحديث عن ظاهرة سردية ألهت الفارغين وشغلتهم عن كل مكرمة فإن الإيجاز يغني عن الإطناب.

والرواية التي استحوذت على الاهتمام تنظيراً وإبداعاً وادعاء وفاض المشهد الأدبي من غثها وسمينها ومحتشمها ومتهتكها وانتزعت الصدارة غزارة وهيمنة اقترف ذووها خطيئات كثيرة ما كان لأدناها أن يكون في زمن الانفجارات المعرفية وإمكانية الوصول إلى أدق التفاصيل عن النظريات والمصطلحات والنماذج الإبداعية المتألقة.

وإذ يُقْبل التحرف تحت مضلة التجديد ويستساغ التخلي عن بعض ما التزم به الرواد المؤسسون، فإن مثل ذلك يؤخذ بمقدار ويصار فيه من الحسن إلى الأحسن، والتخليات غير المحسوبة لا يمكن أن تنطوي على تجليات محمودة، ومقترف الأدعياء لم يكن قصراً على مكون واحد بحيث يجد المعذورون مبرراً للجدل عنهم، ولما كانت الرواية نظرية أدبية وليست فرضية احتمالية لها جنسها الذي لا يمكن تحققه بدون شروط وضوابط وعناصر بادية للعيان ومعروفة من التداول بالضرورة فإن التفريط بشيء من ذلك إخلال

---

(١) تاريخ المقال: ٢٥/ ٥/ ٢٠١٠

بشرط المشروعية. ومن تصور النظرية - أي نظرية - بدون محققاتها فقد وهم وأوهم وأفلت الزمام. وبوصف الرواية نصاً أدبياً إبداعياً فإن التلبس بها لا يكون كسبياً بحيث تتهيأ لكل مجتهد ولو كان مقتدراً، وكم هو الفرق بين شاعر الموهبة وشاعر الاقتدار ولقد ناقشت ذلك في مواضيع كثيرة، فالشاعر لا يكون شاعراً بالنظم، والروائي لا يكون روائياً بالإنشاء، الشعر موهبة والرواية موهبة والأدعياء يموتون لحظة يولدون، ولو عرف النقاد والشعراء والروائيون ذلك لأراحوا واستراحوا، ولقد قلت الشعر قبل أربعين سنة وكتبت القصة قبل خمسين سنة وأشهدكم وأشهد الله أنني لست بشاعر ولست بقاص وإن كنت مقتدراً على فعل ذلك. فإلى متى نظل نجهل أنفسنا وقدراتنا ونغني أنفسنا ومشاهدنا بكلام إنشائي غير مبين.

فالرواية موهبة لا يؤتاها إلا من وهبه الله المقدرة على الإبداع من خلالها، ولكل مولود موهبته واكتشافها يستدعي الصقل والتنمية، ومن ادعاها دخل في عالم التهريج.

وبوصف الرواية نصاً فإن له في ظلها مقومات سياقية وسبكية وحبكية وعناصر وأركاناً وبناء يجسم الفوضى ويقمع الادعاء، والنص في كل نوع من أنواع الفنون له عوالمه التي لا يتحقق وجوده السوي إلا بها، ولو أخذنا على سبيل المثال «الحدث» و«الحبكة» و«تيار الوعي» بوصفها من محققات العمل الروائي لوجدناها الأقل حضوراً في الكثير من الأعمال المحمولة على الأكتاف.

والمقترفات ليست وقفاً على التخلي عن الشكل واللغة والفن، بل تجاوزت ذلك إلى التخلي عن أبسط الفنيات وأهم القيم الأخلاقية، وهذه التحولات غير السوية وغير المسؤولة أفقدت النقد سلطته المشروعة وأشاعت الفوضى ومكنت للعابثين والأدعياء من رقاب القيم اللغوية والفنية والأخلاقية. والأدهى من ذلك والأمرّ مواطأة بعض النقاد لهذا العبث المشين حباً للظهور أو دفعاً للأذى، وحين غلبت الكثرة الشجاعة صمت المقتدرون إيثاراً للسلامة ومن ثم خلت الساحة للعبث والتهريج، هذا الصمت المريب مكَّن التافهين من تبادل أنخاب الثناء وألقاب التألق الزائف، وهم بالعمل الروائي من لا يعرف أبجدياته.

ومثلما ادَّارك الشعر في سحيق النثرية والغموض واللغة الشائعة المترهلة فقد ادَّارك الروائيون برواياتهم في قعر التفاهة، فاللغة ليست أدبية، وتحقيق الأدبية يتطلب لغة استثنائية ذات مواصفات تميزها عن سائر الأساليب، فالفقهاء والمؤرخون والفلاسفة لهم أساليبهم التي تختلف عن الأسلوب الأدبي، ومن لم يتوفر على أدبية النص فليس من الأدب في شيء، ومثله الذي لم يتوفر على شعرية الشعر، فالشعرية مصطلح حديث معقد يقي المُحَدِّدَ الشعري من أن يكون مرتهناً لأي مفردة من مفردات العمودية السبع، والنقاد والمحكمون والمبادرون للدراسة والنقد حين يواطئون على الإخفاقات اللغوية أو الفنية أو الأخلاقية ينفلت العقد وتشرعن الرذيلة وذلك الدرك الأسفل الذي بلغته الرواية في راهنها.

وإذ يُبْتَلى الموهوبون المتمكنون من فنهم ولغتهم بالتهتك، فإنهم يخفقون في المضامين ولكنهم يتألقون بالفنيات فيجد فيهم القارئ ألق الفن، أما الأدعياء فإنهم يخفقون في الفن واللغة والدلالة فيغثون النفوس ويلوثون الأجواء ويحولون زمن الرواية إلى زمن التهريج الفارغ من كل فضيلة.

وما أحوج المشهد الأدبي إلى نقاد شرفاء لا تأخذهم بالحق لومة لائم ينفون عن المشهد خبث القول وساقط الفن، وما لم يتدارك سدنة الأدب الأمر فإن الزمن سيكون للتهريج الفارغ.

ولست بحاجة إلى ضرب الأمثال ففي كل عام تتمخض المطابع في الخارج عن عشرات الأعمال المبتسرة الولادة التي تحمل معها تشوهاتها ومعوقاتها حتى لا يجد القارئ الجاد حرجاً من لفِّها كما يلف الثوب الخلق والرمي بها في وجه صاحبها.

خطورة التأويل المفهومي للمصطلحات .. ؟[١]

لم أعد مهتماً بشيء قدرَ اهتمامي بنظرية (التأويل)؛ لأنها أصبحت مناطاً لكل مَن أراد إجهاضَ النصوص، وتمييعَ الأحكام. وحين شكَّلت التشريعات عقبة أمام الواقعيات هرع المستثقلون للمكاره التي حُفت بها الجنة إلى التأويل والتفكيك؛ ليحمّلوا النص إكراهاً دلالات فرضية قد تمُت إليه بصلة، ولو من طرف خفيّ.

وتنشيط هذا الاهتمام عندي معزز باهتمامين متضارعين:

-اهتمام ب(علم اللغة) وفقهها وفلسفتها من حيث هي موضوع، لا أداة توصيل، وبوصفها منطقية التكوين، احتمالية الدلالة.

-اهتمام ب(علم الكلام) من حيث هو قضية أزلية منذ أن قال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾، ومن قبله إبراهيم: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى﴾. ولقد كنت، ولمَّا أزل، حفياً بكل الخطابات والمناهج الطريف منها والتليد؛ سعياً وراء تحرير مسائل اللغة وعلم الكلام. والتأويل يتعاظم من هذين المصدرين: اللغة وعلم الكلام؛ حتى لقد احتدمت مشاعر شيخ الإسلام (ابن تيمية)؛ فأنكر المجاز في اللغة، فضلاً عن أن يكون في القرآن. والحق أنه كائن بهما جميعاً بضوابطه فيما يتعلق بالقرآن الكريم. ولقد فصّلت موقفي عن المجاز في القرآن في أكثر من بحث، ولا أجد مجالاً للتكرار.

كما أنني لمَّا أزل أتيح لأي نِحلة أو مِلة الحضور الجدلي بين يدي عبر كتبها أو أناسِيّها شريطة ألا يفسد هذا الجدلَ عاطفةٌ جياشةٌ أو تعصبٌ أعمى.

ورهاني أبداً على النص بوصفه دليلاً برهانياً لا عرفاناً ملّياً، ومن خلال أوضاعه الأربعة عند الأصوليين:

-قطعية الدلالة والثبوت.

-قطعية الدلالة واحتمالية الثبوت.

-قطعية الثبوت واحتمالية الدلالة.

-واحتمالية الدلالة والثبوت.

وعلى العقل وقدراته وتوخيه البحث عن الحق بوصفه ضالّة المؤمن العقل المستشرف المحاكم لآلياته وتصوراته، ولربما يثور بيني وبين طائفة من العلمانيين أو الحداثويين أو الإسلامويين أو الطائفيين أو غير أولئك من المفكرين المستقلين، جدل عنيف حول الجزئيات أو الكليات ثم لا أجد حرجاً من الإصغاء لهم والتأمل في مقولاتهم، شريطة أن يستمعوا إليَّ بعد أن يُفيضوا بما لديهم كما أفاض مَن قبلهم، ولقد أفتح أمامهم أنفاقاً من الأمل حين أقول: متى استطعتم إقناعي عقلاً بما توجفون به فإنني لن أتردد في قبول ما تقطعون بصحته من رؤى أو تصورات، ولكم يسألني المجادل حين تلتطم أمواج زيوفه وحقائقه تحت سفوح قناعاتي:

-مَن تكون؟

فأقول بكل هدوء: أنا طائر يخفق بجناحي العقل والنص؛ بحثاً عن الحق بكل ثباته ونصاعته، وقد ينشط الخصم، وتبدو له ثغراتي وثغوري، حين ألوذ بالنص، وأعوذ ببرهانيته؛ ظناً منه أنه الأقدر - بعقلانيته وتأويليته أو تفويضيته - على احتوائي، متصوراً أن النص - بكل جموديته وحدّته وحديته وتخلفه عن اللحاق بالمذاهب الأخرى - لا يقدر ذووه على مواجهة العلم والعقل معاً، ولا سيما أن المذهب الاعتزالي يحيّد النص، ويطلق العنان للعقل.

---

(١) تاريخ المقال: ١/ ٦/ ٢٠١٠

والقارئ الحيادي لتاريخ المذاهب تأخذه قسمة ضيزى ارتهنت الذهنيات في كهوف مفاهيم ليست من الحق في شيء كالتقسيم العقلاني والنصوصي بحيث يقال: إن الاعتزالية مذهب عقلاني، وإن السلفية مذهب نصوصي يلغي العقل في حضرة النص، والتخطي من التاريخي إلى التثوير والتحليل والاستنتاج يؤكد أن هذا التقسيم شكلي لا تعضده الممارسة؛ ذلك أن السلفية عقلانية نصوصية، تدير العقل في فلك النص، ولا تدير النص في فلك العقل، واحترامها للنص بوصفه رسالة للمستهدف بالتبليغ لا يعني إلغاء العقل، ويكفي أن نبرهن (بابن تيمية) الذي فلّ الحديد بالحديد؛ لقد استوعب الفلسفة والمنطق، ولم يكن ضد شيء منها إلا حيث يكون التجاوز وتدنيس المقدس؛ فالسلفية على ضوء ذلك عقلانية نصوصية، فيما تكون الاعتزالية عقلانية لا نصوصية؛ لأنها تجهض النص بالتأويل الفاسد أو التعطيل العازم، وحين احتج العقلانيون بالتعارض، استطاع ابن تيمية أن يفض الاشتباك بين العقل والنقل بمحاولته الجبارة في درء التعارض.

وحين يتوسل الاعتزال بالتأويل للخلوص من سلطة النص يتعامل السلفيون مع التأويل ومع التفويض ومع العقل بمقدار، وتلك هي الوسطية التي يتغنى بها خطاب العصر.

ولأن العقول مُضغ تتشكل من المقروء والمُشاهد فإنها متفاوتة تفاوت البقاع التي يهمي عليها السحاب؛ فمنها أجادب تحفظ الماء، ومنها رياض غناء تنبت الكلأ، ومنها قيعان مسبخة، وهذا التفاوت السحيق لا تستطيع معه العقول ضبط المسيرة؛ ومن ثم لا بدَّ من نص محكم يكبح الجماح، ويضبط الإيقاع، ويحسم الخلاف بين تفاوت العقول ومستويات النصوص. وإشكالية النص كإشكالية العقل؛ إذ النصوص محكمة ومتشابهة؛ ومن هنا جاء التأويل والتفويض والمجاز والحقيقة والاجتهاد والإجماع دُولةً بين المختلفين، وبهذا الاضطراب العقلي والنصوصي تحققت مقولة: (ولا يزالون مختلفين)، ولا يعقل الاستخفاف بالاختلاف بعدما أصبح السلاح هو الملاذ لفض النزاع.

لقد عرف التاريخ الفكري تأويل الدلالة، واضطربت آراء العلماء حول الحدّ المقبول، والعلماء الذين مَوْضَعوا (التأويل)، واكتنفوه بدراساتهم التحليلية والتاريخية فوجئوا بتأويل أبعد أثراً، وأعمق خطورة؛ ذلكم هو (تأويل المفهوم)، والمسافة بين التأويلين:

-تأويل اللفظ.

-وتأويل المفهوم، تكاد تكون ضوئية.

والذين موضعوا العقل ك(الجابري) أو فلسفوا (البنية اللغوية) ك(أركون) وسائر البنيويين، والذين ظاهروا سلطة النص وأجهضوا سلطة المؤلف والمتلقي شغلتهم نظرية التأويل. وإذا كان (نصر حامد أبو زيد) قد اجترح مفهوم النص بوصفه منظومة تعبيرية فإن آخرين اجترحوا (مفهوم المصطلح) بوصفه مهيمناً على منطلقات المفكرين، ولربما يكون أحدث كتاب ل(محمد عمارة): (إزالة الشبهات عن معاني المصطلحات)، وهو من الدراسات التي تعد في إطار تأويلية المفاهيم، وهدف الكاتب أن يحسم اضطراب الخطابات المتناحرة، بيد أنه يضيف - من خلال رؤيته - اضطراباً جديداً؛ ذلك أن رؤيته لا تخلو من لوثات متعددة ارتبطت بتحولاته من العقلانية الاعتزالية إلى الماركسية المادية، ومنهما إلى اليسار الإسلامي.

وهذا الخطاب المضطرب متحفظ عليه عند طائفة من المُفكرين، وبخاصة السلفيين، وعلى الرغم من غزارة علمه، وتعدد مجالاته، وتنوّع إسهاماته، وأثره البالغ في الخطاب الإسلامي، فإن تقحّمه لهذه المهايع قد يؤدي إلى مزيد من الانشقاقات، وممارسته الجريئة داخلة في نطاق ما نخاف استفحاله، وهو تأويل المفاهيم.

لقد تناول بالتصحيح - على ضوء رؤيته - مائة وسبعة وأربعين مصطلحاً عربياً وغربياً، قديماً وحديثاً، وليست كلها ذات أهمية، ولكنه فرض رؤيته من خلالها، وقد لا يكون مصححاً للمفاهيم الخاطئة، ولكنه ناقد لذات المصطلح أو مؤرخ له؛ ففي حديثه عن مصطلح التأويل - على سبيل المثال - نجده يخلط بين تأويل الصفات وتأويل الأحكام، وينحي باللائمة على الذين يرونه القاعدة لا الاستثناء، غير أنه بتلك الرؤية يزيد الارتكاس في حمأة الخطأ المفهومي، وأخطر المصطلحات التي حاول تفكيكها ومعالجتها مصطلحات: (الحاكمية) و(الجهاد) و(حقوق الإنسان) و(الحرية) و(السلفية) و(الصحوة) و(العولمة) و(المتعة) و(الوهابية) و(ولاية الفقيه) و(تحرير المرأة)، وهو، وإن اختلف مع ذوي المصطلحات، إلا أنه يحاول المصالحة، محتفظاً برؤيته العقلية ورؤية اليسار الإسلامي، كما هو عند حسن حنفي وفهمي هويدي. والكتاب إضافة رؤيوية ذاتية، وليست معرفية حيادية، وعلى ضوء ذلك فإنه يمثل تحيزاً مذهبياً سيتولد عنه مزيد من الخلافات؛ فالسلفي والفلسفي والعلماني والليبرالي وكل منتمٍ إلى نِحلة سوف يمارس حقه في تأويل المفهوم، وستكون هناك إضافة جدل جديد لا يزيد المشهد أكثر من الترديد.

ولقد يكون من المفيد، ونحن نعرض لخطورة التأويل المفهومي للمصطلحات، أن نشير إلى تحولات في المفاهيم خطيرة ك(الجهاد) و(الحاكمية) و(الجاهلية) و(التكفير) و(الاختلاط) وسائر المفاهيم المتوترة إلى حد الغليان، ولا بدَّ - والحالة تلك - أن نصحّح المفاهيم، لا أن نلغي المصطلحات أو ننفيها؛ ف(التكفير) و(الجهاد) و(الحاكمية) و(الاختلاط) من القضايا الساخنة والمؤثرة على مسيرة الأمة، وليس الحل في إجهاض المفاهيم، ولكنه في إعادة النظر في مفهوم الرأي العام لها. ولو حسمت الاضطرابات لأمكن التغلب على إشكاليات وهمية لا تصمد أمام البحث المعرفي الجاد والبعيد عن الاستفزاز وصنع الذات على حساب المصلحة العامة.

حصاد الهشيم .. ! [١]

استقبلت يومي في الثامنة صباحاً، ولم أَبِتْ على موعد مع أي عمل، ولم تكن لي محاضرات في الجامعة، وإن كنت مثقلاً بكتابة مواد موسوعية، وتحكيم أخرى، وحين لا أُباشر عملاً مبيَّتاً أكون كمن هو على مفترق الطرق لا يدري أين يتجه، بالطبع سيكون أمامي قراءة الصحف التي تصل إلى البيت، واستعراضها كافٍ لملء النفس بالمسائل والتساؤل والمشاكل والقضايا المستعصية .. كما الأورام الخبيثة والتافهة .. كما بقع الزيت فوق أمواج المحيطات، ولقد وجدتني كمن يحصد الهشيم بحثاً عن حَبِّ الحصيد.. فبعض الإثارات والأخبار تبعث في النفس كوامن القلق والاكتئاب.. وتُوقظ فيها محرضات الاستياء لأنها تعكس واقعاً أُمياً يفيض بالفوضى الفكرية والشتات الضوئي.. وتجمل الحديث عن حوادث مؤلمة، والصحافة مرآة العصر وسجلّه اللحظي، وقدر إنسان العصر الشجي أن يكون مغموساً في وسائل الإعلام والاتصال إلى الأذقان يتجرع فيها مرارات الأحداث والأحوال المتردية في مهاوي الشقاء، وأحسب أن توتير الأعصاب هو سر نجاح المطبوعة.. فما لم تكن قادرة على تحفيز القارئ في أي اتجاه.. فإنها لا تزيد الخمول إلا اتساعاً وتخشُّباً، وليس شرطاً أن تكون المطبوعة مستجيبة للرغبات مبهجة للنظرات.

في هذه الأجواء تبادرَ إلى ذهني اسم كتاب قرأته قبل أربعين سنة، وكنت يومها أتصور الدنيا رهينة هذا الكتاب، وهو من أشهر كتب المرحوم «إبراهيم عبد القادر المازني ت ١٩٤٩م» الذي قرأته مع لداته ومجايليه في زمن مبكر من حياتي من أمثال المنفلوطي والرافعي والزيات والعقاد وطه حسين وأحمد أمين ومارون عبود وميخائيل نعيمة وجبران ومبارك.. ويُعد المازني ثالث الثلاثة المشاغبين الذين أنشؤوا «مدرسة الديوان».. والاثنان هما الشاعر المتشائم عبد الرحمن شكري والمفكر العنيد عباس محمود العقاد.. ولقد كنت حفياً بهم من قبل.. ولمّا أزل حفياً بالعقاد حتى الممات، ولم يكن بدٌ من الوقوف أمام حقل المازني وزميليه في مكتبتي، واستعراض كتاب «حصاد الهشيم» بوصفه مجموعة من المقالات الصحفية التي عكست واقع المشهد العربي المصري في مرحلة سلفت.. وما مُلئ يومٌ في حياتي مثلما مُلئ هذا اليوم .. لقد مرَّت الساعات عجلى.. وأنا مهطع كما المتبتل في محاريب العبادة أستعرض حيوات أدبية وفكرية وسياسية غمرها النسيان من خلال كتب جمعت وأوعت لِعُمُد الحياة الأدبية في فترة التأسيس الأدبي والفكري، ومن ذا الذي يجهل عصر العمالقة في الشعر والرواية والدراسات الأدبية، والمازني الكاتب الساخر والجاد في آن درَّسه أديبان متمكنان: «محمد مندور» و«نعمات أحمد فؤاد» عليهما رحمة الله، ونعمات الناقدة المتمكنة والدارسة الأمكن تمكنت من دراسة المازني من كل وجوهه.

و«حصاد الهشيم».. مجموعة مقالات جادة وهازلة كتبها المازني في أزمنة متفاوتة.. ثم جمعها تحت هذا العنوان.. ولقد تصورت أن المازني وهو الكاتب الساخر حتى من نفسه لن يكون جاداً في بعض مقالاته، غير أني فُوجئت بدراسات معمّقة تكاد تكون من حبِّ الحصيد، ولأنه من أئمة الأدب الساخر فقد حاول اللعب بعواطف القراء في المقدمة التي كتبها قبل سبعين سنة أو تزيد، والمازني من أمهر الكُتَّاب فهو الأقدر على التلاعب بالعواطف والكلمات، ولقد تدق ملاحظته فيُعلي من شأن صغائر الأمور، وقد يَبْكي ويُبْكي وهو يصوِّر ضوائقه المالية، ومقالاته الاجتماعية مقتدة من حياته المعذبة.

(١) تاريخ المقال: ٨/ ٦/ ٢٠١٠

وهو كما يقول عنه الناقد القدير محمد مندور: شاعر وناقد وقاص وكاتب مقال، بل هو أبعد من هذا، إذ يعده العقاد من أفضل المترجمين، وسخريته الطبيعية والمكتسبة تأتي من المبالغة في الوصف وتشخيص المعاني والتجسيم «الكاريكاتيري».

ومقدمة «الحصاد» تجسد أوضاع الأدب والأدباء وهوانهم على الناس وقلة حيلتهم وفشو الفقر والعوز فيما بينهم وكأنهم سرج تضيء للناس وتحرق نفسها، وحرفة الأدب التي يتداولها المشاهد دون وعي بمقاصدها يجسدها المازني بحاله وفي كتاباته كلها لأنه المثل الأعلى لأحوال الكتاب، وهو قد ترك تلك الحرفة على ما هو عليه من عمق ثقافة وما له من مواهب.. واتجه إلى الصحافة مسترزقاً مما يكتب، ولقد حضرت أكثر من مؤتمر في المملكة.. وبخاصة مؤتمرات الأدباء السعوديين.. وفي كل لقاء أسمع الشكوى المرة يتداولها كثير من الأدباء والمبدعين عن أحوال بعضهم وحاجتهم الماسة إلى صندوق الأديب الذي ظل حلماً سرابياً في زمن تتدفق فيه مؤسسات الدولة بالخير العميم على القاصي والداني، ولو أسس الصندوق بمصروف مؤتمر من المؤتمرات التي تمر دون أن يعلم بها أحد.. ودون أن تترك أي جدوى لكان بالإمكان أن تستدر عوطف الأثرياء ورجال الأعمال الذين يتهافتون على بناء المجمعات والجمعيات والكراسي في الجامعات بالملايين وبعضها شكلي لا يُسمن ولا يُغني من جوع.. إن الحاجة إلى صندوق يصون كرامة المعوزين من الأدباء ويقيل عثراتهم من أهم القضايا المؤجلة بدون أي مبرر، والغريب أن العالم العربي بأسره لا يعير أوضاع الأدباء أي اهتمام.. وكم من أديب ومبدع قضى نحبه.. وفي نفسه أن يجد ما يسد به رمقه ورمق أسرته.. فهل من مدكر؟

والمازني الذي أثار هذه الكوامن واحد من المعوزين الذين عبروا الحياة .. ولم يجنوا منها إلا الشوك والعلقم ولأنه ساخر فكه فقد واجه تحديات الحياة بروح عالية وإصرار عنيد على حفظ الكرامة وتخطي الصعاب.

ولقد كانت المقدمة والخاتمة لحصاده خلاصة طبعه الساخر.. ففي المقدمة شكاية مُرَّة من الدنيا وما فيها من منغصات، يقول فيها: «أقسم أنك تشتري عصارة عقلي.. وإن كان فجاً وثمرة اطلاعي.. وإن كان واسعاً.. ومجهود أعصابي وهي سقيمة بأبخس الأثمان».. ثم راح يحسب الثمن أربعين مقالاً بعشرة قروش يقول: «وأنت تشتري كل أربع منها بقرش.. وما حسبك ستزعم أنك تبذل في تحصيل القرش مثل ما أبذل في كتابة المقالات الأربع من جسمي ونفسي.. ومن يومي وأمسي.. ومن عقلي وحسي».

وفي الخاتمة سخرية مُرَّة مما كتبه عن الشاعر «حافظ إبراهيم» فلقد لفت نظره كاتب إلى سارق نقده لحافظ وطالبه بالرد عليه.. فما كان من المازني إلا أن اعتذر قائلاً: «أستحي أن أنبه إلى سطو صاحبنا المتلصص على نقدي مخافة أن يتنبه الناس إلى ما أرجو مخلصاً أن يكونوا قد نسوه من أني أنا كاتب هذا الهراء القديم».. ومثلما ندم المازني على نقده الجائر لحافظ إبراهيم.. فقد ندم العقاد على جوره على أحمد شوقي.. إذ جاء نقدهما لإثبات الذات وحين حققا التألق كان بودهما إخفاء وسائله ليكونا في المشهد بإمكانياتهما لا بوسائلهما الزائفة.. فهل يستطيع أحدٌ ممن حاول البروز على أكتاف العمالقة أن يُبدي ندمه واستياءه مما بدر منه؟

تلك خواطر وتداعيات لست أدري ما الجامع لها.. وإن كنت أعرف بواعثها.. فصحافة اليوم تستبق الإثارة ولا يجد المغامرون من كُتّابها حرجاً من هز الثوابت والتشكيك بالمسلَّمات.. وتلك مؤشرات انشطار فكري.. ومخاضات سيكون لها ما بعدها.

وما ترانا إلا حاصد هشيم، وتلك سنة الله في الكون.. ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾.

وفي التهريج ما جربت نفسي .. !(١)

من الإخفاقات غير المبررة أن تُفهم حرية التعبير على غير وجهها السوي، بحيث لا يأمن ذووا الهيئات على سمعتهم ثم لا تحفظ لهم مكانتهم، وإذ يكون الخطأ ربيب العمل والاجتهاد صنو الاختلاف، فإن من شرط التناوش السوي أن يعف المجادل عن النيل من الذوات ليُبقي على جسور التواصل.

ولقد يظن بعض المخالفين أن سبيل الانتصار لا يبلغ غايته المبتغاة إلا بتوهين المجادل في ذاته لا في رؤيته، فيما تظل القضية المختلف حولها في معزل عن التداول. والجدل حول أي قضية لا يمكن ضبط إيقاعه إلا بالتزام أدبيات الحوار التي أجملها المتقدمون وهذبها المتأخرون وحاول تفعيلها (مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني) مع التوفر على شروط الاجتهاد كما نص عليها علماء الأصول، إذ ليس كل مجتهد يملك حق الاجتهاد، ومن دخل مضايقه دون أهلية فكمن تسور المحراب أو كمن أتى البيوت من غير أبوابها، وفوق هذا لابد من التصور السليم والدقيق لرؤية الآخر، سواء كان مناقضاً أو مخالفاً، فالحكم على الشيء فرع عن تصوره، والخوض مع الخائضين دون ضوابط يهبط بقيم المشاهد الفكرية. وذوو المثمنات يأنفون من تقحم اللغط غير المنضبط لأنهم لا يودون فعالية من لا يداري على مكانته، ومن ليست له مثمنات يغار عليها، ولا يودون أن يكون مصير جدلهم مزبلة التاريخ. والفرائض الغائبة في اللجاجات تحرير المسائل المختلف حولها وتأصيل متعلقاتها المعلوماتية ليكون المتلقي على بينة من أمره، والمهم في هذا أن يعرف قارئك من أنت، وما محددات خطابك، وما رسالتك في الحياة، وما تصورك للأشياء، فالمشاهد الفكرية تموج بمختلف الملل والنحل والأطياف، وكل فئة تجتهد ما وسعها الاجتهاد للإقناع والاستمالة والاحتواء، وكثير من الكتبة لا قضية لهم، فهم أبناء لحظتهم يميلون مع الريح حيث تميل، وكثير منهم من لا يشغله إلا البقاء في بؤر الضوء، فهو لا يحمل هماً ولا رسالة وإنما يحمل حاجة في النفس تتمثل في أن يظل حاضر المشهد الإعلامي، بحيث يرى اسمه متداولا في أوساط الناس على أي شكل وبأي مستوى وفي أي قضية.

وأصحاب القضايا وحملة الرسائل لا يرون أنه من شرط الحوار الحضاري والتعايش السلمي المتكافئ وتبادل المصالح على قدم المساواة أن يتخلى العاقل الرشيد عن هويته وما تقتضيه دينيا وقوميا وإقليميا ولا أن يذوب في الآخر ولا أن يكتم إيمانه، ومن تصور الأمر على ما هو متداول في بعض المشاهد الفكرية فقد أخطأ الطريق وعجل في إعطاء الدنية في الدين.

وواجب المجادل اضطراراً أو اختياراً أن يجتهد في إنصاف من يتحدث معه أو عنه من الأحياء أو الراحلين، شريطة ألا يلغي ذاته ولا أن يطمس معالم مبادئه وقيمه التي لا يتحقق وجوده الكريم إلا بها، والمشاهد الفكرية والعلمية والإعلامية في ظل ثورة الاتصال كشفت الادعاءات وعرَّت المزايدات ولم يعد بإمكان أحد التمويه، ومن ثم يلجأ البعض إلى الإثارات الجانبية وإنهاك المصطلحات الحديثة بالترديد ك (التشدد)، و(الغلو)، و(التكفير)، و(الحاكمية)؛ ليلهي الأطراف المناوئة عن الفراغ لإنضاج القضايا، والمتمرسون لا تلهيهم مثل هذه الإطلاقات غير المسؤولة، متى كانوا مطروحين في الطريق بحيث يعرفهم القاصي والداني من خلال مدوناتهم المتعددة، وتفويت مثل هذه

---

(١) تاريخ المقال: ١٥/ ٦/ ٢٠١٠

الفرص يؤدي إلى الارتباك ومحاولة التسلل لواذاً، ولكن المشاهد لا تنجو من تأثير مثل هذه الزوابع.

ولقد كنت أرى أنني أقول ما يحق لي قوله في مثل هذه المواقف، فأنا شريك في المشهد الثقافي آخذ منه وأعطيه، وبقدر ما أقبل منه يجب أن يقبل مني، وليس من الذكاء والزكاء والرزانة أن يرضى المقتدر بمصادرة حقه في الوجود الكريم، ولكن يتحقق الوجود الكريم إذا قبلت من الآخر أن يفضي بما لديه في حين لا يقبل هو أن أفضي بما لدي، والأسوأ من ذلك كله أن يواطئ مسلوب الحق سالبه على هذه الدنية، بحيث يرضى من اللحم بعظم الرقبة - كما يقول الشاعر - في واحد من شواهد النحو.

وأسلوب المطالبة بتكافؤ الفرص قد لا يرضي البعض وقد يحملهم على الاستخفاف والتصنيف والتجهيل والاستعداء والتأويل الفاسد للمقاصد، وكأن إبداء الرؤية والرأي حرام على فئة حلال للمفكرين من كل جنس، فهل أحد ممن ينتمي إلى نحلة أو طائفة كفل لنا حقنا في الوجود الكريم وترفع عن نقد ما نحن عليه بحيث نبادله بالمثل؟ وكيف نقبل دسَّ مضمراتنا في التراب إرضاء لمن لا يراعي فينا إلاًّ ولا ذمة، ثم إن علماء الملل ومفكري النحل عبر عصور التاريخ الفكري والمِلِّي والسياسي لا يتوانون في إشاعة ما يعتقدون والتواصي عليه، ثم لا يجدون في ذلك حرجاً ولا إحراجاً لغيرهم ولا إخلالاً بمتطلبات الحوار المتكافئ، والمتلقون منهم يقدرون فيهم ذلك الاستحضار المشروع لما هم عليه، ولو قرئت كتب السلف من معتزلة وأشاعرة وسنة لوجد أن كل طائفة تحتدم مشاعرها في عرض رؤيتها وتفنيد ما يقوله خصومها، ولقد نجد المعْتَقِد للمذهب يتمثل رؤيته في قراءته لنصوص التشريع، وهل أحد يجهل أثر الأنساق الثقافية؟ والمعتدلون من العلماء والمفكرين لا يميلون في الجدل إلى النيل من ذوات المخالفين، والقارئون بهذه المناهج وعلى ضوء تلك القيم تقبلهم المشاهد وتحتفي بهم وإن اختلفت معهم، وهل أحد ينكر أشعرية (ابن حجر العسقلاني) و(النووي) - رحمهما الله - وهما من أبرز شراح (البخاري) و(مسلم)، ومع ذلك كان لهما القدح المعلى عند السلفيين المدركين لحتمية الاختلاف، وإن كان ثمة سلفيون متشددون ربما يحملهم تشددهم على حرمان الأمة من الاستفادة من كتاب (فتح الباري). وإذا أراد السلفي المعتدل الرد على المخالف لمذهب السلف لم يزد على التنبيه المؤدب لبعض التأويلات غير المنسجمة مع منهج السلف، نجد ذلك مثلاً عند فضيلة الدكتور عبد الله بن محمد الغنيمان في كتابه القيم (شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري) وهو كتاب متوازن مرتبط بالدليل البرهاني بعيد عن التجريح، مليء بالآيات والأحاديث وأقوال العلماء ورد بعضهم على بعض واستدراك لما وقع فيه العلامة (ابن حجر العسقلاني) - رحمه الله - وهو أشعري - كالنودي - وكلاهما غير متعصب لمعتقده، فلقد رأى أن شرّاح البخاري - رحمه الله - الذين تجاوزوا الثمانين أكثرهم من الأشاعرة فيما كان (البخاري) سلفياً سنياً، ولقد أثنى على شراحه من أمثال: (ابن حجر) و(العيني) و(الخطابي) و(ابن بطال) و(القسطلاني) متحفظاً على مناهجهم الخاصة بهم وعقائدهم التي تملي عليهم بعض التأويلات غير الملائمة لمذهب السلف، مجتهداً في تبيان مقاصد البخاري التي تعمد بعض الشراح عسفها وتحميلها ما لا تحتمل، ورؤيته تلك لا تعد تعصباً ولا تجنياً ولا إخلالاً بآداب الحوار، فهو سلفي سني ومن العدل أن يمارس حقه في الشرح والرد مثلما كان يفعل غيره من علماء المذاهب الكلامية، ومن تصور أن التسامح يقتضي القبول بكل طرح والاندماج مع أي خطاب فقد تعجل في مسخ نفسه وإلغاء هويته ونسف خصوصيته، ومثلنا الأعلى في ذلك الإمام الشافعي - رحمه الله - الذي اختلف مع لداته ومعاصريه من الفقهاء والأصوليين، وحَبَّبَ إليهم التعايش والتصافي والتعاذر على أن يظل كل واحد على رأيه.

ولقد كنت ولما أزل تلميذاً نهماً على كل العلماء بمختلف مذاهبهم، يجاور بعضهم بعضاً في حقول مكتبتي فـ(بكر بن عبد الله أبو زيد) إلى جوار (نصر حامد أبو زيد) وكم هي المسافة الفكرية بين الرجلين، غير أني أعرف حدود ما أنزل الله، وإذ تكون الحكمة والحق ضالتي طالب العلم فإنها قسمة بين الحقب والمذاهب، وكل يؤخذ من قوله ويترك إلا المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، والاحتفاء بالعلماء والمفكرين والفلاسفة لا ينسى السلفي سلفيته ولا يحمله على فقد الهوية والهم والاستقامة كما أمر، وليس من شرط الظفر بالصواب أن تلغي نفسك ولا أن تعطي الدنية في دينك، إن بإمكان كل طالب علم أن يلتمسه فوق كل أرض وتحت كل سماء، ورسول الله - ﷺ - لم يجد غضاضة من أن يفادي أسرى بدر بتعليم أبناء المدينة، مع أنهم مشركون محاربون فليس هناك ما يمنع من تلقي العلم من أي مصدر متى استطاع المتلقي استبانة الحق، وإذ اضطررت إلى الحديث عن أحد من المخالفين لأي سبب أبرزت ما له وأشدت وأبنت عما أختلف معه عليه؛ لأن عدم الإبانة من تأخير البيان عن وقت الحاجة إليه - كما يقول الأصوليون - ثم لا أشمت به ولا أستعدي أحداً عليه، وهذا ما أراه محققاً للهوية محرراً للخصوصية، غير أن البعض يتحرجون من إبداء المواقف المخالفة؛ ظناً منهم أن في ذلك إشارة إلى التشدد والتعصب وضيق العطن والنفي ومصادرة حق الآخر.

وحين نفهم الأشياء على غير وجهها نزيد في الارتكاس في حمأة الخطأ، على أن الإنسان المتوفر على كل المذاهب والتيارات لا يكون من الضروري متلبساً بها، وإلا كان كما يقول (الطوفي) عن نفسه:

حنبلـــــــي رافضـــــــي ظـــــــاهري

أشـــــعري إنهـــــا إحـــــدى الكُبَـــــر

ومما ينقم به البعض مما أذهب إليه يتلبس به حين يتصدى لمفكر أو عالم أو أديب لا يتفق معه، ولكي يستبين المتابع هذا التناقض فإن عليه أن يرصد ما يقول مدعو حرية التعبير، والمنادون بالتفسح للآخرين في المجالس، وهذا التجني المدان يجعل من هؤلاء مهرة في صناعة الأعداء، فهم يسخرون من علماء أجلاء نختلف معهم في المناهج أو في الأصول أو في تنزيل الأحكام، وهؤلاء العلماء لهم أشياعهم وأتباعهم، ومع ذلك لا يتحرجون من مصادرة حقهم في الوجود.

وفي واقعهم المناسب لخطابهم، إذ ما يصلح لهم ليس بالضرورة أن يكون صالحاً لنا وهذا محسوب على خطأ إنزال الأحكام على الوقوعات، وهو ما لا يستبينه إلا الذين يستنبطونه، ولقد كانوا من قبل يحتفون بهم ويمجدونهم ويشيدون بأثرهم الحسن، ومن الخطأ منهجياً أن تقوض نظرية حتى إذا أسعفتك في لحظة من الاهتياجات لململت شتاتها وانتصرت بها.

والحوار الحضاري يجب أن يحمل صاحبه على العدل وعدم التجني، وبخاصة حين يكون التعرض للمخالف مدعاة لتأليب الأشياع والأتباع ولقد نهينا عن السباب الواعي إلى رد فعل أسوأ: ﴿وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

والعلماء وقادة الفكر والإصلاح والتجديد لهم رؤاهم وظروفهم وسياقاتهم وطرائقهم في تنزيل الأحكام المناسبة لظروفهم، وليس من حق المختلف معهم رؤية أو ظرفاً أو سياقاً أن يختصرهم في رؤيته، وإن اضطر إلى نفيهم من محيطه فإن عليه أن يحترم وجودهم في محيطهم، وقد لا يكون من المناسب أن يعدو قلمه إليهم ولا أن يثنيهم عما هم عليه، لأن في ذلك الفضول مهارة غير سوية في صناعة الأعداء، وإذ نكون أصحاب

رسالة دعوية وبلادنا مهوى أفئدة فإن تهيئة الأجواء الملائمة للاستقبال من المتطلبات الأولية، وإذا اضطر أحدنا إلى مخالفة أحد من أئمة الحركات الدعوية أو المذهبية تحت أي ظرف فإن عليه توقي جلد الذوات وأن يتقي الاستخفاف أو التحيز وأن يشتغل بالرؤى والأفكار، وسيان عندي المواجهة الشخصية والإذعان الذليل للآخر، إن هناك توازناً ذكياً وتعاملاً حاذقاً يحولان دون الوقوع في الصدام أو الذوبان في الآخر، ثم إن علماء الأصول يؤكدون على أن الاجتهاد لا يُنْقَض باجتهاد مثله، وفي مثل هذه الحالة يكون القبول أو التعاذر، ومتى استدعت الظروف رد رؤية أو موقف فإن مجرد التكذيب والتجهيل والتخوين لصاحب الرؤية لا يحمل المتلقي على الاستجابة ولا على الاحترام، ذلك أن صاحب الرؤية أو الموقف المخالف ليس من الضروري أن تكون مخالفته ناتج كذب أو جهل أو خيانة، ولو ساغت مثل هذه الممارسات المهتاجة لما استطاعت الأطياف والطوائف أن تتعايش أو تتعاذر؛ ذلك أن المساس بذات المصلح مساس بسيادة الطائفة، وليس هناك ما يمنع من تسليط الضوء على أوجه الخلاف لكي تحتفظ كل نحلة بما يحقق وجودها، وحديثي عن بعض رموز الفكر المعاصر لم يأت من فراغ لقد قرأتهم وقرأت عنهم، واستفدت منهم وما زلت أتابع مستجداتهم، ولقد كنت ولما أزل أنهى عند الحديث عن مثل هؤلاء الرموز والاكتفاء بما كتب عنهم، لأن في ذلك إجحافاً بحقهم وتجنياً عليهم، فبعض القراء يميلون كل الميل ويذرون أفكار الخصوم كالمعلقة، ولقد اكتشفت مثل هذه الجنايات، وكم من مفكر سليم المنهج ضاعت سمعته بسبب التعصب المذهبي، وليس فيما أنا عليه من استثمار لجهود المخالفين تناقض، فسلفيتي لا تقتضي الاعتزال وكيف لمثلي أن يجهل مكانة زعماء النهضة وقادة الفكر الحديث في وطننا العربي، ومع ما أحس به من حيف يطال السمعة بعد هذه السن وتلك التقلبات في أعطاف المعارف أود إلا أنجر إلى مستنقعات التهريج، فالواقع الإعلامي والفكري لا يتطلب مزيداً من الاهتياجات الفارغة؟

هل يُرفعُ الملامُ عن متفيهقي الإعلام .. !؟[(١)]

مثلما تتعدد مجالات الفقه يتعدد الفقهاء والمتفيهقون، وتتباين مستوياتهم فمنهم المقلد والمجتهد المقيَّد أو المطلق، وصاحب المفردات أو الاختيارات وفقيه الأحكام الذي لا يبرح مقولات هذا حلال وهذا حرام.

أحكام معلبة الجيل بعد الجيل يرويها عبر المختصرات والمطولات دون أن يعرف المناط والمقصد، وهل الدليل برهاني أو احتمالي نصِّي أو قياسي والمتألقون من يستصحبون فقه الواقع والتمكين والممكن وقليل ما هم. ومن لا يعرف الدليل والمناط والأصول وطرائق الاستقراء والاستنباط ومتعلقات الدليل ومستوياته فليس بذاك - كما يقول علماء الجرح والتعديل- .

وفقهاء الأحكام المقلدون أصبحوا دولة بين أروقة الجامعات وقاعات المؤسسات ومنابر المساجد وبطون الكتب ومحطات الإعلام وأنهر الصحف، وكأن (جريراً) عناهم بقوله:

[هذا زمانك فاستأذن لنا عمرا]

فيما ينازع أولئك شأنهم أغرار يخبطون بأقلامهم خبط العشواء يبتدرون عويص المسائل وشائك القضايا بالمنكب الغض والجناح القصير.

وكل موقع من تلك المواقع قد يستخف قومه إذا لم تربِط على القلوب الواجفة وتثبت الأفئدة الفارغة عقولٌ راجحة وتجارب عميقة وتفقه في الدين مكين.

ومهما حاولنا تلطيف الأجواء والتخفيف من حدة الغليان فإن التهافت على الفتاوى ومبادرة المسكوت عنه وتداخل الأصوات المنكرة من مختلف الأطياف بادية للعيان، وسراة القوم بأمس الحاجة إلى كبح الجماح ورأب التصدعات في مختلف الوحدات الفكرية والدينية، والمتجاهل لهذه الظواهر المخيفة أسوأ حالاً من الجاهل ومن العارف المعتزل خشية النيل من عرض وصون.

ولقد يجد المقتدر نفسه مضطراً إلى الخوض في معترك الأقران ليقول كلمة الحق المؤجلة على خوف وترقب، والتفوه بها إقدام محفوف بالمخاطر، ولقد عاش مثل هذه الخيارات الأصعب من يتمثل بقول (الكميت):

إذا لم تكن إلا الأسنة مركباً

فما حيلة المضطر إلا ركوبها

وما من حقبة زمنية سالفة أو قائمة هنا أو هناك إلا هي متلبسة بحالة تعد سمة من سمات العصر، والمتقصي لمحن العلماء وتألقهم واندفاعاتهم يبلسم جراحه الغائرة، لاطمئنانه أنه ليس بدعاً من الناس، وما التاريخ الحضاري وسير الأعلام إلا تجميد لمثل هذه اللحظات العابرة.

والتاريخان: السياسي والحضاري يسيران جنباً إلى جنب يلتقطان لحظات التألق والانطفاء، والتآلف والاختلاف بحيث لا يكون جيل من الأجيال بدعاً من الأمر في سائر تحولاته وانتكاساته، غير أن تنوع الأزمات ومكثها وانعكاساتها تختلف من فترة لأخرى، والشجي المنقب في مواقع الشبكة العنكبوتية والسابح في أنهر الصحف المتدفقة والمصيخ لسائر القنوات الصاخبة يروعه ما يرى ويسمع من تهافت غير سوي على فتن نائمة لا حاجة لأحد بإيقاظها، ولقد حذر المشرِّع وشنَّع على مقترفي الإيقاظ، وفقهاء القنوات

---

(١) تاريخ المقال: ٢٢/ ٦/ ٢٠١٠

والصفحات أو أكثرهم - حتى لا نقع تحت طائلة الإطلاقات المعمِّمة - يستنزفون الجهود والأوقات ويوترون المشاعر فيما لا ينفع الناس وما لا يمكث في الأذهان مما هو زبد يغثي النفوس ويعوق المسيرة وتلك الممارسات إهدار للعلم وإسقاط لهيبته:

[ولو أن أهل العلم صانوه صانهم]

وما الاضطلاع المحسوب بالمهمان بملوم، وليس كل قنواتي أو صحفي وظنة المؤاخذة، والمجازفون يعرفون بسيماهم. والخلاف على أي شكل ومن أي طيف وعلى أي مستوى من الأهمية حين لا تحكمه مؤسسة متخصصة ومشروعة أو حين لا يفض اشتباكات أطيافه مرجعية مطاعة يتحول من أزمة محلية آنية تأكل بعضها إلى أزمة دولية متنامية تأكل ما حولها وتعرض البلاد إلى التدخلات الخارجية في سيادتها، والمشرع حين وجه إلى الشورى جعل العزم والحسم والتوكل بيد المأمور بالتشاور: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾، فالعزم هنا لا يكون إلا بعد نضوج القضية وبولغها حد الاحتراق ولو أطلق التشاور ولم يحد لطال أمد التداول والدعوة الراشدة إلى رفع الملام عن الأئمة الأعلام التي أطلقها شيخ الإسلام ابن تيمية كان الحافز إليها ما يراه من حدة وحَدية واحتدام وتنابز بالألقاب، وتعصب مذهبي وإعجاب كل ذي رأي برأيه وابتدار مشبوه لثانويات المسائل.

وكتاب (رفع الملام عن الإئمة الأعلام) من أصغر كتبه ولكنه من أهمها بل تكاد الظواهر المعاشة في أمس الحاجة إلى مثله، شريطة أن يحترم العلماء علمهم، ويتجنبوا إثارة الرأي العام وبلبلة الأفكار والتنقيب عن شاذ الآراء وغريب المسائل، والكتاب على صغر حجمه يعد جماع القيم في أسلوب التعامل مع المخالف لتثبيت الأفئدة الفارغة وتهدئة الأعصاب المتوترة وإخماد عجاجة الاختلاف الذي أفسد للود كل قضية، وهل أحد لا يسوؤه ما هو باد للعيان من تباين في الآراء والرؤى والانتماءات والمنطلقات الفكرية، والدعوة إلى وحدة الصف والهدف لا تلغي استقلالية الآراء ولا تمنع من التفكير والخروج برؤية مغايرة، وأحسب أن مثل هذا الاحتراس من فضول القول، ولكنه يكون ضرورياً في لحظات التوتر والمزايدات.

ولكم يستعديني على هذا الصنف المحتقن من الفقهاء ومناكفيهم من الكتاب من لا يحتمل الاختلاف ومن تذهب نفسه حسرات على آثار التائهين في بنيات الطريق ظناً منهم أن التفلت على الثوابت سيعجل بغربة الإسلام وسيحقق الغزو والتآمر من حضارات الاستكبار والتسلط.

ومما يهون المصاب أن طائفة من النخب وثلة من المتفيهقين وإن مسها طائف من الاستغراب والغرائبية وأصابها دخن التفلت والاشتغال بما شذ من الآراء فإن القاعدة العريضة من الأمة على ما كان عليه سلف الأمة لا يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير.

والمتابع لسائر المشاهد يسوؤه ما يسمع ويرى من مبادرات غير سديدة وتصديات غير رشيدة، ولغط يصعد في السماء كما الدخان فهذا الصنف من الفضوليين والفوضويين يتنازعون بينهم أمرهم بأقلام صالقة وألسنة صارمة ومقترفات حالقة، حتى لا يجد المنصف السوي مبرراً لرفع الملام عمن يتهافتون على بؤر التوتر، ولا سيما أن الأمة غارقة بنوازلها وأزماتها ومشاكلها الحقيقية وليس لديها مزيد من الجهد والوقت لهدر تلك الطاقات في تلك المهايع الهامشية.

ومجال التنازع قسمة بين الفتاوى المبتدرة وجرجرة القضايا المؤجلة والسخرية السخيفة المصطنعة بالمخالف والتمييع المتعمد للقيم وطرد الغربة عن شواذ الآراء وفضول الأحكام.

و(ابن تيمية) عندما ناشد برفع الملام نظر إلى العلماء الأعلام الذين يحترمون أنفسهم ويصونون علمهم ويتوفرون على شمولية العلم وعمقه ومناهج البحث وآلياته ويقفون حيث تكون النوازل التي تشغل الناس ثم لا يعمدون إلى المماراة ولا إلى المباهاة ولا إلى البحث عن الانتصارات ولقد عزز ابن تيمية دعوته بحيثيات الاختلاف متوسلاً بأصول الفقه التي تمنح الاختلاف المشروعية والقبول.

وما لا يمكن تصوره تقحم المخفين علماً وعقلاً ودراية ورواية والمستهزئين بالعلماء والمستخفين بالقضايا وغير المبالين بما تحدثه تلك التقحمات من تصدعات وتعمد الخلاف للمراء وحب الإثارة وتكريس الذوات الهزيلة في بؤر الضوء دون النظر في مصالح الأمة وأولوياتها وقدراتها من سمات هذا الصنف من الناس، ولقد حذر الرسول - صلى الله عليه وسلم - من الأغيلمة الذين يفسدون ولا يصلحون كما حذر الحكماء والمجربون من أنصاف المتعلمين والمعلمين والأطباء لأنهم يفسدون الدين والعقول والأجسام.

ولقد أشرت في أكثر من مجال كتابي أو خطابي إلى أن اتساع رقعة الاختلاف لا تحمل المؤمن على ممارسة العنف لصد المخالف وألا تصيبه بالإحباط واليأس والاعتزال.

ومسألة الأطر والأفكار والتناهي والتمعر محكومة بضوابط شرعية هي بمثابة العقد الاجتماعي المضمر أو المحرر، والعقلاء يعرفون ما لهم وما عليهم في مثل هذه الظروف التي لا يخلو منها مجتمع، وكيف يكون من المؤمن انفعال يفقده الصواب أمام أي مخالف والله عز وجل يقول: ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ۝ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ﴾، و(لو) حرف امتناع لامتناع، فالله حين لم يشأ الإيمان لمن شاء من خلقه كان عدم الإيمان حتماً، على أن المشيئة هنا كونية وليست شرعية فالله لا يرضى لعباده الكفر، وتلك معضلة قدرية لا مجال للخوض فيها ولا مزيد على ما كتبه علماء السلف كابن القيم في (شفاء العليل ..) ونحن إذ نبدي استياءنا من هذه الفوضى في الفتاوى والتهافت على استدعاء بعض القضايا والأخذ بأضعف الأقوال وأغربها وزج العامة في عراك العلماء وخلافاتهم وتحديث الناس بما لا يعقلون وما لا حاجة لهم به فإن ذلك من باب التذكير بخطورة الموقف ومن باب الحرص على صرف الناس عما لا يفيد على حد:

[قلت اطبخوا لي جبة وقميصا]

وخلاصة القول إن مشاهد القول بأمس الحاجة إلى علماء عقلاء مجربين يزنون الأمور ويحترمون الرأي العام ويبادلون أندادهم الاحترام وإذا اختلفوا اشتغلوا بالقضايا وأبقوا على جسور التواصل وعرفوا لذوي الفضل فضلهم وغلّبوا المصلحة العامة على مصالحهم وآثروا السلامة وصبروا وصابروا ورابطوا ووثقوا بأن الله لا يضيع من أحسن عملا، وإذ لا نستطيع طمس ما حصل فإن علينا أن نفكر فيما هو آت.

الإعجاز العلمي في القرآن بين النفي والإثبات .. !؟[1]

لا فرق عندي بين الإفراط والتفريط تماشياً مع المقتضى الشرعي واستلهاماً لقول الشاعر: «كلا طرفي قصد الأمور ذميم».

فالذين يمارسون السخرية والتهكم بالعلماء والمفكرين المهتمين بهذا الجانب من البحث العلمي في سبيل نفي الإعجاز العلمي..

.. في القرآن الكريم جملة وتفصيلاً، لا يختلفون عمن يطلقون العنان لخيالاتهم وتخرصاتهم ويجعلون من القرآن الكريم رسالة علمية تجريبية بحيث لا يعنى إلا بوضع النظريات العلمية، فكلا الطرفين مجازف، وكلاهما يرجم بالغيب ويعيش تحت هوج العواطف الجياشة أو تحت وهج الانبهار بالغرب والتذيل له واستبعاد المبادرة العربية ولو في الإرهاص للنظريات العلمية. وإذ يكون القرآن الكريم مظنة الإعجاز البياني بالدرجة الأولى - وهو ما يكاد يتفق عليه جل العلماء - فإن له لفتات إعجازية في سائر العلوم والمعارف، ولكنها لفتات لا يجوز أن تلهي العلماء عن الهدف الأسمى والغاية الرئيسة للقرآن الكريم. والتدبر للآيات - المأمور به - يمر بالإنسان على أشياء لا تخطر على البال؛ فالقرآن لا تفنى عجائبه، وآلاف المفسرين الذين توسلوا بخلفياتهم الثقافية ومنطوياتهم المعرفية وأهوائهم المذهبية أضاؤوا جوانب من كنوزه غير أن البعض منهم وقعوا في المحذور حتى قيل عن تفسير الرازي: «فيه كل شيء إلا التفسير»، وكانت لبعضهم شطحات ولآخرين عثرات مهلكة، ولست هنا بصدد الحديث عن اتجاهات التفسير في القديم والحديث، وقد تكون لي إلمامات عازمة فيما أستقبل من أيام، وبخاصة حين فرغت من قراءة مؤذية لكتاب ألَّفه صوفي متعفن اسمه «عباس عبد النور»؛ لقد تجرد من إنسانيته وإسلاميته حين تحدث عن محنته مع القرآن، ومن قبله قرأت شطراً من تخريفات «محمد شحرور». وللخلوص من المأزق فإنه متى أحس المتأمل في كتاب الله من غير أولي التخصص العلمي بأن هناك إشارات علمية فإن عليه أن يفسح المجال لذوي الاختصاص العلمي، وأن يستحث العلماء التجريبيين للإمساك بطرف الخيط الرفيع والمضي عبر المختبرات والمعامل للنظر فيما إذا كانت هذه الإشارات الربانية يمكن أن تنتقل بالمتأمل من الفرضيات إلى النظريات، وأن تكون أرضية للانطلاق إلى آفاق أرحب تستقطب التجارب العلمية وتستنطق الحقائق المادية وتزداد من خبرة العلماء الباحثين في جميع أنحاء العالم، ولا يقف حيث تقوم معارك المفاضلة والادعاء. وليس عيباً أن نأنس بالمبشرات؛ فالرسول - صلى الله عليه وسلَّم - إذا سمع ما يؤيد رسالته من رؤيا أو خبر حبب إشاعته، وتقوية الإيمان وزيادته مطلوبة. وكم من عالِم أسلم لمجرد تلاوته لآية وفهم مدلولاتها. ومقولة الرسول - ﷺ - «بلغوا عني ولو آية» ذات مقاصد دعوية قد يجهلها البعض، بحيث يرى أن دعوته بالتخويف والترهيب والترغيب كافية، وما درى أن بعض الآيات تنطوي على لفتات علمية تترك أثرها البالغ في نفوس المستمعين من غير المسلمين. ولِمَ لا والله يقول ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ وهذا المقطع من الآية جاء في سياق توجيهات علمية بحتة تتعلق بالماء والثمرات والجبال والناس والدواب والأنعام واختلاف الألوان والطعوم؛ فدلَّ على أن المقصود بالعلماء ما لهم علاقة بهذه المخلوقات من أطباء ومهندسين وفلكيين وعلماء طبيعة، وليس يمنع من أن يشمل ذلك علماء الشريعة والعقائد، غير أن التفسير السياقي والدلالات الخارجية تؤكد أن المقصود بالعلماء أوسع مما يراه البعض.

---

(١) تاريخ المقال: ٢٩/ ٦/ ٢٠١٠

وعلى العلماء الذين يشتغلون في الإعجاز العلمي في القرآن ألا يقطعوا بصحة ما توصلوا إليه؛ فالباب لما يزل مفتوحاً أمام احتمالات الصدق والكذب في الفرضيات والنظريات على حد سواء، ولا يجوز أن نرتهن القرآن القطعي بالنظريات الاحتمالية التي قد تكون زائفة في يوم من الأيام، كما أن الانقطاع لهذه المهايع لا يختلف عما سلف من انقطاعات فلسفية وبلاغية وكلامية ارتهنت القرآن وحبسته في تلك الأنفاق الضيقة. القرآن رسالة أزلية مفتوحة ومحفوظة لكل الأجيال، والقرآن الكريم قابل لقراءات عدة، ومن ألهمه الله استنباط حقيقة علمية أو حكماً شرعياً فإن عليه ألا يقفل الطريق أمام الاجتهادات المستكملة لشروطها وإمكانياتها، وقضية الاجتهاد شغلت علماء الأصول. وأقل الناس حظاً من العلم والعقل من يدعو إلى قفل باب الاجتهاد متصوراً أن الأول لم يترك للآخر شيئاً، والأسوأ حالاً منه من يتقحم ميادين الاجتهاد وهو بعد لم يستكمل مؤهلاته، وما أضر بالأمة إلا متخوف منع الاجتهاد أو فارغ تقحم لججه.

وعظمة القرآن أن طالب العلم النهم يرجع إلى عشرات المفسرين في مختلف العصور وعلى مختلف الاتجاهات حول آية ذات مساس بأي قيمة أخلاقية أو سياسية أو علمية ثم لا يجد عندهم ما يشبع نهمه ولا ما يشفي غليله ويبرئ سقم نفسه، ولربما يجد ضالته عند عالم لغة أو بلاغة أو فقه أو فلسفة ثم لا يلبث أن يتحول عنهم جميعاً. ولقد تمر بي مثل هذه الحالات فأعلِّق المسألة وأتوقف بانتظار نازلة كالقنبلة الضوئية التي تنير عتمة النص وتفجِّر دلالات جديدة غير متوقعة.

وما لا يمكن إنكاره ولا الاستخفاف به ما قطعته الجمعيات العلمية للإعجاز العلمي في القرآن من أشواط مليئة بالمحاذير في مجال الإعجاز العلمي في القرآن، وهي إنجازات غير معصومة وغير مقدسة؛ ومن ثم فهي قابلة للنقد.

وقضية الإعجاز العلمي لم تكن الهاجس الوحيد بل لم تكن الأهم في سياقات عدد من الاهتمامات. لقد خاض هذا المعترك علماء النفس والأدب والسياسة والاجتماع وفقه الأحكام، وكل طائفة تجتذب القرآن إليها وكأنهم عشاق يدعون الوصل به وحدهم، ويبقى القرآن بوصفه كلام الله يجذب بوهجه كل الباحثين، وتمر الأجيال ذاهلة محتارة مشفقة على نفسها مستقلة إمكانياتها عاتبة على تقصيرها في جنب الذكر الحكيم، والقرآن كما هو كالطود العظيم طري يلين مع كل يد، جديد يفتض مغاليقه كل جاد متمكن، ومن تصور أنه بإمكانياته ومنجزاته قد حسم الموقف فقد وهم. وكيف تفنى عجائبه وهو كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً. ومع ما في المحاولات كافة من خير عميم إلا أن مبدأ القطعيات غير ممكن، وعلى الأمة المسبوقة بظاهر الحياة الدنيا والمفرطة في جنب الله أن تحفظ التوازن بين مطالب الدارين تماشياً مع ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾، وأن تخفف من حدة الهزيمة الحضارية، وأن تجتهد في استثارة كوامن القوة عندها. وأنكر الأصوات من يُحمِّل الإسلام جريرة تخلُّف الأمة، أو من يجهض نصوصها صريحة الدلالة صحيحة الثبوت لكي توافق هواه المتبع على غير هدى. وليس شرطاً أن نسترخي على وسادة الادعاء كي تمضي قوافل الحضارة الإنسانية ونحن كما أهل الكهف نقلب أجسامنا ذات اليمين وذات الشمال وصوتنا النشز باسط رواقه علينا يهدهدنا بمعسول الكلام، فأمجاد التاريخ قد تسكن المعاناة ولكنها لا تحسم المشاكل، وإذ يكون القرآن محرضاً على التدبر في ملكوت السماوات والأرض وحاثاً على إعداد القوة بكل شموليتها العلمية والإيمانية والعسكرية فإن واجب الأمة التخلي عن حياة الدروشة والتمائم، والتعالق مع أي حضارة تمتلك قدراً من الحق بوصفه ضالة المؤمن. وإذ يكون الرد إلى الله والرسول في كل متنازع عليه واجباً شرعياً

فإن الأمة بخبراتها المتراكمة وتجاربها العميقة أدرى بأمورها الدنيوية، ولم يبق في ظل الانفجارات المعرفية وثورة الاتصال إلا أن نستصحب المقاصد، وكم هو الفرق بين الرحيل إلى النص في بكارته الأولى والرحيل به لمواجهة الحياة بكل محمولاته الدلالية والاستنباطية عبر الأجيال.

ومن فوادح المخالفات أن الذين يقفون من ظاهرة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم يختلفون باختلاف الدوافع والنوايا والإمكانيات والخلفيات الثقافية والفكرية؛ فالبعض منهم ببغائيون يهرفون بما لا يعرفون، ويرددون ما فرغ منه أساطين العلمانية من تنكر ونكارة قول، وآخرون استحوذ عليهم شيطان المذاهب فاقتادوا القرآن في سراديب مذاهبهم، والتفسير العلمي له ضوابطه، ولربما يكون «فخر الدين الرازي ت ٦٠٦» أول من طبق هذا المنهج بعد أن وضع «الغزالي» أسسه، والعلم الحديث والمكتشفات المذهلة أفقدت «مفاتيح الغيب» للرازي قيمته، ولكنه يظل الخطوة الأولى في الطريق المحفوف بالمخاطر، ومن بعده جاء «طنطاوي جوهري» في تفسيره المثير، ومن بعدهم تهافت العلماء والمتعالمون أمثال «حنفي أحمد» و«عبد الرزاق نوفل» وجاء مقوِّمون لهذه المناهج أمثال «أحمد عمر أبو حجر» في كتابه «التفسير العلمي في الميزان»، وستظل القضية مجال أخذ ورد إلى أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى. ولأن هذا المنهج قد فرض نفسه ولم يعد بالإمكان تجاهله أو التقليل من شأنه فإن من الخير أن يسعى الوجلون من خطورة الموقف إلى وضع ضوابط تقلل من احتمالات الضلال، فالقرآن كتاب دعوة وتشريع وهداية، والعدول به عن أهدافه مظنة تفريط بما يجب أن يكون، وفرق بين أن نستعين بالحقائق العلمية على المناطات أو نستعين بالقرآن لتأكيد الحقائق العلمية التي لم تتجاوز في كثير من الأحوال الاحتمالية، وفوق هذا فإن أطر الآية وحصر دلالتها على ظاهرة علمية فجة قد يضع المفسر في حرج حين لا تكون الظاهرة العلمية وفق المقتضى الدلالي، والشيء الأهم أنه من المستحيل تصادم الحقيقة القرآنية مع الحقيقة العلمية، كما أنه لا تعارض بين صحيح المنقول وصريح المعقول، ولكن الهداية والتوفيق بيد الله، يهدي به من يشاء.

وعلى كل الأحوال فإن الفرق بين العائل المستكبر والمفكر المستبقر كالفرق بين القاعد المسترفد والمنعم المتفضل، ومحنة المشاهد أنها بليت بفارغين لا يميزون بين التيارات الفكرية ولا يفرقون بين الثوابت والمتغيرات، وما هو مجال للاجتهاد وما لا مجال فيه إلا للتسليم والإيمان، ولما كان النص عند الأصوليين ما هو قطعي الدلالة والثبوت قالوا: لا اجتهاد مع النص. والمسلم اليوم ممتَحَن بنوازل تضيق بها الصدور، وقد تزعزع إيمان الضعفاء المقلدين الذين أسلموا ولما يدخل الإيمان في قلوبهم، ولو أنهم إذ زلزلت أرض الإيمان من تحت أرجلهم عرفوا أن الإسلام دين عالمي شمولي وأن النوازل كما الأمراض يعلم علاجها من يعلم ويجهلها من يجهل، والجهل بالشيء ليس علماً بالعدم؛ فقد تجهل معلوما عند غيرك.

وتبقى قضية الإعجاز العلمي في القرآن الكريم إشكالية تتنازعها أطياف متعددة، وأحسب أن الاختلاف حولها من الاختلاف المعتبر، غير أن أسلوب العلاج والمواجهة يحدد قيمة المتجادلين أخلاقياً وعلمياً، ولا أظن أن هناك مشاحة، والوسطية هي خير المناهج في التعاطي مع كل القضايا، ولاسيما قضية تتعلق بالذكر الحكيم، وإذ قامت شبهة الانتفاع أو الانقطاع فإن ذلك لا علاقة له بالظاهرة بوصفها براء مما يمارسه المنتفعون أو الرافضون، بحيث تظل القضية فوق النوايا والمقاصد.

عندما يكون الإنسان حيواناً جدلياً .. ! [(١)]

الذكر الحكيم كشف عن جدلية الإنسان المتأصلة في ذاته بوصفه إنساناً: ﴿ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴾ كما أنه: «ألدُّ الخصام» وحين يكون لدى الإنسان استعداد فطري لهذه الخاصية فإن القول بأنه..

.. «حيوان ناطق» صفة مفضولة وليست جامعة مانعة كما تقتضيه المصطلحات، فالطير له منطق عُلِّمه سليمان عليه السلام والوصف الأدق أن يقال: «إنه حيوان جدلي» وهذه الخصوصية تؤكد ضرورة تهذيب منطقة الجدلي وتفعيل استعداداته الفطرية، ويكفي أن يكون التمكين من الحوار وفق ضوابطه وأدبياته وسيلة اتصال مع الآخر ولا بد -والحالة تلك- أن يكون قادراً على الحوار الحضاري متوفراً على مقتضياته، مهيمناً على مجالاته، متمكناً من تقدير المواقف وانتهاز الفرص وتحقيق المصلحة العامة بالإقدام الموزون أو الإحجام المبرر، فالإقدام أو التراجع لا يُقوِّمان لذاتهما، ولكن لما يترتب عليهما من إخفاقات أو تجليات ولربما يكون الحوار لجاجة وفضولاً ومضيعة للوقت وللقيم معاً، وما أكثر الجدليين الذين لا يزيدون المشاهد إلا خبالاً، والإنسان السوي هو ذلك الذي يلتمس بجدله تحقيق الوجود الكريم الذي لا يظلم فيه غيره ولا يظلمه غيره فاللسان كالسنان في القدرة على انتزاع الحق ورد الظلم وإبلاغ الرسالة، ودون إتقان الممارسة خرط القتاد.

ولو ذهبنا لتحرير مصطلح «الحوار» بوصفه الملاذ الأخير بعد فشل الحلول العسكرية لوجدنا جذره الثلاثي «حور» يدور كما يقول «ابن فارس» على ثلاثة أصول: - «اللون. والرجوع. والدوران» والدلالة المصطلحية وإن تعددت تدور حول مفهوم واحد وهو تداول الكلام بين أطراف مختلفين للوصول إلى مفهوم متفق عليه. وعناصره الثلاثة: -

-كلام يقال.

-أطراف تدير القول.

-مفهوم يصطلح عليه أو يختلف حوله.

وقد لا يصل المتحاورون إلى حل متفق عليه فيظل الاختلاف قائماً، وقد يُفرض الرأي بالقوة، وللحوار مترادفات تتسع مشمولاتها أو تضيق حسب التصورات كـ«المراء» و«المحاجَّة» و«المجادلة».

ولأهمية ذلك سميت إحدى سور القرآن بـ«المجادلة» وقد استهلت ب ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ وقد يكون «الحوار» رديفاً للجدل، مع تفاوت في الحالة النفسية ولهذا قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ﴾.

والمراء ليس محموداً على إطلاقه فكأنه أدنى مراتب الحوار. ولقد جاء في سياق الذم في عدد من الآيات كما جاء في سياق النهي: ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً ﴾ وجاء التساؤل الانكاري: ﴿ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ﴾ والإشكالية أن الجدل والحوار حين لا يمارسه الأكفاء ولا الباحثون عن الحق يكون من المراء المذموم، وتلك سمة ربما تكون

(١) تاريخ المقال: ٦/ ٧/ ٢٠١٠

متأصلة في مشاهدنا الفكرية، والحوار يفتعله المتحدث بوصفه وسيلة تعليمية وقد تُصَعَّد نبرته فيكون جدلاً محتدماً وقد تهبط قيمه فيكون مراءً ظاهراً.

والأمة عند النوازل وانبعاث الفتن تحتاج إلى إعادة النظر في مناهجها وآلياتها وأسلوب مواجهتها لأطروحات الآخرين، ولقد قيل من قبل: «الرأي قبل شجاعة الشجعان» وكل مشكلة لها حل وربما يكون الحل سبباً في التعقيد والتصعيد، وتلك دول مكتملة القوة والمجالس النيابية أعجبتها كثرة العدة والعتاد فلم تغن عنها شيئاً، حتى لقد أفنت عتادها وأزهقت أرواح مقاتليها ودنست سمعتها الأمر الذي ألجأها صاغرة إلى دول دونها في العتاد والعدد لتنقذها من ترديتاها.

ومن هنا أصبح «الحوار» ملاذاً لمن أعيته مواجهة المشاكل القائمة بالقوة الرادعة، فالحوار أسلوب من أساليب المواجهة، ومن يعتمده دون إمكانيات قد يؤدي في النهاية إلى ضعفه وفوات الأهداف.

والذين يظنون الحوار أقل خطورة من التصفيات بالقوة يجهلون أثره وإشكالية الأمم في فئات لا تقدر الظروف ولا تراعي الإمكانيات، ومثلما تُعد الأمة المستطاع من القوة العسكرية لردع أعدائها أو إرهابهم فإنها ملزمة بأن تعد المستطاع من القوة المعنوية لمواجهة التحدي الفكري وإذ يكون الصراع مدنياً وحضارياً، فإن لكل نوع معداته وآليته وتقدير المواقف، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كبيرة بإمكانياتها الفكرية لا بقوتها العسكرية والناس إذ ملوا من التصفيات العسكرية بعدما أدركوا أنها باهظة التكاليف قليلة الجدوى توسلوا بالصراع الحضاري، ولقد سمعنا لطائفة من أساطين الفكر ما يطرحونه من رؤى، وما يحرضون عليه من ممارسات هي أنكى من التدخلات العسكرية، وليس هناك أهم من تهيئة الأنظار وترويض النفوس لاحتواء فكر الآخر أو تحييده والخلوص من عقابيله.

ولكي تكون الأمة على بينة من أمرها لا بد أن تعطي الحوار أهمية قصوى، وبخاصة بعد استحالة المواجهة العسكرية بشقيها: مواجهة الدفع ومواجهة الطلب، على أن الجهاد الفكري صنوا الجهاد العسكري والرسول ﷺ حين رجع من الغزو العسكري قال: رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، والله ندب رسوله لمجاهدة الكفار بالقرآن وحذره من طاعتهم والاستسلام لهم فقال: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ والجهاد الكبير يعني بذل أقصى ما تقدر عليه الأمة من الحجج والمدافعة، ومجال ذلك كله الحوار والجدل ومادته العلوم والمعارف والخبرات والتجارب والتدبير والتقدير والتوقيت المناسب وتلك السمات يفتقر إليها كثير من الذين يتقحمون المشاهد، وإذ يكون الاستعداد العسكري يدار عبر مؤسسات متمكنة، فإن الاستعداد الفكري مطروح في الطريق يقترف خطيئة من هب ودب، وذلك مصدر الفوضى الفكري والانفلات الذي له ما بعده من نكسات موجعة.

وأهم متطلبات الحوار «الموضوعية» فالحوار حين لا يكون موضوعياً يكون مراء باطلاً، ولكي تتم الموضوعية على وجهها لا بد من تحديد الهدف إذ من السوفسطائيين من يجادل لذات الجدل لإثبات الوجود، وهذا من المراء المذموم ومن متطلبات الحوار «تحديد المجال» بحيث لا يحبط الأطراف كالعشواء، والمرجعية بوصفها الحاسمة للخلاف تكاد تكون مفقودة والحوار لكي يكون متكافئا لا بد أن يكون من درجة الصفر بحيث تكون البدايات متكافئة ولا بد من الاستعدادات الذاتية لدى المحاورين بحيث تتوفر الإمكانيات المعرفية والقدرات الذاتية. وخير من جدد آلية الحوار علماء الأصول، فالدربة مكنتهم من وضع الضوابط وتفادي الفوضى المستشرية، ولقد وضعت الضوابط لكي يتمكن المضطر إلى الحوار من تجويد خطابه والتدرج من المقدمة إلى العرض ومن الأقوى إلى الأضعف

ومن الكلي إلى الجزئي ومن المعلوم إلى المجهول ومن النقض إلى البناء والتراتب من حيث المهم والأهم، وكل هذه الضوابط من الفرائض الغائبة، والتقويض الذي يعمد إليه كثير من المحاورين دون إعداد البديل من العبث المخل بمقتضيات الحوار الحضاري، وتلك من سمات المفكرين المتمردين لوجه التمرد ك(القصيمي) الذي يخبط على غير هدى ولقد وجَدَتْ فيه الصهيونية وسيلتها للتشكيك والثورة الفكرية.

وبُنات المبادئ لا يهون عليهم هدم أفكارهم دون بديل أمثل ومن المجادلين من لا يحسن إلا الهدم والفوضوية، وتلك سمة العدميين الذين يتكئون على التمرد والرفض دون أن تكون لهم رؤية واضحة المعالم، ولقد يكون من العبث الدخول مع هذا الصنف من العابثين.

وتقويم المشاهد يبدي أصنافاً لا يحتملها العقل البشري وكان يجب والحالة تلك التفكير بالمنهج والآلية والمجال وتقويم المواقف والتعرف على الآخرين لترشيد المسيرة وتدارك الأمة من الضياع.

ولأن الأخطاء في الحوار وفي غيره دركات فإن ما دون ذلك من الأخطاء الحدية والحدة وهما سمة المحاور الضيق العطن الذي لا يرحب صوره للتعددية المذهبية، وإذ لا يكون هناك اتفاق إلا على النص المقدس القطعي الدلالة والثبوت فإن ناتج الاجتهاد فطنة الاختلاف ومن افترض الاجتماع والإجماع في مجالات الاجتهاد فقد حمَّل الأشياء فوق طباعها والمتنبي يقول:

ومحمـــل الأشـــياء فـــوق طباعهـــا

كملـــتمس فـــي المـــاء جـــذوة نـــار

ومن وَطَّنَ نفسه على حتمية الاختلاف وطنها على التعايش التجاذر وجدلية الإنسان المذمومة هي تلك التي لا تقبل إلا واحدية الرأي واحتكاراً الحقيقة والخالق العليم الذي وصف الإنسان بالجدلية في سياق الذم استمع إلى قول التي تجادل رسول الله في زوجها وتشتكي إلى الله فالجدل والحوار مشروعان من حيث هما وسيلة للإقناع والاستمالة والاحتواء، وذمهما ليس لذاتهما ولكنه لما يترتب عليهما وما يصاحبهما من تجاوزات، وعلماء الأصول يفرقون بين المحرم لذاته والمحرم لغيره والتعددية الفكرية غير الفوضوية الفكرية والخطورة في تمييع الضوابط.

ومثلما نجد صعوبة في احتكار الحقيقة نجد صعوبة أكبر في مراوحتها بين الحضور والغياب المشروعين، ومثلما نأنف من الحِدَّة والحدية فإننا نأنف كذلك في الانفلات والإطلاقات والتعميمات التي نعايشها.

إن هناك تكاليفات شرعية لا يجوز المساس بها ومسلمات عقدية قطعية لا يجوز الاختلاف حولها وإذا استبعد البعض إمكانية الإجماع فإنه كائن في الكليات التي يعرفها أهل الذكر بحيث لا يجدون غضاضة في عدم الاجتهاد معها. وعلماؤنا الأفذاذ يعرفون حدود ما أنزل الله وما تفرق العلماء إلا حين فقد النص أهليته ومكانته وأصبح العقل وحده سيد الموقف وإعادة النص إلى مكانته كفيل بالحد من فوضوية الأحكام وشذوذ الآراء. وما تَعبد نا الله بالنص وحده ولا بالعقل وحده وحفظ التوازن بين النص والعقل مؤذن بتوازن الحياة وسلامتها من الاضطراب، وترشيد الحوار.

وحين نسلم بأن الإنسان حيوان جدلي فإن مصادرة حقه أو إرساله بدون ضوابط من العبث الذي يفقد الحياة قيمتها السوية، والأمة في ظل غمرات الجدل بأمس الحاجة إلى إعادة النظر في الحوار والمتحاورين ومجالات الحوار، وليس في التدخل المنظم أي إجحاف أو إخلال أو مصادرة للحرية.

لك العتبى أبا هشام حتى ترضى .. ! (١)

ما كان لي أن أتخلف عن لداتي ممن ظفروا بتناول بعض الجوانب المضيئة من حياة الصديق والزميل الأعز أبي هشام محمد بن عبد الرحمن الربيع، ولا سيما أن الصديق الوفي الدكتور إبراهيم التركي قد طلب مني خطياً المشاركة لعلمه بمكانة المحتفى به عندي ولدى الأوساط الأدبية والأكاديمية، وحينها زورت في نفسي كلمات لم ترق إلى ما كنت أكنه لأبي هشام ومرت الأيام عجلى وفي نفسي أن أدلي بدلوي، غير أني فوجئت بالملحق يخرج إلى الناس دون أن يكون لي شرف الإسهام. وتذكرت وأنا أفكر في الخلوص من هذا المأزق الثلاثة الذين خلفوا وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، ولم ينجهم إلا الاعتراف بالخطأ وتحمل المسؤولية والصدق مع الله ورسوله، ولكن الله طهرهم بما عانوه من هجر، ويقيني أن أبا هشام لن يساوره أدنى شك بمحبتي له وإكباري له وسعادتي بالمشاركة في تكريمه.

وكيف لا أفعل وأنا أرد بعض أفضاله، وكان الخيار الوحيد أن اعترف بالتقصير في حق الزميل المتواضع إلى حد إنكار الذات والقنوع إلى حد التبتل وما أجبره في هذه الاعتذارية النابغية ليست له فهو المتسامح، ولكنها لمن سيستاء لو عن غيابي، وأنا الذي أعيش مع المحتفى به حد الخلطة، وإذا كان المشاركون من داخل المملكة وخارجها قد قالوا ما لا استطيع أن آتي بمثله فإنني لن أتردد في البحث عما حبرته وتعهدت بالعودة إليه ليكون قضاء لفريضته غائبة.

والمتحدثون عن الأستاذ الدكتور محمد الربيع ليسوا بحاجة إلى الثناء الذاتي ذلك أن جوانب حياته العلمية والعملية غنية بما يموضع الذات، ومن ثم فإنني سأضرب صفحاً عن الثناء الشخصي ولاسيما أنه أزهد الناس بالثناء، ومعرفتي به التي تمتد لأكثر من أربعة عقود تتوفر على معارف قد لا تكون مطروحة في الطريق.

فأبو هشام موزع الاهتمامات بين مشاريع أدبية يؤسس لها ويشرف عليها ويستقطب الكفاءات لإنجازها وأعمال إدارية ذات طابع أدبي أحسن صنعها ووسع مهماتها، وهو بين هذا وذاك كالنخلة يرف بجناحي المعرفة والتجربة، ولقد كان لي شرف الاشتراك معه في جانب من تلك المهمات.

وعجبني براعته في إدارة الجلسات وترشيد الحوار واستثارة كوامن الإمكانيات عند الآخرين والتوفيق بين وجهات النظر وتمكين المستهمين على السفينة من ممارسة حقوقهم دون اجتراح خرقها، وما حضرت جلسة يرأسها إلا أشفقت عليه ولكنني حين أراه بسماحته وبعد نظره ورحابة صدره وقدرته على امتصاص الشحنات الانفعالية استذكر قول الشاعر:

إذا أيقظتـــــــك همـــــوم العـــــــدى

ففيـــــه لهــــا عمــــــراً ثـــــم نـــــم

وعلى الرغم من تعدد مسؤولياته في كافة المحافل الأدبية والعلمية داخل المملكة وخارجها فإنه لا يُعَرِّس في مكان إلا ترك فيه أثراً ينسب إليه ويعرف به، فما كان في أي لقاء فضولياً ولا سلبياً ولا متهيباً ولا وجلاً، واجتراحه للآراء ومبادرته بالأفكار تواجه بالتقدير والإكبار.

---

(١) تاريخ المقال: ٨/ ٧/ ٢٠١٠

على أن شخصيته المتعددة الجوانب لم ترتهن للمهمات العملية وحسب بل تعدت ذلك إلى إسهامات أدبية في المحاضرات والندوات والمؤلفات ولقد كنت ولفيف من الزملاء نعجب من جلده وإصراره ومواكبته للمهمات واستيعاب لمتطلبات المواقف، فيما لا يدري هو بهذا التميز بل ربما يرى نفسه دون لداته حتى لا تجده في يوم من الأيام مدلاً بعمله، بل يكاد يتوارى من القوم ظناً منه أنه لم يقدم شيئاً وتلك سجية أغبطه عليها.

وفي فترات الراحة ورياضة المشي التي نمارسها معاً كان يحدثني عن هموم وتطلعات، ويلفت نظري إلى مشاريع علمية وأدبية يتمنى التوفر على الجهد والوقت للبدء بها وتسليمها لفريق عمل يواصل الأداء حتى يبلغ بها النهاية.

وأذكر ذات مرة أنه كان يحدثني عن الأدب المهجري، ويفكر ببدء دراسة لأدب مهجري إسلامي ضرب عن الباحثين صفحاً في حين استنزفوا جهودهم بالمهاجرين النصارى إلى (البرازيل) و(الأرجنتين) ولم يقع هذا لهم موقعه من نفسي لصعوبة المهمة، واذ بي أفاجأ بكتاب عن هذا الأدب هو في الحقيقة نواة للمشروع الذي أرجو أن يكون قد استثار همم المقتدرين علماً وجهداً ووقتاً، وأحسب أن الخيط الذي طرحه لو بادره دارسون جادون لأخرجوا لنا أدباً مهجرياً إسلامياً لا يقل عما هو متداول. ومثل هذه المبادرة مرت بالساحة بهدوء ولم يشأ أن يُدِّل بها، على الرغم من أنها مبادرة لها ما بعدها، فقد تحول مسار الحركة النقدية، والقضايا المفصلية لا يؤتاها إلا المتمكنون علماً وتجربة، وأهلية في قيادة فرق العمل، وأبو هشام يتوفر على هذه الإمكانيات واستعراض مجالات الأداء التي مارسها المحتفى به دليل على تمكنه الأمكن، لقد كانت له اسهاماته في جامعة الإمام، ومجمع اللغة العربية بالقاهرة والنادي الأديب في الرياض ودارة الملك عبد العزيز والمهرجان الوطني للتراث والثقافة ووزارة الثقافة والإعلام وسائر المهرجانات والمنتديات ومن ثم مما يحط من فهمه إلا إلى مهمة أخرى.

لقد مرت الدراسات التي كتبها طلابه وزملاؤه وعارفوا قدره في المؤتمرات على بعض منجزاته مر السحاب لا ريث ولا عجل، غير أن البعض منها نبه إلى جوانب وقدرات ما كان لها أن تقارب بهذه العفوية وذلك التخفف، وكم كان بودي أن ينتاب ظواهره لفيف من طلابه تكون نواة لكتاب يقربه إلى الأدباء وبخاصة دراساته الجادة التي ربط لها خيله ورجله وأبان من أدق تفاصيلها إذ ما كنت أود أن نختصره بجهوده العملية في كثير من المناسبات ك(المئوية) أو (الموسوعات) ولو فرغ المهتمون لتقصي اسهاماته في اللجان وفرق العمل والمناقشات والتحكيم لتوفروا على جهود مطمورة لو ذكرت بحجمها لشكرت.

والبادرة المباركة التي استثنتها جريدة الجزيرة في ملحقها وتولى كبرها أخونا الدمث إبراهيم التركي من المبادرات الإنسانية فالوفاء من شيم الرجال الأوفياء ولا يعرف الفضل لذويه إلا ذووا الفضل، والسنن الحسنة تبدأ صغيرة ثم تكون إضاءة وقدوة للآخرين، وحق العلماء والأدباء والمفكرين الذين بذلوا جهودهم في خدمة عشيرتهم الأقربين لا يمكن أن ننهض به على مستوى الأفراد، والملحق بتلك الممارسة الرائدة بحفز للوفاء بحقوق ممطولة.

نسأل الله لأخينا وصديقنا وعالمنا مزيداً من العطاء وللبقية التي ترقب التكريم مزيداً من الصبر والمصابرة.

وما الحل لهذا الوضع المأساوي .. ؟!(١)

تناقلت وسائل الإعلام وصف الأمير سعود الفيصل للوضع العربي بالمأساوي، وإن ربط المأساوية بما تتعرض له قضيتهم الأولى من تمييع وتضييع، ورجل مثله في عراقته السياسية وخبرته العملية وجلده في المهمات الصعبة خبير بما يتحدث عنه والقول ما قال ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾.

ووصف سموه الوضع بالمأساوي قائم في الواقع وفي الأذهان وهو واضح لكل ذي عينين وضوح النهار الذي لا يحتاج إلى دليل:

وليس ينفع في الأذهان شيء

إذا احتاج النهار إلى دليل

وليست الإشكالية في أن يشهد سموه بما علم، وإنما هي في التوفر على إمكانيات الخروج من ذلك الوضع المأزوم بأسرع الأوقات وأقل الخسائر.

والوضع المأساوي الذي بلغت الأمة العربية دركه الأسفل في كل قضاياها وأحوالها فضلاً عن قضيتها الأولى لم يكن وليد لحظة زمنية ولا ناتج خطيئة واحدة ولا مقترف فرد واحد. بحيث يُطَوّق زماناً ومكاناً وإنساناً.

ولكنه ناتج ترديات وإخفاقات وجنايات متلاحقة تمتد عبر الأزمنة والأمكنة والأناسي، والتصدي لوضع كهذا لا يحسمه الاهتياج الأعزل ولا الكلمات المعسولة ولا الوعود السرابية. كما لا يتوقع له الحسم الفوري، ومن زايد على شيء من ذلك فقد أسهم في مزيد من الارتكاس. وسمو الأمير حين يُذكِّر بمعلوم يود أن تنفع الذكرى، وأن يلامس تذكيره آذاناً تتكئ على نخوة (المعتصم)، وأمله أن تتخطى الأمة أجواء الإحباط واليأس والتردد إلى آفاق التفكير الجاد والمنظم بالخلاص من عقابيل تلك الأوضاع، على أنه لا خلاص بدون إدراك حقيقي للذات العربية بكل ما هي عليه. فالمريض حين ينطوي على علته أو حين يختلف الأطباء في تشخيصها يقع تحت طائلة التخرصات وقد يسهم التشخيص الخاطئ في مضاعفة العلة، والخطوة الأولى في سبيل الخلاص تتمثل في إدراك العلل على حقيقتها وبحجمها الطبيعي، واتخاذ الإجراءات المناسبة لها وفق الإمكانيات المتاحة، فما كل مرغوب مستطاع، وما كل رؤية ممكنة وما أضر بالأمة إلا المثاليات والعنتريات والاحتياجات الرعناء وممانعات المزايدة وكسب الغوغاء بالهتافات غير المسؤولة وغير المسنودة ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه وأتى ما يستطيع وتعهد إمكانياته بالتطوير وهممه بالشحذ، وما لا يدرك كله لا يترك كله، والأميال تقطع بالخطوات، والأودية تملأ بالقطرات، وقبل ذلك وبعده لابد من التغيير والتطوير والتوفير: تغيير ما في الأنفس والله الذي لا يسأل عما يفعل تعهد بذلك، وتطوير الإمكانيات المتاحة مهما كانت ضئيلة وتوفير الأجواء الملائمة للممارسة المنضبطة فلكل خطوة ضوابطها وقواعدها ومساراتها، ولن يتحقق الخلاص بالتفرد ولا بالأثرة وإنما تبدو بوادره بروح الفريق الواحد والإيثار وإنضاج القضايا بالتشاور والتحاور وتصفية الخلافات الوهمية والحقيقية وبث الثقة وتكافؤ الفرص وتداول السلطة واعتماد الشفافية وتماسك الجبهات الداخلية والتوفر على متطلبات العيش الكريم لكل مواطن، فالخوف والجوع وكبت

---

(١) تاريخ المقال: ١٩/ ١/ ٢٠١٠

الحريات ومصادرة الحقوق حواضن للفساد والتمرد وإجهاض المشاريع، فالإنسان أولاً ثم الوطن ثانياً إذ بدون الإنسان السوي لا يكون وطن سوي.

والقارئ للتاريخ الثوري العربي يقف على خطيئات محبطة وخطابات سرابية ووعود عرقوبية وعنتريات فارغة وخبط عشوائي في مفازات مهلكة حولت الأرض العربية منذ ستة عقود إلى حقول تجارب فجة لمبادئ ومذاهب وتيارات: قومية واشتراكية وبعثية وعلمانية و(ليبرالية) أريقت من أجلها الدماء وأحرقت الأرض وهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً، واستخف بالعلماء واستهزئ بالدين واغتيلت الحريات ونهبت الثروات ولم تتجاوز الكلمات المعسولة حناجر المأجورين يتبادلها المتداولون للسلطة، وكلما دخلت أمة تكنات القيادة خونت أختها وظلت الشعوب المغلوبة على أمرها تدفع الثمن من كرامتها وأمنها وحريتها.

وبعدما أثخنوا في الأرض وأشاعوا الإحباط واليأس هدأت الأمور ولكن بعدما خربت مالطة، وحتى فقدت الثقة واجتاح الشك والارتياب نفوس المدنفين وكشفت ثورة الاتصالات وتعدد القنوات واختلاط الحابل بالنابل عوار الأنظمة وأوضاع الشعوب دخل الأقوياء المتربصون بدعوى ترميم الكيان العربي وهم قد بادروا إلى تمزيقه إقليمياً عبر اتفاقية (سايكس بيكو) متوسلين لتكريس الفرق بتنويع الأحلاف والمصالح، ثم أتبعوا التقسيم الإقليمي تقسيمات فكرية وحزبية وثقافية وطائفية وقبلية، وناتج ذلك إشاعة العداوة والبغضاء والتفاوس باللسان والسنان، وفوق ذلك كله أصبحت الدول العربية مجالاً للصراع العالمي ومسرحاً لتنفيذ اللعب السياسية وميداناً لتصفية الحسابات والثارات القديمة وسوقاً رائجة للأسلحة التقليدية، وجاءت الطامة الكبرى (إسرائيل) بكل ما تنطوي عليه وتعج به من كيد دفين وعداوة في الدين لتكون خنجراً في خاصرة الأمة، ترقب التحركات، وتضرب المبادرات، وتحوك المؤامرات، وتوقظ الفتن النائمة، ولقد بلغ إيذاؤها حداً لا يطاق وأصبحت مماطلاتها لا تحتمل مستخدمة الزمن مستثمرة للأوضاع العربية والفلسفية لتحقيق أهدافها التوسعية ولم تزد هذه الأوضاع المأساوية بعض القادة العرب إلا تقرباً منها وتنازلاً لها وتودداً إليها، وأخطر شيء تواجهه الشعوب العربية اختراقاتها للأجواء وانتزاعها الشرعية حتى لقد امتد الداء العضال إلى المشردين من أبناء فلسطين حيث انشقوا على أنفسهم واحتربوا فيما بينهم وقسموا انتماءاتهم بين دول عربية وأخرى أجنبية وأصبحت الأمة مشروع أندلس جديد وعادت دول الطوائف يستعدي بعضها على بعض ويعتدي بعضها على بعض، وبلغت أوضاعها الدرك الأسفل حين قامت الصراعات الداخلية والحروب الأهلية وأصبح الحزب أو الطائفة أو القبيلة داخل الدولة يمثل حكماً ذاتياً لا يدين أفراده بالولاء لا للدين ولا للوطن وإنما يدينون بالولاء لرئيس الطائفة أو الحزب أو القبيلة، ومثل ذلك مرهص لتمزق الكيان الواحد إلى كيانات ضعيفة متناحرة تسهل السيطرة عليها واستخدامها لضرب الخارجين على الإرادة المتسلطة، ولقد دخلت بعض الدول العربية أنفاقاً مجهولة المصير بحيث لا تدري ماذا ينتظرها فهي بين تقسيم طائفي أو إقليمي أو قبلي أو احتلال أجنبي لا يرقب فيها إلا ولا ذمة.

وهل أحد يتصور فداحة المصير المرتقب الناتج من مثل هذه الأوضاع المأساوية.

إن الأمة العربية في راهنها تعيش حالة من الذهول قد يصل حد انشغال كل مرضعة عما أرضعت.

إن حروباً داخلية وصدامات حدودية وخلافات على قضايا مشتركة أدت إلى طريق مسدود ومع استحكامها وشدتها فإن بريقاً من الأمل ورسيساً من التفاؤل يفتح نفقاً قد ينفذ منه العقلاء لتدارك الأمة قبل أن تفني نفسها بنفسها.

ولـــرب نازلـــة يضـــيق بهـــا الفتـــى

ذرعـــاً وعنـــد الله منهـــا المخـــرج

ضـــاقت فلمـــا اســـتحكمت حلقاتهـــا

فرجـــت وكـــان يظنهـــا لا تفـــرج

فالحروب والصراعات والصدامات دروس عملية لمن ألقى السمع وهو شهيد، يجب علينا جماعات وأفراداً وحكومات أن نعيها وأن نبحث عن أسلوب بديل مثلما بحثت أوروبا ودول أخرى وقفت أمام خيارات متعددة فكان خيارها السلام والوئام وطي صفحات الماضي بكل مآسيه، والدين الإسلامي ندب إلى الجنوح إلى السلام، ومكن الأمة من عدة خيارات تأتي المواجهة العسكرية في آخرها، فإصلاح ذات البين أولاً، والإصلاح لا تراق فيه الدماء ولا تدمر فيه الأشياء، والأمة بوضعها الراهن أحوج ما تكون إلى مراجعة واعية لحساباتها وتفكير جاد بمصائر شعوبها.

والعقود الستة المأساوية بكل المقاييس كافية لمراجعة النفس وتدبر الأمر ومن ذا الذي لا يتعظ بالنكسات وهل واقع الأمة يسر؟

إن على القادة والمجالس النيابية في الدول العربية أن يتأملوا ما عليه الشعوب من يأس وإحباط وقنوط وخوف من المصير المجهول.

إذ لا يمكن تفادي الأوضاع بتمسك كل دولة بآرائها ومواقفها وذهاب كل حزب أو طائفة أو قبيلة بما يرون، لابد من التنازلات ولابد من بث الثقة والاطمئنان، فالخوف من الجار يستدعي التأهب وأخذ الحذر.

إن على الدول العربية بكل طوائفها وأحزابها وقبائلها أن تضع سقفاً للخلافات بحيث لا تتجاوز به موائد المفاوضات ومتى اطمأنت الدول من بعضها وأحست أن المصالح مشتركة وأن المصير واحد تجاوزت مرحلة الشك والتوتر وأقبلت على بعضها بنوايا حسنة ومقاصد سليمة، ويكفي من الآيات والنذر تلك الأدوار المخيفة التي تلعبها إيران في المنطقة وهي أدوار مكشوفة تجد من يقبل لعبها ويهيئ لها الإمكانيات للتدريب والتمويل والتخطيط ووضع كهذا يتطلب المكاشفة والمصالحة والعمل على تحييد أي مستغل خارجي للأوضاع المتردية وما ذلك على همم المخصلين الصادقين بعزيز.

تَنَبُّؤات الطقس «الأيديولوجي» المأزوم .. !(١)

مخاضات الأفكار لما تزل تدفع بالمذاهب والنظريات الشاذة أو المعقولة، وصراع المنتمين لإحقاق ما يعتقدون يحصد الأرواح ويحرق الممتلكات، ولأن الصراع من سُنن الحياة فإن الناجين من...

... غوائله يعودون لما فرغوا منه، وكأن الناس في دورة غذائية كل أمة طعام لأخرى، والحياة لا تحلو إلا بالتداول والتدافع ونسيان المآسي والآمال العريضة بالخلاص من كل مأزق، فالفقراء والمرضى والخائفون يُهَدْهِدهم الأمل ويُبلسمهم النسيان، ولا يكون الانتحار إلا مع القنوط واليأس والإحباط والتقعير والرؤية في أشلاء الهزائم.

ولولا الأمل لا انقطع الجهد والتفكير عند الصدمة الأولى، ولهذا جاء الإسلام داعياً وملحاً بالدعاء إلى الصبر والمصابرة والمرابطة والثبات والتحيز أو التحرف وكل ذلك مؤذنٌ بتخطي اللحظات الحرجة، ومهيئ لجولة ثانية قد تحسم الموقف لصالح المهزوم، ومتى قطعنا بصحة ذلك كله أصبح بمقدورنا تلقي أقدارنا بالقبول والرضى والتحرف لإعادة المياه إلى مجاريها.

واليقينيات الكبرى قد لا يُسَلِّم لها الإنسان في لحظات المفاجأة ولربما يطول زمن الارتباك والتردد، ويمارس الإنسان أثناءه فعلاً لا يتوقعه الفاعل من نفسه بعد أن يفيق من أثر الصدمة.

ولعلنا نضرب الأمثال بموقف الصديق والفاروق رضي الله عنهما من نبأ وفاة الرسول ﷺ، إذ نحن أمام إيمان يسبق العقل كما هو عند أبي بكر، وعقل يسبق الإيمان كما هو عند عمر بن الخطاب.

ولكل واحد من الخليفتين الراشدين نصيبه الوافر منهما، فالصديق فاق بإيمانه، وعمر فاق بعقله، واستطاع الإيمان ربط الجأش فيما لم يقدر العقل على تثبيط الانفعال، ومن ثم احتاج الموقف إلى تدخل خارجي لنقل المنفعل من أجواء الصدمة إلى أجواء التأمل والتسليم واستذكار ما غيبته الصدمة من النصوص القطعية الدلالة والثبوت.

وذلك ما فعله الصدِّيق حين دخل المسجد ونظر إلى عمر في لحظة ارتباك واهتياج من تأثير الصدمة، ولو أن الأمور تحكم بالعقل لكان أبو بكر أقرب إلى الانفجاع وفَقْد الصواب، ولنا أن نمتد بالشواهد إلى موقفهما من مواجهة المرتدين وتمرد حدثاء العهد بالكفر على شرائع الإسلام، والفارق الأقوى والذي لا يسلك الشيطان طريقاً يسلكه يذعن ويسلم في الحالين: حال القبول بموت الرسول، ومشروعية قتال المرتدين، فعمر مع الحق متى بدت بوادره ولا يعنيه الانتصار للرأي، وتلك سمة لو حضرت في الجدل بكل أنواعه لحققت الأمة الإسلامية انتصارات ساحقة على النفوس الأمارة بالسوء.

والراصد للحراك الأيديولوجي يقف على التعصب الأعمى وجاهزية المواقف، وترويج الكذب والخلط المتعمد بين السياسي والديني بشكل لا يدع مجالاً للحوار واحترام المرجعية النصية والشخصية.

وقراءة الخطابات المتناقضة والمسيسة لا يكفي معها الفهم المجرد من الملابسات والسياقات، فالمفكر قد يستوعب الحقائق والمفاهيم ولكنه لا يضرب بعضها ببعض ليقف على تقلبات الطقس والتنبؤات، وأخذ الاحتياطات على ضوء السياق والنسق والأحوال والنتائج واتجاهات الريح، فالاستيعاب المعرفي وحده لا يعني إلا إضافة أوعية علمية كـ(الأقراص المدمجة) ولهذا خاض التربويون صراع المفاضلة بين الحفظ والفهم،

---

(١) تاريخ المقال: ٢٦/ ١/ ٢٠١٠

وتفرقت السبل لكل الأطراف، ولو عرف المختصمون مآلات الحفظ والفهم ومدى تداخلهما لما اتسعت هوة الخلاف بينهما.

ولكيلا تتفرق بنا الشعاب أود الإشارة إلى موقف عارض تجلت فيه أهمية التنبوات. كنت في مصر في صيف العام الماضي وفي كل صيف أُرلِمُّ بقاهرة المعز، وكنت مع أحد الأصدقاء في (مكتبة مدبولي) استعرض كعوب الكتب المعروضة، وامتد بنا الوقت وتشعبت الاهتمامات، وخرجت بعد كل هذه الساعات بثلاثة كتب، الأمر الذي أوغر صدر صاحبي، وكأني به لا يرى تناسباً بين الجهد والوقت الذي انفقتهما في التنقيب وهذه الحصيلة المزجاة ولأنه ضاق ذرعاً بهذا التصرف فإنه لم يجد بداً من العتاب الساخر والتمتمة بالمثل العامي: (تَوَلَّدَ أَبَان وإلى سِحْبَلَّة) غير أني بادرت بالقول: استعراض الكتب لا يقف عند حد الشراء. فما الذي خرجت به أنت، وقد قضيت الوقت كله في قراءة كتاب واحد مسترخياً على أريكة وسط المكتبة؟

لم أنتظر الإجابة فالطقس الفكري والسياسي في تقلبات عجيبة ليست محكومة بعقل ولا موجهة بإرادة، والمستقرئ لها يتخذ سبلا ووسائل للتأكد من سمة هذا التقلب ومدى خطورته على رتابة الحياة وسيرورتها المتصالحة مع كل الشرائح والأطياف، ومن خلال استعراض المعروض من الكتب وجدت الناشرين يلهثون وراء ثلاث قضايا: -

-الطائفية.

-السياسية.

-الإدارة.

وقد لا يكون مهماً جَسّ النبض السياسي بقدر الاهتمام بجس النبض الطائفي فالسياسة تعيش مع الإنسان منذ النشأة الأولى ثم هي الآن في الصدارة الإعلامية، وليس غريباً أن تعيش الحضور بكل شموليته والتهابه، ولكن الغرابة في نوعية الحضور لا في كثافته، وذلك مكمن الخطورة، أما الحضور الطائفي المخيف وإن كان ناتج الاضطراب السياسي فإنه مثير للخوف والفضول وملفت للنظر لأنه يوحي بمتغير (أيديولوجي) ولن يكون مخاضه سهلاً ولا ميسوراً، ومن المؤكد أنه سيجر المنطقة إلى بؤر الفتن العمياء، لقد تصدرت الكتب الطائفية واجهات العرض، والمؤسف أنها تشكل حرباً كلامية ملتهبة تفقد المصداقية والمعرفية والموضوعية لأنها لم تعالج بأقلام العلماء والمحققين والمؤرخين، وإنما عولجت بأقلام المتعصبين والإعلاميين والمرتزقة، وتناول الطائفية من خلال حراكها السياسي وتخطيطاتها عبر بوابات جديدة قد لا يعود عليها بالخير ولكنها ستترك آثاراً سيئة في كافة المشاهد، وقد تتحول الحرب الباردة إلى حرب ضروس، وهي قد تحولت بالفعل في بعض المناطق والحروب الطائفية والأهلية تتسم بالهمجية والقتل المجاني.

لقد جاءت عشرات الكتب المعروضة إضاءات في عتمة المنعطفات والذين يستخفون بهذا الحراك لا يقدرون التعبئة الذهبية ولا تجييش الرأي العام وتحريض العقل الجمعي، والذين قاربوا تلك المناطق الساخنة لم يكن لديهم بصر ولا بصيرة وتعاملهم مع الظواهر والأحداث لا يمت إلى المصداقية بصلة، وكل الذي يتوفرون عليه إمكانية الوصول إلى المعلومات والبراعة في رصفها، وكل همهم أن تمتلئ جيوبهم وأن تنفق كتبهم وأن يتهافت عليهم الناشرون، ولأن طائفيات أبدت أعناقها وأصبحت مادة خصبة فقد توجه لها المؤلفون والناشرون وحرضت الفضوليين على استناق قراءتها بعيون لا يبصرون بها

وآذان لا يسمعون بها وصدق الله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾.

لقد أعيدت قراءة المذاهب والتيارات والحركات الإصلاحية بأسلوب تحريضي إقصائي تجريمي، وهو ما ينذر بالخطر ويمد التنبؤات بنار تلظى وقودها الناس والأمن وسائر الأشياء والمثمنات.

وإذا كانت الدول مسؤولة عن حفظ الحدود الإقليمية من الاختراقات فإنها مسؤولة أيضا عن حفظ الأجواء الفكرية من التلوث الفكري وليس في ذلك حجر ولا تسلط ولا سلب للحريات، فلكل أمة أمنها النفسي والفكري، وما من حرب ضروس إلا وقد مهدت بها الأقلام والحناجر.

وماذا على الحوثي لو لزم العافية ابتداء .. ؟[1]

سمع الناجون من تمرّد الحوثيين، والمكتوون بناره، والمقترفون لخطيئة التدبير والتدريب والتمويل، والمستفيدون من تمزق وحدة الأمة العربية، والمراقبون الذين لا يعنيهم من الأمر شيء قبول الحوثيين بشروط الحكومة اليمنية.. وإنهاء التمرد المسلح وعودة الأمور إلى أوضاعها قبل الحرب، وذلك ما كان الناصحون لأمتهم يبغونه من قبل أن تقدر الدولة عليهم، وماذا لو كان الخيار للسلم، وأن الحوثيين فاؤوا إلى رشدهم قبل أن تزهق الأرواح من كل الأطراف وتهدم البيوت وتحرق الأرض ويشرد الأبرياء من ديارهم، أليس في ذلك خير لهم ولمن حولهم ولمن جاورهم؟!.

والحوثي وهو يعلن هزيمته بعدما دفعت كل الأطراف أثماناً باهظة: هل سيحاسب نفسه عما اقترفت بحق الوطن والأمة؟ وهل سيسائل من غرَّر به وأمدّه بالعتاد والعدة، ثم نكص على عقبيه في ساعة العسرة؟ وهل سيكون التسليم تسليم صدق وندم، أو هو تحرُّف وتربُّص مثلما كان من قبل؟

لقد كان بالإمكان تفادي الحرب الضروس التي حصدت أرواح الشباب والكهول وخلفت الأيتام والأرامل والمشردين، وزرعت العداوات والأحقاد ونشرت الخوف والجوع وشغلت المقتدرين عما يجب عليهم من تنمية وإعمار وصناعة وزراعة وتعليم وترفيه. لقد أذل الحوثيون البلاد والعباد، وأضاعوا على أمتهم فرصاً ثمينة، ومكنوا لأعداء الأمة العربية من نفث أحقادهم وضغائنهم، وجروا على عشيرتهم الأقربين سُبَّة الدهر، وما حققوا من مغامراتهم الطائشة وغير المسؤولة إلا الويل والثبور، وما كان الحوثي في كل مغامراته إلا أجيراً لتنفيذ التدخلات المشبوهة واللعب الحاقدة، واللاعبون كالأوبئة لا يفتكون إلا بالأجسام القابلة لحمل (الفيروسات) الأجسام التي ليس لديها مناعة، واليمن بصراعه القبلي والطائفي والإقليمي مجال رحب لكل حاقد على الأمة العربية. وما كان اليمن الذي اختير ساحة لإيذاء نفسه وجيرانه بقادر على احتمال مثل هذه اللعب القذرة بهذا الحجم من التخطيط والتنفيذ، وما هو بحاجة إلى مزيد من المصائب والمشاكل، لقد كان منهكاً من قبل وأوضاعه الداخلية تنذر بالخطر، والراصد يدرك ذلك ويعرف أنه يمر بظروف عصيبة، وأنه غير قادر في ظل السلام والوئام على توفير أدنى حد من العيش الكريم لشعبه الذي أرهقته المزايدات الفارغة، ولولا الدعم غير المحدود من المملكة لما حقق هذا الحد الأدنى، وإقدام الحوثيين على التمرد المسلح في ظل الإمكانيات المتردية لا يمكن أن يكون خياراً ذاتياً ولا حلاً للخلاف القائم بين الدولة وسائر الأحزاب والطوائف، وأوضاعه المتردية أغرت اللاعبين لاتخاذه مسرحاً للتوغل والإيذاء؛ ذلك أن كافة الأطراف المتنازعة لا تقدر على اقتراف جرائم الحرب الأهلية بدون تدبير خارجي وتمويل سخي، والعملاء المرتزقون من يقبلون بالخيانة العظمى نظير جاه زائف أو ثمن زائل، وذلك ما تولّى كبره الحوثيون في حروبهم المتعددة، لقد رضوا بأن يكونوا أداة لتنفيذ اللعب الإقليمية والدولية، ومنذ أن برزوا للقتال وخبراء الحروب يعرفون المصير المحتوم، ولاسيما أنهم وسعوا مداها وامتد أذاهم للمملكة، والمشرع الحكيم المدرك لطبائع البشر شرع الصلح بين الفرقاء وأمر بقتال الطائفة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله، وما ادخر قادر على إصلاح ذات البين ما يقدر عليه، ولكن اللاعب الممول لا يريد الصلح فكان خيار الحرب، وكانت الهزيمة للفئة الباغية وكان الاستسلام الذليل، وليست تلك الحرب المدمرة هي الأولى بحيث يقال: إنها غلطة ولن تعود، إنها الحرب السادسة، وكل

---

(١) تاريخ المقال: ٢/ ٢/ ٢٠١٠

واحدة منها باءت بالفشل بعدما خلفت الويلات لشعب منهك بأوضاعه، وسيظل الحوثيون عبوة ناسفة وملفا ساخناً تحركه الأصابع الآثمة متى وجدت نفسها في ضائقة سياسية، ومتى أرادت أن تساوم على مطامع إقليمية. والحوثيون الذين لطخوا أيديهم بدماء الأبرياء قاتلوا بسلاح مهرب وليس مصنعاً محلياً ولا مستورداً وبأموال خارجية، فما كان بمقدورهم أن ينفقوا على ست حروب من عند أنفسهم، وتمردوا بإرادة خارجية تريد إضعاف الأمة العربية وجعل بأسها بينها شديد لتحقق الغلبة والهيمنة وفرض السيادة والتدخل في شؤون الدول العربية وتولي شأنها في المحافل الدولية. وعلى الأمة العربية أمام هذه التحديات والتدخلات السافرة أن تدرك المقاصد والغايات قبل نفاذها وتحقيق المراد منها، وكيف لا تعي المراد منها وبها، وما يحاك لها، وهي قد بلغت الدرك الأسفل من الهوان والمأساوية، إن عليها أن تعيد النظر في مجمل السياسات الإقليمية والعالمية، وأن تتدارك الأمر قبل فواته فما عادت الأوضاع تحتمل مزيداً من الترديات، وما دام في الأمر متسع فإن فوات الفرص مؤذن بمزيد من الضياع، والسعيد السعيد من يضرب صفحاً عن الماضي ويبسط يده للوفاق.

والشعوب العربية، على الرغم مما هي فيه من ضعف وما ينتابها من تدخلات سافرة، بإمكانها حل مشاكلها المفتعلة والفعلية ما لم تقترف حرباً أهلية أو حدودية، فإذا قامت الحرب فلا أنساب بينهم ولا يتساءلون، ففي أجواء الحرب ينسل الأعداء المتربصون من جحورهم يؤزون ويحرضون ويمدون المحاربين بالغي، وفي أجوائها ينشط تجار السلاح وتتحرك النعرات الطائفية والقبلية والإقليمية ويختل الأمن ويشيع الفساد ويستشري الفقر والمرض وتتعطل المشاريع، وتفقد الدولة سيطرتها وتخضع لشروط الداعم والممول، وما الشواهد الحية عنا ببعيدة؛ فهذه الصومال والسودان، وتلك من قبل ومن بعد العراق وأفغانستان، إنها آيات ونُذُر لمن أراد أن يذكّر أو أراد إنقاذ نفسه وأهله من موت محقق.

إن على الأمة العربية أن تعي الدرس العصيب، وأن تجنب نفسها ويلات الحروب بفتح أبواب الحوار وحسن الجوار؛ فالشعوب العربية ملّت المغامرات وضاقت ذرعاً بالأوضاع المتردية، وسئمت الوعود الزائفة، وواجب كل دولة أن ترتد إلى الداخل لتعيد الثقة ببناء الوطن وصناعة المواطن، فما عاد في الأمر متسع للتسويف أو المماطلة.

عشت في أشرف مهنة وقضيت في أنبل مهمة .. ![(1)]

قضى الرائد المظلي إبراهيم بن محمد الطاسان نحبه على جبل الدخان، على حدودنا الجنوبية، فيما واصل زملاؤه مهمة التطهير بعزيمة لا تلين، وشجاعة لا تُقهر...

وهل هناك أشرف من عين تبيت تحرس في سبيل الله؟

... وهل هناك أنبل من مهمة الدفاع عن الثغور وحفظها من كل معتد أثيم، والموت في سبيل الدفاع عن حرمة الأهل والوطن؟

هكذا عشتَ، وهكذا متَّ أيها الرائد الشهيد والصِّهر العزيز .. لقد دافعت عن حق مشروع، وذُدتَ عن وطن مَرُوْع، وأبليتَ بلاء حسناً في معركة الشرف، وتقحمت على الموت مقبلاً غير مدبر، لم تعتد، ولم تبدأ القتال، ولم تتخطَّ حدود وطنك، ولم تختر الحرب، وفي وسعك السلام.

قاتلتَ دون مالك وأهلك، وواجهتَ طائفة باغية تسللت إلى أرضك وحاولتْ أن تخل بأمن بلادكَ أرض المقدسات، والناس كلهم أجمعون يحتسبونك عند الله شهيداً، ولن يخيب الله ظنهم، يترحمون عليك، ويدعون لك، ويفتخرون بك وبزملائك، ويغبطونك على استشهادك. فكَّرت بالجهاد فجاهدت، وفضلت الشهادة فاستشهدت، والموت يقين، وكل نفس ذائقة الموت، والفخر لمن وُهِب الموت في الوغى. عشتَ في أشرف مهنة، وقضيتَ نحبك في أشرف مهمة، ومضيت ببدنك تاركاً الذكر الجميل. خلَّفتَ والدَيْك فهما يدعوان لك دبر كل صلاة، وتركتَ أرملة وأطفالاً فهم يذكرونك ويذكِّرون بك، لم تنقطع بموتك وقد تركت فيصلاً ومحمداً والعنود الذين ما زالوا ببراءة الطفولة يرقبون عودتك آناء الليل وأطراف النهار، وسيكونون بفضل احتسابك ودعاء أحبابك خلفاً صالحاً.

وصلاح الآباء يدرك الأبناء، ويحفظ لهم شأنهم كله، وقصة اليتيمين اللذين حفظ الله لهما كنزهما بإقامة الجدار كان أبوهما صالحاً، فلك ولزملائك الشهداء صادق الدعاء وخالص المحبة.

حرستَ المسجد الحرام في موسم الحج، ثم انطلقتَ مع رفاقك لتحرسوا حدود الوطن، موقعان لا ينازعان شرفاً، ومهمتان لا تطاولان أهمية: -

«علو في الحياة وفي الممات».. لقد كسب الأموات الشهادة، وكسب الأحياء النصر، وباء العدو يسبُّه الدهر.

أيها الرائد الذي لا يكذب أهله، نم قرير العين في مدينتك التي فخر أهلها باستشهادك؛ فتدفقوا كالطوفان وراء نعشك؛ فالوطن في أيد أمينة، وأهلك في عز مكين، وأطفالك في سعادة غامرة؛ لقد ورثوا المجد، ولو لَمْ تدع لهم إلا الشهادة في سبيل الله لكانوا أغنى الأغنياء وأشرف الشرفاء.

لقد أشرقتْ بهم داري، وانداحت بهم مشاعري، وشرفت بهم أسرتي، كنت أسعد بهم في حياتك كل عام مرة أو مرتين، وأنا اليوم أسعد بهم كل ساعة، أراهم وكأنهم جواذب خير ونوازع مجد وخيمة أمان، يسرحون ويمرحون كسحابات ممطرة أو ربيع ضاحك، وأصهاري كأولادي وأسباطي كأحفادي، لقد كانت آخر مكالماتك معي أن نكون مع زوجتك وأبنائك وقد تركتهم وحدهم في (قاعدة تبوك) وانطلقت تجيب داعي الله، وكدت تجهش بالبكاء حين طلبتُ منك ألا تشغلك إلا مهمتك الشريفة؛ فكل الأمة معهم.

وإذ يكون الموت حقاً ونافذاً إلى مَنْ هم بروج مشيَّدة فإن مجيئه على هذه الشاكلة من النوادر، ولو خُيِّر كلُّ حي بسبب موته لما اختار إلا الشهادة في سبيل الله؛ فالحمد لله الذي

---

(١) تاريخ المقال: ٩/ ٢/ ٢٠١٠

اختار لك ما شرفت به أسرتك وطاب فيه ذكرك، وما سمعتُ معزياً إلا يهنئ باستشهادك ويغبطك على موتك.

لقد حزنّا، ومن قبلنا حزن الرسول - ﷺ - على مَنْ استُشهد من أصحابه، وفَقْدُكَ مصيبة لا يتسع لها إلا الإيمان والصبر والاحتساب. ومما ضاعف الحزن أنك بقيت فوق ثرى الوطن أكثر من شهرين وزملاؤك يقتحمون الموت للوصول إلى جثمانك الطاهر، وكأنك لم تقبل بطن الأرض حتى تطمئن على نصر مَنْ بقي من زملائك الأشاوس الذين تلقوا الراية وأبلوا بلاء حسناً، وطهَّروا أرض الوطن من دنس المتسللين قبل أن يوارى جسدك الطاهر. لقد قضى الله أن تسقط على تراب وطنك مضرجاً بدمك، وتسقط معك قلوبنا التي لم يبقَ لها بعدك إلا الشوق إلى لقائك على الأرائك، والله المسؤول أن نظفر بنضرة النعيم.

والمصابُ يكون أمله بالله عظيماً؛ فالله إذا أخذ ما أعطى ورضي المصاب بالقضاء ثم طلب منه الأجر والخلف أُعطي ما هو خير، وأم سلمة رضي الله عنها راوية حديث: «**واخلف لي خيراً منه**» قالت حين مات أبو سلمة: «ومَنْ خير من أبي سلمة صاحب رسول الله»، لقد ترددت في أن تقول هذا الدعاء، وهي راوية الحديث. قالت: «ثم عزم الله لي فقلتها: اللهم آجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها». قالت فتزوجت رسول الله - ﷺ - وهو بلا شك خير من أبي سلمة. والخلف قد لا يكون في الزوج وحده، بل يكون في أمور كثيرة كأن يُنسأ للمصاب في أجله، ويُوسَّع له في رزقه، ويُجعل في العقب الصلاح والتسديد، وقد يسلِّي الله المصاب وينسيه الفقيد ويمكنه من استقبال حياة سوية ملؤها السعادة والهناء، وإذا لم يكن من الموت بد: «فمن العار أن تموت جباناً».

والإنسان الصابر المحتسب يشكر بثه وحزنه إلى الله كما فعل يعقوب عند فَقْد ولديه، والبكاء والحزن دأب المصاب، ولكنهما يحملانه على الاسترجاع تمثلاً للتوجيه الرباني: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ﴾، وكل مَنْ قالها مؤمناً بثوابها ظفر بثلاث هبات، أدناها تعدل الدنيا وما فيها (صلوات لله ورحمته وهدايته)، وهذا وعد رباني ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ﴾.

استُشهد الرائد البطل، كما استُشهد زملاؤه من قبل ومن بعد، وهو يقدم رفاقه لتطهير المواقع الواحد تلو الآخر، وكان كلما حرَّر مع زملائه موقعاً هاتَفَ زوجته ليطمئنها بالظفر والسلامة، وعندما تهيأ زملاؤه لتطهير الموقع الأخير طلب منها أن تدعو له، وشاءت إرادة الله أن يلقى الشهادة وهو يمارس العملية الشريفة في الهزيع الأخير من الليل، وظلَّت طوال الليل تهاتفه، ولما لم يرد عليها قطعت باستشهاده، وكان أن ظفر بها، فيما واصل زملاؤه مهماتهم الشريفة لدحر العدو.

رحمك الله يا إبراهيم «**وإن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون**».

﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

المسيري وشمولية السيرة .. !(١)

حين ضربتُ الأمثال ببعض السير الذاتية أثناء الحديث عن هذا اللون من السرديات، تذكرت فقيد الفكر العربي (عبد الوهاب المسيري) وسيرته المتميزة: أسلوباً وموضوعاً.. ..والتي يحكي فيها رحلته الفكرية في البذور والجذور والثمر، وهي من السير الذاتية والموضوعية في آن، وإن تعمد نفي الظاهرتين، وكانت قراءتي لها في طبعتها الثالثة المنقحة بعد استفحال المرض الخبيث الذي أودى بحياته الحافلة بجلائل الأعمال، ونفيه الذاتية مرتبط بتجافيه عن تقصي الحياة الأخص كالزوجية والأبوية وعلاقاته الشخصية، وتلك حجة لا تقدر على نفي الذاتية، إذ الذاتية أوسع من ذلك، وحق القارئ في توصيف العمل يضارع حق المؤلف بل يفوقه، وبخاصة بعد ظهور المناهج النقدية الحديثة التي قطعت صلة المنتج وحكمت بموت المؤلف وخوَّلت القارئ من إنتاج النص من جديد في أجواء معرفية ومنهجية، وآلية ضاع فيها النص والمنصوص، على اعتبار أن الدال غير المدلول وتدفق النظريات من دلالة ونصوصية وبنيوية وتفكيكية وتحويلية حولت المشهد إلى ملاعب جِنَّة، ومع ما أتاحته من توسع في الآفاق المعرفية والدلالية إلا أنها أجهضت حق المرسل وحكَّمت القارئ وأسعفته بنظريات التأويل والتفكيك.

وسيرة المسيري حين تخضع لهذه الآليات والمناهج ستكون خلقاً آخر قد تخالف رؤيته وموقفه منها، ولن نفرغ لفك الاشتباك ولا الاسترسال مع عشاق هذه النظريات والمصطلحات المترجمة والمعرَّبة والمنقولة فذلك يبعدنا عن قراءة السيرة بالطريقة التي نراها أقدر على الكشف والتوصيل.

وإذ تكون سيرته التي بين أيدينا ترصد لتحولاتها الفكرية والمنهجية وتحكي قصة حياته بوصفه مثقفا عربياً جالد وجاهد وغامر، ولم يرض بما دون النجوم فإنها سيرة ذاتية بكل ما يحمله ذلك المصطلح الحديث من مفاهيم، وليس مهماً أن نختلف أو نتفق معه في تحديد النوع السردي، ولكن المهم أن نجد بهذا العمل الموسوعي بُلْغَة معرفية تتشعب لتأتي على مجالات مهمة في المسيرة الفكرية العالمية المعاصرة، ولربما تكمن القيم الجمالية لهذا المشروع بالرصد الدقيق لتحولات الفكر العالمي ومدى انعكاسه على الفكر العربي، ولأن المسيري من بُناة هذا الفكر، فإن تحولاته الذاتية أصبحت مثلاً وأصبح الجيل بعد الجيل يَرْويها.

والمسيري كأنداده ومجايليه من أدباء ومفكري المغرب ومصر والشام والعراق حار في مفازات الفكر المعاصر الذي تنازعته الماديات والروحانيات والعلم والإيمان وحين استغرقه العرض والتحليل لهذه التيارات وتلك الظواهر نفى أن يكون ما يكتبه من باب السرديات السيريَّة، وشيء آخر عضد رؤيته النافية كون هذه السيرة جزءاً من مشروعه القيم: «موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية» ولم يحمله على فصلها عن هذا المشروع إلا الاتساع والتشعب، إذ نيفت على سبعمائة صفحة وأحسبه قد وقع فيما وقع فيه «ابن خلدون» في المقدمة التي امتدت وتشعبت وأصبحت نظرية في فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع، وبقدر انتشارها وشيوعها فقد خَمُلَ تاريخه وتألقت مقدمته غير أن المسيري الذي ربما فكر أن يجعل السيرة الذاتية مقدمة للموسوعة حافظ على مكانة السيرة والموسوعة إذ لم تُنْس موسوعته، ولم تخمل سيرته، كما أنه لم يرتهن لأحدهما، وكل كتاب من كتبه تحسبه جوف الفراء.

---

(١) تاريخ المقال: ١٦/ ٢/ ٢٠١٠

وإذ لا نذهب معه في تحفظه؛ لأننا نقطع بأنها سيرة فكرية كما السيرة الشعرية أو الأدبية أو السياسية، والعلماء والساسة والمفكرون إنما ينطلقون من تخصصاتهم أو من اهتماماتهم، وما يكتبونه عن أنفسهم لا يقف عند حد الرصد التاريخي إنهم يبعثون برسائل ويطرحون آراء ورؤى ويريدون أن يشيعوا ما يعتقدون، ويودون احتواء الرأي العام وإقناعه بما يرون، فالمسألة في النهاية دعوة إلى فكر ولكنها تتخذ صيغاً متعددة وأساليب متنوعة، وليس في ذلك عيب؛ فكل مفكر هو في النهاية معلم وداعية في آن.

وتسجيل الممارسات الحياتية ربما يكون الهدف منه الاقتداء، وكم من عالم كانت سيرته قدوة صالحة، والصحابة رضوان الله عليهم كانوا مصاحف يمشون في الأسواق، وعائشة -رضي الله عنها- تقول عن الرسول -ﷺ-: (كان خلقه القرآن)، وكل ما يقال من فعل أو ترك يُعدُّ من صميم السيرة الذاتية.

وقراءة هذه السيرة تبدي تخلي السارد عن هيمنة السرد التاريخي، وقد يَعُدُّه البعض خروجاً على مقتضيات السيرة الذاتية، غير أن طائفة من كتاب السِّيَر اعتمدوا هذا المنهج، ولم يحملهم الخلوص من التدرج الزمني على نفي السيرية.

وهو إذ نفى الذاتية فقد نفى الموضوعية على اعتبار أن من شرط الموضوعية تناول القضايا الفكرية المجردة؛ أي تناولها بعيداً عن ارتباطها بذات السارد، وإذ جعل القضايا الفكرية مرتبطة بوقائع محددة في حياته فإن هذا الربط ينفي الموضوعية، وتلك حجة أخرى لا تقدر على نفي الموضوعية، ولقد كانت للمفكر العربي الشيعي الماركسي (علي حرب) سيرة فكرية تحدث فيها عن خطاب الهوية؛ حيث أكد على تحرره من التبعية المذهبية والدينية، واستبعد لعبة المفاضلة، ولكنه مع هذا لم ينف سمة السيرة عن عمله، وقد نعود إلى قراءة تلك السيرة المثيرة والمتشائمة، لأنها جاءت دون عمل المسيري بمسافات بعيدة، وإن تحدث عن مشخصات فكره التمردي على الماضوية والهوية الدينية.

والمسيري الذي كان وفياً مع تراثه وانتمائه الحضاري حاول استبعاد الملمح السردي، وهذا العمل الثري والمثير يمثل رحلة فكرية مضنية كشفت عن عناصر تكوينه المعرفي والفكري، وقد تجنح إلى دراسة الوقائع لا إلى تسجيلها وتحليل التجارب الشخصية لا إلى التأريخ لها، ولعل رسم الخريطة المعرفية للذات القلقة المتسائلة من أصعب الممارسات لأنها في النهاية خارطة شمولية تستدعي شركاء الهمِّ، وهو في سيرته لم ينفصل لحظة واحدة عن مسار الفكر عربياً وعالمياً إذ أشار إلى المذاهب والظواهر والتيارات ثَوَّر جذورها الفكرية ومرجعياتها الفلسفية، ولم يكن مُسْتَعِيداً ساذجاً، وداء مشهدنا العربي تهافت المتسطحين، وتبني «أيديولوجيات» تنتفي معها حضارة الانتماء.

لقد جاءت تلك السيرة خلاصة حياة جادة تجلت فيها مرحلة التكوين من الجذور إلى التشكل، ولقد سمى تلك المرحلة بالبذور والجذور، فيما سمى المرحلة الثانية بـ«الثمرة» معتمداً على تجلية النماذج الإدراكية والتحليلية، ولأن زبدة حياته الفكرية تمثلها «الموسوعة» فقد خصها بمزيد من العناية، وأجمل ما في هذه السيرة الحديث المستفيض والمتواصل عن كيفية تشكل الحياة الفكرية وتحولاتها في المشاهد العربية.

ولم تكن السيرة التي أراد لها المسار الصعب تاريخ حياة، وإن نثر هذا التاريخ في ثناياها كلما استدعته لحظة التحول، وجاذبيتها في التداعيات والاعترافات، فهو يمنح نفسه أكثر مما يستحق ولا يجد غضاضة في كشف أخطاء تصوراته وسرعة تحولاته، إذ لا يصبر على الرأي ولا يأخذه الاعتزاز بالتأثيم، وإذ بسط القول عن المجتمع الريفي التقليدي في مراتع صباه في «دمنهور» فإنه استصحب بساطته في مراحل حياته كلها.

وقيمة السيرة في وقفاته المتأنية أمام الظواهر الفكرية والمنهجية التي أضافت إلى إمكانياته ومدركاته مزيداً من الحصافة. واعترافه بفضل السابق وأثره فيمن خلف أسقط

التشبع والادعاء عند من يظنون أنهم أطناب الحضارة وأوتادها، وما هم إلا تبع عجاف يجترون المتداول ويجمعون ما خف حمله وضؤل ثمنه من الذين لا يتجاوزون بجهودهم جهود النمل الذي يجمع ولا يتمثل، لقد كان بحق كالنحل تغدو خماصاً وتعود بطانا من مختلف الأزاهير ثم تمجه عسلاً مصفى.

وتلك السيرة جملة وثائق حدَّد فيها منطلقاته وموارده ومستخلصاته وأثر المذاهب والمناهج في مساره الفكري ورؤيته للكون والحياة.

وإذ أؤكد على وعيه التام بالظواهر الفكرية الحديثة أحيل إلى قراءة ما كتبه عن «العلمانية» أن الجزئية والشاملة، وتصالحه مع الجزئية وفق مبررات وحيثيات قد لا نتفق معه فيها و لكننا نحترم رؤيته وبعد نظره، وإلى قراءة ما كتبه عن «الحداثة» والفهم الناقص عند متلقيها في الأوساط العربية. ولأنه يمنح نفسه شرف الدفاع عن «الإنسان» و«الإيمان» فإنه يرفض التسليم ل«الحداثوية» و«العلمانوية» إن صحت الصياغتان، وتصور المفهومين والتفريق بين الصيغ ل«التاريخانية» و«الإسلاموية» ملاذ المرتبكين في تضارب المفاهيم وتفاوتها، وهو قد تحدث عن العلمانية بشقيها في كتاب مستقل من جزأين، وحديثه لم يكن محكوماً بالعاطفة وإنما هو معرفي عقلاني خالص، وكما أشرت من قبل فأنا هنا لست بصدد تحديد الموقف من آرائه، ولكنني أشير إلى عالم مسيطر على الموضوعات التي ألمَّ بها في السيرة، وفصَّل الحديث عنها في إسهامات مستقبلية، ويعتصر المختصر أن المسيري علم من أعلام الفكر المعاصر وسيرته الذاتية أو غير الذاتية وغير الموضوعية، كما يحلو له أن يسميها كوّة يطل منها الإنسان على عالمه الحافل بالتحولات الفكرية والسياسية، وإذ تكون سيرة «عبد الرحمن بدوي» دفاعاً عن الذات القلقة فإن سيرة المسيري كشف للذات المتأملة.

التداخل الدائري بين الحضارات والتباس القراءات .. !(١)

علاقة الحضارة الإسلامية بسائر الحضارات القائم منها والحصيد علاقة جدلية تراوح بين الصراع والصدام والسلام. والمستويات الثلاثة ممكنة: عسكرياً وفكرياً، وهي خيارات محفوفة بالمخاطر، ما لم يضطلع بها أهل الذكر والسياسة؛ إذ كل واحد منها مشروع أو محظور وفق سياقه. ومعضلة الجدل الفكري والتاريخي والسياسي غياب أو تغييب النسق والسياق أثناء الحُكْم على الظواهر. والنسق والسياق هما قوام التصوُّر الذي أكد عليه الأصوليون عند الحُكْم على الشيء، وما تفرق الذين يكتبون في سائر الشؤون إلا لأنهم لا يستحضرون محققات الفَهْم السليم. ولأن حسم شيء من الصراع أو الصدام أو السلام غير ممكن فإن خيار (السلام) هو الخيار الأهدى والأجدى للحضارة الإسلامية في راهنها المأزوم، والجنوح إليه مطلب رئيس، ولا يحيد عنه إلا هالك. وليس السلام اضطراراً، فيما يكون الصراع والصدام كذلك. والضرورات تؤخذ بمقدار بحيث لا يكون الآخذ باغياً ولا عادياً، وأي خيار منها لا يكون حضارياً وإنسانياً حتى يستوفي متطلباته، وحتى تقتضيه المرحلة المعاشة؛ ذلك أن السلام ربما يكون ضَعَة لا تواضعاً، واستسلاماً لا سلاماً، وذلك حين لا يستدعيه الموقف، أو حين يلجأ إليه المستضعف اضطراراً لا اختياراً. وبقدر حاجة المحارب إلى السلاح الرادع والإنسان القوي فإن المسالم الشريف بحاجة إلى القوة ذاتها والإنسان الأقوى عينه تحقيقاً لمقولة: «من أراد السلام فليستعد للحرب». والجنوح للسلام المطلق وغير المشروط مخادعة للنفس وإذهاب للكرامة وتفريط بالحق المشروع، وأي تحرف لواحد من تلك الخيارات لا يكون متوافراً على إمكانياته ومتطلباته ينقلب إلى ضده؛ ذلك أن خيار السلام صعب صعوبة خيار الحرب.

والمرحلة المعاشة للأمة العربية بكل ما تمخَّضت عنه من مفاجآت موجعة وتحديات عصيبة وويلات ممضة فرضت عليها خطاباً تسامحياً لم يكن في بعض مستوياته حقيقاً بالقبول؛ لمجيئه في بعض الوجوه مفرغاً من قيمه الإيجابية؛ فالتسامح نزوع طبعي للإسلام، ولكنه كما الجهاد والسلام والولاء والبراء لا يكون شيء منها حقيقاً بالاحترام بدون حدوده وضوابطه ومحققاته؛ ذلك أن التسامح لا يعني التخلي عن محققات الوجود الكريم، وممارسة البعض له ممارسة هوان وذوبان. والحضارة - أي حضارة - كيان تحققه الضوابط والمقاصد والسمات والخصوصيات، وفي ظل تلك المؤشرات يظل الكيان - أي كيان - متداخلاً مع سائر الكيانات القائمة، ولكنه تداخل لا يتجاوز تحقيق الحضارة المشتركة (الحضارة الإنسانية) التي تمثل الدائرة الأوسع في الوجود الإنساني. فالإنسانية لها حضارتها التي لا تلغي ما دونها من الدوائر القومية والدينية، وكل الحضارات تشكِّل تداخلاً دائرياً لا تُفقد معه الخصوصيات، ولو أخذت الحضارات المتعاقبة أو المتزامنة هذا التداخل بحقه لشاع السلام والوئام بين العالم المتفاني بسبب العصبيات والتعصبات. وإذا كانت الحضارة الإسلامية قد ورثت حضارات سابقة عليها أو مزامنة لها فإن ما سواها مارس المسار الاستيعابي ذاته، محققة في النهاية مقولة: (ليس هناك حضارة بريئة). غير أننا لا نمضي مع مقولات (ماركسية) انتحلها (ماركسيون) هالكون أمثال (خليل عبد الكريم) في كتابه (الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية)، ولقد لفت إلى هذا التداخل والاقتراض والاسترفاد حديث: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»، وحديث القصر الذي تنقصه لبنة. وعلى ضوء ذلك فإن بالإمكان حوار الحضارات وتعايشها؛ إذ ما من حضارة إلا هي على جانب كبير من المقاصد الإنسانية، وإن كان ثمة اختلاف - وهو كائن بلا شك

---

(١) تاريخ المقال: ٢٣/ ٢/ ٢٠١٠

- فإنه في جوانب الشريعة والمنهاج، وتلك لا ينعدم معها الوفاق، حتى لقد جاءت (الماسونية) مخادعة بشعارها الذي تتسع له كل الديانات (الحرية والعدل والمساواة)، وهذا الشعار المخادع دفع كثيراً من أساطين الفكر والسياسة للدخول في المحافل الماسونية، وعرَّض تاريخهم للنقد الجارح، مع أنهم خُدعوا بذلك الشعار. على أن افتراض خطأ الآخر لا يعني فرض صواب الذات على حد (الجهل بالشيء لا يعني العلم بالعدم)، وإنما يعني النظر فيما إذا كان هذا الفعل المخالف من محققات حضارة الآخر، وكيف لا يكون للآخر نصيبه من الحق المشترك، وحديث «**الحق ضالة المؤمن**» محرض على التنقيب في تجاويف حضارة الآخر والتقاط ما لديه من الحق. وإشكالية الخطاب (التنويري) أنه لا يفكِّر بالتصحيح داخل المعمار الحضاري الذي ينتمي إليه، وإنما يقترف خطيئة هدم المعمار والصيرورة إلى معمار آخر قد لا تتوافر فيه شروط المشروعية ولا مقومات الوجود الكريم. والخلوص من مكونات الذات لتلقي مكونات مغايرة لا بد أن يمر بفراغات لا يمكن السيطرة عليها. وتلك الممارسة غير السوية وغير الحضارية أشبه بالثورات الدموية، فئة خارج السلطة تسطو على السلطة الشرعية ثم لا تلبث أن تجرمها وتصادر حقها في الوجود التاريخي. وإذ تعاقب الناس على مقولة «لا يكتب التاريخ إلا المنتصر» فإن هناك واقعاً أنكى، وهو افتراء الكذب على السلطة الشرعية المستلبة. وكتاب (الصامتون يتكلمون) لا يحكي مأساة السلطة المسلوبة، ولكنه يحكي واقع فئة أسهمت في صنع الثورة ثم كان قدرها أن تكون الوجبة الأولى على سنن «الهرّة تأكل أولادها»؛ فالثورات كنار المجوس تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله.

والحراك حسياً كان أو معنوياً يقفو أثره المفكِّر والسياسي والمؤرخ والإعلامي، وهؤلاء هم الذين يصنعون أرضية حوار الحضارات، ومن خلال ممارساتهم تتشكَّل مداخلها ومخارجها. ومعضلة القَفْو في تلونه عند كل متعقب، وليس أدل على ذلك من الحضارة الإسلامية وآدابها وتاريخها؛ لقد انتهت إلينا عبر خطابات متعددة؛ فالذي يتقرَّاها في كتب التاريخ السياسي كما هي عند (الطبري) و(ابن خلدون) و(المسعودي) لا يمكن يكون تصوره متماهياً مع الذين تقرَّوها عند (الذهبي) و(البغدادي) و(ابن عساكر)، والذين قرؤوها في العصر الحديث شدتهم مذاهبهم ومناهجهم ومناطاتهم الحضارية ومشاربهم الفكرية؛ فـ(طه حسين) قرأ التاريخ السياسي والأدبي، ولم تكن رؤيته كرؤية (أحمد أمين) في كتبه (الفجر والضحى والظهر)، والاثنان يختلفان عن (العقاد) و(الرافعي) و(محمود شاكر)، ولن نشق على أنفسنا ولا على القارئ في تفسير هذا التباين، ولكننا نسوق ذلك للتأكيد على أن القراءات تخلق العقبات أو تمهد طرق الحوار وتبادل المصالح وإمكانية التعايش السلمي، وكل قراءة تعطي تصوراً مناقضاً، ودعك من قراءات الملل والنحل التي جعلت الأمة شيعاً يذوق بعضهم بأس بعض، وهو الوعيد والإنذار من الله لعباده في قوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾. فعند البخاري (يلبسكم): يخلطكم من الالتباس. وتلك معضلة الأمة في تعدد الرؤى والتصورات، وحديث اقتسام الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة سببها القراءات والتأويل الفاسد وتحريف الكلم عن مواضعه، وهي العقبة التي تحول دون إمكانية الحوار.

ومحصلة ذلك كله أن العصر الحديث يستدعي قراءات وسطية مزودة بكل الإمكانيات القرائية؛ كي تخلص الأمة من الصدام والإقصاء والتصنيف ومصادرة حق الآخر. وإذ يكون خيار السلام رئيساً فإن حوار الحضارات بضوابطه ومحققاته خيار

رئيس، ولن يقي الأمة من مصارع السوء إلا الجنوح إلى السلام وإتقان لغة الحوار واستنزاف القواسم المشتركة لبناء حضارة إنسانية تحتضن كل الحضارات وتمكِّنها من ممارسة حقها بحرية وأمان، ودون الإخلال بالثوابت والمسلَّمات ومحققات حضارة الانتماء.

العواصم من قواصم الجهل المركَّب .. !(١)

من المسلَّمات الغائبة أنه ما من أحد إلا راد ومردود عليه إلا أولي العزم من الرسل فيما عُصموا فيه، وقد يواجَهون فيما يجتهدون فيه مثلما فعل عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - مع رسول الله - ﷺ - في مواقف كثيرة أشار إليها القرآن وحفظها التاريخ؛ ذلك أن الرسل لا ينطقون عن الهوى. وتذكر هذه المُسلَّمة والقبول بها مؤذنان بتقبل الخلاف والنقد بقبول حسن، وحمل النفس على قبول الحق.

وما من أحد إلا وهو مرتهن لمرحلته، ومنطلق من أنساق عصره الثقافية، والناس يكدحون ما عاشوا ليلاقوا جزاء عملهم، وفي الحديث: «**كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها**»، والغدو يكون حسيا ينطلق فيه المرء للكسب المادي أو المعرفي، ويكون معنوياً كانطلاق الأفكار والتأملات في الظواهر الكونية والتحوُّل من إيمان الوجادة الأبوية إلى إيمان القناعة والاطمئنان.

وقَدَرُ قادة الفكر والإصلاح والتجديد أنهم في زمن انفجارَيْن هما أخطر من الانفجارات (النووية):

-الانفجار المعرفي.

-ثورة الاتصالات.

فكل حدث علمي أو فكري أو كارثي يقع في أي بقعة من بقاع العالم يكون خلال دقائق معدودة في متناول كل متابع، وكل حدث يحمل معه شفراته ومفاتح غياهبه، ولم يعد هناك مكان للتسليم المطلق ولا للرفض المطلق، وليست الإشكالية في تعدد الخيارات وكثرة بنيات الطرق على حوافي الصراط المستقيم، ولكنها في التدبير الماكر من أساطين الملل والنحل، والقدرة الفائقة على وسائل الجذب والإغراء، وتنامي الجهل المركَّب. فالذين يخوضون معترك الفكر والفن والدين والسياسة ويتصدرون القول في ذلك يجهلون أبسط قواعد ممارساتهم، ويجهلون أنهم يجهلون، ومن ثم لا مكان لديهم للتزوُّد بالمعارف، ولا استعداد عندهم للخلوص من الخوض في عويص المسائل. وما نشاهده ونعايشه مصداق لإخبار المصطفى - ﷺ - بذهاب العلم وتفشي الجهل وتصدُّر الجهلة. والواقع الفكري المعاش مليء بدعاة السوء الذين أكد المصطفى أنهم على أبواب جهنم، وليس شرطاً أن يقف الداعية بلحمه ودمه وصوته وسوطه، ولا أن يعرفه الناس بسيماه، وإنما هي كلمة يرسلها أو عبارة يحبرها أو صوت منكر يحمله الأثير؛ فكل تلك الوسائط تترك من الأثر فوق ما يتركه التلوث البيئي، والمشاهد كافة مليئة بِحَمَلَةِ المذاهب والاتجاهات والأفكار التي تنساب كالخدر من حقولها لتكون للمتلقي عدواً وحزناً. وكيف لا تكمن الخطورة في المسموع والمشاهَد والمقروء ورسول الله - ﷺ - حين رأى بيد عمر بن الخطاب ورقة من التوراة نهره قائلاً: «**أفي شك أنت يا ابن الخطاب؟**»، وهذا الزجر لا يعني العلماء الذين نذروا أنفسهم لتصور الفكر المضاد.

والممتلئون إعجاباً بآرائهم واغتراراً بأنفسهم يأنفون من المراجعة ويفرون من النقد، ويتهمون المتسائلين والمترددين بالتحجر والتعصب، ويرون أنفسهم وما يتفوهون به فوق المساءلة والنقد، وهذه الحساسية المفرطة مؤشر ضعف في النفوس ونقص في المدركات وضحالة في التجارب .. والعلماء المتبحرون لا يجدون غضاضة من النقد، وقد يتعمدون تبادل الاحترام في ظل الاختلاف في الآراء، وهذا (الشافعي) - رحمه الله - يؤكد عدم تأثير الاختلاف على العلاقات الشخصية، وكيف لا يتقبل العقلاء المراجعة ورسول الله -

---

(١) تاريخ المقال: ٩/ ٣/ ٢٠١٠

ﷺ - ثناه القرآن الكريم عن بعض ما يريد، وعاتبه على بعض ما فعل، وعتاب الله لرسوله منثور في آي الذكر الحكيم وسوره؛ ليكون مثبطاً ومثبتاً لمن أخذتهم العزة بالإثم وعذَّبتهم الأنفة الزائغة. وعتاب الله لرسوله لا يتنافى مع العصمة؛ لأنه عتاب توجيه وليس عتاب تخطئة؛ فالله يقول لرسوله - ﷺ -: ﴿وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾، ويقول: ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾، ويقول: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَه أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ﴾، ويقول: ﴿عَفَا اللّه عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾، ويقول: ﴿وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾، ويقول: ﴿وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً﴾.. ومواقف أخرى (كإلقاء الشيطان في أمنيته) و(قصة زواجه من زينب) و(اعتزاله لنسائه) و(تحريمه ما أحل الله لمرضاتهن) و(قصة ابن أم مكتوم) ودون ذلك مراجعات الصحابة له وأخذه ببعض ما يرون.

كل ذلك يدل على أن المراجعة مشروعة، والاختلاف قائم، وليس لشيء منهما أي ارتباط بمكانة الإنسان أو مبلغه من العلم، كما أن المراجعة لا تدل على الخطأ، ولكنها تدل على تباين المشارب وتفاوت العقول ومدى مناسبة الآراء للمرحلة المعاشة؛ فما هو صالح اليوم قد لا يكون بالضرورة صالحاً للغد، وكل مخلوق مرتبط بزمانه وما يقتضيه، والجدل الثائر بين علماء التفسير والأصول حول جريان النسخ في القرآن ومجالاته دليل واضح على النظر في أحوال الناس وتقلبات الأوضاع. ولو رحبت الصدور للمساءلة والنقد لما أُتيح للخطأ أن يتأسس ولا للجنح أن تشيع، ولو عرف كل إنسان قدره ومبلغه من العلم لصينت الشرائع واستقام أمر الناس، وإذا ذهب الحياء والخوف تقحم العزَّل مضامير اللزز على جياد عجاف، والذين يحملون هموم أمتهم يمارسون ما يحقق الخيرية لها من أمر بمعروف ونهي عن منكر، وتلك المهمة الشريفة والفريضة القائمة في بلاد الحرمين الشريفين ليست وقفاً على الوعظ والإرشاد ومحاصرة الجريمة، ولكنها لون من الاحتساب؛ فالشاعر والقاص والكاتب في قضايا الفكر وأحوال المجتمع حين تشغلهم هموم أمتهم يحققون بفعلهم خيرية الأمة، ومن ثم لا بد من الاحتساب والشعور برسالة الكلمة وأهميتها؛ فهم بما يسطرون آمرون بالمعروف ناهون عن المنكر. وإذ لا يجوز الحجر على الأفكار ولا شحنها بما لا تهوى فإن مشروعية السبحات الفكرية ليست على إطلاقها؛ فنحن أمة الامتثال لأمر الله والاستقامة على شرعه ومنهاجه ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾. وكل حضارة لها مقتضياتها ومحققاتها ومقاصدها، ولكل مرحلة متطلباتها، والناس في النهاية أبناء راهنهم، وليسوا أبناء تاريخهم، والمجربون ينهون الآباء عن التسلط على الأبناء؛ لأنهم خُلقوا لزمان غير زمانهم، ولكل فعل ضوابطه، حتى الحرية لها سقفها.

وكثير من المتعثرين يرجع إخفاقهم إلى عدم التأسيس المعرفي والتأصيل للقضايا والمسائل ذات المساس بالحضارة، والشباب الذين زلَّت أقدامهم تقحموا الحياة الفكرية بفطر سليمة ومقاصد حميدة وبضاعة ضئيلة لم تَقِهم من لوثة الفكر وفساد الأخلاق. ولما لم يجدوا مَنْ يردُّهم إلى جادة الصواب رداً جميلاً أوغلوا في الخطيئة واستمرؤوها. ولو أن المؤسسات الدينية والفكرية تمتلك الطرق والأساليب التربوية والنفسية، وتتوافر على أدبيات الحوار والمناظرة التي يمتلكها دعاة السوء، لما كان التلوث بهذا الحجم المخيف.

ولقد استعاذ المجربون من جلد الفاجر وغفلة المؤمن؛ فدعاة السوء يأتون الأبرياء من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم.

والصراع الفكري لا يخلو من التآمر والغزو، وإن ضاق بهذا الادعاء غير المجربين، وسموا ذلك بعقدة التآمر، والكيد والمكر لم يكونا وليدَيْ عصر دون عصر؛ فكل عصر بحسبه، وكل طائفة تمتلك من القدرات ما يستدعيه وسطها.

ومشاهدنا العربية تفيض بالممارسات غير السوية، ولعلنا نضرب الأمثال بالانفجار (الروائي) على المستويات والاتجاهات كافة؛ فكل شاب تعوَّد على الإنشاء لا يجد غضاضة في إخراج رواية أو أكثر متوسلاً بالمسكوت عنه ومستغلاً للأزمات القائمة والظواهر الملحة ك(الإرهاب)؛ ليكون ذلك ظهيراً وعضداً لإشاعة عمله وإثارة الرأي العام، غير آبه بالآثار السيئة التي يتركها مثل هذا العمل الضعيف. وهذا السيل من الروايات المحلية - على سبيل المثال - تناول قضايا دينية واجتماعية وسياسية، وجمع بين ضعف في اللغة وضحالة في الأفكار وتحلل في الأخلاق وغياب لأبسط المقومات الفنية. على أن هذا الصنف من المغامرين وجد مَنْ يحيطهم بالمكاء والتصدية، ويغريهم بمزيد من الأداء الرديء.

ولو قُيِّض للمشاهد نقَّاد أشداء لا تأخذهم بالحق لومة لائم لكان واقع الرواية المحلية واقعًا مُرضيًا على الأقل. وإذ يُستساغ الضعف اللغوي والتهافت الفني فإن الجنايات الفكرية والأخلاقية لا يمكن القبول بها ولا المواطأة عليها. وأي مشهد موبوء بحاجة ماسة إلى مواجهة شجاعة تُثني الجهلة بأنفسهم والأدعياء عما هم عليه من ثقة في غير محلها. ولا يمكن أن نعصم مشاهدنا من القواصم ما لم نُشِع ثقافة المراجعة والمساءلة ونوطّن النفوس الأمّارة بالسوء على أن وراءها مَنْ يرد التائهين إلى جادة الصواب وينفي خبث الأفكار عن بنيتنا الثقافية؛ فنحن أمة يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد واحدة على مَنْ عاداهم.

الكبرياء العربية في مأزق .. !(١)

أكتب ما تقرؤون، والأمة العربية في جَوٍّ مشحون بالتوتر والترقب وكل حامل هَمٍّ مستبطن للخوف والعناء، وقديماً قيل: (وَيْلٌ للشجي من الخلي). وما كنت أدري أي المفكرين الذي سبقني إلى مثل هذا العنوان، غير أني أذكر جيداً أن المفكر الملحد (عبد الله القصيمي) له كتاب مثير تحت عنوان: (كبرياء التاريخ في مأزق) وهو من الكتب الضخام القلقة في عباراتها ومصائر أفكارها.

ولأن الأمة العربية لا تقيم على مأزق واحد فقد كانت لكل مرحلة مآزقها، ولقد تناولت في التاسع والعشرين من (أبريل) عام ٢٠٠٣م في مقال تحت عنوان: (الكبرياء العربية والجبروت الأمريكي في مأزق) جانباً من مآزق أفلت أو رقَّقها ما هو أدهى منها وأمر.

والمأزقية هم دفين شغل الساسة والمفكرين، وجُندت له المؤتمرات وأنجزت من أجله الكتب الطوال، وقامت المظاهرات وابتليت الشعوب بالثورات، ولكن المآزق هي المآزق، ولقد جاء كتاب (المأزق العربي) الذي أعده (منتدى الفكر العربي) أشبه ب(الأطلس) السياسي لمختلف المواقف النخبوية كما وصفه محرر الكتاب (لطفي الخولي) وكانت المآزق آنذاك متمثلة بالحروب الخليجية وخروج مصر من الصف العربي والدخول في نفق (الكامب ديفيد) المظلم والخلاف المغربي حول (الصحراء الكبرى) وعدم تمكين الفلسطينيين من إدارة قضيتهم بمعزل عن النزاعات العربية العربية وإجهاض النضال الفلسطيني بالسلام الزائف، واستفحال الطائفية في لبنان، وتلك أزمات قائمة ما أقام (عسيب) ولكنها غُمرت بأزمات جديدة لم تكن على شاكلتها، وحين لا يكون حل حاسم تكتفي الأطراف بالتعليق أو التأجيل إلى حين امتلاء المشهد بما هو أعتى.

ولأن لكل زمان ملابساته ومكوناته وقضاياه فإن الراهن العربي قد انطوى على مصائبه الجسام التي صنعها بيديه أو صُنعت له ثم لم يحسن الصنع ولم يتوق المصنوع، وظل يعاني من مصائب جديدة نسلت مما سلف، وستظل مآزقه تلد من المصائب مثلما تتوالد الحشرات في المواقع الموبوءة، وإذ رمت جروح الأمة على مفاسد لا قبل لها باحتمالها، ورقق التليد منها الطارف فإن من الصعب الخلوص من المآزق بأسرع الأوقات وأقل التكاليف، والأمة العربية في ظل تلك الترديات المُعْمِية تمارس كبرياءها التاريخية غير عابئة بحاضرها المأزوم، وهي إذ تكون على مشارف قمة عربية فإن عليها أن تعيد النظر فيما تأتي وما تذر وبخاصة أسلوب معالجتها للنوازل الإقليمية والعالمية وعلاقاتها العربية العربية والعربية الغربية، وأن تطرح المغامرات والمجازفات والعنتريات والمثاليات والتهافت على الأضواء الإعلامية الزائفة والمزايدات الرخيصة، فأوضاعها لم تعد قابلة للتبرير أو التعذير، وهي إذ تظل مرتهنة للسياسات القطرية ولأوضاع وإمكانيات متباينة فإنه من الممكن الإيمان بمبدأ التواصل في ظل الاختلاف والتفاوت والالتزام الشرفي بعدم التدخل في الشؤون الداخلية أو استغلال الضعف لفرض رؤية غير ملائمة أو لاحتواء يعكر صفو السيادة الإقليمية ولا سيما أن الشارع العربي لم يعد من الغباء بحيث لا يميز بين كافة الممارسات.

واللقاءات العربية ثنائية كانت أو رباعية كلية أو جزئية لابد أن تضع المؤتمرين أمام أنفسهم بكل ما يستبطنون اختياراً أو إكراهاً وليس شرطاً أن تنهي تلك اللقاءات اختلاف وجهات النظر ولا أن تصفي الخلافات دفعة واحدة، ومن أرادها عصا سحرية فقد أفقدها

---

(١) تاريخ المقال: ١٦/ ٣/ ٢٠١٠

أدنى حد من الإيجابية وأضعف الإنجاز إيقاف التدهور في العلاقات والأوضاع وصد اختراق الأجواء من الطامعين والمتربصين والعجز عن بعض هذا مؤشر استمرار للمأزقية، والأمة العربية جسد واحد لأنها تلتقي تاريخاً وثقافة وحضارة ولساناً وعقيدة، وفوق ذلك كله فإن المساس بسيادة دولة مساس بكل السيادات، ومن استخف بشيء من المصالح المصيرية المشتركة اضطر في يوم من الأيام إلى القول: (أكلت يوم أكل الثور الأبيض)، وأي اختراق من أي طرف سوف يؤدي إلى تصدع التكتل المطلوب، والقيم المعنوية نسق للقيم الحسية، ومن ثم لابد من بث الثقة واحترام المصالح المشتركة وتبادل المنافع ووضع سقف للاختلاف لا يجوز تجاوزه تحت أي ظرف، والاختراقات التي يمارسها ذوو المطامع الطائفية أو الإقليمية لا يمكن أن تحقق أدنى مصلحة للأمة مجتمعة أو متفرقة، ولكيلا تستمر المآزق في التصعيد فإن على الأمة العربية أن تعيد النظر في علاقاتها مع بعضها ومع الآخر قريباً كان أم بعيداً بحيث لا تكون العلاقات الثنائية على حساب المصلحة العربية.

ولأن لكل زمان قضاياه فقد جدَّت على الأمة العربية أحداث جسام لم تكن معروفة من قبل بل لم تكن متوقعة بهذا الحجم وبتلك البشاعة وتلك الأحداث المتداعية زجت الكبرياء العربية في مآزقها السحيقة.

والمؤسف أن الأمة العربية لم تعطها ما يناسبها من المواجهة ظناً منها أنها سحابة صيف عما قليل تنقشع، وعسى أن تكون في مؤتمرها القادم قادرة على قراءة الأحداث بعيون ثاقبة وعقول واعية تزن الأمور وتراها بحجمها الطبيعي، وسوف أشير إلى حدث من تلك الأحداث وهو في نظري من أخطر المآزق ذلكم هو الحضور (الإيراني) في المنطقة وتدخله السافر في كافة القضايا ونفاذه من كافة المواقع ليكون وصياً ومزايداً على قضايا الأمة ومصالحها وشريكاً غير ناصح، وهو حضور له ما بعده، وعلى الأمة العربية وقد فرطت ب(العراق) ألا تفرط بنفسها فتكون خبراً بعد عين، وأندلساً أخرى لا تجد لها مكاناً إلا في كتب التاريخ، ومن أولويات مهماتها التي يجب أن تتصدر مؤتمرها إعادة إيران من حيث أتى دون المساس بمصالحه المشروعة أو التعدي على سيادته الإقليمية، فالأمة العربية بممارسة حقها المشروع تستعيد كرامتها وحريتها، وإن كان ثمة حاجة إلى تحديد المواقع والقضايا التي أصابها دخن الثورة والطائفية فإن ذلك من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى دليل.

والقمة القادمة لن تكون امتحاناً للإرادة العربية مثلما كنا نقول من قبل، ولكنها على الأقل لحظة مراجعة ومكاشفة، والأمل أن تضع حداً للمأزقية وأن تكون خطوة أولى في سبيل العودة إلى جادة الصواب.

وإذا كانت بعض الدول العربية غير قادرة على انتزاع نفسها من هذا المأزق أو ذاك فلا أقل من التفكير الجاد لتحجيم هذه المآزق وإيقاف اتساعها واللجوء إلى البدائل الأخف تكلفة وتأثيراً على المصالح المشتركة ولكي يتحقق بعض المراد فإن سبيل ذلك التخفيف من حدة التوترات الداخلية والنزاعات الطائفية والإقليمية والقبلية؛ فالخلوص من المشاكل الداخلية يقلل من الحاجة إلى الداعم الخارجي، فالدولة المأزومة قد تلجئها أوضاعها إلى شيء من التنازلات، ولو أن أي دولة مأزومة حاولت بإمكانياتها الذاتية تقليص مشاكلها الداخلية لكان بإمكانها الاستغناء عن بعض الدعم المشروط.

فهل تكون القمة القادمة لحظة مراجعة واعية تعيد للأمة كرامتها وهيبتها وتمكنها من إدارة شأنها بنفسها؟

هذا ما يتطلع إليه الشارع العربي بكل مأزوميته ومأزقيته.

خمسون عاماً وأنا أطارحك القضايا .. !(١)

قدري الغرائبي مع الرائد عبد الله بن إدريس أنني لا أنفك منه إلاّ لأعود إليه، كما لو كنت موكلاً بفضاءاته المعرفية والإبداعية أمشطها بقلمي، ولأنه متعدِّد الزوايا فقد تكون لكلِّ إلمامة لقطة مغايرة.

وتعدّد مجالاته المعرفية والإبداعية والعملية ربما توقع في الارتباك أو الابتسار، فهو شاعر خيرت له الشاعرية من أطرافها الثلاثة: الموهبة والثقافة والموقف، ولكنه مع هذا لم يفرغ للشعر، وهو كاتب تنازعتْه اهتمامات متعدّدة، وعملي مارس الفعل الثقافي والتربوي والصحفي، ومناضل عنيف عامر مخاضات التحرُّر العربي، ومؤرِّخ للأدب أنف من ظلم ذوي القربى فأرّخ لشاعرية نجد المعاصرة، ولسان حاله يقول: إنّ بني عمك فيهم شعراء، وناقد راوح بين الانطباعية والذوقية والمعيارية. ومن الصعوبة بمكان الخلوص به من هذه التعدّدية المربكة. عرفته منذ أن دخل علينا قاعة الدرس في المعهد العلمي ببريدة يوم أن كنا حدثاء عهد بالتهجّي قبل خمسة وخمسين عاماً أو تزيد، وشدّني إليه كتابُه «شعراءُ نجد المعاصرون» عندما صدر قبل خمسين عاماً، وتوطّدت علاقتنا حين رأس كل واحد منا ناديَ منطقته الأدبي، وكدت أعيش الخلطة معه في كافة المحافل الأدبية محلياً وعربياً، ولم أقف في تواشجي معه على المعرفة أو اللقاء، بل تجاوزتْ العلاقات إلى موضعته والحديث عن جوانب حياته الأدبية والإبداعية، وكان اختراقي لعوالمه يوم أن أعددت رسالتي للماجستير والدكتوراه عن الأدب السعودي، حين تخصصت في الأدب العربي في المملكة كان لزاماً عليّ أن أمارس التأليف والتدريب والدراسة والإشراف والمناقشة والتحكيم للإبداع والمبدعين، فكان ابن إدريس حاضراً في الكثير من أعمالي، تناولت بُعْده النقدي يوم تكريمه في «نادي الرياض الأدبي» ودرست ديوانه «في زورقي» إبان صدوره، حاولت فض الاشتباك بينه وبين مجايله «عزيز ضياء» - رحمه الله - حين اختلفا حول مفهوم التراث ومشمولاته.

واليوم أشرف بالحديث عنه على هامش تكريمه، ولقد أشرت من قبل إلى ما يواجهه الدارس من حرج في لحظات التكريم، وقدري أنني تحدثت عن:

-عبد الله الفيصل.

-ومحمد حسن فقي.

-وحسين عرب.. يوم تكريمهم، غير أنّ المحافل الأدبية والنقدية تحترم المصداقية، ولا يجد أربابها بأساً في موضعة الذوات وشهادة النقاد بما علموا، وكلما تقدّمت السن بالأديب والمفكر تعمّقت عنده المعارفُ والتجاربُ وقلَّتْ عنده الحساسية، ورضي أن تجوش الأقلام عوالمه، ولا أحسبني سأقع في حرج عند الحديث عما لابن إدريس وما عليه، ولا سيما أنه يتوفر على إمكانيات إبداعية ومعرفية تفرض احترامه والإشادة بمنجزاته، وإن كان ثمة اختلافٌ معه، وهو حاصل ولابد، فإنه في إطار اختلاف التنوُّع، وتلك من الظواهر الطبيعية التي ألفناها معاً فلقد اختلَفَ هو مع لداته ومجايليه. وكانت له صولات وجولات حامية الوطيس مع عزيز ضياء وابن خميس وآخرين وما عيب مصطرعٌ ولا مصطلحُ متى كان الحق ضالة كل الأطراف. ولم تثِرْ رؤاه حفائظ المتابعين. والحياة لا تحلو إلاّ باختلاف وتباين وجهات النظر، وما أقدمه من إشارات حول مشروعية الاختلاف ليست تمهيداً لنقد مخالف، فابن إدريس قد مكّن لنفسه في المشهد المحلي والعربي.

---

(١) تاريخ المقال: ٢٣/ ٣/ ٢٠١٠

ولم يَعُد مرتهناً لما يَجِدُّ من آراء حول منجزاته، والذين اقتسموا شخصيته في يوم تكريمه سيلتقطونه من زوايا مختلفة، وسيكون لكل متحدث مجاله واهتمامه، وحياة ابن إدريس قادرة على تنويع اللقطات.

فالحديث عن شاعريته سيجر المتحدث إلى أبعاد دلالية وفنية ولغوية يتقاطع فيها مع من سلف من شعراء العربية ومع من عايش، وأوسع دراسة وأعمقُها ما كتبه الدكتور «محمد الصادق عفيفي» في كتابه «عبد الله بن إدريس شاعراً وناقداً» ولقد نمضي معه فيما خلص إليه من نتائج أو نختلف معه، ولكن الدراسة كشفت عن أبعاده ومناهجه النقدية، وهي أبعاد ومناهج لها وعليها، وفي النهاية لا نسلِّم على الإطلاق للمعية والضدية.

وابن إدريس الذي عاش مخاضات عربية تمثّلت بالمد القومي والوطني والإسلامي ومخاضات أدبية تمثلت بالمحافظة والتجديد والحداثة ولم يكن في معزل عن رياح التغيير، ولقد يكون شعره في بعض مناحيه رصداً للمتغيرات السياسية والفنية، ولأنه عاش الأحداث بوعي ومعرفة فقد نافح عن فلسطين وأشاد بثورة الجزائر وشجب الاعتداء الثلاثي وأثنى على وثبة عُمان وتوجع من مآسي لبنان وتغنّى بالأمجاد الوطنية وأشاد بالفاتحين والمؤسسين أمثال الملك عبد العزيز، وهو قد واكب شعراء نجد في أبعادهم الموضوعية مبرزاً اهتماماته الذاتية بالأوضاع العربية، والراصد لمساره الشعري يقف على نزعات توفيقية بين مجمل الخطابات السياسية والفكرية فهو مع المد القومي بمفهومه الوحْدوي لا بمفهومه «الأيديولوجي»، وهو مع الحس الإسلامي بمفهومه المقاصدي لا بحده وحَدِّيَّته الظاهرية وهو مع التجديد بمفهومه المتوازن لا بصلفه الحداثوي يتجلّى ذلك في التوفيق بين العروبة والإسلام والوحدة الإسلامية والرؤية الإسلامية لمستقبل الأمة، ومواكبته الشعرية والسردية لهموم الأمة تؤكد أنه لا يمثل الطفرة ولا القفز البهلواني.

لقد وُلد شاعراً وعاش شاعراً، والمناسبات التي تعصف بمشاعره سارةً كانت أو ضارة لا تتحكم في مساره، ولقد أشدت من قبل إلى ركوبه للمناسبة وإبائه أن يكون مركوباً موطأ الأكنان واستغلاله لها، وأنفته من أن يكون مُستَغَلاً لها، ذلك في بعده الموضوعي، أما في الأبعاد الأخرى فقد واكب المجددين في الانزياحات اللغوية والإيقاعية والشكلية، وهو في كل ذلك لا يمارس الانقطاع ولا الذوبان، بل ظل وفياً للتراث منطلقاً به لا منطلقاً منه ولا فيه.

فلقد قارب الشعرَ الحرَّ إبداعاً وتنظيراً، فدراسته في مجلة «قوافل» قبل عقدين مؤشرُ وعي تام بأهمية المستجدات الشكلية وتصالح مبكر معها، والشاعر حين يلتزم العمودية يسيطر على الفن واللغة والشكل، ويعيد للشعر ألقه الإحيائي كما هو عند المتقدمين «كالبارودي»، و«ابن عيثمين» والمتأخرين كـ«شوقي» و«الرصافي».

وعندما يبيح لنفسه الخروجَ على بحور الشعر الخليلية ويلتقي مع المنظرين والمبدعين أمثال «نازك الملائكة» لا يبعد النجعة، بل يلتزم التفعيلية والسطر الشعري ويستصحب الإيقاع ويحترم خصوصية الشعر التي انتهكها النثريون والغموضيون وأدعياء الإبداع، غير أنه لا يجلى مثلما يجلي في العمودية، ذلك أن نسقه الثقافي يشده إليه، وقد أشرت إلى هذه السمة في كتابي «في الفكر والأدب» وكتابي «النزعة الإسلامية في الشعر السعودي المعاصر» ولم يمض مع ما ذهبت إليه الدكتور محمد عفيفي الذي تقصى خصائصه وسماته وخلص إلى القول: بأنني أنصفته في شيء وأجحفت بحقه في شيء آخر، وتلك رؤيته التي لا أجد غضاضة في التفسح لها دون القبول بها.

على أنه متفاوت في انزياحاته، إذ جلَّى في الانزياح اللغوي ولم يكن في الانزياح الإيقاعي كذلك، فلم يكن بالقدر الذي حققه اللاحقون من شعراء المملكة، فالدراسة التي أعدها الأستاذ عبد الرحمن بن إبراهيم المهوس «الشعر السعودي المعاصر: دراسة في

انزياح الإيقاع» أعطت مؤشرات تخطّت تجاوزات ابن إدريس الموزونة، حتى أنّ الدارس لم يرجع إلى شيء من إبداعاته، ولقد يكون السبب في ذلك اقتصار الدراسة على سبعة شعراء معدودين على الحداثة بشقيها: الفني والفكري، وهذا العدد المحدود لا يخول الدارس إطلاق هذا العنوان بهذا القدر من الشمولية كما فعل.

وابن إدريس فيما خلّف من دراسات نقدية لم يتجاوز الذوقية والانطباعية، وهو من قبل ومن بعد لم يحفل بالمستجد من المناهج والآليات اللغوية وتضلعه من التراث أضفى عليه مسحة المحافظة، فحين يتناول الظواهر الشكلية واللغوية والفنية يناهز التأصيل والمعرفية، غير أن إلمامه بالظواهر قليلة لا يكاد يذكر، والشعراء النقاد لهم أبصارهم وبصائرهم، وهم الأدرى بمضائق الشعر كما يقول «أبو نواس».

غير أنّ اشتغاله المبكر بالصحافة وإدارة المؤسسات الثقافية والتربوية حال دون متابعته للمستجدات النقدية ومن ثم ظل مرتهناً لآليات ومناهج سبقت الانفجار المعرفي وثورة الاتصالات.

وقيمة ابن إدريس في التأسيس للحركة النقدية ومواكبته الواعية للحركة الأدبية وإسهامه في تشكيل الظاهرة الأدبية في المملكة وأخذه في سياقه ونسقه الثقافيين يضمن له حقوقه.

وكل مؤرّخ للحركة النقدية والأدبية والإبداعية في المملكة، سيجد ابن إدريس واحداً من أبرز الروّاد الفاعلين والمؤثرين.

وأحسب أنه لا مزيد على ما قلتُ عنه من قبل وما تضمّنته كتبي والاسترسال في الحديث سيوقعني في التكرار والمعاد.

وما ظلمت (بدوي) ولكنه ظلم نفسه .. ! (١)[(١)]

عندما أبَّنت المفكر العربي الكبير (عبد الرحمن بدوي) بعد وفاته وقلت فيه وعنه ما أراه من خلال قراءة معمقة لطائفة من كتبه التي تُعَد جماع شأنه الفكري والمعرفي...

... وجدت من ينقم عليَّ ما ذهبت إليه.

والمعتدلون من المعارضين يحيلون ما يرونه في كتابتي عنه من الحيف إلى سلفيتي التي لا تتفسّح في مجالسها للفلسفة على حد زعمهم، والقاسطون يدَّعون أنني متقحم عوالم بدوي اللجِّية بإمكانيات ضعيفة، ولست مُبْتئساً مما يقوله هؤلاء وأولئك، فالحياة تقوم على تجاذب الآراء، وكل فئة تبحث عما يوهن الفئة الأخرى، وما من عاقل سوي مجرّب يحاول إنهاء الصراع ولا احتواءه لصالحه، ولكن الحوار السديد المفيد هو الذي يقوم على المعرفة والمصداقية ووضوح الرؤية وقوة المنهج ودقة الآلية والبحث عن الحق بوصفه ضالّة المؤمن، وحبس الجدل في محيط القضايا وتفادي النَّيل الشخصي ومصادرة حقوق الآخرين على حد: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ومن أراد المصالحة سوى بين الأطراف في القضية المختلف حولها وإن استقر في ذهنه أو في الواقع أنه الأحق مما سواه، مثلما فعل (يوسف) عليه السلام مع إخوته الذين اعتدوا عليه وظلموه وعقُّوا أباهم، وذلك حين قال: ﴿مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ إذ لم ينلهم بسوء، وإن أذَّن مؤذن في العير إنهم لسارقون، مع أنهم لم يسرقوا فهو الذي وضع صواع الملك في وعاء أخيه لكي يستبقيه عنده لحكم إلاهية، وأحسب أنّ ما فعل به وما عرض له كفعل العبد الصالح مع (موسى) عليه السلام الذي قال في النهاية: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾.

وما قلته في المقال التأبيني (فيلسوف الموت يموت) المنشور في جريدة الجزيرة يوم ٦-٨-٢٠٠٢م مستخلص من أبرز كتبه وما كتب عنه وبالذات ما كتبه في سيرته الذاتية (سيرة حياتي) العنيفة التي لم يترك أحداً من شوامخ الفكر والأدب إلاّ حطّ من قدره ونال من مكانته، ومن آراء المنصفين الذين تعقبوا آراءه وأفكاره وأخلاقه وبخاصة زميله في الكويت (فؤاد زكريا) الذي يُعَد من تلاميذه وأنداده في آن، ولقد كنت على بينة من (الوجودية) التي يتولّى كبرها، قرأت لأساطينها المتعالقين معها وخصومها النافرين منها، ولأنه يعد نفسه الوجودي العربي الأميز، فقد كنت على علم بما ينطوي عليه وإذ تكون الوجودية ذات شقين:

-إيمانية.

-إلحادية. فقد عايشها كمفهوم واحد ولم يشأ أن يفرق بين مريديها بل كان وجهه يتمعر من أي كاتب يمس أحداً من رموزها الغربيين بسوء، على أنّ شقها الإيماني لم يكن على سنن الإيمان الإسلامي، ولكنه إيمان بالقدرة المطلقة التي تحكم هذا الكون وتديره، وإذ كفر الذين آمنوا بالله على غير مراده فإنّ هذا الشق لا يمكن أن يزحزحه أحد عن هذا الصنف من الفئات، والذين يتعاطفون معه، ويرون أنه مظلوم وأنه لم يعط المكانة التي تليق بمثله يفوتهم أنه كان من أكثر المفكرين تذمراً وبرماً من المشاهد كلها، ولقد كانت ردود الأفعال عنده عنيفة حتى أنه فقد احتشامه وسمته ووقاره ودخل دائرة التهريج والتجريح الذي لا يليق بمثله.

---

(١) تاريخ المقال: ٣٠/ ٣/ ٢٠١٠

وبدوي من ذلك الصنف الذي فتح الأبواب كلها وأذاب الحدود، وأجهض سلطة النصوص، ولم يكتف بذلك بل شنع على السلفيين احترامهم لها وتقييد أنفسهم بمقتضاها وحرصهم على تجويد العلاقة معها، فهم الذين استثمروا علم الجرح والتعديل لتجويد الرواية والتمييز بين الصحيح والضعيف، وهم الذين استعملوا أصول الفقه الذي يمثل مجموعة القواعد والضوابط التي يستعان بها على استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها الوضعية أو المجازية أو السياقية، ولولا ذلك ما استطاع أحد أن يفرق بين الأركان والواجبات والمستحبات والمحرمات والمكروهات، ولا أن يعرف الناسخ من المنسوخ والعام من الخاص ولا أن يجمع بين المتعارضات، وهم قد توغّلوا حتى فرّقوا بين أصول الفقه وعلم الفقه، كما فرّقوا بين علماء التفسير والحديث والفقه وأصول تلك العلوم، فكان النص التشريعي عندهم بمأمن من العبث أو التأويل الفاسد أو الكذب، وهم الذين فرّقوا بين عالم الغيب وعالم الشهادة وعلمهما، وأجازوا التأويل في المعلوم إذا اقتضى الواقع ذلك ومنعوه في المجهول، ومن ثم وصف مذهبهم بالأسلم والأحكم، ثم هم الذين أعطوا للنص ما له وللعقل ما له، فلم يعطلوا النص بسلطة العقل ولم يعطلوا العقل بسلطة النص، ولهذا حفظوا التوازن في كل شيء فلم يكونوا ظاهريين يلغون العقل، ولم يكونوا مؤولة يلغون النص، وداء الأمة في الانصياع الكلي لطرف وترك الأطراف الأخرى كالمعلقة.

وبَدَوي شئنا أم أبينا يُعَد عالماً موسوعياً وفيلسوفاً متبحراً أحدث نقلة نوعية في الفكر الحديث، وتمكّن من الخلط بين ثقافة المشارقة وفلسفة الغرب وعلومهم الإنسانية، كما قوّى صلته بالمستشرقين وأشاد بهم وألقى نفسه في رحابهم واستسلم لما توصّلوا إليه من نتائج جائرة أضرت بالثقافة العربية وأفسدت بعض أفكارهم وأنستهم ما توصل إليه علماؤهم الأوائل من علوم شرعية وإنسانية أرهصت لكل ما يدور من علوم ومذاهب ومناهج حديثة، وبدوي الذي أعمل فكره وقلمه في علوم الأوائل على ضوء ما يراه المستشرقون، سيظل معلماً رفيع العماد بما مكّنه الله فيه من تبحر في العلوم وتمكن من رقاب المعارف، نقول ذلك لكيلا يظن ظان أننا نسلبه حقه أو نقلل من شأنه، إنه مدرسة تلتطم فيها المعارف من كل جانب ولكنه بإمكانياته شكّل منعطفاً خطيراً ومنحنى هاماً، وما كان بود منصف أن تجرفه تلك التيارات المادية بحيث لا يرى إلاّ ما ترى لا يزيغ عنها ولا يستبد برأي ولا رؤية والله الذي مَنَّ عليه بالجهد والوقت والقدرات الخارقة لا يريد منه أن يهدرها في سبل لا تؤدي إلى صراطه المستقيم.

وما ظلمت (بدوي) ولكنه ظلم نفسه .. ! (٢)[1]

والذين يزكون عبد الرحمن بدوي ويتهافتون على موروثه المضطرب والمصاب بلوثة الاستغراب، قد لا يكونون مؤصلين يميزون بين الاتجاهات والمذاهب، وقد يكون محصولهم لا يتعدّى ما كتب عنه، وواجب المجادلين عنه أن يلموا به من خلال ما كتب إذ الحكم على الشيء فرع عن تصوره، وتناول الشخصيات بالقدح أو بالمدح من باب الشهادة والإنسان محاسب على ما يقول، ولو أنّ المتحفّظين على ما يقال تساءلوا عن مدى انسجامه مع المنهج الحق لكان خيراً لهم.

ولكي يكون القارئ على بيّنة من أمره بحيث لا يستسلم لأحد إلاّ عن قناعة تنجيه من هلكة التعصب، فإننا نسوق نصَّ ما قاله عن السلفية ظلماً وعدواناً يقول في كتابه (شخصيات قلقة في الإسلام)، (وأما النزعات السنية أو السلفية وما إليها من حركات تحاول أن تأسر نفسها في ربقة الرمز بمعناه الظاهر الأولي إلا علل وأزمات نفسية في تاريخ الحياة الروحية لدينٍ ما، وعليه أن يتبرأ منها قدر المستطاع حتى يستأنف تطوره الثري في مجال الروحية العليا). ولكي يخفف من حدّة موقفه عاد ليقول على سبيل الاستدراك: (ولكن ليس معنى هذا أننا نلعن أمثال هذه الحركات كل اللعنة بل لا نرى غضاضة في قيامها)، وهذا من باب إيمانه بالتعددية غير المنضبطة، وهو إذ يضيق ذرعاً بالسلفية ينفتح على الباطنية وغلاة الشيعة بحيث يراهما الممثلتين للدين الحقيقي، استمع إليه يقول في ذات المصدر: (وعلى ضوء هذا التقرير لحقيقة الدين الحي نستطيع أن نفهم ونقدر الدور الأكبر الذي قامت به الشيعة إلى جانب السنّة في تكوين الروحية في الإسلام، فللشّيعة أكبر الفضل في إغناء المضمون الروحي للإسلام وإشاعة الحياة الخصبة القوية العنيفة التي وهبت هذا الدين البقاء قوياً غنياً قادراً على إشباع النوازع الروحية للنفوس)، وتمجيده للباطنية والصوفية وإغراقه في الروحانيات غير السوية، جعله يعلي من شأن المستشرق الفرنسي (لويس ماسينيون ١٨٨٣ - ١٩٦٢م)، الذي وظّف كل إمكانياته لدراسة (الحلاج) وتحقيق كتبه، ولقد سايره في تلك المكيدة حيث عدَّ (الحلاج) شهيد التصوف في الإسلام، ولربما يكون المغري الوحيد للشاعر صلاح عبد الصبور في إبداع مسرحيته الشعرية (مأساة الحلاج) التي أحدثت نقلة نوعية في المسرح الشعري وتحولاً فكرياً في قضية (الحلاج) ورسالة (ماسينيون) عن (عذاب الحلاج)، وكذلك رسالته الثانية عن مصطلح التصوف كلها تصب في صالح الباطنية، والمستشرقون لا يرون أن يلي أمر الفكر الإسلامي إلاّ هذا النوع من الخرافيين ليجهضوا فاعلية الإسلام وشموليته وينهوا دوره في بناء الحضارة الإنسانية، فالباطنية تقزيم للإسلام وعزل متعمّد له. وليس من مقتضيات الإسلام الحقيقي الانقطاع للعبادة، ولقد قالها رسول الله ﷺ حين سمع مقولة الثلاثة المتبتلين: من رغب عن سنّتي فليس مني، مشيراً إلى أنّ العمل لبناء حضارة الأمة من سنّة رسول الله، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه نظر إلى رجل مظهر للنسك مُتماوِت فخفقه بالدزة وقال: لا تُمت علينا ديننا أماتك الله.

والمترجمات التي جمعها في كتابه (شخصيات قلقة في الإسلام) تمحورت حول ثلاث شخصيات:

-سلمان الفارسي.
-الحلاج.
-السَّهْروردي.

---

(١) تاريخ المقال: ٦/ ٤/ ٢٠١٠

وسلمان الفارسي رضي الله عنه مثل أبي ذر الغفاري رضي الله عنه حُمِّلَ ما لم يحتمل وأضيف إليه ما لا يمكن قبوله، واتخذته الباطنية وبخاصة النصيرية والإسماعيلية رمزاً من رموزهم بوصفه باحثاً عن الحقيقة، مثلما اتخذ الماركسيون أبا ذر رائداً اشتراكياً حين شذّ في تفسيره لآية الكنز، وما كان سلمان ولا أبو ذر رضي الله عنهما قابلين لاستيعاب رؤية الباطنية والماركسية ولكنها الأهواء الجامحة والعقول المنكوبة.

وأيّاً ما كان الأمر فإنّ عبد الرحمن بدوي جماع المتناقضات وجسر المتشابهات، وتراثه غارق في لوثة الوجودية والباطنية وما يقال عنه من كلمات تلطيفية يجهضها فكره الملوّث، ولقد حاول في خريف عمره بعد أن تفلّتت من بين يديه كافة الإمكانيات أن يحسّن من صورته، وأن يتدارك ما يمكن تداركه فألف في الدفاع عن القرآن والرسول ما يوهم السذّج أنه مفكر إسلامي، والحوار الذي أجري مع (فؤاد زكريا) - وإن كان خصماً لدوداً - يكشف عن أنه لا يقل عن (مهاجر أم قيس) نسأل الله له العفو ولنا السلامة من ندامة لا استدراك لها تأتي على حد: (فلما أدركهُ الغرقُ). وقراءة العمالقة من المفكرين المستغربين تحتاج إلى إمكانيات ومصداقية فما من أحد منهم سلم من لوثة الفكر الحديث الغارق إلى الأذقان في الماديات، وبعض المفكرين المعاصرين لم يكونوا متخصصين بل هم على جانب من الموسوعية، وانتماؤهم إلى مذاهب ليست من الإسلام في شيء يبدي عوار آرائهم، وهذا الدخن يحمل المستبرى لدينه أن يتحرّى الحق في تحرير المسائل، فالمادية والعقلانية والتبعية والاندهاش والشعور بالهزيمة تفعل فعلها في تدنيس الفكر، ولقد يبلغ الأمر ببعض المفكرين مبلغه حتى يقول كلمة الكفر، وهو لا يدري أنها في الدرك الأسفل من المادية واللادينية وإذا نبّهته لذلك أقسم الأيمان المغلظة أنه لا يعرف مبلغ هذه الكلمة من الدركات.

والمشاهد الفكرية العربية تدفّقت فيها تيارات ومبادئ لم تكن مستوعبة ولا معروفة الجذور، ولهذا يقع البعض في الحمى وهو لا يدري وقد يظن نفسه من المصلحين، وكأنّه المعني بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـكِن لاَّ يَشْعُرُونَ﴾، ذلكم هو عبد الرحمن بدوي العملاق في الفكر والفلسفة والناشط في الترجمة والموسوعية والذي لا يستغني عن منجزة مشتغل في الفكر المعاصر، شأنه في ذلك شأن جيل العمالقة والقمم الشوامخ بدءاً ب(جرجي زيدان) ومروراً ب(علي عبد الرازق) و(سلامة موسى) و(زكي نجيب محمود) وانتهاءً ب(طه حسين) وكافة الوجوديين الذين أعلنوا وجوديتهم أو استبطنوها ك (أنيس منصور).

ابن شدّاد.. وتنازع الرمز والواقع والأسطورة .. ! (١) (١)

قبل ثلاثين عاماً ونيف، نَظَّم (مكتب رعاية الشباب بحائل) ندوة عن (حاتم الطائي) وكان أن تناولت بالبحث تلك الشخصية بوصفه شاعراً تتنازعه كما (عنترة) مناهج النقد القديم والحديث..

.. وهي دراسات كادت تحيد به عن مدرج الحقيقة، واليوم ينظم (نادي القصيم) ندوة موسعة عن (عنترة بن شداد) وكلا العملين نظرا إلى المواطنة، وإلى أحقية الشخصية بالبحث، على أنّ السمات والممارسات تختلف من شخصية لأخرى، فإذا كانت الفروسية سمة (ابن شداد) فإنّ الكرم سمة (الطائي) ولهذا جاء بحثي الذي طبع في كتاب تحت عنوان: (حاتم الطائي بين أصالة الشعر وأسطورة الكرم)، ولقد ظنّ البعض بي الظنون حين تصوّروا أنني أنكر الكرم، وأثبت الشاعرية، وهذا غير مراد، والكتاب لا يشي بشيء من ذلك، فشاعرية (حاتم الطائي) لها وعليها، وما من أحد زاد فيها أو عليها أو نقص، ولكنهم أوغلوا في العبث بسمة الكرم الثابتة ل(حاتم) ولأهل الشمال، وهي سمة معروفة ومجمع عليها، متى كانت في حدود المقبول والمعقول والمبالغة التي بلغت ذروة الأسطرة مسّت شخصيات كثيرة، وجنت على تاريخها ومواهبها، وحوَّلت بعض الشخصيات الحقيقية إلى شخصيات أسطورية بحيث سيقت حكايات خرافية يستحيل وقوعها، ولا حتى من باب المعجزات التي خصّ بها أولو العزم من الرسل، و(حاتم الطائي) لم يعد وحده الذي امتدت إليه الأيدي العابثة، فظاهرة الأسطرة شائعة في التاريخ والأدب، بل امتدت إلى علم التفسير، وما الإسرائيليات التي ملئت بها كتب التفسير إلاّ من هذا النوع، الأمر الذي حدا بطائفة من العلماء المتقدمين والمتأخرين من أمثال (ابن تيمية) و(البقاعي) و(محمد حسين الذهبي) و(محمد أبو شهبة) و(رمزي نعناعة) وآخرين إلى تناول هذه الظاهرة بالبسط والإيجاز كما استخلصها في موسوعة (محمد أحمد عيسى)، وكانت لي إلمامة نشرت قبل عشرين عاماً في مجلة (رابطة العالم الإسلامي) تعقبها (أبو شهبة) رحمه الله بِعِدَّة مقالات، وحين لا يسلم تفسير القرآن الكريم من الأساطير، فإنّ ما سواه أحْرى بأن يفيض بهذا النوع، وجاءت دراسات المتأخرين لتنقية كتب التفسير من هذا العبث الذي اتخذه المستشرقون سبيلاً لتزييف النص القرآني حين جعلوا التفسير نصاً رديفاً عوّلوا عليه في تقديم القرآن لذويهم، وذلك مكر مكروه لحاجة في نفوسهم الأمّارة بالسوء، ومثلما حادت طائفة من المفسرين فقد شطت طوائف أخرى من المؤرخين، فظلموا الخلفاء الراشدين، والأمويين والعباسيين بدوافع طائفية أو سياسية، أو رغبة في الإمتاع، كما فعلوا مع (هارون الرشيد) و(أبي نواس) وما بينهما من علاقة لم تتحقق تاريخاً.

ومجال الأدب أرحب من سواه، إذ لا حساب ولا عقاب، فكل كاتب أو ناقد أو مؤرخ يميل مع هواه حيث يميل، ولا يجد غضاضة من الإمعان في المبالغة.

والأسطورة بوصفها معين المبدعين الذي لا ينضب تحوّلت لتكون معيناً للمؤرخين الذين توسلوا بها للامتاع والمؤانسة، الأمر الذي حوّل الشخصيات الحقيقية إلى شخصيات أسطورية لا تصمد أمام التحقيق العلمي، ولقد أشار (العقاد) في عبقرياته إلى دواعي الأسطرة، وإن لم يحرر هذه المسائل بالقدر الكافي.

وشخصية (عنترة بن شداد) تنازعتها عدّة طوائف ولربما يكون القدح المعلّى لكتاب (السير الشعبية) وبخاصة أنّ في قصصه ما يضفي على تلك السيرة قيماً اجتماعية وأخلاقية، فَسَواده، ونَفْيه، وتعلقه ب(عبلة) وقدراته الشخصية المتمثلة بالشاعرية

---

(١) تاريخ المقال: ٢٠/ ١٠/ ٢٠٠٩

والفروسية أعطت المشهد حركة مستمرة، وأمدته بمفاجآت مثيرة أغْرت كتّاب السير والتاريخ، وحملتهم على الإيغال في الرمز والخرافة والأسطورة، وإذ أوغل في المبالغة في مناجاته لمحبوبته، وفي وصف بطولته فإنه لم يخرج عن المألوف في عهده، غير أنه فتح شهية القصّاص والمذكرين وكتّاب السير الشعبية.

والمتابع للتاريخ الأدبي والقبلي وكتب الأنساب والمناقب يجد في تلك المناحي اضطراباً يصل إلى حد الإحالة، ومع ما اجتاح شخصية عنترة من خرافات وأساطير ورموز إلا ّأنها تظل شخصية حقيقية، وشخصية شاعرة وشجاعة، غير أنّ شاعريته لا تملك الندية مع الأتراب من مبدعي المعلّقات وغيرهم من الشعراء، حتى لقد عدّه (ابن سلام) من (الطبقة السادسة) ومن شعراء الواحدة، وهم حسب مفهوم المحقق أصحاب المعلّقات، وليسوا كذلك في المفهوم الحديث، فشُعراء الواحدة من اشتهروا بقصيدة واحدة ولم يعرف لهم سواها، أو ما هو بمستواها ك(الشنفري) و(مالك بن الريب) و(ابن زريق) وآخرين تقصاهم (نعمان ماهر الكنعاني) في كتابه (شعراء الواحدة) ولم يكن من بينهم (عنترة بن شداد) على أنّ له مقطوعات نادرة جاء خمس منها في كتاب (منتهى الطلب من أشعار العرب) ل(ابن المبارك البغدادي)، وإذ يكون من هذه الطبقة المسبوقة بخمس طبقات فإنه يفوق شعراء الطبقات بالشجاعة والإقدام، وتلك الصفات الخَلقية والخُلقية حوّلته إلى شخصية أسطورية، والإشكالية ليست في تحديد المستوى الشعري، ولكنها في تحرير هذه الشخصية مما غمرها من النحل والخرافة، وتنازع الرمز والواقع والأسطورة يتطلّب جهوداً استثنائية للوصول إلى شاعريته الحقيقية، وشخصيته التاريخية، وحبه الجِبِلي وشجاعته المعقولة ومع الضبابية التي تكتنف شعره وشخصيته، فإنني لست ممتعضاً مما يثار حوله من شكوك قد تمتد إلى نفي ذاته وشعره، فلهذه الإثارات جذور تاريخية، التقطها (مرجليوث) وحبَّرها في كتابه (أصول الشعر العربي) الذي ترجمه (يحيى الجبوري) واتهم (طه حسين) بسرقته وإدراجه ضمن كتابه الضجة (في الشعر الجاهلي) و(مرجليوث) التقط الخيط مما وقف عليه من إشارات في كتاب (معجم الأدباء) لياقوت ومن بعض إشارات النقّاد الأقدمين، فمبدأ الانتحال قائم وهو من ظواهر النقد القديم والحديث، والدخول فيه يحول دون استكمال المراد وهو تحرير شخصية عنترة مما علق بها، وتحقق الأسطرة في ممارسات عنترة لا يمكن استجلاؤه إلاّ من خلال المنحول من شعره والمختلق من أخباره.

وإذ نسلم بوجود تاريخي حقيقي ل(عنترة) ول(عبلة) فإننا لا نمضي مع المبالغين بحيث نقبل كل ما قيل عن هذا الحب الذي أنتج هذا الكم الهائل من الشعر والأخبار. وهدف هذا البحث الإطلالة على التنازع وتقرير ما تطمئن إليه النفس ويخدمه التحقيق العلمي، فالشاعر الفارس أصبح نهباً للأسطورة والرمز، ولم يكن نصيب الواقع منه إلا اليسير، ولسنا نقصد الأسطرة في شعره، وإنما نقصد أسطرته هو من خلال شعره المنحول، على أن تكافؤ الفرص بين الظواهر وضع الباحث عن الحق في أمر مريج، ولأنّ الأدب والسياسة يشتركان فيما يسمّى ب(فن الممكن) فإنّ الأدباء، يستطيعون أن يقولوا ما يحلو لهم، ولا معقب لمبالغاتهم ما دامت في إطار الممكن، فهذا (الأصبهاني) في (أغانيه) يحرص على الإسناد وهو الأكذب، وما أحدٌ أخضع رواته للجرح والتعديل، فالأدب دون التاريخ وكلاهما دون الحديث النبوي، ف(البخاري) في صحيحه غيره في (الأدب المفرد) و(التاريخ الكبير)، ومن الخطأ الكبير استخدام مقاييس المحدِّثين في علم الأدب والتاريخ، ولأنّ عنترة من أغربة العرب فإنه يلتقي مع الشعراء السود في كثير من خصائصهم الشعرية والسلوكية، وتلك الخصائص التي أسهمت في انحراف الشعر الجاهلي إلى الذاتية استهوت الأدباء والنقّاد وعلماء النفس والاجتماع والتاريخ للغوص في

أعماق النفس وتقصي النشأة الأولى للعرق الأسود في جزيرة العرب في الجاهلية والإسلام، فالبشرة السوداء وافدة على الجزيرة العربية، لممارسة الأعمال الشاقة المتمثلة بغرس النخيل وكسح السباخ، وهذا الصنف من الناس يوجد حيث تكون الأعمال الشاقة، واختلاطهم بالبدو الرحل جعل منهم رعاة إبل وخيل وسقي واحتطاب، وعلّمهم الفروسية والفرّ والكر، أما الشعر فموهبة لا يختص بها قوم دون قوم، والمؤكد أنه جيئ بهم مجلوبين عن طريق الاختطاف كما كان يفعل الأمريكيون مع الزنوج ولقد تكاثروا في الجزيرة العربية وتحوّلوا إلى أسر كريمة لهم ما لغيرهم، وظاهرة الرق في التاريخ الإنساني تكاد تنحصر فيهم، والذين كسبوا الحرية لأي سبب أو تخلّفوا في الديار المقدسة شكّلوا أقليات تمرّدت منها طوائف ناصبت البيض العداء، ونازعتهم السلطة، وما ظاهرة الزنوج وثورتهم الدامية إلا ناتج سوء المعاملة التي عاشوها، وهي معاملة لا يقرّها الإسلام ولا الأخوة الإنسانية، والتصدي لهذه المعاملة الجائرة نجم عنها قصص وحكايات أوغلت في الخرافة والأسطرة، وأمدّت القصاص والمؤرخين بفيض من الحكايات المسلية كما أنها أكسير السير الشعبية.

والحديث عن عنترة يستدعي عدّة قضايا، الشعر المنحول، والأساطير المختلفة، وتأثير السواد على الحياة الاجتماعية والسلوكية والاتجاهات الشعرية لدى الشعراء السود الذين اضطهدوا وطوردوا وتحوّل بعضهم إلى الصعلكة وما يكتنف حياتها من سلوكيات أمدّت الرواة بفيض من قصص المغامرات.

ابن شداد.. وتنازع الرمز والواقع والأسطورة .. ! (٢) [1]

ولعل أبرز الخصائص الشعرية عند الشعراء السود تأثير عقدة السواد المؤدية إلى الفقر والصعلكة والمجون؛ فالإحساس باللون عندهم حاد؛ لأنهم شكلوا في بعض فترات التاريخ طبقة مهانة ومستغلة.

وتهميشهم أدى إلى فقرهم ومقاومتهم، وظهور ما يسمى ببلاغة المقموعين؛ إذ الاعتراف بهم لا يمكن أن يتحقق إلا بعد المقاومة بالقول والفعل، ولقد استُغلت ظروفهم السيئة لتنظيم ثورة دموية عرفت بـ(ثورة الزنج) نظم لها (صاحب الزنج) علي بن محمد، وهو دعي انتسب لآل البيت، رحمهم الله، وهو في الحقيقة محتال كذاب، ولقد جسد (ابن الرومي) تلك المأساة بقصيدة طويلة نيفت على ثمانين بيتاً قال فيها:

أي نــوم مــن بعــد مــا انتهــك

الــزنج جهــاراً محــارم الإســلام

فـ(عنترة بوصفه الفارس المغوار الحامي للقبيلة ظلت معه عقدة السواد، حتى فرض نفسه بقوتين نافذتين: الشعر والشجاعة. وعقدة اللون كما يقول (عبده بدوي): (وراء التحول في القصيدة العربية من ضمير الجمع إلى ضمير المفرد، وكانت وراء اقتراب الشاعر من ذاته بعد أن كانت القبيلة هي ذاته).

ولقد نظم السود عصابة متمردة على القبيلة وعلى المجتمع وانتزعوا حقهم بقوة السلاح وعصب الصعلكة من السود، وتشردهم أدى إلى فقرهم وعوزهم ونشوء طبقة عرفت في التاريخ والأدب العربي، فـ(الشَّنْفَرى) بُولغ في أمره حتى قيل: إنه قتل تسعة وتسعين من (بني سلامان) لرفضهم تزويجه، كما بُولغ في عَدْوِه؛ فكان أسطورة الصعاليك وهو من شعراء الواحدة بـ(لاميته) الموغلة في اللغة والقيم الأخلاقية.

والواقع الذي نتوسل به لتحديد الذات والفن عند (عنترة) يختلف عن المذهب الواقعي، الذي جاء رد فعل للمثالية والذاتية؛ فالمذهب الحديث يناقض ما عليه شعر الشاعر؛ إذ يتسم شعره بالذاتية والهروب والأحلام والخيال الشارد. كما أن المذهب الرمزي المعاش يختلف عن الرمز الذي نقصده؛ فالرمزية عالمها مثالي خاص، وهو ضد الواقعية العلمية والاجتماعية، والشعر الرمزي يعتمد الإيحاء الخيالي وهو ما لا يتضمنه شعر عنترة. كما أن الرمزية لا تحفل بالتصريح والإفصاح المباشر، فيما نجد عنترة يعتمد ذلك كله؛ لأنه يحمل هماً، ويبلغ رسالة، كما أن صوره واضحة، وليست غامضة، ولقد يكون هناك لقاء مع الرمزية من حيث الألفاظ والتعابير؛ فهي عنده موسيقية رنانة، والرمز إذ يتعلق بذات الشاعر فقد أصبح شخصية تراثية يستدعيها الشعراء والسرديون ليتخذوا منها رمزاً للبطولة والإباء، نجد ذلك - على سبيل المثال - عند الشاعر السعودي (محمد الثبيتي) في قصيدته (أيا دار عبلة) وعند آخرين من قبله ومن بعده، وبخاصة الشاعر (محمد الفيتوري) الذي يفتخر بزنجيته ويضيق بها ومنها.

وشعر عنترة يكاد ينحصر في غرضين: الغزل والفروسية، غير أنهما يصبان معاً في معاناته من لونه وموقف عشيرته منه، قبل أن يكون من حماة الذمار، وشعره المرتهن لذاتيته يتواشج مع شعر فئتين من شعراء الجاهلية: (السود) و(الصعاليك)، غير أنه يختلف عنهم باللين والوضوح، حتى يكاد الشك يتسرب إلى القارئ في أمر انتحاله. ولقد ساعد على ذلك إغراق دارسيه في الأسطرة والرمز والخرافة ومن ثم دخل عوالم السير

---

(١) تاريخ المقال: ٢٧/ ١٠/ ٢٠٠٩

الشعبية، ولم يعد بالإمكان تنقية شعره من الشوائب التي تهبط به من عوالم أصحاب المعلقات من الطبقة الأولى حتى الخامسة، وبخاصة امرئ القيس والنابغة الذبياني وزهير والأعشى وحتى الطبقات الخمس من فحول الجاهلية، وعلى كل الفرضيات فالشاعر حقيقة تاريخية وإن لم يكن بحجم ما يتداول. والترميز به لا يلغي ذاته ولكنه يخرج بها عن إطار المعقول والمقبول. وإذ ضربت الأمثال ببعض الشخصيات التراثية، فإنه فاق الجميع بتوظيف شخصيته لقضايا الحب والبطولة، ولقد حظي ديوانه بأكثر من جامع وأكثر من محقق، ولم يسلم بعضها من جمع المنحول. ولقد أشار بعض المحققين إلى الوضع والانتحال، واجتهدوا ما وسعهم الاجتهاد للوصول إلى ضوابط تمكن من معرفة المنحول والمقول، ودراسة (القيم الخلقية في شعر عنترة) للدارسة (فاتن عبد اللطيف العامر) تؤكد أن هناك شعراً منحولاً ولكنها لم تشر إليه، وبالذات ما يتعلق بالقضاء والقدر.

وحقيقة الشاعر والصحيح من شعره دل عليه اهتمام العلماء الأوائل به وبشعره ك(التبريزي) و(المبرد) و(الزبيدي) و(الأصمعي) و(النحاس) وأصحاب الطبقات.. ك(ابن سلام).. والتراجم ك(الشعر والشعراء) ل(ابن قتيبة) وعشرات غيرهم، كما أن ديوانه جمع وحقق على يد عشرات من العلماء المتقدمين والمتأخرين، وفي كتاب (معجم الشعراء الجاهليين والمخضرمين) للدكتور (عفيف عبد الرحمن) شبه فهرسة استقصائية تؤكد كثرة الدراسات والتحقيقات التي حفل بها شعره وحياته، ومعه أنه ليس من المبرزين إلا أنه لقي اهتماماً استثنائياً.

والأسطورة يتنازعها أداؤه الإبداعي الموغل في المبالغة، وتصور الناس له بوصفه بطلاً لا يُهزم؛ حتى لقد أصبح البطل الأول في حرب داحس والغبراء، وكل الذين تناولوا الفروسية والبطولة اتخذوا منه المثل الأعلى.

واكتناف شخصيته وأدائه بالأسطرة يجعل منها شخصية مربكة ومحتملة لأي قراءة، ولكل من الأداء والتصور أثره في حقيقة الذات والأداء؛ فالذين جنحوا للانتحال يجدون الحيثيات التي تكاد تفصل لغة شعره، مفردةً وتركيباً، عما ألفوه في الشعر الجاهلي، وتكاد تفصله دلالته عما كان يحفل به لداته ومجايلوه، وإضفاء البطولة الخارقة إليه لا يختلف عن إضفاء ظاهرة الكرم ل(حاتم الطائي) غير أن حاتماً حقيقة تاريخية لا يختلف أحد حولها، وإن اختلفوا حول شعره وكرمه، ولكنه اختلاف حول المبالغة وشيء يسير من النحل ولم يكن حول حقيقة الذات والإبداع. وعلى خلاف ذلك (عنترة)؛ فإثبات الشخصية والشعر بحاجة إلى مزيد من الجدل، ولعل من بعض أسباب النكارة ذلك الإيغال المضاعف في الأسطورة: أسطورة البطولة والحب، وأسطرة المتلقي له الذي أنتجه وما زال ينتجه عبر الإبداعات السردية والشعرية بوصفه شخصية تراثية يجمجم تاريخها المصنوع عما يساور الناس.

لقد أصبحت شخصيته مادة ثرية للمسرحيين والسرديين؛ لأنه يشبع نهم المحبين، والمتأذين من التخلف والقهر العربي.

ابن شداد.. وتنازع الرمز والواقع والأسطورة .. ! (٣) [1]

وحين نقول بتقحم الأسطوريين لعالم عنترة، نجد أن القصاص وصناع السير الشعبية قد أوغلوا في الخرافة واضطروا إلى الانتحال، ولقد أذلّ المحققون بخبرتهم بالشعر الجاهلي وراهنوا على قدرتهم على كشف الزيوف، غير أن الدارسين للأبعاد الدلالية في الشعر الجاهلي عامة وفي شعر عنترة على وجه الخصوص لا يشقون على أنفسهم في التمحيص وقد لا يميلون مع الخبيرين بنكهة الشعر الجاهلي لحاجتهم الماسة إلى شواهد تستجيب لرغبتهم في اتساع مجالات الدلالة في الشعر الجاهلي، وفي شعر عنترة بالذات يتجلى ذلك بوضوح في كتاب (الجانب الخلقي في الشعر الجاهلي) وكتاب (ملامح الفكر الديني في الشعر الجاهلي) وفي كتاب (شعراء النصرانية في الجاهلية) وفي كتاب (القيم الخلقية في شعر عنترة بن شداد العبسي) إذ بعض ما ينسب لعنترة لا يقوله إلا شاعر إسلامي قوي الإيمان، وهذه المسحة الإيمانية التفصيلية في إيمانها فتحت شهية الشكوكيين أمثال (طه حسين) ومن اعتمد المنهج (الديكارتي) واستثمر مخلفات الاستشراق كما هي عند (مرجليوت).

ولسنا بصدد البحث في معضلات (الانتحال) وتفرق النقد في شأنه والقدر المقبول فيه، وتبادل الاتهامات بين أطرافه واستعراض الكتب التي نسلت من عباءته، فذلك مجال مترامي الأطراف والخوض فيه يفوّت علينا ما أردنا تحريره وتأصيله. ولاسيما أن الشاعر حقيقة تاريخية وشعره حقيقة أدبية. وما نحل من شعر وهو أضعاف ما أثر عنه يعرفه النقاد الذين تمرّسوا في الشعر الجاهلي، ووقفوا على سماته وخصائصه، وفي بحث (عنترة بين الخيال والحقيقة) من كتاب (عنترة بن شداد العبسي) للدكتور فوزي أمين نفي لكل الشعر الذي تبدو فيه ملامح الانتحال، مما يحمل سمة الدين الخالص واللغة اللينة والمدينة المتحضرة، فالشاعر جاهلي لا بد أن تؤطره لغة الشعر الجاهلي وبناء القصيدة الجاهلية ومظاهر الحياة الجاهلية والذين فرغوا لدراسة الشعر الجاهلي عرفوا مواصفات القصيدة، من حيث البناء والشكل والدلالة، وهم قد تقصوا ما فيها من اغتراب وتوحش وتصحر، والناحلون لا يستطيعون تقمص الشخصية الجاهلية، فإذا تمدين الشعر أو تدين أو لانت حواشيه أصبح مثار شك مشروع، وتلك الملامح المناقضة للحياة الجاهلية حملت (طه حسين) على أن يكتب مقالاً حوارياً سوفسطائياً مملاً، وينشره قبل سبعين سنة ونيف في (جريدة الجهاد) منكراً فيه الكثير مما قيل عن عنترة ليضمه فيما بعد إلى كتابه (حديث الأربعاء).

ونحن إذ نتفق على أن عنترة بن شداد حقيقة تاريخية امتاز بالفروسية والعشق وكان من أغرِبة العرب الذين بطأ بهم سوادهم وحال بينهم وبين ما يشتهون فإننا لا نمضي لأكثر من هذا، ولا نقبل المبالغة التي توسل بها القصاص وكتاب السير الشعبية حين اتخذوا منه أسطورة في البطولة وفي علاقات الحب مع (عبلة) التي ما برحت تسيطر على مشاعره، ولأنه عاش في ربوع القصيم، وذكر بعض أوديتها وشعابها وجبالها ومرابعها كان لزاماً علينا أن نتحرى الحقائق التاريخية، بحيث نستنقذه من خرافات السير الشعبية ومن الشكوكيين الذين يكادون ينكرون وجوده التاريخي كما أنكروا غيره، وكما أنكروا شطراً مهماً من الشعر الجاهلي، ولقد لمست مداخل لمثل هؤلاء حين كتبت عن (حاتم الطائي) فالذين بالغوا في شأنه جعلوه مشروع تساؤل وارتياب، وعنترة عاش في الجاهلية وأبلى بلاء ملحوظاً في حرب (داحس والغبراء) ولم يتفق المؤرخون على فترة

---

(١) تاريخ المقال: ٣/ ١١/ ٢٠٠٩

زمانية عاشها، ولكنهم يكادون يتفقون على أن مولده يقع بين عام ٥١٥م وعام ٥٢٥م، لأن (داحس والغبراء) بدأت عام ٥٤٥م كما اتفقوا على أنه (عبسي) يسكن بلاد القصيم، وفي معجم ما استعجم ل(البكري) أن مساكن قبيلته بين (أبنانين) و(النقرة) و(ماوان) و(الربذة) غير أن التحقيق الدقيق أشار إلى أن تحديده تقريبي، وليس دقيقاً، وأن أدق تحديد وأوفاه ما ذكره العلامة (محمد بن ناصر العبودي) في معجمه المجلد الأول ص١٢٨، وعلى أية حال فالخلاف لا يخرجه من (عبس) قبيلة، ولا من (القصيم) مسكناً، ولكنه يختلف حول تحديد إقامته، والمتداول شعبياً أنه من محافظة (عيون الجواء) وأن أمه من مركز (قصيبا) وهي بلدة منخفضة وذات سباخ ومياه ونخيل، ولقد اعتاد الخلفاء والكبراء والأثرياء جلب الزنوج من أفريقيا للعمل في الزراعة، كما هو في (البصرة) و(بيشة) ومناطق أخرى اشتهرت بزراعة النخيل، وأبوه (شداد) ربما أنه تسرّى أمه (زبيبة) على عادة الكبرا، الذين يملكون الإماء، فولدت له (عنترة) فكان ما كان من أمره الذي أغرق في الأسطرة والخرافة، وإذ يكون من أغربة العرب الذين تجاوزوا العشرين فإن حيواتهم لم تغرق في الأسطرة ولا في الخرافة مثلما عرض له، وقد لا يحمل شعره كل الخصائص التي حملها شعر أمثاله من الشعراء السود، إذ إن بعضهم وقع في المملكة، ومن سماتها نبذ القبيلة والتشرد و(عنترة) يكاد يكون متصالحاً مع قبيلته، ولم يكن متشرداً، والذين كتبوا عن خصائص شعر الشعراء السود لم ينظروا إلى مصالحته وبعده عن روح الصعلكة.

وبمراجعة كتاب (الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي) للدكتور (عبده بدوي) وكتاب (شعر الصعاليك منهجه وخصائصه) للدكتور (عبد الحليم حفني) نجد أن هناك تفاوتاً في تحديد الخصائص بين الشعراء السود والشعراء الصعاليك، ولكن لم تكن هناك دقة في التفريق بين الشعراء السود الذين لم يتصعلكوا، أمثال (عنترة) والشعراء المتصعلكين أمثال (سليك بن السلكة). والغريب أن المتوقع أسطرة حياة السود المتصعلكين، غير أن الأسطرة اقتحمت حياة (عنترة) لعدة أسباب، لعل من أهمها: أنه عاش حرب (داحس والغبراء) وشارك فيها، وأنه كان على مستوى مشرّف من البطولة والشعر والحب العذري، وأنه لقي تحدياً من محبوبته ومن أبيه، وقد قاوم هذا التحدي بالقول وبالفعل، وأثبت أهليته التي سلبها قومه، وهذا الصراع مع العادات السائدة أغرى القصاص والمذكرين وكتاب السير الشعبية وأمدَّهم بالأساطير والخرافات، وكاد يقضي على الشخصية التاريخية وما كان لنا أن ننكر حق أولئك في إشباع نهم المتلقي، متى كان في الشخصية المستثمرة متسع للترميز والأسطرة والخرافة، ولكننا مع هذا نحاول تخليص الوقوعات الحقيقية والشعر الحقيقي. وتقصي ذلك قد يند بنا عما نريد ولاسيما أن الذين عالجوا الشعر الجاهلي ومحصوه أدركوا الجانب المنحول من شعره معتمدين على مقاييس لغوية ودلالية، كالحس الإسلامي والفخر القبلي، ومناقضة المؤشرات الاجتماعية للحياة الجاهلية. وعنترة المحب والشاعر والمنبوذ والفارس قابل لأن يكون بطلاً أسطورياً يشبع نهم الدهماء وفضولهم، ولكن العالم والأديب والمؤرخ لا يمضي مع أولئك وإن استعذب مبالغتهم، وبخاصة حين تكون السيرة مغرقة في الخيال والأسطورة. ولهذا حضرت شخصيته على كل المستويات الشعرية والمسرحية والسينمائية والفن التشكيلي وأصبح قناعاً ورمزاً لا يكاد يند عن أي شاعر أو مسرحي أو ممثل وهذا الحضور الملّح لم يصنعه شعره وحده ولا سيرته النثرية وحدها، وإنما صنعته الجاذبية الشخصية المتوفرة على كل دواعي الإثارة.

وعنترة بهذه المؤهلات من الشخصيات التي يتنازعها الخيال والواقع، والمتابع للحقب التاريخية يجد القصاص والرواة يضيفون من الأحداث المتعلقة بالحب والفروسية

ما يحلو لهم ثم يضطرهم ذلك إلى تأييد الأحداث بالشعر فلا يدون بأساً من أن ينحلوه من المقطعات والقصائد ما يختلف في مضامينه ولغته عن شعره الحقيقي.

حتى لقد يكون من الصعوبة بمكان تخليص شخصيته وشعره مما علق بها من خرافات لا يمكن توقعها، واستعراض ديوانه الشعري الذي جمع من السير وكتب التاريخ الأدبي ك(الأغاني)، و(طبقات فحول الشعراء)، و(الشعر والشعراء) يؤدي إلى اختلاط المنحول بصحيح النسبة، كما أدى إلى اضطراب لحمة الشعر ومستوياته.

والنقاد المجيدون يميزون ذلك، ومن ثم نفوا عن شعره ما ثبت لهم أنه ليس منه، ولكن السير الشعبية المليئة بالمنحول والأساطير هي الأكثر سيرورة وسيطرة على المشاهد.

ومعتصر المختصر أن الشاعر وتراثه سيظلان إشكالية قائمة، والدخول في عوالمه من رياضة الأفكار ولكنها لن تغير من الأمر شيئاً.

لا خير في كثير من نجوى الملالي والآيات .. ![1]

إيران دولة إسلامية كبيرة مجاورة ثائرة ومثيرة، خائفة ومخيفة مثلما كانت (مصر) من قبل وكلتاهما تجرعتا مرارة الخطاب الثوري المتشنج، وخسرتا بسبب صداقات، ومُنيتا بعداوات، وفوتتا فرصاً ثمينة.

إيران في عهد الآيات المائر، ومصر في العهد الناصري الثائر كما لو كانتا تتبادلان المواقع، وكأن التاريخ معهما يعيد نفسه، وبين هذه وتلك نجم لسن الخطاب الثوري .. القذافي ومن قبلهم جميعاً حفظ لنا التاريخ فظائع القرامطة في مكة. وسيظل الناس على موعد مع المغامرات الطائشة، والكيس من عصم نفسه ونجى بسفينته من أمواج الفتن المتلاطمة كالطود العظيم، متحامياً الصدام بالقول أو بالفعل، إذ لكل مواجهة ثمنها الباهظ التكاليف، من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات والتعطيل للخطط التنموية، وكم من مغامر رضي من الغنيمة بالإياب، وأنى له هذا وقد نسف جسور التواصل وزرع العداوة والبغضاء ومن أكره على المواجهة وقلبه نزاع إلى الوفاق وكف الأذى أعين على بلواه لأنه لم يتمن لقاء العدو.

والخطاب الثوري لا يكاد يختلف منذ أن كان في أي مصر أو عصر وإذا اختلفت ظروفه وأجناسه وأطيافه، وأي دولة لا تجعل منه مرحلة انتقالية تأكل الأخضر واليابس وتفني أبناءها حتى إذا لم تجد ما تأكله تأكل نفسها حتى الترمد. وها هي مصر اليوم بعد أن تخطت أيامها المشؤومة تؤلف ولا تفرق وتبني ولا تهدم، وهكذا كل دولة انعتقت من الخطاب الثوري.

وقدر المملكة أن تواجه لفحات الثويين بنفحات التسامح تاركة مسافات رحبة لمراجعة الفعل ومحاسبة النفس، غير أن الندم بعد فوات الفرص لا يخلف إلا الحسرات، لقد كان للمملكة مع مصر في عنفوان مدها الثوري فترات مأزومة، وبخاصة في مواسم الحج، بوصفه لقاء إسلامياً يجمع الله فيه الاشتات بعدما يظنون كل الظن ألا تلاقيا، ومصر التي عادت إلى الصف العربي بعد تجربة مريرة لم تع واقعها إلا من بعد ما دفعت ثمناً باهظاً لما يزل الشعب المصري يتجرع مرارته.

وكم كان بود كل مسلم عاقل رشيد أن يتنبه (الإيرانيون) ويتخطوا بؤر التوتر الثوري قبل أن يدفعوا ثمناً باهظاً لا قبل لهم باحتماله، وهم قد تجرعوا من المرارات ما فيه الكفاية إذ خاضوا حروباً وأمدوا متمردين، وحاكوا مؤامرات، وآووا مُحدثين، ونعقوا خارج السرب العالمي، فألبوا الأعداء وجلبوا الأساطيل للمنطقة وفتحوا شهية الطامعين.

والحج الذي حرصوا من قبل على تعكير صفوه شعيرة إسلامية تمارس في أفضل الأزمنة وأشرف الأمكنة، وكل محاولة لتعكير الصفو وا؟رباك الحجيج سيدفع ثمنها المغامر لأنه محاربة لله وإيذاء لعباده، ومع ذلك فليس بودنا تصعيد الخلاف بالقول أو بالفعل، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وقوله: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، وفوق هذا أو دونه فالبلاد تنطوي على مثمنات وقيم حسية ومعنوية وتنهض بدعوة إنسانية لحقن الدماء وتأليف القلوب، ومهمة كتلك تفرض علينا تفويت الفرص وتخييب الآمال، ومجاراة الهدير الإعلامي المتشنج بمثله لا يغني من الحق شيئاً، وقد يبطئ بواجبات الدولة في موسم إسلامي يرقبه الملايين من المسلمين، إن احتدام المشاعر لا يواجه باحتدام مثله و:

---

(١) تاريخ المقال: ١٠/ ١١/ ٢٠٠٩

إذا جاريـــــت فـــــي خلـــــق دنـــــيء
فأنـــــت ومـــــن تجاريـــــه ســـــواء

والمدخل المخادع الذي توسلت بـه الآيـات والملالـي لا يجهض بمجرد الرفض إذ بالإمكـان تعريتـه بـذات الخطـاب، فالتسييس مصطلح مـراوغ وقابـل لأكثـر مـن قـراءة، وإجهاض مثله لا يكون بـالهروب، وإنمـا يكون بالمواجهة وإذ يكون الحق ضـالة المؤمن فإنه بانتظار ما لا يمكن توفره من هذه الفئة، ولا شك أن للإسلام مفهومه السياسي منذ أن أقام الرسول ﷺ دولـة الإسـلام، غيـر أن الضـرب علـى هـذا الـوتر مـن الحيل المستهلكة، فالأمة الإسلامية لم تكن دولة واحدة، والدويلات المتعددة لم تصفُ فيما بينها بحيث يتحد خطابها وتعلن البراءة من أعدائها.

ولتفويت الأهداف وإجهاض النوايا السيئة المخبوءة تحت شعارات التسيس البراقة لا بـد مـن مواجهـة حكيمـة تحـول دون فـك الاختناقـات الداخليـة التـي تعـاني منهـا الحكومـة الإيرانية، فالشغب البائس اليائس قصد منه شغل الرأي العـام عن تقعير الرؤيـة للأوضـاع المأساوية التي تمر بها إيران، وتفويت الفرصـة بعدم المسايرة إجهاض للمقاصد الدنيئة، وحيلولة دون تصدير المشاكل المتفاقمة.

والثورة الإيرانية التي أزهقت مئات الآلاف من الأرواح البريئة وأهدرت ثروة البلاد ومقدراتها في سبيل مبادئ وتطلعات مستحيلة لا تجد غضاضـة في إزهاق مثل ذلك لنقل المشاكل الداخلية خارج أرضها. وإحداث بؤر توتر جديدة تخفيف للضـغط عليها وصـرف للأنظار عما تعانيه من أوضاع مأساوية.

ومما لا شك فيه أن أي عمل تحت أي ذريعة يؤدي إلى رَبْكِ الحجيج وتعكير صفوهم في المشاعر المقدسة إن هو إلا مساس بسيادة العـالم الإسلامي فضـلاً عن سيادة المملكة الإقليميـة، واستعداء لمشـاعر الأمـة الإسـلامية التـي ترقـب هـذه الشـعيرة بولـه وروحانيـة حانية.

وكيف يتأتى مثل ذلك والدولـة المضيفة تهيئ الأجـواء الملائمـة لأداء الشـعائر بـأمن وإيمان، إن تمكين الغوغاء من الهتـاف السياسـي والشعارات الثوريـة والمزايدات الزائفة استعداء لمشاعر المكبرين والملبين، فضلاً عن أنـه تـدخل سـافر فـي الشـأن الـداخلي لدولـة تحترم العهد والمواثيق ولا ترضـى لكـائن مـن كـان أن يمـس سـيادتها، ولـيس مـن مصـلحة الثـوريين ومـن ورائهـم الآيـات والملالـي أن يمارسـوا الإلحـاد والظلـم فـي بيـت أذن الله أن يرفع ويذكر فيه اسمه، والله قد توعد من مارس ذلك بالعذاب الأليم ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَـادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَـذَابٍ أَلِيـمٍ﴾، والهتـاف الغوغـائي ذكـر لأسماء بشـرية تحـل محـل ذكـر أسماء الله.

والتسييس الذي ينشده الثوريون في الحج اقتراف متعمد للرفس والفسوق والجدال المنهي عنه والمحذر منه، ومن فرض الحج على نفسه فليس من حقه أن يخل بالشعائر ولا أن يختار الكفر علـى الإيمـان والتسييس لا يكـون فـي ظل التشرذم الإسلامي والتعدد الطـائفي والتعـارض المصلحي والتبـاين (الإستراتيجي) وتنـاحر الطوائف والأطيـاف، ومـن الفتن العميـاء نقل التداول السياسي من النخب إلـى الغوغـاء، ومن الحـوار حـول الموائـد المسـتديرة والـدوائر المغلقـة إلـى الهتافـات والشـعارات، وحـين تنـدلق هتافـات الغوغـاء وشعاراتهم في المشاعر المقدسة فمن ذا الذي يملك استيعاب التعددية السياسية والطائفيـة والحزبية والعرقية وأي سياسة إسلامية يتنباها الغوغاء، وأي زعيم يهتفون بحياته.

وحراس الثورة الإيرانية وملاليها وآياتها حين يمارسون تصدير الثورة والطائفية في المشاعر المقدسة تكون فتنة وفسادا كبيرا، ومسؤولية الدولة التي شرفها الله بخدمة ضيوف الرحمن تنحصر في تطهير بيت الله للطائفين والعاكفين والركع السجود، ومن حقها وواجبها قطع دابر الشر، وأي تلبية لغير الله أو هتاف بغير عظمته وسلطانه تعطيل للشعائر وإفساد للحج وإيذاء متعمد لضيوف الرحمن، والدولة المضيفة لم ولن تمنح نفسها حق رفع شعار يمثل سياستها، على الرغم من أنها دولة إسلامية تحكم شرع الله وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فكيف يحلم أحد بممارسة تخالف الشعائر وتدنس المشاعر.

وأحسب أن علينا جميعاً ونحن نجند كل طاقاتنا وإمكاناتنا المادية والبشرية لتوفير الأجواء الملائمة لضيوف الرحمن أن نكون مستعدين لمواجهة كل الاحتمالات، وألا نكون متهاونين في قطع دابر الشر. غير أن المزايدة الكلامية التي تنشدها إيران تخفف أعباء معاناتها على الصعيدين الداخلي والخارجي، ولقد أجهضت الدولة أكثر من محاولة مخلة بالأمن، وستكون الأقدر فيما هو آت.

لقد مورس الإخلال بأمن الحجيج في مواطن كثيرة ورفعت شعارات زائفة لإحراج البلاد وقادتها، ومثلما طولب بالتسييس على الطريقة الإيرانية طولب بالتدويل على الطريقة الليبية، وكل هذه المحاولات اليائسة البائسة باءت بالفشل، ولم يمكث على أرض الواقع إلا ما ينفع الناس، والسلف الباطني القرمطي نقل الحجر الأسود إلى هجر وسيأتي من ينقض الكعبة حجراً حجراً ويلقيها في البحر، والأمة الإسلامية على موعد مع الفتن العمياء والسعيد من يلحق بالرفيق الأعلى قبل أن تعلو راية الشيطان.

لقد برهنت الدولة على صدقها وإخلاصها وتفانيها ونجاحاتها في تهيئة الأجواء الآمنة الملائمة بحيث صانت المشاعر ويسرت الطريق إلى الشعائر، وأقامت الجسور والأنفاق وتابعت التوسعات وستظل أمينة مؤتمنة ولو كره المشركون، أما شرار الخلق ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

الحوثيون وتَعْويم الدم .. ؟[1]

في النظام الاقتصادي تجد بعضُ الدول نفسها مضطرةً لتعويم عملتها الورقية، تاركة الفرصة لخوض غمار المنافسة، والعملةُ المعوَّمة إما أن تغرق وتُغرق معها مقدرات البلاد، أو تأوي إلى ركن شديد وإلى جبل يعصمها من الماء.

ومثلُ هذا التصرف له قانونه المتعارف عليه لدى خبراء النقد العالمي، غير أن هذا المبدأ تجاوز العملات الورقية إلى الدماء المعصومة، والمهدرة بمجانية بلهاء.

فالزعماء الدينيون أو القبليون أو السياسيون قد لا يجدون غضاضة من تعويم دماء الأبرياء من أتباعهم، لقاء ثمن بخس من مجدٍ زائف أو دراهم معدودات، مخلفين وراءهم الضياع والتشّرد وارتكاس البلاد والعباد في أوحال اليأس والإحباط والخوف والجوع والفوضى والتخلف.

ومغامرة مجنونة كتلك التي يفعلها المجازفون بين الحين والآخر تبلغ بالناس درك الشقاء وبالبلاد غيابة التخلف، ثم لا نقف عند حد إهدار الدماء فوق الضراب والآكام وبطون الأودية ومنابت الشجر، وإنما تمتد كالنار في الهشيم لتصيب أقواماً بجهالة وتزعزع الأمن والاستقرار في بلاد ليست في العير ولا في النفير.

وإذا سُئلت تلك المواقف والتصرفات عن مشروعيتها لا تجد جواباً مبرراً لتلك المقترفات الطائشة، إذ ليست هي دفاعاً عن نفس معصومة أو مال محرم أو عرض مصون أو سيادة مجترحة، وليست لمغانم مشروعة لا يصل إليها المطالب إلا بالتضحية والفداء، وما هي في حقيقة الأمر إلا حروب مجانية لحساب دولة أو حزب أو طائفة لا تقيم وزناً لكرامة الإنسان ولا لسلامة وطنه. والعالمون العقلاء المجربون ينتابهم الذهول وهم يرون ويسمعون مثل هذه الانتهاكات لحرية الإنسان وحقه في العيش الكريم.

وزج هذا الصنف من الناس المجّانيين في أتون الفتن والدفع بهم إلى حماقات الدم في سبيل أهداف بعيدة المنال وغايات مستحيلة التحقيق جريمة لا تغتفر.

ولقد يظل الحكيم في حيرة من أمره حين يرى ويسمع مثل تلك التعديات ولا سيما أن ما يتم مغامرة غير مبررة وغير متكافئة، وهي في النهاية محسومة لصالح الشرعية، إذ ليس هناك تكافؤ بين شرذمة قليلة مغرر بها ودولة تملك قوتين: حسية ومعنوية، فالحوثيون بوصفهم حفنة مرتزقة ومأجورة خرجوا على السلطة الشرعية في بلادهم. وظاهر الأمر أن مثل هذا التحرك شأن داخلي لا علاقة له بقوى خارجية لها حساباتها ومؤامراتها، ومن ثم فإن السلطة المحلية تعالجه بالأسلوب الذي تراه مناسباً، وليس من حق أحد والأمر كذلك أن يتدخل فيه متى كانت السلطة قادرة على احتواء الموضوع وحسم الموقف، وظاهرة كتلك لا يجوز التدخل فيها إلا إذا عرضت الدولة ذات الشأن أمرها على الأمة العربية أو على دول الجوار فإن مقتضى التداعي للآلام يفرض على الجميع تفهم الموقف وإعانة الأخ ظالما أو مظلوماً وفق مقتضيات الدين الحنيف الساعي إلى درء المفاسد وجلب المصالح وحقن الدماء وحفظ الضرورات الخمس والنظر في الأمر بما يحفظ الحقوق ويحترم الحريات على حد: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾.

والحق أن باطن الأمر مختلف جداً عن ظاهره، فالحوثيون لم تكن حربهم شأناً داخلياً تمارس السلطة المحلية حقها فيه كأي تمرد داخلي، فالأحداث المتلاحقة كشفت عن سوءات لا يمكن الإغماض فيها ولا السكوت عليها، فاليمن مستهدف في أمنه واستقراره

---

(١) تاريخ المقال: ١٧/ ١١/ ٢٠٠٩

ووحدته، ولقد استغل اللاعبون بعض الظواهر الجغرافية والقبلية والطائفية لنفث حقدهم، وهو ما سينعكس أثره على دول الجوار.

والمغفلون والمتعاطفون والمتواطئون يتوهمون أو يوهمون بأن الحوثيين جزء من الشعب لهم ما له وعليهم ما عليه، ومن ثم فإن لهم حق الاعتراض على سياسة الدولة داخلياً وخارجياً والمطالبة بحقوقهم الطائفية والإقليمية، وعلى ضوء ذلك يكون هذا التمرد مما فرضته المعاملة السيئة لهذه الفئة من الشعب؛ وإضفاء الشرعية على التحرك يمنح هذه الطائفة حق المطالبة بتعاطف المنظمات العالمية، ولو أن شيئاً من هذا الكلام المروج على أضيق نطاق حصل لوجدت هذه الطائفة من يتعاطف معها ويمدها بالتأييد (اللوجستي) عبر وسائل الإعلام وسائر المنظمات العالمية، إن ظاهرة الحوثيين انشقاق إقليمي طائفي مدعوم من قوى خارجية أمدتهم بالمال والسلاح والتدريب والتأييد، وتمردهم يشكل حرباً أهلية أريد منها قلب نظام الحكم وتمزيق البلاد إلى كيانات إقليمية وقبلية وطائفية، وإقامة دولة طائفية تدين بالولاء والطاعة لدولة عرفت بالتدخلات وتصدير الثورة الطائفية وزعزعة أوضاع المنطقة.

والتسلل المسلح داخل الحدود السعودية الذي أدى إلى القتل والتدمير لا يمكن أن يقرأ بغير هذا التطور، ولا يمكن أن يحسم إلا بالقوة الرادعة التي تطهر الحدود وتحول دون العودة لمثل ذلك، ومن حق المملكة أن تضع حداً لمثل هذه الانتهاكات بالأسلوب الذي يحفظ الكرامة ويصون السيادة ويردع المعتدي ويحرق الأصابع الخفية التي تحرك الدمى على مسرح الأحداث.

والمملكة لن تعجبها كثرتها ولا تفوقها ولا التأييد العالمي لها بحيث تستخف بالدماء والممتلكات أو تتجاوز حدودها الإقليمية وإن كان تعقب المعتدين يستدعي ذلك. وما أعدت قوتها المتطورة براً وبحراً وجواً وما دربت أبناءها على أحدث المعدات إلا لترهب عدوها وتصون كرامتها وتحمي مقدساتها، وتلقن العابثين درساً أخلاقياً يعود بهم إلى رشدهم.

والمتسللون المسلحون الذين قتلوا الأبرياء ودمروا الممتلكات أكدوا لذوي البصائر أن وراءهم من يرد زعزعة الأمن والاستقرار وشغل الأمة عن مهماتها النبيلة، لقد جاءت النتائج مخيبة لآمال الماكرين المتربصين فالدولة بإمكانياتها العسكرية والمعنوية وشرعية تصرفها قادرة على حفظ حدودها والمحافظة على علاقاتها الطيبة مع اليمن، وتصرف المملكة المشروع والمحدود لم يواجه بأي اعتراض، بل تتابع تأييد الدول والمنظمات وما اتخذته المملكة من إجراءات عسكرية على طول الحدود يعد أمراً طبيعياً من حق أي دولة أن تمارسه متى أحست أن حدودها غير آمنة، والتردد في مثل هذه المواقف إغراء للشرذمة وتمكين للعدو المتربص من مثمنات البلاد.

لقد فوجئ المواطن السعودي بالاعتداء غير المبرر، وما كان بوده أن يخوض جيشه معركة مع أي طرف، وبخاصة أن المملكة دولة الوفاق والتسامح والدفع بالتي هي أحسن، ولكن الأمر بلغ حداً لا يمكن معالجته إلا بالمواجهة العسكرية، وحسن الاعتداء لا يقف عند ردع المعتدي بل لابد من كشف المخططات وتعرية الرؤوس المدبرة وفضح التدخلات الخارجية الممتلئة بالحقد والضغينة ووضع العالم الإسلامي والعربي أمام مسؤوليته، فالأمر قد تجاوز حده، وأصبحت اللعبة القذرة مكشوفة وغير محتملة، وسيادة المملكة وأمنها واستقرارها فوق أي اعتبار والحوثيون فقاعة، وهم ذنب أفعى والشاعر يقول:

لا تقطعن ذنب الأفعى وتتركها

إن كنت شهما فأتبع رأسها الذَّنبا

وترك الرأس يسعى للإفساد تحت أي ذريعة تهديد للمنطقة كلها وواجب الأمة العربية أن تواجه قدرها وأن تتجاوز المعالجات الإقليمية والحدودية، فالأمر بلغ حداً لا مجال لاحتماله، والتدخلات السافرة إن لم تواجه بخطاب جماعي تبادر به الأمة العربية عبر مؤسساتها ومن خلال المحافل الدولية فإن الفتنة ستعم والمشاكل ستتفاقم وسوف يترتب على ذلك تعطيل المشاريع التنموية، وشغل الأمة عن قضاياها المصيرية.

نسأل الله للمقاتلين والمرابطين من أفراد قواتنا البواسل النصر والتمكين ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

ماذا جرى وماذا يجري في مشرقنا المأزوم .. !؟[(١)]

لا أحسبنا نذكر مقولة: (أكلت يوم أكل الثور الأبيض) قد تكون الذاكرة على علم بحكمٍ وأمثالٍ، وآيات وأحاديث وقصص وأخبار تدور كلها حول قيمة الوحدة ونبذ التنازع ووضع حد للنزاعات الجانبية، ولكنها ليست على وعي بشيء من ذلك، لأنها لو فعّلت ما حفظت لكان لها أن تراجع نفسها بين الحين والآخر بحيث لا تفوّت مصلحة مصيرية لحساب مصلحة زائلة، وبحيث لا تركن إلى من لا يراعي فيها إلاًّ ولا ذمة.

الواقع العربي بحاجة إلى مراجعة شجاعة تحمل الإنسان المتصدر على الاعتراف بالخطأ على سنن يوسف عليه السلام حين جاء أهله أجمعون، إذ لم يُهزِّئ إخوته الذين غدروا به وألقوه في غيابة الجب واتهموه بالسرقة، ولم يواجههم بذنوبهم، ولم يغلظ عليهم القول، بل قال بكل شجاعة وثقة ونبل.. ﴿وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾، فالشيطان لم ينزغه وإنما نزغ إخوته، ومن أراد حلَّ المشاكل المستعصية بينه وبين إخوته وجيرانه فليعط شيئاً من التنازلات التي تفتح شهية التفاهم والتصالح والإيثار. والأمة العربية تعيش راهنا مأساوياً، لا يمكن تصوره ولا احتماله، ولقد مرت قوميات وقارات بمثل ما مرت به الأمة العربية في راهنها، ولكنها استيقظت في اللحظة المناسبة وتداركت أمرها مثلما تدارك الحكماء (عبساً) و(ذبيان) بعدما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم، والذي يقرأ ما جرى للأوروبيين من حروب طاحنة أكلت الرطب واليابس ثم ينظر إلى مراجعتهم لحساباتهم وتناسيهم للمرارات والدماء والدمار في سبيل تدارك أنفسهم يكبر فيهم ذلك، ويعرف أن العقل يغيب، ولكنه لا يموت، وما يوده العقلاء من أبناء الأمة العربية للأمة العربية أن تصحو في اللحظة الحاسمة، وهي بلا شك مهيأة شعورياً لذلك، وليس أدل على ذلك من قبولها للمبادرات التوفيقية، ولعلنا نتذكر مفاجأة الملك عبد الله للمؤتمرين حين أعلن الرغبة وأبدى التنازل وتحمل شطراً من المسؤولية، لقد ضجت القاعة بالتصفيق، وغطت تلك المبادرة التوفيقية وسائل الإعلام وفتحت آفاقاً من التفاؤل، ولو أعقبت تلك الخطوة خطوات وأحسَّ القادة بمسؤولياتهم لكان لزاماً على كل شاذ أن يعود إلى جادة الصواب، وقديماً قيل: (العاقل من وعظ بغيره) فكيف بنا ونحن لم نوعظ بأنفسنا، لقد اجتاح المد الثوري أقاليم عربية كثيرة، ودفعت الشعوب أثماناً باهظة من دمها ومالها وأمنها وكان عليها أن تعي الدرس، وأن تجتاز تلك المراحل العصيبة في سبيل الوصول إلى حكومات مدنية ترتد إلى الداخل لتمنح المواطن مزيداً من الثقة والاستقرار وتمكنه من استثمار طاقاته وإمكاناته لبناء دولته على ضوء متطلبات المرحلة.

وحين ننحي باللائمة على تلك المآلات الموجعة لا نود البحث عن مشاجب، كما لا نود أن يتأذى من الموعظة أحد، فنحن أحوج ما نكون إلى رأب الصدع وإقالة العثرة، ومن ثم فإننا نعي كم هو الفرق بين النصيحة والتعبير، ومهما حاولنا تلطيف الأجواء، فإننا لا نستطيع تبرير الأخطاء الفادحة التي يعاني منها الإنسان العربي، إن الواقع العربي واقع مؤلم، حتى لقد هم بالأمة من لا يساوي بعدده عدد حي من أحياء عاصمة عربية، وتخوفنا أن تحين نبوءة من لا ينطق عن الهوى، وأن نكون المقصودين بالتحذير في قصة تداعي الأمم كما الأيدي تتداعى على القصعة، وحين تساءل الصحابة:

-أمن قلة نحن يومئذ؟

---

(١) تاريخ المقال: ٢٤/ ١١/ ٢٠٠٩

قال ﷺ: «**لا .. ولكنكم غثاء كغثاء السيل**»، إن الغثائية التي حذر منها الرسول قائمة، فالأمة العربية من المحيط إلى الخليج، لو اجتمعت كلمتها ونبذت خلافاتها، وارتدت إلى الداخل لكان بإمكانها أن تدفع عن نفسها بعض ما تعانيه من هوان، وإذ لا نتوقع وحدة في الصف والهدف، فإننا نتطلع إلى أدنى حد من التعاذر والتصالح والثقة والتداعي عند الملمات، وأحسب أن ذلك أضعف الإيمان.

والمؤلم أننا في ظل هذه الظروف المأزومة لا نجد بارقة أمل، لقد كان الصراع من قبل بين الساسة، فيما يقوم الوفاق بين من دونهم من المفكرين والأدباء وحتى الرياضيين، ولكن الداء السياسي امتد دخنة ليقوم التنازع والتنابز بالألقاب بين مختلف الأطياف والمذاهب والاتجاهات والشرائح.

ولقد كان الانتماء للوطن بوصفه مثابة للعقيدة والثقافة ولكن التخوف دب في النفوس فأصبح الانتماء للقبيلة والإقليم والطائفة ولقد كان التطاول محكوما بضوابط أخلاقية ودينية ولكنه اليوم خرج على كل ضابط وفسق عن أمر ربه.

والأمة في ظل هذه الأوضاع لن تبقي على شيء من كرامتها ولن تصل بسفينتها إلى بر الأمان، وما لم يتدارك الساسة والعلماء والمفكرون والإعلاميون الأمر، فإن مصير الأمة في خطر، ومن استبعد المصير المحتوم فليتذكر الفردوس المفقود؛ وما الأمة - والحالة كذلك - عن هذا المصير ببعيدة.

لا نقول ذلك يأساً ولا قنوطاً ولا تشاؤماً، ولكن عين الحقيقة، والتاريخ الإنساني حافل بحضارات سادت ثم بادت ودول قامت ثم سقطت، فهل نصحو في اللحظة المناسبة؟ ذلك ما كنا نبغي.

عندما تَسْتَفْحِل الأزمات وتَقِلُّ العزمات .. ؟[(١)]

ما أكثر ما يتغنى البرمون من ضريع المعانات بالأمثال النوادر والأبيات الشوارد ليختصر بالترنُّم الحزين واقفاً أذلَّ من عيرِ الحيّ والوتدِ، ولقد تكون قصيدة (أبي الطيب المتنبي) التي استهلها بقوله:

[عيد بأية حال عدت يا عيد] .

وبيت أبي خراش الهذلي [تكاثرت الظباء على خراش] .

من تلك الشواهد المهترئة من كثرة الترديد. مع أن (المتنبي) المتخم ببنات الدهر المتوهمة، لم يكن يهتم بأمر الأمة، ولا يحس بمعاناتها، ولم يعنه من شأنها ما يعانيه المتوادّون المتراحمون، وما كانت حِكمه وأمثاله وشوارد شعره إلا إشباعاً لغروره وجنون العظمة عنده، وما كان (أبو خراش الهذلي) هو الآخر مسكوناً بمصلحة الجماعة، ولكن الشواهد والشوارد تمرُّ كما هي، على أنها من باب التداعيات حين تلم بالإنسان الحرضِ مُدلهماتُ الفتن ومصمياتُ الكوارث.

وإذ أنعم الله على الإنسان في هذا العصر المعجز بالانفجار المعرفي والتقنية الدقيقة وثورة الاتصالات فقد أعرض ونأى بجانبه عما يعود على أمته بالخير، فيما أرهقته تلك الإمكانات المذهلة، وشدت أعصابه، وحمّلته ما لا يُحتمل، وألزمته ما لم يكن من شأنه. فكل ما يجري على كوكبنا الذي أصبح قرية متقاربة الأطراف من كوارث وحروب وأوبئة وقهر وظلم يراه هذا الإنسان المعذب رأي العين بكل تفاصيله، كما لو أنه يحدث للتو من بين يديه ومن خلفه، وقد يستجيب له ويتألم به مثلما يتألم المتضررون أنفسهم، ولكنه لا يترجم تلك المعاناة وهذا التداعي بالشكل الذي يسهم بالحل أو يخفف من وطأة المصائب، وهذا الإخفاق فوّت على الأمة فرص الصمود والتصدي والتداعي إلى كلمة سواء تشفي الصدور وتغيظ الأعداء، وتبقي على رسيس القيم المنتهكة.

والأمة العربية في راهنها المأزوم لها النصيب الأوفى من هذه الكوارث الجسام والمواقف المحبطة، والأشد مضاضة أن نخبها الذين يلون أمرها لا يحسنون إدارة الأزمات، بل يكاد بعض منهم يسهم في تعقيدها وتصعيدها، وهم في خطاباتهم ومبادراتهم المتصادمة أبعد ما يكونون عن تحقيق الرؤية الإسلامية بجسدية الأمة وتداعيها بالسهر والحمى.

وجناية وزيري خارجية (بريطانيا) و(فرنسا) السرية المعروفة باتفاقية (سايكس - بيكو) عام ١٩١٦ لم تكن بقسوة ما يفعله العرب بأنفسهم، ولم يكن الوزيران (مارك سايكس) البريطاني و(جورج بيكو) الفرنسي متفائلين بالقدر الكافي، غير أن القابلية لدى التركة العثمانية حققت لدولتيهما أكثر مما يحلمان به، وتولت (الصهيونية) و(الماسونية) كبر التخطيط ورصد التحركات ومكّن لهما مستغربون يقولون ما قالت حذام.

ونظرية (القابلية للاستعمار) انقدحت في ذهن المفكر الإسلامي (مالك بن نبي) رحمه الله الذي أتقن الرصد للواقع العربي وأحسن التعامل مع قضاياه المعقدة، وتقوم هذه النظرية على أن طريق تصفية الاستعمار إنما تتم عن طريق تصفية القابلية له، ولقد قوبلت هذه الرؤية من بعض المستغربين بالاستنكار وعدّوها من عوائق اللحاق بركب الحضارة المخب، وإذ خرج الاستعمار التقليدي من الباب، فقد تسلقت الهيمنة الشاملة من المحراب، بحيث تحولت العامة إلى مستهلكة للمادة والنخبة مستهلكة للفكر، وكدنا نصبح المعنيين بتوبيخ (الحطيئة):

---

(١) تاريخ المقال: ١/ ١٢/ ٢٠٠٩

إن كنـــت شـــهما فـــأتبع رأســـها الـــذَّنبا

واقعـــد فإنَّـــك أنـــت الطـــاعمُ الكاســـي

والمجتمع العربي في مطلع القرن الماضي كان من الضعف والتخلف والتفكك قابلاً للاستعمار، غير أنه على مشارف القرن الواحد والعشرين لم تكن قابليته بسبب الضعف أو التخلف فهو على جانب معقول ومقبول من القوة في العدد والعتاد والتقدم النسبي وإن لم يرها المتشائمون والمحبطون من أبنائه، غير أنه لم يحسن استثمارها بالقدر المناسب، ومن ظواهر الارتباك في الاستثمار تشتت الصف العربي وتعدد أهدافه وتعارض مصالحه واختلاف أنظمته وتمزق التفكير ووقوع الأمة المدنفة تحت طائلة حضارة مادية مستكبرة تسوم المستضعفين سوء العذاب، وهذا التشرذم أوقعها في الاضطراب وأفقد قادة الفكر فيها الدقة في التفكير، وهو ما أشار إليه أكثر من مفكر وبالذات (مالك بن نبي) في عدد من كتبه القيمة التي حلل فيها واقع العالم الإسلامي ومارس نقده دون مواربة أو محاباة، ففي كتابيه (تأملات) و(ميلاد مجتمع) إشارات واضحة لهذه التعميمات وتلك الإطلاقات غير السديدة، ووسائل الإعلام المهيمنة والضالعة في تزييف الوعي تعج بالمرجفين والمخذلين والموضعين في الفتنة، وإشكالية المتصدرين للتأسيس والتأصيل الفكري والسياسي والديني أنهم أوزاع يتنازعهم التحفظ على نظرية الغزو والتآمر ويستحوذ عليهم الانبهار والتهافت والتسليم المطلق لحضارة الاستكبار يأتمرون بأمرها ويلتمسون الحلول السحرية لمشاكلهم بالخنوع لها. أو الاعتزال والتعويل على تلك النظرية وتعميمها على كل شيء، وممارسة الإسقاط من خلالها وتحميل الغرب جرائر الجهل والتخلف وتزكية النفس من تبعات ذلك كله.

وكلتا الفئتين: المندفعة والممانعة لا تحسنان تفعيل الإمكانيات والتفاعل مع الآخر دون الإخلال بمحققات حضارة الانتماء.

وإذ يكون الصراع الفكري من السنن الكونية فإن المتصدين للأفكار حين لا يستحضرون النظريات الثلاث:

(الغزو) و(التآمر) و(الصراع) ويتقنون إدارة الأزمات الناتجة عنها يكونون وبالاً على أمتهم وحضارتهم وبعض المشيّعين لنظريتي: (الغزو) و(التآمر) لا يقصدون أخذ الحذر والتحرف أو التحيز، وإنما يتوسلون بهذه الدعوى للتنصل من مسؤولية التخلف. والمتصدون لها قد لا يحسنون التحرف لعمل يمكن من الاستثمار الكريم للمنجز الإنساني والخلوص من الذوبان فيما يخل بأهليتهم وخصوصيتهم، وهذا الداء المستشري أصاب الطائفتين بالشلل وقعد بهما عن قيادة الأمة بحكمة وروية وإنقاذها من مهاوي الذل والهوان، كما أدى في النهاية إلى استفحال الأزمات.

وافتقاد الأساليب السليمة للصراع الفكري يؤدي في النهاية إلى ارتباك الأمة، ولقد يكون من بوادر الفشل الذريع اختلال الوحدة الفكرية لدى الأمة، ولو كان اختلالاً واحداً لاحتمل، ولكنها اختلالات كثيرة. والتعددية المنضبطة والاختلاف المحكوم بضوابطه لا يعد من مؤشرات تصدع الوحدة الفكرية، وأي اختلاف لا تحكمه ضوابط وقواعد وأصول ويحيل إلى مرجعية معتبرة يكون مصيره الفشل وذهاب الريح، وما نشاهده ونعايشه من مراء ظاهر وباطن لا يعد من اختلاف الرحمة والتوسيع على الناس، وليس هو من الاختلاف المثري للحضارة المفتق للمعاني المستثمر للنصوص، والقبول بمثله إيغال في العداوة والبغضاء.

وداء المشاهد عندنا أن المتصدرين للصراع الفكري والسياسي والديني في مشرقنا العربي لا يحسنون إدارة الصراع وطاقات هذه الأطياف مستنزفة للمراء العقيم، ولأني

حديث عهد بفكر (مالك بن نبي) فقد أدركت قدرته على تجسيد الواقع العربي، وبخاصة في كتابيه (شروط النهضة) و(مشكلة الثقافة)، حيث فنّد وباء المشاهد وسماتها ولقد ردَّها إلى علتين موجعتين: إما الاستسلام للمهيمن أو التباهي بالماضي دون اللحاق بالآخر بوصفه المصنم أو المشيطن، على أن الموصوفين بالعلتين يتسمون بالتّضخم الذاتي والتعالم والمكابرة والثرثرة الفارغة من أي معنى، وذلك ما نشاهده ونعايشه، وهو بالفعل من معوقات الخلوص من التبعية والاستهلاك المهين.

وفي ظل هذه الظروف المكتنفة بالضعف والجهل والتنازع لا بد من مواجهة الذات بكل ما فيها وما هي عليه.

والنقد الصريح فيه مرارة ولكنه لازم متى أصبحت الأمة في الدرك الأسفل من التخلف والضعف والتفكك، ومن يتهيب مواجهة الأمة بما فيها يعش أبد الدهر في مؤخرة الركب، لقد مرت الأمة بخطابات عنيفة، وتعرضت لصدمات موجعة، وكان عليها أن تستفيد من تلك النكسات، وأن تتفادى الوقوع فيما تجاوزت من أخطاء غير أنها كما حليمة تعود في كل مرة إلى عاداتها القديمة، والتاريخ القديم والحديث بما ينطوي عليه من أحداث يعد مدرسة لمن ألقى السمع وهو شهيد، غير أن المتصدرين للصراع لا يدرون ما الأحداث ولا العبر وذلك مكمن الفشل الذريع.

والساحة العربية لم تكن كسابق عهدها تصارع الاستثمار التقليدي المعروف بثكناته ومناديبه وتجد التأييد من كتل سياسية وبرلمانية ودول حرة تحترم حقوق الإنسان وترفض الظلم والاستكبار.

لقد أُفرغت الأمة من محتوياتها القومية والدينية ومُلئت بالخوف من بعضها وسلبت السيادة وتداعت عليها الأيدي من كل جانب وهمّ بها من لا يدفع عن نفسه لانتزاع حصته من الغنائم، وما زادتها تلك التحديات إلا إمعاناً في التبلد والتردد .. وما يجري على أرضها من حروب مجانية ونزاعات على أمور متوهمة وصراعات يوحى إليهم أنها طائفية أو إقليمية أو عرقية وما هي إلا تنفيذ بالإنابة المجانية للعب سياسية قذرة، كل ذلك دليل على هرولتها باتجاه الهاوية، ونخبها الذين يصطرعون فيما بينهم منذ قرن من الزمن حول المرأة والحداثة والسلفية و(الليبرالية) و(الديموقراطية) يعيدون تاريخ فقهاء بيزنطة، إنها القابلية للاستعمار شئنا أم أبينا. ومهما تفرقت بنا السبل فإن الأمة المدنفة لن يصلحها إلا ما صلح به أو لها ولكن أين الطريق؟

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت .. ! (١)

عندما نشر مقالي الأسبوعي في (الجزيرة) قبل شهور (وجاءت سكرة المنصب بالطيش) أحس البعض -أو هكذا ماتحوني- أنني أعني شخصاً بعينه أو دائرة بذاتها، وما كنت -علم الله- أريد إلا معالجة ظاهرة بدت تفوح روائحها المنتنة ويَفُحُّ صوتها الأفعاوي، وهي ظاهرة الفساد الإداري الذي أصبح حديث المجالس ونبض الشارع العام، والناس لا ينطلقون من فراغ.

ولقد عولت على وقوعات لا يمكن التستر عليها ولا صرف النظر عنها، والناس عبر تاريخهم الطويل يمرون بفترات تضعف فيها الأمانة وتفتر فيها العزمات وتستفحل فيها الأثرة والأنانية وتتطلب مبادرات شجاعة توقف الزحف نحو الهاوية، وهل بعد فقد الأمانة من خسارة؟ .. ودولتنا الرشيدة عوَّدتنا على التسديد والمقاربة وترك الفرص المناسبة لتصحيح الأوضاع وتدارك الأمور، ولكنها لا تهمل ولا تدع الحبل على الغارب. وقد يظن البعض أن طول الفرص المتاحة لمراجعة النفس عقلة أو إهمال، وذلك الظن السيئ أردى كثيراً من ضعاف النفوس وأوقعهم في سوء ظنهم.

وحادثة (جدة) مأساة، بل كارثة بكل المقاييس، ولا يمكن تجاوزها أو التستر عليها، وأحسبها من نعم الله على البلاد، فقد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت، والحياة لا تصحَّح أخطاؤها إلا بالآيات والنذر المغنية.

وها نحن بمشاعرنا وتداعياتنا بالمواساة والتألم نجسد ذلك بأمر ملكي يعد مفخرة لكل مواطن، فالملك لسان حال الأمة ومجسد مشاعرها والناطق بلسانها، وقديماً قيل (الناس على دين ملوكهم) وهو -حفظه الله- بعزماته يعكس أخلاقيات البلاد الكامنة، فالأمة بخير وستظل كذلك ما دامت تتحمل من خلال رموزها كل الهنات، ولا تقيم على ظلم أو ضيم يراد لها، وتعبِّر عن واقعها بشجاعة وثقة وتبادر الأزمات في ساعات العسرة.

والملك عبد الله بوصفه جماع هذه الأمة عرفت عنه ضربات المعلم والخروج في اللحظات المناسبة في اللقاءات والمؤتمرات، وفي قضايا أمته المستعصية، والناس في لحظات اليأس والإحباط يظنون كل الظن استحالة الخروج من المآزق وحين تختلط الأمور وتدلَهِمُّ الآفاق ولا يعرف الغادي الذي هو رائح هل ستأتي ساعة الفرج والانفراج، وهكذا كان الأمر الملكي الحكيم المتوازن اعترافاً بالتقصير وتحملاً للمسؤولية ورفعاً للحصانة عن أي مسؤول كائناً من كان، وأخذاً عادلاً بالجرائر وضماناً للحقوق المهدرة وتعويضاً للمنكوبين ومواساة حانية للمفجوعين.

إنه أمر حكيم متوازن يخفق بجناحي الشجاعة والحكمة: الشجاعة في الاعتراف بالواقع وتحمل المسؤولية وكشف المستور والشفافية، والحكمة بحيث لا يتعدى الاقتصاص ويمس قوماً بجهالة على حد: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ﴾.

فمن الظلم الاهتياج الأعزل والارتباك وتحميل الجرائر من لم يقترفها. لقد شكلت لجنة على أعلى المستويات لتقصِّي الحقائق، وجمع المعلومات وفض المنازعات وتوزيع الإعانات والتعويضات والتعرف على الأسباب المؤدية إلى هذه الكارثة الإنسانية، إذ ربما يكون الضحية طرفاً فيها، وملك الإنسانية بحكمته ورويته وبعد نظره حين فرغ من مسؤوليته العالمية في الحج وحقق نجاحات مبهرة في أحلك الظروف توجَّه إلى موقع

---

(١) تاريخ المقال: ٦/ ١٢/ ٢٠٠٩

الحدث بعدما سبقه إليه المنقذون والمعالجون ليقول للضحية والمذنب: (ها أنذا)، بكل توازنه وأناته وإحساسه العميق بفداحة الصدمة.

والمسؤولية اليوم خلعت من رقبة الملك وشعبه الوفي وأنيطت باللجنة المنتقاة من كفاءات الوطن المتوفرة على المعرفة والخبرة، وعليها -بقيادة الأمير المؤمل منه كل خير- أن تشفي صدور قوم مؤمنين يتجرعون مرارة الصدمة ويودون ألا يضيع دمهم بين قبائل المسؤولين، بحيث تنصف المظلوم وتضرب على يد الظالم، فما عدنا نحتمل نكبات مماثلة ولم تعد فينا استطاعة أن نسمع نبض الشارع المستاء ثم لا نجد حلولاً تعيد له إشراقة الأمل.

حفظ الله البلاد والعباد وقادتها من كل سوء، وعسى ألا يكون مكان بعد اليوم للمتلاعبين بمقدرات البلاد ممن يخونون الله ورسوله وأولي الأمر منهم.

لكيلا نكون الفردوس المفقود .. ![1]

لكل شيء في الوجود من عقائد وممارسات طرفان ووسط، وتلك مسارات أزلية، تتعاقب الأجيال على مدارجها فمقل ومكثر، ومُوبقٌ ومعتق، وحَمَلَةُ الأمانة التي أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها يراوحون بين المسارات الثلاثة بوعي أو دون وعي، وبإرادة حرة أو بتدبير متعسف يأطرهم كارهين أو طائعين عليها.

والناس المقصودون بالتكليف إما مقترفون لخطيئة التفريط في جنب الله، أو مجترحون للإفراط في تمثل أمره على مراده، وهم كذلك فيما سوى التكاليف الدينية تحدوهم العواطف الهوجاء أو تثبطهم العقول المترددة، وفي كل الأحوال إما أن يكونوا غنيمة باردة لمن يتربصون بهم الدوائر ممن يودون إعناتهم، ولا يألونهم خبالاً، وإما أن يكونوا وبالأعلى أنفسهم وعلى من حولهم إذ مثلهم كمثل الذين يخربون بيوتهم بأيديهم، والوسطيون -وقليل ما هم- يحفظون بممارستهم المتوازنة الحقوق والكرامة ويحققون مراد الله لهذا الكون، وفي الأثر: (إن الله لينصر الدولة الكافرة بالعدل، ويخذل الدولة المسلمة بالجور) والظلم والجور يقع على الأمة، وقد يمتد إلى أمم مسالمة، فيكون التسلط والإجحاف بحق الآخرين، وتلك طبيعة دول الاستكبار والإضرار. والمسارات الثلاثة تتبادل المواقع، والناس معها بين سنن التدافع والتداول، ومن خلالها مجتمعة أو متفرقة يتحقق الصراع الحضاري أو الصدام التسلطي بين الخلطاء والمتجاورين، وقد تجر شهوة السلطة والتسلط الأباعد ليكونوا طرفاً في المواقف غير السوية، ومن يظن عصمته من الناس بمجرد توخيه الوسطية يمكِّن للآخرين من ثغوره ومثمناته، غير أن الجانحين للسلم المتوكلين على الله يمد لهم الله حبله ويسدد حذفهم، وإذا أصابهم شيء من جور المتطرفين فإن ذلك من باب الابتلاء على حد: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ وليست الإشكالية في تعرض الأمة المعتزلة لدخن الفتن المعارضة، ولكنها في تواصل هذه الفتن وتنوعها وفداحتها وتعاظمها مع إمكانية تحجيمها والانحناء لمرورها بسلام.

والعالم الإسلامي ظل مسرحاً للأحداث الجسام إذ ما زال يتجرع تلك المرارات الناتجة عن تفسيمه إلى دويلات ضعيفة والتنشيط المتعمد للقوميات والإقليميات والطائفيات والسعي الدؤوب لتنوع التركيبات السكانية، وتباين العادات، وتفاوت المستويات الاقتصادية والثقافية، وتعدد الأحلاف، وتناقض المصالح، واختلاق المشاكل، وتغذية النزاعات، الأمر الذي عمق هوة الخلاف والتنازع وحال دون التقارب والتعاون أو التعاذر على الأقل، وتجاوز هذه المعوقات ليس بعزيز على الهمم العالية والأمة العربية في ظل هذه الأوضاع غير السوية مهيأة لضياع مماثل لضياع الفردوس المفقود، وقد تكون مشروع صحوة تعيدها إلى رشدها، وَتَحْدُو قوافلها إلى مرافئ السلامة، ومفاتيح ذلك بيدها إن هي أدركت واقعها وتداركت أمرها قبل فوات الأوان.

والمصائر المتوقعة خيارات صعبة وإن كانت مطروحة في الطريق وعلى الأمة تقدير المواقف والحيلولة دون فوات الفرص، ولن يتأتى ذلك إلا إذا فكر ذووا الشأن وقدروا وتنادوا إلى كلمة سواء تنجيهم من تلك الترديات المتلاحقة، وليس مستحيلاً تقارب وجهات النظر، وجمع الأشتات متى حسنت النوايا وسلمت المقاصد وأحس كل مسؤول بثقل الأمانة وعُسْر الحساب، فالناس فطروا على الخير وولدوا على الفطرة، والخيرية

---

(١) تاريخ المقال: ٨/ ١٢/ ٢٠٠٩

قائمة في هذه الأمة إلى قيام الساعة، غير أن البيئات الموبوءة هي التي تتقاذفهم ذات اليمين وذات الشمال، والتاريخ حافل بالفترات المضيئة، ولهذه الفترات الذهبية أسبابها ومحققاتها كما أن لشيوع الفتن وسقوط الدول أسبابها ومحققاتها والأمة الراشدة هي التي تستحضر الأسباب وتستصحب وسائل النجاة وتنبعث من تحت ركام الشقاق مثلما انبعثت (اليابان) من تحت ركام الإشعاع النووي، وواقع الأمة العربية مُدْرَكٌ بكل تفاصيله والجادون قادرون على تحديد نقطة البداية، وهي ممكنة متى صَحَّت العزائم وأدرك القادة ما هم فيه وما يجب أن يكونوا عليه. والمشاهد العربية بادية للعيان يعرف الراصد لها المصلح من المفسد والجانح إلى السلام والمؤجج للفتن، ولو ترجمت تلك المشاعر والمعارف لاستطاعت الأمة تدارك الأمر. وتفادي المشاكل لا يأتي دفعة واحدة ولكنه وليد التفكير والتقدير والتقويم واستفتاء الضمائر الحية وإيثار الحق على الانتصار وحمل هم الخلاص:

وما استعصى على قومٍ منالٌ

إذا الإقدامُ كان لهم ركابا

لقد مارس قادة ثوريون وزعماء مجازفون اللعب بالنار وزج مقدرات شعوبهم في أتون الفتن، ولما لم يواجهُوا بما هم عليه من مقامرة وتهور فتحوا على أمنهم ثغرات اتسعت على الراقع وفتحت شهية الطامعين ويسرت لهم الوصول إلى محارم الأمة وحرماتها.

وعلينا لكي نستبين الرشد أن ننظر إلى عدد من الملفات الساخنة، كيف أتت ومن أين أتت ومن يتولى كبرها، وهي ملفات مبعثرة الأوراق في العراق والسودان والصومال واليمن ولبنان وفلسطين، ولم يمس المجاور المعتزل دخنها وحسب بل امتد لهبها، وها هي المملكة بكل حياديتها وجنوحها للسلام ورأبها للصدع وبذلها للمساعدات تُجرُّ قدمُها لتكون مرغمة طرفاً في المغامرات المجنونة، إنها لعب قذرة يمارسها من لا خلاق له.

ومهما حاول الغافلون والمغفلون التعذير أو التبرير فإنهم لن يستطيعوا حجب المجازفات التي جرَّت المنطقة إلى بؤر التوتر، وكم يود الإنسان السوي تفادي المخاطر دون تعريض المحرضين والمتآمرين والمواطئين للمفسدين للدمار المرتقب لمثل هذه التعديات المكشوفة، إذ هم في النهاية شرذمة قليلة تعبث بمقدرات إسلامية وشعوب مسلوبة الإرادة، وتعرض بعض دول المنطقة لضربات استباقية أو تأديبية متوقعة، بوصفها من المغامرات المضادة والاضطرارية سيكون لها آثارها السيئة على المنطقة ولسنا بحاجة إلى استذكار ما تعانيه المنطقة العربية بسبب ممارسات غير مسؤولة جرت الخسارة للمنطقة كافة لأنها في النهاية فتن لا تصيب الذين ظلموا خاصة، وليس بود عاقل أن تحسم مشاكل المنطقة بما هو أنكى، وما تفعله (إيران) في مشرقنا العربي لا يختلف كثيراً عما اقترفته الرعونة العربية، فهل تظل مصائر عالمنا العربي مرتهنة للمغامرات الطائشة والمجازفات المجنونة؟ أم أنَّ نِداءات الوسطية والتسامح وحوار الأديان ستأخذ طريقها لتحل محل الاهتياج الأعزل.

لقد آن الأوان لجمع الكلمة ومواجهة الواقع المأزوم بعزمات متآزرة تدفع الشر ولا تطلبه وتصد الاعتداء ولا تبادله، ونبراس كل متحرك في سبيل الحق المقولة الراشدة: (لا خيار إلا الانتصار أو الشهادة).

مدخل لدراسة الشعر السعودي المعاصر.. ! (١)[1]

١- لا أحسبني قادراً على التخلص من القول المعاد، فما ترك الدارسون لفنون الشعر العربي الحديث من متردم، بيد أنه لابد مما ليس منه بد...

... فالمداخل التي أعددتها لدراسة الأدب العربي الحديث في (المملكة العربية السعودية)، حين تمر بأنواع الفنون القولية، يكون الشعر من أولوياتها، وإن كنا قد أطلنا الحديث عنه في (المدخل التاريخي للأدب) لطغيان سلطانه فيما سلف من فترات، ولتمسكه بحقه فيما هو آت. وحين أخذت على نفسي استيفاء كل المداخل، كان لابد أن أكتب المدخل الخاص بالشعر قبل غيره، ويوم أن كنت أكتبها للطلبة، كنت أعول على جاهزيات مغنية عن الشعر والشعراء سبقني إليها زملاء مقتدرون، ومن ثم لم تقم الحاجة إلى مدخل الشعر، ولما استوت المداخل على سوقها، لتكون مؤلفاً يتداوله الناس خارج قاعات الدرس، بل خارج البلاد، أصبح من الضروري أن يكون المدخل الشعري من بينها. وحين عقدت العزم اعتمدت الإشارات، واستبعدت الشواهد لآتي على أكبر قدر من الشعراء الذين لا يكتمل الحديث دون الإشارة إليهم، وإذ يكون من المتعذر الجمع بين التراجم والشواهد، واستيفاء الحديث عن الكافة، فإن من اليسير على طالب التوسع أن يعود إلى المصادر التي سوف أشير إليها.

وإذ شحت الدراسات السردية إلى حد الندرة، فقد كثرت الدراسات الشعرية إلى حد الاستفاضة والإغراق. ومؤونة البحث في السرديات بكل صعوبتها ليست بأصعب من عملية الاختيار من الدراسات الشعرية. لقد وقفت أمام الدراسات التطوعية والأكاديمية والجزئية والشمولية والذوقية والمعرفية والمعيارية، فما وجدت عملاً فردياً يغني عما سلف وعما خلف، وتلك إشكالية تضاف إلى إشكالية الاختيار. وإذا كانت الصعوبة في كثرة الدراسات وفي تعدد المناهج وتنوع الآليات، فإنها كذلك في تفاوت مستوى الدارسين، وتباين اهتماماتهم، ومدى جديتهم والتفاوت قائم على أشده بين الدراسات الأكاديمية، وبخاصة رسائل (الماجستير) و(الدكتوراه)، وهو دون ذلك في دراسات الترقية والدراسات التطوعية، ويكاد التفاوت يبلغ ذروته في الدراسات الصحفية المأخوذة بالسرعة والمجاملة، وفقد المعيارية والمنهجية والخطة، ومهما حاولت تزكية عملي فإنني لا أملك لنفسي الاستقلالية، لا في المنهج، ولا في الآلة، ولا حتى في النتائج. غير أن زمناً ينازع نصف قرن قضيته مع الشعر والشعراء في المملكة دراسة وتدريساً وإشرافاً ومناقشة وتحكيماً وتأليفاً، سيجعل لهذه الدراسة مكاناً لا يتصدر الدراسات السالفة، ولكنه لا ينطفئ بحضرتها.

وأثق أن هذا المدخل يصدق عليه ما أطلقه (ابن رشد ت ٥٩٥) على مؤلفه في الفقه، فهو بداية للمجتهد، ونهاية للمقتصد، فمن قصد بحور المعرفة استقل السواقيا. والدارس الذي لا يتجاوز بدراسته متطلبات المدخل يكون دون السواقي، ولكن أثباج المدخل تحرض على التجاوز إلى أمواج المعارف. وقصد الاختصار أصعب من رغبة بسط الإطالة، ومعتصر المختصر لا يلقاه إلا المتمكنون من معارفهم ومناهجهم وآلياتهم. ولقد توخيت في هذا المدخل جماع المناهج، وهو ما أميل إليه، فالتكاملية تأخذ من كل منهج بطرف، وقد تسد خلالاً كثيرة. ولقد عمدت إلى المنهج التكاملي في دراستي لكل المداخل، سعياً وراء التوفر على أخصر المختصرات.

---

(١) تاريخ المقال: ١٥/ ١٢/ ٢٠٠٩

والدارس لأدب الأقاليم، تواجهه خصوصيات زمانية ومكانية وثقافية ودينية واجتماعية وسياسية، حتى لا يجد بداً من استصحابها، لتسهم في بلورة القضايا الدلالية على الأقل. و(النقد التكويني) يهتم بتاريخية النص ومكوناته، وكل نقد قائم أو ثاو في كهوف التاريخ، إما أن يشتغل بالمكون النصي، أو بذات النص، أو بالتعالق مع ما سلف. ولكل نحلة متطلباتها وتنوعاتها وتعدد اهتماماتها. ف (النقد التكويني) إما أن يشتغل بذات المبدع من خلال بيئاته الأعم والعامة والخاصة والأخص ومشاربه واهتماماته، أو يشتغل بالعوامل المؤثرة في مجمل الحركة الأدبية، أو بالمؤثرات الفنية، وكم هو الفرق بين العوامل والمؤثرات، فالعوامل تتعهد الأدب حتى يستوي على سوقه، والمؤثرات تواكبه حتى يتخذ وجهته.

ولك أن تقول عن المشتغل بذات النص، من خلال لغته أو صوره أو موسيقاه أو تشكيله أو طرائق أدائه أو دلالته، وللنقاد في ذلك مذاهب شتى، والتشعب أخذ مداه مع النقد اللغوي، الذي تعدد بتعداد النقاد، حيث عرفت (البنيوية) و(التفكيكية) و(التحويلية)، وسائر متعلقات اللسانيات من علاقات وعلامات، وهو تشعب أثرى المشهد النقدي في المترادفات كالمثاقفة والتأثر والتأثير والتعالق والتناص والأشباه والنظائر، وما هو من متعلقات النقد المقارن، والاشتغال في تاريخية النص لا تأسره سلطة النص فهو معرف به لا شارح ولا وسيط.

٢- والتأريخ للشعر في المملكة لا يختلف عن التأريخ للشعر في أي قطر عربي، إنه حديث عن البدايات والمبتدئين، وعن التحولات والمتحولين، وعن المؤثرين والمتأثرين، وعن القصيدة منفصلة عن مبدعها، وعن الأعمال الشعرية مجتمعة أو متفرقة، وعن أثر البيئات الخاصة والعامة، وعن أسباب ذلك كله، وإذ يكون لكل شاعر همه وأسلوب تناوله، فإن الدارس والمؤرخ والناقد يظلمون المشهد حين لا يستحضرون ذلك كله أو حين لا يلمحون إلى شيء من ذلك وكل متعقب لظواهر الفن عامة يتطلع إلى الإجابة عن الأسئلة التقليدية:

أين، ومتى، ومن، وكيف، ولماذا، وهل؟

فأين كانت بدايات الشعر السعودي؟

ومتى كانت؟ وعلى يد من كانت؟ وكيف كانت؟

ولماذا كانت على هذه الشاكلة؟ وهل للشعر السعودي سمة جامعة مانعة تشمل مناطقه وأزمنته.

ومحصلة الإجابة كما البنية التحتية، ينطلق منها الدارس إلى آفاق أخرى، يستدعي الرواد والمؤسسين والمقلدين والمحافظين والمجددين والحداثيين، ومن معهم من النقاد والدارسين والمؤرخين، وأحسبنا حين نحسن الجواب، ونصدق القول، نكون ألممنا بمتطلبات المدخل الموجز، والحديث عن أدب إقليم أو فترة زمانية، أثار فضول القوميين الذين يتخوفون من التجزيئية، والمزايدين الذين يستقلون أدب أمتهم، ولا يرونه بإزاء الأدب العربي، وفي ذلك إغثاء وفضول، لا يستحق التعويل، فالاحتفاء بالمفردات طريق قاصد للكليات، والنزعة الأممية فوتت علينا فرص الإضافة القطرية.

٣- والحديث عن الحركة الشعرية في المملكة حديث يتطلب الإشارة إلى طبيعة البلاد السياسية، فما من شيء إلا هو آخذ بحجز السياسة، تنطلق به في الآفاق أو تهوي به في المكان السحيق، ولا سيما أن الأديب وثيق الصلة بالسياسة قدر وثوق السياسة والأدب معاً بالحركة الإصلاحية التي قام بها المصلح (محمد بن عبد الوهاب) رحمه الله، ومما يقوي صلة الأدب بالسياسة تزامنهما في النشوء والارتقاء، فما كانت السياسة شيئاً قبل قرن من الزمان، وما كان الأدب شيئاً مذكوراً قبل ذلك، وقد لا نجد بداً من استثناء (الحجاز) من

هذا الإطلاق، ولقد نعرض لحيثيات هذا الاستثناء، والمملكة إبان التأسس، لم تكن دولة واحدة، بل كانت إمارات إقليمية وقبلية، وكانت التركيبة السكانية رعوية زراعية حضرية، والرعوية منها تخضع للتموجات التي تفقدها التوفر على متطلبات المجتمع المدني، كما لا يمكن التوفر على أدنى حد من الكفاف إلا ببذل أقصى جهد وأطول وقت من العمل، وحاجة الأسرة إلى جهد أبنائها لا يُمكِّن من طلب علم ولا قراءة، وحين عاد الملك (عبد العزيز ت ١٣٧٣هـ) رحمه الله من منفاه في الكويت عام ١٣١٩هـ كانت البلاد إذ ذاك مقطعة الأوصال متعددة الانتماءات متفاوتة الإمكانات، وكانت جل أقاليمها خارج المشهد السياسي والتعليمي، لأنها صحراء شاسعة رعوية متنوعة السكان، تحكمها الأعراق القبلية. ولقد هيأ الله له من الأسباب والتوفيق ما مكنه من بناء هذا الكيان الحضاري.

فالملك عبد العزيز دخل الرياض في الخامس من شوال عام ١٣١٩هـ ولكنه لم يعلن توحيد المملكة إلا عام ١٣٥١هـ والمدة الممتدة بين العودة من المنفى والانتهاء من معركة التكوين وإعلان التوحيد تشكل عقبة في تحديد البداية الزمنية الدقيقة للأدب، وهي حاجة ملحة للمؤرخ دون غيره من الدارسين، ومتى استصحب المؤرخ الأدبي هذه الإشكالية لزمه إمرارها كما جاءت، والاكتفاء برصد الظواهر الشعرية لكل منطقة بوصفها جزءاً من المملكة بعد توحيدها. ولا أحسب أن هناك مشاحة، فالعهد (الهاشمي) في الحجاز كالعهد (الإدريسي) في الجنوب، وكل إقليم له ظروفه وإمكاناته، والملك عبد العزيز ببطولاته وأخلاقياته تجاوز العقبات، وأذاب الحواجز، وأنهى الفرقة، واستقطب الأدباء والشعراء، ومكنهم من مواصلة عطائهم، فكان مثلهم الأعلى، وكتاب (الملك عبد العزيز في عيون شعراء جريدة أم القرى) الذي اشتركت في تأليفه، يمثل ملمحاً من ملامح اهتمام (الملك عبد العزيز) بالشعر، وتعلق الشعراء به من داخل البلاد وخارجها، إذ لم تكن له (أيديولوجية) مناقضة لما هو قائم، ولم يعمد إلى إخضاع إقليم لآخر، ولا قمع فئة لصالح أخرى، وذلك سر إقبال الناس عليه، ودخولهم في هذا الكيان أفواجاً، وتفجير مواهب الشعراء. وسوف لا نجد بداً من اعتبار (الحجاز) المصدر والمورد، ذلك أن له خصوصية لم تكن لغيره من الأقاليم، وله إمكانات لم تتهيأ لأي إقليم آخر، وإذ يكون (الحجاز) مهوى الأفئدة، فهو مصدر الشعر ومورده، ومع ما له من خصوصية دينية ومدنية وإمكانات اقتصادية وحضرية، فإننا لن نغفل بوادر هنا وهناك، في جنوب البلاد وشرقها ووسطها وهو ما فصلنا القول عنه في المدخل التاريخي، وأعطينا لكل إقليم ما يستحقه، وليس هناك ما يستدعي التكرار.

مدخل لدراسة الشعر السعودي المعاصر .. ! (٢) (١)

٤- والمتحدث عن الشعر في البلاد لابد له من الإشارة إلى ظاهرة (الشعر العامي) الذي خلف الشعر الفصيح في زمن التخلف، ونهض بمهماته، ولعل الدكتور (طه حسين) قد أشار إلى لونين من الأدب؛ أشار إلى (أدب تقليدي) خافت الصوت، و(أدب شعبي) ندي الصوت، ولم يتردد في وصف الشعبي بفساد اللغة، هذه الإشارة الذكية، حفزت الأديب والمؤرخ (عبد الله بن خميس) على تأليف كتاب (الأدب الشعبي في جزيرة العرب) استهله بمقولة ل(طه حسين): (... إن كل أديب لا يستقي مادته وروحه من حياة الشعب فليس أديباً ولا هو بكاتب للأدب)، وإذ تمسك بهذه الإشارة الاجتماعية الواقعية، لم يأخذ بمقولته عن فساد اللغة في هذا اللون من الشعر، وتلك المقولة متكأ في رفض هذا اللون، رفض دراسة لا رفض وجود وتذوق.

و(طه حسين) يميل إلى النقد الاجتماعي، أو هو رائده، وهو أميل إلى الأدب الواقعي، والخلاف حول (الشعر الشعبي) لا يمس واقعيته وشعبيته، ولا ينظر إلى فنياته، ولا إلى دلالاته، وإنما يقف ويطيل الوقوف حول لغته، وهو ما لم يحفل به (ابن خميس)، و(طه حسين) الذي كتب عن (الحياة الأدبية في جزيرة العرب) وضمنه كتابه (ألوان)، أدرك بثاقب نظره العزلة التي عاشتها جزيرة العرب والآثار السيئة التي تركتها في حياة الأدب واللغة العربية، وحديثه عن (الأدب الشعبي) حديث استدعاه واقع الحال، ولم يكن كما هو عند (ابن خميس) المعجب إلى حد الدفاع المستميت عن ظاهرة الشعر الشعبي، يقول (طه حسين): (وهذا الأدب -وإن فسدت لغته- حي قوي له قيمته الممتازة من حيث إنه مرآة صافية لحياة الأعراب في باديتهم).

وإذا كانت طائفة من الكتاب تطلق على هذا اللون أدباً فإن مرد ذلك عدم النظر إلى فساد اللغة، والأدب لا يكون أدباً إلا إذا كانت لغته لغة الحضارة والدين والتاريخ، وتحفظي على التسمية لا يحول دون القبول المحدود والمشروط اضطراراً لا اختياراً ف(الشعر العامي) يعيش حضوراً طاغياً، لأنه يتوسل بلغة العامة، ولأنه شاع كالنار في الهشيم، في غياب الشعر الفصيح، وشيوع الأمية في البلاد، أسهمت في بقائه، حتى بعد أن شاع التعليم، وأنشئت الجامعات، وعمت الثقافة، وإذا توفر هذا اللون من الإبداع على فنيات الشعر فقد كان الأقرب إلى النفوس، لأنه يجمجم عما في خواطر القوم، ويعبر عن مكنوناتهم ومايساورهم من هموم، ويتحدث بلهجاتهم الملحونة، وليس بدعاً أن يكون محظياً عند الخاصة والعامة، ولكن المستنكر والمستغرب أن تأخذ اللغة الفصحى زينتها، ويكثر طلابها وأقسامها في الجامعات، ويتنامى الشعر الفصيح، ويكثر الشعراء، ثم يزداد الاهتمام بالشعر العامي، وتكون له مجلاته وصفحاته ودارسوه، وما هو في النهاية إلا مؤشر ضعف لغوي وتخلف علمي وانغلاق إقليمي.

وطه حسين الذي يعطي (الشعر الشعبي) ما له وما عليه، يشير إلى مؤثر مهم، يصفه ب(الحركة العنيفة) ويقصد بذلك (حركة الإصلاح الديني على يد المصلح محمد بن عبد الوهاب) رحمه الله يقول: (ولكن الذي يعنينا من هذا المذهب أثره في الحياة العقلية والأدبية عند العرب، وقد كان هذا الأثر عظيماً خطيراً من نواح مختلفة، فهو قد أيقظ النفس العربية، ووضع أمامها مثلا أعلى أحبته وجاهدت في سبيله بالسيف والقلم واللسان).

---

(١) تاريخ المقال: ٢٢/ ١٢/ ٢٠٠٩

وحديث (طه حسين) عن الشعر الفصيح في نجد يربطه بالحركة الإصلاحية، ويضفي عليه ثناء باذخاً. والحركة الإصلاحية لها أثرها الواضح على الشعر في المملكة، ولقد تقصيت هذا الأثر في كتابي (النزعة الإسلامية في الشعر السعودي المعاصر) وفي كتابي (اتجاهات الشعر المعاصر في نجد)، وأثر الحركة يتجلى في المضامين، وفي المحافظة على عمودية القصيدة العربية، وقد تكون بكل سلفيتها قد صرفت الشعراء عن مجون الغزل ومبالغة المدح، والشعر الذاتي الممتع، ولأن البلاد دخلت في حروب بين الخصوم والأنصار، فقد نهض الشعر بدور الدفاع عن حوزة الدعوة، وذلك عامل ازدهار للأدب عامة وللشعر على وجه الخصوص، والشعر الشعبي الذي واجب الحياة لم تخب ناره، ولم يقل أنصاره، لقد التقط (ابن خميس) الخيط من ذلك البحث الانطباعي المجمل، الذي يقع في عشرين صفحة، فطاف في كل أنحاء الجزيرة العربية بما في ذلك (اليمن) ليتحدث عن نشأة الشعر العربي وتطوره وعلاقته بالشعر النبطي في سائر الأغراض والمعاني وهو بهذا الكتاب الذي يقع في أربعمائة صفحة قد فتح الباب أمام الدارسين لهذا اللون من الشعر، ولا أحسبه قد وفق في ذلك، والقول بأن الشعر العربي من أصول الشعر العامي، قول لا يقوم على دليل، ولا يسنده واقع، فالشعر العامي مرتبط بالموهبة الشعرية التي لم يجد الموهوب معها بداً من الإبداع في اللهجة التي يتقنها، لقد وجد دعاة الشعر العامي سبيلهم إلى مشاهد الأدب بهذه البادرة، وكلما ضيق عليهم الخناق، عولوا على دراسة أديب لا يشك أحد في تمكنه واقتداره، وحرصه على لغة القرآن، والمؤرخ للشعر في المملكة العربية السعودية لابد أن يستذكر أشياء بطأت به، فالعامية والشعر العامي مؤشر التفكك والتخلف، والدعوة الإصلاحية لها صبغتها الدينية المؤثرة، وبعد توحيد البلاد، وتواصل أهل الأقاليم، وتعميمه وتنوعه وتوفر الرخاء والاستقرار وتداول الحكم دون ثورات أو فتن، نهض الأدب وقوي الشعر.

٥- والحديث عن الشعر في البلاد يستدعي استحضار طوائف الشعراء ومن حولهم من المؤرخين والشارحين والدارسين، والحركة الشعرية مرت بتحولات رصدها المؤرخون والدارسون والنقاد، واكتنفوها من كل الزوايا، وكان المحافظون رأس أمر الشعر، ومن حولهم المقلدون والنظامون، وقليل من المؤرخين والدارسين من يلتمس الفروق الدقيقة بين الفئات الثلاث:

-المحافظين.

-المقلدين.

-النظامين.

ومن ثم، فالبعض يجمعهم في سلة واحدة، ويؤاخذهم بمستوى واحد، في حين أن المحافظة تختلف عما دونها من تقليد ونظم، وفي ذلك ظلم، ف(ابن عثيمين ت١٣٦٢هـ) شاعر محافظ، لا يقل في سياقه الأدبي في مصر، ومن وصفه بالتقليدية فقد ظلمه، ويقال عن (ابن بليهد ت١٣٧٧هـ) إنه مقلد لا يرقى في متانة شعره إلى مصاف سلفه (ابن عثيمين)، ومن وصفه بالمحافظة فقد ظلم الشعر في الجزيرة العربية، و(ابن بليهد) مهيأ لكي يكون شاعراً مجددا، ولو لم يشله التأليف، وتلهيه المسؤوليات، ويقال عن (ابن سحمان): وأنه ناظم، ومن وصفه بالمحافظة أو بالتقليد فقد أخطأ بحق الأدب.

والفرق بين الشاعر (علي السنوسي) في الجنوب وابنه (محمد)، كالفرق بين (ابن بلهيد)، و(ابن عثيمين)، والمتعقب للشعر في مكة والمدينة في مراحله الأولى يقف على محافظين ومقلدين ونظّامين)، وإذ تجلت قدرات (ابن بليهد) التأليفية في مجال جغرافية الأدب، فإن قدرات (ابن سحمان) تجلت كذلك في مجال التأليف في العلوم الشرعية،

والمنافحة عن الدعوة، والرد على الشعراء الخصوم، والمحافظة سمة محمدة، وليست سمة مذمَّة، وعلى عكس ذلك التقليد والنظم، إذ ربما يكونان سمة اقتدار لا مؤشر موهبة.

وإذا كان الشاعر (محمد سرور الصبان ت١٣٩٢ه) مرهصاً للتجديد في الشعر، وهو إرهاص لا يدركه إلا العالمون، فإن الشاعر (محمد إبراهيم الغزاوي -١٤٠١ه) يأتي في ذروة المحافظين، ولم يتمكن الشاعران من التأسيس لبداية التجديد، أو التأصيل للمحافظة، وإنما مضيا تاركين للمشهد اختيار المسارات التي اختطها كل واحد لنفسه، دون النظر إلى إرهاصات (الصبان) ومن شايله من لداته ومجايليه. والذين تلقوا الراية من (الصبان)، تفرقت بهم السبل، ذلك أن المشهد العربي في مصر والشام له أصداؤه التي بلغت الحجاز، بل ربما انطلق بعضها من ربوعه على يد الوافدين للحج والعمرة والمجاورة وأصداء المعارك الأدبية العنيفة في مصر ربما أنها وجهت الأنظار لما يجب أن يكون عليه الشعر فـ(شوقي) أمام عنف النقد (العقادي) سوّى بعض شعره، واستدرك مايمكن استدراكه، وبخاصة في البعد الموضوعي.

والتجديد الذي بدت ملامحه في شعر (الصبان)، والمحافظة التي تواصلت مع شعر (الغزاوي) لم يقفا بتوقف الشاعرين، وإنما اتخذ كل منهما مساره عبر شعراء نظروا أو لم ينظروا إلى من سلف، فالشاعر (عبد الوهاب آشي) و(محمد عمر عرب) و(أحمد العربي) كانت لهم محاولات متواضعة للتجديد. أما (محمد حسن عواد) و(حمزة شحاته) و(حسن عبد الله القرشي) و(طاهر زمخشري) فكان تجديدهم واعياً وصاخباً، وإن تفاوت بين (العواد) و(شحاته) لكنه بلا شك تجديد متوازن عند (شحاته)، وعنيف عن (العواد)، وإذا كان التجديد قد تواصل، وتنقلت رايته من جيل إلى جيل فإن المحافظة ظلت قائمة عند طائفة من الشعراء، نرى ذلك عند (ضياء الدين رجب) و(عبيد مدني) و(فؤاد شاكر). هذا على مستوى إقليم الحجاز في بدايات الحركة الأدبية في المملكة، ونراها عند (عبد الله بن خميس) و(عبد الله بن إدريس) وعند آخرين لم يلحقوا بهم في إقليم نجد، ونراها عند (محمد بن أحمد العقيلي) و(محمد بن علي السنوسي) في الجنوب وعند شعراء من (آل مبارك) في المنطقة الشرقية، ومن حول هؤلاء وأولئك عشرات الشعراء الذين ينازعون الأوائل صدارة المحافظة، وإشكالية تحديد المستويات تطال كل الاتجاهات، فالمحافظة يدعيها مقلدون والتجديد يدعيه محافظون، وحتى الذين استهواهم التجديد في الغرب، وقلدوه دون إتقان يعدون من المقلدين، وإن زعموا أنهم من رواد التجديد، والفرز بين هؤلاء وأولئك لا يأتي بيسر، ولا يحسم الموقف إلا النقد التطبيقي ومواجهة النصوص بالدعاوى غير المسنودة.

ولقد يحلو للبعض تسمية طائفة من الشعراء بالمجددين المحافظين، فعل ذلك الدكتور (عبد الله الحامد)، واستعذب رؤيته بعض من جاء بعده، ويأتي الجمع بين التجديد المحافظ من الصعوبة، بحيث لا يمكن تصوره، وحجتهم أن للموضوعات والمعاني مثلما للألفاظ والتراكيب والأشكال، فإذا جدد الشعراء في الموضوعات والمعاني، وحافظوا على الصور والأشكال والتراكيب فإن لهم نصيباً من التجديد، وعليهم كفلٌ من المحافظة، ولهذا يسمون بالمجددين المحافظين ويكون في إزائهم المجددون الحداثيون وليس هناك ما يمنع من هذه الإطلاقات، إذ لها شيء من الموضوعية، ولكنها عصية التصور إلى حد ما، وإذ يكون هناك مقلون أو متوقفون في فترات الريادة والتأسيس والانطلاق فإنهم لا يشكلون عقبة في محاولة الحكم على المرحلة، فالشاعر (عبد القدوس الأنصاري) و(أحمد عبد الغفور عطار) و(أحمد محمد جمال) توقفوا في وقت مبكر، ولم يصدروا إلا وريقات قليلة، هي كل أعمالهم، والحكم عليهم أو على المرحلة من خلالهم مجازفة وجور في الحكم،

والشعراء كافة استجابوا للمستجد الموضوعي، وبادروا إليه، ولكنهم تمنعوا في الاستجابة للمستجد الشكلي واللغوي وسائر المشمولات الفنية.

لقد تفاوت الشعراء في التواصل مع المؤثرات والعوامل والاستجابة لها، والتواصل في حد ذاته مؤشر نزوع إلى التجديد المتفاوت، والمحافظة المتفاوتة، فكل الظواهر لم تكن على ما هي عليه مع مرور الزمن، فالتجديد اللاحق يرى التجديد السابق محافظة مستنيرة، وقد يمضي إلى أبعد من ذلك ويعده تقليداً.

مدخل لدراسة الشعر السعودي المعاصر .. ! (٣) (١)

٥- ومهما حاولنا استبعاد المؤثرات الخارجية فإننا لن نستطيع استبعاد تأثير المدارس المصرية وشعراء الشام والعراق والمهاجر الأمريكية، ولكنه تأثير غير لافت للنظر لهيمنة المحافظة، وعدم استجابة الذائقة العامة لما طرأ على المشهد الشعري العربي، وإن كان ثمة تحول فإنه بطيء، ولم يتخط الموضوعات والمعاني.

ولكن هذا التردد لم يتلبث طويلاً، وإن ظل مسايراً لحركات التجديد التي حققت اللحاق بمشاهد الشعر العربي، وما كان لنا أن نهمل مؤثراً قوياً، وهو مناهج التعليم، التي استمدت لحمتها من مرجعيتين: - الدين والتراث، فالتعليم يعتمد هذين المنهجين بشكل متميز، وهذه السمة المنهجية تركت أثرها الواضح على اتجاهات الشعر في تلك المرحلة.

وإذ فاقت (منطقة الحجار) سواها في اللحاق المبكر فإن مرد ذلك قوة التواصل واستمراره من الحجاج والمعتمرين والمجاورين، وتبني (الحسين بن علي) مواجهة حملة التتريك واستقطابه للوافدين من الشام، إضافة إلى الاستقرار واليسار الذي لم يكن مهيأ لبقية المناطق قبل توحيد البلاد. وعلى الرغم من كل محاولات التجديد وعنف المقاومة على يد (محمد حسن عواد) فإن المحافظة طال أمدها واستمرت مواكبة للمجددين من الشعراء.

والمتحدث عن تحولات الشعر لا بد له من استحضار الخلط النقدي بين الاتجاهات؛ ذلك أن المشهد النقدي لم يكن قادراً على التفريق بين المحافظة والتقليد، والحداثوية الفكرية والتجديد الفني، وهذا الخلط يفوّت على المتلقي استكناه حركة الشعر على أصولها. ومع أهمية الفرز بين تلك الطوائف فإن هناك ظواهر جدت على المشهد الشعري، وكادت تقلب أوضاعه رأساً على عقب، وإذ لا نجد بداً في تقصي تلك الظواهر فإن حجمها لا يصل بها إلى ما يراه بعض النقاد الانطباعيين.

ولعل أشد القضايا صخباً ما يتعلق بالتجديد الشكلي، واضطراب المفاهيم حول تحولات الشكل الذي يطلق عليه البعض (عمود الشعر)، بوصفه خاصاً بالعروض الخليلي، وما هو كذلك، ومما يدخل في هذا اللغط قضية الوزن والقافية ومدى ارتباطها ب(الشعر الحر) و(قصيدة النثر) و(مجمع البحور) وسائر الظواهر الشكلية من ثنائيات ورباعيات وتوشيح وغيرها.

والشعراء والنقاد شغلهم جدل متنامٍ، حول البناء والشكل والوحدة الفنية ومتعلقات ذلك، وقضية الشعر الحر أو شعر التفعيلة أو الشعر المنثور أو قصيدة النثر ربطتهم مع طائفة من الشعراء النقاد من أمثال (نازك الملائكة) و(صلاح عبد الصبور)، وهذه الجدليات الصاخبة في المملكة بدأت على يد أعنف ناقد وشاعر هو الأستاذ (محمد حسن عواد)، ولم تقف جدلية الشعر الحديث عند هذا الحد؛ بل تجاوزته إلى ظواهر أخرى، تبدَّت في شعر طائفة من شعراء الوسط، وهم الذين سبقوا مرحلة الانطلاق وأسسوا لها، كظاهرة الشعر الرمزي، وخير من يمثل هذا اللون الشاعر المدني النشأة القصيمي الأصول (محمد عامر الرميح) رحمه الله. والرمز الواعي صنو الغموض.

ولست مع من يربط الظاهرة بقصيدة (الصبان) (يا ليل)؛ فلا (الصبان) ولا (الجهيمان) في (مناجاة نخلة) قادران على الإرهاص لظاهرة الرمز بمفهومه المعاصر، ولو مضينا مع هذا التصور وجب علينا أن نجعل الرمز (أموياً) أو (عباسياً)؛ فلقد جاءت قصائد من هذا النوع تحيل إلى الأطلال وإلى النبات وإلى الحيوانات، وقد وقع بعض

---

(١) تاريخ المقال: ٢٩/ ١٢/ ٢٠٠٩

الدارسين حين اتخذوا من المطالع رمزاً لأشياء لا يود الشعراء إظهارها، والدارسون للرمزية في الشعر السعودي المعاصر أمثال (الحامد) و(العطوي) يتوسعون في المفهوم، ويعممون الظاهرة، ويدخلون في الرمز ما ليس منه. وإذ نتحفظ على هذا التعميم فإننا نجد الرمز بمفهومه المعاصر عند الشاعر (الرميح) كما أشرت، وعند (ناصر أبو أحيميد) وعند (عبد الرحمن المنصور)، وقد تلقف الراية من بعدهم جيل الانطلاق، وسوف نذكر طائفة منهم عند الحديث عن تلك المرحلة المشكلة.

وإشكالية هذا اللون من الشعر حين يقعد به الرمز والغموض والنثرية، وهذه الظاهرة تمس طائفة من الشعراء الشباب، كالشاعر (سعد الحميدين) و(عبد الله عبد الرحمن الزيد) و(محمد لثبتي) و(محمد العلي) و(عبد الله الصيخان) و(محمد الحربي)، وآخرين تعرف منهم وتنكر، وإذ لا نختلف حول شاعريتهم فإننا مختلفون حول مشروعية تجريبهم المغرق في الغموض والرمز والنثرية. وإشكالية الشعر الحديث أنه خرج من خصوصيته الشكلية إلى ما هو أدنى، وهذا الاستبدال أباح الشعر لغير الموهوبين، وأدى به إلى التراجع أمام الإبداعات السردية؛ ليكون الزمن زمن الرواية، واندفاع المغرمين بتجريب الحداثة العربية لم يستهوِ إلا طائفة من الشباب، فيما بقيت طوائف أخرى ملتزمة ما يلزم من وزن وقافية.

والمحافظون من النقاد يصرون على (عمودية الشعر)، ويرفضون أي محاولة تخرج على العمودية المتمثلة بشرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، والوصف وإصابته، والتشبيه ومقاربته، ولذيذ الوزن وتخيره، والاستعارة ومناسبتها، والتحام النظم والتئامه، ومشاكلة اللفظ للمعنى، وشدة اقتضائها للقافية. ومشروعية العمودية لا تحول دون التجديد والتجريب، وإذا شدد المحافظون فقد يسر المجددون، وبين تطرف الفئتين فَقَدَ الشعر كثيراً من مؤهلاته.

٦- وحين نعود إلى حديث البدايات تبدو لنا إشكاليات زمانية ومكانية فرضتها طبيعة التكوين السياسي، فـ(الملك عبد العزيز) - رحمه الله - عاد من منفاه في شوال من عام ١٣١٩هـ، واستمرت معارك التكوين ثلاثة عقود، وكانت المناطق الأربع متفاوتة من حيث كافة المؤثرات السياسية والعلمية والاقتصادية والأدبية، وهو تفاوت فرضته أوضاع البلاد قبل التوحيد، ويوم أن أعلن المؤسس توحيد البلاد عام ١٣٥١هـ، بدأ الدمج في توحيد المناهج والمؤسسات الإعلامية والثقافية، وسائر وجوه الحياة.

والنظر إلى الشعر من خلال مناطقه استوفيناه في مدخل التاريخ الأدبي، ولا حاجة بنا إلى إعادته، ولكننا نحيل إليه؛ ليكون بمثابة التوطئة والمدخل للمدخل، وهو حديث لا يخص الشعر وحده. والشعر لم يكن في بدايته كالسرد؛ ذلك أنه متواصل منذ الجاهلية الأولى، أما السرديات فقد قطعت صلتها بالنثر الفني العربي لتصل حبالها بالمستجدات والمترجمات من القصص والروايات العالمية؛ ولهذا لا نجد حاجة إلى الحديث عن الرواد في الشعر، بل أكاد أجزم بأن القول في الريادة ضرب من الفرضيات، والقول في البدايات قد يتحدث عن شعرائها ممن يحسبه المتلقي من باب الريادة، وما هو منها.

والشعر - كما أشرت من قبل - امتداد طبيعي لما سبق، ولكن الأجواء قد تكون ملائمة فتمنحه القوة، وقد لا تكون ملائمة؛ فتؤدي به إلى الضعف، والمرحلة التي ننطلق منها لم تتوافر على الأجواء الملائمة في كافة المناطق. قد تكون في الحجاز أحسن حالاً، ولكنها دون المؤمل فيما سواه، وفترة البدايات توصف بالمحافظة بل تكاد تكون تقليدية في بعض أحوالها، ولما لم تكن الأجواء ملائمة لنهوض الأدب، فقد ظل الشعر دون المستوى، ولا عبرة بمن شذوا عن السمة العامة، وبخاصة في الحجاز التي حركت ركودها مواجهة

(التتريك) ولجوء طائفة من علماء الشام وأدبائه وشعرائه إلى (الحسين بن علي)، والنهوض بمهمة المقاومة.

والمؤسسون للحركة الشعرية ينطلقون من (الأسكوبي) و(العمري) و(ابن عثيمين) و(آل حفظي) و(آل مبارك)، وتلك بدايات تنسب إلى شعراء أو إلى أسر نبغ منها أكثر من شاعر، وقد خلف من بعد أولئك شعراء لم يستبدوا، ولكنهم اقتفوا الأثر حذو القذة بالقذة، نجد ذلك عند (عبد الحق نقشبندي) و(عبيد مدني) و(علي حافظ) و(إبراهيم فطاني)، و(آل حفظي) في الجنوب، و(آل مبارك) في الشرق، والمتابع للدراسات والأعمال لا يجد فرقاً واضحاً في تلك المرحلة، ولكنه يقف على مؤشرات واعدة، تجلت فيما بعد، وأدت إلى افتراق الشعراء في اللغة والصور والمعاني.

ولو أتيحت للمتابع قراءات الرصد التاريخي والموضوعي والفني لهذه المرحلة لتبدت له وجهات نظر متباينة، ولقد قام عدد من الدارسين برصد هذه الفترات عبر رسائل علمية، تقصت الشعر والشعراء وإرهاصات التحول، نجد ذلك في كتب الأستاذ الدكتور (عبد الله الحامد) والأستاذ الدكتور (إبراهيم الفوزان) والأستاذ الدكتور (عبد الله أبو داهش) والأستاذ الدكتور (محمد بن صالح الشنطي) والدكتور (عثمان الصالح) وآخرين طبعوا رسائلهم، ورسائل أخرى لم تطبع، تحدثت عن الظواهر الشعرية، أو تحدثت عن الشعراء، ولقد سبق أولئك نقاد ودارسون ومؤرخون متفاوتون في الإمكانيات والاهتمامات، أمثال (عبد الله عبد الجبار)، (عبد الله بن إدريس)، (عبد الله الساسي).

ومن بعد هؤلاء الرواد اتسعت الدراسات وتشعبت، وخصت المناطق والشعراء وسائر الظواهر بدراسات أكاديمية أتت على الحركة الأدبية في البلاد، شعرها ونثرها ونقدها وسائر مناحيها. والإشكالية ليست في جمع المعلومات، ولكنها في براعة الانتقاء وحُسن التأليف. وحركات التجديد لم تكن سريعة بالقدر الذي يؤمله المتابعون، ولكنها إذ بدأت وئيدة الخطى في فجر النهضة تسارعت خطواتها في مرحلة الانطلاق، وإذ عيب التريث في البدايات فإن العيب مضاعف في التهافت غير المحسوب.

ولقد يكون الإنصاف أن نميز بين محافظين لم يدعوا لأنفسهم فرصة الاستشراف، وآخرين وصفوا بالمحافظة، ولكنهم أصغوا لحراك التجديد، وهبت عليهم نسائمه، فالشاعر (محمد بن عبد الله بن عثيمين) محافظ قوي في محافظته مُصِرٌّ عليها، و(عبد الله بن خميس) محافظ حاول أن يجدد في المعاني والموضوعات، ويقال عن شعراء الحجاز والجنوب والشرق مثلما يقال عن شعراء نجد، ولكن شعراء الحجاز في البدايات على الأقل أسرع إلى التجديد، ولاسيما أنهم تابعوا بوعي حركات التجديد، وأصاخوا لصراع المدارس الشعرية مثل (مدرسة الديوان) و(جماعة أبولو) وكان (محمد حسن عواد) خير مَنْ يمثل تلك الإصاخة تنظيراً وإبداعاً.

ولم يكن التلقي مقصوراً على مدارس الشعر في مصر؛ بل كان للمهجرين أثرهم، فـ(الصبان) استفتى ناشئة الحجاز عن بعض تجاوزات (ميخائيل نعيمة) وطبع ذلك في كتاب (المعرض)، ومنذ أن أصاخ الحجازيون لضجيج تلك المدارس بدت التحولات الدلالية، وظهر شعر الطبيعة والغربة والحب، ولم يلحقوا بالتجديد الفني المتمثل بالصور والوزن والقافية إلا بعد أمة. ولقد عُرفت اتجاهات بعض الشعراء وصنفوا دلالياً على الأقل، فالشاعر (عبد الله الفيصل) و(القرشي) و(القصيبي) عرفوا بقصائد الحب والتوله، وإن شدتهم فيما بعد قضايا الوطن، وإذ وصف هؤلاء بالرومانسية والحب والتولهْ فقد وصف آخرون بالواقعية، والواقعية التي يوصف بها بعض الشعراء السعوديين تعني الواقعية الاجتماعية، أو قل الشعر الاجتماعي، ولقد كان من فرسانه الشاعر (سعد البواردي) و(عبد الكريم الجهيمان).

الحلقة الأخيرة

مدخل لدراسة الشعر السعودي المعاصر .. ! (٤)[1]

٧- والحديث عن الشعر في جنوب البلاد له تداعياته التي تصل بالدارس والمؤرخ إلى أعماق الزمان والمكان، والصلات بينه وبين مستقر الحضارات، ومصدر القوافل البشرية، وهي صلات لا تبين إلا لرصد حصيف، ومتابع دقيق، والشعر في الجنوب ذو صلات وثيقة بأدب (اليمن) وشعرائه وما عليه الشعر في شكله ولغته ومضامينه ولقد عرفت به أسر عريقة كـ(آل حفظي) وشعراء هذه الأسرة عبروا عن تواصل قومهم بالحركة الإصلاحية التي وصلت إليهم طلائعها في مستهل القرن الثالث عشر، والشعر في بداياته كان محافظاً بل هو إلى التقليدية أقرب، ولقد جاءهم النظم والنفس الصوفي من احتكاكهم بشعراء اليمن، وإن لم يبلغوا شأوهم، فاليمن كان على شيء من العلم والأدب والاستقرار.

لقد عرف من هذه الأسرة شعراء مقلون ومكثرون ومحافظون ومقلدون وناظمون، وجنوب البلاد تقتسمها ثلاث مناطق، (منطقة عسير) و(منطقة جازان) و(منطقة الباحة)، وهذا التقسيم الإداري له مبررات جغرافية وسكانية، ولكل منطقة دورها في الحركة الشعرية، وأكاد أقطع بأن لكل منطقة نكهة شعرية ترتبط بما يمثل فيها من هموم، ولقد يكون الشعر في (جازان) أكثر التصاقاً بالواقع وأقرب إلى الذاتية، وبخاصة عند شعرائه الشباب، ولكل فترة من فترات البلاد ما يلائم أحوالها، وهي في كل الأحوال أميل إلى المحافظة والدين، والحديث عن الشعر في الجنوب ينطلق عادة من عسير، ورأس شعرائها في البدايات الأولى (محمد بن أحمد الحفظي)، وكان معدوداً من شعراء الدعوة، صوّر الأحداث ونبذ الخلاف، ودعا إلى مكارم الأخلاق، فكان شعره أوزاعاً بين الدعوة والمنافحة والإصلاح، وشعر هذه المرحلة وتلك الفئة شعر علمي وعظي تقليدي، ولكنه ينم عما يتوفر في تلك البقاع من ثراء علمي شرعي وتراث أدبي غزير.

ولما لم تنج تلك البقاع من الفتن والحروب الداخلية، فقد أصبح الشعر ديوان الأحداث، وأصبح الشعراء لا ينفكون من الدفاع أو الهجوم على خصومهم، وحكم البلاد تداولته أسرة (آل عائض) حتى امتدت إليه يد الأتراك، الذين ضيقوا على أهل تلك البلاد الخناق، فانتقل الشعر من الفخر إلى الشكوى ووصف الأوضاع المتردية يقول (أحمد بن عبد الخالق الحفظي):

فكم هتكت أستار دين وعطلت

مدارس للتدريس من كل عالم

وبعد استعراض الفتن توجه إلى السلطان مستنجداً ومستعدياً: -

ولم يدر سلطان الأنام بحالها

لما هو فيه من جميع الأقالم

والمتابع لهذه المرحلة يدرك ما عليه الشعر من علمية وموضوعية ونظمية، وشيء من التكلف والصنعة، وهو بهذه السمات يجسد حالة البلاد إبان نهضتها، ويكشف عن مبلغهم من العلم والأدب، وكانت لهذا الشاعر مواقف تنم عن تذمر البلاد وأهلها، من جور الأتراك، حتى لقد طاردوه وأسروه ونفوه.

---

(١) تاريخ المقال: ٥/ ١/ ٢٠١٠

ولم يكن هذا اللون من الشعر هو المتنفذ وحده في تلك المناطق، وفي تلك الفترات، بل آزره لون آخر جنح إلى الذاتية والوصفية، نجد ذلك عند الشاعر (علي بن زين العابدين الحفظي) وفي شعره تتبدى الغربة والحنين: -

هـب النسـيم فقلبـي كـاد ينفطـر

والـدمع يجـري علـى الخـدين منحـدرا

ولم ينج شعره من الركاكة والاضطراب والمغالبة، والحديث عن شعراء تهامة عسير، يفضي بنا إلى شعراء جبال السراة، ومن شعراء تلك الأنحاء (آل النعمي) و(آل المتحمي)، وآخرون تبدت في شعرهم أحوال البلاد، وما تعرضت له من فتن، وشعر هذه الأنحاء في تلك الفترة، لم يتخلص من العلمية والتقليدية، وهو إفراز مرحلة مضطربة في كل وجوه الحياة، والمنقب في الشعر يستبين ملامح الحياة بكل وجوها.

فالشاعر (عبد الله بن محمد النعمي) صور حياة البلاد، ومواقفها من حركة الإصلاح الديني، وما تعرضت له من غزو مدمر، تولت كبره (تركيا)، التي عارضت الدعوة، وخافت من انتشارها، ومثلما تنوعت الأغراض في الشعر التهامي، فقد تنوع في جبال السروات، فالشاعر (محمد المتحمي) عاش النفي والغربة، وكذلك ابنه، يقول في ذلك:-

تحيـة صـب قـد بـرى الشـوق جسـمه

وأدمعـه مـن حـر نـار الجـوى تجـري

والمؤرخ للمخلاف السليماني، يلمح إلى بعض الظواهر الشعرية، ويحتفي بالذاتيات منها، لما تنطوي عليه من تصوير دقيق للأوضاع المتردية.

وشعر البدايات في تلك الأنحاء، لا يخرج عن الأغراض الشعرية القديمة، فالشعراء ملتزمون بالموضوعات التي ورثوها عمن سلف، متحرفون في المعاني تحرفاً تفرضه بيئة البلاد وأحوالها.

ولم يدم شعراء الجنوب أسرى الظروف السياسية والدينية والأدبية، بل بدأ الاستشراف وقويت صلتهم بالمستجد من حولهم، وكان للتعليم النظامي الذي وضع أسسه المؤسس أثره في سائر التحولات، وبخاصة الشعر، والبلاد بكل أقاليمها ومناطقها مرت بنقلة لا توصف بالنمو وحسب، ولكنها قفزات تكاد تكون مربكة، ومحاولة الربط بين فترات البدايات وما تلاها محاولات غير ممكنة، فالبلاد كمن هب من سبات عميق، وأحس أنه تأخر في انطلاقه، فأصر على اللحاق بالركب العربي، فكان أن لحق في وقت قصير، والذين قسموا حركة الشعر بين مراحل متعاقبة، يعون حجم التغيير الذي باعد بين مرحلة وأخرى.

والدكتور (عبد الله أبوداهش) خير من رصد للحركة الأدبية في تلك الأنحاء، وهو في آخر إصداراته تحدث عن مرحلتين، جمعهما في مئة وثمانين عاماً، وتلك مدة متطاولة لا تستجيب لتقسيماته، ولكنه شاء لها أن تكون، وله أعمال أخرى تحدث فيها عن الشعر، وبخاصة في كتابيه (الحياة الفكرية والأدبية في جنوبي البلاد) و(نشأة الأدب السعودي المعاصر في جنوبي المملكة العربية السعودية) والكتب الثلاثة انطلاق متوسع من كتابه (أثر دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الفكر والأدب بجنوبي الجزيرة العربية). ولقد غطى في كتبه الحياة الأدبية، وكان ظهيراً لسلفه الأستاذ (محمد بن أحمد العقيلي) رحمه الله.

وبتجاوز مرحلة ما قبل التوحيد، نجد أن حركة التغيير كانت بطيئة ومترددة، فالشعراء الذين تلقوا الراية ممن سلف، حافظوا على كافة الملامح، ولم يغيروا في الشعر

بالقدر المؤمل، وممن عرف من الشعراء في تلك المرحلة الانتقالية (يحيى عبد الله المعلمي) و(محمد بن أحمد العسكري) و(عبد الله بن شايع العسيري) و(يحيى بن إبراهيم الألمعي) و(الحسن بن علي الحفظي) و(هاشم سعيد النعمي) و(زاهر بن عواض الألمعي)، ولقد ساق (أبوداهش) أطرافاً من شعرهم، وبسط القول عنه، وهو شعر محافظ، وإن وصفه الدارس بالنشاط والنمو محيلاً ذلك إلى الانفتاح والصحافة. وأحسب أن مرحلة الانفتاح والكثرة والتجديد، تتمثل في مرحلة ما بعد الثمانينات من القرن الماضي، وهي مرحلة أجمل الحديث عنها، ولم يبسطه استغناء بما قدم من دراسات في كتب سلفت.

وتلك المرحلة زاهرة بعدد كبير من الشعراء الشباب، الذين أكملوا تعليمهم، وخرجوا من ديارهم، ولحقوا بعواصم الأقاليم كـ(الرياض) و(الحجاز)، ومن هؤلاء (إبراهيم طالع الألمعي) و(أحمد إبراهيم مطاعن) و(أحمد بن عبد الله عسيري) و(أحمد بيهان) و(علي آل عمر عسيري) و(علي عبد الله مهدي) وآخرون، ولقد تناولت طائفة منهم في كتابي (النزعة الإسلامية في الشعر السعودي المعاصر).

٨- وإذ فرغنا من الحديث عن النظامين والمقلدين والمحافظين، وهو حديث يحيل إلى المصادر، ولا يستحضر النصوص لضيق المدخل ومحدوديته، نكون قد قاربنا الحديث عن طائفة معادلة، وهي طائفة المجددين، والتجديد كسالفه فيه المضارع والضريع، والمجدد الذي تعرف في إبداعه نظرة التألق والتفوق، والحداثي الذي انقطع عن الماضي، ولم يلحق بالحاضر، ونسف قنوات التواصل حتى لا يبلغ دلالة ولا يمتع سامعاً، هذا فضلاً عما ينتابه م ن انحراف في الفكر وسقوط في الأخلاق، وطائفي الحداثة يعده الموالون من التجديد المشروع، وما هو منه، فالتجديد بيّن والتقليد بيّن، وبينهما أمور ليست من التجديد المشروع، إلا المغلطين الذين يظنون أنهم يخادعون الراصدين للحراك الثقافي، وما يخدعون إلا أنفسهم. والناقد المعياري المعرفي لا يلتفت إلى الادعاءات، ولكنه يخلو بالنصوص يسائلها عما تنطوي عليه من جمال وجلال، فإن وجدها مستوفية شرط الفن، وضابط اللغة وشرف الدلالة شهد بما علم وإلا نبذها كما تنبذ الأودية ريد الماء الذي يذهب جفاء.

والشعر والشعراء في المملكة ليسوا بدعاً من الشعراء في سائر الأزمنة والأمكنة، فهم أوزاع بين المجددين والحداثويين، وليست مجاهرتهم بهذه الظواهر كمجاهرة أساطين الأحداث، غير أنهم يميلون إليهم ويلجون بالثناء عليهم، ولا يجدون غضاضة في الانتماء وحاجتهم إلى من يصدقهم القول لا إلى من يتملقهم بالتصديق، فالموهبة حين يتوفر عليها الشاعر المقصر لا تقوى إلا مع التعقب، لأن تقصيرها تقصير قادر على إتمام ومسايرة القادر على تقصيره تقصير مضاعف، وما نقوله هنا ليس نهائياً لا معقب لحكمه، ولكنه رؤية معززة بما ستحيل إليه من شعر أونثر ومثلما أن الأرواح جنود مجندة، فإن الأذواق كذلك، ولكن التفاوت لا يمكن الضعيف من النفاذ إلى سدة الجودة والتألق، وحرارة النقد كما النار التي تذهب خبث الحديد والخاسرون من محاباة النقد هم الشعراء ومشاهدهم، وما صفت المشاهد وتألق الشعر إلا في ظل نقد لا تأخذه بالحق لومة لائم.

والذين يظنون أن التجديد مجرد المغايرة، تأخذهم بنيات الطريق فيقعون كما وقع المقلدون، إن محاكاة الآخر وإن كان معاصراً تعد من أسوأ صنوف التقليد، وحين نؤاخذ المقلدين للمعاصرين نعرف كم هو الفرق بين (التقليد) و(التناص)، وما قعدت حركة الشعر إلا حين وقع المبتدئون بالتشايل والمقايضات، وما تألق شاعر إلا تحت طائلة الاختلاف حوله فـ(المتنبي) له خصوم أشداء لا يستهان باقتدارهم، وله أنصار كذلك، واستطاع بالاختلاف أن يكون الشاغل، والتجديد كما الخضرمة لا يفصله حد حسي، وإنما هو نمو كما نمو الأشجار والأناسي، يكون طبيعياً لا يتبينه إلا الراصد الحصيف، ومن

تعمد التجديد وقع في التعمل، فالشاعر يستلهم واقعه ومعطياته الثقافية، ويتحسس ذوائق عصره ومتطلباته، فإذا تلبس بالإبداع لا يستحضر السمات، وإنما يعي عصره، وبهذا يكون الشعر جديداً كما يريده المجتمع، وما من شاعر صب اهتمامه في البحث عن سمات التجديد ثم راح يصنع القصيدة ويتصنع إلا جاء شعره دون المستوى، والمشهد الشعري الحديث تتنازع شعراءه الصنعة والتصنع والعفوية، وعين الناقد الواعية تعرف كل قصيدة بسيماها وترد كل إبداع إلى مصادره.

والنظر إلى نصيب الشعر السعودي من التجديد، يتطلب إحالة النظر في مناطقه المختلفة، وفي إمكانياتها المدنية والمعرفية، و(الحجاز) أوفر حظاً من سائر المناطق، وأغزر شعراً، وأكثر شعراء، ومشهد الأدب، والشعر فيه يصيخ إلى أصوات الشعر في مصر والشام، وقد يفد إليه شعراء من مصر أو من الشام، بل إن المقيمين من شعراء الشام أكثر تأثيراً ممن يبعثون بأعمالهم الشعرية، وشعراء الحجاز وكتابه لم يجدوا بداً من التلقي والتأثر، والبعض منهم تمسك بسمات التراث، ولم يستجب لما جد، والبعض الآخر اغترف غرفة بيده، وآخرون شربوا من الجديد حتى تضلعوا ولعل رائد أولئك (محمد سرور الصبان ت)، وقد استعذب المستجد ثلة من معاصريه منهم (محمد عمر عرب) و(أحمد العربي). وإذا كان تجديد الصبان قد جاء عفوياً هادئاً، فإن تجديد (محمد حسن عواد) كان عنيفاً مندفعاً.

وإذ لم يتبنَ (الصبان) زعامة التجديد، ولم يكن إلا مؤرخاً للأدب داعياً لتحولاته، فإن (العواد) كان الأكثر حضوراً والأشد عنفاً) والأحرص على تسنم سدة التجديد، وإذ لم يخلف (الصبان) شعراً كثيراً فإن (العواد) تابع الإبداع وتابع إصدار الدواوين، ومضى الاثنان دون أن يكون لهما الأثر المأمول. فـ(الصبان) جذبته المسؤوليات الرسمية واستغرقته الوجاهات، ولم يشأ تقييد نفسه مع الشعراء والنقاد، بل منحهم شيئاً من عطفه، وقضى نحبه دون أن يترك لنفسه ما تركه الشعراء والنقاد. وأما (العواد) فقد كان صلفه واندفاعه وحدة مزاجه وتجاوزه لمرحلته سبباً في عزلته وتفرق الناس من حوله، وبين مسؤولية الصبان، وصلف العواد توقفت حركة التجديد إلى حين، ولم يبادرها الشعراء الشباب إلا بعد حين.

سَيُهْزَمُ الجمع وَيولون الدُّبر .. ! [(١)]

أخطر قرار في الحيوات السياسية قرار (الحرب)، لأنها أم المصائب وزارعة الضغائن والأحقاد ومتعهدة العداوات، لا تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم، وأي زعيم تستوي عنده أهمية القرارات وخطورتها لا يكون حاملاً للأمانة على وجهها.

والزعيم الذي يفاجأ بقرار الحرب من طرف غير سوي وغير مقدر للعواقب الوخيمة يكون أمام جهاد الدفع الذي لا خيار فيه، ولا مناص منه، إذ معه يتعين جهاد الدفع، ويتأكد النفور، ومن أكره على خوض لجج الحرب يكون في حل مما تخلفه من قتل وتدمير، وإثم ذلك كله على الذين يشعلون الفتن: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾.

وإذ يكون الدخول في السلم كافة مقدماً على جهاد الطلب فإن خيار الحرب صعب ومفضول، وكيف لا يكون الأصعب، وكل مقدرات الأمة وإنسانها وقود لها، وكل شيء يتجه صوب الجبهة، بحيث تعلن حالة الطوارئ وتعطل كل المشاريع التنموية، والذين يُسْتَشهدون أو يقتلون يتْركون وراءهم من الأرامل والأيتام شواهد إثبات لفظاعة المغامرة.

ومشرقنا العربي لما يزل ساحة قتال، ومجال كرٍّ وفر وقَدَرُه أن يظل متجرعاً مرارات حروب مجانية لا مبرر لها. ومع ما تتركه تلك الحروب الطائشة من خسائر في الأرواح والممتلكات وما تخلفه من أزمات في سائر وجوه الحياة، وما تشيعه من خوف وجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات فإن اتخاذ قرارها عند المغامرين من أهون القرارات.

والدول التي وضعت أقدامها في أتون الحروب طائعة مختارة ما زالت مرتهنة لجرائرها:

(وما الحرب إلا ما علمتم وذقتموا) ولا سيما إذا فوتت على نفسها خيار السلم الممكن، ولسنا بحاجة إلى استعراض النتائج المدمرة، والآثار السيئة على سائر القيم والمثمنات فهي من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى دليل، والمنتصر فيها يُعدُّ خاسراً فكيف بالمنهزم، ومن ذا الذي لا يعرف آثار المغامرات الطائشة على أمتنا العربية منذ الثورة الأولى عام ١٩٤٩م على يد (حسني الزعيم).

والحروب الحدودية والأهلية والطائفية والقبلية والإقليمية والحزبية، وما شئت من التسميات لا يخبو أوارها إلا لكي تستعد لاشتعال أوسع وخسارة أفدح.

وجيلنا التعس عاش المد الثوري والانقلابات الحمراء والبيضاء وأتخم بالرغاء الإعلامي الموتور، وهو لم يقرأ التاريخ الحديث ولكنه كتبه بمداد من دمه وعرقه، خُطِف الرغيف من الأفواه الجائعة ليكون ثمناً لرصاصة طائشة تمزق الأحشاء وانْتزعت الأسمال البالية من ظهور المعوزين لتكون ثمناً لعبوة ناسفة تزرع في المباني المأهولة بالأبرياء، وغُسلت الأدمغة الشابة الوديعة لتكون وحوشاً ضارية تلف أجسادها الغضة بالأحزمة الناسفة. وصُنَّاع اللعب القذرة يأوون إلى جبال من المكر والخديعة ظناً منهم أنها تعصمهم من اللهب، وما هم في النهاية بخارجين من تبعاتها العاجلة أو الآجلة ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾، ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ وإن كانت الشعوب الغائبة أو المغيبة هي التي تدفع عاجل الثمن الباهظ التكاليف، والرجل الرشيد كالقصير الذي لا يطاع له أمر، وإن حاول جاهداً أن يواجه الواقع بكل بشاعته، ويضع صناع القرارات الخطيرة أمام مسؤولياتهم

---

(١) تاريخ المقال: ١٢/ ١/ ٢٠١٠

فالسيل قد بلغ الزبى والانهيارات الأخلاقية والاقتصادية والأمنية شارفت الذرى، والعالم كله تحت طائلة فتن عمياء لا تصيبين الذين ظلموا خاصة، ولم يبق مجال للتفاؤل فالدول المتقدمة والنامية في سباق محموم لتصعيد الأزمات، وكل طرف يدعي الحق ويراهن على النصر، وقنوات الضرار تؤز الفرقاء أزًّا، وما علمت ومن ورائها أن الجميع مستهمون على السفينة، وأن ما يمارسونه خرقٌ متعمدٌ سيأتي على الأبرياء والضالعين في الإثم على حد سواء.

والمملكة التي واكبت المد الثوري وأصابها دخن الفتن تود لو أن بينها وبين المغامرات الطائشة أمداً بعيداً، وأنى لها ذلك، وهي جزء من هذا المشرق الملتهب، ولو تركت وشأنها لكانت في مصاف الدول المتقدمة لأنها بلد الثراء والاستقرار السياسي والمقدسات والاستقامة على ما أمرت به، لقد دفعت ثمناً باهظاً في حروب الخليج كلها، وهي قد دفعت مثل ذلك في حروب الاستقلال العربي والمقاومة العربية، ولما تزل في لهاث وراء المحافل الدولية تواسي وتأسو أو تتوجع، ولم يكن في حسابها أن تكون طرفاً في حرب أهلية مشتعلة في بلد مُشرَّع الأبواب لكل الخطابات وقابل لكل الاحتمالات لأنه يرقص على فوهة بركان حِمَمه الصراع القبلي والطائفي والإقليمي وأجواؤه موبوءة بالمتسللين والمروجين للأسلحة والمخدرات، ويكفي استعراض العمليات الأمنية على حدودنا معه منذ أمد بعيد، حتى لقد هم سلاح الحدود إقامة جدار عازل يحقن الدماء ويحول دون تدفق المهربين والمتسللين.

والتسلل الحوثي المنظم الذي راح ضحيته أكثر من سبعين شهيداً وأكثر من عشرين مفقوداً وأكثر من أربعمائة جريح - كما جاء في تصريح مساعد وزير الدفاع - مؤشر خطير لا يكن تجاوزه كعارض طبيعي، إن وراء الأكمة ما وراءها، والدول الشقيقة والصديقة لم تزد على التأييد المطلق لكافة الإجراءات الدفاعية التي اتخذتها المملكة وكان عليها أن تمتلك الشجاعة لتضع النقاط على الحروف وتمسك بالأصابع الخفية التي تحرك الدمى لشغل المملكة عن مهماتها العربية والإسلامية وجر قدمِها لحِرب عصابات ومرتزقة، وإذ يكون الوضع جد خطير فإن الاكتفاء بكلمات المجاملة لن يحقن الدماء ولن يطفئ لظى الحرب المجانية وغير المسؤولة والتي قد تحول اليمن من بلد موحد إلى أشلاء مبعثرة تحتضن الإرهاب وتصدر الفتن.

إن على الأمة العربية عبر جامعتها أن تدرك اليمن بتدخل فوري يطفئ الحرائق المندلعة ويفك الاشتباكات المستعرة ويصلح ذات البين ويقاتل الفئة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله، ولقد حَذَّرتُ من قبل في مقال بعنوان (أدركوا اليمن قبل أن يدرككم من الجبهات الثلاث التي يواجهها اليمن بإمكانياته المتواضعة وهي جبهات مدعومة من الخارج وحبذت نقل الأطراف المتنازعة من ساحات القتال إلى موائد المفاوضات. وها هي مشاكله تمتد إلى خارج حدوده والمملكة بإمكانياتها الذاتية وإرادتها الحرة ومشروعية قراراتها قادرة على حسم الموقف، ولكنها ستدفع ثمن ما كنا نود التخلي عنه وثقتنا بعدالة حقنا تؤكد أنه ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾.

رحم الله العلامة ابن جبرين .. !(1)

لا شك أن لفراق العلماء رنة حزن، وبخاصة من الخلطاء الذين يلمسون أثرهم ويشهدون فضلهم ويتضلعون من علمهم، ويتأثرون بسيرهم العطرة والعلماء ورثة الأنبياء وأطناب الأرض ومنارات الهدى ورحيلهم يترك فراغات قد لا تُسد في الوقت المناسب، وفقد العلامة ابن جبرين رحمه الله بما هو عليه من علم شرعي غزير وحضور فاعل وبذل سخي للجهد والوقت واحتضان لطلبة العلم وسعي إلى الناس في أنديتهم وأماكن تجمعهم وحَمْلٍ لهمّ الأمة وشعور حاد بالمسؤولية لا شك أنه مؤلم، ومهما جزعنا وتألمنا فإننا لا نقول إلا ما يرضي الله ﴿إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْـهِ رَاجِعـونَ﴾ أملاً في الظفر بصلوات الله ورحمته وهدايته.

لقد كان رحمه الله مثال العالم الورع في تواضعه الجم وتواصله القوي وحضوره الفاعل في كافة المحافل، وإذ لم أكن من طلابه ولا من خلطائه إلا أنني أتابع نشاطه وأستمع إلى فتاواه وألقاه كلما قدم إلى المنطقة وفي كل لقاء يزداد إكباري له واحترامي لشعوره الجاد بأوضاع الأمة، ولقد لمست من خلال أحاديثه تضلعه بالمذهب الحنبلي وارتباطه الوثيق بالنص التشريعي، واستيعابه لفقه الأحكام وحرصه التام على توصيل المعلومات صافية نقية، وفوق هذا كله فهو رحمه الله يمتلك لغة الفقهاء فلم يكن متزيداً ولا فضولياً، وحياته كلها عمل متواصل، وهو خير من استثمر الوقت ووظفه لخدمة الإسلام والمسلمين ومن ثم أصبح من كبار المجاهدين بالكلمة تعليماً وإرشاداً.

وغيرته وإحساسه الديني مكَّن له من قلوب العامة حتى أصبح علماً من الأعلام، وما انتابه من مرض امتد معه لسنوات مكَّن له في القلوب، وكان الناس يتابعون حالته الصحية والدولة وفقها الله بذلت جهدها في سبيل تهيئة كافة الأجواء المناسبة لفضيلته ولكن قضاء الله نافذ ولا راد له.

نسأل الله له المغفرة ولذويه الصبر والسلوان وللمسلمين العوض، والذي نحمد الله عليه أن الأمة الإسلامية أمة ولود فإذا طُلَّ عالم قام عالم آخر يتلقى الراية باليمين ليواصل المسيرة وإذا ذهب فقد ترك علماً ينتفع به، ولن ينقطع عمله إذ هو أحد الثلاثة الذين أخبر الرسول أن عملهم لا ينقطع بموتهم، وكل الذي نتمناه أن يكون رحيله إلى الدار الآخرة عبرة لنا ولكل عالم مُسَوِّف أو مقصر فالحياة قنطرة وما كتب الخلود لأحد من الناس ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾.

ومن حزن على فراق حبيب فليذكر مصابه برسول الله ﷺ الذي أذهل عمر بن الخطاب، ولم يع بعد الصدمة إلا من تلاوة أبي بكر لقوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ من قَبْله الرُّسُلُ﴾.

---

(1) تاريخ المقال: ١٥/ ٧/ ٢٠٠٩

وجاءت سكرة المنصب بالطيش .. ! (١) (١)

من الناس من يظن أن المنصب الرفيع الذُّرى حين يأتيه طائعاً منقاداً يجرجر أذياله حق مشروع كما الإرث المرتقب، وأنه معه الرجل المناسب في المكان المناسب وكأنه (موسى) في قوته وأمانته، أو (يوسف) في حفظه وعلمه، غير أنه حين يتربع على كرسيه لا يبالي بأي وادٍ هلكت مصلحة البلاد والعباد..

.. فكل همه أن يشبع غروره، ويتخم بطنه، ويملأ جيبه، ويستنفر عشيرته الأقربين لانتهاب الغنائم، فالحلال عنده ما حلَّ باليد، وكأن الناس وما يملكون فيءٌ أو ركاز، وآخرون من هذا الصنف حين تزول عنهم المسؤولية يأخذهم الهمُّ والغم والسخط على القدر وندب الحظ والدعاء بالويل والثبور وعظائم الأمور، وكأنهم بفقدهم للمنصب قد هووا في قعر مظلمة أو في مكان سحيق.

وكلتا الطائفتين لا تصلحان للمسؤولية ولا تصلح لهما، لأنها من المطففين ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾.

فالسوي من الناس الناصح لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم المستبرئ لدينه وعرضه لا يأسا على ما فاته ولا يفرح بما أوتيه، والفرح لا يذم على إطلاقه، وإن جاء في القرآن الكريم في سياق الذم في أكثر من آية، والفرح المذموم هو الفرح بالملذات الدنيوية، فرح الغرائز والشهوات المحاط بالبطر ونسيان المنعم والإغراق في الترف المذموم وأمن العواقب والخفة والاستخفاف بذوي الحاجات يقول:

(هدية بن الخشرم):

ولســـت بمفـــراحٍ إذا الـــدهر ســـرني
ولا جـــازع مـــن صـــرفه المتقلـــب

ولم يرخص الإسلام بالفرح إلا بالمكتسبات المعنوية التي لا تطبقها الشهوات والغرائز:

﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ و ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾لأنه فرح بانتصار الحق، وليس فرحاً بظفر الذات، فرح بالمعنويات الباقية وليس فرحاً بالماديات الزائلة والشهوات الحيوانية، وكم هو الفرق بين طالب الحق المجرد وطالب الانتصار الذاتي.

والمسؤولية شهوة يعطو إليها كل سوي غير مجرب ويتهافت عليها الكافة، بل يصطرعون من أجلها، في حين أن طلبها فرحة، بل هو محظور في الشريعة الإسلامية إذ قال صلى الله عليه وسلم: (يا عبد الرحمن بن سمرة، لا تطلب الإمارة) والأحاديث والآثار في ذم طلبها كثيرة، ولقد أبدع المفسرون وشراح الحديث في تقصيها وذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ﴾. ولسنا بصدد تحرير المسائل أو تأسيس الأحكام، ولكننا ننظر إلى ممارسات هي أقرب إلى الصفاقة، ممارسات تشي بسكرة المسؤولية، ولكل نعمة سكرة لا يملكها إلا العقلاء.

يقول الشاعر الشعبي:

النعمـــــــة خمـــــــر جيـــــــاش

---

(١) تاريخ المقال: ٢١/ ٧/ ٢٠٠٩

مـــــــا يملكهــــــــا كـــــــود أو ثقــــــه

والمسؤولية لا شك أنها نعمة، ولكن أخذها بغير حقها يحولها إلى نقمة وابتلاء.
وبعض الذين صارت إليهم بأي سبب استخفتهم وأنستهم العواقب الوخيمة، ولو عرفوا أنهم مفارقون لما كان في حبهم إسراف، وفي الأثر: (أحبب حبيبك هوناً ما) فالمحب إما مفارق أو معادٍ، والإيغال في الشيء بدون رفق مظنة الخسار، حتى لقد نهي عن الإيغال في الدين وفي الحديث: «**إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق فإن المنُبتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى**».
والمتلقون للمناصب بغير حقها يسترقونها ويسرقونها وينسون أنها مسؤولية أمام من طوقهم بها وبين يدي من سيحاسبهم عليها، ثم هي تصرف بالحقوق العامة، ويوم القيامة يأتي كل شريك بهذه الحقوق للمطالبة بحقه المضاع، وكيف ينجو المطالب وقد ترك ما خول وراء ظهره وجاء إلى مشهد القيامة فرداً كما خلق.
ومن غلبتهم الشهوة قد لا يعرفون حق الآخر في المسؤولية، فكأنها حق موروث لا ينازعهم فيه منازع، حتى أنهم يغضبون غضبة مضرية على كل من ناشدهم الاستقامة والعدل أو ساءلهم عما يفعلون، والله وحده الذي لا يُسأل عما يفعل، وإذا اعتقد المسؤول أياً كان مركزه أنه فوق المساءلة والنقد فسدت المسؤولية ومن حولها، والمجتمع المدني مجتمع مؤسسات تذوب فيه الفردية ويقطع دابر الاستبداد ويأمن الناس فيه على أحوالهم وحقوقهم لغياب عامل الصدفة والمغامرة، ولا بد أن تكون هذه المؤسسات النيابية والتنفيذية محكومة بنظام تسيير وتقويم، ولا يكون المجتمع مدنياً ما لم يسُدْ القانون ويتساوى أمامه الناس، إذ لا يجوز التخلي عن شيء من بنوده ولا الامتعاض من الرقابة تحت أي ظرف، والدول المضطربة لا تلجأ إلى حالة الطوارئ إلا في أحلك الظروف، لأن في ذلك تعطيلاً جزئياً ومؤقتاً للقانون الذي يعد قلب الأمة النابض، وحين يشعر المسؤول أنه محكوم بنظام ومحاسب بقانون، وأنه مدرك بخطيئته عاجلاً غير آجل، فإنه سيحسب لفعله وتركه وتقديمه وتأخيره ولكافة ممارساته أدق الحساب. وفي الأثر (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا)، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾.
ومما يبعث على الاطمئنان أن الذين يستغلون مناصبهم لمصالحهم الخاصة ويستبدون يرصد حركاتهم وسكناتهم كتابٌ لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وسيجدون ما عملوا يوم القيامة حاضراً ولا يظلم ربك أحداً، وساعتها يقول قائلهم: ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾.
وقد يعجل الله العقوبة على المتلاعبين بمقدرات الأمة العابثين بمثمناتها، وما أكثر الذين تقطعت بهم الأسباب، وذاقوا مرارة العزلة ووحشة الغربة، وكيف لا يستوحش المسيء حين يلفظه المنصب كالنواة وينفض سامر أصدقاء المنصب:

أســـــأت إلــــي فاستوحشـــــت منــــــي

ولـــــو أحســـــنت أنســـــتك الجميـــــل

فالشيطان والنفس الأمارة بالسوء ينخنسان في ساعة العسرة ويرتفع صوت الضمير، وساعتها لا ينفع الندم، وكم من جامع لحطام الدنيا من طرق ملتوية ألهته فتنة الجمع حتى إذا شاخ ووهن عظمه واشتعل رأسه شيباً منعته الأمراض طيبات أحلّت له، وأقعى معلول الإرادة يرقب بحسرة من يرتعون بأمواله.

ثم إن كل الذين يتسنمون المناصب بالواسطة أو بالمؤهل بالاختيار أو بالاختبار بالترقية أو بالنقل بالحق أو بالباطل، كل أولئك يمارسون مهماتهم على مسرح مكشوف لا تخفى فيه خافية، والتاريخ يكتب ما يعملون، والسعيد من أعتق نفسه؛ إذ كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها ومن ظن أن العالمين تخفى عليهم التجاوزات المخلة بالأهلية، فقد باع نفسه للشيطان، وما أكثر الذين ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم عندما استعادوا شريط حياتهم المليء بالتجاوزات المخلة بشرف المهنة، وكم تمنوا الخلوص من ذلك التاريخ الملطخ بالخطيئات، ولكن أنى لهم ذلك، وقد رفعت الأقلام وجفت الصحف.

وجاءت سكرة المنصب بالطيش .. ! (٢) [1]

والذين يتهافتون على المغانم غير المشروعة ويتسللون لواذاً عند المغارم يحتجون بمن حولهم من المتلاعبين، ولسان حالهم يقول: ما بالنا نثير وغيرنا يصيد، وما علم أولئك أن الخطأ لا يبرر الخطأ، وأن المقدمات الخاطئة تؤدي حتماً إلى نتائج خاطئة..

.. وأن قيمة الإنسان في صلاحه وعفته أمام المغريات وفي الحديث: «**طوبى للغرباء الذين يَصْلُحون إذا فَسَدَ الناس**» وكبح جماح الغرائز في عنفوانها مؤشر الإرادة القوية ولهذا قال - ﷺ -: «**إن الله يحب الشاب الذي ليست له صبوة**» ذلك أنه يكبح ثورة الغرائز، أما غيره من الكهول فإن غرائزهم منطفئة؛ ولهذا ضوعف عذاب ومقت الأشيمط الزاني، وإن ميزة الرجال في قوة الإرادة، وليست في مسايرة الفساد المستشري ومن احتج بالواقع فحجته داحضة، وكل عابث بمقدرات الأمة لإشباع نوازعه ورغباته تذهب لذاته وتبقى حسراته، ولو عرف المتلاعبون أنهم محاسبون على الجهد والوقت والمال لما فرطوا في شيء من ذلك، وليس هناك ما يمنع من التمتع بمعطيات الوظيفة المعنوية والمادية متى كانت مشروعة وفي حدود المقبول، إذ لا يجوز الإخلال بواجبات الوظيفة تحت أي مبرر، والذين هداهم الله واستعملهم فيما يرضيه من تسهيل لحاجات عباده يجدون لذة في الإحسان إلى الناس والسعي في حاجاتهم، وإدخال السرور إلى نفوسهم وابتهاجاً في القرب من قلوب الناس، وكل من ألف شيئاً وجد اللذة والراحة في قربه، وكيف لا ورسول الله - ﷺ - يقول لمؤذنه: «**أرحنا يا بلال بالصلاة**» وفي المقابل يقول: «**أثقل الصلوات على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر**»، فالمسؤولية وأداء وظيفتها على وجهها يسيرة وسهلة على من يعرفون ما يضمرون من سوء النوايا، فالمذنب وإن استمر الذنب لديه إحساس بأن المجتمع يرفض الانحراف ويمقت المنحرفين، ولن يتأتى القبول والانسجام إلا مع حسن النية وسلامة القصد ويقظة الضمير وأخذ المسؤولية بحقها، وكم من مسؤول موفق يجد لذة في العمل النصوح، والمستغرقون في لذة العبادة أو العمل الشريف يقول قائلهم: (لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من اللذة لجالدونا عليه بالسيوف).

والاستغراق الصوفي السوي ينسي الإنسان عناء الاستغراق في العبادة والتأمل والتفكر؛ لأنه يعيش اللذة الحقيقية لذة الروح الفانية في الملكوت، ولو نظر المتهالكون على حطام الدنيا إلى المسؤولية بعين العقل والبصيرة لهانت عليهم، وكيف لا تهون والدنيا بحد ذاتها لا تساوي عند الله جناح بعوضة، وليس فيما نقول قنوط ولا تشاؤم، فالدنيا فيها خير كثير، وأذكر أنني قرأت مقالاً ل(عبد الوهاب عزام) يفضل دعاء (اللهم أبقنا في هذه الدنيا على خير) على دعاء (اللهم أخرجنا من هذه الدنيا على خير)، وامتعاضنا واستياؤنا لا يدفع إلى اليأس والقنوط ولا يحمل على النظرة التشاؤمية الإحباطية، فأجهزة الدولة تفيض بالكفاءات النزيهة المقتدرة ولكننا نخاطب بلغة القادرين على التمام على حد:

ولم أر في عيوب الناس عيباً

كنقص القادرين على التمام

والذي يحدونا على هذه الشدة والحدة وارتفاع النبرة ما نراه ونسمعه، فالناس يكادون يجمعون على وجود فساد إداري حتى لقد تواترت الأحاديث عنه واستفاض القول، والأمة

---

(١) تاريخ المقال: ٢٨/ ٧/ ٢٠٠٩

لا تجمع على كذب، والإشاعات الكاذبة لا يمكن أن تبلغ حد التواتر، والمتناجون إما متندرون أو متذمرون أو مستبطئون لمواجهة هذه الموجة العارمة من الفساد الإداري، وتفشي مؤشراته من رشوة ومحسوبية وتعطيل للمعاملات وتسويف بالوعود وترديد للمراجعين وضعف في الأداء وسوء في التوزيع وأخطاء في الممارسة واستغلال للمسؤولية، وإبطاء في التنفيذ وتزاحم خانق على كافة المرافق وعطل وتعطيل مؤذن بفساد كبير، وهذه المظاهر غير السوية وغير الحضارية تعود على البلاد والعباد بالشر المستطير، والذين يقترفون الخطيئات بحق وطنهم وأمتهم يفقدون الولاء والمحبة للوطن المعطاء الذي أخرجت أرضه كنوزها ومكنته من التمتع بخيرات العالم، الوطن الذي وفر الأمن والاستقرار والرخاء.

لقد أبدى قائد هذه الأمة إلى شواطئ السلامة امتعاضه من بعض الظواهر غير السوية واعطى إشارات تحذيرية ولكن المبطلين في غيهم يعمهون، ولم يبق والحالة تلك إلا مباشرة الردع والضرب بيد من حديد على كل متلاعب كذاب ولقد فعلها من قبل جلالة الملك فيصل بن عبد العزيز - رحمه الله - حين تفشى العبث بمقدرات البلاد واستقبل الناس إجراءاته الصارمة بالارتياح؛ لأنها أخذت المذنب بذنبه ولم تخش بالحق لومة لائم، وما لم تتضافر الجهود وتبادر الجهات الرقابية والمحاسبية لتطويق المشكلات وحسمها والضرب على يد العابثين والمتهاونين، فإن الأمر سيزداد سوءاً ومتى ألف الناس هذه الظواهر واستمرؤوها أصبح من الصعب الإقلاع عنها، وقد تكون يوماً من الأيام من الأمراض المستوطنة، وكم من عادات سيئة رقق بعضها بعضا وأصبحت كما العادات القاهرات ومن شب على شيء شاب عليه، وكم نرى ونسمع من يرى الرشوة من باب الإكراميات التي ألفها الناس، والرسول - ﷺ - لعن الراشي والمرتشي والرائش، واللعن يعني الطرد من رحمة الله فهل يرضى المسلم لنفسه هذه المهانة، ولما كان الإنسان مجموعة قيم ومواقف وليس صورة لحم وعظم، فإن من الغرابة أن تهون عليه نفسه وكرامته بحيث لا يؤدي واجبه الوظيفي إلا بثمن بخس يدنس به سمعته وينمي جسمه على السحت، وفي الحديث: «**كل جسم نبت على الحرام فالنار أولى به**» وفي الحديث: «**أطب مطعمك تجب دعوتك**»، وكم من سائل بح صوته ولم يستجب له لا لشيء إلا لأن مطعمه حرام ومشربه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب له.

وبئس مسؤول يخشى الناس ولا يخشى الله ويستخفي من الناس ولا يستخفي من الله، وما أحوجنا إلى تفعيل مبدأ الثواب والعقاب:

قسا ليزدجروا ومن يك راحماً

فليقس أحياناً على من يرحم

آلية الوصول إلى المسؤولية ومنهج الممارسة .. ! [1]

قدر الحياة المأزوم أنه لا استقرار ولا حياة سوية إلا بسلطة آطرة وهي مطلب إنساني وديني، حتى أن الإسلام يراها من مفردات العقيدة: - «**من مات وليس في رقبته بيعة مات ميتة جاهلية**»..

والتأمير مأمور به بين الاثنين، حتى الرجل والمرأة يستدعي اجتماعهما التأمير: - ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾.

وهي قوامة تدبير وإدارة، وليست قوامة استعباد وفوقية، ومهمة السلطة الأخذ على يد السفيه والنيابة لتدبير شؤون التجمع الإنساني وقمع كل متجاوز: أخلاقياً أو حقوقياً أو سياسياً أو دينياً لما حددته مختلف العقود المكتوبة أو المعهودة: شرعياً أو سياسياً أو عرفياً.

والمجتمع أي مجتمع محكوم بسلطات ثلاث: دينية وسياسية واجتماعية، إذ هناك دستور وقانون وأعراف مكتوبة أو معهودة. والخروج عليها تمييع للسلطة وإغراء للفوضوية. وقدر التجمع الإنساني الأكثر استحالة على الحلول أن العقود المحكمة عرضة لخطأ المعد أو المفسر أو المطبق.

ولأخطاء الثلاثة: المعد والمفسر والمطبق مناطاتها وأسبابها، والمتغرر قد لا يجد الوقت الكافي للتأمل واستكناه نوع الخطأ أو مصدره لكي يتمكن من اتخاذ الموقف وأسلوب المواجهة، وأقدار الحياة والتجمعات الإنسانية غير قابلة للحصر، ومن ثم تظل المشاكل تتناسل وتظل الحياة السوية فضلاً عن السيئة مشرع اختلاف متنام، وبخاصة في مجال السلطة وعلى المتشائمين والمحبطين استعادة التاريخ في أنصع مراحله وأقربها من عهد النبوة، فالخلافة الراشدة لم تمر فتراتها الأربع بسلام، ويكفي أن ثلاثة من الخلفاء قتلوا غيلة، وحديثي لا يمتد إلى السلطة السياسية ولكنه ينطلق منها، ثم لا يتحدث عن ذات السلطة، ولكنه يفاضل بين آليات الوصول إليها، أو هو على الأصح يحاول تقويم الآليات دون المفاضلة بينها، ولأن كل سلطة هي في حد ذاتها مسؤولية، وهي درجات من حيث الاتساع والمحدودية، ولو دقت نظرتنا لأصبح كل مكلف مسؤول، وفي الحديث «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**». وفي ظل التعدد والتنوع لا بد من التسديد والمقاربة.

فما من مفكر مجرب واع يحلم بالطوباوية ولا بالمدينة الفاضلة، مثلما يحلم بها المهووسون من الحكماء والفلاسفة، فالإنسان وسط بين الملائكية والشيطانية.

ومع أن هناك سلطة عليا مهيمنة فإن هناك سلطات دونها متعددة فالإقليمية والطائفية والقبلية والحزبية والنقابية وحتى الأسرية تمارس كل فئة سلطة على أفرادها، وسواء شعر المحكومون بهذه السلطات أم لم يشعروا فهي قائمة ومؤثرة، وهي تتبادل الحيازات والنفوذ فيما بينها وبقدر ضعف السلطة العليا تقوى السلطات الأخرى، وقد تتنازع فيها بينها، وفي ظل هذا التفاوت تنبعث الفتن، ولنا أن نسمع إلى حسيسها في العراق والصومال ومن قبل في لبنان واليمن، ولكي يحفظ التوازن لا بد من تقوية السلطة العليا وتعزيز جانبها والسمع والطاعة في المنشط والمكره والعسر واليسر، فالفراغ الدستوري فتنة والفتنة أشد من القتل، ولقد أدرك الإسلام خطورة الفراغ الدستوري بتحذيره من نقض العهود، وإغرائه بقتل من يشق عصى الطاعة: (من جاءكم وأمركم جميع فاقتلوه) - أو كما قال -. والدولة حين أصدرت (نظام الحكم) وعززته ب(هيئة البيئة) تريد سد الذرائع

---

(١) تاريخ المقال: ٤/ ٨/ ٢٠٠٩

ودرء المفاسد، وهي من مقاصد الدين التي سيء فهمها وسيء تطبيقها. حتى لقد عطلت عند فئة وأتيح لها الاستبداد عن فئة أخرى.

وبتجاوز السلطة التشريعية إلى السلطة التنفيذية لا من حيث الممارسة ولكن من حيث آلية التشكل نجد أن تلك الآلية إشكالية بحد ذاتها ولكن الصراع يدور حول مشروعية الممارسة لا حول مشروعية التشكل، لأن الممارسة ثمرة لا تكون بالضرورة ناتج الخطأ في التشكل، إذ ربما تكون الآلية سليمة ولكنها لم تصب المحز، ولقد أشرت من قبل إلى آلية وصول رؤساء أمريكا إلى سدة الحكم بوصفها أعلى منصب على وجه البسيطة وتفاوت أقدار المتسنمين لهذا المنصب الخطير وقدراتهم مع أن الآلية عشق الجميع بوصفها آلية انتخابية، وأخطاء الممارسة قد تكون رهينة التشكيل، ولكنها ليست السبب الوحيد، وتقويم آلية الوصول إلى السلطة ليس بالأمر اليسير، فكثير من المتابعين والراصدين للإشكاليات يتصورون أنه بالإمكان الركون إلى آلية معاصرة وصل إليها غيرنا، وفي ظني أن هذه الحصرية ليست على إطلاقها كما أن التقليل من قيمتها مغالطة ممجوجة.

ولو ضربنا مثلاً بآلية (الانتخاب) وهو آخر آليات الوصول إلى السلطة وأكثرها شيوعاً في الأوساط السياسية (الديموقراطية) لوجدناه من خلال التجارب لا يحسم الخطأ ولا الاختلاف ولا يرضي كل الأطراف، بل قد لا يحفل به البعض، وليس أدل على ذلك من أن الذين يملكون حق الانتخاب لا يذهبون إلى صناديق الاقتراع لأن الانتخاب في نظرهم آلية من دونها آليات أخرى ليست سوية تجهز لها وتفرض منتجها، وحتى آلية (الانتخاب) بوصفها أحد الخيارات في المملكة العربية السعودية لم تجمع على أولويتها النخب الفكرية بحجة أن القاعدة العريضة محافظة وليست حفية بأي خطاب يمد بسبب إلى المستجدات، وأن تلك الآلية قد تفوت الفرصة على من يسمون أنفسهم ب(التنويريين) أو (الإصلاحيين).

وحين لا أكون ضد أي آلية فإنني لست ملزماً بأن أتملق أي طرف على حساب الآخر، كما أنني لست حفياً بمواجهة السائد لمجرد الدخول في دائرة الضوء، ولن أستهلك جهدي بالتزكية أو بالمفاضلة، ومتى كان هدفي البحث عن الحق فإنني لا أزكي نفسي ولا أدعي أن قولي حق صراح لا تجوز مساءلته ولا يسوغ رده، وكل ما أرجوه اللطف في المساءلة والوقوف حيث يكون الاختلاف بحيث لا يضار كاتب ولا شهيد. وعندي أن كل الآليات خيارات ممكنة، ولكنها قد تكون خيارات مباحة وغير مناسبة، ولهذا لا بد من تهيئة الأجواء لأي إجراء قبل الأخذ به.

ولقد أشرت من قبل إلى أن آليات الوصول إلى المسؤولية النيابية أو التنفيذية لا تكون الأفضلية مرتبطة بذات الإجراء بحيث نقول: لا أفضلية إلا للانتخاب مثلاً. ولقد علمنا تزوير الانتخابات في أكثر من دولة تتشدق ب(الديمقراطية) وقضية (إيران) شاهد حي، وقد تؤدي المعارضة للنتائج إلى سقوط النظام والدخول في الفوضى. وفي الدول الثورية لا تجد غضاضة من تعديل الدستور المرة تلو الأخرى للإبقاء على السلطة لدورات مفتوحة أو التعديل في سن المنتخب، مع أن التعديل لا يضمن الفوز، ولكنه مضمون بالتدخل، وتكرير الفوز وحصول المنتخب على نسبة كاسحة، أو فوز زعيم الانقلاب دليل على أن الآليات لا تؤخذ بحقها، وهنا نقول بأن آلية الوصول إلى المسؤولية تتطلب العدل والإنصاف والمصداقية والتماس الحق، ولتكن بعد ذلك انتخابية أو اختيارية، فإذا كان الانتخاب أو الاختيار أو الترشيح ولم تكن تلك الصفات الحميدة باءت الأمور بنواياها السيئة ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله.

ولقد آثرت من قبل قضيتين مهمتين: المأسسة وثقافة المأسسة. وأشرت إلى أن المجتمع المدني لا يمكن أن يأخذ وضعه الطبيعي إلا حين تختفي فيه سلطة الفرد وتقوم سلطة المؤسسة التشريعية والنيابية والتنفيذية في الشأن كله، وأن المؤسسة أي مؤسسة لا يمكن أن تؤدي دورها المنوط بها والمؤمل منها إلا إذا شاعت ثقافتها واستوعب المستهدف مهماتها وأمواءها وطرائق التعامل معها، وفوق ذلك كله لا بد أن يكون تشكل المؤسسة متوخياً الإرادة الجماعية على أن تظل هذه الإرادة محققة تشخصن حضارة الانتماء، وحين تكون المؤسسة ثم لا يكون فهم المراد أو حين تكون ثم لا تمارس المؤسسة حقها أو حين تكون ثم لا يمارس أعضاؤها مهماتهم بسبب عدم الأهلية أو عدم التمكين تصبح شكلاً من أشكال الزينة يملأ الفراغ بفراغ مثله، والدولة الواعية لمهماتها تتحرف لإصلاح الشأن كله لا تجازف فتفقد المكتسب ولا تمارس القفز ولا تتعمد لهب العواطف والادعاء العريض، فالدول الثورية لعبت بعواطف الجماهير وألهتهم بمعسول الكلام، وفي النهاية خيبت الآمال وحطمت المشاعر ومكنت للإحباط من نفوس العامة وصنعت ثقافة الانكسار ولما تزل الشعوب مرتهنة للفقر والقهر والفوات الحضاري، وكل منشأة جديدة سواء أكانت شورية أو نيابية أو رقابية بحاجة ماسة إلى مزيد من التعديل والتبديل والمراجعة والتقويم لكي تتمكن تلك المؤسسات من ممارسة مهماتها وفق تطلع المواطن ورغبة الدولة على أن يطال التصحيح آلية الوصول إلى المسؤولية ومنهج ممارسة المهمة وحدودها.

كلنا مع القضية وكلنا ضدها .. !(١)

أبو العلاء المعري العقلاني الشكوكي المتناقض، لو نظر إلى تقلبات الطقس الفلسطيني والتلاعب بالقضية من حوارييها، والتنازع الفلسطيني الفلسطيني واليهودي الفلسطيني والفلسطيني العربي لكانت حيرته أشد وشكه أعنف، وحُقَّ له أن يقول بملء فمه وبأعلى صوته:

هـذا الـذي جعـل الأوهـام حـائرة
وصـيّر العـالِمَ النِّحريـر زنـديقا

وإلا كيف يرضون صراع الدّيَكة داخل القفص، ومن ذا الذي يصارع من أجل المهانة والذلة، وما الذي قدمته المنظمات والجماعات والأحزاب الفلسطينية للقضية على مدى سبعة عقود، وهم في كل عام يرذلون. إن تدافع السلطة في ظل هذه الظروف خير من تنازعها وتوقيها خير من تلقيها، ومن الشر المستطير ونكد العيش معايشة هذه الانكسارات، وقدري الموجع أنني وعيت الحراك السياسي عند درجة الغليان يوم أن كانت حركة مقاومة الاستعمار مستعرة في كل بلد عربي، والخطاب الثوري على أشدّه وحركة تحرير (الجزائر) في أوجها، وكنا إذ ذاك أغيلمة نتوقد حماساً ونمتلئ طهراً غير أنّا لا نثني القناة إذا هززناها، كما (الحجاج) الذي تقول عنه الشاعرة: (غلام إذا هزَّ القناة ثناها).

نحضر المهرجانات والتجمعات، ونستمع إلى الخطب الرنانة ونقرأ الملصقات الملتهبة ونشهد جمع التبرعات ونقرأ الكلمة التي تتصدر كل دعوة (ادفع ريالاً تنقذ عربيا)، وكانت مشاعرنا كما الأودية تختلط فيها الهتافات وتلتطم فيها القضايا: طرد اليهود من فلسطين .. طرد الفرنسيين من الجزائر .. طرد البريطانيين من الخليج، وكانت مثاليتنا لا تمكننا من فرز الأصوات ومعرفة الصادق من الكاذب، ولم تكن ثورة الاتصالات قد قامت بحيث نعرف أدق التفاصيل عن كل الأطراف، وبحيث لا يستبد خطاب واحد في تشكيل وعينا، ويومها لم تنكشف اللعب السياسية ولم نعرف خباياها كما لم نقف على منطويات اللاعب، ونحن إذ ذاك كالأرض الموات يملكها السابق إلى الحرث والسقي، ومن ثَمَّ كان حماسنا لا يُحد وشعورنا لا يُقاوم وتصورنا لقواتنا العربية وإمكانياتنا أنها لا تُقهر، وأن المسألة مسألة زمن ليكون الحسم لصالحنا قاب قوسين أو أدنى، ولهذا لم نحتمل نكسة حزيران، ولما تزل آثارها باقية كما الغبار النووي، وتحررت الجزائر واستقل الخليج وخرج المناضلون من السجون وتسنموا المناصب، وكان ما كان مما لا نودُّ نبشه ولا تذكره، وإن كان ثاويا بين طيات التاريخ الحديث، وخرجنا من تحرير الجزائر لنواصل المسيرة لتحرير فلسطين، فكانت الآية هي الآية، ولكن الأشخاص غير الأشخاص، كان وراء فرنسة الجزائر فرنسا وحدها، والأمة العربية والعالم كله وراء تحريرها وعربيتها، ولم يجد (ديجول) بداً من التسليم للأمر الواقع وإنقاذ الجمهورية الخامسة بذات الطريقة التي أنقذت فيها أمريكا نفسها في (فيتنام) وخرجت وأسدل الستار، وعادت فرنسا لتلعب أدوارها في مختلف الصراعات العالمية، كما لو كانت بريئة من المقترفات التي أودت بحياة مليون شهيد براءة الذئب من دم يوسف، ولأن القضية الفلسطينية تختلف كلية عن القضية الجزائرية، فقد ظلت وعلى مدى سبعة عقود تراوح في مكانها؛ فالعالم كله مع تهويد الأراضي الفلسطينية بإخراج الفلسطينيين وجلب اليهود

---

(١) تاريخ المقال: ١١/ ٨/ ٢٠٠٩

من آفاق المعمورة، ومراوحة القضية تتمثل في تنازل العرب والفلسطينيين عن قضايا مصيرية وتشدد الصهاينة، تتوارث الحكومات الإسرائيلية القضية فلا يزيدها ذلك إلا صلابة وإصراراً وتمسكا بثوابتها، ويتوارث المناضلون الفلسطينيون منظماتهم فلا يزيدون قضيتهم إلا ضعفاً وتفككاً وتناحراً فيما بينهم وخنوعا واستسلاماً واستجداءً. الإسرائيليون يُخْضِعون اللعب السياسية لصالحهم ويمارسون عملهم كشريك فاعل ومؤثر والفلسطينيون يَخْضَعون لصالح اللعب ويمارسونها كأجراء بثمن بخس، الإسرائيليون يستغلون الكبار، والكبار يستغلون الفلسطينيين، المنظمات اليهودية في كافة أنحاء العالم تدعم القضية اليهودية وتستغل كل الطاقات لصالحها، والزعماء الفلسطينيون في الداخل والخارج يدعمون الذوات ويختصرون القضية في الزعماء، اليهود يحاكمون المتخاذلين، والفلسطينيون يصنِّمون الخونة، والدول الداعمة إلى حد الإضرار بالمصالح القومية، يفاجأ بعضها بمواطأة فلسطينية ضد مصالحها وإذا انكشفت السوأة هبَّ المستفيدون إلى تطويق الحدث وسحبه من المشهد ليرم الجرح على فساد تحت وابل من العواطف الزائفة، وكل قادم من الحكام الثوريين يفتح شهيته بمبادرة تلهب الأحاسيس وتحرك الجمود حتى إذا تمكن استدبر القضية وزايد عليها، والشعب الفلسطيني الحاضر في المغارم المغيَّب في المغانم يرقص على الجراح وتلعب بعواطفه الخطابات الرنانة؛ فهو مع الأندى صوتاً، والأبرع في الحركات البهلوانية، وكل لعبة قاصمة للظهر تجد الصوت الفلسطيني في المقدمة أو في الساقة يحدو أو يرود، فإذا انجلى الغبار وتبيَّن أن الذي تحت المُغِيْر حمار جاءت كلمات الاعتذار والأخذ بالأحضان لتطييب الخواطر ورفع الملفات، وتلك التقلبات المخلة بالمصداقية أطفأت التوهج العاطفي للقضية عند الشعوب العربية، وأضعفت الحماس وأصبح المواطن العربي يسمع بالضربات الموجعة والمجازر الدامية، ثم لا يلقي لها بالاً، وكل ما يجود به ترديد المثل العربي (يداك أوكتا وفوك نفخ).

وكل مسؤول عربي لا يزيد على الاستنكار الباهت والاحتجاج غير المسنود، كانت الدول العربية من قبل هي التي تخوض المعارك، وهي التي تُجرم التفاوض أو التطبيع فضلاً عن الاعتراف وتبادل السفراء، ولكي لا نمارس جلد الذات والتلاوم لا بد أن نؤكد أن وراء القضية ركاماً من المشاكل والمعوقات التي صنعها الجميع؛ بمن فيهم أهل القضية، وعلى المتنفذين من عرب وفلسطينيين أن يبدأوا بأنفسهم وأن يحاسبوا ذواتهم، وأن يصححوا أخطاءهم، وأن يتداركوا تجاوزاتهم؛ فالقيم المعنوية أهم من القوة الحسية والقضية لا تتطلب سلاحا ولا تأييداً دوليا، القضية تتطلب الصدق وتوحيد الكلمة عربياً وفلسطينياً والتصافي والمصارحة، ووضع خطاب موحَّد لا يحيد عنه إلا هالك.

الأمة العربية كيان مؤثر لو تدفقت إرادته في مجرى واحد وباتجاه مصب واحد، إن علة القضية باطنية، وما لم تُكشف الأوراق ويوضع كل مقترف عربي أو فلسطيني أمام نفسه فإن القضية ستصبح ورقة ارتزاق وبناء أمجاد زائفة، الفلسطينيون يتحمَّلون شطراً من المسؤولية، بل يتولون كبرها؛ لأنهم يواطئون المزايدين وينفذون خطط المستفيدين ويخضعون قضيتهم للمزايدات الرخيصة، ولستُ بحاجة إلى سرد المواقف المدينة، فالناس يرونها رأي العين، وما لم نواجه أنفسنا بوصفنا أمة عربية ذات مصير مشترك، وما لم نملك الشجاعة في مساءلة الذات وتصحيح المسار وتصفية الخلافات وتوحيد الهدف فإن القضية ستضيع كما ضاعت الأندلس، وسيمتد الضياع إلى دول الجوار خاصة، وكافة الأقطار العربية عامة، فالصهيونية بإمكانياتها واستشرائها ستسري في شرايين الأمة كالخدر، واليهود أذلة وقلوبهم شتى ولكن عداءهم للإسلام يوحدهم، ولن ينتصروا إلا بحبل من الناس، وأمريكا تتولى كبر ذلك الحبل، وعلينا أن نمتلك المُدْيَة الحادة التي تقطع ذلك الحبل، الأمة العربية خذلت نفسها قبل أن تخذل القضية

والفلسطينيون خذلوا أنفسهم قبل أن يخذلوا قضيتهم، وأوضاع الطرفين لن تكون قادرة على وقف الانهيارات فضلا عن تحقيق المنجزات. العرب يخافون من بعضهم أكثر من خوفهم من اليهود، وهم يأتمرون فيما بينهم، ولكل زعيم مصالحه الخاصة، ولكل مؤتمر خطابه، والقضية لم تكن الهم الحقيقي، والفلسطينيون يخافون من بعضهم أكثر من خوفهم من اليهود، وكيف يصطلحون والمعتقلون عند اليهود وعند الفلسطينيين من الفلسطينيين يعيشون معاناة واحدة، ويبحثون عن الإفراج عنهم، وممانعة حماس وفتح ليست بأقل من ممانعة اليهود، أتكون القضية هم الجميع، وكل الأطراف بمن فيهم اليهود يتبادلون الأسرى، وكل قتيل بسلاح يهودي أو فلسطيني يعد شهيداً، لقد كانت البندقية باتجاه العدو، ولكنها اليوم باتجاه الشريك.

إذاً، نحن مع القضية وضدها، وهذا من تكليف الأشياء فوق طباعها، وممارس هذا اللون من الفعل (كملتمس في الماء جذوة نار) ولن يستقيم أمرنا حتى نواجه أنفسنا قبل مواجهة العدو، وساعتها سنحارب العدو ومن وراءه بالإرادة الصادقة لا بالسلاح، بالتحدي لا بالمواجهة، إسرائيل بوحدة الصف العربي وبوحدة الهدف أضعف ما تكون، منع إسرائيل من اختراق الأجواء العربية سلماً سيقضي عليها بالموت البطيء. المقاطعة وحدها، وحصرها داخل حدودها سيحولها إلى نار تأكل بعضها إذ لم تجد ما تأكله.

وَمَنْ ذَا الّذي يا مِصْر لا يَتَغَيَّرُ.. !؟[(١)]

قد يتساءل المرء عن مدى صدقية المبدعين القدماء والمحدثين وموضوعيتهم، وبخاصة الشعراء الذين يسجلون تجاربهم ويحددون مواقفهم من الأفراد والجماعات وسائر الأشياء، والشعراء كافة كما وصفهم القرآن الكريم يقولون ما لا يفعلون..

.. وهم في كل وادٍ يهيمون، ومن ثم يوغلون في الذم الكاذب، ويسرفون في المدح المداجي، ويبالغون في الوصف المرجف، وتمس هجائياتهم ومدائحهم الجماعات والأقاليم والأفراد، وقد تصبح بعض الأبيات شواهد مشهورة يتناقلها الناس جيلاً بعد جيل، وكأنها في حكم البراهين القاطعة التي لا اجتهاد معها، وإن كانت مفتريات كاذبة، وأقرب مثال على ذلك نقائض الشعراء في العصر الأموي وهجائيات (المتنبي) ل(كافور الأخشيدي) ولأهل مصر، وأين نحن من (بني أنف الناقة) و(المحلق) و(نُمَيْر) في مقولات: (هم الأنف..) و(وبات على النار الندى والمحلق) و(فغض الطرف إنك من نمير).

ولو ذهبنا نستدر الذاكرة لضحكنا قليلاً ولتأففنا كثيراً على ما وعاه ديوان العرب من سقط القول وفاحش الكلام، ولأنه تراث عربي فقد كسب القداسة التي صنعها الوهم حتى لا يجرؤ أحد على المساس به، وكأنه قول محكم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وحين اقترف العلامة العقلاني (أحمد أمين) خطيئة النيل من الشعر العربي وكتب دراسته الموسعة عن (جناية الأدب العربي) انبرى له الناقد السليط (زكي مبارك) وكتب دراسة أشد ضراوة تحت عنوان (جناية أحمد أمين)، وإذ وقع الاثنان في الجناية فإن لكل واحد منهما نصيباً من الحق والتألق، غير أن الأنصار والخصوم لا يعنيهم الحق، وإنما يجتهدون من أجل تحقيق الانتصار. وفي معامع المناكفات ضاع الحق، ولم يتحقق الانتصار، وللمتشكك أن يتعقب الكثير من المعارك الأدبية؛ ليقف على أهواء جامحة وتحيزات مجحفة، والقليل القليل من يطرح العصبيات جانباً ويبحث عن الحق بوصفه الضالة المنشودة.

ومصر التي أوحت بهذه الخواطر بوصفها أم الدنيا، والمصريون بوصفهم جماع المتناقضات لكثرتهم واختلاف مستوياتهم ومشاربهم، يُعَدُّون مشروع بحث يتجدد مع الزمن، وكأني أستذكر مقولة: (دخلنا الكوفة بليل..). وهكذا أرض الكنانة وأم الدنيا، مكتبات ومراقص ومساجد وخمارات، شواطئ وحوزات، علماء وجهلة، فقراء وأغنياء، عباقرة وأغبياء، نُسَّاك وفجرة، اخترقوا عوالم (نوبل) و(الفيصل) في السياسة والأدب والعلم، وانتشروا في أرض الله الواسعة أطباء ومهندسين وأساتذة ومفكرين وعلماء وعاملين مبدعين وممثلين وعمالاً أميين، يحصدون الجوائز ويحتلون المراكز، المادح لهم لا يقول إلا بعض ما يستحقون، والذام لهم لا يأتي إلا على بعض ما يقترفون، تخرج من أرضهم غاضباً ثم لا تلبث أن تحن إليها، وتدور الآفاق ولا ترتوي إلا من نهر مصر المتدفق بالحياة والحضارة:

أبا المسك هل في الكأس فضل أناله

فما زلت أشدو من زمان وتطرب

ومع أنني لا أصدق نسبة وصف مصر وأهلها المسجوع إلى (عمرو بن العاص) إلا أن بإمكان أي متلاعب بالألفاظ أن يقول عنها وعن أهلها ما يحلو له، ثم لا يبارح الحقيقة. وإذ قال الرسول ﷺ: «**إن من البيان لسحرا**» في قصة الذام والمادح في آن، والذي قال

---

(١) تاريخ المقال: ١٨/ ٨/ ٢٠٠٩

مدافعاً عن نفسه: (والله ما كذبت في الأولى وإني لصادق في الثانية) فإن المادحين والقادحين يمتلكون كل وثائق الإثبات، ومصر كنهرها تلقف ما يأفكون، وصحف المعارضة المحبرة بأيدي المصريين أنفسهم تطاردهم المحاكم لأنها توغل في الذم والاتهام الصريح لكبار المسؤولين، ولأنها تبلغ في الوقيعة ما لم يبلغه مشاهير الهجائين؛ إذ ليس لأحد في مصر أمامها أية حصانة، وكأني بواحدهم يقول: (أنا الغريق فما خوفي من البلل)، وحين استفحل النَّيْل الجارح لجأ (أنور السادات) إلى إنشاء محكمة آداب لإيقاف التدهور الأخلاقي في الإعلام. والراصد لحراكه يراه مأخوذاً بالعواطف الهوجاء؛ فاندفاعاته غير محسوبة، وقد يسيء إلى المصالح القومية ويعرض الدولة إلى إحراجات مع حلفائها وأصدقائها، ولما يزل بين جزر ومَدّ.

جئت إلى مصر قبل أربعين سنة للدراسة وأنا في عنفوان الشباب وميعة الصبا فكانت جنة الدنيا وبهجتها، ولما أزل أحتفظ بأعذب الذكريات، كانت إذ ذاك تمسك ببقية العمالقة في الأدب والفن والفكر وسائر مجالات الحياة، ومصر إذ ذاك تتصدر عالمها العربي في كل القضايا، وتباهي بخطابها الأعنف، وتُدلُّ بما تملكه من أعماق جغرافية وبشرية، وكان مشروعها القومي والوحدوي والاشتراكي يعلو ولا يعلى عليه، وكانت عظمتها يومئذ أنها الكوَّة الوحيدة التي نطل منها على مختلف الحضارات، وكان إعلامها النافذ وحده الذي يغزل الأفكار ويغازل المشاعر، وكانت الثورات عشق الشباب؛ فكنا نصبح على ثورة ونمسي على أخرى، ولا نتحدث في مجالسنا إلا عن زعيم تعشى النياشين الأبصار وهو يسرد مبادئ ثورته ويرغي ويزبد ويهدد ويتوعد ويشعل أجواء الحرب وكأن كل مواطن مدجج بالسلاح ويده على الزناد وخطط المعارك بين يديه، وما كنا ندري أن كلام الليل يمحوه النهار، وأن المسرح السياسي مسرح تهريج وبهلوانية، وظلت مصر جماع أمر الأمة كله حتى اجتاحتها نكسة حزيران وكشفت المُعمّى وتلوثت أجواؤها برياح منتجع (ديفيد).

تلك هي المسافة العميقة بين الأمس واليوم، إذ لما أزل أعرج عليها في كل عام مرة أو مرتين أخرج منها لأحن إليها متولهاً:

سائق الأظعان يطوي البيد طي

منعماً عرج على كثبان طي

تشدني إليها مكتباتها الحافلة بكل شيء والمتسعة لكل شيء، ومنتدياتها الحزبية والنقابية ومناسباتها الثقافية المتعددة الاتجاهات والاهتمامات، وأسوارها الأثرية ك(سور الأزبكية) وما يعرض فيه من كتب قديمة، وتستهويني أحياؤها الشعبية ومقاهيها القديمة في حي الحسين وميدان العتبة وباب اللوق، ولك أن تقرأ كتاب (قهاوي الأدب والفن في القاهرة) ل(عبد المنعم شميس) لترى كم طوى التاريخ من مراتع معرفية مختلفة، ولقد تستهويني تلك الأماكن فأذهب إليها في المساء لأرى الناس على طبيعتهم وبساطتهم وأغبطهم على ضحكاتهم المجلجلة وتنازعهم عند أتفه الأسباب، وأساوم الباعة المتجولين، وأستعذب كذبهم ونجشهم وأيمانهم الكاذبة، وحين أعود في الهزيع الأخير من الليل أجد الصحف والمجلات ليوم غد تملأ الأرصفة فأنتقي من صحف المعارضة (الأحرار) و(الشعب) و(الوفد) و(النبأ)، ومن الرسمية أو القويمة (الأهرام) و(أخبار اليوم) و(الأخبار) و(الجمهورية) وسائر المجلات ك(روز اليوسف) و(أكتوبر)، وأعجب كل العجب من البون الشاسع بين عرض الأحداث ومناقشتها، وأتسلى بتهريج صحف المعارضة وبراعتها في نشر الغسيل والإيقاع في الفتنة، وأمتعض من الفضائحيات

والافتراءات والاتهامات والعناوين الصارخة والتجريح غير المستساغ، وأرثي لحال الجزعين الذين يهزهم الهرير قبل النباح والحسيس قبل الفرام، وأتذكر قول الشاعر:

ولقد أمر على اللئيم يسبني

فمضيت ثمة قلت لا يعنيني

ولقد استفدت كثيراً وأيقنت أن الصمت ربما يكون أبلغ خطاب، وهذا الداء العضال امتد إلى الناشرين وأصحاب المكتبات المشهورة الذين يلهثون وراء المادة يستكتبون المزايدين والمرتزقة و(بتاع كله) كما يقول المثل المصري، ممن يتناولون الساسة بأبشع الأوصاف والدول بأحط الكلمات والمذاهب بأكذب الاتهامات ويدخلون في الخصوصيات يختلقون الأحداث والمواقف ويقبضون الثمن البخس لكرامتهم ومصداقيتهم. والسائح بين المسارح والشواطئ والآثار والكتب والصحف والقنوات والمواقع كالريشة في مهب الريح، أو كالقارب وسط الأمواج العاتية يحلم بشاطئ السلامة. و(القاهرة) جماع ذلك كله، وسعت كل المتناقضات، ولمَّا تزل تطلب المزيد يأتيها السائحون من كل فج عميق، يستعذبون الفوضى المستحكمة والزحام الخانق والتلوث المخيف، ولو سئلوا عن المغريات لما استطاعوا الإجابة، فمصر يملّها المقيم ويحنّ إليها البعيد، وذلك سرها الغريب، ولقد يكون لماء النيل سره الفرعوني؛ فمن شرب منه شربة عاد إليه ولو بعد حين. ولكن مصر الأمس لم تكن كمصر اليوم؛ لقد تغير كل شيء فيها حتى لم تعد تجد ما كنت تعهده من قبل، لا في الأسواق ولا في المتنزهات ولا في الإعلام ولا في المكتبات. جئت (القناطر) أحسبها كما عهدتها منذ أربعين سنة، وغامرت بدخول المطاعم القديمة، وأعدت زيارة المتاحف والآثار والمنتديات التي كنت أختلف إليها من قبل، وفي كل موقع أقول: (أهذا المكان الذي كان يعهد؟). حتى السياسة يصطرع القطبان الإسلاميان: (تركيا) و(إيران) على انتزاع السيادة العربية منها، وكأن الأمة العربية قطيع من الماشية نام عنه راعيه في أرض مسبعة؛ فكل طامع يود أن يتولى رعيه، وأمام هذا الانكسار عدت أردد مقولة (كثير عزة):

وقد زعمت أني تغيرت بعدها

ومن ذا الذي يا عز لا يتغير

أدركوا اليمن قبل أن يدرككم .. ![1]

.. ربَّما يكون لكل شيء في ذاكرة الإنسان صورتان:

-صورة ذهنية - وصورة حقيقية.

واليمن ظلت تتنازعه الصورتان حتى أذن الله بزيارتين عرفت فيهما ما لم أكن أعرفه من قبل، أما الصورتان: فصورته الذهنية من خلال عمالته التي تجوس خلال البلاد، قبل الخطيئة الكبرى التي اقترفها - صدام حسين- باحتلال الكويت، وتعاطف معه من تعاطف وبينهم اليمن، ثم عودة المياه إلى مجاريها، وطي ذلك الملف الذي انطلقت أقتابه وإن ظلت آثاره موغلة في النكاية والحزّ إلى العظم، والذي انهارت معه القومية العربية انهياراً لا قيام بعد:

-وصورته الحقيقية من خلال زيارتي عمل طُفْتُ أرجاءه والتقيت بنخبة وتعرفت على منطوياته ونقبت في مكتباته وعرفت اهتمامات أبنائه وطموحاتهم التي لا تحد.

ولا شك أن المسافة شاسعة بين الصورتين، كنت في الصورة الأولى لا التقي إلا بعمالة أمية تمارس سائر المهن بطرق بدائية حتى تكاد تكون شريكة للمواطن إذ منحتها السلطات المحلية من الحقوق ما جعلها تتوغل في الأسواق والمزارع والمصانع وسائر المهن، وفجأة فقدت كلَّ شيء، أو قل تنازلت عن كل شيء تحت وابل التجييش العاطفي الذي أحكم صنعه الإعلام العراقي، وخرجت لتشكل عبئاً اقتصادياً لما تزل الدولة تتجرع مرارته، ولما تستعد العمالة عافيتها، فالعمالة الآسيوية المتدفقة كالطوفان بغير تدبير ولا تقدير قطعت عمل كل خبير، إذ لا مجال للمنافسة لا من حيث الإمكانيات ولا من حيث الأجور، وفقد اليمنيون سوقاً تسقيهم ماءً غدقاً.

وفي الزيارتين الرسميتين اكتشفت اليمن السعيد، يمن الشاعر والأديب والسياسي والمفكر يمن الطموح المكبل بالفقر والطائفية والقبلية والقات وهي علل يعرفها اليمنيون ويضيقون بها، ولكنهم لم يفكروا جدياً للخلاص منها وكنت أقول في نفسي متسائلاً: أين هذه الصفوة من تلك العلل؟ وتداعيات الذاكرة تعيد إلى الذهن مشكلة السودان الذي لا تقل نخبه عن نخب اليمن، ومع ذلك يعيش تحت وطأة الكسل والعرقية والإقليمية، ونهره العظيم لما يزل محتفظا ببكارته وصفائه وتدفقه المهدور.

والراصد الواعي ينتابه الغثيان حين يستعرض أوضاع السودان واليمن على الرغم من توفر الإمكانيات الطبيعية والبشرية.

ولما لم تكن المسألة مرتبطة بالمساءلة عن الفوات الحضاري والمدني فإنها تمتد إلى ما هو أهم، إنها تعني الوجود والعدم، فالسودان واليمن يسرعان نحو الهاوية، حتى لقد مس (البشير) ما لا يمكن توقعه ولا قبوله، إذ عُدَّ من مجرمي الحرب وطورد قانونياً وإنسانياً، وكل الذي فعله الحيلولة دون تمزيق السودان، واليمن اليوم يعيش تحت وطأة متعددة المصادر .. الفقر والبطالة والانفصال الحوثي المدعوم من دول ثورية لا تريد للمنطقة أن تأخذ أنفاسها بعد حروب ثلاثة أتت على الحرث والنسل، وكذلك حراك الجنوب ورغبة الانفصال، ولا أحسب اليمن قادراً على تجاوز هذه التحديات بنجاح، وليس من مصلحة الأمة العربية والإسلامية أن تقطع بأن ما يحصل في اليمن شأن داخلي تلي الحكومة المركزية حسمه ولا سيما أن الحكومة تواجه أزمات عريقة لا يمكن تلافيها تحت أي ظرف محتمل، وفي مقدمتها الوضع الاقتصادي والقبلي والطائفي والإقليمي، وتلك هي محاور الصراع، وإذا استطاعت الدولة تهدئة الأوضاع لمجرد أخذ النفس فإنها

---

(١) تاريخ المقال: ٢٥/ ٨/ ٢٠٠٩

لن تستطيع اجتثاث سائر الأزمات التي تفرز مثل هذا الصراع بين الحين والآخر، وبخاصة أن المستفيدين من هذه التوترات قد يحركون واحدة منها أو أكثر متى أرادوا ذلك ولا سيما أن الفتن المماثلة في السودان والصومال ولبنان أدت إلى نتائج مضرة بالمصلحة العربية، ولم نذكر العراق في هذا السياق لأنه بيت الداء ورأس كل علة. وأمام هذه الترديات التي أحكم الأعداء صنعها وجدد المواطنون تنفيذها أصبح العالم العربي مهدداً بالضياع، ولن تُسوّي أوضاعه بمبادرات فردية تمارسها الدولة ذات الشأن، فاليمن اليوم يتقدم بخطوات سريعة نحو الهاوية، وسقوطه في أتون الفتن سيمكن الطامعين من تنفيذ أطماعهم في المنطقة، والمتابع للأحداث يُدرك أن وراء الأكمة ما وراءها، وهل أحد يتوقع ما بلغته الأمة العربية من هوان لن يكون في المنظور القريب تلافيه، لقد انهارت القومية العربية بغزو الكويت، وانهارت البوابة الشرقية بسقوط بغداد على يد التتار الجدد وانهارت من قبل معنويات الأمة العربية بحرب الأيام الستة، وانهارت سيادة الأمة العربية بتبعات (الكامب ديفيد) وانهارت القضية الفلسطينية بانشقاق الفلسطينيين على أنفسهم، وتلك الانهيارات المتلاحقة فتن يرقق بعضها بعضا، وتبع ذلك انهيار الثقة بين الدول العربية وتعارض المصالح وتعدد الانتماءات والأحلاف، وكل دولة تدعي أن سياستها هي الأكمل والأقدر على إنقاذ الأمة، وهذه الانهيارات تبعتها أزمات اقتصادية وانفجار سكاني وبطالة خانقة وتهالك في البنية التحتية حتى بلغ الوضع حداً لا تستطيع معه أي دولة أن يمتد نظرها إلى مشاكل غيرها وكأن الأمة العربية وقد قامت قيامتها وكأني بكل قائد يردد: اللهم إني لا أسألك إلا نفسي، حالة من الذهول مكنت المتربصين من استغلال الموقف والإمعان في انهيار الماديات والمعنويات، لقد خرجت الدول العربية من المشهد السياسي وأصبحت قضاياها ومصائرها تُدار خارج أرضها على حد:

ويقضى الأمر حين تغيب تيم
ولا يستأمرون وهم شهود

ومتى أخذ اليأس والإحباط طريقه إلى الإرادة العربية حقق الأعداء مآربهم وذلك الانهزام النفسي ما يبغيه الأعداء المحدقون والأباعد.

إن على جامعة الدول العربية أن تضع القادة العرب أمام مسؤولياتهم، فالوضع العربي لم يكن محتملاً، والبوادر تنذر بشر مستطير، لقد ضاعت دول عربية كبرى ولم يكن لها أي تأثير، فهي إما مشغولة بملء الأفواه الجائعة أو سد الحناجر المتوترة أو حفظ الثغور المهدرة أو فك الاشتباكات القبلية والطائفية والإقليمية الدامية أو تهدئة التوترات المتعددة، والدول المغزوة من الخارج لا تستطيع إنقاذ نفسها بنفسها، إن الوضع في اليمن - كما في سائر البلاد العربية- مخيف، ولا سيما أنه صراع طائفي محكم الصنع صراع ينطلق من عدة مواقع ويعتمد العنف المسلح ويدعم من جهات ثورية تعتمد تصدير الطائفية كهدف رئيس ومعلن وتحت سمع العالم وبصره وقد يكون بمباركة خفية، والأطماع والأحلام التي تساور هذا المد الطائفي لن يتحقق منها شيء ولكنها ستحول المنطقة إلى بؤرة فتن عمياء، والحرب يملك الأطراف تحديد بدايتها ولكنهم لا يملكون نهايتها، وإذا أحرقت الأرض ولم تجد الحرب ما تأكله بقيت ذيولها لعقود طويلة وتلك حروب الخليج شاهد عدل، واليمن الذي يواجه ثلاث جبهات بإمكانيات متواضعة لن يصمد وحده ولن يتجرع المرارة وحده ولن يكونن مرتهناً للنتائج وحده، ولهذا لا بد من مباشرة الأحداث ومحاولة فض النزاع واحتواء المشاكل التي تنتابه بين الحين والآخر بإرادة عربية تقودها جامعة الدول العربية، فحراك الجنوب وتململ القاعدة ومواجهة الحوثيين وتفاقم الأوضاع الاقتصادية ستحول اليمن إلى بؤرة فتن لا تحيق باليمن خاصة،

ومن حق الأمة العربية بل من واجبها وعبر جامعتها أن تقرر أسلوب المواجهة وأن تبادر المشكلة قبل استفحالها وأن تتقدم إلى الساحة بكل إمكانياتها لنزع الفتيل ومواجهة أطراف النزاع على قدم المساواة ونقلهم من ساحات القتال إلى موائد المفاوضات ودعم الاقتصاد حتى يأخذ أنفاسه ويواجه مشاكله بقدرات ذاتية.

ومع أن الوقت متأخر وحالات الضعف والتردد تنتاب كل الأطراف إلا أن الوضع العربي عامة وأوضاع اليمن على وجه الخصوص لا تحتمل التسويف ولا التردد، وأحداثه ليست داخلية ولا يمكن تصديق الادعاءات الكاذبة، والأمة العربية مستهدفة ونهم الأعداء لن يقف عند حد التقسيم الطائفي والعرقي والعودة إلى زمن دول الطوائف إن مصطلحات سياسية يتداولها المشهد السياسي والإعلامي تنذر بالخطر فهناك (البلقنة) و(اللبننة) و(الصوملة) و(السودنة) وكلها تنطوي على حروب داخلية ممولة من الخارج.

فهل يُدرك العرب اليمن قبل أن تدركهم مشاكله؟ أرجو ألا يطول زمن الانتظار والتردد فالأمر جد خطير، وعسى ألا نكون فردوساً ثانياً مفقوداً.

قل: هل تربَّصون بنا إلاَّ إحدى الحسنيين .. ؟! [١]

لا شيء أمام المرابط على ثغور الوطن للذود عن مقدساته وحراسة مثمناته إلا الشهادة في سبيل الله، أو النصر والظفر بالأعداء فذانك متربَّص أعداء الأمن والإيمان. أما نحن فنتربص بهم أن يصيبهم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا.

وقد يطول أمد التربُّص، وقد يأتي المؤمنون مثلُ الذين خلوا من قبلهم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه: متى نصر الله، وبالفعل طال الأمد وتنوعت الأساليب، وتعددت المواجهات، وظلت الخلايا ينساب منها مسلوبو الإرادة ومغسولو الأدمغة لتنفيذ عمليات انتحارية لا تراعي في مؤمن إلاًّ ولا ذمة، وقليلاً ما يحققون بعض ما يبيتون، غير أن العاقبة للمتقين.

ولهذا حذرنا الله عن أن نهن في ابتغاء هذه الفئة الضالة، وقدرنا الحميد أننا نرجو من الله ما لا يرجون، وكيف تكون منا الغفلة أو الاتكال أو التردد ونحن على الحق الأبلج فيما يقدم المبطلون على هذا الانتحار في سبيل مبادئهم الفاسدة؟.

وإذ بلغ السيل الزبى وهمَّ بالوطن المعطاء من لا خلاق له فإننا لم نعد بحاجة إلى الشجب والاستنكار ووصف الخارجين وعملياتهم الانتحارية بأقنعة الأوصاف؛ فالمتربصون يعرفون قدْرَهم عندنا، وفي أنفسهم، وما تغني الكلمات دون الأفعال.

إن حاجتنا لمواجهة قدرنا العصيب في العمل الجماعي المنسق، العمل المؤسسي القائم على جمع المعلومات وتحليلها ورسم الخطط المناسبة للمنازلة، فالوطن في عين الردى وليس أرضاً وبناءً، إنه قيم وأناسي وتاريخ، وما لم نكن جميعاً مرابطين على ثغوره وثنياته، فإن حياتنا وأمننا في خطر.

فلقد يظن البعض أن المحبة قول في اللسان دون فعل منظّم يفوّت على الطابور الخامس ومآربه الدنيئة، وإيقاظ رجل الأمن ويقظته لا تمنحنا مشروعية التواكل والنوم العميق، ولا سيما أننا في زمن يفيض بالحقد والكراهية، ويغص بالمؤامرات واللعب السياسية القذرة، وتميزنا بما نقوم به من واجبات دينية وإنسانية يجعلنا مستهدفين من أصحاب الأفكار الضالة التي تحتكر الحقيقة وتضيق نطاق الحق، وتصادر الحوار، وتزيف الوعي، وتفخخ الأدمغة، بحيث لا يكون للبقية عندها حق الوجود، وظاهرة احتكار الحقيقة وفرضها بقوة السلاح أذلية لم تشنها طراوة التذليل ولا حداثة التشريع.

لقد غدر المضلون بثلاثة من الخلفاء الراشدين، وقتل الأبرياء تقتيلاً على يد (الخوارج) و(القرامطة) و(الحشاشين) ولما تزل تلك الملل والنحل الدموية تتوارث الأدوار لتفسد في الأرض وتسفك الدماء وتسعى في خراب المعتقدات والأفكار، ورصد بؤر التوتر في العالم يشي بهذه الممارسات غير السوية، فالجراح لما تذل مفتوحة في عالمنا العربي والإسلامي، وبخاصة في (فلسطين) و(العراق) و(أفغانستان) و(السودان) و(الصومال) ولما تزل النزاعات مستمرة ومتوترة والحروب قائمة على أشدها، والأقليات العرقية والدينية تؤز الأزمات، والقاعدة تلعب في هذه الأجواء المناسبة، واستتباب الأمن وإشاعة العدل والحرية والمساواة لا تكون إلا في فترات البيات المتربص، وواجب الناعمين بالخيرات أن يأخذوا حذرهم، وأن يعدوا للمواجهة المتكافئة عدتها، فالشر يكمن ولا يجتث، والأمة في بعض فتراتها تعيش ظروف (صلاة الخوف) التي تحتم أخذ الحذر والأسلحة فالغفلة تغري بالميلة الواحدة من الأعداء.

---

(١) تاريخ المقال: ١/ ٩/ ٢٠٠٩

وأرض القداسات والمعادن والخيرات والاستقرار منذ أن نفض الملك (عبد العزيز) - رحمه الله- يده من معركة التكوين، واتجه إلى معركة البناء وهي تواجه لحظات حرجة، ولكنها تسيطر عليها وتتجاوزها بقوة وثقة.

لقد تمت محاولة اغتيال الملك عبد العزيز وهو يطوف بالبيت في بلد آمن توعد الله من أراد فيه بإلحاد بظلم، وتمرد الإخوان ونقضوا البيعة، ولكن الله مكَّن منهم، واغتيل الملك (فيصل) في أحلك الظروف التي تمر بها الأمة العربية، وفوجئ العالم الإسلامي بالسطو على البيت العتيق ومنع الطائفين والعاكفين والركع السجود من ممارسة عبادتهم بأمن وطمأنينة، ثم جاء تنظيم القاعدة بالقتل والهدم والتدمير وترويع الآمنين، وفي كل غدرة يمكن الله ولاة الأمور من رقاب الأعداء، ويقي البلاد والعباد من الشر المستطير.

وما محاولة اغتيال صاحب السمو الملكي الأمير محمد بن نايف بن عبد العزيز، مساعد وزير الداخلية للشؤون الأمنية إلا واحدة من سلسلة الخيانات الدنيئة المتوقعة. والانتحاري المفلس الذي رد الله كيده في نحره أراد أن يقتل نفساً بغير نفسي، وأن يغدر بمؤمن حرَّم الله قتله، وقناعة هذا المأفون بفعلته النكراء ليست بأقبح من قناعة (ابن ملجم) الذي تقرَّب إلى الله بقتل الخليفة الراشد علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-، وضلال مؤيديه ليس بأقبح من ضلال (ابن حطان) الذي رثى الغادر بقوله:

يا ضربة من تقي ما أراد بها

إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا

وحتى لو قضى محمد بن نايف نحبه في هذه العملية الغادرة فإن الوطن سيظل باقياً فوق الغدر والخيانة تحرسه عناية الله، إذ ما كان سموه سوى رجل أمن يؤدي واجبه المنوط به، وكم من رجل أمن ظفر بالشهادة وبقي آخرون ينعمون بالنصر، ولم تكن تلك المحاولة الدنيئة مستغربة ولا مستبعدة؛ فالنجاحات المتلاحقة لرجال الأمن وتضييق الخناق على الخلايا النائمة والمتململة في الكهوف والمغارات والمدخلات تدفع بها إلى مواجهة قدرها المحتوم والتخبط في القرارات والتهور في التنفيذ، ومهندسو الأمن المستهدفون استوعبوا سياسية الدولة، وأتقنوا عمليات المواجهة الحكيمة، واتخذوا مبدأ الصفح والمناصحة وتسهيل العودة إلى جادة الصواب، وفي الوقت نفسه ضيقوا الخناق على تلك العصابات، حتى لم يعد بإمكانها التململ داخل جحورها، وفي محاولة يائسة لفك الاختناق حاولوا اغتيال أحد مهندسي الأمن ظناً منهم أن ذلك سيربك المسيرة، ويمكّن الخلايا الآثمة من نفث حقدها الدفين والانفلات من قبضة العدالة.

والأمير المغدور -بوصفه أول المستهدفين- تولى ملفات المطلوبين والمشبوهين والموقوفين، واتخذ معها أسلوب الاحتواء والمناصحة، وتفكيك الخلايا وفتح باب العودة إلى جادة الصواب والأخذ بمبدأ: (عفا الله عما سلف) فكان أن أجهض بإنسانيته وثقته وشجاعته كل المخططات العدوانية، ونقض غزل الأيدي الآثمة من بعد قوة أنكاثاً، ونتائج أسلوبه الحضاري أزعجت رؤوس الفتنة لتهافت التائبين وتلاحق الاعترافات التي أدت إلى ملاحقة الهاربين، الأمر الذي حفزهم على التفكير الدنيئ بتصفيته، ظناً منهم أن في موته موتا لهذا الأسلوب الحكيم، ولأن الله يدافع عن الذين آمنوا، ويتعهد بنصر من ينصره فقد عصمه منهم وأنجاه من غدرهم، و(ما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً) لقد امتد غدرهم إلى الرجل الذي نذر نفسه في سبيل تداركهم وإعادتهم إلى سواء الصراط، ومتابعة أحوالهم في السجون والشتات وفتح أبواب الأمل أمامهم.

لقد كان سموه حكيما في معالجته لهذا الملف الساخن، وكان محط تقدير العالم في مكافحة الإرهاب بأسلوب حضاري يتيح أكثر من فرصة لمراجعة النفس، وأسلوبه المثير

للإعجاب في الاقتراب من حواضن الفكر الضال وانتشال المتردين في أوحاله وتوجيههم إلى حواضن الفكر السليم الذي يحقن الدماء ويرعى العهود والمواثيق، ويقتفي أثر السلف الصالح لم يناسب المفسدين في الأرض الأمر الذي حفزهم إلى فعلتهم المستهجنة.

واليوم، وقد كشف الإرهاب عن أنيابه وغيّر من أساليبه وحاول تصفية رموز الوطن وصمامات الأمان لم يبق تحذير ولا تبرير، وعلى الأمة أن تتحرف لمواجهة جديدة تجتث هذا الوباء أو تتحيز لرجال الأمن لتكون ظهيراً لهم، وعلى كل القطاعات التعليمية والإعلامية والتربوية والدعوية أن تصوغ خطاباً حضارياً يواكب المرحلة ويحول دون نفاذ الخطابات المشبوهة أو المتخاذلة.

مع الله: معية التأمل والاستعلام والعبادة .. ! (١) [(١)]

تفضّل أخي الكريم الأستاذ الدكتور (سلمان بن فهد العودة) وأهداني على عادته آخر إصداراته (مع الله الاسم الأعظم وقصة الأسماء الحسنى) الذي انتهى من تأليفه وتنقيحه يوم عرفة من العام المنصرم، (وأبو معاذ) أعاذه الله من شر حاسد إذا حسد، إضافة إلى أنه شخصية (كارزمية) متى شرع في الكتابة ابتداءً أو اقتفاءً عن أي موضوع، فإنه يترك أثراً حسناً وإضافة مفيدة، ولاسيما أنه على علم بمن تناولوا الذات الإلهية وعلى بصيرة بمدى اختلافهم حول العلاقة بين الذات والأسماء: اسماً ومسمى وتسمية والذات والصفات: السلبية والإيجابية، وزيادتها عن الذات أو تماهيها معها وارتباط ذلك كله بعلم الكلام الذي زلّت به الأقدام وضلّت به الأفهام وكفَّرت به كل نحلة مخالفيها، مع أنّ التفكير في المخلوقات أجدى وأهدى من التفكير في الذات الإلهية، وهو في هذا الكتاب الذي يقع في صميم هذا العلم الخطير لم يشأ الخوض في لجج الخلاف الذي هلكت به أمم وهفت به ذمم.

والمتفضلون عليّ بالإهداء يقيدونني بإحسانهم (ومن وجد الإحسان قيداً تقيدا) ورجل مثلي عشقه الكتاب بحيث لا يعزب عنه إلاّ ما ندر قد لا يكون الإهداء مهماً بالنسبة له، إذ ربما يكون الكتاب المهدى من باب تحصيل الحاصل، والغُرُفَات الملحقة بالمكتبة مُلِئت كتباً قد لا تقوم الحاجة إليها، غير أنّ هذا اللون من الكتب يجد فيها المتلقي راحة نفسية، لأنه يعيش معها في ملكوت السماوات، وبخاصة أنّ الإهداء جاء في الوقت المناسب، ففي رمضان أكاد انقطع لحقل التفسير وعلوم القرآن، ولأنّ الكتاب يبحث في الذات الإلهية المنبثة علومها في الكتاب والسنّة، فقد أحسست بالرغبة الملحّة في استعراضه والتعرف على منهجه ومقاصده، وماذا يريد المؤلف توصيله إلى المتلقي، وحَرِيٌ بمثله أن يتخذ هذا السبيل فنحن في زمن غارق إلى الأذقان في الماديات المحكومة بالعقل والعلم التجريبي، ومثل هذه الكتب تنفث نفحات إيمانية وروحانيات يسترخي المتوترون في أفيائها متى اتقى المؤلفون معاضلة الفلاسفة وسفسطة المهوُوسين بالجدل العقيم.

والكتاب الأنيق في إخراجه وطباعته نيف على الثلاثمائة صفحة، والخطة والمنهج فيما يبدو لي لا يحملان هم تحرير المسائل ولا تأصيل المعارف ولا الخوض في معامع الملل والنحل، إذ الكتاب عبارة عن خواطر إيمانية أراد منها المؤلف كما يقول انتشال الفتية والفتيات من المماحكات الوهمية، ولأنّ مَوْضَ◌ِعَة الذات الإلهية من معالي المسائل، فقد رغب أن يغمسهم فيها ليعبوا من معينها الصافي من شوائب الفرق الضالة، وإن كانت له إلمامات وإيماءات لإجهاض شرور الفكر وانغلاقه وتعصبه، وكنت أود لو أطال في المقدمات والمداخل لأنها تمثل معتصر المختصر وهو الخبير بمداخل علماء الكلام وما اقترفوه من جنح قاصمة تمس الذات الإلهية من حيث الجوهر والجسم والجهة وعلاقة الأسماء والصفات والرؤية والكلام وسائر متعلقات الذات، وهو قول تقشعر منه الجلود، ولأنه من المطارحين للأفكار الملمين بتقلباتها المنقبين في طياتها، فقد أراد لهذه المبادرة أن تكون علاجاً لسلبيات (الفكر وطموحه وغروره وتضخمه واندفاعه أو تطرفه وتزمته وضلاله) على حد قوله. وتفاؤله بمثل هذا العمل يمتد ليكون علاجاً ناجعاً لكل (مشكلات الحياة وهمومها وغمومها ومتاعبها وعقباتها النفسية والصحية والوظيفية والزوجية والدراسية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية) ص ٨. وأحسب أنه زاد في تفاؤله بَسْطة، وأسمعنا بعض إطلاقات المتصوفة الذين يقطعون بحلِّ مشاكل الكون بنفثة

---

(١) تاريخ المقال: ٦/ ١٠/ ٢٠٠٩

أو نفخة، وعلى أية حال فإنّ له حق التفاؤل العريض وعسى أن يحجب الله له ويحقق تطلعه، ولعله ممن إذا أقسم على الله أبره وفضل الله واسع ومَطِيَّةُ الإنسان نيته فإذا حسنت ذلت لها الصعاب وصاحبنا نحسبه كذلك ولا نزكي على الله أحداً.

والكتاب بجملته اقتفاء لأثر من سلف من العلماء الذين عنوا ببسط القول عن الأسماء الحسنى وهم كثير منهم المصيب وكثير منهم ضلوا سواء السبيل وهو يقف خلف طابور من الأعمال المماثلة التي أشار إلى بعضها واستفاذ من بعضها، وكنت أود ثبتاً بالمراجع والمصادر وتقويماً موجزاً لها، وإن جاء ذكر لبعضها في الهوامش، وكثير من النصوص الشعرية لم تنسب وإن كان غالبها من النظم العلمي.

وحقل (الله) ﷻ في مكتبتي زاخر بالكتب، والمفيد منها والضار فأنا على مذهب (حذيفة بن اليمان) رضي الله عنه، الذي يتقصى الشر بالسؤال عنه مخافة أن يقع فيه. وكل مؤلِّف مشدود بأمراس كتان إلى مذهبه العقدي ومن ثم لا تجد مؤلفاً بريئاً من السعي الدؤوب لإبراز رؤيته: سلفية كانت أو غير ذلك، والتفكير في الذات الإلهية تفكير في عالم الغيب ومثله لا يزيد الباحث إلاّ إغراقاً في الوهم. والمقاصد الإسلامية تدفع إلى التفكير في مخلوقات الله لأنها الدالة على عظمته ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ والله جل وعلا يقول: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ ولم يقل في نفسي لأنّ الله لا تدركه الأبصار إدراك إحاطة، وما لا تدركه الأبصار لا تدركه العقول، وعلى الرغم من كل التحفظات تسلّمت الهدية القيّمة، ولم أشأ وضعها في حقلها قبل أن استعرض المقدمة والخاتمة والفهارس وهي المفاتيح الأولى للتعرف على الأعمال وتقويمها، غير أن حُسْن العرض وإشراقة الأسلوب لا تقف بي عند المُعَرِّفات الأولية، فمكانة المؤلف وشرف الموضوع ومناسبة الوقت جعلتني انتبذ من مشاغلي مكاناً قصياً وأنغمس في الكتاب انتقي بعض الأسماء ذات الجدل الكلامي وأتقصى ما تدل عليه، ولأنّ المؤلف لم يشق على نفسه ولا على قرائه فقد جاء حديثه خطرات وخواطر، وكان بودي وهو الخبير لو رد بعض الشطحات الصوفية وبعض الانحرافات الفكرية وبخاصة جنحة المفكر العربي (حسن حنفي) العقلاني المتطرف في عقلانيته والفيلسوف العميق في فلسفته والعالم الشمولي في علمه، لقد أثار ضجة حين نفى بعض الأسماء والصفات، ك (الجبار) و(المتكبر) إذ نظر إليها من خلال رؤية عقلية بحتة لا تقيم للنص البرهاني أي وزن، ولا أشك أنه على علم بهذه الشطحات والانحرافات والمشهد بأمس الحاجة إلى قمع مثل هذه المقترفات.

مع الله: معية التأمل والاستعلام والعبادة .. ! (٢) [(١)]

والمعية التي أرادها المؤلف لم تكن على غرار معيات سبقت، لا فيما يتعلق بمصطلح (المعية) عند علماء الكلام، ولا فيما يتعلق بمسميات كتب راجت لعلماء ومفكرين ودعاة، إذ هناك كتاب (مع الله) للمفكر والداعية (محمد الغزالي)..

رحمه الله وهو في مجمله دراسات في الدعوة والدعاة، وكتابان علميان (مع الله في السماء) و (ومع الله في الأرض) للعالم الأديب الدكتور (أحمد زكي) الذي يحمل شهادتي دكتوراه في العلوم والفلسفة، وكتاباه مجموعة دراسات في متعلقات الفلك والأرض والفيزياء والكيمياء وسائر المخلوقات، ولكن منطلقاته إيمانية أراد منها تجلية الوحدة الشاملة التي تنتظم الكون لتدل على وحدة الخالق جل وعلا، وبحوث الكتابين بمجملها بحوث علمية بحتة، ولكنها جاءت بأسلوب أدبي مشوِّق، ولست أدري: هل هي مجموعة افتتاحيات مجلة (العربي) التي كان يرأس تحريرها زهاء عشر سنوات أم هي دراسات مستقلة، وهو في بحوثه العلمية الدقيقة في عالم الحشرات والحيوانات يلتقي مع هم (عباس محمود العقاد) الذي لا يملك تخصصا، فكان (زكي) أدق وأعمق علمياً من (العقاد) والاثنان تجلت على أيديهما حقائق علمية تدعو إلى الإيمان بالخالق وإجهاض نظرية الصدفة أو المادة، وهي نظريات استفحلت مع المد الشيوعي الذي ظل وضره قائماً وأثره باقياً، وفي مكتبتي حقول معرفية لما تزل تطلب المزيد، وإن كانت ضاربة في عمق عوالم الغيب المحفوفة بالمخاطر، فحقل (الله) و (الإنسان) و (الشيطان) و (الملائكة) و (الجن) من الحقول الغارقة في الفلسفة والوهم، ومع ذلك، لا أنفك من استكمال ما ينقصها لأنها من عالم الغيب، وهو مرتع خصب تجد فيه العقول أمداءً واسعة ورياضة فكرية محفوفة بالمخاطر، ولربما كان أول كتاب اقتنيته ولم أفهمه كتاب (الله) ل (عباس محمود العقاد) رحمه الله، وأذكر أن لي تعليقات حادة كلما انبهمت على العبارات وعميت على المقاصد، والعقاد من جبابرة الفكر الحديث لا يسبر أغواره إلا أولو المعارف العميقة.

والمعيات التي اختارها أكثر من مؤلف معيات تأمل واستعلام، ويقيني أن (أحمد زكي) بإمكانياته العلمية والفلسفية قد بزَّ كل من طرق مثل هذا الموضوع، والخط الذي سلكه الشيخ (سلمان العودة) خط دعوي تربوي وإن جنح إلى تقصي دلالات الأسماء وتعددها، وكان بودي لو انطلق من علم الاشتقاق وأصول الدلالات كما هي عند (ابن فارس)، ولقد كانت له المساحات ذكية حيث اتكأ على شيء من معطيات اللغة واحتمالاتها الوضعية والسياقية والمجازية، ولأنه سلفي مستنير، فقد وقف من التأويل والتفويض موقفاً حذراً، فلم يندفع ولم يحجم، ولكنه راوح بين الاتجاهات، ومصطلحا (التأويل) (التفريض) أوغل فيهما من أوغل وتحاماهما من تحامى، ولكنهما يظلان قائمين عند كل الملل والنحل الكلامية.

وليست الإشكالية فيهما ولكنها في مدى الأخذ بهما، ومثلهما مصطلح (المجاز) والموقف منه، وبخاصة عند علماء التفسير وأصوله، فالمجاز قائم وهو من خصوصيات اللغة ولكن تطبيقه مجال الأخذ والرد. ولربما أعود لأكتب عن (نظرية المجاز في القرآن الكريم) والحد المقبول فيه، فالاختلاف حوله لما يزل قائماً وقابلاً لمزيد من الإضافة. وإذ يكون لكل عالم أو مفكر همه الذي يساوره ويريد أن يحمله موضوعه، فقد تكون للكتاب نكهة خاصة ترتبط بالمؤلف وأجوائه الفكرية وهكذا كل مفكر يحمل هماً سياسياً أو فكرياً يتوسل بالتاريخ أو بالحديث أو بالتفسير لتمرير رؤيته، فالذين كتبوا مثلا عن (السيرة

---

(١) تاريخ المقال: ١٥/ ٩/ ٢٠٠٩

النبوية) ك (الغزالي) و (البوطي) و (هيكل) و (الشرقاوي) و (خليل عبد الكريم) الماركسي الهالك و (أبو شهبه) و(سعيد حوى) وعشرات آخرين تفاوتت مذاهبهم كل أولئك استغلوا الأحداث والمواقف ووجهوها لتعزيز رؤيتهم للحياة والكون والإنسان، وكذلك الذين تحدثوا عن الذات الإلهية مارسوا ذات المناهج وأبرزوا مقاصدهم ومحققات انتماءاتهم.

ولقد يكون المفكر متوازناً بحيث لا يميل كل الميل فيدع القضايا الأخرى كالمعلقة، لقد كتب (سعيد حوى) عن (الله) وكتب (العقاد) والبون شاسع بين الاثنين إذ الرؤية (الأيديولوجية) هي التي تحكم المفكر، ومع أن التوظيف قد يكون مخلاً بالمصداقية إلا أن البعض من الذكاء بحيث لا ينجرف فيخل بالأمانة العلمية، وكتاب العقاد يبحث في نشأة العقيدة.

وبعض المتابعين تغيب عنه تأثير الأنساق الثقافية والسياقات الفكرية التي تفرض رؤية وقتية مناسبة للمرحلة المعاشة، ومن ثم يكتفي بمؤلف واحد؛ ظناً منه أن الأول لم يترك للآخر شيئاً، وتلك رؤية لم تستحضر تأثير المشارب الثقافية، والحكيم يقول لمن معه: (تحدث حتى أراك) فالكتاب يكشف المؤلف قبل أن يكشف عن نفسه، ومن ثم، فإن كل كتاب لا يخلو من فائدة أو فوائد ينفرد بها.

وهذا الإهداء القيم الذي أمتعنا بروحانياته لا يستقل بالمشهد، بل يواكبه في هذا الطريق الميسور عدد من العلماء، وإن شدتهم مذاهبهم الأشعرية أو الاعتزالية أو الصوفية أو الفلسفية أو السلفية، حتى لقد حاولت بعض الجامعات ذات الاختصاص تحرير القواعد والأصول المحققة لتوحيد الأسماء والصفات على منهج السلف الصالح المتوقي للتأويل الفاسد أو التفويض السلبي، فكتاب (القواعد الكلية للأسماء والصفات عند السلف) للدكتور (إبراهيم البريكان) تحرير أصولي لمذهب أهل السنة والجماعة في تقرير مقتضى الأسماء والصفات، وهو يتجاوز الدلالة الوضعية للاسم بحيث يضع الضابط لإطلاق الاسم والمراد منه.

ومن أوائل من ألف في الأسماء والصفات وأطال الإمام (أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي المتوفى سنة ٤٥٨) وهو أشعري معتدل، وقد تقصى موقفه من الإلهيات الدكتور (أحمد الغامدي) في رسالة علمية جيدة، ومن بعد البيهقي جاء (فخر الدين الرازي) المتوفى سنة ٦٠٦هـ وألف عن الأسماء الحسنى، وهو أشعري يتهم بالتشيع ويجنح إلى التفلسف وإن كانت له آراء جريئة ألحقته بالاعتزال، وقد تقصى آراءه الكلامية والفلسفية (محمد بن صالح الزركان) في كتاب موسع عنه، كما تقصى أقوال العلماء فيه.

ولقد استفاد المؤلف من بعض تلك المناهج غير أن منهجه التربوي الدعوي لم يمكناه من التوغل في تحرير المسائل المتعلقة بالأسماء الحسنى، ومن ثم لم ينصع إلى أحد منهما في النتائج لاختلاف المشارب والمقاصد.

وبعد هذين المؤلفين تتابعت المؤلفات بمناهج أحسبها تراكمية قد لا تضيف جديداً، وإن جنح كل عالم إلى مذهبه أو إلى تخصصه؛ فـ(أبو اسحاق الزجاج) على سبيل المثال، أخذه الاهتمام اللغوي الاشتقاقي، فيما جنح (أبو حامد الغزالي) إلى توله المتصوفة، (ولابن القيم) إلمامات واعية، وإن كانت أقواله في الأسماء والصفات مثبوتة في كتبه المنظومة والمنثورة، غير أن بعض المحققين أشار إلى أن له كتاباً بعنوان (شرح أسماء الله الحسنى) وأحسب أن أوسع الكتب المعاصرة كتاب (المنهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى) لـ(محمد بن حمد الحمود) في مجلدين، وكتاب (موسوعة الأسماء والصفات) في مجلدين وكتاب (ولله الأسماء الحسنى) في مجلد ضخم للشيخ (عبد العزيز الجليل) ومن الكتب المغرقة في الفلسفة والتصوف كتاب (تجليات في أسماء الله الحسنى) للدكتور

(عبد المنعم الجفني) وهو عالم موسوعي كتب في الموسوعات الفلسفية والنفسية والصوفية، ومع عمق تناوله إلا أن فيه شطحات فلسفية وصوفية.

ولما تزل قضية الأسماء والصفات مجال بحث ونظم شعري يتجدد، ولكل مذهب موقفه؛ فالجهمية والمعتزلة والكلابية والأشاعرة والماتريدية في صراع متواصل، والذين ورثوا هذا التراث من المفكرين والفلاسفة عمقوا الخلاف وأضافوا شبهات أخرى زادت هذا الحقل غموضاً واستعصاء على الحل، ومن عويص المسائل في هذا القول بأن الاسم عين المسمى أو غيره، وهي مسائل حادثة ضاق (ابن جرير) بها وعدها من الحماقات التي خاض فيها أهل الجهل والغباء، وكل من تناولها على أي منهج فإنه يحيي خصومات ويحرك ركوداً، ولكن لابد مما ليس منه بد.

شكر الله لأخي الكريم، فقد جاء إهداؤه جلاء لصدأ النفوس، ومحركا للشجون وحافزاً على استعراض هذا الحقل المعرفي الذي شغلني عن مثله ما يلتطم في الساحة من فضول تضوى به أجسام المعرفة ويتصوح نبتها، ومزيداً من الإسهامات المثمرة.

وماذا نحن فاعلون في يومنا الوطني .. !؟[١]

حملة الأقلام من مستودعات الفكر وأوعية الثقافة كأجهزة الرّصد الحساسة تحرِّكهم تقلُّبات الطقس بكل صُعُده السياسية والثقافية والاجتماعية وحتى الدينية محلياً وعالمياً، وتحفزهم للمبادرة عوارض الطبيعة فينطلقون...

... في كل اتجاه ويجالدون على كل جبهة، ويتهافتون صوب كل قضية، ويتحسّسون عن كل رؤية يتفقّهون ويُفَقِّهون، وينذرون قومهم إذا رجعوا إليهم، ومن خلالهم يحسّ الآخر بنبض البلاد واتجاهات الريح، وعلى ضوء لغطهم يرتِّب آلياته ووسائله ويصوغ خطابه ويلقي بحباله وعصيه للكسب أو للدفع أو للاحتواء، وتلك سنّة الله في خلقه القائمة على التداول والتدافع، ووطن يسبق ظله لابد أنه يفعم المشاهد كلها ويشغلها بكل مثير ليظل الكتبة في شغل شاغلين يصيب بعضهم المحز وتطيش سهام البعض الآخر.

والأمم في النهاية مقامات ومستويات في سلّم الحضارة أو في دركات التخلف، والعقلاء من يرتقون إلى ذرى أمتهم وتأتي عزماتهم على قدرها:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم

وتأتي على قدر الكرام المكارم

ومتى تماهى الكاتب أو المتحدث مع سموق وطنه وأصبح في مستوى إمكانياته وحضوره في المحافل الدولية، أصبح بالإمكان التناغم والتفاعل والتألق وحسن الأداء ونبل الممارسة. أما حين تَقْصُر الخطى وتنكب النظرات ويسود الاشتغال بالثانويات، فإنّ الحياة تَضْوى وتتسع الفجوة بين وطن في الثريا وهمم في الثرى، والشاعر العربي يستنهض همم المغامرين بقوله:

إذا غامرت في شرف مروم

فلا تقنع بما دون النجوم

فطعْم الموت في أمر صغير

كطعم الموت في أمر عظيم

ولكل أُمّة همومها وأولوياتها ونبرة خطابها، فمن اتسعت خطاه في أرض ضيقة فهو كمن تقاصرت في الفضاءات الواسعة، ومبعث الجمال التناسق بين الأجزاء والتناغم بين الأصوات، ومناسبات الأمة حين تكون جماع أمرها تظل كالنهر المتدفق يجود بالجلال والجمال والحياة، ولابد أن يُحسب لمقاربته كل الحساب.

واليوم الوطني للمملكة ذروة سنام الأحداث الجسام التي أسهمت في تشكُّل هذا الوطن على ما هو عليه من تألُّق وتفوُّق وحضور مشرف في كافة المحافل الدولية، وأيام الأمم مفاتيح تاريخها، والأيام ظاهرة تاريخية حفل بها المؤرخون واحتفى بها التاريخ القديم والحديث. وكتابا: (أيام العرب في الجاهلية) و(أيام العرب في الإسلام) يحكيان تاريخاً مجيداً ويسوقان قصصاً رائعة ويتضمّنان أدباً رفيعاً، ولكنهما يكادان يقتصران على الأيام الحربية، أما يوم المملكة فهو يوم الحصاد، يوم الوحدة والوئام وجمع الكلمة، ولكل أمة تاريخها الحافل بأيامها المفرحة أو المترحة، وفي كل تاريخ لحظات مُضيئة وأخرى معتمة تسمّى بالأيام تذكِّر الناشئة بالانتصارات الساحقة أو بالهزائم الماحقة، ويوم المملكة

---

(١) تاريخ المقال: ٢٢/ ٩/ ٢٠٠٩

كوَّة يطل منها الأبناء على عوالم الآباء، وليس هناك ما يمنع من أن تمتد الأنظار إلى أيام عصيبة وسعها تاريخ الجزيرة العربية في الأدوار الثلاثة التي مر بها الحكم السعودي للتعرُّف على ساعات العسر وساعات اليسر فالتاريخ ليس مشرقاً كله، والحياة محطات والناس معها إما معتبر متأمل يزن الأمور ويقوِّم الأحداث ويحاسب النفس على التقصير أو التسويف، أو غافل نسَّاء يرى كل شيء من سنن الحياة ومعطيات الطبيعة وكأنه ذلك المتكبر الجبار القائل: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ﴾.

والمناسبات السعيدة حين تمر بالعقلاء تحملهم على مراجعة النفس ومساءلتها عما واجهت به هذه المناسبة، إذ ربما يكون العطاء استدراجاً وقد يبتلي الله أقواماً بالنعم، كما يبتلي آخرين بالنقم. والناس بين شاكر ذاكر أو صابر محتسب.

ونحن في بلادنا نخرج من مناسبة سعيدة إلى مناسبة أسعد والناس من حولنا تتخطّفهم الفتن، وتجتالهم الكوارث، وليس من المناسب والحالة تلك أن نكتفي بتمجيد من أجرى الله على يديه هذا الخير، وإن كان من الفضل معرفة الفضل لذويه، ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله، ولكن الأهم أن ننظر في شأننا كله، فالنعم كشوارد الإبل إن لم تقيّد بالشكر فرَّت. ولقد وجَّه القرآن الكريم إلى محققات الثبات والزيادة بقوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ وقال لآل داود وقد أنعم عليهم: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ وخوَّف بقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾.

لم يكن بودي في هذه المناسبة الوطنية السعيدة أن اتّشح برداء الوعظ والإرشاد، وإن كانت خيرية هذه الأمة مرتبطة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكنه الحرص على ثبات هذا الوضع السوي الذي حرم منه خلق كثير. فاليوم الوطني الذي تمر ذكراه بنا كل عام هو البذرة التي انشقت عنها الأرض لتخرج هذه الدوحة الوارفة الظلال، لقد سقاها الآباء والأجداد من رجالات المؤسس بالعرق والدم، وذادوا عن حياضها بالنفس والنفيس، وتلقيناها منهم بجمال شكلها وعبق ريحها وطيب ثمرها، وكان حقاً علينا أن نكون في مستوى الحدث رعاية وتنمية ومحافظة، وامتثالاً لأمر المنعم المتفضل واستقامة على الحق، فالمواطنة فلسفة معقدة، ليست وقفاً على الحبِّ الجبلي، إنها خلال وُصف بها (موسى): القوة والأمانة، واتصف بها (يوسف) الحفظ والعلم، وتحت هذه الخصال ما لا يمكن تصوره من الممارسات الحميدة. وإذ تحولت المشاهد العالمية إلى غابات مُسْبِعة، يأكل فيها القوي الضعيف فإنّ مسؤولية الخلف تتضاعف، فحراسة الثغور لا تقل عن الحرث والتنمية، وثغور البلاد حسية ومعنوية .. ثغور الأرض وثغور الأفكار، واختراق الأجواء الفكرية ليست بأقل خطراً من اختراق الثغور الحدودية، وهاهم أبناؤنا وفلذات أكبادنا يتخطّفون من بين أيدينا، وهاهم يتسلّلون كالوحوش الضارية ليزهقوا الأنفس البريئة، ويخيفوا الآمنين، ويستهدفوا رجالات الأمن ليدمِّروا صماماته، وإذا ضاع الأمن فلا قيمة للحياة، إنّ الجوع والمرض يخصان المبتلى، ولكن اختلال الأمن يعم فهو كالوباء المنتشر، ومتى اضطربت الأفكار خارت العزائم وتنازع القوم وذهبت الريح.

وذكرى اليوم الوطني إن لم تذكِّرنا بما يجب علينا فوتنا على أنفسنا ما يجب لنا، ومن عادات الشعوب أنها في مناسباتها تضخم حقها وتصرف نظرها عما يجب عليها، والحياة السوية لا يمكن أن تأخذ وضعها الطبيعي إلاّ بالتعادلية.

إنّ واقعاً عربياً وإسلامياً وعالمياً يستدعي خطاباً يحمل في طياته عدة المواجهة لهذه الانكسارات:

ومــن رعــى غنمــاً فــي أرض مسـبعةٍ

ونـــام عنهـــا تـــولى رعيهـــا الأســـد

والنوم لا يعني الغفلة ولكنه يعني استعمال آليات غير مناسبة ومواجهة غير متكافئة، والتصور بأنّ ما نحن عليه حق مشروع لا بديل له مؤذن بتفلُّت الأمور، كما تتفلّت الإبل من عُقُلِها.

وتذكر اليوم الوطني يستدعي رجالات قضوا نحبهم وفي مقدمتهم المؤسس طيَّب الله ثراه الذي خاض بحكمة وأناة معركتي: التكوين والبناء وكان موفّقاً في كلتيهما، ومن حق المؤسس ورجاله أن نفي بالعهد والوعد وأن نكون خير خلف لخير سلف، لا نفرط بهذا الكيان ولا نزايد عليه، وأن نحرص الحرص كله على وحدته الإقليمية والفكرية، ولاسيما أنّ العالم المنكوب تجتاله اضطرابات وتعبث به لعب سياسية، والطائفيات والعرقيات والإقليميات هي الوقود لهذه اللعب القذرة، وواجبنا أن نعي كل شيء وألاّ ندع الثغور الإقليمية والفكرية مكشوفة للمتربصين الذين يحسدوننا على ما أفاء الله به علينا: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ هذا الفضل يثير فضول الأشرار وما لم نكن في مستوى مسؤوليتنا أفسدوا علينا ديننا ودنيانا.

إنّ اليوم الوطني مناسبة سعيدة لمراجعة النفس وترتيب الأوراق وإصلاح ذات البين على كل المستويات.

والذكرى السعيدة تمر بنا هذا العام ونحن ننعم بانتصارات أمنية وإنجازات حضارية.

أربع جامعات جديدة، وافتتاح لجامعة الملك عبد الله للعلوم والتقنية، ونجاة مساعد وزير الداخلية من مؤامرة دنيئة.

إنها مناسبة للمحاسبة والتذكُّر وتجديد العهد وشحذ الهمم، إذ لا مكان للاسترخاء ولا مجال للتسويف، ومن بطأ به عمله لم يسرع به ماضيه المجيد، فلتكن نشأة الفتيان فينا على ما كان عليه بُناة هذا الكيان، وهل نحن إلاّ أبناء وحفدة المؤسس ورجاله نتلقّى الراية كابراً عن كابر.

هوامش على متن المناسبة .. ![(١)]

ما مِنْ متحدثٍ عن مثل هذه المناسبة الوطنية المستفيضة على كلّ لسان إلاّ وله إلمامةٌ معلومة بصانع هذه المناسبة، بوصفه مؤسس الدور الثالث من أدوار الحكم السعودي ورائد المناسبة الوطنية، وأكاد أختلف مع المتحدثين عن هذا الحدث الجلل في حياتنا، فحين يجتاحهم الفرح وينتابهم الابتهاج، يساورني شيء من التأمل وقليل من الخوف، فالمنجز التاريخي أمانة عظيمة وحملها مسؤولية أعظم، ولقد قيل عن أهمية المحافظة على المكتسب ما يجعلها أهم من إضافة مكتسب آخر، وبخاصة حين يكون هذا المنجز مستهدفاً من أعداء لا يألون الأمة خبالاً أو حين يكون بعض الأبناء المخلصين غير مستوعبين لمتطلّبات المرحلة، إذ ليس كل محب بقادر على حفظ المحبوب من عوارض الزمن وعوادي الإحَن.

والضجة الإعلامية المواكبة لليوم الوطني لابدّ أن تترك أثراً في النفوس وأن تلفت الأنظار إلى أشياء من متعلّقاته التي لم تكن حاضرة عند البعض منا. وقد تحفز إلى استدعاء موضوعات تتعلّق بتاريخ البلاد الحديث مما يجهله أكثرنا.

ولقد كنت في مثل هذه المناسبة أعود إلى الكتب والدراسات المتعلّقة بتاريخ المملكة ورجالاتها، فأجد فيها من العبر ما يثير عندي الرغبة في المتابعة والتقصِّي وبالذات ما يكتبه الرحّالة الغربيون من انطباعات وتصوّرات، وكم توحي المناسبة بظواهر سلوكية حكيمة انتهجها الملك عبد العزيز - طيّب الله ثراه - وأصبحت من ثوابت المسيرة السياسية عنده وعند عقبه، ولقد لفت نظري بعض موضوعات تناولتها الصحافة ولم تكن مستذكرة على الرغم من أهميتها.

وسأضرب مثلاً بتغطية موضوعية مررت بها فيما مررت من موضوعات، والتغطية العارضة تتحدث عن رجالات الملك عبد العزيز الذين استعان بهم في تصريف المستجد من الأمور داخل البلاد وخارجها، من مستشارين أو ممثلين له في أنحاء العالم، فلقد منحهم ثقته وأحسن التعامل معهم وسدّ بهم ثغرات مهمة لم يكن بإمكانياته البشرية قادراً على سدِّها، وهذه الكوكبة من أبناء البلاد أو من غيرهم وبخاصة المهاجرون منهم إبان الفتن والحروب الأهلية التي أدت إلى سقوط الدور الثاني من أدوار الحكم السعودي، وهؤلاء الرجال الأكفاء الذين نهضوا بأعباء الدولة يتوفّرون على الصدق والأمانة والمعرفة والخبرة، مما يؤكد بُعد نظره ورجاحة عقله وحرصه على استغلال عقول الرجال واستنزاف تجاربهم وعلاقاتهم في الدول التي يقيمون فيها.

وانطلاق الملك عبد العزيز من نجد لم يجعله مرتهناً للخطاب الإقليمي بإمكانياته البدائية، فـ(نجد) إذ ذاك لم تكن على شيء من الخبرات السياسية لاستفحال التصحر والتبدي والقبلية، وتفشي الجهل والإقليمية والتنازع على الموارد والمراعي. واستعادة سائر المناطق المتحضرة وضع البلاد على مدرجة جديدة تختلف تماماً عما كانت عليه من قبل التوحيد، وهذا الوضع يتطلّب مواقف وتصرفات جديدة قد لا تكون مستوعبة ولا مقبولة عند عيبته الموالين والمتفانين في نصرته، ولا شك أنّ هذه المستجدات ستضع الملك عبد العزيز أمام خيارات عصيبة، فالملتفّون من حوله لهم رؤيتهم وتصوّراتهم التي قد لا تتفق مع رؤيته الثاقبة وتصوّره الحصيف، والفرص المواتية قد لا تتلبّث حتى تتهيأ النفوس لمبادرتها بالأسلوب المناسب لها.

---

(١) تاريخ المقال: ٢٩/ ٩/ ٢٠٠٩

واليوم الوطني لحظة حاسمة حوّلت البلاد من هاجس الإقليمية إلى الشمولية والاندماج، فلقد كان يطلق على الملك عبد العزيز (ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها) وهذه التسمية تفرض الفوارق الدستورية بين المناطق. فالسلطان غير الملك من حيث التفاصيل الدقيقة، إذ لكل مسمّى حقوقه وواجباته ومفاهيمه ومقتضياته، و(مؤتمر الطائف) الذي أُعْلِن فيه المسمّى الجديد للمملكة والملك، أصبح يوماً وطنياً اختاره الملك فيصل - رحمه الله - بثاقب نظره، وأكدتْ الدولة على إحياء هذه الذكرى في كلِّ عام، ولهذا الاختيار والتحديد مقاصده وأهدافه، إذ لم يختر دخول الرياض ولا استعادة الحجاز يوماً وطنياً، وهذا الاختبار يذكِّرنا باختيار بداية التاريخ الهجري الذي وفق له الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والمواطن السعودي مطالب باستيعاب الأهداف من هذا الاختيار، بحيث يعي أهمية الوحدة الإقليمية والفكرية.

واستدعاء الملك عبد العزيز في هذه المناسبة بوصفه من صنّاعها يجر وراءه سيلاً من الاستذكارات، فتاريخ الرجال وسير أعلام النبلاء هو التاريخ الحضاري للأمة، والنجاحات التي حققها في مسيرته لا يمكن أن تكون وليدة الصدفة أو ضربات الحظ، ومن ثم لابدّ من تحليل الأحداث وتفكيك الوقائع والغوص في أعماق التاريخ للتعرُّف على أسباب هذه النجاحات المتلاحقة بأسرع الأوقات وأقل التكاليف، فالملك عبد العزيز أنشأ دولة ووضع لها سياسة لم تكن على شاكلة السياسات القائمة، ولم تكن متخلّية عن ثوابت الأمة ومسلّماتها، وهذا التوازن لا يمكن أن يكون حدثاً مستوعباً أو متوقعاً، والملفت للنظر أنه تخطّى بالأمة المتشرذمة إلى عتبات التاريخ في زمن قياسي وإمكانيات متواضعة وعلى تخوف من الرأي العام، فالزعماء حين يعضدهم الرأي العام بإمكانياته المدنية والحضارية، يكون دورهم مقتصراً على إدارة العمليات، أما حين لا يكون هناك رأي عام موحّد ومناسب للمشروع الذي يحمله القائد، فإنّ المهمة تتضاعف، ومن ثم تكون الخطوات التمهيدية في تشكيل الرأي العام وتهيئته لاستيعاب المشروع أولاً لكي يكون عضداً للخطاب الغريب عليه وسنداً للمشروع الذي لم يألفه من قبل، وساعتها لا تكون إمكانيات التوعية التي تسرع بصناعة الرأي العام متوفرة ومناسبة للمرحلة المتسارعة في إيقاعها.

إنّ قراءة الملك عبد العزيز تتطلّب وعي المرحلة التي عاشها والظروف التي استغلّها والعقبات التي ذلّلها والنتائج التي حققها، وليس من السهل استيعاب هذه الأشياء واستكناهها.

و(دارة الملك عبد العزيز) بإمكانياتها القوية وقيادتها الفذة تحاول تقصِّي التاريخ الشخصي للمؤسِّس عبر مصادر متعدّدة ومتنوّعة، وجمع المعلومات يهيئ لبدء دراسة تحليلية لها والخروج بنتائج نحن أحوج ما نكون إلى استيعابها لتفادي أيّ خلل يمسّ الوحدة بكل مقتضياتها.

وفيوض الكلمات والدراسات عن اليوم الوطني يمكن أن تكون نواة لمادة دراسية ترسخ مفهوم المواطنة الإيجابية، فالمرحلة المعاشة بأمسّ الحاجة إلى تحرير مفهوم المواطنة وإعداد مادة التربية الوطنية.

الملك عبد العزيز: تحقيق الوحدة وبناء الدولة .. ! (١)[1]

الحديث عن الشخصيات الاستثنائية يتطلب القدرة على تثوير كافة الأنساق الثقافية والسياسية والدينية المسهمة في بناء هذا الصنف من الزعماء.

وما مفاتيح البحث عنها وفيها إلا التاريخ الذي نسلت من رحمه تلك الشخصيات؛ فهو وحده الذي يقطع قول كل خطيب.

وحق صناع الأمجاد أن نحترم تاريخهم بحيث لا نتسطح على ظواهر الأحداث، نسوقها رواية لا دراية، وقولاً لا اقتداء.

والملك عبد العزيز بوصفه واحداً من أنبل عظماء التاريخ وصناعه المهرة جدير حين يقارب شخصيته العلماء والأدباء والمؤرخون والساسة أن يكونوا في مستوى الأحداث الجسام التي غامر فيها، وأن يباشروه وفق آليات ومناهج ترقى إلى مستواه محلياً وعالمياً؛ إذ في تناول أطراف من حيواته الحافلة بجلائل الأعمال عوائد تربوية وتاريخية وسياسية نحن أحوج ما نكون إلى مثلها في ظل الظروف العالمية المتوترة، والتكتلات العرقية والطائفية والتصعيد الإرهابي المخيف واختلال الوحدات الإقليمية والفكرية على كل الصعد العربية.

ومئات المؤلفات وآلاف الدراسات التي تناولت جوانب من حياته قد لا تتوفر على متطلبات المتابعين في ظل هذه الظروف الطارئة والمنذرة بالخطر من خلال ما نسمع ونرى من حروب أهلية وتدخلات خارجية ومؤامرات مُصْمِية.

والكتاب كالمصورين يلتقط كل واحد منهم الزاوية التي تهمه وتستجيب لمرحلته المعاشة، وقد يكون البعض دون المستوى، فيما يكون البعض الآخر غزير المعرفة مكتمل الآلية، ولكنه ناقص الأمانة، متبع لهواه، تشده انتماءات لا تقيم للمصداقية وزناً، ولا للأمانة مكاناً، ولا للمتلقي قيمة.

وإذ يتحول الملك عبد العزيز إلى شخصية تاريخية فإننا لا نملك احتكار الحديث عنه، ولا عسف الناس على ما نود تناوله، وإن كان من حقه علينا الذود عن حياضه والذب عن مثمناته؛ فهو صانع تاريخنا الحديث، ومثله مشروع اجتهادات واختلافات غير أنه يظل بطلاً عالمياً لا يماري فيه إلا مكابر، وبطولته ليست وقفاً على شجاعته ولا على دهائه، وإنما تمتد إلى همه الذي يساوره المتمثل بمشروعه الحضاري الذي أخرجه للناس فبهرهم وفتح شهية الحديث عنه.

وسير أعلام النبلاء تهيئ منطلقات، فكرية وسياسية، تتربى عليها الأجيال، ويقتفيها الأنداد، ويستلهمها المريدون، ولكل دارس وجهته واهتمامه وحاجته في مقاربة النبلاء.

وإذ اختلف المفكرون والفلاسفة والنقاد والعلماء حول مجمل القضايا المتعلقة بتخصصاتهم فإن دارسي الشخصيات السياسية أجدر ألا يتفقوا؛ ولهذا فإن مثل هذه الشخصية ستظل مشروع بحث متشعب ومجال اختلاف كبير.

وعهدي بالملك عبد العزيز - رحمه الله - يتجدد، وفي كل مرة أحاول التقاط الزاوية التي تناسب المرحلة المعاشة، لقد ألفت عنه وحاضرت وكتبت وما رفعت قلمي إلا ليأخذ أنفاسه، فيعود من جديد منطلقاً من زاوية جديدة من تلك الحياة المثيرة؛ فنحن أولى به وبتاريخه ومنجزه الذي ننعم بخيراته.

واليوم الوطني يفرض فيما يفرض على أبناء هذا الكيان صانعَ هذا الكيان وليس الهدف وقفاً على التمجيد والإشادة، وإنما الهدف الأسمى محاسبة النفس عما فعلته وتفعله

---

(١) تاريخ المقال: ٦/ ١٠/ ٢٠٠٩

من أجل هذا الكيان الذي أنجزه المؤسس على قاعدتين: (الوحدة) و(الدولة)؛ إذ هما جماع عمله وذروة سنام وحدة إقليمية وفكرية واجتماعية، ودولة حضارية تخفق بجناحي: العقيدة والعلم.

والإشكالية ليست في الحديث؛ فالمادة التاريخية مطروحة في الطريق، ولكنها في المنطلق، فمن أين نبدأ؟

إن شخصية الملك عبد العزيز جذابة ومربكة، وبخاصة لمن استوعبوا المحطات التاريخية الثلاث:

*ما قبل معركة التكوين وأثناءها.

*ومعركة البناء.

*ومنجز المعركتين.

إذ في كل مرحلة يتجلى جانب من شخصية المؤسس بوصفها مصدر الأحداث، ولأنه واحد من أسرة ظلت تتداول السلطة ثلاثة قرون؛ فإنه جماع تجاربها وخلاصة معاناتها، وحين لا يكون مجتثاً من فوق الأرض السياسية فإن قارئه مضطر أن يتجاوز الأحداث بوصفها وقوعات إلى لحظات تشكلها؛ فالخلفية المعرفية لدى المؤسس لحظة إدارته للأزمات تولد تساؤلات عدة تجعل من الحدث ذاته إشكالية. ورجل ولد في أحضان السياسة، وتجرع مراراتها، وعاش نكساتها وانكساراتها لا يمكن أن يرتجل التعامل مع الأحداث، ولا أن يجازف في التصرفات. وحذاق التاريخ وأساطين السياسة أدركوا ذلك البعد في حياة الملك عبد العزيز، والدراسات المعمقة التي أنجزوها قيدت نفسها في استنطاق الأحداث عن هويتها، ولا أشك أن الأحداث تمر بالبسطاء رواية لا دراية بحيث يتحول الحدث إلى مناسبة تاريخية وحسب، ثم لا يكون تحليلاً يصل بالمتلقي إلى الأعماق الكاشفة عن عبقرية المتصرف، ولأن إدارة الأزمات ومواجهة المواقف لم تكن اعتباطية فإن القارئ بأمس الحاجة إلى منهج وآلية يمكنان من تثوير الأحداث لاستكناه الحيثيات والمسوغات.

وسأضرب مثلين:

-الأول: (توطين البادية) إنه حدث يمر به الخليون على أنه ممارسة طبيعية فرضت نفسها، والحق أنها (استراتيجية) وواحدة من أهم (الأجندة) الحضارية والمدنية التي تؤكد اهتمام الملك عبد العزيز ببناء الدولة المدنية المواكبة لمنطق العصر؛ فالتوطين يستتبع مستلزمات التحضر، من تعليم وتأهيل وتوسع مؤسساتي.

-والثاني: (معارضة الإخوان) الذين لم يستوعبوا الهم الحضاري الذي يساور المؤسس؛ فالخليون - أيضاً - ينظرون إليه على أنه مواجهة حربية انتصر فيها جيش الملك عبد العزيز، والحق أنها مواجهة بين خطابين:

-خطاب حضاري يرى أن الخيار الوحيد هو خيار الدولة المدنية الآخذة بعصم العقيدة والمدنية والمستثمرة للطاقات الكامنة في الإنسان وفي الأرض.

-وخطاب قبلي إقليمي انكفائي يعتزل الحياة، ويكتفي بالبلغة، ولأنه سليل تجربة سياسية ضاربة في جذور التاريخ، فقد توسل بالعلماء وزعماء القبائل لإجهاض هذا الخطاب بالتي هي أحسن، ومن ثم جنح إلى الحوار واحتواء الموقف. ولما لم يستجب الطرف الآخر واجه قدره وانتصر.

وقبل ثلاثة عقود سألت معمّراً من أقاربي عاصر دخول الملك عبد العزيز للرياض، وكان مزارعاً ب(مركز رغبة) في عنفوان شبابه: ما الذي مكن الملك عبد العزيز من الانتصار على الرغم من قلة العدد والعدة؟

فقال: الحق والسمعة والتحضر. ثلاث كلمات أجملت أجواء المرحلة، وهي:

-حقه المشروع في استعادة ملك آبائه وأجداده.
-والسمعة الطيبة للأسرة الحاكمة.
-وتطلع الأمة المجهدة بالحروب القبلية والإقليمية إلى قيام دولة قوية عادلة تشيع الأمن والاستقرار وتمكن الإنسان من استغلال مواهبه وأرضه في أجواء من الثقة والاطمئنان.

فكان الملك عبد العزيز هو المنقذ المرتقب، ولأنه واثق من مشروعه فقد دخل الناس في بيعته أفواجاً، ومن تمنع أتاح له أكثر من فرصة لمراجعة نفسه، وحين لا يكون بد من المواجهة فإنه يمارسها في أضيق نطاق وأقل خسارة، وحين ينتصر يسبق عفوه عقابه، بل يعيد لكل أمير إمارته ولكل زعيم زعامته، وقد يوثق العلاقة بالمصاهرة؛ الأمر الذي حول الخصوم إلى أنصار والمناوئين إلى مخلصين ومكنه من بناء دولة عصرية، أنهت الصراعات القبلية والإقليمية ومكنت الأمة المتشرذمة من توجيه كل طاقاتها للصناعة والزراعة والتعلم والتحضر.

الملك عبد العزيز: تحقيق الوحدة وبناء الدولة .. ! (٢) (١)

والراصد للمحطات التاريخية يجد أنها قد لا تجود بولادة دولة سوية بأسرع وقت، وأقل خسارة، مثلما أنجزه الملك عبد العزيز في وقت قياسي. لقد كان ذكياً ومجرباً حين وضع حداً فاصلاً بين روح التكوين وروح البناء.

وهذه العبقرية الفذة التي حتَّمت الفصل بين ظرفين أعقبتها عبقرية أخرى جعلت من لحظة الفصل يوماً وطنياً يذكرنا بالسلم لا بالحرب وبالبناء لا بالتكوين.

على أن عودة الملك عبد العزيز من منفاه الاضطراري لاستعادة حقه المشروع لا توصف بالحرب الأهلية ولا بالثورة الدموية، فهو قد قصد الحامية في (الرياض) بأقل عدد وعدة، ولم يغزُ (الرياض) بوصفها عاصمة مسلوبة الإرادة، وساعة الحسم لم تتجاوز أسوار (المصمك) وتلك سمة لا تحسب من مفردات الحرب الأهلية ولا الثورة الدموية وحين بدأ معركة التكوين أصبح لكل منطقة حساباتُها الإقليمية والقبلية غير المسنودة وغير المبررة. ومن ثم أصبحت من الهشاشة بحيثُ لا تملكُ أدنى حدٍ من المقاومة فضلاً عن الصمود، ومعركة التكوين وإن امتدت ثلاثة عقود ونيفًا، فإنها مدة تتضاءل أمام الأعماق الجغرافية التي جابها الفاتح على صهوات الخيل وظهور الجمال، وأمام حسابات الربح والخسائر لدى المجاورين والمناوئين. فالملك عبد العزيز يحمل فيما يحمل من (الأجِنْدة): الوحدة المتسامية على الإقليمية والقبلية والمدنية الآخذة من العلم والحضارة العالمية ما يعزز الجانب. والسلفية المستنيرة تهافتت وفود الدول الكبرى لمعرفة نصيبها من هذه الغنائم، وأمام هذه المتغيرات الإقليمية استطاع بذكائه وحكمته تحييد الجميع بحيث لا يكونون خصوما يتكاتفون لإجهاض مشروعه ولا يكون تبعيا ليس له من الأمر شيء، وحفظ التوازن مكّنه من إتاحة مساحات مشتركة للاتفاقات والمعاهدات التي تخوله من التخطي إلى المحافل الدولية، ولم تستحوذ هذه المعاهدات على مشروعه الوحدوي الإسلامي الذي أثار انتباه العالم وفرض عليه احترامه وإشراكه في القرارات المصيرية، وحتى الذين ندبتهم الدول الكبرى لاستمالته وجمع المعلومات عن أهدافه وسياسته استطاع تحييدهم واحتواءهم وتوظيف خبراتهم لصالح بلاده.

والذين كتبوا عنه من رحّالة ومستشرقين ومناديب بهرتهم شخصيته الجذابة ودبلوماسيته المرنة، وشهدوا له بالتألق والتفوق، حتى لقد تحولت أطماع الدول إلى صداقات وتبادل مصالح، وتكافؤ فرص، ومشاركة في التنمية، ومن ثم لم تتعرض البلاد لمؤامرات دولية ولا لتمرد داخلي؛ لأنه لم يتح لأي طرف أن يمتلك أوراقًا مؤثرة، وفوق ذلك كان -رحمه الله- ذكياً في صناعة الرأي العام وكسب وده وولائه، إذ لم يكن مستبداً ولا عنيفاً ولا فردياً في اتخاذ القرار، ومن ثم كسب الجبهة الداخلية ووجه كل إمكانياته للجبهات الخارجية التي وجدت فيه صديقاً ملتزماً بالعهود والمواثيق جاداً في اتخاذ القرارات المصيرية.

ودراسة الشخصيات الفاعلة لا تقف حيث الاستنكاه المعرفي ولكنها تتجاوز ذلك إلى ترجمة المعرفة إلى عمل محسوب الخطوات. وأداء الملك عبد العزيز نتج عنه قيام الوحدة ونشوء الدولة معاً إذ لم يلملم أطراف البلاد على شاكلة من سبقه دون رؤية حضارية.

كما أن الرؤية لم تكن صدامية ولا ملغية لخصوصية الأطراف المستهدفين. وتلك مؤشرات التميز في المشروع الذي أحسن الدخول في المعمعة وأحسن التدبير فيها. وحين

---

(١) تاريخ المقال: ١٣/ ١٠/ ٢٠٠٩

نقف على نتيجتين حضاريتين تعدَّان من المكتسبات المهمة، تكون الخطوة الأولى الواجب اتخاذها صيانة المنجز وحمايته من أي اعتداء خارجي أو تفريط داخلي.

وخطورة الغزو من الداخل المعروفة في المصطلحات السياسية ب(الطابور الخامس) لا تقتصر على المواجهة المعلنة ولا على العمل لصالح الآخر، ولكنها تكون - إضافة إلى ذلك- في تفكيك الوحدة الفكرية عبر خطابين متطرفين؛ -خطابٍ انهزامي أمام طوفان التغريب، وخطابٍ انعزالي هروبي، وكل خطاب لا يعي مهمته في الحياة ومكانه في سلم الإمكانيات يكون على حساب مصلحة الوطن، وأي خطاب لا يشاطر المؤسسات الوطنية مهماتها بإمكانيات كسبية وذاتية يشل الحركة ويجهض مشروع الأمة الذي أنجزه الملك عبد العزيز.

ولسنا بحاجة إلى أدلة وثائقية لإثبات اختلاط الأصوات وتفاوتها، ما دمنا نشاهد نفاذ الخطاب المناوئ وضعف الخطاب المساند، فلقد أشار وزير الداخلية إلى ضعف الخطاب المساند، مشيراً إلى أكثر من خمسة آلاف خطبة جمعة تُضَخُّ كل عام، ثم لا يكون لها الأثر الفاعل، فيما نرى ونسمع اهتمام الخطباء والدعاة بالقضايا الأممية والتفاعل والانفعال مع أي حدث قد لا يكون بمستوى أحداث محلية لا تكون حاضرة في الخطابة ولا في الدعوة، وذلك مؤشر ضعف الوعي بالمهمة الوطنية التي هي جزء من المهمة الدينية.

وعيب مؤسساتنا الدعوية والتربوية شيوع الاتكالية واستفحال الحس الأممي على حساب الحس الوطني، وكل زائد عن حده منقلبٌ إلى ضده، فحين لا ننكر جسدية الأمة الإسلامية وتداعيها لكل ألم لا ننكر أن الأقربين أولى بالمعروف، وأن تحقيق المشاطرة الإيجابية لا تكون إلا من المؤمن القوي. وواجبنا أن نقوي أنفسنا بالرعاية الواعية للوحدة الإقليمية والفكرية ومحققات الدولة الحضارية، ولن يتحقق ذلك إلا إذا أحسسنا بأهمية أدوارنا جماعات وأفرادا، ولقد وجَّه الناصح لأمته -ﷺ- إلى ذلك بقوله: «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**» وكل مسلم على ثغر من ثغور الأمة، وإذا أتيت الأمة من ثغره كان مفرطاً في حقها.

إن الدور الرائد للأستاذ في قاعته والمدرس في فصله والخطيب في مسجده، والإعلامي في وسيلته الإعلامية ومن وراء هؤلاء العلماء والمفكرون، ومن بطأ به عمله لم يسرع به تعليله.

فلنكن في مستوى مسؤولياتنا وفي مستوى الأحداث المتلاحقة، وحق المؤسس ورجاله على الأبناء والأحفاد أن يكونوا خير خلف لخير سلف.

وإن لم نفعل تفلتت النعم من بين أيدينا كما تتفلت الإبل من عقلها.

مِنْ لُجَجْ الاعْتِزال إلى لجاجة المنشَّئِين في الحِلْية .. ! (١)[1]

من الرَّجم بالغيب والهيام في أودية التِّيه أن يتصور غيرُ أولي المعرفة أن التقاطعات الفكرية ووقوع الحافر على الحافر كافيان للجمع بين الأشتات من المفكرين، أو أن يظنُّوا أن اللقاء العارض حول نظرية المعرفة.

تُحتِّم على المتوافقين فيها أو في سائر نظريات التلقي والتأويل أن يكونوا أخلاَّء في الموارد والمصادر وحين الحكم، وما أوقع في الوهم والشحناء إلا التلبيس على المبتدئين بالتداخل الدائري بين النِّحَل والمِلل، ولقد لقيت من مثل هذا التصوّر غير السوي نصباً يوم أن خُضْت أثباج الحداثة وأمواجها في أوج الشباب وعنفوانه، وحين تنازعت مع الحاضر والباد من مدعيها، حتى لقد تصورت نفسي الشاعر المثخِن لخصومه ومناقضيه (جرير بن عطية الخطفي) الذي يقول مُدلاً بقدراته:

لما وضعت على الفرزدق ميسمي
وضَغا البَعيث جدعت أنف الأخطل

أو كما (حسان بن ثابت) الذي يدل بفصاحته وشجاعته:

لساني وسيفي صارمان كلاهما
لساني وسيفي صارمان كلاهما

وبعد انطفاء أُوار المناكفات الفارغة تبيَّن اضطراب المفاهيم وضحالة المعارف وإصابة الأقوام بجهالة، فالحداثة مصطلح مراوغ متعدد المجالات والمفاهيم، متباين الدركات والدرجات، يكون في حالٍ مطلباً ضرورياً، وفي حال تزيّداً وادِّعاءً، والحداثيون كأبناء القبيلة الواحدة يجمعهم التسمِّي والانتماء وتفرقهم المشارب والاهتمامات، ولا غرابة في ذلك ولا شذوذ؛ فالأشقاء بل التوائم تجمعهم الأرحام وتتفرق بهم طرق المعرفة ونظريات الاستقبال، والحَكَمُ العدل المستبرئ لسمعته ودينه، المستجيب لأمر الله في التبيّن المتحري للدقة والموضوعية في أحكامه، لا يستبق الأحكام المرتجلة ولا يركن إلى المصادرة والإقصاء والتصنيف، ولا سيما في زمن استفحلت فيه الحدَّة والحدِّية وسوء الظن، وفي الوقت نفسه لا يكون مُمَيّعاً ممسوخاً متنازِلاً عن ثوابته ومحققات حضارته، وأحسبنا في زمن القبض على الجمر، زمن الغرباء الذين يَصلُحون إذا فسد الناس أو يُصلِحون ما أفسد الناس. فكم هو الفرق بين حداثي يخوض في وحل العهر والكفر إلى الأذقان، ويتلذذ في إبداء صفحته مجاهراً بالمعاصي، وكأنه الشعوبي النواسي الناسل من مواخير (والبة بن الحباب) الذي يتحدى مشاعر الأمة بقوله:

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر
ولا تسقني سرًّا إذا أمكن الجهر

إلى أن يقول -قطع الله لسانه-:

فبُح باسم من تهوى ودعني من الكنى
فلا خير في اللذات من دونها السِّتر

---

(١) تاريخ المقال: ٧/ ٤/ ٢٠٠٩

ومثل هذا المجاهر المعاند المتلذذ بالمجاهرة والإيذاء لا يكون كمن هو في ثبج من الأوحال يغرف بيده غرفة من آسنها، ولا يكاد يسيغها، والاثنان لا يكونان كالمعتدل المتوازن الذي لا يأخذ من الحداثة إلا جانبها الفني، غير أنه لا يجد مانعاً من قبول التسمِّي باسمها ظناً منه أن الخصوم لا يدينونه إلا من بعدما ينقبون في أوعيته ولا يأخذون إلا من وجدوه متولياً كبر الخطيئة، وتلك المجازفات في الأحكام والمبادرات في الفتاوى وتصنيف الناس إلى مؤمن وكافر ومنافق دون تثبّت ونظر في جلب المصالح ودرء المفاسد وسد الذرائع أصبحت مزلة أقدام ومضلّة أفهام وسبيل قاصد لتصديع وحدة الفكر للأمة التي لا تقل أهمية ولا خطورة عن تصدع الوحدة الإقليمية، ولا سيما أن الزمن ليس مواتيا للأمة ولا متلائما معها. والذي غمرني بتلك التداعيات ما لقيته من معارضة عنيفة حين وصفت الحداثي العلماني (نصر حامد أبا زيد) بالإلحاد في آيات الله.

فكان رد أحد الشباب المتعالق دون علم مع تلك الصيحات عنيفا وجريئا لا يحتمله إلا من تكسَّرت نصال النقد الجارح على النصال في جسم سمعته، إذ وصفني بالتحريضي والتصنيفي، وحاول أن يستل أبازيد من المعمعة كما تُسَل الشعرة من العجين، حيث وصفه بالاعتزالية، وأنه لا يعدو أن يكون كذلك، ولكي يجهض ما ذهبت إليه ويعزز ما يقول راح يمطرني بوابل من الشواهد والأدلة؛ محتجا بأنه ما من أحد من العلماء الأوائل والأواخر اتهم الاعتزال بالإلحاد. ولقد تبينت لي فداحة التصور الخاطئ، فالشاب المعترض لم يكن سيئ المعتقد، ولا منحرف التفكير، ولكن الضعف في الآلية والضحالة في المعرفة. والتأثر بالخطاب الغربي الذي اتخذ من أحداث الحادي عشر من سبتمبر منطلقا لعولمة العالم الإسلامي وتشكيكه في دينه وثوابته، وهو انصياع غير واعٍ، وموجة عاتية مآلها إلى التكسر على الشواطئ وعودة الحق ولكن بعد فوات الأوان و(خراب مالطة)، هذه الإمكانيات الضّحلة، وذلك التأثر المخيف بالطقس السياسي المؤدلج جعلته يتصور أن النزوع العقلي عند (أبي زيد) يحشره في زمرة الاعتزال القديم، كما هو عند من تناولوا الإعجاز البياني في القرآن بآلية البلاغة العربية؛ كالقاضي عبدالجبار وجار الله الزمخشري والرماني، والجمع بين الاعتزال والعقلانيين المعاصرين جمع مع الفارق، وهؤلاء وأولئك لا تجوز تسميتهم بالعقلانيين؛ فالعقل مناط التكليف، وللعقل مجاله الأوسع في التشريع، والمشرِّع يوازن بين العقل والنقل والدراية والرواية، والنص الشرعي والنظر العقلي جناحان يخفق بهما العلماء الربانيون في الآفاق، ومن ثمَّ يصدق على هذا الصنف من المفكرين قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾. ولقد وصف الله هذا الصنف بالسهو: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾فهم أبداً في قول مختلف.

والعلماء السلفيون الذين تصدوا لهذه النوازع ولبعض النوازل؛ كالمنطق والكيمياء، أخذوها بآثارها لا بذواتها، ومن أراد الوقوف السليم من تلك النوازع والنوازل فلينظر إلى تصديات شيخ الإسلام ابن تيمية في مجمل مشروعه الإصلاحي من خلال فتاواه وكتبه المتعلقة بالمِلَل والنِّحل، فهو ومن شايعه من العلماء لا يحولون دون حرية التفكير والتعبير، وكيف يُتَصوّر منهم معارضة العقل والفَرَقُ من التفكير الحر وهم ينطلقون من النصوص التي تحيل إلى العقل، ولقد ذُكِر العقل في القرآن قرابة خمسين مرة كلها في سياق التأكيد على أهمية العقل: ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾، ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾واستيفاء أهمية العقل وشرطيته

في المعرفة والصلاح والكمال تقصَّاها علماء أفذاذ أمثال اليافعي في كتابه (مرهم العلل المعضلة في الرد على أئمة المعتزلة) وعبدالجبار في (المنهج العلمي للاعتقاد) والأثري في كتاب (العقلانيون أفراخ المعتزلة العصريون)، وستظل هذه الإشكالية بين العقل والنقل محور الخلاف متى حكمها الهوى والتخرُّص.

من لُحَج الاعتزال إلى لجَاجَةِ المنَشَّئِين في الحلية .. ! (٢)[1]

ولقد حاولت في ردي على مداخلة الشاب ألا أموضع ذاته بحيث أعمق الخلاف، وإنما منحته حق التعبير عن وجهة نظره، ووجدت أنه من الميسور إقناعه لو تفسحتُ له، واحتسبته من الباحثين عن الحقيقة، فكان أن وضعته أمام جنايات (أبي زيد) التي لا يمكن تبريرها ولا وصفها بالاعتزال، إذ إن العقلانية لا تنتهي بذويها إلى مصير مشترك، والإشكالية أنها بكل أنماطها لا تكون عرضة للذم حتى يعلو سلطانها على النص القطعي الدلالة والثبوت بشقيه الدال والمدلول، وطائفة من العلماء يستبعدون التعارض بين المعقول والمنقول، أو قل: يحاولون درء التعارض، وبخاصة فيما مجاله التأويل، وهذا يمتد إلى احتمال التعارض بين العلم التجريبي والنص التشريعي، ولربما أن تكثيف هذه الإشكاليات جاءت من المستشرقين ذوي النوايا السيئة حتى لقد قال قائلهم: إما التقدم والعلمانية أو الإسلام والتخلف والمؤسف أن هذه الفرية الكاذبة أخذت طريقها إلى الأدمغة الفارغة، ومن بوابتها جاءت العلمانية الشاملة.

والمعتزلة الأقدمون يختلفون عن العقلانيين المعاصرين، إذ ينطلق المعتزلة من أصول وقواعد ورؤية ابتدعوها، وليست لهم مرجعية من غير حضارتهم وليسوا مقلدين ولا مستلبين، ورؤيتهم نتيجة تفكير حر، وأصولهم الخمسة تحدد رؤيتهم، أما المعاصرون المعوِّلون على العقل والتفكير فمرجعيتهم من غير حضارتهم وآلياتهم ومناهجهم مجلوبة من جاهزيات الغرب، وكل واحد منهم تستطيع أن تتعرف على مرجعيته المنهجية أو الشخصية، وإذا كانت الحياة الفكرية الغربية قائمة على مُحَرِّضَين؛ التجريب المطلق، والفعل ورد الفعل.

فإن الحياة الفكرية الإسلامية تنطلق من النص وتختلف بين الدراية والرواية والتفسير والتأويل. ثم إن الفارق الأهم بين محرضات التفكير يكمن في أن العقلية المادية الغربية دهمتها مكتشفات فيزيائية وتجريبية ورياضية وروحية ونفسية، وكل مكتشف تبناه عالم استمد منهجه وآليته من حسيات المادة.

فالاتجاه المادي تولدت منه الروحية بوصفها ردة فعل والاتجاه التحليلي الرياضي عند (راسل) و(هوسرل) تولد منه الاتجاه الإنساني عند الوجودية والشخصانية والبنائية، ولو تتبعنا التحولات الفكرية في الغرب لوجدناها رهينة التجريب والفعل ورد الفعل، أما في الإسلام فالأمر مختلف جداً ومن هنا فإنه من المجازفة أن نجد علاقة بين المعتزلة والعقلانيين المعاصرين والمنقب في الأنساق الثقافية والخلفيات المعرفية يحسم التردد ويدرك كم هو الفرق بين مكونات الحضارة الإسلامية ومكونات الحضارة الغربية وأتباعها من المفكرين المعاصرين، والمعتزلة وضعوا للنص قيمته ومكانته وأعطوا العقل سلطة حسم الخلاف، فيما ذهب أهل السنة والجماعة إلى إعطاء العقل قيمته ومكانته التي أعطاها له الإسلام عبر مئات النصوص المحكمة، فيما أعطوا للنص سلطة حسم الخلاف، وتلك هي نقطة الخلاف بين المعتزلة وأهل السنة والجماعة ومن ثم وعلى ضوء تلك التحريات والمستخلصات فإن عقلانيي العصر ليسوا معتزلة كما يتوهم البعض، وإن ادعى بعضهم ذلك، وإن بكوا بحرقة على قمع الاعتزال على يد السلفية، وكأني بمثل هذه الدعاوى المخادعة قد فعلت فعلها في نفوس المتسطحين الذين لا يتحرون السلامة ولا يجدون القدرة على التثبت، وسبب اختلاف هؤلاء عن أولئك أنهم تعاملوا مع النص القرآني بمنهج يختلف كل الاختلاف مع تعامل المعتزلة، وهل يكون ما ذهب إليه (نصر

---

(١) تاريخ المقال: ١٤/ ٤/ ٢٠٠٩

حامد أبوزيد) و(حسن حنفي) و(محمد شحرور) و(محمد العشماوي) و(خليل عبد الكريم) و(محمد عابد الجابري) في آخر إصداراته عن القرآن الكريم متفقاً مع ما ذهب إليه (القاضي عبد الجبار) أو (جار الله الزمخشري) من أساطين الاعتزال ومتعصبيه؟ وهل أحد يستهين باللمحات العقلية المبهرة عند (الجاحظ) و(الجبائي) و(الرماني) وإن كانوا من أساطين الاعتزال؟!

وإذ نشفق على هذا الصنف من الشباب الذين يندلون ما تطرف من الآراء الفجة والأحكام المرتجلة ندل الثعالب ثم يواجهون من هم على جانب كبير من التحصيل والتجربة والمعرفة بأصناف الاتجاهات فإن علينا أن نتفادى تعميق الخلاف، إذ ربما تكون مناهجنا وطرائق تعليمنا هي السبب المباشر في تشكيل هذا الوعي الناقص أو المفقود على الأصح.

وما كان لهؤلاء الشباب المبتدئين أن يقطعوا بصحة ما التقطوه على عَجَل، وأقل ما يجب على مثلهم أن يتيحوا أقل الفرص لسماع الرأي الآخر، وألاَّ يعتمدوا على الجاهزيات وإصدار الأحكام المرتجلة فذلك مخل بالأهلية والمصداقية وبخاصة حين يكون التداول في قضايا مهمة كالقول في الفكر العلماني وتجاوزاته المناقضة للإيمان. والخوض في قضايا التفكيك للنص القرآني كما هو عند (أبي زيد) و(حسن حنفي) وأضرابهما يحتاج إلى إدراك مآلات المصطلحات الحديثة، وإذا كان العلماء والأدباء في مصر قد أجمعوا على جنح (أبي زيد) فإن العلمانيين وحدهم الذين ثارت ثائرتهم خوفاً على حرية التفكير التي يزعمون أن الغيورين على ثوابت الأمة ينقصونها من أطرافها، والمشايعون لهذه الانحرافات غير المبررة يتمترسون خلف تلك المصطلحات السرابية التي تشبه إلى حد كبير نافقاء اليرابيع، وليست العبرة في الدعوى وإتقان التقنية ولكنها في مآلات القول ومناطاته ومفهوم المصطلحات الوافدة على ضوء رؤية المنشئين لها. والذين يتنصلون عن مقتضى ما يقولون يقتدون بمقولة المنافقين: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ والعلمنة والعولمة والحداثة ما دخلت في شيء إلا صدعت بنيانه وزلزلت أركانه وفرقت شمل أهله وكأن الذين يتعلمون منها إنما يتعلمون ما يفرقون به بين المرء وأخيه.

والمعتزلة والسنة هم الذين أحدثوا الصراع بين النص والعقل والمحدثون لم يكونوا على شاكلة أحد منهم حين أعلوا من شأن النص كما هو عند النصوصيين وموت المؤلف أو ما هو عند العقلانيين، وكل حدث فكري يعد انعكاساً لأحداث حضارية ليست ذات مساس بحضارة المستورد وتعبير عن روح العصر الذي عاشه الغربيون دون غيرهم، وتلقي ما عندهم دون مراجعة حصيفة يعود على الأمة بالضياع، والذين يجازفون بالجمع بين مفكري العصر والمعتزلة لم يستوعبوا خطاب الاعتزال، وأوسعهم معرفة من قرأ شيئاً من تاريخهم ولم يغالب موسوعاتهم وموسوعيهم ولم يفكك أصولهم الخمسة المتمثلة: بالتوحيد والعدل والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومآلاتها الخطيرة القائمة على إنكار الصفات وإنكار خلق الله للأفعال والخروج من الإيمان بالكبيرة وإنكار الشفاعة للعصاة، كما لم يقاربوا آراءهم الأصولية وأثر أصولهم على تلك الآراء وموقفهم من السنة النبوية ومن أصحاب رسول الله ﷺ.

وكم كان بودي لو غالب المتحمسون للآخذين بعصم العلمنة والحداثة والتفكيك ترفهم وخاضوا في غياهب كتبهم وآرائهم وردوا خلافهم إلى الله والرسول وامتلكوا الثقة بأنفسهم وسألوا أهل الذكر عما لا يعلمون فذلك أبرأ للدين والعرض.

وستكون لي عودة إلى الحديث عن قضية أبي زيد ليكون المخالف على بينة من أمره.

من لُجَج الاعتزال إلى لجاجة المنشئين في الحلية .. ! (٣)[1]

لقد قرأت (أبا زيد) بوصفه متمكنا أمكن من مناهج النقد الحديث وبخاصة التفكيك والأنسنة، وشنآن المفكر بسبب انحرافه لا يجرمني على ألا أعدل أو ألا أستفيد، واستفادتي من مخالفي ومناوئي قد تفوق استفادتي من...

... موافقي ومناصري، ومما زاد اهتمامي به ترديه في مهاوي الهلكة وإصراره وعناده وتمسكه بآرائه التي لا تلوي على شيء، إذ كان في موقفه ألجُّ من خنفساء، ومما ان تجاوزته عدت إليه حين ضج الرأي العام في مصر وابتدر انحرافاته الفكرية وإخفاقاته المعرفية المعذِّرون واللوَّم، وكنت في مصر في أوج ضجيج المحافل، ولم أدع شاردة ولا واردة تمس المشكلة المثارة إلا قيدتها قيد الأوابد، سعياً وراء إحقاق الحق ونصرة الأخ ظالماً أو مظلوماً، وكأني بالتاريخ يعيد نفسه:

وكم ذا بمصر من المضحكات
ولكنه ضحك كالبكاء

ومشكلة الإعلام في مصر بالذات الاهتياج الأعزل والاندفاع العاطفي المتشنج، لقد مرت مشاهده الفكرية منذ (حملة نابليون) وعودة (الطهطاوي) بتمردات لوجوه شتى، وليست ثورات.

فالتمرد لا ينطوي على شيء، فيما تنطوي الثورات على فلسفات (أيديولوجيات) تفرض نفسها، والمتحسسون عن المتمردين وآثارهم يروعهم ما يعتري المشاهد من لوثات يضيع معها الرشد، ويعلو قتام الجهل، وان تركت ركاماً من القول وردّ القول، نجد ذلك عند طائفة من المتمردين ممن مهّد لهم (الطهطاوي) والأفغاني و(محمد عبده)، إذ جاء (قاسم أمين) و(طه حسين) و(مصطفى عبد الرزاق) و(عبد العزيز فهمي) و(محمد أحمد خلف الله) وآخرون تعرف منهم وتنكر، ولكل متمرد معوّله في الغرب، وآفاق العالم الإسلامي لا تخلو من متمردين يهدمون الأخلاق أو يقوضون الأفكار، ولكنهم ليسوا بحجم المتمردين في عالمنا العربي.

والذي ذهب إلى عدّ (أبي زيد) معتزلياً تعويله على العقل، وفاته أن جميع الفلاسفة المتقدمين والمتأخرين ما أضر بهم إلا إقدام عقولهم وإيغالهم في عالم الغيب واستدبارهم للنص أو تأويله تأويلاً فاسداً، حتى لقد ملّ (الفخر الرازي) من التيه وندم على اشتغاله بالعلوم الغيبية، قال الطوغاني: قال الرازي: (يا ليتني لم اشتغل بعلم الكلام وبكى) ومن شعره:

نهاية إقدام العقول عقال
وأكثر سعي العالمين ضلال

وما وقع فيه (أبو زيد) من انحرافات فكرية لا أحسبُها ناتج تفكير مستقل واشتغال مباشر بالنص، وإنما هو ناتج ارتماء في أحضان الغرب والتقاط للخيط الماركسي الذي تلقفه من قبله (خليل عبد الكريم) وأنتج على ضوئه عدة كتب تاريخية تفيض بالمادية البغيضة، وإذا كان (عبد الكريم) مراوغاً مُموهاً فإن (أبا زيد) صادعاً برؤيته التي يأمره بها عقله المتجرد من كل التزام عقدي، واكتشاف أمره جاء عندما تقدم بأكثر من عشرة بحوث وكتابين للترقية إلى درجة أستاذ، وكان من بين الفاحصين الدكتور عبد الصبور

(١) تاريخ المقال: ٢١/ ٤/ ٢٠٠٩

شاهين الذي كشف خطأه وجهله وانحرافاته الفكرية التي استدركها عليه (شاهين) تتمثل في قوله: (إن من حقنا أن ننقد القرآن لأنه منذ نزل على الرسول ﷺ قد انفصلت عنه صفة الألوهية وأصبح بشرياً)، وبشريته أنه تلبس باللغة العربية وهي منتج بشري تخضع للنقد والتقويم، وان الإسلام هو سر تأخر المسلمين، وان الماركسية هي الإيمان، وان سلمان رشيدي شهيد وان أبا بكر وعمر وعثمان كانوا متآمرين على الحرية، فصنعوا قرآنا خاصا بقريش، وقضوا على تعددية النص، لأنه يتصور أن لكل قبيلة قرآناً، وهو قد نسب الشافعي إلى القبلية فيما نسب أبا حنيفة إلى الشعوبية نسبة تفكير وعقيدة وفقه، متوهماً أن منطلقاتهم الفقهية مرتهنة لهذه النزعات العرقية. ومن فحوى كلامه إنكاره لمعطى آيتين محكمتين: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، و ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وهو بالتالي إنكار لشمولية الإسلام وعالميته. إذ جاء في كتابه (الإمام الشافعي) إشارة إلى ما قرره الشافعي من أن في القرآن حلولاً لكل المشكلات، إذ وصف هذا القول بالخطورة، حيث حوّل العقل البشري إلى تابع يقتصر دوره على تأويل النص واشتقاق الدلالة منه، ولهذا ذهب إلى أن الإسلام دين للعرب وحدهم، وان القرآن منتج ثقافي بيئي، والإيمان الميتافيزيقي الذي لا يجعل النص القرآني منتجاً ثقافياً يطمس هذه الحقيقة، ويعكر من ثم إمكانية الفهم العلمي للنص والوجود المتعين للنص القرآني المتشكل خلال فترة زادت على العشرين عاماً يصرف النظر عن أي وجود سابق في العلم الإلهي أو اللوح المحفوظ على حد قوله، فض الله لسانه وأوهى سلطانه، والهدف من كل هذا اللغط النزوع إلى التحرر من سلطة النص، وأي سلطة تعوّق مسيرة الإنسان .. وتلك الاطلاقات الجوفاء المتصيدة من مقولات استشراقية مغرضة ليست ناتج تفكير ولا معطى تمحيص، وكل اطلاقاته في كتبه توحي بالارتجالية والاستلاب، وان كان ثمة إمكانات معرفية أو مهارات ذاتية فإنه وظفها للتضليل ونسف الثوابت والمسلمات، والعلماء الذين تعقبوا آراءه توصلوا إلى نتائج في غاية الخطورة نلخصها فيما يلي:

- القرآن منتج ثقافي ومستمد من البيئة العربية.
- إسقاط سلطة النص وأي سلطة أخرى.
- إنكار صلاحية القرآن لكل زمان ومكان.
- عدّ الإسلام دينا عربيا ونفى العالمية والشمولية.
- الدعوة إلى التحرر من العبودية لله.
- نفى أن يكون القرآن في علم الله الأزلي.

ومماحكاته تلك تتقاطع مع مقولات (ماركس) الذي يذهب إلى أن الديانات والفلسفات مجرد (أيديولوجيا) تعكس أفكاراً زائفة للطبقات الحاكمة.

والذين انبروا للدفاع عن (أبي زيد) عبر وسائل الإعلام ثلاث فئات: العلمانيون، والحداثيون، والماركسيون، وان كان ثمة خطأ فإنه في إقحام الرأي العام ولهب مشاعره.

ومعتصر المختصر لكل الذين يتصورون أن (أبا زيد) مُعيد لخطاب الاعتزال، وان خطابه الجديد مجرد عصرنة لخطاب الاعتزال أن يلتمسوا مستقراً لمقولاته في الفضاء الاعتزالي، وسأكتفي بثلاثة نقول:

الأول قوله: (إن القرآن منذ أن نزل على محمد أصبح وجوداً بشرياً منفصلا عن الوجود الإلهي) والثاني قوله: (لم ينج القرآن من عمليات المحو والإثبات) الثالث قوله: (إن التصورات الأسطورية المرتبطة بوجود أزلي قديم للنص القرآني في اللوح المحفوظ باللغة العربية ما زالت تصورات حية في ثقافتنا).

وان كان ثمة دعوة مشروعة لحرية التفكير والتعبير، فإنها لا تكون حرية هدم لثوابت الأمة وتدنيس لمقدساتها وتشويه لمبادئها وسب واتهام لورثة الأنبياء، وليست ممارسة للإرهاب الفكري ومصادرة لحق الآخر في الدفاع عن مسلماته.

وأبو زيد الذي شغل المشاهد الفكرية والإعلامية ينطلق من فكر جدلي ماركسي، وتتجلى منهجيته الجدلية وفكره الماركسي في كتابه الضجة (الإمام الشافعي وتأسيس الأيديولوجية الوسطية)، وهو كتيب صغير يقع في مائة وعشر صفحات نشر في عام ١٩٩١م يحتوي على مقدمة وأربعة فصول، ومنطلقه (الرسالة) للشافعي التي أسست لعلم أصول الفقه الإسلامي. وفيه تحرش وتطاول على الإمام الشافعي واتهام جائر له، والباحث ينقم على الشافعي تأسيسه للسنة وعروبة القرآن، ويعيب عليه تمسكه بالنصوص، وداء أبي زيد جهله مصطلح الحديث، وتاريخ الاعتزال الذي يدافع عنه، وأكاد أجزم بأن كل سطر من سطور الكتاب يشتمل على شبهة، وقد انبرى لتلك الشبهات عدد من الكتاب والمفكرين، وصدرت حول قضيته أكثر من أربعة كتب، تجلت من خلالها القضية بكل ملابساتها الفكرية والحقوقية بقي أن نقول: إنه لا علاقة له بالاعتزال وإن دافع عنهم وأشاد برموزهم.

هل من ضرورة للمعارك الأدبية .. !؟ (١)

كانت مناسبة جميلة أن يحملني (منتدى الحازمي) في مدينة (أبها) على أن يكون حديثي في منتداه عن (المعارك الأدبية وأثرها على الساحة الثقافية) لما في ذلك من استعادة لماضي أجمل، ومراجعة لمقروءات سلفت.

والحديث عن هذا اللون من الحراك الثقافي يثير في النفس ذكريات خضر وأخر يابسات، ولاسيما أنني خضت المعترك الأدبي مع الخائضين الواعين لمجريات الأمور والغافلين عنها، قبل أدلجة الأدب وتسييسه وبعدهما، وحققت انتصارات وهزائم وتراجعات، وندمت ندامة الكسعي في بعض المواقف، غير أني بالجملة سعيد بكل ذلك حلوه ومره صفوه وكدره، فالذين هزمتهم والذين انتصروا علي عدنا في النهاية كما كنا من قبل أحبة يعذر بعضنا بعضاً، وما تركنا من قول أصبح جزءاً من تاريخ الأدب المحلي، يمر به الدارسون كما لو كان ثروة ذات قرار مكين، وجريان أسمائنا وأحداثنا على الألسنة الحفية بما بدر منا من جدّ أو هزل أو البرمة الممتعضة عمر ثاني نعيشه بمشاعرنا ووجداناتنا (والذكر للإنسان عمر ثاني).

وإذ لا نفترض الرضى المطلق عما بدر منا فإن الطلبة البررة والمريدين قادرون على التعذير والتبرير وذكر المحاسن، والعقلاء المنصفون سيقولون: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا﴾ بتحريك المشاهد الثقافية.

وما من عاقل مجرب امتدت به الحياة إلا ويود لو أنه أطال الوقوف في تلك المهايع، وإن كان فيها مغالبات وتجاوزات وأدعياء لا يقيمون وزناً لمختلف القيم، فالصراع في النهاية اكسير الحياة، وما حفظت المعارف وما نشأت النظريات والمبادئ والمذاهب إلا في أعقاب الصراعات الدينية والفكرية والسياسية والأدبية، والذين يتصورون الصراع نزوة مزاجية يعولون على نماذج متسطحة تحركها الأمزجة والأذواق والتقاليد، ويتولاها المبتدئون وأنصاف المثقفين.

والذين رصدوا بوعي محاور الصراع ومستوياته يقفون على محرضات دينية وأدبية وسياسية وقومية واجتماعية ومتناقضات فكرية ودينية، ويضعون أيديهم على محاور رئيسة يلمسونها بأيديهم كالعامي والفصيح، والأساليب، والبلاغة، وقضايا الشعر، والمناهج، والموضوعات، وكل هذا الحراك ناتج تحولات متعددة وخلفيات سياسية واجتماعية وثقافية وفكرية إذ المشاهد كلها مشرعة الأبواب لأعاصير التجديد التي تنهب من الشرق والغرب، وليست البراعة في الاعتزال ولكنها في ضبط الإيقاع والتحكم في الحراك على ضوء المصالح المتعددة والمعقدة.

والحديث عن المعارك الأدبية محلياً وعربياً يستدعي مراحل وأشخاصاً وكتباً وأحداثاً وقضايا هي جماع الأدب وذروة سنامه، إذ ما استقام الأدب على سوقه إلا بهذا الكر والفر والعراك المستمر، فالمتابع قد تند عن ذاكرته أشياء كثيرة مرت بالمشاهد هادئة مطمئنة، ولكنه لن ينسى أي عبور صاخب ترك فيها دوياً كدوي المدافع.

فأين نحن من معارك (العقاد) و(الرافعي) و(طه حسين) و(مبارك) و(أحمد أمين) ومن شايعهم أو ناوأهم؟

---

(١) تاريخ المقال: ٢٨/ ٤/ ٢٠٠٩

ثم: أين نحن من القضايا التي جالد لتكريسها أو نفيها أدباء ومفكرون من أمثال (مندور) و(الحكيم) و(ضيف) ومن دون هؤلاء المبدعون من شعراء وسرديين كانوا مادة الحديث ومنطلقاته.

فهؤلاء وأولئك أثروا المشاهد ونقبوا في بطون الكتب عما يعزز قضاياهم أو يضعف جانبها، وهل أحد يقلل من شأن قضية الأدب الجاهلي التي أثارها بعنف وصلف طه حسين في أوج شبابه وتوهج أفكاره، ولك أن تقول عن معارك (الديوانيين) حول الشعر العربي الحديث، ومن بعدهم جماعة (أبولو) والمهجريون.

وسواء جاءت المعارك حول الشعر الحديث نتيجة نمو فكري أو تحولات اجتماعية، أو أنها رغبات ذاتية وصراع حول المواقع في المشاهد، لقد تركت على الاحتمالين ركاماً معرفياً أثرت منه الساحة الثقافية، ويعد كتاب (الديوان) الصغير في حجمه والمتواضع في مادته فاصلاً بين مرحلتين، ولا تقل حملة (محمد حسين هيكل) و(طه حسين) على شوقي عن حملة العقاد أثراً، ثم أين نحن من (الأبُلِّيين) واتجاههم الابتداعي العاطفي، لقد أبرزت المعارك ثلاثة اتجاهات:

(ذهني) و(عاطفي) و(محافظ) واجتهد كل طرف في تعزيز رؤيته وما يذهب إليه.

وظهرت تبعاً لذلك قضايا ما كانت معروفة من قبل ك(قضية المفهوم) و(قضية المضمون) و(قضايا الشكل) وكل قضية تشعبت وتمخضت عن قضايا أخرى.

إن قراءة مخلفات تلك المعارك تغري بالتطلع لمزيد من المعارك وتنبئ عن ثروات معرفية طائلة ما كان لها أن تكون لولا هذا التناوش من عدة أمكنة والذين أرخوا للمعارك منسوبة إلى أدباء بأعيانهم مثل: معارك العقاد وطه حسين وزكي مبارك أو منسوبة إلى فنون (كالحوار الأدبي حول الشعر) ل(محمد أبي الأنوار) و(الصراع بين القديم والجديد في الأدب العربي الحديث) ل(محمد الكتاني) و(معارك أدبية قديمة ومعاصرة) ل(عبد اللطيف شرارة) و(الخصومة بين القدماء والمحدثين في النقد العربي القديم) ل(عثمان موافي) و(الخصومة بين القديم والجديد) ل(بسيوني منصور) تقصوا مخلفات هذه المعارك ومثيراتها، والذين ينقبون في تاريخ الأدب الحديث والقديم يعرفون حجم المتغير الذي أحدثته تلك المعارك الأدبية، لقد كان (لأبي تمام) أثره في تحريك الوسط الأدبي، وكان للمتنبي أكثر من ذلك، والعراك حول ما أحدثوه من تجديد أنشأ مدارس ومذاهب، وخلف كتباً كانت في الأصل حصيلة منافسة أو بدوافع شخصية، ولكنها تحولت في النهاية إلى ظواهر ونظريات أثرت المشاهد ونوعت المشارب ونبهت الشعراء، وحدتهم إلى مراجعة أنفسهم وتنقيح شعرهم.

ولقد قيل إن شوقيا الذي يدفع بقصائده إلى الصحف دون مراجعة أو تنقيح أصبح محققاً ومراجعاً لها ومستشيراً لمن حوله، كل ذلك أعطى المشاهد مزيداً من الأناة والتروي. واليوم وقد جاء زمن الرواية وطغت السرديات فإننا أحوج ما نكون إلى نقاد أقوياء في معارفهم ومواقفهم لا يخشون في الحق لومة لائم، يواجهون الأدعياء والمتبذلين بهراوات تعلو رؤوسهم وتضعهم في حجمهم الطبيعي وتنفي عن المشاهد تلك الغثائيات والعاميات والتفاهات.

فالرواية اليوم تقترف جنايات لغوية وفنية وأخلاقية وفكرية، والأدعياء المقوون يتطاولون على القيم والثوابت ويدنسون المقدس ويقولون منكراً من القول، ومن حولهم كتاب متزلفون يزينون لهم سوء عملهم.

والساخرون من الكتاب يتوقعون أن تسمى البلاد يوماً ما ببلد المليون روائي، وذلك من كثرة المتقحمين الذين أمنوا العقاب فأساؤوا الأدب وللأدب وضربوا القيم في الصميم.

ومثلما نصف الرواية بالجناية نصف النقاد بالجنائيين فهم إما صامتون يؤثرون السلامة على الصدع بالحق أو مغررون. ولو نشأت معارك بين أطراف الظواهر لبرز الذين كتب عليهم الفشل إلى مضاجعهم.

والمعارك الأدبية التي حرست الفن وذادت عن حماه توفرت على التكافؤ والموضوعية وانطلقت من خلفيات ثقافية ووعي تام بمتطلبات الفنون والمراحل، ومهما اعتراها من تجريح أو تصريح فإنها حفلت بنتائج إيجابية أدت في النهاية إلى تأسيس معرفي وتحرير للمسائل.

ومهما تحفظنا على بعض الإثارات غير الراشدة فإن المشاهد بأمس الحاجة إلى حراس الفضيلة والفن واللغة وفي النهاية: فإن من أمن العقاب أساء الأدب.

لكيلا ننسى أو نتنكّر أو نجازف بالمثمنات .. !![1]

دخلت مكة أول مرة حاجاً قبل ست وخمسين سنة، وأنا إذ ذاك طفل لم يبلغ الحلم، ومثلي في هذه السن وخلو الذهن لا يند عن ذاكرتي شيء.

ودخلتها آخر مرة معتمراً قبل أربعة أيام، وأنا كهل لا يكاد يستقر في ذاكرته شيء.

وبين الدخولين فوارق لا يراها بحجمها الطبيعي إلا الذين عاشوها كما لو كانوا منشئيها، وشهود الإثبات العدول هم الذين يرون الأشياء رأي العين، ثم لا ينكرونها، ويسمعون صخب المشروعات ثم لا يجحدونها، ويتقرَّون المتغيرات بلمسٍ ثم يعرفونها، ويتعرفون على من أجريت على أيديهم، وأولئك هم المفلحون الذين يقيدون النعم بالشكر لمسديها.

أما غير العدول فلهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها.

إذ كل شيء عندهم يكون بمحض الصدفة، ولربما أنهم يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها، ولا يذكرون المنعمين من عباده إلا قليلاً، أشحة في القول والعمل يعرفون حقوقهم ولا يوفون بواجباتهم، وليس غريباً أن يكون من بيننا من هم أشبه شيء بالدهريين الذين يقولون كما قال سلفهم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾.

ومقسم الأرزاق هو مقسم الأخلاق، وأيسر الحرمان من حُرم المال، وأوجعه من حرم الأخلاق. ونكران الجميل درك الرذيلة وحفظه ذروة الفضيلة.

وليس مقياس شيء من ذلك أن نلهج بالثناء، ولكنه الذكر والشكر والحفظ والشعور بالمسؤولية، فما الناس في النهاية إلا كالمستهمين على السفينة والنجاة في حفظها من عبث العابثين وغفلة الساذجين.

وبلاد الحرمين الشريفين بما وهبها الله من ثراء دافق، وأمن وارف، وقوة من غير عنف، ولين من غير ضعف، وعدل شامل، واستقامة على المأمور لم تعد رهينة سياقها ولا حبيسة أنساقها، وخروجها المنضبط في إيقاعه مكّنها من تفادي الصدام، ورائد الانعتاق من ويلات الفرقة والفاقة مؤسس هذا الكيان لم يركن إلى خطاب الثورة والتمرد الأهوج ولهب المشاعر ومصادرة الآراء، وخلفه من بعده لم يناصبوا السياق والأنساق عداوة ولا بغضاء، فكان التعايش المرحلي الذي برهن للوجلين عن خطأ وجلهم فيما لم تصادر حقوقهم في الممانعة والمراجعة والمساءلة، وأخذ الحذر من أي طارئ لم يخبروا دواخله. ولا يلقّى تلك الأساليب الحكيمة والحليمة وفصل الخطاب إلا الذين يمنحون الواقع حق التفكير السليم ومحاكمة الذات بالمثل والشاهد، وكل من وجد سلفه على أمة ثم لم يوفق بمصلح يمنحه فرصة التأمل والموازنة يكون عبئاً وعقبة، وقد يجهض المشروع الإصلاحي الحتمي بتجييش الرأي العام.

ولأن الناس أعداء ما جهلوا فإن أي خطوة في طريق الإصلاح لا تسلم من التخوف والتمانع، والذين يديرون شيئاً من صور الممانعة لمجرد السخرية والتندر والتجهيل لا يدركون سنن الحياة وما لقيه الرسل والمصلحون مع أممهم، ولا يدعون أدنى فرصة لمراجعة النفس والخلوص بها من ربقة الإلف:

خُلقتُ ألوفاً لو رجعتُ إلى الصبا
لفارقتُ شيبي موجع القلب باكيا

---
(١) تاريخ المقال: ٥/ ٥/ ٢٠٠٩

وكم من مصلح عوَّل على مشروعية إصلاحه ولم يراع فيمن استرعاه الله عليه ما يرفق به تشظى على صخرة الواقع وأصبح عمله هباء منثورا.
والعارفون المجربون يحكمون صناعة خطابهم، ولا تعجبهم إمكانية ولا مشروعية:
﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾.
وتلك البقاع الطاهرة التي أوحت بتلك الخواطر جُبيتْ لها ثمرات كل شيء وتوفرت على مقومات التفوق والتألق، نرى شواهد نجاحاتها بادية في كل زاوية من زوايا الوطن وفي كل مرفق من مرافقه، ولم يبق إلا أن يفكر المواطن بدوره في وسط هذه المعمعة ومدى تكافئه مع هذه المنجزات الحضارية، ولقد يكون من طبيعة الحياة ومكابدتها أن تتعرض شريحة من شرائح المجتمع إلى نقص أو تقصير في الضروريات أو في الكماليات ثم لا يكون مقصوراً أو لا يكون مقدوراً على تلافيه، فلا يكون من حق أحد من هذه الفئة أن يجزع أو تنكر عينه ضوء الشمس فيكون مخذلاً وغير مؤثر على نفسه على حد:
(إذا متُّ ظمآناً فلا نزل القطر)
وبلاد حباها الله بمزيد من الإمكانات جديرة بأن تكون ملء سمع أبنائها وأبصارهم.
وأن تحاط بعنايتهم، ولا سيما أنها مستهدفة من مستغلين جشعين ومخربين حاقدين يفسدون في الأرض ولا يصلحون، كما أنها تعيش وسطاً عربياً يفيض بالمشكلات الطائفية والحزبية والإقليمية والقبلية يتناحر أبناؤه ويصطرخ مستضعفوه، وتنفذ فيه لعب قذرة، أدت إلى تدمير دول فرطت في جنب الله، والعقلاء الناصحون لم يستطيعوا إيقاف التدهور في كافة المرافق.
ومن ذا الذي لا يتصور فداحة ما تعانيه دول فقدت كل مكتسباتها بسبب تفريط أبنائها وتسلط أعدائها، وكل المجازفين تحت أي مبرر يملكون البداية ولكنهم أعجز ما يكونون عن وضع حد للنهاية. وكم من مغرورين وضعوا أقدامهم في طريق الفتن فجرفهم تيارها، وحين استبانوا طريق الرشد لم يكن بمقدورهم الخلوص من طوفانها فضاعوا وأضاعوا، وما بكت عليهم السماوات والأرض وتلك مساكنهم من بعدهم تعوي فيها الرياح وينعق فيها البوم، وتحكي مآسي دامية تعتصر القلوب وما أحيط بهم إلا أنهم كفروا بأنعم الله ونسوا ما ذكروا به: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أبوابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إذا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾.
لقد أثارت تلك المشاعر والمشاهد الروحانية فيضاً من الأحاسيس، وكيف لا تثير وأنا أجيل نظري في فجاج مكة، وكل موطئ قدم فيها صفحة مشرقة من التاريخ الإسلامي، وأمتع ناظري في أرجاء المسجد الحرام وما حباه الله به من توسعات متلاحقة وعمارة فارهة وخدمات لا يتخيلها إلا مستفيد يلقي السمع وهو شهيد، إنها شواهد إثبات لعصر ذهبي وفواتح أحاديث عذاب عما تنعم به هذه البلاد وأهلها، وما لم يع كل مواطن أنها قابلة للزوال، وما لم تقيد شواردها بحبال مفتولة من الشكر والذكر، وما لم يشعر كل مواطن أنه راع وأنه مسؤول عما استرعاه الله عليه، تفلتت كما تتفلت الإبل من عقلها.
والمسجد الحرام بوصفه شاهد إثبات يعج بالمشروعات فالهدم والبناء والإنفاق على قدم وساق، لقد كان المسجد من قبل ينحصر بين (الحزورة) و(المسعى)، أما اليوم فقد بلغ جبل أبي قبيس وجبل عمر وحي (الشبيكة) ويزاحم (أجياد) و(المسفلة) وامتد ليلتهم حي (الشامية) في توسعة الملك عبد الله.

والأمر لا يقف عند هذا الحد، وإنما يمتد ليشمل مجمل الخدمات والتسهيلات والسقي والنظافة والأمن وتوفير كافة الوسائل لتطهير البيت للطائفين والعاكفين والركع السجود، إنها مفخرة لكل مواطن وحماية له من عوادي الزمن، متى ذكر وشكر وبذل وطاول هذا الشموخ بلا مَنّ ولا أذى، ومن يدري فقد يكون تفجير كنوز الأرض ووقاية البلاد من أعاصير الفتن؛ بسبب ما يبذل في تلك البقاع الطاهرة، فلتطب أنفسنا بما يبذل ولنبارك خطوات قادتنا في هذه المهايع: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

بين إدارة الاختلاف وتنمية الائتلاف .. ! (١) [١]

من فضول القول اجترار مقولة المتفائلين إلى حد البلاهة:

(اختلاف الرأي لا يفسد للودّ قضية)

وكيف لا يفسد الود بين الفرقاء وما سالت الدماء إلا من بعد ما تفرقت بالأمم الآراء، وتحقيق أدنى حد من التعاذر والتعايش لا يتوفر إلا بالوعي والفقه والمرجعية والخلوص.. .. من تأليه الهوى، ومعرفة المقاصد ومحققات الحضارة. وما شدني شيء إليه بمثل ما شدني صراع الأفكار وصدام الحضارات منذ فجر التاريخ الإنساني، واختلاف النخب والمتَنَخْوِبين فيما بينهم على تنوع الأزمنة والأمكنة والقضايا والمستويات الإدراكية، حتى لقد رأيتني أتخطف أي كتاب يمد بسبب إلى الاختلاف وبواعثه وآثاره في مختلف المعارف والحقب والأطياف، وما من متابع لحراك المشاهد الثقافية إلا هو آخذ بناصية من نواصيه المتعددة والمعقدة، وهذا الاهتمام المبكر وضع يدي على المحقين والمبطلين والفارغين والممتلئين وكشف عن أهواء جامحة وأفضى بي إلى علم جليل زهد به قومه، وهو من مفاخر حضارتهم، ذلكم هو (أصول الفقه) إذ هو جماع المنطق والفلسفة، وسبيل من سبل ترشيد الدراسات النصوصية القائمة على أشدها ومتكأ لسائر المناهج الحديثة التي ألهت بني يعرب عن كل مبادرة تحفظ لهم بعض كرامتهم، وهي مناهج تهافت عليها من لا يعرفون بواعثها الفكرية ولا يحسنون استخدام آلياتها، الأمر الذي أدى في النهاية إلى إجهاض النصوص وتعطيل المقاصد وإرباك الآراء وتصعيد العداوة والبغضاء.

وأي مفكر يصاول ويجاول ثم لا يكون على شيء من الفكر الأصولي الذي امتاز به فقهاء المذاهب الإسلامية وتوسلوا به لنصرة رؤيتهم لا يكون منضبط الإيقاع، ومن فوادح الأخطاء ذم الأصولية على الإطلاق ومسايرة الرؤية الاستشراقية ومقارنتها بالأصولية الغربية، والفكر الأصولي الذي ننشد استدعاءه والاستعانة به يختلف عن مفهوم الأصولية الدينية، إذ إن الفكر الأصولي منهج استقرائي وليس رؤية عقدية شعائرية، ولا بد والحالة تلك من التفريق والتفصيل في القول تفادياً للإطلاقات الموهمة، ومن سمى التمسك بمصادر التشريع أصولية فقد ضل وأضل، والأمة الإسلامية سبقت كل الحضارات في التأصيل والتحرير لعلم الآلة حتى لقد قيل:

(النحو علم أحرقه أهله) بوصفه من علوم الآلة التي تضافرت جهود العلماء على تثوير طبقاته وتبئير دقائقه ودواخله.

وعلم الآلة بتعدده وتنوعه يكاد يحتل الصدارة، ويكون مقصوداً لذاته في حين أنه وسيلة للارتقاء بالملكات والأذواق، فعلم (النحو) و(الصرف) و(البلاغة) و(التجويد) و(العروض) و(المنطق) و(القواعد) و(الأصول) و(القانون الفكري) و(الموسيقى) وسائر المعارف الأصولية إن هي إلا آلات لضبط المسارات وتقنينها.

وما نشأت المذاهب والملل والنحل إلا بسبب الاختلاف في المناهج والآليات والقواعد والأصول، ولو اتحدت تلك المعايير لكان بالإمكان تطويق الاختلاف والسيطرة عليه.

والعلماء الأشداء الذين جمعوا بين العلم والورع والضوابط لم يرعهم الاختلاف المعتبر الناتج عن إعمال الفكر ونشدات الحق واستنطاق النصوص، ولم يحملهم اختلاف وجهات النظر على ألا يعدلوا في الأقوال والأحكام، فهذا الإمام الفقيه المحدث السلفي الورع (أحمد بن حنبل) يقول بحق (ابن راهويه):

---

(١) تاريخ المقال: ١٢/ ٥/ ٢٠٠٩

(لم يعْبر الجسر إلى خراسان مثل إسحاق وإن كان يخالفنا في أشياء) -أو كما قال- وكتب المناقب وسير أعلام النبلاء والطبقات زاخرة بمثل هذه المواقف الشجاعة والنبيلة، ولكن الواقع خلاف ما نسمع ونرى، ولا سيما أن ظاهرة التحاسد بين الأنداد قائمة على أشدها، وقد خلفت لنا ركاماً من التنابز بالألقاب وعمقت الفرقة والفشل.

ولما كان الاختلاف من سنن الله الكونية التي لا مناص منها استناداً إلى قوله تعالى: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ فإن واجب حراس القيم المعرفية ورعاتها أن يروضوا أنفسهم ويقبلوا بالاختلاف وأن يرتبوا أمورهم على ضوء ذلك، وأن يتخذوا سبيلاً قاصداً لمعايشة الاختلاف بأساليب لا تؤثر على الأداء ولا على الحراك ولا على العلاقات بين الأطياف متى شملتهم جميعاً مقاصد الشريعة ووسعهم ما وسع سلفهم الصالح في قضايا العقيدة والعبادة.

ومتى وضعت الأمة الاختلاف موضع الحتم وجب عليها ترتيب أمورها على ضوء ذلك بحيث لا تضيق بالمخالف ولا تصادر حقه ولا تسفه رأيه إلا حين يخالف نصاً شرعياً قطعي الدلالة والثبوت يعضده العقل وتسنده المقاصد ويشيعه الإجماع وتقتضيه محققات حضارة الانتماء، أو يكون مما علم من الدين بالضرورة، والإشكالية تكمن في أن طائفة من المعاصرين الذين يبتدرون القضايا المصيرية ويعدون أنفسهم من حملة الفكر يكتبون عن الشائك من القضايا الإسلامية بلا رواية ولا دراية وبلا منهج سليم وبلا أصول معينة ومتعارف عليها وكيف يحول جرئ لنفسه الخوض في حجج المعارف واستنباط الأحكام المناهضة للسائد وهو لا يعرف أبجديات الحضارة وشروطها، فالحضارات في كل أبعادها الحسية والمعنوية لا تتحقق إلا وفق ثوابت ومسلمات وانتهاك شيء منها تحت أي مبرر كحرية التفكير والتعبير وحق الاجتهاد يعني الدخول في الفوضى وطمس معالم الحضارة. وما أنهك الحضارات وأذهب ريحها إلا المتعالقون مع المستجد الغربي، والمصدقون لدعاوى المستشرقين الذين يلقون في روع المتهافتين بعض المحاذير التي تحملهم على سوء الظن بحضارتهم وعجزها عن النهوض بمطالب المرحلة المعاشة.

بين إدارة الاختلاف وتنمية الائتلاف .. ! (٢) [(١)]

وإذ تكون كل حضارة سلفت تمد بسبب إلى ما خلف من حضارات متأكداً بذلك عدم براءة أي حضارة من تمثل الإرث الإنساني، فإنه بالإمكان استثمار القواسم المشتركة بين الحضارات والمذاهب والتيارات.

وبهذا تتحقق تنمية الائتلاف وإن كان ثمة إشكالية فإنها كامنة في المتمردين على حضارة الانتماء، ومهادنة مثل هؤلاء يعني المواطأة على قتل الحضارة وتمكين الخطاب الغربي المتعالي من الهيمنة الحسية والمعنوية، وليس شرطاً أن تكون المواجهة بالصدام وتنازع البقاء، ولو نظر المتابع إلى تخبيصات (العلمانيين) في النص القرآني بوصفه حبل الله المعتصم به لراعته الجرأة، وكيف يسوغ لعاقل قبول أنسنة القرآن وتدنيس قداسته وإجهاض دلالته عند (أركون) و(أبي زيد) و(علي حرب) و(طيب تيزيني). وكل أولئك وآخرون من دونهم لا يعلمهم إلا الراصدون الناصحون لعقيدتهم يمارسون بجرأة ووقاحة نقد النص ونزع سلطانه وأنسنته، أو يدعون إلى ذلك أو يشرعنون له أو يواطئون من يمارسون هذا الانحراف العقدي البين عوره، ومنشأ ذلك كل الجهل بنواقض الإيمان وضعف التأسيس المعرفي والاستخفاف بأهمية الهوية والتصور الخاطئ بتعذر إمكانية تعايش الثقافات وحوار الحضارات.

وفوق ذلك كله التقليد ل(الأوروبيين) في عصور التنوير والإصلاح الذين لم يحققوا التطور المعرفي والفكري إلا حينما أخضعوا نصوصهم المحرفة للنقد، ومن الصعوبة بمكان التحكم بإدارة الاختلاف في مثل هذه الظروف. ولكن لا يأس مع الإصرار، ولاستبانة الفداحة وعمق المأساة فإن على المرتاب أن يقرأ أمشاجاً من كتب أوغلت في الخطيئة ولم تراعِ مشاعر المسلمين الذين يعرفونك حدود ما أنزل الله ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

(مفهوم النص) (نقد النص) (سلطة النص) وهي كتب لا تنقصها المعرفة ولا المنهجية، ولكنها تتوسل بهذه الإمكانات لإجهاض المقتضيات الدلالية بالتأويل الفاسد والتفكيك المحيل؛ سعياً وراء الخلوص من نفاذ النص المشروع، كما تخلص عصر التنوير الأوروبي ب(الهرمنيوطيقا) من نصوصه المقدسة المحرفة، واختلاف كهذا يستحيل معه الظفر بإدارة محكمة توافقية، ذلك أنه يمس جوهر القضايا، وحاجة الأمة في مثل هذه الظروف أن تحرر مسائلها وأن تؤسس لمعارفها وأن تحقق هويتها، إذ ليس كل اختلاف قابلاً للتصالح والتعاذر والتعايش، وإذا أمكن التعايش بين الحضارات فإن للحضارة الواحدة حدوداً لا يمكن تجاوزها، والتطلع إلى ترشيد الاختلاف يتطلب الاتفاق على الثوابت والأصول والمرجعية؛ إذ لا مجال لمن يريد طمس معالم الحضارة والذوبان في الآخر، ولاسيما أنه بالإمكان التوفر على متطلبات الحياة الكريمة والتمسك بمحققات حضارة الانتماء، فالإسلام سبق كل الحضارات المهيمنة وهيأ لها الإمكانات العلمية والعقلية.

والخطاب (العلماني) الفكري عوّل على (التأويل) بوصفه مصطلحاً تراثياً توسّل به أهل الملل والأهواء والخل للخلوص من ظاهر النص إلى باطنه، غير أنهم بهذا الإيغال غير السوي أبعدوا النجعة، ولقد أضلتهم مقولات انطلقت من عباءة التأويل بحيث أنكروا ثبات المعاني وعززوا مقولة: (لا نهائية المعنى) بوصفها وليدة الفكر التفكيكي، ولأن إجهاض النص سبيل من سبل العلمنة فقد جاءت (التاريخانية) و(نظام العقل) بوصفه بديلاً

---

(١) تاريخ المقال: ١٩/ ٥/ ٢٠٠٩

(لنظام الخطاب) ليقطعا الصلة بالنص وسلطته المشروعة. والوسطيون الذين راعهم هذا الإيغال المريب في الهلكة حاولوا تجسير الفجوات والاحتفاظ بأقل قدر من حرفة النص، وهذه الفئة متفاوتة في الدركات، وجماع أمر هؤلاء في تحرير مصطلح (المقاصد)، ولقد أشار المفكر العربي (رضوان السيد) في بعض أحاديثه (المتلفزة) إلى هذا التوسع الملفت للنظر في شأن (المقاصد) وذكر أنه تم إحصاء أكثر من مائة وعشرين كتاباً في (المقاصد) وأكثر من خمسة آلاف مقال ودراسة.

وهذا التفكير التوفيقي جاء لمحاصرة فكرة الشمولية في الشريعة الإسلامية؛ وهي فكرة أثقلت كاهل المتعصرنين، وضيّقت الخناق عليهم، فالشمولية والعالمية شبحان مخيفان لكافة المستويات العلمانية، وكان أول من أصَّل للشمولية الإمام الشافعي -رحمه الله- في كتابه (الرسالة) بوصفه رائد الأصولية الفقهية، وممن تصدى لهذه الرؤية وسخر منها واستهجنها (نصر حامد أبوزيد) في كتابه الضجة (الإمام الشافعي وتأسيس الأيديولوجيا الوسطية) على أن هناك بعض الاختلاف الأصولي بدت بوادره في بواكير الحضارة الإسلامية ولكنه اختلاف منطقي ومعقول.

والذين كتبوا عن مصطلح (المقاصد) متفاوتون في نوازعهم ومآلاتهم، ولقد كانت لي اهتمامات مبكرة لهذه الظاهرة وبودي لو ساعد الجهد والوقت على تناول شيء من هذه الأعمال التي يأتي جلها دراسات أكاديمية في أقسام الفقه وأصوله وبخاصة الذين يتناولون المقاصد عند الأصوليين مثل: (مقاصدية التشريع الإسلامي .. آراء القاضي أبي بكر بن العربي نموذجاً) و(الفقه المقاصدي عند الإمام الشاطبي وأثره على مباحث أصول التشريع الإسلامي) و(المقاصد العامة للشريعة الإسلامية) و(مقاصد الشريعة عند ابن تيمية) ولربما كان (الطاهر بن عاشور) من أوائل من تناول المقاصد ولهذا أصبح كتابه منطلقاً لكل من تناول المقاصد، على أن الذين تناولوها لإجهاض سلطة النص لم يكونوا من هذا الصنف وبخاصة الذين أرخوا للمصطلح أو تناولوه لقصد التقريب والإيضاح، وعلى أية حال فالمصطلح اتخذ وسيلة لرأب الصدع والخلوص من معاضلة النوازل ومحاولة التقريب بين الإسلام والمذاهب المعاصرة السياسية والاقتصادية وسائر متطلبات الحكومة المدنية.

وبواكير الاختلاف الأصولي الذي أشرنا إليه ووصفناه بالمعقولية والمنطقية تمثل في الدراية عند الأصناف والرواية عند الحنابلة وفي النصوصية الحرفية عند الظاهرية والتأويلية عند من توسعوا في فقه الرأي، ولم يكن ثمة صدام ولا تعدد في المرجعية على أن المشهد استوعب هذه الخطابات وأسهم في تخصيبها، وهو ما لم تقدر عليه المشاهد المعاصرة لإبعاد النجعة وتعدد المرجعيات والخنوع للآخر، وإدارة الاختلاف لحسابه.

والذين طرحوا مشروع الحوار على مختلف الصعد السياسية والفكرية والدينية لا أحسبهم يجهلون الممكن والمستحيل، بل أظنهم على علم بالمباح غير الممكن، وكل حوار غير متكافئ وغير منضبط لن يؤدي في النهاية إلا إلى مزيد من الفرقة ومقتضى قوله تعالى: ﴿تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاءٍ﴾، العدل والنصف، ولكنها لم تطلق بلا قيد تتحقق من خلاله مقتضيات الحضارة؛ إذ حدد العدل والنصف بقوله تعالى: ﴿أَلاَّ نَعبد إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾، في حين أن النصارى يقولون: إن الله ثالث ثلاثة، ولتحقيق شروط الحوار المطلوب جاء قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ﴾، ولقد فسرها

(ابن جريج) بقوله: (لا يطيع بعضنا بعضاً في معصية الله) وعند الاختلاف لا مناص من القول:

﴿اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، فإدارة الاختلاف لا تتحقق إلا إذا ضمن المحاور التوفر

على محققات حضارته، وإشكالية المشاهد أن عدداً من المفكرين يرون الانصياع للآخر والارتماء في أحضانه هي محققات الحوار الحضاري، وليس هناك ما يمنع من التعايش والتعاذر وتبادل المصالح متى تعذر الحوار الإيجابي، فالصدام نزوع ذاتي وليس مقتضى كما يتوهم (صامويل هنتنجتون) في كتابه (صدام الحضارات .. إعادة صنع النظام العالمي) ولهذا فند (هارالد موللر) تلك المزاعم الخاطئة في كتابه (تعايش الثقافات .. مشروع مضاد لهنتنجتون) ولكن هل ثمة حاجة إلى التكافؤ والندية عند ضمان التخطي بالحوار وإدارة الاختلاف إلى بر الأمان؟

بين إدارة الاختلاف وتنمية الائتلاف .. ! (٣) [١]

وحين تجد الأمة نفسها في أتون الاختلاف اضطراراً لا اختياراً وحَتْماً لا احتمالاً داخل المنظومة الفكرية الواحدة فإن من الحصافة والرصانة والتوفيق أن ترتب أوراقها على هذا الضوء وفي ظل تلك الأجواء وأن تكون حكيمة..

.. في التوفيق بين وجهات النظر وحسن إدارة الاختلاف، وإذ لا بد مما ليس منه بد فإن من المغالطة وهدر القوى محاولة الفكاك المستحيل وخير الأمة في القبول والرضا وترتيب الأمور على ضوء الأحوال والإمكانيات.

وهذه التطلعات ممكنة متى أذعن الفرقاء للحدود المعقولة والمقبولة للاختلاف، ولن تتمكن الأطياف من ترشيد الاختلاف حتى تنْطلق من الفكر الأُصولي بمفهوم الفقهاء، فهو وحده الذي يستطيع ضبط الإيقاع، وكيف لا يضبطه، وهو قد ضبطه في عصور الإسلام الذهبية عصور المذاهب والتيارات.

ولو نظر المصطرعون إلى مخاضَات الاختلاف في الحضارة الإسلامية لوجدوا أن العلماء الناصحين تفادوا الفرقة بالتأسيس المبكر لعلم الأصول والمقاصد ولا حاجة بنا إلى النظر إلى نتوءات السياق، فالذين توقفوا عن التماس حكمة التشريع وعلل الأحكام والمقاصد انطلقوا من ظواهر الدلالات لبعض آيات الذكر الحكيم كقوله تعالى: (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ) وكأنهم تصوروا أن التماس العلل من باب سؤال المشرع عن حكمة تشريعه، وإن كان ثمة حق في مثل ذلك فهو حق إلى حد، وبخاصة حين يتوسع الأصوليون في تعليل الأحكام أو حين يطلقون العنان للعقل، ومثلما أخذ المعاصرون ببريق الحرية المطلقة، ولم يَرْضوا بتأطيرها بمقاصد الشريعة، فإن طائفة من فقهاء الرأي أبعدوا النجعة، وحملوا الظاهريين على تضييق الخِناق، ولا أحسبنا قادرين على الخلوص من الفعل ورد الفعل.

ومتى تراجع ذوو الشأن عن مواكبة علم الأصول تقلص الإنتاج المعرفي التواصلي والتوافقي في آن، والأمة المستباحة بخطابات علمانية وعولمية و(ليبرالية) بأمسّ الحاجة إلى تشكيل مشروع معرفي يضع في أولوياته تحديد محققات حضارة الانتماء وتحديد المفاهيم العامة لقيم الحضارة وتوضيح المبادئ التي تساعد على تشكيل الذات ونقاء الهوية، وليس هناك ما يمنع من تجسيد رؤية جديدة للخطاب الشرعي يتوسل بالمقاصد والمصالح ويَطَّرح الحدَّة والحدِّيَّة .. ولن يتم تقويم الركام المعرفي المتناقض بتحكم الرغبات والأهواء، ومن ثم لا بد من التأسيس والتأصيل والمنهجية، وإذا لم نتوفر على معرفة شاملة بالشريعة وفق الضوابط الأصولية والمعرفة الدقيقة بالواقع والإمكانيات المتاحة فإن زمن التيه سيمتد بنا، وعند الصباح لا نحمد الغفلة والنوم العميق، وبالتالي ينفلت زمام الأمر والمبادرة من أيدي قادة الفكر وزعماء الإصلاح ورواد النهضة، وإن أخطر ما يتربص بالأمة تعدد السلطات وتنازعها حول تقرير المصير، فالمؤسسة السياسية والمؤسسة الدينية والمؤسسة الفكرية تتجاذب الأزمة ومصير الأمة لمَّا يستقر بعد.

وليست بوادر الاضطراب وقفاً على الحاضر، لقد كانت هناك محطات كادت تكون حاسمة في مسير الأمة الفكري فـ(الشاطبي) مثلاً له كتابان: (الموافقات) و(الاعتصام) فالأول تأصيلي، والآخر تحذيري .. والعلماء الناصحون يرصدون للحراك الفكري، فإذا مال كل الميل إلى حقل معرفي وأضر بالحقول الأخرى بادروا إلى ترشيد المسار وحفظ

---

(١) تاريخ المقال: ٢٦/ ٥/ ٢٠٠٩

التوازن، و(الشاطبي) لم يناقض نفسه، فهو حين يميل إلى التأصيل ثم يجد الاندفاع غير الموزون يتدارك الأمر لحمل الأمة على الرجوع إلى الكتاب والسنة والانطلاق منهما، فظاهر الأمر أن الكتابين متناقضان، وهذا غير سديد، فالاعتصام رصد لواقع شهده المؤلف والموافقات ضبط للإيقاع والسلفية التي تنطلق من مصدري التشريع تضع قيمة متوازنة لكل الجهود المعرفية، والقول بما كان عليه محمد وأصحابه لا يعني الاستغناء عما وضعه العلماء من ضوابط وأصول وقواعد، وتراث الأمة المعرفي لا يمكن نسفه تحت أي مبرر، ومثلما أن الشارح الوسيط لا يقطع الصلة بالنص المشروح فإن الجهود المعرفية وما توصل إليه العلماء من مناهج وآليات وضوابط لا يمكن الاستغناء عنها، والسلفيون يحذرون من الحيلولة دون الوصول إلى النص والتعامل معه كما لو كان فرداً في المشهد، وإذ تتعرض بعض المذاهب لتعصب يعطل لعقل ويقطع الصلة بمصدري التشريع فإن السلفية بوصفها مذهباً ينازع المذاهب الأخرى قد يتعرض بعض علمائه إلى طائف من التعصب الذي يتعمد إجهاض القيمة المعرفية لسائر المذاهب، ولو نظرنا إلى الخلاف القائم بين: (محمد سعيد البوطي) بوصفه حنفياً متعصباً و(محمد ناصر الدين الألباني) بوصفه سلفياً عَصَبِيًّا، وهو خلاف بلغ ذروته لما وجدناه خلافاً ينطوي على أي طائل، إذ بالإمكان التقاء الطرفين أو تعاذرهما، ولا سيما أن كل واحد منهما ينتمي إلى مذهب معتبر، وذي حضور فاعل عبر التاريخ الإسلامي، ويقيني أن مردَّ ذلك إلى عدم التسديد في إدارة الاختلاف وتنمية الائتلاف، وهو ما نحاول تحقيقه، وصراع الأقران وتحاسدهم عائد إلى الأثرة وفَقْد قواعد التعامل مع العلماء وفوق هذا فقد بليت المشاهد بقراء مبتدئين يعدون أنفسهم من العلماء وهذا مصداق ما جاء في الأثر الذي رواه الطبراني والحاكم في مستدركه: (سيأتي على الناس زمان يكثر فيه القراء ويقل فيه الفقهاء).

وخلاصة القول إن الاختلاف ظاهرة أزلية، فالصحابة اختلفوا والرسول صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم واختلفوا بعد وفاته، ويكفي أنهم اختلفوا في أحرج المواقف، لقد اختلفوا في وفاته وما جمع كلمتهم إلا أبو بكر الصديق الذي تلا عليهم: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ الآية.. واختلفوا في مكان دفنه ولم يحسم الخلاف إلا حديث روي عنه ﷺ، واختلفوا في الخلافة من بعده وما أنقذ الأمة إلا أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، واختلفوا حول قتال مانعي الزكاة وما تداركتهم إلا عزمات الصديق، وإذا كان الاختلاف بهذا القدر في زمن الرسول والخلفاء الراشدين فإن المتوقع أن تتسع رقعته وأن تتشعب مناحيه.

ولقد يكون الاختلاف نعمة وسعة متى أحسن الأطراف إدارته، حتى لقد عدّ بعض السلف اختلاف الصحابة رضوان الله عليهم رحمة للأمة يقول القاسم بن محمد: (لقد نفع الله باختلاف أصحاب النبي) ومجال النفع أن كل تابع يرى أنه اقتدى بصحابي.

وفي النهاية فالحق ليس حكراً على طائفة، ولا يدَّعي العصمة من الأخطاء إلا المغرورون، والحق لا يعرف بالرجال ولكن الرجال يعرفون بالحق.

لقد حاول ابن تيمية ضبط الإيقاع بين العقل والنقل وتلك المحاولة المسددة لو أُعيدت قراءتها لأمكن رسم خطة سليمة لإقالة عثرة الأمة واستئناف رحلة راشدة تمكن من إدارة الاختلاف واستثمار الائتلاف.

حاجتنا إلى موضعة الاختلاف لضبط الإيقاع .. !(١)

شدتني وأنا أنقب في كتب التراث والمعاصرة عن لفتات ذهنية متميزة حول الاختلاف والائتلاف، وهي مقالات ثلاث سلفت، شدتني كلمات جوامع وكتب نوادر ما كان لمثلي أن يغفل عنها ولا أن تظل بعيدة المنال..

ثاوية في حقولها في مكتبتي وهي كتب اشتريتها طائعاً مختاراً.

ومن عادتي حين أعزم على تحبير المقال الأسبوعي اختيار العنوان الجامع المانع الجذاب، إذ كل كتاب يُقرأ من عنوانه، والشعراء العرب عنوا بالمطالع لغةً ودلالةً وإيقاعاً، وقد أنهي كتابة المقال دون عنوان مقنع، وقد أغيره أكثر من مرة وحين استقر عليه أرسم في الذهن أو بالكلمات خطوات المقال على ضوء ما أضمره من مقاصد وما أود إثارته من قضايا، وما كنت يوماً من الأيام مرتهناً للوقوعات العارضة ولا المنبعثة من أخطاء فردية غير مستدامة، كما أنني لست مرتهناً للمحليات التي يمكن تفاديها عند استبانة عورها، فالظواهر الأممية غير السوية هي الموبقات، وهي القمينة بالتناول، وكثير من حملة الأقلام تستهلكهم صغائر الأمور على حد: و(تكبر في عين الصغير الصغائر)، وعندما تلح ظاهرة فكرية أو سياسية أتأمل فيها، وأنظر في مدى تأثيرها في مجمل حيواتنا بوضعنا لبنة في البناء الإنساني وأبحث عمن عرضوا لها وأوسعوها بحثاً وتحقيقاً لأنطلق من حيث انتهى والتقط نوادرهم واتبع أحسن قولهم، فما نحن في النهاية إلا كما قال الشاعر الجاهلي:

ما ترانا نقول إلا معاداً

أو معاراً من قولنا مكروراً

وقوله:

هل غادر الشعراء من متردم

على أنني في ظل هذا الشعور لا أقع في شراك المقولة التثبيطية: (ما ترك الأول للآخر شيئاً) ولا تهيمن علي عقدة الأبوية التي أغلقت الأذهان وأعمت البصائر، والحرص على التماس المقولات تضع اليد على كتب ليست حاضرة الذهن، وقد تفتق محتوياتها قضايا وموضوعات، ولا سيما كتب التراث التي تحمل سمة الثقافة العامة، فالعلماء الأوائل إما أن يحملوا هماً معرفياً فيجمعون أمرهم عليه ليؤصلوا معارفه ويحرروا مسائله، وإما أن يحملوا هماً إصلاحياً فيجندوا طاقاتهم وخبراتهم ومكتسباتهم المعرفية لتجسيد الواقع المعاش وتصور طرق الخلاص من المآزق كافة، ولقد أومأت إلى قضايا من هذا النوع وأنا أتحدث عن إشكالية الاختلاف بوصفه ظاهرة أزلية أو بوصفه موضوعاً مقصوداً بذاته لوضع أسس منهجية لتعاطيه، وكنت من قبل حذرت من خلل الوحدة الفكرية بحكم أنها منتج الاختلاف، وقلت إنها السبيل القاصد لخلل الوحدة الإقليمية، وأشرت إلى خطوات الملك عبد العزيز رحمه الله التي اتخذها حين أدار معركة التكوين بحكمة وأناة وتسامح واستأنف إدارة معركة البناء بالقيم ذاتها، وكان من أولويات إنجاز الوحدة الفكرية المتمثلة بتوحيد المناهج والمقررات التعليمية وتوحيد القضاء والإمامة في الحرم المكي الشريف واستثمار الكفاءات البشرية من المناطق التي سبقت إلى الاستقرار والتعليم النظامي والمأسسة الإدارية كالحجاز.

---

(١) تاريخ المقال: ٢/ ٦/ ٢٠٠٩

ولقد لقيت مشاريعه استجابةً وقبولاً على الرغم من رواسخ العادات والتقاليد وبخاصة ما يتعلق بالجانب التعبد ي والمذهبية الدينية، وما كنت أقصد بالوحدة الفكرية التنميط والرتابة والتسليم المطلق للماضوية والجاهزية، وفيما أنا أبحث عن خلاصات الآراء حول إيجابيات الاختلاف وسلبياته وقفت على تحفظات وإشارات في غاية الأهمية تشير إلى آلية الاختلاف ومنهجيته، وهي بلا شك تعضد ما ذهبت إليه، وما عده بعضهم كارثة فكرية، إذ تصور هذا الصنف من المرجفين أن الوحدة الفكرية تعني الخلود إلى الماضوية وممارسة الطقوس كما التدريبات العسكرية الحركية، ومعاذ الله أن أقع في مثل هذه الحبائل بعد هذا العمر الطويل وتلك التجارب المتنوعة والمعايشات المتعددة وسائر الإمكانات المعرفية وكيف يتصور بعضهم أن الوحدة الفكرية تعني واحدية الرؤية والمذهبية وإلغاء الذات لحساب التاريخ والانقياد لمن سلف دون وعي واختيار، وأحسب أن ذلك كله ناتج الجهل بقواعد الاختلاف وأصوله، ومن ثم لابد من موضعة الآلية والمنهج حتى يتبين للنخبة أسلوب الحوار المجلي للحقائق، ومثل هذه التصورات المرتجلة تعيق حراك البناء الفكري عبر الكلمة، وفي البدء كانت الكلمة، والاستخفاف بالمنهجية والآلية إهداراً للجهد والوقت والمال والمتعقب للمشهد الثقافي بمختلف أطيافه وقضاياه واتجاهاته وأناسيه يجد أنه بأمس الحاجة إلى المنهج، والمنهج لكي يكون في متناول يد النخبة لابد من موضعة الظاهرة ك(الاختلاف) و(الحوار) و(الحرية) إذ به تتحدد المفاهيم والمواقف، فكم من مخالف لو عرفت مفهومه للأشياء لكان بالإمكان حسم الخلاف معه دون الدخول في الجدل العقيم الذي يعمق الخلاف ويشتت الجهد ويضيع الوقت ويستنزف الأموال، وتوجيه الذكر الحكيم (تعالوا إلى كلمة سواء) يعني الاتفاق على الآلية والمنهج والمقاصد.

ولقد تذكرت قراءات متأنية سلفت لكتاب (رينيه ديكارت) (مقال عن المنهج) فديكارت في القسم الثاني من المقال يبحث عن أصول القواعد للمنهج، وقواعد الأخلاق التي استنبطها، ولقد حاول من خلال هذا التأصيل إثبات وجود الخالق والنفس الإنسانية التي هي أصول مذهبية فيما وراء الطبيعة ولسنا هنا بصدد اقتفاء أثره فهو يختلف معنا عقيدةً وحضارةً، ولكننا نكبر فيه التأصيل للمنهج وتحديد المسار. وأخلاق ديكارت لو أمرت كما جاءت لتكشفت عن ركائز نحن أحوج ما نكون إلى مثلها أثناء التعامل مع الظواهر والقضايا، فلقد ركز على احترام نظام البلاد وعاداتها وإحياء الشعائر الدينية وتفادي الشك والتردد وأن يغالب الإنسان نفسه ويحد من الرغبات والشهوات وهذا لا يتعارض مع الشك الديكارتي القائم على فلسفته الخاصة التي تؤصل الموقف من الأشياء.

وما نريده من موضعة الاختلاف يرتبط بالتأصيل المعرفي وتحديد مناهج الجدل والمناظرة وأدبيات الحوار وتقويم المواقف وتحديد مجالات الاختلاف والاتفاق على الثوابت والمسلمات والمرجعيات ويقيني أننا لو حددنا ذلك لتوفرنا على جدل إيجابي تنمو معه المعرفة وتقترب فيه وجهات النظر.

والمتابع للمشاهد كافة يروعه الضرب في فجاج التيه وتعميق هوة الخلاف، ولو عرف كل إنسان حدود ما أنزل الله وحدد مفاهيمه وتصوراته لوصلت الأمة إلى بر الأمان وتوفرت على الجهد والوقت الكافيين لاجتياز المنعطفات الخطيرة، إن حاجتنا إلى موضعة الاختلاف ليست من باب السفسطة والجدل العقيم، فكل عمل لا تحكمه الأصول والقواعد تتفرق به السبل ويحار في مفازاته القطا.

ماذا قال (أوباما) آنفاً .. !؟[(١)]

ما زلت مسكوناً بهم الوجود الأمريكي غير السوي في العالمين العربي والإسلامي بوصفه وجوداً يتعمد التغيير الجذري لمختلف التكوينات الحسية والمعنوية.

ولما تزل شهوة الحديث عن الظاهر والباطن في الشأن الأمريكي قائمة على أشدها..

.. حتى لقد جاء الفصل الثالث من كتابي (أبجديات سياسية على سور الوطن) للحديث عن أمريكا وسياساتها المضطربة في العالم الثالث وانعكاساتها على مختلف وجوه الحياة، وزج المنطقة في حروب ومنازعات ومقاومات عنيفة.

والمسافة السحيقة بين (بوش) و(أوباما) ستزيد من شهوة الحديث.

لقد جاء (بوش) إلى الشرق، وأدار حوارات وألقى كلمات، وها هو (أوباما) يأتي إليه ليجري لقاءات، ويلقي خطاباً أثار الفضول وشغل الإعلام وشتت المواقف، وفرق الناس بين متفائل ومتشائم، والفرق بين المجيئين والخطابين واضح كل الوضوح.. (بوش) يركن إلى القوة، و(أوباما) يركن إلى المبادئ، ذاك يشيع الكراهية والاشمئزاز، وهذا يهدئ النفوس، ذاك يستمد خطابه من حتمية الصدام، وهذا يستمده من احتمال الحوار، والإشكالية في جاهزية التنفيذ وإمكانية تحويل الخطاب من الصدام إلى الحوار، لقد ركن الرئيس الجديد إلى (علم النفس) بمحاولته استدرار العواطف وإزالة الاحتقان والشك وانتزاع أمريكا من المستنقع بكلمات مجاملة محكمة الصنع، ولكنها غير ملزمة، وعلى الرغم من سرابيتها فقد أثارت اليمين المتطرف في أمريكا والصهيونية المتعنتة في إسرائيل.

والخطاب المتقن الإعداد لم يكن مبادرة ذاتية، كما أنه لا ينبئ عن إستراتيجية جديدة للسياسة الأمريكية، وإنما هو على أحسن أحواله (تكتيك) مرحلي لإنعاش (الدبلوماسية) وترميم السمعة، وتحديث أسلوب العمل لا لتغيير العمل ذاته، وداء الأمة العربية في ثوابت السياسة الأمريكية التي لا تقف عند حد المصلحة والكرامة. وعيب مشهدنا السياسي الانجراف العاطفي والعيش في ظلال الحدث لا في متنه. وبراعة (أوباما) المثيرة للفضول ألهت بني يعرب عن الغوص في الأعماق، والتفريق بين (الأنساق) و(السياق) لقد خرج (أوباما) عن (الأنساق) لترميم (السياق)، شأنه في ذلك شأن قائد الطائرة في مواجهة الأعاصير والمطبات الهوائية يعلو ويهبط ويغير الاتجاه، ولكنه في النهاية سيعود إلى خط السير.

والخطاب إذ أخذ بعده القولي يرقب المستهدفون مخاضات العمل بوصفه البرهان على المصداقية وحسن النوايا، ولاسيما أنه يشكل منعطفاً مهماً، وقد أنصت له العالم وثمنه واستوعبه، وأخذه من أطرافه ثناء وإطراء.

لقد أجمل الرئيس خطابه في سبع نقاط هي جماع الأمر كله، جمع بين الارتجال الموزون، والتذكر السريع والتقاط الفقرات مما حوله من أجهزة ببراعة نادرة. وثقة بنفسه، وإيمانه بقضيته وسياسة الاسترضاء أعطته نوعاً من رباطة الجأش، ومكنته من انتزاع الإعجاب، فالرجل جاء وفي جعبته مبادئ إنسانية يود أن يظفر بانتزاع الثقة ليحقق شيئاً منها غير أن المعوقات في (إستراتيجية) السياسة الأمريكية وفي الواقع العالمي كثيرة وعصية، وليس بإمكانه المواءمة بين القول والعمل.

والمحللون السياسيون ستتشعب بهم الآراء والتصورات حول قراءة الخطاب، وسوف تذهب بهم الظنون كل مذهب، ومن حقهم أن يشكوا وأن يترددوا، فالسياسة

---

(١) تاريخ المقال: ٩/ ٦/ ٢٠٠٩

الأمريكية كلام الليل عندها يمحوه النهار فهي في الغالب تمارس أسلوب الجزر والمد والترغيب والترهيب، ومسرح السياسة عندها مسرح عرائس، فضلاً عن أنها دولة مؤسسات نيابية، المساحة المتاحة فيها للرئيس لا تمكنه من قلب الأوضاع رأساً على عقب، ولو حاول التغريد خارج السرب لدبرت له فضيحة، وها هي (معاداة السامية) أولى المحاولات السخيفة.

وكيف يتأتى لشاب أسود جاء من خارج السياق أن يأتي بنيان السياسة من القواعد، فالسياسة الأمريكية منجز مؤسسات وخبراء وفرق عمل في إدارة الأزمات، وأساطينها يستخدمون المنجز المعرفي للنفاذ إلى الأعماق والرئيس -أي رئيس- لا يمكن أن يتصرف بمفرده، غير أن هناك استعدادات شخصية وبراعة ذاتية في تمرير اللعبة السياسية وظروف مساندة تسوغ الجرعات. والعظمة تتطلب استعداداً ذاتياً، وظروفاً مساندة وتحرفاً سياسياً مغايراً، وتلك المؤهلات لم تتهيأ كلها بالقدر الكافي للأسمر الجذاب.

لقد ورث (أوباما) من سلفه معضلات عدة، فكان بحق أبرع رئيس في أسوأ ظروف.

-نكسة في السمعة.

-وضعف في الهيبة.

-وانهيار في الاقتصاد.

-وحكومة صهيونية متطرفة.

-وأجواء عالمية مكفهرة.

-وشفافية في السياسة العالمية.

وإذا استطاع الرئيس انتشال السمعة، وتوقي النكسة، وثني الصهاينة عن عزماتهم الإجرامية، وإيقاف التدهورات الأمنية في (العراق) و(أفغانستان) وتجاوز المحن والإحن في بقاع كثيرة من العالم في فترته القائمة فإنه سيكون الرئيس الأمثل، وتلك الإنجازات لن تحقق ما يطمح إليه، ولكنها على الأقل ستجنب العالم مزيدا من الويلات، وإذا قدر له البقاء والفوز بفترة ثانية فإن بالإمكان التراجع بأمريكا خطوتين عن حافة الهاوية، وأمريكا التي تريد الاحتفاظ بزعامتها وقطبيتها العالمية لن تتردد في استخدام القوة للاحتفاظ بأقل قدر منها متى هددت مصالحها، وقرار المغامرة تصنعه الظروف الطارئة ومن ثم يكون الرئيس سيئ الحظ مكرهاً لا بطل.

لقد كان (أوباما) ذكياً حين استل السخائم بمزيد من الثناء على الحضارة الإسلامية، وحين حاول انتزاع التصور السيئ للإسلام الذي كرسه سلفه، وكان ذكياً حين لم يجعل من نفسه شرطيا لقمع المغردين خارج السرب وحين لم يصنف العالم إلى ملائكة وشياطين، فخطابه توفيقي امتصاصي حاول فيه تجنب المواجهة الكلامية وتزكية النفس، لقد أعطى مساحات كبيرة للآخر وشاطر العالم مسؤولية الانهيارات عبر كلام لم يترجم بعد إلى عمل. وعلى الرغم من الجاذبية التي اكتسبها شخصياً على الأقل، فهو لم يبتدع قضايا جديدة، ولم يخرج عن المتداول في المشهد السياسي، ولم يضف إلى أي قضية ما لم يكن متوقعاً وممكناً، حاول استرضاء اليهود بتكريس مبدأ الاضطهاد والإبادة وحق الوجود الكريم، كما حاول استرضاء الفلسطينيين بالإشارة الخاطفة لمعاناتهم، غير أنه لم يحدد الحل للقضية العصية لا شكلاً ولا مضموناً ولا زماناً، وإن أشار إلى حتمية قيام دولتين بدون مواصفات محددة، ولم يتعرض للحدود ولا للاجئين ولا لحروب الإبادة وإن أشار إلى القدس بما لا يرضي الطرفين.

وكل الفقرات السبع التي أشار إليها لم يؤطرها، بل تركها مفتوحة لأي احتمال، واستدعاؤه لها وصفي لا أكثر، وإذا كانت القوة العسكرية في (العراق) و(أفغانستان) لم تحقق المطامح ولا الأطماع فإن البلاغة الكلامية قد لا تمكن السياسة من العبور إلى

الأهداف بسلام، والمسألة في النهاية تجريب ذكي للترسانة البلاغية إذ لم تجدِ الترسانة العسكرية.

لقد رغب في حل الأزمة الفلسطينية، ولكن اليهود سبقوا إلى سحب الثقة منه، ومن ثم فإن دون ذلك خرط القتاد. اليهود يخادعون المشاهد العالمية بالمراوحة بين التشدد والتسامح، والفلسطينيون لا يتوفرون على وحدة الصف والهدف ولا يملكون الإرادة الحرة، فالداعمون والممولون من الشرق والغرب والعرب والعجم يضعون حق النفوذ شرطاً مسبقاً ليجعلوا الخطاب الفلسطيني مسيراً لا مخيراً، تدار على أرضه صراعات القوى الإقليمية، كما هي في لبنان والصومال وسائر بؤر التوتر العالمي، وتكاد القضية أن تخرج من إطارها وهمها الذاتي لتكون مسرحاً لخطابات متعددة، وتلك فرصة الصهيونية العالمية، ولاسيما أن الحراك الصهيوني منظم ومحكم الصنع ومدعوم من أمريكا بالذات وهو حراك قادر على تفكيك أي خطاب ينطوي على نوايا حسنة كخطاب (أوباما) الذي أزعج الصهيونية، وإذ تكون فترة (أوباما) مضيئة في سياق السياسة الأمريكية من خلال بوادرها إلا أنها لن تكون عملية بقدر الطموحات، هذا إذا تمكن (أوباما) من العيش بسلام دون تصفية جسدية مثلما حصل ل(كندي) أو تصفية سمعة كما حصل ل(نيكسون) ومن حق العقلاء والخبراء أن يتوقعوا أسوأ الاحتمالات، فكل رئيس يحاول شق عصى الطاعة لا بد أن يمتحن امتحاناً عسيراً وسلسلة الفضائح المدبرة شواهد إثبات.

لقد فتح الخطاب الخليط بوصفه الحدث الأهم شهية الأطراف كلها ولكن الرئيس المثير إلى حد الإزعاج سيعود إلى قواعده ناجياً ببدنه وكل شيء على ما هو عليه، احتلال، وقتل، وحصار، واستيطان، وتوتر عالمي، فكل الأطراف المقصودة بالخطاب لم تبد استجابة فورية لتطلعات الرئيس، وإن تفاءل الفلسطينيون، وفوق تلك العقبات فإن مجمل المؤسسات التشريعية في أمريكا ستمر كل كلمة من كلمات الخطاب التي نيفت على ستة آلاف كلمة على أجهزتها لتأخذ ما تشتهيه المصلحة الأمريكية وتلقي في سلال المهملات ما لا يحقق المصالح والكرامة، وإن أعطت الضوء الأخضر لمجرد الاستهلاك وتهدئة النفوس.

لقد جاء الرئيس بكلمات متفائلة ولم يأت بقرارات ناجزة، جاء بوعود ولم يأت بعقود، وتلك إشكالية كل رئيس. إن هناك واقعاً لا يمكن حلحلته بكلمات مجاملة، واقعاً تضافرت على تعميقه سياسات ومصالح ولعب ومؤامرات طويلة الأجل، ومتى فرض الواقع نفسه أصبح من المتعذر انتزاعه بكلام معسول، لا بد من العمل الجاد لاستعادة الأوضاع.

لقد جاء الأمريكان إلى العراق وهو يعيش وضعاً آمناً على الأقل ونقلوه من واقع إلى واقع اختل فيه الأمن واحترب فيه الفرقاء واستفحلت الطائفيات وصودرت الحريات، ومع أن أمريكا هي التي خلقت ذلك الواقع المؤلم إلا أنها غير قادرة على إعادة المياه إلى مجاريها، والذين بكوا من صدام حسين يبكون اليوم دماً عليه، ولك أن تقول مثل ذلك عن (أفغانستان) وعن (الصومال) وسائر بقاع العالم المتوترة، الفراغ الدستوري وسقوط الشرعية من صنع القوى الكبرى، وحين تندلق اقتاب الفتن لا يستطيع أحد لملمتها.

إن خطاب (أوباما) له ما بعده، وما ظفر به من تحليلات وتعليقات وإعجاب سيطويه الزمن، ويستدبره الناس لينظروا ماذا يفعل وما هو قادر على فعله، وكل ما أتمناه ألا يكون خدراً ينساب في أوصال الطيبين، إن صناعة السلام وإشاعة العدل لا يتمان بالأماني، ومن أراد السلام فليستعد للحرب، والحرب ليست فقط بالسلاح، إنها بالاقتصاد .. والعلم والصناعة وتوفير الأجواء المناسبة من حرية واستقرار وعدل ورخاء وقوة

واعتصام بحبل الله وصناعة محكمة للإنسان والأرض واستذكار لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.

تشكيل الوعي المعاصر .. ! (١) [1]

من بواعث الشقاء المستطير أن يقعر الشجي رؤيتَه في الملأ المختصمين، وأن يضع نفسه في أتون الصراعات المختلفة، ولا سيما أنها صراعات لا يتبادلها المحقون ولا يتداولها المؤهلون لتكون في النهاية أقرب إلى اللجاجة وإضاعة الجهد والوقت. وكأني بمثل هذا النوع من الأشقياء يرون أنفسهم موكلين بفضاءات الأفكار المتناقضة يزرعونها جيئة وذهابها لتسوية مشاكلها وحسم جدلها، وقدر المعذبين في الأرض الخوض مع الخائضين في لجج منفلتة على كل الضوابط، ولقد يتعلل هذا الصنف الشقي من الناس بمقولة الشاعر:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله

وأخو الجهالة بالشقاوة ينعم

فالمتشائم والفضولي يتخلصان من المعاناة والإحباطات المرهقة بادعاء العقل الاستثنائي والوعي التام بما يدور في المشاهد كلها كما يرون أن مبعث الشفاء دقة الملاحظة وعمق النظرة والاهتمام بأمر الأمة، وعلماء النفس يجوسون خلال الأفكار غدوا ورواحا، ويُحوِّلون الفرضيات المتخيلة إلى حقائق علمية لا تقبل الجدل، ولا الاجتهاد ولا التساؤل ولكل عِلْمٍ أساطينه الذين يخولون أنفسهم رسم مسار الإنسانية، والتنقيب في تاريخ العلوم ومنجزها يؤكد أن علماء كل فن يَهَبُون أنفسهم حكم العالم ورسم مساره، فعلماء التربية والنفس والاجتماع والتاريخ و(الأيديولوجيا) و(الوجودية) و(الماركسية) يرون أنفسهم أبناء الله وأحباءه، وخلفاءه في أرضه، وظاهرة التعصب العلمي أدخلت المتناظرين في دوَّامة المفاضلة. حتى لقد امتد هذا الداء العضال إلى علماء التفسير والحديث الفقه والكلام، وكل يدعي الوسطية والسلفية فيما لا تقر الوسطية ولا السلفية لهم بهذا.

وتشكُّل الوعي في ظل هذه المتناقضات يجعله وعياً منقوصاً، حتى لقد شهدنا نقدا جنائزيا يقول: بموت النقد وموت النمو وإن كان قولا يركن إلى المجاز ولكنه يجسد التعصب المذهبي المقيت، وعلم الطبقات والمناقب يؤكد هذا الطائف المخل بالوعي، وفي ظل هذا التشبع والتسليم قد لا تجد من يجرؤ على الكلام بحق أي عالم تجاوز به أشياعه قنطرة المساءلة وبلغوا به حد العصمة والتصنيم، ولقد روى لي من أثق به أن مجموعة من الطلبة اتهموا وافدا يخالف عالما جليلا يسلم له القوم، ولم يجدوا بدا من الوشاية به عند شيخهم الذي حِيزَتْ له السلطات كلها، لكن الوافد جمع أمره وجثا بين يدي ذلك العالم البصير وقال: لم يبعث الله للأمة إلا رسولاً واحداً، وكل عالم يؤخذ من كلامه ويرد إلا محمد بن عبد الله، مما كان من العالم البصير إلا أن بارك له موقفه وطلب منه تحرير مسائل الاختلاف، ولن يكون تَشَكُّل الوعي سليما إلا في ظل الشك والتساؤل وتضييق نطاق التسليم وتعزيز جانب الاجتهاد والتخفيف من دعوى احتكار الحق.

وعندما نزلت آية: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ اشتد ذلك على الصحابة فأتوا رسول الله، ثم جثوا على الركب، وقالوا: يا رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطيق، وقد أنزل عليك ما لا نطيق، فكان أن نزلت ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ

(١) تاريخ المقال: ١٦/ ٦/ ٢٠٠٩

وُسْعَهَا﴾ وما لا يطيقون حديث النفس حول عالم الغيب وهو تساؤل يعصف بالأفكار، ولا يثبتها إلا الإيمان والتسليم المطلق لإرادة الله الكونية والقبول المطلق بإرادته الشرعية، فقضاء الله وقدره نافذان على الجميع، ومربكان للجميع بمفاجآتهما التي لا تقع في الحسبان وهما سر الله في خلقه كما يقول الخليفة الراشد علي بن أبي طالب، إذ كل من تناولهما بالعقل المحض وقع في الضلال، فالروح والقضاء والقدر وعالم الغيب كافة من بعث وحساب وجنة ونار وملائكة وشياطين وذات إلاهية لا يحسم أمرها إلا الإيمان والتسليم، ومن ثم كان إيمان أبي بكر تسليماً فكان أول من آمن من الرجال وإيمان عمر جدليا فكان من قبل من ألد الخصوم ومن بعد من أقوى الأنصار، وكانت له أمنيات تدل على برمه من تقعير الرؤية وكثرة التساؤل، وصدق رسول الله حين قال لعمر ذات يوم: (أفي شك أنت يا بن الخطاب) إذا فالإيمان وحده الحاسم للعذابات الفكرية، وصدق الشاعر العربي الكبير أحمد شوقي في قوله:

(إذا الإيمان ضاع فلا أمان)

وليس الأمان للأجسام وحدها، ولكنه أمان شامل أمان للفكر والنفس والشعور والعقل، فالحياة السوية لا تكون إلا بالإيمان والتسليم وبدونه تكون جحيما لا يطاق، وأشقى الأحياء الملاحدة، والانتحار هو النهاية الطبيعية لهم، وقراءة حياتهم كما صورتها سيرهم واعترافاتهم تشي بعذابات لا تطاق، ومن عول على العقل وحده أفضى به إلى متاهات مضلة، فالعقل مرتهن بحواسه، وليست له مصادر أخرى، وتأمله لن يخرجه عن محصلة الحواس، وهو متيقن بخداعها، وأساطين الفلسفة أمثال (آينشتين) أدركوا ذلك، فكان منطلقهم من مصدرين فكريين: (الرياضيات) و(التجريب) وتخلف (الدين) لسلطان العقل أضل أمماً وتخلف (العقل) لسلطان (العلم) حول الأمم إلى درك المادة والانقطاع (للدين) أو (للعقل) أو (للعلم) أو لأي مذهب وضعي سيكون على حساب التوازن المطلوب، وتشكيل الوعي على ضوء تلك الخيارات سيكون مؤذنا بامتداد زمن التيه، ولن نمضي مع (آينشتين) في نظريته (النسبية) التي قلبت الموازين، ولكننا نذكر بنظريات شغلت العقل البشري ثم سقطت ولنا أن نستدعي نظرية (التطور) (الداروينية) و(النظرية الاقتصادية) (الماركسية) ونظرية (الوجودية) (السارترية) و(النظرية الجنسية) (الفرويدية) ونظريات أخرى سادت ثم بادت، وكلها أسهمت في تشكيل الوعي المعاصر فأربكته لقد هيمن الدين المحرف واستبد في تشكيل الوعي، ثم جاء العقل المجرد ليأتي بنيان الدين من القواعد، ولكنه لم يستطع إقناع الوعي وإن أسهم في تشكيله، ولما استهل القرن العشرون أقبل العلم بمعجزاته المذهلة فما كان في مقدور العقل المجرد أن يصمد أمام الاكتشافات المذهلة، والغريب أن كل تحول في الزعامات الفكرية ترهص لها الإبداعات السردية فرواية (الجحيم) ل(هنري باربوس ت ١٩٣٥) هي التي جسدت اليسار (الراديكالي) وثلاثية (نجيب محفوظ) صورت ثلاث مراحل للتفكير: الدين والشك واليقين.

والوعي المعاصر تنازعته خطابات مضطربة ومتنوعة فالخطاب السياسي بثوراته المتلاحقة والخطاب الفكري بتجولاته المنهجية والنوعية والخطاب الديني بِحِدَّته وحَدِّيَّته وتمييعه وتصالحه وصدامه وخرافته ويقينه وعقليته ونصيته والخطابات الهامشية المتمردة على السوائد كلها تضخ في تجاويف الوعي ليكون أكثر اضطرابا وحيرة وترددا.

تشكيل الوعي المعاصر .. ! (٢) [(١)]

والبؤس الذي يعانيه كبار الفلاسفة شاهد على اضطراب الوعي وتردده وحيرته، فما من فيلسوف سلَّم لنتائجه التي أفنى في البحث فيها زهرة شبابه، لقد مات الفلاسفة كلهم أجمعون وفي أنفسهم حسرات حتى لقد أصبحت كتبهم كما إنفاق المشركين لإطفاء نور الله التي يقول الله عنها: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾، ولابد أن نفرق بين فلاسفة شغلوا ب(الميتافيزيقا) وآخرين شغلتهم ظواهر الحياة الدنيا، ومع ما وقعوا فيه من اضطراب مخل بالوعي المعاصر إلا أنهم تركوا ثروة معرفية ومناهج متعددة وآليات متنوعة تثير الإعجاب والخوف معاً، ولقد أشرت إلى أن الفلسفة الحديثة مرتهنة للفعل ورد الفعل، والمتابع لتاريخها يلمس ذلك فالإغراق - على سبيل المثال - في (الميتافيزيقا) تولد عنه الاتجاه الواقعي أو الوضعي الذي تبناه (زكي نجيب محمود) وحماسه لهذا جعله يؤلف كتاب (خرافة الميتافيزيقا) وبعد مواجهته تراجع وعدل من اندفاعه فحول الكتاب إلى (الموقف من الميتافيزيقا) وهذا الجزر والمد في أخطر المشاهد لا شك أنه يترك أثره السلبي على تشكل الوعي المعاصر.

والراصدون والمتابعون، لتحولات الفكر العالمي عبر العصور يروعهم الاضطراب، ويزعجهم امتداد زمن التيه دون الوصول إلى شواطئ الأمان إذ الآمال التي يتوق إليها المعذبون في مشاهد الفكر تحولت إلى عقبات وما كان هدفا بالأمس أصبح قيدا تتعثر فيه الخطى، والتحولات الفكرية التي مرت بها الإنسانية لم تكن سهلة ميسورة، وكيف يتأتى لها اليسر وهي قد أسالت دماء ودمرت كيانات، وعلينا أن نستعيد الحركات الطائفية العنيفة والحركات السرية الهمجية، وهذه وتلك ناتج صدام فكري تحول إلى صدام مسلح، وحتى الدعوات السلمية التي استبعدت الصدام الفكري والصدام المسلح مرت بمراحل انزلقت فيها إلى ميادين القتال، وبعد الفوات رددت مع الشاعر:

إذا احتربت يوما فسالت دماؤها

تذكرت القربى فسالت دموعها

والذي يعنينا تشكل الوعي المعاصر، إن طائفة من المفكرين يستعيدون التاريخ ويفكرون بروح الثوري، وآخرون يقرؤون الحاضر ويفكرون بروح السياسي، وكلتا الطائفتين تعبَّان من معين (الأيديولوجية) و(الأدلجة) قد تفرضها المبادئ والمواقف وتقتضيها محققات الحضارة، ومن ثم تكون جزءا من المشروع الفكري، وقد يفرضها التعصب والاندفاع الطائش فتكون وبالا على المشروع وعلى الأفكار المجايلة له، ومن أدان (الأدلجة) على الإطلاق أو قبلها على الإطلاق يضاف إلى أعبائها وإشكالياتها، وكل تلك الاضطرابات المخلة بمسيرة الأمة ناتج التشكيل المنحرف للوعي المعاصر.

وأخطر من هذا نقل التاريخ بكل ظروفه ومحققاته التي سلفت ليحكم مسيرة الأمة، لقد نشأت مذاهب وطوائف في ظل ظروف طارئة وتركت أحداثا مؤلمة تشكل منها التاريخ الفكري والسياسي، واستعادة التاريخ والاحتكام إليه قد يبعث الرمم من أجداثها لتسهم في تعويق المسيرة لقد كان بإمكان (أوروبا) أن تصطحب تاريخها الدموي وأن تظل متوترة لا تلتقي على أمر، وبإمكانها أيضا أن تصفي حساباتها عن طريق ساحات القتال، ثم لا تحقق نصرا ولا حسما، ولكنها أخذت الدروس من التاريخ، ولم تقبل به متصرفا بمسيرتها

---

(١) تاريخ المقال: ٢٣/ ٦/ ٢٠٠٩

الحديثة، وتجاوز التاريخ لا يعني الانقطاع عن الماضي ولكنه يعني تذويب العقبات وتناسي فترات الاختلاف والتلاقي عند القواسم المشتركة، والفرق واضح بين أبناء التاريخ وأبناء الحاضر وعقدة الأبوية صدمت الرسل لقد مرت الإنسانية بصراعات تبادلت معها الاتهامات صراعات سياسية وصراعات فكرية، صراعات قادها فلاسفة وصراعات قادها فرسان، وطوى كل قائد كشحه على ريبته، والمذاهب الفلسفية كلها مخاضات اختلاف في المفاهيم أو اختلاف في المواقف، واليوم وقد تبدلت المذاهب غير المذاهب والتيارات لابد من قراءة متأنية للواقع المعاش ومتطلبات وقراءة فاحصة لمحققات الحضارة ومرجعياتها المحفوظة، والانطلاق من حيث انطلق العلماء الربانيون، الذين يردون إلى الله والرسول، وكيف تتفرق بنا السبل وفينا كتاب الله وسنة رسوله، ولو أن الفرقاء رضوا بالرد إلى المرجعيات النصية وانطلقوا منها لكان خيرا لهم، وإذ لا ننكر اختلاف المفاهيم والدلالات فإن هناك مساحة معتبرة من الاختلاف رضي بها العلماء وتعاذروا فيها، على أن من مصلحة الأمة أن تلتمس مجالات الاتفاق لتنطلق منها في الحوار، ولكي يطفئ المحاور المحق ثورة النفس وارتيابها لابد من بعث الثقة في النفوس من حيث الأمانة في العرض وتوثيق القضايا مجال البحث وتفادي الدخول في قضايا لم تتوفر السيطرة عليها لأن من حاور في غير فنه جاء بالعجائب، ومن خلل الوعي المعاصر أن كثيرا من المحاورين يجهلون أصول الطرف الآخر ومرجعياته أو يلزمونه بما لا يلزم من حيث التخلي عن مناهجه وأصوله ومرجعياته، ولا يمكن أن تثني الطرف الآخر عما يذهب إليه إلا بلغة يفهمها وطريق يعرفه، وفوق ذلك كله لابد قدوة ترود وتقدم الذات، وإذ لا نقصد في حديثنا وضع آلية أو صيغة للحوار مع المخالف فإننا نرجئ مثل مكتفين بتجسيد معضلات تشكل الوعي المعاصر في ظل التقارب العالمي وفضوله، وتدخله في سيادة ما يسميه بالعالم الثالث، وهو تدخل لا يحترم التفاوت الحضاري ولا الدساتير السائدة ولا القوانين الحاكمة، فيما يوجد داخل هذا العالم المنكوب من أبنائه من يسهمون بطمس معالمه الحضارية ظنا منهم أن الخيار الوحيد هو الأخذ بعصم الآخر.

السيرة الذاتية بين اللزوم والتزيد .. !![1]

أحسب أنني لا أقول إلاّ معاداً من القول عن (فن السيرة الذاتية) بكل أبعادها الإبداعية والتنظيرية، لقد شدّتني بملحها ومفاجآتها، حتى لم أزل أبحث عن سائر السير المؤلّفة أو المترجمة العربية أو العالمية، وأمتع نفسي بقراءتها، وأتمنى لو توفّر الجهد والوقت لكتابة سيرتي الذاتية التي استوعبها نصف قرن من الزمن المتقلّب في مختلف الممارسات العلمية والثقافية والعملية بحلوها ومرّها وعُجْرها وبُجْرها، وإن كانت مع هذا الطول والتنوُّع لا تنطوي على شيء ذي بال، ولكنه التشبُّث بالبقاء والسير على سنن: (كل فتاة بأبيها معجبة) وعلاقتي بفن السيرة ذو شقّين:

*علاقة تَعَرُّف يمتد إلى تاريخها وبنائها الفني واللغوي.

*علاقة مَعْرِفة تَلِجُ ذاتها بوصفها إبداعاً تتنازعه عدّة اتجاهات.

ولأنّ السير من السهل الممتنع والممتع معاً فقد وقع في حبائلها المتألقون والمنطفئون والصادقون والمزورون والمقتدرون والعاجزون، ولربما كانت أول سيرة ذاتية بهرتني وفرضت نفسها عليّ (الأيام) لطه حسين بأجزائها الثلاثة، وإن جاءت مبتورة، وكانت أمنيات كاتبها أن يأتي على ما جد من حيواته المثيرة، ولكنه اسْتُغْرِقَ بما دون ذلك فمات وفي نفسه شيء منها.

وميزة السيرة العفوية والبساطة وروعة الأداء وعذوبة الأسلوب والاهتمام بالصغائر ودقة الوصف والتشخيص، وتلك سمة المكفوفين فالصورة عندهم كما يجليها بعض الدارسين تتسم بالحسية والتشخيصية ظناً منهم أنّ المبصرين مثلهم في ضعف التخيُّل، ولقد حُظِيَتْ تلك السيرة بدراسات متعددة المناهج والاهتمامات كشفت عن سِرِّ شيوعها وميل القرّاء إليها، على أنّ (العقَّاد) بوصفه المجايل الأهم لصاحبها لم يفرغ لكتابة السيرة الذاتية، وإن أفْضَى بشيء من وقائع حياته في أكثر من كتاب ك(حياة قلم) و(في بيتي) و(أنا) ولكنه لم يرق إلى مستوى (الأيام) فنياً، وإن تجاوزها فكراً وموضوعاً ولأنّ السيرة الذاتية تمد بسبب إلى الإبداع الفني فإنّ تألقها مرتهن لاكتمال متطلّباتها الفنية، والذين مارسوا الكتابة المجرّدة لم يكن لسيرهم علوق في الأفئدة.

وقراءتي الحرة للإبداع السيري واكبتها قراءات أخرى متعددة الأغراض فلقد ناقشت رسالة علمية، تناولت السيرة الذاتية في الأدب السعودي، وأشرفت على أخرى تقصّت ظاهرة التعالق بين الرواية والسيرة الذاتية، وحُكِّمتُ في أعمال إبداعية من آفاق المعمورة، وهي سير شتى منْها العلمي والسياسي والفلسفي والاجتماعي، ومنها التسجيلي والتاريخي والإبداعي ومِنْها المغرق في الاعتراف حتى الفحش والمحتشم حتى الوقار، ومنها الممتلئ والمتشبع والفارغ، وهذا الإلف خلق عندي أجواءً حميمية وحَدَا بي إلى الجمع بين التنظير والإبداع، ومن خلال ذلك بدت لي الإخفاقات الذريعة والقول الممل في كثير من المحاولات الفجّة والإغراق في الذاتية فضلاً عن الادعاء والتشبع الزائف، ودعك من الاعتراف المخل بالأخلاق، وإذ تكون السيرة من الأدب فإنّ من المسيء أن يكون سوء الأدب في الأدب، وإذا جمع بعض الكتّاب بين إخفاقين: إخفاق في الفن واللغة وإخفاق في الموضوع، يصبح العمل وصمة عار يود صاحبه لو يدسه في التراب وإن أمسكه فَعلَى مذلة وهوان.

والسيرة إذ تكون تاريخ حياة وتسجيل أحداث ووصف مواقف فإنّ الكاتب مؤتمن على ألاّ يقول إلاّ الحق وهو شهيد، والحقُّ مرٌّ والصدق صعب، وقد يجهل الإنسان نفسه،

---

(١) تاريخ المقال: ٧/ ٧/ ٢٠٠٩

وما أكثر الذين لا يعرفون أنفسهم، إذ لو عرفوها حقّ المعرفة لما كان لهم أن يكونوا دون غيرهم ولا أن يكونوا مجال مؤاخذة وذم، ولقد يقع الإنسان في الوهم، وتبرير الأخطاء فينال من الآخرين دون هوادة، وهذا بعض ما وقع فيه المفكر الوجودي الذي لا ينازع معرفة وأثراً وإرثاً فلسفياً (عبد الرحمن بدوي) لقد جاءت سيرته (حُطَيْئِيَّة) بحيث وضع كل الأطراف الذين عمل معهم في قفص الاتهام، ولم يتورّع من النَّيل منهم، و(طه حسين) الذي اتهم بإقصاء خصومه والقضاء على مستقبلهم ظهر في سيرته حملاً لطيفاً لين الملمس جميل العبارة إنسانيّ المقاصد، وحتى الذين تعقّبوا حياته من حوارييه ومريديه لم يعرجوا على جناياته بحق من حوله من الأنداد، وكل مبادر لكتابة السيرة يحاول التنصل من المقترفات، فهو وحده المثالي الفذ والإنسان الكامل، وبخاصة في السيرة السياسية لزعماء العالم الذين جرّوا الويلات على الشعوب المضطهدة.

وأدب الاعتراف بوصفه واحداً من طرق الصدق يقعد به التفحش والمنكر من القول، فالذين اعتمدوه منطلقاً أوغلوا في الرذيلة، ولم يحاولوا الاستتار الذي دعا إليه الرسول ﷺ وأكد عليه وعدَّه من محققات المعافاة بقوله: «**كل أمتي معافى إلاّ المجاهرون**» وقوله: «**إذا بليتم بهذه القاذورات فاستتروا**».

وعلينا حين نواجه بهذا اللون من الإسفاف الموضوعي أن نحفظ لذويه حقهم المعرفي والفني، إذ لم ينكر الإسلام حق الشاعر الجاهلي، والقرآن الكريم الذي ذم طائفة من الشعراء احتفظ لهم بحقهم الشعري فقال: (والشعراء) ولم يقل: (والمتشاعرون).

والدارس والناقد وإن وجب عليهما إظهار المثالبْ الموضوعية فإنّ عليهما العدل وإعطاء كل ذي حق حقه، لقد أسَفَّ (نزار قباني) ولكنه ظل في ذروة الشعر الحديث، والمصداقية تحتم على الملتزم أخلاقياً أن ينصف الخصم ليكون لكلامه وقع في النفوس.

ولقد يكون من المفيد أن يفرغ الصفوة لكتابة سيرهم متى كانت ذات مساس بحيوات الأمة إذ هم في النهاية أوعية لتاريخها الشفهي، فالتاريخ أحداث يمارسها الأفراد والجماعات فإن تلقّفها المؤرّخون وقيدوا أوابدها أصبحت تاريخاً يكتبه شاهد به، وإن بقيت الأحداث في الصدور ظلّت خارج إطار التاريخ، والذين يديرون الشؤون العامة للأمة يحتفظون بالتاريخ الشفهي، فإن كتموه وتفرّقت بهم السبل ثم قضوا نحبهم مات معهم شطر من ذلك التاريخ، وإن أفضوا به إلى الطروس انعتق من الضياع، وذلك مكمن الأهمية في السيرة الذاتية، على أنّ قيمة السير الذاتية ليس وقفاً على تاريخ ما أهمله التاريخ، ولكنه في أشياء كثيرة، فالإنسان ذاته جزء من التاريخ، والذين فرغوا لكتابة سيرهم أو رحلاتهم أو رؤاهم الشخصية للأشياء، شدّوا الانتباه وأمتعوا العقول ولا سيما أنّ البعض من العلماء والأدباء والمفكرين والمبدعين قصروا سيرهم على تلك الحقول التي أفاضوا فيها. ولعلنا نذكر (السيرة الشعرية) و(حياة في الإدارة) للقصيبي، وهذا اللون من السير ذو بُعْد معرفي خاص لا يخرج منه إلى غيره، كما أنّ هناك سيراً سياسية كتبها قادة العالم بعد خروجهم من السلطة وإن كان طابعها التنصل والتَّبرير ولكنها جزء من التاريخ السياسي للعالم، وأخرى اجتماعية أو فلسفية أو تربوية وقد تكون السيرة جامعة لكل هذه الأطراف كالسيرة الحافلة التي كتبها (عبد الوهاب المسيري).

ولكل كاتب سيرة طريقته التي لا يمكن أن يستبدلها، لأنها تفرض نفسها عليه وتحكم رؤيته، وليس من مصلحة المشهد الأدبي التنميط والتناظر.

وعلى ضوء ذلك فإنّ هناك سيراً ممتعة وأخرى مفيدة وقد تجمع بين الحسنيَين، فالكاتب قد يكتفي بالتسجيل دون التحليل وهذا ما نراه ماثلاً في (وسم على أديم الزمن) لمعالي الدكتور عبد العزيز الخويطر، وقد يجمع بين المنهجين وهذا ما نراه في (حياة الإدارة) لمعالي الدكتور غازي القصيبي، وقد تعرض الأحداث للاعتبار وهذا ما نراه في

(قطرات من سحائب الذكرى) لمعالي الأستاذ عبد الرحمن السدحان، وهي زخات من قواصف الماضي وعواصفه كما وصفها نفسه.

ومهما اختلفنا أو اتفقنا مع المغامرين في كتابة السير فإننا نتوق إلى مزيد من المبادرات، وبخاصة من أولئك الذين أنيطت بهم مهمات مصيرية أو الذين طال مكثهم في مرافق الدولة التشريعية أو التنفيذية وكم ناشدت في السرِّ والعلن بعض رجالات الدولة تقييد أوابدهم والإفضاء بها إلى الناس، وليس هناك ما يمنع من التدقيق والتمحيص واستبعاد ما يمس أمن الدولة أو يكشف بعض أسرارها، وليس في ذلك إخلال بالقيم فلكل دولة مصالحها وأسرارها وخططها التي لا يجوز الإفضاء بها.

ولقد أدركتْ (دارة الملك عبد العزيز) فداحة إهداء التاريخ ومن ثم عمدت إلى التسجيل الشفهي والتنقيب عن الوثائق لاستكمال تاريخ تأسيس البلاد على يد المؤسس الملك عبد العزيز - رحمه الله -، ولكن شتان بين المبادرة الذاتية وتجميع الأشتات من هنا وهناك.

حتى لا نكون كفقهاء بيزنطة .. ! [(١)]

الذي يخطئ فهم الحرية بكل تشكلاتها العقدية والتعبيرية والسلوكية كالذي يجهل شروطها وإمكانية ممارستها وتنوعها وفق حضارة الانتماء، ولأن الحرية بحد ذاتها مسؤولية، فإنها في النهاية كأي ممارسة..

بحاجة إلى أجواء وإمكانات وثقافة، وممارسة الفعل أو القول في ظل الفهم الخاطئ أو الجهل المستحكم تدمير لثوابت الأمة ومثمناتها وتكريس للفوضوية غير الخلاقة وتنشيط لردود الأفعال الإجهاضية، وغفلة ذوي الشأن أو انشغالهم بما دون النجوم أو تغافلهم عما ينتاب الأمة من تماكر يفت في العضد ويربك المسيرة ويخلي الثغور للمتربصين والمتسللين، ومن ثم فإن الحرية ليست في مطلق القول.

والمتقحمون لعويص المسائل وغياهب الفكر ومعامع السياسة دون تزود بفقه الأولويات والتمكين والأحكام والواقع وقواعد اللعب السياسية، إن هم إلا عبء يضاف إلى الأعباء، وعقبة كأداء تعترض سبيل السالكين.

والألفّ الأعزل هو الذي يهتاج ليلقي بنفسه وبأمته في التهلكة والفارغون من الهم والمعرفة والتجربة كلما دعوتهم لما يحييهم لجوا في عتو ونفور وفي ظنهم أنهم سيقوا إلى أمتهم على قدر وأنهم هبة السماء للأرض، وما هم بخارجين من لجاجتهم التي تفوق لجاجة (الخنفساء) و(الحمى) و(الذباب) كما تقول الأمثال العربية، وكأن الشاعر عناهم بقوله:

لنا صاحب مولع بالمراءِ
كثير الخطاء قليل الصواب
أشد لجاجاً من الخنفساءِ
وأزهى إذا ما مشى من غراب

والمشاهد الفكرية والعلمية والسياسية والاجتماعية لا يروّض جماحها ولا يحفظ توازنها إلا المفكرون الناصحون والعلماء الورعون والخبراء المجربون، فهم وحدهم الذين يبادرون النوازل في الوقت المناسب ثم لا يتعجلون في ردود الأفعال ولا في ابتسار الأحكام، بل يديرون مجمل قضاياهم بالحلم والأناة وعلى ضوء مقتضيات الأصول، وإذا تخلفوا عن شأن أمتهم في الساعات الحرجة بادرها اغيلمة أحداث أو كهول متصابون يتسرعون بالأحكام دون روية ويقولون منكراً من القول وزوراً يتراشقون مع خصومهم ببذيء الكلام، وكل واحد منهم يدعي لنفسه المعرفة والأهلية والعصمة والنزاهة ولخصمه الجهل والتطفل والخطأ والموطأة ضد مصالح الأمة. وحين يغالب المجتمع سائر المعضلات ثم لا يبادرها أهل الحل والعقد والدراية والرواية بتوقيت دقيق وتقدير محكم تهن الأمة وتحزن، وتصبح قابلة لهيمنة الآخر والتدخل في شؤونها الداخلية، والراصد للواقع العربي يجد غياباً موهناً أو حضوراً غير سديد، والمخدوعون ببريق الحضارات المادية يظنون بأهلهم وحضارتهم ظن السوء، ويتلقون ادعاء الأعداء بقبول حسن، وكأن الله خلقهم لاتباع الآخر واقتفاء أثره حذو القذة بالقذة، والمشتغلون بالقشور والتوافه والمتناجون بالإثم والعدوان والمصطرعون حول اللعاعات يصرفون الأنظار عما تفيض به أوعية الأمة من مشاكل تحز إلى العظم ولو أخليت الساحة لذوي المعرفة والخبرة

---

(١) تاريخ المقال: ١٤/ ٧/ ٢٠٠٩

وهيئت الأجواء وأمنوا على سمعتهم لواجهوا المشاكل برباطة جأش وتداولوها فيما بينهم وخرجوا بحلول تقيل العثرة وتدرأ عن الأمة سهام الأعداء.

وإذا قبلنا من دهماء الكتاب ومبتدئيهم تداول الحديث حول توافه الأمور فإن على النخب أن يعدوا أنفسهم للنفائس التي تملأ الرحب، ومن المؤسف أن طائفة ممن يرون أنفسهم أهلاً للصدارة الفكرية تستهلكهم توافه القضايا التي فرغت منها المشاهد العربية من عشرات السنين، وإذا تناولوها كانوا كمن يحذر قومه من عدو قادم بحيث يبدو الاحتدام وتعلو النبرة والتوتر ويظنون أن التفريط في مثلها تفريط بجناب التوحيد، وما هي في حقيقة الأمر إلا وسيلة سادت ثم بادت، وسأضرب مثلاً ب(السينماء) و(رياضة المرأة) و(مهرجان الغناء في سياحة أبها)، وتلك قضايا تذكرني بما أشار إليه (أحمد حسن الزيات) في إحدى مقالاته في (وحي الرسالة) وهو يتناول ما يشغل الرأي العام في زمانه، إذ تساءل عما ينتظره المجتمع من مشاكل تافهة تلهيه عن كل مكرمة بعدما تجاوز جدل مشروعية (المحاريب) في المساجد وإشكالية (المحمل) في الحج، فالكاتب يعيب على وسطه استنزاف جهوده في قضايا يمكن حسمها عن طريق المؤسسات المعنية، فيما يستدبر قضايا مصيرية يؤدي إهمالها إلى سقوط كرامة الأمة وضياع مثمناتها وهوانها على الناس، وما نجتره في وسطنا من قضايا لم تعد حاضرة المشاهد العربية لأنها مسلمات أو هي مما عرف من الدين بالضرورة، فالمنع أو الإباحة أو الإرجاء إلى حين من حق السلطة التشريعية التي تستمد أحكامها من مقاصد الشريعة الإسلامية مستشعرة المباح الممكن وغير الممكن وسد الذرائع ودرء المفاسد وتحقيق المقاصد وسائر مصادر التشريع الثانوية كالاستحسان والمصالح المرسلة والاستصحاب وناظرة في التداعيات التي لا تندرج ضمن الحكم الشرعي من حل وحرمة.

والمتهافتون على اللغط يتوسلون بحرية التعبير، ويجهلون حق المؤسسات المنوط بها تلقي الأحداث والوقوعات والنظر في المحظور والمباح الممكن وغير الممكن.

وحين تستأنف النخب ما فرغ الناس منه وتأتيه من حيث ابتدأ الأولون يفوتهم الركب وينظر السابقون إليهم بشفقة وفوقية، ولاسيما أن المشاهد تفيض بالقضايا الأهم داخلية وخارجية والأمة مكتنفة بمعضلات هي أربى من تلك الأشياء المهترئة، ولقد عيب على (فقهاء بيزنطة) جدلهم العقيم حول البيضة والدجاجة فيما تقف على أسوار مدينتهم جحافل الجيوش المدججة بالسلاح، وليست بلادنا المستهدفة في ظل الأوضاع العربية والعالمية المأزومة بأحسن حالاً من بيزنطة.

و(السينماء) بوصفها قضية الساعة في مشهدنا وجوداً وعدماً لا تشكل عتبة في طريق التنمية، ولا تعد من مشاكل الساعة، ثم إنها من مخلفات العقود الخوالي ومن المظاهر التي سادت ثم بادت إذ جاء ما يغني عنها، والاختلاف حولها لا يؤدي إلى استدبار القضايا المصيرية وإن كان ثمة حاجة إلى استدعاء مثل هذه الظواهر الترفيهية فلتبادرها مؤسسات الدولة ك(وزارة الثقافة والإعلام) و(الهيئة العامة للسياحة) و(هيئة كبار العلماء) و(إدارة البحوث والإفتاء) وهذه المؤسسات تتداول الرأي حولها، وتخرج إلى الرأي العام بموقف يحسم الخلاف، وهي ذات الشأن في المجتمع المدني القائم على المأسسة.

والمؤاخذة ليست لمجرد الإثارة ولكنها في التلاحي المستمر وتهويل الأمور والانقطاع لمثل هذه الظواهر الثانوية وتصنيف الناس بين متشدد ومتسامح ووسطي ومتطرف، ومتى توسل أي متردد برأي معتبر أو اجتهاد مشروع فإن واجب الأطراف الأخرى احترام رؤيته لأنه شريك في السفينة ولأن له معوله، والاختلاف لا يقتضي التصنيف ولا التحذير، وعند احتدام الجدل لا بد من نهوض مرجعية تشريعية للحسم

والعزم في الوقت المناسب. وإلا طال المراء والتناجي الآثم، والحرية ليست في أن تطاع ولكن في أن يحسم الأمر لصالح الأمة بوصفها محكومة ب(أيدلوجية) تضمنتها مواد نظام الحكم. إذ الناس لا يصلحون بالفوضى تحت أي مبرر.

وعلى كل الافتراضات أين المتشنجون حول تلك الظواهر من المد الطائفي وصراع المصالح والتدخلات السافرة وانكشاف (أجندة) غير عربية تحاول سلب الأمة العربية أبسط حقوقها ومصادرة سيادتها الإقليمية؟

وأين هم من خلل الوحدة الفكرية وتفرق المفكرين بين مبادئ ومذاهب ليست من الإسلام، وليست من العروبة في شيء؟ وأين هم من طوفان العولمة وثورة الاتصالات التي حولت العالم من قارة إلى قرية ومن قرية إلى غرفة صغيرة؟ وأين هم من الأزمات الاقتصادية الطاحنة والانهيارات المخيفة لكبرى الشركات والبنوك؟ وأين هم من الانفجارات السكانية وأزمة الإسكان؟ وأين هم من الفراغات الدستورية وما خلفته من فتن عمياء طالنا دخنها؟ وأين هم من مؤتمرات الكبار التي تلغي حقوقنا ووجودنا الكريم؟

إن على المفكرين والعلماء وزعماء الإصلاح وحراس القيم مبادرة الحراك المشبوه والتصدي لمخاضات اللعب السياسية وحراك الغزو والتآمر المتقنع بسربيات يحسبها الظمآن ماء.

فالكلمة سياج، والأمة المستهدفة تتضاعف واجبات نخبها ومن الخير أن نستبق الأحداث قبل وقوعها، ولن يتأتى لنا ذلك ونحن في شغل شاغل في ثانويات لا تقدم ولا تؤخر.

الخروج من المأزق العربي .. ! (١)[(١)]

لكل عصر آية، وآية هذا العصر (الإعلام) الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من الأحداث العالمية إلا قربها للناس بالصوت والصورة حية على الهواء.

فالمعتدي يضبط متلبساً باعتدائه الأثيم، والمهان تسجل إهانته ثم لا يعذر بالإقامة عليها والنظارة لا تغصّ بهم قاعة، ولا تند عنهم شاشة، بل يشاهدون ما يحدث في بيوتهم وأسواقهم ومتنزهاتهم آناء الليل وأطراف النهار، وهذا التوثيق والتوصيل يقطعان قول كل خطيب، والإعلام الفضولي يضبط المتلبس بخطيئته والمدنس بمهانته، ويقر في الأذهان ما كان، وقد يهيئ التصور لما سيكون، إذ ما من أحد يتابع تعاقب الأحداث في أي بقعة من العالم إلا وله حساباته وتنبؤاته التي لا تخيب.

والمعضلة ليست فيما يقع، ولا فيما يتوقع، وإنما هي في إمكانية التحيز المنجي والتحرف المخرج من المأزق، وفي استباق الأحداث المتوقع وقوعها وفي أسلوب التصدي لها أو توقي خطرها، وما من متابع تخفى عليه الأمور حتى لا يدري ما يضمره الطرف الآخر.

واللعب السياسية التي تحاك خيوطها في ظلمة الليل، قد تتسرب شفراتها للمحترفين والمجربين، وكم من ناصح متطوع يبادر بالإنذار عما يتوقعه، وقد يرسم الخطط لتفادي فداحة ما يحاك في الخفاء. وقد يعلمها الخبيرون بقواعدها وأجوائها ومحفزاتها، ومن اليسير على المهتمين أن يرصدوها، بل ويراهنوا على وقوعها في الزمان والمكان ويعرفوا حجمها وشيئاً من نتائجها، ومكمن الإشكالية في قبول النصح قبل فوات الأوان، وأخذ الحذر، وتفادي فداحة الآثار إن لم يكن بد من نفاذ اللعبة.

وقدر الأمة المؤلم أن زرعت تلك الخلايا السرطانية في جسدها بحيث تظل في دوّامة المشاكل والمأزق.

والمتفق عليه - ربما عالمياً - أن الصهيونية هي أم الخبائث وعلامتها المميزة (إسرائيل) بكل ما هي عليه، وما هي فيه من ظلم وعنف وخيانة للعهود والمواثيق، ولاسيما أنها تعيش عصرها الذهبي فهي قوية بحبل من (أمريكا) وحبل من نظام (ديمقراطي) وعسكرة للذات، ووعي للواقع، رصد لكل تطلباته، ويهدد العالم بوصفهم أقلية خائفة ومخيفة يهيمنون على مفتاحي العالم:

-الاقتصاد

-والإعلام.

وفوق ذلك كله فالأجواء المحيطة ب(إسرائيل) أجواء ملائمة، فالعالم العربي المأزوم يعيش حالة من الضعف والتفكك والتناحر والتخبط السياسي.

والحقد الدفين على العالم الإسلامي واكب اليهود منذ فجر التاريخ الإسلامي متمثلاً في (بني قريظة) و(بني النظير) و(بني قينقاع) ولما يزل اليهود يكيدون للعالم الإسلامي، وتاريخهم القديم والحديث مليء بالمكر والخديعة والتآمر ونكران الجميل، وهذا الذي حمل (هتلر) على القول:

(لقد كان في وسعي أن أقضي على كل اليهود في العالم ولكني تركت بعضاً منهم لتعرفوا لماذا كنت أبيدهم).

وكان يجب في ظل هذه الخليقة أن تكون للأمة العربية مواقفها المناسبة لهذا التاريخ المليء بالمخازي، وليس شرطاً أن يكون الحل بالمواجهة العسكرية وإبادة الشعب

---

(١) تاريخ المقال: ١/ ١/ ٢٠٠٩

اليهودي، ولاسيما أن موقف الإسلام من الأقليات اليهودية يتسم بالتسامح وتمكين اليهود من ممارسة حقهم الطبيعي، كما مارسوه تحت الحكم الإسلامي في الأندلس.

والحل الأمثل رفع الشر وإحباط الكيد (ولا تتمنوا لقاء العدو) وفوق هذا كله وقبل هذا كله البدء بالنفس: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.

فالتغيير السليم لن يكون ابتداء في الآخر ولا منه، وإنما هو في النفس ومن النفس، والنظر المادي البحت إلى الأمور يقطع الصلة بالله وبنصره الذي وعد به، ولأن داء الأمة العربية من ذاتها، فإن معالجة الوضع يجب أن تكون في الذات، من الذات، إذ لو غيرت الأمة ما في نفسها لما استطاع الغرب وربيبته إسرائيل ممارسة أبشع صور الإذلال والانتهاك.

وما تفعله إسرائيل بالشعب الفلسطيني والأراضي الفلسطينية قطرة من طوفان الممارسات الغربية ولعبه القاتلة وغزوه المكشوف، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الأناسي والأراضي لن يكون بمجرد إيقاف الآلة العسكرية عن الضرب العشوائي، ذلك أن توقف المحارب الصهيوني من استراحة المحارب لتجهيز ضرب جديدة أكثر إيلاماً وتدميراً، وسلسلة المذابح والدسائس والإذلال المهين لا يمكن تجاهلها ولا استبعاد تلاحقها، ومن الغباء والغفلة أن يكون إيقاف الحرب هو غاية المنى، إذ ما أكثر أن يتدخل الوسطاء ويفكون الاشتباك ثم لا يحملون المعتدي ولا كلمة عتاب، ولا يحتفظ المنتهك بحق المطالبة بحقه، وتلك بعض اللعب التي ألهت الأمة العربية عن ممارسة حقها المهدور.

والأمة العربية تعرف يقيناً أن الترسانة العسكرية المتطورة والتفوق العسكري وقوة الردع حق لإسرائيل وحدها، وهي موجهة ضد كرامة الإنسان العربي وحياته الكريمة حيثما كان، والخطورة ليست وقفاً على الترسانة العسكرية وما تنطوي عليه من سلاح فتاك يقتل النساء والأطفال والشيوخ ويدمر البنية التحتية، ولكنها في كافة المؤسسات الفكرية والمخابراتية المجهزة بأحدث الوسائل والمدعومة بأمهر الكفاءات البشرية من مفكرين وسياسيين وإعلاميين وجواسيس لممارسة الضلال والتضليل والتغرير وافتعال المشاكل وتفجير الأوضاع وتحريض الشعوب على قادتها واستغلال الفتن الطائفية والإقليمية والقبلية وصناعة الطابور الخامس الذي ينخر في جسم الأمة.

إن هناك ترسانة متفوقة ومؤسسات للتخديل وزعزعة الأمن والاستقرار ودعم غير محدود من الغرب ومواطأة مكشوفة من الهيئات العالمية وضعف وتخلف من جانب الأمة العربية، وما لم تتدارك الأمة الأوضاع فإن المستقبل ينذر بالخطر، وإذ تكون لدى الأمة قابلية للاستعمار كما يقول (مالك بن نبي) فإن لديها كوامن البقاء الكريم، ومن أراد العز من غير الإسلام خذله الله.

الخروج من المأزق العربي .. ؟ (٢) [١]

والأمة العربية لا تخفى عليها خافية اللعب الموهنة لكل عزيمة المدمرة لكل صرح، وهي تعرف أن إسرائيل خنجر في خاصرتها، وأنها لن تسترد عافيتها حتى تنزع ذلك الخنجر ولن يتأتى لها النزع في راهنها المتهالك.

وفي ظل استشراء الغضب الغربي، وما يملكه من عدة وعتاد وعلم عميق بظاهر الحياة الدنيا. والغرب تحدوه إلى حَزِّ الجسم العربي إلى العظم رغبتان:

-التزامه بأمن إسرائيل وتفوقها.

-انبعاث الكره التاريخي للأمة العربية بوصفها عيبة الإسلام.

وإذا أغلقت أبواب الحسم العسكري مع العلة المستبطنة، فإن أبواباً أخرى مشرعة المنافذ، وليس هناك ما يمنع من الحلول المرحلية، حتى يأذن الله للأمة بالحسم الناجز.

وحين تتعذر المواجهة العسكرية، لا يكون تكليف إلا مع الوسع وما آتاه الله، ولقد اختصنا الله بفضله ورحمته ولطفه ﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

وفي ضوء التخفيف لا يشرع الجهاد إذ لا تكافؤ ومن ثم تصبح البدائل أنفع للأمة المستضعفة، وهي بدائل تهيئ الأمة للخروج للقتال بعد إعداد العدة، ولا تديم الهوان. وأمام هذا التفاوت في مختلف القوى العسكرية والسياسية والاقتصادية لا بد من التفكير السليم والتقدير الدقيق للحيلولة دون مزيد من الانهيار والانكسار.

ولن يتحقق المراد بين عشية وضحاها، وخطاب العنتريات والمثاليات والمظاهرات والهتافات والتلاوم وإحراق الأعلام وتخوين الزعماء لا يجدي، بل يزيد الحال سوءاً والأوضاع تعقيداً، وإذ لا يكون مع الإصرار مستحيل فإن بإمكان الأمة العربية استعادة عافيتها أولاً، وحقوقها ثانياً إذ لم يمسسها من الذل والهوان ما مسَّ (ألمانيا) و(اليابان) في الحرب العالمية الثانية، وها هي اليوم تفوق المنتصر حضارة واقتصاداً، وقد تكون لها الغلبة في المعركة السلمية بعدما غُلِبتا في المعركة العسكرية.

و(الهند) التي أخرجت (بريطانيا) من أرضها بالمحراث والمغزل في مقاومة سلمية بدون هتاف ولا دماء. لقد جربت الأمة العربية المواجهة العسكرية متضامنة، وجربتها (مصر) منفردة منذ حرب ١٩٤٨م التي كشفت عن ضعف في الخطة والآلية وفداحة المؤامرة، ونسلت من هذه الحرب الفاشلة ثورات عربية لم تزد الأمة إلا تفككاً وضعفاً وانكشافاً وتمكينا من الرقاب، ومن بعدها قلبت الحكومات العربية لشعوبها الأمور، فمن مقاومة إلى مفاوضة: فمصالحات واتفاقات تُنْقض قبل أن يجف مدادها، ومن عمليات فدائية دُفِعَ ثمنُها من الأنفس والأموال والسمعة إنه تاريخ مليء بالنكسات وخيبات الأمل، ولقد آن الأوان لتجربة أخرى ذات شقين:

-شقٍ تجاهد فيه الأمة نفسها وهو الذي سماه المصطفى الجهادَ الأكبر.

-وشقٍ تجاهد فيه الأمة أعداءها متمثلاً ببناء الذات وعصرنة الأشياء.

والتضلع من العلم والمعرفة والتأصيل السياسي والاقتصادي والإعلامي، بحيث تصان الحريات والكرامات والحقوق، وتفرض فيه الأمة احترامها على العالم، ولن يتحقق

---

(١) تاريخ المقال: ١٣/ ١/ ٢٠٠٩

شيء من ذلك حتى يُصْنَعَ الإنسان على عين الحق لا يضارَّ في حقوقه المشروعة في التكوين والممارسة.

إن الأمة في راهنها تعيش تحديات لا قبل لها باحتمالها، والمُكْتوون بلهيب الإحباطات يتساءلون بإلحاح عن الحل الموقف للتدهور، أو المعيد للعافية والحياة السوية.

إن هناك اتفاقات جائرة، وممالآت مشبوهة، واعترافات معيبة، وأحلاف موهنة، وعداوات مختلقة بين الأنظمة العربية، ومصالح متعارضة، وتكتلات مريبة، وأطماع إقليمية مخيفة، وتحركات طائفية مزعجة، واختراقات مكشوفة من دول الاستكبار، وعنف وإرهاب، وفقر مدقع، وأنظمة غير متصالحة مع شعوبها، وفراغات مغرية لدول الجوار: (إيران) و(تركيا).

وكل هذه المعوقات صُنِعَت بإحكام، لتكون عقبة في طريق أي بارقة أمل تتقدم بالقضية خطوة واحدة باتجاه الحل السليم، والأمة العربية مطالبة باستيعاب ذلك كله، ومواجهة ذلك كله، والتحرك وفق متطلبات المرحلة والإمكانيات المتاحة وما دمنا في راهننا لا نقدر على مقاضاة (إسرائيل) فلندعها إلى حين، مثلما احتمل رسول الله ﷺ وأصحابه أذية المنافقين ومكيدة اليهود ومثلما ظل بيت المقدس بيد النصارى مائة عام ولنلتفت إلى الداخل لإصلاح البيت العربي، مع الالتزام بتوفير أدنى حد من العيش الكريم للشعب الفلسطيني في الشتات وفي الداخل، ثم لتكن قضية فلسطين قضية عربية لا تنفرد بها فصائل ولا منظمات، ولا يُمَكَّنُ قادتها من الدخول في اللعب السياسية.

وحين تلتقط الأمة أنفاسها، وتستعيد عافيتها، وتبني إنسانها، وتأكل مما تزرع وتلبس مما تنتج وتحارب بما تصنع، يكون لها خطابها المسموع وإرادتها النافذة، ولن يتأتى شيء من ذلك حتى تتصالح مع ربها أولاً وقبل كل شيء بحيث تضمن نصره وتأييده وتمكينه ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ثم تفكر ثانياً في إنسانها بحيث تتصالح معه، وتصلح شأنه كله وتصنعه لمواجهة المرحلة بكل تعقيداتها، ثم تفكر ثالثاً في قوميتها العربية بوصفها الوحدوي لا القومي (الأيديولوجي) وبوصفها لسان الإسلام ومنطلقه، بحيث يأمن الجار جاره، ويعرف أنه محمي الساقة، موفور الكرامة، ومتى عرفت دول الاستكبار والاستبداد أن المصالحة قائمة، وأن كل دولة عربية تحب لجارتها ما تحب لنفسها وأن هذا الصلح والمصالحة ممتد إلى الله والإنسان والأرض وبين كل الأطراف فإن نظرتهم ستتغير، ومن ثم يكون انتزاع الحق وأخذه بقوة.

إن الأوضاع القائمة إقليمياً وعالمياً تتطلب التفكير السليم ولغة العقل الرزين، ونبذ التنازع والتنابز، والارتداد إلى الداخل لمعالجة الأدواء المستعصية فالله لا يكلف نفساً إلا وسعها، ولا يكلف نفساً إلا ما آتاها، ورسول الله ﷺ يقول: «**أنا وأتقياء أمتي براء من التكلف**» ويقول الله عن رسوله: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾.

إن مواجهة الذات المثقلة بركام النكسات أشد مضاضة من مواجهة الآخر، ولا سيما أن ركام المشاكل المعقدة يحتاج إلى الصدق والصفاء والصبر والمصابرة والعزم على تجاوز العقبات، فالإنسان العربي مل المزايدات والعنتريات والتهدئات المؤقتة التي يستغلها العدو للتحرف والتحيز ونبددها نحن بالتناحر والتدابر.

فليتق الله من يمسكون بأزمة الأمور من قادة وعلماء ومفكرين وإعلاميين إن خطوات ثلاث هي ملاك الأمر كله: (الله) و(الإنسان) و(الأمة) وإن لم نتدارك الأمر قبل فواته فإن الأمة العربية ستكون مشروع أندلس أخرى.

ومن المضر بالقضية فتح ملفاتها في هذه الظروف المتردية بكل المقاييس، إذ كل اتفاق استسلامي سيعود أثره السيئ على الأجيال القادمة، وإسرائيل ومن ورائها (أمريكا) سيوثقون هذه الاتفاقيات المجحفة لدى المجالس والهيئات الدولية، ثم يكون التخلص من عقابيلها صعباً، ولعلنا نستذكر مغامرة (السادات) وما تمخض عنه اللقاء في المنتج الرئاسي الأمريكي (كامب ديفيد) والذي فتح باب الاعتراف بدولة إسرائيل والتبادل الدبلوماسي معها، والتزام مصر بما لا يلزم، لقد فوتت هذه المغامرة المرتجلة على الأمة فرصاً ثمينة، ولقد يكون من المناسب في ظل هذا الاعتداء الغاشم على (غزة) تجميد العلاقات وسحب السفراء، ومراجعة المقاطعة من جديد، وتوحيد المواقف لممارسة جولة سلمية تبادل بالمثل، وأي توسع أو اعتداء يواجه بالرفض الجماعي والمقاومة السلمية المتمثلة بقطع العلاقات والمقاطعة وفتح جميع ملفات الاعتداءات الغاشمة ابتداء من (ديرياسين) ومروراً ب(خان يونس) و(صيدا) و(صبرا وشاتيلا) ومذابح الحرمين و(قانا) وسائر الاعتداءات الغاشمة التي خلفت قتلى وهدميات وخسائر لا حصر لها، كما أن على الإعلام العربي تكثيف البرامج الوثائقية لمذابح العدو واعتداءاته، إن الخروج بخطة جماعية كفيلة بإخراج العدو ومن وراءه، ولكن أنى لنا العودة إلى منطق العقل والحكمة؟!

هل يكون (الثلاثاء) يوماً مشهوداً .. !؟[١]

اليوم الثلاثاء العشرين من يناير كانون الثاني الموافق للثالث والعشرين من محرم الثلاثين من الجدي، هو اليوم المشهود الذي يدخل فيه الرئيس المنتخب (باراك أوباما) (البيت الأبيض) بصفة رسمية لممارسة مهامه الرئاسية، بوصفه الرئيس الثالث والأربعين، ولهذا الحدث ملابساته الغرائبية في سياق الانتخابات الرئاسية والأوضاع العالمية المأزومة، ومن ثم فإن تحولات جوهرية يرقبها العالم على تخوف، وليست بالضرورة مرتبطة بذات الشاب الأسود المتوقد حماساً والمحفوف بتفاؤل عالمي، ولكنها مخاض أوضاع هي الأخرى غرائبية، وفي ظل هذه الأجواء المشحونة بالتوترات والتوقعات المتناقضة طَفِقْتُ تقليباً بالكتب والدراسات ذات المساس بالسياسة الأمريكية، وبخاصة مذكرات الرؤساء ومؤلفاتهم، بعد خروجهم من البيت الأبيض، وهي وثائق تنصلية، إذ كل رئيس له ثلاثة خطابات:

-خطاب السباق إلى البيت الأبيض.

-وخطاب القابع في البيت الأبيض.

-وخطاب الخارج منه.

ولكل خطاب لغته فمن خطاب الإغراء إلى خطاب التبرير إلى خطاب التَّنصُّل.

أما الشق الآخر من الكتب التي قد تساعد على فك شفرات الفترة الرئاسية القادمة فهي الكتب التي تتحدث عمن يحكم الولايات المتحدة الأمريكية، وبالذات (لاري إلويتز) في كتابه (نظام الحكم في الولايات المتحدة الأمريكية) وكتاب (ماكس سكيدمو - و- مرشال وانك) (كيف تحكم أمريكا) وما يناقضها تماماً مثل كتاب (من يحكم أمريكا والعالم سرا) ل(جيم مارس) والذي يعنينا في ظل هذه الظروف الأصعب التساؤل عمن يحكم العالم، أهو الرئيس؟ أم المؤسسات التشريعية والنيابية، والتنقيب في هذه المهايع يتطلب البحث عن العلاقات التاريخية بين أمريكا ومناطق التوتر، وبخاصة الشرق الأوسط، بعد تفرد القطب الواحد ومَشْروعَيْ العولمة والشرق الأوسط الجديد والتحول من الحرب الباردة إلى الحرب الساخنة، وأمريكا على كل الأحوال مشروع حديث متاح لكل الخطابات، وهي بغرائبيتها نص مفتوح مرتهن لفن الممكن، وَلَكَ أن تقرأ كتاب (أمريكا بلد المتناقضات) ل(مازن هاشم) غير أن القراءة العاطفية المتسطحة على الأحداث الآنية تند عن الحقائق، وتوقع في المبالغات وتوفض إلى سراب القيعان، والقراءة العقلانية المتجذرة لا تطفئ لظى الغضب الذي يلوب صدور المغلوبين على أمرهم في مواقع كثيرة من العالم ممن مسَّهم طائف من ظلم القطب الواحد سواء كان مباشراً بفعل الترسانة العسكرية أو غير مباشر بمكيدة المؤسسة السياسية وأمريكا تملك نواصي ثلاث:

-ناصية الردع العسكري.

-وناصية الهيمنة السياسية والثقافية.

-وناصية الاقتصاد العالمي والشركات متعددة الجنسيات.

ولكنها مع هذه الإمكانيات الاخطبوطية محكومة بقضاء الله وقدره: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ و(وتقدرون وتضحك الأقدار) وقدر الله النافذ لا يمنع من فعل الأسباب، فالتوكل على الله لا يمطر ذهبا، ولكن ييسر ويساعد كما الطير تغدو خماصا وتعود بطانا، ولا تبقى في أوكارها بانتظار ما لا يأتي ومهما تفاوت التفاؤل

---

(١) تاريخ المقال: ٢٠/ ١/ ٢٠٠٩

والتشاؤم حول القادم إلى البيت الأبيض، فإن له بصماته المرتبطة بقوته الذاتية والمعنوية وقدرته على الجدل والإقناع، وفي النهاية فإن الزعامة موهبة تصقلها المعرفة والتجربة وليست كسبية والرئيس القادم تحدوه الأصوات الانتخابية ولكنها لا تمكِّن له، فكم من قادم خيب الآمال، ولعلنا نتذكر (إيزنهاور) في أمريكا و(تشرشل) في بريطانيا و(ديجول) في فرنسا، ثم نضع إلى جانبهم (بوش) الابن و(بلير) و(ساركوزي) إنها مسافات ضوئية، وكل واحد من هؤلاء وأولئك حُمِلوا على أكتاف الشعب واختيروا بإرادة حرة، والشعوب (الديموقراطية) والشعب الأمريكي بالذات قد لا يعرف ممثليه في المجالس النيابية، وقد لا يضع أهمية لتجسير الفجوات بينه وبين ممثليه ولكنه يعرف بالتأكيد أدق التفاصيل عن رئيس الدولة، ومع حرص الشعب الأمريكي العاطفي إلى حد الطيش على قوة الرئيس وقدرته على المبادرة إلا أنه سريع التحول. وأسهم الرئيس كما سوق الأسهم تمنى بانهيارات موجعة، وذلك ما حصل ل(بوش) الابن، والسباق إلى البيت الأبيض لا تحدوه الكفاءة والأهلية وإنما يحدوه المنتفع الممول.

المثير في الرئيس الجديد أنه ليس أبيضَ، ولست أدري أ (كاثوليكياً) هو أم (بروستانتيا) والشروط المنصوص عليها في الرئيس ثلاثة: ألا يقل عمره عن خمس وثلاثين سنة، وأن يكون مواطنا بالميلاد، وأن يكون مقيما في الولايات مدة أربعة عشر عاما على الأقل.

أما الشروط غير المنصوص عليها فكثيرة والمستفيض منها: أن يكون (بروستانتيا) وإن نُقِضَ هذا الشرط ب(جون كنيدي) ولقد قيل أن اغتياله لأنه لم يكن كذلك، وأن يكون أبيضَ وألا يكون يهوديا ولا امرأة. ولقد فَصَّل (إلويتز) مهام الرئيس وسلطاته وفصل القيود على تلك السلطات، وفي النهاية فالحكم للمؤسسات العريقة والرئيس يمنح الشرعية للطبخات الناضجة أو المسلوقة. والإشكالية ليست فيما هو مكتوب أو متعارف عليه، ولكنها في السياسة التي تفرض نفسها في ظل أي ظروف طارئة، وفي الأغلبية في المجالس النيابية وفي ثوابت الأمة الأمريكية من خلال مؤسساتها الفاعلة، وإن كان (الفيتو) حقاً استثنائياً. لقد وجدت أمريكا نفسها وجهاً لوجه مع ما سمته بالإرهاب، وخلقت توهماتها مواقف لم تَصُبَّ في مصلحتها ولم تُصِبْ فيها المحز، بحيث جعلت من الإسلام عدوها الأول، واسْتَعْدَتْ بهذا الموقف الأرعن شعوب العالم الإسلامي، وحين خسرت الجولات والسمعة معاً، لم يكن فيها رجل رشيد يسدد ويقارب ويتحرف لمواجهة مشروعة، تحدد مفهوم الإرهاب ليكون بمعزل عن المقاومة المشروعة، ثم لا تلصقه بنحلة ولا بجنس، ولا تجد غضاضة من التنسيق مع دول العالم لوضع خطة معقولة لمواجهته، ومهما حاولت المؤسسة السياسية التنصل من المسؤولية وتحميل المخابرات الأمريكية جرائر المغامرات الفجة فإن سمعة الرئيس وفريقه اليميني المتطرف بلغت في تدينها حداً لا يطاق، ومهمة القادم إلى البيت الأبيض صعبة وشائكة.

لقد أناط الناخب عليه إنقاذ السمعة وإقالة العثرة الاقتصادية، وإعادة هيبة المؤسسة العسكرية، وأمريكا على الرغم من قوتها المتعددة المصادر إلا أن اقتصادها كالماء للسمك لا يمكن أن تحتمل هذه الانتكاسة، والرئيس القادم مطالب بترميم الهدميات المتعددة المواقع، دون أن تكون بيده عصاً موسوية، يضرب بها الحجر لتنفجر منه اثنتا عشرة عينا ليعلم كل أناس مشربهم، ويضرب بها البحر لينفلق كالطود العظيم، والمراهنون على إقالة العثرات كالمراهنين على قمع إسرائيل وأطر غطرستها وحل القضية وتسوية الخلاف بالعدل والإحسان فالسياسة الأمريكية ذات ثوابت لا يمكن أن تتبدل بتبدل الرؤساء أو الأحزاب قد تكون هناك مساحة ترتبط بشخصية الرئيس، ولكنها لن تكون بالمدى المتوقع، وتعويل الأمة العربية بوصفها أكثر المتضررين من السياسة الأمريكية على الرئيس

المنتخب تعويل على الوهم ورجم بالغيب، وكم كان بودي أن تتأمل الأمة المقهورة آية التغيير إذ لم تكن في الغير ولا منهم ولكنها من النفس وفي النفس، والأمة العربية المتفائلة إلى حد البلاهة ستفاجأ بخيبات أمل ذريعة، ولست هنا من المحبطين ولا من القانطين، ولكن المسألة حسابات مستمدة من تاريخ الرؤساء الذين تعاقبوا على البيت الأبيض ومن علاقات الولايات المتحدة الأمريكية بالشرق الأوسط كما يجسده (ديفيد ليفي) في كتابه الموسوعي (الشرق الأوسط والولايات المتحدة). وكما تجسده الكتب التي ألفها وزراء خارجية أمريكا وبخاصة (هنري كيسنجر) في كتابه (درب السلام الصعب) وهو اليهودي الماكر، الذي جسد مكره (كرستفر هتشنز) في كتابه (محاكمة هنري ليسنجر).

إن على الأمة العربية ألا تعول على ضربات الحظ ولا على الصدف فالزمن زمن البُنى والتأسيس والمأسسة وتنازع البقاء وإن لم تكن ذئبا أكلتك الذئاب:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد
ذا عِفَّةٍ فلعلةٍ لا يظلم

أحسب أن احتفالية التنصيب وخطبة التنصيب ستكونان الأكثر بذخاً وإثارة، ولكن الأيام الحُبْلى ستلد ريحاً فيها صِرٌّ.

وإذا كنا غير متفائلين بما يعد به الرئيس ويمني فإن على الأمة العربية أن تتحرف لمواجهة قدرها العصيب مُطَّرحة كل الآمال العريضة، فالواقع العربي والعالمي يتطلب التفكير الدقيق والارتداد إلى الداخل لإصلاح ذات البين وفك الاختناقات المتعددة ثم المواجهة الحضارية لدفع الظلم بالتي هي أحسن.

فلكل حرب مخاضاتها التي ستغير حتما مجرى التاريخ (وما الحرب إلا ما علمتم ودقتموا) فليبتدر العرب الراية باليمين وليمضوا حيث يؤمرون.

درب السلام الصعب .. ![1]

عندما أشرت إلى كتاب (هنري كيسنجر) وزير خارجية أمريكا الأكثر إثارة في الفترة من ١٩٧٣ - ١٩٧٧م (درب السلام الصعب) في سياق حديثي عما يتوقع من السياسة الأمريكية في فترة الرئيس الجديد (باراك أوباما) إزاء القضايا العربية والإسلامية، خشيت أن يتبادر إلى الذهن أن هذا الكتاب يتحدث عن السلام في الشرق الاوسط وقضيته الرئيسة (قضية فلسطين)، أو قد يتصور البعض أنني أشرتُ إليه دون إلمام بمحتوياته وبالفترة التاريخية التي عالجها بمنهج تاريخي مُسَيَّس، ولأهمية (كيسنجر) بوصفه من أبرز وزراء الخارجية الامريكية وأخطرهم على مجمل القضايا ذات المساس بالمصالح الأمريكية فقد تركْتُ جملة من الكتب المؤلفة والمترجمة التي استرفدتها لكتابة مقالي عن آلية انتقال السلطة إلى الرئيس المنتخب تركتها على المنضدة ولم أعِدْها إلى حقولها المعرفية في مكتبتي، ومن بين هذه الكتب (درب السلام الصعب) وكتابه (محاكمة هنري كيسنجر) لمحاولة تقصي أثر هذه الأطروحة الأكاديمية المبكرة على خطوات الوزير وقراراته الأكثر إثارة وتأثيراً، ولا سيما أنه يهودي يمتلئ حقداً وضغينة على الأمة العربية والخصم السياسي الذي تصدى لجرائمه (كرستفر هتشنز) لم يشر بالتفصيل إلى منطلقاته (الايديولوجية) ومدى تأثيرها على اجراءاته العملية، وأحسب أن رسالته للماجستير التي كانت تحمل اسم (عالم أعيد بناؤه) ثم حول الاسم إلى (درب السلام الصعب) بعد الترجمة أو قبلها - لست أدري - هذا الكتاب حداه إلى ممارسة المثلية حين أصبح من صقور البيت الأبيض مستشاراً للأمن القومي فوزيراً للخارجية ل(نيكسون) و(فورد) أو رئيساً للهيئة الفدرالية المشكّلة لتطوير السياسة الأمريكية تجاه أمريكا الوسطى أو رئيساً لِلَّجْنةِ المسؤولة عن التحقيق في هجمات الحادي عشر من سبتمبر، لقد عاش غصة حرب رمضان التي فتحت بصيصاً من الأمل في كفاءة المقاتل العربي، ثم انطوى هذا البصيص إلى ما يشاء الله بفعل هذا الصهيوني الماكر الذي يقول عنه (القاموس السياسي): (ولكي يجيد القيام بدوره وضع على وجهه قناعاً يستخدمه في مصر وآخر في إسرائيل لهذا كانوا يسمونه المنافق السعيد) والقاموس نقل هذا الكلام عن شاهد من الأهل فلقد نسب إلى (دانيل مونييهان) رئيس الوفد الأمريكي في الأمم المتحدة نقلا عن كتابه (المكان الخطر) أي وزارة الخارجية، والكتاب الذي نحن بصدد الحديث عن أثره على مسيرة (كيسنجر) الدبلوماسية، مسيرة الخطوة خطوة التي كان من نتائجها ما تمخض عنه لقاء (كامب ديفيد) الذي فتح الباب على مصراعيه لدول الهرولة والتطبيع وفتح السفارات والقنصليات واستقبال الأعداء في عقر الدار وأخذهم بالاحضان، وإحْداثِ فراغ سيادي أدى إلى تحرك (إيران) و(تركيا) لممارسة الوصاية على قضايا الأمة وتصدير الطائفية والمزايدة على قضاياها، و(كيسنجر) الثائر لمصالح العصبة اليهودية والمثير بالتواءاته يستعرض في كتابه ويصف ويحلل الاحداث الجسام التي وقعت في عشر السنوات الواقعة بين عامي ١٩١٢ - ١٩٢٢م وإن امتد رصده ليستوعب تاريخ (نابليون) في العمق، وإلى (هتلر) على مشارف المستقبل، ولأنه ربيب الكواليس وبطل (اللوبيات) فقد اهتم في مطلع حياته بمخاضاتها، ولأنه نسل من عفن السياسة دراسة وممارسة فقد أوقع (نيكسون) في فضيحة التنصت، وخرج منها سالماً يتربص، كما اصطدم بمثاليات (فورد) الذي خسر جولة السباق إلى البيت الأبيض بسبب مثالياته، حيث استخدم حق (الفيتو) مع المجالس النيابية بشكل مثير للتساؤل في الفترة الرئاسة المتبقية

---

(١) تاريخ المقال: ٢٧/ ١/ ٢٠٠٩

لسلفه المستقيل (نيكسون)، لقد نسل من عباءة التاريخ المسيس واختار خطة مستشار (النمسا) (ميترنيخ) التي رسمها بإحكام لإعادة بناء أوروبا بعد الحروب الطاحنة التي كادت تنهك الأوروبيين وهي الخطة التي تهدف لسلام المائة عام، وإذ يبرز في المشروع مستشار (النمسا) فإن وزير خارجية (بريطانيا) إذ ذاك ساند وساعد، وكانت له بصماته الواضحة، حتى أن وفاته شكلت صدمة مؤلمة لمستشار النمسا حيث رثاه قائلا: إن موت (كاستلري) مصيبة كبرى وهو لا يعوض، وخصوصاً بالنسبة إليّ، والرجل الذكي يمكنه أن يستكمل كل النواقص إلا نقص التجربة)، إذ يصف نفسه بالذكاء و(كاستلري) بالمجرب.

و(كيسنجر) الذي استثمر هذا التاريخ ووظفه في مساره السياسي وبخاصة في رحلاته المكوكية لغرض سلام مجحف لصالح الصهيونية العالمية قد لا يكون مُسلِّما بأن الماضي يعيد نفسه، ولكن تشابه الأسباب والملابسات أوحت إليه ببعض الرؤى التي أعاد صياغتها وعصرنتها لتكون مشروعاً تآمُرياً فتت به الوحدة العربية، وصهيونيته تجلت بكل بشاعتها حين رأس اللجنة المتقصية لأحداث الحادي عشر من سبتمبر، لقد أعطت توصياتها الهوجاء التي جرفت السياسة الأمريكية في أتون الفتن العمياء.

وإن كان ثمة ما يحسب له فهو توصله إلى وقف اطلاق النار في أعقاب التفاوض مع الفيتناميين الشماليين، وبهذا الإنجاز الإنساني منح جائزة نوبل للسلام، على أن جنوحه للسلام ليس خليقة ولكنه (تكتيك) إذ هو المتورط في التخطيط للانقلاب على الرئيس التشيلي.

لقد كان ذكياً في دراسته لتلك الفترة الحساسة في أوروبا، والنتائج التي توصل إليها والأعماق التي غاص بها جعلت هذه الرسالة أشبه بالمرجعية لأي صانع سلام، لقد كانت له كلمات جامعة هي نتيجة تدبر الأوضاع كقوله: (لما عاد السلام إلى أوروبا التي تعودت على النزاع الدائم استقبلته النفوس بكل تأكيد براحة ولكن بخيبة أمل، إن الشيء الوحيد الذي يساعد على تحمل الآلام التي سببتها سلسلة من الحروب الثورية هو الأمل العميق الجذور بعالم متحرر من مشاكله.

إلى أن يقول: عُرِّف السلام بأنه توقف الحرب، والنظام بأنه النتيجة البدهية للتوازن، والوفاق بأنه التعبير اللازم عن غريزة حب البقاء، وكقوله: (عندما تهدف سياسة رجل الدولة إلى تأمين المكاسب الدنيئة فإنه مضطر إلى أن يجد في التأجيل بديلاً وعوضاً عن العمل).

لقد جاءت دراسته التي تعالج أوضاعاً أوروبية سالفة وكأنها ترسم الخطوط العريضة لقضايا الشرق الأوسط، وإذ جعل درب السلام الذي سلكه (ميترنيخ) صعباً، فإنه قد خاضه لحساب الصهيونية العالمية واستطاع أن يفكك العالم العربي ويوهن عزائمهم والحق أنه لن يكون درب السلام الحاضر صعباً لو أن دول التجبر والتكبر والاستبداد نظرت إلى المشهد العربي بعين الواقع والصدق والعدل، فاليهود من مختلف آفاق العالم ومن مختلف الألوان واللغات يهاجرون إلى فلسطين ليجدوا المزارع والمصانع والمساكن والتعليم وسائر الخدمات فيما يُضيَّق الخناق على الفلسطيني في مزرعته وبيته وسوقه يُقَتَّلون ويسجنون وتصادر ممتلكاتهم ثم يُضطرون إلى الهجرة إلى دول لا ترحب بهم ولا تمنحهم أدنى حق من المواطنة، وإذا قيل في توصيات التسوية عن عودة اللاجئين ضجت كل المحافل التي يفترض فيها إقامة العدل وكف الأذى، وكيف يستقيم الأمر والعالم الذي لا يملك يمنح والمحتل الذي لا يستحق يأخذ، وكل رئيس يدخل البيت الأبيض يخدر العالم العربي المغلوب على أمره باختيار موفد إلى الشرق الأوسط لتقصي الحقائق، وكأن القضية بكر غامضة، وهل من قضية واضحة وضوح الشمس كالقضية الفلسطينية.

لقد خرجت بريطانيا من فلسطين وفيها مسلمون ويهود يقتسمون الأرض ويعرف كل أناس مشربهم، ولو كانت تريد العدل والإنصاف، لسلمت الأرض لأهلها الأصليين من يهود ومسلمين ودعمت العدالة وحالت دون الهجرة والتدخل وفي لبنان مسيحيون ومسلمون ودروز وطوائف مارسوا العيش الكريم وحكمهم دستور وزع السلطات والجاليات اليهودية في مصر والمغرب واليمن وفي أنحاء كثيرة من العالم، وكل أقلية يحميها الدستور والقانون، فهلا يقرر العالم تمليك الأرض لأهلها الاصليين يقتسمونها فيما بينهم ويضعون الأنظمة التي يحتكمون إليها، ومثلما تودع الدول وثائق الصلح والحدود في الهيئات والمؤسسات العالمية تودع الأقليات المشتركة في الأرض وثائقها التي تحكمها ثم تمارس العيش الكريم تحت سيادة القانون، إن السلام العربي الإسلائيلي ممكن لو أتيحت الفرص المتكافئة بين الفرقاء.

إن تعنت الصهيونية ومساندة الغرب لها هما شر البلية وكيف يطارد من يُسمون بمجرمي الحروب، وقادة إسرائيل يمارسون أبشع الجرائم ويستخدمون أفتك الأسلحة على مسمع ومرأى من العالم ثم لا يطلب منهم إلا ايقاف القتل والتدمير بالترسانة العسكرية الممنوحة لهم بأبخس الأثمان والمسنودة بالتأدييد والتمكين.

إن قراءة كتاب (محاكمة هنري كيسنجر) كافية للتدليل على جرائم العنصر اليهودي واستحالة التعامل معه على قدم المساواة.

المانع وجائزة الملك فيصل .. !(١)

لم يكن فوز الأستاذ الدكتور عبد العزيز بن ناصر المانع بجائزة الملك فيصل العالمية حدثاً مفاجئاً ولا غريباً، بل ربما كان تأخره إلى هذا الوقت هو المستغرب وأحسب أن الإبطاء مرتبط بالحقل المعرفي الذي أمضى فيه زهرة شبابه وقوة فتوته ورصانة كهولته، وفوز مثله بجائزة مثل تلك الجائزة يعد مفخرة لكل الأدباء والعلماء والمفكرين الجادين الذين لا تلهيهم مغريات الحياة ولا يُعْشِيهم بريقها الخلَّب، وما أخصه في الفوز بتهنئة ذلك أن فوزه فوز لكل لداته ومجايليه الذين يعرفون الدكتور عبد العزيز عن قرب، ويعرفون زهده بمظاهر الحياة وأضوائها وحبس نفسه بين كتبه ومشاريعه العلمية لا يَشُقُّون على أنفسهم بالتهنئة وإنما يتضرعون إلى الله أن يمده بالصحة والعون ليحقق ما يصبو إليه، فالطريق الشاق الذي حمل نفسه عليه لا يُلَقَّاه إلا الجادون الناصحون لأمتهم الحريصون على إحياء تراثها الأدبي واللغوي والفكري، وقليل ما هم، لقد عرفت أخي وأستاذي عن قرب، وكنت ولما أزل أراهن على أن تراث الأمة بخير متى وجد هذا النوع من العلماء الذين نذروا أنفسهم وجهدهم ومالهم وأعرضوا عن مغريات الحياة الدنيا من أجله وفي كل بلد عربي وإسلامي بل وفي كل فترة تاريخية ينجم هذا النوع من الأناسي الأفذاذ، وإذا كان الرسول ﷺ قد أخبر عن بعث الله للمصلحين على رأس كل مئة سنة لتجديد أمر الدين ونفي ما علق به، فإن لتراث الأمة مثل ذلك من المحققين والدكتور المانع واحد من العلماء الجادين الذين يمارسون مهنتهم وهواياتهم بمعرفة واقتدار، وأفضال الجائزة على المشهد العلمي كبيرة، ولاسيما أن المركز احتضن كفاءات علمية واستضافهم وطبع مؤلفاتهم واستثمر خبراتهم وهيأ ذلك كله لِرُواد المعرفة من طلاب وباحثين، ولقد كنت من أحرص الناس على الإشادة بذوي المشاريع والدفع لتهيئة الأجواء الملائمة لإنجاز مهماتهم وتحريض المقتدرين لتبني مثل ذلك، والدكتور المانع يعد بحق من أصحاب المشاريع العلمية فهو حين اشتغل بتحقيق التراث الأدبي لم يكن متسرعاً ولا مُتذوقاً ولا ملولاً بل أخذ مهماته بالأناة وطول النفس والتقصي واستكمال مناهج التحقيق ومتطلباتها والكتب التي أخرجها للناس اتسمت بالضبط والتدقيق والتوثيق فيما جاءت بعض التحقيقات التجارية تَشْوِيُها متعمدا للتراث الأدبي والعلمي، والذين زاملوا الأستاذ الدكتور عبد العزيز أو تتلمذوا عليه يعرفون ذلك عنده من لحن القول، فهو الأكثر تذمرا من الأدعياء والأكثر برما من تشويه التراث، بل هو من أزهد الناس في التكاثر في التأليف أو التحقيق، والذين يرقبون مثل هذه المنجزات مثلي يضيقون ذرعاً بالإنجازات الفجة التي تغرر بالمتلقي وتشوه النصوص ولا تتوفر على التوثيق والتحقيق المعرفيين، والمشاهد العلمية عرفت أفذاذاً خلدوا ذكرهم وخدموا أمتهم وجاءت أعمالهم في غاية الجودة، وأحسب الأستاذ الدكتور المانع من هذا النوع، ولن أكون مبالغاً ولا مجاملاً إذا قلت إنه ورصيفه الدكتور عبد الرحمن العثيمين من أبرز المحققين للتراث في المملكة، وكم تمنيت دعم مشاريعهم بتوفير الأجواء الملائمة ليمضوا فيماهم فيه، ومركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ذو فضل على الأمة العربية والإسلامية بما يقدمه من خدمات جليلة على مختلف الصعد فلقد تفضل بطبع أعمال كثيرة من الوزن الثقيل:

وكل امرئ يولي الجميل محبب
وكل مكان ينبت العز طيب

---

(١) تاريخ المقال: ٣/ ٢/ ٢٠٠٩

والمركز له أفضال كثيرة، لعل منها طباعته لعملين جليلين للأستاذ الدكتور عبد العزيز المانع هما:

-(المآخذ على شراح ديوان أبي الطيب المتنبي) في أربعة مجلدات

-و(كتاب قَشْر الفَسْر) في مجلد ضخم

وهما من الكتب التراثية المهمة، وبخاصة عند محبي شعر أبي الطيب، ولقد تفضل أخي الكريم فأهداني كتاب القشر في تحقيق بديع لا يتوفر على مثله إلا أولو العزم من العلماء، ولقد ضاق ذرعا بالعابثين وواجههم بأخطائهم الفادحة، ولاسيما الذين يحرفون العناوين من بعد مواضعها، ومع أنه تتبع المصادر وخَرَّج النصوص وضبطها واعتمد المخطوطة الأم فقد وصف عمله بالمتواضع وتلك خليقة العلماء الأفذاذ. وكتاب القشر نقد علمي لشرح (ابن جني) لديوان المتنبي، وابن جني من ألصق العلماء بالمتنبي وأقدرهم على شرح الديوان، حتى أن المتنبي حين يُسأل عن مشكل شعره يندب السائل إلى روايته بقوله: (اذهبوا إلى الشيخ الأعور فهو أدرى مني بشعري وإنه ليقولني ما لم أقل) أو كما قال: ويعني بالشيخ الأعور (ابن جني) فإذا كان ابن جني على جلالة قدره ولصوقه بالمتنبي ومعرفته بدقائق شعره يُدرِك عليه (الزوزني) تلك الهنات فما بالك بغيره من الشراح، على أن (الزوزني) لم يكن وحده الذي استدرك على (ابن جني) فمراجعة كتاب (رائد الدراسة عن المتنبي) تقف بالمتتبع على عدد من العلماء الذين استدركوا على ابن جني، ولا غرو فالمتنبي يقول وقوله عين الحق:

أنـــام مـــلء جفـــوني عـــن شـــواردها

ويســـهر الخلـــق جراهـــا ويختصـــموا

ولقد كنت من محبي المتنبي والمدمنين على قراءة شعره ولا أذكر شارحاً لديوانه إلا سعيت جهدي للحصول عليه، ولقد سافرت إلى (مرابد) بغداد سبع سنوات متتالية، وفي كل مرة أذهب إلى المكتبات التراثية القديمة أبحث عن أندر الكتب فكان أن حصلت على كتب تراثية ذات مساس بالمتنبي، بل هي ذات مساس بشارحه (ابن جني) ومن ذلك كتاب (الفتح على أبي الفتح) لـ(ابن فورَّجه) وكتاب (شروح شعر المتنبي) الذي جمعه وحققه الدكتور محسن غياض عجيل إذ جمع فيه ثلاث مخطوطات منها مخطوطة (التجني على ابن جني) (لابن فورَّجه) و(المستدرك علي ابن جني) (لأبي فضل العروضي)، و(ابن جني) هو راوية شعر المتنبي في الشام فيما كان (ابن رشدين) راويته في مصر، أما راويته في بلاد فارس فهو (علي بن حمزة البصري)، وكل أملي أن يفرغ الدكتور لتحقيق الفسر الذي سيء تحقيقه ومات الخلوصي قبل إكماله. والجائزة التي ظفر بها المانع لقاء تحقيقه العلمي لكتب تراثية نادرة تتعلق بشروح شعر المتنبي قد تُنبِّه إليه وبخاصة أولئك الذين ينالون من شاعريته أو من جنون العظمة عنده، وعظمة الإنسان ليست في اتفاق الناس على تألقه ولكنها في اختلافهم وتناقض آرائهم، (فالعقاد) في عبقرياته أشار إلى هذا المؤشر وضرب مثلاً بالخليفة الراشد (علي بن أبي طالب) إذ أحبه قوم فعبدوه وكرهه آخرون فقتلوه، وكم كان بودي أن يستصحب المتأففون من النقد هذا المؤشر، فهذا المتنبي أُلفت الكتب بسرقاته، ونفي من عالم الشعر وطعن في نسبه وشرفه وظل شامخاً تلتطم على سفحه أمواج النقد، ومن أراد الشهرة استدعاه متخذاً منه سلماً إليها، وسيظل عظيماً وإن رغم أنف الناقمين.

أقول قولي هذا وأسأل الله لأخي المتألق الأستاذ الدكتور عبد العزيز بن ناصر المانع مزيداً من التوفيق والسداد ليفرغ لمشاريعه العلمية وأملي في محافلنا العلمية والثقافية أن تشد من عضده وأن توفر له الأجواء الملائمة لكي يكون (شاكر السعودية) في خدمة لغة

القرآن وما ذلك على (جامعة الملك سعود) التي ينتمي إليها بعزيز وبخاصة في عهدها المتألق ومبادراتها المباركة.

فليحذر المفسدون الفساد .. ![1]

ما أضر بالأمة إلا فساد الضمائر وضعف النفوس أمام الشهوات العاجلة الفانية، وما استشرى الفساد الإداري أو التجاري في قوم إلا مُنِعوا القَطْر وحُرِموا البركة، لأن فيما يقترفون إفساداً في الأرض والله لا يحب الفساد، وفيه ظلم لذوي الحاجات، والله حرم الظلم على نفسه، وأمرنا بأن لا نتظالم، وأقسم بعزته وجلاله أن ينصر المظلوم ولو بعد حين، حتى ولو كان كافراً فكيف به إذا كان مسلماً والدول كما الأناسي تخوض في بعض مراحل حياتها غمرات من التقصير الذي يُعيق مسيرتها، فإما أن يدركها الغرق أو تستدرك نفسها، وتلك من سنن الله الماضية إلى قيام الساعة، ومن الأخطاء الفادحة استبعاد ذلك والغفلة عما يجري، ولقد توعد الله المطففين بالويل في أفضل القرون، وعَرَّفهم أوضح تعريف، فهم الذين يستوفون حقهم، ويُخْسرون في حقوق الآخرين، كما أكدَّ على العدل في الحكم بين الناس، ومن ثم فلا أحد فوق النقد والمساءلة، وليست العصمة إلا لمن شهد الله له بها، وليس من حق أحدٍ كائناً من كان أن يزكي نفسه، ولا أن يترفع عن النقد، ولا أن يضيق به، ومتى عم الفساد واستمرأه الناس، أصبح الصدق غريباً والأمانة مفقودة، وفي الحديث: «**طوبى للغرباء**» والغرباء: من يَصْلُحون إذا فسد الناس، أو يُصْلِحون ما أفسد الناس، والدول المدنية هي دولة المؤسسات، التشريعية والتنفيذية الرقابية والشورية، وإذا استشرى الفساد في شيء منها على أي شكل من الأشكال أو فسد بعض أعضائها، ثم لم تكن هناك متابعة لمقترفي الفساد أو استئصالٍ لشأفته عمَّ وطم واستعصى على الحل، وكان كما الفتن التي لا تصيب الذين ظلموا خاصة، وإذا ظهر الفساد في المكاتب والأسواق استمرأه الناس وأصبح طبعاً عفوياً يُسْغرب نقيضه، وها نحن أولاء نتداول عن بعض الشعوب بعض العادات السيئة الراسخة، لكونها أصبحت سمة بارزة، يُعْرفون بها، ولا يجدون عنها محيصا، فما الذي جعل الناس يسلِّمون بها ويتوقعونها، ثم لا يجد المتهم أي قدرة على نفيها أو الخلوص من عقابيلها في السمعة والأداء، ألا يتبادر إلى الأذهان أن تلك الطائفة من الناس مَرَدتْ على هذه الخليقة.

فمن كرَّسها حتى أصبحت علامة بارزة؟ أليس هو الاستمراء والاستشراء والتوارث وهوان النفوس: و(ما لجرح بميت إيلام) إننا ملزمون بالمواجهة كما واجه الرسول صاحب الصبرة المبللة وقال له بصريح العبارة: «**من غشنا فليس منا**».

والناس يدوكون في مجالسهم اللاهبة ويلوكون بألسنتهم الصالقة من بخس الوقت أو المال أو وضع الأمور في غير مواضعها، ويسخرون بالمبطئين والمسوفين والعاملين على استشراء المحسوبيات ويضيقون بالمواطآت واللامبالات، وتلك ظواهر لا يتوقعها أحد، ولا يقبل بها ناصح، وإذا قبلنا بتكذيب الشائعات، وتوقعنا الافتراء والمبالغة أو تصورنا ذلك اللغط رد فعل على بعض الأنظمة الجائرة والضوابط القاسية والتنفيذ الحرفي لها أو استغلال ثغراتها من ذوي النفوس الضعيفة فإن استفاضة الاتهامات لا يمكن غض الطرف عنها ولا إلفها، كما أن بوادر الفساد ليست بمستبعدة ولا بمستحيلة، فالشَّرُّ كامن كمون الشرر في الزناد، والنفوس الأمارة والأهواء المتبعة والشهوات العارمة والشياطين الموسوسة من الجنَّة والناس تملأ الرحب، وتتخطف الضعفاء، وتقعد لهم كل مرصد. وإذا غفل الرقيب عاثت الأهواء والشهوات في المشاهد فساداً، والتمادي في الغفلة لا يزيد الأمور إلا ارتكاساً في حمأة الرذائل، واستبعاد الفساد وحسن النية والغفلة حواضن لاستفحاله وقديماً قيل: (لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم) والسلطة

---

(١) تاريخ المقال: ١٠/ ٢/ ٢٠٠٩

المشروعة غير التسلط المحظور، ولا يمكن أن تتحقق السلطة إلا إذا استوفت محققاتها ولا محققات إلا بمبدأ الثواب والعقاب:

قسا ليزدجروا ومن يك راحماً
فَلْيَقْسُ أحياناً على من يرحم

فالإصلاح ضرورة والتجديد ضرورة، والحياة كالنهر لا تني تجري والأسَنُ في الركود والخوف من التغيير والتبديل والتحويل، وتلك كلها ظواهر طبيعية، والإصلاح لا يكون إلا في ظل الفساد والتخلف والجمود، والمصلح الإداري أو التجاري ليسا بأقل أهمية من الإصلاح الديني، فالوهن أو التردد أو حب السلامة قد يعتري بعض المسكونين بالهم فيغري ذلك المتربصين، والمتابع لفلتات الألسنة وصرير الأقلام في الصحف يروعه ما يقال عن بعض القطاعات الخدمية، مع أن هذا القول الصريح المتكرر لم يحسم لصالح إحدى الطائفتين: المتهم الذي سمع الاتهام ولم يكترث، والكاتب الذي صَرَّحَ بالاتهام ولم يُحاسبْ، ويقيني أن التعويل على مقولة: (كلام جرائد) من استمراء الخطيئات وتكريس التجاوزات، فالكاتب حين يكون مفترياً للكذب، ثم لا يعاقب على افترائه، يستمرئ الولوغ في أعراض المسؤولين، والمسؤول المقصِّر أو المُتلاعب الذي يأمن الحساب والمساءلة يوغل في المقترفات، وعندئذ لا بد من اتخاذ إجراءات صارمة وفورية تحق الحق وتُرشد المسيرة، فإما أن يكون القول صدقاً، وإهداره حينئذ إغراء للمسيء عمله وإما أن يكون كذباً، ومواطأته تخذيل للمحسن وإملاء للمفتري.

والإسلام يقوم على إشاعة القيم وستر الخطيئات ما أمكن ذلك، متى لم يكن في الستر إغراء، ولقد فعلها رسول الله ﷺ بقوله: «**مالي أرى أقواماً يفعلون كذا وكذا**» - أو كما قال - وهو يعرفهم بأسمائهم، والمبهمات في القرآن ظاهرة تعبيرية أَلِفتْ فيها الكتب، إذ كان من بين أغراض الإبهام قصد الستر عليه ليكون أبلغ في استعطافه نحو قوله تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قيل هو (الأخنس بن شريق، وقد أسلم وحسن إسلامه، وستر الخطيئة من الفاعل والمتابع مطلب إسلامي قال ﷺ: «**إذا بليتم بهذه القاذورات فاستتروا**» وقال: «**كل أمتي معافى إلا المجاهرون**» ولا شك أن إشاعة قالة السوء وافتراء الكذب من القاذورات، والكاتب مؤتمن وهو لسان الرأي العام يعبر عن هواجسه ويبدي مواقفه من الأشياء، فالمصالح المهدرة والحقوق المصادرة حين لا تنبري لها ألسنة حداد تضبط المعتدي بالجرم المشهود تكون عرضة للضياع، والظلم من شيم النفوس وإن الله ليزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن، والصحافة توصف بالسلطة الرابعة، ومن الإخفاق الذريع الصمت المداهن أو التجريح الكاذب، فكلا الموقفين ذميم، وحين نقول بأن هناك تجاوزاً وتقصيراً فإننا نود ألا يبلغ حد الظاهرة بحيث يكون داءً مستشرياً يسري في جسد الأمة ويمتد من المرضى إلى الأصحاء، والمؤلم أن كل من لاقيت يشكو وضعه ويتذمر من تقصير القطاعات الخدمية وعجزها عن استيعاب مهماتها وتعطيلها للأعمال، ومع استفاضة الشكوى والتذمر لا تجد بوادر تحمي صفو الحياة من أن يكدرا، وكيف نحن إذا ساءت الحياة وقلَّتِ الإمكانيات وشحت المصادر، وخارت العزائم، إن الشائعات المؤذية والمؤلمة تلوب الفضاء في زمن كنا نَعُدُّه من أفضل الأزمنة، وفي ظروف هي خير الظروف، وكم كان بودي لو جمعت مقالات التذمر ورصدت إشاعات الاتهام وتمت مواجهة كل مسؤول بما قبل عنه أو عن مؤسسته، وطلب منه أن يواجه الجمهور بالحقائق الدامغة أو أتيح للمتداولين للشائعات أن يشهدوا محاسبة المقصرين أو

المتلاعبين، ففي ذلك شفاء للنفوس وإبراء لسقمها وهو تصرف عدل، لا جور فيه، ولا تحامل بل هو أضعف الإيمان.

والمُطمئِن أن المتهاونين بالحقوق والواجبات المفوتين للفرص والعابثين بالمقدرات والمستغلين لثغرات الأنظمة والتَّعْليمات والمؤثرين لأنفسهم المتخمة على ذوي الخصاصة مرصود ما يأتون وما يذرون ومحاسبون على القطمير من التجاوزات وإذا انفلتوا من يد العدالة بأي سبب فإننا لن نعدم مقولتهم يوم لا نفع مال ولا بنون: ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ غير أن هذا الموقف الرهيب الذي يجيء فيه الظلمة وأعوانهم فُرادى كما خلقهم الله أول مرَّة تاركين ما خولهم الله في الدنيا وراء ظهورهم لا يمنع من الإيقاف لهم ومساءلتهم عما اقترفوه، فالحياة الدنيا لها مواقفها من النقد والمساءلة والثواب والعقاب وللآخرة ما هو أشد وأنكى.

ولعل من أوجب الواجبات على المجالس النيابية كالشورى والمناطقية والبلدية أن تضطلع بهذه المسؤوليات وأن ترصد كل ما يشاع وتمحصه ثم تواجه به المعني كائناً من كان فإن كان بريئاً أعلنت ذلك على الملأ وإن أدين المسؤول عالجت الموضوع بما تبرأ به الذمة وتتحقق به المسؤولية وفي النهاية: «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**».

كُلٌّ من لا قيْتُ يَحزمُ أمْرَه .. !(١)

لم تكن الأوامر الملكية الثلاثون مفاجئة ولا مربكة، وليست لذات التغيير ولكنها استجابة متأنية ومستوعبة لمتطلبات العصر وخلوص مبكر من معوقات اللحاق بالركب المخبّ في فيافي الحياة بكل ما تعج به من متناقضات صارخة.

فالمملكة بإمكانياتها المتعددة وحضورها الفاعل والمؤثر في كافة المحافل الدولية واحتياج المأزومين لها في ساعة العسرة ليست بمعزل عن تقلبات الطقس العالمي وعصمتها من الطوفان أن تستقل سفينة النجاة لا أن تأوي إلى جبل يعزلها عن العالم، ويعصمها من الماء، فلا مفر من الخلطة واختراق الأجواء، والاحتماء بالندية لا بالاعتزاز وامتثالها لآية التغيير حفزت القيادة الحكيمة على المبادرة في الوقت المناسب لتغيير ما في النفس، إذ لا مناص من الإذعان لقانون الحياة الذي تعبر عنه الحضارة الإسلامية بالسنن الكونية التي لا تتبدل ولا تتحول ومن ثم لابد من التحرف وأخذ الأشياء بقوة وحمل الأمة على الأخذ بمثلها.

لقد استيقظنا على طوفان الأوامر الملكية، ولكنها كانت صيباً نافعاً شفى صدور المترقبين لمخاضات الحراك الإصلاحي في العهد الميمون، ولما لم يكن ضخ الأوامر بهذا الزخم مرتجلاً ولا مفاجئاً فإن إمكانية التفاعل معها والتفعيل لها آتية لا ريب فيه، ولا سيما أن النفوس مهيأة لاستقبال المبادرات بروح القبول والتفاؤل، فالدولة التي تعيش الأحداث العالمية بوصفها شريكاً مؤثراً، وتتلقى المتغيرات الحضارية والمدنية بوصفها متمثلاً ومستهلكاً وتتوفر على كافة الإمكانات المادية، والاستعدادات البشرية لا يمكن أن يبطئ بها التخوف من استغلال الفرص ومبادرتها، ولا أن تتردد في اتخاذ القرارات المناسبة في وقتها، إذ ما أضر بالأمة إلا تكاثر الخيارات وتهيب المبادرات:

ومن يتهيب صعود الجبال

يعش أبد الدهر بين الحفر

(وإرادَةٌ تَخْشى الرَّدى لا تُسْمِن).

والدولة حين تعيد هيكلة المؤسسات القضائية والتعليمية وتغير القيادات في مواقع أخرى وتختار لها الكفاءات البشرية المتوقدة حماساً والممتلئة معرفة ودربة وإخلاصاً تلقي المسؤولية في شباك المواطن، إذ هو في النهاية الراعي والرعية، ولقد قالها من قبل من لا ينطق عن الهوى: «**كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته**» فالتخطي إلى الأفضل لا تحققه القرارات وإنما تحققه الإرادات والاستجابة الطوعية الواعية لإرادة الدول.

إن التغيير الخلاق لا يمكن أن يقف حيث يذوب جليد الملل من الرتابة والتناظر ولا أن ينتهي حيث يَنْبَعِثُ الشعور بالأمل، الترقب، إن المسألة ليست إعادة لترتيب أوراق مبعثرة وبثها من جديد، إنها نتيجة حتمية لمراجعات دقيقة وتقويم سليم للمعطيات ورسم سديد للخطوات القادمة.

والأمة حين تستقبل هذا الحدث الجلل بالابتهاج يجب أن تترجم مشاعرها بالتفاعل الإيجابي مع المستجد، ولا يكون التغيير عندها عضواً غريباً مغروساً في جسم الأمة ليواجه بالخوف والتردد والسهر والحمَّى.

والأمة أمام هذه الإرادة الملكية الحصيفة تنتابها موجة من الفرح الغامر والترقب الحذر، فما الذي تَعِدُ به هذه الكوكبة من المسؤولين القادمين؟ وما الذي يساورهم من

---

(١) تاريخ المقال: ١٧/ ٢/ ٢٠٠٩

الهموم؟ وما الفضاءات المتاحة والإمكانيات المهيئة لتحقيق التطلعات في زمن يَسْتبق أهله المستجدات على مختلف الصعد. إنهم فتية صُنِعوا على عين الرقيب، واختيروا بكل دقة لينهضوا بحركة الإصلاح الشاملة لكافة مرافق الدولة، إن تغيير الهيكلة والوجوه مؤذن بأداء مواكب لمتغيرات العصر بكل ما يَعِد به.

والمملكة العربية السعودية بما حباها الله به من إمكانيات حسية ومعنوية، وبما هي عليه من أعماق دينية وسياسية وجغرافية واقتصادية بحاجة إلى مواكبة متوازنة لحضارة العصر ومشاطرة واعية لمؤسساتها العالمية، مواكبة ومشاطرة تمكنانها من النهوض بمسؤوليتها المتمثلة بعبادة الخالق وعمارة الكون وهداية البشرية، والتوفيق بين المهمات الثلاث يضعها أمام تحد عصيب، وقدرها أن تكون في أتون الأحداث والمتغيرات شريكاً فاعلاً ومؤثراً، ومكانتها عربياً وإسلامياً وعالمياً تفرض عليها الخلطة والتكيف مع المتغيرات العالمية دون المساس بمحققات حضارة الانتماء. ولا شك أن هذه معادلة صعبة ومربكة ولابد لها من تحرف واعٍ، ولكي تكون الدولة بهذه المواصفات في مستوى مسؤوليتها الذاتية حول إنسانها وكيانها وسائر مثمناتها الحسية والمعنوية، ولكي يأتي الإصلاح من قواعده فقد نظرت بعين فاحصة إلى المؤسسات الدينية والتربوية والثقافية والإعلامية إذ هي الكفيلة بصناعة الذهن ومواجهة التحدي ومواكبة المستجد.

ولو نظرنا إلى مفردة من مفردات الإصلاح، وهي المتعلقة ب(القضاء) ومتعلقاته من حقوق إنسانية لوجدنا الإصلاح قد امتد إلى الهيكلة والقيادة والإجراء، فالقضاء الإسلامي يواجه تحدياً عالمياً، وهو قادر على الصمود والتحدي وإثبات صلاحيته لمواجهة النوازل، ولن يتأتى ذلك إلا بالأخذ الجسور بالمستجدات الشكلية والإجرائية التي تحقق المصالح والمقاصد.

وإذ تكون صناعة الإنسان أهم من صناعة المؤسسة فقد أولت الأوامر جل اهتمامها لها، ولما كانت صناعته خليطاً من القيم المادية والمعنوية فقد نظرت إلى كافة المرافق الصحية والغذائية والتعليمية والإرشادية والحقوقية وتوفير الأجواء الملائمة للعيش الكريم والحرية المنضبطة التي لا تذيبه وتمْسخ ذاته ولا تعزله وتقمع إرادته.

لقد جاءت إرادة الإصلاح متوازنة مستجيبة لكل التطلعات والأمل بعد الله معقول على الذين حظوا بالثقة الملكية الكريمة أن يكونوا في مستوى مسؤولياتهم وعصرهم وتطلعات أمتهم إليهم، وهم أهل لكل توقع سديد.

إن الأمة التي تلقت الحدث بروح راضية مطمئنة تود من كل الأطراف النهوض بالمسؤولية على وجهها، فالزمن بإيقاعه المتسارع لا مكان فيه للمتثائبين ولا للمترددين.

وسنظل على رصيف الانتظار والترقب مع تغيير واعد بادر إليه ولي الأمر وهو يردد: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

إن كنت شهْماً فَأتْبِعْ رَأسَها الذَّنَبا .. ! [(١)]

كنا في طفولتنا المبكرة نُلقَّى الحكم والمثال والأبيات الشهيرة غير أنا لا ندري ما المعاني ولا المقاصد، والذين يُفيْضون علينا بتلك الدرر لا يُتْبِعون ما يفضون به شرحاً ولا تفهيماً، ولسنا بقادرين على الاستيعاب إذ ذاك لو أنهم فعلوها، والمُنْسأ له في أجله المُتَفَسَّحُ له في مجالس العلم يَدَّكر بعد أمة موقع الشاهد ومكامن الدلالات منها، فبعد ما اشتد ساعدي تبدت لي من محفوظاتي دلالات ما كنت أعرفها من قبل، وإذ يكون التَّعلُّم في الصغركالنقش على الحجر فقد ظل محفوظنا قريب المنال كلمات اقتضت الحال تداعت الدرر لتشد العضد، ومما أدركت من كلام التلقينات الأولى قول الشاعر:

لا تقطعــن ذنــب الأفْعــى وتَتْركهــا
إن كنــت شَــهْماً فــأَتْبع رأسَــها الــذنبا

وبَدَهيٌّ أن النوازل التي تغمرنا بمعضلاتها مُدِرَّةٌ للذاكرة تَحْلِبُ أشطرها لتدفق بالآيات البينات والاحاديث المحكمات والأبيات الشوارد والحكم الأوابد والأمثال السَّوائِد تضيء عتمتها:

ولَــوْلا خِــلالٌ سَــنَّها الشــعر مــا دَرَى
بُنَــاةُ المعــالي كيــفَ تُبْنىالمكــارم

لقد تداعت تلك الخواطر على الذاكرة بعدما أعلنت (وزارة الداخلية) عن المطلوبين الذين نيفوا على الثمانين ممن غُرِّر بهم وغُسِلت أدمغتهم وزُجَّ بهم في بؤر التوتر تحت مسمى الجهاد وطلب الاستشهاد، ومن الآلام الممضة أن وراءهم آباء وأمهات لا يرقى لهم دمع ولا تهدأ لهم نفس، وكم يتمنون أن تظفر بهم السلطات عسى أن يعودوا إلى رشدهم ومع ما هم عليه من تقصير بحق أمتهم ودينهم وتنكر لوطنهم فإننا وإياهم موصوفون بقول الشاعر:

إذا احتربــت يومــاً فســالت دماؤهــا
تــذكرت القربــى فســالت دموعهــا

في ظل هذا الخبر المفزع والمحزن تذكرت والذكرى مؤرقة قول الشاعر:

إن كُنْــتَ شــهماً فَــأَتْبع رأســها الــذنبا

وقلت في نفسي: مَنْ الرأس؟ ومن الذنب؟ أيكون أبناؤنا رؤوساً أم أذنابا؟ وما قيمة الأذناب إذا فاتت الرؤوس؟ إن الراصد للأحداث يُدركُ أن المضلين للشباب هم رؤوس الأفاعي. وبفواتهم فوات الحسم للقضية الأهم، وخطورة المضل أنه يَدِبُّ إلى طريدته كما تدب النملة السوداء على الصفاة السوداء في ظلمة الليل، بحيث لا يراه ولا يسمعه إلا من عرف الأيام معرفة المجرب الخبير:

ومــن عــرف الأيــام مَعْرفتــي بهــا
وبالنــاس رَوَّى رُمْحــه غَيْــرَ راحــم

(١) تاريخ المقال: ٢٤/ ٢/ ٢٠٠٩

فأي الحزبين أخطر على الأمة: صناع الجريمة أم منفذوها؟ وكم هو الفرق بين غَرْف السَّواقي ورَدْم المنابع (ومن قصد البحر اسْتَقَلَّ السَّواقِيا) وإن كان ثَمَّةَ عَرَضٌ لمرض فإن هؤلاء الشباب هم عرض المضلين الذين يتخطفون السذج والمتسطحين ويقعدون لهم كل مَرْصد، ولقد حذر البرُّ الرَّحيم من دعاةِ السوء على أبواب جهنم، وجلساء السوء يُدَمِّرون الأفكار كما يدمرون الأخلاق، وبدهي أن الوقاية خيرٌ من العلاج فمطاردةُ الخارجين علاجٌ والتنقيبُ عن المضلين وقاية. فهل وازنا بين الفئتين: الضالة والمضلة؟ وهل أحد منا يقدر خطورة الكامنين في أرضنا كمون الداء العضال في الأجساد، وما أضر على الأمة أن يَرِمَّ الجرح على فساد.

والأمة أمام نوابت السوء مطالبة باحتثاث الجذور التي تمد الشباب بالغي، ولن تَحُول دون فساد الأفْكار إلا إذا قطعت الأثداء التي يلتَقمها المغفلون، ظناً منهم أن فيها الغذاء والشفاء، إذ ما من شاب بادر الضلال دون مُضِل، ومتى عُرِفت الأوكار قُطع دابر المغررين، وشباب الأمة أثمن ثرواتها، والشباب الذي يفارق الجماعة تحت أي مسمى يفقد ذاته وتفقده أمته، ويترك بمفارقته ثنيته التي حثه الرسول ﷺ على حفظها وحَذَّره من أن يؤتى الإسلام من قبله وبمبارحته لها تكون منفذاً للمفسدين في الأرض وحجة زائفة ضد مناهج التربية والتعليم في بلاده وسُلماً يستشرف من خلاله الطامعون عورات الأمة، ثم لا يكون لديها مزيد من الجهد والوقت لحمل الرسالة وأداء الأمانة وعمارة الكون وهداية البشرية، لأنها والحالة تلك مهيضة الجناح. وكأني بالمستهدف برسالتها الإنسانية يردد: (عليكم أنفسكم).

وشبابنا الذين يخرجون من ديارهم للجهاد وطلب الشهادة لم يتلقوا ذلك التضليل من تربية ولا تعليم، فمناهجنا بأيدٍ أمينة ومؤسساتنا الدينية أبْعَد المؤسسات عن الخطاب التعبوي أو التحريضي، وعلينا أمام هذا الاختراق الخطير ألا نَنْشَغِل بالعرض المتمثل بالشباب المفارق للجماعة، بل لابد أن نأخذ بالنواصي الكاذبة الخاطئة التي أضلتهم عن سواء السبيل، ولما تزل تعمل في الخفاء مُسْتغلة الغفلة والطيبة وحسن الظن وانطفاء الحس الأمني عند المواطن وظنه الكاذب بأن رجل الأمن هو وحده المسؤول عما يجري في البيوت والأسواق من خروقات أمنية واختراقات لوحدة الفكر، وكأني بهذا الصنف الاتكالي من الناس يجهل أو يتجاهل مقولة الهادي الأمين: «**كلكم راعٍ**» ولم يقل بعضكم راع، وهذا النداء تحذير للأمة من الغفلة والاتكالية التي يتناسل منها دعاة السوء، والأمة كما وصفها الرسول ﷺ (كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.. فأين نحن من هذا الإحساس المشترك، إن الضال والمضل أناسٌ مثلنا يعيشون بيننا وواجبنا أن نستقرئ الرِّيبة في ملامحهم، ولقد قيل: (كاد المريب يقول خذوني) ولو أن المُريبَ عَرَفَ نباهة الأمة لضاقت عليه الأرض بما رحبت، ولو أن العلماء والمعلمين والخطباء ورجال الحسبة وأولياء الأمور والكافة من العامَّة عرفوا أن الشباب كالأرض الموات يَسْتَنْبتها من يَسْبق إليها ما اسْتَبَدَّ المفسدون بالأرض وتخطفوا أبناءنا من بين أيدينا وزجوا بهم في أتون الفتن وبؤر التوتر ولما وَدَعُوهم يشوِّهون سمعة أمتهم ويَسْتعدون عليها الطامعين بخيراتها المتميزين من الغيظ على ما حباها الله به من نعم ظاهرة وباطنة، والاتهام الجائر الذي تروجه الوسائل الإعلامية المشبوعة لم يقف عند حد الكيان السياسي للأمة بل امتد إلى الإسلام، فالأمة المسلمة حين لا تستطيع أطر أبنائها وترشيد مسارهم وتصحيح مفاهيمهم تكون قابلة لأي اتهام، وذلك ما حصل بالفعل.

لقد وُصِف الإسلام بالتطرف وحُمِّل جرائر الإرهاب وأصبحت الأمة الإسلامية مَظِنَّة الاتهام الجائر مما اضطرها إلى استنزاف كل طاقاتها للدفاع عن سمعتها وتصحيح المفاهيم الخاطئة عن رسالتها في الحياة، وبُعْد مبادئها وتشريعاتها عن الإرهاب، وكيف

تزيغ قلوب المغرضين بحيث يصفون الإسلام بما يناقض مقاصده؟ وكيف يَتَأتَّى لهم ما أرادوا وتعاليم الإسلام تنطوي بداهة على التسامح ولين الجانب وإجارة المشرك والوفاء بالعهد والوعد حتى أنه لا يجوز للمسلم أن يخون من خانه، وتكاثر الخارجين على السلطات المشروعة أتاح فرصاً ذهبية للأعداء المتربصين الذين يحرفون الكلم من بعد مواضعه، والأمة لكي تجفف المستنقعات، وتقطع دابر الشر لابد لها أن تتحرف لمواجهة شاملة دقيقة وأن تتحيز للفئات التي تُنقب في البلاد عن أوكار الخديعة والتغرير عن عصابة الشر التي تتقنع بالدين، وتبدي حرصها على إقامة الشعائر، وهي الأبعد عن منهج الله.

إن في أسواقنا ومؤسساتنا ومدارسنا من يظن كل الظن أن الانحراف الفكري تَلَبُّسٌ ذاتي يصير إليه الشاب بإرادة حرة وقناعة ذاتية ومن ثم لا يمتد الخوف والحذر من وإلى دعاة السوء الذين يستدرجون شبابنا من حيث لا يعلمون.

لقد نجح رجال الأمن بالكشف عن الخلايا النائمة والوصول إلى فلول الإرهاب في أوكارهم في عمليات استباقية والحيلولة دون المساس بالأمن، ولم يبق إلا الوصول إلى رؤوس الأفاعي التي تنفث سمومها وتتخطف الشباب وتزين لهم سوء أعمالهم وتُجندهم للإفساد في الأرض، وتلك مهمة جماعية يبتدرها الآباء والأمهات والإخوان والأخوات والمعلمون والمعلمات ورجال الحسبة وكل من له عينان ولسان وشفتان، فذل الجهاد الحقيقي بل هو الجهاد الأكبر الذي رجع إليه الرسول ﷺ من ميادين القتال إنه الجهاد المفروض على كل مقتدر، لأن العدو اقتحم علينا بيوتنا ومدارسنا ومساجدنا وأسواقنا وخطف من بين أيدينا فلذات أكبادنا، ولو أدرك كل مواطن مسؤوليته ونهض بمهمته لأخرجت الأرض خُبثها ونَفَتْه كما تَنْفي النار خَبَثَ الحديد.

إلى حَيْثُ حَطّت رَحْلها أم قَشْعَم .. ! [١]

التاريخ معايشة أو قراءة وما راءٍ كمن سمعا، وآفة الأخبار رواتها، والتاريخ يكتبه المنتصر، إذاً فالمعايشة تقطع قول كل خطيب، وتاريخ الدول (الديموقراطية) يقوم على تداول السلطة لا احتكارها، ومن ثم يرتبط بالمؤسسات القائمة، إذ كل رئيس يختار فريقه، وإذ لا يَعِد بتغيير جوهر السياسة فإنه على الأقل يغير الطريقة وترتيب الأولويات وتفضيل الحوار على المواجهة.

والتصرفات الرعناء التي مارستها المؤسسة السياسية لدولة القطب الواحد في مشرقنا العربي المنكوب بيد أبنائه وأعدائه على حد سواء تاريخ مرحلة مأزومة، لا يمكن تجاهله ولا تبريره، ولقد يفزع الشقي بعقله إلى آماله الكاذبة ليُهدهد نفسه القلقة بمعسول الأماني، غير أن الحقائق الدامغة لا تدع للمتسلي أملاً ينسيه مآسيه، وحينئذ لا يكون مناص من مواجهة القدر المحتوم بالصبر والاحتساب أو بلطم الخدود وشق الجيوب، ومن المؤلم الممض والظلم الوخيم أن يتوقع العالم الثالث من دولة بحجم أمريكا بما هي عليه من ادعاء عريض للحرية والعدالة والمدنية والتحضر بعض ما تدعيه وما تعد به ثم لا يكون إلا التخذيل والإحباط ومساندة الأعداء الغاصبين أو أن يتوسم بالأبناء خيراً ثم يفاجأ بما ليس بالحسبان ليقول مع النادم على ضياع إحسانه:

أعلمه الرماية كل يوم ... فلما اشتد ساعده رماني

وكم علمته نظم القوافي ... فلما قال قافية هجاني

لقد كان العقد الأول من القرن الواحد والعشرين شرّ الأوعية التاريخية لأنه أتى على كل الآمال، وشرّه المستطير لم يكن من طرف واحد بحيث يُتقى، لكنه من أطراف كثيرة:

ولو كان سهماً واحداً لاتقيته ... ولكنه سهم وثان وثالث

والسنوات الثماني العجاف التي قضاها سيئ الحظ والسمعة والتصرف (جورج دبليو بوش) على سدة السلطة أكلت السنبلات الخضر، وسوف لا تكون فترة النقاهة ميسورة، بل سيظل العالم يتجرع مرارتها أعواماً عديدة، وإذا وقعت الواقعة فإن الأمل ليس في صدها، ولكنه في التفكيك والتحليل واستخلاص العبر وسبل الوقاية من واقعة مماثلة، وتحامي تكرار اللعب القاتلة، حتى يقول المتجرعون للمرارات: التاريخ يعيد نفسه، لقد تجرع العالم العربي تصدير الثورات، وها هو يتجرع المرارة نفسها بتصدير الطائفية، وهو قد فقد وعيه باحتلال (الكويت) وها هو يسمع بمحاولات احتلال (البحرين) أليس في ذلك إعادة حرفية للتاريخ المأزوم، ودفع محموم لمنطقة إلى أتون فتن جديدة تنسي الأمة ما سبق من فتن مذلة.

والقادم إلى البيت الأبيض يرث تركة كما الظلمات التي بعضها فوق بعض لا يدري من أين يبدأ ولا مع من يبدأ، إذ ليس بإمكان مؤسسته أن تنفرد، وليس بمقدور العالم أن يحيّد مؤسسة، وتلك معادلة صعبة.

---

(١) تاريخ المقال: ٣/ ٣/ ٢٠٠٩

وإذا كان الانهيار الاقتصادي الموجع هو الهم الأول فإن انهيار السمعة وانعدام الثقة وتخلف المكانة لا تقل عن النكسة الاقتصادية، وإذ لا يتطلع الشرق الأوسط لتغيير جوهر السياسية الأمريكية وشطب مجمل (الأجندة) فإن الأمل في تحسين طرائق الأداء، فالقادم إلى البيت الأبيض مسؤول عن استعادة السمعة والمكانة والثقة قبل أن يُقيل العثرة الاقتصادية، وقد يتطلع المشرق العربي إلى ملء الفراغ الدستوري في العراق وقمع الغطرسة الصهيونية والحيلولة دون التصدير الطائفي، وبذلك يمكن تفادي الوقوع في المهاوي السحيقة التي وقع فيها صناع الكراهية والاشمئزاز والخوف والجوع وإزهاق الأنفس البريئة وتدمير الممتلكات وإجهاض الأنظمة وذهاب الريح، فالكائن لا مردّ له، ولكن ما لم يكن يود المعذبون في الأرض ألا يكون كالذي كان.

وخروج (بوش) من البيت الأبيض فتح بصيصاً من الأمل فبعض الشر أهون من بعض. ولقد تكون ناصية الداخل إليه مباركة ليعيد الله به بعض ما تتطلع إليه الشعوب المسحوقة، وما يعلم جنود ربك إلا هو، فقد يكون في علم الله عودة الوفاق العالمي ورفع الظلم عن شعوب لا يعنيها إلا عيش الكفاف على يد ذلك القادم الذي قلب كل الموازين بدخوله للبيت الأبيض، وقد كان في يوم من الأيام لا يسمح له بدخول المطاعم الشعبية، ولما لم يكن من المتوقع في المنظور القريب من هو أهل لها من أهل الإسلام فقد يقضي الله بما ليس في الحسبان، وكم يُنصر الإسلام بغير أهله، وما ذلك على الله بعزيز، ومتى أراد الله إمضاء قدره أتاح له من جُنده الذين لا يعلمهم إلا هو، من يبعث في النفوس الثقة والطمأنينية، ويضع أمامهم عدة خيارات، والعالم اليوم بما يعانيه من ويلات لا يدعو ثبوراً واحداً ولكن يدعو ثبوراً كثيراً وتلك الانكسارات المتلاحقة هيأته لقبول الحلول المهدئة للأوضاع وإن كانت دون المؤمل.

والعالم الذي يتنفس الصعداء بخروج الأشأم من البيت الأبيض يود من الداخل فيه ألا يكون كسلفه يستوحى سياسته من الخرافة (الإنجيلية) و(الصهيونية المسيحية) والخوف الذي يجتاله من نكسة عالمية ثانية يستوحيها المراقبون الوجلون من استفحال الخرافة الدينية التي تنساب كالخدر في أجسام أصحاب القرار العالمي، وإذا كان العالم يتأذي من التطرف الذي ينتاب الأفراد دون المؤسسات فإن أخطر مؤسسة عالمية يمسها طائف من تطرف هو إلى الخرافة أقرب منه إلى أي شيء آخر، ولست متفائلاً من وعود القادم الذي لم يصب بعد بوضر المتربصين وراء (الكواليس) وفي (اللوبيات).

والذين يقرؤون ما يكتبه الناجون من شرانق التضليل الصهيوني من شهود الأهل ينتابهم الذعر، وأمريكا التي تقدم حكام العالم في العدّة والعتاد مخترقة من المضلين، ومن تتح له قراءة كتابي (غريس هالسل) (النبوءة والسياسة) (ويد الله)، وما كتب عن خرافة (هرمجيدون) يدرك أن الواقع العالمي يهرول نحو الهاوية، وأن إنقاذه لن يكون بخروج حاكم ودخول آخر، وإنما هو بتحكيم العقل ومبادرة الوفاق والسلام وإتاحة الفرصة للعالم المتعذب بمعالجة أوضاعه بالطريقة التي يراها، وقدر الشرق الأوسط أن يكون قصعة تتداعى عليها الأيدي من كل جانب، وأن تبلغ الغثائية فيه حداً لا يطاق، وأن يختلف قادة العالم بين آكل للطريدة، أو مُستمنح لها/ بحيث يدعُ فيها بقية، وكيف يتاح التفاؤل والفتن تعصف به من كل جانب؟ فمن ثورات سياسية لم تخلف إلا السجون والمقابر الجماعية إلى ثورات طائفية لا تحفل إلا بالتصدير الطائفي والاختراق عبر الأحزاب والمنظمات، ومن مغامرات طائشة كسرت العظم وأحلت قومها دار البوار إلى مزايدات رخيصة من شراذم لا تملك إلا ألسنة حدادا ونواصي كاذبة خاطئة وأبناء عققة يجهلون قواعد اللعب السياسية ومقتضيات الأنساق الثقافية، ومن ثم يهرفون بما لا يعرفون.

والعالم الذي يودع رئيساً إلى حيث حطت رحلها أم قشعم ويستقبل رئيساً يشيعه بتفاؤل عريض بحاجة إلى سياسية قادرة على التفاعل مع المستجدات المحتملة، فالرئيس القادم يفضل خيار الحوار والموائد المستديرة، والعالم العربي ربما يكون الأكثر تضرراً من سياسة الضرب من تحت الحزام، وأمل المتفائلين ألا يغلب عسر يسرين.

أيها القادمون على مطايا الثقة .. ! [1]

أحسبُ أن من أدركتهم الثقة الملكية الكريمة وتخطتْ بهم إلى سدة المسؤولية وشموخ التألق قد بَشِموا من وابل الثناء وثَجِّ التمجيد، وأحرجوا بالتفاؤل المفرط والتطلع الباذخ إلى مزيد من العطاء، وما قيل عنهم وفيهم ضاعف عندهم الإحساس بجسامة المسؤولية، وفتح شهية المواطن لترقب مزيد من العمل الرشيد والقول السديد، ولا سيما أن التغيير في المواقع والوجوه والهياكل لم يكن إجراءً نمطياً يستدرجه الانتظار ويفرضه التقادم، وإنما هو توسل بتغيير ما في الأنفس للظفر بوعد الله بالتغيير إلى الأفضل، تغيير مؤذن بحياة عملية جديدة، تضع في أولوياتها متطلبات المرحلة العصيبة مع الاحتفاظ بمحققات الخصوصية التي يقرضُها طوفان العولمة ذات اليمين وذات الشمال، ويحلم بتشييعها إلى مثواها الأخير من أصابهم الوهن والحزن والغثائية، ولم تكن لهم مثلما ل(الأنجلوسكسونية) و (الفرانكفونية) اللتين تكرسان اللغة والثقافة وتشيعانهما.

والثقة الملكية حين يغدقها ولي الأمر على من يتوسم فيهم الأهلية يضعهم على خط التحدي داعماً لا حامياً، فالثقة تمنح المكلف القبول والتفاؤل ولكنها لا تضمن له النجاح ولا تكف ألسنة الناس عنه حين لا يكون في مستوى التطلع.

وإذا كان الانتخاب بوصفه واحداً من آليات الوصول بالمنتخب إلى تُخُوم المسؤولية فإن التعيين هو الآخر آلية تتخطى بالمُعيَّن إلى غرفة القيادة والتحكم وتضعه تحت طائلة الامتحان العسير، والإشكالية ليست في آلية الوصول من حيث هي إجراء لتسنم المناصب، وإنما هي في الذات المنتخبة أو المعينة، هل ستكون قادرة بما تملكه من إمكانيات ذاتية وغَيْرية على تحقيق تطلعات الأمة وقيادتها؟ فكم نسمع ونرى مُنْتَخَبِين خيبوا ظن الناخبين، ولقد ضربت الأمثال في مقال سابق بطائفة من رؤساء الدول الكبرى الذين كانوا شؤماً على دولهم وبآخرين أدخلوها متن التاريخ، وهؤلاء وأولئك لم يحابهم الناخبون ولم يسط أحد منهم على السلطة وإنما حملته إرادة حرة إلى قمة المسؤولية، ثم ضاقت به ذرعاً وتمنت أن يُخسف به وبداره الأرض، وفي الدول التي تعتمد الاختيار آلية لتسنم المناصب تكون موفقة فيه، وقد تكون دون ذلك، ولهذا نسمع كثيراً بالإعفاء أو بالتداول أو بالتكرير، كل حسب حاجة المسؤولية إليه ورضى الأمة عنه، وأي تغيير يبادر إليه ولي الأمر فإنما هو تطلع إلى الأفضل في الذات أو في العمل أو في كليهما. وأمل الأمة أن يكون الاختيار في محله، وأن يكون المختار على مستوى المسؤولية قدرة ونزاهة وصدقاً وإخلاصاً واستقامة ومرونة وتكيفاً حصيفاً مع الواقع دون تدن في قعره والإعفاء أو التعيين مبادرة لتفادي أي تقصير ومسايرة للأوضاع القائمة، فالعالم يمر بقفزات وتحولات سريعة، لا يمكن اللحاق بها إلا بتدارك الأمر واستباق الزمن واهتبال الفرص، ولقد كانت الدول المتقدمة تركن إلى تداول السلطة وتغيير الوجوه بين الحين والآخر، وإتاحة الفرصة لأي كفاءة وطنية لممارسة دورها في تصريف الأمور وهو ما أخذت به بعض دول العالم الثالث لأنه من الحق المفقود والحق ضالة المؤمن والناصح لأمته لا يني في البحث عن الأفضل، لأن المسؤولية تتطلب الحضور الواعي بمجريات الأحداث ومتطلبات العصر، والذين برحوا غرف القيادة أدوا مهماتهم فمنهم من رضي عن نفسه ورضي عنه الآخرون ومنهم من أحس بالتقصير وعدم التوفيق لأي عارض، ومن ثم أتاح الفرصة لمن هو أهل لمبادرتها، وحق الخارجين علينا الشكر والدعاء بحياة

(١) تاريخ المقال: ١٠/ ٣/ ٢٠٠٩

سعيدة وجولة جديدة فلقد قوبلوا بذات الثناء وعين التفاؤل حين قدموا إلى المسؤولية وعلينا أن نذكر محاسنهم فذلك خلق المسلم.

وأنا في غمرة التفاؤل والترقب ليست مثالياً ولا تعجيزياً وفي الوقت نفسه لست واقعياً يُسَلِّم بكل تقصير أو عجز غير مبررين إنني أخاطب الذين طرقت أبوابهم واختارهم ولي الأمر ليتلقوا راية المسؤولية بحقها وأتمنى أن يكونوا في مستوى تطلعه غير المحابي ولا المتحيز، وكل الذي يتمناه المتجردون من النوايا السيئة والأغراض الشخصية أن يكون المكلف من النواصي المباركة رفيقاً بالعباد حريصاً على التسديد والمقاربة عف اللسان نظيف الجيب سباقاً إلى الخير غير هياب ولا وجل، له عزمات تقيه التردد وفيه حلم وأناه يحولان دون أخذ الناس بما لا طاقة لهم به أو إهمالهم حتى يستمرئوا الخطيئة والتقصير، يمارس مسؤوليته بروح الفريق الواحد لا يستبد ولا يستكين، والمختارون من قبل ومن بعد بشر مثلنا لا نزكيهم على الله ولا ندعي لأحد منهم العصمة وما من أحد من الخلق إلا وله قدر من العواطف التي لا يقدر على كبحها، ولكنه يستطيع أن يمنحها من المنطق والمعقولية والمشروعية ما يجعلها في إطار المقبول، فهناك عاطفة قرابة وعاطفة إقليمية وعاطفة قبلية وعواطف أخرى تعرف منها وتنكر، هذا الغيض من العواطف تجري من ابن آدم مجرى الدم، ولكن المواقف المثالية والمبادئ العظيمة تحبس التدفق العاطفي عند الحد المناسب، فالإنسان ليس صخرة لا تحركه الشهوات والمشاعر، والشهوة تدفع بالإنسان والحيوان نحو الطريدة على حد سواء، والفرق بين المخلوقين أن الحيوان محكوم بشهوة مطلقة فيما يكون الإنسان متلبساً بشهوة مؤطرة بالعقل المجرب والنص القطعي والأعراف المعتبرة، ومتى تساوت الشهوتان في الاندفاع عند الطرفين فقد التميز، وإذا تباينتا قيست الإنسانية بقدر ما تملكه من توازن وكوابح، وكل البشر مخترقون بعواطفهم الإنسانية، ولكنهم يتفاوتون في مدى هذا الاختراق ومشروعيته، وعندما نعطي العواطف والشهوات قدراً من الواقعية نكبح جماح المثاليات ونرشد عمليات النقد والمساءلة فالذين يستبعدون العواطف والشهوات يطلبون المستحيل ويحملون النفوس ما لا تحتمل ويرهقون المسؤولين صعوداً في مدارج الكمال غير المستطاع، ومثلهم كمثل الذي يستبعد المثاليات المعقولة سواء بسواء، ومثلما أن الأمن من مكر الله أو اليأس من رحمته سواء في التأثيم فإن الواقعية والمثالية المطلقتين سواء، وداء المشاهد كلها من هذه الأصناف من الناس الذين يتنازعهم الإفراط والتفريط.

ولنا برسول الله ﷺ أسوة حسنة بقدر ما نأخذ عنه مناسكنا ونصلي كما رأيناه أو سمعنا عن صلاته فإن من واجبنا أن نتأسى به فيما يأتي ويذر، بحيث نمنح بشريتنا قسطاً من حقها، والبشرية لا يمكن أن تتحقق بدون قدر من العواطف والشهوات وكلما حُكِمْنا بطرفي قسط الأمور فوتنا على أنفسنا تحقيق الممكن وأشعنا فيما بيننا لغة التنازع والتناجي الآثم واستفحلت في أوساطنا قالة السوء، وفي سيرة الرسول ﷺ مواقف مارس فيها بشريته التي نكاد نحرمها فيما بيننا تحت وابل المثاليات الزائفة نجد ذلك في موقفه من عمه العباس حينما كان أسيراً، ومن زوج ابنته الربيع بن العاص حين فدته بقلادة ورثتها من أمها خديجة وعندما أراد علي بن أبي طالب أن يتزوج ابنة أبي لهب على فاطمة لقد مارس حقه بشرياً ومن خلال عواطف إنسانية نبيلة ولكنها ممارسة لا تخل بالمواقف النبيلة ولا تغمط الحقوق المشروعة.

وفي غمرة الفرح بهذا التغيير المرتقب سينجلي الغبار ويتبين كل إنسان جواد لزه في المضامير، إن أمام المسؤولين الجدد أولويات وضرورات وتطلعات ولديهم إمكانيات محدودة مادياً وبشرياً، وهم في وسط يحد من انطلاقتهم بذهنيته وبتصوره للأشياء وبمدى استجابته للتغيير، فلا يظن القادمون على مطايا الثقة أن كل شيء على ما يرام، إن أمامهم

لحظات عصيبة وتطلعات باذخة وإمكانيات مادية وبشرية قد لا تكون ملائمة لطموحاتهم، وفي النهاية لا ندم من استشار ولا خاب من استخار والنوايا مطايا ومن عرف الله في الرخاء عرفه في الشدة:

ومهمــا تكــن عنــد امــرئ مــن خليقــة

وإن خالهــا تخفــى علــى النــاس تعلــم

كن زهرةً فواحةً أو بلبلاً مترنماً .. ! [(١)]

بين الفراغ والامتلاء شعور متذبذب لا يقر إلا كما يقر ضوء المرآة في كف الأشل.

الممتلئ يتأوه.. ويتفصد عرقاً، ويضيق صدره، ولا ينطلق لسانه ويبدو مرتبكاً كما لو أنه مغلوب على أمره، وبوده لو حبست الشمس في كبد السماء لينهي ما يود إنهاءه، المرء يموت وحاجاته باقية، وكل من تحت الثرى فارقوا الحياة وفي أنفسهم حاجات لم تنقض وآمال عريضة جمدت على شفاههم وهم يؤملون.

والفارغ يتأوه لأن فائض الوقت والجهد يثقل كاهله، وغبطته أو حسده للممتلئين يعتصران قلبه:

أواه إن نظَـــرت وإن هـــي أعرضـــت
وقـــع الســـهام ونـــزعهن ألـــيم

وهكذا امتلاء الحياة وفراغها عناء في الذهاب وفي الإياب، وهكذا هي حيوات الناس إلا من رحم ربك وقليلٌ ما هم، الممتلئ يود لو أنه فارغ ليبتهج بملذات الحياة، والفارغ يود لو أنه ممتلئ ليؤتى مثلما أوتي السعداء، والشهوات العارمة تريد من المستعبد أن يسبق ظله ليحسم أمره، ولو كانت سرعة الضوء بالنسبة لسرعته كسرعة السلحفاة لما استطاع أن يباريه فضلاً عن أن يسبقه، إن التطلع للفراغ أو الامتلاء نوع من ملل الرتابة، وسيظل الإنسان متأوها في كل حال، ضجراً حتى من الضجر، ولكنه حين يفقد ما سئمه يبكي عليه بحرقة:

رب يـــوم بكيـــت منـــه فلمـــا
صـــرت فـــي غيـــره بكيـــت عليـــه

فالصحيح لا يشعر بالصحة إلا في حال المرض، والغني لا يشعر بالغنى إلا في حال الفقر، والآمن المطمئن لا يلتذ بالأمن إلا حين ينتابه الخوف، والضيق والبرم ينتابان الأصحاء والمرضى والأغنياء والفقراء والممتلئين والفارغين، والترف ذروة القرن والجوع أمهر الطباخين، وحتى الذي يغمره الفرح أو تفاجئه السعادة ينفجر بالبكاء، وقد لا يبكي المفاجأ بالنقمة فهل سيظل الإنسان في كبد كما خلقه الله؟ ومتى يشعر بحياته السوية وبأوضاعه المواتية؟

لقد وقفت على فقراء مغتربين يسامون سوء العذاب يتبادلون النكات وينفجرون بالضحك، ومن حولهم أثرياء وكبراء في عبوس مستطير وشرود مذهل وبسور ونفور، ولقد قال لي ذات يوم أحد الأثرياء: السعيد في البيت الحارس والسائق يعودان إلى السكن فيسترخيان بارتياح، ويأكلان بنهم ويتقابلان في سمرهما بشغف يتبادلان أطراف الأحاديث لا يشغلهما شيء ولا يقلقهما أمر، وأنا وحدي الذي أغالب السهر وأتقلب على الشوك وأتجرع الماء ولا أكاد اسيغه، لا لشيء إلا الوهم والتوهم والخوف والحرص والشك هواجس مروعة وتشاؤم مخيف يحجب الرؤية وتظلم معه الحياة.

قلت: ألم تقرأ فلسفة (التعادلية) عند (توفيق الحكيم) وهي فلسفة لا نسلم لها ولكننا نأنس بها، ونرى فيها بعض الحق، وملخصها: (كل قوة يجب أن تقابلها وتعادلها قوة) (وخلاصتها أن الواحد الصحيح وجود سلبي) إذا لابد من التناقض ليظل التفاعل، ولعلها ألصق بالثنائية في الفلسفة.

---

(١) تاريخ المقال: ١٧/ ٣/ ٢٠٠٩

وأناسي هذا الزمن كما هم في كل زمان أسرى وجود لا ينفكون وممثلون على مسرح الحياة لا يفترون، وفي النهاية يدعوك كل شيء على ما هو عليه ليبادره الوارث للأموال والأعمال، إذ ليس للإنسان من ماله الا ما أكل فأبلى أو تصدق فأبقى، (وكل الذي فوق التراب تراب) و:

نفسي التي تطلب الأشياء ذاهبة

فكيف أبكي على شيء إذا ذهبا

هذا الزمان العصي على الفهم والسيطرة ما هو؟ زمان نبادله التداول، نقضيه أو يقضي علينا نستهلكه أو يستهلكنا، إنه الماضي والحاضر والمستقبل، ذلك اللحظة التي أنت فيها إنها اللحظة الأبدية، زمان ينتظمنا جميعاً إنه الثانية بل هو الجزء من سبعة عشر جزءاً من الثانية، إنه زمنان:

-زمن نحسبه بالمقادير ﴿لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾.

-وزمن نحسبه بالمشاعر.

زمن نتحرك فيه وزمن يتحرك فينا زمن مشترك يمضي بالناس جميعاً وزمن خاص يستبطنه كل إنسان متعدداً بتعدد الأناسي، والزمن الشمولي قد يكون مواتياً يتوافر فيه الأمن والرخاء والاستقرار ولكنه محجوب بالزمن الذاتي بكل معاناته:

أصخرة أنا مالي لا تحركني

تلك المدام ولا هذي الأغاريد

هناك زمن وجودي قال به (سارتر) وسائر الوجوديين، وزمن نسبي قال به (أينشتين) في نظريته (النسبية) وأزمنة أخرى قال بها فلاسفة ماديون وروحانيون أمثال (غاستون باشلار) و(هيدغر)، وفي كتاب (فكرة الزمان عبر التاريخ) استيفاء لتضارب الآراء، وكل الذي يعنينا الزمن الشعوري إذ هناك زمن (الرزنامة) بوصفه خارجياً موضوعياً تاريخياً نكون فيه مُحْدِثين نمارس الأداء فيصطبغ بها، لأنها أحداث لا تكون إلا عبر الزمان والمكان وزمن ذاتي يصنعه تصورنا للأشياء وتفاعلنا معها:

كن بلسماً إن كان دهرك أرْقَماً

وحلاوة إن صار غيرك علقما

كم تشتكي وتقول إنك معدم

والأرض ملكك والسما والأنجم

ولك الحقول وزهرها وأريجها

ونسيمها والبلبل المترنم

والمرتهن للزمن الذاتي يكون مكتئباً لشيء قد فات:

هيهات يرجعه اليك تندُّم

أو خائفاً من حلول مصيبة

هيهـــــات يمنـــــع أن تَحِـــــلَّ تجهُّـــــمُ

هكذا الملأ مع الملل يفرضونه على أنفسهم ويعيشون عذابات السنين حتى إذا ولى الزمن بكوا عليه بحرقة وتوله، ولقد يكون بإمكان أحدهم أن ينعتق من الضجر، وفي الحديث: «**إنما الصبر عند الصدمة الأولى**».

شعراء وأمراء وأثرياء وفلاسفة ملؤوا الدنيا عويلاً ولم يغيروا من قدر الله شيئاً، وآخرون رضوا بما قسم الله لهم واستقبلوا قدرهم بالصبر والاحتساب وقنعوا بما أوتوا.

لقد طاف المتربيون والمترفون يبحثون عن السعادة وكأن أحدهم ذلك الفيلسوف الذي انطلق بسراجه في رابعة النهار ليبحث عن الإنسان أو عن الحقيقة وهكذا البحث عن السعادة:

ربما استوطنت الكوخ وما في الكوخ كِسْرة

وخلت منها القصور العاليات المشمخرة

وهذه (ميسون بنت بحدل الكلابية) تجسد معاناتها في قصر الخلافة ومن حولها مغريات الحياة وتتمنى الصحراء مع من تحب:

لبيـــــت تخفـــــق الأرواح فيـــــه

أحـــــبُّ إلـــــي مـــــن قصـــــر منيـــــف

وظاهرة التشاؤم والألم في الأدب العربي تعكس الأجواء المكفهرة التي يصنعها الوهم .. فأين نحن من (ابن الرومي) و(أبي العلاء المعري) وفي العصر الحديث (محمد حسن فقي)، إنها صناعة يعمد إليها الإنسان تحت تأثير العوامل النفسية أو الفكرية والشعراء والسرديون والمفكرون هم الذين أتقنوا وصف الحياة كما صنعها الإنسان لا كما خلقها الرحمن.

رب ليلٍ كأنه الصبح في الإشراق .. !(١)

الوفاء للنبلاء ملمح إنساني وحضاري وتربوي في آن، والأمة الجادة تجد متسعاً من الجهد والوقت والمال لتشيد بالنابغين والنابهين والمتفضلين بجهدهم وجاههم والمتصدقين من فضول أموالهم من أبنائها.

ومعرفة الفضل لذويه من المحفزات لتواصل الفضل وتوارثه بين الأجيال وإشاعته بين الناس من باب إدخال السرور على النفوس وبخاصة الأقربون للنبلاء الذين يجدون في تألق أبنائهم ما يسرهم، ومن ذا الذي لا يود لنفسه ولذويه إشاعة الذكر الحسن، مع أنه مطلب إسلامي (اذكروا محاسن موتاكم) والذين يشهدون تلك اللحظات المضيئة أو يسمعون بها من سائر الناس قد يستدركون أمرهم ويضاعفون جهدهم ليكون لهم مثلما أوتي هؤلاء، فالتألق والتفوق قبس كامن في النفوس يرقب الأجواء الملائمة ليشع بالنور والدفء، وإحساس العباقرة والاستثنائيين بأن وراءهم من يحفظ لهم ذكرهم يحفزهم على مزيد من العطاء ومبادرة الفرص المواتية، وما أضر بالأمة إلا التخذيل أو التجاهل، وما قعدت بها إلا المواقف السلبية، وكم من النوابغ من سبقوا زمنهم أو جاءوا في الوقت الضائع، وكم من نابغ ذرف دموع التحسر على الإمكانيات المهدرة لا لشيء إلا أنها جاءت في الزمن الرديء:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا
ليوم كريهة وسداد ثغر

سيذكرني قومي إذا جد جدهم
وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

والتاريخ لا يكتب نفسه، إنه أحداث تمر على مسرح الحياة، والمؤرخ يحبسها كما يحبس المصور اللحظة من المشاهد، وحين لا ترقد الأحداث على صفحات التاريخ تمحى من الذاكرة، وتدوين التاريخ الشفهي إنقاذ لما يمكن إنقاذه، وأجمل شيء تأريخ ما أهمله التاريخ، وما أكثر الوقوعات المهمة التي تند عن قلم الرقيب، والرجال النوابغ هم الذين يصنعون التاريخ، فإذا لم تمتد إليهم الألسنة اللاهجة بالثناء والأقلام، المشيدة بالأفضال يطويهم النسيان ثم لا يكونون قدوة حسنة لمن يأتي بعدهم، وكم من أفذاذ درجوا على مسرح الحياة، وتميزوا بعلمهم أو بأعمالهم الإنسانية أو الوطنية ثم لم يهيأ لهم من يشيع أمجادهم ويسجل مواقفهم الإنسانية فأصبح تاريخهم هباء تذروه الرياح، وخسارة الأمة في فقد القدوة وفقد التاريخ وثبات الأمم في عمقها التاريخي وسير أعلام النبلاء، والتاريخ السياسي وجهان للحياة السوية، وفقد أحد التاريخين فقد لشطر من تلك الحياة، ومن أضاع حاضره فهو لما سواه أضيع، وتفلت أحداث الحاضر من الذاكرة الجمعية قطع متعمد لتسلسل الحياة السوية.

وبلادنا بإنسانها أهل لرصد الأحداث والفاعلين، ومجالات التكريم والإشادة كثيرة ومتنوعة وكل من لاقيت يبارك مبادرات التكريم على أي شكل ومن أي جهة، سواء كان بالاحتفاء الاحتفالي أو بالتأليف أو بالأوسمة والدروع أو بالأسابيع الثقافية والمسؤولية أوزاع بين المؤسسات والأفراد القادرين مادياً أو معرفياً، ولقد حظي النابهون من أبناء البلاد بمواقف تكريم أو تخليد لذكراهم، بعثت في النفوس البهجة والسرور والاطمئنان،

---

(١) تاريخ المقال: ٢٤/ ٣/ ٢٠٠٩

ولما تزل صفوف المستحقين تمتد على طول الطريق، ومن الخير أن يسعد النابهون والنابغون بحياتهم وفي حياتهم، وأن يغتبط أبناؤهم وأحفادهم بما يقدم لهم من تكريم يليق بمكانتهم وبما بذلوه من علم أو عمل متميز.

وكل منطقة أو مدينة أو مرحلة زمانية في بلادي تنطوي على كفاءات علمية وعملية جديرة بالتكريم، وما لم نتدارك الأمر فإننا نفوت على أنفسنا وبلادنا فرصاً نادرة ما كان لها أن تفوت في زمن تتوفر فيه كل الإمكانيات والإسلام يحثنا على أن نشيد بمن يستحق الإشادة وأن نوفي الكيل إذا كلنا الثناء لمستحقه وأن يكون عملنا خالصاً لا يشوبه تزلف ولا نفاق ولو نظر الإنسان إلى منطقته لوجدها زاخرة بالرجال الأفذاذ الذين يبذلون الجهود والأموال والإمكانيات في خدمة بلادهم، وهي وإن كانت سجية فيهم وتصرفاً عفوياً، وخليقة وطبعاً لا تطبعاً إلا أن ذلك يفرض على الكافة أن يعرفوه ويشكروه ولا يعرف الفضل لذويه إلا ذوو الفضل، وفي الحديث: «**من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تستطيعوا فادعوا له**» والشاعر العربي يقول:

لا خيـــل عنـــدك تهـــديها ولا مـــال

فليســعد النطـــق إن لـــم تســـعد الحـــال

ومن النطق المسعد إشاعة الذكر الحسن فـ(الذكر للإنسان عمر ثان)، والتكريم الذي يتطلع له ذوو الشخصيات الاستثنائية يأتي في ذروته حفظ الذكر عبر الكتب وتسليط الضوء على الشخصية عبر الندوات والمؤتمرات والاحتفالات، ولقد مرت البلاد بمناسبات وإسهامات تبعث في النفس الراحة والسعادة؛ إذ ما زلنا بخير -والحمد لله- وما نقوله من باب طلب المزيد.

ولعل آخر مناسبة أثارت في نفسي تلك الخواطر (تدشين) كتاب (والدي: علي بن عبد الله الحصين ١٣٥٠- ١٣٨٢هـ لمعده الأستاذ الدكتور عبد الله بن علي الحصين وتفضل المربي القدير الأستاذ محمد بن عثمان البشر بتوجيه الدعوة لكوكبة من العلماء والوزراء والأدباء ورجال التربية والتعليم والأعيان من أبناء بريدة لأمسية مشرقة ذكرتني بقول الشاعر:

ربّ ليـــل كأنـــه الصـــبح فـــي الإشـــراق

وإن كـــــــان أســـــــود الطيلســـــــان

والكتاب أعاد للذاكرة شاباً طُلعة متوقد الحماس، اخترمته يد المنون قبل ثماني وأربعين سنة، وهو في عنفوان شبابه وأوج عطائه الوطني، لقد كان لموته المفاجئ في حادث مروري عام ١٣٨٢هـ وهو في مستهل العقد الرابع من عمره رنة حزن وألم وبخاصة عند الذين عرفوه أو زاملوه أو اكتشفوا بعض مواهبه. فهو بحق ثاني اثنين متألقين من طلاب الشيخ العلامة عبد الله بن محمد بن حميد رحمه الله، إذ يشكل مع عميد الرحالين العلامة محمد بن ناصر العبودي ثنائياً استثنائياً في العلم والذكاء والمعرفة واستشراف المستقبل، وكان مع ثلة من الشباب قد وصلوا حبالهم بالتراث والمعاصرة، ولعلَّ صلتي المبكرة بالأدب المصري المعاصر في الثمانينيات من القرن الهجري الماضي على أيديهم حين جلبوا المجلات كالهلال والرسالة والمصور وآخر ساعة والكتاب المصري والمقتطف وكتاب الهلال وسلسلة اقرأ وكتب العقاد وطه حسين والزيات ومبارك والحكيم ومحفوظ ومحمود وفتحوا مكتبة عصرية يرتادها الشباب للتزود من أحدث الإصدارات، لقد تقلب في عدة مناصب تربوية وإدارية وكان من أوائل

حملة الشهادة الجامعية ومن المتفوقين الذين كرمهم الملك سعود -رحمه الله- حين حضر حفل التخريج.

والكتاب الذي استقبله أبناء بريدة بتظاهرة ثقافية حضرها معالي رئيس مجلس القضاء الأعلى الشيخ الدكتور صالح بن عبد الله بن حميد ومعالي الشيخ محمد بن ناصر العبودي ومعالي الدكتور علي المرشد ومعالي الشيخ محمد بن عودة السعوي وثلاثة من مديري التعليم السابقين في القصيم وعدد كبير من الأدباء والأعيان ورجال التربية والتعليم، هذا الكتاب يكشف عن جوانب مهمة من حياة الفقيد، فهو يقع في بابين وثلاثة عشر فصلاً وملحقين وذروة سنامه الفصل الأول من الباب الأول وهو عبارة عن ذكريات وانطباعات معاصريه ومجايليه، وتلك البادرة اقتفاء لأثر الأوفياء الذين استدعوا بكتاباتهم شخصيات وطنية تميزت بعلمها الأصيل أو بعملها الإنساني أو الوطني الخير، وتحريض للقادرين على الكتابة لتناول مزيد من تلك الشخصيات.

فعلى مستوى المنطقة أعدت كتب قيمة عن بعض رجالات القصيم الذين بذلوا علمهم أو جهدهم أو مالهم في الخدمة العامة، وآثروا على أنفسهم في أحلك الظروف، ولقد أثنى الله على الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، و(نَجْد) مرت بظروف صعبة اختل فيها الأمن وشحت فيها الأرزاق وبرز في هذه الأثناء محسنون ومحسنات أقرضوا الله قرضاً حسناً، وبعد أن استتب الأمن والرخاء والاستقرار وتوحدت البلاد على يد المؤسس وأفاء الله عليه وعلى رجاله كل مقومات الحياة الكريمة أصبحت البلاد بحاجة إلى من يسعى بحاجاتها من تنمية وإعمار ومتابعة لمشاريعها، فكان أن نجمت فئة صالحة تبذل جهدها ومالها وخبرتها ووجاهتها وتشد من عضد المسؤولين.

والشباب اليوم أحوج ما يكونون إلى التعرف على هذا النوع من المواطنة للاقتداء.

وفي المقدمة التي تُوِّجَ بها الكتاب بقلم صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن بندر بن عبد العزيز استنهاض للخلف لتدوين تاريخ السلف ليكون في متناول ناشئة البلاد قدوة صالحة.

ومنطقة القصيم حظيت بكفاءات وطنية أنجبتها أسر كريمة كتب عن بعضها ولا يزال البعض بحاجة إلى من يكشف عن أبعادها الإنسانية والعملية والعلمية والتربوية والوطنية، فلقد كُتب عن الصحفي الرائد سليمان الدخيل والرحالة العلامة محمد العبودي والوجيه حمد المالك والدبلوماسي محمد الشبيلي والتربوي صالح بن سليمان العمري والأديب صالح الوشمي والعالم الورع صالح البليهي وآخرين لا أذكرهم وعلى قوائم الانتظار أمثالهم، فهل ينبري المقتدرون لجمع المعلومات وإبرازها للناشئة لتكون قدوة صالحة ووفاء من الخلف للسف، أرجو ألا تفوت الفرص.

إنه نايف الذات والتجربة والموقف .. !(١)

لم تكن النيابة الثانية لرئاسة مجلس الوزراء فضلةً ولا مرتجلة، والنظر إليها من زواياها المتعددة تُرْجع البصر، وقد استفاض بالمؤكدات على أهميتها، إذ هي تمسك بطرفي (الدولة) و(الحكومة) بوصفهما مصدر التشريع والتنفيذ، والأمن المنشود لم يعد الأمن من الخوف على الضرورات الخمس وحده، فالأمن السيادي والسياسي وتفادي الفراغات الدستورية من أهم مقاصد الدولة الحديثة، وتوظيف الخبرات واستغلالها وتجهيز الاحتياطات من أولويات الدولة الناصحة لله ولرسوله ولأئمة الناس وعامتهم، وقياس الإخلاص في أخذ الحيطة والحذر من أي عارض يستغله المتربصون في البلاد الدوائر، والكيّس من حمل الأمانة وأداها على وجهها، وصناعة الأمن بكل أنواعه لا يقل أهمية عما سواه من مسؤوليات تجهيزية أو سيادية.

ومجيء المسؤولية الجديدة بكل ما تحمله من مهمات جسام منقادة لرجل بحجم نايف بن عبد العزيز وإمكانياته ذاتاً وتجربة ومواقف يقع حيث يَدُوْكُ الناس كلَّ وقتهم عَمَّنْ يعطاها، وكأني بهم سمعوا هاتفاً يقول: ليأخذها غداً أو بعد غد رجلٌ تجتمع كلمة الأمة على أهليته وأحقيته.

وما كان الأمر الملكي الحكيم بتعيين سموه نائباً ثانياً لرئيس مجلس الوزراء مفاجئاً ولا صدفة، كما أن ابتهاج الناس وارتياحهم لم يكن مجاملة ولا مسايرة. وضجة الفرح والتفاؤل بهذا الحجم تنبعث من خلفيات انطباعية ومعهودات ذهنية، فرجل واكب الأمة نصف قرن وعرف من أحوالها ودخائلها ما لم تتهيأ معرفته لغيره، ورجل عركته التجارب العويصة وامتحنته المواقف العصيبة لا يكون استقبال اختياره دون ما هو كائن.

وعندئذ فالاختيار وصداه ظاهرتان طبيعيتان، يكون أحدهما عندما يكون الآخر، ولن يكون من المتوقع تخلف أحدهما، فقيادة حكيمة تضع نصب عينيها مصلحة الأمة لن ترجئ مثل هذا القرار الأهم إلى حيث يتساءل الناس عن تأخر مثله عن وقته، وقرار حكيم يأتي على قدر لا بد أن يحمل الأمة بمختلف أطيافها على التفنن في التعبير عن المشاعر كل حسب رؤيته، والكلمة و(الكاميرا) أدقَّا راصدين للتعبير العفوي الطوعي عما تكنه المشاعر، ومهندس الأمن بصورته في الأذهان حين يبتدر مسؤوليته الجديدة بهذه الأهمية سيكون بلا شك مهندساً أبرع في حقله الجديد ورهان الناس ينطلق من شواهد إثبات لمسوها بأيديهم ورأوها رأي العين، والمسؤولية التي تلقاها باليمين سيكون الأقدر على تكوين ثقة جديدة لن تقل عما كوَّنه من ثقة سابقة تزيد مع الأيام رسوخاً وثباتاً، والناس الذين بلغت بهم الثقة والاطمئنان إلى حد النوم نوم قرير العين هانيها في جوٍّ مفعم بالمخاوف مليء بالكيد مشحون بالترصد، لن يساورهم أدنى شك في استقباله القرار الحكيم بذات الإمكانيات المعهودة لينهض بتبعاته على وجهها، ونهض مثله بمهمات تراوح بين سلطتي التشريع والتنفيذ مبعث ارتياح لمن عرفوا سموه وعرفوا فيه مقومات الرجل الحاكم من حلم وأناة ورفق ولين وتيسير وتجربة عميقة وشاملة، لقد كان من قبل ومن بعد رجل دولة ورجل مسؤولية، يعرف دخائل الأمور ومؤشراتها ويبتدر المواقف بقوة الواثق الخبير، ولأنه متمكن أمكن في ذرى المجد فقد جاءته المسؤولية الأهم ليكون معها الرجل المناسب للمكان المناسب والناس الذين أجمعوا على الابتهاج والثناء شهود الله في أرضه إذ الأمة لا تجتمع على ضلال، وبوادر التوفيق ومبشرات النجاح يجسدها تدفق المشاعر، والرأي العام لغة رقمية تقطع قول كل خطيب، وما كان لمثله أن يرقب

---

(١) تاريخ المقال: ٦/ ٤/ ٢٠٠٩

الإجماع ولا أن يفاجأ به فهو قائم في النفوس قبل أن يتجسد في الواقع قولاً وعملاً، وإذ ذهب الناس في ضجة الفرح فإن آخرين سيستغرقهم الابتهال إلى الله بالدعاء الصادق لسموه بأن يمنحه الله الصحة والتوفيق، وأن يشد عضده بأنجال المؤسس وأحفاده والخيرة من أبناء هذا الوطن وأن يكون مباركاً أينما كان في المسؤوليات محفوفاً بعناية الله مصنوعاً على عينه محاطاً برجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، ناصحين لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم يعينونه على نوائب الدهر، فهو اليوم أحوج ما يكون إلى الدعاء وشد الأزر وتهيئة الأجواء الملائمة ليمارس مسؤوليته كما مارسها من قبل في أهم مرفق تنفيذي.

والدولة والحكومة في النهاية وجهان للمجتمع المدني الذي ينتهب الخطى للحاق بركب الحضارة الإنسانية على هدي من كتاب الله وسنة رسوله.

وتوخي السلامة من أية فراغات تربك المسيرة مؤشر استشراف حصيف للمستقبل وحَمْلٌ أمين وناصح للمسؤولية، وحين سأل إبراهيم عليه السلام ربه أن يريه كيف يحيي الموتى قال له ربه: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ وتطلع الأمة إلى تفادي الأمور قبل وقوع أي عارض ممكن إنما هو لمجرد الاطمئنان فضلاً عن أنه تزود من الخير المندوب إليه، ولقد كانت المبادرة الاحتراسية بتشكيل (هيئة البيعة) تفادياً للفراغ الدستوري الذي أصاب دولاً كانت آمنة مطمئنة فأذاقها الله بهذا الفراغ لباس الجوع والخوف، والأمانة تقتضي استباق الأحداث، والرائد لا يكذب أهله، والأمة حين تحكم بالعدل والإحسان تفرغ لشأنها على حد:

إذا أيقظتك هموم العدى
فنبِّهْ لها عمراً ثم نم

وخادم الحرمين الشريفين بمبادراته الموفقة يستبق الخيرات فله ممن استرعاه الله عليهم كل الحب والإخلاص والدعاء الصادق والسمع والطاعة في المنشط والمكره، والله وحده المسؤول أن يحفظ لهذه الأمة أمنها واستقرارها وأن يكلأها بعينه التي لا تنام وبعزه الذي لا يضام، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

هي الدنيا إذا اكتملت .. ![1]

لم أعد أذكر متى لقيت الفقيد عبد الله الجفري - رحمه الله - ولا أين لقيته، غير أني أعرف جيدا أنني لقيته أكثر من مرة، في مناسبات ثقافية مختلفة الأزمنة والأمكنة والقضايا.

كان حين يراني يمد يده وفي نفسه خيفة لظنه أننا شتيتان لا يلتقيان، وأن انفتاحه على كل الخطابات و(رومانسيته) المتولهة ونفوره من (التأدلج) تشكل عقبة في طريق خطابي، ولربما كان الشباب الذين آزروا بعض من أجادل حول مجمل القضايا الشايعة إذ ذاك قد ضخموا له حَدِّيَّتي وجِدَّتي، وظنه الذي أقام ارتيابه مقام ثقته ترك في نفسي خيفة كخيفته، غير أننا في ظل هذا التوجس نتبادل الاحترام ونشعر بأننا رضيعا لبان، وإن اختلفت همومنا وتباينت وجهاتنا، ومما بدد الغيوم المتلبدة أنني في أحد اللقاءات الصحفية نفلته بهذا الدعاء: (شفى الله قلبه وملأ جيبه) وكنت أعرف يومها أنه يمر بأزمتين؛ صحية ومالية، فأحس بعدها أنه لم يتثبت، وما لقيته بعدها إلا كان الحفي بي الممعن في التفسح لي. وهو يعرف جيدا تبايننا في الآراء والأفكار، ولكنه تباين لا يستدعي الجفوة. ومع كل هذا فلقد كان لطيفا وحييا وودودا وإن كان ينطوي على حزن دفين، وكآبة مفرطة، ولأنه فنان مرهف الإحساس، وموهوب مغموط الحق فقد ظل اللائم والملوم في آن، حتى قضى أجله، ونفسه الرقيقة مع الناس كانت عنيفة معه، لا تتيح له فرصة للتفاؤل، وإن منحته كل الوقت للتأمل والبوح.

أذكر أنني قرأت كتاب (الجيل الخائب) ل(ادوار دكار) وهو كتاب يتحدث عن إخفاقات (الرومانتيكيين) والشقاء البشري وأجزم أنه ترك أثراً في نفسي عن هذا الصنف من الكتاب والشعراء، وبخاصة شعراء مدروسة (أبوللو) ممن انقطعوا لهذا اللون من الإبداع، وممن راوحوا بينها وبين (الواقعية) بشقيها؛ الاشتراكي والاجتماعي.

ولقد كنت مغامراً حين اقترفت جريرة التصنيف بِعَدِّ (الجفري وباجبير والبواردي) ومن قبلهم (عبد الكريم الجهيمان) من هذه الفئة المتمردة على سائر الأوضاع والمتوسعة في مفهوم الحرية الفردية، وقدر هؤلاء أنهم احترفوا الكتابة والحضور المتواصل، والأشقياء المعذبون من يقتاتون من شبا أقلامهم وراس هؤلاء المأسوف على رحيله بعد اكتمال دنياه (أبو وجدي) الكاتب الذي لا ترفع أقلامه ولا تجف صحفه، وشح الحياة وتقتيرها ألجأت كثيرا من المبدعين في مختلف العصور على ممارسة كل أنواع الكتابة والإبداع، وهل أحد يشك بأن (أبا الطيب المتنبي) لو كان غنياً عما في أيدي الناس لكان شعره وفكره ورؤيته نقلة حضارية، على أنه احتفظ بالكثير من التألق وظل الناس حوله في سهر وخصام لأنه يملك نواصي كثيرة، من أهمها ناصية اللغة، ولقد كنت ولما أزل أقول: إن ثلاثة شعراء ملكوا ناصية اللغة بشكل لم يتح لأحد مثلهم (المتنبي) و(شوقي) و(نزار قباني) مع استحضاري لمقولة: (لولا الفرزدق لضاع نصف اللغة) والشهادة بالمواهب والقدرات ليست لقصد التزكية، لكنه العدل والمصداقية، وعيب مشاهدنا النقدية أن تباين الأفكار، يقتضي سلب الحقوق ومصادرة المشروعية، ولو تأسينا بعلمائنا الأوائل لكنا حفيين بالقدرات متحفظين على الاتجاهات، فأين نحن من إمام المفسرين (جار الله الزمخشري) الذي يعد من رؤوس الاعتزال المتعصبين لمذهبهم، ومع ذلك حفل به علماء السلف وعولوا على تفسيره (الكشاف) ولم يحملهم شنآنه على الإجحاف بحق المشروع وإمكانياته المتميزة.

---

(١) تاريخ المقال: ٧/ ١٠/ ٢٠٠٨

والجيل الذي وصفه (ادوارد كار) بالخائب هم الذين علموا الناس (الفكر كيف يُحس والإحساس كيف يُفكر. هؤلاء الذين وضعوا الحرية الفردية في هيكل العبادة وأحرقوا لها المباخر والشموع) - كما يقول مترجم الكتاب - والمتابع لكتابات الجفري رحمه الله يجد أنه يمد بسبب إلى أصحاب هذا الاتجاه، وإن كان للأجواء والأنساق مقامعها التي تحد من الاستنساخ أو الجماح.

قلت: إن من البلية أن يكون قلم الكاتب كمنجل المزارع وشبكة الصياد ومعول العامل، وهذا الصنف من الكتاب يكتب متى أراد المموِّل لا كما يريد الكاتب، والأفكار كالدّر تحتاج إلى أجواء ملائمة. لقد جنت الحياة على المقتدرين وذوي المواهب، فهذا (أنيس منصور) الكاتب الموسوعي خير شاهد على هذا الصنف من الكتاب، ومن قبله (العقاد) الذي انعتق من (الرومانسية) ومن المسايرة وإن ظل يقتات من قلمه والجفري رحمه الله مارس الكتابة على مدى أربعين سنة في مختلف الصحف والمجلات محليا وعربيا. ولم يفرغ لنفسه وإبداعاته الروائية والقصصية إلا قليلا.

ولعلنا نستذكر مقولة (طه حسين) عن شاعر الغزل العذري (عمر بن أبي ربيعة) حين فرغ لنفسه ولم يفرغ لكيسه، فهو من الشعراء الموسرين الذين لم تشغلهم مطالب الحياة كسائر الشعراء المدَّاحين الذين ألجأتهم الحياة إلى التكسب بالشعر، والجفري كاد ينصرف من الإبداع السردي إلى الكتابة الصحفية لمغالبة الحياة. لم يكن موت الجفري مفاجئا، (توقع زوالاً إذا قيل تم) و(هي الدنيا إذا اكتملت .. وطاب نعيمها قتلت). لقد جالد حتى استوت له، وفي لحظات الانتصار دب إليه مرض القلب ولما احتمله، خانته كبده فلم يستطع الصمود، وأحسبه فارق الحياة، وليس في قلبه حسرة، خلّف تراثا وخلف أبناء، وتفضل أديب الأثرياء وثري الأدباء الأستاذ (عبد المقصود خوجة) بطبع أعماله كلها في ستة مجلدات ضخام، وهو عمل مشكور كنت أتمنى لو اقتدى به مقتدرون آخرون، فكتاب المملكة وأدباؤها يكادون يكونون مقطوعي الصلة بالقارئ العربي، وحاجة أدبائنا وأدبنا إلى تجسير الفجوات وإسماع الأصوات لنخرج من قمقم النفط والتصحر الذي أكرهنا عليه واتهمنا به ظلما وعدوانا.

ومن الصدف الغريبة أنني كلما نظرت إلى مجموعة أعماله في الغرفة المخصصة لتراث المملكة والجزيرة وآدابها في مكتبتي أحسست أنني بحاجة إلى استعراضها، فقد أكون مضطرا للحديث عنه يوما ما، وبخاصة حين أقعده المرض، وحين جاءني خبر (فزعت فيه بآمالي إلى الكذب) لم أجد بدا من انتزاعها والفراغ لقراءة ما تيسر منها، إذ لم أكن من قراء الجفري لكثرة ما يكتب، ولتعدد مواقعه، وتنوع إبداعاته، وإن كنت ألم ببعض إبداعاته الروائية والقصصية، متى تيسر ذلك، أو اقتضى التعليم استحضارها، فهو من الشخصيات المموضعة، بسبب حضوره بوصفه مبدعا روائيا وقصصيا، والقول الموضوعي لا يكفي فيه رسيس المعرفة، وإذ لا يكون الوقت وقت محاسبة أو تقويم فإنه وقت تفجع وتأبين وذكر لمحاسن الأموات، وما أكثر محاسنه (وكفى المرء نبلا أن تعد معايبه) وميلي إليه يحدوه ما يتوفر عليه من تراسل بين الحواس وخصوبة في الخيال وتوازن بين الجمل وإشراق في الأسلوب، فهو من أصحاب الأساليب المتأنقة الثرية بالتراكيب الجميلة والأخيلة المجنحة، وهذا الصنف من الكتاب يقدمهم (المنفلوطي) و(الزيات) و(طه حسين) وفرق كبير بين التأنق والتعمق كما هو عند (أرسلان) و(الرافعي) و(شاكر) ودعك من المتدفقين ك(زكي مبارك) والمغرقين ك(العقاد) وصدق من قال: (إن الرجل هو الأسلوب).

لقد أشاد (سمير سرحان) بأسلوب الجفري حين قدم لكتابه (المثقف العربي والحلم كما تنبأ له (محمد عمر توفيق) قبل أربعين سنة بمستقبل زاهر معولا على تميز أسلوبه،

وهو كاتب الضبابية والتهويم والأحلام كما يقول (سباعي عثمان) وخصوصيته الأسلوبية تضيف إليه قيماً أخرى، ستكون مجالاً لمزيد من الدراسات والمراجعات.

فهناك فيما أرى شاعر ينثر، وناثر يشعر، وشاعر يشعر، وهذه المستويات الثلاثة لا يستحضرها إلا قليل من المتابعين للإبداعات ذات الطابع اللغوي، والجفري - رحمه الله- من الصنف الأول على الرغم من أن لغته شائعة وتراكيبه سهلة وأسلوبه ممتع فيه رقة وشفافية ومبالغة وبلاغة ومفاجأة وانقطاع، وتعلقي بهذا اللون من الأساليب جعلني أتعلق بأصحاب الأساليب المشرقة السهلة الممتنعة كما هو عند (طه حسين) و(الزيات) حتى أني لم أحص كم قرأت (النظرات) و(الأيام) و(وحي الرسالة) في بداياتي الأولى، وهذا الاهتمام قادني إلى (الجاحظ) و(الأصفهاني) في أغانيه، والجفري له نصيب لا بأس به من التأنق والتدفق، وأجمل كتبه وأكثرها خصوبة (المثقف العربي والحلم) وأجمل ما فيه محاضرته (الثقافة ما هي) التي ألقاها في معرض الكتاب بالقاهرة عام ١٩٩٣م، وأكثر كتبه إيغالا في المحذور (نزار قباني آخر سيف ذهبي أموي) وما لا أراه ولا أوده لأسلوبه المشرق الوقوع في واقعية اللغة في الإبداع الروائي والقصصي، لقد أوغل في العامية واسترفد اللهجة المصرية، وأحسبه من عجز القادرين على التمام.

لم يكن الجفري (مؤدلجاً) بل كان مفتوحا على كل الخطابات متواصلا مع كل التيارات حاضرا عبر كل وسائل الإعلام المقروء وسيقطع رحيله خيطا من عدة خيوط تصلنا بالآداب العربية.

لقد كاد يتغلب على ظروفه ويتصالح مع الحياة التي أرهقته صعودا لو فسح له في أجله ولكن:

هـــــي الـــــــدنيا إذا اكتملـــــــت
وطـــــــــاب نعيمهـــــــا قتلـــــــت
فـــــــلا تفـــــــرح بلـــــــذتها
فباللـــــــــذات قـــــــد شـــــــغلت
وكـــــن منهـــــا علـــــى حـــــذر
وخـــــــف منهـــــا إذا اعتـــــدلت

رحمه الله رحمة واسعة وجبر مصاب المشهد الأدبي والإعلامي بفقده.

أوّاه إن صدع الكتاب أو صمتوا .. !(١)

من حق كل قادر على القول في الحقوق العامة والأفكار المتداولة أن يبوح بما يعتمل في نفسه من آراء ومواقف ونقد ومساءلة، متى كانت حرية التعبير المنضبطة والتفكير السليم متاحة ومكفولة، وذلك أضعف الحقوق في دولة المؤسسات، ولن تتأتى الاستقامة على المأمور إلا بمتابعة ومساءلة ومناصحة لا يكون فيها القائل وجلاً ولا السامع ضجراً، غير أن الكلام السوي لا يمكن أن يُلقى على عواهنه، وليس من مصلحة الأمة أن يلج المرجفون في عتو ونفور، ولا أن يقال النقد والتوجيه في حالة من التوتر والانفعال وجهل الذات والممكن، ولا أن تثيره مواقف آنية ولا أن تحركه أغراض شخصية، كما لا يجوز دفع السوء بما هو أسوأ منه إذ أن (درء المفاسد مقدم على جلب المصالح) والكلام في النهاية دعوى والدعاوى بلا بينات أهلها أدعياء، وكل صامت مهيب، فإذا نطق صعد أو سقط، ومن الحكم المتداولة: (تكلم حتى أراك) و(كم كلمة قالت لصاحبها دعني) والمتقحم بالقول إما: شجاع لا تأخذه بالحق لومة لائم، أو مهرج يغيّ النفوس باهتياجه الأعزل ولغوه الممل، وقَدَرُ المشاهد كلها أنها رهينة الاختلاف، وما يبعثه الاختلاف في النفوس من ضيق ونفور وضجر لا يقلل من أهميته وحتميته، والحياة لا تحلو بدونه، كما أن المسائل لا تتحرر والمعارف لا تتأصل والأفكار لا تنضج إلا بالمراجعات، وكل عالم راد أو مردود عليه، وكل إنسان يؤخذ من كلامه ويرد إلا من لا ينطق عن الهوى.

ومن هنا فإن التحفظ لا يكون على الاختلاف من حيث هو، ولكنه في اسلوب أدائه، وفي حدَّة المواقف، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، وفي الإصرار على أن قول المخالف لا يحتمل الصواب، وقول ذي الرأي الفطير لا يحتمل الخطأ، وفي الوقوع في أسر الجاهزيات وبرمجة الذات قبل التداول والاستبانة وانتظار ما يتجلى بعد الجدل، فما من متصدٍّ لأي قضية إلا هو بين قادح يقول فيها ما قال (مالك) في الخمر، أو مادحٍ يعلو بها فوق هام السحب، والمنصفون المتحَرُّون للصدق والمحافظون على المصداقيّة قليل ما هم. وكم من منطوٍ على أفكار وآراء ومواقف سليمة وصائبة تتجمد على شفتيه أفكاره مخافة أن يكون مادة رخيصة للاشاعات المغرضة والإفك الأثيم، ورحم الله امرأ كفَّ الغيبة عن نفسه.

والدولة المدنية - بمفهومها العربي لا الغربي - دولة المؤسسات لا يتحقق وجودها المشرِّف إلا من خلال الفعل والتفعيل لمؤسساتها العملية والعلمية في ظل سيادة القوانين والأنظمة واللوائح، وكل مؤسسة تمارس عملها في ظل كل هذه الضوابط معرضة للتجليات والاخفاقات، ولا تنفك من منتفعين أو متضررين، متفقين أو مختلفين، كما أن لتجلِّياتها أقواماً يمسهم طائف من الضرر، فالتجلي لا يكون إلا في سبيل الإصلاح، ولا إصلاح إلا في ظل الخلل المتعمد أو الجهل العارض، والخلل لا يكون إلا بجَهَلَةٍ أو منتفعين، وهؤلاء يمسهم طائف الإصلاح فيصطرخون في أتونه، وما اصطراخهم إلا ادعاء كاذب لتعويق مسيرة الإصلاح وتفادي ما يمكن تفاديه من الأوضاع السيئة المستفاد من بقائها، وبالجملة فإن (مصائب قوم عند قوم فوائد) هذا على مستوى الأداء العملي، أما على مستوى تلاحي الأفكار وتلاقح العقول وتصادم المفاهيم وصراع الآراء فحدث ولا حرج، والتاريخ الفكري وسير أعلام النبلاء والمناقب تفيض بالتناقض وما اختلف العلماء والنقاد والمفكرون إلا من بعد ثورة الاتصال والانفجار المعرفي، وكل خطأ في

---

(١) تاريخ المقال: ١٤/ ١٠/ ٢٠٠٨

الممارسات الحسية أو في سائر الاجتهادات الفكرية لا يكون إلا ناتج عمل أو إعمال فكر لم تكتمل آلياته، ولم تتضح مناهجه، ولم تنضج مواده.

ولقد يكون من المناسب أن ننكب عن ذكر اختلاف التيارات الفكرية وأثرها على الأداء الاجتماعي والثقافي جانبا، ولو إلى حين، كي نفرغ لمواطن النزاع بين المؤسسات العملية والمستفيدين أو المتضررين منها، والفراغ لهذا الجانب يبدي سوءات الفهم السقيم، كما يكشف عن سوء التوقيت والتقدير وتنازع البقاء للمنْتَفِعِ أو الإبقاء على المنتفَعِ به، ومتى عرفنا أن الخطأ ابتداء ولد شرعي للعمل، هان وقعه، غير أن المشكلة في تخطي الخطأ إلى الخطيئة، ولا يكون ذلك حتى يتبين للمسؤول أنه اقترف الخطأ، ثم لا يتحرج منه، ولا يتحرف للخلاص من عواقبه، بل قد يصر عليه، وكم من مسؤول تأخذه العزة بالاثم حتى لَيُبْلي بلاءً سيئاً في سبيل الإصرار على الحنث والاستمرار بالغي، وحسب هذا الصنف الخسران المبين.

وفرق كبير بين الخطأ والتقصير والعجز، والمتعقبون للمؤسسات قد لا يفرقون بين تلك الدركات، وقد لا يفكرون بمدى قدرة المسؤول على تفادي الأخطاء وتلافيها أولاً بأول، وقديما قيل: (لعلَّ له عذر وأنت تلوم) وكم من مساءلة جاءت بعد فوات الأوان، وفي الأمثال: (سبق السيف العذل)، وعيب البعض منا أنه لا يحسب أي حساب للتوقيت ومن ثم يأتي متأخراً، وفي الوقت الضائع، وقد يعرف البعض منا النقص أو الخطأ أو التقصير أو العجز في وقته المناسب، ولكنه ربما يكون متصالحاً مع المسؤول، ولقد قيل: (وعين الرضا عن كل عيب كليلة).

وكل هذه التحفظات والاحتمالات لا يكون شيء منها داعياً إلى السكوت أو الإغماض على التجاوزات أو التقصير في المساءلة المشروعة ف(الساكت عن الحق شيطان أخرس) ولست مستبعداً أن يظل الناس في خصام مستطير وردود أفعال منفعلة، فالجدل اكسير الحياة، والاختلاف من سننها ولهذا خلقهم (غير أني أود لسهام القول أن) تصيب من الأمر الكلى والمفاصِل وأن تكون في مستوى الحدث وعلى قدره بحيث تكون محفزة لا مثبطة، فالجاد الناصح حين يرقب كلمة ثناء العدل أو صمت المتردد، ثم يفاجأ بهجاء جارح يصاب بالاحباط، والشيطان الذي يجري من ابن آدم مجرى الدم والنفس الامارة بالسوء قد يتضافران عليه حتى ينزعان منه الجد والاخلاص ويحملانه على القول: (عليَّ وعلى أعدائي) أو يأتمر بمقولة العامة: (احفظ ولا تصلح) والمهمل أو المستغل أو المتلاعب و العاجز حين يأمن أحدهم المساءلة يتمادى في الغي، ويغري من حوله باقتفاء أثره.. (ومن أمن العقاب أساء الأدب كما أنه وكما يقول (صُلاءة بن عمرو) المعروف ب(الأفوه الأزدي):

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم
ولا سراة إذا جهالهم سادوا
تُهْدى الأمور بأهل الرأي ما صلحت
فإن تولَّت فبالأشرار تنقاد
وأثر الفساد أقوى من تأثير الصلاح

و(التفاحة) الصالحة لا تصلح الفاسدة ولكنها تفسد بالمجاورة، والخطورة ليست وقفاً على القول ولا على الصمت، الخطورة في القول الخطأ أو في الصمت على الخطأ، ومن ثم فإن العقلاء من يقدرون ويوقتون، فلا يجازفون في القول، ولا يؤخرونه عن وقته، أو

يقولونه قبل الحاجة إليه، أو بعد فوات الأوان، أو يطلبون ما لا يستطاع، وفي الحكم: (إذا أردت أن تطاع فاطلب ما يستطاع).

ولما كان وقع الكلام كوقع السهام تعاقب المربون من العلماء على الحديث عن حصائد الألسن، إذ كل فتنة مبدؤها الكلام، والقول غير المسؤول يفسد ولا يصلح، ولقد حَفَلَ الذكر الحكيم بالدعوة إلى ترشيد القول: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾، ﴿وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾، ﴿لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ﴾، وفي الهدي النبوي أحاديث وآثار وحكايات وقصص وأحداث، ولأن العصر عصر إعلام، (وآية هذا الزمان الصحف)، فإن كافة المؤسسات عرضة للقول ونقيضه، والخطورة في الدوافع وأساليب الأداء، فكم من كاتب لا يتحرى الصدق ولا يعنيه إلا أن يقول الناس عنه، وقد قيل، وكم من آخر لا يحسن القول فيسيء من حيث يريد النفع، وإيغال الصحافة في اللغو المسف حفز البعض على التفكير بإنشاء (محكمة للآداب) تلاحق هذا الصنف من الكتاب، وإذا كنا ننحي باللائمة على الكتبة المجازفين فإننا ننحي بلائمة أكبر على الذين لا تغنيهم الآيات والنذر ولا يتورعون من تربص الدوائر بالكتاب الناصحين، واستقامة الأمور لكل الأطراف تتطلب التوازن والعدل، وما نريده في مسيرة الحياة العملية أن تشيع قيم الإسلام الأخلاقية والسلوكية .. وأن يتبادل كل الأطراف الثقة والاحترام وحسن الظن، وأن نتفادى الطوباوية أو الارتكاس في الواقع والتسليم له.

يسألك الناس عن قاسم أمين .. ! (١)[(١)]

من مصائبنا الجسام الحساسية المفرطة إزاء موضعة الشقائق وتباين الآراء والمواقف حول الحجاب والاختلاط والخلوة والعمل والتَّعليم والقوامة والتعدد والطلاق وسائر الحقوق والواجبات والفوارق بين الرجال والنساء إلى الحدِّ الذي تنعدم فيه الموضوعية، وانعدامها كانعدام الجاذبية التي تفقد معها الأجسام وزنها وتوازنها، وتكون كما الهباء المنثور، واحترام الإنسان السوي لذاته يحمله على المرور بهذا اللغو مرور الكرام، والمبتدئون من المتهافتين على قضايا المرأة يودون طرد الغربة عن أنفسهم، والإمعان في فقاعة ألوانهم، والحرص على تداول أسمائهم على ألسنة الوجلين الذين يظنون أن النجوى الآثمة قادرة على طمس معالم الفضيلة.

لقد طُرِح (قاسم أمين ت١٩٠٨م) من جديد بوصفه من جاهزيات القضية النسوية، بعد أن اجترَّه الإعلام العربي المقروء مائة، وفاقت كتب الرد عليه مائة كتاب وألف مقال، ولما يزل في الكأس بقايا، وكان الناس معه على ثلاثة أنحاء:

-معية مطلقة تكيل له الثناء بغير قياس.

-وضدية مطلقة تكيل له الذم بغير قياس.

-ووسطية متثبتة تنشد التصور السليم ولا تبادر الأحكام.

و(قاسم أمين) الذي لم تكن له شوارد فيما سوى المرأة ارتبط بهذه القضية الساخنة إلى حد الغليان، والتي ظلت قضية من لا قضية له، فكل من أراد اختصار الجهد والوقت وتعجل التألق، وقف واستَوْقف وبكى واستبكى وذكر ما تعانيه المرأة من اضطهاد ومصادرة واستعباد، والناذرون أنفسهم لحراسة الفضيلة كحراس القصور أصابعهم على الزناد يمطرون كل قادم بوابل من ترسانتهم البلاغية، وهذه الراجمات كفيلة بصناعة البطولة الزائفة للمتحرشين بالمرأة، وما صنع المتعالمين إلا الخصومُ الذين يثخنون في الأعراض، والأنصار الذين لا يدرون ما النوايا وما القضايا، وحين ينكشف الغبار تتعرى السوءات وتنكشف الغمة عن أمور لا تساوي المداد المراق والأوراق المسوَّدة، وسيبقى الجدل العقيم ما بقيت السلطة مُتسلِّطة كانت أو عادلةً، وما القوامة التي أحكمها القرآن الكريم، وحرَّفها الأَجْلافُ والمترفون إلا عين السلطة التي تتململ المرأة من تحتها، في ظل هذا الاحتقان والتوتر، ناشدني بعض الوجلين تجليه أمر (قاسم أمين) وقراءته بموضوعية وحيادية، ومن خلال كتبه التي أخرج للناس، لا من خلال ما كُتبَ عنه من قول تحكمه العواطف والمواقف المُسَبَّقة، وما أضر بالقضايا إلا اتباع الهوى واستباق الأحكام الجائرة وموضوعة الذوات دون إثبات و(قاسم أسمن) دخل في ذمة التاريخ تاركاً وراءه وثائق لا مجال لمساكها على هون أو دسها في التراب، وإذ شرع الله لنا في المرأة مالا مزيد عليه، فإن حسم الخلاف في عرض هذه الوثائق على الكتاب والسنة، فما وافقها قبلناه، وما خالفها ضربنا به عُرْض الحائط ولا كرامة، وما تفرقت الأمة إلا من بعد ما اختلفت حول سلطة المرجعية النصية، وأي اختلف في الرأي لا يكون فيه المختلفون متفقين على مرجعية تحسم الخلاف يظلون في جدل عقيم، تتسع فيه هوة الخلاف يوماً بعد يومٍ ولكل حضارة مرجعيتها، وسائر الحضارات موزعة بين العقل والنقل، فهي بين مستويات أربعة: المرجعية العقلية، والمرجعية النصية والجمع بين النص والعقل مع فَوْقِيّةِ النص، أو مع فَوْقِيةِ العقل، وأهل السنة والجماعة يأخذون بالمستوى الثالث، بحيث يجمعون بين النص والعقل، ولكنهم يديرون العقل في فلك النص، وهذا المستوى فيما أرى

---

(١) تاريخ المقال: ٢١/ ١٠/ ٢٠٠٨

أسلم وأحكم، لأن الله تعبد الأمة فيما أنزل عليها، وليس من المعقول إدارة النص في فلك العقل، إذ فلك النص واحد وأفلاك العقول مختلفة، وإخفاقات أهل السنة والجماعة ليست في المرجعية، ولكنها في اختلافهم حول الاحتماليات والقطعيات والثوابت والمتغيرات والعبادات والعادات، وهي اخفاقات لا ينجو منها أحد، وما المجددون الذين أخبر الرسول ﷺ ببعثهم على رأس كل مئة سنة إلا الذين يتداركون الاختلافات، ويقيلون العثرات، ولو أن المستبقين لأي قضية استحضروا هذه الأصول، وردوا اختلافهم إلى الله والرسول لكانوا أقرب إلى الوفاق، ولا سيما في القضايا الحساسة ذات المساس بحيوات الناس كافة، وحتمية الاختلاف لا تمنع من محاولة التقريب بين وجهات النظر أو التعاذر.

واستدعاء (قاسم أمين) بقضه وقضيضه أمام الذين يجهلونه أو يُصَنِّمونه لأنهم معاً لا يقرؤوبه، وإنما يقرؤون عنه، يتطلب العدل والمصداقية، ولن يتحقق ذلك إلا بقراءة وثائق، وما كنت أعد استعادة مثله مضيفة للمشهد شيئاً ذا بال، إلا إنْ كان ثمة تحجيماً لهذا الفيض المضطرب، وإن كنت حفياً بقضية المرأة متابعاً للمستجد في شأنها، و(قاسم أمين) جزء من تاريخ القضية، ولكنه كورق أهل الكهف، وآراؤه بعد هذه الأمة، وبعد مجمل المتغيرات لا تشكل أهمية كبرى فكتاباه (تحرير المرأة) و(المرأة الجديدة) لا ينطويان على نظرية مستقلة ولا يُمدان الدارسين بإضافات تختلف عما هو متداول مُنذ مائة سنة، فكتابه الأول (تحرير المرأة) محاولة مرتبكة للتوفيق بين الرؤية الإسلامية والمستجدات الغربية، وفيه لا يبعد النجعة، لأنه يحترم المرجعية ويحاول التوسل بخلافات المذاهب، أما كتابه (المرأة الجديدة) ففيه يحيل إلى المرجعية الغربية ويتوسل بالتجربة الغربية أيضاً، وانتزاع الكتابين من سياقهما يبديهما بحجم المحاولات البدائية، وإن كانت روح المجادلة بادية فيهما، فهو حقوقي يتقن فن الجدل.

و(قاسم أمين) صنعه خصومه، ولم تصنعه إمكانياته، وإن كان مهيئاً للتألق والتفوق لو أنه واصل دفاعه عن أصالة الإسلام كما فعل في كتابه الأول المجهول من كل المتصدين له (المصريون) وهو كتاب ألفه باللغة الفرنسية يرد فيه على أحد المستشرقين، وسوف نعرض لشيء فيه لتجلية بداياته المتوازنة.

و(قاسم أمين) الذي أحدث ضجة صاخبة لا تقل عما أحدثه (طه حسين) عند حديثه عن الأدب الجاهلي، وما أحدثه (مصطفى عبد الرازق) عند حديثه عن الخلافة الإسلامية، مع أنه لم يكن الرائد ولا الوحيد الذي شغلته قضايا المرأة، لقد سبقه (الطهطاوي) و(الشدياق) كما أن حملة (نابليون) قَدَّمت المرأة الغربية بكل صفاقتها التي هزت مشاعر المصريين واستطاع (الجبرتي) في تاريخه تسجيل هذا الاستفزاز بما يوحي بالنكارة والاستغراب، ولقد تولى قاسم أمين بوحي من (سعد زغلول) (تغريب المرأة)، وتثوير الجذور التاريخية لقاسم أمين يضعه بحجمه الطبيعي الذي يجعله الكثيرون، فهو ليس مصري الأصول، فأبوه تركي وفد إلى مصر، وتزوج مصرية، ولد في (الأسكندرية) عام ١٢٧٩هـ - ١٨٦٣م وفيها درس الابتدائية، وفي القاهرة درس الحقوق، ثم مارس المحاماة وابتعث إلى فرنسا عام ١٨٨١م ومكث فيها أربع سنوات، ثم عاد ليتقلب في عدة مناسب قضائية، ولقد تنازعته مدنية الغرب وفكر (جمال الدين الأفغاني) ومن عشيقته الفرنسية وزميلته في الدراسة (سلافا) أشرب حب النمط الغربي للمرأة، ولكنه حُبٌّ اتخذ خطوتين: تطويع النص الشرعي، ثم إلغائه، بعدما كان متمسكاً به أشد التمسك في كتابه (المصريون)، ومن يدعي تأثير (الأفغاني) وحده أو (نيتشه) أو (دارون) أو (ماركس) على مساره فإنه يعوزه الدليل، إذ لم ينعكس أي أثر معرفي على موقفه من قضايا المرأة، وأكاد أجزم بأن عشيقته (سلافا) هي وحدها التي أوحت إليه بالرؤية المستغربة، وكل مستغرب وراءه امرأة غربية، فهذا (طه حسين) الذي تزوج من زميلته (سوزان) التي

احتفظت طوال نصف قرن بلغتها ونصرانيتها وعرقيتها، كان لها الأثر البارز على تفرنسه، وإن كانت المسافة بين الرجلين ضوئية، فـ(طه حسين) صاحب مشاريع ثقافية وأدبية وتربوية ومغامرات تركت آثارها المعرفية وهو قد أفاد الشعر الجاهلي من حيث لا يريد، إذ اعتور قضاياه أدباء ومفكرون ذوو مشارب متنوعة، لقد كان الأدب الجاهلي ثاوياً في كهوف التاريخ حتى أصابه في مفاصله فكان الاهتياج المدجج الذي تقصاه من أطرافه، وكانت الدراسات المتنوعة التي أعادته بكل تألقه، وإذا كان (طه حسين) قد طبق المنهج (الديكارتي) واستثمر جهود (مرجليوث) فإن (قاسم أمين) وصل حباله بمن سلف كـ(الطهطاوي) و(أحمد فارس الشدياق) وكان تأثير حملة (نابليون) وآراء عشيقته (سلافا) قوياً، على أن أقوى المحفزات له لصوقُه بـ(سعد زغلول) الأمر الذي حداه إلى إهداء كتابه (المرأة الجديدة) له، وسوف نلقي الضوء على دوافع الحملة المكثفة عليه من قبل (قصر الخديوي) ومنعه من دخول القصر ومحاولة استغلال الرأي العام وكسبه، وهذا التداخل بين السياسي والديني والاجتماعي ما سوف نبسط القول فيه لنأتي القضية من قواعدها كما وعدنا.

يسألك الناس عن قاسم أمين .. ! (٢)[1]

والراصد لتحولات قاسم أمين الفكرية يروعه الانحدار غير المبرر، غير أن المشاهد الفكرية والسياسية والدينية نجم فيها من وقعوا في حمى الحضارة، وحققوا مقولة الغزو والتآمر، وتهديد الحُصُون من الداخل، ومهما تحفظنا على نظرية الغزو والتآمر فإننا لا نستطيع الخلوص من تلك الهواجس متى استوعبنا التاريخ الحركي لـ(قاسم أمين) و(طه حسين) و(عبد العزيز فهيمي) و(مصطفى عبد الرازق) ودعك من السلسلة الصدئة: (جرجي زيدان) و(سلامة موسى) و(لويس عوض) و(غالي شكري). ومبادرة كل واحد من أولئك لمفردة من مفردات الحضارة الإسلامية ليس من باب الصدف، ولكن من باب المكر والتآمر، وما من أحد من هؤلاء إلا هو مجند لنقض عرى الإسلام عروة عروة وسيان عند المتصدين أن يكون المقترفون للخطيئات مبادرين من عند أنفسهم أو مجندين، مخطئين أو متعمدين مُصرِّين أو مترددين، مادامت النتائج واحدة في الحالين.

وقاسم أمين في كتابيه الأخيرين يمثل الانتكاس الفكري، فيما جاءت باكورة إنتاجه إسلامية صرفة بل كان سلفيا مستنيرا، حيث تجلت مواهبه الجدلية واستثماره المسدد للتاريخ الحضاري للإسلام، وليس غريبا انتكاس العباقرة وكبار العلماء وأساطين الفكر، وأقرب مثل على ذلك انتكاس المفكر العربي الكبير (عبد الله بن علي القَصِيْمي) لقد كان سلفياً وعالماً ربانياً، تصدى لخصوم الحركة الإصلاحية، وأقوى رد فكري عرفه التاريخ الفكري الحديث كتابه (الصراع بين الإسلام والوثنية) في الرد على مؤلف كتاب (كشف الارتياب في أتباع محمد بن عبد الوهاب) وحين أضله الله على علم ختم حياته بكتاب لم يؤلف مثله في الإلحاد، وهو كتاب (الكون يحاكم الإله) الذي طبع في باريس عام ١٩٨١م ويقع في أكثر من سبعمائة صفحة، فكلما قرأت فيه عرتني هِزَّة كما العصفور بلَّلهُ القطر، وعيب مشاهدنا تهافت المتسطحين على التعذير والتبرير لمثل هؤلاء المنتكسين، ولو أن أحدهم كلَّفَ نفسه عناء الجَسِّ والتثوير ونبش الوثائق وسَبْرِ الأحوال لما وسعه إلا البراءة من هؤلاء أو تفويض أمرهم إلى من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وذلك أضعف الإيمان، وما أشفقت على أحد شفقتي على من يقع في نواقض الإيمان ثم يقول: لا مزايدة على الإسلام.

وقاسم أمين الذي طغى اسمه حتى حجب الرؤية عمن هم أسوأ حالة منه مسبوق بدعاة سوء ومستغربين، فلسفة (رفاعة الطهطاوي) أكثر تزكية للمرأة الفرنسية، فيما يأتي هو أكثر اختلاطاً ومعايشة لهذا المجتمع الذي أوغلت ثقافته وأدبه في مصر عبر قنوات مؤسساتية وتفانيات فردية تولى كبرها (طه حسين) في ترجماته ومقالاته، وكتابه (مستقبل الثقافة في مصر) الذي تصدى له عدد من المفكرين والحركيين والأدباء ومن بينهم (سيد قطب) في كتابه (المستقبل لهذا الدين) يعد جماع أمره و(الطهطاوي) بوصفه سلف (أمين) جاءت رؤيته فكراً وحكماً، أما (قاسم) فقد جاءت رؤيته ممارسة واستلاباً، وتأثير المجتمع الفرنسي من خلال عشيقته (سلافا) واضح كل الوضوح، ولقد تقصَّاه الدكتور (محمد عمارة) في مقدمة أعماله الكاملة، ولخصه (سليمان بن صالح الخراشي) في موسوعته (نظرات شرعية في فكر منحرف) المجلد الثاني ص٨٠٠، ومن قبله الدكتور (ماهر فهمي) مع اختلاف في المناطات.

وقاسم في كتابه (المصريون) الذي ألفه باللغة الفرنسية عام ١٨٩٤م في سبيل الرد على الدوق الفرنسي (داركور) الذي أساء إلى المصريين بتحامله على أوضاعهم في

(١) تاريخ المقال: ٢٨/ ١٠/ ٢٠٠٨

كتابه (سر تأخر المصريين) وركز فيه على تخلف النساء المصريات واشتط في نقد ظاهرة الحجاب والتعدد والطلاق والتفريق بين الجنسين في التَّعلُّم والعمل وسائر مناشط الحياة، ولقد جاء رَدُّ قاسم سلفياً محافظاً يدافع عن موقف الإسلام من المرأة ويحذر من السفور والتبرج والاختلاط، ويحاول التفريق بين العادات والتشريعات، فالممارسة غير السوية لا تحال إلى مبادئ الإسلام بوصفه شرعة ومنهاجاً، غير أنه بعد أربع سنوات من إصدار كتابه (المصريون) باللغة الفرنسية نكص على عقبيه وراح يتحدث عن الآثار السلبية للحجاب ويطالب بتقييد الحق المطلق للرجل في الطلاق والحدِّ من نظام التعدد، وإشكاليته التي استلبها من جاء بعده الخلط بين الممارسات والتشريعات بحيث حمَّل المبادئ جرائد الممارسات الخاطئة.

والراصد لتحولات (قاسم أمين) يدرك ارتباطه الوثيق ب(سعد زغلول) الذي لم يبلغ أحد من قبله ولا من بعده مبلغه في المطالبة بحرية المرأة، والملفت للنظر أن (العقاد) الذي ظل معارضاً أشد المعارضة لإعطاء المرأة مزيداً من الحريات يجعل من (سعد) مثله الأعلى، ولقد ألف عنه كتاباً جعل فيه (سعداً) هبة السماء للأرض، فلقد بلغت أحوال المرأة الدرك الأسفل في عهد (سعد) حتى لقد أصبحت بيوت الدعارة تفتح بقوة النظام وتحمى قانونياً في ذلك العهد.

وإشكالية (قاسم) أنه بعد التجنيد يخلط بين الشرعي والمعرفي والعادات والعبادات، ويتصور أن تفادي الضعف يبدأ من المرأة، وأن السفور والتبرج والاختلاط الذي امتهنته المرأة الغربية هو وحده الذي فجر المعارف وحقق العدالة والمساواة وقضى على الجهل والفقر والبطالة، ولو أن رواد النهضة العربية عرفوا مكامن التخلف وأسلوب التناول لما كانت أحوال الأمة على ما هي عليه الآن، والخطورة ليست في مبادرة التغريب ولكنها في جهل الحلول، والمقدمات الخاطئة تهدي إلى أسوأ الطرق، والإصرار الذي امتد لأكثر من قرن على أن بوابة الخروج من التخلف يبدأ من المرأة دليل قاطع على أن وراء الأكمة ما وراءها، ولأن قاسم أمين لم يكن الأسوأ في موقفه من المرأة فقد حاولت التحقق من أسباب اشتغال الرأي العام بآرائه ودفع العامة لإيذائه ومضايقة زوجته، ولم أجد لذلك أسباباً تتعلق بموقفه من المرأة، بل تتعلق بمواقفه السياسية ومناصرته لسعد زغلول، لقد منع قاسم من دخول القصر الخديوي بثلاثة دوافع:

الأول: موقفه السياسي المناوئ للقصر وللاستعمار.

الثاني: تمنع القصر في شأن السفور لارتباط ذلك بالحملة الفرنسية.

الثالث: إرضاء الرأي العام السائد إذ ذاك.

ومما زاد في التصدي له والتشهير به وإغراء الرأي العام عليه دون من سواه ربطه اضطهاد المرأة بالفساد السياسي، والغريب في الأمر أن الذين واجهوا الرأي العام وتحدوا مشاعره من العلماء الشرعيين والقضاة، فمصطفى عبد الرازق الذي كتب عن الخلافة من القضاة، ومن قبله رفاعة الطهطاوي من العلماء والخطباء والمرشدين والوعاظ، وقاسم أمين الذي كتب عن حرية المرأة هو الآخر من الحقوقيين والقضاة، فهل هذه دسيسة استعمارية، فَتَوَلِّي هذا الصنف من العلماء لمثل هذه القضايا الخطيرة قد يعشي العيون. علماً أن قاسم أمين كان وطنياً وتقدمياً وممن أسهم في التأسيس للتعليم الجامعي وشارك في نشاط (الجمعية الخيرية الإسلامية) ولمَّا يعد كغيره من المتنكرين لسائر المؤسسات الإسلامية، ولهذا كان بودي أن تعاد قراءاته من خلال مجمل السياقات، وأن يتجاوز القراء الجاهزيات وما كتب عنه إلى ما كتب بيده، ففي ذلك مفاتيح لكل متعلقات القضية الضجة، والدارسون لآرائه وأثره في مجمل المشاهد يعدونه من الجيل الثالث من أجيال التنوير بوصف المعاصرين لحملة نابليون الجيل الأول ومن خلف رفاعة الطهطاوي

الجيل الثاني، وأياً ما كان الأمر فإن ظاهرة الاجترار الممل لا تدع قضية المرأة ولا تتقدم بها خطوة واحدة إلى الأمام، وأحسب أن الفراغ والأقواء ونفاد القضايا تحفز الفضوليين على الترديد الممل، وكان بودي لو رفعنا هذا الملف وخضنا في قضايا مِفْصَلِيَّة نحن أحوج ما نكون إلى فتح ملفاتها وتداول الرأي حولها، وإذا كانت تهمنا قضايا المرأة فعلينا أن نعيد الكاسيات العاريات المائلات المميلات إلى جادة الصواب، فإذا استقمن كما أُمِرْن شَمَّرنا عن سواعدنا لرفع الظلم عمن نظن أن العادات السيئة قد غمطتهن شيئاً من حقوقهن المشروعة، إن السكوت على التبرج الجاهلي وقبول الرذيلة كما هي بادية للعيان عبر كافة المشاهد والتفاني في إخراج المرأة من مملكتها تحت أي مبرر دليل على أن الحراك لم يكن بدافع شخصي، وإذا نظرنا إلى تراث قاسم أمين المتداول على كافة الألسنة تبادر إلى الذهن تراث يفيض بالتجاوزات وعاه تاريخ الحركات الإصلاحية المتعددة الاتجاهات ولنا عودة قريبة إلى شطحات تلك الحركات.

عبد الله الحسون والذكر الجميل .. !(١)

الموت اليقين هو وحده الذي لا نرقبه، بل نَفِرُّ منه، وإشكاليته أنه يلاقي ولا يلحق، والمؤمل أن تَفُوتَ اللاحق، ولكن الملاقي لا يدع لك فرصة الخلوص، وكل الأعزاء وذوو الفضل نفاجأ بموتهم، وكأننا لم نرقبه، وكلما قضى منهم من نحبه، أقبل بعضنا على بعض يتلاومون، كيف مات؟ وكان بالإمكان أن نراه وأن نزوره، وأن نجلس معه، نواسيه أو نأسوه أو نتوجع، هكذا كنت عندما علمت بموت أستاذي الأستاذ عبد الله بن إبراهيم الحسون، الذي كادت تنقطع أخباره لولا لقاءات عابرة أقبّل فيها رأسه ثم أمضي لشأني، لقد هاتفني زملاء الدراسة الابتدائية لتبادل التعازي بأستاذ عرفناه قبل ثلاث وخمسين سنة، وعرفنا فيه الجدَّ والإخلاص والمتابعة وشيئاً من القسوة الضرورية:

ومـــــن يـــــك راحمـــــاً

فلـــيقس أحيانـــاً علـــى مـــن يـــرحم

والفقيد الذي لحق بكوكبة من معلمينا يتمتع بأخلاقيات فاضلة، يتجدد معها ذكره كلما تطاول عليها الزمن ومن ذا الذي يتنكر أو يُنكر أفضال معلميه، وفي الآثار: (من علّمني حرفاً صرت له عبد اً) ورجل مثل الفقيد الفذ علّمنا أكثر من حرف، فلقد كان قدوة في قوَّته وانتظامه ومتابعته وجدِّه واجتهاده، وحمله همّ التربية قبل التعليم، عرفته أول ما عرفته يوم أن دخل علينا الفصل في عنفوان شبابه عام ١٣٧٢هـ أي قبل سبع وخمسين سنة، وكنت يومها طالباً في السنة الرابعة الابتدائية في المدرسة العزيزية ببريدة لتدريس المطالعة، وكنت يومها لا أجيد القراءة، ضعفاً وحياءً وخوفاً من حدته وقَسْوةِ سخريته حتى لقد كدت أترك الدراسة بسبب ما ألاقيه من عنف وتأنيب، ولكنني اخترت التحدي، وضاعفت الجهد وتجاوزت ذلك المنعطف العصيب. لقد انخرط في سلك التعليم عام ١٣٦٨هـ حين عيِّن مدرساً ابتدائياً بمحافظة (المذنب) وبرزت مواهبه الإدارية الملفتة للنظر حين تولّى إدارة المدرسة الفيصلية (ببريدة) عام ١٣٧٩هـ وإدارة المدرسة المتوسطة (ببريدة) عام ١٣٨٥هـ، ولما كانت طموحاته أكبر من ذلك شدَّ الرحال إلى المنطقة الشرقية ليكون مساعداً لمدير تعليم البنات، فمديراً للتعليم الأهلي بالرئاسة العامة لتعليم البنات، ولم أكن على تواصل معه أثناء تنقلاته القيادية إلا حين يعود إلى مراتع صباه ويلتقي بزملائه وطلابه، ولا سيما أنه كان من الشباب الواعي الذي يسعى في حاجات بلاده، ومشاريعها، وفي كهولته ترك الأعمال الحكومية وانخرط في سلك رجال الأعمال، وتعددت اهتماماته وتوسعت مسؤولياته وكنا نسمع عنه ولا نراه، ولكنه كان حاضراً معنا لما يحمله من هموم تتعلّق بمصالح البلاد والعباد، غير أن الأمراض المتلاحقة لم تمهله، فأطلق العنان لأولاده ليتفرّغ للعبادة والصبر والاحتساب، وكلما لقيته رأيت فيه العبد الصابر الذاكر المحتسب، حتى وافاه أجله يوم الأحد لأربعة عشر يوماً خلون من رمضان المبارك من هذا العام، ففقدنا بفقده أستاذاً ناصحاً ومواطناً مخلصاً أسهم في عدة مجالات إنسانية واجتماعية. لقد حدثني عمّا أجهله عنه أستاذي محمد بن عثمان البشر زميله ورفيق دربه أمد الله في عمره، وحديث مثله عنه يوحي بالفراغ الذي تركه، رحمه الله رحمةً واسعة وجعل في عقبه الخلف الصالح الذي يسد المكان الذي سده.

---

(١) تاريخ المقال: ٢٣/ ١٠/ ٢٠٠٨

ضرورة تصدير الأدب المحلي ليُعلَم قدر ماعندنا .. ![١]

لا مناص من إسماع صوتك لمن يشترك معك في الدين واللغة والثقافة، ويُساوره ذاتُ الهم الذي يُساورك، وخفوت الصوت لأيِّ عارضٍ يعني الانطواء على الذات، والانكفاء إلى الداخل، مما يفوت الفرص المتاحة واشْتِدادُ المضاضةِ حين يكون الأدبُ وذووه قادرين بإمكانياتهم ووسائلهم على تجسيد الفجوات وتكافؤ الفرص، ثم لا يكونون حاضري المشاهد بقدر حضور من دونهم عدداً وعدة وعتاداً، وتلك السجية من نقصِ القادرين على التمام، وهو عيب لا يُحْتمل وتقصير لا يُطاق، والأدب العربي في المملكة العربية السعودية لم يكن حاضراً في مشاهد الأدب العربي بالقدر الكافي ولا المتكافئ، لا في أرضه التي أنتجته ولا في سائر المشاهد العربية، وتلك قضية بُحَّتِ الأصوات من ترديدها، وحَفِيت أقدامُ المسكونين بالهم من البحث عن مشاجب للخلوص من تأنيب الضمائر، ولمَّا يَعُد الصوتُ والركضُ مجديين إن لم يكن هناك تحرُّكٌ لمحاولات مؤسساتية جادة، تتمثل بالوزارات والهيئات ودور النشر والملحقيات الثقافية، أو تحيز لفئات واعية ومدركة للمشكلة ولوسائل الحلِّ الجذري الذي يقطع دابر الحور بعد الكور، لقد كثر التَّماس مع كل الأطراف، حتى قلَّ الإحساس، والأجدى لأمةٍ تملك كل المقومات والإمكانيات أن تبحث الأسباب دون البحث عن المتَسبِّبين، فالزمن المتسارع في عَدْوه لا يرقب المترددين ولا المتنازعين، والباحث عن الأدب السعودي في منابته وبين ذويه قد لا يجد مراده بسهولة فضلاً عن أن يظفر بشيء منه في آفاق الوطن العربي، ولو وجده هنا أو هناك لكان دون المؤمل، وحديثي الممتعض لم يكن الأول ولا أحْسِبه يكون الأخير فالمستَبْطنون للهمِّ يواصلون البحث عن مجمل الخيارات لتحقيق الحضور محلياً والتواصل مع آداب الأمة العربية عربياً، ويتساءلون فيما بينهم:

-كيف يشيع الأدب بكل فنونه بين أهله وعشيرته؟

وذلك أقل الحقوق، وقد أطلقها (شوقي) مُدوِّية حين نُفِي من مراتع صباه:

أحــــرامٌ علــــى بلابلـــه الـــدَّوْحُ
حَـــلالٌ للطيـــر مـــن كـــلِّ جِـــنْسِ

-وكيف يصل على صورته المشرفة إلى آفاق العالم العربي الذي فاضت آفاقنا بآدابه؟

-وهل أحد من المبتدئين أو الممتلئين يجهل أدق التفاصيل عن الأدب المصري أو غيره من آداب الأمة العربية داخل أروقة الجامعات أو في قاعات المكتبات أو على أنهر الصحف وصفحات المجلات أو عبر الدراسات الأكاديمية؟

وإذا رضينا بعض الرضى عن الإنتاج الأدبي المحلي إبداعاً وتاريخاً ودرساً فإننا سنظل ساخطين كل السخط على عجزنا عن إشاعته محلياً وتصديره فما تجود به المطابع تستقبله المستودعات ليظل ثاوياً بانتظار دابَّةِ الأرض فالوزارات التي تشجع المؤلفين والناشرين بشراء النزر اليسير لا تعمل على إشاعته بين الناس محلياً، فضلاً عن إيصاله إلى الملحقيات الثقافية لإهدائه إلى الأدباء والنقاد في البلاد العربية التي تكرس في أذهان ذوي الاختصاص من أهلها أننا دولة نَفْط ليس غير، كما لا يحفل به ناقد ولا تُسوِّقه مكتبة مثلما تفعل مع إصدارات الأدباء العرب، أقول ما تقرؤون (وما أنا إلا من غزية) إذ لا أريد أن أبرئ نفسي، وإن كان لي جهد المقل فأنا أعيش بعض الحضور دارساً ومدرساً ومشرفاً ومناقشاً ومحكماً وممثلاً لبعض المؤسسات في المؤتمرات ومشيراً لكل من طرق

---

(١) تاريخ المقال: ٤/ ١١/ ٢٠٠٨

بابي من طلاب الدراسات العليا وطالباتها. واهتمامي المبكر بالأدب السعودي حفزني على اختياره لرسالاتي العلمية والقبول بتدريسه على مدى ثلاثة عقود لقسم الليسانس والإشراف والمناقشة والتحكيم لعشرات الرسائل العلمية وحضور المؤتمرات في الداخل والخارج وتجهيز غرفة خاصة به ملحقة بمكتبتي المنزلية تنيف محتوياتها على أربعة آلاف كتاب، وفتحها لكل الراغبين من طلبة الدراسات العليا، وليس فيما أقول تفضل ولا مِنَّة بل الفضل كل الفضل والمنَّة كل المنة لبلادي وأدبها وأدبائها، إذ أفدت واستفدت مادياً ومعنوياً، والفضل للأدباء والنقاد الذين شايلوني هذا الهم إذ لست وحدي الذي أعطى القليل من الجهد والوقت لهذا الأدب الجدير بالخدمة والتصدير.

والقضية أكبر من أن ينهض بها أفراد قلائل، حتى ولو تفرغوا لهذه المهمة الوطنية، إن قضية إشاعة الأدب وطرد الغربة عنه مهمة المؤسسات الثقافية والتعليمية والإعلامية وحتى السياسية فهو الذي يحمل الهم والهوية وهو الذي يحقق من الوفاق ما تعجز السياسة عن تحقيقه.

ولكي يتوفر حديثنا على أكبر قدر من المصداقية والواقعية فلابد أن تشير إلى جهود فردية ومؤسساتية منحت هذا الأب شيئاً من الجهد والوقت والمال، ولكنها جهود ظلت مرتهنة بالمحلية، فلم يصل الأدب إلى ما وصلت إليه الآداب العربية، ولم يَشِعْ بمثل شيوعها، ولم تعرف أدق التفاصيل عنه مثلما عرفت عن سائر الآداب العربية المعاصرة، والموسوعات والقواميس والدراسات والتراجم لمَّا تزل تنجم بين الحين والآخر، وهي إسهامات على الرغم من تواضع بعضها، إلا أنها ربما تكون نواةً لتجسير الفجوات والتواصل مع الآداب العربية الأخرى، لو أتيحت لها السيرورة وتخطي محيط الإصدار.

وعلى سبيل المثال لا الحصر أشير إلى بعض من أرخوا للأدب أو ترجموا للأدباء أو درسوا بعض الظواهر الأدبية ك(ابن إدريس) و(الساسي) و(ابن حسين) و(أبي داهش) و(الفوزان) و(العقيلي) و(مسلم) و(الحلو) و(شباط) و(الخطيب) و(القرني) و(الخطراوي) و(الحميد) و(أميرة الزهراني) وآخرين من أقطار عربية ك(الشيخ أمين) و(الشنطي) وكان أن تقصيت ذلك مع زميلين كريمين في كتابنا (الأدب السعودي بأقلام الدارسين العرب) وقد تعاضدنا فيه مع إسهام مماثل للأستاذ الدكتور (منصور الحازمي) وآخرين تحت عنوان (أدبنا في آثار الدارسين).

ولربما يأتي في ذروة الدراسات (موسوعة الأدب العربي السعودي الحديث لمجموعة من الدارسين الأكفاء وتقع الموسوعة في تسعة مجلدات، ومن المؤسسات التي اهتمت بالتراجم (الدائرة للإعلام المحدودة) التي أصدرت (معجم الأدباء والكتاب) ومن قبلها (جمعية الثقافة والفنون) ومن قبلهم جميعاً المرحوم (عبد القدوس الأنصاري) في عدد خاص من مجلة (المنهل).

ولعل العمل الرائد الذي تسعى لتحقيقه (دارة الملك عبد العزيز) تحت عنوان (قاموس الأدب والأدباء في المملكة العربية السعودية) يسد الثغرات القائمة، ويؤدي إلى التعرف على الأدب الحديث في المملكة، والإعداد لهذه الموسوعة يبشر بخير، ولا سيما أن رئيس المجموعة أخونا معالي الدكتور فهد السماري والمشرف العلمي الأستاذ الدكتور محمد الربيع بما يتوفر عليه من هم وتجربة وإمكانيات، والشروط والضوابط في مستوى علمي ومنهجي مُرضي.

وكل هذه الإسهامات بمختلف مستوياتها واتجاهاتها لا يمكن أن تحقق المراد منها ما لم تجد طريقها إلى القارئ العربي، ولن يتم ذلك حتى يعاد طبع الموسوعات والدراسات في أكثر من دولة عربية وحتى يتم توزيع المجاميع الروائية والقصصية والشعرية والدراسات والموسوعات إهداء أو بأسعار مدعومة على كبار الأدباء والنقاد، إذ لم يعد

التأليف وحده مجدياً، وإذ تكون إشكالية الأدب السعودي في التوزيع، فإن هناك إشكاليات أخرى منها الذاتية التي تتعلق بالأدب من حيث الفن واللغة والموضوع، وهي أسباب ستظل معوقاً رئيساً لحراكه ومعانقته للآداب فالأدعياء المنتهكون لقواعد الفن وأركانه وشروطه والمتمردون على سائر القيم من الجناة الذين لا يغتفر لهم، والنقاد المواطئون على الخطيئات يتولون كبر ذلك كله، فلو صدق النقاد وواجهوا الأدعياء والمتهتكين والمقوين بما هم عليه لكان خيرا لهم وللأدب، ولكنهم سايروا أو غلبوا السلامة بالصمت، فخلا الجو لِلْجُوفِ والموبوئين ولسنا بدعاً من أدباء الأمة ففي كل قطر مُغثون يقولون منكراً من القول وزورا ولو هيئ لهؤلاء وأولئك حرَّاسٌ للفن واللغة والفضيلة لكان أن نفوا من مشاهد الأدب، وإن كان البقاء للأصلح والزبد يذهب جفاء، فيما يمكث ما ينفع الناس، بيد أن التصدي لبوادر الضعف والتهتك من محققات المصداقية والصدق في القول.

لقد شب الأدب السعودي عن الطوق، ولم يكن أدباً إقليمياً، ومن حقه أن يأخذ مكانه، وأن يؤدي دوره، وأن يكون حاضر المشاهد كلها فما من لقاء أحْضُره أو مؤتمر أشارك فيه إلا وتثور التساؤلات عن أدب لا يقل عن آداب الأمة العربية، ويجب ألا نرقب من ينهض لتصدير أدبنا بالإنابة عنا فنحن أحق بالنهوض بهذه المهمة، وبقدر أهمية التصدير تكون أهمية التنقية والتصفية، فالشوائب من العوائق، وما لم نكن قادرين على مواجهة الإخفاقات فإننا لن نكون قادرين على تجسيد الفجوات، وليس من الضروري أن تتسم المواجهة بالصدامية والإقصاء والتهميش، ولا أن تبلغ المجاملة حد إعطاء الدنية في الفن والقيم، وإذ نكون مُتْفَتِحين على كل الاتجاهات قادرين مادياً ومعنوياً على استقبال كل الخطابات فإن من حقنا بل من واجبنا أن يبادلنا الآخرون بالمثل .. وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان.

الأبعادُ الفَنِّيةُ والدلاليةُ في مجموعةِ (الظمأ) للجفري .. ! (١) (١)

مئات الكتاب يقترفون خطيئة الكتابة تحت مسمى الإبداع السردي ثم لا ينصرون وعشرات المبدعين وحدهم الذين يتقنون تلك المغامرة المحفوفة بالمحاذير ثم لا يُسمعون، لا شيء أكثر من هذا عند مواجهة الأعمال القصصية في الأدب العربي في المملكة العربية السعودية، والمصداقية تحتم على القارئ أن يواجه واقعه على ما هو عليه دون أي اعتبار لحساب الخسائر والأرباح، فالنقد المسؤول يكاشف المشهد بما هو عليه مريداً الإصلاح ما استطاع، إذ لا مكان للمداهنة والمشايلة على حساب القيم الفنية واللغوية والموضوعية، ولاسيما أن الغثائية بلغت حداً لا يحتمل، والسرديات إن لم يتداركها أولو العزم من النقاد فإنها ستهوي في مكان سحيق.

وتناول مجموعة قصصية يتطلب التوسل بالمنهج التاريخي والوصفي. لتحديد موقعها في سياقاتها الزمانية والمكانية والفنية، ليكون فاتحة للنقد التطبيقي.

فالإبداع السردي عند أدباء المملكة ومبدعيها - كما أشرت من قبل بالتفصيل في مخطوطة المداخل- لم يكن ذا شأن عند الأدباء والنقاد في بداياته الأولى، فسلطان الشعر يُحْكم قبضته على المشهد الأدبي، كما أن استيعاب الشرط الفني لم يكن على المستوى المطلوب، ومن ثم جاءت المحاولات الأولى متواضعة ومهمشة، ولكنها ثبتت أمام تحدي الشعر وأشياعه، اعتماداً على الانتصارات التي حققتها السرديات في مصر على يد العمالقة الرواد والمتضلعين من النقاد.

وبقدر سذاجة البدايات كان النقد المواكب انطباعياً تجزيئياً، ومن ثم لم يسهم في إقالة العثرات، كما لم يضع الأسس النظرية، ومرد ذلك كله إلى عزلة البلاد وتأخرها في التواصل مع الآداب الغربية، إذ لم تصل أيدي الأدباء إلى المترجمات ولم يظفر الشباب بالبعثات، ولم يمتد خلال الاستعمار بحيث يُمكن من التواصل مع الإبداعات السردية والتنظير النقدي، ومن ثم ظلت الحركة الأدبية في المملكة مرتهنة للتراث، وظل سلطان الشعر مهيمناً على الأدباء والنقاد حتى أذن الله بالبدايات الموفقة في التعليم والإعلام والاتصال، فكانت البعثات إلى مصر، وكان الاستقدام للأساتذة من مصر والشام، وكان الاحتكاك المباشر بالروائيين والقصاص في مصر والشام وكانت الإصاخة الواعية للحراك النقدي حول مجمل السرديات، ولقد أشرت في دراسات سابقة إلى الفوارق الجذرية بين مرحلة الريادة والتأسيس فالأساتذة (الأنصاري) و(السباعي) و(المغربي) وآخرون واكبوهم أو جاؤوا من بعدهم، كان لهم مجتمعين أو متفرقين شرف الريادة دون الإجادة، فيما كان ل(الدمنهوري) و(الحميدان) و(عقيل) شرف التأسيس للإبداع الروائي، وحين أفضت مرحلتا الريادة والتأسيس إلى مرحلة الانطلاق كان إتقان الإبداع السردي روائياً وقصصياً وسيرياً وإن اندس في صفوف الموهوبين مقتدرون يكتبون ولا يبدعون، وجاء من بعدهم عابثون تمردوا على السمات والخصائص ومحققات الإبداع السردي ممن خلطوا بين التجريب والتخريب، ولم يكن النقد شجاعاً ليصدع بالحق، ويُعرض عن الضعفاء والمتروكين. وتفسح النقاد المجاملين لمثل هذا الصنف من الكتاب غير المبدعين أدى إلى تكاثر الأدعياء والعابثين وحملهم على التوهم بأنهم يشكلون نقلة نوعية، والخطورة ليست وقفاً على الذين أساؤوا بالإسفاف الموضوعي، ولكنها تمتد إلى الذين أفسدوا الفن بالتخلي عن محققاته، وأفسدوا اللغة بالتخلي عن ضوابطها وأدبياتها، وأي راصد لهذا الحراك لا يسعه الإغماض على هذه الإخفاقات المضاعفة. والإشادة بالتجليات

---

(١) تاريخ المقال: ١١/ ١١/ ٢٠٠٨

المغمورة بالغثائيات حق على النقاد العدول، ولمّا لم يكن من متطلبات هذا البحث تقصي وجوه النقص وبوادر التألق فإنني سأضرب صفحاً عنهما، وأكتفي بموقفي المستاء من مثل هذه التجاوزات الفنية والدلالية واللغوية، وهي تجاوزات لم تتداركها الحركة النقدية التي لا تزال تراوح بين المجاملة والمشايلة أو تغليب السلامة بالصمت المطبق وفيما نثيره من التحفظات لا نود له أن يكون لحساب الإحباط والتيئيس، وإنما هو من باب الاحتياط وتدارك الأمر قبل فواته، ولاسيما أن فينا مبدعين مقتدرين على استبدال الذي هو خير بالذي هو أدنى، ولدينا نقادٌ منظّرون ومطبقون يمتلكون القدرة على نفي الرديء وإحقاق المتألق، وكم أتمنى التوفر على الجهد والوقت والفراغ لمثل هذه المهمة بل لهذه الفريضة الغائبة، والأمل معلق على شباب تضلعوا من معارف النقد السردي، وأسهموا بدراسات أكاديمية متميزة تناولوا من خلالها بعض مفردات من السرديات ك(البطل) و(التعالق) و(الصورة) وسائر القضايا ذات العلاقة بالشكل أو البناء اللغوي أو الموضوعي، وهي تناولات متوازنة وموضوعية.

ولو عدنا -ونحن عائدون ولا شك- إلى البدايات النقدية المواكبة لبدايات الإبداع السردي، لوقفنا على مناهج تاريخية رصدت النشأة والتحول في سرديات الأدب المحلي تناظراً مع مناهج مماثلة لتقصي نشأة السرديات في العالم العربي.

فالدارسون للقصة القصيرة في الأقطار العربية اتخذوا سبيلهم إليها عَبْر مقاطع زمانية ومكانية وفنية وموضوعية، فأرَّخوا ونظَّروا وطبَّقوا، ولم يبق فيها مجال لمستزيد، ولكن المجالات كلها قابلة للاستئناف لاستيعاب المستجدات، لقد تبدى النفس القصصي في القرن التاسع عشر على يد (عبد الله النديم) ١٨٩٦م في مجلته (التبكيت والتنكيت) ولم يكن هاجسه أن يكتب القصة، ولكن الكتابة جاءت كما يأتي القصص، وقد تسمى مثل هذه المبادرات بالمقالة القصصية وهي بدايات أعقبت (المقامات) في التراث العربي، ولم تكن وفق الضوابط الحديثة.

ولعل ترجمة الأقاصيص الغربية في صحيفة (الضياء) في مستهل القرن العشرين أسست للفن القصصي، وهي بدايات مبكرة مكّنت من النضح السردي قبل أن تكون البدايات الرائدة في الأدب العربي في المملكة، وللمؤرخ النقدي (سيد النساح) رصد تاريخي عن (تطور فن القصة القصيرة في مصر) وهو رصد يؤكد البدايات العازمة المتوفرة على القدوة والاحتذاء وتوفر الأجواء التي لم تتوفر لبدايات القص في المملكة العربية السعودية، ولو وازنا بين (زينب) لهيكل و(التوأمان) للأنصاري بوصفهما الريادي لاتضح البون الشاسع ومثلما أن للقصة تاريخها المرصود فإن لها رصدها الفني والدلالي والتحولي ومثل هذه الدراسات تدخل في مجال التنظير، ولقد هيئ للسرديات في مصر إسهامات مواكبة للإبداع تمثلت بالتاريخ لكافة الظواهر السردية، والتنظير المحيل إلى الغرب والتطبيق المستند على المعرفة والخبرة، وهو ما لم تضطلع به بدايات الحركة النقدية في المملكة الأمر الذي بطأ بالنضوج، لقد تقصى النقاد المنظرون عناصر القصص كما هي في المشهد الغربي من حيث الشكل واللغة والفن والعناصر كالوسط والحدث والزمن والشخوص وضروب المعالجة كالحبكة والأسلوب، كما تعرضت المعالجات للتطورات والتحولات، فعن ضروب المعالجات الفنية راوح القص بين السرد والترجمة والوثائق وتيار الوعي، وجاءت الحبكة والأسلوب مراوحين بين أنواع متعددة هي أشبه بالصور، كالإيقاع والتشويق والتوقيت، مثلما أن للأسلوب تلوناته وفق تعدد المعاني والموضوعات، والأسلوب هو نهاية التشكل النصي، فالنص يتشكل من الحروف والكلمات والجمل والعبارات، ومن خلاله تظهر براعة الكاتب من حيث الصور والإيقاع والجرس، وهي المعروفة بعناصر الصياغة، على أن البراعة لا تكتمل حتى يتوفر

التناسب بين الأسلوب والمضمون والقائم على اختيار الكلمات والتراكيب، ولكل مضمون حالته النفسية التي تتطلب إيقاعاً مناسباً وكلمات معبرة وعبارات مشخصة للحدث من حيث العلائق النفسية والدلالية، وتلك الإشارات التنظيرية محاولة للوصول إلى مبلغ الإبداع القصصي في المملكة من تلك السمات، ومكانة القاص عبد الله الجفري المتميز بلغته من ذلك، وإذا كان الشعر لا يحقق نوعه إلا بالشعرية، فإن الإبداع السردي لا يحق نوعه إلا بالأدبية، وللأدبية مفهوماتها المتباينة بين التراث والمعاصرة، ولأن ضابط السردية أقل حَدِّيةً من ضابط الشعرية فقد تقحم السرديات من ليسوا من أهلها الأمر الذي فوَّت فرصة التوفر على سرديات إبداعية حقيقية، واضطر معه بعض النقاد إلى المسايرة والتبرير واحتساب هذه الإخفاقات من باب محاولات التجديد، وما هي من التجديد في شيء.

الأبعاد الفنية والدلالية في مجموعة (الظمأ) للجفري .. ! (٢) [(١)]

وعلى ضوء هذا الاختلاط بين مستويات الإبداع السردي، والتوسل بحتمية التحول والتجديد، رصد المؤرخون ذلك دون تدخل نقدي، وذلك حين لمسوا التحول البطيء من نزعة الأسْطرة والفروسية والمثل العليا بعيدة المنال ومستحيلة الوقوع إلى التحليل النفسي للنوازع والممارسات والتحول إلى التوله والأحلام والهيام بالطبيعة، ثم الانعكاس في حمأة الواقعية وما يتطلبه هذان الاتجاهان من لغة تراوح بين الواقعية المتدنية والإغراق في الحكم ولما لم يكن حديثي خالصاً للتقصي التاريخي والفني واللغوي والموضوعي للإبداعات السردية، فقد قنعت بالإشارات الخاطفة لتكون مقدمة بين يدي النجوى حول القاص والروائي عبد الله الجفري ومدى موقعه من هذه الظواهر من خلال آخر مجموعاته القصصية.

وحديثي عنه مدفوع بمحرضين:

-وفاته وهذا الحدث المؤلم يتطلب الوفاء له وإعادة قراءته وإبراز الجوانب الإيجابية في جانب من إبداعاته.

-تميز لغته وجمال أسلوبه ومحاولته الجادة لإتقان فنياته في كثير من أعماله، والإبداع - عندي على الأقل - لغة، فمتى فقد الإبداع شعرية الشعر وأدبية السرد أصبح كلاماً إبلاغياً لا بلاغياً، والدراسة ستكون مقتصرة على مجموعته القصصية (الظمأ) التي صدرت عام ١٤٠٠ وهي ثالثة المجموعات الثلاث: (حياة جائعة) و(الجدار الآخر) وهذه المجموعة تحتوي على تسع قصص قصيرة.

ولقد يكون من متطلبات الموقف أن أشير إلى أنني قد أختلف مع الجفري في بعض ما يذهب إليه من إيغالات موضوعية أو استغراقات (رومانسية) وهو اختلاف لا يحول دون التعامل مع إبداعاته، ولا سيما أنه ترك من خلفه أعمالاً روائية وقصصية ولا يجوز لمشتغل في الحركة النقدية في المملكة أن يتخطاها ولا أن يقلل من شأنها، وإذا كان احتراف الكتابة الصحفية قد أدى إلى إخفاقه في بعض الجوانب الفنية واللغوية فإنه بلا شك جلَّى في جوانب أخرى:

وكفى المرء نبلاً أن تعد معايبه

ولا شك أن حضوره الإعلامي المتواصل قد فوَّت عليه الإتقان الفني والصفاء اللغوي الذي كان حريصاً عليه كل الحرص من قبل أن يجرفه طوفان الإعلام الصحفي، ولكنه فوات لا يسلبه التميز والمفاجأة، وبخاصة أنه حين استغرقه العمل الصحفي انقطع أو كاد عن الإبداع القصصي، والدليل على ذلك أن آخر مجموعاته القصصية التي نحن بصدد دراستها صدرت قبل ثلاثة عقود، وأحسبه يشبه إلى حد كبير (إبراهيم عبد القادر المازني) الذي انقطع للعمل الصحفي تاركاً الإبداع الشعري القصصي والترجمة التي امتاز بها من بين زملائه في (مدرسة الديوان) والذين أدركتهم حرفة الصحافة وأرهقهم عملها سموها (مهنة المتاعب).

والجفري في أعماله الإبداعية كافة يراوح بين السياسي والاجتماعي ورومانسية لا تكاد تنفصل عن الأحداث اليوم للناس البسطاء الذين يشغلهم العمل اليومي، ونزوعه السياسي لا يكاد ينفصل عن الأحداث العارضة والآنية وهو أميل إلى الرؤى الاجتماعية متخذا المرأة الملاذ الأول والأخير، فهي الأم والزوجة والزميلة والعشيقة، وهي المتسلطة والمقموعة.

---

(١) تاريخ المقال: ٢٥/ ١١/ ٢٠٠٨

والجفري القارئ النهم للإبداعات القصصية المصرية حاول الخلوص من هيمنة اللغة والشكل والموضوع، ولكنها محاولات تتعثر في المجال اللغوي، لقد أثرت اللهجة المصرية على الحوار والسرد معاً، أما البعد الموضوعي فقد حاول أن ينطلق من المجتمع الحجازي مجسداً همومه اليومية وأحداث أسره الشائعة، ولا أستطيع أن أقطع بأن قصصه ورواياته وثائق محلية إذ لم يرتهن نفسه لقعر الواقع كما فعل (نجيب محفوظ) الذي قيل بأن جائزة نوبل أخذت طريقها إليه من استغاله في الواقعية وانطلاقه من قعر الواقع، ولا أظن ذلك السبب وجيها، ولقد عالجت في مجال آخر الطريق إلى نوبل، ولم أكن في ذلك مقللاً من شأن محفوظ ولكنني متهم لأمانة الجائزة، وواقعية الجفري تكاد تكون ذات خصوصية تختلف عن واقعيات عدة عرف بها عدد من الروائيين والقصاص، وهي خصوصية ترتبط بالأرض التي انطلق منها ومن العادات والتقاليد التي أشربها، وإن شطت به بعض المبالغات وعصفت به بعض التهويمات (الرومانسية) وبعض مبالغاته تذكرنا بالمبالغات العاطفية التي ومع فيها (مصطفى لطفي المنفلوطي) في بعض إبداعاته ومترجماته.

لقد شكلت علامات المرأة بالرجل منطلقاً لعدد من المبدعين، والقصص التسع نحن بصدد دراستها لا تكاد تخلص من تلك العلاقة حتى لقد أصبح الجفري في سائر أعماله الإبداعية الناطق الرسمي باسم تلك العلاقات وحتى لم يكن من موضوعاته أي موضوع يند عن هذه العلاقات المتقلبة وإذا كان كثير من المبدعين العرب قد انزلق في العلاقات الجنسية وهو انزلاق أدان الكثير منهم، ولقد اختلفت مستويات هذا الانزلاق، وكان رائد ذلك كله الروائي المصري (إحسان عبد القدوس) الذي كشفت عن خبايا قصصه ورواياته الناقدة (سهيلة زين العابدين حماد) وأدت دراستها إلى اكتشاف تلاطم المذاهب والتيارات الحديثة في قصصه التي جمعت بين العلمانية والعقلانية والواقعية الاشتراكية والبهائية والإسماعيلية والنصيرية والفرويدية والوجودية السارترية ولست أدري عن مدى تجلي هذه المذاهب، ولقد عَدَّت مثلَ هذا الجنوح الأخلاقي مؤامرة على المرأة المسلمة. وسهيلة في دراستها تطبق منهج النقد الإسلامي.

والجفري الذي اتكأ على علاقات الرجل بالمرأة لم تدركه حرفة الشبقين ومن ثم تفادي الانزلاق في مهاوي الرذيلة، وإن أوغل في الكتابة عن الحب ولكنه إيغال روعيت فيه اعتبارات كثيرة، لم تظفر بكل الرضا ولكنها تفادت كل السخط، ويظل الجفري في تعاطيه مع تلك العلاقات مجالاً للاختلاف المعتبر.

ومن أوائل الدارسين له الناقد (شاكر النابلسي) فمنذ أربعة عقود أنجز دراسة تحليلية موسعة في تضاريس قصصه القصيرة وحاول أن يحدد موقفه من المرأة، وهو إذ يتخذها مجالاً لإبداعاته فإنه تفادى استخدام الجنس للإثارة، وإن أوغل في اللقاءات غير المشروعة وغير القائمة في مجتمع محافظ كالمملكة.

الأبعاد الفنية والدلالية في مجموعة (الظمأ) للجفري .. ! (٣) [(١)]

والتحفظ على الإيغال في المسكوت عنه يتفاوت بتفاوت مستويات الإيغال، والنقاد الأخلاقيون يختلفون حول المباح والمحظور، ولا سيما أن الإبداع السردي وجد متسعاً في الضوابط الفنية واللغوية والأخلاقية الأمر الذي حدا بكثير من النقاد إلى منح مزيد من الحرية في التعبير بحجة أن ذلك داخل ضمن الرصد الموضوعي على حد ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا﴾ ومن المتعذر أن نتقصى أطراف الأحاديث حول جدلية الرصد الواقعي، فالنقاد في جدل متشعب، والنقد الأخلاقي بوصفه منظومة موضوعية لم يتفق أطرافه حول الأمداء المقبولة، والدارسون لرموز الإبداع السردي تفاوتوا فيما بينهم، وهذا الاختلاف يذكرنا باختلاف النقاد الأقدمين حول تفحش الغزل والخمريات عند طائفة من الشعراء ك(ابن أبي ربيعة) و(أبي نواس) وبقدر الاختلاف حول اللغويات وسائر الضوابط الفنية في الشعر فقد اختلف النقاد حول الأخلاقيات، وحتى (الضرورة الشعرية) لم يقبل بها كل النقاد وبخاصة اللغويون منهم ك(ابن فارس) الذي ألف كتاب (ذم الخطأ في الشعر) منحياً باللائمة على الذين أباحوا للشعراء ما لم يبح لغيرهم، ومهما تشعبت الطرق واضطربت المفهومات فإن للإبداع القولي ما ليس لغيره، وعلى النقاد الأخلاقيين أن يعرفوا ذلك ومقولة (الأصمعي) حول علاقة (الدين) ب(الفن) محمولة على ذلك التباين بين الآراء، وفي النهاية فإنه لا بد من سقف تنتهي إليه الآراء وإن كان ثمة اختلاف فإنه في بُعْدِ هذا السقف أو قربه، على أن هناك من حاول كشفه، وهو ما لا يمكن القبول به، والدارس لإبداعيات (الجفري) لا بد أن يمر بهذه المنعطفات، ف(الجفري) في قصصه قارب المسكوت عنه، وهي مقاربة أزعم أنها حذرة، ولكنها تظل مثيرة، والقصص دائما يُعوّل على الظواهر ولا يحفل بالوقوعات العارضة، ومتى عرفنا أن المبدع قد ينشئ قضاياه ويخلق شخصياته أصبح من الممكن التدخل في البعد الموضوعي، وإشكالية الدارس لمبدع ينتمي إلى تيارات عدة أنه بحاجة إلى المراوحة بين المناهج والآليات والمذاهب.

و(الجفري) لم يكن (رومانسياً) خالص (الرومانسية) ولا (واقعياً) خالص الواقعية، غير أنه يعي تلبسه بأي منزع موضوعي أو فني، وارتهان أي مبدع في منزع إنما هو من باب التغليب، والتنقيب في نتائج الدراسات الموسعة والعمقة لعمالقة الإبداع السردي ك(محفوظ) و(السباعي) و(إدريس) تؤكد هذه المراوحة التي قد لا يسلم بها كثير من النقاد وحين نقطع بأن (الجفري) واحد من أولئك المراوحين لا تعوزنا الشواهد ولكي نحسم الخلاف لا بد من قراءة مجمل أعماله الروائية والقصصية، وهي في متناول اليد بعد أن تفضلت (اثنينية) الخوجة بطباعتها في ستة مجلدات.

ولو عدنا إلى مجموعة (الظمأ) - ونحن عائدون بلا شك- لوجدناها تدور في مضامينها حول المجتمع السعودي، في مرحلة من مراحل التحول.

وتحولات المجتمع السعودي ارتبطت بالتعليم والإعلام والانفتاح، وكل مجمع يتوفر على جذب العمالة والمستثمرين لا بد أن يكون تحوله سريعا وشاملا ومثيرا ومخيفا في آن. والروائيون والقصاص وعوا هذه التحولات ورصدوها واستثمروها، وشخصيات الجفري وأحداثه في مجموعته القصصية ترتبط بهذه التحولات وتنطلق من قعر المجتمع، ولكن انطلاق قد لا يشبه انطلاق غيره مِمَّنْ أسهموا في تشكيل وعيه الفني ك(محفوظ) و(محمد عبد الحليم عبد الله)، وهو وإن كان يلتقي مع هؤلاء في الفنيات وفي تناول العادات

---

(١) تاريخ المقال: ٢/ ١٢/ ٢٠٠٨

والتقاليد والعيوب الاجتماعية، ويختار شخوصه من الطبقات الاجتماعية وما تعانيه من فقر وما تتعرض له من مشكلات زوجية أو عملية إلا أنه يحاول الخلوص من هيمنة الأساطين، وإن كان ثمة تأثر ففي اللهجة الحوارية وشيء من الهيكلة.

ولقد كانت مدينة (جدة) مسرحاً لأحداث قصصه بكل ما تعج به من صخب وحركة وما هيئ لها من تواصل بالمدن العالمية والمحلية عبر البحر والبر والجو، وهي مدينة فاعلة ومهيمنة وقادرة على الإضحاك والإبكاء، وأشياؤها تتسع للتأمل والتذمر، وإنسانها قادر على أن يلعب أي دور يوده المبدع، ولا سيما أن السارد عاش فيها الحلو والمر وخبر الدقيق والجليل.

والجفري المغرم بالتفاصيل يذكرها ويذكر أحياءها وأزقتها وأسواقها القديمة والحديثة وشوارعها وتلوُّنَ الأشياء والأناسي فيها، ويطيل المكث في شواطئها ويستلهم الأمواج ورهبة البحر وغموضه وغدره.

والقاص يستمد لحمة قصصه من أحداث ممكنة وعادية، فهو لا يغرق في الخيال ولا في التخيل، فكل ما يدور بين الشخوص من حوار هادئ أو عنيف مشروع أو محظور يقع مثله بين الأناسي العاديين. والتواصل عبر الهاتف بين المحبين ممكن الوقوع، بل هو الواقع عينه الذي لا يستبعده أحد، وتجذير الحب قبل اكتشاف الذوات وما هي عليه من جمالٍ وصحةٍ وخُلقٍ يأتي عبر مكالمة هاتفية تتبعها مكالمات، حتى إذا تم اللقاء تكشفت الأمور عن عوالم حقيقية وإذا كانت الأذن تعشق قبل العين أحياناً فإن الهاتف أقوى الوسائط، ولقد وظفه (الجفري) بطريقة ذكية في قصته (ناني) التي تجلى فيها اللهاث والقفز والمفاجآت، واستخدمت فيها ظواهر الطبيعة بشكل مثير، فالأمواج واهنة متسكعة، وترددتها خافقة، والخروم متشابكة معقدة كما شبكة الصياد، والبحر الممتد يمثل (اللانهاية) فحياة الضياع الإفلاس يحكيها البحر والموج وشبكة الصياد، والمتقصي لإبداعات الجفري الروائية والقصصية يلاحظ استثماره للبحر وأشيائه، وهو استثمار يذكرنا بتوظيف الطبيعة لحمل كثير من الهموم، وكأني به يجنح إلى الطبيعة بعد استنزافه للمدنية، من شوارع وأرصفة وعمارات شاهقة وسيارات ترهق بضجيجها، ولو تفرغ دارس لأثر البحر وأشيائه ومفاجآته على روايات الجفري وقصصه لخرج بنتائج ملفتة للنظر، وأحسب أن النقد الحديث قد التفت إلى خصوصيات الطبيعة من صحراء قاحلة وأنهار متدفقة وجبال شاهقة وطبيعة حالمة على الشعراء والسرديين وحتى التشكيليين، والمدنية في الشعر الحديث من الدراسات الموضوعية الملفتة للنظر.

الأبعاد الفنية والدلالية في مجموعة (الظمأ) للجفري .. ! (٤)[(١)]

.. ومن المدائن تلتقط الشخصيات والأحداث وتصنع المواقف، وقد تكون متخيلة. وحتى حين تلتقط تكون العواطف والأخيلة هي المتنفذة، والفن يوغل في الفنية بقدر خلوصه .. من التسجيلية، والواقعية التي طنطن حولها النقد وقيل إنها الطريق الممهد الذي سلكه (نجيب محفوظ) إلى جائزة (نوبل) لم تكنخالصة من شوائب الخيال والمبالغة التي قد تصل إلى الأسطرة، ولو عدنا إلى قصص (الجفري) مجال الدراسة، لوجدنا طائفة من الدارسين يرونه مرتهنا للبعد الاجتماعي، والأبعاد الواقعية والاجتماعية قد لا تتخلص من التسجيلية، وهذا المصطلح قد يكون أكثر وضوحا حين يتحول العمل القصصي أو الروائي إلى (فيلم روائي) إذ فيه تتجلى التسجيلية، ولكن هذا المصطلح قد تتجلى محققاته في كثير من الأعمال السردية وبخاصة (أدب الرحلات)، والتعامل مع المنهج التسجيلي بمقدار مطلب فني لا غبار عليه، ولكن حين يكون المنهج المتفرد تهبط فنيات العمل السردي بحيث يلحق بالتاريخ الوثائقي، وفي كتاب (الروائي والتسجيلي) لـ(هاشم النحاس) استيفاء لمتطلبات العمل الفني التسجيلي، والبعدان: الواقعي والاجتماعي يلتقيان معاً مع المنهج التسجيلي ولكن براعة الفنان وعاطفته وخياله تحدد القدر المطلوب من هذا المنهج وهذا ما تميزت به قصص (الجفري) لقد كانت مراوحته بين تلك السمات مصدر تشويقه، ولو عدنا إلى قصة (ناني) وهي واحدة من أبرز قصصه لوجدناها تراوح بين مناهج عدة.. و(ناني) فتاة أحبت (عاصما) واقتربت منه، ولم يبق إلا أن يترجم هذا الحب بالزواج، ولكنها في اللحظات الحاسمة كشفت أنها مريضة بالقلب وأنها مفارقة، فلا تريد أن تظلمه، ومن ثم قررت قطع العلائق لانتظار ما قرره الأطباء، ومن هنا تتقحم العواطف والأخيلة مواقف التسجيل، ومن ثم فقد كانت اللغة مكثفة وتصويرية معتمدة على القفز والانقطاع والعبارات المتجاورة المغلقة على نفسها، وصناعة الكتابة ليست بأقل أهمية من صناعة الفن، ولقد عيب على النقاد الأقدمين القول بالصناعة بوصفها أداء واعياً، والحق أن صناعة الأسلوب الأخاذ مطلب رئيس، وأصحاب المنخلات وعبيد الشعر هم الذين كرسوا وجودهم، وأصحاب الأساليب المتأنقة هم الذين تألقوا فهذا (طه حسين) و(أحمد حسن الزيات) ومن قبلهم (مصطفى لطفي المنفلوطي) كانوا واجهة الكتاب، ولما كان (النص) حروفا وكلمات وجمل وعبارات كان لابد أن يكون هناك مهنية لتشكيل الأسلوب الأخاذ، وأكاد أجزم أن السارد (الجفري) يعي هذه المهمة وأنه بارع بكل الخطوات، ولكنه حين يقترب من صياغة الأسلوب يكون الموج الانفعالي قد بلغ الشاطئ ومن ثم يتكسر قبل أن يبلغ مداه، إن الجمل المتلفة حول بعضها تبدو كما لو كانت طلقات تتابع ولكنها لا تتلاحم، والسارد قد يصطنع التقمص ملتقطا مشاعر كل الأطراف، فهو حين يحكي أو حين يدع الشخصيات تحكي يظل محتفظا بمستوى انفعالية واحد، حتى لكأنه والبطل فرسا رهان، وحين تكون الجملة متكأ السارد لا يأخذ الأسلوب دوره حتى تكون الوثائق، وقد تكون الوثائق مختلفة لتعميق المأساة، ورسالة (ناني) التي سقطت (فوق بقايا الناس وكأنها بقايا الحياة فوق الأحجار والرمال اللزجة والموج الواهن المتسكع على وجه البحر) هي وحدها التي تجاوزت العبارة إلى الأسلوب لا لشيء إلا لأنها رسالة تحمل الفاجعة، أعرف أننا بحاجة إلى مساءلة البطل، لماذا كسر الأعراف والعادات وهو الفنان التشكيلي الذي يجسد حيوات المقهورين بالريشة واللون واللوحة، لماذا تجاوز بتواصله مع (ناني) حدود اللياقة، أذكر وأنا أتساءل مداخلة بعض الأخوات عما إذا كان

---

(١) تاريخ المقال: ١٦/ ١٢/ ٢٠٠٨

هناك فرق بين الفن والحياة، ومحاولتها التوسل بآيات الشعراء، وإذ يكون معها بعض الحق فإن من حق الناقد الموضوعي الأخلاقي أن يثير مثل هذه التساؤلات وإن كانت ممكنة الوقوع وإن كانت بعض المجتمعات تتفسح لمثل هذه الممارسات ولا ترى فيها من بأس، هي مجرد حقوق تستوفيها المناهج النقدية المشروعة، ولو حرم كل منهج من حقوقه لانكمشت واضمحلت، ومثل هذا التجاوز يعد غلطة، فهل كانت حدثا فرض نفسه، أم هي من أضغاث الأحلام، وما أكثر أحلام المبدعين فهذا (ابن أبي ربيعة) يقسم على نزاهته، وهذا الأمير الذي عزله (عمر بن الخطاب) لأنه ذكر مجالس الخمر وما ينتاب شاربها أقسم أنه لن يعاقرها، وإشكالية البعد الموضوعي من الشعر والسرديات ستظل قائمة، وقد لا يحلو النقد إلا بالاختلاف حول المشروعية.

وميزة السارد أنه يسوق السقوط بوصفه حدثاً لا غاية يمر به على أنه مرحلة في سياق حيوات الشخوص، غير أنه يتجافى استثماره لتعميق الرذيلة.

وإشكالية السارد انغماسه في الحلم حتى لا تجد لقوله مشروعية اجتماعية فضلاً عن المشروعية الأخلاقية، بمعنى أنه يقترب من المستحيل عرفا على الأقل، ففي قصة (الخفقة) تراه يمعن في التخيل متنكراً للواقع والسائد ممعنا في استدرار العواطف حتى لكأنه (المنفلوطي) الذي يبلغ في استدراره العواطف حد التملق متناسيا أن للتخييل حدوده المستساغة.

و(الجفري) الذي أصبحت تجاوزاته ومبالغاته مجال أخذ ورد بين النقاد، وهي تجاوزات محكومة بشيء من الضوابط، تراه لا يلتزم عناصر القصة من حيث الموقف والحدث والتنوير، فالحدث عنه قد لا يتطور بالقدر المطلوب إذ ربما تتداخل الأحداث الصغيرة قبل أن يستكمل الحدث الرئيس شوطه، والقارئ المتوتر ينصب تفكيره في مجرى الحدث ويسوؤه أن ينقطع المجرى بأحداث ثانوية ليست مهمة بالنسبة للقارئ، ولقد يكون القطع مقصوداً لذاته لتوتير الأعصاب والتشويق وبلبلة الفكر، ولكم يكون القاص حريصاً على التلاعب بمشاعر المتلقي وحمله على الرفض والاحتجاج، والقصة عند (الجفري) ترتبط بالحدث بل تكاد ترتهن للوقوعات العارضة، فليست تاريخية ولا (بوليسية) وإن كان ميالاً إلى النفسية وهو ميل لا تغذيه المنهجية كما أنه يميل إلى المغامرة، وموضوعات قصصه تبدأ من المرأة وتنتهي إليها، ولكن المرأة لم تكن غاية بذاتها، وإنما هي وسيلة غير مبتذلة لتمرير الموضوع الاجتماعي المتعلق بالحب أو بالمال أو بالعلاقات العائلية أو بالعمل الوظيفي أو بالصخب والضوائق الاجتماعية، وهو إذ ينطلق من قعر الواقعية فإنه لا يمضي معها ولا مع واقعية اللغة وإن قاربها في الحوار وتوقاها في السرد.

والجفري بوصفه موهوباً ومسكوناً بالهم الاجتماعي ومتواصلاً مع الإبداعات والمبدعين وراصداً لضجر النقاد من الشكل التقليدي للقصة ومن تشتت التصميم الجديد وإغراقه في الغموض والهلامية والمحاكاة البلهاء للمستجد الغربي فقد منح قصصه سمة جديدة راوحت بين المواءمة بين مختلف الأشكال، ولكنه لم يقطع صلته بمقومات الفن القصصي إذ لم يكن مقلداً في الشكل ولا في اللغة ولا منقطعاً عما يعده المنصفون من النقاد محققاً للإبداع القصصي، ولا سيما أنه عاش مرحلة التمرد على الفنون والوقوع في فوضى الكتابة التي خلطت بين الشعرية بضوابطها والسردية بأدبيتها، وحطمت الفوارق والأشكال واستفحلت الفوضى غير الخلاقة.

والجفري الذي سيطرت عليه المدينة بشكل واضح، أمعن في استغلال أشيائها ودق في وصفها، ولكنه لم يكن وصفاً حسياً ثابتاً إنه وصف تغلب عليه المشاعر، فالبحر والطريق والحديقة والإسفلت وكل الأشياء الثابتة والمتحركة تتحول عنده إلى لغة كما لغة

الجسد والإشارة إنه يحسن توظيفها للتعبير عن لحظاته المتوترة والمسترخية، ولو ذهبنا نلتمس صورة البحر في مجموعته تلك لوجدنا خليطاً من الصور المرتبطة بالمشاعر المتقلبة وصورة البحر في ظل التوظيف الشعوري لم تكن حيادية كما لم تكن (رومانسية) ولكنها خليط من هذا وذاك، والجفري يتكئ في استثماره العمق والاتساع والاضطراب والأمواج على الصورة.

تلك هي أبرز ملامحه الفنية و الدلالية واللغوية ولا أحسب تلك المجموعة جماع خصائصه واتجاهاته وسماته ولكنها آخر أعماله ومن ثم ستكون الراصدة لتحولاته على أنه انصرف عن الإبداع السردي إلى الكتابة الصحفية الأمر الذي ترك فراغاً في عالمه القصصي.

القراءات المتعددة لمبادرة الوفاق العالمي .. ؟[(١)]

من المؤكد أن تتعدد قراءة المبادرة الإنسانية التي طرحها خادم الحرمين الشريفين، بوصفها مخاض الويلات الجسام التي مرت بها الإنسانية عبر تاريخها (الأيديولوجي والسياسي، وهي قراءات تَنْسِل من أنساق ثقافية وخلفيات سياسية ومصالح آنية، قد يصعِّدها البعض لتكون إضافة إلى محرضات الفرقة، على حد: ﴿ولأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ [التوبة: ٤٧] .

والعالم الذي تقبَّل المبادرة بقبول حسن سيعود قادته إلى مؤسساتهم التشريعية والتنفيذية وإلى قادة الفكر والثقافة لينظروا في مدى إمكانية التفاعل الإيجابي معها، وترجمة مشاعر القبول والرضى بحفظ الألسن وكف الأيدي وإبداء حسن النوايا لتحقيق أدنى حد من التعايش السلمي بين الأمم.

وسواء استجابت الشعوب بمختلف أطيافها وأذعن القادة بمختلف اتجاهاتهم أم تفاوتوا بين الاستجابة والتحفظ والرفض، فالمملكة على كل الأحوال كسبت الرهان، وألقت القضية في شباك الدول المتوترة من عمليات الإرهاب والمناوئين للعدالة والوفاق.

ومهما آلت إليه المبادرة فإن لغة الاتهام والارتياب لن تكون كما هي من قبل، ذلك أن المملكة التي حملت الرؤية العربية والإسلامية إلى أروقة الأمم المتحدة في دولة القطب الأكبر، وحولتها إلى حدث عالمي مشهود وأصبحت وثيقة تاريخية لن يستطيع مغالط أن يحجبها أو أن يشكك في ثبوتها أو في نواياها، لأنها حدث عالمي تجسَّد بكل أبعاده تحت سمع العالم وبصره وتحت قبة عالمية، وإن كان ثمة مراوغة أو تنصُّل فإنها ستكون في القراءات المتآمرة وعبر نظريات التلقي والتأويل والتفكيك؛ فهي القادرة على تحريف الكلم من بعد مواضعه والدخول بها في مماحكات تحمِّل بنودها ما لا تحتمل وتذرها كالمعلقة.

ومبادرة المملكة الإنسانية لها ما بعدها، متى استوعبت كافة الأطراف المقاصد والغايات وقبلت حدود التداخل الدائري بين الحضارات الإنسانية.

وقَفْوُ الأحداث تحدوه آمال متفاوتة بتفاوت الخلفيات الثقافية والحالات النفسية والأوضاع المتماسكة أو المتردية عند كل فئة ذات مساس وكم من رهانات متناقضة يراها المتفائلون والمتشائمون والمتشايلون والمخذلون قد لا يجدون ما يحملونها عليه؛ فالطرح الوجل لمثل هذا اللون من الخطابات محاولة جادة لإيقاف التدهور المرعب في العلاقات الدولية، وما كان لخطاب الوسطية والتسامح والحوار والتعايش والسلام ليكون لولا استفحال الصراع المرهق للشعوب المغلوبة على أمرها.

والمشروع الإنساني الذي تبناه الملك عبد الله واتخذ طريقه إليه خطوة خطوة من (مكة) إلى (مدريد) ومنها إلى العالم أجمع في (نيويورك) يُعَدُّ بحق مطلباً إنسانياً، ولا سيما أن العالم يمر بانهيارات أمنية واقتصادية. والقضاء الناجز على بؤر التوتر لا يمكن أن يتم بين عشية وضحاها وبأقل التضحيات، وصدق الله: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾، ولأن مرحلة التنفيذ أصعب مما يتصورها الخليون؛ فقد جاءت عبر ثلاث خطوات وئيدة:

-الحوار الحضاري بين أطياف المجتمع الواحد لتفادي التصدع.

(١) تاريخ المقال: ١٨/ ١١/ ٢٠٠٨

-التقريب بين المذاهب داخل منظومة حضارية واحدة لتوفير القواسم المشترك.
-حوار الأديان لإحلال التعايش محل التناحر.

ولقد أعطي لكل مرحلة من الفرص المادية والوقتية والتنظيمية ما أتاح لها تفادي أي عقبة تحبط الآمال، والتوفر على كافة الإمكانات لا يمنع من توجس الخيفة؛ فالمصلح لا يمكن أن يخلو له الجو ليمارس مهمته في ظروف مواتية، والعقبات التي تعترض سبيله والمفاجآت غير السارة التي تنبعث من بين يديه ومن خلفه هي بعض ما وعد الله به من الافتتان، غير أن الصبر والمصابرة والمرابطة والتقوى والإيمان بعدالة المشروع والاحتساب تهون معها كل المصاعب وتضمحل معها كل المخاوف وإذا علم الله من عبده صدق المقاصد وحسن النوايا دفع عنه الغوائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾.

وما يعانيه العالم من صراعات وإرهاب وغطرسة وتدخلات سافرة في السيادات الوطنية وما يعتمل في المشاهد من صراعات إثنية وطائفية ومصلحية .. كل ذلك يحفز عقلاء العالم على التفكير الجاد لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من حيوات زاهقة وكرامات مدنسة ومثمنات مخربة.

وأحسب أن مبادرة الملك عبد الله من الفرص النادرة التي يجب أن يبتدرها زعماء العالم لإنقاذ شعوبهم من ويلات الفتن العمياء التي لا تصيبن الذين ظلموا خاصة، والتجربة الحية أثبتت أن القوة وحدها لا يمكن أن تحسم المواقف لصالح الأقوى؛ ومن ثم لا بد من لغة الحكمة والأناة والدفع بالتي هي أحسن، وما اكتسح (أوباما) خصومه إلا بوعدين (إقالة العثرة الاقتصادية) و(تحسين الصورة الأمريكية) ولن تتحقق تلك الآمال في ظل الشقاق وعدم الوفاق مع العالم الثالث.

وإذ يستبعد المتفائلون صراع الحضارات، كما جاء في رد (هارالد موللر) على (هنتنغتون) في كتابه (تعايش الثقافات) بإحالة ما يبدو من الصراع إلى صدام المصالح وغطرسة القوة، فإن من الممكن أن يكون الغلو والتطرف والتعصب والجهل والتآمر والأزمات الاقتصادية والاستبداد السياسي وبؤر التوتر في أنحاء كثيرة من العالم من المحرضات على الصدام.

وكل القراءات المتوازنة لن تضرب صفحاً عن أحداث مصيرية غيَّرت مجرى التاريخ الحديث؛ لأنها المؤثر الأقوى على قراءة المستقبل، فانهيار الاتحاد السوفيتي، وضرب البرجين، والانهيار الاقتصادي وحروب الخليج وأفغانستان سيكون لها مجتمعةً أو متفرقةً أقوى التأثير على مجريات الأحداث، وكل حدث جلل لا بد أن يغير الخوارط السياسية والأولويات والمصالح والأصدقاء والحلفاء، وهذا ما يعانيه العالم اليوم وهو المرهص لهذه المبادرة التي جاءت على قَدَر لتوقف التدهور وترأب التصدعات المخيفة.

والمملكة بوصفها الدولة الأهم على المستويين العربي والإسلامي لا يمكن أن تنكفئ على نفسها، ولا أن تعيش على هامش الأحداث؛ لأنها من الدول الحمَّالة، وتدهور الأوضاع العالمية سيضعها في جَفْن الردى وهم قائم، وهي إذ تبادر على كل الصعد وعلى مختلف المستويات العربية والإسلامية والعالمية فإنها تمارس حقها وواجبها في آن، والمراقبون الذين يباركون هذه الخطوة الجريئة يتخوفون مما ستكون عليه ردود الأفعال من المستفيدين والمتضررين، وكم أتمنى من عقلاء العالم أن يحولوا دون القراءات التعسفية التي يُراد منها إجهاض المشروع الإنساني ووضع العراقيل في طريقه، وبوادر التحدي للمشروع بدت من فلتات الألسن ومن لحن القول، وما تخفي الصدور أكبر،

المتمثلة بالقراءات التعجيزية والتيئيسية والتحريضية والتخويفية، ولقد حذَّرْت في مقالات سابقة من التأويلات الفاسدة للمبادرة، فحين يكون من المتعذر مواجهتها يلجأ المرجفون إلى تفسيرات مضللة وتأويلات مخيفة.

ومن البدهيات أن الملك عبد الله في شأنه كله لا يمكن أن يزايد على ثوابته الدينية ولا على محققات حضارة الإسلام، كما لا يمكن أن تمس المبادرة الحقوق المشروعة لدول العالم الثالث، وكيف يتصور منه مثل ذلك وهو سليل بيت سلفي مستنير يترسم خطى الذكر الحكيم، ويدفع بروح الإسلام ومقاصده الإنسانية القادرة على الوفاق والتعايش. إن المبادرة الحضارية تنطلق من قعر الإسلام وغاياته، ومن قواعده وأصوله الغائبة في بقاع كثيرة من العالم: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾، و ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً﴾، ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾، ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾.

فالبر والعدل والإجارة وحسن القول والجنوح للسلام هي جماع المبادرة الحضارية التي أطلقها الملك عبد الله وتلقاها قادة العالم بتفاؤل حذر.

ومن قرأ المبادرة الإنسانية على غير هذا الهدي أو أراد منها ما لم يرده قائد إسلامي يعرف حدود ما أنزل الله فقد ضل ضلالاً بعيداً. إنها فرصة ثمينة وفواتها سيحمل العالم مزيداً من الويلات.

فهل يستطيع قادة الفكر والسياسة الارتقاء بمشاعرهم والخلوص من الأطماع العاجلة لتمكين العالم التائه من العودة إلى سواء السبيل؟

إن على العالمين العربي والإسلامي أن يعُضَّا عليها بالنواجذ لكي يثبتا للعالم أنهما دعاة سلام، وأنه لم يعد بالإمكان احتمال مزيد من الفتن التي لا تبقي ولا تذر.

لكي يكون الحج مبروراً .. ؟[(١)]

من بوادر القبول ومؤشرات التوفيق لحاج بيت الله العتيق أن يَعْرف المستهدفُ بالفضل لذويه وباذليه فضلهم، ثم لا ينقص منه شيئا، ولا يُفَوِّت منه فرصة، وان يترجم المعرفة لتكون في صالح المقصود بالفضل ففي ذلك انتفاع مشروع وشكر واجب وتحفيز للمتفضل على مزيد من العطاء بنفس راضية وصدر رحيب.

وليست المعرفة والترجمة قصرا على اللهج بالثناء في السر والعلن، وإنما هي شيء يتعدى القول إلى المشاطرة في تفعيل الأنظمة والتعليمات واستثمار رشيد للتسهيلات المتاحة على وجهها. وإخفاء القبول والرضاء أو إبداؤهما وأخذهما بأطراف الأحاديث لا يغني من الحق شيئا ما لم يجسد ذلك كله فعل منضبط، فالخدمات والتسهيلات والإنفاق السخي على كافة المرافق والمعابر والمشاعر لا يمكن أن يؤدي شيء منها ما يتوخى منه إلا بوعي الحاج لها وتعامله الحضاري معها.

والدولة التي وضعت في أولويات مهماتها تطهير البيت حِسًّاً ومعنى للطائفين والعاكفين والركع السجود، تود من ضيوف الرحمن كافة أن يكونوا في مستوى متطلبات الحج توخيا لقوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ والمفردات الثلاث: الرفث، والفسوق، والجدال إذا استطاع الحاج تفاديها تمت الشعائر وفق الأنظمة والتعليمات، وهو الثمن الذي ترقبه الدولة لجهودها وأموالها وأوقاتها وطاقاتها البشرية المبذولة بسخاء وبطيبة نفس لا مَنَّ فيها ولا أذى، والرفث: اللغو بما لا ينبغي. والفسوق: الخروج عن الطاعة. والجدل: الخصام مع الناس، وتلك جماع المفسدات، ومن خالف التعليمات فقد فسق عن أمر ربه لأنها وضعت لحفظ الحقوق وكف الأذى، وهي طاعة لا معصية فيها، ومن ثم فهي واجبة على الحاج ومن استخف بها فقد جهل مقاصد الشريعة ومحققات البيعة الشرعية، وعرض حجه للفساد وهو ما لا يريده في قرارة نفسه.

وهل أحد من المستجيبين لاذان المبلغ عن الله والقادمين من كل فج عميق إلى بلد لم يكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس لا يود أحدهم أن يكون حجه مبرورا وسعيه مشكورا وذنبه مغفورا وعمله متقبلا، وأن يعود إلى بلده لم يؤذ أحدا ولم يؤذه أحد؟

وهل أحد من الكافة يتصور أن التوفر على الحج المبرور متعذر أو بعيد المنال، إن إحساس كل حاج بمهمته وأهمية مقاصده كفيل بتيسير التسديد وتحقيق القبول، ولو أن كل حاج عرف حدود ما أنزل الله، وأن خادم الحرمين الشريفين ساع جهده لحمل الكافة على الالتزام بهذه الحدود بما أحاطها من أنظمة وتعليمات لاستراح بنفسه وأراح المسؤول واستقامت الأمور على مراد الدولة التي لا تريد من وراء عملها وإنفاقها السخي وجهدها الجهيد إلا توفير الأجواء الملائمة للحج المبرور ولا سيما أن جل الحجاج من المسنين والضعفاء والأميين الذين يأتمرون بأمر علمائهم وأولي الأمر منهم. وكيف يكون من عاقل سوي أي استخفاف بمحققات السلامة للكافة، وهو يعلم يقينا أن الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة.

والدولة التي ضربت أروع الأمثلة في الإنفاق السخي والتسهيلات الواسعة والتنظيمات المرنة والتعليمات الواضحة تود ألا يشكل الجهل والضعف وعدم المبالاة عقبة في طريق أداء رسالتها الإسلامية، وإذا كان على حجاج الآفاق شطر من المسؤولية

---

(١) تاريخ المقال: ٩/ ١٢/ ٢٠٠٨

فإن على حجاج الداخل ضعف ذلك، فحاج الداخل يستفيد من الخدمات والتسهيلات، وهو مسؤول بوصفه جزءا من الدولة المضيفة فلا دولة بدونه، ولا قيمة له بدون دولة قوية مطاعة ومهيمنة، وتمرده على التعليمات أو استخفافه بالضوابط والأنظمة إضعاف لسلطانها. وتشويه لسمعتها وإحباط للمسؤولين الذين يعولون عليه في العمل على تفعيل التعليمات وعند انعدام المسؤولية وفقد الحس الأمني لدى المواطنين يكونون عبئا وعقبة في حين أن كل واحد من الحجاج إنما هو جزء من الدولة المضيفة، ولو أن حجاج الداخل أحسوا بمسؤولياتهم إزاء ضيوف الرحمن وترجموا رسالة الدولة قولا وعملا وانضباطا ووعيا وتوجيها وإيثارا لقدموا لحجاج الخارج قدوة حسنة ولضربوا أروع الأمثلة في الامتثال ولأعطوا عن بلادهم صورة مشرقة، ولأصبحوا بممارساتهم الحضارية جزءا من رجال الأمن والتوعية.

ولكم كان من الأجدى والأهدى إعطاء دورات توعوية مكثفة لكافة الحجاج ولحجاج الداخل بالذات بحيث تكون شرطا في الإذن بالحج، لكي يسهم الحاج بدوره الأمني والرقابي والتوعوي ويكون عينا متيقظة وأذنا واعية على المشاعر وسلامة المقيم والعابر، إذا ما أكثر المفسدين وضعفاء النفوس والمستخفين الذين يودون تشويه سمعة البلاد وأهلها.

ومتى أحس حجاج الداخل بمسؤولياتهم خف العبء على رجال الأمن وامتد الإحساس لحجاج الفجاج العميقة، ولما احتاجت الدولة إلى تجنيد أكثر من مائة ألف فرد لضبط الأمن والحركة وفك الاختناقات ومراقبة الأمواج المتدفقة من كل صوب وحدب.

وليس من السهل استيعاب الوافدين على اختلاف ألسنتهم وعاداتهم ومستويات تفكيرهم ووعيهم وطوائفهم وجهلهم بالشعائر والمشاعر وأساليب الأداء والتعامل مع لحظات الذروة إذا لم يكن المواطن عينا متيقظة وأذنا واعية والدولة بما هيأ الله لها من إمكانيات مادية ودوافع إيمانية وشعور بالمسؤولية تود لعطاءاتها السخية أن تجد من يقدرها قدرها ومن يترجمها على أرض الواقع على طريقة الممتثل لمراد الله ورسوله، والحاج الذي ينتهب الخطى من كل فج عميق وراء الشعائر والمشاعر وسط أمواج من البشر وعبر مساحات ضيقة وفي زمن محدود لابد أن يواجه عوائق قد لا يقدر بإمكانياته الذاتية على تجاوزها أو التغلب عليها، وتسهيلات الدولة وممارسة رجالاتها حين لا تجد الأجواء الملائمة لها قد تتحول إلى عوائق، وذلك بعض ما يشيعه المرجفون حين يصدهم المنظمون أو يعيقهم المفوجون.

ولو أن الحجاج عرفوا ما لهم وما عليهم لما احتاجوا إلى من يتدخل في شؤونهم إذ لو أنصف الناس لاستراح المسؤول، وكل ما تهدف إليه الدولة أن يقضي الحاج حجه بسلامة وأن يعود إلى بلاده سالمًا غانمًا.

لقد كان السفر إلى الديار المقدسة قبل توحيد البلاد مغامرة محفوفة بالمخاطر والغادي إليها مفقود والرائح منها مولود، ولم يكن هناك أمن في الطرق ولا في الغذاء ولا وقاية من الأوبئة ولا شيء من وسائل السلامة، وحين عبد ت الطرق وأمن الناس على حياتهم وصحتهم وتوفرت الأغذية والأدوية ضاقت المشاعر وفاضت السبل وتدفق الناس من كل فج عميق وأصبح من الضروري التدخل للتحديد والتفويج وبناء الجسور والأنفاق، وحين لا يستجيب الحاج بطوعه واختياره إلى متطلبات الأنظمة والتعليمات يكون عرضة للمخاطر ومقترفا للرفث والفسوق والجدال.

ولو أحس الحاج والمعتمر بخطورة الأوضاع واكتفى بحجة الفرض ولو إلى حين وترك المشاعر المحدودة الاستيعاب لمن لم يحج فرضه، واحتسب الأجر على الله ببذل

نفقة حجه التطوعي في سبل الخير وهي كثيرة لاستطاعت الدولة أن توفر الأجواء الملائمة والمشرفة.

إن على أبناء المملكة أن يعوا رسالتهم، وأن يدركوا أن الدولة حين لم تأذن لكل راغب في الحج فإنما تريد أن تتيح الفرصة لكافة المسلمين لأداء فرضهم، وبخاصة ممن تقدمت بهم السن ولم يحجوا، وأحسب أن أي متحايل على الأنظمة والتعليمات المتفق على عدلها ومشروعيتها آثم قلبه عاص لربه مؤذ للحجاج والعمار والله لا يحب الفساد، وطاعة ولي الأمر المؤتمر بأمر الله من طاعة الله ورسوله، والعبادات مرهونة بالاستطاعة، والحج لا يكون إلا لمن استطاع إليه سبيلا، ولا سبيل مع الإيذاء ومضايقة ذوي الفروض وفي الحديث: «**من أطاعني فقد أطاع الله ومن أطاع الأمير فقد أطاعني**» أو كما قال ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾.

التعبير عن المواقف بلغة أخرى .. ![1]

الشارع العربي يعيش حالة من الاحتقان والتوتر، ولمَّا تزل لديه قابلية لممالأة أي تصرف يخفف من معاناته ومرارة انكساراته، فهو كأي مادة مضغوطة وقابلة للاشتعال تظل بانتظار أي مثير مهما كان صغيراً ليتدفق عبر الشوارع ووسائل الإعلام، حتى إذا أفرغ شحناته الانفعالية عاد كأن لم يكن شيء بانتظاره.

والإعلام المتهافت على بؤر التوتر المتهالك على الإثارة المجانية لا يتردد في التقاط أبسط الأشياء والنفخ فيها حتى تسد الأفق، وبراعته في القدرة على تجييش العواطف وتحشيد المشاعر، وليس يعنيه بعد هذا أن يكون الحدث في مستوى التداول والتصعيد أو لا يكون، كل همه أن تَفِيضَ ساعاته العجاف بالمحفزات والمثيرات، وأن يشد الانتباه، ولقد يصل التصعيد بالوقوعات الصغيرة إلى حدِّ القداسة وتحريم المساس بها، حتى لا يجرؤ أحد على القول المخالف، ومن ثم يكون التسليم للأمر الواقع على حد:

وما أنا إلا من غزية إن غوت

غَوَيْتُ وإن ترشد غُزَيَة أرشد

وإسهام هذا اللون من الإعلام في تشكيل الرأي العام يعد من المقترفات التي لا يمكن احتمالها، وكم قيل عن الإعلام الفضائحي وعن أثره السَّيِّئ، ولاسيما في ظل الإمكانيات المذهلة والظروف الضاغطة، فانفجار التقنية وثورة الاتصالات ومعايشة الحدث صوتاً وصورة مسرح العالم، وحوَّله إلى قريةٍ صغيرة يطل عليها الإنسان الخلي والشجي وهو متكئ على أريكته، يعرف بأقل الجهد والوقت أدق الأشياء عن دقيق الأحداث وجليلها، وفشل الإنسان في استثمار هذه الإمكانيات والتقنيات العالية يحول دون تحقيق المراد، وما على المتردد إلا أن يدخل على المواقع، أو أن يتنقل بين القنوات، أو أن يجيل نظره على أنهر الصحف وبطون المجلات ليصاب بالصدمة المذهلة.

ولقد يكون من الفضول الخوض في الحديث عما بدر من الصحفي العراقي أثناء اللقاء الصحفي الذي عقده الرئيس الأمريكي ورئيس وزراء العراق في المنطقة الخضراء المحكمة الحراسة في بغداد؛ إذ ربما يكون الحديث عنه مغامرة ومقامرة، فالكاتب الراصد للأحداث بموضوعية وحيادية قد تتنازعه المواقف، وشعور المكتوي بنار الاحتلال لن تجاريه مشاعر المراقبين للأوضاع عن بُعْد، والشارع العربي الذي هيَّجه الحدث وأشعل مشاعره لا يمكن الخوض في معمعته دون التعرض لرشقات مماثلة للحدث، غير أن الكاتب مؤتمن كالمستشار ومسؤول عما يقول: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ و ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ والحديث في قضايا الأمة مشاركة فعلية في صنع القرار وفي المسؤولية، فالرجل يقول الكلمة في سخط الله لا يلقي لها بالاً تهوي به سبعين خريفاً في النار، والكاتب يسطر الرأي الفطير أو الحصيف في الشأن القومي يهوي به في مكان سحيق أو يبتدر رأيه سبعين ألف ملك ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾، ولقد يكون الحدث أقل من عادي، ولكن الظروف الضاغطة والأوضاع المأزومة تجعله حدثاً مصيرياً وتاريخياً.

---

(١) تاريخ المقال: ٢٣/ ١٢/ ٢٠٠٨

ولعلنا نتذكر حادثة (محمد الدرة) وكيف تحوَّل قتله العارض إلى انقلاب في الرأي العام مع أن الحدث خال من أي تحرف بطولي أو جهادي، فالطفل وأبوه كانا يمشيان في الأسواق لقضاء حوائجهم اليومية المعتادة ولم يكونا في العير ولا في النفير، وصادف أن كان مرورهما في لحظة صدام مسلح بين جيش الاحتلال والمقاومة، حيث استقرت رصاصة طائشة في جسد الطفل، وبقدرة قادر يتحول الطفل وأبوه إلى بطلين بالصدفة وتتحول معهما لغة الشارع العربي إلى لغة ثورية عارمة وينتزع الدرة وشاح البطولة دون غيره من الفدائيين، وبعد استنزاف المشاعر يسدل الستار إلى الأبد.

ومباركة التضحية أو التحفظ عليها من الصحفي العراقي لابد أن يحالا إلى المواطنة الحقة أو العمالة المدانة، ولن يحالا إلى الرؤية المستقلة التي لا تمس المواطنة بسوء في حالة الإشادة، أو الإدانة، بحيث تكون إحدى الرؤيتين مفضولة أو فاضلة، ويكون صاحبها أصاب المحز أو جانب الصواب، بحيث لا يزكِّي ولا يخوِّن أحد الطرفين، فالحدث من حيث هو تعبير عن مشاعر الاستياء من الأوضاع القائمة بلغة غرائبية ومفاجئة، ولكل إنسان رؤيته في التعبير عن مشاعره وليس من حقه أن يختصر التعبير عن مشاعر الآخرين برؤيته أو بتصرفه، وبعيداً عن الأجواء المشحونة بالتوتر العاطفي فإن الرئيس الأمريكي في نظر الأغلبية العالمية يعد أسوأ رئيس مر على البيت الأبيض، وأثر تصرفاته غير السوية أساءت إلى الإنسان الأمريكي، وسيظل أثرها السيئ قائماً في الواقع ونكتة سوداء في التاريخ، والرجل الأمريكي عبّر عن موقفه بأسلوب حضاري تمثل باكتساح المرشح الديمقراطي لخصمه الجمهوري، وخروج بوش من البيت الأبيض محملاً بالأوزار أمضى وأمضّ عقاب، ومهما تحامل على نفسه وأخفى مرارة الفشل السياسي الذريع فإن الواقع يستعصي على التبرير ولسنا بحاجة إلى التذكير بالنكسة الاقتصادية واستفحال الكراهية للمؤسسة السياسية الأمريكية، وما من رجل سوي يستطيع أن يلتمس أي مبرر لتصرفات الحكومة الأمريكية، غير أنه مهما اختلف الشارع العربي مع السياسة الأمريكية فإن المؤسسات السياسية في العالم التي تتبادل الاتفاقات والمعاهدات والعلاقات ملزمة باحترام السيادة وتبادل (البروتوكولات) بالمثل، والإسلام يكون في حالة حرب مع أي دولة، ولكنه يستقبل الوفود والرسل على مختلف المستويات ويوفر لهم الأمن والكرامة، وتوفير الأجواء الملائمة واللائقة للأعداء في حالة اللقاءات والمباحثات من متطلبات السياسة الإسلامية والعلاقات الدولية ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾.

ومن هنا قد أميل عاطفياً مع أي تصرف غير مسؤول وأجد فيه شفاء لمعاناتي وقهري، ولكنني أتردد في قبول مثل هذا التصرف عقلياً، فالعالم بمؤسساته وقوانين علاقاته الدولية ليس محتكراً للشارع العربي الذي يغلي بالكراهية لمن ظلمه، ومن ثم فإن له رؤيته المحكومة بالقوانين الدولية وأنظمة العلاقات وفي ظل احتمالات ردود الأفعال الأعنف فقد يترجم المعنيون مواقفهم بتصرف أقسى وأمرّ ومؤسسات الاستكبار السياسي قد لا تفرق بين تشنجات الشارع العام وتصرفات المؤسسات المسؤولة، ولقد يتساءل الرجل الغربي الذي لا يتفق مع مؤسسته السياسية والعسكرية ويمينه المتطرف عما إذا كان التعبير عن مشاعر السخط بإهانة رئيس أكبر دولة في العالم بهذا الأسلوب المهين بطولياً وحضارياً، ولعلنا نذكر الرد القاسي والموجع الذي نفذه (بيل كلنتون) حين اكتشف مؤامرة اغتيال (بوش الأب) عند زيارته للكويت بعد عملية التحرير، وذلك بتدميره لمبنى المخابرات العراقية في قلب بغداد.

بقي أن تتلقى المؤسسات السياسية هذا الحدث المثير على أنه رسالة بلغة غير حضارية، وهي ممكنة التبادل، فالرأي العام يفاجئ المشاهد بلغات أشد مضاضة من لغة القول، وكم نرى ونسمع عن (لغة الجسد) وإمكانية قراءة الأفكار من خلال الإيماءات. والاتصال غير الشفهي تعبير فصيح ومؤثر وناقل للمواقف ومجسد للمشاعر، وعلى الأطراف المعنية احتواء الموقف بلغة العقل لا بلغة العواطف والتشنجات.

أعود لأقول: إننا مع الصحفي العراقي بعواطفنا ولكننا لسنا معه بعقولنا.

من الذي صنع الانكسار.. !؟[(١)]

عند كلِّ ضربة همجيّة موجعة تمارسُها إسرائيل بحق الشعب الفلسطيني، تثور ثائرة الإعلام العربي بطريقة متشنّجة محمِّلة الأُمّة العربية مسؤولية ما يحصل دون استثناء، فيم لا ينبس عربي واحد بحق أحد من الشعب الفلسطيني، وهذا الهدير غير المسؤول يصعد الاستياء المعاكس ويعمّق الشعور السّلبي لدى الشعوب العربية، وما كان يجب أن يتشنّج الخطاب الإعلامي بحيث يطفئ وهج الإخلاص للقضية الفلسطينية، ويضلّل الرأي العام في أخطر قضاياه وأهمها.

إنّ هناك مقترفات بحق القضية مارسها الأقربون بحق أنفسهم، ولو وضعت الأمور في مواضعها لما آلت الأحوال إلى ما هي عليه الآن، وحين يحتدم الاعتداء غير المتكافئ ويسقط الشهداء الأبرياء، تتّجه العيون والحناجر إلى أمّة معزولة ومهمّشة. إنّ قضية شائكة وخطيرة وعصيّة على الحل، لا يمكن تداولها على ألسنة مأجورة تقبع في دول الضباب وتعيش حياة الترف، لقد تحمّل الشعب العربي ويلات القضية، ودخل حروباً دامية من أجلها، وأنفق المليارات من الدولارات في سبيلها، وتعطّلت مشاريعه التنموية بسببها، وعند كل ضربة موجعة يتجه الاتهام إلى الأمّة العربية التي لا يملك قادتها اتخاذ أي إجراء يلزم قادة الفصائل فضلاً عمّا سواهم، وفوق هذا وذاك فقد تركت بعض التصرفات غير المسؤولة جروحاً لن تندمل لدى بعض الشعوب العربية أثناء حرب الخليج، والقضية لن تحل بحرية وكرامة وقوة حتى يعرف الجاني حجم جنايته والخائن فظاعة خيانته. إنّ الاهتياج الأعزل والمبادرات المرتجلة وتملُّق الجماهير المخدوعة، لا يمكن أن يضيف شيئاً. لابد من مواجهة النفس قبل مواجهة العدو ومحاسبة النفس حساباً عسيراً قبل محاسبة الآخر، سينتهي الاعتداء بعدما ينجز العدو مهمته وسيعود الناس إلى وضعهم الطبيعي، وستنضم هذه العملية البشعة إلى سلسلة عمليات أبشع منها، وسيعود القادة الفلسطينيون إلى خلافهم مع أنفسهم ومع أُمتهم وسيلتقوا مع قادة العدو بحميمية ومجاملة تصل إلى حد الأخذ بالأحضان، فيم يحظر على قائد عربي أن تضمه مع مسؤول إسرائيلي قاعة واحدة. والذاكرة العربية مخروقة لا تحتفظ بشيء مما حدث وما يحدث ولا تتهيأ لشيء متوقع حدوثه، وإسرائيل التي تخطط للفعل والاحجام وتعرف كيف تفكك التضامن العربي وتصدع الوحدة الفلسطينية، تمارس عملها في الوقت المناسب وفي الظروف المواتية، وقد تمنحها الممارسات غير المسؤولة من الفصائل مشروعية الضربة الموجعة، والدول العربية والإسلامية ذات النزوع الثوري أو التصدير الطائفي تستغل القضية للتمكين لنفسها في أرض الوهم، وقد تقامر فيها، الأمر الذي يَحْمل دول الاعتدال على الاعتزال حتى إذا جدّ الجد ووقع الفأس على الرأس لم يبق في المشهد إلاّ الذين أُقْصوا ولم تسمع كلمتهم:

وإذا تكـــون كريهـــة أدعـــى لهـــا
وإذا يحـــاس الحـــيس يـــدعى جنـــدب

إنّ الإعلام العربي يمارس الإحباط والتخذيل ويخون أمانته لأنه لا يقول كلمة الحق، بحيث يقول للمخطئ أخطأت فلسطينياً كان أو عربياً أو إسلامياً وللمقامر بالقضية والمزايد عليها ما هو أهل له. إنّ استثمار القضية لبناء الأمجاد الوهمية جريمة لا تغتفر.

---

(١) تاريخ المقال: ٣٠/ ١٢/ ٢٠٠٨

لقد نيل من القادة الشرفاء الأوفياء الذين تجدهم القضية ساعة العسرة، ولما يزالوا رغم ما ينالهم من افتراء وكذب على الخط الأمامي، لا يرجون من تضحياتهم جزاءً ولا شكورا، ولو أنهم بادلوا بالمثل لما قالوا كلمة، ولما قدموا دعماً. والإشكالية إنّ الغوغاء تحركهم الكلمات الفارغة، الكلمات غير المسؤولة، فأين الذين يدَّعون أنهم أهل القضية وخاصتها في تلك الساعات العصيبة، الساعات التي يهدر فيها الدم المسلم على أرض إسلامية ومن أجل قضية إسلامية.

إنّ على الفلسطينيين المنشقين على أنفسهم المتاجرين بقضيتهم أن يحفظوا لأهل الفضل فضلهم، وأن يعرفوا للمحسن إحسانه وأن لا يجعلوا إمكانياتهم تحت الطلب، فالوضع خطير والحصار والقتل والتدمير لا يمكن احتماله، وعلى قادة الأمة العربية، إن قيّض لها أن تجتمع، أن تتجاوز العارض إلى المرض العضال، مرض المتاجرة بالقضية على حساب النساء والأطفال والشيوخ.

إنّ عليهم أن يواجهوا بعضهم بل يواجهوا القادة الفلسطينيين، فما أضاع القضية إلاّ غضّ الطرف والمجاملات، والقول بأنّ الوضع الآن لا يحتمل أكثر من إيقاف العدوان وحقن الدماء، نعم نحن مع ذلك، ولكن من الخطأ الفادح أن يَرِمَّ الجرح على فساد، وكلما قبلنا بالحلول الوقتية واكتفينا بفك الاشتباك ثارت مشاكل أدهى وأمر، لقد ملّ الإنسان العربي من هذه الأوضاع المزرية، وضاق ذرعاً باللعب المكشوف بالقضية واستغلالها لأغراض دنيئة. إنّ على القادة أن يقولوا كلمة الحق ولو على أنفسهم، فالإنسان العربي بلغ حداً لا يطاق من الضجر والملل والغثيان، حتى لقد أصيب بالإحباط وكاد لا يكترث مما يرى وكأنه يردد: (على أهلها جنت براقش). إنّ خطاب العنتريات والمثاليات والقفز على الواقع وتجاهل الإمكانيات وتراكم المشاكل، سوف لا يزيد القضية إلاّ ارتكاساً في وحل المستحيل، وخطاب التيئيس والإحباط والاستسلام للواقع، لن يزيد القضية إلاّ ارتكاساً في وحل الذل والمهانة، وبين هذا وذاك خطاب العقل والبصيرة واستغلال الإمكانيات السياسية والعلاقات الشخصية والدفع بالتي هي أحسن ما أمكن ذلك. إنّ واقعاً دامياً مسّ الإنسان الفلسطيني بالذل والجوع والقتل، لا يمكن حله بخطاب الغوغائيين الذين يستثمرون المواقف الحرجة لترميم وجوههم الشائهة وإقالة عثرات سمعتهم الذميمة.

كلنا حول الميزانية ندندن .. !(١)

المواطن العادي والعالم المرتهن لأُمِّيَّة التخصص كلاهما يجهلان الكثير عن مصطلحات الميزانية ومقتضيات كل مصطلح، والميزانية التي يرقبها الكافة مُستهل كل عام لا يعرف دقائقها إلا ذوو الاختصاص من الاقتصاديين، وكان يجب -والحالة تلك- أن تعقد الندوات الشارحة والوسيطة للتقريب بين غوامض الميزانية ومدركات المواطن المستهدف بها، ليكون على بينة من أمره، فالميزانية التي توجف بأرقامها ووعودها الطوبارية كل عام إن هي إلا منه وإليه، وحين لا يتقراها بلمسٍ ولا يعيها بِسمع يكون معها غريب الوجه واليد واللسان، والذي يعرفه منها رقمين تقديريين: الواردات والمصروفات، يلتقطهما من أول يوم، ثم يمضي لشأنه لا يلوي على شيء من دقائق المعلومات، وقد يعرف الفرق بين ميزانية عامه هذا والذي سبقه، والأهمية لا تقف عند المعرفة المجردة للغة الأرقام، بل تمتد إلى سرعة التنفيذ وتسديد التصرف، وتفادي التدوير الذي يقع فيه (البيروقراطيون). فالذين يتسلمون أنصبتهم منها ويخوضون معترك التنفيذ يتفاوتون في كل شيء، وذلك مكمن الخطورة والأهمية ومربط الفرس، إذ هم وحدهم الذين يترجمون الأرقام ويفعلون الميزانية، فإما أن يكونوا في مستوى الحدث أو يكونوا عقبة في طريق التنفيذ القاصد الذي حدده وعناه ولي الأمر في كلمة الإعلان عن الميزانية، فكم من مسؤول حال بين المواطن وما يشتهي، والميزانية لا تكون شيئاً مذكوراً حتى تندلق أرقامها في أرض الواقع وتتجلي ثمارها في المشاهد كلها: قلاع علم ومداخن مصانع وسوح مزارع ومشافي ومتنزهات وطرقات وتنمية شاملة تعم الوهاد والنجاد وبطون الأودية. وتحقيق ذلك كله بيد الوزارات والمصالح والهيئات التي جالدت وجاهدت وجادلت لإقرار مشاريعها، فالدولة أعطت وعلى الحكومة أن تتقبل هذا بقبول حسن وأن تتكفل بالتنفيذ الذي يحقق الأهداف والطموحات، ومتى استطاع كل قطاع أن يستغل نصيبه منها وأن يضعه في موضعه الذي حدد له من أول يوم عادت الميزانية بالرخاء، ومثلما أحسن الكسب أحسن الإنفاق، فالله سائِلُ كلّ راعٍ عما استرعاه، وبالذات عن المال العام والخاص مما اكتسبه وفيم أنفقه ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ و«**لحم نبت على السحت النار أولى به**» و«**أطب مطعمك تجب دعوتك**» وإذ لا يُحَدُّ سارق المال العام فإن لكل مواطن متعلقة يوم القيامة. وتعثر الميزانية نتيجة الجهل أو العجز أو الإهمال أو الاستغلال ينعكس أثره السيئ على حياة الأمة، ويقيني أن توسع الدولة في المأسسة كفيل بتلافي أي تقصير متى استطاعت تلك المؤسسات تحقيق المراد منها.

فالمجالس البلدية ومجالس المناطق لو عرف أعضاؤها ما خصص لمناطقهم من مشاريع ثم تابعوا ذلك من اللحظة الأولى وساءلوا المقصرين عن التنفيذ أو المتلاعبين فيه وحملوهم المسؤولية لاستقامت الأمور، وحققت الميزانية ما أريد منها وما أريد لها.

فهل من تعليمات تمنع العضو من معرفة حق المنطقة ومتابعة ذلك قبل التنفيذ وأثناءه وبعده ومعرفة الصادق من المقصر، لقد شوهدت مشاريع فقدت صلاحيتها قبل اكتمال عمرها الافتراضي، وشوهدت مشاريع أقل من حاجة المنطقة، وأخرى وضعت في غير موضعها، وما أحد أسهم بالترشيد الحكيم أو بالمساءلة مع أن ولي الأمر حين أنشأ هذه المجالس أراد منها أن تكون عيناً واعية تراقب عن قرب، ولا تأخذها بالحق لومة لائم، وإذ يُسلم الكافة بالتقصير، فإن المطلوب الرصد والمتابعة والتقويم والمساندة، وكلنا خطاؤون والخيرية في التلافي والتراجع لا في الإصرار على الحنث أو اللمم، ولكي

---

(١) تاريخ المقال: ١/ ١/ ٢٠٠٩

يوضع كل مسؤول أمام نفسه فإن على جهات المراقبة والمحاسبة والمؤازرة والمشورة أن تشاطر وتسائل وبخاصة من لم يستغل ما فرض له في هذا الخير العميم الذي يغبطنا عليه القاصي والداني، فإن كان السبب تباطؤاً أو تقصيرا عزز جانبه وطورت آلياته، وإن لم يكن لديه استعداد لقبول الدعم والتطوير أميط عن الطريق فبقاؤه في هذا الزمن المواتي معوق لمشاريع الدولة، فكل من أمن المساءلة أساء التصرف وهان عليه أمر البلاد والعباد.

وكم نسمع أن وزارة أو مصلحة أو هيئة لم تنفذ ما اعتمد لها من مشاريع، وهذه حقيقة مؤذية، ولكننا قد لا نسمع عن مساءلة لهذا التفويت المخل بخطط التنمية، وخشية من أن يكون للمسؤول عذر ونحن نلوم إن المكاشفة والشفافية واستدعاء المسؤول أمام وسائل الإعلام في مجلس الشورى أو مجالس المناطق أو المجالس البلدية على مسمع ومرأى من المنتفعين والمتضررين ومساءلته أمام الرأي العام، ففي مثل ذلك ذب عن عرضه وتبرير لتصرفه إن كان عجزه مبرراً.

والمجالس الثلاثة الشورية والمناطقية والبلدية تغلب على سماتها المهمات النيابية وعليها أن تبعث الثقة والاطمئنان في نفوس المنيبين بما تمارسه من متابعة ومساءلة وتقويم، لا تعتمد التشهير ولا المزايدات ولا تركن إلى المواطأة ولا تتخذ بين ذلك سبيلاً، وإنما تبحث عن الحق، وتساند المحق، وتضيق الخناق على المقصر، وتكثف الرقابة وتتعرف على دخائل الأمور، فالدولة الرشيدة أرادت لحكومتها التنفيذية أن تكون تحت سمع المواطن وبصره، وهذه هي روح الشفافية التي يدعو لها ولي الأمر واختيار الكفاءات الوطنية لهذه المهمات النيابية يوجب على المكلف أن يكون راصداً أميناً ومتابعاً دقيقاً لمسيرة السلطة التنفيذية.

ويقيني أن مجلس الشورى هو المقر الطبيعي للمساءلة والمساندة لمن لم تسعفه الإمكانيات البشرية على إنجاز مهماته واستغلال اعتماداته، وعلى كافة أعضائه وبخاصة اللجان المختصة داخل المجلس أن يعرفوا المعتمد لكل وزارة من المشاريع وما أنجز منها وما لم ينجز فإذا قارب العام على الانصرام وقد تبين له أن جهة ما لم تتدارك أمرها حسن فيه استدعاء المسؤول أمام الملأ ومساءلته، فكم من مسؤول غمرته الاعتمادات التنموية وليس بين يديه من الآليات ما يستطيع معها تنفيذ ما خصص لإدارته وإذا أعيدت الاعتمادات نهش الناس عرضه وشنعوا عليه، ولو أتيحت له فرصة البوح والدفاع لحمل مرجعه على تفادي النقص وتهيئة الأجواء الملائمة لتنفيذ المشاريع المعتمدة، ولقد ركز خادم الحرمين الشريفين على أهمية الآلية المناسبة لتفادي ما يمكن تفاديه، كما حث الوزراء على مبادرة التنفيذ. والتقصير في التنفيذ قد يواكبه خطأ في التقدير، فالناس يتحدثون كثيراً عن وضع بعض المشاريع في غير موضعها، ويرددون في لغطهم أن توزيعها ربما لا يكون الأفضل، وأن مدناً أو محافظات تحتاج إلى مرافق لم تحظ بها وأن أخرى فوجئت بمرافق ليست بحاجة ملحة إليها، أو ربما أن فقه الأولويات لم تتح له فرصة التدخل، بحيث تكون مدينتان في حاجة إلى هذا المرفق أو ذاك، ولكن أحدهما أشد حاجة ثم يفاجأ الطرفان بما ليس في الحسبان إذ يعطي المرفق للمحتاج غير المتضرر ويؤجل المحتاج المتضرر، وليس هناك ما يمنع -والحالة تلك- من المساءلة عن هذا التصرف غير العادل، والمحقق لمقولة: (غزارة في الإنتاج وسوء في التوزيع).

والمملكة التي تستقبل ميزانية استثنائية بحاجة ماسة إلى كفاءات استثنائية لتفعيلها، ولا يمكن تحقيق تطلعات ولي الأمر إلا بالمكاشفة وتفادي أي معوق مهما كان صغيراً، ذلك أن الأودية الجارفة مصدرها قطرات الماء؛ والأزمات الخانقة في بعض المرافق الصحية والتعليمية لا يمكن توقعها في ظل هذه الميزانية الاستثنائية.

نسأل الله للبلاد والعباد وقادتها المخلصين مزيداً من الرخاء والاستقرار إنه ولي ذلك والقادر عليه.

تداعيات قراءة فكر المسيري .. ؟[١]

عندما توفي المفكر العربي الكبير عبد الوهاب المسيري، حاولت إعادة قراءته، وكل فقيد يبرح مشاهد الفكر أو السياسة أو الأدب تحدوك المناسبة إلى تلمس ملامحه ومنطوياته الفكرية من خلال ما كتب أو ما كتب عنه فعلت ذلك عندما مات المفكر الوجودي عبد الرحمن بدوي، وكذلك العلامة السلفي أبو بكر عبد الله أبو زيد، وقراءة ما بعد الرحيل توفر أجواء حميمية تنزع ما في القلوب من مواقف، لأن أصحاب الفكر دخلوا في ذمة التاريخ، ولم يعد هناك إمكانية للدفاع عن أنفسهم، ثم إن ما ترك المفكر يعد ذكراً ثانياً يختلف عما هو عليه أثناء حياته.

والمسيري بوصفه متخصصاً ومهتماً بالفكر الصهيوني وتاريخ وتقلباته فإن قوله عن اليهودية قول لا يساورك فيه الشك، والتاريخ اليهودي مليء بالمفتريات، والإثم والعدوان، واليهود بإمكاناتهم المادية والإعلامية قد أضلوا كثيراً من الناس، وانتزعوا عطفهم وتأييدهم في كافة المحافل الدولية، وكل أقلية منبوذة أو متهمة تحاول أن تتوفر على مقومات البقاء والغلبة، والمسيري في كتابه (دفاع عن الإنسان) أنصف الإنسان اليهودي حين تحدث في الفصل السابع عن (العبقرية اليهودية) وعن الإنسان اليهودي المجرم، ولكنه لم يمضِ مع الدعاوى الكاذبة بتفوق الشعب المختار.

ولقد كانت هناك تداعيات مهمة تشكل حجر الزاوية للمشاهد المعاصرة وسوف أتناول منها ما يتعلق بقضيتين مهمتين وموهمتين:

-المحرقة.

-ومعاداة السامية.

إذ هما الشغل الشاغل لأساطين السياسة والضالعين في اللعب السياسية الكبرى.

وعادة المسيري حين يتناول مفردة مثيرة من المفردات السياسية أو الفكرية يرجع بها إلى جذورها السياسية والفكرية، ويحاول لملمة الشتات حول المفاهيم والرؤى، وكثير من المتابعين لا تعنيهم التفاصيل، إذ يرونها من الترادف أو من تعدد وجهات النظر، والمسيري الخبير بالحيل الصهيونية يربط كل رؤية بمرجعيتها، ولو أخذنا تعريفات ما يتعلق بدعوى إبادة اليهود على يد الألمان النازيين، لوجدنا لكل تعريف مقاصده وغاياته الخافية على كثير من المشتغلين بالشأن السياسي.

وإني لأزعم أنه مغرم بنحت المصطلحات التي تختصر المفاهيم وتجمل المعاني، فهو يصف الحدث بأنه تجاوز (الأيقنة) وهي تعني نزع أي ظاهرة من سياقها الإنساني والتاريخي والاجتماعي والثقافي بحيث تصبح مرجعية بذاتها، ويصير الحدث مطلقاً يتحتم قبوله بدون تساؤل، على شاكلة ما علم من الدين بالضرورة واليقين البرهاني، ومن ثم يكون سراً من الأسرار المقدمة كالقضاء والقدر وإبادة اليهود يُطلق عليه مصطلح (الهولوكوست) والكلمة يونانية تعني (حرق القربان بالكامل) كما أنها مصطلح ديني يهودي يشير إلى القربان الذي يُضحى به للرب، والمسيري يحاول اكتشاف سر اختيار هذا المصطلح ليطلق على دعوى إحراق الألمان لليهود، ويتوقع تشبيه الشعب اليهودي بالقربان وأنه أحرق لأنه أكثر الشعوب قداسة، لقد استوفى السياق الحضاري لدعوى الإبادة، ومن بعد أتبعها بسياقات ألمانية وغربية وسياسية واجتماعية.

كما تناول السياقين للحضارة الألمانية والغربية متكئاً على سيل من الفرضيات الممتعة والمحتملة، وخلص إلى نتائج تظل خارج المؤكد، ولكنها معطى تصور عميق

---

(١) تاريخ المقال: ١٢/ ٨/ ٢٠٠٨

لجذور الحضارة الغربية وطموحاتها، لقد وصم الحضارة الغربية بنزعة الإبادة الحسية والمعنوية على افتراض أن الغربي فوق الجميع، وأن الشعب اليهودي مجرد جماعة وظيفية، وهي التي تعرف في ضوء فائدتها ونفعها فهي (مادة استعمالية لا قداسة لها). والأخطر في تصوره القطع بأن التشكيل الحضاري الغربي يجعل الإبادة احتمالاً كافياً فيه، وليس مسألة عريضة، وبراعة المفكر في التقليل من قضية الإبادة وتأكيد النزعة الشريرة في الحضارة الغربية، وهو حين يكذب الدعوى أو بعضها لا يبرئ الحضارة الألمانية من نزعة الإبادة، التي حولت الشعب الألماني من مواطنين إلى جنود مقاتلين، لقد تعمق في كشف الأنساق وتبادلها للمواقع، وحقق ظاهرة النسق المادي بوصفه الأقوى تأثيراً على كل المسارات الفكرية والسياسية والاجتماعية.

وهو لكي يحقق النزعة الإبادية حاول استجلاء وضع اليهود في الحضارة الغربية، غير أنه وسع قاعدة التقصي إلى الحد الذي شمل المبادئ والمذاهب والتيارات والمفكرين، وبخاصة الذين أشاعوا الأفكار المعادية لليهود على أساس عرقي، كما أوغل في تجليه الفكر النازي ونزعاته المتعددة، والأهم في هذا السياق حديثه المقتضب عن السياق السياسي والاجتماعي الألماني اليهودي، ودور اليهود الاقتصادي وتمركزهم في المدن، ونظرة الألمان لهم المتمركزة حول الكيف لا الكم، إذ هم أقلية لا يؤثرون بقوة العدد، ولكنهم يهتمون بأقوى مؤثرين: المال والإعلام، وفوق ذلك فهم الأحرص على تبني المذاهب وتسخير الإعلام لبث الدعاية لها، وإن كانت فرضيات لا تصح، وليس أدل على ذلك من نظرية (دارون) ورؤية (ماركس) الاقتصادية، ولقد تقصى المسيري هذا الجانب حين تحدث عن العبقرية اليهودية، وهي عبقرية وضعت للإفساد وتمكين اليهود من المواقع المهمة في المشاهد الثقافية والاقتصادية والإعلامية، وسيطرتهم على تلك المشاهد يجعل السياسة الأهم قيد أيديهم. ولن نتقصى ما قيل عن دعوى المحرقة وما كتب عنها سلباً أو إيجاباً فذلك يندبنا عن التداعيات المتعلقة بفكر المسيري ورؤيته الموضوعية والمعرفية.

أما الحديث عن السامية تحديث ذو شعب وبخاصة بعدما ادعت اليهودية الأثرة بها، وبعدما استجاب البيت الأبيض لدعواها الغرائبية، وصدور قانون ٢٠٠٤م لمتابعة معاداة السامية على مستوى العالم، وهو قانون أقل ما يوصف به أنه تعسفي، و(بوش الابن) على مشارف الانتخاب لولاية ثانية أراد أن يتملق اليهود ويكسب أصواتهم وتأييدهم لأنهم المسيطرون على المال والإعلام، وبدون تأييدهم سيكون عرضة للإخفاق، وذلك دأب كل المرشحين، والقانون التعسفي الذي اتخذه الرئيس الأمريكي أخذ عليه أحد المفكرين ستاً وعشرين ملاحظة قانونية ودينية وتاريخية وإنسانية وسياسية.

ولأنني سأتناول لعبة السامية بحديث مفصل فقد فضلت الاكتفاء بالإشارة، وإشكالية اللعبة أنها أثرت على الرأي العام وامتدت إلى المدونات والموسوعات، وظنها البعض وقفاً على اليهود، مع أن اليهود جزء من السامية والعداء لهم ليس له أي ارتباط بالسامية.

لقد كانت للمسيري صولات وجولات في فجاج الفكر والأدب والسياسة، وموضوعيته ومنهجيته ومعرفيته أعطت فكره مزيداً من التوازن وأجهدت خصومه وبخاصة الصهيونية التي طاردته، وقد يكون له كل الدور في وفاته، إن المشهد السياسي والفكري أحوج ما يكون إلى قراءة متأنية لرؤية المسيري، وأعماله المتعددة المجالات والمصادر، وهو إذ يعبر المشهد بكل هذه الإضافات بحاجة إلى أقلام نافذة تكرس رؤيته وتربطه بالجيل المنبت من جذوره بفعل التزييف الفكري والإعلامي.

مَكْمن الجمال في القصيدة المعاصرة .. ؟ (١) (١)

شغلتني (قصيدة النثر)، حتى لم أجد متسعاً من الجهد والوقت للاشتغال فيما سواها من فنون القول المحدثة، وكنت أقول بأنه يمكن أن يكون هذا اللون من السرد أي شيء من فنون القول المتميز والجذاب والمبهج في الكثير من أحواله، ولكنه لن يكون من الشعر في شيء ولأن المخالفين لي من أهل الفن وخاصته ليسوا أدعياء ولا متطفلين، ولقولهم أثره في المشهد، فقد حدوني إلى تقصي ما قيل عن القصيدة المعاصرة بكل أشكالها، وتحولاتها الدلالية والفنية، والتحرف للتزود من الآراء والنظريات والمصطلحات، ما تقدم منها وما تأخر، حتى (زنبور) ولد (حسان بن ثابت)، الذي أقسم أنه قال الشعر حين سجع ووازن، وحتى وصْفِ المشركين للرسول بأنه شاعر، لما جاء به من كلام لا يكون مجمله على شاكلة الشعر.

هذا الكم من الدراسات والمترجمات، جعلتني أشقى في الانتقاء، لا في البحث فيما بين يدي من كتب وما أنطوي عليه من معهود ذهني، وذلك كله فوق ما يتطلبه بحث مقتضب كهذا الذي نقدمه عن مكامن الجماليات، وعلى الرغم من التراكم المعرفي، أحسب أننا بأمس الحاجة إلى مزيد من القول، والتحسس عما يجد من آراء، فالمشاهد النقدية والإبداعية يلدن كل جديد، وكل يوم لها شأن آخر، قد يكون مناقضاً لما سلف أو مرهصاً لما هو آت.

ومشهد يتلقى ركبان المستجدات دون تقدير أو مراجعة، لا يقر له قرار، وأشقى النقاد والأدباء من يجوسون خلاله، وكل أجواء أدبية لا ينبعث منها طقسها، تكون معرَّضة للتحول السريع والمفاجئ، وقدَرُ مشاهدنا أنها مرتبطة بأجواء الغير تتغير بتغيرها، وحسبي أنني مرتهن لهذه التقلبات، وكلما فاضت رفوف مكتبتي من قضية، فوجئت بتجشؤات لها دوي كدوي الرعد، محدثة فراغاً مخيفاً، يحملني على التزود من المستجد، وهكذا تكون قضايا الأدب الحديث وظواهره، كما نجوى المحبين كلام الليل يمحوه النهار، ومن ظن الثبات والأناة فلينظر إلى ما خلّفه النقد الحديث وراء ظهره من قضايا وظواهر ومذاهب وتيارات، وما تعالق معه من أشباه ونظائر، ليعلم علم اليقين أن النقد كما الحداثة وبعدياتها لا تصبر على رؤية واحدة، ولعبة (البعديات) أعطت المتذوقين مجالاً أوسع لتبرير التحولات السريعة وغير الواعية.

والخلوص مما سلف لا يكفي فيه رفع الملفات إلى حين، وإنما يقضى عليه فيموت، ومقولات (موت المؤلف) و(موت النحو) و(موت النقد الأدبي)، حولت الحركة النقدية إلى تظاهرة جنائزية، ما كنا حفيين بها، وكل ما يعانيه الراصد الواعي والمتابع الحصيف من تقلبات مشقية ومربكة قد يعوضه عنها التنوع في المكتسب المعرفي، وتزود كل طائفة بما يساعدها على التصدي والتحدي والصمود، غير أن الجهد والوقت والمال في نزيف مستمر، فالناقد الذي يفرض على نفسه الحضور يتطلب مزيداً من نزيف المثمنات.

والمشتغلون في مشاهد الأدب والنقد كما الصعاليك الذين تتهاداهم التنائف، إذ لا يحطون من سفر إلا إلى سفر، ولو أن التنقل يتم بعد تحرير المسائل وتأصيل المفاهيم لما كان في ذلك من بأس، ولكنه انتقال يفاجئ المرء، وهو في منتصف الطريق، ذلكم الشقاء المستطير قدر النقاد المحدثين، ولكنه شقاء محبب إلى الذين يتلذذون بالاكتشاف والسير في المفازات، فالاختلاف لا يلغي قيمة المختلف معه، والنهي في الشريعة عن الاختلاف المؤدي إلى التفرق.

---

(١) تاريخ المقال: ١٩/ ٨/ ٢٠٠٨

والحديث عن القصيدة المعاصرة وجمالياتها، إضافة نقدية، أرجو ألا تكون من القول المعاد، فالمتلقي بحاجة إلى استعادة الاكتشاف لا إلى الظواهر، ولا سيما أنه مشروع يجنح إلى التطبيق على الإبداع الشعري في (المملكة العربية السعودية)، وليس عاماً يستشرف الواقع الأدبي في المشاهد كلها، والدراسات الحصرية قد تحد من الانطلاقات في الآفاق الرحبة.

وحري بمشهدنا أن يستجيب للتحولات فإما أن نركب أمواجها، وإما أن نصُدَّ طوفانها، فما كان التسلل لواذاً منجياً ولا عاصماً من ماء المعارف المتدفق كالطوفان، على الرغم من أنه لم يعد الاهتمام بالموضوعية والمنهجية شأن المشهد النقدي المعاصر، فالدارسون للظواهر النقدية والأعمال الإبداعية لا يقيدون أنفسهم بالعناوين التي يختارونها بمحض إراداتهم، وكلما استحوذ التعالق غير الواعي على الناقد ندَّ به عن متن القضايا، بحيث لا يتمكن من تحرير قضاياه التي تشغله، وخصوصية الذوق والانطباع لا تبيح التمرد على الضوابط والسوائد، إن هناك أنساقاً لغوية واجتماعية وثقافية تفرض نفسها في كل مشهد يعي أهله ما يقولون.

والأدب بكل فنونه مرتهن لحضارة الانتماء، التي هي بدورها ترتهن مجمل الأنساق، وحتمية التجديد وضرورته لا تعني الانقطاع ولا نسف جسور التواصل، وكم هو الفرق بين الرحيل بالتراث والرحيل إليه، وبين الدخول في المعمار لتمكينه من التعصرن واقتراف هدمه لإقامة معمار جديد، والتخلي عن الموروث ليس من محققات التجديد، وإنما هو مؤشر استجابة بلهاء لمستجد حضارة أخرى، إن هناك تراثاً إنسانياً وتراثاً حضارياً، ومحطات زمانية، تتجدد فيها كل الحضارات، والتجديد لا يعني الاستبدال المغاير، وإنما هو في النظام المتوازن بين محققات الحضارة ومؤهلات التعايش والتكافؤ والندية، وإشكالية الأدب الحديث في فهم الأشياء على غير ما هي عليه.

فالتجديد مصطلح تتعدد مفاهيمه بتعدد التصورات، وهو كأي ظاهرة له طرفان ووسط، فالذين ضيقوا الخناق فوتوا على أمتهم فرصة التفاعل الواعي، والذين أطلقوا العنان فوتوا على أمتهم فرصة التحقق الذاتي، والوسطيون وهم الغرباء عرفوا ضرورة التجديد وحتميته وحق الوجود الكريم.

والعملية الإبداعية في الراهن لم تكن عفوية ولا منطلقة من الداخل، بحيث تأتي الأعمال حرة طليقة تصنعها الحاجة، ومع كل هذه المخاضات الموجعة يظل المشهد بحاجة إلى من يرشِّد مساره، ويقيه التعثر بالضوابط والتحفظات غير اللازمة.

والمناهج النقدية لم تنج من النظريات المادية، بل وقعت تحت تأثيرها، واعتمدت فرضياتها على أنها قضايا مسلمة، وإذ لم يكن التأثير مباشراً أو فاقع اللون، فإنه يبدو عند البعض بشك واضح، ولقد عمد البعض إلى الإيغال لذاته متناسياً مهمة الناقد، ودوره في جلاء الجمال وتحديد مفهوم الرسالة لا من خلال منطوقها، ولكن من خلال جوانب أخرى تكشف عن تعلق وإعجاب غير مبرر، ولعلنا نذكر نظريات (دارون) و(ماركس) و(فرويد) و(تايلر) و(كاسبرز).

والذين قبلوا التفاعل بين النقد الأدبي، وتلك النظريات (التطويرية) و(الجدلية) و(النفسية) و(الاجتماعية) و(الرمزية) قدموا بين يدي مُصالحتهم، شرط الكينونة المستقلة، بحيث تذوب هذه النظريات في المناهج النقدية ولا تذوب فيها، وفي نظري أن أقوى المناهج تأثيراً المنهج اللغوي الحديث الذي وضع أسسه (دي سوسير)، ومن شايعه أو عارضه، ولقد استوت تلك النظريات على سوقها بعد نظريتي (التفكيك) و(التحويل)، وهي نظريات عاضدت انتقال مركز الكون النقدي من (النص) إلى (المتلقي) وسلطة المتلقي المهيمنة على المشهد النقدي تتوسل بتأويل النص بالمناهج والآليات اللغوية

الحديثة، إذ هي وحدها التي تستطيع الغوص في أعماق النص، وتحميله الدلالة التي يشتهيها المتلقي.

وأياً ما كان الأمر فإن القصيدة المعاصرة المأزومة لم تكن سيدة الموقف، إذ تخلفت أمام طوفان السرديات، وارتهان السردية للحدث نزع بالقول النقدي إلى البعد الموضوعي، والحركة الداخلية للنص، ومن ثم لم تعد الجمالية الصوتية بقدر الحركة الداخلية للنص، وهذه التحولات القسرية قلصت مناهج وآليات النقد الشعري، وأحلَّت مكانها مناهج وآليات لا تبحث في شعرية النص، وإنما تتحسس عن أدبية النص، لا على المفهوم التراثي، بل على مفاهيم جديدة، أعطت الأدبية بقدر ما أعطيت الشعرية.

(والشعرية) التي أوسعها النقاد المعاصرون درساً متقصياً مصطلح له مكوناته ومقتضياته التي تفارق مفهوم الشعرية في التراث، وعلى كل التصورات والتوقعات فإن للقصيدة المعاصرة حضورها المأزوم الذي حمل كثيراً من النقاد على تحرير هذه العوارض، ومحاولة الخروج بحلول تحفظ ماء الوجه النقدي، ولست معنياً باستقصاء ذلك، لأنه يجنح بي إلى التنظير، وما كنت لأذعن لهذه القضية لأنها مشبعة بحثاً، والمأخذ على المشاهد طغيان التنظير.

مكْمن الجمال في القصيدة المعاصرة .. ! (٢) [١]

ولكل ناقد وجهته فيما تتحقق به الجمالية، وقبل المضي في التماس مكامن الجمالية، يجب أن ننظر في إشكالية الجمال من حيث هو مجرداً من مواقعه أو متلبساً بها: ما هو؟ وما آليات التماسه؟ وما محققاته؟ وما مدى النسبية فيه؟.

ومتى علمنا أن النسبية أكثر ما تكون في التذوق، فالمتلقي يمنح العمل الإبداعي قيمته الجمالية من خلال وجهة نظره المحكومة بالنسق الثقافي والبيئة بكل تنوعاتها ومستوياتها، والمرحلة العمرية بكل نوازعها والميل الشخصي بكل تفرده وأجواء اللحظة التي يتم فيها التذوق الجمالي.

وقد يكون من المستحيل في ظل هذه الفوارق أن يجمع النقد الأشتات على كلمة سواء، ثم لا يكون تحقق الجمال من خلال قواسم مشتركة أمراً متعذراً، وتنبؤ الاستحالة لا يمنع من المحاولة، معذرة إلى المشهد الصاخب، ولعل المنكفئين على أنفسهم يستمعون الرؤى، ويستوعبون مختلف التصورات، وقراءة القصيدة المحلية لغرض استجلاء جمالياتها، قد يضع الناقد في الحرج لأن المحلية لا تمتلك الامتياز بالقدر الكافي، إذ هي متفاعلة مع معطيات المشهد العام، محكومة بذوقه الأشمل.

والدراسة الحصرية زماناً ومكاناً ونوعاً إبداعياً تحكم الدارس، ولا يحكمها، لأنه يظل حبيس أجوائها ومعطياتها، ومع أنها تمثل المقطع الأدق للجس والسبر، إلا أنها ترتهن الدارس، وتحرمه لذة الاختيار المفتوح، والعقود الثلاثة الأخيرة في المشهد الأدبي المحلي حفلت بعدد كبير من الشعراء الشباب الذين استهلك التجريب والتغريب طائفة منهم، ولم يفرغوا للتأصيل بالقدر المأمول، وهي عقود غنية من حيث الكم والتنوع، ولكنها دون ذلك من حيث الكيف، وداء المشهد من الشعراء الأحداث المغامرين، وأدواء المشاهد كثيرة، لعل من أخطرها الخلطة التي لم تمكن من التمييز بين المجرب المقتدر والمستغرب المسترفد، وإذ نعيب التقليد ولا نفرق بينه وبين المحافظة المقتدرة، فإننا لا نسم المقلدين لتطرف الحداثة الغبية بما نسم به المحافظين أو المقلدين للتراث، وكان حقاً علينا أن نخدع بدعوى التجديد ما لم يكن مبادرة من عند أنفسنا واستجابة عفوية لمقتضيات المرحلة.

والتجديد الآخذ بمحققاته يعد من حتميات الحياة، إذ لا حياة سوية مع الثبوتية والنمطية، والتجديد بمفهومه السليم يتطلب إمكانيات متعددة تخلص المبدع من النمطية وعقدة الأبوية، وتأخذ بناصيته حيث لا يجنح إلى المحاكاة، فالمشهد ينزع إلى المعاصرة، ولكن الرغبة المجردة لا تحقق التطلع، وحقيق بنا أن نسوي بين نزعة التقليد وداء التبعية. على أن استفحال التمسك بالقديم أو القطيعة معه بطأتا فترة الارتباك والتردد وفوتتا فرصاً ثمينة، وحالتا دون التحولات الإيجابية، وإن كان ثمة إمكانيات لإبداع القصيدة المعاصرة المتوفرة على مقومات التألق.

إن عدداً من الشعراء الشباب يمتلكون الموهبة، ولكنهم لا يتمتعون بالاستقلالية، ويتوفرون على المواقف الضاغطة، ولكنهم يفتقرون إلى الثراء اللغوي والعمق الثقافي والتجارب الواعية، ومن ثم يأتي الشعر مرتبكاً، وغير ناهض بمتطلبات المرحلة ولا بمحققات الشعرية، ومتى فقد الشاعر محققات الإبداع، جاءت القصيدة منطفئة وغير مثيرة، وفقد المحققات أو بعضها حمل الموقفيين من النقاد على مساءلة الشاعر الحديث، ومحاسبته على إخفاقاته، أو اعتزال المشهد مكتفين بالاحتجاج الصامت، فيما تدافع الوصوليون على الكسب المظهري الرخيص، واستهلكتهم محاولات يائسة لتبرير ما

---

(١) تاريخ المقال: ٢٦/ ٨/ ٢٠٠٨

حدث، وفي ذلك إجهاض للفعل الشعري الذي كان بإمكانه أن يحدث نقلة نوعية، لو أن النقاد صدقوا الشعراء، وأبانوا عن مقترفاتهم وإخفاقاتهم، وسيان عندي انتهاك الشرط الدلالي أو الشرط الفني.

والجمالية التي نسلم لها، ولا نجد منها غضاضة في حق الشعر حين نقبل بها ونؤكد على مشروعيتها هي التي لا تصادر حق الذائقة العامة، ولا تسلب الشعر جوهره، وحين نؤكد على مراعاة جوهر الشعر فإننا نعرف حجم الاختلاف حول مفهوم الجوهر وحدود الضوابط، وهذا التشتت في الآراء لا يمنع من الخوض مع الخائضين في التماس (مفهوم الشعر) بوصفه طريقاً قاصداً لمفهوم الجمال، ولقد كانت للأوائل والأواخر نظرات متباينة حول حدود الشعر، ولكنها نظرات غير متدابرة، ولعل القاسم المشترك في التراث النقدي يكمن فيما عرف ب(عمود الشعر العربي).

وإشكالية العمود ليست بمفرداته السبع، ولكنها بتحديد كل مفردة، وفي نسبة الثبات والتحول فيها، ولو أخذنا بمفردتين هامتين مفردة حسية تتمثل بالوزن والقافية ومفردة معنوية تتمثل بالقيم الأخلاقية لوجدنا الاختلاف حولهما على أشده، ومكمن الجمال، في المفردات الحسية كالانزياح والإيقاع والجرس، وأعني بالانزياح اللغوي ما هو متعلق بمراعاة الفواصل والتناسب، ولقد أدرك العلماء قوادح الجمال وعالجوها في سائر العلل العروضية.

لقد تقصى (جابر عصفور) خلاف النقد التراثي حول (مفهوم الشعر)، وحاول التقريب بين وجهات النظر، ومجمل عرضه يدور حول اللغة والشكل والمعنى، فيما تقصى (محمد مريسي الحارثي) خلاف النقد التراثي حول (عمود الشعر)، وحاول تجلية الرؤية التراثية، وكلا الدارسين يدور حول تحقيق جوهر الشعر في ظل التحولات الجذرية في القصيدة الحديثة، وإن لم يعرضا لها بصريح العبارة، وكل منظر يطرح رؤيته تاركاً الباب مفتوحاً أمام المصطرعين، حول مشروعية القصيدة الحديثة بكل تحولاتها وتنوعاتها.

إننا ونحن نتحدث عن جماليات القصيدة المعاصرة يجدر بنا أن نستشعر ما تعانيه من أزمات، أدركها المباركون لها، والمتشايلون مع ذويها، وإذ لا نجد مجالاً للإطلاقات المعممة فإن التسليم لها، والقول بتألقها دون النظر في أزماتها مجازفة لا تخدم الحركة الإبداعية، والناقد مؤتمن لأنه بمثابة المستشار، وحين نختار أحد النجدين يتنازعنا حق وواجب: حق الاختيار، وواجب القسط في القول، وحين نسلم بوجود الأزمة نتساءل أين مكمنها؟ ومن المنطق أن نسأل ذا خبرة ومعرفة ممن رابه ما تعانيه القصيدة.

فالناقد (شكري محمد عياد) والشاعر الناقد (عبد العزيز المقالح) استحضرا الأزمة كعنوان لكتابين يلتمسان فيهما مكمنها في أبعاد متعددة تتعلق باللغة وبنائها والتجربة ومحفزاتها، ويبقى (شكري) أكثر إحساساً بجوهر الشعر فيما يفترض (المقالح) كمونه في الذات الشاعرة التي لا يمكن أن تنتج شعراً بدون جوهره، فما جوهر الشعر أهو (الوزن) كما يسميه (شكري) أم هو (البيتية) كما يسميه (المقالح)، والتحول من الأزمة إليها يأتي عبر مراحل ثلاث افتراضية، أدت إلى تسميةٍ تضج بالتناقض كما يقول (المقالح) وهي (قصيدة النثر).

ولقد كان لي حديث مستفيض حول إشكاليتها، وما كنت لأسلم لهذه الظاهرة، لأنها تفقد الجوهر وتلغي التميز، ولا تضيف تعويضاً يتكافأ مع التنازلات العريضة، والذين تخلوا عن الجوهر الشعري لم يأتوا بمثله، وعندئذ فحجتهم داحضة.

إن الجمالية عصية الانقياد، وهي إذ تلم بالشاعر في قصيدة أو في أبيات من قصيدة فإنها تفارقه في قصائد كثيرة، ورديء شعر العمالقة يشهد على ما أقول، فهذا (المتنبي) له

شعر رديء، بل هو أردى الرديء وله شعر متألق، ولم تقدح الرداءة في شاعريته، ومخاض القصيدة لكي تكون جميلة لا بد أن تكون مكتنفة بموهبة وتجربة وثقافة وأجواء وثراء لغوي، وتخلف شيء من ذلك يكون على حساب الجماليات، والجمال لا يكون وقفاً على مكوّن واحد، فلا هو في الوزن ولا القافية وإن غاب بغيابهما، ولا هو في اللغة الشعرية وحدها وإن غاب بغيابها إنه التناسق والتوازن، ولكل شاعر قسط من الجمال يقل ويكثر، ولكنه كائن لا محالة.

مَكْمن الجمال في القصيدة المعاصرة .. ! (٣) [١]

والجمال حين نسلم لمحققاته عند كل رؤية نقدية، يكون في القول كامناً في اللغة من حيث الجرس والإيقاع، وفي التخيل من حيث الصورة والتصور، ويكون في المعاني من حيث العمق والشرف، وأقوى محدداته الذائقة والانطباع، المتشكلان من كثرة المساس، فما من ذوق إلا هو ناتج إِلْفٍ وسماع واتفاق. والعقل الجمعي قد يسلم لمؤشر فكري أو صوتي أو بصري لا يكون قد سلم له عقل جمعي آخر يفصله عما سواه من عقول زمان أو مكان، وليس أدل على ذلك من استمرار التحول في الشكل والمضمون بطرائق معقولة للعالِمين.

والناس في الجملة أبناء حاضرهم ومن تبنى للتاريخ فقد اعتزل حاضره، ومن ثم فلن نفرض على أنفسنا من الفنيات والضوابط ما فرضه الأوائل على أنفسهم، وليس من حقنا ممارسة القطيعة والانقطاع دون استجابة عفوية لهوى الأنفس. إن القبول والرفض لمؤشرات الجمال تقوم عندما يعي الإنسان مرحلته ومتطلباتها، وإذا كانت حاجتنا الحسية تتبدل يوماً بعد يوم فإن حاجتنا المعنوية أولى بهذا التبدل، والذين يرتهنون أنفسهم لما توصل إليه الأوائل ولا يبتدرون التغيير والتبديل لمواكبة العصر، يكونون في النهاية كهفيين، يعتزلون القوم، ويعتزلهم القوم.

ولعل أوسع من درس جماليات القصيدة المعاصرة صديقنا الدكتور (طه وادي) الأستاذ بكلية آداب القاهرة في كتاب يحمل ذات الاسم، إذ تقصى الجماليات بدراسة تطبيقية استوعبت عشرين فصلاً خص الشعر الخليجي بثلاثة فصول من الفصل السابع عشر، وخص الشعر العربي في المملكة العربية السعودية في فصلين هما الثامن عشر والتاسع عشر، تناول فيهما كتاب (شعراء من أرض عبقر). وهذا الكتاب مجموعة دراسات تطبيقية للشاعر الناقد الأستاذ الدكتور (محمد عيد الخطراوي). فيما تناول في الفصل التاسع عشر الشعر القصصي في ديوان (محمد حسن فقي)، وهو في الفصل السابع عشر قد تحدث عن شاعرية المكان، بحيث خص الجزيرة العربية بدراسة رصدية خلص فيها إلى أنها جزيرة شاعرة، لأنه مهد الشعر ومهبط الوحي. والدراسة بجملتها إشارات خاطفة لا تتسم بالعمق ولا بالتفكيك، ولكنها تضع نظر القارئ على مكامن الجمال من خلال الشواهد التي انتقاها بإتقان.

وحديثه عن الشاعر المكثر والمخضرم (محمد حسن فقي) اقتصر على ملمح شكلي، يتمثل بالشعر القصصي. ولقد كانت لي إلمامات متعددة حول هذا الاتجاه الجديد في الشعر، حيث عقدت فصلاً في دراستي للدكتوراه عن الفنون المستحدثة في الشعر السعودي المعاصر، تناولت فيها الشعر المسرحي والقصصي والملحمي بمفهومه المعاصر. وللشعر السعودي قدم صدق في هذه المهايع، وإن كان رواد هذا الاتجاه ينظرون إلى رواد المسرح الشعري في مصر، وبخاصة (أحمد شوقي) في مسرحياته الشعرية، والحركة الداخلية والوحدة الفنية المنطوية على عدة وحدات لغوية وفنية وموضوعية وعضوية وشعورية من المستجدات التي أكسبت القصيدة مزيداً من الجمال والتألق، وهي مستجدات اختلف حولها النقاد.

ودراسة (طه وادي) قد لا تستجيب لمتطلبات الدارس للجماليات بمفهومها الأعم، وإن تناول الجانب التنظيري بشيء من الإيجاز، وهو في دراسته التطبيقية التي أتت على عدد من الشعراء الشباب الأكثر مغامرة من أمثال (محمد عفيفي مطر) و(أمل دنقل)

---

(١) تاريخ المقال: ٢/ ٩/ ٢٠٠٨

و(صلاح عبد الصبور) و(فتحي سعيد) و(ملك عبد العزيز) و(نجيب سرور) وآخرين من حولهم لا يقلون عنهم في المغامرة المحفوفة بالمخاطر.

ونقص الدراسة أنها تناولت عدداً من الشعراء ولم تتناول عدداً من القصائد، والجمالية تكمن في القصائد لا في أعمال الشعراء بأسمائهم، إذ لا يمكن استحواذ أي شاعر على الجماليات المنشودة، فالقصيدة قد تستجيب لبعض مطالب الجمالية، فيما لا تستجيب قصائد أخرى لذات الشاعر لتلك المطالب، وهذا يمس العمل بالترهل وإضاعة فرصة التقصي لمكامن الجمال في الأعمال الشعرية.

وتناول الناقد لعنصر من عناصر التشكيل عند (محمد حسن فقي) لا يجلي الجمالية بكل أبعادها، ولكن الدراسة قد تكون مغرية لمزيد من التقصي لملامح الجمال. ولست أظن (الفقي) شاهد عدل لتحقيق الجماليات المنشودة، فشعره على الرغم من كثرته لم يكن مثيراً إلى الحد الذي يحمل على التماس الجماليات الحديثة، ولقد هيئت لي دراسة أعماله الشعرية في ثلاث مناسبات كرم فيها، وتجلت لي سمات وخصائص لا تكون الجمالية من أبرزها، وإن أطال المكث في الغنائية والذاتية، وهي بعض مؤشرات الجمالية.

والبعد القصصي في شعر (الفقي) يوحي بشيء من الجمالية وبخاصة عند التوفر على عناصر البناء القصصي والروائي كالحدث والظرف والسرد والحوار، وضوابط الشعر لا تمكن الشاعر من التوفر على تلك العناصر بالقدر الذي يتوفر عليه السارد، ولهذا أشار الدارس إلى أنه ليس شرطاً أن تتحقق كل العناصر في القصيدة القصصية. وإذا كان الدكتور (طه وادي) قد أبحر في تلك العوالم فإن امرأتين سبقتا لذلك، الدكتورة (عزيزة مريدن) في كتابها (القصية الشعرية في العصر الحديث) والدكتورة (لطيفة المخضوب) في كتابها (القصص الشعري في الإبداع السعودي المعاصر).

والأخيرة خصت الشعر السعودي، ولكنها لم تستحضر الجمالية الشكلية في النص القصصي، وإن أشارت إلى قيم فنية وجمالية عديدة، يضيفها القص على الشعر، لعل من أهمها فيما ذهبت إليه:

-تقريب الذات من الموضوع.
-التعالي على الغموض المضلل.
-إضفاء الجمال على بعض الأفكار.
-بروز الوحدة العضوية.

والدراسة التطبيقية على بعض الأعمال الشعرية للشعراء السعوديين، تكشف عن محاولات جادة لإضافة جماليات جديدة، ليست موجودة من قبل، ولكنها لم تكن ملفتة للنظر، لأنها شائعة في الشعر المعاصر عند أساطين الحداثة الفنية، ولقد أومأت في دراسات سابقة إلى تبدي الجمالية الحديثة في شعر شاعرين ظاهرين في المشهد الشعري هما:

-(جاسم الصحيح).
-(حمد الثبيتي).

ولقد حاولت التفرغ لاستجلاء هذه الجماليات عبر الدراسة التطبيقية، ولكن الشواغل استمرأت التسويف، وستكون لنا عودة إلى هذه المهايع، وبخاصة مكمن الجمال في قوة السبك عند (الصحيح) وقوة الخيال عند (الثبيتي).

وأحسب أن هاتين الخاصيتين هما مكمن الجمالية في أعمالهما، ولقد حظي (الثبيتي) بدراسات كشفت عن سرِّ التألق عنده، فيما لم تهيأ الفرصة لاكتشاف قدرات الشاعر (جاسم الصحيح).

ولقد أشرت من قبل إلى الجمالية في شعر (أحمد الصالح) الكامنة في سماحة اللغة، وتعالي تشكيله على النثرية، وتوفر الغنائية والذاتية، وهي من أهم مؤشرات الجمالية المعاصرة.

والجمالية حين تكون حسية، يكون توفرها في الوزن والقافية والمحسنات البديعية أكثر، غير أن النقد الجديد لم يكن حفياً بذلك، على أنه لم يقدم بديلاً، وشرط التحول أن يكون إلى الأفضل، والشعراء الشباب الذين استجابوا لهذه الرغبات، لم يتوفروا على الجماليات الصوتية المطلوبة، وكل اندفاع غير محسوب يكون على حساب الفن. والشعر حين يكون معهوداً ذهنياً يصعب تحديد شرطه الفني، ولهذا أخفق عدد كبير من الشعراء الشباب، ولم يكن المشهد النقدي حفياً بهم، الأمر الذي أحدث قطيعة بين النقاد والشعراء، وبخاصة الأكاديميين منهم.

وأكاد أجزم بأن طغيان النقد التنظيري على التطبيقي مرده إلى هذه الإخفاقات الجماعية، فالناقد التطبيقي يتطلب قصيدة استثنائية، ولا يمكن أن يتجلى الشعر إلا من خلال النقد التطبيقي، والشعراء الشباب يتهمون النقاد بالتخلي عنهم في ساعة العسرة، وأكبر الظن أن التخلي مرده إلى إخفاق القصيدة الحديثة، وعجزها عن التوفر على متطلبات الجمال، ومع التشاؤم من واقع المشهد الشعري فإن هناك من الشعراء الشباب من يمتلكون القدرة على إبداع قصيدة معاصرة تتوفر على جماليات معاصرة.

وبودي لو تضافرت الجهود على تجلية هذا الجانب لإبراز دور الشاعر السعودي، وأحسب أن مثل هذه الملتقيات كفيلة بتحقيق المراد.

إنَّ البعوضة تدمي مقلة الأسدِ .. !(١)

انشغلت عن الكتابة والمتابعة شهراً أو بعض شهر، وهكذا أنا في كل صيف، حين ألهو عن التفكير فيما يكتنف حيوات أمتنا العربية والإسلامية من منغِّصاتٍ تخترق الأجواء، أو تنبعث من الأهواء كدوامات الأعاصير، وقدَرُ مشاهدنا العربية أنها مكشوفة لأي عارض، قابلة لأيِّ مؤثر، مستباحة لأي عابث لا يؤمن بيوم الحساب، ومن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم.

وكنت في كل عام أقتسم الصيف مع الأهل، فلهم شطره الأفضل، ولي رسيسه المفضول، أُخبرهم في الزمان والمكان، وأرضى بالمكان دون الزمان. وبعد اجتياز محنة الصيف والأوبة من السفر، يبدأ الجهاد الأكبر، وهو التفكير فيما يعصف بالمشاهد السياسية والفكرية، وإن من شيء إلا وارد اللعب السياسية التي تحز إلى العظم، وحقٌ على كل مقتدر أن يسهم بما علمه الله، متوخياً النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، متخولاً التيسير في العزائم، وكل بحسبه إذ: (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) (وكلكم راع)، ولا سيما في عالم مغلوب على أمره، مفتون من ذوي قرباه (والفتنة أشد من القتل)، وهل أحد يشك فيما تعانيه الأمتين العربية والإسلامية من تحديات لا تطاق، واستجابات بلهاء، وجلد موجع للذات.

لقد راعني تهافت المبتدئين وغير المجربين وأنصاف المتعلمين على بؤر التوتر، وإيغالهم في تثوير المسكوت عنه، وأمام هذه الاحتياجات العزلي، ظننت كل الظن ألاَّ تلاقيا، ولكنني تذكرت قول المجنون:

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما
يظنان كل الظن ألاَّ تلاقيا

ومجانين الشعراء أفضل من عقلائهم، ويكفي أنهم نيفوا على الأربعمائة مجنون كما في آخر معاجمهم، ولقد فاض شعرهم بالحكمة والموعظة الحسنة، فعندما حمل صبيان الكوفة على مجنونها، وألجؤوه إلى مضيق، شدَّ عليهم بقصبة في يده، وهو يردد:

إذا تعسر أمر فانتظر فرجاً
فآخر الأمر أدناه إلى الفرج

فَلِمَ -والأكثرون منا يدعون العقل والحكمة وفصل الخطاب- لا نحسن الظن بالله ونرقب الفرج العاجل، ونتحسس مصائبنا لنأسُوا أو نواسي أو نتوجع على الأقل.

ومن المزري أن كثيراً من الكتبة يشبهون هؤلاء الصبية الممتلئين فضولاً والفارغين من الهمِّ: (يخلو من الهم أخلاهم من الفِطن) وفي الأحاديث والأمثال السائدة (اشتدي تنفرجي) (ولن يغلب عسر يسرين).

ومن خَنَع لليأس، وأحبطه تفاقم الأمور، مكَّن للداء من الاستشراء، ومن صبر وصابر ورابط، وأحسن الظن بالله فرَّج الله كربته. وكيف يقنط المؤمن من روح الله، وهو القريب المجيب؟ ومن سننه الحكيمة في خلقه مبدأ التمحيص والابتلاء ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى

(١) تاريخ المقال: ٩/ ٩/ ٢٠٠٨

﴿يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ﴾. هذه النفحات الإيمانية، تبلسم الجراح، وتشفي الغليل، وتفتح آفاق الآمال العريضة. ومما علق بالذاكرة من قراءات الطفولة الأولى مقالة رثائية ل(أحمد حسن الزيات) حين فجع بوحيدة رجاء عام ١٩٣٦م وهو من أبرز أمراء البيان في عصره لقد أشار فيها إلى نعمتين مجهولتين: (الأمل) و(النسيان) فالأمل يهدهد المريض والسجين والمعدم. والنسيان يسلي الثكلى والمظلوم والميل من المرض، فالمؤمل يرقبُ الفرج، والناسي يعيش لحظته (ولك اللحظة التي أنت فيها).

ولقد كنت في أسفاري السياحية والعملية، متى استقر بي المقام في بلد أروح وأغدو على المكتبات، فهي وشاطئ البحر عندي صنوان، ومن باب التداعيات تذكرت قول شاعر الفسق والشعوبية الماجنة (أبي نواس) وهو ما يردده عشاق الحداثة والانقطاع:

عاج الشقي على رسمٍ يسائله

وعجت أسأل عن خمَّارة البلد

ولا سيما أن المكتبات في مصر والشام والمغرب تستبق المستجدات، وتحاول الظفر بالآراء المتطرفة، وتسويق كتب المفكرين الموغلين في تهميش السائد، وتسويد المهمش، ورواد المكتبات يعشقون هذا اللون من التأليف وهذا الصنف من المفكرين، والمشاهد القاتمة وسعت عدداً من المفكرين الذين يحلو لهم استفزاز المشاعر، وتوتير الأعصاب، والتلاعب بالأفكار بين الغربنة والأسلمة والعلمنة والعولمة.

والاعتراض والاستهجان لمن يسلك تلك المفازات حباً للشهرة والكسب، وبخاصة السرْديين الذين لا يملكون موهبةً ولا يتوفرون على علمٍ ولا تجربةٍ ولا ثقافةٍ ولا لغةٍ، أما أصحاب المواقف والمبادئ المتضلعون من المعارف، والضالعون في تبني الأفكار الشاذة، وتبئير الائتلاف والاختلاف، فهذا شأنهم، ومتى توفر أحدهم على معرفةٍ عميقةٍ وثقافةٍ شاملةٍ واستيعابٍ رقيقٍ ووعي عميقٍ، وقال ما قال عن إيمان وقناعةٍ، وجبَ أن يحاور باحترام، وأن يجادل بحكمة، وأن ينازل بعلم وآلية ومنهج متكافئ ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، ووصية الرسول ﷺ لمبعوثه معاذ بن جبل: «**إنك تأتي قوماً أهل كتاب**» مع تحري الاستفادة من تلك القدرات الاستثنائية والمعارف الغزيرة، أما الأكف الأعزل المتهوك، والذي يقول ما قالت حذام اندهاشاً وانبهاراً وتهالكاً فسقط متاع مصيره إلى مزبلة التاريخ. وما أكثر هذا الصنف من الكتبة المغثين، ومع أن حججهم أوهى من بيت العنكبوت ومعارفهم أهون من جناح البعوضة فإن البعوضة تدمي فعلة الأسد.

وتصوح المشاهد في انخناس قادة الفكر ورواد النهضة وزعماء الإصلاح وحراس الفضيلة وظهور من دونهم من المتفيهقين الذين يقولون عند الكشاف أمرهم ما قال سلفهم: (إنما كنا نخوض ونلعب) والطامة الكبرى فيمن لا يعرف نواقض الإيمان ولا مستويات الأحكام ولا قوة النصوص بين الاحتمال والقطع ثم لا يجد حرجاً من الخوض مع الخائضين، وإذا قيل له: (ليس هذا العش عشك فادرج) تبدى ك (الهرّ يحكي انتفاخاً صولة الأسد) وقال: (نحن رجال وهم رجال).

لقد احتملنا على مضض (فرنسة) طه حسين، و(غربنة) هشام جعيط، و(وجودية) عبد الرحمن بدوي، (وواقعية) زكي نجيب محمود، و(علمية) حسن حنفي، و(ليبرالية)

علي حرب، و(علمانية) محمد أركون وفؤاد زكريا و(تفكيكية) نصر حامد أبي زيد و(الحادية) عبد الله القصيمي وشبلي شميل، و(ماركسية) خليل عبد الكريم وعبد الله العروي، و(حِرْبادية) محمد حسنين هيكل، لتوفرهم على خلفيات معرفية وثقافية وتمكنهم من مناهج وخطط وآليات تؤسس لرؤيتهم ومشروعاتهم الفكرية والسياسية والقارئ لهم يقف على إضافات وتجليات فكرية اتَّبعت غير سبيل المؤمنين، أما المتكاثرون كالطفيليات المتعالون كالدخان فغثاء كغثاء السيل يُثيرون ولا يُثْرون، ويُصوِّبون ولا يُصيبُون، وكل شأنهم صغار في الذهاب وفي الإياب. وليس في أن تسع الكتب فيوض المذاهب وافتراق الأمة مِنْ بأسٍ، فتلك مضانها وهي مجال ذوي الاختصاص، ولكن المصْميات أن تطفو هذه النقائض على أنهر الصحف وعبر القنوات، وفي مواقع الشبكات العنكبوتية بشكل عشوائي وتزوير واضح، بحيث تصل إلى العامة والمبتدئين، الذين يظنون أن الناس أمة واحدة، والإشكالية أنَّ عِشق المخالفة أتى على كل شيء حتى يقول الناس: ماذا بقي من المقدس والثابت والقطعي، والراصدون للحراك الفكري عبر العصور لا يروعهم ما يسمعون وما يقرؤون من طعن في الدين واستخفاف بحملته وحماته، إذ هو من المعار والمعاد، لقد افترقت الأمة منذ الفتنة الكبرى، وعَرَفَ التاريخ الفكري ووسعت كتب الملل والنحل (الخوارج الدمويين و(المعتزلة) العقلانيين) و(الظاهريين) (النصوصيين و(المشبهة) الحشويين و(الجبرية) (المعطلين و(المرجئة) (المميعين و(الحرورية) المتسائلين و(الرافضة) الطاعنين، وما تفرع منها من مذاهب متناحرة يقتل بعضها بعضاً ويكفِّر بعضها بعضاً، كما واكب هذه الطوائف (سلفية) متشددة أو مستنيرة، تنادي بالعودة إلى ما كان عليه محمد وأصحابه، والعلماء الربانيون تصدوا لهذه الفرق بقوة ورباطة جأش واطمئنان وثقة بأن العاقبة للمتقين ولما يزل الإسلام في ثبات وشموخ وانتشار رغم الضربات الموجعة، ولما تزل الطائفة المنصورة في معزل عن الطوفان.

هذه المشاهد التي اعتدت رصدها والإنصات لحسيها لم تعد كما عهدها محكومة بعقد اجتماعي وبضابط أخلاقي، كما لم تكن متمثلة لآداب الحوار والمناظرة، قابلة للرد إلى الله والرسول، متفادية الصدام مشتغلة بالقضايا دون الأعيان متوخية التيسير والرفق محسِّنة الظن بمن تهيب أو تحفظ، مستشعرة قول الله لرسوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾.

وبئست أمة لا تحترم علماءها ولا تَرُدُّ إلى مرجعيتها، لقد اندلقت أقتاب المعارف وأصبح كل شيء قابلاً للموضعة والتداول، ومع القبول بهذا القدر المحتوم، إلا أن هناك فقه أولويات وفقه فتن وفقه واقع لا يجوز الخلو منها، وإذ لا نقطع بالعصمة لغير المرسلين فيما أرسلوا به لا نسمو بأحد فوق المساءلة والنقد، فإننا نود أن نتصور الأشياء قبل الحكم عليها، وأن نتوفر على متطلبات الحوار ومحققات حضارة الانتماء قبل الخوض في القضايا المصيرية وأن نعرف أقدار الناس من علماء ومسؤولين وقادة فكر قبل الولوغ في الأعراض.

ومن هاب الرجال تهيبوه

ولا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم

رمضان وأنا وشيء من الذكريات .. ! (١) [(١)]

أتحفظ على (الأَنَوِيَّة) و(النَّحْنِوَيَّةَ) متى انبعثتا من الكبرياء والاعتداد بالنفس وعُقد التورم، غير أنهما فيما سوى ذلك من لوازم الكلام السَّوي، إذ هما من الضمائر التي وردت في الذكر الحكيم في أكثر من آية فـ(نحن) وردت خمساً وثمانين مرة، فيما وردت (أنا) سبعاً وستين مرة.

ومن الخطأ القول: (أنا وأعوذ بالله من أنا) فـ(الأَنَوِيَّةُ) حين تأتي لتحديد المسؤولية، تكون مراعية لمقتضى الحال، فلا مَزِيَّة ولا رزيَّة إذن، ولاسيما أن الأعمالَ والأقوال بالنيّات.

ولأن رمضان شعيرة عملية فإن له خصوصيته التي تحكم أحوال الناس ولهم معه وقفات يحلو التعرف على طائفة منها، وليس في ذلك من بأس ولا فضول، وما التاريخ إلا أحداث تتعاقب، وما الأدوية إلا قطرات تنهل وما الحياة كلها إلا ذرات لاتني في الحركة، والناس في رمضان أوزاع، وإن جمعتهم روحانياته، وعمّتهم بركاته، وشملتهم ألطافه، وأظلتهم رحماته، ومثلما فضل الله بعض الناس على بعض وخُصَّت بعض البقاع بأن كانت حرماً آمناً تجبى إليه ثمرات كل شيء خُصَّت بعض الأزمنة بمزيد من الفضل كعشر ذي الحجة والأشهر الحرم ويوم الجمعة والحج الأكبر وهذا الشهر المبارك الذي حققت فيه الأمة الإسلامية أهم انتصاراتها وانتصر فيه الإنسان على نفسه الأمّارة بالسوء وهواه المتبع وشهواته العارمة. وما تصفيد الشياطين فيه إلا من خلال قمع الشهوات، وترويض الغرائز، وتمكين المترفين من التلبس الإلزامي بحيوات الفقراء والمعوزين والتعود على الانضباط، (لزومٌ) في لحظة، و(إفطار) في أخرى، وانطلاق جماعي إلى المساجد للتهجد والقنوت، وبذل سخي، وتغيير جذري لنمطية الحياة ورتابة الممارسات. إنه موسم خير تضاعف فيه الحسنات، ومحطة للتزود من الطاعات، وخير الزاد التقوى، فيه ليلةٌ خير من ألف شهر، وعشرٌ يشد فيها المئزر ويشمر فيها عن السواعد، وحق له أن يسمى شهر الحق والقوّة والحرية والمواساة والمساواة، لتوفره على عوائد صحية ونفسية وروحية وخلقية، وتعويده على الصبر والامتثال والتماثل، فالأمة بمختلف مستوياتها المادية والمعنوية يحكمها نظام غذائي واحد وانضباط عملي لا يحيد عنه إلا هالك، ويكفي أنه يقمع الشهوات، ويمكن الإنسان من التحرر من رقها طول أيامه ولياليه، وعبيد الشهوات أذل من عبيد الأناسي، وصدق رسول الله ﷺ: «**تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار**».

ولقد سماه (الرافعي) بـ(الفقر الإجباري) وتوسع في البسط (مصطفى السباعي) والحق انه كبحٌ للجسم المادي وإطلاق للروح التي هي من أمر ربي، لكي تنهض بدورها، بوصفها القسيم الأهم للجسم، ومن حقها أن تتجلى، ولو لفترة موقوتة من الزمن فتخلّص الإنسان من وضر المادة، ورق الشهوات.

ورمضان كأي شعيرة موسمية أخذه العلماء والأدباء والمفكرون من أقطاره وكل عالم أو مفكر أو أديب يستهويه الحديث عن الصوم تشده ظواهر العصر وأنساقه الثقافية، والصوم نصٌ مفتوح يتسع لكل التأويلات، فلقد سماه الزيات ربيع الأرواح وصيام الجوارح وفطام المشاعر، ونظر إليه الرافعي من الجانب الإنساني.

---

(١) تاريخ المقال: ١٦/ ٩/ ٢٠٠٨

ولأهميته فقد تكرر جذره في الذكر الحكيم ثلاث عشرة مرة تدور حول التخيير والفرض والإباحة والكفارات والنذور والثناء على الصائمين والصائمات فيما لم يرد جذر رمضان إلا مرة واحدة.

أما الأحاديث النبوية عن الصوم فقد صنَّف فيها الدكتور عبد الملك قاضي موسوعة من ثلاثة مجلدات، زودني بنسخة من طبعتها التمهيدية لمراجعتها ظناً منه أنني متخصص بالحديث، ولست أدري ماذا فعل الله بالمشروع العلمي الهام، وأحاديث تلك الشعيرة منها المتفق على صحته، ومنها ما دون ذلك وكلها تدور حول الأحكام والفضائل والمثوبة، والذي يهمنا هنا آدابه، فالظواهر اليوم لا تبشر بخير، وبخاصة حين سهر الناس على المسلسلات، وناموا عن العبادات وتفننوا في المأكولات والمشروبات، ففي الصحيحين: «**فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب فإن شاتمه أحدٌ أو قاتله فليقل: إني صائم إني صائم**» وفي البخاري: «**من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه**» وعند ابن خزيمة وابن حبان: «**إنما الصيام من اللغو والرفث**».

ولا مزيد على ما قيل عن الصيام لا من حيث الفضائل والأحكام، ولا من حيث الرؤية والثبوت، وما نود استدعاءه من فيوض القول لا يتجاوز التذكُّر والتذكير. والصيام عبادة كتبت على سائر الأمم، وإن كان ثمة اختلاف ففي أمور لا تمس الجواهر والمقاصد، على أن الديانات السماوية حين طالها التحريف امتد إلى سائر العبادات، و(لابن حجر الهيثمي) بيان بصفة الصوم الذي كان واجباً على من كان قبلنا في كتابه (اتحاف أهل الإسلام بخصوصيات الصيام) وتحريه للخصوصيات من باب الاجتهاد إلا فيما ندر.

ومع أن الصيام ركن من أركان الإسلام فقد دخله التيسير كالحج ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ومن رأفة الإسلام ورحمته فقد جاءت أحاديث العزائم والرخص للتخيير لا للتفاضل ومناط ذلك كله التيسير، ومثلما يكره الله أن تؤتى عزائمه فإنه يحب أن تؤتى رخصة. وحلاوة الحديث في قفو أحوال الناس وعاداتهم، فقد لا أكون مع رمضان كما الآخرين وذلك مكمن التطلع، إذ كل إنسان تلزمه عاداته كما طائره، ومن ثم فلم أقل نحن ورمضان، فالرجل وامرأته والأم وأولادها والإخوة والأخوات لكل واحد منهم شأنه الذي يغنيه عن شؤون الآخرين وتلك ميزة الشعيرة وتميزها وابتهاج الناس بها.

وكل إنسان له ما يخصه، فقد تلتقي الأسرة على المائدة، وكل يدٍ تمتد لها تشتهي، وقد يستظل الاخوة في المسكن الواحد ولكل وجهة هو موليها، وعلينا الاعتراف بالخصوصيات واحترامها، والتخلص من كبت النوازع الذاتية، فالتربية الحديثة تحث على المراقبة من بعد والاستدراج دون إكراه، وإذا أحس أحد أن له من العادات ما يدعو إلى إبدائها للفائدة والإمتاع كان عليه ألا يخفيها في نفسه، فالناس مغرمون بالمكاشفات وسبر الأغوار عبر السير الذاتية، وأحسبها لأهميتها تتصدر السرديات أهمية واشتياقا، وكلما تأوهت من خلالها أحسست بمن يستزيدني، وأنى لي أن أستجيب في ظل المشاغل والنسيان.

وتلك (الأيام) لطه حسين ليس فيها إلا ذلك الترسل الممتع والوصف الدقيق للحركة والسكون والأكل والنوم والقراءة وانتقاء المواقف المثيرة وغير المثرية، وليست عظمتها في مصداقيتها وإنما هي في عفويتها وبساطتها وتمثيلها لأسلوبه أدق التمثيل، من حيث الخصوصية الصوتية والتركيبية، وهي خصوصية اختلف الناس حولها، ولو قرئت

أوراقه ورسائله التي طبعت أخيراً أو قرئ ما كتبه أحد ملازميه وهو الدكتور عبد العزيز الدسوقي، أو قرئ كتاب زوجته (معك) لتبدت التناقضات بين مثالية الأيام وواقعية ما سواها.

ومن حق السِّيري انتقاء المحطات المفيدة والمثيرة، ونص (الأيام) يعد من أشهر النصوص المعاصرة، بل عدَّه البعض لحظةً تأسيسية لجنس السيرة الذاتية، وميزتها كما أشرت في البناء والانتقاء، ولقد قرأتها بأجزائها الثلاثة في أحد الرمضانات. وكان طه حسين حريصاً على إكمال عملين من أعماله (الأيام) و(الفتنة الكبرى) روى ذلك الدسوقي في كتابه (أيام مع طه حسين).

وعندما أبوح بشيء مما هو سِيْري لا أتطلع إلى سيرورة (الأيام) ولا إلى روعة الأداء فيها، ولكنني أزعم أن من حقي أن أبوح، وكل من أنس في محطات حياته ما يفيد كان عليه أن يمتلك الشجاعة على البوح، وليس البوح وقفاً على العظماء الذين غيروا وجه التاريخ ووجهته، فلقد أجد في حيوات الحمقى والمغفلين ونواد نجوم الفن وأسرارهم ولطائف ذوي العاهات وحكايات التطفيل ومفاجآت الظرفاء والساخرين ولذعات عقلاء المجانين ومغامرات المتماجنين وأعاجيب الفلاكة والمفلوكين، ومآسي من أدركتهم حرفة الأدب من البؤساء والمحرومين ونكت العميان وجبروت ذوي العاهات والمعوقين الذين غيروا مجرى التاريخ ما هو أجدى من مذكرات العلماء والساسة والمفكرين، فالنفوس مولعة بحب هذا اللون من المفاجآت، للحديث بقية.

رمضان و(أنا) وشيء من الذكريات .. ! (٢)[1]

ومما اعتدته عند فُشُوِّ أي ظاهرة أو ظهور أي نازلة في أي حقل معرفي أو قرب أي موسم عبادة أن أقرأ فقه ذلك كله وتاريخه وقواعده، وفيما يخص العبادات الموسمية، أتخطى فقه المذهب الذي أنتمي إليه إلى الفقه المقارن وأتخطى رؤية المؤدلج والمنتمي إلى رؤية المعرفي و(اللامنتمي)، إذ لا ضير من ذلك على من أراد التحصن المذهبي.

ولقد أشفقت على الوجلين الذين يرتهنون أنفسهم في ضوائق مذهب الانتماء، ويسلمون آراءهم لأي مجتهد قد لا يحالفه الصواب، خشية اضطراب الأقول، حتى أن أحد الزائرين لمكتبتي رغب مني استبعاد كتب الخلاف والمذاهب الأخرى، مدعيا أنها لا تزيد المحتفي بها إلا حيرة واضطرابا، وما زادني قوله إلا إيمانا برؤيتي وتعلقا بها.

وفيما يتعلق بمواسم العبادات، تكون بدايتي من فلسفة الفقه كما هو في (بداية المجتهد ونهاية المقتصد) (لابن رشد) ت٥٩٥هـ من خلال كتاب (الهداية في تخريج أحاديث البداية) (للغماري) ت١٣٨٠هـ، ومتكأ التفلسف الفقهي تحليل الأحكام لتوسيع رقعة الرأي والقياس، وهي التي شنع عليها أهل الظاهر، وتمادى فيها الأحناف، وللمختصمين حول هذه المصادر حكايات ومناكفات تصل إلى حد الاتهام بمساءلة الله عما يفعل، و(ابن رشد) يذكر اختلاف العلماء وأسباب الاختلاف، ومدى ارتباط الحكم بالتعليل، فعلى سبيل المثال حين يستهل الحديث في (كتاب الصيام) يرسم خطوات البحث، بحيث يستوعب كل متطلباته ومتعلقاته التي تخطر على بال المستفتي من صوم الواجب والمندوب وأنواع الواجب وأركانه والمفطرات والمفطرين وأحكامهم والرؤية للصيام والفطر وطريقها بين الحس والخبر، ومتعلقات زمن الإمساك والنية وأحكام أهل الأعذار وقضائهم والكفارات بين الترتيب والتخيير والتكرير والمقادير، وسنن الصوم المندوب إليه والمنهي عنه زمانا ومكانا.

وقد تمتد يدي إلى كتب الفقه المقارن بين المذاهب كما هو في كتاب (المغني) (لابن قدامة) ت٦٢٠ه من خلال الطبعة المحققة والمخرَّجة الأحاديث في سلسلة المشروع العلمي لمعالي الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي سدد الله على النور خطاه، وسيكون لي حديث مستفيض - إن شاء الله - عن هذا المشروع، وهذا الامتداد الأفقي يعقبه أو يواكبه امتداد رأسي، وذلك بقراءة الخلاف في المذهب الواحد، كما هو في كتاب (الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف على مذهب الإمام المبجل أحمد بن حنبل) للمرداوي ت٨٨٥ه بتحقيق (الفقي) وقد يحدوني عويص المسائل إلى التعريج على موسوعات المذاهب كالمبسوط، والبدائع، ورد المحتار، والمجموع، والمدونة، والكشاف، والفروع، والنيل والسيل للإمام (الشوكاني)، وإلى كتب الفتاوى الفردية والمؤسساتية - كهيئة كبار العلماء - ومفردات المذاهب والأشخاص، والمقدم من المذاهب، وما توصلت إليه المجامع الفقهية والهيئات، ولا أقطع صلتي بكتابين هامين هما فيما أسمع وأعلم منطلقات فقه (ابن تيمية) ومختاراته (المحلى) (لابن حزم) ت٤٥٦ه و(التمهيد) (لابن عبد البر) ت٤٦٣ه ولقد سمعت مقولة تنسب ل(ابن عبد السلام) ت٦٦٠ه بعدم جواز الإفتاء لمن لم يقرأ (المغني) و(المحلّى) وبعد المرور على متعلقات الصوم ومحققاته في تلك المختصرات والموسوعات الفقهية، تكون لي قراءات متنوعة، ولكنني أركز على علوم القرآن الكريم، وكنت في مستهل كل عام أفاتح طلابي حول ظاهرة الضعف اللغوي، وأضرب لهم المثل بنفسي، فلقد تخرجت من (كلية اللغة) وأنا دون الجيد في النحو، ولم

---

(١) تاريخ المقال: ٣٠/ ٩/ ٢٠٠٨

أتفاد هذا الضعف إلا من خلال إعراب القرآن، وذلك باستصحاب مختصرات الإعراب وأيسرها أثناء التلاوة مثل (معجم إعراب ألفاظ القرآن الكريم) الذي أنجزته مكتبة لبنان وأجازه مفتي مصر وراجعه أبو عبيه في مجلد واحد، وكتاب (إعراب القرآن الكريم الميسر) للأستاذ الدكتور (محمد الطيب الإبراهيم) في مجلد واحد، وعند المشكل أعود للمطولات مثل (الجدول في إعراب القرآن) ثلاثة عشر مجلدا كما أعود لكتب (النحاس) و(العكبري) و(درويش) أو (القيسي) في إعراب المشكل، وفيما بين هذا وذاك أعمد إلى قراءات استعراضية وغير مركزة، فالشهر موسم عبادة وتلاوة، ولأن الإجازة الصيفية أتاحت لي فرصة المرور بعدة دول تزودت من مكتباتها بما جد في علوم الفلسفة والسياسة والأدب، فقد كانت لهذه الكتب أولوية الاستعراض قبل أنت ترقد في حقولها من مكتبتي، ولقد تذكرت (كتيبا) استله (العقاد) من كتابه (أنا) يتحدث فيه عن مكتبته وبين كتبه وفي بيته، وعن الفتاة التي ذهلت من كثرة الكتب وصمتها الواجم، وعن الريفي الذي خلع نعليه، ولم يمس الكتب، لأنه لم يكن على وضوء، لقد أكبر العقاد (البراءة والجهل) اللذين فطرا على احترام العلم وإكباره، ووصف الكتب في رفوفها بالغذاء المحنط، وقال: إنه أفضل ما اخترع الإنسان من صناعات، إن مكتبة نيّف زمن جمعها على نصف قرن، ونيف عددها على عشرين ألف كتاب لقمينة بأن تحفل بكل المفارقات حقول متجاورة عن (الله) و(الإنسان) و(العقل) و(اللغة) و(الشيطان والروح والملائكة والجن) و(العقائد) و(العبادات) و(المعاملات) و(الحضارات) و(التراث) و(السياسة) و(الأحزاب) و(المذاهب) و(المنظمات) و(الثقافات) و(الآداب) وسائر المعارف والمناهج والقواعد والأصول، وعلوم القرآن والفقه والكلام والفلسفة، إنها جديرة بأن تأتي على كل ما فضل من الوقت بل تكاد تستأثر بالوقت كله، حتى لا يكون زمان إلا للضرورات. وشهر رمضان يربطني بالمكتبة، ويمكنني من استعراض حقولها، إنه شهر الجد والعمل، وهو في ذات الوقت شهر النوم والسهر، فلكل معه وجهة هو موليها، وهو شهر يمضي كساعة من نهار، وليس كما شبه به الأعرابي: (كشهر الصوم في الطول) وشوقي فصل في طوله وقصره في خمريته التي خالف فيها عاطفته الدينية وأثار حول تدينه جدلا لم ينته بعد:

رمضان ولّى هاتها يا ساقي
مشتاقة تسعى إلى مشتاق
ما كان أكثره على ألافها
وأقله في طاعة الخلاق

ورمضان اليوم يختلف عن سائر الرمضانات التي سلفت، وهذا الاختلاف في المآكل والمشارب والمساكن وسائر الممارسات والإمكانيات والمغريات يضطر المخضرمين أمثالي من مغالبة التغيير، فما كنا من قبل نحيي لياليه بالسهر، وكيف يتأتى لنا ذلك؟ ونحن نكدح في نهاره، ولا نستطيع أن نقيل في شدة الحر وحاجة أهلنا إلى جهودنا، وما كانت هناك وسائل ترفيه من إذاعات وقنوات فضائية وليست هناك سيارات تقرب البعيد وتغري بالمزيد، ولا مكيفات تلطف الأجواء، ولا ثلاجات تبرد المياه ولا عصائر ولا فواكه، ولا فطائر. لقد كنا نحسوا الماء من الشن ونأكل التمر من الجصاص، ونطهوا الطعام على الحطب، لا نعرف المعجنات ولا المقليات ولا المحشيات ولا سائر العصائر والمشروبات، ولكن كان رمضان أحلى، ولياليه أبهى، وروحانياته أعم، نكدح في النهار حتى إذا حان الإفطار كانت لنا فرحتان، فرحة باليسير من الطعام، والطويل من النوم،

بالإضافة إلى الفرحتين اللتين أخبر بهما رسول الرحمة، إذ نجوع ونظمأ ونعيا، ونتوق إلى شربة الماء وما تيسر من التمر، أما جيل اليوم فإنه ينام في نهار رمضان، ويلهو في ليله، فإذا حان الإفطار نظر إلى الموائد المتنوعة الأشكال والألوان والطعوم نظر المغشي عليه من الإعياء، خرجت الأمهات من المطابخ فخرجت معهن النكهات والأكلات الشعبية ودخلت الخادمات مخلفن الكسل والترف والاسترخاء، كنا قبل الماء والكهرباء وسائر متطلبات البنية التحتية ننطلق بين العشاءين كالعصافير إلى مساجد الموسرين الذين يعلقون (القِرَب) على الأبواب، ويجلبون القهوة والشاي للمتهجدين نرتوي من الماء العذب الفرات، ونشرب من الشاي فيتركنا ملوكا وأسدا لا نمل من الركض من مسجد لآخر، حتى نمر بها جميعها، لقد كان لرمضان نكهة خاصة وللتجمع فيه بهجة، إيثار على النفوس مع الخصاصة، وبذل من الموجود بسخاء، لقد كنا نطرب للمتغنين بالأحاديث والأدعية والتمجيدات التي استطاع بعض المؤلفين سبكها بعبارات مسجوعة وجمل موزونة، ومن خلال نفس صوفي مغرق في التغني والتوله ككتاب (عقود اللؤلؤ والمرجان) ولا سيما إذا كان القارئ صاحب صوت جميل، ومن بين تلك الترنيمات التي لما تزل عالقة بالبال الحديث القدسي: «**الصوم لي وأنا أجزي به**» لقد وضعه المؤلف في سياق السجع كما آية: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فبين كل جملتين أو ثلاث أو أربع مسجوعة وموزونة يتردد هذا المقطع من الحديث، فيتمايل معه السامعون في خشوع وانكسار وطمع بأرحم الراحمين.

إن لرمضان الأمس لنكهات لو عرفها جيل اليوم لجالدونا عليها بالسيوف ولكن الترف فوت عليهم الكثير من مقاصد الشريعة، ولو ركضوا إليها لأرجعوا إلى ما أترفوا فيه، إذ ما دخل الترف في شيء إلا أفسده، وما ذكر الترف في القرآن إلا في سياق الذم، لقد ورد ذكره في الذكر الحكيم أحد عشر مرة كلها في سياق الذم للمترفين.

ورمضان لم يكن عشق العلماء ولا رهين المحاريب، إنه ملهم الشعراء والأدباء، ولأن الشعراء أرق مشاعر وأحر تولها، فقد كانت لهم معه وقفات تأمل واحتفاء واستثارة للهمم، ومحاسبة للنفس، وللشاعر السعودي كغيره من الشعراء وقفات تشف عن تعلق وتوله، حتى لقد خص هذا اللون من الشعر برسائل علمية تقصت ما قيل فيه من الشعر، ولقد تناولت ذلك بشيء من الإيجاز في رسالتي العلمية (النزعة الإسلامية في الشعر السعودي المعاصر) وخلف من بعدي من تقصى هذا الموضوع وظفر بعيون الشعر، ولو اتسع المجال لسقنا بعض الشواهد، ولكنها خطرات عجلى أرجو أن تحفز إلى التقصي فشهر رمضان ينطوي على فوائد وذكريات عذاب.

يا بَحرُ رَاضَكَ قَاهِرُ الصَّحراءِ .. !(١)

تمر بي هذا اليوم ذكرى (اليوم الوطني) وأنا أنقب في رفوف مكتبتي، لعلي أبلغ الأسباب، أسباب نشوء الدول وسقوطها، في ظل أضغاث الأحلام (بنظام عالمي جديد) أو (بعولمة شاملة) تدمر كل شيء أنت عليه.

وكم جالت في الذاكرة مثل هذه الدراسات التي تتقصى سنن التداول والتدافع والدورة التاريخية، وأحسب أن أقواها علوقاً في الذهن كتاب (نشوء وسقوط الدول العظمى ل(بول كيندي) -وتركيب العنوان لا يقبله النحاة لتفريقه بين المتضايفين- وكتب أخرى ذات نوازع دينية ك(أسباب هلاك الأمم) ل(عبد الله التليدي) أو ذات نوازع أخرى متعددة، ومن قبل هذه كلها (سد تطور الأمم) للعالم الفرنسي الشهير (غوستاف لوبون) ت ١٩٣١م الذي ترجم قبل تسعة عقود وفيما أنا ألوب الحقول المعرفية عثرت على القصة الكاملة للزيارة التاريخية التي قام بها الملك (عبد العزيز) رحمه الله إلى مصر عام ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م. وتذكرت معها القصيدة العصماء التي أبدعها المفكر العربي الكبير (عباس محمود العقاد ت ١٩٦٤م) بهذه المناسبة، وإذ بالتداعيات تجلب إلى الذاكرة قوله:

أسد العرين يخوض غيل الماء

يا بحر راضك قاهر الصحراء

وإذ بي التقط العجز ليكون صدراً لمقالي عن تلك المناسبة الوطنية، المحببة إلى كل من نعم برغد العيش، واستظل بوارف الظلال، واغتبط بوافر العطاء، في وطن أعطى لأبنائه الكثير، ولم يظفر منهم إلا باليسير.

و(العقاد) بما وهبه الله من معارف وقدرات، لا تخطئ نظرته، ولا يخيب ظنه، لقد بهرته شخصية الملك عبد العزيز، ووجد فيه ضالته، حين صحبه في رحلته إلى مصر، ضمن بعثة الشرف التي رافقته على ظهر اليخت الملكي (المحروسة)، وقصة الرحلة، وخلفياتها، ومقابلة الملك عبد العزيز لأبرز شخصيتين عالميتين: (روزفلت) و(تشرشل) في مصر تحتاج إلى مزيد من الأحاديث المستفيضة، لتفكيك بنية الحدث الأهم في تلك المرحلة، وتجلية المنطويات، متى عُلم أنَّ العالم لما يزل يعيش مخاضات تلك الحقبة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية.

والعقاد من قبل مغرم بشخصيات العظماء، ولقد شد عضده في سبر أغوارهم واكتشاف مواهبهم وعوامل تألقهم (المذهب النفسي في النقد) الذي تبناه من قبله (لوبون) فكان أن أنشأ العبقريات التي شغلت الناس، وأثارت فضولهم، واضطربت فيها آراؤهم، وقصيدته ومقالاته التي كتبها في أجواء هذه المناسبة تنحو هذا المنحى التحليلي.

والعقاد ليس صحفياً تصرفه المناسبات، بل هو المفكر العميق التفكير، والمثقف الواسع الثقافة، والعالم الغزير المعرفة، والصريح الذي لا تأخذه بالحق لومة لائم، إنه شاهد على العصر، وموثق لأحداثه بصدق وأمانة وصراحة. ولعلنا ونحن نقرأ (اليوم الوطني) ونستشرف مستقبله أن نتذكر ما كنا قد قرأناه من قبل في كتاب (سر تطور الأمم) وبخاصة حديثه المستفيض عن (روح الأمة) وأثر هذه الروح في توجيه أعمالها، وترسيخ دعائمها.

والروح عند (غوستاف لوبون) بمثابة النسق الثقافي أو السمة الغالبة. ولست معنياً بترويض مبالغاته ولا باستدراك شطحاته فالذين ضبطوا النص المترجم ووضعوا

---

(١) تاريخ المقال: ٢٣/ ٩/ ٢٠٠٨

الحواشي استدركوا ما يمكن استدراكه، وللمؤلف كتب أخرى عن تجليات الروح في الاجتماع والسياسة والاشتراكية، مثلما كتب عن (روح الشعوب) في كتابه هذا، والذي يعنينا في هذه المناسبة الوطنية تحسس هذه الروح في سياسة المؤسس، وأثرها في تشكل هذا الكيان وتجذره.

فقد يستبق القارئ أشياء قائمة بالفعل، كالشجاعة والكرم والحزم والقوة والعدل، ليقول بدون عناء أو تردد إن (روح الأمة) المتمثلة بقائدها تكمن في الكرم، أو في الشجاعة، أو في القوة، أو في العدل، مجتمعة أو متفرقة، متماثلة أو متفاوتة، متلازمة أو متتالية، وليس على أصحاب تلك الخيارات من بأس، غير أن صفة من هذه الصفات قد تطغى على كل ما سواها أو تسبقها، ثم تغني عن ذكرها، وتكون بمثابة (الروح)، وهذا ما عناه (غوستاف لوبون) ب(روح الأمة). والعقاد الذي استوعب فكر (لوبون) ومنهجه النفسي في عبقرياته، التقط (العدل) و(القوة) في شخصية (عمر بن الخطاب) و(العزم) و(الصدق) في شخصية (أبي بكر) وهذا لا يعني انعدام الصدق عند (عمر)، ولا يعني انعدام العدل عند (أبي بكر) وأحسب أن من حقي -والحالة تلك- التماس هذه الروح المستبدة في مرحلة التأسيس، وحصرها في خصلة متبدية للعيان تتمثل في (التسامح)، فالصفة المحورية حين تطغى على ما سواها تكون بمثابة الروح للأمة، ويقيني أن الذين ينقبون في مسيرة المؤسس يجدون هذه الروح بارزة كأنصع ما يكون البروز، ثابتة كأرسى ما يكون الثبات، غالبة كأقوى ما تكون الغلبة ومن ثم يحق لي أن أقول: إن (التسامح) يمكن أن تكون هي روح الأمة آنذاك، وهي الخليقة التي انطوى عليها الملك عبد العزيز في معركتي التكوين والبناء.

وسيرته العطرة شاهد على ما أقول، فلقد استمرت معركة التكوين زهاء ثلاثة عقود، عرف فيها خصومه الذين قاوموه باللسان والسنان، وحين دال سلطانهم، أشرب في قلبه مقولة الرسول ﷺ لأهل مكة: اذهبوا فأنتم الطلقاء، وقول الرسول: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن) فقرّب الخصوم، وأقال عثرتهم، وصاهر بعضهم، واستوزر البعض وأعاد لهم مكانتهم في قومهم، وأثنى عليهم، ورد إليهم ما كان قد سلب منهم، مثلما امتثل رسول الله -ﷺ- أمر ربه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ فلقد نادى (عثمان بن طلحة) وأعطاه مفتاح الكعبة، بوصفه سادناً للبيت، على الرغم من أن العباس بن عبد المطلب قال لرسول الله ﷺ: أعطنيه يا رسول الله. ليجمع بين السقاية والسدانة، في ظل الصراع القبلي المستمر بين الهاشميين والأمويين، هذه الخصلة الغالية جعلت الروح السائدة هي (التسامح).

وهي الروح التي نحن أحوج ما نكون إليها في ظل هذه الفتن العمياء والتشتت الفكري المخيف، والتنابز المخل بالألقاب والغزو العنيف على كل الصعد.

والملك عبد العزيز في شأنه كله يجنح إلى التسامح، وما وقف على مفترق طرق إلا اختار أمضاها في التأليف وبث الثقة، لقد قبل أن يكون (سلطان نجد) إرضاء لمن لم يعرفوا الملكية، وأن يكون (ملك الحجاز) إرضاء لمن لم يعرفوا السلطنة. وبعد أن وضعت الحرب أوزارها، وانتهت معركة التكوين، أراد أن يستأنف معركة البناء: بناء الوطن وبناء الذات وكيف لا يكون البناء معركة أقوى مما سواها، ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، إن بناء الوطن جهاد أكبر من معركة السلاح، ولقد كان من مقتضيات استئناف معركة البناء أن يوحد الاسم للبلاد والصفة لحاكمها، فكانت (المملكة العربية السعودية) وكان (ملك المملكة العربية السعودية)، ويومها كان (اليوم الوطني) الذي يحتفي به أنجال المؤسس مع أنجال رجاله

الذين بذلوا من أجل مشروعه الوحدوي الأموال والأنفس، هذا الكيان شاهد على عظمة الباني وعظمة البناة معه، والوفاء له ولرجاله أن نُهْدَى إلى القول السديد والعمل الشريد، ليسعدوا في قبورهم، ويثقوا بأن الأمانة في أيد قوية حفيظة عليمة أمينة: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾.

إن الوفاء للوطن ألا نكتفي بإضمار الحب الجِبِلِّي، بل نترجمه بالأقوال والأفعال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ كما أن الشكر قول يؤيد بالعمل: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾، فالحب الحق أن نحمي الساقة ونرود في المقدمة وإن نجتنب ما يسيء للمحبوب في وحدتيه: الفكرية والإقليمية وسائر قيمه الأخلاقية والسلوكية فالراشي والمرتشي، والغاش والمطفف، والضال الفكر، السارق من بيت المال، والمتهاون بالحقوق والواجبات، والمواطئ على الخطيئات، والمستغل لمنصبه، والمعطل لحاجات الناس، والمشيع لقالة السوء، والمروج للشائعات، والجشع والمحتكر والمتلاعب بالأسعار، والمبذر للأموال العامة، والمعطل للمشروعات المهمة، والمسكون بالإقليمية البغيضة والعصبية المقيتة، والمتستر على العمالة، والمستغل لثغرات النظام، والمؤوي للمحدث، والسلبي الذي لا تهمه المصلحة العامة، والمصدع للوحدة الفكرية، والموالي والمداهن، المعطي الدنية في الدين. كل أولئك وإن جاهروا بالمحبة، وتغنوا بالأمجاد، ليسوا مواطنين إلا بالهوية، إذ قد يكون البعض منهم محباً لوطنه حباً جِبِلِّياً، وفي الحديث حين لعن بعض الصحابة شارب الخمر لتكرار فعله «**لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله**»، ونفي المواطنة عن مثل هؤلاء نفي أدائي لا نفي انتمائي، كما في الحديث: «**من غشنا فليس منا**»، وكيف يَشرفُ الوطن بهذا الصنف من الناس وهم يعرضونه لخلل الوحدة الفكرية والإقليمية التي هي ترجمة عملية لليوم الوطني.

إن هذه المناسبة السعيدة لكي نتخطى بها الشكليات والثناء الزائف يجب أن تكون لحظة مراجعة ومساءلة ومحاسبة للنفس، ماذا قدمنا؟ وماذا يجب أن نقدم لهذا الوطن في ظل هذه الظروف العصيبة؟

إن نعماً كثيرة أسبغها الله علينا تحتاج إلى تقييد، لكيلا نقع في محيط: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾.

والمناسبات السعيدة لكي تكون إيجابية لابد أن نتفادى الوقوع في الإفراط أو التفريط بحيث يتنازع الفُرَقَاءُ حول طرفي قصد الأمور، فيكون الفشل وذهاب الريح.

ومن أشد الظواهر فداحة فهم الأشياء على غير مراد المشرع، فمن أراد الوطن بلا هوية لم ينفعه الاحتفاء المؤقت وأسُّ الهوية العقيدة السليمة، وما أكثر الذين يتيمهم الحب ثم يرضون بتناغم المتناقضات واختلاط النسك بالخلاعة واتباع ما تشابه (ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله)، ومن أراد الوطن بهوية انعزالية حرمه من التفاعل الإيجابي، وما أكثر المثاليين الطوباويين الذين يحلمون بالمستحيل فَيُفَوِّتُون الممكن، إن بعض الخطابات المتعالية تريد لهذا الوطن أن يقتاد العالم بعصا موسى، وتحتم تطهير الأرض من أدرانها، وإكراه الناس على الدخول في الدين كافة وإشاعة العدل والمساواة، وحقن الدماء، ورد

المظالم، وفتح مغاليق السجون، وكأن أمره بين الكاف والنون، وتلك مغامرة طائشة وتخيل مستحيل؛ فالمؤسس الذي نحتفي بخطوةٍ رائدةٍ من خطواته لم يكن حالماً يعد ب(المدينة الفاضلة) ولا مغامراً يكلف وطنه فوق وسعه، بل هو الإنسان السوي الواقعي الذي انشقت عنه الصحراء ليكون ابنها الذي تتهادى بين يديه في طريق الخلوص من الثالوث البغيض ومستلزماته، والأقربون أولى بالمعروف، وعلينا أن ندع العالم من أحلامنا ولو إلى حين، فما أحوجنا إلى استعادة روح التسامح والواقعية.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾.

تحولات مركز الكون النقدي وأثرها على المشهد المحلي .. ! (١) [(١)]

قد يبدو هذا العنوان غرائبياً، وقد يعده البعض من خداع العناوين أو من باب التلاعب بالألفاظ، وما هو في شيء من ذلك كله؛ فالتَّحوُّل مُسَلَّم أزلي، والحياة بأشيائها وإنسانها كالنهر المتدفق يحسبها الناظر جامدة، وهي تمرُّ مرَّ السحاب.

ومع حتمية الحَوْرِ أو الكوْر فإن لكل شيء ثوابته ومتغيراته، كما الجوهر والعرض، والنقد كون له عوالمه وعوامله، وهو كالأجرام السماوية يدور حول نفسه، ويسبح مع منظومته في فلكه؛ فهو في تقلب وسيرورة، له في كل يوم شأن يغنيه عما سلف، ولا يحول دون ما هو آت، وفي كل دورة تتحول معه مركزية الاهتمام، وهو بامتداده الأفقي والرأسي عبر الزمان والمكان والإنسان والأنساق الثقافية والمعرفية يحمل سمة الكونية المحتملة للتميز والاستقلال عن بقية فنون القول بحيث تكون استقلاليته كاستقلال الكون في فضائه وعناصره وسائر مشمولاته. والنقد كأي كائن حيّ له تخلقه وارتقاؤه في مشاهده، بحيث يكون خلقاً من بعد خلق في تحولاته الثلاثة، وحركته الداخلية وحركته صوب مركزه عند ذوي الاختصاص والتجربة والمعرفة محسوبة الخطوات والاتجاهات، ومن أرادها بدون تقدير دقيق فقد أدخلها في الفوضى المدمرة وقضى عليها بالتآكل.

والنقد في ضوء ضوابطه له جوهره الثابت وعرضه المتحول، وتحوله من خلال جوهره انتقال ذاتي من مركز إلى آخر بحيث لا يكون هناك تبدل في ذاته، أما تحوله في عرضه فحراك داخلي محتوم، وتغير الآليات والمناهج والاهتمامات مرتبط بترتيب الأولويات ومقتضيات التنقل من موقع لآخر.

هذا الكون القولي يتسم بالثبات والتحول الكلي أو الجزئي في آن، والتصور السليم يمنع الاستحالة؛ إذ يوصف بالتحول الكلي حين يتغير مركز اهتمامه المستدعي لتبدل المنهج والآلية، والراصد للحركة النقدية العربية والعالمية يجدها متنقلة بعفوية أو بوعي عبر ثلاثة مراكز:

-منتج النص وما يلحق به من بيئة.

-النصُّ المُنْتَج من حيث البناء والأداء والشكل.

-متلقي النص بوصفه الشخصي أو الاعتباري.

وإذ يكون للمنتج تبعاته ومحققاته، فإن للنص كيفية القول ومحتواه، وللمتلقي مراوحته بين الذات المفردة والكيان الجمعي؛ بوصفه متلقياً يصدق ذلك على الملل والنحل وسائر الأيديولوجيات، ويتحقق الكون النقدي بهذا التنقل بين تلك الحقول الثلاثة، وما يلحق بها من أدلجة أو تسييس؛ فالمتلقي يتحقق من خلال مجموعة القيم لا من خلال الأشياء، وهذه الحقول تعد جماع التحولات لاشتمالها على ما لا نهاية له من التصورات، بحيث لا نجد صعوبة في التماس الانتماء لكل سمة لا تشير لهذه الحقول؛ فالاهتمام بالحواضن والروافد وحياة المبدع وأحواله النفسية والاجتماعية والفكرية وتاريخ الأدب وجغرافياته الحسية والمعنوية يعني ذلك كله أن مركز الكون النقدي يقف حيث يكون المبدع ومتعلقاته.

أما الاهتمام بالنص من حيث هو لغة ببنائها ودلالاتها، ومن حيث الشكل والفن وسائر الوحدات الفنية وما يستدعي ذلك من مناهج وآليات ومذاهب كالبنيوية والتفكيكية والتحويلية وسائر المسميات ذات المساس باللغة والفن فإن ذلك كله يعني أن مركز الكون النقدي يكون في النص الإبداعي.

---

(١) تاريخ المقال: ١٥/ ٤/ ٢٠٠٨

وحين يستبد المتلقي ويصبح مركز الاهتمام تنسل مذاهب ونظريات تعمق نفوذه كنظرية المعرفة والتلقي والاستقبال والتأويل والمثاقفة والتفكيك وسائر الأيديولوجيات.

والحركة النقدية في المملكة ليست بدعاً من الحركات النقدية الحديثة في الوطن العربي؛ فلقد مرت بهذه الأطوار كلها وشاركت المشاهد في معايشة المخاضات الجديدة، ومهمة البحث رصد هذه التحولات الكلية واستبانة أثرها على المشهد المحلي سلباً أو إيجاباً.

والنقد الأدبي أفق واسع يتسع لكل هذا الحراك والتحول المستمر، وما المعارك الأدبية إلا مخاض طبعي لهذه التحولات؛ فالذين يعلون من شأن المبدع يواجَهون بالذين يصرون على موته، فيما يرى آخرون أن المتلقي هو الكل في الكل. هذه التحولات الحادة والحديَّة جعلت المقاربة إرهاصاً لمزيد من المفارقة، وقد يكون في ذلك ما لم نحتسب من الإثراء المعرفي وتعدد الخيارات، وتناولنا لهذه التحولات لا يرمي إلى تغليب اتجاه على آخر، غير أن التوازن والأخذ من كل شيء بطرف يمنح المشهد النقدي مزيداً من الاستقرار، ولا يعمل على تغييب مهمة لحساب مهمات أخرى قد لا تكون الأفضل.

ومن المسلمات البدهية ارتهان العملية النقدية في تلك الآفاق الثلاثة لا تخرج منها إلا لتعود إليها، وهي المحاور الرئيسة والملحة من بين عدة محاور تمدُّ بسبب إليها، وإن خفيت الصلة على البعض، وأهمية الحديث في تبادل تلك السلطات للمواقع، وتداولها للسلطة، واستبداد كل سلطة بالمشهد النقدي ومصادرة حقوق السلطات الأخرى واستجابة المشاهد لهذا السطو المجحف، ولقد كان أطولها سيطرة على المشهد سلطة (المبدع)، ولم يقترف سلطان النص إعلان موت المؤلف إلا من بعد ما أثخن المبدع في مشاهد النقد، على أن مركزية النص لم تطل، وإن خلفت آثاراً لا يستهان بها بحيث أصبح بعضها من آليات المتلقي الذي أعاد إلى المشهد نظريات المعرفة والاستقبال والتأويل والتلقي مقترفاً جرائر التدمير وطمس معالم المبدع والنص معاً.

هذه الثورات العنيفة داخل مجرَّة النقد بمفهومه الأوسع بسطت نفوذها على مشهدنا النقدي المحلي، وتركت آثارها وتأثيراتها المراوحة بين السلب والإيجاب، ومتى استطعنا تجلية تلك التحولات ومنجزاتها تبدت لنا وجوه المشهد المحلي، وانحلت عُقَدُه، وبطل العجب بمعرفة السبب.

وحين ننظر إلى تحولات مركز الكون النقدي، وتبادل السلطة بين المبدع والنص والمتلقي لا نجهل تبعات هذه المراكز من أدلجة وتسييس يكادان يذيبان هذه المراكز، والانتهاكات الفكرية والسياسية صادرت الفن لحسابها الخاص، وهي حين تستبد في المشاهد تكون مستصحبة لواحد من تلك السلطات الثلاث، وهي في النهاية قسيم المتلقي أو هي من متلق متعسف؛ فالماركسية والوجودية وسائر الاتجاهات الفكرية والنفسية والاجتماعية واللغوية تصطبغ بالأيديولوجيات المهيمنة، ولكنها لا تبرح أفلاكها، وحتى حين استبدت اللغة استجابة لسلطة النص، وبدت الشكلانية التي اتسمت بالهروبية، واندلقت أقتاب المصطلحات التي تجمعها الألسنية والأسلوبية، وهي بعض محققات سلطة النص، تبدت الأيديولوجية الماركسية فارضة سلطتها منتزعة حقها، ومن ثم جاء مصطلح (البنيوية التكوينيَّة) المعروف بالبنيوية الموضوعية، وهو نقد يفكك الدلالة بذات الآليات التي يفكك فيها اللغة، ولقد تقصيت ذلك المنعطف بدراسة معمقة عن (النقد البنيوي للرواية)، ومراوحة النقد بين اللغة من حيث البناء والدلالة أنشأ نظريتين متوازنتين، وخلف دراسات تنظيرية ومترجمات لمَّا تزل قائمة على سوقها، وعلم اللغة وعلم الدلالة صنوان، وهي تحولات في إطار مركزية النص والمتلقي على حد سواء.

والمشهد المحلي لم يكن بمعزل عن تلك التحولات، ولكن المعوق الأكبر طغيان مصطلح الحداثة بكل أبعادها ومفاهيمها، وهي مصطلح مثير وحمَّال أوجه، وهو أقرب إلى الإبداع منه إلى النقد، وإن طغى على المشهد النقدي.

وجدلية القبول والرفض المطلقين حالت دون التحرير والتأصيل، وأبقت على جانب كبير من التسطح والتذوق والتذبذب.

وإذا كان الدرس الأكاديمي في مصر والمغرب قد بادر إلى تلقي المستجد من المذاهب والتيارات، واجتهد في بلورة المفاهيم والمقتضيات فإنه في المشهد المحلي أبعد ما يكون عن التحقيق، ولم يكن الاهتمام بالمستجد حاضر الأقسام الأدبية إلا ما جاء من اجتهادات شخصية، ومن ثم ظلت الدراسات تعتمد على المناهج والآليات القديمة.

وتأثير تلك المستجدات على المشهد المحلي واختلاف النقاد والأدباء حول التحولات مرتهن لجدل المشروعية المطلقة أو المشروطة، والمعارك الأدبية ليست وقفاً على التقليد والتجديد كما يحلو للبعض تصوره، ولكنه حول الاندفاع وراء الأدلجة، والتخلي الكلي عن محققات الذات ومتطلباتها.

تحولات مركز الكون النقدي وأثرها على المشهد المحلي .. ؟ (٢)[(١)]

ولقد قلت من قبل: إن كلمة (نَقْد) مصطلحٌ مشاكسٌ، وهو في الجملة ذو أبعاد متعددة: تاريخية وفنية ووظيفية وآلية ومجالية، وله عناصره وعلومه وطرقه ومقاييسه، بحيث لا يكاد يستقر حتى ينهض من جديد كأقوى ما يكون النهوض، وأبعد ما يكون الانطلاق، وكلما زاد المتقصي تعمقاً فيه زاد انبهامه، وتلك سمة المصطلحات المفتوحة، تظل في تحول وتبدل واتساع مستمر. على أن ذلك الانداح الدائري، يفتق الأذهان، ويثري المعارف، ويعدد الخيارات.

وكل مصطلح مفتوح على كل الاحتمالات يعد ظاهرة استثنائية لا يروض جماحها إلا من له قدرات استثنائية، والمتعقب لأي حركة نقدية من خلال مقطع زمني أو مجال جغرافي، لا يجد بداً من امتداد النظرة إلى ما سلف من حركات، وما هو معاصر من مذاهب وظواهر وتيارات، فالعلوم الإنسانية محكومة بالتفاعل والتعالق، وقد يقوى جانب منها فيطغى على سائر الجوانب، وقد لا يكون البقاء للأصلح، ولكنه للأقوى وللمتمكن الأمكن، ونفاذ المذاهب والمناهج والآليات محكوم بالإمكانيات، وكم من تجربة منعت تجارب لأنها لم تكن على قدر من السلامة والنضوج، والنقد الأدبي العالمي خَبَّ ووضَعَ في كل أنواع المعرفة الإنسانية وأغرى النقد العربي بذلك.

والشيء الذي نسلم له ولا نجد بداً من الاعتراف به أن النقد الأدبي الحديث يستمد لحمته وسداه من خيوط النقد الغربي المعاصر بكل ما هو عليه من جرأة في التجريب، وذلك منذ بداية التواصل مع المشاهد الأدبية والفكرية الغربية عبر طرق شتى، لا حاجة لنا بحصرها لأنها معلومة من الواقع بالضرورة.

ولقد كانت له من قبل سماته وآلياته ومناهجه، التي لا ينكرها إلا مغالط وهي سمات تقصتها مجملةً أو مفصلةً كتبٌ اعتمدت سائر المناهج، واتسعت لكل الأنواع، بحيث تناولت التفكير النقدي المعرفي والمعياري والذوقي الساذج، وتاريخ النقد واتجاهاته ونظريات الأدب والشعر، كما تقصت مفهوم الأدبية والشعرية وأسس النقد وأصوله وتحولاته في كل عصر من العصور ومناهج التأليف عند أصحاب الأمالي والطبقات والتراجم والمختارات والموسوعات.

كما خص النقاد والدارسون والشارحون والموسوعيون والبلاغيون الأقدمون بدراسات مستقلة تجلت فيها إمكانياتهم ومناهجهم وآلياتهم واتجاهاتهم واهتماماتهم المراوحة بين اللغوية والدلالية والفنية والتاريخية، الأمر الذي حقق السبق والتميز والتأثير المبكر، وهو ما تقصاه الدارسون للأدب المقارن، وأثبتوا من خلاله بصمات المذاهب النقدية العربية وبخاصة (الأدب الشعبي) على بدايات النقد والأدب الغربيين عبر الفردوس المفقود وهذا التقصي يثبت مكانة النقد العربي. وريادته الإنسانية لا تستدعي استغناءه وانغلاقه، والنقد العربي القديم بكل ما هو عليه من تعدد في الاهتمامات لا يُستغنى به ولا يستغنى عنه، وتواصله القوي وتشكله المتنوع لا يُقْبل على إطلاقه، ولا يرد على إطلاقه، فالمثاقفة بين الحضارات من الحواتم المقضية وهو سرُّ التجذر في التفاعل المتوازن، إذْ ما من حضارة مستبدَّة إلا هي مجموعة حضارات مهضومة، وليس هناك حضارة بريئة لا تكون مستوعبة لما سلف استيعاب انتقاء وتهذيب وتمثل غذائي، وإذ نسلِّم بأن الحضارة الغربية تقدمت في الكثير من ظواهر الحياة الدنيا فإنها الأقدر على فرض ثقافتها، ولقد مكن لها في سائر المشاهد تباهي التابع بمحاكاتها، وهو ما كان

---

(١) تاريخ المقال: ٢٢/ ٤/ ٢٠٠٨

للحضارة الإسلامية إبان ازدهارها في الأندلس، وتلك رؤية (ابن خلدون) في تقليد المغلوب للغالب. والتعالق حين يكون عن وعي، وحين يلبي حاجة قائمة ويكون بمقدار يثري معارف الأمة، ويمكنها من الإسهام في بناء الحضارة الإنسانية واستثمار تجاربها، غير أن استقبال الآخر تَحوَّلَ مِن الأخذ بمقدار ونِدِّية إلى التهافت والذوبان، مما عرض مثمنات الأمة ومحققات وجودها الكريم للتشويه وأدى إلى التفكك والتنازع واضطراب وحدتها الفكرية، وعرضها لعقد الخوف والتردد، والصدام بين أطيافها واعتزال البعض، الأمر الذي فوَّتَ فرص الاستثمار المحقق للوجود الكريم.

والنقد الأدبي المعاصر مَسَّه الضر الذي مَسَّ كثيراً من التحولات المدنية والحضارية، على أن الراصد المنصف والحكم العدل يتقي التعميم في الأحكام، إذ ما كان لنا أن ننكر استفادة النقد العربي المعاصر من مستجدات النقد الأدبي الغربي، وتحفظنا لا يمتد إلى التعالق المشروع، واستياؤنا لا ينكر الاستفادة من تحولات النقد الغربي، وقدر الأدب والنقد أن يكونا تابعين.

ومثلما أن الخصوصية والذاتية سمتان لأي حضارة ذات عمق تاريخي ومرجعية نصية فإن الإفراط في الادعاء يؤدي إلى التعاظم العِظامي، وضرره لا يقل عن ضرر الدونية والتخاذل والشعور بالنقص.

وجماع الأمر أن تكون النخب على بينةٍ من أمرها، بحيث لا تفوِّت فرص الاستفادة، ولا تذوب في الآخر، وما أضر بمصالح الأمة إلا الإفراط أو التفريط، وعدم التفريق بين التعالق المشروع والتهافت المعيب.

والحديث عن تحولات مركز الكون النقدي لا ينْفك من استدعاء الروافد والمؤثرات والتعالق غير السوي مع مستجدات النقد الغربي، ومجمل التحفظات لا تحجِّرُ واسعاً، ولا تمنع مباحاً، ولكنها تحاول تفادي التهافت والانبهار، وتحول دون القطيعة مع التراث بوصفه البنية التحتية للتجديد.

ومن البدهيات أن الموروث النقدي لم يكن مُحرر الاهتمامات بالقدر الكافي، وإنما كان النقاد الأوائل يراوحون بين الترجمة والجمع والتفسير والأحكام المعممة والتجزيئية والأجواء والمناسبات، حتى إذا جاء العصر الحديث مستوعباً للتراث والمعاصرة في بعض محطاته أصبح فيه المبدع مركز الكون النقدي، مما استدعى البيئة وتاريخ العصر وظروفه السياسية والدينية والاجتماعية وسائر أحوال المجتمع، وتمركز الكون النقدي في رحابه استدعى مناهج وآليات عرفت بـ(تاريخ الأدب العربي) مسترفدة معارف وعلوم أسهمت في خدمة المبدع وتأصيله كـ(علم النفس) و(علم الاجتماع) و(نظرية الأجناس) وتاريخ الأدب الجغرافي الذي يركز على أدب الرحلات والنظرية الإقليمية بوصفها تمثل البيئة الجغرافية. وكل هذه الأشياء تأتي في التراث على شكل ومضات، ولهذا يمكن التماس الظواهر الحديثة كلها من تلك الإلماحات العجلى، ولم يتبد التأصيل المعرفي إلا على يد (الجرجاني) حين حرر نظرية (النظم). والبلاغيون جملة أقرب إلى التحرر والتأصيل وتاريخ الأدب وربط الإبداع بالبيئة والمجتمع والأحوال النفسية والاجتماعية ينهض بها عمالقة الفكر العربي الحديث كـ(العقاد) و(طه حسين) وشايعهم من مارس التاريخ والدرس، كـ(جرجي زيدان) و(الزيات) وخير من يمثل هذا الاتجاه في العصر الحديث (شوقي ضيف) في كتابه الموسوعي (تاريخ الأدب العربي) الذي نيف على عشرة أجزاء ضخام، ومن حوله برزت دراسات دون ذلك عند (محمد زغلول سلام) و(حنا فاخوري) و(عمر فروخ) ومن المستشرقين: (بلاشير) و(كارلونالينو) و(نكلسن) و(جب) وقد انعكس أثر هذا المنهج على الحركة النقدية في بداياتها، نجد ذلك عند (محمد سرور الصبان). وعبد الله بالخير والخوجة والساسي وابن إدريس والعبِّيد والعقيلي وآخرين.

ومؤرخو الأدب عامة يؤكدون سلطة المؤلف وأهميته، ولعل التاريخ الأدبي ظل مُحتفظاً بمنهجه وغاياته فيما اتجه سائر النقاد والدارسين صوب النص محتفظين بشيء من أهمية المبدع، ولكن اهتمام لا يبرح التوفر على أجواء النص والمناسبة لمساعدة الدارس التحليلي على استكناه الدلالة وإدراك النوازع.

وتلك المناهج التي استجابت لسلطة المؤلف تقصاها ونظر لها دارسون أكاديميون أمثال (شكري فيصل) في كتابه (مناهج الدراسة الأدبية في الأدب العربي) فلقد عرض لنظريات النقد والدراسة والتأريخ متخذاً محاور العرض والنقد والاقتراح عضداً لرؤيته التأسيسية لمنهج جديد، لقد تناول نظرية الفنون والأجناس والنظرية الثقافية من حيث الأصول والمعالم والتطبيقات. ونظرية المذاهب الفنية والإقليمية ممارساً التاريخ والتأصيل والوصف والنقد، وهذه الدراسة وما واكبها من دراسات مماثلة لا تبرح الاهتمام بالمبدع بوصفه مركز الكون النقدي إذ ذاك.

وتأتي الدكتورة (خيرية إبراهيم السقاف) في دراستها عن (مناهج دراسة الأدب العربي وتدريسه في الجامعات العربية) متقصية تنقلات مركز الكون النقدي، مستوفية تحولات الاهتمام في التراث والمعاصرة.

حيث قسمت الحقبة التراثية إلى ثلاث مراحل؛ مرحلة الذوق الخاص والنظرة الجزئية واحترام قيم المجتمع والمحافظة، ومرحلة المعيارية الأخلاقية والاجتماعية والنفسية وتوازن العقل والعاطفة عند تفسير الأدب، ومرحلة الاعتماد على فلسفة اللغة في إدراك الجمال كما هو في دلائل الإعجاز، ثم تخطت إلى المناهج والآليات الحديثة كما هي في مشهد الدراسات النقدية، وبخاصة الاتجاه المعياري، أو النقد المعرفي القائم على العلم لا على الذوق والانطباع.

تحولات مركز الكون النقدي وأثرها على المشهد المحلي .. ! (٣)[(١)]

وتحول مركز الكون النقدي إلى (النص) حفّز النقاد إلى الاستنجاد بمناهج اللغة وآلياتها؛ وأصبح (علم اللغة) مهيمناً على سائر المناهج، ومن باب التحفظ أود الإشارة إلى أن إعلاء شأن النص قد يمتد عند بعض النقاد إلى (النص المقدس) فلقد تحول الاهتمام بالنص إلى قضية فكرية خطيرة.

وليس شرطاً أن تمتد الخطورة والمحاذير إلى ما نرمي إليه من الاهتمام بالنص، وتحول السلطة إليه، ومتابعة القراءات النصوصية والتنظير لهذا اللون من القراءة عند (محمد أركون) و(نصر حامد أبو زيد) و(علي حرب) و(حسن حنفي) وتعويلهم الكلي على (الأنْسَنَة) واستعانتهم برؤية (بول ديكور) والنظرية (الهيرمينوطيقا) التي تحاول الكشف عن (شَيءِ النَّصِ غير المحدود) وتطاولهم على النص القرآني بوصفه متلبساً باللغة، فـ(أركون) يرى إخضاع النص القرآني (لمحك النقد التاريخي المقارن)، والذين يتهيبون سلطة النص يفترضون أن من مقتضيات هذه السلطة انتهاك قداسة القرآن كما هي عند طائفة من النصوصيين، الشيء الذي لا يمكن إنكاره أن انتقال مركز الكون النقدي إلى النص أدى إلى خلطٍ مخيف بين عددٍ من النظريات والمناهج. وحتى لو نظرنا إلى الجذور الفلسفية (للبنيوية) و(التفكيكية) لوجدنا أنفسنا وسط محاذير، لا يحسن السكوت عليها، ولا القبول بها، غير أننا لا نستطيع حَمْل كلِّ الأطراف على التوازن بين الواقعي و(الميتافيزيقي) أو تفادي المنزلقات الخطيرة التي آلت بالدارسين النصوصيين إلى أَنْسَنَة المقدس.

وحديثنا عن سلطة النص يستدعي هيمنة المنهج اللغوي، وإقصاء سائر المناهج الأخرى التي قد تنهض بدورٍ تفسيري لا يقل عن المنهج اللغوي.

والقول بأن النَّصَّ نَصٌ لغوي قول مخادع، لأنه قولٌ صحيح، ولكنه غير برئ. ذلك أن النص بالإضافة إلى لغويته يتسع لمعارف متعددة ومتنوعة، وارتهان المناهج النقدية المتعددة لسلطان النَّص بوصفه لغة يكرسُ أحادية النظرة وينفي سائر المناهج الأخرى التي قد تساعد على اكتشاف منطويات النص. والدليل على غُلُوِّ الرؤية عدولُ الأغْلبية عنها وإن تم استصحابها على حذر.

لقد تجلت سلطة النص في النقد (البنيوي) وكل من توسل بمناهج اللغة عند علمائها أمثال (سوسير) و(تشومسكي) فهو محكوم بهذه السلطة، ولقد كانت لكتاب الدكتور (عبد الله الغذامي) (الخطيئة والتكفير) أصداؤه الواسعة لما ينطوي عليه من تلبس بالسائد في النقد الغربي، وهو قد استهله بدراسة تنظيرية مسهبة حددت مبلغه من المنهج اللغوي الحديث، وقد مهدت تلك الدراسة على ما فيها من ملاحظات لسلطة النص في المشهد المحلي، وإن كانت المواكبة دون المؤمل، وممن شايله في هذا الشأن (سعيد السريحي) و(عالي القرشي) وآخرون، ولربما كان الخلط العجيب وغبش الرؤية حافزاً لناقدين أكاديميين لإخراج دليل نقدي، توخياً فيه تحرير المصطلحات الأكثر حضوراً والأكثر مخادعة وتغريراً فـ(دليل الناقد الأدبي) للدكتورين سعد البازعي وميجان الرويلي، محاولة لتفادي الفهم الخاطئ والتطبيق الخاطئ للمصطلح، ولقد جاء هذا المعجم المحدود مواكباً لمعاجم مماثلة لكل من (محمد عناني) و(نبيل راغب).. وقد يكونون جميعاً في ظلال مشروع عبد الواحد لؤلؤة (موسوعة المصطلح النقدي).

---

(١) تاريخ المقال: ٦/ ٥/ ٢٠٠٨

وتلك الإسهامات تؤكد الاستجابة الطوعية لهذا التحول الذي سبق إليه المغاربة ولفيف من النقاد المصريين، ولمّا تزل فلول تلك النظريات اللغوية ثاوية في مشهد النقد الأدبي، وإن لم تحتفظ بصلفها وحيويتها وعنفها إبان انبثاقها وتعالق البعض معها، وبخاصة حين كان بعض النقاد العرب المقيمين في البلاد يباركون تلك الحركة ويؤازرونها من أمثال (لطفي عبد البديع) و(منذر العياشي) و(عبد السلام المسدي) ومناهج النقد اللغوي استهوت كثيراً من النقاد ولكنها لم تشكل قاعدة عريضة مثلما فعلته في المغرب العربي وقد لا تكون لدى الأكثرين منهم استعدادات لاستيعاب تلك المناهج وتمثلها ولكنها شاعت واستقطب المشهد المحلي نقاداً من مذاهب شتى كان حضورهم عضداً لتلك المنازع نجد ذلك عند (مصطفى ناصف) و(عبد الله إبراهيم) وهم نقاد يراوحون بين المذاهب ذات العلاقة الوثيقة بالنص، وأيّاً ما كان الأمر فإن المشهد المحلي استجاب لتحول مركز الكون النقدي من سلطة المبدع إلى سلطة النص، وتوفر على مترجمات أطالت الحديث عن النظريات الألسنية والشكلانية، فيما لم تتوفر دراسات تطبيقية، الأمر الذي أدى إلى اضطراب بعض النقاد في فهم المقاصد، بل أكاد أجزم بأنه أدى إلى إخفاق البعض منهم في العمليات التطبيقية، وبخاصة مع المنهج التفكيكي الذي كان قسمة بين سلطة النص وسلطة المتلقي، ومنهجا (البنيوية) و(التفكيكية) معاضدان لسلطتي النص والمتلقي على السواء، وإن عُدَّا من مناهج وآليات سلطة النص، وإذا سلَّمنا بأن (البنيوية) ألصق بالنص فإننا لا نجد بداً من القول بأن (التفكيكية) من آليات القارئ، إذ لا تختلف عن نظرية التأويل الفاسد، والمتلقي لكي يكرس ذاته يركن إليها بوصفها آلية تفترض مدلولاً متعالياً يكمن خارج مدلول اللغة، وذلك فصل متعسف بين النص ولغته من جهة ومبدعه من جهة أخرى الأمر الذي حمل (مِلِرْ) على القول: (إن العدمية لقب للتفكيك) وإشكالية المشهد المحلي أن طائفة من النقاد يتعالقون مع بعض المذاهب والمناهج وهم أبعد الناس عن وعي جذورها الفكرية الأمر الذي يعرضهم للمساءلة عن الهوية الفكرية، ودعوى إفراغ المصطلح من محتواه دعوى تطمينية. فالمصطلح نسيج حضارة الانتماء، وفوق هذا فإن النقد حين يتهالك على المستجد دون بصر أو بصيرة، يكون بلا ذات، ولقد وصف (ريكور) (شتراوس) بأنه (كانتي بلا ذات) وتلك سمة البعض من النقاد.

وما سوى البنيوية والتفكيكية من نظريات تصب في صالح المتلقي فإنها تكاد تكون خالصة لسلطة القارئ، والشكلانية والألسنية تتداخلان مع البنيوية ولكنهما من خواص سلطة النص، والذين يؤمنون بالترادف المصطلحي قد لا يدركون الفوارق بين مصطلح وآخر، فالألسنية أشمل من البنيوية والبنيوية أخص من الشكلانية، وكل تلك المسميات تعود في النهاية لتكون بعض جنود سلطة النص.

وحين تحول مركز الكون النقدي إلى النص، استنجد النقاد العرب بالمتداول الغربي، وهب المترجمون يستبقون ما جد من مناهج اللغة وعلومها. وما خُدِمَتْ سلطةٌ بمثل ما خُدمت سلطة النص، وما كان تمرد النقاد على سلطة المبدع بالقدر المقبول أو المعقول، حتى لقد شاع مصطلح (موت المؤلف) وأصبح قضية بذاتها بحيث خُصَّ بمؤلفات ودراسات طابعها الصدام والادعاء، ومنذ ذلك الحين كاد المشهد النقدي يكون مشهداً جنائزياً، حتى سمعنا بموت النقد الأدبي، وموت النحو العربي وكأن المشاهد أضيق من أن تتسع لكل المذاهب والخطابات، وأحسب أن هذا الاهتياج مرده إلى الإعجاب والتسرع والانحياز السلبي الذي لم تكن له أي مبررات، ولكيلا نغمط المشهد حقه، نقول: بأن استدعاء البدائل أثرت المشهد وعدَّدت الخيارات، ولو اكتفى المتعالقون بالطرح دون التبني والإقصاء لكان في ذلك خير كثير.

والذين استقبلوا المستجد من المذاهب والمناهج والآليات لم يكونوا سواء في القدرة على الاستيعاب والتطبيق، فالبعض منهم لم يكن على شيء من التراث النقدي، ولا على وعي بأسلوب التعالق مع المستجد، وليست لديه القدرة على فهم الجذور الفكرية للمناهج، وهذا الخلط بين الفكري والأدبي واللغوي أفقد المشهد توازنه وشكك في انتمائه، وإذا كانت المشاهد الغربية مستعدة للتحول والتجريب فإن مشاهدنا أميل إلى الثبات والإلف، ومفاجآت التحول والتجريب فَرّقت الكلمة وعددت الآراء والمواقف وشغلت المشهد بمناكفات لا مبرر لها.

على أن داء المشهد الانبهار والتبني وتخلية المواقع مما سوى الطارئ، ولو أن التلقي والتعالق كانا بمقدار واقتدار لما كان في ذلك من بأس وعلى كل الظروف والأحوال فإن هذا الحراك فتَّق الأذهان وحفز المتحفظين على استعادة التراث، والإيغال في التساؤل، وتنازع البقاء بين الفرقاء جَمْجَم عن منطويات المعارف وأثرى المشاهد كلها، ولو أن الخصام وقف حيث تكون الأشياء ولم يمتد إلى الأناسي لكان في ذلك خير كثير ومهما اختلفنا أو تحفظنا فإن المشهد النقدي المحلي قد ظفر بما لم يخطر على الأذهان.

تحولات مركز الكون النقدي وأثرها على المشهد المحلي .. ! (٤)[1]

وحين استدار فلك النقد واستقر في رحاب المتلقي متمرداً على سلطتي الكاتب والنص، تداعت له سائر المعارف وتشعبت النظريات، وانبعثت المصطلحات من مراقدها، لتمكين المتلقي من استكمال عدته، وفرض سلطانه، وما إن سُخِّرت له المناهج والآليات، حتى أصبح سيد المواقف كلِّها، يمتلك ناصية النص وكأنه المنتج له، والمعبر من خلاله، فلا معقب لأمره حين يريد تحميل النص ما يهواه و(نظرية التلقي) تحقيق لسلطان الذات المتلقية، فهي التي تفرض حقه المطلق في تقويل النص ما قال وما لم يقل.

وإذا كانت (نظرية المعرفة) سمة للعلماء والملل والنحل، قبل أن تكون آلية نقدٍ أدبي فإنها أتت المتلقي طائعة، لتكون بعض آلياته متحكمة في مصائر النص مغلقاً كان أو مفتوحاً أو جمالياً.

وإذ تكون للنص بيئة منتجة تتسعُ حتى تغطي الوهاد والنجاد والمعاني والمباني والمحسوس والمعنوي وسائر المكونات، وتضيقُ حتى تكمن في جوانح المنتج ومكتسباته الثقافية، وله ذات تجسِّدها اللغة ويكسوها الشكل ويَحُدُّها اللفظ والدلالة، فإن له متلقياً يتفاعلُ معه ويفعِّله، فيمضي معه أو يمضي به، حتى لا تكون له علائق لا في المنتج ولا في النص، ولا في شيء آخر سوى المتلقي، الذي يمنحه الهوية والدلالة وكأنه وعاء فارغ.

وتجسيد سلطة القارئ استدعت قضايا كثيرة، وحفزت المنظرين إلى تحرير مشروعيتها، وحقها، في إعادة الإنتاج، والانعتاق من الاستهلاك والقبول المطلق والخنوع لإرادة المنتج.

ولأن محور الحديث عن سلطة المتلقي تدور حول:

-طريقة الاستقبال.

-مستويات التأويل.

والاستقبال والتأويل يستنبطان منهجاً وآلية. أما المنهج فقد تجلى في دراسة (بول ريكور) (صراع التأويلات دراسات هيرمينوطيقية) وأما الآلية فتتجلى في عدد من الدراسات عن (التفكيكية) بحيث يصعب حصرها واستقبال النص يختلف من عصر إلى عصر، وللتراث النقدي منهجه الاستقبالي كما يصوره د. محمد المبارك في كتابه (استقبال النص عند العرب).

على أن حق القارئ لم يكن من عنديات النقد الأدبي، وإنما كان معروفاً ومتداولاً من قبل أن يكون الناقد شيئاً مذكوراً، والراصد لهذا الحق يقف على دراسات متعددة وشاملة ومعمقة، تناولت نظريات المعرفة عند المذاهب والملل والنحل، وعند الطوائف والأفراد، كما تناولت التأويل والاستقبال والتلقي من حيث هي نظريات غير منتمية، وإن كان ثمة استقلالية في التلقي وإغراق في التأويل، فإنه يتجلى بوضوح لدى (الصوفية) و(الشيعة) وإذا قُبل التأويل والتفكيك فإنَّه قبولٌ مشروط بألا يؤدي إلى تحريف الكلم عن مواضعه، وانتقال مركز الكون النقدي إلى المتلقي جعله يوغل في الانقطاع والعبث بالدلالة، والشعراء الأوائل يدركون هذا الحق، ولهذا نجد أن (أبا الطيب المتنبي) حين يُسْأل عن مشكل شعره، يحيل إلى (ابن جني) لعلمه أنه الأدرى بدخائله حتى لقد قال: (اذهبوا إلى هذا الشيخ الأعور فإنه أعلم مني بشعري، حتى أنه ليقوّلني ما لم أقل .. ومع براعة ابن جني فإن النقاد لم يركنوا إليه، ولم يوافقوه، يقول الدكتور (صفاء خلوصي) وهو أحد

---

(١) تاريخ المقال: ١٣/ ٥/ ٢٠٠٨

محققي (الفَسْر): (ولقد صُنِّفت كتبٌ عديدةٌ في الرد على كتابه (الفَسْر)) وقد ذكر منها ثلاثة كتب من بينها كتاب (قَشْر الفَسْر) الذي حققه أستاذنا الدكتور (عبد العزيز بن ناصر المانع) وطبعه (مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية). وما نود الإشارة إليه أن حرية القارئ في توجيه الدلالة ليست مطلقة، وإن يَسَّرت له بعض المصطلحات ذلك كمصطلح (التفكيكية) و(النص المفتوح) و(التأويل). ومجمل نظريات التلقي، وإغراءات بعض المنظرين أمثال (أمبرتو إيكو) في كتابه (الأثر المفتوح) و(رولاك بارت) الذي يسوّي بين المبدع والمتلقي حتى ليقول ب(كتابةٍ قارئةٍ) و(قراءةٍ كاتبةٍ) ويربط قيمة النص بما يتيحه للمتلقي من كتابته للمرة الثانية، ولقد بلغ تمكين المتلقي من رقاب النصوص أن جُعلت القراءة عملية إسقاط، يقول (محمد عزام): (يُدَمِّر الوجود المستقل للنص من أجل أن يبني على أشلائه ما يريد القارئُ بناءه من أفكار) ولست معه فيما ذهب إليه من أن هذا النوع من القراءة استعادة للانطباعية والذوقية، إذ إن ذلك التصرف متعلق بالدلالة لا بالمشاعر، وإن كان (أمبرتو إيكو) يرى أن مصطلح (جمالية التلقي) امتداد لمصطلح (النص المفتوح) ومن ثم تختلط المشاعر بالتأويل وإشكالية القارئ شغلت (إيكو) ومن ثم حاول التفريق بين (التأويل) المعتمد على (السيميائيات) والتأويل المعتمد على مجرد التفكيك، وذلك في كتابه (التأويل بين السيميائيات والتفكيكية) وهو لكي يؤكد على مركزية القارئ يدافع عن التأويل المضاعف في الفصل السادس من كتابه آنف الذكر.

ولكيلا نغمط العرب حقهم في قضية الاستقبال وأهمية القارئ نحيل إلى دراسة الدكتور محمد المبارك (استقبال النص عند العرب) وإلى أسباب اختلاف المفسرين، والقارئ العربي، وإن لم يعبأ بِسَكِّ المصطلحات، فإن له إرهاصات توحي بوعيه التام بحقه في التلقي والاستقبال والاستجابة والقراءة. وهي مصطلحات قد تؤدي معنى واحداً وطغيان سلطة المتلقي تُقْبل في مجال الدراسات الأدبية، ولكنها ليست مقبولة على الإطلاق في مجال النصوص الشرعية، وإن كان هناك تميز بين القراء كما أشار الرسول -ﷺ- بقوله: (بلغوا عني ولو آية فَرُبَّ مُبْلَغٍ أوعى من سامع). وكذلك إشارته التمثيلية في تفاوت المتلقين في الحديث المتفق عليه: (مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً..).

ولقد أشرت إلى تطاولات غير رشيدة وغير مهذبة مَسَّتْ قدسية النص القرآني اقترفها مُسْتَغْربون لا يُقَدِّرون الله حَقَّ قدره، نجد ذلك عند (محمد أركون) و(نصر حامد أبي زيد) و(علي حرب) وآخرين استدرجتهم مفاهيم الحق والحرية والأنسنة والتلبس اللغوي دون تفريق بين قيم النصوص من حيث القطعيات الدلالية واحتمالياتها.

ودعك من أصحاب الملل والنحل والأهواء الذين عطلوا النصوص بالتأويل الفاسد، ولك أن تراجع كتاب (الشيعة الاثنا عشرية ومنهجهم في تفسير القرآن الكريم) تأليف محمد إبراهيم العسَّال، ومخطوطة (كشف الاتجاه الرافضي في تفسير الطبرسي) للطالب (أحمد طاهر أويس) ومجمل تهافت القراءات المعاصرة كما هي عند (شحرور) وأضْرابه، ومدار ذلك كله يحال إلى سلطة القارئ.

ونحن إذ لا ننكر حق القارئ، وقيمة التأويل فإنما نراها في المنتج الإنساني لا في الوحي الرباني. ومثلما تركت سلطة النص من المعارف والمناهج والآليات تركت سلطة المتلقي، على أن النقد العربي القديم وسع المراكز الثلاثة ولم يكن في معزل عن شيء منها كما لم يكن لأحدهما مزيد حق على الآخر، فالذين يحتفون بالمنتج لا ينقمون على اللغويين والعروضيين ولا على القراء المستبدين، فأصحاب الطبقات إلى جانب اللغويين،

و(المتنبي) يمر بشراح شعره في الطرقات فيقف مستمعاً حتى إذا قَوَّله الشارح ما لم يقل أطلق لفرسه عنانه وذهب لا يلوي على شيء، وقد يراجع الشارح على استحياء بل قد يحيل سائلين عن مشكل شعره إلى من يُقَوِّله ما لم يقل، أما النقد الحديث فقد تبدت التحولات الجذرية، فهو إما مع المنتج أو مع النص أو مع القارئ.

وكل ما أشرنا إليه لا يتعلق بما تعرضت له النصوص التوراتية في مرحلة التنوير من تأويل ألغى مدلولها ولم يلغها، وكان الهدف الأساس إلغاءها، ومن ثم ظهرت نظريات التأويل (الهرمنيوطيقا). وذلك ما عرف بفهم الفهم مدخلٌ إلى نظرية التأويل.. والمركز إذ تنقل بين المنتج والنص والمتلقي فإنه قد تخطى ذلك إلى ما عرف (بالنقد الثقافي).. ولكنه انتقال جزئي ولم يكن بحجم التنقلات السالفة كما لم يحصن بالوهج الذي صاحب ما سلف، وإن كان قد بدأ من فرنسا كما أشار (دليل الناقد الأدبي) وتنقل بين ألمانيا وأمريكا، وكانت بداياته غير الواعية على يد (طه حسين). فيما كانت المحاولة الجادة على يد الدكتور عبد الله بن محمد الغذامي في كتابه (النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية) وقد اعتمد - كما يشير الدليل- على (فِنْسنت ليتش) الناقد الأمريكي، ولأن المحاولات العربية متواضعة فقد صرفنا النظر عن الحديث عن هذا التحول الجزئي.

تلك إلمامة عجلى نتمنى أن يبتدرها مقتدرون لتحرير مسائلها وتأصيل معارفها، فنحن أحوج ما نكون إلى مثل هذا الرصد التاريخي والمعرفي المحايد، ليكون المتابع على بيّنة من أمره.

أيّتها الجائزة لقيتك بعد لأي .. ؟[(١)]

أن يطول أمَدُ الانتظار، وأن تحْفى الأقلام في الاستعجال ثم تأتي على قدر، خيرٌ من ألاّ تأتي أو تأتي على غير هدى.

وجائزة الدولة التقديرية، وصندوق الأديب، والجمعيات العمومية للأندية الأدبية، ووزارة خاصة للثقافة ومجمع اللغة العربية هواجس تنتاب المسكونين بهمّ الكلمة الطيبة، يتحدّثون عنها بحرقة ويودون البت في شأنها، ولاسيما أنّهم في زمن مواتٍ: رخاء وأمن واستقرار، واتجاه جاد لدولة المؤسّسات.

والإشكالية ليست في المبادرات، ولكنها في تفعيل المؤسسات وتمكينها من ممارسة رسالتها، وتحقيق أهدافها، فكم من مؤسسة استبشر الناس بها، وخلصت نوايا الدولة في إنشائها، ولكنها لم تحقق شيئاً من مهمّاتها، وكم من مؤسسات أخرى بادرها عُرَابةُ باليمين فأتت نتائجها أضعافاً مضاعفة، والدولة هي الدولة والأنظمة هي الأنظمة والأهداف والنوايا واحدة لم تتغيّر. ولكن الرجال غير الرجال، وحين تكون المؤسسة ثم لا تكون الكفاءة تذهب الظنون بالناس.

وأقرب مثال على ذلك تجربة الأندية الأدبية، والمجالس البلدية، لقد جلّت أندية ومجالس وأخفقت أندية أخرى ومجالس، والأنظمة والإجراءات والأهداف واحدة، والناس يستبشرون بكلِّ قرار أو إرادة يتمخّض عنها مجلس الشورى أو مجلس الوزراء، أو تكون مبادرة حضارية من خادم الحرمين الشريفين، وهم على موعد مع المبادرات، ولكن الممارسات تحقق التطلُّع أو تخيب الآمال، ولقد سمعنا ما يقال بين الحين والآخر عن فشل بعض التجارب، وهي شجاعة وثقة أن يقول بعض المسؤولين إنّ ما عملناه لم يحقق ما كنا نتطلّع إليه.

وجائزة الدولة التقديرية للأدباء التي أنيطت بوزارة الثقافة والإعلام، حق لكلِّ أديب، ومن ثم فإنّ المؤمل أن يؤسس لها بشكل علمي وموضوعي، ولا تناط بمسؤول فرد يتحكّم فيها وفق إرادته، إنّ على الوزارة أن تضع لها أمانة مختارة من الأقسام الأدبية في الجامعات، ومن المؤسسات الثقافية العريقة كمؤسسة الملك فيصل، ودارة الملك عبد العزيز وسائر المؤسسات ذات الشأن، وأن يكون الترشيح من كافة المؤسسات، وأن يكون هناك لجنة اختيار ولجنة تحكيم، وأن يقتصر دور الوزارة على الإشراف والمتابعة والتنسيق، لكي تريح وتستريح وتكف اللوم.

ولأنّها قد حُجبت لسنوات عدّة وأصبح عدد من الأدباء والعلماء يستحقونها، فليس هناك ما يمنع من أن تمنح لثلاثة من المرشحين كلّ سنة تكون واحدة خاصة بالإبداع الأدبي، وأخرى خاصة بالنّقد الأدبي وثالثة خاصة بتحقيق التراث الأدبي وبخاصة التراث المحلي، على ألاّ تمنح لمن يقل سنّه عن الستين عاماً، ولا لمن لم يرشّح من مؤسسات ثقافية أو أدبية، ولا لمن نال جوائز مماثلة، على أن تقوم أمانة الجائزة بالاستقلالية بحيث يكون أمينها مرتبطاً مباشرة بمعالي الوزير، ويظل الإعداد لها طوال العام، أربعة أشهر للترشيح وتلقِّي أعمال المرشّحين، وأربعة أشهر لممارسة لجنة الاختيار ولجنة التحكيم واختيار الفائزين، وبعد إعلان النتائج تكون هناك تظاهرة ثقافية وحفلٌ لتوزيع الجوائز، وعلى هامشها ندوات ثقافية لدراسة إنتاج الفائزين وطباعة أعمالهم، وليس ما نقول من الأماني المستحيلة، إنّ بلداً كالمملكة حباها الله بإمكانيات مادية ومعنوية، قادرة بأن تكون في مقدمة الدول العربية.

---

(١) تاريخ المقال: ١١/ ٥/ ٢٠٠٨

أعرف جيداً أنّ المسؤولين في الوزارة وكافة الأدباء والمفكرين ينطوون على هموم وتطلُّعات، وليس هناك ما يمنع من مبادرة كل مقتدر على طرح الآراء أنْ يبدي ما في نفسه، وكل متحدث يؤخذ من كلامه ويرد، ومن مصلحة الوزارة أن ينطلق الأدباء على سجيتهم وأن يبوحوا عما يراودهم، فهي الأحرص على كسب الرأي العام، ولن تكسبه بالرأي الفرد ولا بالرأي الفطير الذي لم يتداوله أهل الحلِّ والعقد من كافة الأطياف.

تلك خواطر أرجو أن يكون فيها ما يفيد، فالجائزة هاجس الأدباء والمفكرين وكان بوِّدهم أن تكون قد استمرت منذ أن أقرّتْ، ولعلَّ في كل تأخيرة خيرة.

بِالْفَخِّ أكْبر من لبنان .. ؟[1]

هذا مثل ليس عربياً ولا مولداً، استبدلنا فيه (لبنان) ب(العصفور) ونصه (بِالْفخّ أَكْبر من العصفور) وهو مثلٌ يتداوله (النجديون) ويُضرب لمن كان يهتم بأمر شغل عنه بما هو أكبر منه، وإشكالية لبنان من خارج جغرافيته، وذلك بيت القصيد. ولقد تذكرت المثل وأنا أتابع أحداث لبنان المخجلة والمفزعة في آن، وأرصد المواقف العربية الجاد منها والمتخاذل، الخائف والحذر، الضالع في الخطيئة، والمعتم على الحقيقة.

وقدر لبنان العصيب أن يكون مسرحاً للمزايدات الرخيصة والمؤلمة. والمؤتمرون من أجله تشدهم مصالح وتثبطهم محاذير، فألسنة مقطوعة، وأفواه مليئة بالماء، وثالثة لا تدري ما السياسة ولا اللعب، وأخرى مسيرة لا مخيرة، ولو صدقوا ما عاهدوا الله عليه لحسمت القضية في ساعة من نهار، ولو عن طريق القرارات التمريرية، غير أن الاتقاء والمداراة والخوف، تغري اللاعب المقنّع بفرض إرادته، وتمرير مشروعه عبر مخالب القطط.

ومثلما تمتلئ ساحات لبنان وطرقاته بالمدججين والمدربين، ومثلما تخترق القذائف أجواءه على حين غفلة من أهله، تسرح الأقلام، وتمرح الألسنة، وتتطاير الصحف في قضاياه المصيرية من كل الأطراف والأطياف، وكل يدعي وصلاً بالحقيقة وتلبساً بالحيادية، والحقيقة والحياد لا يُقرَّان لأحد بشيء، وكلٌّ واضع يده على الزناد يرى أنه صاحب الحق المطلق، وكل مُجْرٍ قلمه على الصفحات يرى أن قوله الفصل الذي لا معقب له، وتمضي الأيام ويمضي معها المقاتلون والمتحدثون، يُثْخِنُ أولئك في الأرض ويُوْغِر هؤلاء الصدور، ويظل لبنان رهين مكتسبات أبنائه الذين رضوا أن يبيعوه بثمن بخس، وأن يكونوا فيه من الزاهدين. ولو أنهم صانوا عرضه وأرضه والتقوا على كلمة سواء، لصان أمنهم، وحفظ كرامتهم، وحقق حريتهم، ومكنهم من عيشتهم الراضية، ولكنهم أذلوه وبذلوه لذوي الأطماع والنوايا السيئة، فهانوا على الناس وطمع فيه من لا يراعي فيهم إلاًّ ولا ذمة، ودفعوا ثمن الأخطاء من الأمن والدماء.

وهذه المتاجرة بالأرض والكرامة مؤذنة بسن دستور جديد تذل به الأكثرية وتتسلط به الأقلية، ثم لا يتحقق عدل ولا مساواة:

ومن يهن يسهل الهوان عليه
ما لجرح بميت إيلام

وكلما غرق المختصمون لصالح الخير في حمامات الدم، استغاثوا بمن أبان لهم نصحه من أول يوم، ولم يستبنوه ولا في ضُحى الغدِ، وحين تحقن الدماء وتضمد الجراح وتزال الأنقاض ويعاد الإعمار، يعودون لما نهوا عنه بفعل فاعل يحلو له أن يوقد نار الفتنة بين أبناء الوطن الواحد، وهو الأحق من لبنان بتوجيه الأنظار إليه (ومن قصد البحر استقل السواقيا) وكأن اللبنانيين بهذه الاستجابات غير الواعية مشروع فتنة عمياء، لا تخبو حتى يبدو خَلَلَ رمادها وميضُ نار، والمتفائلون بنجاح الوساطة نسوا بأن الجراح سترم على فساد وأن ثمن الصلح ستشحذ فيه الدمى. ولبنان بلد الجمال والجلال والرجال والطبيعة الحالمة يتحول بفعل أبنائه إلى زرائب وخرائب وأطلال، تهاجر منه الأدمغة، ويهجره السائحون، وترحل منه رؤوس الأموال ويخلو للخلايا الإرهابية، تحاك فيه

---

(١) تاريخ المقال: ٢٠/ ٥/ ٢٠٠٨

المؤامرات، وتصفى فيه الحسابات، لا تُشَمُّ فيه إلا رائحة البارود، ولا يُسمع فيه إلا أزيز الرصاص، ولا تُرى فيه إلا الوحدة العابسة المتربصة.

والمؤتمرن بمعروف لإنقاذ ما تبقى منه يندسُّ فيهم من لا يستقيم أمره إلا على شفى جرف هار، والقابلون لكل عارض يلومون الانبعاث الطائفي والغزو العنصري والتصدير الثوري، ولكنهم حين يتأكدون لا يعزمون، وتردي الأحوال في لبنان كما الأوبئة المعدية، لا تصيبن الذين أشعلوا الفتيل خاصة، ولو كان بالإمكان حصر الشر في أرضه لأكلت النار بعضها وخمدت، ولكن ما يقع في لبنان كما شكوى العضو يتداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، والتركيبة اللبنانية حساسة ولا يمكن أن تستقيم بتدخل خارجي، وإحداث أي خلل في دستورها أو قانونها إتيان للبنيان من قواعده، والطامعون يعرفون من أين يؤكل لبنان، والأمة العربية بحاجة ماسة إلى احتواء الفتنة، ولن يتأتى الاحتواء إلا بضمان كف الأيدي الخارجية من تحريك الدمى على مسرح الأحداث، ولن تكف حتى تواجه بصريح العبارة.

وما لم تعِ الأمة المشكلة على حقيقتها، وتواجه قدرها بشجاعة وصراحة تكن معرضة لذيولها، وأخشى أن تقول عند عتبة المقصلة: (أكلت يوم أكل الثور الأبيض). وضعف الوعي والمناعة مبعث كل شر، وما سقطت الخلافة الإسلامية، وما ضاعت الأندلس إلا من بعد ما تفرقت وجهات النظر، وأصبحت الشعوب مسلوبة الإرادة واستعان المصطرعون بمن فرق ليسود وأوهن ليهيمن، والغزو والتآمر وتصدير الثورة والطائفية وحكم الأقلية جراثيم لا تعيث فساداً إلا بمن عنك قابلية، ولديه ضعف في المناعة والشعوب حين تستخف بالشرعية وتجهض المرجعية وتتعرض للفراغات الدستورية، تكون كالقطيع في المفازات المُسْبِعة و:

لا يـــلام الــــذئب فـــي عدوانـــه

إن يـــك الراعـــي عـــدو الغـــنم

ولبنان وإن تنازعته النوايا المبيتة والأطماع الطائفية، لم يكن أسوأ حالا من دول عربية غرقت في دوامة الفتن، وهي الأعمق أرضا، والأكثر مالا، والأعز نفرا، لقد عاثت بها اللعب القذرة فساداً، وداؤها من أبنائها الذين رضوا أن يكونوا ثائرين لوجوه شيطانية تتبادل الأقنعة وتخادع المغفلين:

ولــو كـــان ســـهماً واحـــداً لاتقيتـــه

ولكنــــه ســـــهم وثـــــان وثالــــث

وتفكيك الأوضاع اللبنانية تتكشف عن سوءات وسيئات تعري أطماعاً طائفية قد لا يجرؤ المؤتمرون على مواجهتها بالقول الفصل، فضلاً عن التصدي لها بالفعل الناجز، والحوْم حول بؤر التوتر دون قطع لدابرها، يكسبها الاستشراء والمناعة ويغري الطامعين بالإيغال في الفتنة، وإذا كان الدستور اللبناني قد وزع الكراسي والحقائب، وعرف كل حزب ودين وعرق وطائفة قسْمه ورضي به فما الذي حرك الأحزاب والطوائف؟ - وما الذي أسال الدماء ولم تتذكر القُرْبى لتذرف الدموع؟

إن على المؤتمرين أن يأطروا المنشقين على الدستور بالدستور. وإذا راوغ المستفيدون من التمرد وتردي الأوضاع وتعطيل الدستور بالاستقالات وماطلوا وباركوا الانبعاث الطائفي فإن مثل هذا متوقع من هذه الفئة، ولكن المراوغة والمباركة ممن لا يملك عمقاً جغرافياً ولا كثافة بشرية ولا ثقلاً سياسياً وليس هو في العير ولا في النفير

تكون مراوغته مثار استياء وتساؤل، وتثوير الدوافع تبدي هي الأخرى سوءات وسيئات، وقد تكون الموالاة لإثبات الذات أو لصرف النظر عن تصرفات لا تحتمل ولله في خلقه شؤون.

إن مواجهة الذات بما هي عليه أحق من مواجهة الغير بما اقترف ولو أن الأمة العربية واجهت المسيء بإساءته لكان أن حسمت المشاكل في مهدها وأجهضت الأجنة المشوهة في رحمها، لقد عانت الأمة العربية من الثورات والرعناء، وتجرعت مرارة تصديرها، وهي اليوم تواجه ما هو أخطر من ذلك، إنها تواجه الانبعاث الطائفي، لقد انطفأ الوهج الثوري وأثبت فشل خطاباته كلها الوحدوية والقومية والاشتراكية، وتفاءلت الشعوب التي تدفع فواتير العنتريات، وها هي اليوم تستيقظ على خطابات جديدة، ولا سيما أنه انبعاث الأقلية، ومثل هذا الانبعاث جرح لا يندمل ونزيف لا يغور، وفرصة مواتية للإمبراطوريات القائمة والحالمة.

وأبناء لبنان: من سنة وشيعة ودروز ونصارى وأحزاب ضالعة في الخطيئة كأمل وحزب الله، ومترددين لا يدرون ما للاعب المتقنع فاعل بهم كجماعة المستقبل واللقاء الديموقراطي والتجمع الماروني والجماعة الإسلامية والتابعين للضالعين كجماعة المردة والحزب القومي السوري والحزب الشيوعي والمنشقين من السنة، والحياديين كقيادة الجيش الخائفة من الفلتان كل أولئك يقتسمون المسؤولية عن تردي الأحوال فمن مُقِل ومن مكثر، والمقترفات كالدركات فالدرك الأسفل يحتله حزب الله، ومن معه ممن وجهوا فوهات المدافع والرشاشات إلى صدور الآمنين من الشعب اللبناني الأعزل وأرادوا فرض إرادة اللاعب الأكبر بالقوة والأمة العربية بوصفها نظارة أمام مسرح العرائس لم تحسم أمرها، ولم تحدد موقفها، فهي إن جدَّت قتل اللاعب الرهينة وما هي إلا الشعب اللبناني وإن ترددت فرض اللاعب إرادته وحقق مشروعه، وكلا الخيارين مُرٌّ على حد:

أوَّاه إن نظرت وإن هي أعرضت
وَقع السهام ونزعهن أليم

والحل الأمثل أن تكون المواجهة للأصابع الخفية التي تمد وتدرب وتدير وللمتواطئين معه، فإما أن يرفع يده، وإما أن يسحب العرب مجتمعين أيديهم من يده ليضعوه أمام مسؤوليته، ومتى كُفَّت الأيدي عن قصعة لبنان الشهية شبع أبناؤها ومن حولهم فهو بلد الخيرات والكفاءات، ولو ترك وحاله لكان البلد الودود الولود.

فهل يملك العرب الثقة والشجاعة ويقولون بصوت شجاع: دعوا لبنان للبنانيين.

لقد قالها (سعود الفيصل) ولكن اليد الواحدة لا تصفق.

المواءمة بين حتمية تحوُّل (الخطاب الثقافي) وهيمنة الخصوصية والنسقية .. ! (١)[1]

فرض هذا العنوانُ طولَه، وتكدست فيه المصطلحات، وتفكيكُ مثله مؤذنٌ بجلاء الغموض، وما كنتُ لأخلصَ من إشكاليات المصطلحات حتى أعودَ إليها وتعود هي خدعةً، وأي مشهدٍ تضطربُ فيه المفاهيم يرتهن لدوامات هوائية تبعثر المتفق عليه، وما دخلتِ الثقافةُ في شيء إلا عمقت الخلاف واتسعتْ معها هوة الفرقة، فهي المصطلح المراوغ، حتى على ذوي الاختصاص، ويكفي أن يكون لها أكثر من مائة تعريف، ولما تزل تطلب المزيد، ولقد حاولتُ في بداية مقاربتها التوسل بجذرها اللغوي المؤدي في دلالته الوضعية إلى ثلاثة أشياء:

-الوِجَادة
-والحِذْقُ
-والتقويم

وقد تقصيت ذلك في كتابي (العولمة والثقافة والتعليم: تصالح أم تصادم) وكل معهود ذهني حين يتداول بآلياتٍ ومناهج معرفيةٍ يلتبس أمره، ويكون الناسُ معه في أمرٍ مريج، وحين نختلف حول مفهوم الثقافةِ نختلف كذلك حول مشخصات المثقف. و(الخطاب الثقافي) مصطلح مركب من مصطلحين، ومن ثم فإنه وإن جمع بين مدلولين متقاربين بينهما عموم وخصوص، فإنه ينشئ مدلولاً ثالثاً لا يكون جماعَ ما سلف، كما لا يقتضي مناقضة ما سلف، وهنا مكمن الإشكالية فماذا نعني ب(الخطاب الثقافي)، إن مصطلح (خطاب) لا يعني الخطبة المنبرية ولا الرسالة الخطية، وإن كان هناك ارتباطٌ بين الجذر اللغوي والدلالة الاصطلاحية عبر مستوياتِ الاشتقاق الثلاثة، ولكنها علاقة إشارية.

والخطاب عند البلاغيين غيره عند المفكرين والساسة والمتأدلجين، ولما كانت الثقافة جماعُ ذلك كله حسنَ أن يوصف بها أو أن تضاف إليه.

و(الخطاب) مصطلح ألسني تنازعته فيما بعد مذاهب واتجاهات لا حصر لها، وهو في مفهومه الاصطلاحي يختلف عن النص والكلام والخطبة: إنه مجمل الإنتاج الفكري الذي تتبناه الأمة عبر مؤسساتها وفي مرحلة تاريخية ومن خلال نخبها وقادة الفكر فيها. وعلى ضوء ذلك فإن ما ينتجه الفرد لا يسمى خطابا لأن للخطاب بمفهومه الاصطلاحي ارتباطاً كيانياً ومرحلةً زمانية، ومرجعيةً أيديولوجية، وقد لا تجتمع كلها لدى الفرد حين يتحدث عن قضية أو ظاهرة، أو حين يتبنى رؤية أو مشروعا علميا، ولسنا بحاجة إلى أن نلتمس الفرق بين الخطاب والمشروع، فالمشروع قد يستقل به الفرد، أما الخطاب فهو ظاهرة مرحلية جمعية أيديولوجية.

وأستطيع تأطير مصطلح الخطاب بثلاثة سياجات:

-المؤسساتية.
-الزمانية لا بوصفها الظرفي وإنما بوصفها التاريخي.
-الأيديولوجية الشمولية.

وقد يكون للألسنيين والبلاغيين رؤية مغايرة، ولكن المصطلح حين يكون مشتركاً تكون له مفاهيم متعددةٌ، قد لا يستبينها المخفون من القراء الذين يسميهم طه حسين بالمترفين، والمشاهد الفكرية والسياسية والدينية لها خطاباتها المتوازية أو المتقاطعة، أو المتعارضة، وليس من مصلحة أي خطاب أن يجنح للصدام، لأن أقل الخسائر التعثر في

---
(١) تاريخ المقال: ٢٧/ ٥/ ٢٠٠٨

الإنجاز أو الإبطاء في التجاوز، وإذ يكون أقوى الخطابات وأمضاها وأعمقها الخطاب الإسلامي فإن الخبير العليم يأمر رسوله بالجنوح إلى السلام، وما دخل الرفق في شيء إلا زانه، وكم هو الفرق بين السلام المتوازن والاستسلام المجحف، ولحفظ التوازن والندية والتكافؤ أمر الله بإعداد القوة الرادعة. والتشنج وتعمد الاستفزاز مهنة المفلسين الذين يسدون النقص بشغل الرأي العام بالتساؤلات والتحفظات والإثارات.

والتحول الذي نراه من لوازم الحياة لا يعني التخلي عما لا تقوم الحضارة إلا به، ومحققات حضارة الانتماء هي الخصوصية التي نود تجليها، كما أن الاستصحاب لا يعني الاستغناء، وبين هذا وذاك مكمن الصعوبة والخطورة ومجال التنازع.

إن الرحيل بالتراث يختلف عن الرحيل إليه، وإشكالية المشاهد أن الفرقاء قد يصابون بعمى الألوان، ومن ثم يظنون أن اختلاف المفاهيم مؤذن باختلاف المواقف والأداء، وإذ نجنح إلى إنضاج القضايا بالحوار فإن هذا الجنوح لا يفرض التخلي عن محققات الخصوصية أو الفكاك من النسق، ولو أن المسلمين لحتمية التحول يعون القدر والنوع لقضت المشاهد على الكثير من بؤر التوتر وكم من فرقاء استحوذت عليهم الشحناء، حتى إذا استبان لهم الحق أدركوا أنهم جميعا في خندق واحد وعلى مدرجة واحدة، وما من خطاب إلا هو آخر بمحققات وجودة الكريم، ومبدأ التعددية مسلم له متى استطاع الجميع التعايش أو التعاذر، على مبدأ ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ وعلى ضوء ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ ومكمن الاضطراب في وعي المحققات للذات على وجهها، والعمل على تفادي الصدام، وذلك أضعف الحلول، وكم من مأخوذ ببوارق التجديد يظن أن محققاتها لا تكون إلا بالتخلي عن الثوابت والمسلمات. والنسق والخصوصية حين يعزلان الخطاب الثقافي ويحملانه على الانكفاء على الذات يشكلان عقبة في طريق الأداء السليم، والتأكيد على استصحابهما لا يعني التمترس خلفهما. ولأن النسق يتشكل ذاتيا فإن الخطاب يستمد منه ويحيل إليه، وقد لا يستوفي متطلباته عند البعض فيكون ريشة في مهب الريح، وما أكثر الذين استحوذ عليهم النسق فأنساهم أنفسهم وحقوقها وفي المقابل ما أكثر الذين انفلتوا من نسقهم فانطمست شخصياتهم، وتحقق الخصوصية لا يكون على وجهه حتى يتوفر الخطاب الثقافي على مكوناته المستجيبة للمرحلة بكل ما هي عليه من انفجار معرفي وثورة في الاتصالات.

وكم من خائف يترقب يحسب أن من محققات الخصوصية والهوية الرحيل إلى الماضي والارتماء بأحضانه، وكأن الأول لم يترك للآخر شيئا، وهذا مبعث صراع المحافظة والتجديد. وبين التخلي بلا رؤية والتمسك بلا وعي ينشأ التنازع وتذهب الريح، وإن كان ثمة نقمةٌ أو تحفظٌ فإنه ضد أولئك الذين لا يهتمون بالأصالة والهوية، إذ لا يمكن تصور أي ثقافة بدون تأصيل معرفي وإبراز فاقع للهوية والخصوصية، واسترفاد شيء من النسق، وما من عقيدة لا يحافظ المنتمون إليها على صفائها نقائها إلا كانت المناعة عندهم دون المؤمل، وفقد المناعة في تلوث العقيدة، والمجددون الحقيقيون هم الذين يحفظون جناب التوحيد لأنه مدار عظمة النفس وكافة الضرورات الخمس، ثم لا يتهيبون فري القضايا للوصول إلى أحسنها.

وليس عيبا أن تكون لكل مثقف مشاربه وأنساقه الثقافية ولكن العيب أن تسهم المشارب والأنساق في طمس الهوية وإذابة الخصوصية، ومتى أعطى النخبوي نفسه حق الانتماء فإنه ليس من حقه أن يصادر حقوق الآخرين، وليس من محققات الانتماء رفض الخطابات الأخرى أو التعالي عليها أو ممارسة التصدير والمفاضلة، وهذه التحفظات لا

تعترض على الاعتذار بالانتماء ولا تحول دون طرح المشروع للاقتفاء. فالأمة الإسلامية صاحبة رسالة ومهمتها الدعوة بالتي هي أحسن ﴿ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

والاختلاف مع الآخر لا يستدعي المواجهة ولا الصدام ولا القطيعة ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾وانظر إلى تكراره (في الدين) والتمس مقاصد ذلك ومحدداته.

المواءمة بين حَتْمية تحوُّل (الخطاب الثقافي) وهيمنة الخصوصية والنسقية .. ! (٢) [١]

ومع أن هناك إمكانيةً للحوار بين مُجمل الحضارات بوصف الإنسان مسهماً رئيساً في تشكيلها، إلا أن تنامي الأزمات والصدامات يخيف المعنيين، فقد تحمل الأثرة الأقوياء لممارسة الاحتواء بالقوة وليس بالإغراء والاستدراج.

ولهذا فإن أزمة الثقافة ناتج الغزو والتآمر والفوقية والخلطِ بين الإمبراطورية السياسية والهيمنة الثقافية.

ولا شك أن هناك ثغرات ينفذ منها الغزو بكل أشكاله، ولتلافي أي نفاذ يؤثر على سيادة الأمة فكرياً وسياسياً واجتماعياً واقتصادياً لا بد من وضع خطة محكمة وطويلة الأجل وذات بعد حضاري مستوعب لكل الاحتمالات ولا يمكن أن يتحقق التحول الإرادي في ظل هيمنة الآخر وتحكمه في القرارات المصيرية.

وإذا كان من الضروري تبادل الخبرات بين الحضارات والخلطة البشرية عبر البعثات والاستقدام إضافة إلى التّماس بين سائر المؤسسات التعليمية والإعلامية، فإن تلك الحتميات لا تكون مُضِرةً إلا إذا وافقت قابليّةً لدى الطرف الأضعف، وهنا تختلط المفاهيم حول التحول المشروع والتبعية المحظورة وهنا يكون الموقف المتحفظ من التحول مشروعاً.

والذين يتحرجون من الحديث عن الغزو والتآمر وعقدة الخوف يجهلون أو يتجاهلون الأدوار المشبوهة التي يمارسها المبشرون والمستشرقون وسائر المؤسسات ذات الهم التغريبي، وإذا كنا نتحفظ على طائفة من الإسقاطيين الذين يحمّلون الغرب وحده مسؤولية ما تعانيه الأمة العربية والإسلامية من ضعف وتفكك، ولا نقول بالغزو والتآمر لمجرد التخلي عن المسؤولية فإننا لا نستبعد الكيد والمكر واللُّعب السياسية التي حققت الفشل أو أذهبت الربح، وخلطت بين التحول المشروع والانصياع الطوعي للآخر، ومن الخطأ الفادح الإطلاقات المعممة وتجييش العواطف لاختيار الصدام مع إمكان غيره.

والأمة التي تواجه ثورة المعلومات والاتصالات والإعلام لا بد لها من التفكير الجاد لمواجهة التحدي العصيب، ولن تتحقق المواجهة المتكافئة إلا بتربية سليمة مستجيبة لمتطلبات المرحلة ومتكافئة مع مناهج الغرب، ووعيً بالذات والآخر، فمن جهل نفسه فهو لما سواها أجهل، ولا بد من رقابة حضارية وإعلام منافس يستحوذ على المشاعر وينازل بندية. وعلى الرغم من أن الثقافة الغربية شائعة وسائغة ومتبعة إلاَّ أنها لمَّا تزل تلح في إلغاء ما سواها، وذلك مكمن الشقاق والتناحر، وكم كان جميلاً لو أمكن التعايش والتصالح وتبادل المنافع والخبرات وإزالة شبح الخوف والترقب. وإذ يكون من حقنا جدل الدفع فإن الأجدى والأهدى أن يكون بالتي هي أحسن، وقبل التصدي المنطقي والمشروع للثقافة المغايرة لا بد أن نحدد مرادنا وسمةَ ثقافتنا ومرجعيتها والتعرف على القواسم المشتركة بين الفرقاء داخل المنظومة الواحدة، وما أضر بالأمة إلا الاهتياج العاطفي، والتصدي الأعزل من القوة والتقدير.

ومهما أغمضنا تفادياً للصدام فإن الاختلاف مع الآخر عميق والهوة سحيقة والعداوة قديمة ومتنامية، وإذا كان من مصلحتنا تجاوز ذلك كله ومحاولة البحث عن القواسم المشتركة فإن التحرف لا يستدعي الانسلاخ ولا مسخ الذات.

---

(١) تاريخ المقال: ١٠/ ٦/ ٢٠٠٨

والتحول المنشود لا يكون بالإذعان والانصياع، على أن هناك خلافاً مستمراً داخل المنظومة الواحدة، وهو قائم على أشده بين أبناء الثقافة الواحدة، وهو بلا شك طريق قاصد للآخر المتربص، لقد مكَّن للثقافة المهيمنة من التوغل والحزِّ إلى العظم، والاختلاف غير المعتبر لا يمكِّن من التحول بسلام وخير منه الثبات والسكينة.

وتحول الخطاب الثقافي، لا بد أن يراعي مقتضيات الوحدة الفكرية ومشروعية التعددية، ومن الخطأ الكبير تصور الوحدة الفكرية بأنها تعني واحدية الخطاب وأنها تستدعي الحدِّية الصارمة، وأكبر من ذلك استبعاد المرجعية وتصور حرية التعبير والتفكير على غير مراد الشارع، ولما كانت الوحدة الفكرية ممكنة مع التعددية والاجتهاد فإن من الخطأ التحفظ على تداول القضايا الخلافية بروح الفريق الواحد.

والتعددية المشروعة لا بد أن تحافظ على الهوية المشتركة والنسق الثقافي الواحد والقطيعة إذا قبلت بين الفرقاء فإنها لا يمكن أن تستساغ بين أبناء الحضارة الواحدة، ولا يمكن تحقق الوفاق مع الأثرة وسوء الظن وبرمجة الذات.

وليس من حق أحد أن يحمل المسؤولية من لا يتفق معه في وجهة النظر، فالأطراف كلها تقتسم مسؤولية القطيعة، وإذا كان هناك محققات للاتفاق وضوابط فإن للاختلاف ضوابطه أيضاً.

واضطراب المفاهيم والمواقف حين يحكمها العقل وتسودها المعرفة فإنه من الممكن تصفية المشاهد من الشوائب، وتهيئة الفرقاء للقاء على كلمة سواء، واختلاف المتأولين يختلف عن صدام الرفض والاستبدال.

وكل مجتمع يتسع للحراك الثقافي وتحفل مشاهده بتعدد الخطابات لا بد أن يمر بأزمة ثقافية قد تؤدي في النهاية إلى الرشد على حد: (اشتدي تنفرجي)، وليس بمستبعد أن تؤدي إلى مزيد من التأزيم، وهذا ما لا يوده الناصحون لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم.

والذين يجندون أنفسهم لنقد الفكر والثقافة يحسون بضغط الأزمة، وقد يمتد النقد إلى العقل، كما فعل عدد من المفكرين، وعلى رأسهم (محمد الجابري)، ونقد العقل ينصب على قواعد الذهن، وآلية التفكير ومنطق البحث ومناهج التحليل والتحقيق، ولا يكشف عن الأزمة إلا نتاج الفكر المتداول، إذ هو الذي يعري المفاهيم والرؤى والرؤية، ويؤدي إلى تجلي المذاهب والأحزاب.

وإشكالية الثقافة أنها تتسع لكل الخطابات والتيارات، فمن طائفة خائفة تترقب، ومن ثم تأوي إلى موروثها كي يعصمها من الطوفان، وأخرى تنكب عن ذكر العواقب جانباً بحيث لا تني في تلقي الركبان والاحتفاء بكل طارئ لا تسأل عن هوية ولا تحرر مسألة ولا تؤصل لمعلومة، وداء المشاهد كلها أنها تعج بالطلقات الطائشة التي تسهم بإهدار الجهد والوقت والمال.

ومن تلك المنطلقات المتفاوتة تبدو الثقافة كما لو كانت مأزقاً بذاتها، وأخطر شيء تواجهه المشاهد قراءة الفكر الإسلامي بعيون وآليات ومناهج ليست منه في شيء، وهي قراءات خطيرة ومضللة، لأنها تجنح إلى المادية والأنسنة، ولقد انصاع لهذه القراءة عدد من المفكرين العرب الذين يتصدرون المشاهد، ويجوسون خلال أروقة الجامعات، نجد ذلك عند (علي حرب) و(برهان غليون) و (محمد أركون) وآخرين من دونهم اقتفوا أثرهم، واستنوا بسنتهم، وروجوا أفكارهم دون وعي بمنطوياتها، و (محمد أركون) يدرس ويدرس الفكر الإسلامي في أرقى الجامعات الفرنسية، وله رؤية فكرية استفز فيها مختلف المشاهد وجر أقلاماً وأقداماً، وكان حجر الزاوية في رؤيته حول الأنسنة، وله في ذلك عدد من الدراسات من أهمها: (نزعة الأنسنة في الفكر العربي) و (معارك من أجل الأنسنة في السياقات الإسلامية) وكلها من ترجمة (هاشم صالح) والإشكالية تمتد إلى تصريحاته

ولقاءاته التي يتعمد فيها إجهاض الدلالة القطعية وأنسنة النص المقدس، كما أن مكمن الخطورة في كتابه (أين هو الفكر الإسلامي المعاصر) وهناك فرق بين تعطيل النص وتأويله، وفكر أركون تعطيلي. وإذ لا نغمط هذا الصنف من المفكرين اقتدارهم، وعمق ثقافتهم فإننا لا نسلم لهم ولا نلقي بأنفسنا معهم في التهلكة التي تردوا فيها، لقد خدمتهم الإمكانيات الذاتية والتسهيلات الغيرية، ومكنت لهم في كافة المشاهد بحيث أصبح صوتهم ندياً وخطابهم مهيمناً، وحين لا يكون هناك متسع مكاني ولا زماني لمن يختلف معهم يعلو صوتهم موهماً أنه القول الفصل الذي لا معقب له، مع أنه في بعض وجوهه أشبه بتسخين ما غبَّ من الطبيخ، فالمستشرقون لم يغادروا من متردم، والتهافت على آراء المستشرقين وتبنيها مؤذن باختفاء الذات ومسخها.

والخطاب الثقافي العربي حين لا يستقل وينبع من قعر الواقع ويستجيب لمتطلبات الأمة لا يكون جديراً بالاحتفاء ولا قادراً على البقاء، لأنه بضاعة ترد إلى أهلها، والمستشرقون هم الذين نفوا (الميتافيزيقا) ومن ثم لحق بهم (زكي نجيب محمود) فألف كتاب (خرافة الميتافيزيقا) وحين ضيق عليه الخناق خفف من غلوائه وسمى الكتاب (الموقف من الميتافيزيقا) وهم الذين أنكروا الوحي وأنسنوا كل شيء ومن ثم لحق بهم (محمد أركون) وهم الذين نفوا احتكار الحقيقة والنص البرهاني المقدس وعلى أثرهم تهافت عدد من المفكرين العرب يقولون ما قالت حذامِ.

وحين ننادي بمشروعية تحول الخطاب الثقافي نستشعر هذا التهافت المخل والمخجل، ولكن الواقع المزري لا يحول دون الحقائق، ولا يحملنا على إنكار الحتميات أو التخلي عن المسلمات.

المواءمة بين حتمية تَحوُّل (الخطاب الثقافي) وهيمنة الخُصُوصية والنسقية .. ! (٣)[١]

والذين تَندُّ بهم المحاكاة عن جادة الصواب، لا يخلو طرحهم من فائدة، ومن ثم لا يسوغ التقليل من شأنهم ومبلغهم من العلم، وقد ينطوي ما يأتون به على فوائد جمة، غير أن التعامل معهم يتطلب الحيطة وأخذ الحذر فقد يكونون حاذقين في التقنُّع والتوهيم، وبخاصة أولئك المجاورين منهم أو المنغمسين في حضارة الغرب، أمثال (أركون) و(حسن حنفي) فقارئ هؤلاء يقف على أشياء ذهنيّة ليست ميسّرة للمترفين من القراء الذين تُقَصِّر أكفُّهم عن تناول ما هو متداول من أفكار تمسّ كل جوانب الحياة، فقراءة مثل هذا الصنف المتضلع من مختلف الثقافات تتيح فرص التعرف الأوسع والأعماق على نتاج الفكر الغربي المعاصر، بكل ما هو عليه من انفتاح غير محدود، وكما أشار (علي حرب) فـ(أركون) يستعرض في مقالاته معظم الكشوفات الراهنة في علوم الإنسان.

و(حنفي) يُنَقِّب في الفكر الغربي غير المتاح، ويعود بأشياء منه، وتخليص هذه المكتسبات من الشوائب المضرة من المعضلات، ولهذا حذّر المفكرون التربويون من تلويث الفكر، وإذ نقطع بالإرث فإننا -أيضاً- نقطع بأن كل حضارة خليط من حضارات شتى، والحضارة في النهاية إنسانية، والوحي السماوي يتمم مكارم تلك الحضارات التي سلفت، وحادت عن جادة الصواب، وإشكالية الخلطة والاختلاط في معرفة المقادير وتحديد المباح والمحظور، وجناية المثقفين في تجسير الفجوات للقبول المطلق والفعل المطلق، وهو ما لا تستقيم معه الأمور.

ومن الوهم الكبير أن يتصور البعض أن محققات التحول في التخلي عن الخصوصية والخلوص من النسقية، وبذات القدْر من الوهم يكون تصور الخصوصية على غير ما هي عليه وهذه الدقائق تحملنا على استبعاد الجاهزيات، وصدق الله ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ فالذين يظنون أن القول بالخصوصية يقتضي المفاضلة والاستغناء والتصدير والهيمنة على ما سواها ومنابذة الآخر والاكتفاء بأمجاد التاريخ، لا يكون لقوله إيجابية ولا فاعلية ولا مشروعية، وعلى الوتيرة ذاتها نجد من يتفلت على أنساقه الثقافية متناسياً حقه في التميز والندية وتكافؤ الفرص، وكلتا الخليقتين لا تحققان تحولاً نحو الأفضل والأكمل، ومعاناة المشاهد من أولئك المهتاجين الذين يسرفون على أنفسهم وعلى عشيرتهم، ممن يتنازعهم الإفراط والتفريط، وما أتيت الأمة في عقر دارها إلا من مقترفات هؤلاء وأولئك، والمعادلة الأصعب تعني المواءمة بين الأخذ بأسباب الحضارة الإنسانية والاحتفاظ بمحققات حضارة الانتماء.

والنسق الثقافي يعد بمثابة البنية التحتية التي تُرْسِي شوامخ المكتسبات.

ومن ضعفت أنساقه أصبح كالريشة في مهب الريح، والذين يدعون إلى تحرير المسائل المتداولة بإلحاح وتأصيل المعارف القائمة في كل المشاهد إنما يودون تثبيت الأفئدة التي استخفها المرجفون، فالذين يخوضون معترك الفكر ويصارعون صلف الخطابات المادية المنْكِرَةِ للعِلَّةِ العَلِيَّة، ويواجهون العقلية المتعالية على النص المقدس، ويدرؤون مجمل (الأيديولوجيات) ثم لا يأوون إلى ركن شديد من الخلفيات الثقافية والمعرفية تَعْصِفُ بهم تلك الحضارات المتدنسة بوضر المادية والإلحاد، ولا يكون ما

---

(١) تاريخ المقال: ١٧/ ٦/ ٢٠٠٨

يتلبسون به من باب التحول الحتمي، إن الارتماء المهين في شراك الآخر تحت أي مسمى وفي ظل أي تبرير لا يغني من الحق شيئاً، والمؤسف أنه داء المشاهد كلها.

والمتهافتون على أشياء الغير أقل معرَّة ممن أشربوا في قلوبهم الأفكار والقيم الأخلاقية، واستهلاك الأشياء أقل ضرراً من تبني القيم والمبادئ والأفكار، والتحول المشروع ما يكون استجابة لحاجة ذاتية فرضها الواقع المعاش، إنه الانبعاث الطوعي من الداخل، وليس هناك ما يمنع من رؤية الذات في مرايا الآخرين، وموازنة المستجد بمعايير الغير، فالتجربة الإنسانية حق مشاع، واعتزال القوم لا يعني الرفض المطلق، وإذا كانت العلّة مناط الحكم فإن للمصلحة حقها، وحيث تكون المصلحة المباحة يكون الحق في الممارسة، وتجربة الآخر العلمية والإجرائية هي وحدها مجال التبادل المشروع، ولكن أين الذين يتقنون هذه المعادلة ويحسنون الخلوص من شراك الآخر المتربص.

والمتعشقون لبوادر الحضارات المهيمنة يوصفون بالتغريب، وهو غير الاستغراب الذي أصبح كما الاستشراق علماً له مقدماته وأصوله ومناهجه.

والاستغراب الذي نعني يختلف كلية عما نراه ونسمعه من المجازفين في القول الذين لا يجدون غير لغة الإثارة والاستفزاز وتوتير مشاعر الرأي العام.

وإذا كان الخطاب الثقافي ذا أبعاد ثلاثة فإنه لكي يكون ممسكاً بعصم الأصالة والمعاصرة يجب أن يحفظ التوازن، فهو ذو مساس بالتراث والمعاصرة والآخر المستعلي، وتلك هي أبعاده الثلاثة، وما لم تكن حاضرة ومفعّلة بمقدار فإن زمن التيه سيمتد إلى ما لا نهاية. ومتى جنح الخطاب الثقافي من تحولاته السريعة لأحد الأبعاد على حساب الآخر دخل الحياة وشِقُّه مائل، وليست القضية في القَسْم العدل، ولكنه في المقادير المناسبة وفي دقة التحري وضبط الإقدام.

والراصد لتحولات الخطاب الثقافي: الذاتية والقسرية يراه أوزاعاً بين العقل المحض والعملي والنقل والتراث والمعاصرة والتغريب والتعريب والواقع والخيال وبين أزمنته الثلاثة: الماضي والحاضر والمستقبل بوصفه استشرافاً وتهيأ، وهذا التنازع يعيق التصور السليم ولكنه لا يحول دون التحرف السليم، وقد لا يكون هناك ارتباط عضوي بين التصور والتحرف على أي شكل من الأشكال، والمهارة في الخلوص من تداخل الألوان واختلاط المفاهيم وارتباك المسيرة.

وإذا كنا نقطع بالتحول فإننا لا نملك القدرة على ضبط المسار ما لم يكن التحول عفوياً وذاتياً، إن القسرية تعطل القدرات وتُفْقد إمكانيات الخيار، ومكمن الإشكالية في حتمية التحول واحتمال التحكم، والصعوبة تزداد استحالة حين يغيب الوعي أو يُغَيّب لتمرير الأهداف المشبوهة، وإذا أراد الله إمضاء قضائه وقدره عطّل الإمكانيات الذهنية، ولو أن النخبة استعانت بمناهج السلف وآلياته في استقبال المستجد لكان خيراً لها.

والغرب النافذ الإرادة والمهيمن بآليته ومؤسساته لا يريد التحول إلى الأفضل، وإنما يريد استكمال متطلبات الهيمنة، وتسلط يزداد حدة كلما أمعن الرهينة بالرفض، وقد تدفع الرهينة إلى التشنج ليشرعن لنفسه مزيداً من القيود فبقدر تفريطنا بالمكتسبات وارتباكنا في المواجهة يكون احتفاظ المتسلط وأناته وحكمته والمركزية الغربية تحافظ على مكتسبات التفوق، ومن ثم لا تدع فرصة للتأمل والخيار، ومن الخطأ أن يتصور الحالمون أن القرارات المصيرية ممكنة، وأن العالم الثالث يتمتع بكامل سيادته، وعلى افتراض أن العالم الثالث يملك ما يدعيه عبر وسائل الإعلام فإن استقلاليته في اتخاذ القرار غير ممكنة على إطلاقها. وقد لا يكون من مصلحته التفكير بهذا القدر، وما أحسن التسديد والمقاربة

والأخذ والمطالبة، والإمعان في استغلال الممكن دون تحد أو مجاهرة بالعداوة، ورحم الله أمة عرفت قدرها وأدركت إمكانياتها واشتغلت في إطار القدر والإمكانيات.

وليس شرطاً لتحقيق التحول وتحققه أن يكون من النقل إلى العقل ولا من التراث إلى المعاصرة، وإنما يتحقق بالوعي التام بالذات من حيث هي أحق بالبقاء مستصحبة مكوناتها العقدية والثقافية.

وإذا كنا نؤمن بعالمية الانتماء الحضاري وشموليته فإن هذا لا يعني إلغاء الآخر أو احتواءه، وإنما يعني التفاعل والتبادل والتكامل، ولقد قالها رسول الله ﷺ «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**».

وأي حضارة لا يمكن أن تدخل اللزز وتضمن السبق أو المشاطرة واقتسام المكتسبات حتى تسبق ذلك بالتأسيس، والحضارة الإسلامية سبقت إلى ذلك وحققت لنفسها حضوراً مشرفاً، وإن كان في نظر البعض تاريخياً، غير أنها مهيأة لممارسة حقها وندّيتها متى وعاها المنتمون إليها، ولما يزل الغرب خائفاً من المنازلة ولو أتيح للفكر الإسلامي ممارسة حقه في الوجود والأداء لاستعاد مكانته، ومتى أصبح من المسلمات التحول فإن واجب الأمة إعداد العدة وصدق الله ﴿وَلَوْ أَرَادُواْ الْخُرُوجَ لأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً﴾ وإذا كان جل وعلا يكره انبعاث المنافقين ويريد تثبيطهم وقعودهم، فإنه لا يود ذلك للأمة الإسلامية، ولكن الأمة تركن إلى ذلك، وتحب القعود أو الاهتياج الأعزل والأرعن.

المواءمة بين حتمية تحول (الخطاب الثقافي) وهيمنة الخصوصية والنسقية .. ! (٤) [(١)]

وعودة الإسلام لممارسة حقه همٌ يساور عدداً من المفكرين، والتحول المطلوب لا يمكن تحققه في غياب الثوابت والأنساق والخصوصية، وكم من مفكر عربي حاول أن يعيد الكرّة مرة أخرى، وذلك بطرح مشروعه التصحيحي أو المفهومي لتأخذ الحضارة العربية مجالها وسط الصراع الحضاري، ولقد ذهب بعض المفكرين الغربيين إلى إمكانية تعايش الثقافات، والمشروع المضاد لنظرية (هنتنغتون) الذي طرحه (هارالد موللر) المتخصص بالعلاقات الدولية قد يكون مجالاً للحوار بدل الصدام أو الصراع، وإن كانت رؤيته محكومة بإشكاليتين: أزمة الحكام وقضية السلام الفلسطيني الإسرائيلي، وهي رؤية ناقصة لم تستكمل إشكاليات الحضارة العربية، ولكنها قد تحلحل الأزمة، وتفتح آفاقاً جديدة للحوار الحضاري، وبخاصة أن تحولات الخطاب الثقافي العربي مؤذنة بمفاهيم جديدة، قد تسهم بتهدئة الأوضاع ولو إلى حين.

وبعض المفكرين العرب الذين يحلمون بطرح مشاريعهم عبر جهود فردية أو مؤسساتية لم يحالف البعض منهم التوفيق، لعدم تجسير الفجوات والتقريب بين وجهات النظر، فعلى المستوى الفردي نجد (محمد عابد الجابري) في (نقد العقل) وعند (محمد أركون) في (الأنسنة) وعند (حسن حنفي) في جموعة من أعماله التي سماها أجزاء المشروع ككتاب (من العقيدة إلى الثورة) وما تلاها من كُتُب.

هذا في مجال التحولات الفكرية المتفادية للتسييس الثوري أو الحزبي، أما في مجال الحركات الإصلاحية المسيسة أو الحزبية فيبدو لي أنها حراك وقتي تتم تصفيته بعنف، ومن ثم لا يكون فيما تأتي تحول من رؤية إلى رؤية، ولكنه تغير في السلوك أو المواجهة ولهذا لم أجد من المجدي تعقب مثل هذه الحركات التي قد تكون ضالعة في اللعب السياسية، أما على مستوى المؤسسات، فهناك عدد من المؤسسات والمنظمات والهيئات القائمة على رؤى وتصورات قد لا تكون محققة للتحول المنشود، ولكنها تظل إسهاماً فكرياً يستشرف المستقبل، ويتطلع إلى التأسيس والتأصيل، وقد يطرح البعض منها شعار (الانتماء والإنماء) ولكنه انتماء وفق الرؤية لا وفق الحق، ومن أبرز تلك المؤسسات (منتدى الفكر العربي) و(مؤسسة الفكر العربي) و(المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية) وغيرها كثير، وإذ أصرف نظري عن الخطاب الطائفي والحزبي، أصرفه كذلك عن خطابات فردية تتسم بالعاطفية والمثالية بحيث لا تني في الإدانة والتشكيك والاتهام والتيئيس والإحباط والتصنيف، ومع تأثيرها وتأجيجها للعواطف فإنها لا تملك الاستمرارية، وإن عوقت المسيرة إلى حين. على أن هاجس التأسيس لخطاب حضاري تجاوزي ساور كثيراً من المفكرين والدعاة غير أن لحظة الانبهار بالمستجد المبدئي أو المنهجي فوتت على الكثير منهم فرصة الحلم والأناة والرفق، مع أن الذين صدمتهم فداحة المسخ باسم التحول المشروع لم يتوازنوا في مواقفهم بحيث استهلكت المواقف ردود الأفعال، ولم ينل التأسس والتأصيل ما يستحقانه من الجهد والوقت والتقدير والتدبير، الأمر الذي امتد معه زمن التيه، فيما حققت قوميات وأمم أخرى أفضل مما حققته الأمة العربية، وكم من ناقد ساخر متفجر استعاد تجربة (ميجي) في (اليابان) بإزاء تجربة (محمد علي) في مصر، ومدى ما حققته أمة كل واحد منهما.

---

(١) تاريخ المقال: ٢٤/ ٦/ ٢٠٠٨

والذين تستهلكهم الفرضيات، تذهب بهم الظنون كل مذهب، ولكنهم يحبسون أنفسهم في القول المعسول والأماني العذابة، ولقد قالها الشاعر المصري (إسماعيل صبري):

نَبِيْـــتُ مـــن المنـــى نَبْنـــي قصـــوراً

فَتَـــــــــدْعمُها ويَهْـــــــــدِمُها النهــــــار

والخلط بين الأوهام والحقائق شريعة المفلسين.

إن هناك مصدراً للوعي، ومصدراً للمعرفة، وحين لا نوائم بين المصدرين نقع في التشرذم والارتباك، وهو ما يعانيه الراهن العربي، فالمصدر المعرفي الذي هو في النهاية نسق ثقافي عربي خالص العروبة، ومصدر الوعي الموجه للتحول غربي خالص الغربية، ولو أن قادة الفكر ورواد النهضة وزعماء الإصلاح استطاعوا أن يرحلوا بالتراث لا أن يرحلوا إليه، ولا أن يرحلوا عنه لكان من أن تمكنوا من تقاسم النسقية واقتسام الوعي والمعرفة معاً، وبهذا يتحقق التلاقح الإيجابي.

إن مسؤولية الثقافة العربية الراهنة ليست في الخلوص من الغرب ولكنها في استخلاص المفيد منه، وهو ما لم يتوفر عليه القادة والرواد والزعماء، ومن توفر على شيء منه لم يُتْرك وشأنه، وهذا التشتت في الرؤى والتصورات أدى إلى التنازع والتناجي الآثم، مما ترتب عليه ذهاب الريح والفشل، ولست سبّاقاً إلى التخذيل والفتِّ في العضد ولكنني الأحرص على أن نعرف مواطئ أقدامنا وقدر أنفسنا، وما أضر بالأمة إلا من جهل قدرها وإمكانياتها وما هي بحاجة إليه، وإذ تكون المسؤولية مشتركة فإننا نتحاشى تحديد المسؤولية أو التخلص منها، ومن ثم فإن الذين يركنون إلى الخطاب الديني قد لا يفرقون بين التجديد في الخطاب والترديد الممل، والإشكالية في أسلوب المواجهة للأخطاء، فكم من فئة يتفق أفرادها في المبادئ، ولكنهم يختلفون في الأجراء والتطبيق، وهذا الاختلاف قد يوهم البعض منهم بأنه اختلاف في المبادئ، كما أن الذين يتفلتون على النمطية والماضوية في الخطاب الديني لا يعون الثوابت والمسلمات ولا يفرقون بين الجرأة في الحق والاجتراء عليه، ولو أقبل بعضهم على بعض بنوايا سليمة لكان أن صُفِّيت الخلافات بأسرع وقت وأقل جهد، ولكن بعضهم يقبل على بعض بالتلاوم لا بالتفاهم، والذين يجترحون السيئات يقعون في نواقض الإيمان دون وعي منهم، حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا: لا مزايدة على الإسلام، وهي مقولة صادقة ولكنها غير منجية، والمجازفون في الأحكام يحسبون أنفسهم قادرة على تحصيل ما في الصدور.

وفي هذا السياق، نجد من يخلط بين (الدين) بمفهومه الشرعي و(الايديولوجيا) وعلى ضوء هذا المفهوم الناقص .. يُجْري قلمه على قدم المساواة بين المفهومين، و(الايديولوجيا) هي علم الأفكار، ومنشؤها الاجتهاد والذي لا يحكمه نص برهاني قطعي الدلالة والثبوت والقداسة، فيما يكون (الدين) محكوماً بنص المتميز بثلاث سمات:

-قطعية الدلالة.
-قطعية الثبوت.
-قطعية القداسة.

وهنا لا اجتهاد مع هذا النوع من النصوص، ولا تفكير ولا علم أفكار، فالدين امتثال، وما سواه فخاضع للاجتهاد يحكمه العقل والتصور والنسق، وفي ظل هذه المفاهيم وُجِدَ الفقه وأصوله وقواعده.

فالدين أعطى فسحاً كثيرة كحديث: «**أنتم أدرى بأمور دنياكم**» وحديث: «**استفت قلبك**» وآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾. والرسول

ﷺ يتفادى أن يُفْرض على أمته ما لا تَقْدر عليه، ففي صلاة التراويح انقطع عن الجماعة خشية أن تفرض على أمته، وحين انتهى التشريع جمع عمر بن الخطاب المسلمين على إمام واحد لزوال المحذور.

ولمرونة النص الشرعي وقدرته على استيعاب النوازل فقد أصبح نصاً مفتوحاً، وقد منحه الانفتاح الأزلي قول الرسول ﷺ: «**بلغوا عني ولو آية فربَّ مُبَلَّغ أوعى من سامع**» ووعي السامع هنا ليست قدرة ذاتية ولكنها كسبية، فالنوازل كالقنابل الضوئية تضيء عتمة النص، وعلى غير هذا الاستيعاب يأتي النص الانجيلي المحرَّف.

المواءمة بين حتمية تحول (الخطاب الثقافي) وهيمنة الخصوصية والنسقية .. ! (٥)[1]

.. ولتفادي إلغاء الدين النصراني عمد الإصلاحيون المسيحيون إلى إجهاض النص الديني المسيحي العاجز عن استيعاب النوازل بالتأويل المحيل، ومن ثم نشأ مصطلح (الهرمينوطيقا). ولما لم تكن إشكالية النص التشريعي الإسلامي المقدس في استيعاب النوازل فقد كانت هناك انعكاسات فكرية وفلسفية، لم تكن على وفاق مع النص، والذين استحوذ عليهم سلطان العقل، وتلوثت أفكارهم بالفلسفات والمنطق الصوري لم يجدوا بُداً من الركون إلى التأويل الفاسد لتطويع النص لقبول ما أخذوا به مما لا تقوم الحاجة إليه، والفِرق الإسلامية حين ووجهت بنصاعة النص ووضوحه لم تجد بُداً من اقتراف خطيئة تحريف الكلم من بعد مواضعه. وممارسة إجهاض النص على أي شكل يعني إلغاء الخصوصية المشروعة ونسف النسق المعرفي، وهو ما يوده الآخر ويتبناه التبعيون، وفي كل حضارة تمر الأمم بمحاولات تجديد أو ترديد أو تحريف، وقد تكون صحة الأبدان في العلل، وما نسل العلماء الأفذاذ إلا من تحت الضربات الموجعة، فلو نظرنا إلى الظروف التي أنتجت شيخ الإسلام (ابن تيمية) والمصلح (ابن عبد الوهاب) لوجدناها ظروفاً عصيبة: فكرية كانت أو عسكرية، والخطورة ليست في الغزو من الخارج، ولكنها حين تكون من الداخل. وللأديب (محمد محمد حسين) كتاب قيّم بعنوان (حصوننا مهددة من داخلها)، تناول فيه انحراف الدراسات النفسية والاجتماعية، وتحولات الفن والثقافة تحقيقاً للغربنة وقضايا المرأة، واتجاه الترجمة لكتب الفكر والأدب، ومؤتمرات التعليم والتحولات في مناهج اللغة والدين، والانحرافات في الدراسات الإسلامية. وإذ نمضي مع بعض الدراسات الرصدية والتحذيرية من مثل هذه التحولات غير الراشدة، فإننا نتحفظ على حدة النبرة والحدية الصارمة تحت وطأة المفهوم المتشدد لدرء المفاسد وسد الذرائع، على أن الكثير من عشاق التغيير لا يكون لديهم الإلمام التام بمتطلبات الخطاب الفكري والثقافي، ومن ثم يقعون في المحذور من حيث لا يريدون، ومثل هؤلاء يحتاجون إلى الإرشاد لا إلى الإقصاء والتصنيف، فالوهم غير الإصرار على الحنث العظيم، والوقوع في نواقض الإيمان جهلاً يواجَه بالإرشاد. والتجديد مطلب العلماء والمفكرين، ولكنه محفوف بالمخاطر لتقحم المبتدئين وتسرعهم، وجهلهم للحاجة والإمكانيات، وتعديهم لحدود ما أنزل الله إن جهلاً أو استخفافاً.

لقد مرّ الخطاب الثقافي بوضعه الشمولي في الغرب بمراحل متعددة بدأت بهيمنة الكنيسة، ثم بالإصلاح (اللوثري)، ثم بهيمنة العقل بشقيه: العملي والمحض، ثم بهيمنة العلم، ثم بالتمرد الوجودي (الليبرالي) والحداثي الانقطاعي.

وبالموازنة بين النسقين الغربي والعربي نجد أن الفروق واضحة، والذين يريدون الارتماء بأحضان الغرب يلغون الأنساق الثقافية والخصوصية الحضارية، وهذا لا يمت إلى الحرية بشيء، إنه عبث يؤدي إلى المسخ. إن مكونات الوعي الغربي تختلف كثيراً عن مكونات الوعي العربي، وعلى ضوء ذلك لا بد أن تختلف المناهج والآليات والأولويات، وما أحوجنا إلى استيعاب (فقه التمكين) في القرآن الكريم لكي نفرق بين خطاب الضعف وخطاب القوة. إن عملية التحول في ظل الظروف المعقدة عملية في غاية الخطورة، وبخاصة حين يتصدر المشاهد من لا يحسن الدخول والخروج. إن التفكير المرتهن لعصر عمر بن الخطاب أو صلاح الدين تفكير انتحاري لأنه نهوض بالمهمات

(١) تاريخ المقال: ١/ ٧/ ٢٠٠٨

الجسام دون توافر محققات النجاح، والتفكير المرتهن لعصر الضعف والهوان تفكير استسلامي تخاذلي، وحفظ التوازن بين التفكيرين مهمة صعبة لا يؤتاها إلا الأفذاذ من العلماء والمفكرين. إنَّ التغريب المتحكم يهدد النسق والخصوصية، ولكي لا ندعه يستشري لا بد أن نستبدله (بالاستغراب) المعادل للاستشراق، فالاستشراق يعني الوصول المقتدر إلى المعارف والثقافات العربية، واستيعابها، وتوهين الأمة من خلال فهم الثغرات ومناطق الضعف ومجالات التشكيك، ولقد فعلها بذكاء ماكر عدد من المستشرقين، وذلك حين تحدثوا عن (القراءات) القرآنية، والنسخ في القرآن والمتشابه وقضية الانتحال في الشعر الجاهلي وعلاقة الفقه الإسلامي بالقانون الروماني وقضايا المرأة والرق ونظام الحكم وغيرها، وكل هذه الإثارات لتوهين الأمة وتصديع وحدتها الفكرية لكي تظل تابعة مستهلكة للأشياء والأفكار. إنّ الاغتراب كما يقول حنفي: (تحول الأنا إلى الآخر).

والمستعمر الذي خرج بثكناته ومندوبيه عاد بمفكرين ومثقفين ليمارس طمس الخصوصية ونقض النسق، والشجرة تثبت بجذورها وتحضر بأغصانها وأوراقها، فالنسق يمثل الجذور، وهو مصدر الثبات، والخصوصية والهوية تمثلان الأغصان والأوراق. وأحد التحديات السبعة التي اختارها حسن حنفي يتمثل في (الهوية ضد التغريب والتبعية والتقليد) وهو ما نركز عليه في عملية تحول الخطاب الثقافي. والخصوصية التي يضيق بها المغتربون لا المستغربون لها محققاتها في الحضارة الإسلامية، وقيامها لا يشكل أي عقبة في طريق التفاعل بندية مع أي طرف آخر، وبرم المغتربين استجابة بلهاء لتطلعات الآخر المتسلط، فقيامها بحقها لا يدع فرصة للهيمنة ولا يحول دون الإفادة والاستفادة، وإشكاليتها في الذين يضيقون بها، والذين يعضون عليها بالنواجذ دون وعي، والدليل على ذلك طائفة من المتمسكين بها لا يفرقون بين الموالاة العقدية والمحبة الجِبلية، فالقرآن الكريم حرّم الموالاة والمودة العقدية لمن حاد الله ورسوله، ولم يقف حائلاً دون المحبة الجِبلية، والعصور الذهبية لم تمارس الاعتزال، ولكنها مارست الاستيعاب والاستثمار، والفكر الإسلامي المعاصر رفض الإلحاد والإباحية، وإن استهوت بعض أفراده مغريات الغرب. إن علينا لكي نحقق التحول الإيجابي أن نتخلص من عقدة الخوف والرفض المطلق وخيار الصدام والصراع، مع إمكان الحوار والتعايش وتبادل المنافع والمصالح.

إنّ هناك خيارات ممكنة كالحوار والتصالح والتعايش وتبادل الخبرات والمنافع والمشاركة واستغلال قواسم الحضارات الإنسانية، وليس من مصلحة الأمة التفريط بالممكن.

إننا نقطع بأن الإنصاف والحياد الإيجابي غير ممكنين، ولكن هذا لا يمنع من التحرف لحلول وسط تملك الشجاعة على التنازل غير المخل بالثوابت كما هي حقيقة لا وهماً، مقابل الإفادة والاستفادة أو الدفع على الأقل متى كنا في مرحلة الاضطرار، ولن يتحقق اللقاء المؤتمن إلا في مشاهد العلم البحت؛ فهو عالمي المبادئ والقوانين، ومتى سلَّمنا بالخصوصيات والأنساق، وقبلنا بها، أمكن ترتيب الأمور وخلق مناخات مناسبة للتعايش السلمي وممارسة حق التحولات الإيجابية.

إنّ الإصرار على المركزية والأولوية والهيمنة يجعل المعادل طرفاً ثانوياً لا تزيده الممارسات إلا احتقاناً وشكاً وارتياباً وتحفزاً للتمرد. إن التفكير في مركز الصدارة يعني تشكيك الآخر بجدوى المشاركة، والتراث الإسلامي تراث رباني إنساني؛ فهو من جهة وحي ومن جهة أخرى استيعاب لحضارات سادت ثم بادت، ومن ثم فإنه الأقدر على العيش والمعايشة، ومن مبادئه الجنوح للسلام، ولكن خيار السلام لا يتحقق إلا بعد الاستعداد لأسوأ الاحتمالات، ومَن أراد السلام فليستعد للحرب، والغرب الذي يصادر حق

الخصوصية وتشكيل النسق يقع تحت طائلة ما ينهى عنه؛ لأن ممارسة المصادرة تعني العنصرية وتعني إنكار حق الوجود الكريم للآخر، وتعني خروج الاستعمار التقليدي ودخوله بشكل آخر، وتعني القضاء على التعددية والتنوع والتفاعل الإيجابي الذي تنادي به (الديموقراطية) وتدعيه (الليبرالية)؛ لأن ذلك كله من محققات الحرية الشخصية، والحضارة الإسلامية عايشت الأقليات وعرفت مصطلحات أهل الذمة وحقوقهم، وقد تمكنوا من التمتع بكل متطلبات الحرية الشخصية في ظله، علماً أن الإسلام نشأ وازدهر واكتمل قبل أن يكون للحضارة الغربية شأن يذكر بل قبل أن تكون شيئاً مذكوراً.

وإذا أخل دعاة التغريب بمفهوم الخصوصية وأعطوها أبعاداً تُنفّر منها وتحمل على التحفظ عليها، فإن طائفة أخرى أخلت بمفهوم النسق، ومن ثم راحوا يشككون في أهليته وقطعيته وقدسيته. وظاهرة النصوصية شغلت المشهد النقدي والفكري وأدت إلى مزالق مروعة، فكثير من المفكرين اقترفوا أنسنة النص المقدس، وأخضعوه للمناهج والآليات بوصفه نصاً لغوياً، والنص هو لحمة النسق وسداه وإن لم يكن مستوعباً له، وحين نتحدث عن النسق بوصفه مشاركاً للحراك والتحول لا مهيمناً عليه نؤكد على حق المشاركة وتقاسم المساحات والتكافؤ والندية. وإذ ننقم على المنكفئين والنافين للآخر ننقم على المميعين للمبادئ الملمعين للآخر. إننا أحوج ما نكون إلى التوازن والوسطية وتبليغ الرسالة وطرح القدوة في السلوك والعلم والتعامل.

والتحول الذي ننشده والثبات الذي نستحضره لا يمكن أن يكون بدون ضوابط وقواعد وشروط، وما لم نرتب أوراقنا وندخل حلبة اللزز بإمكانيات معرفية فاتنا الركب المخب وبقينا سقط متاع يجلد ذاته ويلوم قدره.

والدين في خضم الصراع المتعدد الأشكال والألوان يدعو إلى الشورى والعزم والتوكل، وقوارب النجاة في هذا البحر اللجي في امتثال أمر الله على مراد الله فيما يرضي الله.

الرَّحيل من القمَّة .. ! [1]

من الناس من تعرفه ببَدنِه، تلقاه وتجلسُ معه، وتبادلُه أطراف الأحاديث. ومنهم من لا تراهم إلا لِمَاماً، وفي مناسبات عابرة، وإنما تصلك بهم أعمالُهم ومسؤولياتُهم التي تمَسُّ حيوات الناس، وتؤثر فيها وتحببهم إليك إنجازاتهم الرسمية والعلمية والتطوعية، وقد يكونون أكثر لصوقاً بك لتوارد اهتماماتهم مع ما تعانيه ولتشابه الرغبات، ومن ثم لم أكن قريباً من الفقيد أبي هشام معالي الدكتور صالح بن عبد الله المالك، ولكنني أقرب إلى همِّه وتفكيره من حبل الوريد، وإذا كانت الأرواح تتقارب وتتآلف فإن الأفكار والهموم تختلط وتتعانق، وتخلق ألفة وتجانساً.

لقد عرفت الفقيد من خلال أطروحاته الثقافية والعلمية والاجتماعية التي استثمر فيها المعرفة والتجربة معاً، وكان بارعاً في تجنيدها لترشيد مسار المؤسسات المدنية، لا سيما أن الدولة تتجه بكليتها صوب المأسسة والمدنية، وإذ منحه الله ذكاءً وجلداً ودقة ملاحظة فإنه قد وظف ذلك كله لمشاطرة المسيرة. والمتابع لمنجزه العلمي يدرك أنه معني باستثمار المعارف وتوظيفها لشد عضد المسيرة الوطنية، وكل المتوفرين على المواقف لا يقفون حيث تكون المعلومة، ولكنهم يتجاوزون بها إلى حيث يكون الاستثمار والتوظيف، وتلك سمة النابهين الواعين لمهماتهم في الحياة.

لقد مارس العمل والتعليم ودخل مجلس الشورى في بداياته، وواكب دوراته الثلاث إلى أن شرف بالثقة الملكية الكريمة ليكون أميناً للمجلس، وخلال عمله في مختلف المواقع كانت عينه على كل المرافق يرصد حراكها، ويسهم في ترشيد مسارها مستثمراً إمكانياته المعرفية وخبراته العملية المتنوعة وثقافته المتعددة المصادر، لقد حمل هموماً كثيرة وكبيرة كانت بحجم طموحات وطنه، وإسهاماته خارج قبة المجلس مؤشر وعي ثاقب لمتطلبات المرحلة، وكم كان بودِّي لو أمهله الأجل ليفيض على المشهد الثقافي بذكرياته وتجاربه وممارساته الشورية وتنقلاته بين أروقة الجامعات وسائر المسؤوليات، نقول: (لو).. وإن كانت تفتح الأبواب على سراب القيعان.

والفقيد الذي غاب ببدنه يوقظ ما ترك من كتب ودراسات وسمعة طيبة ستصل ما انقطع برحيله. لقد رحل في أوج تألقه، وبارحنا من قمة مسؤوليته، فله منَّا الدعاء الصادق بالرحمة والمغفرة، ولأبنائه وأسرته الكريمة الصبر والسلوان، وما مات من خلَّف، (والذكر للإنسان عمر ثاني) .. كما يقول أمير الشعراء أحمد شوقي في أعقاب قوله:

دقات قلب المرء قائلة له

إن الحياة دقائق وثواني

---

(١) تاريخ المقال: ٢٩/ ٥/ ٢٠٠٨

التوازن في المنهج النقدي عند ناصر الدين الأسد .. !(١)

يشكل منتصف العقد السادس من القرن العشرين منعطفاً مثيراً في حياة معالي الأستاذ الدكتور ناصر الدين الأسد ومقطعاً مفصلياً في قضايا الشعر الجاهلي التي خاض لججها مستشرقون وعلماء ومتعالمون وللتو فرغت من دراسة طريفة عن كتب جنت على أصحابها كما جنت (براقش) على أهلها.

وللتو -أيضاً- استأنفت دراسة رديفة عن كتب خلّدت أصحابها، وهيأت لهم قدم صدق في مشاهد العلم والفكر والأدب، إذ في كل حقل معرفي تألق وانطفاء.

وقضايا الشعر الجاهلي استحوذت على اهتمام الأقسام الأدبية واللغوية في أعرق الجامعات العربية والعالمية، وكانت الهمّ الذي يساور المستشرقين، وبخاصة بعد البحث الذي كتبه المستشرق الإنجليزي (مرجليوث) تحت عنوان (أصول الشعر العربي) والذي ترجمه (يحي الجبوري) مشيراً إلى أن المهتمين لا يعرفون عنه ولا منه إلا ما نقله ناصر الدين الأسد في كتابه (مصادر الشعر الجاهلي).

ولقد كان دركُ الدراسة الأولى التي أعددتها كتابا (في الشعر الجاهلي) لطه حسين، وذروة سنام الدراسة الثانية (مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية) لناصر الدين الأسد، والملفت للنظر أن هذا المنعطف المهم في مسار دراسات الشعر الجاهلي تم على يد طالب لمّا يزل -آنذاك- في مراحل الدراسات العليا، والأسد الذي حفظ التوازن بين طه حسين وخصومه لم يكن على وفاق معه، ولكنه لم يتخذ سبيل خصومه الذين اختاروا ذات الخصم، فقتلوا سمعته، واستحيوا موضوعه وإنما اختار الموضوعية مسرحاً لجدله، فكان أن جرف الذات والموضوع معاً وذلك بتحريره لمسائل الخلاف وتأصيله لمعارف الموضوع، لقد أجهض حجج الدكتور طه حسين التي استقاها من المتداول الاستشراقي وألبسها حلّة بلاغية أخاذة خادع بها المتلقي، وتناول المصادر رد ضمني للغط المستشرقين، لقد أشار إلى التفاوت الحضاري في المجتمع العربي، وإلى تضافر الرواية والكتابة وتدوين الشعر وإلى طبقات الرواة، وتفاوتهم، وإلى إسناد الرواية، كما فكك ظاهرتي الشك المنهجي والانتحال عند المستشرقين ومن شايعهم من المحدثين، وأصول ظاهرة الانتحال عند المتقدمين، وأشار إلى أهم المصادر المتمثلة بالدواوين بشقيها والمختارات، وختم مرافعته بحصر دعواه بنوعين من الأدلة: عقلية استنباطية، وصريحة نصية، فكانت له الحجة البالغة التي دحضت المفتريات.

وافتراء المستشرقين استدعى لفيفاً من العلماء والأدباء، ورفع حدة المواجهة، وأنشأ معارك طاحنة، خلّفت عشرات الكتب، ومجيء دارس من خارج القطر المصري يهدِّئ الروع ويفك الاشتباك، ويأطر الجدل في مجاله المعرفي أعاد للمشهد النقدي المصري توازنه ومعقوليته، وكتاب المصادر يشكل منعطفاً مهماً في قضية الشعر الجاهلي، واكبته دراسات فنية ودلالية ولغوية أعادته إلى المشهد وطردت غربته. لقد كنت في مطلع شبابي مغرماً بالمعارك الأدبية والفكرية أحصيها عدداً وأعرف أطرافها وبواعثها ومآلاتها، وكنت أود لو كنت في معامها وإن كانت في ذمة التاريخ، وما كنت يومها أفرق بين الموضوعي والذاتي والعقلي والعاطفي ومن ثم لم يرحب صدري آنذاك لكتاب المصادر، لأنه يتوخى الموضوعية ويتفادى الصدامية وحين استبنت الحق أدركت أنه القول الفصل، وتبين لي أن للتاريخ مزابله وأن من المواقف ما يود الإنسان دسها في التراب خوفاً من أن يمسكها على هون.

---

(١) تاريخ المقال: ٣/ ٦/ ٢٠٠٨

لقد مر المشهد النقدي بمعارك مسفة من علماء أفذاذ في مجال الفكر والأدب تعقبها مؤرخون، أو جاءت في السير الذاتية، نجد ذلك عند مصطفى صادق الرافعي، وزكي مبارك والبهبيتي، وعبد الرحمن بدوي، ونجد ما هو أشد بين المجددين والحداثيين والإسلاميين والمستغربين والليبراليين، ولو هيئ للمشاهد من يأطر الأطراف في محيط القضايا ويتوفر على شروط الحوار والاجتهاد لكان للمعارك أثرها المعرفي الذي لا يسامى.

وناصر الدين الأسد خاض مع الخائضين ولكنه أحسن الدخول وجدّد أسلوب التعامل الحضاري، فكان شامخاً في تقديره وتوقيته وتدبيره، وكتبه الحافلة بمختلف المعارف، وأنواع القضايا التي خلّفها وراء ظهره استأنفت عمره الثاني الأكثر خلوداً والأبعد انتشاراً.

لقد تقدمت به السن، وفضل أن يريح مطاياه، وهو إذ يركن إلى الهدوء يتحرك كل كتاب حبّره وأودعه عصارة أفكاره ليستأنف المسيرة من جديد، وأحسبه سيظل حاضراً بكل كتاب أخرجه للناس وبكل كلمة أطلقها في المحافل، وحظه السعيد إنه كما جسم المتنبي الذي وزّعه في جسوم كثيرة.

لقد كان حقله في مكتبتي موقعاً أروده كلما فرغت لتحرير مسألة أو لتأصيل معرفة تتعلق بالأدب العربي، فهو الموضوعي الذي لا تعصف به العواطف والمنهجي الذي لا تشتته الموضوعات، ومن ثم شكل مدرسة أدبية تتسم بالعقلانية والأخلاقية والموضوعية والرؤية الواضحة والنزاهة والدقة ونصاعة الأسلوب وإذا كان البعض يوصف بصاحب الوزارتين فإن ناصر الدين الأسد الوزير والسفير والرئيس والعميد جماع المسؤوليات كلها والمتألق فيها كلها.

وكم كان بودي أن أخبر حياة الاستثنائيين ففي حيواتهم فوائد جمة، وناصر الدين الأسد من أولئك فهو الكاتب والشاعر والناقد والمحقق والدارس والإداري المحنك، عاصر العمالقة وغشى صالوناتهم وكانت له معهم ذكريات كشف عن أمشاج منها، ولو أنه تقصاها لكانت مهوى الأفئدة ومسرح الأفكار وعسى أن يمتد معه العمر ويسعفه الجهد ليبدي ما خفي من علاقات مع عمالقة الفكر والأدب لأنه جماع ذلك كله.

لقد مني المشهد المعرفي بما سمي بأمية التخصص، وعرفنا عمالقة في فرع من فروع المعرفة، ولكنهم أميون فيما سواها، والقليل من العمالقة من يمسك بطرفي التخصص والثقافة بحيث يعرف كل شيء عن شيء وشيئاً عن كل شيء، وهكذا نجد الأسد إذما أجرى قلمه في شأن إلا كان ابن بَجْدتِه، ويكفي أن يقرأ المتابعون كتابه (نحن والآخر صراع وحوار) لقد أصل لأوضاع الأمة العربية مع الغرب وكأنه يكتب قوانين اللعبة السياسية حيث جاء بنيان السياسة من القواعد حين تحدث عن اتفاقية (سايكس بيكو) بوصفها فاتحة الشر لتشرذم الأمة العربية وتجرعها مرارة الفرقة والتناحر، وبلغ الذروة حين تناول العولمة والهوية بوصفها زبدة اللعبة المتعددة الأبعاد، وهو فيما بين هذا وذاك المتمكن الأمكن في القول والعمل، ولو لم تتخطفه المسؤوليات لحقق نقلة نقلة في حقول معرفية شتى. والأسد بوصفه مغرماً بالتأسيس المعرفي فقد انطلقت دراساته من تخوم الأدب العربي، ولربما أوحت له رسالته عن القيان والغناء في العصر الجاهلي بما هو مجال جدل عميق بين المستشرقين وحماة التراث العربي، وهو المصادر بوصفها تقطع قول كل خطيب، وإذ تناول لداته من خلال دراساتهم الأكاديمية (الماء، والمرأة، والإبل، والطرد، والصيد، والأطلال، والرحلة وسائر الأغراض والفنون) فإن الأسد حاول برسالته سد الذرائع ودرء المفاسد التي نفذ منها (مرجليوث) ومن اقتفى أثره من المغرمين بمناهج الغرب وأهدافهم المشبوهة، وتناولاته المبكرة والمسددة تتسم بصفات ثلاث أشار

إليها وهي: الجمع والتحقيق والدراسة، حتى لقد أخذ على كتاب الأغاني، وهو أضخم موسوعة أدبية حسوه للمعارف حسو الطير وهي إشارة إلى تجافي الأصفهاني عن الشعر الجاهلي الذي استحوذ على اهتمام ناصر الدين الأسد منذ مرحلة الطلب بدافع الغيرة على محارم الأمة العربية.

والأسد ككل العمالقة المؤثرين على المشهد الأدبي والنقدي حظي باهتمام طلابه والمعجبين بآرائه، ومن ثم لم يكن غائباً عن المشاهد العربية، والدراسات التي أقيمت حول أدبه وشاعريته ومنجزه المعرفي تنطوي على لفتات بارعة، ويكفي أن نحيل إلى كتابين ل(مي مظفر) تناولت حياته وأدبه، وتجسيره الفجوات بين القديم والحديث، وكتاب (أحمد المصلح) (ناصر الدين الأسد ناقداً وشاعراً) وكتاب (أحمد العلاونة) (ناصر الدين الأسد .. العالم المفكر والأديب الشاعر).

ذلكم هو ناصر الدين الأسد بقية جيل العمالقة.

خمسون عاماً كلمح بالبصر .. ![1]

يوم ٢٣-٦-١٣٧٩هـ، كان يوماً مشهوداً بالنسبة لي، إنه اليوم الذي وقفت فيه مدرساً للصف الأول الابتدائي في دار الأيتام ببريدة، واليوم ٢٣-٦-١٤٢٩هـ أكون أمضيت في مختلف القطاعات الحكومية خمسين عاماً مرت كلمح بالبصر، وكأني قد دخلت من باب وخرجت من آخر، ولكنها سنوات خضر وأخر يابسات، فيها الأفراح والأتراح والتجليات والإخفاقات، ومن سره زمن ساءته أزمان، عرفت فيها قيمة الحياة الدنيا، وأنها كما وصفها الذي لا ينطق عن الهوى: «**لو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى منها الكافر شربة ماء**»، وكيف تكون بمستوى شيء تافه وكل الذي فوق التراب تراب.

لقد كنت في مطلع شبابي أحمل هموماً كثيرة وأندم على فوات أي شيء، ولما خَلَتِ الحياة من الآباء والأمهات وأعز الأصدقاء والأقارب والمعارف هانت حتى لا أبالي بفوات النفائس:

نفسي التي تطلب الأشياء ذاهبة

فكيف أبكي على شيء إذا ذهبا

نصف قرن من الزمان كأنه ساعة من نهار أعرف تفاصيل أحداثه، وكأنها لم تنته بعد، كنت في السادسة عشرة من عمري، وكنت أسمى ب(المدرس الصغير).

دخلت المدرسة وأنا لا أحمل إلا الشهادة الابتدائية، ولا أعرف من الكتب إلا القرآن ورياض الصالحين، وكنت أحسبني العالم النحرير الذي لا تند عن ذاكرته شوارد العلم، وكلما تقدمت بي الدراسة وتخطيت بالسِّن طويت مرحلة جهل، ولكن قلَّ أن أعترف بالمقترفات أو أن أعتذر عن الزلات، وتلك خليقة إنسانية، لو تخلى عنها الإنسان لكانت الحياة أفضل مما هي عليه، وكلنا خطاؤون، وخير الخطائين التوابون.

لقد كان التعليم إذ ذاك القاءً وتلقيناً وتحفيظاً، وكانت الفوقية والسلطوية على أشدها، وكان الطلبة لا يَرْجون من الطلب كسباً مادياً ولا يبحثون عن عملٍ وظيفي؛ فالتعلمُ من أجل العلم، وما يأتي من مكتسبات فهي بالنسبة للطالب ثانوية؛ غير أن شواغر الوظائف تتخطف حصرم العنب.

وتلك السنوات الطوال مكنتني من التعرف على تحولات المناهج وطرق التعليم وسياساته وأهدافه ووسائله، ورجل دَرَّس في الابتدائي والمتوسط والثانوي والجامعي، والدراسات العليا وأشرف وناقش عدداً من رسائل الماجستير والدكتوراه وحُكِّم في بحوث الترقية لأستاذ مشارك، لا بدَّ أن يتوفر على خبرة ومعرفة، وأن يكون خبيراً بدخائل التعليم، ولكنه في الوقت نفسه يعرف ضخامة جهله وضحالة علمه، ولما كانت مخرجات التعليم دون المستوى المؤمل، فقد طاشت سهام النقد وتبادل أطرافُ القضية أبشع الاتهامات، وما زالت الحلقة مفقودة، وأي مقدمة خاطئة لا يمكن أن تؤدي إلى نتائج صائبة.

والخطأ حين لا يُسْتدرك يتحول إلى خطيئة، ومن الخير لذوي الشأن أن يتخلوا عن الإسقاط أو البحث عن مشاجب، وأن يتقبلوا قدرهم بثقة واطمئنان، وإذ يتفق الجميع على أن هناك ضعفاً في المعرفة والوعي والأمانة، فإن الواجب مبادرة المشاكل، وإيقاف التدهور، ثم البحث عن الأسباب والمسببات، وبدء رحلة التصحيح خطوة خطوة؛ إذ القفز

---

(١) تاريخ المقال: ٨/ ٧/ ٢٠٠٨

لا يجدي. ولكيلا نرمي الكرة في شباك واحد نقول: إن أسباب الضعف قسمة بين كل الأطراف، ولن تُحسم المشاكل إلا بالشعور المشترك.

إن هناك مآخذ على المقررات من حيث النوع والكمية والأولوية وعلى المناهج وأساليب التوصيل، وعلى البيت والمدرسة وأجواء التعليم، وعلى الواقع المشحون بالمغريات، وتفادي الأخطاء لا يمكن أن ينهض به طرف دون آخر. إن هناك نوعاً من التخلي والاتكالية واحتمال الضعف والاستخفاف بالنتائج، وأي أمة يعتريها الضعف لابد أن تفكر في تعليمها، وأن يكون التفكير من الكل وباتجاه الكل.

لقد قيل أعطني مديراً أعطك تربية ناجحة، وقيل أعطني مدرساً قوياً في مادته وفي شخصيته أعطك طالباً متفوقاً، وقيل أعطني مدرسة حديثة بمكتبتها ومختبرها وملاعبها ومعاملها ومقاصفها أعطك جيلا متألقاً، وقيل .. وقيل، ولما تزل الإشكالية غائبة. إن العملية التعليمية لا تقوم على مفردة من مفردات التعليم إنها تركيبة معقدة، وسيظل الحلُّ غائئ، بأ وإن أغدقت الدولة على التعليم.

إن المادة وحدها غير كافية، المادة غير المرشَّدة كالماء غير المرشد لا يزيد إلا وحلاً، إشكالية التعليم في الإنفاق السخي عبر المنضبط. لابد من دراسة شاملة موسَّعة يشترك فيها العلماء والأدباء والمفكرون ورجال الأعمال وسائر الأطراف المؤثرة في التنمية الشاملة. التعليم قضية الأمة، والأمة أولى بقضاياها، والمسألة في النهاية عرض وطلب. لقد نسيت الحديث عن الذكريات العذاب في غمرة التساؤل عن مشاكل التعليم واضطراب الآراء وتبادل الاتهامات.

قلت إن خمسين سنة مرت مليئة بالأحداث والتجارب، وبودي لو توفر الجهد والوقت لبث هذه الأحداث وتلك التجارب، وكم من محب ناشدني تدارك الأمر وقيد الأوابد، ولكن ضعف الجهد وشح الزمن يحول دون المراد، وعسى أن يأتي الزمن المواتي لتدارك ما فات. لقد أثبتت التجارب أن الحياة بحدِّ ذاتها جامعة، والذين خاضوها بعقول واعية حولتهم إلى عباقرة، ومن المسيء أن يكون هذا العصر عصر بطاقات وشهادات وليس عصر كفاءات، ومن ثم تهافت الجميع على الألقاب العلمية وأصبحت الشهادات تباع بسوق النخاسة، وما درى أولئك أن المواهب كامنة في النفوس، وأن القليل من الناس من يكتشف مواهب نفسه، وكم من موهوب أضاع نفسه أو أضاعه قومه:

أضـــــاعوني وأي فتـــــى أضـــــاعوا

ليـــــوم كريهـــــة وســـــداد ثغـــــر

نعم.. إن العلم وحده لا يصنع الرجال؛ فلا بدَّ من الاستعداد الفطري، وصدق رسول الله: «**فرب مُبَلَّغ أوعى من سامع**».

وفي الحديث المتفق على صحته: «**مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء، ولا تنبت كلأً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فَعَلِم وعلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به**».

إن هناك أوعية علم أشبه بالمستودعات التي تتكدس فيها البضائع، وهناك معامل تمد الحياة بكل جديد، وكم هو الفرق بين النحل والنمل! النحل يمتص نسغ الأزهار ثم يمجه عسلاً مصفى، والنمل يجمع الحبوب ولا يغير من خلقها شيئاً، وقد يكون جهد النمل أضعاف جهد النحل، ولو أدرك الناس تلك الفوارق لوضعوا الأمور في مواضعها.

لقد قطع (محمود محمد شاكر) تعليمه وأغلق على نفسه مكتبته؛ فكان حملة الشهادات العليا من صغار طلبته، ولم يكمل (عباس محمود العقاد) دراسته المتوسطة، وأقبل على القراءة بنهم فكان علماً من أعلام الفكر والأدب، والمسألة في النهاية استعداد ذاتي، ولقد شهدت في مشواري التعليمي طلاباً يزنون بعقولهم ووعيهم وثقافتهم حملة الشهادات العليا. ومن تصور أن الشهادات أو الوظائف العليا هي المقياس الحقيقي للكفاءة فقد ضل سواء السبيل. إن المسألة في النهاية حظوظ وأقسام، وكلٌّ ميسَّر لما خُلق له، والمثل الإنجليزي يقول: (لا تكن عبداً إلا بإرادتك)؛ فالاستسلام للشائعات والمواضعات والأعراف يُلغي الحقائق ويُعطل القدرات ويصادر الحقوق. ولما هبت الشعوب طردت المستعمر وحكمت نفسها بنفسها.

لقد فوت الناس على أنفسهم أشياء كثيرة بسبب المواضعات التي أصبحت بقوة المسلمات، ولو أن الراصد لحراك الحياة دقَّتْ ملاحظته لأدرك أن أتفه الأشياء يمكن أن تُعطي الإنسان درساً لا تتسع له المجلدات، ويكفي أن يقوم (كتاب الحيوان) لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ أو جُلّه على دقة الملاحظة وقوة الحفظ والخبرة الشخصية، والحياة في النهاية فرص وحظوظ، والعدل في إتاحة الفرص، نصف قرن مرَّ لا ريث ولا عجل، عرفت فيه الحياة بإنسانها وأنساقها، نشأت في ظلالها علاقات ود خالص ومداراة مريرة:

ومن نكد الدنيا على الحرِّ أن يرى
عدوًّا له ما من صداقته بدُّ

والأذى المحتمل لم يكن وقعاً ذاتياً، ولكن الإنسان المسكون بهموم أمته يسوؤه أن يراها تحت ضربات موجعة لا تستطيع دفعها ولا ردها بمثلها. لقد سعدت بما أنجزت ورضيت بما لقيت ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾.

هذا التاريخ الطويل الذي طواه كرُّ الجديدين لا عزاء له إلا آلاف الطلبة الذين يملؤون الرحب من حملة الشهادات ومختلف التخصصات، فبهم أؤكد الذات، وهم العمر الثاني، وأخسر الناس من يطويه النسيان، فلا يكون له علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له، أشرف بهم واعتز بالمراكز التي احتلوها، والعلم الذي حققوه، عشرات من الدكاترة في القسم الذي أعمل فيه كأستاذ غير متفرغ أجد فيهم شبابي، وأحقق طموحاتي واستقرئ آمالي وتطلعاتي، رضوا مني بجهد المقل، وأغرقوني برد الجميل.

وتلك سنة الله في حلقة أجيال تتبادل المواقع، وتتوارث المسؤوليات، ولو دامت لغيرك لما وصلت إليك، إننا بحاجة إلى تقبل هذه السُّنَّة بثقة واطمئنان.

وعلى كل مقبل على الحياة بحيوية أن يعرف أنه مفارق وعليه أن يعد العدة لهذه اللحظة اليقين.

وصدق الله ﴿وَاعبد رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾، وعسى أن يكون في العمر بقية لنعيد معاً قراءة هذا الزمن المليء بالذكريات والمغامرات والنجاحات والإخفاقات والتجارب والمكتسبات.

لقاء لم يتم مع المسيري .. ؟[١]

كنت في القاهرة مشاركاً في المؤتمر الدولي الخامس لقراءة المشروع النقدي للدكتور عبد العزيز حمودة - رحمه الله -، وكان من المقرر أن يكون للمفكر العربي الكبير عبد الوهاب المسيري كلمة في حفل الافتتاح؛ إذ تم الاتفاق معه للمشاركة بوصف المؤتمر من تنفيذ مكتب رابطة الأدب الإسلامي العالمية بالقاهرة، ولقد طبعت مشاركته في أوراق المؤتمر، ويوم الافتتاح صباح الثلاثاء الموافق ٢-٧- ٢٠٠٨م اعتذر المقدِّم عن حضور المسيري لعارض ألمّ به، وفي جلسة الخميس الصباحية أعلن رئيس الجلسة عن وفاة المسيري؛ فكان النبأ مؤلماً، وإن لم يكن مستبعداً؛ فالرجل ظل يعاني من سرطان الدم طوال سبع سنوات، ولأنه معارض سياسي عنيف ويرأس حركة (كفاية) فقد ظل مهمشاً من قبل المؤسسات السياسية والإعلامية، ولم تبادر لعلاجه أثناء معاناته فيما استقبلته أرقى مستشفيات المملكة تقديراً لإسهاماته الفكرية والسياسية، وأحسب أنه كان عنيفاً في معارضته وفي تطلعه للإصلاح السياسي، ولست معنياً في هذا الجانب؛ فذلك شأنه وتقديره، وكل الذي يهمني الجانب الفكري في حياته وموقفه المتميز من الصهيونية العالمية، حتى لقد توقع البعض أنه دفع حياته ثمناً لهذا الموقف، وبخاصة بعدما أنجز موسوعته العلمية عن (اليهود واليهودية والصهيونية) في ثمانية مجلدات ضخام، والتي أمضى ربع قرن من حياته لإنجازها بهذا الحجم والعمق والشمول، ولربما كانت المشروع الأهم في حياته الحافلة بجلائل الأعمال، وبها أصبح من أعلام الفكر المعاصر.

والغريب أن جهوده في تعرية الصهيونية لم تقتصر على الموسوعة بل أنجز عدداً من الكتب؛ الأمر الذي جعله من ألد خصوم اليهودية والصهيونية.

ولأني كنت يوم وفاته في القاهرة بعيداً عن حقله في مكتبتي؛ فقد اضطررت إلى التأخر في المشاركة في تأبين فقيد بحجمه؛ إذ ما كنت لأقتصر على التّفجُّع والثناء، ولا سيما أنه قد تعرض للتعتيم الإعلامي، ولم يكن حاضراً إلا من خلال كتبه، أو عند المهتمين بالموضوعية والمعرفة والموسوعية، على أن محبيه والمعجبين بجهوده قد كرموه في حياته بحيث استكتبوا عشرات الأدباء والإعلاميين والسياسيين، وذلك بعد صدور موسوعته الهامة، التي نفدت طبعتها الأولى، في وقت قياسي، على الرغم من أنه أخرجها مختصرة في مجلدين للعامة، والكتاب التكريمي يقع في مجلدين كبيرين تحت عنوان (في عالم عبد الوهاب المسيري حوار نقدي حضاري) والكتاب بجزءيه ينيف على ألف ومائة صفحة، وهو عبارة عن دراسات لدراساته واتجاهاته الفكرية تظافر على إنجازها لفيف من الأدباء والمفكرين المعاصرين له، تناولت الدراسات في الجزء الأول الإطار النظري والموسوعة، فيما تناول المجلد الثاني دراسات وشهادات، وقد أسهم في كتاب التكريم أكثر من ثمانين كاتباً من مختلف بقاع العالم ومن كل التيارات الفكرية والأدبية، ومن المملكة اشترك الأستاذ الدكتور سعد البازعي الذي اختار المدخل السِّيْري، مشيراً إلى عمله بجامعة الملك سعود أستاذاً في قسم اللغة الإنجليزية في المدة من عام ١٩٨٣ - ١٩٨٨م.

والمسيري على الرغم من إغراقه في دراسة الفكر الصهيوني وتاريخه كان له اهتمام في الفكر السياسي، وله إسهامات متميزة، لعل من أبرزها كتابه (العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة) في جزءين كبيرين، وأحسبه من أفضل المستوعبين والمتحدثين عن هذه النزعة المزعجة التي شغلت المشاهد كلها وفرقت الأمة وزلّت بها أقدام وضلت بها

---

(١) تاريخ المقال: ١٥/ ٧/ ٢٠٠٨

أفهام، ولم يحظ غيرها بما حظيت به، لكنها ظلت أكثر غموضاً واحتمالاً لمزيد من الاختلاف، ولا سيما أنها كانت المادة الرئيسة للحركات الإسلامية؛ إذ جعلوها مزبلة التاريخ الفكري والسياسي، مثلما كانت الزندقة في العصر العباسي.

واشتغاله باليهودية والصهيونية لا يضارعه فيه أحد، وجماع ذلك الاشتغال كله موسوعته التي سدت فراغاً وأثارت جدلاً وكشفت عن جذور الصهيونية وحررت ما يتعلق ب(البروتوكولات) ويكفي لإيضاح اهتمامه باليهودية والصهيونية تأليفه لأكثر من خمسة وعشرين كتاباً تناول فيها مفهوم الخطاب والمصطلح والأكاذيب والتاريخ والبروتوكولات والحركات الهدامة والسرية والعنصرية والأيديولوجية وأسرار العقل الصهيوني ونهاية التاريخ، وهو في الكتب السياسية والفكرية يعرج على الفكر الصهيوني بوصفه مسهماً في توجيه الخطاب الفكري والسياسي العالمي.

ودراساته التحليلية والوصفية والتاريخية والنقدية تنطلق من ارتباطه بفكره العربي الإسلامي، ومن ثم فإن قراءته غير حيادية وغير بريئة، ولكنه يمتلك مع ذلك الموضوعية والمنهجية والعمق المعرفي الذي قد لا يتوفر عليه غيره ممن آخذهم التجييش العاطفي، والعلمانية بكل مفاهيمها ومراحلها التاريخية والجغرافية الفكرية شغلت المسيري بمثل ما شغلته الصهيونية بوصفها متعالقة مع كل التيارات الفكرية، وميزته كما يشير الباحث التونسي (رفيق بوشلاقه) خروجه من أسرِ الأنماط الفكرية السائدة والمقولات الجاهزة في التعاطي مع هذا المبحث بدرجة عالية من العمق والنقد، والأهم من ذلك إثراء المفهوم بنحت مصطلحات ومفاهيم خاصة، ومحاولة الخلوص من إشكالية التعريف الذي ظل متاهة فكرية.

ولأنه موكل بالفكر اليهودي منه ينطلق وإليه يعود؛ فقد نظر إلى الإنسان بوصفه ظاهرة مركبة معقدة من خلال رؤية إنسانية وبوصفه جزءاً لا يتجزأ من الطبيعة، وبصفته الفردية وبصفته الجمعية من خلال رؤى أخرى، فقد ربط ذلك كله بالرؤية اليهودية، ولهذا يشير إلى أن الكتاب يحاول تطبيق المنهج التفسيري من خلال نماذج مركبة على ظواهر حضارية مختلفة ومتنوعة مثل الماسونية والرأسمالية ومعاداة السامية والإبادة النازية ليهود أوروبا، جاء ذلك في كتابه (دفاع عن الإنسان)، وحتى حين يتحدث عن اللغة والمجاز، لا من حيث التوظيف الجمالي، وإنما من حيث التوظيف السياسي، فإنه يقحم الصورة المجازية والرؤية الصهيونية للذات والصور المجازية وتفكيك العقل الصهيوني، وكتاب (اللغة والمجاز) دراسة بكر لتوظيف المجاز للأغراض الاستعمارية؛ ولهذا يشير إلى أن دراسة الخطاب السياسي الغربي يكشف عن استخدام صور مجازية كثيرة تعبر عن الرؤية الغربية للعالم، ولكنها تبدو كما لو كانت محايدة، وهو يتجاوز الاستخدام السياسي إلى التوظيف الديني بحيث يكشف علاقة المجاز بالتوحيد ووحدة الوجود.

والمسيري في جدله العنيف مع الفكر الغربي يتوسل بالمنهج الفلسفي وآليته ومن ثم يقل استحضاره للمرجعية النصية الإسلامية، وتفكيك فكره ومنهجه يكشف عن مفكر إسلامي من نوع جديد بحيث لا تضعه بإزاء الغزالي أو القرضاوي من جهة أو راشد الغنوشي أو مالك بن نبي من جهة أخرى. إن يشكل تياراً آخر، إنه يدافع عن الفكر العربي والتراث العربي والاستقلال الحضاري العربي، وهذا الانفتاح الذي لم يصل إلى حد السيلان الحداثي جعله صاحب خطاب توفيقي يتسع لأكثر من تيار، كل الذي يشغله استقلالية الخطاب وتميزه ومحافظته على السيادة وتحركه بندية، ولأنه مستوعب للحضارة الغربية فإنه لا يمانع من التداخل والتبادل، ولكن في حدود المحافظة على الهوية والخصوصية، لا بمفهومها المتعالي والاستغنائي، وتلك رؤية تجعله من أهل الأعراف؛

لأنه يمتلك خطاباً معرفياً يحترم الآخر ولا يذوب فيه، ويتفاعل معه ولا يستكين له، وسواء اتفقت معه أو اختلفت فإنك بحاجة أمسّ إلى مثله، وفكره ومنجزه إضافة لا يستهان بها، وسيكون لتراثه شأن أهم في مستقبل الحياة الفكرية والسياسية، وبخاصة ما يتعلق باليهودية والصهيونية والقضايا الفلسطينية، تلك إلمامة سريعة لم تمتد إلى إسهاماته الأدبية ولا إلى حركته الإصلاحية من خلال مؤسسته التي يرأسها (كفاية).. رحمه الله رحمة واسعة.

تداعيات المأزق الحضاري .. ! (١)[1]

من الخطأ الكبير الذي تقع فيه النخبة المتّسمة بصفة (الانتلجنسيا) بمفهومها الاجتماعي، القائم على توظيف القدرات العقلية والخلفيات المعرفية والتجاربية لخدمة الجماعة دون احتوائها حزبياً أو طائفياً، أن تتصور المأزق الحضاري آنياً أو خاصاً بجنس أو نحلة، أو أنّه غير مقدورٍ على تفاديه أو إيقاف تدهوره على الأقل، إذ ما من حضارة إلاّ هي بين إقبال وإدبار، وتجدد واندثار، ولقد أدرك ذلك عالم الاجتماع والتاريخ العربي (ابن خلدون) وتلك الرؤية لا تتعارض مع حفظ الله للذِّكر الحكيم وبه حفظ الإسلام، إذْ أخبر الرسول ﷺ أنّ الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، وأنّ الساعة لا تقوم وفي الأرض من يقول الله الله، ومن الوهم القطع بأنّ الأُمّة الإسلامية المأزومة في راهنها لم تعشْ المأزقية بكلِّ مرارتها وفداحة آثارها في خير قرونها، لقد سَجَّل القرآن الكريم والتاريخ الإسلامي مواقف عصيبة هزّت كيان الأمّة، وكادت تقضي عليها، فسودة براءة وحديث الإفْك، وحروب الردّة، واغتيال ثلاثة من الخلفاء الراشدين والفتنة الكبرى التي بدأت في خلافة عثمان بن عفان وبلغت ذروتها في خلافة علي، مأزق تركت أفدح الأثر، ودرك الشقاء فيما تركه (عبد الله بن سبأ) حين أحدث شرخاً في وحدتها الفكرية. هذا الصنف من المتنخبوين حين يتصدّر المشاهد ثم يستبعد الغمَّ والغمّة أو حين يستحكم به اليأس، ثم لا يرفع رأساً ولا يتحرف للخلاص يكون كمن أمِنَ مَكْر الله أو يَئِس من روحه، واستعادة الأزمات من غياهب التاريخ لا يعني التبرير ولا التعذير ولا التخلِّي عن المسؤولية المشتركة بين أطياف المجتمع.

والأُمّة الإسلامية مطالبة في كل لحظة من حياتها وأحوالها بمراجعة نفسها وتقويم منجزها والتحرف للخلاص من أي إخفاق، ولقد نهض علماء أفذاذ للإصلاح والتربية وتنقية مصادر التشريع من أيّ تأويل فاسد، وكل عالم يعالج الأدواء القائمة بالإمكانيات المتاحة، وتجهيز خطاب ملائم وقادر على تلافي الأخطاء، ولقد شهد التاريخ الإسلامي خطابات متعدّدة استجابت للواقع المعاش ووفق الطاقة، وأي استدعاء للتاريخ وأزماته لا يكون حافزاً على التحرف أو التحيز أو الاتعاظ يكون مثبطاً للعزمات، وكل غفلة تفوت على الأُمّة أخذ الحذر والأسلحة تجعلها عرضة للافتتان، ومن المسيء أن يظل البعض يُذكِّر بالفترات المضيئة لتحطيم المشاعر لا لاستنهاض الهمم، والأسوأ منه من يُمْعن في التخذيل والاستهجان والإحباط والتيئيس وجلد الذات، وتقديم التفوق المدني للغرب على أنّه المنقذ من الهلكة والتيه بوصفه تجربة حية مكّنت له في الأرض، وكأنّ تخلُّف المسلمين مقترف مَبْدئي لا تطبيقي، وممارسة هذا النوع من الخبال لا يزيد الأُمّة إلاّ هواناً وحزناً واستمراء للهزائم وتهافتاً مشيناً على تجربة الآخر دون تحرف ذاتي على حد:

فاللَّيْثُ لَيْس يسيغُ إلاّ ما افْتَرس

والناس بين مثالي مقطوع الصلة بالواقع وواقعي مقطوع الصلة بالمبادئ، والنادر من يقدِّر ويدبِّر ويزن الأمور ويوازن في الطرح ثم لا يكون أمره عليه غمة.

ومن استبعد العقاب أو الابتلاء أو الموعظة فيما ينتاب الأُمّة من نكبات في الأموال والأنفس والأوطان واكتفى بربط ذلك بالعوامل الطبيعية، فقد أمعن في الغفلة والجفوة ونسيان ما ذكر به وأغرق في المادية.

واستعادة الأحداث الحسام التي مُنيت بها الأُمّة الإسلامية للتدبُّر والاتعاظ وتفادي عودة التاريخ بكل مآسيه أجدى من الإغماض فيها أو تَبْئِيرها لتخوين السلف وإدانة

---

(١) تاريخ المقال: ٢٢/ ٧/ ٢٠٠٨

التاريخ وفقه الفتن يحدِّد الموقف السليم منها في القول والفعل، وخير المواقف موقف السلفية مما بدر بين صفوة الصفوة المتمثل بالكف عن الخوض باللسان بعد ما أُنْجوا من الخوض بالسنان، فالخوض في مثل تلك الفتن مضلة أفهام ومزلة أقدام، وليس هناك ما يمنع من استحضار الأحداث المؤلمة لتفادي الوقوع في مثلها، وبعض من عاشوا الأحداث أو استعادوها أخذهم الاندفاع العاطفي، ومن ثم لم يوفقوا في التفادي بل تنازعهم طرفا الإفراط والتفريط، وأوضح مثلين على ذلك (الخوارج) و(المرجئة) فطائفة ناوأت الحكام وثارت عليهم وأحدثت فراغات دستورية عرضت البلاد والعباد لفتن عمياء، وأخرى مالأت حكام الجور وبرَّرت مقترفاتهم حتى امتدت الممالأة إلى الإيمان، فكان على أقوال أربعة، أسوؤها القول بأنّ الإيمان يتحقق بالقول المجرّد، وأنّه ثابت لا يزيد ولا ينقص وإن لم تكن معرفة ولا عمل على أنّ هناك ارجاءً دون إرجاء، فإرجاء الفقهاء يختلف عن إرجاء المتكلمة ومباحث ذلك عند من كتبوا عن الإيمان وعن الملل والنحل، والذي يهمنا الجانب السياسي لأنّه مظنة الفتن، ومبعث الصراع والصدام.

والملل والنحل في جملتها إن هي إلاّ إفراز الممارسات السياسية الضاغطة، والناس في النهاية على دين ملوكهم، وبعض الممارسات قد لا يجد أهل الذِّكر لها حلاً ولا تبريراً ممّا يَسْتَتْبع التطرُّف في الآراء، وعند التشيؤ وتضاد المواقف تبدأ محاولة كل طائفة احتواء الرأي العام وحمله على تأييدها تحت وابل من الشعارات الزائفة، ولتحقيق مزيد من المكتسبات المضرة بالأُمّة فإنها تتعمّد الإسراف في الادعاء والكذب واختلاق أحاديث الوعد والوعيد وليّ أعناق النصوص بتأويلات فاسدة، ولقد أدى هذا التغرير والتزوير إلى أن حمل المُسْلم سلاحه في وجه أخيه المسلم، وتوقّفت الفتوحات الإسلامية، وأصبح بأس المسلمين بينهم شديداً، وهذه العداوات أدّت إلى فساد العقائد من جهة، ووهن النفوس والإحباط من جهة أخرى، ومن مضلات الفتن ما يذهب إليه البعض تحت تأثير الإحباط وزيف الادعاء من أنّ المنقذ للأُمّة من الوهن أخذها بعصم الحضارة المضادة واقتفاء أثرها وتطبيق مذاهبها الفكرية والسياسية والاجتماعية والثقافية وترديد مقولة: (التجربة أكبر برهان) وكم هو الفرق بين العلم البحث بوصفه مشتركاً إنسانياً، والفكر والثقافة والقيم الأخلاقية المتباينة والمجسّدة للخصوصية، وهذا مؤدّى قول الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾، والشرعة والمنهاج يختلفان عمّا شرع من أصول الدين في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً﴾ والتهافت على شرعة الآخر ومنهاجه يختلف عن المشترك الإنساني من علم ومكتشفات للسنن الكونية ومؤسسات مدنية، ومثل هذه الدعوات التي لا تفرق بين ما هو ديني وإنساني مؤشر جهل وتسطح وإغراق في التيه، ووقوع في حبائل مقولة إمّا العلمانية والتقدم أو الإسلام والتخلُّف. وكل مأزق حضاري يتمخض عن خطابات متشنجة لا تحسن إلاّ لغة التخوين والتجريم والتكفير، ولو ردت الظواهر الضاغطة إلى مصادرها لكان سوادها الأعظم من جَلَدِ المنافق وغفلة المؤمن.

والإسلام حين يكون نصاً مفتوحاً لكل جديد ومشاركاً أساسياً للإنسانية في العلم وفيما يُريه الله للموهوبين من خلقه من آيات في الآفاق وفي الأنفس، فإنّه لا يمنع من مشاركة الحضارات كافة في المكتشفات والمنجزات والآليات والإجراءات، إذ ليس في نصوصه ولا في مقاصده ما يمنع من محققات الغلبة وإعداد القوة المستطاعة حسياً ومعنوياً، ولن تتحقق الاستجابة لأمر الله إلاّ بالتحرف للصناعة والعلم والسير في مناكب الأرض واستقدام الكفاءات العالمية وبث الثقة في النفوس وتوفير الأجواء الملائمة محلياً وعالمياً

ليمارس الإنسان الموهوب العمل المنتج ويستغل ما وهبه الله من طاقات، وكل ما تتوصل إليه الإنسانية من مكتشفات وكل ما تحقق من مخترعات يعود نفعه للإنسانية دون النظر إلى جنس أو عقيدة، ولا أحسب الإسلام يحول دون توفير الأجواء المناسبة لاستغلال الطاقات الكامنة في البشر، ومن الخير أن تتوفر الأجواء والإمكانيات للإنسان العربي المسلم، فكما أنّه كلف بإنقاذ البشرية من التيه فإنّه مكلّف بتقديم الخدمات التي تكفل للإنسانية الأمن والحرية والرخاء، إنّ رسالة المسلم تتمثّل في عبادة الخالق كما أمر وعمارة الكون وهداية البشرية وفي الحديث «**لأنْ يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم**».

ولن يتم شيء من ذلك إلاّ بصياغة خطاب يحقق كرامة الإنسان كما أرادها من كرَّم بني آدم. والتكريم بمفهومه العام لا يحول دون امتهان من خالف أمر ربه ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾ فكرامة الإنسان بصفته الإنسانية لا تتعارض مع ما يعرض من كسب يرديه وهذا ما يدل عليه حديث الغثائية.

تداعيات المأزق الحضاري .. ! (٢) [1]

وأرجو في ظل هذه الفوضى الفعلية والقولية غير الخلاّقة التي تجتاح مشاهدنا العربية والإسلامية ألا تصدُق علينا مقولة (بوليفار) عن (أمريكا اللاتينية): (لا وجود للثقة الحسنة في أمريكا لا بين الناس ولا بين الدول، المعاهدات أوراق، والدساتير كتب، والانتخابات معارك، والحرية فوضى، والحياة تعذيب، العمل الوحيد الذي يستطيع الإنسان القيام به في أمريكا هو أن يهاجر)، ومؤشر الاضطراب أنني عندما حذَّرت من خلل (الوحدة الفكرية) في إحدى محاضراتي، عدّها البعض مقولة كارثية، ظناً منه أنها مصادرة للرأي وإجهاض للحوار وتعدّ على التعددية، وإغلاق لباب الاجتهاد المشروع بشروطه وإمكانياته، وتجريم للمعارضة مع أن ما أعنيه بالوحدة ضبط الإيقاع واحترام المرجعية وتعزيز الثوابت وتحقيق الخصوصية التي هي حق مشروع لكل كائن حسي أو معنوي فردي أو جمعي، وتحديد المسار والتفريق بين الاختلاف المعتبر والتفرق المحظور، واختلاف التنوع مصطلح أصولي حرره العلماء وفرقوا بينه وبين سائر الاختلافات، وخير من تقصى ذلك شيخ المقاصد ومحررها (الشاطبي) صاحب الموافقات، وشيخ الإسلام (ابن تيمية) رحمهما الله، ومن كتب من المتأخرين عن فقه الائتلاف وفقه الاختلاف وفق التعامل مع المخالف وفقه الخلاف بين المسلمين، إن الذي أقصده بالوحدة الفكرية يختلف تماما عمّا يتصوره البعض.

وآفة المشاهد اضطراب المفاهيم حول المقاصد الذاتية، وكيف أسمح لنفسي قفل باب الاجتهاد واستبعاد اختلاف وجهات النظر، والعقول مختلفة والنصوص حمّالة. والذين يتعمدون نسف الجسور وتعطيل قنوات التواصل والتوصيل ويستبعدون القواسم المشتركة هم المصابون بالأثرة والمصادرة وعدم التفسح في المجالس، والله لا يفسح إلا لمن تفسح للحق وللمستحق، واستيقن قلبُه ذلك كله.

وإشكالية بعض الخطابات تلبسها غير الواعي بالأدلجة والتسييس، وفراغها من المعرفة الشاملة والتجربة الحصيفة وفقدها لبعد النظر وإنزال الأمور منازلها، وبخاصة عند معالجة الأوضاع القائمة، ومكمن الخطورة أن وراء سوء الأحوال من يود ازديادها وارتكاس أهلها في أوحالها، وأن بين ذويها من يظن أنها بنت لحظتها، وأن ليس لها من مصادر إلا ضعف الذات وجهلها.

وقيام الضعف والجهل لا يكفي لتقصي المصادر والموارد وغياب شيء من الأسباب إن لم يعقِّد المسائل فإنه يبطئ بحسمها وتقليل مؤونة معالجتها، وذلك بعض مؤزِّمات الحضارة، وابتسار الجزئيات هدر للطاقات، وإرباك للمسيرة.

وإذ لا نجد حرجا من التماس الموزون بين الفكر السياسي والديني فإن حساسية الموقف تتطلب أخذ الحذر، واتقاء تقديم العربة على الحصان.

فالذين يخوضون في مثل هذه الأحاديث الحساسة يبتدرون الأحكام، ولا يرقبون النضوج، بحيث لا تجد إلا تجريحاً أو تكفيراً أو تفسيقاً أو استخفافاً أو تهويناً وتوهيناً، وليست تلك الاتهامات بأقل سوءاً من تحمل الدعاة والمؤسسات الدينية ما لا تحتمل من الاتهامات، وعدها مصدر التشدد والعنف، وإذ لا نحمل أنفسنا مسؤولية التزكية أو الإدانة، فإن من مصلحة الأمة أن نواجه قدرنا بثقة، وأن لا يكون شغلنا الشاغل التنصل من المسؤولية ولا أن نظن أن المشكلات بِنْتَ لحظتها، ومن حشر نفسه في أي زاوية أهدر طاقاته، وعمَّق المآزق، وأخلى الثغور.

---

(١) تاريخ المقال: ٢٩/ ٧/ ٢٠٠٨

والعقيدة السليمة من الشوائب تأخذ بحجز ذويها عن الإثارة والتهييج لأن الخطابات التحريضية تعوِّض جسور التواصل، وتقطِّع الأرحام، وإذ مرت المآزق الحضارية في القرون الأولى بسلام فإنها لن تمر اليوم كما مرت بالأمس لفقد التكافؤ مع الحضارات المناوئة، ولوجود من يمتلك فتح الملفات المغلقة أو المتوهمة وفتحها كما قيام الفتن أو بدء الحروب تُملك البداية ولا تُملك النهاية.

لقد كانت إشكاليات المثقفين من قبل مع السلطة أو مع أهل الذكر، وهي إشكاليات لا يستهان بها، ولكنها بلا شك دون ما هو قائم، أما المثقفون اليوم فيصطدمون مع جبهتين خطيرتين (الدين) و(الرأي العام) فيما تظل السلطة خارج السياق، والمأثور أن الرسول ﷺ كان أشدّ حرصاً على المتلقين في أمر العقائد، بحيث لا يتيح أية فرصة للقول بالرأي أو التزود من الآخر أما ما سوى ذلك، فهو الأشد حرصاً على استثمار التجربة والخبرة، لقد عوَّل على خبرة (أبي الأريقط الدؤلي) وهو مشرك، وغضب على (عمر بن الخطاب) حين وجد معه شيئا من التوراة، مما يؤكد الانتفاع بالمنجز البشري في العلوم البحتة والخبرة، أما تحقيق التصور الإيماني والأخلاقي فالتلقي لا يكون إلا من المشرِّع، واتباعُ السنن والتقليد الأعمى شأن المنهزمين، وهو ارتداد على الأدبار، فماذا استفادت الأمة العربية من صلتها بالغرب، لقد كان غيرنا يقتبس اقتباس التحقيق أما التبعيون من أمتنا فيسترفدون استرفاد التقليد، وكم هو الفرق بين الاستفادة من ظواهر الحياة الدنيا، وتقمص الأخلاق والتصورات التي حذر منها العلماء، و(لأبي الأعلى المودودي) في كتابه (الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة) رؤية صائبة في مجال استثمار المنجز الإنساني في مجال العلم والمدنية، والمتحَدِّثون بالتجربة (اليابانية) لم يستوعبوا الخلفية التاريخية وإمكانيات كل من الطرفين (الياباني) و(العربي) قبل التواصل، ولمَّا لم أكن بصدد تحقيق الملابسات فإنني أود ترشيد النقد ليكون القطع مفصليا لا يتجاوز المحز، إذ مللنا من التلاوم، وترديد النقد الذي لا يصيب المقصود خاصة، وما تفيض به المشاهد كافة يبعث على الشك والارتياب والخوف، وإن لم يكن هاجس المتناجين من باب التناجي بالإثم والعدوان، فكم من غافل أو مغفل يخرب أشياء أمته بيده، ظنا منه أن سوء عمله حسن، وفي التنزيل: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ ومن الخير لهذا الصنف المتهافت على فتات الموائد أن تعدو عينه إلى ما خلّفه التاريخ بكل مراحله من وثائق، وما كتبه القادة والزعماء وصناع القرار والمفكرون من مذكرات، وما رصده المؤرخون من أسباب أدت إلى سقوط الدول واضمحلال الحضارات، لقد كنت حديث عهد بقراءة (مذكرات السلطان عبد الحميد) وكتاب (الدولة العثمانية: عوامل النهوض وأسباب السقوط) للدكتور علي بن محمد الصلابي، وكنت من قبل قد استعرضت على عجل (نشوء وسقوط القوى العظمى) لـ(بول كينيدي) الذي أنجز أضخم استشراف للمستقبل في كتابه (الإعداد للقرن الحادي والعشرين) وأذكر أنني أشرت إلى هذين الكتابين في بعض ما عرضت له من مؤلفات مؤثرة على مسار الفكر السياسي، وأمنيتي أن أعود إليها بنفسٍ أطول وتَشْوير أعمق، فنحن أحوج ما نكون في ظل هذه المخاضات المؤلمة إلى التأسيس المعرفي لنربط على القلوب ونثبت الأفئدة والأقدام.

وخلاصة القول: أن للمآزق الحضارية التي تختنق في مضائقها الأمة تداعياتها غير أنها تمرق من الذاكرة كما يمرق السهم من الرَّمِيَّة بحيث لا يعلق فيه منها شيء، وكيف تغني الآيات والنذر عن قوم لا يعقلون الأحداث والحوادث ولا يزنون الأمور، ومثلما أن الأمة بحاجة إلى قادة سياسيين محنكين فإنها أحوج ما تكون إلى قادة فكر واعين يتلقون التداعيات كما تتلقى الأرض الطيبة وابل المطر وطلّه، فهل من مبتدر مدَّكر.

من حتمية الصدام إلى احتمالية الوئام .. ![1]

حتمية الخلاف داخل المنظومة الواحدة أو بين الفرقاء المتشاكسين أزليةٌ، بل تكاد تكون الظاهرة الطبيعية المتوقعة: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ والوفاق التام هو النشز، والتدافع والتداول لا يتحققان إلا بالصراع، ودرؤهما أو التخفيف من حدتهما لا يكون بالحسم، وإنما يكون بالتأجيل، ولو كان بإمكان أحدٍ أن يجمع الأطراف كلها بشكل نهائي على كلمة واحدة، لكان ذلك لأولي العزم من الرسل.

والنجاح المتفوق لمن يُرْجِئ ساعة الانفجار أو يخفف حدة التوتر، ولو إلى حين. وإرادة الله الكونية نافذة لا تبديل لها ولا تحويل، وتلك المشيئة التي لا تتجزأ، أما إرادته الشرعية فهي المتجزئة، ولهذا شاء لها -لحكمة بالغة لا يعلمها إلا هو- ألا تكون بالضرورة نافذة، وذلك مكمن التخيير والتسيير اللذين يتجاذبان الإنسان الذي حُمِّل الأمانة فحملها عن ظلم وجهل، ولو شاء ربك لهدى الناس جميعاً، وجمعهم على كلمة التقوى، ولكي يظل الصراع على أشده قضى بموت الرسل، مثلما يموت سائر الناس: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ فيما استجاب لطلب (إبليس): ﴿قَالَ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ كما داول الأيام بين الأمم، وفتن الناس، وقد حسبوا أنهم لا يُفتنون، ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين، وإذا قضى ربك أن تكون المرجعية النصية باقية محفوظة تتعاقب عليها الأحقاب، فقد هيأها لمواجهة أي نازلة، والنص المقدس بوصفه المردود إليه ينشق عن دلالات ليست بالحسبان، وصدق رسول الله: «**رُبَّ مُبَلَّغٍ أوعى من سامع**» وخلود النص يتحقق باتساع فضائه لكل الاحتمالات، فالأحوال والتحولات والنوازل توجه بوصلة النص.

فالقوة توجه صوب الفصل الحاسم، والضعف يوجه صوب النص الحمَّال، حتى لقد قال البعض بتعذر النسخ، وما هو موهم به يُعَدُّ من باب الأحكام المرحلية، وإشكالية النسخ تهافت عليها المستشرقون ومن شايعهم من المرتابين، مثلما تهافتوا على أسباب النزول وخصوص السبب والرسم العثماني وجمع القرآن والمتشابه وتلبسه باللغة وإمكانية أَنْسَنَتِه، واحتمال الدلالات لا يحملنا على الإغراق في هذه المتاهات المُضِلَّة، وإن كانت قائمة على أشدها، وما نود تحريره في شأن حوار الحضارات لا يستدعي السعي للتوفيق بين الآراء المتضاربة، وإنما يستدعي إمكانية تنوع الخطاب واستجابته للظروف المعاشة.

والاختلاف حول الإمكانيات واتساع النصوص وقع فيه غيرنا، فطائفة تؤكد على صدام الحضارات، وأخرى تُبشر بإمكانية تعايش الثقافات إذ لم يكن الخطاب العربي وحده المتشائم، والمتقصي لوجهات النظر يجد أنه ليس بين خطاب الصدام والوئام تناقضٌ متى عرف كل قومٍ حدود محققات حضارة الانتماء، ومتى روعيت الثوابت وعرفت إمكانيات كل الأطراف ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ وفي الدعاء: ﴿رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ وهل هناك تكليف وتحميل يوازي مواجهة الغرب وقواه المتغطرسة بإمكانيات وآليات متواضعة هي من صنعه؟ ﴿وَلَوْ أَرَادُواْ الْخُرُوجَ لأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً﴾.

---

(١) تاريخ المقال: ٥/ ٨/ ٢٠٠٨

والحياة الدنيا مرحلةُ امتحان للقدرة على التصرف الحكيم في الأزمات، وابتلاءٌ للقدرة على الصبر والمصابرة، واكتشافٌ لقدرات المكلف الاحتمالية والاستنباطية، فالذي أمر (موسى) بمواجهة من يدعي الربوبية بالقول اللين هو الذي أمر (محمداً) وقومه بأن يجد المشركون فيهم غلظة، وهو الآمر بإجارة المشرك وإبلاغه مأمنه، وهو الذي أمر بالبر والإقساط لمن لم يقاتل في الدين ويُخرِج من الديار ويظاهر على المسلمين، وهو الذي أمر بالجنوح إلى السلام، والذين يتصورون واحدية الخطاب في حالة القوة والضعف، ويتمسكون بجهاد الطلب يُعرِّضون مثمناتِ الأمة ومكتسباتها للشر المستطير، ومثل أولئك من يظنون الجنوح إلى السلام مدعاة للتخلي عن إعداد المستطاع من القوة والاستعداد للحرب.

فالجهاد والسلام والعهود مصطلحات لا يكون شيء منها مشروعاً إلا في ظروفه المناسبة له، كما أن الغلظة واللين أحوال إذا شرع أحدهما حُظِر الآخر، وليس أدل على خطأ التقدير والتوقيت من ممارسة المواجهة غير المتكافئة وغير الحضارية وغير المستكملة لشروط الجهاد ومسوغاته التي أدت إلى فرض التحدي على أمة مستضعفة في وقت كان جهاد الكلمة على أشده، وكان النصر والتمكين فيه للخطاب الإسلامي، وكيف لا يحقق جهاد الكلمة أفضل النتائج والله جلَّ وعلا يقول لرسوله ﷺ: ﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ أي جاهدهم بالقرآن الكريم.

وليس أحد الجهادين أفضل من الآخر على الإطلاق، كما أن السِّلم والحرب يتفاضلان وفق الظروف والدواعي والإمكانيات، والحكماء الناصحون من يملكون وحدهم اختيار المكان والزمان ونوع المواجهة وآليتها، ولا يمكنون الطرف الآخر من الاختيار المناسب، وليس صحيحاً أن الذي يبدأ الحرب هو المنتصر، وأقل الوسائل لحسم المواقف هو السلاح، وإذا كانت الأمة قد نُدِبَتْ إلى مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن، فإن المواجهة بالسلاح تكون آخر الخيارات ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وخيار السلم أسلم.

لقد توغلت الدعوة الإسلامية في دول العالم وفي أمريكا بالذات، وتعددت الجمعيات وقامت المراكز وأنشئت المساجد، وتحقق للأقليات الإسلامية من الحرية والكرامة ما لم يتحقق لها من قبل، وحين اهتاج المارقون من الدين كما السهم يمرق من الرميَّة تنبهت المنظمات والمؤسسات السياسية والمباحثية والاستخباراتية ووضعت كل عمل إسلامي تحت المجهر، واستفحل التعدي والتحدي وذاق المسلمون أشد العذاب.

وفي هذا الراهن العصيب الذي أصبح فيه الإسلام والمسلمون مظنَّة الاتهام بكل مقوضات الحضارة والاستقرار العالمي، وتداعت فيه وسائل الإعلام والدعاية المغرضة على الدول الإسلامية كافة وعلى المملكة العربية والسعودية ومناهجها وعلمائها خاصة وأصبح من المتعذر الإغماض على ما يجري، كان لا بد من تحرف سديد وقول رشيد يحقُّ الحق ويبطل الباطل ويقطع دابر الفتن العمياء والإذلال المهين، وأصبح من الضروري أن يطرح ذوو الشأن خطاباً جديداً مناسباً للمرحلة مراعياً للإمكانيات والمستطاع مُتفادياً للتهلكة وتعريض بيضة الإسلام للاستباحة، وليس في ذلك خروج على المنهج الرباني فالتحيز للسلام والتصالح والتعايش في ظل القواسم المشتركة بوصفها مقتضيات إسلامية وإنقاذاً للأمة الإسلامية وإيقافاً للتدهور الذي أصابوه وفوت عليها فرص الدعوة المتاحة من قبل الحادي عشر من (سبتمبر) مطلبٌ ملح لا محيد منه ومن أراد غير سبيل المصلحين المجربين فهو مُحمِّلٌ لنفسه ولأمته فوق الطاقة.

ومن الناس من تنتابه هواجس مخيفة ليست من الدين في شيء، وبخاصة حين يستعيدُ بعض الدعوات الضالة، كالدعوة إلى وحدة الأديان وطبع الكتب الثلاثة (القرآن) و(التوراة) و(الإنجيل) في غلاف واحد، وبناء المسجد والكنيسة والبيعة في مكان واحد، أو المصير إلى ما يسمى بالإبراهيمية التي أغرم بها بعض المفكرين، وهو خوف له ما يبرره، غير أن مشروع الحوار مختلف جداً عما كان يساور المتخوفين، إذ ليس من مقتضيات التعايش والتَّعاذر وتبادل المنافع واستغلال القواسم المشتركة التنازلُ عن شيءٍ من الثوابت، إنه نوع من المشاطرة الفعلية للحضارات الإنسانية، ولا سيما أن الدول المتقدمة في مادياتها وعلومها البحتة ومؤسساتها الدستورية والتشريعية والتنفيذية وسائر أنظمتها تضع في أولويات (أجندتها) انتزاع أي إمكانيات للندية أو التكافؤ، ولم يعد في الإمكان أفضل من إيقاف التدهور المرعب للتمكن من إعادة ترتيب الأوراق والتحرف أو التحيز الذي يمكن من التفكير السليم لاستعادة العافية بأقل الخسائر، ولن يتم شيء من هذا إلا ببعث الاطمئنان عند الطرف الذي يرى أنه تمكن من إدخال المارد الإسلامي في قمقمه، وليس لديه رغبة في المساومة على إخراجه، وتلك أوهام ظلت تحفر في (اللاوعي) حتى أصبحت من الحقائق والوثوقيات، والخطاب الحضاري الذي طرحته المملكة على لسان قائدها والذي قوبل بالاستحسان من كافة الفرقاء خطاب متوازن لا يجوز التفريط به ولا التخلي عنه، كما لا يجوز تحريفه وتقويله ما لم يقل، إن المصالحة والتعايش وتبادل الخبرات وبعث الثقة والاطمئنان لا تغير المحبة العقدية ولا الموالاة ولا الركون إلى الآخر، ومن حاول ليَّ أعناق النصوص فهو الساعي إلى إجهاض المشروع وتفريق كلمة الأمة، إن خطاب المملكة واضح ومحدد ولا يمكن أن يكون كما يتصور المتهافتون على الغربنة، إنه خطاب موزون وواضح، إنه يتوسل بالحوار بوصفه مقصداً إسلامياً، ولا يمتد إلى وحدة الأديان ومشروعيته، إنه يقول بصريح العبارة (لكم دينكم ولي دين).

إنه يسعى جهده إلى تحقيق السلام العالمي من خلال استغلال القواسم المشتركة، ولقد كان لهيئة كبار العلماء فتوى حول الخطابات المتعددة التي تدور حول التقارب، والمملكة بوصفها قبلة المسلمين طرحت مشروعاً يمنع الصدام، ويشيع الاطمئنان والثقة، ويحقق التفاعل الإيجابي، ويوفر الحرية والكرامة الإنسانية لكل شعوب العالم، ولكي يظل هذا الخطاب فاعلاً ومتفاعلاً وحضارياً فإن علينا جميعاً أن نفهمه كما أراده معدُّهُ وملقيه، وأن نتفادى المزايدات الرخيصة.

وإن كان ثمة إجهاض للمشروع الحضاري فلا يكن من عند أنفسنا، واستجابة الرأي العام العالمي فرصة، والفرص لا تطرق الأبواب أكثر من مرة واحدة.

تحدّيات مؤسساتيةٌ ومواجهات فرديةٌ .. !(١)

أنْ نقدِّم أنفسنا للمشهد العالمي: إسلاميين أو قوميين أو قُطْريّين أو شرق أوسطيين بمفهومه القديم، أو بصيغته الجديدة التي لم تتحقق بعد على الرغم من استنزاف الأموال والدماء، فذلك حتم مقضي، إذ لا يمكن أن تكونَ أيُ جماعةَ بلا هُويَّة، ولا هوية إذا لم تكن الجماعة مقتنعة بما هي عليه، أو بما يجب أن تكون عليه، وما لم تكن متفانية في تحقيق السمة والخصوصية التي أريد لها أن تكون على الشكل الذي تَرْضَى فيه عن نفسها، وبوضع يمكنها من العيش الكريم، والتناغم مع العصر المسارع في التحول، ومتى حملت التجمعاتُ الإنسانية سماتِها، وسَعَتْ جاهدةً لتحقيق وجودها الكريم بين الأمم قام الصراع على السلطة أو من أجل المصالح، أو لغرض الاحتواء، أو لهدف الإجهاض، وتلك سُنةٌ ماضية، والضعيف وَحْدَه هو الذي يأكل السياط، ويتجرع مرارة الهزائم، وكل مواجهة حسية أو معنوية لا يتم حسمها إلا بالصلح المجحف أو بالانتصار الجائر، وقلَّ أن يكون الضرر قسمة بين الطرفين، ومن لم يتصور هذه الحتميات، ويُعِد العدة لها، يأخذه الأعداءُ بياتاً أو وهو نائم، كما الساعة.

ولعلنا نسبق الحديث بتجديد صُنَّاع الوعي وصُنَّاع الكيان وأهمية التناغم بين المناهج والآليات فيما بينهما إذ لا خلوص من الحَوْر حين لا يكون توافق وانسجام بين رجل السياسة ورجل الفكر.

وما أخَرَّ بالقضايا المصيرية إلا ذهاب كل فئة بما هي عليه دون النظر إلى من حولها من شركاء المكان والزمان والقضايا، والتمايز لا يعني التدابر، كما أن الاختلاط لا يعني الاعتصام، وإذ لا يكون من بوادر النجاح والنجاة خلط الأوراق فإنه ليس من السهل فرز الفئات عن بعضها، وتحديد المهمات لكل فئة منها، وأسوأ الأحوال اختلاط المهمات، وتنازع المنجزين لها فيما بينهم، بحيث يكون السياسي مكان المفكر، والعسكري مكان السياسي، والعامي مكان العالم، ولقد كان داء العالم الثالث الفردية وتبادل المواقع وغياب أهل الحل والعقد والخلط بين السلطات الثلاث، وبقدر الخوف من الاختلاط الفوضوي، يقوم خوف مناقض، وذلك حين لا تكون هناك قواسم مشتركة بين الأطياف والمرجعيات الحاسمة لخلاف المجتهدين الذين يملكون حق الاجتهاد بشروطه وإمكانياته أو حين يكون الخلاف حول ثوابت الأمة ومسلماتها، أو حين لا تكون الثوابت والمسلمات متفقاً عليها، وداء المشاهد تساوي الناشطين، وتماثل القضايا والتعدي والاستعداء واختلاط الأصوات إلى حد اللغو تحت تأثير المفاهيم السَّقِيمة لحرية التفكير والتعبير، وحقوق الإنسان، وأَمْداءِ المسؤوليات.

فالمفكرون والعلماء والمعلمون والإعلاميون هم وحدهم الذين يصنعون الوعي، ويتولون حوار الحضارات، لأنهم حملة الأمانة: أمانة الدعوة والإرشاد والتوعية والتثقيف، وإذا كان الجنود يحمون الثغور فإن أولئك يحمون الأجواء من تلوث الأفكار، وبناء الجانب المعنوي لأي كيان لا يقل أهمية عن بناء كافة الجوانب المادية، وليس هناك أهم من الإيمان بالمبادئ المتفق عليها:

و:

إذا الإيمـــان ضـــاع فـــلا أمـــان

ولا دنيـــا لمـــن لـــم يحـــي دينـــاً

---

(١) تاريخ المقال: ١٥/ ١/ ٢٠٠٨

ولن يتحقق الوجود السَّوي والقوي إلا بعقيدة صحيحة قائمة في الأعماق وشرعة ومنهاج متمثلين في الواقع، والعقيدة والشريعة ينفيان التمييع والتلفيق الماثلين في بعض المشاهد ومن بعض قادة الفكر، على أن إشاعة المبادئ وترسيخها في النفوس لا تكونان بالحشد والتلقين والإكراه، إن هناك الإقناع القائم على الجدل المتعقل والحوار الحضاري والقدوة الصالحة، بحيث يكون المفكر والداعية والعالم مصاحف يمشون في الأسواق، ومن محققات الانهزام الداخلي أن يقول الإنسان ما لا يفعل: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾، وأي بناء حضاري لا يبدأ بالإنسان يكون مصيره الفشل لأنه في النهاية مدينة مادية زائفة، وصناعة الإنسان لا تقف عند بناء جسمه وتحقيق شهواته، وإن كان العقل السليم في الجسم السليم، وإنما تمتد إلى العقول والأفكار والأخلاق والمهارات، وهي التي لم يظفر بها الدهماء من الناس ولم يعطها العالم الثالث ما هي أهلٌ له، وتفعيل أي مؤسسة لن يكون من خلال نظامها وموظفيها، وإنما هو من خلال التفاعل معها، ولا تفاعل دون صناعة الذهنيات القابلة للعمل الجماعي، واستفحال الفردية والأثرة موهنٌ للقوى التي يُتَوسَّلُ بها لممارسة الحق بندية وأهلية، والدين الإسلامي الذي يدعو إلى القوة المطلقة لا يقف عند حد القوة العسكرية، وإنما يمتد إلى مجمل القوى، ولهذا جاءت الدعوة مفكرة لتدل على العموم والشمول والتنوع: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾.

وجاءت القوة الحسية في سياق التبعيض، ولما كان الصراع أزلياً كان السلم مرحلياً تأخذ به الأمة نفسها لجولة قادمة ودعاة السلام السياسيين والمفكرين ك(غاندي) و(جودت سعيد) لا يصلحون لكل المراحل ف(الظلم من شيم النفوس) وواجب كل أمة في ظل هذه التقلبات أن تجنح في مواجهة قدرها المحتوم في السلم والحرب إلى المأسسة، فالجهود الفردية كالعصي المتفرقة سهلة الكسر، وصدق الله: ﴿وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ﴾ وليس القتال هنا وقفاً على المواجهة العسكرية، إن الغزو الفكري تتنوع أساليبه، ولهذا أشار الذكر الحكيم إلى أن الفتنة أشد من القتل، واختصار المواجهة مع الآخر بالمواجهة العسكرية يفوت على الأمة أخذ الحذر من مواجهات أكبر. ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾، فالمواجهة هنا بالقول الغرور وهو أكسير المواجهة الفكرية التي قد لا يحسب لها البعض حساباً متكافئاً، بل نجد من يسخر من التفكير بالغزو والتآمر ويرى أن هذا الهاجس عقدة نفسية تعطل إمكانية التفاعل الحضاري الإنساني، وآية (التوبة) حول خروج المنافقين للغزو تؤكد حرص العدو على خلخلة الصفوف وابتغاء الفتنة.

إن صراع المنهزمين لا يتجاوز التلاوم وتبادل الاتهامات والتنصل من المسؤولية، وما يدري هؤلاء أنهم أمام تحديات تتناسل وتشتد صلابة.

وأزمة التحديات تتمثل في تعدد المجالات، فالتحدي الاقتصادي لا يواجه بالخطاب البلاغي والتحدي العلمي لا يواجه بالأساليب الأدبية والتحدي الاجتماعي لا يواجه بالاستهجان والرفض دون تبرير والتحدي الفكري لا يواجه بخطاب المفاضلة والتصدير ولن يتأتى التنوع السليم بجهود فردية واهية أو متدابرة، إذ ما أضر بالأمة ومصالحها إلا الارتجال والاهتياج الأعزل وتأليه الهوى، وحين نقطع ونقنع بأن الإسلام هو الحل والبديل كما يقول (هوفمان) تكون أمامنا إشكالية حمل الآخر على القبول بهذه الرؤية،

وتحييده على الأقل لكي نمارس حقنا في اختيار الشرعة والمنهاج اللذين يناسبان لنا، والحمل وهو هدف الدعوة والإبلاغ لا يتم بتوصيل قناعتنا نحن بما نحن عليه، وإنما يتم بالتوفر على إمكانيات لإقناع الآخر، وذلك مكمن الخطورة في المواجهة، وقبل أن تفكر في حمل الآخر على رؤيتك يجب أن تتأكد من أن واقعك المعرفي والنظامي والسلوكي وإمكانياتك قادرة على سبق الكلام في الإقناع.

وإذا كان (أبو تمام) في (بائيته) قد فاضل بين الصفائح والصحائف، وجعل حد السيف هو الحد بين الجد واللعب فإن خطاب القوة يختلف عن خطاب الضعف، وخطاب التقدم يختلف عن خطاب التخلف، ونحن اليوم أحوج ما نكون إلى قوة الصحائف ونفاذها وتمكنها من الإمتاع والاستمالة والإقناع، ولن يتأتى لنا المراد بهذا التشرذم إذ لا بد من المواجهة بالمثل، والمعادل تحكمه مؤسسات ولا يجتاله أفراد، وتظاهره قوة رادعة ترهب الأعداء، قوة حسية ومعنوية، بحيث تقدم الأمة نفسها إلى كافة المشاهد من خلال منجزات تبرهن فيها عن وعيها الدقيق للحياة الدنيا، وذلك بعض ما يفتقر إليه شرقنا المتوارية شمسه بالحجاب.

على هامش تأبين (العنقري).. الراحلون بالتاريخ إلى غياهبه .. ؟[(١)]

رحم الله أوعية الأسرار ومدافن الأخبار والناهضين بشطر الأحداث مع صناعها، حين يبرحون مقاعدهم إلى تقاعدهم، أو حين يقضون نحبهم، وهم على العهد والوعد، لم يبدلوا تبديلا.

والمسؤوليات كالمسؤولين تختلف أهمية، مثلما يختلفون في التألق والتفوق، وفي المكث فيها والتأثير من خلالها، حتى يكون التكرير لهم فيها أو التدوير لهم في المناصب ضرباً من حسن التدبير والتقدير، لما لهم من براعة في الفعل المصيري، وتضلع من شفراته، وتمكن أمكن من متطلبات المرحلة وتقلبات الطقس السياسي تجعلهم جزءاً لا يتبعض من أشياء الوطن المهمة، وكم من مسؤول مرق من المسؤولية مروق السهم من الرمية لم يترك أثراً، ولم يحمل خبراً، وآخر كصخرة الوادي في الثبات، وكالجوزاء في العلو والتألق، وكجوف الفراء في احتواء كل الصيد.

ورحيل هذا الصنف من المسؤولين يوقض في المسكونين بهموم أمتهم فضول التساؤل، ويبعث في أعماقهم الخوف والترقب والحزن، فرحيل مثلهم يجر وراءه فصولاً من تاريخ البلاد وأحداثه الجسام، وما من فاعل في مشاهد الوطن أو متفاعل مع أحداثها الداخلية أو الخارجية إلا وعند الكافة توق وشوق إلى أخباره التي يرويها بنفسه، متحدثاً بها، أو راصداً لها، أو يتناقلها خلطاؤه ممن أمسكوا بأطراف الأخبار، ولم يستكملوها، وتاريخ النجاحات والإنجازات عمر رديف، يجد فيه اللاحق من اللذة والمتعة ما وجده الشاهد، وبناة الحضارة والمدينة يتخطفهم الموت الواحد تلو الآخر، وكل راحل يحمل بين جنبيه أسراره التي لا يملكها، العظماء ومجايلوهم جزء من تاريخ البلاد، وكل راحل يبغته الموت، وهو يعد ويتمنى دون رصد يضيف بموته حلقةً إلى الحلقات المفقودة من تاريخ ما أهمله التاريخ، مما ندَّ عن التوثيق، وإن ترك بصيصاً من الذكر الحسن الذي يمَّحي مع الزمن لانعدام الوثائق وموت الرواة.

ومثل هؤلاء الرجال الأفذاذ بما تولوا من مسؤوليات، وما أنجزوا من أعمال، وما وعوا من تجارب وذكريات ومواقف صارت بموتهم خبراً من الأخبار، لا يكون رحيلهم هيناً على التواقين إلى معرفة بناة قواعد المجد.

ولما كانت المواطنة الحقة لفيفاً من القيم الحسية والمعنوية، فقد أصبح المسؤول جزءاً من تلك القيم، وسيان أن يكون مقلاً أو مكثراً، وفقد مثل هؤلاء يحرك كوامن النفوس، ويبحث على التساؤل عما رحل به من أخبار ما كان لها أن تموت بموته، ومالتيار الجارف إلا قطرات من الماء، وإذا كان المحللون السياسيون يجدوك فيما أفرج عنه من وثائق ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين فإن نجاحات الوطن لم ينشق عنها الغمام، وإنما تفتقت عنها أذهان الرجال.

والسير الذاتية والذكريات والمذكرات والأيام من أجمل السرديات وأعذبها ولا سيما إذا أفصحت عن مراحل ربيعية ذات بهجة، فأحقاب التاريخ كسنابل يوسف وبقراته، والسعيد من عاش سنابله الخضر وبقراته السمان.

ولأن المملكة فتية تسبق ظلها، ومبادرات قادتها تترى، فإن أيامها ستظل حبلى، ومن حق أبنائها أن يعرفوا تفاصيل كل شيء مما هو في صدور الرجال ولقد أدركت (دارة الملك عبد العزيز) فوات محطات من التاريخ بشقيه: التكويني الذي خاضه (الملك عبد العزيز) ورجاله الأوفياء الأشداء، والبنائي الذي بادره الأبناء وأحفاد الرجال، ولكيلا

---

(١) تاريخ المقال: ٢٢/ ١/ ٢٠٠٨

يموت هذا التاريخ بموت الرجال بادرت بالرصد واستبقته من أفواه الرواة، ونقبت في عرض البلاد وطولها عن سائر الوثائق التي لم تكن بأيد تقدرها قدرها.

كما بادرت إلى تنفيذ ندوات عمن ولي الأمر من أبناء المؤسس، وكل مرادها قيد الشوارد من الأخبار، ولو أن كل مسهم في التكوين أو البناء أدرك أهمية البوح بما لديه، لكنا قد عرفنا رجالاتنا وإنجازاتهم، واتبعنا أحسن ماقالوا وأجمل ماصنعوا، وهل هناك ألذ على النفس من قراءة التاريخ الحديث الذي هو جزء من حياتنا؟ فالوطن ليس وقفاً على الأسواق والمنشئات إنه قيم حسية ومعنوية وذكريات وأعمال ورجال تداركوا مالم تستطعه الأوائل وكل منجز بحسبه، وهل يعمر الناس بحالهم إلا بالحديث عما فعلوا؟

أقول قولي هذا وأنا أشهد في كل يوم وفيات الأعيان واستمع إلى سير أعلام النبلاء يتصيدها الخلف عمن رحلوا، وكم نسمع نعياً من (الديوان الملكي) يجمل خصال راحل لا يعرف دخائله إلا صفوة الصفوة ولا يبلغنا منها إلا معتصر المختصر، ونحن أحق بها جملة وتفصيلا، لأنها تاريخ أرضنا وديارنا، ولا نود أن نسمعها من مغرضين مزايدين يفترون الكذب ويزورون التاريخ، وما أكثر الذين يتربصون بأخبارنا الدوائر، وإن كان المكر السيء لايحيق إلا بأهله. وقبل أيام نعى الديوان الملكي معالي الشيخ إبراهيم بن عبد الله العنقري ومن قبله نعى آخرين، ليسوا بأقل أهمية ممن أبلوا بلاء حسنا، وشهدوا تكوين البلاد وبناءها، وانطووا على أسرارها وأخبارها، وكل راحل تطوى معه صحائف إنجازه أو اسهاماته، وإن كانت تلك الصحائف منه فإنها ليست له، وإنما هي جزء من تاريخ الوطن، وحين يكون تاريخ الراحل ملكاً مشاعاً تتعلق به النفوس، ورحيل الأفذاذ تتداعى معه الذكريات، فكل مؤبَّن يشهد بما علم من أعمال الفقيد ومحاسنه، ولكنها مع الزمن تتفلت من الذاكرة. والفقيد عاش حقبة مهمة من تاريخ البلاد، وكان قريباً من الملك فهد رحمه الله، ومن قبله - وعلى ذات الوتيرة - رحل معالي الشيخ (عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري) وكان قريباً من الملك عبد الله حفظه الله، وما كتب أحد منهم سيرة حياته العملية وهي سيرة حاملة بجلائل الأعمال، ولما لم أكن من خلطاء الفقيد بل لم أره ولم أحدثه إلا مرة واحدة فإن توقي إلى خبره امتداد لتطلعي إلى تاريخ بلادي في العسر واليسر والمنشط والمكره.

لقد كان لقائي الأول والأخير بمعاليه يوم أن كان وزيراً للشؤون البلدية والقروية، وذلك حين مر بالقصيم في رحلة متابعة واستطلاع، وكنت المتحدث الرئيس في حفل التكريم، ومن عادتي حين أتحدث إلى مسؤول من أصحاب الوزن الثقيل أن أنكب عن الثناء جانباً، واستبعد المثاليات والطوباديات وافترض الخطأ والتقصير، وأذكر المسؤول بأنه ينسج بأنامله رداءه الذي يخرج به على الناس، ويكتب بفعله تاريخه الذي سيخلفه بعد الممات، فإن أحسن فلفسة وإن أساء فعليها، وأنظر إليه كواحد منا، لاتميزه إلا المسؤولية التي هي في النهاية خليط من التكليف والتشريف، فإن أخذها بحقها أخذ معها شرفها و(إلا فلا) وإن كانت له مبادرات أشرت إليها، وإن كان غير ذلك ألمحت، وحذرت والتمست العذر ما أمكن، وحين انفض سامر الحفل أقبل عليَّ بوجه طلق شاكراً ومقدراً ومتعهداً بأن يكون على العهد والوعد، وأن يعمل ما يقدر عليه، ولقد عهدته كذلك، ورجالات الدولة الناصحون لايودون التغرير بهم، ولا تزوير صورهم، فهم أحرص الناس على المرايا المقعرة التي يرون فيها أنفسهم كما هي، ولكن البراعة في حسن التبليغ وتخول المناسبة في التوصيل، وتقديم المطمئنات بين يدي التساؤلات، فكم من رسالة خانها التعبير، وقعد بها سوء الخطاب. ورحيل رجل بحجم الفقيد في صمته المهيب وتواضعه الجم وهدوء طبعه ومواكبته للأحداث الجسام سيترك في النفوس الوجلة حزناً لا نقول معه إلا ما

يرضي الله من صبر واسترجاع وذكر لمحاسنه، وإن كان قد أخلى موقعه راضياً مرضياً قبل أن تخلو منه الدار الغائبة.

وأهمية الراحل في تقلبه في عدة مناصب مهمة، وفي قربه من صناع القرارات المصيرية، ومواكبته لمبادرات الملك فهد رحمه الله، وما يتمناه المخلصون ألا يموت بموت هؤلاء شطر من تاريخ البلاد.

وإذ لا تدري نفس ماذا تكسب غداً ولا تدري نفس بأي أرض تموت، فإن من حق الأحفاد على الأجداد أن يكتبوا لهم تاريخهم الذي هو جزء من تاريخ البلاد، وما أكثر الكفاءات الوطنية التي تعد أوعية علم نافع وسجلات تجارب حية وأرباب مشاطرات جسيمة وأصحاب إنجازات مهمة، وهي صامتة لا تتكلم، وما كان بود أحد أن يظل التاريخ حديث مجالس يأتيه الزمن لينقصه من أطرافه، وماعلموا أن آفة الأخبار رواتها، فهل يوعظ بالراحلين من هم على قيد الحياة من رجالات دولتنا الأوفياء لدينهم ووطنهم وقادتهم.

أرجو ذلك.

رحم الله العالم العامل المنصور.. !(١)

ومـــا المـــوتُ إلا ســـارق دقَّ شخصـــه

يلاقي الأنفس ولا يلحق بها، وإن فرّت أو كمنت في بروج مشيدة، وهو اليقين الذي لا يخلف الميعاد، ومع ذلك يظل مخيفاً ومحزناً، وما كان اليقين أن يكون مروِّعاً بهذا القدر، ولكنها النفوس جبلت على الإلفِ وخوف المفارقة، وما من راحل إلا وله مَن يتفجع عليه، أو يؤبنه، وأقدار الراحلين بما تركوا من خير وبما قدموا من عمل، وبما أخلوا من ثغور، وبما هم عليه من خلال وخِصَال، وكلٌّ بحسبه، فالعلماء والأثرياء والمسؤولون لا يقوَّمون بما أورثوا من جنات وعيون ومقام كريم، وإنما يحمدون بالعلم الذي ينتفع به، والصدقة الجارية والعقب الصالح الذي يسد المكان الذي سدوا، والسعيد من استعمله الله في طاعته وحبب إليه السعي من حاجات الناس، وتلك حظوظ يهبها الله لمن يشاء من عباده.

وكل راحل ترفع أقلامه وتجف صحفه ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾، ولكن هذه الصحف بما هي عليه وبما فيها تنشر على ألسنة الناس لتكون عمراً ثانياً في حياته وبعد مماته؛ لتملأ الفراغ الذي تركه ببدنه. والذين يصنعون لأنفسهم الذكر الحسن بالعمل الصالح أو بالعلم النافع أو بالسعي في حاجات الناس يبادرها الخلف حين يوارى الميت في قبره. وما من عاقل إلا ويود أن يكون حاضراً بأبهى صوره، يشرف من يخلفه من أهل وعشيرة، وحين لا يسع مَن حوله بماله فإنه قد يسعهم بأخلاقه أو بجهده أو بفكره؛ فالناصح والوجه الطلق والمعلم والساعي على الأرملة واليتيم كأصحاب الدثور الذين يذهبون بالأجور بما ينفقونه في سبيل الله سواء بسواء، وصدق رسول الله ﷺ: «**اتقوا النار ولو بشق تمرة**»، والكلمة الطيبة صدقة، وكم من راحل خلت منه مواقع مهمة لا يدرك الناس أهميتها حتى تنكشف بموته، وكم من محسن لا يعرفه إلا الخاصة حتى إذا فارق الحياة أصبح كالعبق؛ فالساعون في الشأن العام كالمنفقين في سبيل الله؛ حيث لا تدري شمال أحدهم ما تنفق يمينه.

وفقيدنا العالم والمعلم والساعي في دروب الخير كلها الشيخ الدكتور (صالح بن عبد العزيز المنصور) من هذا الصنف، يمشي على الأرض هوناً بتواضعه الجمّ وسماحته الفذة وتسامحه الموزون وتودده.. عرفته دارساً يوم كنا في جامعة الأزهر بالقاهرة، وعرفته مسؤولاً يوم كنتُ محاضراً ثم أستاذاً في فرع جامعة الإمام بالقصيم، وعرفته زميلاً في ذات الفرع حين ترك العمادة وإدارة الفرع، وبعد أن تحول الفرعان إلى (جامعة القصيم) وأصبح أستاذاً غير متفرغ، وعرفته محاضراً في بعض المؤسسات وخطيب جمعة يتخول الناس بالموعظة، وعضواً في عدد من الجمعيات الخيرية وتحفيظ القرآن، وما رأيته قبل هذا وبعده وأثناء ذلك إلا ذاهباً في مهمة أو عائداً من أخرى يتأبط كتبه، يحاضر ويكتب ويؤلف ويحاور، وكل عالم وصل حبا له بشيخ الإسلام (ابن تيمية) يكون له حضور متميز في القول والفعل.

فهو مدرسة في مختلف المعارف، وهو ناشِطٌ لا تأخذه في الله لومة لائم، وهو حريص على جمع الكلمة ولزوم الجماعة واحترام العلماء وهيبة السلطان. وحين اجتاحت المشاهد موجة التشدد والعنف كان الساعي لتأليف القلوب وتهدئة الأوضاع وتحذير الشباب من دعاة السوء. ولقد لقي في ذلك نصباً، ولكنه الصابر المحتسب.

---

(١) تاريخ المقال: ٢٧/ ١/ ٢٠٠٨

وما نوده من أبنائه وهم على خير كثير أن يتعهدوا ما ترك من كتب ورسائل وخطب وكتب مخطوطة وبحوث وردود بالتجميع والتنقيح والطبع؛ فالفقيد ترك جملة من الأعمال وأطرافاً من المشاريع، وهي أمانة في أعناق أبنائه الذين أثق بأنهم أشد حرصاً على لملمة تراثه وإخراجه إلى الناس.

بين زلّة التعبير وخطأ التقدير .. ! (١)[1]

لكل إنسان هم واحد يملأ جوانحه، ويستهلك جهده ووقته فيما يكون للرجل الاستثنائي بمفرده عشرات الهموم السابحة في فضاء تفكيره، فمعاناته وتداعياته ومتابعاته تكبر وتتعدد وتتفاوت لتكون بقدر قامته ورجل بوزن (سلمان بن عبد العزيز) يظل كما لو كان موكلا بكل حشرجات الآخرين وتأوهاتهم وإصاباتهم وإخفاقاتهم، يذرعها جيئة وذهابا. تراه إلى جانب مسؤولياته الجسام بوصفه رجل دولة مع المثقف حين تتقطع به الأسباب، يقيل العثرة، ويبلسم الجرح، ويَحْسُر العتمة عن مواطئ الأقدام، داعما أو مرشدا، وتراه مع الحق حين يحيد بالمثقف الوهم، أو حين تشطح به المثالية، أو حين يقعد به التشاؤم، أو حين يخونه التعبير.

وتراه في المواقع كلها يتفاوت انفعالاً وتفاعلاً، ولكنه يظل متألقاً. وأجمل المشاهد أن يشاطر رجل الدولة المتعقبين للأوضاع، وأن يختلف معهم، مستخدما ما يتوفرون عليه من قول لا يسنده إلا الحق، فسقط الزّندِ لا يُوْري إلا بالاحتكاك الموزون، والاحتكاك غير صدام الأجرام.

ولكيلا يعمينا الحب، ولا يُصِمَّنا الإعجاب نقول: إنه في شأنه كله صواب يحتمل الخطأ، وإن كان أوابا حين يبدوا له وجه الصواب.

وليس من حقنا أن نتخذ التزكية، ولا أن ندعي العصمة لمن نهوى أو لما نريد، ولا أن نرقى بمن أحببنا فوق النقد والمساءلة والتقويم، ولكن من الحق والواجب أن يشهد المنصف بما علم، وأن يعرف لذوي الفضل فضلهم، كما يجدر بكل قادر على الإيقاف والسؤال من الكتاب الناصحين التماس العذر للمخطئ على حد: (لعل له عذرا وأنت تلوم).

وعند بدو الخطأ أو التقصير من المسؤول ابتداء لا يليق بالمتعقب من الكتاب أن يتعجل بالإدانة، ولا أن يطلق ولا أن يعمم، ما لم يترتب على التعذير والتريث تكريس الخطأ أو مضاعفته أو استمراؤه، وبين الإقدام الموزون والإحجام المبرر أمور مشتبهات، قد توهم بأنها من المحكمات، واضطراب المفاهيم خدر ينساب في الأعضاء فيشلها عن حركة البناء، والرصد والمتابعة والمساءل والمناشدة وقود يمد بالطاقة، ويذكي كوامن القدرات:

و: -

لــولا اشــتعال النــار فيمــا جــاورت

مــا كــان يعــرف طيــب عــرف العــود

وما كنت أحمد لكاتب قدر ما أحمده لمن يثير رجلا بوزن (سلمان بن عبد العزيز) في أمور ليست من صميم مسؤوليته الوظيفية، وإنما هي من صميم همه الوطني، كالنيل من الأطباء البررة لمساقط رؤوسهم، أو كالمساس بأجهزة الأمن، عند معالجة ارتفاع معدل الجريمة، وإن كان التحيز الإقليمي داء الضعفاء من المسؤولين وارتفاع معدلات الجرائم ملفتا للنظر، وكم هو الفرق بين المؤسسة كمنظومة والخطة كإجراء وفشل الخطة لا يمتد إلى المؤسسة، والوقوعات لا تشكل الظواهر إلا عند التنامي والثبوت، وهزيمة الخطة أو فشلها لا يجر المؤسسة، وإنما يوقظ فيها كوامن القدرة.

---

[1] تاريخ المقال: ٢٩/ ١/ ٢٠٠٨

وليس الحمد لكل مثير ف(هارون الرشيد) وهو يطوف بالبيت سمع من يخاطبه باسمه وبصوت مسموع: (يا هارون اتق الله) وحين عرف الناصح أجهش بالبكاء، وأقبل عليه يسترضيه ويقبل رأسه، وسمع من العام القادم وفي ذات المكان من يقول مثل قول سلفه، فأمر بجلده وإخراجه من المسجد الحرام، فالقول واحد، ولكن لكل قائل وقول مقامهما ودوافعهما ومسوغاتهما، وكم من قارئ سرق لتلاوته القلوب، وتذرف بسماعه الدموع، وآخرون يلحِّنون القرآن، ثم لا يحركون ساكنا، مع أن القرآن لو أنزل على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله، إذا الفرق في القرَّاء، وليس في المقروء، ولقد قيل:

الآية هي الآية ولكن الشخص غير الشخص

وما كل من ركب الجواد جوادُ

خطأ التقدير والتوقيت يخفف من وطأتهما ألد الخصام، والمحق العي يكون في الخصام غير مبين، بحيث لا يشفع له حقه المضاع بسبب لوثة التعبير.

فقد ينطوي المستصرخ على شيء من الحق، ولكنه لا يحسن التعبير، فيفقد حقه، ويؤخذ بجريرة الإساءة لا بخطأ البواعث، (والحق قد يعتريه سوء تعبير) والرسول صلى الله عليه وسلم حذر الخصوم، حين يعول في حكمه على الألحن معللاً ذلك ببشريته، فالكاتب أو المتحدث قد يبالغ أو يتعدى فيفسد على نفسه قضيته، والله جل وعلا حين جعل لولي القتيل سلطانا أمر بألا يكون هناك إسراف في القتل، وكذلك حين تكون للكاتب أو المتحدث قضية فعلية ألا يسرف في القول.

والتعدي منهي عنه حتى في الدعاء، وحق كل شريك في الهم الوطني أن يواجه أي خطاب بما هو أهل له، وعلى المضطلعين بهم الكتابة أن يتحملوا ما يلاقون في تصديات الشركاء في الهم متى خانهم التعبير أو خالفهم التقدير.

وإذا كان من واجب المسؤول السماع واتباع أحسن القول وتفادي أخذ العزة بالإثم فإن من حقه التصدي لكل متعد لا يؤمن بالتكافؤ في الحقوق والتوازن في الآراء، وما كان لأحد من كل الأطراف أن يزكي نفسه، ولا أن يتطوع أحد لتزكيته، ولا أن يتصور الأشياء على غير ما هي عليه.

والكاتب العدل من ينقل نبض الشارع دون مبالغة أو مزايدة بحيث يضع عين المسؤول ويده على مكامن الأخطاء بأمانة الشاهد وصدقه وتوخيه للحق والعدل، على أن يجتهد في تحري البدائل المتلافية للخلل، شريطة أن تكون في إطار الممكن والمقدور عليه، ويقيني أن المصداقية والتعقل والتوازن أشد وطأً وأقوم قيلا، وأكثر إحراجا للمسؤول، وأي حيدة ستتيح الفرصة للتفلت والتنصل من المسؤولية بحجة أن هذا كلام جرائد. وكم من حق صراح أضاعه المرجفون، وليس من حقنا أن ننحي باللائمة على الكتاب وحدهم ولا أن نخوفهم من تقحم المجاهيل، ولا أن نسعى لتحصيل ما في صدورهم ولكننا نود المحاسبة والتوازن، وأي طرف من أطراف القضية، مسؤولا كان أو كاتبا يرى أن فعله الأسلم والأحكم، وأن قوله الفصل الذي لا معقب له يعطل فرص التفعيل والتفاعل بين المنجز للمشروع والمتعقب له، وما عهدت تلك خليقة عند من يحملون الهم ولا يريدون من ورائه جزاء ولا شكورا، وحين تشبع الخلال السيئة في القول أو الفعل يكون إثم الطرفين أكبر من نفعهما، والكاتب المتحري كالمسؤول القوي الأمين لا يستغني أحدهما عن الآخر، ولن يستقيم الشأن الوطني إلا بطرفي العملية وأي خلل في أحدهما سيكون أثره على المستهمين على السفينة، فالكاتب العليم خير من يملك القدرة على اختراق الحجب وسبر الأغوار ومثل هذه المغامرات تتطلب أهلية المخترق وضرورة الاختراق، فما كل من اقترف مهنة القول في الشأن الوطني أهل لها، وليس كل اختراق له

ما يسوغه، فالمسؤول مواطن خارج مسؤوليته له ما للمواطنين وعليه ما عليهم، وهو في معمعة المسؤولية مطالب بالأداء السليم وخاضع للمساءلة المشروعة، وتلك معادلة صعبة لا يحسن تقويمها ولا تقديرها إلا من وهبه الله عقلا حصيفا ومعرفة عميقة وتجربة طويلة، وواقعية لا تتدنى لتكون قاب قوسين أو أدنى من القاع، ودقة في التقدير والتوقيت، وتنزيلا للأناسي منازلهم، وأخذا للأحداث بما هي عليه، وتفريقا بين الوقوعات العارضة والظواهر الشائعة.

والوطن حين يكون جماع ذلك كله تكون قضاياه سواء في الأهمية والاهتمام، وأناسيه ومؤسساته جزء لا يتجزأ من كيانه، إذ هو قيم حسية ومعنوية، وكل إنسان راع، وكل راع مسؤول عما استرعاه الله عليه، وما من أحد إلا هو على ثغر من ثغور الوطن وواجبه ألاّ يؤتي الوطن من قبله، وليس هناك مثل أدق من (أصحاب السفينة) المستهمين الذين ضرب رسول الله ﷺ المثل بهم إزاء أي تفريط أو تجاوز يخل بسلامة السفينة يمس ضرره الجميع ومن ثم فإن المسؤولية جماعية والإفراط والتفريط طرفا نقيض وخير الأمور الوسط.

وقيمة الإنسان ليست في مجرد المغامرة في القول أو في الفعل وانتهاز الفرص والمزايدة، ولكنها في الإقدام حين لا يكون بد من الإقدام، وفي الإحجام حين تحمد السكينة ويطلب الوئام، وبخاصة في زمن أصبح الناس فيه أهل قرية ليست آمنة ولا مطمئنة.

بين زَلَّةِ التعبير وخطأ التقدير .. ! (٢) [١]

ولأن الناس كإبل مئة لا تكاد تجد فيها راحلة، فإن الكُتَّاب كذلك يتهافتون على الكتابة ليُقال، وقد قِيل، وإذا كانت الوطنية كما يقول أحد الكُتَّاب (أن تعمل ولا تتكلم)، فإنَّ الصحافةَ المُعْتَمِدةَ على الكلامِ دون العمل آيةُ هذا الزمان - كما يقول شوقي - وخوف صُنَّاع القرارات من اعتماد الكُتَّاب على الأكاذيب والإشاعات، فيما تكون الصحافة سجل المرحلة وتاريخها، والذين يحملون هَمَّ التنقيب والتعقيب ممن وهبهم الله القدرة على التعبير بشرٌ مثل غيرهم يخطئون، والذين يحملون همَّ المسؤولية كذلك. وهذه الاحتمالات تضع كل الأطراف تحت طائلة التقويم، ومن تصوَّر أن قوله الفصل كمن تصوَّر أن فعله صواب لا يحتمل الخطأ، وكم هو الفرق بين الخطأ ابتداءً، والإصرار على الحنث، فالخطأ ابتداءً ناتج طبعي للعمل، والإصرار عليه مؤشر مكابرة وعناد ولا أحسبنا في شأننا نصل إلى هذا الدرك، ولكن الخوف يستبق الاحتياط.

والأجمل في مداخلة الكبار لإرشاد المتوهمين أو لتخفيف مبالغة الجامحين أنها مؤشر التكافؤ والسواسية، فكاتب لا يملك إلا مداد قلمه يقول ما يرى، ولا يخشى إلا الله والخطأ على قوله دليل عملي على أن الحرية المنضبطة مكفولة، وأن الكاتب لا يتوخى الإرضاء ولا يتخول المجاملة على حساب المواقف والقناعات، وأنه يملك حق التعبير عن وجهة نظره، غير أنه مُعرَّض للحساب العسير متى زلَّت به قدمه.

وإذ يكون من سمات المجتمع المدني تكافؤ الفرص بين السلطات الثلاث: الديني والسياسي والاجتماعي، فإن الكاتب الخبير يقدر تلك الحقوق، ويضعها نصب عينيه، وهو يمارس الكتابة في الشأن العام على أن السلطات الثلاث مثلاً نتوقع تجاوز الكاتب قدره وحقه قد لا تحسن ممارسة حقها، ومن ثم تبدو بوادر التسلط والاستبداد وواجب الأطراف كلها ألا تؤتى الحرية ولا السلطة المشروعة من قبلها، إذ ما مِنْ رجلٍ سويٍّ يود أن يكون من أسباب ارتباك مسيرة الأمة، ومتى بدر ما يُعَدُّ إخلالاً في الحرية أو في السلطة، فإنَّ علينا ألا نعدُّ ذلك قصداً مع سبق الإصرار ولا فساداً متأصلاً في الذات إلا إذا أصرَّ المقترف على الحنث. والمرتهن في هذه المجامع لا يفرق بين استغلال الحرية على غير وجهها وحجب شطر منها حين يحكم الأطراف الثلاثة قبضتهم دون وجه. ومتى أُتيحت الفرص للقول والكتابة، وهي مسؤولية مضارعة كان على الكاتب أن يتوقع مَنْ ينبري له ليصده عن بُنيات الطريق، وليس ذلك التدخل إخلالاً في حرية التعبير، وإنما هو أخذ بحجز المندفعين.

وما لا يجوز تجاهله اندلاق أقتاب الفوضى، وإطلاق الكلام على عواهنه، وخوف المستقيم على الطريقة من فضولي لا يفرق بين الهجاء والنقد، وأين مني محقٌّ يقولُ رأياً أريبا أديباً، أو مبطل يحسن التمويه فيكون قوله خدعة أديب؟ وصدمة المتلقي في الحشف وسوء الكيل، فلا هو يصدق ولا هو يحسن الكذب.

وحين لا أكون معنياً بذات الواقعة من حيث هي، فإنني لن أدخل في التفاصيل، وإقحام نفسي مرده لإعجابي بهذه الظواهر السويَّة والأساليب الحضارية، فالكاتب حين يزل قلمه، أو حين يتوقع الرقيب تجاوزه للحد المتاح لا يُستدعى لمخافر الشرطة ولا لأقبية المباحث وإنما يُبادل بالمثل، وتقرع الحجة بحجة مثلها من مسؤول يستطيع أن يحسم الموقف لوجهة نظره بقوة السلطان لا بمداد القلم، وحين يتوفر للكاتب هذا الفضاء من الحرية والأمن والتكافؤ تكون عليه تبعات لا يعقلها إلا العالمون المجربون، واستغلال

---

(١) تاريخ المقال: ٥/ ٢/ ٢٠٠٨

الإمكانيات المتاحة بحقها تمهد السبيل لمسيرة البناء التي نتوق إليها جميعاً من زلت بهم أقلامهم، ومن ساءتهم الزلة.

فالمدَّاح المداجي المتزلف كالشانئ المزايد سواء بسواء وفضاء الحرية الذي يسبح به الكُتَّاب فرصة لا يجوز التفريط بها، واستغلالها بغير وجه حق وجهٌ من وجوه التفريط بها، وكل من تصنَّع الانفعال، وتعمد الافتعال والإثارة الفارغة، واستغل مثل هذه الإمكانيات المتاحة لبناء أمجاد زائفة يُسهم في تلويث هذا الفضاء، وحفز السلطة على تضييق الخناق، تفادياً للفوضى التي لا يمكن أن تكون خلاقة، وإن ادَّعاها المخفقون في مغامراتهم، وحقٌّ على كل راصد مقتدر ألا يكتفي بالصمت والمراقبة والتواكل؛ إنَّ حرية الصحافة التي ينشدها كل مخلص سوي وكل صادق ونزيه لا يمكن أن تكون فرصة لافتراء الكذب أو المبالغة عند تناول أي ظاهرة، ولا نود أن نجمل الأحكام، ولا أن نحشر كل من خانه التعبير في هذا المهيع، وإنْ كان بعض الكُتَّاب لا يتوخون العدل والصدق، ورهانهم في تضخيم الأخطاء إلى حد يقول معه المتلقي: اللهم سلِّم سلِّم.

ومتى فاء الله على مرحلة من مراحل التاريخ بمقومات الحياة السوية أصبحت التبعات أثقل، فالمحافظة على المنجز لا تقل عن التحرُّف لمنجزٍ أفضل، ومع الاستياء من التعديات في الكلام والتقصير في العمل، فإننا نتوقع مزيداً من الخطأ والتقصير، وإذ لا يخوِّلُنا ذلك إطلاق النقد على عواهنه، فإنَّ الغفلةَ قد تفوِّت فرصاً ثمينةً، ولقد قلت وما زلت أقول: بأن الإقدام والإحجام والتقدير والتوقيت إشكالية المشاهد كلها، وما نُفَوِّته على أنفسنا من خطأ الفعل نفوِّت ما هو أكبر منه في خطأ القول، ولقد ارتاع (هتلر) من المعلومات المفصلة عن قدراته العسكرية عند أعدائه ولما حقق في الأمر تبيَّن أنها تصريحات متلاحقة من رجالاته تم رصدها، ولم تكن جهوداً جاسوسيةً كما كان يتوقع، ولقد نسمع مَنْ يزايد على حقوق الإنسان وحجته ما نتداوله عن حسن نية في صحافتنا، وما حكاية (فتاة القطيف) عنَّا ببعيدة.

والراصد للحراك الصحفي يقف على تجاوزات لا يمكن القبول بها ولا السكوت عليها، وإنْ كانت الصحف الفضائحية شطراً من الإعلام المقروء، ولكنها لا تحل المصاعب التي تواجهها الأمة، وحرية التعبير المنشودة، التي يجب أن تكون مكفولة لا تعني قول ما يخطر على البال، ولا تعني تهييج الرأي العام ولا الخروج على الثوابت والمُسلَّمات، وتمكين الأعداء من وثائق الزيف والافتراء، ولقد أشرتُ إلى بعض هذه التجاوزات في القول وناشدتُ الكُتَّابَ تجنب الاستفزاز والإثارة في مقالينِ سابقينِ تحت عنوان (لئن لم ينتهِ البراقشيون والصامتون تكن فتنة وفساد كبير) ودعوت من قبل إلى التكتل والتكتم، وما كان هدفي الإغماض على الخطأ ولا ترك الجروح ترم على فساد، ولا تهيئة الأجواء للمقصرين، ولكنني أريد التوازن والوسطية وفهم المرحلة الحرجة حق الفهم ورفع الملفات التي لا تستدعي المرحلة فتحها والتمكن من فقه الواقع والأولويات والتمكين، وما كان لي أن أجامل على حساب المصلحة ولا أن أعطي الدنية في الدين، ولكنني أظل أهدهد الفتنة لتظل نائمة متى لم يكن بالإمكان قتلها في مرقدها.

ومعتصر المختصر أننا على مفترق الطرق والصراع على أشده لانتزاع الأمن بكل أصنافه، والعالم من حولنا يخوض في حمامات من الدم، وبلادنا تضع يدها على إمكانيات العيش الكريم والحياة السوية ومسؤوليتنا ألا نفرط في الزمن المواتي، وكُلُّ مَنْ وجد في نفسه الكفاءة في القول أو الفعل ثم لا يقول ولا يفعل يكون عليه كِفْلٌ مِن المسؤولية، وكُلُّ مَنْ لم يجد في نفسه شيئاً من ذلك ثم يتقحم مشاهد القول ومسارح الفعل يكون إثمه أكبر من نفعه.

والعاقلُ مَنْ عَرِفَ قدر نفسه وحاسبها قبل أن تُحاسب والله لا يكلف نفساً إلا وسعها، وبالنية الحسنة يشارك القاعدون العاملين.

عزاؤنا في أبي زيد ما ورَّث من علم .. ! [(١)]

ما وقفت أمام حقول نوابغ الفكر وزعماء الإصلاح وأساطين العلماء في مكتبتي إلا كان (بكر بن عبد الله أبو زيد) جِماعَ ذلك كُلِّه. وما كان أولئك المتجاورون بمؤلفاتهم على رفوف المكتبة سواء في صدقهم، وعدم تبديلهم، وعمق معرفتهم، ودقة معلوماتهم، وسلامة مناهجهم، وصدق تحريهم، وما كانوا على مِلَّةٍ واحدةٍ، ولا على مذهب فكري أو كلامي أو فقهي واحد، ولكن دواعي الترتيب الخاص تقتضي الجمع بين الأشتات، فـ(نصر حامد أبو زيد) بكل ما هو عليه من (علمنة) و(عولمة) و(حدثنة) وتدنيس للمقدس يجاور العالم الرباني الفقيه المحدث السلفي (بكر أبوزيد) الذي قضى نحبه بعد جهاد بالقلم وتصدٍّ للمبطلين والمحرفين للكلم من بعد مواضعه بما أفاء الله به عليه من علم غزير وبصيرة نافذة، وتأصيل معرفي قلَّ أن يتوفَّر على مِثلِه مِثْلُه من علماء عصره ودعاته.

وما تركه من كتب ورسائل وبحوث ومواجهات علمية وتأصيل للمسائل والنوازل وتحرير للمصطلحات والظواهر يعد بحق تراث أمة، وميراث حضارة، فلم يكن جمَّاعاً ولا متسطحا، وإنما كان مستجيباً لحاجة الأمة متعقباً لأدوائها متصدياً لأعدائها مفنداً لكل قول مُخِل بالثوابت أو مشككٍ بالمسلمات.

ولقد كان على الرغم مما يتوهمه فيه بعض مجايليه من حدةٍ في القول وجديةٍ في المواقف أكثر توازناً ودرءاً لمثيرات الفتن، ومن ثم حاول جهده التخفيف من حدة بعض العلماء في النيل من (سيد قطب) كما نافح عن المجددين من العلماء أمثال (بن تيمية) وتلميذه (ابن القيم) وكتبه ورسائله المتتبعة للنوازل والظواهر حين تقرأ بتجرد تنبئ عن خبير بدخائل المذاهب ومنطويات الأفكار، فهو بحق عالم متمكن وأصولي أمكن سخر كافة إمكانياته لتفنيد كل البدع والمخالفات في القول وفي العمل وفي الاعتقاد ينكرها ويحرر مسائلها ويحدد مصطلحاتها ويُعري عمل الضالين من العوام وتأويل المضلين من العلماء، وما وهنت الأمة إلا من تأويل الجاهلين وتحريف الغالين وانتحال المبطلين، وكتبه تتسم بالمنهجية والمرجعية والتأصيل فهو لا يركن إلى جاهزية الأحكام، ولا يعول على إطلاقات من سلف، لا يحده مذهب، ولا يقيده اجتهاد، ولكنه وقَّاف عند النصوص القطعية، وما تركه من علم يعد امتداداً لعمله المأجور، وهو يشكل مرحلةً من مراحل التجديد الديني، وحري بمثله أن يقيل عثرة المؤسسات الدينية، وأن يخفف من أزماتها المتضاعفة، ولاسيما في زمن أصابته لوثة السياسة بتقلباتها، واستفحل فيه التطرف والعنف وحُمِّلت المؤسسات الدينية جريرة الإرهاب الذي صنعته اللعب السياسية ورمت به المؤسسات الدينية وانسلّت. وهو داء العصر ووميض نار الفتنة والمفرق لجماعات المسلمين.

وما أصاب المؤسسات الدينية من ارتباك وتفرق ووهن وتفلت على المرجعيات مرده ضيق العطن، وضعف المحصول، وقلة التجربة، وتحكم الهوى، وفقد الوعي التام بمجريات الأحداث، وصلف التعصب، والركون المطلق إلى فقه الأحكام، والتخلي عن فقه الواقع والأولويات والتمكن. وعالمٌ مثل (أبي زيد) جاس خلال المذاهب، وتعرف على مناهجها وأصولها وقواعدها ونظريات التلقي عندها، وفرق بين النصوص الاحتمالية والقطعية، وعرف مصادر التشريع ودرجاتها، استطاع أن يسهم في تفادي بعض الأخطاء التي تردى فيها من تردى عن تعصب أو جهل أو تأويل فاسد، لقد جمع بين التربية

---

(١) تاريخ المقال: ١٢/ ٢/ ٢٠٠٨

والتصفية، ووصل حباله بمصدري التشريع، ولم يتردد في نقد بعض الظواهر والآراء، كما استمات في الدفاع عن علماء السلف ومذهب السلفية، وقاد (المجمع الفقهي) وآزر (هيئة كبار العلماء) بعلمه الغزير وعقله الحصيف وتجربته العميقة.

ومع غزارة علمه، ونباهة فكره، وجلده ومثابرته، وتوفره على نوادر المؤلفات التي أمضى عشرات السنين في جمعها وتنقيحها فقد أخذه تواضع العلماء، ففي كتابه الذي يعده من مشاريع العمر يقول: (ليس لي فيها سوى: الجمع ثم الترتيب ثم التعبير ثم التلخيص، وهي أدنى مراتب التأليف)، ويقول في موضع آخر: (وجميع ما ذكرته ليس لي فيه من فضل سوى الجمع والترتيب).

وهو على سجايا حميدة من التقدير والإكبار لعلماء الأمة على الرغم من تعقبهم واستدراك ما فاتهم أو ما قصروا فيه، وهو استدراك لا يُدِلُّ به، فعن علماء الأمة الذين سلفوا يقول: (فهذا الطراز شغر منهم الزمان وطوى بساطه عنا منذ زمان) ويقول: (وما الأمر فينا إلا كما قال أبو عمرو بن العلاء -رحمه الله-: ما نحن فيمن مضى إلا كبقل في أصول نخل طوال) وهي كلمات يقمع بها استشراف النفس عما هي أهل له من مثله. ولما كان محصوله المعرفي من دراساته النظامية وغير النظامية، فقد تفرغ لدراسة علم من أعلام الإسلام جمع الله له مواهب كثيرة، فكان الفقيه والمحدث والأديب، إنه الإمام (ابن القيم) رحمه الله، وأبو زيد سار على ذات المهيع، ومن أبرز جهوده في خدمة تراث (ابن القيم) إسهامه في تقريب فقهه، فلقد استقصى فقهه واستقاه مما طبع من مؤلفاته التي نيفت على الثلاثين كتابا وسماه: (التقريب لفقه ابن قيم الجوزية) محاولا إبداء أصالته وبراعته وسعة اطلاعه، ويقع الكتاب في أربعة أجزاء، تقصى فيها أكثر من ثلاثة آلاف وثمانمائة مسألة، ولتعلق أبي زيد بإمامه فقد اجتهد في إبراز استقلاليته عن شيخه (ابن تيمية) وتصدى للأفاك (الكوثري) الذي شنع على الإمامين وقد تناول في إطار اهتمامه (الحدود والتعزيرات عند ابن القيم) كما خصه بمؤلف مستقل تناول فيه حياته وآثاره، وأبو زيد بهذه الجهود المتواصلة استطاع أن يعيد قراءة ابن القيم، وتقصيه لتراثه حفزه على كشف النسق المعرفي له، وكل مؤصل للمعارف لا يسبر أغوار الإنسان لا يكون على شيء مثير من المعرفة الدقيقة، وحصره لموارد ابن القيم في كتبه مؤشر جهد دقيق وعميق، حيث بلغت مصادره وموارده خمسمائة وتسعة وستين كتابا، من بينها الكتب التي أثنى عليها، والتي وهَّن منزلتها، والكتب التي تعقبها.

ولأنه رحمه الله - كما أشرت - كان مستشرفاً للمستقبل متخلصاً من النمطية والتناظر واجترار المتون، فقد شرع قلمه لمواجهة النوازل المعقدة، ومنها (تقنين الشريعة) وإلزام المحاكم بها أو بمذهب واحد، وقد أوسع هذه النازلة ببحث علمي أصولي مدعوم بالحيثيات، كما عدَّ (إشكالية المصطلح) من النوازل، ومن ثم عقد فصلاً ممتعا يدل على تأصيله المعرفي، ومهما اختلفنا معه في تحفظه إلا أننا نثمن صدقه وإخلاصه وسعة اطلاعه واهتمامه بأمر المسلمين.

وإشكالية (الضمان البنكي) تضاربت فيها أقوال العلماء واضطربت أحكامهم، وهي من الأمور المشتبهات أو تكاد، فمن العلماء من فتح الأبواب فأفْلت، ومنهم من أوصدها فحجَّر ووضع الناس في حرج شديد، ولقد عالج خطاب الضمان مجلياً حقيقته وحكمه، كما تقصى مسائل (المرابحة).

وإذا كان العالم الإسلامي قد ارتبك في الشأن الاقتصادي فهو أشد ارتباكا في الشأن الصحي، وبخاصة قضايا (الموت الدماغي) و(التشريح) و(زراعة الأعضاء) و(أطفال الأنابيب) وهي من معضلات النوازل التي خصها ببحوث عميقة شاملة شافية، كما تناول ما دون ذلك من النوازل ك(حق التأليف) و(الحساب الفلكي) و(البوصلة) وهي قضايا

تشغل كافة المؤسسات العالمية مع بساطتها، ولكنه بحرصه على التنقيب والجمع سبق إليها وحاول تحرير مسائلها والجنوح إلى ما يطمئن إليه من الأحكام، وله رسائل لطيفة ومهمة شاعت في كافة الأوساط العلمية، وأملي أن أعود إليها بالدراسة لأهميتها وعمق أثرها، ومن أهمها:

-حراسة الفضيلة.
-الرد على المخالف.
-تحريف النصوص.
-لا جديد في أحكام الصلاة.
-تصنيف الناس.
-خصائص جزيرة العرب.
-درء الفتنة عن أهل السنة.
-براءة أهل السنة من الوقيعة في علماء الأمة.

وله عشرات الرسائل التي تعد تحريرا لأحكام النوازل في العادات والعبادات والمعاملات، وقد جمع طائفة من تلك الرسائل المتفرقة في موسوعة (الردود) ومن لطائف كتبه (النظائر) وهو من التقميشات التي يعمد إليها بعض القراء، وأبو زيد رحمه الله مغرم بالتقميش وجمع الأشباه والنظائر، وكل قارئ منقب يقيد ما يمر به من شوارد حتى إذا اجتمعت عنده القصاصات ضم بعضها إلى بعض وأخرجها في رسالة، وله في علم الحديث وأصوله مؤلفات ورسائل تسد خلالا وتقرب معارف، من أهمها وأجدرها بالاقتناء والقراءة كتاب (التأصيل لأصول التخريج وقواعد الجرح والتعديل) وهو كتاب يضاف إلى مئات الكتب في هذا الفن، ولكنه يمتاز بالإيجاز غير المخل والتبويب الحائل دون التشتت، وله إلى جانبه (معرفة النُّسخ والصحائف الحديثية) و(التحديث بما قيل لا يصح فيه حديث) لخص فيه ما سبق من مؤلفات وأضاف إليه تقميشات مهمة، وتلك مراجع مهمة لا يقدرها قدرها إلا الذين يغالبون عَصِيَّ المسائل، ومن لطائف مؤلفاته التي تدخل في منهج المعاجم (معجم المناهي اللفظية) وذيله (فوائد من الألفاظ) وقد استدرك عليه الأستاذ (سليمان الخراشي) (المستدرك على معجم المناهي اللفظية).

والعلامة أبو زيد برحيله سيترك فراغاً أرجو أن تجود الأمة الولود بمثله، ليصل ما انقطع ويتصدى للمخالف بأسلوب علمي ينتزع القناعة ولا يفسد للود قضية.. ولنا عودة إلى تراثه المطبوع والمخطوط.

من (فولبرايت) إلى (فندلي) .. ! (١)[1]

يتساءل البعض عن دواعي تزايد الاهتمام بالشأن (الأمريكي) فيما يبادر آخرون بالقول: إنه ك(قضايا المرأة) بوصفها حديث مَن لا حديث له، ولست فَرِقاً، ولا مُتَذَمِّراً، ولا مستغرباً أن يقول غير هؤلاء فوق قولهم، فالناس أوعية ينضحون مما يستوعبون من أفكار ومواقف، وليسوا سواء في اللوثة والنقاء، وكل إنسان يلزمه طائر قراءته للأشياء، وفق منهجه وآليته وخلفيته الثقافية، والنسق الثقافي مفتاح التصور السليم للأناسي والأفكار، ومتى عُرِفت الأنساقُ خَفَّ الشقاق والاستغراب، ولقد قيل: قل لي ماذا تقرأ أقل لك من أنت.

ومن تعقب (نظرية التَّلقي) لم يَرُعه الاختلاف، وما كان بودي مفارقة هذه الإشكاليات التي يتحرج منها غير المجربين، وغير المدركين لنظريات المعرفة فالحديث فيها، والإيمان بحتميتها، يثبت القلوب الفارغة، ويسكن الأفئدة الوجلة من فداحة التفرق في الآراء، والاختلاف في التصورات حول أمور قد لا تحتمل المناقشة فضلاً عن الاختلاف حولها، فمن القضايا ما هو كالنص القطعي الدلالة والثبوت الذي لا اجتهاد معه - كما يقول الأصوليون - ومع ذلك تظل مثار جدل عقيم واختلاف عريض، والسفسطة في عالم الفلسفة تعني الجدل لذاته، أو ما يسمى برياضة الأفكار وكم كان بودي أن نعي (نظرية البحث) عند (جون ديوي) التي لا تعني البحث بمفهومه الشائع، وإنما تعني العمليات الموجهة التي يؤديها الإنسان يحوِّل موقفاً غير متعين إلى موقف متعين، وذلك بإزالة التنافر بين عناصره، وبعض الكتبة يستهويهم هذا اللون من المراجعات وليست تلك الظاهرة سمة عصر دون عصر، وإنما هي ظاهرة أزلية، واكبت الإنسانية منذ القرون الأولى، ولو أن الخلف حسم قضايا السلف وسلَّم لما انتهوا إليه لما أتيحت فرصة التفاعل بين التراث والمعاصرة، ودعك مما يجد من نوازل لم تكن معهودة من قبل وسائر القضايا الاجتهادية تقوَّم بحسبها، وعلى الخائض في هذه الحجج أن يتوفر على الجهد والوقت ورحابة الصدر لمواجهة الرأي الآخر، وليس من الحكمة إطلاق الأحكام بحيث تحمد المواقف كلها أو تذم بجملتها، إذ لا مجال للمَحْض، وحين لا تكون القضايا دولة بين الخير المحض أو الشر المحض فإن لكل مقام مقالاً، وهذه الاحتمالات تمكن من تفادي الصدام الذي يتعمده سفهاء القوم:

ومن لم يصانع في أمور كثيرة
يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

وفرق كبير بين مداهنة الآخر والركون إليه، واتقاء المضطر أو المكره مع اطمئنان القلب بالإيمان، وكل الذي يحتاج إليه المصاب بداء القراءة والكتابة والركض في فجاج المشاهد وما تعج به أن يكون مستعداً للمفاجآت الغريبة والآراء الفجة، ولا سيما أن الافتتان منهجٌ رباني لمعرفة الصادق من الكاذب ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾.

وقولي كلما جشأت النفس وجاشت من هذه المقاربات غير الرشيدة والمداخلات غير السديدة ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ﴾ غير أن صاحب الحق المستبرئ والمعد

---

(١) تاريخ المقال: ١٩/ ٢/ ٢٠٠٨

العدَّة يرجو من الله ما لا يرجوه المبطلون الفارغون وغير المتورعين، فهو منطلق إلى إحدى الحسنيين: النصر المبهج، أو المثوبة المعوضة، وليس على المصلح إلا البلاغ.

على أن افتراض الاعتراض يوقظ الحواس ويحفز الملطات على اتقاء المكر والمخادعة، إذ ما من فكر إلا هو على شفير اعتراض لا يألوه خبالاً، ولذَّة الحياة في الانتصار، ولا انتصار إلا في المغالية، وكم يتنادى المباهون بقدراتهم إلى الاختلاف ليتوفروا على تلك اللذة الغائبة، فضلاً عن أن الاختلاف نارٌ هادئةٌ تُنْضِجُ القضايا وتَقي مصارع الغفلة.

والحديث في الشأن الأمريكي تتداعى معه كل هذه التحفظات، ثم إنه ليس من باب الفضول والتزيد، إنه حديث في الصميم، فأمريكا بمؤسساتها السياسية والعسكرية والفكرية والاقتصادية تجري من الجسم العربي مجرى الدم، وكل حزب يفوز مرشحه بالرئاسة يتملق جماعات الضغط والمنظمات العنصرية بانتهاك الحقوق، واستغلال (الفيتو) والمغامرات القاتلة، ولا أحسب مشرقنا العربي المأزوم إلا حقل تجارب للأفكار والمذاهب والمبادئ والمخترعات، إذ ما من (أيديولوجية) إلا هي مصدر تنازع وما من مخترع فقال إلا هو في يد العدو المحتل أو المجنون المغامر، وما ظلمناهم في قول أو فعل بل هم الذين ظلموا عالمنا العربي، وأقبلوا بعددهم وعتادهم من أقصى الأرض ليصنعونا على أعينهم وينصروا أعداءنا، ويحولوا دون مبادراتنا، ويحدوا من تصرفاتنا، ويلزمونا بما لا يلزم، ويجسدوا بلعبهم الكبرى الغزو والتآمر في أبشع صورهما، وليس هناك أصدق من شاهد الأهل، فأصحاب الضمائر الحية من مفكري الغرب وساسته يقولون الحق، ولكنه خافت لا يكاد يبين ومتأخر يسبق فيه السيف العذل، فالذين يبرحون مواقعهم السياسية والعسكرية، وتزول عن أعينهم غشاوة الجشع والطمع يكتبون مذكراتهم وذكرياتهم وتنصلاتهم معترفين بالخطيئات نادمين على المقترفات، وكأنهم في قولهم الذي قيل على استحياء وبعد فوات الأوان يردون الاعتبار لضحية أزهقت روحها ودنست سمعتها وصودرت حقوقها وأشياؤها، والمعتدلون المنصفون لا يصدون الطغام من فلول الضحايا عن تمجيد الطغاة، فعشاق الاستغراب من المتذيلين لقشور الماديات يظنون أن العشق لا يتحقق إلا بتخوين الضحية وتمجيد المتسلط والتخلي عن محققات حضارة الانتماء ويحسبون أن النقاهة من إرهاق المتغطرسين لا تتحقق إلا بإدانة الفريسة وتبرئة المفترس، وذلك جماع الفشل الذريع في محاولة الخلوص من مهاوي الهلكة، فالكتبة الذين يستمرئون جلد الذات واستعداء الأعداء على الأهل والعشيرة يظنون أن منشأ التخلف التمنع في الاستجابة الناجزة والكلية لما يفيض به الغرب مما لا تقوم إليه الحاجة، وما من أحد منهم دعا إلى النديَّة في التفاعل، وتفادى الذوبان ومَسْخ الذات فالاعتزال والاختلاط لا يكون أحدهما محموداً ما لم يقدِّر بقدره.

ولكيلا ندين المشهد من طرف واحد نشير إلى أن المتحفظين يتولون شطراً من المسؤولية، والرائد حين لا يكذب أهله يجب ألا يجرمنه شنآن قوم على ألا يعدل، فالإقدام والإحجام غير المحسوبين سواء في الخطيئة.

وقراءة أمريكا أنكى من مواجهتها، فهي عند قوم ملائكية لا شر فيها، وعند آخرين شيطانة خرساء ورجس من عمل الشيطان لا يجوز الاقتراب منها ولا التعايش معها، والقليل من ينفي الزيف ويقر في الأذهان ما هو حق، وما هو نافع للذين يمسهم الضر ويرهقهم العنف وتذلّهم الغطرسة، وتشكيل الوعي من فيض الإعلام أو من زبد المزايدات يحول الأذهان إلى أوعية غثاء تضيف عبئاً إلى أعباء الأمة المستباحة، ولا يتسيد المشهد إلا طرفا الإشكالية.

والحديث عن شاهدي الأهل حديث فصل، ولقد سبقت مقاربة (جيمس وليام فولبرايت) داعي الوئام والسلام وللائم لساسة قومه على تسلطهم وظلمهم وخلقهم للعداوة والأعداء مع إمكان التعايش والتصالح واستيفاء المصالح، ولكف عن انتهاك السيادة.

وتلك الشخصية الجانحة إلى السلام ليست وحدها في المشاهد السياسية ولكنها الأخفت صوتاً والأندر وجوداً، فيما يكون سواها أندى صوتاً. ولقد سعدنا بهلاك مناقضه (توم لانتس) اليهودي الأمريكي الذي قضى في مجلس النواب ثلاثة عقود منافحاً عن المطامع الصهيونية والشذوذ الجنسي والإجهاض، والاعتراض على مصالح المشرق العربي.

واحتفاء الأمة المستباحة بالتعتيم على أمثال (فولبرايت) والإبقاء على مثله في الظل دليل خلل في التفكير وسوء في التقدير، وقراءة أمريكا من الداخل تنفي زيف الإعلام، وتهيئ إمكانية الحوار الحضاري بدل الصراع أو الصدام أو القطيعة، وعقلاء الأمة لا يكون أحدهم داعي مقاطعة ولا مقاومة متى أمكن الدفع بالتي هي أحسن، وحالة الضعف الذي تعيشه الأمة مدعاة إلى الاستقامة والاستفادة والمصالحة والتفريق بين الحضارة والمدنية والفكر والعلم والقيم والمعارف وحين لا يكون بالإمكان انتزاع الحق بالقوة فإن اختراق الأجواء بالقول السديد والقدوة الصالحة أقوى من اختراقها بالرصاصة وجرّ الحديد.

والأمة الإسلامية داعية سلام بل هي مأمورة بالجنوح إليه والمفكرون والساسة من كل الأطراف حين يفضلون السلام ويجنحون إلى الحوار ويرفضون العنف وافتراء الكذب يقدمون بآرائهم آليات ومناهج وأساليب لو توفر عليها المضطهدون لرفعوا شطراً من الظلم عنهم وأنى لهم ذلك والمال والإعلام الأمريكيان بيد الصهاينة، والكتبة الجوف يطاردون سراب القيعان، ولا أحسب اليأس يحول دون المحاولة ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا﴾.

﴿إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾.

من (فولبرايت) إلى (فندلي) .. (٢) [(١)]

(بول فندلي) الذي أخرج للمشاهد العالمية خمسة كتب كلها تصبُّ في مصلحة العالم المستضعف والمستباح، وتكشف عن انتهاكات المؤسسات الغربية لحقوق الإنسان وهيمنتها على كافة المؤسسات العالمية وسائد الهيئات والمنظمات الإنسانية، ولم يكن شيء منها بعض وثائق الادعاء التي يتسلح بها الكتاب العرب في مواجهة غطرسة القوة، بل أكاد أجزم بأن بعض المخدوعين منهم لا يتحرجون من السخرية بهذه الفئة من الكتاب والاستخفاف بهذا اللون من الآراء، على الرغم من أنها تصب في مصلحتهم، وقد يبلغ بمثل هؤلاء الحمق فيسفهون أمثال (فولبرايت) و(فندلي) و(تشومسكي) و(غريس هالسل) ويظاهرون المتصدِّين لهذه المواقف النبيلة، وتلك خدمة ناجزة لصالح المعتدي على حرماتهم، وخطاب المستهدف باللغة التي يفهمها طريق قاصد لتحقيق المراد، وليس هناك أفضل من شاهد الأهل.

لقد استوقفني من الكتب الخمسة، أو قل توفر عندي منها ثلاثة كتب هي:

-(من يجرؤ على الكلام).

-(لا سكوت بعد اليوم).

-(الخداع).

وهي كتب وثائقية رصدية تدين ممارسات (أمريكا) بالذات، وتدعوها إلى مراجعة خططها ومواقفها وحساباتها، وإذ يختلف (فولبرايت) عن (فندلي) من حيث التأسيس المعرفي والخطة والمنهج والتحديد الدقيق للرؤية والموقف، فإن الآخر يلتقط الشواهد من الأحداث، ويختلف الاثنان عن الكاتبة الأصولية (غريس هالسل) في كتابيها: (النبوءة السياسة) و(يَدُ الله) التي تكشف بجلاء عن (الصهيونية المسيحية) التي تحكم أمريكا وتقودها إلى الهاوية - وسيكون لنا حديث عن رؤية (غريس) التي تكشف العلمنة في زمن التدين، وهو المنهج الذي يتهافت عليه الفارغون والمأجورون.

وكلا الرجلين (فولبرايت) و(فندلي) يدعوان إلى العدل والإحسان ولكن الأول يتوفر على آلية البحث والتعليل، فيما يتوفر الآخر على التساؤل والموازنة، وكلتا الرؤيتين تتجهان صوب التفادي للظلم، وحاجة الكتبة المبتدئين والمخدوعين إلى التأسيس المعرفي والتحرير الدقيق للمسائل والخلوص من تضارب الآراء واضطراب المفاهيم، ولن يتأتى ذلك بالتسطح على الأحداث والاستجابة لمختلف النداءات دون تثبت، إن على هؤلاء الذين يتصدرون مشاهد الإعلام أن يبحثوا عن المنشقين على المؤسسة السياسية الأمريكية، وهم قلة مطاردة في رزقها وسمعتها، وأضعف الإيمان أن يجد المنشق لصالح المستضعفين المناصرة الآسية والمواسية والمتوجعة لتثبيت الأقدام وجبر الخواطر ورد الصوت وبعض الجميل، وكل محترفي السياسة لا يعبؤون بمثل هذه الأصوات غير المنكرة.

ومنطلق (فندلي) في كتابيه (من يجرؤ على الكلام) و(الخداع) حول الدعم المطلق لإسرائيل، وتأثير (اللوبي) الصهيوني على المؤسسة الأمريكية، وهنا يجب أن نفرق بين (الصهيونية السياسية) و(الصهيونية المسيحية) وأثر كل واحدة في مجالها، وهو ما لم يتنبه له كثير من المحللين للأحداث السياسية، وهو في كتاب (الخداع) يركز على جديد العلاقات الأمريكية الإسرائيلية، ويتحدث على خداع الأساطير التي جعلت اليمين المتطرف يمارس الدعم بدافع ديني، وفي ذلك التفات موفق إلى تأثير (الصهيونية المسيحية) التي عرتها (غريس) ونجاح (فندلي) في مؤلفه (من يجرؤ على الكلام) أوحى

---

(١) تاريخ المقال: ٢٦/ ٢/ ٢٠٠٨

إليه فكرة تأليف كتابه (الخداع) وأجمل ما في كتابه الأول فصله الثالث: (هيئة التشاور لا تشاور) لقد تحدث عن المنشقين على السياسة الأمريكية ومنهم (فولبرايت) ووفاه حقه، والغريب أن (بل كلنتون) الرئيس الأمريكي الديموقراطي من مدرسة (فولبرايت) إذ عمل معه متدرباً وأيده في كثير من آرائه ولكنه حين دخل (البيت الأبيض) - ربما - بعباءة (فولبرايت) تنكر لكثير من المبادئ، وإن كان أحسن حالاً من (بوش) الابن.

أما في كتابه الثالث (لا سكوت بعد اليوم) فهو يدافع على الإسلام، ويحاول الجمع بين الديانات السماوية الثلاث، وهي محاولة طرقها عدد من المفكرين، وقد تأخذ منحاً آخر، كاد ينفرد به (روجيه جارودي) وهو العودة إلى عقيدة أبي الأنبياء إبراهيم، ولسنا معنيين بهذه المجالات التي لا تتفق مع المنهج الإسلامي الصحيح، ولا تسهم في فك الاختناق العالمي.

وكم كان بودي أن يبحث القارئ العربي عن تلك الفئة القليلة المحاربة من الصهيونية السياسية والمسيحية التي يشير إليها (فندلي) ممن عرَّضوا سمعتهم وحياتهم ووظائفهم للخطر في سبيل قول الحق.

لقد كان (فولبرايت) يعوِّل في خطابه المتوازن الذي وصفه (بل كلنتون) في كتابه (حياتي): (بأن اسمه في جميع أنحاء العالم مرتبط بالانفتاح والصداقة والناس الذين يكافحون معاً) كان يعول على الرئيس (ايزنهاور) لأنه الوحيد الذي واجه إسرائيل وأرغمها على التخلي والتراجع في اعتدائها على مصر عام ١٩٥٦م، وحاول مع (فورد) تقمص شخصية (ايزنهاور) لقمع غطرسة إسرائيل، ولكن لم يفلح، وتوارث الرؤساء من بعد (ايزنهاور) سجية الخوف من (اللوبي) الصهيوني، الأمر الذي كثر معه المنشقون ولكنهم لم يجدوا من العرب دعماً يمكنهم من تبليغ رؤيتهم، وتلك رزية المشاهد الموبوءة والأفكار الخاوية والصفوف المخترقة بما يوهنها، ويفوت على الأمة فرص السيطرة على التدهور وتخفيف حدته.

ومثلما ندعو إلى مناصرة المعتدلين في القطاع السياسي ندعو إلى قراءة المنصفين من المستشرقين والمفكرين في قطاع الفكر والفلسفة والدراسات التاريخية، والدخول معهم في حوار ينفي ما لُبِّس عليهم.

والإسلام - بوصفه رسالة سماوية - الذي تتعمد كافة المؤسسات السياسية والمنظمات العالمية محاربته بحجة أنه معوق للحضارة والمدينة و(الميتاميزيقا) التي يعدّها بعض الفلاسفة العرب المعاصرين (خرافة) عادت الديانة المسيحية المحرفة والأساطير الأنجيلية لتتحكم في أصحاب القرارات المصيرية، ويكفي أن يقرأ المرتاب كتاب (يد الله) ل(غريس) التي كانت في قلب العاصفة، ولم تتردد في التحول من (الايديولوجية) المتحكمة إلى الديانة المتصالحة مع الآخر.

والإسلام المتهم حتى من أبنائه يجد من ينصره ويبرز اعتداله وتوازنه وجنوحه إلى السلام وأخذه بأسباب الحضارة، واستيعابه لكل الخطابات وكفالته لحرية التفكير والتعبير، وما نراه ونسمعه من ظلم ذوي القربى. والرزية أن الذين يعوِّلون على العلمانية الشاملة من أبناء المسلمين لا ينظرون إلى تأثير (الصهيونية المسيحية) على قادة العالم وكم كان بودي أن تمتد أيدي دعاة العلمانية إلى كتاب (رضا هلال): (المسيح اليهودي ونهاية العالم) وكتاب (ناصر بن محمد الزمل): (الصهاينة الجدد مهمة لم تنته)، وكتب أخرى تراوح بين الرصد للأحداث والتحليل الفكري لها، ويكفي دليلاً على أهمية العقيدة قيام دولة إسرائيل على خرافة أرض الميعاد، وتأثير الصهيونية المسيحية على القرار الأمريكية.

هل لدينا استعداد ذهني للتغيير .. !؟ (١) (١)

حبَّبَ إليَّ بعض الزملاء تناول هذا الموضوع، بعد إحساسه بتبلّد الشارع الاجتماعي، وعدم مبالاته، وتحفز النخبة عبر الكلمة الملتهبة، واجتياح المدنية الغربية متوسلة بآلياتها ومؤسساتها، ومراوحة الأطراف المستهدفة بين الصدمة والصدام، وحين يتملك الأمة ذلك الشعور، ويستبد بها التناقض لا يكون لديها الاستعداد الذهني، المتفادي لاختلاط المفاهيم، واضطراب المواقف، وتناحر الفرقاء، وتنازع الأطياف، والوقوع في فوضى التعبير والتفكير، وتفادت الأطياف في الوعي والاستيعاب والتفاعل.

ولقد كنت من قبل أفكر في مدى انصياع المستهدف لقانون التغيير وتوفره على محققاته على الوجه الذي يواكب الرؤية الحضارية الحصيفة لسائر الأشياء الجديد منها والتليد، دون التعرض لقفزات تبعد النجعة، أو قعود يفوت الفرص، وحين تكون أشياء الأمة قسمة بين المندفعين بلا حساب والقاعدين بدون مبررات تضمحل الأمة وأشياؤها، وتلك نتائج فقد الاستعداد لمواجهة المستجدات التي تفرضها طبيعة الحياة، أو يستدرجها الراغبون دون استعداد متكافئ ولا حاجة ملحة.

ومن المسلمات أن أي مواجهة غير متوقعة للتغيير ستكون لها تبعات قد لا ترحب لها صدور المدفوعين والمندفعين، فالناس ليسوا كأسنان المشط في قبول المستجد وقوة الاحتمال وحسن الظن والتفاؤل، وليسوا سواء في القدرة على ممارسة المحدثات بدون اضطراب في الأمزجة وتوجس خيفة من مفارقة المألوف، وما عصيت الرسل إلا بعقدة الأبوية ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾.

وكثير من الذين يتغنون بالتغيير لا يحسنون حلحلة مسلماتهم الخاطئة قيد أنملة، والخوض في متاهات التغيير كما الركض في المفازات بدون علامات يُهتدى بها، والأمة منهية عن إلقاء نفسها في التهلكة، والمحاذير التي تبدو كالسماديرلا تثني العزمات، ولكنها تثبط المرتابين والمترددين. فالقادرون على مواجهة المتغيرات ملزمون بالاستعداد لتلقي النوازل، والأمة السوية لا يتصدر لنوازلها وملماتها إلا المقتدرون من أبنائها، وحب السلامة يكشف الثغور لمن لا يحسن تصريف الأمور ومن أشراط الساعة أن يوسد الأمر إلى غير أهله وأن تتكلم الرويبضة واعتزال المقتدرين يخلي الأجواء للغوغاء التي تخلط الأوراق وتربك المسيرة، والسلطة أي سلطة لا تحقق وجودها إلا بالتدخل السريع في الوقت المناسب لحسم الأمور وإيقاف التدهور. ومن تصور الحرية في غياب السلطة أو في تغيبها فقد وقع في الفوضوية، وممارسة السلطة لحقها المشروع تحقيق فعلي للحرية المنشودة كما يراها الفكر السياسي الإسلامي والمُصْميات في جلب النظريات تحت أي دعوى، والوقوع في التلفيق المخل بالأهلية، وهو داء المشاهد كلها، ومن تصور أن الاستعداد للتغيير هو القبول المطلق فقد زاد في التأزيم، وتلك مفارقات عجيبة وغريبة، والمعادلة الأصعب أن توفق بين العناصر والأطراف، بين القضية من حيث هي حدث والأطراف المستهدفين، والتغيير الذي نعني لا يقف عند حد التجديد العفوي الذي تقتضيه السنن الكونية، وإنما هو المتمثل بالانقطاع التام عما هو مألوف.

ومهما استدرجنا بالتباهي والتشبع والادعاء والتزكية وأخذنا بالغفلة عما نحن فيه وعما نحن بحاجة إليه فإن الخلوص من آثار ذلك لا يكون إلا بالمصارحة والشفافية، ومثل هذه المواقف كالشهادة: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ وحين يكون التغيير حتما فإن

---

(١) تاريخ المقال: ٤/ ٣/ ٢٠٠٨

علينا ترويض أنفسنا للقبول به، والتوفر على ثقافته والاستعداد للتفاعل معه، ومراقبة الذات المتفاعلة والممانعة، وغير المتحرف أو المتحيز، وأي استرخاء أو تردد يصيبان المستهدفين يؤديان إلى تعثر المشروع الذي يتغنى به الجميع، ولن يتم ضبط الإيقاع إلا بتحديد مجالاته وأمدائه ومشروعيته وإدراك القدر الممكن والمستطاع، إذ ليست كل رغبة ممكنة، كما أنه ليس كل مباح ممكن، وغير المدركين لعواقب الأمور يقفون حيث يكون فقه الأحكام، فما كان مباحاً يوجبون الأخذ به بلا تقدير وبلا توقيت وبلا معرفة بالإمكانات، وهو محظور يسوون فيه بين القادر والمضطر، والمجربون يستصحبون فقه الأحكام ولكنهم يستبطنون فقه الواقع والإمكانات، بحيث لا يمارسون المباح غير الممكن ولا يقعدون عن اللوازب، وليس هناك مجتمع يخلو من مباحات يجب تأجيلها وأخرى يجب اهتبالها، وكم هو الفرق بين ممنوع لحرمته الذاتية ومحظور لحرمته الغيرية، ومباح ممكن التنفيذ ومباح غير ممكن التنفيذ، ومحرم بنص وممنوع لمصلحة، ومحكوم باجتهاد يعذر فيه المخالف ويباح فيه الاختيار ويلزم الترجيح.

ولو ضربنا مثلاً ب(قيادة المرأة للسيارة) بوصفها واحدة من مفردات التغيير الذي تشعبت فيه الآراء واحتدمت المشاعر واستفحلت العداوات وتبودلت فيه أقذع الاتهامات لوجدنا أن السلطة التشريعية في حدود صلاحياتها قد منعته ناظرة فيه إلى المصلحة العامة، ولم تحرمه، إذ ليس من حقها أن تحرم ما لم يرد نص بتحريمه، فالتحريم من الافتراء على الله، وأي سلطة تشريعية مخولة من حقها أن تمنع المباح حين تكون المصلحة العامة مع المنع، فالتشريع غالباً ما يكون مرتبطاً بالتغليب، إذ ليس هناك سر محض ولا خير محض فالنفع الأقل لا يسوغ الحل كالخمر، ولن تتوفر السلطة على حقوقها حتى يكون في مقدورها المفاضلة بين الخيارات وفض النزاعات بين المندفعين والمتحفظين، فمنع القيادة أو التمكين منها خياران متاحان والقضية برمتها مفردة من مفردات التغيير، والجدل حولها يجب أن يستحضر أحقية السلطات الثلاث: السياسية والدينية والمجتمعية، والذين يتولون التبشير بالتغيير يجب أن يعوا مثل ذلك؛ بحيث يتداولون القضايا بوصفها متاحة للجدل وليست محرمة على أحد، وما لم يكن لدينا استعداد ذهني لقبول الاختلاف المعتبر والمشروع فإننا سنفقد أهلية الاستعداد للتغيير، وهو بعض ما نراه بادياً على كثير من الوجوه، فالمندفعون وراء بوارق التغيير لا يقبلون بالحدود والضوابط والخيارات، والممانعون المتخوفون لا يتيحون الفرصة للحوار وتمكين الفرقاء من إنضاج القضايا المختلف حولها. على أن هناك ظاهرتين خطيرتين تتداولهما المشاهد دون تحديد دقيق:

-القول بالتعددية دون ضوابط.

-والقول بعدم احتكار الحق بدون استثناء.

والأمة الإسلامية محكومة بالنص، ودور العقل في استثمار فضاءات هذا النص، وليس له حق المخالفة، فالتعددية متاحة، ولكنها في النهاية مردودة إلى النص، واحتكار الحق لا يمتلكه مجتهد، وإنما يمتلكه النص البرهاني القطعي الدلالة والثبوت. وكل تغيير لا يحترم هذه الضوابط فهو رد على صاحبه. والجدل متاح لكل مقتدر ولكن الحسم والحزم من حق السلطة التي من واجبها توخي المصلحة العامة، وتغييب السلطة باسم حرية التعبير والتفكير إضاعة للجهد والوقت وتعميق للفرقة والتشرذم، والمرجعية هي التي تحسم الخلاف وتنهي الجدل عند اللحظة المناسبة، ولا يضير المجتهد أن يسلم في النهاية للأغلبية التي تتحراها السلطة في كل قراراتها. على أن الحكم لا يكون بالضرورة للأغلبية ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ وإنما يستأنس باستبعاد اجتماع الأمة على ضلال.

والمطالب بمنع المرأة من قيادة السيارة يتناغم مع ميل السلطات الثلاث و من ثم لا يجوز المساس بأهليته ولا بأحقيته في الطرح والإصرار على الرأي المخالف والمطالب بتمكين المرأة من قيادة السيارة حين يعرض وجهة نظره ولا يفرضها وحين يقف حيث تكون الحيثيات والمبررات التي يراها، دون النيل من الطرف الآخر، ودون استعداء مؤسسات حقوق الإنسان أو عدِّ ذلك مصادرة لحقوق المرأة يكون واعياً لضوابط التغيير والتفرغ لتصفية السمعة والتصنيف والتجريم والتجهيل من كل الأطراف المتصارعة حول مفردات التغيير ضعف في ثقافة التغيير، وهذه السجايا إشكاليات تضاف إلى الخلل في استيعاب المرحلة المرتهنة لحتمية التغيير. وبوادر الصدام واحتدام المشاعر لا تبشر بخير ولا تمكن السلطة من ترشيد التحرك باتجاه الأجدى والأهدى والرصد للجدل والتمكين من إنضاج القضايا بروح الثقة والتقدير المتبادلين بين الفرقاء.

وأنا هنا لست معنياً بالوقوعات العابرة بقدر عنايتي بالتفكير وأسلوب التعامل مع حراك المشاهد كلها وتحسس مخاضاتها والرصد لأصداء العراك بين أطيافها للتوفر على أرضية مناسبة لممارسة كل الأطراف لحقوقها المشروعة.

هل لدينا استعداد ذهني للتغيير .. !؟ (٢) (١)

وحين يكون التغيير حتماً مقضياً يكون من مقتضيات التناغم أن نعي متطلبات الخطاب الذي تقتضيه كل مرحلة، فتلاحق التحولات يستدعي خطاباً مرناً لا يني في قبول التبدل السريع الذي لا يمس الثوابت ولا محققات حضارة الانتماء.

وكل من كان قدره أن يعيش مثل هذه المرحلة فإن عليه مواجهته بإمكانات متكافئة تستجيب للمستجد دون الذوبان فيه، ودون أن تفوت الفرص العابرة وكل تردد لا تحكمه رؤية، ولا تسيطر عليه عزمات في الوقت المناسب، يضع الإنسان على رصيف العابرين تمر به القوافل الجادة في المسير والسرى، ومتى لم تكن لدى الأمة استعدادات ذهنية تحسم فيها الخلاف، وتنهي التردد، وتحكم المسيرة فإنها ستؤخذ على غرة وأي ارتباك في مواجهة النوازل سيكون عقبة في طريق الخلوص من رواسب العادات والتقاليد التي تعمي وتصم.

وأخطر شيء تواجهه الأمة الخلط بين العادات والعبادات والثوابت والمتغيرات وإشكالية النخب العربية أنها لم تتفق بعد على الثوابت والمسلمات ولا حتى على الأولويات، ومخاض التغيير في العالم الإسلامي محكوم بمقتضيات الشرع وفيه حد من حرية الاختيار، وإشكالية الثابت والمتحول عادت إلى المشهد الفكري بشكل حاد عندما أخرج (علي أحمد سعيد) المعروف ب(أدونيس) دراسته المنهجية (الثابت والمتحول .. بحث في الاتباع والإبداع عند العرب) بأجزائه الثلاثة التي تناولت: (الأصول) و(تأصيل الأصول) و(صدمة الحداثة). وإشكالية هذا الطرح أنه لا يقف عند التماس الثابت والمتحول بل لا يقف عند المنجز، ولكنه يعيد صياغته وفق منهج يرتضيه هو بلا مرجعية إذ إن معناه عنده أن الثابت ما يبني أحقيته على ماضٍ يفسره تفسيراً خاصاً ينفي ما سواه، وأن المتحول ما يرفض أحقية هذا الثابت، ومن ثم فإنه استثمر الصراع بين تلك الفئات، ولقد استحضر (البنية الدينية) التي تحكم الصراع، مؤكداً على تحييدها وممارسة الجدل بمعزل عن الدين، وهو ما لا يرتضيه الفكر السوي، وهذا التخلي المشين زاد في التأزيم، وأدخل الجدل في المنهج والموقف.

ولو أن المتصدرين لعمليات التغيير وسعوا مساحات قراراتهم واستعانوا بتراثهم الفقهي والفكري وجدل الديني مع السياسي، ووقفوا على اختلاف الفقهاء والمفكرين وتباين المذاهب في مناهجها وأصولها وقواعدها، لوجدوا أن بإمكانهم التعايش والتعاذر فقضايا العبادات ليست محسومة في المذهب الواحد ولا بين مجتهد به، فضلاً عن حسمها بين مذهب وآخر.

ولو قرأ الفرقون كتاب (الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف على مذهب الإمام المبجل أحمد بن حنبل) لمؤلفه (أبي الحسن المرادي) بمجلداته الاثني عشر لما كان أحدهم وجلاً من الخلاف حول سائر القضايا ف(المرادي) تقصى خلاف علماء المذهب فيما تناول (ابن قدامة) في كتابه (المغني) خلاف علماء المذاهب، ولهذا عد كتابه من كتب (الفقه المقارن)، ومتى روض الإنسان نفسه على قبول الاختلاف أصبحت لديه قابلية للتعامل مع حراك المشاهد، والاستعداد للتغيير لا يعني القبول المطلق، ولا يعني الإذعان لكل خطاب، وإنما يعني تفادي الصدام وتغليب الحوار، والمصيخ لجدل المشاهد تروعه اللجاجة ويهوله الاندفاع غير الموزون والاهتياج الأعزل على حد قول (الشنفرى) في (لاميته):

---

(١) تاريخ المقال: ١١/ ٣/ ٢٠٠٨

ولســـــت بعـــــلٍ شـــــره دون خيـــــره

أكـــف إذا مـــا رعتـــه اهتـــاج أعـــزل

فالمشاهد لا يعيق حراكها إلا الفارغون الذين يهتاجون أمام كل صوت، وكأنهم ممن ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾.

أما الممتلئون علماً وحكمة وتجربة فإنهم أحفل بالحوار، وأبعد الناس عن الصدام ومصادرة الحقوق.

والعصر المسكون بالحراك بأمس الحاجة إلى ترويض الأفكار وإشاعة مبادئ التسامح وتفضيل الحوار على الصدام، والمجادلة بالتي هي أحسن، ولا سيما أنها من مبادئ الإسلام، بل من مبادئ الكف عن الجدل والمراء وإن كان المجادل محقاً حتى ترتب على ذلك ضرر وعندما كانت (نجد) تمر بموجة من التشدد الذي حسمه (الملك عبد العزيز) في (معركة السبلة) كان المسؤول الذكي يخفي إسلامه ليعامله المتشددون على مقتضى قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة: ٦].

وكتاب (السعوديون والحل الإسلامي) لـ(محمد جلال كشك) يكشف عن جوانب كثيرة من ضعف الذهنية أمام طوفان التغيير، وإن كنا لا نتفق مع كثير من عروضه ونتائجه على الرغم من الاحتفاء به والتعويل عليه في كثير من المواقف.

وأود هنا ألا يتصور البعض أن حديثي عن التغيير يمس الجانب الديني وحسب، وإن كان فقه الواقع يعتمد على القاعدة الفقهية: (لا ينكر تغيير الفتوى بتغيير الزمان والمكان).

ومع هذا فإن أمتع شيء عند العلماء تنامي الحوار المعرفي البعيد عن التجهيل ومصادرة الحق في المراجعة والمساءلة، وأحد أئمة المذاهب - وأحسبه- (الشافعي) رحمه الله يقول: (قولنا صواب يحتمل الخطأ وقول غيرنا خطأ يحتمل الصواب). ولا يحتكر الحقيقة إلا الوحي القطعي الدلالة والثبوت، وهو النص البرهاني الذي لا اجتهاد معه، وما سوى ذلك فاجتهادات غير ملزمة إلا للعامي الذي لا يرقى إلى أهلية الاجتهاد.

والأمة لكي تضبط إيقاعها وتنجو من التنازع المفشل والمذهب للريح لابد أن يكون لديها استعداد ذهني للتغيير وفيما يتعلق بفقه النوازل لابد أن تتوفر على شيئين:

الأول: أن يفرق نخبها بين ما يحكمه النص، وما يحكمه الاجتهاد، فالنص: إما منطوق وإما مفهوم، والمنطوق ما يعبر عنه الأصوليون بقطعي الدلالة والثبوت، والمفهوم ما يعبرون عنه باحتمالي الدلالة، وهو مجال الاجتهاد وما عرف بمسائل الجمهور، وهو ما دون الإجماع لا يمثل إلا أقل التشريع وتصور الاختلاف في ظل هذه المفاهيم، يخفف من حدة التنازع، ويمكن النخب من الاستيعاب الذهني للتغيير.

الثاني: العمل على تشكيل مرجعية دينية مطاعة تنهض بالحسم الجامع للشمل، بحيث لا يجد المتنازعون بداً من التسليم لها والتحرك من خلالها بعد نضوج القضايا واستكمال متطلبات البحث وفهم حرية التفكير والتعبير والتغيير خارج إطار المؤسسة والمرجعية يعني السقوط في مهادي الفوضوية، إذ يتحقق معه إعجاب كل ذي رأي برأيه، وهذا من أشراط الساعة، وما أخر بالأمة إلا تأليه الهوى وعقدة الأبوية، وما لا مناص فيه وعي ثقافة التغيير قبل ممارسته على حد: الحكم على الشيء فرع عن تصوره واستيعاب التنازع حول الأولويات والنوعيات والقدرة على الحسم عند مشارف النضوج، وفي

التوجيه الحكيم: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ وهذا الأمر يأتي بعد الندب إلى التشاور، وقانون التشاور بمفهومه الإسلامي أن تتاح القضية الخاضعة للاجتهاد لتبادل الآراء، فإذا شارفت على النضوج لزم أن يكون هناك سلطة تملك العزم، وهو البت وحسم الخلاف بالجنوح إلى أفضل الآراء وصرف النظر عما سواه، وليس هناك أي غضاضة حين تجهض السلطة عشرات الآراء الفردية المفضولة وواجب الجميع التسليم، لأن تمسك كل مفكر برأيه يعني تعطيل التغيير، وعندئذ لا يكون لدينا استعداد ذهني للتغيير.

أحمد مطلوب وجائزة الملك فيصل العالمية.. ! (١)[1]

للأستاذ الدكتور أحمد مطلوب أحمد الناصري (١٩٣٦م - ...) جهود متميزة في الدراسات المصطلحية ومعجمتها، إضافة إلى إسهامات معرفية متعددة، تمثلت في سبعة وثلاثين مؤلَّفاً في مختلف المعارف الإنسانية، كما حقق ما يربو على خمسة عشر كتاباً من كتب التراث في الشعر والبلاغة، ونشر أكثر من ستين بحثاً علمياً في البلاغة والنقد واللغة وعلوم القرآن والتفسير والحديث، وأسهم في تعريب العلوم والمصطلحات العلمية، وتميز في تنقيبه الدؤوب في كتب التراث ولملمة نثار المصطلحات النقدية والبلاغية، وله إلى جانب ذلك معجمات أخرى مبثوثة في معاجم اللغة ك(معجم الملابس في لسان العرب) و(معجم النسبة بالألف والنون)، وهو إلى جانب ذلك أستاذ جامعي، تنقل في جامعات العالم العربي، وتسنم أعلى المناصب العلمية في الجامعات والمجامع.

ولعل أبرز إسهاماته معجماه النقديان:

-معجم المصطلحات البلاغية وتطورها. (الطبعة الثانية ٢٠٠٠م).

-معجم مصطلحات النقد العربي القديم. (الطبعة الأولى ٢٠٠١م).

وأحسب أن كل الصيد في جوفي هذين المعجمين، وبهما توج أعماله البحثية والتأليفية. وله بحوث ودراسات تدور حول إشكاليات المصطلح العربي، تمثلت في كتابين:

-في المصطلح النقدي. (طبعة أولى ١٤٢٣هـ).

-مصطلحات بلاغية. (طبعة أولى ١٣٩٢هـ).

فالأول مجموعة بحوث ومحاضرات، جمع شتاتها، ونسق فيما بينها، وطبعها تحت وحدتها الموضوعية.

أما الثاني فقد تناول فيه علوم البلاغة ومتعلقاتها، كالفصاحة والبلاغة والمعاني والبيان والبديع.

ودراساته المنهجية تتجه صوب الظواهر وأربابها، وبخاصة علماء البلاغة أمثال (السكاكي) و(القزويني). وبالجملة فجهود الأستاذ (مطلوب) تتنازعها (الدراسات) و(البحوث) و(التحقيقات) والأعمال الأكاديمية و(الكتب المدرسية).

وكما أشرت فإن معجميه: (البلاغي) و(الأدبي) جماع جهوده المتواصلة. يقع (معجم المصطلحات البلاغية وتطورها) في ستمائة وخمس وثمانين صفحة، ويضم ألفاً ومائة مصطلح، ويحيل إلى مئات المراجع والمصادر، ويعتمد اللغة المعجمية القائمة على الإيجاز والتركيز والتحديد، وقد يميل إلى المنهج الموسوعي في بعض تناولاته، وهو ميل دون كل الميل الذي يقع فيه غيره، ويتميز باستدعاء المترادفات أو المحدِّدات للمستويات، وتلك ميزة قد لا يتوفر عليها كثير من المعجميين، كقوله عن مصطلح (الإغراق) و(الإغراق فوق المبالغة ودون الغلو).

ومن ميزات معجمه نسبة المصطلحات إلى ذويها، كأن يقول: (عند الجمحي) أو عند (السكاكي)، وفي ذلك تحديد لنشأة المصطلح والتأريخ له، وقد لا تكون إحالته دقيقة أو قطعية، ولكنها مفيدة لمن يريد الرصد للتطور الدلالي. وبعض المصطلحات تتناسل منها مصطلحات ثانوية، ومن ثم تتدرج ضمن أنواع المصطلح. والمؤلف كما أشرت يقع في المنهج الموسوعي مع اقتداره على التوفر على اللغة المعجمية المركزة المكثفة. نجد ذلك

---

(١) تاريخ المقال: ١٨/ ٣/ ٢٠٠٨

في حديثه عن مصطلح (الاقتباس)؛ فلقد ذكر أنواعه الثلاثة: المقبول والمردود والمباح، ثم أفضى بعد الأنواع إلى (الأجزاء).

وهو حين تحدث عن مصطلح (الإفراط) تناول (الإفراط في الاستعارة) بوصفه مصطلحاً مستقلاً، وهو داخل ضمن سائر أنواع (الإفراط)؛ إذ لا يقع الإفراط في الاستعارة فقط، بحيث يجعل منه مصطلحاً مستقلاً. وإذا أراد له الاستقلالية فإن عليه أن يتناول الإفراط في التشبيه والمجاز وأنواع الاستعارة؛ إذ الإفراط صفة تعتري أي نوع من أنواع الكلام، وليس الأمر خاصاً بالاستعارة وحدها بحيث نجعل منه مصطلحاً مستقلاً.

وهو إذ يتقصى أنواع (الإطناب) بشكل لم يتخذه مع غيره من المصطلحات ذات الأقسام والأنواع فإنه يخل بالمنهجية والخطة، وكان عليه أن يتعامل مع المصطلحات الأخرى بذات التقسيم والتنويع. فهو حين تحدث عن (الإعجاز) تناول رأي طائفة من العلماء، ومن بين مصطلحاتهم (إعجاز الصِّرفة)، ومن ثم لم يتحدث عن (إعجاز الصِّرفة) لا في حرف (الهمزة) بوصفه جزءاً منه، ولا في حرف (الصاد) بوصفه مصطلحاً مستقلاً أو مضافاً إلى الإعجاز. وعند حديثه عن (الإطناب) تقصى كل أنواعه معتبراً أن كل مصطلح مستقل عن غيره. وهو قد تحدث عن (الصرف) الذي يعني (الالتفات)، وتحدث عنه في (الالتفات) وفي (الانصراف)، ولم يشر إلى (الإعجاز بالصِّرفة) أو (إعجاز الصِّرفة) إلا في سياق الحديث عن (الإعجاز).

وتقصيه (للتشبيه) وأنواعه الذي نيف على سبع وعشرين صفحة، عرف من خلالها أكثر من اثنين وسبعين مصطلحاً، ومثله التجنيس، يفرض عليه تقصي ما يماثلهما من مصطلحات. ولا أحسب مثل هذه الهنات مؤثرة على جهده الرائع المتميز. ولربما كان كتابه (مصطلحات بلاغية) مرهصاً لهذا المعجم الموسم؛ فلقد تناول في هذا الكتاب الصغير الذي لا تتجاوز صفحاته المائة والثلاثين صفحة المصطلحات الرئيسية في البلاغة ك(الفصاحة) و(المعاني) و(البيان) و(البديع)، وأشار إلى ما يتفرع منها من مصطلحات، وإلى تناول العلماء لها، ثم وضع فهرساً للمصطلحات الواردة في الكتاب، فجاء على أكثر المصطلحات البلاغية. وفي معجمه الرئيس رتب المصطلحات حسب صياغتها لا حسب جذرها الأصلي، بحيث تناول (الاقتضاء) و(الاقتباس) في حرف الهمزة، وكان الأفضل تجريد الكلمة (قبس) وإيرادها في حرف (القاف)، وهكذا.

وكنت أتمنى لو أنه في المعجم الكبير أشار إلى انتماء المصطلح؛ فالبلاغة العربية تنتمي إلى مصطلحات ثلاثة رئيسة، هي جماع علوم البلاغة:

-المعاني.

-البديع.

-البيان.

ولأن البلاغة في النهاية آلية من آليات النقد، فقد تداخلت مع المصطلحات النقدية، ولم يستطع في المعجمين الكبيرين أن يخلِّص أحدهما من الآخر؛ ذلك أن التفريق بينهما اعتباطياً، وليس علمياً، ومع هذا ظل خاضعاً لهذه الفرضية الاعتباطية؛ ما جعل المعجمين متداخلين إلى حد يمكن من جعلهما معجماً واحداً.

واعتماد المؤلف على مَعْجَمة الصيغة قد يعرض الباحث إلى مزيد من العناء؛ فالمصطلح قد تختلف صيغته من مرحلة لأخرى أو من عالِم لآخر، ومن ثم لا يكون موقعه دقيقاً مثل (التنسيق) المدرج في حرف التاء، و(النسق) المدرج في حرف النون. ولو أنه اتخذ الجذر العربي للكلمة لكان أفضل مما اعتمده. ثم إن بعض المصطلحات تأتي مركبة من مصطلحين، ثم لا يتناول المصطلحات قبل تركيبها.

فالمصطلح (حسن النسق) مصطلح مركب من (حسن) و(نسق)، وقد عرف بالمصطلح المركب، ولم يعرف ب(النسق) بوصفه مصطلحاً مستقلاً، وقد جاء على صيغ كثيرة: (النسق) و(التنسيق) و(تنسيق الصفات)، وقد تناول (التنسيق) بوصفه مشيراً للتفاعل، ولم يتناول (النسق) بوصفه صفة.

وهو في بعض الحالات يفرد للأنواع والأقسام حديثاً مستقلاً، وفي بعضها الآخر يدمجها، كما في حديثه عن (تشابه الأطراف) بحيث تناول (الظاهر) و(الخفي) من التشابه مدمجين. وقد يكون هناك مصطلحات مترادفة يتناولها في أماكن متباعدة، وكان الأفضل أن يثبتها، ثم يحيل إليها في مكانها، متى كانت مرادفة، وليست أصلية. فمصطلح (التسبيغ) مثلاً يعود إلى (تشابه الأطراف)، وقد تناوله مستقلاً، وتناوله مدمجاً مع (تشابه الأطراف). والمعجم مع أهميته وشموليته وتقصيه ودقته يحتاج إلى إعادة نظر في ترتيبه وفي مترادفاته ومركباته.

أما الكتاب الثاني (معجم مصطلحات النقد العربي القديم) فقد جاء في أعقاب معجمه البلاغي، وقد استفرغ كثيراً من المصطلحات البلاغية. استهله بمقدمة عن المصطلح وأهميته وشروطه واهتمام العلماء به، والقواعد العامة التي وضعها المجمع العلمي لواضعي المصطلحات وجامعيها والمعرفين بها، كما تحدث عن اختراع أسماء أو إطلاق ألفاظ أو تعريب، كما وضع توصيات للمعرِّبين، واستعرض مشكلات المصطلح الناتجة عن فوضى التأليف والترجمة والثقافة، وحصر مصادره بثمانية وعشرين كتاباً تراثياً وحديثاً ومترجماً، وهي قليلة؛ فدراسات المصطلح القديم جاءت على مستويات عدة. وما تعرض له معجم المصطلحات البلاغية تعرض له معجم المصطلح النقدي القديم؛ فالمنهج واحد والمصطلحات متبادلة بين علوم البلاغة والنقد.

فنجده مثلاً يعتمد على المصطلحات المركبة مثل (الشاعر الخنذيذ) و(الشاعر السابق) و(الشاعر السكيت) و(الشاعر الفحل)، وكان الأفضل أن يتناول (السابق) و(الفحل) و(السكيت) في حروف (السين) و(الفاء). ف(الفحولة) مصطلح شائع، أُلِّفت فيه الكتب، وقد تناول (الفحل) في حرف (الفاء) وتناول (الشاعر الفحل) في حرف (الشين)، ولم يتناول (الفحولة) بوصفها المصطلح الأهم، وهو قد تناول من قبل (الشاعر). ومثل هذا يوقع في الخلط، ويشق على المتابع، ومهمة المعجم سرعة التقريب وسهولتها.

وإذا جاز له تناول مصطلح (كثرة الماء) كما هو عند الجاحظ لكون (الماء) مفرداً لا يكون مصطلحاً، فإنه لا يجوز له أن يتناول (كثرة التكرار)؛ فكلمة (التكرار) مصطلح كاف للإغناء عن الكثرة، وهو قد تناول مصطلح (التكرار)، وكان عليه أن يضيف الكثرة إليه دون أن يجعل الكثرة مصطلحاً مستقلاً، وهو قد فعل مثل ذلك في مصطلح (الاستقصاء) حين تناول (فرط الاستقصاء).

وفي تناوله للمصطلحات المشتركة بين البلاغة والنقد يحاول تقصي المصطلح من كتب النقد في معجم النقد ومن كتب البلاغة في معجم البلاغة، ولكنه لم يتخذها قاعدة مسلَّمة، بل يقع في التكرار.

أحمد مطلوب وجائزة الملك فيصل العالمية.. ! (٢) [١]

وهو في كتابه (في المصطلح النقدي) الذي نشره المجمع العلمي العراقي عام ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م يجمع أشتاتاً من البحوث التي سبقت هذا التاريخ، ورصدت لمواقف معرفية متعددة، دارت محاورها حول (المصطلح النقدي) و(إشكاليته) وبخاصة المصطلح المعاصر، و(النقد البلاغي) و(النقد التكويني) وسائر الظواهر والقضايا الحديثة، وهمه فيما يكتب يدور حول ما يتطلع إليه من إنجاز مشروع معجمي، يجمع شتات المصطلحات المتناثرة والمتناسلة، متوخياً اجتماع كلمة النقاد، وخلوصهم من التنازع حول الصيغ والمفاهيم والمشروعية. وهو يرى أنه من الضروري أن يصدر النقاد من مورد صاف، ونهج عربي سليم.

وهو بهذه البحوث لا يتوخى قضية واحدة، وإنما يحاول الخروج بصيغة أو مشروع، يرضي كل المسكونين بهم المصطلحات، ولا يأتي ذلك إلا من خلال الرصد الدقيق للظواهر والقضايا المشتركة، واقتفائها بالدرس والتأصيل. لقد درس المشاكل الناجمة عن فوضوية الترجمة، وتعدد الانتماءات، وتوخى التأصيل لعلم مصطلحي، يجمع الكلمة، ويوحد المفاهيم، ويؤلف كلمة النقاد ولأن البحوث أعدت في فترات متفاوتة، وجاءت استجابته لمثيرات متباينة ولأن كل بحث ينهض بمهمة ولا ينظر إلى ما سبق من بحوث، فقد يلحظ القارئ شيئا من التكرار في بعض القضايا التي تناولها الباحث. والبحوث بمجملها تعالج قضية واحدة، تتعلق بإشكالية (المصطلح النقدي)، بوصف البلاغة العربية آلية من آليات النقد، وليست علماً مستقلاً كما يحلو للبعض، وإن عمد الدارس إلى التفريق بين مصطلحات (النقد) و(البلاغة) وإصدار كل مجموعة في معجم مستقل في ظاهره التفرق وفي باطنه الاختلاط، إذ هناك مئات المصطلحات المشتركة بينهما، واشكالية التفريق بينهما لم تحسم بعد، وان اتفقت الآراء على ذلك.

ولا شك أن التردد في الخلط بينهما عوق العمليات النقدية، ولعل البلاغيين لا يرضون لأنفسهم أن تكون البلاغة آلية من آليات النقد، ولو أنهم قبلوا الحق، وأذعنوا له لكانوا نقادا يميلون كل الميل للآلية البلاغية، مثلما يميل الألسنيون إلى اللغة ولو أن البنيويين والألسنيين والأسلوبيين رضوا أن يكونوا من علماء (فقه اللغة) لما كان لهم شأن يذكر. وحديث المؤلف عن المصطلح، حمله على التوطئة والتمهيد المتمثلين بالتعريف التراثي للمصطلح والاهتمام المبكر بالتعريف بكافة الظواهر الأدبية، وسهولة التلاقي على المقتضى والمفهوم، متى وضحت معالمهما.

وبعد تحرير المفهوم والرصد التاريخي تناول في المبحث الثاني (إشكالية مصطلح النقد العربي المعاصر)، وهو عبارة عن بحث نشر في مجلة المجمع عام ١٤١٩هـ وقد رد الإشكالية إلى فوضى التأليف والترجمة، بوصفهما أس المشاكل المعرفية عامة، ولكنه عمد إلى تفكيك الإشكالية متجاوزاً محاورها الرئيسة، فنظر إلى الاختلاف في الثقافة، وتنازع الهيمنة بين الاستغراب والعوربة، واستفحال الاضطراب والتسطح، وانعكاس الاختلاف الأوروبي على المستغربين العرب، وتفاوت المستويات اللغوية عند المترجمين. وقد برهن عن فداحة الإشكالية بضرب الأمثال، وأفاض منها إلى إشكالية المصطلح القديم، وركز الحديث على تضارب الآراء حول (الأسلوب) و(الشعرية) و(الحداثة).

---

(١) تاريخ المقال: ٢٥/ ٣/ ٢٠٠٨

وهو حين يتحدث عن (الأسلوب) يرى الإشكالية قائمة في التعريف، ولما يشأ الحديث عن رحلة النقد اللغوي من (فقه اللغة) إلى (النقد الأدبي) ووقوع المقترضين في التسليم المطلق للآلية اللغوية على حساب ما سواها، مع أن التصور بين القديم والحديث متقارب، ومن ثم فلا إشكالية وتصور القدماء واضح وسليم ولكن منشأ الإشكالية عند المحدثين الذين يتلقون فيوض المستجدات، وفي فوضوية الترجمة، وعبث التبني وتسطح الفهم وقد أشار المؤلف إلى بعض ذلك بقوله (... هذه التعريفات لا توضح معنى الأسلوب ... لأنها انطلقت من وجهات نظر متفاوتة) وقد ساق تساؤلات تدل على حيرة المتلقي، وكيف يتصور نفسه، وهو يرى الأسلوب وقد شكل (حبل التواصل وخط القطيعة) مع البلاغة، ولم يحاول الركون إلى الجدية في تحديد المشكلة، وكأني بالمؤلف يتحفز للأثرة ليجعل (الأسلوب) مفردة بلاغية لا ظاهرة نقدية.

وفي حديثه عن (الشعرية) بوصفها إشكالية من إشكاليات النقد الحديث التمس جذورها في النقد القديم، وإذا لم يجدها بنصها، وجدها بمرادفها وبمفهومها فالتراثيون قالوا عن (الشاعرية) و(القول الشعري) غير أن المعاصرين لهم رؤى متعددة لمفهوم (الشعرية)، أو قل لمقتضياتها. وقد جعل من تعدد التصورات إشكالية مفهومية، وأحسب أن ربط (الشعرية) ب(الانزياح) أو (الانحراف) أو ب(الفجوة) ربط وصفي لا تعريفي، أو أنه ضمني، فكل متحدث عن (الشعرية) بعد تصورها تصورا عاما، يحيل تصوره أو قل يقربه بالمثل أو بالوصف ف(الانزياح) اللغوي مثلا قد يؤدي إلى (الشعرية) ولكنه لا يكونها، إذ هو وسيلة للتوفر عليها، وقد لا يكون مؤدياً إليها بالضرورة، ثم هو قد ربط مصطلح (الشعرية) ب(عمودية الشعر) وبأبوابه السبعة المتداولة عند النقاد المتأخرين، معتبرا تلك الأبواب أسس الشعر العربي، وعندما تكونه فإن الصناعة تحققها، ولكن الموهبة والموقف والدربة وعمق الثقافة وسلامة التصور هي التي تحقق (الشعرية) ذلك أن توفر الشرط الشعري كالوزن والقافية لا يحققان الإبداع الشعري.

ولك أن تقول عن حديثه عن (الصورة الشعرية) وهو بحث نشره في مجلة المجمع عام ١٤١٩هـ. وأحال فيه إلى الرؤية التراثية عند طائفة من الأدباء ك(الجرجاني) و(القرطاجني)، وعند المعاصرين من عرب وعجم، ولكنه ربطها في المذاهب الإبداعية ك(الرومانسية) و(البرناسية) و(الرمزية) وقصد من هذا الحشد ما يعكسه من حيرة، ولكنه جنح إلى أوفاها وأخصرها وهو تعريف (دي لويس): (رسم قوامة الكلمات) ولعل (نزار قباني) أخذ الفكرة حين أصدر ديوانا تحت عنوان (الرسم بالكلمات). وهو يرى أن تشكيلها يعتمد على (المحاكاة) و(الخيال) لأنهما العنصر والخطوط، ولربما دخل في دوامة الإشكالية حين استدعى (المحاكاة) كما هي عند (أرسطو) و(أفلاطون) و(هوراس) حول إسقاط عالم المثل، بحيث جعل الشعر عنده محاكاة، ولما انتقل مصطلح (المحاكاة) إلى الحضارة العربية قسموه إلى (تشبيه) و(استعارة)، ويبدو لي أن تصور الأدباء والنقاد العرب لبعض المصطلحات اليونانية لم يكن دقيقا، ومن ثم لم يأتوا بمعادل عربي، وبعض النقاد أخذته سوفسطائية الفلاسفة فأمعن في التشقيق والتقسيم ك(القرطاجني) الذي ضاعف التقسيمات حسب المقاصد، وإذا كان (ابن سينا) قد جعل المحاماة في (التشبيه) و(الاستعارة) فإن (القرطاجني) ذهب إلى (التحسين) و(التقبيح) و(المطابقة) وعلقهما بالفاعل أو الاعتقاد، أو بالفعل، ثم نظر إلى طرق التعلق، وهي: الدين، والعقل، والمروءة والشهوة. وهذه السفسطة عمقت إشكالية الصورة.

وتحدث عن (الخيال) بوصفه معادلاً (للمحاكاة) في تشكيل الصورة، وجعله الملكة المساعدة على تأليف الصور. وقد حاول الربط بين (الخيال) و(الوهم) والتخييل في نظر العلماء أساس الشعر، وتلمس تصوره عند المتصوفة ك(ابن عربي) وعند الفلاسفة. ولكنه

عـاد أدراجـه إلـى النقـاد العـرب المعاصـرين ملخصـاً بسـطه بمقـولاتهم عـن (الخيـال، والمحاكاة) فهي الأساس والأجنحة، فالشعر ليس وزنا وقافية، إنه تخييل وحسب.

وفي حديثه عن (الحداثة) بوصفها مصطلحا مراوغا كانت له استطرادات تخرج من قضية المصطلح ثم تعود إليه، وقد استهل الدراسة بمعوقات الثقافة العربية المتمثلة بالأحاديثة والتقليدية والتوقف، ووقوع الأواخر بالذوبان فيما حاول الأقدمون تمثل الثقافات. ولأن المصطلح مراوغ فقد جاء المصطلح معبرا عن حداثات متعددة، ولقد أرجع ذلك إلى عدم دقة الترجمة، وكلمة (الحداثة) ليست هي الترجمة الحرفية للمصطلح في اللغتين (الإنجليزية) و(الفرنسية) وهما (الحداثية) و(الحداثانية).

والدارس التقط عشرات المقاصد والتعريفات وخلص إلى إشكالية المصطلح التي عبّر عنها ب(إشكالية فهم الحداثة فهما علميا دقيقا) وإذا كانت معقدة في الغرب فإنها مضطربة عند العرب. وقد أحسن في تصور بعض بواعثها المتمثلة ب(البوهيمية) والغربة الذاتية والفكرية والسلوكية.

وهو في تلمسه لجذورها العربية عول على حركة التجديد والصراع بين القدماء والمحدثين في العصر العباسي، وأحسبه في هذا التصور يقع فيما وقع فيه غيره من فهم غير سديد للحداثة، ذلك أنها بمفهومها الحديث لا تعني التجديد، والنقول التي صدّر بها دراسته تؤكد ذلك، ولكنه لم يراع هذه الرؤى الغربية التي تفصل الحداثة عن التجديد، والذين فهموا الحداثة على غير مراد الغرب، والماكرون الذين يودون تسويغها يستدعون (بشار بن برد) و(أبا النواس) و(أبا تمام) والناقد (الصولي) بوصفهم عمد الحداثة العباسية.

ولا شك أنه يقول عن الحداثة المجددة، ولا يرى الحداثة المنقطعة، ولهذا وصف حداثة الغرب بأنها (هدم وخروج على الأدب الذي يبني ولغته التي تبدع) وهو بصدد تعقب هذا اللون من الحداثة نقب عنها في كتب (أدونيس) وخاصة (الثابت والمتحول) و(زمن الشعر).

والدراسة تعويل على مقولات الحداثيين أنفسهم وعلى الدارسين لها المندفعين والمتمنعين، ويكفي أنه رجع إلى أكثر من أربعين مرجعاً حديثاً، ووفق في التقاط مواطن الشواهد، وساقها بوصفها شاهداً من أهلها.

ومجمل أعمال الأستاذ الدكتور أحمد مطلوب ذات طابع علمي والتزام منهجي وتوثيق مرجعي، وتناوله للظواهر الحديثة والقديمة يحيل فيه إلى التراث والمعاصرة، ويستفتي فيه ذويه، حتى إذا تحررت المسائل أمامه، عقب بما يراه وإسهاماته في خدمة المصطلح تشكل نقلة معرفية ومنهجية، ومتكوه البحث والتنقيب والعمل الدؤوب.

ولقد جاء معجماه في غاية الدقة والشمول والمعرفية، والملاحظات التي تمنينا تلافيها لا تمس جوهر العمل، ولما يزل يحمل هم التعبير المصطلحي، ويسعى جهده لاستكمال ما يراه من نواقص المشروع الاصطلاحي.

التراث الأدبي في خدمة الدعوة .. ! (١) [(١)]

لكي نكون على بَيِّنةٍ من أمرنا، لا بد من تحرير مفردات العنوان الثلاث: (الدعوة، التراث، الأدب).

إذ لكل مصطلح حدُّه الظرفي، ومفهومه الدلالي، ومقتضاه الفعلي الأمر الذي يحتم استيفاء ذلك كلِّه، قبل الخوض في المواجيز التي اضطررنا إليها.

فالدعوة يتنازعها خطاب الدفع وخطاب الطلب، وتصحيح آليات التقويم وهي على ضوء ذلك تتحقق بإبلاغ المنَزَّل، وإرشاد الضال، وتصحيح قواعد الاستنباط وآلياته، وبخاصة علوم البلاغة التي اعتمد عليها علماء الكلام لتطويع الكلام عبر فسح التأويل والمجاز. والتراث كل ما ورثه الخلف عن السلف من قول مقروء أو مسموع مع استحضار الاختلاف حول مشمولاته، إذ هو كما قيل عن الشعر: حسنه حسنٌ وقبيحه قبيح.

والأدب هو كل إبداع قولي يتوفر على أدبية النص أو شعريته مستحضراً الإمتاع والفائدة والإقناع، متوفراً على الخصوصية التي تميزه عن سائر الأنواع القولية.

والأمة الإسلامية مطالبة بحمل الرسالة وإبلاغها عبر كل الوسائل الممكنة والمتاحة كل بحسبه وعبْر ثغره الذي يقف عليه، وعلى ضوء هذه المسلمة واكب الأدب الدعوة، والجهاد باللسان كالجهاد بالسنان، ولقد ظل الرسول ﷺ شطراً من بعثته يجاهد بلسانه، وحين فرض القتال ظل الجهاد بالكلمة يسبقه ويواكبه، وذلك مقتضى قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ أي جادلهم بحجج القرآن وبيِّناته جهاداً تبلغ فيه أقصى غاية جهدك.

والقرآن الكريم جذْر الأدب الملتزم، ومَعِيْنُه الجمالي والدلالي، وهو ذروة سنام الجذور المتمثلة: بالحديث النبوي الشريف المتوفر على جوامع الكلم والكلم الطيب، وأدب السلف الصالح الذين جاهدوا في الله حقَّ جهاده، والنقد الأخلاقي بمقاصده ومناهجه وآلياته المجلية للجمال والجلال والمجاز والإيجاز والخيال والانزياح.

ولأن البلاغة ذروة الآليات فقد نشط أصحاب الملل والنحل والأهواء العقلية والتأويلية باستخدامها لتوسيع مهايع التأويل والمجاز، ومواجهة مثل هذه الاستخدامات، ضرب من جهاد الدفع، ولون من ألوان خدمة الدعوة، مثلما أن الكلم الطيب والقول السديد من جهاد الطلب، وبين الجهادين تتجلى خدمة الأدب للحياة والعقيدة، وللعلماء المجددين إسهامات في تنقية الأدب والنقد وآلياته من شوائب التحريف، وهي إسهامات محسوبة في مجال خدمة الأدب للدعوة وتحقيق الحياة السويّة وخير من يمثل جهاد الدفع بالكلمة شيخ الإسلام ابن تيمية، فلقد كانت له بحوث بلاغية نافح فيها عن منهج أهل السنة والجماعة وسلف الأمة، وتتجلى جهوده في مجموعة من الدراسات والكتب لعل من أهمها الكتابين:

- الإمام ابن تيمية وقضية التأويل.
- البحث البلاغي عند ابن تيمية.

والتراث الأدبي قد لا يتسع لأكثر من الإبداع، ولكن التصدي لانحرافات المؤولين لا يختلف عن توظيف الكلمة للإرشاد والدعوة. والذين تصدوا لقراءة النص التشريعي بوصفه نصاً بيانياً معجزاً بآليات غير سوية يدْعون إلى كتاب الله وفهمه على مراده.

---

(١) تاريخ المقال: ١/ ٤/ ٢٠٠٨

وكل ذلك من أدبيات الدعوة وإن اختلفت المهمات والمجالات. ومتى توفر الخطاب على أدبية النص أو شعريته أو آليته الأدبية وحمل همَّ الإرشاد والدعوة كان أدب دعوة. بل كل نص إبداعي يحمل الهم الإسلامي ويلتزم ضوابطه فهو أدب دعوة، فالدعوة أوسع من تلك الرؤية الضيقة التي تقصرها على الرقائق والمواعظ وأدب الزهد، ومن تصور الأدب الإسلامي بهذا المفهوم الضيق فقد جنى عليه وعلى ذويه.

إنه يتسع باتساع رسالته، ويتجذر بتجذرها، ويتجلى بتجلياتها، والأدب الديني والصوفي سواء ما كان منه سلوكاً أو فكراً لا يمثل مقاصد الأدب الإسلامي ولا يحقق أهدافه وتطلعاته واستشرافاته البعيدة، والدارسون الذين تقصوا تلك الظواهر في التراث الأدبي بوصفها المجسِّد للأدب الإسلامي يظلمون أنفسهم ويحجرون واسعاً، ولسنا هنا بصدد تصحيح المفاهيم وتقصي المشمولات، وإنما هي إشارة عارضة، ولمحة تغني عن البسط بين يدي الحديث عن أدب الدعوة في التراث الأدبي.

ولكي يستبين سبيل الحق لا بد أن نتصور العلاقة بين الأدب بكل عوالمه والدعوة بكل مناحيها، ومتى يكون الأدب خالصاً لها أو مستصحباً لمحققاتها وما القدر المقبول من التفاعل، إن مصطلح الدعوة يمُدُّ بسبب إلى جذره اللغوي، والدعوة من حيث هي مصطلح يقوم على تبليغ ما أنزل الله. وما قاله رسوله ﷺ أو فعله أو أقره على سبيل الهداية، والأدب لا يقف عند حدِّ حمل الآي والأحاديث أو معانيها، وإنما يمتد إلى أداء يقع في صميم خدمة العقيدة، وإن لم يمارس الدعوة بمفهومها الشائع، ولنضرب مثلاً بصراع الشعر مع (الروم) في العصر العباسي وتجلياته في وصف المعارك والبطولات بروح إسلامية وحسٍّ إيماني، نجد ذلك عند (أبي تمام) و(البحتري) و(المتنبي) في سيفياته، و(ابن هانئ الأندلسي) ويكفي أن نشير إلى (بائية أبي تمام). والتصدي لآليات النقد التي تحرف الكلم عن مواضعه جزء أهم من أدب الدعوة، على أننا لا نستطيع القبول المطلق ولا الاستبعاد المطلق لما يسمى بالشعر السياسي في العصر الأموي بوصفه تراثاً أدبياً، يمد بسبب إلى الحس الإسلامي، ويتقاطع بعضه مع أدب الدعوة، ولو عمقنا الرؤية في الوثائق النصوصية ومثيراتها لوجدنا النَّفس الحزبي المحكوم بهواه، نجد ذلك عند شعراء الأمويين والشيعة والخوارج والزبيريين، وما واكب النفس الحزبي من نفس طائفي كما هو عند المرجئة والمعتزلة، وتداخل الديني والسياسي عند الشيعة والخوارج يتجلى ذلك في القصائد والرسائل والخطب والحوارات، وهل أحد يقلل من شأن (الكميت) و(ابن حطان) و(قيس الرقيات)، وهل أحد يجهل (سالم مولى هشام بن عبد الملك) و(عبد الحميد الكاتب)؟! فكل هؤلاء مرتهنون لأحزابهم على أننا ونحن نتحفظ في تحرير أدب الدعوة في التراث لا نغْفلُ عما تنازعته السبل وهو ما أشار إليه .. (أحمد الشايب) في كتابه (تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني) حيث جاء الشعر في سبل شتى، كسبيل القبيلة وسبيل الإمارة وسبيل الأمة العربية وسبيل الدولة الإسلامية وسبيل الحكومة الإسلامية. ولقد كان هذا اللون من الشعر في عصر الخلافة الراشدة خالصاً للدعوة، غير أن بنيات الطريق تنازعته في العصر الأموي، ولكن النَّفس الإسلامي ما زال عالياً في ثناياه، ولما تزل طائفة من المبدعين على الحق، وإذا كانت التيارات قد تنازعته فقد ظلت لحمته إسلامية، وأكاد أجزم بأن الذي خَلُص منه من تلك الشوائب يتركز في شعر أهل السنة، وهو قليل بالنسبة لشعر الشيعة والخوارج والمعتزلة، ويكاد يقترب منه شعر الجهاد الإسلامي ضد الزندقة والروم، وبعض الطوائف كالخرَّمية والشعوبية.

ومهما حاول الباحث المتحري للمصداقية تنقية الأدب مما علق به من تعصب حزبي أو ميل طائفي فإنه لن يتمكن، ففي كل عصر من العصور يكون الأدب مطية موطأة الأكناف لما يَجِدُّ من حركات وأحزاب ومذاهب، ويكفي أن نشير إلى العصر الأموي وما

نجم فيه من فرق إسلامية قوية كالشيعة والخوارج والزبيريين والمتكلمين وهو ما تقصاه (النعمان القاضي) في كتابه (الفرق الإسلامية في الشعر الأموي).

ومن القضايا المسلَّمة والمتوقعة أن التراث الأدبي المواكب للدعوة لا يكون بجملته مواكباً وموافقاً لهدي المصطفى ﷺ فمن الشعراء والنقاد والبلاغيين من أخذتهم بنيات الطريق بعامل التعصب المذهبي، نجد ذلك في الأدب الصوفي وسائر الآداب المنتمية للأحزاب والطوائف، والدراسات التي أقيمت على أدبيات تلك الملل والنحل تجسد الجمال الأسلوبي والانزياح اللغوي والمجاز والإيجاز والصور البيانية وتحمل همَّ الدعوة حسب رؤية تلك المذاهب، فشعر الخوارج وأدبهم على سبيل المثال لا يقل بأدبيته وشعريته عن سائر الآداب الأخرى ولكنه أدب حائد عن جادة الصواب. ولك أن تقول مثل ذلك عن شطحات المتصوفة كما هي عند ابن عربي والحلاج وابن الفارض والنَّفَّري، وأدب هؤلاء شائع وسائغ.

هذه الإشارات والتحفظات التي سقناها لم يستدعها التشاؤم ولا التقليل من أهمية أدب الدعوة، ولكنها من باب الاحتراس والتوفر على المصداقية.

ولو نظرنا إلى جذور الأدب الإسلامي لوجدناها حافلة بقيم الدعوة على هدي من الكتاب وصحيح السنة، ولقد نهضت (جامعة الإمام) بمشروع أدبي متميز، تمثل بجمع شعر الدعوة عبر العصور الإسلامية، وبعد استكمال المشروع بدأ تناول النصوص بالدراسة الموضوعية والفنية، وبالرجوع إلى هذا المنجز يتبين اضطلاع التراث بخدمة الدعوة والنهوض بمهمة الإصلاح.

التراث الأدبي في خدمة الدعوة .. ! (٢) [1]

وعلى الرغم من أن القرآن الكريم فرق بين شعراء الهداية والغواية، ونزه الرسول ﷺ عن قول الشعر إلا أنه لم يقلل من شأنه، ومن ثم بادر الرسول إلى تشجيع الشعراء على مناصرة الحق ..

وقمع الباطل ودعا لحسان بالتأييد، ومدح المجلين منهم وأصلح ما فسد منه، كما استنشد الشعر وكافأ عليه وعاقب ونقد وتذوق ووظفه لخدمة الدعوة، ولكنه لم يدعه على مناحيه الجاهلية، بل نهى عن التفحش والمداهنة والتجني والتشدق، فيما قبل المعتدل من الفخر والمدح والرثاء والهجاء والغزل.

والنقد الأخلاقي بمفهومه الإسلامي وضع أسس القيم الأخلاقية في الإبداع، ولم يدعه في معزل عن الإسلام، كما يتصور البعض، ومهما اختلفت الآراء فإن الأدب يشكل خطر الدفاع الأهم عن قيم الأمة، وكيف لا تعظم أهميته والمعجزة النبوية بيانية، باقية ما بقيت الحياة، والمتخوفون على قيمه اللغوية والغنائية والفنية من تلبسه بالقيم الإسلامية، لم يفرقوا بين الالتزام الطوعي والإلزام التعنتي، فالمتعثرون من الشعراء هم الذين أشربوا في قلوبهم حب الحياة الدنيا، وما ضعف الشعر في صدر الإسلام لمقصد إسلامي، ولا لمضامين إسلامية، وإنما ضعف نتيجة الصدمة الحضارية، وقيام المنافس في الذكر الحكيم، وقيام مهمات المسلم القيادية، وملء الفراغ الإنساني بالقيم والمهمات، ومع كل ذلك فقد استعاد الشعر مكانته وقوته، وأدى دوره الجهادي عبر شعراء الدعوة الإسلامية منذ العصور الأولى، ولا عبرة فيما اعتراه من ضعف، ولا فيما تلبسه من نظم علمي، ففترات الضعف حين تلم ثم تنحسر لا تقوم بها الحجة، ولا عبرة أيضا في وقوع الشعراء أو الفترات في وحل الرذيلة وتفشى الأدب المكشوف، ففي كل العصور يعترض الفنون ما يعترضها من قعود عن معالي الأمور، ولكنها عوارض لا تلبث أن تزول.

ونهوض الإبداع القولي بمهمات الدعوة والدفاع عن حوزة الإسلام لا تحول دون استكمال فنياته وتعبيره عن الذات المنتجة وإحساسها بالجمال والمتعة والتأمل، والإشكالية ليست في الدلالة، ولكنها في المبدع ومدى اقتناعه الذاتي واستيعابه وتمكنه من فن القول. والذين يتصورون أن الشعر نكد لا يقوى إلا في الشر، يستبعدون تجذر الخير بقدر تجذر الشر في النفس الإنسانية، وأنه بمقدار التجذر يكون الأداء، ولقد أشار الذكر الحكيم إلى تفاوت التمكن من الخير بقوله: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾.

وكم هو الفرق بين قوة الإسلام والإيمان عند الشاعر الذي قد تتنازعه قوى الخير والشر، والشعر من قبل ومن بعد موهبة تصقل وتنمى بالثقافة والتجارب وتذكى بالمواقف والأجواء، فإذا كانت وآزرتها الثقافة العميقة والتجربة الواعية والموقف الضاغط والأجواء الملائمة تجلت بإبداعها بصرف النظر عن الموضوع ونوع الاهتمام، فالشر يفجر المواهب، والخير يفجر المواهب بذات القدر والقوة.

-فالحُطيئة جلّى في الهجاء لأنه خليقة فيه.

-والمتنبي جلى في الفجر لأنه مسكون بجنون العظمة.

ولكل شاعر همه الذي يساوره، فمتى حمل هم الإسلام تجلت مواهبه فيه، ولن يكون الضعف وقفا على غرض من الأغراض، والعثرات يقع فيها من لم يحسن فهم الإسلام وفسحه.

---

(١) تاريخ المقال: ٨/ ٤/ ٢٠٠٨

واضطراب الآراء حول إمكانية النهوض بمهمات الدعوة دون التأثير على الأداء الشعري فرق مواقف النقاد وشعَّب اتجاهاتهم، وإن كانوا جميعاً على معرفة بنهوض بعض الشعراء بمثل هذه المهمات النبيلة، ويكفي أن نتعرف على شعراء الرسول ﷺ.
وللنقاد في الإبداع القولي ثلاثة مواقف:

-موقف يربط الأداء والتقويم بالرؤية الإسلامية.

-وموقف يربط الأداء بالرؤية الإسلامية والتقويم بالرؤية الفنية.

-وموقف لا يربط الأداء ولا التقويم بالرؤية الإسلامية ويرى أن الأدب بمعزل عن الدين في شأنه كله، وكم هو الفرق بين التقويم الفني الخالص والحكم الأخلاقي وترتيب المهمات، ولأن الشعر وجدان - كما يقول الشاعر - فإن الدين وجدان.

فابن قتيبة يتصدر الفريق الأول؛ بحيث يرى التلازم بين شرف اللفظ وشرف المعنى.

فيما يتزعم الفريق الثاني الجمحي في طبقاته، ويأتي الأصمعي مؤكداً أن الشعر إذا أدخلته في باب الخير لان ولكنه في التطبيق يتحرج من الشعر المخالف، ويتحفظ عليه، ولهذا فإن لرؤية الدخول شأن آخر عنده. ولقد كان الجرجاني في الدلائل واضحاً في تحديد الموقف المتوازن من الفن القولي، وعلى ذات المهيع سار أبو هلال في الصناعتين.

وكل متحدث عن الأدب في خدمة الدعوة، لابد أن يحرر مسائل الخلاف حول وظيفة الأدب: أهي للفائدة الخالصة، أم للمتعة الخالصة، أم هي لهما معا، مع حفظ التوازن؟ والقول الوسط أن الجمع بين شرف اللفظ المحقق للمتعة وشرف المعنى المحقق للفائدة هي غاية العقلاء الواعين لمهماتهم في الحياة، وهذا التوازن قمين يحفظ خصوصية الشعر واستقلاله من بين فنون القول.

وحين نقطع بأن التراث الأدبي نهض بمهمته في الدعوة والدفاع وإشاعة الكلمة الطيبة والقول السديد فإن ذلك يستدعي تقصي مضان كتب التاريخ والموسوعات الأدبية بوصفها شهود إثبات، ولأنه من الصعب استدعاء الشواهد بوثائق الإثبات - لأن كلمة محدودة المساحة والوقت غير كافية لاستيعاب هذا الكم الهائل عبر العصور، فإن الإشارة إلى بعض الإسهامات تعزز الرؤية، ولقد أشرت من قبل إلى جهود (جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية) في ذلك، فلقد قاد بعض الناشطين من أساتذة الأدب أمثال الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا رحمه الله فريقا من الطلاب النابهين لتقصي الموسوعات والدواوين وكتب الطبقات وجمع شعر الدعوة الإسلامية وتبويبه، وقد طبعت بعض الأعمال وكشفت عن إسهامات متميزة، كما قامت جهود فردية بالدراسة والتحليل والتنظير الأمر الذي جعل للأدب الإسلامية ونقده حيزا في المشهد الأدبي.

ويكفي أن نشير فقط إلى ما أثارته الحروب الصليبية من كوامن الشعراء وما حفزته من همم، لقد انبرى الدارسون والنقاد لتقصي الشعر الذي فجرته أحقاد الصليبيين، نجد ذلك عند الدكتور عبد اللطيف حمزة في كتابه (أدب الحروب الصليبية) وعند أحمد بدوي في كتابه (الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية) وعند الدكتور محمد الهرفي في كتابه (شعر الجهاد في الحروب الصليبية)، وعند الدكتور مسعد العطوي في كتابه (الاتجاهات الفنية في الشعر إبان الحروب الصليبية). وهي كتب تقصت شعر المقاومة وأثر الجهاد على الأبعاد الفنية والدلالية وانبعاث الروح الإسلامية وخصوبة الشعر وتعدد أغراضه وتجددها، ولو تعقبنا شعر الدعوة وآدابها عبر العصور الإسلامية لوجدناه مواكبا للشعر بكافة أغراضه، ففي صدر الإسلام نجد حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وكعب بن زهير وضرار بن مالك الأسدي وعباس بن مرداس الذي يقول:

نصرنا رسول الله من غضب له

بـــــألف كمــــــي لا تعـــــد حواســــره

وكنــــا علـــــى الإســـــلام ميمنــــة لـــه

وكــــان لنــــا عقــــد اللــــواء وشــــاهره

وفي العصر الأموي كانت هناك إلمامات دعوية واعية من شعراء يخلطون عملا صالحا وآخر سيئا ولكنهم بصالحهم يتوفرون على عاطفة دينية متأججة، نجد ذلك عند أبي فراس همام بن غالب المعروف بالفرزدق، وأجمل ما يؤثر عنه قوله في زين العابدين علي بن الحسين:

هـــذا الـــذي تعــرف البطحـــاء وطأتـــه

والبيـــــت يعرفــــه والحــــل والحـــــرم

والطرمَّاح بن حكيم الطائي الذي يقول:

إذا فـــــارقوا دنيــــاهم فــــارقوا الأذى

وصــــاروا إلـــى ميعـــاده فـــي المصــــاحف

ومن شعراء آل البيت (الكميت) وبالرجوع إلى موسوعة شعر الدعوة الإسلامية نجد أن طائفة من الشعراء ألموا بشعر الدعوة وجلّوا فيه وتجلت مواهبهم وعواطفهم ولم يكن الأدب العربي ضنيناً بالمشاطرة ولكن هذا اللون من الشعر نثار في مضان الكتب وحين هيئ له الدارسون تبدت أغراضه ومناحيه وشعراؤه.

والموسوعة الأدبية لشعر الدعوة التي تبنتها جامعة الإمام غطت مساحة واسعة إذ تناولت شعر الدعوة الإسلامية في عهد النبوة والخلفاء الراشدين وفي العصر الأموي وفي العصر العباسي الأول والثاني والثالث، وفي قسم النثر تناولت القصص الإسلامية في عهد النبوة والخلفاء الراشدين وفي العصر الأموي إضافة إلى المواعظ والوصايا ذات الطابع الأدبي وما يخص القصص في صدر الإسلام فقد أشار المشرف إلى أن الموسوعة نيّفت على الألف صفحة، يقول الدكتور عبد الرحمن الباشا عن هذا اللون من الإبداع:

(الأدب الإسلامي الذي اتقدت شعلته منذ بزوغ فجر الإسلام إلى يومنا هذا وأدى رسالته خلال أربعة عشر قرنا في تصوير مشاعر القلوب المؤمنة، وإرواء عواطف النفوس المتدينة، وإلهاب حماسة الجماهير المسلمة وحشد طاقات الأمة الإسلامية لتحقيق أعظم الفتوحات وصدأ شرس الغزاة).

وإشكالية هذا اللون من الأدب تكمن في العوائق التالية:

-تنازع الطوائف والمذاهب والأحزاب وتفرق الأمة الإسلامية.

-تذبذب طائفة من الشعراء بين نوازع النفوس الأمارة والنفوس اللوامة.

-احتفاء الموسوعيين كالأصفهاني بشعر المجون والخلاعة.

-اختلاط الشعر الديني والصوفي وشعر الرقائق والمواعظ بالشعر الدعوي والجهادي وتحميل الأدب الإسلامي جرائر الضعف والتصنع.

وقادة العالم الإسلامي لم يغفلوا عن أهمية الشعر في خدمة العقيدة منذ أن ندب الرسول ﷺ حسان بن ثابت رضي الله عنه، فقد نقل الطبري في تاريخه مقولة سعد بن أبي وقاص في معركة القادسية للشعراء:

(انطلقوا فقوموا في الناس بما يحق عليكم ويحق لهم عند مواطن البأس..) والتراث الأدبي واكب الدعوة منذ النشأة الأولى ولما تزل له تجلياته ولما يزل الشعراء والقصاص والروائيون وسائر المبدعين والنقاد يشعرون بمهماتهم وأهميتهم وما رابطة الأدب الإسلامي العالمية إلا مثل حي لرعاية هذا اللون من الأدب وتنميته وإشاعته بين الناس، وكم نود أن تضطلع المؤسسات الثقافية والأدبية ودور النشر والإعلام بشطر من هذه المهمة الشريفة لكي تشيع الكلمة الطيبة وتنحسر الكلمة الخبيثة.

يا عذبة الملتقى يا ندوة الأحد .. !(١)

ندِمْتُ مرتين:

-حين لم أعلم بعارض المرض الذي ألمَّ بأخي الأكبر الإنسان بكل معاني الإنسانية الأستاذ الدكتور راشد المبارك، لأظفر بأجر الزيارة ولو عبر الوسائل الحديثة كي أشاطره آلامه آسياً ومواسياً ومتألماً لما ألمَّ به، والتفاف المعارف نصف العلاج، فالمريض تكبر في عينه الأشياء، ويحس بفراغ ممل، لا يملؤه إلا التواصل بين المحبين، وحق أخينا علينا كبير، وهو صحيح شحيح، فكيف إذا انتابه المرض، وأضاف إليه الغربة للعلاج.

-وحين احتفى به الأحاديون وأنا منهم ولم أدر بالمناسبة إلا بعد أن غطيت إعلامياً في صحيفة (الجزيرة) السباقة لتغطية مثل هذه المناسبة، وحسناً فعل الإخوة، فالرجل أهل للتكريم قبل هذه المناسبة، وهو حين عاد إلى موقعه سالماً معافى، ليستأنف نشاطه قمين بإبداء مشاعر الفرحة.

لقد كنت أحد المكرمين بالأحدية، وأحد المشاركين والرواد، وكانت من روافد الثقافة ومؤسساتها الأكثر انفتاحاً واستيعاباً لكل الخطابات، نضيق ببعض حراكها ونسعد بالبعض الآخر، ولكننا لا نجد بداً من الإكبار، وصاحبها بما وهبه الله من ثقافة عميقة وشاملة وبما هو عليه من رحابة صدر واستشراف للمستقبل أضفى عليها من القيم ما جعلها من أفضل المنتديات وأعرقها، وأكثرها حضوراً واستيعاباً لكل الخطابات، وبلادنا بإمكانياتها الحسيَّة والمعنوية رَحُبتْ لمثل هذا المنتدى الحضاري بكل المقاييس، وظاهرة الصالونات والمنتديات، من الظواهر الحضارية، ونظرة المجرب تقف عند الكيف لا الكم، إذ ما أكثر المنتديات الشكلية التي لا تضيف شيئاً للمشهد الثقافي والفكري، وكل المؤمل أن يتوفر العائد من المشافي على ما كان عليه من طاقة وحيوية ليستأنف نشاطه المعهود، باعثاً الطمأنينة في نفوس محبيه وملتحماً مع المنتديات الأخرى في عاصمة العروبة والإسلام رياض المبادرات والإسهامات، قادراً على طرح خطابنا الإسلامي وسط ضجيج الخطابات. فله منا الدعاء الصادق في أن يسبغ عليه نعمه الظاهرة والباطنة وأن يستعمله فيما يرضيه، فحق ديننا ووطننا وقادتنا وأمتنا علينا النُّصح، وبذل المجهود، والتيسير، والأُحَدَيَة خير من يندب لمثل هذه المهات الجسام.

---

(١) تاريخ المقال: ١١/ ٤/ ٢٠٠٨

خبران مبهجان ومزعجان في آن واحد .. ! (١)

خبران عارضان وسعتهما الصفحة الأخيرة من جريدة (الجزيرة) ٩-٤-١٤٢٩هـ يتعلقان بأمن المواطن، قد يمر بهما القارئ دون تأمل، وهما في نظري من أهم الأخبار، وأقدرهما على تأكيد كفاءة رجل الأمن الذي مافتئنا نلقي باللائمة عليه:

أما أحدهما، فمن (عسير).. وأما الآخر فمن المديرية العامة لمكافحة المخدرات.

يقول الخبر الأول: إن شرطة عسير كشفت غموض أربع وخمسين قضية قتل وشروع في القتل وسلب ونهب، منها أربع وأربعون قضية مسجلة ضد مجهول، ومن بينها عشر قضايا قتل، ويرجع تاريخ بعضها إلى ما قبل سبع سنوات والعصابة التي اعترفت بهذا القدر من الجرائم المزعجة تتكون من تسعة أشخاص من جنسية يمنية.

وأما الآخر فيشير إلى تفكيك ثمان وثلاثين ألف عصابة تدار من قبل تسعة وأربعين ألف شخص يمارسون تهريب المخدرات وترويجها وذلك على مدى عام ونيف.

المبهج في الخبرين اكتشاف هذه الأوكار وقطع دابرها، ويقظة رجال الأمن وعدم يأسهم حتى ولو سجلت بعض الحوادث ضد مجهول وليس من السهل وضع اليد على قرابة خمسين ألف مجرم على مدى عام وثلاثة أشهر.

والمزعج في الخبرين تفشي الجريمة بهذا القدر في بلد آمن مطمئن يحكم شرع الله، ويدرؤ بالحسنة السيئة، ويعطي عطاء من لا يخشى الفقر وضلوع العنصر الأجنبي في تدمير الأمن والأنفس، وتقصير المواطن في معاضدة رجل الأمن.

إن بلداً كالمملكة تفد إليه العمالة بالملايين وتهوي إليه أفئدة المسلمين للحج والعمرة بالملايين، وتتوفر فيه الإمكانيات والسيولة النقدية سيظل مطمع الأنفس الضعيفة ومطمحها، وما لم يضع المواطن يده في يد رجل الأمن فإن اختراق حماه سيعود بالخسران المبين، ويكفي لاستبانة الفداحة متابعة ما يتسرب من أخبار مزعجة.

ومن يصدق أن عصابة أجنبية من تسعة أفراد تمارس الفساد في البلاد من سبع سنوات ثم لا يكون للمواطن أي دور في التحري والرصد لاكتشاف تلك العصابة، وكم في البلاد من عصابات لم تكتشف بعد.

ومن يصدق أن خمسين ألف مجرم من جنسيات مختلفة ينتشرون في البلاد ليروجوا السموم القاتلة، ثم لا يكون للمواطن دور فاعل لوضع يد رجل الأمن على طائفة منهم، وما خفي كان أعظم.

إن البلاد مستهدفة والغزو يأتيها من البر والبحر والجو وما لم يكن لدينا حسٌّ أمني أصبحنا لقمة سائغة لهذه العصابات الشريرة، ولم يبق والحالة تلك إلا أن يجرد الحسام من غمده، فليس له بعد أن يغمدا.

كلمة شكر وثناء لرجالنا البواسل ولكياننا الأمني بقيادة مهندس الأمن الأمير نايف بن عبد العزيز ورجاله الأوفياء.

وكلمة استنهاض لكل مواطن ليكون عيناً متيقظة لحماية البلاد والعباد من ضعاف النفوس ومزيداً من الانتصارات والضربات الاستباقية.

---

(١) تاريخ المقال: ١٧/ ٤/ ٢٠٠٨

الحوار الوطني في لقائه السابع المتألقون والمنطفئون .. !؟[١]

(قناة الإخبارية) دَلَقَتْ أقتاب اللقاء السابع للحوار الوطني بالبث المباشر لكل الجلسات والمداخلات، ولولا تلك المبادرة المباركة لما كان لأحد أن يَهْتدي لهذه التظاهرة (الأرستقراطية) التي كنا نود أن تعبق في سماوات المؤسسات الثقافية والتعليمية عبر لقاءات هامشية في منطقة يود أهلها أن يكونوا حاضري موائدها الشهية ليتَضلَّعوا من معينها وليتعرفوا على نُخَبِها بمختلف أطيافهم ومناطقهم إذ ما كان لهذا اللقاء أن يتم دون أن تكون له هوامش تُمكِّنُ من الارتواء، وتَعْدِلُ بين الظمأ، وتُحقِّقُ الهدف من تداول اللقاء مناطقياً و(مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني) لمَّا يزل مجهول الهوية لدى الكثير من المتابعين، وهو أحوج ما يكون إلى الخلطة، ولا سيما أنه من المواطن وإليه يتنفس من خلاله، ولقد كان لي شرف الإسهام في بداياته الأولى، وكنت ولمَّا أزل قريباً من تلك المنشأة الحضارية ومن رجالاتها أعرف الكثير عن دخائلها ومراميها وأدلي بجهد المقل بين الحين والآخر مشاركاً في بعض مناشطها، ورغبتي في الخلطة لمن لم تتح لهم فرصة المشاركة في لقاءاته.

فـــلا نزلـــت علـــيّ ولا بأرضـــي
سحـــائب لـــيس تنـــتظم الـــبلادا

على أن القائمين على المركز يضيقون ذرعاً بالفهم الخاطئ لرسالته ومهماته، وهي فيما أرى محاولة جادة لتفادي الصدام حول القضايا بالاجتهادية، التي لا تحسم بالنص المنطوق، وإنما تقوى بمفهومه ومقاصده، وبشيء من فقه الواقع والأولويات وبفقه الضَّعْف والفتن، وحرص على تعويد الأطياف على إتقان فقه الحوار مع المخالف والقدرة على تقبل الرأي الآخر برحابة صدر ورباطة جأش ورجاحة عقل وقدرة على تقليب الآراء المتباينة على نار هادئة سعياً وراء الحق المنشود.

هذا الاضطراب في المفاهيم جعل طائفة من المشاركين في الجلسات يَنِدُّون في حواراتهم عما يهدف إليه المركز ومعطى الفهم الخاطئ صيَّر البعض يتصور أن المركز لم يحقق شيئاً من رسالته، ويقيني أننا نفتقر إلى ثقافة المؤسسات الأمر الذي حفزني على مبادرة الكتابة والتحريض على إشاعة ثقافة أي مؤسسة تنشأ لخدمة العامة، وكم تمنيت أن تنهض المؤسسات التعليمية والإعلامية بمثل هذه المهمات التوعوية ما دامت الدولة جادة في المأسسة، إذ لكل مؤسسة رسالتها وأهدافها، ولن تتحقق الاستفادة منها ما لم تكن ثقافتها مطروحة في الطريق يعرفها العامي والمتعلم.

و(مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني) ليس بدعاً من سائر المؤسسات إذ هناك مؤسسات كثيرة، قد لا يعرف بعض أعضائها جوانباً من رسالاتها ومهماتها، فضلاً عن الأبعدين، والناس أعداء ما جهلوا، وكم من مؤسسة مهمة تغفو في الظل لأن الناس لا يعرفون حدود مسؤولياتها، وعندما يَنِدُّ المشاركون عما ترمي إليه المنشأة يشكلون عبئاً يُبطئ بالأداء السليم، ولك أن تسأل عن (مجالس المناطق) التي لم تكن حاضرة في الأذهان مع أهميتها، وأهمية الأدوار التي تقوم بها، وما نراه من تقصير في الأداء أو انزواء في الظل لبعض محققات المدنية مرده إلى جهل المقاصد وكل دولة تستبق المؤسسات المدنية تحتاج إلى أرضية ثقافية تمكن المستفيدين من إتقان التعامل معها، وأحسب أن الأطراف كلها مسؤولة عن هذا التعتيم.

---

(١) تاريخ المقال: ٢٩/ ٤/ ٢٠٠٨

والمركز مبادرة حضارية كنا نود أن تشبع مقاصده في الذين يحلو لهم تنازع البقاء الفكري ثم لا يكونون على بينة من فقه الحوار من حيث الأنواع والأسس والوسائل وصفة المخالف والمقاصد، وأهمية الوحدة الفكرية أو المصالحة والتعايش وذلك أضعف الوفاق.

ولربما كان الحافز لإصدار مجلة (حوار) عن المركز تلافياً لهذا النقص في ثقافة المؤسسة، فالدعوة الكريمة التي تلقيتها من معالي الأخ الكريم الأستاذ (فيصل المعمر) للكتابة تضمنت الحوافز المتمثلة بالتعبير عن (استراتيجية) المركز وأهدافه ونشر ثقافة الحوار ونشر قيم الاعتدال والوسطية والتسامح في المجتمع السعودي والعربي.

المتألقون في اللقاء السابع كثيرون ورؤوسهم معالي الشيخ صالح الحصين ومعالي الدكتور غازي القصيبي، وذلك بتصديهم المعرفي والمنطقي لمن ذرفوا دموع التماسيح على وضع المرأة وصيروا من دموعهم وقوداً للمغرضين وللمؤسسات الغربية التي تقعد لبلادنا وعقيدتنا وقادتنا كل مرصد، وكان آخر افتراءاتهم ما صدر عن مؤسسة (هيومن رايتس ووتش) المتخصصة بالدفاع عن حقوق الإنسان مطالبة برفع القيود عن المرأة وهي نفسها التي انتقدت (دولة الكويت) في مطاردتها للجنس الثالث، وطالبت بكل وقاحة وتعد سافر على سيادة الدولة بتمكين المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال من حرية الاختيار، وكأننا خراف خليجية، والتخندق معها مؤذن بطمس الهوية واستنزاف لجهود المملكة لدفع المغريات وهي جهود كان يجب أن تصرف لمصالح الأمتين العربية والإسلامية ولكن البراقشيين من أبنائنا لا يفتؤون يمدونها بالحجج المفتريات، وكأني بها تعزز رؤيتها ومواقفها الكائدة بشاهد من الأهل.

لقد جاءت كلمة معالي الشيخ صالح الحصين في الجلسة الختامية وكلمته بين يدي خادم الحرمين الشريفين عند لقائهم به قاطعة لقول كل خطيب، إذ عرض في كلمته الأولى لتجربة (الثورة الشيوعية) وأشار إلى رؤية (جوربا تشوف) ولقد عدت إلى مكتبتي منقباً عن تلك الرؤية التي ألجم فيها معاليه دعاة الحرية دون ضابط، فكان أن استعرض ثلاثة كتب: (البيريسترويكا) رؤية نقدية بقلم مجموعة من المفكرين الغربيين ترجمة (بشير السباعي) و(البيريسترويكا من منظور إسلامي) لكل من فتحي يكن ومنى حداد وكتاب (جورباتشوف) قضايا (المرأة والأسرة) في كتابه فبعد أن تعرض للأضرار الناجمة من إطلاق الحرية للمرأة ومساواتها المطلقة بالرجل قال: (ولهذا السبب فإننا نجري الآن مناقشات حادة في الصحافة وفي المنظمات العامة وفي العمل والمنزل بخصوص مسألة ما يجب أن نفعله لنسهل على المرأة العودة إلى رسالتها النسائية البحتة) (ص ١٣٨ ط٢ - ١٩٨٨م) هذا رجل ليس سلفياً وليس متخلفاً.

وقد خلص إلى رأيه ذلك بعد تجربة سبعة عقود كانت كافية للعودة إلى الرؤية الإسلامية التي تجعل قرار المرأة في البيت هو الأصل والعمل ضرورة تُقَدّر بقدرها، ثم إن تخلف الأمة العربية لا يحسمه خروج المرأة، لقد خرجت منذ دعوة (قاسم أمين) وما زادت الأمور إلا تخلفاً، وهي في بلادنا أستاذة وطبيبة وعاملة، ومع ذلك تتوفر على متطلبات الحشمة الإسلامية التي تضمن لها الحرية والكرامة والمشاركة المحسوبة بكل دقة، ومعاليه إذ ضرب مثلاً بنظرية (إعادة البناء) فقد ضرب مثلاً آخر بالتجربة الأمريكية حيال المرأة التي بلغت ذروتها في الستينيات من القرن العشرين وبعد أربعة عقود تبين أن الاندفاع غير المحسوب لم يحقق إلا مزيداً من التفكك الأسري والتفكير في عودة المرأة إلى مهمتها الأصلية المتمثلة بتربية الأبناء، وممارسة الأعمال المناسبة لها.

أما معالي الدكتور غازي القصيبي المتمرس بفن التملص فقد أحال موقفه إلى النظام بوصفه منفذاً لا مبادراً، وهو بين المحافظين الذين يطالبون بمزيد من القيود والمجددين الذين يطالبون بمزيد من الانفتاح، ولمَّا لم يكن مع الطرفين فقد تمترس وراء الضوابط

التي وضعتها الدولة لعمل المرأة، وهي ضوابط معتدلة ومنصفة ومراعية لمتطلبات المرحلة ومقتضيات الإسلام، والدولة بوصفها دولة إسلامية لا تمنح نفسها حرية التصرف، ولا يمكن أن تستجيب لدعاة الحرية المطلقة، وتجربة الدولة في تعليم المرأة وعملها تجربة رائدة ومستجيبة لمتطلبات المرحلة، وليس هناك ما يمنع من تداول الرأي حول المستجدات إذ لكل حدث حديث.

أما المنطفئون فهم أولئك الذين أعادوا اجترار قضايا المرأة بصوت عائم وعالي النبرة دون أن يكون لهم خطاب متميز تتحقق من خلاله محققات حضارة الانتماء وفي إطار هذا التداول الذي أخذ على عاتقه الاحترام المتبادل تظل أحوال المرأة بحاجة إلى دراسة معمقة يلتقي عندها علماء الشريعة والاجتماع والإدارة والاقتصاد من الجنسين مستبعدين التشنجات والمزايدات وتبادل الاتهامات مستحضرين فوارق الحضارات، والمرأة في ظل كل حضارة أو عصر أو مصر تتعرض لوقوعات فردية وتحكمها عادات متوارثة، ليست من مبادئ حضارة الانتماء، ولا يمكن أن تُحمِّل المبادئ المسؤولية، كما أن الحلول لا تلتمس من حضارة الغير، والمقترفون لتعميم هذه الوقوعات لم يكن لهم مواقف ممتعضة إزاء ترديات المرأة العربية، وهي ترديات لا تحتمل، فإذا كانت العادات القديمة تسيء إلى المرأة فإن الكاسيات العاريات المائلات المميلات المتبرجات تبرج الجاهليات يَصِمْنها بسُبَّة الدهر.

ومن الخير إن كان ثمة اهتمام بالمرأة المسلمة أن نستعيدها من مهاوي الرذيلة ثم نرسم معها طريقا قاصداً تتوفر فيه على مهمتها بوصفها مدرسة لتربية الأجيال.

لقد كان اللقاء ممتعاً ومفيداً ومثيراً وسيكون مثار خلاف كثير بين كل الأطراف، وهو أكثر فائدة ومتعة وإثارة لو وسع من لقاءاته الجانبية ونُظِّمت للوفود زيارات عمل للمؤسسات التعليمية والثقافية في منطقة تعج بالكفاءات والمشاهد، ويتعطش أهلها إلى الاحتفاء بضيوف المنطقة.

مسك الختام وآخر الدعوى كلمة خادم الحرمين الشريفين المقتضبة المحبَّرة التي جاءت بمثابة منارة يهتدي بها المتحاورون، لقد تمنى على الله أن يصون كل حوار متسامح كريم منفتح على كل أفق نبيل وخير، وحذر من التفلت على القيم والثوابت، وحرض على فتح بيتنا التاريخي. فهل من مدَّكر؟

اتق الله يا معالي الوزير

ليس في الدعوة إلى التقوى من بأس في حالة الاستقامة على المأمور. فلقد قال الله لرسوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ وحين تكون الدعوة مشروعة على كل الأحوال فإنها في حالة الضعف أو التقصير أدعى وآكد.

ومعالي وزير الصحة بذاته خير من يدعى للتقوى، ولن تأخذه العزة بالإثم فهو مثل الوفاء بالعهد والإنجاز للوعد، تسنم المنصب دون استشراف وشَرَى نفسه ابتغاء مرضاة ضميره الحي، وما يعرض لقطاعة من تقصير يحالُ إلى ما لا يملك، وفي الدعاء (فلا تؤاخذني فيما لا أملك). وفي الذكر الحكيم ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا﴾ غير أن من الأحوال ما لا يمكن احتمالها ولا الإغماض فيها تحت أي ظرف ولو فرغ المسؤول لها دون ما سواها لما لامه اللوَّم، ولعلَّ معاليه والمعنين من حوله شهدوا ما بثته (قناة الإخبارية) مساء يوم الاثنين ٢٢-٤-١٤٢٩هـ عما تعرضت له مواطنة سعودية في مستشفى أهلي أدى إلى عاهات مستديمة أدناها قطع نسلها وحبس بولها، هذه التعديات

الجاهلة مرت عليها ستة أشهر وذووها يطاردون سراب القيعان، بينما المغترفون للأخطاء المهلكة يمارسون عملهم في راحة واطمئنان بمباركة وحماية من وزارة الصحة، هذا ما فهمناه مبثوثاً بالصوت والصورة، والعُهدةُ على الراوي (ولو ترك القطا لنام)..

وما سمعه القاصي والداني على شاشة الإخبارية، مؤلم ومخجل، مؤلم لأنه عبث بالأجسام وانتهاك لمهنة الطب، ومخجل لأنه استخفاف بالإنسان السعودي واستهتار بحياته واستغلال لفوضى العمل وغفلة الرقيب ومَطْل اللامبالي ولو أن ما دون ذلك من الأخطاء اقترفها مواطن سعودي بحق وافد لقامت المنظمات العالمية والإذاعات والصحف والمحطات الفضائية وحُمِّلنا أوزاراً مع أوزارنا وها نحن نشهد ونشاهد جنايات قاتلة محسوبة على الأخطاء الطبية، وما هي إلا جنايات يقترفها جهلة أو غير متخصصين، والمواطنة السعودية التي روت مأساتها بكت وأبكت واستعدت ربها على من عبث بأهم الأجهزة في جسمها وقد مورس ذلك من فريق طبي غير سعودي، ولم نسمع عن أي إجراء تحفظي بحق الطبيب العابث أو المستشفى المستهتر، ولم تسهم الوزارة ولا مستشفياتها بأي خطوة إيجابية تُقِلُّ اللومَ والعقاب، وإنما تم استقبال الحالة من قبل مدينة الملك عبد العزيز الطبية، وهي ليست تابعة لوزارة الصحة، وبعد إنقاذ حياتِها أعد تقرير طبي استُقْبِل بكل برودة من قبل الوزارة، وكأنه خطأ طبيب بيطري حيث زجت القضية في دوَّامة الروتين وكأن الأمر لا يعنيها، على أن وليَّ المرأة بعدما ضاقت عليه الأرض بما رحبت وقف وجهاً لوجه أمام معالي الوزير، وقد أثنى الولي على تفاعل معاليه، ولكنه عاد كما كان من قبل، ومن ثم لم تكن أي خطوة إيجابية تأسو أو تواسى أو تتوجع مع أن الوزير أبدى اهتمامه، ولكن من دون الوزير خذل الولي وأعاده من جديد في دورة مملة، ولا عبرة بالإجراءات الروتينية التي تتقاذف الأوراق وتبعث على الملل والإحباط، فالقضية ليست معاملة ورقية تتعلق بأشياء مادية لا تملك شعوراً ولا كرامة إنها تتعلق بأنفس وكرامات مزهقة ومهانة، وعلى افتراض أن المريضة وذويها مخطئون ومفترون للكذب على المستشفى والوزارة فإن من واجب المسؤولين المبادرة لرَدْعهم حماية لسمعتها وسمعة المستشفيات الأهلية، فالسكوت في الحالين إدانة لكل الأطراف المعنية..

لقد بكى كل من سمع المريضة وهي تحكي مأساتها، وبكاؤهم ليس على ما مضى ولكنه الخوف مما سيأتي، لأننا بهذا الهوان لا نستطيع رد أيدي المتلاعبين فضلاً عن قطعها والمال السايب يعلم السرقة، فأين منظمات حقوق الإنسان الرسمية والأهلية في الداخل عن مثل هذه الانتهاكات الصارخة والمماطلات الموجعة؟ ولماذا يحتاج المظلوم إلى عرض مظلمته عبر الصحف والقنوات لتحريك المشاعر المتبلدة ورد المظلمة..

وعلى ضوء ما سلف فإن أمام معالي الوزير - وهو وحدة مبعث الاطمئنان - أمرين لا ثالث لهما:-

-قطع ألسنة المفترين على الوزارة والمستشفيات الأهلية إن كان ما يشاع كذباً أو حتى مبالغاً فيه.

-أو قطع أيدي المقترفين للأخطاء المهلكة والمتهاونين المهملين من موظفي وزارة الصحة الذين يقابلون مثل هذه الحالات بهذا اللون من البرودة والتمييع إن كان ما قيل صحيحاً.

أما ترك الأمور على ما هي عليه ألسنة حداد تقول ما لا يحتمل وأطباء يفعلون ما لا يتصور ويجازفون بحياة المواطنين، ومسؤولون في الوزارة يفرطون بالحقوق فأمر منكر لا يمكن احتماله ولا القبول به فحياة المواطن ليست رخيصة بهذا القدر، وقضية كتلك لا يجوز تداولها وتخويف الناس من العبث والإهمال، ولا يسوغ تعذيب صاحبها مرتين في

الجناية وفي المراجعات. لقد سمعنا منكراً من القول ورأينا فضيعاً من الفعل، ولا يمكن أن يكون الخصمان معاً على حق، فإن صدق القول فعلى الوزارة قطع دابر الفعل، وإن بُرِّئ الفعل فعلى الوزارة إخراس ألسنة الكذب:-

و:

إذا الجـــــرح رمَّ علـــــــى فســـــــاد

تبـــــين فيــــــه إهمـــــــال الطبيـــــــب

فكيـف إذا رمـت جـروح وضـاعت حقـوق

والناس - يا معالي الوزير - بعد البث المؤلم بانتظار ما يتمخض عنه قرارك الحكيم الذي عهدناه فيك لكي تصان الكرامات والحقوق ويأمن الجميع على الحياة والسمعة، وثقتنا بمعاليه لا يمكن أن تتزعزع حتى يبلغ الكتاب أجله، أكتب ما تقرؤون وليس بيدي من الوثائق إلا ما قالته وسائل الإعلام فما كنت لديهم إذ يجرون مشارطهم ليقطعوا الرحم والحوالب والمثانة، ولست أعرف الأطراف كلها ولكن القضية فضيعة على كل الأحوال.

هلاّ تريثت يا أبا عبد اللّه .. ؟[1]

رحم الله أبا عبد الله.
قضى نحبه ولم يبدل تبديلاً.
كانت حياته حافلة بالكفاح.
كفاح لتكوين ذاته في زمن الشحِّ.
وكفاح لتكوين مجتمعه عبر كل وسائل التوصيل.
لم يكن طريقه سالكاً ليركض برجله.
ولم تكن الإمكانيات ميسورة ليختصر بها الجهد والوقت كان عصامياً.
والعصامي من لا يرقب الأيدي الممتدة والمقبوضة وكان إنساناً.
والإنسان من ينسى ذاته في سبيل الغير وكان وسطياً.
والوسطي من يختار أيسر الأمرين وكان ودوداً.
والودود من ينسى حقه عند الآخرين وكان وفياً.
والوفي من يلحق بالمنصرفين إلى شؤونهم عرفته منذ طفولتي، واكتشفته منذ شبابي.
وخالطته منذ كهولتي، وزاملته بين هذا وذاك.

كان عضواً في مجلس إدارة نادي القصيم الأدبي منذ تأسيسه عام ١٤٠٠ وكان إذا حضر الاجتماعات - وقليلاً ما يحضرها لكثرة مهماته ومشاغله - يُضفي عليها من خبرته وحكمته، وكان داعماً معنوياً ومادياً لكثير من المناشط الأدبية والاجتماعية، يعرف ذلك كل من له اهتمام بالشأن العام، وكانت له إسهامات خيرية تقدر بالملايين، لقد فقدت المشاهد الأدبية والإعلامية والخيرية رجلاً وهب نفسه لها، وسوف يغيب ببدنه وستظل صدقاته الجارية وعقبه الصالح وعلمه الذي ينتفع به بين يدي كل مستفيد.. رحم الله أبا عبد الله عبد العزيز المسند الذي ابتلي بالمرض فصبر وابتلي بالنعم فشكر فجمع بين أجر الصابرين والشاكرين نحسبه كذلك ولا نزكي على الله أحداً، لم يعد الموت مفزعاً، ولم يعد مثيراً فكُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ، ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾.

نعم حزنّا على الفراق، وتألمنا من فراغ ثنية من ثنيات العمل الإنساني ولكن الله بالصبر والاحتساب سيعوضنا بما هو خير، عزاؤنا لأبنائه وطلابه ومحبيه ولنا فنحن من طلابه ومحبيه.

(١) تاريخ المقال: ٢/ ١٠/ ٢٠٠٧

قضيةُ التركي بين رَيْثُ العقل.. وعَجَلُ العاطفة.. ! (١)[1]

تابعت - كغيري - ما ظفرت به (العينُ الثالثة) في (قناة العربية)، وكنت على أَثَارَةٍ من علم بما سبق من قول فَصْل أو هَزْل، حول ملابسات اعتقال المواطن السعودي: (حميدان التركي) ومحاكمته وسجنه. وهي قضية عصية ومأزومة في الوسط السعودي إذ تجتالها عواطف جياشة، ورؤية ساخطة. وما كنت أرضى في ظل تأجج مشاعر السخط أن أبيح لعواطفي الغلية على مواقفي، وإن كانت قلوبنا وعواطفنا مع السجين.

ولن تدرأ عنه عواطفنا ما حلَّ به، ما لم نتعامل مع القضية بمنطقية تتخلى عن الإطلاقات والعموميات، ومجرد الإدانة والاتهام هتاف عاطفي يطفىء لظى الانفعالات، ولكنه لا يحرر مسألة ولا يؤصل لمعلومة، ولا يقطع أمراً.

وما دام أنه استفز القوم بممارساته الدعوية وعلاقاته العملية المراقبة من قبل سلطات الولاية منذ سنوات كما يقول هو، فإنه سيكون مشروع صراع حضاري، قد لا يبالون معه بأي وادٍ هلك.

وهو إذ نفخ بفمه وأوكى بيده فإن عليه الصبر والاحتساب، وعلينا الدعاء والدفع بالتي هي أحسن، وإذا كان نبيلاً في مقاييسنا فإنه مذنب في مقاييس غيرنا، ونسبية القيم تستدعي إرجاء التزكية المطلقة والتجريم المطلق، وبخاصة حين نكون وراء الإفراج عنه، وماذا تغني الادعاءات وهل ينفعه الثناء، وهو رهين المحبسين: الغربة والسجن.

وأكبر الظن أن التوتر وتصعيد مشاعر الاستياء لن تُغْني من الحق شيئاً في المِلَّة السياسية التي لا تراعي في مؤمن إلا ولا ذمة، وما لم تكن هناك بوادر تحمي صفو الحقِ أن يكدر فإن أيَّ ممارسة ستبوء بالفشل الذريع، ولكنها لا تمنع من المحاولة بالحلم والأناة.

ومقاربتي الحذرة للحدث ستظل في إطار التساؤل والتقويم للمتداول من الأقوال على ألسنة الأطراف كلها، وعلى كل المستويات في التناول فإن السجين بِضْعَةٌ منا تتداعى له أجسادنا بالسهر والحُمَّى، ولكنه يظل مرتهناً ببشريته وبما بَدَرَ منه وبإمكانياتنا المتواضعة، فليس هو من الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، كما أنه ليس من الشياطين الذين فسقوا عن أمر ربهم، وليست العصمة المطلقة ولا المقيدة من حق أحد ممن لم يُصنعُوا على عين الله، وليس من حق المشفقين القطع بتزكية المحبوب دون القول: نحسبه كذلك والله حسيبه. ومتى استشعرنا ذلك استقمنا على الطريق القاصد، وتمكنَّا من مقاربة الحل الأمثل لقضية يشاركنا فيها قضاء دولة لا تزايد على نزاهة قضائها.

والسلطات التي رصدت تحركاته وطاردته في حلِّه وترحاله حتى أَرْدَتْه، لم تكن عشوائية الخبط بحيث نسقط الدعوى بجرة قلم، متى علمنا أن في أمريكا عشرة ملايين مسلم وأكثر من سبعمائة منظمة إسلامية، ولابد والحالة تلك أن يكون هناك سر غريب يجب أن نجتهد في استجلائه، وإذ لا يكون هو من الملائكة ولا من الشياطين فإن المتعاطفين معه الحاملين لهمه ليسوا على كل شيء قادرين، وليس أمرهم في شأنه بين (الكاف) و(النون).

وبين بشريته القابلة لكل تصور وممارساته القابلة لكل قراءة ومحدودية إمكانيات الذين يحملون همه يجب أن تتحول القضية من التهييج العاطفي إلى التأمل العقلي وسحبها من الاستغلال الإعلامي، والدخول بها إلى (كواليس) الحوارات الجانبية وتناجي (اللوبيات) وضغوط المصالح المشتركة، على أن مواجهة الرأي العام ببعض الحقائق

---

(١) تاريخ المقال: ٢/ ١٠/ ٢٠٠٧

تخفف من حدة التوتر والاحتقان، وتمنح الوسطاء مزيداً من رَيْث العقل وتفادياً لعجل العواطف، وهو ما تتطلبه قضية شائكة كتلك. وكم هي المسافة الحسية والمعنوية بين نزيل سجن (لا يموت) في ولاية (كلورادو) والمتعاطفين معه الساعين لخلاصه من غيابة السجن.

ومعالجة أي قضية بشرية يجب أن يمر بها على كل الاحتمالات حتى تتمحص، ثم لا يكون إلا احتمال واحد، و(عائشة) رضي الله عنها في حديث الإفك، لم يُنجها من أوضاره إلا وحْي السماء، واستشارة الرسول ﷺ لبعض أصحابه كشفت عن مواقف متفاوتة حول براءتها وطرق مواجهة الإفك، وما نقم رسول الله ﷺ على أحد منهم، والركون إلى التزكية المطلقة للذات والتجريم الجازم للآخر لا تحلحلان القضية قيد أنملة، ومرادنا الإفراج عن السجين لا التفريج عن الصدور ومنهج الشك (الدِّيكارتي) لا يعني النفي للحقائق - كما يتصور البعض - ولكنه يعني السعي لتحققها أمام الذات الطالبة، ولقد قيل - وأحسبه قولاً ل(العقاد):

أَحَبَّ (أبوبكر) فآمن، وآمن (عمر) ثم أحَبَّ، ولهذا كان (أبوبكر) أميل إلى العاطفية، فيما كان (عمر) أميل إلى (العقلانية).

ولما أراد (أبو الأنبياء) إدراك حقيقة الإحياء ناشد ربه أن يريه كيف يحيي الموتى، وحَقُّ كل ساعٍ وراء القضايا ألا يُعَوِّل على معارف غيره، فإذا توقف أحد أمام أي قضية فإن ذلك بعضُ حقه على حَدِّ .. ولكن ليطمئن قلبي .. وإيمان الاقتناع أَرْسى من إيمان الاتباع، وعلى ضوء ذلك أصبحت حرية التفكير مطلقة وحرية التعبير مقيدة، وبخاصة مع الدليل البرهاني، وهو الذي حدد مشروعية منهج الشك (الدِّيكارتي) الذي أطلقه ولم يُقيِّده. وقضية (التركي) من القضايا المتشابهة التي يسأل عن لونها وشكلها وماهيتها، وقد لا تكون البقرة المقصودة بالذَّبْح. وكل قضية تكون السياسة طرفاً فيها تزداد مع التقليب غموضاً واستحالة، إذ ما دخلت السياسة في شيء إلا أفسدته وجعلت اليقين فيه شكاً، ومن تصورها على غير ذلك أخذته الغفلة بالهوان والتيه، وقضية من هذا النوع تكون قابلة لأكثر من تصور، وبخاصة أن (السجين) قَبِلَ التحدي، واستغل ثغرات القانون المدني، وقانون الهجرة في عقر دارهم وفي ظل ظروف استثنائية وإمكانيات غير متكافئة، وتسْييس الحدث زاده تعقيداً واختلافاً، وحديث (السجين) في اللقاء عن مجريات الأحداث كشف عن عناد وإصرار لا مبرر لهما، والتساؤل حول ما إذا كانت القضية (جنائية) (قانونية) يُصَرِّفها (القضاء) المستقل، أم هي (أيْديولوجية) (سياسية) تختلط فيها الأصوات، وتتداعى على قَصَعَتِها الأيدي.

وإذا كان الرأي الأمريكي يجرها إلى (الجنائية القانونية) فإن الرأي العام السعودي يجرها هو الآخر إلى (الأدلجة) و(التَّسْييس) وصراع الحضارات، ومتى كانت كذلك فإن السياسة (فن الممكن) بحيث يَتَّسع الحدث لأي قراءة ممكنة، وعلى ضوء ذلك لا يكون من المستبعد التضحية ب(التركي) قرباناً للأمن القومي.

وإذ لم يَقْوَ القانون المدني وقانون الهجرة على منعه من ممارسة نشاطه الدعوي وترحيله، فقد أصبحت المكيدة السياسية أقدر على كسر عظمه، ومن ثم يكون تلفيق التهم للتخلص من تحديه غير الرشيد الملاذ الأخير، وأحسبه قد مارس محققات حضارته دون أن يَتَّقِيهم تُقَاة، وكيف يتوقع هو ومن وراءه العدل والانصاف والمصداقية وهو غريب الوجه واليد واللسان ثم لا يكون متكتِّماً على مشروعه الحركي الذي اسْتَشْرَتْ مواجهته بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وحين لا تكون قدرة على اجهاض مشروعه إلا بالافتراء كان ما ليس منه بُدّ، ولا سيما أنه ناشط باعترافه، ومؤثر بتعدد مواقعه، وتنوع اهتماماته، وتوسع ممارساته.

ومحاصرة نشاطاته لا تتم إلا بالمكر وتدنيس سمعته، وإذ وقع الفأس على الرأس فإن الواجب استلاله كالشعرة من العجين لا انتزاعه كالحسكة من الشعر.

وعلينا أن ننظر إلى القضية من خلال سياقاتها وأوضاعها الاستثنائية، ولن يتأتى ذلك النظر إلا من خلال استكناه أوضاع الأقلية الإسلامية في أمريكا قبل الأحداث وبعدها، وتقويم المنظمات الإسلامية والجماعات والجاليات وسائر التكتلات التي تنيف على السبعمائة مختلفة القوة والضعف والكثرة والقلة والتأثير على سائر التركيبات السكانية والمتفاوتة في المواقف من حيث المصالحة والصدام والعنف والتيسير، ف(جماعة التبليغ) تختلف عن (الجماعة الإسلامية) التي يتزعمها (عمر عبد الرحمن) ثم يجب أن نستقرئ قانون الهجرة ومدى ما يمنحه للمهاجرين إلى أمريكا من حقوق وحماية، وكم هو الفرق بين المسلم المهاجر والمسلم الأمريكي، وإذ تبلغ الأقلية المسلمة عشرة ملايين فإنها ليست جميعاً مضطهدة بالقدر الذي يشاع، إذ المتابعة لا تمس إلا الحركيين الذين يشكلون خطراً على الأمن القومي.

ومن خلال هذا التصور نعرف أن ما يواجهه (التركي) مرتبط بفعل محظور يمارسه داخل الولاية، وهو فعل سليم ومطلوب من خلال رؤيتنا ولكن قد يكون غير مشروع من خلال رؤية المجتمع الأمريكي، وحين تستقر هذه المعلومات لا يكون الحل بتبادل الاتهامات، وإنما يكون في التماس مشروعية الممارسة، ومقارعة الحجة بالحجة، فالمجتمع الأمريكي لا يقبل اتهام قضائه، ولا يمكن الخنوع لوافد جاء للدراسة وحسب، ثم وسع قاعدة أدائه.

ولكيلا نعمق العداوة والتحدي غير المتكافئ فإننا أحوج ما نكون إلى خطاب أكثر تحضراً وعقلية حتى لا يكون الداء أخف من الدواء.

قضية (التركي) بين ريث العقل وعجل العاطفة .. ! (٢) [(١)]

وأحسب (التركي) وهو بصدد استدرار العواطف والخلوص من السجن قد بالغ في الاتهام، حين أصر على قبول ما هو عليه مقابل ألا يكون (عميلاً) وذلك يذكرني بقوله تعالى: ﴿السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾، ومن الصعب جداً القبول بالمواجهة الصريحة من الطرف الآخر، وبخاصة أمام (المحامي) الذي لن يتوانى في التقاط ما يعزز دفاعه عن المتهم.

ولربما أنهم أصروا على الحصول على المعلومات عما يعدونه إرهاباً بوصف المتهم ممن يتوفر على معلومات مهمة لضلوعه في الدعوة ومخالطته لكل الإسلاميين الحركيين قبل الحادي عشر من سبتمبر وبعده، وإخفاؤه للمعلومات في نظرهم مؤشر مواطأة وتستر، ومؤاخذتي ليست على رفض تزويدهم بالمعلومات ولكنها في مواصلة البقاء على أرضهم، والعمل بما يسوؤهم، وهو يعلم علم اليقين أنه مراقب وغير مرغوب فيه، وإذا كانت لديه معلومات يعرف الطرف الآخر أهميتها، فإن من المتوقع أن يمارس أبشع صور الترهيب لحمل المتهم على البوح.

والذين كتبوا عن أوضاع الأقليات الإسلامية في دول العالم وفي أمريكا على الخصوص، وهم كثيرون جسدوا بعض ما خفي من صدامات وتوترات وإقدام على المواجهة دون إمكانات ودون شرعية، كما كشفوا عن تحديات لا تملك الشرعية، ولا تكمن على جدوى، وإذ لا نكون شركاء لهم ولا أنداداً، فإن من الحكمة الجنوح إلى المصالحة والمعايشة والسلام وأن نتفادى نسف الجسور وتعطيل قنوات التواصل، فالقانون الأمريكي وقانون الهجرة وحقوق الأقليات والجاليات لو أحسن استغلاله لكان فيه خير كثير.

وأمريكا في هذه القضية ربما اختلطت نوازعها السياسية بثوابتها القانونية، وإشكاليتها أن السياسة والقانون عندها بحران ليس بينهما برزخ، بحيث لا يبغيان، وتاريخها السياسي مليء بالشواهد والإبقاء على العدل والمصداقية يقتضي إخضاع القضية للتفكيك واستحضار كل الملابسات، فما كان بود أحد أن يتعرض فرد من أبناء جلدته وعقيدته للظلم، وهو عاجز عن مناصرته ودفع الظلم عنه، وما كان بوده أن يكون لهذا الفرد تجاوزات تحمل المتأذي على محاولة تصفيته جسداً أو سمعة أو بهما معاً، وفي الوقت ذاته لا يود عاقل أن يقع الاختلاف مع قوم بيننا وبينهم ميثاق.

فالولايات المتحدة الأمريكية مع ما هي عليه من تجاوزات لا تطاق دولة حليفة، وبيننا وبينها من العلاقات المتعددة ما لا يليق التفريط بها، ولها من التجاوزات ما لا يليق السكوت عليها، وبين استحالة التفريط والسكوت فتن نائمة (لو انفلتت من قمقمها لكان ثمن أعادتها باهظاً، ومن الحكمة والحلم والأناة أن تقوم بيننا وبينها شعرة معاوية، حتى يأتي الله بالفتح أو أمر من عنده.

وقضية (التركي) حلقة في سلسلة طويلة صدئة، وليست واسطة العقد بحيث تشكل احتقاناً خانقاً للرأي العام، ولا أحسبنا ندوم على تحفزنا، فالتجاوزات كالفتن يرقق بعضها بعضاً، وينسي بعضها بعضا، وعسى أن يفرج الله له قبل أن ننساه كما نسينا غيره من الأناسي والأشياء والقضايا.

وقضية يتنازعها القضاء والسياسة والثقافة في جانبها (الأيديولوجي) لا يمكن أن تحسم بالراجمات البلاغية ولا بالتهييج العاطفي، ولن تطفئ لظاها حناجر الخطباء ولا

---

(١) تاريخ المقال: ٩/ ١٠/ ٢٠٠٧

أنهر الصحف المتدفقة بهدير الكلام، ولا لغط القنوات الفضائية التي تتخذ من القضايا الإنسانية مادة تسلية وإثارة فارغة.

فمتى ثبت أنها مكيدة سياسية فإن حلها سيكون بيد الساسة أنفسهم عبر (الكيابل) الأرضية ومن خلال الصفقات المتبادلة فالناس كلهم أجمعون مرتهنون بحاجاتهم والمصانعة تقي مصارع السوء ومتى ثبت أنها خطيئة قضائية فإن حلها سيكون بيد المنظمات المدنية، ومن خلال مرافعات قضائية تعيد فتح الملفات. وعلينا ونحن نطالب بخلاص المتهم ألا نمارس الاتهام للآخر والتزكية للنفس لأن في ذلك إضاعة للحجة وتهييجاً للخصم، وعلينا فوق هذا وذاك أن نعرف أن أمريكا دولة بشرية مثلنا، فإن كنا نألم لما نال واحداً منا، فإنها الأخرى تأمل لما نالها من التعديات، وقد يضطرها الخوف والترقب إلى ضربات استباقية تجهض أي ممارسة توجس منها خيفة، وإن كانت في حساباتنا مشروعة.

وإذا كنا نرى أن ما يفعله (التركي) من نشاط دعوي ونشر وتسويق للفكر السلفي وما ينفذه من ندوات ومحاضرات وما يمارسه من تجمعات وتكتلات في أمريكا عملاً صالحاً فإن أمريكا لا تراه كذلك، وحينئذ لا تجد مانعاً من إجهاضه بالطريقة المناسبة.

هذا إذا عرفنا ومن خلال قانون الهجرة أن مثل هذه الممارسات ليست من القضايا المشروعة عندهم بحيث نطالبها بالوفاء.

إن علينا ونحن نحتفظ بحق السيادة أن نوفرها لغيرنا وألا نستغل الأنظمة والحقوق المتاحة بحيث نجلي الطرف الآخر إلى ممارسة المكيدة والتحايل على الأنظمة.

ومتى ما وجدنا مساحة من الحرية، وجب ألا نسيء استخدامها إذ أن مصلحة الوطن فوق كل اعتبار، وأمريكا لن تفرط بأمنها في ظل ما يستحقه المقيم، وصراع الحضارات والثقافات كصراع الجيوش يترتب عليها ضحايا وتلفيات، وإذا أردنا ممارسة أي نشاط إسلامي فلا بد أن نكسب مشروعيته من خلال قنواته (الدبلوماسية) إن متابعة قضية (التركي) توحي بأنه يشكل عبئاً أمنياً على الولاية التي يقيم فيها والدليل على ذلك أنه يتابع من عشر سنوات، فهل أخذ الحيطة والحذر وحاول تهدئة الأمور وتطمين النفوس وتفادي الإثارة؟

أحسب أن الولاية استغلت نقاط الضعف مثلما استغل هو ثغرات القانون المدني، وما كان في حسابه أن الولاية لا تمانع من التحالف مع الشيطان في سبيل إجهاض مشروعه الحركي، وإذ ليس في مقدورها تحصيل ما في الصدور فإنها تأخذ بالظواهر وأمريكا كلها اكتوت بنار الظواهر، وليس لدى الولاية متسع من الوقت للنظر فيما تؤدي إليه هذه التحركات التي أجزم أنها لن تخل بالأمن القومي، وسواء لفقت التهم أو لم تلفق فإن سلطات الولاية استخدمت إمكانياتها للتخلص من شخص غير مرغوب فيه.

والذين يظنون أن أحداث سبتمبر حققت نصراً للإسلام يخطؤون التقدير والتقويم، وهم كمن يظن أن سقوط الاتحاد السوفيتي حقق هو الآخر نصراً للإسلام والمسلمين، إن الدعوة وانتشار المراكز والمجمعات والدعاة وتطمين الأنفس الوجلة هو الطريق القاصد الذي فقدنا بفقده أهم المشاريع الدعوية في دولة مفتوحة ومن المحتمل أن يشبع منها الإسلام. وما من دولة أو أمة إلا لها مصالحها وقناعاتها، وإذا كانت نظرية القيم نسبية كما يقول كثير من الفلاسفة والمفكرين، فإن ممارسة الولاية يعد مشروعاً بالنسبة لها، وإن كان غير مشروع بالنسبة لنا.

وعلى ضوء ذلك فإن تفاوت النسبية يعد وسيلة للخروج من وصمة العار التي نتداولها، ونحسبها الوسيلة الأكفأ لمواجهة الخصم، والتفاوت القانوني والثقافي والأخلاقي مناطات يعول عليها المستفيدون من نفي (التركي) أو سجنه، ولما لم يقدروا على إخراجه

من ديارهم، ولم تحمله التحريات والمطاردة على أخذ الحذر دبرت له المكيدة التي أردته، وتعويله على الحرية وضمان حقوق الإنسان جعله يقع لقمة سائغة للمكر السيئ.

والموقف لا يستدعي الاهتياج والتصعيد، بل يتطلب التريث والتأمل والبحث عن ثغرات تنقذ المتهم، وهي بيد الساسة إن كانت القضية سياسية وبيد المنظمات المدنية والإنسانية إن كان القضاء والادعاء هما اللاعب الرئيس، وإذا كان الرأي العام الأمريكي يرى أن مثله يشكل خطراً على الأمن القومي فإن من العسير استدرار العطف.

وأمريكا ليست من السهولة بحيث تخترق بالكلمات العاطفية الجياشة، وليست كما يتصور البعض مبرأة من كل عيب بحيث لا تخاطب إلا من خلال الفضيلة والقانون والعدل والحرية.

إنها دولة المصالح، وكل شيء عندها ممكن متى كانت مصالحها في خطر. إن الهدف الرئيس أن يعود (التركي) إلى وطنه وأسرته، وليس مهماً بعد ذلك من يكون المذنب.

إن علينا أن نبحث عن ثغرات الحكم لتخليص المحكوم، لا أن نبحث عن الثغرات لإدانة القضاء والادعاء وتجريم مسؤولي الولاية وأهلها، لقد مارست أمريكا المحاكمة وأتاحت للمتهم ما يجب أن يتاح لمثله، وحكمت عليه متخذة كل الاحتياطات أمام الرأي العام الأمريكي وكان بإمكانها أن تغتاله، ولو أنها توقعت فشل المحاكمة لما اختارتها ومن ثم فإنها لما تزل ترى أنها مارست حقها القانوني والقضائي وما نريده في هذه اللحظات الحرجة أن نجد تواجد أبنائنا مخرجاً يخلصه من السجن.

وليس من مصلحتنا تصعيد القضية واستغلال العواطف فالقضاء الأمريكي موطن ثقة الشعب الأمريكي ولن تتزعزع ثقته بعدالة قضائه وقضاته وبخاصة في ظل الصراع الحضاري.

ومن الخير لنا أن ندفع بالتي هي أحسن لنستل السخائم ونستدر العواطف ثم ليكن بعد ذلك ما يكون.

عِلْمانيٌ يَنْقِمُ من أُغَيلمتها الأحداث .. ! (١)

الصراع مع المصطلحات الغربية ذات المساس بالحيوات: الدينية والسياسية والاجتماعية بكل مستوياتها ومفاهيمها ومجالاتها كالعلمانية العلمية والإجرائية والحداثة الفكرية الانقطاعية وسائر المستجدات الفكرية والفلسفية والاقتصادية لا يمكن أن يؤدي إلى نتائج ولا إلى وفاق أو تعايش أو تعاذر ما لم يكن أطرافه على علم عميق بتأريخ المذاهب وجذورها ومصادرها ومراجعها.

والصراع إما أن يكون بين ذوي مرجعية واحدة ومناهج وآليات مختلفة، أو يكون بين ذوي مرجعيات مختلفة ومناهج وآليات مختلفة - أيضاً -. وما لم يستشعر المتصارعون هذا التفاوت يقودهم الصراع إلى الصدام والتفاني، حتى يَدُقُّون بينهم عِطْر مِنْشَمِ - كما يقول (زهير ابن أبي سلمى).

وحين لا تُجلي كل فئة انتماءها الحضاري ومنْزَعها العقدي، ثم تَأْطر نفسها في ظله محترمة مشاعر الآخرين، مبلغة رؤيتها دون المساس برؤية من سواها يتحول الصراع إلى لجاجة ولجج وملاعب جِنَّةٍ، وهو ما نشاهده ونتأذى منه في مشاهد الفكر والسياسة ولا يتولى كبره إلا الأحداث غير المجربين الذين يقفزون من الحَصْرَمَةِ إلى التَّزبُّب، ولقد صدق من لا ينطق عن الهوى حين قال: «**هلاك أمتي على يد أغيلمة من قريش**».

فالأغيلمة الأحداث مَظَنَّة كل شَر، وليس شرطاً أن يكون الأغيلمة أحداث السِّن، فكم من أُشيمط يخدع نفسه ويظل متصابياً، وكم هو الفرق بينهم وبين مقصود الشاعرة:

غــــلامٌ إذا هـــــزَّ القنـــــاة ثناهـــــا

والأحداث في كل عصر مرتع المفسدين في الأرض، ذلك أنهم يفتقرون إلى المعرفة والتجربة والعقل، ومتى تقحموا الحجج بالعواطف الجياشة والمثاليات المتعالية على الواقع هلكوا وأهلكوا.

والمتابع للحراك الفكري عبر مسارحه وقنواته يروعه الخلل الفكري ويخيفه طيش السهام ويرتاب من مبادرة الرويبضات، ولقد حذر العارفون من كلام الرويبضة.

والدرك الأسفل من الهوان الذي بلغه الأحداث لا مزيد عليه، وهو ما حمل بعض أساطين (العلمانية) على البراءة ممن ألقوها في التهلكة.

والعلماني العتيد الذي نسْتَشْهِده على تجاوزات من يشاركونه العلمنة ويخالفونه في الإجراء (حسن العلوي) وهو الحفي بالعلمانية، الفَرِقُ بين الصدام غير المحسوب، الراغب في التعايش والتعاذر، والمعروف عنه في ظل هذه التحولات:

-تشيعه الآخذ بشغاف قلبه.

-تعلمنه الآخذ بجوامع كلمه.

-بعثيته الآخذة بمقاصد قوله.

وجماع ذلك تلونه الجرباوي الذي يمر به على جيف المطامع، وإذ يَجْعل من قلمه - في بادئ أمره - صدى لـ(صدام حسين) ويُسَخِّر مهنيته الصحفية للحداء في المقدمة والاستحثاث في الساقة فإنه لم يكن كصاحب (الناصرية) (محمد حسنين هيكل) الذي أمسك بيمينه الرِّشاء، وبشماله الطَّيْ حتى إذا انفلتت إحداهما تداركته الأخرى، بل ألقى بيضه كله في سلَّة واحدة فخسر الدنيا والآخرة، وعاد يَشْري نفسه ابتغاء عيش الكفاف.

---

(١) تاريخ المقال: ١٦/ ١٠/ ٢٠٠٧

هذا الشِّيعي العلماني البعثي يلح في تبرئة نفسه مما اقترفته ناشئة السوء المعاصرة، وإذ زكى نفسه وهو كما هو، فكيف يتصور المتابع قعر الخطيئة الذي هوى فيه من تبرأ منهم من أغيلمة العلمانية كما يسميهم.

لقد مارس البوح بقلمه في كتابه: (عمر والتشيع) وبلسانه في برنامج (إضاءات)، وما كانت براءته تلك خاصة لموعدة وعد بها ولا لثمن أسال لعابه، ولا لخوف ألجأه إلى التقية وإن كان بعض قوله كإيمان فرعون حين أدركه الغرق، ولكنه في إنكاره وتنكره صدق القوم وإن كان كاذباً، والمشهد بحاجة إلى قلم مقتدر يفككه كما فعل مواطنه (سيار الجمل) الذي برع في تفكيك (هيكل).

فالذين تعمدوا تضليل الرأي العام وامتلكوا القدرة ومُكنوا من وسائل الإعلام بحاجة إلى من يعريهم بعد جزْرِ المدِّ عنهم وهلاك أسيادهم وأرباب نعمتهم.

وسبب براءة (العلوي) من عقبه يتعلق بجرءتهم على الثوابت وتدنيس المقدس وأنسنة كل شيء وإخضاعه للمساءلة، والله ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾، وما كان متقياً يوم أن كان عرَّاف (البعث).

وهو إذ يصر على علمانيته، يؤكد احترامه للمقدس ولثوابت الأمة الإسلامية على حد فهمه وتصوره للمقدس وللثوابت، وتحرجه لا يشفع له، ولا يخلصه من إصْرِه والأغلال التي كانت عليه ولكنه ببراءته يُعرّي أولئك الأحداث الذين يتصورون (العلمانية) لا تتحقق إلا بمحاربة الله ورسوله والمجاهرة بالنيل من مقدسات الأمة واستثارة الرأي العام وخلخلة الوحدة الفكرية للأمة، وقد تكون براءته إشفاقاً على علمانيته السياسية بوصفها إجراء مؤسساتياً وعلمانيته العلمية بوصفها عقيدة معرفية.

وعلى أي تصور فإن الشاهد من الأهل لا يحتاج إلى تزكية، لقد كشف عن (علمانية) استفزازية تعلق بها فارغون لا خلاق لهم، أسرفوا على أنفسهم وعلى مجتمعاتهم المحافظة، والقابلة للتجديد الموزون والمتوازن وتحديهم للمشاعر ودفعهم العنيف للمجتمع إلى بؤر التوتر مَرَدُّه تعقب كل ما هو إسلامي، والاستماتة في استدراج المرأة لتلحق بالمتبرجات تبرج الجاهلية الأولى الكاسيات العاريات المائلات المميلات، إذ ما سمعناهم ولا رأيناهم ينقمون على المجتمع الذي دفع بالمرأة إلى خارج المنزل دون شرط ولا ضابط، وما من عاقل يمنع من تعلم المرأة وعملها ومشاطرتها في صنع الحضارة والمدنية ومشاركتها للرجال عند قيام الحاجة وأمن الاختلاط على حد ﴿لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ فصدور الرُّعاة لتفادي الاختلاط، وشيخوخة الأب تعني قيام الحاجة، وعمل المرأة في بعض البلاد الإسلامية لا تؤمن معه الفتنة.

و(العلمانية) شمطاء شاب وليدها، ولم تكن كما يتداولها الرجال الجوف من محدثاتهم، إذ المتابع لهم يظنها مبادرة من عند أنفسهم. ولهذا فالطفح الصحفي الذي يتخافتون فيه حيناً ويجاهرون به حيناً آخر يوحي بأنهم أهل العلمانية وخاصتها، وما هم إلا كالمتَرَدِّية والنطيحة يتخللون بألسنتهم في نفايات الآخر، ولسنا بصدد الحديث عن (العلمانية) مفهوماً وتاريخاً وممارسة، فذلك مطروح في طريق المعارف يعرفه المتخصص والمثقف والمبتدئ، وما سنقوله لو أعدنا القول عنها سيكون من باب المعار أو المعاد، وما نود تلافيه لكيلا نصيب أقواماً بجهالة التفريق بين علمانية الفكر وعلمانية الإجراء، بمعنى أن نفرّق بين عزل الحياة عن الدين وعزل السياسة عن الدين على حد مقولة: (لا سياسة في الدين ولا دين في السياسة) وأن نفرق بين (الحكومة الدِينيَّة) و(الحكومة المدنيّة) ومفهوم الحكومتين وفق سياقات مختلفة فـ(ولاية الفقيه) عن الشيعة

تختلف عن (الحكومة المدنية)، و(الحكومة المدنية) مصطلح مراوغ كأي مصطلح حمَّال قد تختلف في كثير من مفهوماتها عن (الحكومة العلمانية) والإجمال والتعميم أربك المشاهد كلها وأقام العداوات وأصاب أقواماً بجهالة، فمن جنح إلى مستوى (ولاية المدنية)، بمفهومها العلماني فقد ولَّى وجهه شطر التفريط، والوسطية أن يكون الحكم كله لله من خلال مؤسسات مدنية.

إن صراع الأجنحة يتصاعد بغياب المفاهيم السليمة لكل رؤية، ولو أقبل الناصحون إلى كلمة سواء لكان بالإمكان تفادي كثير من نقاط الاختلاف الوهمية.

إن الفكر السياسي الإسلامي واسع الأرجاء بحيث يتسع لكل المستجدات، إذ لا يمانع من التوسع في المؤسسات المدنية وتجديد الإجراءات، ولكنه يرفض تجاهل المقاصد والغايات الإسلامية، والتصدي لخطاب الأسلمة جهل بإمكانيات الفكر السياسي الإسلامي، وقدرته على استيعاب المستجد السياسي.

و(العلوي) لا يُحسُّ بالمساس إلا من أولئك الأحداث الذين يَسْتبقون الأضواء بإثارة الرأي العام، وإن شاركوه الهمَّ والهوى، والإسلاميون الذين يَعْدلون بين العقل والنقل يمسهم الأذى من إسلاميين عقلانيين يظنون أن إقالة العثرة بالمسايرة والمداهنة وإجهاض النصوص المحكمة والتوسع في مقتضيات المقاصد والمصالح، ومن مستغربين استولت عليهم نوازع الغرب وحضارته، وهم العلمانيون والماركسيون، فاليسار الإسلامي يواطئ الماركسية، واليمين الإسلامي يواطئ العلمانية، والذين يلتمسون نور الله من شجرة زيتونة لا شرقية ولا غربية يمكنون النص والعقل من تحقيق المقاصد الإسلامية واستثمار سائر المستجدات فلا يجمدون فيفوتهم الركب ولا يندفعون فيمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرَّميَّة.

(الدبلوماسية) صنو السياسة .. ؟[١]

الاختلاف في تحديد المفاهيم مقتضى فكري، والمختلفون إما أن تكون مرجعيتهم نصية قطعية الدلالة والثبوت، وهنا لا يخرج الاختلاف عن ثنائية: الخطأ والصواب القطعيين، وإما أن تكون مرجعيتهم نصية احتمالية الدلالة والثبوت، وهنا يكونون في مجال الاجتهاد المعتبر بضوابطه وشروطه، ولا يوصف المخالف بالجهل ولا بالخطأ، لأن الاختلاف يكون من باب التنوع، والعلماء يدركون تلك الفسح، ولا يغمط أحدهم حق الآخر، ولا يسمح أحد لنفسه باحتكار الحقيقة، والنصوص إما أن تكون مغلقة بحيث لا يكون فيها مجال للاجتهاد كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ بعد التفصيل، وإما أن تكون مفتوحة حمّالة، وهي مرتع الأفكار ومجال الاختلاف، وكل من تصور نفسه في هذا المجال محتكراً للحقيقة فهو جاهل يحتاج إلى من يُعرِّفه بنفسه، وما أثار التنازع إلا هذا الصنف من الناس، وقد يفعل التعصب فعله في اتباع الهوى، وقد يكون بعض الأطراف مدخولاً يستغل المواقف للتنفيس عن معاناته، وكل هذه العوارض كالغثاء تذهب جُفاء، ولا يمكث في المشاهد إلا ما ينفع الناس، والخاسر من يتخذ إلهه هواه، وما تزيده تجاوزاته إلا خساراً، والمحظوظ من قال كلمته التي يعتقد ثم مضى لسبيله ينشد الحق لأنه ضالته، والكيِّس مَن ظل في متن القضايا لا يعنيه إلا استبانة الراجح من القول حتى يقول ما قال الأئمة الأفذاذ:

(ما جادلت أحداً إلا تمنيت أن يجري الله الحق على لسانه) والعظماء هم الذين يبحثون عن الحق، ولا يعنيهم الانتصار.

والذين قضت الظروف أن يكونوا في عين القضايا يودون ألا يشاطرهم فيها إلا الأكفاء والأنداد في علمهم وأخلاقهم ومواقفهم فتقحُّم الفضوليين والمبتدئين والمتنفعين ينجم عنه خلافٌ يفسد للود كل قضية، وهو ما لا يريده الناصحون لثوابتهم، وما لا يلتفت إليه الممتلئون بهموم أمتهم وقضاياها، والحقيقة لا يحتكرها إلا الوحي النصي البرهاني القطعي الدلالة والثبوت، واحتكارها فيما سوى ذلك مؤشر بدائية وتسطح.

لا يَحمِلُ الحِقدَ مَن تَعلو بِهِ الرُتَبُ

وَلا يَنالُ العُلا مَن طَبعُهُ الغَضَبُ

وحين أذهب إلى أن (الدبلوماسية) عين السياسة فإن هذا لا يعني القطع الذي لا يقبل الرأي الآخر، ومن أراد أن يحرر المسائل ويؤصل للمعارف فإن عليه أن يسأل أهل الذكر وألا تأخذه العزة بالإثم لأن حسب مثل هذا النفي، والمصطلحات لا يمكن تصورها من المتداول الإعلامي، إذ لابد من الرجوع للمعاجم والموسوعات والرصد التاريخي للجذر اللغوي وتحولاته عبر التاريخ، ومن الصعوبة بمكان الإلمام بهذا إلا لمن بصَّره الله وأعانه، ومكنه من التوفر على كل المراجع المعينة على الوصول إلى المعلومة من حيث هي مجردة من إفرازات الظروف الطارئة، والذين يودون تحرير المصطلحات يأخذونها من ثلاث زوايا.

- الجذر اللغوي.
- وتاريخ الكلمة.
- والمفاهيم المتعددة للمصطلح.

---

(١) تاريخ المقال: ٢٣/ ١٠/ ٢٠٠٧

وعندما نمسك بكلمة (دبلوماسية) من حيث جذرها ودلالتها الوضعية وانتمائها اللغوي، نجد أنها كلمة منقولة إلى اللغة العربية، وليست مترجمة ولا معربة، والمفهوم في ظل النقل يعطى الكلمة مفاهيم الأصل والولادة والمنشأ، وليس كذلك الكلمة المترجمة ذلك أن الكلمة كالكائن الحي يمر بذات الأطوار.

فأما أصلها فيونانية، وتعني قبل تحويلها إلى مصطلح (حفظ الوثائق التي تتضمن الاتفاقات الخارجية) والوثيقة تعرف باسم (الدبلوما) والقائم عليها أو الخازن لها يسمى)دبلوماتي)، ثم تحولت الكلمة إلى (دبلوماسي) هذا جزء من تاريخ الكلمة، وهو جزء يؤكد أن (الدبلوماسية) تعني السياسة، وإن كان بين المصطلحين عموم وخصوص وتناوب في الدلالة، وللأصوليين مقولة في بعض الكلمات المترادفة، مثل (الفقر) و(المسكنة) و(الحمد) و(الشكر) يقولون: إذا اجتمعا تفرقا، وإذا تفرقا اجتمعا، بمعنى أن الدلالة عند الاجتماع تتنوع.

و(السياسة) بوصفها ظاهرة مجتمعية ولدت مع التجمع الإنساني، ونمت وتحولت وفق نمو الحضارات وتحولاتها، وفي ظل هذا العمق التاريخي لا يمكن تعريفها بقول لا اجتهاد معه ولا اختلاف حوله ومن تصور أنه باسترفاده لواحد من المراجع أو التعاريف المطروحة في الطريق قد حسم الخلاف فقد تاه في الوهم، والقطعيون هم الذين لا يتوفرون على المراجع من قواميس وموسوعات وكتب لا حصر لها، وأيسر شيء استدعاء واحد من التعاريف، ولكن الصعوبة في معرفة المنطلقات وتحليل الرؤى على ضوئها تحليلاً علمياً، وكتب المقدمات لعلم السياسة والمداخل تؤكد على استحضار التصور والحيز والحد والموضوع، وحين يكون الإنسان كائناً سياسياً فإن هذه الكينونة تشكل عقبة في سبيل الخلوص من اضطراب المفهوم وعند التنازع حول المفهوم بين كل الأطراف يكون (الحد) و(الموضوع) سبيلاً للخلوص من الخلاف، ولن يكون التعريف جامعاً مانعاً حتى يمتاز المفهوم من بين مختلف المفاهيم المجانسة وإذ يكون لكل ظاهرة جذر لغوي فإنه يشكل النواة التي ينطلق منها، وكلمة (سياسة) كلمة عربية خالصة.

وتجاوز الجذر إلى المقتضى المصطلحي يدخل المتعقب في متاهات ومجمل ما وقفت عليه من التعاريف يدور حول (الدولة) و(السلطة) ويمضي الدكتور (عبد المعطي محمد عساف) في كتابه (مقدمة إلى علم السياسة) إلى (أنها التوزيع السلطوي للقيم) أي المصالح، والممتلئون معرفة وخبرة لا يزجون أنفسهم في الحدية فيما مجاله الاجتهاد وإنما يجنحون إلى التساؤل، ويؤمنون إلى المراد، بحيث يستنبطه المتلهفون للمعرفة بطريقة عفوية وقراءة مجمل الآراء التي ساقها (هارولد نيكولسون) في كتابه (الدبلوماسية) وبخاصة الباب الثاني (تطور النظرية الدبلوماسية) وكتاب (الدبلوماسية والسلم) ل(موات) وكتاب (الدليل في الممارسة الدبلوماسية) ل(أرنست ساتو) تؤكد تبادل المفاهيم بين المصطلحين، فـ(الدبلوماسية) تتصل اتصالاً وثيقاً بالسياسة وخصوصاً أن السياسة كما يقول (بسمارك) (فن الممكن) يقول: (نيكولسون) تعليقاً على مقولة (بسمارك):

وهذا قول يصح على (الدبلوماسية) ومن ثم فليس هناك فرق بين المصطلحين، فـ(وزير الخارجية) يسهم في إعداد الخطة السياسية، وهو ومن دونه من موظفي وزارته يمارسون تحريك هذه الخطة في الميدان الدولي، إن هناك رجل حكم وسياسياً و(دبلوماسياً) والثلاثة تجمعهم مهمتان: (التخطيط) و(التنفيذ) وكلهم يشتركون في العمليتين ولا يفترقون إلا لحظة الممارسة التطبيقية وإذ تدور السياسة في مجالين: الداخلية والخارجية فإن (الدبلوماسية) من حيث هي ممارسة تنفيذية بواسطة رجال السياسة تكون

عين السياسة، ولا يفرق بينهما إلا البعيد عن علم السياسة، ونظرية (الدبلوماسية التكاملية) تستوعب من المهمات ما تستوعبه الثقافة.

يقول مترجم كتاب (الدبلوماسية):

(اتسع مجرى (الدبلوماسية) بعد أن كان ينطلق في واد ضيق محصور وسياسي بحت خرج وامتد إلى ميادين واسعة أخرى غير سياسية، واحتضن جميع نواحي النشاط البشري).

إلى أن يقول: (ولقد طغت (الدبلوماسية) حتى أصبح من النادر أن تجد ميداناً من الميادين البشرية في ظروف معينة لا يدخل تحت إشرافها) ومع أن القول في مثل ذلك من تحصيل الحاصل إلا أن المرء يضطر إلى مثله، والذي يوقع في الوهم أن البعض يفرق بين السياسة الداخلية والخارجية، بحيث يكون لكل سياسة مناط خاص، وإشكالية هذا الصنف كما يقول (د. عساف): (أنهم يتعاملون معها وكأنها ليست جزءاً من أجزاء الظاهرة السياسية التي لا تتجزأ).

ومن رابه الأمر في تداخل المصطلحين وتوحدهما فليقرأ الباب الثالث من كتاب (مقدمة إلى علم السياسة) للدكتور (عبد المعطي محمد عساف)، وهذا الفصل معقود لإجهاض فكرة الفصل بين السياسة و(الدبلوماسية) حتى لقد قال: (نبدي تحفظنا) وربما استهجاننا حول هذا الأمر.

وقد ساق أطرافاً من الحيثيات التي تجعل السياسة عين (الدبلوماسية) بحيث لا يكون لكل مصطلح مفردات لا تكون للمصطلح الآخر.

وَفي تَعَبٍ مَنْ يَحْسُدُ الشَّمْسَ ضَوْءَهَا .. !(١)

رحم الله أبا الطيب المتنبي، لقد قتله لسانه، وجنى عليه تألُّقه الذي أحرق من حَوْله من الشعراء في بلاط (سيف الدولة)، وكانت عاطفته الجارفة وجنون العظمة عاملي تحطيم لكبريائه التي لم تُحْتمل مِن قبل ممدوحيه وبصرف النظر عن أخلاقياته فلقد خلد شعره وشاع؛ لأنَّه يُجمْجِم عما في نفوس الملتاعين والمتأوهين، ويُسْعِفُ ذوي المواقف الحرجة، ولأنه شعرٌ صارخُ الواقعية يحكي حيواتٍ لا تختلف عن حَيواتٍ تَتَوارث الوجود.

وكم لقي هذا التفوق وذلك التألُّق من الحساد، ولم ينفعه قوله:

أنا صخرة الوادي إذا ما زُوحمت

وإذا نطقت فإنني الجوزاء

والذين درسوا شعره بمنهج النقد النفسي كشفوا عن خبيئات لو استثمرها علماء الاجتماع لكان خيراً لهم؛ فهو أنموذج الفعل وردّ الفعل الصارخين.

وما دُبِّر له من مكائد حَرَمَتْه بلاط مثله الأعلى (سيف الدولة)، وبترحُّله فقد البلاطُ أندى الشعراء صوتاً وأغْنَاهُم شِعراً.

وبين الوشاية والحسد والحقد والضغائن من جهة، وجنون العظمة والحساسية المفرطة من جهة أخرى، ضاع أبو الطيب وضاعت معه ثروةٌ شعرية لا تُقدَّر بثمن، وجَلَدُ الحسَّاد حَمَلَه على الرحيل وهو يردِّد:

إذا ترحَّلْت عن قومٍ وقد قدروا

ألا تفارقهم فالراحلون هُمُ

ولن نمضي معه في مفارقته المشؤومة وانكساراته المتلاحقة وانتصار الخصوم الذين لم يسدّوا المكان الذي سدَّه، وإن كان في ذلك عِبرٌ وفوائد؛ إذ لم نكن أكثر من مُسْتَشْهدين بمصائر الشاعر ومضامين شعره.

لقد خرج وفي أمله أن يحقِّق في ظل (كافور) ما يغيظ به أعداءه وحسَّاده في بلاط (سيف الدولة)، ولكنه أصيب بخيبة أمل حطَّمت كبرياءه، وقضت على آماله العريضة، وزادت من تمرُّده. ومثلما خرج من بلاط سيف الدولة ب(وآحَرَّ قلباه...) خرج من بلاط كافور ب(عِيدٌ بأية حال عُدْتَ...). ورحلاته الفاشلة تمخضت عن قصائد عصماء سهر الخلق جرَّاها واختصموا، وليس هناك شاعر يُسْعف المتحدثين بالأمثال والحكم والشواهد كالمتنبي، كما أنه ليس هناك شاعر تهافت على شعره وعلى حياته الحافلة بالمغامرات العلماء والمؤرخون والحكواتيون مثلما فعلوا مع أبي الطيب، وسيظلّ شعره وستظل حياته الغرائبية نصاً مفتوحاً قابلاً لكل التأويلات.

والمتعقب للواقع المعاش يجد أن ظاهرة الحسد والحقد بادية للعيان على كل المستويات، ولقد قيل - وأظنه ل(ابن تيمية): (لا يخلو جَسَدٌ من حَسَد). والعقلاء والمجرِّبون لا يستنكرون ولا يستغربون ما يُلاقون من أذيّة تحاول المساس بسمعتهم، ولو أن المتميزين بأخلاقهم وحسن معشرهم أو البارزين بكرمهم ونبل شمائلهم أو المقيدين أنفسهم بالصدق والعدل، أو الحاملين لها على أقوم الطرق؛ لو أن هؤلاء وجدوا مناصرة جماعية وتأييداً مطلقاً وإشادة عامة لما كان لنجاحاتهم لذة، ولما كانت له مثوبة مضاعفة:

---

(١) تاريخ المقال: ٦/ ١١/ ٢٠٠٧

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾. إن لذة الانتصار في المغالبة وفي إحباط القاعدين للعاملين كل مرصد.

والحسد والتصدي للعاملين ليس دولةً بين الأفراد، وإنما يمسّ كل عمل على كل المستويات وفي كل المجالات؛ على مستوى الدول والمذاهب والعقائد، وكل ذي نعمة محسود، وليس من المثير أن يقوم الصدام بين الملل والنحل والأعراق والدول؛ فتلك مواجهات قد يكون لها ما يبرِّرها، ولكن المثير ألا يكون المحسود مظنَّة الحسد لاعتزاله القوم وما يعلمون. والتصدي لذوي الفضل لم يكن وليد عصر من العصور، وليس وقفاً على فئة من الناس؛ إذ في كل عصر ينجم المُوهِنُون والمثبِّطون والحساد، وما أحد من المجربين شغل نفسه بالتماس الأسباب لعلمهم أن الكثير من التصدي والتحدي قد تحرِّكه الأضغان.

ولمَّا سُئِلَتْ (عائشة) رضي الله عنها عن قوم يسبُّون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم دون أي سبب مقنع، قالت: لعل الله أعدَّ لهم نُزُلاً في الجنة لم يبلغوه بأعمالهم، فسلَّط الله عليهم مَن يسبُّهم ليأخذ من حسناتهم لهم فيصلوا إلى ما أعدَّ الله لهم. ولو أن إنساناً في الوجود سلم من الإيذاء والإشاعات المُغرضة لسلم رسول الله ﷺ وآل بيته وكبار الصحابة الذين أبلوا بلاءً حسناً في نصرة الدين. لقد أُوذي الرسول ﷺ بنفسه، وأُشيعت قالة السوء عن أحب نسائه إليه، وأُوذي الصحابة، وقُتل من الخلفاء الراشدين ثلاثة، ومن أثارته المعارضة أو ثبَّطته قالة السوء فهو الخاسر، ومن زادته إيماناً وإصراراً حقَّق هدفه ودمَّر مناوئيه. وفي أساطير بني إسرائيل (أن موسى عليه السلام قال لربه: يا رب، كفَّ ألسنة الناس عني. قال: ما كففْتُها عنِّي، فكيف أكفُّها عنك؟!). ولقد بلغ الحقد والضغينة والسَّفه باليهود أن قالوا: ﴿يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾.

وحتى الذين أشاعوا الإفك عرفهم الرسول ونزل فيهم قرآن يُتلى إلى يوم القيامة، ومع ذلك وكل أمرهم إلى الله، وتقبَّل الافتراء المؤلم بقلب المؤمن الصابر المحتسب، وما أقام حد القذف إلا على ثلاثة من الصحابة تطهيراً لهم. وكذلك كان موقفه من المتخلفين عن غزوة تبوك. ولقد تضمنت تلك الأحداث دروساً وعبراً. وما جاء قصص القرآن إلا تثبيتاً لفؤاد الرسول ﷺ.

والله سبحانه قسَّم الأرزاق والأخلاق والوجاهات، فمن الناس مَن لا يعمل ويسوؤه أن يعمل الآخرون، ومن ثم تراه يترصَّد لهم ويضع العراقيل في طريقهم، ولا يألو جهداً في سبيل النيل من ذواتهم واتّهامهم في نواياهم التي لا يعلمها إلا الله؛ إذ هو وحده المحصِّل لما في الصدور. وقراءة سير أعلام النبلاء وكتب الطبقات والمناقب تنبئ عن تعدّيات وتصدّيات أضاعت الوقت والجهد واحتشام العلماء. ذلك أن المجارات في الأخلاق الدنيئة تفقد الوقار، وتساوي بين الأطراف، وشدة الصرعة ليست في قوة الأبدان، ولكنها في كبح جماح الغضب. وعلى العقلاء العاملين أن يأخذوا ما يُقال على سبيل الجدّ، وأن يحاسبوا أنفسهم أمام كل اتهام، فإن كان فيهم ما قيل أو بعضه فليقبلوه بقبول حسن، وليكافئوا من أهدى لهم نواقصهم ولو بالدعاء لهم بظهر الغيب، وإن لم يكن فيهم ما قيل فليتواصوا بالحق وليتواصوا بالصبر، وليستعينوا بالصبر والصلاة، وليعرفوا أن الله لن يَتِرَهم عملهم، ثم لينظروا في شأن ما قيل، فإن كان له تأثير في سمعتهم أو عملهم فعليهم التصدي؛ لأن ذلك داخل في باب الظلم والضيم:

ولا يقيم على ضيم يُراد به

إلا الأذلاّن: عيْـــرُ الحــــــيِّ والوتــــــد

والله لا يحبّ الجهر بالسوء إلا من ظلم، مع أن العفو أقرب للتقوى. ولكن أين المحتسبون الصابرون كما صبر أولوا العزم من الرسل؟! وإذا شهد الناس بالخير وتقبلوا الفعل والقول بالقبول الحسن فإن هذا الصنف لا يضرُّهم اعتراض معترض، ولا شنآن شانئ، وقد يكون ذلك من صالحهم:

لـولا اشـتعال النـار فيمـا جـاورت
مــا كــان يُعـرف طِيــبُ عَـرْف العــود

وعلى المُبتلَى بهذا الصنف من الناس المغرمين بالسباب أن يتذكر قول الشاعر:

وكـم علـى الأرض مـن خضـراءَ مورقـــــــــــــــــــــــــــــة
ولــــيس يُــــرْجَم إلا مُثْمــــر الشَّــــجر

لقد تمخضت مثل هذه الممارسات عن فوائد لا يقدِّرها قدرها إلا المنتفعون، و(ربّ ضارة نافعة)، وقد تكون صحة الأبدان بالعلل، وكم شكا إليَّ البعض من ذوي قرابة يؤذونه وأشقياء يشاغبونه وما بدر منه ما يؤذيهم ولا ما يسيء إليهم، ولقد ذكَّرْتُ هؤلاء بقول الرسول ﷺ للذي جاء يشتكي أقاربه الذين يحسن إليهم ويسيؤون إليه: (فَإِنَّمَا تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ). ولكن أين الصابرون المحتسبون الذين يَعْفون عن المسيء، بل يحسنون إليه عسى أن يؤنِّبه ضميره ويجعل ممَّن يكيد لهم قدوة حسنة؟!

ولكيلا نقع في الإطلاقات المعمّمة نقول: إنه ليس كل تصدٍّ واعتراض محسوباً على الحسد والحقد، كما أن أي تواصل مع الغرب لا يكون مبعثه الموالاة المنهي عنها، ولا تواصلهم معنا محسوباً على الغزو والتآمر، فلا يجوز الإطلاق، ولا يحسن التعميم، ومن كان فعله يتعدى إلى الناس ويؤثر في أشيائهم وأفكارهم فإن عليه أن يتوقع الحساب العسير، وبخاصة أن الأمة تتعرض لاضطرابات فكرية واجتماعية وسياسية مبعثها بعض التصرفات غير السديدة. ولقد قال أحد العلماء الأفذاذ، وأظنّه الإمام (مالك) رحمه الله: (ما من أحد إلا رادّ ومردود عليه إلا صاحب هذا القبر)، وأشار إلى قبر الرسول صلى الله عليه وسلم.

وإذا كان الصراع إكسير الحياة فإنه سيظلّ قائماً، والعبرة ليست في الظاهرة، ولكنها في الدوافع والمثيرات والأسباب المحرضة، وكم هو الفرق بين جدل الأقران وتلاسن السفهاء، ومتى وجد العاقل نفسه مضطراً إلى التدخل فإن عليه أن يأطر نفسه في متن القضايا، وأن يعزِّز رأيه بالحجة البالغة والدليل البرهاني والقول الراجح، وألا يباهي بنفسه ولا بمبلغه من العلم، وأن يعرف أنه مظنَّة الخطأ كما كان غيره كذلك، ورحم الله مَن شغلته عيوبه عن عيوب الناس.

والأخسرون أعمالاً هم أولئك الذين لا يجدون لذَّتهم إلا حيث يكون النهش في أعراض الآخرين، ومَن دخل على المواقع أصيب بالذهول؛ فالنَّيْل من الأعيان دون أي مبرِّر مؤشر فساد أخلاقي لا يليق بأمة يجب أن تكون قدوة في ممارساتها؛ إذ ما حقَّق الإسلام انتشاره بالقوة، ولكنه حقَّقه بالقدوة الحسنة والقول السديد، ومهما طاشت السهام في تصوُّر الظواهر فإن لكل نبأ مُسْتَقَرّ يحسم الخلاف، ولكن بعد فوات الأوان.

غطرسة القراءة وقراءة الغطرسة .. ! (١) [(١)]

لا أحد يبرح الحياة دون أن يترك في ذاكرة الزمن شيئاً (ما) هو في النهاية محصلة قراءة (ما) لفعل أو تصور (ما) يكون الإنسان بين جنسه بِبَدَنه شامخاً أو قميئاً ويكون بينهم في خَبره حسناً أو سيئاً، إذ ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ وارتهان الآخرة حق لا عوج فيه، أما ارتهان الحياة الدنيا فذو احتمالات شتى، وليس شرطاً أن يكون الغياب بالبدن ناتج الحضور بكل دقة فالقراءة وسيط غير مؤتمن في أكثر الأحوال. هذان الوضعان: حضور القائم، وحضور القيمة، يكونان مثار ارتياح أو مبعث اشمئزاز، والمعهود أو المدوَّن يشكلان الأثر الحسن أو السيئ على مستوى الأفراد والجماعات والدول والأحزاب والمذاهب والملل والنحل، وهو قدر مقدور لا ينفك منه أحد، والعظماء حين تجري قضاياهم الأهم في الاتجاه المعاكس، يكون التاريخ أكثر قسوة في رصد الأحداث، ويكون المحايلون والأنداد أكثر غطرسة في قراءتها، ولربما تمر الحضارات بلحظات زيف وتزوير تُحرَّف فيها الوثائق وتقلب الحقائق، فيكون الباطل حقّاً والحق باطلاً، وهنا لابد من إعادة القراءة المسؤولة لإجهاض غطرسة القراءة.

وقراءة الحدث أو المُحْدِث من لدن الفرقاء لن تكون بريئة بالقدر الكافي، سواء كان المقروء ناجحاً أو مخفقاً، وأيُّ قراءةٍ إلزامية أو تطوعية لا تكون بمعزل عن خلفيات وعواطف وأنساق خارج سياق الحدث، تحجب الرؤية وتوجِّه الرؤى، ومن الصعوبة بمكان أن يملك القارئ للأشياء والأناسيِّ استقلالاً يتوفر على الحياد الإيجابي وكل مفكر يقص أثر الأشياء لا يرصدها من درجة الصفر، وقراءة (كانط) في جدله لأنواع العقول، وقراءة (بَارْت) في تفكيره بدرجة الصفر في الكتابة، وقراءة (الجابري) في طلال (كانط) للعقل العربي، وحتى قراءة (الطرابيشي) للجابري تؤكد العجز القانط عن التخلي عن الخلفيات المعرفية والثقافية و(الأيدولوجية) والعاطفية، ومن ثم فلا إمكانية للاستقلال، ومتى استطاع القارئ مجافاة الانحياز السلبي أمكنت مقاربة الحياد، وإن كانت هذه الخلال حلماً من الأحلام الحميدة والأماني السعيدة التي تدفع بمرارة الواقع إلى حين.

على أن اختلاف المفكر مع من حوله لا يحال بالضرورة إلى الرغبة في الانشقاق، ولا يكون مجال زكاء وذكاء، وقد لا يجوز وصف القراءة بالغطرسة، والعدل أن يقوم الاختلاف بمعزل عن الثقة والتزكية، حتى يبرهن عن الإمكانيات والنوايا والمقاصد، وما قتل الشك السلبي إلا الشك الباحث عن الحقيقة، فالتطعيم ضد الأوبئة حقنٌ من ذات الجراثيم الموهنة، والخوف من الدخول على القضايا والوقوعات بنوايا مبيتة، ذلك أن هذا النوع من القراء يحرفون الكلم من بعد مواضعه، وقراءة ما تحت السطور لا تخول القارئ تقويل الآخرين ما لم يقولوا، وليس من الضرورة أن تكون القوة مبحث الغطرسة، وهنا يثور تساؤل مهم:

-مَنْ يصنع التاريخ الفاعل أم الدال؟

-وهل صحيح ما يقال: إن التاريخ يكتبه المنتصر؟

وفوق هذا وذاك: أيُّ الذاكرتين أقوى: ذاكرة التاريخ أم ذاكرة الشعر بوصفه تعبيراً عن مشاعر فردية عاطفية إزاء فعل فردي أو مؤسساتي، وهو بمثابة الإعلام الموجه.

(المتنبي) قرأ (كافور الإخشيدي) وقرأ (سيف الدولة الحمداني) والتاريخ قرأهما، والفرق واضح بين الرصد والتعبير.

-فهل تلقى الناس ذاكرة التاريخ أم ذاكرة الشعر؟

---

(١) تاريخ المقال: ١٣/ ١١/ ٢٠٠٧

لقد ظُلم كافورٌ في ذاكرة الشعر، وأنصف من ذاكرة التاريخ ولكن الناس استدبروا ذاكرة التاريخ، واستقبلوا ذاكرة الشعر لأنها تمثل غطرسة القراءة، والإعلام بمثابة الشعر إنه الأقوى في صناعة الأذهان، وهو المتحكم الذي لا يقدر التاريخ على تعقب حكمه أو كبح جماحه، وهو بحق (السامري) الذي أضل قومه وما هدى، وذلك مكمن الغطرسة بكل تشكلاتها.

إن المؤسسات التقليدية: (البيت) و(المدرسة) و(المسجد) تسهم في صناعة الذهنيات، ولكنها لم تعد قادرة على الصمود أمام تيار الإعلام بوصفه الممثل الأقوى لغطرسة القراءة، والصهيونية العالمية أحكمت قبضتها على المال والأعمال والإعلام فكان أن هيمنت على الذاكرة العالمية، وفي عنف إرهابها أرغمته على شطب اسمها من قوائم الإرهاب بكل أشكاله، وغطرسة القراءة من تلك الأشكال، فمتى يستطيع العالم الثالث ومن ضمنه العالم الإسلامي والعربي قراءة الغطرسة وتفكيك بِنْيتها، وتقديم قراءة حقيقية وواقعية تقي من إصابة الآخرين بجهالة؟

وإزاء هذا التزييف المكشوف المعزز بكل ألوان الغطرسة فإن ثمة مسؤولية تقع على عاتق أرباب القلم واللسان الصارمين بقدرٍ لا يقل عن مسؤولية أرباب السلطة المهيبة، أو قل: إن (السلطان والمفكر) يقتسمان المسؤولية لكشف الزيف وتصحيح المفاهيم وقمع غطرسة القراءة، إذ لا مجال للمفاضلة بين قلم الكاتب وسوط الحاكم، فالحاجة -بوصفها أم الاختراع- هي وحدها التي تحدد الأولوية والأهمية في الفعل والفاعل، وكيف لا تتكافأ المهمات وفي الأثر: (إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن).

وإذا كان الناس يضيقون ذرعاً من غطرسة القوة فإنهم أشد استياء من غطرسة القراءة، والذين يتكئون على ترسانتهم البلاغية كالذين يتكئون على ترسانتهم العسكرية، بل أكاد أجزم بأن فعل الترسانة البلاغية أشد خطراً من سائر القوى المتغطرسة و(في البدء كانت الكلمة): (اقرأ)، وإذا كانت المعدات تحركها الطاقة فإن الأجسام تحركها الكلمة. وخلل الوحدة الفكرية أخطر من خلل الوحدة الإقليمية، وما من قارئ إلا هو آخذ بناصية المقروء، وأهم شيء استبانة غطرسة القراءة، تفادياً للوقوع في مرادها، واللعب السياسية القاتلة لا يقدم بين يدي نجواها إلا هذا اللون من القراءات المضللة. وليست غطرسة القراءة وقفاً على المشهد السياسي، كما أنها لم تكن حدثاً من الأحداث المعاصرة لقد واكبت الإنسانية ونسلت من تحت عباءتها الملل والنحل والأهواء المؤلهة، وكيف لا تكون خدن الإنسانية و(إبليس) أخرج أبوينا من الجنة عبر الحوار الذي هو في النهاية ناتج قراءة متغطرسة.

إن هناك معادلة بين القول والفعل، وهذا مكمن الخطورة التي قد لا يستحضرها الأكثرون عدداً والأخسرون أعمالاً وأقوالاً، وما لا يمكن التوفر عليه في معالجة القضايا أو تسجيلها الاستقلالية التامة من سلطان الهوى والمصلحة والأنساق الثقافية المتحكمة في القراءة، وليس شرطاً ألا تتحقق الاستقلالية إلا بالمعارضة والسجال والمناكفات والمراء والنجوى الآثمة، إن الاستقلالية قناعة ذاتية، وفي الأمثال الغربية:

(لا تكون عبد اً إلا بإرادتك)، ومن رَفَضَ العبودية حقق الحرية، والحرية كما يقول الملك عبد الله: (تؤخذ ولا تعطى) ولن نمضي مع مفاهيمها المتعددة وسبل تحققها المتنوعة، وقراءة الأثر الذي بارح الحالة النفسية المطمئنة أو المتوترة إلى القول يتطلب قدرة ذهنية تمكن من تجاوز ظاهر القول إلى بواعثه، لماذا شُغِل المفكر بهذا الحدث دون غيره؟ ولماذا تناوله بهذه الطريقة؟ ولماذا ربط بين الفعل والفاعل بهذا العَنَتْ؟ أو قل: لماذا ألح على أحدهما ووقع في مأزق المفاضلة؟

وإن هناك تعديات تحمل البعض على التحول من المتن إلى الهامش بل قد يدع المتن وظلاله إلى الذوات الفاعلة، وهنا يكون تبييت القول غير المرضي للفضيلة والعدل، والخطأ في الفعل كالخطأ في التصور فالراصد لا يفي بواجبه، وهو بعد لم يستكمل متطلبات القول السديد ومحققات العدل.

غطرسة القراءة وقراءة الغطرسة .. ! (٢) [١]

وقَدَرُ المفكر المتوازن أنه قد يدفع بآرائه صوب الأفضل ثم تكون باتجاه الأسوأ، وهنا تتعقد الأمور وتحتدم المواقف، إذ نكون - والحالة تلك - أمام تاريخ التاريخ، إنَّ هناك تاريخاً للحدث وتاريخاً للتفكير فيه وقراءته ورد فعل بتغطرس، ومن ثم تكون القراءة بشقيها، بالطبع لا مجال لإدراج الفارغين من المعرفة والتجربة والأهلية في هذا النوع من القرَّاء الذين يُقَدِّرون فيسبق عليهم الكتاب فيقعون في المحذور، وما من تقدير أو تدبير إلا وله هامش من التوقعات: (ومن ذا الذي تُرضَى سجاياه كلها).

ولسْتَ بمُسْتَبْقٍ أخاً لا تَلُمَّهُ
علـى شَعَثٍ أيُّ الرجالِ المُهَذَّبُ

وكل مُهَرِّج ينسى الفضيلة في تناولاته ينساه الناس، ومزبلة التاريخ مليئة بهذه الأصناف الذين باعوا إمكانياتهم، وليس غريباً أن تحفل الحياة بهذه النوعية من المتاجرين بقدراتهم القرائية، ولقد أشرت لمفكر بحجم (روجيه جارودي) واستعداده لتوظيف قدراته وإمكانياته ومكانته لمن يدفع أكثر، وهذه النوعية لا تكون على شيء من غطرسة القراءة، إذ إن الغطرسة قيمة، ومثل هؤلاء هباء منثور لا قيمة لديهم، ولا قيمة لهم.

إن الاندفاع غير المحسوب في قراءة الأشياء والأناسي والاندفاع غير المحسوب في الفعل أو القول يؤكدانِ التجاوز إلى ما لا يمكن تحقيقه في الواقع، وتلك مؤشرات الغطرسة، ومتى غاب أو غُيِّبَ فِقْها الواقع والأولويات، ذَرَّ قرن الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق، واستفحل الفشل والهوان وكُلٌّ بِحَسْبه، فالإنسان غير الجماعة والدولة الأضعف غير الإمبراطورية الأقوى، والعوالم المتعددة بتعدد خطاباتها ومستوياتها وأفعالها تحدد قيمة القراءة وأثرها، فالحالة السياسية ليست كالحالات المواكبة لها، كالحالة الفكرية والدينية والإجرائية، أو قل: إن السلطات الثلاث ليست بإزاء الممارسات الشخصية والفئوية، ولما كان الأثر حاصلاً بمستوياته المرتبطة بذات المسؤولية فإن التفادي واجب المقتدرين عليه، إذ لا فرق بين الكلمات والأشياء فالكلمات كالرياح اللواقح وقد تكون ريحاً فيها إعصار، وبصرف النظر عن كل التأويلات البريئة أو المتلبسة، فإن المشهد يفيض بقراء يُنَكِّبون عن ذكر العواقب جانباً، وهم بهذه المغامرة يتركون من الآثار السيِّئة ما لا يتركه الفعل الخاطئ وما من أحد قرأ نفسه قبل أن يقرأ الآخرين إلا كان الأقدر على تخلية المواقع من المعوقات الإضافية، ولكن أين الثقة التي تحمل الإنسان على محاسبة ذاته قبل مساءلة الآخرين له أو مساءلته لهم؟ إن القراءات غير المحايدة تفعل فعلها في تصديع الوحدة الفكرية للأمة الواحدة، ولكيلا نركن إلى التسليم للواقع نؤكد أنه ليست هناك علاقة أزلية بين الاختلاف والاختلال، بحيث نُوجِس خيفة من الاختلاف المشروع الذي أدى إلى تحرير المسائل وتأصيل المعارف وإثراء الثقافة وتعدد الخيارات، والاختلاف حول المفاهيم واستنباط الأحكام وفق القواعد والأصول والمقاصد يجعل كل مجتهد في حِل فيما ذهب إليه، وقدوتنا في ذلك أئمة المذاهب وأساطين العلم الذين لا يتلاومون حول الاختلاف وإنما يقرأُ بعضهم بعضاً، فإن أمكن الاتفاق فَنِعِمَّا هو، وإلا ذهب كُلٌّ إلى غايته، مقدراً جهد الآخرين، محترماً رؤيتهم، مردداً:

-إن لم نتفق فلا أقل من أن نتعاذر وأن نتعايش.

---

(١) تاريخ المقال: ٢٧/ ١١/ ٢٠٠٧

والاختلاف الرَّاسي بضوابطه ومؤهلاته سبيل الوحدة الفكرية ومما لا شك فيه أن مواجهة القضايا المصيرية بأنماط من الحلول التقليدية أو إغفالها وعدم المبالاة بها، يحول التاريخ الفكري والسياسي إلى مهزلة كبرى. وكل ذلك محصل قراءات غير موفقة.

والإشكالية أن الأنماط العملية التي ينشدها حملةُ الهم الوطني والديني قد لا تكون دقيقة، إذ تخلط بين المبادئ والإجراءات، وما أكثر الذين تطيش سهامهم، ثم لا تصيب الشواخص فضلاً عن المفاصل، وميزة الجزار المجرب ليست في حدة الشفرة ولكنها في معرفة المفاصل، فالمعرفة وحدها لا تكفي لحسم المواقف الناتجة عن سوء القراءات، ولكي يكون المتنفذون ومسموعو الكلمة على الصراط السوي لا بد من عقلنة القراءة وتمكن القراء من الوعي والتجريب والحلم والأناة.

ولو تجاوزنا القراءات المحلية وما تؤول إليه من إخفاقات ذريعة وتمكين للأعداء من رقاب القضايا، لوجدنا الأمم محكومة بقراءات لا يقل ضررها عن الأفعال المبيتة، إذ الأكثر إيذاء أن تواكب غطرسة القوة غطرسة القراءة، بحيث يكون القوي المتسلط قادراً على فرض قراءة جائرة للأحداث، ومتى صيغت الأشياء بغطرسة القوة وصنعت الأفكار بغطرسة القراءة تحول الضعفاء إلى قطيع يهشه مضاعف الغطرسة، وهنا يستحيل الحصول على أدنى الحقوق من متسلط يتغنى بالعدل والحرية والمساواة وهو الأبعد عن ذلك كله وإنْ تَمَثَّلَهُ مع عشيرته الأقربين.

والغرب الذي يتولى كِبَرُ هذه القراءات المتغطرسة يجد من يعذر له، ويتصور أن خطابه هو المنقذ وهو الرهان الأزلي، وما درى أولئك أن الذين أقاموا رهانهم على تلك الحضارة من أبنائها عادوا يتساءلون عن مسلماتهم، وما موقف صاحب كتاب: (نهاية التاريخ والإنسان الأخير) عنَّا ببعيد، لقد بدأ يراجع حساباته، فالحضارة التي تفرض رؤيتها بالقوة ليس لها من مجيب ولا محب.

ولو ذهبنا إلى أبعد من هذا والتمسنا قراءات واقعية وبعيدة عن غطرسات القوة والقراءة لوجدنا (فولبرايت) الذي كان عضواً في مجلس الشيوخ ورئيساً للعلاقات الخارجية في المجلس على مدى ثلاثة عقود يمثل القراءة الواقعية التي تحتاج أمريكا إلى مثلها في ظل هذه الظروف العصيبة التي خلقتها تلك القراءات المجانبة للصواب، فهو الأقدر بقراءته المتميزة على تمكين أمريكا من قراءة تُمكِّن من التفاهم العالمي المحقق للسلام الدولي المفقود.

فالقراءةُ الواقعيةُ المتوازنةُ التي ينشدُها عقلاءُ العالمِ و(السناتورُ جيمس وليام فولبرايت) منهم، تحقيقُ الاحترامِ والتفاهمِ المتبادلِ بين الدول وتحقيق السلام العالمي الذي أصبح عرضة للانهيار بسبب الغطرسات.

وإشكالية العالم أن المؤسسات السياسية تختلف عن سائر المؤسسات في قراءة الأوضاع وترتيب المواقف، ويبدو أن للمؤسسات السياسية سحرها الذي يصادر حق التفكير السليم، فالمنغمسون فيها لهم قراءاتهم المؤذية، وحين يخرجون من بحرها اللجِّي تكون لهم قراءة مغايرة، قد تكون أقرب إلى الواقع، وأكاد أستثني من بين أولئك (ج. وليام فولبرايت) الذي ظل طوال حياته معارضاً للسياسة الأمريكية ولكنها معارضة إيجابية تتمثل بوجوب التعايش السلمي وتفادي التدخلات العسكرية، وكتاباه (غطرسة القوة) و(ثمن الإمبراطورية) خيرُ ممثلينِ للقراءة الواقعية للأحداث والعلاقات.

وستكون لنا عودة نخص بها قراءة (فولبرايت) لأنه الأقدر على مواجهة الواقع المتردي بسبب القراءات الخاطئة.

قمة أوبك في عين الرَّدَى وهو قائم .. ! [(١)]

أمَّا قبل: فَحقٌّ عليَّ تثمين الدعوة الكريمة من صاحب السمو الملكي الأمير عبد العزيز بن سلمان بن عبد العزيز لحضور بعض فعاليات (قمة الأوبك الثالثة) والاعتزاز بثنائه على بعض تناولاتي، وليس غريباً عليه التفضل والتألق فالنَّجْلُ بعضُ مَن نَجَلَهْ.

وأما بعد:

فإن النقاد يأخذون على (أبي الطيب) قَوْلَه لممدوحه:

كأنك في جَفْنِ الرَّدى وهو نائم

وهو بصدد تهويل الموقف وتمجيد البطل، فنومُ الرَّدى أخَفُّ من يقظته وجَفْنُه أهون من عينه.

والمؤتمرون في الرياض تحدوهم مشاكل عالمية معقَّدة تراكمت على مدى سبعة أعوام، هي المدَّة الفاصلة بين القمَّتين حيث نَسَلَتْ مشاكلُ ليست بأقلَّ خطورة من الرَّدى القائم على أشُده.

-فهل من سِلْعة تباري النفط أو تدانيه؟

-وهل هناك أعْقَدُ من تزايد الطلب وخوف النضوب، وخطر التلوث، وتصاعد الخلاف حول تحديد المسؤول؟

-وأي الفريقين أحق برسم (الإستراتيجية) النفطية: المنتج أم المستهلك؟

-وأي المنتجين أحقُّ باتخاذ القرارات المصيرية:

-أعضاء المنظمة.

-أم المنتجون خارجها؟

-وأي أطراف التنازع أقوى في تقرير المصير:

-الدول الصناعية الكبرى.

-أم الدول النَّفْطية النامية؟

إنها أسئلة معقدة ومشروعة، سيُبَادِرُها الخَلِيُّ، ويتأذى منها الشَّجيُّ، ومَنْ لديه عِلْمٌ من النفط، ومن لا يدري ما النفطُ وما علومه، وسيظل النفط مادة إعلامية، تصفَّى من خلالها الحسابات، ولا تحسم الخلافات، والحديث عن هذا الحدث الأهم يتطلب معرفة ووعياً وخبرة في تقلبات الأحوال ذات الصلة الأوثق بهذه السلعة العالمية التي تمس كل جوانب الحياة الإنسانية، وفيها ومنها نشأت أعقد المشاكل ومن أجلها سالت الدماء، وساءت الخلافات وحيكت المؤامرات، ولمَّا تزل أصابع الأطراف على الزناد.

وفي أتون هذه التداعيات لا تكون الخطابات العنترية ولا المزايدات المجانية رائجةً ولا فاعلةً، وبخاصة عندما تتزامن مع ثورة الاتصال وتنازع الأقوياء، وقدر المؤتمرين أنَّهم جاءوا في زمن لا تخفى فيه خافية، فكل شيء تحت سمع المهتمين وبصرهم، ولكي تتوارى العواطف وتَضْحَى العقول فإنه لا بد من التعرف على أسباب نشوء المنظمة وأهدافها والأدوار التي مارستها في الأيام الحالية، سواء منها ما كان وليد أزمات ضاغطة أو ربيب عمليات استباقية، لإجهاض أي محاولة تمس سيادة الدول المنتجة لحساب الدول المستهلكة، واحتواء الأزمات، والتمكن من السيطرة على أيِّ مشكلة فاعلة أو مفتعلة تمس التصدير أو تتلاعب بالأسعار، أو تُحمل المنتج جرائر المستهلك من تلوث أو إسراف.

فكلمة (أوبك) حروف تختصر (منظمة الدول المصدرة للنفط) وهي هيئة دولية تضم اثنتي عشرة دولة تستخرج النفط وتصدره، وتعتمد عليه اعتماداً كبيراً، وليس الإنتاج

---

(١) تاريخ المقال: ٢٠/ ١١/ ٢٠٠٧

والتصدير وفقاً على الدول الأعضاء، وهدف التكتل حماية الحقوق، يجب ألا يكون هناك تدخل مخل بالسيادة، ولا تلاعب مخل بالأسعار، ولا استنزاف مهدد بالنضوب، ولا إغراق مُفْقِدٌ للقِيمَة، ولا شح مضر بالمستهلك، ولا تلوث مفسد للبيئة. وأجزم أنها تنطوي على هموم ورغبات وتطلعات تتجاوز الظواهر إلى البواطن وتَعْطو إلى معرفة بترولية تتعدى أبجديات الصفقات والتبادل السلعي إلى اكتساب قدرات ومهارات تقلل الاعتماد على النفط، وتفتح آفاقاً جديدة لطاقات أقل قيمة وخطراً، إذ إنَّ قيمة المنظمة الفعلية ليست حصراً على حجم الإنتاج ومقدار الاحتياط، وإنما تمتد إلى فنيات وثقافات ومعارف تقي دول الأعضاء من أن يُسْتدرجوا من حيث لا يعلمون، إن هناك مهمات متداولة وأخرى مضمرة، لا تأخذ المنظمة وضعها الطبيعي بدونها فمعقولية السعر التناظري مع سعر السلع والصناعات، واستقرار الأسواق لكافة السلع، والرضى والاطمئنان المتبادلان بين الأطراف والسيطرة على مصادر التلوث، وتوزيع مسؤولية ذلك بين دول النفط والدول الصناعية، وتمكين المنتج من المشاركة العادلة والفاعلة، كل ذلك بعض مسؤولية المنظمة، أو ما يجب أن يكون بعضها.

أنشئت المنظمة عام ١٩٦٠م من أعضاء مؤسسين وأعضاء لاحقين، وليس بين الفئتين تفاوت في الحقوق والواجبات، وقد نشأت في ظل شركات أوروبية وأمريكية متحكمة تدفع للمنتج ضرائب دخل وحصصاً من الإنتاج، ولم تكن السوق حرة بل تخضع لتَسْعِيرٍ مُعْلن، ولما لم يكن هناك سقف للإنتاج، فقد تعرضت الأسواق للإغراق، فكان الاضطراد للتخفيض، مما أدى إلى عدم وفاء الشركات بالتزامها للدول المنتجة، كان ذلك في عام ١٩٥٩م، وفي ظل هذه الأزمات كان إنشاء المنظمة، لتفادي مثل هذه الاضطراب والحيلولة دون التلاعب المخل بالعقود.

وعلى الرغم من تعثر المنظمة في بداياتها وفي بعض مراحلها فإنها تظل ضرورة لا مناص من قيامها، لتكون مظلة يتناجى تحت سقفها المتجانسون، وأخطر شيء يواجه المؤتمرين رغبة البعض في تسييس النفط وعسكرته، في حين أنه مفردة اقتصادية ليس من مصلحة ذويها أن تتعرض لأعاصير السياسة وتقلباتها، ولا أن تكون آلية عسكرية، فالشعوب لا تحتمل الاضطرابات في مصادر رزقها وبخاصة الدول التي تعتمد اعتمادا كلياً على النفط.

وإذا كانت الدول المنقبة عن النفط في باطن أراضيها تسعد بتفجر الآبار فإنها أكثر سعادة عندما تظفر بمستهلك في آفاق المعمورة ينقد الثمن ويمكنها من استكمال بِنْيتها التحتية وبنائها الحضاري والمدني ويوفر الرخاء والتنمية لشعبها.

لقد زُجَّ النفطُ في أتون الأزمات لعرقلة الأحلاف والتعديات وإذا شحَّت الطاقة على المستهلك فإن كل وسائل الحياة تنشل عند المنتج، وقيمة النفط لا تتحقق في باطن الأرض ولا في لحظة الاستخراج وإنما هي في قبض الثمن من المستهلك، ومتى سُيِّس الاقتصاد أو عسْكر أصبحت مصايد الشعوب في مهب الريح.

والمملكة العربية السعودية بوصفها الدولة المضيفة للقمة الثالثة فإنها تتوفر على امتيازات مهمة ومناسبة للمرحلة الحرجة.

فهي الأكثر احتياطاً والأكثر إنتاجاً والأوفى التزاماً والأكثر توازناً في اتخاذ القرارات المهمة وإدارة الأزمات، وهي بهذه السمات قادرة على احتواء المنازعات وفك الاختناقات والتقريب بين وجهات النظر وبعث الثقة والاطمئنان في نفوس الوجلين، إن هناك تخوفاً من تكتل المستهلكين وتوجساً من الاستزاف المسرف وارتياباً من الارتفاع الفاحش أو الانخفاض المتدني.

والمنظمة في ظل هذه الظروف الاستثنائية بحاجة إلى عقول مجربة وأفكار واسعة ورباطة جأش وحلم وأناة واستشراف لمستقبل وإرادة قوية تفقه الواقع والأولويات بحيث لا تحكمها الآنية، ولا ترتهنها الحالات الطارئة، ولا تصرفها مصالح الغير، فالأيام حبلى يلدن كل عجيب، فإذا كان المؤتمرون يحرصون على غزل قضاياهم فإن المستهلكين بارعون في نقض غزلهم من بعد قوة أنكاثاً وكل الأطراف في صراع مستميت لاحتواء المشاكل وحلها لصالحه، وأي قرارات أو توصيات تعتدي على مصالح الآخرين، تكون عقبة في طريق الخلوص من الضوائق والفكاك من الأزمات، ولهذا فإن حق المؤتمرين وحريتهم لَيْسا على الإطلاق إنهما مرتبطان بحقوق المستهلك ومصالحه المشروعة والمقبولة، فالعالم اليوم لا يحفظ توازنه إلا التوازن في اتخاذ القرارات، والمشاطرة في الرخاء والشدة.

ولكي نكون صادقين مع أنفسنا وحَرِيّين بتجاوز الأوضاع غير الملائمة فإن علينا أن نضع المنظمة أمام نفسها بحجمها الطبيعي ومتذكرين بعض إخفاقاتها المتمثلة بعدم التزام البعض بالتوصيات التي يخرج بها المؤتمرون، وبخاصة ما يتعلق بخفض الإنتاج، وتبادل الاتهامات بالخروقات المخلة بالمصداقية والالتزام، واستشراء الأزمات قبل التوصل إلى عقد المؤتمرات، وربط قضايا المنظمة بالعوارض الإقليمية أو القطرية والتردد في تحييدها، والخروج المتعمد على جدول الأعمال والتوصيات المتوقعة لا بد أن تضع كل الاعتبار للدول المنتجة من خارج المنظمة، ولدور المستهلكين في التلوث البيئي، وللسباق المحموم في أسعار كافة السلع بما فيها النفط، وحق المنتجين في المشاركة بما يكفل التطور الصناعي وتنويع مصادر الدخل، ودعم البدائل لمصادر الطاقة: كالطاقة الشمسية والهوائية والنووية لأنها تخفف من استفحال التلوث وتصاعد الطلب على النفط وتقلل من احتمالات النضوب.

إن على المؤتمرين أن يضعوا كل الاعتبار لكل أطراف القضية، فما عادت الشعوب المنتجة والمستهلكة قادرة على احتمال مزيدٍ من الاضطرابات والأزمات واحتمال الصدامات.

وبورك لدولتي تألقها وحسن قيادتها واتقاؤها المشروع والمعقول وإلى مزيد من النجاحات.

راهِنٌ غَرْبي عَصِيب ولا (فولبرايت) له .. ! (١)[1]

يظن البعض أن الحضارة الغربية شرٌ محض فيما يظن آخرون أنها خيرٌ محض ويترتب على الرؤية الأولى حتمية التمنع المفوت لكل الفرص وعلى الرؤية الثانية الاندفاع بوصفها (المَهْدي) المنتظر. وهذان الظنّان المتناقضان أرديا في الهلكة، وفوَّتا على العالم الثالث التنوع، أو التراتبِ أو السمةِ فُرص الاستثمار المشروع والمتوازن والتفاعل المتكافئ، وأغريا باستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير، واستبدال الصدام بالوفاق والخصام بالوئام وقراءة أي حضارة بهذه المفاهيم الخاطئة ظلم للقارئ الباحث عن المفيد وللمقروء المنطوي على بعض ما يفيد، والمخيف أن التجربة الممتدة من (حملة نابليون) إلى اليوم ما زادت العالمين: العربي والغربي إلا خبالاً، وليست هناك بوارق أمل مطْمئنة، فالغرب يمعن بالحزِّ حتى العظْم، والتوغل في الأحْشاء والحضور الفاعل في السوق والبيت والشأن كله، والعربُ يمعنون في تكسير الأشياء كلها داخل القفص المرتهنين فيه.

وما درى المقبلون والمتمنِّعون أنه ما من حضارة في الأرض إلا هي خليط من الخير والشر - حاشا حضارة الوحي الرباني - والنابهون المحظوظون من يحسنون الخلوص من الشر والظفر بالخير، بأقل التكاليف وأقصر المدة مع الاحتفاظ بمحققات حضارة الانتماء.

ولقد قلت من قبل - وكان قولاً مثيراً في نظر البعض: ليس هناك حضارة بريئة، بمعنى أن التوارث والهضم المقتدر سنة الحياة السوية وما الأسد الهصور سوى مجموعة من الخراف المهضومة، وأين نحن من الإسلام، لقد جاء وحْيه متمماً لمكارم الأخلاق، وما جاء به المبلِّغ لبنة في قصر مشيد، وذلك التوجيه الضمني مدعاة للتصدي لكل منجز إنساني وأخذ ما فيه من الخير، وكيف لا، والحق ضالة المؤمن متى وجده فهو أحق به، وعباقرة الإنسانية ليسوا وقفاً على حضارة أو جنس أو زمان أو مكان، وإنما هم صناعة ظروف وإمكانيات مجتمعية متى توفرت في ظل أي حضارة أمكن وجودهم، ولقد قيل: (أعطني تربية سليمة أعطك أمة ناجحة)، هذه المفاهيم التي قد يضيق بها البعض ذرعاً لا تمس الولاء والبراء، ولا تدخل في نواقض الإيمان في عقيدة سماوية صحيحة يكمن فيها سر الحياة السوية للإنسانية كافة، ولا تمس خيرية الإسلام بوصفه شرعة ومنهاجاً ربانياً، فالإيمان بالله وكتبه ورسله لا يتعارض مع التفاعل الإيجابي والتعايش السلمي بين الإسلام وسائر الحضارات وأناسيها، ولو كانت الحضارات السابقة أو اللاحقة والتعامل معها كما يفهمها البعض لما كان للإسلام أن يكون كما هو في عصوره الذهبية، وغربة الإسلام في غرائبية أهله، وما كان لهذه الاستهلالات أن تكون لولا ما نشاهده ونسمعه من دعوة للقطيعة، في ظل القبول الضمني لاستغراب السوق والبيت، بحجة التفريق بين الحضارة والمدنية، ولن ندخل في التفصيل الدقيق لهذه الملابسات الملتبسة ولا في تحديد الموقف منها، كما أننا لن نمضي مع سرد الحيثيات التي تؤكد مشروعية الدخول في معمار أي حضارة واقتناص ما فيه من أمور الدنيا، وتجارب الأمم تمثل القواسم المشتركة بين الحضارات، ولقد أشار الذكر الحكيم إلى استباق الحضارات في هذا المجال: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ كما أطلق العنان لذوي الدراية لممارسة التجريب «**أنتم أدرى بأمور دنياكم**» ولأهمية هذه المواقف فقد ربط الله (التقية) بالتحذير من نفسه، خوفاً

---

(١) تاريخ المقال: ٤/ ١٢/ ٢٠٠٧

وتخويفاً من كلِّ الميل وكل شيء عنده بمقدار، فلا تجوز الممارسة المطلقة ولا الانطواء المحلم واعتزال الناس.

واستدعاؤنا لشخصية غربية لإيقاف التدهور العالمي وإعجابنا برؤيتها السليمة لا يكون من التبعية التي ننهى عنها ونمقت ذويها، إذ من كبريات المقت النهي عن خلق واقترافه، والتوسل بالنظريات الصائبة أياً كان انتماؤها لا يلقي بظلال التساؤلات عن إمكانية التوفيق بين الاعتزال المطلوب بضوابطه والتفاعل المطلوب بضوابطه، والهلكة في فهم الأشياء على غير حقيقتها والقصور بأن النقاء والصفاء لا يتحققان إلا بالاعتزال المطلق وما استوفت أيُّ حضارة مقوماتها إلا باستيعابها للإرث الإنساني وهضم هذا الإرث على شاكلة التمثيل الغذائي.

وأحسبني حفي بالاستطراد وأنا أتحدث عن شخصية من شخصيات كثيرة ملئت بها إعجاباً وإكباراً، وهي تنتمي إلى حضارات ليست من الإسلام في شيء، وليس شرطاً أن تكون مُعارضة لحكومتها، فالمعارضة وحدها لا تضيف عظمة للمعارض، ما لم يكن مؤهلاً لطرح البدائل الأفضل، فهذا (نعوم تشومسكي) معارض شديد المعارضة للسياسة الأمريكية، ولكنه لا يمتلك نظرية سياسية بحجم نظريته اللغوية، ومن ثم تجلى في المشهد اللغوي، وعرف معارضاً فقط في المشهد السياسي، فيما تجلى (فولبرايت) في المشهد السياسي لأنه يطرح نظرية، ولا يعلن المعارضة المجردة، وكم كان بودي أن نظفر برؤى عملية تكون على شاكلة هذه الرؤية الأكثر موضوعية وواقعية واتزاناً ومناسبة للأوضاع القائمة، إذ لكل حدث بطله الذي لا يصلح إلا له، ولقد نوديت شخصيات فذة في الأزمات الحالكة بوصفها تمثل تجليات تاريخية كقولهم: (رِدَّةٌ ولا أبا بكر لها) وكقول عمر أبو ريشة:

ربَّ وامعتصـــــــــماه انطلقـــــــــت
مـــــلء أفـــــواه الصـــــبايا اليـــــتَّم

لامســـــــــت أســـــــــماعهم لكنهـــــا
لـــــمْ تلامـــــس نخـــــوة المعتصـــــم

والحضارة الإسلامية غنية بالعباقرة الذين خلدتهم إنجازاتهم وقدراتهم النادرة في المواقف الحالكة، فأين نحن من (عبقريات العقاد) التي جلَّت بعض جوانب تلك الحيوات الاستثنائية ولفتت نظر المنصفين من المستشرقين، وعبر التاريخ الإنساني تمر بمحطات مشرقة لا يليق بنا أن نصرف النظر عنها تحت أي مبرر، وهي محطات لا تختص بها حضارة دون أخرى، فالجانب المادي في أي حضارة حق مشاع تسهم الإنسانية في صنعه، أما الجانب الروحي والتعبد ي والعقدي فحق خاص ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ ولما لم أكن معنياً بإشكالية العلائق بين الحضارات والمباح والمحظور فيها فإنني لن أتعمق فيها، وما استدعيته مجرد احتراس وتحفظ أرجو أن يكون فيه ما يقطع دابر التساؤلات الوجلة، وحق كل قارئ أن يقرأ ما تحت السطور ولكن من واجبه ألا يكره النص على غير المراد، وخطاب (فولبرايت) هو الخطاب المناسب لغلبة الغرب وغطرسته.

لقد عنيت بالحضارة الغربية وإنسانها وخضت في لجج القول ونقيضه، وتعرفت على عدد من المواقف والنظريات، وأدركت أننا أحوج ما نكون إلى قراءتها من الداخل بعيداً

عن مؤسساتها السياسية التي تصرفها منظمات خفية وجماعات ضغط لا تني تدفع بها إلى مهاوي الظلم الوخيم، وسمعت قول الذين يتجادلون حول مفهوم الحضارة والمدنية وحق المنجز الغربي منهما، ووقفت على آراء مفكري الإسلام المعاصرين الذين شغلتهم هذه الحضارة بكل ما تعج به من متناقضات، ولم أكن في يوم من الأيام مع الشانئين ولا الممجدين، فالكُرْه لا يقتضي الرفض، والقبول لا يقتضي المحبة والولاء والحبُّ الجِبلِّي غير الحب المِلِّي، وليس شيء من هذا مخلاً بالولاء والبراء العقديين فيما أعلم ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

وتمني شخصية سياسية مثل: (جيمس وليام فولبرايت) لمعالجة الأوضاع العالمية المتردية لا يعني عقم الحضارات من شخصيات مماثلة بل متفوقة في حل الأزمات وحلحلة القضايا، واستدعاؤه لا يعني ذاته، وإنما يعني فكره الإنساني الذي يمثل القاسم المشترك لكل الحضارات.

ولو قلت وحق لي أن أقول: (راهن عصيب ولا عمر بن الخطاب له) أو (ولا صلاح الدين له) لا زور كل من لا يؤمن بيوم الحساب، ووضعنا ينشد الخلاص لا الهيمنة.

راهن غربي عصيب ولا (فولبرايت) له .. ! (٢) [(١)]

و(فولبرايت) الذي نود أن تقيل نظريته عثرات الحضارة الغربية، غربي معاصر عاش في قلب الحدث، ونظريته ليست مثالية بعيدة المنال، ولهذا كان حرياً بالاستدعاء لإيقاف هذا التدهور العالمي المخيف. وأحسبه يمثل اللغة المشتركة فهو غربي يحمل هماً إنسانياً ينشده الراهن المسكون بالجنون وغطرسة القوة وكل الذي أصبو إليه - وهو حلم سعيد - أن يتذكر أساطين السياسة الأمريكية ومتخذو القرارات الحاسمة هذه الشخصية الفذة، وأن يستعيدوا خطابها التصالحي لمعالجة الراهن العصيب فالوضع العالمي لا يطلب المزيد، إنه قاب قوسين أو أدنى من الانهيار الأخلاقي والاقتصادي والأمني، وما لم ينهض العقلاء لإيقاف هذا التدهور فإن مصير العالم سيكون مظلماً، واستنقاذه مستحيلاً.

واليمين المتطرف الذي يمسك بكل خيوط اللعبة الخطيرة بحاجة إلى رجل وديع مثل (فولبرايت) إذ ما نوده للعالم كله وأمريكا في مقدمته السلام والوئام والتعايش السلمي والتفاعل الإيجابي، وهذه كلها بعض مرتكزات نظرية الغائب المنتظر برؤيته لا بشخصه، وهي ما نحتاجه، فهداية الغرب إلى أقوم الطرق، وتحويل منجزاته العلمية لخدمة السلام العالمي مطلب إسلامي، ومن هداية الإسلام عدم التعدي حتى في الدعاء والدعوة وتقديم القدوة الصالحة والسيرة الحسنة، وتمثل الإسلام قولاً وعملاً وغاية ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾، وكتاباه اللذان جسدا رؤيته في السياسة الخارجية، كان أولهما محاضرات ألقاها بطلب من كلية (جوك هويكنز) للدراسات الدولية عام ١٩٦٦م حيث اختار (غطرسة القوة) عنواناً لتلك المحاضرات، ثم توسع فيها وأعدها في كتاب يحمل ذات العنوان، ومحور الكتاب خوفه على تلك القوة من الانهيار، لأنها تتوسع بشكل لا تقدر على استيعابه، واستقراء التاريخ ينذر بسقوط أي إمبراطورية تنتشر في مواقع مناوئة وبشكل أوسع من إمكانياته ولهذا فضل الحلول السلمية على الحسم العسكري، وثانيهما (ثمن الإمبراطورية).

يقول عميد الكلية في تقديم الكتاب: (... يمثل تعبيراً عن قلق مخلص بشأن المستقبل أكثر منه انتقاداً) إنه يمثل توصيات وتحذيرات ولا يقدم نقداً ولا احتجاجاً، ومعارضته متلبسة برؤيته التسامحية، ومعارضته توصف بالشجاعة والذكاء وتعتمد الواقعية والموضوعية، ولكي يتخلص من التنظير عمد إلى تحديد تبارين السياسيين تراوح السياسة الأمريكية بينهما:

سياسة (أبراهام لنكولن) الإنسانية.

وسياسة (روزفلت) العسكرية.

وكأني بالتاريخ يعيد نفسه ليرث (كلينتون) إنسانية (أبراهام) بممارسته ورؤيته عبر كتابه مع نائبه (آل جور) (رؤية لتغيير أمريكا.. الاهتمام بالناس أولا وفيه تحديد لرؤيته في الشرق الأوسط والمنافسة الاقتصادية مع (اليابان) ونشر الأسلحة.. ويرث (بوش) عسكرية (روزفلت) وأكاد أجزم بأن خطاب (الجمهوريين) خارجي عسكري وخطاب (الديموقراطيين) داخلي اقتصادي يجسده عنوان كتاب (كلينتون) الاهتمام بالناس أولا).

وقد طُبع كتاباه (غطرسة القوة) و (ثمن الإمبراطورية) في مجلد واحد، فهل نحن بحاجة إلى هذا النوع من الرجال في زمن التعدي السافر ولغة السلاح، إن (فولبرايت) هو الرجل المناسب لرسم السياسة العالمية، وقيادة أمريكا المنتهكة للقيم والمبادئ التي ينطوي

---

(١) تاريخ المقال: ١١/ ١٢/ ٢٠٠٧

عليها دستورها وقانونها الدولي، وتخليصها من هيمنة الخطاب النشز الذي أحرج أصدقاءها وحلفاءها، وأشاع الكراهية والخوف، وحفز الجياع والعراة إلى مبادرة السلاح لانتزاع الرغيف والكساء من الخزائن القارونية.

وليس شرطاً أن نبعث (فولبرايت) من حدثه، إن مبادئ الإنسانية ورؤيته الصائبة كامنة في الكتب وفي صدور الرجال المعجبين به، وما أظن مؤسسة سياسية بحجم المؤسسة السياسية الأمريكية تغيب عنها نظرية كتلك النظرية الإنسانية لرجل أمريكي مخلص لقومته.

لقد شعر قادة الفكر وخبراء السياسة، وألمع الصحفيين بفداحة الكره لأمريكا وتناميه، نجد ذلك في كتابي (بول فندلي):

(من يجرؤ على الكلام) و (الخداع) وفيه يتحدث عن جديد العلاقات الأمريكية الإسرائيلية، وبخاصة بعد تصدر اليمين المتطرف للمؤسسة التنفيذية كما نجده عند (ضياء الدين سردار)، و (ميريل ديفيز) في كتابهما (لماذا يكره العالم أمريكا) وعند (ويليام بلوم) في كتابه (الدولة المارقة) وبخاصة الباب الثالث: الدولة المارقة في مواجهة العالم، وعند مجموعة من الأكاديميين في كتاب (صناعة الكراهية) وبخاصة الفصل الرابع الذي يتحدث عن صدام الحضارات وعند (ميشيل كروزيه) في كتابه (الداء الأمريكي) وبخاصة في الفصل العاشر (شيطان الخير)، وبإزاء المعارضين والبرمين نجد من يعلي من شأن أمريكا كصاحبي (صدام الحضارات) و(نهاية التاريخ) ومن يعترض ولا يقدم نظرية بديلة وهم كثيرون وعلى رأسهم (تشومسكي) و(فولبرايت) في كتابه (ثمن الإمبراطورية) يبدي تخوفه من الاندفاع لتحقيق متطلبات (الإمبراطورية) ومع أنه يفترض - أو يكاد - حتمية الاندفاع فإنه لا يتطلع إلى الكف، ولكنه ينشد التوازن في تحقيق تلك المتطلبات، وتحقيق النفوذ والمصالحة يشكلان معادلة صعبة متى لم يكن هناك توافق في وجهات النظر بين المؤسسة التشريعية والتنفيذية، ولأنه عضو مؤثر وعريق في المؤسسة التشريعية ورافض للانتقال إلى المؤسسة التنفيذية حين عرضت عليه حقيبة الخارجية. فقد كان الأميل إلى تمكين التشريع من كبح جماح التنفيذ، لقد ختم كتابه (ثمن الإمبراطورية) بخاتمة حول تغيير الأسلوب في التفكير، وتلك حاجة ملحة وأولوية، فما تجرع العالم ويلات الحروب والتدخلات العسكرية إلا بسبب التفكير السيئ والتقدير الخاطئ والتوقيت الرديء، فماذا جنت أمريكا في بقاع كثيرة من العالم لقد كانت (الدبلوماسية) المتوازنة خيراً من القوة المتغطرسة، والثروات العنيفة في (أمريكا اللاتينية) و(المشرق العربي) التي تمردت على الشرعية ضد أمريكا أو من أجلها لم تعد بالخير لا عليها ولا على الشعوب، ولما تزل بحاجة إلى التغيير المستمر الذي تآكلت معه الكفاءات البشرية والمثمنات المادية، وحول الجيش من الدفاع عن الثغور إلى الدفاع عن القصور، ولكي يتصور القارئ حجم التدخلات الأمريكية فعليه أن يقرأ كتاب (الدولة المارقة) ل(وليام بلوم) لقد كتب موجزاً لتدخلات الولايات المتحدة من عام ١٩٤٥م تجاوزت سبعين تدخلاً في مختلف دول العالم وللقارئ أن يتصوركم استعملت حقها في (الفيتو) ضد قرارات عادلة إن نظرية (فولبرايت) التسامحية لا يمكن أن تتحقق إلا بالمعارضة الإيجابية، وهو ما لا يريده، ومن ثم خشي أن يترك انطباعا لدى الرأي العام بأنه منشق، ولهذا يقول:

(إذا تركت لدى الناس ذكرى فقد لا تعدو أنني منشق، ولم يدر هذا بخلدي قط).

ولأنه صاحب موقف لا يمكن أن يتحقق إلا بالسلم الإيجابي، وتفادي أي صدام، فقد يجد نفسه مضطرا إلى الانشقاق أو الاعتزال على الأقل، وأحسب أنه فضل الاعتزال حين رفض وزارة الخارجية، لأنها جزء من المؤسسة التنفيذية، لقد كان عنيفا على قرار

(جنسون) التدخل في (الدومينكان) عام ١٩٦٥م وبهذا العنف عرف أن آراءه غير مرغوبة لدى المؤسسة التنفيذية ولكن لم يجد بدا من طرحها وبإلحاح عبر المؤسسة التشريعية ومن ثم تعرض لبعض الإحباطات لأن محققات نظريته لا يمكن تحقيقها في الواقع، وبخاصة في حرب (فيتنام) لقد وصف مشروعه بالحرث في البحر، فعالم السياسة لا يمكن أن تؤطره نظرية إنسانية بحجم نظريته السلمية، غير أنه ظل حتى آخر ساعة من حياته يحاول كبح جماح الغطرسة.

راهنٌ غربي عصيب ولا (فولبرايت) له .. ! (٣)[1]

واليأس الذي ينتاب ذوي الأهداف الإنسانية مرده إلى طبيعة الثقافات المختلفة و(الأيديولوجيات) المتناقضة والأجناس البشرية المتنوعة والمصالح المتعارضة والتفاوت في الإمكانيات المادية والقدرات الذهنية، وكل هذه السمات أو بعضها مظنَّة الاختلاف والصراع والصدام.

و(فوالبرايت) الذي استحضر كل هذه الفروق طرح بعض الحلول ك(التبادل التعليمي) ... وإذا كنا نختلف معه في بعض ما يذهب إليه فإننا لا نجد بداً من تقدير هذه الرؤية بوصفها بعض الحلول للتخفيف من حدة التوتر العالمي، وإذا كان (هنتنغتون) يرى حتمية الصراع الحضاري فإن (هارالد موللر) يرى إمكانية تعايش الثقافات، وذلك من خلال رده المتوازن على حتمية الصدام في كتابه (تعايش الثقافات مشروع مضاد لهنتنغتون) كما طرح (المركز العالمي للاستشارات الاستراتيجية) نظرية جديدة أو خاصة يرد فيها على كل من:

-(هنتنغتون) حول نظرية الصدام.

-و(فوكوياما) حول نهاية التاريخ.

ومجمل هذه المخاضات تؤكد إمكانية التعايش السلمي وتأجيل القوة وتحكيم العقل واستثمار التجارب، وحتمية الصراع لا تمنع من محاولة التخفيف أو التأجيل، ورؤية (فولبرايت) السياسية المعتدلة إنما جاءت مخاض خبرة عريقة وعميقة واستيعاب معرفي شامل، لقد واكب أكثر من خمسة رؤساء من (روزفلت) إلى (جونسون) وأكثر من ثمانية وزراء خارجية، وتقلب في عدة مناصب تشريعية مهمة، ولم يستطع أحد استيعابه ولا إجهاض رؤيته، كما لم يقدر أحد على عدم احترامه أو عدم الاستماع له، وما من أحد من نظرائه إلا أكبر فيه هذا الثبات على المبدأ، وهو ثبات لا يوصف بالعناد ولا بالانتهازية ولا بالمزايدة.

وإذ يركز المعارضون والمنشقون على تهويل المثالب فإنه يقف حيث تكون محققات رؤيته القائمة على تأجيل القوة واستغلال القوائم المشتركة بين الحضارات والمصالح، وهي رؤية ترقى إلى مستوى النظرية وهو بكل تحسره وإلحاحه مشفق على أمته محترم لإنسانية الإنسان وحقه في الوجود الكريم، وبخاصة حين يُعَرِّضُ مثمناتها لاحتمالات السقوط من لا يعرف إلا لغة السلاح، وتضلعه من التاريخ السياسي والعسكري للحضارات البائدة وتتبع أمته لسنن الهالكين جعله يلح على خيار السلام، وهو الخيار الأسلم والأحكم في ظل اللعبة القاتلة. ونظرية (فولبرايت) تُسْتدعى على استحياء حين تدلَهِمّ الأمور وقد لا تكون مجدية عند الاحتقان والتوتر، بل تكاد تكون اللغة الإعلامية لتمرير اللغة الفعلية، وجنوح الفظ الغليظ تصنعاً إلى اللين في ساعة العسرة لا يزيده إلا خساراً، فالرأي العام مع الموقف والمصداقية:

ومهما تكن عند امرئٍ من خليقة
وإنْ خالها تخفى على الناس تعلمِ

لقد استوعب (فولبرايت) المشاكل العالمية القائمة بين دول العالم وانتابه ذعر من تنازع البقاء ونوازع الغلبة والاستبداد والتسلط وأدرك بفطرته الإنسانية ألا نهاية لطموحات الإنسان وجشعه وشيم الظلم في النفوس:

(١) تاريخ المقال: ١٨/ ١٢/ ٢٠٠٧

والظلـــم مـــن شـــيم النفـــوس فـــإن تجـــد
ذا عِفـــــــــــةٍ فلِعِلَّـــــــــــةٍ لا يَظْلـــــــــــم

ومن ثم راح يبحث عن صناع السلام لا عن صناع السلاح، يقول وهو ينظر إلى مشكلة الإنسانية المتصارعة على لعاعات الحياة:
(إنها ليست مشكلة يمكن حلها بالخبرة المتطورة لمفكرينا العسكريين الموهوبين الذين أنتجوا أنظمة التسليح والمذاهب الاستراتيجية التي تهدد رفاهة أغنى الدول وبقاءها، إن الصفات المميزة التي يجب أن نركن إليها هي الصفات الإنسانية كالرحمة والفطرة السليمة والخيال الذكي الخلاق والتعاطف والتفاهم بين الثقافات المختلفة).
ويقول: (إن عصر الملوك والرؤساء والمحاربين قد انتهى ويتطلب العصر النووي نوعاً مختلفاً من القيادة، قيادة العقل والاجتهاد والتسامح والمنطق قيادة ملتزمة بالقيم الإنسانية والسلام العالمي).
لقد أصبح الرأي العام قوة معنوية جارفة يحتاج إليها أي خطاب قيادي وأمريكا التي تملك (القوة والمال والمعرفة) وهي مكونات السلطة النافذة تتعثر أمام سخط الرأي العام العالمي، ولم تكن قادرة على الدفاع عن سمعتها بقدر قدرتها على الدفاع عن مصالحها، يقول (اللورد أكتون): (القوة المطلقة تؤدي إلى فساد مطلق) وأمريكا اليوم بمغامراتها تقيم رهانها على ترسانتها العسكرية، ولم تفكر بالعواقب الوخيمة ولا بالشرعية ولا بالرأي العام، ولهذا أكثر الحديث عن (الكراهية) وألفت الكتب عن بواعثها وأسباب تناميها وصعوبة تفاديها و(ألبرت آينشتاين) تحت وطأة الغطرسة ونتائج الحروب المدمرة يصيح بالمهووسين: (الآن كل شيء تغير ما عدا أسلوب تفكيرنا).
إن التفكير السليم أهم من التقنية العسكرية، وأمريكا قادرة على كسب الرأي العام، والتخلص من الكره العالمي باتخاذ أسلوب جديد في التفكير، ورؤية (فولبرايت) هي وحدها التي تقدم الأسلوب الأمثل للتفكير السليم، إن أصدقاءها وحلفاءها الأحداث والتقليديين يضيقون ذرعاً بتدخلاتها واعتراضاتها المخلة بالسيادة الوطنية، وتذرعها بحماية حقوق الإنسان، بإزاء وقوعات عارضة فيما تغفل مؤسساتها المدنية عن تجاوزات لا تحتمل على حد:

قتـــــل امـــــرئ فـــــي غابـــــة
قضـــــــــــية لا تغتفـــــــــــر
وقتـــــــل شـــــــعب آمـــــــن
قضـــــــية فيهـــــــا نظـــــــر

ولعلنا نستذكر أحدث الوقوعات التي كادت تطغى على مؤتمر (أنابوليس) وهي قضية (فتاة القطيف) ولو أن أوراقها قرئت بحيادية لما كان لأحد أن يقول فيها كلمة واحدة، ولا سيما أنها تمس السلطة القضائية.
لقد نسلت نظرية (فولبرايت) من هذه الممارسات، فتجربة أمريكا في (فيتنام) تجربة مرة ستظل عقدة نفسية مؤثرة لأجيال قادمة، وها هي تجربتها في (العراق) تكاد تأخذ المنحى نفسه و(فولبرايت) تمحور حول مثل هذه المغامرات الخاسرة ولقد سمى حرب (فيتنام) بـ(المأساة الكبرى)، وكم من مفكر وعالم وسياسي واكب الأحداث، ولكنه لم يع ما وعاه (فولبرايت) ومن ثم فقد لام (مجلس الشيوخ) على إذعانه للرئيس (جونسون) في

معالجته ما حدث في (خليج تونكين) وقال: (إننا كنا ضحية الكذب) وها نحن الآن وبعد تورط (بوش) في (العراق) يقال إن مجلس الشيوخ كان ضحية الكذب، إذاً متى يتخلص المجلس من هذه الغفلة، ويقف بحزم أمام كذب الرؤساء؟ إن أخطر شيء في السياسة اتخاذ قرار الحرب، واتخاذ القرار بحد ذاته من قواعد اللعبة السياسية، واتخاذ القرار في الدول (الديموقراطية) لا يكون فردياً إنه مسؤولية الجماعة، ومع هذا يبدأ التنصل من المسؤولية حين تفشل الخطة، وحين نضع القيمة المناسبة للرأي العام وأثره في تحويل مسار التاريخ نعود إلى نبض الشارع الأمريكي، فلو سئل المواطن الأمريكي المستهلك الجهد والوقت والمال في منشآته أو في مزرعته أو في مصنعه والمثقل بالضرائب التصاعدية: أي القيادات تود أن تقاد بها أمريكا: بمنطق العقل أم بمنطق القوة؟

-وهل تود أن يجنح فريق العمل السياسي إلى السلام والوئام أم إلى الصراع والصدام؟

لكان خياره السلام، ومثل هذا السؤال مشروع ومتوقع، فالواقع المرير لن يدفع به إلى خيار الحرب، متى كان الرابح فيها أول الخاسرين، وحين نبعث - أو نود بعث - هذه النظرية من مرقدها فإنما نحن مع العقل، فالقوة وحدها لا تزيد الأمور إلا تردياً في الموبقات، وذلك بعض ما يعانيه الأقوياء المتغطرسون، والذين يتمنون الجنوح إلى السلام ثم لا يجدون من يحملهم عليه يتولون وصدورهم تفيض حسرة على ما تتعرض له الحضارة الإنسانية من تآكل ينقصها من أطرافها.

و(فولبرايت) واحد من العقلاء المجربين الذين اتخذوا خيار الوفاق مناطاً لرؤيتهم بعدما رصدوا الأحداث وقوموا النتائج، إن أمام السلطة التنفيذية في أي أمة عدة خيارات وليست رهينة خيار واحد على حد:

إذا لم تكن إلا الأسِنَّةُ مركباً
فما حيلة المضطر إلا ركوبها

ولو دُفِعَتْ أمريكا لخيار القوة لكان دعاة السلام أول المعذرين، فالذي يريد السلام المتوفر على الكرامة والمحقق للعدل والمساواة لا بد أن يستعد للحرب، والقوة لمعركة الدفع غير القوة لمعركة الطلب، فالدفع ضرورة والطلب خيار، وأمريكا تخوض معارك الطلب، فهي التي تسعى للساحات، و(فولبرايت) الذي يلح على الوفاق يرفض المعارضة والانشقاق والاعتزال، ولكنه حين لا يكون أمامه إلا أحدهما فإنه يتقبل قدره المحتوم بنفس راضية وواثقة، ولهذا كره أن يكون الانطباع عنه بأنه معارض أو منشق أو معتزل، وعمله داخل السلطة التشريعية وقبوله بالواقع، ومحاولته إنقاذ ما يمكن إنقاذه دليل على أنه لا يريد أن يكون معارضاً يستهلكه التنقيب عن العثرات وتشكيل جماعات الضغط وتأليب الرأي العام وتلك خليقة المزايدين وسنن الانتهازيين. لقد كانت الشهرة والأضواء عشق المغمورين ولهذا تجد البعض منهم يندفع وراء الإثارة وترويج الإشاعة ليحقق لنفسه حضوراً مزيفاً دون أن يعبأ بمصالح الأمة وتلاحمها وحماية ثغورها والاستعانة بقضاء حوائجها بالكتمان، وما تعثرت عجلة الإصلاح إلا بعصي هذا النوع من الناس، وكل معارض يملك خيارات أخرى ثم لا يعبأ بها لأنها لا تخدم ذاته ولا تحقق هواه يكون صوته صيحة على أمته، والذين يحتجون على مغامرات السلطة التنفيذية يودون أن تكون على وفاق مع السلطة التشريعية، والمعارضة الزائفة كانعدامها أو كبتها، وليست المفاضلة في الوجود أو العدم ولكنها في الأداء السليم أو الاعتزال القويم، وحين نتمنى على الغرب الجنوح إلى المصالحة فإنما نود تحقيق المراد بأقل التكاليف وأهون الخسائر.
لقد أدى منطق القوة إلى فوات الفرص وضياع المصالح وتفشي الكراهية وسباق التسلح

والاحتراب الذي تسيل معه الدماء والدموع، ولو أن أزمَّة الأمور بادرها مثل (فولبرايت) لصينت كرامات وحقنت دماء وحفظت أموال، وأشيعت ثقافة السلم والسلام، ولما استبدت بالناس الأحقاد والضغائن وحكمهم منطق العنف والتطرفْ وكثر فيهم الهرج والمرج، لقد عمد الغرب إلى سياسة العصا دون الجزرة متصوراً أن العنف يحسم الرفض، وفاته أن سياسة التطمين والتأليف وبث الثقة ومنطق الحوار طريق قاصد لحياة سوية.

وليس بين الغرب والسلام العادل إلا الأخذ بمبادئ تلك النظرية الممكنة وعودة الفرقاء إلى طاولات المفاوضات لفض الخلاف والتوصل المرحلي إلى أنصاف الحلول والتعاذر فيما لا يمكن الاتفاق عليه، حتى يأذن الله بالفرج وسياسة (خذ وطالب) أهدى وأجدى من سياسة (نكون أو لا نكون) على حد:

ونحـــن أنـــاس لا توســـط بيننـــا
لنـــا الصـــدر بـــين العـــالمين أو القبـــر

شَفَاكَ الذي يَشْفِي بجُودِكَ خَلْقَه .. ! [(١)]

يُجري الله على يد من يريد من خلقه شفاء من يشاء من عباده، أو يُوفِّر بجهدهم الأمن، أو يُحقق ببذلهم الكفاف، أو يجدد بعلمهم الدين، ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ﴾، ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾.

والمحظوظ من استعمله الله في طاعته، وحبَّب إليه السَّعْي في حاجات خلقه، والعلماء، والقادة، والموسرون، بعض جنود الله التي نراها رأي العين، وكم من جنود لله لا نراها، ولا يعلمها إلا هو، فإما أن يكونوا مجندين للخير والحق والفضيلة، يَعِظون، أو يَحْمون أو يفكون الرّقاب، دَأْبُهم عبادة الخالق، وعمارة الكون، وهداية البشرية وسلامتها. وأحب خلق الله إليه أنفعهم لعياله - من العيلة - وإما أن يكونوا شراً مكاناً وأضعف جندا، و«**كل كبدٍ رطبة فيها أجرٌ**».

والتاريخ مليء، بالعبر لذوي الألباب، والمشاهد الحية تعج بالمتناقضات وبراهين التألق والتفوق والتوفيق تتمثل في قلاع العلم والتربية والتعليم وحصون الأمن وصوامع الغلال ومدن الطب ومجمعات المصانع وصناعة الإنسان وتحقيق إنسانيته وصيانة كرامته، وما تلك إلا بعض شواهد الإثبات لمن أخذ المسؤولية العامة والخاصة بحقها ورعاها حق رعايتها، وما من أحدٍ إلا هو راع ومرعي في آن ومسؤول عن رعايته، وبلادنا مثل حي على الأخذ بحظ وافر من مقومات الحياة السوية، وما كنا بما نقول مقترفين خطيئة التزكية، ولا ادعاء العصمة، ولا متورطين في مأزق المفاضلة أو التصدير، فما نحن - في النهاية - إلا بشر، لا ندعي نهاية التاريخ والإنسان الأخير، ننسى ونخطئ ونجأر إلى الله ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾وليست الإشكالية في تلك العوارض الطبيعية، ولكنها في المبادئ الفاسدة، والنظم الجائرة، ودعاة السوء على أبواب جهنم.

والأصحاء والموسرون، والآمنون الأحرار، متوَّجون بتيجان لا يراها إلا المرضى والفقراءُ والمقهورون، (والعُودُ في أرضه نوعٌ من الحطب) والنعم كأوابد الوحش قيدها الشكر ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ والسعداء أولئك المنْعَتِقون من المُذِلاَّت الأربع:

-الفقر المدقع، والمرض الموجع، والسؤال المكِسع، والمعصية المردية - وجماع ذلك كله حكام الجَوْر وبطائن السوء. وإن من الأناسي إلا وارد لواحدة منها أو أكثر، ومتى أعيذ الإنسان منها أو من بعضها أدرك حظاً وافراً من السعادة التي لا يدركها، ولا يعرف قدرها إلا المرتكسون في أوحال المذِلاَّت، فالصحيح لا يذوق لذة الصحة حتى يمسه الضر، والثري لا يعرف قيمة الدثور حتى يزويه الفقر، والمستغني عن مساعدة الآخرين لا يدرك عزة الاستغناء حتى يحتاج إلى وجاهات الآخرين ووساطاتهم للحصول على حقه المصادر أو حاجته المبخوسة، والمستقيم كما أمر لا يشعر براحة الطاعة وأمنها حتى يقع في يد العدالة أو يقلقه ندم المعصية، وكم من طريح فراش يئن أنين المفجوعة بواحدها لا يفكر إلا في أدنى حدٍّ من الصحة يمكنه من هجعة تنسيه آلام المرض، ولو كان يملك الدنيا وما فيها لافتدى به من عذابات المعاناة.

---

(١) تاريخ المقال: ٢٥/ ١٢/ ٢٠٠٧

وحين طلب أحد الخلفاء كوباً من الماء - وكان في حضرته نديم ناصح استوقفه قائلاً: يا أمير المؤمنين لو مُنعت هذه الشربة فبكم تفتدي رِيَّك. قال: بنصف ملكي. قال: اشربها هنيئا مريئا.

ولما فرغ قال له: أيها الأمير لو احتبس في مثانتك فبكم تفتدي خروجه؟

قال: بنصف ملكي. قال: لا أراك الله بأساً، أوترضى بالظلم من أجل ملك لا يساوي شربة ماء (وكل الذي فوق التراب ترابُ).

ولك أن تتصور ما دون ذلك، فعندما يفقد الرسَّام أنامله، والحكواتي صوته، والقارئ النهم ناظريه تصبح الحياة زنزانة متعفنة، ولولا نعمتا الأمل والنسيان لعاش ذوو العاهات أشد العذاب، والمبتلى يفجعه التدهور الصحي المفاجئ، والناس مشروع كبد ونكد وابتلاء.

﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ﴾ ومن ثم يظفرون بصلاة الله عليهم ورحمته وهدايته، وكيف إذا كانت الإصابة ب(الحبيبتين) لمتشبث بالقراءة.

لقد أصابني عارض مفاجئ أحسست معه أن الأحبار باهتة والحروف خافية، وكنت أخادع نفسي وأقول: فسدت الطباعة وساء الإخراج، وكلما غارت الكلمات، وأصبحت تهتز كأنها جان، هرعت إلى الطبيب ليزيد في تقعير النظارات، وتعميق الإضاءة، غير أن الأسطر لا تزيد إلا اضمحلالا، ولما لم يبق أمام ناظري إلا (المانشستات) طُفْتُ أبغي نجوة من عمى يحرمني أعز ما أملك، وأحب ما أشتهي (القراءة) (ألتمسها عند أبرع الأطباء وفي أدق الأجهزة وفي رحاب أرقى المشافي. وما كنت أحسب أن الأمر جد بسيط، وأن القضية المرعبة لا تعدو كونها سطو ماء أبيض على عدسة حساسة، وأن هذا السطو المعشي مرصود ومقدور على انتزاعه في ساعة من نهار، لقد أدركت أن وطني يسبق ظله، ويتخطف كل المستجدات الطبية والعلمية من آفاق المعمورة لتكون حاضرة (الرياض) درة المدن، وعاصمة العواصم، ومهوى أفئدة ذوي الحاجات والمأزومين وأن (خشم العان) قد رحلت (ضبابه) و(يرابيعه)، واجتث شيحه وقيصومه، وسُوِّيت أوديته وتلاله، وانطوت صحراؤه وقيعانه ليكون مدينة طبية تعج بأمهر الأطباء، وأَجَدِّ الأجهزة، وأَدَقِّ الأنظمة، وساعتها أحسست أنني في عوالم أخرى تمد بسبب إلى الحضارة والمدنية في أرقى وجوهها، ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها أن عمالقة الأطباء من أبناء بلدي، يتحدثون كما نتحدث، ويلبسون كما نلبس، يلاطفون المرضى بلهجتهم، ويمازحونهم في نبش ماضيهم، حتى يُفَرِّغوا عن قلوبهم رهبة المواقف، ويعيدوا لأنفسهم طمأنينة الثقة والتآلف.

والمراجعون الذين يذرعون الممرات يلتقون بأسماءٍ ألفوها كالاستشاري صالح وخالد وإبراهيم، وبأسماء أسر تألق أبناؤها كالعليقي والجبير والحنتوش، وما كنا في مطلع شبابنا نجد في مستوصفاتنا إلا وافدين من أجناس شتى، يكون أحدنا بينهم غريب الوجه واليد واللسان، وسعودة التخصصات العلمية في أرقى مستوياتها من بوادر الخير ومؤشرات التوفيق و(مدينة الملك عبد العزيز الطبية) التي استعدت قوة الإبصار في رحابها واحدة من شواهد الإثبات، لقد وجدتها مدينة تزخر بكل جديد من الأناسي والأشياء، تدار بأحدث الأنظمة، تنساب فيها المعلومات والإجراءات، وتتوفر فيها كافة المتطلبات، لا ترى فيها عجًّاً ولا عوجا، بطاقة بلاستيكية تقف بك على أحدث ما اكتشفته البشرية من علوم بحتة، وما أنجزته من أجهزة دقيقة، وما استحضرته من أدوية متنوعة، وتربطك بأمهر الأطباء في مختلف التخصصات، وأبرع الفنيين، إنها واحدة من أرقى المدن الطبية وأكملها في بلادي، تعج بالحركة، وتموج بالمراجعين، يفد إليها الزمنى، وينقل إليها المدفنون، تنقلهم

طائرات الإخلاء، وسيارات الإسعاف، فيعودون إلى ديارهم تحملهم أقوامهم، وتهديهم أبصارهم، وهم يرددون:

وقيـــدت نفســـي فـــي دراك محبـــة

ومـــن وجـــد الإحســـان قيـــدً تقيـــدا

ويلهجون بالثناء العاطر على صانع الأمجاد ومهندس التحول المدني على أرض جرز وأودية غير ذات زرع.

لقد كان (الحرس الوطني) ثلة من الحاضرة وقليلاً من البادية الذين جاءت بهم الحاجة ورغبة التحضر من البدو فاستبدلوا الإقامة بالظعن والمدر بالوبر والبندقية بالعصا والعقال بالعمامة، وحين تلقى هذه المنشأة باليمين القوي الأمين تبدلت الأوضاع غير الأوضاع والإمكانيات غير الإمكانيات، وتحول أبناء الحاضرة والبادية من رعاة للشاء والبعير إلى أطباء مهرة وعلماء أفذاذ وجنود وطن أوفياء، فكان هذا القطاع العسكري مثار إعجاب وإكبار يأخذ من كل شيء بطرف، إن أردته للثغور فهو للثغور، وإن أردته للثقافة فهو للثقافة، وإن أردته للطب فهو للطب، لقد جئت إلى تلك المدينة الطبية وهي واحدة من مدن ومجمعات طبية أخرى لأعبرها إلى غيرها على حد: (الذي لا يعرفك لا يثمنك) مُتصوراً أنها كمعهودي الذهني مجموعة من العيادات في مستشفيات الأطراف، أطباء عامون، وأجهزة بدائية وأدوية مسكنة، ورتابة في الكشف والعلاج، ففوجئت بما لا يخطر لي على بال، ولم يبق والحالة تلك إلا أن تشيع بيننا ثقافة المؤسسات المدنية كي نتلافى (الهوَّة الثقافية) التي تفصلنا عن حاضرنا، وأن نتوفر على (الديناميات) الثقافية وتكاملاتها، متخلصين من النمطية والصدام لنُعايش واقعنا، وأن نترقى بمداركنا إلى مستوى المنجزات الحضارية التي بين ظهرانينا بحيث نعطي ونأخذ بمعرفة واقتدار:

ومـــا تنفـــع الخيـــل الكـــرام ولا القنـــا

إذا لـــم يكـــن فـــوق الكـــرام كـــرام

وبعد الحمد والثناء على من أسبغ العافية وشفى وهو الشافي ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ أثني الثناء كله على كفاءة الطبيب الذي أجرى الله على يده الشفاء التام صاحب الأنامل الحريرية الاستشاري خالد الجبير سلمت براجمه من الأوخاز.

بواعث الارتباك في الأمة المأزومة .. ! (١) [1]

من المسلمات التي لا شية فيها أن الأمة العربية بوصفها جزءاً من العالم الثالث المتخلف عن ركب الحضارة العلمية البحتة والمتهالك عليها والمستهلك لها بنهم شديد أمة مأزومة، تعيش حالة من الارتباك والضعف والتفرق والهوان على الناس، حتى لا تستطيع اتخاذ أي قرار مستقل يحفظ ماء الوجه، ويقلل من انتهاكات شرذمة قليلة، تجمعت من آفاق العالم بنص مزور وحبل من الناس، بل لا تستطيع كف هذا الصنف من الناس عن غيه، وحمله على التدخل لرد هذه الشرذمة عن إرهابها الدولي المنظم، ومضاعفات التخلف أوضاع لا يرجى النهوض في ظلها، ولا الخلوص من أوضارها، والأزمة من حيث المجال والبواعث، ليست حكراً على فئة ولا على قضية، وحين نحاول تجسيدها والتماس الحد من استفحالها، لا يعنينا البحث عن الأطراف المسؤولة لمحاكمتها، والخلوص من الضلوع فيما حدث وما يحدث، فما عاد مجدياً البحث عن مناطات للتخلف، فكلنا خطاؤون، ولو فكر كل إنسان سوي وقدّر، وحاسب نفسه قبل أن تحاسب، وحاول تهذيبها، لأصبح الناس إخواناً على سررٍ متقابلين، والداء العضال أن المتوقع منهم التفكير في الذات قبل الآخر، يزكون أنفسهم ويدينون سواهم وهم يحسبون أنهم بهذا التنصل والتزكية الزائفة يحسمون المشاكل، وما دروا أن الأمة مأزومة في مؤسساتها وأشيائها وقضاياها الفكرية والثقافية والسياسية والاقتصادية، وفي التخطيط والممارسة، وتفاقم الأزمة ناتج نسيان الذات، وإنساء الأنفس عقاب رباني لمن نسي ما أمر به ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾، ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ ونسيان النفس جهل ما هي عليه، وما يجب أن تكون عليه، وبوادر نسيان الذات تتبدى في إعجاب كل ذي رأي برأيه وفي تأليه الهوى، فكل ناطق عبر أي وسيلة إعلامية يعدّ نفسه أمةً وحده، يملك ناصية التقدير والتوقيت والتدبير، لا يؤمن بمرجعية، ولا يذعن لمؤسسة، ولا يلتزم بعهد، ولا يلزم جماعة المسلمين، ولا يبالي بأي وادٍ هلكت أمته، وكأنه ذلك الضال المضل الذي جرب كل العبادات فوجد أحسنها عبادة ذاته، ومن ثم لا يتردد في تأليه هواه، والتعملق على سيقان خشبية لمطاولة الأساطين الذين مكن الله لهم في الأرض فأقاموا ما أمروا به، ولسان حاله ومقاله يؤكد أنه رجل والآخرون رجال، وأن قوله صدق لا يحتمل الكذب وقول غيره كذب لا يحتمل الصدق، وما درى أن الخروج من فلك المرجعية المعتبرة: حكماً وحاكمية، إغراق في الفوضى وتمكين للغوغاء، وذلك بعض الداء العضال الذي يزيد في التأزيم، ويؤجج نار الفتنة، وحين نقطع بوجود أزمات مضاعفة في الذات المتداولة والموضوع المتداول تَنْسِل بعدد القضايا والأناسي، لا نفكر في ذواتنا، وما هي عليه من إعجاب بالرأي، واستخفاف بالآخر، وجهل مريع بالذات وبالإمكانيات، وجنون الثقة بالذات يصرفنا عن التفكير في أسلوب منطقي يكفل لنا التوفر على حوار حضاري، يدرأ عنا غوائل الصدام والصراع، ويبلغ بنا مشارف التفاهم، أو التعاذر، وذلك أضعف الحلول، حوار يمكننا من إنضاج قضايانا على نار هادئة نوقدها من شجرة زيتونةً لا شرقية ولا غربية، حوار يؤدي بكافة الفرقاء إلى تحديد دقيق وواضح لطبيعة المشاكل التي تجتاح الأمة في سائر شؤونها، وإخضاعها لفقه الواقع والأولويات والفتن والتمكين، ولهذا قال العلماء بتغير (الفتوى) ومن قواعدهم: - (لا ينكر تغير الفتوى بتغير الزمان والمكان) وهي قاعدة ذات حدين؛ إذ ليس الأمر على إطلاقه، بحيث نجري هذه القاعدة على كل

---

(١) تاريخ المقال: ١/ ١/ ٢٠٠٨

عزيمة تتعثر بعادة أو تصطدم بمحاكاة، بل لا بد من أهل ذكر يملكون القدرة على الترجيح بين العزائم والرخص، بل لا يكفي أهل ذكر منفردين لا تجمعهم مؤسسة، ولا يهمن عليهم تداول الرأي بحرية تامة، وانعتاق من المذهبية الضيقة والآنية المقيدة ولو حصلت معجزة ربانية وحددت المواقف ورضي الناس بأقل قدر من وحدة الصف والهدف، وقيد المتجادلون جدلهم في المساحات المشتركة وأقبلوا على بعضهم يتفاهمون ولا يتلاومون فإن أشياء كثيرة ليست من تدبيرهم ولا تقديرهم ستنبعث من تحت أرجلهم، وتسبقهم إلى طاولات التفاوض لتفسد عليهم أمر دينهم ودنياهم، والأقل من المفكرين من يحسب لهذه الأيدي الخفية حسابها، بل نجد من ينكر ذلك، ويرى أننا وحدنا الذين نفسد شأننا كله، لقد صمم الآخر الحدود، وفرّق بين المجتمعات في التفكير والمستويات والحاجات والعادات والقناعات، ورتب لكل قطر أولوياته، ونوّع المصالح، وناقض بين المفاهيم، ومن ثم فإن كل اجتماع تحول دون نجاحه تلك الخصوصيات التي أنشئت في غفلة من الرقيب، ومع كل التوقعات المخيفة والمحبطة يظل هناك بصيص أمل، وخيط رفيع يوجب على كل مقتدر تكرير المحاولات فالأمة العربية لن تظل في التيه لمدة أطول:

-

وقـــد يجمـــع الله الشـــتيتين بعـــدما
يظنـــان كـــل الظـــن ألا تلاقيـــا

والمسكونون بهم أمتهم لا يثنيهم عن المحاولة أي عائق:

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤] .

فالمناصحة واجبة حتى مع اليأس لأنها أداء واجب لا يرتبط بالنتائج، وكم من ناصح لا يحسن الفعل ولا يدرك الأشياء على حقيقتها يشكل بمناصحته عبئاً على أهل الحل والعقد، (ومن الحب ما قتل) وليس من بوادر الخير أن يفت اليأس والإحباط في عضدنا، ولا أن يبتدر الرأي والمشورة المتعجلون والمكرهون للناس على الامتثال ولا أصحاب الحدة والحدية والمثالية؛ إذ داء المشاهد كلها الفردية والتفلت على المرجعية، والصدامية، والتلفيق واستهلاك الأفكار والمبادئ والتمييع والانقطاع وجماح العواطف، والفجوة والجفوة بين النخب والرأي العام، وعسى أن تشتد لتنفرج، ولن يغلب عسر يسرين.

وما لا مراء فيه في الشأن كله خاصة وعامة، قليله وجليله أن الحدية والمثالية تحملان على العناد وتفويت الفرص والإصرار على الحل النهائي والحاسم، بحيث لا يكون لنا إلا الصدر أو القبر، إن المنطق يحتم علينا أخذ الأمور خطوة خطوة، والتغاضي عما لا حاجة لنا به ولا طاقة لنا باحتماله؛ إذ في كل عصر ومصر توجد ملفات ساخنة بل تكاد تكون مفخخة يتربص بها الأعداء، ويسعون لفتحها متى شاؤوا، ومن ثم لا يكون من المصلحة استدعاء شيء منها على مبدأ الأولويات والمقدور عليه وخيار التأجيل والاشتغال بالممكن والضروري، على حد: «**لولا أن قومك حدثاء عهد بكفر**» وحين دعوت الكتاب والمفكرين إلى مرحلة التكتم والتكتل انبرى من يدعي أنني أحرض على ترك الأشياء ترمّ على فساد، وأنني ضد الشفافية والمصارحة والمساءلة وحرية التعبير والتفكير، وخطأ النقد في الابتسار وتحميل القول ما لا يحتمل، وذلك من فساد التأويل الذي فرّق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة. كما حذر الصادق المصدوق.

إن الدعوة مرتبطة بالواقع المعاش، وهو واقع مريض لا يحتمل مزيداً من جلد الذات،

ومرتبط بأسلوب النبش والبحث فيما لا فائدة من بحثه، ولأن تداول الممكن وغير الممكن والصحيح وغير الصحيح يساعد الأعداء المتربصين على جمع الوثائق التي تساعدهم على توهين العزمات، وتشتيت الجهود، وقمع المسكونين بهمّ أمتهم عن ممارسة حقهم الإنساني والعربي والإسلامي، فإن من الخير لنا تفادي النفخ في الأخطاء العارضة والوقوعات الشخصية، وكيف لا نحذر من إشاعة الأخطاء المحلية، ونحن نسمع ونرى من يتهم بلادنا بالجور والظلم وسلب الحقوق واستعباد الناس، ولا تثار مثل هذه الاتهامات إلا حين يكون مؤتمر أو لقاء يهم العالمين العربي والإسلامي، وهي إثارات تمس سيادة البلاد وتمس سمعة مؤسساتها، وليس بيد الأعداء إلا ما كنا نتداوله فيما بيننا عن حسن نية وسلامة قصد، ولأننا طرف أهم في قضايا الأمة علينا أن نمتلك خطاباً حضارياً بعيداً عن الانجراف العاطفي، خطاباً يفرق بين المبادئ والتطبيقات ويفرق في قراءاته بين السلطات الثلاث، ويستصحب الشعور بهيبة السلطان واحترام العلماء، بحيث يمرر رؤيته بأسلوب بعيد عن الإثارة والاستعداء، مستبطناً قيم المعارضة الإيجابية، مستحضراً خطورة الصدام مع الرأي العام، ولن يستطيع أي مجتمع أن يكون فاعلاً حتى يتغلب على مشاكله الخاصة قبل العامة، ويمتلك القدرة على التحكم فيها، وحتى تقترب نخبة من قواعده البشرية العريضة؛ إذ المعروف أن الثقافة ذات أبعاد اجتماعية وهي مجمل السلوكيات المعتبرة، وأبعاد ذاتية، وهي مجمل المحصلات المعرفية، وهذا التعدد يحتم على الطرف المتحكم، وهو الطرف المعرفي أن يراعي أسلوب التغيير والتوجيه، فالمجتمع محكوم بمسلمات لا يمكن أن يحيد عنها بجرة قلم، وإن كانت في نظر النخبوي خاطئة ومقدور على التغلب عليها، وكيف يتم التحول الكلي والسريع بالقدر الذي يراهن عليه النخبوي، والرسل والأنبياء ظلوا سنوات يدعون قومهم ثم لا يستجيبون: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلاَّ فِرَارًا﴾.

ثم إن البعد المجتمعي من الثقافة أوسع وأعمق من البعد المعرفي، لأنه عملي؛ بمعنى أن الثقافة نظرية وتطبيق، والموجهون لها هم أهل المعرفة النظرية، فيما يكون المطبقون هم الأكثر عدداً والأقوى رسوخاً وثباتاً، ومتى بلي المجتمع بنخبه تعمقت المشاكل واستفحل الخلاف، وذلك ما نراه ونعايشه، والمستخف بتنوعات الثقافة ومستوياتها لا يمكن أن يمارس التوجيه والنقد والإصلاح.

بَواعِثُ الارتباك في الأمة المأزومة .. ! (٢) [١]

وإذا كان القانون -كما يقال-: لا يحمي المغفلين. فإن حُسْن النوايا لا يشفع للمخطئين في القضايا المصيرية، وإن بُعث كل ميت على نيته. ومهما سلمت النوايا، وحسنت المقاصد فإن غياب الحكمة وفصل الخطاب يؤديان إلى مزيد من التدهور، ولقد قيل عن أحد القادة الذين دمروا كل مثمنات وطنهم: بإمكان التاريخ أن يقول عنه كل شيء إلا أن يصفه بالخيانة لوطنه، ولهذا فإن مناط الحكم في حز المفاصل ووقوع السهم في قلب الرمية، والذين ينسيهم الصدق عن ذكر العواقب، يجرون أمتهم إلى التهلكة، ويلقون بأنفسهم في أتون المسؤولية والمساءلة.

وبقدر أهمية التعرف على قوة الطرف الآخر تكون أهمية التعرف على قوة الرأي العام، ومدى تمسكه بما وجد عليه آباءه، ولا شك أن تفادي الإثارة والتهييج مؤذنان بالخلوص المرحلي من المسلمات غير السوية، ثم إن المجتمع المستهدف بالنقد والتوجيه ليس وحده الذي يشكل الواقع، وليس وحده الذي يستطيع أن يغير الواقع، وكم من مجتمع يطفو فوق التيار، بحيث لا يملك القدرة على الوقوف متى شاء ولا الاتجاه حيث يشاء، والمسكونون بهمّ الإصلاح أحوج ما يكونون إلى البحث عن الأنساق الثقافية التي تتحكم في مسار الحياة، ومحاولة تصحيح ما يمكن تصحيحه قبل مواجهة المجتمع بما هو عليه من تجاوزات، وإذ لا ننكر على المثقفين استياءهم من بوادر الضعف والتخلف والتنازع المفْشِل فإننا لا نمضي معهم في أسلوب المعالجة القائم على الشجب والسخرية والتجميل وهز المسلمات، إن علينا سبر كل الأغوار إذ ما في مقدور أي مقاومة أن تحقق مآربها ما لم تتوفر على معرفة شاملة وعميقة بمناهج الأطراف المؤثرة، ومفاتيح الفرج في فهم أرضية المنطلق وآفاقها، وبخاصة الخلفيات الثقافية للمجتمعات المقصودة بالتغيير، وعينا أن نقف ملياً أمام تأثير دعاة السوء، وقدرتهم على تخطف الشباب البريء وحملهم على مفارقة الجماعة باسم الدين، فما الأساليب التي اتخذوها؟، وما اللغة التي توسلوا بها؟ وما المناهج والآليات التي اعتمدوا عليها؟ حتى بلغ أثرهم هذا المبلغ المخيف، وحتى أصبح الإنسان يوجس خيفة مما تحت يده من الأبناء.

إن هناك قطيعة بين النخب المتصدرة والقواعد العريضة من المجتمعات المستهدفة واختلافاً بين فصائل النخب، فَهُم ليسوا على قلب رجل واحد، وليسوا منتمين إلى رؤية منطقية تتداخل فيها الدوائر، وتملك القدرة الكافية من الانسجام مع بعضها وإقناع الرأي العام على توحد رؤيتها، ومن المسلمات أن فاقد الشيء لا يعطيه.

وإذا كان قاصد الإصلاح لا يسيطر على مشاعره ولا يتناغم مع المتخندقين معه فكيف تتأتى له السيطرة على مشاعر الآخرين، وفوق هذا كله فإن خيوطاً خفية مربوطة بأصابع أخفى من دبيب النملة السوداء على الصفارة السوداء في ظلمة الليل تحرك أهم الفاعلين في المشاهد، ومن ثم تَحُولُ دون الوفاق، ولا شك أن مسرح صناعة التاريخ يختلف كثيراً عن مسرح العرائس، وعلى ضوء الحراك المتعدد الاتجاهات والانتماءات تبدو إشكالية التشابه، فكثير من المتصدرين للإصلاح ليسوا مصلحين، وإن زعموا ذلك وادعوه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١، ١٢] .

---

(١) تاريخ المقال: ٨/ ١/ ٢٠٠٨

وهنا ندخل في إشكالية الغزو والتآمر والأفكار المستوردة، وهي قضايا متنازع عليها، بل تكاد تكون بؤرة التوتر بين المتنازعين على سدة الإصلاح، وهي من أخطر بواعث الارتباك، والإشكالية ليست في تحققها في الواقع وإنما هي في أسلوب التعامل، وأنواع القصور، ومن ثم فإن تأزيم الأزمة ليست في الظاهرة من حيث هي، ولكنها في توظيفها، فالذين استسلموا للغزو وارتموا في أحضان الغرب، واستمرؤوا استهلاك ظواهره السلوكية، وقيدوا أنفسهم لحساب مصالحه وإشاعة محققات مدنية يتهمون المتحفظين بعقدة الغزو والتآمر واستمراء التخلف، وبعض أولئك يلوذون بهذه العقدة لتحميل الآخر مشكلات التخلف والشقاق، وإذ نسلِّم بأن هناك أفكاراً مستوردة لا تصلح لنا ولا يستقيم أمرنا معها فإنه يجب الحذر الشديد من سيطرة هذا الهاجس على كل أشكال التعامل، ومثلما نخطئ في مفهوم (البراء والولاء) ومحققاته وهو أمر عقدي خطير نخطئ كذلك في مفهوم الغزو والتآمر والأفكار المستوردة وهي أمور دون ذلك، واضطراب المفاهيم في قضايا التواصل مع الحضارات والمدنيات من أخطر بواعث الارتباك، والدول المتقدمة في الشرق تنبهت إلى مثل هذا الاضطراب في المفاهيم، وأخذت حذرها منها، وليس من الخطأ أن نشيع الخوف من الغزو، ولكن الخطأ أن نكبل أنفسنا ونعزلها عن العالم ونحرمها من التفاعل الإيجابي وتبادل الخبرات والحوار الحضاري، وأن نكون مستهلكين بجهاد والدفع، فالتوتر والخوف والشك والارتياب في كل شيء ومن كل شيء يشكل عقبات في طريق الحياة السوية، والإسلام يحثنا على السعي في مناكب الحضارات والتماس ما يناسب حضارتنا، وينسجم مع قيمنا، فما نحن في النهاية إلا جزء من العالم، والحضارة في جزئها الأكبر إنسانية لا تنتمي إلى أية (أيديولوجية) ونحن أحق بهذا اللون من الحضارة.

إن النظر في الأطروحات يبعث على الخوف، وبخاصة من أولئك الذين أشربوا في قلوبهم الماديات البحتة، بحيث لا ترى ولا تسمع ارتباطاً بالمصادر الحضارية من كتاب أو سنة، كما أنها إلى جانب ذلك أطروحات تتداولها النخبة والملأ وتهمل لغة الرأي العام والجماهير، وهي حين تجنح إلى التيسير في ظل استفحال التطرف والغلو تخلط بينه وبين التسطح والتلفيق، والمشهد الفكري والسياسي خليط من المناوئين والمتسطحين الذين استهلكوا جهودهم في عالم الأفكار من خلال جهود فردية مُنبتة، والجوانب الفكرية - على الرغم من وجود جوانب أخرى لا تقل عنها - بحاجة ماسة إلى ممارسة مؤسساتية لكي تكون الأطروحات في مستوى المواجهة، ولا سيما أن الإسلام يرى أن الجهاد بالكلمة لا يقل عن الجهاد بالسلاح، ولقد كان من المشركين محاولات جادة قبل المواجهة بالسلاح، ومن ثم فقد وجه الله رسوله بالجهاد بالكلمة ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢] أي لا تطعهم فيما يوردونه من حجج، وما يثيرونه من تساؤلات، وجاهدهم بما في القرآن من حقائق وأحكام وقضايا جهاداً تبلغ فيه أقصى جهدك، ولما كان من الجهاد جهاد الكفار بالحجج القرآنية، فإن طائفة من ذوي الأفكار لا يستحضرون هذا التوجيه الرباني، ولا يرون الحوار والجدل جهاداً قد يحقق من الوفاق فوق ما يحققه القتال والمواجهة المسلحة.

ومحاولة الإصلاح ومعالجة الأزمات بأمس الحاجة إلى منهج للتفكير لقد واجه العلماء الأوائل مشكلة المنهج، حتى كتب (الشافعي) (الرسالة) فكانت فتحاً مبيناً في عالم التأصيل المعرفي، وقد عده رأس الحداثيين (نصر حامد أبوزيد) مؤسس (الأيديولوجية) وإن عده مع (الأشعري) و(الغزالي) مؤسسين للوسطية، فـ(الشافعي) أسس الوسطية

(الفقهية) فيما أسس (الأشعري) (الوسطية) (العقدية) -على حد مفهومه- و(الغزالي) أسس الوسطية (الفكرية والفلسفية)، وليس يعنينا هنا تفصيل هذه النتائج، وإنما نحن بأمس الحاجة إلى (المأسسة) و(المنهجية) لكي تخلص الأمة من أزماتها التي تتضاعف بسبب التشتت وذهاب كل مفكر مع هواه دون علم بما يقول: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥] . وإذا كنا نضيق ذرعاً بالتراشق، والتنازع والسعي لتصفية السمعة وهي من أزمات الأمة فإن الرسل من قبل قد واجهوا مثل هذا ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣] ولكي نحلحل الأزمة ونفك الاختناق نوجه بما وجه به الله وحذر منه ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣] وما أكثر ضعفاء المسلمين الذين يعبدون الله على حرف، ومن ثم تؤثر عليهم قالة السوء ويرفعون باستجابتهم رصيد الغثائية التي أخبر بها الرسول ﷺ وحذر منها.

ولكي نوقف التدهور المريع لا بد من تصور الواقع، وتشخيص الداء ورسم خطوات الحل المناسب لكل الملابسات، ولن تستقيم الأمور بالمبادرات الفردية، لا بد من التأصيل وتحرير المسائل والمأسسة والمرجعية والمنهجية وكثير من التعقل وقليل من العواطف الجياشة والدخول في السلم كافة والانضواء في كنف الجماعة فيد الله مع الجماعة ومن شذ شذ في النار.

من التبرير الكاذب إلى التصديق الأبله .. ! (١)[(١)]

ما قرأت في الشأن السياسي الحديث من خلال وثائق أطرافه، أو مذكرات صنّاعه، أو تحاليل مراقبيه إلا أقسمت جهد أيماني أن التاريخ يعيد نفسه، كما الحافر يقع على الحافر.

وغُصص الاستياء تمد بسبب من تجرع الشر المستطير ومداراة مقترفيه إلى المتصدرين للقول في الشأن السياسي كله، ممن لا يدرون ما الخداع، وما المكر والتربص، ولا تعدو عيونهم مواقع أقدامهم، وإذا كانوا يجهلون مبلغهم من العلم فهم لما سواه أجهل.

ولو أنهم دعوا ما حولهم من الأناسي المعذبين وما بين أيديهم من الأشياء المدمرة بأذن واعية، لقال لسان مقالهم: ما أشبه (أمريكا) ب(بريطانيا) وقال لسان حالهم:

كلا الأخوين كذاب ولكن
حسام الدين أكذب من أخيه

مع الاعتذار من الشاعر الساخر، وحين تكون حسابات المتصدرين للشأن كله خاطئة تكون النتائج أشد خطأ وأنكى، وما من مواجهة باردة أو ساخنة على أرض المستضعفين إلا كان على ذوي المطامع الدنيئة كفل منها.

وإعادة التاريخ لنفسه يكتنفها غموض غنوصي وتتم عبر مراوغة خفية لا يعرفها إلا الذين هم بها مصدقون، وفداحة السوء لا تقف عند الغزو والتآمر المستبعدين من المتسطحين على الأحداث، وليست وقفا على السعي لإفساد ذات البين مما يفعله الغزاة المتآمرون، وإنما الكفل الأكبر من السمّاعين للمعتدين، المصدقين للكذابين، الناهضين بمهمات التبرير والتعذير وشرعنة الاعتداء السافر، والتمكين من رقاب الأقربين.

هذا الجهل المعتق، وتلك المؤازرة المشبوهة يأتيان تحت تأثير المخادعة والتغرير ودعوى جلب الحرية والعدالة والمساواة والتحضر والمدنية وتخليص الشعوب من حكوماتها المتسلطة وحكامها المستبدين.

ومن المنغصات على مدركي بواطن الأمور العارفين للأعداء من لحن القول أن يبتدر القضايا المصيرية من لا علم عنده بأبجديات السياسة ولعبها و(كواليسها) و(لوبياتها) ومن ليست له تجربته الواسعة واطلاعه العميق أو احتراسه الحذر أو شكه المتسائل أو تثبته المبرهن.

والقول بأن (سعيدا) أخ ل(مبارك) مما هو معلوم من السياسة بالضرورة، فصراع الساسة للظفر بالغنيمة لا من أجل تحريرها، ولعبة التمويه أنهما لن يخرجا من ديارهما بالقض والقضيض ولن يجوسا خلال الديار إلا تحت أغطية غسيل الأدمغة واحتواء المعارضة وخضد الشوكة وخصي الشفاه أو تطويعها لتسويق الخطاب وطرد الغربة.

وكم ينتابني الخوف حين لا أجد من يفرق بين المهرج والمفكر؛ لأن هذا النوع من المغفلين يقبل زيف المهرج كما لو كان مفكرا عميق المعرفة طويل التجربة ناصحا للأمة ساعيا في حاجاتها، والقدرة على الفرز تتطلب إمكانيات استثنائية من توفر عليها فقد أوتي خيرا كثيرا، وعذر هذه الفئة المنقوصة الوعي أن ما يبيت من القول الذي لا يرضي ذوي النوايا السليمة والمقاصد الحسنة كما بقر بني إسرائيل تختلط عليهم الأمور وتلتبس عندهم الأشياء، فكل متحدث مخدوع أو مأجور أو صدوق يشدك إليه لدد خصامه ومعسول

---

(١) تاريخ المقال: ١٠/ ٧/ ٢٠٠٧

كلامه، ولقد حذر الرسول ﷺ الخصم الألحن من عَزِّ خصمه بالخطاب والخبير ببواطن الأمور، تتعرى أمامه الدعاوى الكاذبة، ويعرف كم هو الفرق بين المهرجين والمفكرين، والناصحين والمرتابين، غير أن هذا الصنف الأندر من (الكبريت الأحمر) قد لا يأبه بالمختصمين، أو لعل كثرة الأدعياء جعلته ك(فراش) و(ضبائد) والفوضى الكلامية، وانطلاق الألسنة بما يعن لها، وانعدام الضوابط والروادع، قد تحمل الحكيم على اعتزال القوم وما يقولون، أخذا بجواب الرسول ﷺ ل(حذيفة بن اليمان) رضي الله عنه، عند احتكام الفتن والفراغ الدستوري.

وإذا كان الجهلة والتبعيون والمواطئون يشكلون عقبة عصية فإن ثالثة الأثافي صدّيقون لا يتوقعون إمكانية الظاهر والباطن ولا يدركون خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

والإغراق في التبعية أو التمادي في الجهل ليسا بأقل خطورة من الإغراق في المثالية، والصيرورة إليها من طرف الضحية يفتح شهية القوي الخائن لأمانته الإنسانية، ويمكنه من اغتصاب الحقوق، وسلب الحريات، وتحويل الإنسان المغلوب على أمره إلى سائمة أينما توجهه لا يأتي بخير بفعل القهر والاستعباد، والمثالية لا يمكن أن يألفها المشتمل بثوب الزور، ولا أن تألف المعتدي الفارغ من أي حس أخلاقي كما لا يسلّم لها المسلوب حقه وحريته، والحِسّان المثالي المتعالي والواقعي المتداني لا يكون أحدهما عضدا للآخر.

وعند طغيان التناقض يجب على أهل الحل والعقد أن يعيدوا النظر في خطابهم وأن يحملوا الكافة عليه، فالزمن الرديء لا يحتمل الافتعال ولا الانفعال، إذ ما عاد بالإمكان أن نرضى من الجراح أن تَرِمَّ على فساد.

ومتى قبل المقتدرون على حسم المواقف تمشية الأمور على البركة وتركها على ما هي عليه اتسع الخرق على الراقع، والأقدمون يقرون بأن الحرب مبدؤها كلام، ولكي نعد للواقع عدته لابد أن نبدأ بالكلمة بحيث لا تطيش سهامها وبدون المقاربة والتسديد لا يمكن أن توقف الانهيارات ولا أن نعيد الأشياء إلى حيث يجب أن تكون. وتوظيف الكلمة الطيبة السديدة لن يتأتى إلا حين نقطع دابر الجهل المطبق والتبعية المذلة والمثالية المعتَزِلة.

وإذ نؤكد على أن التاريخ يعيد نفسه فإن اكتشاف تماثل الأحداث يحتاج إلى قارئ لا يحمل سمة من سبق وإلى مقروء لما في الساقة لا لما في المقدمة، فالمقدمات تحمل الزيف والتغرير وتقلب للنظارة الأمور، أما الخاتمة فمحكومة بما تعريه الأفعال وتحققه النتائج، ومثل ذلك يحتاج إلى فتح كل الملفات، وتفحص كل القضايا وتقصي كل الأحداث، والقارئ والمقروء بتلك المواصفات كفيلان بكشف الزيف وتعرية الخيانة للإنسانية من أمم تدعي أنها تحمي حقوق الإنسان وتشيع الحرية والمساواة والعدل وتحمل هم التحضر والتمدين. وتلقي هذه الدعاوى الزائفة باليمين من أناس يعدون أنفسهم من الأخيار يبطئ استبانة الرشد وتدارك الأمر قبل فواته، وقديما قيل: (آفة الأخبار رواتها).

وحديثنا عن الادعاء الكاذب والتصديق الساذج لن يتخطى الأقرب زمانا ومكانا، فالمنطقة العربية بؤرة التوتر العالمي ومربط المشاكل العرقية والطائفية والإقليمية، والخليج العربي وما جاوره قعر الفتنة ومسرح الأحداث ما تقدم منها وما تأخر ف(بريطانيا) تحركت صوب الخليج قبل أكثر من قرن، وهي لكي تقنع الشعب البريطاني وتشرعن لفعلها الآثم أمام الرأي العام العالمي ادعت أنها تمارس حقا إنسانيا لا ينهض به إلا الطيبون أمثالها وهو منع (تجارة الرقيق) في سلطنة عمان بالذات، والحق أنها إذ تدعي تحرير الأفراد فإنها تسترق الشعوب، والخليج العربي في مستهل القرن العشرين ولأسباب جذب تغريه أصبح محط أنظار الطامعين، ولقد زادت أهميته باكتشاف الثروات

الطبيعية، وتأزم الأوضاع الإقليمية، وتورطه في حروب حدودية شرسة والاهتمام بأمن (إسرائيل) وتفوقها عسكريا لمواجهة التفوق البشري الذي أصر الغرب على أن يبقى غثاء كغثاء السيل، ومن ثم أصبح منطقة نزاع مُتنامٍ بين الأقوياء من الشرق والغرب. ولقد أتقن الغرب تخويف أوليائه. و(بريطانيا) التي التمست حجة الذئب على الحمل صدقتها الأقلية، أطلقت نحوا منها (أمريكا) في غزوها للمشرق العربي فصدقتها الأغلبية، بل آزرتها، ودفعت بمفارز رمزية من قواتها لمباركة خطواتها، فكان الاستعمار البريطاني الطويل الأجل بكل ما يحمله من امتصاص للخيرات وتفريق بين الكلمات وإبقاء لمحققات التخلف والضعف، ثم كان الاحتلال الأمريكي الذي خلخل التركيبة السكانية وأشعل الفتن الطائفية والعرقية والإقليمية، وقوض البنية التحتية، وعمل على إلغاء التاريخ والذاكرة، وأحيا النعرات، وحرك الثارات، وحول أرض الرافدين إلى حلبة صراع عالمي تصفى فيه الحسابات، ولقد فشلت فشلا ذريعا، وانكشف كذبها.

فما حجة بريطانيا وما دعوى أمريكا وما مبلغ علم الضحايا من العلم ببواطن الأمور، إنها مفارقات كأضغاث الأحلام، ولولا أن الإنسان يرى الأحداث الموجعة رأي العين لما صدق ما يدور في الأثير من الأقوال وما يمارس على الغبراء من الأعمال في عصر يوصف بالعلم والتحضر والإنسانية وفي ظل حكومات (ديموقراطية) (ليبرالية) تحكمها مؤسسات منتخبة، وتراقب أعمالها منظمات إنسانية مختارة، وتدار شؤونها عبر مجالس نيابية وأحزاب سياسية معقود مصيرها بإرادة الشعب لا بثكنات الجيش فأي الفريقين أحق بالتزكية الشعوب المغلوبة أم الدول المتغطرسة بقوتها المنتهكة لحرمة الإنسان المصادرة لأبسط الحريات المشعلة لأبشع الوحشيات؟ والمؤسف أن كل معتد يتهالك على (برميل النفط) أو على مفحص قطاة من الأرض ويدفع بشبابه وأحدث أجهزته وأفتك آلياته، ويعفر سمعته ويذهب هيبته ويسقط مصداقيته ويفقد أصدقاءه ثم يدعي أن دوافعه إنسانية، فهذا لتحرير الرقيق وذلك لإنقاذ البشرية من سلاح الدمار الشامل، وفيما بين الدعوى وأختها يدفع المبطلون بين الحين والآخر من يتقصى الحقائق لحفظ حقوق الإنسان في المعاقل والسجون العربية، ناسين أو متناسين سجون الصهيونية ومعتقلات القواعد العسكرية، وما يتسرب من ممارسات وحشية وانتحارات تخلصية واتهامات واهية يؤخذ فيها المقيم والظاعن.

من التبرير الكاذب إلى التصديق الأبله .. ! (٢) [(١)]

كل ما سبق من حقائق لا يقدر على تزييفها أحد لا تحمل الجهلة المندفعين ولا المواطئين المشبوهين على مراجعة أنفسهم، والعدول عن مناصرة الظالم، وتخذيل المظلوم، ولا تصحح مفاهيم المثاليين الذين يعشقون عدالة الغرب في أرضه، ومساواته بين رعاياه، وتألقه في مصانعه ومعامله ومختبراته، وتفوقه في الميادين الحربية والمحافل السياسية، إن المطالبة بمواجهة التعدي ودفع الظلم لا يعني إجهاض الحضارة ورفض المدنية، ومعاداة المؤسسة السياسية لا تَعْني مقاطعة الشعوب المتحضرة، والقبول بالحضارة والمدنية لا يقتضي الخلوص من الإسلام، وليس هناك تلازم بين فعل المؤسسة السياسية واكتشافات المعامل والمختبرات. إن دعوى الربط والتلازم دعوى كاذبة، فالجامعات تتلقى المبتعثين، والدول تتبادل المصالح والخبرات ولسان حال الجميع يقول:

﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾.

وما عهدنا الغرب الذي بدت صلاتنا به منذ حملة نابليون يجود بالمعامل والمختبرات، ولو أحسنا استغلال العلاقات لكان بالإمكان أن يكون العرب كما (اليابان) ولكننا صَدَّقنا التبرير فهيأنا أنفسنا لقابلية الاستعمار واستمرار التخلف، ولو أدْركنا اللَّعب السياسية على ما هي عليه لكان تعاملنا معها بالقدر الذي يقينا شرورها.

لقد بررت (بريطانيا) غزوها للخليج العربي بمكافحة تجارة الرقيق، وتلك حجة أوهى من بيت العنكبوت، ولا يصدقها إلا البله والمغفلون، ولكي تمرر لعبتها أبرمت أربعة عقود مع المستعمرات الخليجية لمكافحة تجارة الرقيق، ولقد مرت الدعوى بسلام، واعتبرها الخليجيون سبباً كافياً للوصول إلى موانئ الخليج ومراقبة السفن وتعطيل الحركة التجارية، وكأني بأمريكا تختلق سبباً أوهى من حجة سلفها، وتتشبث بالحجة الواهية عينها، فهي قد أقدمت على فعلتها النكراء بحجة تدارك العالم وإنقاذه من سلاح الدمار الشامل.

لقد اقترفت الكذب على شعبها وزورت الحقائق على العالم وعرَّضت الخليج لدمار أشمل بفعلها الأهوج، لا بفعل ما تدَّعيه من إنتاج المحظور من السلاح، وها هي تصعِّد الأمور مع (إيران) وتلوِّح بضربة عسكرية لو فعلتها لكانت ضرباً من الجنون، و(إيران) بحكومته الثورية ك(العراق) بحزبه الأرعن يمكِّنون للأعداء من الرقاب، ويصعِّدون المواجهة، وهم لا يملكون حسم الموقف لصالحهم ولا لصالح المنطقة، والتصعيد ناتج الجهل بمجريات الأمور وقوانين اللعب السياسية.

وإذا كانت (بريطانيا) قد ارتكبت حماقة التقسيم للخليج، وتحويله إلى إمارات ضعيفة: قَبَلِيَّة أو طائفية فإن (أمريكا) بلسان الحال تتجه صوب تقسيم (العراق) إلى دويلات عرقية وطائفية، وهذا التقسيم يضعف الغنيمة، ويأمن به المحتل، وتتفوق به (إسرائيل) ودعوى سلاح الدمار الشامل كدعوى الرق المهين، ولو أنصف الناس لقالوا: إن (الأوروبيين) هم الذين بدؤوا تجارة الرقيق، وهم الذين توسعوا فيها، وهم الذين استخدموا غيرهم لنهب الأطفال وتسويقهم في أنحاء المعمورة للحرث والبناء والصناعة.

وخير من يجلي تلك المفتريات كتاب (غزاة باسم الإنسانية) للدكتور عبد الله بن إبراهيم التركي وهو أطروحة علمية مدعومة بالوثائق والمراجع والحقائق الدامغة وباعترافات المنصفين من المؤرخين الغربيين.

---

(١) تاريخ المقال: ١٧/ ٧/ ٢٠٠٧

والإسلام المتهم لم يشرع الرق بل جاء لمحاصرته، وتوسيع مخارجه فيما ابتدره (الأوروبيون) و(الأمريكان) وحين بدت المخازي واصطدم مع مبادئ الحرية و(الديموقراطية) التي تبنوها في أرضهم حمَّلوا الإسلام مسؤولية ذلك، وصدَّقهم المغفلون، ولقد عالج هذه الفرية (عباس محمود العقاد) وعددٌ من المفكرين وأثبتوا أن الإسلام جاء لتحرير الرقيق، ولقد تميز عدد من القادة الإسلاميين في تلك المبادرات الإنسانية دون الإخلال بمبادئ الدين ومنها (الرق) بشروطه وأسبابه المشروعة، فكان في العصر الإسلامي العباسي (سليمان بن عبد الملك) وكان في العصر الإسلامي الحديث (الملك فيصل) ولما تزل المنظمات الإسلامية تتصدى لأي عمل يسلب الإنسان حريته وإنسانيته. ولفداحة التوحش البشري أبدعت الروايات حول تجارة الرقيق في (أمريكا) مثل رواية (الجذور) ل(كونتاكنتي) ونظرية (الأجناس) فرية مادية غربية استعلائية، وما كانت حضارة الغرب أقرب إلى الوفاء بالحقوق الإنسانية والتمثل للحريات من غيرها، ولو أنها صدقت لما مسَّ الشعوب طائف من الفتن، وأضرُّ شيء على البشرية تسْييس المؤسسات الإنسانية وزجها في اللعب القذرة، و(أمريكا) التي تعيد أحداث التأريخ السياسي وينهض الكتاب الجوف لتبرير فعلتها لم تحقق الحرية للشعب العراقي، ولم توفر له الأمن الذي كان سائداً في العهد البائد بل أدخلته في لجة الفتن العرقية والطائفية التي لا يمكن تصور فداحتها، ولا يمكن تصور حسمها، ومن المؤكد أنها ستخرج يوماً ما تحت غطاءات من التبريرات الكاذبة وستجد من ينوب عنها في التصديق والإشاعة والتحذير، وستترك الشعب العراقي يسبح في حمامات من الدم بعدما هدمت بناءه وبنيته ومعنوياته وإعادة التاريخ لنفسه من البدهيات، ولم يكن الاعتراض ولا الامتعاض على العودة لمثل ما سلف بوصفه قضية مسلَّمة وإنما هو في الغفلة عن التجربة الأولى عند مواجهة الحدث الجديد، بحيث لا يكون المستهدف مستعداً للصدمة الثانية، ولو أنه أرجع البصر كرتين لكان بإمكانه استدعاء مواجهته الأولى لصد الثانية وألاَّ يَدَعَ المحاولة المكررة تمر وكأنها مبادرة لا سابقة لها، وإذ تتشابه مطامع المحتلين فإن طرائقهم وحيلهم هي الأخرى تتشابه حتى تكون كأنها منتج غرائز لا محصّلة تفكير وتدبير، والغرائز كالسنن الكونية لا تتبدل ولا تتحول في إنتاجها، ومواجهتها. ورصدها وإتقاؤها لا يتطلب إلا تذكر سيرتها الأولى فالذين خبروا مبررات السلف لاحتلال الخليج لا يتوقع منهم فوات مبررات الخلف، حين أرادوا ذات الرغبة السابقة، ولو أن المستهدفين أبرزوا للخلف حجة السلف وتصدوا لها بذات الرؤى لكان بالإمكان إحجام الخلف أو تعثر عزماته أو تخفيف وطأته، وتصديق الحيثيات والمسوغات المجترة ينبئ عن أذن غير واعية وذاكرة غير حافظة، وتكذيبها باستدعاء نظائرها مؤشر نباهة ووعي، ومَن ذا الذي يصدّق دعوة الطامعين بأنهم أحرص الناس على مصالح من دونهم، وأنهم إنما جاؤوا لإشاعة المبادئ وتعليم الناس أمر دنياهم بعدما علمهم علماؤهم أمر دينهم وماذا فعل المستعمرون في المستعمرات طوال قرون خلت، لقد استنزفوا الثروات وأغروا الشعوب بالشهوات واستهلاك المنتجات التي صنعوها من خاماتهم، ونشروا فيهم داء الفرقة والعداوة والشتات.

ولن نقول للمستغربين والموالين والمداهنين من أبناء الأمة العربية أكثر من ﴿هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

لقد بشر المتسلطون ب(الديموقراطية) وحين فوجئوا بنتائجها المضرة بمصالحهم انقلبوا على أعقابهم ونكثوا ما عاهدوا عليه فما كان منهم إلا إجهاض ما انتجته (الديموقراطية) في جميع دول العالم الثالث، وإن كان متواضعاً لا يكاد يُبيْن.

وهم حين خرجوا من المستعمرات مكرهين تحت وابل المقاومة المشروعة والفداء الشريف لم يخلفوا وراء ظهورهم مصانع ولا معامل ولا علماء ولا مؤسسات مدنية، وإنما تركوا فيها مسارح وممثلين ومغنيين وتبرجاً وإباحية لا تحتمل، وحين لحق بهم الموالون لم يعودوا إلا بفن هابط وأخلاق ماجنة ورواياتٍ خليعة ودعوة إلى حرية اجتماعية ودينية تخلعُ ربقة الحياء والطاعة وعلمانيةٍ ضالة تحكم بغير ما أنزل الله وكلام بليغ لا يوفر البُلْغَةَ وجدلٍ عقيم باسم الحرية يُلهي عن كل مكرمة ومن رابه الأمر فليسع في أرض العروبة الواسعة ليشاهد ويشهد بما علم، فهل أوضاع العالم العربي تسر الصديق وتغيظ العداء؟ أم هي عكس ذلك. والمؤلم أن مؤشرات الحياة تحبط التَّفاؤل، فالمتكلمون كما الشعراء لا يقولون إلا معاراً أو معاداً، والمواطئون يخادعون الوطن والمواطن، وما يَخْدعون إلا أنفسهم لأنهم جزء منهما.

فلنكن في أرضنا ومع من حولنا عقلاء نتعظ بغيرنا لا أشقياء يتعظ بنا غيرنا فذلك ما كنا نبغي، فهل نرتد على آثارنا قصصاً للخطوة الأولى التي تضع أقدامنا على الطريق القاصد وتنهي زمن التيه الذي طال أمده.

بقي أن نقول: إن علينا أن نفكر، وأن نقدر، وألا يكون أمرنا علينا غمة بحيث يكون تفكيرنا لحساب من قطعوا آلاف الأميال ليمارسوا الوصاية والمسخ والإذلال، ولو سلَّمنا بأن التاريخ يعيد نفسه لكان بإمكاننا أن نضع صناع التماثل أمام أنفسهم، وأن نضع أنفسنا حيث يجب أن تكون، فلا نكون تبعيين نقول ما قالت (حذام) ولا مثاليين نستبعد المكر والمكيدة، ولا مأجورين نبيع أوطاننا بثمن بخس، وإن كان ثمة أخطاء فإن علينا أن نداويها بأيدينا لا بيد عمرو.

والقول في الشأن السياسي في جو من التوتر والممارسة الحية قول مَحْفوف بالمخاطر والمجازفات، فالأرواح التي تُزهق، والأعراض التي تنتهك، والممتلكات التي تدمَّر أو تنهب، والحريات التي تسلب لا يبررها ويشرعن لها إلا حملة الأقلام وأساطين الإعلام، ومن قال في هذه الأمور بغير علم تحمل شطراً من الأوزار لأن ذلك من باب إعانة الظالم على ظلمه والمفسد على إفساده والله لا يحب الفساد.

اللهم إن كنا ضالين فقيض لنا من يوقظنا، وإن كنا مهتدين فأيقظ بنا الغافلين من اخواننا، وجنب أرضنا ومقدساتنا وحرماتنا ويلات الفتن ما ظهر منها وما بطن.

أمريكا التي نكره وأمريكا التي نحتاج .. !

ما من التياثٍ كلامي مُثَبِّط إلا كان وراءه أغيلمةٌ متسرعون، أو متصابون متفيهقون، لا يفقهون شيئاً مما يخوضون فيه. وعادة هؤلاء وأولئك خلط القضايا ما ظهر منها وما بطن وجهل الذات والغير، والإيضاع فيما يفرقون فيه بين المرء وزوجه.

وليس هناك أضَرَّ على الأمَّة من أحداث أو مُتَحدثِين لا يزنون الأمور، ولا يفرقون بين المباح والمحظور، وسيان في ذلك أكان التعبير عما يضمرون باليد أو باللسان.

وعَرَصَاتُ القول مليئةٌ بهذا الصنف من الحكواتية الذين يقولون الكلمة في ضرر الوطن لا يلقون لها بالاً، وأيُّ أصوات مرتفعة فوق صوت الوطن تكون كمن يخرق قَسْمه من السفينة بدعوى الملكية أو حق التعبير.

وداء المشاهد كلِّها حُرِّيَّةٌ لا سقف لها، وجدلٌ لا مَرْجعيَّة له مطاعة، وتَصَرُّفٌ لا سلطان يحكمه ولا حُكْماً يُحلّه أو يحرِّمه، وذلك داء الثوريين الرافض لكل سلطة. ومتى فَقَدَت حريةُ التعبير الحدَّ والمرجعية والسلطان والحكم دخل الناس في الفوضى المدمِّرة. والأمة العربية قاب قوسين أو أدنى من هذا الداء العضال. والمختصمون اليوم في لجة من

فضول القول عن كل وجوه الحياة: الحسِّية والمعنوية، وكل متحدث يرى أنه الصادق المصدوق الذي لا معقب لحكمه.

ولعل من أخطر القضايا وأكثرها حضوراً مُلْتَبساً الموقف من دولة القطب الواحد (الولايات المتحدة الأمريكية) فمن محب معجب يصل بها حد الصنمية، وإن لم تحمل طهر الصنم، ومن كاره يبلغ بها درك الرذيلة، ومحرض على المواجهة باللسان والسنان، وكلُّ تباين غير محكوم بضوابطه الشرعية والسياسية يقود البلاد والعباد إلى درك الشقاء والشقاق، والأمة العربية لمّا تزل مرتهنة بالخطاب الثوري الذي لا يعرف إلا لونين ولا يتخذ إلا موقفين متناقضين والحديث عنها يَسْتَزلُّ الشجيَّ والخلِيَّ، لأنها بهذه الشهوة العارمة في التدخل تجري من كل الأحداث مجرى الدم، فهي إما صانعةُ الحدثِ أو آخذةٌ بناصيته، وكأني بسائر الأحداث المصيرية تُردِّدُ مع (النابغة):

وإنَّــك كالليــل الــذي هُــوَ مُــدْركي

وإن خلــت أنَّ المنتــأى عنــك واســع

هذا الحضور اللازب عبر القوة العسكرية والشركات المتعددة الجنسيات والرحلات (المكوكية) والتحكم في كافة المؤسسات العالمية و(اللوبيات) و(الفيتو) و(الأجِنْدَة) الجائرة يجعل البحث في الشأن الأمريكي كالبحث في المعضلات الفكرية، وبخاصة ما يتعلق بالوجود والماهيَّة؛ فالوجود حقيقةٌ ماثلة للعيان، ولكن الماهية كلما زدتها بحثاً زادتْك غموضاً.

والإشكالية أن الذين يحلو لهم الحديث عن (أمريكا) لا تعدو عيونهم إلى المرجعيات من دراسات متعددة المناهج والآليات والأهداف والمجالس، وإنما يكتفون بالتعويل على المتداول إعلامياً، وهو لغط استهلاكي كهتافات المشجعين والمتظاهرين، وحسم الظاهرة لا يكون بهذا الأسلوب المتداول، ولا بتلك المواجهة العتيقة، والاهتياج الأعزل لا يجاوز القول العاطفي الذي لا يميز بين الفعل السياسي النَّفْعِي والإمكانيات الحضارية المتغلغلة في الأعماق.

والعودة إلى الدراسات المتعددة والمتنوعة عن أمريكا المطامع وأمريكا المنجزات يقطع صلة القارئ بحاضر أفقدها السمعة والأصدقاء وأدخلها في اضطراب صدَّع لحمة المؤسسات والأحزاب.

وفي ظل التحديات والتصديات لابد من التفْريق بين أكثر من وجه لأمريكا؛ فأمريكا التي نكره هي أمريكا التسلط واللعب السياسية والتدخل في سيادة الأمة العربية والإسلامية أمريكا الاحتلال وإسقاط الأنظمة أو الحد من حرياتها المشروعة ومناصرة أعدائها، أما أمريكا التي نريد فهي دولة العلم بظاهر الحياة الدنيا والاقتصاد الحر والصناعة المتعددة والطب والمختبرات والمعامل والمكتشفات في الآفاق والأعماق، دولة المؤسسات العريقة المحكَّمةِ في الشأن كله، دولة العدالة والمساواة وتداول السلطة وسيادة القانون، وتكافؤ الفرص.

ولسائل فضولي - في غمرة التناقض - أن يسأل:

ما بال أقوام يلعنون أمريكا على المنابر وفي أنهر الصحف حتى إذا أعيتهم الأمراض المستعصية طاروا إليها يلتمسون الشفاء في مشافيها؟!

هذا التساؤل يثيره الموالون والمناوئون على حد سواء، وما هو إلا ناتج خلط للأوراق، وجهل بحقيقة (أمريكا) التي نحتاج لا أمريكا التي نكره.

إن لأمريكا أكثر من وجه، وجه الحضارة المدهش، ووجه السياسة المبئس، أمريكا العلم والنظام والمدنية، وأمريكا المؤسسة العسكرية والسياسية وجماعات الضغط واليمين

المتطرف وخرافة الإنجيل، هذا الوجه المتجهم جعل البعض يتساءل: (من يحكم أمريكا؟) ومن يملك قرار السلم والحرب؟ ففي كتاب (من يحكم أمريكا والعالم سِرّاً) ل(جيم مارس) محاولة مستميتة لتحديد الحاكم الحقيقي لأمريكا أهي (شهوة القوة العسكرية) أم (شهوة القوة الاقتصادية)، وإشكالية (جيم مارس) أنه يعول على فرضيات يستلهمها من مجريات الأحداث الآنية، ومن ثم فإن النتائج التي يتوصل إليها الواحدة تلو الأخرى تظل مرتهنة للفرضيات، ومن الصعوبة بمكان التسليم لمثل ذلك، والتحول بالفرضية إلى نظرية، ولكن الراصد لا يجد بُداً من منح تلك الفرضيات شيئاً من احتمال الصحة، وإذا كان (جيم مارس) قد رصد الأحداث وخرج بنتائج فإن الدارسين (ماكس سكيدمور) و(مارشال دانك) قد خرجا بكتابهما (كيف تُحكم أمريكا) من الدستور والنظام (الفيدرالي) وسائر المؤسسات، وهي دراسة لا تقوم على الفرضيات وإنما تنطلق من المؤسسات، وإن تحدثا عن جماعات الضغط. هذا الوجه المتجهم حمل (ويليام بلوم) في كتابه (الدولة المارقة) على مواجهة إرهاب المنظمات وإرهاب الدول، ودون ذلك جاء (ج. ويليام فولبرايت) في كتابيه (غطرسة القوة - وثمن الامبراطورية) إذ توفر على الواقعية وبعد النظر لتحقيق سلام دولي. وأمريكا في ظل هذه المغامرات الفاشلة أحوج ما تكون إلى حكيم مثل (ج. ويليام فولبرايت) الذي لا يجد حرجاً من لعن أمريكا والذي يجد كل الحرج ينطلق كل واحد منهما من رؤية محددة، فالأول ينظر إليها من خلال إنسانها الشرير، والآخر ينظر إليها من خلال علمائها ومفكريها ومخترعيها وصانعي حضارتها الإنسانية.

ودولة بحجم أمريكا وبتفردها في قيادة العالم بعد سقوط المعادل وصعودها إلى مركز القطب الواحد وضعها بكل أبعادها تحت نظر العالم، وصعَّد المواجهة معها، وألزمها حفظ التوازن، وقمع أي تحرك يخل بميزان القوى، وكاد يجعلها شرطياً يقف على عتبة كل مؤسسة ليعرف الداخل إليها والخارج منها، وتلك المسؤوليات ذات ثمن باهض التكاليف على دافع الضرائب وعلى المجندين. ونَظَرُ العالم إليها لم يكن من منطلق واحد، فالحضارات والديانات والطوائف والأعراف وتعارض المصالح ومناطق النفوذ وخطابات التصدير للثورات والمبادئ، كل هذا التنوع تتعدد معه الرؤى والتصورات، والثمن الباهض لهذا التنوع تدفع أمريكا القسط الأكبر منه رجالاً وأموالاً.

وإشكالية أمريكا أنها ظلت رَدْحاً من الزمن دولة محايدة بعيدة عن الصراعات الإقليمية والحضارية، ولكنها تخطت تلك الحيادية الإيجابية ودخلت في الانحياز السلبي، وكادت تنهض بالدور الذي كانت تمارسه (بريطانيا) فيما سبق، والذين اطَّلَعوا على الوثائق السياسية المفرج عنها يدركون حجم المقترفات الخاطئة بحق الإنسانية التي مارسها الاستعمار (البريطاني) و(الفرنسي) و(الإيطالي) في مواقع كثيرة من العالم، وفي الوطن العربي على وجه الخصوص، وبخاصة ما يتعلق منها بالقضية الفلسطينية، ف(بريطانيا) هي التي أعطت الوعد المشؤوم، وهي التي فتحت باب الهجرة اليهودية على مصراعيه، وهي التي قمعت الثورة الفلسطينية، وهي التي وسَّعت على اليهود، ومكنتهم من السيطرة على الاقتصاد والبلاد وسائر المؤسسات، ويسَّرت لهم شراء الأراضي وادخار الأموال والأسلحة لساعة الصفر وإعلان دولة إسرائيل.

وأمريكا التي تمارس اليوم ذات المهمة لن تكون مريحة ولا مقبولة، أما أمريكا العلم والحضارة والمدنية فهي التي لا يمكن الاستغناء عنها، ولكي نكون أقرب إلى الواقعية والمعقولية فإنه من الضروري التفريق بين الموقفين، وأن تَعْتَمَد الأمة المظلومة المقاومة السلمية التي مارسها من قبل (غاندي) واستطاع بها انْتزاع الاستقْلال دون إراقة الدماء وتدمير البلاد، وممارسة الضغوط ممكنة ومشروعة ولكنها تتطلب أرضية عربية لا يذهب فيها كل إقليم بما يرى.

فالدولة الواحدة لا تستطيع أن تنهض بمهمة كتلك، وإشكالية العالم العربي أنه يتوفر على مئات الخطابات المتناحرة، وهي خطابات توفر الأجواء الملائمة لأعداء الأمة ولمزيد من النفوذ المخل بالسيادة. والخلوص من هذه الأوضاع المتردية يتطلب خطاباً جماعياً معتدلاً يخاطب العقول والضمائر والإنسانية، ودون اتحاد الكلمة والصف والهدف خرط القتاد ولكنها أمنيات إن تكن تكن غاية المنى وقدر الناصحين أنهم كمن ينعق بما لا يسمع:

ومـــن البليـــة عـــذل مـــن يرعـــوي

عـــن غيـــه وخطـــاب مـــن لا يفهـــم

والمؤلم أن رديء الكلام في نماء وازدياد مع إمكانية تدارك الأمور والاقتصاد في العناد والتخفيف من حدة التوتر والاشتغال بما يبقي على شيء من التقارب بين وجهات النظر، غير أن القاعدين في الظل يودون أن يحمدوا بما لم يفعلوا، ولن يتأتى لهم استعجال الظهور واستباق بؤر الضوء إلا إذا خالفوا الصفوة واستفزوا الرأي العام، وتلك الخليقة من التصرفات الخطيرة التي يستمرئوها الأحداث والمتصابون، وما رزئت الأمة بشيء مثلما رزئت بمن لا يحسبون لعواقب الأمور حسابها.

والموقف من القضايا والمذاهب والطوائف والدول من أخطر الممارسات وبخاصة عندما تكون الدولة الخصم حليفاً قوياً تتعارض حقوقك مع مطامحها ومصالحها ولاسيما في ظل ظروف غاية في التعقيد والتوتر، والاختلاف مع شيء من ذلك لا تلزم معه المواقف الحدِّية، بحيث لا يكون مناص من المواجهة المطلقة أو القبول المطلق، ومثل هذا التحرك الضدي أو المعي يحتاج إلى تقدير وتوقيت واستخارة واستشارة وتصور سليم يحدد الموقف الملائم للأوضاع والإمكانيات، وليس شرطاً أن يكون الموقف خياراً (استراتيجياً)، إنه نوع من الانحناء للريح، واختيار أهون الضررين، وكل الخيارات المتاحة ستجعل من العلاقة مع أمريكا معضلة أينما تتوجه بها لا تعود عليك إلا بمزيد من الإشكاليات.

القاضي والمجلة العربية .. ! [1]

كنت على متن الطائرة المتجهة إلى (أبها) عروس المصايف، ولم يكن يقطع ملل الطيران السابح في فضاء الله الرحب إلا السباحة في أنهر الصحف المليئة بالمنغصات والمفاجآت وفيما أنا أركض في فيّافِيها إذ بي أفاجأ بخبر فزعت فيه بآمالي إلى الكذب.

وهو خبر مبارحة أبي بدر الأستاذ حمد بن عبد الله القاضي لموقعه العتيد من (المجلة العربية) وترجل مثله بعد زمن حافل بالمنجزات الخيرة لاشك أنه سيترك أثراً بالغاً في نفوس من ألفوه بكل وداعته وتودده وتوازنه وبعد نظره واستقطابه للمشاهير واحتفائه بزملائه والأخذ بيد الشداة، وما كنت أتوقع أن أودعه من موقع اصطبغ باسمه وارتبط ارتباط الظل بالشاخص لولا أن الحياة كالنهر تطوي أشياءها وأناسيها كطي السجل للكتب، الشيء الجميل أن الذي تلقى الراية من يده خير خلف لخير سلف إن عزاءنا تلقي الدكتور عبد العزيز السبيل للمهمة والسبيل صنو القاضي ولكنني:

خلقت الوفا لو رجعت إلى الصبا

لفارقت مشيبي دامي القلب موجعاً

وإذا طل منا كاتب مهني قام كاتب:

قؤول لما قال الكرام فعول

إن زمناً قضاه القاضي في المجلة وأعمالاً جليلة أنجزها لا تفي كلمات عابرة بحقه، والمجلة بما أنجزته تشكل مرحلة أدبية من حقها على المؤرخين والدارسين للحركة الأدبية في المملكة أن يعيدوا قراءتها وأن يحللوا منهجها وأسلوب أدائها وأثرها في المشهد الأدبي.

والقاضي الذي ترجل من صهوة جواده لا تزال جياد أخرى تعلك اللجما في إسطبله ومحبوه يودون أن يوجه جهده الذي كان يبذله الإشراف والإعداد إلى مجال أرحب إذ لا يزال في العمر والجهد بقايا نرجو لها المزيد والعمر المديد إن شاء الله.

ونحن نودعه في موقع ونصحبه في مواقع أخرى نرجو له مزيداً من التألق ولأبي حسان الدكتور عبد العزيز السبيل مزيداً من التوفيق.

وهكذا الدنيا نزول وارتحال.

الإبداع المنتمي بوصفه إشكالية .. ! (١)

ظاهرة (المنتمي) و(اللامنتمي) و(ما بعد اللامنتمي) قضية إنسانية أزلية اعتورتها أقلام المؤرخين والدارسين في القديم والحديث وما زادوها إلا إيغالاً في الغموض والاستحالة.

واستفحال البحث في خبايا الظاهرة جاء في أعقاب الإيغال في (الأدلجة) و(التسييس) وفي ظل طغيان (الماركسية) و(الوجودية) وسائر المذاهب المادية، ولربما كان (كولن ولسن) في ستة من كتبه خير من نقب في عوالم تلك الظاهرة وبخاصة في أربعة منها:

-(اللامنتمي).
-(دين وتمرد).
-(عصر التخاذل).

---

(١) تاريخ المقال: ٣١/ ٧/ ٢٠٠٧

-(ما بعد اللامنتمي).

وهي كتب يحفز على تأليفها تنكر أصحاب المذاهب لمذاهبهم، ولقد جسد مثل هذا الهم (روجيه جارودي) في روايته (منعطف الاشتراكية) وممن تناغم مع هذه الهواجس الملحة (غالي شكري) في كتابه (المنتمي .. دراسة في أدب نجيب محفوظ)، وأحسب أن الطريق إلى (نوبل) (اللامنتمي) في أدب نجيب، وتلك الظاهرة المتاهة لا يحتكرها عِرق ولا دين، وهي قائمة حيث يكون الفعل الإرادي، أو الموقف الواعي من الأشياء والأفكار، ومع (اللامنتمي) يكون الانتماء للتخلي وبتنقل الظاهرة المعضلة بين ثنائية (أل) و(واللاّ) لا يكون انتفاء للانتماء، وإنما يكون ضيق أو اتساع واتسام، ويقابله في عالم السياسة (الانحياز) و(عدم الانحياز) وفي عالم الأدب (الالتزام) و(عدم الالتزام) أو (اللاالتزام) وجلُّ هذه الادعاءات رقم على قاء، فما من أحد إلا وله انتماؤه. وفي خضم الجدل تحررت مذاهب ومصطلحات وأصبح الواعون من المتابعين على بينة من أمرهم، وما عادت الأمور ملتبسة إلا على الذين هم أراذل المحررين والمؤصلين للمسائل والمعارف، وما أتيت المشاهد إلا من قبلهم، وفي أجواء المراء الظاهر والباطن امتاز طلاب الحق وعشاق الانتصار ممن تأخذهم العزة بالإثم، وما وعيت شيئاً بقدر ما وعيت إشكالية (الأدب الإسلامي) مفهوماً ومشروعية بوصفه بؤرة الجدل حول (المنتمي) و(اللامنتمي) وما أسفت على شيء أسفي على متسرعين رضوا بأن يكونوا مع الخوالف بسبب فهم خاطئ وتخوف لا مبرر له، ثم لم ينطووا على أضغانهم بل لجّوا في التشكيك والتخويف، ولو عرف المتحفظون والخصوم والباحثون عن الحق (الأدب الإسلامي) حق المعرفة لاتخذوه خليلاً، إذ لا يعدو في مفهومه المباشر والبسيط الرغبة الملحة في إشاعة الكلمة الطيبة والقول السديد وقد يقال: (إنه الإبداع وفق التصور الإسلامي)، وهو أفق لا يحد وإذا وعيته وعرفت بعض مقاصده فإنه لم يكن لي شرف إنشاء كيانه ولا الانقطاع لمراده ولست منزعجاً من مناكفته ولا غياب مؤسساته وكيف ينتابني الذعر والله يقول لرسوله ﷺ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ ومشايلتي لذويه إيمان بأحقية وجوده، وتلك المشروعية والمعقولية والمشايلة لن تستخفني لأكون وكيلا على أحد، بحيث أكرهه على القبول بما أرى، ثم لا تكون له الخيرة من أمره، وفي السياق ذاته فلن أرتهن نفسي وإمكانياتي لأي خطاب بشري كائنا من كان، متى استطعت أن أكون كالنحلة، ترف فوق الوهاد والنجاد وتمتص رحيق الأزهار، ومتى لم أستبد ولم أُكرِه الأدباء على اقتفاء أثري، وتجلية الانتماء، أود منهم ألا يمارسوا معي الفوقية وسلب الحرية، وفرض انتماء مناهض لإرادتي ومناقض لحضارتي، وما أحسن أن نقول معا: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ متى حسنت النوايا وسلمت المقاصد، وتعددت الطرق المؤدية إلى الحق.

وفي ضجة الاختلاف واختلاط الأصوات فإنني لست وجلا من تباين المواقف، ولا من تعدد الرؤى، ولا من تنوع التصورات، بل أكاد أكون حفياً بهذا التنوع، لأنه يثري المشاهد، ويمكن من تعدد الخيارات و(بضدها تتميز الأشياء) والتعددية مرايا مقعرة تعمق الرؤية. ومن عرف المذاهب والتحولات وتفاوت العقول والمدركات ورصد الانفجار المعرفي، والثورة العلمية، وثورة الاتصالات والإعلام، ووقف على شهرة التغيير والتمرد والانقطاع، وهيمنة العلم التجريبي على الدين والعقل، وطغيان الماديات، وأطل على بحور المعارف ألِف صدام الحضارات وقد تتساوى عنده الأنوار والظلم، وصدق البر الرحيم بأمته: «**ومن يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً**» والاختلاف من سنن الحياة

الثابتة ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ﴾ ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ ..ولهذا خلقهم.. وإذ نود تغليب الحوار على الصراع والصدام فإن علينا الاستعداد لأسوأ الاحتمالات ومن أراد السلام لا الاستسلام فليستعد للحرب، فالله القائل: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾.. هو القائل: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾.. ﴿فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاء﴾.

وكم هو الفرق بين أن أكون أمام عددٍ من الخطابات المستبقة للصدارة أو الهيمنة أُلطِّهُما عن حياضي وأنتقي منهن ما يشد أزر نوازعي، أو أن أظل مرتهنا لخطاب واحد لا ينهض بكل متطلبات العصر، أو أن أُكره على التصدي والمواجهة لخطاب مسيطر يتعمد إلغاء ذاتي، وتعطيل قدراتي، وحرماني من لذة المبادرة، والاكتشاف والمشاركة في صناعة القرار. وقديماً قيل: (فالليث ليس يسيغ إلا ما افترس). إنني لم أنهض يوماً ما لمصادرة الخطابات المتعددة، متى توفرت على قواسم مشتركة، وكانت في إطار الاختلاف المشروع وتحققت من خلال التفاعل معها أصول حضارة الانتماء، وهمي أبداً أن ألقي السمع وأنا شهيد، وأن أبلّغ بعض ما أرى، وبقدر ما أتيحه من الفرص للاستماع بكل أدبياته، فإنه يجب إعطائي فرصة مماثلة للإسماع، إذ لن يتم تلاقح الأفكار إلا بتكافؤ الفرص، وحين لا يكون اختياري لمناصرة تلك النوازع الخيرة اعتباطياً فإن من واجب المستريب التريث للاستبانة والتثبت، لكيلا يصيب قوماً بجهالة، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾.

وليس هناك ما يمنع من مساءلة المنتمي لأي نحلة وبخاصة حين يكون داعياً لها لا متمثلا وحسب: كيف أخذ بها، ولماذا أخذ؟ فحق المتأثر من تلك الممالأة أن يعرف دخائل المؤثر، والشك والتساؤل طريقا الإيمان الصريح بالمبادئ، ولن يعمد أي إيمان بالتوارث أمام أعاصير المشككين، وحق النخب أن يتساءلوا وأن يلحوا في التساؤل ليتحقق إيمان الاقتناع لا إيمان الاتباع، وقدوتنا (أبو الأنبياء): ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾وأولو العزم من الرسل: ﴿أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾، أما الرفض المجرد من المعرفة فمرتهن بعقدة الأبوية ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾وهو مظنة الأثرة والتعصب وإعجاب كل ذي رأي برأيه.

ومنهج العارفين توفير الأجواء الملائمة للمخالف وإجارته وإبلاغه مأمنه بعد إسماعه للحق المراد، فهل أحد منا هدَّأ الأنفس، وهيأها لسماع الرؤية، ومنحها الأمن والحرية، لتختار بإرادة حرة.

وما أتوسل به من حرية الاختيار والحوار لا يبرح محققات حضارة الانتماء ومقتضياتها، وجدل الانتماء والالتزام والانحياز ونقائضهما إكسير الصراع، والصراع إكسير الحياة ﴿وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ والمتذمر من التمنع والمراء كهفي لا يدري ما الحياة ولا الإيمان.

ومن جعل المراء غاية كان سوفسطائياً يمارس رياضة الحديث ك(المشائين).. والخائض في معترك الأفكار لا يكون بلا هوية، إذ بدونها يكون (هداماً).. ولا يكون بلا موقف، إذ بدونه يكون (ريشة في مهب الريح)، ولا يكون تبعياً يقول ما قالت (حذام)، إذ

بهذه الخليقة يكون (إمَّعة). ولا يكون ميله كل الميل بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، إذ بدونها يكون (رويبضة)، ولا يكون مستهماً في المشاهد ثم يكون منغلقاً لا يرى إلا بعين المذهب ولا يسمع إلا بأذنه، إذ به يكون (متخذا إلهه هواه) حتى ليقول قائلهم: (إذا خالفت الآية مذهبي فهي إما منسوخة أو مؤولة) و(قولنا صواب يحتمل الخطأ وقول غيرنا خطأ يحتمل الصواب) وهذا أخف التعصبين، على أن نشدان الحق حق، أما طلب الانتصار فأثرة وحيف، وتَمَثّل أدبيات الحوار الحضاري وشروط الاجتهاد المقتدر ليس وقفا على ما نحن بصدده وإنما يجب أن يكون دأب كل مجادل، والعلم والتصور السليم والتواضع والتودد والرأفة بالمخالف واللين معه مناطات قادة الفكر وروّاد النهضة وزعماء الإصلاح، وما استطاع مصلح تفادي الصدام إلا حين يتوفر على محققات الخطاب الحضاري التي نكاد نفقدها في كثير من مشاهدنا الدينية والسياسية والفكرية والأدبية، وما أحوجنا إلى (دَسترة) الحوار إذ لو توفرنا على أدنى حد من متطلبات الحوار الحضاري والاجتهاد المشروع والتصور السليم للأشياء المختلف حولها، لكنا قد كفينا ذلك التشرذم والتناحر المذهبينِ للهيبة والقوة.

والمتتبع لسير أعلام النبلاء يقف على الاحترام المتبادل بين أئمة المذاهب، والتناجي الآثم بين المتعصبين من الأتباع وما أضر بالعلماء الأفذاذ إلا الأشياع والأتباع ففعلهم فتنة للمتبوع وذلَّةٌ للتابع، ولو صغت القلوب وصفت النفوس وزالت الشحناء لكان لكل خطاب مناطه ومجاله إذ ليس في عالم الأناسي شر محض كعالم الشياطين ولا خير محض كعالم الملائكة.

الإبداع المنتمي بوصفه إشكالية .. ! (٢)

واستعادة الهويَّة للتجلّي والتميز خيرٌ من الاستعارة والاسترفاد والتَّخلِّي، وما لا مراء فيه أن لكل حضارة حقَّها في الوجود، من خلال تداعيات محققاتها، ومحققاتُ حضارة الإسلام وثقافتها تكْمن في مرجعيتها النصية وما يواكبها من نص رديف، والراصد للحراك الفكري والثقافي والأدبي يفاجأ بمن يتعمد مصادرة حق الشركاء في سائر القيم الإسلامية، بحجة مستمدة من حضارة مضادة، ليس من حقها الحضور، فضلا عن التحكم فيما شجر بين أبناء الحضارة الإسلامية الواحدة. وهذا المُستَشْهِد المُستعدي لم يفهم مقاصد الشركاء حق الفهم ولما يقدم البديل الأمثل عما يُجالِد لنفيه، ولا تثريب لو أنه تعمد نقض خطاب الشركاء أو تقويمه بحجة من حضارته، وكم كان محمود الشمائل لو أنه هدَّأ الأمور، وعمد إلى المفاضلة بدل المصادرة واختيار الأهدى والأجدى بدل الركض وراء سراب القيعان أو التعصب المقيت للرأي الفطير، ولا سيما أن المشهد يتسع لأكثر من خطاب، وما كان ضرَّ هذا الصنف المخذِّل لو أنهم أَنِسُوا بحديث (افعل ولا حرج)، وأعجب من هذا وذاك مخالف يلزم خصمه ما لا يلزم، بحيث يفرض فهمه الناقص والمفضول للأشياء، ولا يتلقاه من ذوي الشأن، إذ (أهل مكة أدرى بشعابها).

وفي ضجة التنازع واختلاط الحابل بالنابل يجب أن نفرق بين جور الطلب ومشروعية الذود عن الحياض، وحق كل مُذادٍ عن موارده أن يردها بما يستطيع من الإمكانيات، مستشعراً الدفاع بالتي هي أحسن، ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. لقد رصد القرآن الكريم لصراع الحضارة ورسم طرق المواجهة في حال القوة ومرحلة الضعف وفرق في الحراك في زمن الأمن وساعات الفتن العصيبة ومتى أحس الإنسان بمصادرة وجهة نظره ابتداء وبدون إقناع فإن عليه التحرف بمواجهة تمكنه من تكافؤ الفرص أو التحيز إلى من يشاركه الهم، دون أن يترتب على ذلك مفارقة الجماعة أو

معالجة الخطأ بما يترتب عليه من خطأ أكبر، وقدوتنا في الإبقاء على المفضول حديث: «**لولا أن قومك حدثاء عهد بكفر لأعدت بناء الكعبة على قواعد إبراهيم**» -أو كما قال- يفعل ذلك لا لإكراه الآخرين وحملهم على ما يرى، إذا كان ما يراه اجتهاداً يحتمل الخطأ، ولكن لانتزاع حقه في الاختيار، واشتراكه مع الآخرين في الاجتهاد والاختيار، وكيف يدع المقتدر ممارسة الحق بكل ما يقدر عليه، وفي الوقت نفسه، كيف يحلم عاقل بالتسلط، وأطر الإكراه والله يقول لرسوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ ﴿سْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾، ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾، ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾.

وإذْ درجت المذاهبُ والتياراتُ الغربية والشرقية في مشاهدنا فحق حضارتنا أن تُشارك الغزاة أرضها وأفكار أبنائها، وذلك ضعف الإيمان والعاجز من لا يستبد، وهل أحد يشك في هيمنة الحضارة المادية بكل وضَرِها ونفي الأدب والفكر المنتمين إلى حضارتيهما تخلية متعمدة للمشاهد لتكون ملعباً للطير من كل جنس، وليس من أدنى الكمال أن تشاطر المهمين أرضك ولكن أن تأخذ بقدر العطاء.

وإذا عُدنا بعد هذا التمهيد الضروري إلى قضية التطهير، والدعوة إلى الكلمة الطيبة، وعدم الجهر بالسوء، وسائد القضايا الأخلاقية، والدعوة إلى الالتزام بما يلزم وحق الانتماء وجدنا ذلك كله ومثله معه يمتد مع الزمن إلى ما قبل التاريخ، فلم يكن وليد آلية زمانية آنية، ولا منتج جماعة قائمة، وما كان خطاب الانتماء وتكريس الهوية بدعا من القول ليكون من حقنا القول في نفيه أو إثباته بجرة قلم، يظاهرها من لا يعرف جذور النظريات الضاربة في عمق التاريخ، وأين نحن من صاحبي (صدام الحضارات) و(نهاية التاريخ) و(الإنسان الأخير) إذ يتجسد فيما أفضيا به الانتماء والتعصب والفوقية، وعلى ضوء ما تقدم فإن (الأدب الإسلامي) يأتي في جدل (المنتمي) و(اللامنتمي) و(وما بعد اللامنتمي) وهو جدل إنساني عرفته البشرية منذ أن عرفت نفسها، وليس نبتةً إقليمية ولا خطاب فرد عابرٍ ولم يكن (الأدب الإسلامي) قضية زيد من الناس، وإذ لم يكن من بنات أفكاري فإنني لا أجد بداً من القول: (أنا ربُّ إبلي وللبيت رب يحميه) إن همي أن تشيع الكلمة الطيبة، وسيان عندي شيوعها ذاتيا أو عبر منهج وآلية ومؤسسة، وكل همي في ظل التنامي المتفلت على الضوابط تحديد مفهومي وموقفي من الظاهرة ومؤسستها. وحين يكون الهمُّ الأخلاقي في الأدب قضية أمم سلفت وأخرى قائمة فإنه من العسير أن يئد الفكرة متحدث أو كاتب كلما خلا بأرض طلب الطعن فيها والنزال. وحتى لو أجهضت الفكرة في زمان أو مكان محددين فإنها ستظل قائمة في أزمنة وأمكنة أخرى.

وكيف ينبري من يصادر ظاهرة نشأت مع (أفلاطون) وهو قد تلقاها من أسلاف ما قبل التاريخ كما قال (امرؤ القيس) مثلما قال (ابن حذام) وما قال فلاسفة (اليونان) ظل يراوح بين الحضور والغياب على مر الدهور والأحقاب، والبعد القيمي الدلالي له وجوده الأكثر تجذراً وشيوعاً، وبالذات في الإبداع القولي، وقضية (الدلالة) أصبحت الأكثر حضوراً بعدما انتقل مركز الكون النقدي من (النص) إلى (القارئ) وتخطي مركزية الكون النقدي من (المنتج) إلى (النص) تمخض عن بنيويتين: (لغوية) و(دلالية) وهذا المخاض وسَّع قاعدة (الأسلمة) التي لم تكن متقنة عند ذويها ولا مفهومة عند خصومها.

وهَمُّ التزكية للدلالة لن تجهز عليه أصوات خافتة لا تكاد تبين؛ لأنه يطاول الأزمنة والأمكنة، وبودي لو قرئ ما كتب عن (النقد الأخلاقي) من دراسات منهجية معمقة تقصت تاريخه وفلسفته ومشروعيته وأهم نقاده، ولست بحاجة إلى الحديث المعار أو المعاد بحيث أستدعي شواهد إثبات المشروعية والمسوغات والمفهومية، والمتابع للحركة

النقدية في مجالها التنظيري وما يَعْتريها من تعميمات وإطلاقات وتوجسات لا مبرر لها يروعه -بل يسوؤه- غياب المثقف الشمولي الراصد للحراك الأدبي وتلاحق نظرياته وتوارث مذاهبه وتياراته، وتحولاته من الإمتاع الخالص إلى النفع الخالص، إذ لو كان المتداولون للظواهر والمذاهب على علم بمئات الدراسات والإبداعات المتعددة والمتناقضة لكان (الأدب الإسلامي) من المعلوم عندهم بالضرورة، وما ألف عن النظرية الأخلاقية والنقد الأخلاقي ونظرية الخير والشر وشعراء الهداية والغواية وأدب العهر والكفر والالتزام والتخلي لا يمكن تصوره فضلا عن احتوائه ودسِّه في التراب، أو إمساكه على هون، إنها قضايا متجذرة في عمق التاريخ، ومنتشرة في علم الأدب والسياسة والاجتماع وسائر المعارف الإنسانية، ولكل حضارة نظريتها الأخلاقية ونظرتها إلى الخير والشر ومصدرهما، وتقصي النظرية الأخلاقية في الإسلام يستدعي القول والفعل بوصفهما محققات السلوك، وما بدر من المبدعين والنقاد والدارسين من مخالفات في الفكر أو في الأخلاق تصدى له الملتزمون بمقتضيات النظرية الأخلاقية التي هي من محققات (الأدب الإسلامي).

فالذين تصدوا لروايات (جرجي زيدان) و(نجيب محفوظ) و(سلمان رشدي) و(علاء) و(نسرين) و(شكري) وغيرهم نقاد إسلاميون، يرفضون التمرد لوجه الشيطان والشهوات الحيوانية ولا يمسون الفن الروائي بسوء فمحفوظ عندهم قمة الإبداع الروائي وإن سلقوه بسبب (أولاد حارتنا) والذين تصدوا لدراسات (طه حسين) و(محمد أحمد خلف الله) و(نصر حامد أبي زيد) و(لويس عوض) وغيرهم هم نقاد إسلاميون ومع هذا يظل (طه حسين) عميد الأدب العربي، فالتصدي للمضامين لا يمس الفنيات و(محمد محمد حسين) و(مكي) و(الباشا) و(قطب) وآخرون لا أحصي لهم عدداً يمثلون النقد الإسلامي، وليس للنقد الإسلامي منهجية ولا آلية تختلف عما عليه النقد العربي، ذلك أن الفارق بين (الأدب الإسلامي ونقده) وسائر المذاهب النقدية يكمن في القبول والرفض الموضوعي، وإذا كان الناقد - أي ناقد- يهتم بإشاعة الكلمة الطيبة فإنه ليس بحاجة إلى منهج ولا إلى آلية تخالف ما هو سائد في المشهد الأدبي، والذين يطالبون بمنهجية وآلية خاصة آَفَتُهُمُ الفهم السقيم، وكل ناقد يتصدى للانحراف الفكري أو السقوط الأخلاقي لا ينقم على أدبية السرد ولا شعرية الشعر، وليس بحاجة إلى أن يختط لنفسه منهجاً، ولا أن يتخذ لعمله آلية تباين ما هو قائم في سائد المشاهد، والذين يتعنتون ويطالبون الأدب الإسلامي بالتميز المنهجي يحملون المصطلح ما لا يحتمل، وقد تكون المطالبة حيلة لإجهاض المصطلح بسبب أنه لم يتخذ منهجاً وآلية تخصه، ونحن على هذه الطريقة المتعنتة من حقنا أن نطالب كل أدب بمنهج وآلية، فما هي مناهج وآليات الأدب الحداثي والماركسي والوجودي والواقعي؟

فالذين يتصدون للإخفاقات الموضوعية المتمثلة بالسقوط الأخلاقي أو الانحراف الفكري يعدون نقاداً إسلاميين، فالأدب والنقد صنوان قائمان ما قام عَسِيب، وحتى لو سقط المصطلح على يد المهزومين حضارياً، وهدمت شواخص الرابطة فإنه سيظل هَمُّ ترشيد الأدب قائما في النفوس لا ينتزعه أحد، لا لقوة في ذاته، وإنما لقيام الحاجة إليه، فكل إنسان عاقل صاحب رسالة لا يني في ذكرها والبحث لها عن الصدارة، ومادة ذلك القوة المادية ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ والعمل القولي: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾، «**بلغوا عني ولو آية**» وطرائق الأداء تختلف باختلاف الأنواع المستعملة فالواعظ غير المبدع والعالم غير الأديب والمفكر غير المثقف، والحضارة لا تكون إلا حيث يتعدد صناعها ومن جهل انتماءه أو تجاهله يدخل زمن التيه الذي عوقب به (بنو إسرائيل)

وارتفاع الأصوات فوق صوت أي ظاهرة لا يهدد بزوالها متى كانت تمد بسبب إلى روح الإسلام.

والإبداعُ القولي منذ أن عرفت الكلمة الشاعرة قسمة بين (اللفظ) و(المعنى) والنقاد المنظرون والمطبقون أوزاع بين هذه الثنائية، يقتسمون الأدوار، ولربما كان (الأدب الإسلامي - نقده) من يحفظ التوازن بين ثنائية اللفظ والمعنى، وإذا كانت هناك بنيوية لغوية فإن هناك بنيوية موضوعية سميت بالتكوينية جاءت لصد النقاد الهاربين من الانتماء (الماركسي) الذي يعدونه إلزاماً لا التزاماً لا إكراه فيه، وإذ تضرر الأدب من هذا التسلط فإن الإسلام لا يلزم الأدب، وإنما يسعى لترسيخ الإيمان ومتى أشرب المبدع في قلبه الإيمان أصبح لا يقول إلا ما يقتضيه معتقده، والشعراء الذين يقولون ما لا يفعلون هم أولئك الذين أسلموا ولم يؤمنوا على حد ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا﴾.

الإبداع المنتمي بوصفه إشكالية .. ؟ (٣)

وحين يحمل أحدنا همَّ إشاعة الكلمة الطيبة ودحض الكلمة الخبيثة وتحقيق شرف اللفظ والمعنى من خلال (البنيوية الموضوعية) أو ما يُسمَّى ب(البنيوية التكوينية) التي فرضها (الماركسيون) إبَّان نفوذهم، وتبناها النقاد المغاربة ك(لَحْمِداني) فإن ذلك لا يُحمِّل المتبني جرائر الصراع بين التيارات والمذاهب.

والأدب الإسلامي يخوض مع الخائضين، ويمتلك مشروعيته من تلك المراوحة بين قيم اللفظ والمعنى. وما لا مِرَاءَ فيه أن (الرابطة) كيانٌ عالمي، أنشأه المسلمون الأعاجم حين رأوا أن المشاهد الأدبية والفكرية دُوْلَةٌ بين أصحاب المذاهب المادية و(اللا أخلاقية)، وهم حين أرادوا تحصين الإبداع القولي من العهر والكفر الماثلَيْن للعيان من خلال إبداعات الحداثة الفكرية المجلوبة بكل وضرها من الغرب. ولقد فَرَّق البعض من النقاد بين حداثة الفكر وحداثة الفن بالصياغة الصرفية فقيل: (الحداثة) و(الحداثوية) كما قيل (إسلامي) و(إسلاموي)، وهو تفريق اعتباري لا وضعي لغوي. وهؤلاء الذين تبنوا الفكرة عن حُسن نيَّة وسلامة قصد قدِموا إلينا لنصرتهم، والإسهام في تنقية أجواء الأدب من دخن المذاهب الموغلة في الرذيلة، وما لا نتوقعه تنكر البعض منا لهذه الاستغاثة والاستنصار في الدين، ولاسيما أن علينا النصر وبخَاصَّةٍ أن دعوتهم لا تقوم على الاعتداء على أحد، فيما استقبل المتنكرون حضارة الآخر بكل وضرها المادي وشهواتها الحيوانية. وإن كان لدينا فضلةٌ من جهد، فإن من واجبنا أن نبذله لترشيد مسار الأدب، وثنيه عن بنيَّات الطريق، وماذا علينا لو اطمأنت نفوسنا لدعوة إخواننا وتفسحنا لهم في المجالس وباركنا خطواتهم وقمعنا ذلك التدهور الأخلاقي والفكري في الإبداع العربي الذي لا يمكن معه أن تتحقق حضارة الانتماء؟ فهل التفحش الذي نراه ونسمعه مما يراد به وجه الله والدار الآخرة، أم إنه مجاهرةٌ مِمَّن بُلُوا بالقاذورات، وتعمُّد لإشاعة الفواحش؟

والحداثة الفكرية بكل مادياتها وتخلياتها، وأدبُ الاعتراف وممارسةُ الحرية التعبيرية بدون أي ضابط، والخلطةُ المستحكمة مع فكر الغرب وأدبه وسلوكياته ورؤيته للحياة والكون، والخطابُ الثوري المتمرد على كل السلطات، والخلط بين السلطة المشروعة والتسلط المحظور، كل ذلك بحاجة إلى كُتَّاب ونقادٍ يعرفون حدودَ حضارتهم ومحققات أدنى حد منها لحمل الكافة عليها، وهذا من باب التوجيه إلى النفور لِلتّفقه في الدين وإنذار القوم بعد الرجوع إليهم. ولن تتحقق مثل هذه الرغبات حتى يَلْتَفَّ القادرون تحت أيِّ مُسمَّى يوحِّدون فيه جهودهم وينسِّقون فيه أعمالهم، ويكون بعضُهم لبعض ظهيرا، ومن خاف من ملتزم تضييقاً أو خاف على الأدب فَقَدْ اتَّهم الحضارة التي ينتمي إليها، وعلينا أن نفرق بين من ينتقد المبادئ ومن يَسْتدرك على التطبيق.

وأحسبنا متفقين على أن الأدب - أي أدب - لا يتحقق وجوده إلا بالوصف، أو بالإضافة إمَّا إلى ظرفه أو لغته أو فنّه أو نوعه أو شكله أو مضمونه، وقد يضاف إلى السياسة التي أنتجته أو إلى الجماعة التي رعته وصبغته أو إلى الطائفة التي (أدْلَجَتْه)، وما أحد تردد في شيء من ذلك، وبذلك الاتفاق الطوعي تتحقق مشروعية الأدب الإسلامي، بل تتحقق أدبية أي أدب ينتمي إلى موضوعه.

والإسلام بوصفه شِرعة ومنهاجاً بحاجة إلى أدب يبلِّغ رسالته ويُعَبِّر عن قيمه، ومثلما كان للماركسية أدبها وللوجودية أدبها وللحضارة الغربية أدبها فإن الإسلام أحق بذلك، وقضية صراع الحضارات من القضايا المسلَّمة، وهي لا تتم إلا باللسان أو السنان، والحضارة الإسلامية تعيش صراعاً أزلياً مع سائر الحضارات، وحاجتها إلى أدبها كحاجتها إلى جُنْديّها، فحامل الكلمة كحامل السلاح سواء بسواء، بل أكاد أقول إن حمل الكلمة أهمّ من حمل السلاح، والله سبحانه وتعالى يقول لرسوله: ﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ﴾ يعني القرآن، فالجهاد بالكلمة أجدى من الجهاد بالسلاح، وما انتشر الإسلام إلا بالدعوة والقدوة.

وفي ظل الجدل حول مفهوم المصطلح ومشروعيته يصبح المتابعون في أمر مريج، وتشابه المفاهيم يحتم السؤال قبل الحُكم على الظاهرة، وما الأدب الإسلامي في خضم الآداب العالمية إلا مفحص قطاة في مشاهد الأدب العربي خاصة، وما هو إلا سمة من سمات الأدب العربي، تفارقه إذا ابتلي بالخطيئات وتعود إليه إذا استقام على الطريقة، على حد: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**».

فالأدب العربي ليس خالصاً لحضارة الانتماء، فهو فضاء فسيح للملل والنحل والمذاهب والطوائف يجوس خلاله المؤمنون حقا والساقطون أخلاقاً والمنحرفون أفكاراً، وليس محرَّماً أن تأخذ الكلمة الطيبة حيزها متميزة باسمها كما تميز غيرها.

والأديب الإسلامي الذي يحمل همّ حضارته وسط اختلاط التيارات، وتداخل الحضارات إنما يستجيب لطائفة من الأمة، وكأني بها تردد مع الشاعر:

أَحَرامٌ على بلابِله الدوحُ
حَلالٌ للطير من كل جنس

والبرمون الفارون من رقابة الناقد الإسلامي لن يفروا من رقيب الملائكة ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

ويقيني أن احتدام المشاعر وحِدِّيَّة المواقف والنفي والمصادرة والتهميش والتشكيك في النوايا والاتهام مؤشرات بدائية معرفية، ونقص في التجربة، وضيق في الأفق، وبخاصة حين تكون المشاهد قادرةً على استيعاب كل الخطابات، والبقاء في النهاية للأصلح.

والاستغراب في تفشي الأثرة ومصادرة الحقوق المشروعة لأصحاب الكلمة الطيبة. إن الدخول في المعمار لإصلاحه خير من إتيانه من القواعد لنسفه، وما سمعت وما قرأت لأحد يحبذ أن يكون معمار الأدب بهذا الشكل أو بذاك، بل المناوئون مجمعون على اجتثاثه من أصوله، وعادة الواقفين من بعض الظواهر أن تكون للتصحيح أو التصويب، وقَلَّ أن يكون التطلع إلى الإلغاء والتغييب. فما موقع المتصدين للأدب الإسلامي؟ وما حَيْثيات تلك المواقف؟

لقد كان بودي لو كانوا مصححين أو مصوِّبين، ومثل ذلك يتطلب تحديد مواطن الخلل في الظاهرة.

وحينئذٍ لم يبق إلا المصادرة، وليس لأحد أن يصادر حق الآخر المشروع إلا بحجة بالغة، فأين برهان هؤلاء؟ وصدق الله ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾.

لقد نهض (أبو الحسن الندوي) رحمه الله بمهمات جِسام، وقدَّم للحضارة الإسلامية ما هي بحاجة إليه من جَمْعيات وروابط وهيئات ومنظمات تقبَّلها زعماء العالم الإسلامي بقبول حسن، وكان من حسناته إنشاء (رابطة الأدب الإسلامي) المنتشرة مكاتبها في أنحاء المعمورة، ومن ثم لم يكن الأدب الإسلامي إقليمياً فضلاً عن أن يكون عربياً، وواجب حَمَلة الهمّ الإسلامي المناصرة أو التخلية بين الرابطة وهمها، ولأن المملكة العربية السعودية مثابة للمصلحين والدعاة وأمن لهم، فقد دعَمَتْ الرابطة مادياً ومعنوياً، ولم أعهد من خلال ارتباطي بها واختياري لتمثيل المملكة فيها أنَّ دولةً من الدول الثماني التي تحتضن مكاتب رئيسية للرابطة هبَّ أدباؤها في وجه الرابطة، أو قللوا من شأنها، ولست أدري ما المحاذير التي حَفزتْ البعض على مواجهة (الأدب الإسلامي) وهو أدب عربي لا ينفرد إلا بقمح الجنح الأخلاقية والانْحِرافات الفكرية؛ إذ ما عهدته معترضاً على اللغة، ولا على الشكل، ولا على سائر المتطلبات الفنية، ولا على شيء من شعرية الشعر ولا أدبية السرد.

وأي مبدع لا يتألق إلا في ظل الحرية الفوضوية فإننا في غنى عن إبداعه، فالإسلام دين القيم والاستقامة، ومن ظَنَّ أن الأدب الإسلامي مرتهن لثنائية الإسلام والكفر أو المواعظ والرقائق أو أنه يلغي شيئاً من محققات الشعرية والأدبية أو أنه يقبل الضعفاء من النظَّامين لحساب المضمون فقد افترى عليه وعلى ذويه الكذب، وأفسد خطط الإصلاح ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الفَسَادَ﴾.

ومن جَعَل الأدب في مَعْزِل عن الإسلام فهو كمن جعل السياسة والاقتصاد والحياة الاجتماعية في مَعْزِل عن حاكميته، وأتمنى أن يبقى الاحترام المتبَادل ما بقي الاختلاف.

وما أَحْوَجنا إلى الثقة بالنفس وفَهْم الأشياء على مراد أهلها، والقبول بالرأي الآخر، وإيقافه للمساءلة والنقد، والانطلاق بالحضارة لا المروق منها، والتفريق بين الاتباع والابتداع المشروعين، وما هو محكوم بدرايتنا المتغيرة مع الزمن والمحكوم بروايتنا المتسعة للاجتهاد والتأويل، مع الفَهْم الدقيق والواعي لمقولة الرسول ﷺ (ما أنا عليه وأصحابي) و(أنتم أدرى بأمور دنياكم)، وبين (الدراية) و(الاقتداء) خيط رفيع لا يدركه إلا الراسخون في العلم.

فكم من منغلق عطَّل العقل والتجربة والاستشراف، وكم من منفتح عطَّل النص والاقتداء وميَّع الإسلام ومسخ الشخصية، وقليل من المفكرين من أجال العقل في فضاء النص، وآمن بألا تعارض بين صحيح المنقول وصريح المعقول.

بقي أنْ أقول: إن مهمة المسلم في الحياة عبادة وعمارة وهداية، ولن تتحقق هداية البشرية إلا إذا كانت الكلمة طيبة وعلى مراد الله، ومتى كانت كذلك كان الأدب الإسلامي على أي مفهوم وفي ظل أي تصور.

الحركة النقدية المعاصرة المعطيات.. والآفاق .. ! (١) [(١)]

كلُّ عنوان يشكل مصطلحاً أو تساؤلاً، يلقى أو يُتلقَّى ليتداوله ذو الشأن مصعداً الخلاف، أو مطفئاً لظاه.

وما اختلف المعنيون إلا من بعد ما جاءتهم المصطلحات العائمة: مترجمة أو معربة أو منقولة أو منشأة إنشاء، وانتقالها من حضارة إلى أخرى مؤذن باختلاف كبير، والمشهد يرصد الاستعلام والتعليم.

والراسخون في علم المصطلحات والفنون، يعرفون المسافة بين الحجة البالغة والادعاء العريض، ولجة الاختلاف لا يخوضها باقتدار إلا من يملكون القدرة على التفسح في المشاهد للاختلاف المشروع، ويحسبون كل الحسابات للتأويل الناقل من واحدية المفهوم إلى تعدديته، وما ضيق الواسع إلا الحدِّيون الواحديون الذين لا يتسع عطنهم إلا للمقدم من رؤيتهم، بحيث لا يحيدون عنه، وفي صخب التعددية والواحدية يجتال المشاهد أساطين النقد وأدعياؤه، بقول مختلف.

والإشكالية في الخلطة اللجية، التي لا يستبين فيها الراصد الصادق من الكاذب، والأصيل من الدعي، ولكيلا نوسع مجال التناول، نقف أمام العنوان المتمثل بكلمات أربع، تعد من السهل الممتنع، فـ(النقد) و(المعطى) و(الاستشراف) و(المعاصرة) من القول الأليف، ولكن المقاربة الواعية تحيل الممكن إلى المستحيل، ومثلما استيأس المنظرون من تحديد مفهوم (الثقافة)، فقد كادوا يكونون أكثر يأساً في تحديد مفهوم (النقد)، فالمؤرخ للأدب والشارح الوسيط، وصاحب المختارات والمنظر، والمقارن، والمفكك للنص الباحث عن دلالاته العميقة، والعائبون، كل أولئك يُسمَّون نقاداً بدون اتفاق.

وفي ضوء هذا الاضطراب في المفاهيم يصبح المصطلح عصياً، ويظل الخلاف قائماً، غير أنه خلاف لا يحيل إلى مرجعية حاسمة، ومعضلة أي خلاف تتمثل في غياب المرجعية أو إسقاط حاكميتها، و(النقد) على الرغم من أزليته يظل مشروع اختلاف حول مفهومه ومقتضاه ومشمولاته، وإذ بالإمكان السيطرة على أحوال النقد وتقلباته في العصور الأولى، فإنه ليس بمقدور أحد أن يلم بالحركة النقدية المعاصرة وتحولاتها المتلاحقة، واهتماماتها المتعددة، ولكن ذلك لا يمنع من القول في عمومياتها، و(المعاصرة) بوصفها صفة للحركة النقدية محددة لأمدائها الزمانية مصطلح، لم يتفق أهل الاختصاص على مداه الزمني، والبعض منهم يخلط بينه وبين التجديد، حتى يكون (التجديد) و(المعاصرة) عنده كالرديفين، وذلك مكمن الإشكالية.

وعندي أن (المعاصرة) لا تتجاوز الزمن إلى ما سواه، ولا تمتد لأكثر من قرن، وهي بهذا المفهوم لا تعد إشكالية فنية، والمتعقب لتحولات النقد، يحس أنها مرتبطة بما يجري في المشاهد الغربية، فهي كالأجواء التي لا تنشئ الطقس، ولكنها تتأثر بتقلبات الأجواء المجاورة، ومما يؤخذ على الحركة النقدية المعاصرة في الوطن العربي، ارتباطها العضوي بالمستجد الغربي، فهي كالصدى للصائح المحكي، وحين ترضى من الحركة النقدية العالمية بالمحاكاة فإنها لا تمتلك المبادرة ولا الاستقلالية، والمأخذ عليها أنها قادرة على المبادرة والاستقلالية والتفاعل بندية، بموروثها العريق، وذلك من نقص القادرين على التمام، وإذ لا يكون الأدب العربي مجتثاً من فوق الأرض، وإذ تكون له حضارته الأعرق من كل الحضارات، فإن واجب الأساطين الاستبداد، والعاجز من لا يستبد.

---

(١) تاريخ المقال: ٢١/ ٨/ ٢٠٠٧

وليس الاستبداد أن نغلق الأبواب، ونكتفي بما نتداول، ولكنه الاستقبال الواعي لمنتج الآخر، وأخذ ما ينقصنا منه، وما نحن بحاجة إليه، وما لا يؤثر في خصوصيتنا، والذين يتفحصون التواصل مع الآخر، يجدونه لا يتجاوز الاستهلاك غير المحسوب، وقبول المعطى على علاته مؤذن بطمس الهوية، وفقد الثبات، وما من مشهد نقدي إلا وله إشكالياته المتعددة والمتبدلة من فترة لأخرى، فالخوف غير المبرر تفويت للفرص، والاستقبال غير المقيد إلغاء للذات، وبين محدودية الخوف وضابط الاستقبال تنمو المشاكل، وتتضاعف المتاعب، والعقلاء وحدهم الذين يَشْقون بهذا الفيض من المعارف المختلطة على غير نظام، إن هناك تيارات ومذاهب وآليات ومناهج، لا يُستغنى عنها، ولا يُستغنى بها، والإشكالية ليست فيها، ولكنها في أسلوب التعامل معها، ومن ازورَّ عما أنجزته الحضارات بحجة الاستغناء أو الخوف من الغزو والتآمر فقد فوت على أمته كل الفرص.

والمشهد النقدي العربي كما المشاهد الغربية مر بتحولات متلاحقة، إذ كان مركز الكون النقدي (مُنْتِج النص)، ولقد عرفت تلك المركزية ب(النقد التكويني) وهو غير (البنيوية التكوينية)، ولما استوت المناهج والآليات على سوقها، تحولت المركزية الكونية إلى (النص)، ولقد عرفت تلك المركزية بمسميات مختلفة ومتعددة ومترادفة، يجمعها (النقد الألسني)، وفي أوج تألقها تحولت المركزية إلى (المتلقي) فكانت نظريات المعرفة والتلقي، وهذه التحولات المتلاحقة خلَّفت كماً هائلاً من النظريات والمناهج والآليات، لا ننكر إسهامها في تخصيب المشهد النقدي وإثرائه، وإن بدت بعض النظريات مربكة، وغير مستوعبة، وبخاصة ما يتعلق بالمنهج اللغوي الذي نُقل بحذافيره من (فقه اللغة) إلى (فقه الأدب) فتحول النقد من التذوق الجمالي، إلى تجرع المعيارية المقطِّعة للأوصال.

وعيب المشهد العربي الحماس والتسرع والاهتياج الأعزل من المعرفة الدقيقة، وفي ظل تبادل المواقع نجمت مناهج نقدية (أيديولوجية) ولغوية ونفسية وثقافية واجتماعية، كانت السبب الرئيس في التنازع والتدابر والتنابز، وكل معركة نقدية وراءها مذهب أو منهج أو آلية أو (أيديولوجية) ليست من عند حضارة الانتماء.

وحين نأخذ على الحركة النقدية اضطرابها، وسرعة تحولاتها، وتفرق جمعها، لا نود العودة إلى النمطية والتناظر، إذ لا نجد بداً من التعدد والاختلاف. واستيعابنا للأطياف، لا يعني ترك الأمور بلا قواعد وبدون ضوابط أو مرجعية يحتكم إليها المتجادلون، وحين لا نحفل بالمشاكلة والمماثلة فإن هذا مرتهن بسقف ومحدِّدات تحفظ الهوية، إننا حين نكون ضد الانفلات لا نكون في المقابل مع النمطية، وبين هذا وذاك مسافة وهمية، لا يقدرها حق قدرها إلا العالمون ببواطن النقد الحديث.

وحين نستدعي العمالقة لا نبيح لأنفسنا الخلط بين التأسيس النظري والممارسة التطبيقية، المنظرون كادوا يستقصون حدود المناهج والآليات، وبخاصة عند المتأخرين من (النقاد المغاربة) وبعض المشارقة، أما المطبقون فإنهم لا ينفكون من خلفياتهم الثقافية، ومن سلطان النقد الشعري الذي يغرق في الشكلية واللغوية، وأيا ما كان الأمر فإن المشهد النقدي وسع الحراك، ولم يأنف من الوصول إلى كل ظاهرة شرقية أو غربية. والرد إلى أصول الحركة النقدية المعاصرة يُذكرنا بعلمين لا يعيشان حضوراً في المتداول، وإن كانت لهما سابقة الريادة في محاولة التأسيس للمعرفة النقدية على أصولها الحديثة.

أما أحدهما فكان رائد الأدب المقارن وهو (روحي الخالدي ت١٩١٣م) وأما الآخر ف(قسطاكي الحمصي ت١٩٤١م) الذي مزج بين النقد العربي القديم من خلال آلية البلاغة، والنقد الغربي، متمثلاً الأسس الثلاثة (البيئة والجنس والعصر) متماهياً مع الناقد الغربي (سانت بيف)، ونسيان هذين العلمين بسبب الحركة النقدية المتسارعة التي

تجاوزت الريادة والتأسيس، وكادت تسبق ظلها، وعلى مشارف الأصول تتراءى لنا اتجاهات نقدية ظلت تتجاذب أردية الحركة، فالأديب (مصطفى صادق الرافعي ت١٩٣٧م) اتخذ المنهج البياني، و(عباس محمود العقاد ت١٩٦٤م) اتخذ المنهج العلمي الفلسفي متماهياً مع الاتجاه النفسي عند (هازلت)، أما (طه حسين ت١٩٧٣م) فقد راق له النقد الاجتماعي كما هو عند (تين)، وقد سماه بعض الدارسين بالاتجاه الفني العلمي.

لقد أدت المراوحة بين الذات الفاعلة، والذات المتلقية إلى استبعاد المادة الأدبية بوصفها المسيطرة على العملية النقدية. فالاهتمام بالمتلقي يتوسل بالإدراك المؤدي إلى بناء جديد للمعنى، لم يكن مقصوداً رئيساً للذات الفاعلة، فالمعنى المنشود ليس هو المعنى المرسل، بمعنى أن المتلقي بما يملكه من وسائل وخلفيات ثقافية، وظروف متحكمة ينتج المعنى الذي يخدم راهنه، غير عابئ بمقاصد الذات الفاعلة، وقد أعيدت قراءة التراث الشعري، بعيون العصر وآلياته، على يد (جابر عصفور) و(كمال أبو ديب) وآخرين، كانوا أقرب إلى التوازن ك(محمد نجيب البهبيتي) وفكرة النظام والنسق والبنية التحتية، وسائر الفرضيات ألقت ظلالاً قاتمة على النص، وحققت هاجس الانقطاع المضاعف، على أن (المنهج البنيوي) بوصفه آلية نقدية، يركن إلى النظام اللغوي في تحديد المعنى، فيما يركن المتلقي إلى أثر البنية لا إلى نظامها، ومن الصعوبة بمكان التفريق المقنع بين نظام البنية وأثر البنية في تجسيد المعنى، ولكن النقاد يعولون على مثل ذلك، وفي ظل التحولات المتسارعة تجاوزت المركزية المتلقي إلى (النسق الثقافي)، فكان تفكيك الدلالة بواسطة النسق الثقافي، لا بآلية اللغة، ولأن المشهد مرتهن للطوارئ، فإن التعويل على أي مركز يعد مرحلة انتقالية.

الحركة النقدية المعاصرة.. المعطيات.. والآفاق.. ! (٢) [1]

وحديثي عن الحركة وتحولاتها لن يكون إقليمياً، وإن اضطررت إلى ضرب الأمثال ببعض رموز الإقليمية وقضاياها. فالحركة النقدية في (المملكة) مُسَيَّرة لا مخيرة، ومقتفية لآثار من سبق، وهي بهذا ليست بدعاً من الحركة النقدية في الوطن العربي، ف(العقاد) مرتهن ل(هازلت) و(طه حسين) ينسل من جحور كثيرة، أهمها النظرية الاجتماعية عند (تين)، و(مندور) ملتف بعباءة (اللانسونية)، ولك أن تبحث عن رموز الحداثة والتجديد أمثال (أدونيس) و(عصفور) و(صلاح فضل) و(عبد الملك مرتاض)، وكل أولئك دُرست مناهجهم وآلياتهم بكتب مستقلة، أو ضمن دراسات للمناهج النقدية الحديثة واكتشفت مصادرهم التي يدعون أُبوتها، ولا يدعونها لآبائها، ولو تجاوزنا إلى المغرب العربي لوجدنا (مفتاح) و(يقطين) و(لِحْمِداني)، خير من يمثل المناهج اللغوية الغربية، ولن أكون متحاملاً إذا قلت إن المشاهد النقدية العربية تمثل حيازات للنظريات النقدية الغربية، ولكنها حيازات متفاوتة في ذاتها، فمنها ما يتسم بالوعي والتمكن، كالمشهد المغاربي، ومنها ما يتسم بالشمولية والتعددية كالمشهد المصري، ولسنا بصدد المفاضلة، ولكننا نود أن نعرف أبعاد تلك الحركة من خلال رموزها ونظرياتها.

وعندما تحولت المركزية إلى المتلقي، استفاض القول عن نظريات المعرفة والتلقي، واتسع الحديث عن (التأويل) و(التفكيك)، ويقيني أن (التأويلية) التي توسل بها أصحاب النحل والملل لاستدراج النص المقدس إلى حوزتهم، أمدت (التفكيكية) أو تقاطعت معها دون تواطؤ، وكلتاهما أكرهتا النص على الانزياح، واستيعاب الدلالات المرادة، لا المتضمنة، والعدول أو الانزياح، بوصفهما مطلباً رئيساً لا يكتفي بهما التفكيكي، بل لا

---

(١) تاريخ المقال: ٢٨/ ٨/ ٢٠٠٧

يستحضرهما، وهو يقترف جناية المضاهاة بخلق دلالة أخرى بحجج واهية. والركون إلى (التفكيك) عزز (علم الدلالة) حتى أصبح قضية مستقلة، ألفت فيها كتب كثيرة مثل (مدخل إلى علم الدلالة) ل(فرانك بالمر) و(علم الدلالة) ل(جون لاينز) و(علم الدلالة) ل(بير جيرو)، وأخرى عربية مثل (علم الدلالة العربي) ل(فايز الداية)، ولما لم يكن هناك متسع من الوقت لتقصي مفاهيم تلك النظريات فإنني أحيل المتابع إلى المهتمين بتحرير المصطلحات أمثال (عبد الواحد لؤلؤة) و(أحمد مطلوب) و(محمد مفتاح) و(عزت محمد جاد) و(يوسف خياط) و(مجدي وهبة) و(البازعي والرويلي) و(سعيد علوش)، وعشرات غيرهم تعقبوا الظواهر النقدية الحديثة فأرخوا لها وعرفوها، وكشفوا عن مصادرها الفلسفية والجمالية والمعيارية.

ولقد منيت الحركة النقدية بتحولات تعالقية واعية عند الأساطين، وغير واعية عند المتهافتين، وهم السواد الأعظم، وهذا التعالق أدى إلى ارتباك مخل في مسيرة النقد، ومن هذه التعالقات المربكة ما عرف بمصطلح (الكتابة)، الذي أنشأه -على غير سابقة- (البنيويون) الفرنسيون بوصف الكتابة جماع الأنواع الإبداعية القولية، ولقد اضطربت المفاهيم حول مشمولات هذا المصطلح، ومنشأ هذا الاضطراب التفريق بين الكتابة والنص أو النظام والممارسة، أو القدرة ومطلق الأداء، والكتابة الفنية والكتابة التوصيلية المجردة من رغبة الإمتاع. والمتلقي العربي قد لا يكون مستوعباً لأبعاد النظرية، وليس لديه الوقت الكافي لمساءلتها، والتعامل معها بوعي واقتدار، وتلك المعايشة المتسطحة في كثير من أحوالها، لم تمكن الحركة من فرصة التأصيل والإثراء، علماً أن طبيعة الإبداع العربي تقوم على نوعين يفترقان في الصياغة والدلالة، فالشعرية تباين السردية، ولكل منهما أنواع متباينة حتى أن مفهوم (الأدبية) ظل مجال أخذ ورد، ولم يعه إلا المعاصرون، وإن كان متداولاً في الموروث.

ونظرية (الكتابة) إن صلحت للإبداع الغربي، فهي لا يمكن أن تكون صالحة بذات القدر، وعين المفهوم للإبداع العربي.

وإشكالية مشاهدنا أنها تتلقى الركبان دون أن تتوفر على تفهم للطوارئ، ومدى ملاءمتها لما هو قائم في راهن العالم العربي، إذ ليس من المسلم أن يكون ما هو صالح لحضارة معاصرة صالحاً لحضارة أخرى، فالخصوصيات والأنساق الثقافية تحدد القبول والرفض، والمتنفذون في مشاهدنا لا يقدرون لها قدرها، ولهذا يتلقون المستجد على أنه صالح ومطلوب، والإشارة إلى الخصوصية لا تعني الدخول في مأزق المفاضلة، فالخصوصية سمة تميز الأشياء، ولا تفاضل بينها، والمتحفظون على دعوى الخصوصية يربطونها بمأزق المفاضلة والتصدير، وأنا حين أصر على قضية الخصوصية والهوية، لا أجعل من لوازمها المفاضلة أو التصدير، وإنما أومئ إلى وعي التبادل والتفاعل، ومعرفة حدود ذلك.

لقد تناسلت نظريات النقد في أطر متعددة، وسعتها الحضارة الغربية في ظل حرية مطلقة، لا تحكمها مرجعية، ولا تأطرها مسلمات، وكلما ألغيت الثوابت اتسع أفق التجريب، وذلك ما لم يتهيأ إلا للحضارة المادية العقلية الخالصة. وإذ لا نكون بصدد المفاضلة أو التقويم، فإننا لن نوازن ولن نقارن، وحقنا أن نقف عند حد الاستكناه والوصف. لقد هيمنت على المشاهد الغربية مناهج وآليات وأفكار، واختلطت المبادئ مع الإجرائيات، و(الأيديولوجيات) مع الآليات، ولم يكن المستجيب العربي واعياً بهذه الخلطة بالقدر الكافي، ومن ثم استفحلت الإشكاليات حول المحظور والمباح. ونشوء النظريات وتلاحقها أحدث اضطراباً في مشاهد التلقي والتعالق، ف(الشكلانية) و(البنيوية) و(التحليل النفسي) و(الاجتماعي) للأدب و(الابستمولوجيا) و(السيموطيقا) و(التحويلية)

و(التقويضية) و(النقد الثقافي)، وتنازع المركزية بين التكوينية والنصوصية، والمتلقي، لم يدع ذلك كله فرصة للتأمل والتقويم، لقد استحضرت النظرية النقدية التراثية ركني النص: اللفظ والمعنى، واستطاعت استكمال متطلبات الركنين، ويكفي أن نضرب المثل بنظرية (النظم) عند (الجرجاني)، التي أهملت، ولم تطور، ولم تستخدم مع تعويلها على البنية وقيامها بمهمة تفكيك النص.

والحركة النقدية المعاصرة لما تزل مرتهنة للنقد الأدبي الغربي، وما يتصل به من ضروب المعرفة، فالحركة النقدية في الغرب وصلت حبالها بشتى العلوم الحديثة، كعلم النفس وعلم الاجتماع وسائر المعارف، وفي كل تواصل مع علم من العلوم تتفلت الألسنة بتهميش ما سواه، ونسيان ما تركه السياق من ركام معرفي، ومن ثم راجت مقولة (موت المؤلف) و(موت النحو) و(موت النقد الأدبي)، ومثل هذه الإطلاقات، وإن لم تكن مقصودة لذاتها، إلا أنها مؤذنة بنفي كل التراكم المعرفي، حول ما سلف من النظريات، ومؤذنة برفض التعايش، والمؤذي أن المقلدين للغربي يتهمون المحافظين والمؤصلين والمجددين بالإقصاء، وهم الذين يمارسونه، والنقد الجنائزي الذي يروجونه يؤكد ممارسة الإقصاء.

ولكيلا نحكم الحركة النقدية بالإخفاقات الإقليمية أو بالممارسات الفردية، نود الإشارة إلى أن الوعي المغربي كاد يقترب من التحرير والتأصيل، وبخاصة فيما يتعلق بالمناهج اللغوية الحديثة، وأستطيع أن أقطع بأن الوعي السليم للحراك النقدي جاء مرتهناً لأفراد من النقاد، وليس سمة للمشهد النقدي، وهناك فرق بين أن يكون الوعي النقدي مشهدياً أو فردياً. وداء المشهد النقدي اشتغال ذويه بالحيازات الوهمية، واستباق المذهبية على حساب الحفريات المعرفية في سبيل الاستكناه، وتفادياً لخلط الأوراق، وتعميم المساءلة، نود الإشارة والإشادة بالنقد الأكاديمي في سائر الجامعات العربية، الذي وجه الدارسين إلى تحرير المسائل وتأصيل المفاهيم، وفق منهج وخطة وآلية محكمة، غير أن الغلبة للنقد الإعلامي الذي خاضه بعض الأكاديميين على استحياء.

وأستطيع أن أقول بأن السمة البارزة للحركة النقدية، أنها مستقبِلة لا منتجة، ومفرعة لا مؤصلة، ومتناحرة حول وهم التبني للمستجد غير الثابت، وإشكاليتها محلياً وعربياً وعالمياً، أنها تتداخل بشكل طوعي مع تيارات ومذاهب ومبادئ ليست وثيقة الصلة بالتعبير الفني الممتع، فالمذهب النفسي والاجتماعي، والمناهج اللغوية الصرفة والتحولات (الأيديولوجية)، تأخذ حيزها في المشهد النقدي، محدثة شقاقاً وتنازعاً وتخلياً عن مهمات الأدب والنقد بوصفهما مجالين يختلفان عن سائر المعارف والعلوم. لقد أدت هذه النزعات المعرفية المعيارية إلى اقتياد الأدب بعيداً عن الجماليات الممتعة، وأذنت للفكر أن يحل محل الوجدان، وأغرت المبدعين بتسييس الخطاب الأدبي و(أدلجته)، والذين رصدوا للنقد الحديث رصداً موضوعياً وتاريخياً، لم يشيروا إلى الإخفاقات التطبيقية، ومن أبرز الراصدين (محمد غنيمي هلال) ومن بعده (عز الدين إسماعيل) و(نبيل راغب) و(كمال أبو ديب).

وما أضر بالحركة النقدية إلا المواطأة المذهبية، ولم يكن التحيز سمة خاصة بمرحلة معينة، بل واكب الحركة النقدية منذ القرون الأولى، ولكن الانحياز المداهن أكثر وضوحاً في العصر الحديث. لقد أسرف (العقاد) في نقده ل(أحمد شوقي) وغفل عن مجايله (المازني)، وما نقم منه إلا لأنه على غير مذهبه، وشعراء (الديوان) جميعاً لم يبلغوا مُدَّ (شوقي)، ولا نصيفه، وهذا الجور وتلك المجاملات أفقدت الحركة النقدية مصداقيتها، وأتاحت الفرصة لمزيد من التكتل المذهبي على حساب النظر المجرد، وهو تكتل تبعي، وليس ابتدارياً، وإن جاءت تبعيته للمستجد، مجسِّرة الفجوات بين سائر الحضارات.

فـ(أمريكا) التي تقود العالم ترفض التبعية أياً كان مجالها، متى استطاعت الصدارة، ولهذا عالجت طائفة من النقاد فيها ما آلت إليه أحوال النقد في العشرينات من القرن العشرين، فلقد أحسوا بأن (الأدب الأمريكي) فرع من (الأدب الإنجليزي)؛ لأنه يفتقد الروح الأمريكية، ولهذا جاء كتاب (أمريكا تشب عن الطوق) موجهاً لتكريس الروح الأمريكية. والحركة النقدية المعاصرة تعيش ذات الوضع، فهي تفقد الروح العربية، وهي أحوج ما تكون إلى من يعيد للنقد عروبته. والتمسك بالحق العربي لا يعني الاعتزال، ولا الاكتفاء بالموروث، والذين يقترفون جرائر الذوبان والتلفيق، يرمون المؤصلين بدائهم، ويصفونهم بالانكفاء على الذات، وتقمص الماضي دون تحرف أو تحيز، وكلتا الطائفتين: المنكفئة على الذات، والمنسلخة منها، تقترفان ذنباً واحداً.

لقد رصد (وليم فان) للنقد الأمريكي في نصف قرن، وتكاد تكون خطوات التحول هي ذاتها في النقد العربي المعاصر، وهذه السنن التي استعذب ركوبها رواد الحركة النقدية المعاصرة فوتت على الحركة النقدية فرصة الابتكار والمبادرة والاستجابة للذائقة العربية، فالأخذ بعصم الآخر يحرم الأمة من استغلال طاقاتها وإشباع رغباتها. ولما لم أكن متشائماً، فإن بإمكان المشهد النقدي أن يشب عن الطوق متخذاً طريقه في النقد باتجاه تكريس الذات العربية، التي اقترف سدنة النقد الحديث نفيها من المشهد، والتمكين للطير من كل جنس. لقد أسرع السدنة بالتحول إلى الآخر ومع الآخر، وكرس بعضهم الانسلاخ التام بالتخلي والتجني، وذلك بقيام مدارس أدبية وإنشاء مجلات عربية، تستحث الخطى في سبيل اللحاق بالمستجد الغربي.

وإذا كان ما يسمى بالمجلات (الليبرالية) في أمريكا مثل (الأمة) و(الجمهورية الجديدة) و(السبت الأدبية)، قد حررت ربقة الأدب والنقد الأمريكيين من التبعية، ونجحت في تكريس الذات الأمريكية، فإن مجلات عربية مشابهة مثل (شعر) و(الآداب) و(إبداع) و(حوار) و(أدب) و(أصوات) و(مواقف) و(الثقافية الأجنبية) قد مارست ذات العنف والتطرف، ولكنها نفت الذات لتكرس الغير، وواكب ذلك مؤسسات، ودور نشر، ومؤتمرات، وجوائز، كرست الاغتراب، وأسرعت في الانقطاع، وتلك سمة النقد الأدبي المعاصر، والشعراء والنقاد الحداثيون هم الذين كرسوا الاغتراب، وأتوا الإبداع القولي من قواعده، حين أفسدوا جمالياته بالغموض والانطفاء والانقطاع.

لقد كان بإمكان (الحداثويين) أن يجسروا الفجوات لما يتوفرون عليه من إمكانيات، غير أنهم أرسلوا واردهم ليأخذ ولا يعطي، ويستبدل ولا يتبادل، فكان الاستغراب بكل بشاعته، وإذ تمكنت طائفة منهم من ناصية الفكر والفن، وضربت بسهم وافر، فإن الأغلبية غثاء كغثاء السيل، والزبد يذهب جفاء، والقليل القليل مكث في الأرض، وانتفع منه المشهد النقدي، وإذ لا يكون التيئيس والإحباط وجلد الذات هدفاً، فإننا نشيد بأدوار مارسها حداثويون مكنت الحركة النقدية من استشراف المستقبل، ووصلت حبالها بسائر المستجدات، ولكنها أدوار جاءت على حساب الإرث النقدي والشخصية العربية، وكادت تحمل الغربي على أن يقول: (هذه بضاعتنا ردت إلينا).

الحركة النقدية المعاصرة المعطيات.. والآفاق .. ! (٣) [١]

وإن كان ثمة من يدعو إلى إغلاق النوافذ، وصد المستجد العالمي خوفاً على الخصوصية، فإنّ ذلك لا يحمِّل الفئة الواعية مسؤولية الانكماش والماضوية المنطوية على نفسها، إنّ التفاعل الواعي يختلف عن النقل الحرفي، كما أنّ الانفعال المندفع غير الفعل المحكم، ونحن حين نتخذ منهج التاريخ الوصفي أو الدرس التحليلي التقويمي أو كليهما، فإنّنا نتعمَّد تحجيم خطاب الرفض، وهاجس المفاضلة والتصدير ومشروعية الانفتاح على الآخر لا تعني تخلية المواقع من التراث وتحوُّلاته، لقد رصد الدارسون الأكاديميون حركة النقد منذ العصور الأولى حتى العصر الحديث، واستبانوا خصوصية كلّ عصر وتحوُّلاته الواعية، إذْ كان التحوُّل عندهم إضافة لا انقطاعاً، وتجديداً لا تغييراً.

وهذا الإنجاز وأولئك الأعلام، لا يمكن ممارسة القطيعة معهم، إنّهم بمثابة القواعد، ولا قيام لأيّ بناء بدون قواعده، ولأنّ استحضار التراث واستصحابه لا يعني إلاّ زورار عمّا أنجزته الإنسانية. إنّ بالإمكان تفعيل العلائق بين قيم التراث والمعاصرة، وإنجاز مشروع نقدي توفيقي تكاملي، يتعانق فيه التفكيك مع التأويل، ونظرية النظم عند (الجرجاني) مع البنيوية عند (رولان بارت)، ومناهج الآليات النقدية كالنحو والصرف مع مستجدات التحويلية عند (تشومسكي)، ومعطيات البلاغة العربية مع النظرية الجمالية عند (لوكاش)، إنّ للبلاغة العربية بُعداً فلسفياً قد يتصالح مع الفلسفة الجمالية، ونحن أحوج ما نكون إلى نقَّاد معرفيّين لا عاطفيّين يسيطرون على التراث والمعاصرة، ويسقطون من حسابهم النفرة المفتعلة.

لقد كانت لي إلمامات بالمستجد النقدي وصلته بالتراث، فكان أنْ تقصّيت آليات النقد القديم ومناهجه ومدى إرهاصه لكثير من نظريات النقد الحديث، وذلك حين أومأت إلى تطوُّر البلاغة العربية على يد (الجرجاني) و(القرطاجني) واسترفاد (تشومسكي) من النحو العربي عند (سيبويه)، واعترافه بذلك، والذين حاولوا التماس ملامح النقد الحديث في التراث العربي يقفون على بوارد تدل على وعي السّلف بالتحوُّلات، ولكن الانبهار لم يتح لنا فرصة النظر في الأشباه والنظائر.

والمؤرِّخون للحركة النقدية في مختلف العصور، يجدون أنّ لكلِّ عصر قضاياه، واتجاهاته ورموزه ومحرّكاته، وهذا التنوُّع رفد يحوّل دون غور ماء النقد وضموره، فالنقّاد الأوائل شغلوا بالفنّيات واللّغويات والجماليات البيانية، واتسع الحديث حول اللفظ والمعنى والسرقات والطبع والصنعة والمبالغة والاعتدال، وكان شعر (أبي تمام) و(البحتري) و(المتنبي) المصدر والمورد، أمّا في قضايا التجديد والمحافظة، فقد أشغل نارها شعر (بشار ابن برد) و(أبي نواس) وبرز من النقّاد والشرّاح عدد من اللغويين والبلاغيين، الذين استوفى الحديث عنهم بمنهجية متوازنة، (محمد مندور) في كتابه (النقد المنهجي عند العرب) و(أحمد الشايب) في كتابه (أصول النقد الأدبي)، و(أحمد أحمد بدوي) في كتاب (أسس النقد الأدبي) و(مصطفى ناصف) في كتابه (نظرية المعنى في النقد العربي) و(طه إبراهيم) في كتابه (تاريخ النقد الأدبي عند العرب) و(إحسان عباس) في كتابه (تاريخ النقد الأدبي عند العرب)، و(شوقي ضيف) في مجموعة من كتبه وآخرون.

وكلُّ أولئك عوّلوا على كتب الشروح، وكتب التنظير والطبقات ك(الصناعتين) و(العمدة) و(الموازنة) و(المثل) و(البديع) و(النزهة) و(الطبقات) لابن المعتز والجمحي،

---

(١) تاريخ المقال: ٤/ ٩/ ٢٠٠٧

و(منهاج البلغاء) و(عيار الشعر) و(الأسرار) و(الدلائل) و(الوساطة) و(الشعر والشعراء) و(نقد الشعر) و(الموشح). وتقصّى الدارسون الأكاديميون القرون الأولى للنقد قرناً قرناً وصنّفوا كتب النقد والنقّاد، محاولين التماس اهتمامات النقّاد وأولوياتهم في كلِّ قرن، حتى لقد امتدت العناية إلى بوادر النقد في العصر الجاهلي. وحين تعددت الحواضر الإسلامية، وتعدّدت الأعراق الحاكمة خصت الحواضر والعناصر الحاكمة بالحديث عن حركة النقد. والمكتبة العربية زاخرة بمئات الدراسات لحركة النقد العربي.

لقد رصد المؤرّخون والدارسون للحركة النقدية العربية، والتفكير النقدي، والنظرية النقدية، واتجاهات النقد، كما تناولوا أصوله ومناهجه وقضاياه، فعن نشأة النقد تقصّى د. (أحمد خليفة) خصوصية كل إقليم واهتماماته منذ الجاهلية، فيما تناول (جابر عصفور) التراث النقدي في كتابين (مفهوم الشعر) و(قراءة التراث النقدي)، أمّا عن مراحله الزمانية فقد تناول (بدوي طبانة) النقد من الجاهلية حتى نهاية القرن الثالث، فيما تناول د. (حمود الصميلي) النقد في القرن الأول من حيث البيئة والاتجاهات والقضايا، وتناول القرون اللاحقة كلٌّ من د. (قاسم مؤمني) ود. (منصور عبد الرحمن) و(محمود الحسيني المرسي) ود. (محمد عبد المطلب مصطفى) و(محمد علي سلطاني)، وكل دارس سلَّط الأضواء على التحوُّلات والاهتمامات إقليمياً وزمانياً وفردياً، فالأقاليم لها سماتها، والأزمنة لها خصوصياتها، والنقّاد لهم اهتماماتهم وحتى الأجناس البشرية التمس الدارسون لهم خصوصياتهم الجنسية، وإنْ كانت (نظرية الأجناس)، قد فقدت مصداقيتها، ولو أنّ أساطين النقد استبطنوا ما سبق واستوعبوا ما لحق، لكانت الحركة النقدية عربية الوجه، واليد واللسان، ولكان المشهد النقدي مُدِلاًّ بمشروعه، ولكان النقّاد معتصمين بإرثهم، مستوعبين لمنجز النقد الحديث، إذْ ليس هناك ما يمنع من التكامل.

واهتمام الدارسين بالقرون والأقاليم والأناسي، وضع الحركة النقدية في متناول المتابعين، وكشفت الدراسات الوصفية والتاريخية والتحليلية عن تمايز العصور في الوعي النقدي، وهذه الدراسات كشفت عن خلل في الحركة النقدية المعاصرة، فالقرون الأولى تمارس حقها في التجديد على ضوء الحاجة، واستجابة للذائقة، وهو ما لم يتحقق للحركة النقدية المعاصرة.

لقد تحوَّل النقد العربي القديم من الذوقية والانطباعية إلى المعرفية والتحليلية، ولكنه تحوُّل محسوب وثابت الخطو، هذا التحوُّل شكَّل مراحل متمايزة، خلفت تراثاً بلاغياً وأدبياً وفلسفياً، وأصبح بالإمكان أن يرصده المؤرِّخ بكلِّ وضوح، لقد أسس البلاغيون التطبيقيون للنقد، وتمايزت المعيارية عن التحليلية، فكان (الجاحظ) و(ابن المعتز) و(قدامة بن جعفر) و(الجرجاني) و(الحاتمي) و(الزمخشري) يمثِّلون الاتجاه البلاغي ممارسة وتنظيراً، فيما بدت اتجاهات فلسفية منطقية، عند (الفارابي) و(ابن سينا)، وقد تقصّاها كلٌّ من د. (محمد شفيق شيا) في كتابه (في الأدب الفلسفي)، ولربما لفت إلى هذا المنهج (مارتن هيدجر) في كتابه (الفلسفة والشعر) و(لآي فيلبي كريفيتنر) في كتابه (الفلسفة والأدب)، ويمكن تصوُّر منهج وسيط يجمع بين البلاغة بشقيها المعياري والجمالي والمعقولات الفلسفية.

ومحصلة القرون الأولى تقوم على إنتاج النقد مادة وآلية ومنهجاً لا استيراده، وتقوم على توظيفه للحاجة لا استجابة لمعطيات النقد الغربي، وما استجد من آليات ومناهج في عصور الازدهار إنّما كان استكمالاً لمتطلّبات ما جدّ من فنون وأغراض وأشكال، حتى أصبح نقداً عربياً خالص العروبة، أنتجه الافتراس لا النوال، والابتدار لا التكرار. وإنْ كان ثمة استرفاد فإنّه مهضوم بمعدة الغالب، فالمترجمات اليونانية لفتت الأنظار، ولم تستحوذ على الأفكار، والذين يصمون النقد والبلاغة العربيّين بالتعويل على مناهج اليونان

وآلياتهم إنّما يبررِّون لأنفسهم التهافت على منجزات الغرب، ولسنا هنا معنيّين بالموازنة أو المفاضلة، ولكننا نؤسِّس للانطلاق في آفاق النقد الحديث، والأخذ الموزون لا يُعاب، بل يُعاب الانطواء والاستغناء، فالحضارات إنسانية وعرقية وإقليمية ومرحلية ودينية، وهي كلها خاضعة للتوارث، والعالمون بتاريخ الحضارات يقطعون بالاستيعاب، ويستبعدون براءة أي حضارة من التأثُّر والافتراض.

لقد أدّى الانفتاح غير المشروط على الغرب إلى قبول المناهج والآليات والمذاهب دون معرفة بالفوارق أو تفريق بين الأصول، فـ(البنيوية) آلية، ولكنها ناسلة من فكر مادِّي، و(التفكيكية) آلية، ولكنها ترمي إلى هدف دلالي يلغي سيطرة المنتج والنص، ويكرس سلطة المتلقِّي، سواء جاءت وفق رؤية (هانز ياوس) و(فولفجانج إيزر) أو لم تأت، فنظرية التلقِّي تنتمي إلى مدارس متعددة، وقد نومئ إلى بعض النظريات ذات الشيوع في المشهد النقدي دون الالتزام بحكم ناجز، إنّ الهدف إجلاء الموقف، والمتلقِّي وحده الذي يحدِّد الموقف، وإنْ كنا نرفض الحياد السلبي، فإنّنا مع الحياد الإيجابي، الذي يحمل الدارس على اختيار ما يرى عندما يستكمل عرض وجهات النظر، وعندما يمتلك حق الاجتهاد، ويستكمل شروطه، ويعي مشروعيته. إنّ المجتهد المأجور هو من يملك مقوّماته، وخطورة الاجتهاد في قضايا الدين، أما الأدب فدون ذلك بكثير، لأنّ قضايا الأدب والنقد قضايا دنيوية، ونحن الأدرى بأمورها، متى استحضر الإنسان مقاصد دينه، ولم يقع في نواقض الإيمان.

لقد تجلّت في مشاهد النقد نظريات متعددة، تلقّاه من لا يحسنون الفهم، ولا الاستثمار، فكان أن أضرّت بالمشهد، ولم تتلبث فيه إلاّ قليلاً، وكان تعالق البعض معها لا ينبني عن اقتدار أو فهم ومصادمة الأذواق واستفزاز المشهد أكسب البعض شهرة زائفة وحضوراً مزرياً. والتعالق أو التبنِّي الواعي قد يشفع لذويه، ولكنه لا يمنحهم التألُّق والتفوُّق، فالمسألة لا تعدو أن تكون ترويجاً لمذاهب قائمة ومطروحة في الطريق، والجهد في النقل، وليس في الابتكار، واستدعاء بعض النظريات، لا يحمل على النَّيل من (المتنبي) لها، فهدفنا استجلاء أبعادها، لاستكمال متطلّبات الحديث عن الحركة النقدية المعاصرة، إنّ ما نريده وضع الأمور في مواضعها، وإيقاف الادعاء والتعالي.

فالنظرية التوليدية التحويلية بوصفها منهجاً لغوياً، بهرت المشهد النقدي، وشغلته عما ينطوي عليه التراث النقدي العربي، من بذور يمكن تطويرها لتسد الحاجة، وتعيد الثقة بالموروث النقدي، لقد أحدث العالم (السويسري) دي سوسير ت(١٩١٣م) نقلة نوعية في المنهج اللغوي، بعد ما طبع تلاميذه محاضراته في كتاب بعد وفاته، وعلى ضوء ما أحدثته تلك المحاضرات نشأت (مدرسة براغ) البنيوية، فيما جاء (تشومسكي) بنظريته (التوليدية) لينسف كل ما سبق. واللغة والكلام بوصفهما موضوعين للدرس يجليان سبق علماء النحو والصرف وفقه اللغة في استكناه نظام اللغة وقيامها على أصول فلسفية ورياضية، وجهود علماء المسلمين تفوق وتسبق جهود غيرهم، ولا تمنع من الاستفادة لأنّ الاستغناء تجميد للحركة المعرفية.

الحركة النقدية المعاصرة.. المعطيات.. والآفاق .. ! (٤) [1]

والإشكالية التي تعاني منها الحركة النقدية المعاصرة في الاندفاع غير الموزون مع مستجدات اللغة، وتهميش متعلقات النص الإبداعي لتحل اللغة وبناؤها وتحويلها وتفكيكها محل الدلالة والجمال والنظم والإيقاع، وفوات تلك الملامح النصية حولت النقد من نص إبداعي رديف، إلى معيارية صارمة حرمت المتلقي من جماليات النقد، لقد أصبحت لغة النقد لغة علمية، وأصبح النقد مرتهناً لآليات اللغة، وليس مستثمراً لها، إن الأصل في النقد أن يتفاعل مع جماليات النص، ليضيف إلى الجماليات جماليات أخرى، لا أن يُسلب النص جمالياته بتقطيع أوصاله، لقد نفذت قراءة لأعمال شعرية، ونصوص مختارة استخدمت فيها الآليات الجديدة والمناهج الحديثة، ولم تسهم في توجيه المشهد فضلاً عن إثارته، ومرد ذلك غرابة التناول وانقطاعه، ومن تلك الدراسات ما كتبه (عبد الملك مرتاض) و(ذياب شاهين)، وتعد مثل هذه الدراسات تجارباً لما نجم من آليات ومناهج ونظريات، نسلت من (فقه اللغة) و(علم النفس) و(علم الاجتماع) و(علم الجمال)، وسائر العلوم الأخرى.

لقد سبقت (البنيوية) بوصفها منهجاً لغوياً (التشكيلية) و(التحويلية) واندفاع النقاد مع مستجد المنهج اللغوي، أربك المشهد النقدي، وجعل المصطلحات يضرب بعضها رقاب بعضن وجعل المصطلح يأتي بتعبيرات مختلفة اللفظ متحدة المعنى فـ(البنيوية) و(التفكيكية) و(التشريحية) و(التقويضية) و(التحويلية) و(التوليدية) و(الألسنية) و(النصوصية) و(البنائية) و(التكوينية) وما لا نهاية له من المصطلحات التي يتداولها المشهد بطريقة فوضوية، جعلت الحركة النقدية تدور في حلقة مفرغة.

والحركة إذ وقعت في حبائل اللغة، بوصف النقد الشكلاني نقداً هروبياً، من الالتزام الماركسي، فإنها في النهاية أذعنت لضغوط الماركسيين، ومن ثم جاءت (البنيوية التكوينية)، وهي المرتبطة بالبناء الموضوعي، وتلك استجابة بلهاء، وانضمت إلى (التفكيك) الذي يتمرد على مراد المرسل مستجيباً لرغبة المتلقي، وهذه المراوغات التي فرضتها (الأيديولوجيات) تحكمت في مصائر النقد العربي الذي يعيش محنة التناقض (الأيديولوجي)، لقد انصاع المبدعون والنقاد إلى قيم وضوابط حزبية وطائفية وفكرية، ليست من الأدب في شيء.

وآخر التعالقات للحركة النقدية المحلية طرح نظرية (النقد الثقافي) بعد نبذ (الحداثة) و(البنيوية) و(النقد الأدبي)، والسرعان من القراء يظنونه أحدث المصطلحات، وأنه عربي خالص العروبة، وأن الذين استلبوه لم يُسبقوا إليه، وأنه الأقدر على إثراء المشهد لتعدد مجالاته، وتنوع عطاءاته، ونحن مع المثاقفة واستثمار المستجد من المناهج والآليات، متى حفظ حق ما سلف، ومتى احترمت رغبات الآخرين، ومتى عد رديفاً لا بديلاً و(النقد الثقافي) ظهر في (أوروبا) في القرن الثامن عشر، وأخذ بالتحول في القرن العشرين، والإشارة المهمة والمبكرة إليه كما يقول صاحبا (دليل الناقد الأدبي)، تعود للمفكر الألماني اليهودي (تيودور) في مقالة عنوانها (النقد الثقافي والمجتمع (وإلى زميله (هاير ماس) في كتابه (المحافظون الجدد: النقد الثقافي والحوار التاريخي) وأمكن المنظرين والدارسين وآخرهم المؤرخ الأمريكي (هيدن وايت) في دراسة تحت عنوان (مقالات في النقد الثقافي)، وتلك الإشارات التاريخية تؤكد أنه مجلوب للمشهد العربي

---

(١) تاريخ المقال: ١١/ ٩/ ٢٠٠٧

بنظرية، وفي العروبة نقد غير مجلوب، وإذ لا نعيب التنقيب، فإننا نتحفظ على القول بموت ما سلف، وادعاء ما جلب.

والتنظير المنهجي للنقد الثقافي جاء في مجلدين عنوان الأول (كلاسيكيات النقد الثقافي)، وفي العالم العربي فرَّق بعض الدارسين بين مرحلتين ل(النقد الثقافي) ما قبل البنيوية، وما بعدها، ولقد تلبسه عدد من المفكرين والأدباء دون الإشارة إليه، وإن سماه بعضهم ب(النقد الحضاري) وجُعل (طه حسين) رائده، ويقال بأن كتاب الدكتور (عبد الله الغذامي) (النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية)، بداية فاصلة بين التلبس العفوي والممارسة المحددة للمفهوم، ويشير صاحبا (الدليل) اعتماد (الغذامي) على (ليتش) بشكل خاص، ولسنا بصدد تقويم المحاولة، ولكننا نود أن تظل إضافة، لا بديلاً للنقد الأدبي الذي حكم (الغذامي) بموته، وهي مجازفة لا مبرر لها، ولقد ناقشت هذا في سلسلة مقالات نيفت على الخمسة عشر مقالاً تحت عنوان (النقد الثقافي الرديف أو البديل) نشرت في (جريدة الجزيرة) وحفظت في موقعها لمن شاء أن يعود إليها.

والتعويل على مجمل الأنساق خلوص من هيمنة اللغة، ونسقها الفردي الذي اتخذه (الغذامي)، شرعة ومنهاجاً لمرحلة من مراحل حياته النقدية في كتابه (الخطيئة والتكفير) و(الغذامي)، خير من يمثل الاستجابة الفورية والكلية للمستجد النقدي، وكتبه (الخطيئة) و(النقد الثقافي) و(حكاية الحداثة) جزء من محطاته وتحولاته. وإذ منيت الحركة النقدية بالقفز البهلواني، الذي فوت الرصد الدقيق، فإنها أخذت بدعوى (البعديات) (ما بعد الحداثة) و(ما بعد البنيوية) وليس هناك حد فاصل يمكِّن المتابع من التمييز بين ما قبل النظريات وما بعدها، وكم حاولت تقصي مفهوم ما (بعد الحداثة) فلم أجد دليلاً برهانياً يقطع قول كل خطيب، وإن فرق البعض بين المرحلتين ببعض السمات، كما هي في كتاب (الخطاب والقارئ) ل(حامد أبو أحمد) (ص٢٠٨)، وأحسبها ضرباً من التخرصات، إذ لا تقوم على ربط بين المفهوم والمعلوم. وأياً ما كان الأمر، فإننا محكومون بالمتداول المجلوب لا المنتج، وكل متحدث يدّعي أنه سيد الموقف، وصاحب المبادرات، وما نحن في حقيقة الأمر إلا تبع للغالب نقلده ونتشي بالتقليد، وتلك سنة الله في خلقه، ومن الخير أن نفهم أنفسنا على حقيقتها، فالمعرفة بداية التحرف لتصرف سليم.

ومتى عدت إلى المشهد المحلي فإنني مضطر إلى معتصر المختصر، خشية التشعب والتكرار مكتفياً بالإحالة إلى منجز تاريخي للدكتور (محمد بن صالح الشنطي) في مجلدين، ومختصر موسوعي ل(موسوعة الأدب السعودي)، ومدخل وصفي تاريخي كتبته لطلبة الجامعة عن الحركة النقدية في المملكة، ومحاضرة أخرى عن ذات الحركة النقدية في عقدين، ولقد تراوحت الرؤى بين تقسيم الحركة النقدية زمانياً واتجاهياً، ولكل الرؤى مكانتها المنهجية، فبعض الراصدين قسموا الحركة إلى ريادة وتأسيس وانطلاق، وبعضهم قسم الحركة إلى محافظة وتجديد وحداثة، ولما تزل الحركة قابلة لرؤى جديدة، فهي صاخبة ومتنوعة الملامح متعددة الاتجاهات وحيوية الحركة.

ف(المؤرخون) أمثال: - (الساسي) و(ابن إدريس) و(العقيلي) و(الشامخ) و(العبيد) و(ابن حسين) يمتلكون حيزاً في المشهد، له رواده ومناشدوه، والانطباعيون أمثال (أبي مدين) و(الفلالي) و(البواردي) يحاولون المحافظة على النوع وسط تحولات تجاوزت الذوقية والانطباعية. والثائرون المجددون أمثال (محمد حسن عواد) و(محمد العلي) و(محمد عامر الرميح) يجدون من يحتفي بثورتهم.

و(اللغويون) أمثال (أحمد عبد الغفور عطار) و(الغذامي) في مراحله الأولى و(المزيني) يتواصل معهم النقد الأكاديمي الذي يفضل أروقة الجامعات على أعمدة

الصحف، وإن ابتدر الراية (سعيد السريحي) و(عالي القرشي)، وهو ابتدار لا يصبر على نوع واحد من النقد.

والنقاد السرديون أمثال (منصور الحازمي) و(خطاب) وطائفة من طلبة الدراسات العليا كـ(حسن الحازمي) و(حسن النعمي) و(سلطان القحطاني) و(عبد الله الحيدري) و(الشتوي) و(إبراهيم الدغيري) يؤسسون لنقد سردي.

والنقاد الذين وصلوا حبالهم بمذاهب النقد الحديث، أغرقوا المشهد بالنظريات والآليات، ومن أبرزهم (الغذامي) و(البازعي) و(العباسي) و(الفيفي) و(الغامدي) و(الزهراني) و(السريحي) و(القرشي) و(الشدوي) و(النعمي).

أما المحافظون الأكاديميون الذين حاولوا حفظ التوازن بين المستجد والقديم من أساتذة الأدب والنقد في الجامعات، ومن أبرزهم (الحسين) و(الحامد) و(الفوزان) و(الدخيل) و(الفيصل) و(العريني) و(الربيع) و(عريف) و(بدوي) و(زيني) و(باقازي) و(الشهري) و(المنصوري) وعشرات غيرهم، وكل أولئك يشكلون (فسيفساء) الحركة النقدية المعاصرة، ولكنها لوحة متنافرة الأشكال والألوان.

أما العنصر النسائي الذي اقتحم الحلبة باقتدار، فإن الأكاديميات يقدمن ما سواهن أمثال (المانع) و(الشملان) و(باعشن) و(القنيعير) وأخريات لما يزلن في بداية الطريق، ولكنها بداية واعدة، سيكون لها أثرها المتميز.

تلك إلماحة خاطفة عن الحركة العربية والمحلية، أردت أن أفتح بها الشهية لمزيد من المتابعة، وليست القول الفصل، ولكنها المثير لمزيد من التناول المختلف.

أيُّ يومٍ هذا .. ؟[(١)]

اعتادت (الدبلوماسية) الحديثة تحديد يوم من أيام العام، تحمله ذكريات عذاب، وتسميه بها، فيكون يوماً استثنائياً، لارتباطه بمناسبة وطنية، أو قومية، أو دولية: كيوم الاستقلال إن كانت الدولة مستعمرة، أو كولادة الدولة إن كانت مندمجة أو لولادة زعيم غير مسار التاريخ القومي أو الإقليمي، أو جدد للأمة أمر دينها، أو لتمام البيعة بعد فراغ دستوري قاتل، أو لِتَكوُّنِ حزب أو لنجاح ثورة أو لتأليف اتحاد أو لإعلان دستور، أو لما شئت من الأحداث.

ولقد كان (عمر بن الخطاب) رضي الله عنه رائد ذلك حين حدد التاريخ الإسلامي بهجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة؛ إذ في هذه الهجرة ولدت دولة الإسلام، ولم يكن التحديد يوم عيد لأن أعياد الإسلام توقيفية حددها رسول الله، فلا تجوز الإضافة ولا النقص ولا التعديل ولا التقديم ولا التأخير، وليس هناك تعارض بين الأيام السعيدة وأيام الأعياد، فتلك أيام تعبد ية، وهذه أيام ذكرى وابتهاج بما أنجز فيها ولقد علل الرسول صلى الله عليه وسلم صيام يوم الاثنين بولادته فجعل له مزيد اهتمام على سائر الأيام، وكل نعمة يمن الله بها على عباده يتعمق ذكرهم وشكرهم إذا مرت أيامها.

ولكل دولة مناسبتها الوطنية أو القومية، والدول الثورية تختار ما هو مناسب للفئة الحاكمة يتغير المسمى والوقت بتغير العصابة الحاكمة.

ولقد توسعت الدول بالأيام والأعياد والمناسبات والذكريات، ولم تقتصر على الأحداث السياسية الجسام، بل تجاوزتها إلى الجوانب الاجتماعية والإنسانية ك(عيد الأم، والعمال، والشجرة) والأيام ك(يوم الصحة العالمية)، وهي مناسبات فرضت نفسها، ولم يعد بالإمكان تجاهلها، ولا سيما أن العالم بأسره مرتبط ب (بروتوكولات) وفي كل وزارة خارجية إدارة خاصة ل (المراسم) تلي أمر الأيام والأعياد والأوسمة وبعث التهاني باسم الدولة، ومن تبعات هذه المناسبات أن تقيم السفارات ذات الشأن حفلاً في مقرها لإحياء المناسبة، ويكون من متطلبات التبادل (الدبلوماسي) أن يقوم (عمدة العاصمة) أو (أميرها) أو من ينوب عنه زيارة ودية ل (سفارة) الدولة المحتفية بيومها لتقديم التهاني، وغالباً ما يكون التعامل بالمثل كما تقوم وسائل الإعلام الرسمية بتغطية تلك المناسبة من باب المجاملة والمبادلة بالمثل.

والأيام الوطنية تختلف من حيث القيمة والأهمية، وليست -فيما أرى- محظورة بحجة الاكتفاء بالأعياد الدينية؛ إذ هناك فرق بين المقاصد، فالأعياد الدينية تعبد ية لها شعائرها وطرائقها وقروباتها ومحظوراتها ومباحاتها على حد: (دعهما يا أبا بكر فإن اليوم يوم عيد ومن ثم فإن من حق أي دولة المسايرة فيما لا معصية فيه بحيث يختار أهل الشأن فيها مناسبة وطنية ويجعل منها يوماً وطنياً لا عيداً دينياً هذا اليوم مجرد تذكر هذه المناسبة وتذكير الناشئة بها والاحتفاء بالإنجاز وبالمنجز وتحفيز دول العالم وشعوبه على تذكر هذه المناسبة وتقديم التهاني، ولربما تكون المناسبة من المحفزات للتعرف على البلد وأهله، وتقصي الحقائق عن سائر شؤونهم، ولا سيما أن الدولة واحدة من دول العالم التي لها حضورها وعلاقاتها ومهماتها الجسام على مختلف الصعد السياسية والإسلامية والعربية والعالمية وأي وسيلة تمكننا من الحضور المشرف في المشاهد كافة يجب أن نستبق إليها، فنحن أمة دعوية وذات رسالة، وكل عمل يقربنا إلى مشاهد العالم يجب أن نبتدره بقناعة وإصرار لا بمجاملة ومسايرة وإكراه.

---

(١) تاريخ المقال: ٢٥/ ٩/ ٢٠٠٧

واختيار أروع المناسبات الوطنية في المملكة يتمثل بإعلان توحيد أقاليم البلاد وتسمية الكيان، ولأن هذا الحدث له ما بعده بكل المقاييس فقد اتخذه (الملك فيصل) رحمه الله يوماً وطنياً، إذ هو بلا شك ربط موفق بالخواتيم الحسنة والنتائج الطيبة.

فبلادنا التي كانت قبل قرن من الزمن مجموعة إمارات إقليمية وزعامات قبلية يأكل القوي فيها الضعيف، وتحترب على الموارد المائية والمراعي، ويفتك بها الثالوث البغيض: الفقر والجهل والمرض، وتعيش بكل أحداثها الدامية خارج التاريخ، هذه الكيانات الهشة تحولت إلى كيان قوي متماسك بفضل الله ثم بجهود المؤسس الملك عبد العزيز رحمه الله الذي يتصوره البعض مغامراً أو مقامراً، وما هو كذلك، لقد خرج طفلاً مع أسرته في نهاية العقد الأول من القرن الرابع عشر الهجري بعد حروب إقليمية وقبلية وخلافات أسرية منهكة أنهت الدور الثاني من الحكم السعودي، وبقيت الأسرة ومن لحق بها في (الكويت) زهاء عشر سنوات، ولما شب الملك عبد العزيز عن الطوق فكر في استعادة ملك آبائه وأجداده، وإنقاذ وطنه من التكتلات الهشة.

خرج لا يلوي على شيء من عدة أو عتاد، زاده الإيمان بحقه المشروع وسلاحه السمعة الطيبة التي كسبتها أسرته خلال الدورين الأول والثاني.

ففي مستهل شوال من عام ١٣١٩هـ دخل الرياض على حين غفلة من حاميتها وبترحيب من أهلها، ثم تلاحقت الانتصارات ودخل الناس في طاعته أفواجاً، بعد أن أنهكتهم الحروب واحتنكتهم الفتن وأكلتهم الأمراض، وأذلهم الفقر، وخلفهم الجهل.

وحين خرج من معركة التكوين وهي معركة شاقة وباهظة التكاليف واجه معركة البناء في ظروف غير مواتية، ولكن الإيمان والإصرار وحسن التقدير وبراعة التدبير أدت إلى تجاوز العقبات.

والحد الفاصل بين المعركتين: معركة التكوين ومعركة البناء.

يمثل نقله حضارية من نتائجها ما نعيشه اليوم، وما نشهده من أمن ورخاء واستقرار ومدنية وحضارة، هذا الحد الفاصل هو اليوم الوطني، والعارفون بتاريخ البلاد لا يعدلون بهذا اليوم غيره ما سلف من أيامهم وما لحق لقد تلاحمت إرادة القائد مع إرادة الشعب في عام ١٣٥١هـ على إعلان توحيد البلاد وتحويل اسمها إلى (المملكة العربية السعودية) وفيه وضعت الحرب أوزارها واتجه الناس إلى مزارعهم ومصانعهم ومدارسهم وأسواقهم فعم الرخاء وخيم الأمن وبعد اثنتين وعشرين سنة من ذلك التاريخ الفاصل قضى المؤسس نحبه بعد عمر مديد حافل بجلائل الأعمال وخلفه أبناؤه الذين ترسموا خطاه واستلهموا سيرته وحققوا من الإنجازات الحضارية ما لا يتوقعه المراقبون، والاحتفاء باليوم الوطني تذكر للآباء والأجداد الذين خاضوا مع المؤسس أشرس المعارك وتذكير للأجيال اللاحقة الذين لم تتسنَ لهم قراءة التاريخ الحافل بالمنجزات التاريخية وحق سلفنا علينا أن نحتفي ونحافظ على المنجز.

وحين نسعد بهذه الذكرى ونكرر الإشادة بها وبمنجزاتها وبرجالاتها نود أن تكون حافزاً لنا للمحافظة على وحدة هذا الكيان وأمنه واستقراره فهو أمانة في أعناقنا، ومن حق آبائنا وأجدادنا أن نحافظ على منجزهم وأن ندرأ عن وطننا كيد الكائدين ومكر الماكرين، ولا سيما في ظل ما يوجهه العالم العربي من أحداث مخيفة تهدد أمنه واستقراره ووحدة أقاليمه، وهذه الأحداث لا تصيب الذين ظلموا خاصة وكيف لا نخاف والفساد قد ظهر في البر والبحر، ولهذا فإن هذه الذكرى الجميلة تمر بنا في ظل أوضاع استثنائية لا أحد ينكر ما تنطوي عليه من خطورة، عصابات سوء تهلك الحرث والنسل وتسعى في الأرض لتفسد فيها وتسفك الدماء والله لا يحب الفساد.

وحق وطننا علينا أن نحمي الأجواء والأفكار من الذين يتربصون بنا الدوائر فشباب الأمة مستهدف وليس أدل على ذلك من تخطفهم والزج بهم في التنظيمات الإرهابية وتعريض حياتهم وسمعة البلاد للهلاك والتشويه، وفي ظل هذه الظروف لا يكفى تمجيد المناسبة والإشادة برجالاتها؛ إذ لا بد من ترجمة ذلك إلى عمل يقي البلاد والعباد ويلات الفتن، ولن يتحقق ذلك إلا إذا اجتمعت كلمتنا وتوحدت صفوفنا وأهدافنا وحلنا بتكتلنا وتكتمنا دون نفاذ شرار الخلق، فبلادنا التي حقق لها المؤسس أقوى وحدة إقليمية تتطلب منا أن نحقق لها أمتن وحدة فكرية وهي بوحدتها وعقيدتها وقيادتها مستهدفة ولا يحمي البلاد إلا أهلها، فلنكن بمستوى أرضنا بما تحمله من مقدسات وما تستبطنه من خيرات، وما تنطوي عليه من بطولات.

لا تسبُّوا (قناة الجزيرة) .. ! (١)[1]

لست ممن يميل إلى التصدي لكل مناكفٍ لا يؤمن بالمبادئ الأخلاقية، ولا محبِّذاً مجادلة الذين يختانون أنفسهم، ممن ليسوا شرفاء في ذواتهم وممارساتهم، ولا متكافئين في مكانتهم ومثمناتهم.

والخصْمُ لا يكون شريفاً حتى يكون صاحب موقف لا يزايدُ عليه، وإنْ خالف غيره، وحتى يكون هدفه الحق لا الغلبة، وحتى يكون خطابه باتجاه القضايا لا باتجاه الأعْيان، وحتى لا يجْرِمنَّه شنآن قوم على ألاَّ يعدل.

ولا يكون متكافئاً حتى يتوفر على النِّدية والمثمنات والإمكانيَّات، ذلك أنَّ المُقْوِين يؤذون ولا يتأذون على حدّ: (ما لجرحٍ بميتٍ إيلامُ).

فمن لم يكن نداً يسيء إلى غيره، ثم لا تكون له قامةُ الغير بحيث يستاء من جزاء السيئة بمثلها.

ولست فقط لا أميل إلى المناكفة والمجادلة لهذا الصنف من الأشياء والأناسي، ولكنني أكاد أكون حفياً بكل المرايا المحدَّبة والمقعرة والمسطَّحة التي أنظر فيها ذاتي وأتعرف من خلالها على أقدار الآخرين:

وما الوجه إلا واحدٌ غير أنه
إذا أنت عدَّدْت المرايا تعدَّدا

وما كان ميلي إلى المرور الكريم باللغو خوفاً من أصحاب الألسنة الحداد ولا تصديقاً لمفترياتهم الكاذبة، ولكنه ناتج تقدير وتوقيت وتقويم للمواقف، وقد يكون الصمت في بعض المواقف أبلغ خطابٍ وأقوى ردْعٍ امتثالاً لقول الشاعر:

إذا نطق السَّفيه فلا تجبه
فخيرٌ من إجابته السكوتُ

والسفاهة يتلبسها الإنسانُ حين يصادم الحقَّ؛ ففي الذكر الحكيم: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾، والقائلون صناديد قريش، فالسفاهة ليست قصراً على صغار السن والأحداث، ولكنها مرتبطة بالقول الفضولي المغرض.

والقيم الأخلاقية الإسلامية تأخذ بمبدأ الربح والخسارة: مادياً ومعنوياً، وبخاصة عندما تطفح المشاهد بالتناجي الآثم، ومن ثم لا تبيح المجاراة في الخلق الدنيء، وقد تأخذ بمبدأ تنزيه الذات فلا تسمح بتعريض المقدَّس والمصون للمواجهة غير المتكافئة، لا من حيث القوة ولكن من حيث القيمة: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، وكيف يرضى العاقل لنفسه التصدِّي للوهم والتدني بالذات المتعالية بأخلاقياتها ومنجزاتها إلى مَن لا خلاق له ولا منجزات ولا حضور كريم، فحين يتفاوت الطرفان المختصمان في القيم الحسية والمعنوية تتفاوت المواقف، ومن يملك المثمنات لا ينازل الفارغين منها. وكل وسيلة إعلامية يتقنع وراءها من لا يعرف قدر نفسه فضلاً عن أن يعرف أقدار الآخرين.

---

(١) تاريخ المقال: ١٠/ ٤/ ٢٠٠٧

ورائد الهجاء العربي (ابن الرومي) يعفُّ عمن لا يكافئه:

نجــا بـــك عرضُـــك منجـــى الـــذُّباب
حمتـــــــه مقـــــــاذيره أن يُنــــــالا

هذا فضلاً عن أن الإسلام يدعو إلى القول المعروف، ويثني على الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس وعما ينالهم من سوء، على الرغم من أنه أذن بالمعاقبة بالمثل، ونَدَب إلى ردّ السيئة بمثلها، ولكنه وجَّه إلى العفو والصلح والصبر والمغفرة والصفح الجميل. ويجب هنا ونحن أمام خيارات العفو أو الرَّد أن نفرق بين التواضع والضَّعة، والحلم وعدم الإحساس بالمساس، ومن المسلمات أن النيل من الشوامخ يكاد يكون من لوازم الوجود:

وكـم علــى الأرض مــن خضـراء مورقـةٍ
ولـــيس يُـــرجم إلا مثمـــر الشـــجر

وكم هو الفرق بين تضوُّر الحاسد وإيذاء المتطاول، فالحاسد يُترك ليأكل نفسه، أما المتطاول فيوضع أمام نفسه ليعرف قدره، وما من أمة إلا وفيها أكابر مجرميها ليمكروا فيها، وما يمكرون إلا بأنفسهم.

فالعاقبة أبداً للمتقين، وكم من مرجفين يظنُّون أنَّ جمع الكيد يحمل على الخوف والخشية وما دروا أن الصدق مع الله منجاة، وأن السعي للإصلاح بين الناس من التناجي الخيِّر.

وليس مهماً - والحالة تلك - أن يمتلك المفتري إمكانيات القول وسحر البيان؛ فالقيم ليست بالاقتدار، ولكنها بالصدق والعدل والكلم الطيب والقول السديد، وكم من كذوب يصدق القول ليمرَّ من بين يديك افتراءاته، وفي الحديث: «**صَدَقَكَ وهو كذُوب**».

و(قناة الجزيرة) المجيَّشة للنيل من قادة البلاد ومثمناتها وأهلها تحيي ليلها وتُضيء نهارها للافتراء والتخذيل والإسراع في ابتغاء الفتنة، وفي العرب سمَّاعون لها يسوؤهم أن يَرْأب الوسطيون ما تصدَّع من بناء الأمة، وكم تحشد من الإمكانيات للمخاتلة والمخادعة، وكم تبذل من الجهد والمال ما تشدّ بها الأذهان وتثير به الانتباه، وتستقطب من الكفاءات الإعلامية ما تظنه خادعاً ومُضلِّلاً للرأي العام، حتى لقد تصور البعض أنها مبعث الحيرة؛ لأنها تمارس الشيء ونقيضه، وتتفسح لكلِّ الأطياف، فمع مَن تكون؟ مع القوميين، أم مع (الراديكاليين) الإسلاميين، مع العلمنة أم مع العولمة، مع (أمريكا) أم مع (الصهيونية)؟ وهل هي صاحبة موقف أم هي سمسار مصالح؟!

والراصد الخبير يعرف أنها بهذا التلوُّن الحرباوي لاعب مُتذاكٍ، يُقدم بين يدي لعبته ما يموِّه به على القابلين للمخادعة، ولأنها صغيرة بذاتها وبانتمائها فإن تقحمها لجج القضايا محيِّر؛ فالصغير غير قادر على استيعاب تداعيات اللعبة، وغير قادر على العيش من دونها، وظاهرة (غسيل الأموال) تنطبق على اللاعب الذي لا تتكافأ إمكانياته الذاتية مع اللعبة السياسية، وداء المشهد السياسي العربي أنَّه حفيٌّ باللعب، وما أرداه إلا الارتماء في أحضانها دون بصر أو بصيرة، وعشاق الحضور ينفذون إليه عبر بوابات الإثارة السخيفة، وإن كانت وخيمة العواقب.

وأيُّ لاعب لا يملك العُمق بكل أنواعه وتعدُّده، ولا يفهم اللعبة بكل تفاصيلها؛ يكون كراكب الأسد يخيف الناس وهو منه أخوف، وهو في النهاية بعض صيده:

ومــن يجعــل الضــرغام بــازاً لصــيده

تصـــيَّده الضـــرغام فـــيمن تصـــيَّدا

و(قناة الجزيرة) المجتثَّة من فوق الأرض لا تتوفر على أيّ عمق يستوعبها حين تتقطع بها الأسباب، وكل عميل حين يقضي منه اللاعب وطره ينبذه في مزبلة التاريخ، ومهما غامرت في اقتحام المسكوت عنه فإنها في النهاية (متأمركة) (متصهينة). والقول بالانتماء لا يرتبط بموقفها المريب من (المملكة العربية السعودية)، وإنما يكشفه التداول المحسوب بكل دقة؛ فاللاعب الأجير يمارس التمويه والتضليل لكي يحكم لعبته القذرة ويطيل أَمَدَ بقائه على مسرح الدمى، ثم إن اللاعب الضالع في اللعب الكونية لا يعتمد على الأغبياء في تنفيذ لعبة، ولقد قالها أحد الساسة الكبار: (إننا لا نستخدم الأغبياء). وفي خضم الحرب الباردة لا يكون من الضرورة أن تشغل نفسك بالتصدي لكل مناكف لا يؤمن بأدنى حدّ من ضوابط الحوار، ولكنَّه حين يمسّ المثمنات ويحاول ضرب المفاصل يكون للطرف الآخر الخيار في التصدي أو التَّرْك.

والقناة الإعلامية حين تندب نفسها أو يندبها غيرها لتوهين العزمات وترويج قالة السوء عن رموز البلاد يكون من حق أي متلق أن يواجهها بما يراه مناسباً للموقف ومتطلباته، وليس في ذلك تعدٍّ؛ فالتصدي لمن يحاول إيقاظ الفتنة النائمة افتراءً على الأمة المتصالحة مع نفسها حق مشروع، وتعدُّد الخيارات يجعل الصمت في بعض المواقف أبلغ خيار، ومع تكشُّف السوءات العدائية فإن ذلك لا يحمل على استدعاء جاهزيات القول ك(العمالة)، ولا سيما أن (القناة) قناع، وكان يمكن تمزيق هذا القناع لتعرية المتقنِّع بما هو عليه من مقترفات بحق نفسه وحق وطنه وحق أمته، وإن كان في النهاية مخلب قط. ومع إمكان ذلك فإنه لا يليق بنا في سبيل الدفاع المشروع أن نجاري في خُلق دنيء، ولا أن نأتي ما ننهى عنه، ولا أن نخوض في اللغو عند المرور به، ومن المصلحة أن ندع الباب مفتوحاً بانتظار ما يأتي من صحوة ضمير مرتقبة قبل فوات الأوان.

والقناة بما تمارسه من متناقضات في الظاهر ذات رسالة مرسومة ومحدَّدة ولا يمكن الإغماض فيها أو الاشتغال بالطفح وإهمال المنابع.

ولأنها خنجر يبحث عن خاصرة الأمة فإن التلوُّن الحرباوي تغطية لنفاذ الخطاب، وحتى البرامج التي يظنّ البعض أنها ذات مقاصد (إخوانية) أو (قومية) لا تُقال إلا بمقدار، وكيف تنفذ بلعبتها القذرة ونجواها الآثمة إلا بالمخادعة والمخاتلة والتمويه، ويقيني أن تواصلها مع الإرهاب سَعْيٌ لتحقيق هدفين:

الأول: ربط الإرهاب بالإسلام، ولأن المملكة العربية السعودية منطلق الدعوة الإسلامية فإن في ذلك تأكيداً لضلوعها في الإرهاب.

والثاني: تأكيد مشروعية التدخل العسكري بالتأكيد على وجود القاعدة الفاعلة والقادرة على إيصال رسائلها، والقول بأنها (إخوانية) أو (قومية) أخذ بالظاهر، وإلا كيف تكون كذلك وهي في مَزْجَر الكلب من أكبر قاعدة عسكرية، وفي دولة تسبق ظلَّها في سبيل التطبيع مع (إسرائيل).

ولكيلا نكون خِرافاً خليجية يجب أن نضع الأمور في نصابها، وإن لم نفعل أصبحنا قابلين للمخادعة وتمرير اللعب القذرة.

لاتسبوا قناة الجزيرة .. ! (٢) (١)

لقد أصبحت القناة - ولمَّا تزل - ريبةً في صدور المتابعين لها، إذْ هي بما بُسط لها من الرزق، وبما استُقطب لها من الكفاءات في الإعداد والإخراج والتقديم والاستضافة، تقدِّم من البرامج ما يجعل الإنسان في لجَّة من الأمر.

والقول بأنّها ذات نزعة قومية أو إخوانية رجم بالغيب وإن بدا شيءٌ من ذلك فإنّما هو تقديم بين يديْ النجوى الآثمة وقُدُراتها لا تتعارض مع مقترحاتها، وإمكانياتها لا تغطي سوآتها. وما نقوله في حقها مرتبط بسوء الفعل لا في نقص الكفاءة.

والمتابع لكثير من القنوات الموجّهة لا يسعه إلاّ التسليم بالاحتراف والاجتراح، فالقنوات الفضائية قَلَّ أن تكونَ منذورة محرّرة لوجه الحق، لا تقول إلاّ به، ولا تسعى إلاّ إليه، ولا تحمل إلاّ همَّه.

وهي إذْ تكون قد أنشئت لأهداف لا يعلمها إلاّ الراسخون بقوانين اللعب السياسية، فإنّ المتابع الحصيف لا يفاجأ بالتقلُّبات الموقفية، ولكن الاحتراف والاجتراح لا يبلغ في سائر القنوات ما تبلغه (قناة الجزيرة) وما هي عليه من إصرار وترُّصد للنَّيل من دولة منعمة متفضلة حمَّالة يجعل الإنسان يقطع بأنّها مجنّدة لتوهين الأدوار الإيجابية وفك الاختناقات عن خصوم القضايا الإسلامية وعلى المحتضنين لها المنفقين بسخاء باذخ عليها إن كانوا يريدون وجه الله والدار الآخرة أن يَعْرفوا أنّ المملكة العربية السعودية خير من يُقْتدى بها وتُتَرَّسم خُطاها، لأنّها دولة الأصالة والمعاصرة والمواقف الثابتة، دولة الوسطية.

لا نقول ذلك تزكية ولا رغبة في التصدير أو المفاضلة ولا مصادرة لأفضال الغير أو غمطاً لحقوقهم، فالخيريّة ليست حكراً على زمان أو مكان أو فئة ولكنها شهادة لا يجوز كتمانها وبخاصة حين تسلقها ألسنة حداد وتزلقها أبصار شداد.

واستياؤنا وامتعاضنا ليسا ضد من يُهْدي عيوبنا إلينا، ولكن ضد من يفتري الكذب، ويأتي بالإفك، ويلفق التهم، ويزوِّر الكلام، ويدَّعي العدل والصدق وحمل الهَمِّ العربي ومن ذا الذي يترفَّع فوق النقد والمناصحة.

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها

فالإسلام يقطع بأنّ كل الناس خطاؤون، وأنّ الخطأ وليد العمل، وأنّ المجتهد المخطئ له أجر، ولا يليق بمخلص لأهله وعشيرته أن يتصدى لمن يقول للمحسن أحسنت وللمسيء أسأت، ولا أن يقبل وضع الأمور في غير مواضعها.

وإذا كان المنفقون بسخاء على (قناة الجزيرة) ينزعون إلى القومية العربية فإنّ المملكة مثابة العروبة وأمنها، وخطابها السياسي المعلن يضع الأمّة العربية وقضاياها في ذروة الأخوة الإسلامية، وخطابها المتوازن لا يفصل بين وجهين لعملة واحدة: (الإسلام والعروبة).

وإن كان المتمرسون خلفها يسعون لتحرير الأرض العربية المحتلة في فلسطين والعراق ولبنان وسوريا فإنّ المملكة العربية السعودية تقف موقفاً لا يقفه أصحاب القضايا نفسها.

لقد جلس الفلسطينيون مع زعماء إسرائيل، واعترفت دول عربية بدولة إسرائيل وهرولت دول أخرى في سبيل التطبيع والتبادل التجاري والثقافي والسياسي ولمَّا تزل المملكة على مواقفها المعلنة والمشروطة، لم تعترف ولم تبادل دولة إسرائيل لا سياسياً

---

(١) تاريخ المقال: ١٤/ ٧/ ٢٠٠٧

ولا اقتصادياً، وكل القوميين والثوريين والمزايدين لا يطالبون إلاّ بما تمارسه المملكة، وكل أصحاب الشأن يثنون على مواقف المملكة من قضاياهم، فماذا تريد القناة تلك حالها.

وإن كان المتنفسون من خلال رئة القناة المتدرِّنة يريدون لمَّ الشمل العربي ورأب الصدع والإيثار والدعم وتصفية الأجواء العربية، وحسم الخلافات فإنّ المملكة في هذا القضايا لها القدح المعلَّى. وما (مكة) و(الطائف) و(الرياض) إلاّ محطات مضيئة.

إنّ ما يعانيه الكتَّاب والإعلاميون ليس تعاطفاً مع المملكة ولكنه إيثار الحق على سائر المقاصد والغايات، وخطاب القناة المعلن وليس المضمر خطاب موجّه ضد النظام السعودي وليس ضد ممارسة أجهزة النظام، وذلك مكمن الخطورة، فالمواطن السعودي لا يجد غضاضة من نقد مفردات الأداء، إذْ ليس من مسلَّماته العصمة ولا التزكية ولا التسامي فوق المساءلة والنقد، وهو الأحرص على رؤية نفسه في مرايا الآخرين، وما كان من حقه الامتعاض من النقد، إن الذي يسوؤه أن تُجنِّد القناة لنسف النظام، ومع استحالة تأثيرها، إلاّ أنّ مثل هذه الممارسة قد تحمل المواطن على المواجهة والمبادلة بالمثل، وما كان من خلائق الخطاب السعودي على كل المستويات التدخل في شؤون الغير.

قد تختلف وجهات النظر وقد تتعارض المصالح العارضة مما يؤدي إلى الاختلاف المكتم أو المعلن ولكن الاختلاف بين العقلاء لا يمكن أن يُصعَّد إلى التلويح بإسقاط النظام. وما أظن القناة ومَن وراءها بقادرين على مقارعة صخرة الوادي، وما هي إلا كوعل ينطح جبلاً.

والمملكة بما تملكه من قدرات وما تتوفر عليه من مكانة عربية وعالمية وما تمارسه من إسهامات تصب في الصالح العام بحاجة إلى الدعم والمساندة واحتواء أي خلاف يؤدي إلى مزيد من الضعف والفرقة.

وواقع الأُمّة العربية لا يطلب المزيد من الشقاق وأي قناة فضائية تتجه صوب الخلاف وزرع العداوات يضعها المواطن العربي في دائرة الاتهام، فالعدوُّ لا يخترق الصفوف ولا يوهن العزائم إلا من خلال الإعلام المأجور.. الإعلام الذي يبيع نفسه للشيطان.

لقد أثارت قمة الرياض عفن القناة وأربكت خططها وأخرجتها عن أسلوبها المخادع، حتى لقد تعرَّت كما لو كانت تقصد التعرِّي.

وهي بممارساتها الموغلة في الحقد والضغينة تحسب أنها ستقف في وجه الطوفان، لقد سبقت القمة وواكبتها بتغطيات مفلسة، كان آخرها استضافة (معمر القذافي) وإجهاض نتائج قمة الرياض رغبة صهيونية، وهي إذْ تنشط برامجها التشكيكية تحقق تلك الرغبة.

إنّ الأُمّة العربية تستقبل القمة بالتفاؤل وتتطلع شعوبها إلى المقدور عليه في ظل عقبات يعرفها المؤتمرون والمراقبون ووسائل الإعلام المختلفة مع بعضها - في ظل تلك الظروف - ترتفع فوق خلافاتها لأنها تعيش حالة استثنائية، وكان على قناة الجزيرة أن تواكب هذه المصالحة ولو إلى حين، غير أنّها أمعنت في الفرقة والشتات وكأنّها موكلة بإجهاض إي محولة لرأب الصدع ومصادرة التفاؤل من المواطن العربي، ولم تجد غير (معمر القذافي) مطيَّة لإيصال امتعاضها من الوفاق العربي. وكان عليها مساءلة الضيف عما قدَّمه لأُمّته خلال أربعة عقود.

والممكة العربية السعودية بوصفها الدولة المضيفة والدولة الأقوى والأقدر على جمع الكلمة ورأب الصدع وممارسة ثقلها وإمكانياتها في تذليل الصعاب وتصفية الأجواء تكون في هذه الحالة هي المستهدفة.

وهل التوصيات التي أعلنها المؤتمرون ورضيها المتأذون من كيد الأعداء تصب في صالح الأُمّة أم في أوعية الاستعمار فماذا ينقم عليها المناوئون.

وإذا كانت دون المؤمل فما الذي ستفعله القناة ومن ورائها (معمر القذافي).

إنّها قمة الوسطية والمنطقية وواجب كل مسلم عربي أن يتقبَّلها بقبول حسن وأن يمارس مبدأ (خذ وطالب) فمن حاول إجهاضها فإنّما هو آثم قلبه.

واللاعب الإعلامي المأجور يعرف من أين يبدأ وكيف يبدأ ومع من يبدأ غير أن ظروف القناة لم تكن ملائمة ولا مستجيبة ومن ثم تخبَّطت وانقلب السحر على الساحر.

إنّ الذين يحملون همَّ أُمّتهم ويسعون لإقالة عثرتها وكف الأذى عنها لا يسعون للانتصار ولا يشفي نفوسهم انكسار خصومهم وإنما يودون منهم استبانة النصح والبحث عن الحق والاعتصام بحبل الله.

فهل يعود المتقنعون إلى رشدهم، ويثنوا (قناة الضرار) عن مسارها المسيء للأمة.

المواطن العربي يعرف من وراء القناة، ويعرف أنهم لا يطمعون في التوسع ولا يجلمون في قمع من جاورهم ولا يقدرون على المواجهة المعلنة، وما هم في النهاية إلاّ مأجورين باعوا ضمائرهم ووظَّفوا إمكانياتهم المجلوبة بالدرهم والدينار ليرفعوا من أقدارهم وتكون لهم مكانة أكبر من حجمهم ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ﴾.

والمملكة ستظل صابرة في البأساء والضراء وحين البأس حتى يتبين للبراقشيين أنهم يجنون على أنفسهم وعلى أمتهم، وإن كان ثمة في الإمكان أفضل مما كان فَحَيَّ هلْ، ولكنه زبد والزبد يذهب جفاء وحاجتنا إلى ما ينفع ويمكث في الأرض.

في ضيافة الجائزة .. ![1]

لم أكن غريباً على الجائزة العالمية (جائزة الملك فيصل العالمية) ولربما أكون كبني لِهْب في شأنها كلّه، وإذ تكون تظاهرة ثقافية يَنْشدُ لها المهتمون بالثقافة والمعرفة ويتساءل المعنيون عن منجزات الفائزين، فإنها الأقدار علي تجسير الفجوات بين النخب العربية، بل أكاد أقطع بأنها الأقدر على ترميم ما أفسدته عوارض السياسة، والجائزة تكون حاضرة الذهن النّخبوي في ثلاث محطات من مسيرتها السنوية، طرح الموضوع، وإعلان أسماء الفائزين، وحفل توزيع الجائزة، وهي محطات تشد أنظار النخب إلى المملكة العربية السعودية التي تحتضن الجائزة، الشيء الأهم أن الجائزة جزء رئيس في فعاليات مركز الملك فيصل، وهو مركز يتوفر على أحدث ما وصلت إليه تقنية المؤسسات الثقافية، وخدماته لا يقدرها قدرها إلا الباحثون والعلماء الذين يجدون في مراكز المعلومات ما يتطلعون إليه، ولو عرف ذوو الشأن ما ينطوي عليه المركز من إمكانيات لكانوا أكثر استفادة منه. الملك فيصل رحمه الله كان ملء السمع والبصر في حياته، وهو فوق ذلك بعد مماته، وكثيراً ما يذكرني قول الشاعر:

علّـــوٌّ فـــي الحيـــاةِ وفـــي الممـــ
لحـــقٌّ أنـــت إحـــدى المعجـــزات

وإن كان ثمة شخصية تكمن وراء هذا الحضور المتميز فهي شخصية الأمير الشاعر خالد الفيصل بن عبد العزيز، ولقد خشيت أن تخطفه طموحاته ومبادراته وانتشاره في آفاق العالم العربي عن مواصلة الأداء لهذه الجائزة المتجددة.

مجرد خواطر تداعت وأنا ألملم نفسي لحضور هذه الفعالية الثقافية العالمية، وستكون لي عودة للحديث عن موضوع الجائزة للعام القادم، فهو من الأهمية بحيث يثير ذوي الاختصاص، فإشكالية المصطلح تكاد تكون من أهم الإشكاليات، وعناية الجائزة بالمصطلح مرتبطة بما تركه من إشكاليات عصية، إن حدثاً ثقافياً كهذا ينطوي على أهميات كبرى أدركها المعنيون فأعادوا طرحها للمرة الثانية.

والجائزة مع ما تنطوي عليه من أهمية تبلغ ذروة التألق حين يرعاها خادم الحرمين الشريفين أو سمو ولي عهده الأمين ويحضرها كبار الشخصيات من أمراء وأدباء ومفكرين كان بودي أن يُعقد على هامشها لقاء ثقافي يُستقطب له بعض الفائزين بالجائزة للحديث عن قضية من القضايا التي اختارتها الجائزة ويتم بعد ذلك طبع ملف بالبحوث والمناقشات، فمرور مثل هذه المناسبة دون توثيق لا يليق، والمسؤولون عن الجائزة وعلى رأسهم صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل يمتلكون القدرة على تحديث المناسبة وتحويلها إلى لقاء معرفي ثقافي يستجيب لرغبة الأدباء والمفكرين، وليس هناك ما يمنع من تنفيذ بعض الفعاليات، والجائزة قد فعلت شيئاً من ذلك حين زامنت افتتاح (معرض روائع الفن التشكيلي البرتغالي) ومع أن هذا المعرض مفردة من مفردات الثقافة إلا أنه يستجيب لحاجة شريحة من المثقفين وعلى رأسهم الفنان التشكيلي الأمير خالد الفيصل.

مباركة كل المناسبة الثقافية في بلادي ومزيداً من الحراك الفكري والأدبي للتلاقح مع الأدب العربي في المملكة العربية السعودية.

---

(١) تاريخ المقال: ١٨/ ٤/ ٢٠٠٧

تداعيات اللقاء مع الأمير نايف بن عبد العزيز .. ! (١) [(١)]

كان متوقَّعاً - بل مقرَّراً - ألاَّ يتجاوز اللقاء مع صاحب السمو الملكي الأمير نايف بن عبد العزيز - وزير الداخلية - عشر دقائق، وهو ما أوعز به (مدير مكتب سموه) تقديراً لظروف العمل، واحتراماً لذوي الحاجات المتوافدين على مكتبه، ورجلٌ بحجم سموه لا بدّ أن يَعْدِل بين الظِّماء، وأن يوزِّع جِسْمه في جسومٍ كثيرة، ولكن اللقاء امتد لأكثر من ساعة، كان فيها سموه المتحدث الرئيس، وكان محور الحديث فيضاً من التساؤلات المتلاحِقة حول ما تعانيه الأُمّة العربية والإسلامية من نكسات وإحباطات وما يجتاح البلاد من ظواهر لم تكن معروفة من قبل، فضلاً عن أن تكون مألوفة، ولاسيما أنّ أحوال البلاد لم تكن مهيّأة لمثلها في ظلِّ الظروف القائمة عالمياً، والتساؤل حين لا يكون على حقيقته للاسْتِعْلام، يكون لأغراض مجازية شتى، يعرفها البلاغيون، ولعلَّ من أبرزها الاستنكار.

وأيّاً ما كان التساؤل فإنّ الحديث ذو شجون وشؤون، ومن مصلحة أيِّ مواطن، بل من حقِّه وواجبه أن يستمع لمثله، وأن يتبع أحسنه، فالأمير متمكِّن أمكن من سائر الأحوال، لأنّه مغموس في لجّة الأحداث ومغروس في بؤر الحوادث. وكلُّها تمر به كَلْمى هزيمة، مجملة أو مفصلة.

وحديث رجل خبير جمع فأوعى درسٌ عَمَليٌّ، يجمع أطراف المشاكل وأنواع الحلول، وتميّز حديثه أنَّه لا يَفْرِض، ولا يُدين، وأنّه لا يُسقِط ولا يزايد، وإنّما يحلِّل ويقَوِّم، ويلوم ويوجِّه، ويناشد ويحذِّر، وحديثٌ بهذا القدر من الموضوعية والمعقولية، يجب أن يشيع بين الناس وبخاصة أنّ الأُمّة مستهدفة في مثمّناتها، ومخترقة في أفكارها، وليس بمقدور أحد أن يَعْزِلها عن النجوى الآثمة. واقتدار سموه في تقليب الأمور والتدفُّق المعرفي، والتقويم الدقيق للأحداث، وتمكُّنه من كشف الغموض الذي تتلبَّس به بعض الجرائم المحلية والعالمية، لم يكن غريباً ولا مستغرباً من مثله، فالذين خبروه لا يفاجؤون بجاذبية حديثه.

لقد كان رابط الجأش، هادئ الأعصاب، مُتسلْسل الأفكار، ولم يكن سموه بمعزل عن مطارحات النخب بمختلف أطيافهم وخلفياتهم الثقافية، والتقاط ما تيسَّر من التداعيات إن هي إلاّ تعميم للفائدة، ولقد قلتها لسموه، وأنا أودِّعه، فثراء المعارف وتنوُّع التجارب لا يجوز أن تكون دُوْلَةً بين الخاصة ولا ضمن الدوائر المغلقة.

فمن حق كل مواطن تساوره الهموم أن يعرف ماذا يدور في أفكار الكبار. وما يُدار على موائدهم من قول أو فعل، ولاسيما أنّ المتحدث مهندس الأمن وقائد فصائله، لقد كان حديثاً معرفياً تغلب عليه عبارات اللوم والعتاب، ويغلفه الحزن والاستياء من كلِّ مَن وقف وقْفة المحايد إزاء ما يحدث في وطنه، وإن كان ثمة شيء مفاجئ أو مثير في اللقاء، فإنّما هو في ذلك التوازن الدقيق في تصوُّر الأحداث وأساليب المواجهة والشجاعة في مواجهة الذات قبل مواجهة الغير وتجنُّب الإسقاط والتنصُّل من المسؤولية والجنوح إلى الوسطية وإمكانية التعاون.

ومكمن الإثارة في حديثه الوعي والمعقولية، بحيث لا تراه يبحث عن أنواط يعلق عليها العثرات، وإنّما يلتمس أقْوم الطُّرق إلى الحلول، ورهانه يقوم على الحَسْم لا على التأجيل، وعلى التوعية لا على الاحتواء، وتلك سجيّة النزاعين إلى التأسيس للقيم والانتقال من خطاب التحذير إلى خطاب التجذير، لقد كان إنساناً واعياً لمهمته كرجل أمن يستبق الخيرات، ولا يقف عند المطاردة والمحاصرة والمواجهة المسلّحة، كان يحمل همَّ

(١) تاريخ المقال: ٢٤/ ٤/ ٢٠٠٧

التفكيك لكلِّ ظاهرة وإعادة البناء وتوعية الحائمين حول الحمى، وتلك طموحات يتصوَّرها القُنَّعُ من الناس صعبة المنال، وما هي عزيزة على ذوي العزمات الصادقة.

ومما لا مراء فيه أنّ الرؤية الطموحة تتطلّب أرضية ملائمة قوامها الناس والأفكار، ولهذا لا بدّ من توطين الثقافة المستجيبة لهذه الرؤى، ثقافة المؤسسة الأمنيَّة، التي لا تنتهي مهمّتها عند السوط والقيد والسجن.

وحديث سموه يحرض على استكناه الأشياء، والأناسي قبل مبادرة الفعل أو القول، ومن ثم يناشد صنّاع الأفكار تفادي التغرير أو التزوير، واتقاء العنتريات والمثاليات، ومناط رجائه العلماء والمفكّرون والأدباء والإعلاميون والمعلمون، وتخوف سموه من خطأ السهو أو العجز أو الجهل:-

وإذا المعلم ساء لحظ بَصِيرةٍ
جاءت على يده البصائر حُوْلا

والشيء الأهم في حديث كهذا يكمن في ترجمة الأمنيات العذاب إلى ممارسة عملية يبتدرها كل راعٍ واعٍ لمسؤوليته.

ولا أحسبنا قادرين على تفعيل رؤية سموه بالتخلِّي والترقُّب على حد: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾، إنّنا جميعاً شركاء في الفعل وفي النتائج، ولا يمكن أن يصنع الأمن رجل الأمن وحده، فالمواطن يجب أن يبتدر مهماته وأن يسهم قدر طاقته ووفق إمكانياته المعرفية في التوعية والمتابعة، مستجيباً لأمر المشرِّع «**من رأى منكم منكراً**» وهل هناك منكر يداني الإخلال بالأمن والإفساد في الأرض.

وواجب المواطن أن يكون رجل أمن فكري ونفسي، وأن يكون عيناً ساهرة على مصالح أُمّته، والطامة الكبرى أن يجمع مع الغفلة تزيين سوء العمل حتى يراه حسناً: -

يُقْضى على المرء في أيام محنته
حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن

والله جل وعلا يقول: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾.

إنّ خطابات متعدِّدة تجتال مشاهدنا لو تُركت تحت أي مبرر لأحدثت تصدُّعاً فكريّاً، وأيّ خلل في الأمن لا يكون إلاّ في ظل تصدُّع الوحدة الفكرية، وحريّة التعبير والتفكير المكفولة إسلامياً لا يمكن أن تُشَرَّع لها الأبواب، ولا أن تلغى من أجلها الضوابط والحدود، لتكون في النهاية فوضى غير خلاّقة على طريقة الرؤية الغربية التي تلوح بالفوضى الخلاَّقة، مبررةً مقترفاتها التي لا تغتفر، وما عهدنا الفوضى تخلق الأمن والاستقرار، وتشيع العدالة، وتكفل الحرية، وتهيئ الأجواء للنّماء، فالناس لا تصلحهم الفوضى، ولا يضبط إيقاعهم الجهلة:-

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم
ولا سراة إذا جهّالهم سادوا

ولأنّ العالم مترابط كما أهل قرية خائفة مضطربة لا يأتيها رزقُها إلاّ بثمن باهظ وشقاء ممض، فقد انطلق سموه في قراءته الحذرة للأحداث العالمية وتداعياتها

وانعكاساتها على سائر الأوضاع محلياً وعالمياً من الحدث الزلزلة (حدث الحادي عشر من سبتمبر).

وكانت رؤية سموه تقتات من حسّه الأمني وتنطلق من تجاربه وخبراته في رصد الأحداث وملابساتها، لا من خلال فيوض القول العاطفي المتشنج الذي يحمِّل العروبة والإسلام كل الجرائر، والمجرب لا يَرْتهِنُ نفسه لنجوى الشارع، ولا لتدفُّق الشائعات، ولو قرئت الأحداث كما هي عند الدهماء لضاعت خيوطها في متاهات الرجم في الغيب، وقراءة سموه لأُمِّ المشاكل استدعت أحداثاً ضاربة في عمق الغموض كاغتيال الرئيس الأمريكي الأسبق (جون كندي) وملابساتها وطمس معالم الجريمة بقتل الأطراف قبل استكمال التحقيق، واستدعاء الشواهد يبرهن عن منطقية التحليل ومعقولية النتائج، والحدث الزلزلة قريب في ملابساته وغموضه من حادث الاغتيال، فالإرهاب، والقاعدة، وربطهما بالإسلام أو بالمناهج دعوى كاذبة خاطئة، وترويج ذلك من قِبل المستغربين تمكينٌ من رقاب المسلمين، وتلك المشاطرة الرعناء لرؤية الغرب يؤذي المسكونين بهمِّ أمَّتهم، ويُعطِّل مشاريعهم لإقالة عثرة الأُمّة المستهدفة من كل جانب، ولقد تناولت ذلك بالتفصيل في كتابي (أبْجديات سياسية على سور الوطن).

وتناول سموه لهذه المفارقات يضع المتخاذلين والمواطئين أمام مسؤولياتهم، وسموه لا يبرئُ المتورِّطين من أبناء البلاد ولا يسمح لأحد أن يحمِّل البلاد وأهلها ومناهجها ودعوتها الإصلاحية مقترفات الضالين والضالعين في الجريمة من أبناء البلاد، فتلك مسؤوليتهم، وعليهم أن يتحمّلوها وحدهم، فالمملكة لم تهيئ الأجواء لصناعة الإرهاب، ولم تتوان في مواجهة الإرهاب، وهي قد أصابها القرح، ولمّا تزل معرّضة لعمليات إرهابية، والكتبة الذين يُنْحون باللائمة على المناهج والجمعيات والمؤسسات الدينية يواطئون أعداء الأُمّة من حيث يعرفون أو لا يعرفون، وإذعان الخانعين تحميل لما لا يُحتمل من التبعات، وتوهين لعزمات البلاد وأهلها وتدنيس لردائها الطاهر من كلِّ دنس.

وأعذب تداعيات اللقاء المبارك صلاح البطانة وكفاءتها، فولي الأمر حين يشد عضده الصالحون المقتدرون من أبناء البلاد ويتوفر على الكفاءات المخلصة الصادقة يصرفُ نظره عن التفاصيل ويجمل في الطلب، والدولة المدنية لم تعد حكومة الحاكم بأمره ومن يظنونها كذلك تقصر معارفهم عن بلوغ الحقائق، إنّها نسيج متلاحم من مختلف الأطياف والتخصُّصات تتدفّق خبراتها ومعارفها من الشعاب إلى الأودية لتَصب في المصلحة العامة، وإذ تكون مسؤوليات الدولة الحديثة أوزاعاً بين الكفاءات يكون تطلُّع المواطن منُوطاً بقدرات الممسكين بأطراف المسؤولية، والزمن المواتي يتطلّب قدرات فاعلة لها عزماتها التي لا تني ولا تتردد، وفساد الرأي يكمن في التردُّد.

والمملكة تعيشُ عصرها الذهبي، وإنسانها يُعد مركز الاهتمام، وذلك ما ألمح إليه سمو الأمير حين عمد إلى تحريض المواطن على حفظ الثغور والتصدِّي لكلِّ المستهدفين لأمن البلاد ومثمّناته.

وحديث رجل بوزن نايف بن عبد العزيز ومسؤوليته، حديثٌ ينبعث مما يراه ويسمعه ويعانيه من أحداث وحوادث، فهو على ثغر من ثغور البلاد، وأكاد أجزم أنّه أهم الثغور وأخطرها، فالأمن بشقَّيه كما أشار سموه في حديثه:

-أمن النفوس.

-وأمن الأفكار... مسؤولية مشتركة لا تنهض بها وزارة دون أخرى فضلاً عن أن يكل الناس أمرها إلى رجل الأمن وحده، ومتى أخطأ المستهمون على مواقعهم في مشاهد الوطن في التقدير أو في التوقيت ساءت الأحوال واضطربت الأمور.

وإشكالية بعض حَمَلة الأقلام أنّهم لا يعون خطورة المواقف واضطراب الأوضاع العالمية ومدى انعكاسها على الأوضاع الداخلية، ولو أنّهم عرفوا ذلك لاتجهوا صوب الثغور لصد العوادي، ولعملوا على تماسك الجبهة الداخلية للتمكين من مواجهة أيِّ طارئ، والعاقل من وعظ بغيره، وليس هناك أضر على الأُمّة من تفاوت المواقف والمفاهيم، واختلاف النخب الفكرية في ترتيب الأولويات، وانكفاء كل عالم أو مفكِّر على نفسه متوقعاً أنّه لا يضره من ضلَّ إذا حرر مسائله وأصَّل لقضاياه، وكان عليه أن يتذكّر السفينة والمستهمين على مواقعها، وأن يعي مقتضى (لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ)لأنّها رؤية جمعية لا فرْدية، ومما يزيد الأحوال سوءاً تدابر العلماء والمفكّرين، والمشاهد كلها تجيش بالحراك المتنافر فيما يظل أعداء الأُمّة يؤزُّون المختصمين أزّاً، ويدفعون بالنخب إلى تضخيم القضايا غير المهمة والاشتغال بالمفضول.

والسؤال المُلح: هل نحن على قلب رجل واحد؟

وهل الحراك الثقافي يتجه صوب الوفاق؟

وهل من مصلحة الأُمّة فتح ملفات قديمة لا يضرنا وجودها مغلقة؟

لقد دخلت المنطقة في دوامة الفتن، وستظل في راهنها مشروع فوضى وحروب أهلية، ودخن تلك الأوضاع يَجُوسُ خلال الديار، ووضعٌ كهذا يتطلّب الوفاق، وتجنُّب قضايا الافتراق وتحويل الكلمة إلى الثغور لصد الاعتداءات الآثمة.

إنّ المملكة مستهدفة في أمنها ودينها من خلال قنوات مغرضة وشخصيات حاقدة ومنظمات موجّهة تحاول التدخل في شؤوننا الداخلية والحد من سيادتنا المشروعة. فأين كتَّابنا من ذلك كله؟ وكيف يستهلكون جهدهم ووقتهم في المناكفات حول أمور لا يحتملها الواقع وكأنّها بيت الداء الذي يحول دون اللحاق بالأمم، من هنا جاء امتعاض سموه، ومن هنا بدت بوادر ضعف الولاء الذي لم يكن مقصوداً ولكنه ناتج ضعف في الوعي وما كان حديث سموه متهِماً، ولكنه يلوم نقص القادرين على التمام.

تداعيات اللقاء مع الأمير نايف بن عبد العزيز .. ! (٢) [(١)]

قبل مواصلة الحديث عن التداعيات أودّ التهنئة، والإشادة، والتَّعزْية، والاستنهاض في ظل هذا الإنجاز الأمني المدهش.

-تهنئة الأهل والعشيرة بنجاتهم من شرّ مستطير تُحاك خيوطه في الخفاء من أناسيَّ ودول جُبلوا على حبِّ الأذيَّة ك(العقرب).

-والإشادة برجال الأمن الأوفياء الذين مكَّنهم الله من رقاب الإرهاب الذين لو نجوا لما نجت البلاد.

-وأعزِّي قومنا بطائفة من أبنائهم الذين استزلّتهم شياطين الأنس فأنسوهم ذكر الله وأضلّوهم سواء السبيل.

-وأستنهض همم المقتدرين من المواطنين للتحرّي عن الضالين والمضلّين، والتوعية لمن استحوذ عليهم أعداء الأمّة الساعين في الأرض فساداً والله لا يحبُّ الفساد.

ومن الصُّدف الحميدة أنّ حديث سموه جاء مستثيراً للهمم ومعاتباً الاتكاليين الذين لا يعظون قوماً يتخطّفهم دعاة السوء، فإمّا أن يتذكّر الضال ويعي متّخذ المضلّين عضداً، أو يعذر الواعظ، وذلك أضعف الإيمان، بحيث لا يلتفتون إلى المثبطين: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾. والله وعد الذين ينهون عن السوء بالنجاة وحذَّر ما سواهم بالعذاب البئيس.

لقد طوف حديث سموه في فجاج القضايا والمعارف يستعرضها واصفاً تارة ومقوّماً أخرى، ناقداً أو متحفّظاً محاولاً قدر المستطاع إعطاء كلّ شيء ما له وما عليه وفق رؤية تجريبية قريبة من الحدث.

وفي لجّة الفوضى الكلامية والإعلامية التي يطفح بها كيل المشاهد كلها أخذ طريقه إلى رؤى وتصوُّرات يشد عضدها البرهانان: العقلي والعملي. ويباركهما النص القطعيّ الدلالة والثبوت، إذْ كلّما شطّ به الانفعال عاد ليسند رأيه بآية أو بحديث أو بتجربة سلفية، لقد استنكر ظواهر إعلامية تتخذ من الشعوذة وأضغاث الأحلام وقضايا المجتمع المسكوت عنها مجالاً للإثارة والتلهية والجذب، غير عابئة بما يترتّب على ذلك من أضرار نفسية أو فكرية أو اجتماعية، ولاسيما أولئك الذين يستغلّون فضاءات النصوص وإطلاقاتها العمومية، ولقد ضرب لنا الأمثال بقنوات الدردشة التي تحاول مخادعة الناس ومخاتلتهم بدغدغة العواطف الدينية.

ومع إيمانه بالقدر المعقول والمقبول من (الأحلام) و(الرقى) إلاّ أنّه يدين استغلال السذّج والمرضى النفسيين، ويود لو أنّ تلك الجهود وُجّهت للتوعية والإصلاح وإشاعة المعارف وحفظ التوازن بين مجمل القضايا المطروحة عبر وسائل الإعلام، كالأسلمة والتعريب والأصالة والمعاصرة والحقوق وقضايا التعليم والمرأة، وسائر النوازل التي يبتدرها أنصاف المتعلّمين فلا يزيدونها إلاّ تعقيداً. فالإسلام الحقُّ يوجّه لاقتناء المعرفة ويحذّر من سوء استخدام الدِّين المعرقل للنمو، فصريح المعقول لا يعارض صحيح المنقول، وما أُتيت الأمّة إلاّ من سوء الفهم، أو سوء الاستغلال، ولهذا قال سموه - وأرجو أن أكون دقيقاً في الرواية -: (الإسلام يحل الإشكال ويحقن الدماء، وحيثما وجدْتَ حقاً مضاعاً أو دماً مراقاً فاحكم بغياب الإسلام).

---

(١) تاريخ المقال: ١/ ٥/ ٢٠٠٧

وسموه يطوّف ما يطوّف في مختلف القضايا، ولكنه يأوي إلى صميم مسؤوليته، وكأنّي به وهو يتحدث بهدوء الواثق وثقة المتفائل عن الأمنين: النفسي والفكري يتساءل بامتعاض عن تقصير المشاطرين لرجل الأمن من علماء ومفكّرين وأُدباء وإعلاميين في تفعيل الأداء المشترك. ولأنّ اللقاء يرتبط بمؤسسة ثقافية تخاطب العقول والأفكار والعواطف من خلال إشاعتها للكلمة الطيبة والقول السديد، فإنّ سموه يودُّ من حَمَلَة الأقلام ومُفْتَرعي المنابر ومتصدِّري الإعلام أن يعرفوا حدود مسؤوليتهم، فالكلمة الطيبة إنْ لم تستبطن التوعية، وتواكب الأوضاع، وتحاول النفاذ إلى الأذهان متوسلّة بالجمال والجلال والواقعية والمعقولية متوفّرة على الإمتاع والاستمالة والإقناع والتخول في الموعظة، فإنّها تكون غثاء يتعثّر به عابرو السبيل، وما أكثر الذين يقولون ويبدعون ولكنهم لا يحركون ساكناً، ولا يبصرون تائهاً، ولا يثنون متعنّتاً. وكُل متوسل بالكلمة لا بدّ أن يكون ذا بصر وبصيرة.

وسموه الذي لمّا يزل في سباق مع الجريمة مجالداً ومجاهداً، يهمه أن تسهم كافة المؤسسات الدينية والثقافية والإعلامية في التوعية والتصدّي للغزو الفكري الذي لا يحتاج إلى دليل، وما يريده سموه لا يعني مجرّد الفعل فكلُّ المؤسسات تحمل الهمّ ولا تجد بدّاً من العمل، ولكنه يتطلّع إلى شيء آخر يكاد يفقده البعض وهو أسلوب الأداء ومادته وحدُّه ونوعه في ظل فقه الواقع والأولويات، ولهذا ضرب مثلاً ب(خطبة الجمعة) حتى لقد استخدم لغة الأرقام وهي لغة تقطع قول كل خطيب، فالجوامع في البلاد تفوق العشرة آلاف مسجد والمستمعون بالملايين، والخطباء أحرار في قول ما يعن لهم، فهل هذا الكم الهائل لامس مشاعر الناس واستمالهم؟ وهل كل الخطب تنطلق من قعر المجتمع وترتبط بهمومه ومشاكله؟.

إنّ عدداً غير قليل من الخطباء يكادون يعتزلون هموم الناس، وإذا قاربوها قد لا يحسنون التناول، فقد لا يقدر بعضهم على مخاطبة الناس بما يعقلون، وكيف لا والرسول ﷺ يتخول أصحابه في الموعظة. وحديث سموه لا ينطلق من فراغ ولا تحبسه قضية ولا تستهلكه ظاهرة، إنّه إطلالة واعية على المشهد ومراوحة بين الأداء والنتائج، والناصح لأُمّته لا يسمح لنفسه بالمغالطة ولا يعزلها بالمثالية، ولا يدمّرها بالعنترية.

فالمؤسسات كافة لم تع خطورة الموقف، ولم تكن في مستوى الأحداث المحدقة بالبلاد، ولكي نصحِّح الأداء لا بدّ أن ندرك مكمن الخطأ، وأن نملك الثقة والشجاعة في مواجهة الذات، والقول في هذا الشأن لا ينفي الخيريّة ولكنه يطلب المزيد منها.

ومكاشفة سموه لم تقف عند نقطة معيّنة، ومن ثم لم يشأ أن ينحي باللائمة على فئة دون أخرى، ومهما حاول الإغماض، فإنّ أمامه واقعاً يثير أكثر من تساؤل، ومن حقِّه أن يلتمّس الأسباب، لإقالة العثرة، وتحقيق الاستقامة، وليس من المقبول أن يغمض في النقص المشترك بين كافة المؤسسات التوعوية والإعلامية والتثقيفية، ولا أن يكون من المعذرين ولو ذهب به التفاؤل كلّ مذهب، وهو الأقرب إليه فمن يستطيع أن يخفي ما الواقع مبديه؟.

إنّ هناك إرهاباً ينبعث من هنا وهناك بأشكال وألوان، وهو ظاهرة لا تصنع نفسها، ولا تنطلق من فراغ، إنّ وراءها صانع فكر لا يقارع إلاّ بفكر مثله وحمولاً بالمال والسلاح لا يَنْخنِسُ إلاّ بفضحه، فهل رتّب الناس أمرهم للمقارعة والتحسُّس عن الكهوف والخلايا؟.

وهناك جرائم منظّمة، ومواقف متخاذلة، وعمالة سائبة وتستُّر مدان، وهناك انحرافات فكرية واستغراب مقيت وغلو في الدِّين وتطرُّف في الأحكام، وتقليد مهين لأخلاقيات الغرب وأفكاره، وقابلية للاستجابة الطوعية لمستجده الفكري وعزوف عن

مكتشفه العلمي، وكل هذه الممارسات غريبة على مجتمع متديّن متآلف، وتلك الظواهر تُرى ماثلة للعيان كما لو كانت من المسلّمات. فمن بعثها من مرقدها؟ ومن تفسح لها في المشاهد؟ ومن ذا الذي أحياها وأمات الفضائل؟ وقلَّل من الإحساس ببشاعتها قولاً وفعلاً، ومن وراء هذه الأطياف المستجدة؟ ومن يغذي الخلاف ويذكي التناحر؟.

لقد طُرح مشروعُ (الحوار الوطني) لإخراج الخشاش من جحورها، وكشف الزيف وردّ التائهين إلى جادّة الصواب، ولكن البعض تصوَّر أنّ هذا المشروع لإطلاق العنان لكلِّ خطاب دون ضابط، ومع الفهم الخاطئ عند البعض حقق المشروع أفضل النتائج. إنّ رجلاً تشدُّه أواصر المسؤولية إلى كلِّ هذه الأدواء من حقه أن يتساءل، وأن يلح في التساؤل وأن يقسو في التأنيب:

قسى ليزدجروا ومن يك راحماً

فليقس أحياناً على من يرحم

نعم بلادنا بخير والخطيئة مقموعة والأشرار أذلّة صاغرون، ولكن الطموح ينشد التمام:

ولم أر في عيوب الناس عيباً

كنقص القادرين على التمام

وما يضايق الأمير يدخل في نقص القادرين على التمام.

وما لا مراء فيه أنّ الأُمّة على شيء من اليسار والأمن والاستقرار وهي مؤهَّلة لكي تكون خير أُمّة لولا ما يعتريها من تقصير لا يتوقّع مثله من مثلها، ونزوع سموه إلى المثالية لا يحول دون مشروعية الحوار، وهو بهذا الانفتاح لا يجنح إلى تمييع الإسلام والتمكين لمتقضيات المصطلحات الغربية التي يلح عليها المهووسون ب(الحداثة) و(الليبرالية) و(الديموقراطية) و(العلمانية) وسائر المستجدات الفكرية والسلوكية التي شوّهت الخصوصية.

وأصعب موقف يواجهه رجل الدولة إلحاح الغربي على التخلِّي عن الثوابت، ليظفر بالعولمة والعالمية واتهام المستبطن له بالتهاون في الثوابت، فهو موزّع بين الدفع والتوعية وصعوبة الموقف في أن رضى الآخر باتباع ملّته ورضى المستبطن بالتمكين لرؤيته، دون التسديد والمقاربة والدفع بالتي هي أحسن.

لقد شف حديث سموه عن أحلام وتطلّعات يعدّها الهيابون فوق الطاقة. ولكنها عند المقدام في إطار الممكن إذْ لا يفتأ مثله يحرض نفسه ومَن حوله على الإقدام المحسوب بكلِّ دقّة:

إذا غامرت في أمر مروم

فلا تقنع بما دون النجوم

وكان مما يقض مضجع سموه ذلك الخلاف المستحر بين طوائف المسلمين ومذاهبهم وعلمائهم، ولقد تمنى لو وكل أمر التوفيق بين المختصمين إلى الأفذاذ من العلماء الذين يتوفّرون على فقه الأحكام والواقع والأولويات والتمكين ليتداركوا الأُمّة قبل التفاني، وتلك أمنية ممكنة لو سلّم لها الرأي العام وأذْعَنَتْ لها القيادات الفكرية والسياسي، ولم يبق - فيما أرى - إلاّ أمد تَبْتَدِرها مملكة الإنسانية وتحتضنها أرض القداسات.

والأسئلة المتولهة التي أرجو ألاّ تذبل على الشفاه:

-من يعي هذا الحديث؟

-ومن يفعله ويتفاعل معه؟

-ومن يرفع الحجب الوهمية بين رجل الدولة والمتعشطين لثقافة المرحلة؟

قضايا المصطلحية في اللغة العربية .. ! (١)[(١)]

ذلكم هو موضوع (جائزة الملك فيصل العالمية) لعام ١٤٢٨هـ، وهو من أخطر الموضوعات، وأهمها، وأجدرها بمزيد من العناية والتذكير، وإنْ لم يكن مثل هذه القضية حاضرة المشاهد الإعلامية، إذْ الناس يمرُّون بمثل هذه الإشكاليات ولا يعرجون عليها، و(هيئة الجائزة) حين تستدعي مثل هذه الظواهر، وتطرحها للمرة الثانية، تعرف مدى أهميتها وخطورة تأثيرها على مجريات الفكر المعاصر، والجائزة بما أوتيت من ثبات على المواقف، ووثبات لاستشراف المستقبل، وإلمام بفقه الواقع والأولويات، لا تقارب إلاّ القضايا الأهم، وأحسب أنّ هذا الموضوع من أهمّ القضايا، وأجدرها بمزيد من العناية، وهي قضية لا تقلّ أهمية عن قضية (الترجمة) التي لم تكن ذات شأن ملائم لأهميتها، وإشكاليات (المصطلح) و(الترجمة) لمّا تزل قائمة على أشدّها، وجذبها إلى المشاهد مؤذن بتحرف لحل أو تحيُّز إلى موقف، والمؤلم أنّ طرحهما لن يثير انتباه الدهماء من الإعلاميين الذين يبحثون عما يشبه حلبات الصراع الإنسانية والحيوانية.

وجائزة عالمية متميّزة بكلِّ المقاييس لا يمكن أن تتملّق الرأي العام، ولا أن تحتويها لعبة الإثارة. وعتبي - إنْ كنت من المعتبين - على مشاهدنا الثقافية والإعلامية، أنّها لم تكن حفية بهذه الجائزة بالقدر المتكافئ مع مكانتها، ولا سيما أنّها بكلِّ ما لها مفردة من مهمّات (مركز الملك فيصل)، وإنْ كانت كبيرة في نفوس الجادِّين، لأنّها - ربما - تكون الأقدر على تجسير الفجوات بين النُّخب الفكرية والعلمية والأدبية في المملكة، وسائر المحافل العلمية والفكرية في العالم العربي على الأخص، فالذين يرقبونها كلّ عام لترشيح النُّخب العالمية كلّما ذكروها ذكروا أهلها، وهل أهلها إلاّ الشعب السعودي الذي يكثر عند الفزع ويقلُّ عند الطمع، ويبادر إلى جلائل الأعمال والباقيات الصالحات.

وإشكالية المصطلح الذي عُنيت به الجائزة تزداد اتساعاً وتعقيداً، وبخاصة أنّ الحضارة العربية في حاضرها مرتهنة لما يفد عليها من مصطلحات منقولة أو معربة أو مترجمة، وأخذها بما جدّ من أفكار ومبادئ يفتقر إلى الوعي والحاجة، وحين لا يحكم التفاعل وعيٌ بكون الخلط والارتباط، واستنزاف الجهد والوقت والمال دون عائد متكافئ، ولاسيما أنّ المصطلحات في قطاع الترجمة تعتمد على جهود فردية، وعلى الرغم من كلِّ العوائق فإنّ هناك أرضيات محلية وعربية صالحة لكي تكون منطلقاً لترشيد المسار المصطلحي الذي يُعد إكسير الصراع الفكري والأدبي والسياسي والديني، وتحويل خدمته من جهود فردية مشتتة إلى عمل مؤسساتي منظم، فهو جدير بالمأسسة، لاحتواء الفوضى، وترشيد المسار، إذْ ما استمعت إلى خصام أو قرأت لنقد أو تعقّبت معركة أدبية إلاّ ووجدت اضطراب المفاهيم مصدر كل نزاع، ولن يتر هذه الفوضوية إلاّ سلطان المصطلح، متى أخذ وضعه الطبعي، وسِمتهُ الجامعة المانعة.

ولأنّ فوضى المصطلحات على أشدِّها فإنّ الخصمين قد يكونان في خندق واحد، يؤمنان بفكرة واحدة، ويسلكان طريقاً واحداً، ثم لا ينجوان من طائف الاختلاف الذي لا مبرّر له، ومتى فتشت عن السبب وجدته في اضطراب المفاهيم حول مصطلح أو ظاهرة. وليس عليّ من بأس حين استذكر الغيرة الجامحة التي انتابت (عمر بن الخطاب) رضي الله عنه حين استمع إلى رجل يتلو القرآن على قراءة لم يسمعها من قبل، فلم يتردّد في الأخذ بتلابيبه يجرّه إلى رسول الله ﷺ، وما أنْ مثُلا بين يديه، طلب منه إرساله ليأخذ نفسه، ولمّا سمع دعوى عمر، طلب من الاثنين أن يتلوا الآيات المختلَف حول قراءتها،

---

(١) تاريخ المقال: ٨/ ٥/ ٢٠٠٧

وما كان منه إلاّ أن أقرَّهما معاً، وحُسِمت المشكلة في قضية القراءات، تسهيلاً وتيسراً على من لا يستطيع الخلوص من لهجة قومه.

وقضايا المصطلح تكاد تكون عين الاختلاف المتوهم، ومع ذلك فهي شائكة ومعقّدة، ولا يكتوي بنارها إلاّ الذين يرابطون على ثغور الفكر والأدب، فهم الذين يصطرعون ويصطرخون، وما من شيء يدعو على الاصطراع والاصطراخ، ولربما يقترفون ما يندمون على فعله، لعدم توفُّر الإمكانيات للتثبُّت والتبيُّن، فكم يصيبون قوماً بجهالة، ظنّاً منهم أنّ من يواجهون يتولون كبر الخطيئات، وإذا انجلى الغبار تبيّن لهم أنّ الأمر لا يحتمل كلّ هذا التصدِّي والتحدِّي والصمود، إنّ غياب الرّصد المؤسساتي للظواهر والمصطلحات، وتحديد المفاهيم والمقتضيات والتسليم لها، وذهاب كل مفكر برؤيته، مدعاة إلى مزيد من الاضطراب.

والمصطلح حين يدخل المشاهد يستقر في رحمها كما النطفة، تبدأ معه رحلة الأطوار من علقة إلى مضغة إلى عظام إلى اكتساء باللحم إلى أن ينشأ خلقاً آخر، وإذا كان الإنسان يكتمل خلقه، ويتشكّل على أحسن تقويم، فإنّ مرد ذلك أنّه نشأ في رحم واحد ورعاه أحسن الخالقين. أمّا المصطلح فإنّه يتلقّى أكثر من رحم فكري، بل أكاد أقطع بأنّ لكلِّ مفكِّر قراره المكين الذي تتشكّل فيه المصطلحات، بل قد تتلقّاه أرحام الأفكار سوياً ثم تمسخه ليكون كما تريد. وفوضوية تناسل المصطلحات يكتوي بنارها ذوو الشأن، إن هناك ترجمة ونقلاً وتعريباً وابتكاراً، ولكلِّ مترجم أو ناقل أو معرب أو مبتكر رؤيتُه وخلفيّته الثقافية وهمّه الفكري، وكلُّ ناشط في مشاهد الفكر يريد تكثير سواده، بحيث لا يتردّد في تحديد المفهوم الذي يريد أو إفراغ المصطلح من محتواه وشحنه بما يرى، فيما يظل المصطلح مشحوناً عند آخرين بمدلوله الواضح.

والمتلقِّي تجتاله المصطلحات وتحتنكه المفاهيم، ويعقد له ذوو الرسالات الفكرية كلّ مرصد، ولو أنّ المصطلح أعطي حقه الحدِّي الجامع المانع، وأصبح كما المصطلح المعياري في عالم النحاة والصرفيين، لما تحوّل من ضابط مسعف إلى معوق مربك، وكلُّ مكتوٍ بنار الاختلاف غير المبرّر تسعده مثل هذه المبادرات التي قد يكون لها الأثر ولو بالوقوف عند هذا الحد من التدهور، فالمصطلح ليس مادة ثقافة وحسب، إنّه الساعي للإصلاح بين المختصمين، إذْ يشكِّل مرجعية لفض المنازعات.

والمصطلح يفر إليه المختصمون ليفضَّ الاشتباك، ويقر في الأذهان مقتضاه الجامع المانع، فكيف إذا كان معه المختصمون كالمستجير من الرمضاء بالنار، إنّ معترك الأقران لا يرجِّح كفة أحدهم على الآخر إلاّ برهان المصطلحات، فإذا كانت المصطلحات متعدّدة المفاهيم أصبح المفكرون في لجّة من الفوضى التي لا سرات لها، والمشاهد لا تصلح فوضى ولا يحكمها الجهل ولا الاضطراب.

واختلاف المفاهيم والمقتضيات حين يمتد إلى المصطلح المفترض فيه أن يكون سبيل الوفاق، يصبح من المتعذّر حسم القضايا المختلَف حولها، وهذا ما نراه ماثلاً في مشاهدنا رأي العين، والترجمة كما أشرت تسهم في تأزيم الأزمة، ذلك أنّها تتم وفق رؤى فردية، ولكلِّ مترجم ظروفه وإمكانياته ومرجعيّاته الموسوعية والقاموسية، ولو ضربنا الأمثال بمصطلحيْن)الانزياح)، و(السيمائية) لوجدناهما يختلفان في اللفظ والدلالة من مترجم لآخر، ف(الانزياح) ترجم ب(التجاوز) و(الاختلاف) و(الشناعة) و(التحريف) و(العصيان) و(الإلماحة) و(المخالفة) و(الانحراف)، ولكلٍّ من (بول فاليري) و(وليك) و(بانيار) و(تيري) و(بارت) و(تودوروف) و(أرجون) تعريفاتهم الخاصة، التي التقطها كلُّ مترجم، فترجمها حرفياً أو معنوياً، أمّا (السيمولوجيا) فقد ترجمت ب(السيمائية) و(السيمية) و(الرمزية) و(الدلالية) و(علم العلامات) و(العلمية) وسواها، وهذا التعدُّد في

الترجمات يرتبط فيه تعدُّد في المفاهيم والتصوُّرات. والجائزة حين تكرم المعنيين بتلك الإشكالية توقظ الهمم وتثير القضايا وتنبِّه الغافلين.

قضايا المصطلحية في اللغة العربية .. ! (٢) [1]

لقد أحسست في وقت مبكر بأهمية نظرية المصطلح، ولم أتردد في ملاحقة المستجد في عالم المصطلحيين، وهو عالم أهملته المشاهد، فلم تتح له فرصة الحضور الفاعل، فالمهتمون بالشأن المصطلحي يعتمدون على جهود شخصية، ويتحركون وفق رغبات شخصية، ويمارسون فعلاً لا يقوم التنسيق بين أطرافه، وكان حقاً على كل مفكر أو عالم نصر المشتغلين به، وتحويل الجهود الفردية إلى تنظيم مؤسساتي، والعمل على التنسيق بين الجهود، واحتواء المترجمين، وإنشاء رابطة تنسِّق وتدعم وتوجه وتوحد التعريب.

إن المجامع اللغوية وسائر المنظمات الفكرية والثقافية ك(اليونسكو) و(معهد المخطوطات)، ومراكز الفكر العربي تمارس عملها بمعزل عن المشاهد، واشتغالها بالمصطلح دون المؤمل، وبعض معاجمها تخلط بين المصطلح والمفردة اللغوية والظاهرة الفكرية والأدبية، وقد لا تفرق بين المصطلح بوصفه آلية أو منهجاً أو فكراً، وما على المتردد إلا أن يرجع إلى المعاجم والموسوعات سواء منها ما يرتبط بنزعة أو طائفة أو فن أو حقل معرفي، كالمصطلح الصوفي والسياسي والفلسفي والنفسي والاجتماعي والأدبي والنقدي، والمصطلح عند علماء الحديث، والتفسير، والتاريخ، والبلاغة، والصرف.

إن هناك خلطاً عجيباً من حيث الحقول وخلطاً أعجب من حيث التعريف والتحليل والموقف من المصطلح والتأريخ له.

لقد كانت لي إلمامات متأنية ومتنوعة بالمصطلح عبر مختلف الحقول والعصور، ولم أكن في يوم من الأيام متفائلاً، فالاضطراب والفوضى وتعدد المصادر وتنوع المفاهيم وفرح كل حزب بما لديه عقبات، كما الظلمات المتراكمة بعضها فوق بعض. ولكيلا أشيع هذا التشاؤم، وأعرقل التفكير بالحلول فإنني أراهن على نجاح الجهود المؤسساتية، متى استوعبت القضية، ومارست الفعل الحضاري بعيداً عن الآنية والذاتية وتوغلاً في الموضوعية والمعرفية، ومتى تفسح لها المحتاجون والمنتفعون في مشاهد الفكر والأدب، ولأن المصطلح يكون في أغلب أحواله عالمي الانتماء، فإن واجب المجامع العلمية العربية، والجامعات العربية ذات الاختصاص التنسيق بين الجهود لتوحيد المصطلح صياغة ودلالة.

وعلى ضوء المعيشة الواعية، فإن إشكالية المصطلح ليست بحاجة إلى مزيد من القول، ذلك أن القول لن يكون إلا معاراً أو معاداً، والحل في الوعي والتمثل.

المشهد لا يطلب المزيد من القول، ولكنه يطلب القليل من العمل، وما لم نعد قراءة ما قيل فإننا سنظل نتدفق قولاً عقيماً، لا يغني عن الحق شيئا، وإذ لم نزل مرتهنين للتنظير المتناقض، فإننا أحوج ما نكون إلى مزيد من تحرير القضايا الرئيسة، وتحديد الموقف منها.

عرفت إشكالية المصطلح حين دخلت في معارك أدبية، لم تترك في مشاهد الأدب إلا أشلاء السمعة، وحين استعدت قراءة المعارك الأدبية التي خاضها من قبل عدد من أساطين الفكر والأدب منذ أن تواصلت مشاهدنا مع مشاهد الحضارات الشرقية والغربية، ومنذ أن كنا قابلين للتبعية، وتعميق الإشكالية في انعدام المصداقية، فالخصم لا يجد حرجاً في تصنيفك وفق ما يريد لا وفق ما أنت عليه، وهو يجد من الأشياع والأتباع من يسلمون له ويتكفلون بإشاعة أحكامه، وأنت في ظل هذا الظلم تستنزف كل طاقاتك لنفي هذا

---

(١) تاريخ المقال: ١٥/ ٥/ ٢٠٠٧

الاتهام، وفي ظل الدعوى والنقض تهمل القضايا الأساس لمن لا يحسن رعايتها ولا تنميتها، ومتى فتشت عن الينبوع الذي لا يغور لتغذية الخصام لوجدته في المصطلح.

وليس غريباً أن تهتم (جائزة الملك فيصل العالمية) بقضايا المصطلح، ففي كل قطر، مثلما أنه في كل مرحلة أدباء وعلماء ومفكرون يشغلهم المصطلح، ويحملهم على التأسيس المعرفي له، ولكنهم من القلة والتهميش بحيث لا يكون لهم من الأمر شيء، وإسهامهم في الترجمة أو الدرس أو التجريب إضافة غير رئيسة، ولأننا أحوج ما نكون إلى تلك الفئات المسكونة بالهم المصطلحي، فإننا نود أن يكون لهم شأن وأثر، وأن تتاح فرصٌ أكثر ومساحات أكبر، فهم كالجبال التي ترسي الأرض من الاضطراب، فأي مشهد أدبي لا تسوده المصطلحات المتفق على لفظها ومقتضاها لا يمكن لها أن يكون راسياً متوازناً.

والمصطلح إما أن يكون غربي النشأة معرباً أو مترجماً أو منقولاً، أو عربياً موروثاً أو مبتكراً، والصياغة اللفظية المتعددة الصور بتعدد المترجمين أو المعربين تواكبه دلالات ومقتضيات تفقده أهليته ومهمته.

والمشتغلون بالشأن الاصطلاحي تختلف مهماتهم ومقاصدهم فالموسوعيون والمعجميون والمؤرخون والمنظرون والمتبنون لكل واحد منهم زاويته التي يشتغل فيها، ولكل مصطلح في تلك التنوعات مفهوم ومقتضى واحد لا يكون في مجال آخر، وهذا إجهاض متعمد لجدوى المصطلحات وتعطيل لأدائها.

وليس من حقنا ونحن نتحدث عن مشكلة المصطلح أن نتجاهل طائفة من المفكرين والنقاد، كانت لهم إلمامات سريعة أو متأنية معرفية أو موقفية من المصطلح. وإذ لا تكون لهم الضجة التي ظفر بها من دونهم فإننا لا ننطلق من الشهرة، ولا نحفل بالضجيج الإعلامي، ومتى استحوذت علينا أضواء الإعلام، غفلنا عن زوايا معتمة في جوفها كل الصيد.

لقد بادر المصطلح عددٌ من الأكاديميين على سبيل المعجمة أو النقد، وكانت لهم رؤية لا بد أن يكون لها حيزها المناسب في مشاهدنا، فعلى المستوى المحلي عرفت الأستاذين (سعد البازعي) و(ميجان الرويلي) من خلال (دليل الناقد الأدبي) عبر طبعاته الثلاث، وعرفت الأستاذ الدكتور (عبد الله الغذامي) من خلال كتابه (الخطيئة والتكفير) بحيث حرر في صدره الأول النظريات الأسلوبية و(النقد الثقافي) وفيه طرح هذا المصطلح بوصفه بديلاً للنقد الأدبي، وعرفت الأستاذ الدكتور (محمد مريسي الحارثي) من خلال كتابه (عمود الشعر العربي) و(النقد الأخلاقي) وعرفت الأستاذ الدكتور (صالح زياد الغامدي) من خلال دراسات معمقة، ومن خلال بحثه (الغموض في الشعر العربي) الذي لما يزل مخطوطاً.

وفي حقل معرفي آخر يجب أن نشير إلى معالي الدكتور (عبد الوهاب أبو سليمان) من خلال كتابه (الفكر الأصولي)، على أن طائفة من المفكرين والنقاد يستبطنون الهم المصطلحي، ولكنهم يفيضون بشيء من هذا الهَمّ في ثنايا تناولاتهم ذات المساس بالنظرية المصطلحية.

ذلك على المستوى المحلي، أما على المستوى العربي، فإن بين يدي عدد من العلماء والأدباء والمفكرين، لعل من أهمهم: (أحمد مطلوب) و(عبد الواحد لؤلؤة) و(محمد مفتاح) و(الشاهد البوشيخي) و(حسين نصار) و(محمد رشاد الحمزاوي) و(توفيق الزيدي) و(عبد المنعم الحفني) و(عزت محمد جاد) و(محمد عناني) و(سعيد علوش)، (نبيل راغب) الذي يلتقي مع (البازعي والرويلي) إلى حد الخلطة في كتابه (موسوعة النظريات الأدبية)، ومئات آخرون، وهذه الكوكبة من العلماء يتنازع جهودها وضع المعاجم أو دراسة إشكاليات المصطلح فـ(توفيق الزيدي) درس (جدلية المصطلح والنظرية النقدية)

و(رياض قاسم) و(حسين نصار) و(أحمد الشرقاوي إقبال) و(وجدي غالي) درسوا ما سلف من معاجم وأبرزوا خصائصها ومناهجها، وحصروها وأشاروا إلى مفاتيحها، ولم تقتصر الدراسات على معاجم المصطلحات، بل امتدت إلى المعاجم اللغوية.

ولأنني من أهل (الجائزة) وخاصتها أعرف عنها ما لا يعرفه الأكثرون، فإن من حقها وحق المتنفذين فيها أن نشهد بما علمنا، وليس ما نقوله من باب المدح ولا التزكية، ولكننا نحسبها كما نرى، ولا نزكي على الله أحداً، الجائزة على جانب من الموضوعية والنزاهة والحرص على الحيادية، وتكافؤ الفرص بين كل الكفاءات البشرية، وأسلوب أدائها أبعد ما يكون عن الميل والهوى، وبواباتها التي تمر بها أعمال المرشحين في غاية الدقة والموضوعية، فما من مرشح إلا هو مأخوذ بما يكفل له حقه.

والهم الذي يشغل المشاهد الثقافية تلافي الخلاف المردي، واهتمام الجائزة بقضايا المصطلح نزوع خير صوب التوفيق بين وجهات النظر، وأحسب أن حسم مشكلة المصطلح مؤذن بتصفية العديد من المشاكل العالقة بمجمل القضايا الفكرية والأدبية، وإذا كانت (الترجمة) بيت الإشكاليات، فإن (المصطلح) أكثر إشكالية في ظل الظروف القائمة.

وكل شيءٍ عنده بمقدار.. !(١)

(ما دام الموت جزءاً من الحياة فإنه لا يمكننا وقْفَه)
هكذا قال (جون واين).

ومع أنه يقين فإنه يزعجنا وقوعه ويخيفنا ترقبه وفي الأثر: (عِشْ ما شئت فأنت ميت)، خواطر تجتاح الإنسان كلما فقد عزيزاً أو كبيراً.

ولحظات الفراق تنهمر فيها الدموع والكلمات، تفجع على عزيز وتأبين لكبير، وحاجة المفارق في الدعاء، فما من مفارق إلا هو أحوج ما يكون إلى الصدقة الجارية أو الدعاء الصادق أو العلم الذي ينتفع الناس به.

ورحيل الأمير عبد المجيد بن عبد العزيز بعثت في النفس أشياء كثيرة، وأعادت إلى الذاكرة أشياء كثيرة.

كان -رحمه الله- دمث الأخلاق، رقيق الحواشي، بشوشاً يتجه إليك بكليته، ويستمع إليك، وكأنه أحْوج ما يكون إلى ما تقول لقيته أكثر من مرة، ولم أسعد بجلسات طويلة، ولكنني اكتشفت فيه حب الخير، والتعاطف مع جليسه، وإحياء المجالس بالكلام الجميل.

ولقد كان محظوظاً حين كان كذي النورين، فإمارته لطيبة الطيبة ومكة المكرمة من الهبات الإلهية، وكيف لا يكون مغبوطاً وهو يدخل في سجل الخالدين بوصفه أميراً لمدينتين إحداهما تحتضن الجسد الطاهر والأخرى تسع البيت العتيق، وكيف لا يكون سعيداً وهو الذي أسهم في تطهير بيت الله للطائفين والعاكفين والركع السجود، وكيف لا يكون متميزاً وهو الذي شهد التوسعات والخدمات التي وفرت الراحة والاطمئنان لضيوف الرحمن.

أحسب أنه رَحَلَ بِجَسِدهْ وظل شامخاً بذكره الحسن.

وكأني بالشاعر عناه بقوله:

علـــو فـــي الحيـــاة وفـــي الممـــات
لحـــقٌ أنـــت إحـــدى المعجـــزات

رحم الله عبد المجيد فلقد كان إنساناً متألقاً، وإذا كان الموت يفتح باب الحياة الحقيقية فإنه - كما يقول (كلارك) يغلق باب الحسد، وإذا كان الإنسان يولد عارياً: حساً ومعنى، فإنه يموت وقد اكتسى بما نسجت يداه، ورجل مثل عبد المجيد أحسبه قد نسج أبهى الحلل ولا أزكيه على الله.

لقد فقدته البلاد في أوج كهولته وذروة عطائه ومن ثم كان الألم والحزن أمضُّ، ومع كل ملابسات الحدث لا نقول إلا ما يرضي ربنا ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ﴾.

لقد أجهش شهود الله بذكر محاسنه، ويكفي أن يشهد له إمام وخطيب المسجد الحرام، ورئيس محاكم تبوك، بما هو أهله من العطف والإحسان والسعي في حاجات الناس والتقرب إليهم وأن يستقبل جثمانه إخوانه وأشقاؤه يتقدمهم خادم الحرمين الشريفين وسمو ولي عهده الأمين.

ومما يُهوِّن المصاب أن كل نفس ذائقة الموت، وأن الأجل إذا جاء لا يستأخر ساعة ولا يستقدم، وكيف يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها، وموت الصالح راحة لنفسه لأنه قدم ببطاقة تزن الدنيا ومن عليها.

---

(١) تاريخ المقال: ٨/ ٥/ ٢٠٠٧

وإذا المنيـــــــة انشـــــــبت أظفار هـــــــا

الفيــــــت كــــــل تميمــــــة لا تنفـــــع

فلو كان بمقدور أحد أن يدرأ الموت عن نفسه أو عمن يحب لكان من الخالدين، ﴿أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾.

ومـــن فيهـــا جميعـــاً ســـوف يفنـــى

ويبقـــى وجـــه ربـــك ذو الجـــلال

أحر التعازي وأصدق المواساة لإخوانه وأشقائه وولده الوحيد فيصل الذي أرجو أن يكون كألف ولد يحفظ ذكره ويصل ما انقطع من فعله ولله ما أخذ وله ما أبقى وكل شيء عنده بمقدار.

وما الموت إلا سارق دَقَّ شَخْصُه .. !(١)

قبل شهر هاتفني صحفي متسرع وقال باللهجة المصرية:
البقية في حياتك توفي عبد الله الفيصل.

وتمتمت بما يحضرني من الدعاء والاسترجاع والحوقلة، لأن عبد الله الفيصل من أولئك النفر الذين تربطهم بنا أرحام الأدب ولأنه لما يزل متموضعاً نمر به في محاضراتنا ودراساتنا فقد هرعت إلى زاوية مكتبتي الخاصة بأدب الجزيرة وتاريخها لأعد دراسة تليق بمثله، وما أن شرعت حتى هاتفني مرة ثانية يأسف على تسرعه، فالأمير لا يزال بخير ولكنه دخل المستشفى، فأطبقت الكتب ورفعت الصحف، وبالأمس أعلن الديوان الملكي نبأ الوفاة، فلم أكن ساعتها على حال تمكنني من العودة إلى ما جمعت من عشرات الكتب التي تتحدث عن شاعرية الفقيد، ولم أشأ إرجاء الحديث حتى يتوفر الجهد والوقت الكافيين لتقديم مثله إلى من لا يعرفون إلا القليل عنه.

وإذا كان (فرانكلين) يقول: (لا شيء مؤكد سوى الموت) فإن الذكر الحكيم سبق إلى تأكيد ذلك المفهوم: ﴿وَاعبد رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ واليقين هو الموت والموت بطل يسعى بلا رِجْلٍ ويصول بلا كف، كما يقول (المتنبي) والفقيد رحمه الله من أوائل الكفاءات الوطنية الذين وجد فيهم الملك المؤسس القدرة على صناعة هذا الكيان، وإذا كان المؤرخون يعنيهم هذا الإسهام المبكر في بناء الدولة فإن الذي يعنينا نحن الأدباء والنقاد باعه الطويل قولاً وعملاً في مشاهد الأدب.

ولأن هموم الشباب قد شغلته منذ نعومة أظفاره فقد حمل همهم وسعى بحاجاتهم المتعددة ولقي في سبيل ذلك العنت ومن ثم سمي ب(أمير الشباب) وظل ينبض قلبه بحيوية الشباب حتى أقعده المرض وهدته الشيخوخة.

لم أسعد بلقائه ولا بالحديث معه ولكنني علمت من أمره ما لم يعرفه خلطاؤه، وكانت البداية حين قمت بتحضير شهادة (الماجستير) (اتجاهات الشعر المعاصر في نجد).

ولقد جعلته.. زعيم (الرومانسية) وهو حكم لم يسلم له الأستاذ الدكتور (حسن فرهود) لا لأنه لا يستحق هذه الزعامة، ولكنه بسبب الشواهد التي لم أوفق في اختيارها، ومن ثم ذهب المناقش إلى أن مختاراتي له خذلتني، مؤكداً أن الشاعر (حمد الحجي) بسبب التوفيق في الاختيار أفضل منه، ولما أن وضع يدي على سوء الاختيار نبهني إلى عيون شعر الفيصل التي تؤهله لزعامة هذا الاتجاه.

هذه الملاحظة المحرجة في لحظة تقويم العمل الأكاديمي حفزتني على مواصلة البحث عما يجعل الفيصل زعيماً ل(الرومانسية) بدون منازع.

والفيصل - رحمه الله - لما يزل حاضر المشهد الأدبي والأكاديمي، فهو شاعر له نكهته ورؤيته والذين شدتهم قصائده الغزلية أنستهم أنه شاعر وطني وسياسي وأن له من الأعمال الشعرية ما يجعله شاعر الوطن وشاعر الشباب الذين يحملون هم العروبة والوطن، وهو فوق ذلك ينطوي على حس إسلامي تبدو ومضاته لمن قعر الرؤية وتقصى الأعمال.

لقد سعدت بتقديم ورقة عن شاعريته يوم أن كرمته (مؤسسة سعاد الصباح) وطبع البحث ضمن ملف المناسبة ولما أزل أمني النفس بالعودة الجادة إليه فحقه علينا أن نقدمه كما هو وستكون لي عودة مطوَّلة للحديث عن آثاره الأدبية. والأمل معقود على وريث مجده الأدبي الأمير خالد الفيصل لقيادة فريق العمل، نسأل الله له الرحمة والمغفرة

---

(١) تاريخ المقال: ١٠/ ٥/ ٢٠٠٧

ولأبنائه وإخوانه وأحفاده ومحبيه الصبر والسلوان، والعزاء موصول إلى المشهد الأدبي، والموت نقاد.. وكما يقول (آرابيل): (كل الأمور تتجه إلى نهايتها).

وعلينا ألا ننسى في غمرة الحياة أننا ولدنا لكي نموت، وأنه لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.

خطاب الوسطية وتضارب المفاهيم .. ! (١) [(١)]

من المآخذ على الراهن الفكري العربي خاصة والإسلامي عامة جنوحه إلى خطاب الوسطية، بوصفه العَصا السِّحرية في مواجهة الغلو والتطرف والإرهاب، وهو جنوح ينقصه التقصي للمفاهيم، والتصور السليم للمقتضيات، وتحرير المصطلحات، وأخذها بحقها. ولهذا فإن كل متحدث بالأصالة عن النفس أو بالإنابة عن الطائفة يدعي أنه ابن بجدة الوسطية ومتمثلها على وجهها السليم.

يقول ذلك الغلاة الموغلون في الدين بدون رفق، والواقعون في نواقض الإيمان الجاهلون بالمعلوم من الدين بالضرورة، فكل أولئك يرون أنفسهم أمة وسطاً، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويقيمون شعائر الدين كما أمر الله، ويجاهدون في الله حق جهاده، ولهذا أصبحت الوسطية ك(ليلى العامرية):

وكل يدعي وصلاً بليلى
وليلى لا تقر لهم بذاكا

وما كنا مفترين ولا مبالغين حين نقطع بأن ذلك الخطاب المهيمن يزداد انبهاماً مع ضجة الأدعياء ودعوى المزايدين، ولا أحسب المتفاوتين في المفاهيم يجهلون المقاصد السنية والضوابط المحكمة للمفهوم السليم، وما أضر بالأمة إلا التعصب واتباع الهوى والدخول على القضايا بمقولات مسبقة الصنع أو الإصاخة لمنطق القوة دون تحرف ذكي يحفظ ماء الوجه، ولأن الأمة المستضعفة تعيش وسط فوضى غير خلاقة فإنه ليس من مصلحتها أن تذعن للدعوى ونقيضها من فئات متناحرة باللسان والسنان، وفي زمن أصبح فيه إزهاق الأرواح وإجهاض النصوص كألعاب التسلية يمارسها من لا دراية ولا رواية عنده.

والممارسون للإجهاض والإزهاق يعدون أنفسهم من المجاهدين الأبرار والمجتهدين الأخيار، وإذا قيل لهم تعالوا نستكمل عدة الجهاد ومادة الدعوة من كتاب وحكمة، ونحتمي بعقول تفقه الأحكام وأعين تميز الأشياء وأفكار تطرد الشك باليقين استنفروا وفروا.

والوسطية المتداولة على كل لسان والمدَّعاة من كل فئة غائبة بين الإفراط والتفريط، وتحققها ليس وقفاً على التوسط بين طرفي نقيض، بحيث لا يكون الوسطي إلا حيث يتوسط الفعل بين الإفراط والتفريط، وإن كان ذلك بعض محققاتها إلا أنه البعض المفضول، والشدة والوسطية مقتضيات إسلامية يحدد مشروعيتها أهل الذكر، ولكيلا يضطرب القول حول المقتضيات والمفاهيم فإن علينا الانطلاق من المعنى اللغوي للجذر الثلاثي (و س ط) وهو معنى يقترب شيئاً قليلاً من المعنى الاصطلاحي إذ يشمل التوسط الحِسِّي ولكنه لا ينقطع له.

ومتى اقترب المعنى الوضعي من المعنى الاصطلاحي أصبح من الممكن التحرير والتأصيل، إذ بدونهما لا يلتقي الفرقاء وخير من حرر الدلالة الوضعية (أبو الحسن أحمد بن فارس ت ٣٩٥) في كتابه (معجم مقاييس اللغة) حيث قال: (الواو والسين والطاء بناء صحيح يدل على: العدل والنصف وأعدل الشيء أوسطه ووسطه) وكون الوسطية وسطاً بين طرفين تعد إحدى الدلالات، والمتحدثون عنها يرون أن التوسط يعني كل الدلالات، وهذا مكمن الاختلاف غير المنضبط.

---

(١) تاريخ المقال: ٢٢/ ٥/ ٢٠٠٧

وليست الإشكالية في هذا التصور الناقص، وإنما هي في البحث عن تَشَيُّئ يرضي من يرى أنها التخلي المطلق عن محققات الاستجابة لداعي الله، والغرب المتغطرس لا ترضيه الوسطية المشروعة وإنما يريد تمييع الإسلام، وإذا رفضنا الغلو في الحكم على المخالف وفي الموقف من السلطة وفي العبادات والتشديد على النفس وتحريم الطيبات، فإننا في الوقت نفسه نرفض التساهل في الأحكام والتهاون في الدين والمداهنة واختيان النفس، وكم هو الفرق بين الأخذ باليسر والتمتع بسماحة الإسلام وتمييع الدين وإسقاط الأحكام.

الوسطية المشروعة لا يمكن تحققها بدون الفهم الدقيق لمحققات الشرع، ثم إن للوسطية إشكاليات أخرى ترتبط بالمتعلقات الدلالية كالاستعمال اللغوي والمفهوم المصطلحي الشرعي، وقليل من المتعاطين لهذه المفردة من يفرقون بين الاستعماليين، فالاستعمال اللغوي استعمال وضعي، أما الاستعمال الشرعي فاستعمال مصطلحي، ومع أننا نضع كل القيم للعلاقة بين الاستعماليين إلا أن هناك فوارق جوهرية لا بد من استصحابها، فآية(وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا)على سبيل المثال - استعملت فيها الوسطية استعمالاً شرعياً ومن ثم فإنها لا تعني بالضرورة التوسط بين طرفين، وإنما تعني (العدل) أو (الخيار) وإن ذهب بعض المفسرين إلى القول بالتوسط بين طرفين، حتى لقد ألمح البعض إلى تشديد اليهود وتهاون النصارى. وإذ ضيق البعض في الدلالة فقد أعطاها آخرون كل الدلالات المحتملة، وذلك ما ذهب إليه (سيد قطب) في (الظلال) على أن جذر (و س ط) في القرآن الكريم لا يكاد يخرج عن مفهوم التوسط والوسطية. فالصلاة الوسطى لكونها وسطاً بين أربع صلوات، وإن ذهب بعض المفسرين إلى أن المقصود بها (الفُضْلَى) وليس التوسط العددي أو الزمني. وكذلك في قوله: (مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ) و(أوسطهم) فقد ذهب البعض إلى أنهما يعنيان (الأعدل)، وهناك من ذهب إلى أوسط القدر أو أوسط الجنس، وقيل الأقصد، أما الأوسط بين الإخوة فهو (الأعدل) في قوله وعقله وفضله، وهذه المراوحة بين الدلالات تفتح باب الاختلاف على مصراعيه، وتستدعي مزيداً من الاجتهادات والترجيحات، على أن الوسطية في الاستعمال الشرعي لا تكاد تنفك عن الاستعمال اللغوي، وإن احتملت دلالات هي من مقتنيات المصطلحات ك (الزكاة) و(الصلاة) و(الصيام) وسائر الأركان والفروض والواجبات والمحرمات، وخلاصة الاستعمال الشرعي أن الوسطية تعني (الخيرية) وقد لا تتحقق الخيرية إلا إذا كانت بين طرفين يمثلان الإفراط والتفريط وافتتان الأمة في الحدِّ والمقتضى، وليس في المفهوم الدلالي.

والغريب أن بعض الدارسين ينفي أن تكون (البينية) الحسية مقصوداً شرعياً، وهذا المصير من ردود الأفعال التي تنسي المهتاج الوسطية في الموقف والحكم، وهذا النفي وهْمٌ يرده النص القرآني والتواضع المعرفي، فقوله تعالى: ﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾، ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾، ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾، ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ وابتغاء السبيل بين النهيين يعني التوسط المساحي أو العددي أو النوعي.

كل ذلك يدل على الوسطية البينية، وهذه الآيات مع وضوح البينية فيها إلا أنها لا تقصر الوسطية على مقتضياتها، إذ لكل كلمة سياقها الذي يمنحها دلالة مغايرة ولا ينفي الدلالات الأخرى، وتعدد الدلالات أصبح مناط المستجيبين للتخلي عن مشروعية الوسطية بمفهومها السليم، فالمتحفظون والمندفعون سواء، متى لم يلتمسوا المقتضى الشرعي.

والحديث عن الوسطية يستدعي مترادفات كثيرة كالتسامح والتيسير، والعفو، وسائر الميسرات التي قد لا يحسن البعض استغلالها، وللعلماء في ذلك أقوال مستفيضة لا يكاد يحصرها المتابع.

ومع أن الأمة الإسلامية مرت بطوائف موغلة في الغلو والتطرف ومع أن الرسول ﷺ أخبر عن تلك الطوائف الغالية فإن العلماء الأوائل لم يؤلفوا عن الوسطية، وما خصها بالتأليف إلا المتأخرون استجابة لردود الأفعال، وكل عمل تجره الانفعالات والعواطف يكون أهله في أمر مريج.

ولأن الوسطية مناط كل المفكرين والباحثين بعد تفشي الإرهاب والتطرف وتحميل الإسلام كل الجرائر فقد أوسعوها بحثاً ودراسة، ومن أوفى ما قرأت في هذا المجال:

-الوسطية في القرآن الكريم للصلابي.
-الوسطية في الإسلام للفرفور.
-وسطية الإسلام وأمته في ضوء الفقه الحضاري للأمبري.
-الوسطية في ضوء القرآن للعمر.
-الوسطية في الإسلام للزيد.

ومثل هذه الدراسات المنهجية الموضوعية لا تكون دعوية وإنما هي محاولة لتحرير المفاهيم والمقتضيات والمصطلحات، على أن هناك دراسات ومحاضرات لا تخرج عن هذا الإطار.

والمرحلة المعاشة لم تكن بدعاً بين الأزمنة والأمكنة والطوائف، فالمتابع للحركات والطوائف يقف على فرق أغرقت في الغلو، والراصد للحضارة الإسلامية من خلال الملل والنحل يروعه ما عليه تلك الطوائف من إفراط في المعتقدات والتأويلات ومواجهة المخالف، وفي ظل هذا الصخب والغضب لم يكن مشروع الوسطية هو الحل المناسب لفك الاشتباك. وما كان أمام الخطابات إلا المواجهة والإجهاض، ولهذا لم تكن الوسطية مصيراً لأي طائفة في فترة التشكل الحضاري الإسلامي، وما اتخذت مناطاً للحديث إلا بعد أن صدق المرجفون أن الإرهاب مقطعه من الإسلام.

خطاب الوسطية وتضارب المفاهيم .. ! [1]

ولمّا كان مراد النفوس من الوسطية ذا منطلقات متعدِّدة بتعدُّد المريدين أصبحت مضطربة المفاهيم، إذْ لم يكن مبعثُ الاضطراب عجزاً في الأداء اللغوي ومن المستحيل الالتقاء لأنّ ذلك يتطلّب تنازلات قد تمس ثوابت الإنسان، ولأنّ العَصْر يَفيضُ بالشك والارتياب والتوتُّر، فإنّ المساس بقناعات الإنسان يُحال إلى الغزو والتآمر، ومع وجود ذلك كلِّه إلاّ أنَّه لا يجوز التعرُّف على الأشياء من خلال عقدة الغزو والتآمر، وإذْ لا نرى مواقف التشنُّج وردود الأفعال ورفض الآخر فإنّنا في الوقت نفسه لا نقبل الوعي المنقوص أو المفقود، فالعصر حافل بكلِّ الخطابات محتملٌ لكلِّ التصوُّرات، فهو كما السياسة (فن الممكن)، ولهذا فإنّ الوسطية لم تكن قضية فاعلة إلاذ في ظل صراع الحضارات بعد التفكير في طرح مفهوم (النظام العالمي الجديد) و(الجات) و(العولمة) وتفلت الألسنة الحداد بما تخفي الصدور عند (صموئيل هنتنغتون) حول صدام الحضارات وعند (فرانسيس موكوياما) حول نهاية التاريخ، ولقد اشتدت وطأة الحديث عن (الوسطية) بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر والإجماع العالمي الغربي على أنّ الإسلام ب(أصوليته) مصدر العنف، والمتعقِّب للحقب الإسلامية يرى أنّ الصراع فيها داخل منظومة حضاريّة واحدة، ومصطلح (الأصولية) الذي تقبّلناه من الغرب بقبول حسن لم يكن بمفهومه الغربي من المصطلحات الإسلامية فالفكر الأصولي في الإسلام مسمَّى يطلق على علماء الأصول، وهو ما يعنيه الدكتور أبو سليمان في كتابه (الفكر الأصولي) وما يقترب منه أو ينْطلق منه (عبد المجيد الصغير) في كتابه (الفكر الأصولي وإشكالية السلطة العلمية في الإسلام) ولا يطلق على طائفة تتمسّك بأصول التشريع المتمثلة بالكتاب والسنّة، وجعل الأصولية المسيحية بإزاء السلفية كذب وافتراء. والكتَّاب العرب التقطوا المصطلح، ولم يتأمّلوا في منطلقاته وموارده وتلك خليقة الفكر التبعي، وليس ببعيد أن يكون تلقِّي (الوسطية) على هذه الشاكلة، فمراد الفكر الاستشراقي غيره في اللسان العربي ومصطلح (الوسطية) المهيمن على المشاهد أخذ بالمفهوم اللغوي القائم على المناصفة، ولم يستوعب المقاصد الشرعية، ولهذا أصبح مظنة اختلاف وتباين، ودلالته المصطلحية السليمة لا تتحقق في ظل مناشدة الآخر التخلِّي عن الثوابت التي لا يتحقق الإسلام بدونها .. فالوسطية المحكومة بالمقاصد الشرعية (قول أو فعل أو ترك يطمئن إليه القلب السليم وتقبله الفطرة النقية ويعصمه العقل والنص من الجنوح إلى طرفي الإفراط أو التفريط أو التخلِّي عن الدليل البرهاني).

ولن تتحقق الوسطية الشرعية إلاّ بتفادي الزيادة أو النقص أو الانحراف، وتفادي ذلك لا يكون إلاّ بالمطابقة، وتحقق المطابقة فيما عليه أمر الله ورسوله، وما سوى ذلك فهو رد على صاحبه، والمعضلة أنّ خطاب الوسطية تشكل في ظل الانهزام النفسي والاستجابة الطوعية لخطاب الآخر، ومعالجة أي مصطلح في ظل التلبُّس بهيمنة الآخر يأتي البيوت من غير أبوابها ويحرف الكلم من بعد مواضعه.

ولأنّ (الوسطية) مطلب المعاصرة في ظل فشو الغلو والتطرُّف والتنطُّع والعنف المتبادل بين كلِّ الفرقاء، فإنّ التداول والتلقِّي لا يكونان على عواهنهما، ولا بد - والحالة تلك - من قواعد وضوابط واستجابة واعية للنص القطعي والعقل العملي والاجتهاد المشروع، وفي ذلك كبحٌ لجماح المتحللين الذين يتصوّرون الدِّين شهوات وأهواء وما دروا أنّه قيد وَحَدٌّ، والجنَّة محفوفة بالمكاره، إذْ ليس في الدِّين حرية اختيار أو ترك وليس

---

(١) تاريخ المقال: ٢٩/ ٥/ ٢٠٠٧

للشهوات والأهواء مكان، فالدِّين في النهاية تلقٍّ وامتثال، وعلى الذين يتداولون المصطلحات الطارف منها والتليد أن يعرفوا حدود ما أنزل الله، وعند الاختلاف يجب الرد إلى الله ورسوله وسؤال أهل الذكر إذْ دواء العي السؤال، وليس من شك أنّ تحقق الوسطية يكون بنبذ الغلو والتطرُّف والتنطُّع والتعصُّب المذهبي، وفي المقابل لا بدّ من تفادي التحلُّل وتمييع الأحكام، فالغلو الموغل كالتساهل المفرّط.

ولأنّ مقاصد الوسطية جمع كلمة المسلمين والتقاؤهم على القواسم المشتركة، فإنّ التعصُّب المذهبي وإقامة الكيانات السياسية على مبدأ الطائفية من معوقات التداعي إلى كلمة سواء، ولقد مرّت الأُمّة الإسلامية بمثل هذه التجارب السياسية وقامت دول على مبدأ طائفي، وكانت النتائج سيئة، فالإسلام القائم على الكتاب وصحيح السنّة الخالص من تأويل الضالين وتحريف المبطلين هو سبيل النجاة والمنقذ للبشرية، وتحقق الوسطية المعتبرة لا يتم بتتبُّع الرخص والتماس المخارج من مكاره الإسلام، وإنّما هي في تلمُّس فقه الأحكام والواقع والتمكين والأولويات والحضارة والنفس، وإذا كانت الوسطية منشودة في الأقوال والأفعال فإنّها كذلك منشودة في الاختلاف، وما دمنا نؤمن بالاختلاف ونؤمن بحق الاجتهاد ونؤمن بأنّ النص حمال أوجه، فإنّ علينا أن نتفسّح في المجالس وأن نوفر للمخالف الأجواء الملائمة للأخذ والعطاء، فالمناهج السليمة والآليات الدقيقة والقواعد والأصول والنظريات المعرفية والحوار الحضاري، كلّ أولئك لن يؤدي إلاّ إلى الوفاق أو التعاذر والتعايش والتصالح، وواجبنا أن نجنح إلى الحوار بضوابطه ما أمكن ذلك، والحوار الحضاري لا يتحقق إلاّ بعدم مصادرة حق المخالف وعدم تجهيله أو تخوينه إن علينا أن نتصوّر المخالف ومجال الخلاف قبل أن نحكم له أو عليه، والأصوليون يقولون: (الحكم على الشيء فرعٌ من تصوُّره).

ولهذا لا بدّ من فهم حيثيات الطرف الآخر ومعرفة معوله وفهم نظرية المعرفة عنده ثم إبداء الرأي في موقفه وطرح وجهة النظر بكل ما يتطلّبه أدب الحوار والمناظرة، وفي النهاية نقول: كلٌّ يعمل على شاكلته، والتماس الوسطية ليست قصراً على الممارسة وإنّما هي في التصوُّر والاعتقاد، فالسلف الصالح وسط في اعتقاد الأسماء والصفاة بين المعطلة والمشبهة ووسط في أفعال العباد بين الجبرية والقدرية ووسط في الحكم على العاصي بين الخوارج والمرجئة والمعتزلة ووسط في الموقف من الصحابة بين الخوارج والشيعة والمعتزلة ووسط في التوازن بين العقل والنص، فلا يعطلون العقل أمام النص كما يفعل الظاهريون ولا يعطلون النص أمام العقل كما يفعل المعتزلة وهم وسط بين التأويل والتفويض إذْ يأخذون بقسط من التأويل بحيث لا يخالفون المقتضي ويأخذون بقسط من التفويض بحيث لا يعطلون النصوص، والتوسط في كل شيء مَقْصدٌ إسلامي، والتكاليف لا تقوم على المشقة وإنّما تقوم على التيسير والتسهيل، فعندما نزلت: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ﴾ شقّ ذلك على الصحابة فأنزل الله: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ وفي الممارسات العملية تجلّت مقاصد الإسلام في التأليف والتيسير: **«أفتّانٌ أنت يا معاذ» «إنّ منكم منفرين» «سدِّدوا وقاربوا» «عليكم من العمل ما تطيقون»**.

ولما لم تكن الوسطية تعني التخلِّي عن الأوامر والنواهي فإنّها قول وعمل منضبط بشروطه ومحقّقاته، وكل من تصوّر أنّ الوسطية تعني التخلِّي عن المحققات الشرعية فإنّه جاهل بحقائق الإسلام أو مداهن يعطي الدنية في الدين.

ومحققات الوسطية تتمثل في (الاستقامة) إذْ هي ضد الطغيان والطغيان مجاوزة الحد في كل شيء، وفي الحديث (قل آمنت بالله ثم استقم) وقد عَنْون (مسلم) في صحيحه لهذا الحديث بقوله: (بابُ جامعِ أوصافِ الإسلام) وضابطها: الإخلاص والاعتصام والاقتصاد، ومتى تحققت الوسطية على مراد الله تحقق للأُمّة الخير والعدل واليسر ورفع الحرج والحكمة والاستقامة والمساواة والحرية.

ومهما اضطربت المفاهيم حول هذا المصطلح فإنّ الإسلام سباق إلى ضبط مفرداته، ولا يمكن أن تكون فيه ثغرات لنفاذ المغرضين، فمتى خرجت الوسطية عن جوهر الإسلام، فإنّ الأخذ بها مردود على صاحبه، وإذا عارضت الوسطية ما علم من الدين بالضرورة فهي عبث وافتراء، وإذا ترتّب على الوسطية مخالفة صريحة لنص قطعيّ الدلالة والثبوت فهي انحراف، وإذا أدّت الوسطية إلى مفسدة مخلّة بالأخلاق فهي سقوط.

وخلاصة ما ذهب إليه د. محمد عمارة في كتابه (معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام) أنّها العدل والتوازن وليست الانحياز ولا المغامرة وأنّها الحق بين باطلين، والاعتدال بين غُلوَّين، إنّها ليست نقطة رياضية ثابتة تتوسط قطبي الظاهرة، إنّها موقف العدل والحق، وخلاصة ما توصل إليه د. محمد الفرفور في كتابه (الوسطية في الإسلام) ثلاث ركائز:

-المنهج الخاضع لمبادئه السبعة.

-والأسس بمفرداتها العشر.

-والضوابط الكلية.

ولن يستقيم أمر الأُمّة حتى تبتدر القضايا ولا ترقب إثارتها من الغير، وحتى لا تضع في اعتبارها اتباع ملَّة الغير.

لئن لم ينته البراقشيون والصامتون تكن فتنة وفساد كبير .. ! (١) [(١)]

في كلِّ مكان يقوم عمل إرهابي عنيف.

ومن كلِّ جنس ونحلة يكون تطرُّف أعنف.

وما من أحد من هؤلاء وأولئك رضي أن يتحمَّل تعليمه أو علماؤه بعض ما يحدث، فضلاً عن أن يُسَلِّم بأنّه وحده الذي يتولّى كبر ما يحدث، وتَعويل الإرهابيين ومَنْ وراءهم من المنتفعين على الدِّين الإسلامي، والقول بأنّه مصدر العنف والصدام وحاضن الإرهاب، محاولة مخادعة لشرعنة الفعل المشين واستدرارٌ لعواطف الرأي العام وتبريرٌ للتآمر على الإسلام، وما مِنْ رجل رشيد يرضى بأن تكون طائفته أو جنسه أو سائر محقّقات وجوده مصدر هذا الإفساد في الأرض، وإنْ كمن في الخفاء في كلِّ زمان ومكان متشدِّدون ينفثون سمومهم ويدَّعون أنَّهم علماء الأُمّة وأهل الذكر فيها.

وما من أحد قلّل من قيمة المجتمع المدني في عهد رسول الله ﷺ لمجرّد أنّ فيه طائفتين من اليهود والمنافقين وهما أخبث ما أوعتهم البشرية.

وكلُّ دول العالم في القديم والحديث ينشأ ناشئ الشر فيها وتظهر الأحزاب الشريرة والتنظيمات الغاضبة والطوائف المتعصِّبة، وما قيل لا من الداخل ولا من الخارج: إنّ هذه الدولة تُصدِّر الإرهاب إلى العالم، وها هو العالم اليوم يبرئ ساحة (الصهيونية) من وصمة الإرهاب، وهي أم الإرهاب وأبوه.

وما يتعرّض له العالم اليوم من عنف فوضوي أو منظم دُوَليّ أو حزبي، لا يمكن أن ينفرد فيه متديّن أو معلِّم أو عالم، ولا يمكن أن تحاك خيوطه في مسجد أو حلقة قرآن، إنّ الأمر أكبر من هذا وذاك، ومن الغباء أن نصدق المفتريات، أو أن نتحمَّل المساس بأمننا والاتِّهام لمؤسساتِنَا دون تحرف لدفع الاتهام الجائِر، ولو قبل أحدٌ منَّا تلك الاتهامات واستساغ الاعتراف الطوعي بها ونهض لترويج مثل ذلك، لكان من واجب العالم الأخذ على يد كافة المسؤولين الذين رضوا بأن يكونوا مثابة للإرهاب وأمناً، وقبلوا أن تكون مؤسساتهم الرسمية وعلماؤهم الربانيُّون مصدر إفساد في الأرض، وليس من العدل والإحسان وتحرِّي الحق والصدق، أن يقال بأنّ منشأ الإرهاب تعليم نظامي معلن، أو دين ظاهر، أو جنس بخصوصه أو زمان أو مكان محدّدان.

و (براقش) التي نضرب بها المثل امرأة أو كلبة حسب الروايات المتعدِّدة في كتب الأمثال، قد فعلت أو عوت فترتّب على فعلها أو عوائها ضرر فادح لحق بقومها أو بأصحابها وأصبح الجيل بعد الجيل يَرْويها،

حتى لقد اتخذها الشعراء مضرب السوء:

بل جناها أخ عليَّ كريمٌ

وعلى أهلها براقش تجني

وما أكثر الإخوة الكرماء الذين يجرّون على أهلهم سبة الدهر بما يفْتَرونَه عليهم من الكذب، أو بما يقبلونه عليهم من الاتهامات، وتلك خليقة من يصدق الإطلاقات المغرضة، ويَنْذُر نفسه لترويجها دون إدراك منه لما يترتب عليها من مسؤوليات لا قِبَل لقومه باحتمالها.

---

(١) تاريخ المقال: ٥/ ٦/ ٢٠٠٧

والدول المستكبرة تتربّص بالمستضعفين الدوائر، وتود لو أنّ السذّج من أبنائها أمدّوها بشواهد الإثبات لكي تشرعن لنفسها حق التدخُّل السافر في السيادة الوطنية، وتشغل قادتها عما خلقوا له.

والحق أنّ الإرهاب مخاض تصرفات متعدّدة وتدبير دول ماكرة وأي مكان في الدنى توفّرت فيه الأجواء والحواضن القابلة للتفريخ فإنّه يكون مضغةً لِتناسل الإرهاب، وإذا اندس في المؤسسات المدنية من يفسد فيها فإنّ ذلك داء عارض واختراق غير مشروع والتقاطه منها لا يحمِّل المؤسسة مسؤولية التشكيل للإرهاب، بل ولا يَبْعث على الشك والارتياب، وكم من بيوتات كريمة برئت من أبنائها، وما زادت إلاّ رفعة ومكانة.

إنّ المجتمع المدني في عهد الرسول وسع اليهود والمنافقين وحيكت فيه المؤامرات ونقضت فيه العهود والمواثيق ودبر فيه اغتيال الرسول، واتهمت فيه أحب نسائه إليه، وما أحد حمَّل هذا المجتمع مسؤولية ما حدث، بل أطبق المؤرِّخون على أنّه خير القرون، فالإرهاب ظاهرة عالمية وأسلوب حربي جديد، فالعالم بتوفره على قوة الردع والدمار الشامل لا يملك القدرة على خوض المعارك العسكرية، ولأنّ هناك ثارات وحسابات لا يمكن الإغماض فيها فإنّ تجنيد المرتزقة سبيل من سبل المواجهة المقنعة، والأغبياء من يتصوّرون أنّ التربية والتعليم والأديان تتعمّد صنع الإرهاب، وتَقَبُّل الدول الكبرى لهذه المفتريات ليس غباءً فيها ولا جهلاً بمجريات الأمور، ولكنه محاولة ذكية لشرعنة التدخُّل في خصوصيات الدول، وتعد على سيادتها الوطنية ولقد نَدَّ عن جادة الصواب من تأوّل فأضلّه التأويل فكان أن أضل من لا يعقل ولا يفكر، وهذا الشذوذ الذي يعزز القاعدة عند الأصوليين اتخذه السذّج ليكون معول هدم للقاعدة، فالمنافقون في المدينة والأعراب الذين مردوا على النفاق من حولها لم يؤثروا على المهاجرين والأنصار وإنّما أثروا على السماعين لهم.

وداء (البراقشيين) أنّ باعهم قصير بحيث لا يمتد لأكثر من لغط الصحافة وطفح القنوات، وما تراهم يقولون إلاّ معاراً أو معاداً، ولو أنّ أعْيُنَهم عَدَتْ إلى ما أفْرِجَ عنه من الوثائق السياسية وما كتبه وزراء الخارجية في مذكّراتهم بَعْدَ خروجهم من الحكومات، وما كتبه الرؤساء عما اتخذوه من قرارات، وما نَدِموا عليه من تصرُّفات، وما حاكوه من مؤامرات، وما واجهوه من إخفاقات، وما كتبه المحللون والرّاصدون تعليقاً أو تحليلاً أو استشرافاً للمستقبل، ولو أنّهم عرفوا اللعب الكونية وقوانينها والمصطلحات السياسية ومقتضياتها، ولو أنّهم فرّقوا بين (الاستراتيجيات) و (التكتيكات) وتعارض المصالح وتوافقها وتصفية الحسابات واستباق المغانم، وعرفوا العملاء والجواسيس والرحّالة والمستشرقين والطابور الخامس والحرب النفسية وحرب الشائعات، لكانت لهم مواقف أهْدَى وأجدى، ولما كان منهم أن يشقّوا عصى الطاعة، ولا أن يتعمّدوا نشر الغسيل.

إنّ الاهتياج الأعزل وتقحم المشاهد السياسية دون خلفية معرفية استيعابية تتسع للفكر السياسي الإسلامي والفلسفة السياسية المعاصرة وأصول العلاقات الدولية في الفقه السياسي الإسلامي الحديث ومجالات المنظمات السياسية وتاريخ الثورات العالمية والتجارب السياسية (المؤدلجة) والمعوْلمة والرأي العام وتوجُّهاته وأوضاع العالم المأزوم وأهم أحداثه والحركات الإسلامية المعاصرة ما سُيِّس منها وما (أدلج) و (الاستراتيجية) الدولية من حيث الحقائق والمفاهيم والنتائج، ولو أنّهم عرفوا حقيقة (الليبرالية) و (الديمقراطية) ومدى علاقتهما بالحضارة المادية المنتجة والحضارة الربانية المستضيفة ومطارحات (ميكافلي) والسياسات الذرائعية وحقوق التدخُّل وشرعنة الاستعمار ومفهوم الدولة المتذبذب بين (جاك رسو) و (جاك هايبز) و (حان لوك) و (عبد الله العروي) ومفهوم الحرية وسائر (الأيديولوجيات)، لو عرفوا بعض ما سبق، لكانوا أكثر اتزاناً

وتوازناً وأقدر على تهدئة النفوس المضطربة وتثبيت الأفكار القلقة، إنّ المجسات والمسابير تكشف عن ضحالة وتسطح وادعاء عريض.

وخطورة الإرهاب وتناميه وتفننه في التحايل على المكافحة واستغلال خلاياه للنّيل من البلاد والعباد والعمل على إشغال الدولة عن مهماتها الإسلامية والإنسانية وتأثيرها على الأحداث المصيرية، كل ذلك يتطلّب تضافر الجهود وتظاهر المؤسسات كافة لرسم خطة طويلة المدى لقطع دابره وقطع الألسنة التي تهرف بما لا تعرف وتؤلِّب الرأي العام العالمي على مؤسساتها وحركاتها وتوجُّهاتها. ولن تكون المواجهة الأمنية كافية في ظل عالمية الإرهاب وبراعة المخططين وسخاء المموّلين، وإعداد الخطة الفاعلة والمستمرة لا تتم بين عشية وضحاها، ولا يمكن أن تُعِدَّ لها جهةٌ واحدة، إنّ على كافة الأجهزة والمؤسسات الدينية والتعليمية والإعلامية التعاون والتشاور لوضع مشروع يتم عبر المسجد والبيت والمدرسة والمنتجعات والتجمعات والمراكز وسائر وسائل الإعلام، بحيث لا يكون أمرنا علينا غمة، وبحيث لا نسمع من يصيح بوجه أحد العلماء ويقول له: أنت الذي تصنع الإرهاب.

ولن يتحقق الوعي التام بأهمية الإقدام وضرورة الإحجام إلاّ إذا احتمل المتقصون لأْداءَ التنقيب في عوالم التنظيمات السرية وإلاّ إذا تلقّوا الإسلام كما جاء من عند الله طرياً لم تلوِ أعناق نصوصه الأهواء، وإلاّ إذا جوّد الدعاة طرائق الدعوة بالحسنى، وإلاّ إذا كفّ المرجفون عن إشاعة قالة السوء عن بلادهم.

إننا بحاجة ماسة إلى إيصال هذا الدِّين المنقذ من الضلال إلى آفاق المعمورة والتحذير من الغلوِ والتطرُّف والعنف وفهم الثوابت والمسلّمات، والعمل على إشاعة التسامح والتيسير والرفق واللين والتلطُّف مع المخالف، وتقصِّي ظاهرة التكفير وضوابطه، بحيث لا نقول لمن ألقى إلينا السلام لست مؤمناً، وبحيث لا نصدق نبأ الفاسق، ولا نقع في سوء الظن ولا نقفو ما ليس لنا به علم، وإذا كنا ننقم على (البراقشيين) الذين ما زالوا في صرَّة، فإنّنا ننقم على الصامتين عن الحق، وسواءٌ عندنا من نطق بالباطل ومن صمت عن الحق.

لئن لم ينته البراقشيون والصامتون تكن فتنة وفساد كبير .. ! (٢) [1]

والبراقشيون عن جهل بمجريات الأمور، أو عن قصد مشين يبيتون من القول ما لا يرضاه العارفون ببواطن السياسة وتقلُّباتها التي لا تحكمها أعراف ولا يسيِّرها منطق صوري أو استقرائي، ومنهم من يتصوّر أنّ قوله معروف يجود به في ساعة العسرة ليخرجهم من الظلمات إلى النور، وليس غريباً أن يرى البعض سوء عمله حسناً وكم: -

يقضى على المرء في أيام محنته
حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن

وما كان لمثل هؤلاء الذين يتصدّرون منابر الإعلام ويقولون في القضايا المصيرية أن يقطعوا أمراً دون أن يكونوا على علم بفقه النوازل، فمثل ما يتداولونه من قول يصبُّ في أوعية المتربِّصين بالأُمّة الدوائر، وأخذ الحذر من المندسين لا يكون باتهام العلماء البادين للعيان بخطابهم، ولا باتهام المؤسسات المدارة في وضح النهار، ومن يبحث عن طريدة يخفي صوته ووَقْعَ أقدامه، ومعالجة قضايانا شأن داخلي لا نشايع فيه الأعداء، والإرهاب الذي زلزل الأفئدة وغمر الأرجاء بالخوف والتدمير والإفساد والإزهاق، لا يتقن صنعه ولا يتحمّل وزره إلاّ التنظيمات التي مَرَدَتْها على الشر وبيَّتَت النوايا السيئة ولا يحيق المكر السيئ إلاّ بأهله.

وإذا كنا نتأذّى من قول الزور الذي يَدُعّنا في ضوائق الاتهام، فإنّنا أكثر تأذِّياً من الصامتين الذين لا ينكرون منكراً ولا يأتمرون بمعروف، وحسبهم من وطنهم شِبَعٌ وَرِيٌّ، والصامت المريب كالصَّائِح الكذوب، والصمت عن الحق كالنطق بالباطل، ومتى بان للمستبرئ لدينه وعرضه وجه الصواب ثم تكتّم عليه، فإنّه آثم قلبه، وكيف نرى أمْننا يتخطّف من بين أيدينا ونحن قادرون على التوعية والتحذير والموعظة الحسنة وتثبيت الأفئدة والأقدام ثم لا نبادر إلى ذلك، وظن أولئك الذي أرداهم أنّ تعويل الفئات الضالة على الدين والانطلاق منه مدعاة إلى التوقُّف، أو أنّ اختلاط لمقاومة المشروعة بالإرهاب المرفوض حال دون المواجهة الصريحة، وأين الصامتون ممن حذّر الرسول صلى الله عليه وسلَّم منهم وقال في حقِّهم: تحقرون صلاتكم عند صلاتهم وصيامكم عند صيامهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، والتصدِّي بالقول والفعل والمتابعة الواجب النهوض بها يجب ألاّ يتعدّى أمن وطننا واستقراره، ومن شاء أن يستدعي ظواهر الإرهاب في بقاع العالم فليأخذ حذره بحيث لا يخلط بين المقاومة والإرهاب.

وكلُّ من شهد رؤوس الفتنة تبدو من حوله وتسعى في أرض الطهر والقداسة بالفساد وقد قدر على مواجهتها بما يقدر عليه من قول أو فعل لقطع دابرها والتحذير منها، ومن شهد شباب الأُمّة وهم يتهافتون في اللهب كالفراش ومن عرف وسمع دعاة السوء على أبواب جهنم ثم لم يفعل المستطاع مبادرة منه، فعليه كفل من مقترفات كل هذه الأصناف.

والخطباء والكتّاب والوعّاظ الذين يحملون همَّ إخوانهم من حولهم يجب أن يعرفوا أنّ الأقربين أولى بالمعروف.

ومتى قبلنا بتسييس الخطابات و(أدلجتها) وخضنا فيها مع الخائضين، كان علينا وعي الذات بكلِّ ما هي عليه من ضعف وتفكُّك وتداع عليها كما القصعة وأيدي الأكلة ووعي الآخر بكلِّ ما هو عليه من قوّة وغطرسة وغزو وتآمر وحجب لما يقوى جانب الأُمّة من

---

(١) تاريخ المقال: ١٢/ ٦/ ٢٠٠٧

علم وصناعة وبذل سخي للعهر والكفر وسوء الأخلاق، وتطاول على الحق والسيادة، وتجنيد للمؤسسات العالمية للبحث عما يردي الأُمّة في الهلكة.

وكم من كاتب أو خطيب يتمعر وجهه وترتفع نبرته من أجل حدث سياسي وقع في أقصى الأرض، وهو لم يتصوّره ولم يعرف عنه إلاّ ما يدور عبر وسائل الإعلام الموجّهة، ثم لا يكترث من حدث رهيب وقريب منه لو أتيح له النفاد لكان هو من ضحاياه، إنّ ناشئة الأُمّة المتهافتين على بؤر التوتُّر قولاً أو فعلاً كقاصية الغنم وإنّ شرار الخلق ودعاة السوء من ضالين وسمّاعين للكذب يتخطّفونهم من كل جانب، وما لم ينبرِ العلماء والمعلمون والخطباء والدعاة والإعلاميون للتصدِّي والتحدِّي والصمود، فإنّ شباب الأُمة معرّضون للاحتواء والتحوُّل إلى مشروع فتنة عمياء، والنتيجة المرَّة أنّنا نفقدهم ونفقد أمننا واستقرارنا، ونعرض بلدنا لقالة السوء، والناشئة بما هم عليه من فطر سليمة واستعداد للصياغة وقابلية للاستجابة، كالأرض الموات يملكها من يسبق لإحيائها، واشتغال حَمَلَة الأقلام وأساطين الفكر بالثانويات والفرضيات ووقوعات أطراف المعمورة، تفويت للفرص النادرة وتمكين للمتآمرين والغزاة من شبابنا ومثمناتنا.

لقد تعرّضت البلاد لعمليات إرهابية، وتعرّض رجال الأمن لمواجهات مسلّحة، وتم اكتشاف خلايا كثيرة من خلال عمليات استباقية، وما كانت ردود الأفعال لدى المقتدرين في مستوى تلك الأحداث الرهيبة، الأمر الذي أثار أكثر من تساؤل، وما كنت متخذ التصدِّي الخاطئ ولا الصمت المدان ذريعة للاتهام الناجز ولا وسيلة للاستعداء الصريح، فلعلّ للبعض عذراً ونحن نلوم، غير أنّ من أخذه الشك من كل جانب ثم اكتفى بالتكتّم أضاع المصلحة وبراه الألم، واستمرأ الناس الاعتداء والتقصير.

والسؤال المشروع أين دور المواطن في مواجهة الإرهاب الذي أخذت خلاياه بالتساقط الواحدة تلو الأخرى على يد رجال الأمن، إنّ هذه الخلايا تعيش وسطنا فليست في السماء ولا هي في باطن الأرض، إنّهم أفراد منتشرون، فهل السلبية والاتكالية واللامبالاة أخفتهم عن أعين الناس، أم أنّنا نكل الأمر إلى غيرنا على شاكلة ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾، إنّ أمن الوطن واستقراره وسلامة الأنفس والأموال والثمرات مسؤولية كل من درج على أرض الوطن ونَعِم بأمنه وخيراته، ولقد أشار وزير الداخلية إلى تعادلية الأمن الفكري والأمن النفسي في حديثه لجريدة (الرياض) وتلك رسالة إلى الذين يملكون القدرة على القول وعلى الكتابة للعمل على وحدة الفكر أولاً وتنقيته ثانياً والتصدِّي للكلمة الخبيثة من جهة ثالثة، والصامتون الذين لا يقولون حتى يوعز إليهم وإذا قالوا لم يُوْفُوا الموضوعات حقها لا يمكن أن يتحقق الأمن الفكري على أيديهم ولا يمكن تخلية الإذكار من الشوائب والتصدِّي لقالة السوء، إن الواقع بحاجة إلى تخطيط سليم وجهد متواصل ومتابعة حصيفة لكل ما هو مدعاة للانحراف الفكري.

ولن نكون في مستوى مسؤولياتنا حتى نواجه أنفسنا بما فيها وبما هي عليه، وما لا شك فيه أنّ فينا من يتهم المؤسسات الدينية والتعليمية ويمعن في جلد الذات، وفينا الصامتون الذين لا يعنيهم ما تتعرّض له البلاد، وفينا من يحمل همَّ أُمّته وينافح عن وطنه ويتخول الموعظة، فالخطأ والتقصير ليسا عامين ولكننا في ظل الظروف المواتية والإمكانيات المتاحة نتطلّع إلى مزيد من القول السديد الذي يضع الأمور في نصابها ويحذر من مغبّة القول المتحامل والتخافت المتخاذل.

وهذه السلبيات لا يمكن أن تنسينا ما تنطوي عليه البلاد من كفاءات في مختلف القطاعات تذب عن المثمنات وأخرى تشيع الكلمة الطيبة، ولن تتحقق المواجهة المثمرة

حتى نمتلك الشجاعة ونبوح بما نعاني، فالذين يسرفون في الاتهام والذين يمعنون في الصمت يحومون حول الحمى، والوقت العصيب لا يحتمل افتراء الكذب ولا الصمت عن الحق، وليست الغاية أن نكف الغيبة عن أنفسنا بإسهامات ضئلة لا تسمن ولا تغني من جوع، ولا أن نعمل لمجرد تسجيل المواقف، إنّ الواقع المعاش يتطلّب التكتُّل والتكتُّم والتناصح وإصلاح ذات البين، والخلوص من أي حديث يوقظ الفتنة من مرقدها ونفي الشك عن مؤسساتنا وإنقاذ شبابنا من درك الفتنة، وتحذيرهم من قرناء السوء وممن حولهم من العملاء الذين مردوا على الفتن العمياء، ومشاطرة كافة الأجهزة المعنية بآمالها وآلامها.

فالوطن والمواطن وكافة المثمنات الحسية والمعنوية هدف الفئات الضالة: -

وما حَكَّ جلدك مثل ظفرك

فتولَّ أنت جميع أمرك

إنّ ما تعانيه أوطان المسلمين من غزو عسكري جائر ومن تآمر فكري سافر، وما هي عليه من ضعف وتفكُّك وافتقار إلى محقّقات الحضارة والمدنية، ومن تناحر عرقي وطائفي وقطري، يحتاج إلى تحرف سليم وتحيُّز حكيم يقضي على كل الأدواء ويربط الأُمّة بكتابها الكريم وسنّة نبيها المطهّرة بحيث تردم الهوّة وتجسر الفجوة وتنيم الفتنة، فهل يعي البراقشيون المعرِّضون سمعة بلادهم للإساءة والصامتون عن مواجهة الإرهاب، أنّ القول المدان والصمت المريب إسهام غير مباشر في استفحال الإرهاب وتعدِّي الأعداء على السيادة الوطنية؟.

إنّ بإمكان الفئتين أن تعيدا الحساب وأن تجهزا خطاباً متكافئاً مع خطورة المرحلة، وما ذلك على همّة الأبناء الناصحين بعزيز.

الهيئة بين التقويم والتقويض .. !(١)

لا أحد من بيننا فوق المساءلة والنّقد، وليس لأحد ادعاء العصمة أو توقُّعها، ولا خلاف بين ذوي البصائر حول مشروعية النّقد وتوقُّع الإيقاف للمساءلة، وكيف لا والذِّكرُ الحكيم يقول: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ فسؤال الدنيا لذوي السُّلطة وسؤال الآخرة لمالك يوم الدِّين، والمناصحة من الكافة (والدِّين النصيحة).

ومن وَلِيَ من أمر المسلين شيئاً فلْيُعِدَّ للسؤال جواباً وإنْ كان ثمة اختلافٌ فإنّما هو في التوقيت والتقدير والموضوعية والمصداقية والبرهنة والجدل بالتي هي أحسن.

ومن تصوَّر نفسه (بَدْرِيّاً) وترقّب أن يقال له: (اعْمل ما شئت فقد غفر الله لك) أو عدّ نَفْسه من رواة (البخاري) المتجاوزين للقنطرة، فقد أسْرف على نفسه وعلى الناس والله لا يحب المسْرفين.

وما من عاقل مجرِّب يتوقّع أنّه لا مُعقِب لقوله أو فعله، وما كان لأحد من أولي العزم أن ينطق عن الهوى، ولا أن يكون مَعْصُوماً إلاّ في مجال التبليغ عن الله؛ إذْ كل اجتهاد شخصي عُرضة للخطأ والصواب.

وكيف تتأتّى العصمة المطلقة والقرآن الكريم استدرك على الرسول ﷺ بعض اجتهاداته البشرية وعاتبه على بعضها، ولم يدَعْه يلحق بالرفيق الأعلى إلاّ بعد أن صحّح قوله وفعله وإقراره فيما لم يكن من عند الله، وهو قد نَبَّه أصحابه وأكَّد بشرّيته عند مَسْألة (التأبير) و(لحن الخصوم) وما يأتي من أمور الدنيا. والقرآن الكريم راجعه في (أسرى بدر) و(الصلاة على راس المنافقين) و(متخلفي تبوك) و(زواجه من زينب) و(تحريمه ما أحلّ الله له) وفي (ابن أم مكتوم)، وأشياء أخرى ما كان له أن يُخْفيها وقد تبلَّغها من ربه.

ويقيني أنّ العلماء والمجرّبين من رجال الحسبة يعرفون فوق ما نعرف، ولا يجدون في أنفسهم حرجاً مما يثار، ولكن الذين يجدون في أنفسهم على طائفة من المؤسسات المحققة لحضارة الانتماء ثم لا يوقّفون في قول ولا فعل يتصوّرون أنّ مبعث التصدِّي لهم مستمد من ادعاء الفوقية والعصمة، ومع احتمال كل شيء فإنّ الوقوف عند هذا التصوُّر لا يعصم من أمر الله، ولا نقول في ظل هذا الاضطراب في المواقف والتصوُّرات إلاّ ما قاله رسول الله ﷺ: «**اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنّك تَهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**» وما قولنا في حق الفرقاء إلاّ عن محبّة في الله وطمع في الاستقامة على المأمور، وتوقُّع الفوقية والعصمة، وتصوُّر ارتباط التصدِّي بهما عند من يحاول التقويم في نقده أو التقويض يستدعيان توهّم كل متوسم في نفسه كمال الإيمان والتقوى والاستقامة وتحقيق الخيرية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة أنّه لن يُفْتَنَ وأنّ الناس أجمعين سيأخذونه بالأحضان ويقيلون عثرته، ويسترون سوأته، ولا يفترون عليه الكذب، ولا يشيعون عنه قالة السوء.

وهل غاب عن هؤلاء أو غَيَّبَ الوهمُ عنهم قول الله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾.

والذين يتدبَّرون آيات الله وسننه في فتنة المؤمنين والفتنة على الإيمان وأثر الفتنة على المؤمنين، يهون عليهم ما يتعرّضون له من غمز ولمز وإزلاق.

---

(١) تاريخ المقال: ١٩/ ٦/ ٢٠٠٧

إنّ حسيس التذمُّر والاستغراب والتساؤل ينبئ عن توقُّعات خاطئة وتصوُّرات موهنة، وكيف تكف الألسنة والجوارح عن إيذاء ذوي الخير والشيطان يقعد لبني الإنسان كل مرصد ويجري من ابن آدم مجرى الدم، وأين نحن من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إنها صَفِيّة**» وما كف الله ألسنة الناس عن نفسه حتى لقد قال قائلهم: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾.

وقيل عن رسوله الكريم ما لا يخفى على المتابعين لسيرته العطرة، فكيف والحالة تلك يستغرب البعض أن يكون لهذا المرفق الهام أعداء يحبون أن يشيعوا عنه قالة السوء، وتقديري أنّ المستغرب غارق إلى الأذقان في طيبة المؤمن وغفلته، وإلاّ كيف يتصوّر أنّ أمور منشأة لا تتحقق خيرية الأمّة إلاّ بها ستكون مع كل الأطياف سمناً على عسل وأنّ كل شيء على ما يرام. وهل أحد سلم من الإيذاء بحيث يسلم زيدٌ من الناس.

ولولا ما تعانيه الهيئة من مجازفة في النّقد وتسرُّع في الشماتة لما اضطرت (أمارة الرياض) إلى إصدار بيانات توضيحية تناشد فيها التثبُّت والتبيُّن، وتصدِّي الإمارة لهذا الصنف من الكتبة والمخبرين يدلُّ على أنّ التصدِّي للهيئة من البعض ليس القصد منه ترشيد مسارها ولا تدارك أخطائها، إنّ المواجهة تنطوي على شبهات ما كان لها أن تكون في بلد يحمي حمى المقدسات وتهوي إليه أفئدة الناس، وهو مبعث النور ومثوى الجسد الطاهر، ودون ذلك فالدولة السعودية بأدوارها الثلاثة دولة الدعوة الإصلاحية إذ لم تقم إلاّ على الدِّين الخالص فلم تكن إقليمية ولا قبلية ولا طائفية، بل كانت سلفية مستنيرة متوازنة ترد إلى الله والرسول أو هكذا يجب أن تكون، وعزّها وتمكينها واستقرارها وثراؤها وسلامتها من أعاصير الفتن وضرباتها الاستباقية المسدّدة لكلِّ أفّاك أثيم إنْ هي إلاّ مقايضة من الأوفى الذي يعطي نقداً على النسيئة ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ومن أراد النصر بغير الإسلام خذله الله، لا نقول ذلك اتهاماً لأحد ولكنه تحذير لمن يحومون حول الحمى ويعرضون أنفسهم للغيبة بما يمارسونه من إيغال في النقد وتصديق للشائعات، وإشاعة ملحّة للأخطاء العارضة والمتوقّعة من مرفق يطارد المجاهرين بالمعاصي. وما نودّه من المتحسسين من عثرات تلك المؤسسة التي لا تتحقّق خيريّة الأمّة إلاّ بقيامها أن يموضعوا مواقفهم فالحالة الانفعالية تحول دول تحوُّل الإحساس من الاهتياج العاطفي إلى الموضوعية المتلبسة بالواقعية ومتى ظلّ المتعقب مرتهناً لأهوائه حبيساً لعواطفه فَقَدَ التناجي مشروعيته، وكل الذين يأتون المؤسسة من قواعدها آثمون ومعتدون، والمصابون بداء الإطلاقات والنفخ في الشائعات ليسوا سواء مع الذين يضعون أيديهم على مكامن الخطأ بحيث يبادرون إلى إيقاف امتداده، ثم البدء بتقصِّي أسبابه والتماس البدائل التي ترشد المسار وتقي العثار، والمستغرب أنّ الخطأ يكبر في أعين البعض حين يقع من طرف بعينه، فيما تصغر العظائم عند وقوعها من آخرين وهذا مكمن الشك والتساؤل، والواجب ألاَّ يضار آمرٌ ولا ناهٍ وإن وجبت المناصحة والمحاسبة.

وإذ نتفق على أنّ لكلِّ عامل قدراً من الخطأ يكون في ظل المقبول والمتوقّع وغير المثير، فإنّ على المتعقّبين الذين ينقمون على المنشأة لأيِّ دافع أن يركزوا طاقاتهم العقلية لإبراز ما هو في نظرهم من الأخطاء المتجاوزة للحد المقبول، وإذا كانت ممارسات المنشأة مجال النقد تشكِّل مثيراً يستتبع ردّ الفعل، فإنّ من الإنصاف ألاّ ندع لعواطف الكره أن تطغى ولا للمنَبّهات الحسية أو المعنوية سبيلاً إلى افتراء الكذب والنفخ في الشائعات،

والقارئ الواعي يفرّق بين استباق الخيرات وداء الإسقاط، فالبعض من الكتبة يعانون مما في دواخلهم من ارتياب بحيث يستنزفون إمكانياتهم وطاقاتهم في تحميل الطرف الآخر جرائر ما يرتكبون، وهذه النوعية تميل بطريقة لا شعورية إلى نفي مقترفاتها المتوقّع كشفها، أو هي تُبيّتُ ما لا يرضي الله من القول أو الفعل ومن ثم تعرف سلفاً موقف هذه المنشأة، وهذه الهروبية تحت أي إحساس تتضاعف حتى تكون عقدة نفسية تصرف الكاتب.

وإذ نتفق على أنّ الإنسان مشروع خطأ، فإنّ الخطأ من حيث هو لا يبعث على الاستغراب، ولكن الدوافع والآثار والظروف والملابسات والحجم والتكرار والإصرار والتَّنَصُّل هي التي تحدد الموقف وأسلوب المواجهة، ومدار الأعمال على النوايا، ولسنا بقادرين على تحصيل ما في الصدور، ولكننا نقوّمُ الأعمال من خلال ظواهرها، وقد نقع في الخطأ والرسول ﷺ حذّر من ذلك في القضاء وشبّه ما يقتطعه الألْحَنُ بقطعة من نار فليأخذ أو ليدع، وما ندعو إليه من تحفُّظ وتحرٍّ وإقلال في اللوم لا يمنع من اقتفاء الأعمال والعاملين ومواجهة المخطئ بخطئه، ومن وَلِيَ أمراً من أمور المسلمين فعليه أن يتوقّع التقويم، ولا خير في أُمّة لا تواجه المسؤول بما هو عليه، وإن كان ثمة إشكالية فإنّها في أسلوب الأداء، فكم هو الفرق بين النصيحة والفضيحة، فالبعض منا لا يأتي البيوت من أبوابها وإنّما يتسلّق المحراب وينادي من وراء الحجرات، وما ضرّ لو تلطّف الناقد وأخذ جانب اللّين وتلك رحمة الله ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ﴾، وكم من معاند أخذتْه العزّة بالإثم، ولعلّنا نذكر (جبلة بن الأيهم) وتنصُّره بعد إسلامه وندمه على فعلته: (تنصرت الأشراف من عار لطمة).

إنّ من مخايل النُّبل أن نمتلك الثقة ونتقبّل النقد، ومن المصداقية والنزاهة ألاّ نشهد إلاّ بما علمنا، وأن يكون نقدنا بمقدار وبوثوقية.

وإذا كان المخطئ مجتهداً مستكملاً لآلية الاجتهاد وشروطه ثم لم يوفق، فإنّ تطهير النفس بتقبُّل المساءلة والجزاء أفضل من حمله إلى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم، والنّافر من النقد الموضوعي والمفتري المحب لقالة السوء لن يتوفرا على القلب السليم، وعتبنا على الطرفين بمقدار، ودعوتنا للتوازن من المؤاخذ والثقة من المنقود، ومن حسنت نواياه وسلمت مقاصده من كلِّ الأطراف تستوي عنده كلمات الشكر وألفاظ العتاب، فهو لا ينتظر من عمله جزاءً ولا شكوراً، وله بصَفْوة الصَّفوة أسوة حسنة: - ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾. وما يُقدِّمُه المحتسب من قول أو فعل لا يدفعه إلى ذلك إلاّ حب الخير، وإذا حُرِم التوفيق فلا أمل من أن لا يحرم الصبر والمصابرة والاحتساب.

لقد كثر الحديث عن الهيئة وارتاب الطيّبون من هذا اللّغط ومن حقهم الارتياب وعرض ما يقال على كتاب الله وسنّة نبيّه ﷺ فما كان منه حقاً وجب الإذعان له وما كان منه سوى ذلك وجب أن يُلف كما يلف الثوب الخلق ويرمى به وجه صاحبه ولا كرامة، فثوابت الأُمّة ومحقّقات إيمانها ما هي إلاّ كحدقات العيون، ومع ذلك لا بدّ من التحرِّي وعدم اتهام أي ناقد فأخذ المقيم بالظاعن من عمل الظلمة.

والله المسؤول أن يعلي كلمته وأن يجعلنا خير أُمّة أُخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ونقيم شعائر الدِّين.

تفكيك خطاب الأمير نايف بن عبد العزيز .. ؟ (١) [(١)]

ما كنت لدى الجمع النّخبوي المبارك وهم يتداولون الرأي حول المشهد الديني والأمني، وإنْ كنت حفياً به مُعِيناً له في الرخاء والشدّة، وأي حراك بهذا الوزن يأتيك بأخباره من لم تزود.

لقد كان الإعلاميون حاضري القوم وهم يتناجون بما يحيي البلاد والعباد، فالأمير ومَنْ حوله من صفوة العلماء والدُّعاة والخطباء يحملون همّ الأمنين: الفكري والنفسي، ويحاولون من خلال المواجهة والمكاشفة تحقيق نقلة نوعية تنهي الصمت المريب والتناجي الآثم، وتدفع بكل الإمكانيات لمواجهة الوضع الخطير وإنقاذ البلاد من خوارج العصر ومكر الأعداء، ودعاة السوء وتناحر الأطياف.

والدولة المسلمة تَحْمل مسؤولية الضرورات الخمس، وتنيطها بوزارات ومؤسَّسات وهيئات تأتي في ذروتها: -

-وزارة الداخلية.

-ووزارة الشؤون الإسلامية.

وقدر الوزارتين الحميد أنّ الذي يتسنّم وزارة الداخلية نجل المؤسِّس والذي يحمل عبء الشؤون الإسلامية حفيد المصلح، وكأنّ الله لحكمة بالغة لا يعلمها إلاّ هو أراد أن يظل رداء البلاد مَحْمولاً من أطرافه بأيدي السياسة والدِّين، وتلك مِنّة يمنّ الله بها على من يشاء من عباده ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾.

لقد سمعت باللقاء وكنت أود لو كنت معهم لأبوح بما يعتمل في نفسي، وإن كنت حديث عهد بلقاء مماثل مع سمو الأمير تصيّدت شوارده في مقالين سابقين (تداعيات اللقاء مع الأمير نايف بن عبد العزيز)، ولما جاء بالأخبار من لم أزود متقصياً خطاب الأمير المرتجل قرأته على مهل فصرت كشاهد عاش كلّ الأحداث ووجدت أنّ من المصلحة العامة أن نعيد قراءته، وأن نتعمّد تفكيكه، لاستيعاب ما تحت السطور، فالأمير الذي جمع المسؤوليات من أطرافها ومرّت به الأحداث كما لو كانت أمام ناظريه (بانوراما) عرف دخائلها واكتشف أسبابها ومحرضاتها، وتعرّف على الأصابع الخفيّة التي تغزل خيوطها، وقَدِر على نقضها من بعد قوة أنكاثاً، سيكون حديثه بهذه الإمكانيات حديث خبير لا يكذب أهله، وهذا اللقاء لم يكن احتفالياً ولا شكلياً ترصده (الكمرة) ويرقمه القلم لمجرّد الإحاطة والتسلية وإزجاء الوقت..

إنّه لقاء له ما بعده، فهو رسالة من رجل بوزن (نايف بن عبد العزيز) لرجال بوزن مهماتهم، إنّه من وريث السياسة إلى ورثة الأنبياء وإذ يقول التافهون: - (لا سياسة في الدين ولا دين في السياسة) فإنّ هذا الخطاب يقول: - (لا سياسة بدون الدين ولا دين بدون السياسة) ويحرص الحرص كله على أن يكون الدين والسياسة وجوداً بماهِيَّةٍ واحدة لا بماهيَّاتٍ متعدّدة، وتداخل المهمّات بين السياسي والديني يجعلهما كالحلقة المفرغة، وفي الأثر الحكيم: - (إنّ الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن)، ومن أراد أن يفصل بينهما أماتهما معاً، فوجود كل واحد منهما مستمد من وجود الآخر، ولأهمية ذلك ركّز القرآن الكريم على الحاكمية، ووصف الحاكمين بغير ما أنزل الله بالظلم والفسق والكفر، وتلك كانت منطلقات الخطاب، وبوادره أنّه لم يكن لاحتواء رجل الشريعة ولكنه للتأكيد على أنّ السياسة تعي مهمّتها الدينية، ولقد قالها من قبل الأمير (سلمان بن عبد العزيز) لأولئك الذين يتصوّرن أنّهم يعلِّموننا أمر ديننا ونحن أهله وخاصته، وخطاب الأمير مواجهة

---

(١) تاريخ المقال: ٢٦/ ٦/ ٢٠٠٧

صريحة لا تورية فيها ولا كناية فالأُمّة مستهدفة، وحماية الثغور ليست بأهم من حماية الأدمغة وتنقية الأفكار ومقارعة الحجّة. وليس من المعقول ان يُتَخَّطف الشبابُ من بين أيدينا، ويجنّدوا لتفجير أنفسهم بمَن حولهم من الأبرياء تحت غطاء الفداء والمقاومة المشروعة والجهاد الإسلامي.

وتلك المفردات لا تدعو إليها منظمات السوء، وإنّما هي من خصوصيات وليّ الأمر الذي يراعي مصالح المسلمين، ويفي بالعهود والمواثيق ويجنح للسلام، ويدفع بالتي هي أحسن، ويُقَدِّر ويُوَقِّت، ويستشير ويستخير، ويختار أيسر الأمور ولا يعرض الأُمّة للفشل وذهاب الريح، وما عهدنا الأحكام السلطانية ومهمات الولاية الكبرى دُوْلَةً بين الأغيلمة السفهاء يسومون فيها الناس سوء العذاب.

لقد جاء الخطاب أشواطاً دلالية كل شوط يستقل بدلالته وأهدافه ويبلِّغ رسالة ذات مساس بالأمن ووحدة الفكر ومهمّة رجل الأمن ورجل الدين وإنْ كانا يمثلان مهمة واحدة ويسعيان لهدف واحد، غير أنّ كل واحد منهما يجهز للآخر ما لا غنى له عنه، ولهذا فهما خليّتان في جسم واحد وأي خلل يبدو من أحدهما ينعكس سلباً على الآخر، جاء الشوط الأول من الخطاب مدخلاً مهَّدَ فيه للحديث عن سائر الأوضاع الداخلية وتلبسها بالواقع العالمي.

ولأنّ البعض من الطيبين يتصوّر أنّ الأمور كلها على ما يرام، فقد أشار إلى ما تتوفّر عليه وزارة الداخلية من معلومات وحقائق لو عرفها الغافلون لما أغمض لهم جفن، ووعد أنّها ستكون يوماً ما بين يديْ ذوي الشأن لكونهم جزءاً من العملية الأمنية.

ولأنّ خيار الدولة الوحيد هو الإسلام شرعة ومنهاجاً كما نزل على رسوله صلى الله عليه وسلّم لا تبديل ولا تحريف، فقد أحال كشاهد إثبات إلى النظام الأساسي للحكم وإلى سائر الأنظمة المستبطنة للحس الإسلامي، وكأنّي به يقول للفئة الضالة لا مزايدة على الإسلام فنحن أهله وخاصته، ويقول للمتردّدين هلمُّوا إلينا ولا تزيدونا خبالاً. وانهضوا بمهمّتكم على وجهها.

ولأنّ الراهن محكوم بالحراك الطائفي، فقد كشف في أشواطه الدلالية على منهج الدولة السلفي بكل ما يمتلكه من وسطية وتسامح وتعايش وتعاذر، ونفى أن تكون (الوهابية) مذهباً مخالفاً لسلف الأمّة فـ(ابن عبد الوهاب) - رحمه الله - سلفي العقيدة ضبطي المذهب، يرد إلى الله والرسول، ويحرص على قمع البدعة، وحفظ جناب التوحيد، والتفلُّت الإعلامي زَبَدٌ يذهب جفاء، إذْ لا مكان لأيِّ خطاب يخالف الكتاب وصحيح السنّة، وفي الفكر السياسي الإسلامي ما يغنيك عن (زحل) على حد: - (في طلعة البدر ما يغنيك عن زحل) (ومن قصد البحر استقلَّ السواقيا)، فالإسلام دين الفطرة المستجيب لكلِّ متطلّبات الأُمّة المناسب لكلِّ العصور ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا﴾ وكل اللَّغط المثير للتساؤل إنْ هو إلاّ استجابة بلهاء للمرحلة الحرجة التي تمر بها الأُمّة، وهي استجابة غير واعية، ومن ثم فمن المصلحة أن نتربص بها الدوائر، فكم من فكر منحرف وملَّة ضالة أصبحت هشيماً تذروه الرياح ومزبلة التاريخ تفيض بالمفكرين الذين باعوا أنفسهم للشيطان.

وسمو الأمير وهو يلتقي بهذه الشريحة الأهم، أراد لهذا الخطاب أن يكون حدّاً فاصلاً بين حياتين، فقد أكد على أنّ خطابه خطاب دولة، وليس خطاب فرد، ومن ثم انطلق من ثنائية خادم الحرمين الشريفين: - (العقيدة) و(الوطن) ليجعل منهما منطلقاً لهذا الخطاب الفصل، فلا مكان للصامتين عن الحق ولا مجال للمنحرفين عن منهج السَّلف الصالح،

فالواقع المعاش لا يحتمل مزيداً من الفرقة ولا التخاذل، وتلك الأشواط الدلالية أسلمته إلى الواقع المحلي والعربي والإسلامي والعالمي بكل تداعياته وادعاءاته، ولكي يؤكد أنّ التاريخ يعيد نفسه وأنّ هلاك هذه الأمّة على يد أغيلمة من قريش، استرجع موقف الخليفة الراشد (علي بن أبي طالب) من الخوارج الذين أخبر الرسول ﷺ أنّهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ومضى يصف ما يماثلهم في راهننا العربي والإسلامي.

وكلمة التحدي التي أراد لها أن تكون مفصلية تساؤله الاستغرابي: فهؤلاء الشباب الذين غرّر بهم دعاة السوء وغسلوا أدمغتهم لماذا لم نكن الأقدر على احتوائهم والعودة بهم إلى جادّة الصواب وجماعة المسلمين لماذا غلبنا عليهم دعاة السوء؟

إنّها رسالة مفحمة تضع علماءنا ومفكرينا ومعلمينا وخطباءنا واعلامنا على المحك، فما مرد عجزنا عن الاستحواذ على أبنائنا الذين يتفلّتون من بين أيدينا ونحن لا نسهم في صناعتهم ولكننا نعجز عن الظفر بهم؟

أهو الضعف أم الغفلة أم انعدام الثقة أم القلة أم هي معاً؟ سيظل الجواب معلّقاً حتى نسترجع شبابنا.

إنّنا بمؤسساتنا الدينية نبث ستة وخمسين ألف خطبة في الشهر واجتماع الناس لسماعها عبادة، والكلام في أثنائها لغو، فأين أثر ذلك بإزاء هذا التهافت على بؤر الفتن، إنّ الأثر موجود والخيرية موجودة، والتساؤل من باب نقص القادرين على التمام.

واعتماد سموه على هذا الفيض من الأداء المؤسّساتي ولغة الأرقام التي عوّل عليها تقطع قول كل خطيب، فكم من جمعة في العام وكم من جامع في البلاد؟ إنّ هذا الكم الهائل لم يكن تأثيره بمستوى تأثير الخطاب الخفي المطارد. فما السر؟

ذلك هو المنعطف الخطير، وذلك هو حجر الزاوية في الخطاب، إنّ الإخلاص موجود والإحساس بالواقع موجود ولكن دون المستوى المؤمل، ومن ثم لا بدّ من التحرُّف والتحيُّز لإنقاذ الأُمّة، والأقربون أولى بخطبائهم ووعّاظهم ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ والخطاب بوصفه رسالة ناجزة ذات أهداف سامية، فقد اتخذ كل الاحتياطات للتداعيات والتحفُّظات ولاسيما أنّ المشهد بكلِّ أطيافه يتفلّت على الضوابط ويسهم في تأزيم المواقف من خلال الانفعال وردود الأفعال والقول في المسكوت عنه والمختلف فيه وما هو ثانوي لا يؤثِّر على مجريات الأحداث الراهنة. ومتى أصبح الحراك في المشهد الفكري يتفلّت على الضوابط ويتعمّد الإثارة، واجترار القضايا التي فرغ منها الناس منذ عقود، فإنّ مهمّات الخطاب الديني يتعدَّد بتعدُّد الكتبة الذين يودون أن يكونوا كقاصية الغنم.

تفكيك خطاب الأمير نايف بن عبد العزيز .. ! (٢) [(١)]

فاتني في الحلقة الأولى تحديدُ مفهوم (الخطاب) بوصفه مصطلحاً شاع بين مختلف الأوساط الحديثة، وإن كانت له جذور في الموروث العربي، وبخاصة عند الأصوليين كـ(الشاطبي) وغيره.

وهو لا يعني بالضرورة عند إطلاقه الخطبة المنبريَّة ولا الكلمة المرتجلة أو المقروءة، وإنّما يعني الرؤية والتصوُّر، وجماع ذلك المذهب أو المنهج، وله تعريفات تتعذّر الإحاطة بها في مقال كهذا. و(الأجِنْدَة) شعبة من الخطاب كما (الحياء شعبة من الإيمان) ويُمَثِّله في (الفكر السياسي) سياسة الدولة، وفي (الفكر الديني) الشِّرْعَةُ والمنهاج.

وكل متحدث له انتماؤه الذي ينشدُّ إليه بأمراس كِتَّان، وهذا ما عبَّر عنه القرآن الكريم بـ(لحن القول) ومثلما يستعين المستمع بلغة الجسد لاستكناه لغة اللسان يتوسّل الراصد باللحن إلى المقاصد، وقد تكون العينان أفصح في لغة الهوى و(الخطاب) يُلْتَمسُ من التداعيات، وخطاب الأمير بهذا المفهوم الذي نريد لا يقف عند تحديد مفاهيم الإرهاب والغلو والسلفية واستنهاض همم القادرين على التمام، ولكنه يمتد إلى رسم سياسة إعلامية دينية فكرية تحقِّق وحدة الفكر والاستقامة من خلال كافة المؤسسات المتوسلة بالكلمة الطيبة والقول السديد، وهذه التطلُّعات لا يؤديها النص الحرفي، وإن كان لكلِّ نص بنيته اللغوية التي تَنْبَعِثُ منها الدلالات الوضعية بكلِّ احتمالاتها وتتهافت عليها المضمرات.

والقارئ من خلال المناهج والآليات المتعدِّدة يتجاوز البنية إلى السياق والنسق والظروف أو ما يُعرف بـ(التاريخانية) في أوسع مفاهيمها وتحوُّلاتها الدلالية ويستقبل كل التداعيات التي تستدرها مجمل الخلفيات المعرفية والتعاملية وسائر المعهودات الذهنيّة، ولن نقع في لحج نظريات التلقِّي والمعرفة والتأويل، فذلك له شأنه الخاص، وإن كان حاضراً هنا.

وكل متحدث أمكن له خطابه العريض وخطبته المقتَضبة، وهذه التوقُّعات لا تقف عند المجاز والتورية والكناية والاستعارة وسائر الوجوه البلاغية وإن كانت بعض ما نود التوسل به للوصول إلى بواطن الأمور، وهي بواطن تعنينا وتجمجم عمَّا في نفوسنا.

ولنا لكي نمس ظاهر الخطاب وباطنه أن نتساءل: لماذا اختار هذه المفردات وخص بها هذه الشريحة وحدد هذا الوقت واسترفد التاريخ القديم والحديث وضرب الأمثال وحدد الأهداف؟

إنّ عشرات المؤسسات ذات الشأن ومئات المفكرين والكتّاب الذين يملؤون الرحب بحاجة إلى تحرف وتحيز، فالمردود لم يكن متكافئاً مع ما تركه المخالف من آثار سيئة، والناشطون من الكتبة والدعاة إمّا مستفزون للرأي العام أو مختلفون فيما بينهم وهو اختلاف توهم أو تحيز، وليس اختلافاً اجتهادياً معتبراً يرد إلى المرجعية بطواعية لا يعقبها حرج ولا خِيَرَةٌ، وداؤه من قيامه على الإقصاء والتجهيل ومصادرة حق المخالف وركونه إلى الجهل والهوى والتبعية والتعصب والحدِّيَّة.

وإذا كان داء المفكرين اتباع سنن القبْليين واستقبال الآخر وتذوق الفم المريض والفهم السقيم، فإنّ المؤسسة الدينية تعيش حالة من التحدي، وخيارها القبول والاستعداد لتخطي العوائق والضوائق إذ لا مجال للاعتزال ولا للتردد ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ وأزمة المؤسسة الدينية تتمثّل بالانفجار المعرفي، وفي ثورة الاتصالات، وفي (أجِنْدةِ) الأقوياء الذين لا يرقبون في مؤمن إلاّ ولا ذِمة، ولن تكسب المؤسسة الدينية الرهان ما لم تُعِدِ

---

(١) تاريخ المقال: ٣/ ٧/ ٢٠٠٧

النظر في شبكة الاتصال ولغة التخاطب ومعقولية الخطاب، وما لم تتوفّر على فقه الواقع والأحكام والأولويات والتمكين، وهي من تحرفها على أي شكل ليست بحاجة لتغيير الثوابت ولا لتطويع المسلّمات ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلاَمُ﴾ ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ ومن ثم فلا مجال للمساومة على الثوابت والمسلّمات ومحققات حضارة الانتماء، والخطاب إذ لم يفصل القول فإنّ مراميه توحي بالثبات على المبادئ والتحرف للوسائل وطرائق الأداء التي تحقق المعاصرة ولا تلغي التاريخ، ومحققات الحضارة تعني الوجود أو العدم.

وإذ تكون هناك مساحات مشتركة بين مختلف الحضارات، وهناك توارثٌ واقتراض فإنّ إمكانيات التصالح والتعايش وتبادل الخبرات وإبرام العقود ممكنة، وعندها يكون الدفع بالتي هي أحسن والجُنوح إلى السلام، إنّ فحوى الخطاب تتشكّل من تلك الهواجس وإن لم تستدع التفصيل والتنصيص، وغياب هذه البدهيات يضاعف مسؤوليات رجل الأمن. ومجيء الخطاب على لسان من يضطلع بشطر الأمن، يستدعي تحديد دوره، ومدى أدائه على وجهه، وحاجته إلى مضطلعين بمهمات مكملة، ومن ثم أعلن بكل ثقة وفاء مؤسسته بشطرها، وبقي الشطر الثاني المتمثل بالأمن الفكري ووحدته ونقائه من الشوائب والمضلات.

فهل نهض الطرف الآخر بشطره على وجهه؟ إن سائر المؤسسات المتوسلة بالكلمة حين لا يكون لها من التأثير ما للمناوئ المتربص تكون مظنَّة التساؤل والبحث عن مكمن الخلل. وهذا التساؤل والبحث منطلق الخطاب ومورده، والإشكاليات في مدى إحساس المضطلعين بمهمة التوعية والتثقيف والحُسْبَة والموعظة بالوضع الاستثنائي للعالم كله وللمملكة على وجه الخصوص، وهو وضع يتطلّب في بعض مراحله إعلان حالة الطوارئ والاستعانة بالتكتُّل والتكتُّم وطي صفحات وفتح أخرى تؤدي إلى جمع الكلمة ووحدة الصف والهدف والجهد، والأوْلى بهذه المهمة من يضخون في كل عام ستمائة واثنين وسبعين ألف خطبة. وخطاب الأمير يحذِّر من الخلل الفكري والتناوش ودخن التفكُّك، ويحرض على الوحدة الفكرية، ولن يتحقق ذلك إلاّ في ظل التوعية والرّصد والمراقبة، ووضع خطوط حمراء يتحقق بها احترام العلماء وهيبة السلطات المشروعة، إذْ لا مجال للفوضى وإن قال المعذِّرون (إنها خلاَّقة) وما لا مراء فيه المِرَاءُ الظاهر على المنابر والقنوات وأنهر الصحف.

والمجتمع المدني لا يتحقّق إلاّ في ظل سلطات ثلاث: سياسية ودينية ومجتمعية، وتلك السلطات لها حقوقها وعليها واجباتها واختراق أي حمى مؤذن بخلل أمني وفكري، فهل عرف الأطراف ما لهم وما عليهم وفوق هذا فإنّه لا بد في ظل تداعي المؤسسات العالمية واستبدادها ورصدها للحراك الفكري والديني والسياسي من أن نجلي حدود ما تقتضيه حضارة الانتماء ومحققاتها فلا تكون ك(الأعراف).

إنّ حضارة الإسلام بهيمنتها وشموليتها لا بد أن تكون حاضرة بسلطاتها لا بطقوسها وشكلياتها، فالديني والسياسي والرأي العام يقتسمون السلطة، ولكيلا تضطرب المفاهيم وتتحوّل السلطة إلى تسلُّط واستبداد أو إلى ضعف وفراغ فإنّ على كل الأطياف أن تعرف حدود ما أنزل الله، وأن في المباح ما هو ممكن وما هو غير ممكن، وأن لكل طرف خطابه الاختياري أو الاضطراري (الاستراتيجي) أو (التكتيكي).

ومع تعدُّد السلطات صورياً فإنّ من أخطر التصوُّرات أن يشعر المرء بثنائية السياسة والدين، بحيث يفصل أحدهما عن الآخر، إنّ السياسة هي عين الدين، وما المؤسسة إلاّ تنفيذية، ولقد قالها الخطاب بكل وضوح: (كل من يقف على المنبر يمثل الدولة وعليه أن يتكلم بلسانها) وما لسان الدولة إلاّ الكتاب وصحيح السنّة، فإن كان ثمة رؤية خاصة فليحتفظ بها الواقف على المنبر لنَفْسه، هذه الكلمة الجامعة المانعة تحدد بكل وضوح منهج الخطاب، فالدولة مسلمة وواجب مؤسساتها أن تكرس رؤيتها، فالعالم والمفكر قد يختلفان مع الإجراءات لا مع الثوابت، وهذا اختلاف متوقع ومشروع وممكن، إذ هو اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، أو هو اختلاف في الاجتهاد لا اختلاف في المبادئ.

لقد اجتهد الرسول وصلى على رأس المنافقين، واختلف معه (عمر) وحاول ثنيه، ولكن حين عزم على الصلاة لم يفارقه، ونزل القرآن مؤيداً لرأي عمر، ومن الخطورة بمكان أن يكون هناك خطابان: خطاب دولة، وخطاب عالم أو مفكر، إذ متى أصبح المتلقِّي بانتظار خطابين داخل منظومة واحدة أصبح مشروع فتنة عمياء، وخطاب الدولة بوصفه مهيمناً لا بد أن ينبثق من شبكة من المؤسسات التي ترعاه وتشرف على تحوُّلاته واستجابته لمتطلّبات كل مرحلة وخروجه بالحسْم أو التغليب بحيث لا يكون أمام الرأي العام عدّة خيارات فضلاً عن عدّة خطابات وليس هناك ما يمنع من أن تكون الخيارات داخل دوائر النخبة.

وما دام الجميع يبحثون عن الحق فإنّه يهون عندهم الانتصار، والقرارات المصيرية لا يجوز تداولها ولا الإفتاء فيها على مستوى الأفراد حتى وإن كان الفرد عالماً أو مفكراً، إذْ لا بد من المؤسسات والاجتهاد الجماعي الذي يتوفّر على كل أنواع الفقه من أحكام وواقع وأولويات وتمكين وغيرها، ومتى أصبحت الكلمة واحدة وجب على كل خطيب أن يكرس سائر محققات الحضارة بحيث لا يرقب آمراً أو ناهياً.

إنّ خطاب سموه مبعثه التردد ونفاذ خطاب الآخر بكل توحشه ونكارته وكارثيته، وليس تأثيره رجماً بالغيب، إن هناك تطرفاً وغلواً وتسيباً تتجاوز في كل مكان ولبعض أبنائنا نصيب من ذلك.

وهذا التنامي لا يمكن أن ينبعث من نَفْسه إنّه وليد تنظيم وعمل في الخفاء ومن واجبنا أن تكون مواجهتنا محسوبة ومتكافئة وحاسمة، وما لم نتدارك الأمر فقدنا الأمنين: الفكري والنفسي.

إنّه خطاب جاء في الوقت المناسب وللفئة المناسبة. فهل يعي المعنيون ماذا يريد؟ أرجو ذلك.

ضَحُّوا فإنِّي مُضحٍّ بصدام حسين .. ؟[1]

التعجل بتصفية (صدام حسين) جسدياً فجر عيد الأضحى المبارك قوبل باستهجان واستنكار من دول عربية إسلامية وعالمية، وبخاصة أنه جاء مُسْتَعْجَلاً ومع إشراقة عيد الأضحى المبارك، والعالم الإسلامي مشدود إلى الشَّعائِر والمشاعِر.

هذا الحدث المثير ذكرني بمقولة (خالد بن عبد الله القَسْري) عامل (هشام بن عبد الملك) على (الكوفة): (أيها الناس ضَحُّوا تقبل الله ضحاياكم فإني مُضحٍ بالجَعْدِ بن دِرْهم) وتلك المفارقة أو تداعي الأضداد تشير إلى مواقف كان يجب أن تعود بذات الصلف والعناد.

لقد جعل (الليبراليون) و(الحداثويون) القتل على الرِّدَّةِ مجال إدانة للسلطة السياسية الحاكمة بما أنزل الله حتَّى سُمي قتل (الحلاج) ب (مأساة الحلاج) والشاعر الحداثوي الذي مات مخموراً أبدع مسرحية شعرية سماها (مأساة الحلاج) مسترفداً مسرحية غربية تحت اسم (جريمة قتل في كاتدرائية) على حد: (ما تُرانا نَقُول إلاَّ معاراً أو معاداً) حتى أصبحت تلك المسرحية الشعرية متكأ المتمردين على هيمنة القيم الإسلامية.

وأيَّاً ما كانت ملابسات القتل هنا أو هناك، فإننا نرقب من الممتعضين الإفصاح عن مواقفهم، فـ(صدام) قضى نحبه تحت غطاء أمريكي في المحاكمة المشبوهة والتنفيذ المتسرع وبتنفيذ من حكومة لا تحمي نفسها، حكومة تتنفس تحت الأجهزة وفي غرفة العناية المركزة.

ولما لم يكن (بوش) حاكماً إسلامياً ليخطب في الناس كما (القَسْري) فإنه قد اكتفى بمباركة الحدث بعد تنفيذه بدقائق وقبل أن يعلمه أهل الشأن، وخطوات التنفيذ مرَّتْ عبر فريق أمريكي رسم الخطة وراقب الوضع وحمى الساقة.

وعلى الذين يركنون إلى حضارة الغرب ويزكونها أن يعيدوا قراءة الوقوعات ليغضوا من أبصارهم خجلاً، ولا يرفعوا أصواتهم فوق صوت الحق.

لقد كان رهاني ألا يُعدم (صدام) لا لأنه لا يستحق القتل، ولكن لأن قَتَلَتَه أحق بالقتل منه، وحين شاءت الإرادة الأمريكية طيَّ ملفه بالقتل الناجز، كان توقعي ألاَّ يكون بهذه السرعة ولا بذلك التوقيت المؤذي لمشاعر الإنسانية عامة والمسلمين خاصة، أذكر جيداً كم كان حجم الأذيَّةِ يوم أن زار (أنور السادات) إسرائيل يوم الحج الأكبر، وها هو التاريخ يعيد نفسه حين يتلقى العالم الإسلامي الرسالة الثانية متأذياً بذات القدر متوجعاً من العيارات الثقيلة التي تُقاس بها جرعات إيذائه وإذلاله.

(صدام حسين) يستحق القتل، وذهابه لن يكون مأسوفاً عليه، ولكن المنفذ والتوقيت لا تشفع لهما مشروعية القتل ورهاني لم يكن اعتباطياً فـ(صدام) لم يكن يوماً من الأيام عدواً لأمريكا، وغلطته الكبرى أنه حاول التغريد خارج السرب. لقد كان غبياً يوم أن دخل اللعبة الكونية.

وكان الأغبى يوم أن حاول الخروج منها راضياً بعظم الرقبة. وغباؤه المعتق أنه دخل بالإنابة أشرس حرب حدودية وأكثرها مجانية وهمجية ودموية، حيث ابتلعت الجبهات ملايين القتلى والمعوقين من الجانبين الإسلاميين وكان حقه أن يقبض الثمن لا أن يُصفى جسدياً ويُصفى بلده تاريخاً وذاكرة، لقد خرج من تلك الحرب بخسارة فادحة ليعيد ترميم الوثيقة الحدودية التي وقَّعها مع (إيران) عام ١٩٧٥م بوساطة (جزائرية) بعد أن مزقها على مسمع ومرأى من شعبه وشعوب العالم ثم عاد ليوقع عليها من جديد، وكأن

---

(١) تاريخ المقال: ٢/ ١/ ٢٠٠٧

شيئاً لم يكن ولمَّا نظر في دفاتره القديمة لم يرَ إلا الإفلاس وخيبة الأمل فكان أن دخل المصيدة القاتلة بما بقي معه من جيشه المتهالك حساً ومعنى وخرج من المصيدة خائفاً يترقب محولاً بلده إلى أرض محروقة.

كانت الحرب الخليجية الأولى خاسرة مادياً، وكانت الثانية خاسرة ماديًا ومعنويًا، ولكي يواري سوءاته ضرب (الرياض) كما الجائع الذي يعض يد مطعمه وضرب (تل أبيب) لإنقاذ سمعته التي تجاوزت مرحلة الإنقاذ وكل من أراد أن يوقف تدهور سمعته واضمحلال إمكانياته وستر سوءاته لعن أمريكا وهدَّد إسرائيل، لقد كان من المتوقع بعد كل هذه النكسات أن يعي صدام ورفاقه الدرس قبل فوات الأوان وأن يحاول إعادة ترميم ما أفسده بطوعه واختياره، ولقد واتته فرص كثيرة ولكن استغلها في الإمعان في خلق عداوات جديدة، لقد عاش عزلة مستحكمة، كرهه قوم، وخانه آخرون، وغررت به طوائف منتفعة، وظل عنيداً كما لو كان سيد الموقف، وساعده على جهل نفسه ما هيئ له من فرص التواصل مع أصحاب الأقلام والحناجر وشراء ضمائرهم وترساناتهم البلاغية بخبز الجياع ونعال الحفاة وثياب المقرورين، حَكم شعبه بالحديد والنار والمخابرات ومارس أبشع التصفيات قتل شركاءه وأصهاره وأبناء عشيرته، وزرع الضغائن، وأحيا العرقيات والطائفيات، جامله قوم، واستدرجه آخرون، وتداخلت من خلاله اللعب التي أذهبت ريح العرب، أسقط شعار القومية الزائف يوم أن دخل الكويت، وشرعن للتدخل الأجنبي يوم أن رفض الخروج منه، لقد كان بحق أبشع حاكم عرفه العصر الحديث، وأقوى مغامر، ومن ثم أصبح اللاعب الأقوى والأخطر، والذين استيقظوا بعد أمة وتنفسوا من تحت الماء ينحون باللائمة على الأمة العربية على سكوتها أو على تواطئها وما دروا أنه مجنون مسلح وازدجر، فإما أن تشل حركته أو يُحتمى منه، وأمريكا التي هيأت له أجواء الحرب لم ترد بل لم ترضَ من أحد أن يفت في عضده، حتى لقد أخرجت بعض اللاجئين عندها من أبناء العراق الذين عارضوا الحرب مع إيران، وحاولوا ثني العراقيين عن خوضها.

لقد كان سقوط العراق في أوحال الفتن العمياء خسارة فادحة للأمة العربية، واختلال التركيبة السكانية في العراق تهديداً سافراً لدول المنطقة، لقد أسقطت أمريكا حكومة صدام القوية الظالمة، ولم تستطع أن تقيم دولة مسيطرة ظالمة أو عادلة سنِّيَّة أو شيعية كردية أو عربية دينية أو لا دينية وكان المؤمل أن تقوم في العراق بعد سقوط حكومته حكومة قوية عادلة مستوعبة لكل الطوائف والأعراق تعيد لأبناء ذلك البلد الممتحن من نصف قرن حريتهم وكرامتهم. هكذا كان الناس يتوقعون بعد مغامرة (بوش) ولكن الأمر جاء على عكس ما يتوقعون، لقد غاب (صدام) وصعد إلى الحلبة (بوش) ليكمل مسلسل القتل والتدمير، فأين الحرية والاستقرار والأمن والوئام وتلاحم طوائف الشعب المتعايشة في حكم صدام، لقد زرت العراق ست مرات لحضور (المرابد) فما أحسست بتكتل طائفي ولا باختلال أمن نعم هناك خوف وفقر وترقب ولكن من أراد الراحة والأمن وجدهما.

لقد جاء مع دخول أمريكا للعراق الإذلال والقتل والغدر والتصفيات العرقية والطائفية والحزبية وحمامات الدماء التي خاضها الجيش الأمريكي والشعب العراقي معاً أنسى الناس ويلات الحكم البائد، بل حملهم على تمني عودته على ما فيه، ولسان حالهم ومقالهم يردد: (الله يحلل صدام على بوش)، أمريكا لا تريد هذه الأوضاع، ولكن الفعل منتج طبعي لها.

إن قتل صدام في هذه الظروف العصيبة حلقة في سلسلة الأخطاء الفادحة، لقد أخطأ (بوش) الحساب وأخطأ التقدير والتدبير، دخل العراق فكان أكثر غباء من (صدام) يوم أن دخل الكويت، وقاصمة القوصم إقدام جيشه على حلِّ السلطات كافة والتركيز على

الوزارة الغنيمة (وزارة النفط) لقد أحدث بهذا التصرف فراغاً دستورياً ذاق (بوش) بسببه مرارات ليست بأقل من المرارات التي تجرعها (صدام) بعد سقوطه وبعد القبض عليه، والأخطاء الفادحة أفقدت (الجمهوريين) مقاعدهم في المؤسسات التشريعية لحساب (الديموقراطيين) ومجيء تقرير (بيكر هملتون) محبطاً ومخيفاً، ولما تزل النتائج وراء بعضها في تلاحق سريع.

إن قتل صدام بهذه السرعة وبذلك التوقيت السيئ ليس مرتبطاً بمقترفاته، فهو قد نفذ بإرادة سياسية وليس بإرادة قانونية و(حادثة الدجيل) التي أردته ليست الأخطر، ولكنها الحدث المحلي الذي لا يستدعي أطرافاً خارجيةً كما أنه الحدث (السني) (الشيعي) الذي يعمق الفرقة، وهو المطلب الرئيس في سياق تلاحق الأحداث، و(صدام) في هذه الحادثة مارس الدفاع عن النفس، وأمريكا ليست حفية بإحقاق الحق وإنصاف المظلوم من الظالم، بحيث تبادر إلى تصفيته جسدياً، إنها تعيش حالة من الارتباك والتخبط في تَصَيُّدِ الحلول والتماس المخارج من هذا المازق الذي أعاد لها مأزق (فيتنام)، وتقرير (بيكر وهاملتون) وضعها في طريق مسدود، وزاد من حدة التوتر والارتباك والبحث عن القشة المنقذة في أحلك الظروف، ومن ثم فلن تبالي بعقابيل تصرفاتها فهي الغريق الذي لا يخشى من البلل. والتقرير المربك يصف الأوضاع المأساوية ولا يرسم الحول، ويستدعي بؤر التوتر ولا يقتصر على الحالة العراقية وأمريكا وهي في سبيل البحث عن مهدئات للأوضاع المتفجرة أخذت بأطراف من توصياته.

وبخاصة ما يتعلق بالوضع الفلسطيني، إذ ركز التقرير على أن القضية الفلسطينية ضالعة في كل الأوضاع، وليس أدل على ذلك من التوبيخ غير المتوقع الذي تلقته إسرائيل عندما حاولت التوسع الاستيطاني، وليس ببعيد أن يكون من توصيات التقرير تحريك الأوضاع في العراق، وليكن من التحريك الإسراع في تنفيذ حكم الإعدام بصدام، فحين يستحر القتل والتفجير وتدلهم الأمور تبحث أمريكا عن أي حل يحلحل الموقف.

لقد زار العراق (وزير الدفاع) الأول والأخير، وزاره من قبلهما موفد الحزبين الرئيسين في أمريكا، وأتيحت لهم فرص الاستعانة بكل المكاتب والمؤسسات والخبراء والمستشارين وممارسة العمل الميداني وتقصي الحقائق للوقوف على الأوضاع ورسم الحلول لحفظ ماء الوجه وحقن الدماء ولكنهم جميعاً عادوا لا يلوون على شيء، وتصفية صدام بهذه السرعة وبهذا التوقيت محاولة يائسة بائسة، فهو من جهة محاولة لإحباط أنصاره وتيئيسهم فالمقاومة - وفق توقعات أمريكا - إنما هي من فلول حزب البعث، وهو من جهة أخرى تطبيب لخاطر (الشيعة) ومن ورائهم (إيران) فقد تحيدهم بهذه المبادرة إن لم تحتويهم، وهو من جهة ثالثة رفع لمعنوية المواطن الأمريكي المحبط من فشل الإدارة الأمريكية في العراق، وهو من جهة رابعة إمعان في إذلال العالم الإسلامي الذي يحاول الإعلام الغربي إلصاق تهمة الإرهاب به. إن قتله ورقة لتطلعات كثيرة ولكنها فيما أرى ورقة خاسرة، فالشعوب الإسلامية المعتدلة لا ترحب بمثل هذا التصرف الذي يأتي في أفضل الأيام وأقربها إلى حقن الدماء، إن محاكمة (صدام) وإعدامه إن لم تزد الاحتقان فإنها لن تخفف منه وأحسبها غلطة في سلسلة الإخفاقات التي منيت بها الإدارة الأمريكية، وصدام بوضعه المتردي وبوضع العراق المأساوي لا يمكن أن يكون لبقائه ولو إلى حين أي تأثير، وصدام الذي كرهه الناس جميعاً قد يعيد تلميع نَفْسِهِ بهذا القتل، وقد يتحرك الموالون له مستغلين هذه الورقة التي أنجزتها لهم أمريكا.

لقد انتهى صدام ولكن اللعبة لم تنتهِ و(الدوري) الذي قطع بنهاية اللعبة فاته التقدير السليم، وهو قد فاته في أوج عز صدام حسين يوم أن كان مندوبه الدائم أمريكا تسير في طريق معوج يوم أن كان صدام على سدة الحكم مدعوماً من قبلها، وهي تسير في طريق

أكثر عوجاً يوم أن أودعته السجن، وستظل في التيه بعد تحريضها على تعجيل إعدامه، إن قتله في يوم النحر ممارسة بشعة وحُوْباً كبيراً، لقد خلقت أمريكا وضعاً صعباً لا يمكن تلافيه، وآلت الأوضاع إلى درك لا يمكن الخلاص منه؛ إن زيادة الترسانة العسكرية أو الخروج الفوري أو المرحلي من العراق مؤذنان بتصعيد المقاومة، وقيام حرب أهلية شرسة تتحمل أمريكا نتائجها، لأنها هي التي خلقت الأوضاع الملائمة لمثل هذه الفتن، فالعراق الذي مزق الجيش الأمريكي لحمته وأحيا نعراته خلط الحابل بالنابل، ومن الصعب إعادة بنائه، والعراق مشروع فتنة عمياء لا يعلم مداها إلا الله، وتصفية صدام تحرف غير ذكي، وتحيز غير موفق، إن الأفق مدلهم، وليس هناك بارقة أمل لا للعراقيين في الداخل أو في الخارج ولا لأمريكا في الداخل أو في الخارج، ولم يبقَ والحالة تلك إلا العناية الربانية، وليس أحد من أطراف النزاع من فوَّض أمره إلى الله، والعراق الذي أصبح قرباناً لم يتقبل انعكس أثره على دول المنطقة إذ أتاح فرصة اللعب بالنار والعمل على تعيير (الإستراتيجية) وأي محاولة لتغيير التركيبة السياسية أو السكانية مؤذن بنزاعات عسكرية وشعبية تفقد معها أمريكا هيبتها ونفوذها وتمكن لنفوذ أوروبي أو شرق آسيوي، إن عليها أن تأخذ الدرس من (لبنان) يوم أن فرت منه بعد كارثة (المارينز) ومن مناطق التوتر في (الصومال) و(السودان) و(أفغانستان) فهي في كل تلك المواقع الخاسر الأكبر، إن إضعاف مناطق النفوذ يزرع بذور الفتن ويحولها من مستثمر رابح إلى عائل خاسر ومن مهيمن مرتاح إلى مطارد منزعج، إن الشعوب تبحث عن الكفاف والاستقرار، وكل دولة بتركيبتها العرقية والطائفية قابلة للاشتعال، ومن الخير للقطب الواحد ألاَّ يناوش لا من قريب ولا من بعيد، وسياسة (فرق تسد) سياسة قديمة وغير مجدية وهي التي أخرجت بريطانيا من مستعمراتها.

إننا لا ندافع عن صدام ولا نريد لأمريكا بوصفها الحليف الأقوى أن تزول، ولكننا لا نرى في قتله أية فائدة لقد مات يوم أن دخل السجن ودخل معه أعوانه، وصدام لو قتل ألف قتلة ما قضى الناس منه حقهم وما أحد بنادم على نفيه من ظهر الأرض، ولست مُعَذِّراً ولا مدافعاً، ولكن المبدأ عندي شيء والممارسة شيء آخر فقتل صدام مبدأ والتوقيت والمنفذ شيء آخر، والاعتراض على الإجراء لا يمس مشروعية المبدأ.

إن استنكار التوقيت لا يعني الرحمة بالضحية ولكنه الرحمة بالمشاعر مشاعر المسلمين الذين لا يسعدهم أن يكون منفذ القصاص غير الولي، والله قد جعل لولي المَغْدُور سلطاناً ونهاه عن الإسراف في القتل وقتل صدام بهذه السِّن وبهذه السرعة وفي يوم عيد ونسك وبمباركة من أمريكا وابتهاج من إسرائيل يعني الإسراف المنهي عنه وإذا أرادت أمريكا أن تحسِّن صورتها المشوهة وأن تستبدل المحبة بالكراهية، فإن عليها الركون إلى الحكمة لا إلى القوة فالشعوب العربية شبت عن الطوق وثورة الإعلام والتقنية فوتت فرصة الضحك على الشعوب.

وعلى أمريكا أن تعرف أن إرادة الشعوب لن تُقهر وأن المصالح لا يمكن أن تجلب بالدماء، ومهما بلغ الاختلاف بين الناس حول الأحداث الجسام فإن قتله يُعد إضافة جديدة لأخطاء أمريكا، والخوف كل الخوف ألاَّ تستفيد من أخطائها الفادحة الثمن.

دعوا الطائفية فإنها مُنتِنة .. ! (١) [1]

حفظنا في مطالع حيواتنا المتبدلة طوعا أو كرهاً كل حين مقولة: (لكل زمان دولة ورجال)، ومناط الرؤية العامة يقوم على الصور البصرية فيما تجيء رؤية العلماء والمفكرين منوطة بالصورة الذهنية، بحيث يكون من الممكن أن يقال: (إن لكل زمان قضاياه واهتماماته) وإذا كان المستفيض عند ذوي الاختصاص أن (الكتابة) تمثل الصورة البصرية، والمعنى يمثل الصورة الذهنية، والعلاقة اعتباطية، يسلم لها الجميع فإن المشهد السياسي بوصفه صورة بصرية لا يتحرك ذاتياً، وإذا كانت القامة لا تستنطق الحراك لتعرف الصورة الذهنية لترتيب أمورها على ضوء العلاقات فإن العالمين ببواطن الأمور يعرفون الطاقات المحركة، ويتخذون الموقف الاختياري أو الاضطراري، ومتى تبدت للمبتدئ بعض الملامح تجاوز المتابعة العفوية إلى التمنّع المعقول، وذلك مكمن الاختلاف. والسياسة لو كشَّرت بوجهها وكشفت عن حقيقتها لفرَّ منها الناس المتهافتون عليها فرارهم من الأسد، ولكنها كما الطاعون لا يجوز الخروج من محيطه ولا الدخول إليه لمن كان خارجه، وكم من خطاب تشكل خارج محيط السياسة حتى إذا بدت بوادر نجاحه احتوته بسياسة من حيث لا يحتسب ليصبح خطاباً سياسياً يقبل كذبها ويستمرئ مكرها، ويستتبق وضرها.

وكم من نِحْلة أو ملة أو طائفة وجدت نفسها في أتون السياسة دون أن تدري ما السياسة وما عواقبها الوخيمة.

والإشكالية أن بعض الطوائف تقع في حبائل السياسة وتركض في سراديبها، ورهانُها أنها خارج المسرح السياسي، وأن لا أحد يستطيع توظيف إمكاناتها لتحقيق مآرب أخرى تضرّ بها وبمن حولها، وتلك شنشنة يعرفها الراصدون للحراك السياسي، ولا يمكن أن ينخدع بالبراءة أو التقية إلا الخب أو غير المجرب. وأقوى شاهد ما نراه ونسمعه عبر الساحات والقنوات وفلتات الألسن ويقيني أن التسييس المفروض نهاية التمام وبداية النقص، وكم كنا نردد في طفولتنا ببلاهة وبراءة:

لكل شيء إذا ما تم نقصان

ولا يشغلنا إلا الترنم بالإنشاد جماعات ووحدانا، وهذا الشطر المحظوظ أجهده مدرس المحفوظات ومدرس الخط، هذا يريد حُسن الصوت، وذاك يريد جمال الصورة.

وما أحد من هذا اللَّفيف يدرك الصورة الذهنية، وعند مشارف الشباب ومطالع الكهولة يبدو عنق البيت كما لو كان جديدا لم أسمعه من قبل.

لقد تأكد لنا أن كل تمام مؤذن بنقص، والشاعر العربي يقول:

ترقب زوالاً إذا قيل تم

وكل نِحْلة أو ملة أو طائفة تعجلت التزبب قبل الحصرمة تتخطفها عوادي الزمن، والتوسل بالسياسة لتحويل دولة عربية إلى دولة طائفية ممارسة محفوفة بالخطر، وقدري أنني مأخوذ بدقة الملاحظة وكثرة التداعيات، فما من حدث صغير لا يؤبه به إلا هو عندي ك(جبل أحد) وما من واقعة أو نازلة مهما قلت إلا هي مغمورة بتداعيات الأشباه والنظائر حتى تكون التداعيات بحجم مشاكل العالم العربي.

ولما كان التاريخ يعيد نفسه فإنني لما أزل أُلمُّ بين الحين والآخر بموسوعاته، وبخاصة تاريخ المدن ك(تاريخ بغداد) و(تاريخ دمشق) وأتعهد تاريخ الرجال

---

(١) تاريخ المقال: ٩/ ١/ ٢٠٠٧

والحضارات ك(سير أعلام النبلاء) وسائر كتب الطبقات، وأسارح وأمارح تاريخ الساسة ك(البداية) و(المروج). ومنطويات تلك الموسوعات تحدثنا عن الفتن والصراعات الطائفية والسياسية والعرقيَّة، وهي صراعات لا تخدم الملل والنحل والأجناس، ولكنها تخدم الرموز المنتفعين القابعين في قصورهم.

وما من نحلة أو ملة أشهرت السلاح وراء منقفع إلا ذهبت أدراج الرياح، وأخذها النقص من أطرافها، والوقوعات المعاصرة أمثال نضربها للناس، ومن كان في ريب مما أقول فليلق بصره وبصيرته وسط كتب التاريخ، ليشهد الويلات وليقف على بوادر النقص.

والفتنة أشد من القتل: (وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم) وكل متحدث عنها لا يرجم بالغيب، وخالق البشر حين قال لرسوله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ إنما أراد حقن الدماء وتخليص الأمة من الغوائل، ومن الخلل وضع السنان في موضع اللسان.

ومن وجد متسعاً من الجهد والوقت فليستعرض فهارس (البداية والنهاية) ـ المجلد الحادي والعشرين ـ الذي نيف على ألف وثلاثمائة صفحة، ثم ليعُد إلى المتن ليقرأ ما تيسر منه كي يقف على مئات الثورات الطائفية والحركات العنصرية التي صارت رماداً بعد إذ هي ساطعة، وليتأمل الملل والنحل التي تبناها الأقوياء المتسلطون والماكرون المنتفعون، وساندها الحكام الجائرون ثم أصبحت كالصريم، وليتلوا قصصاً أسطورية وحكايات خرافية مرت كلمح بالبصر، ولم يبق إلا المدركون لعواقب الظلم الوخيم، لقد تبنى (المأمون) الاعتزال، ولم يفلح المعتزلة، وأفسد (القرامطة) ولم يفلحوا، وأوذي أهل الذكر وأطناب الفكر وامتحنوا وتعرضوا للسجن والنفي والقتل، ولكنهم صبروا وصابروا ورابطوا، وذهب المتعنتون أذلة صاغرين لا يلوون إلا على خيبة الأمل. وكل طائفة تطيش أحلام علمائها وتقدم السلاح على اللسان مستغلة الظروف الوقتية المواتية، تبني بنفسها قوة خصومها، وتقوي عزائمهم، وتحيي فيهم غفوة الإيمان وغفلة المؤمن، وكل طائفة في سياق التاريخ الفكري للإسلام تعد أقلية، وكل أقلية تنازع الأكثرية تبدأ رحلة الانحدار، ذلك أن الأغلبية تستوعب الأقليات وما من أقلية استطاعت أن تستوعب نفسها فضلا عن أن تستوعب ما سواها، وأي محاولة لإخراج الأعناق في ظل أي ظرف يعد انتهازية تحقق مكاسب وقتية. وقتل (صدام حسين) جاء صفارة إنذار وإن كان يستحق القتل قبل هذا اليوم، ولكن المحاكمة الخاطفة والتوقيت المسيء وانتقاء التُّهمة من بين عشرات التهم والانتشاء الطائفي والانفراد بالمقصلة حول المقتص منه والهتافات المشبوهة حولت (صدام) إلى بطل، وحركت مشاعر الأغلبية السنية، وقلبت المعادلة، لقد كان بالإمكان الاقتصاص المشروع خارج إطار الطائفية، فذلك ممكن ومشروع ولكن الله لحكمة لا يعلمها إلا هو، جاء بالحدث على هذه الشاكلة التي لا يستطيع أحد أن يبرئ الطائفية منها، وما كان بُودِّنا أن يزيد الاحتقان ولا أن تتحرك الطائفية في زمن لا يحتمل المزيد من الترديات ليقتتل الأهل والعشيرة لحساب الغير.

إن توظيف القدرات وتهيئة الامكانيات والعمالة لأي خطاب يرفع درجة الاستعداد للمواجهة لأنه يوغر الصدور السليمة ويقدم سوء النية والشك على الثقة وحسن الظن.

ومهما حاولنا التغاضي وحسن الظن فإن أحداث (العراق) و(لبنان) مؤشرات للحراك الطائفي المشبوه، والدول العربية والإسلامية المساندة ل(إيران) و(سوريا) تتحمل نتائج التصعيد الطائفي، وتلك مغامرة محفوفة بالمخاطر.

لتكن (إيران) طائفية، ولتكن أي دولة كما تشاء بطوعها واختيارها، إذ ليس لأحد الحق في أن يُخِل بحق السيادة، ولكن تصدير الطائفية أو المذهبية أو الحزبية والدخول في مثل هذه اللعب الخطيرة يسهم في إشعال المنطقة وتحويلها إلى بؤر توتر على الرغم من

أنها في وضع لا يطلب المزيد، وتلك الممارسات المكشوفة إلى حد الفقاعة لن تحقق إلا مزيداً من الفوضى وإراقة الدماء المعصومة، وعلى الذين يدفعون بالقضايا صوب الطائفية أن يتحملوا مسؤوليتهم التاريخية وليس بمستبعد أن يحقق البعض نجاحات على المستويين الواقعي والدعائي ولكنها نجاحات وقتية ونصر زائف، لا تتجاوز حد الهتافات المتشنجة والشعارات الجوفاء مؤصلة العداوات، وفقد الثقة، وإذكاء الفتن ومع كل المكاسب الوهمية سيبقى الجياع جياعاً والعراة عراة والتسلط المعشوق بعيد المنال، إنه بيد المحتل الذي يحرك الدمى فوق مسرح العرائس، وحين يرهق كل الأطراف ويُفقدها الحراك المؤثر يعيد كل لعبة إلى مكانها الطبيعي متفرغاً لصناعة لعبة جديدة، وقد لا يستطيع المعوّقون ممارسة لغة التحاذر بعد أن يرحل المحتل بالغنائم تاركاً وراءه المغارُ متمثلة بالأحقاد التي لم تكن طافية على السطح وليست قابلة للتحول إلى فعل بشع. وبعيداً عن نظرية الغزو والتآمر فإن الفكر الإسلامي قد وسع كل الخطابات الدينية، وأتاح الفرصة للتأويل البعيد، متفسحاً لكل نحلة قدر المستطاع، بحيث مكَّنَ لِعلماءِ الملل والنحل من الجدل والحوار والمناظرة والتعايش، أما الفكر السياسي فإنه لا يمكن أن يحقق المناخات الملائمة للحوار الحضاري، إنه لا يملك إلا لغة السلاح والأغلال والسجون والمقابر الجماعية، والخاسرون حقاً من يبحثون بمللهم ونحلهم عن الثمن العاجل، ويوظفون المعتقد لتحقيق (الأجندة) لتعجل الغنيمة قبل أوانها ومصير المتعجل الحرمان. وكل نحلة سيَّسها المنتفعون ترتبط بالسياسة وجوداً وعدماً، والإسلام يحتوي السياسة ولا تحتويه، وحين تمضي السياسة يظل الإسلام في انتظار مايأتي.

وإذا كان (صدام حسين) غير طائفي باعتراف (نوري المالكي) فلماذا حوكم على قضية طائفية وحاكمه قضاة طائفيون، وأبعدوا الواحد تلو الآخر حين لا يكون نفسهم طائفياً؟! ونَفَّذَ الإعدام جنود طائفيون وآذاه في لحظاته الأخيرة من هتفوا باسم الطائفية. إن تلك الوقوعات مؤشر تسييس للطائفية وربط مصيرها بالمرحلة الذاهبة، مرحلة الاحتلال الذي لن يقبل به إلا منتفع يتعجل المنفعة ويقبلها على حراب العدو.

وتسييس الطائفية يواكب خطابات كثيرة تتبادل المواقع حسب خطط يبدو أنها مدروسة في تحركاتها، بيد أنها غير ممحَّصة في مآلاتها، لأنها مرتهنة لخدمة (أجندة) غير إسلامية، والعصر الحديث جاء بمطامع خطيرة تملك من الوسائل والمغريات بمثل ما قيل عما يملكه (المسيح الدجال) وعلى الرغم من خطورتها فقد ابتدرها (الثوريون) و(الطائفيون) ورضوا بأن يكونوا مجندين لوجه من يسمونه بالشيطان الأكبر، وما على المرتابين والمترددين في تصور الواقع إلا أن يقرؤوا تاريخ الثورات العربية ودخولها بالإنابة وسط معمعة الصراع (الأمريكي) (السوفييتي) والنهوض بتبعات الحربين (الباردة) و(الساخنة) وهي بعض ما تقصاها (محمد حسنين هيكل) في كتابيه (الغليان) و(الانفجار) وسائر كتبه التي حاول فيها أن يلوي أعناق الأحداث ليواري سوءات الثوريين الذين فرقوا كلمة الأمة ومزقوا وحدتها وطرحوا مصطلحات ليست في العير ولا في النفير ك(الاشتراكية) و(القومية) وسائر النوازع الحزبية والمبادئ الغربية والشرقية، وعرفت من خلال إعلامهم المأجور (الليبرالية) و(الديموقراطية) و(البرجوازية) و(الرجعية) و(العمالة) وآزرهم كتاب ومفكرون يمارسون النخاسة الفكرية ويبيعون الإمكانيات بثمن بخس، وهي دعوات فكرية وسياسية ودينية حملت الأطراف الأخرى على تسييس الخطاب الديني بشكل حاد وعنيف ونفعي، ولما فقدت تلك المصطلحات صلاحياتها بانتهاء (الحرب الباردة) جاءت خطابات مناوئة ل(القطب الواحد) أو موالية له، وخرجت الأمة العربية من خطاب القطبين إلى خطاب القطب الواحد، الأمر الذي شكل خطورة على المغردين خارج السرب، ولم يجد ذلك القطب المتغطرس بقوته مجالاً

للصراع وتصفية الخصم إلا باللعب على حبال الملل والنحل واستغلال الاحتقانات الطائفية والعرقية.

لقد كنا من المحيط إلى الخليج مشروع تأجير مجاني لكافة الإمكانيات ومن لم يدخل الزفَّة هتف لها أو صمت أثناء مرورها على حد: (ابعد عن الشر وغنِّ له) إن الواقع حين يصنعه الأقوياء يمكن من التحكم.

واستخدام المبادئ في إطار اللعب من المسلمات في (القومية) (والإسلامية) و(الاشتراكية) (والوطنية) و(الطائفية) متى طرحت لمواجهة الذات؛ فهي مطية للاستعمار.

إن على الأمة الواعية أن تعيد قراءة الخطابات المستهلكة، وأن تتحسس مواقع الأقدام، لقد بشم العالم الإسلامي من خطاب (الجهاد) وها هو الآن يكاد يميع الإسلام بخطاب (التسامح)، والكتبة يكادون يتهمون أنفسهم بصناعة (الإرهاب) وسيأتي يوم تطوى فيه صفحات (التسامح) و(الإرهاب) ويحل مكانهما خطاب آخر. إن على المخلصين الصادقين من أبناء الطوائف الإسلامية أن يدركوا خطورة اللعب قبل أن يصفُّوا أنفسهم لأعدائهم.

دعوا الطائفية فإنها منتنة .. ! (٢)[1]

وإذ لا يكون هناك بأس من فتح الملفات القديمة، للاعتبار، فإن علينا أن نفتح بعض ملفات الثوريين، وعلينا أن نسأل: أين خطاب القوميين، وخطاب الاشتراكيين؟ وأين خطابات الأحزاب البائدة؟ بل أين القراءات المتعددة والمتناقضة للإسلام ومبادئه ومواقفه، لقد ثوت في مزبلة التاريخ، وبقي الإسلام جبلاً تغسل سفحه الأمواج العاتية، لقد قرئ التراث الإسلامي قراءة سياسية، تواكب الخطابات الوقتية، ومن ثم اقتيد (أبوذر الغفاري) رضي الله عنه قرباناً لعيون الاشتراكية الناسلة من عباءة الشيوعية الماركسية، وما نبش من قبره إلا في ظل هذا التعالق المناوئ ل(الرأسمالية). فأين هو الآن؟ بل أين تراث الماركسية من كتب ودراسات وتنظيمات؟

لقد جُعل (أبوذر) رائد الاشتراكية إرضاء للثوريين الذين ارتموا في أحضان الاتحاد السوفييتي آنذاك، وما كان (أبوذر) شيوعياً ولا رأسمالياً ولكن كان مؤمناً اختلف مع جمهور الصحابة حول آية الكنز، ومن قبل أولئك راح (أحمد شوقي) يخاطب الرسول في عصمائه:

الاشـــــتراكيون أنــــت زعــــــيمهم

ومضى في إثر ذلك العلماء والمفكرون ينقبون في كتب التفسير والحديث عن مسوّغ ل(ماركس) وكتابه (رأس المال) ولمَّا طويت (الماركسية) وانفض سامرها، أفاض المجندون للأسلمة من هذا الركام متصورين أن التاريخ سَيُمالِئهُم ويَطْمُر مخلفاتهم كما النفايات النووية، وأن العالم سينْسى ما أضافوا به من قول جازم، وعمل عازم، وتدمير لشوامخ، وتعويق لمسيرات ولن تمضي في رصد التحولات في الخطاب السياسي الذي جاءت تحولاته استجابة للدول الكبرى المتحكمة بمصائر العالم الثالث، والتي تود أن يكون مرتهناً للاستهلاك والتبعية والتناحر، وها هو خطاب (بوش) يأتي مزعجاً للأمريكيين والعرب والمسلمين، وإستراتيجيته هي التي مكنت من قبل لاختلال التوازن العرقي والطائفي، ولما بدت المطامع الطائفية تُحرّكُ وتُدْعمُ من خارج العراق عاد ليحمِّلَ دول الاعتدال قمع هذا التحرك المشبوه، هو الذي حركه من قبل، ومكن لإعادة التركيبة السكانية. إن الواقع السيئ الذي أحدثه الاحتلال لا يمكن أن تتحمل دول الجوار مسؤوليته.

إن عليه وعلى حكومته أن يُعيد المياه إلى مجاريها. وتحميل (إيران) و(سوريا) مسؤولية اختلال التوازن الطائفي والاستعانة بدول الجوار لتخليصه من هذا المأزق القاتل محاولة للخروج من عنق الزجاجة، وتحويل المنطقة إلى بؤر توتر واقتتال طائفي، وإذ نود أن تحيَّد (إيران) و(سوريا) فإن من مصلحة دول الاعتدال الاعتزال. لاشك أن الطائفية تشكل خطورة، وأن شيعة العراق ومن ورائهم (إيران) يلعبون بالنار، ويجرون المنطقة إلى حروب شرسة، ومهما حاولنا إدانة الاحتلال وتحميله كافة المسؤوليات وهو جدير بكل مؤاخذة فإن التحالف الشيعي يتحمل شطراً من المسؤولية. والخطورة في أن تجد دول الاعتدال نفسها ملزمة بالعمل المباشر لحفظ التوازن وإعادة الطائفية إلى قمقمها.

إن علينا أن نسأل عن التوقيت لتجاوزات (حزب الله) في (لبنان) وعن فتنة (الحوثي) في (اليمن) هل جاءت هذه الظواهر اعتباطاً وبالصدفة؟ أم أن هناك من يحرك بؤر التوتر ليقول: هاأنذا، إن استعراض العضلات في مواقع كثيرة مؤذن بفساد كبير وفتن عمياء لا يمكن القبول بها، ولا السكوت عليها، فضلاً عن تبريرها أو التماس مخارج لها، لقد جاءت حرب لبنان مدمرة للشعب اللبناني ولاقتصاده ولأمْنه، وإن أعطت (حزب الله)

---

(١) تاريخ المقال: ١٦/ ١/ ٢٠٠٧

انتصارات وقتية، لقد كانت عواطفنا مع المواجهة لإسرائيل ولكن عقولنا لا يمكن أن تنسى جراحات الشعب اللبناني، وكل الانتصارات الوقتية سُجلت لحساب الطائفة، ولم تسجل لحساب الشعب اللبناني وبعد الانتصارات الوهمية ماذا فعلت المعارضة في لبنان التي يتزعمها الطائفة الشيعية، إن لبنان يمر بمحنة لم يصنعها الشعب اللبناني بل صُنعت خارج لبنان، ومثلما يمر اللبنانيون في لبنان يمر (اليمنيون) في اليمن، أما (العراق) فإن السلطة بيد الطائفة و(الميليشيات) من الطائفة وتغيير التركيبة السكانية بيد الطائفية، وكل هذا التطويق وتعدد المواقع لن يغير من الواقع شيئاً، فالأقلية هي الخاسرة، وإن كان الثمن باهظاً على كل الأطراف.

ولما لم يعد هناك مجال للمغالطات فإن المنطقة قاب قوسين أو أدنى من الدخول في الفتنة الطائفية والذين يتولون كبرها يتحملون تبعاتها أمام التاريخ ويوم يقوم الأشهاد.

إن الفرصة متاحة وخط الرجعة مفتوح، ومزيد التقدم في الطريق إلى الهاوية يصل بالضالعين في الفتنة إلى حد (اللارجعة) وعندها يكون التحرف أو التحيز غير ممكنين، ولذات المصير الذي انتهى إليه الاستبداد والعناد سينتهي إليه من تلقى الراية وسلك ذات الطريق.

إن أحلام الطائفية والعرقية والحزبية انتهت والأمة العربية من كل الأطياف لا يعْنيها من يحكم، فكل همها أن يتوفر لها الأمن والرخاء والاستقرار وكفالة الحقوق والممارسة الدينية، لقد ملَّت من بؤر التوتر وتعاقب اللعب لا أحد يقبل بقيام حكومات طائفية أو عرقية أو حزبية في عالم لا تحكمه العدالة ولا تسوده المساواة ولا تظلله الحرية، ولا تسيره التجارب الحية، وحتى لو انتصرت الطائفية أو العرقية وأخضعت الأمة بقوة السلاح فإن الظلم مرتعه وخيم.

وإذا كانت التركيبة السكانية في (العراق) مؤذنة بخلافات لا يمكن حسمها بسهولة فإن من مصلحة كل الأطياف أن تُعدَّ مجتمعة دستوراً تتكافأ فيه الفرص، وتتداول فيه المسؤوليات، وتُقْتسمُ فيه الحقائب التشريعية والتنفيذية والقضائية، ويحكمه التصويت المكفول الحرية. ومتى أعد دستور بهذا التنوع وبهذه الآلية أمكن الاطمئنان، وتوفرت الثقة، وأصبح لكل فئة الحق في ممارسة طقوسها وشعائرها بالقدر المقبول وغير الطاغي، ولقد كان الدستور (اللبناني) مثلاً يحتذى قبل أن تتنفس الطائفية في أرجائه وقبل أن تتدخل الدول الطائفية في شؤونه، لبنان بلد الملل والنحل وقدره أن يستظل بدستور علماني متوازن، والعراق الذي خرج من ربقة حكم دكتاتوري علماني ظالم دخل في مأزق حكم دكتاتوري طائفي، وكم هو الفرق بين الدكتاتورية السياسية والطائفية، لقد فقد الأمن والاستقرار، وتفشت فيه الأوبئة والفقر، واستفحل فيه الإرهاب ولم يستطع المحتل الذي اقترف خطيئة الفراغ الدستوري أن يوفر له ما كانت الدكتاتورية السياسية توفره، والحكم الطائفي لن يحل إشكاليته، وإنما سيزيد ارتكاسه في وحل الفتنة. إن الدخول في دوامة الصراع الطائفي لحساب الأعداء المتربصين بكل الطوائف والأعراق يعني إعادة الأخطاء التي وقع فيها العهد البائد، والذي حوكم رموزه على ضوئها. لقد ضرب (صدام) الشيعة والسنة والأكراد، لأنهم نازعوه السلطة وها نحن نسمع ونرى بوادر ضرب (السنة) وحدهم لأنهم يطالبون بحفظ التوازن واستبعاد النفس الطائفي من الحكم والسؤال القائم: ماذا تريد أمريكا؟ هل تريد استمرار الاحتلال وتكريس تبعية العراق ب(الأمركة) ومن ثم فهي ساعية لتحطيم بنية المجتمع العراقي عن طريق إشعال الفتنة بين أطيافه وطوائفه مثلما حاول الاستعمار الفرنسي في الجزائر حين سعى لتحطيم قيمه الحضارية، إن قراءة المقاصد لا تكون من خلال الخطب والبيانات، ولكنها من خلال الفعل الماثل للعيان، و(الأجنْدة) والخطاب، وليس الخطبة، ومثلما قرئ الخطاب الفرنسي في الشأن

(الجزائري) يجب أن يقرأ الخطاب الأمريكي في الشأن (العراقي)، إن الطائفية لعبة خطرة وواجب الشعب العراقي بكل أعراقه وطوائفه أن يدرك خطورة الموقف وأن يجعل مصلحة العراق فوق كل الرغبات، وإذ لم يؤثر عن الشعب العراقي أي تحرك طائفي فإنه من الخطأ الفادح أن يقتل (صدام السني) لا (صدام الدكتاتور) كما يقول (حسن العلوي) الشيعي المعتدل المدرك لخطورة ما يجري في العراق، والتكتل الشيعي المنتهز للفرص سيعيد التاريخ إلى المشهد، وقراءة التاريخ القديم واستعادة أحداثه ليس في صالح الطائفية، إن من مصلحة الأمة العربية أن يظل التاريخ ممثلاً لمرحلته وأن يكون مجرد أحداث أنتجتها ظروف عارضة لا أن يكون منتجاً طبيعياً (لأيديولوجية) تعيده كما كان بالأمس، إن قراءة التاريخ الطائفي القديم مضر بالطائفية التي أفسدت الوحدة الإسلامية. إن (الأجنْدة) الأمريكية استعرضت وبذكاء خبيث كل الخطابات، فلم تجد إلا (الخطاب الطائفي) وهي إذا مكنت للحكم الطائفي عادت لتسحب البساط من تحت المغرر بهم، ولإجهاض هذه اللعبة الخطيرة لابد من الارتفاع فوق الطائفية والسعي الجاد في سبيل الوفاق. وليس الوفاق أو التعاذر أن تذاب الفوارق ولا أن تتكافأ الفرص ولكنه يعني تبصير كل طائفة بحجمها ومشروعية وجودها وكفالة الحرية لها بالقدر الذي لا يضر بالآخرين.

والخاسرون في النهاية من ينطلقون من حصونهم لاحتواء ما ليس لهم به حق، وما ليس لديهم القدرة على تعريفه لو أتيحت لهم الفرصة.

إن من الخير للأمة أن تستوعب طوائفها لا أن تستوعبها طائفة على حساب طائفة أخرى، فلتعد كل طائفة إلى موقعها ولندع العارض غير الممطر يمر بسمائنا بحثاً عن أرض مناسبة يستنبت بها العداءة والبغضاء.

لقد مرت على الوطن العربي سبعة عقود ما زال فيها رهين التجارب والمبادئ والأفكار والسلاح، ولم يتخط مرحلة القول إلى الفعل الناجز.

وأحسب أن الوقت قد حان لترتد كل دولة إلى الداخل لملء بطون الجياع وبعث الثقة في نفس المواطن بتوفير الأمن والرخاء، والاستقرار، إن ممارسة اللعب والإضرار بمصالح المواطنين يفوّت على الأمة فرصة العيش الكريم.

من حق (إيران) كبلد ثوري لم يتخلص من خطابه الثوري العنيف أن يتبنى خطابه الشيعي، وأن يكون مرجعاً ومثابة لكل الشيعة في العالم، بتفقد أحوالهم، ويسعى لإنصافهم، ولكن ليس من حقه أن يؤسس لخطاب ثوري لتشييع العالم، ولا أن يحرك الأقليات الشيعية في العالم الإسلامي. وهم يتمتعون بكل حقوقهم على خلاف السنة في إيران، وليس من مصلحة المنطقة تصدير مبادئ الثورة ولا أن تسلح الأحزاب الطائفية خارج الحدود لإحداث خلل في توازن القوى، من حقه أن يختار المنهج الذي يريد، ومن حقه على جيرانه الدعم والتأييد والحيلولة دون المساس بسيادته إنه دولة إسلامية، ولا نود له إلا الأمن والاستقرار. ولكننا لا نسمح لأي طائفة كائنة من كانت أن تمد يدها إلى ما متع الله به غيرها من حق أو من إمكانيات.

الفتنة نائمة وكل متحيز أو متحرف قادر على أن يوقظها بأي شكل وعلى صهوة أي جواد، وهو بهذا الإيقاظ ملعون بكل لسان.

إن المؤمن لا يزال في فسحة من دينه حتى يمس دماً حراماً والظلم محرم سواء وقع على مسلم أو كافر وكيف يستسيغه سويٌّ والله قد حرّمه على نفسه وجعله بين الناس محرماً وأقسم بعزته وجلاله على نصر المظلوم وإن كان كافراً، وكيف يقبل العنف

والتسلط وهو الموصي بإبلاغ المشرك مأمنه والموجه إلى القول اللين لمن قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾.

إن الطائفية اليوم تجمع أشلاءها لتطرح نفسها مشروعاً سياسياً في الزمن الموبوء زمن الاحتلال واللعب المكشوف لا كما طرحت مشروعات من قبل في ظل التمويه والخداع واللعب الخادعة، ومع ذلك فقد باءت بالفشل الذريع وما جنت إلا خيبة الأمل، وإذا كانت الطائفية اليوم مهيأة لتلعب الدور الذي لعبه الزعماء الثوريون المغرر بهم فإن الظروف غير ملائمة ومن مصلحة أي خطاب أن يتسلل لواذاً حتى تضع اللعب الكبرى أوزارها ويعرف كل تائه أين موقع أقدامه.

العالم اليوم يمر بأزمات خانقة من مجاعات وحروب وفراغات دستورية وتنازع على السلطة وأصحاب المواقف الناصحون لأهلهم وعشيرتهم لا يمكن أن يجازفوا ويلقوا بأيديهم إلى التهلكة، إن الأمة من زمن العض على جذوع الشجر والاهتمام بالذات. وأخوف ما أخاف في ظل التآمر الطائفي وبدو أعناق مشاكله في مواقع كثيرة واستمرار دولة إسلامية كبيرة ومهمة ومؤثرة في خطابها الثوري التشنجي أن تكون قد أزفت الآزفة وحينئذ لا يكون لها من دون الله كاشفة.

إن تضور سنّة العراق واستنجادهم بإخوانهم السنة في مختلف بقاع العالم الإسلامي مؤجج لمشاعر المسلمين، ومتى بلغ السيل الزبى فإن المحركين للطائفية هم وحدهم الذين يتحملون المسؤولية أمام الرأي العام الإسلامي الذي لن يتوانى في نصرة إخوانه على حد: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾.

إن سلق الأوضاع المصيرية والتفكير بتصفية السنة في العراق وخنق الشرعية في لبنان وتحريك الطائفية في اليمن مؤذن بانفلات المارد السني من قمقمه وحينئذ يكون ما لا نرضى من الفعل، إننا لا نريد لمسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله أن يُقتل بيد مسلم كما لا نريد لأقلية طائفية أن تتحكم بمصائر الأكثرية، وعلينا جميعاً أن نتقن المعادلة ونحكم التركيبة، في (إيران) الأكثرية شيعية، ومن ثم لم يعترض أحد على أن تأخذ حقها، مع أنها لم تحسن التعامل مع السنة، ولك أن تعكس المعادلة في (سوريا)، إن الناصح لأمته من يحاول تهدئة الأمور وتفادي الفتنة والقبول بالمفضول في سبيل حقن الدماء. إننا إن لم نتصرف في الوقت المناسب بإرادتنا ووفق مصالحنا ابتدر الراية من لا يرعى فينا إلاًّ ولا ذمة بحيث يكل إلينا تصفية أنفسنا.

إنه نداء العقل والضمير يناشد علماء المسلمين وعقلاءهم ليعيدوا كل طائفة إلى ما كانت عليه من قبل، وليس هناك ما يمنع من قراءة الواقع وتلافي أي وضع لا يوفر الحرية والأمن والكرامة لكل مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إذ حسابه بعد ذلك على الله.

حتمية توازن القوى والنفوذ المناطقي .. ! (١) [(١)]

أكاد أستسلم لمقولات يعدها الطيبون من مفرزات الحياة الصحراوية التي يحكمها التوحش مثل: (إن لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب).

والظُّلمُ مِن شِيَمِ النُّفوسِ فَإن تَجِد
ذا عِفَّةٍ فَلِعِلَّةٍ لا يَظْلِمُ

ومعززات التسليم ما يؤكده الواقع العالمي، فالقوة هي الحاكمة بأمرها، ومن المسلمات مقولة: (من أراد السلام فليستعد للحرب)، و(من يفاوض من مركز الضعف لا تكون كلمته الأخيرة).

فأمريكا بقراراتها وتصرفاتها ليست الأفضل، ولكنها الأقوى، والناس تبع لها، ومنطق القوة يقول:

تَرى الناسَ ما سِرنا يَسيرونَ خَلفَنا
وَإن نَحنُ أَومأنا إِلى الناسِ وَقَّفوا

ولو أنها غلَّبت جانب الحق وعززته بالقوة، وحفظت التوازن بين الحقوق والواجبات لعاش الناس في وئام وانسجام، وليس أدل على حيفها من تبذلها في استخدام حق النقض (الفيتو)، (وما من ظالم إلا سيبلى بأظلم)، ولكن الناس يحكمهم الهلع والجزع والتعجل.

وما نريد الإلماح إليه من حتمية توازن النفوذ والقوى لا يقتصر على الدول الكبرى التي يفرض عليها نفوذها ومصالحها أن تراقب المشاهد، وأن تجهض أي تحرك يخل بالتوازن، ويعرض مصالحها للخطر.

وتحرك بعض دول المنطقة للاحتواء، وفرض مبادئ الثورة وأهدافها معزز بقابلية الفريسة، فالعالم العربي يعيش حالة من التفكك والصراع، ويقترب من هاوية الحروب الأهلية، فالصراع الطائفي والعرقي والحزبي، والتدخلات والاغتيالات، ومحاولات الاحتواء الأرعن، واختلال التوازن في القوى والنفوذ بين دول المنطقة، يبدو كما وميض النار من خلل الرماد، ومن المتوقع أن يكون لها ضرام، والدول المتضررة من اختلال التوازن لا بد أن تتحرك (دبلوماسياً) على الأقل، لتفادي وقوع الفأس على الرأس، وتدارك اختلال التوازن بكل أشكاله.

وليس من حق أحد كائناً من كان أن يكرهها على الاعتزال، وتهيئة الأجواء لذوي الأطماع الإقليمية كي تحقق مشروعاتها غير المشروعة، والمشهد السياسي مكشوف اللعب، ولا يمكن القبول بالتطمينات الزائفة والابتسامات الصفراء، وخطابات التغرير لا تخدع إلا العاطفي الفارغ المستجيب للترسانة البلاغية المخادعة.

وإذا كانت محاولات الإخلال بكل التوازنات تمر بحالات من الجزر والمد والمخادعة، فإن دولاً عربية وإسلامية كانت الأكثر ضلوعاً في هذا المسار، وأشد إثارة للشك والارتياب، حتى لقد مورس تصدير الثورة في المشاعر المقدسة، وكاد الأمر يتجاوز الرفث والفسوق والجدال إلى إراقة الدماء، وتحويل المشاعر إلى شوارع سياسية يتحول فيها التهليل والتكبير إلى هتاف بحياة القائد ومبادئ الثورة.

---

(١) تاريخ المقال: ٢٣/ ١/ ٢٠٠٧

وحماس التصدير والنفوذ دفع بعض الحكومات الثورية إلى اجتياز الحدود وشل حركة السلطة الشرعية، وأقرب مثال ما تعانيه (لبنان) من تعدد لمراكز القوى وفرض الإرادة بالقوة وتجاهل الشرعية، وإسقاط المؤسسات الدستورية بقوة السلاح.

ولقد كان لبعض الدول الثورية في الستينيات قصب السبق في تصدير الثورة والتعهد بتصفية العروش الرجعية والعميلة، حسب خطابها الإعلامي، الأمر الذي اضطر دول المنطقة للتصدي والصمود، مما كان له الأثر السيء على سائر الأوضاع العربية، وبعد فوات الأوان استبان الغوات الرشد، واستقاموا على الطريقة، وأعادوا بعض الثقة بعد ما انتزعوها، ولكن آثارها ظلت قائمة، إذ أتاحت الفرصة للتدخلات الأجنبية، والتمكين لها من خلال تحالفات فرضتها الأوضاع غير السوية، والمسيء أننا لا نستذكر الماضي القريب، لنكشف الحاضر المريب، إننا أحوج ما نكون إلى فتح الملفات لإيقاظ الغافلين وتحذير الطيبين، والحيلولة دون تكرير اللعب التي فوتت على الأمة فرصاً كثيرة.

والطامة الكبرى في حياة الشعوب النامية أن تظل مرتهنة للخطاب الثوري المجازف بالأنفس والأموال، والمبادر إلى صنع العداوات، وإثارة الفتن، وتكريس الخوف والتحفظ واستعداء القاصي والداني، واجترار الوعود الكاذبة. وكل وضع سيء يحمل دول الجوار على تغيير (الاستراتيجيات)، واستباق الغنائم، وما كان اختلال التوازن ليكون لولا اختلال الأوضاع الداخلية بسبب المجازفات الثورية.

ومكمن الخطورة أن تمتلك الأنظمة الثورية القوة الرعناء في خطابها الإعلامي المجمجم عن شعور الجماهير الغاضبة على الأوضاع والمقهورة من التدخلات، وفي سلاحها المجلوب بثمن باهظ من خبز الجياع. وأن تتحول إلى مشروع لتأجير الإمكانات بأبخس الأثمان، مقترفة الدخول الطوعي في اللعب الكونية، مدمرة مقدراتها طوعاً في البداية وكرهاً في النهاية، بأيديها تارة وبأيدي اللاعبين الأذكياء تارة أخرى. وأن تجد نفسها مستجيبة لهواجس المغلوبين وأحلامهم التي لا يمكن أن تتحقق في ظل الإمكانات المتواضعة والأوضاع الوضيعة، والتاريخ الذي يكاد يعيد نفسه لا يدركه إلا العالمون، ولو تنبه الدهماء المتجرعون لمراراته لكان بإمكانهم إحباط اللعب المكشوفة، ورد الثوريين إلى جحورهم، والتعجيل بالحكومات المدنية التي تضع الأمور في نصابها، ولا تصل إلى سدة الحكم على صهوات الدبابات والراجمات، وإنما تصل إليه على أكتاف الشعوب.وكل دولة تدمن لغة الثورة تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله. وهكذا فعل (العراق) في عهده البائد، وهكذا تفعل الدول الثورية في (إيران) و(ليبيا)، فبقاؤها مرتهن باستمرارها فوق مسرح الشغب العالمي، ولن تحل الثقة والاطمئنان محل الشك والخوف إلا إذا تحولت الدولة من لغة الثورة إلى خطاب المؤسسات.والمؤسف أن التجربة الثورية العربية فاشلة بكل المقاييس، وداؤها في خطابها الاستعدائي، وطموحاتها المستحيلة، وادعاؤها العريض، ومصادمتها للواقع، والذهنية السائدة، فالنسق الثقافي العربي مباين للمبادئ الثورية، ومتى فوجئت الذهنية العربية بما لا قبل لها باحتماله تحول التغيير إلى صراع والصراع إلى صدام، والشعوب العربية ليست بدعاً من سائر الشعوب العالمية والدموية، فالتجارب الثورية لم تكن وقفاً على الثورات العربية، بحيث تكون من لوازم الشعوب العربية، والمكر السيء يريد أن يجعل العرب مرتهنين للإرهاب والهمجية، وتقصي تاريخ (الثورة الفرنسية)، بعيداً عن الادعاء الغربي والترديد الببغائي العربي، يكشف عن همجية ودموية أعنف، والحروب العالمية أهلكت الحرث والنسل.

غير أن الشعوب الغربية وعت الدرس، واستفادت من التجربة، وعلمتها ويلات الحروب كيف ترتب أوضاعها، وتعود طائعة مختارة إلى موائد المفاوضات، واعتماد آليات الانتخاب، وتقديس الدستور، واحترام إرادة الأمة وتمثل (الديموقراطية) في ظل

أثرة لا إيثار، فهي معها قلباً وقالباً داخل الأرض وضدها قلباً وقالباً خارج الأرض، ولم تشأ في يوم من الأيام تصديرها، إذ إن تمثلها من قبل الأنظمة العربية مؤذن بكف يدها عن المصالح واللعب والتدخلات السالبة للحرية والحق.ومثلما أنها احتفظت بتجاربها العلمية، وبتفوقاتها العسكرية، فإنها كذلك استأثرت بمعطيات (الديموقراطية)، وحين استجابت بعض الدول وطبقت بعض آلياتها كالانتخاب، وصل إلى الحكم أعداء الغرب، فما كان منها إلا أن سعت لإجهاض الشرعية في (الجزائر) و(السودان) و(فلسطين).

وتمثل الحكم المدني القائم على القوة والعدل والبناء، بأي شكل وعلى أية سمةٍ واستثمار ما صلح من مناهج وآليات الغرب، يكبح جماح المغامرات الخطيرة التي تتمثل بتصدير مبادئ الثورة، وأحلام الطائفة الحاكمة.والمواطن العربي في ظل الهواجة والهمجية والروح العسكرية الرعناء لم يكن كما الطاعم الكاسي المسلوب الإرادة، وإنما هو الجائع العاري الذي يُشترى بخبزه السوط الذي يلهب ظهره، والحديد الذي يكبل يده ورجله، ولما ألف العذاب راح يردد مع المتنبي:

رماني الدهرُ بالأرزاء حتى

فؤادي في غشاءٍ من نبالِ

فصِرتُ إذا أصابتني سِهامٌ

تكسَّرتِ النصالُ على النصالِ

وهانَ فما أُبالي بالرزايا

لأني ما انتفعتُ بأن أُبالي

ولم تتح له فرصة الصبر والمصابرة والصمت في انتظار ما لا يأتي، وإنما انتزع منه التأييد وعوِّد على الهتاف والتمجيد، وإذا أشاد لسان مقاله المكره على الترديد الببغائي، فإن لسان حاله يردد:

واحتمالُ الأذى ورؤيةُ جانيـ

ـه غذاءٌ تَضوى بِهِ الأجسامُ

وَمِن نَكَدِ الدُّنيا على الحُرِّ أن يَرى

عدوّاً لـه ما من صداقته بُدُّ

هذه الأجواء المشحونة بالقهر والإذلال والتجويع تجتالها خطابات بطولية ترغي وتزبد وتردد:

قد وعدنا الأسماك أنا نريها

من لحوم اليهود لحماً طرياً

حتمية توازن القوى والنفوذ المناطقي .. ! (٢) [١]

وهذه الأجواء المشحونة بالتوتر هي التي منحت إسرائيل مشروعية الضربات الاستباقية، والتوفر على قوة الردع، وهي التي وطأت الأكناف لأطماع الحكومات الثورية في المنطقة، لمحاولة بسط نفوذها، واتخاذ القرارات المصيرية، والإخلال بتوازن النفوذ والقوى، وإذا كانت المنطقة في سبيل الخلوص من رعونة الخطاب الثوري العربي، فإنها مرتهنة لخطاب ثوري طائفي يريد البدء بجولة ثانية من الفتن العمياء.

ولما أن تعرت الحقائق في الخطاب الثوري العربي، ولم يعد بالإمكان تزييف الوعي، خنست ثقافة الهدير والصهيل، وشاعت ثقافة المواء والرغاء، وتوارى سلام الشجعان، وتجلى سلام الاستسلام، ولم يعد بالإمكان إيقاف التدهور، تلك هي لحمة الثورة العربية وسداها، ولن تقال العثرات، وتشفى الصدور إلا بالمكاشفة، فالأمة العربية بلغت من الذل والهوان حداً لا يمكن احتماله، ولقد أصبحت لقمة سائغة لخطابات أخرى، تريد أن تلغي التاريخ، وتطمس الذاكرة، وتصادر الهوية.

وفي ظل هذا الوضع الأردى تحركت الأطماع العرقية والطائفية، لوضع اليد على المواقع (الإستراتيجية) والإنتاجية وتشكلت الأحزاب، وتعددت مراكز القوى، وأصبحت الدول المستهدفة مشلولة الحركة مسلوبة الإرادة، لا تعلن موقفاً، ولا توقف فوضى، والشعوب التي تجرعت الماء الحميم واشتوت وجوهها من لهبه أصبحت مشلولة الإرادة معطلة التفكير، لا تملك إلا المكاء والتصدية.

وهل بعد الفتنة الأهلية، والنزاع الطائفي والحزبي في (لبنان) و(فلسطين) و(العراق)، من شر مستطير يرتقب، فمن الذي يحرك العرقيات والطائفيات والحزبيات، ويسعى في السر والعلن لاضطراب المنطقة، وإعادة بنائها على هواه ووفق رغباته، ومن الذي يدفع بالتي هي أحسن، ولا يبيح لنفسه التدخل في شؤون الغير.

والمشهد العربي لما يزل مجال فتن عمياء، تعصف بكل مثمناته، وتمتص خيراته، وتخلق عنده خوفاً وترقباً، وتذكي حروباً حدوديةً وطائفيةً وحزبيةً، وتحالفات مشبوهة، وتدخلات سافرة، وإيقاظ للفتن النائمة، وهرولةً مصدعة للوحدة، واتخاذ قرارات منفردة، تفت في عضد الأمة، وتوهن عزماتها، وإتقان ذكي لاختراق الذهنيات الهشة، وتخديرها، وكسب ولائها وتأييدها، لقد عصفت بالأذهان خطابات زائفة براقة، كانت القومية وقودها.

وتمخضت هذه الفترة عن أدبيات ما كنا نتصور هشاشتها، لقد تبارى الشعراء والقصاص والروائيون في تمجيد رموز الخطاب الثوري القومي، وتخوين الملكية ووصفها بالرجعية والعمالة، وتحول المشهد إلى خونة وعملاء ورجعيين بإزاء زعماء ثوريين قوميين، ولما حزب الأمر تهاوت القلاع والحصون الورقية، وتجلت المشاهد عن زيف وكذب، فلم تعد القومية مناطاً، ولا ملاذاً بل كانت أصباغاً باهتة.

ولما أن اهترأت الخطابات القومية، جاءت خطابات أخرى ليست بأقل منها كذباً وتزويراً، والشعوب العربية تبحث عن مناطات ونصب توفض إليها، حتى إذا جاءتها لم تجد إلا الحقيقة المرة بكل ما هي عليه، إن هناك ثورة فكرية تتوسل بتكافؤ الفرص لكل خطاب، وحرية القول لكل ناعق، وظاهر هذه الرغبات منظمات لا تدري ما الحق ولا العدل، ولا تعرف دواخل الأمور، وثورة الفكر ليست بأقل خطرٍ من ثورة العسكر.

إن تمزق الأمة فكرياً مؤذن باختلال التوازن، لقد تجرعت الشعوب العربية مرارات الثورات العسكرية منذ ثورة (حسني الزعيم) إلى يومنا هذا، ولم تقدم تلك الأنظمة

---

(١) تاريخ المقال: ٣٠/ ١/ ٢٠٠٧

للشعوب المغلوبة أنموذجاً يتمناه الناس، ويركنون إليه، ويعولون عليه في إقالة العثرة، وتحقيق التطلعات، ولم تكن الشعوب في ظل تلك الثورات إلا غنيمة يخطفها من يستيقظ مبكراً، ويحرك دبابته قبل غيره.

وإذا كانت الثورات المسلحة قد أهلكت الحرث والنسل، فإن الثورات الفكرية، قد لوثت الأفكار وأفسدت العقول، وشككت الناس في قادة الفكر الناصحين المشفقين، وهيأت الأجواء للناسلين من كل حدب، لبسط النفوذ الطائفي، وكم من تحالف مشبوه بين تلك الثورات، أدى إلى تدمير المحسوس والمعقول، والحركات الثورية والفكرية قد تلتقي لتفسد العقول والأجسام، والتاريخ الإنساني مليء بالثورات الفكرية والسياسية، وليس بمستبعد أن يكون الجمع بين الشيئين لتحقيق أهداف مشبوهة.

والمتابع للأحداث من خلال وثائقها، أو من خلال تاريخها، يقف على حركات شدت الوثاق، ولم يعقبها مَنٌّ ولا فداء، وإنما انتهت بنهاية الموثَّق، وقيام كيان على أنقاضه، والمتفائلون يستبعدون السقوط الذريع، والراسخون في العلم يستحضرون التاريخ، ويعرفون من خلاله أسباب سقوط الأمم والدول، ويكفي أن نضرب المثل بالفردوس المفقود، وسقوط الخلافة الإسلامية، وتمزق العالم الإسلامي إلى دويلات ضعيفة، لا تحمي نفسها.

واختلال التوازن لا يتحقق إلا في ظل حكومات غير سوية، والأمة العربية مهدرة الطاقات، بسبب الخطابات الثورية التي أجهضت كل المشاريع، وفوتت كل الفرص، ولن تجتاز الأمة محنها إلا بالمكاشفة والشفافية، والاعتراف بتراكم الأخطاء، وبخاصة أن بعض الحكومات ورثت ضغائن وعداوات، ولم تستطع العمل على حسمها بل زادت من ارتكاسها.

إن لكل دولة حقوقها المشروعة في أرضها وفي محيطها، وليس من حق أحد أن يحتويها، أو يضيق الخناق عليها، أو يصادر دورها في محيطها، وتشكيل الأحزمة أو الأهلة، واختراق الأجواء، لا يملك المشروعية، ولا يقبل السكوت، ومهما تعرضت المنطقة لأي أضرار فإن البادئ هو الأظلم، إن دولاً كدول الخليج ليست لها أطماع، إنها تعطي ولا تأخذ، وتدعم ولا تمن، وتواسي وتأسو، وهي سباقة إلى المغارم زاهدة بالمغانم، ومن حقها أن تحقق التوازن في النفوذ والقوى.

إن لعبة الاحتواء والتسلط، تحتم على المحايد أن يتخذ موقفاً يحميه من الذوبان، وذهاب الريح، لقد بدت الأطماع، وتعرت النوايا السيئة، ولم يعد بالإمكان لزوم الصمت، ومهما أوغل الطامعون في لعن الشيطان الأكبر، والالتفاف الذكي وغير الزكي، والدول المحايدة الراغبة في إشاعة السلام والاستقرار، لا يمكن أن تقبل بالأثرة والاستبداد وتشكيل مراكز قوى تسلب السيادة والحرية والتوازن.

وما ضعف العرب ووهنوا واستكانوا، إلا بسبب تعارض المصالح والأخْلاف والانتماءات، وتصنيم الذوات، وتخوين من سبق ممن كان في زمانه رب الأرباب، لقد تبلدت الحواس، وشُغل الناس بالكفاف، ولم يعد للكلمة وهجها الذي كان لها من قبل، لقد كان لخطاب الزعيم أو مقال الصحفي أثره السحري، بحيث يخرج الناس من بيوتهم في تظاهرة حاشدة تتدفق في الشوارع والساحات كالأمواج العاتية، وعندما ينجلي الغبار، لا يكون إلا حمار حرون، ومهما كانت الأوضاع فإن على الأمة العربية أن تتكتل، وأن تجهض الأطماع الثورية، وتصدي الأمة العربية لا يعني التدخل في شؤون الغير، وإكراهها على التحول الفكري أو العقدي.

إن على دول المنطقة كافة أن تحسن الجوار، وأن ترتد إلى الداخل لإشباع الجياع، وتأمين الخائفين، وحقن الدماء، إن حفظ التوازن لا يعني انتزاع السيادة الإقليمية، بل يعني

تكريسها، وتحقيق التوازن يمكن دول العالم المضطرب من الاستقرار والفراغ للبناء الحضاري، لقد ملت شعوب المنطقة من المزايدات، وهي أحوج ما تكون إلى العيش الكريم، فهل تبادر الحكومات الثورية إلى التحول إلى حكومات مدنية، هذا ما نرجو، وما نتطلع إليه.

الدارة وأمينها والنقلة النوعية.. ! [(١)]

عرفت أخي معالي الدكتور فهد بن عبد الله السماري قبل أن يضطلع بمسؤوليته كأمين لدارة الملك عبد العزيز، وعرفته أكثر بعد أن تلقاها باليمين وأحدث نقلة نوعية شهد له فيها كل من قارب منجزاتها، وكان لي شرف التواصل مع الدارة ومديرها عبر إسهاماتي المتواضعة والمتواصلة في مناشطها المتعددة: محكماً أو محاضراً أو مؤلفاً.

ولم تكن دارة الملك عبد العزيز كأي مؤسسة شرفت بالتعاون معها، بل كانت لها مكانتها المتميزة في نفوس المواطنين كافة لتواشحها مع مكانة من تنتمي إليه، ولهذا أحس أنني أمارس واجباً وطنياً لا عملاً وظيفياً متى أتيح لي في رحابها ولو مفحص قطاة.

ووجود أمينها القوي الأمين على رأس العاملين فيها، هيأ للمسهمين والمستهمين على المواقع فضاءات رحبة مكنتهم من ممارسة مهماتهم في أجواء ملائمة، وأحسبني من أكثر المتعاونين وأسعدهم، فالملك عبد العزيز - طيب الله ثراه - يملؤني حباً وإكباراً وإعجاباً، وحين كرم الدكتور فهد بهذا المنصب أحسست أنني أشاطره الفرحة وأقاسمه التكريم، فتقدير جهوده بمثابة تكريم جماعي، ولست بحاجة إلى التدليل على نجاحاته، فهي من الوضوح كالنهار الذي لا يحتاج إلى دليل، والدارة بقيادته المتميزة أصبحت خلقاً آخر، بحيث تحولت إلى أكاديمية تمارس كل المهمات الثقافية والفكرية والسياسية والتاريخية، وما يحلق ذلك من آثار ووثائق وأزياء ومقتنيات وممارسات عبر أرقى الأساليب وأحدثها وأكثرها استجابة لمتطلبات العصر، فعالمها عالم (بانورامي) وأجواؤها أجواء (فسيفسائية) مختلفة الأشكال والألوان، والداخل فيها يتصور نفسه في عالم أشبه بملاعب الجنة التي وصفها (المتنبي) غير أنها لا تحتاج إلى ترجمان، فكل شيء فيها يحدثك عن نفسه ويبسط منطوياته بين يديك.

والملك عبد العزيز الذي طوق الأعناق بأفضاله، وقيد الناس بإحسانه من حقه على أبناء البلاد أن يقدروه حق قدره، ولن يتأتى لهم ذلك إلا حين تبسط الدارة تاريخه المشرق، وإن واقعهم جزء من إنجازاته، ودقائق تاريخه لن يكون في متناول الأيدي حتى تنهض المؤسسات المعنية بتقريبه لهم عبر المكتبات والمصورات والمقتنيات والمعارض والمحاضرات والندوات والمهرجانات والمؤتمرات، وأحسب أن الدارة بإمكاناتها وممارساتها تعد من آليات استحضاره لتعدد مهماتها وتنوع أنشطتها واستباقها بجميع تاريخه الشفهي والشيئي: كتابة ومقتنيات، وحملاتها الميدانية أسفرت عن كنوز كان يمكن أن تفقد بالتقادم.

وحين نتحدث عن الدارة تقفز إلى الذاكرة شخصية فذة تمثل الحبل السري لهذا المخلوق العجيب.. إنها شخصية الأمير سلمان بن عبد العزيز ونجاحات الدارة مرتهنة لذلك النجل الوفي (والنجل بعض من نجله) ومتى ذكرت (الرياض) وما وعت ذكر (سلمان بن عبد العزيز) والدكتور السماري كأي مسؤول موصول الحبال بأمير عاصمة الأمتين العربية والإسلامية يخفق بجناحين راشهما (سلمان بن عبد العزيز) وتميزه أنه أحسن الطيران واتجه صوب العوالم المجهولة من حياة المؤسس الباني.

وإذ قيل: لولا شعر الفرزدق لضاع ثلث اللغة، فإنه يقال: لولا دارة الملك عبد العزيز لضاع كثير من مآثر المؤسس. لقد جاءت ترقية السماري حافزة ومذكرة؛ لأنها استجابة لرغبات كل الذين كان لهم شرف العمل من خلال الدارة، فلقد كان أمينها القوي الأمين والحفيظ العليم.

---

(١) تاريخ المقال: ٢/ ٢/ ٢٠٠٧

والدارة بمطبوعاتها ومجلتها ومقتنياتها وسائر فعالياتها تنهض بفروض العين والكفاية لتؤدي بعض ما يجب على كل مواطن، وفوق ذلك كله فإن تاريخ الرجال هو التاريخ الحضاري للأمة، وما سير أعلام النبلاء ووفيات الأعيان والطبقات إلا جوف الغراء للحضارة الإنسانية، وتاريخ الملك عبد العزيز الذي تشرفت الدارة باحتضانه وتقصي آثاره مدرسة يتربى في أحضانها أبناؤه، وما أبناؤه الذين من صلبه، ولكنهم أبناء البلاد أبناء رجالات الملك عبد العزيز الذين صنعوا معه هذا الكيان بدمائهم، وليس أقل من أن يحافظ الأبناء عليه بعرقهم.

فهنيئاً لأخينا الوفي معالي الدكتور فهد السماري بهذه الثقة الكريمة، وبهذه المسؤولية الوطنية النبيلة.. ومزيداً من العطاء ليكون المؤسس حاضراً بأمجاده في ذاكرة أبنائه الذين ينعمون بما أنجزه لهم.

فقيد آل سليم .. ! [(١)]

الذين يقرؤون التاريخ الحديث، وما يتعلق منه بسير الأعلام والعلماء يذكرون تلك الشجرة المباركة التي أثنى عليها (الملك عبد العزيز) شجرة العلم والعلماء (آل سليم) الذين تقصاهم الشيخ (صالح بن سليمان العمري) رحمه الله في كتابه عن أجداده (آل سليم)، ولقد كان أبرزهم وأكثرهم حضوراً في تاريخ الباني المؤسس العلامة الشيخ (عمر بن سليم) الذي توفي عام ١٣٦٢هـ في أوج فترات المؤسس - رحمه الله-، والخوض في مآثر هذه الأسرة وإسهاماتها المتميزة بالقضاء والإفتاء والتعليم يصدنا عما نحن بصدد الحديث عنه.

تواردت تلك الخواطر على ذهني والقصيم يودع أحد رجالاته المرحوم (صالح بن محمد السليم) رجل العمل والأعمال، وسليل تلك الدوحة الغناء، لقد كان -رحمه الله- مثال الأغنياء الأوفياء لبلدهم ولدولتهم، انخرط في سلك التعليم في وقتٍ مبكر من حياته وتقلب في عدة مناصب قيادية ثم اتجه صوب التجارة والزراعة وكانت له مبادرات تدل على وعيه المبكر لمتطلبات العصر، فهو الذي بادر إلى (الفندقة) في وقتٍ لا يعرف الناس أهميتها ولا يثقون بجدواها. وهو الذي بادر إلى ميكنة الزراعة والتوسع فيها بحيث امتلك من المساحات ما يساوي بعض مساحات الدول الصغيرة أو يزيد وهو الذي شاطر في إنشاء (مصنع أسمنت القصيم) في وقتٍ مبكر إلى جانب الشيخ (صالح بن سليمان العمري)، حتى لقد وصفه الناس بالمغامر، ولكنه ليس مغامراً وإنما يتمتع بوعي مبكر وحب للتجريب، وله فلسفته في الحياة فهي في يده فيما هي في القلب أو في الجيب عند الآخرين، لقد كان قريباً من نفوس مواطنيه ليس فقط في توظيف ثروته للتجريب، ولكنه كان إلى جانب ذلك المحسن الكريم بحيث لا يمنعه عطاء اليوم عن غد.

عرفته عن قرب وعرفت دخائله واكتشفت فيه البساطة والعفوية، وحب الخير والمشاركة في قضايا الوطن والتواضع ولين الجانب والتسامح ورحابة الصدر وحضور النكتة والوفاء للأصدقاء وقوة الاحتمال.

وفي السنوات العشر الأخيرة من حياته انتابته الأمراض فضعف جسمه، وكف بصره، فكان الصابر الشاكر، وكلما زرته سمعته يردد على كرسيه ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ فكنت أحسبها لازمة من لوازمه، ولكنني أدركت أنه يضيق ذرعاً بالمتوجعين ويسعد بالمتفائلين، ومن ثم كنت أثير في مجلسه ما كان يمارسه من قبل من أعمال زراعية وصناعية وتجارية، وما يقوم به من رحلات سياحية مع أولاده فكان ينطلق بالحديث وكأنه على رأس عمله في فتوته ولقد كنت أغبطه على صبره واحتماله وتفاؤله في أحلك الظروف ولأنه يكبرني سناً فهو من الجيل الذي يسبقنا ويثير دهشتنا وحين لحقنا بجيله تبدت لنا اهتماماته بقضايا الوطن ومشاطرته في شأنه كله، ويوم أن كان (للأعيان) شأنهم قبل المأسسة الحديثة كان من السباقين للعمل في الشأن الوطني بجهده وماله ووجاهته، وبخاصة في المناسبات الوطنية قبل أن تكون هناك مراكز للاحتفالات، وقبل توفر الإمكانات.

ويوم جنازته التي شهدها أمير المنطقة ونائبه وعددٌ من رجال العلم والأعمال وجمع غفير من المواطنين أدركت أن شهود الله في أرضه لقد امتلأ المسجد بمن يعرفه ومن يسمع عنه، ومثل هذه المظاهر من الفأل الحسن، وضجة الدعاء بين يدي أرحم الراحمين

---

(١) تاريخ المقال: ٣/ ٢/ ٢٠٠٧

مظنة الرحمة نسأل الله له ذلك كما نسأله أن يجعل في عقبه من يسد الخلال التي تركها برحيله، لقد كان -رحمه الله- على جانب من الخصال الحميدة لعل من أبرزها إخفاء الصدقة حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، وتفاديه للمشكلات حتى ان جانباً من ثروته الطائلة في ذمم غير قادرة على السداد، وخير خصاله أنه رجاع إلى الحق ولقد كانت لي وساطات أدركت تراجعه فيها ومحاسنه - رحمه الله- كثيرة نسأل الله أن يتغمده بواسع رحمته وأن يلهم ذويه ومحبيه الصبر والسلوان.

الوشمي بين جغرافيا الأدب وأدب الجغرافيا .. ! (١)[(١)]

لست بقادر على الخلوص من التفجع والتأبين، وأنا أكتب لندوة علمية عن تراث الدكتور (صالح بن سليمان الوشمي) - رحمه الله -، وما كنت أود تفويت هذه المناسبة دون بحث موضوعي، يجلي جانباً من حياة فقيدنا العلمية أو العملية، وإذ لا أستطيع الخلوص المطلق من التأبين، فإنني سأدعه إلى حين، إذ ليس هناك ما يمنع من الإلمام بشيء من تراثه المطبوع والمخطوط، وبخاصة ما كان لي إلمامات بشيء منه، حين يمر بي في طريقه إلى مكتبه، أو إلى مكتبة النادي، متأبطاً قصاصات يريد تسويدها أو مسودات يريد تبييضها، ولأنه يمتلئ ثقة بنفسه، فإنه لا يجد حرجاً من الاستشارة وعرض ما معه، وهو الأقدر على الوصول إلى ما ينقصه معرفياً، أو منهجياً.

الشيء الذي يضايقني كثيراً أنه يكتب بالقلم الرصاص، وأن هامش المسودة كما سهام المتنبي التي تتكسر النصال منها على النصال، فقد أحتاج إلى مزيد من التركيز لقراءة أبجديات البحث المرتقب، وفقيدنا لا ينفك من القراءة أو الكتابة، وهو منقب ذكي لا يترسم خطى الآخرين فيما يكتب، ولا يتزيد، فهو الأحذق في اقتناص الثغرات في التاريخ، أو في الجغرافيا، أو في الثقافة العامة، وهو متيَّم بالتراث بارع في الغوص في لججه، مغرم ب(الجاحظ) و(المتنبي) على الرغم من أن تخصصه في علم التاريخ، والناشطون في استكناه الذوات يقول أحدهم: قل لي ماذا تقرأ، أقل لك من أنت، والمؤكد أن مقروء فقيدنا يجلي أبعاده العلمية والثقافية.

لقد عرفته منذ الطفولة، وأشرت في مقالات سلفت عن تبادل التأثير بيني وبينه، وتبادل الكتب والمجلات، ولهذا عرفت عن طريقِهِ مجلة (المنهل) وصاحبها، وعرفت جريدة (البلاد)، إذ كان ميسور الحال، وكان أبوه عالماً جليلاً يقدِّر العلم، ويدفع به إلى القراءة، ويشتري له ما يحتاج إليه، ويهيئ له الأجواء الملائمة للقراءة، وكنت أغبطه، وأتمنى لو كنت مثله، أصل إلى ما أريد، وعزائي أنه كان - رحمه الله - يمدني بالمجلات والجرائد والكتب، وكان يحثني على الكتابة، فقد سبقني إليها، وكأني به وُلِد وفي فمه ملعقة من ذهب، ولم يكن في فمي يوم ولدت أية ملعقة، ولما أن تيسر ذلك كانت الملعقة صدئة، وحين تفاوتنا في طفولتنا، فقد تناظرنا فيما بعدها، ومن الخير للإنسان مغالبة الحياة.

وهو حين سبقني في الكتابة، سبقني في تكوين مكتبة عامرة بأمهات الكتب، ولم تكن علاقتي معه يوماً من الأيام هازلة ولا مترفة، وقويت عندما التحقنا بالتعليم العام، فكان موجهاً، وكنت مدرساً، وبلغت أحوالنا الثقافية حدَّ الخلطة، حين دخلنا معاً عضوية النادي، كنت رئيساً للنادي، وكان رئيساً للجنة الثقافية، والحق أنه رئيس رديف، فهو الحاضر أبداً، وهو المتابع أبداً، وهو الذي يسد الخلال، يستقبل الضيوف، ويوفر لهم ما يحتاجون إليه، ويقدم لهم الأكلات الشعبية، ويقضي معهم الوقت في جلسات علم وأنس، وفوق كل ذلك كان أزهدنا في الأضواء والكسب، بل أكاد أقول: إنه أكثرنا ورعاً وحرصاً على مصلحة النادي، ولقد كنت أقرأ في سير أعلام النبلاء عمن يتركون المباح خوفاً من الوقوع في الحرام، وكنت أستكثر هذا، وأعدُّه من المبالغات في اختلاق المناقب، حتى إذا تعاملت مع فقيدنا أدركت تلك الخصال عملياً.

ومن مواقف الورع الكثيرة موقفه عندما تبرع لنا (بنك الرياض) ذات مرة بخمسين ألف ريال، ولما عرضنا الموضوع على المجلس، رفض قبولها أخذاً بالأثر (كل قرض

---

(١) تاريخ المقال: ٦/ ٢/ ٢٠٠٧

جرَّ نفعاً فهو رباء)، ولما ثار الجدل بيننا حول ذلك قال: هل قدمت لكم البنوك الأخرى تبرعات مماثلة مبادرة أو استجابة، قلنا: لا. قال: إذاً هذا التبرع مقابل تجميد الحساب، فما كان منا إلا أن أعدنا المبلغ معتذرين عن قبوله.

لقد تعلمت منه الشيء الكثير في الاختلاف والعلم والمنهجية، واستغلال الوقت، وعدم التفريط بالمعلومات بالاعتماد على الذاكرة. لقد كان يقيد شوارده، من هذه الطريقة أخرج بعض الكتيبات. ما آخذه عليه عزوفه عن المستجد، وتمسكه بالموروث، ومقاربته لمحدثات النقد والأدب لا تصل حدَّ الاستماع، وإنما هي في إطار السماع، ومع ذلك فهو لا يجهل الحراك، ولكنه لا يحفل به، وكم هو الفرق بين السماع وإلقاء السمع والشهود.

وعند بدايات النادي قبل ربع قرن لم نكن على صلة واسعة بالمشهد الأدبي، ولم تكن المحافل حفية بالأندية، ومن ثم انطلقنا بجهودنا، ومن جهودنا، فكان أن طبع النادي كتاب (أبو مسلم الخرساني) للفقيد، وسعدت في تقديمه للقراء، فكان أول إصدار، ولقد أثار هذا المطبوع تساؤلات كثيرة، حول علاقة (أبي مسلم الخرساني) بنادي القصيم الأدبي وبالأدب، وما عرف المتسائلون أنه كان بحثاً جاهزاً، كان قد قدمه الفقيد لقسم الدراسات العليا في كلية اللغة العربية في (جامعة الأزهر)، ونال استحسان أستاذه المشرف، وحثّه على إخراجه للناس، ولما لم يكن بالإمكان التماس كتاب مناسب للأدب أو للمنطقة لإصداره، كأول إصدار يلفت الأنظار، كان هذا الكتاب التخصصي.

لقد كان الفقيد متواضعاً حين خصَّني بكتابة مقدمته، ولم يتطلع إلى الكبراء، إذ هو على علاقة متينة بأساتذته (بجامعة الملك سعود) التي تخرج فيها، كـ(الخويطر) و(الوهيبي)، وهو محط أنظارهم، وله علاقات أوثق بالعلاّمة (حمد الجاسر) - رحمه الله - ، وبالأستاذ الدكتور (عبد الرحمن الأنصاري)، وبالأديب العلاّمة (عبد القدوس الأنصاري) فالفقيد يكاد يكون عمدة الأدباء وهمزة الوصل مع أدباء الحجاز، الذين يكبرون نجد لماضيها المجيد. ولما زار (الأنصاري) القصيم بدعوة من النادي، كان حريصاً على الوقوف على الآثار والأماكن التي جاء ذكرها في الشعر العربي القديم، فكان أن صحبه.

وكتابه عن (أبي مسلم الخرساني) بوصفه جهداً أكاديمياً، تقصَّى تاريخ القائد الذي حقق انتصارات واسعة، ومكّن لبني العباس، ولكنه أخفق في حق نفسه حين تطلع إلى ثمن باهظ للانتصارات التي حققها، وحاول أن يجعل للعنصر الفارسي مكاناً يقدم المكان العربي، ونكبة (أبي مسلم الخرساني) حلقة في سلسلة الصراع العرقي بين العرب والفرس، وكانت (نكبة البرامكة) أخطر الحلقات وأهمها، لقد عالج الموضوع بمنهجية وآلية، أضافت لتاريخ القادة مزيداً من الحقائق، ولما لم أكن معنياً بذات (أبي مسلم) فإنني معني بالصراع العنصري الذي استطاع تهميش العرب، وتمكين العناصر الأخرى من إدارة دفة الحكم، فحين فقد الفرس دورهم جاء العنصر التركي مبتدراً الزعامة.

والصراع العرقي الذي خاض الفقيد لجه مليء بالأحداث الجسام والتحولات العقدية والفكرية والاجتماعية، والصراع الشعوبي، وإدارة دفة الحديث دون ميل مؤثر حكمة ومعرفة، وذلك ما لمسته في دراسات الفقيد، فهو بحق يمثل المثقف بكل أبعاده، لأنه المتخصص في التاريخ، والآخذ من كل شيء بطرف، والمثقف بالمفهوم الحديث: من يعرف كل شيء عن شيء، ويعرف شيئاً عن كل شيء.

ولأنه مأخوذ بالجد والوقار وحفظ الوقت فقد عزف عن الترف، واستغرقه الجد، فما رأيته يوماً إلا قارئاً، أو متحدثاً عما وصل إليه، وكان يحدثني عن خصائص بعض العلماء، ويعطي كلمات تكاد تكون جامعة مانعة، فـ(الجاحظ) عنده دقيق الملاحظة و(المتنبي) يجمجم عما في نفوس الناس، وله دقة في الملاحظة حين يكتب أو يتحدث، لا

تكاد تخطئ مفاصل القضايا التي يتحدث عنها، ولقد يبلغ به الإنصاف والتوازن حدَّ الحياد، ولقد تذكرت حيادية (ابن تيمية) ووسطيته في الحديث عن (آل البيت) حتى لقد حسبه العاطفيون (ناصبياً) وما هو كذلك.

إن الموضوعية العلمية مطلب العقلاء، ومدرج الزاهدين بالأضواء، ولكيلا يستهلكني التأبين، فإنني سأتخذ طريقي إلى بعض منجزاته الأدبية والعلمية، تمشياً مع متطلبات الندوة، واحتراماً للموضوعية والمنهجية، وإن كان ما سبق جزءاً من الموضوع، ولكنه لم يتخط الذاتية المشوبة إلى الموضوعية الخالصة.

الوشمي بين جغرافيا الأدب وأدب الجغرافيا .. ! (٢)[1]

لقد كان الفقيد واحداً من أبرز الكتَّاب الذين عنوا بجغرافيا الأدب، وأدب الجغرافيا، وكتاباته تنم عن ذلك، ولم يكن هذا الميل واعياً بالقدر الكافي، بل هو نزوع فطري، أو يكاد يكون كذلك، وعبر مسيرته تنازعته الكسبية والموهبة، فكان أديباً حين يكتب التاريخ، ومؤرخاً حين يكتب الأدب، لقد كانت لديه موهبة شعرية مكبوتة، فهو لا يريد أن يكون مرتهناً لها، وكم من الشعراء من لا يود أحدهم أن يُعْرف شاعراً، ولهذا يحاول تكريس نفسه في المشهد أديباً أو مؤرخاً أو ناقداً، ولقد ضرب في تلك المهايع بسهم، وكان حاضراً في مشاهدها، وحين يؤذن لأعماله الشعرية بأن ترى النور مجموعة في ديوان، يعرف المتابع مبلغه من الشعر.

فـ(الشافعي) كان شاعراً خطفه العلم الشرعي. و(ابن حزم) كان أديباً رقيق الحواشي اختطفه الفقه الظاهري، و(ابن القيم) كان أديباً وشاعراً حاد به عن جادة الأدب علاقته بشيخه (ابن تيمية) فمن الذي حاد بالشاعر عن الشاعرية، أهو الوقار الذي يتمتع به أبوه المرحوم (سليمان الوشمي)، أم هي طبيعة التخصص؟ لقد ترك شعراً جميلاً، لو تعهده لكان من أبرز الشعراء، ولأنه لم يكن مهتماً بهذه السمة فقد مات، ولم يفكر بجمع شعره فضلاً عن إخراجه للناس، ولقد نهض بهذه المهمة ابنه الأستاذ (عبد الله) وهو الأقدر على تلافي ما فات.

واعتناء خلفه بالتنقيب في الصحف والمجلات، وجمع هذا الشعر، وإخراجه للناس مؤذن بعده من الشعراء الشباب الذين وصلوا حبالهم بعمالقة الشعر الحديث. إنني واثق من أن ناقداً من محبيه سيحصل على مخطوطة شعره، ويجلي خصائصه، وأبعاده الموضوعية والمناسبات التي فجرت موهبته الشعرية، وحينئذ يدخل عالم الشعراء، في وقت متأخر، وبعد فوات الأوان، وحين درس الدكتور (إبراهيم المطوع) شعراء القصيم في رسالته العلمية، أخرج شيئاً من شعره، وجلّى شيئاً من خصائصه، وهو الأقدر على استكمال المشوار.

وأنا واثق أن دارساً سينقب في الصحف والمجلات، ويجمع دراساته النقدية، ويقف من خلالها على ناقد موضوعي، يهتم بالقيم الدلالية، وأنا أكثر ثقة بهذه الندوة التي جاءت متأخرة؛ فهي التي ستذكِّر المشهد بعالم وأديب وشاعر جهل نفسه، أو قل زهد بالأضواء فجهله الناس، أو كادوا، فالفقيد وقف حياته على الكتابة الموضوعية المتوازنة، وكان احتفاء مجلة (المنهل) به في وقت مبكر سبباً في مواصلة بحثه في القضايا الجغرافية والتاريخية وجنوحه إلى تأديب التاريخ.

إن شغفه بالتاريخ والجغرافيا صرفه في وقت مبكر عن الأدب الخالص، ولكن موهبته الشعرية ونزوعه الجمالي ظلا في صراع مع جفاف العلم، فكان أن خفق بجناحي النفع والإمتاع، فالأدباء يعدونه أديباً والمؤرخون يعدونه مؤرخاً، وأخوف ما أخاف عليه أن يقع بمثل ما وقع فيه (علي الطنطاوي) الذي نفاه الفقهاء لأنه عندهم أديب، ونفاه الأدباء لأنه عندهم فقيه، فظل كما الأعراف، ولقد اشتكى من هذا النفي، وعدَّه من الأحكام الجائرة، وإلمامه الموضوعي بكتب الأدب والأدباء الموسوعيين شده إلى روح الأدب.

لقد كان راعياً للتراث، يعيد قراءته بين الحين والآخر، ومن ثم كانت له إضافات سديدة، فالناس يقرؤون (بخلاء) (الجاحظ) للتسلية والتندر، وهكذا كنا جميعاً؛ فـ(الجاحظ) ساخر يختلق الحكايات ويلصقها بالمشهورين بالبخل، لكن فقيدنا قرأها بعين أخرى، لقد

---

(١) تاريخ المقال: ٢٧/ ٢/ ٢٠٠٧

ركز على بعدها الاجتماعي، وكأنه سبق مرحلته في استثمار النسق الثقافي، وكأنه عرف (النقد الثقافي)، قبل أن يعرفه الناس، كان يحدثني عن فكرة الكتاب، وكنت أقول له لا تُمِتْ لحظات الهزل بجد البحث، كتاب الجاحظ للتندر والسخرية، ولكنه يأبى إهدار هذا الجهد، ومن ثم أخرج كتابه عن بخلاء الجاحظ بمنهج وآلية جديدتين مستخدماً منهج علماء الاجتماع مستثمراً النوادر والحكايات، لاكتشاف الحياة الاجتماعية في عصر الجاحظ.

هذه الرؤية الواعية تؤكد دقة الملاحظة، وتخطي النمطية والتراتب في توارث الظواهر، فهو لا يكتب عن النوادر من حيث هي نوادر، ولكنه يبرز القيم الاجتماعية والتاريخية في كتاب (الجاحظ)، والكتاب كما وصفه الأستاذ الدكتور (سعد أبو الرضا) (محاولة للدخول إلى جانب من فكر الجاحظ، يتمثل في الكشف عن بعض ملامح هذا الفكر الاجتماعية والتاريخية)، والكتاب أخرجه المؤلف قبل إكمال دراسته العليا.

لقد عد كتاب (الجاحظ) تأسيساً مبكراً لعلم الاجتماع، وهذا ملحظ ذكي أدى إليه عمق التصور وتجاوز الظواهر إلى البواطن، ولهذا يقول: (هكذا وجدت (الجاحظ) في كتابه البخلاء، وقد يبني جسوراً حاضرة إلى حاضرنا)، ثم راح يعدد سمات (الجاحظ) وخصائصه الأسلوبية من خلال كتاباته في (البيان) و(الحيوان) و(البخلاء)، والتواصل مع (الجاحظ) مؤشر ذكاء واقتدار ف(الجاحظ) يضرب بسهم وافر في شتى الفنون والمعارف، وهو المستطرد المحير لمن لا يتقن فن التلقي، وبخاصة أن ل(الجاحظ) نزوعاً فلسفياً.

أعمق فصول الكتاب وأجملها (الفصل الثالث) الذي تحدث فيه عن كمون (الجاحظ) بنفسه القصصي وراء قصصه التي اختلقها أو حولها من وقوعات إلى ظواهر، ومنحها الحيوية من روحه القصصية، لقد حولها إلى قصص فني جميل، وفي تساؤله عن دوافع كتابات (الجاحظ): هل يكتب من مجتمعه إلى مجتمعه؟ وكأني به يستلهم مقاصد المناهج اللغوية الجديدة التي تتحدث عن اللغة باللغة، والكتاب الذي لم يتجاوز المائة وستين صفحة، زاخر بالقيم الدلالية والمنهجية والنتائج المثيرة.

لقد حظي (الجاحظ) بخدمة معرفية وفنية، صدرت عنه وعن كتبه عشرات المؤلفات، ومئات الدراسات، ولكن يظل هذا الكتاب الصغير إضافة متميزة، تدل على قراءة معمقة لكتاب البخلاء الذي يمر به الناس على أنه من الكتب المسلية. لقد أثير حول (الجاحظ) لغط كثير، وجعله البعض ذا نفس شعوبي، وأنه ناقم على العنصر العربي، والحق أن (الجاحظ) مستهلك لفنه لا تعنيه العرقية ولا الطائفية، هو معتزلي، وهناك رقة (جاحظية) تنسب إليه، ولكنه الكاتب الساخر، وثقافته الواسعة تعتقه من وعي انتمائه.

إن اهتمام (الجاحظ) ثقافي صرف وفكري خالص، حتى لا يكاد يهتم بشيء غير المعرفة المجردة، وهذا ما حاول تحريره المؤلف في استهلالاته وخواتيم دراساته، وليس يعنينا (الجاحظ) من حيث اعتزاليته أو شعوبيته، إن الذي يهمنا ما تركه من تراث خالد، تناول فيه حيوات العلماء والأدباء والدهماء، ولم يكن في شيء من ذلك متحيزاً، وإنما هو متحرف للمعرفة المجردة.

لقد ساقته الأقدار بالصدفة، أو بالاختيار والقصد إلى دراسة شخصيتين مشبوهتين (أبي مسلم الخرساني) و(أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ) فالأول تجره أعراقه الفارسية، والثاني تتنازعه اهتماماته الثقافية، وكل واحد تدور حوله اتهامات مؤثرة. ف(أبو مسلم) في المجال السياسي و(الجاحظ) في المجال الفكري والشعوبي، فلم يكن متحاملاً عليهم، ولا منخدعاً ببعض هفواتهم، وهو حين أنجز كتابه عن بخلاء (الجاحظ) لم يشأ الخوض في كل جوانبه، وإنما اختار ما يخدم ميوله، وإن كان قد شاركه في هذا الهم الدكتور (محمد بركات أبو علي) في كتابه (سخرية الجاحظ في بخلائه) فقد تناول في

بعض فصوله البخلاء من خلال حياتهم الاجتماعية، ولكن (الوشمي) يختلف عن سلفه، فهو الأكثر استحضاراً للمنهج الاجتماعي والتاريخي في دراسته لمادة الكتاب.

والبخل والبخلاء مادة أصيلة استثارت علماء سبقوا (الجاحظ) ك(الأصمعي) و(أبي عبيدة) و(المدائني)، ولقد أثارت هذه الظاهرة الاجتماعية النزعة الشعوبية، فالشعوبيون يحطون من قدر العرب، و(الجاحظ) لاشك أنه يستحضر هذه النزعة، ويعرف تصييد مثل هذه الخصال لوصم العرب بها، ولكنه لا يحمل الهم الذي يحمله الشعوبيون، وإن كان قد استفاد من علمهم، وما يشيعون من مثالب، و(الوشمي)- رحمه الله- مستوعب لكل هذه الظواهر، ولكنه يتعامل معها بموضوعية، وليست تشغله بالقدر الذي تشغل أطراف القضية، ومن ثم فلم يقف عندها، وإنما ألمح إليها، ومضى حيث يريد من معارف تخدم الهدف الذي من أجله أنشأ هذا البحث، وأخرجه للناس في كتاب.

لقد أوحى إليه منهج الجاحظ بإعداد كتاب منهجي متميز هو كتاب (ولاية اليمامة) دراسة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية، وهو قد فعل مثل ذلك في كتابه (طريق الحج العراقي، لقد تناول في الأول الظواهر الاجتماعية والاقتصادية والصناعية والعناصر البشرية، وكافة الأحوال، وهي دراسة معمقة وشاملة، وحديثه جمع ما تفرق من تاريخ اليمامة السياسي والاجتماعي، وتقع الدراسة في أربعمائة صفحة، مزودة بالخرائط التوضيحية.

ما أثار إعجابي اتقانه لصناعة الكتاب على أحدث الطرق، من حيث الخطة والمنهج والهوامش والمراجع، وسائر متطلبات الكتاب بصورته الحديثة، فعل ذلك وهو بعد لم ينه دراساته العليا، وذلك مؤشر استكناه مبكر لتحولات صناعة الكتاب في العصر الحديث، ومثل هذا الإتقان مؤشر ثقافة تجاوزية لا تقف عند حد المتداول، وإن كان تراثياً لا يبرح محيط التراث، ومتحفظاً لا يبيح للمستجد أن ينتزعه من عقر داره، واهتمامه المتجذر بالتراث حمله على تعقب مسارح التراث من جبال وأودية، فحين يكتب عن (اليمامة) و عن (طريق الحج العراقي) أو عن (الجواء) فإنما يكتب عنها بوصفها ظروف مكانية، ولأنه لا يكتب إلا فيما يعده إضافة، ولحرصه على التقصي والتمحيص، فقد كانت له استدراكات عازمة على المتقدمين والمتأخرين من (البلدانيين)، حتى أنه عقد في كتابه (طريق الحج العراقي) فصلاً عن (أوهام في تحقيق بعض منازل الحج في المنطقة) ومثل هذه الاستدراكات مؤشر استقلال في المعلومة.

لقد أشرت إلى علاقة الود وتبادل الخبرات، ولكن العلاقة تجاوزت ذلك إلى المشاركة، فقبل ثلاثة عقود عنَّ (لإمارة منطقة القصيم) تقديم لمحة عن المنطقة بمناسبة زيارة سفراء العالم إلى القصيم، فكان أن أعدت معه كتيباً عن المنطقة تحدثنا فيه عن وجوه التنمية، وعن مدن القصيم وقراه وهجره، وطبع الكتيب، وتم توزيعه، وكانت النية تتجه صوب التوسع فيه، إلا أن كتاب العلامة (محمد بن ناصر العبودي) قطع قول كل خطيب، ثم جاءت فكرة (هذه بلادنا)، التي أصدرت سلسلتها رعاية الشباب، وكان لي شرف الإسهام في صياغة أهدافها وضوابطها مع الأستاذ (محمد القشعمي).

وقد كلف الفقيد بالكتابة عن (الجواء)، في وقت مبكر، إذ أخذ الرقم الثالث من الإصدار، فيما كلفت بالكتابة عن (بريدة) وكان مقرراً أن يأخذ الرقم الأول، لولا بعض الظروف العملية التي حالت دون ذلك، فكان الإصدار الثاني، فيما جاء كتاب (حائل) الإصدار الأول، وتوالت الإصدارات حتى تجاوزت المائة، ولما تزل تصدر، وهي بحث مشروع يحسب لصاحب السمو الملكي الأمير (فيصل بن فهد بن عبد العزيز) رحمه الله.

وبودي لو أعيد النظر في هذا المشروع المتميز، وأعيد تنقيح الإصدارات، وإصدارها في موسوعة واحدة، بعد استكمال المدن والقرى.

من الكتب القيمة التي صدرت بعد وفاته بجهد أبنائه، وكان لي شرف تقديمها للقراء، رسالته للماجستير (الآثار الاجتماعية والاقتصادية لطريق الحج العراقي على منطقة القصيم)، ولقد أشرت في المقدمة إلى الكثير من مشاريعه التي لم يمهله القدر لاستكمالها، ولقد عولت على أبنائه البررة في إخراج ما يمكن إخراجه، وكتابه هذا عمل أكاديمي محكم الخطة والمنهج، تتبع من خلاله هذا الطريق وأبرز لنا جوانب مما أهمله المؤرخون والجغرافيون أو أجملوا القول فيه، ولأنه من أبناء القصيم فقد كان أكثر دقة في الوصف والتحديد، وخبرته حفزته على تصحيح بعض الأوهام، وحدد لنا انعكاسات هذا الطريق على كل حيوات القصيم، ذلك هو زميلنا وصديقنا (صالح بن سليمان الوشمي)، رحمه الله، وبودي لو تفرغ له الناشطون من طلبة الدراسات العليا، فوفوه حقه الممطول، ونابوا عنا حين لم نكن بمستوى الحدث.

قَدَرُك أبا مُتعبٍ على قَدْرِك .. !(1)

علـى قـدرِ أَهـل العـزْم تَـأتي العـزائمُ

وتَــأْتي علـــى قَـــدرِ الكـــرامِ المكـــارم

نعم يا خادم الحرمين الشريفين إنها أقدار الرجال على قدر قاماتهم.

أَمِـــنْ كُـــلِّ شـــيء بَلغْـــتَ المـــرادا

ومـــن كـــلِّ شَـــأْوٍ شَـــأَوْت العبـــادا

فمـــاذا تركـــت لمـــن لـــم يَسُـــدْ

ومـــاذا تركـــت لمـــن كـــان ســـادا

لقد كنت بحق رجلَ الملمات، وإنسان المبادرات، يأتي موقفك في اللحظات الحاسمة، ويأتي نداؤك في المواقف الحرجة، وحق لمن خلفك من أبناء شعبك أن يرفع رأسه، لأنه لا يُرى إلا في المغارم وحمل المآسي. وإدراك المأزمين قبل أن يمزقوا.

لقد كانت الأحداث المؤلمة في الأيام السوداء، عندما احترب الأشقاء، وسالت الدماء، واستدبروا الأعداء فجاء نداؤك، يذكرهم بأيام الله، ففاضت دموعهم.

لقد أطلقت تحذيرك، ووجهت دعوتك، وأشهدت ربك على ذلك، فما كان من الأرض إلا أن اهتزت من تحت أقدامهم، ولم يجدوا بداً من الاستجابة لِصَيْحَة التوجع والتفجع، والسعي إلى الأرض المقدسة ليكون الله شهيداً عليهم فيما يقولون وفيما يتفقون عليه.

ولما أقبلت جموعهم سعيت ومن ورائك كوكبة من إخوانك ورجالات حكومتك، لتثبتوا الأفئدة، وترشِدِوا المسار. وتخففوا من الاحتقان، فكان ذلك الدعم المعنوي سكينة، تثبت الأفئدة والأَقْدَام، وتهيئ الأجواء، وتهدئ الروع، وتغمد السلاح.

لقد جاء الصراع بين أصحاب القضية مخيباً للآمال، ولم يكن أحد يتوقع أن يلتقي الفلسطينيان بسلاحهما، ومن أجاء نداء خادم الحرمين الشريفين محتدماً، بحيث لم يدع فرصة للتفكير أو المراجعة فهب القادة ملبين للنداء مستجيبين للدعوة، وكان اللقاء الذي حقق نجاحات سرَّت الأصدقاء وأساءت للأعداء، نعم إن النجاح الذي تحقق في (لقاء مكة المكرمة) بهذه السرعة، وبهذه الضوابط، وبهذا القدر المذهل، والعهد الذي قطعه المؤتمرون على أنفسهم، وأشهدوا الله عليه يعد فتحاً مبيناً، ونتائجه فجرّت موهبة الشاعر الكبير غازي القصيبي الذي انطلق على سجيته ليقول:

هـــو فـــتح قـــد تحمســـنا لـــه

وحمـــاس الفـــتح أغلـــى الأمنيـــات

وكيف لا تكون النتائج بهذا الوزن و(الأقصى) بكل جراحه النازفة نظر إلى مملكة الإنسانية ممثلة بقائدها العربي الأصيل وأطلق صيحة الاستغاثة (واعبد الله) فلامست نخوة (المعتصم) فكان أن استنهض همته واستدر إنسانيته فجاء نداؤه المدوي الذي أخرس الألسنة الشريرة وأغمد الأسلحة القذرة، وحقن الدماء البريئة، وفك الاشتباكات الباغية.

---

(١) تاريخ المقال: ١٠/ ٢/ ٢٠٠٧

إن الأجواء التي أحاطت بإعلان الاتفاق أجواء إيمانية روحانية حَفَّتْها بركات الزمان والمكان، وعطرتها آيات الذكر الحكيم ذات الدلالات المناسبة للموقف.
لقد كان اجتماعكم يا خادم الحرمين مع الفصائل الفلسطينية اجتماعاً مبروراً، والله المسؤول أن يجعل تفرقكم تفرقاً معصوماً.
واستهلال إعلان النتائج بآي من الذكر الحكيم جاء مذكراً بواجب القادة الناصحين لعقيدتهم وأمتهم:

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾

ونداء خادم الحرمين الشريفين للمقتتلين استجابة لهذا الأمر الرباني، والرجال الكبار يكون أحدهم أمة وحده، لأن عمله من حيث الفخامة والنفع العام يكون بحجم عمل الأمة ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ وكل من تحمل همَّ أمته وسعى في إصلاح شأنها جدير بأن يكون بوزن الأمة في أفعاله وفي تأثيره وفي استجابة الناس له.

وإذ أمر الله بالدعوة إلى الخير فإنه قد نهى عن التفرق والاختلاف ﴿وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ ومرتكزات نداء خادم الحرمين الشريفين تقوم على: (الدعوة إلى الخير) و(عدم التفرق والاختلاف) ولا تتعدى إلى مصلحة أو نفوذ أو احتواء أو تسلط، إنه بذل لوجه الله لا يراد منه ولا به إلا الدار الآخرة، وما كانت المملكة في يوم من الأيام ساعية لاحتواء أو نفوذ.
ونجاح الفصائل الفلسطينية في استجابتهم لدعوته الإنسانية والخروج من اللقاء بنتائج إيجابية فوتت على الأعداء المتربصين فرحتهم وقطعت دابر الشر المستطير الذي كاد يعصف بالقضية العربية والإسلامية قضية فلسطين وشعبه المتعذب بالاحتلال والشتات والسجون والمداهمات.
لقد خرج المؤتمرون بقرارات مصيرية لم يتوقعها المراقبون، تمثلت بتحريم الدم الفلسطيني، والحيلولة دون الصدام المسلح، والتأكيد على أهمية الوحدة للصمود والتصدي وتحقيق الأهداف واعتماد لغة الحوار لحل أي اختلاف، وسيترتب على تلك النجاحات:
تشكيل حكومة وحدة وطنية ظلت معلقة، وإصلاح المنظمة المرتبكة، والتمكن من الشراكة والتعددية السياسية واستعادة الحقوق الممطولة من عدو ماكر متغطرس والتفرغ للملفات المهمة المتعلقة باللاجئين والأسرى والمساجين المعتقلين والجدار العنصري والاستيطان البغيض وفلسطينيي الشتات،
إن أمام المؤتمرين مسؤوليات جسام لا يمكن تحقيقها إلا بالوئام التام ونبذ الخلاف فضلاً عن المواجهة العسكرية.
ولأن المؤتمرين أدركوا قيمة النداء وأهمية اللقاء الذي هيأت له المملكة الأجواء المناسبة فقد تذكروا أدوار المملكة الإيجابية منذ النداء الذي أطلقه (الملك عبد الله) ومن ثم أشاروا إلى مبادرة (الملك فهد) -رحمه الله- عام ١٩٨٢م وهي مبادرة حصيفة وضعت قواعد سياسية لكافة القضايا الفلسطينية، وتلتها مبادرة المملكة في (قمة بيروت) التي وصفها الرئيس الفلسطيني بالمبادرة الشجاعة، وتأتي دعوة خادم الحرمين الشريفين ل(لقاء مكة المكرمة) الذي تمخض عن حلول جذرية ودائمة لم يتوقعها المتفائلون فضلاً عن المتشائمين. وشهد خطواتها الأخيرة وبيانها العالم بأسره عبر القنوات الفضائية،

واستقبلها الشعب الفلسطيني بالبهجة والفرحة، وأضافها إلى حسنات المملكة قولاً وعملاً كما سيترتب عليها من حقن للدماء ورفع للحصار ودافع لمعالجة القضايا المصيرية.

لقد جاءت كلمات الثلاثة (عباس، ومشعل، وهنية) المرتجلة تنضح بالفرحة والابتهاج والثناء والشكر.

فكلهم فرحون لأن الأجواء التي هيئت لهم والمكان والمكانة ساعدت على استباقهم للاتفاق ونبذ الخلاف وتناسي المآسي.

فأرض القداسة والطهر وحرمة الدماء قمعت فيهم العناد والاستبداد والإصرار على المواقف الذاتية ومكانة المملكة وثقلها العربي والإسلامي والعالمي وتأثيرها حَلْحَل القضايا من أماكنها القصيَّة وحركها صوب التقارب، الأمر الذي أعطى اللقاء ما هو بحاجة إليه، ومن ثم جاءت القرارات متجاوزة للأثرة إلى الإيثار، فاللقاء توفر على مناخات ملائمة وحرية فلسطينية في التداول والنتائج، فما كان دور المملكة إلا الرعاية والحماية واحتضان المؤتمرين في أجواء قدسية وتجهيز منصة مباركة للحوار، وفريق يتردد كل لحظة للاطمئنان والحيلولة دون أي نزاع يُفشل اللقاء، لقد جاءت الأعمال والنتائج على قَدْر الراعي وقَدَره أن يكون في جفن الردى وهو نائم.

لقد خاطب رئيس السلطة الفلسطينية خادم الحرمين الشريفين ب(ياسيدي) وهو نداء له ما وراءه وقدره أن يكون سيداً باحتماله، كما اعتبر هذه الدعوة نابعة من الإيمان بقضايا أمته العربية والإسلامية ومن رجل مسؤول عن هذه الأمة ومصائرها يسعى بذمتها ويعينها على أعدائها ويدرأ عنها عوادي الزمن متى أيقظتها حروب الأعداء ويشعر بآلامها وآمالها وحمدا لله أن تكلل هذا اللقاء بالنجاح وما ذلك إلا بفضل المساعي النبيلة والقلوب الصافية والنوايا الصادقة التي سادت الأجواء من كل الأطراف، وكيف لا يهرول المؤتمرون صوب بعضهم وهم في بلد تهفو إليه الأفئدة ويستقبله المصلون وتحفه الرحمات ويخدمه فتية آمنوا بربهم وتحملوا رسالتهم وسعوا لإصلاح ذات البين.

ومن بعده جاءت كلمة (خالد مشعل) متمحورة حول ذلك النداء الإنساني الذي رقت له القلوب وذرفت منه الدموع. مستهلاً كلمته بآيات من الذكر الحكيم ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾، ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾.

فالمملكة ممثلة بقائدها الفذ لم تكن مناجاتها إلا بالمعروف والدعم والإصلاح، ومن ثم كان فضل الله عليها كبيراً وكانت رحمته التي ثبتت الأفئدة وأثلجت القلوب وأذهبت الحزن.

وإذا كانت بقاع كثيرة من العالم قد تعرضت للفتن ومسها الفقر واختل أمنها وسالت دماؤها فإن المملكة العربية السعودية نجت من هذه الويلات وما كان ذلك إلا بفضل الله الذي لا يظلم الناس مثقال ذرة ولكن الناس أنفسهم يظلمون، وكيف يعذب الله من امتثل أمره واستغفر لذنبه، وهل الأمان إلا بالطاعة والاستغفار ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، فمن أطاع الرسول كان كمن كان الرسول بين ظهرانيهم فكأنه فيهم وكيف يعذب الله من يصنع المعروف ولهذا استشهد (رئيس المكتب السياسي) بالأثر الصحيح: (صنائع المعروف تقي مصارع السوء) نعم لقد كانت للمملكة عبر تاريخها الطويل صنائع معروف متعددة ومتنوعة يشهد بها القاصي والداني.. صنائع جمعت بها الكلمة، وصنائع فكت بها الاختناقات، وصنائع ضمدت بها الجراح، وصنائع ملأت بها البطون الجائعة وكست بها الأجسام العارية وشفت بها النفوس

المريضة، وصنائع زرعت بها الأمن، وصنائع أطفأت بها الفتن.. طائرة شحن تجوب الآفاق، ومستشفيات متنقلة، ودعم مالي ومساندات معنوية لكل مسلم يمسه الضر.

أما (هنية) فقد استذكر دور مكة التاريخي لرأب الصدع ودرء الفتن وحاول أن يربط بين (رداء) الرسول ﷺ الذي وضع الحجر الأسود فيه ومكن زعماء القبائل من رفعه إلى موضعه من الكعبة وقد حال بهذا من اقتتال القبائل، واعتبر نداء خادم الحرمين الشريفين بمثابة الرداء الذي بسطه لتلتقي عليه الفصائل الفلسطينية لكي ترفع قضيتها من وهدة الفتن إلى سدة الاتفاق والمملكة الحمالة تمارس دورها العربي والإسلامي والإنساني لتجنيب الشعوب ويلات الحروب الأهلية، فعلت ذلك في أكثر من موقع فهي السباقة إلى جمع الكلمة ف(اتفاق الطائف) لما يزل يرن في آذان اللبنانيين، و(لقاء مكة) سيكون بمثابة لقاء تاريخي تحيل إليه الأجيال الفلسطينية عند كل اختلاف مثلما يحيل اللبنانيون لاتفاق الطائف.

وتحرير الكويت ودعم المجاهدين في سبيل قضاياهم المشروعة كل ذلك محسوب للمملكة وقادتها وأبنائها.

لقد انفض سامر المؤتمرين حول الكعبة المشرفة عن تصافي الفرقاء، والتقائهم حول كلمة سواء.

وكل المجروحين والمقهورين ونازفي الدماء انشدت قلوبهم وأبصارهم إلى مكة المكرمة حيث يلتقي قادة (فتح) و(حماس) وحيث يعلنون اتفاق مكة التاريخي ويتعاهدون عليه، ويشهدون الله على أنفسهم، ويلتزمون أمام خادم الحرمين الشريفين وسمو ولي عهده وكافة المسؤولين بتفعيل بنود الاتفاق ليكون فيه حقن الدماء وإغاظة الأعداء، كما قال راعي اللقاء والداعي إليه بكلمته المقتضبة. لقد عاهدوا وتعهدوا أمام خادم الحرمين الشريفين بأن يكونوا على وفاق واتفاق ونبذ للخلاف وحقن للدماء. ويوم أن ألَّف الله بين القلوب وأذهب غيظها وكبت أعداءها لم يبق إلا أن نثني على الله بما هو أهله على ما أنعم به على هذه البلاد من سعي في حاجات العباد ونسأله أن يعيننا على شكره وذكره وحسن عبادته.

رحيل الحداثي المتوازن .. ! (١) [1]

قدري - وهو قدر حميد - أنني أتداخل مع كل التيارات الملتطمة في كافة المشاهد، وقد يبلغ التداخل حدَّ الخلطة، مما أدى إلى مساءلتي باستغراب: لماذا تواجه (الحداثة)، وأنت تسترفد مناهجها وآلياتها، وتقترض تعبيراتها، وتسلم لبعض نتائجها؟ ويقيني أن سائلاً هذا مبلغه من العلم بحاجة ماسة إلى مزيد من العناية المركزة؛ لكي يعرف أن المذاهب ليست لها حيازات خالصة، لا تصلح إلا لها، بحيث لا يجوز لمخالفها الأخذ بها، أو الاستفادة منها. والحق أنه ليست لها منجزات خالصة لها من دون الناس، وليست بريئة من الاقتراض، فكل المنتج البشري قابل للأخذ والرد والإفادة والاستفادة، فما وافق رؤيتي وتصوري فأنا أحق به، ولقد فعل ذلك رسول الله - ﷺ - حين وجد (اليهود) في المدينة يصومون (يوم عاشوراء) شكراً لله الذي نجى (موسى) عليه السلام وقومه من (فرعون) وقومه، فقال: نحن أحق ب(موسى) عليه السلام منهم، أو كما قال. وكذلك أثنى على (حلف الفضول)، وهو حلف جاهلي. و(الحداثة) ظاهرة أدبية وفكرية، حسنها حسن وقبيحها قبيح.

أقول قولي هذا وأنا أقرأ في الصحف نبأ وفاة الناقد الكبير (عز الدين إسماعيل ١٩٢٩ - ٢٠٠٧م) عفا الله عنا وعنه، ولا أحسب وفاته مهمة ولا مثيرة إلا لذوي الشأن الأدبي، وما يتعلق منه بالتحولات اللغوية والشكلية والدلالية، وبخاصة ما يدعيه (الحداثويون) ويستأثرون به، وكأن غيرهم لا يصل حباله بالمستجد والمتغير والمتحوّل. لقد ضرب بسهم وافر في تلك المهايع، وكان ولاؤه للخطاب الحداثي، إلا أنه ولاء معرفي، محكوم بضوابطه التي حالت دون الاهتياج الأعزل، الذي أصاب أقواما آخرين، فأخربوا بيوتهم بأيديهم.

عرفت الفقيد في وقت مبكر، فشدتني إليه حصافته ورصانته، وكان قد بلغه عني من الأخبار ما جعله يتحفظ بعض التحفظ، وإن غلبت عليه المجاملة. كان ذلك في (القاهرة) منذ عقد ونيف، وتواصلت بعد ذلك اللقاءات، فكان في كل لقاء يقترب مني شيئا قليلا، ولكنه يعلم علم اليقين اختلاف الاهتمامات وتباين التصورات، كنت سلفيا من غير عنف، وكان حداثيا من غير صلف، فكان أن اقتربنا من بعضنا على حذر.

ولقد عرفت لداته ومجايليه، من أمثال (جابر عصفور) و(أحمد عبد المعطي حجازي) و(كمال أبو ديب) و(صلاح فضل) وعرفت فيهم الصلف والعناد والإغراق في التغريب، والإيغال في (الحداثوية)، وعرفت آخرين يشبهونه في التوازن والتمكن من أمثال (شكري عياد) و(عبد القادر القط) و(سهير القلماوي)، وكنت أود لو أتيحت فرص الحوار الحضاري الملتزم بين كل الأطراف، لتمكين المشهد النقدي من استيعاب كل الخطابات، وتفادي أي صدام يفوت فرص الاستفادة المتبادلة بين كل الفئات، لكن أساطين الحداثة لم يتفسحوا في المجالس، وإنما كانت رؤيتهم لمن خالفهم دونية، وقد يمتد بهم العناد إلى السخرية والاستخفاف والشللية المنغلقة على نفسها، وبعض أولئك يجاهرون بالخطيئات، ويجدون من الغاوين من يتبعهم ويشيع جنحهم.

ويقيني أن هذه الكبرياء الزائفة والتبعية الجاهلة هي التي أطفأت وهجهم، ولربما كان بإمكانهم أن يكسبوا الرأي العام، فهم الأقدر والأمكن والأكثر جلدا وإصرارا، ومتابعة، وأساطينهم كنف علم، ولو أن الساحة خلت للمتوازنين منهم أمثال الراحلين (عز الدين إسماعيل) و(شكري عياد)، لكان بالإمكان التقريب بين وجهات النظر، وتجسير الفجوات

---

[1] (١) تاريخ المقال: ١٣/ ٢/ ٢٠٠٧

التي عمقها الحمقى والمغفلون والتبعيون، وإذ أمكن التقريب بين الأديان والطوائف فإنه من السهل التقريب بين مذاهب الأدب، وبهذه الوسطية، اقتربت من (عز الدين إسماعيل) وقويت صلتي به، وعرفت أنه يجمع بين (الأصالة والمعاصرة)، وهذا ما قرره الدكتور (محمد عبد المطلب) في كتابه (عز الدين إسماعيل) في سلسلة (نقاد الأدب) وهي سلسلة رصدية توصيفية تأريخية توفر المعلومات وتقرب الأعلام، صدر من هذه السلسلة مجموعة من الدراسات عن طائفة من النقاد.

هذه السلسلة تصدر عن (الهيئة المصرية العامة للكتاب)، وكم كنت أتمنى أن تتولى (وزارة الثقافة والإعلام) بتنظيمها الجديد مثل هذه المبادرات المهمة، أملا في أن يأخذ أدباؤنا بعض حقهم الممطول في الزمن المواتي، فمشهدنا بحاجة إلى جملة من المشاريع الثقافية، كالمجلات المحكمة وسلسلة الموسوعات والمعاجم وسلسلة الكتب والترجمة والإصدارات الشعبية على شاكلة سلسلة (اقرأ) و(كتاب الهلال).

الشيء المثير في حياة الفقيد أنه شاعر متمكن وناقد أمكن، وقلَّ أن يجمع الأديب بين موهبتين متكافئتين، بل لقد زاد مريده الدكتور (محمد عبد المطلب) قدرة ثالثة سماها (التكامل الثلاثي) وهي: (نظرية الأدب) و(نظرية النقد) و(الأدب) بوصفه الإبداعي. والذين لا يغالبون فيوض المشهد الأدبي، ولا يتجرعون مرارات الفوضوية لا يعيرون القول ب(النظرية) أي اهتمام، فطائفة من النقاد لا يمتلكون أية نظرية، وكل عملهم خلط مربك، وأخذ من كل شيء بطرف، ومثل هذا التخبيص مخل بالذهنية، ومربك للمشاهد النقدية والأدبية، وكل مشهد لا تضبطه النظريات المحكمة يظل أهله في أمر مريج.

والفقيد نزّاع إلى المنهجية حفي بالنظرية متمكن من الآلية، ولهذا أصبح من المؤسسين للنظريات، و كنت قد أعددت قبل سنوات دراسة موسعة عن كتابه (الأسس الجمالية في النقد العربي)، وهو كتاب منهجي أنجزه قبل نصف قرن، ولما يزل يحتفظ بمكانته في المشهد الأدبي، وهذا الكتاب المتميز هو الذي نال به (جائزة الملك فيصل العالمية).

وحديثه عن الجمال والنفس تحرير لهمه التنظيري، الذي أسهم في ترشيد الحركة النقدية التي قادها إلى جانبه (مصلوح) و(فضل) و(عصفور) و(عياد) ومن قبلهم (مندور)، واقترابي منه قبل أن أتعرف عليه، بسبب ما كان بينه وبين (العقاد) من أواصر معرفية، تصدعت بعد صدور ذلك الكتاب، والأشد غرابة في أمره أنه أحب متناقضين: (الرافعي) و(العقاد)، أحب الأول لبيانه، وأحب الثاني لفكره، كان (الرافعي) مشدوداً بأمراس كتان إلى الأصالة العربية، وكان (العقاد) نزاعا إلى المذاهب الفكرية الحديثة مع تمكن من التراث، والفقيد انطلق من تلك القاعدتين، واتصاله المبكر ب(العقاد) وجهه صوب نظريتين سميتا تجاوزا بالاتجاهات:

-(الاتجاه النفسي).

-(الاتجاه الجمالي).

وقد ألف عنهما ما يعد تأسيسا معرفيا.

ودراستي لكتابه (الأسس الجمالية في النقد العربي) لم تنشر بعد، لأنني أنجزتها لمؤسسة ثقافية، وبها اكتشفت إمكانياته المبكرة واستشرافه المبكر، إذ ألف هذا الكتاب قبل حصوله على الدكتوراه فيما قبل عام (١٩٥٥م)، ومع أن دراسته العليا في الجامعات العربية، إلا أن تواصله مع الثقافة والأدب والنقد الغربي كان قويا ومتوازنا، والذي حداه إلى تحرير النظرية الجمالية، ما وقر في ذهنه من أن النقد الحديث يرى أن الأدب ذو بعدين: موضوعي وجمالي، وميزة الفقيد ربطه الجمال باللغة: صوتا ومضمونا، بحيث يراه في التكوين الأسلوبي والوصف الحسي، ولهذا كانت اللغة عنده مناط الاهتمام، ولم

يكن احتفاؤه باللغة استجابة للمناهج الحديثة، بل كان ذا رؤية واعية، سبقت اندفاعات الرجال الجوف والذواقين.

وكان (العقاد) من قبله قد وصف اللغة بالشاعرية، وألف كتابا في هذا الشأن، ومن بعدهما جاء (لطفي عبد البديع) فكتب عن (عبقرية العربية)، وهؤلاء الأساطين أدركوا قيمة اللغة ومكانتها التي نال منها (ميخائيل نعيمة) و(لويس عوض)، وصنمها البنيويون الذين قضوا بموت ما سواها.

والناقد الفقيد في دراساته الجمالية يفرق بين نقدين للجمال: النقد الذوقي، والنقد الحكمي، وقد سمى الأول ب(الشعبي)، وسمى الثاني ب(الاستاطيقي) وإذ ذهب الناقد الجمالي (رسْكن) إلى أن النفع لا يكون جميلا فقد اتخذ (عز الدين) الطريق الوسط، ومن ثم أصبح توفيقيا في هذا الأمر و(رسكن) فيما يذهب إليه مبالغ، ولا يمكن التسليم له. نعم، قد تؤثر النفعية على الجمالية، ولكنها لا تلغيها، والتراث النقدي العربي لا يستبعد اجتماع الجمالية والنفعية، وأقوى شاهد في الثقافة العربية (القرآن الكريم)، فهو في الذرى من كل شيء جمالا ونفعا وغناء وتغنيا، وهذا الاختلاف يدخل بنا في مجال تحديد وظيفة الأدب: أهي إمتاعية خالصة، أم نفعية خالصة، أم هي خليط من هذا وذاك؟. و(نظرية الأدب الإسلامي) تفصل القول في هذا، وقد تكون لنا عودة إلى هذه الإشكالية، التي لم يتعرض لها الناقد الإسلامي لدخولها في الفلسفة.

ولأن الفقيد متحمس للتأصيل الجمالي في النقد العربي، فقد بدأه من تخومه من (العصر الجاهلي) متقصيا المهاد التاريخي، ولكون الجمالية لا تتحقق بالعفوية فقد استدعى (نظرية الصنعة)، وعرض لتداول النقاد الأوائل، وتأكيدهم على مصطلح الصنعة، وحاول أن يحدد المفهوم المشروع الذي شكك فيه بعض النقاد المعاصرين، إذ يأنفون من القول ب(صناعة الشعر) و(صناعة الكتابة) مع أن الذين تداولوها من أساطين النقد العربي ك(العسكري) و(القرطاجني) و(قدامة) وأضرابهم يدركون المفهوم الفني للصناعة، ولا يقصدون التَّعمِّل الواعي، ول(شوقي ضيف) رؤية مفصلة في هذا المجال. وفهم المصطلح لا يثير مثل هذا التساؤل، ونظرا لإيمانه بإمكانية الجمع بين الجمالية والنفعية، فقد حاول تطبيق ذلك في كتابه (نصوص قرآنية في النفس الإنسانية).

رحيل الحداثي المتوازن .. ! (٢) [1]

و(عز الدين) الذي اتكأ على المشروع النقدي العربي، واستثمره أحسن استثمار، نقب عن الأسس الجمالية فيه، وحاول استقصاءها، كالأساس النفعي والأخلاقي والتاريخي والاجتماعي والنفسي، وهو حين غاص في أعماق المنجز العربي تصور أنه حل الإشكالية، وكأني به يرد على (ولسن)، وهو يتحدث عن مفهوم المكان والزمان للغة. ولكنه - فيما أرى - ما زاد الموضوع إلا تعقيداً، وستظل الإشكالية الجمالية قائمة في الأناسي واللغة، ولن يتبين احتباسها إلا من قرأ ما كتب عن إشكاليات الفلسفة، ومفهوم الجمال كمفهوم الحب والسعادة، معهود ذهني يتصوره الإنسان ولا يحده بوصف.

ومع أن (عز الدين) بذل أقصى ما يقدر عليه من أجل تحرير النظرية الجمالية، وعول على الفلسفة الغربية الحديثة، إلا أنه لم يستطع حسم الإشكالية، وستظل بانتظار مزيد من الدراسات العلمية، والدراسات الغربية عن النظرية مغرقة في الفلسفة.

قلت إن تواصلي مع الفقيد تكرر في مواقع كثيرة، كان من أهمها في الندوة التي نفذها (نادي جدة الأدبي) تحت عنوان (قراءة جديدة لتراثنا النقدي) عام ١٤٠٩هـ، وحضرها أساطين الحداثة والنقد الحديث، من أمثال (تمام حسان) و(جابر عصفور) و(سعد مصلوح) و(شكري عياد) و(صلاح فضل) و(عبد الملك مرتاض) و(علي البطل) و(كمال أبو ديب) و(لطفي عبد البديع) و(محمد برادة) و(مصطفى ناصف) الذي حصل هذا العام على (جائزة الملك فيصل العالمية) و(محمد الطرابلسي)، فيما حضرها من الجانب السعودي (عبد الله الغذامي) و(سعيد السريحي) و(عبد الله المعطاني) و(محمد مريس الحارثي) و(محمد الهدلق) والمشاركون المحليون اقتسموا الموقف من الحداثة، فكان للأولين اندفاعهما العنيف، وكان للثلاثة الآخرين توازنهم، وما أنا منها في شيء وإن رتعت في أفيائها، وجاءت ورقتي تحت عنوان: (ملامح الموروث في الظواهر النقدية المعاصرة).

وحين ألقيتها كان (عز الدين) أول المعلقين، بحيث فتح شهية الحداثيين للإيغال في النقد والتقليل من شأن الورقة وصاحبها، وقد سايرهم البعض وتردد آخرون، ولم أزد في الرد على تساؤل واحد، وهو أنني التمس الموروث في الظواهر، ولست معنيا فيما سوى ذلك، وليس هذا مقام الحديث عما دار في الندوة من خلافات حادة، فقدت فيها المصداقية، وطاشت سهام القوم، حتى لم يعد للمعرفة مكان. وليس بمستغرب ما دار من تعليقات ساخرة، فالزمان إذ ذاك زمان الحداثة، والمتحدثون من أساطينها، ووجود مثلي في هذا السياق يعد نشزا، ولقد شعرت يومها بما شعر به (جرير الخطفي) حين قال:

يا أيها الرَّجُلُ المُرخي عِمامَتَهُ
هَذا زَمانُكَ إِني قَد مَضى زَمَني

وفي رواية:

هذا زمانك فأستأذن لنا عمراً

لقد جاء تعليق (عز الدين) متمحورا حول مشكلتين إحداهما عامة، تتعلق بكل الأوراق المقدمة، والتي لم تقع منه موقع القبول، فأصحاب الأوراق يبدؤون الأشياء من بدايتها، ولا ينطلقون من حيث انتهى سلفهم. والأخرى خاصة بورقتي وخلاصتها: أن الورقة تمثل طموحا أكثر مما يتصوره، لامتلائها بالأحكام التي يشيب لها الرأس - على

---

(١) تاريخ المقال: ٢٠/ ٢/ ٢٠٠٧

حد قوله - ومن ثم فهو عاجز عن هضم هذه المجموعة من الأحكام، ومن المستبعد تسليمه لواحد من تلك الأحكام.

وحجته ما تصوره من أنني أقرر بأن كل ما هو موجود في الحاضر كامن في التراث. وما كنت فيما توصلت إليه أومئ إلى شيء من هذا المفهوم، ولكنني أشير إلى أن الهاجس التجديدي ساور التراثيين في وقت مبكر، وكانت لهم إلمامات مبكرة تدل على وعي تام بما يجب أن يكون، وضربت المثل بنظرية (النظم) التي حررها (الجرجاني) وقد أرهصت لنظريتين هامتين: (البنيوية) و(التحويلية)، ولو قرئت بتمعن، لكانت مثار دهشة وإعجاب، وهو قد طرحها لتكون ردا على (المعتزلة) الذين يقولون ب(الصرفة).

والحداثويون إذ ذاك لا يريدون للتراث أن يعيش حضورا في ظل الطوفان الحداثي الذي لا يتحقق في نظرهم إلا في ظل تهميش التراث وإقصاء الراحلين به لا إليه. ومرت الندوة بكل صخبها، وطبعت أعمالها ومداخلاتها في مجلدين، وهلك من هلك من أساطين الحداثة، وبقي من بقي خلفا كجلد الأجرب، ولما تزل القضايا المختلف حولها قائمة وبحاجة إلى مزيد من الدرس، وبخاصة بعد هدوء العاصفة، وبدو سوءة الحداثوية.

وعلى الرغم من هذا التحامل فإن الناقد (عز الدين إسماعيل) يظل علما من أعلام النقد الحديث بمؤلفاته ومقالاته وبحوثه وإسهاماته المتعددة. ولو لم يكن له من الجهد إلا مجلة (فصول) لكفته فخرا في كافة الأوساط الأدبية، لقد كانت نافذة يطل منها النقاد على كافة المشاهد الغربية، ويكاد يكون كل بحث فيها بمثابة كتاب، وميزتها أنها أعدت ملفات مهمة، جمعت فيها كل متعلقات القضية، ك(البنيوية) و(الحرية) و(الحداثة) و(جماليات الإبداع والتغير الثقافي) و(الأدب والإيديولوجيا) و(النقد الأدبي والعلوم الإنسانية)، وتلك الأعداد الخاصة تشكل أهمية في سياق المستجدات المتلاحقة، وفي خضم الصراع بين القديم والجديد، ويكفيها مكانة أن يكون من بين مستشاريها (زكي نجيب محمود) و(القلماوي) و(ضيف) و(القط) و(سويف)، ومن بعده تولى رئاستها (جابر عصفور)، فكان أن تعرضت لما تعرضت له مجلة (إبداع)، حين تركها (عبد القادر القط) ل(أحمد عبد المعطي حجازي)، وهكذا يكون مصير المؤسسات والمطبوعات حين لا يليها الوسطيون المتوازنون.

كان (عز الدين إسماعيل) حفيا بالجديد، ولكنه لم يكن مندفعا ولا مستهلكا لأي تيار غربي، بل حاول التأكيد على مكانة الثقافة العربية والأدب العربي، والتزم الوسطية في شأنه كله، لقد أكد دارسون لأدبه أنه يتمتع بصفتين (الوضوح) و(العمق)، يتمثل الوضوح عنده بالدقة والتنظيم، فيما يتجلى العمق في الاستغراق والاستيعاب والتفصيل.

وكتابه عن الجمال يعد مرتكز فكره، وكان تأليفه من أسباب انقطاعه عن (العقاد) ف(العقاد) يرى أن الجمال هو الحرية، وإذ لم يشر (عز الدين إسماعيل) إلى هذه الفلسفة فقد غضب العقاد على تجاهله في تلك الدراسة، وهذا دليل على أنه لم يكن صدى لأحد، وإن سايرهم في الاهتمام.

والحديث عن (عز الدين) يمتد إلى جوانب مهمة في مسيرته الأدبية، لقد كتب عن آداب الأمة العربية، وبخاصة في (السودان) و(اليمن) ومع إغراقه في الحداثة إلا أن إلمامه بالتراث ينم عن تأصيل مبكر، إذ كتب عن الشعر العباسي والمصادر الأدبية واللغوية، ولم تكن مجلة (فصول) حفية بالتراث بقدر احتفائها بالمعاصرة، وإنما هي مائلة للنقد الحداثي والألسنيات، والمذاهب الحديثة كل الميل. وفي مسيرته العملية حصل على أربع جوائز عربية، لعل من أهمها (جائزة الملك فيصل)، إضافة على ثلاثة جوائز من (العراق) و(الكويت) و(مصر).

ولم تكن زوجته الدكتورة (نبيلة إبراهيم) أقل شأنا منه، غير أن اهتمامها كان منحصرا بالسرديات، وهي أميل إلى الدراسات الشعبية والحكايات الخرافية، ولقد عدت من رواد هذا المجال المعرفي.

وكتاب (عز الدين إسماعيل) لمؤلفه الدكتور (محمد عبد المطلب) يحدد مساره النقدي والإبداعي، حيث تناول (النشأة والتكوين)، ومحصلة ذلك تغلب الثقافة العربية، وتحدث عن (الأصالة والمعاصرة)، ومحصلة ذلك حفظ التوازن، وتقصى (التحليل والتركيب)، ومحصلة ذلك تواصله مع مناهج النقد الحديث، وأشار إلى (التنظير والتطبيق)، ومحصلة ذلك الجمع بين سائر التيارات والاتجاهات والمناهج.

وإذ ملأ المشاهد في حياته، فإنه سيشغلها بعد وفاته، لقد ألف أكثر من عشرين كتابا عن الأدب وفنونه، والأسس الجمالية، والتفسير النفسي للأدب، وهي مؤلفات يؤصل فيها لنظريات ومناهج، أو يطبق من خلالها لنظريات ومناهج، ولم تكن إسهاماته المتعددة المواقع مجرد اجترار أو ترديد، وميزته التي مكنت له تمكنه من وعي التراث والمعاصرة، وغياب الوعي عند طائفة من النقاد فوت على المشهد التأسيس المعرفي الذي يفقد شطرا من المشهد الأدبي المحلي على الأقل، ما يؤخذ عليه - وما يؤخذ عليه قليل - أن سلطان الشعر قد طغى على دراساته، إذ لم أعهد له دراسات متعلقة بالسرديات التي شغلت زوجته.

وعلى الرغم من كل ما سلف، فإن فقد مثله يعد خسارة أدبية، ولا سميا في زمن استفحل فيه الادعاء، وفقدت المصداقية، وقل فيه المفكرون، وكثر الكتاب المنشئون، نسأل الله له المغفرة وللمشهد الخلف الصلح.

الموقف من العواد .. ! (١) (١)

هناك أدباء ومفكرون غفل عنهم النقاد والدارسون، فعبروا الساحة كأن لم يكونوا، وإن كانوا أحق بالحفاوة من أهلها، وآخرون أنضجهم النقد، وأشاعهم الدرس، وأحرقتهم الأقلام، مثلما أحرق بعض ذوي العلوم علومهم، حتى قيل: (النحو علم أحرقه النحاة)، وحتى أصبح الملتحقون في أقسام النحو والصرف في الجامعات لا يكادون يجدون ما يكتبون، كما الفقراء الذين لا يجدون ما ينفقون، فيتولون وأعينهم تفيض من الدمع حزناً. وليس شرطاً أن يكون من أُتي من أطرافه علماً من الأعلام، وإنما هي حظوظ ومنح، يؤتيها الله من يشاء من عباده، ويصرفها عمن يشاء. ومثلما يتهافت الدارسون على الأناسي، تراهم يتدافعون كذلك على الكتب، يتابعون طباعتها والعناية بها: تحقيقاً وشرحاً ونشراً منفردة أو على هوامش الأمهات.

وهذه الإفاضة والاستفاضة، لا تحكمها الجودة، ولا تحققها الأهلية، وإنما هي جهد الأشياع والأتباع الذين يخلقون من لا شيء كل شيء. فكم من عالم أهمله قومه، فعبر الساحة كأن لم يكن. وما صنع المذاهب والملل والنحل إلا الأتباع المتفانون في الإشاعة والتكريس. وكم من كتب قيمة لا يعرفها إلا صفوة الصفوة، وأخرى دون ذلك تطبع بالعشرات، ويدرسها المئات، وهي في سياقها مفضولة لا فاضلة، لا تعاب في ذاتها، ولكنها ليست بأحق مما سواها بمتابعة النشر. فهذا كتاب المرحوم (حسنين محمد مخلوف) رحمه الله، (كلمات القرآن تفسير وبيان)، وهذا كتاب (الأذكار) لـ(النووي) الذي قيل فيه: (بع الدار واشتر الأذكار).

وفي الأدب الحديث يعلو سهم كتاب (في الأدب الحديث) للأستاذ (عمر الدسوقي)، على سائر كتبه العشرة، إذ تلاحقت طبعاته، وهو دونها: مادة ولغة ومنهجية، وعلى مستوى السرديات نجد رواية (موسم الهجرة إلى الشمال) لـ(الطيب صالح)، ولسنا نعيب هذه الكتب، ولا ننتقص منها، ولكننا نعجب كل العجب من متابعة طباعتها، أو دراستها، دون غيرها مما هو أفضل منها في موضوعها، والحديث عن أي أديب يثير عند المتابع أكثر من تساؤل حول جدارته ومجالات درسه.

والشاعر الناقد المثير (محمد حسن عواد ت ١٤٠٠ هـ) رحمه الله من أولئك النفر الذين يظلون مشروع حديث مستفيض، لا ننكر أنه حظي بأحاديث قد يكون أكثرها عابراً، لا يضرب في العمق، وألفت عنه كتب طغت العاطفة فيها على الموضوعية، فكتاب (العواد قمة ومواقف) مجموعة مقالات تأبينية، ودراسة (الفلالي) في (المرصاد) لمختارات (الساسي) في كتاب (شعراء الحجاز في العصر الحديث) ولمختارات (جريدة البلاد) العدد الممتاز، ولم تكن دراسة شمولية لأعماله الشعرية، وكتاب (الخفاجي) و(شرف) تجميع لا تحكمه منهجية، أما الدراسات الأكاديمية فهي الأقرب إلى الموضوعية. ولست أشك أنه اليوم بحاجة إلى دارسين جادين ينقبون في عوالمه التي جاءت نشزاً في سياقه، والأخذ بأطراف قضاياه التي طرحها بعنف، وتفكيك قصائده التي أسرفت في الانقطاع شكلاً ولغة ومضموناً، وكتاباته المثيرة وآرائه المتطرفة، منذ أن فك الحرف حتى افتك منه الحرف، وهي وإن استفزت مرحلته فإنها لم تكن ذات أثر في المشهد، لخروجها عن حد المعقول والمقبول إذ ذاك.

ولقد كانت لي إلمامات عجلى بآرائه النقدية وإبداعاته الشعرية، وبمقالاته ورؤاه الفكرية والاجتماعية والسياسية، وهي إلمامات لا تفي بحقه، سواء اتفقنا معه، أو لم نتفق.

---

(١) تاريخ المقال: ٦/ ٣/ ٢٠٠٧

وأذكر أن إحدى المؤسسات الإعلامية أفردت له ملفاً، استكتبت فيه من لهم اهتمام بالأدب العربي في المملكة العربية السعودية، وكنت منهم، وما أن قلت ما أرى، مع أنه ليس بالقول الفصل، لم يرق ذلك لذوي الشأن، فكان أن نشروه مكرهين، محصوراً في زاوية ضيقة، ولم يحفلوا به كغيره. والموقف من (العواد) حين يكون متحفظاً أو متسائلاً لا يكون الموقف الفرد، ولا القول الذي لا معقب له. فالناس حين يختلفون حول القضايا يمنحونها مزيداً من الحضور والتألق، والاختلاف طريق التمحيص والتصحيح والتكريس. والناصحون للقضايا لا يجدون حرجاً من الدفع بها إلى أتون المشاهد، ليقول المهتمون عنها ما يعتقدون، فالمجاملة إخمال وإخماد لجذوة الفكر.

وأنا حين قلت ما أرى، لم أنفِ عن (العواد) اقتداره، ولم أغمطه حقه، ولم أتجاهل مكانته وأثره. وكيف أسمح لنفسي النيل من علم من الأعلام ورائد من الرواد، غير أني تحاميت الاندفاع العاطفي، وتوسلت بالمنهجية والآلية المناسبة لمثله، وحق مشهدنا علينا أن نصدقه القول، وأن نمتلك الثقة والشجاعة حين نتناول قضايانا أو كفاءاتنا الوطنية.

و(العواد) الذي دخل في ذمة التاريخ، لم يعد إنساناً رقيق الحواشي ضعيف البنية، بحيث ترديه كلمة عابرة أو رؤية متحرية، وليس من مصلحته ولا من مصلحة المشهد أن يتفق الناس على تألقه وسبقه، هو أديب وناقد وشاعر، وحياته الأدبية تمثل منعطفاً هاماً في مسار الحركة الأدبية في المملكة، غير أن هذا ومثله معه لا يعصمانه من طوفان الأخذ والرد. ومثله في صلفه وعنفه وإصراره لا ينجو من صلف وعنف مضاد. وكيف نقبل منه حدته وشدته، ثم لا نواجه ذلك بمثله؟ لقد كان رحمه الله عنيفاً إلى حد النزق، وكان محتدم المشاعر، فيه اعتزاز وصلف وكبرياء، يعتد بنفسه وبآرائه، ولا يدع مجالاً للرأي الآخر، وإصراره على آرائه، وإعجابه بنفسه لا يتيحان أي فرصة لمراجعته، وهو ممن يصرون على الرأي، ولا يفرقون بين الذات والرؤية، فكل مساس بآرائه يعده جرحاً لكرامته، وتهويناً من شأنه، وما دخل في معركة إلا بلغت الدرك الأسفل من المهاترات. كان ذلك مع (عبد القدوس الأنصاري) ومع (حمزة شحاته)، وما تركه من قول لا يرقى إلى الموضوعية، ولا يدفع بالقضايا صوب التحرير والتأصيل، وهو كمن يثير الصيد ولا يصطاده، وإن كان ثمة إضافة فإنه في تحفيز المشاعر وتوتير المشاهد، وتلك المعارك التي خاضها بضراوة مع ما هي عليه من صلف وعناد تعد مرحلة تاريخية من مراحل الحراك الأدبي، وليس من المصلحة تجاوزها ولا التعذير والتبرير لتجاوزاتها.

و(العواد) الذي جرفه تيار التجديد، لم يتخذ سبيلاً قاصداً في نقد التراث والمعاصرة، وإمكانياته الثقافية والفكرية، وإلمامه بالمتداول من قضايا الفكر والأدب، لم تمنحه السكينة، ولم تمكنه من وضوح الرؤية. والمتابع لإطلاقاته يدرك أنه لم يكن صاحب نظرية، وإنما هو صاحب هم، وكم هو الفرق بين النظرية المؤصلة المحررة للمسائل والهم الذي تجتاله العاطفة الجياشة. ولهذا لم يهتم بالتأسيس، بل اكتفى بالنيل من قضايا التراث ورموزه، لقد سخر من البلاغة العربية سخرية مرة، وتنقص من شعراء عصر الازدهار ك(المتنبي)، وتطاول على التراث واللغة، ولم يكن كغيره من عمالقة الاستغراب صاحب منهج ورؤية.

ف(لويس عوض) نال من اللغة بذكاء خبيث، و(ميخائيل نعيمة) مس اللغة بلجاجة وصفاقة، وتصدى له (محمد سرور الصبان) باستطلاعه لآراء شبيبة الحجاز. ونزوع (العواد) وثيق الصلة بما يدور حوله من معارك، وآراؤه - أو بعضها على الأقل - تعد صدى لحسيس المعارك في مصر. لقد أشاد بالآداب الغربية، وبَشَّر بها، ويبدو لي أنه الصدى الحاكي، ولم يكن الصائح المحكي، وإصاخته المستجيبة لما يدور في مصر والمهاجر الأمريكية، حملته على التهكم والسخرية والتنقص، من محيطه الأدبي. والتجديد

الذي يدعو إليه لم تتضح معالمه ومسائله، وهو إذ يكون متأثراً ب(العقاد) إلا أنه لا يتأمل تأمله، ولا يحلل تحليله، ولا يجادل جدله، وهو في تطرفه يشكل رأس الحربة لناشئة الحجاز الذين استبطنوا همه، ولم يسايروه في مكاشفته، لقد كان أكثرهم إقداماً، ولم يكن أحكمهم في مواجهة القضايا.

وكتابه (خواطر مصرحة)، هو حجر الزاوية في سيرته الأدبية ونزوعه الإصلاحي، إذ يراه (إنجيل) ثورته في نشر مبادئ الفكر الحر، ورسالة الأديب الإبداعي - على حد قوله -، وهو كتاب يتسم بالعنف والصدق معاً. لما أفضى به إلى الناس عاد ليعيب انطلاقته بنفسه، إذ وصفها بالعاطفية والارتجال، وحبذ العدول إلى التفكير والتأمل. وسرعة الاندفاع الذي وصف به نفسه حمله على مراجعتها، لقد واجهه المشهد بالتحفظ تارة وبالاشمئزاز تارة أخرى، الأمر الذي حمله على إعلان تراجعه عن بعض ما ذهب إليه، ولقد حمَّل مطلع حياته ما كان قد وقع فيه، وهو قد عوَّل على مقولة باذخة ل(نيتشه) خلاصتها أن نصنع التاريخ لا أن نقرأه، ولن تتأتى صناعة التاريخ - على حد قوله - إلا بالقوة والجمال، وسبيل ذلك الارتفاع فوق الذات على أجنحة الشعر، ومعوله لصناعة الحياة التفكير والكتابة. لقد كان محور الكتاب تحطيم الوهم والنفاذ إلى الحياة على قدمي (التفاهم) و(التعاون)، غير أنه أحس أنه بصلفه وإصراره وعناده يقصي الآخر، وينسف جسور التواصل والتعاون والتفاهم الذي يدعو إليه ويلح بالدعاء.

ولأنه في هذا الكتاب يتماهى مع ما سلف من كتب نقدية وتنظيرية مؤثرة فقد حدد مقاصده ومحاوره بقوله: (طرف من الفلسفة، وقبس من التاريخ، ومزيج من السياسة والاجتماع، ولمحات من العواطف، وتيار من التفكير) كتب جزأه الأول في العشرين من عمره، وهي مرحلة الانفعال، ونقحه وكتب جزأه الثاني في الخمسين من عمره، غير أن الكهولة لم تنج من صخب الشباب وانجرافه.

جاء الكتاب ثورة على التعليم عنيفة كأشد ما يكون العنف، وصفها أحد مجايليه بالجرأة وشذوذ الفكر والصراحة، وثورة على الأدب أعنف، لأنه في نظره يعيش بغير رسالة اجتماعية سامية، وبغير عناصر للبعث، وبغير هدف فكري بعيد، وبدون سلطة تتناول كل ما في الحياة فَتَزِنه وتصفيه وتطوره. وإذا كان كتابه الضجة قد بسط القول عن أهدافه فإن قصيدته (جنون الناقدين) تجمل هذه الأفكار، ولهذه القصيدة حكاية تكشف عن تواطؤ جيل الشباب على خوض معترك التجديد الذي لم يكن مقبولاً لدى الرأي العام إذ ذاك.

ومقدمة القصيدة تتحدث عن ظروف المخاض لقصائد أخرى من لداته أمثال (عبد الوهاب آشي) و(محمود عارف) و(حمزة شحاته) و(محمد علي باحيدرة) و(عباس حلواني)، والكتاب الذي فجر المشهد الأدبي، وليد تلك التجمعات الشبابية المتوقدة حماساً، حتى لقد تدارك أمره بعد مرور ثلاثين سنة، ولو قسنا المسافة الدلالية بين جزأي الكتاب، لوجدناها أبعد من المسافة الزمانية. والقصيدة المواكبة للكتاب جاءت في أول دواوينه الشعرية (آماس وأطلاس)، وهي ذات أبعاد رمزية وشكلية تخالف نمط القصيدة العربية، وتتسم بذات النفس الذي ساد سائر أعماله الإبداعية. فالشاعر يدير قضاياه الوطنية على لسان فتاة حسناء تحاوره. ولقد حملت حواريته اسم كتابه:

أرسل خواطرك الصرحية

واخترق حجب السكوت

وادع البلاد إلى الحياة

فهـــــــل يروقـــــــك أن تمـــــــوت؟

وتفكيك القصيدة المواكبة للكتاب، يكشف عن رغبة ملحة في الثورة الاجتماعية العارمة: (لا بد للبركان يوماً أن يُرى متفجراً.. لم لا تثور. وإنما خُلِق الشباب لأن يثور)، هذا النفس الثار المتمرد يسود كتابه وسائر إبداعاته، والمتفحص لأعماله الأولى من إبداع شعري وكتابات سردية، يخرج بسمة بارزة تكاد تواكب حياته، وهي الثورة العارمة على كل شيء، وذلك سر اعتزاله، وعدم تأثيره بالقدر المؤمل، لقد تجاوز مرحلته، ومن ثم انفصل عن مجتمعه كما لو كان غريب الوجه واليد واللسان. والدارس لأي رؤية لابد أن يربطها بسياقها وظروفها، فالمصداقية تتطلب استصحاب البيئة، لكيلا يكون هناك ابتسار يحرف الكلم عن مواضعه.

والكتاب بجزءيه لا يتسم بمنهج ولا بوحدة موضوعية، فهو كما سماه خواطر، فالموضوعات محكومة بما يخطر على باله من قضايا سياسية وفكرية واجتماعية وأدبية. وهو الأقرب إلى شتيت المقالات التي يجمعها الجنوح إلى التجديد المطلق وغير المحسوب، على أن (الجزء الأول) من كتابه لا يعدو كونه خواطر إنشائية متشنجة، تنحي باللائمة على الحجاز والحجازيين، وتمجد الغرب والشرق على حد سواء فـ(طاغور) لا مثيل له في أرض الحجاز، و(الثورة الفرنسية) هي المنقذة للحضارة الإنسانية، والخيالات والأحلام هي سبيل التصحيح والإصلاح، وكل حماسه الذي يبلغ حد التشنج لا يثير إلا الاشمئزاز، فهو جَلْد عنيف للذَّات، واستخفافٌ وسخريةٌ بكل ما يُسمع ويُرى. ولو أنه ترفق في نقده، وتبصر فيما ينقص حاضره، ورسم الطريق القاصد لأمته لكان أقرب إلى القبول وأجدر بالتعاطف. والعنف الذي اتسم به حَمَلَه على مراجعة النفس في (الجزء الثاني)، ولكنه في الجزأين أحدث فجوة حالت دون التعاطف معه وقبول رؤيته، ويبقى الكتاب مورد الدارسين، فهو جماع رؤيته السياسية والفكرية والأدبية، ولكنه يعكس التسطح على سائر القضايا التي تناولها.

الموقف من العواد .. ؟ (٢) [١]

وإلى جانب معركته مع ظواهر مجتمعه، نجد له معارك أخرى، ليست بأقل من تناوشه مع مجتمعه، لقد خاض عدة معارك أدبية، لم تحسم القضايا، ولم تنته بسلام، كان سداها ولحمتها التنازع والتنابز، والخروج من الموضوعي إلى الشخصي. والصراع الذي يحكم معاركه لا يخلو من فائدة، فالراصدون يلتقطون بعض الآراء التي ينزع إليها، وهي آراء موغلة في التجديد المتطرف وغير المشروط، وغير المحسوب. وإذا كانت تلك المعارك على صلة بما يدور من معارك أدبية في الوطن العربي، وبخاصة في مصر بين مدرسة (الديوان) و(أبوللو) في الثلاثينات من القرن العشرين، فإنها لم تكن بعمقها ولا بموضوعيتها، ولا بأثرها، ولم يتهيأ لها دارسون مثلما حظيت به معارك المدرستين، فـ(العقاد) وحده كتبت عنه عشرات الرسائل العلمية والكتب النقدية، ومئات المقالات والمحاضرات والدراسات، وشاعت كتبه في آفاق المعمورة، وهيئ له من الدارسين المتخصصين في مختلف المعارف، ما لم يتهيأ لغيره، حتى لقد أصبح العقاد علماً من الأعلام، وأصبحت آراؤه في متناول القاصي والداني، وليس كذلك (العواد).

ولا شك أن (العواد) يعوِّل على ما كان يدور من معارك، وبخاصة ما كان يثيره ثنائي (الديوان: (العقاد) و(المازني) حول المحافظين من شعراء الإحياء كـ(شوقي) و(حافظ)، والعواد لم يتخذ شاعراً بعينه كبش فداء، وإنما اتجه صوب الظاهرة الأدبية ككل، ولما كان المجتمع المكي دون المجتمع المصري في التواصل مع المستجد الغربي، فإنه لم يكن لمعارك (العواد) من الثراء والنتائج، ما كان لمعارك (الديوانيين) و(الأبوليين) و(المهجريين). وحيثما كان التواصل ممكناً ومباشراً مع الغرب عن طريق الترجمة والابتعاث، واستقدام المستشرقين للتدريس في الجامعات، يكون التأثير جلياً، والأثر واضحاً، وهو ما لم يتهيأ لـ(العواد) ولداته في الحجاز إذ ذاك، ولمَّا لم يراع الأنساق والسياق، فقد أوسعهم تقريعاً وتأنيباً، وكأن الفرص المواتية ألمت بهم، وفوتوها على أنفسهم وعلى أمتهم.

وهذه الإمكانيات المتواضعة والظروف غير المواتية تضع الدارس العاطفي في موضع حرج، وهو ما تعرض له كثير من الدارسين للعواد ولغيره، وهي ظاهرة في كثير من الدراسات المحلية والعربية، وبخاصة الدراسات الأكاديمية التي يجعل أصحابها من موضوعاتهم قضايا تخصُّهم، فهم معها في تزكية وتمجيد على حساب الموضوعية والمصداقية. وفي ظل هذه الظروف غير المحسوبة فُقدت المصداقية أو كادت في كثير من الدراسات التي تناولته، ولم تع ظروف مرحلته. وليس يعيب أي مشهد جاء قومه متأخرين ما هم عليه، إذا أدركوا ذلك، وعملوا على تلافيه. وأحسب أننا لو وعينا الواقع والإمكانيات، وانطلقنا منها بثقة، لكان بالإمكان تحقيق مزيد من النتائج، والمسيرة لا تكون قاصدة حتى يستبين المدلجون طريقهم.

ولهذا فإن الذين يتحدثون عن شاعر أو روائي يقدمون بين يدي الحديث تمهيدات عن البيئة المكانية والزمانية، وعن الأجواء السياسية والعلمية وأثرها في الشخصية المدروسة، وقد لا يكون المخفون بحاجة إلى شيء من ذلك. والحديث عن موئل العواد، وما اكتنف حياته حديث يتشعب، ولا يسهم في بلورة حياته الأدبية والفكرية، فهو قد تخطَّى البيئة بكل ما لها وما عليها، ووصل حباله بما وراء ذلك من مجتمعات مباينة،

---

(١) تاريخ المقال: ١٣/ ٣/ ٢٠٠٧

ومدارس أدبية وتيارات اجتماعية، تأخذ بأطراف من المستجد من الآداب وسائر العلوم والمعارف.

وهو بهذا التجاوز أحدث قطيعة مع بيئته التي احتوت لداته، وأثرت في حياتهم. والدارسون للبيئات يتوسلون بفرضيات لا تسلم لهم. فالعواد دخل الكتاب كغيره، ودرس فنون القول في المدارس النظامية مثلما فعل الشباب من حوله، وهو قد برز أديباً وشاعراً ومفكراً وناقداً وكاتباً اجتماعياً وسياسياً، فيما لم تتهيأ مثل هذه الإمكانيات لمن درس معه من أبناء مدينته، فإلى أي حد يكون تأثير البيئة العامة فيه؟

إن (العواد) ومن هم على شاكلته، يصنعون لأنفسهم بيئات مختلفة، ويحملون أنفسهم ما لا يحتمله غيرهم، ومن ثم يفوقون غيرهم، ثم لا يكون للبيئة العامة ذلك الأثر الذي يفترضه الدارسون ويطيلون الحديث عنه، ومن هنا يتبين لنا أن الأدباء يصنعون بيئاتهم الخاصة، ويأخذون أنفسهم بجد التحصيل.

ولأن (العواد) اتخذ طريقاً مغايراً، فإن ذلك لا يمنع من تأثير البيئة فيه، والرجوع إلى مقدمة كتابه (خواطر مصرحة)، ومقدمات بعض قصائده يؤكد أن المجتمع الحجازي مقبل على تحولات جذرية، سبقت العهد السعودي وواكبته، وبخاصة بعد المهاجرين السوريين الذين آزروا (الحسين بن علي) في دعوته القومية، والشبيبة الحجازية كانت لها آراء تقدمية، قد لا تكون ملائمة في وقتها المبكر، ولكنها هاجس الشباب الحجازي. وتعقب حياة العواد الأولى ينبئ عن تميزه بين أقرانه وإعجاب أساتذته به، ونهوضه بمهمة التعليم فور تخرجه من المدرسة، وهو حدث لم يبلغ الحلم.

أما شعر (العواد) فيقال عنه ما يقال عن شعراء التفكير والاقتدار، وكم هو الفرق بين الموهوب والمقتدر وبين العاطفي والعقلي، فالشعر ما يهز الشعور وشعر (العواد) كشعر (العقاد) ثري الدلالة، متعثر بالتأمل، منطفئ المشاعر متوقد الأفكار، في لغته معاضلة، وفي موسيقاه خفوت، لا يغالبه إلا الفلاسفة والمفكرون. وإذ لا نختلف حول شاعريته فإننا نختلف حول تألقه، وإن بادر إلى التجديد، واستبق الشعر الحر، لقد وطأ الأكناف لمن لحق، ولكنه لم يلحق بالمجددين من (الأبولين) و(المهجريين)، وهو قد وصل حباله بحبالهم، ونظر في مناحي تجديدهم، ولكنه تعثر بلغته العقلية وموسيقاه الخافتة، حتى عدَّه (الشنطي) من ذوي النشاز العروضي، وجمع بينه وبين (عبد السلام حافظ)، مع الفارق، فالعواد أقدر من زميله وأمكن، ولكنه لا ينجو من النشز الذي وصفه به، وإن ثمة سمعة يمتاز بها فهي في طول النفس، والنزعة الحوارية، والأخذ بطرف من (الوحدة الفنية).

ولقد أضر بشعره ما أضر بشعر (الديوانيين) فـ(العقاد) قعد به تفكيره و(المازني) أخمله اعتزاله و(شكري) لم يكن كما يشاع عنه، وإن كان الشاعر الأمكن بين الثلاثة، والذين درسوا شعره لم ينظروا إلى تلك المعوقات، بل سلموا له، وربطوا بين إبداعه المثقل بالمعوقات وتنظيره الباذخ وتوقعوا أن شعره لن يكون دون رؤيته، وذلك مكمن الخلل في استكناه مستوياته اللغوية والشكلية.

وشعره الذي جاء منجماً جمعه في مجلدين أو ثلاثة، ضم المجلد الأول دواوينه الثلاثة (آماس وأطلاس) و(البراعم) و(نحو كيان جديد). فيما ضم المجلد الثاني ثلاثة أخرى (الساحر العظيم) و(في الأفق الملتهب) و(رؤى أبولون)، أما الثالث الذي يضم (قمم الأولمب) و(في آفاق النسر) فلم أره، ولست أدري أمطبوع هو أم مخطوط؟ وأما ديوان (قمم الأولمب) فأذكر أنه طبع منفرداً، وديوانه (نحو كيان جديد) يمثل تحولاً إبداعياً متعدد الجوانب، ولكنه يظل مرتهناً للتجديد الموغل في نواحيه، وشعره كما يقول (العوضي الوكيل) وسط بين المعاضلة والتجهم والبساطة، وقرب المأخذ، فهو الأقرب إلى شعر

(العقاد)، وليست أمضي معه، فالعقاد أعمق من العواد، والشعر عندهما مأخود بالتفكير ولغة الفكر، وليس مستجيباً للغة القلب والعاطفة.

وتعقب الأبعاد الموضوعية التي تقصاها الدارسون ك(الحامد) و(الشنطي)، لا ترى من خلالها أن (للعواد) حضوراً شمولياً كغيره من الشعراء، وشعره يكاد ينحصر في الأبعاد الفكرية والذاتية والتأملية السياسية، وإن كانت له إلمامات أخرى، لا تشكل ظواهر دلالية كما هي عند غيره من شعراء البلاد، ولهذا فهو الأقل حضوراً في مثل هذه الدراسات، ودراسة (الخفاجي) و(شرف) تقطع بأنه يتجه صوب (الفانتازيا)، متخذاً في ذلك وسيلة اتصالية بالجماهير، وأحسب أن هذه الدراسة لم تكن عميقة ولا ذات منهج، إذ هي أقرب إلى التجميع، وعيب شعره في لغته المتجهمة وموسيقاه المنطفئة، لقد منح نفسه حرية الخلط الموسيقي فجاء النثر والمرسل والحر والتوشيح ومجمع البحور وما لا حصر له من التنوع الموسيقي المخل.

والمعذرون لا يستطيعون تبرير ذلك الخلل، وفي الوقت نفسه فإن المؤاخذين لا يستطيعون أن يطمسوا بعض إشراقاته الثلاثية: لغة ودلالة وموسيقى، غير إنها إلمامات لا يطول مكثه فيها، ولست أدري أعجز هو أم تخلٍ متعمد للخلوص مما يسميه تقليداً؟ وما هو إلا المحافظة المرهصة للتجديد، ولربما كان (الفلالي) أول من أشار إلى تحوله بالشعر من المتعة إلى النفع، وتمرده على الأساليب القديمة، وهو تمرد غير محسوب، و(العواد) بما ترك من أعمال شعرية، ودراسات ومعارك، يظل مشروع أخذ ورد، والذين أطالوا المكث في عوالم غيره من أدباء البلاد ومبدعيها يعرفون قدره، ولكنهم لم ينطلقوا معه على سجيتهم، مثلما يفعلون مع لداته، لقد جنى على نفسه، وعلى أدبه بهذا المنهج الذي اختطَّه لنفسه، وليس معنى هذا أنه لم يظفر بدارسين، ولكن قدره فوق ما هيئ له من دراسات ودارسين، ويبقى (العواد) ما بقي المشهد، وذلك مؤشر الاقتدار الذي سبق وقته.

الأنصاري ومجلته ودورهما في المشهد الثقافي .. ! (١) [(١)]

عند الحديث عن علم من أعلام الأدب والإعلام في المملكة العربية السعودية ك(الأنصاري) من خلال مفردة من مفرداته، كمجلة (المنهل) تنتاب المتحدث عدة خيارات، أمرها أحْلى، فكل جوانب العلاَّمة حلو وجذاب، لأنه جاهد في سبيل العلم والأدب حق الجهاد، وحمَّل نفسه من التبعات ما لا تحتمل، وواجه في سبيل ذلك العنت، وقضى نحبه قبل أن يعرف مجايلوه قدره، ومتحدث مثلي تجاذب معه أطراف الأحاديث، ولامس وجدانه، وتناوش معه، وعرف بعض قدره، تجره تلك العلائق إليها. فالأديب (عبد القدوس الأنصاري ١٣٢٤ - ١٤٠٣ هـ) رحمه الله، حاول أن يأخذ بيدي، ويضمني إلى مجلته، لولا نزوة الشباب ونزق الحداثة.

كانت أول معرفتي به وبمجلته، يوم أن أعارني المرحوم الدكتور (صالح بن سليمان الوشمي) عدد (المنهل)، في مستهل العقد التاسع من القرن المنصرم أي قبل سبعة وأربعين عاماً، ليحفزني على أن أكون وثيق الصلة بالمجلة وبصاحبها، يحاول الدعاية لها، ودفع القراء للاشتراك أو الشراء، ولقد كانت أعدادها تصل إلى ما دون العشرة من المشتركين في (بريدة)، وقد تصل إلى آخرين في مدن أخرى من المنطقة.

وحين فرغت من قراءة العدد، كتبت مقالاً تحت عنوان (على ضفاف المنهل) مستعرضاً فيه ما في المجلة من مقالات ودراسات، كان من بينها دراسة استعراضية لديوان (القلائد) للشاعر الجازاني (محمد بن علي السنوسي) رحمه الله، فما كان منه إلا أن احتفى بي وبمقالي، ونشره، وذيله بثنائه العطر وتشجيعه للواعدين من الشباب، ووعد بإهداء المجلة والديوان، لإعادة قراءته، ولما لم أكن على شيء من النقد وضوابطه وطرائق التحليل والاستنباط، فقد كتبت دراسة انطباعية ذوقية، فيها شيء من التحامل والاندفاع.

وطبعي ألا يروق له ذلك العنف من شاب أراد أن يجعل منه شيئاً مذكوراً، ولحرصه على إبقاء جسور التواصل، فقد أعاد الدراسة بخطاب رقيق الحواشي يذكرني بمكانة الشاعر وأصول النقد، ويود لو خففت من قسوته، ولأن للشباب حدته واندفاعه، ولأنني كنت على صلة ب(عبد الفتاح أبي مدين) وجريدته (الرائد) فقد صعدت الحدة، ودفعت بالدراسة إليه، ولما نشر المقال، ثارت ثائرة الشاعر (السنوسي) وأشياعه، ولام صديقه (عبد القدوس)، فكانت القطيعة التي امتدت زهاء عشرين سنة، حرمت خلالها من التواصل مع المجلة وصاحبها، كنت أحس فيها بالذنب والنَّدم، ولحرصي على إزالة ما علق في النفس، فقد سعيت لإرضاء الطرفين (السنوسي) بحكم الزمالة، بوصفه رئيساً ل(نادي جازان الأدبي)، و(الأنصاري) بحكم مكانته الأدبية واحتفائه بكلماتي، ولما عادت الأمور إلى مجاريها استضاف (نادي القصيم الأدبي) (عبد القدوس الأنصاري) لإلقاء محاضرة فيه، كما طبع النادي له كتاباً من كتب التراث، وحمدت الله على ذلك.

وبدأ التواصل مع المجلة من جديد، وتعهدت بتزويدها بمقال كل عام، هو كل ما أستطيع أن أفعله، ولما قضى (الأنصاري) نحْبه، وخلفه ابنه الوحيد (نبيه)، قويت الصلة، ولكن الموت استأثر بالابن، ليأخذ الراية الحفيد (زهير)، وعندئذ تشعبت مسؤولياتي واهتماماتي، ولم يكن بد من الانقطاع، مع الاحتفاظ بالمحبة لهذه الأسرة الكريمة، والتقدير لجهودها المتميزة.

---

(١) تاريخ المقال: ٢٠/ ٣/ ٢٠٠٧

وبعد أن اضطلعت بتدريس الأدب العربي في المملكة العربية السعودية في (جامعة الإمام) من قبل، وفي (جامعة القصيم) من بعد، كان (عبد القدوس الأنصاري) رائد الإبداع السردي، وإن لم يكن المجلي فيه، نمر به وبروايته (التوأمان)، ونمر بمعاركه الأدبية، ودراساته النقدية، وكتاباته التي يبادر بها، متناولاً ما يدور في المشهد الأدبي، وبعد رحيله أصبح موضوعاً لكل متحدث عن الأدب العربي في المملكة العربية السعودية وخارجها، نجد ذلك في كتابات (الحامد) و(الحازمي) و(الطيب الساسي) و(بكري أمين) و(الفوزان) و(ابن حسين) و(يحيى ساعاتي) و(عبد الجبار) وآخرين، يعلمهم المتابعون لتاريخ الأدب العربي الحديث في المملكة.

ولقد توجت هذه البحوث بدراسة الأستاذ الدكتور (سيد تقي الدين) عن (مجلة المنهل)، ودراسة الأستاذ الدكتور (نبيل بن عبد الرحمن المحيش) عن (عبد القدوس الأنصاري حياته وأدبه)، وهي رسالة علمية تقدم بها الدارس لنيل شهادة الماجستير في الآداب، ودراسة (سيد تقي الدين)، وهو أستاذ مصري، دراسة مسحية إحصائية تناولت القضايا والموضوعات في المجلة، ولم تمس شخصية (الأنصاري) الذي أنشأها، وتعهدها حتى فرق الدهر بينهما.

و(الأنصاري) من خلال ما كتب وعمل مثقف شمولي، وليس عالماً متخصصاً، وإن كانت معارفه تتسم بالعمق والإحاطة، والفرق بين العالم والمثقف، أن الأول يهتم بتخصصه لا يبرحه، ولا ينفق جهده ووقته إلا فيه، فيما تكون للمثقف سبحات، يطوف بمختلف المعارف، يمتص نسغها، ويقطف من زهرها، فهو كما النحلة، والمجلة التي صدرت قبل سبعة عقود مهتمة بالمتابعة والرصد والتحليل، تكشف عن قدراته واهتماماته وإسهاماته، وهي جديرة بمزيد من العناية للتعرف على الحركة الأدبية والثقافية في البلاد.

والمتابع لاهتمامات (الأنصاري)، يقطع بأنه عالم مع العلماء، ومثقف مع المثقفين، وأديب مع الأدباء، وهو بهذا الشمول متعدد المواهب والقدرات، لقد أبدع الشعر، وأنشأ القصة، وكتب التاريخ، وحقق المخطوطات، وألف عن المدن، برع في المقال، وأجاد في النقد، وهذا التنوع مؤشر قدرات ذاتية وكسبية. إن سيرة حياته تنم عن رجل طموح واثق الخطو، لا يثنيه خوف، ولا يقعد به تردد، والذين موضعوه أسرفوا على أنفسهم عند الحديث عن تجربته الإبداعية في نوعيها: الشعري والسردي، لقد مارس الإبداع الشعري في مطلع حياته، ولم يجد نفسه متفوقاً فيه، فتركه إلى غير رجعة.

والدكتور (المحيش) كعادة كل الدارسين في سني الطلب، أسرف على نفسه حين عقد فصلاً كاملاً عن شاعريته، امتد لأكثر من ستين صفحة، وما كنت من المراهنين على شاعريته التي عرف بنفسه مبلغها، فأراحها، وتجاوز بها إلى ما يستطيع. ولو أن تلك الصفحات جاءت عن مجلته أو عن سائر جهوده غير الإبداعية، لكان في ذلك خير كثير. و(الأنصاري) حين هجر الشعر، عَنَّ له أن يجمع شتاته في ديوان صغير سماه (الأنصاريات)، مثلما فعل بعض أنداده الذين أحسوا بإحساسه فهجروا الشعر، كالأحمدين: (العطار) في ديوان (الهوى والشباب) و(جمال) في ديوان (وداعاً أيها الشعر)، وهما علمان لم يفلحا في الإبداع الشعري.

وقد تناولت شعر الثلاثة بالدرس في كتابي (النزعة الإسلامية في الشعر السعودي المعاصر)، ولم أكن في دراستي لهم جميعاً عاطفياً، يكيل الثناء دون قياس، إن شاعرية (الأنصاري) متواضعة، ولا يعيبه ذلك شيئاً، وهو العالم والأديب والمؤرخ، وكاتب المقالة، والمؤثر على مسار الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية في وقت الشح. ورواد الحركة الأدبية تحسب لهم الريادة، ولا يتجاوز بهم إلى التألق، ولقد عيب عليَّ هذا التفصيل، فالرائد له حق الريادة وحسب، والبعض يريد أن يجمع المجد للرواد من كل

أطرافه، وفي ذلك غمط للمؤسسين والمنطلقين. وهو حين مارس كتابة الرواية والقصة أدرك كذلك أنه لم يخلق لهذا اللون من الإبداع، فتركه إلى غير رجعة، محتفظاً بحق الريادة، وهو حق لا يستهان به، وهو حين تجاوز ذلك إلى سائر المعارف احتضن الشباب المبدعين، وأخذ بأيديهم، ونشر أعمالهم في مجلته، فكانوا فيما بعد مؤسسين للإبداع الروائي الذي كان هو من رواده.

لقد أخرج رواية (التوأمان) وهي رواية ضعيفة تملك حق الريادة ولا تملك شيئاً بعد ذلك، وكان سبقها الموضوعي في إحساسه بالصراع الحضاري الذي أُبدعت فيه أعمال روائية، وأنجزت دراسات معمقة. ففيها سلك طريق التعليم والإصلاح والتحذير من التعليم الأجنبي، وإذ عرف قدره في الإبداع الشعري عرف مبلغه من الفن السردي، فانصرف عن الإبداع كافة، ووقف قلمه فيما هو أهل له من ثقافة ومعرفة، أضافت الشيء الكثير للحركة الأدبية، وخير أعماله وكل أعماله خير، مجلته التي لما تزل تواكب الحركة الثقافية في البلاد وخارجها.

لقد تألق في كتابة المقال وهو فن جديد نشأ في ظل الصحافة وتألق في أدب الرحلات وهو فن جديد قديم سبق إليه (ابن بطوطة) و(ابن جبير) وتألق فيه خلق كثير، ودراسة الدكتور (المحيش) لأنواع المقال من حيث بعده الموضوعي، كشفت عن تنوع موضوعي، فهو قد كتب المقال الأدبي والثقافي والاجتماعي والسياسي والتاريخي والتعليمي واللغوي، وهو قد أسهم في النشاطات المنبرية كالمحاضرات والندوات، وتميز أدب الرحلة عنده بالمعرفة، إذ لم يكن مرتهناً للانطباعية والوصفية. ولأنه مارس الثقافة في أوسع مفاهيمها فقد تنوعت كتاباته، وتعددت اهتماماته، وليس من السهل تغطية ذلك في حديث مقتضب عنه، والذي أتاح له الحضور المتواصل مجلته التي تصدر كل شهر حافلة بالمعارف والدراسات والمختارات على مدى سبعين سنة.

الأنصاري ومجلته ودورهما في المشهد الثقافي .. ! (٢) [(١)]

والحديث عن مجلته (المنهل) يشدُّنا إلى أشهر المجلات العربية التي تصل إليه، كـ(الرسالة) و(الهلال) و(المقتطف)، وهي مجلات علمية وأدبية رصينة، تهتم بالمعرفة والأدب، ولكلِّ واحدة منها طرائقها واهتماماتها.

ولقد شاء لمجلته أن تكون كذلك، ولكنها ظلّت مرتهنة للسياق والنسق الثقافي، مستجيبة لمتطلَّبات المرحلة، ولهذا أصبحت وثيقة أدبية يستطيع الرّاصد من خلالها استجلاء طبيعة الأدب في البلاد ومراحل تطوُّره، لقد صدرت المجلة في حج عام ١٣٥٥ هـ، وكأنّي به يريد منها أن تكون بيد الوافدين للحج من علماء وأدباء وإعلاميين، ولم يشأ لها أن تكون خالصة للأدب كـ(الرسالة)، وإنّما تعمّد توسيع اهتماماتها، بحيث شملت الثقافة والعلم والأدب.

ولم تنل من الشهرة والشيوع ما يكفل لها الدخل الكافي، ولعلَّ مرد ذلك ما أضفاه عليها من رصانة ومعرفة، إذ لم يشأ أن تكون ذات طابع إعلامي استهلاكي، ومن ثم فقد عاش طوال حياته في ضائقة مالية، وتجلى إصراره على إصدارها على الرغم من الخسائر المادية، مما يدل على أنّه صاحب رسالة، ولم يكن صاحب شهرة، أو كسب مادِّي. يقول الدكتور (المحيش): (ولم يكن هدف صاحبها هو الربح المادِّي، وإنّما كان هدفه التثقيف العام، ونشر الوعي الفكري والأدبي في هذه البلاد)، وأجمل ما فيها ملفاتها الخاصة عن بعض القضايا والظواهر الأدبية، وتلك سنّة أخذ بها ما لحق من مجلات كـ(فصول) التي تصدر في (مصر) مع الفارق الكبير.

ومجلة (المنهل) التي كان لها أثرها الواضح في الحركة الأدبية والتي لمَّا تزل تصدر حتى الآن مُنْذُ أكثر من سبعين عاماً، لم يتحدث عنها دارس أدب (الأنصاري وحياته) إلاّ حديثاً مقتضباً، لا يروي ظمأً، ولا يشفي غلّة، ولعلَّه وجد حديث سلفه (سيد تقي الدين) قد أغنى وأقنى، إذ تحدث السلف عن المجلة وأثرها في مجلدين كبيرين، والحق أنّ كلَّ الصيد في جوف المجلة، فهي الرّاصد الأمين لحياة (الأنصاري) الأدبية وتحوُّلاته المعرفية واهتماماته الفكرية، وكيف لا نلتمس (الأنصاري) العالِم والأديب والمؤرِّخ بين ثنايا مجلة شهرية يدير كلّ شؤونها، ويكاد يحرِّر كلَّ أبوابها، ويعبِّر من خلالها عن آرائه وتصوُّراته وهمومه، ومما يسَّر الوصول إليها قيام خلفه بتصويرها وتجليدها في عشرات المجلدات وتيسيرها للقراءة بثمن معقول، وإذ لم يفعل ذلك في حياته فقد تولَّى نجله تلك المهمة، على غرار ما فُعل بمجلة (الرسالة) و(المقتطف) و(المنار) وسائر المجلات العلمية والأدبية، والملفت للنظر أنّها لم تستثمر في الدراسات الأكاديمية بوصفها سجلاً حافلاً للحركة الأدبية في المملكة، وإنّما كانت عندهم مرجعاً ثانوياً، وهي بحق مصدر رئيس.

و(الأنصاري) الذي أبدع مع المبدعين، وخاض معترك النقد مع الخائضين، وألّف في مناحي الثقافة مع المؤلِّفين، رصد ذلك كله خَبَرَاً وتحليلاً في مجلته الشهرية التي واكبت الحياة الأدبية والثقافية في المملكة، وأسهمت في رصد الحركة الأدبية وتحوُّلاتها، وكان لها دورها الواضح في الأخذ بيد الناشئة، وتمكينهم من ممارسة محاولاتهم السردية والشعرية من خلال تلك المجلة.

لقد أحسَّ - رحمه الله - بتأخُّر الإبداع السردي، وأدرك الحراك المتنامي في مشارق الأرض العربية ومغاربها، وتابع المستجدات، ولم يكتفِ بالرَّصد والمتابعة بل تعمَّد

---

(١) تاريخ المقال: ٣/ ٤/ ٢٠٠٧

تحريك الوسط، وحثه على اللحاق بالمشاهد العربية، ولم يثنه النقد الجارح الذي وُجِّه إليه وإلى روايته (التوأمان) وقصته (مرهم التناسي) بل أمعن في حث الشباب والدفع بهم، وبث الثقة فيهم، واستقبال محاولاتهم ونشرها في مجلته، وهذا الدور الذي قامت به المجلة أدى إلى اللحاق بالمشاهد العربية في مجال السرديات على الأقل.

لقد واكبته شبيبة الحجاز في تفعيل الحركة الأدبية، ولكنه كان الأكثر أناة ووسطية، فلم يستدرجه صلف (العواد)، ولم يجرفه احتدام (شحاتة)، ولم يستهوه اندفاع (ضياء)، لقد كان رفاق دربه أكثر اندفاعاً في سبيل اللحاق بمشاهد الأدب، وكان هو الأكثر أناة وتريُّثاً، ولعلّ السبب في ذلك أنّه كان أميل إلى المعرفة، وهم أشد ارتباطاً بالأدب الخالص.

لقد كانت له يد في التاريخ والجغرافيا والعلوم الشرعية، وكانت له مؤلّفات في تلك التخصصات، ولم يكن لمجايليه ذلك الاهتمام المتنوع والمتوازن، لقد ألّف عن شيوخه، وعن علماء الرحلات، وكتب عن بعض رحلاته الجغرافية، وعن رحلاته القرائية في كتب التراث، فكان بحق رائد أدب الرحلات في البلاد.

وكتب في اللغة وعن اللغة ما يوحي باهتمامه المعرفي، فكتب عن إصلاح اللغة، وخاض معركة حامية الوطيس مع العلاّمة (حمد الجاسر) عن حركة (جيم جدة) هل تُفتح أو تضم، ومع أنّ القضية أقلُّ شأناً مما سواها إلاّ أنّها حرّكت الوسط الأدبي وألبت الأنصار والخصوم، وكشفت عن معارف طريفة وقدرات معرفية ولياقة علمية. كما أنّه كتب في التاريخ والآثار، وبخاصة آثار (المدينة المنورة) التي وُلد فيها، وانتمى إلى أهلها الأنصار، وكتب في الأنساب أضخم كتاب (بنو سليم)، وكتب في الجغرافيا والطرق والمدن، وكان في كل ذلك عالماً محققاً، وكان دور المجلة في الرَّصد والتحليل وتفتيق الأذهان وترتيب الأولويات، وكأنّي بها كما (جوف الفراء).

ذلكم هو (الأنصاري) الموسوعي الذي أخذ من كلِّ شيء بطرف، وكان حاضر المشاهد كلها. وإذا كان النقاد قد التمسوا حياة الشعراء في شعرهم، كما فعل (العقاد) مع (ابن الرومي) فإنّ الذين يريدون التماس حياة (الأنصاري) في شعره أو في رواياته أو في سائر كتبه لن يجدوه ماثلاً أمامهم، وإنّما يجدونه في مجلته (المنهل) التي أحبها، وأصر على استمرارها، ولقي في سبيل استمرارها الفقر والعوز والعقوق.

ومجلة (المنهل) في مجلداتها الضخام ثاوية في رفوف المكتبات في انتظار من يريد التنقيب عن حياة (الأنصاري)، وعن بدايات الحركة الأدبية في البلاد.

لقد تفرّغ الأستاذ الدكتور (سيد تقي الدين) شفاه الله، وأعدّ رسالة علمية في مجلدين ضخمين عن مجلة المنهل، ولكنه استنطقها عن نهضة البلاد، ولم يهتم برصد حياة كاتبها الذي بث همومه وتطلُّعاته من خلالها.

وكتبه التي تجاوزت العشرين لا تشكِّل كل إسهاماته، ولا تحدد رؤيته، لأنّها جهد معرفي خالص، وكم كان بودي لو جمعت افتتاحياته في المجلة على مدى نصف قرن، كما فعل (أحمد حسن الزيات) في كتابه (وحي الرسالة). وطبعت تلك الافتتاحيات لأنّها تحكي الرَّصد الدقيق لتحوُّلات المشهد الثقافي، وكذلك دراساته وبخاصة (المقال النقدي الأدبي)، ولقد أحسن كثيراً حين وثّق معركته مع العلاّمة (حمد الجاسر)، حول قضية ليست من الأهمية بمكان، ولكنها تنبئ عن تمكن كل الأطراف الذين اشتركوا في تلك المعركة.

ويظل (عبد القدوس الأنصاري) مشروعاً ثقافياً، يستمد منه الدارسون الشيء الكثير، لتحديد ملامح الحركة الأدبية والثقافية في المملكة العربية السعودية، وتظل مجلتُه (المنهل) سجلاً حافلاً بتاريخ الكلمة الإبداعية وتحوُّلاتها، يهرع إليها الأدباء والمؤرِّخون، وطلاب المعارف، لتمدهم بمنطوياتها المتعدِّدة، وهي فوق هذا حية تسعى إلى قرّائها بُجْر

الحقائب من صنوف الثقافة والآداب، حامِلة هم القول السديد والكلم الطيِّب في زمن استفحلت فيه الغثائية، وحملت المطبوعات زبداً رابياً لم يذهب جفاء بل ظل سيد المواقف، وما أحوج المشاهد إلى مجلات تتفسح صفحاتها لما ينفع الناس، ليمكث فيها للحاضر والآت، ولعلَّ هذا اللقاء بداية متأخرة لقراءة الحركة الأدبية في مرحلة مهمة ما كان لها أن تغيب إلى هذا الوقت. لقد واكبت مجلة (المنهل) مجلات لا تقل عنها كمجلة (الحج) ومجلة (الدعوة) و(رابطة العالم الإسلامي)، ولكنها جميعاً لم تكن خالصة للأدب كما كانت، ولم تُعمَّر كما عمرت، ومن الخير أن تُعاد إلى المشهد قضية وموضوعاً.

قمة الرياض.. قمة التضامن .. ؟[1]

القمم العربية محكومة بالواقع العربي، وهو واقع لا يَرْقَى إلى مستوى التطلُّعات المتواضعة للرأي العام العربي بكل أطيافه واتجاهاته، لضعفه، وقلّة حيلته، وهوانه على الناس.

وقدر الأُمّة المأزوم أنّه لم يكن من صنع المؤتمرين وإنّما هو ناتج مغامرات ومؤامرات تراكمت مع الزمن فعطّلت الحراك، وشَلَّتْ التفكير، وإنْ وَجَبَ أن يكون من أولويات مسؤولياتهم تدارك الإخفاقات المتلاحقة التي ادَّارك فيها الوطن العربي من المحيط إلى الخليج، قصداً من عند أنفسهم أو تأوُّلاً جائراً أو اضطراراً تحت تأثير الغلبة وغطرسة القوة.

والقمم العربية على كل المستويات والتوقُّعات، وفي ظل أسوأ الظروف لا تخلو من الفائدة، فاللقاءات بحدِّ ذاتها تشكل خطوة أولى في سبيل التقارب أو التعاذر، وكلُّ لقاء عربي: ثنائي أو قِمَمي ينشدهُ العقلاءُ، ويتطلّع إليه الإنسان العربي المسكون بالخوف والترقُّب، لأنه يفتح أبواب الأمل، ويؤدي إلى تهدئة للأوضاع، وسكون مؤقت للعواصف، وتوقُّف جبري عن تقليب الحطب على نار الخلافات، وتقارب الأجسام مؤذن بتقارب وجهات النظر، وأيُّ تجمُّع يتيح الفرصة للتفاؤل المحفوف بالمعوقات، ولا سيما أنّ الدولة المضيفة تتوفّر على أعماق متعدِّدة قادرة على تجهيز مناخات ملائمة، ومستجيبة لمزيد من التطلُّعات وهي من قبل المؤتمر ومن بعده الأحرص على تفادي الخلافات والأسبق إلى رأب الصدع وفك الاشتباكات، ولن تتردد في توظيف إمكانياتها متى أدّت إلى نتائج إيجابية، واستضافتها للقمة ستضعها أمام مسؤولياتها الجسام.

وأيُّ لقاء لا تسوده الثقة وحسن النوايا والإيثار على النفس واختيار الأيسر والأرفق بالأُمّة والاشتغال بالقواسم المشتركة، ولا يتخلّص من العنتريات والمثاليات والمزايدات الرخيصة وتلميع الذوات لا يزيد المؤتمرين إلا خساراً، وتصعيداً للخلاف، وتكريساً للمعوّقات.

وتأليف القلوب الذي ينشده المجرِّبون والمكتوون بنار الاهتياج الأعزل لا يكون بإضاعة الثوابت، ولا بالتفريط بقضايا الأُمّة المصيرية، ولا بالرّكون إلى الأعداء والمداهنة، وإنّما هو بتفادي الاستفزاز وتوقِّي المصادمة، متى كان في الأمر متسع، ومتى كان المؤتمرون أمام خيارات ممكنة، ومتى أمكن الجنوح إلى السلام، وإشكالية أي قمة عربية تكمن في القادمين إليها، إذ هم ليسوا سواء.

والمراقبون للأحداث والمؤتمرات واللقاءات الثنائية والرحلات (المكوكية) يتنازعهم التفاؤل الحذر والتشاؤم الخطر، والواقع المعاش يحتمل الشيء ونقيضه، وعلى المؤتمرين أن يلقوا السمع لتأوُّهات الضجرين وتساؤلات الخائفين، فما خاب ولا ندم من روَّض نفسه على مواجهة الحقائق المرّة على ما هي عليه، واللقاء المرتقب بين قادة الأُمّة العربية امتحان للمصداقية والعزمات الصادقة، والدولة المسموعة الكلمة بتوازنها وثقلها السياسي وثباتها على المبادئ لا تتردد في توظيف إمكانياتها لكسر الجمود في أي قضية أو علاقة، ومؤتمرا (مكة) و(الطائف) خيرا مثال على إمكانية الحسم مع حسن النوايا، وما من حدث يبلغ الذروة إلاّ ويجد أهله في كنف (الرياض) مثابة وأمناً. ومهما استحالت الحلول الحاسمة فإنّ من حق الشعوب على قادتها ألاّ يخيِّبوا الظنون، وألاَّ يكرّسوا الإحباط والتيئيس. ولكيلا يهبط المؤتمرون السفح فإنّ من الممكن حلحلة القضايا بشيء من

---

(١) تاريخ المقال: ٢٧/ ٣/ ٢٠٠٧

التنازلات المتبادلة بين الزعماء، عسى أن تسهم هذه التنازلات المَحْسوبَةِ بدقة في كسر الجمود، وتحويل المستحيل إلى ممكن، وإطفاء لظى التنازع الحدودي والطائفي وتفادي صدام المصالح العارضة، والتنازلات التي تتطلّع إليها الشعوب العربية ممكنة ومتوقّعة، وليس فيها غضاضة على أحد.

وإذا كان بعض المؤتمرين مأخوذين بالمجاملة والدفع بالتي هي أحسن فإنّهم لا يودون مواجهة بعضهم بالحقائق المرَّة. وبين الإصرار على المواقف والتنازلات المتبادلة والمجاملات معادلات صعبة، فالبدء والمقدار بؤرة التوتر والاضطراب.

وإذ نكون مع الحلم والأناة واللين والسِّتر والتيسير فإنّ بعض المواقف تتطلّب المواجهة، وإن كانت مُرَّةً، إذ إنّ وضْع كل مغرد خارج السرب أمام مسؤوليته مؤذن بمراجعة الحساب ومحاسبة النفس وإيقاف التدهور الذي يراه المؤتمرون رأي العين.

وعلى أصحاب الحل والعقد أمام هذه المداراة التي قد تصل إلى حد (التَّقيَّة) مراعاة الأوضاع والإمكانيات.

فالمواقف والأوضاع تتطلّب الحلول المناسبة، ولا بد - في النهاية - مما ليس منه بد.

والقرآن الكريم حين ندب إلى الصلح بين طوائف المسلمين قال: ﴿فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾. وإعانة الأخ الظالم في ردِّه عن ظلمه، وفي ذلك إعانة له.

وأحداث (العراق) قبل الاحتلال وسقوط النظام بادية للعيان، ولو ملك الزعماء العرب من خلال (جامعة الدول العربية) الشجاعة وواجهوا النظام بما هو عليه، لما بلغت الأمور ما بلغت، لقد شايعه قوم واعتزله آخرون، وما من أحد واجهه بالحقائق، حتى إذا بلغت الروح الحلقوم أقبل بعضهم على بعض يتلاومون.

وعلى المؤتمرين وهم يتداولون القضايا التقليدية المعتقة إلى حتى الأزل أن يدركوا أنّ هناك سلبيات قائمة لتوارث هذه القضايا دون زحزحة، وأنه لكي تكون هناك بارقة أمل لا بد من تصفية الأجواء لتكون قابلة لتداول الآراء ومعالجة جدول الأعمال بروح الفريق الواحد.

و(أمريكا) التي أدركت أنّ سمعتها في انهيار وأنّ خططها العسكرية في تدهور، شكّلت لجنة ثنائية الرؤوس من الحزبين (الجمهوري) الحاكم و(الديموقراطي) المعارض مزوّدة بالخبراء والمستشارين وذوي الاختصاص في مختلف القضايا لمعرفة الأسباب الحقيقية للتدهور والانحدار، واقتراح آلية لتدارك الأمر، ولم تركن إلى قوتها، ولم تكتف بمؤسساتها المدنية، وهذه اللجنة وضعت نصب عينيها المصلحة القومية، ولم تتردد في مواجهة (البيت الأبيض) بما يؤلم إنسانه، وواجب المؤتمرين أن ينظروا في أسباب ضعفهم وتفرُّق كلمتهم، وتعارض مصالحهم، وخوف بعضهم من بعض وتخذيل بعضهم لبعض، وما لم تكن الشفافية والمصداقية سيدتا الموقف رَمَّتْ الجروح على فساد، وعادت حليمة إلى عادتها القديمة.

إنّ الواقع العربي محكوم بأجواء غاية في الخطورة والتعقيد إذ الأوضاع لم تكن كما هي بالأمس وفاق داخلي واختلاف مع الآخر، وإنما هي اختلاف مع الذات والعلّة المستبطنة ليست كالعوارض الخارجية.

(العراقيون) يقتتلون فيما بينهم، وليست المواجهة بين أطراف معروفة بحيث يسوى الخلاف، وليست هناك أهداف مطروحة بحيث يحقق المستطاع منها، نعم هناك صراع

(طائفي) و(عرقي) و(إقليمي) وتصفيات دولية وإقليمية وجدت مجالاً للأخذ بالثأر، فاتخذت من (العراق) ساحة حرب غير معلنة.

و(اللبنانيون) يقتتلون فيما بينهم وكل حزب يرى أنه الأحق وما من بوادر انفراج تفتح بصيصاً من الأمل، و(الفلسطينيون) ارتدت بنادقهم إلى صدورهم.

و(اليمنيون) يتجرعون فتنة طائفية تحصد الأبرياء و(السودانيون) تنهكهم حروب داخلية بلغت حداً لا يطاق ولا يمكن تصوره، ولك أن تتصور (الصومال) والتميز الغيضي بين الأحزاب والمنظمات والنزعات في كثير من البلاد العربية.

وتلك الظواهر التي لم تكن معروفة من قبل، ولا متوقعة تشكل تحدياً عصيباً للمؤتمرين، وما لم يخرجوا بحلول وسط تحقن الدماء وتجمع الكلمة فإنّ الشارع العربي سيزداد احتقاناً، وقد يؤول هذا الاحتقان إلى انفجار لا تحمد عقباه. وتلك الأجواء لا يمكن أن تؤدي بوضعها الحالي إلى نتائج إيجابية، ومع خطورتها فإنّها قابلة للتنقية لأنّها في إطار الممكن، ومتى استطاع المؤتمرون تصفيتها أو تحجيم دورها أو تحييدها على الأقل أمكن النظر في القضايا المصيرية.

والواقع العربي المعقد إلى حد الاستحالة يجب ألاّ يحبط المؤتمرين، فالحلول المرحلية أو الجزئية خير من لا شيء، وما من أحد يتوقع أن يأتي كل زعيم بما لم تستطعه الأوائل بحيث تحسم كل الأمور المستعصية، ومع الاستحالة فإنّ التيئيس والتخذيل والإحباط تزيد ارتكاس القضايا في حمأة الفتن وواجب الشعوب العربية أن تدرك الواقع والإمكانيات وأن يكون تطلُّعها وفق الإمكانيات المتاحة، ورؤساء الوفود المتقاطرون على المؤتمر يحملون هموماً وقضايا خاصة تشكِّل سياقاً خاصاً، وليس من المتوقع التخلُّص من تأثيرها على مجريات الحوار، وإذ يكون من الصعب الخلوص من انعكاساتها فإنّ من الخير رفع ملفاتها للحيلولة دون تأثيرها على القضايا المصيرية.

وعلى المؤتمرين ألاّ يدخلوا في التفاصيل وما هو مظنة الاختلاف، والسياسة فن الممكن وفي ظلها لا يستعصى عليهم مَنالٌ، فالمبادئ شيء، والإجراءات شيء آخر، وإذا أمكن الاتفاق حول المبادئ فإنّ من اليسير أن يختلف المؤتمرون حول الإجراءات، إنّ هناك قضايا داخلية لكل دولة لا يجوز تجاهلها، وكل رئيس تفيض أوعيته بمشاكل قطرية، وليس من حقه أن يجرجرها ومع ذلك فليس من حق أحد مصادرة تلك الحقوق مجتمعة أو متفرقة وفي الوقت نفسه فليس من حق أحد أن يسخر المؤتمر لهمومه القطرية، ولن يتحقق التفاعل الإيجابي إلاّ بالتسامي فوق الذاتية والقطرية، كما أنّ المثالية لن ترقى بالمتطلِّعين المنصفين إلى حد إلغاء الذات والكيان في الجماعة.

والأمر في النهاية في التسديد والمقاربة وحفظ التوازن وتكافؤ الفرص وتبادل الآراء في ظل الهموم المشتركة. وما لم يفقه المؤتمرون واقعهم وينْطلقوا منه شطت بهم المثاليات وحرمتهم من استغلال الممكن.

إنّ المزايدة على المثاليات ومبدأ نكون أو لا نكون إجهاض للوسطية التي تعي فقه الواقع وفقه الأولويات وفقه التمكين وهي ضوابط تحكم الإيقاع بحيث لا يكون شطح يضيع معه الممكن، والذين لا يبالون بأي واد هلكت مصالح الأمّة لا يعنيهم إلاّ أنفسهم وبناء سمعة زائفة لذواتهم وهو ما لا نتوقعه وما لا نرجوه.

وإذ نسلم بتأثير الأجواء ومراقبة الدول الكبرى التي لا تريد للمؤتمرين أن يتفقوا على ما يضر بمصالحها، وعجز الدول العربية في ظل أوضاعها الراهنة عن حسم كل المشاكل فإنّنا لا نمضي مع الإحباط ولا نقطع الرجاء، والواقع العربي بما هو عليه ينطوي على خير كثير، واللقاءات الثنائية حسمت كثيراً من المشاكل المعلَّقة، ومن الممكن أن يسفر المؤتمر عن إنجازات غير متوقعة.

لقد أجهضت اللقاءات الخاطفة مخططات، وأحبطت تطلُّعات وفوّتت فرصاً كثيرة كان يمكن أن تؤدي إلى مزيد من الويلات، والرحلات (المكوكية) من (الرياض) وإليها دليل على أنّ الخير كامن في هذه الأُمّة.

والأُمّة العربية حين يمسها القرح قد لا تدري بأنّ الآخرين مسهم قرح مثله، ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾، فما يعانيه الشعب الفلسطيني يعاني الشعب الإسرائيلي المحتل من الخوف والترقب مثله، وما يعانيه الشعب العراقي يعاني الجيش المحتل مثله، وإذ لا نستطيع حل مشاكلنا مع الأعداء بالشكل الذي نراه فإنّ من الخير أن ندعها معلقة، فالطامعون يقدرون وتضحك الأقدار، وما من قانط من رحمة الله إلاّ ويكون الله حيث يظن وفي الحديث: «**أنا عند حسن ظن عبد ي بي**».

وعلينا أن نظن بالله اللطف والعناية، ولا يستبد بنا اليأس والقنوط.

والمؤتمرون وهم يلتقون في أرض الطهر والقداسة تواجههم أخطر قضية كشرت عن وجهها القبيح وهي (الطائفية) وما لم تحسم بقوة فإنّها ستدخل بالأُمّة في دوامة من الفتن الدامية، وها نحن نرى آثارها السيئة في (العراق) و(لبنان) و(اليمن).

وأمام المؤتمرين أقدم قضية وأعقد مشكلة هي قضية (فلسطين) وما لم تتوحد المواقف فإنّ العدو سيمضي في انتهاكاته. وأمام المؤتمرين قضايا تتناسل من بعضها وكل قضية ترقق ما سبقها قضايا تتمثل ب(الحروب الأهلية) و(الطائفية) و(الحزبية) و(الحدودية) ولم يعد أحد يجهل الواقع بعد ثورة المعلومات والاتصالات.

الأدب الإسلامي بين خطأ الفهم.. وفهم الخطأ .. ؟ (١) [(١)]

الذين يعرفونني حقَّ المعرفة، وهم قليلون، يعرفون أنّني رهين مصدرين:
- النص.
- والعقل.

وأنّني طليق لا إمارة لأي مذهب عليّ، ضالتي الحق، ألتمسه في غيابة القول، مستعيناً بكلِّ آليات التأويل والتفكيك، فإذا تراءيت ما أظنها مراكبه، رميت فوق ظهورها بمجاديفي، وألقيت بيده مقاليدي. لا أقطع بالصواب، ولا أدعي العصمة، ولا أسمو فوق النقد، ولا أتحرّج من المساءلة، ولا أدل بالمعرفة، وأنا المتهجّي لأبجدياتها. وفي كلِّ مواقفي لست داعياً إلى التسمِّي بأي مصطلح، ولا الانتماء لأيِّ حزب، وإن تمثّلت خيرَ ما فيها، وكلُّ همِّي أن يسود الوفاق، وتشيع الكلمة الطيبة، ويكون الناس على بيِّنة من الأمر. وما تشابهت القضايا على المتجاذبين لأطرافها، إلاّ حين همّ بالكلام من لم يستكمل عدّته، من فهم سليم، وتصوُّر قويم، ومعرفة عميقة، وثقافة شاملة، ومنهج وآلية وخطة مناسبة.

وأي اهتياج أعزل يحوِّل المشاهد إلى ملاعب جنة منبهمة.

وليس بمستبعد أن يكون الابتلاء بهذا النوع من الكتبة والمتحدثين كما اشتعال النار فيما جاورت، يعرب به طيبُ عرف العود.

وليست الإشكالية في ذهاب كلِّ مبتدئ بما يرى، ولكنها في نبرة الرفض الأرعن، والتلذُّذ بجلَد الذات الحرضة، والتشفِّي بإدانة الأهل والعشيرة، وتحميل الإسلام جرائر المسلمين، ولو قيد حملة الكلمة أنفسهم بالمرجعية علماً كانت أو عالماً، واحترموا التخصص، واعتمدوا المنهجية، والتزموا بالموضوعية، وحيدوا الذوات، وتخلّوا عن الجهر بالسوء، ونبذوا الادعاء والاستغناء، ولم يأنفوا من سؤال أهل الذِّكر عند العي، لحققوا بهذه الخصال الحميدة أو ببعضها تحضر الجدل، وتعقلن الفكر، وتموضع القضايا، واتضاح الرؤى. ولكن أنّى للمختصمين ذلك الخيار الحضاري، ومشاهد الفكر والأدب في عالمنا الموبوء حرام على بلابلها، حلال للطير من كلِّ جنس. ولسنا في راهننا بدعاً من الأمم، فلقد مرّ التاريخ الفكري الإنساني عامة والتاريخ الفكري الإسلامي خاصة بمحطات معتمة، وأخرى مضيئة، من إضاءتها أثرت الحضارات الإنسانية كلها، واستنارت بها الأفكار الحائرة، وهُديَ فيها العلماء إلى الطيِّب من القول، حتى أجمع المؤرِّخون على تسميتها ب(العصور الذهبية).

فيما عدلت بالأُمّة عن جادّة الصواب محطاته المعتمة، حيث أُغلق باب الاجتهاد وجَمَدت المذاهب، يتوارثها القوم كما هي في نشأتها الأولى، وساد الانقياد للتقليد والتسليم للرأي غير السديد. والبون شاسع بين العمق المعرفي المحكوم بالعقل والمنهج، وبين التعصُّب المذهبي الذي يجتاله الهوى الجامح، وتحتنكه النوايا السيئة، ويخذله التسلُّط المعرفي. فحين تتغلغل المذهبية الضيقة في النفوس الوجلة من كلِّ ابتكار، ثم لا تكون رواية ولا دراية ولا زكاء ولا ذكاء، تكون الأثرة والإقصاء والتوجُّس والشحناء، والمراء المسف، والبحث عن الانتصار. وإذ لا أبرئ أحداً من هذا الداء، فإنّني لا أخصُّ أحداً بخطيئة، فالراصد الفطن يعرف القوم من لحن القول:

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره
إذا استوت عنده الأنوار والظلم

---

(١) تاريخ المقال: ١٠/ ١٠/ ٢٠٠٦

أمّا حين تسود المعرفة، وتشيع الحكمة، ويستضيء العقل بنور النص المقدس، ويُقمع الهوى، ولا يَدرجُ في العش إلاّ أهلُه، يكون الإيثار، وهدوء الحوار، والبحث عن الحق، ونبذ الفرقة والشقاق.

وفترات الانحطاط يستفحل فيها التعصُّب والتحزُّب، ويتأله فيها الهوى، ويسبق فيها التكفير التفكير، وتتقطّع الأُمّة أمرها بينها، ولا يكون ذلك إلاّ حين يُرفع العلم بموت العلماء، ويُستغنى بالتقليد عن التجديد، وتكون الكلمة لعواطف العامة لا لعقول العلماء.

وما أضرَّ بالمشاهد إلاّ الأضوائيون المستدرون لعواطف الغوغاء، ورضي الله عنه (ابن مسعود) الذي نهر من لحق به قائلاً: - (إنّه ذلّة للتابع وفتنة للمتبوع) والأشياع والأتباع نواة التمذهب والتعصُّب، وتاريخ الأفكار الإنسانية عامة لا تخلو من تلك الظواهر التي تُستترف فيها طاقات علمائها بالجدل العقيم والسفسطة البيزنطية، للتسلية أو للتلهية. والآخذون بعصم المذاهب والظواهر والتيارات ليسوا على قلب رجل واحد، ولا على مستوى معرفي متجانس، ولا على قدر من الثقافة الشاملة العميقة المتنفّذة. فمنهم من ألغى نفسه، وعطّل طاقاته، وسلم قيادهُ لِسعْدٍ المشتمل، ومنهم من شذّ في الرأي، وفارق الجماعة، وقال في النوازل بغير علم، وحمّل النصوص مالا تحتمل، بدعوة التأويل المحيل أو التفكيك المزيل. وتلك الموجات من التعصُّب المقيت وتقحم الجهلة فرّقت الكلمة، وشتتت الشمل، فكان التمجيد للمذاهب، والتصنيم للرجال، واستسمان ذوي الورم، والإيغال في ذكر المناقب أو المثالب.

وحديثي عن مصطلح (الأدب الإسلامي) ليس من باب التعصُّب، وليس تكريساً للانتماء، ولا مجيئاً من المذهب بنبأ يقين، ولكنه محاولة لتصحيح الفهم، وفهم الصحيح. والمتمارون بين متلقٍ للأخطاء، يأخذها كما جاءت، فهو صدوق لا يكذب، ولكنه غِرٌّ كريم يحفظ ما سمع، ويؤديه كما سمعه، لا يتثبت، ولا يتساءل، ولا يتعرّف على مصادر الغير. وآخرَ فهمه سقيم، يحرف الكلم من قبل أن يعقله، يتلقّى الصدق، ولا يحسن أداءه، وقد قيل: - (آفة الأخبار رواتها).

والفرق بين توهُّم الفهم وسُقمه، أنّ التوهُّم يعني استيعابَ المصطلح على غير ما هو عليه، ومنشأُ التوهُّم: إمّا خطأ المصدر، أو الخلطُ بين المبادئ والممارسات.

أما سقم الفهم فيعني العجزَ الذاتي، الذي لا يمكِّن من فهم الأشياء على حقيقتها، وإن لم يخطئ المصدر في التوصيل.

ولكل من التوهُّم والسقم أسلوب علاجه المناسب، فمتلقِّي الخطأ تُصحح له المعلومة، وسقيم الفهم يُنظر في أمره، فإن كان سُقمه جِبلياً صُيِّر إلى حيث يجد نفسه، وإن كان نقصاً في الخبرة أو قلّةً في المعرفة، أكمل بالمراد أو بالتزوُّد من المعارف.

وإشكالية المصطلحات كلِّها تعترها بين سُقم المفهوم وأخطاءِ مصادرها، ولهذا يقول (المتنبي):

وكم من عائب قولا صحيحا
وآفته من الفهم السقيم

ومتى ألقى المتلقِّي السمع وهو شهيد، تحرّرت عنده المسائل، واتضحت المقاصد، وتحدَّدت الأهداف، وذلك مؤذن بالتقارب أو التعاذر والتعايش السِّلمي على الأقل.

وخير المشاهد المتسع للفاضل والمفضول والأفضل، وليس ذلك بعزيز على طلاب الحق وأصحاب المواقف الذين يؤثرون، ولا يستأثرون. وخير مثال على التعايش السِّلمي مذاهب الفقه الإسلامي وتعدُّد المجتهدين داخل المذاهب وخارجها، وإن مرّت في بعض حالاتها بفترات استفحلت فيها الفرقة واشتطّ الخلاف، ولكن الغالب عليها أنّها تمرُّ بحالات

من الوفاق والتعاذر، وتبادل الخبرات، والاشتغال بالقواسم المشتركة. وعلى غير هذه التوقُّعات (علماء الكلام) لأنّ اشتغالهم بالفقه الأكبر باعد بين أسفارهم.

واختلاف التنوُّع المثري للحضارة والثقافة يتحقّق على يد علماء ربانيين متبحّرين يتقنون نظرية التلقِّي والتأويل، ويفرّقون بين النصوص القطعية والاحتمالية، ويراعون الأحوال والظروف، ويدركون المقاصد والغايات، ويجودون عملية التفاعل الإيجابي بين النصوص والعقول، بحيث لا يتوقّعون أي تعارض بين صريح المنقول وصحيح المعقول.

وما أضل الأُمّة إلاّ اتباع الهوى. والعدل والعقل لا يجتمعان معه، ومشاهد الأمّة لما تنجو من تحكمه، ولا يكون التعصُّب المقيت والمراء والمرية إلاّ من أشياع ألغوا ذواتهم، ظناً منهم أنّهم الفرقة الناجية المنصورة، وهي قائمة ولا شك، والله المسؤول أن نكون منها.

وما من عالم مجرِّب إلاّ هو على يقين من حتمية الاختلاف، وتعدُّد الآراء والمواقف، وكيف لا يكون ذلك والله يقول: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩] .

لا أقول إنّ الاختلاف رحمة، ولكنَّه قدر الإنسانية وفسحتُها، وعليها أن تواجه قدرها بما يكفل لها الحياة التوافقية دون تخل عن الثوابت، وحتمية الاختلاف جعلت المتبحِّرين من العلماء والمفكرين يستبعدون الإجماع إلاّ فيما عرف من الدين بالضرورة كالصلوات والحج والزكاة والصوم دون دخول في التفاصيل. ودون الإجماع ما يعرف ب(مسائل الجمهور)، والقول في الاختلاف والاتفاق قول أصولي، لا يستوعبه حديث مقتضب، ولكن تقصيه في مسألة خلافية حاجة ملحّة لكلِّ من ساقته مقاديره إلى الجدل حول قضايا الفكر والثقافة والأدب المختلف حولها، كمصطلح (الأدب الإسلامي)، ولقد كنت، ولما أزل في شأني كلّه حريصاً على التمكُّن من القضايا والتمكين منها عبر طرائق التحصيل والتوصيل، فمتى امتلك المتابع ضوابط المعارف وأصولها أصبح من اليسير عليه الظفر بالمعلومة وتوصيلها على وجهها، وتعلُّم الصيد أفضل من تقبُّل الهدايا (فالليث ليس يسيغ إلاّ ما افترس).

وكلُّ مقتدر عليه أن يدرأ عن أُمّته الفرقة، وذلك بتفادي بؤر التوتُّر، وما من مفكر ذي رسالة وموقف إلاّ هو على ثغر من ثغور الفكر، وواجبه أن يحمي ثنيته من الهشاشة ونفاد ما يفرق بين المتحاورين لوجه الله، وليس هنالك أضر على الأُمّة من تفرق الكلمة، ومن استخف بها فقد عرض نفسه للدمار وأُمّته للفشل، ولقد حرص الرسول ﷺ على عدم التمكين لأيِّ طائفة ما دام النص محتملاً لأكثر من تأويل، فعل ذلك حين اختلف الصحابة في توقيت الأداء لصلاة العصر، وهم في طريقهم إلى (بني قريظة) حيث قال لهم: «**لا يصلين أحدكم العصر إلاّ في بني قريظة**» وهم قد علموا من قبل أنّ الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتا، فحمل بعضهم الأمر على العزم، وحمله آخرون على الحزم، لقد أقبل بعضهم على بعض يتلاومون، وحين حاولوا استبانة وجه الصواب منه ﷺ لزم الصمت. وذلك دليل على أنّ النص المفتوح كما الفضاء الواسع تسبح فيه كلُّ طائفة، متى امتلكت القدرة على الوصول إلى المعلومة والقدرة على تفكيكها، وأصبح الاجتهاد مشروعاً والمجتهد من أهله، يعرف شروطه وأصوله ومتطلّباته المعرفية.

ومع هذا فلست مع تأويل المتعسِّفين ولا مع تفكيك الموغلين، فمن التأويل ما هو متاهة ومن التفكيك ما هو ضلالة. والعارفون يقدِّرون للمنهجين قدرهما، فيستثمرون النص من خلالهما، ويحفظون له دلالته المحققة لمقاصد المشرع.

وما اختلف الناس إلاّ من بعد ما جاءتهم تلك النصوص الحمالة، واجتالتهم أدلتها المتنوعة واستقبلوها بعقول واعية وأذهان متوقدة، ولقد أدرك الإمام (علي بن أبي طالب) - رضي الله عنه - خطورة النصوص الحمالة، ووجَّه الجدل إلى نصوص قطعية الدلالة.

وأي مصطلح مُحدث، يستفز العقول، ويثير الشكوك، وتغمره التساؤلات، ويتعثّر بالتحفُّظات، ولكنه بعد التداول المنصف، قد يمتلك المشروعية، ليأخذ مكانه الطبيعي في المشاهد.

وحين تبد هُنا المشاهد بأيِّ نازلة أو مصطلح فإنّ من حقنا، بل من واجبنا ألاّ نقبل على الإطلاق، وألاّ نرفض على الإطلاق، وإنّما نبادر بالتساؤل عن (المشروعية)، (المفهومية) ولا يُسأل عن النوازل إلاّ أهل الذِّكر، ولا يُتعرف على المصطلحات إلاّ من المنسشئين لها، فهم أهلها وخاصتها، سواء كانوا شرقيين أو غربيين عرباً أو مستعربين، ولا يجوز أن تكون منطلقات المتحفظين إلاّ من إجابة المنشئين، وإذا تأكدت المشروعية، وتحدّدت المفاهيم، أعقب ذلك الحوار الحضاري، الذي يحدِّد الأهميات والأولويات والحاجات، ويدخل في التفصيل والتفضيل.

فالفهم حين لا يكون وفق رؤية المنشئ، يكون التقوُّل. والمشروعية حين لا تكون وفق مرجعية الأُمّة، يكون الاضطراب، وتستفحل الفوضوية.

وأي مصطلح لا تحرر مسائله على ضوء المشروعية والمقتضى يكون موئل الاختلاف، ومن أصعب المواقف أن يُقوّل المصطلح ما لم يقله المنشئ، والفهم الخاطئ تقويل لما لم يقله المنشئ، وخطأ الفهم تحميل للمصطلح بما لا يحتمل، وانحراف الأفكار منشؤها اضطراب المفاهيم بين التلقِّي الخاطئ وضعف الأفهام، والبحث في المشروعية يقطع قول كلِّ خطيب، وحقَّ على المتلقِّي أمام كلِّ النوازل أن ينظر في مشروعية أي مصطلح، فإن انتزعها كان حقاً عليه القبول به، والتخطِّي به من البحث في المشروعية إلى البحث في المفهوم وطرائق الأداء وترتيب الأولويات.

الأدب الإسلامي بين خطأ الفهم.. وفهم الخطأ .. ! (٢) [١]

ومشروعية (الأدب الإسلامي) مكتسبة بالنص القرآني، إذ فرقت آيات الشعراء بين شعراء الهداية وشعراء الغواية، ولو كان الإبداع القولي حصراً على الشعراء، لكان بالإمكان استبدال مصطلح (الأدب الإسلامي) بمصطلح (شعراء الهداية). وإذا كان القرآن وصحيح السنة وأدب السلف الصالح والنقد الأخلاقي من عهد (أفلاطون) إلى يومنا هذا كلها تؤكد على القول السديد والكلم الطيب وتكره الجهر بالسوء وتصف الكلمة الطيبة بالثبات والسموق والنفع، والكلمة الخبيثة بالاجتثاث وعدم القرار، ولا تمنع من الإمتاع والخيال والمجاز والجلال والجمال، فإن هذه الرغبات بحاجة إلى مصطلح يجمع شتاتها، ويشبع ذكرها و(الأدب العربي) بوصفه جماع كل المصطلحات الناسلة منه، بما فيها (الأدب الإسلامي) ليس منقطعاً للكلمة الطيبة، إذ وسع كل الاتجاهات، فكان أدب مجون وأدب انحراف وأدب (أيديولوجيات) متصارعة، ومع اتساعه للمتناقضات فقد فارقه الحداثيون والماركسيون والوجوديون والداديون، واتخذوا لهم مصطلحات لم يعترض على مشروعيتها أحد. إذ لم نسمع أحدا يعترض على مصطلح (الأدب الوجودي) أو (الأدب الماركسي) أو (الأدب الحداثي)، وهي مصطلحات قائمة ومتداولة.

وإن كان ثمة اختلاف فيما بينهم فإنه قائم حول المفهوم والفن وطرائق الأداء، وليس دائراً حول المشروعية، كما هو بالنسبة للأدب الإسلامي. والذين يعترضون على مشروعية (الأدب الإسلامي) يركنون إلى حجج لا يقوم بها الاحتجاج ولا تثبت أمام البحث العلمي مثل:

-حداثة المصطلح.

- واستفحال التجزيئية.

-ومعادلته بالأدب الكافر.

-وتقييد حرية المبدع.

-والجنوح إلى الموضوعية.

والتماس الحق يسقط هذه الحجج:

- ف(حداثة المصطلح) ترد بما ينسل من مصطلحات في كل لحظة، وما أحد تحفظ أو تذمر، متى استطاع المصطلح أن يكون جامعا مانعا متحققا في إطاره مقصده متوفرا على مادته. وفوضوية الإنشاء للمصطلحات، أو ترجمتها أو تعريبها أو نقلها في كافة المشاهد إشكالية لا يعرف مداها إلا الراسخون في العلم.

-وأما (التجزيئية) فالأدب الإسلامي يواكب مسميات متعددة، وكلمة (أدب) بوصفها جزءا من المصطلح، لا بد أن توصف أو تضاف إلى الزمان أو المكان أو اللغة أو الموضوع أو السياسة أو الفئة. فيقال: الأدب العباسي والمصري والحداثي والسياسي والجاهلي والصوفي. وما أحد امتعض أو تردد في قبول تلك الإضافات والصفات.

-وأما معضلة (الثنائية) أو المعادلة بين الإسلام والكفر، فإن مصطلح (الأدب الإسلامي) لا يعادله (الأدب الكافر) ليس غير، بمعنى أن ما سواه لا يكون إلا أدباً كافراً.

ولو أخذنا بهذه الثنائية الضيقة لكان لزاما علينا أن نقول: إن إطلاق كلمة الصديق على (أبي بكر) والفاروق على (عمر) تقضي بانتزاعها جملة من سائر الصحابة، وما أحد من العقلاء تصور ذلك، والقول ب(الأدب الإسلامي) لا يعني بالضرورة القول بالمعادل المناقض، وإنما يعني القول بالمعادل المتخلف عن تلك السمة، كأدب المجون والخمريات

---

(١) تاريخ المقال: ١٧/ ١٠/ ٢٠٠٦

والانحراف الفكري. فـ(الطائيون) كرماء يفضلهم (حاتم)، والمخزوميون شجعان يفوقهم (خالد)، والتميز لا يقابل بالمناقض، وإنما يقابل بالناقص عن التمام.

وأما القول بالحدّ من (حرية المبدع) فإن لكل نحلة أو ملة حرية، لا تكون لغيرها، والحرية يحكمها الانتماء، ولهذا لا تكون الحرية واحدة عند (الليبراليين) و(الديمقراطيين) و(المسلمين). الحرية في الإسلام منضبطة، ومحكومة بسلطات ثلاث (الدين) و(السياسة) و(المجتمع) وهي حرية سوية تستجيب للفطر السليمة، وإذا قيدت الحرية في الإسلام، وأطلقت فيما سواه، بحيث تشارف دركات البهيمية فإن البحث في شأنها لا يكون في إطار (الأدب الإسلامي)، وإنما يكون في إطار الفكر الإسلامي، وكل من أشرب في قلبه حب القيم والفضائل لم يعد يتعثر بضوابط الحرية، لأن كل إناء بما فيه ينضح، وحملة الكلمة الخبيثة لا حجة لهم في ضوابط الحرية. إن التهتك والمجون والانحراف كسب، وليس جبلة، فالمولود يولد على الفطرة، والبيئات بكل تنوعها هي التي تضل أو تهدي سواء السبيل.

والمبدع الملتزم كالنحلة لا تعطي إلا عسلا لا تتكلف مجَّه، والمبدع (اللامنتمي) كالذبابة لا تفرز إلا وباء لا تتكلف إبرازه. و(الحرية) وسط هذه المرافعات كالثور يُضرب لمّا عافت البقر. وإذا كانت الصلاة راحة للمؤمن، فإنها ثقيلة على من دونه، إن الحرية مكفولة للملتزمين دون الملزمين، ولهذا فالإلزام (الماركسي) أفسد الفن، والالتزام الإسلامي أصلحه. وكم هو الفرق بين الإسلام والإيمان والإحسان ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ وتنوع خصوم الأدب، وتفرقهم بين المسمى والأداء والمشروعية والمفهومية يعد خيارات المواجهة، وأنا هنا - تمسكا بالمنهجية والموضوعية - لا يعنيني المتحفظ على مفردات الإسلام في إطار موقفه الرافض للأسلمة كلها، فالخصوم إما: خصوم رافضون للإسلام، يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير، يريدون عزل الدين عن الحياة استجابة للعلمنة الشاملة، أو هم خصوم متأولون، لا يتجاوزون بخصامهم حدود ما أنزل الله، وداؤهم التأول المفضول أو الناقل المتقوِّل، وجدلي مع هؤلاء لاتساع القواسم المشتركة، فالأدب الإسلامي مفردة، إذا عورضت بوصفها مصطلحاً، فإنها قد لا تعارض بوصفها ممارسة، فمعلوم أن طائفة من خصوم المصطلح لا يعترضون على إشاعة الكلمة الطيبة التي هي إكسير المصطلح وشأنه كله، ولكنهم يعترضون على إحداث المصطلح لما يخشون من انعكاس أثره على الإبداع أو إيضاعه في التفريق بين أدباء الأمة ومبدعيها، وقريب من أولئك من يحمِّلون المبادئ جرائر المطبقين، والمصطلح بوصفه من المبادئ بريء من أخطاء ذويه الذين لا يحسنون الفهم، ولا يتقنون الأداء، ويحاولون تعويض ضعفهم بالانتماء لهذا المذهب، ومقتضى المصطلح لا يسعف الضعفاء منهم، متى كان في أساسه مركبا من مصطلحين هما:

-الأدب.

-والإسلام.

والأدبية هنا مقدمة على الإسلامية، لأهمية النوع القولي، فهي البوابة الأولى، ولا يمكن تحقق مراد المصطلح حتى يكون الإبداع في أوج تألقه، متوفراً على شرط الفن وضابط اللغة وخصوبة الخيال وأدبية السرد وشعرية النظم.

والمشاهد النقدية الحديثة تركز على (الأدبية) و(الشعرية)، وبتفحص مقتضى الأدب الإسلامي نجده أكثر تركيزاً على (الشعرية) و(الأدبية) بمفهومها التراثي والمعاصر.

ولهذا فلا مكان للضعفاء الذين لا يحملون موهبة، ولا يستبطنون موقفا، ولا يملكون حساً، ولا يضمرون هماً.

والكلمة الطيبة وحدها لا تمنح التألق والتفوق، ما لم تكن متسمة بسمة الإبداع بكل متطلباته التراثية والمعاصرة.

والمصاب بداء العهر والكفر يتمسك بحقه الأدبي وتألقه الإبداعي، ومن حقه أن يتمسك، وواجبنا أن نقبل بهذا التمسك، إذ (لا تزر وازرة وزر أخرى). فشاعر متهتك ك(القباني) يفوق بشاعريته مئات الشعراء الملتزمين، لا يجوز لناقد أن يذوده عن قمة الشعر العربي، وروائي ك(محفوظ) يقف على قمة الرواية العالمية بكل تخلياته وانحرافاته، لا يمكن أن يسلب حقه الفني تحت أي شعار. والمتلقي الواعي يعرف أن (الأدب الإسلامي) يعطي الحق في شرف اللفظ، ويحاسب على الإخفاق في شرف المعنى، وينظر إلى المخالفين على ضوء منازعهم، وإذ لا نزكي على الله أحدا، فإن احتمال الكفر والإلحاد والردة لا تخول المفكر المستبرئ لدينه وعرضه أن يصم أحدا بصفة مغلّظة، وإن قال كلمة الكفر في شعره أو في سرده، فتكفير المعين عند العلماء المحققين له ضوابطه وشروطه، وهو من اختصاص الفقهاء، وليس من اختصاص النقاد، دور الناقد أن يرفض الانحراف والإسفاف، وإذا لزم الأمر إصدار الحكم الشرعي على المخالف وجب سؤال أهل الذكر، والأسلم والأحكم أن يكون حكما مؤسساتيا لا فتوى فردية، ولا سيما أن حكم المرتد قضية خلافية لدى العلماء.

والتخلي عن الشروط والضوابط في إصدار الأحكام على الجماعة أو المعين أدت إلى مواجهات دموية حذر منها الرسول ﷺ.

ومع كل هذه التحفظات فإن الاحتفاء بالمنحرفين فكرا، أو الساقطين أخلاقا من خلال إبداعاتهم أو تنظيرهم عند هلاكهم أو غيابهم، ونبذ الرأي العام لهم، يعد خروجا على النسق وتغريدا مؤذيا خارج السرب، والأديب الإسلامي يفرق بين التألق والتفوق الفني، والسقوط الأخلاقي.

وما قدمت بين يدي حديثي من تحفظات إلا لعلمي أن هناك من يحلو له خلط الأوراق والمزايدة الرخيصة، فالاختلاف مهما أوغل في القطيعة لا يمنح الحق المطلق لطائفة دون أخرى، ومتى حمي وطيس الجدل، واحتدمت المشاعر، وجب الرد إلى المرجعية المعتبرة لدى كل الأطراف، ومتى لم يكن هناك اتفاق على مرجعية فلا مجال للحوار.

والقبول بالاختلاف والتحفظ على احتكار الحقيقة والحق، لا يعني إطلاق الأمر بحيث يمتد الجدل إلى ثوابت الدين.

أعرف جيدا أن المشاهد الفكرية لم تصل بعد إلى تحديد جامع مانع للثوابت والمتغيرات، ولكن القلوب السليمة تعرف حدود ما أنزل الله، ولا يمكن أن تمضي مع المميِّعين الذي يجعلون كل شيء قابلاً للمساءلة والشك. فالحقيقة والحق في النهاية محتكران للنص القطعي الدلالة والثبوت، والاختلاف مقبول حين يكون حول مفهوم النص واحتماله للتأويلات.

أما حين يكون النص قطعي الدلالة والثبوت، فلا اجتهاد ولا اختلاف، ولهذا قال العلماء الأصوليون: (لا اجتهاد مع النص)، والنص عند الأصوليين يختلف عن النص عند الألسنيين، فهو عند الألسنيين مطلق القول، وهو عند الأصوليين القول القطعي الدلالة والثبوت، النص البرهاني وليس الدليل الاحتمالي.

وجملة القول أن الأدب الإسلامي هو (التعبير الفني الهادف عن الإنسان والحياة والكون وفق التصور الإسلامي)، ليست له آلية فنية تختلف عن آلية الأدب العربي، وليست له فنيات تفارق ما اتفق عليه أساطين النقد العربي في القديم والحديث، له تحفظ

وله اعتراض، تحفظ على كل مساس بالأسس والضوابط اللغوية والفنية، واعتراض على كل سقوط أخلاقي أو انحراف فكري يرفض تمييع الإسلام، وتلميع الطعام، ويعترض على المسخ، ويؤكد على الهوية والخصوصية والندية، يرفض النفاق والشقاق وسوء الأخلاق، ومعتصر المختصر أنه معني بإشاعة الكلمة الطيبة وإجهاض الكلمة الخبيثة.

والنقد الإسلامي من وراء ذلك يرود في المقدمة ويحمي الساقة. آليته ومنهجه آلية النقد العربي ومنهجه، غير أنه يشترط شرف اللفظ وشرف المعنى. ومتى أخل المبدع بأحد الشرفين أخذه بجريرته، لا يفرط في الفن ولا يتسامح في المعاني، فيما يكتفي النقد العربي بالجانب الفني. والذين يفهمون الأدب الإسلامي ونقده فهما خاطئا، يتصورون أنهما خلق آخر. وعندما يستعرضون المعطيات الإبداعية والدراسات النقدية ثم لا يحدون هذا الشيء يتصورون أن النقد الإسلامي هاجس في ظهر الغيب.

إن التصدي للأدباء والمفكرين أمثال (طه حسن) و(محفوظ) و(حيدر حيدر) و(نزار قباني) و(أبي زيد) وثائق للنقد الإسلامي. ولما تزل المشاهد تموج بالمعارك الأدبية التي يحركها النقد الإسلامي.

أرجو أن أكون قد وفقت في عرض موجز للمشروعية والمفهوم لأدب أحببته، ولم أكتف به، وناصرته، ولم أنصرف عن غيره، ومتى حسنت النوايا وسمت المقاصد شرّعت أبواب الوفاق، وغلقت أبواب الشقاق. وما أحوج الأمة إلى التفاهم والتسامح! فالزمن الرديء لا يجوز أن تعلو فيه نبرة التحدي وتصعيد الخلاف متى أمكن الوفاق. ذلك أن خطاب القوة والنصر والتمكين يختلف عن خطاب الضعف، فلا يكون إلا مع التمكين، ولهذا خفف الله عن الأمة حين علم أن فيها ضعفا.

واحتدام المشاعر ليس مبعثه ما يلاقيه الأدب الإسلامي وحسب، ولكن مبعثه إلى جانب ذلك ما تعانيه الأمة من تفرق في الكلمة، وميل إلى المحدثات، وتلقف لما يأفكه المستشرقون والمستغربون، وانقطاع منبت في استقبال الآخر، وممارسة فوضوية باسم الحرية.

وقولي هذا منصب على ثقافة الضرار وملاحقة المستجد من المذاهب دون تحفظ، والميل مع الريح حيث تميل من أناس كنا نعدهم من الأخيار.

من حارب المحارب .. ! [(١)]

عرفت الشاعر غريب الأطوار (عثمان بن سيار المحارب) في عنفوان شبابه، منذ أن بلغ أشدّه، وبلغ أربعين سنة، وها أنذا أتذكّره في التسعينات من عمره المديد، والثمانينات تحوج السمع إلى ترجمان، وظنّي به يردِّد مقولة لبيد:

ولقد سئمت من الحياة وطولها

وسؤال هذا الناس كيف لبيد

كانت معرفتي الأولى به عندما صدر كتاب (شعراء نجد المعاصرون) عام ١٣٨٠هـ، للأستاذ عبد الله بن إدريس، حيث ترجم له، وساق أطرافاً من شعره، ووصف شعره وشاعريته وصفاً انطباعياً، يصدق على ما سلف منه، فهو عنده شاعر قومي، يترسّم خطى (الجواهري) و(القروي) حتى أنّ قوميّته - على حدِّ قوله - حملته على المحافظة على شكل القصيدة العربية في مطلع حياته، وأحسبه قد تحوّل عن ذلك كلّه فيما استقبل من سنوات.

وعرفته أكثر قبل ثلاثة عقود حين أنجزت رسالة (الماجستير) (اتجاهات الشعر المعاصر في نجد)، ويومها لم يكن بين يديّ إلاّ ما أوجزه (ابن إدريس) وما تفرّق في الصحف والمجلات من قصائد عابرة.

وقبل عقدين ونيّف عدت إليه بمنهجية جديدة وآلية دقيقة، حين أعددت رسالة (الدكتوراه) (النزعة الإسلامية في الشعر السعودي المعاصر) وكان قد صدر له ديوانان أسهما في إبراز أبعاده الدلالية والفنية، ثم انقطعت عنه أو انقطع هو عن الكافة، فلم أعد أسمع عنه شيئاً، ولم يعد له أيّ حضور يُذكر في كافة المحافل الأدبية، ولا أحسبه قد هجر الشعر كما فعل غيره، ولكنه هجر المشاهد، فهل صدمه الواقع؟ أو أنّه صدم الواقع فانفضّ سامره؟.

أعرف جيداً أنّه غرّد خارج السِّرب في اتجاهاته كلها، وهو حين لا يتناغم مع الصوت الجمعي يكون كقاصية الغنم.

وشاعر عنف في شعره الوطني، ثم أسرف في شعره الغزلي يكون قاب قوسين من الاغتراب، ولا سيما أنّه ربيب تراث سلفي شديد الحساسية، وعلى الرغم من تطرُّفه في الحالين، فإنّ اعتزاله المغاضب يُعد خسارة لا تعوّض، إذ ابتلعه حوت النسيان وبخاصة حين يهبط مثله إلى السفح، لتكون القمم مسرحاً لبغاث الطير التي تزاحم النسور بالمخلب الغضّ والجناح القصير، كما يقول (أبو ريشة) في رثائيته لأمجاده وما أكثر الشعراء الذين رثوا أنفسهم ذاتاً وفناً. نجد ذلك عند (ابن الريب) في رثاء الذات، كما نجده عند (البحتري) في رثاء المحتد الشعري في (السينية) وعند (المتنبي) في (داليته) حين يصف نفسه الشاعرة بأنّه الصائح المحكي والآخر الصدى، وعند (أبي ريشة) في عصمائه (النسر)، ولم أجد لشاعرنا رثائية ذاتية يودع فيها ناسه المعجبين به، ولعلّ ذلك من شعره الحبيس الذي يتململ في قمقمه.

أمّا انطواؤه واعتزاله فقد جسَّدته قصيدته المتواضعة (رضيت بما بي) وهي قصيدة يردُّ بها على صديق عذله في انطوائه.

ولأنّ حياة أي شاعر تمثِّل محطات متعدِّدة التيارات والاتجاهات والنزعات، فإنّ معرفتي به في أوائل محطاته المثيرة، إذْ كان فيها صاحب قضية ينافح عنها بعنف، ويلوم

---

(١) تاريخ المقال: ٢٤/ ١٠/ ٢٠٠٦

قومه على ضعفهم وهوانهم على الناس، ولكنه حين يئس من الصحوة والاستبانة وقبول النصح نبذ شعره العنيف إلى شعر أعنف، شعر الحب والتولُّه.

وإذْ تحفظ أناسٌ على عنفه القومي فقد تحفّظ آخرون على اندفاعه وراء المرأة.

ولم أكن أعرف - فيما بعد - ما إذا كانت له أعمال جديدة، وهل عاد إلى صلفه القومي أم ظلّ نزارياً كما كان يوم أن بارح المشهد الشعري؟ ولقد وجدت نتفاً له وعنه في (موسوعة الأدب العربي السعودي الحديث) وهي التي أشارت إلى عمل شعري ثالث لم أره، وهو ديوان (بين فجر وغسق) وهل حوى ما أحدث من شعر أم هو تقصٍّ لشعر قديم لم يفرج عنه إلاّ في آخره. وأذكر أنّني قرأت ديوانيه (ترانيم واله) و(إنّه الحب) عند التحضير للدكتوراه، وعندي مسودة لم تكتمل عن تحوُّله المفاجئ والعنيف من البعد الوطني إلى الحب العذري. وإلمامة الموسوعة عن شعره وشاعريته إشارات موجزة، ولقد سمعت أنّ بعض الدارسين أو الدارسات اتخذوه موضوعاً لرسالة أكاديمية، وأذكر أنّ طائفة من الطلاب استشاروني في إمكانية دراسة شعره، وقد شجّعت على ذلك، فهو شاعر يستحق الاحتفاء، وبخاصة في بواكير شعره، فهو مشروع شاعر مثير، ولا تأثير لغيابه الطارئ متى أمكن الوصول إلى وثائقه.

لقد صدر ديوانه الأول عام ١٩٧٧م فيما صدر ديوانه الثاني عام ١٤٠٢هـ، ولست أعرف عن ديوانه الثالث الذي أشارت إليه الموسوعة متى صدر وما مضامين قصائده، وهل هي من قديم شعره أم مما جدّ بعد اغترابه؟.

وتألُّقه توقَّف قبل إصدار مجموعاته الشعرية، وهو توقُّفٌ فرضه على نفسه، ولم يفرضه عليه أحد من الناس.

والذي يقرأ بواكير شعره يحس أنّه أمام شاعر فحل، يمتلك عدّة نواصٍ، ناصية اللغة وناصية الخيال وناصية العمق الثقافي والوعي المبكر بواقع الأُمّة العربية. غير أنّ هذا الشهاب الذي انطلق في صعوده كاد يحور رماداً بعد إذْ هو ساطع، والفحولة مصطلح شعري لا يوصف به شاعر إلاّ إذا استكمل مقتضيات الفحولة ولقد تقصّاها بعض الدارسين في كتاب ضاع في ثنايا كتبي. وتساؤلي المُلِح: من الذي أطفأ هذا الشهاب الملتهب؟ ومن الذي حمله على مبارحة المشهد في وقت مبكر؟ وهو الشاعر الذي يهزّ العواطف، ويذكي المشاعر، ويحرّك كوامن الوجدان بشعر مقاوم، ينضح أسى ومرارة. أعرف جيداً أنّه بعنفه في القوميات أثار دعاة الوحدة الإسلامية، وبملاحقته للغانيات أثار الورعين. وإذا كان رقيق المشاعر فإنّه لم يحتمّل ردود الأفعال، ولربما يكون ذلك بعض الأسباب المؤدِّية إلى الغياب، ومن بواكير قوله:

فـــوق هـــذى الأرض منـــا أمـــة
فنيـــــت إلا رســـــوماً تتبـــــاهى

كبـــل الجهـــل قواهـــا فمشـــت
للمنـــى زحفـــاً فهيهـــات مناهـــا

أمطروهـــا مـــن شـــبا أقلامكـــم
أدبـــا حيـــا وعزمـــا وانتباهـــا

علموهـــا كيـــف تبنـــي مجـــدها

واحملـــوا المشـــعل فـــي ليـــل ســـراها

علموهـــــــــا أن للـــــــــذل يـــــــــدا

مـــن تـــراب الجهـــل والجـــبن براهـــا

أيقظـــــوا فيهـــــا شـــــباباً خـــــاملاً

هـــام فـــي بيـــداء لا يـــدري مـــداها

وهذا شعر جزل في العبارة، قوي الأسر، عميق الدلالة، لا نكاد نسمع بمثله، ولكنه شعر شاعر اعتزل قومه وما يقولون. ولم أكن أعرف بعد انقطاعه ما إذا كان على صلة بالأدب والشعر وبالمشاهد الأدبية. لقد بارح المشاهد كلّها، ولم أكد أذكره لولا أن ذكّرتني به (الثقافية) وهي الحريصة على أن تعيد الهاربين من مفازاتهم، وأن تبعث ذكر الأموات من أجداثهم، وإنّه لمن المؤسف، أن تخلو المشاهد من شاعر متميّز (كابن سيار) في وقت الانكسار العربي وثقافة الخوف، ولم أكن وحدي الذي ودّعه ونسيه، فكلُّ من لاقيت يشكو هذا الغياب، فلذا كان آخر عهدي به يوم أن فرغت من رسالتي للدكتوراه، وكنت إذْ ذاك أنقب في شعره عن الحس الإسلامي، وكانت نزعته تراوح بين الوطنية والحب العذري. ولقد أشرت إلى ذلك حين قلت: (والشاعر عثمان بن سيار رغم ندرة إسهاماته وطول مكثه في رحاب الحب والمحبين يملُّ واقع الأُمّة ويضيق بالقعود ويستريب من هذه الفرقة المستحكمة والشقاق المستشري فيوسع المثاليين لوماً وتعنيفاً)، وهو كذلك في كلِّ شعره الوطني والسياسي والقومي، غير أنّه تحوَّل فجأة إلى الحب. وحين نصفه بالقومية فإنّنا لا نمضي به إلى حيث قوميات (المتأدلجين) الذين ينبذون الإسلام وراء ظهورهم، كما يفعل بعض القوميين العرب، وبخاصة النصارى منهم، وإنّما نقصد ذلك الشعر العربي الناسل من عباءة الإسلام لغة وفكراً، والشاعر في هذا اللون من الشعر يبدو قاسي العبارة محتدم المشاعر. لقد تحدّث عن (القدس) كما تحدّث غيره، ولكنه اتخذ شكلاً تعبيرياً يختلف كثيراً عما يسلكه الشعراء من حوله، يقول في هذا الشأن:

أتـــوا يبكونهـــا حمـــر المـــآقي

وكـــل مـــنهم نضـــو اشـــتياقِ

وكـــل يـــدعي حبـــاً لليلـــى

ومـــن كفيـــه ليلـــى فـــي اختنـــاقِ

أضـــاعوها وقـــالوا القـــدس ضـــاعت

تبـــاكوا يـــا دهاقنـــة النفـــاقِ

وهو كذلك في سائر شعره القومي يلوم ويقسو في اللوم، ويعاتب ويعنف في العتاب، ولا يكاد يرسم طريق الخلاص إلاّ بعد أن يجهز على المتخاذلين، وظاهرة العنف والتمرُّد واكبت شعراء المرحلة التي واكبت الثورات العربية، وكثير منهم أصيب بخيبة الأمل، فهرب من المشهد الشعري لا يلوي على شيء ذي بال إلاّ على حزن عميق، ومرض مصمٍ، وآهات دفينة.

وديوانه (ترانيم واله) وما تلاه من أعمال شعرية تذكِّرني بطائفة من شعراء التولُّه، لا أقول النزاريين، ولكنني لو قلتها لما أبعدت النجعة، والترانيم والتراتيل والنداء وكافة الصوتيات دأب الشعراء الغزليين، فالشاعر (علي محمد صيقل) له ديوان (ترانيم على الشاطئ) وهو شعر خليط، ولكنه مشبع بالمناجاة الوالهة، والشاعر الصديق (عبد العزيز بن محمد النقيدان) له ديوان (ترانيم الرمال) الذي سعدت بتقديمه للقراء، والشاعرة (عزة رشاد) شاعرة مصرية مقيمة في البلاد لها ديوان (ترانيم قلب) سعدت أيضاً بتقديمه للقراء، والشاعر (عبد السلام هاشم حافظ) - رحمه الله - له ديوان (ترانيم الصباح) والشاعر العميد محمد نصير له (ترانيم السمر)، ولعلّ من أبرز هؤلاء جميعاً الشاعر الصديق (محمد عيد الخطراوي) في ديوان (ترانيم الصباح) وكأنِّي به يلتقي مع شاعر بلده (عبد السلام حافظ) مع الفارق بين الاثنين. وكلُّ شعراء الحب والتولُّه يحلو لهم أن يترنّموا، وأن يكون شعرهم صوتاً ندياً.

لقد كان ابن سيار مشروع شاعر، لا يقلُّ عن سائر الشعراء الذين كانوا حداةً للقوميات العربية، ولكنّه رفع قلمه وطوى صفحته، وترك المشاهد لشداتها الذين لا يحرِّكون ساكناً، فهل يعود بعد هذا الهجر، ويستجيب لنداء قومه؟ أم أنّه سيقول كما قال سلفه:

أضـــــاعوني وأيّ فتـــــى أضـــــاعوا

نحن أحوج ما نكون إلى مثله ليوم الكريهة وسداد الثغور، فهل يستجيب؟ أرجو ذلك.

تجربتي الثقافية وتحوُّلاتها .. ! (١)[(١)]

(تجربتي في الحياة) عنوانٌ عائم، فرضه عليّ الإخوة في (هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القصيم)، ليكون محاضرة ضمن فعاليات (الصيف)، والمهتمون بالشأن العام يخشون أن يضيع الوقت، كما ضاع اللبن في الصيف، حتى يقال: (الصيف ضيعت الوقت) كما قيل من قبل في الأمثال: (الصيف ضيعت اللبن)، وللمثل حكاية طريفة، ليس هذا مجالها.

هذا العنوان العريض من العناوين الشمولية، التي لا يحدُّها موضوع، ولا تحصرها فكرة، ومن الصعوبة بمكان مغالبة الموضوعات المفتوحة، إذْ هي أشبه ب(النص المفتوح)، وانفتاح النص يعني قبول كل تأويل محتمل، وإن تضاربت الآراء حوله بين (إيكو) و(بارت)، في استقصار ممتع للأخوين (الرويلي والبازعي) في (دليل الناقد الأدبي)، وليس من السهل لملمة أطراف التجارب المتنوعة: عملية كانت أو علمية، زمانية كانت أو مكانية. ولست أدري من أي الزوايا ألتقطها، ولا من أي الدروب آتيها. فالإنسان المسكون بالمهمات والهموم الفكرية والأدبية والسياسية وتقلُّباتها التي لا تقر، المتشبّث بأرباب القلم وما يسطرون، وبالكتبيين وما ينشرون، تمر به حيوات نافقة أو فائقة. وتغمره حضارات: وضعية وسماوية، محفوظة أو محرفة، مفسرة ومؤولة. وهذه الحيوات، وتلك الحضارات، تقع تحت طائلة الخلطة المستحكمة مع تجاربه، لتشكِّل لوحة مسطحة أو ذات أبعاد، حتى ليغتلي فيها ارتيابه، فلا يستطيع تقرِّيها، واستبانة الذاتي من الغيري، على شاكلة صورة (انطاكية) على جدار (إيوان كسرى) في بكائية البحتري التي عدَّها المتسرِّعون وصفية:

فإذا ما رأيت صورة أنطا ... كية ارتعت بين روم وفرس

إلى أن قال:

يغتلي فيهم ارتيابي حتى ... تتقراهمُ يداي بلمس

وكلُّ إنسان سوي يتلقّى تجارب الآخرين، مثلما يمارس تجاربه، فتكون كالشعاب التي تتدفَّق صوب الأودية السحيقة، لتكون فيضاً من التجارب المتنوّعة ومتى دقّت الملاحظة، وتواصلت المتابعة، تحوّلت صغار التجارب إلى كبار. وما كتاب (الحيوان) للجاحظ بمجلداته السبعة إلاّ وليد الدقّة في الملاحظة والتواصل في المتابعة، إذْ هو موسوعة ثقافية، تكشف عن مشهد العصر وحراكه الثقافي. وبتعدُّد التجارب، وتواردها على الذهن، تشكل وعياً جديداً، قد تصرف الراصد عن بعض مسلّماته. ولأنّ التجارب فعلٌ متواصل فإنّها تكون بعدد السنين والشهور والأيام والساعات، بل أستطيع أن أقول: إنّها بعدد الثواني. فكل لحظةِ فعلٍ صالحةٌ لتكون ظرفاً لتجربة حافلة بجلائل الأعمال. وما الصدفة أو الفرصة إلاّ مفتاحٌ لتجربة مصيرية. وقديماً قيل (رُبّ صدفة خير من ميعاد).

والإنسان الشّجي تجتاله الهموم، وتحتنكه المسؤوليات، ويظل كما الصعلوك الأطحل الذي تتهاداه التنائف، فما يحط من قضية إلاّ وينزع إلى أخرى، ولا يفرغ من حدث شديد إلاّ إلى حدث أشد، وتلك الأيام دول وتداول.

---

(١) تاريخ المقال: ٣١/ ١٠/ ٢٠٠٦

ولأنّ هذا الصنف من الناس موزع الجسم بين هموم ذاتية، وأخرى جماعية، فإنّ وعيه للأحداث يكون أشد عمقاً وأعمق إحساساً. والاهتمام بالشأن العام من واجبات المسلم، فهو بين عبادة لربه، وهداية لقومه، وعمارة لكونه: حسّاً ومعنى. وما من حيٍّ إلاّ وله نصيب من التجارب الخاصة أو العامة، له ما كسب، وعليه ما اكتسب. والأذكياء هم الذين يُفرِّجون عن أحسنها، ويدسون خداجها في التراب.

والمؤكد أنّ القيمة ليست في ذات التجارب والوقوعات من حيث هي أداء أو مواجهة، ولكنها فيما تتركه التجربة المتميّزة من أثر في الذات أو في الغير. وما أكثر التجارب التافهة التي لا تستحق الذِّكر، لأنّها لا تحرّك ساكناً، ولا تثير انتباهاً. وما التاريخ إلاّ وعاءٌ لتجارب الأمم والأفراد في الربح والخسارة. إذْ هو سفر لسقوط الدول وقيامها وأسباب ذلك. والحضارات كالأناسي، لها طفولة وشباب وفتوة، وكهولة وشيخوخة وهرم، قد يبلغ بها أرذل العمر، وفي الحديث: «**بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ**» والعلم لا يُنتزع، وإنّما يعم الجهل بموت العلماء، واستفتاء من لا علم عنده، ليكون الهلاك والإهلاك، وذلك بعض ما نرى ونسمع. وتصور الحضارات من خلال قيامها وسقوطها، لا يتعارض مع الحفظ للذكر ولا مع بقاء الطائفة المنصورة. فالساعة لا تقوم وفي الأرض من يقول: الله الله. وكم شهدت الإنسانية حضارات سادت ثم بادت، إمّا عبر الآثار أو عبر صفحات التاريخ. وعلى افتراض أنّ التاريخ لا يكتبه إلاّ المنتصر، فإنّ من الممكن تمحيص الأحداث، واكتشاف الزيوف. ومثلما أنشأ أهل الحديث علم الجرح والتعديل والتخريج، فإنّ للمؤرخين مناهجهم التي يمحِّصون بها الأحداث ويصححون التجارب، ويبتلون بها الأخبار، ليقروا على صفحاته ما تقبله عقولهم، (وابن خلدون) في مقدمته الأطول، وضع أسس علم التاريخ والاجتماع والسياسة، وإن لم يستفد منها في كتابة التاريخ، حيث تألّقت المقدمة، وخمل التاريخ، هذه الرؤى، وتلك التصوُّرات تكمن في (اللاوعي) بوصفها محصلة تجارب ومقروء، وتنشط كلّما أثيرت، لتشهد اتخاذ أي قرار.

ولما لم تكن كلُّ تجربة جديرة بالاستدعاء والرَّصد والتحليل، فإنّ الفوضوليين هم الذين يدوكون ليلهم، ويلوكون ألسنتهم بأحداث عارضة لا قيمة لها. وليس كلُّ متحدث محقاً باستعادة تجاربه، وعرضها على الملأ، فالناس كإبل مئة لا تكاد تجد فيها راحلة، ولاسيما أنّنا في زمن الغثائية التي حذّر منها رسول الله ﷺ. والقادر على تحمُّل المسؤوليات وأدائها على وجهها هو القمين بأن يتذكّر الأحداث والتجارب، وأن يكتب الذكريات والمذكّرات واليوميات، ليكون ما يكتب هادياً ودليلاً، إذْ باستعادة مثل هذه التجارب تكون الفائدة لناشئة الأُمّة المتنازع عليها، كما الأرض الموات. وليس من المعقول أن نسوِّي بين العباقرة والمجانين، ولا بين الأذكياء والمغفلين، ولا بين الخاصة والعامة، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾.

وإذْ لا أزكّي نفسي فإنّني أحسبها من الصنف الوسط، الذي عبر الحياة متأبّطاً الكتاب والمحبرة، وممسكاً بالقلم والقرطاس، يخط بيمينه ما تبرؤ به ذمّته، مشاطراً أُمّته همومها، محاولاً تغيير ضعفها بلسانه وقلمه، حين لم يقدر على تغييره بيده وسنانه. ولها فقد تكون تجاربي الثقافية محط تقدير الأقلية من الطلاب والمحبين، وإن كانت في نظر الأغلبية دون ذلك بكثير. ولست برماً من عزوف البعض والاختلاف مع البعض الآخر، متى سلمت النوايا، وحسنت المقاصد ورُشِّد الحوار. فالاختلاف من سنن الله الكونية، وهو النار الهادئة التي تُنضِج الأفكار والآراء. وعلى الواثق أن يقول كلمته، ويمضي غير هيّاب ولا وجل مما يثار حوله من غبار لا يزيده إلاّ تألُّقاً. وقديماً قيل: (كلُّ فتاة بأبيها معجبة).

فالعقول لا تُشترى، ولا تُصطفى، ولكنها تُصقل بالتجارب، وتُربّى بالتحصيل المعرفي، وتقوّم بالقدوة الحسنة. والتاريخ معين لا ينضب، لأنّه راصد لتجارب أُمم سلفت. والمتحدثون عن تجاربهم مبادرة أو استجابة، إنّما يؤرِّخون لأنفسهم، ويكتبون سيرهم الذاتية بأيديهم، ويطرحون أنفسهم بوصفها موضوعات، يوعظ بها ترغيباً أو ترهيباً.

ومن أصعب المواقف على الإنسان موضعة ذاته، فهو كمن يشرّح جسمه دون تحذير. ولحساسية الموقف يرقب الدارسون وفيات الأعيان، ليكونوا في حل من التناول. ولعل القول ب(موت المؤلف) محاولة للخلوص من تأثيره على الدارسين. ومن الصدف الحميدة اهتمامي المبكر بالسِّير الذاتية، ووقوفي على تجارب القادة والمفكرين والمصلحين من خلال ما سجّلوه عن تجاربهم، أو سجّله مريدوهم. وما من مسؤول ترجّل من كرسيه، وقدر على التعبير إلاّ غمر المشاهد بتجاربه النجل وتجلياته الخلَّب أو بتنصُّلاته من إخفاقاته، محذِّراً أو محرضاً، مدلاً بأفضاله، أو دالاً على فضائله. وهو قبل ترجُّله يَعد ولا يفي، ويمنّي ولا ينجز. وليس كلُّ ما يقال عن التجارب صدقاً محضاً، أو كذباً محضاً، ولكنها ساعة وساعة. والعاقل يعرف القوم من لحن القول. وكان اهتمامي بهذا اللون من الثقافة، محرضاً على الأخذ بأحسن التجارب، ومساعداً على مرونة التحوُّل. وتعقُّبي للسِّير الذاتية جاء أوزاعاً بين النقد التنظيري والتطبيقي، والإشراف والمناقشة والتحكيم، وقراءة الإبداعات السردية. فكثير من السِّير الذاتية تُعد إبداعاً سردياً ممتعاً، كما فعل (طه حسين) في (الأيام)، وكما فعله روائيون من بعده، تقنعوا بالأبطال، فكشفوا ما ستره الله وعفا عنه. ومن خلال الارتباط بهذا اللون، وجدت لكلِّ شخصية نكهة خاصة، لا تغني عن غيرها، وإن كانت مفعمة بجلائل الأعمال. ومما زاد الحديث عن التجارب أهمية دخولها في عالم الرواية، وابتلاؤها بالمكاشفة (اللاأخلاقية)، سواء كانت المكاشفة سلوكية، كما فعل الروائي المغربي (محمد شكري) في رواية (الخبز الحافي)، أو هجائية، كما فعل الفيلسوف المصري (عبد الرحمن بدوي) في (سيرة حياتي) أو فكرية، كما فعل (نجيب محفوظ) في (أولاد حارتنا)، ويوازي هذه الشطحات اعتدال مقبول، كما هو عند (أحمد أمين) في (حياتي) وعند (إدوارد سعيد) في (خارج المكان) وعند (ميخائيل نعيمة) في (سبعون) وإن اختلفنا مع الاثنين عقيدة وفكراً.

ومن أجمل السِّير سير أعلام النبلاء من علماء ومفكرين وساسة، سواء في ذلك ما كتبوه بأيديهم، أو ما كُتب عنهم كما فعل (البغدادي) و(الذهبي) و(ابن عساكر)، إذ كلُّ هذه الشرائح من الأناسي خاضت معترك الحياة من أجل الإنسانية المعذَّبة أو التائهة، فكان منهم الهداة المهتدون، والضالون المضلُّون. والتاريخ العربي ذو شقّين: (تاريخ سياسي) يتحدث عن نشوء الدول وسقوطها، وما تتعرّض له من حروب، وتداول للسُّلطة عن طريق الاختيار أو الغلبة أو التوارث، وما ينتابها من ترف أو شظف، وتبعات ذلك كله، ومن أساطينه (ابن كثير) و(المسعودي) و(الطبري). و(تاريخ حضاري) وهو سير الأعلام وتاريخ العلوم والمذاهب والمدن، ومن أبرز أعلامه (الذهبي) و(البغدادي) و(ابن عساكر) و(أحمد أمين) في العصر الحديث. والتجارب أوزاع بين هذين التاريخين. وحديث الإنسان عن نفسه من أصعب المواقف، ومن أعذب المقروء. فالسِّير الذاتية فنٌّ رفيع، تهواه الأنفس، وتلذُّ به الأعين، وتطرب له الأسماع، وبخاصة حين يتوفّر على المصداقية والاقتدار وجلائل الأعمال. والمصداقية المطلوبة في تلك المواقف، لن تتوفّر بالقدر الكافي، وبالذات عند الحديث عن تجارب الإنسان الأولي. ولهذا عجب الله من شاب ليست له صبوة، وجعل الشاب الذي نشأ في طاعة الله من السبعة الذين يظلّهم الله يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه.

تجربتي الثقافية وتحوُّلاتها .. ! (٢) [1]

والتجارب الأولى إنْ لم تجنح أخلاقياً، فهي مأخوذة بالحماس والاندفاع وطيش الشباب، وما يُطْفِئ أوار هذا الطيش إلاّ تقصّي التجارب المحنّكة عند سائر العلماء والمفكرين. فالحياة جامعة مشرعة الأبواب لذوي الألباب، والذين تخرّجوا فيها، يكاد المتميّز منهم يفوق من تخرَّج في أرقى الجامعات، و(المتنبي) حصر العزَّ والخيرية، على سرج السابح، أو بين دفّتي الكتاب. فالحصان وبدائله تطوف بالإنسان في الآفاق، التي هي مكمن الآيات ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾. وبوسائل النقل والاتصال تتوفّر التجارب العلمية والعملية. والكتاب بما حوى من مختلف الفنون، يوفِّر المعارف. وليس هناك أفضل من تلاقح التجارب والمعارف. والطواف في الآفاق مصدر العلم والكسب. ولهذا أصبحت المواصلات والاتصالات الجسر والمعبر إلى الخبرات والخيرات، وكما قيل: - (سافر ففي الأسفار خمس فوائد)، و(المتنبي) ينسب مرضه لطول الإقامة، ويقول عن طبيبه الذي جسه: -

وما في طبه أني جواد
أضر بجسمه طول الجمام

والسفر بوصفه وعاء التجارب يسفر عن وجوه الرجال، والرحلة في النهاية تجربة ثقافية، مثلها كمثل الرحلة في بطون الكتب. والأسفار للسياحة أو للعمل صنو القراءة، ومنهما معاً تتشكَّل الثقافة. فالثقافة: ما يَثْقفُه الإنسان أي يجده مكتوباً أو منصوباً، و(النِّصبة) - بكسر النون - لسان حال كما لسان المقال، عند (الجاحظ) وفي (البيان) الذي جمع أصناف الدلالات في خمسة أشياء، وهو المثل الأعلى للثقافة العربية. ولقد كانت الرحلة بعض تجاربي الثقافية، وكانت حياتي موزَّعة بين الكتاب والركاب.

والذين مكّن الله لهم من الكلمة، وحلّ عقدة ألسنتهم، يتمترسون خلف التورية والكناية واللمحة، ويتوسّلون بعلوم البلاغة، لتجميل تجاربهم، وتغليب جانب الإمتاع على الانتفاع والتلميح على التصريح. وكلُّ متحدث عن ذاته تتجاذبه تيارات ومذاهب، فهو لا يكتب ليحكي ما حدث، ولكنه يكتب ليبرر ما حدث. ومن الناس من يعجبك قوله، حتى إذا فُزّع عن عقلك لم تجده قال شيئاً ذا قيمة. وكثير ممن دوّنوا تجاربهم كشفوا عن سذاجتهم وضحالتهم وخواء أفكارهم، وعدم استفادتهم من سنوات العمر، فالقراءة وإنْ طالت، لا تكون مؤشّر تفوّق ولا تألُّق، إلاّ إذا تلقّاها ذهن متوقِّد. فهي كما الوابل إنْ أصاب أرضاً سبخه زادها وحلاً، وإنْ كانت روضة غنّاء اهتزت وربت وأنبتت من كلِّ زوج بهيج.

والسير الذاتية مكمن التجارب، ومن الظواهر السيئة فيها التوسُّل ب(أدب الاعتراف)، وهو لون من ألوان الأدب الحديث، عول عليه كثير من الروائيين المخفقين فنياً ولغوياً، ليسدوا نقصهم، ومن خلاله تعرّض الأدب لسوء الأدب، إذْ لم يتعاضد فيه شرف المعنى مع شرف اللفظ، فكان هذا اللون (كخضراء الدمن). والمبدع لا ينفك عن بشريته الضعيفة أمام المغريات وثورة الغرائز، ومن ثم يُبتلى بالقاذورات، ثم لا يستتر. ومثل ذلك يحصل في فترة الشباب، أو في حالة الضعف أمام الغرائز، ويستمر مع الشيوخ المتصابين، وما أقبح العائل المستكبر والأشيمط الزاني. والإبداع السرديُّ أخذ زمام المبادرة في استيعاب السِّير الذاتية، فكانت الأعمال مظنَّة الانحراف الفكري والسَّقوط الأخلاقي.

---

(١) تاريخ المقال: ٧/ ١١/ ٢٠٠٦

وما أضرّ بالأُمّة إلاّ التفحُّش في القول، وكثرة الخبث، تحت أيّ مبرّر، وفي الحديث «**كلُّ أمتي معافى إلاّ المجاهرون**».

وجنوح السير الذاتية بوصفها وعاء التجارب إلى الإبداع السردي أوقعها في المجاهرة بالسوء، والمكابرة في الأفكار، تعويلاً على مشروعية الاعتراف، وجنوحاً إلى مقتضيات الواقعية، وتوسُّلاً بحرية التعبير. وحق الاعتراف والواقعية والحرية أصبح مناط المتفلّتين على سائر الضوابط والشروط والسمات، وهي مناطات أخلَّت بالقيم، لأنّها لم تؤخذ بقدرها وضوابطها، والحق أنّها ليست مناطاً لكشف السوءات، ونسف المسلَّمات، كما يتصوّر البعض. ولم يَعُد الحديث عن التجارب عبر الأعمال الروائية مأمون العثار، ولم تعُد السّقطات عارضة، ولكنها متعمّدة وملحّة في التعمُّد ف(سلمان رشدي) في (الآيات) و(تسليمة نسرين) في (العار) و(علاء حامد) في (المسافة) و(حيدر حيدر) في (الوليمة)، وآخرون من قبل ومن بعد، ونقاد معذِّرون أو مدافعون، كلُّ ذلك لم يأت بالصدفة، إنّه عمل غير صالح، دبّر له في الخفاء، ليجهض الكلمة الطيبة ويقمع القول السديد، ويذكي الخلاف بين حرّاس الفضيلة ودعاة الرذيلة. وأيّ تجربة ثقافية تقف على خطل القول، وعوار الكلام، ثم لا يكون لها دور في إقالة العثرات، وتصحيح المسارات، وأطر المتفلّتين على القيم لا تكون ثقافة ناصحة لله ورسوله وللمؤمنين. لقد أحسست في وقت مبكّر أنّ المثقف رائد، والرائد لا يكذب أهله، وأنّ مسؤوليته الإصلاحية فرض عين. والروايات المنحرفة أو الساقطة وثائق إدانة للمشهد وللصامتين عن الحق. ومهما تنصّل الروائيون من اتخاذ البطل قناعاً، فإنّهم مدانون في الحالين، لأنّهم صنعوا الأبطال على عيونهم، وأجروا الأفعال على أيديهم، أو أنّهم اقترفوا الأعمال المسفة ثم جاهروا بها. والقول صنو العمل، وفي الذكر الحكيم ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

والمتوقّع من المشهد الأدبي بثّ الفضيلة، وحراسة القيم، وانتقاء التجارب الإنسانية المفيدة، وليس صحيحاً ما يقال من أنّ الشعر نكد لا يقوى إلاّ في الشر وأنّ أعذب الشعر أكذبه، وليس صحيحاً ما يُتداول من أنّ الشعر بمعزل عن الدين. وكيف يسلِّم العقلاء بهذه المفتريات، والله يقول: ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ لقد نكص المشهد على عقبيه، واحتفى بالردّة الثقافية، وأغرى المبتدئين بالأخذ بعصم الرذائل، فكان أن أثارت تلك الجنح ضجة كبرى واختلافاً كبيراً ونجمت على إثر هذه النكسة وتلك الردّة، مذاهب أدبية ونقدية ك(الأدب الإسلامي). وهذا الحراك داخل المنظومة الحضارية الواحدة صدَّع الوحدة الفكرية، وألهى الأمّة العربية عن المبادرات الإيجابية، ولقد تولّى كبر ذلك التصدُّع متعاجمون، تعالقوا مع المستجد دون تحفُّظ، فكانت المذاهب في نزول وارتحال حتى أصبح كلام الليل يمحوه النهار. وما عادت التجارب بهذه الترديات مصدر تهذيب أو تعليم، وتلك من قواصم المشهد الأدبي، الذي لم يعد عربياً خالص العروبة، ولا إسلامياً نقي الإسلام. واستفحال الرذيلة، وتهافت الذوّاقين تواكبهما أعمال جادة، وسير حميدة، تذكي روح الحماس، وتربّي على القيم النبيلة، وتضيف، ولا تلغي، ولكنها أعمال يتعمّد المتنفّذون إقصاءها، والتعتيم عليها. وما أكثر الذين حاموا حول الحمى ووقعوا فيه، حين لم يبالوا بالقدوة الصالحة، ولا بالكلم الطيب. وأي تجربة ثقافية تنشأ في هذا الوسط المستحم في الوحل، يمسُّها طائف من دخن المشاكل، وإنْ نجت فبأعجوبة، وإنْ تصدت فبمعجزة. وقدر الخيّرين أنّهم كمن يرعى غنماً في أرض مَسْبَعَة، فإنْ غفل عنها تولَّى رعيها الأسد. وما من تجربة ثقافية إلاّ وهي واردة موارد القوم، ولكن الله ينجي الذين اتقوا، ويذر الظالمين فيها جثيّاً، ونجاح التجربة في الخلوص مما عمت به البلوى. وما

أكثر الذين استزلّهم قرناء السوء، وزيّنوا لهم سوء أعمالهم، حتى رأوها حسنة، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، ولم يستبينوا النُّصح إلاّ بعد فوات الأوان.

وما من متحدث عن تجاربه إلاّ تواجهه مواقف يتمنى أنّها لم تكن. والعقلاء هم الذين يئدون ما لا يفيد، ويلتمّسون اللحظات المضيئة في حياتهم، لتكون قدوة وذِكراً حسناً (والذِّكر للإنسان عمرٌ ثانٍ). ومواقف الضعف أو الإخفاق قد تساق للاتعاظ والتفادي و(العاقل من وعظ بغيره)، وإنْ كانت التجارب من الذكريات غير الحميدة. فالحياة بكلِّ ما تعج به من نجاحات وإخفاقات مدرسة لِمَن كان له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيد، والمتفحِّشون يذكرون بقصص القرآن، وكتب التراث. وكم هو الفرق بين قصة (يوسف) مع إخوته ومع امرأة العزيز وقصة (موسى) مع الفتاتين ومع (فرعون). فما يُتداول في الروايات والقصص من تجارب تسجيلية لا تنفك من الفضائحية، فالعاقبة في قصص الأنبياء للفضيلة، لا للرذيلة، كما يريد بعض السرديين المعاصرين.

والإخفاق في سائر التجارب لا يُعَد خسارة إذا عمله الإنسان عن جهل، أو تسرّع، واستدركه من قريب، ولم يصر عليه، ولا سيما إذا استطاع الاستفادة من عثراته، فالتجارب مفيدة للإنسان، وإنْ لم يسعفه الحظ بالتوفيق. ولأنّ خضم التجارب متلاطم فإنّ من المفيد انتقاء المفيد، والعدول عن الغثاء الذي يحفل به الغثائيون. وأمام عدد من الخيارات نثرت كنانة التجارب، ووجدتني متردِّداً في الاصطفاء، وعند التصنيف والمفاضلة تبدّى لي أنّ تجاربي مع (الكتابة والقراءة) خير ما يُقدم، لمعرفتي أنّها تمتد من المهد إلى اللحد، وأنّها تنطوي على معاضلة الأفكار، ومصاحبة العباقرة الأخيار منهم والأشرار. وما كان في نيّتي أن أتقصّى مراحل تلك العلاقة، ولا أن أرصد كلّ التحوُّلات، فذلك موعده يوم الفراغ لكتابة السيرة كلِّها، إنْ كان ثمة في العمر والجهد بقايا تتسع لكلِّ هذه الرغبات الطموحة. وحين أكتفي بتقديم نتف من السيرة الأدبية والفكرية، على شاكلة (سيرة شعرية) للقصيبي، وسير فنية أخرى تعاقَب على بثِّها عدد من المبدعين والنُّقاد والعلماء والمفكرين، أحس بأنّ سيراً كثيرة تتهافت على الذاكرة، لتسهم في صياغة ما أنتقي، وهو تهافت يفرض نفسه، فالتداعيات تؤكد أنّ الكاتب مرتهن مقروئه، وأنّ تمثله لما يقرأ لا ينجيه من التأثُّر الواضح. وكلُّ مفكر تعرف مصادر ثقافته من كتابته، وتقديم التجربة لوقوعها بالفعل، وليس لتألّقها، ولو أنّ المجرّبين جعلوا التألّق شرطاً للإفضاء، لما فعل ذلك العقلاء، لأنّه مؤشِّر إعجاب وزهو وغرور وتزكية للنفس.

تجربتي الثقافية وتحوُّلاتها .. ! (٣) [1]

وحين هممت بالتقميش، تذكَّرت ما قرأت في كتاب (أنا) وكتاب (في بيتي) وكتاب (حياة قلم)، للمفكِّر العربي (عباس محمود العقاد)، وهي تمثِّل جانباً من حياته الفكرية، فيما تمثِّل روايته الوحيدة (سارة) حياته الغرامية الفاشلة، والتي انطلق منها (عامر العقاد) رحمه الله، لتقصى ما لا يجوز، في كتب صفراء، سمّاها (غراميات العقاد) و(المرأة في حياة العقاد)، وهو لون من الارتزاق غير المشروع. وليست (اليوميات) ل(العقاد) بأجزائها الأربعة الضخام من قبيل السيرة الذاتية، ولكنها تعليقات تشتمل على النقد والرد والسؤال والجواب لمختلف المعارف والقضايا. وقد كتبها في خريف حياته، حيث وهن عظمه، وخارت قواه، وشحّت موارده، فكانت أشبه بالخواطر، ليعيش حضوراً، ويكسب قوتاً، وبئست حياة تزورُّ عن العظماء، وتنبطح تحت أقدام الأقزام. و(العقاد) في كتبه الثلاثة أفاض، بالحديث عن تلقُّباته الفكرية والقرائية، وقد خصّ مكتبته في كتابه (أنا) بفصل موجز، بسطه في كتابه (في بيتي)، وإنْ أوغل في الفلسفة عندما تحدث عن (النور والروح والمادة) حديثاً جدلياً ممتعاً، يتكئ على الحوار مع صاحبه. أمّا حديثه في (حياة قلم) فقد كان أجمل ما فيه حديثه عن (ولادة قلم) و(قلم يشق طريقه)، ولو كتبتُ عن قلمي، لكاد يكون ما أكتب مستلاً من (العقاد)، ليس عجزاً، ولكنه التشابه في النشأة والظروف، وبقدر تأثُّره السَّاذج ب(النديم) كنت معه في مطلع حياتي. وهو حين يتحدث عن (أزمة قلم) فإنّما ينطلق من الأزمات المادية التي تعرّضت لها صحف الأفراد، و(العقاد) يعيش من شبات قلمه، وليس من عرق جبينه، فهو قد رفض أن يبيع نفسه بالتقسيط على الحكومة - على حدِّ تعبيره - فالوظيفة عنده قيد حريري، يعوق الانطلاق، ويحبس الكلمة، ويستنزف الجهد والوقت، بثمن بخس هو الراتب الشهري، وحسناً فعل. وحياة (العقاد) متميِّزة كتميُّزه بين أقرانه، فهو لم يكمل دراسته، ولم يتزوج، ولم يتوظّف، وهذه الفضاءات الثلاثة مكَّنته من تشكيل فكر حر، لا يخشى في الحق لومة لائم. فكان صعلوكاً متحضّراً، يردِّد مع الصعاليك قول أحدهم: -

خُلقـــت عيوفـــاً لا أرى لابـــن حـــرة
علـــيَّ يـــداً أغضـــي لهـــا حـــين يغضـــب

وينشد مع (الحميري) قوله: -

عـــدسْ مالعبـــاد عليـــك إمـــارةٌ
نجـــوت وهـــذا تحملـــين طليـــق

ولقد اختلفْتُ معه في خصوصياته الثلاث، فكان أن تزوّجت مبكراً وتوظّفت مبكراً، وتباطأت في إكمال دراستي، ولكنّني أكملتها عبر جامعات ثلاث، تعرّفت من خلالها على أساطين الفكر والأدب. وتجربة العقاد الفكرية تشكِّل الجذور الأولى لرؤيتي، وإنْ عدلت عنها بعض الشيء، حين وصلت حبالي بالتراث، عبر موسوعاته الثقافية وبناشطي الفكر الإسلامي، كشيخ الإسلام (ابن تيمية)، حيث امتدت نظرتي إلى مصادره المعرفية الأهم في (المحلى) ل(ابن حزم) و(التمهيد) ل(ابن عبد البر) رحمهما الله، وحفظت التوازن في (المغني) ل(ابن قدامة). وهو كتاب في الفقه المقارن، وتحوُّلي الفكري من خلال تواصلي مع التراث، لا يقلُّ عنه تحوُّلي الأدبي من خلال تواصلي مع (مناهج النقد اللغوي

---

(١) تاريخ المقال: ١٤/ ١١/ ٢٠٠٦

الحديث)، و(مذاهب الأدب ومدارسه). ونزعتي الفكرية أميل إلى التكاملية والانتقائية، فمع اعتزازي بالسلفية، إلاّ أنّني لم أكن سلفياً خالص السلفية، إلاّ في الأصول العقدية، أو ما يسمَّى ب(الفقه الأكبر)، أو قل لست مرتهناً لمدرسة سلفية معيّنة. وإشكالية (السلفية) أنّ لها محطات تاريخية، لكلِّ محطة قضاياها التي أسهمت في توجيه الرؤية. والدليل على ذلك أنّ كلاًّ من (أحمد بن حنبل) و(أحمد بن تيمية) رحمهما الله، مرَّا بمحنة وامتحان، ولكلِّ محنة أجواؤها الفكرية المغايرة، ولكلِّ جوٍ خطابه، فمحنة (ابن حنبل) مع (المعتزلة) حول (خلق القرآن)، أمّا (ابن تيمية) فمحنه كثيرة، كما يقول صاحب (ذيل الطبقات)، وهو مجتهد في الفروع، وله مفرداته التي أثارت علماء المذاهب المتعصِّبين. ولك أن تقول مثل ذلك عن (محمد بن عبد الوهاب)، وغيره من المصلحين ك(الألباني). فالحركة الإصلاحية ل(ابن عبد الوهاب) اهتمت بحفظ جناب التوحيد، وتشكيل كيان سياسي يحميه. والحركة السلفية عند (الألباني) ركّزت على تصفية النص، وتربية الأُمّة على القيم، والعودة إلى الكتاب، وصحيح السنّة، الأمر الذي أثار عليه أصحاب المذاهب الفقهية، ولقد ساعد على ذلك حدّة طبعه، وعنف رده، وعدم مصانعته، واحتدام مشاعر مريديه.

وهكذا تتعدّد الخطابات بتعدُّد الأولويات. والتكاملية والانتقائية عندي ماثلة كذلك في الاتجاه النقدي، ومن ثم وصفني بعض الخصوم بالناقد التلفيقي، و(النزعة التلفيقية) نزعة فلسفية، تقوم على الخلط غير المنظم. ومن أمثلتها كما جاء في بعض الموسوعات (التزويج بين المادية والمثالية، وربط المذهب الماركسي بالمذهب التجريبي النقدي). وكم استفدت من المذاهب والتيارات التي واجهتها ك(الحداثوية) و(البنيوية)، و(التفكيكية) وغيرها، وفضل أصحابها عليَّ كفضل من أشايع. ولكيلا أقع أسير فكر واحد، فقد حاولت أن أستبين مكوّنات العقل العربي المعاصر من خلال كتب المفكرين ومذكّراتهم، ولقد وقفت على عدد لا بأس به من السير الذاتية عند (العقاد) و(طه حسين) و(أحمد أمين)، و(بدوي) و(عوض) و(إحسان عباس) و(إدوارد سعيد) و(عنان) و(العريان) و(هيكل) و(الجابري) و(زكي محمود) وآخرين. كما شغلني العقل البشري وبوصفه موضوعاً، فتقصّيت مشروع (الجابري)، وردود الفعل عند (الطرابيشي) ومن عاضده، أو خالفه حول مشروعه، كما هو عند (الياس مرقص) و(هشام غصيب) و(يحيى محمد)، كما امتدت نظرتي إلى تناولات (كانت) و(نورمان بريل) و(ماركيوز) و(باشلار) و(برنتون) و(لوكاش) وربطت ذلك كله بمفهوم العقل في الإسلام وحدوده واختلاف (المعتزلة) مع (السلفية) في ذلك. وليس مهماً عندي الاختلاف في وجهة النظر، متى استطعت أن أسيطر على الموقف، وأن أعرف القدر المسموح به، وفق رؤيتي ومذهبي الفكري. ولقد تعمّقت صلتي بمثل هذه السير الفكرية حين حُكِّمت في جائزة عالمية، وحين ناقشت رسالة (السيرة الذاتية في الأدب السعودي)، وحين كتبت دراسات لم تر النور بعد، ولكي أكون على بيّنة من أمري، فقد امتدت نظرتي إلى مجمل الدراسات التنظيرية والتطبيقية المؤلَّفة والمترجمة عن (السيرة الذاتية) في سائر الآداب العالمية. ويوازي ذلك دراسات الظواهر والشخصيات والتاريخ الفكري عند (أحمد أمين) و(حسن حنفي) و(فهمي جدعان) و(علي النشار)، ولكلِّ واحد منزعه العقلي الذي لا أمضي معه، وإن استكنهته. ومذكّرات الساسة ليست بأقل تأثيراً مما سلف، لا من خلال التحوُّل من الفني إلى السياسي، ولا من خلال العدول عن بعض المواقف، لقد أيقنت أنّ كلَّ فعل سياسي مؤثر إن هو إلاّ وليد لعبة صنعها الكبار ونفّذها الصغار، ولهذا اجتهدت في تفحُّص الوثائق المفرج عنها، واستكناه سير القادة المؤثرين من عمالقة السياسة العالمية، وتقصِّي قوانين اللعب السياسية وقواعدها، ولم أكن خِبّاً يخدعني الإعلام الموجَّه، وتحوُّلي إلى الكتابة الفكرية والسياسية، لا تمثِّل الانقطاع عن الأدبي وإنّما تعني التوسُّع في مهمات الأدب.

وتجربة القراءة العصبية تتمثّل في البداية والاختيار، فأي الكتب تقتني ولأي الكتّاب تقرأ، ومن أي الموضوعات تنطلق. لقد كان منطلقي قبل نصف قرن من (مكتبة بريدة العلمية) التي أمر بإنشائها (الملك سعود) رحمه الله، وأشرف عليها وتابعها، ودرس فيها الشيخ (عبد الله بن حميد) رحمه الله، ومكتبة (المعْهد العلمي) الذي التحقت به قبل أربع وخمسين سنة. والمكتبتان حافلتان، بكتب التراث، والتراث العربي مليء بالجيد والرديء، والمنجي والموبق، والغث والسمين. وتأسيسي الأدبي في بداياته كان على الموسوعات الأدبية ك(البيان والتبين) و(الأغاني) و(العقد) و(صبح الأعشى) و(المستطرف) و(الطبقات) و(الخزانة). ولمَّا أزل حتى الساعة وثيق الصلة بتفسير (ابن كثير) وديوان (أبي الطيب) ولزوميات (المعري) وموسوعة الفتاوى) (لابن تيمية). وإذا استدركنا على المعاصرين شطحاتهم المخلّة بالقيم، فإنّ الذين سبقوا من علماء وأدباء وفلاسفة، وكتبوا سيرهم العلمية أو العملية، كانت لهم شطحاتهم التي لا تقلُّ عن شطحات من خلف. والمتعقِّب لمن كتب عن ذاته في التراث، يجده إمّا مغرقاً في الإدعاء، أو ممعناً في الزهادة، والذين ترجموا لأنفسهم، عول بعضهم على ذكر الشيوخ والأنساب، وتحديد المذهب، والرحلة في طلب العلم. وتلك أبرز السمات لسير التراث، ولكن للأدباء والفلاسفة طرائق أخرى، لا تعول على ذكر المدارس والشيوخ والأنساب.

ف(ابن سينا) يأخذه الزهو والاعتراف، حين يذكر جلَده واستعانته بالشراب على الكسل. و(ابن عربي) يوغل في المكاشفات والكرامات، ولكنّه لا يتجاوز إلى الشعوذة، مثلما فعل (الشعراني)، أمّا عن الاعترافات غير المسفة فنجدها عند (ابن حزم) في (طوق الحمامة) وفي (الأخلاق والسير)، وهنا يبدو لنا في حديثه الفرق بين (الصدق) و(الصراحة) في السير الذاتية، فالصدق ألاّ يكذب، والصراحة ألاّ يتكتّم. وكلُّ الذي وقع فيه (ابن حزم) أنّه خالف الأعراف السائدة عند لداته من العلماء، وإلاّ فهو لم يخرج على السلوك الأخلاقي. ولا حجة لأحد بالتراث العربي، فهو إنساني، له وعليه، ولم يطلب منا الرد إليه عند التنازع، وموسوعات (الحيوان) و(الأغاني) و(الدارات)، وكتب (المثالب) و(الصداقة والصديق) و(الرسائل)، وسعت سفاسف الأمور، وليست حجة، ونبش عفنها جناية لا تغتفر، وقد فعلها (طه حسين) في (حديث الأربعاء)، وعول عليها (شوقي ضيف) في (الشعر والغناء في المدينة ومكة)، ولقد يسّر الله من يحمي جناب المقدسات من المفتريات حيث أنجز الدكتور (عبد الله الخلف) رسالة علمية رد فيها على (ضيف). على أنّ (أدب الرحلات)، حوى من السير الذاتية الشيء الكثير، وهذا اللون يُعد مصدراً أخلاقياً ووعاء للتجارب المهمة، لم يلتفت إليه الدارسون بالقدر الكافي.

ولأنّ القراءة بحاجة ماسة إلى الجهد والوقت والمال فإنّها موبقة أو معتقة، وما أكثر الذين أضلّتهم القراءة، أو أضاعت جهدهم ووقتهم ومالهم معاً. ومكمن الخطورة أنّ متكأ الإعلام المعاصر ومصدر تألُّقه، يكمن في الحديث عن المسكوت عنه و(اللا مفكر فيه)، وما هو مظنة الإثارة في أمور تتعلّق بالدين أو بالمرأة أو بالسياسة، لارتباط ذلك الثالوث بالسلطة، حتى أصبح المرتع الوخيم لكلِّ من تعجّل الحضور والتزبب في زمن الحصرمة. ومن جهة أخرى يوغل الإعلام في التوافه لإشباع رغبات المترفين الذين لا يشغلهم إلاّ قتل الملل، وإزجاء الوقت. وذلك بالحديث عن (الفن الهابط) وأحوال الفنانين والفنانات، أو الحديث عن (كرة القدم) واحتراف اللاعبين، وتلاحي المشجعين، أو الحديث عن (الشعر الشعبي) ومتعلّقاته، وأحوال (المجتمع) من ظعن وإقامة. وكلُّ ذلك المقروء للتسلية ليس غير. وتجربتي الثقافية لا ترفض مثل ذلك، ولا تعزب عن ذكرها ظواهر المجتمع السلبية والإيجابية. فالمهتم بأحوال المجتمع لا بدّ أن يلم بكلِّ ظواهره، ومن ثم نشأت عندي القراءة الاستعراضية، التي تحيط بأطراف القضايا، ولا تتعمّق فيها. إذْ هناك قراءة

وظيفية، بمعنى أنّها أنشئت للوصول إلى شيء محدد، كقراءة الرسائل الجامعية للمناقشة، وقراءة البحوث للتحكيم أو للترقية. وهناك القراءة التحضيرية، كإعداد المحاضرات، والإعداد للندوات، أو الاستعداد للردود عند الاختلاف حول الظواهر والقضايا. وهناك قراءة الاكتشاف، كالتعرُّف على مفكر أو فكر. وهناك قراءة التزوُّد، وهي القراءة الحرة المفتوحة.

وهذا اللون من المقروء العابر، يلم به البعض للترويح عن النفس، فيما يدمنه آخرون، ويرونه غاية المراد. ولا شك أنّ هذا لون من سلبيات القراءة، وهو فيما أرى أهون الضررين، إذْ لا يتجاوز اللمم، وإن ترتبت عليه إضاعة الجهد والوقت والمال. أمّا اللون الأشد ضرراً والأفدح خطراً، فهو ما تنتجه الأفكار المنحرفة، والمذاهب الهدامة، وهو الأكثر جاذبية، والأقدر على الإغراء، والأذكى في نصب الحبائل، وجذب القراء. ولقد نشطت وسائله، وتعدَّدت مصادره، وتنوّعت فنونه، واستشرى خطره، وعم ضرره، و لا يخلو عصر من العصور من طوائف متعدِّدة الآراء والأفكار والعقائد. ويكفي أن يستعرض القارئ موسوعات الملل والنحل ومعاجمها، وما يدور في علم الكلام في عصور الازدهار، أمّا في العصر الحديث فقد تبدّت أساليب جديدة، ومناهج حديثة، ومذاهب فكرية متعدِّدة بتعدُّد القائلين، كما نجم فيه الفكر الإلحادي، المتوسل بالهدف لا بالجدل، والمعول على المادة. ولكلِّ عقد من الزمان همومه ومثيراته وقضاياه، والتفكير في العصر الحديث كاد ينحصر في المادة، بوصفها ماثلة للعيان. والتاريخ الفكري الحديث حافل بالتجارب الفكرية والسياسية والأدبية، وبالتحوُّلات في تحديد مركزية البحث، والدخول في المعمعة مجازفة محفوفة المخاطر.

التأسيس للمجتمع المدني في عهد الملك سعود .. ! (١) [(١)]

التاريخ الإنساني حافل بالملوك والزعماء والقادة والروّاد، يتحدث عمّا أصابهم أو ما أصابوه، ويصف ما عاشوه من حيوات خاصة أو عامة. يذكِّر ببطولاتهم وبمبادراتهم، وقد يؤسطر بعضهم، ويظلم آخرين، بما يضيفه لهم من ترف ومجون، رغبة في الجذب والإثارة واستخفافاً بالمصداقية. وقد يشمت بمن شاء منهم حباً في النكاية والتوهين، أو ميلاً مع الهوى حيث يميل، والتاريخ حاجة إنسانية بما له وما عليه.

والمهتمون بالقراءة التأريخية لا ينفكّون من مصاحبة الشخصيات ذات البُعد الأممي في تألُّقهم وانطفائهم، وانتصارهم وانكسارهم، فحياتهم إمّا أن تكون قدوة أو موعظة، وما من إنسان سَوِيّ إلاّ هو حفي بتاريخ أُمّته، وهو أكثر احتفاءً بمن عاصر من بناة الحضارة والمدنية.

والتاريخ إمّا أن يكون تاريخ رواية، يتعقّب الأحداث، ثم يسردها كما هي في الزمان والمكان والأناسي، ملتقطاً ما يتداوله النقلة بالمشافهة بكلِّ حيادية، وهو المسمَّى بالتاريخ التسجيلي، أو هو تاريخ دراية، يحلِّل الأحداث ويلتمّس الأسباب، ليكون مُعَذراً أو مسائلاً. وأكثر المتلقِّين يخلطون بين تاريخ الأُمّة السياسي والفكري، ولهذا يُحمَّل أحد التاريخين جريرة الآخر، ولعلَّ (ابن خلدون) رائد الدراية وتابع الرواية، في مقدِّمته الأطول والأشهر وفي تاريخه المنطفئ إلى جانب المقدمة.

والناس مختلفون في مشاعرهم ومواقفهم، وقد تتنازعهم رغبات متباينة يعلو بعضها بالمتن التاريخي إلى سدّة القداسة، بحيث يرى المساس بشيء منه تدنيساً للمقدّس، وزلزلة للثوابت، ويهبط بعضها به حتى يراه تزييفاً للحقائق لا يمليه إلاّ المنتصر، ولا يكتبه إلاّ المتزلِّف. وقُرّاء التاريخ ليسوا سواء في إمكانياتهم ومقاصدهم، والتخوُّف لا يمنع من التحسُّس عن الحقائق، وما من قارئ إلاّ وفي نفسه شيء من كلِّ حدث، وريبة من كلِّ شخصية، والدخول في ذمة التاريخ يحوِّل الشخصية من الذاتية إلى الموضوعية، وينقل الحدث من الخصوصية إلى العمومية، حتى تصبح الأحداث والأناسي ملكاً مشاعاً لكلِّ مهتم بالتاريخ الإنساني، وما الحضارة في النهاية إلاّ لفيف من سير النبلاء، كما الأسد مجموعة من الخراف المهضومة.

وموضعة الزعماء تجرُّ معها لباب الأحداث، والأُمّة حين تمر بأدوار سياسية أو حضارية أو بهما معاً، تكون حفية بتعقُّب هذه المحطات، لأنصاف رجالاتها، وتحويل قيمهم الحسية والمعنوية إلى درس للاقتداء والإشادة، والتماس إخفاقاتهم للموعظة. وما من صانع للأمجاد إلاّ هو مجال اختلاف بين الناس، ومادة قَدْح أو مدح والشاعر العربي يقول:-

إنَّ العَـــــرانين تلقاهـــــا مُحسَّـــــدَةً

وَلَـــن تَـــرى لِلِئـــامِ النـــاسِ حُســـادا

ولقد عَدَّ الاختلاف بعض الدارسين من مؤشرات العبقرية، وضرب مثلاً بالخليفة الراشد (علي بن أبي طالب) رضي الله عنه واختلاف الناس حوله، وليس مهماً أن يختلف المتحدثون عن الحدث أو الشخصية متى حسنت النوايا وسلمت المقاصد، ومتى امتلك المتحدث مادة الحدث ومنهج الدرس وآليته، وخطته بالقدر الكافي لإنصاف المرحلة

---

(١) تاريخ المقال: ٢٨/ ١١/ ٢٠٠٦

وإنسانها. ولا أحسب المفكِّر العدل إلاّ في حل من المعية أو الضدية، متى لم يترتب على ذلك مفسدة، أو مخالفة صريحة لبرهان قطعيّ الدلالة والثبوت.

والحديث التسجيلي أو التحليلي عن شخصية سياسية معاصرة، حديث يقف بالمتحدث على مفترق الطرق، إذ تتعدَّد جوانب الشخصية وتتنازع الأهميات، وفقه الأولويات يجعل الحدث والفاعل مجال أخذ ورد، ومتعة الفكر أنّ فيه الخصام، وهو الخصم والحكم.

وإشكالية التاريخ في خلطه الاضطراري بين الذاتي والغيري، ومهما تحامى المتعقِب تلك الخلطة فإنّه واقع فيها، وإذ وسع التاريخ الإسلامي الأحداث مربوطة بالأشخاص، فإنّه وسع أحداثاً مربوطة بالأمم. والقادة العظام يتصدَّرون صفحات التاريخ، وإذ يكون التاريخ وحدات أو فترات فإنّ على المقتفي أن يلمّ بما يقفو ليكون على بيّنة من الأمر. وتاريخ (الدولة السعودية) في أدوارها الثلاثة يواكب تاريخ أمم قد خلت من قبل، وأمم لمَّا تزل قائمة، وهو تاريخ حافل بالبطولات، ونهاية كلِ دور مرتبط بإخفاقات ومواجهات لا طاقة له بها، وواجب المواطن السعودي الذي يتفيّأ ظلال هذا الحكم أن يكون على بيِّنة منه يعرف فترات التألُّق وعوامل ذلك ولحظات الإخفاق وأسبابها، ولاسيما أنّ الفتن تعصف من كلِ جانب، وناشئة الأُمّة يتخطَّفها دعاة سوء على أبواب التهلكة، وواجب المؤسسات الثقافية أن تبادر بتوصيل هذا التاريخ الحافل بجلائل الأعمال إلى ناشئة الأُمّة، ليعرفوا لذوي الفضل فضلهم، ويدركوا كم بذل من جهود وأموال وأنفس لقيام الكيان وتثبيته. وأهمية الحديث وخطورته أنّه يتناول تاريخاً لما ترفع أقلامه، ولما تجف صحفه، تاريخ متواصل، بدأت دورته الثالثة بالمؤسِس العظيم (الملك عبد العزيز ت ١٣٧٣هـ) رحمه الله، واستمرت بخلفه

والحديث يدور حول أحد بناة هذا الكيان، هو الملك (سعود بن عبد العزيز ١٣١٩ - ١٣٨٨هـ ١٩٠٢ - ١٩٧٩م) طيَّب الله ثراه.

و(دارة الملك عبد العزيز) حين ترعى (الندوة العلمية لتأريخ الملك سعود بن عبد العزيز آل سعود)، إنّما تريد التوثيق والتأسيس، توثيق المنجز، وتأسيس قواعد المعلومات، لمن أراد أن يتزوَّد منه، والمسهمون في بحوث الندوة تتنازعهم الأحداث والمنجزات. ولقد استهوتني في هذا السياق مبادرات حضارية ومدنية، كانت ولمّا تزل تشهد (للملك سعود) رحمه الله بالتألُّق والتفوُّق، ولا سيما أنّه جاء على قدر، فالدولة لما تزل في بواكير عهدها، وبقدر الإنجاز في (معركة التكوين) تكون الطموحات في (معركة البناء) والجهاد الأكبر في مغالبة العوائق، وتحقيق متطلَّبات المجتمع المدني الآخذ بعصم الدين والدنيا.

ولما كان اهتمامي منصباً على التعجُّل بتأسيس المجتمع المدني الذي بدأه (الملك عبد العزيز) وحال دون استكماله امتداد (معركة التكوين) ثلاثة عقود الأمر الذي بطأ ب(معركة البناء)، وحين قضى نحبه، تلقَّف الراية من بعده ابنه (سعود) مقتفياً أثره، ف(الملك عبد العزيز) رحمه الله، قد أنجز وحدة إقليمية وبشرية، تمكن فيها من تأليف القلوب، وإخماد الفتن، ودمج الأقاليم، والفراغ لمواجهة الجهل والفقر والمرض، والتعجيل بإنشاء دولة حضارية، لم تكن معهودة من قبل في بلادٍ أذن الله أن تظلَّ مقطّعة الأوصال، منهكة القوى، متموجة السكان، يسودها الجهل، ويعيث فيها الفساد، لقد كان بحق المؤسِّس لهذا الكيان، والمتخطِّي به إلى عتبات التاريخ، وأبناء (الملك عبد العزيز) الذين ورثوا الحكم، وورَّثوه يعيشون خلطة مستحكمة، فهم شركاء في الإنجاز، يسهمون فيه مسؤولين وينجزونه حكّاماً.

وتاريخ (الملك سعود) الذي خلف والده حافل بالمنجزات الحضارية، وإذا كان الملك (عبد العزيز) هو المؤسِّس للكيان فإنّ الملك (سعود) هو المؤسِّس للمجتمع المدني، أو المتوسع فيه إلى حدٍّ يوصف بالتأسيس.

وعلينا أن نفرق بين الريادة للمجتمع المدني والتأسيس له، ف(الملك عبد العزيز) مؤسِّس الكيان ورائد المجتمع المدني، لقد كان من أولويات اهتمامه القضاء على عوامل الفرقة والجهل والبداوة، ولهذا أنشأ (الهجر) وبها حدّ من التموجات السكانية، وهيأ المقيمين بعد الظعن للتطلُّع إلى التعليم والصحة والصناعة والزراعة. والهجر نواة المجتمع المدني، وهو بهذا التفكير الحضاري يُعَد رائد المجتمع المدني، ويأتي (الملك سعود) رحمه الله المؤسِّس، فيما يكون عهد إخوانه من بعده عهد الانطلاق في آفاق المدنية والتحضُّر، والجيل الذي فتح عينيه على واقع البلاد والعباد يستبعد البدايات البدائية، ولا يتصوَّر حجم المعاناة التي تلقّاها الآباء والأجداد بقيادة المؤسِّس حتى أنجزوا هذا الكيان الحضاري، ومعركة التحضير والتمدين ليست بأقل من معركة التكوين.

فالدولة السعودية في دورها الثالث وسعت (الريادة) و(التأسيس) و(الانطلاق)، وكلُّ هذه المراحل الثلاث متماسكة، ومتداخلة، فهي كالحلقة المفرغة، لا يدري المتعرّف عليها أين طرفاها. والفضل كلّ الفضل يعود إلى من أنشأ هذا الكيان، وجمع شمله، ووحّد كلمته. وأيّ (مجتمع مدني) لا يكون إلاّ من خلال مؤسَّساته، في بداياتها على يد المؤسِّس للكيان (الملك عبد العزيز)، أو في التأسيس المدني على يد المؤسِّس للمجتمع المدني (الملك سعود)، أو في الانطلاق على يد إخوانه من بعده.

وإذْ عشت بواكير شبابي في عهد (الملك سعود)، فقد شكّلت هذه المرحلة بداية وعيي للأحداث، لمستها واقعاً وقرأتها تدويناً، وتمكنت من مواكبتها، لقد كنا في طفولتنا نعيش بقايا الماضي بكلِّ بدائيته من رعوية وقروية، لا نعرف إلاّ الكتاتيب والبيوت الطينية التي تفتقر للماء والكهرباء والطرق المعبدة، ولا نعرف من المؤسسات إلاّ الإمارة، وبيت القاضي، والنقلة الحضارية في هذه الأجواء تكون أعمق أثراً وأقوى إثارة، وأي مبادرة مؤسَّساتية في ظلِّ القناعات العرفية تكون حدثاً له دوي كدوي الرعد، وله أشياع يطيرون به فرحاً، وخصوم يخلدون به إلى الأرض، والحصافة في تحويل الخصوم إلى أنصار، من خلال الفعل لا من خلال الوعود الزائفة.

والمجتمع الرعوي أو القروي الذي أَلِف حياته، وتكيّف معها من الصعوبة بمكان أن يتحوّل عنها إلى غيرها. ومن جهل شيئاً أنكره، وأحسب أنّ المتحدث عن المأسسة في ذلك العهد لا بدّ أن يشير إلى ردود الفعل المناهضة للمدنية ومؤسساتها، وإلى ما بُذل من جهود للإقناع وتهيئة الأذهان، وقد تشكِّل التحفُّظات تعويقاً لمسيرة المأسسة، ولكنه تعويق عارض لا يلبث أن يتحوَّل إلى دعم واستعجال، ولقد واجهت أجهزة الدولة المحدثة شيئاً من التحفُّظ، وقليلاً من المعارضة، ربَّما أنّها بطأت في شيء منها، ولكنها لم تصرف الدولة عن الدفع بالتي هي أحسن، وإن ترتَّب على ذلك الأخذ بالأسلوب المرحلي، وليست البلاد وأهلها بدعاً من الأمر، فكلُّ جديد تشرئب إليه الأعناق لتأخذ حَذرها، إذْ ربما لا يكون الجديد خيراً من التليد، وعلى أيّة حال فإنّ عهد (الملك سعود) رحمه الله، حفل بمرحلة التأسيس، وهي المرحلة الأصعب.

التأسيس للمجتمع المدني في عهد الملك سعود .. ! (٢) [1]

و (المجتمع المدني) بوصفه جماع المأسسة، لا يتحقق بمفهومه السليم، حتى تتحوّل السلطة التنفيذية من المركزية الإدارية إلى التنوُّع والتعدُّد، و (المملكة العربية السعودية) في سياق عالمها العربي جاءت متأخرة، ومن ثم فهي بأمَسّ الحاجة إلى اختصار الزمن، واللحاق بمن سبق، لكيلا تكون نشزاً في سياقها، وذلك ما اضطلع به الملك المؤسِّس، واقتفي أثره أبناؤه من بعده.

وعهد (الملك سعود) حَفِلَ بتحوُّلات مؤسَّساتية فرضتها طبيعة المرحلة التي عاشها، وأحسب أنّه توفّر لهذه المرحلة من الأجواء الملائمة ما مكّنه من تعجيل التحوُّل من مركزية الإدارة إلى التعدُّدية، وقد تمثّل ذلك حسّاً ومعنى، حيث عمد إلى التقسيمات الإدارية، وإنشاء المقرّات في آن، ولم تكن مبادراته جزئية، وإنّما تعدّدت وتنوّعت، وشملت التعليم والصحة والتجارة والصناعة والزراعة، وسائر متطلّبات المجتمع المدني.

لقد بدت بوادر الريادة للمجتمع المدني، في عهد (الملك عبد العزيز) رحمه الله، فبعد توحيد الأقاليم، وحَّد المسمَّى (المملكة العربية السعودية) عام ١٣٥١هـ، لتبدأ معركة البناء الحضاري، وفي السادس عشر من محرم عام (١٣٥٢هـ) وضع نظام ولاية العهد، وعيَّن ابنه (سعوداً) ولياً للعهد، وفي عام (١٣٥٤هـ) افتتحت مدرسة تحضير البعثات، ولعلّ باكورة التأسيس المؤسَّساتي يتمثّل في نظام المناطق الذي صدر عام (١٣٥٩هـ) محدداً مهمات أمراء المناطق، وتأسيس مجالس إدارية، وأعقبه في عهد (الملك سعود) صدور نظام المقاطعات عام (١٣٨٣هـ)، وظلَّ ساري المفعول حتى عام (١٤١٢هـ)، وهو العام الذي صدر فيه نظام المناطق، وواكبته أنظمة أخرى، كنظام الحكم والشورى، وهذه الكيانات أكدت الأهداف السامية للدولة، وهي أهداف تواكب مستجدّات العصر، دون المساس بثوابت الأُمّة ومسلّماتها. وإذا كان تشكيل مجلس الوزراء في عهد (الملك عبد العزيز) فإنّ النظام الأساسي له صدر عام (١٣٧٧هـ)، وظلَّ ساري المفعول حتى صدور النظام الجديد عام (١٤١٤هـ)، ويُعَد هذا النظام حجر الزاوية لكلِّ مؤسسات المجتمع المدني، لأنّ لكلِّ وزارة عدداً من المؤسسات في مختلف المناطق، وهي مؤسسات لا يتحقق المجتمع المدني إلاّ من خلالها، ولم تقتصر جهود (الملك سعود) على إنشاء المؤسسات بل امتدت إلى سنِّ الأنظمة، والرجوع إلى موسوعة الأنظمة يؤكد أنّ له فيها القدح المعلَّى، ولن يتسع الوقت لتعدادها أو تعداد ما طرأ عليها من تعديلات. وما من قطاع محدث إلاّ وله نظام، يتقلّب مع الأوضاع وجوداً وعدماً، وذلك الحراك وتلك المرونة لب المجتمع المدني.

ولقد ظلّت البلاد في إطار التعليم العام، وما فوق ذلك كان عن طريق كليات مستقلة، وفي عام (١٣٧٧هـ) افتتحت جامعة (الملك سعود) وتُعَد أول جامعة في الجزيرة العربية. وفي إطار مأسسة التعليم وتَحْديثه أنشئت مدينة (الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية) عام (١٣٧٩هـ)، وكان اسمها إذْ ذاك (المركز الوطني للعلوم والتكنولوجيا) وهي هيئة علمية ذات شخصية اعتبارية، وذات أهداف حضارية، لها نظامها وأسلوب إدارتها ومجالاتها الزراعية والتعدينية والصناعية وغيرها. وتبع ذلك تأسيس (الرئاسة العامة لتعليم البنات) و (رابطة العالم الإسلامي)، وأثناء ذلك تعاقب التأسس لعدد من مرافق الدولة التي تحوَّل بعضها إلى وزارات، وليس من السهل تقصِّي المؤسسات التي أنشئت في عهده.

---

(١) تاريخ المقال: ٥/ ١٢/ ٢٠٠٦

ولقد أشادت (الموسوعة العربية العالمية) إلى مجمل إنجازاته المؤسساتية واهتماماته الإسلامية والعلمية والثقافية، فعن بعض ذلك تقول: - (اهتم (الملك سعود) بالشؤون الإسلامية توسّع في إنشاء المعاهد الدينية، التي خُصّصت لتدريس أصول الدين وأحكامه، وكذلك مدارس تحفيظ القرآن الكريم، كما أمر بطبع الكثير من الكتب الإسلامية، ودعم هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووفّر أسباب الراحة للحجاج، ووسّع المسجد النبوي، وشرع في توسيع الحرم المكّي، وعبد عدداً من الطرق، وقوّى الجيش، وزوّده بالأسلحة الحديثة، وفي عهده افتتحت أول جامعة في المملكة، وهي جامعة (الملك سعود) وأول كلية عسكرية هي كلية (الملك عبد العزيز) الحربية بالرياض).

والرّاصدون للأحداث يتفقون على اهتمام (الملك سعود) بتحديث أجهزة الدولة ومأسسة كافة القطاعات المجمعة في جهة واحدة. لقد كانت (وزارة المالية) إبان عهد (الملك عبد العزيز) أم الوزارات، فمنها نسلت الوزارات الواحدة تلو الأخرى، كانت بعض الوزارات قد استقلّت منها على عهد (الملك عبد العزيز) ك (وزارة الدفاع)، ثم جاء عهد (الملك سعود)، فتحاً مبيناً لتشكيل الوزارات والمؤسسات والإدارات العامة، مثل (وزارة المعارف) و (الزراعة) و (التجارة) و (المواصلات)، ولقد أنشئ مجلس الوزراء في عهد (الملك عبد العزيز)، ولكن نظامه وانعقاده كان في عهد (الملك سعود).

ولما أمر (الملك عبد العزيز) بإنشاء مجلس الوزراء برئاسة ولي العهد تولّى (الملك سعود) ذلك، وسعى في تحويل كثير من الإدارات العامة إلى وزارات، حيث اتخذ إجراءين هامّين أحدهما:

نقل الوزارات إلى العاصمة السياسية. الثاني: إنشاء مقر مناسب لكلِّ وزارة، كان معلماً حضارياً، ومجالاً رحباً لممارسة مهمات الوزارة، وفي ذلك تجسيد حسّي وتهيئة مناسبة للأجواء، لكي تمارس كلُّ وزارة دورها بمعزل عن لداتها، والربط بين اتخاذ قرار الإنشاء المعنوي والحسّي مؤشّر وعي عميق بأهمية التحوُّل المؤسساتي، إذْ لم يكتف بإنشاء الوزارات، بل ربط ذلك بإنشاء مقر ملائم، والمباني العملاقة مؤشّر استشراق للمستقبل، إذْ بقيت بعض الوزارات في مقرّاتها الكبيرة المنشأة، منذ أكثر من نصف قرن.

ويأتي إنشاء الوزارات، ونقلها إلى العاصمة، وإنشاء المقرّات الضخمة لها دليلاً على أنّ المبادرات المؤسساتية كانت واعية، وتمثِّل (استراتيجية) إدارية ظلّت في تطوُّر مستمر، وأسهمت في التعجيل باستكمال المجتمع المدني. ولم يكتف عهد الملك (سعود) رحمه الله، باستكمال الوزارات ونقلها وبناء مقرّات لها، بل أعاد تنظيمها الهيكلي، وأنشئت إلى جانبها مؤسسات مستقلّة، وإدارات عامة لكلِّ قطاع لا يحتمل إنشاء وزارة.

ومنجزات (الملك سعود) ليست قصراً على عهده، بل كانت له بصماته الواضحة في عهد والده، إذْ هو أكبر أبنائه، وأكثرهم لصوقاً به، وتحسُّساً لرغباته، و (الملك عبد العزيز) حين أقعدته الشيخوخة أتاح لأبنائه (سعود) و (فيصل) فرصة تحمُّل المسؤولية ومواصلة المشوار الذي بدأه ومنحه كلَّ ما يملك من جهد ووقت.

والذين لم تَعُد عيونهم إلى ما قبل التكوين والبناء، لا يدركون الجهد المبذول، ولا يعرفون كم هو الفرق بين الأمس واليوم، إنّ قراءة التاريخ السعودي في دوره الثالث، وقراءة ما قبله مؤذن بالتوفر على معلومات قيِّمة، تضع أيدي الناشئة وعيونهم على أوضاع لا يتصوّرها إلاّ من عاشها وتجرّع مرارتها، والحديث عن منجزات الملوك والقادة ليس مجرّد إشادة، إنّه تذكير بالمعاناة التي عاشها الآباء والأجداد وبالأمجاد التي أنجزوها، ومن لم يعرف تاريخه لا يعرف نفسه، وجهل التاريخ مؤذن بالتفريط بالمنجز. إنّ على كافة المؤسسات الإعلامية والثقافية أن تتخول الناشئة بالحديث عن تاريخ حافل بجلائل الأعمال، لكي تعي الناشئة أمجادها، وتحافظ عليها.

وخلاصة القول إنّ عهد (الملك سعود) رحمه الله، كان حافلاً بالحراك الحضاري على مختلف الصعد، ويمثِّل تحوُّلاً جذرياً في كافة المرافق، فلقد اهتم بتحديث أجهزة الدولة، ومأسسة كافة القطاعات الخدمية المنطوية تحت إدارة واحدة ك(وزارة المالية) على سبيل المثال، وتحويل بعض الإدارات إلى وزارات استجابة للتوسُّع العمراني والنمو السكاني، وإحداث أنظمة، وتحديث القائم منها، والتوسُّع في شُعَبِ الخبراء والمستشارين، وتعميم التعليم وإشاعته في القرى والهجر، ومسايرة التطوُّر العالمي في تجديد المناهج، وتنويع التخصُّصات، وفتح باب الابتعاث إلى دول العالم للتوفُّر على كوادر ملمّة بمجمل التخصُّصات وإعطاء الخدمات الصحية والبيئية أهمية خاصة، وتمكين المدن الرئيسية من الاستفادة من ذلك، تمثّل ذلك في إنشاء المستشفيات والبلديات، وواكب ذلك الاهتمام بالثقافة والرياضة والإعلام.

ولما لم نكن بصدد التقصِّي والتفصيل، فإنّ الإشارة تؤكد على أنّ هذا العهد يُعَد عهد التأسيس الحقيقي للمجتمع المدني، ولقد أسهم في عملية الانطلاق التي جاءت على يد من خَلَف، نسأل الله تثبيت الأمن والاستقرار والرخاء والعون على الشكر المُقر بالنِّعم والمُقر لها، إنّه وليُّ ذلك والقادر عليه، وآخر دعوانا أنْ الحمد لله رب العالمين.

المخالفون والمختلفون بين الضلوع.. والاختلاق .. (١)[(١)]

ما أخطّه بيميني من قبل، ومن بعد، لا أخصُّ به أهل قرية، ولا جيل فترة، ولا أشياع نحلة، ولا أتباع ملّة.

فالكاتب الاستشرافي، لا يحدُّه إقليم، ولا تأطره فكرة، ولا تستأثر به فترة، ولا يشغله معيّن. كما أنّ فساد الرأي لا يحتكره زمان ولا مكان، ولا يختص به إنسان. ولو ضربنا مثلاً بمجتمع المهاجرين والأنصار، لوجدناه معكَّر الصفو بشرذمة قليلة من اليهود والمنافقين، الأشد عداوة، والأسفل دركاً.

والفتن الكبرى بدأت بمقتل (عمر) و(عثمان)، واقتتال (علي) و(معاوية) وما من زمان إلاّ وفيه القاعدون للمستقيمين للتضليل والتوهين. ومن نثر بنات أفكاره في المفازات المسبعة، ثم غفل أو تغافل عنها، ثقة بها أو بنفسه، تولّى رعيها المضلّون. وما أكثر الذين ادَّاركوا في الهلكة، ولم يفيقوا إلاّ بعد فوات الأوان. والبون شاسع بين الحصافة المُعْتِقة، والصفاقة الموبقة. وما ألقى في التهلكة إلاّ اشتغال الأحداث غير أولي المعرفة بقضايا الأمّة المصيرية، تذرُّعاً بحق التفكير والتعبير والاجتهاد، وإلاّ استخفاف أولي المعرفة والتجربة بما يجري من تجاذب لأطراف القضايا الحساسة، وإلاَّ تصدر من دونهم للتصدِّي للمخالف والمختلف. وذلك كله أو بعضه يفتح ثغرات ينسل منها الغزاة والمتآمرون، لاغتصاب كل الحق، والمصالحة على بعضه، والمباهات بهذا التنازل المفترى، وبتلك الأريحية المزيفة. ومن نكد الدنيا على الحرِّ أن يسمع إشادة المغلوب بالغالب، واستقباله في الشأن كله، وكأنّه البيت الذي رفع إبراهيم قواعده.

والعلماء والمفكِّرون والكتّاب المريبون والمرتابون والمربكون والمُرْبون زكاءً وذكاءً وسعهم فضاء العروبة والإسلام، عبر تاريخه الطويل، وتقلُّباته الطقسية، وإن استثرت في بعض فتراته مواجهات دامية أزَّتها الأهواء والدسائس.

وأولى الناس بالأخذ على الأيدي الآثمة الأقربون زماناً ومكاناً، ممن يثيرون الارتياب، ويمكنون للأعداء من الرقاب، ولا يكفون الغيبة عن أنفسهم بما يأتون، وما يذرون من الأشياء الأكثر حساسية، والأقوى إثارة للرأي العام، والأشد تأثيراً على مسيرة الأمّة. وداء المربكين من مقروئهم الفكري الملوث، ومن فهمهم السقيم، ومن قابليتهم للتبعية، وافتقارهم إلى التأصيل الأصولي، والتأسيس المعرفي، ومن جهلهم بنواقض الإيمان، وبما علم من الدين بالضرورة، وبمبلغهم من العلم. ومن جهل نفسه فهو لما سواها أجهل.

ودرك الشقاء في اضطراب المفاهيم، والتياث الأفكار، وبطر الحق، وغمط الأكفاء، والولوغ في الأعراض دون وازع. وليس للاختلاف المحتمل، ولا للاجتهاد المشروع، ولا للاختيار السليم دورٌ في التنازع والتدابر. فالاختلاف حول الأشياء الحسية والمعنوية حتم لا مفرَّ منه، ولهذا خُلق البشر، فالعقول متفاوتة، والنصوص حمَّالة، والنوازل مربكة، ومن تصوَّر أنّه قادر على اجتثاث الالتياث، وجمع الناس على كلمة سواء، فقد جهل سنَّة الله في خلقه. وكيف يتأتّى الوفاق والشيطان من المنْظَرِين، وله من الإمكانيات ما يجعله يجري من ابن آدم مجرى الدم، وله من الأعوان النفس الأمّارة بالسوء، وله من القوة ما يمكنه من الاحتناك والاجتيال، والقعود لضحاياه كل مرصد، فيما قضى الأنبياء نحبهم في عنفوان الشباب، أو في مطلع الكهولة.

---

(١) تاريخ المقال: ١٢/ ١٢/ ٢٠٠٦

وما كان الاختلاف مصدر قلق ولا عداوة عند المتبحرين والمجربين وكبار الأئمة والمصلحين، فالكون كله بأحيائه وأمواته يقتات حيويته، ويستمد طاقته من الاختلاف المشروع. وإشكالية المتسطّحين والمبتدئين أنّهم يربطون بين الاختلاف والعداوة، ويقطعون بأنّ الفشل قرين التباين في وجهات النظر، مع أنّهم يردِّدون ببلاهة معتّقةٍ مقولة: (اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية)، وبعض الكتبة حدي وآحدي يحتكر الحق والحقيقة. فالمخالف عنده كمن يخرق السفينة، وهو في ظل هذا المفهوم التسلُّطي، يحتم التخطِّي إلى الفعْل الناجز لأطر المخالف على ما يرى، لكيلا تغرق السفينة.

وما من عاقل يقطع باحتكار الحقيقة، إلاّ فيما يعززه دليل برهاني قطعيّ الدلالة والثبوت مما أجمعت عليه الأُمّة وتلقّته بالقبول، واليقين أنّ كلّ متحمِّس ليس محقاً بالضرورة، وكم من مضل يخادع قومه، مدّعياً أنّه يهديهم سبيل الرشاد، ولو وعينا مكر (فرعون) ومناصحة (ملكة سبأ) لمن حولهما، لعرفنا تفاوت المتصدرين للقول، وبراعتهم في المخادعة والادعاء.

ومن إشكاليات المشاهد الفكرية والسياسية أنّ الاختلاف فيها مؤذن بمواجهات دامية تقتل الجسد، أو ترهق السمعة. فالذين يتصدّرون المشاهد تلعب في رؤوسهم معضلة الثنائيات، حتى لا يكون بإمكانهم تحقيق الوسطية، ولو عرفوا أنّ فوق كلِّ ذي علم عليم لكان أن تحرّوا الحق والتمسوه من مصادره، ووسعوا المفضول والفاضل والأفضل، وعدلوا عن الثنائيات إلى رحاب الدرجات والدركات، فالقطعيات تحرم الظواهر مزيد الإضافات، والحديات تحبس الأفكار في زوايا ضيقة، تفوِّت عليها فرصة التحسُّس عن أفضل الأشياء، ومن تصوّر أنّه المصدر والمورد في الشأن كله، فقد صادر المعرفة، وأيقظ الفتنة.

وما التناوش بالأيدي أو التراشق ببذيء الكلام إلاّ مؤشر فشل ذريع في إدارة الحوار الحضاري. ومن أراد لأُمّته الخير فعليه أن يمنحها أوسع مساحة للحوار، وأنْ يؤجل القطيعة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. والمنقب في طيات السير تسوؤه محطات مأزومة، بلغت فيها الحال حداً لا يطاق، عُذِّب فيها العلماء، وشرد المفكرون، واغتيلت حرية التفكير والتعبير، وحُمل الناس على مذهب مفضول، فسق فيه العقل عن أمر ربه، وأصبح الاتهام الناجز الجاهز مخرج المغلوبين بالحق الأبلج، ويكفي استعراض (محنة الأحمدين).

والمتعقب للتاريخ الفكري القديم والحديث، يكاد يقطع بأنّ كلّ مفكر مسه طائف من الاتهامات، وأثقله الخصوم بالتجريح، فيما جلب له الأنصار محاسن غيره. وكتب المناقب والمثالب مؤشر اضطراب في الأحكام، واندفاع في التزكية أو الاتهام. والإشكالية أن بعض الفترات الفكرية تمر بالمثالب والمناقب على أنّها مسلّمات لا شية فيها، وقد يُمِرونها كما جاءت، وكأنّها آيات الوعيد. وتعاقب المذعنين للواقع التاريخي، وتناقله عبر الحقب، لا ينفي قيام المتخصصين بنقد الرجال بمهمات التصحيح والتمحيص، وصد التحامل، ونقد الأقران، والطعن بغير حق. ولكن تلك الجهود تضيع وسط ضجيج التحزُّب والتعصب والإيجاف بالقلم واللسان.

وإذ لا نعترض على ذكر المحاسن والمساوئ، متى دعت الحاجة، فإننا لا نريد للشنآن أن يتحكَّم في المشاهد. و(نقد الرجال) في الفكر الإسلامي يشكل نظرية محددة بالضابط البين، والمنهج السليم: كالمعرفة التامة بالأحوال، والإنصاف في الأحكام، ونبذ التعصُّب المذهبي، والاعتدال في النقد، والأخذ به عند قيام الحاجة إليه، والتحفُّظ عند جهل العين والحال، وعدم التشدد والتحامل على الخصم، وتوخي الإجمال في القول، وتفادي المحاباة في التزكية.

ومن أخطر المواقف التي يمر بها علماء الجرح والتعديل التعارض القوي بين الاتهام والتزكية، وتحكم التعصُّب في الترجيح بين الحكمين المتعارضين. وأخطر من ذلك كله مجيء الطعن من ثقة لا يتوقع منه التسرع، أو في حق ثقة لا يتصوّر منه الجنوح عن جادة الصواب. ومعترك الأقران وجوف الفراء يكمن في علم الجرح والتعديل عند المحدِّثين، ومربط الخطورة في تأرجح الدليل بين القطْع في الثبوت والاحتمال، ووقوع ذلك التنازع في المصدر التشريعي الثاني مجال أرحب لاحتمال الاختلاف.

حتى لقد ظهرت طائفة (القرآنيين) مبررة تخلِّيها عن المصدر التشريعي الثاني بحسم الاختلاف حول حجية السنّة، وهي فرقة ضالة تقصّى تاريخها وانحرافاتها الأستاذ (خادم حسين إلهي بخش) في كتابه (القرآنيون وشبهاتهم حول السنّة)، وقد جنح لهذه الطائفة الضالة أحد القادة الثوريين، وسايره بعض المرتزقة مما أحدث بلبلة في الفكر المعاصر. وفي ضوء التوثيق والتضعيف مس بعض الأئمة قرح الجرح، كالإمام المتميز (أبي حنيفة) و(البغدادي) ربما كان الأكثر تحاملاً عليه، ومن ثم ألَّبه (الكوثري) المتعصب إلى حد التشنُّج. ولقد قيل: إن ما في الترجمة من تجريح مدسوس على التاريخ. وحين خمدت المشكلة، أحياها إمام المحدِّثين المعاصر (الألباني) نكاية بالأحناف وموقفهم من أهل الحديث، وفي بعض ذلك لغط أضاع الجهد والوقت، وفرّق الكلمة.

وتبادل الاتهامات بين الفرقاء والفرق جاء في وقت مبكر، ولكل فترة قضاياها الأكثر حضوراً والأشد حساسية. ونحن بهذه التحفُّظات لسنا دعاة لتمييع الإسلام وقبول المخالف لما عرف من الدين بالضرورة، ولسنا مع ترك الحبل على الغارب واختلاط الحابل بالنابل، ولكننا نجنح إلى السلام من خلال التحري والتثبُّت، والدفع بالتي هي أحسن، والإصاخة لأمر الله ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ الَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، ولا بدّ في هذه الظروف الأصعب من معرفة واقع الأُمّة والانطلاق منه، لكيلا يؤدي الاختلاف إلى وهن الأُمّة وتفرّق كلمتها، وإلاّ فنحن لا نستبعد الفسوق والعصيان، وثقافة الضرار، والفرار من الزحف دون تحيُّز أو تحرف، كما لا نستبعد موجة الإلحاد والردّة. وكل مرحلة تاريخية تتميّز بظواهر، تختفي بمضي تلك المرحلة، ولا يعني الظهور والاختفاء شيئاً بالنسبة للثبات والصحة، وقد تتعدّد الظواهر وتتوحّد المفاهيم والمقاصد.

المخالفون والمختلفون بين الضلوع.. والاختلاق .. ! (٢) [١]

وإذ شاعت في عهد الرسول ﷺ ظاهرة (النفاق)، فقد ظهرت في العصر العباسي ظاهرة (الزندقة) ومعولها (المانوية)، ومصدرها العنصر الفارسي، و(الشعوبيون) منهم خاصة، وتجلّت في العصر الحديث عدّة ظواهر سنأتي على بعضها. ولو عدنا إلى الظواهر الأولى لوجدنا (النفاق) قد كشفه القرآن الكريم، وحذَّر من مزيد الكشف بإنزال سورة تحدِّد الأسماء والأفعال، والمنافقون ضالعون فيه، وليس النفاق اتهاماً مختلقاً لهدف التوهين.

أمّا (الزندقة) فهي كلمة فارسية معربة، يعدها قوم نحلة، وتسمَّى ب(الزنديقية)، وليست ظاهرة فلسفية، ومن ثم لم يهتم بها المعجمون لمصطلحات الفلسفة، ويراها آخرون ردّة، وقد سبقتها صفتا (الملحد) و(الدهري)، بدأت دلالتها بإنكار الإله، ثم اتسعت الدلالة لتشمل كلَّ من تأثّر بالفرس في عاداتهم أو أسرف في العبث والمجون، وهنا مكمن الخطورة، لقد بلغت (الزندقة) ذروتها زمن (المهدي ١٥٨ - ١٦٩هـ)، حيث تعقَّبهم، وأنشأ (ديوان الزندقة) و(سجن الزنادقة)، فيما أمدتها بالغي وعزّزتها ظاهرة (الشعوبية)، وفجرها (علم الكلام)، أمّا المروِّجون لها فالمجان من الأدباء والشعراء، ك(ابن المقفع) و(حماد عُجْرد) من الأدباء، و(بشار) و(صالح بن عبد القدوس) من الشعراء، وقد قتل الأربعة بسببها، كما قتل خلق كثير، وحقق مع آخرين، وأفرج عنهم، وهي عند الأدباء أشبه شيء ب(الوجودية)، المغرقة بالعبثية والغثيان.

والمتمرّسون من الزنادقة كأساطين الاستغراب في العصر الحديث، يمثِّلون (العمالة) في أبشع صورها، فمن الزنادقة (يونس بن أبي فروة) الذي ألّف كتاباً في مثالب العرب وعيوب الإسلام، وأهداه إلى ملك (الروم) فأجزل له الثمن، وفي حاضرنا من ينال من الإسلام، ويتقرّب به إلى الغرب.

ولقد قيل إنّ (الزندقة) أصبحت وسيلة للتخلُّص من المعارضين، ودافع عن هذا الاتهام كثير من المؤرِّخين والعلماء، ولكنها كانت الدافع لقتل المئات من المتهمين، وما قتل رسول الله ﷺ أحداً من المنافقين، مع معرفته بهم، وليس الإحجام من الرسول ﷺ حجة لمن دعا إلى ترك الناس يعتنقون ما يشاؤون من العقائد، وينالون ما يشاؤون من الثوابت، لأنّ قول الرسول ﷺ مقدم على فعله عند الأصوليين.

ولسنا بصدد تحرير القضايا وأحكامها، ولكننا أردنا الإشارة إلى أنّ لكلِّ زمان ظواهره التي طغت على ما سواها، وظاهرة (الردّة) أوقعت العلماء في خلاف كبير، حول تحديد المفهوم، وأسلوب المواجهة، وحدّ الردّة، وكلّ ذلك متروك لفقهاء الأُمّة، واستدعاؤنا له لمجرد أن يعرف الخائضون خطورة المواقف وتبادل الاتهامات، وأهمية التأنِّي والمراجعة، وإذا كان ما سلف من عصور يتهم فيها المخالف ب(الزندقة)، فإنّ مخالف العصر الحديث حين تعيا به الحيل يتهم ب(الأصولية) بوصفها من حواضن الإرهاب أو ب(العلمانية) الشاملة، أو ب(العمالة) لدولة أجنبية أو عدوّة. وإذ لا نستبعد ظاهرة (الزندقة)، وبخاصة عند المجان والشعوبيين، ولا نستبعد (العلمنة) و(العمالة) عند بعض الكتّاب والمفكرين، فإنّ ذلك لا يكون على إطلاقه، ولا تجوز المجازفة فيه، ولا التراشق به عبر وسائل الإعلام.

ومن حق المؤسسات المختصة أن تتعقّب المخالف لتعظه أو تناظره أو تأطره، وفي الوقت نفسه تسعى لحماية كلِّ من تعرّض للنَّيل، والأخذ على يد كلِّ من عرَّض نفسه لقالة

---

(١) تاريخ المقال: ١٩/ ١٢/ ٢٠٠٦

السوء، ولا يكون شيء من ذلك مصادراً للحرية. لقد خفَّت كلمات الاتهام على الألسنة، حتى أصبح كلُّ كاتب أو مفكِّر مشروع (أصولية) أو (عولمة) أو (علمنة) أو (عمالة) لدولة أجنبية، ولو أنّ المتلقِّي صدَّق كلَّ ما يقال عن حملة الأقلام، لما بقي على ظهر السفينة من كاتب إلاّ هو متعولم أو متعلمن أو عميل ضالع في العمالة. وفي المقابل نجد من يتهم بعض المفكرين الإسلاميين المتوازنين ب(الأصولية) و(التطرُّف) و(الإرهاب)، ولا يتردد في استعداء السلطة، ومشهدُ تلك صفته بحاجة إلى إعادة النظر فيه، لضبط إيقاعه والتوفيق بين أطرافه، ولو أنّ المتلقِّي كذَّب كلَّ ما يتداوله القوم لكان من خراف بني يعرب، يسمِّن نفسه لمدية العدوِّ المتربص، وواجب كل متابع أن يأخذ حذره من مجازفة القول ومن عفن الضمائر. وإذ نقطع بوجود النواقض والنواقص فإنّ من الاستبراء الاستعانة بمن يملك القدرة على الرَّصد الدقيق والمتابعة الذكية.

ومهما أبدينا التحفُّظ والاحتراس، فإنّ لكلِّ حقبة من التاريخ الفكري ظواهرها التي يحيل إليها خطاب المرحلة، ويستنجد بها لتوهين الطرف المنازع، ولا تكون تلك الظواهر متساوية من حيث الصحة أو التطابق بين السمة والموسوم، ذلك أنّ لكلِّ حقبة نصيبها من الخيرية والمصداقية، فالمجتمع المدني في العهد النبوي كانت ظاهرة (النفاق)، حتى لقد خشي (عمر بن الخطاب)، أن يكون معدوداً منهم، الأمر الذي اضطره أن يسأل (حذيفة بن اليمان)، وفي العصور اللاحقة كانت ظاهرة (الزندقة)، ثم كانت (الماسونية) و(العلمانية) و(الحداثوية) و(العمالة)، وبلغت الدرك الأسفل ب(التكفير)، وربطه بالتصفية الجسدية، والمصير من تكفير القول إلى تكفير المعيَّن، وعدم التفريق بين التكفيريين. و(العمالة) و(الرجعية) و(الإمبريالية) كانت لغة الثوريين من الساسة المبتدئين، يردِّدونها عبر خطبهم وإعلامهم المقروء والمسموع، وما كانت تلك الاتهامات موطن اهتمام ولا عناية من الكافة، لأنّ الخطاب الثوري وقع في التهريج، وكشف عن سمة الزيف عنده.

والخطورة أنّ (العمالة) ك(الأصولية) مع تحفُّظنا على مصطلح (الأصولية)، أعادت نفسها عبر الخطاب الفكري، ولولا التوسع فيها والتهاون في تداولها لكان لها شيء من الصحة، ولكن التصنيف أصبح الملاذ لكلِّ عاجز عن صد الخصوم بالحجة البالغة، ومهما تحفّظنا على المجازفات وردود الأفعال فإنّ المشاهد كافة تعيش حراكاً لا يهدأ، ولا يبعث على التفاؤل والاطمئنان، وكلُّ خطاب يكاد يجني على أهله.

إنّ الإيقاع السريع الملاحق، يكاد يحمل الحليم على ممارسة السفاهة، ومهما عذرنا أو بررنا فإنّ الاتهام ب(العمالة) أو (العلمنة) أمر خطير لا يجوز التهاون فيه، حتى وإن شهد الثقات بما علموا، وتحفُّظنا لا يعني الاستبعاد، فالذين ينزعون من بئر المبادئ الغربية لا يتحرّجون من الركون إلى ذويها، لريادة المقدمة وحماية الساقة، وكأني بالمستعين يعد المعين سيارة أجرة، تصل به إلى مبتغاه، فالغاية عنده تبرِّر الوسيلة، والسياسة (الميكافيلية) فتحت باب الرخص على مصراعيه، ولقد قالها من قبل من جعل مصلحة المبدأ فوق كلِّ شيء، ومن أجله أباح لنفسه التحالف مع الشيطان، ولقد قال شاعرهم من قبل:

هبوا لي ديناً يجمع الشمل بيننا
وأهلاً وسهلاً بعده بجهنم

أو كما قال:

فض الله فاه، وأخرس لسانه

وأنا هنا لا اقطع بنفي الاتهامات متى كانت موثقة، وليست ناتج ردّة فعل أو تصفية حسابات، بيْد أنّ اللجوء إليها بدافع الاختلاف حول وجهات النظر مؤشر إفلاس، والسكوت عليها بعد ثباتها شيطنة خرساء، وخير من التعيين والتشخيص التعميم، وأصحاب المواقف يعفون عن المجازفة بالاتهام، ولا تأخذهم بالحق لومة لائم، وحفظ التوازن بين تسويق الإشاعة ونشر الحق، يحتاج إلى مزيد من الزكاء والذكاء، فكم من ذكي لا يزكو، وكم من زكي تجرفه الغفلة، والصادق غير الصدوق في عرف المحدثين.

والزمن المسكون بالمسكنة والانكسار يحتاج إلى خطاب هادئ، يؤلف بين القلوب، ويطرد الوحشة، ويفتح أبواب الأمل والتفاؤل، ويلامس القضايا برفق، مثلما يلامس الطبيب مواطن الألم، على حد (فكأنه آسٍ يجس مريضاً)، والعاقل المجرب والخبير المتابع يعرفان الأمور بمؤشراتها ويعرفان الأناسي من لحن القول. إنّ هناك عملاء يُعرفون بسيماهم، وخطاؤون يقعون في السوء، وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعا، وخطأ التفكير أهون من خطيئة التواطؤ.

وتاريخ الملل والنحل يكشف عن طوائف قصد بها إتيان بناء الإسلام من القواعد، وعن طوائف أبعدت النجعة في التأويل، واختلاف المتأولين أهون من اختلاف المرجعيات، ولكلِّ طائفة أسلوب مواجهتها، والمشكلة في وضع المخالفين في سلة واحدة، ومواجهتهم بأسلوب واحد، وحسم الفتن في تعرية الأصول، لا في هش الفروع بالعصيِّ، فالشجرة الخبيثة لا يكفي فيها الخمط، وإنّما لا بدّ من اجتثاثها من أصولها. والتحذير من التسرُّع والتساهل في تصنيف المخالف أو الحكم عليه، لا يعني مطلق السكوت، وتمكين الأدعياء من رقاب القضايا المصيريّة، إنّ الواقع يوجه إلى الخيارات الممكنة، ولكل من الضعف والقوة خطابهما المناسب.

ومع التحفُّظ فإنّ من المفكرين من يمارس العمالة، وهو يعرف أنّها من القاذورات، التي يجب الاستتار فيها، ومن ثم لا يبدي للمشاهد ممارساته الموبقة، ومنهم من يجاهر بالعمالة، ويراها حقاً مشروعاً، إذ هي مجرّد توظيف للإمكانيات واستثمار لها، ولقد أعلنها (روجيه جارودي)، وذلك حين عرض إمكانياته للدفاع عن أي نحلة، وقد يمارسها البعض من خلال مؤسسة فكرية، كما اتهم صاحب (مؤسسة ابن خلدون) وحوكم، وقد يباهي بها من لا يقدِّر الأشياء قدرها، وصدق رسول الله ﷺ: «**إذا لم تستح فاصنع ما شئت**».

والمشاهد المعاشة تكاد تنفلت أمورها، وتختلط فيها الأصوات والأوراق. ويقيني أنّ الوقت قد حان لتدارك هذه الفوضى الفكرية، وأطرها على الحق، فالناس لا يصلحون فوضى لا سرات لهم، وفي كلِّ مرحلة تقترب الخطابات من الهاوية، ويخاف العقلاء من انفلات الأمور، ويأتي تأويل ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾.

ولما اتسع الخرق على الراقع في بعض الفترات التاريخية، استنجد بعض العلماء والمفكرين بـ(المنطق) ظناً منهم أنّه الأقوى في حسم الاختلاف، ولقد تساءل كثير منهم عما إذا كان بالإمكان اتفاق العقول في ظل التوصيل عبر (المنطق) على الحد الصحيح والقياس البرهاني، بوصف الحد موصلاً إلى مدرجة العلم، والقياس البرهاني منتهياً بالفعل إلى غايته. ولقد برهن (المنطق) عن ثبات الاختلاف لا عن إمكان الاتفاق، والمغرمون بالمنطق يراهنون على أنّه العاصم من الخطأ فيما يعتقده الإنسان، ويؤكدون على ضرورته لعصمة الفكر من الخطأ، وحين أعيتهم الحيل فرقوا بين الكليات والجزئيات، ورهان المناطقة باء بالفشل، فالعقل لا يخضع للمنطق، ولكنه يخضعه لمراده، فهو آلة، وليس مقرراً، وإذ يكون مجموعة قواعد للاستدلال: فمن أنشأها؟ إنّه

العقل المرتهن للحواس والحدس، ونهاية إقدام العقول عقال، وغاية ما نريد في ظل هذا الصخب، أن نفرق بين المخالفين والمختلفين، وبين اتهام المعين، والحكم على مطلق القول، والأصوليون لا يربطون بين القول والقائل في الحكم حتى تتم المواجهة، ويستبعد الجهل والتأوُّل، وخير الأمور الوسط.

جامعاتنا والتصنيفان المثيران .. ![1]

احتدم الجدل بيني وبين أحد الزملاء (الراديكاليين) وكنت أتعمّد إثارته وتوتير أعصابه و:

لَــولا اشــتِعَالُ النــارِ فيمــا جــاوَرَتْ

مــا كــانَ يُعـرَفُ طيــبُ عَـرفِ العـودِ

فما كان منه إلاّ أن قال في حالة من التوتُّر: - أنت بحاجة إلى قرن لتصل إلى مستوى متخلِّف، ولما ذهب عن صاحبنا الغضب انفجر ضاحكاً وهو يردِّد: (يداك أوكتا وفوك نفخ).

وصديق آخر ما هو منه ببعيد حين يتحدث عن أُمّته العربية يرى أنّ وصفها بالتخلُّف من باب المجاملة وتطييب الخاطر، لأنّها في نظره لم تصل بعد إلى مستوى التخلُّف، فيما تواضع العالم المتقدِّم في الغرب، واستبدل كلمة (العالم النامي) ب(العالم المتخلِّف)، وتعنُّت صاحبنا تمخَّض عن مصطلحي: (بنية التخلُّف) و(علم الجهل) لتعزيز رؤيته الجائرة، وكلا الأخوين مصرٌّ على حنثه غير العظيم، مستمرىء لجوره على أُمّته، وهو الأحرص على نهضتها، ولكن (من الحب ما قتل).

هذه التداعيات اجتالت فكري، وأنا أصيخ للجدل حول ما أُشيع من تصنيف مثير للجامعات العالمية، وخروج الجامعات العربية كافة في القائمة مكرس لمفهوم التخلُّف والجهل، كما يراه الأخوان، ولقد أصاب جامعاتنا السعودية من هذا التصنيف الجائر قرح قد أصاب لداتها قرح مثله. والإشكالية إذْ تشتد في إشاعة الاتهام، فإنّها في المواجهة أشد وطأً وأطول طريقاً، ذلك أنّ التنصُّل والتعذير والتبرير، وتبادل الاتهامات تعميق للمأساة. ولو كنا مع من حولنا أمام سهم واحد لاتقيناه، ولكنها سهام كثيرة مسدَّدة، تستقر ولا تمرق، بحيث تتكسر النصال على النصال، حتى كدنا لا نبالي بالرزايا.

والمؤسسات العالمية المعنيّة بالمهمات التقويمية والتصنيفية، لا بدّ أن تواجَه بأسلوب حضاري، يقطع قول كلِّ خطيب، ويحول دون سريان خطأ المنهج، متعمّداً كان أو غير متعمّد، ولا يمنع من مراجعة النفس، ومساءلة الفعل، وتقويم الذات بتجرُّد ومصداقية وثقة وشفافية، وتدارك أي خطأ أو تقصير، فالتنصُّلُ تزكية للنفس المنهي عنه.

ولتحقيق الأسلوب الحضاري لأي مواجهة مع أي مؤسسة يشم منها رائحة الحيف، يجب ألاّ تساير في ممارستها، متى كانت جائرة أو متحاملة في تصوُّرنا والشاعر يقول:

إذا جاريـــــتَ فـــــي خُلُـــقٍ دَنيئـــاً

فأنـــتَ وَمَـــن تُجاريـــهِ سَـــواءُ

والتنصُّل من الاتهام لا ينجي من عقابيله على حد:

(قَدْ قيل ما قيل إنْ صدقاً وإنْ كذباً) والطلقات التي لا تصيب تربك الحركة، وإذْ لا نقبل التسليم للأحكام الجائرة، فإنّ معالجتها ومواجهتها لا تكون بالتنصُّل ورد الاتهام باتهام مثله، إنّ علينا أن نستقبل قوائم التصنيف غربية كانت أو شرقية، وأن نعرف آليّاته وضوابط تصنيفه، وطرائق ممارساته ومرجعياته التي أمدّته بالمعلومات، وأن نستجلي دوافعه، ومدى إمكانياته، ومشروعية فعله، وما إذا كان مجتهداً لم يحالفه الحظ، أو متحاملاً لم نوفق في إجهاض تحامله قبل أن يخترق أجواءنا.

---

(١) تاريخ المقال: ٢٦/ ١٢/ ٢٠٠٦

التصنيفان تحت الأسماع والأنظار لتداولهما عبر أجهزة الإعلام والمواقع، والشامتون وإن تجلّدنا أمامهم لن يفوتوا هذه الفرصة، إنّنا أمام تحد سافر، لا يجوز أن نواجهه باللجاجة والتخلِّي، ولا أن نلوذ بالصمت، وكأنّ الأمر لا يعنينا، ونجاحنا مرتهن بأسلوب مواجهتنا، ولكي نحقّ الحقّ، فإنّ علينا أن نفكك ذلك المشروع التقويمي، لا أن نصدّه، ولقد واجه انتقادات من دول شرقية وغربية. وتقويض أي عمل لاستكناه دواخله يتطلّب تقصِّي آلياته، وأسلوب أدائه ونتائجه، ومدى علاقة المقدمات بالنتائج، والتعرُّف على وسائل إشاعته في الأوساط العالمية لمواجهة المقترف بما يناسبه، ولا يجوز الاكتفاء بالتكذيب، أو التجهيل، أو التخطئة. نعم هناك تحيُّز في منهج البحث وربط بجائزة نوبل، والمقالات المحكمة المنشورة في مجلات معيّنة، وتحيُّز للموضوعات العلمية و(التكنولوجية).

والمتلقِّي حين لا يكون على علم بمقاييس التقويم غير الملائمة، يكون خالي الذهن، ومن ثم يسهل احتواؤه، ويصعب إقناعه، بعد نفاذ النتائج إليه. وحين لا يكون من واجبنا أن نطرح أنفسنا كما هي على الكافة قبل حدوث الافتراء، فإنّ من واجبنا أن نتحرّف لإجهاض التصوُّرات السيئة عن أي مؤسسة مدنية من مؤسساتنا، وبخاصة المؤسسات التعليمية التي تُتهم بصناعة الإرهاب، ولا سيما أنّنا نواجه اتهامات متعدِّدة المصادر، لعلَّ آخرها ما تروِّجه (منظمة حقوق الإنسان)، التي ما فتئت تنظر إلينا، وكأنّنا وحْدَنا الذين ننتهك حقوق المرأة والعمالة وحرية الرأي والتعبير والدين. وإذا كانت مسلَّماتنا وثوابتنا ومحقّقات حضارتنا تُعَدُّ انتهاكاً لحقوق الإنسان، فمسؤوليتنا يجب أن تمتد إلى المفاهيم الخاطئة، والتأكيد للعالم أجمع بأنّ حضارتنا لا يمكن تحققها بالقبول المطلق لحضارة الغير ومدنيته، إنّ بإمكاننا أن نرود الفضاء، وأن نغوص في أعماق النفس، وأن نأخذ بأسباب المدنية، وأن نقيم المؤسسات المماثلة سياسياً وفكرياً وعلمياً لما عند الغرب، ولكن دون أن نلغي عقيدتنا، أو نتخلّى عن قيمنا الأخلاقية، إذْ ليست هناك عداوة بين الدين والعلم، ولا بين النص والعقل، ولا بين الإسلام والمدنية، وإذا كانت (الحرية) في الإسلام محكومة بالنص فإنّها في (الليبرالية) محكومة بالقانون أو بالدستور، وليس الاختلاف حول (الحرية) وجوداً وعدماً كما يشيع المتذيلون.

ومواجهة طوفان النقد لا يتحقق بالركون، ولا بالمداهنة، ولا بالمسايرة، والاسترضاء، ويجب هنا استذكار ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى﴾ [البقرة: ١٢٠]، نحن أُمّة سبقنا بحضارتنا كلّ الحضارات، وقدّمنا لكلِّ الحضارات ما حقق لها التفوُّق والتألُّق، وقراءة ما كتبه المستشرقون المنصفون يؤكد أثر الإسلام في سائر الحضارات المعاصرة، وإذْ كان الإسلام لا يمنع من العلم والمدنية والتحوُّل المؤسساتي، والأخذ بما ينفع الناس، فإنّ التخلِّي عن محققاته واللحاق بالآخر مؤذن بالمسخ. والتخوُّف والانبهار أصَّل فينا القابلية للتبعية، وأفقدنا المناعة، وقعد بنا عن المبادرات، والخطأ يعالج داخل معماره، ولا يُعتزل المعمار لما فيه من أخطاء الفهم والتطبيق.

وتصنيف الخمسمائة جامعة جاءت جامعة القاهرة في المائة الخامسة، وهو تصنيف، لم يأت صدفة، إنّه حلقة في سلسلة أخطاء التقدير. وأسلوب المواجهة لكي يؤدي أفضل النتائج بأقل الخسائر، يجب أن يكون حضارياً، يجنح إلى الحوار الهادي، بحيث يكون الذي بيننا وبينه عداوة كأنّه وليٌّ حميم.

إنّ تقويماً جائراً شائعاً يصدر عن مؤسسة تعد نفسها من ذوي الاختصاص والمصداقية والتصديق، ويمتلك القدرة على الشيوع، ويتلقّاه المناوئون بانتشاء والموالون بامتعاض، يفرض على ذوي الشأن أن يهبّوا من مراقدهم، لا ليجازوا سيئة بسيئة مثلها،

ولكن لممارسة تقويم مضاد. ولا يتأتّى ذلك إلاّ بتشكيل (ثلاث فرق) على مستوى من الدراية والدربة: يرتد الفريق الأول إلى الداخل مفترضاً صدق التقويم والتصنيف، بحيث ينظر في كافة المستويات لجامعاتنا من حيث الكفاءات البشرية والإمكانيات: الحسيّة والمعنوية، وتوفر الأجواء الملائمة من مختبرات ومعامل ومكتبات وقاعات وساحات وخدمات وتقنيات ومخرجات ومقرّرات ومناهج واستجابة لمتطلّبات المرحلة. وحين لا نكون أبناء تاريخنا، فإنّ علينا استصحاب ماضينا ليأخذ لحمة حاضرنا، وكم هو الفرق بين الرحيل إلى الماضي، والرحيل به إلى الحاضر.

ولا شكّ أنّ هذا الفريق سيقف على نقص وتقصير، يتعلّقان بالمقررات ومدى ملاءمتها واستجابتها لمتطلّبات المرحلة، ويتعلّقان بالمباني ومدى اتساعها واستيفائها لكلِّ متطلّبات التعليم الجامعي، ويتعلّقان بالمناهج ومدى قدرتها على توصيل المعلومات العلمية والنظرية بالأسلوب المناسب، ويتعلّقان بالأجهزة وما تتطلّبه من معامل ومختبرات وأجهزة ووسائل، ومدى سدِّها للحاجة القائمة، ويتعلّقان بالمكتبات من حيث الكم والكيف والأجواء والأجهزة والخلوات والتواصل مع سائر المكتبات العالمية، ويتعلّقان بوسائل الترفيه والخدمات من مطاعم وعيادات ومساكن وملاعب وغيرها. إنّنا بأمسّ الحاجة إلى يوم جامعي وأجواء جامعية، تقطع تذمُّر كلِّ متذمِّر، وهذا الفريق الذي يقبل التحدي لا بدّ أن يجد الاستجابة والتمويل وأن ينعتق من (البيروقراطية) الخانقة بحيث يسد الخلال ويحفظ الثغور، وليسمّ هذا الفريق فريق إعادة البناء.

أمّا الفريق الآخر فيفترض الخطأ في منهج البحث، وينطلق إلى الخارج إلى المؤسسة التي أعدّت ضوابط التصنيف وإشاعته بين الناس، للتعرُّف على قياس الأداء والآليات والنظر في مكامن الخطأ، لماذا أسيء إلينا وفهمنا على غير حقيقتنا وأصبحنا مجال سخرية وتندُّر، وليسمّ هذا الفريق بوفد التعريف والتعرُّف.

أمّا الفريق الثالث فينطلق إلى الجامعات التي تصدّرت القوائم، وأصبحت مثار إعجاب وإكبار وبخاصة جامعة (هارفارد) للوقوف على أسباب التألُّق والتفوُّق، والأخذ منها بطرف، واستقدام الخبراء والمستشارين من تلك الجامعات المائة والسبع والستين من بين الخمسمائة في أمريكا وحدها للإسهام في تطوير جامعاتنا، ووضع أيدينا على مكمن النقص، وتوظيف خبراتهم وإمكانياتهم لإحداث نقلة نوعية في جامعاتنا، فنحن أحوج ما نكون إلى من يهدي إلينا عيوبنا، ويساعدنا على تجاوزها، ومن زكّى نفسه أو ادّعى لها العصمة فقد ضلّ سواء السبيل، وليسمّ هذا الفريق فريق التواصل.

والجامعات كافة لها وعليها، والقول بالتفوُّق المطلق، كالقول بالإخفاق المطلق. وجامعات المملكة ليست بدعاً من الجامعات، لا في التألُّق ولا في الانطفاء، ولكنها على كلِّ التصوُّرات تفوق بإمكانياتها كلّ الجامعات المماثلة، وهي سبّاقة إلى التحديث، والأخذ بالمستجد، ولكنها تظل دون المؤمل. إنّ المدن الجامعية في الرياض والقصيم والمنطقة الغربية والشرقية، وما تشتمل عليه من مرافق حديثة، لا يمكن أن تكون بهذه الإمكانيات خارج الوجود الكريم.

أحسب أنّ التصنيف فيه غمط واستغفال للرأي العالمي، وقد لا تكون له أهداف سيئة، ولكنه سيئ بنفسه. وعلينا أمام هذا الجور والحيف أن نمتلك رباطة الجأش والحلم والأناة، وأن نكون على جانب من الثقة بالنفس، وأن نقدم الحوار الحضاري على اللجاجة والتشنُّج. فما دمنا نمتلك الوثائق المسقطة لتلك النتائج المزرية، فإنّ من مصلحتنا ألاّ نفرط بذلك. وفوق ما نحن بحاجة إليه من حوار حضاري يكشف الزيف ويحقّ الحق، فإنّنا بأمسّ الحاجة إلى مراجعة النفس ومساءلتها، فخير لنا أن نوظِّف السلبيات لتكون إيجابيات.

التصنيف سلبي بسبب ضوابطه، ولكننا بإمكانياتنا الحضارية قادرون على تحويله إلى ما نريد، لنقطع السبيل على كلِّ الشامتين، لقد آن الأوان لوضع كلِّ الأهمية للتواصل والدعاية والإعلام، واختراق عوالم الآخر بما نملكه من إمكانيات وما ننطوي عليه من تطلُّعات.

جامعاتنا بخير، وهي بحاجة إلى مزيد من الخير، والعالم الراكض في فجاج العلم، لا يمكن اللحاق به في ظل التردُّد والخوف، إنّ الإنجازات المعرفية بحاجة إلى مزيد من الأداء السليم، لكيلا تفوت الفرص المواتية، إنّ بإمكاننا أن نستفيد من التعدِّي والتحدِّي، ولا يتحقق ذلك إلاّ إذا افترضنا أنّنا بحاجة مستمرة للتغيير والإضافة، لا بدّ أن نبحث عن مرايا الآخرين، وأن نفترض أنّنا مشروع نقد وسخرية، دعونا من التزكية والتصنيم وتضخيم الذات، إنّنا في سباق مع الزمن، وأمام متغيّرات متسارعة لا مكان للمتردِّد فيها، وإذْ نكون على شيء من الوعي والعمل، فإنّنا بحاجة إلى المراجعة والشفافية والثقة، فهل نحوِّل هذا التصنيف المزعج إلى ناقوس يدق لمنع السِّنة والنوم؟ إنّ التربية والتعليم الناجحين هما الصرح الذي نبلغ به الأسباب، فنطلّع إلى مكمن التقدم، وكل خلل أخلاقي أو فكري أو علمي فإنّ مردَّه إلى خلل في المادة والمنهج التعليمي وصدق الحق: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] .

وفي الناس بوقات له وطبول .. ! (١)[(١)]

يقول المتنبي وهو يمدح مثلَه الأعلى:

إذا كـــانَ بعـــضُ النـــاسِ سَـــيفاً لِدَولَـــةٍ
فَفـــي النـــاسِ بوقـــاتٌ لَهـــا وَطُبـــولُ

والعلاقة خارج السياق اللغوي بين الصفتين، أنّ السيوف مع صغرها وخفتها تحسم المواقف. والبوقات والطبول مع كبرها وصخبها لا تزيد المستمع إلاّ ترفاً واسترخاء، وهي في النهاية إضافة فارغة لتفويت الفرص، وتضييع الوقت. وكم نسمع، ونرى في مشاهدنا العربية منذ الصدمة الأولى للمدنية الغربية على يد (الطهطاويين) وعقبهم من لا يتجاوز بنفسه مهمة البوق والطبل لمدنية الغرب وحضارته، وما يكتنفهما من ممارسات مخلّة بالقيم الإنسانية. والناس حين يسمعون بالطّبل والبوق، أو يستمعون إليهما، يتبادر إلى أذهانهم الفراغ والصراخ، الفراغ من المحتوى، والصراخ المحقّق لمقولة (العرب ظاهرة صوتية). وكلّما كبر الطَّبل أصبح له دويٌّ كدويِّ النَّحل، مع الفارق المذهل بين مملكة النحل وطحن القرون.

وإذ نسلِّم بسنن الله التي يحكم بها الكون، ويدبره، لا نقيد أنفسنا بالإذعان، ولا نرغبها بالاستسلام، ولا نزين لها الركون للواقع المؤلم الذي يعيشه عالمنا العربي، عالم الاستهلاك والإهلاك والتعالي كالدخان. فالله جلَّ وعلا قضى وقدَّر، وأجرى القلم بما هو كائن، وهذه السُّنن النافذة ذات أنواط: سنن مناطها المادة الخالصة. وأخرى مشوبة، وهي بالمعنوية ألصق ك:

-الصراع.
-والتداول.
-والتدافُعْ.

ومع نفاذ تلك السنن، فإنّ لله وعداً لا يُخلفه، وله إرادة كونية لا ترد ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ﴾ [الإنسان: ٣٠] . وإرادة شرعية ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧] وفي ظلِّها تكون مشيئة الإنسان ﴿فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، وأمام كلِّ هذه السنن والإرادات يظل الإنسان تحت طائلة التكليف والمحاسبة والثواب والعقاب. وبالعمل تتحدُّد أمانة التكليف، التي عُرضت على السماوات والأرض والجبال فأبيْن أن يحملنها وأشفقن منها، وحملها الإنسان ظلماً وجهلاً. ومن ثم فليس له أن يستسلم، ولا أن يحتج بالقدر. والذين يفغرون أفواههم أمام مدنية الغرب، ويذهلون عما يملكون من استعداد ذاتي، وقدرة على الفعل والتفاعل، يسلِّمون بأزلية التفوّق الغربي وحق الهيمنة. ولا يجدون حرجاً من الخنوع، واستبعاد القدرة والمبادرة. ولا يتردَّدون في التسابق لتسويق قيم الحضارة الغربية ومبادئها المناقضة لقيم الحضارة الإسلامية، كما يستعذبون الذب المتواصل عن عواجيز أصحابها، والشرعنة لمصطلحاتها ومناهجها وآلياتها، التي يرون أنّها وحدها القادرة على معالجة تخلُّفهم. ولأنّهم مأخوذون باتباع أهل الكتاب حذو القذة بالقذة، فإنّهم يستحضرون ما فعله الغرب من نفي لهيمنة كنائسهم وقسّيسيهم. وحين تكون حضارة الغرب وإنسانها عند هؤلاء المرجع والمثل

---

(١) تاريخ المقال: ١٨/ ٧/ ٢٠٠٦

الأعلى. فإنّها تعشو عيونهم عن مقترفات تلك الحضارة، وكأنّ الله قد حولَّهم إلى أبواق وطبول، يهتفون بمواكبها القادمة لإذلالهم، وإفساد أخلاقهم، وتفريق كلمتهم، ومناصرة أعدائهم الذين اغتصبوا أرضهم، وشرّدوا أهلها. وحجُّتهم أنّ من هذه الحضارة الإبرة والصاروخ، والورق والأحبار، والمأكل والمشرب، والعلاج والشفاء، والمواصلات والاتصالات.

وكأنّ شيئاً من هذه الإمكانيات لا يكون لنا منها شيء إلاّ بثمن من عقيدتنا، وقدر من تراثنا، وشيء من المساس بمكانة عظمائنا. وفي مقابل ذلك نجد من ينفي حضارة الغرب، ولا يراها إلاّ جاهلية جهلاء، لربطه الحضارة وجوداً وعدماً بالقيم العقدية الإسلامية، وذلك بعض الخلاف بين (سيد قطب) و(مالك بن نبي) - رحمهما الله -، وهو خلاف عميق لتوسله بشواهد معرفية، ليست على شاكلة ما نسمعه من طائفتي الإفراط والتفريط في زماننا الردئ.

والبوقات والطبول حين يتوّلون الغرب، ويوالونهم لا يفرِّقون بين الحضارة والمدنية، ويظنون أنّ الأخذ بالقيم المادية، لا يتأتّى إلاّ بتقمُّص القيم الحضارية. والجهل المطبق لم يمكنهم من التفريق بين مقتضيات (المدنية) و(الحضارة)، ولو أنّ البوقات والطبول أحسنوا الفهم، وأدركوا الفرق بين الماديات المشتركة والمعنويات الخاصة، لأمكن الأخذ بالأسباب، والتصرُّف بأمور الدنيا وفق المقاصد. وإذ هيئت أسباب التفوُّق المادي للغرب بالتخلُّص من هيمنة الكنيسة، وسلطان الكهنة، والدخول في العلمنة الشاملة، تصوّرت طائفة من التنويريين أنّ إقالة العثرة العربية لا تكون إلاّ بمثل ما أقيلت به عثرة الغرب، من نفي للدين، واستدبار لأهل الذِّكر. وهذه الهواجس والتطلُّعات غير الممكنة أطالت زمن التيه، وأدّت إلى فوات الفرص، وما استبق (اليابان) خيرات الغرب بنفي دينه والتخلِّي عن قيمه. لقد كان بإمكاننا تبادل المنافع في الجانب المادي، وإعادة النظر في التطبيق الحضاري الإسلامي. فالحضارة الإسلامية حضارة شمولية مرنة ومنفتحة لأكثر من تأويل، متى استطاع أهلها تمثُّلها، والأخذ بفسحها. ومن عثرات البوقات والطبول أنّهم يخلطون بين مفهومي (عالمية الرسالة) و(شمولية الإسلام)، وهو خلط يفوِّت على المتابع فهم المصطلحات على وجهها، وما أردى المشاهد، وأطال فيها المكاء والتصدية والصوت والدوي، إلاّ اضطراب المفاهيم، وتقحم المبتدئين. والمحبطون الذين تحوّلوا إلى بوقات وطبول لحضارة الغرب فوّتوا على الأُمّة الاستفادة من مدنيته، بحيث ظللنا استهلاكيين أُميين. ويا ليتهم إذ قنعوا به، خلعوا أقنعة التمويه، واعتمدوا القول الصراح، لنعرف من نكون، وما موقعنا بين الأمم، إذ ليس من مصلحة الأُمّة أن يكون فيها من يقولون: آمنّا، فإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنَّا معكم. وإشكالية الأُمّة العربية منذ حملة (نابليون) إلى حملة (بوش) إنّها مضطربة لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

وأزمتنا القاتلة أنّنا اصطفينا من سائر الحضارات والمدنيات حضارة الغرب، لاستهلاك منتجها، وتصنيم مبادئها، وتعظيم رموزها، فيما اصطفتنا للذل والهوان، وتمكين الأقلية اليهودية من الرقاب، تقتل الأبناء، وتذل النساء، ولماَّ نجد بداً من التحدُّث عن كلِّ شيء في الوجود من خلال التفكير الغربي، والرؤية الغربية، والتجربة الغربية، والمرجعية الغربية. ولقد أدّى هذا الانصياع الطوعي أو الاضطراري إلى نسيان التراث العربي، ونشوء القطيعة معه، والزهادة فيه. فالذين يتحدثون عن اللغة على - سبيل المثال -، يحيلون إلى المستجد من المناهج والآليات، وليس هناك ما يمنع من الاستعانة والاستزادة، ولكن المانع أن ندع تراثنا اللغوي المتمثّل بالمدارس النحوية واللغوية العريقة والعميقة، سواء منها ما يتعلّق بنظام اللغة، أو بجذورها، أو بمادئها أو بدلالاتها المتعدِّدة في حقول الحقيقة والمجاز والسياق. ومن أولئك من لا يكتفي بالعدول عن التراث جهلاً أو

تجاهلاً، بل ينال منه، ويسخر به، وقد يحكم بموته. ولك أن تقول مثل ذلك عن سائر القضايا والتيارات والمذاهب الفنية المتعلِّقة بالإبداع القولي. وما (الحداثوية) إلاّ عين الانقطاع، وبدون القطيعة لا تكون الحداثة حداثة. هذا التعويل المطلق وغير المشروط حكم علينا بالاستغراب المدان. وحين نشجب التهافت، فإنّنا لا نمنع من الاستكناه والاستثمار والاستفادة والتفاعل والتعايش السلمي، وتبادل المصالح والوفاء بالعهود والمواثيق. والمتهافتون لكي يمنحوا استغرابهم المعقولية، يتهمون خصومهم بالمقاطعة والمقاومة والانعزال. وما اعتقده أنّنا أحوج ما نكون إلى مدنية الغرب، وإلى شيء من مناهجه وأساليب تعامله، ولكن تلك الحاجة لا تستدعي إلغاء الذات وما يحييها.

وما من مفكِّر إسلامي يعي واقعه، إلاّ هو على بيِّنة من أمر العلاقة بين الحضارات، ولا يتم التصوُّر السليم لحوار الحضارات إلاّ إذا استثمرت القواسم المشتركة، وليس هناك حضارة في الوجود ليست لها قواسم مشتركة مع أيِّ حضارة، وليست هناك حضارة مستغنية عن مستجد الحضارات الأخرى، وكيف يحقُّ لنا إغلاق أبوابنا والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: - «**الحقُّ ضالة المؤمن، وأنتم أدرى بأمور دنياكم**». فكلّ نافع لا يخالف المقتضى الإسلامي حقٌّ مطلوب، وإن كان يهودي الانتماء أو نصرانية، ورد شيء منه بحجة انتمائه أو مصدريّته تقليص للشمولية. والذين ينفون تراثهم بحجة جلب المصالح، ليسوا على شيء من الوعي بتداخل الحضارات وتوارثها، وما هم في حقيقة الأمر إلاّ بوقات وطبول لمن سامهم الخسف. والمتهافتون على منجزات الغرب، يظنون كلَّ الظن أنّ حضارتهم عاقر، قد بلغت من الكبر عتيا، وأنّها غير قادرة على المبادرات. ولقد أدّت دعاية الغرب أثرها، واستحوذت على ملكات معطّلة، لا تملك إلاّ الضجيج الفارغ، والاستهلاك النَّهم. والآخذون بمناهج الغرب في الفنون يوازيهم من يأخذ بمبادئه وسائر شؤونه. ولعلّ الانفتاح على الشرق مؤذن بيقظة جزئية، وإن كانت تلك المبادرة متأخرة، فالشرق له حضارته ومدنيته، والسعي لتعدُّد المصادر مؤذن بقمع الهيمنة الغربية، وإزالة الغشاوة عن عيون المبهورين.

والذين يتحدثون عن الفكر السياسي، ليسوا بأحسن حالاً ممن يتحدثون عن سائر الفنون والمعارف، إذ يظنون أنّ الغرب وحده الذي أسّس للسياسة، وأنشأها من العدم، وسنّ لها السنن، وقعّد لها القواعد، وأصّل لها الأصول، فكان أحقّ بها وأهلها، وأنّ التاريخ الإسلامي لا ينفك من ذكر الغزوات والسرايا والحروب والقصور والجواري والغلمان، وأنّ الحضارة الإسلامية لم تتعرّض للقوانين السياسية. والقائلون بهذا عالة على مفتريات الاستشراق، ولو أنّهم نقّبوا في غيابة التاريخ، ونشروا صحف التراث، لأدركوا أنّ الحضارة الغربية أتى عليها حين من الدهر لم تكن شيئاً مذكوراً، وأنّ الحضارة الإسلامية وضعت أسساً للفكر السياسي، لم تَسْبِق إليه أيُّ حضارة. ويكفي أن نشير إلى أنّ قضية (الإمامة) وحدها عولجت بأكثر من عشرين كتاباً، ظهر أوّلها في القرن الثاني الهجري، ولقد دقَّت رؤية الفقهاء، وتنازعتهم مصادر التشريع، واختلفت مذاهبهم في الشأن السياسي: تنظيراً وتطبيقاً، حتى لقد نسلت نحلة (الإرجاء) من الفعل السياسي، وكانت لكلِّ طائفة رؤية سياسية، تختلف عن سائر الرؤى. هذا التراث المنسي في غمرة الانبهار حَفز المنصفين من المستشرقين على القول بفضل الحضارة الإسلامية في سائر حقول المعرفة.

ولمّا كانت الحضارة الإسلامية قد بدأت بالمشافهة والرواية، فقد اهتم العلماء بالرصد التاريخي للخلافة الراشدة التي تمثِّل جذور الفكر السياسي. وبوادر النظم والإجراءات تدل على وعي مبكر بأهمية الخلافة وتداول السُّلطة ومهمّاتها.

والفقه الإسلامي عالج المسؤولية السياسية ضمن ما عالج من قضايا، وقد واكب الفقهاءَ موسوعيون، تناولوا موضوعات ذات مساس قوي بالسياسة ك(الخراج) و(الجند). ولعلّنا نشير إلى يقظة (ابن تيمية) الذي عاش مرحلة الضعف والتفكُّك وحروب التتار، فألّف في السياسة الشرعية ومتعلّقاتها من (ولاء وبراء) و(جهاد) تقتضيه المرحلة، ما يدل على وعي تام بمقوّمات الدولة، وشروط الخليفة، وأهمية الجهاد. ولم يقتصر تناول الشؤون السياسية على الفقهاء، وإنّما اهتم بها الفلاسفة: ك(الفارابي) و(ابن سيناء) و(ابن الصائغ)، وبعض هؤلاء وضعوا نظريات، ولم يعالجوا وقوعات، واستشفوا حضارات سادت ثم بادت. فكان لهم الفضل في حفظ التراث الإنساني، وليس ببعيد ما يتداوله فلاسفة الحكم في العصر الحديث كما تناوله (العقاد) في كتاب مستقل. وأمام هذا الفيض لم تلتفت البوقات والطبول إلى شيء من ذلك، لا قدحاً ولا مدحاً ولا إضافة، وما أضرّ بالأُمّة إلاّ انتزاع العلم الذي أخبر به من لا ينطق عن الهوى، وهو من أشراط الساعة، وها نحن نسمع ونرى من يتحدث عن (الجهاد) و(الولاء) و(البراء) و(الخلافة) وغيرها، وهو لا يعرف الدليل، وإذا عرفه لا يفقهه، ومع هذا يتصدّى لكبار الفقهاء المؤصلين، بكلام لا يضبطه أصل، ولا تحكمه قاعدة.

وفي الناس بوقات له وطبول .. ! (٢)[1]

والعدول المريب كالصمت المريب، فالذين نسوا ما ذكروا به، تعالقوا مع مستجدات الغرب دون تحفُّظ، واتخذوه عضداً دون مواربة، والذين وهنوا وضعفوا، قطعوا العلائق معه، ظناً منهم إنّها السبيل القاصد للنجاة، ولم يحسنوا إبلاغ ما أمروا به، بل لم يحسنوا تمثُّل ما أمروا به. ولم يكتف المائلون كلَّ الميل بالتعالق، وإنّما أوغلوا في إثارة الرأي العام بإكراهه على التماهي مع الآخر، وفي التدافع المخيف على بؤر التوتُّر، يلوكون قضايا الأمّة الساخنة بكلِّ برودة أعصاب، ويميلون مع الريح حيث مالت، وما هم إلاّ كمن أراق ما معه من ماء، حين خدعه سراب القيعان. وأمام الإثارة والتدافع والإكراه هممت أن ألوذ بالصمت، للخلوص من فتنة الهرج والمرج وصيحة العامة التي استعاذ منها العلماء الناصحون المجرّبون. ولولا أنّ الساكت عن الحقِّ شيطان أخرس، لما أجريت القلم على القرطاس. ولتهدئة الأجواء دعوت إلى (مرحلة التكتُّل والتكتُّم)، للتمكُّن من مراجعة النفس، ورأب الصَّدع، وبثِّ الطمأنينة، والعدول عن كشف السوءات، ونشر الغسيل. فما عدنا نحتمل مزيداً من المجاهرة بالسوء.

ولقد حذَّرت من عدوٍّ لا يدع لفظاً نتفوّه به، إلاّ رصده وحلّله واستثمره في شرعنة التدخُّل في شؤوننا الخاصة. وها هو اليوم بعد أن فاضت أوعيته من لغطنا، يدس أنفه في كلِّ قضايانا، وكأنّنا نستنجده ونستغيثه، وكأنّ أوضاعنا في حالة من التخلُّف والظلم، بحيث تقتضي الوصاية، وتستدعي التدخُّل السريع. وأكاد أجزم بأنّ الذي مهَّد له الطريق، وشرعن له الوجود العسكري هم أولئك البوقات والطبول. ويكفي أن ندلِّل على تلك الجنايات بالقول الآثم حول مناهجنا ودورها في صناعة الإرهاب، حتى لقد أضطر البعض إلى التصدِّي لهذه الاتهامات، وهو السبب الرئيس في قيامها.

ولعلّنا نستذكر التقرير السيئ الذي أصدره (مركز الحريات الدينية)، بوصفه هجوماً كاسحاً للمناهج الدينية في (المملكة العربية السعودية)، إذ يصفها بالتعصُّب والتحريض. هذا التقرير الذي أحدث زلزلة في الأوساط الإسلامية، وبخاصة في (مجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية) وجاء على لسان رئيسه (نهاد عوض)، ولكي يعزِّز رئيس بيت الحرية الأمريكي (بيتر إيكرمان)، رؤيته الظالمة، عوّل على مقولات كتبها (سعوديون) عن المناهج، حيث جاء فيها ما معناه: (إنّ المناهج تشجِّع على العنف تجاه الآخرين، وتدفع بالطلاب إلى الاعتقاد بأنّه للحفاظ على دينهم فإنّ عليهم تصفية الآخرين بدنياً). هذه المقولات التي لم يحسب لها قائلوها أي حساب، التقطها الغرب عبر مؤسساته المتربِّصة، وعزَّز بها رأيه، وسند موقفه، وعرَّض المملكة لاتهام جائر، سوف يضطرها إلى بذل الجهد والوقت والمال لتبرئة مناهجها، وهذا الجهد سيلهيها عن مهماتها العربية والإسلامية، بوصفها دولة مؤثرة في المحافل الدولية. والذين أوغلوا في النَّيل من المناهج، يظنون أنّهم في معزل من المتابعة والرَّصد، وانتزاع الشاهد من الأهل. والإشكالية القاصمة، أنّ محدودي المعرفة يظنون أنّ القول في (الجهاد) قول ناجز، لا تحكمه العهود والمواثيق والدوافع وأمر الخليفة، وعلى ضوء تلك المفاهيم الخاطئة جعلوا تناوله في المناهج جزءاً من الإرهاب، وتلك من قواصم المشاهد الفكرية، فالجهاد ذروة سنام الإسلام، وليس وقفاً على القتال، وإسقاطه من المناهج لا يسقطه من القرآن وكتب السلف، وتناوله لا يحمل على الإرهاب، فالذين درسوه من الآباء والأجداد كانوا أكثر

---

(١) تاريخ المقال: ٢٥/ ٧/ ٢٠٠٦

جنوحاً للسِّلم. وأوفي للعهد، لا يؤذون ذمِّياً ولا معاهداً، ولا يُسْلمون مستجيراً، بل يبلغونه مأمنه.

إنّ هناك بوقات وطبول لا تقيم وزناً للكلام، ولا تعرف أنّ هناك من يرصد الأنفاس، ويحصي التحركات، ويوظف كلّ ذلك للنَّيل من سيادة الأُمّة، والذين تابعوا التقرير والتصديات له، لم يسائلوا أولئك الذين عزَّزوا موقف (بيت الحرية) من أبناء البلاد، مع أنّ مناهج التعليم ومواده لا علاقة لها بالإرهاب، إذ الإرهاب بقايا لعب سياسية معروفة، ولقد استوفيت الحديث عن الإرهاب: أسبابه وانتمائه ووسائل مواجهته في كتابي (أبجديات سياسية على سور الوطن)، ولم أعد بحاجة إلى تكرار ما سبق.

وحين نناشد الكف عن تمجيد الآخر، وتجريح الذات، ونسعى إلى المصالحة مع القائم فإنّنا لا نزكِّي على الله أحداً، ولا نبرِّئ عاملاً من الخطأ، ولا منهجاً من الحيف، ولا نمنع مصلحاً من الإصلاح، ولا ناقداً من النَّقد، وإنّما نريد أن نعرف الفرق بين النصيحة والفضيحة.

فمن ادعى العصمة أو القدسية فقد عصى أبا القاسم.

ومن حسب نفسه فوق المساءلة والنَّقد مسَّه طائف من جنون العظمة وعنف الغطرسة.

ومن اتخذ إلهه هواه أضلَّه عن الذكر وعن الاستقامة على الحق.

ومن صادر قول المخالف أغلق باب الاجتهاد، وحمل الناس على فهمه المحدود.

ومن تقحّم عوالم العلماء الأفذاذ، ومنح نفسه حق الاجتهاد، وهو من غير أهله، أيقظ الفتنة، وأضلَّ الناس على جهل.

ومن تصوَّر ألاّ معقِّب لقوله، ولا مُسائل عن فعله، أخذته العزّة الزائفة بالإثم الموبق. فالله وحده الذي لا معقِّب لقوله، وهو الذي لا يُسأل عما يفعل. وطلب الكف عن المكاء والتصدية لا يمس النقد الموضوعي، ولا الشفافية الإيجابية، ولا الصدع بالمساءلة. فالأدواء قائمة في الأنفس وفي الواقع، والمواجهون لها لا بدَّ أن يتواصوا بالحق، ويتواصوا بالصبر، وإن لم يفعلوا شملهم الخُسر، ولهذا قيل: - لم يبق لي قول الحق صديقا. فالناطق بالحكمة وفصل الخطاب لا يسلم من الاتهام والتقريع، ومجتمع لا تُقال فيه كلمة الحق مجتمع يتآكل كما قوالب الثلج، وبئست أُمّة لا يبادر عقلاؤها ومجرِّبوها أطر مبتدئيها على الحق.

وإذ لا نجد بدّاً من نقد الذات، فإنّنا مضطرون إلى نقد النَّقد، ذلك أنّ طائفة من الكتّاب يتجاوزون النَّقد إلى الجلد، والنصيحة إلى الفضيحة، والموضوعية إلى الذاتية. والنَّقد الذي نتحفّظ عليه إنّما هو التجريح القائم على نفي الذات، وإقصاء الحضارة واليأس والقنوط.

وكم هو الفرق بين العرض اليسير والحساب العسير. ونقد التقويم وانتقاد التحطيم. والتذكير باللين والسخرية المرة.

وليس الأمر وقفاً على القسوة واللين، ولكنه يتعدّى إلى افتراء الكذب، وتمكين المتربِّص من الرِّقاب، كما حصل مع (بيت الحرية) ومفترياته، والذين يهرفون بما لا يعرفون، تراهم مضطربين في آرائهم ومواقفهم، يرمون خصومهم بما في أنفسهم، ويتخذون من اضطراب المفاهيم ذريعة لتقلبهم، وتقليب المصطلحات المنقولة.

فالذين يتوسّلون ب(الأدلجة) ليجعلوا منها سمة مذمة، يطلقونها على خصومهم دون فهم لها، ودون رصد لتحوُّلاتها التاريخية. فالحياة بدون أفكار كالأجسام بدون أرواح، والإنسان بدون دين إن هو إلاّ كالأنعام بل هو أضل، والتديُّن فطرة إنسانية، وهو عين (التأدلج)، وما عِلْم الأفكار إلاّ الدين وعلومه، والمتسطحون المتعالمون إذا أرادوا توهين

خصم وصفوه ب(المتأدلج)، وما دروا أنّ (الأدلجة) قيمة فكرية وتاريخية لا تعمر القضايا، ولا تحيا إلاّ من خلالها.

و(أدلجة) الأدب، وتسييسه بهذه الطريقة العنيفة الهوجاء، وبتلك السمة، لم يكن من عند الإسلاميين، وإنّما هو من (الماركسيين)، حتى لقد ضاق نقّاد الأدب المكبوتون بالإلزام (الماركسي)، واتخذوا ما يسمّى بالنقد الهروبي، وهو (النقد الشكلاني) للخلاص من (الأدلجة) القسرية، وجاء (الحداثيون) ليفسدوا ما بقي من مذهب الفن للفن. وسبقُ الإسلام إنّما هو في جعل الأدب في خدمة الحياة والعقيدة، دون المساس بخصوصية الإبداع والإمتاع، والنقد الإسلامي يفرق بين الأدب الخالص والمواعظ، والنظم العلمي. و(الاستشراق) بوصفه الجسر المعرفي للتواصل بين حضارتين تعيشان صراعاً أزلياً، يراوح بين صراع الأفكار وصراع السلاح، وهو معدود من آليات الصراع، التي لا تكاد تنفك من الإسهام الفاعل لصالح الآخر، وتحييد الصراع الفكري، محاولة أطلقها الماكرون وصدّقها المغفلون. ولأنّ طريق السيطرة يمر على جسر الأفكار، فقد حاول الغرب تحييد ذلك من جانب المغلوب، والهيمنة لا تتحقّق إلاّ بالفهم الدقيق أولاً، ثم التوجيه صوب الأهداف.

إنّ الغرب لكي يحكم قبضته لا بدّ أن يمكِّن ل(أيديولوجيته) على حساب أفكارنا وثوابتنا، وواجبنا أن نفرق بين طغيان الأفكار، وتفشّي المدنية، فالصراع الفكري شيء، وانتشار المدنية شيء آخر. فالمدنية تدخل ضمن التبادل المشروع بين خامات الشرق، وصناعات الغرب، وفي ذلك توازن أراده الله لعمارة الكون. وما تدري الأبواق والطبول أنّ ما يبذله الغرب للدعاية والتسويق لهذه المنتجات المدنية يكاد يفوق أثمانها، وأنّ حرصنا على تسويق ما أفاء الله به علينا من كنوز الأرض، دون حرصهم على تسويق منتجاتهم. وما دروا أنّ ذلك كله من سنن الله:

فـ

الناس للناس من بدو وحاضرة

بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

وما دروا أنّ هذه المدنية المبهرة، ليست من صناعة الغرب وحده، وليست من اكتشافه وحده، وأنّ الأخذ منها لا يقتضي الإذعان لفكره، ولا يعني تمثُّل حضارته، والتخلِّي عن الدين وثوابته، والفكاك من التمسُّك بقيم الحضارة الإسلامية، والدفاع عنها، وإبلاغها لكافة شعوب العالم. ومن تصوَّر أنّه لا يمكن الجمع بين (الصاروخ) و(المصحف) ولا بين (المسجد) و(المعمل) ولا بين (الحجاب) و(العمل) فقد أضاع الاثنتين: حضارته، ومدنية الغرب، وأحسب أنّ الأبواق والطبول قد شبت عن الطّوق، وعرفت أنّه لا جفوة بين العلم والدين، ولا بين المعاصرة والالتزام. وكيف يُتصور ذلك، وأبناؤنا يذهبون إلى كافة أنحاء العالم، يتلقّون مختلف العلوم الحديثة، ويعودون صالحين مصلحين دعاة ومرشدين.

والدين الإسلامي لا يمنع من إعداد القوة الحسية والمعنوية، ومن تصوّر أنّ التمسُّك بكتاب الله وسنّة رسوله عائقاً من غزو الفضاء، وحرب النجوم، فقد أخذه ما أخذ التنويريين في الغرب، وما درت البوقات والطبول أنّ المصلحين الغربيين نفوا ديناً مزيفاً، وأنّ المصلحين المسلمين جدّدوا ديناً رانت عليه أهواء المذاهب الضالة.

حيوات الظرفاء وذوي العاهات .. ! [(١)]

مللت من قفو الصحف والمجلات، والتنقل بين المواقع والقنوات، لاستشراف معارك كلامية حامية الوطيس، وقودها الأعراض وقالة السوء. وأدمى مقلتي استشراء المغالطات، وتحريف الكلم من بعد مواضعه. وضقت ذرعاً من أغيلمة تسودت المواقف والمواقع بما هي عليه من ضعف وجرأة وسوء أدب، حتى لكأن أحدهم ممن تبرأ منه (الشنفرى) بقوله:

وَلَسْتُ بِعَلَّ شَرُّهُ دونَ خيرِهِ
ألَفَّ إذا ما رُعتَهُ اهتاجَ أعزَلُ

وكلما أحسست باستفحال البذاءات والتطاول على الأوفياء وذوي الكفاءات، واستشراء قول الزور، أو نظرت إلى الواقع العربي المرير، والكرامة العربية المعفرة تحت أقدام الأوغاد الممجدين بأقلام المسحوقين، لذت بمكتبتي، وجالست كتب التراث اللاهية غير العازمة، (وخير جليس في الزمان كتاب)، والموسوعيون الجادون إذا أضناهم عناء البحث، وأرهقتْهم معاضلة العَصِيّ من المسائل، وأوغلوا في مفازات الجد العنيف، وللوا وجوههم شطر السخرية والساخرين لتخفيف العناء وبرد الأكباد، فكان أن جمعوا الأخبار، وألفوا الحكايات، وتعقبوا الظرفاء وذوي العاهات، وليس هناك أنكى من سخرية ذوي العاهة. والتراث العربي زاخر باللهو البريء والعبث الماجن، ومطارحات الأدباء مجال رحب للتسلية. نجد ذلك عند (الجاحظ)، وجحوظ العين عاهة، وعند (أبي حيان) الممرور النكد الذي أحرق كتبه، ورعى مع الأنعام، وعند آخرين عنوا بذوي العاهات، وبالحمقى والمغفلين وبالمفلوكين. ورصد مثل هذه الظواهر يوفر مادة معرفية، لو أهملت لضاعت مع ما ضاع مما أهمله التاريخ، وعناية الأدباء الساخرين بالسخرية وبذوي العاهات، كشفت عن خصائص نفسية وحسية، لو تعقبها علماء النفس، لخروجوا بنتائج مثيرة، واكتشاف السمات والخصائص لذوي العاهات، وجد فيها أصحاب المناهج الحديثة مادة مشوقة ثرية، لا تقل فوائدها عما وسعته كتب التاريخ وتاريخ الطبقات والمدن وسائر العلوم.

وتراث الأمة العربية يفيض بما لا يخطر لأحد على بال، واستعراض فهارس المخطوطات والمطبوعات يثير الانتباه، وإشكالية القارئ المعاصر في تعالقه مع المستجد الذي حال بينه وبين تلك الثروات المعرفية التي لا تقدر بثمن، والمحروم من قطع صلته بثرات أمته، ولا سيما الجانب الهازل منه، فما وسعته تلك الكتب، يروّح عن الأنفس الكئيبة، ويستل السخائم، ويُذْهب الحزن. و(الجنون) في العصر الحديث أصبح معادلاً طبيعياً للعقل والعبقرية، ولم يعد ظاهرة غير طبيعية، ويبدو أن (الوجوديين) تداولوه، وأن (الحداثيين) بسطوا القول فيه، وكنت أمني نفسي بتقصي أسباب العناية بالجنون كمصدر من مصادر الإبداع، وعلاقاته ومعانيه (الفيسيولوجية) و(الميتافيزيقية) و(السيكولوجية) وتصنيفاته، ولا سيما أن عدداً من المبدعين صنفوا مجانين أمثال (ديكنز) و(فان جوخ).

ولما ضقت من لغط المشاهد ونتن المواقع، نظرت إلى حقل ذوي العاهات والأدب الساخر والظرفاء في مكتبتي، فوجدت الكتب الممتعة الجادة والهازلة، يتصدرها كتاب الجاحظ (البرصان والعرجان والعميان والحولان)، وكان لهذا الكتاب منزلة في نفسي وذكرى، فلقد نزل إلى المكتبات، وأنا طالب في قسم الدراسات العليا في (كلية اللغة

---

(١) تاريخ المقال: ٨/ ٨/ ٢٠٠٦

العربية) بجامعة الأزهر، حيث أشادت به الصحف المصرية، وقدمت مقتطفات منه، فما كان مني إلا أن تحاملت على نفسي، واشتريته على الرغم من شح ذات اليد، وصعوبة النقل والخوف من عين الرقيب يوم أن كانت له عين كعين زرقاء اليمامة.

فالطالب لا يقدر على توفير متطلبات الدرس من المراجع، ولا سيما أن طائفة من الأساتذة في قسم الدراسات العليا، يقرر الواحد منهم أكثر من عشرة كتب من مؤلفاته المجمَّعة على غير نظام، كمراجع لمادة واحدة، ولقد فعلها الأستاذ الدكتور (محمد عبد المنعم خفاجي) رحمه الله، وما أن ظفرت به، قرأت أطرافاً منه في (مقاهي النيل) يوم أن كانت لها مذاقات عذاب، ولقد تحدث عن (الصُّلْع) و(القُرْع) وأمتع باستطراده المعرفي الواسع. وهذا المخطوط من أندر كتب الجاحظ، لفقده، إذ لم يوجد منه إلا مخطوطة واحدة في المغرب بعد العناء في البحث، اكتشفها الدكتور (عبد الهادي التازي) ولقد سرد قصة العثور عليها، وتحدث عن دور العلماء المشارقة الذين طافوا مكتبات المغرب للبحث والتنقيب عن نوادر المخطوطات، ومن أهم المهتمين بالتراث العربي علامة الجزيرة الشيخ (حمد الجاسر) رحمه الله، الذي نشر مقدمته في مجلة (العرب) عام ١٣٨٨هـ.

الجاحظ جعل متكأه كتاب (الهيثم بن عدي)، الذي تقصى عاهات الأشراف، للتنقص والتندر، وهو معدود من الشعوبيين، و(الجاحظ) وإن اتهم بالشعوبية، إلا أنه ميال إلى السخرية، ليس غير، ولم يكن كما (الهيثم بن عدي) الشعوبي القح الذي عمد إلى جمع مثالب البيوتات العربية، كـ(المثالب الكبير)، و(المثالب الصغير)، ولست معنياً بمقاصد (الجاحظ) أو (ابن عدي)، فما أريد إلا إمتاع نفسي بقراءة أطراف من هذه الكتب التي تتحدث عن ذوي العاهات والظرفاء، وتجلي السخرية العفوية في تصرفاتهم، وتكشف عن أمزجتهم ونظرتهم للمجتمع من حولهم، وتميز بعضهم بالذكاء الخارق والخفة والتفاؤل، و(الشعوبية) مصطلح مأخوذ من آية (الشعوب والقبائل)، حيث ذهب بعض المفسرين، وليس للمصطلح علاقة بمصطلح (شعبوي)، والحديث عن (الشعوبية) عاد أثناء (حرب الخليج) الأولى، فألفت الكتب، وعقدت الندوات، ونبش عفن التراث، ثم طويت صفحته، وهكذا شأن مسارح الدُّمى، ولقد شهدت ستة (مرابد) في بغداد، لم ينفك واحد منها من الحديث عن (الشعوبية)، والحديث عن ذوي العاهات يذكرنا بنوادر المخطوطات والرسائل، مثل (فضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب)، و(رثاء الحيوان في الشعر العربي) و(القول في البغال)، (العققة والبررة) و(المردفات من قريش) و(شري الرقيق وتقليب العبيد) ومؤلفات عن (البئر، والريح، والشاء، والضب) وكلها ممتعة ومفيدة.

ويلي (الجاحظ) بالاهتمام بذوي العاهات (الصفدي)، الذي ألف كتابين هامين هما: (نَكْتِ الهميان في نُكَتِ العميان) و(الشعور بالعور)، وكل الحكايات والقصص ترتبط بنوع العاهات، وذووا العاهة يختلفون عن الظرفاء والطفيليين والحمقى والمغفلين والمجانين والفلاكة والمفلوكين، وإن كانت نوادرهم متقاربة، وقد امتاز في الحديث عن أولئك (الخطيب البغدادي) و(ابن الجوزي) وله ثلاثة كتب و(الحصري القيرواني) و(النيسابوري) صاحب (عقلاء المجانين) و(أحمد الدلجي). وفي العصر الحديث تغيرت الاهتمامات والمقاصد، فلقد صدر أكثر من كتاب عن ذوي العاهات، ولكنها دراسات عازمة، تجلي أثر العاهة في الإبداع أو في النبوغ، ومما صدر في هذا الشأن كتاب (العلماء والشعراء والأدباء العميان) لـ(خازن عبود)، وهو كتاب يعتمد المنهج التاريخي أما الدراسات المعمقة والساعية وراء استجلاء خصوصيات ذوي العاهات، فمنها كتاب (الخيال والتصوير في شعر المكفوفين) للدكتور (محمد بن أحمد الدوغان)، وهناك فرق بين من يسدعي ذوي العاهات لإبراز خصوصياتهم السلوكية، وانعكاس العاهة في التصرف والتصور، ومن يستدعيهم للتندر والاستمتاع، وسعي الموسوعيين أمثال (الجاحظ) و(ابن

الجوزي) و(البغدادي) و(الصفدي)، للتندر والسخرية، وقد تكون هناك دوافع أخرى، كما هي عند (ابن عدي) و(أبي حيان) الذي تحدث عن المثالب، وهو حديث مسف، وثقيل على النفس بفحشه المقذع، وحقده الدفين.

والعاهة لا تكون معوقاً، كما أنها ليست عيباً يعاب به المعاق، ولا يجوز النيل من ذوي العاهات بعاهاتهم، فالله الذي ابتلى من يشاء، وعافى من يشاء، قادر على أن يعافي المبتلى، ويبتلي المعافى، والماعق يحس بالضعف والدونية، فيحاول إثبات قدرته، بتحديه للأصحاء، وكم من مُعوّق فاق الأسوياء، ومن الكتب الحديثة التي أبرزت أثر العاهة في التحدي كتاب (عظماء ومشاهير معاقون غيَّروا مجرى التاريخ) للأستاذ (أحمد الشنواني)، وقد استهله بالكلمة المأثورة (كل ذي عاهة جبار)، ولقد ذكر أطرافاً من سيرهم ومنجزاتهم، فمن العميان (المعري) و(أحمد التطيلي) و(طه حسين) و(عبد الله البردوني)، ومن غير العرب (هوميروس) و(هلين كيلر) و(جون ملتون)، وممن يعانون الصمم (بيتهوفن) و(هيلين كيلر)، فهي صماء وعمياء. ولأن العبقرية صنو الجنون، فقد أصيب عدد من العباقرة بالجنون، ك(نيتشه)، ومنهم من ينتابه القلق والهستيريا ك(كانط) و(هتلر) و(نابليون).

وكشف خبايا حيوات المشاهير المعاقين ممتع، لأنه يكشف عن سير أسهمت في تغيير مجرى التاريخ، وبعضها حيوات مضطربة وغير سوية.

وكما أشرت فإن هناك دراسات جادة عن ذوي العاهات والظرفاء، ليست على شاكلة كتب التراث، ومن أجود ما قرأت في هذا الصدد (الصورة البصرية في شعر العميان)، وهي دراسة علمية، كما يشير مؤلفها الدكتور (عبد الله المعافري الفيفي)، تتقصى الخيال والإبداع عند عدد من العميان، ك(بشار) و(المعري) و(التطيلي) و(الحصري) و(العكوك) و(البردوني) ومن بعده كتاب (الدوغان)، ومن قبل هذين (الصورة في شعر بشّار بن برد) للدكتور (عبد الفتاح نافع)، والدراسات الحديثة لذوي العاهات تقوم على المنهجية والتقصي لخصوصيات المعاقين في الإبداع الفني. ومع أنني لست حفياً بهذا النوع الجاد، إلا أن متكأ الدارسين ينطلق من انعكاس العاهة على الأداء، وكتب التراث تعوّل على السخرية والفكاهة، وتحاول إبراز ما يمتاز به المعوق في قوله أو فعله، وأثر العاهة على نفسه وعلاقاته بالآخرين، أما الحديث عن الظرفاء فهو أميل إلى جمع الأخبار، وذلك ما كنا نبغي في ظل الظروف الضاغطة في السياسة والإعلام.

ولقد كنت من قبل أحسب أن كتاب (مذاهب ذوي العاهات) للأستاذ)عباس محمود العقاد) من هذا الصنف، ولكن تبين لي بعد الرجوع إليه أنه يقصد بذوي العاهات منشئي المذهب الشيوعي من اليهود المتصهينين، فالكتاب يركز على الشيوعية والشيوعيين، وهذا المذهب الذي شغل (العقاد) ردحاً من الزمن، وحمله على إنجاز أكثر من كتاب، ثوى في مزبلة التاريخ، بعد أن شغل العالم والعلماء سبعة عقود، ويعد كتابه هذا من أعنف كتبه، فهو مجموعة مقالات قصيرة عن الشيوعيين الذين سحروا أعين الناس واستمالوهم، و(العقاد) يقصد العاهات النفسية والخلقية، وهي بعض ما تقصاها (يوسف ميخائيل أسعد) في كتابه (العبقرية والجنون) وهي بلا شك ماثلة للعيان عند ذوي المذاهب الهدامة والأفكار المنحرفة، وسيكون لنا حديث مبسوط عن (ثقافة الإلحاد)، نبرز من خلاله ارتباط العاهات النفسية بالإلحاد.

وتقصي أحوال المعاقين وحيواتهم، والاستمتاع بقراءة هذا النوع من الكتب، يثير عند الإنسان مشاعر متعددة، لأنه يقف به على خصائص نفسية، وتصرفات غريبة، ومواقف مثيرة، قد تقوده إلى امتلاك مفاتيح لشخصيات انعكست آثار العاهات على نفوسهم، ثم تجلت في تصرفاتهم، وما كان لي أن أجنح إلى الجد في تقصي تلك الظواهر، وإلا فإن

الدراسات الأدبية لإبداع العميان تنطوي على نتائج مثيرة. والذين تلمسوا أثر العمى على أسلوب (طه حسين) أبدعوا في التقصي والتجلية.

وكما أشرت فإن الهروب إلى هذا اللون من المؤلفات للراحة، لا يتوافر إلا في كتب التراث عند (الجاحظ) و(الصفدي) و(أبي حيان) و(ابن الجوزي)، وما تنطوي عليه هذه الكتب لا يقل إمتاعاً عما عند الظرفاء العرب، في كتاب (ظرفاء العرب) بأجزائه الثلاثة، وكتاب (التطفيل) للبغدادي). ومما يلفت النظر تخطي المنطق والمعقول والمسموح به في رواية القصص والحكايات عن الظرفاء والمغفلين، ولقد خُصَّ بعض أولئك بدراسات مستقلة ك(أبي العيناء) الذي جمعت نوادره في كتابين أحدها لمعالي الشيخ (محمد بن ناصر العبودي)، و(عبد الحميد الديب) شاعر البؤس الذي كتب عن نوادره (محمد رضوان) و(عبد الرحمن عثمان) و(أبي الشمقمق) الذي كتب عنه الدكتور (محمد بن سعد الشويعر) على ما أذكر، و(الأعمش الظريف) للدكتور (أحمد بن محمد الضبيب)، والحديث عن الظرفاء والحمقى والمغفلين والمفلوكين والمتطفلين يتداخل مع الحديث عن ذوي العاهات، ولكنه دخول من طرف خفي، ولو استدعينا الكتَّاب السَّاخرين ك(المازني) و(السعدني) و(مارون عبود) لبعدت علينا الشقة.

بقي أن أقول إن هذا الزمن الضاغط بفضل أدعيائه الكتاب ومتغطرسيه الساسة بحاجة إلى الترويح عن النفس، وتخفيف معاناتها مما تلاقيه من إحباطات على كل المستويات.

التوازن في فكر العقاد .. ! (١) [(١)]

أعرف جيداً إلى أي مدى اختلف مع (العقاد ت ١٩٦٤م)، رحمه الله في سائر مواقفه واتجاهاته وإطلاقاته الحمالة، وكلماته المعاصرة، وعباراته المفتوحة على كل الاحتمالات. وأعرف جيداً أنه ليس من أهل الذكر الذين يُسألون في أمر العقائد والعبادات والمعاملات. ولست بحاجة إلى المزايدة مع أي إنسان يلتقط مخالفة من هنا أو جنحة من هناك، مما أفاض به خصومه المنافسون، أو الحاقدون، منذ حملة (مصطفى صادق الرافعي)، رحمه الله في كتابه (على السفود) الذي لم يصرح فيه باسمه، لا يغاله في الذم البذيء، وحتى استدراكات الشيخ (صالح بن سعد اللحيدان) حفظه الله في كتابه (نقد آراء ومرويات العلماء والمؤرخين على ضوء العبقريات)، وشتان بين جور (الرافعي) وموضوعية (اللحيدان)، وإن كنت أختلف مع الأول كل الاختلاف، وأختلف مع الآخر بعض الاختلاف، وأحسبه اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد. ومقدمة (اللحيدان) من ألطف المقدمات، وإن كان فيها شيء من اللذعات الحادة، كما أنه حين خاض معترك النقد جار بعض الشيء عليه، وليته تذكر فقرات جميلة، قالها في المقدمة، مثل قوله: (العقاد في عبقرياته أجاد، وبذل، ومنح الثقافة جديداً من الطرح المتميز)، ومثل (قوله: (والعبقريات من أجمل ما كتب عن أولئك الأفذاذ في الجملة)، ولست معه حين يقول: (يفقد استخراج وجه الدلالة من النص)، على أن محور اختلافي مع الشيخ (اللحيدان) يتركز في استخدامه مناهج المحدِّثين وآلياتهم في (علم التاريخ)، وأحسب أن المؤرخين يختلفون عن المحدثين.

فهذا (البخاري) رحمه الله، تختلف مقاييسه، ويختلف شرطه في الرواية باختلاف الحقول التي ألّف فيها، فهو في (الصحيح) بوصفه داخلاً على علم الحديث غيره في (الأدب المفْرد)، بوصفه داخلاً في علم الأخلاق، وهو في (التاريخ الكبير والصغير) غيره في الاثنين، فهل كان (البخاري) لا يعي أمره؟ لقد كان واعياً وهو يدوِّن الحديث الصحيح، وهو الأوعى، وهو يدوِّن الأدب والتاريخ، إذ لم يستخدم مناهج علم الحديث وآلياته في علم الأدب أو في علم التاريخ، ولهذا التباين جاء الضعيف في كتابيه، ولم يأت في الصحيح إلا المعلقات، وقد ميزها في لغة الإسناد. وقد تقصى (الألباني) رحمه الله الضعيف في كتاب (الأدب المفرد) فوجد الأحاديث الضعيفة تنيف على المائتي حديث وأثر.

ومحاكمة (العقاد)، وهو يشتغل في حقل التاريخ بآليات المحدِّثين ومناهجهم إجحاف بحقه، لا يليق بمثله من مثل متعقب أمين.

ولقد كنت، ولما أزل أمني النفس بقراءة كتاب الشيخ (اللحيدان)، قراءة نقدية تزيل لبس التداخل المنهجي، ومهما اختلفنا معه، فإن عمله يعد إضافة مهمة، لا يجوز تجاوزها دون مراجعة متأنية، تحق الحق، وتبطل الخطأ العارض، وكلنا خطاؤون، ومن ألف فقد استهدف. و(العقاد) سيظل الشغل الشاغل للمشهد الفكري والأدبي، ونزعته الدينية لم تعط حقها، فيما أعطي من دونه فوق ما يستحق، وهو بمواقفه مشروع جدل عميق.

وأذكر أنني قلت في قاعة المحاضرات، في سنوات مضت، يوم أن كان الطلاب فيها يراجعون أساتذتهم، ويعترضون عليهم، ولا يترددون في التحفظ على بعض آرائهم: (إن العقاد أفضل عندي من الرافعي، فهو الأزكى والأذكى) لأن إسلامياته تخاطب الفكر الغربي، فيما يخاطب حماس (الرافعي) العاطفة الدينية، ومشكلة الاثنين أن المشهد سلط الضوء على (العقاد)، وتابعه في كل دقيق وجليل، وكثر خصومه، لتأثيره على المشهد الثقافي، فيما غفلوا عن (الرافعي)، وحمدوا له صموده في وجه (طه حسين)، ورضوا عن

---

(١) تاريخ المقال: ١٥/ ٨/ ٢٠٠٦

كل طرحه، وما زلت مع الطلبة في جدل لا يلين، حتى أذعنوا، وسلموا طوعاً أو كرهاً، وما زلت أتمنى انبعاث هذا اللون من الحوار بين الأستاذ وطلابه، ولقد تذكرت في هذا الصدد ما كان يدور بين (طه حسين) وطلابه الذين ضاقوا ذرعاً بتعويله على مناهج الغرب، بعد عودته من بعثته متفرنساً، وكان ممن كاد لهم، وتعسف في معاملتهم العلامة (محمود محمد شاكر)، حين اختلف معه حول دراسة الشعر الجاهلي، فما كان من (شاكر) إلا أن ترك الجامعة وقص مأساته في كتابه (المتنبي) السفر الأول. وكذلك فعل مع الدكتور (نجيب محمد البهبيتي) صاحب النظريات التاريخية للأدب العربي، التي هزت كثيراً من الثوابت والمسلمات، وذلك في كتبه (المعلقة العربية الأولى) و(المعلقات سيرة وتاريخاً)، و(المدخل إلى دراسة التاريخ والأدب العربيين)، و(تاريخ الشعر العربي)، وكتابه (أبو تمام الطائي حياته وحياة شعره)، الذي روى في مقدمته قصة خلافه مع أستاذه، وما لقيه من تحديات أخرجته من مصر.

وإذ لا نريد هذا اللون من الاختلاف، ولا نسوي أنفسنا بعمالقة الأدب والفكر، فإننا نود أن يكون الأستاذ في القاعة مستهدفاً بالأسئلة المحرجة، لكي يستعد للمواجهة، ويتضلع من المعارف الواقية من لذعات المستدركين، وحين أخص من خصال العقاد الحميدة (التوازن)، فلأن المشهد الفكري يميل كل الميل مع الهوى، ويذر سائر القضايا كالمعلقة، والناس أمام الظواهر والقضايا والتيارات والمذاهب، بين إفراط وتفريط، وما أضر بالفكر العربي إلا التطرف في الآراء، والتشنيع على الخصوم، والحدة في الجدل، والحيدة في الأحكام، وتجريد الخصوم من أي فضيلة، و(العقاد) عنيف مع خصومه، ومتحامل على بعضهم، ويكفي أن نضرب المثل بموقفه من (شوقي)، وإن أنصفه بعد حملة (الديوان) في كتابه (دين وفن وفلسفة)، والذين تأثروا به مسهم طائف من عنفه، نجد ذلك عند العلامة (أحمد عبد الغفور عطار) رحمه الله، وبخاصة حين ألف عن العقاد، وأسرف في النيل من خصومه، كـ(الرافعي)، ومع اختلافنا الشديد مع (الرافعي) فإننا لا نمضي مع المسرفين في الذم والتجهيل.

وعنف العقاد شيء، وتوازنه في الآراء الفكرية شيء آخر، وما كنت لأتحدث عن توازنه لولا ما أشاهده من الجور والحيف والتطرف في الآراء، وليست تلك الظاهرة حديثة، لقد واكبت الفكر العربي منذ النشأة الأولى، نجد ذلك في (التهافت)، و(تهافت التهافت) بين (الغزالي) و(ابن رشد)، ونجده عند (ابن حزم) وعند (أبي حيان)، وقد عالجها البعض على أنها لون من الحسد، وما هي كذلك، فالحسد شيء، والعنف والصلف والتعصب شيء آخر.

ومن الصعوبة بمكان التفريق بين بواعث الحسد والتعصب المذهبي الذي قد يأخذ البعض بالإثم، ولقد كانت لي إلمامة عجلى بكتاب (تحاسد العلماء) للأستاذ (عبد الله العوجان)، وهي رسالة قيمة، تناولت أحوال النفس من حسد وغضب وحقد وبغضاء وتنافس، وأحسبه لم ينج من الخلط العجيب والتعصب المذهبي العنيف، ولو أنصف الخصوم لاستبعد كثيراً مما ساقه، والحدة قائمة بين كل الأطراف، والاختلاف المشروع لا يحال إلى الحسد، ولكنه يحال إلى الجهل بأدبيات المناظرة والحوار. و(العقاد) خاض معارك سياسية وأدبية ملتهبة، تقصاها ابن أخيه (عامر العقاد)، في كتابيه (العقاد معاركه في السياسة والأدب)، و(معارك العقاد الأدبية)، وله معارك فكرية وفلسفية مبثوثة في الكتب التي أنشأها دفعة واحدة، أو في الكتب التي جمع فيها مقالاته المتجانسة.

ومن أبرزها على سبيل المثال لا الحصر:

-حقائق الإسلام وأباطيل خصومه.

-الشيوعية والإنسانية.

-لا شيوعية ولا استعمار.
-دراسات في المذاهب الأدبية والاجتماعية.
-أفيون الشعوب.
-مذاهب ذوي العاهات.
-الفصول.
-دين وفن وفلسفة.

وخصوم (العقاد) حين يعمدون إلى توهين فكره، يلتقطون بعض الجمل الحمَّالة، ومفكر ك(العقاد) له أنساقه الثقافية، ورؤيته الشمولية، فهو حين يتحدث عن فلسفته والمبادئ التي اهتدى إليها، يحدد ما يريد، ويجسد رؤيته، بحيث لا تلتبس على المنصفين، ولكنه حين يتحدث عن الآخرين من خلال مواقف مجتزأة، لا يعول على الدقة والتحديد، استمع إليه يصف مبادئه بقوله:

(أحسب أن مبادئي في الحياة هي المبادئ الدينية على أساسها الأصيل)، و(العقاد) الذي خاض معارك متعددة ومتنوعة قد تحتدم مشاعره، بحيث لا يستبين المجتزئ رؤيته الواضحة، وحق مثله علينا أن نقرأه لا أن نجتزئ كلمة من هنا وكلمة من هناك، ثم نطلق أحكامنا جزافاً، ف(العقاد) أمة وحده، التطمت في عالمه مذاهب مادية ووضعية (لاهوتية) و(ناسوتية)، وجاءت آراؤه متوازنة، وكلماته حادة.

التوازن في فكر العقاد .. ! (٢) [1]

و(العقاد) بهذا الشمول والعمق من الصعب الخروج من عالمه الواسع بنتائج محدَّدة حاسمة، تجسِّد فكره وتبلور رؤيته. ولكي نستبين أهمية فكر (العقاد) وأثره في المشهد الفكري، والسياسي، والأدبي، علينا مراجعة (أعلام الأدب المعاصر في مصر)، وهو مشروع (ببليوجرافي) للدكتور (حمدي السكوت) تقصّى أعلام الأدب، وخصَّ (العقاد) بمجلَّدين ضخمين، أحصى فيهما أسماء مؤلَّفاته التي طُبعت في حياته، والتي جُمعت وسُميت بعد وفاته، وتقصّى مقالاته التي لمَّا تزل ثاوية في الصحف والمجلات، وسمَّى الكتب التي أُلِّفت عنه، والدراسات التي نُشرت عن أعماله في مصر وحدها، والرسائل العلمية التي تقصّت أفكاره ومذهبه وأدبياته، وقد بلغت كتبه أكثر من مائة كتاب.

ولمّا يزل فكر (العقاد) مجال أخذ ورد، وسيظل مثار جدل بين الأدباء والنقّاد. وحضوره في المشهد الفكري والسياسي والأدبي لم يكن وقتياً، ولم تكن رؤيته مرحلية، بحيث تطوى مع الزمن، إنّ فكره يملك الاستمرارية والحيوية، لأنّه فكر عميق وشمولي وتأسيسي.

وحين نقول بالتوازن، فإنّما ننظر إلى التغليب، وإلاّ فإنّ (للعقاد) ميلاً في بعض القضايا، يجعل البعض منها كالمعلّقة. و(العقاد) حين احتدم في مواجهة (الشيوعية)، وهي التي تلغي الفرد في سبيل الجماعة أسعفته (الوجودية) التي تحسب للفرد بقدر ما تحسب (الشيوعية) للجماعة. واستنجاده بالفلسفة الوجودية لم تدفع به إلى القبول بها والدفاع عنها، كما فعل (عبد الرحمن بدوي)، الذي جاهر بوجوديته، وترجم لنفسه في (موسوعة الفلسفة) بوصفه وجودياً، حيث قال عن نفسه: - (فيلسوف مصري ومؤرِّخ للفلسفة: فلسفته هي الفلسفة الوجودية) إلى أن قال: - (وتمتاز وجوديته عن وجودية هيدجر وغيره من الوجوديين بالنزعة الديناميكية ...) (ص ٢٩٤ – ١).

ومع ذلك فقد اتهم (العقاد) بالوجودية، لثنائه على بعض مبادئها. فـ(العقاد) حين كان ضد إلغاء وجود الفرد واستغلاله في غمار الجماعات، ولمّا كان خصماً عنيداً ضد الشيوعية، في إطار ضدِّيته للمادية التي أحسن إجهاضها بالأدلّة الحسِّية والعقلية، استنجد بالرؤية الوجودية من خلال زاوية ضيقة، وهو قد عدَّها: (ردّة فعل لتلك المذاهب، يحفظ للفرد كيانه واستقلاله، ويعرِّفه بحقوقه وواجباته). ولكيلا يقع (العقاد) في فخِّ الوجودية، ولأنّه أميَل إلى التوازن، استدرك وقال: - (ولكن هذه الوجودية قد تنحدر مع المنْحدرين بطبائعهم حتى تصبح ضرباً من العدمية أو ضرباً من الإباحية التي لا تعترف بشيء غير شهوات الفرد ودوافع الأثرة والأنانية). ولقد ذهب يعدِّد ملامح العدمية في الوجودية، وبعد تقديمه بعض الشواهد قال: - (هذه صورة من الوجودية الممسوخة)، وهو قد ألمح إلى أساطينها، واختلاف معتقداتهم واختلافه معهم.

والذين اتهموه بالوجودية، عوّلوا على قوله: (وكاتب هذه السطور (وجودي) إذا كان معنى الوجودية إنصاف الضمير الفردي وتقديس الإنسان المستقل بفكره وخلقه)، وهذه المقولة تشبه إلى حدٍّ كبير مقولة بعض السَّلف: - (إذا كان حب آل البيت تشيعاً فليشهد الثقلان أنني متشيع)، وقول (العقاد) باستقلال (الفكر) و(الخُلق) يقيد بأنساقه الثقافية وسياقاته التي تؤكد على إسلامية فكره. وهو حين يسعى لفك الاشتباك بين الفرقاء يؤكد على (شرط الاعتدال) بقوله: - (إلاّ أنّ المغالاة محذورة من الطرفين لأنّ المغالاة من هنا أو هناك تضر بالفرد كما تضر بالمجموع).

---

(١) تاريخ المقال: ٢٢/ ٨/ ٢٠٠٦

و(العقاد) حين تناول الفلسفة السياسية وأنماطها من خلال الفلاسفة الذين وضعوا تصوُّرهم لأنماط الحكم المعاصر، لم ينحاز لأحد منهم، وإنّما ساق رؤية كلٍّ واحد منهم بأمانة ودقّة، وحين تقصّى سائر الرؤى، أكد على أنّ تلك المذاهب تقتسم الخطأ والصواب على حصص متفاوتة، فليس بينها مذهب ينفرد بالصواب كلِّه، ولا مذهب ينفرد بالخطأ كلِّه، ومن ثم خلص إلى القول: - (وهي على تناقضها من ناحية، يتمّم بعضها بعضاً من ناحية أخرى)، ومع غمرة المذاهب السياسة وتشعُّبها وجاذبيتها التي أوجز الحديث عنها (علاء حمروش) في كتابه (تاريخ الفلسفة السياسية) لم ينس (العقاد) إسلاميته، ولم يتنكَّر للجذور السياسة التي نمت مع التوسُّع الإسلامي، وإنّما طرح المشروع الإسلامي بواقعية ووسطية، وتوازن حيث قال: - (والدين الإسلامي قد فصَّل مذهبه في الشورى، والمساواة واحترام الإجماع، وسؤال أهل الذِّكر تفصيلاً، يتناول أصول الحكومة، ويوافق تطوُّرها مع الزمن). وهذه الرؤية لمستخلصات فلاسفة الحكم في العصر الحديث، وتلك الرؤية الإسلامية، تنطويان على عمق في الفكر وشمولية في الثقافة، وربط دقيق بين النظرية والتطبيق، وتوازن في الرؤية والتصوُّر. فهو لم يؤخذ (بالطوباويات)، ولم يتعثّر بالوقوعات لمحبطه. وخلوص المفكر من حدِّيات الآراء ومؤشّرات الفشل دليل على التوازن الحصيف.

وحديث (العقاد) عن التقلُّبات السياسية، حديث يتقصّى فيه الرؤية كما فعل في كتابه (فلاسفة الحكم في العصر الحديث)، وهو حديث يحكمه التنظير، وحديث يتقصّى فيه النتائج. وهو بين الرؤيتين يجنح إلى المنطق، ولا يعول على انفتاح السياسة على كلِّ الاحتمالات بوصفها (فن الممكن)، ورصده للأحداث السياسة يتّسم بالخبرة والوعي، وما كان في يوم من الأيام ثائراً تحكمه العاطفة، ولا هيّاباً يركن للسكونية، وتُمنِّيه المثالية الزائفة. وواقعيته ليست إذعاناً، وإنّما هي تبصراً بالممكن، والإمكانية.

و(العقاد) حين قرأ كتاب (سر تطوُّر الأمم) ل(لوبون)، لم يسايره في ميله القائم على (الأحكام والنتائج). وإنّما جنح إلى تغليب (الملاحظات والآراء)، وعنده أنّ إصدار الأحكام وتحديد النتائج يعني حسم الموقف، وقطع الطريق أمام مزيد من المراجعات، أمّا الملاحظات والآراء فهي مفتوحة لمزيد من الإضافات. وهو قد أيّد (لوبون)، وصوّب رأيه حين قدّم (الأخلاق) على (العقل)، وقال بالحرف: - (فلتكن عنايتنا بالأخلاق فوق عنايتنا بالعلوم)، وكأنّه يصيخ إلى مقولة شوقي:-

وإنّما الأمم الأخلاق ما بقيت
فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وحين يلح (لوبون) على فشل (مذهب المساواة)، ويؤكد على تلمُّس (روح الأُمّة) بوصفها مفتاحاً سحرياً لكشف خصوصيتها، يذهب (العقاد) إلى تخليص الرؤية من سوء الفهم. وليس شرطاً أن يكون مقصد (لوبون) ما تصوّره (العقاد)، ولكن المهم في الأمر تجلِّي (التوازن) في معالجته لرؤية المؤلِّف.

(والعقاد) جنَّد نفسه لمواجهة المذاهب الحديثة، يمحو، ويثبت، وملاذه فكر متوازن، لا يلغي ذاته ولا يعزلها، يؤمن بأنّه على حق يطلب المزيد، فهو تارة يسمِّيها بالمذاهب المادية، وأخرى يسمِّيها بمذاهب ذوي العاهات. وهو حين ينشئ الكتب، أو حين يقرأ الكتب التي تتفق مع توجُّهه يحاول حفظ التوازن، وخير مثال قراءته لكتاب (على أطلال المذهب المادي)، ف(العقاد) يحكم بفساده وانهياره، ولكنه لا يحتمل المبالغات، ولا يسلم للقطعيات. وتتجلّى وسطية العقاد حين يرفض (نعم) أو (لا)، ولأنَّهما حاسمتان، وحين يسخر من (أغرار الملحدين)، الذين ينسفون العقائد ويرونها أوهاماً وترهات يذهب إلى أنّ

الهدم والتشاؤم أيسر من البناء والتفاؤل، ولهذا يتهافت المفلسون عليها. ولقد أكد أنّ ضعف اليقين، وقلّة الثقة بالمبادئ الأخلاقية السامية هي التي أضرّت بالنهضة الوطنية. ولأنّه يقف بعنف وصلف ضد (الشيوعية) و(الصهيونية)، فقد امتدت رؤيته إلى جذور هذين المذهبين، وهو الإيمان المطلق بالمادة، ولقد جاء بما لم تستطعه الأوائل في التأكيد على أنّ خفاء المادة لا يقل عن خفاء عالم الغيب، وأنّ المادة المحسوسة والملموسة والمرئية إن هي إلاّ وهْم، ولقد أدّى توازنه إلى الجمع بين عالم الغيب وعالم الشهادة، في استحالة الوصول معهما إلى بر الأمان، وكل الجهود المبذولة للوصول إلى حقيقة الوجود والمادة منه إنّما هي من الرجم بالغيب، لقد تعمّد نسف القواعد، ولم يشغل باله بالشواخص كما يفعل غيره.

ول(العقاد) نظرات عميقة في الأحوال والفلسفات، وهي نظرات تحيل إلى معارف وتجارب، وليست مرتجلة. وسواء صدقت تلك النظرات، أو لم تصدق، فالمهم - هنا على الأقل - ما تتركه من تساؤلات، وما تحدثه من مراجعات، وما تثيره من رغبات، في مزيد من المعارف. فالعقاد حين ذهب إلى أنّ التشاؤم والكره أيسر من الحب والتفاؤل، تصوَّر البعض أنّ ذلك قول يلقيه على عواهنه. وهو كذلك حين يختلف مع القائلين بأنّ الفلسفة نشأت في اليونان، أو حين يقول بأنّ العصر الحديث ليس عصراً مادياً وحسب، فحين يراجع في شيء من ذلك ينطلق على سجيّته، لتبرير ما يذهب إليه، وكأنّه يغرف من بحر، فهو لا يفرض رؤيته العازمة الجازمة، وإنّما يعرضها، ويرقب ردود الفعل، ثم ينطلق في تأكيد ما يذهب إليه، والمتابع يحس بتدفُّق الحجج والبراهين.

لقد تقصّى أطرافاً من ذلك في مقالات أثير على كتابتها، ثم جمعها في كتابه (دين وفن وفلسفة)، حدَّد فيها رؤيته الفلسفية باقتضاب، وتحدّث عن موقفه من العقائد والأديان، والسياسة والتاريخ، والمسرح والسينما، وتناول أفكار بعض معاصريه، ولست قادراً على انتقاء حيثيّاته بالقدر المرضي، ومن ثم عدلت عن ذلك، واكتفيت بالإحالة.

قراءة نقدية لكتاب (دليل الناقد الأدبي) .. ! (١) [(١)]

أنجز الأستاذان الدكتوران (ميجان الرويلي) و(سعد البازعي) عملاً تتنازعه الموسوعية والمعجمية، ويختص بالمصطلح النقدي. وقد جاء في طبعته الأولى عام (١٩٥٥م) متواضعاً إلى أقصى حد، ولكنه في طبعته الثالثة (عام ٢٠٠٢م) أخذ وضعه الطبيعي أو كاد، واستوى على سوقه في حدود ما أراداه له، لا في حدود ما يجب أن يكون عليه.

وبين الطبعات الثلاث مسافة لا تقاس بالزمن الذي لا يتجاوز سبع سنوات، لا من حيث الكم، ولا من حيث الكيف. فالطبعة الأولى تناهز المئتي صفحة، فيما تتعدى الطبعة الثالثة الأربعمائة صفحة، والمصطلحات في الطبعة الأولى بلغت الثلاثين، فيما نيفت على السبعين في الطبعة الثالثة.

هذا على مستوى الكم، ولكن المسافة المهمة في الكيف، متمثلة في أسلوب العرض ومنهجه ودقة المعلومة ومعرفيتها، وتعدد المرجعيات، وتنوع انتمائها الحضاري، وإن كان مع كل ذلك دون المؤمل لسببين رئيسين:

الأول: اعتماد المؤلفين على الانتقاء الذي لا يحكمه ضابط.

الثاني: مراوحة الدراسة للظواهر والقضايا والمصطلحات بين التاريخية والوصفية، والإسهاب، والاقتضاب، دونما ضابط واضح، ولما كان عملهما يتساوق مع أعمال متشابهة، فإن المؤمل منهما تدارك ما فات السابقين، والبدء من حيث انتهوا.

والمؤلفان حين مالا إلى الانتقاء، وتهيبا الاستقصاء، لم يحددا حيثيات استدعاء المصطلح المنتقى، ودواعي إهمال ما سواه، فقد يكون المصطلح المعتنى به دون المهمل في الأهمية والضرورة، والانتقاء يجعلهما في حلٍّ مما طال سلمه، وصعبت مراقيه، وندت مواطنه. وحين لا يكون هناك ضابط للمصطلح المستدعى أو المهمل يصبح العمل مجرد خواطر، مع أن تناولهما يتسم بالعملية والتقصي والمرجعية. ولو أننا طبقنا علم المصطلح وآليته كما حددها (فوستر)، لأصبح العمل مجرد مقالات تطول وتقصر عن بعض الظواهر والقضايا الثقافية الحديثة.

ولأن عملهما يرتبط بمصطلح خاص، إذ لا يتعدى الحديث عن المصطلح النقدي المعاصر، فإن من واجبهما تقصي متطلبات المشهد النقدي واحتياجات الناقد المعاصر، الذي وُعِد ومنِّي بالدليل الذي لن يصل بالمدلول إلى كل غاياته ومطالبه. ولكي أؤكد على اعتباطية الانتقاء، أبدأ من حيث ابتدءا في (باب الهمزة). فلقد تحدثا عن أدبين: (الأدب الإسلامي) و(الأدب المقارن)، فيما صرفا النظر عن آداب أهم مثل (الأدب الوجودي) و(الأدب الماركسي)، وهما قد تحدثا عن (الآخر) بوصفه نقيض (الذات)، ولم يتحدثا عن (الذاتية). وفاتهما مصطلحات كثيرة ومهمة، مثل (نظرية التلقي) وعشرات النظريات في (السرديات) مثل (الميتانصية) و(تيار الوعي).

ولما كان الزمن (زمن الرواية) كما يحلو للبعض إطلاقه، فإن الأهم تقصي الظواهر والقضايا السردية، ولقد تنبها لطغيان المناهج والآليات والمذاهب، ومن ثم تجلت عنايتهما بالمصطلحات الأسلوبية، وهو اهتمام ينم عن وعي بمتطلبات الفترة. وإذ جعلا من نفسيهما أدلاء للنقاد، ولم يتواضعا، ويكتفيا بالقراء، فإن الدليل كالرائد، لا يكذب ولا يقصر. ولما لم يكن شك في صدقهما، فإن الشك كله في التمام. وتقصيرهما عن الايصال إلى الغاية المنشودة من تقصير القادرين على التمام، إذ بإمكانهما أن يتقصيا الأهم من

---

(١) تاريخ المقال: ٢٩/ ٨/ ٢٠٠٦

المصطلحات، لأنها مطروحة في الطريق عبر عشرات الموسوعات والمعاجم والدلائل، وحين يأخذان بالانتقاء فإن الواجب وضع ضوابط، بحيث لا يتحدثان عن المهم، وينصرفان عن الأهم، أما حين يكون المعجم استقصائياً فالأمر جد بسيط.

لقد تحدثا عن مصطلحات مغرقة في علوم ليست ذات صلة وثيقة بالنقد، وإذ كان (علم النفس) قد توغل في النقد، حتى شكل مذهباً نقدياً تبناه (هازلت) واحتفى به (العقاد) من قبل و(عز الدين إسماعيل) وآخرون من بعده، فإن هناك مصطلحات نفسية، ذات صلة وثيقة بالعملية النقدية، لم يعرضا لها، فيما عرضا لمصطلح لم يخطر على بال أي ناقد أو مبدع ذلكم هو (مرحلة المرآة) ص٢٣٠، ولما كان الأمر انتقائياً، فإن مثل هذا المصطلح لا يمكن أن يتقدم على عشرات المصطلحات المتبادلة بين (مناهج النقد) و(علم النفس).

ولست أعرف على أي أساس قام انتقاؤهما للمصطلحات، وما هي آلية الانتقاء أمام مئات القضايا والتيارات والظواهر؟ فهل قصرا اهتمامهما على الآليات أو على المناهج؟ أم امتدت نظرتهما إلى الظواهر والمذاهب؟ وهل نظرا إلى المصطلحات المتنازع عليها بين المعارف والعلوم؟ وكيف فرق المؤلفان بين التيارات والظواهر والآليات والمناهج؟

أحسب أن المأزق الذي وقع فيه كثير من المصطلحيين خلْطهم بين الآلية والظاهرة. ف(التصويرية) و(التعبيرية) و(الرمزية) تختلف عن (البنيوية) و(التقويضية) و(التحويلية). ثم حين تناولا (ما بعد الحداثة والحداثية)، هل نظرا إلى الفعل النقدي أم إلى الابداع الأدبي؟ ولست أعرف ضوابط (البعديات). ولو أنهما في الاستهلال استوفيا طبيعة المادة، وطرائق التناول، ونظام الترتيب والأداء، وضابط الانتقاء لتيسر التعامل مع الدليل.

ولست أشك أن المؤلفين توخيا سد الفراغ المصطلحي بهذه المحاولة المعرفية الشحيحة، مع إمكان البسط، وقيام الحاجة الملحة إليه. وحين يقتصران على ما دون السبعين مصطلحاً، لا يسدان رمقاً، ولا يطفئان ظمأً. فالمصطلحات تتناسل ساعة بعد أخرى، وتعامل المطبقين الذين لا يعون المقتضى يزيد الأمر تعقيداً، وهي بتكاثرها تحمل معها إشكالية المفاهيم التي تتحول بتسارع غريب.

وإشكالية المصطلحات بين النقل والترجمة والتعريب والنحت والاشتقاق والتركيب والاختراع، في ترك مفاهيمها وراء ظهرها في بلد المنشأ، واحتمال أرتال من المفاهيم التي تجد مع تجدد اللغة والثقافة وتعدد المتداولين، ويضاف إلى إشكالية المفهوم إشكالية الصياغة، وبخاصة حين يكون لكل مترجم حقه في الصياغة، والترجمة، والمتابع يحس بفوضى الترجمة والتعريب.

والمؤلفان حين لم يحددا ضابط الانتقاء، ولم ينتبها إلى فوضوية الترجمة والتسمية يتحول الجهد التقريبي إلى إشكالية. لقد تحدثا عن (التفكيكية) فيما جاءت مصطلحات (التشريحية) و(التقويضية) مثلما جاءت مصطلحات (الرومانتيكية) و(الرومانسية) و(الرومانطيقية) مترادفة، موهمة الاختلاف الجذري، والمبتدئون قد تتشابه عندهم المترادفات، وليس هناك من بأس في سياق الترادف وذكر أسبابه. و(البازعي) لما يزل يفكك (التفكيكية) الفرويدية، ونحن بانتظار ما ينتهي إليه، ولا شك أنه الأقدر على كشف خباياها، لأنه وسيط مؤتمن.

والمؤلفان اللذان تقلبا بين المرجعية الغربية، والاستعمال العربي، وراوحا بين التاريخية والدلالية والآلية والمقصدية، لم يكونا متحرفين لهذا التنوع، وإنما فرضته العفوية وتوفر المرجعية، وحين تقوم الحاجة إلى الرصد التاريخي لمصطلح من المصطلحات يعمدان إلى الحديث عن مفهومه، وإذا قامت الحاجة إلى المفهوم نزعا إلى التاريخ. وكان بودي لو أنهما رسما منهجاً وخطة، بحيث وزعا التعريف بالمصطلح إلى

مقاطع: المقطع التاريخي، ويتحدثان فيه عن بلد المنشأ، والبدايات، وعلى يد من نشأ المصطلح، وما جذوره (الأيديولوجية)، والمقطع المعرفي، ويتحدثان فيه عن حواضنه، أهي ثقافية أم فلسفية أم علمية؟ ثم المقطع التحولي، بحيث يتحدثان عن الترجمة أو التعريب، ومدى استيعاب الكلمة العربية للمفهوم والمقتضى الغربي، ثم المقطع الاستيعابي بحيث يتحدثان عن المتلقي العربي، ومدى قدرته على التمثيل تنظيراً وتطبيقاً. وليس هناك بأس من الإحالة إلى المراجع، لمن أراد التوسع، ولقد أحسنا في ذلك، حيث أحالا إلى المصادر والمراجع، وفي ذلك قطع لقول كل خطيب. نقول هذا، ونطالب بالتوسع، لأنهما التزما بما لا يلزم، وإلا فالمعجمة تتطلب لغة مكثفة مركزة، ولأنهما استعدا ليكونا أدلاء للنقاد. ولم يكتفيا بالقراء، والدال للناقد لابد أن يدله على ما جهل.

ولأنهما عولا على مصطلحات نقدية غربية، ومثل هذا التعويل يحملهما على الترجمة المباشرة من اللغة الأصيلة، أو اللغة الوسيطة المباشرة من اللغة الأصلية، أو التعويل على المترجمات العربية. ولأن التعويل غير واحد، وأن لكل معول عليه إمكانياته اللغوية والمعرفية ومواقفه، فإن المتلقي يتطلب تحديد المصطلحات المترجمة من اللغة الأصل أو اللغة الوسيطة. كأن يكون المصطلح نشأ في ألمانيا أو في فرنسا ثم ترجم إلى اللغة الانجليزية، ثم ترجم منها إلى اللغة الغربية. وتعاقب اللغات عليه يحوله من الأداء المعرفي إلى الأداء الثقافي، وكتب المعاجم لا يجوز أن تعتمد لغة الثقافة أو التحديد الانطباعي، لأن الأصل في المعاجم أن تكون ناقلة أمينة دقيقة حيادية.

قراءة نقدية لكتاب (دليل الناقد الأدبي) .. ! (٢)[(١)]

ولأن الأدلاء إلى مواطن المصطلحات والظواهر الأدبية يختلفون في اهتماماتهم ومستوياتهم وقدراتهم الاستيعابية، وهم كذلك يختلفون في امتلاك ناصية اللغة المعجمية، وطرائق التعامل مع المذاهب والتيارات، وأساليب عرضها بين التاريخية والوصفية والتحليلية والتعريفية، وفي مواقفهم بين الحياد والانحياز، فإن الأفضل تقاسم العمل، وإضافة كل جهد لصاحبه، ومع أن عمل المؤلفين لم يكن مبادرة لا سابق لها، إلا أنهما بحق أعطيا عملهما شيئاً من الخصوصية، وكان بودي الاستفادة من المحاولات الرائدة، وسد الخلل الذي تركه السلف، ذلك أن التكرار لا يضيف جديداً، ومعاذ الله أن أصفهما بالتكرار.

وبين يدي الآن أعمال كثيرة، تلتقي مع مشروع المؤلفين في أمور كثيرة، ولم أشأ من الموازنة التوسع، بل اقتصرت على المتشابهات في العناوين، ومما حاولت النظر فيه لكي تتميز الأشباه والنظائر الكتب التالية:

١- دليل الناقد الأدبي: د. نبيل راغب ط ١٩٨١م.
٢- دليل الناقد الأدبي: د. ميجان الرويلي ود. سعد البازعي ط ١٩٩٥.
٣- الدليل الأدبي: جان الديك وسامي خوري ط ١٩٨١م.
٤- دليل القارئ إلى الأدب العالمي. ترجمة محمد الجوزا.

ويبدو لي أن المؤلف العربي أسرف في الثقة بالنفس والإعجاب بالعمل، حتى جعل كتابه دليلاً للناقد، وليس هادياً للقارئ. ولا أحسب أحداً من أولئك بقادر على إضافة شيء جديد يدل الناقد، وإنما هو جهد لتنوير القارئ، فإذا كان الدكتور (نبيل راغب)، قد عرّف بثلاثة وعشرين مصطلحاً، و(الرويلي والبازعي) قد عرفا بثلاثة وثلاثين مصطلحاً في الطبعة الأولى، وأضافا إليهما في الطبعة الثالثة ما تيسر جمعه، فإن المتلقي المستحق لصفة الناقد لا يحمل سمة النقد حتى يكون قد استوعب مئات المصطلحات. وإذا كان بحاجة إلى دليل لا يتجاوز محتواه الثلاثين أو السبعين مصطلحاً، فإن وصفه بالناقد من المبالغات المتجاوزة.

فالنقاد الغربيون الذين تواضعوا، وجعلوا عملهم دليلاً للقارئ، وليس للناقد تناولوا في موسوعاتهم مئات الأعلام، ومئات الأعمال الإبداعية والنقدية، ومئات الفنون والمذاهب، وجاء مؤلفهم في ستمائة وخمسين صفحة من القطع الكبير والحرف الصغير، ومع هذا فنحن لا نقلل من أهمية العمل، ولا نغمط المجتهدين جهدهم، ولا شك أن إسهام الأستاذين يلبي حاجة المخفين من القراء أما النقاد فلهم مصادر أوسع كمعاجم (جبور عبد النور) و(مجدي وهبة) و(يوسف خياط) و(البوشيحي) و(عكاشة) و(لؤلؤه) و(الربداوي) و(مطلوب).

والمؤلفان عدّا عملهما إضاءة لبعض المصطلحات والتيارات النقدية المعاصرة، وذلك بحد ذاته إسهامٌ له قيمته، والاعتراض على وصف العمل بأنه دليل للناقد، وليس دليلاً للقارئ، فالناقد الذي تنقصه معرفة تلك المصطلحات ليس بناقد، وإنما هو مبتدئ يتهجى أبجديات الحركة النقدية المعاصرة، وأملي تحويل هذا الدليل إلى مشروع يغني ويقني، فالمشهد بحاجة إلى مثله، وإلى مثليهما في الجد والجلد.

والملفات الخفيفة واللقطات السريعة كثيرة ومتداولة إلى جانب الأمهات من الموسوعات والمعاجم التي تتسم بالمنهجية والدقة والشمول والتوفر على آلية المعجمة.

---

(١) تاريخ المقال: ٥/ ٩/ ٢٠٠٦

وليس هنا من بأس في أن يحاول عدد من الكتاب المراوحة بين المعجمة القائمة على أخصر المختصرات، والموسوعية المتسعة للتاريخ والمفهوم والتعريف، وقد يجمع البعض بين الموسوعية والمعجمية، نجد ذلك عند الدكتور (محمد عناني) في كتابه (المصطلحات الأدبية الحديثة)، إذ جعل الكتاب في قسمين: قسم للدراسة الموسعة، وقسم للمعجمة المختصرة، حتى لقد اهتم البعض بمعجمة تبعات ظاهرة واحدة جديدة، مثلما فعل البعض في مصطلح (النص) وتحولاته وتداعياته.

وللدارسين مواقف تدق فيها نظراتهم إلى تحولات المصطلح من الديني إلى الفلسفي، ومنه إلى الأدبي، وحديثهما عن (الغنوصية) ص ١٩٦، مؤشر اقتدار على تعقب المصطلح عبر مساره التاريخي، وتحولاته الأيديولوجية، وتجسيد لحظة التحول، وتحديد أمدائه الاستيعابية، على أن المفاهيم التي تناولت المصطلح لم تفض بحديثها إلى تحولاته الأدبية. فقد تناوله الدكتور (عبد المنعم الحفني) في (الموسوعة الفلسفية) ص ٢٩٦، وكذلك المجمع اللغوي في (المعجم الفلسفي) ص ١٣٣، على أنه كان بودي لو اتخذ طريق التعريف الوضعي للكلمة، إذا كان لها جذر عربي، أو الرجوع إلى جذرها الأجنبي، إذا كانت معربة، وإذا تعذرت الترجمة الحرفية، ولم يمكن النص على دلالتها كما هي في أصولها الأجنبية حسنت الإشارة إلى ذلك.

ولو أخذنا جذر (غ. ن. ص) لوجدناها عربية الجذر، وهي في اليونانية (جنوسيس) فكأنها معربة، مع أنها في اليونانية تعني (المعرفة)، وعند أرسطو تشمل الإدراك الحسي، فيما تفيد (العلم بلا واسطة).

والسمة البارزة في هذا الدليل محاولة ربط كل مصطلح بمنشئيه والمتبنين له، واستعراض تطور مفاهيمه من خلال الوقوف على وجهات النظر المتباينة، وكذلك الإشارة إلى تداخل الحقول، وتنازع المصطلح ومفاهيمه في كل حقل، ولكنهما ينهمكان في (التاريخية) و(التحولية)، دون تحرير الدلالة، وتحديد المفهوم الألصق. وحين لا يريدان أو لا يملكان القدرة على التعبير عن المفهوم فإن ذلك يحملهما على تكرير مقولات لا تقرب المصطلح. نجد ذلك في حديثهما عن المصطلح (الذرائعية الجديدة) ص ١٦٧.

والمؤلفان لا يلتزمان علامات الترقيم، وحين ينقلان نصاً لا يحصرانه بالأقواس، وقد لا يحيلان إلى مصدره، وإن كانت طبيعة المعاجم الاختصار والتركيز، مما يستدعي الاستغناء عن الإحالة، غير أنهما فيما يكتبان يتسمان بالترهل والاستطراد في كثير من الأحوال، ولو أنهما اعتمدا التكثيف والتركيز لكنا تجاوزنا عدم استكمال متطلبات التأليف المنهجي، وبخاصة أن المؤلفين أكاديميان يعرفان حق الشكل الكتابي، وما تستدعيه صناعة الكتاب الحديث، وهذه الملاحظات تبدو في أماكن كثيرة، ولك أنا تراها في حديثهما عن (النقد الماركسي) ص ٣٢٣.

ويبدو لي أن المؤلفين يحرصان على تغييب الذات، معتمدين على المرجعيات في تحرير المسائل، وكنت أود لو استوعبا الظاهرة، وقدماها وفق رؤيتهما، وبخاصة أنهما قدما دراسات، ولم يقدما تعاريف، فالدليل ليس معجماً، وليس موسوعة، إنه مجموعة مقالات ذات عناوين، خذ على ذلك حديثهما عن (موت المؤلف) و(موت المؤلف: محاذير)، لقد جاء ما كتباه على شكل مقالة مكثفة غير منهجية.

ولأن المفترض أن تكون المعاجم والموسوعات تعليمية توصيلية فإن المؤلفين لم يتوفرا على هذه اللغة، ذلك أن القارئ الباحث عن الخلاصات والنتائج يواجه بلغة عصية، لا في مفرداتها، ولا في تراكيبها، ولكن في التوائها، وطول جملها، واستهلالاتها التي قد تشتغل ب(التاريخية) أو ب(التحولية)، وقد يكون الاستطراد والترهل من أسباب الإبطاء في العملية التوصيلية. ولهذا فالكتاب عمل معرفي متعال، لا يضع في حسابه مهمة

التوصيل، بقدر ما يضع في حسابه الاستقصاء الذي قد لا يتطلبه الموقف. والعيب اللغوي مرتبط بالمهمة التي ينهض بها المؤلفان، ولو أن الكتاب عمل لا يحمل مهمة التوصيل لما كان على لغته أي مأخذ.

تحدثا عما يمكن تسميته بقضايا الأدب الحديث، وهناك من تحدث عن القضايا الأكثر حضوراً، ومنهم من توسع في ذلك، نجد ذلك عند الدكتور (نبيل راغب) في كتابه (موسوعة الإبداع الأدبي).

ولست أشك أنهما بذلا جهوداً مضنية، ورجعا إلى كتب عربية، وأخرى أجنبية، واجتهدا في تنقيح المعلومات واستكمال متطلبات كل مصطلح، ولو أنهما أوجزا المعلومة، وركزا على تحرير المصطلح بتعريف قواعدي موجز، ثم مضيا للرصد التاريخي واستعراض وجهات النظر المثرية للموضوع لكنا أضفنا إلى المكتبة العربية معجماً متميزاً. ولعل الطريق أمامهما للإيجاز والإضافة. وكتابهما في طبعته الثالثة يسبق زمنه، إذا قيس بالطبعة الأولى.

وخلاصة القول إن المؤلفين يمتلكان ثقافة واسعة وعمقاً معرفياً، و(دليل الناقد الأدبي) مهما قصر عن تطلعاتنا فإنه عمل متميز نفر إليه كلما حزبنا أمر، وقدرهما أن (زامر الحي لا يطرب)، فلهما من كل منصف معترف بالفضل لأهله الشكر على هذه الإضافة التي ترقب المزيد.

متمردون لوجوه شتى .. ! (١) [(١)]

ما زلت أذكر أمشاجاً من قراءات سلفت لكتابين رصدا، أحوال طائفة من المتمردين، وتقصيا دوافعهم والنتائج التي توصلوا إليها هما:

-(متمردون لوجه الله) ل (محمود عوض).

-و(متمردون أدباء وفنانون) ل (محمود السمرة).

-وثالث لا ألم بمحتواه، لطول الأمد (لماذا يتمرد البشر)، تأليف (تيد روبرت غير)، وترجمة (مركز الخليج للأبحاث).

تناول الأول طائفة من العلماء والفقهاء في القديم والحديث، ك (ابن حزم) الذي تمرد على القياس وهو من مسائل الجمهور، و(ابن تيمية) الذي تمرد على كثير من الملل والنحل، و(الطهطاوي) الذي تمرد على الجمود والتخلف، و(الأفغاني) الذي تمرد على النظم المواطئة للاستعمار، و(النديم) الذي تمرد على الاستبداد.

فيما تناول الثاني أزمة الإنسان في الأدب المعاصر، بوصفها أرضية للتمرد والغضب. وكان تركيزه على أدباء غربيين، ولم يلتفت إلى غضب عميق، واكب التراث العربي، تمثل في إبداعات عدد من الشعراء، وفي مقدمتهم (الصعاليك)، وفي كتابات عدد من الأدباء، وفي مقدمتهم (أبو حيان). وإذ سماهم (محمود السمرة) بالمتمردين، فقد سماهم (إداورد كار) ب (الجيل الخائب) في كتاب يحمل الاسم ذاته. وكتاب (كار) يصور حياة المنفيين (الرومانتيكيين) الذين هربوا من روسيا، حين ضُيِّق على أفكارهم التحررية.

ولما استفاضت ظاهرة التمرد في العقد الثالث من القرن الخامس عشر عبر المشاهد الثقافية كلها وبأنواع شتى، ولوجوه مختلفة، ومن رويبضات لا تحسن القول ولا تبادر الفعْل، عنَّ لي الحديث عن تلك الظاهرة التي جاءت تداعياتها من التراث والمعاصرة. وتداعي الأفكار للحديث عن هذا الصنف المتشابه وغير المتشابه من الناس، يتطلب التقصي والتأني، والتحسس عن الدوافع، وتفادي التحامل على أي خطاب قبل الاستبانة والتثبت. ومكمن الأهمية أن لكل متمرد دوافعه ومقاصده وأثره فيمن حوله: سلباً أو إيجاباً. وفي الحديث المشهور: (إنما الأعمال بالنيات). ولأهمية النوايا عمد العلماء إلى الاستهلال به في مؤلفاتهم. ومن الضروري التحري لمعرفة الصادق من الكاذب، والمحق من المبطل، فاستكناه الدوافع أدعى للتأييد أو الامتناع أو المواجهة، وذلك أخطر الحالات. وتقلب الأحوال وتسارع الإيقاع في المشاهد قد لا يمكن من التثبت، والقول على بينة من الأمر. فالدهماء إذا سمعوا هيعة انطلقت إليها، و(الشنفرى) استهجن الاهتياج الأعزل، وهو دأب أغيلمة الصحافة ومثقفي السماع.

ومن الصعوبة والخطورة أنه لا يمكن أن يكون هناك تمرد إلا في ظل سلطة قائمة يزع الله بها ما لا يزع بالقرآن، لها ثوابتها التي لا تساوم عليها، وعندها فسح من التحولات التي لا تمانع من التفاوض حولها. والكارثة أن المتعالمين قد لا يميزون بين الثوابت والمتغيرات، وأن غَير المكتوين بنار الفتن لا يدركون خطورة الفراغات الدستورية والاضطرابات الفكرية. والمتمردون كما الفتن التي لا تصيبن الذين ظلموا خاصة، وذلك سر الأهمية، ومكمن الخطورة، فكل متمرد إما معتق أو موبق.

والتجمعات الإنسانية بوصفها نواة المجتمع المدني تتوسل بسلطات ثلاث، لا يستقيم أمرها من دون تقاسمها للسلطة، أو اشتراكها فيها بأقدار متساوية أو متفاوتة. ومع الضرورة الملحة لهذا النوع من السلطات، لحمل التجمع الإنساني على ما يحييه ويحميه،

---

(١) تاريخ المقال: ١٢/ ٩/ ٢٠٠٦

ويدرأ عنه الأخطار المحدقة، فإن هذه التجمعات لا تنفك من متمردين، يجددون أو يخربون، يحسنون أو يسيئون. وهكذا الحياة تداول وتدافع، عمار أو دمار. والسلطات نفسها تراوح بين سلطة العدل والإحسان، أو تسلط الفحشاء والمنكر والبغي، كما أنها تراوح في استكناه ذاتها بين التفسير الأسطوري أو الخرافي أو التأويل العقلي المحيل، وفي الأقل تتمثل المقاصد، وتَعْلم التأويل.

تلك السلطات الثلاث المتمثلة في: (الدين) و(السياسة) و(المجتمع) تتعرض لأخطاء فادحة في المفهوم أو في الممارسة، وفي ظل ذلك تتعدد جبهات المواجهة، وتتبادل مراكز القوى.

ف (الدين) بوصفه نزعة فطرية لا محيد عنه، قد يفهم على غير مراد المشرِّع، لما يكتنفه من نظريات معرفية، تستمد قراءتها من مذاهب شتى. والديانات كلها قد تحقق النصر والفتح، ويدخل الناس فيها أفواجاً، ثم تكون غريبة كما بدأت، حين تنشق على نفسها، وتتحول إلى فرق مُحقّة أو مبطلة، كلها في النار إلى واحدة، كما أخبر الهادي الأمين. وما من افتراق إلا وراءه متمرد يقرأ الأشياء وفق إمكاناته، أو على ضوء انتمائه. لقد تُركت الأمة على المحجة البيضاء، ولكن الزائغين الهالكين المهلكين يحيدون عنها، في ظل قراءات محكومة بنظريات معرفية تند عما كان عليه محمد - ﷺ - وأصحابه. والملم بنظريات المعرفة والتأويل والتلقي لا يستبعد الفسوق عن أمر الله.

وكل قراءة ترى نفسها الأحق في التصور، والأجدر بالامتثال. فهي في نظر المتمرد أو المجتهد غير المؤهل صدق لا يحتمل الخطأ، وغيرها كذب لا يحتمل الصدق. وهنا يتحكم الإيمان المطلق لا مطلق الإيمان بالقضايا المصيرية، فيكون التمرد لوجه القناعة العصية على الحلحلة. وقد يتخذ المتمردون (الدين) مطية يَعْدون به ويُعِدُّون العدة، ويستأثرون بالمغنم دون المغرم، ويستعبدون ولا يتعبدون، ويصادرون ولا يحاورون. ونواياهم المردية تحركها دنيا يُصيبونها أو مجد يباهون به، وخطابهم يحدوه فهم سقيم، وتأويل باطل. والكارثة حين لا يستبين العامة الصادق من الكاذب، فيكون تمردها لوجه الأدعياء النفعيين. وادعاء الدين لتحقيق المطامع معوقٌ للأمة، ومعمقٌ للشقاق، ومهيئ لفتنة عمياء، لا تبقي ولا تذر.

و(السياسة) أدهى وأمرُّ، فهي تراوح بين الجور والعدل، والوسطية والتطرف، وقد لا يحسن أربابها التصرف، فيكونون عبئاً على الأمة، فهي بيت الداء، ومصدر الشفاء، وفن الممكن، وما أضاع الفرص إلا كذابون يقولون ما لا يفعلون. و(الرأي العام) حصيد المنجلين، وهو بفعل السلطتين الأوليين قد يصاغ على غير هدى ولا كتاب منير، فهو الظالم والمظلوم. وقد يُسلب حقه المشروع في الحرية والسلوك، فيمارس الملاحقة لأعدائه أو التمرد عليهم. وأياً ما كان الأمر فإن التاريخ حافل بالمتمردين لوجوه كثيرة، وفرادة التنفذ مصدر كل شر، ومن ثم لا بد من مأسسة السلطات الثلاث، لتمارس حقها، وتؤدي واجبها.

ولقد عرف التاريخ السياسي والفكري العالمي والإسلامي والعربي القديم والحديث عدداً من الثورات وحركات التمرد، كان من أهمها وأخطرها في التاريخ الإسلامي ثورتا (القرامطة) و(الزنوج)، ولكنه لم يحفل بمصطلحي (الثورة) و(التمرد)، كما حفل بهما التاريخ السياسي والفكري الحديث.

ولقد قلت من قبل: إن (الثورة الفرنسية) هي أم الثورات، مثلما كانت الخمرة أم الخبائث - وأرجو ألا نتذكر (أم المعارك) - فالأمهات كثر، ولكنها كأم (الحُطيئة) غربال وكانون. وأذكر أنني عندما قرأت كتاب (تاريخ الثورة الفرنسية) تبين لي أنها بدأت دموية همجية، وكنا نعدها من قبل من خيار الثورات العالمية، لأنها - وحسب التضليل الإعلامي

- أم (الديمقراطية) و(التنوير) و(العلمية) و(العلمنة) التي أنقذت (أوربا) من ظلمة القرون الوسطى. ومع أن هذه الثورة بكل ما صاحبها من أوضار أفضت إلى نظم حضارية فوضها الغرب، فأقالت عثرته، ومكنت له في الأرض، فإن التجربة الثورية العربية باءت بالفشل الذريع، ولما تزل تراوح في مكانها مكرسة خطاب الشجب والتخوين، والتصدير والمفاضلة، مستجيبة لحضارة الاستكبار المادي.

ولما أبديتُ استغرابي من هذه الدعاوى الزائفة عن أم الثورات، تصور بعضهم أني محكوم بخطاب سلفي منغلق على نفسه. ولم أستغرب، فكل ذهنية هشة يخترقها الإعلام الموجه، فيصْنع خطابها على عينه، ومن الصعوبة بمكان إعتاقها من موبقاته، والأخذ بيدها إلى سوء السبيل. وما يقال عن الحركات المشبوهة والثورات الهدامة يقال عن الأفراد. فكم من عميل لمَّعه الإعلام، ونفخه اللاعبون، حتى أغشى به العيون، وسد به الآفاق، وأغطش الحقائق، وهو في الحقيقة من أتفه الناس وأقلهم زكاء وذكاء ودراية.

والمغامرة تختلف عن التمرد، كما أن الإقدام يختلف عن الاندفاع، فالتاريخ حافل بالمتهورين والمغامرين الذين يظنهم الناس من المتمردين على بينة من أمرهم، وعلى جانب من الاستقلالية في خطابهم. وكم من متمرد يعد نفسه من الأخيار، وما هو في حقيقة الأمر إلا كمهاجر (أم قيس). والتاريخ قد يخلط الأوراق، فلا يفرق بين متمرد وثائر ومتهور، وهو في تحديد النوايا أكثر خلطاً وتوهيماً.

والمتابع لسير أعلام النبلاء، يقف على مبادرات تسبق زمنها، بحيث يوجس الرأي العام في نفسه خيفة منها، وقد يجد المسرون بالموافقة أن من مصلحتهم استثمار صيحة العامة، إما للكسب الرخيص أو للتشفي البغيض، إذ لا يسلم جسد من حسد. والسابقون لزمنهم قد لا يملكون القدرة على الإقناع، وبث الطمأنينة والثقة في النفوس، وقد تأخذهم الثقة بمشروعية مبادراتهم إلى الصدع بالمعتقد، دون اكتراث باتجاه الرأي العام، وهنا يكون النصر للقوة والمكر والترصد.

ولقد استعاذ (عمر) - رضي الله عنه - من جلد الفاسق وغفلة المؤمن، كما استعاذ العلماء من (صيحة العامة). وتاريخ العامة عبر العصور يؤكد أن كثيراً من السابقين لزمنهم ابتلعتهم الصيحات المتفلتة على الضوابط كلها.

ومثل السابقين لزمنهم (الغرباء) و(الجماهيريون)، فقد تمر بالعلماء والمفكرين والأدباء ظروف ضاغطة تحملهم على خيار التمرد، وبخاصة حين تعنف السلطة السياسية في حمل العامة والخاصة على مذهب طارئ، ليست له جذور فكرية، وليس له عمق بشري. فصراع الأعراق قد يؤدي إلى صراع الأفكار، ف (الرشيد) أنجب (الأمين) من أم عربية، و(المأمون) من أم فارسية، وكل (أقلية عرقية) تفعل المستحيل لبقائها قوية متنفذة. وهكذا فعل (البرامكة)، إذ تعهدوا (المأمون) وأحاطوه بالعلماء والأدباء والفلاسفة وعلماء الكلام، ليكون أهلاً للخلافة، فيما أحاطوا (الأمين) بالمجان والظرفاء وأهل السماجات ليقتله الترف وتلهيه الشهوات. ولقد أدركت (زبيدة) أبعاد تلك المؤامرة، فكان تخطيطها المحكم والقاتل ل (البرامكة)، ولكن العاقبة كانت ل (المأمون) الذي حمل الناس على مذهب (الاعتزال) متأثراً بمحيطه المعرفي، الأمر الذي دفع علماء السلف على التمرد والمواجهة لوجه الله، فكانت محنة (ابن حنبل) وموت (ابن نوح) والتضييق على السلفية.

ف (ابن حنبل) لم يكن مهيئاً للتمرد، حتى حين كان مغلول الأيدي، بل كان موالياً ومذعناً للخلافة وداعياً للخليفة، ويقال مثل ذلك عن (ابن تيمية). فالظروف الضاغطة هي التي حملت على التمرد، لرد الظلم، ومنع التحكم، وليس الاختيار. وكثير من الدعاة والمصلحين يجدون أنفسهم في طريق مسدود، فلا يجدون بداً من التمرد القولي أو العملي.

وإذا كان الإحباط وقود التمرد، فإن (الجماهيرية) وقود مماثل على الرغم من تناقضهما، فقد يكثر الأشياع والأتباع، فيفرضون أسلوب الأداء العنيف والمواجهة الأعنف، بحيث يسلبون شيخهم فرصة التأمل ومعالجة الأمور بالتي هي أحسن. وكم من مُصْلح ألغى رؤيته أمام الأتباع، لأنه في ظل نشوة التألق أعطى جرعات زائدة عن المطلوب، فكان التمرد لوجه العامة، وليس لوجه الحق، وحين لا يكون بد من التراجع يفر المتمرد بجلده، تاركاً الأشياع في العراء.

وعلى ذات الوتيرة يكون الصراع السياسي، فكم من لاعب يمارس التعبئة الذهنية، بحيث تكون أكبر من حجم اللعبة السياسية العارضة، فيكون التمرد جماهيرياً، وليس فردياً. وقراءة الأحداث المعاصرة تقف بذوي الأبصار والبصائر على أخطاء فادحة، تكشف عن تقصير في تقدير الجرعة الدعائية. وما نقمت الجماهير المخدوعة من أرباب اللعب، إلا أنها صيغت على رؤية مؤقتة، لم يحسن الأرباب تفكيكها، بعد انتهاء اللعبة. وأستطيع أن أضرب الأمثال بسياسة توازن القوى التي لجأ إليها (أنور السادات)، وب (الجهاد الأفغاني) الذي حرك العواطف الجهادية، فكان ذهاب (السادات) في حادث المنصة على يد من صنع، وكانت رماية (البرجين) وهدمهما على يد فلول المجاهدين، وما زال المراقبون يتخبطون، كما تخبط المؤرخون حول كثير من الأحداث الفادحة، وما هي إلا يد أوْكت وفم نفخ.

متمردون لوجوه شتى .. ! (٢)[١]

وأي تمرد قولي أو فعلي يحال إلى حواضن، تُنشئها الأوضاع أو يجلبها الأتباع، ومن جَهَلَها فكأنّما وتر أمنه واستقراره، وفي كلِّ يوم تطلع فيه الشمس نسمع عن تمرد عنيف ورد فعل أعنف، تلفظه فوّهات المدافع أو أفواه الرجال، وتفاهة التمرد الأكثر إيذاءً، والأضعف جنداً ما نسمعه أو نقرؤه عبر وسائل الإعلام من أصداء لصائحين محكيين. فمن الناس من يكون تمردهم اجترار اً لقضايا مهترئة، ليس لهم فيها من أثر إلاّ التسخين لما غَبَّ من طبيخ. فأصحاب هذه الإثارات لم يكونوا أهل مشاريع فكرية، ولا أصحاب قضايا مصيرية، وإنّما هم أصداء يأوِّبون الصوت، وأجسام يعكسون الضوء، وهم كما يقول (بتلر): (ثمة رجال يولدون أذناباً، ومحاولة جعلهم رؤوساً ضرب من العبث). وهؤلاء الأذناب لا يلوون على معرفة عميقة ولا يتوفرون على تجربة ناجحة، وليس لهم أشياع ولا أتباع، يتولون إشاعة قولهم، وحماية ساقتهم. وليس بمستبعد أن يكون اللاعبون الكبار في بعض المواقف أحوج إلى أذناب الثعالب منهم إلى براثن الأسود، ومن ثم لا يجدون بداً من النفخ في هذا النوع من البالونات، وتمرد هؤلاء يكون لوجوه كثيرة، بحيث يكون لكلِّ تمرد وجه جديد يوفض إليه كما النُّصب، وكلّ همّ هذا الصنف المزعج الشغب والإثارة، لضمان بقائهم في دائرة الضوء الزائف. ومن إضاعة الجهد والوقت نزيف الأحبار لصدهم عما هم فيه، إذ من الحكمة ألاّ يُعبأ بهم، لأنّ المرور الكريم بمثلهم كفيل بتجفيف مستنقعاتهم. والمشهد الإعلامي مليء بهذا الصنف المخف من كلِّ شيء. والإشكالية حين يكون البعض من هذا الصنف محسوباً بمظهره أو بعلمه أو بتخصصه على مدرسة فكرية تتسم بالوسطية والتوازن، والتأصيل والمرجعية، أمّا حين لا يكون معروف الانتماء بمظهره أو بعلمه أو بتخصصه فالأمر جد بسيط.

ولا تخلو أي مرحلة تاريخية من متمرِّدين لوجه الرحمن، أو لوجه الشيطان، أو لوجه الدينار، أو لوجه الوجاهة. ومكمن الخطورة في التباس الأمور والتياث الكلم، وما من متمرد إلاّ هو على بيِّنة من أمره، يعرف لوجه من يتمرد، والنوايا لا يسبر أغوارها إلاّ بارئها، ولو عرفها الأشياع والأتباع معرفة المتمرد بها لما كان تناحر ولا صدام. والمتمردون لوجه الكسب المادي الرخيص يتعمّدون الاستفزاز بسوء الأدب، وكشف المستور. والسرديون يقدمون غيرهم إلى بنيات الطريق، وكم سيئت وجوه العقلاء العالمين من هراء سردي يتخطفه القراء في طبعته السادسة، لا لشيء إلاّ لأنّه تمرد على القيم وصدم للمشاعر.

وكلُّ متمرد إمّا أن يكون في مقدمة الفتن يرود لها الطريق، أو في ساقتها يذودها عن القوم. وإشكالية الفتن أنّها مجهولة عند الإقبال، معروفة عند الإدبار، وما يوقظها من مرقدها إلاّ الذين هم أراذل القوم، وليس شرطاً أن يكون كلُّ المتمردين من علية القوم: علماً وعقلاً، فالشرفاء يفكرون ويقدرون، والأشرار يُقتلون حيث يقدِّرون.

والمتمرد حين يكون تمرده لوجوه متعدِّدة، يكون ذا مستويات متعدِّدة، فقد يكون تمرد فكر لا تقدر السلطة على ضبط إيقاعه، وقد يكون تمرداً حركياً لا تستطيع أجهزة الأمن على قمع اعتدائه، وقد يبلغ ذروته فيكون تمرداً مسلّحاً يألف الناس معه حمامات الدم. فهذا (العراق) و(الصومال) و(أفغانستان) وبقاع شتى تتبادل القبس كما لو كان جذوة من نار. والعالم بأسره عبر تاريخه الطويل يمر بهذه الأنواع وتلك المستويات، وما من متمرد إلاّ هو آخذ بناصية النوايا: الحسنة أو السيئة، وهي كما قيل خطوات يمشيها من كُتبت عليه،

---

(١) تاريخ المقال: ١٩/ ٩/ ٢٠٠٦

فإمّا أن تبلغ الغاية أو تقعد دون ذلك. ولسنا بصدد التزكية أو التخوين، ولكننا نقرأ تأريخ الأمم والجماعات والأفراد، ونقر ما اطمأنت إليه النفس، ونود أن نكون ممن يوعظ بغيره، ولا يوعظ به غيره.

وإذا كان القسط الأوفى في ظاهرة التمرد للعلماء والمفكرين والمجدِّدين فإنّ المبدعين أقل تمرداً وأعنف لغةً، ولكنه تمرد لا يحدو الجماهير بمثل ما يحدوهم المفكرون والعلماء والمصلحون، وأخطر الأنواع ما كان مصنوعاً لأداء دور يعوق مسيرة الخير، ويزرع الشوك.

ولقد عُرف التمرد الإبداعي عند (الصعاليك) من قبل، ثم اندلقت أقتاب الشعوب حين دخل الناس في دين الله أفواجاً، واستفحلت ظواهر الشعوبية والزندقة والمجون، وعُرف من الشعراء من أوغل في ذلك، فكان (بشار بن برد) و(أبو نواس) وسائر المجان والمتهتكين من الشعراء الذين تقصى أخبارهم (ابن المعتز) و(الأصفهاني). ثم جاء تمرد من نوع آخر عند (المتنبي) كان وقوده جنون العظمة، وتحدى العوائق والإحباطات المتلاحقة. أمّا التمرد الفكري عند المبدعين فكان رائده (أبا العلاء المعري). ولكلِّ قوم أو فترة متمردون هادون أو مُضلون. وخير الفترات من تكون ولاداتها ميسرة ولا مبتسرة، وأطيافها متعاذرة لا متنافرة، وخطاباتها متناغمة لا متصادمة.

ومكمن الخطورة في العصر الحديث سهولة الاتصال وسرعته، واستغلال (الليبرالية) في حرية الدين والسلوك والتعبير، ومن ثم استفحل تمرد القول، بحيث اقتسم الظاهرة الشعراء والسرديون، والأدباء والمفكرون، والساسة والإعلاميون وسائر الأحزاب الطائفية والقومية. ولقد كانت تمرداتهم لوجوه كثيرة، ليست على شاكلة ما سلف، وكان في مقدمة الوجوه (المد الثوري) و(المد الماركسي) و(المد التنويري) و(الطائفية) و(القومية)، ومجمع الوجوه رفض السلطات الثلاث (الدين) و(السلطان) و(المجتمع)، ومخاضات العصر المتواصلة أطفأت حدّة التأثُّر والتأثير، وجعلت العامة يمرون بها دون اكتراث.

وللروائيين تمرد متعدد الوجوه، لقد تمرد عليتهم على الدين، فكان الانحراف الفكري، وتمردوا على المجتمع، فكان السقوط الأخلاقي، وتمردوا على السلطة فكانت الفوضى وضعف الوازع السلطاني، فجاءت الأعمال الروائية متأدلجة لوجه الفوضى الوجودية و(الليبرالية) الفوضوية. وكان هذا الحراك يملك إمكانيات التمرد من لغة متعالية وفن رفيع، ولكنه لا يملك مشروعية الفعل، ولقد لحق بكبار المتمردين من عمالقة الروائيين أوغاد تافهون، لا يملكون إمكانيات إبداعية، ولا يتوفرون على أدنى مشروعية للفعل. والراصدون لهذا اللون من التمرد يذكرون ما أحدثه (محفوظ) و(حيدر) و(حامد) و(شكري) وآخرون لم يلحقوا بهم في الإبداع، وإنّما تماهوا معهم في السقوط والانحراف.

أمّا في مجال الفكر السياسي فحدث ولا حرج، والمشاهد مليئة بالمتمردين لوجوه متعدِّدة. ولقد كان متكأ أصناف المتمردين حرية الرأي التي لم تؤخذ بحقها. وستظل المشاهد مسرحاً لبغات الطير، حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

وليس تمرد المفكرين والعلماء والصحفيين بأقل من تمرد الساسة والمصلحين، ولعلّنا نذكر على سبيل المثال أنواعاً من عمليات التمرد الفكري المتفاوتة في دركاتها وآثارها. فالدكتور (عبد الصبور شاهين) الذي قاد حملة عنيفة على المتمرد لوجه العقل الحر (نصر حامد أبو زيد) تمرد هو الآخر على المسلّمات، حيث ألّف كتاب (أبونا آدم) فأحدث ضجة في وسطه الفكري الذي ينتمي إليه، الأمر الذي حمل المتمردين لوجه العقل الحر على الشماتة. وكتاب (شاهين) الذي أتممت قراءته بين السماء والأرض من (القاهرة) إلى (الرياض) لا ينتمي إلى فكر، ولا يناصر نحلة، ولكنها فكرة فجّة، اجتاحت مخيلته فحوّلها

من الخيال إلى الخبال، ومن الإخفاء إلى الإبداء، فجاءت رؤية ليست في العير ولا في النفير، وأحسب أنّها أطفأت ما اكتسبه من نور. وقد أضافها الخصوم إلى موقفه المشبوه من الاقتصاد الإسلامي الذي خيّب ظنه، ولم تنج سمعته.

و(شاهين) الأمكن في عالم الفكر الإسلامي المعاصر، تعرّض لضربات موجعة، قد تكون مدبرة لتقليص شعبيته، وتقليص أثره بوصفه خطيب جمعة يحرِّك الشارع الإسلامي. وتجربتي مع الدعاة تؤكد أنّ من يؤجّجون الشارع براجماتهم البلاغية يستهلكون ترسانتهم في وقت قياسي، ويحققون مكتسبات بوقت قياسي أيضاً، ولكنهم لا يحافظون على تلك المكتسبات، فهم كالمتظاهرين، يلتهبون بسرعة، ثم يخبو أوارهم.

أمّا (نصر حامد أبو زيد) فتمرده لوجه العقل المتعالي فوق النص معيداً إلى الأذهان الخطاب الاعتزالي الذي أصبح من أكثر الخطابات حضوراً وإثارة، وهو وإن استعاد بعض آراء المعتزلة إلاّ أنّه أبعد النجعة، وأتى بما لم يأت به سلفه، وحجّته الخطيرة التي أردته أنّ (القرآن) تأنسن حين تلبس باللسان. فالقرآن كلام الله يوم أن كان خارج اللغة في (اللوح المحفوظ)، وحين تلبسته اللغة أو تلبسها أصبح محكوماً بضوابطها ودلالاتها، ولقد كان لآرائه الفجة أثرها في تحريك الوسط العلمي.

والإشكالية تكمن في تطرُّف الفئتين عند تفنيد وجهة نظر الآخر. (أبو زيد) أوغل في طيشه، والمتصدُّون له أوغلوا في تكفيره. والحكمة تقول الرأي كالضيف، يكرَّم ولا يتحكَّم، والمنحرف كالمريض، يُتلطف معه ولا يُطاع، والخطأ في إصدار الحكم قبل المحاكمة، وفي ذلك تقديم للعربة على الحصان، وكان الأهدى والأجدى أن تحرر المسائل، وتحدد الانتماءات، ثم تؤخذ القضية من أطرافها. لقد أنزل عليه حكم الردّة والإلحاد قبل جر قدمه للمصير إلى الحكم دون إصداره، والذي خلط الأوراق وفوّت فرصة الجدل الموضوعي إصرار كل فئة على رأيها، ودخول انتهازيين استغلوا المواقف. لقد تراجع سلفه (طه حسين) وأذعن للحكم، متوسلاً بالتأول، فيما أصر (أبو زيد) على خطيئته، فكان النفاذ بجلده إلى جامعات تؤوي المحدثين.

ومن قبل أولئك رأس الهدامين (القصيمي)، لقد كان سلفياً ينافح عن أهل السنّة والجماعة، ولم تكن منافحته هوجاء ولا عاطفية، وإنّما كانت عن علم عميق ومعرفة بأصول المذاهب، وبين عشيّة وضحاها أخذه طائف التمرد العنيف، فكان أن فسق عن أمر ربه، وخاض وحل الهدم والإلحاد الذي لم يوافقه عليه أصحاب المذاهب المادية والإلحادية. ذلك أنّ لكلِّ ملحد مناطة، ولكلِّ متمرد وجهته. أمّا (القصيمي) فلم يكن له مناط، ولم تكن له وجهة يوليها، فكان من الهدامين الذين يتوسلون بكلِّ مذهب، لهدم ما سواه، ثم يعمدون لهدم المستعان به بآلية ما سبق هدمه، وتلك جدلية رعناء، لم تكن لها سابقة ولا لاحقة. ولهذا نبذه العلماء والمفكرون والساسة، وعاش غريباً ومات غريباً، وظلّت كتبه متداولة على أضيق نطاق لعجزها عن الإقناع، واتسامها بإسهاب كلامي ممل.

ولو ذهبنا ننقب في أرض الله الواسعة عن طوائف المتمردين، لما كان لنا أن نؤوب، والمأخذ المعرفي والموقفي أن الذين يتصدَّرون الوسائل الإعلامية يؤبنون المتمردين لوجه الشيطان بعد هلاكهم. وتظل راية التمرد تتلقّاها الأجيال باليمين، وتظل الشعوب المغلوبة تدفع الثمن من دمائها وأموالها وأمنها.

بقي أن أقول: - من عنده نعمة فليرعها، فإنّ المراء يزيل النعم، والأُمّة العربية والإسلامية مستهدفة، ومن الخير لها أن تتمترس خلف التعاذر والتعايش والتصالح حتى يأتي الله بنصره أو أمر من عنده.

الفكر التصالحي في خطاب عبده .. ! (١)[1]

يظن البعض أن مصطلح (الخطاب) كأي مصطلح متداول من المصطلحات الغربية المترجمة، وأن الوعي العربي لم يبلغ الرّشد، وأن الثقافة العربية ثقافة استهلاكية، لا ترهص للظواهر الحديثة، ولا تؤسس للمصطلحات المعاصرة. وأحسب أننا نغمط التراث العربي حقه، وبخاصة حين نولي وجوهنا شطر الحضارة الغربية في كل ما نحن بحاجة إليه من مصطلحات تسد الرمق في كافة المعارف المتداولة.

ويقيني أن التراث الإسلامي أسس لكثير من المفاهيم الحديثة عرفها، وعرّف بها المنصفون من المستشرقين. وهذا التنبؤ لا يحفز على المقاطعة، ولا يغري بالاستغناء، ولا يوقع في مأزق المفاضلة والتصدير، وإنما يوجه إلى الأخذ عن الآخر بمقدار، ويشيع الشعور بالندية، ويحرض على التفاعل الحضاري، ويحذر من الانفعال غير المحسوب في القبول أو الرفض.

وأذكر أنني اشتركت قبل عقدين في ندوة أدبية نظمتها إحدى مؤسساتنا الثقافية عن تراثنا النقدي، وكان بعض المؤتمرين من أساطين الحداثوية كالدكتور (كمال أبو ديب)، وكنت وبحثي نشكل نشازاً في هذا السياق، وبالذات حين بحثت في الربط بين ظواهر النقد الحديث وما يقابلها في التراث النقدي القديم. فـ(الحداثويون) جبلوا على نفي القديم والتقليل من شأنه، واحتقار الذات، والتباهي بالآخر، ولم يكن بمقدور أحد منهم أن يتفسح للتراث العربي في مشاهد الأدب والنقد، ليأخذ مكانه الطبيعي، ولا أن يذكر محاسنه حين قطع بموته، وما مروا من حضارة الهيمنة إلا ليعلموا مفرداتها، وينفوا تراثهم، وإن ذكروه فبسوء.

ومصطلح (الخطاب) متداول عند (الألسنيين) المحدثين، بوصفه مجمل النص لا جزئياته، وهو كذلك على مستوى الأفكار والحركات، إذ يعني مجمل الفعل لا جزئياته. وتراثنا العربي يعطي هذا المصطلح مفهوما مغايرا للمدلول اللغوي، جاء ذلك تلميحا في كتاب (الكليات) لـ(أبي البقاء الكفوي ت ١٠٩٤هـ) أما مدلوله اللغوي فإنه يعني: (الكلام الذي يقصد به الإفهام)، وقد التبس هذا المفهوم على (علماء الكلام) حين يوصف القرآن به، حيث أثار كثيرا من التساؤلات حول الحدث والأزلية، وهو اختلاف واكب الذكر الحكيم منذ أن استفحلت قضية (خلق القرآن) بين (المعتزلة) و(أهل السنة والجماعة). ومرادنا من كلمة (الخطاب) هنا (جماع الحركة الدعوية وخصوصياتها وأهدافها). وأستطيع أن أقول انه الشرعة والمنهاج الذي يتبناه المفكر أو المصلح، فهو بإزاء الماهية بكل أجزائها.

وما نود تقصيه في فكر المصلح (محمد عبده ١٨٤٩ - ١٩٠٥م) نزعة المصالحة والتسامح والجنوح إلى الحوار الحضاري، وميله إلى الاشتغال في القواسم المشتركة بين الحضارات المهيمنة. وليس يعنينا بعد ذلك ما يخالف به سائر الخطابات السالفة أو اللاحقة، كما لا يعنينا ما يؤاخذ به من سائر المفكرين. إن هدفنا أن نثبت أثر الجنوح للسلم، واحترام الآخر في الحوار الحضاري، وهي السمة التي يتصف بها فكر (محمد عبده) بوصفه يعيش الوسطية بين (الطهطاوي) و(رشيد رضا). ولكي لا أتوسع في البحث، فقد جعلت متكئي في استجلاء نزعة (المصالحة) في خطابه على كتابين لعلمين من أعلام الفكر والفلسفة في العصر الحديث هما: الدكتور عثمان أمين، والأستاذ عباس محمود العقاد.

---

(١) تاريخ المقال: ٢٦/ ٩/ ٢٠٠٦

ف(أمين) جلّى بعده الفلسفي ونزوعه الروحي، و(العقاد) جلّى بعده النفسي وفكره التطبيقي، وكلاهما متوفر على دراية ورواية مكنتاهما من تقصي أحوال المصطلح. فالدكتور (أمين) ألف كتاب (رائد الفكر المصري الإمام محمد عبده)، والأستاذ (العقاد) ألف كتاب (عبقري الإصلاح والتعليم الأستاذ الإمام محمد عبده).

ولقد تشعبت الدراسات، وتعددت الرؤى، وقيل عن المفكر ما لا يمكن الجمع بين أطرافه، وكل دارس من قبل أو من بعد أخذ الإمام من الزاوية التي تهمه، ولكن الجميع يكادون يلتقون عند نقطة واحدة، تمثلت بالتسامح والوسطية، كما يجمعون على أهمية الأثر الذي تركه في وسطه، بسبب ما توفر عليه من تأصيل معرفي، وتجربة عميقة، وتصالح غير مخل بهدفه الأسمى، وهو إشاعة الفكر الإسلامي بالمفهوم والطريقة التي يراها. فلقد كان كما وصفه (عثمان أمين) (أصدق داع للحرية الفكرية، وأول رائد للحركة الإصلاحية)، ثم هم بعد هذا الإجماع على التسامح تتشعب بهم الطرق، وتختلف الآراء، وتتعدد المواقف.

وعندما أشير إلى (المصالحة) فلست أقصد بها ما يسلكه المبهورون من استسلام مطلق، وتسليم غير مشروط، فذلك نوع من التمييع والمداهنة، وإن اتهم بها (عبده) تلميحا وتصريحا. كما أني لست معنيا بتفاصيل الحركة الإصلاحية ومدى التقائها أو افتراقها مع المذاهب الإسلامية في (الفقه الأكبر) أو في فقه الفروع، فالتقصي يستدعي التقويم الشمولي والدراسة المعمقة، وذلك غير مقدور عليه في بحث محدد، وما أقصده هنا وعيه للمرحلة التي عاشها، ومحاولته الجنوح للسلم والدفع بالتي هي أحسن، لتفادي المواجهة غير المتكافئة في العدة والعتاد، وهو الأسلوب الدعوي الذي نحن بأمس الحاجة إليه في ظل ظروفنا الراهنة، ظروف الغثائية وتداعي الأمم، وبخاصة حين تحرف العدو لإحياء الفتنة الطائفية والعرقية والإقليمية، وحقق ما يصبو إليه من مواجهة عسكرية يضرب فيها بعضنا رقاب بعض، وهو ما حذر منه الرسول ﷺ.

ونود الإشارة إلى أن هناك تراجعات وتنازلات، يعدها المنهزمون لوناً من اللين والرفق والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، وما هي كذلك والخلط بين المفاهيم أضاع الفرص، ومكن للمهيمنين. والحركة الإصلاحية التي اعتمدها (محمد عبده) حركة ذات طابع حضاري، فهو قد عاش الاستعمار التقليدي في أوج نفوذه، وهو قد واكب حركة التغريب في عنفوان قوتها وتحرفها واستنجادها بالمبشرين والمستشرقين والمناديب، وهو في هذه المعمعة بحاجة إلى خطاب تصالحي يستطيع من خلاله أن ينهي مشروعه دون قمع أو مصادرة.

ومع تسامحه فقد تعرض للقمع والنفي، ولكنه واصل كفاحه لإبلاغ دعوته التي لم تعد جاثمة في الكتب، بل كانت مفهوما متمثلا في الواقع، والمتقصي لقدرات المصلح العلمية والعملية واهتماماته، يدرك أنه جمع بين التراث والمعاصرة، وأنه شكل حركة وسطية أتيحت لها فضاءات لم تتح لغيرها، وهذا مكمن التمكن. وهو فيما أرى يمثل الانفتاح على الثقافات والقبول بتفاعلها، ولكيلا تتشعب به الطرق فقد اتخذ القرآن الكريم منطلقه، ولم يكن قرآنيا نابذاً للسنة، ولا عالما يشتغل بمعارف اللغة، وإنما كان مستلهماً للمعاني، مستبعداً تشتت الآراء. ولهذا نجد مذهبه في التفسير يقوم على العموم والتعويل على المعاني العامة والشاملة، ولم يتوان في الإشارة إلى شمولية الإسلام وعموميته. والفرق بين الشمولية والعموم أن الشمولية ترتبط بالأحكام، والعمومية ترتبط بالمحكومين، فمنطلق الأولى ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾، ومنطلق الثانية ﴿وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾.

ومن الثوابت عند علماء المسلمين أن الرسول ﷺ بعث للناس كافة، وهذا المفهوم عمق عنده نزعة المصالحة، وتفادي الصدام الذي أعاق كثيرا من الحركات الإصلاحية ومكنه من تقديم مشروع أخلاقي إنساني تقبل به الفطر السليمة. ومتى استجابت القيم السلوكية مع الحاجة قامت الألفة واستحال الصدام المعوق لنفاذ مبادئ الدعوة. وذلك ما عمد إليه المفكر في تفسيره، إذ لم يعمد إلى التفسير العلمي أو المعرفي، وإنما استوحى القيم. وكل صاحب مشروع فكري أو دعوي ينطلق من مؤيدات مشروعه، نجد ذلك في (الظلال) ل(سيد قطب)، وفي تفسير الشيخ (عبد الرحمن الدوسري)، ونجده بشكل أوسع عند الاتجاه العقلي في التفسير، ولقد استدركت عليه شطحات ولكنها ليست بحجم شطحات (مصطفى محمود) أو (شحرور).

لقد بدأت محاولاته الأولى متواضعة، تمثلت بتفسير سور أو أجزاء من القرآن الكريم، حيث فسر (سورة العصر) و(جزء عم) و(سورة الفاتحة) وهي سورة مكية تؤسس للدين، ولا تفصل، وهذا سر اهتمامه بقصار السور. ثم شرع في (تفسير القرآن الكريم) المعروف باسم (تفسير المنار) الذي بدأه ووصل به إلى الآية (١٢٥) من سورة النساء ثم أتمه تلميذه (رشيد رضا). ومنهجه في التفسير يكشف بوضوح عن نزوعه ل(المصالحة) في خطابه، فهو يعمد إلى استكناه القيم الأخلاقية الصالحة لكل زمان ومكان، وكل نحلة أو ملة تقيم مبادئها على القيم الأخلاقية وتنطلق منها.

ولهذا تجده يبحث عن إيصال روح القرآن الكريم ومبادئه العامة، واستبطان قيمه المشتركة في الحضارة الإنسانية، وهذه النزعات حادت به عن جادة المفسرين الذين درجوا عليها.

ولقد أشار إلى هذه النزعة التأملية في تفسيره لسورة (الفاتحة)، ولكيلا يدخل في دوامة الخلاف التي تحد من نزعة (المصالحة) عنده فقد سعى إلى تجنب مسائل الخلاف العويصة، وأخذ بوضوح المقاصد وما ظهر من المعاني في آي الذكر الحكيم، كما أنه لم يدخل في جدل مع المذاهب الإسلامية إلا بمقدار، وجل اهتمامه بالحوار الفكري مع الآخر، وهو حوار يتوسل بالعلم التجريبي والعقل الخالص، وهذا مكمن التحفظ عليه.

الفكر التصالحي في خطاب عبده .. ! (٢)[1]

ونحن بهذا الاستجلاء، لا نُحدِّد موقفنا من آرائه التي خالف فيها الجمهور، وإنّما نريد اكتشاف نزعة (المصالحة) في كافة ممارساته السياسية والفكرية والدينية، وفي تفسيره كواحد من منطلقاته الدعوية، وإلاّ فإنّ للإمام (محمد عبده) تأمُّلات وتأويلات لا نجد مبرراً للأخذ بها، كما أنّ هناك آراء حول حركته الإصلاحية واتهامات حول أهدافه وغاياته وارتباطاته لا يعنينا تفنيدها. وما من مفكِّر بحجم (محمد عبده) إلاّ وتختلف الآراء حول مذهبه، وهو مع كلِّ ذلك يشكِّل منعطفاً فكرياً لا يُستهان به، وله إلى جانب الدعوة نزوعٌ فكريٌّ عميق الرؤية ساقته إليه النزعة المادية التي طغت في الغرب، وشكَّلت ثقافة الحادية.

وكتابه (رسالة التوحيد) و(الحاشية على شرح العقائد العضدية) وشرحه ل(البصائر النصيرية) في المنطق تكشف عن جهد فلسفي استدعته المرحلة المعاشة، ولا أحسبها رغبة عَمَد إليها، وأنشأها بطوعه، هذه النزعة تكشف عن ميله إلى التأويل العقلي، ومعالجة الأمور الغيبيّة مستعيناً بالعقل والمنطق، على الرغم من المحاذير في هذا الاتجاه. ولكن هذا الميل لا يخل بنزوعه إلى (المصالحة)، وهو ميل فرضته الفلسفة المادية في الغرب، مع أنّه قد حمل على المؤولين والموغلين في تصوُّر عالم الغيب، وعلى الذين يعتنون بالتفصيل. فهو ميّال إلى فهم المعاني إجمالاً، وليس معنياً بإتقان خطابها، أو الدخول في الجدل الفلسفي حول كثير من القضايا الفكرية.

ومع ما تفرضه المرحلة من نزوع عقلي فقد ظلّ محتفظاً بالوسطية، يقول الدكتور (عثمان أمين): - (وتتجلّى في تفسير محمد عبده سعة النظرة وروح التسامح)، وأي مصلح يعيش وسطاً فكرياً، لا ينجو من فرضياته وممارساته، ولهذا نجد أنّ (ابن تيمية) استوعب ثقافة عصره، وعالج مجمل القضايا المثارة. و(محمد عبده) في عصر طغت فيه نزعات عقلية وعلمية وإلحادية لا بد أن يستوعب المرحلة، وأن يعدِل عن خطابه التسامحي حين لا يكون بد من المواجهة العنيفة، وأحسب أنّ المرحلة التي عاشها عصفت بها أعاصير السياسة، وتمخَّضت عن دعوات قومية وإقليمية، شغلت العلماء عن التفرُّغ لعلمهم، وأنهكت خطابهم، وصرفته بعض الوقت عن مهماته الأساسية.

والمصلح نشأ في ظل مخاضات سياسية عنيفة أسهمت في التأثير على خطابه المتوازن، وإن لم ينجرف في تيار الثورات الدموية، فهو قد ولد والحراك السياسي على أشده، وأثر (الحملة الفرنسية) بادي الوضوح في كافة المشاهد السياسية والاجتماعية والاقتصادية. فلقد بدت القومية بشكل واضح، وطغت مصطلحات سياسية ذات أثر فعّال، تمثَّلت في (الديمقراطية) و(الدستور) وتشخصن في ظل ذلك الفكر السياسي والاجتماعي. والقارئ لتاريخ (عبد الرحمن الجبرتي) يعرف حجم التحوُّلات المتعدِّدة في المشاهد المصرية على كلِّ الصعد.

لقد دارت في المشاهد قضايا (المرأة) و(القانون) و(الاستقلال) و(الدستور) و(الدولة الإسلامية) و(الدولة المدنية) و(الديمقراطية) وسائر المصطلحات السياسية، ولقد شكَّل (رفاعة الطهطاوي) و(جمال الدين الأفغاني) تحوُّلات جذرية في الفكر المصري الحديث، فيما جاء أثر (قاسم أمين) في الفكر الاجتماعي، وجاء (محمد عبده) حلقة في سلسلة الفكر الديني المتعصرن، ولم يكن الخطاب الديني المتوازن وحده المتنفّذ في المشهد المصري،

---

(١) تاريخ المقال: ٣/ ١٠/ ٢٠٠٦

بل كانت هناك طوائف عدَّة. لعلَّ من أهمها (الخطاب القبطي) متمثلاً بالسلسلة الصدئة على يد (جرجي زيدان) و(سلامة موسى) و(لويس عوض) و(غالي شكري).

وهناك حركات مادية وروحية واجتماعية متعدِّدة، ربما تكون قد خرجت على كلِّ الأفلاك السائدة، يعرفها الراصدون للتاريخ الفكري المصري. وكتاب (تاريخ الفكر المصري الحديث) للمفكِّر القبطي (لويس عوض) يرصد لكلِّ التحوُّلات الفكرية، وإن كان مأخوذاً بالفكر الذي ينتمي إليه، وليس مهماً ما يجنح إليه، إذ لم نعتمده مرجعاً للتحوُّلات الفكرية عند المفكِّر (محمد عبده).

وإذ نقول بالسلسلة القبطية، نقول بالسلسلة الإسلامية فهي تبدأ ب(الطهطاوي) مروراً ب(الأفغاني) ف(محمد عبده) ف(رشيد رضا)، ولقد تشعّب الخطاب الإسلامي، ولم يعد من الممكن تصوُّره، وبخاصة حين ظهر حزب (الإخوان المسلمون) ودخل في النزاع على السُّلطة، وكرَّس على مصطلح (الحاكمية) و(دار الكفر)، وانشق منه دعاة متشدِّدون.

ولا يتعارض مع سمة (المصالحة) في فكر (محمد عبده) احترافه للسياسة، ونزوعه القومي، وانضمامه إلى (الحزب الوطني)، واشتراكه في (الثورة العرابية) ونفيه. لقد أحال (العقاد) ذلك كله إلى الحماس والنخوة الريفية وإلاّ فهو مستشعر للمصلحة الاجتماعية والسياسية التوافقية، ولهذا ذهب (العقاد) على طريقته في التحليل النفسي إلى التفريق بين (الإقدام) و(الاندفاع)، فهو مقدام يزن الأمور، وليس مندفعاً تحكمه الخفّة والطيش والعجلة.

فعندما نفي من موطنه كان مقداماً يواجه الاستعمار في عقر داره، ولبلورة فكره أصدر مع (الأفغاني) مجلة (العروة الوثقى). وقد تقصَّى (لويس عوض) تاريخها وأهميتها في حديثه عن تاريخ الفكر المصري الحديث، كما تناولها أكثر من دارس حركتهم أنساقهم الثقافية، ومجمل الأقوال تتجه صوب الهدف الأسمى للمجلة، وإن كان الغموض يكتنف مهمات (جمال الدين الأفغاني). ومن الصعوبة بمكان استخلاص الحق من بين ركام الصراع الفكري الذي لا يحترم المصداقية، وليس هناك أصعب على الباحث من الوقوف على حقيقة الدعوات الإصلاحية والاتجاهات الفكرية، لأنّ تاريخها ضائع بين المريد المزكي والمناوئ المجرِّح.

ولأنَّ اللقاء حول مئوية (عبده) ذا طابع أدبي فإنّ من الأفضل أن ننظر إلى إسهامات المصلح في بعث التراث الأدبي تحقيقاً ودراسة وتدريساً، مما يشي بإمكانياته الأدبية وتوظيفها في تحقيق المصالحة مع الخطابات المجايلة، فأهم مصادره اللغوية تحقيقه وشرحه ل(نهج البلاغة) وهو حافل بالنصوص الإبداعية المنسوبة ل(علي بن أبي طالب) رضي الله عنه، وسواءً صحّت النسبة أو لم تصح، فالكتاب نصٌّ أدبيٌّ زاخر بالموضوعات والحِكَم والمواعظ. و(مقامات بديع الزمان الهمذاني) و(المخصص) ل(ابن سيده)، و(أسرار البلاغة) و(دلائل الإعجاز) ل(الجرجاني)، وتلك من أمهات الكتب اللغوية والأدبية والبلاغية. ف(الجرجاني) يشكِّل منعطفاً أسلوبياً بتحريره البلاغة العربية من المعيارية الصارمة، وإن لم تثن المعياريين عن جمودهم.

وتلك الجهود التي لا ينهض بها إلاّ عالمٌ لغويٌّ متفرِّغ للتحقيق والدراسة الأدبية أسهمت في بلاغة خطابه وتأثيره، فهو قد وظّف هذه الإمكانيات لعمله الصحفي الذي مارسه بالاشتراك مع (جمال الدين الأفغاني). واهتمامه المتميِّز بالتراث اللغوي لم يحل دون اهتمام مماثل بالتراث الفلسفي والمنطقي. والاشتغال المتمكّن بالتراث اللغوي والفلسفي والمنطقي شكَّل أرضية صلبة قوية لممارسة مهماته الشاقة باقتدار.

و(محمد عبده) الذي ولد على مفترق الطرق تنازعته رغبات ومهمات، لم يكن قادراً على التحكُّم فيها ما لم يتسلَّح بسلاح العلم المفتوح على كلِّ المعارف، وما لم يصنع نفسه

على عين الحضارة المعاصرة، ليكون قادراً على مواجهة كلِّ التيارات والمذاهب. ونزعة المصالحة التي اختارها من بين عدَّة نزعات ليست سهلة المنال، إنّها خيار أصعب، فالمبادئ لا يمكن أن تكون مجالاً للأخذ والعطاء، ومتى أخطأ التقدير والتوقيت في أسلوب المصالحة مسّ المبادئ قرح لا برء منه، ومن تصوَّر أنّ المصالحة نوع من التنازلات فقد أخلَّ بالمفهوم وأخطأ في التصوُّر.

إنّ المصالحة إغراء للطرف الآخر كي يسمع كلام الله متمتعاً بالحق الإسلامي من الإجارة وإبلاغ المأمن، وهي نوع من التبليغ بالحكمة والموعظة الحسنة، ومتى أخلَّ المصلحون بمفهومها فقد وقعوا في الموبقات، واتصفوا بالمداهنة والركون إلى الذين ظلموا.

إنّ مصالحة كبار الدعاة تأليف للقلوب، وتمكين للدعوة من النفاذ، ولقد أدرك المشركون خطورة السماع للقرآن فتواصوا بعدم السماع، وحرضوا على اللغو أملاً في الغلبة. وما المصالحة إلاّ محاولة جادة لإسماع كلام الله. فهل يستطيع حملة مشاعل الحضارية الإسلامية اختراق فضاءات الآخر ببعث الطمأنينة في النفوس، وتفادي العنف والتطرُّف؟

إنّ عصرنا الدموي أحوج ما يكون إلى دعاة مصلحين يؤلفون بين القلوب، ويصلحون ذات البين، ويشتغلون في أصول الشريعة، ويتركون الخلافات الجانبية. وما كانت دعوة الرسل في أوج الجاهلية إلاّ لشهادة التوحيد، فإن هم أطاعوا لذلك بدأ الاشتغال فيما دونها، واستكمال متطلَّبات الدين في أول يوم مدعاة إلى التندر. ولقد قال أحد الساخرين: - كيف أقبل بدين يقطع رأس الذَّكَرِ عند الإسلام، ويقطع رأس البشر عند الخروج منه. يعني (الختان) و(حكم المرتد)، وما درى أنّ الختان من سنن الفطر السليمة، وأنّ العلماء يختلفون حول تحديد مفهوم الردّة وحول الحدّ الذي يستحقه. والقضايا الخلافية رحمة للأُمّة متى استطاع المصلحون التفاعل معها بحكمة وروية.

مرحلة التكتُّم والتكتُّل .. ! (١) [1]

لكلِّ شيء قانونه أو خَلقه الذي به ينضبط، ومن خلاله يبقى وينمو، ولا يند عن ذلك إلاّ المعجزات المؤيِّدة للرُّسل. والله قد ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠] فلا تبديل، ولا تحويل للسُّنن الكونية. والحياة بوصفها مجموعة أشياء وأحياء محكومة بالنظام الأزلي، ومن بادر شيئاً من أشيائها بدون قانونه ابتلعته، كما دوامات البحر. وسائر الحيوانات والموجودات: الحسِّيّة والمعنوية تحكمها القوانين، وتسيِّرها الأنساق والسِّياقات. ومن غرَّد خارجها، فكمن يسبح ضد التيار. والحراك الذي تشهده مسارح الحياة كافة، لا يَحكمه الخير المحض، ولا الشر المحض. وكم يكره الإنسان ما فيه الخير، أو يحب ما فيه الشر عن جهل منه، أو عن تَسرُّع، وكلٌّ ميسَّر لما خلق له.

وإذا كانت اللُّعب السياسية محكومة بقوانينها، فإنّ القضايا الفكرية هي الأخرى محكومة بأصولها وقواعدها وأحكامها القطعيّة أو الاحتمالية. والفقهاء قبل أن يخوضوا غمار النصوص، ضبطوا فعلهم بالقواعد والأصول، ومثلهم المفسِّرون والمحدثون وسائر المشتغلين بالعلوم الإنسانية أو بالمهارات الصناعية أو بالمكتشفات العلمية البحتة. و(نظرية التلقِّي) لها محققاتها، فالمتلقِّي يتوسَّل بالمنهجية والآلية، وخطّة العمل، لتساعده على استخلاص النتائج، وتحديد المفاهيم، وسنِّ الطرائق. وبتعدُّد المفاهيم تتعدّد المواقف،

---

(١) تاريخ المقال: ١١/ ٤/ ٢٠٠٦

وتتنوّع الملل والنِّحل والمذاهب، وتخلف نظريات المعرفة. وحتمية الاختلاف تستدعي التقريب والتسوية وتفادي الصّدام، ولا يعمِّق العصيان والتنازع إلاّ الذين هم أراذل القوم.

والإنسان الذي زجّ بنفسه في أتون الجدل، لا بدّ أن يتوفّر على قوانين القضايا وضوابطها، لكي يعرف متى يصدع بالحق، أو يسر به، ومتى يمارس التورية والقناع، ويستخدم الرمز، ومتى يتقي خصومه تقاة، أو يقدم بين يديْ نجواه صدقه، ومتى ينبذ إليهم على سواء. فالضّعف مع الحكمة قوة، والقوة مع الطيش ضعف.

ومن تصوَّر أنّ كلَّ مباح ممكن فقد عرَّض نفسه للانكسارات المؤلمة. والأصوليون يضعون ضوابط للمباح الممكن وغير الممكن. وإشكالية كثير من الكتبة الذين لا يتكتَّمون ولا يتكتَّلون أنّهم لا يفرّقون بين المحرَّم لذاته والممنوع لغيره، وهو ما يسمِّيه الأصوليون ب(المحرّم لغيره)، ولهذا حين تمنع السُّلطة التشريعية شيئا، لجلب مصلحة، أو لدرء مفسدة، أو لسدِّ ذريعة، كالتحفُّظ على (قيادة المرأة للسيارة)، يجأر البعض منهم، متوسِّلاً ب(فقه الأحكام)، ويعضدهم المحيلون إلى الحرِّية المطلقة كما هي في سائر الأنظمة الغربية، محتجين بأنّ الممنوع نظاماً ليس محرّماً شرعاً، وأنّ سقف الحرية تسلُّط لا سلطة، وفي ذلك خلط عجيب بين حقِّ السُّلطة وسلطان التشريع، وتغييب متعمّد ل(فقه الواقع) و(فقه الأولويات)، وحدود الحرِّيات. ومثل هذه المرافعات غير المحكومة تؤدِّي في النهاية إلى المجاهرة بالخلاف حول أوهام يظنُّها الخليون قضايا مهمّة، تستدعي التصدِّي والتحدِّي والصُّمود.

وكم أحسست أنّنا بحاجة ماسّة إلى مراجعة دقيقة لكلِّ القضايا المتداولة، وبحاجة إلى رصدٍ أدق للجدل القائم حول مجملها، وإلى محاولة التفريق بين قضايا الذات وقضايا الآخر، ومتعلّقات كلٍّ منها. وكم راعني ما ألقاه يوماً بعد يوم لدى مجموعة من الشباب الذين تنقصهم الخبرة، وتعوزهم المعرفة، وتشط بهم المثاليات، حتى لكأنّهم غرباء. ولقد أدركت أنّ المؤشرات تنذر بالخطر، فالطَّرح العنيف، والتساؤل المخيف يدلاّن على أنّ مثل هذه الذهنيات المتحفّزة لكلِّ جديد مخترقة من فئات الغلو والتطرُّف، ومن ذوي النوازع المشبوهة، وأساطين اللُّعب الدنيئة.

ومن عادتي منح المتوتِّرين منهم الثقة والاطمئنان، ودفعهم إلى كشف منطوياتهم والبوح بمعاناتهم، ولو عن طريق الأسئلة المكتوبة، وكلّما أوغلوا في البوح، قطعت بأنّ الاختراق منظم وفاعل، وأنّنا نفرط بمن استرعانا الله عليهم، أو نغفل عنهم، ليكونوا لقمة سائغة للمضلِّين.

ومن رعى غنماً في أرض مسْبَعة

ونام عنها تولى رعيها الأسد

وإذا وقعت الواقعة، أقبل بعضنا على بعض بالتلاوم، وأوسعناهم سبّاً واتهاماً، ولمَّا نفكر بالخلايا الخفيّة التي نسمِّيها تجوزاً بالنائمة، وما هي إلاّ المتربّصة والمتصيِّدة لفلول الشباب، الذين يبيتون على الطوى، ثم يفتحون عيونهم وعقولهم على القول ونقيضه من كتبة لا يراعون مقتضى الحال. والنُّخبة حين تستدبر هذه الفئات التي تشكِّل مشروع فتنة عمياء، وتشتغل عنهم بالجدل العقيم حول قضايا ثانوية وغير ملحّة، تمكِّن المتربِّصين من التفرُّغ لهذه الأراضي البور، واستنباتها بما يهلكها لا بما يحييها، وذلك بشحن عواطف الشباب، وتأزيم مشاعرهم، وتضليل أفكارهم، وإغرائهم بالتدافع إلى حلبات المصارعة الفكرية.

وهذا الصراع العقيم يحقق للأعداء مكاسب متعدِّدة، فهو من جهة يفرق الكلمة، ويشتِّت الشمل، ويغرس الضغائن في النفوس، ويُحرض على التدابر. وهو من جهة

أخرى يشغل المتفقِّهين عن احتواء طلائع الشباب المهيأ للتكيُّف كما عجينة الصلصال، وهو من جهة ثالثة يلهي المقتدرين عن حماية أجوائهم الفكرية من الاختراقات. وفوق ذلك كلّه فإنّ مراكز المعلومات العالمية ترصد كلَّ هذا اللّغط الفارغ، وتحسبه مشاريع فكرية تهدِّد مصالح الأقوياء، ولا تتردّد الدول المستبدّة من تغذية إعلامها بنتائج الرَّصد والتحليل، لتفتّ في عضد الأُمّة، كلّما وقفت للدفاع المشروع عن قضاياها المنتهَكة. وفي ظل هذه الظروف العصبية يتحتَّم الجنوح إلى المواقف الاستثنائية، وليس هناك أهم من التكتُّم والتكتُّل.

لقد ريع (هتلر) حين وظَّف خصومُه خطابَه الإعلامي الدعائي لمعرفة عدّته وعتاده، وتصوَّر أنّه مخترق بالجاسوسية، وما درى أنّه مخترق بما يتداوله كتّاب بلاده. ونحن بممارساتنا الكتابية المتوسّلة بالحرية والشفافية نموضع ذواتنا وأشياءنا، فالقنوات، والمطبوعات، والمواقع لا تحقِّق وجودها، إلاّ بالنّفاذ إلى أشيائنا واتخاذها مجالاً للعلك الرخيص. وفي ظل العُجب والعزّة والأنفة لا استبعد التحفُّظ على مثل هذه الدعوة ووصفها بالغرائبية، وبخاصة ممن لا يرقب المشهد عن قرب، وكم من برم يردِّد: - (ويل للشجي من الخلي) و(ذو العقل يشقى في النعيم بعقله)، فالذين في آذانهم وقر، وعلى أبصارهم غشاوة، يتصوَّرون أنّ الوضع سمن على عسل، وأنّ هذا الصّخب الفاضح عبر الإعلام والمواقع إن هو إلاّ أخذ بأطراف الأحاديث التي تطرد الملل، وتقتل الوقت، على حد:

(فلما قضينا من منى كل حاجة) وما هو في بعض أحواله إلاّ كمن يلعب في أرض ملغمة. فالرّاصد الواعي لما يجري، يرى أنّ الأمر مختلف جداً، فالتلاسن يفشي الأسرار المفيدة للمناوئ، ولاسيما إذا جعلنا من الوقوعات الفردية ظواهر عامة، واعتمدنا الإطلاقات المعمِّمة، والمواقف الحدِّية، ومصادرة حق المخالف في إطار الاختلاف المعتبر. إنّ كلَّ متحدِّث عن المرأة - على سبيل المثال - لا يجد حرجاً من القول: إنّها النصف المعطَّل، والشريك المهمَّش، والإنسان المضطهد، وما هي كذلك، ولكنّها الإطلاقات المسجّلة لحساب الأعداء المتربِّصين. وأمام تلك المفتريات، زاد الضغط علينا من سائر المنظمات العالمية، الأمر الذي ضعف معه الأطر، وخفَّت معه المتابعة. والمختلفون حول سائر القضايا، ينتهبون الخطى وراء سراب القيعان. ولما لم يكن هناك رغبة عند الغثائيين في التصوُّر السليم، والاشتغال في القواسم المشتركة، والتعاذر والتعايش، فإنّ واجب الناصحين محاولة التهدئة، وتلطيف الأجواء، وفك الاشتباك، والتحذير من مغبَّة التفرُّق.

إنّ المتابع لما يحدث، يدرك أنّ الشّقاق على أشدِّه حول قضايا ربما تكون وهمية. والقرآن الكريم أوصى بالإصلاح بين الطوائف المؤمنة، وأمر بحسم الموقف متى بغت إحدى الطائفتين على الأخرى، وليس شرطاً أن يكون الحسم بالقتال، إنّ هناك خيارات متعدِّدة، وواجب أهل الحل والعقد الأخذ بأيسرها، فالرِّفق واللِّين والتيسير والعفو والصَّفح من المقاصد الإسلامية، ومتى حسن الظن، وسلمت النوايا، تلاشت المشاكل، وأمكن التقارب. فهل نحن قادرون على ممارسة الأسلوب الحضاري الأمثل للتوفُّر على التكتُّم والتكتُّل المنقذين في زمن تداعت على أُمّتنا العربية والإسلامية أمم الأرض القوية؟

إنّه زمن عصيب، لا يحتمل انكشاف الساحة، وإفشاء أسرارها. إنّنا مطالبون بالاعتصام، وعدم التفرُّق في سائر الأحوال، فكيف إذا كانت الأوضاع قاب قوسين أو أدنى من المهاوي السحيقة. ومهما تفاءلنا وأحسنّا الظن بأنفسنا، وحَسِب الخليون أنّنا قادرون على رأب الصدع، وجمع الكلمة متى شئنا بالرّكون إلى قوة الاحتمال، فإنّ من المتوقَّع أن تضعف المناعة، وبخاصة حين تكثر العوارض التي نحرضها بأنفسنا، مما

يجعل الكيان عرضة للتأثُّر. وليس من حسن التدبير والتقدير أن نقيم رهاننا على الإمكانيات الآنية، ظنًّا منّا أنها لا تخضع لعوارض التبدُّل والتحوُّل.

ومن الحصافة والرّصانة، ونحن نشاهد القوم صرعى، أن نقوِّم المواقف، وأن نتّعظ بمن حولنا، فلسنا بدعاً من الأمم، وليس بيننا وبين الله عهد، وإنّما الجزاء من جنس العمل، والله لا يغيِّر ما بقوم حتى يغيِّروا ما بأنفسهم، ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ [الرعد: ١١]، ولن نهتدي إلى طرق الخلاص إلاّ إذا عرفنا قدر أنفسنا، وقدَّرنا الواقع قدرة. فالمجتمعات السوية تنشد الوئام، وتنبذ الخلاف، وتُؤثر ولا تستأثر، وتستمع إلى القول، وتتبع أحسنه، ولنا في التكتُّلات (الأوروبية) والإقليمية أسوة:-

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسراً

وإذا افترقن تكسرت أفرادا

ومع كلِّ الاستجابات الطوعية أو التطويعية، فإنّ الخلاص لن يتأتّى إلاّ بتوفيق الله ومشيئته ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، ومشيئة الله لا تمنع من العمل، فالتوكُّل غير الاتِّكال، وكلٌّ يعمل على شاكلته، ولما لم تكن الدولة من أصحاب النوايا السيئة والمغامرات الطائشة، ولما تقترف من الأعمال ما نتوقّع انعكاسه عليها، فإنّ الضلوع في كشف المخبوء والمصير إلى التفرُّق المعلَن على الملأ في الأداء والمواقف والتصوُّرات مدعاة إلى نفاذ الأيدي العابثة. وها نحن وعلى ضوء ما نتداول نفتح شهيّة الآخر بالمطالبة ب(حقوق المرأة) و(حقوق الإنسان) و(تعديل المناهج) والقفز في الإصلاح، وكأنّنا أمة (تيمية)، فمن الذي أعطى أولئك الوثائق المزّيفة، ومكّنهم من التلويح بها في المحافل الدولية.

لقد استشْرت شهوة القيل والقال، وتعمَّقت هوّة الخلاف، وانصرف حديث المختلفين من الموضوعي إلى الشخصي، ومن البحث عن الحق إلى التأكيد على الانتصار. وهذه الممارسات تشغل عن المهام الجسام، وحين تصاب المشاهد بحالة من تشتُّت الجهد والوقت، تصاب الأُمّة بالإنهاك والعجز عن ممارسة وظائفها الرئيسة، وقد تفتح على نفسها أكثر من ثغرة، وتمكِّن أعداءها من جمع أكبر قدر من المعلومات الموهنة.

مرحلة التكتُّم والتكتُّل .. ! (٢) [(١)]

والدعوة إلى التكتُّم، لا تعني الخفاء الغنوصي، ولا تعطيل الأفكار، ولا تمنع من المشاطرة في المهام الجسام، وتمحيص القضايا، والتخوُّل بالنصيحة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فـ(الدين النصيحة)، وما لعن الكفرة من بني إسرائيل إلاّ لعدم تناهيهم عن المنكرات. إنّ ما ندعو إليه قضاء الحوائج بالكتمان، والتعامل مع الظروف بما يناسبها، وبروح الفريق الواحد، إنّه نوع من ترك المراء فعند (أبي داود): - «**أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً**»، فكيف إذا لم يكن محقاً، أو كان الحق مشتركاً، والاختلاف معتبراً. إنّه الانتصار على الهوى، والانحناء للريح. ومن المسلّمات أنّ لكلِّ دولة أسرارها وقضاياها التي لا يُسمح بتداولها، ولا تسريب المعلومات عنها. حتى الدول الغربية التي تركن إلى (الديموقراطية) لديها سقفها وخطوطها الحمراء، وإعلامها مسيَّر، وليس مخيّراً. والدين الإسلامي في القضايا المصيرية يحثُّ على التآلف والتكاتف والانضباط، ولقد كان رسول الله ﷺ يمارس التورية في بعض أعماله الحربية، وأمين سرِّه (حذيفة بن اليمان).

وذهاب كلِّ عالم أو مفكِّر أو كاتب مبتدئ بما يرى، وإعلان الاختلاف والشّحناء حول القضايا المصيرية، والإلحاح في إشاعة المستور عبر الصُّحف والقنوات والمواقع، وتضخيم الوقوعات المتوقّعة، دليل على غمط الحق، وتغليب الانتصار عليه، والجنوح إلى الفوضوية. وقد لا يكون ذلك من باب الصّدع بالمأمور به. والمستفيض أنّ المشاهد كلّها تعجُّ بالمناكفات، وهذا من الظواهر السلبية. والذين يصدعون بآرائهم قبل نضجها، ولا يتيحون لأنفسهم فرصة للاستشارة والاستخارة والتأمُّل، وتفهُّم الآراء الأخرى، ولا يتحسّسون عمّا يترتّب على المجاهرة بالاختلاف، يكونون كما الفتن التي لا تصيبنَّ الذين ظلموا خاصة. وهل أحد يجهل ما تعانيه البلاد من أخطاء الغير في بقاع العالم العربي؟، والمسيء أنّ اختلافنا مشَرْعن بحب الوطن، وما سيء وجهه إلاّ بالتقدير الخاطئ، والتوقيت السيئ، وتهافت الفارغين على قضايا الوطن المصيرية.

وسمات المشاهد العربية المرتبكة أمام طوفان الطوارئ الإصرار والعناد واللّجاجة والتعالم، والتهوين من شأن القطب الواحد المهيمن بقوّته وتعمُّد استفزازه، وتبادل الاتهامات، والضلوع في التصفيات، وتحميل الأقوال والأفعال ما لا تحتمل، وتحويل الوقوعات الفردية إلى ظواهر اجتماعية يخوِّفون بها الرأي العام، ويحرِّضون بها الأعداء، وتلك الأخلاقيات لا تفرز إلاّ الوهن، وتمكين المناوئين من اختراق الأجواء، وتحريض بعضنا على بعض، واستثمار نقاط الضعف.

وذوو الألباب الناصحون المتمرِّسون في الأمور يلبسون لكلِّ زمان لبوسه، ولا يستغلِّون الإمكانيات للشُّهرة الزائفة، والكسب الرخيص. فما يُقال في وقت الرخاء، يختلف عما يُقال في وقت الشدّة. والأُمّة العربية المحكومة بسياق ضعيف متفكِّك يعتمد في قوَّته وقوتِه على غيره، لا يسوغ لنخبها أن تكشف كلّ أوراقها، ولا أن تقول ما يخيف الآخر، ويحفزه على الترصُّد والكيد. ومن مصلحة الأُمّة وإن كانت قوية أن تجنح للسِّلم، وأن تختار الوفاق على الشّقاق، وإذا كانت متمكِّنة من الحصول على حاجتها بالتي هي أحسن، فإنّ من الرعونة أن تمارس الغطرسة والتباهي واستعراض العضلات.

ولعلّنا نضرب الأمثال بما يعيشه العالم اليوم من حروب غير معلنة، ومن مقاومة عنيفة، يندسُّ فيها من له حسابات معلّقة. و(أمريكا) الأقوى والأعلم بظاهر الحياة والمدارة

---

(١) تاريخ المقال: ١٨/ ٤/ ٢٠٠٦

بمؤسسات دستورية وتشريعية وتنفيذية مستقلّة، تمرُّ بحالات من الإحباطات والنّكسات، وهي قد مرّت بما هو أدهى وأمر في (فيتنام)، وهي قد تلقّت ضربات مؤلمة في (الصومال) و(لبنان)، وكلُّ ذلك ناتج عطرسة القوة والإخفاق في سياسة القطب الواحد. ولو أنّها تركت عصاها معلّقة، حيث يراها المناهضون، لكان خيراً لها وللعالم أجمع. والكلمة والرّصاصة صنوان، فمن لا يحسن استخدامهما، يكون كمن يضع السيف في موضع النّدى.

إنّ لغة التعالي والاستفزاز تتطلّب ثمناً باهظاً، مع أنّها لن تحقِّق من المكاسب ما تحقّقه لغة اللّين والتلطُّف والتكتُّم. والذين لا يعرفون إلاّ تبادل الاتهامات يفوّتون على أُمّتهم فرصاً كثيرة. والفظاظة والغلظة مؤذنة بالتخلّي والفرار، ذلك على مستوى الرُّسل المؤيّدين من الله وا لمعصومين من الناس، فكيف إذا جاءت تلك الممارسات من كاتب غير عارف ولا معروف، وبخاصة حين يحفل بالشّقاق وسوء الأخْلاق، والإصرار على الرأي، والإلحاح في نبش المسكوت عنه، وترويج رأي المعادي فينا.

وتداول القضايا بأنكر الأصوات، يضع الأُمّة تحت دائرة الضوء، ويثير حولها التساؤلات. وصِدقُ الخطاب ومشروعيّته لا يكفيان لمشروعيّة المجاهرة بالهنّات واللّمم، والغايات لا تبرِّر الوسائل. والسياسة (الميكافيلية) تحتاج إلى أجواء ملائمة، تمكِّنها من فرض إرادتها، وفي الحديث: - «**كلُّ أمتي معافى إلاّ المجاهرون**»، وبدوُّ صفحة الخطيئة تؤكّد المساءلة، ولكلِّ حدث حديث، حتى الفتيا تختلف باختلاف الأزمنة، والأمكنة والأحوال. والرسول ﷺ كان يتخوّل أصحابه بالموعظة، ويقول: «**إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم**» والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، ويقول: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ويقول: ﴿الآنَ خَفَّفَ اللّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ [الأنفال: ٦٦]، ومشروعيّة المجاهرة في المشاهد تحتاج إلى أجواء وإجراءات ومقدِّمات ملائمة، وكيف لا نهتم بالمقدِّمات المهيِّئة والمقنعة، والله يقول لرسوله: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] .

والمجاهرة بالخلاف، مؤذن بتفرُّق كلمتنا، وارتباك صفوفنا، وتعدُّد أهدافنا. وارتفاع نبرة الاستعداء ونعرته في زمن التداعي والغثائية محقِّق للتخلُّف. وما دعاؤنا للتكتُّم والتكتُّل إلاّ من باب مراجعة الحساب، والتحرُّف لخطاب ملائم للمرحلة العصيبة التي تمرُّ بها أمّتنا العربية والإسلامية. وإذا لم نكن في معزل من أحداث منطقتنا العسكرية والفكرية، فإنّ من واجبنا أن نرتِّب أمورنا، بحيث لا نكون نشزاً في سياقنا العربي والعالمي.

والتكتُّم والتكتُّل مرحلة (تكتيكية) وليست مقتضى (استراتيجياً) ذلك أنّ الاختلاف قضية أزلية، ولا حياة سوية بدون الاختلاف في وجهات النظر، وكيف يكون الوفاق وتصرُّف الإنسان محكوم بمفهومه ومعلومه، فهو رهين المحبسين: فهمه الأشياء، وخلفيته الثقافية. ونظراً لاختلاف المفاهيم توسّل العلماء والمفكِّرون بمنهج التأويل للخلاص من سُلطة النص القطعي. فالقارئ يدخل عوامل النص، وهو محكوم برؤيته ومفهومه وثقافته، وقد تستفحل عنده المذهبية والإعجاب بالرأي، بحيث تتحكَّم بإمكانياته، وتوجّهه صوب التبرير والتعذير. وحين لا نتوقع وئاماً نهائياً، لا تعقبه أعاصير الاختلاف، نتطلَّع إلى التفكير الجاد بالواقع، ومدى احتماله لمزيد من الصراع، ونود استصحاب حسن الظن، وعدم التشكيك في النوايا، والإبقاء على جسور التواصل، والجنوح إلى الإقناع

والاستمالة، والمصير إلى التعادلية في احتمال الصواب والخطأ، إلاّ مع النص القطعي الثبوت والدلالة، وهو البرهان المخوّل للخروج على السُّلطة.

إنّ المرحلة المُعاشة بحاجة ماسة إلى تهيئة الأنفس الأمَّارة القلقة للقبول بالتكتُّم والتكتُّل، ولو إلى حين، وبخاصة في زمن يكون فيه الاختلاف مطلب الأعداء، ويكون اختراق الأجواء، وانتهاك السيادة، والحيلولة دون تقرير المصير من ظواهر المرحلة المعقّدة، مرحلة القطب الواحد، والإرادة المدعومة بالقوّة، والتي لم يَعُد معها مجال للمراجعة، ولا للمساءلة. في هذه الأجواء يكون من واجب المستهدف الضعيف أن يتحوّل من (الاستراتيجية) الباذخة إلى (التكتيك) القنوع. وليس من الحصافة ولا من الرَّصانة أن يكون الخيار واحداً، والطريق واحداً يحمل الكافة عليه كما القطيع. والذين يرفعون أصواتهم فوق صوت الحكمة والتروِّي يتحوّلون إلى عدو وحزن.

والتكتُّل الذي ننشده من العلماء والمفكِّرين والخطباء والكتّاب والمؤلِّفين، لا يمتد إلى إلغاء الذات، والتسليم للمخالف وتعطيل العقل ومنع الاجتهاد، وإنّما هو الخيار بين ضياع الكل، والإبقاء على القدر الممكن. والدول الأكثر تحضُّراً حين تبدو أمامها مؤشرات الانتهاك والاحتناك، تفكِّر في توحيد خطابها المؤدِّي إلى وحدة الصف والهدف، والعمل ضمن القواسم المشتركة، وتأجيل الملفّات الحساسة، ولا سيما إذا كان المصير مشتركاً، ولقد كان الرسول ﷺ معلِّماً ناصحاً، حين ضرب المثل بالمستهمين على السفينة، وركّز على ضرورة الأخذ على يد المجازفين. إنّ التحسُّس عن الأوضاع وجسَّ النبض يعطيان مؤشرات مخيفة للمخيفين فضلاً عن الخائفين. والمصير إلى التكتُّم والتكتُّل هو الخيار الوحيد لمرحلة الرَّصد والترصُّد، يُقال ذلك بالنسبة للدول المتجاورة والمتجانسة، ويُقال مثله للأطياف داخل المنظومة السياسية الواحدة، إنّه خيار المرحلة، ومن لم يقوِّم المواقف، ويمارس النّقد الذاتي، غير هياب، ولا وجل، يكون كباسط كفّيه على الماء ليبلغ فاه، وما هو ببالغه.

والقول بالتكتُّم والتكتُّل لا يشرعن الركون والمداهنة، ولا يغري بالتخلِّي عن الثوابت، ولا التنكر لمحقِّقات الحضارة. والذين يصدعون برويتهم الحدية، ثم لا يستحضرون (فقه الواقع)، ولا يقيمون وزناً ل(فقه الأولويات)، ويجعلون مناطهم (فقه الأحكام) المعزول عن سياقه، يتجمّدون عند خطاب يعطي أحكاماً، ولا يرسم حلولاً، وتلك الطائفة فوّتت على نفسها تسامح الإسلام وانفتاحه، وأخذت بالحدِّية الصارمة، وفي المقابل فوّتت طائفة أخرى على نفسها ضوابط الإسلام بالتمييع لحدوده والتلميع لخصومه، وكلتا الطائفتين عمّقتا المراء حول بدهيات ونصوص حمالة، كما نص (لا يصلين أحدكم العصر إلاّ في بني قريظة) ومع أنّ حياة الأُمّة لا تستقر إلاّ على علم الفقه بكلِّ أنواعه: (الحكمي) و(الواقعي) و(الأولوي) فإنّ التفريط بشيء من ذلك مؤذن بتخلُّف مريع عن ركب الحضارة. والمراهنون على حتمية الاختلاف لا يضعون قيمة للقدر المسموح به، ولا يستحضرون الظروف غير الملائمة، ولا يتوفّرون على منهجه وآليته ولغته، ولا يحتملون المخالف، مع أنّ إبلاغ المشرك مأمنه مقتضى إسلامي.

ولست أشك بأنّ الذين يعدُّون الاختلاف نوعاً من الرياضة الفكرية، والحضور الفاعل سيسخرون من مثل هذه الرؤى التوفيقية، بحجّة أنّ العصر لم يَعُد قابلاً لمزيد من التنازلات عن وجهات النظر، وأنّ القضايا لا يمكن أن تنضج إلاّ بتفرُّق وجهات النظر، وتبادل الاتهامات. ومع مشروعية بعض هذه الحيثيات فإنّ الوقت وإفرازاته لا يحتملان مزيداً من الفرقة ونشر الغسيل، ولا سيما أنّ طائفة من قضايا الاختلاف المثارة لا تشكِّل معوقاً لمسيرة الحياة السوية، وفق ظروفها المعاشة، وإمكانياتها المتاحة، وبالإمكان رفع ملفّاتها إلى حين. والدعوة إلى التهدئة في ظل قسوة الظروف أفضل من تصعيد الخلاف،

وإذا كانت السُّلطة قادرة على إدارة دقّة الاختلاف، والتحكُّم فيه فإنّ تبادل الاتهام في النهاية رسائل حسّاسة، تقع في يد الخصوم، وملفّات ساخنة تفتح في ساعة العسرة، وبخاصة أنّ المستفيدين من اختلافنا لا يفتؤون يصدقون الاتهامات.

ولو نظرنا إلى المشاهد المحدودة داخل المنظومة الواحدة، لوجدنا نبرة التنابز والتنافي متنامية، والصراع على أشدّه حول قضايا إن لم تكن وهميّة فإنّها هامشية، والمرجفون لا يتثبّتون، والمشيعون لا يبالون بأيِّ واد هلكت مصالح الأُمّة، والخطاب المناوئ يستفحل في ظلِّ الضعف والتفكُّك، حتى لا يدع فرصة تفوته، فهو دائب البحث في بؤر التوتُّر، ومغرم بفتح الملفّات الحسّاسة، وليس أدلّ على ذلك من استدعاء ملفّات (المناهج) و(الحقوق) و(الإصلاح) و(المجتمع المدني) بمفهومه الغربي إضافة إلى ملف مهترئ منذ مئات السنين، وهو (ملف المرأة)، والذين يصطرعون حول قضاياها هم الأكثر تمسُّكاً بما هو في نظر التحرُّريين مصادرة لحقوقها. إنّ استلال الوقوعات الخاصة من سياقاتها، والنّفخ فيها، تضخيم غير مبرر، وتمكين للأعداء من رقاب الأُمّة، ومواجهة الوقوعات والظواهر لا يستقيم أمرها إلاّ من خلال مؤسسات مسؤولة. إنّ استدعاء القرار في البيوت، وعدم التبرُّج والاختلاط، وهو قول ربَّاني، لا يعني حرمان المرأة من التعلُّم والعمل والتجارة.

قد يبادر البعض إلى القول بأنّ الحراك الفكري لا تتجلّى مسائله إلاّ بالاختلاف، والحق أقول: إنّ الاختلاف غير الاتهام والاستعداء والتشكيك في المقاصد. والجدل الإيجابي لا يكون إلاّ بالتي هي أحسن، وفي ظروف مواتية لا تكون فيه الأُمّة مستهدفة في أمنها واستقرارها واقتصادها. وتماسك الجبهة الداخلية، وكونها ظهيراً للمؤسسات الفاعلة، مدعاة إلى حماية الأُمّة من الأعاصير الهوجاء التي تعصف من كلِّ جانب. فهل نقبل باستراحة المحارب، ونكتفي بالاشتغال في القواسم المشتركة، إلى حين انقشاع الغمّة، وعودة الحياة إلى وضعها الطبيعي. إنّنا بحاجة إلى حسن الظن، والتماس العذر للمخالف، حتى يتبيّن لنا عناده وإصراره على الحنث العظيم، وعندئذ نجنح لأهون الضررين. أحسب أنّ الحلّ الأمثل يكمن في التكتُّم والتكتُّل.

علو في الحياة وفي الممات .. !![1]

شـــاهدت يـــوم الحشـــر يـــوم وفاتـــه

شـــاهدت يـــوم الحشـــر يـــوم وفاتـــه

وكثرة المصلين والتابعين من المبشرات.

فالناس شهود الله في أرضه، أوجب مدحهم، كما أوجب قدحهم.

وكان الموعد يوم الجنائز، والسعيد السعيد من إذا غاب شخصه قام ذكره أكثر إشراقاً، وأنصع بياضاً. ونعم العبد أبو سليمان، إنه الحفي بجلائل الأعمال التي تموت بموته، وتحيا بحياته.

لقد ودّع القصيم ابنه البار، الذي نذر نفسه وماله لوطنه ومواطنيه وقادته، وأي محمدة تسامي قول المعروف، والإحسان إلى الناس، والإصلاح بين الفرقاء، وكأني بكل تابع لنعشه يردد: (يا موت ما أبقيت لي أحداً). يقولها الأباعد السامعون بمآثره، والأقارب المنتفعون من فيوض إحسانه، وستبكيه كل الأطياف، وينتحب عليه كل ذوي الحاجات. فقراء فك غوائل الجوع عنهم، فأنساهم ويلاته. وأيتام زغب الحواصل، كفلهم فكان لهم كالآباء والأمهات، يمسح على رؤوسهم الحاسرة، ويملأ بطونهم الخاوية، ومساكين شد من أزرهم، حتى استقامت لهم الحياة، ومصابون جبر مصابهم، وبلسم جراحهم، حتى نسوا المعاناة. فكان الآسي والمواسي والمتوجع، ولا قيمة لحياة لا يكون فيها المقتدر بماله أو بجاهه المنعم المتفضل.

لقد ترك برحيله فراغاً سيعيشه الموسرون قبل المعسرين، والأقوياء قبل الضعفاء، والمواطنون قبل المقيمين، ومن ذا الذي جمعت فيه خصال المؤمنين الذين يمشون على الأرض هوناً، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً. وكيف لا يترك موته فراغاً، وهو السبّاق إلى مكارم الأخلاق.

فجأ الموت أبا سليمان (صالح بن عبد الله السلمان) وهو يدير الأعمال، ويدبر الأموال التي سخرها لأهله وعشيرته، وأنفقها دون إسراف ولا تقتير. وموت الفجأة غنيمة للمؤمن، وحسرة على الكافر، وبموت مثله تموت سجايا حميدة.

لقد كان كريماً لا تكدره الدلاء.

ووفياً لا يند عن الوفاء.

وصديقاً صدوقاً يتفقد الأصدقاء.

ما خف قومه إلى مكرمة إلا كان في المقدمة.

وما مُدّت الأيدي إلى المغانم إلا كان في المؤخرة.

وما اثاقلوا عن مهمة إلا كان المستنهض للهمم.

وما ترددوا في أمر إلا كان العازم المتوكل.

أحبه الأمراء، والكبراء، والعامة، والدهماء، نسي نفسه في خدمتهم فذكروه في مجالسهم، وأشقى نفسه في حاجاتهم فأسعدوه بثنائهم.

كان حاضراً في الجمعيات الخيرية، والجماعات العلمية، وأصدقاء المرضى، وسائر الأعمال الجماعية، يمدها بماله ووجاهته، وكان شاهداً في كل المهمات، يشد أزرها بالقول السديد والعمل الرشيد. يسعى في حاجة الأرملة واليتيم، ويطعم البائس الفقير لوجه الله، لا يريد منهم جزاءً ولا شكوراً.

---

(١) تاريخ المقال: ٢١/ ٤/ ٢٠٠٦

كل المحامد فيه سجية، تجري كما الريح الرخاء.

كان مشرَّع الأبواب لذوي المآرب، تدار في بيته مصالح البلاد والعباد، ويمرح في مزارعه الرجال والركبان، يتزود من ألبانها القانع والمعتر. لا يمل من فعل الخير، وكأنه خلق ليكون كريماً، فهو يحسب الكرم خِلقة في الأيدي، كما الملحية التي (تحسب الدمع خِلقةً في المآقي).

كان في مطلع حياته فقيراً، ذاق مرارة الفقر فلم ييأس. وكان في عنفوان كهولته غنياً، ذاق لذة النعيم، فلم يطغَ أن رآه استغنى.

وكان مريضاً تغمره الأجهزة الطبية يوم أن فاجأته النوبة الأولى فلم يجزع، وتلك خلال جمعها الله له، فكان الصابر في البأساء، والشاكر في الضراء. نحسبه كذلك، ولا نزكي على الله أحداً.

كان صديقاً عزيزاً، عرفته عن قرب، وصحبته في أسفاره ورحلاته، ووقفت على خصال لا يعرفها إلا رفقة السفر، وما سمي السفر سفراً إلا لأنه يسفر عن وجوه الرجال. لقد كان بما أنعم الله عليه جديراً بالتأمّر على رفقته، ولكنه كما الصحابي الذي يشترط في سفره أن يكون المؤذن والخادم، لقد كان طيبا في المعشر، نقي المخبر، دمث الخلق، صافي السريرة، يؤثر ولا يستأثر.

ويوم أن فجأنا موته، كنا على موعد للرحيل إلى مشارف الرياض، لحضور احتفالية بعض أبناء بريدة بشفائه، إذ ما كنا متوقعين فراقه في زمن هو أحوج ما يكون إلى مثله في بذله السخي وأدائه الوفي.

كان في السادسة من مساء يوم الأربعاء ٢١-٣-١٤٢٧هـ يهاتف أصحابه لترتيب الرحلة، وفي السادسة والنصف فاجأته النوبة القلبية الثانية، وفي السابعة والنصف كان في عداد الأموات، فهل من مدكر؟

رحم الله أبا سليمان رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته، وجبر مصاب أهله وذويه وأصدقائه الذين كان لهم حبل الاعتصام، وليس من السهل أن تفارقنا، ولكننا بالتأبي كمن يغالب المستحيل.

والـــنفس إن رضـــيت بـــذلك أو أبـــت

منقـــــــــادة بأزِمّـــــــــــة المقـــــــــدار

النقد الأدبي في المملكة: قضايا وإشكالات .. ! (١)

لم أكن حفياً بالعودة إلى القواعد القديمة، وإن كنت مسكوناً ببقاياها:

وذو الشـــــوق القـــــديم وإن تعـــــزَّى
مشـــــوق حـــــين يلقـــــى العاشـــــقينا

وذو الشأن المتقصي لحراك المشاهد الإبداعي في الوطن العربي، يجده مستباحاً بالأدلجة العنيفة، والتسييس الأعنف، وتجريب التخريب.

والنقاد المرابطون على ثغور الأدب الخالص، ألقوا أقلامهم، وانفضوا من حول الإبداع القولي، بحثاً عن مواقع مغرية، والذين لم يستجيبوا لمشاهد السياسة والفكر، قتَّلوا أبناء النقد، واستحيوا نساء الثقافة، وخصَوا ذكورية اللغة، وتلقوا ركبان المستجدات. ولأن مشاهدنا لا تقول إلا معاداً أو معاراً، فإنها تهيئ نفسها لاستقبال (النقد المعرفي) أو ما يسمى ب(اللغويات المعرفية)، وهو لون من المناهج النقدية، التي تتقصى معارف النص. وإذ لم نصبر على طعام واحد، كانت كل المذاهب حِلاًّ لبني يعرب.

والمؤرخون للحركة النقدية، يكادون يتفقون على مرحلة الريادة ومنطلقها ورموزها وسماتها واهتماماتها، فلقد أجمعوا أو كادوا على انطلاق الريادة من (الحجاز) قبل ثمانية عقود أو تزيد على يد (محمد سرور الصبان) وقد أخذت وضعها الطبيعي بعد التواصل مع الحركات النقدية في مصر والشام والعراق، ولربما كان صراع المدرستين: (الديوان) و(أبوللو) في الثلاثينيات من القرن العشرين المثيرّ الأقوى لحركة التأسيس النقدي على يد المنهجيين.

وفي مقدمتهم (عبد الله عبد الجبار)، والمجددين وعلى رأسهم (محمد حسن عواد)، والمؤرخين ومنهم (الساسي) و(بن إدريس)، والدارسين المفسرين ك(الشامخ)، والانطباعيين ك(أبي مدين) و(الفلالي) وآخرين واكبوا تلك الأجيال، أو جاءوا من بعدهم، وبخاصة الأكاديميين، وأبرزهم (أبو داهش) و(ابن حسين) و(باقازي) و(الرشيد) و(الفوزان) و(الحامد) و(الحارثي)، أما في العقدين الأخيرين فقد انطلقت الحركة النقدية في كل الاتجاهات، وتعالقت مع كل المستجدات، حتى لا تجد ناقدين على قلب رجل واحد.

ومثلما مرت الحركات النقدية في الوطن العربي بتحولات متلاحقة، تعرضت الحركة النقدية في المملكة لذات التحول، والفرق في (الوعي) و(التأصيل) و(الاستبانة) و(القدرة على الفهم الدقيق) و(التحكم القوي).

لقد تنوعت الاهتمامات، وتعددت المعارك، واختلفت السمات، فمن نقد أكاديمي تمثل بالمحاضرات والأطروحات، إلى نقد صحفي تجسد بالتطبيق والتنظير، واتسم بالانتقائية والفئوية، إلى نقد معياري استمد لحمته من مناهج الدراسات اللغوية في الغرب، ك(البنيوية) و(التقويضية) و(التحويلية) وعُرفت من بعد (النصوصيةُ) و(الألسنيةُ) و(النقدُ اللغوي)، وهي مناهج تعلي من شأن اللغة، وتُفضلها على سائر الأشكال والفنون والمعاني.

وواكب تلك التيارات اتجاهات موضوعية وأخلاقية وفنية، ولم يخل أي تيار من مؤصلين ومقلدين وأدعياء فارغين.

---

(١) تاريخ المقال: ٢٥/ ٤/ ٢٠٠٦

وجاء الحداثويون يخلطون الفن بالفكر، ويأخذون هذا الأدنى، غير مهتمين بضابط أو شرط، وغيرَ عابئين بالخصوصية الفكرية أو الأخلاقية، وحجتهم الواهية حقهم في حرية التعبير.

وأعجب العجب أن طائفة من مدعي الحداثة يجهلون مقتضاها، ومن ثم لا يتجاوزون التجديد، وواجب المنصف التحري قبل الحكم.

ولما كان النقد رديفاً للإبداع فقد استحوذ عليه سلطان الشعر ردحاً من الزمن، حتى عاد المبتعثون للدراسات العليا إلى أروقة الجامعات ومشاهد النقد، يحملون هموما وأفكارا، ومناهج وآليات جديدة، فكان أن ظهر (النقد السردي) على يد مؤسسة (منصور الحازمي) بعد رائدية (العواد) و(ضياء)، ولما يزل هذا اللون من النقد دون المؤمل، ذلك أن السرديات تحيل إلى مفاهيم الغرب ومناهجه، وهي لما تكن حاضرة المتداولين، إذ لم يكن التواصل كافياً لتجهيز أرضية معرفية صلبة.

والإشكالية الأكبر تتمثل في طغيان التأريخ والتنظير على التطبيق، وفي اشتغال المشهد بآليات ومناهج لا يتقنها المرسل ولا يفهمها المتلقي.

والمشهد النقدي وسع أشتاتا متفاوتين في اتجاهاتهم وقدراتهم، فلو قرأنا مثلاً للنقاد (الحازميين) و(الغذامي) و(البازعي) و(العباس) و(القرشيين) و(الزهراني) و(البواردي) و(القحطانيين) و(الفيفي) و(زياد) و(الحامد) و(أبو داهش) و(الرميح) و(الحارثي) و(الشامخ) و(الخطراوي) و(السبيل) و(ابن تنباك) و(الرشيد) و(السريحي) و(المعيقل) و(النعمي) و(المعطاني) و(الطامي) و(الزيد) و(الفيصل) و(عريف) و(بدوي) و(بافقيه) و(باقازي) وآخرين يراوحون بين القديم والجديد، ويتوسلون بمختلف المناهج والآليات لوجدنا المشهد يعج بألوان الطيف، وذلك مؤشر تعالق ممعن في الاندفاع، أو تخلٍّ مسرف في الانقطاع، والبعض يحمل ذلك التباين الشديد على التنوع الحميد.

ولما لم نكن بصدد التقصي والتقويم فإننا نكتفي بالإشارة إلى الظواهر، وندع القارئ يحدد موقفه على ضوء ما يسمع ويرى.

وقولي في تصور المشهد النقدي قابل للأخذ والرد، فما كنت قاطعاً أمراً دون استشعار الرؤى والتصورات الأخرى، فالقضايا والإشكاليات تختلف من دارس لآخر، والمهم أن يكون الدارس على علم بواقع الحركة النقدية: محلياً وعربياً. وإشكالية الحركة النقدية في المملكة أنها كما الشعوب والقبائل التي لا تريد أن تتعارف، ولا أن تعاون، وكأني بالمتعقب للأصوات المختلطة يرى أن كل تعدد ثراء، وما هو على إطلاقه، إذ التوفيق غير التلفيق، والصوت غير الصدى.

ولكيلا تتفلت الأمور في التوسع بالرخص، وتتبلد الحواس في الشرعنة لكل خطاب فإن على رعاة الحركة النقدية أن يغاروا على حماهم، وأن يفعلوا شرطهم، وأن يمتازوا عما سواهم، وأن يحرروا مسائلهم، وأن يؤصلوا معارفهم. وهذه الاحتراسات لا تمنع من التجريب والتهذيب، فنحن أبناء راهننا، ولسنا أسارى تاريخنا، والناس شركاء في المنجز الإنساني، ما لم يكن عندنا برهان بمنعه. وإشكالات النقد متعددة ومتنامية، فهي: إما ناتج علاقات مع قيم تتقاطع معه، ولا تكون إياه، أو هي ناتج اضطراب في المفاهيم، أو عجز في الإمكانيات. وليس من السهل تقصيها، إذ ربما تكون لكل ناقد أو عصر أو ظاهرة إشكالياتها الخاصة. ولنضرب مثلاً بعلاقة اللغة بالنص على سنن التفريق بين (اللغة) و(الكلام)، وما جد من مناهج لغوية، ونصوص إبداعية بكل مستوياتها، وتداخلاتها، وتشعباتها، واتجاهاتها ومناهجها. ولو نظرنا إلى مشاهدنا خاصة، لوجدنا مكمن الخلل في الضابط والشرط والمفهوم، إذ كل مشتغل في النقد يشرعن لنفسه الوصاية المطلقة، ولا يتحرج من النفي والتجهيل لكل من يراجع أو يتساءل.

وقد يستهوي خطابه المبتدئين والمتعالمين، وبخاصة المتنفذين إعلاميا، بحيث يكونون له ردءا، يقولون بقوله، ويقلبونه ذات اليمين وذات الشمال على صفحات الصحف. ولما لم نكن ضد الضابط والشرط والمحظور والمباح فإننا ضد الأثرة والتمييع، ومتى رضي المختصمون في المشهد النقدي بمرجعية تفض الاشتباك، وتحسم الخلاف، وتجمع الشتات، فإن شِرَّة الإشكاليات ستخف شيئاً ما.

ولسنا هنا ضد التعدد والاختلاف، ولكننا ضد الفوضوية باسم التعدد، وضد المراء باسم الاختلاف. ومتى بلغ الناقد بموهبته ومعرفته ودربته حد الأهلية فإن من حقه أن يبادر المهمات، وأن يبحث عن الحق، وألا يلتفت إلى المخذلين غير أولي المعرفة.

وإشكالية المشهد أن المتسيدين ليسوا على شيء حتى يقيموا أوده، فهم لا ينطلقون من قاعدة معرفية ولا يحتكمون إلى ضابط، ولا يقبلون بمرجعية، وأي حضارة مؤهلة للنفاذ إلى ميادين اللزز، لا تقوى إلا بالمرجعية المطاعة، والضابط القائم، والسمة المميزة، والتناجي بالمعارف العميقة الشاملة.

وما عهدنا تمثل حضارة المهيمن، أو التماهي معها بين سائر الحضارات طريقاً للوجود الكريم. كما لم نعهد التركيز على التمايز، والتأكيد على الهوية، والحرص على الانتماء حائلة دون التزود من مستجدات العصر. وكيف نتوقع الاعتزال، والحضارات يرث بعضها بعضا، ويستفيد بعضها من بعض، وليس هناك حضارةٌ خالصةٌ من المؤثرات، ولا غنيةٌ عن الاقتراض، والإشكالية في ضبط التواصل وإتقان التفاعل.

ورأسُ الإشكاليات اضطراب التصورات حول مفهوم النقد وأنواعه، ووظائفه، ومقوماته، وثقافة الناقد، ومشروعية التنوع، وتعدد الاتجاهات.

والحركة النقدية في المملكة ليست بدعاً في سياق الحركات النقدية كافة، إذ لكل حركة قضاياها وإشكالياتها وناسها العارفون وغوغاؤها المخذِّلون.

وثمة إشكاليات إجرائية كاختلاط الموضوعي بالشخصي، وإصرار البعض على تضعيف المخالف، والتقليل من شأنه، ووصفه بالماضوية والمحافظة، وكأن استصحاب التراث وتفعيله عقبةٌ في طريق التجديد، والصراع بين القديم والحديث من الظواهر الحميدة، ولكن الحيدة به عن الموضوعية، وقيامَه على مصادرة الحق، وتصفية المخالف، حولته عن مساره الإيجابي.

وتلك شنشنة المتحدثين الذين يظنون أنهم أهل النقد وخاصته، وإذ يلحُّون على اتهام الخصوم بالتقليد، فإنهم ينسون أنهم مقلدون للغرب باسم التفاعل المشروع.

ودعاة التجديد النافون للحداثوية والاستغراب لا يسلمون لمن يتهمُهم بالتقليد ورفضِ التجديد، وهذا الصراع وإن جار بعض أطرافه، لا يخلو من إيجابيات، لأن فيه تحفيزاً للتزود من المعارف.

وتعميق الإشكاليات يتبدى في الإطلاقات المعممة، فالحداثويون ليسوا سواء في إمكانياتهم ومقترفاتهم، كما أن المجددين والمحافظة ليسوا سواء في تجديدهم أو في محافظتهم، وإذ لا تزر وازرة وزر أخرى، فإن ترشيد النقد يقوم على التثبت والتحديد، وتحامي الأحكام المطلقة، وما أضر بالمشهد النقدي إلا تعميم الأحكام، والتصنيفُ غيرُ المنصف، وتزكيةُ النفس، وإدانةُ الخصم دون سماع حجته، تلك طائفة من الإشكاليات، والخطوة الأولى في الحل السليم معرفة الذات، وتقويمُ المنجز، واستبانةُ الخلل، وتداركُه.

والحديث عن القضايا كما الحديث عن الإشكاليات، حديث متشعب، وقضايا النقد العربي تكاد تكون متجانسة، فهي إما: لغوية خالصة، أو موضوعية خالصة، أو فنية خالصة، أو هي خليط من ذلك كله.

ولعل المناهج اللغوية الحديثة عمقت الخلاف، وعددت القضايا، وبخاصة مفهوم (النص) و(التناص) و(التفكيك).

والمتعقب للقضايا يجد أنها تراوح بين الإلحاح والعفوية، فقد تخطر على بال الناقد، وقد يعمد إليها، كما لو كانت إشكالية قائمة، وأهم القضايا تقوم على المفاهيم والوظائف، وقضايا الشكل والمضمون، ومناهج النقد: كالمعرفي المتشعب، و(الأيديولوجي) المتعصب، والفني الخالص، واللغوي المعياري. ومجمل القول إن قضايا النقد العربي كافة لا تكاد تختلف، ولكن الاختلاف في القدرة على الاستكناه والتفصيل والتأصيل. إن هناك مؤرخين، ودارسين، ونقادا، وأكاديميين منهجيين، وعلماء معياريين، وهواة انطباعيين، وأشياعا، وأتباعا ليسوا من هؤلاء ولا من أولئك، وكل فئة تدعي أنها أهل النقد وخاصته، وأن غيرها أدعياء متطفلون. والمتلقي المحايد كما الفتى العربي في (شعب بوان) غريب الوجه واليد واللسان.

والحركة النقدية اعتورها مؤرخون لا يعنيهم من شأن النقد إلا الإجابة على التساؤلات التقليدية: أين؟ ومتى؟ وكيف؟ ولماذا؟ ومن؟ وهذا الصنف راصد للحدث، وليس مقوماً له، ودراستي لحركة النقد الأدبي في كتابي المخطوط (مداخل لدراسة الأدب العربي في المملكة العربية السعودية) جاءت قريبة من هذا النوع، ولقد شاطرت في هذا المنهج الدكاترة (محمد الشنطي) و(عبد الله الحامد) و(إبراهيم الفوزان) ولفيفاً من الأكاديميين الذين عنوا بهذا الاتجاه.

كما كتب عن الحركة النقدية نقادُ النقد، وهم قلة، وجاءت دراستي (النقد الثقافي: البديل أو الرديف) المنشورة في جريدة (الجزيرة) على مدى خمس عشرة حلقة من هذا النوع، وهذا اللون من الدراسات لا يخلو من الانحياز السلبي، والنوازع المذهبية، وحدة النبرة؛ فالعواطف لا تدع القلم ينقب في عوالم الآخرين، دون ميل يدع بعض القضايا كالمعلقة، أما النقد التطبيقي فقد سلك طريقه عدد لا حصر له، منهم من أنشأ كتباً عن مبدعين أو عن قضايا، ومنهم من كتب دراسات نقدية ثم جمعها في كتاب. ولقد كانت دراستي (النقد البنيوي للإبداع الروائي) المنشورة في ملحق (المدينة) على مدى خمس وثلاثين حلقة من هذا النوع، ومن خلال تلك الأعمال تبدت القضايا والإشكاليات، ولن نشير إلى أحد من المؤرخين والدارسين والنقاد، فالمتابع للحركة يعرفهم بسيماهم، وإذا سمحت لنفسي مؤاخذة هذه الألوان من الدراسات فإنني مصاب بدخنها، ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾.

والحديث عن القضايا والإشكاليات يستدعي نقاداً اقتسموا مراحل الحركة النقدية، وتنازعتهم المذاهب والظواهر والتيارات، وكان لهذا التنازع أثره الإيجابي، والمؤرخون للحركة النقدية يختلفون في رصد هذه الظواهر، فمنهم من يقسمها إلى ثلاث مراحل: مرحلة الريادة، ويأتي على رأسها (الصبان)، ومرحلة التأسيس ويأتي على رأسها (عبد الله عبد الجبار)، ومرحلة الانطلاق، وهي خليط من كتاب ونقاد شتى، لا نستطيع أن نحصيهم عدداً، ولا أن نحدد اتجاهاتهم ونوازعهم ومستوياتهم، وتلك المرحلة مع ما هي عليه من تجاوزات تمثل الوجه المشرق للحركة النقدية، ومن محامدها تجسير الفجوات بين النقد في المملكة وسائر المشاهد النقدية العربية، ومهما تحفظنا على بعض التجاوزات فإن المشهد النقدي ينطوي على إيجابيات لا ينكرها إلا مغالط، وستظل القضايا والإشكاليات وأسلوب تداولها مثار جدل عنيف واختلاف لا يرجى حسمه، ومن الخير للمشهد أن يظل عامرا بالجدل المعرفي.

من الكتبة الجوف إلى المشهد اليباب .. ! (١) [1]

الراصد الممتلئ بهم أمته، المسكون بقضاياها المستباحة، يبصر ويسمع كافة المشاهد: الفكرية والسياسية والأدبية، - وهي مليئة كما الفلك المشحون - بالقول الهزل والعراك الرخيص. ويكاد يعض على جذع شجرة هروباً من الخائضين في ثوابت الأمة. والمستمع الشهيد يصده عن المتابعة تكاثر المتدافعين إلى بؤر التوتر، ممن تحكمهم شهوة الكلام، ويقعد بهم داء الشهرة، ويعميهم غَمْط الحق، ويصمُّهم تأليه الهوى. ويأسى على ما يثيرون من آراء مرتجلة، تمس الثوابت، وتنقض عرى الإسلام، وتفرق ما اجتمع من صف أو توحد من هدف. ويزعجه ما يعبِّرون عنه من تصورات مضطربة. ويريبه ما يدوكون به ليلهم من نجوى آثمة، نهوا عنها، ولم ينتهوا. وسواء في ذلك الغلاة في الدين، والمفرطون في جنب الله. والمتحسس عن مبلغ الطرفين من الأشياء، يجدها غاية في الضحالة والتسطح. وما أدري في تلك الأجواء الملوثة، ماذا يراد بهذه الأمة؟ وإني لأرجو أن يريد الله بها رشداً. فقد تكون صحة الأبدان في العلل، ورب ضارة نافعة، والحب والكره لا يحققان واقع الأشياء، فكم من كاره لشيء، وفيه خير كثير، ونحن لا نعلم الغيب، ولو علمناه لاستكثرنا من الخير. وما نقوله عزمات صدق، لا تنجو من الزلل، وشفيعنا اجتهاد نبذل فيه الوسع، ونمحض فيه النصح.

وما نفتأ نُكره النفسَ على التفاؤل، وحسن الظن، والتماس المبررات، والقول عن المخطئ: لعله جهل أو لعله تأول، وإن بلغ السيل الزبى، وهم بمصالح الأمة من لا يدفع عن نفسه. والمتهافتون على القول ونقيضه لم يدعوا فسحة لمعذِّر ولا حجة لمبرر ولا مجالاً لمجادل، ﴿هَاأَنْتُمْ هَؤُلاء جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [النساء: ١٠٩] . واشتغال الكتبة الجوف في المسكوت عنه، والنبش في الموبقات، لم يكن أمراً عارضاً، ولا مروراً كريماً، إنها شنشنات أخزمية. وليس صحيحاً ما يشاع عن تمسك الماضويين بتحريم الحديث عن الدين والسياسة والمرأة وملحقاتها. وكم من مفتريات تشاع للتضليل أو للتخدير، وإشاعة هذا الإفك تهيئة للأذهان، وترويضٌ للجماح، وتمكين من التعايش مع المشككين والمخذلين والمستغربين. ولست متفائلا بمآلات هذه اللجاجة التي تغذيها أقلام غضة، وأفكار ضحلة، ونظرات قصيرة، وخصام غير مبين.

والمتابع المعني لا يستطيع أن يؤسس على هذه الأقاويل ونواقضها، في زمن اختلطت فيه الأوراق، وتساوت فيه الرؤوس، وتطاول فيه (مادر) على (حاتم)، و(باقل) على (قس)، وفي هذه الغمة لن نكون متشائمين، لنقول ما قال (المعري): - (فيا موْتُ زُرْ إنّ الحياةَ ذَميمَةٌ) ولكننا - وقد هزل الدهر - نطلب من النفس أن تجدّ، وأن تكون لوَّامة لا أمارة بالسوء. والمشاهد الموبوءة بالمتناقضات الممتلئة بالكلم الرديء، لا بد فيها من الوعي التام، والتوقيت الدقيق، والتقدير المناسب، وأخذ الحذر، والأخذ على يد الفارغين الذين لا يراعون مقتضيات الأحوال، فمن ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً، ويباشر الفعل الرشيد قبل أن تفيض المشاهد بالغثاء والغثيان والفوضى، وأن يذر قرن (برودون) رائد (الفوضوية)، ويبدو وجه (سارتر) الباسر، رائد (الوجودية) فتظن وجوه المغلوبين على أمرهم أن يفعل بها فاقرة. وذلك الواقع العربي المدان بكل المقاييس يمتد دخنه إلى كل

---

(١) تاريخ المقال: ٢/ ٥/ ٢٠٠٦

الأجواء المجاورة، وتلك أجواؤنا مصابة بعوارضه وأعراضه، إذ لا مجال للاعتزال، وعندئذ لا بد من التحرف لمواجهة متكافئة.

ومن المغالطات المربكة القول بأن هذه الإثارات المستفزة، وانفلات الأقلام من أفلاكها مخاض تحولات ومتغيرات طبيعية، إنه قول زائف، يروِّض فيه النفور، وتهدَّأ فيه الأعصاب، وبخاصة حين يعوِّلُ المتابعون على الوعود الزائفة والأماني الكاذبة، مما يتبادله أدعياء (التنوير) بين يدي نجواهم.

والعلل المستبطنة أن المتلقين لفيُوض الأفكار والمصطلحات، ما تقدم منها وما تأخر، لا يعرفون جذورها ولا محققاتها، ولا يراعون مدى تقبل حضارتهم لها، واتساعها لمقتضيات تلك المصطلحات التي ألْهتنا عن كل مبادرة. وهذا القبول والترويج دليل خواء فكري، وفراغ معرفي، وتبعية معتقة، وقابلية للخنوع.

وإلا كيف تعدو عيوننا عما في تراثنا من مصطلحات في الفكر السياسي الإسلامي، تغني عن استجداء الآخر؟ إن لدينا فكراً سياسياً لو تلقيناه باليمين، وأخذناه بحقه، وفعّلناه وفق مقتضاه، وخضعنا له، ولم نخضعه لأهوائنا، وعملنا من خلاله، ولم نستعمله لتبرير مقترفاتنا، لما كنا كما نحن، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء. ومنذ اندلاق أقتاب الغرب في مشاهدنا ونحن نحذر مما تعنيه مصطلحات (التنوير) و(الحداثة) و(الليبرالية) وسائر المصطلحات الغربية القائم منها والحصيد، ونبين عن مدى مخالفتها لمقتضيات حضارة الانتماء، ونردد القول بأن تحفظنا لن يحول دون الاستفادة منها والتفاعل معها، ولقد أكَّدنا على التفريق بين الوسائل والمبادئ، فمصطلح ك(الديموقراطية) ينطوي على الوسائل والمبادئ، فوسائله وبعض مبادئه حق، والحق ضالة المؤمن. ومكمن الخلل في الطائفتين: طائفة الرافضين للمصطلح على الإطلاق، والمتلقين له على الإطلاق. وما أضر بالأمة إلا تلك الإطلاقات المعممة. والقبول بالمصطلحات دون تحديد وقوع في المحذور، غير أن تحذيرنا صرخة في واد، لا تؤوِّب معه إلا الجبال. وتلقي المستجد لا بد أن يكون محكوماً بضوابط الإسلام، وما أحد من المتداولين لشيء من مستجدات الغرب فصَّل القول، وحدد المواقف، وطمأن الموجسين خيفة.

وحرية التعبير والممارسة والتلقي في الإسلام ليست كما هي عند (الليبرالية) أو (الديموقراطية) ولهذا لا بد من الاحتراس عند التداول لهذه المصطلحات. والحرية التي يتغنى بها كل مفكر، ويدعيها كل مسيطر، تمثل إشكالية عصية الحل. لقد اعتورتها سهام المفكرين منذ العصور اليونانية حتى اليوم، ومازادوها إلا غموضاً وتعقيداً. وليست إشكاليتها واحدة، ولو كانت واحدة لأمكن اتقاؤها، ولكنها إشكاليات تتعدد بتعدد الأزمنة والأمكنة والمفكرين: فهناك حرية الاعتقاد، كما يراها أهل الملل والنحل، وهناك حرية الفكر على إطلاقه، وهناك علاقة الحرية بالسلطة، وهي علاقة قول وفعل، وهناك حرية الرأي، وهناك تعددية المفاهيم بتعدد الحضارات والملل والنحل وتحولاتها في الأزمنة والأمكنة، وهناك إشكالية الحرية بين الحدِّ والمطلق، وهناك حرية الفنان والمبدع القولي بوصفها تختلف عن حدود غيرها، وهناك علاقة الحرية بالمقدس، وهناك حقوق الشعب، وحقوق الفرد وحقوق النوع كالمرأة والملونين وطبقات العمال. لقد عالجها الدكتور (زكريا إبراهيم) في كتابه (مشكلة الحرية) بوصفها جزءاً من الفلسفة، بحيث تناولها بين الإثبات والنفي، ومعنى الضرورة، وضروب الحتميات، وحرية الإرادة، وإرادة الحرية، والحرية والوجود الإنساني، والاختلاف بين الحرية والتحرر. وفي النهاية أكد على استحالة حل مشكلتها حلاً عقلياً على الأقل، وما من متوسل بالحرية حرر مسائلها، وحدد منطلقاته منها، وسنعود إلى مشكلة الحرية، عند مسح المراجع ونضوج الفكرة.

وأدعياء (التنوير) الذين يخادعون بمراوغة المصطلح، ينقمون على الماضويين الأخذ بالضوابط الحائلة دون استشراف المستقبل وتقبل المستجد، ويمارسون ردود الأفعال المفعمة بالانفعال، ويتعاملون مع مفردات حضارتهم تعامل التنويريين في الغرب مع مفردات حضارتهم. ونقد المعرفة ونظرياتها بمنهج (راديكالي)، واقتراف الاختزال لشموخ الحضارة تفويت لحق الأمة في السياق التاريخي. ومن الخطورة بمكان تقمص المناهج والآليات والمواقف دون استبانة أو تثبت. وما علينا إذا أردنا وضع الفارغين أمام أنفسهم، إلا أن نسأل عن (التنوير) في مفهومه الغربي، بوصفه مجلوباً بدون فهم، وبدون تعديل. و(التنوير) بهذا المفهوم وأسلوب الأداء من خلاله ليس بنافع لأمة ليست لها الخيرة في الرد عند التنازع إلى الله والرسول، فهي أمة محكومة بالنص التشريعي، وفسحتها في احتمال الدلالة والتأويل ومآلات الاجتهاد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [النساء: ٥٩] .

وإذا قبلنا الاختلاف في مقتضى النص وتأويله وفسح السياق فإن القبول بمخالفة القطعي الدلالة والثبوت أمر مستحيل لأن ذلك وقوع في نواقض الإيمان، والمتلقي للنص أمام برهان قطعي لا اجتهاد معه، أو دليل احتمالي يتحتم معه الاجتهاد، والكتبة الجوف يخلطون بين النصين دون وعي ب(نظرية المعرفة)، فمن لي بمن يلوي لسانه بالكذب، ليرده إلى جادة الصواب، ويعلمه أن للاجتهاد مجالات وإمكانيات وشروطاً، وليس مباحاً لكل من أجرى قلمه وأطلق لسانه.

والمصطلحات ليست مجتثة من فوق الأرض، فالرصد التاريخي والتفكيك المفهومي يعود بجذور كل مصطلح إلى حواضنه، ومصطلح (التنوير) - على سبيل المثال - يعود إلى مطلع القرن الثامن عشر الميلادي، وهو عصر ظلمة وضياع وتخلف، يحتم التفكير بالتغيير، وتحرير العقل من هيمنة النص المزور، وأول من طرحه (الأب ميسلي) الذي يقول: - (بأن نور العقل الطبيعي هو وحده الكفيل بأن يقود الناس إلى الحكمة والكمال العقلي)، ونور العقل من خلال المنظور الإسلامي مستمد من نور الله، الذي هو نور السماوات والأرض، وليس هو بالنور الشرقي أو الغربي، كما يراه تنويريو عصر الظلمة، ولا الذي سايره الفارغون في عصر الخواء واليباب والتبعية العمياء. وبمراجعة الفصل الثاني من كتاب (الإلحاد في الغرب)يتعرى الأدعياء الجوف، فالحراك الغربي يمثل الانقطاع، وما الخطاب المستغرِب إلا صدى له، ولوضوح الرؤية نُحيل إلى كتاب (مقدمة في علم الاستغراب)، وكتاب (من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب) ففيهما يتعرى التهافت وينكشف العوار.

ومن بعد (ميسلي) قال (كانت): - (إن التنوير هو خروج الإنسان من قصوره الذي اقترفه في حق نفسه، وهذا القصور هو بسبب عجزه عن استخدام عقله إلا بتوجيه من إنسان آخر) فالتنوير الذي يعوّل عليه الكتبة الجوف، يعني الخلوص من هيمنة الوصاية الماضوية بكل أشكالها ومرجعياتها، والتعويل على العقل كما يراه (كانط) أو كما يُنظِّر له (الجابري). والعقل مناط التكليف، ولكنه مؤطر بفضاء النص. ولقد كانت مقولة بعض المتعالقين مع الغرب في محققات (التنوير) صريحة، بحيث لا يتحقق إلا بالخلوص من المرجعية الماضوية، وبخاصة الشرعية منها. وإذا قُبل هذا الإطلاق في الفكر الغربي، فإن الفكر الإسلامي يخفق بجناحي (العقل) و(النص)، والكتبة الجوف لا يدرون ما المرجعية في المفهوم الغربي، وما هي في المفهوم الإسلامي، وتلك قاصمة القواصم.

والتاريخ الفكري والسياسي الحديث ينطوي على محطات متوترة، مرت كما سحائب الصيف. غير أن الواقع المعاش مختلف جداً عما سبق، فليس التسطح على القضايا، كالتثوير والتبئير، وليس العلماء الضالون عن علم كالأدعياء المتعالقين عن بلاهة.

إن أصحاب الهموم، وأرباب القضايا، وأساطين المواقف، يمتلكون المناهج والآليات، ويستدعون أصول المذاهب وقواعدها، أما المغثون فكالصدى. والمتسطحون على حراك المشاهد المخادعون بالتشبع، المضلون بلوي الألسنة بالمصطلحات الغربية، المحيلون كل الخطيئات على خطاب التجديد الديني، لا يعرفون ما هي عليه، ولا يجوِّدون رؤيتهم بالضوابط والتحفظات.

من الكتبة الجوف إلى المشهد اليباب .. ! (٢) [(١)]

وكيف يتأتّي التأصيل للمعارف والتحرير للمسائل من لدن قرّاء يتخطّفون الثقافة من أنهر الصحف، وأفواه الإعلاميين، ولا يدرون ما مكوّنات المذاهب، وما حواضنها، ولا يعرفون شيئاً من تاريخها، ولا من تحوُّلاتها، ولا يتعرّفون على مناهجها، ولا تربطهم صلة بالمفكرين ومناطاتهم، والسياسيين ومراميهم. وضعف المحصول، ونقص التجربة تضعف المناعة، وتسهل الانقياد، وتجعلهم أجرؤ على الفتيا والمبادرة بالأحكام على ثوابت الأُمّة، ولمَّا يتصوَّروها حقَّ التصوُّر، وما يدرون أنّ الحكم على الشيء فرع عن تصوُّره. وكم من مخاصم غير مبين، لا يعي القضية، ولا يدري ما الكتاب وما الإيمان، لا يتحرَّج من القول في كبرى القضايا، ومع هذه التوقُّعات المخيفة، فإنّ عثرات الجهلة تتطلّب التوعية الرفيقة، والإصلاح المتأنِّي، والدعوة إلى كلمة سواء، فقد يكون لبعضهم عذر ونحن نلوم. ولأنّه لا فرق بين الأمن النفسي والأمن الفكري، فإنّه لا بدَّ من الرقابة الفكرية التي لا تقل أهمية عن الرقابة الغذائية، وحرية التفكير والتعبير في الإسلام حرية مشروطة، وليست كما يتصوّر البعض ويطالبون، وضوابط الإسلام لا تنقص الحرية أشياءها.

واتساع الخرق على الراقع مردُّه إلى التطبيق الخاطئ للحرية، وإلى توفُّر إمكانيات التواصل، وضعف الوازع الديني، وتعثُّر الوازع السلطاني بتلويحات (حقوق الإنسان)، فكلُّ الوسائل تعضد المتسرعين، وتبلِّغ عنهم ما لا يرضي الله من القول. وتلميع مصطلحات الغرب وإشاعتها والرّكون إليها، أدخلت الأُمّة في مرحلة التيه، وهي بضاعة الكتبة الجوف.

ومن المؤذي حسّاً ومعنى، أنّ هذه (التقنية) المتاحة لم يستثمرها الفارغون بما يفيد، فالقنوات والمواقع وسائر الإعلام إمكانيات مذهلة أساء الجيل الخائب استثمارها، وإن جوَّد استعمالها. والداخل على الساحات، والمستمع إلى القنوات، والقارئ لسائر المطبوعات الإعلامية والإبداعية والنقدية، يغثيه من يمدُّونها بالغيِّ واللّغو والجهر بالسوء. وما عُهدت أُمّة الكلم الطيب والقول السديد، تخوض في آيات الله بغير علم، وتلغ في أعراض عباده، ولا تتحرّج من إشاعة قالة السوء عن الغافلين. لقد سمعت عائشة رضي الله عنها اعتذارية حسان:

حَصَانٌ رَزانٌ ما تُزَنُّ بِرِيبَةٍ
وَتُصبِحُ غَرثى مِن لُحومِ الغَوافِلِ

فقالت له: (لكنك لست كذلك)، وفي رواية (لكن أبَوْها).

وما علم المخفون لأسمائهم بالسيطرة على تقنية المعلومات أنّهم لا يخفون على الله، الذي سأل مستنكراً: - ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢]، والمروّجون للإفك عبر الساحات كالمروِّجين له في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، ممن كشف الله سوآتهم في القرآن الكريم. والمعارض أو المتحفِّظ أو المستنكر لأيِّ عمل على أيِّ مستوى، يجب أن يتثبّت وأن يجادل بالتي هي أحسن، وأن يضع اسمه صريحاً، وإن أخفاه فليكن صادقاً معتدل الرأي منطقيّ الحجة، متبيِّناً، بحيث لا يصيب أحداً بجهالة، وليكن له برسول اللين والرأفة والرحمة قدوة، إذ قل أن يذكر مخطئاً بعينه.

---

(١) تاريخ المقال: ٩/ ٥/ ٢٠٠٦

وبتجاوزنا للمرجفين في المواقع، وهم شريحة من الكتبة الجوف إلاّ أنّهم من نوع آخر، نقف عند شريحة أخرى أربى من أختها، وهم الذين يلتقطون المصطلحات الغربية بكلِّ ما تقتضيه من مفاهيم، وما تستدعيه من إجراءات، ثم لا يُراعون مقتضيات حضارة الانتماء، وتلك الشريحة أشد خطراً، وأفدح تأثيراً، وهم بهذا الفعل: إمّا أن يكونوا فارغين لا يجدون طريقهم إلى الحضور، إلاّ بمثل هذه الإثارات، وإمّا أن يكونوا مدخولين في أفكارهم عن جهل، أو عن تعمُّد وسبق إصرار، ولكي تستبين طريق المقترفين نذكِّر بثلاثة كتب تمس أهلية الكبار فضلاً عن الكتبة الجوف، فكتاب (خيانة المثقفين) مجموعة مقالات رصد فيها الكاتب جنحاً مصمية لمن نعدّهم من الأخيار، وكتاب (النخبة ضد الأهل) مجموعة مقالات تعقب فيها الكاتب طرفاً من التجاوزات، وكتاب (أوهام النخبة) تناول معرفي تطبيقي لخمسة أوهام تكاد تكون قاصمة القواصم، وما الأدنين من الكتبة الجوف ببعيدين عن أولئك.

ولما لم تكن هناك معرفة تأصيلية بما يجد من أفكار ومذاهب، فإنّ المشهد معرّض للتصوح ورعي الهشيم، والذين يستبقون الطوارئ ولا يفرّقون بين الجمرة والتمرة، لا شك أنّهم فارغون ومجازفون بأنفسهم وبمثمّنات أُمّتهم. وإذا تسوّدوا المشاهد، أصبحت أقرب إلى سراب القيعان، وذلك ما نراه، وما نسمعه. ومن المضحكات المبكيات، وشرُّ البلايا ما يُضحك، ظن المتنخوبين الذي أرداهم أن حَمَلة العلوم الشرعية لا يصلحون إلاّ للوعظ، والإفتاء في الحيض والنفاس، وأنّ مثقفي السماع هم وحدهم القادرون على تداول الشأن الفكري والسياسي. وإذ لا نزكي على الله أحداً، فإنّ بإمكان الفقهاء أن يخوضوا معترك السياسة بآليات الفكر السياسي الإسلامي ومناهجه، إذ للإسلام نظريته السياسية القادرة على المنافسة، وأمام هذه التجاوزات لسنا بحاجة إلى مزيد من المجاملة والتعذير، كما أنّنا لسنا بحاجة إلى مزيد من جَلَد الذات والتخذيل، وكل ما نقوله تأثم يحوك في القلب، وإن كنا نكره إشاعته، وإطلاع الناس عليه، وسياق الأُمّة بدعاً في السياقات، وإن سبق هذا السياق بدايات للتمرُّد وعزمات للتمنُّع، غير أنّ الطائفتين كانتا على شيء من الوعي، في مقابل حاضر تبعي مرتجل. ولو نظرنا على سبيل المثال، (المسار السياسي) في ظل الانقلابات العسكرية والهواجس الثورية، لوجدناه قابلاً للرصد والتقويم، وإن عبرت أزلامه إلى المشاهد على صهوات الدبابات وعلى جثامين الأبرياء، وليست على أكتاف الجماهير. فسنوات الغليان، كما يسميها عرَّاف السياسة (محمد حسنين هيكل)، وهو من المنجِّمين الذين يكذبون وإن صدقوا، هذه السنوات مكّنته من أن يرصد التحوُّلات السياسية المحكومة بقوانينها، وأيّ لعبة سياسية لها خلفيّاتها المعرفية، كما يجسِّدها صاحب كتاب (موسوعة قواعد اللعبة السياسية)، وإذ لم تكن التحوُّلات قفزات غير منضبطة وغير متوقّعة، بمعنى أنّ للتنبوآت مكانها، فإنّها خاضعة للحسابات والتقديرات، ومن ثم أخرج (هيكل) كتابه الثاني (الانفجار)، بوصف الجزء الأول (سنوات الغليان)، إرهاصات للنتائج التي رصدها في الجزء الثاني (الانفجار).

وهذا الرصد الوثائقي الشامل والدقيق مكن له واقع يتفاعل مع الأحداث التي توجِّهها مؤسسات ضالعة في صناعة اللعب ومتابعتها وتهيئة الأجواء الملائمة لها. والرصد في ظل الظروف والإمكانيات يتجه صوب النتائج المتوقّعة سلفاً، والحراك السياسي سواء أكان مرتبطاً باللعب السياسية، أم لم يكن، يقوم على أحداث ينسل بعضها من بعض بشكل طبيعي ومتوقّع. أمّا ما يحدث الآن فمختلف جداً إنّه الجنون المنظّم كما يسميه أحد المحللين، ولو نظرنا - على سبيل المثال أيضاً - (المسار الفكري) لوجدنا المفكرين منشقين على أنفسهم، ولكنهم يحيلون إلى مرجعيات غربية أو شرقية هضموها كما الخراف في جوف الأسد، وامتلكوا القدرة على الوصول إليها في مظانها وفهمها وتمثُّلها،

وليس مهماً أن تكون النتائج سلبية أو إيجابية، وإنّما المهم أن يكون في مقدور الحراك الفكري أن يخلف لنا مدارس واتجاهات، وأن يستطيع التأسيس لمذاهب وتيّارات.

ولعلّنا نضرب الأمثال بالفتانين أمثال، (طه حسين) من خلال مجمل أعماله، وبخاصة كتابيه (مستقبل الثقافة في مصر) و(في الأدب الجاهلي) وهو في مجمل مؤلّفاته يمثّل (الفرنكفونية) بأبشع صورها، ويستخدم المنهج (الديكارتي) القائم على الشك المنظم، وينزع إلى الرؤى الاستشراقية في دراسة الأدب، وعلى الرغم من تجاوزاته وإنحيازاته، فقد خلّف لنا ثروة من الدراسات، والدراسات المضادة، التي أحدثت نقلة في تاريخ الأدب العربي القديم خاصة. والمشاهد الأدبية والثقافية والفكرية فاضت أوعيتها بمختلف الظواهر، والمناهج، والتيارات، وليس حراك الأمس ومخاضاته كاضطرابات اليوم وتجشؤاتها الفارغة.

ولنا أن نقول مثل ذلك عن الحراك (الفلسفي) الخالص، نجد تجلّيات الفلسفة وتحوُّلاتها عند (زكي نجيب محمود) و(عبد الرحمن بدوي)، إذ عول كلُّ واحد منهما على فلسفة غربية: وضعية أو وجودية، وأثريا بعراكهما المكتبة العربية بمئات الكتب والدراسات، بل أستطيع أن أتجاوز ذلك إلى طائفة من الأكاديميين الذين أحدثوا بمذهبيتهم نقلة مادية ومنهجية، ظلّت تمد المشاهد الأدبية والنقدية بمزيد من التحوُّلات التي ترحب لها الصدور، وتحتفي بها الأقلام، وإن أبعدت النجعة، نجد ذلك عند (أمين الخولي) في علم البلاغة، وعند (شكري عياد) في علم اللغة، وعند (محمد مندور) في منهجية النقد، وعند آخرين يبتدرون المذاهب بقوة.

ولك أن تقول مثل ذلك عن تيار (الحداثوية) عند أساطينها الضالين المضلين، فهل أحد ينكر دور (أدونيس) و(عصفور) و(أبي زيد) و(أبي ديب)؟ على الرغم من التناقض معهم والتناقض فيما بينهم. فأين مكان المتعالقين من أولئك الجبابرة؟ وعلى مستوى الوطن العربي من المحيط إلى الخليج، نمر بمحطات مضيئة، وأخرى معتمة، ونقف على منجز أدبي أو فكري، لا نقبل به، ولكننا نحترم اقتداره.

وعلى النقيض من ذلك جلُّ مشاهدنا القائمة، إنّها صاخبة ومتناقضة، ولكنها خالية خاوية، وبرهان ذلك أنّ القضايا المتداولة مجترّة ومكرّرة، والمجترُّون لا يتقنون أدبيات الحوار، ولا أهمية الأولويات، ولا محترسات المرحلة المتردِّية، واقرؤوا التخبيصات المضحكة عن (الليبرالية) و(التنوير) و(المجتمع المدني) و(العولمة) و(العلمانية)، والحكومة بين (الدينية والمدنية) عند الطائفتين، وهذا الخواء يذكِّرني بذلك الثرثار، الذي أغثى الخليفة، فلما أحسّ بطول الكلام قال: - أأسكت يا أمير المؤمنين، قال له: - وهل قلت شيئاً؟. إنّ سمة المرحلة المعاشة تقوم على الانفعال والافتعال، فما الذي حفز المسيطرين على المشاهد، وشغلهم بالتوافه، وصرفهم عن جلائل الأعمال. أهو فراغ ذاتي، أم حيلة ذكية، أطلقها الماكرون وصدّقها المغفلون؟ ولست قاطعاً أمراً قبل أن استعرض الجدل الفارغ حول القضايا التي لا تحتاج إلى دليل، علماً أنّها استوت على سوقها منذ (رفاعة الطهطاوي)، وتقليبها من القول المعاد. ولا أحسبها خفية على ذوي الألباب الذين يرصدون ويقوِّمون، وإن لاذوا بالصمت تغليباً للسلامة، وأملاً في انكشاف الغمّة.

وصراع الديكة غير الممتع يتولّى كبره الإعلام العربي، بكلِّ صنوفه، وتعضده المواقع والساحات بكل تعدُّدها. لقد مارس الكتبة الجوف هذا الفعل المؤذي في ظل فهم للحرية على غير أصولها. وإذا أردت أن تقبض قبضة من أثر الخلاف تبدّت لك عشرات الآثار، التي لم تكن تحسب لها أدنى حساب، لقد جاءت قفزات مربكة في المشهد النقدي، وأخرى في المشهد الفكري، وكلُّها لا تمت إلى التجديد، ولا تمد بسبب إلى الإصلاح، ولا

تُعَد من التطوُّر، ولا التحوُّل، ومن عدّها محسوبة على حتمية التجديد فقد ضل سواء السبيل.

والذين ينافحون عن سائر المصطلحات السياسية والفكرية والأدبية، لا يعرفونها حق المعرفة، ولا يتمثّلونها صادق التمثُّل، ولا يصبرون عليها، فكلّ يوم تراهم مع ظاهرة أو شخصية أو منهج أو آلية. واللغة الجنائزية على ألسنتهم، إذ كلّما فرغوا من الحديث عن شيء أماتوه، وكأنّ ما بين أيديهم لعب أطفال تلقى في سلال المهملات، وما على المتردِّد إلاّ أن يحصي (البعديات)، ما بعد الحداثة، وما بعد البنيوية، وأن يستذكر الإماتات القسرية (موت النقد)، و(موت النحو)، و(موت الإنسان)، وهي وإن كانت إطلاقات مجازية، إلاّ أنّها تقليد مقيت، مستلهم من مقولة (نيتشة) ب(موت الإله).

وكلُّ هذه البعديات والوفيات والاشتغال بالمعاد والثانوي، مؤشِّر على الفراغ والخواء، وكلُّ فارغ مغمور يركض برجله إلى دوائر الضوء، مقتفياً أثر المستغربين:

ومن كان الغراب له دليلاً

يمر به على جيف الكلاب

وما من متهافت على لعاعات الشهرة الزائفة يعرف قدر نفسه، وحاجة أُمّته و(الفاضي يعمل قاضياً)، ويزعم أنّه قادر على فكِّ الاشتباك، وإنهاء النزاع وتقرير الأحكام والمصائر، وما هو إلاّ عبء على الإشكاليات، لا يزيدها إلاّ ارتكاساً في الوحل.

من بعث الحرية من مرقدها .. ؟! (١) [(١)]

دخلت في النافلة ذات يوم، وما ان شرعت في الركعة الثانية، حتى أقيمت المكتوبة، فاخترت الإتمام على الإبطال، لوجود اختلاف بين المتقدمين والمتأخرين من الفقهاء، حول القطع بعد الشروع في النافلة، والإتمام بعد الإقامة للمكتوبة، ولما قضيت الصلاة، وانتشرت مع الناس، لحق بي شباب حدث، شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، ولا يعرف أحدنا الآخر، وبادرني بالتأنيب، لتفويتي تكبيرة الإحرام، ولم يقدم بين يدي نجواه سلاماً، أو سؤالاً عن الطقس، وذلك أضعف المجاملة.

كان منفعلاً، كما لو كان ينذر قومه من عدو قادم تحت جنح الظلام، وما كان مني استياء ولا تذمر، بل سألت برفق: أمجتهد أنت أم مقلد؟ وكان جوابه: شيخي - عفا الله عنه - يقطع بوجوب قطع النافلة إذا أقيمت الفريضة. ولما لم أعرف شيخه، تمعر وجهه، وأربدت ملامحه، ولسان حاله يقول: قول أقبح من فعل. وحرصاً مني على لملمة أطراف الحديث، قلت له: المسألة يا بني خلافية، وفسح الدين، وثراء معارفه في اختلاف العلماء، وما غلب رسول الله ﷺ رأياً على رأي في قضية الصلاة في (بني قريظة)، لان أدلة الطرفين احتمالية.

ولم يرق له هدوئي، وأخذي الأمر بالحوار، وتعويلي على الاختلاف المعتبر، وإنما تصورني غامطاً للحق، مستخفاً بشيخه، مأخوذاً بمآثم الاعتزاز. ولحظتها لم أفكر بتوعيته، بل اردت الخلاص والنفاذ بجلدي، لا عليَّ ولا لي. ولكنه استوقفني مردداً: اتق الله، ولا ترد الحق، وعليك الإذعان والقبول. وعند هذا الحد تأكد لي أن جواد الحكمة لن ينجو بي، فما كان لي بد من ركوب حمار الجهل، ولم أتردد في مواجهته بما هو عليه من جهل مركب، وسوء في الأدب.

تداعت أحداث تلك الواقعة الساذجة في نظر البعض على ذاكرتي، وأنا أرقب المشهد الفكري والسياسي، وما يعتمل فيه من أحداث وقضايا، يتناولها كتاب وإعلاميون بالمستوى ذاته من المعرفة والتفكير، وبالأخلاقيات المتدنية نفسها، ولو أن هذا الشاب الورع كان متضلعاً من فقه الأحكام، ملماً بشيء من اختلاف الفقهاء، متمثلاً لأدبيات المناظرة، مدركاً أن الرفق ما دخل في شيء إلا زانه، لما شغلته مثل هذه الواقعة، ولما كان متنطعاً إلى حد الهلاك والإهلاك. وتلك الأمثال نضربها للناس بين يدي حديثنا عن أخطر قضية، ليعلموا أن الجهل المركب ليس وقفاً على طائفة دون أخرى، وإنما هو قسمة بين الفرقاء، والكيِّس من وقف أمام المرايا المقعرة، وعرف ما هو بحاجة إليه من علم، وفهم، وحسن استقبال، وطرائق أداء ولو لم يتلق النوازل إلا العالمون المجربون، لما كنا في أمر مريج.

وهلاك الأمة من أغيلمة يتدرون الأمور، دون معرفة ببواطنها، ودون فهم لمقتضياتها، ودون فقه بأحكامها.

و(عيٌّ صامت خير من عيّ ناطق). (ولو سكت من لا يعلم سقط الاختلاف) - كما ينقل (أبوحيان) في (الامتاع والمؤانسة) - وإذا تصدى لهؤلاء الأغيلمة ناصح أمين، لجُّوا في عتو ونفور، وأخطر القضايا، وحجر الزاوية في التجمع الإنساني (الحرية) فهماً وممارسة، وهي حق لكل مولود، ولا حياة كريمة بدونها، فطائفة من المتحدثين لا تعرف منها إلا ترك الحبل على الغارب، والتمرد على كل السلطات، والغاء حمى الله. والقول فيها كالقول في سائر القضايا الهامة والخطيرة، يحتاج إلى بصر حاد، وبصيرة حاذقة،

---

(١) تاريخ المقال: ١٦/ ٥/ ٢٠٠٦

ومعرفة عميقة، وتفقه في الحال والمآل، وسداد رأي، وعمق تجربة. وما عقدت العزم على الحديث عنها إلا لأن طائفة من المقوين معرفة وتجربة، يعذِّرون لكل منحرف في فكره، متفحش في قوله، متمرد على الحق باسم حرية التعبير والسلوك. ولأن الحرية داخلة في العقائد والأفكار والسياسات والفنون، وسائر شؤون الحياة، فقد كانت مناط كل منقول يسوؤه الانضباط، ويضيق بالأطر على الحق.

ومبعث إشكاليتها من متعلقاتها وعلاقاتها وحدودها ومجالاتها ومرجعياتها. والوقوف على الجدل الدائر حول أنواع الحريات ومستوياتها وارتباطها بالقيم والمبادئ ذكرني بذلك الشاب المتوقد حماساً، الفارغ معرفة، الناقص تجربة. والحرية المكتنفة بكل وسائل التناول وثيقة الصلة ب(الديموقراطية) و(الليبرالية)، و(المجتمع المدني)، وسائر المنظمات العالمية ك(حقوق الإنسان) و(حقوق المرأة)، وقضايا الإسكان، والنسل والأجناس والاقتصاد. وهي فوق ذلك أوثق صلة بعلاقة الإنسان بخالقه، وتلك العلائق المتباينة تتطلب التزود من شتى المعارف، وإتقان مختلف الطرائق. غير أن مبلغ الموقظين لها من العلم لا يتجاوز بها مواجهة السلطة بكل تنوعاتها، وهي مواجهة رفض لا مواجهة جدل.

ومن لم يأتها من أبوابها، ويروض جماحها، يجني على نفسه، وعلى من حوله، مثلما جنت (براقش) بعوائها على أهلها. ولأن الإسلام مجموعة من الأوامر والنواهي، فإن الحرية معه مقيدة وليست طليقة، ومن أرادوها كما هي عند غير حضارتهم، فقد اقترفوا إثم التمييع للإسلام باسم التسامح، وافتروا التشدد على الوقافين عند حدود الله. وأخطر منعطفاتها أنها ذات علاقة أوثق بالمؤسسة السياسية والدينية، ولهذا فإن دعاة (التنوير) و(الإصلاح) و(الثورة) يتوسلون بها، ويسمونها تسميات شتى، قد لا تناسب الأزمنة والأمكنة والأحوال. والضيق من الأطر على الحق، ومن الاخذ على يد السفهاء، والعمل على تحجيم الوازع السلطاني أفضى بالحرية إلى (الفوضوية)، حتى أصبحت الفوضوية ظاهرة بإزائها، تدرس وتقوَّم، كما تدرَّس الحرية، راجع (تاريخ الفلسفة السياسية). ومثلما اختلفوا طوعا أو كرها حول مفاهيم (الحرية)، اختلفوا حول قضايا أخرى ك(المجتمع المدني) و(الدولة المدنية) و(الدولة الدينية) وسائر المصطلحات ذات العلاقة بالفكر السياسي ك(الولاء) و(البراء) و(سد الذرائع) و(الأطر)، و(التسامح) و(التطرف) و(المرجعية) و(السمع والطاعة) و(المأسسة)، و(إنكار المنكر). فكل مهتاج أعزل قليل المعرفة والتجربة، يحدد المفاهيم، ويرسم الحدود، ويقرر المواقف، ويعد المحيد عن شيء من ذلك تفريطاً في الدين، وخيانة للأمة، وتخلية للثغور.

وكأن الله قد جمع لهذا الخلي العلم والفهم والوعي والتجربة والقوة والبصر والبصيرة. وما هو في نظر نفسه إلا المجدد للدين المندثر، والهادي للبشرية التائهة، والعامر للكون المتصحر. والمتابع الحصيف لتحولات الحرية عبر أحقاب التاريخ، يراها كامنة في النفوس، كأي معهود ذهني، لا تحتاج إلى تفسير، ولا إلى تحديد. فالفطرة السليمة تأخذها بحقها، وتتمتع بها بمقدار، بحيث لا تقصر بحق ذاتها، ولا تعتدي على حق غيرها، على حد - «**الحلال بيّن والحرام بيّن**»، و«**البر ما اطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في الصدر**».

والإمعان في الحدِّيات والتصفيات والتصنيفات آتٍ من أدعياء مستغربين يقولون بقول المهيمن، دون أن يتعرفوا على محققات هيمنته، ليكونوا مثله في حمل الغير على التماهي معهم. أو هو آتٍ من غلاة متطرفين يحرفون الكلم من بعد مواضعه. و(الاستغراب) إما أن يكون استكناها لما عند الغرب، واستثماراً لمحققات غلبته، أو يكون تقليداً لخناه وفحشه، ورؤيته المادية للكون والحياة، وعزوفاً عن معارفه (وتقنيته). ومثلما

كان (الاستشراق) يجب أن يكون (الاستغراب)، ولكن ذلك لم يكن، ولن يكون في ظل إمكانيات ذهنية وعملية لا ترقى إلى مستوى الأحداث، و(الماضوي) المنقطع للتراث لا يختلف عن (الحداثوي) المنقطع عن التراث.

إن مكمن الخطأ في خطأ الفهم، ومربط الفشل في جهل ما عليه الذات من معرفة وإمكانيات، وما عليه الآخر من مكائد وتطلعات، وما أحوجنا إلى تأصيل التواصل مع المغاير عقيدة وحضارة ومدنية. وظاهرة استقبال هذا المغاير على غير هدى ولا كتاب منير، حفز طائفة من المفكرين على تصور شرعة ومنهاج للتفاعل مع منجز الحضارات المادية المهيمنة، وتفادي الانفعال والافتعال. ولعل أفضل من كتب في ذلك المفكر العربي (حسن حنفي)، ومن بعده تلاحقت الكتابات المراوحة بين الرصد والتحليل والتوصيات، ولتحديد مفهوم (الاستغراب) ومرجعياته، نحيل إلى (دليل الناقد الأدبي) (للرويلي والبازعي).

و(الحرية) التي انفلتت من قمقمها كما العفاريت، نادى بها الرسل والمصلحون والقادة والمفكرون، كما نادى بها (سقراط) والحكماء. لكنها تختلف في طبيعتها ومحققاتها في الأزمنة والأمكنة، وبين الأناسي والحضارات، والديانات، والأنظمة السياسية في كل عصر ومصر. وهو ما لا يفهمه المقلّبون لها على سفود الوقوعات العارضة. ومن تلبس بها على أنها فعل الممكن، وتحقيق المراد، ونبذ السلطة، فقد تحول بها إلى العبودية، ومثلما تعس عبد الدرهم والدينار والخميصة والخميلة، فقد يكون عبد الشهوات أتعس منهم. وكيف لا يفرق الفارغون بين الحرية المنضبة والفوضوية المتفلتة، كما يراها (قودوين) و(برودون) في كتابه (ما الملكية) و(ماكس شتيرنر) و(باكونين)، لقد تحولت عندهم الفوضوية بوصفها فلسفة (اللاسلطة)، إلى فوضوية مستحكمة، بدأت بإلغاء الدولة بوصفها رأس الآفات والشرور، وانتهت إلى ما بعد الفوضوية.

وليس بمستغرب على عصر المفاجآت أن يكون للفوضوية من يناصرها، ويدعو إليها، ويؤلف فيها، ويعدها ممارسة مشروعة. وكل المشتغلين بالحرية من غير العارفين، لا يلتمسونها إلا في مسارح الفكر والفلسفة الغربية، ظناً منهم أن ما سبق من حضارات، لم تفهمها حق فهمها، كما هو الشأن عند سائر المفكرين الغربيين ومذاهبهم، وذلك ظنهم الذي أصابهم بجنون العظمة. وما القول ب(نهاية التاريخ والإنسان الأخير) عند (فرانسيس فوكوياما) إلا مخاض الغرور الذي يساور الإنسان الغربي، فهو لا يبعث (أيديولوجية) مندثرة، وإنما يعلن عن (المشروع الأمريكي) الذي يغني عن التفكير، والمصيخ للمشاهد العربية، يلمس تأثير تلك الدعوى (الفوكيامية). على أن من المستشرقين من جد في البحث عن الحقيقة، فعلى سبيل المثال، وفي مجال الرصد المعرفي والتاريخي للحرية نجد (منجوميري وت) بحث في إشكالية حرية الإرادة في الإسلام، وذلك قبل ستين عاماً أو تزيد، وكان منطلقه من مذاهب إسلامية، ضلت في فهم الحرية، ووقعت في متاهات التأويل، ومنشأ الضلال تفويض الأمر إلى العقل، وتعطيل النص، وتأليه الهوى، واتباع الشهوات، وتلك شنشنة الأغيلمة. وقصور التصور عند المغثين الغثائيين يحملهم على الخيفة من مصادرة الحرية على يد كل سلطة تمارس حقها المشروع، وفق مقتضيات (العقد الاجتماعي)، عند (جان جاك رسو) أو (البيعة) في الفكر السياسي الإسلامي، ومؤدى اللغط ألا فرق عندهم بين السلطة المشروعة، والتسلط المستبد. واين وجدت السلطة فالتمس الحديث عن الحرية، فهي قائمة على أشدها في كل تجمع قل أو كثر، لقد خلق الله من كل شيء زوجين، وأعطى كل شيء خلقه المناسب لدوره في الحياة، وفرض السلطة لضبط الحياة، ولهذا خص بها الرجال، وزادهم بسطة في الجسم، فيما زاد النساء بسطة في العواطف، وجعل الرجال قوامين على النساء

بالتفضيل والإنفاق، فكان الحديث عن (تحرير المرأة) منطلقاً من تلك القسمة الربانية، وكانت السلطة لا التسلط الشغل الشاغل لكافة المشاهد، يقولها الرجال بأفواههم، ولم تؤمن بها قلوبهم، ولو كانوا صادقين، لكانت المسؤوليات قسمة بين الرجال والنساء في (أمريكا) على الأقل فكم رئيسة أمريكية قادت البلاد، من (جورج واشنطن) إلى (جورج الابن)؟ وما الذي غيَّبها أهو الدستور، أم الفطرة والتكوين؟.

وكم هو الفرق بين جدل الاستبانة للحق، ومراء التفلت على الضوابط المشروعة. وإذا أراد الله بقوم سوءاً ألزمهم الجدل، ومنعهم من العمل.

وإشكالية السلطة أنها قائمة ما قامت السماوات والأرض، وكيف يتصور العقلاء غيابها، والرسول ﷺ يقول: «**من مات وليس في رقبته بيعة مات ميتة جاهلية**»، والتأمير مطلوب بين الرجلين في السفر، و(البيعة) بإزاء (العقد الاجتماعي) أخذ الحق، وأداء الواجب، وما لم تحفظ الجماعة التوازن بين الحقوق والواجبات، حل التسلط محل السلطات. ومع ذلك فإن الإنسان العقال يفضل جور النظام على حالة (اللانظام)، والمصير إلى الفوضوية مرده الجدل حول طبيعة السلطة ومشروعيتها.

وأيا ما كان الفهم والتصور، وأسلوب الأداء على ضوء ذلك، فإن الحرية ستظل إشكالية العصر في غيابها الكلي، أو الجزئي، أو في حضورها النظري أو الفعلي. واستدعاؤها والخوض في خواصها ومحققاتها مدعاة لمزيد من تضارب الآراء، وما لم يكن الخائضون في لججها على بينة من أمرهم فإنهم لا يزيدون النظارة إلا خبالاً.

والمتابع لفيوض القول والقول المضاد تروعه النقائض، ويزعجه تباين الآراء، ومرد ذلك كله إلى فهم (الحرية) مفصولة من أجوائها وحواضنها، فهي مع (الديموقراطية) ذات سمة لا تكون كما هي مع (الديكتاتورية)، وهي في الإسلام تختلف باختلاف العلاقة. فالإنسان بوصفه طرفاً يكون بإزاء مؤسسة سياسية أو مجتمعية أو دينية، ولكل علاقة حدودها ومجالاتها. والحرية بإزاء الإنسان تختلف باختلاف الحضارات. والخليون يتصورونها واحدة في ظل الحضارات كافة والمجتمعات والوقوعات، إن الحلقة المفقودة في الجدل فقد المحقق للحرية أو تغييبه، فلا حرية دون عقد مهيمن، والعقد مع وقف التنفيذ إجهاض للحرية، وإغراء بمزيد من المقاومة.

من بعث الحريّة من مرقدها .. ؟! (٢) (١)

ولقد يظنُّ البعض أنّ استدعاء الحرية وتداولها من لدن مفكّري الغرب دون غيرهم، وأنّهم وحدهم الذين اتخذوها شرعة ومنهاجاً، ومجال بحث معرفيٍّ لتحرير مسائلها وتأصيل قواعدها، وأنّ الأمة الإسلامية لم تتطرّق لها، ولم تمارسها إلاّ في أضيق نطاق، وبشكل متسطّح، ولقد سيء للتاريخ السياسي الإسلامي، وقصرت فترته المضيئة على عهديْ (أبي بكر) و(عمر)، وتولّى تناقل هذه الفرية طائفة من الحركيين الإسلاميين، وكان (سيد قطب) - رحمه الله - ممن أشاع ذلك في الخمسينيات من القرن الماضي، الأمر الذي حدا بالعلاّمة (محمود محمد شاكر) إلى الرد القاسي عليه، حيث عدَّ هذا الحكم الجائر جناية على التاريخ السياسي الإسلامي. ومثلما قيل عن (النظرية الأخلاقية)، وإخفاق الحضارة الإسلامية في إنجاز نظرية أخلاقية مماثلة لما أنجزه الغرب، قيل عن (الحرية)، وعن فقر الحضارة الإسلامية في استيعابها بوصفها نظرية. والعودة إلى الدفاتر القديمة تؤكِّد أنّ المبهورين بحضارة الغرب كما (الاسطوانة المشروخة)، فعند كلِّ ظاهرة يُبدئون الاتهام ويعيدونه، ويمعنون في جلد الذات، والتهوين من الحضارة الإسلامية ورموزها، والمزعج أنّ منشأ الافتراءات قِسْمة بين (مستشرقين) متحاملين، و(مستغربين) غسلت أدمغتهم، وطمست عيونهم.

والمتوقّع ممن عاداك في الدين أن يفتري عليك الكذب، وأن يشيع عنك قالة السوء، والمستنكر أن يتولى كبر ذلك الإفك أبناء الحضارة، فهم إمّا مفترون للكذب، أو مشيعون للإفك، ومشايعون لماكر متربّص، وما أضر بهم إلاّ أنَّهم مروّجون لسحت الآراء. ولو أنّهم إذ سمعوا البهتان، عادوا إلى تراثهم يسائلونه، لكان خيراً لهم، ويكفي لإسقاط المفتريات الرجوع إلى علم الكلام، وموسوعات الملل والنِّحل عند (ابن حزم) و(الشهرستاني)، وتعقُّب منجزات أقسام العقائد والمذاهب المعاصرة في جامعات العالم الإسلامي، وبخاصة (جامعة الأزهر) و(جامعة الإمام)، إضافة إلى قراءة ما كُتب في الفكر السياسي الإسلامي عند (ابن تيمية) و(ابن خلدون) و(الماوردي) و(الغزالي)، وعشرات غيرهم، ولو أنّهم فعلوا ذلك، واصطحبوا من المصطلحات الإسلامية ما يغني عن الاستجداء: -(فالليث ليس يسيغ إلاّ ما افترس) لكان خيراً لهم.

وليس غريباً أن تعتورَ الأمّة سهامُ الأعداء، ولكن الغريب أن يكون التشكيك والتخذيل من الأقربين، وظلم ذوي القربى أشدّ مضاضة على النفس، وأخوَف ما نخاف أن تصدق فينا مقولة: -(حصوننا مهدّدة من الداخل)، ولا يكون الأمر كذلك حتى تكون التبعيّة والغثائيّة على أشدّهما، وحتى تسْتشري قابلية نوال الآخر، ولقد أدْركَتْ طائفة من المفكرين الإسلاميين ما يشكِّله المستغربون من خطورة على الثوابت، فكان التحرُّف للمواجهة، والتحيُّز للفرقة الناجية، وهذه المواجهات المتواصلة منذ (التآمر السبئي)، كشفت ما يروجّه (الفلاسفة) و(المتكلمون) و(المتعلمنون) و(المتحدثنون) و(المتغربنون)، وما يتلقّاه التبعيُّون من دعم ومباركة من قوى البغي، تبدوان تارة، وتختفيان أخرى، وتلك من ظواهر المكر السيئ، ولا يحيق المكر السيئ إلاّ بأهله، فكم من طابور في الداخل يفوق بأثره السيئ طوابير العدو الأربعة خارج الأسوار، ولقد عرف في التاريخ الوسيط مصطلح (الطابور الخامس).

ولكيلا يظلّ الوهم والتوهيم قائمين حول غياب (الحرية) في التراث الإسلامي، نشير إلى تداولها في وقت مبكر، استجابة لمتطلّبات التجمُّع الإنساني، إذ تنازعتها معارف

---

(١) تاريخ المقال: ٢٣/ ٥/ ٢٠٠٦

شتى، كالأحوال الشخصية في الفقه الإسلامي، وعلاقة الحاكم بالمحكوم، ومقتضيات البيعة، وتداول السُّلطة وحقوق المستأمنين والأقليّات وسائر وجوه الحياة. وكان منشأ المشكلة مرتبطاً بإرادة الإنسان، هل هو مخيَّر أم مسيَّر؟ وهل يشاء بإرادة حرّة أم بمشيئة محكومة بمشيئة ربّانية؟ ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠] . وربط المشيئة وخلق أفعال العباد بالخالق، هل تسقط المسؤولية؟.

وحجّة القائل إنّه قتل بقدر الله، أُسقطت بشرعية القصاص، لأنّ القصاص ينفذ بقدر الله. ونشوء مذهب (الجبرية) و(القدرية) مدفوع بعقلنة الجدل حول إرادة الإنسان، وجاء جدل (المرجئة) و(المعتزلة) ومفهوم (العدل)، وهو أصل من الأصول الخمسة عند المعتزلة معمِّقاً الخلاف، ومدار ذلك كلّه على (حرية الإرادة)، وتنزيه الخالق من خلق الشر والمعاصي على حدِّ قولهم، وكيف يكون خلق للأفعال والأقوال، ثم يكون رقيب عتيد، وحساب شديد، ومثل هذا الجدل العقلي المحيِّر، لا يحسمه إلاّ الإيمان. فالقضاء والقدر سرُّ الله في خلقه، وحسم الخلاف حوله عقلاً غير ممكن، وعلينا استذكار قصة موسى والعبد الصالح.

وهنا أود أن أشير إلى الجذور الخفيّة لبعض الظواهر المعاصرة ذات العلاقة بتنوُّعات (الحرية) وتحوُّلاتها. ومثلما ربط البعض جوانب اللقاء والافتراق بين (البنيوية) و(نظرية النظم) عند (الجرجاني)، فقد نجد أنّه من السهل التماس الجذور الفلسفية لـ(البنيوية) وذلك باستدعاء ما ذهب إليه (ديموقريطس) و(أبيقور) من (الميكنة الذرية للكون)، إذاً هناك ترابط وتناسل بين المذاهب المادية والعقلية، فكلٌّ مذهب ينسل من مذهب سالف، ليعمق التيه والضلال.

ومؤدَّى القول بـ(الميكنة الذرية) أنّ الحركة والتغيُّر وليدة التقاء الذرات وانفصالها، ولم أتذكّر بالضبط تفاصيل ما قاله (فؤاد زكريا) عن الجذور الفلسفية لـ(البنيوية) في دراسة سبق أن استوعبتها، وأحلت إليها، ولست أذكر الآن تفاصيلها، ولا النتائج التي توصّل إليها الباحث، لغياب الكتاب في غياهب المكتبة. وغبش التذكُّر يقترب مما أرمي إليه. وهذه (الميكانيكية) لا إرادية في نظر (ديموقريطس) غير أنّ (أبيقور) حاول أن يلتمّس شيئاً من (الحرية)، وذلك بإمكانية الانحراف الذري، الذي يوفِّر قدراً من الحرية على حد تصوُّره.

وما دمنا في ظلال الماديات الصرفة، فإنّ السؤال الأكثر تعقيداً هو: هل هذا الانحراف الافتراضي آلي أم إرادي؟ وحينئذ: ما القدر من القصد والإرادة التي يتوفّر عليها الإنسان بوصفه مجموعة من الذرات المتحركة ميكانيكاً وبانتظام على حد زعمهم؟ على أنّ تلك المحاولات الغبية، يُراد منها تخليص الكون من (العلّة العلية)، التي عالجها (مارتن هيدغر) في كتابه (مبدأ العلّة)، لقد عدت إلى حقلي: - (الله) و(الإنسان) في مكتبتي، أملاً في استشراف أمداء الحرية، فأصبت بالدوار، وما ازدادت المسألة عندي إلاّ غموضاً، وتعقيداً، وإيماناً، وتصديقاً لموقف السلف الصالح، من خلق أفعال العباد، و(نهاية إقدام العقول عقال)، وكم من عبقري لا يُفري فريه صاح في نهاية النفق: - اللهم إيماناً كأيمان العجائز.

وحتى الذين تخلَّصوا من (الميكانيكية) العمياء، تورّطوا في (الجبر اللاهوتي) وجل البحوث العلمية البحتة ربطت الكون بقوانين لا تتبدّل ولا تتحوّل. وهناك فرق بين السنن الكونية التي أشار إليها القرآن الكريم و(الحتمية العلمية) التي يراها الفلاسفة الماديون. والارتباط بالقوانين العلمية كما هو في الفلسفة الوضعية تسلب الإنسان حريته وإرادته. لقد بلغ التيه بالفكر الغربي إلى القول بموت (الميتافيزيقا)، وللجوء إلى الفلسفة الوضعية

بشقّيها. ولأنّ بعض مفكري الأمّة العربية مسكونون بقابلية التبعية فقد ألّف (زكي نجيب محمود) كتابه (خرافة الميتافيزيقا)، ثم خفّف من الحدّة ب(الموقف من الميتافيزيقا)، وعلى كلِّ الأحوال فإنّ الحرية تشكِّل المحور الرئيس في جدل الفلاسفة والمفكرين والمتكلِّمين، ولم يكن فلاسفة الإسلام أقل شأناً من نظرائهم، بل أكاد أقطع بأنّهم الذين أمدّوا الغرب بأصول المعارف.

والفلاسفة الذين أوغلوا في استكناه الحرية وأمدائها يريدون للإنسان أن يكون حرّاً في إرادته، وهنا يقعون في الحرج في كلتا الحالتين: حالة الاستقلال المادي، وحالة العلّة العلية. والمفكرون والفلاسفة والمتكلمون في الفكر الإسلامي تفرّقت بهم السبل في (مباحث الحرية)، ومن ثم نشأت الملل والنِّحل المدفوعة بحرية التفكير والتعبير والتأويل، ولقد حسمت حرية التفكير بآية ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، المحددة لآية ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، وكلُّ طائفة تنشئ لعقيدتها (نظرية معرفية)، تسهم في تحقيق مرادها، ومثلما يرى البعض أنّ لإنسان مبرمج مادياً، فإنّه عند آخرين مبرمج عملياً، والدخول على شفرته كما الدخول على سائر الشفرات المادية يؤدي إلى الحيدة به عن المسار المرسوم، ولمّا لم نكن بصدد الفصل بين المتخاصمين، والترجيح بين الأقوال، فإنّنا نشير إلى مبلغ علمائنا في هذا الشأن، واتساع حضارتنا لمباحث الحرية على كلِّ الوجوه، وكلُّ ما نتطلّع إليه أن نقول للذين تزدري أعينهم ما نحن عليه: - (إن بني عمك فيهم رماح). وستظلُّ الحرية مدار الجدل الفكري، وهي كائنة قبل أن يكون الغرب شيئاً مذكوراً، وحين كان، وصل بالحرية مشارف الفوضوية، ثم عاد بها إلى منابعها الأولى، ولم يزل يتذبذب بمفاهيمها، والناس من ورائه يبتدرونها، كما لو كانت من وحي السماء.

ومشكلة الإرادة في علم الكلام امتداد لمشكلة الحرية التي عالجها عدد من الفلاسفة والمفكرين المعاصرين. وتقصاها (زكريا إبراهيم) و(عبد الله العروي) وآخرون، ولكن المسافة بين البحث العقلي الخالص والبحث العقلي المحيل لنصوص معتبرة شاسعة جداً. ولسنا بحاجة إلى أن نجرّ الحديث إلى تلك المتاهات، ولكننا نريد فقط أن نثبت أنّ مشكلة الحرية أزلية وقائمة، وما المنجز الغربي إلاّ حلقة في سلسلة طويلة، وهو تابع للمنجز العربي، وليس سابقاً عليه، بحيث نتصوّر أنّنا عالة عليهم، كما يظن المستغربون، وفضل أولئك في تحويل الظاهرة إلى نظرية، وما من قيمة معرفية إلاّ ونجد في تراثنا شذرات لا تغني عن الاستفادة، ولكنها تحول دون الزهادة بما أفاء الله به على عباده.

ومفكرو الإسلام أدلوا بدلوهم مع سائر الدلاء، وليسوا بأقل الناس وعياً، بحيث تحال النتائج إلى الغرب، وبحوثهم العويصة في قضية (القضاء والقدر) ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالحرية، وما نقصد الحديث عنه لا يتعلّق بحرية القصد والإرادة والبحث في (العلّةش العلية) المنفصلة عن المادة، وإنّما يتعلّق بالحرية في إزاء السلطات التشريعية والتنفيذية والدينية، أو قل بإزاء السلطة السياسية، ولقد كان ل(الثورة الفرنسية)، ولما تلاها من ثورات دموية، أثرها في تكريس الحديث عن (الحرية السياسية)، فالجدل السياسي غير الجدل الفكري، وإن التقيا في النهاية عند نقطة الحق الإلهي، والحق السياسي، إذ إنّ المفكر بإزاء نظام ربّاني مستمد من الحاكمية والتحكُّم الربّاني، ولارتباطه بكلِّ هذه السلطات، فإنّه يريد أن يعرف حدود الحرية.

ولأنّ لكل حضارة موقفاً من الحرية، فإنّ المفكرين الواعين يتعاملون معها وفق ضوابط الحضارة وحدودها، والذين يحلو لهم بعث الحرية من مرقدها، وأخذها تنظيراً

وتطبيقاً دون قيد، لا يعرفون حدود ما أنزل الله، لا يصطحبون تلك الضوابط، وذلك مكمن الإشكالية. وغياب الضوابط تغيب معه الخصوصية والسِّمة، ولكيلا ينفلت الأمر، يجب أن تمتد الأيدي إلى الظاهرة والشرط، وتفادي هيمنة الحضارة المادية.

وحين لا يجد التبعيُّون بدّاً من الاستسلام للمهيمن، فإنّهم يظنون أنّ الحرية بمفاهيمها وحدودها ومجالاتها إنّما هي حرية غربية، وأنّ ما سوى حضارة الغرب من حضارات عالة على الغرب ومنجزه الفكري والسياسي. إنّ تصوُّر الحرية مفردة من مفردات (الديموقراطية) أو (الليبرالية)، إجهاض لمفاهيم أخرى، ومن حقِّ الحضارة الإسلامية أن تطرح مشروعها السياسي، مصحوباً بأهم مفرداته، وهو (الحرية)، وألاّ يكون للمؤمن خِيَرةٌ، فهو مطالب بالتسليم ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [الأحزاب: ٣٦] .

والحديث عن الحرية بوصفها شعاراً ثورياً، كالحديث عنها بوصفها محوراً معرفياً أو فلسفياً، وإذا كانت مطلقة في ظلال (الديموقراطية) و(الليبرالية)، فإنّها مقيّدة في ظلال الإسلام. وسلبيات الإطلاق تقابل بإيجابيات الضوابط، وإذ تقطع كلّ الحضارات بأنّ الحياة نظام، فإنّ الحرية بدون ضوابط كالحياة بدون نظام، وإذ رتب الغرب شؤونه على مقتضيات (الديموقراطية)، فإنّ على الأمة الإسلامية أن ترتب شؤونها على مقتضيات الإسلام. والغرب نجح بصدقه والتزامه، واستجابته لمؤسساته، ولن تنجح الأمّة الإسلامية إلاّ بذات الصدق، والالتزام والاستجابة للمؤسسات التي تحقِّق مقتضيات الإسلام ومقاصده، وقد تكون لنا عودة إلى بحر الحرية اللجيّ، في مجال الفكر السياسي الإسلامي، وعلم الكلام، ليعرف المستغربون، أنّ من قصد بحر الإسلام استقلّ سواقي غيره.

المأزق.. التصوُّر والخروج .. !(١)

من البدهيّات أن نقول: إنّ العالم العربي يعيش في مأزق، منذ أن فتح العسكر ثكناتهم للإغارة على الأُمّة باسم الثورة، ومنذ أن اتخذ المستكبر أرض العروبة مسرحاً للعبه ومختبراً لتجريب أسلحته. وهي مآزق من جهات شتى صنعها اللاعبون، وروَّضها الإعلاميون، وباركها الانقلابيون. ومن البدهيّات أيضاً كون المؤسسات: السياسية والفكرية والدينية والطائفية والحزبية تعيش في أزمة، بل أزمات خانقة، وهَنَت معها عزائمها، وخارت قواها، واستفحلت مشاكلها. ولكي نتفادى الوقوع في التخذيل والتيئيس والإحباط وجلد الذات، نفتح بصيص الأمل للنفاذ من موبقات المآزق، والانعتاق من غوائل الأزمات، فالسياسة (فن الممكن)، والثبات على الحال محال، ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾.

ومع استحكام الأمور، وضيق الصدور، فإنّ أملنا بالانفراج. وحين نستدعي مؤشرات المآزق والأزمات، لا نكتفي بمثولها الحسِّي، فهي حاضرة في الذِّهن، والقول فيها من الكلام المعاد، وإنّما نريد أن يعرف المتفائلون الغافلون والقانطون اليائسون حجم الموبقات، وسمة الضالعين، والخطوة الأولى في طريق الحل. ولا شكّ أنّ تشخيص الداء بداية الخلوص من عقابيل المرض. ولو كان بإمكان أحد أن يضمن السلامة بإغلاق بابه على نفسه، لكان من السهل تفادي كثير من الفتن، ولكن المآزق كالأوبئة تلقي بها الريح في أماكن القوم لتعم بها البلوى.

ومن الناس من يعجبك قوله، وهو لا يريد إلاّ الشماتة والتشفِّي، وكأنّه في معزل يعصمه من الطوفان. ومنهم من يكتم استياءه كمؤمن آل فرعون، ويلوذ بالفرار تحت وطأة اليأس والقنوط. ومهما تلبَّسنا بالمسؤوليات أو تجرَّدنا من التبعات فإنّ كلَّ عاقل قادر عليه كفل من المسؤولية، وبيده طرف من الواجب. ومن فكَّر بالفرار أو الاعتزال عاش الوَهَن، وتحمَّل الثَّمن، وما الناس إلاّ كالمستهمين على السفينة، إن نجت نجوا جميعاً، وإن غرقت غرقوا جميعاً، المحسن والمسيء سواء، وإن بُعثوا على نيّاتهم فاليد الجماعية أوكت، والفم الجمعي نفخ، ولا مجال للبحث عن المشاجب، أو التخلُّص من تأنيب الضمائر بالتنصُّل.

إنّ بداية الحل أن نعرف ونعترف ونتعرَّف: نعرف الخطأ أو التقصير، ونعترف بأنّنا طرف في الفعل السلبي، ونتعرَّف على الحلول الممكنة. والمأزق العربي لم يكن وليد الساعة، بحيث يكون الشاهد مداناً، والغائب بريئاً. إنّ هناك تراكمات من التصرُّفات، توارثتها الأجيال، ولم تتردَّد في الإضافة عليها، والارتكاس في حمأتها. وكلُّ جيل يتّهم من سَلَف، ويورث الحطام من خَلَف، وما علمت أنّ جيلاً احتمل الوضع، وفكَّر في الخلاص، وأخذ بجدولة الحلول، كما تجدول الديون. والتحرّف للحل المرحلي والتحيُّز للفرقة الناجية بعيداً عن الادعاء والتنصُّل هو السبيل القاصد

وعندما لا تتيسّر الخطوة الأولى في طريق الحل، فلا أقل من إيقاف التدهور، والمصير إلى تشخيص الداء، وتقويم الإمكانيات، وعندئذ تكون الخطوة الواثقة في طريق الحل.

إنّ الحاجة ماسة إلى تفكيك المشاكل للتشخيص لا للمحاكمة، وللعلاج لا للتخلُّص، ثم التفكير في منهج الحل وآليته، وخطة العمل والتقدير والتوقيت، وإعادة الثقة بالنفس

---

(١) تاريخ المقال: ٣٠/ ٥/ ٢٠٠٦

وبالإمكانيات. إنّ في وسع أيّ مقتدر أن يبدأ التفكير، وإشاعة ما يهتدي إليه. وإذْ لا نحبذ المبادرات الفردية فإنّ التعويل على المؤسسات القائمة لا يعني أنّ بالإمكان حسم المشاكل بين عشيّة وضحاها. إنّ أخطر ما تعانيه مؤسسات المجتمع المدني نزع الثقة منها، وتعمُّد المخالفة لها، وقديماً قيل: (لا رأي لمن لا يُطاع).

ولن يبلغ أيُّ عمل تمامه (إذا كنت تبنيه وآخر يهدم). إنّ الخطوة الأولى أن تقوم المؤسسة المدنية شكلاً ومضموناً، بمعنى أن تمارس دورها مدعومة بثقة المواطن وحسن ظنه بها. وحين تقوم الثقة مقام الشك، والطاعةُ مقام المخالفة، يجب أن نعرف أنّ الحل الفوري والنجاح الناجز ليسا ثمناً فورياً للثقة والطاعة، وأنّ الخطأ العارض ليس مشرعاً للتمرُّد والعصيان ونزع الثقة. وإذاً لا بدّ من هيمنة النظام، وتفعيل المؤسسة، وتقويم الأداء، والشفافية والمساءلة والنقد. وبدون ذلك ستظلُّ المآزق والأزمات لوازم في أعناق الأُمّة، كما الطائر في عنق الإنسان.

والمتيقّن أنّ المقترفات ليست لها بداية محدّدة، ولا فئة معيّنة، ولهذا لا يمكن أن نضع نهاية محدّدة لتلافيها. والفريضة الغائبة هي البداية الواثقة، وعندئذ يكون الرِّهان على التصفية للمبادئ، والتربية للفاعلين، وتحييد المشاكل. وسواء كانت المآزق من صُنع القوى الخارجية، أو من صُنع الأنظمة الداخلية، أو من صُنع الأفراد أو المنظّمات، فإنّ التفكير في الخروج لا يكون في الشقاق وتبادل الاتهامات، ولا يكون بالأثرة والاستبداد، وتمسُّك كلُّ طائفة بحلِّها المرتبط بحاجاتها الآنية الذاتية. إنّ لكلِّ (قطر) ظروفه وطبيعته وإمكانياته، وليس من السهل أن يتخلّى عن مثمناته، كشرط للخروج من المأزق. إنّ على قادة الفكر وزعماء الإصلاح وروّاد النهضة أن يعرفوا أنّ الحل المرحلي والجزئي والإقليمي بداية متواضعة ومقبولة للخروج من نفق الأزمات، وإنّ معوّقات الحل تكمن في المثاليات والعنتريات والإسقاطات وتصدير المبادئ وفرض الأنظمة. إنّنا لكي نواجه قدرنا بأسلوب حضاري بوصفنا أُمّة عربية كما الجسم وتداعياته، علينا أن نعتمد الشفافية والمصداقية والقبول بالتعدُّدية والتنوُّع، وتقويم الأداء، والتعرُّف على الإمكانيات المتاحة، وقدرات الآخر المتربّص، وتفادي استفزاز الرأي العام، أو المساس بمسلّماته. وإن كان ثمة خطأ في المسلّمات فإنّ علينا أن نستلّها كما الشعرة من العجين، لا أن نجتثّها بعنف وصلف وبدون مبالاة.

والإشكالية الأكثر تعقيداً أنّه حين يجمع أهل الحل والعقد في كلِّ أنحاء الوطن العربي على أنّ هناك مأزقاً وأزمة تتجاذبهما تيارات وأحزاب يكون الاختلاف حول أساليب الحل. فكلُّ طائفة أو تيار أو حزب له رؤية في طبيعة الأزمة والمأزق، بل كلُّ مرحلة زمانية لا تتجاوز العقد من الزمن لها أولوياتها وقضاياها، ولو نظرنا إلى كلِّ حقبة لتصوّرنا أنّنا أمم داخل أُمّة، وهذا التنوُّع والتباين يلقي بظلاله على الحلول المرحلية أو الجذرية. ولا شكّ أنّ الاختلاف الفكري والسياسي والطائفي والمرحلي بحد ذاته يشكِّل تأزيماً للأزمة، وتعميقاً للمأزق. والبداية الصحيحة أن نفكر بإشكالية الاختلاف، وألاّ تكون عقبة في طريق الحل الشامل. ولو ضربنا مثلاً ب(قضية فلسطين) لوجدنا أنّنا جميعاً نتفق على ضرورة الحل، ولكنّنا لا نستطيع أبداً الاتفاق على أسلوب موحَّد لإدارة الصراع العربي الإسرائيلي. إنّ هناك (تطبيعاً) له مستوياته ومفاهيمه، و(هرولة) مذلّة لا مبرّر لها، واختراقات صهيونية موهنة، وقضية كالمعلّقة، كانت ولمّا تزل مقياس الأداء، ومع أهميتها وخطورتها وأثرها السيئ الممتد من المحيط إلى الخليج، فإنّ لكلِّ قطر رؤيته، ولكلِّ زعيم خطابه، ومن ثم أصبحت القضية كما المرايا المتجاورة تكرّر ولا تنوّع.

وإذا كانت الأقطار العربية مختلفة حول نقطة البداية وأسلوب الأداء، وهذا متوقَّع، فإنّ الفصائل الفلسطينية أكثر اختلافاً، وهذا غير متوقّع. والمؤلم أنّ الاختلاف العربي -

العربي يُدار باللسان، والاختلاف الفلسطيني - الفلسطيني يُدار بالسنان. ولكي نتخلَّص من هذه الإشكاليات الضاغطة لا بدّ من البحث في القواسم المشتركة وتوسيع رقعتها، والتعاذر فيما لا نستطيع تلافيه في ظلِّ الظروف القائمة. والاعتراف بالوضع المأزوم بداية الحل السليم، إنّ هناك إرادة قُطرية تختلف عن الإرادة العربية، وإرادة عربية ليست مناسبة لبعض الأقطار العربية فكلُّ قطر عربي له مصالحه الخاصة، وظروفه الخاصة، وإمكانياته الخاصة، وأخلاقياته الخاصة، وخوفه المبرّر من جيرانه، ولهذا فهو غير قادر على التخلُّص من تلك الخصوصيات المعوّقة في أكثر الأحيان، كما أنّه ليس مستجيباً للتخلُّص من الأحلاف والارتباطات. وفي ظلِّ هذه الظروف المتوهّمة في البداية، وجد كلُّ قطر نفسه مضطراً لأن يضع (الاستراتيجية) أو (التكتيك) الملائم لأوضاعه، لقد كنّا نضيق من التغريد خارج السرب، واليوم نبكي على السرب وإن غرّد خارجه أكثر من طائر. هذه الأوضاع المحبطة لم يصنعها الإنسان العربي على عينه، وإنّما قضيت في غفلة منه، لكي تتجذّر المأزقية. ولكي نتخلَّص من التملّص، لا بدّ أن نقدِّر الظروف الخاصة، وأن نجد الحل المناسب لها. إنّ هناك دولة تملك القدرة على التعلمن والتعولم، وأخرى لا تملك ذلك، وهناك دولة تستطيع أن تدغدغ مشاعر الجماهير بسراب الديمقراطية، وأخرى لا تستطيع ذلك، وفسحة القول يملكها قطر ولا يملكها آخر، وكلُّ نظام له خطابه الذي رضيه، وتعامل من خلاله، وإذْ لا يكون إكراه في الدين، فمن الأوْلَى ألاّ يكون إكراه على التناظر. في البدء يكون (التكتيك) لإصلاح الذات نظاماً وأُمّة، ثم يكون التفكير في (الاستراتيجية) المتمثّلة بالتكتُّل ووحدة الصف والهدف، والخلطة المطلقة.

وبدون التنازلات الموزونة تدخل الأُمّة في مأزق المآزق وتأزيم الأزمة. إنّ لكلِّ قطر أزماته، فأزمات السكن والخبز والبطالة والتعليم وقضايا المرأة والمجتمع المدني، مضافة إلى الطائفية والتعدُّدية الفكرية، تختلف من قطر لآخر. وبلد ينعم بالرخاء والاستقرار والأمن يختلف عن بلد آخر تنقصه مقوّمات الحياة الكريمة. هذه المعضلات المؤرِّقة قابلة للحلحلة، وليست قابلة للحسم النهائي. نحن لا نريد الرّهان على الحلول الفورية والشاملة والحاسمة، فليس لدينا خاتم سليمان، ولا عصى موسى، ولا طب عيسى، ولا بلاغة محمد، إنّنا نعرف حجم الإمكانيات، وأضعف الأداء أن ننطلق وفْقَها مستصحبين العوائق الإقليمية والعربية، وحينئذ ستكون الخطوات متقاربة، لا نريد القفز على الحواجز، ولا الغباء، ولا التغابي في مواجهة الواقع، ولا التسابق في سرقة الأضواء الزائفة، نريد معرفة الذات بكلِّ إمكانياتها، ومعرفة الآخر بكلِّ مكائده واقتداره. وتفادي الصراعات الجانبية بين الأقطار العربية، والصراعات المفتعلة بين الأُمّة العربية والغرب. ومتى استُهلكت الأُمّة العربية في صراعاتها الهامشية استنزفت الجهد والوقت والإمكانيات، وأتاحت الفرصة للطرف المعادي ليظفر بما يريد، وليس هناك وباءٌ يماثل الانفعال والافتعال، وليس أدلّ على ذلك من القمم العربية فهي التي تكشف المخبّأ، وتضع المتستِّرين على الخطيئات في موقف حرج، فكلُّنا أشقاء حين لا يكون لقاء.

لقد كانت هناك جامعة عربية مع ما فيها من ضعف، وغياب أو تغييب عند القضايا المصيرية أو الحساسة، وكانت مع هذا الوَهَن مبعث أمل وتفاؤل، واليوم تعدَّدت المجالس والمنظّمات والتكاملات والتكتُّلات الثنائية والثلاثية والجِهَويَّة، فدول الخليج والمغرب العربي والقارة الأفريقية، لكلِّ طائفة مجلس يوهِن المجالس الأخرى، ويفتّ في عضدها، مع أنّها مجالس لا تقدِّم ولا تؤخِّر، وكلٌّ يعمل على شاكلته، ويتغنّى بليلاه، والقرارات والتوصيات المطمئنة المبهجة قرارات للاستهلاك الإعلامي. هذا التعدُّد في الأحْلاف والمنظّمات قطع السبيل على تكامل عربي من المحيط إلى الخليج، وكلُّ تكتُّل ثنائي أو

ثلاثي أو رباعي يقدِّم بين يديْ تشكُّله كلمات المجاملة والتطمين، غير أنّه يفقد ذاته في صخب التنازع.

لقد أدرك الاستكبار الغربي أنّ العزة العربية في الاعتصام وعدم التفرُّق الحسِّي والمعنوي والديني والدنيوي والسياسي والاجتماعي، ومن ثم حاول أن يخلق بالقوة مجتمعات عربية من أنواع شتى، بحيث نوّع في أشكال الحكم، وفي الدساتير والأنظمة والقضاء، وفي المناهج التعليمية، وفي الأبعاد الاجتماعية، وفي المستويات الاقتصادية، وفي الهموم والتطلُّعات، حتى اللهجات والأزياء وأنماط الحياة، وهو جاد في افتعال ملفّات حزبية وطائفية وعرقية وإقليمية واقتصادية وحدودية، يفتحها متى شاء، ويرفعها متى شاء، وله طابوره الخامس الذي يحرِّك الملفّات بأيدٍ وطنية.

ونحن إذْ نتّفق على التسليم بالمأزقية والمأزومية، فإنّنا نأنف من تحمُّل المسؤولية والاعتراف بقابلية الخنوع والخضوع، ثم لا نجد أكثرنا متفقاً في التوقيت والتقدير وأساليب الحل، وبعض المتسوّدين غارق في الادعاء، فهو القادر على حل المشاكل بمجرّد الأخذ بفلسفة ثورته وتطبيق نظريته الثالثة، وهذا الأنموذج الحي يتكرّر بأقنعة وملابس أخرى.

إنّ تجربة الانقلابات العسكرية تجربة خائبة، أتت على الحرث والنسل، وحوّلت الأنظمة من حكومات مدنية إلى ثكنات عسكرية، استبدلت الجدل بالتي هي أحسن بصمت الأفواه ودوي الفوهات، وفوق ذلك كلّه تعمَّد العسكريون مخادعة أنفسهم وشعوبهم بأنّهم يمتلكون شرعة ومنهاجاً، وأنّ مبادئهم خير بديل لما هو قائم، وأنّ عليهم أن يصدِّروا مبادئ ثوراتهم، ولكي يمهّدوا الطريق أمام دبّاباتهم وعرباتهم العسكرية عمدوا إلى تخوين الحكومات القائمة، ووصفها بالعمالة والرجعية والملكية المتعفّنة، وإلى زرع خلايا لزعزعة الجبهات الداخلية، وإفساد العلاقة بينها وبين السلطة الشرعية. وليس أحد من الرّاصدين للأحداث ينكر شيئاً من هذا، حتى الإبداع الشعري والسّردي واكب الخطاب الثوري، ومهّد له الطريق، وخدّر الجماهير النائمة على معسول الكلام، ولقد أحسن الشاعر العراقي وصف الحالة المزرية للوعود الكاذبة بقوله يخاطب جياع الشعب:

نـــــامي علــــى الخطـــــب الطـــوا
ل مــــــن الغطارفـــــــة العظــــــــام

نـــــامي علــــى زَبَـــدْ الوعـــــود
يــــداف فــــي عســــل الكــــلام

نـــــامي علــــــى مهـــــــد الأذى
وتوســــــــدي خـــــــد الرغـــــــام

والذي يقرأ ديوان (الجواهري) بمجلّداته الأربعة الضخام يرصد للتحوّلات المذلَّة، ويقف على الانكسارات والإحباطات، فالقصائد التي استقبل بها (الجواهري) انتفاضات الشعوب العربية المستعمرة تجسِّد الكبرياء العربية، والأنفة من الذّل والمهانة. وقصائد الغربة والشتات تجسِّد خريف الكبرياء. وبعد هذه العقود العجاف لا بدّ من مبادرات تنهي زمن التيه.

حبُّ الوطن.. المفهوم والتفهيم .. ! (١) [(١)]

من الممارسات الممتعة التي كنا قد ألفناها في طفولتنا المبكِّرة، وسلَّمنا لها، لما لها من فوائد، ولما فيها من لطائف: (تَفَقُّد المصلين) بعد صلاة الصبح، ومتابعة الذين يتكرِّر منهم الغياب. وتسميع (سؤال منكر ونكير) من عوامِّ المصلين على الإمام. فالذين لا تفوتهم صلاة الفجر جماعة، يتندَّرون على لداتهم، حين يُسألون، أو حين يُضربون، أو حين يُعاقبون بمصادرة شيء من ملابسهم. والذين يحفظون مبادئ الدين، يتجمّعون للتندُّر على من لا يحفظونها، أو يرتبكون حين يسألهم الإمام الأسئلة البدهية المعروفة:

-من ربك؟

-من نبيك؟

-وما دينك؟

والعوام يُرتج عليهم، وإن كانوا يعرفون (الرب والنبي والدين)، حتى أنّ البعض منهم يبلغ به الارتباك حداً يطلب معه الإرشاد. فإذا قال له الإمام:

-من ربك؟

-قال المأموم: أرشدني عفا الله عنك.

-فيقول له الإمام: قل ربي الله.

-فيقول: قل ربي الله.

-فيقول له الإمام: قلها أنت.

-فيقول المأموم: قلها أنت.

وقد يأخذه الحمق فيصيح بالمأموم:

-قم لا ألهمك الله رشدك.

فيصيح المأموم: قم لا ألهمك الله رشدك.

متصوِّراً أنّ هذا هو ما يحتاجه الميت في قبره. وقد يقع قريباً من ذلك مع (المطوفين). والمأموم يعرف بالفطرة والمعايشة ذلك كله. ولكنه حين يفاجأ بالبدهيات، يتصوّر أنّ وراء الأمر ما وراءه، وإنّ المعهود الذهني لا يكفي للإجابة. وكأنيّ بهذا العامِّي وأمثاله لو سمع لغط القوم حول المواطنة، لاضطربت عنده المفاهيم، وحَسِب أنّ للوطنية مفهوماً جديداً، لم يعهده من قبل. نعم هناك اضطراب في المفاهيم، وتباين في الآراء، وتفاوت في الأداء، واستفحال في (الأُممية)، وتململ حول مفهوم الدولة وتعويلها. ذلك الحراك كلُّه لا تجهضه ردود الأفعال، وإنّما تروّض شوارده بتثبيت المؤسسة الدينية، وتستدرك شطحاته بتأصيل المؤسسة التربوية، وتطرد غربته بإشاعة المؤسسات الإعلامية.

فالحديث المتقحم عن (حب الوطن) وممارسة الحشوية، قد يثيران تساؤلات التخوُّف وكلمات التندُّر في آن. ومتى اضطربت المفاهيم حول المواطنة، أو مسمَّى الدولة، أو ضَعف الفعل وقلَّ الولاء، وجب تشخيص الداء أولاً واستجلاء الأسباب، قبل تلقين الولاء. فالناس لا يختلفون حول الحب، لأنّه جِبِلَّة، ولكنهم يتفاوتون في إجراءات التفعيل والأداء، وتحديد السمة والدافع بين الدينية، والقومية، والقطرية، والأُممية. وقد تضعف نفوس طائفة من المواطنين فيؤثرون العاجلة، ويتهافتون على لعاعات الدنيا، كالمرتشين والمطففين والغشاشين وسراق الوقت ومقلصي الجهد. أمّا الذين تخطفهم دعاة السوء من الشباب، أو الذين استحوذ عليهم اللاعبون المحترفون، فليست إشكاليتهم في حب الوطن أو

(١) تاريخ المقال: ٦/ ٦/ ٢٠٠٦

كرهه، ولكنها في تكريس المفاهيم الخاطئة على حين غرة أو غفلة من حراس الثغور، وفي وقوعهم فرائس لذوي النوايا السيئة، أو أنّهم من فلول اللُّعب السياسية المتفلّتين على الاحتواء. ولقد أدرك (علي بن أبي طالب) رضي الله عنه الفهم الخاطئ للدين عند خصومه الذين تقرَّبوا إلى الله بقتله، وقال: إنّهم من النار فرّوا. وإشكالية المشاكل في كيفية أطرهم على الحق، وصدِّهم عن الإيغال في الدين بدون رفق، وإنقاذهم من التنطُّع في الدين، والمروق منه كما السهم يمرق من الرمية. وإشكالية الوطن تنبعث من ثلاث فئات: من الموغلين في الدين كما أغيلمة قريش. ومن المنتمين إلى أساطين اللُّعب السياسية دون وعي. ومن المتّسمين بالإسلام مع وقف التنفيذ، على حد: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا﴾. وبعض تلك الظواهر لا تُعالَج بالممارسات الانفعالية، ولا بالتلقين، لأنّ الموغل، والمنتمي، والمتسمي، يمارس كلُّ واحد خطيئته بقناعة. وليس هو باحثاً عن الحق. والمنقب في صفحات التاريخ الحديث تروعه قوافل الشباب المغرّر بهم، ممن خدروا بالخطابات الانقلابية المسكونة بهواجس الثورات الأوربية، القائمة على تصفية الأنظمة والأديان، وممن أصابتهم حمَّى الشعارات الجوفاء، يوم أن كانت أوطانهم فريسة الأسلحة المشتراة بخبز الجياع وعرق الكادحين. حتى لقد صار الوطن يوم ذاك وثناً جاهلياً، كما العجوة التي يعبد ها الجاهلي، حتى إذا جاع أكلها، أو كما الحجر الذي تبول عليه الثعالب. وحين تثار قضايا الحب، تتداخل المفاهيم حول حقيقة (الحب) ومقاصده. ومخزون الأذهان من الخطابات الثورية قد يَحمل على تقويل الصادقين المتحمِّسين من أجل حمل الكافة على الحب الإيجابي ما لم يقولوا. وهروباً من التوثين الثوري، تستيقظ مفاهيم الولاء والبراء، وتؤخذ بغير حقها، ثم تكون فرصة للمغرضين والمزايدين.

و(الحب) جِبِلَّة، لا يُسأل عن كمونها، وإنّما يُسال عن توظيفها ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] . والمحب لا يتشكّل حبه بالتلقين، وإنّما ينمو كما البذرة بالمعايشة والقدوة والتربية السليمة، ويتأصَّل بتمتُّع الإنسان بكافة حقوقه، ولهذا قال الشاعر العربي: (وما حب الديار شغفن قلبي)، فالمواطنة في النهاية (مقايضة). فالإنسان يُولَد على الفطرة، ويُولد معه حب فطري جِبِلِّي، يميل به صوب ثدي الأم وحضنها، ثم ينمو هذا الحب، ويتحوَّل من الفطري الخالص إلى الفطري والكسبي، ويمتد من الأم إلى الأب، ومنهما إلى أشياء كثيرة، حتى يمر الطفل بما يُعرف ب(الاستقطاب حول الذات).

ولقد اختلف الفلاسفة والنفسيون والعلماء حول حدود الحب ومجالاته، كما اختلفوا في التفريق بين (الحب الجِبِلّي) و(الحب الكسبي) و(الحب العقدي) المحكوم بضوابطه الشرعية. وإذ يكون من لوازم الإيمان الحب في الله، والكره في الله، فإنّ الرجل يكره الكفر والكافرين، ولكن قد يكون والداه أو أحدهما كافرين فلا يمنع إلاّ من طاعتهما في الكفر، وقد يأخذ بالرخصة، ويتزوج (كتابية) باقية على دينها، فيختلط الحب العقدي المعروف بالولاء والبراء بالحب الجِبِلّي، وهنا يقع الحدِّيون في معضلات الحب وأنواعه، وإمكان التفريق بين حبّ في الله وحب جِبِلّي غريزي.

ومن غبش الحب في الإسلام، أنّه يكون حباً تعبد ياً أو حباً جِبِلّياً. والقليل من المتعاملين من يملك القدرة على فرز الخلطة بينهما، وتحديد المحظور والمباح، ويدخل في ذلك التعظيم والاحترام وضوابطهما وصور ذلك، والجمع بين أحاديث الأمر والنهي، وتعارض القول والفعل، وإذ يكون القرآن الكريم تبياناً لكلِّ شيء، فإنّ التماس الضابط لا يتأتّى إلاّ للراسخين في العلم. وأزمة الدول الإسلامية الملتزمة تكمن في مواجهة

(البروتوكولات) الرسمية، كتنكيس الأعلام، وأيام الحداد، وتبادل التهاني في المناسبات، وأشياء يعرفها (الدبلوماسيون)، والأزمة تزداد تأزيماً حين تكون الدولة عضواً في الأسرة الدولية بفاعلية وأهمية، فهل تساير أو تتحفَّظ؟ وهل تُعَد المسايرة داخلة في الاضطرار أو لا تكون؟، ويجب أن نعرف كيف يحترم اليهود شعائرهم (السبتية)، والتزامهم بمقتضياتها، وقيام دولتهم على نصوص توراتية، وتحميس الرأي العام الأمريكي من خلال نصوص إنجيلية، والتزامهم (السبتي) قد يخل ب(البروتوكولات) الرسمية، وما أحد عاب عليهم ذلك. وإشكاليتنا تستحكم حين لا نفرّق بين العادات والعبادات. والبدع والمستحدثات الدنيوية. والأفكار والعقائد، وحين يتقحم القضايا من لا يعرف حدود ما أنزل الله.

والقول في الوطن والمواطنة بغير علم ولا كتاب منير يجر ألْسنة وأقلاماً إلى مزالق الفتن، وقد يعرضها لنواقض الإيمان جهلاً لا إصراراً. والكلام في (الحب الوطني) يفضي بالمتحدِّث إلى المجال والحد والمباح والمحظور، وتقليب هذه القضايا في ظروف اشتد فيها ضرب الأدلّة بعضها ببعض قد يدفع إلى سحب ملفّات ساخنة تزيد في الإشكالية بسطة. والحب المترجم بالفعل الذي جسَّده آباؤنا مع (الملك عبد العزيز)، لم يتلقّوه تلقيناً، بل شربوه مع لبن أمهاتهم، وأحسب الأسوياء من الأبناء والأحفاد كسلفهم، وظواهر المفاهيم الخاطئة والفتاوى الحدِّية لا يجهضها إلاّ تجفيف الحواضن، وتجهيز خطاب أقوى، يسبق إلى الأدمغة الفارغة، ومادة (التربية الوطنية) وُلدت مبتسرة، ومن ثم لم تنهض بالمهمة المرجوّة. ولا أتوقّع أنّ هناك إخلالاً ظاهراً في الحب، بحيث يستدعيه البعض، وإن كان ثمة حاجة إلى تجديد مفهوم المواطنة على وجهها في النفوس المضطربة، فإنّ ذلك شأن التعليم والإعلام، وسائر المؤسسات الثقافية. وطريق ذلك في فهم الإشكالية، وتصوُّر الحل، وتقديم التطمينات بين يدي الحديث.

لقد وثَّن الثوريون (الوطن) و(اللغة)، وكانت ردّة الفعل في نفي (الوطن) وإحلال (الأُممية)، ونفي (الوحدة العربية) وانتظار ما لا يأتي من تطلُّع إلى الخلافة الإسلامية. وكلُّ تطرُّف في المفاهيم يقابله تطرُّف مناقض، وبين التطرُّفين تضيع الحقيقة، إنّ علينا تنقية الأجواء من دخن الخطابات الثورية المحيلة إلى الثورة الأُم، واعتماد خطاب إصلاحي شمولي يتفادى الذوبان والشذوذ معاً، بحيث يتعصرن ولا يتغربن.

وقد يكون من المناسب في ظل الغلو الأُممي معالجة المفاهيم حول (النزعة الأُممية) وحدود الأخوة الإسلامية، إذ لا تعارض بين الوطنية الإقليمية والأُممية الإسلامية، إذا أخذنا بحقِّهما، وفق الضوابط الشرعية، وبخاصة حين يتناغم فقه الأحكام مع فقه الواقع. ولقد عالجتُ كثيراً من هذه القضايا في كتابي (أبجديات سياسية على صور الوطن) في الفصلين الأول والثاني، واجتهدت ما وسعني الاجتهاد في الابتعاد عن الغلاة وحدِّياتهم الصارمة ورؤيتهم التي تشكّلت في وقت القوة أو في ظروف جهاد الدفع.

والحب بكلِّ أنواعه ومجالاته صعب وطويل سلمه، والقول فيه رجم بالغيب، ومفهومه يشكِّل عقبة في طريق الوفاق. ولقد كانت للفلاسفة تهويمات حول مفهومه، وبعض الخائضين في شأنه العقدي والجنسي والإنساني والجمالي والجلالي يحيلون إلى مقولات هلامية (لجلال الدين الرومي). و(زكريا إبراهيم) في كتابه (مشكلة الحب) يحاول أن يطمئن المتلقِّي فيقول: (إنّ الحب حَلٌّ لا مشكلة وتفسير لا أحجِّية)، غير أنّ المشكلة في التمثُّل والتطبيق والمجال، وكم نرى ونسمع مقولات معسولة عن المواطنة من أُناس يخونون أماناتهم. والإسلام لا يحصر المسؤولية بل يعمِّمها (كلُّكم راعٍ) فالموظف الذي يختلس الوقت أو المال، والمواطن الذي يخالف النظام، أو يتحايل عليه، لا يكونان مواطنين أسوياء، وإذا كان الوفاء للوطن درجات، فإنّ الخيانة دركات فالمختلس للوقت أو

للمال أقلُّ خيانة ممّن يقتل النفس التي حرّم الله، أو يدمِّر ثروات الوطن، وأخطر الجنايات نقض العهد، والخروج على جماعة المسلمين، وأخطر المشاكل الفراغ الدستوري، ويقظة الفتن النائمة. ومكمن الداء ليس قصراً على الفئة الضالة، ولكنها أيضاً في الفئة المقصِّرة في مواجهتها، أو الخائنة للأمانة. وما الفساد الإداري، وضعف مخرجات التعليم، والتستُّر والتحايل على الأنظمة إلاّ لون من التقصير الضائع دمه بين شرائح المجتمع.

والتساؤل القائم: هل الإنسان مجبول على الحب أم على الكره؟ ولكي نقر في الأذهان ما نود أن يحسم المشكلة نقول: لا شيء يتميَّز إلاّ بضده، بمعنى: لا نعي النور إلاّ بتجربة الظلمة، ولا نتذوَّق الصحة إلاّ بتجرُّع مرارة المرض. ولا نعرف الحب إلاّ حين نعيش الكره. فالحب ليس قائماً بذاته، إنّه ضديه بمعنى أنّ الحب للشيء لا يتحقّق إلاّ بالكره لمقابله، فأنت لا تحب شيئاً حتى تكره ضدَّه، فإذا أحببت الحياة فأنت بالحتم تكره الموت، وأنت حين تحب الله، يجب أن تمتثَّل أمره ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وجذر الحب في القرآن الكريم يدور حول (الامتثال والأداء)، وليس حول الهيام والادعاء. إذ متى كان هناك حب كان إلى جانبه كره. والذين يجنحون إلى المفاهيم (الغاندية)، ويتوسّعون في مفهوم (التسامح) كما هو عند (جودت سعيد)، يذرون المقابل كالمعلقة، وعيب المشهد الثقافي أنّه يفصل الحب عن مقتضاه القائم على (الامتثال والأداء)، ولغط المختصمين توجّهه تقلُّبات الطقس السياسي، حتى لا يَجد المرء حرجاً من مناقضة نفسه بين عشيَّة وضحاها.

حب الوطن.. المفهوم والتفهيم .. ! (٢)[1]

والحب والكره صفتان قد يستقرّان شعوراً، ولا يتحقّقان فعلاً. كأن يحب الرجل (أُمَّه)، ولكنه لا يبادرها بما يسعدها، ويكره الإنسان عدوَّه، ولكنه لا يكيد له. والحب يأتي درجات بعضها فوق بعض، مثلما أنّ الكره يأتي دركات بعضها دون بعض، (ومن الحب ما قتل)، كما يقال، فهو إمّا أن يكون سلبيّاً فيؤذي، أو إيجابيّاً فينفع، والمحب الجاهل أضرُّ من العدوِّ العاقل، والحب يتنوَّع فمنه حب الشعور، وحب الفعل، والحب من الذات، والحب من الغير. بمعنى أنّ البعض يحب العمل المثمر من الغير، وقد لا يجد الرغبة في ممارسته، وقد تحب فعل الخير، ولكنّك لا تبادر إليه. إذاً: هل التقصير في حقِّ الوطن يحال إلى الكره له؟ لا أظنُّ ذلك، فالإنسان قد يمارس المعصية، وهو محبٌّ لربه. وفي الحديث: - «**لا تلعنه فإنّه يحب الله ورسوله**». إنّ مواجهة المرتشي والسارق والمتلاعب لا تكون بشعار حب الوطن، ولكنّها بالتربية القائمة على الترغيب والترهيب، وعلى مبدأ الثواب والعقاب، والتذكير بأنّ مثل ذلك مخلٌّ بالواجب الوطني لا بالحب الوطني. والأنظمة والقوانين والدساتير حين لا تحفظ التوازن بين الحقوق والواجبات، لا يتحقّق معها الحب المطلوب. وما انتفاع الوطن من التلويح باليد أو الهتاف بالأصوات، إذا لم يكن هناك واجبات مدفوعة وحقوق مصونة؟ وكلّما كانت دون المؤمل من الوطن موانع تحول دون استيفاء الحق، تفشَّت السلبيات واللامبالاة. وما الهجرات الجماعية والشّتات إلاّ مؤشِّر خلل في علاقة المواطن بوطنه. ولا بدّ أن نفرّق بين مقصِّر في الواجب ومضطرب في فهم الحب. الحب قائم على كلِّ الأحوال، والإشكالية في التقصير أو الخيانة أو الفهم الخاطئ، وتلك كلُّها تعالَج بالتشخيص أولاً، ثم باتخاذ طرق التخلُّص منها.

والحب على كلِّ مستوياته وأنواعه ومجالاته يُعَدُّ إشكالية عصيّة التصوُّر فضلاً عن الحل، سواء كان حسِّيّاً أو معنويّاً، شرعيّاً أو جبليّاً، وهو مع هذه الممانعة يمكن أن يكون حلاً. والنظر إليه من زاويتين هامّتين:

- الحب الرُّوحي.
- والحب الحسِّي.

فـ(الماديون) نظروا إليه من الجانب الجسدي، وحصروه في زاوية الشهوانية، وكان أكثرهم تطرُّفاً (فرويد). و(اللاهوتيون) نظروا إليه من الجانب الروحي، وكان أكثرهم غلوَّاً (المتصوّفة الباطنيين)، ولقد عُرف في الشعر العربي (الحب العذري)، والغوص في أعماق الجدل القائم بين الروحي والمادِّي دخول في المتاهات. وما من متطوّع لفك الاشتباك بين الفئتين إلاّ ويصاب بلوثة التطرُّف، والبحث عن (ماهية الحب) دخول في الجدل السوفسطائي العقيم. فالحب والسعادة والجمال كما السهل الممتنع، والأكثر وضوحاً هو الأصعب تحديداً. وإذ شُغل الدارسون للحب بأربعة خطابات، يعبِّرون عنها باللغة بوصفها وعاء الفكر ومستقرّ الحضارة هي:

- اللغة الأخلاقية.
- واللغة (البيولوجية).
- واللغة الاجتماعية.
- واللغة الصوفية.

---

(١) تاريخ المقال: ١٣/ ٦/ ٢٠٠٦

فإنّ لغة جديدة أكثر حدّة وصخباً، إنّها (اللغة السياسية)، التي تناسلت منها قيم ومفاهيم، ومن أشدّها تأبياً المراوحة بين (القطرية) و(الأُممية) و(القومية) و(الطائفية) وهذه المفاهيم أعطت اللغة السياسية أبعاداً جديدة، انعكس أثرها على عدد من الروابط.

ولقد اصطدمت (اللغة الوطنية) كفرع من فروع (اللغة السياسية) بالولاء الأُممي، في وقت لم تكن (الأُممية) على اتفاق حول القضايا المصيرية فضلاً عن الثانويات، وهو اصطدام استدعته تناقضات تشكَّلت منها خطابات تذكي الفرقة والتناحر، متجسّدة بالهتافات الغوغائية، والإبداعات الشعرية، والشعارات الفارغة. ولو تقصَّينا مستويات الخطاب واتجاهاته في الستينيات والسبعينيات لوجدناه (قوميّاً) في الأولى، (قطريّاً) في الثانية، (أُمميّاً) في الثالثة. وهو في كلِّ الأحوال يوقد من شجرة مجتثّة غير زيتونة، فهي إمّا شرقية أو غربية. ولو أُخِذ (الحبُّ) بمفهومه الشرعي، لما تخوَّف الناس منه، ولما تحفَّظوا عليه. فحبُّ الأوطان تتنازعه الغرائز والمكتسبات، وتحكمه النصوص، والدين يحترم ذلك كله، وفي الذِّكر الحكيم ربطٌ واضح بين (الدين) و(الوطن)، حتى لقد أصبح الإخراج من الدِّيار معادلاً للإخراج من الدين. وكأنّ الخروج من الدِّيار مساوٍ لقتل الأنفس، ولقد شُرع جهاد الدّفع لكلِّ من أُخرج من دياره، بل ربط القسط والبر بذلك، فالذين لا يُخرجون المسلمين من ديارهم، ولا يقاتلونهم في الدين، ولا يظاهرون الأعداء عليهم، يستحقون البر والصلة والسلم.

﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ [الممتحنة: ٩] فقد ربط النص المحكم بين المقاتل في الدين والمخرج من الوطن. كما تركَّزت مقاومة (موسى) عليه السلام على الإخراج من الدِّيار، بوصفها مقترفاً معادلاً للإخراج من الدين أو القتال عليه. وكان مكر المشركين واستفزازهم لإخراج الرسول من وطنه، ولقوة الحب الفطري للوطن جاء الخروج من باب التحدّي ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء: ٦٦]، وفي المقابل جاء التحذير من أمر الله لمن كانت المساكن المرتضاة أحب من الله ورسوله وجهاد في سبيله، وكذلك مصائر الظالمي أنفسهم، لأنّهم رضوا بالاستضعاف والبقاء في الأرض دون هجرة إلى أرض الله الواسعة، وبهذا امتاز الإسلام بحفظ التوازن فلا إفراط ولا تفريط.

وعلى الرغم من اتضاح الرؤية فإنّه يوجد خلط غريب حول تصوُّر الحب أو محقّقاته، بمعنى: كيف يتحقَّق حب الوطن؟ وما الشعائر والطقوس التي تؤكِّد قيامه في الأنفس وفي الواقع؟ وهذا الاضطراب ناتج اختلاط المفاهيم الثورية بالشرعية، وفقد التأصيل المعرفي لدى المتداولين لمثل هذه القضايا، والمصير إلى الحصرية في تحوُّل المقتضيات. وقضايا الأُمّة الكبرى من الثَّبات بحيث لا تخضع للظروف الطارئة. والحكومات الانقلابية وشعراؤها وكتّابها هم الذين استنُّوا طرائق سيئة في تجلية الحب، فكان التساؤل والتحفُّظ، واستغرابنا للتساؤل والتحفُّظ ناشئ من عدم استحضارنا لما هو عليه الحب الثّوري الموثّن. وهنا تبدو إشكاليات الحب المربكة مع أنّ خطابنا مؤطّر بالشرعي، إلاّ أنّ إقحام الشعارات والشكليّات، والقول في شرعيتها وأهليّتها في تجسيد الحب تُوقع في الاختلاف، وكان الأجدى أن نتحدث عن ترجمة الحب ومحقّقاته، وألاّ تعصف بنا أعاصير الادعاءات الكاذبة. لقد زهد العقلاء والمجربون بالشعارات، وخاب ظنهم بالهتافات، وقال قائلهم: - هاتوا برهانكم، ولا برهان إذا كان المواطن يدفع أغلى الأثمان للفرار ببدنه من وطنه.

إنّ ترجمة الحب في بذل الوسع، والتوازن بين الأخذ والعطاء، وكفّ النفس عن الأثرة، وكفّ اليد عن العبث، وتغليب المصلحة العامة، والنُّصح لله ولرسوله ولأولي الأمر، والصدق والأمانة، ورأب الصَّدع، وجمع الكلمة، ولزوم الجماعة، وإقرار النِّعم بالشكر، وصناعة الذات لبناء الوطن، والاستجابة لندائه الفعْلي والأخلاقي، وحماية الثغور: الحسّية والمعنوية، ومراعاة الحقوق والواجبات. فمن جاع، أو خاف، أو طُورد، أو سُلِب الحرية، لن يكون حبه وولاؤه كمن أمِن من الخوف، وطعِم من الجوع. إنّ الحب الجبلي الذي يخامر المواطنين لوطنهم لا مزيد عليه، ولكن الحب بحاجة إلى ترجمة سليمة تُخرج الناس من سلبيّات الشعارات إلى إيجابيّات الممارسات، ومن الفهم الخاطئ للأُممية والقطرية إلى الفهم الصحيح والأداء السليم، وإذا جسَّدناه بالشعارات والهتافات أضعناه، وما أضرَّ بالانقلابيين إلاّ لغة الزّيف والتمثيل، والتعويل على الشعارات، أو تناول مفاهيم الحب بشكل حدِّي يؤدِّي إلى تنازع وهمي لا قيمة له. إذ الشِّعارات ليست فرضاً إنّها خيارات، والعدول عنها لا يعني الإخلال بمتطلَّبات الولاء، والمصير إليهما لا يعني العبودية، إذ المسألة برمّتها خاضعة للبرهنة عن القيم المعنوية، وتحديدها والأخذ بأيسرها.

وما أغنى (الشاه) حين ألزم شعبه الوقوف له، كلّما خرج على الشاشة، لقد ضاقت عليه الأرض بما رحبت، حتى لم يجد قبراً يأوي إليه. والأعتى والأمَرّ من كلِّ ذلك اضطراب المفاهيم حول الشرعي والعرفي، واختلاف المندفعين والمتعالمين حول مشروعية الطقوس والشِّعارات، والخلط بين العادات والعبادات، وعدم التفريق بين البدعة في الدين، والبدعة الحسنة في الدنيا. ولست بصدد تزكية أحد المختصمين، ولكنني أودُّ سؤال أهل الذِّكر، واعتماد ما يصل إليه اجتهادهم فالشِّعارات نفذت أو لم تنفذ لن ترد معتدياً، ولن تملأ بطن جائع. وفوق ذلك فإنّ تحرير مفهوم البدع إشكالية نودُّ أن نتأمَّلها، ليسهل القبول بالمستجدّات من أمور الدنيا، ولاسيما أنّنا أُعطينا الضوء الأخضر: «**أنتم أدرى بأمور دنياكم**». وليس هناك ما يمنع من تمثُّل بعضها مسايرة لواقع الأمم، ولكيلا نكون نشزاً، ولا بدعاً بين الأُمم. إنّنا بحاجة إلى التعايش مع الآخر، والاندماج معه فيما لا يمس ثوابتنا، إذ لا مناص من ذلك، والاعتزال متعذِّر المنال فهو كالغول والعنقاء والخل الوفي. وواجب المتصدّرين للحظر والإباحة، وسدّ الذرائع، ودرء المفاسد أن يعرفوا الفرق بين العادات والعبادات، والفعل قربة إلى الله، والفعل لإنجاز أمر دنيوي. ولن يتحقّق ذلك إلاّ بالرد إلى ذوي الاختصاص، وأهل الذِّكر الذين يفرِّقون بين العرفي والديني والبدعة الشرعية، والتجديد الدنيوي. ومع اتخاذ كلِّ الترتيبات والتحفُّظات، فإنّه ليس من الحكمة أن نصادم الرأي العام، الذي يحيل إلى فتاوى العلماء، ولا أن نكرهه على ما يحوك في النفوس، ويتردّد في الصدور، لوقوعه تحت طائلة الاختلاف الشرعي المعتبر، وإن كان ثمة تغيير في الفتيا تبعاً لتغيير الزمان والمكان، ودوران العلة، فإنّ علينا أن نهيئ الأجواء بالتحوُّل المرحلي، وكم كنت أودُّ استحضار (العلّة) المنصوص عليها، كما في حكم المؤلَّفة قلوبهم فهي التي يدور معها الحكم وجوداً وعدماً، والتفريق بينها وبين الحكمة المستلهمة من التشريع، فالعلمانيون يخلطون بين هذا وذاك، لتعطيل الشريعة.

والمتابع الواعي لخطاب المواطنة عند الانقلابيين يعذر المتحفّظين، والمصيخ لخطاب الأُممية عند المنكرين للمواطنة القطرية يعذر المتأقلمين. فالتطرُّف في الحب يقابله شمول في التوقُّف. وشعراء الانقلابات الثورية يستفزُّون الرأي العام، لأنّهم يقولون منكراً من القول وزورا، فهم لم يقفوا عند حد المعقول والمقبول، بل أوغلوا في التصنيم، ونقلوا الحب الشرعي المفروض إلى الحب الوثني المرفوض. والذين تقحموا الموضوع من بني جلدتنا دون رصد دقيق للخطابات المتعدّدة يتصوّرون الأمر عفوياً، ويظنون أنّ

التردُّد في القبول اعتراض ذاتي مدان، وما هو كذلك، إنّ هناك معهودات ذهنية، تتضخّم كما الأشباح في الأجواء المخيفة، ولنا أن نتذكّر الموقف من تعليم (المرأة)، لقد كان الاعتراض مربوطاً بما هي عليه أوضاع المرأة في بعض البلاد الإسلامية، من تبرُّج، واختلاط، وخلوة، وهو ناتج التعليم والعمل. وحين وضعت الدولة نظاماً صارماً بلغ بالمرأة أوج التعليم، وأبقى على عفّتها وطُهرها، أقبل المعارضون ببنائهم، واستعجلوا الدولة في التوسُّع. والذين سخروا من المعارضين ومن تراجعهم لا يستشعرون المعهودات التي حرّكت كوامن الخوف، إنّ المعارضين محقُّون، والدولة محقَّة، والإشكالية في نظر المعارضين إلى واقع عربي مدان، وفي إحالة الدولة إلى نظام صارم حفظ للمرأة عفّتها. وبين المعهود والموعود نشأ الاختلاف، ثم كان بالموعود الاتفاق.

وأحسبنا قد عدنا إلى دوامة المعهود والموعود في الشأن الوطني، إنّ إبداعات شعرية وسردية تؤله الوطن، ولا تمجِّده، وولاءات أُممية أضاعت الوطن وعرضت الجبهة الداخلية للتفكُّك، حملت المعتدلين على الاستبانة، لتطمئن قلوبهم. ويقيني أنّ المتداولين لهذه القضية في الندوات والكتابات والمؤتمرات، لا يخرجون عن المشروع، ولكن التوفيق بين وجهات النظر وأسلوب التناول أثار بعض التساؤلات عن كلِّ حديث عن الحب الوطني. وفي النهاية فإنّ التحفُّظ أو الاندفاع لا يمثل المعيار ولا المقياس، فكم من صامت أبرّ من البررة، وكم من مهذار متزلّف، يريق ماء وجهه عبر القنوات، ويَعْرِض نفسه بأبخس الأثمان، أعق من العققة. والوطن هو الوطن، ولا وجود بدون وطن، يُفتدى بالنفس والنفيس، وحيث يكون الأمن، والرخاء، والاستقرار، والحرية، والكرامة، واحترام القيم، يكون الوطن. وحيث يكون الصدق، والإخلاص، واحترام الأنظمة، وحماية كافة الثغور، ولزوم الجماعة، تكون المواطنة. وما هو بادٍ للعيان من تجاوزات في تحرير مسائل الوطن والمواطنة، لا يَضْبطُ إيقاعَه إلاّ ثلاث مؤسسات: الدينية والتربوية والإعلامية، وواجب بقية المؤسسات أن تلتقط الخيط لا أن تمارس التلقين.

وما علي إذا لم يفهم المناوئون .. ؟[(١)]

ثارت ثائرة الكاتب (علي بن فايع الألمعي) حين أيقظه حديثي عبر برنامج (إضاءات) على المفهوم الصحيح لمقاصد (الأدب الإسلامي) ومقتضياته، وكتب بروح الشمت المشيّع لفعاليات (الأدب الإسلامي) إلى مثواه الأخير (جريدة الوطن ٤-٤-١٤٢٧هـ). وتبين لي أنه من أولئك النفر الذين يسهل اختراقهم، ويمكن تشكيل وعيهم، ولم يكن بهذه الاستجابة ألمعيًّا. وهذه النوعية من الناس مصابة بقابلية الاستجابة الفورية، وبسرعة الانقياد، وقد تستمع القول فتتبع أسوأه. لقد فهم (الأدب الإسلامي) على غير مراد أهله وخاصته، وتصور أنه يقوم على التصفية والتصنيف والإقصاء، بحيث لا يبرح ثنائية (الكفر) و(الإسلام)، وأن ذويه يحملون درة (عمر)، يشجون بها رؤوس المخالفين لمرادهم المفرط في الغلو، وما هو - علم الله - كذلك، ولكنه التوهيم الذي فعل فعله بأدمغة لا تحمي أجواءها من اللوثة والتلوث.

والأستاذ (الألمعي) مهذب في خلقه، ومؤدب في حديثه، كما يبدو من تعقيبه، واحترامي لإثارته، حملني على الرد، لتصحيح مفهومه، والكاتب محق حين يسأل عما قلت في برنامج (إضاءات)، لأنه كسر مسلماته التي لم يُدرك خطأها، ولربما ظن أن ما قلت تحولاً في المفاهيم، وفراراً من الزحف، وبداية انقسام خطير. وأخذه للمعلومة من مصدرها بدون حائل غيَّر كثيراً من تصوراته، وما ضلت المشاهد إلا بالشائعات والافتراءات والتقول على الخصوم بعض الأقاويل.

لقد كان برنامج (إضاءات) منبراً حيادياً، قلت من خلاله ما أعتقد، ووصول خطابي إلى الذين يصرون على رؤيتهم التي تشكلت في غياب استبدادهم يثير التساؤل، وكم كان بودي أن يستمع الخصوم والمتحفظون، ماذا يراد ب(الأدب الإسلامي) وما حدوده ومجالاته، وما مدى صلته بالأدب العربي؟. وعبر فترات متقاربة، التقيت بأدباء ومفكرين في سائر الأقطار العربية والإسلامية، وحاولت أن أبسط لهم القول عن مفهوم (الأدب الإسلامي) ومقتضياته، ومدى صلته بالآداب الأخرى، وموقفه من كل الأبعاد اللغوية والفنية والدلالية، وما من مستمع يلقي السمع، وهو شهيد إلا ويبارك الخطوات، ثم لا يجد غضاضة في أن يعيد صياغة مفهومه وموقفه. ويا ليت قومي يعلمون أن المراد من وراء هذا الاتجاه إشاعة الكلمة الطيبة، ولو كنت فيما أرى على خلاف ما أقول، لاستبان ذلك زملاء وطلاب، كنت معهم مشرفاً على رسائل (الدكتوراه) و(الماجستير)، ومناقشاً لها، أو محكماً في بحوث الترقية ومواد المجلات المحكمة؛ وأعمال المرشحين للجوائز العالمية، أو محاضراً ومنتدياً. وعبر هذه المهمات لم اختلف مع أحدٍ من أولئك بالشكل الذي يتصوره البعض، فكيف يتصور صاحبنا أن (الأدب الإسلامي) خلق آخر؟ واختلاف (الأدب الإسلامي) مع حداثة الفكر والفوضوية الأخلاقية عين التعالق مع الكلمة الطيبة.

والأستاذ (الألمعي) يحسب أن إشاعة الكلمة الطيبة من السهولة بمكان، بحيث تمر مرَّ السحاب لا ريث ولا عجل، وما يدري أنها لن تشيع إلا إذا أجهضت الكلمة الخبيثة. ولأن للكلمة الخبيثة أنصارها ومنتجيها والمستفيدين منها فإن (الأدب الإسلامي) وأنصاره مكرهون على الصراع أو الصدام، بعد استنفاد وسائل الدفع بالتي هي أحسن، وكلمة (خبيثة) دركات، فهي تطلق على الرديء المباح، وعلى الفاسد المحرم، وقد ترد في سياق يمنحها المشروعية على حد: (حاكي الكفر لا يكفر). و(أدب الاعتراف) و(الواقعية) و(الفوضوية) أضلت أفهاماً، وأزلت أقداماً، ولمَّا تزل مصدر اختلاف في المواقف

---

(١) تاريخ المقال: ٢٠/ ٦/ ٢٠٠٦

والمفاهيم، ولا ينجو من مزالقها إلا العالمون بالمحظور والمباح. ولما كانت (الحرب خدعة) فإن الذين لا يحترمون المصداقية يقترون الكذب، ويمعنون في التضليل، ويخوفون أولياءهم من هذا المصطلح الذي أرست قواعده (آيات الشعراء)، ومن أصدق من الله قيلا، وأملي من كل الطيبين ألا تغشاهم المفتريات، فيصدقون ما يقال.

إن (الأدب الإسلامي) هدف كل مسلم، ومطلب كل شريف، ومن ذا الذي يود إشاعة الرذيلة، وتدنيس المقدس، وإفساد الأخلاقيات. ولهذا فقد أنس (الألمعي) بهذا القول الذي قلته، وتبقى مع كل ذلك مساحة للاختلاف، فلكل أديبٍ أو مفكر رؤيته وحدود تصوره، فما يراه (الألمعي) مسموحاً به، قد لا أراه أنا، ومن هنا ينشأ الاختلاف المشروع. وإشكالية التفريق بين الثابت والمتحول، والفكر والعقيدة، والعادة والعبادة، قائمة على أشدها وستظل مجال تباين وتنازع، فقد يكون الثابت عندي متحولاً عند غيري. على أن الحل ممكن، لو عرفنا حتمية الرد لله ولرسوله والتسليم بقضائهما، وأنه لا خيرة عندئذ ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾.

وإذ نتفق على حق الحرية، وحق الإمتاع واللهو المباح على حد (إن الأنصار يعجبهم اللهو)، فإننا نختلف حول الحدود والمجالات والمقادير والأنواع، وهذه الضوابط لم يتفق عليها الفقهاء والأصوليون، فضلاً عن الأدباء والنقاد، الأمر الذي جعل الجميع على موعد مع الاختلاف. ومن الخير لنا أن ترحب صدورنا، وأن تحسن مقاصدنا، وأن نقبل الرأي الآخر، متى كان في إطار اختلاف التنوع لا اختلاف التضاد.

و(الألمعي) ومن معه تصوروا أن لقائي يشكل تحولاً في الآراء والمواقف، وعلم الله أنني لم أزل على العهد وعلى الوعد، وأنني لم أتحول قيد أنملة، وما كنت لأساوم على موقفي، ولا أن أتملق النظارة، فما عدت في هذه السن وفي تلك المكانة محتاجاً إلى استرضاء الآخر على حساب مواقفي. وإشكالية (الألمعي) أنه يحتفظ بصورة مزورة عني، ولما رآني على حقيقتي راعه الأمر، ورابه الموقف، وظن بي الظنون. (الأدب الإسلامي) في نظري منذ أن باركت خطوات المؤسسين والمناصرين له، لا يعدو إشاعة الكلمة الطيبة، والدليل على ذلك أن فنياته وأشكاله ومجازاته واستعاراته وكافة محسناته لا تختلف عما هي عليه في (الأدب العربي) منذ العصر الجاهلي، حتى كتابة هذه الأسطر. ولأجل تقريب وجهات النظر كانت لي محاضرة في (مصر) عن (علاقة الأدب الإسلامي بالأدب العربي)، ولتعميم الفائدة نشرتها في هذه الجريدة، وهي في موقعها على (الإنترنت)، وخلاصة القول إن (الأدب الإسلامي) جزء من (الأدب العربي) وإن كان ثمة اختلاف فإنه في الانحراف الفكري أو السقوط الأخلاقي الذي وسعه (الأدب العربي) وتحاماه (الأدب الإسلامي)، ولمّا يزل (الأدب العربي) مطية مذللة لكل خطاب، وما اعتراه من تسييس و(أدلجة) و(حدثنة) يوجب على الخيرين انتباذ مكان قصي تمارس من خلاله الكلمة الطيبة.

وما فعله الأستاذ (الألمعي) من إحالة للتراث واستنجاد بـ(أبي محمد بن حزم) رحمه الله في كتابه (طوق الحمامة) حجة واهية، فالتراث العربي له وعليه، ولا تخلو فترة من فتراته من علماء وأدباء وشعراء ومؤلفين وموسوعيين يقترفون ما هم مقترفون، والعصمة والتزكية ليست إلا للرسل. فـ(ابن حزم) رحمه الله عالم موسوعي، وفقيه متبحر، ومحدث حافظ، ولديه حس أدبي، وهو و(ابن عبد البر) من أوائل من تلقيت كتبهم بالقبول الحسن. ولعل (الألمعي) يقرأ شيئاً من (نزهة المجالس) لـ(ابن عبد البر)، ومع هذا

فإن (ابن حزم) لم يخل من الخصوم في الفقه والحديث وعلم الكلام والأدب، حتى وصفه البعض بالجهمي الجلد، وله رؤية شاذة في كثيرٍ من الفنون.

والتمترس خلف الموروث الإنساني مؤشر فهم ناقص، إذ كل عالم راد ومردود عليه، إلا رسول الله ﷺ المعصوم والمؤيد. وإذا اختلفنا في شيء من أمر الدين أو الأخلاق أو السلوكيات أو مضامين القول، فإنه لا يرد إلى التراث البشري، وإنما يرد إلى الله والرسول. ولست على أي جبهة مدافعاً عن تجاوزات بعض المشايعين ل(الأدب الإسلامي) فهم قد يردون قولاً مشروعاً، وقد يضيَّقون واسعاً، فكل أديب مسؤول عما يفعل وعما يتصور. فالمبادئ لا تحتمل أخطاء المطبقين، والتاريخ الإسلامي يختلف عن تاريخ المسلمين. ولسنا بقادرين على أن يكون كل منتمٍ للأدب الإسلامي على حق، يتصرَّف وفق مقتضيات (الأدب الإسلامي) إن دفاعي عن مفهوم الأدب ومقتضاه، وليس عن الأديب الإسلامي ومقترفه. والمتبدي من خلال رد (الألمعي) أن نَفَسَه مع الحداثة دون تحفظ، وأساطين الحداثوية من خلال قولهم المنحرف كما المنافقين الذين قال الله لهم: ﴿لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَـٰنِكُمۡ﴾. ولسنا نطلق الكفر على معين، ولكننا نحكم بكفر القول حين يدنس المقدس أو يستهزئ أو يرد ما علم من الدين بالضَّرورة، والحداثة حداثة فكر وحداثة فن، والحكم بعد التصور، والتجديد غير الحداثة، فأنا مع التجديد، ولست مع الحداثوية

وحين أرد على (الألمعي) قوله لا أدافع إلا عن نفسي، ولا أحتج إلا برؤيتي، ولا أقدم (الأدب الإسلامي) إلا من خلال تصوري ومفهومي. ولكنني مع هذا أثق بالاخوة والزملاء في الرابطة، فسوادهم الأعظم على وعي تام بالمقتضيات والأهداف، وليس فيهم من هو على شاكلة ما يتصوره الكاتب. ومع تجاوزاته فإنني أحمد له البوح بما يعتمل في صدره. وهو قد وصفني ب(الشراسة) و(العناد)، وأحسبها كلمات لا تليق بي، ولا تحسن منه، ولكنني سأمضي، وكأنه لم يقل، ولم أسمع، مردداً قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾.

وأحب أن أطمئن الأخ أن أنصار (الأدب الإسلامي) لن ينشقوا على أنفسهم، وأن لهم آراءهم المختلفة، وأنهم كغيرهم يدركون تعدد الآراء واختلاف وجهات النظر. وقولي إن (الأدب الإسلامي) يقوم على إشاعة الكلمة الطيبة قول يؤمن به كل المنتمين لهذا الأدب وهو ما يرحب له صدر (الألمعي). ومهمة (الأدب الإسلامي) لم تنتهِ، ولن تنتهي كما يتصور الكاتب، إنها مرتبطة بالبلاغ والدعوة، وأملي أن يحسن الكاتب ظنه بإخوانه، فليس لهم أهداف، ولا غايات دنيئة، ومعاذ الله أن أكون المبشر بالنهاية. وكل الذي أقوله لأخي: عليك الثبات على المبادئ. ولا تمل مع الريح حيث مالت.

وإذا كان من أنصار (الأدب الإسلامي) من له هدف أو نيَّة دنيئة فذنبه على جنبه، وهو وحده الذي سيحاسب على ما في صدره. وليس بغريبٍ أن تسوء بعض النوايا، فالمنافقون خرجوا مع الرسول ﷺ يقاتلون، وهم في الدرك الأسفل من النار، ولا نزكي على الله أحداً، فالله أعلم بما في نفوسنا. نعم نحن في الدنيا نحاسب على الظواهر، ولا نقدر على شق صدور الناس لنعلم ما فيها، وفي الآخرة وحدها (يحصَّل ما في الصدور). فعلى أخي (علي) أن يُعرض عن اتهام الناس في نواياهم، وأن يستغفر لذنبه، وأن يكف عن التوهين، وأن يعرف أنه يتحدث في قضايا ذات مساس بالدين، وعليه أن يقرأ آيات الجدل مع الذين يخوضون في آيات الله بغير علم، وآيات التأنيب للمستهزئين، فهي الروادع

والمؤطرة. ودون ذلك وفوقه أحسب له ثناءه الذي لا استحقه، وإعجابه الذي لا أراه، ولو كانت القضية ثنائية بينية لما كتبت الرد، ولكن الأمر يمس قضايا حساسة.

وحول رغبته في أن أُسأل عن كتاب (الانحرافات العقدية في شعر الحداثة) ليكون في هذا السؤال إحراج لي، وكشف عن تناقض مواقفي. أحب أن أصحح مفهومه، فالكتاب لم أكن مشرفاً عليه، ولا مشاركاً في تأليفه، ولست مسؤولاً عما فيه من أخطاء، إن كان ثمة أخطاء، وكل دوري فيه دعوتي بأن أكون مناقشاً خارجياً. فالكتاب رسالة دكتوراه تقدم به الدكتور (سعيد بن ناصر الغامدي) إلى قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة بجامعة الإمام، والمشرف عليه (سماحة المفتي)، والمناقشون معالي رئيس مجلس الشورى، وفضيلة الدكتور ناصر بن عبد الكريم العقل، وهم من هم في علمهم وورعهم وحرصهم على سلامة المقاصد، ولقد دعيت للاشتراك في المناقشة. والباحث بذل جهداً في تقصي الانحرافات العقدية في شعر الحداثة، وناقشها على ضوء رؤيته المستمدة من الشريعة، ولما يزل عمله مشروع أخذ ورد، ولقد جادلته أكثر من ساعة، وما ازددت إلا إعجاباً بدفاعه عن رؤيته. ولاشك أن في شعر الحداثة انحرافات فكرية، تصل إلى حد الإلحاد. وأعيذ (الألمعي) من أن يتحمل أوزاراً ليس له دور فيها، وأتمنى ألا يكون معذراً لشعراء يدنسون المقدس، ويتطاولون على الذات الإلهية. وإذا كان الباحث قد تجاوز أو أخطأ فعلى الأستاذ (الألمعي) أن يضع يده على ذلك لتداركه، ولقد كان لي إسهام يسير في رد كثيرٍ من أحكام البحث، طاوعني الباحث في بعضها، واحتفظ برؤيته في البعض الآخر، ومن ألف فقد استهدف. والباحث مع كل ما تتسم به الرسالة من الحدة والغيرة المحتدمة على محارم الله مثال الجد والاجتهاد، ومع الثناء والتقدير لا نزكيه، ولا نبرر أي خطأ وقع فيه، وفات علينا. وأحسبه سعيداً لو وضعت يده على الهفوات، وممتناً من كل من يهدي عيبه إليه، وما من مؤلفٍ عاد إلى عمله إلا تمنى التعديل والتبديل والحذف والتقديم والتأخير. وواجب (الألمعي) أن يهدي عيوب صاحبه إليه، وحق كل متحدث على مستمعيه أن يرشدوه إذا ضل. وأحب أن أؤكد للأخ أنني على العهد، ولم أتراجع، ولن أتراجع، ولكنها حقائق دامغة، سمعها فكشفت عن تحامل الخصوم. فما كان منه إلا أن حملها على التراجع، وما هي كذلك. وأنا من قبل ومن بعد لم أخف قناعتي، ولست محتاجاً أن أداهن، ولا أن أجامل، فأنا غني بالله عن كل مجاملة تجر مصلحة عاجلة.

وامتناني من كلمات الثناء والإشادة لا تحول دون عتبي على كلمات اللمز والغمز، ولما أزل مطمئناً كل الاطمئنان على أن البقاء للأصلح، وان الله يحاسب على النيات. وكل الشكر للمثير ف:

لـــولا اشـــتعال النـــار فيمـــا جـــاورت

مـــا كـــان يعـــرف طيـــب عـــرف العـــود

الاستفزاز بالمعار والمعاد .. !(١)

يقال: - إنّ التاريخ يعيد نفسه. إذ كلّما تشابهت الأحداث والوقائع تبدَّت هذه المقولة، كما لو كانت حتماً مقضيّاً. والتاريخ الراصد للأحداث ينبعث من مرقده، كلّما وقعت حوافر الأحداث على حوافر الأجْداث. وإذ تتكرر الوقائع والأقوال والآراء، يتكرر الأناسي بألسنتهم وألوانهم وأفكارهم. وقديماً قيل: - (يخلق من الشبه أربعين). ومثلما ارتبكت (مِلِكَةُ سبأ) أمام عرشها، فقد يرتبك المفاجَؤون بالأحداث والأناسي، حتى يقول قائلهم: - كأنّه هو.

وبعض الذين يكتبون في قضايا الدين والفكر والسياسة والأدب والتربية يُبْلَوْن بآفة السرقة أو التقمُّص، ثم لا يحسنون التستُّر، فيكونون بمجاهرتهم كما الهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد. وقد يبلغ الأمر بالبعض منهم حد التقنُّع والتماهي، بحيث يغدو المتقنّع بمن سلف أو عاصر مسكوناً به، يقول ما قال. ولو بعث القِناع من جدثه، لقال لسان حاله ومقاله: - (هذه بضاعتنا ردَّت إلينا). ولست أقصد بالظاهرة مصطلح (القِناع) بصورة: المسرحية والاحتفالية والمأتمية، كما لا أقصد بها ما يسمَّى ب(قصيدة القناع) التي شاعت في المشهد النقدي الحديث، فالمصطلح وقصيدة القناع ظاهرتان مشروعتان منضبطتان. حتى لقد تعاقب الدارسون على التماس الأقنعة في الإبداع الشعري والسَّردي. وما أعنيه بالتقنُّع تجوُّزاً اختلاس الأفكار والآراء، وتبنّيها على أنّها من عند أنفس المتقنّعين. فبعض الذين يصفهم القراء بالمفكرين، لا يجد أحدهم حرجاً من أن يكون نسخة مشوّهة لمن سبق من مستشرقين أو مستغربين، أو متعلمنين، أو متحدثنين، يقول مثل قولهم. والخبيرون ببواطن الأمور يدركون التشابه، ثم لا يكونون كبني إسرائيل الذين تشابه البقر عليهم.

وحين أشهد بما أعلم، لا أجد الاتهام خاضعاً للمراء ولا للاستفتاء، فهو كالنهار الذي لا يحتاج إلى دليل. ولقد قلت، ولمّا أزل أقول: إنّ كثيراً من الأدباء والمفكِّرين لا يكررون أنفسهم وحسب، ولكنّهم يكررون غيرهم من خلال تبنِّي مواقفهم واختلاس أفكارهم، على حد: - (فندلاً زريق المال ندل الثعالب) وإن كان المُختلِس مُنكراً من القول وزوراً. ودافع المختلسين ما يعيشونه من صدمة الانبهار، وقابلية الخنوع والاستجداء والانكسار، ومحبو الظهور ينشدونه من خلال القول في (المسكوت عنه) أو في (اللا مفكّر فيه). وكم هو الفرق بين التأثُّر المشروع والاستنساخ الحرفي الممنوع. ومن ذا الذي يعي براءة النصوص من تأثير ما سبق؟ ومصطلح (التناص) كما يراه الألسنيون، يختلف كثيراً عن التبعية والتلفيق والترديد الببغائي. وما افترقت هذه الأُمّة على ثلاث وسبعين فرقة إلاّ بسبب ما تُلقيه الأفكار والمناهج والآليات المجلوبة، دون تمثُّل واقتدار على أمنية المتلقِّي. وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردَّ له، وإلاّ فإنّ طريق النجاة أن ينسخ الله ما يلقي شياطين الإنس، مثلما نسخ ما يلقي الشيطان في أمنية الرسول ﷺ. ولنزول هذه الآيات أسباب اضطربت حولها الآراء، ولقد تقصّاها (الألباني) - رحمه الله - في (نصب المجانيق). وما من قارئ متسرّع لا يُحكم قوله إلاّ كان هالكاً مهلكاً لمن حوله. والخلط الفوضوي بين الحق والباطل وسنّة التدافع والتداول هي الطاقة النووية لاستمرار الاختلاف بكلِّ أنواعه.

والمثقّف الشمولي المتابع لكثير من المتداوَل من الآراء والأفكار حول مجمل القضايا الكبرى يدرك أنّها بضاعة مختلَسة، أمّا الذين قعدت بهم هممهم فإنّهم لا يعرفون القوم من لحن القول، ولا يعرفون أنّ أصحابهم نقلة ليس غير، ومن ثم لا يزالون ينفخونهم بأفواههم ويوكونهم بأيديهم، حتى يوقظهم الخبيرون. وقد يقضي الله أمره قبل استدراكهم للحقائق.

---

(١) تاريخ المقال: ٢٧/ ٦/ ٢٠٠٦

وتلافياً لما يمكن اتخاذه ذريعة للنقل الحرفي أقول: - إنّ هناك فرقاً واضحاً بين المتأثّر بالأفكار والسارق لها، والمستعين بالمناهج والمدّعي ابتكارها. والمشهد الثقافي العربي مرَّ بمحطات مضيئة، وأخرى معتمة. ف(العقاد) أنِسَ ب(المذهب النفسي) وأحسن استثماره، و(محمد مندور) أعجب ب(اللانسونية) فاستكملها تنظيراً وتطبيقاً، وما كان أحد منهما مختلساً ولا متقنّعاً. والمشاهد لن تفقد الفائدة، فقد يكون لصوص الكلمة أو الفكرة أو المنهج من المنشطات للمشاهد، فالدخول في الجدل حول مشروعية الاستفادة بين الفرقاء، يستدعي الاستزادة من المعارف، لتحصين الحمى، وطرد الحائمين حولها، وهذا بحدِّ ذاته منعشٌ للحركة الفكرية والأدبية، وكم من رويبضات تكلّمت فأيقظت حراس الفضيلة. وما يخشاه الكرماء اكتناف الجدل بمراء غير محق، أو امتداده من الموضوعي إلى الشخصي، أو تقحم المشهد بمن لا علم له ولا خلاق، فيكون ذلك مؤذناً باعتزال المحقين وترك المشهد لمن لا يحسن القول، ولمن لا يملك المعرفة، وبودِّي لو أُعيدت قراءة الموجات السياسية منذ ثورة (حسني الزعيم)، والموجات الفكرية منذ (الطهطاوي) والموجات الاجتماعية منذ (قاسم أمين) لتستبين شواهد المبادرات ووثائق الإغارات.

وعلى ضوء مقولة: - (التاريخ يعيد نفسه) أقام المفكِّر العربي (برهان غليون) منهجه في كتابه العميق (نقد السياسة: الدولة والدين)، ومع جاذبية الخطة وثبات الخطوات، إلاّ أنّ فجوات واضحة لمَّا تزل بعد لم تجسر. ولسنا بصدد تحديد الموقف من الفرضيّات والمعالجات وتقويم النتائج، وإنّما نريد أن نوضح اتكاءه على فرضية عودة التاريخ، فالمفكِّر يستهل رصده للحركة السياسية العربية بالقول عن (الثورة الدينية) بوصف الرُّسل يمثِّلون ذلك المفهوم، حسب رؤيته، ولهذا خرج من الحديث عن (الثورة الدينية) إلى (الثورة السياسية). وما نقصده من هذا الاستدعاء القول ب(عودة التاريخ)، وسواء كانت عودة إلى الجذور أو تعالقاً مع المستجد السياسي العالمي ك(العلمانية ونقد الدين). وتكرار الأنظمة كتكرار الأفكار. والإشكالية في النمطيّة والتناظر، ووقوع الحافر على الحافر، وتلك سمة المشاهد كافة. والحديث التاريخي أو السياسي أو الفلسفي عن أُم الثورات (الثورة الفرنسية) يمثِّل الاجترار، ولا يخلص إلى الاختيار، فكلُّ منظِّر لثورة قائمة أو قادمة لا يبدئ القول، ولكنه يعيده.

وليس مهماً أن يكون المفكِّر (غليون) موفّقاً في المآل، أو لا يكون، وإنّما المهم تعالقه مع هواجس عودة التاريخ، وتجانس الأحداث. ولسنا بهذا نلتمس الإدانة أو القمع لسارقي الأفكار والمبادئ والمناهج، وإنّما نريد أن يعرفوا قدر أنفسهم، وأن يعرفهم الرأي العام على حقيقتهم. والذين استولت عليهم ظواهر الغرب ومبادئه وتياراته، وسحرت أعينهم عصيُّه وحباله، لم يقدروا على الغوص في الأعماق، وتلمُّس الجذور، والاستقلال في الحديث. فهم بلا شك عاجزون عن التخلُّص من هيمنتها، وقدرهم أن يظلُّوا شركاء في اجترار الآراء دون المبادرة المطلوبة. فالذين أغثونا بالحديث عن سائر الظواهر الفكرية والسياسية والأدبية وتبنِّيها، ليسوا متأثِّرين ولا معجبين، ولكنّهم أدعياء مبهورون، يسطون على طبيخ الغرب المغِبِّ، وليس لهم إلاّ مهمة التسخين، ولقد قال (مارون عبود) عن بعض آراء (طه حسين): إنّها تسخين لما غبَّ من أفكار الغرب.

والذين يغثوننا بترديد مقولات العلمانيين والحداثيين و(الليبراليين)، ويستفزُّون الرأي العام باجترارها، لا يلوون على معرفة، ولا يحيطون بحكم. والراصد للخطاب العلماني عند أساطينه في الوطن العربي لا يستغرب القول عن الحاكمية والشمولية والدينية والحرية وسائر قضايا السياسة والاقتصاد والاجتماع. وهذا الصنف من الكتبة ما هم من التأصيل في شيء، ولهذا يقعون في نواقض الإيمان، وهم لا يشعرون، وإذا روجعوا في شيء من ذلك أظهروا سلفية ناصعة، وآفتهم من الفهم السقيم.

والمسخ والتقنُّع يمس الكبار، حتى لقد يبلغ الأمر بالمتابع إلى اتهام نفسه، ذلك أنّ البراءة من التأثُّر من المستحيلات، ونحن هنا لا نستدعي إلاّ السارقين في وضح النهار. ولو ضربنا الأمثال ب(محمد أركون) و(نصر حامد أبو زيد) و(صادق جلال العظم) وقطيع (الماركسيين) المتعفِّنين من قبل، والمهتاجين العزل على كلِّ الصعد وبعض رؤاهم لوجدناهم يسطون على مناهج المستشرقين ورؤيتهم ومواقفهم. وسرقتهم للأفكار لا تمس اقتدار بعضهم، ولا مكانتهم المعرفية، إذ إنّ اللصوص لا يكونون بالضرورة صعاليكَ، يسدون بما يأخذون رمقهم، حتى أنّ التسوُّل اليوم أصبح تجارة رابحة.

وإذا كان الفلاسفة والمتصوّفة المتغنصون قد جنحوا عن مقتضيات النص الشرعي، وأعملوا العقل في تصوُّر الكون والحياة والإنسان والخلاق متوسّلين بنظرية (التأويل)، فإنّ مفكِّري العصر الحديث اتخذوا الطريق نفسه متوسّلين بنظرية (التفكيك). والاختلاف بين الطرفين أنّ الأوائل اشتغلوا بعالم الغيب، والمحيل منهم إلى النص أفقده سلطانه بالتأويل الجائر، والأواخر اشتغلوا بعالم الشهادة، وقالوا بموت (الميتافيزيقا)، والمحيل منهم إلى النص عطّل دلالته بالمنهج التفكيكي، و(علم الدلالة) من كبرى القضايا الألسنية. وازدراؤنا لا يمس الورثة المتصرّفين بالموروث وفق المناهج والآليات المستجدّة، ولكنه يمس اللصوص الذين يسطون على بنات الأفكار، وهم لا يعرفون ما الكتاب وما المعرفة. ف(التأويل) آلية ومنهج قديم، يستطيع أصحاب الملل والنِّحل من خلاله إجهاض النص، وتحميله ما لا يحتمل، ولقد عوَّل العلمانيون على ذلك من خلال مقولتهم: - (الشريعة لا تفسِّر نفسها) و(التفكيك) إجهاض، ولكنه من نوع آخر، وحجّة المسترفدين انفتاح لنص، ودعوى الانفتاح فرضية عائمة، يقول بها النّقلة البله، ولو طلبت من أحدهم أن يضرب لك مثلاً من النص المفتوح أو المغلق، ومثلاً من مناطات المتأوّلين والمفكّكين لم يحر جواباً. والذين اتخذوا المنهجين بوعي أو بدون وعي سرّاق مناهج، وليسوا مسترفدين معترفين بفضل السابق. ولقد كنت حريصاً على تقصِّي مقتضيات مصطلحيْ (التأويل) و(التفكيك) ومدى التقائهما وافتراقهما وانعكاس أثرهما السيئ على النصوص القطعية الدلالة والثبوت. ولو تلمَّسنا مناطات المشكِّكين لوجدنا أنّ معوّل (أبي زيد) على تلبُّس الوحي باللغة، ومعوّل (أركون) على توحيد (الرسم القرآني) وذلك بعض السطو المخجل. وقبل هذين جاء تعويل (طه حسين) على التاريخ والأسطورة في تكذيب مجيء (إبراهيم) عليه السلام ل(مكة).

والمتقصّون لحركة الفلاسفة والمتصوّفة والمفكرين وعلماء الكلام وافتراقهم معرفياً وسلوكياً والتقائهم، يدركون أنّ التأثير الشرقي لا يختلف عن التأثير الغربي على مُفكِّري العصر الحديث. والإشكالية فيما يعانيه الدارسون من تداخل في المفاهيم. فالمفكِّر والفيلسوف والمتكلِّم والمثقَّف والمتصوّف كلُّ أولئك يحيلون إلى مفاهيم لا تأخذ دقّة المصطلحات الجامعة المانعة، والمأخذ على كثير من الفلاسفة الأوائل والمفكرين الأواخر أنّ أولئك عوَّلوا على فلاسفة اليونان، وتقمَّصوا مناهجهم، واستعانوا بآلياتهم، وأنّ هؤلاء عوّلوا على فلاسفة الغرب وتقمّصوا مناهجهم واستعانوا بآلياتهم، وذلك مكمن المسخ والتكرار. واختلافنا مع من سلف ك(ابن رشد) و(ابن سينا) و(الكندي) و(الفارابي) لا يمس اقتدارهم، كما يدَّعي الأدعياء، كما أنّ التضييق عليهم ليس لتفوُّقهم المعرفي، وإنّما هو لتوظيف هذا التفوُّق فيما يجهض النص، ويقصيه، ويفوض العقل، ويحكمه فيما شجر بين العلماء من خلاف غيبي. وفي المقابل أوذي (ابن تيمية) وسُجن، والحضارة الإسلامية وسعت ذلك كله، ولم تكن ضيقة العطن كما يدّعيه المستشرقون ويردِّده المستغربون.

والذين يظنون أنّ علماء السَّلف يرفضون المذاهب الحديثة يترسَّمون خطى الأعداء من مستشرقين ومستغربين، ويقعون تحت طائلة المسخ، فالسلفيُّون لا يرفضون مجمل

المذاهب، ولكنّهم لا يقبلون تطبيقها على القضايا المحسومة بالنص القطعي الدلالة والثبوت، ولا يجدون مبرراً لقفو ما ليس لهم به علم، لعلمهم أنّ السمع والبصر والفؤاد كلّ أولئك كان عنه مسؤولاً. ولهذا لو نظرنا إلى موقف (ابن تيمية) من المنطق والفلسفة والكيمياء لوجدناه ضد التمثُّل المطلق لهذه المذاهب، ولم يكن ضد الظاهرة المعرفية من حيث هي، لو أنّها تعاملت مع الظواهر الحياتية، وتفادت تناول عالم الغيب من خلال علم المنطق والمنهج الفلسفي.

والقول بالاستلاب لا يحتاج إلى دليل لأنّه في حكم المتواتر، وكم تمر بالإنسان رؤى وتصوُّرات يقف أمامها متسائلاً عن مصدريّتها، فهو قد سمع بها من قبل من فم مفكِّر غربي أو عربي مستغرب، ولشذوذها وغرابتها تظلُّ عالقة في ذهنه، حتى إذا جاءت على لسان كاتب متأخّر، تداعت الذكريات، لتكشف عن سوءة السَّرقات. والمتابع للحراك الأدبي والفكري والسياسي يألف تكرار الملامح، ومن ثم يظل يبحث عن سرِّ التشابه، وأسباب المعاد والمعار من القول. والشعراء الجاهليون ضاقوا ذرعاً بوقوع الحافر على الحافر في الألفاظ والتراكيب والمعاني والصور، فأين نحن من (ابن حذام) الذي أشار إليه (امرؤ القيس)؟ وأين نحن من اعتراف (عنترة بن شداد) بالقول المعاد والمعار؟ وأين نحن من تساؤله: - (هل غادر الشعراء من متردم)؟. غير أنّ ما نومئ إليه من المسخ والنسخ يختلف كثيراً عما ذهب إليه أصحاب (الأشباه والنظائر) من قبل، وأصحاب (التناص) من بعد. إنّ هناك تبنِّي أفكار وسرقة صفحات، بل هناك استنساخ كتب بكاملها. والمتعقبّون لذوي الرسائل العلمية والبحوث الأكاديمية والكتب المترجمة يضبطون لصوصاً في وضح النهار، وما سرّاق الأفكار والمذاهب والمواقف منهم ببعيد.

والمؤرِّخون للظواهر والمذاهب والتيارات يعيدون إلى الذاكرة بشاعة المسخ، ولكي نختصر الوقت والجهد يجدر بنا أن نمسك كلَّ دعيٍّ، وهو متلبِّس بالخطيئة لنلقي به وبقوله في مزبلة التاريخ.

السِّجل الدموي للقرن العشرين .. ؟ (١) [(١)]

هذا العنوان منتزع من سياقه في كتاب يرصد للأحداث العالمية المتلاحقة بكلِّ ما تنطوي عليه من وحشية وفوضوية. والدم المسفوح ليس قصراً على الأنفس المعصومة، وإنّما هو للمبادئ والقيم والمواقف النبيلة. وما كُتب القتال في الإسلام إلاّ لحفظ الضرورات الخمس، أمّا اليوم فإنّه خيار الأقوياء، لضمان التفوُّق وتدفُّق المصالح. ولقد هُديت إليه، وأنا أحضِّر لمقال حول (الحرية) و(الفوضوية) في سبيل توعية من اتخذ المضلِّين عضدا، وإيقاظ المخدّرين بالتضليل الإعلامي، والسبّاقين إلى نشر الغسيل، وافتراء الكذب على الأهل والعشيرة.

ولقد كنت أظنُّ الكتاب رصداً لظاهرة (الفوضوية) بوصفها نظرية قائمة لها قواعدها وأساليب أدائها، وهي التي أنشأها الباحثون عن البدائل للنُّظم السياسية القائمة ظناً منهم أنّ بإمكان البشرية أن تعيش دون سلطة سياسية. وما كان لي أن أوغل في النَّيل من الكتبة الذين يستبقون السيئات، ويعمِّمون الأحكام، ويركنون إلى الذين ظلموا، ويعدُّون (الحداثوية) تجديداً، و(التنوير) إصلاحاً، و(الأدلجة) مذمّة على الإطلاق، و(الصحوة) إرهاباً، و(الأسلمة) تطرُّفاً، و(الغربنة) تحضُّراً. ومن تردّد أو تساءل عن شيء من ذلك فهو ماضوي ظلامي صحوي متطرِّف أو متعاطف. ومع كلِّ التحامل والإقصاء فهم منا، ونحن منهم، ومن الخير لنا ألاّ نجعلهم ينفضون من حولنا، وهم الثروة الحقيقية للبلاد. ومتى تفرّقت السُّبل بصفوة الصفوة، وأصبحوا شيعاً وقبائل يضرب بعضهم سمعة بعض، وهن عظم الأُمّة، واشتعل رأسها شيباً، من هول الفاجعة بفقدهم. والصدامُ معهم صدامٌ مع الذات:

إذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها
تذكرت القربى ففاضت دموعها

وليس فيضان الأحبار بأقل من فيضان الدماء. وما لا مراء فيه أنّنا بِمرائنا الظاهر والباطن نخدم أعداءنا، ونفتح لهم أجواءنا ليُصفِّروا ويفرِّخوا وينقِّروا ما شاء لهم أن يُنقروا، وها هم أولاء يمعنون في إدانة مناهجنا متسلِّحين بما تجود به طائفة من أبنائنا عن حسن نية أو سوء طوية، والله وحده المحصِّل لما في الصدور، وتقرير الخطأ لا يحتم تحديد الأهداف والنوايا.

والقرن العشرون الذي ثوى في أرض التاريخ، كما الجثامين التي تواري سوآتِها لحودُها، مزعج بانقلاباته الرعناء، وشعاراته الجوفاء، وحروبه المجانية، ولعبه الدنيئة، ولهاث كتبته وراء تزكية الحضارات المادية، والجدل عنها في الحياة الدنيا. لقد انطوى هذا القرن الدموي على مقترفات لا مجال لاحتمالها، ولا مجال لتبريرها والتعذير لمقترفيها. ولهذا هبّ المفكرون الغربيون للحديث عما أعدّته الإنسانية المعذّبة للقرن الحادي والعشرين، أو ما يمكن أن تعدّه. والمفجع أنّ هذا القرن استهل سنواته الأولى بما هو أدهى وأمر، وجاءت التصرُّفات الرعناء والتدخُّلات العسكرية التي اقترفت جناية الفراغ السياسي، ولم تسيطر على الأوضاع، فكان القتل، وكان التدمير، وواكبه صمت مريب أو تبرير غريب.

والكتاب الذي نحن بصدد الانطلاق منه لا الانطلاق به، يرصد الاضطراب العالمي عند مشارف القرن الحادي والعشرين، وكاتبه بارع في المتابعة والرصد والتحليل

---

(١) تاريخ المقال: ٤/ ٧/ ٢٠٠٦

والخروج بنتائج، قد لا تكون في صالح الأمم المغلوبة، ولكنها إن لم تكن ذات فائدة مباشرة، فهي على الأقل تمكن من وعي الحراك السياسي داخل المنظومة الواحدة وخارجها، مما هو مؤثّر على سائر المسارات. ولكن المتصدرين للتنظير والتوجيه والتحكُّم في المصائر لا يقرؤون، وإذا قرؤوا لا يذعنون للحق:

ومن البلية عذل من لا يرعوى
عن غية وخطاب من لا يفهم

والملفت للنظر أنّ الأباعد يجأرون بالشكوى، ويمعنون في الاعتراض على المقترفات، فيما يسكت الأقربون، وإن نطقوا لجُّوا في الخصام فيما بينهم، وقد ينبري منهم من يعذر، ويبرر، ويشرعن لانتهاك السيادة الوطنية، معلياً من شأن المعتدي، جاعلاً منه أسوة لمن شقي بمقترفاته.

ومن خلال متابعتي لهذا الكتاب ولغيره من الكتب المترجمة مثل (الاستعداد للقرن الحادي والعشرين) لـ(بول كيندي) الذي تناول التحديات والانفجارات السكانية، وثورة العلم والاتصالات، وتأثيراتها، وأخلاقيات المتسوّدين في المشاهد وخططهم، وحسابات الربح والخسارة في مجال الصراع، ومستقبل أوروبا، ومعضلة أمريكا. تبيَّن لي أنّ الكُتَّاب الغربيين محكومون بالخلفيات الثقافية، والهيمنة الحزبية، وتوجيه المؤسسات الراعية والممولة. وبعض أولئك يخفي عمالته، والجشعون منهم يسوِّقون إمكانياتهم، مثلما فعل (روجيه جارودي) حين حاضر وكتب عن خطر السعودية على الإسلام، بعد أن بَجَرت حقائبه من أفضالها وزكّى نفسه من مؤسساتها، وهؤلاء وأولئك على كلِّ الأحوال خبيرون ببواطن الأمور، متضلِّعون من مختلف المعارف، يخادعون، ولا ينخدعون. وقلَّ أن تجد مفكِّراً غربياً مستقلاً، لا يشغله إلاّ البحث عن الحقيقة وإحقاق الحق، ومن ثم فإنّ الركون إلى بعض تلك الشخصيات مصيرٌ إلى تلك الخلفيات، وتيك الحزبيات. والقارئ الحذر يأنس بالقول، ويستضيء به، ولا يركن إليه، على حد: (كنت أسأل عن الشر مخافة أن أقع فيه). ومن لم يعرف الجاهلية يوشك أن يعود إليها.

وما اتخذته من خطة ومنهج وآلية للحديث عن منطلقات أولئك الكتَّاب، لا يضع في المقاصد نقد الدراسات المشيّعة للقرن الماضي، والمستقبلة لتاليه، والمراوحة بين الشماتة والتشاؤم والتنبؤ والمناصحة والمخاتلة والمخادعة، وإنّما استقراني للواقع من خلال الرؤى والتصوُّرات. فكتاب (بريجنسكي) (الفوضى) ليس على شاكلة كتاب (هذه هي الفوضوية) لـ(هنري آرفون)، ولا على شاكلة كتاب (الفوضوية) لـ(رجب بوديوس) إذ هما في سبيل تحرير النظرية والتأريخ لها. أما (بريجنسكي) فهو ناقد لهمجية القوة وغطرستها على شاكلة (غطرسة القوة) لـ(ج. ويليام فوليرايت) و(الغرب وكتابة التاريخ بدم الآخر) لـ(طه كبسة). ولن أتقصى كتباً مماثلة، يبدو فيها التحامل والاهتياج، وإن صدقت العزمات، وخلصت النوايا، مثل كتاب (صناعة الشر) لـ(أحمد شاهين)، و(حضارة الدم وحضارتنا) لـ(نزار بشير)، و(صناعة العداء للإسلام) لـ(رجب البناء)، وكتب أخرى ليست إلى هؤلاء ولا إلى أولئك. ويقيني أنّ بعض الكتَّاب العرب آنيون تحرّكهم الوقوعات الطارئة، وتصرِّفهم الأحداث العارضة، بحيث تنتهي إسهاماتهم التأليفية بانتهاء تلك الأحداث الوقتية. وذلك ديدن الإعلاميين الذين يقفون على أبواب المسارح السياسية ليتعرّفوا على الأحداث ويعرِّفوا بها. والذين لا يؤسِّسون أعمالهم على (استراتيجيات) صنّاع القرار، يمرون كما الطيف، ويذوون كما باقات الزهور.

وبالعودة إلى السجل الدموي للقرن العشرين تتبدّى لنا وحشية الحضارات التي تدَّعي التأسُّس على (الديمقراطية)، وحقوق الإنسان، والمرأة، والأقليات، والأجناس، والملونين،

والطبقات، وحق الشعوب في تقرير المصير، وحق السيادة، ويكفي أن نتذكّر معتقل (جوانتنامو) وسجن (أبي غريب) لنجد أنفسنا تترنم دون وعي بقول الشاعر:

قتـل أمـرئ فـي غابـة جريمـة لا تغتفـر

وقتــل شــعب آمــن قضــية فيهــا نظــر

والثابت على مستوى الممارسة أنّ الحرية والعدالة والمساواة وسائر الحقوق حق للشعب الأقوى داخل أرضه، ومن خلال مؤسساته، أمّا الشعوب الأضعف فإنّها محكومة بالمصالح و(الاستراتيجيات)، وسياسة الاستعمار القائمة على مبدأ (فرِّق تسُد)، وعلى النظرية (الميكافيلية). ومع أنّنا نتحفّظ على الخطابات المتوتِّرة، وعلى خيار القطيعة، والجهر بالسوء وإن ظلمنا، إلاّ أنّنا لا نلوم المتميّزين من الغيظ، والمقاومين بالقول والفعل لدفع الظلم وانتزاع الحق، ولا يشفع لنا تداخل المقاومة مع الإرهاب جمع الظواهر في سلة واحدة. فالواقع لا يُحتمل، وليس من العدل أن نطفئ لظى الرفض على مبدأ عفا الله عما سلف. وإذ نميل إلى الوفاق والتعايش، وفتح صفحات جديدة، فإنّ ذلك لا يمكن أن يتحقق من طرف الضعيف المغلوب. إنّ على القوي الغالب أن يشيع الطمأنينة، وأن يفتح باب التفاؤل، وأن يضع أوزار الحرب، ويطفئ لهيب الوطيس، وأن يثبت بالممارسة حسن النوايا وسلامة المقاصد، وتوحيد المكاييل أو التقريب فيما بينها على الأقل، وكل ذلك لم يكن ولا أحسبه كائناً في المنظور القريب. ويكفي أن نقدم للتاريخ وللمخدّرين ببريق الادعاء (قضية فلسطين)، وهمجية الصهيونية، ووحشية أحزابها، ممن يستمرئون القتل بكلِّ برودة أعصاب بمباركة الأقوياء وحماة الحرية وحقوق الإنسان. وإطفاء لظى الكراهية لا تكون بالقول دون الفعل، وإن جنّد للدعاية وتحسين الصورة من لا يملك سحر البيان. واستياؤنا من أولئك الذين يسبون قومهم، ويشمتون بعثراتهم، ويموؤن كالقطط الأليفة على موائد الكائدين والماكرين والمتربِّصين.

ولكيلا نكون أدعياء فإنّنا نستحضر وثائق الإثبات من أفواه الخصوم، ليكون الشاهد من أهلها، ولسنا فيما نستعيد من مقترفات شامتين ولا محرضين، ولكننا نريد من المتهافتين على التزكية والتمجيد للغرب دون تحديد أن يستبينوا النصح قبل ضحى الغد، وما كان بودِّنا ألاّ نطاع، فنكون كما شاعر (غزية) الذي غوى بغوايتها حرصاً منه على جمع الكلمة. والغرب بوصفه (ليلى) العاشقين له وعليه، وعلّة العلل تغييب ما عليه. ولسان حال العاشقين يقول:

تعشــقتها شــمطاء شــاب وليــدها

وللنــاس فيمــا يعشــقون مــذاهب

ولست أشك أنّ المأزق العربي يكمن في تناقض المواقف، وتناحر الفرقاء، واختلاف الاتجاهات السياسية والفكرية، والإخفاق الذريع في إدارة الصراع العربي العربي، والصراع العربي الإسرائيلي، إضافة إلى ضعف المؤسسات العربية أو غيابها، وفشل كافة المشاريع القومية والوحدوية، وتنامي العداء والشك، وصراع المصالح الإقليمية، وافتقاد المناخات الملائمة لأيِّ حوار يتوسّل بالمصير المشترك.

ومشروعية اليأس والإحباط تقوم على مرور ستة عقود على الانقلابات المتلاحقة، والاتفاقات المتعددة، وخطابات الوحدة والحرية والاشتراكية والقومية الشعارية المخدِّرة، وكلُّ هذه الخطابات التجييشية والتخديرية ما زادت الأمّة إلاّ خسارة وارتكاساً في حمأة الذل والمهانة. وسقوطها لم يكن بالتقادم، وإنّما كان بالوقوعات ك(غزو العراق للكويت)

وخطابات التخوين وتصدير الثورات. والنُّخب التي تدير حوار المشاهد بثقة باذخة، واعتزاز زائف، لا تحس بما يدور وراء (الكواليس)، ولا ما يتداول في (اللوبيات)، فهي الحاضرة الغائبة، والصاخبة الفارغة، والعائلة المستكبرة. ومهما صرخت في وجهها فإنّها تعيش غياب الوعي، وتعزف عن قراءة التاريخ. فأين منها (أفغانستان) و(العراق) و(السودان) و(الصومال) و(لبنان) وسائر الدول النامية؟ فهل من مدّكر يعيد قراءة التاريخ الحديث؟ ليفيق على نكسات الأُمّة، ويبصر أشلاءها المبعثرة، وأوضاعها المتردِّية، ومهانتها في المحافل الدولية، وغيابها عند قضاء الأمور المصيرية، وما من عاقل باستطاعته احتمال مزيد من هذه الأوضاع. والمستمع الشهيد لمراء النُّخب العربية يتصوّر أنّها الآمرة الناهية، وأنّها تعيش في أوج عزّتها وهيبتها. والمتقري لصورة الغرب في ذهنية النخبويين العرب يراها في ذروة العدالة والإيثار والتحضُّر والمواساة والمساواة، وهي صورة تخلط بين الاقتدار والقيم، ومن لم يفرِّق بين (خضراء الدِّمن) و(حقول الأزهار)، يرضى من اللحم بعظم الرقبة، ليكون ك(أم الحليس).

السِّجل الدموي للقرن العشرين .. ! (٢) [(١)]

لقد كان (بريجنسكي) أكثر واقعية ومصداقية من الكثرة الغثائية المجادلة عن جنايات الغرب، وهو الغربي المستثمر لمكاسب السياسة الغربية، وهو الأدق في تصوُّر الواقع الغربي وتحدِّياته، فلقد فصَّل الحديث عن (سياسة الجنون المنظم) و(الموت الملاييني). ولمّا لم يكن عاطفياً ضد الحضارة الغربية، فقد عوَّل على التاريخ الحديث، ليشهد بما علم، وهو اتكاء ذكي، ينجيه من التخوين والتجهيل الذي تتبادله النُّخب العربية فيما بينها. لقد تعقّب الحروب، وما أسفرت عنه من قتلى بالملايين، معظمهم من الشباب الأمريكي الذي يدفع دمه ثمناً للنفط أو للأمن الصهيوني، ومثلهم معهم من الأسرى والمعاقين والمشرَّدين والمساجين والمفقودين والمرضى النفسانيين، وكلُّ أولئك ضحايا حروب غير معلنة وغير مشروعة، أذكاها، أو رعاها الغرب، حتى إذا فرضت الأمر الواقع بين الأعراق أو الطوائف أو المناطق، عاد يبلسم الجراح، ويدعو للإصلاح، فكان البرُّ الرحيم في نظر البسطاء الساذجين، ولو أنّه تخلّى عن تدخُّلاته، وخلَّى سلاح المتنازعين بينهم لسوَّوا خلافاتهم فيما بينهم.

فأيُّ حضارة تلك التي تستمرئ القتل العشوائي والتدمير المجاني، وتمكن من استفحال المجاعات والأوبئة والاضطرابات والثورات الدموية، وتقطع آلاف الأميال بسلاح الدمار إلى بلاد فيها ما يلهيها ويشقيها على يد أبنائها. أليست ذات وجه قبيح مستقذر تخفيه وراء زيف الأقنعة؟ وحين تضع الحرب أوزارها، يستحر القتل التصفوي، وهو ما يُعرف بإعدامات (أعداء الشعوب). إنّ إحصائيات القتل العسكري والإعدامات الثورية يشيب من هولها الوليد، والوعي السياسي عبر التاريخ الحديث لم يكن إلاّ ومضات خافتة، لا تتمكن الشعوب معها من التقاط أنفاسها، وما من (طوباوية) يتفوّه بها ثائر إلاّ كانت كما اللهب للفراش. والحروب الباردة تجر الأقدام والأقلام إلى التفسُّخ والتحلُّل والتمييع لحدود الله، والتلميع لأعدائه، والمؤذي أنّ الناهضين بالمهمات البلاغية هم أبناء الحضارة المستباحة. هذا الواقع المدان بكلِّ المقاييس لم يحرك شعرة في مفرق الراقصين على الجراح، ولم يعدل شيئاً في ساقط الكلام الذي يلوون به ألسنتهم.

والحضارة المعشوقة إن لم تكن حاضرة بالسيف واللسان فهي وراء المجازر بالتبرير والتغرير والإمداد بالغي وحق (الفيتو). وإذ تكون لها الكبرياء المادية فإنّها دون ذلك فيما سواها، ولو عرفنا لها مجال الكبرياء، وأبنَّا للملأ وجهها الآخر بكلِّ قبحه ودمامته، لكنَّا عدولاً في أحكامنا. ولسنا بدعوتنا تلك دعاة حرب ولا قطيعة، وشنآننا لا يحملنا على الظلم، وكيف لا يكون عدل مع النفس ومع الغير وحضارتنا تدعو إلى ذلك في الحكم بين الناس كافة مؤمنهم وكافرهم، ومشنوؤهم ومحمودهم. وما قامت السماوات والأرض إلاّ على العدل.

وكتاب (بريجنسكي) يستمد مصداقيته من التوثيق في الزمان والمكان والحدث، ومن لغة الأرقام التي لا تكذب أهلها. ولو قرئ التاريخ الحديث بأبصار حادّة تعضدها البصائر الجادّة، لأصبح الذين يتمنّون التماثل والتماهي بالأمس يقولون غير قولهم التمجيدي الباذخ. ولمَّا كانت حضارة التناقض لا تنازع في شيء مما هي عليه، وليس في المنظور القريب من يوازيها، فإنّ مقاييس التميُّز لا تكون في العتاد والعدّة والعدد، وإنّما هي في القيم والمبادئ. والذين يتولون شطراً من المفاضلة والتصدير، ليسوا من أبنائها، وإنّما هم

---

(١) تاريخ المقال: ١١/ ٧/ ٢٠٠٦

من ضحاياها، وتلك إشكالية المغلوب، إنّه يصنع الهزيمة والانكسار، كما يصنع الفقراء الفقر بسوء التقدير والتدبير.

و(بريجنسكي) الذي رصد الأحداث السياسية والعسكرية، وتقصى الأحلاف والمؤامرات لم يكن أكثر من شاهد على العصر، لعيضه بأكثر من حدث، أملاً في استقبال العصر الجديد بآلية جديدة، وتفكير جديد، يحقنان الدماء، ويؤلفان بين الفرقاء، ويعيدان للإنسان المتوحش إنسانيته، وللإنسان المستباح حريته. وإذ يجعل من (أمريكا) رأس الحربة فإنّه يشير إلى تجاوزات (فرنسية) و(ألمانية) و(روسية) ولكنها تجاوزات وقتية، وإن كانت قاصمة، فما فعله (الفرنسيون) في (الجزائر)، وما فعله (الإيطاليون) في (ليبيا)، وما أشعلته (ألمانيا) من حرب عالمية وصمة عار في جبين الحضارة الغربية. ولو أنصف المؤرِّخون وأحصوا القتلى تحت راية الإسلام خلال أربعة عشر قرناً في مقابل ما قتل في الحربين العالميتين، وما بينهما، وما بعدهما من حروب شرسة ذات غايات دنيئة لأدرك الجميع أنّ الإسلام دين دعوة انتشر بالقدوة، ولم يبلغ المشارق والمغارب بالسيف. وما لا ننكره اعتزال أمريكا في مطلع القرن المنصرم، ووقوفها على الحياد الإيجابي ردحاً من الزمن، واشتغالها بصناعة الحضارة المادية، وتحقيق العلم بظاهر الحياة الدنيا، إذ كانت إذ ذاك دولة العدل والحرية والمدنية. ولكن هذا الاعتزال الإيجابي انقلب على عقبيه، فخسرت الشيء الكثير. والعداء المستشري لأمريكا سيكلفها الشيء الأكثر. وإن كانت طائفة من عشاق الأضواء قد استحوذ عليها حب عذري يمتلئ هيبة وإجلالاً.

والتناقض الذي لم يتبيَّنه المخدوعون والمخادِعون تناوله الكاتب الغربي الممتلئ معرفة وإنصافاً في الفصل الثاني (الرسالة غير المتناغمة) وهو حديث رصدي لسياسة أمريكا الخارجية، فهي في مطلع القرن تُعرف برسالتها عن (الحرية) بكلِّ مغرياتها، وفي منتصفه قدّمت رسالتها العسكرية متلبّسة بردود أفعال متناقضة. وتلاحق التدخُّلات العسكرية، واللُّعب السياسية، والقمع المتعمّد للإرادة الإنسانية ب(الفيتو) واكبه انهيارات في سائر القيم تَمثَّل في تدنِّي التعليم والعناية الصحية وتدهور البنية التحتية والثراء الفاحش للبيض والفقر المدقع للسود وانتشار الجريمة والعنف وثقافة المخدرات وظهور اليأس الاجتماعي واستفحال الإباحية والفساد الأخلاقي، وانخفاض الوعي الديني والتعدُّدية المهدّدة بالتفتُّت. وخير تجسيد للسياسة الخارجية توحي به مذكّرات وزراء الخارجية الأمريكية، وهو ما سنقرؤه، ونستقرئه - فيما بعد - لنستبين انعكاس سوء التدبير على سائر الحيوات الخارجية والداخلية من دول يفترض أن تكون راعية للعدالة الإنسانية كما تدّعيها، وكما يشيعها المتعشّقون لها.

وفي الفصل الثالث حديث عن (خصوم بلا حدود) وهذا في نظري نتيجة التخبُّط، وفيه تساؤل مُلح عن احتمال عجز أمريكا عن توجيه سلطة عالمية فعالة: - فهل من بديل؟ لقد أوجس الأمريكان خيفة من الحرب التجارية مع (اليابان) ولم تخفهم الحرب العسكرية بعد امتلاكهم لقوة الردع، وحرب النجوم، وضمان التفوُّق العسكري. والخوف من تحوُّل القوة الاقتصادية إلى قوة سياسية، تقلّص النفوذ السلمي، ومن ثم تتحوّل أمريكا إلى مجرَّد شرطي يملك أفتك الأسلحة، ويقوم بممارسة التأديب لكلِّ حراك إنساني تتوقّع أنّه يهدِّد سيادتها على العالم لا على نفسها، إذ ليس بمقدور العالم الثالث أن تصل يده إليها. ولأنّ مهمات الشرطي قد تفسح المجال لحراك اقتصادي فإنّ دول (شرق آسيا) رحّبت بالتفوُّق العسكري الأمريكي الذي ألهاها عن كلِّ مهمة إنسانية، ولربما تكون غطرسة القوة من حوافز التكتُّلات الأوربية والشرق آسيوية، وعندئذ ينفلت زمام القطب الواحد. وليس أدل

على ذلك من تـألُّق السياسـة الفرنسـية فـي عهد (ديجول) لقد ركـز علـى الحريـة والكرامـة الإنسانية، حتى لقد شد أنظار العالم إلى الجمهورية الخامسة.

ويختم المؤلِّف حديثه عن (معضلات الاضطراب العالمي) مستبعداً أن تكون أمريكا شرطياً أو مصرفياً للعالم، وذلك التوقُّع إحساس يجتال المكتوين بنارها من أبنائها الفارين بجلودهم من التجنيد، وبأثريائها الفارين بأموالهم من الضرائب التصاعدية، وإذ تمتلك الأمم المتحدة قدراً من السلطة العالمية التي تمنحها مشروعية التدخُّل، ولو من خلال القرارات غير المنفّذة، فإنّ أمريكا تمارس المهمات نفسها دون مشروعية. وهذا تصرُّف يقدح فيما تُدلُّ به، ويُدلُّ به المبهورون من حرية وعدالة ومساواة وصدق وانضباط وخضوع طوعي للقانون الدولي والأعراف الدولية. وهل تستطيع شعارات الحرية والعدالة والمساواة إزالة وضر النجاسة العينية في (الماسونية) و(الصهيونية) على سبيل المثال؟.

وسخريّة الكاتب في مغامرات أمريكا جعلته يفترض خيارات مستقبلية تتمثَّل بتوقُّع (اتحاد عالمي) بدلاً من الهاجس الأمريكي ب(حكومة عالمية). ولعلَّ حفلات الأعراس بانهيار الاتحاد السوفيتي انقلبت إلى مآتم، فالاضطلاع بمهمات القطب الواحد باهظة الثمن، لقد أدّت إلى اضطلاع أمريكا بمهمات (الشرطي) و(المصرفي) في آن، ولتخفيف الأعباء وصرف الأنظار انبعثت اللُّعب السياسية، وأمعنت في فتح ملفات (الحدود) و(الأعراق) و(الطائفيات) و(تعارض المصالح) و(تعدُّد الأحلاف) وتلك الملفات أنتجت ما وصفه المؤلف بحمامات الدم والاضطراب العالمي. ما نريده من الكتبة الممجِّدين أن يقرؤوا أمريكا من الداخل، وأن يتعرّفوا على مغامراتها في الخارج، وألاّ يقولوا عليها إلاّ الحق.

ريادة أم القرى في معركة البناء .. ![1]

من فضول القول الحديث عن تصدر (مكة المكرمة) للأحداث الجسام في التاريخ الإسلامي. والحديث عنها لا يبرح نطاق القول المعاد أو المعار، غير أن الاحتفاء يفرضه، وإن كان مكروراً. وأمجاد (أم القرى) محفورة في كل ذاكرة تقدر مكة حق قدرها، وكأن المتحدث عنها لا يريد من حديثه إلا بركة القول السديد ومثوبة الكلم الطيب. وقرَّاء المعاجم والفهارس عما أُلِّفَ عنها أو قيل فيها يقفون على ما يتوقعونه من هذا الكم المعرفي بكل تشعباته وتنوعاته. إذ ما حظيت مدينة في التاريخ الإنساني بقدر ما حظيت به (مكة المكرمة)، وستظل في الذورة ما بقي الذكر الذي تعهد الله بحفظه. وإذ بهر (البغدادي) المشهد التاريخي ب(تاريخ بغداد)، واستثار (ابن عساكر) دهشة المؤرخين ب (تاريخ دمشق)، فإن ما اشتملت عليه صفحات مؤلفيهما بعض ما لِ (أم القرى). وتاريخ المدن يتسع لكل شؤونها، أما التاريخ ل (أم القرى) فلا يتسع إلا لبعض مفرداتها.

واتخاذ (مكة المكرمة) عاصمة للثقافة الإسلامية في مستهل الربع الثاني من القرن الخامس عشر محاولة للتذكير بمدينة ينتمي لها كل مسلم، ويستقبلها كل مؤمن، والشوق إليها عريق:-

وذو الشـــوق القـــديم وإن تعـــزى
مشـــوق حـــين يلقـــى العاشـــقينا

وكلما أعيدت قراءتها تجلت عن جلائل الأعمال وجميل السمات. وكأني بهذه المناسبة تتماهى مع أيام: الأم والصحة والطفل، إنها مجرد محطة، للتأمل والتفكر، واستذكار ما يجب استذكاره.

و (مكة المكرمة) حين يحتفي بها المسلمون، ويتناولون مفردات من تاريخها المجيد، لا يقدرون على استيفاء مفردة واحدة، فضلاً عما سلف، وعما هو قائم، وعما يعد به عصرهما الذهبي. ووسط دوائر الضوء المنداحة اتخذتْ مقطعاً زمنياً، لا يتجاوز ثلاثة عقود، وهي المدة الزمنية الممتدة من دخول المؤسس إلى وفاته، أي من عام ١٣٤٣هـ إلى ١٣٧٣هـ، فالبداية من العام الذي استعاد فيه الملك عبد العزيز - طيب الله ثراه - (مكة المكرمة)، والنهاية هي العام الذي قضى فيه نحبه، بعد عمر حافل بجلائل الأعمال. وفي خضم هذه المدة القصيرة في عمر المدن التاريخية اتخذت مفردة واحدة هي (ريادتها في معركة البناء) التي خاضها المؤسس. ومع الضوابط والحدود فإن أشياء كثيرة ستند عن الذاكرة، إذ كل مهتم بتاريخ تلك البقاع تفيض ذاكرته بأشياء غائبة عن ذاكرة من سواه.

والمتقصي للتاريخ الحديث لقلب الجزيرة العربية، لا يعزب عن علمه الدور الإيجابي الذي نهض به المؤسس في معركة البناء الذي كان منطلقه (مكة المكرمة). وحياة المؤسس أوزاع بين معركتين:

-معركة التكوين.
-ومعركة البناء.

وأحسب أن كل الصيد في جوف المعركة الحضارية: معركة بناء هذا الكيان على هدي من الشريعة وتجارب الإنسان السوي، وقراءة هذه المعركة تضع (مكة المكرمة) فوق الذرى، بوصفها المنطلق لكل الحراك الحضاري، ففيها ومنها انطلقت مشاريع

---

(١) تاريخ المقال: ١٧/ ١/ ٢٠٠٦

المؤسس الحضارية، لقد استوفت متطلبات المجتمع المدني من قبل. وما إن استعادها المؤسس حتى بدأت حركة التأسيس الحضاري لهذا الكيان.

ولا شك أن حكمة المؤسس وعبقريته أعادتا الثقة للشبيبة الحجازية، وحفزتهم على مواكبة مشروعه الحضاري. واندفاع رجالات العلم والفكر والأدب والإدارة في الحجاز للعمل الصادق المخلص في ظل قيادة المؤسس أتاح لها أن تكون رائدة المدن. ولو استعرضنا أوليات التحديث لوجدناها تنطلق من فجاج (مكة المكرمة)، فالصحافة والطباعة والتعليم النظامي وسائر المؤسسات المالية والصحية والبريدية والبرقية والضريبية وغيرها، كلها انطلقت من ربوع الحجاز.

ومنذ أن دخل المؤسس (مكة المكرمة) والحراك الحضاري على أشده، لا يند عن ذلك شيء، ولوصْل الحبل السري بين مكة وبقية المناطق أقام المؤسس أنجب أولاده وأقدرهم على الفعل الحضاري نائباً له في الحجاز، ولم يفعل ذلك في أي منطقة أخرى، وفي ذلك إشارة قوية على أهمية الحجاز وتوفره على متطلبات الحضارة. لقد دخل الملك عبد العزيز الحجاز و(الثورة العربية) التي يقودها (الحسين بن علي) رحمه الله على أشدها، وهي ثورة فرضتها حملة التتريك، ولا أشك أن هذه الحملة العنصرية دسيسة استعمارية، أضافت إلى مصائب (الرجل المريض) أفدحَ المتاعب، وهي دعوة قومية عنصرية منحت الأمة العربية مشروعية الانفصال والنضال. ولم تنِ مكائد الأعداء عن إذكاء حماس الطرفين: الشبيبة التركية الساعية لتتريك العالم الإسلامي، والشبيبة العربية المحافظة على عروبتها.

ولأن (الثورة العربية) في وجه التتريك بحاجة إلى مزيد الإمكانيات فقد توفرت للحسين بن علي - رحمه الله - كل الإمكانيات المادية والبشرية، حيث وفد عليه الهاربون من مطاردة الأتراك في الهلال الخصيب. والمعروف أن الأتراك ضيقوا الخناق على القوميين العرب، وعلى العروبيين، وعلى نصارى الشام ولبنان، الأمر الذي فتح باب الهجرة إلى آفاق المعمورة. فكان أن نشأ (الأدب المهجري) في أمريكا الجنوبية والشمالية، فيما اتجه العلماء والإعلاميون والأدباء الإسلاميون من الهلال الخصيب إلى (مكة المكرمة) يحدوهم الأمل بالثورة العربية التي يقودها الحسين بن علي ضد التتريك.

هذا الحراك الذي واجهته تركيا بالمطاردة أسهم في توجه عدد من علماء الشام وأدبائه إلى الحجاز والانضمام إلى الثورة العربية. ولما أن استعاد المؤسس البقاع الطاهرة، تلاقح مشروعه بهمِّ العروبة والإسلام، واستمرت تلك الجهود في الأداء، مما جهز الأرضية المناسبة لريادة (مكة المكرمة) في مشروع التحضر والمدنية الذي باشره المؤسس. ولأن دخول الملك عبد العزيز للحجاز كان في أعقاب معركة التكوين فإن استفادته أكبر، لأنه ترك التناوش خلف ظهره، واتجه صوب البناء. لقد عاد المؤسس من منفاه في (الكويت) عام ١٣١٩هـ والبلاد ترزح تحت نير الفرقة: القبلية والإقليمية، في ظل تركيبة سكانية رعوية متموجة، فكان أن تتبع أقصى دائها فشفاها بالوحدة والعلم والعمل والتحضر. والمستفيض انطلاق هيكلة الحكم ونظامه ومؤسساته وإعلامه وسائر شؤونه من الحجاز.

ف (مكة المكرمة) التي كانت مهبط الرسالة ومنطلق الإسلام، كانت ولمَّا تزل مصدر إشاعة لكل مقتضيات الحضارة الإسلامية، وليس بغريب أن تنطلق منها بوادر المجتمع المدني إلى آفاق المملكة.

-فعلى مستوى التعليم سبق الحجاز مناطق المملكة في استحداث التعليم النظامي، وما إن بدأ التوسع فيه، كان لأبناء الحجاز دور في النهوض به، ولما أزل أذكر ما يتناقله أبناء (بريدة) من أخبار عن أول شاب حجازي جاء إلى (القصيم) يدعى (موسى عطار) لفتح

أول مدرسة ابتدائية نظامية عام ١٣٥٦هـ، ولما أن استقامت، واستقطبت الطلاب والمعلمين، لم يطل مقامه فيها، بل أخذ طريقه إلى (المجمعة) لفتح مدرسة أخرى. ولا تخلو منطقة من مناطق المملكة من رجالات الحجاز.

وحين احتاجت البلاد إلى مؤهلات عليا، كانت (مكة المكرمة) موئل المعاهد ومدارس تحضير البعثات والكليات. ولحرص المؤسس على إشاعة العلم وتعميم المدارس وجه بأخذ النابهين والمتفوقين من شباب البلاد بالقوة لمواصلة دراستهم في (مكة المكرمة) فكان أن عادوا بعد استكمال دراساتهم الشرعية واللغوية إلى مراكز القيادة في أنحاء البلاد، ولمَّا تزل مكة مثابة لطلاب العلم والدراسات العليا على الرغم من تعميم التعليم وتعدد الجامعات والكليات، وستظل رائدة التعليم، وستظل أفئدة طلاب العلم تهفو إليها.

-وإذا تخطينا الريادة التعليمية إلى الريادة الأدبية، تجلت لنا إبداعات ومبدعون، ونقاد ودارسون، تجاوزت سمعتهم أنحاء البلاد إلى آفاق العالم العربي، وكانت ريادتهم للحركة الأدبية في المملكة موطن إجماع عند كل المؤرخين للأدب العربي في المملكة، وليس بالإمكان استعراض الشعر والشعراء، ولا الأدب والأدباء، ولا الروائيين والقصاص، ولا كتاب السير الذاتية وأدب الرحلات، وإذ لا نقدر على التقصي فلا أقل من الإلماح.

-ففي مجال الأدب بمفهومه الشامل إبداعاً ودراسةً ونقداً وتأريخاً نجد الأديب (محمد سرور الصبان) الذي يعده الدارسون رائد الحركة الأدبية، فهو إلى جانب إبداعاته الشعرية المتألقة ناقد حصيف ودارس متقصٍ ومؤرخ دقيق، ومؤلفاته على قلتها إذا أخذت بسياقها تنبئ عن وعي مبكر بمهمة الأدب في الحياة.

هذه البدايات المتألقة مؤشر ريادة أدبية مبكرة. لقد أرخ (الصبان) للأدب في الحجاز، وحاول تعريف الوفود العربية بأدب الحجاز، كما دافع عن اللغة العربية حين نال منها المهجري (ميخائيل نعيمة) وكان بمجموع أعماله رائد الدراسات الأدبية. كما زامنه، وخلف من بعده من اقتفى أثره في دراسة (الأدب الحجازي)، يقدم أولئك الخلف (عبد المقصود خوجه) و (عبد الله بلخير) و (عبد السلام الساسي) وآخرون تفرقت بهم السبل، ولكنهم يلتقون جميعاً في هم التواصل مع الآداب العربية المعاصرة.

-وإذا تجاوزنا الدراسات الأدبية والحركة النقدية، وجدنا فجاج مكة وشعابَها مسرحاً للشعر والشعراء الذين شكلوا فيما بعد ما يشبه المدارس الشعرية، كما ألمح إلى ذلك بعض الدارسين، بحيث قسم الشعر الحجازي الحديث إلى مدرستين:-

-مدرسة الصبان.

-ومدرسة الغزاوي.

فجعل مدرسة (الصبان) أميل إلى التجديد، ومدرسة (الغزاوي) أميل إلى المحافظة. ومن مدرسة الصبان: (العربي) و (الزمخشري) و (عرب) و (قنديل). ومن مدرسة الغزاوي: (شاكر) و (النقشبندي) و (ضياء). ولن ندخل في التفاصيل ولا في الاستقصاء، فالشعر في الحجاز أكبر من أن يُحاط به، ولكنها إشارات تغني عن الوقفات، إذ القصد إثبات الريادة لهذا البلد الأمين.

-وإذا عدونا الحركة النقدية والشعرية استوقفتنا الحركة السردية، و (مكة المكرمة) رائدة الإبداع القصصي بدون منازع. وكل المؤرخين للحركة الأدبية في أنحاء البلاد لا يجدون بداً من الحديث المستفيض عن عدد من الرواد في الإبداع الروائي والقصصي، وفي مقدمتهم: -

-عبد القدوس الأنصاي بروايته (التوأمان) التي كانت مثار جدل عنيف بين الكاتب ومن معه من المناصرين من جهة، وبين من لم يرَ قيمةً فنيةً في هذه الرواية، من أمثال (محمد حسن عواد) و (عزيز ضياء) وهي تمثل الصراع الحضاري.

-أحمد السباعي في روايته (فكرة) وهي رواية غارقة في الخيال، ومن بعدها تلاحقت أعمال السباعي الإبداعية والأدبية والتاريخية، وهي تمثل الصراع الاجتماعي.

-محمد المغربي في روايته (البعث) وتمثل الصراع الثقافي.

وإذا كانت الريادة السردية لشبيبة الحجاز، فإن التأسس السردي جاء على يد (حامد دمنهوري).

ومع أولئك ومن بعدهم جاء عدد من شبيبة الحجاز الذين أزَّهم الحماس وحداهم إثبات الذات للتفاعل مع المشاهد الأدبية العربية من أمثال (عزيز ضياء) و (محمد حسن فقي) و (محمد حسن عواد). ولقد واكب ذلك رصد تاريخي ودراسي للحركة الأدبية، تمثَّل في موسوعة (الساسي) وكتاباته عن شعراء الحجاز، وفي كتاب (وحي الصحراء)، ومن قبلهم كتاب (الصبان) عن أدب الشبيبة الحجازية، ولقد كانت للمنتديات والصالونات الأدبية أثرها في الثراء الأدبي والاقتداء، و(للبغدادي) رصد للمسامرات والمقاهي الأدبية.

-أما على مستوى الإعلام المقروء والمسموع ف (مكة المكرمة) رائدة ذلك كله، ولا ينازعها فيه أي إقليم في المملكة، ولمَّا تزل لها الصدارة في ذلك، ففيها أعلام الصحافة والإعلام، ولقد جاءت (ندوة صحيفة أم القرى) التي نفذتها (وزارة الثقافة والإعلام) بالتعاون مع (دارة الملك عبد العزيز) مجلية لمنجزات ثقافية وأدبية وإعلامية، وجريدة (أم القرى) ثالث صحيفة تصدر في الحجاز.

والفن الصحفي لا يشيع إلا في ظل حركة علمية وثقافية ووجود كتَّاب وقراء، وذلك ما تجلت عنه ندوة الجريدة، فالريادة الصحفية مؤشر عمق ثقافي وشيوع معرفي. ولو تقصى المتابع صناعة الكتاب، واقتنائه، وعراقة المكتبات وكثرة الوراقين، وبداية الطباعة، وتعدد الناشرين، والموزعين، لما وسعه إلا التسليم بأن (مكة المكرمة) تقدم سائر المدن وترود لها.

وهي بفضل الحرم المكي الشريف تعد مثابة العلم ومنطلق الثقافة، كما هي مثابة للناس وأمناً، والمتقصي لتاريخها القديم والحديث يرى أنها تقدم المدن والقرى. والحديث عن أي مجال حضاري يكون لها فيه قصب السبق، وريادتها في مختلف مجالات الحياة تبع لريادتها الدينية، فمنها وفيها شع نور الحياة، وولد الهدى، ومنها انطلقت قوافل الدعاة والمجاهدين وحملة مشاعل الرسالة، وستظل كذلك حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

مواجهة المفاجآت المؤلمة في الحج .. ![1]

من تصور أنه حين يفرض الحج على نفسه أو على من يلي أمره يكون الحج بالنسبة لهما سياحة ممتعة فقد نسي أو تناسى البلد الذي لا يبلغه الراجلون والركبان إلا بشق الأنفس، والحتم المقضي أنه ليس في وسع أحد كائنا من كان أن يتوفر على كامل الراحة له، أو أن يوفرها كما يريد لقاصدي الحج والعمرة. وحين نسلم كرها بالمشقة بكل تصوراتها وتنوعاتها تكون أمامنا احتمالات الكوارث والأوبئة والحوادث والاختناقات المجهدة، وليس بيد المسؤول عن الأمن والراحة إلا وقف الأزمات عند الحد المعقول، ومحاصرة المشاكل في مهدها، بحيث تكون تحت السيطرة.

والسفر بوصفه قطعة من نار، أو هو النار كلها - كما تقول عائشة- رضي الله عنها - جزء من مشقات الحج، بل أكاد أعده الجزء الأسهل في سياق تبعاته، وبخاصة حين أمَّنت السبل وعبدت الطرق، وتعددت وسائل النقل. والخبيرون باستعدادات الدولة للحج يستبعدون كافة الاحتمالات السيئة، ولكن المفاجآت تأتي بما لا يشتهي المسؤول، ولكل موسم مفاجآته غير المتوقعة وغير السارة.

ومن تلك المفاجآت غير الحميدة سقوط العمارة القائمة في موقع حساس ومهم، لا يمكن معه تصور بقاء مبان آيلة للسقوط في موقع كهذا، ولكنه قضاء لا مرد له، ومن ذا الذي يتصور حدوث مثل ذلك في ظل الإمكانيات المذهلة التي تملكها الدولة وتسخرها، ولا أشك أن حدثا كهذا ناتج ثغرة تركها حراسها مثلما ترك الرماة الثنية في (غزوة أحد)، ولقد تداولت المشاهد الإعلامية هذا الحدث الأليم، وتلمست الأسباب، وضربت في متاهات الاحتمالات، وفي زحمة الأقاويل، وتعدد الآراء، وتدفق المعلومات، وقفت على خبرين يجب أن يكونا بداية الخيط الموصل إلى مكمن الداء:

الخبر الأول: ما جاء على لسان العمدة قوله: إن المبنى معروف من ثلاثين عاما، وقد أضيف إليه قبل أربع سنوات طابقان.

والخبر الثاني: قول المالك: إن لجنة الكشف على المساكن أعطت شهادة بالصلاحية.

وأمامهما تكون الكرة في سلة (الأمانة) أو (اللجنة)، وليس الهدف من تحديد المسؤولية التمهيد للقتل، أو الاستعداد لقطع الأيدي والأرجل من خلاف، أو ممارسة النفي من الأرض لمقترف الخطيئة، وإنما الهدف وضع الأمور في مواضعها، ومساءلة الجهات المهملة أو المواطئة: أفرادا كانوا أو مؤسسات، وإيقاع الجزاء المناسب ليشهده من سيخلفهم، فإذا كان الخطأ ناتج تحميل أدوار على أساسات لا تحتمل، فهذه مسؤولية (أمانة العاصمة المقدسة)، فمن أعطى الفسح؟ وعلى أي أساس أعطاه؟ وهل تم ذلك عن جهل أو إهمال أو محسوبية؟ وإذا كان الخطأ ناتج استهلاك للعمر الافتراضي، فمن منح المبنى حق الاستثمار؟ والخبران مع أهميتهما يحتملان الصدق والكذب، إذ ليس من حق أحد أن يكون الخصم والحكما، وإذا أتى المحاسبون يجادلون عن أنفسهم يوم الدين فإن من حق المتهم أن يجادل عن نفسه، وليس من حقه استبعاد المحاكمة والمعاقبة، والمالك والمسؤول سواء أمام العدالة.

إن تحديد المسؤولية لن يعيد الحياة لمن مات، ولكنه كما القصاص ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾. وعندما جاء الإسلام شرعة ومنهاجا، قال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم

---

(١) تاريخ المقال: ٢٤/ ١/ ٢٠٠٦

مَّسْئُولُونَ﴾ وكان حقا على السلطة التشريعية محاسبة السلطة التنفيذية أمام السلطة القضائية عن كل تقصير أو تهاون أو تحايل.

والذين يجملون القول، ويلقونه على عواهنه، ويتولون كِبر الإفك يلمزون الدولة بتقصير المنفذين، واحتيال المتلاعبين، ولا يكلفون أنفسهم التفريق بين السلطة المشرعة والسلطة المنفذة، ولا معرفة ما يبذل من أموال وجهود وطاقات بشرية، ولا يقفون على ما يجود به أهل الدثور من مأكل ومشرب ومأوى لأبناء السبيل. وما علموا أن الدولة تنفق بسخاء، وتجند كل الطاقات، وتضع أدق التعليمات، وترسم أشمل الخطط، وتشكل فرق العمل، وإذ لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم فإنه إذا جهل فرد، أو ضعفت نفسه، وأفسد جمال الموقف وجلاله وجب أن يحاسب حسابا عسيرا.

و(رئيس لجنة الحج العليا) وعد بأنه لن يدع الأمور تمر بسلام، وحسنا فعل، ذلك أن الدولة حين لا تقصر ولا تبخل يحق لها أن تحافظ على سمعتها، وليس من العفو المحمود الإغماض فيه.

وبعد أن تجرعنا مرارة السقوط غير المتوقع، فوجئنا بما هو أكبر، وهو حادث الجمرات المتوقع، وهذا الحدث تكرر أكثر من مرة، وما كان له أن يكون بهذا الحجم في ظل الإمكانيات المادية والبشرية المبذولة بسخاء، ولكنه وقع، ولقد ردت الأسباب للازدحام ولحمل المتاع في ساعات الذروة، ولجهل الحجاج، وعدم تقيدهم بالتعليمات، أو عدم معرفتهم بها، وهذه الساعة العصيبة تمر بالمنظمين في كل عام، وكم نود أن تكون حاضرة المشرفين، لقد حصل التدافع، ووقعت الواقعة، وكل حاضر يشهد بما علم، والإعلام المرجف يلتقط ما يسمع، وقد يضيف أو يحذف، وما فات لا يرد، ولكننا بصدد ما هو آت، لكيلا تتكرر المأساة. أعرف جيدا أن الدولة لم تدخر وسعا، ولم تتوان في تطهير بيت الله للطائفين والعاكفين والركع السجود، وأنها ستبذل المزيد في سبيل العتق من هذه المنخنقات، والتطوير الذي باركه (خادم الحرمين الشريفين) سيحل كثيرا من إشكاليات الجمرات، ومع كل الاحتياطات تبدو ثغرات وثنيات لابد من استحضارها في كل موسم.

لقد تحدثت مع عدد من الحجاج العائدين واستطلعت آراءهم حول ما كان، وما يجب أن يكون، ولا أستبعد أن يمارس المسؤولون ذات الاستفتاء، وأن يجمعوا كل ما يمكن جمعه من المعلومات، وأن يحللوها، ويخرجوا بنتائج إيجابية، ولا أشك أن (مركز أبحاث الحج) يستبطن الشيء الكثير من الخبرات والتوصيات، وما سنقوله نقطة في بحر لجِّي، ولكننا سنقول، وعلى المعني بأمر الحج أن يرحب صدره، وأن يلقي السمع وهو شهيد.

ولا مفر، ولات حين مناص من ازدياد عدد الحجاج، وتذليل وسائل النقل البري والبحري، ولا خلاص من المخالفين لأنظمة الإقامة، والجاهلين بتعليمات الحج، والمسنين، والمفترشين، والضعفاء، والمغامرين طلبا للشهادة، والمتشددين في الأنساك، وتلك عوائق لا يمكن حسمها بسهولة، ومهما كانت التعليمات صارمة فإن هناك أكثر من ثغرة ينفذ منها المفسدون لروعة الحج وروحانياته، وأمام تلك الحتميات لابد من أخذ الاحتياطات اللازمة، ومواجهة القدر المأزوم بكل قوة، واختيار الأيسر من الأنساك، واعتماد قول رسول الرحمة للمستفتين: (افعل ولا حرج)، واستبعاد الوقافين عند المقدم في المذهب، وعلى مستوى الكثافة فإن التقديرات المرتبطة بإحصائيات المنافذ البرية والبحرية والجوية وقوائم المصرح لهم من الداخل من الموهمات، إن العدد الحقيقي أكثر من هذا بكثير، فهناك المقيمون بمكة، والمتسللون إليها، والمتخلفون، والمخالفون للتعليمات من حجاج الداخل: مواطنين ومقيمين الذين ينفذون إلى المشاعر مشيا على

الأقدام، وترتيب الأمور على ضوء الإحصاءات الرسمية من المضلات، وأقوى المحرضات ما يمارسه الخطباء في المساجد والواعظون المتطوعون في التجمعات من حث على موالاة الحج والعمرة، مع ما في ذلك من مخالفة صريحة وآثمة لأمر ولي الأمر الذي لا تتم مقتضيات البيعة الشرعية إلا بطاعته، متى لم يأمر بمعصية، وحيث إنه ربط الحج بالرخصة تفاديا للاختناقات المهلكة، وقرر عدم التكرار إلا بعد خمس سنوات فإن المتحايل آثم، والمواطئ آثم، والمفتي آثم، وما يتعرض له الحجاج من اختناقات يمس الإثم المخالف والمفتي والمحرض، ولا يستخف بالتعليمات والضوابط المؤيدة من هيئة كبار العلماء إلا من فيه خصلة من الثوريين أو الخوارج.

والحياة بكل وجوهها لا يستقيم أمرها بدون سلطة مطاعة تزن الأمور، وتعرف المباح الممكن والمباح غير الممكن، بل لا تكفي الطاعة وحدها، إذ لا بد من إشاعة الأمر والتأكيد على تنفيذه، وواجب العلماء والفقهاء والمفتين وسائر المتنفذين إعلاما وتعليما أن يؤكدوا على إثم المخالف، وأن يحذروا العامة من مغبة عدم السمع والطاعة. والقادرون على الإنفاق والراغبون في التزود من التقوى لديهم مجالات واسعة، والأفضل من الحج المخالف للضوابط الملزمة شرعا أن يدفع المقتدر الممنوع بقوة المصلحة العامة نفقة حاج فقير، لم يؤد فريضة الحج، أو أن يسهم في أي عمل خيري، حتى ولو كانت نفقة الحج الممنوع.

ومشكلتنا المستعصية أننا لم نع بعد الفكر السياسي الإسلامي، ولو فهمناه حق الفهم لكان من أوجب الواجبات الاستجابة لله والرسول وولي الأمر، فالمخالفة مضرة بالحجاج الذي يستهمون في بلادهم لأداء فريضة الحج، وإذا تجاوزنا هذه الإشكاليات التي من الممكن تلافيها، أفضى بنا الحديث إلى ما يمكن تلافيه للتخفيف من توقعات الكوارث والأوبئة والحوادث، والدولة ساعية جهدها لاستكمال البنيتين: التحتية والفوقية للمشاعر، ولكنها بحاجة ماسة إلى مساندة الصفوة من العلماء والمفكرين والإعلاميين للتوعية والإرشاد.

وتلافيا لمفاجآت الجمرات الموجعة لابد من تفادي صد الأمواج أو حبسها وعدم التمكين من التكتلات البشرية، فالأمواج البشرية حين تقدم وهي متماسكة لا تفكر إلا بالوصول إلى حوض الرمي، وحين تصدر لا تفكر إلا بالخلاص، وعامة حجاج الآفاق من الضعفاء والمسنين والعجم، ونظرا لأن الرمي محاط بعقبات زمانية ومكانية محدودة، لا يمكن تفاديها فإن هناك ما يمكن تفاديه، وهو التفويج، وعدم التكتل، وعدم حبس الأمواج البشرية، ولابد والحالة تلك من الأخذ بالفتيا التي تفتح زمن الرمي، وتجيز التأخير والتوكيل، وتوسيع دوائر الرمي قدر المستطاع، حتى تكون بسعة الملعب الرياضي، وتعدد الأدوار والمداخل، بحيث يكون لكل دور مدخل ومخرج مغاير، والتمكن من إقفال أي مدخل يحصل فيه الزحام، وتحويل الأفواج إلى المداخل الأخرى، ولتفادي عقبات الافتراش الاستعجال في استخدام الجبال على شكل طوابق خرسانية مفتوحة ومدرجة تؤدي إليها أنفاق متعددة المداخل والمخارج، وهذا الاستخدام الجانبي يجعل الوادي فضاء رحبا.

وأحسب أنه حان الوقت لاستخدام القطارات التي تحت الأرض لمنع الشاحنات والحافلات وسيارات الأفراد، ولأن الافتراش والتدفق العشوائي مشكلة مستعصية، لا يمكن القضاء عليها بسهولة، ولأن الأثاث المحمول على الظهور من معوقات الانسيابية في العبور والتحرك فإنه لابد من إيجاد آلية تقلص هذه الإشكاليات، وليس هناك ما يمنع من استخدام باطن الأرض في وادي منى كأقبية واسعة للمفترشين، وليس هناك ما يمنع من تسليم قطع من أرض منى للمطوفين والشركات والأثرياء: المحسنين أو المستثمرين

لتحويل باطن الوادي إلى أقبية واسعة للافتراش، والامتداد الرأسي على شكل طوابق مكشوفة لكي يخلو وجه الأرض في منى لمن سبق.

إن هناك إشكالية المتخلفين، وهم بمئات الآلاف، وإشكالية العمالة وهم بالملايين، وهؤلاء يفدون إلى مكة راجلين أو مهربين من شهر رجب للعمل في هذا الموسم، ولأداء فريضة الحج بثمن بخس، وهذه الكتل البشرية تشكل عوائق كثيرة، وقد يمارسون أعمالا مخلة بالأمن والصحة، ولا سيما أن الأثرياء يوزعون المشرب والمطعم بشكل يكفي للملايين.

ولكيلا يكون التسابق في إنشاء المبرات مظنة التكاثر فإنه لابد من وضع آليات تفيد المعوزين ولا تغري على المخالفة. إن حجاج الداخل المدفوعين على التطوع والمتخلفين والمتسللين هم مكمن الخطورة، ولابد من التصرف معهم بحكمة وقوة، ووضع آليات تكفل للدولة نفاذ تعليماتها، وإذا تساهل المسؤول أضاع فرص النجاح، والشاعر يقول:

قسا ليزدجروا ومن يك راحما

فليقس أحيانا على من يرحم

ولابد من وضع الأمور في موضعها الصحيح والسليم:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلى

مضر كوضع السيف في موضع الندى

وأمام هذه الكوارث المؤلمة لابد من القوة، ولابد من فرض النظام، وفرض احترامه، ومتى أحس أي متلاعب أن النظام نافذ، وأن مبدأ الثواب والعقاب قائم، وأن الجزاء من جنس العمل تردد كثيرا قبل أن يقدم على التحايل. إن هناك إزهاق أرواح، والدولة معذورة حين تأخذ الأمر بقوة، وتحاسب المخالفين للتعليمات، والمساعدين، والمشجعين، والمفتين، حتى الخطباء والوعاظ الذين يضربون بالتعليمات عرض الحائط، يجب أن يحاسبوا على مخالفتهم، وأن يمكنوا من التفقه في السياسة الشرعية ولا سيما أن (هيئة كبار العلماء) بوصفها المؤسسة الدينية العليا منحت التعليمات والأنظمة الشرعية والنفاذ.

ولو أن (وزارة الشؤون الإسلامية) عقدت دورات قبل الموسم، وأبانت لأكثر من عشرة آلاف خطيب أن طاعة ولي الأمر واجبة، وأن التحايل على الأنظمة يعد مخالفة شرعية يأثم الفاعل والآمر، وأن إزهاق الأرواح بسبب الازدحام مرده إلى الموالاة بين الحج والعمرة، ومساعدة المتخلفين والمتسللين، وأن الحجاج الوافدين من المسنين والعجزة، وأن من حقهم علينا توفير الراحة لهم، وأن مكة وشعابها ومشاعرها محدودة المساحة، ولا يمكن أن تستوعب تلك الأعداد الهائلة، وأن حجة الإسلام للفقراء والمستضعفين أهم من حج التطوع من الأقوياء والموسرين، ومن بدر منه خلاف ما تقتضيه مصلحة الأمة وجبت مناصحته أولا فإن امتثل وإلا ردع. إننا في زمن أحوج ما نكون فيه إلى (درة عمر).

لقد روعيت مصلحة العامة في التاريخ الإسلامي، والرسول- ﷺ- ينهى الأقوياء عن المزاحمة في الحج مع أن المزاحمة في سبيل الخير، وينثني عن فعل الفاضل مراعاة لمشاعر العامة. إن الإسلام يقوم على الوسطية والتيسير، ولهذا ربط الحج بالاستطاعة، والرسول- ﷺ- لم يحج إلا مرة واحدة طوال حياته مع مرور أكثر من عشر سنوات وهو في المدينة.

إن على الإعلام أن ينقل بالصورة والصوت ما يعانيه الحجاج، وما تغالبه أجهزة الدولة، ومتى تمادى المواطن والمقيم في الغي وجبت مساءلة كل متهاون، ومحاسبة كل مخالف، وإن لم نفعل استفحل الخطر، وظل الحج مظنة الكوارث والأوبئة والحوادث والاختناقات، وعلى الدول الإسلامية توعية حجاجها، وتزويدهم بأساليب الأداء الصحيح للشعائر تفاديا للخطر، وعلى حملة الأقلام والمتفقهين في الدين أن ينذروا قومهم في كل موسم لنكون من مطهري بيت الله لقصاده، وما لم يتعاون المواطن مع الدولة فإن ذلك مؤذن لإجهاض أي نظام يخدم الحجاج ويحفظ سمعتها.

الوأد عند العرب.. بين الوهم والحقيقة.. ! (١)[1]

هذا عنوان كتاب أُهدي إليَّ من مؤلفه الزميل الأستاذ الدكتور مرزوق بن تنباك، حيث ذكَّرني بكتاب سلف لي بعنوان: (حاتم الطائي بين أصالة الشعر وأسطورة الكرم)، ولمَّا أعد إليه إلا بعد أمة، وما كان لي أن أدعه كما سلف من الإهداءات لمكانة صاحبه، ولأهمية موضوعه.. وأنا حفي بالمبادرين للقضايا الأبكار، وبالمتقحمين لغرائب الأفكار، وبالمختلفين معي حول القضايا المحتملة للاختلاف، والمتّسعة لمزيد من الاجتهاد، ولا سيما إذا كان الباحث ذا باع طويل، وطول مكث في غيابة التراث، وإذا كان ذا مصداقية وموقف، وإن نقض غزل الحقائق أنكاثاً، وبخاصة حين لا يبخس متعلّقات الموضوع شيئاً .. فلقد كانت نُقوله وإحالاته واستشهاداته متّسمة بالعدل والثقة بالنفس، وهو إذ ساق ما له وما عليه، فإن المخالف له لا يحتاج إلى تجاوز ما جمع، وتلك ثقة وأمانة، قلَّ توفرها في عدد من الباحثين .. والباحث يُقدِّم عصارة المقروء، ولا يعيده كما بضاعة الأسباط.. ومع كل هذه الاحتفالية بما صنع، فإني عازم على نسف رؤيته من قواعدها، إن كنت لها من المقرنين، وإذ منح نفسه حق الْمحو لكل ما قِيل حول (الوأد) فإنَّ من حقنا تداركُ الأمر، وجمع الأشلاء المبعثَّرة من تحت سنابك خيله ورجله.

ولما كانت النتائج التي توصل إليها من الغرابة، بحيث لا يَحْسُن السكوتُ عليها، ولما كانت آراؤه من الجرأة، بحيث تثير أكثر من تساؤل، فقد فرغت لقراءة الكتاب المثير، وحرصت الحرص كله على الكتاب المثير، وحرصت الحرص كله على الوقوف ملياً على الجهد المضني الذي أنفقه في البحث والتنقيب والتجهيز، وأسفي المضوي أن جهده الجهيد سيذهب سُدى، لقيامه على شفا جرف هارٍ.

ومرد ذلك أن المفسرين والمحدثين والفقهاء واللغويين المؤرخين المتقدمين منهم والمتأخرين في وجهة، والباحث وحده في وجهة مخالفة.. ومع إصراره على رؤيته الغرائبية وثقته في تقريرها فإنه لا يملك دليلاً علمياً واحداً يعضد به اعتزاله، وما أدري، ولست إخال أدري، أهو يُدافع عن كرامة المرأة، أم يُنافح عن الجاهلية الأولى.. وإذ عوّل على ثلاث حكايات خرافية، وجعل منها مركز القضية، وتصوّر أن نسفها مؤذن بنسف ظاهرة الوأد، فإن الخلوص من مقتضيات النص القطعي الدلالة والثبوت إلى تداعياته مخل بمنهج البحث وآلياته.. وطرائق الباحثين وغرائبية النتائج لن تنسينا براعة التحليل لكافة النصوص المباشرة والمساعدة.. والأمور العشرة التي أجهز بها على الحكايات، أبدت براعة الكاتب، فيما لم تكن الحكايات الثلاث بحاجة لمثل هذا التفكيك، لأنها متهافتة من أساسها، ولمَّا تكن معوّل الباحثين، بحيث تنتهي بنهايتها كل متعلّقات (الوأد) الذي أخرجه المؤسطرون من مستقر المعقولية إلى هلامية العواطف، كما أخرج المفسرون قصص الأنبياء، وكما أُسْطرت الشخصيات الاستثنائية ك(حاتم) و(عنترة)، ولم تكن الأسطرة الطارئة مؤذنة بإنكار القصص أو الشخصيات، وذلك بعض ما فعلته في كتابي عن (حاتم الطائي).

وإذ نسلّم بأن الحكايات الثلاث التي قلّبها الباحث، وقلب من حولها الأمور، لا تصمد أمام البحث، فإن سقوطها البدهي لن يؤثر على ثبات الظاهرة، كما يراها الكافة، لا كما يراها الباحث.. ولأنها أقرب إلى الحكاية الخرافية، فقد رددها كثيراً، وجاء بها مبسوطة وموجزة، وأشار إليها أكثر من مرة، واحتفى بأبطالها وسائر شخصياتها.. وإذ يكون احتمال الكذب والاختلاق في هذه الحكايات الثلاث متوقعاً، بل مقطوعاً به، فإن تأثيرها

---

[1] تاريخ المقال: ٣١/ ١/ ٢٠٠٦

على الظاهرة لا يقول به إلا متسرعٌ أو مجازفٌ، لا يُكلِّف نفسه مشقة التثبُّت والتبيُّن الحقيقين لكل باحث يخشى يوم المساءلة.

وأحب أن أشير إلى أن (عالم الجن) و(عالم الملائكة) وكل العوالم الغيبية التي ذُكِرت في القرآن الكريم لا يُمكن التشكيك بوجودها لمجرد الاستجابة للخرافات والأساطير والوقوعات التي يتداولها المنتفعون حولها، كالقول بالتّزاوج بين الإنس والجن، أو رؤيتهم أو محادثتهم أو إجرائهم للعمليات الجراحية لمن يحبون، مما هو داخل في الوقوعات المحتملة للصدق والكذب، مع أنها إلى الكذب والافتراء أقرب .. فـ(الجن) و(الملائكة) أمم أمثالنا، لهم وجودهم الذي لا نعلم كنهه، ولهم مهماتهم في الحياة، وهذا الوجود العقدي لا يعضد الخرافيين ولا البسطاء ولا المتنفعين فيما يدعونه من وقوعات.

ولنا أن نقول عن ظاهرة (الوأد) مثل ذلك، فهي حقيقة، لا كما يراها الباحث من أنها (النفس) وإنما كما يراها المفسرون.. وربطها بقبيلة أو بإنسان أو بمرحلة، يخضع للصدق والكذب، ومن حقنا أن نتردد في قبول الوقوعات، لكن ليس من حقنا التّردد في وجود الظاهرة.. فـ(الوأد) للبنات حقيقة ذكرها القرآن الكريم بالنص، وأشار إليها في آيات كثيرة، وجاءت أحاديث وقصائد وإجماع على ارتباطها بالمرأة، وليس من واجبنا، ولا من حقنا تحديدها بالصوت والصورة والزمان والمكان والإنسان والعدد والكيفية، والإيغال في الأسطرة والتفصيل لا يلغي حقائق التاريخ.

وإذا استساغ المفسرون والمؤرخون والموسوعيون اختلاق الحكايات، وتلقي الإسرائيليات، وإلصاقها بالقصص القرآني، فإن هذا الاختلاق لا يمتد إلى الظواهر الثابتة بالنص القطعي الدلالة والثبوت. ولقد كان للإسرائيليات في تفسير القرآن الكريم أثرها السلبي على التفسير، وكانت مدخلاً لـ(المستشرقين) الذين سمَّوا التفسير بالنص الثاني، وتصوّروا قطعية الدلالة والثبوت له، فشككوا في مصداقية القرآن تعويلاً على أسطورية التفسير، والتفسير لم يخل من أساطير بني إسرائيل ومن الخرافة عند القصّاص والمذكرين، وتعويل الجانحين إلى الأسطرة حديث: «**حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج**»، ولقد دُرس أثر القصّاص والمذكرين السيئ على الحديث النبوي).

والباحث في بحثه خلط بين رد الوقوعات المحتملة للرد وتأويل الظاهرة الثابتة وغير المحتملة للشك وفق رؤية المفسرين والمحدثين، ولو أنه تأمّل ما ذهب إليه (العقاد) و(محمد بيومي مهران) و(الحوفي) و(عبد العزيز صالح) لوجد أنهم تحفظوا على الوقوعات وعلى بعض الروايات، لكنهم لم يتعرّضوا لظاهرة (الوأد)، فهم يعرفون جيداً أصول البحث ومتعلقاته.. ودليل مجازفة الباحث قوله عن المفكر الإسلامي الكبير (عباس العقاد) إنه: (ينافح عنه بلغة إنشائية) ويعني بذلك حديثه عن قضية (الوأد) في سيرة الخليفة (عمر بن الخطاب) رضي الله عنه.. والعقاد مفكر وليس منشئاً.

والباحث الذي لم يتهيَّب من تخطِئة الكافة لا يجد حرجاً من وصف العقاد بما لا يليق به.. (العقاد) مفكر شهدت له كل الأوساط بعلمية الأسلوب ومتانته، وهو حين يتناول قضاياه، يتناولها بموضوعية وعلمية ولغة راقية، ولم يكن في يوم من الأيام إنشائياً.. ولو أن (العقاد) خرج لينافح عن نفسه، لما احتاج إلا للمثل الشائع (رمتني بدائها وانسلَّت).

والباحث المقتدر حقاً تحت تأثير الأنفة العربية والاندفاع العاطفي خالف كل من سلف من المفسرين من (ابن عباس) إلى (سيد قطب)، وخالف الموسوعيين من (الأصفهاني) إلى (الآلوسي)، وخالف اللغويين الذين عوّل على متكآتهم كـ(السياق)، ولم يتهيَّب ردود الفعل، وكأن ما سبق من جهابذة العلماء وما لحق شعره في مفرقه، ولست أدري عن حجم الثقة بالنفس حين خالف الإجماع، وأنحى باللائمة على المتقدمين والمتأخرين، وطرح

رؤية لم يسبقه أحد إلى مثلها.. ومن المؤكد في زمن العجائب أن يقول المعذِّرون: إن من حق كل مجتهد أن يعيد قراءة النص، وأن يبدي رأيه فيه، وإن خالف الإجماع.

وإشكالية القراء المحدثين أنهم ينكبون عن ذكر العواقب جانباً، ويحسبون أن آليات التفكيكية والتحويلية والسياق والأنساق والعلاقات والعلامات قادرة على تبرير الرؤية المناقضة.. ومع الفارق الفكري والانتمائي فإن تقحُّم الباحث لمثل هذه المسلّمات المتواترة، يشبه إلى حد كبير تقحُّمات مماثلة ل(محمود أبو رية) و(نصر حامد أبو زيد) و(عبد الكريم خليل) و(محمد شحرور) و(محمد سعيد العشماوي)، والفرق بين جرأته وجرأة هؤلاء، أن صاحبنا سليم الطوية، ورؤيته ذاتية غير منتمية، أما رؤية أولئك فهي منتمية لتيارات تدور حولها الشبهات. وعلى شاكلة الذين يقدّمون بين يدي غرائبهم ما يرضون به المتلقي، استهل بحثه بإعلان إيمانه (بما جاء في كتاب الله على مراد الله، وفيما صح عن رسول الله ﷺ على مراد رسول الله).. وكان بإمكانه وهو طالب حق ولا شك، أن يسعه ما وسع علماء الأمة من القرن الأول إلى القرن الخامس عشر، وليس من المعقول أن يظل الأعلام من العلماء على جهل بمراد الله ورسوله، فيما يكون الباحث وحده الذي فهم مراد الله ورسوله، وتحقيق مراد الله ومراد رسوله بالرد إليهما، وبسؤال أهل الذكر.

والباحث في تغريده خارج السرب عوّل على مشروعية الاجتهاد وحقه فيه، والاجتهاد المأجور في حال الخطأ والصواب لا بد فيه من توفر المادة والإمكانية واتساع الحدث أو الظاهرة لمزيد من الرؤى، إذ ليس كل مجتهد مأجوراً.. والباحث حين أتى المسلّمات كلها من قواعدها، لم يكن له عضد محق أو مبطل.. والمتلقي لن يسلِّم له، ما لم يكن له سلف أو خلف، وما لم يكن معه نص بقوة نصوص علماء الأمة، وليس هو من ذوي الاجتهاد المطلق أو المقيّد، بحيث يكون من ذوي المفردات ك(ابن تيمية) مثلاً.. وإذ تكون القضية مرتبطة ب(علم التفسير) فإن لها أصولها وآلياتها ومناهجها، التي لم يعوّل عليها الباحث بالقدر الكافي، فقوله مثلاً: (أما ما صنعته الروايات غير الموثّقة... فأمر سنناقشه في ثنايا هذا البحث).. والمناقشة لا يكفي فيها ابتدار الرؤية والموقف، بل لا بد من مواجهة الروايات بآليات الجرح والتعديل والتخريج، ومواجهة الرواية بما هو أقوى منها، أو التماس ناسخ أو مخصص، مما هو معروف في علم (مصطلح الحديث).. أما تقليب الرواية خارج هذه الآليات والمناهج والأُطر، فإجراء لا مجال له في مثل هذه الأمور، وكل خائض في قضايا التفسير والحديث والفقه بوصفها مصادر التشريع لا بد أن يكون على علم بأصول تلك العلوم نفسها، ملماً بأسباب الاختلاف ومعوَّل المخالف، وليته يخلط ثقافته بشيء من (الفقه المقارن) كما هو عند (ابن رشد) و(ابن قدامه).

وليس يعيب مفسري العصر الحديث عدم خروجهم عن فهم الأقدمين، متى لم تتوفر لديهم قناعة مدعومة بالشواهد والأدلة، فالخروج على الإجماع والتواتر، لا يكون رغبة يبتدرها المفسر أو الباحث، ذلك أن قضايا العلم والفكر لا تخضع للرغبات والفرضيات ونزغات الأنفس الأمَّارة. ولو أن المفسرين المعاصرين بدت لهم ثغرات لنفذوا منها، وهم قد فعلوا ذلك في كثير من القضايا، ولم تأخذهم بالحق لومة لائم .. والتعويل على الوقوعات لنسف الثوابت تعويل غير معرفي، وفوق ذلك فالبحث حشد من الانفعالات أدى إلى خلط القضايا والتقديم والتأخير والتكرير وجرجرة الحكايات الخرافية بوصفها قابلة للنسف.

وحين أشير إلى الهنات واللمم في المنهج والمنتج أعوِّل على تعدد المصدرية وتفاوت أصولها ومناهجها، في حين بدت وحدة التّعامل، فالظاهرة تستمد وجودها من كتب التفسير والحديث والتاريخ والأدب، ولكل مصدر منهجه وأصوله وطرائقه.. والباحث لم يستعن بأصول هذه العلوم في نقض القضية، فعلى سبيل المثال وردت أحاديث في

الصحاح والمسانيد والسنن. ودراسة الظاهرة من خلال علم الحديث تتطلّب استعمال آليات المحدثين ورجال الجرح والتعديل وأساليب الشرّاح وطرق استنباطهم، ويُقال في علم التفسير والتاريخ مثل ذلك.. لقد تجلت مواهب الباحث وتجاربه في (النقد الأدبي) وذلك حين تحدث عن دور الشعر في تكريس الظاهرة، وكانت موازناته ولفتاته في غاية الدقة والموضوعية، وإن كان قد عوّل على آليات الانتحال وأسبابه، وهو تعويل في غير محله.. ومن الأخطاء الفادحة التي يقع فيها المثقفون وكُتَّاب السياسة والفكر أنهم يستجيبون لعواطفهم، ويطلقون العنان لعقولهم لتعلو فوق النص القطعي الدلالة والثبوت، ولا يضعون قيمة للنصوص ومقتضياتها، ولا لأصول المعارف التي يشتغلون فيها، فإذا استفحش أحدٌ منهم مدلول حديث أنكره، ولم يتأوّل، والمفكرون المعاصرون أكثر جناية على الحديث النبوي الشريف.

ولقد جاءت أحاديث مشكلة، تسرّع البعض في ردّها أو تأويلها، وتصدى لهم من أرشدهم وردّ تعدياتهم منذ (ابن قتيبة) حتى (القصيمي) الذي ألّف قبل انحرافه كتاباً قيماً في تأويل مشكل الحديث .. والحديث النبوي الشريف له مستويات في احتمال الثبوت، كما أن له مستويات في احتمال الدلالة، وله قطعياته ومتشابهاته، ولهذا قال الأصوليون: (لا اجتهاد مع النص)، والنص هنا يعني قطعية الدلالة والثبوت .. ولقد أدرك العلماء خطورة الخوض في العلوم التي لها أصولها وقواعدها دون علم بالأصول والقواعد وطرائق تطبيقها، حتى لقد قالوا: (من تحدّث بغير فنه جاء بالعجائب)، والباحث علمٌ من أعلام الأدب، لكنه دون ذلك بكثير فيما سوى الأدب والتراث، ولا يعيبه ذلك، لكن الذي يعيب تقحُّم سائر التخصصات، ومزاحمة عمالقتها بالمنكب الغض والجناح القصير.

الوأد عند العرب.. بين الوهم والحقيقة .. ! (٢)[1]

والباحث لا ينكر (الوأد)، ولا يرد نصاً في القرآن الكريم ولا في الحديث النبوي الشريف، ولكنه يحمل ذلك كله على غير الظاهر والمتواتر، ويغرق في التأول. والمفسرون - حسبما أعلم - وفوق كل ذي علم عليم - مجمعون على أن المقصود ب (الوأد) إزهاق حياة البنات؛ خشية العار أو الإملاق، وقد يدخل الذكور من الأولاد في خشية الإملاق، وذلك شائع ومتداول في كتب التفسير والحديث والتاريخ والموسوعات الأدبية، حتى لكأنه عند الجميع قطعي الدلالة والثبوت. وهناك ما يعضد المقصود في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ﴾. وقوله: ﴿أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ﴾أي يبقى الجارية على قيد الحياة، مع احتمال الهوان، أو أنه لا يحتمل الهوان؛ فيدس الجارية في التراب، وهذا كناية عن (الوأد) ولسنا معنيين بطريقة الدس وأسلوب الوأد، وإنما المهم ثبوت الظاهرة، كما يراها علماء الأمة، وأوضح من ذلك كله قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ وهذا سؤال استنكاري؛ إذ لا ذنب لها، ولو كان ل (الوأد) دلالة أخرى لما كان السؤال عن سبب القتل، ولا حاجة للقول: بأنه العزل، ذلك أنه قول مرجوح، ولو صح ألغى ما تواترت عليه الأقوال.

ولربما يكون الباحث مأخوذاً بالتفسير الأسطوري والتحليل الرمزي للنص، وهذه الطائفة من القراء لا تجد حرجاً من تصور (الدَّس في التراب) كناية عن عزل المرأة عن الحياة العامة. والحكايات الخرافية التي يسوقها الموسوعيون عن (الوأد) و (الإحياء) لا ينعكس أثرها على صحة الظاهرة، وإنما تكون قصصاً خرافية، نسجها القصاص والمذكرون، وجاءت في المراسيل للإمتاع. ونسف الخرافة لا يقتضي نسف الظاهرة، فالمفسرون توسعوا في الإسرائيليات، ولم يقل أحد بعدم صحة أحسن القصص. والذين درسوا الإسرائيليات في التفسير ردوها، وأبقوا على الظواهر التي تدور حولها تلك الأساطير. ولقد كانت لي إلمامات مبكرة بظاهرة الإسرائيليات في التفسير، حين تعقبت الدارسين لهذه الظاهرة؛ الأمر الذي حمل الأستاذ المرحوم (محمد محمد أبو شهبة) على الثناء على تناولي، ومؤاخذتي بإهمال جهوده في هذا المجال، ولقد وجدها مناسبة لمواصلة الحديث عن الإسرائيليات في التفسير، جاء ذلك كله في (مجلة رابطة العالم الإسلامي). و (الوأد) كما يراه المفسرون لم يتعرض له الذكر الحكيم إلا لأنه ظاهرة سلوكية، وليس حدثاً فردياً، والمفسرون التمسوا دوافعه من آي الذكر الحكيم، وحصروها في الدافع الاقتصادي وفي الغيرة والأنفة والحميّة.

والقرآن الكريم ردَّ السبب الأول بقوله تعالى: ﴿لَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ [الإسراء: ٣١] ، وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ [الأنعام: ١٥١] .

ولقد ربط بعضهم بين ظاهرة (الوأد) وظاهرة تحديد النسل بالعزل أو على ضوء قانون (مالتوس) للسكان، القائم على (الكابح الإرادي) وذلك قبل التقدم الطبي. ولقد كان للصحابة موقف من العزل، حتى قال بعضهم: (كنا نعزل والقرآن ينزل). وسماها آخرون

(١) تاريخ المقال: ١٤/ ٢/ ٢٠٠٦

ب(الوأد الخفي) أما العامل الثاني وهو الأنَفَة والحميّة والغيرة فقد شايعته الحكايات الخرافية والشعر العربي، وأشار له القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٧] .

وقوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٠]،

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٢]، وفي هذه الآية ملمح لنفي ارتباط الوأد بالعزل؛ ذلك أن العزل من الرجال. ونزوع الباحث العقلي المتكئ على التأويل كاد يقصي المدلول النصي، وذلك منهج غير مسبوق بهذا الحجم، والشرح والتفسير يتنازعهما علماء الدراية والرواية، والتأويل من علم الدراية، وهو محسوب على التفسير بالرأي.

وثقة الباحث بنفسه، وتنقصه من المفسرين كافة، جرأة لا يقره أحد عليها، يقول في سياق تخطئته للمفسرين: (ولما احتاجوا إلى العدول بالقرآن عن سياقه إلى المعنى البعيد الذي اتخذه المفسرون وأسرفوا في تأويله وعدلوا بالقرآن ومعناه عما تقوله اللغة وتسمه به). وهل أحد يقبل بهذا التوجيه الغرائبي؟ وكيف يجرؤ علماء الأمة من العصر الأول إلى العصر الحديث على العدول بالقرآن ومعناه عما تقوله اللغة وتسمح به؟ وهل الباحث بوصفه نحوياً يلوك لسانه أعلم باللغة من آلاف المفسرين السليقيين الذين يقولون ويعربون؟ وهل يظل مفهوم (الوأد) مختلطاً على الكافة حتى جاء الباحث؛ ليثبت الأقدام، ويربط على القلوب؟ وهل مسألة (الوأد) مسألة خلافية تفرقت فيها أقوال العلماء، بحيث جنح الباحث إلى طائفة منهم؟ أحسب أن الباحث بهذه المغامرة الخاسرة قد شط على نفسه وعلى قرائه، وحمَّل النص ما لا يحتمل، وعوَّل على (العدول اللغوي) ولم يذعن ل (السياق)، وكان بهذه المغامرة المحفوفة بالمخاطر كقاصية الغنم أو كضالتها.

واتكاؤه على ظاهرة (العدول) في اللغة حجة عليه لا له؛ فهو الذي عوَّل على العدول؛ إذ الأخذ بظاهر الدلالة لا يكون من العدول في شيء. وقوله: (اتخذه المفسرون) دليل على أن كل المفسرين مخطئون؛ إذ لم ينص على طائفة منهم، وهذا الإجمال مظنة المجازفة والتعميم، ومثل هذه القضايا لا يقوم أمرها على مثل هذا الإجماع.

لقد طوف في آفاق معرفية، تعرف منها وتنكر، وفي النهاية خلص إلى القول بأن (الموؤودة) هي (النفس) وليست (المرأة) وحدها، وكيف يحتاج إلى السياق والعدول والتأويل والرأي وإدارة النص في فلك العقل والمسألة محسومة عند (البخاري) و(مسلم) وأصحاب السنن والمسانيد، وعند كل المفسرين المتقدمين منهم والمتأخرين، ولم يوافقه على ما ذهب إليه - فيما أعلم - أحد من علماء التفسير أو الحديث أو اللغة أو غيرهم، ولم ينكر (الوأد) العرب الذين وصموا به، وعنوا بالتأنيب والنهي، ولم يشكك فيها أي عالم عربي أو أعجمي مسلم أو مستشرق. لقد كانت ل (طه حسين) شطحات، وكانت ل (مصطفى محمود) شطحات، وكانت ل (شحرور) شطحات، وكانت ل (عبد الصبور شاهين) في كتابه (أبونا آدم) شطحات، ولكن كان لكل واحد سلف فيما شذ فيه. أما شطحة الباحث فلا سابقة لها، وهو فرد فيها، ولا يعيبه ذلك لو عضده نص أو قاعدة أصولية أو دلالية لغوية: حقيقية أو مجازية أو سياقية أو عدولية.

وأغرب شيء أن يقول عن المفسرين كافة دون استثناء: (لم يتدبروا النصوص التي أشارت إلى قتل الولد) (ص ١٥٥). وذلك عين التكلف والتعسف الذي برأ نفسه منه (ص ١٥٧). والمفسرون استكملوا كل الاتجاهات اللغوية والفكرية والعقلية والمذهبية، وربطوا قتل البنت بالعار وقتل الولد بالإملاق، ولمَّا يزل الأبوان على مر التاريخ يفضلان الذكور

على الإناث، ولكنهم لا يكرهون البنت حين تكون من قَسْمِهم، وإن تمنوا الولد. والباحث عول على قضية (السياق) اللغوي الذي اتخذه النقاد مناطاً لاستقراءات مخالفة، والعلماء لم يغفلوا (السياق) ولا (الأنساق) ولا (العدول) ولا (التأويل) ولا (المجاز)، فالتعويل على السياق أخذ به المفسرون، ولكنهم في النهاية يعودون إلى ما وقر في نفوسهم من ثقافات، وما استقروا عليه من مذاهب، وما كل نسق مدان.

والباحث ربما وقع - من حيث لم يحتسب - في مأزق التفسير بالرأي، وذلك مذهب المدرسة العقلية الحديثة، كما هي عند (الأفغاني) و (عبده) و (رضا) و(المراغي) وغيرهم. ولست ضد الاتجاه العقلي في التفسير، ولكنني ضد إدارة النص في فلك العقل، وهو المنزع الاعتزالي، وكم هو الفرق بين إدارة العقل في فلك النص وإدارة النص في فلك العقل. والباحث اتخذ سبيله العاطفي الأعزل، بحيث صرف نظره عن أقوال العلماء كافة، ولم يكن له معول على أحد منهم، ولم ينظر في قوانين العلوم ومناهجها، مما يحتاج إليه المفسرون والشارحون والمستنْبطون، وإن عول على (السياق) وهو تعويل لم يسعفه؛ فالسياق ضد فكرته، والتعويل على السياق تعويلا علمياً أسس له وأصَّله العلامة (محمد الأمين محمد مختار الجكني الشنقيطي) - رحمه الله - في تفسيره القيّم (أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن) وإن كانت المنية قد اخترمته قبل أن يصل في تفسيره إلى سورة (التكوير)، وقد أكمله تلميذه الشيخ (عطية محمد سالم) - رحمه الله -، مثلما أكمل (السبكي) المجموع بعد وفاة (النووي)، وشتان بين المبتدئ والمكمل في المؤلفين. ومنهج الشنقيطي في التفسير يراعي السياق؛ لأن الآية تستدعي نظائرها في المعنى، ولم يكن الشنقيطي وحده في هذا المهيع، ولكنه الأميز.

والمفسرون يختلفون باختلاف خلفياتهم المعرفية والمذهبية، ولكن الأوَّابين منهم لا يفسقون عن مقاصد النص، وإن استعرضوا وعرضوا سائر الأقاويل الراجح والمرجوح منها. والباحث الذي استصحب السياق كآلية نافذة ومشروعة أسرف في التعويل على التأويل، وهو في اصطلاح الأصوليين: - (صرف اللفظ عن ظاهرة المتبادر منه إلى محتمل مرجوح بدليل يدل على ذلك). وإشكالية الباحث أنه عول على (التأويل) دون دليل ولا سند ولا تأييد من عالم سابق أو لاحق. وصرف اللفظ عن ظاهرة بدليل كآية: ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ ﴾ يتحقق معه التأويل الصحيح، أما صرفه لأمر ظني، أو لنزوع مذهبي كآية: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ فإنه في هذه الحالة يكون من التأويل الفاسد. والباحث قد عول على أمر ظني لا حجة معه، ومثل هذا الفعل يوصف عند الأصوليين ب (اللعب)، ولقد وصف صاحب (مراقي السعود) مثل هذا بقوله:

وغيـــــــــره الفاســـــــد والبعيـــــــــد
ومــــــــا خـــــــلا فلعبـــــــاً يفيـــــــد

ولمزيد من عناية المفسرين، أحيل الباحث إلى مقدمة تفسير (أضواء البيان..)، وإلى مبحث (دور السياق في بيان الدلالة) في كتاب (التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن)، وإلى كتاب (العدول اللغوي).

ولو أنه وطَّن نفسه على تعقب لطائف التفسير واستنباطات المفسرين وبخاصة اللغويين منهم مثل كتاب (بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز) ل (الفيروز آبادي)، وتقصى الاتجاه العقلي واللغوي في التفسير؛ لكان أن تطامن أمام منجز العلماء

الأوائل والأواخر، ولكي أضرب مثلاً بسيطاً من لطائفهم، أحيله إلى تحديد (المشترك اللفظي) وبراعة المفسرين في اقتناص المعنى المراد من بين تنازع الدلالات. ف (القُراء) لفظ مشترك بين (الطهر) و (الحيض)، عول فيه اللغويون على قرينة زيادة (التاء) في قوله تعالى: ﴿ثَلاَثَةَ قُرُوَءٍ﴾ والدالة على تذكير المعدود، وهي (الأطهار)، فلو أراد (الحيضات) لقال: (ثلاث قروء) بلا (هاء)؛ لأن العرب تقول: ثلاثة أطهار وثلاث حيضات.

واختلاف الفقهاء حول ذلك مرجعه إلى غياب المؤشر النحوي، أما التقصير في فهم السياق اللغوي فيبدو عند بعض الفقهاء في الاختلاف حول حرمة لحوم الخيل والبغال والحمير.

وإن كان ثمة حجة يعول عليها فهي تأنيث (الموؤودة)، و (النفس) مؤنثة، ومن ثم فإن المرأة وحدها ليست هي المقصودة، وإنما المقصود مطلق النفس، وهو إذ أطلق هذه الرؤية، لم يحل إشكالية النصوص الدافعة لرؤيته. ومع الإغراق في المماحكات فإن الباحث بارع في دقة التأويل، حتى لكأنك تقرأ للزمخشري في كشافه، فالباحث وهو يحاول تفسير الموؤودة ب(النفس) يجاري الزمخشري في تفسيره (ناظرة) بمنتظرة، أو يجاري الشنقيطي في تفسير (القرء)، وإذ يصطدم الزمخشري بتعاضد النصوص ضده، لا يواجه الشنقيطي بشيء من ذلك. والباحث كما الزمخشري منهك بقوة النصوص. وأمام محجتها البيضاء لم يفسر آية الوأد، ولكنه تأوَّل فيها، ذلك أن التفسير يعتمد على الرواية فيما يعتمد التأويل على الدراية، ولست أشك أنه اجتهد ما وسعه الاجتهاد لتأويل كلمة (الموؤودة)، وأحسبه سيخرج من (المولد) بدون (حمصة) - كما يقولون -. وقد يكون تمحكه من اللطائف، فالنفس في النهاية جماع الذكر والأنثى، ويكون في قوله كله كمن فسر الماء بعد الجهد بالماء.

ومن لطائف هذا البحث الغرائبي براعة الباحث في نقد الحكايات الثلاث، وذهابه بعيداً في التحسس عن المطاعن. واختياره الوقائع والأخبار اللاحقة مؤشر ذكاء وبراعة، ولست أشك أنه ابن بجدة البحث الأدبي وخبيره. ولو أنه اقتصر على نسف الحكايات الخرافية، ولم يعقب على الظاهرة التي أقرها الذكر الحكيم والحديث النبوي الشريف والشعر العربي القديم وتداولها العلماء، وهم الأدرى بتخصصاتهم؛ لكان خيراً له وللمشهد العلمي، ولو لم تكن ظاهرة (الوأد) كما تتابع السلف والخلف عليها لأنكرها العرب منذ اللحظات الأولى.

والباحث وهو يستعرض روايات الأحاديث في الصحاح والمسانيد والسنن عول على (الزيادة) و (الإدراج)، وذكر (الوأد) في موقع وعدم ذكره في موقع آخر، وعد ذلك من الاضطراب الذي قد يفتح باباً على الروايات، وهو قد أومأ من طرف خفي ل(حديث الآحاد) و (حجيته). ولو أنه رجع إلى كتب الأئمة وعلماء الحديث لعرف أن مثل ذلك لا يؤثر على صحة الحديث ف (المدرج) ألف فيه (ابن حجر) و (السيوطي)، وحددوا ذلك، وأوضحوا الفرق بين (الإدراج) و (الزيادة) في النص، وأما (حديث الآحاد) والقبول به في العقائد والعبادات فالخلاف فيه لا يمتد إلى قضية (الوأد)، واختلاف روايات (البخاري) مرتبط بالأبواب التي يعقدها، وليست اضطراباً في الرواية، فهو يأخذ من الحديث ما يناسب الباب، ولا حجة في ذلك. ولأن الباحث غير متخصص في علم الحديث فقد عول على ما لا يعول عليه.

وخلاصة القول أن الباحث مارس رياضة فكرية ممتعة، استطاع أن ينسف الحكايات الخرافية بعشر حجج في غاية الدقة والشمول والعمق، ولكنه لم يستطع تحويل (الوأد) من

(المرأة) إلى (النفس) بكل شموليتها، وعتبي عليه أنه أنفق جهداً ووقتاً ثميناً في قضية محسومة. وتساؤلي في النهاية: أي الحزبين أحق بالتصديق والمتابعة، علماء الأمة كافة، أم صاحبنا الذي جاء في الوقت الضائع؟.

... بل هو خيرٌ لكم .. ؟[1]

طُعن الرسول - ﷺ - في الصميم، حين اتهمت أحبّ النساء إليه، ولما سُئِلتْ كان جوابها: (فصبر جميل). ولما كان الله المستعان على ما يصفون فوجئ الكون الإنساني بما لم يكن في حسبان الجميع: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وقبل هذا وصف الرسول - ﷺ - بالجنون والسحر والشاعرية، وأدمي عقبه، ووضعت القاذورات على ظهره، وشنأه الأبتر، وكسرت ثنيته، وسُحر، ووصفه رأس المنافقين بالأذل، ولمَّا تزل فوهات المدافع تقذف الحمم، وأفواه المنافقين تفيض بالبهتان الذي يحير سامعيه لفظاعته. ولما كان التاريخ يكرر نفسه، فقد انبعث أشقاها، ليؤذي الحبيب الأحبّ من النفس والمال والأهل على مسمع ومرأى من مليار ونيف من المسلمين. وحين لا يبادر القادرون بردّ فعل رادع، كلٌّ حسب طاقته، لكي يحفظ جنابه، ويسعد أحبابه، تبلغ الأمة درك الذلة والمهانة، وتستفحل فيها الغثائية، وتكون عرضة لمزيد من الإيذاء في الدين، ومن الاعتداء على الأنفس والأعراض والأموال، ثم لا تقدر على ردّ يد لامس. والتعدي على جنابه الطاهر أثار مشاعر المسلمين على مختلف المستويات، وأثبت للعالم أجمع أن الأمة الإسلامية، وإن وهنت وحزنت ستظل دون ثوابتها ومقدساتها.

وواجب صفوة الصفوة من علماء ومفكرين وساسة وإعلاميين عند مثل هذه النوازل التدبر والتفكر، ووضع الأمور حيث يجب أن توضع؛ إذ المواجهة ستطول وتمتد، وقد يمكر الشانئون بجرّ المنافحين إلى مواجهات غير متكافئة، ليستفيد مَن لا يقاتلون إلا من وراء جدر. وعلينا أمام هذه التحديات الممسك بعضها برقاب بعض ألا نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده، بحيث تكون المحاسبة مقدَّرة بقدرها، لا يكون فيها تعدّ ولا ظلم ولا مجازفات خاسرة، كما يجب ألا تكون الغيرة والتصدي والصمود سحابة صيف، تعصف، ثم تخبو؛ إذ كل اهتياج غير موزون يحور رماداً بعد إذ هو ساطع.

وأخوف ما أخاف على أمتنا ذاكرتها المخروقة، ونسيانها المعتق، فما تواجهه من تعديات متلاحقة ينسي بعضها بعضاً؛ فأين نحن من آلاف المقترفات السافرة، والانتهاكات المتواصلة عبر التاريخ؟ وتفادياً لأيّ مواجهة غير محسوبة علينا أن نتساءل: هل جاء المساس في سياق الحرب النفسية، أم جاء بادرة شخصية، تجهل مكانة الرسول - ﷺ - في نفوس المسلمين، أم أن ذلك في سياق الصدام الحضاري؟ فلكل دافع أسلوب في المواجهة، ونحن أحوج ما نكون إلى (استراتيجية) محكمة؛ لمواجهة مثل هذه النوازل؛ فالحرب الفكرية ليست بأقل شأناً من الحرب العسكرية، وقضايا المسلمين العامة لا بدّ لها من مؤسسات ترصد وتحلل وتحكم المواجهة.

وطبعي أننا لا نملك القدرة على المواجهة العسكرية، ولا نميل إليها لو توفرت إمكانياتها، وعندئذ فإن المواجهة الفكرية والاقتصادية والسياسية أجدى وأهدى وأعمق تأثيراً. وبرهان ذلك تراجعات المؤسسات (الدانمركية) واستباقها لمحاصرة القضية، والحيلولة دون امتدادها، بيد أن لملمة ذيولها جاء في غير وقته. ولو أن عقلاء القوم إذ أحسوا بفداحة الخطيئة تداركوا الأمر، وقدموا اعتذارهم، لما بلغت الأمور ما بلغت. وتبرير الفعلة النكرى بحق التفكير والتعبير مجانب للصواب؛ فالحرية الإنسانية لا بدّ أن تكون منضبطة، وكرامات الشعوب لا بدّ أن تكون مستحضرة مصونة، وبقدر محافظة

---

(١) تاريخ المقال: ٧/ ٢/ ٢٠٠٦

الإنسان على قيمه المادية تكون محافظته على قيمه المعنوية. والمؤسسة السياسية في (الدانمرك) ارتكبت خطأً فادحاً بتعويلها على (حرية الصحافة) و(حرية الكلمة)؛ فذلك تعويل لا تعضده الأعراف السياسية، فضلاً عن حدود الحريات الأخرى. ولقد أشار (الأمين العام) (كوفي أنان) إلى خطأ الفهم، وحث على تجنب بؤر التوتر، ومن بعد ذلك تلاحقت التصريحات التنصلية من بعض زعماء العالم، وكان حقاً على الدول الأوربية التي عاضدت بعضُ صحفها (الدانمرك) أن تعينها بردّها عن الظلم، على حدّ (أعن أخاك ظالماً أو مظلوماً)؛ فالمملكة العربية السعودية التي قادت حملة الاستياء، حالت دون تصرفات غاضبة، يقودها الشارع الإسلامي، ثم تكون فتنة لا تصيبنَّ الذين ظلموا خاصة.

ومثل هذا التصعيد العاطفي لن يكون في صالح العالم بأسره، ومشاعر الشعوب لا يمكن حسمها بقرار سياسيّ، إنها كالطوفان تدمّر كل شيء أتت عليه، وما كان من أهداف المؤسسات الإسلامية زجّ العالم في بؤر التوتر؛ إن موقفهم غيرة على سمعة رسولهم وطهره، ومحاولة لتراجع المعتدي عن اعتدائه، وما كان ضرّ الصحيفة لو اعتذرت عما بدر منها، وحمَّلت الخطأ رسَّامها (الكاريكاتيري).

والإسلام الذي قطع بكفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة، وإن يد الله مغلولة، ولقي منهم أذىً كبيراً، لا يودّ من المسلمين تصعيد الخلاف، ومن ثم نهاهم عن سبّ معبودات المشركين، ونهى عن قطيعة المخالف في الدين، وحصر المواجهة مع الذين يقاتلون على الدين، ويخرجون من الديار، والذين اقترفوا خطيئة النيل من الرسول لم يعرفوا أن إيمان المؤمن لا يتم حتى يكون الرسول أحبّ إليه من كل شيء حتى من نفسه. ولم يتحقق إيمان (عمر بن الخطاب) - رضي الله عنه - حتى كان الرسول - ﷺ - أحبّ إليه من كل شيء، حتى في نفسه، وحين قالها، قال له رسول الله: (الآن يا عمر)؛ أي الآن تحقق الإيمان. وكيف يكون اعتداء على رسول الرحمة والسلام، والمسلمون لا يفرقون بين أحد من رسله؟ ألا يكفي الغرب أن يعاملنا بالمثل، أو يكف عن تعمد الإهانة لمشاعر المسلمين؟

وما فعلته الصحافة (الدانمركية) وباركته المؤسسة السياسية يعدّ من نقض العهد والتعدي السافر؛ ذلك أن العهود والمواثيق تتطلب احترام مقدسات الآخر، أو الكف عنها على الأقل؛ فنحن نعرف أن (اليهود) و(النصارى) لا يؤمنون برسالة محمد - ﷺ -، ولا يرون القرآن كلام الله، وتلك من عقائدهم، ومع ذلك فإنها لم تؤثر في العهود والمواثيق المبرمة بين الدول المختلفة في عقائدها، متى لم ينقض المخالف الميثاق. ومع ما يتجرعه العالم الإسلامي من ويلات فإنه مستعد لنسيان ما فات، وفتح صفحة جديدة، وما على المؤسسة السياسية في (الدانمرك) إلا أن تبدي أسفها واعتذارها، وتؤكد لصحافتها أن من مستلزمات التبادل التجاري، وهو جزء من العهود والمواثيق الكف عن إيذاء مشاعر المسلمين، وعندئذ لا يكون هناك ما يمنع من عودة المياه إلى مجاريها على المستوى السياسي على الأقل، أما المقاطعة الشعبية فتلك إرادة لا يقدر عليها إلا من بيده مقاليد كل شيء. وإذا كان الإعلام الغربي قد أضل قومه بتحميل الإسلام معرة الإرهاب فإن من واجب قادة العالم تصحيح المفاهيم؛ ليعيش العالم بسلام.

ومن المؤسف أن تُمِدَّ بعض الصحف الغربية صحف الدانمرك بالغيّ، وتلك الحيل (التكتيكية) قامت بها بعض الدول الأوربية لفك الاختناق عن (الدانمرك)، وتخفيف حدة المواجهة، بحيث أعادت نشر الصور، تمشياً مع سياسة ضياع الدم بين القبائل، ووضع الأمة الإسلامية والمملكة العربية السعودية بالذات في موقف حرج، وتلك محاولة غبية، متى استطاع العالم الإسلامي التعامل معها بحكمة وروية، فالبادئ مقترف، والمساير مؤيّد، وعلى الأمة الإسلامية أن تظل في مواجهة المقترف، وأن تدع المساندين لها، محتفظة بحقها، حين تحتاج تلك الدول إلى مساندة أو تأييد في المحافل الدولية.

وظاهرة المساندة الأوربية دليل على نجاح ردود الفعل الإسلامي، ودليل على أن الفكر الأوربي في الهمّ غرب، وأنهم في الهوى سواء. إن مواجهة أوربا كلها في الأمور المتعذرة، والصحافة الأوربية التي شاطرت (الدانمرك) تريد أن تخفف من وطأة المقاطعة، وأن تربك المواجهة الإسلامية. وما تلاقيه المملكة من نقد إن هو إلا ابتلاء وامتحان، وعليها أن تصبر وتصابر وترابط، والاحتجاج بأنها عضوٌ في (منظمة التجارة العالمية)، وأن العضوية لا تخولها مقاطعة الدانمرك اقتصادياً احتجاج مرجوح؛ فالتعدي على مشاعر المسلمين وإثارتهم يحمِّلان الدولة؛ بوصفها قبلة المسلمين وفي أرضها يرقد الجسد الطاهر، مسؤولية الاستجابة لمشاعر الشعوب الإسلامية، ثم إن مبادرة المقاطعة ليست سياسية، وإنما هي شعبية، وحتى لو فتحت المملكة أسواقها للمنتجات (الدانمركية) فإن الرأي العام الإسلامي سيتمسك بالمقاطعة؛ مما يعرض البضائع الدانمركية للكساد، وتلك مقاومة سلمية مشروعة، استطاع بها (غاندي) إخراج (الإنجليز) من الهند. وإذا كان الغرب جاداً في مواجهة الإرهاب، فعليه أن يجتهد في تجفيف مستنقعاته، وقطع دابر مثيراته. وإثارة مشاعر المسلمين ورقة رابحة في يد الإرهابيين، والدول الإسلامية جادة من جانبها في مطاردة فلول الإرهاب، ولا أحسب الدول الغربية واعية للأسباب، ولا محسنة لأسلوب المواجهة.

ومع كل التداعيات السلبية والإيجابية فإن هذا الإيذاء ترك آثاراً إيجابية ما كان لها أن تكون لولا التعدي الآثم على حرمات المسلمين، وهذا يستدعي قصة (الإفك) وتطمين الله للمؤمنين حين حسبوه شراً لهم، وهو في النهاية خير؛ فالذين يركنون إلى الغرب من أبناء المسلمين، ويدَّعون رغبته في التعايش السلمي والحوار الحضاري، ويلومون أهلهم على سوء التعامل معه، وسوء الظن به، تبدت لهم منطوياته؛ فلقد كشف الحدث عن خبيئة الأعداء ومساندة بعضهم بعضاً. وحين يتلقى الذين في قلوبهم مرض درساً عملياً، يكون ذلك أدعى لوعيهم بالذي يبيته المناوئون، وأخذ الحذر من الأعداء الذين يبيتون ما لا يرضى الله في القول والفعل.

ومشروعية الحوار وتبادل المعارف والخبرات، لا تقتضي الغفلة، ولا الركون إلى الذين ظلموا، ولا المداهنة. وأخذ الحذر لا يتعارض مع الجنوح للسلام والمصالحة والتعايش وتبادل المنافع؛ فنحن هنا لا نريد قطع السبيل، ولا المقاطعة، ولا المواجهة، وإنما نريد الوعي بما ينطوي عليه الآخر، وترتيب الأمور بحيث تكون المواجهة حضارية، وما منعت المواجهة العسكرية رسول الله - ﷺ - من مقايضة الأسرى المشركين بتعليم أبناء المسلمين.

وإيذاء الرسول - ﷺ - يأتي حلقة في سلسلة محاولات يائسة للنيل من مقدسات المسلمين. وإذ تكون المحاولة اليائسة البائسة بحق المصطفى - ﷺ - فإن استعراض سيرته وموقف الآخر منها يتوفر على شواهد كافية. وشخصية الرسول - ﷺ - ظلت، ولما تزل مجال حديث منكر يتداوله المستشرقون والمبشرون والمستغربون من أبناء المسلمين الذين ران على قلوبهم ما كانوا يقرؤون. وما تتلقفه الصحافة العالمية إن هو إلا ناتج طبعي لهذه الحملة المتواصلة على قيم الأمة الإسلامية؛ فالمستشرقون والمبشرون والمناديب ومَن اتخذهم دليلاً من مستغربي المسلمين، ولغوا في قضايا الأمة ومسلماتها، ولما تعدم الأمة من علمائها الأوفياء مَن تصدى لأولئك، وفند أقوالهم، وأجهض حملاتهم الفكرية، مثلما أجهضت جيوش المسلمين حملاتهم الصليبية.

وإذا كانت أذية الكلمة حكراً على المفكرين الذين شُغلوا بمقارنة الأديان، وتولوا كبر الغزو الفكري، فقد امتدت الأذية من الكلمة العلمية إلى الكلمة الإبداعية، وإلى سائر الفنون: الفعلية والشكلية؛ فكان أن تولى كبر الأذية الروائيون والممثلون والرسامون،

وهؤلاء أكثر ارتباطاً وتأثيراً في الرأي العام، ولعلنا نذكر رواية (الآيات...) و(العار) و(الوليمة).

وما فعلته الصحافة (الدانمركية) محاولة بذيئة جنت من ورائها خيبة الأمل؛ فالمسلمون توحدت مشاعرهم، وقد تتوحد صفوفهم وأهدافهم، والرأي العام (الدانمركي) انشق على نفسه، واختلفت صفوفه. وما كانت الفعلة النكراء في الصحافة الدانمركية من بوادر العصر؛ إنها خليقة الأعداء، ومَن تصوّر أن ذلك عارض زائل فقد وهم. وكيف لا نعي قول الباري: ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾، وتحذير الرسول - ﷺ -: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم**». والغرب لن ينفك عن الغزو والتآمر، وواجبنا إتقان لعبة التواصل معه.

لقد اهتمّ المستشرقون بسيرة الرسول - ﷺ - وأخذوها من أطرافها قدحاً أو مدحاً، وكان منهم المنصفون، ومنهم دون ذلك، ومنهم المتحاملون، وقليل منهم مَن أثرت فيه السيرة العطرة بكل طهرها ونصاعتها فأسلم. ومن المستشرقين (الدانمركيين) بالذات الذين تناولوا سيرة الرسول - ﷺ - المستشرق (يوهل فرنفز ت ١٩٣٢م) الذي ألف كتاب (حياة محمد) و(تعاليم محمد طبقاً للقرآن)، وآخرون من (الدانمركيين) كتبوا في التاريخ الإسلامي من مثل (أوليسترب ت ١٩٣٨م) و(جودي بيتر ت ١٩٤٥م) و(بدرسن). ولم تكن المشاهد الفكرية في الدانمرك جاهلةً مكانة الرسول - ﷺ - عند المسلمين، ولا جاهلة ما عرفه العالم عن أخلاقه المتميزة. ولا شك أن مثل هذه المحاولة لها أهداف خفية، قد لا نعرفها في القريب العاجل، ولكنها ستبدو في أذيال اللعبة، حين يفرج عن الوثائق، أو حين ينفضّ سامر المأجورين: (ويأتيك بالأخبار مَن لم تزود). وفي غمرة الحملة ضدّ مَن كان خلقه القرآن، ومن زكاه ربه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، نجد مَن أنصف الرسول - ﷺ - من المستشرقين.

وممن أنصفه وأسلم عدد كبير، من بينهم (آتيين دينيه) الفرنسي، وقد سمّى نفسه (ناصر الدين)، و(يوزورث سمث) و(ج. وليز) و(أنسو بروكس) و(بارنت) الألمانيون، و(أرثر كين) الأمريكي، وآخرون لا حصر لهم. وكتابات المجحفين منهم مرتبطة بخلفياتهم الدينية والفكرية وأنساقهم الثقافية، ومنطلقة من رؤيتهم الوضعية ولصوقهم الماديّ، وأكثرهم أجيرٌ جنّدته المنظمات المعادية للإسلام، والمقتفون أثرهم من المفكرين العرب تتشابه الأفكار عندهم كما تشابهت البقر عند بني إسرائيل، وتتداخل الآراء في كتاباتهم حتى تكون كما طيلسان (ابن حرب).

وإذا أساء المستشرقون لكل مفردات الحضارة الإسلامية، فإن لهم مواقف عدائية من الرسول - ﷺ - بحيث أنكروا الوحي والإسراء والمعراج، واتهموا الرسول بأنه مؤلف للقرآن، وصانع للإسلام، ووصفوه بأنه ناثر مبدع، وثائر عربي خدم قوميته. وحتى الذين ذكروه على رأس الأبطال، نظروا إليه بوصفه عبقريا إنسانيا، وليس مرسلا من عند ربه. والمؤسف أن هذه الرؤى التقطها بعض مرضى القلوب من المسلمين، فلقد سايرهم على سبيل المثال (محمود أبو رية) في قضية الإسراء والمعراج، وسايرهم (طه حسين) في تاريخ إبراهيم وإسماعيل، والتقط بعض المفكرين أطرافاً من دعاويهم دون وعي منهم بخطورة تبني مثل هذه الأفكار المادية الإلحادية. وفقهاء الأمة ناقشوا مثل هذه التعديات، وأقروا عقوبة المستهزئين، وخير من تناول ذلك شيخ الإسلام (ابن تيمية) في كتابه الموسوعي (الصارم المسلول على شاتم الرسول).

ولعل هذا الحدث المنكر يهدي أفكاراً ضالة، ويشفي نفوساً مريضة، ويردها إلى جادة الصواب؛ فالمفكرون من أبناء المسلمين يتلقون مثل هذه المقولات ويتقبلونها بقبول حسن، ويشيعونها: إما جهلاً منهم بنواقض الإيمان، وإما إعجاباً منهم برؤية المستشرقين ومناهجهم. وإذا كانت تصديات الغيورين بهذا المستوى المشرف لما روّجته صحف الغرب فإن الواجب أن تمتد الغيرة إلى لغط عربي، يمسّ ثوابت الأمة، باسم الاجتهاد والتأويل وحرية الفكر، وما شيء من ذلك له ما يبرره، وبخاصة أن الإسلام مستهدف، وأن المسلمين مضللون.

صبراً آل عمار.. ! [١]

طوى الجزيرة حتى جاءني في (دبي) نبأ وفاة حرم صديق العمر الأستاذ محمد بن عبد الرحمن العمار، والدة أبنائه وبناته الذين هم بمنزلة أبنائي وبناتي، وهي بمنزلة الأخت طيلة نصف قرن. كانت نعم الزوجة الوفية القائمة بحق زوجها، وحقوق الأقارب والجيران والمعوزين.

لقد رحلت (أم أحمد) في أوج تألقها، وأوج آمالها العريضة، وأوج الاحتياج إليها في لم شمل ورعاية الأحفاد. لقد تجرعنا بفقدها مرارتين:

-مرارة الجلطة العنيفة التي ضربتها دون أي مسبقات، فأفقدتها كل شيء إلا النفس، ولم يتمكن الأطباء من التصرف لتفادي مضاعفات المرض.

-ومرارة الوفاة التي لم تمهلها ليتمكن ذووها من أي تصرف يحول دون الوفاة، وتلك سنّة الله في خلقه «**أحبب من شئت فإنك مفارقه**».

وأنا في غمرة العمل في دولة (الإمارات) أتوقع أن أحرم من المشاركة في شعائر الصلاة والدفن، والوقوف إلى جانب (أبي أحمد) و(أبي زياد) و(عبد الرحمن) و(آل عمار كافة) في مصابهم الأليم الذي انتزع منهم أعز مفقود، والذي أثق بأنهم بإيمانهم واحتسابهم وصبرهم أقدر مني على تحمل الصدمة المؤلمة، وهم يعلمون أن الصبر عند الصدمة الأولى.

لقد رحلت إنسانة من خيار النساء، سباقة إلى كل خير، ساعية بحاجة الأرملة والمسكين والمعوزين الذين سيفقدون بفقدها محسنة تتحسس الحاجات، وتطعم لوجه الله بدون مَنٍّ أو أذى.

إن فراقها فاجعة لا يخفف من وطأتها إلا الإيمان بقضاء الله وقدره، نسأل الله لها المغفرة ولذويها الصبر والسلوان، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ﴾.

وما أحسب زوجها وأبناءها وبناتها إلا صابرين محتسبين راضين بقضاء الله وقدره، وإن تركت بفراقها فراغاً لا تملأه نساء الأرض، ولكنها الحياة ما جمعت إلا وفرقت: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤] .

لقد عرفتها منذ أن دخلت بيت زوجها قبل ست وأربعين سنة، وعرفت فيها نبل العواطف، وحسن الخلق:

حَصَانٌ رَزَانٌ ما تُزَنُّ بريبةٍ
وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

رحمك الله يا (أم أحمد)، وعوض أهلك وذويك خيراً مما أخذ منهم، ولقد عجبت (أم سلمة - رضي الله عنها - راوية الحديث - حين مات زوجها (أبوسلمة) وقيل لها: عوَّضك الله خيراً منه) فقالت: (ومن خيرٌ من أبي سلمة)، فكان رسول الله - ﷺ - زوجها بعد أبي سلمه، لتكون من أمهات المؤمنين.

---

(١) تاريخ المقال: ١٦/ ٢/ ٢٠٠٦

لقد قضى الله أن تفارق (أم أحمد) دار الفناء، تاركة بنين وبنات وحفدة تعلقت بها قلوبهم، وسكنت إليها افئدتهم، وغفت في حضنها عيونهم، ولو كان الفداء ممكن لفدوها بما يملكون، ولكن ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾.

رحمها الله وجعل في عقبها الخلف الصالح.

التطاول في زمن التطامن .. ![1]

من عادتي حين أبرح ديار المقامة أن أصطحب معي من الكتب ما يرتبط بالمهمة، أو ما يرتبط بالظرف المعاش: فكرياً أو سياسياً أو أدبياً. وقد أكون ملتزماً بإنجاز عمل ما، فأتأبط شيئاً من مسوّداته، وجذاذاته، وبعض مرجعياته، ثم لا أجد حرجاً في المبادرة إلى مواعيد السفر قبل أوانها؛ لأنتبذ ممن حولي مكاناً قصياً، أقرأ أو أكتب، أو أراجع، وفي الطائرة أغمس نفسي وسط كتاب أو مسودة عمل، متى رزقت بجار حيي، لا ينبس ببنت شفة، وقلّ أن أنشئ في السفر عملاً.

ولقد كان للعلامة الشيخ (حمد الجاسر) - رحمه الله - أثره عليّ في ذلك، ولما لم تتح لي فرصة مصاحبته في الكثير من أسفاره، إلا أن سفرة أو سفرتين، أدركت من خلالهما أنه يصطحب ما يلزمه من أمهات الكتب للقراءة التحضيرية، ومما هو محفور في الذاكرة أني التقيت به في (أبها) لحضور بعض الفعاليات هناك، وكان رحمه الله يلاطفني، ويبوح لي ببعض القول، ويستعين بي لأقرأ له، عندما يكل بصره أو يضعف عزمه. ويومها كان يحمل مجلداً من كتاب (تاج العروس) (للزبيدي)، وهو من معاجم اللغة الموسوعية، وكانت طباعته رديئة، وحرفه دقيقا، وحجمه كبيرا، وكنت أقرأ عليه حتى يستوقفني؛ ليدون ملاحظاته على ما ورد فيه عن المواقع والجبال والأودية في (جزيرة العرب)، وقد أصبح عمله هذا مشروعاً أنجز من خلاله كتاباً، استدرك فيه على الأوائل ما وهموا فيه، أو تحديد ما عمموا مكانه.

واصطحاب الكتب أو الملفات يمتص فائض الوقت، وإن كانت أجواء السفر لا تساعد على فراغ الذهن، وحين أعود من الرحلة محملاً بما اشتريت، وبما أهدي لي مع ما تيسر من أوراق العمل ومما دونته عن تلك اللقاءات من حوارات ومداخلات، أفرق ذلك كله في حقوله وملفاته في مكتبتي، وقد لا أعود إليه، ولكنه من باب التوثيق. وكلما حطت ركابي في مكان، فرغت للتنقيب فيما معي من كتب، ومستلات صحفية. واصطحاب الكتب من مكتبتي لا يكون اعتباطاً، وإنما هو محكوم بالمناسبة أو بالظرف. وفي مناسبة الاحتفاء ب(مكة المكرمة) كعاصمة للثقافة الإسلامية، أتيحت لي أكثر من مشاركة، ربما تكون محصلتها كتاباً يجمع شتات تلك المشاركات. في هذه الاحتفالية عنّ لي أن أحمل كتاباً من كتب (الفقه المقارن) عن الحج والعمرة ومتعلقاتهما، وبعض ما نشر من مقالات مثيرة، استللتها حين لفت نظري إليها بعض المتحمسين، وهي مقالات مريبة؛ لأنها تتعمد الخوض في المسكوت عنه دون مبرر، وتستعذب التشكيك في كبريات القضايا، وتنتشي بلمز بعض أعلام الأمة. وإشكالية المتزببين في زمن الحصرمة أنهم يستفرغون المقروء ولا يهضمونه، ويستجيبون للخطاب المناوئ، وكأنه القول الفصل. والمسيء لوجه المشهد الفكري بدو الخلط العجيب عند هذه الفئة بين المناهج والآليات والمفاهيم، حتى لكأن ما يفيضون به (كشكول) متنافر الأشكال والألوان، ولو سئلوا عن مقترفاتهم لقالوا بلغة الجزم: (القول ما قاله أساطين الفكر الغربي)، وقد تبلغ بهم الحماقة منتهاها؛ فيقولون بحق الاجتهاد، وحرية الفكر، ونحن رجال وهم رجال. وما علموا أن لكل شيء شرطه وضابطه ودواعيه في ظل حضارة الانتماء لا حضارة الهيمنة.

وكتب التراث - ومنها كتب (الفقه المقارن) - تزخر بما يجهله المتهافتون على المتداوَل الغربي، وتكشف عن جهود متميزة، وإمكانيات متفوقة لعلمائنا الأوائل، لو عرفها المولون الأدبار لما وسعهم إلا الإكبار لسلف الأمة. وسمة المعارف الإنسانية

---

(١) تاريخ المقال: ٢١/ ٢/ ٢٠٠٦

سرعة التحول، وبخاصة ما يتعلق منها بعلم الفقه الحكمي. والفقهاء يواجهون النوازل التي تكشف لهم خبايا النصوص، كما تكشف القنابل الضوئية عتمة الأرض؛ لتسديد الرماية، أو لفتح الطريق أمام زحف الجيوش. والمقالات التي تقمشتها من بطون الصحف لكُتاب يركنون شيئاً كثيراً للفكر الغربي، دون وعي بنمطوياته، ويبتدرون النوازل، ويبادرون بالأحكام، ولا يتورعون من الوقوع في أعراض العلماء، وقد يستلون قولاً شاذاً أو مفردة من مفردات المجتهدين المقيدين أو المطلقين، ليربكوا المشهد، وليلبسوا على الناس ما يلبسون.

ولقد تراءت لي آيات ونذر: أما الآيات فؤلئك اللفيف من العلماء الأفذاذ الذين نذروا جهدهم ووقتهم للجدل العلمي والفكري، وبناء حضارة معرفية متمكنة المنهج والآلية ونظرية المعرفة. وأما النذر فؤلئك النكرات الذين نذروا أنفسهم لهدم الشوامخ، وإخلاء المشاهد من أهل الذكر، وكأن من مستلزمات الاجتهاد والاختلاف التشكيك والإقصاء.

وإذ استكمل ورثة الأنبياء من جهابذة العلماء تجميع النصوص وتصنيفها وتصحيحها وشرحها واستنباط الأحكام منها، فإن في كل نص بقية، يستنبط منه اللاحقون أحكام النوازل، ولو أن الأوائل لم يتركوا شيئاً للأواخر لكانت الأمة في حرج أمام ما تمر به من أحداث وحوادث، ومن ثم لا تثريب على من واجه النوازل بالنصوص متى استطاع ذلك، ولا تثريب على من نظر في مدى قدرة الأحكام السالفة على استيعاب متطلبات العصر. والراصد لجدل العلماء الأوائل في مختلف العلوم النظرية، يُكبر فيهم دقة الملاحظة، وعمق المعرفة، وشمول الثقافة، وانضباط المنهج، والبحث عن وجه الصواب، والزهادة بالغلبة، والتعفف عن تزكية النفس، ومن شذ منهم تعقبه أنداده، إذ لا يخلو عصر من شطحات لا يحتملها السياق، ولا تقبل بها الأنساق، ولكنها من الندرة بحيث لا تشكل ظاهرة مخيفة. ولقد وقعت الواقعة يوم أن ابتدر الراية من لا يأخذها بحقها، ووجد من يشرعن له حق القول بغير علم، والتطاول على الأفذاذ من العلماء. وليس أدل على ذلك مما تعانيه الأمة من كتاب يستبقون الإساءات، ويختلقون الاتهامات لعلماء ومصلحين ودعاة، وإذا نهوا عما هم فيه لجوا في عتو ونفور. ولو أن المتنفذين في المشاهد شغلوا أنفسهم بالمستجدات، وغفلوا عن محاكمة الماضي لإرضاء دول الاستكبار، لكان خيراً لهم. والتفلت على حبل الاعتصام مؤذن بالفشل. ولهذا ما زلت أنادي بتفعيل المجامع العلمية، كمجامع اللغة العربية، والمجمع الفقهي، وهيئة كبار العلماء، وسائر المؤسسات الدينية؛ لملاحقة النوازل، واستنباط أحكامها، والحيلولة دون فوضى الجهود الفردية والفتاوى المرتجلة.

ومثلما أننا نعيش فوضى في المصطلحات وفي الترجمة، فإننا نعيش الفوضى نفسها في القضايا الفقهية، سواء منها ما يتعلق بفقه العبادات والمعاملات أو ما يتعلق بما هو أهم وأخطر ك(الفقه الأكبر) و(الفكر السياسي الإسلامي)، و(فقه العلاقات الدولية) و(الجهاد) و(الولاء)؛ ذلك أن المتسرعين من أنصاف المتعلمين يبادرون النوازل بفتاوى غير ممحصة، والعامة تلتقطها كما التقط آل فرعون موسى عليه السلام، ليكون لهم عدواً وحزناً. ومن لطائف التفسير اللغوي أن (اللام) للمآل، وليست للغاية، وأخطر شيء أن يكون المشهد قسمة بين (الحدّيين) و(المميّعين)؛ إذ لا حياة سوية مع الإفراط والتفريط.

ولو أن هناك مؤسسات متضلعة بفقه الأحكام، وفقه الواقع، وأصول الفقه، والحديث، والتفسير، وعلومها، والاجتهاد وشروطه ومجالاته، ونظرية المعرفة واختلافها من حضارة لأخرى، ولو أن العامة صرفت نفسها عمن يتلقون ركبان القضايا ببضاعة علمية مزجاة؛ لسلمت الأمة من الموبقات. وليس هناك ما يمنع من الخروج بأحكام متباينة، متى ربط كل مجتهد حكمه بأدلته ومقاصده ومشروعية تأويله، ومتى كان ذوو الآراء المخالفة

من أهل الاجتهاد الناصحين المشفقين. وكلما أُبْتُ من سفر أتيحت لي فيه لقاءات مفتوحة مع أطياف المجتمع المحلي والعربي أوجست خيفة من التنازع والتنابز، وأحسست أنني مثقل بهمّ المشاهد التي لا تحكمها مرجعية، ولا يأطرها وعي بالسياق والنسق، ولا تسودها روح التسامح والتعاذر والتعاون.

ولما كانت في الأسفار مثل هذه المنغصات فإن فيها بصيص أمل، وخلوصاً من رتابة العمل، وفراغاً للنفس ورغباتها. فعندما ينفض سامر المؤتمرين، يأوي كل مسافر إلى غرفته في الفندق، أو يلتمس مكانه في البهو، ليأخذ بأطراف الأحاديث مع من حوله، ومن عادتي أنني عندما لا أجد طريقي إلى السمر ولا إلى النوم، أجده إلى الكتاب، فإذا أويت إلى غرفتي بادرت إلى القراءة (وخير جليس في الزمان كتاب). وكلما خلوت بكتاب أو مكتبة تذكرت ما قاله (العقاد) عن بيته ومكتبته، وهو القارئ النهم الذي يقضي الساعات الطوال بين الكتب، يحلب أشطرها، ويخرجه عذباً فراتاً سائغاً شرابه، فيما تأتي تلك المقالات المستلة كما الملح الأجاج، فمن خلالها أرى انطفاءات الفكر وضحالته، وسطحية القراء المخفين، مما يذكرني ب(ندل الثعالب)، وكلما تلبثت طويلاً في كتب التراث العربي في سائر المعارف أحسست أن هذه العلوم قد هيئ لها من يحملها، ومن يأخذها بحقها من العدول، وحين آلت إلى العققة من الأبناء، أصبحت كما الفتى العربي في شعب بوان، غريب الوجه واليد واللسان، فحين أفتش فيما استللت من الصحف، وما تولته من كبر النيل من العلماء، أقول في نفسي: ماذا يراد لهذه الأمة؟ ولا سيما أن المجندين والمتطوعين لهذا الفعل المريب، لا يبالون بأي وادٍ هلك الأفذاذ من علماء السلف وأساطين الخلف. والراصد للحراك الثقافي يحز في نفسه ما يراه، وما يسمعه من نيل سافر، وتجريح مريب، وكأن ما تعانيه الأمة الإسلامية من ضعف وهوان، من مقترفات الأعلام.

ولقد تذكرت في هذا الموقف شيئين: - العقوق والعبث. عقوق الخلف للسلف، والعبث المتعمد بالتراث، بحجة أنهم رجال والعابثون رجال. ولقد شهدت في مسارح علمنا وفكرنا وأدبنا وسائر معارفنا لغطاً كثيراً حول تراثنا، نهضت به طائفتان: - أساطين من العلماء والمفكرين الذين استحوذت عليهم شياطين الإنس والجن؛ فباعوا إمكانياتهم بثمن بخس. ومتعالمون تافهون، سدت أمامهم طرق الابتكار، فسلكوا بنيات الإنكار، فكانوا ألج من خنفساء وأتيه من ضب، ومحصلة ذلك كله في سلة المعادي في الدين. وأعداء الحضارة الإسلامية، إما أن يظفروا بمن يكثّر سوادهم، ممن توصف ثقافتهم بثقافة الضرار والانبهار، أو أن يقللوا سواد خصومهم بالتشكيك بالثوابت، وتدنيس المقدس. وكلتا الطريقتين قائمتان على أشدهما. وتلقى المكر والكيد من أبناء الحضارة المغلوبة على أمرها لا ينكرها إلا من ينكر ضوء الشمس من رمد.

واصطحاب كتاب في (الفقه المقارن) إلى جانب مستلات من القول الرخيص محاولة لإسقاط الدعاوى الكاذبة. لقد كان هناك متسع من الوقت لقراءة ما يتعلق بمثل هذا اللون من التراث، وبخاصة أن (مكة) مدعاة لإنشاء بعض الأنساك، ولست هنا مع خصوص الحدث والموضوع، بحيث أقف حيث تكون الأحكام التعبدية، وإنما أنا مع عموم الدلالة، فالخوض في (الفقه المقارن) يجلي قيماً معرفية مدهشة. لقد لفت نظري ما بذله علماؤنا من جهود مضنية في سبيل تحرير المسائل، والتقريب بين وجهات النظر، وأيقنت أن اللائمين لعلمائنا الواصفين لهم ب(الكهنوتية) إما جهلة مغمورون، يودون أن يكونوا على كل لسان، أو مدخولون في أفكارهم، يودون أن يعزلوا الأمة عن علمائها ومنارات الهداية في مسارها.

لقد أحسست بالزهو عندما تعقبت أقوال العلماء في مسائل الخلاف؛ إذ فيه ما يدل على غزارة العلم ورحابة الصدور، وما هم عليه من ثاقب الرأي وسديد الأحكام، وكم

أدهشني، وأنا أستعرض ما يدور بين العلماء من سجال مرتفع النبرة، ذلك التداول المعرفي المحكوم بضوابط العلوم وأصولها، والذكاء الخارق في استدعاء الحيثيات، ولو أن الأدباء المهتمين بالتفكيك والتشريح والتقويض ومناهج التناص وكل متعلقات البنيوية نظروا إلى مطارحات علماء الفقه المقارن، وتداولهم للنصوص، وقدرتهم على استنطاقها، واستنباط الأحكام منها، والوصول إلى أدق التفاصيل فيها؛ لما كان منهم ذلك العقوق، ولما كانت منهم الجرأة على المخالفة والاستخفاف، وإذ لم تكن لهؤلاء العققة إلمامات بكتب التراث، وبعلم الأصول، وبنظريات المعرفة، فإنهم لا يجدون حرجاً من الخوض في الحديث عن العلماء وعما خلفوه من علم دون ورع، ودون تحرج، وتلك لعمر الله من مصاب مشاهدنا الفكرية والدينية. ولقد تساءلت من قبل عن دوافع النقمة على مشاهير العلماء والمصلحين ك(ابن تيمية) على سبيل المثال، وهو العالم الفذ الذي جالد وجاهد أصحاب الملل والنحل، وفند أخطاءهم، ورصد لتجاوزاتهم، متسلحاً بأصول المعرفة الإسلامية، متسامحاً مع المخالف غير المعاند، ملتمساً الأعذار لمن تأول، ولم أجد الجواب الشافي. وحين لا يكون الدافع علمياً يكون المتحرشون ممن استحوذت عليهم شياطين الحضارات المهيمنة، ولسنا هنا نمنع مساءلة السلف من العلماء ومراجعة مسلماتهم، ولا نضيق بشيء من ذلك، لو صحب المساءلة إنصاف واحترام واعتراف بالفضل، فحق السلف علينا الاعتراف بحقهم، والذب عن أعراضهم، والاختلاف معهم لا يستدعي النيل منهم.

وحين تصبح المراجعة مشروعة، والاختلاف متوقعاً، يكون من حق سلف الأمة الاعتراف لهم بالفضل، والترحم عليهم، والتماس العذر لهم. لقد حفزني على الدفاع عن علمائنا، ما أسمعه وأراه من نيل سافر، لا يسنده علم، ولا يحميه ورع. ولو أن المستمرئين لأعراض العلماء قرؤوا ما كتبه أولئك في مختلف حقول المعرفة؛ لما كان منهم تطاول عليهم.

وإشكالية المشاهد، أن طائفة من المستبدين بها، يقرؤون عن الأشياء، ولا يقرؤونها، وتلك خليقة ما كان لها أن تكون لمن يبيح لنفسه الحديث في القضايا الكبرى. في عوالم الدين والسياسة والفكر، لقد تبدت لي من خلال الكتب والجذاذات التي حملتها معي أن وراء تلك الحملة على العلماء ما وراءها، وأن ترك الأمور كما قرية (غوار الطوشة) مؤذن بفساد كبير، والأخذ على يد المتسرعين وإشعارهم بأن الرأي العام بحاجة إلى أن نحدثه بما يعقل كما الحيلولة دون خرق السفينة.

عقائد المفكرين في القرن العشرين .. ؟[١]

كلما هممت في تناول موضوع يشغل الرأي العام أو الخاص، وله مساس بالفكر المعاصر، هرعت إلى مكتبتي التي نشأت معي منذ نصف قرن، واتخذت لها توزيعاً وفق رؤيتي الخاصة، وليس وفق النظام العشري المعتمد لدى المكتبات العالمية. ومنها ألتمس المراجع والمصادر التي تعضد فكرتي، وتشدّ أزر موقفي؛ سعياً وراء تحويل المقال من الإنشائية المترسلة إلى الثقافية الممتلئة؛ فأنا أكره المترسلين والمخفين والإنشائيين، وأحفل بالمقال الممتلئ معرفة، والموصل علماً. وكلما ارتبت من شطحة كاتب أو جهله، أو ضقت ذرعاً بتعالمه هرعت إلى أمات المصادر والمراجع؛ للتمكن من ردّ التائهين إلى جادة الصواب. وما من كاتب إلا مدرك أو مستدرك عليه، كما قال الإمام مالك: (ما منا إلا رادّ أو مردود عليه إلا صاحب هذا القبر) - يعني مَن لا ينطق عن الهوى -.

والنصّ الثقافي هو النص المطعم بمختلف المعارف، المحلّى بأنواع الثقافات وأصناف الآراء. وعودتي إلى الكتب المسعفة ليست كعودة الخالي الوفاض الذي يأخذ من هذا، وينقل من ذاك، ثم لا يحسن الانتقاء، ولا يوفق في العرض، فيكون كمن يطيل الحديث، ثم لا يقول شيئاً، أو كحاطب ليل، وإنما هي عودة المتزود، وخير الزاد ما يقي الإنسان زلة اللسان وصبوة القلم.

ويقيني أنني مررت عبر عشرات السنين على تلك الكتب، وعرفت ما تنطوي عليه. ومن عادتي حين أريد شراء كتاب أجهل مؤلفه، ولا أتوفر على معرفة كافية عن حقله المعرفي، أن أستعرض المقدمة والخاتمة والمراجع، وأستبين المنهج والخطة وآلية التناول، ثم أختار بعض الصفحات عشوائياً، فإذا شدني سحر اللغة وحلاوة الأسلوب، أو استهوتني طرافة المعلومة، أو استمالني عمق الباحث واقتداره، اشتريت الكتاب. وإلى جانب هذا الاستعراض السريع أميل إلى استكمال ما ألفته طائفة من العلماء والأدباء والمفكرين ممن لهم حضورهم المؤثر في سائر المشاهد. أسأل عما لهم من مؤلفات أو عمن كتب عنهم؛ لكونهم يشكلون مكانة علمية متميزة. وتمتد رغبتي إلى جانب ذلك إلى مذاهب وظواهر لا بدّ من استكمال المعلومات عنها، ف (الحداثة) أو (العولمة) و(التفكيكية) و(التحويلية) - على سبيل المثال - من الظواهر التي يفرض عليّ حضوري الاهتمام بها، واستكمال المعلومات عنها، مثلما كانت (الوجودية) و(الماركسية) من قبل محط الأنظار، والاهتمام يمتد إلى الموسوعات والمعاجم كافة في أيّ حقل معرفي.

وحين أردت التعليق على مأزق التعالق والردّ على بعض المغالطين حول سائر الظواهر؛ بوصفها متعددة المفاهيم، لم أقنع باللغط المحلي، ولا باللغو الإعلامي؛ ذلك أنه زبد لا يغني ولا يقني، بل عدت إلى تاريخ الحضارات والعلوم والمذاهب والأفكار من خلال موسوعاتها أو رجالاتها، أو ما ألف عنها من كتب، أو ما كتب فيها من مقالات ورسائل علمية محكمة، وما أجري حولها من لقاءات، وكان من بين ما رجعت إليه كتاب (عقائد المفكرين في القرن العشرين) للمفكر العربي الكبير (عباس محمود العقاد - ت ١٩٦٤م) - رحمه الله -، ولهذا المفكر الفذ في نفسي كل الإعجاب وكل الإكبار، وهو في حياته وبعد مماته ظالم ومظلوم؛ فكل الذين قرؤوه لم ينصفوه، وأكثرهم قرأ عنه، ولم يقرأ له، وتلك من عثرات الأقلام. لقد عرفته قبل نصف قرن، ودخلت كتبه مكتبتي في وقت مبكر، فهذا الكتاب وضع عليه تاريخ الشراء عام ١٣٨٨هـ.

---

(١) تاريخ المقال: ٢٨/ ٢/ ٢٠٠٦

وجناح (العقاد) في مكتبتي من أوسع الأجنحة لا ينازعه إلا جناح (طه حسين) و(عبد الرحمن بدوي) و(زكي نجيب محمود)؛ إذ يشتمل على كل كتبه التي ألفها، وطبعها في حياته، وما طبع له بعد مماته، وأكثر ما كتب عنه. وحين أقول: (أكثر ما كتب عنه) فإنني أعرف حجم ما كتب عنه، ولا سيما بعدما استعرضت السلسلة (الببليوجرافية) عن أعلام الأدب المعاصر في مصر، التي أعدها فريق عمل، تحت إشراف الأستاذ (حمدي السكوت) الذي نال جائزة الملك فيصل. وهو قد انفرد بإعداد ما يخص (عباس محمود العقاد) في مجلدين نيفا على ألف ومائة وخمسين صفحة، ليس فيها إلا عناوين الكتب والمقالات. وفيما يتعلق بالكتاب مجال الحديث (عقائد المفكرين في القرن العشرين) فإن ترتيبه يأتي بين مؤلفاته المطبوعة في حياته بعد أربعين كتاباً سبقته، ولعل هذا مؤشر على نضجه وسيطرته على معارف عصره. ولن أنقب عما كُتب عن هذا الكتاب من مدح أو قدح فيما كتب عن العقاد من رسائل علمية وكتب دراسية أو نقدية، والتي تجاوزت السبعين كتاباً في مصر وحدها؛ لأن ذلك يند بنا عما نحن بصدده.

والمتتبع للعقاد يجده في اللغة كمن ينحت من الصخر، وفي المعاني كمن يغرف من البحر؛ فهو حين يعزم على تناول ظاهرة فكرية تنثال عليه المعلومات من كل جانب، وتحتشد الكتب بمختلف اللغات. ولأنه لا يعتمد النقل، ولا يهتم بالإحالة، فإن القارئ المبتدئ لا يملك مجاراته. ولقد تجرعت مرارات المغالبة؛ إذ شدني (العقاد) وأنا غض الإهاب، وأحسست وأنا أجيل النظر في كتبه أنني أمام مطلسم لا يبالي بقارئيه، حتى لا أدري كيف السبيل إلى مراميه وأهدافه، ولم يكن في مقدوري إذ ذاك السيطرة على فكره، ولا السيطرة على غرامي بكتبه، ووجدت أن الحل الأمثل في التوفر على كتبه، وتركها مرصوصة في المكتبة يعلوها الغبار، حتى تتوفر القدرة على التفكيك والتشريح والتقويض، وحتى أمتلك أكثر من نظرية معرفية؛ فقراءة العقاد تحتاج إلى آليات قرائية تقدر على تثوير معارفه المتماسكة كما الصخر.

وحديثه عن (عقائد المفكرين) حصيلة قراءة مباشرة لما كتبوه بأيديهم؛ إذ لم يقع تحت رحمة المترجمين الذين لا يملكون القدرة على استيعاب الأفكار ولا القدرة على معضلات اللغات. وكل من يتلقى معارفه من المترجمين يكون مرتهناً لمبلغهم من العلم. و(العقاد) حين يعطيك تصوره للأفكار يدعم رؤيته بنقول في غاية الاختصار؛ ففي حديثه - على سبيل المثال - عن (مشكلة الشر) تجده يقدم رؤيته كمفكر لا يقل عن أساطين الفكر الغربي، حتى إذا وثق من تحرير موقفه، عطف على مَن لهم رؤية موافقة أو مخالفة، وهو في أمور كثيرة لا يحسم الإشكالية، ولكنه يتركها لمزيد من الإضافات. والذين يمتلكون ترويض جماح فكره يخرجون بنتائج إيجابية.

والكتاب - كما يقال - (معتصر المختصر)، وهو من الكتب المؤلفة، وليس من المقالات المجموعة، وميزة التأليف أنها تعتمد الخطة والمنهج والآلية والمراجع والمصادر، وتحتفظ بالوحدة الموضوعية والعضوية، وتبسط الحديث عن الموضوع، وليست كذلك المقالات أو الدراسات المجموعة بعد النشر أو الإلقاء. وللعقاد عشرات الكتب من هذا وذاك؛ ذلك أنه زهد بالوظائف، ولم يمارس التجارة، وجاء من (أسوان) إلى (القاهرة) شاباً معدماً مجهولاً تتقحمه العيون ويزدريه الكبراء، فكان أن اعتمد على قلمه في رزقه، وفي فرض وجوده، ومن ثم جذبته الصحافة واستهلكته، والعباقرة كالمجانين، لا تسعهم الوظائف، ولا تصبر عليهم النساء، فما باع نفسه بالتقسيط - كما يقول -، وما شغلته زوجة ولا ولد، ولسنا معه في شيء من ذلك، ولكنها حيوات العباقرة الشاذة والمفيدة في آن.

و(العقاد) الذي شدّني إليه صلفه وعنف مواجهته الأفكار والأناسيّ ليس معصوماً من الأخطاء الفادحة، والانحياز السلبيّ والدخول في اللعب السياسية أثناء المدّ الشيوعي، ولسنا بصدد الحديث عن جوانب حياته ومجمل أفكاره، ولكننا نودّ الحديث عن كتاب قرأته أكثر من مرة، وعدت إليه أكثر من مرة، وأحسست أنه من أصول الفلسفة الحديثة؛ لأنه يعرض - بالإيجاز - رموز الفكر الغربي الحديث، ويرصد التحولات الفكرية والعلمية كافة. وما من طالب علم وفكر يريد لنفسه التأصيل المعرفي إلا ويكون (العقاد) واحداً من أهم مراجعه، وغياب التأصيل للفلسفة الحديثة يعرض الدارسين للتيه، وذلك ما نراه ونسمعه. وتشكّل الثقافة من الكتبة المتسطحين يؤدي إلى ثقافة ضحلة متسطحة. وكتاب الصحف أو بعضهم على الأقل ممن تجذبهم الصحافة، وتحملهم على تنويع الموضوعات يكبرون في أعين الناس، وتصبح مقولاتهم حاسمة، وما هم في الحقيقة إلا منشئون لا يؤصلون لعلم، ولا يحررون لمسائل، فإذا تحدثوا عن القضايا والظواهر والمذاهب والمبادئ، ربكوا الأذهان، واضطربت من أقوالهم المفاهيم، وأدت كتاباتهم إلى التنازع بين القانعين بما يقولون. والذين يتوفرون على المعاجم والموسوعات والمترجمات وأمات الكتب والدراسات، ويتابعون ما يجدّ من قضايا وظواهر، ويحصلون على ما يكتب فيها وعنها تكون لهم رؤية صائبة فيما يكتب من مقالات ودراسات مرتجلة. ومكمن الإشكاليات الفكرية والسياسية والدينية في واحدية التلقي؛ بمعنى أن يقيد القارئ نفسه بعالم أو كاتب أو مصدر علمي ناقص، أو يكون مقلداً لفكر أو مذهب، يرى فيه العمق والشمول، وما هو كذلك، وإنما هو التعصب الأعمى والتزكية المتعجلة.

وحديثي عن الكتاب لا ينهض بمهمة العرض ولا التلخيص، ولكنه يومئ إلى حلقة مفقودة عند سائر الكتبة الذين يتصدرون القول في الظواهر الفكرية الغربية، وهم لم يتمكنوا من استكناه الجذور، ولا الإلمام بمتطلبات القول عن المفاهيم، وفي هذا تضليل وإرباك.

والراصد لفيوض الحديث عن (الغربنة) وسائر مفرداتها من عشرات الظواهر والمذاهب والمصطلحات يصاب بخيبة الأمل؛ ذلك أن أكثر المتحدثين يخلطون بين المبادئ والتطبيقات، ويعولون على إيجابيات الممارسة لتزكية الآخر، ولا يفرقون بين (الأيديولوجيا) والإجراء، وإذا حددوا مفهومهم للظاهرة تبين أنهم مثقفو مساع، وليسوا مؤصلين للمعارف؛ فهم ثملاً يتصورون أن (الحداثة) مجرد التجديد، والدليل على ذلك وصفهم الخصوم بالتقليديين، وهم يتصورون أن (الليبرالية) مجرد التوفر على الحرية وعصرنة الدساتير؛ ولهذا يصفون خصومهم بالرجعيين أو الماضويين. ولك أن تقول مثل ذلك عن (الديموقراطية) وغيرها، ومصدر المشاكل التعويل على المتداول الإعلامي، والركون إلى الشعارات الثورية. والعلماء والمفكرون يقصدون بحار العلوم، (ومن قصد البحر استقل السواقيا). ومن لم يوظف الجهد والوقت والمال لمتابعة ما يجدّ من الدراسات والمعاجم والموسوعات والمترجمات لا يقدر على استبانة الرشد، وسيظل يخبط في بنيات الطريق كما العشواء.

وكتاب (العقاد) الذي تداعت معه هذه الهواجس يضع قدم الباحث على المحجة، ويمكنه من الرصد الدقيق لتحولات الفكر، ومع أنه يقع في مئة وسبع وستين صفحة فإنه يمكن الباحث من ترائي فضاءات الفكر المعاصر، ويغريه بالبحث والتقصي عمن ذكر من الأناسيّ والمبادئ. و(العقاد) لا يفصّل القول، ولا يحمل همّ الشمول؛ فالعقائد والفلسفات متاهات داخلها مفقود وخارجها مولود، على حد: (نهاية إقدام العقول عقال). و(العقاد) الذي يملك جَلَد المثابرين، ونباهة العبقريين، يلمّ بكل المنجز الفكري، ويعرف دخائله وأصوله. ومصائب المشهد الفكري المعاصر أن سواده الأعظم لا يتجاوزون سقط

المعارف، وحين يتحدثون تتفرق بهم سبل المفاهيم ونظريات التأويل والتلقي. والمقتصر على ذلك النوع من النثار أشبه بالمجتث من فوق الأرض، لا يكون لـه قرار. وما صعّد الخلاف، وأشعل الجدل إلا المتسطحون على المعارف، وكل متابع تعدو عينه إلى جذور النظريات وأصولها ومرجعياتها وأنساقها يريح ويستريح؛ لأنه يقطع قول كل خطيب. و(العقاد) من هذه النوعية القليلة، وسواء اتفقت معه، أو لم تتفق، فإنك لا تجد بداً من احترامه.

وإذ يتحدث في كتابه المركز عن (عقائد المفكرين) فإنه يحاول تحديد مفهوم (العقيدة). وبعد مجمل التساؤلات يقرر أن العقيدة في بحثه تعني: مشمول الوجدان، وطريقة الحياة، وحاجة النفس، وهي تتجلى بالتقديس والتصديق والتسليم، ويمحّصها الإدراك والشك ثم اليقين. وحرصه على التكثيف والإيجاز لم يمنعه من إطالة الحديث، واستعراض مجمل الرؤى والتصورات عند علماء النفس والفلسفة والتاريخ. وتجلية عقائد المفكرين في مقطع زماني أو مكاني تتطلب التحقق من الأنساق والسياقات، وقد سماها العقاد (سمة العصر)، وأبرز سمات العصر طغيان سلطان العقل وسلطان العلم.

وهو قد صوّر التحولات على النحو التالي:

- هيمنة سلطان الدين.
- ثم هيمنة سلطان العقل.
- وأخيراً هيمنة سلطان العلم.

وقد حصر أسباب التحول العقدي في خمسة أمور:

- اكتشاف مركز الأرض في منظومتها.
- ظهور القوانين المادية.
- مذهب النشوء والارتقاء.
- مقارنة الأديان.
- مشكلة الشرّ.

ولقد تناولها بشيء من التركيز، ولم يكن - فيما أعلم - متحدثاً عن مجرد العقيدة، ولكنه أراد أن يرصد التحولات العقدية؛ فالغرب قبل التنوير كان (لاهوتياً) تقوده الكنيسة، وأثناء التنوير ساد العقل، وتخلف النص، ثم تخلف العقل والنص، وساد العلم، وكانت المادة وقوانينها مجال التفكير والبحث. وكنت أتوقع منه أن يؤخر الحديث عن قوانين المادة؛ ذلك أن عقائد المفكرين حطت برحالها عند تلك القوانين، وإن كانت المكتشفات قد أسقطت الكثير منها، ولما جاءت (النسبية) كادت تنهد معها كل القوانين. وأمتع بحوثه ما كتبه عن (مشكلة الشرّ)، وهو حين تناولها، من خلال الحكمة والعدل والأسس، تقصاها عند فلاسفة الغرب، ولم يعرج عليها في الفكر الإسلامي. ومنهجية البحث لا تقتضي ذلك، وهو قد نهج الطريق ذاته عندما تحدث عن (نظرية النشوء والارتقاء)، وللفكر الإسلامي رؤية مسددة في قضية (الخير والشر) قد نتقصاها في مقال لاحق.

ومثلما فعل مع تحولات العقائد، فعل في كتابه (إبليس)؛ حيث أخذه الحديث عن تاريخ الشيطان كرمز للشر، ولكنه - كما هو في كتابه (الله) - لم يتحدث عن فلسفة (الخير والشر)، ولا عن (الفلسفة الأخلاقية) بالقدر الكافي. وأحسبه معنيّ بتحرير عقائد المفكرين في حقبة محدودة ومكان محدود. وإشكاليات الخير والشر تتنازعها حقول (الناسوت) و (اللاهوت)، وما لهما من فلسفات ومثاليات.

ومحصلة القول: أن نتجافى في تناول القضايا عن السماع المبعثر، ومن أراد تحرير القضايا والتأصيل لها فعليه أن يتحمل عناء القراءة الشمولية المعمقة، أو ليدع ما للعلماء للعلماء، وما للعامة للعامة.

يسير الحساب لمعرض الكتاب .. !(١)

سيُقال فيه وعنه معلقات ينطح بعضها بعضاً، تمجد حتى التقديس، وتحز حتى العظم، وقد يكون القول ونقيضه صحيحين، فالكتّاب كالمصورين، يلتقطون صورهم من زوايا مختلفة، ومن أبعاد متباينة، يعجب الذواقين بهاؤها، فيما يشمئز منها آخرون. والقصر المشيد لا يخلو من صناديق النفايات. وليس هناك امتياز مطلق في أي عمل، فمن تملكته المحاسن شهد بما علم، ومن تعثر في الإخفاقات سلقها بلسانه، والراضي يحكي أحسن ما يعلم، والساخط يروي أسوأ ما يرى، فالحامد صادق في الأولى، والشانئ ليس كاذباً في الثانية. وهذا هو الصدق المتعدد الذي حمل الرسول ﷺ على القول: (إن من البيان لسحرا). والعمل الاستثنائي كالشخصية الاستثنائية، تكون هوة الاختلاف حولها شاسعة، وتلك مؤشرات التميز والعبقرية.

هذه التوطئة صدقة بين يدي نجواي، هدفها تهيئة النفوس، وتطييب الخواطر لما سنرصده من قول يتداوله الناس فيما بينهم عن (معرض الكتاب)، و(وزارة التعليم العالي) لم تقض نحبها بحيث نستجيب لذكر محاسن الأموات. إنها حية فاعلة وقادرة على مزيدٍ من المبادرات، ولكيلا نغمطها حقها نقول: إن هذا المعرض يعد استثنائياً بالنسبة لكافة ما سلف من المعارض، ففريق العمل الذي أنجز، وتابع، لم يركن إلى تسليع الكتاب وحسب، وإنما حاول جاهداً الاحتفاء به، وإيجاد هوامش تفوق المتن، فكان أن تحول المعرض إلى تظاهرة ثقافية، التطمت فيها الآراء، وتباينت التصورات. فالهدف الأساس للمعارض تجميع أكبر عددٍ ممكن من دور النشر العربية تحت سقف واحد، وتمكين المثقفين والباحثين من الحصول على مبتغاهم دون عناء، وبأسعار مغرية. ومثل هذه الاستجابة لا تبرح تسليع الكتاب، غير أن الوزارة ومن خلال جهود استثنائية سبقت ظلها - كما يقول - وأحدثت تغييرات وإضافات، أعطت المعرض قيمة حضارية، تمثلت باستضافة العلماء والمفكرين، وتنفيذ المحاضرات والندوات، وتكريم الأحياء والأموات من الرواد والمؤسسين.

هذه المخاضات غير المألوفة كادت تخلط الأوراق، وتبدي أعناق الآراء المتناقضة إلى حد التناحر، وتكثر التساؤلات إلى حد الإحراج. ومن الناس من لا تعجبه الهوامش، حتى يبيح لنفسه إحالة مثل هذه المبادرات إلى شكليات لا تضيف شيئاً. وهذا البعض المتحفظ من الذين لم تصل إليهم هذه المبادرات، أو لم تصل إليها أيديهم، أو أنها لا تجمجم عما في نفوسهم. وقد يكون من وراد المعرض من لا يعنيهم مثل هذه اللمسات. فهم يودون توفير الجهد والوقت لذرع المعرض جيئةً وذهاباً، ومعرفة المستجد من المطبوعات والترجمات. وإذا كان هواي مع من يودون إطلاق أيديهم وأرجلهم في فجاجه، وتركهم ينقبون عما يشتهون، فإن الهوامش مجدية ومهمة ولا سيما أن الفعاليات ذات أنواع، تمثلت بالمحاضرات والندوات والأماسي وورش العمل وحفلات الافتتاح والتكريم، وأدت في النهاية إلى التعارف، وتجاذب أطراف الحديث التي تشغل حملة الهم الفكري والأدبي وصناعة الكتاب. والذين استقبلوا تلك المبادرة بالمباركة، وقف إلى جانبهم من تساءل عن التعددية، ومن طالب باستيعاب كل الأطياف. والمؤسف ما بدر من تنازع أفقد بعض الفعاليات ألقها. وأملي أن تمحص كل المواقف وكل الأطراف بحيادية تامة، لكيلا يتسع الخرق على الراقع، وأن يكفل حق التعبير لكل الأطياف، متى كانت في إطار المعقول

---

(١) تاريخ المقال: ٧/ ٣/ ٢٠٠٦

والمباح الممكن، وألا يترك الحدث يمر بدون حسم، فما أسوأ أن يرمَّ الجرح على فساد، وإذا كان الاختلاف ممكناً فإن ضبط الإيقاع وحفظ التوازن أمكن.

ولا شك أن هذه الهنات لم تعكر صفو النجاحات، ولا أحسب تلك التجهيزات المثيرة قد جاءت من فراغ، إنها مخاض جهد استثنائي جندت له فرق عمل، ووفرت له الإمكانات، ومهما استكثرنا ذلك فإنه أعطى الوافدين صورة مشرفة عن المؤسسات الثقافية في المملكة، ومكنت المثقف من التواصل مع أطياف الثقافة داخل الوطن وخارجه. وإذا كنا نتداول مفاهيم خاطئة عن حرفة الأدب وصناعة الكتاب، ونمعن في التزهيد والتخويف فإن (وزارة التعليم العالي) عمدت إلى تكسير هذه المسلمات، وأثبتت أن الأدباء والمفكرين ودور النشر من الممكن أن يكونوا على شيء من اليسار والرفاهية، بحيث تتمتع بزينة الله التي أخرج لعباده، والطيبات من الرزق.

كل ذلك الإنفاق، وكل ذلك الترتيب، وكل ذلك الإخراج الرائع واللمسات الفنية المبهجة لا تحول دون استدعاء الملاحظات، والرصد الدقيق لما يتناجي به القوم في مجالسهم، فأحاديث المجالس مرايا مقعرة ينظر فيها الإنسان كل تجاعيده، ومن تهيبها وازور عنها، ظل كما هو. والتقاط المتداول من الأحاديث المادحة أو القادحة إنما لتكون حاضرة المنظمين للمعارض القادمة، وسوف لا نقتصر على الملاحظات، ولكننا سنخلط ذلك بشيءٍ من التطلعات.

ومما هو مجال لغط يقترب شيئاً قليلاً من الفضولية تلك الشكليات في المواقع الدعائية، حيث استحوذت على مساحة واسعة. ولقد سمعت الدكتور عبد الله المعجل في (خميسية حمد الجاسر) يشكو من ضيق المكان. وتجلي الاستعراض الباذخ بشكلٍ لافت للنظر، قد يكون مقبولاً إذا لم يكن على حساب المهمة الأساسية، فالبعض يود أن يكون المعرض خالصاً للعرض والطلب، وأن يخلي بين المثقف والكتاب، فالمسألة في النهاية عرض وطلب، وإن كان ثمة جهد وإمكانات فإنه يجب صرفها لمزيد من الرقابة على البيع الجشع. فالغلاء الفاحش سمة ضاق بها ومنها رواد المعرض، ولقد شهدت ذلك، وسأضرب مثلاً بكتاب (الفسر) وهو شرح (ابن جني) لديوان (المتنبي) لقد اشتريته ب(٢٥٠) ريالاً خارج المعرض، وهو في المعرض ب(٣٥٠) ريالاً، وقس على ذلك، ولقد بدا تضارب الأسعار وتراجع المسوّقين أمام المساومات، وإني لخبير بذلك عن قرب ف (نادي القصيم الأدبي) خصص مائة ألف ريال للشراء، وهذا الجشع والتلاعب اضطرانا لإيقاف الشراء عند نصف المبلغ المخصص. والملاحظ أن المكتبات المحلية عرضت بضاعتها المتداولة خارج المعرض، ولم تسع للاستعداد للمعرض ببضاعة جديدة، والشاذ لا يكسر القاعدة.

وإذا خرجنا من متن المعرض إلى هوامشه وجدنا الناس مجمعين على أهمية التكريم وإنسانيته، ولكنهم مختلفون أشد الاختلاف حول آلية اختيار المكرمين، ومن حقهم جميعاً أن يتساءلوا، وأن يلحوا في التساؤل عن المعيارية والضابط. فهل المعيار السن، أم الاستفاضة، أم الكثرة، أم الجودة؟ وهل للمناطقية والتنوع الفكري دور في ذلك؟ لقد استعرض المعنيون الأسماء، ولم يكن هناك خلاف حول أهلية المكرمين، ولكن الاختلاف حول الأولى بالتكريم، وحول الضوابط، وحول من لم يكرم، ممن هو حقيق في نظر البعض.

أعرف جيداً أن المعايير والضوابط لا تكون فاعلة حتى تكون محددة وصارمة، وحين تكون كذلك، يكون لها ضحاياها، ولكن المسألة ليست حول من تقصيه اضطراراً. فإذا كان للمناطقية اعتبار فإن من في الحجاز أو في الرياض يفوق العدد المطلوب، وإذا كان لتنوع الأطياف الثقافية والفكرية اعتبار فإن عند كل طائفة ما يفوق المستطاع. نحن

نعرف ذلك كله، ونقدر ذلك كله، ولكن الأمر مختلف جداً، وأرجو أن يعيد المعتمدون لقوائم التكريم ما قدم لهم، ليعرفوا أن فريق العمل المكلف للاختيار لم يكن مستحضراً الضوابط الدقيقة، ولا أشك أنه وقع في خطأ الاجتهاد المأجور.

قلت - وسوف أكرر ما أقول - إن الذين كرموا أهلاً للتكريم، فهم أصدقاء وزملاء وأساتذة، وهم قبل ذلك مواطنون قضوا شطراً من حياتهم في خدمة الفكر والأدب، ولكن الأهلية غير الأفضلية، وشرعيتها لا تسقط حق الذين تقحمتهم العيون، وكل الذي أتمناه ألا يتصور البعض أنني أتطلع إلى شيء من ذلك، ومتى طبقت رؤيتي أصبح بيني وبين التكريم أمد بعيد. ويعلم الله أنني أشد حرصاً على إنصاف الآخرين والوفاء بحقوقهم، ولقد لقيت من التكريم فوق ما أستحق، فلله الشكر من قبل ومن بعد. والاستياء يكبر حين يسمع ذوو المتوفين أن ذويهم قد ظلموا دون قصد، أعرف جيداً أن من نُسي لم يتعمد أحد نسيانه، وإذا كان النسيان لا يؤاخذ به الناسي فإنه لا يشفي صدور المنسيين.

ويقيني أن الذين كلفوا بالاختيار أو استؤنس برأيهم، ذكروا من يحضرهم، ولم تكن بين أيديهم معايير وضوابط تحقق العدالة المنشودة عند الجميع، والله لا يكلف نفساً إلا وسعها. لقد صرف النظر عن مبدعين ومؤرخين وأساتذة جامعيين متقاعدين وعلماء أمدوا المعرض بمؤلفاتهم العلمية، وإذا كان في النية استمرار التكريم فإنه من الحتم المقضي تكوين مجموعة من المتخصصين الفاعلين في المشهد والمتابعين لتقبل قوائم الترشيح من سائر المؤسسات الثقافية كالأندية والجامعات، ومن أفراد لهم حضورهم الفاعل، ومن موسوعات راصدة، ومهمة اللجنة تقتصر على ممارسة عملية الترجيح، ولعل المسؤولين يأنسون بأسلوب مؤسستي: (المهرجان الوطني) و(الحوار الوطني) إذ تعتمدان في الترشيح والتكريم على مجموعة المشورة من مختلف الأطياف، ويعقب ذلك لجان اختيار وتحكيم.

لقد توقعت أن يكرم لفيف من الأحياء والأموات، كنا ولما نزل نعدهم من الأخيار، وما كنا نتوقع أن تزيغ عنهم الأبصار. ونقطة خلاف أخرى فلقد خُص بالتكريم الأدباء من نقاد وشعراء وسرديين، و(معرض الكتاب) يتسع لشرائح أخرى، فأين العلماء؟ وأين الموسوعيون؟ وأين المؤرخون؟ وأين محققو التراث؟ وأين أساطين العلم البحت من أطباء ومهندسين؟ فما دامت الفعاليات على هامش معرض الكتاب فإن الكتاب ليس حكراً على الأدباء. ولقد ثار التساؤل نفسه قبل سنوات حين سنت الدولة سنة حسنة، تمثلت بجائزة الدولة التقديرية للأدباء، فكان تساؤل من سواهم من الفقهاء والمؤرخين، الأمر الذي أوقف تلك البادرة الإنسانية إلى حين وضع نظام وآلية.

ومن همِّ التكريم إلى همِّ التسويق، ومن الإشكاليات المتداولة قضية الرقابة على الكتب، ومنع بعض الإبداعات السردية، وبعض الكتب الفكرية والسياسية والدينية، والناس في هذا الشأن أوزاع. فالذين لديهم نفس (ليبرالي) لا يرون مشروعية الرقابة من أساسها، والذين يعدون أنفسهم تنويريين، يطالبون بحصر الرقابة في أضيق نطاق، والذين يسمون أنفسهم بحراس الفضيلة يطالبون بتشديد الرقابة، ويرفضون الفوضوية، ويؤكدون على حق السلطات الثلاث: السياسية والدينية والاجتماعية. ولما كانت نقاط الاختلاف متباينة ومتعددة فإن المسؤول يظل في حيرة من أمره، ولعلنا نقتصر في الحديث على (مشروعية الرقابة) وحدودها، وحين نؤكد على مشروعيتها، ندخل في جدل القدر المشروع.

وإذ تكون المشروعية صنو السلطة فإن الخلاف حولها مساس بحق السلطة، نحن نرى مشروعية السلطة، ونرفض التسلط، وحين تكون الرقابة من مقتضيات السلطة فإن ضبطها يقي من التسلط، ولتلافي الإفراط والتفريط لابد من وضع ضوابط متوازنة، وأن

تفرق في الرقابة بين الاقتناء الشخصي والتسويق العام. على أننا نكاد نختلف حول مفهوم الحد المقبول، وهذا الاختلاف يصعد نبرة الجدل، ويعمق هوة الخلاف. لقد أحسست أن تداول هذه القضية جاء في غياب الفهم السليم لحق الرقابة. وإذا كان (الليبراليون) يباركون الرقابة على الأغذية والأسعار، وإذا كان الغذاء الفاسد يضر بالأجسام، وإذا كانت المغالاة في الأسعار تضر بالأموال، فإن الأفكار السليمة المستقيمة تتضرر بالعهر والتطرف والغلو، كما أنها تتضرر بالتسيب والتمييع وترك الحبل على الغارب. وحماية الأفكار أهم من حماية المعدات والجيوب، والكافة محكومون بالأوامر والنواهي، والمحظورات والمباحات، والفوضى غير الحرية، والسلطة غير التسلط، ولا يصلح الناس فوضى، والحضارة لا تتحقق إلا بالمكاره، كما الجنة ومحفوفها.

ولما كان العمل مظنة الاختلاف فإن على الذين يتصورون أنهم حين يجودون بمبادرات استثنائية يكونون ملء السمع والبصر أن يعرفوا أن لكل عمل مهما كان تألقه تبعاته التي قد تثير أكثر من تساؤل، وكم من عمل خير يود صاحبه أنه لم يفعله. إنني مشفق على الطيبين الذين يراهنون على الكسب، ومشفق أكثر على الذين يظنون أنهم سيخرجون من الزفة لا لهم ولا عليهم. وكيف لا يتحقق أقل الكسب، وهم يفعلون ما يفعلون بصدق وإخلاص وتفانٍ، فما عملوه لوجه الوطن الذي بوأهم أسمى المناصب، وعليهم أن يتذكروا قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢] .

لقد سمعت لغطاً كثيراً يذكيه متناحرون في الآراء، ومن حق الزملاء في وزارة التعليم العالي علينا ألا نكتمهم الحديث، وأن نصدقهم القول، فما حصل على هوامش المعرض يحتاج إلى تجميع وتقويم وتمحيص. ولا يجوز بحال إحالته إلى الشغب أو ضيق العطن، أو إلى النوايا السيئة، ذلك أن مجرد الإحالة تصعيد للخلاف، والمختلفون مواطنون، لهم رؤيتهم التي يجب أن تسمع بصدر رحب، وليس شرطاً أن تُقبل.

وخارج إطار المسؤولية المحدودة نجد أننا أحوج ما نكون إلى (مدينة معارض) تكتمل فيها البنية التحتية، وتتوفر على كل المتطلبات، بحيث تتسع للمعروضات كافة من كتب وصناعات ثقيلة وخفيفة، ومن حولها مواقف للسيارات، وتشتمل على مطاعم ومساكن للوفود، ومستودعات، ومصارف، وقاعات محاضرات، وساحات عرض، ومسارح عروض، وإسعاف، ومطافئ، وأمن، وكمرات رصد، فالمواقع المؤقتة تؤذي المسؤول والمستفيد والمتسوق، وتحتاج في كل عام إلى جهد يضيع سدى بمجرد انتهاء المناسبة، وتلك مسؤولية رجل المهمات والمبادرات ومهندس الرياض (سلمان بن عبد العزيز)، وأحسب أنه حان الوقت لتشكيل (هيئة للكتاب السعودي) تنهض بمهمات المعارض والترجمة وسائر متعلقات صناعة الكتاب، وليس هناك ما يمنع من تفعيل (جمعية الناشرين السعوديين)، وتشكيل هيئة مؤقتة من المؤسسات ذات الشأن الثقافي، حتى يتسنى إنشاء هيئة مستقلة لها نظامها ولوائحها، وأخشى أن ينطبق علينا المثل الغربي: - (لا يدوم إلا المؤقت).

حمزة شحاتة.. حياته من شعره .. ! (١) [(١)]

لكل ناقد مناطه في عوالم المبدعين. ومناهج النقد وآلياته لا يقر لها قرار، فهي في تحول مستمر، إلا أن طائفة من المتلقفين لا يحسنون استثمارها، ومن ثم فإنها مع كثيرٍ منهم لا تشكل ظاهرة حميدة، وتنقل مركزية الاهتمام بين النص والمؤلف والمتلقي، شتت شمل النقاد، وإن أثرت المشهد. ولعل أقرب المحطات إلى نفسي محطة النص بوصفه لغة، ولكنه ميل لم يكن على حساب منطويات النص الأخرى، كالبعد الفني، والبعد الدلالي.

وحين عزمت على خوض عوالم الشاعر (حمزة شحاتة ١٣٢٨ - ١٣٩٠هـ، ١٩١٠ - ١٩٧٠م) تنازعتني عدة رغبات تقتسمها: عوالم النقد وعوالم الشاعر.

فأي الزوايا التقط؟ وأي المناهج اعتمد؟ وإذ يشاركني الحديث عدد من النقاد فإن هاجس الفرادة يمثل الشغل الشاغل على المستويين: الموضوعي والنقدي.

وحين أختار التماس حياة الشاعر من شعره، يتبادر إلى الذهن كتاب (ابن الرومي حياته من شعره) للعقاد، وهو ناقد اعتمد المنهج النفسي في كثيرٍ من دراساته للشخصيات، وقد يمتد التذكر إلى كتبٍ أخرى ومقدمات ودراسات خصتت الشاعر وشعره، وأطوار حياته: الخاصة والعامة، كعبد الله عبد الجبار وأبي مدين والغذامي وعزيز ضياء وبكري الشيخ أمين وصالح سعيد الزهراني وعاصم حمدان وآخرين. ومن ثم لا يكون قولي في الشاعر وشعره إلا معاراً أو معاداً. ولقد تذكرت ما ادعاه (طه حسين) حين كتب عن (المتنبي)، من أنه فرغ لشعر المتنبي، ولم يلتفت إلى ما كُتب عنه، مع كثرته وتشعبه، ولكنه حين شاع الكتاب بين أيدي الناس، ادعى العلامة (محمود محمد شاكر) وهو من هو في مصداقيته وصراحته وسعة اطلاعه على التراث أن (طه حسين) سطا على جهده، وسرق أفكاره، وعول على النتائج التي توصل إليها. والمستفيض على ألسنة الباحثين أن مشكلة (المتنبي) تكمن في نسبه، ولقد أطال الباحثان التنقيب في هذه المعضلة المستعصية، وأبديا براعة منقطعة النظير، وتوصلا إلى نتيجة في منتهى التناقض. والمتحدثون عن (حمزة شحاتة) لن يشغلهم نسبه بقدر ما تشغلهم أطوار حياته الغريبة، وهجرته المغاضبة.

وحديثي (عن حمزة شحاتة) من خلال شعره لن يعول على ما سلف، فالذين تناولوه سمو به فوق هام السحب، وقصروا رؤيتهم على ما يتمتع به من مثاليات، وغضوا الطرف عن بعض ما وقع فيه من تجاوزات، طالت ذاته، وطالت من حوله. لقد أطلق عليه بعض الدارسين (الأنموذج)، ولأنه كذلك حسب تصوره، فقد كثرت إخفاقاته في فهم الحياة، ولم يوفق في مصاحبته للأحياء. وحرصاً مني على اتخاذ منهج مغاير فإنني قد أستعين ببعض آليات ما قد سلف، ولكنني لن انتهي إلى ما انتهوا إليه. والشاعر لم يحتفِ بشعره، ولم يعبأ بحفظه فضلاً عن أنه يتكلف عناء جمعه، والضائع منه ضعف ما أخرجه المتطوعون للناس، ولم يكن ك(شوقي) الذي انتقى الشوقيات ثم تعقبه من أخرج (الشوقيات المجهولة)، وهذا النزر اليسير لن يعطي الصورة الحقيقية عن حياته التي نلتمس. وإذ لم يكن من شعراء الواحدة فإنه لم يكن من المكثرين، وإن تبذل في بعض قصائده، وشعره المجموع لا ينهض بمهمة إبراز حياته، وأمام كل المثبطات فلن انثني عما عزمت عليه. والشعر فيما أرى لا يكون شعراً إلا إذا توفر على أربعة مكونات تتمثل ب:

---

(١) تاريخ المقال: ١٤/ ٣/ ٢٠٠٦

-الموهبة
-والثقافة
-والموقف
-والأجواء

فالشاعر لا يكون شاعراً إلا إذا كان موهوباً، وهو حين يكون كذلك لا يقول إلا ما هو شعر متفق عليه. والشاعر لا يثري نصه ما لم يكن مثقفاً ثقافة تأصيلية، تتسم بالعمق والشمول والتعددية، وقد ينعكس الأثر المعرفي على الشعرية، فيعيق لغة الفن، كما حصل عند (المعري). والموهبة لا تجود بما يمتع ويفيد حتى تستدرها المواقف، وسيان في ذلك موقف الفرح أو الترح، الرغبة أو الرهبة. والشاعر لا ينطلق على سجيته حتى يأمن على نفسه وعلى سمعته، ولا يأمن إلا حين تتوفر الأجواء الملائمة، وتخف من حوله حدة المراقبة. وشاعرنا ألّم بتلك العناصر كغيرة من الشعراء، وإلمام أي شاعر بتلك العناصر يؤكد المصداقية، ويجعل الشعر جزءاً من حياة الشاعر. ولقد تكون وجدانيات الشاعر أقدر على كشف حياته ومعاناته، أما شعر الغزل فهو يراوح بين الفعل والافتعال والانفعال، ومن الصعوبة بمكان القطع بالمصداقية.

ومن الشعراء من يفترض وجود المعوقات فيحتبس شعره أو يتعثر، وقد يبلغ به الارتياب ذروته، فيأتي شعره إدانة لواقع غير مدانٍ، نجد ذلك عند (المعري) في القديم، وعند (الفقي) في العصر الحديث، كما نجد أطرافاً منه عند شاعرنا، وقد يكون ذلك بعض ما عول عليه بعض الدارسين له. وعلى الرغم من أن الشاعر قد توفر على تلك العناصر، فإن لم يفرغ للشعر، ولما فرغ له بعض الوقت لم يحفل به، وإنما عده لحظة تأمل أو تحسر، وهو في التأمل والتحسر يسجل موقفه من الحياة، ويرصد مرحلة من مراحلها. وإذ لم يعتزل الناس، فقد جعل إلمامه بهم حالة من السخرية. فهو الشاعر الساخر الهجاء حين يختلط بالناس، وهو المتأمل المثالي حين يعتزلهم، وشعر التصور والتأمل حفز بعض الدارسين إلى التماس فلسفة الجمال عنده، ورؤيته الجمالية جزء من حياته، فالنظرة الفلسفية تحوّل الشاعر إلى مسيّر غير مخيّر في رؤيته للحياة والأحياء.

ولو تلمسنا موقع الشاعر (حمزة شحاتة) من خلال تلك المكونات الأربعة لوجدناها تلم به تارة، ويتخلف بعضها عنه تارة أخرى، وهذا التفاوت انعكس على شعره. ورديء الشعراء الكبار ك (المتنبي) مثلاً مرده إلى تخلف بعض تلك العناصر أو ضعفها. وليس بناقدٍ من يطلق كلمات الثناء دون استثناء، ومن يجعل من نفسه محامياً يذب عن الشاعر، ويترقى به صعداً إلى مدارج الكمال. وإشكالية المشاهد النقدية أنها محكومة بالرضا المطلق أو بالسخط المعمق، وكأن مصير الناقد مرتبط بمصير المدروس تألقاً أو إخفاقاً، وهذا ما أعانيه في كثيرٍ من الرسائل العلمية التي أتيحت لي مناقشتها. وتعاملي مع شعر (شحاتة) لم يضطرني إلى افتعال القول، وقد لا أكون مبالغاً إذا قلت: إن رديء شعره قد يرقى إلى جيد غيره، فهو شاعر أمكن، ولكن الإمكانات لا تحول دون الوقوع في هنات ينفذ من خلالها النقاد.

وحين عقدت العزم على التماس حياته من شعره، لم أشأ استكمال ظروف تلك الحياة ومراحلها، فالشاعر له حياته التي فرضتها حالته النفسية الناتجة من ظروف حياته الاجتماعية والعملية، وما تصوره من تفريط به، وكأنه الشاعر الذي قال عن قومه: (أضاعوني وأيّ فتى أضاعوا). والإحباط الذي يعاني منه مرده إلى تصوره للأشياء وموقفه منها، ويكفي دليلاً على اضطراب حياته إخفاقه المتواصل في حياته الزوجية، وهجرته المغاضبة. فالمتشائمون والمتفائلون هم الذين يقرؤون الوقائع والأحوال وفق رؤيتهم. بحيث يكون الحدث الواحد والظرف الواحد له معطيات مختلفة. فالماء الجاري

يصطبغ بتربة المجرى، ليكون ملحاً أجاجاً، أوعذباً فراتاً. ولهذا ليس من الإنصاف أن نتصور الحياة كما يتصورها البعض من الشعراء الحادي المزاج، ولا أن نتخذ الشعر وحده مرجعية مطلقة لتجسيد الواقع، ولكن الربط بين الشعر والوقوعات الثابتة يعزز بعضها بعضاً. فالشاعر حين يمسه الفقر أو المرض، أو حين يرتطم بنتوءات السبيل، يتصور أن تلك سمة الحياة مع غيره، وليس هذا التحفظ مقصياً لدلالة النص الشعري، ولكنه ضابط للتعامل معه. وقراءة شعره تعطينا مؤشرات ذاتية، بمعنى أنه يمثل رؤية الشاعر لمحيطه، بصرف النظر عن سائر الرؤى الأخرى. ودراسة الأستاذ (عبد الله عبد الجبار) المبكرة أعطت مؤشرات إلى واقعيته، والواقعية مذهب اضطربت حوله المفاهيم، فهناك الواقعية الاجتماعية والاشتراكية والفنية، ويبدو لي أن واقعية الشاعر أميل إلى الاجتماعية، وإن عرف عنه الشموخ والتعالي والنزعة (الارستقراطية) ولأن حياة الشاعر تعتمد المزاجية فإن مستويات الحالة النفسية تتفاوت من قصيدة لأخرى، وهذا التقلب المزاجي لم يؤثر في سائر الوحدات الفنية: موضوعياً ولغوياً ونفسياً. فالحوافز النفسية قد تؤدي إلى فك المسحة المهيمنة. ولو ضربنا الأمثال ببعض الشعراء الذين طغت حالاتهم النفسية على شعرهم أمثال (أبي العتاهية) و (المتنبي) و(المعري) لوجدنا أن هناك فترات خلصوا فيها من السمة النفسية. وفي العصر الحديث نستطيع أن نضرب المثل بالشاعر السعودي المكثر (محمد حسن فقي)، ومع إغراقه في التشاؤم والإباء والثورة النفسية، إلا أنه في بعض الحالات، يند بشعره عما هو شائع من سمات دلالية ذات طابع نفسي.

وعندما نجاوز الإطلاقات، ونعمد إلى الشواهد من شعره، نجد أن لكل قصيدة حوافزها النفسية، وضغوطها الاجتماعية، وأجواءها المحفزة. والذين يودون التماس حياته لا بد أن تعدو أعينهم إلى إسهاماته السردية، وبخاصة كتابه (الرجولة عماد الخلق الفاضل) و(رفات عقل) و(إلى ابنتي شيرين) و(حمار حمزة شحاتة) إذ تمثل جماع رؤيته، إضافة إلى ممارسته التطوعية في مطلع شبابه، ويقيني أن تفكيك قصيدة من مطولاته ينبئ عن رؤاه وتصوراته. ولعلنا نشير هنا إلى قصيدة (تأملات) التي جاءت على شكل أشواط دلالية، تفيض بالتساؤل والتعجب والحكمة. والقصيدة مؤشر على اضطراب نفسي، واستياء من التقلبات، فهو يتطلع إلى المصرّحين بعد الصمت، ويعجب من ذوي العدل الظنيين به عندما اقتضاه المستضام، ومن المتّقين الذين لا يدفعون بالحجة في لجة الشك، ومن تساؤل الحكيم الاستنكاري عن الغرام والحسن، ومن عبودية المال والجاه والهوى. وكأنه يستوحي حديث «**تعس عبد الدرهم**» إذ يقول: (فماتت دواعي الكبر فينا ... فما نحن؟) هذا الحشد من التساؤلات التقريعية توحي بالضيق والشك والرفض واحتدام المشاعر. فهل تلك السمات سائدة في شعره، أم هي عرض زائل؟ لا أشك أن الشاعر مر بحالات من الانكسارات التي أحس أنه ضالع فيها، ومن ثم نجده يلوم نفسه، ولكنه لا يصل إلى جلد الذات.

والتساؤل المشروع أن نستبين ما إذا كان ذا خليقة تخفى، حتى لا تعلم إلا من خلال شعره. الحق أن شعره نفثات مصدور، أرهقه واقعه. لقد كانت له طموحات ترفس تحت وطأة الواقع غير المواتي، فكل قصيدة تنم عن معاناة نفسية، وقصيدة (تأملات) من أوضح الشواهد على اضطرابه النفسي، ولأنه يعتمد التفصيل، ولا يكتفي باللمحة، فقد اتكأ على (قافية النون)، وهي من قوافي المطولات، ومع أن القصيدة ذات أشواط عشرة، إلا أنه لم يعمد إلى تحويلها لرباعيات أو سداسيات على شاكلة الشاعر (الفقي) الذي اشتهر بذلك. والذين جمعوا شعره نظروا في ظواهر القصائد ومطالعها، وظنوا أنهم قادرون على تحديد المعاني في (الوجدانيات) و(الغزل) و(الملاحم) و(المنوعات)، وهذا التقسيم مع سذاجته يوحي بعدم استكناه الوحدة الموضوعية التي تكاد تنظم الديوان كله، وهو الهم

الذاتي، أو الذاتية المسكونة بالكبرياء والألم والإحباط. وفوق ذلك فإن الشاعر عميق الثقافة، متعدد الاهتمامات القرائية، ولا شك أن الخلفية الثقافية لها انعكاساتها على التصورات، وهذا مؤشر دلالي، قد يند بالناقد، ويحول دون تحديد ملامح حياته.

حمزة شحاتة.. حياته من شعره .. ! (٢)[(١)]

والشاعر المسكون بهموم ومفاهيم ومواقف يكتب سيرته ويدوّن معاناته: تصريحاً أو تلميحاً، ولا يقول الشعر لمجرَّد الكسب، إنّه نفثة مصدور. وهذا يذكِّرني بمقولة (طه حسين) عن الشاعر (عمر بن أبي ربيعة) الذي فرغ لقلبه، ولم يفرغ لكيسه، وهكذا الشاعر (شحاتة) شغلته همومه عن رغباته. وأخوَف ما أخاف أن يكون الشاعر من أولئك الذي يسقطون إخفاقاتهم على الآخرين، فالذين يتحدثون عن سيرته الشعرية، يجتهدون في المواءمة بينها وبين معاناته، وإذا كان البعض يراها بوادر إخفاقات فإنّ آخرين يرونها ممارسة تطهيرية، والحكم الفصل بين الفئتين مدى احتمال الوثائق النّصية لمثل هذه الرؤى المتباينة إذ إنّ نظريّة التأويل قادرة على احتمال القول التبريري. وإذ تشاع عنه الأنفة وحب الفوقية نجده في مقطوعته الشعرية (ليت العقول سواء) يقول:

وفيم؟ وينبوع الخليقة واحدٌ

تمايزت الأضداد والنظراء

وهذا مؤشر ارتباك، ربما كان من الأسباب الرئيسة في حمله على إهمال شعره، وكأنّه إن أمسكه أمسكه على هون، على أنّ هناك ملامح فنية، تشي بواقعية متعدِّدة وصفها البعض بالقصائد الهازلة، غير أنّها تؤكِّد نزعة السخرية عنده، وهي نزعة قد تكون مؤشر انهزام أمام تحدي الواقع، على حدِّ المثل الشعبي (المأخوذ يضحك)، فالإحباط يحمل على السخرية، والشاعر عاش هذه المعاناة بكلِّ وضوح. وسوف لا أنزلق في مقولة إنتاج النص في مقابل استهلاكه، ذلك أنّ القول الإبداعي في النهاية رسالة، وليس مجرَّد إثارة لإنتاج دلالة غائبة، ونحن مع الخفاء، ولكن الشاعر في النهاية يتوسّل بالتجلِّي لإبلاغ رسالته، ولا يجوز أن نغيبه على حساب حضورنا، بوصفنا منتجين على سنن التفكيكيين. نعم هناك لغة، وهناك خطاب، فاللغة تجريئية التصوُّر، والخطاب شمولي.

والدارسون المتعقِّبون لطائفة من الشعراء هالتهم المسافات السحيقة بين شعرهم وما حوَته الموسوعات الأدبية من أخبارهم، حتى لقد وقع الكثير منهم في الوهم حين التمس الحياة من الشعر. فهل (البحتري) في أخلاقه ومظهره متناغم مع شعره الغنائي الجميل؟ وهل (أبو العتاهية) زاهد بالحياة زهد شعره بها؟ وهل (ابن أبي ربيعة) ماجن كما مجُن شعره، وهو الذي أقسم ما حلّ إزاره على حرام؟ ولك أن تدع الأسئلة تتلاحق عن كلِّ شاعر. وفي النهاية تجد أنّ الشعر قد يمثل الهروب من لذعات الواقع، ولقد مررت بدراسة عن (ظاهرة الهروب في شعر طاهر زمخشري) - رحمه الله -، ولست أدري ما إذا كان هروبه هروباً يماثل هروب (حمزة شحاتة).

وحين تسقط العلاقة بين الشاعر وشعره بعامل النّقد أو بعامل العدول والتأويل اللغوي والنظرة إلى الخطاب بكلِّ شموليته، نسأل أنفسنا: كيف نفكك البنية الموضوعية للبحث عن ملامح حياة الشاعر؟ لقد جاء في الأثر عن شعر (أمية ابن أبي الصلت) إيمان لسانه وكفر قلبه، ومعنى هذا أنّ اختلاف الشاعر مع شعره قضية مسلّمة، وقد لا يكون الاختلاف بهذا الحجم، ولكن المثيرات والمواقف تشعل العواطف، وتحملها على الاحتدام والعنف، فإذا زالت المثيرات، هدأت العواطف، وعاد الشاعر إلى وضعه الطبيعي، الأمر الذي يحمل الدارس على تصوُّر التناقض في حيوات الشاعر، وما هو كذلك، ولكن الظروف قد تحمل المبدع على مفارقة سجاياه، وإبداع القصيدة في ظل ظروف عارضة، أنست الشاعر ما

(١) تاريخ المقال: ٢١/ ٣/ ٢٠٠٦

هو عليه من أخلاقيات. ومع كلِّ هذه الاحتمالات المثبطة لعزماتنا، تظلُّ الخليقة غير التخلُّق، والطَّبع يغلب التطبُّع، فالشاعر قد يفارق طبعه في سورة الغضب، وحين تعود المياه إلى مجاريها، لا يقدر على استرجاع ما أبداه في شعره على حد: - (قد قيل ما قيل). وكلُّ هذه التحفُّظات لن تفت في عضدنا، ولن تؤثِّر على ما عقدنا العزم عليه. وكيف نتردّد والحكيم يقول لجليسه: - (تكلم حتى أراك) وكم من متحدِّث ملغز تعرفه من لحن القول لا من منطوقه.

والمتعقِّب لطائفة من الشعراء يجد أنّ هناك سمات وخصائص وأخلاقيات لا تفارقهم، فالشاعر (محمد حسن فقي) لا يستطيع أن يتخلّص من التشاؤم والرفض والضجر، وإن ألمّت به ظروف سعيدة، ولقد أشرت إلى الفجوة بين حياته السوية وشعره الضجر. والذين يدرسون حياة الشاعر من شعره لا يجدون صعوبة في التماس شيء من ملامحها، ولو عن طريق قلب المعادلة، والمغايرة قد لا تفسد للمقاربة قضية. وأحسب أنّ الشاعر (حمزة شحاتة) ليس ببعيد عن (الفقي)، فإذا كان (الفقي) متشائماً فإنّ (شحاتة) ممتلئ أنفة وكبرياء وإباء. والشاعران يلتقيان في صفات نفسية، ويفترقان في أمور كثيرة.

والتماس حياة (شحاتة) لا تكون عن طريق الاستئناس بمن كتب عنه في ظل الاندهاش بالمثاليات والفنيات واللغويات المتألّقة، وأحسب أنّ القول بوعيه وتعمُّده لمآلات حياته قول ينقصه الإثبات، ويعوزه الدليل، فالشاعر مارس حياته بوعي، ولكن خصائصه النفسية لم تدع فسحة لتقبل المناقض، الأمر الذي آل به إلى انكسارات متلاحقة أدت إلى إخفاقه في الحياة الزوجية وهروبه من المشهد، وليس يعيبه ذلك. وإذا كانت قصائده الغزلية ليس فيها رمز ولا قناع فإنّ للشاعر حياة مزدوجة، فشعر الغزل لا يمثِّل الوصف والحس، وإنّما هو تجسيد لحالة نفسية تغذِّيها المواقف، ولا يثيرها الجنس. والشاعر كان في مطلع شبابه على صلة وثيقة بالشاعر (محمد حسن عواد) ولما تقطّعت بينهما الأسباب، وصل العواد حباله بالتجديد المتطرّف، والحضور الفاعل، والثبات أمام الأعاصير، فيما حاول (شحاتة) حفظ التوازن بين التراث والمعاصرة، ولكنه لم يثبت أمام تحدِّي الأوضاع. ولقد تميَّز شحاتة عن العواد بالوضوح والموضوعية وصفاء الإيقاع ونصاعة اللغة، وامتاز العواد بالثراء المعرفي والحضور الفاعل.

والشعر على الرغم من كلِّ الاحتمالات له مؤشرات، لا يخيب معها الظن، فالشاعر (حمزة شحاتة) ومن خلال شعره حادّ المزاج، سليط اللسان، يتقن فن الهجاء المقذع، والسخرية المرة، ولولا ما ينطوي عليه من أنفة وإباء وترفُّع لكان الشاعر الهجاء الذي يفوق المتقدِّمين والمتأخرين. وتتجلّى قدرته المفحمة في ملحمته الكبرى التي خاض فيها معركة الملاسنة الممتعة في بداياتها المسفة في نهاياتها. لقد أثارت تلك المعارك الشعرية اشمئزاز المتابعين، ولكنها خلّفت لنا شعراً قوي العارضة، لم نظفر إلاّ بالقليل منه، ولا شك أنّ مثل هذا الشعر يكشف عن سجايا الشاعر وعجزه عن كظم الغيظ، ولقد وصفها جامعو الديوان بأنّها مناظرة شعرية، ولا أحسبها كذلك، فالشاعران (شحاتة) و(العواد) يمارسان السخرية الشخصية، ويقتربان من النقائض، ولكنهما يقعان في الهجاء المقذع والسباب المسف، والمناظرات أقرب إلى تحرير مسائل النظرية المختلف حولها، ولقد جاءت قضية الشعر عرضاً. والمتقصِّي لخطوات هذه النقائض يجد أنّها بدأت في وقت مبكر، وانحسمت في عام واحد، ولسنا معنيين في صدقية ما قيل. فالشاعران على جانب كبير من الخلق والاستقامة والمكانة في نفوس المخالطين لهما، ولكننا نلتمس إمكانيات الشاعر، ودوافعه النفسية، وعنفه في مواجهة الخصوم. والشاعر من خلال رفضه وإبائه وعنف مواجهته يبدو شديد الحساسية والشك، وتلك الخلائق لها تأثيرها الأقوى في مسيرة حياته، وبخاصة في علاقته مع المرأة.

والشاعر الذي عصفت به الأحداث، وقست عليه الظروف، وفارق الديار مهاجراً إلى مصر وكف بصره، وكاد يكون رهين المحبسين ترك شعره مع ما ترك، فلم يكن في متناول الكافة، وإنّما كان أوزاعاً في لفائف الأصدقاء، وشعر لا يكون حاضر المشاهد، تغفل عنه الأقلام، حتى لا يكون معروفاً. والمتأمّل فيما وجد من شعره وجمع، يكتشف شاعراً موهوباً، ثري المعاني، قوي الأسر، عميق اللغة، يرتبط شعره بحياته أشد الارتباط. ولقد تبدى جانب من أخلاقياته في احتجاجه واعتذاره عبر قصيدة (مناجاة ص٦١، فالشاعر يسلك فيها سبلاً يبدي فيها خطابه، والقصيدة اعتذارية من أجمل ما قيل في الاعتذار، واستعاطفية من أروع ما قيل في الاستعطاف، وتبريرية من أقوى ما قيل في التبرير، ودعائية تسترق القلوب. يقول وهو يخاطب صاحبه الذي رمز إليه بالجواد السابق المحجل:-

لا تشك الأحداث والغضب العارض عني والشك والتأويل
هنة جسَّم الخيال معانيها ضلالاً وضاعف التهوي
قد تعجلتها بالهجر وما ضاقت بها بعد عذرها والدليل

وهو في هذه القصيدة يعتمد التدوير والتضمين، وذلك مؤشر صدق المشاعر، فالتماسك في القصيدة لا يتهيأ إلاّ لمن يعاني من الموقف، فالوحدة العضوية التي يتحفّظ عليها بعض الأقدمين تُعد ميزة شكلية ودلالية. والشاعر حين يقول بصدق، لا يتلعثم، ولا يتردّد، ولا يفكر فيما يقول، ولهذا أشار جامع الديوان إلى بعض الهنات العروضية التي تدل على العفوية والمباشرة. وعلى الرغم من كلِّ الانكسارات والتوسُّلات تشمخ الأنفة، ويستشري الإباء، فكلُّ ما سبق ختمه بقوله: -

لا طوينـــا علـــى الهـــوان نفوســـاً
لحبيـــب ولـــو برانـــا النحـــول

وإشكالية المثاليات أنّها حين تمر بمشاهد الواقع لا تكاد تنجو من وضرها، فلو قرأنا (شحاتة) في شعره، وفي نثره، لوجدناه يرصد قمة المثالية، ولكننا حين ننظر إلى مواقفه في مواجهة الواقع نجد إنساناً آخر في عنفه وقسوته وارتباكه وإخفاقاته، وليس أدل على ذلك من خلافه مع صديق طفولته وشبابه وندِّه (محمد حسن عواد)، وزواجه لثلاث نساء وطلاقهن وهجره للحياة واعتزاله للأحياء، وكل الذين يحبون (شحاتة) - وأنا منهم - يقفزون هذه الأحداث، لأنّهم لا يستطيعون تبريرها، غير أنِّي سأقف عندها مكرهاً امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ﴾. وإذا اضطروا إلى ذكر خلافه مع (العواد) أدانوا كلَّ أطرافه، وهي إدانة لا تمضي بهم إلى تلمُّس الأسباب والنتائج، فهل كان (حمزة شحاتة) هازلاً تجاوز حد المباح، أم أنّه ضيِّق العطن، لا يتسع صدره لأكثر من قول؟، الشيء المؤكَّد أنّ (شحاتة) على جانب من الخلق الرفيع، ولكن الضغوط النفسية والاجتماعية تخرج به عن حده، وقد تفقده صوابه، وفوق ذلك فهو يعشق القيم، ولكن الضغوط النفسية تقعد به عن اللحاق بها في ساعة الضيق والبرم. أحسب أنني مضطر إلى التنبيه دون المحاكمة والحكم، وعلى الذين لا يجدون حرجاً من النّبش في مثل ذلك أن يتلبثوا فيها كثيراً.

وفي النهاية كيف نتصوّر هذه الحياة بعد أن عبرنا إليها من خلال وثائقه الشعرية، وحالته الاجتماعية والنفسية الماثلة للعيان. لقد سبقني إلى ذلك دارسون ونقاد، استحضر بعضهم هذه الرغبة، واكتفى بعضهم بالوقوف على فنيات الشعر ومبلغه من الفن. وكلٌّ من أوغل في البنية الموضوعية، ألم بشيء من ملامح حياته شاء أم أبى، ولكنه إلماح

عارض، ولهذا فإنّ حياة الشاعر في النهاية تكمن في شعره، وقد لا نكون قادرين على تجليتها بالقدر الكافي، وهي حياة حافلة بالمنغصات والتحدِّيات والإحباطات.

الدامغ في يوم تكريمه .. ! [(١)]

كان بودّي أن أكون معكم لأفوز بلقاء يعزُّ عليَّ فواتُه، وما كنت لأفرِّط في احتفائية كأنها لي لولا ظروف سبقت. وكلمتي تلك ليست اعتذارية وحسب، إنها مشاطرة محب فوَّت على نفسه أكثر من فرصة، وحين حبَّب إليَّ القائمون على هذا المركز الثقافي المشاركة العملية في تكريم الشاعر القدير والصديق العزيز إبراهيم بن محمد الدامغ، والاشتراك مع أخوين عزيزين: زميل اليوم وتلميذ الأمس الدكتور إبراهيم المطوع، والصديق والشاعر الرقيق الأستاذ الدكتور عبد الرحمن السماعيل؛ أقول حين حبَّبوا إليَّ المشاركة على أي شكل أحسستُ أنني مقصِّر في حق المركز والشاعر؛ إذ هما أصحاب الفضل، ولي كل الشرف أن يكون لي ولو مفحص قطاة في هذا الاحتفاء بشاعر نعزُّه ونسعد بالحديث عنه.

لقد عرفتُ الشاعر الدامغ في مطلع حياتي الأدبية، وأعجبني في شعره روحه الحماسية، وصفاؤه الموسيقي، وصدق مواقفه. وكنت ولما أزل أذكر الأماسي العذاب التي كان يحييها الشاعر أو يشترك فيها، ولما أزل أذكر الاستقبال الرائع لروائعه. لقد كان الدامغ ملء السمع والبصر يوم أن كان حاضر المشاهد كلها، ولكن اختار الاعتزال، وصرفته صوارف الحياة عن الشعر والمحافل، فما كنا نلقاه في صحيفة ولا نشهده في منتدى، وإن تكرَّم وأخرج لنا بعض شعره على استحياء، وتلك سنن المثاليين الذين لا يرضون عن أنفسهم ولا عن مجتمعهم، وإن كانت مشاهد الأدب والثقافة قد شُغلت بغيره فإن ذلك من فعله بنفسه؛ إذ لم يكن هامشياً فهو شاعر متمكن ومثير ومطرب، وله إضافات في عالم الشعر، ولقد كان يوم أن اختار الحضور ملء السمع والبصر، ولكن حين انطوى على نفسه وانسلَّ من المشهد راغباً شُغل المشهد بمن هم دونه، وتلك سنة الحياة.

لقد عرفتُ الشاعر قبل أن أدخل عوالمه الشعرية فكان مثار إعجابي، وعرفته أكثر حين أعددتُ رسالتي للماجستير (اتجاهات الشعر المعاصر في نجد) وعرفت اتجاهاته الموضوعية، ثم زادت معرفتي به حين أعددت رسالتي للدكتوراه (النزعة الإسلامية في الشعر السعودي المعاصر)؛ فهو عربي فاقع اللون، وإسلامي ناصع الإسلامية، وشاعر جهوري الصوت، صاخب الموسيقى، يؤدي رسالته بكل وضوح ولما يزل حاضراً بين يديَّ مع عدد من رسائل الماجستير والدكتوراه التي تتاح لي فرصة مناقشتها، وبخاصة التي تتناول الأدب العربي في المملكة.

الشاعر الدامغ أكاد أصفه بالخضرمة؛ فهو بقية الجيل الثاني وبعض الجيل الثالث الذي يبدو حراكه الشعري المؤدلج والمسيَّس. وإذا قلتُ بأنه بقية الجيل الثاني فإنما أعني جيل الستينيات الذين فتحوا عيونهم على المد الثوري والخطاب القومي والحماس العربي.

والمتابع لشعره يرى فيه الرصد الدقيق للمرحلة إذ ذاك، وهو لا يختلف كثيراً عن جيله المتوقد حماساً الذين درسهم وترجم لهم الأستاذ عبد الله بن إدريس في كتابه (شعراء نجد المعاصرون).

وكلمة كهذه لا يمكن أن تأخذ بأسباب التحليل والتوصيف والنقد وإن كنت حريصاً على ألا أقول إلا ما يفيد المتلقي؛ فالشاعر متمكن أمكن في سوح الشعر، وليس بحاجة إلى الثناء الباذخ، وليس يضيره أن تختلف الآراء حوله، وإذا كنا من مريديه فإن طوائف من النقاد والدارسين لا يقبلون هذا اللون من الشعر شعر الخطابة والوضوح والجماهيرية. إن

(١) تاريخ المقال: ٢٣/ ٣/ ٢٠٠٦

النقد الحديث يحتفي باللمحة والغموض والهمس، ويكفي الشاعر أنه مجال اختلاف وتنازع.

وكم على الأرض من خضراء مورقة

وليس يُرجم إلا مثمر الشجر

ومهما اختلفنا أو اتفقنا حول شاعرية الشاعر فإنه سيظل مشروع إشكالية نقدية تضيف للمشهد النقدي أسساً نقدية. ومن مؤشرات الضعف أن يظل الشاعر ساكتاً ومسكوتاً عنه، وقديماً قال المتنبي:

أنام ملء جفوني عن شواردها

ويسهر الخلق جراها ويختصم

إن شوارد الدامغ قادرة على شغل المشهد، وهي جديرة بأن ينشغل بها المشهد، وكم أتمنى أن أكون فيها جذعاً متوفراً على الجهد والوقت لأبوح بما أرى؛ فعلاقتي الشخصية بالشاعر أمتن من علاقتي الأدبية، ولهذا فليس يمنعني من الصدق معه مانع، ولست بحاجة إلى المجاملات الزائفة.

الشاعر في النهاية له وعليه، وحاجتنا إلى نقاد يفرزون شعره، فمهما اختلفت الآراء حوله فإنه سيظل شاعراً متمكناً شغل المشاهد ردحاً من الزمن، ثم تسلل من الأبواب الخلفية مغاضباً على المتشاعرين والمجاملين، فهل هذا التكريم الذي سبقت إليه (المجلة الثقافية) و(مركز بن صالح الثقافي) قادر على جرِّ قدمه وزجِّه في حلبة الأدب ليعيدها جذعة؟! أرجو أن يكون هذا التكريم استدراجاً لمثله؛ فإنه في دخوله في الميدان إضافة جديدة لشعراء القصيم الذين درسهم زميلنا المطوع واكتشف قيمة فنية ومادية تدلُّ بها على مناطق المملكة الزاخرة بالشعراء والنقاد.

وبالموت تحيا المآثر.. !(١)

بين صرخة الوضع وأنَّة النزع تقع حيوات فارغة، وأخرى مليئة، وكم من مفارق لا يترك فراقه فراغاً، ولا يثير حزناً، وكم من ميّت تتعثر بموته منجزات تنفع الناس، والتراث العربي مليء بالتفجع والتأبين والمآثر التي يتركها الكبراء في أي موقع تعد عمراً جديداً يستأنف الحضور بعد مفارقة الروح للجسد.

وإذ يكون الموت يقيناً لا مفر منه فإنه في الوقت ذاته فاصلاً بين حياتين حياة الوجود الشخصي وحياة الذكر الجميل والعمل الباقي، وإذا انقطع الميت من كل شيء فإنه يظل حاضراً في ثلاثة أشياء، وما من ميت إلا يود ذووه ومحبوه أن يكون له من الثلاثة أحسنها، فهناك الصدقة الجارية، وهناك العلم الذي ينتفع به، وهناك الولد الصالح الذي يدعو له، وحين يظفر المحبون بشيء من ذلك يهون مصابهم، وتقتصر المفارقة على الجسد الترابي الفاني.

والمربي القدير الشيخ عثمان الصالح الذي سبقنا إلى دار البقاء له النصيب الأوفى من هذه الثلاثة، فحين فارقنا بعد عمر مديد حافل بجلائل الأعمال أبقى فينا مآثر جليلة، فهو قد قضى عمره في التربية والتعليم، وخرَّج أجيالاً تملأ الرحب، فكم من مسؤول يتسنم أعلى المناصب يدين له بالفضل، وهو قد ترك منتداه الذي أجزم أن عقبه ومحبيه عازمون على مواصلة ما انقطع، وهو ذو إسهامات وشفاعات وسعي دؤوب في حاجات الناس يعرفها المخالطون له، وله أبناء نعدهم من الصالحين، ولا نزكي على الله أحداً، وله قبل هذا وبعده محبون يعرفون فضله ويقدرون مكانته ولا أحسبهم الا متقلين للراية من بعده لمواصلة ما انقطع بموته، ولقد سبقه إلى دار البقاء علامة الجزيرة (حمد الجاسر)- رحمه الله- فكان أن نهض بالمهمات الجسام من بعده تلامذته ومحبوه يقدمهم صاحب المبادرات الإنسانية الأمير سلمان بن عبد العزيز، وما نرجوه أن يتمخض التفجع والتأبين عن مؤسسة تجمع شتيت أعمال الفقيد، وتواصل مسيرة العطاء الذي بدأه في وقت مبكر، وليس ذلك بعزيز على همة الرجال الأوفياء في ساعات الشدة.

وكم كنت على صلة وثيقة به وبمنتداه وكانت (الاثنينية) مجالاً لصولات وجولات الأدباء والمفكرين وكبار المسؤولين من أمراء ووزراء، وأحسب أنها ستظل كما تركها ملتقى للنخبة من أبناء البلاد الذين يدينون له بالفضل.

فما مات من خلف وبموته سينهض أبناؤه وطلابه وأحباؤه للمحافظة على ما ترك وسد ما فرغ ومواصلة أعماله، وحيئنذ يظل حاضراً في الذاكرة، وفي الواقع وتكون المفارقة في الجسد لا في الأثر.

رحم الله المربي القدير وأسكنه فسيح جناته وألهم ذويه ومحبيه الصبر والسلوان.

---

(١) تاريخ المقال: ٢٧/ ٣/ ٢٠٠٦

من تلوُّث الأجواء إلى لوثة الأفكار.. ! (١) [(١)]

إذا كان الله قد يسَّر القرآن للذِّكر، وتساءل: - وكلُّ تساؤل منه جلَّ وعلا مجاز -: هل من مدَّكر؟. فإنّ ثورة المعلومات والاتصالات قد أشاعت المنجز الإنساني، وجعلته مطروحاً في الطريق، يمر به البرُّ والفاجر، وأصبحت أفكار الغرب ومخترعاته وأنظمته وسلوكياته كما الليل الذي هو مدرك لكلِّ حي، وإن خال أن المنتأى عنه واسع. والإشكالية في المتلقِّي العربي، الذي قد يلتقط ما سيكون له عدوّاً وحزناً، فيما يعزب عن ذاكرته ما يحييه.

هذه المخترعات المبهرة، وتلك الصناعات المدهشة انتزع بها المسوِّقون لأفكارهم ونظمهم ورؤيتهم للكون والحياة والإنسان من المتسوقين الاندهاش المربك والاستجابة المطلقة. وما كانت تلك البضاعة المسوَّقة إلاّ قصراً على التفكير المادي والسلوك الشهواني، بحيث استحوذت على المتسوّقين الشهوات، وأضلّتهم (الأيديولوجيات)، فحققوا تداعي الأكلة وغثائية الكثرة. وإذا كانت المجتمعات المدنية تباشر التطعيم، كلّما داهمتها الأوبئة، حتى لا تكون مستوطنة، فإنّ واجب المجتمعات المستجيبة لله وللرسول أن تباشر التحصين الفكري، بأساليب حضارية، تقوم على التذكير النافع، والمجادلة بالحسنى. والفتّانون من يمارسون التعميم في الأحكام، ويستمرئون الفوقية والتسلُّط، ويكرِّسون الحدية الصارمة. والبلاغ المبين لا يتحقق إلاّ بالتخول في الموعظة، والاستمالة باللين، والترويض بالإمتاع، والتطويع بالإقناع، ومراعاة مقتضى الحال، واختيار أيسر الأمرين. وما دخل الرِّفق في شيء إلاّ زانه: - ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] .

ومواجهة الاختراقات الفكرية والأخلاقية المنظَّمة، لا تتم بالجهد الفردي، ولا بالابتسار الجزئي، ولا بالاهتياج الأعزل. والفرادة والتجزيئية والاهتياج تصعد المشكلة، وتزيد الارتكاس. واللوثة والتلوُّث ناتجا خطأ في التشخيص أو قصور في المواجهة، أو تعمُّد في إهمال الثنيات والثغور، أو إيغال في القول فيما لا يعقله الناس، أو إلحاح في طلب المستحيل. ولمّا لم يكن بالإمكان حسم المواقف بالمبادرات الفردية، فإنّ على أصحاب الأجواء المخترقة أن يدرؤوا عن أجوائهم بالمؤسسات المتخصصة، بعد دعمها بالكفاءات البشرية المؤهلة. وثورة المعلومات والاتصالات حوّلت العالم إلى قرية صغيرة، وفرضت أساليب غاية في الدقة لمواجهة التحدِّي. فالغرب الذي فاضت مشاهده بالمذاهب الوضعية المادية، نبذ دينه وراء ظهره، وألقى عصاه في حقلي: المادة والعقل، ثم تحوَّل مركز التحكُّم عنده إلى العلم التجريبي، فعطل (اللاهوت) و(الناسوت)، وسخر من (الميتافيزيقا) حتى لقد سمَّاها بعض مفكِّري العرب المتلوثين بالمادية ب(الخرافة) ثم عدَّل ذلك بالموقف منها، وهو موقف يجسِّد اللوثة والتلوُّث والسقوط في وحل الماديات.

والدين الكنسي المحرَّف في العصور الوسطى بلغ من النفاذ والتسلُّط حدًّا لا يطاق، وعجزه عن الصمود أمام المكتشفات والمخترعات والعلم والعقل زواه في الأديرة، وحوَّله إلى ممارسة طقوسية، يباشرها الجسد عادة رتيبة مفرغة من محتوياتها الإيمانية والعملية، وتفريغ الأفئدة من الإيمان، أصابها بالخواء والتصحُّر، وحوَّلها من عالم الإنسان الوديع إلى عالم الحيوان المتوحش، و: (إذا الإيمان ضاع فلا أمان). وها هي غطرسة القوة تهلك الحرث والنسل، وها هو (الهرج) الذي أخبر من لا ينطق عن الهوى بكثرته يستفحل،

---

(١) تاريخ المقال: ٢٨/ ٣/ ٢٠٠٦

حتى لا يعرف القاتل لماذا قَتل، ولا المقتول لماذا قُتِل. ومصير الغرب إلى العلمانية الشاملة فرضه عجز الدين عن مواجهة العلم واحتوائه، والنهوض بمطالب الحياة السوية. وقدر الأمّة المأزوم تتبعها لسنن الغرب، واستهلاكها لصناعاته، وقعودها كالطاعم الكاسي، ومن هنا تلوّثت الأجواء، والتاثت الأفكار. وكيف لا تتلوّث المشاهد، وهي مسرح للمذاهب والتيارات والأفكار والسلوكيات الغربية مجلوبة أو طارئة. ومرد الوهن والحزن اشتغال المفكرين العرب بما لا حاجة لهم به، وتنازعهم حول قضايا فكرية لا تعنيهم بشيء، وهي قضايا لمَّا تبرح محيط النظريات الاحتمالية، وتساقطها أمام الجدل الفكري فوّت على مفكري الأمّة فرص المبادرات المستجيبة للحاجة.

ومهما أوغلنا في النَّيل من مآلات الحضارة المادية وبؤسها، فإنّنا - وتحقيقاً للمصداقية - ملزمون بالإشادة بالمنجز المادي المذهل، ومطالبون بالتحرف للمجيء بمثله. والتأكيد على أنّ القبول به، والاستفادة منه ليسا ملزمين للمصير إلى مسلّماته الفكرية وممارساته السلوكية. وإذا كان الغرب على علم بظاهر الحياة الدنيا فإنّ حرية التفكير والتعبير وإلغاء المرجعية أردت فكرهم في مهاوي الرذيلة والإلحاد، وأفقدتهم حفظ التوازن بين مطالب الروح والجسد. والوقوف من الفكر المادي الإلحادي والسقوط الأخلاقي لا يمنع من الإفادة والاستفادة، وتبادل الخبرات والمصالح، والركون إلى السلام والتعايش السلمي، والبر والعدل. لقد استفحل الضعف والتخلُّف بسبب التعالق مع القيم المعنوية والوقوف عند حد الاستهلاك الحسي، وبسبب تفويت الفرص المواتية للاستفادة من مناهج الغرب وآلياته ومؤسساته الإجرائية وعلمه التجريبي، فالقبول الشامل والرفض الشامل هما مكمن الداء، إنّ هناك خلطاً عجيباً بين التبادل والتماثل، وكأنّ الإسلام لا يتسع لما اتسعت له الحضارة الغربية من علوم بحتة وأنظمة ومؤسسات ومناهج وآليات لا تعدو محيط الوسائل، ولا تخرج عن أمور الدنيا التي نحن أدرى بها، بوصفها نوازل آنية، يعرف الحاضر منها ما لا يعرفه الغائب.

وحين ننشد الموقف الحضاري من الآخر، يجب أن نعرف له سبقه، وأن نعترف له بتفوُّقه، وأن نفعل فوق فعله، بعد تهيئة الأجواء الملائمة للبدء من حيث انتهى، وأن نميّز بين اقتفاء أثره الفكري، وتفكيك شفرته العلمية. ولا شك أنّ تحقق الغثائية والتبعية ناشئ من التعالق الفكري والمفارقة المعرفية. فأين نحن من العلماء المكتشفين؟ وأين منا المعامل والمختبرات والمصانع؟ في ظل الأمر الرباني العازم بإعداد المستطاع من القوة، ومجيء المأمور به نكرة مؤشرٌ على العموم، فأي قوة حسية أو معنوية تردع الأعداء، تعد من الفروض الغائبة، ومفهوم الإرهاب بالقوة، كمفهوم قوة الرّدع في لغة القوة المعاصرة. وما سمعت مدَّعي التنوير يقولون بذلك، إنّ الانتماء إلى الإسلام يعني تفعيله بأوامره ونواهيه وأخلاقياته وتعاملاته وسائر أحكامه، وفي النهاية فإنّ (الدين المعاملة).

لقد تعالقنا مع الغرب، ورضينا من حضارته بما ليس لنا به حاجة، فكانت الفنون وكان المجون، وكان العهر والكفر، ولم يكن العلم وحواضنه، ولا الأنظمة وانضباطها. والذين لا يحبون الناصحين يحرِّفون الكلم من بعد مواضعه، ويقوِّلون خصومهم ما لم يقولوا، فالتحذير من غزو الغرب وتآمره لا يقتضي اعتزاله، فضلاً عن مصادمته، ولا يعني تبرئة الذات المتخلفة من مقترفاتها. والاستجابة للغرب، والانسلاخ من قيم الحضارة الإسلامية لا تقيلان العثرة، بل تزيدان في الارتكاس والانتكاس. ونفاة الغزو والتآمر لا يتوفرون على تواصل حضاري مع الغرب، يسد الخلال. ومقدرات الأمّة ضاعت بين النفي والإثبات، ولن يُقال العثار إلا بالتنادي إلى كلمة سواء، تصد الغزو والتآمر، وتفتح الأبواب والنوافذ لمزيد من التواصل الإيجابي مع مختلف المنجزات البشرية، وبعث الثقة والوفاء بالعهود والمواثيق.

ومؤشرات اللوثة والالتياث متمثلة باستفحال التنابز بالألقاب بين أبناء الحضارة الواحدة وقابلية التبعية، وممارسة الفعل بشكل فوضوي فردي، لا تهيمن عليه مؤسسة، ولا ترصد لتحركاته (استراتيجية). وشواهد اللوثة أنّنا منذ (حملة نابليون) وحتى الآن وقادة الفكر وزعماء الإصلاح وروّاد النهضة في لجة أمسك فلاناً عن فل، وكلهم على اتصال متفاوت بالغرب، فمن مكفِّر يرى أنّ التكفير لا يتحقق إلاّ بالقتال، والقول بأنّ الكفر مؤذن بالقتال قول مخالف لصريح النص القرآني ولهذا استعيض عنه ب(الآخر) لتفادي المفاهيم التي يروِّجها المتطرِّفون عن الموقف من الكفر، وكان الأجدر تصحيح المفهوم لا الهروب من تبعاته، ومن مكفر لا يمنع بر الكافرين والإقساط إليهم، إلاّ في حالة القتال في الدين أو الإخراج من الديار، ومن متصالح متعايش مُسمع لكلام الله موقِّر للأمن، ومن راكن موالٍ ومداهن. وكلُّ فئة ترى أنّها تمارس الحق الذي لا يُعلى عليه، ولمَّا يستطع الخطاب العربي الاستواء على أرضية صلبة، فيما استطاع (الشعب الياباني) استثمار هذا التواصل دون مسخ أو انسلاخ، ومؤشرات الفشل مرتبطة بنوعية الاهتمام، وطرائق التواصل. ودم الأمّة ضاع بين الرأي العام المضلَّل، والنخب الفكرية المتناحرة، وتدخُّل القوى المتغطرسة في السيادة الإقليمية. فمن القاتل؟ ومن الولي الذي جعل الله له سلطاناً؟ إنّ عصر القرية الواحدة يختلف عن عصور القطيعة بين قرية وأخرى، وإذ تقترب الحضارات من التداخل، فإنّ مهمة أهل الحل والعقد عصيّة ومعقّدة، ولقد قلت، ولمّا أزل أقول: إنّ خطاب القوة يختلف عن خطاب الضعف، وأنّ التراجع للتحرُّف أو للتحيُّز يختلف عن الفرار من الزحف، وأنّ العصر عصر مؤسسات لا عصر أفراد.

من تلوُّث الأجواء إلى لوثة الأفكار.. ! (٢) [1]

ومؤشّرات الفشل الذريع أنّ المشاهد الفكرية العربية انبهرت بأربعة مفكِّرين ملحدين (نيتشة) الذي أمات الإله، وجعل الإنسان مركز الكون. و(دارون) الذي أرجع الكائنات والأمم كلّها إلى خليّة واحدة، يحكمها قانون (البقاء للأصلح). و(فرويد) الذي ربط النوازع والرغبات بالجنس، موغلاً في حيونة الإنسان. و(ماركس) الذي ألّه المادة، وربط الصراع بها، وحاول فكّ الاشتباك ونزع فتيل الصراع بإلغاء الملكية، ظنّاً منه أنّها مكتسب لا غريزة. والغرب هو الذي تعمَّد إشاعة مفكِّريه ومبدعيه وفنانيه عن قصد، وضنَّ بإشاعة علمائه ومخترعيه وقوانين مكتشفاته وشفرات معلوماته، ليجمع السيطرة من أطرافها، ولهذا يجود بإشاعة الفكر والفن، ويستأثر بالعلم، وليس لشهرة هؤلاء المفكِّرين اليهود ما يماثلها.

وهؤلاء الأربعة هم الذين تولّوا كبر اللوثة والتلوُّث في العصر الحديث، ومن أصولهم ومناهجهم وآلياتهم تفرّق الجنس البشري شيعاً وقبائل، وجاءت المذاهب في سائر وجوه الحياة تستمد طرائقها مما أقرّه أولئك. ومع نفوق هذه المذاهب، ودخولها مزبلة التاريخ، فإنّه لم يدلّنا على موتها إلاّ لدات المفكِّرين من بني جنسهم، وقد نجد من يردِّد: - الماركسية لم تمت، والداروينية لمّا تزل فاعلة، وكم نحن بحاجة إلى (دابة الأرض) لتدلّنا على موت الشواخص من تلك الهياكل الجوف، وإذا قيل: إنّ الكفر ملّة واحدة، فإنّ سائر المذاهب الفكرية مهما أبعدت النجعة، تمد بسبب إلى هذه المذاهب المادية الأربعة، ذلك أنّ الرابط بينها إنكار الدين، وإماتة الإله، وتأليه المادة، ونفي عالم الغيب. وما تتداوله المشاهد الأدبية والفكرية والسياسية لا يخلو من اللوثة والتلوُّث، على حد دخن (الرباء) فالذين لا يأكلونه في بطونهم، لا ينجون من دخنه. وإشكالية المتعاطين مع المستجدات أنّهم لم يؤصلوا لأفكارهم، بحيث يميّزون بين المحظور والمباح، ولم يقفوا على تأصيل الآخر لأفكاره ومذاهبه. وفقد التأصيل مظنّة التيه والتضليل.

والمتابع للمتشبِّثين بالفكر الغربي، يلمس ذلك بكلِّ وضوح، فهم نقلة ملفقون، وقليل منهم من يعي بعض ما يلتقط، وهم مع حضارتهم بين مسقط للنص، أو متأوِّل يلوي عنقه، مستخدماً آليات التفكيك، التي تلغي الدلالة، وتميت المؤلف، وتمكِّن المتلقِّي من فرض دلالته التي توافق هواه - راجع (دليل الناقد) للبازعي والرويلي -. ولقد كان نصيب الإبداع السَّردي من الانحراف الفكري والسقوط الأخلاقي وافراً. وكلّ من تقحم تلك المشاهد وانغمس في أوحالها، دون تأصيل شرعي استهوته براعة العرض، وجذبه إتقان المخادعة، وأصابه ما أصاب غيره ممن يعبد ون الله على حرف. ومع أنّ على المفكِّر أن يقرأ الآخر ما أمكنه ذلك، وأن يستمع إليه وهو شهيد، وأن يأخذ بأحسن ما عنده، فإنّ واجبه قبل الدخول في غيابة الفكر المعاصر أن يتضلَّع من تراثه الشرعي، وأن يحصن نفسه، وأن يعرف الفرق بين الثوابت والمتغيّرات، والأفكار والعقائد، والوسائل والغايات، والمباح الممكن وغير الممكن، والممنوع لمصلحة والمحرم لمفسدة. وما التاثت الأهواء وتلوّثت الأجواء إلاّ من متحدِّث في غير فنِّه، وينقض النص بالاجتهاد، ولا يُفرق بين القطعي والاحتمالي، وإذ ألْهت (بني تغلب) قصيدة قالها (عمرو بن كلثوم) فإنّ بني يعرب ألهى من ذات النحيين بقضايا المرأة منذ (قاسم أمين) وحتى الذين اهترأت أشداقهم عبر القنوات، والقول في المذاهب والتيارات بغير علم أضلّ الأفهام وأزلّ الأقدام.

---

(١) تاريخ المقال: ٤/ ٤/ ٢٠٠٦

ولعلّنا نضرب مثل السوء بمن قال بعد تخبُّط في التيه: - (نهاية إقدام العقول عقال) ومن قال: - (مشيناها خطى) ومن أبدع: (منعطف الاشتراكية الكبير) ومن كتب (الاعتراف) فيما نضرب المثل الأعلى بشيخ الإسلام (ابن تيمية)، الذي قرأ المذاهب والملل والنحل كلّها، وعرفها أكثر من معرفة أصحابها بها، ولم يُصب بلوثة ولا بتلوُّث، ومردّ ذلك استيعابه للتراث الإسلامي، وفهمه حق الفهم، وإيمانه وتصديقه، واستكماله للعتاد والعدّة قبل منازلة الأفكار والمذاهب، لقد كشف عن أخطائها، وهزم أربابها، وخرج كما دخل، لم يتدنّس بفكر، ولم يتلوّث برأي، ومرق من هذه المذاهب كما يمرق السهم من الرمية، لم يعلق به من وضرها شيء، لقد عقل (الرازي) عقله، وفضح (روجيه جارودي) انحراف الماركسية، وروى (أحمد سليمان) رحلة التيه في قيعان الشيوعية، واعترف (أرتور لوندون) بحياة الرّعب في عالم الحزب الشيوعي، ولو كُشف الغطاء لظهر في كلِّ الأحزاب والطوائف والعرقيّات.

وليست الإشكالية فيمن التاث أو تلوّث، لأنّ ذلك ذنب يصيب الذي ظلم خاصة، وإنّما هي فيمن تبنّى هذه المذاهب، ونافح عنها، ومجَّد، أصحابها، وانبهر بطرائق التناول ومناحي القول عندها، ولم يتورَّع من استخدامها في مواجهة تراثه، وتدنيس مقدسه، والتشكيك في يقينيات دينه الكبرى. وما نقم أحد ممن أصابه الدخن، ثم لم يكن داعية سوء.

لقد كان (النووي) و(ابن حجر) - رحمهما الله - أشعريين، وقلّ أن يعرف أحد ذلك عنهما، لأنّهما لم يكونا دعاة مذهب، وإن أخذا بمقتضاه، وكان (الزمخشري) - عفا الله عنه - معتزليّاً متعصِّباً لاعتزاله، تجلَّى ذلك في (كشَّافه) الذي لا يستغني عنه عالم في التفسير، لمجيئه في غاية الجودة، ولكنه داعية لنحلة ومتعصِّب لملَّه، الأمر الذي حمل طائفة من العلماء السلفيين والأشاعرة على فضح اعتزالياته، وكشف ما يدسّه من قول مخالف لمذهب أهل السنّة والجماعة. ولم يخل عصر من العصور الإسلامية من طوائف وملل ونحل فيها الغلو والتطرُّف، خرجت على مقتضيات الشريعة، وأوغلت في البدعة، ونافحت عنها، ولكن هذا العصر تجاوز الطائفية والتأويل إلى المواجهة والإقصاء، وكان ذلك في ظل إمكانيات الاتصال والإعلام المذهلة.

وإن كان ثمة إشكالية التلويث المتعمّد، فإنّ الذين يخوضون في الفكر المادِّي لا يجدون ما يحمون أنفسهم به، وذلك سر تهافتهم كما الفراش. وتعري سوأة الجهل والتعالم لم تحفزهم على مراجعة النفس، والتزوُّد من معارف حضارتهم، وما يقولونه عن حضارتهم من سخرية وتزهيد ودعوة إلى التخلِّي مؤشِّر جهل بنواقض الإيمان، وتأوّل يميل إلى الاحتمال المرجوح، أو افتراض تأويل لا يحتمّله النص، وما يروِّجونه عن حضارة الغير مؤشِّر انبهار، وما يهرفون به قول معاد، فالسابقون الأوّلون من رفاق (الطهطاوي) حتى يومنا هذا أخذوا بعصم القيم الغربية، ولم يفلحوا إذاً أبداً. والقارئ الملم بالتيارات والمذاهب، يحز في نفسه أن يكون أبناء عشيرته مجال سخرية للمفكِّرين المتمكِّنين، متى استعرضوا ما يتداولونه من كتابات ملفقة لا تفهم الأصول، ولا تتقن القواعد، ولا تعرف المنطلقات، ولا تحيل إلى المرجعيّات، حتى لكأنّهم ممن يهرفون بما لا يعرفون، إنّنا نخالف الأقوياء ولكننا نحترمهم، فأين بعض الكتبة من (محمد أركون) و(محمد الجابري) و(حسن حنفي)، و(برهان غليون) و(فهمي جدعان) وآخرين لا يعلمهم إلاّ المتابعون الرّاصدون.

والفروض الغائبة تتمثّل في معرفة أصول المذاهب ومنطلقاتها، فالملتاثون لا يعرفون ضوابط الأخذ ولا موانع الترك، ولا يقدرون على تثوير الأنساق المتجذّرة، وما هم بخارجين من هيمنة الحضارة المادية حتى يعرفوا مبلغهم من أصولها ومنطلقاتها، فما يتوفرون عليه نثار لا يغني ولا يقني، ومع الضحالة والتسطّح فإنّهم يتشبّعون، ويتجشؤون

من فراغ. وإذا قيل لهم خذوا حذركم أخذتهم صفاقة الجاهل واستكبار العائل، وقالوا لمن حولهم: - من صنع حضارة العصر الغرب أم العرب؟ فإذا قيل الغرب قالوا: - هم الأحق بالاقتداء، وهذا مكمن الخسارة الفادحة، والسؤال المفحم: - هل الإسلام يمنع أن نصنع فوق ما صنعوا؟. ومعتصر المختصر: أن يعرف حملة الأقلام أنّ لكلِّ حضارة سماتها المظْهرة والمضمرة، وأنّها لا تتحقَّق إلاّ من خلالها، وأنّ الذين لا يقدرون على هضم ما يتلقّون من فيوض الآخر يدخلون مرحلة المسخ، وأنّ الذين يغلقون الأبواب والنوافذ يختنقون من بداخل الأسوار، فأيُّ الفريقين أحق بالبقاء؟ إنّها معادلة معقّدة.

الحقّان: الفني والأخلاقي بين المعانقة والمفارقة .. ! [(١)]

كلٌّ من لاقيتُ يبدي خوفه، وإشفاقه على (أدبية السرد) و(شعرية النظم) من استفاضة مصطلح (الأدب الإسلامي) المستبطن ل (النقد الأخلاقي) بكل ما يقومان عليه من قمع ومصادرة للحق الفني ولحرية الفنان، وذلك ظن متسرِّع، فوَّت على المشهد الأدبي فرصة الاستقطاب للموروث والمجلوب، وعرَّضه لخطاب التّنافي .. وفي ضوء الفوات لا يجد المتحفّظون بدأً من التردد والتساؤل .. ومن حق كل مستقبل أن يقدم بين يدي حديثه ما يشاء من تساؤلات عن كل نظرية لا يدري ما مرادها، لا لعدم القبول بحقها في الوجود، لكن لمزيد من الاطمئنان.. ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] .

و(النقد الأخلاقي) سابق لمصطلحه المستوعب له، وقد تقصَّاه دارسون أكاديميون، منهم الدكتور (محمد مريسي الحارثي)، والدكتور (إسماعيل عبد الخالق)، والأستاذة (نجوى صابر) في كتب ثلاثة، تختلف منهجاً ونتائج.. ومن واجب المسوّقين للمصطلح الأعم أن يبثوا الثقة في النفوس، وألا يصادروا حق الاستنباء، وعلى الذين يجدون في أنفسهم حرجاً ترويضها على قبول الحوار الحضاري، وإلقاء السمع لسائر الأطروحات.. فما من مصطلح جديد إلا ويكون مثار شك وتساؤل، ولا تثريب على أي مستقبل أن يسأل أهل المصطلح وخاصته، وأن يتأمل مفاهيمهم لمقتضياته، فهم أهل الذكر، وهم الأحق بالتقديم، وإزالة الخوف، ولا مشاحة، فالمشهد الأدبي يتسع لأكثر من خطاب، ولكن أين المتفسِّحون في المجالس؟

ومبعث الخوف رواسب المفاهيم المتضاربة، والتزييف المتعمَّد لمقتضيات ما جدَّ من مصطلحات، لم يستوعبها المتلقي وفق مقاصد ذويها، وكل جدل عقيم يستمد سداه ولُحمته من ذلك التضارب أو من تأليه الهوى والتعصب المذهبي.. وطلاب المعرفة يحسمون أمرهم باستكمال ما ينقصهم، أما المريبون فهم كمن يعمد إلى اللغو وعدم السماع، ولو أن الأطراف المتناجين التقوا على كلمة سواء، واقتصر همُّهم على البحث عن الحق، لكان أن تحررت المسائل، ولما هُدِّمت كيانات ومذاهب، وتيارات يذكر فيها القول السديد والكلم الطيب.

ومرادنا للجدل والحوار أن يحررا المفاهيم، وأن يبلغا مأمنهما.. والحقيقة كما سَقْطُ الزند، لا يُوْرِيها إلا الاحتكاك.. و(الأدب الإسلامي) الذي يتحقق بالنقد الأخلاقي أحرصُ المذاهب على المواجهات الحضارية، فهو يمتلك العمق التاريخي والحجة البالغة والاستجابة للفِطَر السليمة.. ومتى أُتيحت له الفرصة لتقديم نفسه وطرح مشروعه، استطاع أن يقنع الباحثين عن الحق.. فالمشروعية التي يشكك بها البعض، ليست مجالاً للجدل، فكل حضارة لها فنها وأدبها ونقدها وأخلاقياتها، وليس من المعقول أن تتفلَّت مفردات الحضارة عليها، ولا أن تفر إلى الحضارات المضادة.. وقبول مفردات الآخر مشروطة بعدم التأثير على الثوابت.. فكل حضارة لها مع من سواها مساحات مشتركة، والعقلاء من يجنحون للتفاعل الإيجابي، ويستثمرون تلك المساحات بما يثري حضارتهم، ولا يذيبها في الآخر.

ولو ذهبنا نستنبئ المصطلح، لإثبات المشروعية والسلامة، لوجدنا أن مصطلح (أدب) ليس قائماً بنفسه، بل لا بد أن يضاف أو يوصف.. والمعنيون يحيلونه إلى عصره، أو إلى إقليمه، أو إلى لغته، أو إلى دولته، أو إلى دلالته، أو إلى حضارته. وما من أحد من

---

(١) تاريخ المقال: ٢٥/ ١٠/ ٢٠٠٥

أولئك تذمَّر أو امتعض من إحالة مصطلح (الأدب) إلى أي شيء مما سبق، ولو فُهم المصطلح بعد التركيب حق الفهم في ظل مشروعية الإضافة أو الوصف لكان أحقَّ من غيره بالمشروعية والحضور، فكل أدب لا ينتمي إلى حضارة، ولا يحيل إلى تراث أدب مجتث من فوق الأرض.

والمتصدون ليسوا سواء في مقاصدهم، وإنما تتنازعهم مواقف و(أيديولوجيات) مختلفة، وهدفنا من الحديث طرح القضية كما هي دون أي تمويه، ومتى فُهم المصطلح أصبح من اليسير الإقناعُ والاستمالة.. والنظر في (الحق الفني) في ظل هذا المصطلح المثير يستدعي (الحق الأخلاقي).. والإشفاق على الفنيات هي الحجة الواهية التي يستنجد بها خُصوم هذا الحق.. وإذ يقولون ما يبيتون: إن (الأدب الإسلامي) يأتي على حساب الفن والجمال والانزياح والمجاز والإيجاز وحرية الفنان، وإنه يقترف المنع من الانطلاق والحرية، وإنه يحرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، وإنه يقيِّد الأدب في نطاق (الأحكام الفقهية) مما يفوّت على الأديب نصيبه من الفن، وتلك شنشنات أخزمية مللنا من سماعها والرد عليها، والبعض من أولئك يحيل إلى مقولات تراثية، تؤكد أن الأدب في معزل عن الدين، وأن الشعر نكد لا يصلح إلا مع الكذب، و(البحتري) يقول:

كلفتمونا حدود منطقكم
فالشعر يغني عن صدقه كذبه

وقد يكون لتخوف البعض منهم بعض المشروعية، متى عوّلوا على الوقوعات والآراء الفردية لبعض الأنصار.. والشيء الذي نُطمئن المتخوفين به، أن رقابة الإسلام لا تحول دون استكمال (الحق الفني)، فالإسلام حين يكون مهيمناً وشمولياً، لا يقمع الفن، ولا يقيّد المبدع، وكل دوره أن يضمن (الحق الأخلاقي) وأن يحول دون سفاسف الأمور التي لا يقبل بها أصحاب الفِطر السليمة.. وكم من قائل: إن (الأدب الإسلامي) قائم على حساب الخصوصية الإبداعية، والناهضون به لا يبالون بأي وادٍ هلكت سمات الفن الرفيع.. وتلك مفتريات أملتها طوائف تختلف في مشاربها ونواياها ومدركاتها، وكل متصدٍ لهذا المصطلح يحيل إلى المفاهيم الخاطئة.. والذين حسموا أمرهم، وخرجوا بقناعات أوحاها المشككون، ظلوا كما أشرطة التسجيل، يكررون القول ولا يملكون الاستبداد المشروع وفض النزاع وحسم الأمر في تفكيك المصطلح، فهو مكوَّن من مصطلحين:

-مصطلح (الأدب).
-مصطلح (الإسلام).

ولكل مصطلح مقتضياته وحيثياته، والجمع بينهما يعني استدعاء مقتضياتهما قبل التركيب.. ف(الأدب) مصطلح يختلف عن الفقه والتاريخ وسائر المعارف الإنسانية، إنه جماع الإبداع القولي، بكل ما يتطلَّبه من أركان وعناصر ولغة أدبية وصور بلاغية، لا يجوز المساس بها.. وإذا أطلقنا كلمة (أدب) تبادر إلى الذهن المعهود السالف لهذه الكلمة: فماذا تعني كلمة (أدب)؟

إنها تعني أدبية النص القائمة على الجمال والجلال والإمتاع والإقناع والاستمالة، ف (الأدب) لا يكون إلا بفنياته وشروطه ومقتضياته، وأنواعه الشعرية والسردية.

وإذا أخفق الشاعر الإسلامي في شيء من ذلك، فتلك مسؤوليته هو، وخطأ الممارسة لا يمس المبادئ.. فالمسلم يرتكب المحظورات، وقد يقترف الكبائر، ويتحمَّل ذاته المسؤولية، وفي الحديث «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن**».. ونحن نقول: لا يكون الشاعر الإسلامي شاعراً إسلامياً، وهو لا يمتلك الموهبة والتجربة والثقافة والأجواء التي تساعده على التَّألق، ويُقال مثل ذلك

بحق السرديين والنقاد والدارسين والمنظّرين الذين يحيلون أخطاءهم إلى (الأدب الإسلامي)، فالمصطلح بريء من تجاوزاتهم وإخفاقاتهم، وكل نفس بما كسبت رهينة.

وضعف الإبداع يُحال إلى المبدع، ولا يُحال إلى المصطلح، وكم من الشعراء العرب الذين أخملهم ضعف ملكاتهم وضحالة مدركاتهم، ولمَّا يُحمِّل أحدٌ منهم (الأدب العربي) مسؤولية الإخفاق .. والقول بأن الإسلام أدى إلى ضعف الشعر قول له وعليه، لقد حصل الضعف، لكنه لم يكن هدف الإسلام، وإنما هو ناتج مرحلة انتقالية، تغيَّرت معها كل وجوه الحياة، بما فيها الشعر، إضافة إلى أن الانبهار ب(القرآن الكريم) أطفأ وهج الشعر، وزاحمه في الإمتاع.. فالضعف حاصل، لكنه لم يكن مطلباً إسلامياً، كما يدّعي البعض.. فنفاة الضعف وجاعليه هدفاً إسلامياً مخطئون، فالضعف حاصل، لكنه ليس هدفاً إسلامياً، والدخول في التفاصيل يند بنا عن متن الموضوع.

ولأن الإسلام اعتقاد في الجنان، وقول في اللسان، وعمل بالأركان، فإن المبدع حين لا يكون كذلك في السر والعلن، يضطره الانتماء للأدب الإسلامي إلى التّكلف، ليقول ما لا يعتقد في سره، فيبدو الخلل.. وقد يكون قوي الإيمان، لكنه ضعيف الملكة، ومن ثمَّ لا يستطيع أن يجلِّي، وقد يتوفر على قوة العقيدة وقوة الملكة، لكن التجربة والموقف والأجواء تكون دُون المؤمل، فيخفق، فيحال إخفاقه إلى انتمائه.. وطبيعة الحياة أن تتخلَّف بعض العناصر عن بعض المبدعين .. ولقد جاء رديء شعر (المتنبي) من هذه الإخفاقات، ولهذا تألق لمثله الأعلى (سيف الدولة)، وأخفق في الكثير من مدائحه ل (كافور) وكان ذلك مسرح النقاد، ومجال تعاملهم مع شوارده. ولكل شاعر متألق شعر رديء، لا يحال إلى مذهبه، وإنما يحال إلى لحظات المخاض غير المواتية.. والشعراء المخضرمون، وجدوا أنفسهم في أجواء إسلامية لم يألفوها، فكان أن تعثّروا شيئاً قليلاً، ثم استقام معهم الشعر، فاستعادوا تألقهم، وإذا أخفق الشاعر الإسلامي في الجوانب الفنية والذوقية في مرحلة من مراحل حياته، فإن مرد ذلك جدة الأجواء.. وما كان للأدب الإسلامي رؤية ذوقية ولا فنية تختلف عن (الأدب العربي).. والفهم الخاطئ للمقتضى والخصوصية جعل المناوئين يلتمسون (الأدب الإسلامي) ونقده على ضوء ذلك التّصور الخاطئ، حتى إذا لم يجدوه كذلك، استبعدوا إمكانية وجوده، مع أنه قائم بينهم، يتجلى من خلال القول السديد، والكلم الطيب، والمدح المعقول، والغزل العفيف، والنقد المعياري والذوقي المتوازن.

وإذ لا نجد مانعاً من التّصدي للشعراء والسرديين المنتمين إلى هذا الأدب ودراسة إبداعهم بآلية النقد العربي، ورد الرديء منه، فإننا نمانع من إحالة الإخفاق إلى الانتماء، ذلك أن الموضوعات والضوابط والالتزام لا ينعكس أثرها على المبدع بشكل سلبي.. ولقد روجع الشعراء غير الهجَّائين في ذلك، فقال قائلهم: من استطاع أن يصف بالكرم، يستطيع أن يصف بالبخل.. وكذلك الحال بالنسبة لشعراء الخمريات والغلمانيات والغزل الفاحش .. فحين يعف الشاعر المحتشم عن ذلك، فإن ذلك لا يكون ناتج ضعف، لكن العفة تحول دون ترديه في مهاوي الرذيلة.. حتى لقد خاف (زهير بن أبي سلمى) من عقوبة مصمية تسقط عليه كسفاً من السماء كلما تذكر قوله في آل حصن:

وما أدري ولست إخال أدري
أقوم آل حصن أم نساء

و (الأدب الإسلامي) حين يؤكد على المعاني الشريفة، لا يختلف موقفه الفني عما سواه من الآداب.. ف (الحق الفني) مطلب (الأدب الإسلامي) كما هو مطلب (الأدب العربي)، وما اختلف (الأدب الإسلامي) عن سائر الآداب العربية والعالمية في شيء إلا في جانب من البعد الدلالي المتمثِّل ب (الحق الأخلاقي)، فهو يؤكد على (شرف المعنى)

قدر تأكيده على (شرف اللفظ)، وعلى حمل الهمّ الإسلامي والذود عن حياضه، والاشتغال بما يهذب الأخلاق، ويربي الأذواق ويحافظ على الإمتاع واللهو البريء.. إن هناك جمالاً وجلالاً، فالجمال متعلِّق بالشكل، والجلال متعلّق بالمعاني، و(الأدب الإسلامي) يحتِّم السمتين: الجلال والجمال، فيما يكتفي البعض بالجمال.

ولن نضرب الأمثال فكل (أدب عربي) هو (أدب إسلامي) إلا إذا خالف نصاً شرعياً قطعي الدلالة والثبوت، وشرط (الأدب الإسلامي) فنياً ولغوياً هو شرط (الأدب العربي).. وما كان ل (الأدب الإسلامي) استقلالية في جوانبه الفنية والذوقية، بحيث تخص ذلك بدراسة مستقلة، ونعمِّق الجفوة بينه وبين سائر الفنون، وإنما القصد رد الافتراء.. نعم (الأدب الإسلامي) يرفض (العامية) بحجة واقعية اللغة، ويرفض (النثرية) بحجة أن (قصيدة النثر) لها حضورها، ولها روادها ونقادها، ويرفض (الإغراق في الغموض)، بحيث لا يدري الشاعر ما يقول، فضلاً عن المتلقي، ويرفض (خلق الأسطورة) التي تحول دون أدنى قدْر من التوصيل، ويرفض تقويض أركان الفن الروائي، بحجة انعدام الشكل الروائي.

ورفضه هذا مشروع، فكل ناقد عربي لا يمت إلى الأدب الإسلامي بصلة له رؤيته ومواقفه الرافضة.. ولا يدخل هذا الرفض في الأحكام الفقهية، لكنه يدخل في شروط الفن، وسلامة الأذواق، واستكمال شروط النوع الإبداعي. فالشعر له شرطه وسمته، والسرديات لها شروطها وسماتها.. ولا تعرف القصة إلا بسماتها.. ولا تعرف الرواية إلا بسماتها، ومن أخلَّ بشيء من ذلك تعرَّض للمساءلة المشروعة.

وتمسُّك الأدب الإسلامي بأصول الفن لا يحول دون التحرف للتجديد. و(الأدب الإسلامي) يضع كل شيء في نصابه، فلا يعد التخريب تجريباً، ولا الحداثة الفكرية المنقطعة تجديداً، ولا التّفحش في القول حقاً من حقوق المبدع، ولا الفوضى حرية.. ومع أن تلك الرؤى دُولة بين سائر النقاد في مختلف المذاهب، فإن تضخيمها بحق الناقد الأخلاقي جور وظلم.

وفي النهاية فإن (الأدب العربي) أصل ل (الأدب الإسلامي) وما اختلف الأدبان إلا في الأقل من البعد الموضوعي، فإذا رضي (الأدب العربي) بالعهر والكفر، واتسع لذلك فارقه (الأدب الإسلامي)، وإذا احتفى بالكلمة الطيبة والقول السديد عاد الأدب الإسلامي إلى حواضنه، على حد ﴿إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾.

ومن تصوَّر (الأدب الإسلامي) على غير ذلك فليأت ببرهانه إن كان صادقاً.

وجملة القول: إن الجوانب الفنية والذوقية قاسم مشترك بين (الأدب الإسلامي) وسائر الآداب العالمية، والأدب هو البوابة الأولى، والإسلام هو البوابة الثانية، ولا يكون أدب إسلامي حتى يبارك فنياته الأدب العربي، و(الحق الفني) و(الحق الأخلاقي) صنوان، وبهما يخفق الأدب في فضاءات الفن الرفيع.. وإذ نقبل طائعين أو مكرهين ب (الأدب الوجودي، والحداثي والماركسي والواقعي والسريالي وسائر الإضافات أو الأوصاف فإن القبول ب (الأدب الإسلامي) حق مشروع.

الترويح وأثره التربوي .. ! (١) [1]

عندما يعن لي الحديث عن أي ظاهرة معرفية أو سلوكية، أحاول أن أحرِّر مفهوم الكلمة: لغوياً واصطلاحياً، وأن أتقصّى أمداءها فيما تيّسر من (الحضارات) البادية والبائدة، وأن أستشرف محطاتها الزمانية، إذ لكلِّ حضارة مفاهيمها وشروطها وتحوُّلاتها، بل ربما يكون لكلِّ (مصر) رؤيته، كما المذهب القديم والجديد للإمام (الشافعي) - رحمه الله -، وتحرير أيّ معلومة يُعَدُّ من المقدّمات الصحيحة، المؤدِّية إلى نتائج صحيحة. وإشكاليات المشاهد في اضطراب المفاهيم حول المسمّيات ومقاصدها. وما اختلف المتابعون حول المتداول بين العلماء والفلاسفة والمفكِّرين إلاّ عندما لا يكون تحرير المفاهيم والمقاصد لكافة المصطلحات والظواهر دقيقاً ومحدَّداً، وبخاصة الوافد منها، متى نقل أو عُرب ولم يُترجم. وكلمتا (ترويح) و(تربية) كلمتان عربيتا الأصل والمنشأ، ولكنهما بإزاء مصطلحات غربية مماثلة، قد يؤدِّي هذا التماثل إلى الخلط بين المقتضيات. والمصطلحان أكثر ارتباطاً بالمناهج التعليمية، وإن كان الترويح مقصداً إعلامياً وتربوياً في آن، إلاّ أنّه أكثر لصوقاً بالتربية، والتربية صنو التعليم.

ف(التعليم) إيصال المعلومة. و(التربية) تنمية الوعي وتوفير المهارات: الفكرية، والعلمية. فأستاذ النحو يعلِّم الطلبة أنّ الفاعل مرفوع وأنّ المفعول منصوب، وأنّ النواسخ ترفع وتنصب أو تنصب وترفع، وأنّها حروف وأفعال وأسماء، ولكن التطبيق العملي لا يتم إلاّ عن طريق (التربية)، فكيف يستطيع المعلِّم أن يحرِّك المخزون الحفظي، ويحوِّله إلى ممارسة عملية، بحيث يتحدّث الطالب ولا يلحِّن، ويكتب ولا يخطئ، وبحيث يوظِّف مكتسبه المعرفي فيما يقول ويكتب ويفعل. وكم من حافظ لفن القيادة المكتوب لا يقدر على ممارستها. وكم من إنسان يحفظ المتون، ولا يقدر على الفهم، ولا يحسن الاستعمال ولا الاسترجاع، حتى لا يقيم كلمة، ولا يستنبط حكماً، وهذا هو الفرق بين التعليم والتربية، والحفظ والفهم، والنظري والتطبيقي. والتعليمُ الحشوي التلقيني يخرِّج حفظةً لا يتمثّلون.

و(الترويح) من حيث مدلوله اللغوي لصيق بالمدلول الاصطلاحي، والجذر اللغوي له دلالات متفاوتة، لا مجال لاستقصائها ومنها: الرواح، والمراوحة، والارتياح، والريح، والمروحة، والتراويح، وهي صلاة التهجُّد في رمضان. ومن حيث الاصطلاح: نشاط حركي أو استمتاع سمعي أو نظري يبعث في الممارسين الراحة والأنس، ويعيد نشاطهم الذي فقدوه في جد العمل أو يطرد السأم والملل والقلق الناشئ من الفراغ. وما من عامل جاد إلاّ هو بحاجة إلى الترويح عن نفسه، وفي الأثر:-

(روِّحوا القلوب فإنّها تمل كما تملُّ الأجسام)، والترويح يتنازعه القول والفعل والاستماع والمشاهدة والاسترخاء. فالسباحة وركوب الدراجات والحيوانات وسائر الألعاب، وكافة الممارسات، تكون رياضة، وتكون ترويحاً، وقد تكون أداءً وظيفياً. والقصد وحده، هو الذي يحدِّد المقاصد.

و(الترويح) مصطلح اجتماعي ثقافي، يكثر تداوله في مجالي التربية والإعلام. ومقاصده الأولى كسب الراحة والسرور من عمل غير إلزامي، عملٍ تهواه النفس، وتميل إليه، عملٍ مفتوح، وليس محدَّداً، إنّه عمل حر ينطلق معه الإنسان وفق إرادته الشخصية. وهناك فرق بين مفهوم الترويح بوصفه ممارسة، ومفهومه بوصفه نتيجة، ومفهومه بوصفه أنماطاً وسلوكيات. والمعنيّون يفرّقون بين المفاهيم. و(الترويح) يتحقّق باللهو واللعب وبالعمل الجاد، إذا ارتبط بالهوايات الصعبة، كصعود الجبال والممارسات الكشفية

---

(١) تاريخ المقال: ١/ ١١/ ٢٠٠٥

والتنقيب عن الآثار والتعرُّف على طبائع الحيوانات والحشرات والزواحف. ذلك أنّ ما تهواه النفس قد يجعل الممارس لأصعب الأعمال وأخطرها في حالة من الرفاهية والراحة، وفي الحديث: «**أرحنا يا بلال بالصلاة**» وهي ثقيلة على المنافقين، ومن الناس من لا يقوم إليها إلاّ وهو كسلان. وحين لا تكون هواية غالبة، لا يتحقّق الترويح إلاّ باللّهو المباح أو المحظور. وعندما نستدعي كلمة (لهو) قد يثار حولها أكثر من علامة استفهام.

ذلك أنّ من اللهو ما هو محرّم، ومنه ما هو مكروه، ومنه ما هو مباح، والفقهاء يختلفون في حدود المباح. ومتعلّق المترخصين قول الرسول ﷺ: - «**إنّ الأنصار يعجبهم اللهو**» وحضور الرسول ﷺ مع زوجته عائشة (رقص الأحباش) في المسجد، وسماعه للشعر المستهل بالغزل، وإحضاره للجاريتين المغنّيتين لبيت عائشة في يوم العيد. حتى لقد تفاوت موقف الرسول ﷺ مع موقف (أبي بكر) و(عمر) رضي الله عنهما، فما أحضره الرسول ﷺ لعائشة عدّه (أبو بكر) من مزامير الشيطان، و(عمر) حصب الأحباش بحضرة الرسول ﷺ. كلُّ هذه الممارسات والرخص دليل على أنّ في الإسلام أكثر من فسحة، ومنشأ الخلاف بين المجيز والمانع مراوحة الأحاديث بين الخصوص والعموم، وتحامي الهزل، والإغراق في الورع، وحمل الناس عليه، والأخذ بالعزائم، والتحفُّظ على الرخص، استبراء للدين والعرض، وبين هذا وذاك يدخل الناس في التنطُّع، أو ينفلتون من الضوابط المشروعة.

والفقهاء الأصوليون من أهل الاجتهاد يعرفون حدود ما أنزل الله، وموقف البعض من الغناء موقف شديد الحساسية إزاء موقف آخرين من ظاهرية ومتصوّفة. ولسنا هنا معنيين بتحرير الحكم، فذلك يُسأل عنه أهل الذِّكر، ونحن تبع لهم فيما يقرُّه الشرع. وإشكالية الغناء أنّ الفرق الإسلامية والمذاهب الفقهية تفاوتوا في الأحكام. ف(الجمهور) على التفريق بين المباح والمحظور، و(الظاهرية) على التسوية في الإباحة، وطائفة من (المتصوّفة) يربطونه بالعبادة. ونحن هنا نود الحديث عن المباح من الترويح في كلِّ مجال لا في مجال السماع وحده، لأنّه مجال حساس، والفطر السليمة كما القلوب المستفتاة عن البر والإثم. وحين نعود إلى مفهوم (الترويح)، نجد أنّه بكلِّ صوره نشاط طوعي اختياري، يمارسه الإنسان أثناء الفراغ، أو بعد إنهاك العمل الجاد، وقد يكون جزءاً من التربية والتعليم، ولكنه يؤدّى بطريقة مغايرة، لمجرَّد تنوّع مصادر التعليم.

وكلُّ ممارسة طوعية لا بد أن تحدّد دوافعها وأهدافها ومشروعيتها ونتائجها وآثارها السلبية والإيجابية. ومتى أصبحت مشروعة، وكان من الضروري رسم خطط لها، ووضع تصوُّر سليم، يحول دون الفوضى أو الوقوع في المحظور. والخطة والتصوُّر يمكِّنان من الممارسة على ضوء الضوابط الحضارية. ولقد ذهب الدكتور (خالد العودة) إلى اختيار تعريف يشتمل على مشروعية الأهداف والنتائج، فقال: - (نشاط هادف ممتع يمارس اختيارياً بدافعية ذاتية وبوسائل وأشكال عديدة مباحة شرعاً، ويتم غالباً في أوقات الفراغ)، وهذا التحديد مرتبط بالمذهب السلفي الذي ينتمي إليه المعرِّف، إذ كلمة (مباحة شرعاً) تجعل التعريف إسلامياً سلفياً، وليس إنسانياً، وهو ما نجنح إليْه.

والعادة جرت عند الحديث عن القضايا المختلَف فيها أن يقال: إنّ الإسلام دين الوسطية، وقد يكون مفهوم الوسطية مؤدِّياً إلى الوقوع في المحاذير، فالبعض يحيل إلى الوسطية ما يراه هو، لا ما يقع ضمن مفهوم الوسطية. واستغلال الخصوصية للرؤى الذاتية انحراف بالمفهوم عن مجاله، ووقوع في المحذور. والبعض حصر الترويح بين مطالب (الروح) و(الجسد)، وآخرون انفتحوا في مفهومه، وجعلوه سبيلاً من سبل الوقوع في الرخص المختلف حول مشروعيتها. والمتحفِّظون الآخذون بسد الذرائع ودرء المفاسد والورع والاستبراء للعرض والدين - على حدِّ قولهم - يتحفَّظون على إطلاقات غير

محدّدة، وقد يبلغ بهم التحفُّظ حد التنطُّع، وقضايا المحظور والمباح تحتاج إلى الدقّة. فالمنع والإباحة والتوسُّط رؤى لا يصار إلى شيء منها إلاّ بعد التصوُّر السليم، أو سؤال أهل الذِّكر المشهود لهم بالعلم والورع وفقه الواقع، والناس أوزاع بين العقلانية، والنصية، والهوى، والوقوف عند حدود ما أنزل الله، وقليل ما هم.

وكلّما أراد الإنسان القبول بشيء عوّل على قوله تعالى: - ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧] وقوله: - ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ﴾ [الأعراف: ٣٢] وأدخل في النصيب والزينة كلّ محظور، وإذا أراد رفض الشيء عوّل على قوله تعالى: - ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ [لقمان: ٦]، وقوله تعالى: - ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] فيدخل في اللهو والخبائث كلَّ مباح. والإشكالية في تحديد (الأنصبة والزينة والخبائث والطيّبات). ولا يمكن ترشيد الفتيا، وتجنيب الناس مضلاّت الأهواء إلاّ بالرجوع إلى المؤسسات الدينية، كـ(هيئة كبار العلماء) و(المجمع الفقهي)، كما لا يجوز لأيِّ مؤسسة أن تبادر إلى الفتيا في النوازل إلاّ بعد التمحيص والتداول والسماع والبحث عن الحق دون تغليب الهوى والتعصُّب المذهبي.

ولقد سمعت من يحدِّد الترويح في أربعة أشياء:

-ملاعبة الرجل لامرأته.

-وتأديب الرجل لفرسه.

-ومشي الرجل بين الغرضين.

-وتعلُّم السباحة.

وآخرون زادوا: - المصارعة والرماية. لحديث «**عليكم بالرمي فإنّه من خير لعبكم**»، وحديث مصارعة الرسول ﷺ. ومصارعة اليوم تختلف عن مصارعة ما سلَف، إذاً هناك لهوٌ مباحٌ ومصارعة مباحة، وتحت اللهو والمصارعة مفاهيم تزل بها الأقدام، وتضلّ الأفهام. وإذ يكون من أوجب الواجبات مراعاة المحاذير الشرعية، فإنّ حفظ الوقت والجهد والمال لا يقل أهمّية عما سواه، ومع مجمل المحاذير الدينية والدنيوية فإنّ الإنسان بشر، والبشرية لها مطالب مادية، والله يريد بعباده اليسر ولا يريد بهم العسر. والترويح السليم لا يتحقق إلاّ في ظل التربية السليمة والتوعية الحضارية، فهو رغبة توجّه إليها التربية المتوازنة.

وللترويح مجالاته المتغلّبة على الحصر، والعاقل من يزن الأمور، ولا يحمِّل الأشياء ما لا تحتمل، ولا يترك لنفسه الحبل على الغارب. والمتابعون للمداولات التربوية ذات العلاقة بعلم النفس الحديث، يقفون على دراسات موضوعية، حاولت أسلمة العلوم الحديثة كـ(علم النفس) و(علم الاجتماع) و(مناهج التربية والتعليم)، والحضارة الإسلامية حضارة شمولية، تضع المعالم في الطريق، وترقب من بعيد مؤكدة على المقاصد والغايات، ولا تحول دون التعالق الواعي مع مستجدات الحضارات، وانفتاحها يدع للإنسان حرية الاختيار ورسم الخطط، ووضع المناهج، فالعقل السليم يميِّز بين الحق والباطل، وهو العقل الذي أمر الرسول ﷺ باستفتائه، وهو العقل الذي أحال إليه الرسول ﷺ بقوله: «**أنتم أدرى بأمور دنياكم**».

و(الترويح) إمّا أن يكون مرتبطاً بالتربية، أو يكون عاماً للكافة، ومجيئه في غالب الأمر بعد الجد المرهق أو الفراغ الممل، وقد يبتدره هواة لا ينظرون إلى الجد ولا إلى قلق الفراغ. ونحن هنا نورد الحديث عن الترويح بوصفه الشامل ودوافعه المتعدِّدة، وإن

عرَّجنا إلى خصوصية الطالب وحاجته إلى النشاط المفتوح. والراهن العالمي والعربي على وجه الخصوص راهن غارق بالفتن والمغريات ومحكوم، بوسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة. ودعاة السوء ينفذون إلى الأذهان والأفكار والغرائز والشهوات من كلِّ جانب. والذي يجيل نظره أو يلقي سمعه يرى أنّ القنوات الفضائية وأشرطة (الفيديو) ومراكز المعلومات والمواقع المتعدِّدة وثورة المعلومات والاتصالات تعمل على التضليل والإفساد، وتوفِّر المتع الزائفة، ولقد ثبت أنّ فساد الأفكار أخطر من فساد الأخلاق، وظاهرة الإرهاب ناتج الاختراقات المغرضة.

والتحذير والمنع ليس حلاً، فكلُّ شاب قادر على أن يدخل على كافة المواقع، وأن يشاهد كافة القنوات، وأن يتصل بكافة مصادر الإفساد الفكري والخلقي، وهو مستلق على سريره أو متكئ على أريكته، وأساليب الحسبة بحاجة إلى مزيد من العصرنة لتواكب المرحلة المعقَّدة. والخطورة أنّ الغزو الفكري محكم ومنظَّم ومتعدِّد القنوات. وعلماء السوء يتخطَّفون الشباب، ويأتونهم من بين أيديهم ومن خلفهم، وعن أيمانهم وعن شمائلهم. والشباب في فترة من المراهقة وخلو الأذهان وثورة الغرائز وطغيان المثاليات صيد سهل وثمين. ولأنّ الشباب عرضة للإغواء والاستدراج، فقد عجب الله من شاب ليست له صبوة، وأكدت الأحاديث الصحيحة أنّ الشاب الذي نشأ في طاعة الله يظلّه الله في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلاّ ظلّه. وليس أدل على سهولة انقياد الشباب لدعاة السوء من سقوطهم في حبائل الإرهاب، فكلُّ الإرهابيين شباب في مقتبل العمر، ويعاضد قنوات الغزو ومواقع التضليل الإمكانيات المادية التي وفّرت القدرة على السفر والقدرة على إقامة الاستراحات، والتجمُّع فيها، وإضاعة الوقت، ومفارقة الأهل والأبناء، وكلُّ هذه الأشياء تُعَدُّ من وسائل الترويح غير البريء وغير المشروع. وليست كلُّ التجمُّعات، ولا كلُّ الاستراحات موبوءة، ولكن التخلِّي عن صناعة محكمة للترويح تحت أيّ مبرر سيفتح المجال لمبادرات شخصية غير مأمونة، والشباب كما الصيد السابح في الفضاء، وكلُّ طائفة تصوِّبُ آلياتها لإسقاطه في حبائلها. فهل نمتلك آليات منافسة؟ أحسب أنّ المسألة بحاجة إلى مكاشفة.

الترويح وأثره التربوي .. ! (٢) [1]

وأمام طوفان الغزو المتعدِّد المنافذ، والتحوُّلات المزامنة للنظام العالمي والعولمة، يجب على المؤسسات: الدينية والتربوية والإعلامية والثقافية التحرُّف الجاد لإعداد وسائل حضارية للترويح والترفيه، والتخفيف من التحفُّظ الزائد والخوف المعوِّق. فالمؤسسات كالمضطر، عليه ألاّ يكون باغياً ولا عادياً، وللضرورات أحكامها: فراغ ممل، وشباب بريء، وإمكانات متعدِّدة، ودعاة سوء، وكاسيات عاريات مائلات مميلات، وأغانٍ ماجنة، وتمثيليات مسفة. وفي ظلِّ هذه الظروف تتضاعف المسؤوليات، وتتعقَّد الحلول، وتصعب المواجهة، مما يتحتَّم معه التحرُّف والتحيُّز.

وقطاعات التربية والإعلام والدعوة والثقافة والهيئات تمثِّل خط الدفاع الأول، ولا شك أنّها حريصة على تحقيق الأهداف التربوية السليمة، ولكن الظروف العصيبة تتطلَّب إعلان النفور بأحدث الوسائل وأدق الآليات. ومع أنّه من الضروري حفظ التوازن، ودرء المفاسد، وسلامة المقاصد، وملاءمة البرامج للمستويات العمرية وتعدُّدها، وعدم تأثيرها على الواجبات الدينية والدنيوية، وتوفّرها على تنمية المهارات وسلامة القدرات العقلية والصحية والجسمية، والتربية الخلقية والمعرفية، فإنّ مؤسسات الترويح الرياضي تقع تحت غزارة الإنتاج وسوء التوزيع، ومن ثم تفقد التعميم والاستمرار، وتتصف بالمنطقية والرتابة، وقد لا تتمتع بالقبول الجمعي، وقد لا تجد الراحة للمتابعة والمراقبة بحجّة التخصُّص وأهلية المسؤولية، وأحسب أنّ المرافق العامة لا تملك خصوصية التنفيذ، ولا تسمو فوق النقد والمساءلة.

ومع تعدُّد المجالات وتنوُّع المفردات والانفتاح على كلِّ شرائح المجتمع، فإنّ الأهم وضع الضوابط التي تحول دون النقص أو الانفلات أو المخالفة. والضوابط قد تكون متعلّقة بذات الممارسة، أو بذات الممارسين، أو بمكان الممارسة، أو بزمانها، أو بمقدارها، أو بأزيائها. ولست أشك أنّ المؤسسات ذات العلاقة تضع كلّ الاعتبار للضوابط والشروط، ولكن آراء الناس مختلفة حول الشرط والضابط، وهذا الاختلاف يضع المؤسسة تحت طائلة المساءلة. وليس من المجدي أن تذعن المؤسسات لكلِّ دافع أو مانع، ولكن المجدي توخِّي التوازن. ومتى تُركت الممارسات الترويحية للظروف والصُّدف، أو غلّت أيدي الممارسين، حادت العملية عن مسارها التربوي. وأحسب أنّ هذا الزمان المليء بالمغريات، المفعم بالقلق والملل والترف بأمسّ الحاجة إلى التوسُّع في مجالات الترويح، فالشباب صيدٌ ثمينٌ لكلِّ مغرض، ولأنّ الدول المتقدمة في ظاهر الحياة الدنيا قد أخذت قسطاً وافراً من وسائل الترويح، وهي وسائل قد لا تكون مباحة في الشريعة الإسلامية، فإنّ من واجبنا عرض ما يفد منها على ضوابط الشريعة، فما كان منها مقبولاً أخذ به، وما كان محظوراً وأمكن التعديل أو التبديل لزم ذلك، وإلاّ وجب المنع، وفي إسلامنا من الفسح والرخص ما يغني ويقني. وإذا كان الإحقاق والإبطال متعلّقين بالاختلاف المعتبر وجب الميل إلى المحقّقات، ذلك أنّنا في وضع استثنائي، يتطلّب منا المبادرة وتدارك الأمر قبل فواته.

ونحن إذ نحفز على المبادرات فإنّنا نجد الأُمّة العربية قد وقعت في التبعيّة، وتحقّق فيها خبر الرسول ﷺ: «**لتركبن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر**»، وكثير من وسائل الترفيه والترويح مجلوب دون وعي بمفاسده، في ظل البدائل الأكثر سلامة والأعم فائدة، والأنسب لناشئة الأُمّة. ولست من الذين يضعون كلّ بيضهم في سلة (الرياضة البدنية) ولا

---

(١) تاريخ المقال: ٨/ ١١/ ٢٠٠٥

مع المنبتين الموغلين في الدين بدون رفق. وإذا تكون الرياضة البدنية صنو الرياضة الروحية فإنّ في الرياضتين ما هو مطلب إسلامي، وفيهما ما هو مخالف للشرع، ولن ندخل في التفاصيل، والعقل السليم والفطرة النقية تميّزان بين البر والإثم، ولأهمية الترويح والترفيه: بدنياً وروحياً، يتحتّم القصد وحفظ الجهد والوقت، فالترويح حين يزيد عن الحاجة يتحوّل إلى الترف، والترف ورد ذكره في القرآن الكريم إحدى عشر مرة، كلّها في سياق الذم. وقد يوصف الترويح باللعب، واللعب مباح بضوابطه، وقد أشار الرسول ﷺ إلى ذلك بقوله: «**كان لكم يومان تلعبون فيهما، وقد أبدلكم الله بهما خيراً منهما، يوم الفطر ويوم الأضحى**».

على أنّ المسلم قد يجد الراحة في جدِ العبادة، والترويح من الراحة، فالجذر واحد، ولهذا قال الرسول ﷺ: «**أرحنا يا بلال بالصلاة**»، وقد تكون تسمية (صلاة الترويح) من هذا الملمح، ومن الخطأ الفادح أن يتصوّر البعض أنّه بالإمكان تحقُّق الراحة في العبادة عند كلِّ الناس.

ولهذا يتذمّر البعض من إقامة (المدن الرياضية) أو لا يرى المساعدة على إقامة (الأندية الرياضية) وقد يتصوّر ذلك من الصوارف عن العبادة، والحق أنّها اذا أخذت بحقها، وحفظ بها التوازن أصبح وجودها ضرورياً ومفيداً، وفات المتحفِّظين أنّنا إن لم نتعرّض لشبابنا بمثل هذه المدن، وبمثل هذه الأندية تعرّض لهم غيرنا بما هو أسوأ. وما في الرياضة من بأس، وحاجة الحواضر والأحياء المكتظة بالسكان إلى ساحات وحدائق لممارستها. ولا بد للمعنيين من التوازن بين مطالب الروح والجسد.

ولدخول (الفن) كافة في مجال الترويح الروحي، فقد كان للفقهاء مواقفهم المتباينة، وأشدها حساسية الموقف من فن الغناء والرسم والنحت والتصوير والتمثيل والرقص، ودون ذلك الفن القولي، كالإبداع الشعري والسردي، ولا مجال لتقصِّي الضوابط لأنواع الفنون، وإزاء الانفتاح لا يجوز أن نذعن للواقع، ولا أن نجعله حجة، وبخاصة في الفن القولي الذي أفسده أدب الاعتراف وأغوته (الحداثة) وحادت به عن مساره السليم، والفن بكلِّ فنونه إمّا أن يربي الأذواق ويصلحها أو يفسدها، وأنواع الفنون جزء من الترويح. ومما نفقده في مدارسنا تربية المهارات بوصفها جزءاً من الترويح. فأين القاعات والصالات والمعامل والمختبرات والجمعيات؟ وأين اليوم الدراسي؟ أين المكتبة والمرسم؟ اين الإذاعة والمسرح؟ أين الكشافة والرحالة؟... كلُّ ذلك قد يكون موجوداً، ولكنه دون المؤمل.

على أنّ الرياضة البدنية تُعَدُّ من أهم مفردات الترويح، وأكثرها شيوعاً وتنوُّعاً. والرياضة ممارسة، وليست تشجيعاً، وأنواع، وليست (كرة قدم)، وبالتالي فإنّ الاكتفاء بالنظر، والتشجيع، وتنظيم المسابقات، يُعَدُّ من سلبيات الرياضة. وحين أدركت جهات الاختصاص العدول عن الممارسة إلى المتابعة، طرحت مشروع (الرياضة للجميع) بمعنى أنّها لا تتحقّق فائدتها إلاّ بالممارسة الذاتية. والرياضة التي تميل النفوس إليها تحوّلت إلى إشكالية، وكادت تنحصر في (كرة القدم) ولم يعد هنالك اهتمام مماثل بأنواع أهم: كالسباحة والجري والفروسية والدراجات. والأسوأ من ذلك كلّه أنّ المسؤولين عنها عالمياً يسوُّون بين الرجل والمرأة، ولا يَعِفُّون عن العري والاختلاط والخلوة، وفي هذا مفسدة للأخلاق، وانحراف بالظاهرة عن مسارها المشروع، حتى لقد بدؤوا يلوّحون بحتمية مشاركة المرأة في (الأولمبيات) مع ما في ذلك من مفاسد لا يقرُّها الإسلام، ولا تقبل بها الدول الملتزمة، وهذا التعنُّت إخلال في سيادة الدول، وتصدير تعسُّفي للحضارة الماجنة، وخلط قسري للحضارات المتناقضة، وممارسة القوة في فرض الإرادة والتمادي

في التعنُّت والتعسُّف مؤذن باستفحال الإرهاب والعنف، وإذ لا يكون إكراه في الدين، ولا سيطرة للرسل، فإنّ ما سوى ذلك أولى.

وأهم شيء في مفردات الترويح تفادي إزعاج (الرأي العام)، فإذا كان الرأي العام يضيق ذرعاً ببعض الظواهر المختلف حول مشروعيّتها، فإنّ من الحكمة تفادي ذلك، لأنّ (الرأي العام) جُبل على قناعات تشكّلت مع الزمن، لا يجوز تكسيرها بعنف، وليس هناك ما يمنع من التحوُّل المرحلي، وبخاصة إذا كانت القضايا بين الفاضل والمفضول، وليست بين الخطأ والصواب. ولعلّنا تابعنا العبثيات المؤذية حول الاحتراف، والدخول في التحدِّي، والمنافسات غير الشريفة، إذ وصل التحدِّي بالفرقاء إلى أن بلغت قيمة اللاعب أكثر من (أربعين مليون) ريال، وفي ذلك تبذير، وكُفْرٌ بالنعمة، وتصرُّف في مال الله الذي أعطاه لصاحبه بشرطه.

وإذ يكون من المتوقّع العقوبة بزوال النعم، فإنّ الخوف أن يكون الزوال عاماً، وليس خاصاً، وفي الذكر الحكيم ﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥] . فالعقاب قد يمس الجماعة، إذا جاهر المستخفون بالذنب، ولم يجدوا مَن يأطرهم على الحق، وفي الأثر: (إن فيها عبد ك الصالح...)، ولأنّه لم يتمعّر وجهه لله، فقد بدئ بالعقوبة، ومثل هذه المزايدات الرخيصة توغر نفوساً فقيرة، لا تجد كسرة من الخبز، والإسلام ينهى عن كسر نفوس الفقراء بالمباهات، وإن كان من المشروع أن يظهر أثر النعمة على المنعَم عليه.

ولسنا بصدد التقصِّي لمفردات الترويح ومجالاته المحظور منها والمباح وترتيبها في سلّم الأولويات، فالمهم ليس في استيفائها، ولكنه في تفعيلها وضبطها. والترويح يكاد يتربط بالأنشطة المدرسية المتمثّلة بالمراكز الصيفية، في فصل الصيف، وقد يتداخل مع التنشيط السياحي، بحيث يتنازعه النشاط المدرسي وفترات الصيف التي يواجه فيها الشباب فراغاً مملاً، والفراغ حين لا يملأ بالجد أو بالمُتع المباحة يفضي بذويه إلى المفاسد والشاعر يقول:-

إن الشـــــباب والفـــــراغ والجـــــدة
مفســـــدة للمـــــرء أي مفســـــدة

وإذا كانت القنوات الفضائية ودعاة السوء يفسدون الأفكار، فإنّ تجار المخدرات والفن الرخيص يفسدون الأخلاق، والشباب الخليجيون بالذات مستهدَفون، لسعة ذات اليد عندهم، ولتمكُّنهم من الوصول إلى أي مصدر معرفي أو ترفيهي أو ترويحي. ولسنا بحاجة إلى الحديث المفصّل عن التعريف والمفهوم والأهمية والأهداف والشروط والوظائف للنشاط المدرسي الفصلي أو المستمر، فذلك كلّه مبسوط في الكتب التربوية، وأهم شيء في هذا المجال التخطيط، والتنظيم، ووضع الأساليب المجدية، وتوزيع المسؤوليات والمهمّات، والانفتاح الواثق على كلِّ جديد، وتهيئة الصالات والميادين والمباني المناسبة المفتوحة طوال اليوم، وعدم الحساسية وسوء الظن.

إنّنا في سباق مع الجريمة، وفي سباق مع الرذيلة، وما لم نسيّج أجواءنا ونمتلك الآلية والمهارة، سبقنا الشر إلى المواقع الحساسة. ولتحقيق التفوُّق لا بد من اختيار الكفاءات للتخطيط والابتكار والإشراف والمتابعة. ولست مع الذين يتصوَّرون أنّ الترويح لا يتحقق إلاّ بالرياضية البدنية، ولا مع الذين يقصرونه على الرياضة الحديثة كالملاكمة والمصارعة و(الجمباز) وحمل الأثقال وسائر مفردات الرياضة العضلية، إنّ الترويح في

توفير متطلّبات الهوايات كافة، والطلبة يختلفون في هواياتهم، فقد تكون (الورشة) و(الكمبيوتر) و(المرسم) و(التمثيل) مجالات رحبة للترويح.

والإشكالية أنّ المدارس قد عوّلت على الرياضة وحدها، وصرفت نظرها عن النشاط الثقافي والعلمي والفني والاجتماعي، وإن أقامت لذلك بعض الوزن إلاّ أنّه وزن دون المؤمل، ولو وازنّا بين هذه الأنواع لوجدناها كلّها مجتمعة لا تساوي النشاط الرياضي، وتلك ظاهرة عامة تعاني منها وزارات التربية والتعليم في الوطن العربي. والتربية الفنية وإن كان لها نصيب وافر، إلاّ أنّها ليست أهم من التربية الثقافية المغيّبة بإزاء التربية الرياضية والفنية. والنشاط الثقافي بوصفه من مفردات الترويح لا يقتصر على الكتابة والقراءة والكتاب والمكتبة، وإنّما يمتد إلى الإذاعة، والتعويد على إعداد البرامج والإلقاء والتمثيل وإعداد المسرحيات، ومعرفة متطلّبات التمثيل والإخراج وغيرها، والمحاضرات والندوات والصحف والمجلات، والتعويد على الإلقاء والإنشاد والحوار والرسم والخط والإملاء.

وفوق كلّ ذلك المكتبة والكمبيوتر وطرائق البحث في المعاجم والموسوعات وتحضير المعلومات في أسرع وقت وأقل جهد، وأنواع القراءة والنقد والتلخيص والتحقيق.. كلُّ ذلك يمكن أن يتحوّل من جهد مضنٍ إلى ترويح.

فالقراءة عند البعض تُعَدُّ فترة للراحة والترويح، ولا يكون ذلك إلاّ بعد التعويد وغرس الهواية في النفوس في وقت مبكر، لقد أدى الاهتمام بالرياضة البدنية إلى تقليص الرياضة الروحية وتنمية المواهب. ومما لا يمكن إنكاره أنّ الطلبة أحوج ما يكونون إلى صقل مهاراتهم، ولقد أدركت الدولة ضعف الشباب في الحوار، وعدم قدرتهم على التعبير عن وجهات نظرهم، ومن ثم أنشأت (مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني)، وإشكالية الناشئة إنّهم لم يعوّدوا على الحوار داخل الفصول، ولا على الحديث المرتجل عبر الإذاعة المدرسية، ولا الكتابة في الصحف المدرسية، وليس هناك ما يمنع من تكثيف البرامج الثقافية، وجعلها من مفردات الترويح والترفيه، ذلك أنّ زرع الهوايات الحميدة تجعل القراءة والكتابة ترويحاً.

والترويح في ظل الظروف القائمة أصبح مهماً للغاية، ولا بد من إعادة صياغته، والنفاذ به إلى المنزل، وتذكير الآباء، والأمهات بأهميته، ولا بد من العمل على أسلمة الترويح، وتشذيب أي مفردة مستوردة، ولا بد أن يقتنع المجتمع أنّ الترويح والترفيه واللهو واللعب نافذة بقوة الوسائل والإمكانيات، فإن اعتمدنا المنع والتخويف والتقوقع على الذات، فوّتنا على أنفسنا فرص المبادرة، ونحن الأقدر على طرح مشروعنا الترويحي لحماية شباب الأمّة، وكيف لا نبادر والذِّكر الحكيم يحثّنا على تدارك نصيبنا من الحياة الدنيا، ويتساءل مستنكراً على من حرم زينة الله التي أخرج لعباده. وخلاصة القول إنّ الترويح رافد من روافد التربية السليمة، وسبيل قاصد لتحقيق مقاصدها، وليس أضر على الأمّة من جد ضاغط أو فراغ قاتل، فالضغط يفضي إلى الانفلات، والفراغ يؤدي على الفساد، والدولة الواعية لمهمّتها تضع قضايا الشباب في أولويات اهتماماتها، ولن يتحقق الخلوص من المعوقات إلاّ بملء الفراغ بالمفيد، ومتى أحس المسؤول بأنّ الوقت لا بد أن يمتلئ بما يحقّق الأهداف، فإنّه إن لم يمتلئ اختياراً امتلأ اضطراراً، وبين الاختيار والاضطرار تكمن الإشكاليات العصيّة الحل، فلنبادر إلى امتصاص فائض الجهد والوقت بما يعود على الأولويات بالإيجابيات.

كن وديعاً أبا وديع.. (قول في عموم الدلالة .. !)[1]

همي أبداً منصب على استثمار الوقوعات العارضة والتقاط نثارها، وإن لم تكن بذاتها على جانب من الأهمية، إذ هي بعض تجارب الحياة، وما الحياة إلا كالأودية المفعمة من قطرات المطر. والوقوعات وإن صغرت في أعين الخليين إن هي إلا لبنات في بناء الحياة. وما فعلت ذلك إلا لتأسيس حوار حضاري، يأخذ العفو، ويُعرض عن الجاهلين. فما عدنا بعد هذا العمر الطويل والتجارب العميقة نحفل بالتناجي المقصي والمصادر لحق الشريك في القول والفعل. وليس من المفيد أن نمر بمشاهد القول، وكأننا لم نسمع ولم تقل. وإذ يكون الاختلاف حتماً مقضياً، فإنه قدر الواقع المأزوم، وواجبنا توجيهه قِبَل الإشراقات المعرفية. ومن توهم حسم الاختلاف، تصيده الوهم فيمن تصيدا. ولما لم يكن بد منه فإن من الحكمة ترويض النفس على معايشته. وشيوع الاختلاف ملمح إيجابي، متى ضبط إيقاعه، واستقامت أوضاعه. ولكن أن يشيع في ظله التفحش، ويستفحل الاتهام، وأن يحيد الجدل عن القول المعروف، فأمر مع توقعه مرتعه وخيم. والناس فيما يتصورون مذاهب، والعدول بهم عما يشتهون مغامرة محفوفة بالمتاعب، ولكنها من فروض الكفايات. وتصعيد الفعل ورده إلى حد العنف سجية لا يتخذ سبيلها إلا المستجدون على المشهد النقدي، ممن لا يعرفون أنه ما من عالم، أو أديب، أو ناقد إلا هو راد أو مردود عليه، إلا من لا ينطق عن الهوى، ومن ألَّف فقد استهدف. والذين لا يروضون أنفسهم على احتمال الخلاف غير المبرر ومعايشة ذويه صوتاً وصورة تضوى أجسامهم من المفاجآت الغريبة والملاحاة العنيفة. هذا الاستهلال مقدمة يراعى فيها عموم الدلالة لا خصوص السبب.

والخلاف الأعنف بين أبي وديع/ عبد الفتاح أبي مدين، والأستاذة فائزة الحربي حول مصدرية محاضرته عن (البرقوقي وبيانه) خلاف مشروع، لو كان قول الطرفين لبعضهم حسناً. فـ(الكاتبة) تُدِلُّ برسالتها الأكاديمية التي أشاعتها بين الناس، وتفاخر بجهدها الذي طاف بها آفاق المعمورة، و(كل فتاة بأبيها معجبة) و(أبو وديع) يُدِلّ باقتداره وماضيه، وما تركه خلف ظهره من منجزات على مدى نصف قرن ونيف. وفات الطرفين مشروعية تعويل اللاحق على السابق. وبهذا فليس عيباً أن يستمد الدارس بعض ما يحتاج إليه، مما هو مطروح في الطريق، ومبثوث في المراجع. بل أكاد أقطع بأنه لا يوجد نص بريء، وما (الأسد) في النهاية إلا مجموعة من الخراف المهضومة. والمشهد النقدي في مختلف العصور ينوس بالمصطلحات المتعلقة بالتعالق والتناص والتوارد والسرقات، وقد فصل القول فيها (ابن رشيق) في الأقدمين و(أحمد مطلوب) في اللاحقين. وفي العصر الحديث ظهر مصطلح (التناص) الذي شاع في أعقاب استفحال المناهج اللغوية، وأحسب أن وعيه يحسم الخلاف، ويهون مصائب الاتهامات التي يتراشق بها الكتاب، وإن كان مجال (التناص) الإبداع، إلا أنه قد يمتد إلى الدراسات؛ فالأفكار والنتائج التي يتوصل إليها السلف، قد تمتد إلى الخلف من حيث لم يحتسبوا. ومجال (التناص) إذاً في الشعرية والأدبية والنتائج، أما النقل الحرفي فيحال إلى (المصادر والمراجع) ولا يكون من باب (التناص). وفصل ما بين السطو والنقل المشروع تحسمه الإحالة إلى المرجع أو المصدر. وما عيب ناقل من ناقل إذا روعيت ضوابط النقل، ومهما حاول الخلف إخفاء نكهة السلف فإنها بادية لذوي الاختصاص. وكم قرأت من كتب، ونسيت أنني قرأتها، فإذا اندلق لعاب

---

(١) تاريخ المقال: ١٥/ ١١/ ٢٠٠٥

القلم على الورق، قلت بعض ما قالته، حتى يظن القارئ أنه هو، فالذاكرة المتوقدة مع صاحبها كما عفريت (سليمان) يأتي بالمقروء قبل ارتداد الطرف.

والدارسة الشاكية ظلم ذوي القربى، ربما أنها أحست بذاتها تتمطى بين سطور (أبي وديع)، غير أنها لم تقتصد في التعبير عن رؤية ذاتها. وأستاذ بحجم (أبي وديع) ووزنه لم يحتمل الاتهام المباشر بهذا القدر، وبخاصة حين أشارت إلى الصعود على أكتاف الآخرين. وكان يتوقع منه حين أسرفت في اللوم ألا يسرف في الرد؛ إذ خير من المجاراة في التنابز أن يرشدها، وأن يلتمس لقولها محملاً حسناً، أو أن يصرف النظر عن تساؤلاتها واستدراكاتها، فما عيب صامت، وقد يكون السكوت جواباً وخطاباً، وما أجدره بلزوم الصمت إن لم يجد إلا هذا الرد الكاسح، ومكمن عتبي عليه أنه أخذ بمبدأ: «**من اعتدى عليكم...**» ولم يرق له العفو والصفح. ومثل هذه الفلتات جعلتني أضيق ذرعاً بمشهدنا النقدي الذي لما يشب عن الطوق، وكم سئمت الانصراف عن القضايا والاشتغال بالأشخاص:

مصادرة وتهوينا. وواجب كل الأطراف المتنازعين حول قضايا الفكر والأدب أن يترافعوا أمام المتلقي حول تلك القضايا، وأن يدلوا بحججهم إلى القراء الذين يفرقون بين الدعوى الصادقة والادعاء الكاذب. ويتحقق ذلك حين يبدي المدعي رؤيته بموضوعية، ويرد المدعى عليه بموضوعية أيضاً. والمتلقي كما القاضي يفصل بين المتخاصمين، إذ لا تجوز الأثرة، بحيث يكون الراد هو الخصم والحكم، وفي النهاية فالحق أبلج، وما ضاع حق وراءه مطالب. و(الدارسة) بعد أن فاقت من هول الصدمة، وتمالكت أعصابها قالت: (هذا غير معقول يا أبا مدين) (الجزيرة ٢٣ - ٩ - ١٤٢٦هـ). واستهلالها ومبتغاها معقولان، ولكنها فيما أرى ارتبكت حين تصورت فداحة السطو على جهودها، و(بنات الأفكار كالبنات الأبكار) ولكن (الحق قد يعتريه سوء تعبير)، ولقد عجبت من فعل عنيف ورد فعل أعنف. ولو كنت مجاملاً أو متقيا تقاة أو مداهنا، لفعلت ذلك مع رجل أخذ بيدي حين تعذرني الناس، وذلك يوم أن فتح لي صفحات جريدته قبل نصف قرن، ولما أزل معه في زمالة وصداقة تنمو مع الزمن. وما كان بودي استفحال الخلاف اللجوج، فالمعارك الأدبية كما الحرائق من مستصغر الشرر، ولست ضدها إذا أخذت بحقها، ولكنني ضد حيدتها إلى ما لا يحتمله الموقف، وبوادر الخلاف بين الطرفين تنذر بالحيدة. ولما يزل مشهدنا رهين المحبسين: البغي وسوء الظن. حتى لقد كاد ينفض سامر عقلائه، بحيث لم يبق به إلا من لا يؤبه به، وإذا كان رواد الحركة النقدية يؤزون الخلاف، فمن ذا الذي يقيل العثرات.

ولربما تضيع المعارف تحت غبش الانفعالات الآنية، والقبول بها تحت أي طرف شرعنة وإلف. ولقد حَمِد المشرّع امتلاك النفس عند الغضب. وتجاوُز (أبي وديع) الغاضب إلى الرسائل العلمية وأصحابها، كما صنيعة الأعراب في (العرّ) الذي يكوى غيره وهو راتع، وهذا التجاوز دليل احتقان لا مبرر له. وكم ضقت ذرعاً بمثل هذه الاستدعاءات التي يعمد إليها غير المؤهلين، وبخاصة الكبار بإمكانياتهم لا بمؤهلاتهم، وتلك صيرورة لا يقتضيها المقام. فالكاتبة لم تمس (أبا وديع) لأنه غير مؤهل أكاديمياً، وما كان من حق أحد أن يجعل العصر عصر بطاقات لا عصر كفاءات. وإذ تكون طائفة من حملة المؤهلات العلمية دون المستوى، فإن ذلك محكوم بقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَـزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾. كما أنها لم تدل بشهادتها، ولم تعب خصمها في شيء من ذلك، وليست دون مؤهلها لتعاب. واستدعاء (أبي وديع) لذوي التخصصات الذين حملوا ما لم يحتملوا مدعاة

لتوسيع رقعة المشكلة. ومثل هذا الاستدعاء غير المبرر يعد من لي عنق القضايا، والخروج بها طوعاً أو كرهاً عن مسارها، وتلك بعض إشكالية مشاهدنا الثقافية.

ولما كنت ابن بجدة النقد - ممارسة على الأقل - فقد عانيت من فلتات ألسنة شطت بالقضايا عن مدارجها، وطوال أربعة عقود، كنت فيها عرضة لتقويلي ما لم أقل، وكم قلت، وأعدت القول: (اقرؤوا ما تحت السطور، ولكن لا تنطقوني بما لم أنطق)، وقد يكون لعنف (أبي مدين) ما يبرره، فأنا أعرف جيداً أن ناقداً وأديباً بمكانته، لا يمكن أن يركن إلى النقل الحرفي، ولا أن يتخفف بمرجع واحد، حتى ولم كانت لا تكدره الدلاء، وهو بثقافته وممارسته أكبر من أن يتحسس من ذوي المؤهلات، وأكبر من أن يعول على جهد، ثم يتكتم عليه. وهذا الثناء، وتلك التزكية لا تصادر حق (الدارسة) في التساؤل. وحتى لو استرفد منها أو من غيرها فالأمر جد يسير. ذلك أنه في محاضرته يعول على (المنهج التكويني) = التاريخي، والتكوينية هنا تعني مكونات النص، وهذا المنهج نقلي، يتقرى الوقائع والأحداث، ولو اعتمد في محاضرته على غير هذا المنهج فإن ذلك لا يمنع من التداعي، فالكاتب في النهاية محصلة مقروئه، والدارسون والنقاد لا ينطلقون من فراغ، بل هم ك(النحلة) تمتص نسغ الأزهار، وبقدر التنوع والكثرة تكون الجودة. وكيف يدعي النقاء دارس أو كاتب، والرسالات السماوية تأتي لتتم مكارم الأخلاق.

وحديث (أبي وديع) عن البرقوقي وبيانه الذي استعرضته على عجل ممتع وشيق، وكيف لا وهو سليل عصر (الرافعي) و(الزيات) و(البرقوقي) و(طه حسين) حتى لقد قيل عنه بأنه (طحسني)؛ لوجود شبه بين الأسلوبين المتسمين بالسهولة الممتعة والممتنعة. وهو فيما يكتب كأستاذه العميد العنيد، يغيب النصوص التي قرأها من قبل، ولكنها تُظهر أعناقها، وتشي بنفسها. وكم أعاني من مثل تلك الوشاية في بعض ما أكتب، فإذا عزمت على كتابة بحث أو مقال، أحسست بتداعيات كأنها (الدُّر) المتدفق، وما يخلص منها إلى شبات القلم يكون ك(بنت الدهر) مع (المتنبي) الذي تساءل مستغرباً وصولها إليه: (فكيف خلصت أنت من الزحام). وكم أخشى أن يقع الحافر على الحافر، فأقع تحت طائلة (الأشباه والنظائر). ولقد مس الشعراء الأوائل والأواخر طائف من هذا التعقب، ف(الخالديان) لم يسلم منهما شاعر. ونقاد المشاهير من الشعراء ك(أبي نواس) و(أبي تمام) و(المتنبي) الناقمون والموضوعيون نقبوا في شعرهم، وكادوا يردون كل بيت إلى شاعر قديم وبخاصة مع (المتنبي)، والمهتمون بالسرقات الأدبية أصابوا بأقلامهم أبرياء، حتى لقد أصبحت (السرقة) ظاهرة من ظواهر النقد، درست بوصفها أهم الظواهر النقدية في كتب مستقلة عند (مصطفى هدارة) و(بدوي طبانة) وألف فيها من قبل تطبيقاً (مهلهل العبد ي) و(العميدي) و(ابن وكيع) و(الحاتمي) و(البديعي) و(الخالديان)، وشققها البلاغيون، لتكون دركات، ولما تزل الاتهامات المتلاحقة على أشدها. ولقد وُجِه الشعراء ببعض ما احتملوا، مع أنهم أقدر وأغنى من أن تعدو عيونهم إلى جهد من دونهم، وإن سطا بعضهم بالقوة على شوارد الأبيات، كما فعل (الفرزدق). ومثلما اتهم الشعراء العمالقة، فقد اتهم الكتاب الأقدمون، ف(الجاحظ) اتهم باعتماده على مترجمات (أرسطو) وعيب على تكتمه في البيان والتبيين، كما اتهم الكتاب المعاصرون بسرقة الأفكار والمناهج، وهذا (طه حسين) مَثَلُ السوءِ في هذا يتهم بالسطو على جهد المستشرق (مرجليوث) و(جب)، وتؤلف الكتب لرد دعوى الانتحال، وهذا (محمد محمود شاكر) يتهم أستاذه الذي اضطره إلى قطع دراسته بسرقته، ويصف كتاب (طه حسين) (مع المتنبي) بأنه نسخ موضوعي لكتابه عنه. وهذا (نجيب محمد البهبيتي) الناقم على أستاذه (طه حسين) يشايل من سبق ومن لحق، وهذا (مصطفى هدارة) يتهم (إحسان عباس) و(محمد شعيب) و(أحمد مطلوب) بالنقل من كتابه عن السرقات دون الإشارة إليه. كما أن الصديقين اللدودين (أحمد أمين) و(طه

حسين) يشيع كل واحد منهما عن صاحبه ما سربه طلابهم فيما بعد، وكأن كل واحد منهم لم يقدم إلا ما سرق. والمتعقب لظاهرة السرقات، يجدها تمس الكبار والصغار. ولمشهدنا الأدبي النصيب الأوفى، وبخاصة ما تمخض عن صراع (الحداثة) و(التجديد)، وكم أتمنى لو درست هذه الظاهرة وقومت، فليس كل اتهام كاذب أو مبالغ فيه.

وعلى الرغم من كل ما سلف فإن الأستاذة (فائزة الحربي) من حقها أن تسأل، وأن تذكر بنفسها وبجهدها، وأن تعتب على أستاذ بحجم (أبي مدين) لم يذكرها عند القراء، وأخشى أن يكون (أبو وديع) كصاحب (يوسف) الذي ظنه ناج منهما فقال له: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾. و(الأصمعي) وهو يجوب قفار (نجد) يبحث عن شوارد اللغة أفاده أعرابي يرعى غنمه بكلمة أو حكمة أو بيت، ولما رآه يكتب ما سمع قال له: اذكرني في كتابك. ولكن واجب التساؤل أن يكون بأسلوب لا يؤدي إلى الاتهام الصريح والإثارة العنيفة، و(أبومدين) عليه أن يتقبل عتبها بقبول حسن، وأن يصرفها إلى الحق بعطف أبوي، ولاسيما أنها تدعي إهداءه نسخة من الرسالة، والأستاذ لا يقر لها بذلك، ويدعي أنه أنجز بحثه قبل طبع رسالتها، وقد يكون واهماً أو ناسياً، وبخاصة أنه يتلقى كل يوم إهداء، ويستعرض كل ساعة كتاباً. وأذكر في هذا السياق زميلاً لا يرقى الشك إلى اقتداره واستغنائه، وجد بين أوراقه بحثاً أعطاه إياه طالب من طلابه، فظنه بعد طول مكث بين أوراقه أنه له، فبعث به إلى النشر، ولما نشر قامت الدنيا ولم تقعد، وأصر الأستاذ الواهم أنه له، ولم يذعن لدعوى الطالب، ولم يتذكر، ولج الطالب ومن وقف وراءه في عتو ونفور، والبحث برمته لا يقدم ولا يؤخر، ولكن الحق أحق أن يتبع، ولو أن الأستاذ اعترف بالخطأ مذكراً بما ترك خلفه من كتب ودراسات ومقالات ومحاضرات لتقبل الناس اعتذاره وصدقوه. و(الدارسة) في ردها الأخير على (أبي مدين) توخت الموضوعية، وساقت طائفة من النتائج التي توصلت إليها في رسالتها، والتي وافقها فيها (أبومدين) ومع قوة الحجة، فإن ذلك كله لا يرقى إلى اليقين، ذلك أن بحث (أبي مدين) مزيج من الخواطر والانطباعات وشيء من تأريخ قليل، وقد يكون استمد لحمته من معهودات قرائية سلفت، وكما قلت فهو يعتمد (النقد التكويني). والمسألة في النهاية محسومة، لو كانت على ما يدعي أحد المتخاصمين. فـ(الدارسة) أمام مقالات أفضى بها الكاتب إلى الناس، وأصبحت جزءاً من التاريخ الأدبي، وتحت يدها رسالتها، وعليها أن تفكك النص كلمة كلمة، وجملة جملة، وعبارة عبارة، وأن تضع شبات قلمها على مفاصل القضية، والناس شهود الله في الأرض، ولقد فعلت بعض ما يجب في مقالها الأخير، وليس (أبووديع) أول من اتهم، وليست أول من أقام الدعوى. وعليها بعد هذه الزوبعة المغبرة أن تنظر في مدى اعتماده على جهدها، ومشروعية هذا الاعتماد، ولكن عليها مع هذا أن تعرف أن الذي هداها إلى المراجع والمصادر قادر على أن يهدي ناقداً مثل (أبي مدين) ولاسيما أنه ربيب الأدب المصري، وأنه ربما كتب ما كتب من هذا المعهود الذهني الذي يختزنه، ولو لزم أن أكتب عن ظاهرة أو قضية فسيكون لمعهودي الذهني قصب السبق، وكم من كاتب ترك السرى خلف المراجع وراء ظهره، وأعطى قارئه من مخزونه فيوض علم غزير.

وتعاطفي مع الدارسة، وإشفاقي عليها من تلك الغضبة المضرية، لا يحولان دون رغبتي في أن تعود إلى نفسها، وأن تنظر فيما إذا كانت قد تجاوزت حدود ما يجب بحق أستاذ بسن جدها، عركته الحياة، حتى لم تدع في جسمه موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة، كما أود من (أبي وديع) أن يكون وديعاً، فما عاد الزمن كما هو في عصر (الأمواج

والأثباج). وما فَعَلْتُ ما فعلت إلا لفك الاشتباك، وترشيد المشهد النقدي، ولقد تحاميت الحكم في القضية، فأنا شاهد لم ير شيئاً. ويبقى الود ما بقي العتاب، ويبقى العود ما بقي اللحاء.

كل الناس يغدو .. ! (١) [(١)]

ليس الغدو المستدعي للاعتناق أو للإيباق خاصاً بالأفراد وحسب، إنه لهم وللمؤسسات وللدول، ولكل مكلف يكشف عن ساق، ليقول أو ليفعل، كلٌ على حسبه وفي موقعه، وبقدر اتساع مجال الغدو، تتسع تبعاته، وتنداح فداحة موبقاته. والذين يقرؤون كلماتي - على قلتهم، يدركون أنها تدور حيث تدور العلل الأربع.

-اللعبة واللاعب.
-وإشكالية المفاهيم.
-والتأصيل والتحرير للمعارف والمسائل.
-وخيانة المبادئ.

وتلك بعض عثرات الغدو والرواح: المعْتقة أو الموبقة، والعالم الثالث: النامي أو المتخلف حقل ممرعٌ لكل اللعب: الكونية والإقليمية ولإرهاصاتها، ولسائر عمليات التضليل الإعلامي، والتجريب: الحسي والمعنوي ما ظهر منها وما بطن.

حتى يكاد غدوه يكون موبقا ليس إلا، وما كانت صراعات مفكري هذا العالم المتخطف نخبه من كل جانب إلا بسبب: اضطراب المفاهيم، وجريان اللعب فيه مجري الدم، والعجز أو التقصير في تحرير المسائل وتأصيل المعارف، والقول دون الفعل، والوقوع تحت طائلة التسطح والابتسار، والتقحم لعويص المسائل بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

وكلما حاولت الانفلات من سلطان (اللعبة) أو (المفهوم) أو (التأصيل) أو (التحرير) و(الادعاء) شدتني أمراسُ كتانها إلى (حليمة) وعادتها القديمة، وارتباطي المأزوم بتلك العوائق يسترفد إصراره غير المستكبر مما تقترفه خطابات فردية مختلطة في ظل غياب الخطاب المؤسساتي، ومما يقترفه كتبة يستعجلون بالسيئة قبل الحسنة، ويستجدون معلوماتهم مما هو دولة بين وسائل الإعلام الموجه، وما كانوا يعلمون أنها تميل مع الريح حيث مالت وكأنهم مراوح الطاقة الهوائية، والتعويل على المتداول في المشاهد، يذكر بالطواف الصعلوكي:-

طاف يبغي نجوة
من هلاك فهلك

أو ب (الطّوّافات) التي تأكل من خشاش الأرض. والمتسكعون في مطارح الإعلام المضلل كما ديَكة المزابل، يتيممون الخبيث منه يأكلون، ويرضون من الثقافة بالمسموع، وهي ثقافة غير موثقة، وغير معمقة، وغير بريئة، ولكنها بقوة الصناعة التقليدية المغرقة للسوق والطاردة للصناعة الأصلية، والناشئة التي قطعت صلتها بالتراث، وخفَّت إلى الحضارة المهيمنة لا تجد حرجاً من أن تجادل في الثوابت بالباطل، لتدحض به الحق. ومن خلال متابعتي للمقول والمكتوب حول القضايا الساخنة كافة في مشاهد أمتنا المهيضة الجناح من ظواهر ومصطلحات ووقوعات ونوازل، وبخاصة ما يتعلق منها بالمستجدات، أدركت أن المصطلحات المهيمنة - منقولة كانت أو معربة أو مترجمة - يفهمها بعض المتنفذين فهماً سوقياً متسطحاً لا معرفياً متعمقاً، وحق المتلقي على من يرودون له ويحفظون ساقته أن يتزودوا من المعارف وأن يتضلعوا من العلوم، وأن يتخطوا به إلى المعاجم والموسوعات والدراسات الموثقة، وأن ينظروا إلى المستجد في

---

(١) تاريخ المقال: ٢٢/ ١١/ ٢٠٠٥

مجال التطبيق، ليتعرفوا على الأشباه والنظائر في عقر دارها، ويستوعبوها كما أنشأها أصحابها، لا كما تصورها المتلقون الذين شبّه لهم. ومن المؤذي أن يجد مثقف السماع من يتلقاه بالأحضان، ومن يأخذ مقولاته، وكأنها قضايا مسلمة، لا معقب لحكمها، على سنن الطاعة العمياء، التي تحتم التنفيذ الفوري، ثم المراجعة على استحياء وتردد. والمصرون على قناعاتهم الفجة المرتجلة، لا يدرون ما المصطلحات ولا اللعب، ولا يعرفون أن قولهم عن الظواهر والمذاهب والتيارات والنوازل قول أقرب إلى العامية منه إلى العلمية، تخطفوه من رسيس الإعلام لا من بحار المعرفة، (ومن قصد البحر استقل السواقيا)، وفوق ذلك فهم يقولون ما لا يفعلون على شاكلة الإسلام الفكري، والغدو مع أولئك أو إليهم من الموبقات، وكان حقاً على كل مستبرئ لعرضه ودينه أن يتبين وأن يتثبت، فخفة العياب خير من امتلائها بالمضلات، والأكل من خشاش الحضارات تضوى به الحضارة المتلقية، والأبقون من حضارتهم والموبقون للسماعين لهم، لا يزيد جهدهم عن تسخين مكرر لما غب من طبيخ الاستشراق، واجترار ممل للمتداول بين وسائل الإعلام الموجه لغسيل الأدمغة. ولك أن تتصور كيف يفهم بعضهم المصطلحات المستوطنة كما الأوبئة، وكيف يغالطون أو يدلسون في المتقضيات، وكيف يتعاملون مع المتحفظين على المضمرات من تلك المقتضيات، وكيف غلبوا على أمرهم، وأوحي إليهم أن (الليبرالية) و(الديموقراطية) الشائعتان على كل لسان لا تعنيان إلا (الحرية) وحسب، وأن القبول بهما من متطلبات المجتمع المدني، وأنهما كما استبدال الكهرباء بالسرج، وأن عثرات النظم السياسية في الدول النامية لا يقيلها إلا ما أقال عثرات عصور محاكم التفتيش وصكوك الغفران، وأن سائر المستجدات وسائل ووسائط وأطر، وليست أفكاراً ولا مناهج ولا مبادئ، هذا التصور الناقص يقبل من الدهماء، ويستغرب من قادة الفكر. ولأن المَلَكة والثقة والعقل معطلة فإن ما قيل عن (الماركسية) و(الوجودية) يقال عما خلفهما ولا من مدكر. وتداول هذه المفاهيم في الأوساط الثقافية يبدي سوأة الرؤى المستبدة في المشاهد، وليس أضر على الأمة من ربط المصطلح بمفرده من مفرداته المقبولة، أو التعليل الخاطئ على حد ﴿مَا نَعبد هُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾، والكتب الميسرة التي تقدم مبادئ ومداخل للمتداول من الأفكار، تنطوي على مفاهيم أولية، لا يتوفر عليها المتنخوبون، وتلك المعلومات الغائبة أقل ما يجب التوفر عليها.

فـ (الحرية) مفردة من مفردات المصطلحين الآنفي الذكر، كما أن (التجديد) مفردة من مفردات (الحداثة) الفكرية المنحرفة، وبعض مشمولات تلك المصطلحات تشكل قاسماً مشتركاً مع مصطلحات حضارة الانتماء، ولكل مفردة حد وشرط، وفات المخادعين بطُعم الحرية أن لتلك المصطلحات مقتضيات ومفردات مناهضة ومناقضة لحضارة الانتماء وفكرها السياسي ومقاصدها الأدبية، وأن سائر اللعب تختفي وراء الأصباغ التي تستدرج الموبقين من حيث لا يعلمون، وتصيب الذين يلحقون بهم. وإذ يفتقر العالم الثالث إلى مزيد من الحرية، وإلى مزيد من الإصلاح الجذري لأنظمة الحكم، وإلى مزيد من المؤسسات الفاعلة المفعَّلة، وإلى تمثل واعٍ للمقول، فإن المنقذ له أن يصوغ أنظمته على ضوء مقتضيات حضارته المتسعة لكل متطلبات المجتمع المدني السوي، ورفض المصطلح لا يعني رفض إيجابياته، ولا يعني التسليم المطلق للأوضاع القائمة، ولا يعني تجاهل المنجز الغربي والاستخفاف به، والقول بشيء من ذلك إجهاض للمصداقية. وإذا كان الفكر السياسي الإسلامي منقذاً كما (الديموقراطية) لذويها، فإن الإسلام أحق أن يتبع، فنحن كهم نحتاج إلى حياة كريمة، ولكننا نرجو من الله ما لا يرجون، والعالم الثالث حين يكون في حاجة ماسة وفورية إلى الإصلاح الشامل والجذري والفوري فإن الإحلال على طريقة

لعبة المكعبات لا يعد من الإصلاح في شيء، والاستيراد للأنظمة والأفكار لا يكون كما الاستيراد للأجهزة والمعدات، والخلط بين الحضارة والمدنية كالخلط بين الوسائل والغايات، والمجربون والراصدون لا يجدون بدأ من المرحلية، وتهيئة الأذهان للقبول والتفاعل، فالشعارات الجوفاء زاد رديء للاستهلاك الإعلامي، والمتغنون بمثل هذه المصطلحات المغرية، أشد الناس عداوة وإجهاضاً لمضمراتها.

وكلما قال المنذرون قولاً لينا، وطالبوا بتهيئة الأجواء النفسية والاجتماعية والسلوكية المناسبة للمستجدات النكرات، بادرهم الموبقون بحتمية الحرية والتجديد، وما دورا أن أخذ الحذر عبر المساءلة والمكاشفة لا يعني نفي المشترك.

وهل يتصور عاقل إمكانية رفض العدل والحرية والمساواة والتجديد؟، وهل يدور بخلد إنسان سوي قبول الظلم والاستبداد والتخلف والعبودية، هذا الاضطراب المخل في المفاهيم، يقف بالمفكر والعالم والسياسي على مفترق الطرق وبنيات الطريق؛ ليحسم أمره، ويعتق نفسه من رق الجهل وعبودية الهوى. ولن تبدو بوادر النجاة إلا بتصحيح المفاهيم أولاً، وتنقية الأجواء من غبش الضلالات ثانياً، وتحرير المصطلحات الشائعة بكل تراكماتها، وفرز اللعب عن المبادرات، ومعرفة اللاعبين الماكرين، وما غدوت في أهل الجدل الفكري أو السياسي أو الأدبي إلا وجدت المغالطات الموبقة. ولو أن مدعي الإعتاق في المشاهد الثقافية والإعلامية والفكرية عرفوا تلك المصطلحات على وجهها، لما حصل تنازع، ولا قامت عداوات - بهذا الحجم على الأقل -، وإلا فالاختلاف إكسير الحياة، ولا يحقق الثراء المعرفي إلا القبول بالرأي الآخر بشرطه، ولما أزل أقول: إن اضطراب مفهوم المصطلحات مصدر كل الإخفاقات، وإن تفخيخ اللعب من المكر السيئ، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله، ومتى لم نأخذ بأسباب النجاة من قوة رادعة، وسياسة محكمة، وإمكانيات مغنية، وعزم على مناصرة الحق ومراجعة النفس، تجرعنا مرارات الكيد، وما على المستهدف بالمكر والكيد إلا التحرف للخلوص من الموبقات، و

﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠] .

وكل الغادين والرائحين يتغنون بالمستجدات والحريات، لا لشيء إلا ليقال وقد قيل، فماذا بعد هذا، وهم - بكل الرهانات الخاسرة - في معزل عن مجال التطبيق، فـ (الحداثة الأدبية) وحسب - على سبيل المثال- كما هي في أرض المنشأ، لا تعني التجديد وحده، وإن كان التجديد بعض مقاصدها، وهي فيما سوى الأدب مشروعة ومقبولة، أما في الفكر والأدب والتربية وسائر العلوم الإنسانية فخلق آخر، لا يجوز فيه القبول المطلق ولا الرفض المطلق، ذلك أنها مصطلح تداوله الغربيون، وفق مفاهيم ومقتضيات ليست على وفاق مع قيم الحضارة المتلقية، ولقد دارت شبه وشكوك حول سدنتها واستفاض تواطؤهم بثمن بخس مع قوى البغي والعدوان، وما (الديموقراطية) و(الليبرالية) عن ذلك ببعيد، إذ هما في النهاية مصطلحان سياسيان لا يعنيان (الحرية) وحدها، ولا يعنيان المجالس النيابية والسلطات الثلاث والفصل بينها، وإن تضمناها، والقبول بهما على ما هما عليه عند الغرب المنتج، إقصاء للفكر السياسي الإسلامي وللتجديد الفني واللغوي والدلالي.

ودعوى الإفراغ أو التشذيب لتوافق المقتضى الإسلامي تحصيل حاصل، إذاً يجب - والحالة تلك - الاستغناء بمصطلحات الإسلام: السياسية والأدبية والفكرية المتسعة؛ لما وسعته تلك المصطلحات الوافدة، وإذ تتسع (الديموقراطية) لعدد من المؤسسات التشريعية والنيابية والشورية والقضائية والتنفيذية، فإن حضارة الانتماء لا تجد مانعاً من التماثل دون الذوبان أو التسمي والاستبدال.

وإذا أخفق العالم الثالث في التطبيق، أو حصلت ممانعة أو تقصير، فإن ذلك يستدعي تصحيح المسار، لا نسف المبادئ، ومثلما نقع في اضطراب المفاهيم، نقع في اضطراب التصورات عن مجمل التدخلات العسكرية و(اللوجستية)، ونقع في الخلط بين الإرهاب والمقاومة. وتفادياً للتذبذب الذي وقع فيه المنافقون، وخشية من الوقوع فيما حذر منه (ابن خلدون) من أن من طبع المغلوب (تقليد الغالب)، ومما تخوف منه (مالك بن نبي) من استفحال (القابلية للاستعمار)، تجب علينا قراءة الظواهر والأحداث بعيون المؤسسات لا بالبصيص الأعشى والعشوائي للأفراد. وهذا الاضطراب في المفاهيم، وتتابع اللعب السياسية المهلكة إن هو إلا ترجمة حرفية للغدوِ الموبق، وخطورته المتيقنة جعلتني أُبدئ القول وأعيده المرة تلو الأخرى، وكأني ذلك الخطيب البسيط الذي كرر خطبته طوال العام، ولما روجع في ذلك، قال: لو أقلعوا عما أنهى عنه ما كان مني أن أكرر القول، فهل يكون غدونا أفراداً وجماعات لفهم الأشياء والأخذ بأحسنها، أم أنه بيع للثوابت، وهتك للمسلمات، ووقوع في الموبقات. وجملة القول: إن الممانعة المحرمة والاندماج المطلق في عالم القيم، كاليأس من رحمة الله أو الأمن من مكره في (علم الكلام)، وحفظ التوازن مؤذن بالخلاص من الموبقات.

كل الناس يغدو.. ! (٢) [(١)]

واستكمالاً لما سبق من تلميحات وتصريحات عن اللعب السياسية الممسك بعضها برقاب بعض، والمتشابهة إلى حد التكرار، وعن اللاعبين الأذكياء، والمنفذين الأغبياء، وعن مجالات اللعب، وأساليبها الذكية، أود أن أتساءل: من الموبق؟ ومن المعتق المنفذ الأجير، أم المتنفذ الخطير؟ إنه تساؤل مشروع. وما ينبئك مثل مجرب أو حاضر للحدث سامع للمختصمين. والمؤمن الواثق بقدرة حضارته على الإدارة والتحكم واستشراف المستقبل والتفاعل الإيجابي يعمل من خلالها، ولا يتلقى نقائضها. ولقد قلت من قبل: - إن مسرح السياسة مصمت، ليست له (كواليس)، فإما أن يظل اللاعب لاعباً، أو يتعرض للتصفية بالتنحية أو بالنحر أو بالانتحار، وذلك حتم عندما تقترب شفرات اللعبة من التجلي، أو حين يذهب كل لاعب بما كسب أو اكتسب، أو عندما يكون الموءود كنيف الأسرار الخطيرة، بحيث تموت بموته ملفات كثيرة، لو أباح بشيء منها لمسَّ العذابُ كل الأطراف. وما أكثر الذين اختفوا من مسرح العرائس، وهم في أوج تألقهم الإعلامي. والذين أغواهم بريق اللعب، وخدعهم اللاعب الخطير بالوعود والأماني، يتهافتون عليها كما الفراش، وكم من لاعب دخل مسرح اللعبة طائعاً مختاراً، وكان بإمكانه ألا يدخله، ولما أراد الخروج منه، لم يكن قد أعد له عدته، فتحول من قائد مهيب إلى مقود خانع أو جثة لا تجد من يواري سوءتها، أو متفلت لجوج تُحكم قيده اللعبة ببطء كما الذباب ولعاب العناكب.

وكم من مغرور احتنكته اللعبة، وهو يرقب سراب القيعان ووعد الغرور، الذي لم يصدق منه إلا وعد (بلفور). وشواهد الموبقات ثاوية في المشهد السياسي، يعرفها العالمون ببواطن الأمور، وأبسط التحريات تقف بالمتابع على أطلال وأناسي بلغت ببعضهم الدعاية وصناعة النجوم هام السحب، حتى إذا شارفت المسرحية على فصولها الأخيرة بلغت معها الروح الحلقوم. وما صناعة النجوم وتلميعها إلا جزء من متطلبات اللعب، كي تعشي الشخصيات الزائفة المزيفة عيون الدهماء، وما دروا أنها تعكس النور ولا تشعه، لقد سمعت بأذني ورأيت بعيني متعالماً في إحدى دول الجوار يقول عن أغبى اللاعبين في بيت من بيوت الله: - إن الملائكة تقاتل معه، وحين حصحص الحق لم يدرك السذج فداحة الكارثة، وصدق الله: - ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلّاً كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٢].

ولما كانت اللعب المعشية والمصمة ناتج مطابخ سياسية عريقة فإنها لا تفاجئ النظارة بالمسرحيات دون مقدمات، كما الصدقة بين يدي النجوى، إذا لا بد - والحالة تلك - من صناعة النجوم بالقدر الذي يقربهم إلى قلوب النظارة، ولا بد من صناعة المسرح بحيث لا يضيق عن الأدوار وتزاحم الأضداد. وللاعب المحترف قبل أن يأتي بلعبته يختلق المشاكل التي تمهد لها الطريق، وتستحث قدومها، ولاسيما أن العالم الثالث يقوم على تركيبة سكانية وعرقية وطائفية وقطرية وحدودية قابلة للاشتعال في أي لحظة، والمستبد يتأبط الملفات الساخنة يطوي وينشر منها ما يشاء، تحت سمع الضحية وبصرها، وكأن الوهن والحزن قد بلغا الدرك، فما عاد الضحية يميز بين التمرة والجمرة.

وإذ تقوم السياسة على التمثيل والخداع فإن ذلك يتطلب براعة الإعداد ودقة الإخراج وتوفير سائر متطلبات مسرح التمثيل، وما كل غاد إليه معه حذاؤه وسقاؤه. والمضحك،

---

(١) تاريخ المقال: ٢٩/ ١١/ ٢٠٠٥

وشر البلية ما يضحك، أن مسرح العرائس يُصنع تحت وهج الشمس، ولكن اللعب تتشابه على الذين لا يفعلون، كما تشابهت بقر بني إسرائيل، ومع فقاعة اللون فإن الدهماء تهتف للأبطال المزيفين. والعالم الجشع المتغطرس تحكمه مصالحه الجائرة، وهو بسبيل تحقيق أكبر قدر منها. وكما أن الإنسان موزع بين التسيير والتخيير، وليس جبرياً ولا قدرياً، فإن الكيانات السياسية الصغيرة كذلك، تملك قدراً من السيادة وحرية الاختيار، ولكن البعض منها لا يحسن استغلال المتاح والممكن، ومن ثم تخضع لتقلبات الطقس وقوانين اللعب، وفي النهاية فإن الكلمة الأخيرة لمن يقدر على إنفاذها، وما أكثر (التيميين) الذين قال فيهم جرير:-

ويُقْضى الأمر حين تغيب تيمٌ
ولا يستأمرون وهم شهودُ
وإنك لو رأيت عبيد تيمٍ
وتيماً قلت أيهم العبيدُ

وبعض الكيانات بلغت من الضعف والارتباك والتردد حداً سهل عليها الهوان، وأصبحت لا تتألم من الصفعات والركلات والقعود الذليل كما الطاعم الكاسي:-

مَن يَهُن يَسهُلِ الهَوانُ عَلَيهِ
ما لِجُرحٍ بمَيِّتٍ إيلامُ

واللعب التي تستدرج الموبقين تعد في النهاية (فتن) لا تصيب الذين غدوا إليها خاصة، وكم من معتزل أو دافع بالتي هي أحسن مسه طائف من عذاباتها، وذيولها أشد خطراً من متونها، وللرسول الناصح ﷺ لفتات معجزة ففي قوله: - «**الفتنة نائمة**» دليل على كمونها في أي تجمع إنساني، وليست طارئة عليه. والدخول فيها: - قولاً أو فعلاً يكون في البداية اختياراً، ولكنه في النهاية يبلغ حد الاضطرار. والذين يستعذبون الخوض في المسكوت عنه، ولا يجدون حرجاً من نبش الخلاف، واستمراء السخرية من حضارتهم وإنسانها والتهافت على رموز الآخر متخذينه عدواً وحزناً، كل هؤلاء من أولئك الذين يبيعون أنفسهم فيوبقونها، وبخاصة حين يكون النبش في زمن المتردية والنطيحة والموقوذة. كما أن تصعيد الخلاف حول الثانويات تمهيد لإيقاظ الفتن النائمة والوقوع في رقها، وما أكثر الذين يغدون أحراراً، ويروحون أرقاء، وفي ضجة العويل والانكسارات نقول لكل متضور متألم: - (يداك أوكتا وفوك نفخ). فمن فتح الأبواب، ومهد الطرق، لتدفق الأسلحة، وقيام القواعد، ومن طبَّع وهرول، ومكَّن للآخر من اختراق الأجواء؟ إن تنفذ الآخر يضع يد المتيح في القيد طائعاً مختاراً، ويجعله يبيع نفسه بأبخس الأثمان. وإذ لا يكون بالإمكان الاعتزال فإن الاستعداد قبل المفاجأة بعض التوقي والعتق.

والمؤكد أنه ليس بمقدور أي كيان، وبخاصة كيانات العالم الثالث أن يغلق عليه بابه، ولا أن يكسر سيفه، ولا أن يعض على جذع شجرة حتى يأتيه الموت، وإذ يكون الغدو حتماً، فمن الخير سلوك سبيل العتق، وتفادي طريق الإيباق، ومن أراد النجاة اتخذ أسبابها، من استشارة، واستخارة، واستبانة، وأناة، ورفق، واعتزال للشبهات. والزعماء والمفكرون الذين يحتملون ما لا يفهمون وما لا يطيقون يهلكون أنفسهم وأمتهم، والتحدي غير الصمود، والدفع غير الطلب، والقعود غير التوقي، والاهتياج والاتقاء غير المداهنة، ولا يخفى إلا ما لم يقل وما لم يفعل، وفي ظل ثورة الاتصال لا تخفى على الناس خافية،

والموبقون يعرفهم الناس بسيماهم، والإفراج عن الوثائق أو تفلت الألسنة فضح على رؤوس ا لأشهاد، وحين يملك البعض القدر الكافي من الحرية واتخاذ القرار المناسب، يُبلى ببعض المستهمين معه على ظهر السفينة، ممن لا يجد بأساً من خرقها باسم حرية التصرف، مفوتاً بخطيئته فرصة النجاة. وهل حروب العقدين الماضيين التي قضت على كل المثمنات والآمال من صناعة الذين يتجرعون مراراتها؟ أم هي كما القتام تسوقه الرياح ليزكم أنوف الملثمين. إن كل منفذ غبي يمتد أثره السيئ إلى من حوله، وما أكثر الذين يفضلون السلامة، ثم لا يمكنهم سفهاء القوم منها، وصدق الله ﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]، ولما كانت رياح التغيير تهب من كل جانب فإن مبادرتها بالقبول المطلق دون النظر الثاقب والتبصر الحصيف مدعاة لضياع ما في اليد. وتفويت الاستفادة منها حياد سلبي، يحرم الأمة من الفرص التي لا تطرق الأبواب إلا مرة واحدة. وكم من مجازف أضاع ما في يده وإن قل، ولم يظفر ببعض ما في أيدي الناس وإن كثر.

وإذ يكون من طبائع الاستبداد إكراه كل طرف ليمسك بشطر من رداء اللعب، أو أن يكون لاعباً رئيساً فيها، فإن من الحكمة ركوب أهون الضررين. وتحامي الضلوع في اللعب الكونية التي تأتي على الحرث والنسل غدو معتق. واللاعبون الذين ضاعوا، وأضاعوا بلادهم، هم أولئك الذين غدوا ليوبقوا أنفسهم ومن تبعهم من المكرهين أو الطائعين، وكم من هالك مهلك زُيّن له سوء عمله فرآه حسنا. وكم:

يُقضى على المرء في أيام محنته
حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن

لقد كان بإمكان الموبقين وعشاق الأضواء ألا يكونوا رؤوس الحراب، ولكنهم رضوا بتولي كبر التآمر، وممارسة دور اللاعب الأكبر ظلماً وعدواناً، ومع ذلك لا يكون في أنفسهم حرجاً من مقاتلة من حولهم من الشركاء في الأرض واللغة والدين والهم المشترك. والقابلية تجعل الناشطين في الفتن مجالاً للعب المرهصة واللعب النافذة. يتجلى ذلك في الأحلاف والاتفاقات والاعترافات وعقد الصفقات المؤثرة على المنظومة السياسية، ولقد بادر إليها من شق عصى الجماعة، وعطل الاعتصام بحبل الوفاق، الأمر الذي أفقد المؤسسات الجماعية دورها المنشود. وعلى كل الأحوال فالعالم خلق ليصطرع، ولكل قوم مصلحة بينة أو خفية من هذا الصراع، ومن أولويات مهماته أن يحافظ على أقصى حد منها، وأن يمهد الطريق إليها، أو أن يحققها بأقل الخسائر، ولا ينجي الضعفاء من الغدو الموبق إلا التكتل والاجتماع والاعتزال الإيجابي لكافة اللعب، وتفادي التوطئة لها، والاتقاء المشروع، والدفع بالتي هي أحسن. إن اللجاجة والحماقة والعنتريات في زمن الضعف وقلة الحيلة والهوان مدعاة إلى كسر العظم وحرق الأرض وحز الرقاب، وكل مشعل للحرب سيكون بعض وقودها، وكل مطلق للكلام على عواهنه سيكون تحت مراقبة الأقوياء، ومن المؤذي أن يضطر المحارب إلى التراجع بعد فداحة الخسائر، وقبل تحقيق الأهداف، أو أن يضطر المتعنتر في خطابه إلى التخلي أو الاعتذار، لقد ملّ المستضعفون من الرغاء بعد الصهيل، وضاقوا ذرعاً ب(البراقشيين)، الذين لم يجنوا على أنفسهم وأهلهم وحسب، بل امتدت أذيتهم إلى من يؤثرون السلامة، ويجنحون إلى السلم، لقد انتهى عهد الدكتاتورية والمقابر الجماعية، وإخراج المعارضين من ديارهم ومطاردتهم في

الآفاق، انتهت الخطابات الحدية والتحدي والانتفاخ والمغالطات، ولن يصلح هذه الأمة إلا ما صلح به أولها.

لقد شهد العالم الثالث ثورات دامية، تحولت فيها الشعوب إلى غنيمة لمن يستيقظ من نومه قبل الفجر، ويمتطي صهوة الدبابة، وعايش أحداثاً جساماً، كان فيها الموقد والوقود، وعندما خبت نارها، رحل اللاعب بالغنائم، وظل الموقد والوقود يتجرع مرارات ذيولها، ولسنا بحاجة إلى الشواهد، فكل ماهو قائم من فتن، إن هو إلا بداية لعبة أو ذيولها، وخير مثال نضربه واقع الأمة العربية والإسلامية، وكأن كل الغادرين موبقون، وصدق رسول الله ﷺ: - «**كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها**» وإذ لا نقدر على الإعتقاق الشامل فلا أقل من تفادي الإيباق القاتل.

ما يُنشر باسمي في المواقع تَقَوُّل وافتراء .. !(١)

أطلعني أحد الإخوة على مقال طويل نُشر في موقع (شبكة القلم الفكرية) بتاريخ ٢٨-٦-٢٠٠٥م، تحت عنوان (الليبراليون السعوديون وتجديد المكارثية) وقيل إنّه نُشر من قبل في (مواقع الساحات السياسية) تحت توقيع (حسن بن فهد) وهو حديث عن (الليبرالية) و(الديموقراطية) و(العلمانية)، وكاتبه الذي ربّما أنّه تقنّع باسمي، أو أتفق معه - وهذا بعيد - والمتقنّع يتوخّى في كتاباته القضايا السياسية والفكرية التي أتناولها في مقالي الأسبوعي كلّ يوم ثلاثاء في جريدة (الجزيرة)، والجريدة تنشر مقالاتي في موقعها على (الانترنت)، وقد يستحسنه البعض فينقله إلى مواقع أخرى، ليكون مجال إعجاب أو سخريّة وتندُّر، وقد حصل ذلك أكثر من مرة، وليس في النَّقل والتعليق من بأس، (والناس فيما يعشقون مذاهب)، وإن كان بعض النّاقلين والمعلِّقين يفهمون ما أقول على غير مرادي، ولكنّها حرِّية القراءة، (ومن ألف فقد استهدف).

ومع أنّ الكاتب المتقوّل يحاول قدر المستطاع التزام رؤيتي حول المستجد من المذاهب، إلاّ أنّه لا يتحرَّج من ذكر الأسماء التي قد اختلف مع بعض توجُّهاتها، وهو اختلاف يتراوح بين التنوُّع والتعارض، ولا يجد حرجاً من الحكم عليها والنَّيل منها، وما كان من عادتي التفحُّش في القول ولا تعمُّد التعيين. والمقال الذي عثرت عليه، والمقالات التي لم أعثر عليها بعد، والمقالات التي قد تُكتب فيما بعد، وإن اتفقتْ مع وجهة نظري في بعض ما أذهب إليه، إلاّ أنّها تختلف رؤيةً وأُسلوباً وطريقةَ أداءٍ، ومهما كانت تلك المقالات مساندة لرؤيتي فإنّني استنكر نسبتها إليّ، وأستعدي السلطة للبحث عن المزوّر إن كانت تقدر على ذلك، وعن أصحاب المواقع الذين يتقبّلون هذه المقالات، ثم لا يبادرون إلى إلغائها من مواقعهم ومحاسبتهم على جرأتهم.

فأنا كاتب لا استدعي إلاّ المبادئ، وموقفي منها موقفٌ علميٌّ متَّزن، وليس لي شأن بأصحابها، فهم زائلون، يمرُّون بها، ثم يتحوّلون عنها، أو تخترمهم يد المنون.

ومن ثم لا أسمح لنفسي استدعاء أشخاص بأسمائهم، ولا أسمح لنفسي باستعداء أيّ سلطة عليهم، إلاّ إذا دخلت معهم في جدل أو هم سمحوا لأنفسهم باستدعائي. وأرجو من كلِّ داخل على تلك المواقع أن يشعرني متى وجد مقالاً منسوباً إليّ، وأنا واثق بقُرَّائي ومعارفي على صفحات الصحف، فهم يعرفون أسلوبي، ويعرفون منهجي، وطريقة تناولي للمبادئ والظواهر والقضايا والأشخاص، وتعفُّفي عن ذكر الأسماء ما استطعت إلى ذلك سبيلاً. وسوف لا يلتبس عليهم ما يُكتب باسمي، ويتعمّد التجريح في أشخاص بأعيانهم، وإن كنت اختلف معهم، فأنا أحترمهم، وأشفق عليهم، وأرجو لهم السّداد والتوفيق، وليس من هدفي المساس ولا التشهير بالمخالف، وكتاباتي دعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، ودفعٌ بالتي هي أحسن، أجتهد ما وسعني الاجتهاد لتمثّل الحلم والأنّاة والبعد عن المهاترات، وكم أتمنى أن تظلّ القنوات مفتوحة مع الخصوم، فأنا باحثٌ عن الحقِّ، ولست باحثاً عن الغلبة، ومثلما أتمنى أن يجري الله الحقَّ على لساني، لا يسوؤني أن يجريه على لسان خصومي، وكلّ الذي أتمناه أن يوفِّقنا الله جميعاً، وأن يسدد خطانا، والحقُّ ضالّة المؤمن.

---

(١) تاريخ المقال: ٢/ ١٢/ ٢٠٠٥

ارتباك المشهد السردي نقداً وإبداعاً .. ؟ (١) [(١)]

لم يكن من عادتي أن أكمل قراءة عمل روائي في وقت قصير أو متواصل، بل لم أكن جاداً في قراءة الأعمال الروائية، وليس ذلك بمانعي من القول في شأنها قدحاً أو مدحاً، والسعي لإقالة عثرات المتخافتين بقول ليس من الإبداع ولا من النقد، ومغالبة المعوقات في المشهد الأدبي محليا على الأقل. وحين لا يكون لي اهتمام حاضر المشهد في هذا اللون من القول السردي فإن اهتمامي بالدراسات التاريخية والتنظيرية والتطبيقية لا يقل عن اهتمامي بالشعر وفنونه، وما صرفني عن النصوص السردية إلا ما يعتريها من عجف في اللغة لا ينقي، وتسطح في الأفكار لا يغني، وخروج متعمد على الضوابط لا يحتمل، وكتابات كما الخنثى المشكل، لا تعد من الإبداع في شيء. ودعك مما سوى ذلك من جنوح أخلاقي، أو انحراف فكري، وشطح سياسي، يسوِّق به الكتبة المبتدئون كاسد أعمالهم. وعزوفي عن رديء الأعمال ما كان له أن يحول دون التواصل غير العازم وغير الدائم مع عمالقة السرديين في الوطن العربي، ومع ما ترجم من أعمال عالمية. ولن استعرض شيئا من ذلك، فهي معروفة عند ذوي الشأن. ولربما جاء ذلك العزوف نتيجة الإخفاقات الذريعة مع تأثره برأي (العقاد) في السرديات الروائية، فهو لا يرى تكافؤاً بين الجهد والوقت من جهة والقيمة المكتسبة من جهة أخرى، ومن ثم يفضل قراءة الشعر، لكثافة الدلالة وانزياح اللغة، ومغالبة الفهم، ولقد كانت له مع ذلك إلمامات نقدية وله رواية يتيمة تقص حبه الفاشل.

وجناية بعض الروائيين الأحداث أنهم لم يسيطروا على اللغة، ولم يجودوا نظامها، ولم يتضلعوا منها بالقدر الكافي، كما أنهم لم يتوفروا على (تقانة) السرديات الإبداعية التي لا يجوز المساس بها، والبعض منهم مارس الكتابة في غياب الموهبة والتجربة والثقافة، حتى لقد أصبح مولوده على هذه الشاكلة خداجاً مبتسراً، فيما أسقّت طائفة من الموهوبين والأدعياء معاً في البعد الموضوعي إسفافاً اشمأز منه الغيورون على قيمهم الأخلاقية، وفي ذلك الاقتراف ضياع للإجلال والجمال. وتلك الظواهر والسمات الخارجة على المألوف يستمرئها المنطفئون والقاعدون، ويشيد بها المجاملون حياء أو مقايضة، ولأنني ممن فُرضت عليهم متابعة الحراك الإبداعي والنقدي بحكم تخصصي وميولي واشتغالي، فقد وجدت من خلال متابعتي للأعمال السردية وللقراءات النقدية التطوعية على الأقل محلياً وعربياً شططاً وتحاملاً من كل الأطراف. فالإبداع الروائي ونقده في النهاية ظالم ومظلوم، ولإنقاذ الموقف، وترشيد المسار، لا بد من مبادرة حصيفة، توقف هذا الهدر المسرف والتدهور المفجع.

فالمبدعون الروائيون في الوطن العربي كافة، لا أكاد أستثني أحداً منهم، يمارسون الصلف والتعنت والتعالي، وكأنهم بقية الفن الرفيع، جاؤوا على فترة من عمالقة الإبداع، وأحسب أن السامري أضلهم حين قال: (الزمن زمن الرواية). والنقاد المسايرون للمبْدعين المبتدئين والكتبة المتطفلين على الفن السردي، يسرفون في الإقبال والإدبار، فلا يحبون هوناً، ولا يبغضون هوناً. ومتى فقدت الموضوعية والمعيارية، وغاب الاعتراف بحق المتلقي، دخل أطراف السرديات في متاهة التلاسن القائم على الإقصاء والإلغاء والتجهيل. وحين يكون هناك عنف ورد فعل أعنف، لا يجد الوسطاء مناخاً مناسبا لفض الاشتباك وتقرير الحق، ولا يجد الوسطيون أجواء ملائمة للحراك المتوازن، فكل طائفة تحمل شطراً من الخطأ، وما كنت فيما أقول بسبيل البحث عن المشاجب، فكلنا خطاءون،

---

(١) تاريخ المقال: ٦/ ١٢/ ٢٠٠٥

والخيرية فيمن يستبق الخيرات، ويستجيب لداعي الحق، ويبحث عن سبيل يؤدي إلى إحياء الفن الأصيل، ويعمل على إيقاف نزيف القول المجاني. والمتقرئ لركام القول يحس بأن المصداقية تكاد تكون مفقودة من كل الأطراف، الأمر الذي فوت على الراهن النقدي فرصاً ثمينة، وهذه التشنجات أفقدت المشهد الأدبي التوازن والإيجابية. والمحبط أنها تصَّعَّد في سماوات الأدب، فيما تظل بوارق الأمل ضعيفة.

الذين يُنحون باللائمة على النقاد المحجمين أو المترددين، ويصفونهم بالتقصير أو بالعجز، لا يدور في خلدهم ما يحول بين الناقد المحتشم وما تشتهي نفسه من إبداع آخذ بمجامع الجلال والجمال، فأكثر الأعمال ضعيفة، وردود الفعل المسفة على أشدها، والنافخون في القرب الفارغة يوهمون الرجال الجوف بالامتلاء، والناقد الذي يحترم مكتسبه ومصداقيته، لا يمكن أن يفرط بشيء مما اكتسب، لأنه متى زج بنفسه في تلك الأتون سلقته الألسنة الحداد، وقد يدخل بين أطراف متشنجة مسكونة بالمراهقة الفكرية والأدبية، تقول الكلام على عواهنه، ولا تلقي له بالاً، وهي بما تقول لا تبحث عن الحق، وإنما تنشد الغلبة والتهوين من شأن الناصح الأمين، ومثل هذه المواجهات التصفوية للسمعة تصرف أصحاب المثمنات عن الدخول في مناكفات خاسرة من أصلها.

وفي كنف هذا الاندفاع المهتاج والإحجام المتخوف، لم تعدم السرديات القصصية أو الروائية المتابعين الواعين من النقاد الأكاديميين ذوي التخصصات السردية من الطلبة الدارسين. ولكن الرسائل الجامعية تظل حبيسة الأدراج، فلا تسد خلة، ولا تروي غليلاً، ثم إنها محكومة بمناهج وآليات وخطط تقليدية متكررة، يفرضها الآمرون في الأقسام العلمية، وكثرتها أميل إلى الرصد والتوصيف والتاريخ، بحيث يقع الحافر على الحافر. والتناظر والنمطية في المناهج والخطط والآليات فوت عليها أشياء كثيرة، وأفقدها الألق والجاذبية، وقعد بها دون الاستفادة من الآليات والمناهج الحديثة، حتى لقد زهد أصحابها بها، وترددوا عن نشرها، فكانت كأن لم تكن، وما شذ عن القاعدة يؤكدها.

على أن قلة من الدارسين أخذتهم الثقة والشجاعة، وأقدموا على طباعة رسائلهم، فكان أن سدوا خروقاً أوسع من الرقاع، ومما طبع محلياً على سبيل المثال رسالة الدكتورة (منال العيسى) عن صورة الرجل في القصة القصيرة، ورسالة الدكتور (محمد العوين) عن المرأة في الرواية، ورسالة الدكتور (حسن حجاب الحازمي) عن البطل، ورسالة الدكتور (إبراهيم الشتوي) عن الصراع الحضاري في الرواية المصرية، وقد وقع فيما وقع فيه سلفه من تجانف لما لا يمكن القبول به، ومن قبل هؤلاء رسالة الأستاذ (سحمي الهاجري) عن القصة القصيرة، وهي أعمال تتميز بالضوابط الأكاديمية، وتترسم خطى من سبق.

والدراسات التنظيرية والتاريخية في متناول اليد، وشروط الرواية وأركانها ومتطلباتها الأسلوبية والفنية والدلالية مبسوطة ومبذولة لكل من أعوزته المعرفة على أصولها. وقد تكون الدراسات المترجمة أكثر اتزاناً وتوازناً، وأوفر معلومة، وأكثر حيادية. وليس هناك ما يحول دون معالجة التقصير في أي عمل إبداعي، ولكن الإشكالية في رفض معطيات الخلفية القرائية، وفي عقابيل ذلك. فالناقد المحافظ على الشرط السردي والضابط اللغوي والتميز الأسلوبي لا يقبل التجريب المنفصل عن تلك السمات. والمغرم بالتجريب لا يجد بداً من رفض هذا النوع من النقد، لأن المتهافت على بوارق التجديد يكاد يقع في التخريب من حيث يدري أو لا يدري، وهذا الميل الكلي يحمله على رفض الناقد المتمسك بحق التجريب المعقول، بالشرط الفني المتداول في المشاهد النقدية كافة.

والمبدع الذي انزلق في متاهات التجريب، وأغوته الإغراءات الجامحة، لا يجد بداً من المواجهة العنيفة لكل من أراد أطره على ضوابط العمل الروائي. والمتحفظ المتمكن

المتابع للمستجدات المميز بين التجديد وحداثة الانقطاع، لا يمانع من التجريب المعقول، ولكنه لا يقبل الانقطاع اللغوي والفني، ولا يستسيغ النثرية التي لا تتوفر على الأدبية. والذين يتقبلون هذا اللون من التجريب الذي قد يتجاوز حد الانقطاع، يعنفون في مواجهة الناقد المصطحب لشروط الفن، ويزدرون الحد المعقول من الضوابط، وهم في ظل الاهتياج الفارغ لا يقولون الحق، بحيث يشيدون بموقفه المشروع، ويثمنون تمسكه بالضوابط، ثم يبدون اختلافهم المعتبر معه، وإنما يعمدون إلى التجهيل والاستخفاف. ورجل يؤثر السلامة، ويغلّب جانب الإبقاء على قنوات الاتصال وجسور التواصل، لا يريد أن يطرح سمعته للعلك الرخيص، ولا يريد أن يفقد العلاقات الطيبة من نظرائه، وحتى لو تحامل على نفسه، وأجرى سفينه، فإن بعض الأعمال لا تمتلك العمق القادر على تمكينه من التحرك بحرية، لأنها مستنقعات ضحلة موحلة.

وبعض الأقلام طويل الشباة، يحتاج إلى أعماق تمكنه من التحرك بحرية، ومن قصد البحر استقل السواقيا، والناقد المعياري الجاد أو اللغوي المتمكن لا يجد ما يحمل قلمه عليه، فيعف عن ممارسة النقد، وهذه التراجعات الاختيارية أو الاضطرارية جعلت المشهد دولة بين المتقارظين والمتقايضين المتلاسنين والمتشايلين، ممن لا يحسنون إلا تبادل أنخاب الثناء، أو التنابز بالألقاب. وفي هذا إضاعة للنقد والأدب الحقيقيين، وتشويه متعمد لسمعة المشهد النقدي، وكم كنت أتمنى من كل الأطراف مجافاة الإقصاء والتهميش، وتفادي تبادل الاتهامات الشخصية. وأذكر في هذه المناسبة أنني كتبت مدخلاً تاريخياً وصفياً للإبداع السردي المحلي، وجعلته فيما بعد مقرراً دراسياً وفصلاً من كتاب مخطوط، وحاولت بجدية تفادي التعميم ومجانية القول، ومع ذلك لم يعجب ما ذهبت إليه طائفة من الشباب، وبخاصة من كانت لهم محاولات سردية، لا تستحق الإشارة فضلاً عن الإشادة، وإن كانت بعض تلك الأعمال تنطوي على مؤشرات واعدة.

وايم الله إنني لم أدخر وسعاً في الإنصاف، وليس رهاني على التألق، ولكنه على الصدق وتوخي الحق. ومن بعد هذا تناولت (النقد البنيوي للرواية) متخذاً ناقدين مغربيين مجالاً للنقد التطبيقي، ونشرت الدراسة في خمس وثلاثين حلقة، واجتهدت ما وسعني الاجتهاد في الممارسة التطبيقية، والمؤسف أن هذه الدراسة هي الأخرى لم ترُق لآخرين من الدارسين والكتبة، ولم تواجه بالنقد الموضوعي، وتقصي الإخفاقات المنهجية أو الاستنتاجية المتوقعة، وبهذا الانحياز السلبي حُرم المشهد النقدي من مطارحة الآراء والوصول إلى مستقر الحق، وإذ لا أقطع بصحة ما أقول ولا تألقه، فإنني في الوقت نفسه لا أقطع بخطئه، وإنما هو كما قيل: (قولنا صواب يحتمل الخطأ)، فأين الذين يحقون الحق، ويستدركون الخطأ دون سخرية أو استهزاء؟

وإشكاليتنا أن المبتدئ يريد أن يكال له المدح، حتى لا تبقى كلمة ثناء إلا ساقها المقرظون، كما أن الناقد المادح بمجانية يريد الأشياع والأتباع، وحين يخلو المشهد لهذا وذاك يفقد المصداقية وقول الحق والأهلية، وغرروا بالناشئة وبالمبتدئين، حتى أنسوهم أنفسهم، وإذا استنفد المبتدئ كل المحامد في محاولته الأولى، لم يبق لعمله الثاني ما يمكن أن يقال، وعلى المتردد أن يستذكر ما قيل عن (الحزام) و(سقف الكفاية) و(الفردوس اليباب) و(بنات الرياض) وما سيقال عما يلحق من أعمال. لقد وقعت تلك الأعمال تحت طائلة الجزر والمد، وكلا طرفي الإفراط والتفريط ذميم. ومن طبعي ألا أجازف في الثناء، وإن أعطى المبدع في محاولته الأولى مؤشرات التألق، فلست ممن يستدر عواطف الشدات، ولا ممن يخلط بين النثر العادي والسرد الإبداعي، وأكره ما أكره أن أسمع من يطلق الثناء على كل من لملم نثاره وأخرجه إلى الناس بوصفه عملاً إبداعياً وما هو بشيء، حتى ولو كان للثناء نصيب من الحق، فنحن لا نستفيد من أنخاب الثناء.

نحن نريد قراءة لغوية وفنية لسائر الأعمال، تزن الأمور، وتضع يدها على التجليات والإخفاقات. ولكن المجاملات الزائفة، حرمت المشهد من كلمة الحق التي تسهم في تصحيح المسار. ولقد لُمزتُ حين آخذت شهداء الزور والمزايدين وموزعي صكوك النبوغ الزائف، وحين أنفت من تحويل المشهد النقدي إلى جوٍّ كنسي، لا يجود إلا بمنح صكوك التألق كما صكوك الغفران. وعلى الرغم من كل التحفظات والإخفاقات فإن المشهد المحلي يمتلك القدرة على الرهان: إبداعاً ونقداً، وحاجته إلى مبدع يبحث عن مرايا النقد المقعرة، والمحدبة، ليرى نفسه بكل ملامحها.

والناقد المنصف لا يمكن أن تعدو عينه عن أعمال روائية محلية لا تقل عما حفلت به المشاهد العربية، ومهما توفر بعض الروائيين المحليين على مقومات الأعمال الروائية فإن قلم الناقد لا يمكن أن يذعن لهم، ولا أن يسالمهم، وليس من مصلحة المشهد المصالحة والتغاضي. وخسارة المشهد في التواطؤ على الثناء والتزكية الزائدة عن حدها لأعمال لها وعليها، إن المبالغة في الثناء تحرم الأعمال مزيدا من التداول النقدي الموضوعي، فالمدح كحز الرقاب، وفوق ذلك فهو قتل متعمد لفعاليات المشهد النقدي، ولعل المتابع لآخر الأعمال المثيرة (بنات الرياض)، يجد أن اللغط حولها لم يدخل في العمق، إذ لم يفكك متعاطي النقد اللغة فيبدي سوآتها، ولم يقوض الدلالة فيفضح انحرافاتها، ولم يشرِّح الفنيات فيكشف عن إخفاقاتها، ومجمل ما يقال ثناء مفرط أو ذم مفرط، ولمّا نزل مرتهنين لثنائية: (الملائكية) و(الشيطنة).

ارتباك المشهد السردي نقداً وإبداعاً .. ! (٢) [(١)]

ولما كانت الساحة الأدبية - كما اللحد الذي تصوره (المعري) ضاحكاً من تزاحم الأضداد - تفيض بواعدين، لم يبلغوا حد النضج، وتزدحم بموهوبين استكملوا عدة الإبداع، وتموج بأدعياء يكتبون، ولا يبدعون، ويشيرون، ولا يثرون، ويطنبون، ولا يطربون. ولما كان المشهد النقدي دُوْلة بين أوزاع المبدعين والأدعياء والنقاد المداهنين؛ فقد أصبح لزاماً على حراس الفن الرفيع أن يأخذوا على أيدي العابثين والمعذرين، وأن ينفوا عن مشهدهم زائف القول وردي الكلام، وأن يتولوا إقالة العثرات.

فكل مشهد أدبي بحاجة إلى من ينقي أجواءه، ويرشد ضاله. ولاسيما أنه مسرح للأحداث المتزببين، وللكهول المتصابين، ومثل هؤلاء يسارعون بالتافه من القول، والصارم من التأييد، وواجب المقتدرين أن يبذلوا جهداً مناسباً، يحمي من الجور والمجازفة. ولكيلا نصل بالتيئيس حد الإحباط، فإننا نشير إلى مبدعين تخطوا بأعمالهم نطاق المحلية، وإلى نقاد متمكنين، يتوخون الحق والموضوعية. ولكن الفئتين من القلة، حيث لا يتراءاها إلا ك(زرقاء اليمامة)؛ لضياعهما وسط اللغو الغالب والصخب الفارغ، فعلى مستوى الإبداع المحلي لا نجهل جيل الوسط من أمثال (رجاء عالم) و(عبده خال) و(يوسف المحيميد) وآخرين غيرهم، يمثلون الوسطية الزمانية بين فئتي الريادة والتأسيس من جهة، وفئة الانطلاق التي اختلط فيها الحابل بالنابل. فالثلاثة طليعة الممثلين لتلك المرحلة، من حيث البعد الفني على الأقل. والأخيران يمتلكان موهبة سردية، وإن لم يتضلعا من (الثقافة) ولم يسيطرا على (اللغة) بالقدر المتكافي مع مبلغهما من الفن، ولكنهما يتصدران لداتهما، ومثل هذه الإمكانيات تعفو عن كثير. ف(الخال) يكتب عن معاناة و(المحيميد) يكتب عن انطباعات، والثلاثة لا يقدرون على إعتاق المشهد.

ولكل مرحلة من مراحل: الريادة والتأسيس والانطلاق مبدعون لا يقيلون العثرة، ولكنهم يخففون من حدتها ومأزوميتها، فعلى مستوى الريادة والتأسيس نجد (السباعي) و(الدمنهوري) و(الناصر) و(خوقير)، وعشرات آخرين، ممن لهم أعمال تمد بسبب إلى الأصالة بمفهومها الغربي، ولقد رصدت ذلك كله في (المدخل السردي). والتصدي للمتهافتين على الكتابة السردية قبل النضوج وصد الممجدين لهم قبل الاستيعاب، لا يعني النفي من المشهد، وإنما الغاية ترشيد مساره، وتسديد سهامه. ولن يستقيم أمر الإبداع السردي إلا بالمكاشفة والمواجهة، وفق آليات ومناهج وخبرات ومعارف. ومتابعة الدراسات الأكاديمية المخطوطة والمطبوعة تكشف عن أبعاد فنية ولغوية ودلالية، تطفئ غضب المأزومين من غثائيات الأدعياء. فالأستاذ (معجب العدواني) تقصى مجمل تلك الأبعاد في أعمال (رجاء عالم)، والدكتورة (عائشة الحكمي) والدكتور (عبد الله الحيدري) تقصيا أطرافاً من الجوانب اللغوية والفنية والدلالية لطائفة من السرديين. ولقد كنت سعيداً بالإشراف أو بالمناقشة لبعض تلك الرسائل، والثلاثة المبدعون الذين ضربت بهم المثل، ليسوا وحدهم ممن يشار إليهم بالبنان كنماذج لاستيفاء مؤهلات الإبداع، ولكنهم الأكثر حضوراً والأقل توفراً على احتفاء المشهد. ولسنا نريد بالاحتفاء الإشادة، وإنما نريد الدراسة المعمقة وتثوير كل المنطويات.

وروايات (الخال) و(المحيميد) أثارت المشهد، ولكنها إثارة متواضعة لا تحرر رؤية، ولا تؤصل لمعلومة. والتحفظ على بعض الهنات لا يصادر الحق، ولست هياباً ولا وجلاً من مسايرة المتحفظين على بعض استفزازات (رجاء عالم) وإن كانت كاللمم،

---

(١) تاريخ المقال: ١٣/ ١٢/ ٢٠٠٥

والحسنات يذهبن السيئات. وبودي لو حكم المشهد بالعدل، حيث لا يكون في نفوس المبدعين وأشياعهم حرج مما حكم به النقاد العدول. وكم كان بودي أن يفرغ المتمكنون لقراءة سائر الأعمال السردية، وأن يواجهوها بمناهج وآليات تحفظ الحقوق للمتلقي وللمبدع وللمشهد؛ فالنقاد والمبدعون كالمستهمين على مشهد الأدب، ومن الخير ألا يستقر فيه إلا ما ينفع المتلقي لغوياً ودلالياً وفنياً.

والاستقراء المحكوم بضوابطه هو الحل الأمثل في زمن الانفجار السردي وفوضويته، ولاسيما أن المستجد من الأعمال يشكل منظومة تحولية: شكلاً ودلالة، لغة وتِقانة. فأين منّا الناقد الجدير والمبدع القدير؟. ولو عدنا إلى بعض ما يشغل المشهد لوجدنا أن رواية (القارورة) - على سبيل المثال - خليط من ظواهر شتى، ولقد كنت أحسبها من قبل رمزاً للمرأة، حتى إذا قرأتها تبين لي ألا علاقة لها بالقوارير؛ إذ هي كما قماقم العفاريت، أو صناديق المصفدين في الأغلال، على شاكلة (شُبيك لُبيك) وتلك خليقة الحكواتيين، فالسارد عوَّل فيها على الحكاية الخرافية، وكاد يخلط بين الوقائع الحقيقية بكل فقاعتها، كأحداث الخليج ومتعلقاتها وحكايات العجائز على الأطفال. وما ساقه على لسان الفتيات الثلاث كان شائعاً ومعروفاً ومتداولاً على ألسنة الأطفال في (نجد) بل في (بريدة) بالذات، وهو من أبنائها.

وكنا قد سمعنا شيئاً من هذا في طفولتنا من أمهاتنا وجداتنا، وكنا نسمي تلك الحكايات الخرافية (سباحين) الواحدة (سبحانية). والأديب (عبد الكريم الجهيمان) ساق أطرافاً من هذه الحكايات في أساطيره الشعبية، كما ساق شيئاً من ذلك (فهد المارك) في كتابه (من شيم العرب) وجاءت أمشاج من الخرافات والأساطير في بعض كتب الشيخ (محمد بن ناصر العبودي)، وجاءت باللهجة العامية البسيطة في سلسلة كتب شعبية ألفها وطبعها الكاتب الشعبي (سليمان بن إبراهيم الطامي) ومن قبله والده رحمه الله، وألم بشيء من ذلك كله الكاتب (سليمان بن محمد النقيدان) رحمه الله. وتوظيف التراث العربي أو الشعبي يتطلب الرحيل بالموروث لا الرحيل إليه، وتحويله من نص حكواتي إلى نص إبداعي، وعيب المستثمرين النقل الحرفي المتنافر مع عبارات الربط.

والمتابع للمسترفدين، لا يجد مسافة فنية بين التناولات، حيث يمتاز العرض الروائي عن سائر العروض الأخرى، وبخاصة حين يتخلى الروائي عن حسه القصصي، ويقع تحت طائلة التجريب التي ترفض الشرط، وعلى ضوء هذا التمييع للضوابط فإن بإمكاننا أن نسمي مشروع معالي الدكتور عبد العزيز الخويطر (أي بني) عملاً روائياً؛ لأنه إطلالة على الماضي والحاضر. و(المحيميد) أكثر جرأة من (الخال) في الخروج على الشرط الروائي، والاثنان يمتلكان موهبة سردية لا مزايدة عليها، وتلك الموهبة وذلك الاقتدار لا يصادران حقنا في القول، ولا يحملاننا على المداراة والمداهنة. والاحتفاء بالمبدع لا يبيح غمط المتلقي وإكراهه على قبول الهنات التي يمكن تلافيها، والتي تعد من عجز القادرين على التمام.

والأساطير والخرافات وأدب الاعتراف والانطلاق من قعر الواقع بكل تدنياته أخذت طريقها إلى بعض الأعمال الروائية بعد أمة، ولم يكن هذا الاحتفال مبادرة من المبدعين والنقاد؛ ولكنه ناتج إصاخة لما يعتمل في المشاهد الغربية، ومشاهدنا مرتهنة لتجريب الآخر أو تقليده، ولما نشب عن الطوق، والعاجز من لا يستبد، ولا يؤز الخلاف إلا المكابرة، فكلما قيل لمدَّعي المبادرات: هاتوا برهانكم، انفجروا كالبراكين، وتعمدوا الإقصاء والتجهيل وتلفيق الاتهامات. وبدهي أن يكون للموروث العربي في التفسير والتاريخ احتفاء بالخرافة والأسطورة، ولكن المشهد الأدبي ولاها الأدبار، حتى التقطها الغرب من تراثنا، فكان أن نبهنا إلى أهمية ذلك، وحملنا على استرداد بضاعتنا، دون علم،

ودون وعي، وكان اندفاع المفسرين لأسطرة أحسن القصص تعويلاً غير سديد على قول الرسول - ﷺ-: «**حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج**» وهو تعويل يدل على خصوبة الخيال والاستجابة لفطرة الإنسان الميال بطبعه إلى الأساطير. وتوظيف الرمز والأسطورة والخرافة في الأعمال الروائية التجريبية مثار جدل صاخب بين النقاد والمنظرين، ومثله توظيف التراث التاريخي، والمعضلة أن المشهد دولة بين النفي والإثبات.

لقد أتيحت لي فرصة القراءة ل(كتاب التجليات: الأسفار الثلاثة) ل(جمال الغيطاني) ومتابعة ما كتب حول ظواهر الرمز والأسطورة والتاريخ، وبخاصة في جانب التوظيف التراثي، فتبين لي أن الإغراق في الأسطورة والخرافة عشق المبدعين المعاصرين، وهو إغراق غير متوازن، وغير منضبط، وقد يكون دون وعي، وقد تزامن ذلك مع الإيغال في التجريب، الأمر الذي قد يفوت علينا متعة الفن القصصي الرفيع، ولربما تتداخل تلك النزعات مع ظاهرة الرواية التاريخية، ولكنه تداخل يحتاج إلى مزيد من الاستقراء. والاندفاع في التجريب أدى إلى الانقطاع المتعمد، حتى أصبح المتابع لا يقدر على التفريق بين القصة والرواية والسيرة والأسطورة والتاريخ والحكاية الخرافية، إلا إذا تطوع الكاتب، وكتب على الغلاف نوع العمل، إن كان رواية أو ديوان شعر أو قصة أو سيرة ذاتية، فالشكل لم يعد ذا قيمة، مع أنه السمة الأهم للتفريق بين أنواع الإبداع القولي.

ومع أن رواد الإبداع السردي في (مصر) و(الشام) قد استزلهم الغربي، إلا أن الممانعة حالت دون الوقوع في المسخ. والراصدون من النقاد يستبينون حجم المتغير الشكلي والفني واللغوي والدلالي، وهو حجم يتنازعه الإسراف في التهافت على المستجد لدى الشباب، والاعتدال المتردد لدى الكهول. وعلى سبيل المثال فقد اختلف المنظرون في التفريق بين الرواية والقصة، وذلك في إطار المستجد الشكلي، وجاءت آراؤهم في غاية من العماية والتيه، حتى لقد اختلفوا حول عمل (نجيب محفوظ) (اللص والكلاب)، هل هو عمل روائي أم قصصي؟ ذلك أن للرواية أركاناً وشروطاً ومواصفات تتعلق بالشخصيات والأحداث والأزمنة والأمكنة، ولا ترتبط بالمقدار الكلامي على سنن المفرقين بالكم. والإشكالية حين تتشابه الأحداث والشخصيات، وتطول الأزمنة، وتمتد الأمكنة في إطار تشابه الأشكال. ومثلما ظهرت مدارس نقدية في الغرب بعدد النقاد، وتفاوتت في الشأن السردي والنقدي والأدب المقارن، فقد ظهرت في المشرق العربي حالات مماثلة، ولكن البعض منها مجتث لا يقر، وبخاصة عند المبهورين من سرعة التحولات في المشاهد الغربية والعاجزين عن ملاحقتها.

والنقاد في ظل التحولات السريعة يختلفون حول النوع الإبداعي، فقائل بأنه عمل روائي، وقائل بأنه عمل قصصي، وقائل بأنه قول لا يلحق بالرواية ولا بالقصة. وسبب اختلافهم الاختلاف حول التقيد بأدنى حد من الضوابط والمعايير، والمعضلة نفسها امتدت لسائر الظواهر الأدبية، ولكنها دون إشكالية الرواية. ويقيني أنه لا مكان للفوضى ولا للتسيب، فالشعر يجب أن يكون شعراً، والسرد يجب أن يكون سرداً، ولا تتحقق الشعرية ولا السردية إلا بسمات وضوابط لغوية وفنية وشكلية، يعرفها النقاد، ويركنون إليها حين يختلفون؛ إذ كل نزاع فني أو لغوي لابد له من أهل ذكر يفضون التنازع بوصف أو بضابط أو بعرف، وليس هناك شيء في الوجود إلا وله معهود ذهني يهرع إليه المختلفون، وله نظام يحكم حركته، وتعديل الأنظمة والشروط يختلف عن إلغائها.

والمصير إلى مفهوم (الكتابة) بوصفه مصطلحاً مفتوحاً يلوذ به كل عابث يعطو إلى فُسَحِ التسيب والتمييع لا يمكن أن يفض التنازع. وإتاحة الفرصة لكل مبتدئ أو مدعٍ أن يقول عن محاولاته الفجة: إنها شعر أو سرد فني، إمعان في الضياع، وشعوره بأن من واجبنا أن نذعن له، وأن نقبل قوله وكأنه (حذام)، ولا نكلف أنفسنا عناء البحث عن

مبررات تثبت أن هذا العمل شعر أو سرد، وما هو - في نهاية الأمر - بالشعر ولا بالسرد، هذا الشعور، وتلك الفوقيات الآمرة أضاعت الضوابط، وخولت أدناهم أن يكتب سطراً أو سطرين أو حتى كلمة واحدة، ويسمي ذلك عملاً قصصياً، وقد اقترف البعض مثل هذا، وأقبل المعذرون لإكراهنا على الاحتفاء بهذا العبث، بل طاروا به فرحاً، وعدوه فتحاً مبيناً في عالم السرديات، والمخجل أن هذه الدعاوى على رغم فجاجتها لم تكن من عند أنفسهم، ولو أنهم ابتدروها لكنا استسغناها، وقبلنا بها على مضض، وألحقناها بنظائرها من (التوقيعات) مع الفارق، ولكنها لفحة سموم من لفحات الغرب عصفت بنا فتلقيناها، كما لو كانت مبادرة لا يستقيم شأننا إلا بها.

ومن المؤذي أن طائفة من المبتدئين يمارسون التفحش والانحراف، ليكون قولهم مثار جدل موضوعي لا فني، وهذا الجدل في نظرهم كاف لتحقيق الحضور، وما يدري أولئك أن السقوط الأخلاقي والانحراف الفكري والجنوح السياسي، لا يجني من ورائه المقترفون إلا سبة الدهر، حتى إن البعض من أولئك تسلل لواذاً وطبع عمله خارج البلاد، ثم سربه عبر النوافذ، وأتاح الفرصة للكتبة لتوجيه اللوم إلى من يتهمونهم بقمع الحرية، وممارسة الحق وأطر المتفلتين هو عين الحرية؛ إذ لا حرية في ظل الفوضى. والفن الرفيع هو الذي يظفر صاحبه بشرف اللفظ، وشرف المعنى، وجودة الفن، ولقد قيل: إن الفن يرفس في القيود، ولا فن بدون شروط قاسية تقمع الأدعياء والمغثين، ومتى تعرض المبدع لأي إخفاق في السمات والضوابط، تحول العمل إلى زبد يذهب جفاء. وكل الإيجاف بالقول أو بالفعل لا يغير من الأمر شيئاً:

أيَكـــونُ الهِجـــانُ غَيـــرَ هجـــانٍ

أم يَكـــونُ الصُـــراحُ غَيـــرَ صُـــراحِ؟

مدائح الملك عبد العزيز في صحيفة أم القرى .. ! (١) [(١)]

ظواهر الأدب وقضاياه تتبادل المواقع في الحضور والغياب والأهمية، واتجاهات النقد كما تقلبات الطقس، تحركها تحولات المشاهد الثقافية: عربياً وعالمياً، والمحو والإثبات تحكمه رياح التغيير. والراصدون لسنّة التدافع يتفاوتون في القبول والرفض، كما يتفاوت الشعراء في استباق الترثنة والعصرنة. وخير المختصمين والمستبقين من يغلّب جانب الجلال على الجمال، والزكاء على الذكاء، ولا يجد غضاضة من التفسح في المجالس لكل ظاهرة فنية أو دلالية تثري ولا تلغي، فحق الناس أن يجدوا ما يشبع رغباتهم، إذ لا شرعية للمصادرة والإقصاء، ولا مكان للنمطية والسكونية، والإشكالية في حفظ التوازن بين التراث والمعاصرة. و(شعر المناسبات) وبخاصة ما يتعلق منه بالمديح، لا يحفل به المشهد النقدي المعاصر، وهو داخل في جدل الذاتي والغيري، ولكل عصر هادٍ ينذر أو مضل يستدرج، والخلاص في التوفر على المستجيب للذوائق والحاجات وفق قدر من الشروط والضوابط المعتبرة. ولقد كانت لي وقفات توفيقية لعقلنة المواقف، وتحامي الإلغاء والأثرة.

والحديث عن محتويات (جريدة أم القرى) بعد أن دخل ماضيها المجيد في ذمة التاريخ قول ثقيل وشاق، ولكنه بتضافر الجهود أصبح في متناول اليد، ولقد عرفتها معرفتي بما عاصرت من صحف، وكان ذلك عبر مصدرين رئيسين:

المصدر الأول: ما أنجزه الأستاذ الدكتور (منصور بن إبراهيم الحازمي)، وهو جهد كشّافي (ببليوجرافي) يضع مواد الجريدة بين يدي القارئ، بحيث يلم المتابع من خلال هذه الفهرسة باهتماماتها وبكتّابها وبمبدعيها وبسائر قضاياها. وفي ذلك رصد إحصائي دقيق.

أما المصدر الآخر: فكتاب (الملك عبد العزيز في عيون شعراء جريدة أم القرى)، ولقد كان لي شرف الإسهام في إنجازه، وقصتي مع الكتاب ظريفة وطريفة، فلقد بُعثت لي مخطوطته في مجلدين ضخمين للتحكيم، وحين أبديت ملاحظاتي، أوصيت بأن يكتب المقدمات ثلاثة من المتخصصين في التاريخ والأدب والإعلام، رغب الناشر اختصار ذلك كله بواحد، فكنت هو، حيث طُلب مني النهوض بالمهمة الثلاثية، فكان أن راجعت مادة الكتاب، وأعددت كافة مقدماته: التاريخية والأدبية والإعلامية.

ومرت السنوات، لأعود إلى الموضوع مرة ثانية، وذلك حين حُكّمت في كتاب (الاتجاهات الموضوعية والفنية في كتاب: الملك عبد العزيز في عيون شعراء صحيفة أم القرى) وأحسبه عملاً أكاديمياً، تناول النصوص التي اشتمل عليها الكتاب عبر دراسة مسحية شاملة، وطبعيٌّ - والحالة كذلك - أن تتجدد الرغبة في العودة إلى ذلك المصدر الثر، لأعيد قراءة موضوع واحد من موضوعات شتى وسعها الكتاب، وهو موضوع (المدائح) التي أبدعها شعراء الآفاق العربية وخصوا بها (الملك عبد العزيز) رحمه الله، لا يحرك مشاعرهم إلا الحب والإعجاب والإكبار.

وقصائد المناسبات تتنازعها قيم تاريخية وسياسية واجتماعية ودينية، وهي بلا شك (ديوان ذلك كله)، والشعر كما يقال (ديوان العرب) يرصد أحداثهم، ويهذب أخلاقهم، ويثري معارفهم، ويصقل مواهبهم. وليست العبرة في خصوص السبب، ولكنها في عموم الدلالة، وتألق العمل، وبراعة الشاعر، وقدرته على شد الانتباه، وإثارة المشاعر. وهل يجرؤ عاقل على التفريط بمدائح (أبي تمام) للمعتصم، أو بمدائح (البحتري) للمتوكل، أو بمدائح (المتنبي) ل(سيف الدولة)؟ وهل أحد ينكر ما تنطوي عليه تلك الإبداعات من

---

(١) تاريخ المقال: ٢٠/ ١٢/ ٢٠٠٥

ثروات: لغوية وفنية ودلالية؟ وأذكر أن إحدى الدارسات في (جامعة الملك سعود) أفاضت في دراستها ل(سيفيات المتنبي)، وخرجت بنتائج مثرية. وتلك الدراسة القيمة أوحت لي بعنوان دراسة جاءت في سياق الاحتفاء بالمئوية، عنونتها ب: (سعوديات ابن عثيمين) نشرت أولاً في (مجلة الدارة)، ثم ألقيت ثانياً في (نادي أبها الثقافي) وصدرت فيما بعد في كتاب متداول. وأياً ما كانت دوافع القصائد فهي منْجم ينطوي على قيم ثمينة، لا يجليها لوقتها إلا النقاد المقتدرون الذين يتجاوزون حدود المناسبة إلى تداعياتها، على سنن (البنيويين) الذين يميتون متعلقات النص ليفرغوا لذاته.

ولقد أحسست وأنا أقرأ شعر (العصر الذهبي) أن المادحين والممدوحين قضوا نحبهم، ولم ينتظر إلا ذلك الشعر الزاخر بالقيم الفنية والدلالية. ولعلنا نستذكر مقولة (عمر بن الخطاب) رضي الله عنه لأبناء (هرم بن سنان): ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم. والمدّاحون متفاوتون، فمنهم من هو أهل لحثو التراب في وجهه، ومنهم من يستحق (بردة الرسول) ﷺ، ولا يعرف الفضل لذويه إلا ذوو الفضل.

واستعادة المدائح منذ العصر الجاهلي إلى العصر الحديث تثري المتلقي لغةً وأدباً ومعاني. فأين نحن من (زهير بن أبي سلمى)، و(حسان بن ثابت) وأصحاب النقائض و(المتنبي) ومن خلف من بعدهم؟. صحيح أن الشعر الذاتي أصدق قيلاً، لأنه يجسد الهموم ولا يستجدي الموسورين، غير أن الشعر الغيري ألصق بالموضوعية، وأغنى بالمعاني، وأثرى بالتجارب. وللمتابع أن يوازن بين شعر (عمر بن أبي ربيعة) بوصفه شاعراً ذاتياً، فرغ لنفسه، ولم يفرغ لجيبه، كما يقول (طه حسين)، وشعر سائر الشعراء الذين في ظلال القصور، ثم لينظر أيها أزكى قولاً، ولسنا مع هذا ننكر الكذب والمبالغة. ولأن متعلقات الشعر الغيري موضوعية فإن دراستنا ستُعوّل على القيم الدلالية.

وقبل أن نباشر النص الشعري نود أن نلمح إلى ظروف تشكله وبيئاته لتجهيز أرضية الانطلاق، إذ ما من شعرٍ إلا وله مكوناته المرتبطة بذات الشاعر، أو بالبيئة التي تحيط به، أو بالأحداث الجسام التي أثارت كوامن الشعراء. والشعر النابع من قعر الواقع يعطي مؤشرات قوية، تبدو معها ملامح البيئة بمختلف وجوهها، وخطوات التشكل لكيان (المملكة العربية السعودية) تكمن في منطلقات الشعراء، وكيف لا ينطوي الشعر على ظروف المرحلة وخطواتها، وهو لسان الأمة أو العشيرة.

لقد كانت أقاليم البلاد خارج متن التاريخ أشلاء قبلية وإقليمية وطائفية مرتهنة للجفاف والتصحر والجهل والأوبئة والحروب، يكاد قوت الكفاف يكون عزيز المنال، لا تمتد إليه الأيدي إلا بالأسنة والرماح، وكل قاصد لبيت الله معرض للسلب والنهب. ولما أن قيض الله لهذا الواقع المؤلم من يجمع كلمة أهله، ويوحد صفوفهم، ويحدد أهدافهم، ويقيم الأمن في الحواضر والبوادي، جاء الشعر ممجداً للمؤسس، مذكراً بأفضاله، محذراً من مناوأته، موازناً بين أمسه ويومه، متفائلاً بغده. والمدائح في ظل هذه المنجزات والمعجزات لا يكون افتراء على الناس، ولا تزييفاً للواقع، ولا تزلفاً عند الممدوح، ويكفي تلك القصائد تألقاً أنها تروي حكاية التكوين والبناء. وتجربة (الملك عبد العزيز) رحمه الله ثرية بجلائل الأعمال والأحداث الجسام. والشعراء الذين مثلوا بين يديه، واتخذوا من فِعاله المجيدة مادة شعرهم، أطالوا الحديث عما حققه للمشاعر والوهاد والنجاد من أمن واستقرار ورخاء. وبخاصة مسالك الحج التي ملئت بقطاع الطرق، وهذا التأمين لمنافذ الحج ومسالكه وحده كاف ليكون مادة ثرة للشعراء المادحين. فكيف إذا كانت منجزات (الملك عبد العزيز) أوسع وأكثر، لقد تخطى بالمجتمع الرعوي المتموج إلى مجتمع مدني مستقر، وفر له كل متطلبات التحضر، وتخطى بالبلاد إلى عتبات التاريخ. ومجتمع بدوي أمي رعوي قبلي صحراوي من الصعب صهره ودمجه وتحويله إلى مجتمع مدني آخذ بأسباب الحضارة.

لقد وسع شعر (المدائح) طائفة من ملامح المجتمع وتحولاته السريعة، وكاد يكون هذا الشعر المادح مصدراً من مصادر التاريخ الحديث لقلب الجزيرة العربية. والقارئ لما تحت السطور يستبين ما يعتمل في نفوس الشعراء من إعجاب وإكبار لقائد استطاع أن يختصر معركة التكوين، وأن يبسط الفعل في معركة البناء، وكيف لا يكون مثار الإعجاب والإكبار وهو الذي وطّد الأركان، واستل السخائم، وألّف بين القلوب، وأشاع متطلبات الحياة السوية، ووضع أسس المجتمع المدني، وجاء بشعبة من البدو فوطنهم بالهجر وأمدهم بما يحييهم من تعليم ومشافٍ وزراعة وصناعة، وأعلن اسم (المملكة العربية السعودية) دولة فاعلة في الأسرة الدولية.

و(جريدة أم القرى) التي واكبت هذا الحراك الحضاري رصدت كل التحولات المجتمعية، واستقبلت ما قيل في (الملك عبد العزيز) من مدائح وما قيل في سائر المناسبات من شعر راصد لكل التفاصيل على مدى ثلاثين عاماً، وهذا الكم الوفير من الشعر يعد سجلاً حافلاً لمجمل الأحداث المصيرية التي تهم المواطن العربي فضلاً عن المواطن السعودي. فـ(الملك عبد العزيز) يشكل تحولاً جذرياً في التاريخ العربي الحديث، والشعر الذي رصد الأحداث، وكاد يفصل الحديث فيها جدير بأن تعاد قراءته وفق آليات ومناهج حديثة، للوقوف على المنعطفات التاريخية المهمة. وفي ظل الحراك الحضاري أبدع الشعراء قصائدهم متفاعلين مع مناسبات عدة كـ(الحج) وغيره ولاسيما أن (الملك عبد العزيز) يقود قوافل الحجيج، ويشرف على راحتهم، ويحتفي بالوفود من ساسة وعلماء ومفكرين وأدباء. ومناسبة الحج من أوسع المناسبات، أقبل شعراؤها من كل آفاق الوطن العربي. وقصائد المدح المعنية بالدراسة لا ترتبط بسبب، إنها نظرة إعجاب وإكبار، ومع ذلك فقد نيفت على ستين مطولة، وهي جزء ضئيل من شعر المناسبات، ولقد اتسعت لمختلف المعاني، وتقصت أخلاقيات (الملك عبد العزيز) والمحت إلى شيء من منجزاته في المشاعر، وما هيأه لوفود بيت الله الحرام، وما وفره من أمن نفسي في طرق الحج، وأمن غذائي في فجاج مكة، وأمن صحي في المشاعر، فضلاً عن سائر منجزاته في مختلف وجوه الحياة التي رصدها شعر المناسبات.

وإذ تجلت وحدة الأمة في شعيرة الحج، وأسهم شعراء الآفاق العربية في تجسيد المشاعر والطموحات فإن شعر المناسبات الوطنية كمناسبة (الجلوس) و(البيعة) و(العام الهجري)، و(افتتاح المشروعات) والمناسبات الاجتماعية والتعليمية والانتصارات الحربية والمؤتمرات والمهرجان والأسفار والرحلات والحوادث والأحداث كاد يختص بها شعراء المملكة. وكل ما نشر في (جريدة أم القرى) مما له صلة بمنجزات (الملك عبد العزيز) يعد من المدح والتمجيد والاعتراف بالفضل لذويه، وتقصي شعر المناسبات يبعد علينا الشقة. ومن المتعذر والاعتراف بالفضل لذويه، وتقصي شعر المناسبات يبعد علينا الشقة. ومن المتعذر التفريق بين (المدائح) وشعر (المناسبات)، فـ(الملك عبد العزيز) ممدوح بكل لسان، وفي كل مناسبة، ذلك أنه يكاد يكون المثل الأعلى لكل من نشد وحدة الأمة العربية، وتطلع إلى المجتمع المدني، مجتمع المؤسسات والخدمات، و(الملك عبد العزيز) كاد يسبق ظله في سبيل إنجاز متطلبات الحياة الكريمة. والذين تراءوه في عيون الشعراء، وقفوا على مئات المطولات التي رصدت منجزاته، ومن المتعذر اقتفاء أثر الشعراء الذين فجرت مواهبهم عبقريته، ولكن الإشارة قد تغني عن التقصي، وكم نحن بحاجة إلى من يتعقب هذا اللون من الشعر، ويضعه بين يدي القراء، إذ كل القيم في جوف هذا اللون من الشعر.

والمنقب في مشمولات كتاب (الملك عبد العزيز في عيون شعراء جريدة أم القرى) لا يستطيع أن يفرز قصائده موضوعياً على الأقل، ذلك أنها جميعاً تتخذ من منجزات

(الملك عبد العزيز) وأخلاقياته مجالاً لسبحاتها، وحين تستثير تلك المنجزات كوامن الشعراء يكون (الملك عبد العزيز) المصدر والمورد، وقيمة المدائح أنها تنطلق من المنجزات، ولا ترتبط بالذات، فهي سجلٌ حافلٌ لجلائل الأعمال، ومن ذا الذي يجهل معركتي: (التكوين) و(البناء) اللتين امتدتا أكثر من نصف قرن، وحققتا وحدة ومدنية غير مسبوقتين في ظل الظروف التي عاشتها البلاد قبل استعادة ملك الآباء والأجداد، وأثناء ذلك، ومتى عرف المتعقب شح الواردات، وتزامُن معركة البناء مع الحرب العالمية الثانية تبين ما يعانيه المؤسس من ظروف عصيبة.

وطوفان الشعر يحمل على الخلوص من شعر المناسبات الذي وسعته (جريدة أم القرى) وقصر الحديث عن المدائح المباشرة، لاستبانة رؤية الشعراء لهذا المثل الأعلى. والمدائح التي استخلصت من الجريدة تجاوزت ستين قصيدة، هي بعض ما رفع لمقامه دون أي مناسبة.

لقد أوحى لي التقسيم الموضوعي لكتاب (الملك عبد العزيز في عيون شعراء جريدة أم القرى) الفرق الدقيق بين شعر (المدائح) وشعر (المناسبات)، وكدت أربط ذلك بالفرق بين شعر (الغزل) و(النسيب). ومن النقاد من يجعل النسيب ما يتعلق بالتوله والبكاء ومناجاة الأطلال، فيما يجعل الغزل في الحديث عن ذات المرأة ومفاتنها، أو قل النسيب يرتبط بالعلاقات المعنوية والغزل يرتبط بالعلاقات الحسية. والتفريق بين شعر المديح وشعر المناسبات مرتبط بالمثير، فإذا حفزت المناسبة الشاعر إلى القول كان النص مضافاً إليها، وإذا حفزه الإعجاب بذات الممدوح، كان النص ألصق بالمديح. والموضوعان متداخلان، لا يكاد الناقد يفصل بينهما.

وعلى كل الأحوال فإن الشاعر هو الذي يعتق شعره أو يوبقه، فإذا اتخذ من المناسبة أو من الممدوح منطلقاً إنسانياً حضارياً كان شعره مهيأً للشيوع والخلود، وإن ظل مرتهناً للممدوح أو للمناسبة، انطفأ بانطفاء المناسبة أو بموت الممدوح. ولعلنا نضرب الأمثال بشعر (المتنبي) الذي لا يخرج بمجمله عن المدح، ومع ذلك خلد شعره، وشاع، وظل يجمجم عما في نفوس الناس، ولم يضِره ان كان مادحاً مبالغاً بالمدح، فهو يركب المناسبة، ويحكمها، ولا تحكمه، وينطلق منها ولا ينطلق بها، ويسخرها لحمل همومه، وتطلعاته، ومناشداته الصريحة أو المبطنة لقائد فذ حقق لأمته جلائل الأعمال.

مدائح الملك عبد العزيز في صحيفة (أم القرى) .. ! (٢) [1]

وقصائد المديح تقع في مائة وعشرين صفحة من الكتاب، ومن أبرز سماتها الشكلية والبنائية انتزاع العناوين من النص، وانعدام الوحدة الموضوعية والعضوية، وتوفر الوحدة الموسيقية والنفسية واللغوية، فالوزن والقافية ولغة المكارم ومعالي الأمور هي السمات الأبرز، أما من حيث الموضوعات والمعاني فإن القصائد تركِّز على القيم المعنوية واستثمار سائر القيم الدلالية في الشعر العربي القديم، والتزامها لعمودية القصيدة العربية، وإغراقها في المبالغة والإشادة، واستدعائها لأهم منجزات الملك عبد العزيز المتمثِّلة بتوحيد البلاد، وإشاعة الأمن والعدل، وخدمة الحجيج، وتعميم التعليم.. والتّفنن في المطالع، وطول النفس الشعري. وتعدد مشارب الشعراء وانتماءاتهم أعطى القصائد قيماً فنية ودلالية خلّصتها من النمطية والتناظر .. والشعراء الذين فجَّر مواهبهم (الملك عبد العزيز) أوزاع، فمنهم السعوديون الذين نعموا في ظلاله من أمثال (محمد بن بليهد)، وهو شاعر تقليدي، و(محمد بن عثيمين)، وهو شاعر جزل العبارة قوي السبك محافظ على عمودية القصيدة العربية، و(محمد بن صالح الدويش)، وهو شاعر مقل، و(خالد بن محمد الفرج)، وهو شاعر ملاحم ومطولات أرّخ لأحداث الجزيرة في عهد المؤسس، و(أحمد بن إبراهيم الغزاوي)، ويُسمى حسان جلالة الملك، ويُعد من أكثر الشعراء إشادة بأمجاد المؤسس، و(محمد حسن عواد)، وهو رائد التجديد في المملكة، ولم يكن حفياً بشعر المناسبات، و(سليمان بن عبد الله البطاح)، وهو شاعر مقل، و(حسين سرحان)، ويُعد من فحول الشعراء جزالةً وقوة أسر، و(علي بن محمد السنوسي) من جنوبي البلاد، وهو شاعر تتنازعه المحافظة والتقليد، و(جعفر المدني)، وله أكثر من قصيدة، وآخرون لا يتسع لهم بحث مقتضب .. ومنهم غير سعوديين عرفوا أحوال البلاد من أحاديث حجاج بيت الله الحرام الذين أبدلهم الله من بعد خوفهم أمناً، وممن شهدوها حين وفدوا للحج أو للعمل من أمثال (سليم أبو الأقبال اليعقوبي)، و(محمود شوقي الأيوبي)، وله أكثر من قصيدة في المدائح وشعر المناسبات، و(عبد الله نوري الموصلي)، و(علي أحمد باكثير) وهو من كبار الشعراء، ومن ذوي الاتجاهات الإسلامية، والشعر المسرحي، و(عبد القادر الزهاوي)، و(محمد العباسي السلفي)، وله أكثر من قصيدة، و(يوسف داود قاسم) و(محمد سعيد ماشيج) من (يوغسلافيا) وآخرين.

والمنقب في المعطيات الدلالية عند شعراء المملكة والوافدين عليها يجد أنها تحكي الواقع المعاش، فـ(الملك عبد العزيز) ظل أكثر من ثلاثة عقود يخوض معارك التكوين، وتلك أجواء حرب ونزال، ومن ثم فإن بعض المدائح تكاد تكون من شعر الفروسية والحماسة والبطولة. يقول الشاعر ابن بليهد:

في دار قوم رميناها بقاصفة
إذا تمزق في أرجائها القتم

أضحت خلاء وأمست بعد ساكنها
قفراً وللبوم في أطلالها نغم

والشاعر هنا يستمرئ ذاكرته، ويستجدي محفوظه من الشعر العربي القديم، وإلا فالملك عبد العزيز يستعيد بلاده بأيسر الطرق، ويضم أهله وعشيرته إلى كيانهم الذي

---

(١) تاريخ المقال: ٢٧/ ١٢/ ٢٠٠٥

فقدوه بعد سقوط الدور الثاني من الحكم السعودي، وليس هو بذلك الغازي الذي يهدم البيوت على أصحابها.. وشعراء الأحياء كافة يستمرئون أخلاف الشعر العربي القديم، ويكاد (شكل القصيدة) العربية القديمة يتجسَّد في شعر (محمد بن عثيمين) من حيث الاستهلال بالغزل، وحسن التّخلص، يقول في إحدى مدائحه:

أقِـــلا ملامـــي فالحــــديث طويـــل

ومـــن عــــادةٍ ألا يطــــاع عــــذول

ولكي يتخلَّص من الغزل إلى المدح يتخذ ذات الوسائل القديمة، وذلك في قوله:

فـــدع ذكـــر أيـــام الشـــباب وطيبـــه

فمـــا حالـــة إلا وســـوف تحـــول

وإذ أخذ بشكل القصيدة العربية، أخذ بالمعاني، فكأنك حين تقرؤه تقرأ ل(أبي تمام) وهو يمدح (المعتصم)، أو تقرأ ل(المتنبي) وهو يشيد بمثله الأعلى (سيف الدولة)، ولولا الارتباط بالزمان والمكان والحدث لما استطعت أن تفرق بين القديم والحديث .. و(ابن عثيمين) بالذات يركِّز على تمسك الممدوح بشعائر الدين وتحكيمه للشريعة واتخاذها شرعةً ومنهاجاً، وهو كغيره لا يكاد ينفك من ذكر الحرب ومتعلقاته، ذلك أن الأجواء المعاشة أجواء حروب. يقول في إحدى مدائحه:

متـــى مـــا تصـــبِّح دار قـــومٍ بغـــارةٍ

ففـــي دار قـــومٍ آخـــرين تقيـــل

ولأن (ابن عثيمين) لحق بمثله الأعلى، وقد تجاوز الستين من عمره، فإن شعره ينبض بالحكمة والروية والمناصحة والإشادة بالدين، والحثّ على التمسك به والدعوة إلى الرفق واللين:

هلمـــوا إلـــى داعـــي الهـــدى وتعـــاونوا

علـــى البـــر والتقـــوى فـــأنتم أماثلـــه

وقومـــوا فـــرادى ثـــم مثنـــى وفكـــروا

تـــروا أن نصـــحي لا اغتشـــاش يداخلـــه

وللشاعر أكثر من ثلاث وعشرين قصيدة في مدح الملك عبد العزيز، توسعت في دراستها في كتابي (سعوديات ابن عثيمين).. وقد جُمع شعره بعد وفاته وشُرح غريبه، وهو ألصق الإحيائيين ب(البارودي) في الجزالة والغرابة وقوة الأسر.

أما الشاعر (خالد الفرج) فيختلف عن لداته في المباني والمعاني، إذ كان على صلة وثيقة بالآداب العربية الحديثة، وهو الذي كتب الملاحم التاريخية، ولم ينازعه هذا الاتجاه إلا شاعر الأمة (عبد الله بلخير) الذي فاق أقرانه في المطولات الأندلسية.. ومدائح (الفرج) هي الأخرى تستمد لحمتها وسداها من أجواء الحرب ولمّ الشمل، ولأنه من أصحاب المطولات، فقد يعمد إلى التفصيل، وكأنه يؤرّخ للظواهر والأحداث.. وهو كما أشرت على صلة بالآداب العربية الحديثة في (العراق) بالذات، وهو من الشعراء المتنازع عليهم، فـ(الكويتيون) يرونه شاعراً كويتياً، فيما يراه السعوديون سعودياً.. والمتقصي

لشعره يلحقه بالسعودية، لأن همّه سعوديٌ، وأغراضه الشعرية مرتبطة بأحداث البلاد، وملاحمه ترصد تاريخ المملكة الحديث، وتواصله مع شعراء الوطن العربي مكَّن شعره من التّخلي عن المطالع الغزلية أو الطللية، وهيأ له الاقتراب من الوحدة العضوية، بل أكاد أجزم أنه من ذوي الاهتمام بقوة المطالع والخواتيم، ولكنه اهتمام لا يربطه بالمطالع القديمة. يقول في إحدى مدائحه:

إيــاك نختــار فــاحم البيــت والحرمــا

وخــذ لنصــرك منــا العهــد والقســما

على أن الحس الإسلامي ينتظم كل القصائد التي مدح بها الشعراء (الملك عبد العزيز)، بل ينتظم شعر المناسبات كافة، فالأجواء مفعمة بالروح الإسلامية، وما من شاعر إلا وينطلق من القيم الاسلامية .. ولما أن كان الأمنُ مطلباً لكل المكتوين بنار الفتن وأعاصير الفرقة، فقد سيطر على مشاعر الشعراء كافة، وما من شاعر إلا وله إلمام طويل أو قصير بقضايا الأمن. يقول الفرج:

هــذي الجزيـرة كـان الأمـن مضـطرباً

فيهــا وكــان لهيــب الويــل مضــطرما

ويقول ابن عثيمين:

فقــد كــان فــي نجــد قبيــل ظهــوره

مــن الهــرج مــا يبكــي العيــون تفاصــله

فمــا بــين مســلوب ومــا بــين ســالب

وآخــــر مقتــــول وهــــاذاك قاتلــــه

وقوله:

فأمَّنهـــا بـــالله مـــن أرض جلـــق

إلــى عــدن مستســلماً كــلُّ مجــرم

والشاعر الفلسطيني (سليم أبو الأقبال اليعقوبي) يشيد بمنهج (الملك عبد العزيز) وأخلاقياته وطموحاته وتمسكه بالقيم العربية والإسلامية، ويبدي توجعه مما يعانيه الشعب الفلسطيني من قتل وتشريد، وكأني به يذكر (الملك عبد العزيز) بما آلت إليه أوضاع المشردين والمقيمين على الضيم، ولقد تعمّد التورية لتجسيد معاناته:

ليــت قــومي وليتنــي مــن رعايــا

هــــ فـــإنني اليـــوم رهـــن القيـــود

كتـــب الـــذل فـــي فلســـطين والشـــا

م علينـــا والعـــربُ غيـــر عبيـــد

ويأتي شعر الشاعر (محمود شوقي الأيوبي) حثاً واستنهاضاً وإشادةً وضرباً للأمثال واستدعاء لرموز العالم الإسلامي الذين تجسّدوا في شخص الملك عبد العزيز،

ول(الأيوبي) عناية بالمطالع، ولكنها عناية لا تبلغ شأو (مدرسة الإحياء)، وشعره دون غيره، وبخاصة في أوزانه وقوافيه، وهو ذو نفس طويل، يعتمد التّقصي والتّفصيل واستعادة الأمجاد العربية، وأجود شعره قصيدته (يا حاملاً علم الشريعة)، لأنه يحكي رحلة المسير إلى (الملك عبد العزيز) عبر غنائية طويلة، يفصل فيها رحلته من بلده إلى (الرياض) مروراً بعدد من القرى والمدن، ولقد اتخذ طريق الموعظة بعد الإشادة:

صن بيضة الدين الحنيف بعزمة

قصوى فأنت لما تقول فعول

وقصائد شعراء البلاد العربية تشم فيها تطلعاتهم إلى وحدة الأمة العربية، ولهذا فكل شاعر يود من (الملك عبد العزيز) مواصلة المسير، لجمع الشمل، وتوحيد الكلمة والصف والهدف .. وكأن تجربته بتوحيد البلاد مشروع لتوحيد الأمة العربية، وهو حلم يساور كل شاعر عربي أو سعودي وقف على منجز (الملك عبد العزيز) واطّلع على تفاصيل مشروعه الحضاري. يقول أحمد بن إبراهيم الغزاوي:

مليك العرب وحِّدها قبيلا

فشعبك للعلا أهدى سبيلا

ويقول (محمد حسن عواد) وهو من الشعراء النقاد الحاملين على المحافظة: شكلاً ومضموناً، وشعره فكري معضل وموسيقاه منطفئة، ولكنه عميق المعاني بعيد الغور ويشبه شعره شعر العقاد:

وحَّدتها في الحكم ثم أعدتها

بالاسم واحدة حذار تناقض

ويقول (سليمان بن عبد الله البطاح):

هذا مليك العرب جامع شملها

عبد العزيز محقق الأوطار

ويقول في قصيدة أخرى:

وحَّدت مملكة من بعد ما انقسمت

وبعدما كان سُوسُ الخلف قد نخرا

والشاعر المتمكِّن (علي أحمد باكثير) يتساءل عن تلك الفرقة:

ألا ليت شعري كيف تنهض يعرب

ومجموعها هذا النسيج المهلهل؟

عباديد شتى انحل عقد وفاقهم

كأنهم سرب النعام المجفل

وبعد تطواف موجع جسَّد من خلاله حال الأمة العربية عاد ليقول:

ألا إن ضـــوءاً فـــي الحجـــاز فتيلـــه

بنجـــد تراعيـــه العيـــون وتأمـــل

وللشاعر (عبد القادر الزهاوي) قصيدة يستلهم فيها معاني المتنبي وأبياته في الميمية التي يمدح بها (سيف الدولة) والتي يقول فيها:

إذا نظـــرْت نيـــوب الليـــث بـــارزة

فـــلا تظـــنن أن الليـــث يبتســـم

والزهاوي يقول:

والـــدهر كالليـــث لا تـــأمن تبســـمه

فإنمـــا الليـــث عنـــد الـــبطش يبتســـم

وهي قصيدة يمجّد فيها معالي الأمور، ويختمها بالتأكيد على أصالة البطولة والكرم للملك عبد العزيز، وأن بطولته وإقدامه ليسا تصنعاً، وإنما هما سجية وخليقة:

حـــاكوك شخصـــا ومـــا حـــاكوك منزلـــة

إن القشـــاعم تحكـــي شـــكلها الـــرخم

أما الشاعر (محمد بن أحمد عسل) فقد تجلت الجزالة والغرابة وقوة السبك في قصيدته (حارس البيت خادم الدين)، وقد أمعن في الثناء على خلال الملك وأشاد بأخلاقه ودعاه لنشر العدل ورفع النابهين:

امـــلأ الأرض باســـم ربـــك عـــدلا

بعـــد ظلـــم بهـــا ونكـــث العهـــود

ويكاد الشعراء كافة أن تكون أخلاقيات الملك وعزماته مدار شعرهم ومدرج إبداعهم، فهو المثل الأعلى بطولاته، وأخلاقه، وتسامحه، وصفحه عمن تصدوا له، بعدما أقدره الله عليهم، كما أشادوا بعدله، ونشره للدين وجمعه لكلمة المسلمين، يقول جعفر المدني:

والعـــدل والأمـــن قـــد ضـــاءت شموســـهما

بـــذاك قـــد شـــهد القرطـــاس والقلـــم

والمتعقِّب لهذا اللون من الشعر يجده صورة أمينة للشعر العباسي، وبخاصة أن (الملك عبد العزيز) تمثَّل أخلاقيات الخلفاء، وجنح إلى العفو والوفاق والتسامح، وأثبت للعالم أنه الحاكم الذي يقابل الإساءة بالإحسان، ويغلِّب السلامة، وينشد السلام، وما من معركة حمل عليها مكرهاً إلا وأنهاها بالعفو والتسامح وإعادة كل مسؤول إلى مكانه، متيحاً فرصة المراجعة لكل خصومة، وهذه الأخلاق أمدت الشعراء بشرف المعاني، وكل شاعر توفرت له المادة، ولم يجنح إلى الافتعال والانفعال يجلي شعره، والقيم العالية تفجر مواهب الشعراء.

وشعر المديح الذي وسعته (أم القرى) بوصفه بعض شعر المناسبات يُعد جزءاً مما قِيل في تمجيد القائد المؤسس، ومحور شعر المناسبات كافة وشعر المديح خصوصاً

(الدين) و(العدل) و(الأمن) و(الوحدة)، وما فضل من ذلك فهو موجّه للإشادة بأخلاق (الملك عبد العزيز) من (بطولة) و(كرم) و(تسامح) و(تواضع) و(وفاء) و(صدق) و(تديُّن) .. ولأن الشعر ديوان العرب، فإنَّ شعر المناسبات الذي وسعته (جريدة أم القرى) يُعد تاريخاً للجزيرة العربية، فلقد تتبع الأحداث، ورصدها برؤية المبدع وانطباعه لا بدقة المؤرخ وعلميته، ومؤرخو الجزيرة العربية سيجدون في شعر المناسبات مادة تاريخية لسائر الأحداث، وهم قد وجدوا ما يسد خلالاً كثيرة، وما الشعر إلا بعض حيوات الشعراء وممدوحيهم .. والحذّاق مِنْ النقاد مَنْ يعرفون القدر المتوقع من المبالغات فيطرحونه، والظلم كل الظلم أن نطرح هذا اللون من الشعر بحجة أنه لا يعبِّر عن الذات، ولا يرصد الواقع.

وخلاصة القول: إن هذا اللون من الشعر يعطي مؤشرات عدة من أهمها: ملامح المشروع الحضاري الذي ابتدره الملك عبد العزيز، والمتمثِّل بتوحيد البلاد، وإشاعة الأمن والاستقرار، وتحكيم الشريعة، والأخذ بأسباب الحضارة، والدخول في المنظومة الدولية، وتمكين الأمة من اللحاق بشعوب العالم المتحضِّرة.

مكة المكرمة في عيون المثقفين والأدباء .. ! (١)[1]

الحديث عن وادٍ غير ذي زرع في عيون المبدعين والمثقفين كافة يصرف الأنظار إلى ما تمتاز به تلك البقاع، وهو امتياز لا يضارعه امتياز، وأيّ مبدع أو متحدِّث أو متعقِّب لفيوض العطاء لا ينفك من ذلك الامتياز، لأنّه المهيمن، ولأنّه ثر العطاء، يجم على المتلقِّي حتى يكاد يغرق بالمعلومات. وكيف لا يكون الأمر كذلك؟ وأفئدة الناس تهوي إليها، ويأتيها الرجال والرّكبان من كلِّ فج عميق، ليشهدوا منافع لهم، وما من متعقِّب إلاّ ويسْتَشْعِرُ تلك الخصوصية، ويستذكر لحظة اللقاء بين السماء والأرض، آمراً بالقراءة مشيداً بالقلم الذي يتعلّم منه الإنسان ما لم يعلم.

وفي المستهل أود أن أتقرى ولو بلمس مفاهيم: (المكان) و(المثقف) و(الأديب)، ومدى ارتباط الرؤية بالبصر والبصيرة، وانطلاق البصائر من الخلفية المعرفية والروحية. إذ ما من مبصر أو متبصِّر إلاّ وتعدو حواسه مجتمعة أو متفرّقة إلى ما وراء المشاهد من قيم: روحية وتاريخية، خافقة بأجنحة الدراية والرواية والمواقف. وما الحديث عن الأطلال إلاّ لما تثيره من ذكريات، وحبُّ الديار مرتبط بكوامنها من الأناسي والأحداث، على حد:

وما حب الديار شغفن قلبي

ولكن حب من سكن الديار

ومكة حين نقرؤها بهذه الرؤية، في ضجّة الاحتفاء، تتكشّف عن قضايا وأحداث ومواقف أحسبها بعدد المتحدِّثين عبر مختلف القرون. أمّا (المثقف) فهو ذلك الإنسان القارئ بنهم لكلِّ ما تصل إليه يده أو عينه، متفاعلاً مع المقروء، مستثمراً له، في ظل فهم دقيق، وتمثُّل واعٍ. أمّا (الأديب) هنا فهو الموهوب الذي يبدع النَّص الشِّعري أو السَّردي مسجِّلاً لتجربة، أو محدِّداً لموقف. ولما أن فُرض عليَّ الحديث عن تلك الرؤى، لم أجد بدّاً من الرجوع إلى حقل (مكة المكرمة) في مكتبتي، مسترفداً من سبق، وتلك سنّة الله في خلقه. فما من كاتب أو متحدِّث إلاّ هو آخذٌ بنواصي مقروئة يحلب أشطره، ومن ادّعى نقاء نصّه فقد وهم وأوهم. ولقد أحسست وأنا أتصيّد شوارد المقروء أنّني كما (خراش) الذي تكاثرت عليه الضباء، فما يدري ما يصيد وما يدع.

ولأضرب بعض الأمثال، لتجسيد الصعوبة في أطر الموضوع والسيطرة عليه، أشير إلى مفردة واحدة في حقل واحد في زمن محدود، فلو تقصّينا (أدب الرحلة الحجازية) في العهد السعودي فقط، وهو عهد لم يبلغ القرن، لوجدناه زاخراً بالأعمال الثقافية والأدبية من عرب وعجم: أُدباء وساسة وعلماء ومؤرِّخين واقتصاديين وجغرافيين. وكلُّ راصد لرحلته إلى تلك البقاع يسلِّط الضوء على جانب من جوانب الحيوات الحجازية التي تتنازعها الحاضرة والبادية والأمن والخوف، والرَّخاء والشدّة. والرّاصد الأدبي لهذه الظواهر يتوخَّى أدبيّة النص وثقافته، والراحلون إلى مكة، إمّا أن يكونوا حجّاجاً أو عُمّاراً متعلّمين أو مجاورين، وقد يطلبون على هامش ذلك فضلاً من الله عبر البيع أو الشراء. ولكلِّ قادم خلفيّته الثقافية التي تحمله على تسجيل أحداث وقضايا تختلف عمّا يسجِّله الآخرون، والقارئ لا يستغني بشيء، ولا يستغني عن شيء.

فالأديب المصري (إبراهيم عبد القادر المازني) - على سبيل المثال - بوصفه كاتباً صحفيّاً يسلِّط الضوء على العادات والأزياء، ويصف المَشَاهِد والمشاعر وطرق الحج،

---

(١) تاريخ المقال: ٣/ ١/ ٢٠٠٦

فيما يهتم (عبد الغني شهبندر) بالجوانب الاقتصادية. والراحلان متقاربان زماناً، مختلفان ثقافة وهمّا. فيما تأتي رحلة (محمد بهجت البيطار) مركِّزة على حياة البادية. ولو تجاوزنا في (أدب الرحلة) خاصة إلى ما قبل العهد السعودي، لوجدنا العجب العجاب، وللقارئ أن يستعرض (مرآة الحرمين) أو (الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية) للواء (إبراهيم رفعت باشا) في السنوات من ١٣١٨ إلى ١٣٢٥هـ ليقف على صور الحياة البائسة واختلال الأمن ومعاناة الحجاج في حِلِّهم وترحالهم، واستعدادهم كما لو كانوا محاربين. فأيّ عيون نقتفي أثرها؟ وأيّ رؤية نأخذ بعصمها، وأيّ قول نكتفي به؟ ولك أن تقول أكثر من هذا عن الإبداع السّردي. أمّا الشعر فخلق آخر، لا يحيط ببعضه أولو العزم من الدارسين، ولو استمدّ الكاتب مداد الأرض ما كان له أن يستوفيه.

ولربما كان مشروع الدكتور (عبد العزيز راشد السنيدي) المعجمي الحصري عمّا ألّف عن (مكة) قبل العهد السعودي وبعده، وعن (الحج)، ومشروع الدكتور (منصور بن إبراهيم الحازمي) المعجمي عمّا اشتملت عليه جريدتا: (صوت الحجاز) و(أم القرى) من مقالات ودراسات وإبداعات، ومشروع (دارة الملك عبد العزيز) عن (الملك عبد العزيز في عيون شعراء جريدة أم القرى)، ومشاريع أخرى لا نعلمها، هذه المشاريع إطلالة متواضعة ومحدودة على الكم الثقافي والأدبي الذي صوّر أرض القداسات في عيون الأُدباء والمثقفين وهي بمجموعها كما الكوّة النافذة إلى عوالم شاسعة، لا تحيط بها الأبصار. وما أحد بقادر على أن يحدد الرؤى والتصوُّرات لو أنّه فرغ لجمع العناوين فضلاً عن الحديث الموجز أو المفصّل عن أنواع النصوص. والقارئ لعناوين الكتب يكتشف أنّ مكة تثير كوامن النفوس، وتثوِّر ما تراكم فيها، ليكون تعبيراً عن الذوات من خلال المثير، وذلك مؤشّر لعبقرية المكان، ومتى عرف أن من فرض في الأشهر الحرم الحج شدته انتماءاته الفكرية والعقدية والمذهبية وخلفيّاته الثقافية، وقال قولاً له خصوصية الذات المثارة بفعل خصوصية المكان.

وفيما يتعلّق بالرؤية الأدبية الحديثة نجد أنّ موسوعة (مكة المكرمة الجلال والجمال) تمثِّل إطلالة دراسية، سجَّل الباحثون فيها رؤيتهم لهذه البقاع الطاهرة من خلال الأدب العربي في المملكة العربية السعودية على وجه الخصوص. ومكة تحتلُّ في ذاكرة الشِّعر القديم والحديث أعلى المراتب وأوسع المساحات، وهي الأكثر حضوراً في الشِّعر العربي كافة والشِّعر السعودي خاصة. وكيف لا تكون، وهي مهبط الوحي، ومصدر الإسلام، ومن ربوعها انطلقت قوافل الجهاد والدعوة والتعليم، وعند بيتها المحرّم التطمت أمواج المعارف، وعلى أديمها وُلد الهدى ودرج، وتحت كلِّ صخرة فيها حدث غيّر وجه التاريخ.

ومنذ أن قصدها (أبو الأنبياء) ورفع القواعد من البيت حتى اليوم وهي مادة الحديث ومداده، ومن مغارات جبالها انبثق النور، وأشرقت الدنيا بنور ربها، ولجبالها وشعابها حضور في التاريخ القديم والحديث فضلاً عن مشاعرها وبطاحها، وكلُّ وافد إلى مكة يرى في شواخصها الجلال والجمال. وكلُّ مستعرض للتاريخ يحس بدورها في إلهام الشعراء ونجدة المؤرّخين. والشعراء يفعمهم الحب والوله، ويحدوهم الإيمان إلى تمجيد الجبال والشِّعاب والضراب والآكام:

أيــا قمـــة فـــوق هـــام الخلـــود

ســـمت بســـــناها الشــــذي العطــــر

هنـــــاك حيــــث شـــعاب الله مجدبــــة

وإنمـــــا خصــــــبها عَفْـــوٌ وغفـــران

وإذ لا يكون الإحساس إزاء (مكة) مادياً فإنّ الشعراء رأوها كما لو كانت قنينة عطر أو جدول ماء، حتى لكأنّك تعصر الحجر ميثج الماء الفرات، يقول حسين عرب:

ترابـــك أنـــدى مـــن فتيـــت معطـــر

وصـــخرك أجـــدى مـــن كـــريم الزمـــرد

ويقول:

والمحاريــــــب والمشـــــاعر كـــــون

نـــــاطق بـــــــالتقى وبالإيمـــــــان

ولأنّ ربوع مكة لم تكن مجرَّد مكان تطرقه الأقدام، ويجوس خلاله ذوو المآرب الدنيا، فإنّها ألهمت الشعراء، وأثرت الأُدباء، وفجَّرت المواهب. إنّها أكوان من المعارف والثقافات والأحداث، تموج بها ربوع مكة في الغدوِ والآصال. إنّها سجلاّت منشورة، لم ترفع أقلامها، ولم تجف صحفها، وكيف يرفع التاريخ ريشته ويريق محابره وأفئدة الناس تهفو إليها من كلِّ الفجاج، وعمّار المساجد يطهّرون بيت الله للطائفين والعاكفين والرُّكَّع السُّجود. لقد هبّت طائفة من أصحاب الدراسات العليا لتقصِّي هذا اللون من الإبداع، فكان أن أغنوا المكتبة العربية برسائل التطمت فيها الإبداعات الأدبية والدراسات الأدبية والاجتماعية، بحيث تجسَّدت من خلالها رؤية الأُدباء والمثقفين لتلك البقاع الطاهرة، فكتبوا عن الشِّعر في الحج وعن سائر الحيوات الأدبية والاجتماعية وعن عدد من الأُدباء والعلماء، وعن الزعماء في عيون المبدعين، وكلُّ متحدِّث تفرض مكة نفسها عليه لتحتلّ المكان الأوفى.

لوثات المشاهد الإعلامية .. ! (١)[1]

المصاب بداء المتابعة للنجوى الإعلامية، بوصفه وعاء القول بكل مستوياته واتجاهاته وغثائياته وافتراءاته، يمضه درك الإحباط، ويؤرقه التناجي الآثم، فما من خائض في حديث أو كاتب لزخرف القول ينقض غزل أمته من بعد قوة أنكاثاً إلا يزكي نفسه، ويعدها من الأخيار. وما هو في الحقيقة إلا شقي الأمة وأشقاها، حتى لكأنه عاقر الناقة أو قاتل علي، وكيف لا يكون كأحد الشقيين، وهو الساعي بين الناس بالفساد والإفساد، وقدر الراصد لحراك الإعلام أنه لا يجد إمكانية الفرز بين الضالع في الخطيئة، والقائل بالتبعية، والعاجز عن التمييز يتجاوز بالإدانة إلى غير الضالعين، واتقاء الإساءة كاتقاء الفتنة. وحين لا يكون الاتقاءان، يستوي الناقض المتعمد والببغاء المردد، وسائر الفتن، وفتنة القول بالذات إذا أقبلت لا يعرفها أحد، ولا يرتاب منها أحد، وإذا أدبرت يعرفها كل أحد، ويفر منها فراره من الأسد، ونحن نعيش لوثة الإقبال الأهوج ولجاجة الاهتياج الأعزل من العل والألف، كما يقول (الشنفرى):

ولست بِعَلٍّ شره دون خيره
ألفَّ إذا ما رعته اهتاج أعزل

وما يتجشأ الكلمات الفارغة إلا الفارغون، والكلمة التي لا يلقي لها المتحدث بالاً، كما الرصاصة، متى انطلقت، مرقت، أو استقرت في صدر ظالم أو مظلوم، ومن استخف بها، تصيدته فيما تصيدت كمتخذ الضرغام بازاً لصيده، وما أشعل أوار الفتن إلا الإعلام المحيل إلى حرية التعبير، وما أضل الناس عن سبل الرشاد إلا الإعلام الذي يصنع ما يشاء لفقده للحياء، وما قوض شوامخ الأمة إلا الإعلام المدفوع الثمن، ولو رُشِّد القول، وكفت الألسن عن التناجي بالإثم والعدوان، لمارس الناس حياتهم، كما صنعتها تربيتهم، وجسدها تعليمهم، واقتضاها معتقدهم، وحملها إعلامهم، ومصميات الأمة من سحرة البيان والمنشئين في الحلية، الذين يقلبون الحقائق، ويكرسون المفاهيم الخاطئة عن سائر القضايا المتداولة، والمرحَّلة من عقد إلى آخر، والمعلوكة كما اللبان، من حقوق وقضايا ومذاهب ومصطلحات مصابة بوضر الحضارة المصدر من (ليبرالية) و(ديمقراطية) و(عولمة) وتلك شعارات تمثل الطعم الذي يلوح به من سلبوا (الحرية)، وصادروا (الحقوق)، ومارسوا نخاسة اللحم الأبيض، وأيدوا الأنظمة الظالمة.

وما تلك الشناشن إلا بعض التغرير والاستدراج المتعمد من اللاعبين الكبار الذين ما فتئوا يوحون إلى السماعين لهم بما يربك المشاهد الإعلامية، ويشغل المصلحين والناصحين عن ممارسة مهماتهم في أجواء ملائمة، وشهوة الإعلام المستفحلة عند المندهشين بالآخر والمبتدئين غير الحذرين تقوم على تقويض ما أنجزته الطائفة المنصورة في آفاق المعمورة من ثقافة متوازنة، ودعوة حسنة، نبهت الغافلين، وأبانت لهم طرق الرشاد، وعلمتهم العفو والصفح، والغلطات المصمية تتمثل في الخلط بين (الإسلام السلفي) و(الإسلام المسيس) لتمرير اللعب، ولسنا في هذا التحذير من دعاة (نظرية التآمر) المتنصلين عن المسؤولية، ولا من المستبعدين للكيد والمكر، فالحياة رهينة الصراع عبر الكلمة أو البندقية، ومن أرادها برداً وسلاماً، فقد يؤخذ على غرة:

ومن رعى غنماً في أرض مسبعةٍ

---

(١) تاريخ المقال: ٥/ ٧/ ٢٠٠٥

ونــــام عنهـــا تـــولى رعيهـــا الأســـد

والطيبون من الكتبة ومن دونهم يأخذون الوعد والوعيد على علاته، ولا يتثبتون، والأشد غفلة وسذاجة من يظنون أنهم بالسخرية والاستهزاء ينتصرون لقضاياهم، ويحققون الحضور المشرف، وما علموا أنهم بهذه (الغلوسات) إنما يخدعون أنفسهم، وما يشعرون، والجزر والمد في تداول الآراء يقتضي استحضار الثنائيات: الحسية والمعنوية، لا لتصعيد الحوار إلى الصراع، والصراع إلى الصدام، وإنما ذلك لاحتمال الأذى، وتحفيز النابهين على تغليب الحق على الباطل، والصدق على الكذب، والرفق على العنف، واللين على الفظاظة والغلظة، إذ لا مراء حول ثنائية التناقض أو ثنائية التلازم، ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]، وإذا كان بين ثنائية المحسوس تلازم مشروع، فإن بين ثنائية المعقول تناقض ممنوع.

كالسلطة والتسلط، والكرم والإسراف، والحرية والعبودية، والفوضى، والانضباط، وكل شيء في الوجود له طرفان ووسط.

﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]، والمعضلة فيمن يقرر الوسطية والتطرف، وهي معضلة تمتد إلى من يقرر الثوابت والمتغيرات، والاختلاف المعتبر وما علم من الدين بالضرورة، والمحظور والمباح.

والناس مستخلفون على ما في أيديهم، ورعاة في مواقعهم، وكل مكلف على ثغر من ثغور الأمة التي ينتمي إليها والحضارة التي يتشكل من خطابها، وما من خلل إلا وراءه جهل أو تقصير أو عمالة أو مروق، وسد الخلل رهين التغيير ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، والتغيير المواكب لتحولات الحياة المنسجم مع إيقاع المقاصد غير التهافت على سراب القيعان، وإتيان البيوت من أبوابها أفضل من تسلق المحاريب و(فقه الأولويات) من المعارف الغائبة، وحين تكون المسائل نسبية فإن الحق واحد، لا يتعدد، ولا يتناقض، قد تتعدد الآراء تبعاً لنظريات: التلقي والتأويل والمعرفة، ولكنها لا تتناقض، وإشكالية (النسبية) تمد بالغي كل من ألجمه الحق، ومتى أحصروا وجدوا في فسح الثنائيات والنسبيات والتأويلات مجالاً لمطل الحق، وتصعيد الاختلاف المفتعل قد يؤدي إلى اقتتال الطوائف المؤمنة عبر أفرادها، حتى مع الاختلاف المعتبر، فضلاً عن المفتعل، على الرغم من أن كافة الطرق تؤدي إلى (روما) متى كانت متوازية لا متعاكسة، واقتتال المتناحرين بالألسن والأقلام ليس بأقل خطراً من الاقتتال الحسي، وواجب المقتدرين الإصلاح، وعند البغي يلزم صد الباغي، ولوثة المشاهد الإعلامية من كتاب ينقصهم التأصيل والتحصيل، وهو نقص يؤدي إلى الخلط بين الثوابت والمتغيرات والأفكار والعقائد، والخوض في قضايا (الفقه الأكبر) مع جهل نواقض الإيمان، وحديثنا عن لوثة المشاهد الإعلامية يستدعي النظر في اللغط المستحر حول مفردات الفكر الإسلامي ورجالاته، فما من منجز إسلامي سابق لأحداث (الحادي عشر من سبتمبر) إلا وهو مجال للتشكيك والاتهام والتحميل، وقد يتجرأ المتسرعون على تصفيته: ذاتاً أو سمعة، دون أن يطرحوا بديلاً قابلاً للمساءلة، وكأن الكتبة موكلون بتقصي مفردات الدين وأعيان العلماء والدفع بهم إلى درك الاتهام والتشكيك والتصنيف، تمهيداً لتصفية السمعة والمشروع معاً.

وبصرف النظر عن دوافع تلك الحملات الظالمة والعنيفة والمتواصلة فإنها تصب في سلال الأعداء، وتمكنهم من رقاب الأبرياء: دولاً كانوا أو فئات أو أفراداً، وإشكالية حملة الفكر الإسلامي أنهم باقون فاعلون منذ أن قال جبريل لمحمد ﷺ: (اقرأ) إلى (يوم الوقت المعلوم) الذي أنظر الله به (إبليس)، وحملة الأفكار المناقضة يمرون بحملة الفكر الإسلامي كما الأمواج التي يلغي بعضها بعضاً، وعلى المتردد أن يستعرض المشهد الفكري العربي منذ (رفاعة الطهطاوي) حتى (أركون) ولينظر كم استقبل المشهد من نظرية أو مصطلح أو فكر أو حزب، ثم ليسأل من حوله عن مصائرها ومصائر أهلها، ولعل أقربها وأعتاها (الماركسية) و(الوجودية) و(الحداثة) البادية كأعجاز نخل خاوية، والمتجلدة للشامتين، ولكن المنية إذا أنشبت أظفارها لن تنفع التمائم، وعلى الشاك أن يصيخ إلى لغط (العولمة) و(العلمنة) و(الغربنة) ولوثة (الديمقراطية) و(الليبرالية) و(القومية) ثم لينظر، هل يذهبن ذلك وهوانه ما يقال عن قضايا أهلهن أدعياء؟ وفي ظل هذا التعاقب يظل الإسلام بتجذره وشموخه وشموله وتجدده على رأس كل قرن، يرقب مصطلحات جديدة، يوفض إليها الخليون كما النصب، وما من مفكر منفلت من فلكه، إلا له رؤيته فيما تعلق به من محدثات الأمور، وإذ تكون الإنسانية أمة واحدة في الإدارة الكونية، فإنها أمم في الإرادة الشرعية، ذلك أن العلم محصلة سنن كونية لا تتبدل ولا تتحول، وما سواه تتنازعه الحضارات والمدنيات، ولكل حضارة شروط وجود، ومؤهلات شرعية، وسمة خطاب. ولقد قلنا من قبل: إن خطاب القوة يختلف عن خطاب الضعف، ومع كل الرغبات فإنه لا بد من خطوط وحدود، لا يجوز تخطيها تحت أي مفهوم، والمجتمع المدني لا يتحقق إلا في ظل (سلطة سياسية) تحفظ توازنه، وتقوم على حماية أفراده وأفكاره ومسلماته.

والأحكام والضوابط والمسالك والمدارك مرتهنة للكلام، حتى تأخذ طريقها إلى التفعيل، ولا يتم شيء من ذلك إلا من خلال الامتثال الطوعي أو الرقابي، والذين لا يعرفون السلطة، ولا يحترمونها، لا يعرفون الحرية ولا يتمثلونها، وكل مجتمع مدني محكوم بسلطات: الدين والسياسة والمجتمع، وقد تند واحدة من هذه السلطات، فتكون تسلطاً محضاً، أو تكون خليطاً من السلطة والتسلط، ونزع السلطة أخطر من نزع الحرية، وجنوح السلطة إلى التسلط أهون من جنوح الأمة إلى الفوضوية (ومن مات وليس في رقبته بيعة مات ميتة جاهلية)، والسلطة الجائرة أفضل من الفراغ الدستوري.

والمتابع ليس بحاجة إلى أن يفتش في صفحات التاريخ القديم، فالأحداث الحية الماثلة من حوله أكبر شاهد، وكل من قال ما يعن له، دون النظر في ضوابط حضارته وأولويات قومه وخصوصية عشيرته يحول الحياة إلى فوضى (وجودية)، أو إلى عبث (سريالي)، أو إلى ضياع (بوهيمي) وتلك مصادر اللوثة الطارئة على المجتمع، ومع أن من المصلحة أن يكون الخصم ألج من الخنفساء، وأهجى من الحطيئة، إلا أن الأولوية في إرشاده وكسبه، فذلك أحب إلى المحتسب من حمر النعم، وقدوة المحتسب رسول الرحمة - صلى الله عليه وسلم - الذي أغري به السفهاء والعبيد، ولم ينتقم لنفسه، بل ظل يدعو لقومه بالهداية ويعذر لهم، ويوم أن ظفر بهم، وتمكن من رقابهم قال: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**»، وكلما طلب منه قتل المعارض قال: لا.

لوثات المشاهد الإعلامية .. ! (٢)[١]

ومثلما استشرى داء الطفرة، وأصاب الأحداث والمراهقين بفيروس الاسترخاء والترف والاتكالية واللامبالاة والتكسير، فقد استشرى داء التمرد والفوضوية، فأصاب المشاهد الإعلامية بلوثة اللغو والجهر بالسوء، والسخرية والاستهزاء والتنقص من الخصوم واتهامهم بالرجعية والماضوية والتخلف والجمود والجهل، وقد تولى كبر ذلك من هم في سن المراهقة الكتابية ومن امتد معهم التصابي والتعاظم والادعاء، حتى فاضت أنهر الصحف بفضول القول المغثي، وحتى كدنا نعد البعض منها صحفاً فضائحية، لا تجد سوقها الرائج إلا في التحريش والتهويش واللجاج. وقد يحمل الصلف والاستعلاء بعض الكتبة على افتراء الكذب، والتقول على المخالف كل الأقاويل، واستباق المشاكل التي تهيج الرأي العام. والمشهد الإعلامي بهذه الفوضوية وذلك الانفلات لا يؤسس عليه، ولا يجس نبض الشارع من خلاله، لأنه يعيش حالة من الاهتياج والانفلات.

وإذ يكون من المحامد ألا تكون هناك رقابة صحفية، وأن تكون هوامش الحرية واسعة لكل الحراك الفكري والثقافي والسياسي، فإن الإسراف في استغلال تلك الرخص بطرائق غير مشروعة مؤذن بالعودة إلى ضبط الإيقاع، وقمع التعديات، ومنع القراءات المريبة، والحيلولة دون تحويل الشائعات إلى حقائق، وتبادل الاتهامات، وتشكيل الجماعات الضاغطة. والمتابع للحراك الفكري والثقافي عبر المشهد الإعلامي يدرك الحيدة من الموضوعي إلى الشخصي، وتلك خليقة يخال البعض خفاءها، ومهما ظن البعض ذلك فإنها ستعلم من لحن القول. ومزبلة التاريخ ترقب كل مزايد على مثمنات أمته متطاول على كفاءاتها. والوقوع في المثمنات والكفاءات مؤذن بالتحول إلى درك التنازع المخل بالأهلية، وعند استفحال النقائض لابد من بوادر تحمي المشهد، وتقيل عثرته.

ولا أحسب الامة بحاجة إلى (محكمة آداب) كما فعل (السادات) ولا إلى إعادة الرقابة الرسمية، التي تقيد حرية التعبير، ولا إلى لجنة إعلامية تفض المنازعات، وإنما نحن بحاجة إلى رصد دقيق لخطل القول، وتوعية رفيقة لمن لا يسيطرون على انفعالاتهم من (ساديين) و(مازوشيين) و(نرجسيين).

فعندما يتدخل (رئيس التحرير) أو من دونه من ذوي الخبرة الصحفية بطريقته الخاصة وبخبرته المهنية، ويلفت نظر الذين لم يهدوا إلى الطيب من القول، ولم يوفقوا إلى القول السديد، وسيتثير فيهم كوامن القيم الأخلاقية، وحق الأخوة الإسلامية، ويأخذ بأيديهم لا على أيديهم، يكون ذلك سبيلاً من سبل محاصرة اللوثة الصحفية. ولو أننا استطعنا معالجة الجنح أولاً بأول، ولم ننظر إليها على أنها عوارض قابلة للزوال الطبيعي، أو أنها في إطار حرية التعبير، لما استفحلت اللوثة والغثائية بهذا الشكل، ولما استمرأها البعض، ولما استعديت السلطة من المتضررين لحفظ حقوقهم، وهل من المعقول أن يبلغ العنف والصلف والتعنت من البعض إلى حد استعداء الدولة لترويض جماحة من أفراد متضررين أو من جماعة محتسبين.

ومتى أحلنا كل تطاول على المبادئ والقيم والأعيان إلى حرية التعبير، دخلنا نفق التناجي بالإثم والعدوان، مما يتحاماه ذوو الأعراض المصونة، ويرتع فيه من سواهم، وذلك ما نخشاه، إن لم نتدارك الأمر. لقد أضر بنا فهم (الحوار الحضاري) على يغر أوصوله، وفهم (الحرية) المشروعة على غير ضوابطها، وفهم (الحقوق الإنسانية) على غير وجهها فكان أن استشرت النقائض. ف (الحوار) لا يعني التنازل عن الثوابت، وخلط

---

(١) تاريخ المقال: ١٢/ ٧/ ٢٠٠٥

الملح الأجاج بالعذب الفرات لا يمت إلى التحضر بصلة، (الحرية) لا تعني مطلق التصرف، و(الحقوق) لا تعني ترك الإنسان يفعل ما يشاء، يأخذ ما له ولا يعطي ما عليه. فالحدود والتعزيرات والعقاب والثواب والقوة والعدل قيم حضارية ودينية، والوازع: ديني وسلطاني. والأخذ على يد السفهاء وأطرهم على الحق مبدأ إسلامي، وإنكار المنكر باليد أو باللسان أو بالقلب أمر يقتضي الوجوب، ودرء الحدود والعفو والرفق واللين قيم إسلامية، لا يجوز تغييب شيء من ذلك باسم الحرية أو الحقوق. واشتغال المبتدئين بالقضايا المصيرية، وتعملق الأقزام بحجة نحن رجال وهم رجال مضيعة للجهد والمال والوقت وفي النهاية:

لا يصلح الناس فوضى لا سرات لهم

ولا سرات إذا جهالهم سادوا

وما أضر بالأمة وقضاياها إلا المفاهيم الخاطئة للحرية والحقوق. وأمريكا التي يستقبلها مثقفو (الغربنة) ومختلسو مناهج المستشرقين وأفكارهم والحالمون ب (الليبرالية) و(الديموقراطية) هي التي أجهضت الحرية، وعبثت بحقوق الإنسان. وآخر شهادة تتداولها وكالات الأنباء ما نشرته (منظمة العفو الدولية) من أن الكرامة الإنسانية سقطت ضحية الحرب الأمريكية على الإرهاب، بسبب ما تمارسه (واشنطن) من انتهاكات خطيرة لكافة الحقوق الإنسانية، منها على سبيل المثال: وسائل التعذيب، واختفاء شخصيات وطنية، وإطلاق صواريخ وقاذفات على منازل مشتبه بها، ومعاملات غير إنسانية في السجون والمعتقلات، وتدنيس متعمد لمقدسات العالم، واستفزاز وقح لمشاعر المسلمين. وعلى الرغم من التعري الصارخ للتعدي والتحكم والوصاية نجد طائفة من الكتاب يشايلون الخطاب الأمريكي، ويرون فيه حمامة سلام وبلسماً لجراح الأمة المهيضة الجناح، وما علموا أن الصهيونية العالمية تسيطر على (المال) و(الإعلام) وأنها جادة في أجهاض المشاريع الإسلامية التي تتبناها مؤسسات الدولة وجمعيات المواطنين الخيرية، وفي مواجهة هذا التعنت والتدخل السافر في أخص الخصوصيات يجنح العقلاء المجربون إلى السلم والدفع بالحسنى والاتقاء قدر المستطاع، مفضلين ركوب أهون الضررين. ولست أدري ماذا سيخرج به أصحاب ثقافة التملق والانحناء والصدمة الحضارية الذين ما فتئوا يمطرون مفردات الإسلام ورجالاته بوابل من الاتهامات التي تصب في ملفات الادعاء الغربي ضد الإسلام؟. ولست أدري هل قرؤوا الخطاب المفتوح للسعوديين من (تانباسي هسو) فاستجابوا؟ وهل آلمتهم الركلات التي يستدبرهم بها (حيراند بوزنر)؟ أم أن جراحهم ميتة ليس فيها إيلام، وأنهم سيظلون كما الأطفال أمام الحركات البلهوانية لمّا يفيقوا من الانبهار المتحبس والاندهاش المتخلف. أن يسبقنا الغرب في ظاهر الحياة الدنيا، وأن تكون مكتشفاته محل تأمل ومجال تفكير، فذلك الحق الذي لا يكابر به إلا معاند، وأن ننبهر ونفقد التوازن والسيطرة ونعيش ذهول الصدمة، فذلك الخسار والبوار، والمأزقية في تشابه البقر، وثقافة اليأس، وجلد الذات، وتلك خليقة المستغربين التي نواجهها.

والذين يرمون بثقلهم في مواجهة ما يسمونه ب (الإسلامويين) يخلطون الأوراق بشكل يشي بأن وراء الأكمة ما وراءها، إذ لا يفرقون بين من يحيل إلى الكتاب والسنة، ومن يحيل إلى فكر الطائفة ورؤية الفرقة، ومن هو على المحجة البيضاء، ومن هو تائه في بنيات الطريق، وفي المقابل نجد من الإسلاميين من يخلط في مواجهته بين (مثقفي المارينز) وطلاب القيم الحضارية التي أنتجها الإنسان في ظل أي حضارة. والمزعج والمريب أن بعض الكتاب لا تراه إلا مستهزئاً بالخيرين مستعدياً على مؤسسات الدولة ذات المهمات الإصلاحية، وعلى الجمعيات الخيرية ذات الفعل الإنساني، وحجة أولئك

الداحضة بوادر أخطاء في التطبيق، لا تضاف إلى المبادئ، ولا تخرج عن المتوقع والمعقول، وإنما هي ممارسات تطبيقية مفضولة وظواهر طبيعية متوقعة. وكان الأجدى بهذا النوع من الكتاب أن ينطلقوا من حضارتهم مصلحين مجددين، لا أن ينطلقوا من مستنقات الآخر، ملوثين لمن حولهم، وألا يروا مستهزئين بالمظاهر، كالذين قالوا: (ما رأينا مثل قرائنا ...) أو مستعدين للسلطة، وكأنهم موكلون بالقعود للخيرين كل مرصد، إن هذا اللون من اللغط إمداد لأعداء الأمة، وتمكين لهم من رقابها، إذ كل ما تمسك به المؤسسات الغربية المعادية، وتعده حجة دامغة، إن هو إلا ذلك الطفح الرخيص من افتراء الكذب. وحين نحذر من النبش فإننا لا نمنح أحداً قداسة ولا عصمة، ولا نرى لمخلوق مكانة فوق النقد والمساءلة، ولكن نقد الذات يختلف عن جلدها، إن واجبنا جميعاً أن نواجه أعداء الأمة التي لا تفرق بين مداهن ومنافح، وأن نعرف أن مثمنات البلاد الحسية والمعنوية مستهدفة، وأن القبول باتهام الإسلام بصناعة الإرهاب شهادة من الأهل، يطير بها المتربصون فرحاً، ويعودون بها وثائق إدانة ومساءلة.

لقد لُملمت أطراف الإرهاب والتطرف بعد هدم (البرجين) ووضعت في سلة الإسلام والمسلمين، ومؤسساتهم التعليمية والدعوية وجميعاتهم الخيرية، واستجاب لهذه الفرية بعض الكتاب الذين يحملون العلم على ظهورهم، ولا يستظهرونه في عقولهم، ولا يتمثلونه في سلوكهم، ومن ثم استدعيت كتب وشخصيات ومناهج وجمعيات يخدم فيها الإسلام والمسلمون. وكان حقاً على المرجفين أن يفرقوا بين الإسلام السياسي، والإسلام المسيس، وإسلام اللعبة الكونية، وإسلام الكتاب والسنة. ولو أنهم فعلوا ذلك لما وسعهم إلا تبرئة الإسلام والمسلمين من أي اعتداء لا مبرر له ولا شرعية. والإعلام الأمريكي المتصهين الذين يقود حملة التشويه صدرت من بعض مؤسساته الحيادية دراسة، تؤكد بالأرقام أن الهجمات الانتحارية لا يقوم بها مسلمون فقط، وأن أكثر من يقوم بها هم (الهندوس) وبخاصة (هندوس سريلانكا) الذين يسمون أنفسهم (نمور التأميل) كما أن أول هجوم انتحاري في التاريخ قام به اليهود، وذلك من أشار إليه (روبرت بيت) أستاذ جامعي أمريكي متخصص بالإرهاب.

ومشهدنا الصحفي لا يعاني من (أزمة ثقافية) ولكنه واقع بطوعه واختياره في (ثقافة الأزمة)، بمعني أننا نتهافت على بؤر التوتر، وننقب عن الملفات الساخنة، وما من أمة ولا جماعة ولا أفراد إلا ولديهم من المشاكل والقضايا العصية ما لو عملوا على استدعائها لألهتهم عن كل عمل جاد، وفي الأثر (الفتنة نائمة) وهذا يؤكد أن الفتن موجودة، ولكنها نائمة، ومن الخير للإنسان السوي ألا يوقظها، ونبش القضايا النائمة تمثل ثقافة الأزمات. وكم نسمع ب (ثقافة الكراهية) و(ثقافة الموت) و(ثقافة الخوف)، وثقافات مضافات إلى ما لا نهاية، وهي كلمات تطلق على وقوعات لا على مبادئ. وكأنها الفتن التي لا تصيب الذين ظلموا خاصة، ولو مُعجمت هذه الثقافات من خلال مقالات المرجفين، لكنا المصدر والمورد لكل الخطيئات، وكأن الله خصنا بهذا اللون من الثقافات. وليس من باب الصدفة أن تضاف كل هذه الثقافات الموبوءة إلى الخطاب الإسلامي المحلي، بوصفه الخطاب الفاعل والمؤثر، وقمعه يفتح ثنيات على حمى الله، والخطاب الإسلامي الرسمي المؤسساتي يمارس حق الدفاع عن نفسه، وليس مسؤولاً عن إسلام اللعب السياسية والتسيس (التكتيكي)، وهذه الإطلاقات التي تخلط الأوراق ماكرة بكل المقاييس، تلقاها السذج والمغفلون، وحسبوها من عند خطاب أمتهم. ولكي نجتاز المختنقات يجب أن نعدل عن نبش القضايا التي لا يشكل غيابها عائقاً لمسيرتنا الحضارية. وأن نشغل أنفسنا بإصلاح ذات البين، والتقريب بين وجهات النظر، وأن يكون نقدنا كما كان نقد الرسول ﷺ: «**مالي أرى أقواماً ...**».

ومتى اختلفنا في وجهات النظر، وجب علينا الرد إلى أهل الذكر وأرباب الحل والعقد، ممن يردون إلى الله والرسول، ذلك أن مصلحة الأمة في الالتفاف بجماعة المسلمين، واحترام العلماء الناصحين، والتقارب في وجهات النظر، ونبذ الحديات والتوترات، وتبادل الاتهامات. ويد الله مع الجماعة، والشذوذ مؤذن بفساد كبير، إن الراصد الحذر تتبدى له اللوثة بأبشع صورها، فالكتاب لا ينفكون من إثارة القضايا الساخنة، وتحميل التيار الإسلامي وحده مسؤولية الإخفاق والتوتر، وخطأ التشخيص يؤدي إلى مضاعفة العلة، وذلك ما نراه رأي العين في المشهد الإعلامي محلياً وعربياً.

الراصد لكافة المشاهد الأدبية والسياسية والفكرية، يشد انتباهه ذلك التثوير المتعمد لقضايا قتلت بحثاً، وتفرق أهلها أيدي سبأ، والناجون منهم لا يقولون إلا معاراً أو معاداً من القول. والمصيخ لنجوى المختانين أنفسهم، يرتاب من استدعاء القضايا المحنَّطة، وبعثرة أوصالها على يد كُتاب لا يعرفون من الأشياء إلا رسمها ولا من الأفكار إلا اسمها، ولا يدرون كم تحت السواهي من الدواهي، ونكارة الاستدعاء أنه يأتي في ظروف بلغ فيها السيل الزبى، وطمع في مثمنات الوطن من لا يدفع عن نفسه، حتى لقد همّ الشجي أن يصيح:

إذا كنت مأكولاً فكن خير آكل

وإلا فأدركني ولمَّا أمزق

ومثل هذا التثوير والاستدعاء مؤشرٌ على سوء التوقيت والتقدير. فالعقلاء المدَّكرون المدركون للعواقب المشؤومة، يتخولون الظروف المناسبة والأجواء الملائمة، ولا يدفعون بأطياف الأمة إلى بؤر التوتر، ومضائق التلاحي، ومقترفات التنافي. وكل رفيق مشفق على تماسك أمته، حريص على وحدتها الفكرية وترابط جبهتها الداخلية، له في رسول الله ﷺ أسوة حسنة. فهو لا يمارس عمله الدنيوي ولا اجتهاده الشخصي إلا بعد الاستخارة والاستشارة، وهو مع المقترفين من الرحماء، لمعرفته بالضعف الإنساني، حتى أنه يفرق في المساءلة بين أقوياء الإيمان وضعفائه، كما في قصة الثلاثة الذين خلّفُوا. وهو كذلك يفعل في الأعطيات، كما في أحداث (غزوة حنين) وكما يفعل مع المؤلفة قلوبهم حتى لقد أصبحوا من أهل الزكاة، وهم الذين أسلموا، ولم يؤمنوا، أو الذين يعبد ون الله على حرف. وهو في الحدود يندب إلى الستر، ويتوخى التلقين بـ«**لعلك قبَّلْت** ...»، ويلوم الدافعين للاعتراف بالذنب والحائلين دون التراجع عنه. وهو لا يريد مواجهة الأخطاء التي يقع فيها أصحابه أو مصاحبوه من المنافقين، مخافة أن يقال: إن محمداً يقتل أصحابه، وهو في المواقف الحرجة يجنح للسلام واللين ورأب الصدع. وما خيّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما. وفي الإسلام فسح (الاتقاء) وقبول (الإكراه) مع اطمئنان القلب بالإيمان، و(العدول) عن سبّ معبود الآخر إذا ترتب عليه سبّ للذات الإلهية عدواً بغير علم، وأحسب أنه من الانتهازية والمزايدة الرخيصة التهافت على القضايا المختلف حولها، وتحويلها إلى حدِّيات صارمة، وما ذاك إلا لتصور البعض أن الرياح تهب لصالحهم، وأن مثلهم كمثل المرخي عمامته الذي استغاث به (أبو حرزة):

يا أيها الرجل المرخي عمامته

هذا زمانك فاستأذن لنا عمرا

وكأنهم بهذا التهافت يغتنمون الرياح قبل أن تسكن.

وإذا حُفَّت الأمة بالأعداء المتربصين، واستبطنت بفئات ضالة مضلة، وكيلت الاتهامات الجائرة لمناهجها، وقادتها، وحركتها الإصلاحية، ودعاتها، ومؤسساتها الإسلامية، وإسهاماتها الداعمة للأقليات وللمراكز الإسلامية، فإن واجب حملة الأقلام أن يهبوا للدفاع عن بيضتها، وإن لم تطاوعهم أنفسهم، فلا أقل من الصمت، وذلك أضعف الإسهام. ومن البلية أن يلح البعض في التنقيب عن القضايا المعترك حول مشروعيتها، والممكن تأجيلها، وبخاصة ما يود الأعداء اختراق سيادتنا من خلالها، وأن يتذرع مُنْكُئو الجراح بدعوى الإصلاح، سواء في ذلك ما يتعلق بقضايا السياسة أو الدين أو المجتمع أو الفكر أو الأدب أو غيرها من الدعاوى التي تبدو في ظاهرها الرحمة، وبعض هذه المقترفات مظنة الاتهام بالمواطأة. إذ ما الفرق بين كاتب يعمم في الاتهام، ويوغل في التشكيك، ويتشفى بالتنقص، ويحمِّل المبادئ مسؤولية الممارسة، وإعلام مغرض يروِّج التهم ذاتها. أهذا من باب وقوع الحافر على الحافر؟، أم هو من باب كلُّنا في الهم غرب. ومع الشنآن لهذه الخلائق، فإن العدل والمصداقية تحملاننا على عدم الجزم بالاتهام، لكن الشنشنات لا تخلصنا من هاجسه.

والذين يتعشقون نبش المسكوت عنه، وضرب السوائد المشروعة، والتحريض على قطع الصلة بالماضي، ووصل الحبال بأفكار الآخر وأخلاقه لا بعلمه وأشيائه (التقنية) ثم لا يحترمون مشاعر (الرأي العام)، إما جهلة أو مغرضون. والرسول ﷺ احترم (الرأي العام)، وقدره قدره، حين دخل مكة، وفكر بإعادة بناء الكعبة على قواعد إبراهيم، ولم يمنعه من ذلك إلا أن قومه كانوا حدثاء عهد بكفر، ولو كان مصير الأمة مرتبطاً بتغيير البناء لفعله، ولم يبال. والمملكة حين قامت بتوسعة الحرم المكي الشريف، أبقت على (مقام إبراهيم)، مع ما يشكله من عقبة في المطاف، وأبقت على (أروقة الحرم) التي بناها الأتراك، مع أنه من المصلحة العامة إقصاء (المقام) وإزالة (الأروقة). وكل القادة والعلماء والمفكرين الناصحين لعقيدتهم الرحماء فيما بينهم يرفقون بمشاعر العامة، ولا يتعمدون الاستفزاز، وبخاصة حين تكون الأوضاع غير ملائمة، أو حين تكون القضايا من الثانويات المؤجلة.

وهل أحد لديه أدنى شك في سوء الأوضاع العالمية، وعدم احتمالها لمزيد من نشر الغسيل. والمخلصون المجربون من يتفادون استدعاء أي قضية لا تشكل عائقاً لمسيرة الأمة، إذا كان في استدعائها إثارة للخلاف أو الخوف، وليس من المصلحة ضرب الرؤوس بعضها ببعض، وتأزيم المواقف بين فئات الأمة، والتمتع بصخب التكسير، مهما كانت العوائد. وجمع الكلمة مقدم على كثير من المصالح العامة، ومقدم على كل المصالح الفردية. وفي الحديث الصحيح: «**إنكم سترون بعدي أثرة وأموراً تنكرونها**» قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: «**أدوا إليهم حقهم واسألوا الله حقكم**» وقال في حديث آخر: «**من كره من أميره شيئاً فليصبر فإنه من خرج من السلطان شبراً مات ميتة جاهلية**»، وإذ نحمد الله على أن الخلاف لا يمس العلاقة بين الأمة والقيادة، فإن استدراج الرأي العام قد يقحم السلطة في الأزمة، وقد أقحمها في كثير من القضايا الثانوية، فضلاً عن الأولوية، والتناوش الصحفي يكاد يحتنك الهيبة والاحترام المشروعين.

ولحرص المصطفى ﷺ على وحدة الأمة وتماسكها نهى عن المنازعة وأمر بالسمع والطاعة في المنشط والمكره والعسر واليسر والأثرة، وألا ينازع الأمر أهله، ولكنه مع حرصه على جمع الكلمة، ولمّ الشمل، لم يترك الأمر على إطلاقه، بل حدد مسوغات الخروج بالقول أو بالفعل على ولي الأمر الجائر أو المخالف، بقوله: «**إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان**» وانظر إلى عدد من اللطائف التعبيرية التي غابت عن كثير من الناس: كقوله: (تروا) ولم يقل (تسمعوا) وربط الكفر (بالبواح)، وهو الظهور

والمجاهرة، إذ ما خفي أمره إلى الله، وربط (البرهان) بالله دون غيره من العلماء، وأجمل اللطائف قوله (برهان) ولم يقل (دليل) ذلك أن (البرهان) لا يكون حتى يكون النص قطعي الدلالة والثبوت، فيما يأتي (الدليل) بنص احتمالي الدلالة والثبوت. فإذا اختلف العلماء حول الدلالة أو الثبوت، فلا برهان. وسيرة الرسول ﷺ وسير أعلام الأمة مليئة باللين والرفق والرأفة ودرء الحدود، وإقالة ذوي الهيئات عثراتهم، وكل من أطلق لقلمه ولسانه العنان في القضايا المختلف فيها والمسكوت عنها والمثيرة لمشاعر العامة لم يتخذ الرسول ﷺ ولا سلف الأمة قدوة له. ومن المصميات ألاَّ يتوفر المزايدون على أدنى حد من المعرفة، وأشد من هذا وذاك التعالم، والتسلط، والتزكية، وشرعنة الفعل، ووصم المخالف بالتخلف، ووصف الصدمة الحضارية بالإعجاب البشري المشروع.

والذين يحيلون إثاراتهم على الإصلاح والنصيحة والتصحيح، يغالطون أمتهم، فما من عالم ناصح أو مفكر واعٍ إلا ويحمل همّ الإصلاح والنصح والتصحيح. ولكن الإصلاح لا يكون بالتعالق المطلق مع الآخر، ولا يكون بالاقصاء والاستعداء، ولا بإدانة المبادئ، ولا بتحريف المفاهيم، ولا يكون في قلب الحقائق، ولا يكون بالتشايل مع الإعلام الخارجي المغرض، ذلك أنه إعلام موجه، لا يريد بالأمة إلا الضعف والفساد والتناحر. وهل عاقل يتصور أن أعداء الأمة يريدون لها القوة: المعنوية والحسية؟ وكيف يودون ذلك؟. والقوة المعنوية متمثلة بالإسلام الذي عليه محمد ﷺ وأصحابه وبوحدة الأمة الإسلامية بكل فرقها ومذاهبها، والقوة الحسية متمثلة بأمر الله ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾، وما من عاقل مجرب أو متابع حذر يتصور قبول الصهيونية العالمية المتحكمة بوسائل المال والإعلام، ومن يشاركها الهمّ، ويشاطرها المسؤولية باستكمال القوتين: قوة الاقتداء والوحدة، والإعداد. وهل ما نتلقاه من الغرب بطوعهم واختيارهم يحقق لنا التوفر على القوتين؟ وهل حضوره العسكري والسياسي والإعلامي في مشاهدنا العربية والإسلامية ينطوي على خير للبلاد والعباد؟. ومتى سلمنا بسوء نواياه، وجب علينا أن نتخلى عن أي جدل يفضي بنا إلى الشقاق والتنازع. ومع أن الحق أبلج، فإن مصلحتنا في الكف عن منازعة الأقوياء، ما لم تضطرنا الأوضاع المتردية إلى قتال الدفع، ومتى اضطررنا إلى فك الاختناقات، فإن علينا الدفع بالتي هي أحسن، والجنوح للسلام، واتقاء الأقوياء المتغطرسين بالقدر المباح من التنازلات، ﴿إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ﴾.

وإذا كانت بوادر حضور الغرب في مشاهدنا لا تبشر بخير، فلماذا نبشر به، ونطرد الغربة عنه، ونطمئن إليه، ونحتفي برموزه من فلاسفة ومفكرين لا يقيل استدعاؤهم عثرة الأمة، ونهيئ للمعتدي الأجواء الملائمة لجمع الغنائم وطول البقاء، ولماذا نضيق بالمحذرين والمتحفظين على وجوده المطلق، ولماذا نخلط بين الإرهاب والمقاومة، وإسلام اللعب وإسلام السلف؟ ولماذا نبادره بإثارة القضايا التي يخادعنا بها؟ وتلك الإثارات تمهد الطريق له. لقد بدت نواياه ليس فقط من لحن القول، وإنما بدت من مباشرة الفعل والاحتلال المعلن بالقوة. ولسنا بمواقفنا المتحفظة نجهل قيمه ومنجزاته، ولا نحول دون الأخذ مما عنده، فحضارة الغرب منطوية على إيجابيات كثيرة، يستأثر بها وحدة، ولا يجود بفضله الكأس على من ظلوا يتغنون بأمجاده، وهو يشرب. والمدنية بادية للعيان في أنظمته، وتعليماته، واحترامه للدساتير والقوانين، وسعيه الدؤوب في مناكب الأرض للحرث والزرع والصناعة وبناء المعامل والمختبرات والمؤسسات التشريعية والتنفيذية القوية المحْكمة الصنع والمحَكَّمة في الشؤون العامة والخاصة. ومن المؤكد أن ديننا يحثنا

على اقتباس ما صلح من كل الحضارات، والسير في مناكب الأرض، والبحث عن المنافع الدنيوية، دون النظر إلى مصادرها، متى كانت عامل قوة واستغناء، ذلك أنها من ضوالّنا، وكثير مما عند الغرب من مقطوع وممنوع يعد من ضوالنا. فهل جاد طائعاً مختاراً بشيء منها؟. وهل أخذنا نحن بأحسنها؟ بل هل خلاًّ سبيلنا حين نمارس ما يحيينا، ويقوي جانبنا؟، وماذا استفدنا منه بطوعه أو ببراعتنا منذ (حملة نابليون) حتى (حملة بوش)؟. وهل شيء من أوامر الإسلام ونواهيه يحول دون تحقيق ما حقق الغرب من ظاهر الحياة الدنيا؟ بحيث نفكر في التحول عن ثوابت ديننا وهل قضايا المرأة وحدها التي تبني منصات الانطلاق لآفاق المعارف؟.

والفرائض الغائبة، تتمثل: في جلب علمه، لا في جلب مدنَّيته، وجعله موضوعاً خاضعاً للمساءلة والانتقاء، لا مهيمناً يفيض علينا بما يحفظ لنا أدنى حد من العيش الذليل، ولا يسمح بوجود مستقل، لا يركن إليه، ورب عيش أخف منه الحمام. ومن الفرائض الغائبة تخاذلنا وعجزنا عن الاستفادة من جوانب حياته الجادة المنضبطة، وتخاذلنا وعجزنا عن تمثل الإسلام قولاً وعملاً. ومع التأكيد على أخذ الحذر وتوخي المفيد فإن من الأجدى والأهدى مصالحته ومعايشته ومبادلته المنافع، والحذر من تقديم مبادئنا وقيمنا وعقيدتنا قرابين لاسترضائه. وقبل ذلك وبعده، يجب أن نعرف كيف نصطلح مع بعضنا، لتكون لنا كلمة واحدة في المحافل الدولية، تدرء عنا انتهاكاته الموجعة. وها نحن نطيل القول في التوفر على أدبيات الحوار مع الآخر، ولم تحن منا التفاتة لنرى حجم التردي في حوارنا مع بعضنا. فهل نحن واثقون من نجاحنا في الحوار الذاتي؟ وهل يصلح الحوار مع الآخر، ونحن شيعٌ يضرب بعضنا سمعة بعض، بل قد يضرب بعضنا رقاب بعض؟.

نعم حضارة الإسلام شمولية .. ! (١) [1]

كتب الأستاذ (محمد بن عبد اللطيف آل الشيخ) في زاويته الأسبوعية (شيء من) ١١ - ٦ - ١٤٢٦هـ متسائلاً عما إذا كانت الحضارة الإسلامية حضارة شمولية، ولم يرقب الجواب، بل بادر إلى النفي، وكان يجدر به إذ تصور نفسه الخصم والحكما ألا يقيم الدعوى، إذ من الفضول والتزيد أن تسأل وتجيب وتحكم. وليس مستبعداً اقترافه الأخطاء المنهجية. وكلمته المتسطحة بضاعة استشراقية لا ترقى لمنهجية المستشرقين ولا تضارع إحكام دعواهم، كلمة إنشائية مضطربة، تعتمد الابتسار، ولا تحسن الاستتار. وليس مزعجاً أن يعيد ما فرغ منه المستشرقون، فالإسلام صمد لصناديد الفكر، وأساطين الفلسفة، وجهابذة المنطق، أتوا إليه يجرون الجديد كأنهم مشوا بجياد ما لهن قوائم، وتكسروا تحت سفحه، كما الأمواج الملتطمة، وما زادوه إلا رسوخاً وثباتاً. والمخجل حقاً تلقف الراية بالرأي الفج والرؤية الناقصة .. ومصائد القضايا الكبرى في الإسلام أنها مرايا مقعرة، تكشف عن سمة المقتربين منها وعن مبلغهم من العلم.

وما من كاتب سوّلت له نفسه الاقتراب من جاذبيتها إلا تشظى في وهجها، وما هو في تقحمه إلا جرادة من جراد منتشر في سماء القضايا الحساسة، وكما ابتلعت المفازات أسراب الجراد، فإن فضاءات الإسلام قادرة على ابتلاع أي سابح فيها، وما حفزنا على الإجابة على تساؤله الإنكاري إلا أنه يشكل مع آخرين ظاهرة مريبة. وإلا فالحضارة الإسلامية ألفت هذه الموجات العاتية، وابتلعتها كما تبتلع الشواطئ أمواجها الأزلية، ونقض كلمته العشوائية أنكاثاً يكشف عن كاتب يفتقر إلى العلم الشرعي، والتأصيل المعرفي، ومنهج البحث العلمي. وهذا الإقواء أرتعه في نفاية المستشرقين، إذ لم يبتدر رأياً، ولم يفترس معلومة، وإنما وقع على بقايا من مفتريات من سلف منهم، وهو في إثارته الفضولية يشد عضد الذين أغثوا المشاهد الفكرية باجترار مقولات مهترئة، أكل عليها الدهر وشرب.

والقول في الحضارة يختلف عن القول في مفرداتها، وهذا مكمن الخلل في تحرشه. فالمذاهب في الفروع، والطوائف في الأصول، والظواهر في الأفكار والنظريات في القضايا، كلها تضطرب وتتململ في جوف الحضارة الأم، كما البراكين في جوف الكواكب العملاقة، تثور ثم تخبو، وقد تتدفق حممها على السهول والمنحدرات، فتشكل جبالاً من الصخور، ولكنها مع كل ما تنطوي عليه، لا تنفصل عن الحضارة بكل اتساعها وامتدادها الزماني والمكاني. والقول عن مذهب كـ(السلفية) مثلاً قول في جزئية من الحضارة، وتحجيم الحضارة من خلال رؤية العالم أو المذهب ممارسة فجة، ومؤشر جهل بأبسط متطلبات البحث المعرفي، علماً أن بعض العلماء يرى أن (السلفية) مرحلة زمنية مباركة، وليست مذهباً إسلامياً، وهو رأي يأتي في سياق الفعل ورد الفعل.

وعندما نقول: الحضارة الإسلامية فإن ذلك المفهوم يتسع لكل المذاهب والملل والنحل، والمحطات الزمانية. والحضارة الإسلامية تشتمل على كل الفرق الإسلامية، وأي نحلة أو ملة أو عالم لم يُجمع المسلمون على كفرهم المخرج من الملة فهم مشمولون بالحضارة الإسلامية. وتحت هذا المفهوم لا يجوز لأي مستغرب أن يحصر الحضارة الإسلامية في مذهب أو مرحلة، فضلاً عن أن يحصرها في عالم أو عالمين، يبتسر من كلامهم ما يعزز رؤيته الفجة، ولو أخذنا مقولة الكاتب بالنص، وهي الحجة التي تنفي عنده شمول الحضارة الإسلامية، لوجدناه يقول: (فالإمام ابن تيمية رحمه الله - مثلاً - اتخذ

---

(١) تاريخ المقال: ٢٦/ ٧/ ٢٠٠٥

موقفاً مناهضاً بشدة لعلم الكيمياء وعلم الفلسفة وعلم المنطق)، ولقد أقام المناهضة على ابتسار مُخل من إجابة (ابن تيمية) عن عمل الكيميائيين، ولو قرأ كامل الفتياء، واكتشف مقاصدها، لعرف أنه يُقوِّل (ابن تيمية) ما لم يقل، ويحمِّل قوله ما لا يحتمل. فالفتياء حول استخدام الكيمياء للغش التجاري، وليس لها علاقة في الموقف من الظاهرة، ولهذا ركز ابن تيمية على (الذهب) الخالص، وسماه (المخلوق)، ونفى أن يكون المخلوق كالمشبه، وهو ما يعمله الكيميائيون، ويدَّعون أصالته.

و(ابن تيمية) لو اختلفنا معه جدلاً في بعض مواقفه يعد من علماء الأمة، يحتج به على مذهبه السلفي، ولا يحتج به على الحضارة الإسلامية، ذلك أن الحضارة الإسلامية وسعت المذاهب في الفروع والأصول، وسائر العلوم والمعارف، والملل والنحل، ما ظهر منها وما بطن. والكاتب لم يقل في تساؤله (هل السلفية حضارة شاملة؟) بل قال: (هل الحضارة الإسلامية حضارة شاملة) وبصفتي (سلفي) العقيدة (حنبلي) المذهب (تيمي) الفكر فإنني أقبل نقد السلفية وعلمائها، ولا أقبل التنقص من الحضارة الإسلامية، أو المساس بها كمفهوم عام، ولست بالانتماء منغلقاً، ولا نافياً، ولا مقتصراً على مصدريه واحدة، وقراءتي لقادة الفكر، وزعماء الإصلاح، ورواد النهضة من ماديين ووضعيين يفوق قراءتي لمن أنتمي إليهم. والاختلاف مع (السلفية) حق مشروع، إذ كل يؤخذ من رأيه ويرد إلا المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، أما الاختلاف مع الحضارة الإسلامية، وحصرها في نحلة بعينها فخطأ مخل بالأهلية، ولا يقترف مثل ذلك إنسان ملم بحدود الحضارات ومتطلبات البحث فيها.

لقد نفى الكاتب (شمولية الحضارة الإسلامية) وتلك جرأة جاهل، وليست رؤية عالم، ومكمن الأذية أنك لن تجد من تخاصم. فالشمولية حسب فهم الكاتب الغرائبي لا تتحقق إلا بالتسليم المطلق لكل ظاهرة، والإذعان الطوعي لكل ناعق، والقبول بكل رؤية فجة، وذلك عين التمييع والفوضوية. فعندما يتصدى عالم لنظرية أو مبدأ أو ظاهرة تبناها الفلاسفة أو المناطقة، وطبقوها على الغيبيات والمتشابه، أو استخدموها في الغش والتدليس، وتلقفها المستشرقون والمبشرون كشاهد على المحدودية، يكون هذا التصدي مسقطاً لدعوى الشمولية حسب رؤية الكاتب. وما درى المتجرئ على المسلمات أن هناك مواقف ضد المبادئ والنظريات، ومواقف ضد الإجراءات والتطبيقات، ومواقف ضد الإطلاقات والتعميمات. والمبتسرون لا يفرقون بين هذه المواقف، ولا يدركون مشروعية الاختلاف وحدوده.

ونفي الشمولية لمجرد أن (ابن تيمية) السلفي وقف في وجه (المناطقة)، و(الفلاسفة) و(الباطنية) و(الجهمية) و(المعتزلة) وسائر النحل والملل، مؤشر جهل بالمفهوم، ف(ابن تيمية) يشكل مرحلة تحتويها الحضارة، ولا يحتويها. و(ابن تيمية) ليس وحده الذي وقف أمام طائفة من علماء الكلام والأصوليين والفقهاء والمفسرين والفلاسفة والمنطقيين. وكان الأجدر بالكاتب أن يخوض معترك الخلاف بين العلماء، ليرى ما يشيب من هوله الوليد، فأين هو من المدارس النحوية والمذاهب الفقهية، وقول العالم في المسألة، ومقدم المذاهب والمتقدمين والمتأخرين داخل المنظومة المعرفية الواحدة. و(ابن تيمية) ليس بدعاً بين علماء عصره، فضلاً عمن سلف ومن لحق، لقد قامت بينه وبين علماء عصره ملاحاة آلت به إلى السجن، ولمّا يزل خصومه إلى هذه اللحظة ينالون منه، حتى أن بعضهم حكم ب(كفره)، وكنت أود من الكاتب الإبقاء على شمولية الإسلام، والأخذ بالمواقف المتطرفة ضد (ابن تيمية)، ليكون الإضرار بفرد أهون من المساس بحضارة أمة. والعلماء المتميزون بسعة علمهم ورجاحة عقولهم، حين تبدههم النوازل، يهرعون إلى النصوص الشرعية، يستفتونها، فإن أسعفتهم، وإلا انطلقوا إلى مصادر التشريع الرديفة، والتي تفوق

العشرة: كالإجماع، والقياس، وقول الصحابي، والمصالح المرسلة، والبراءة الأصلية، وشرع من قبلنا، والعرف، والاستحسان. والعلماء الأفذاذ استخدموا عقولهم في الاجتهاد وتصور المقاصد. والرسول ﷺ ندب إلى استفتاء القلب في قضية البر والإثم، وهو ندب يسقط حجة القائلين بتعطيل العقل. والأخذ بالنص القطعي الدلالة والثبوت، يسقط حجة القائلين بتفويض العقل. فالعقل عند السلفيين يدور في فلك النص. والنص عند المعتزلة يدور في فلك العقل. والخيرية في أن يخفق العالم في فضاءات التشريع بجناحي: النص والعقل. ومواجهة النوازل مرتهنة للقوانين والضوابط، ومن ثم نشأ علم الأصول والقواعد، وهي البديل الأمثل (للمنتطق الصوري) الذي واجهه الفلاسفة والعلماء والمفكرون، قبل الميلاد، وبعده، وفي العصور الذهبية للإسلام، وفي الحضارة الغربية المعاصرة. وأصول الفقه وقواعده قوانين استقرائية، فيما يقوم المنطق الأرسطي الذي تحاماه ابن (تيمية) على الصورية والنظرية.

وإضافة لما سبق فإن الموقف من الفلسفة والمنطق والكيمياء مرتهن بالخفاء والتجلي، ومحكوم بمجالات التطبيق، فالعلماء لا يسلمون إلا بعد التصور، وقد يسلمون للنظرية، ولا يسلمون لمجال التطبيق. وكل جديد يظل مجالاً للأخذ والرد، حتى يستقر بشروطه وضوابطه ومعقوليته وإمكان تصوره، وتحقق انتمائه إلى العلم التجريبي، أو الفكر أو الفلسفة، فإذا بأن الظاهرة من العلم المنضبط بقواعده وأصوله انتزع الشرعية، وإن ظلت في دائرة الشك تخطاها العارفون إلى غيرها، فـ(الكيمياء) ظهرت، واستخدمت في بادئ الأمر في غش المعادن، فكان تداول أحوالها عند العلماء مرتبطاً بالصناعات، بحيث جاء الافتاء بالمنع وتحريم استخدامها في الغش. والفلسفة والمنطق طبقاً في قضايا المغيبات، فأدى إلى نتائج مخالفة للنص القطعي الدلالة والثبوت، فحرم علماء الكلام الإسلاميين استعمالها، ولم يستبن العلماء المتقدمون للكيمياء إذ ذاك ما إذا كانت علماً أو سحراً، وحين تبين لمن خلف وجه العلمية المقننة أخذوا بالظاهرة، وبقيت آراء من سلف من العلماء تمثل مرحلة تاريخية وتتعلق بالاستعمال، والمتابع لآراء الفقهاء، يجد فيها الإباحة أو المنع أو التوقف، وكل عالم يسوق حججه، وبعض العلماء يتوقف، فلا يجيز، ولا يمنع، لعدم تحرر المسألة، وقد يتصور بعض اللعماء، أن الظاهرة تعارض ما هو معلوم من الدين بالضرورة، فيفتي بالمنع. مثال ذلك ما حصل حول القول بدوران الأرض، فلقد سئل الشيخ (ابن باز) رحمه الله عمن قال بدوران الأرض وثبات الشمس، فأفتى بالتحريم، لأن الشمس تجري لمستقر لها، وفي قراءة (لا مستقر لها) ولما قيل له: إنه لا تعارض بين الدوران والجريان عدَّل من فتياه. ونصائح العلماء في التزهيد بالدنيا والتحفظ على التطاول بالبنيان، لا يعني أن ذلك يمثل رؤية حضارية، وأن الإسلام ضد العمارة، وإنما الموقف وعظي ترغيبي لا إفتائي حدي، فـ (ابن عثيمين) رحمه الله لا يحرم التطاول بالبنيان، وإن رأي أن الظاهرة مفضولة، وفات الكاتب أن الذين تحدثوا عن (الحضارة الإسلامية) جعلوا من سماتها (فن العمارة الإسلامية)، وبخاصة في المساجد والقصور.

والشمولية التي خفي حدها على الكاتب تعني: الاتساع والاستيعاب. فالاتساع ذو ثلاثة مجالات: الزمان والمكان والمحتوى. ويتمثل المحتوى بشمول الحضارة لكل متطلبات العصر ومفرداته: الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والقضائية والعلمية البحتة والمهنية التطبيقية. وبهذا فاقت الحضارة الإسلامية جميع الحضارات، و(ابن تيمية) يعد لحظة في الزمان ونقطة في المكان، لا تُعرف الحضارة به، ولكنه يعرف بها. أما الاستيعاب فإن الإسلام التهم ما سبق من حضارات، وتفاعل مع ما جدّ من حضارات. وما يعانيه المسلمون من ضعف وتفكك لا يحال إلى رصيد حضارة

الإسلام، وإنما هو لحظة ونقطة. فالتاريخ الحضاري الإسلامي غير تاريخ المسلمين، ومن خلط بين التاريخين فقد أساء للإسلام، والخلط لم يأتِ اعتباطاً، إنه هدف رئيس للمستشرقين والمستغربين، وشمولية الحضارة الإسلامية تقتضي موضعة الحضارات المعاصرة، والأخذ بأحسنها، والحق ضالة المؤمن. ولو كانت الحضارة الإسلامية تتعمد نسف الجسور مع منجز الحضارات لكان للبرمين منها وجه من الحق، غير أنهم يلزمون ما لا يلزم، فيفترضون نفي حضارتهم، تمهيداً لإحلال حضارة الآخر.

واعتراض علماء المسلمين على (الفلسفة) و(المنطق) لا يمس الشمول والثبات، فاختلاف وجهات النظر من مظاهر خصوبة الحضارة، وحين يعترض (ابن تيمية) على (ابن رشد) بوصفه فيلسوفاً، أو حين يعترض على (الكندي) بوصفه منطقياً، فإن ذلك لا يمس شمولية الحضارة الإسلامية. والمناطقة المعاصرون والسابقون ل(ابن تيمية) كانوا في منطقهم صوريين نظريين، ولقد تجاوز ذلك الإسلاميون إلى المنطق الاستقرائي، وهذا المنطق العملي هو الذي أخذ به الأوروبيون على يد (فرانسيس بيكون) و(مل). وما أخذ به (الفارابي) و(الكندي) و(ابن سينا) و(ابن رشد) لا يتجاوز حدود المنطق اليوناني، ومواجهة أولئك الفلاسفة دافعة المجال والنتائج، وليس الظاهرة، فلقد اتخذت الفلسفة مجال الغيب، وخلصت إلى نتائج مخالفة لمقتضيات العقيدة السلفية، وكذلك فعل المناطقة، فكان لابد من حماية المجال ونفي النتائج، أما إعمال الفكر والعقل فمطلب إسلامي، وعلى الكاتب العودة إلى كتاب (العقاد) (التفكير فريضة إسلامية) ليرى كيف عالج الموقف من (المنطق)، ولمزيد من المعلومات يحسن الرجوع إلى (علي سامي النشار) في كتابه (نشأة الفكر الفلسفي) المجلد الأول، وإلى (تطور المنطق العربي) ل(نيقولا ريشر) ترجمة (أحمد مهران) ليعرف الكاتب أنه يهرف بما لا يعرف.

والمتعقب لآراء (ابن تيمية) في المنطق والفلسفة، يقف عند رؤية علمية عميقة، تبناها الفلاسفة والمفكرون والمناطقة المعاصرون، ذلك أنه يواجه المنطق الأرسطي في مجاله التطبيقي، الذي لم يعد ذا قيمة معاصرة، وحين تصدى علماء المسلمين لعلم المنطق الأرسطي، استطاعوا أن يقيموا منطقاً استقرائياً، يضبط إيقاع العقل، كما يضبط النحو إيقاع اللسان، فلم يكن رفض المسلمين للمنطق رفضاً سلبياً، ذلك أن المنطق الإسلامي منطق استقرائي تجريبي، وقد وظفوه في خدمة الطبيعة والطب والكيمياء ولم يُعمِلوه في (الميتافيزيقا)، وإذ يكون المنطق العربي بشقيه: الاستقرائي، والنظري، من مشمولات الحضارة الإسلامية، وإن اختلف العلماء حول الموقف منه، فقد أنجبت الحضارة الإسلامية في مختلف العصور أكثر من مئة وستين عالماً في المنطق، ذكر طائفة منهم (بروكلمان) واستدرك عليه (سزكين) ما فاته، وفات الاثنين أعداد كثيرة، ولهؤلاء المناطق ترجمات ومؤلفات وتطبيقات، والمؤلم أن ثروة الأمة العلمية نهبت من المكتبات العربية، ولم يستطع (معهد المخطوطات) التابع للجامعة العربية تصوير ما نهب، ولمّا تزد مصوراته عن نصف مليون كتاب، وهي نسبة تقل عن الخمس، وما كان صاحبنا على علم بما خلفته الحضارة الإسلامية، مما أصبح ركيزة للحضارة الغربية الباهرة.

نعم حضارة الإسلام شمولية .. ! (٢)[١]

وعزمات الكاتب الواهنة الواهية تصبو إلى إسقاط النظرية الشمولية للحضارة الإسلامية، وهي نظرية متواترة، تحيل إلى مختلف العلوم، ومدار المعارف الإسلامية على الشمولية، وهي مسلَّمة تكاد تكون مما علم من الدين بالضرورة، ولهذا جاءت حجته أوهى من بيت العنكبوت، ولم يظفر بحجة بالغة، تشد من عضده، واتخاذه سبيل التوهين التجزيئي من الخلائق المنبوذة عند المصطرعين حول القيم الحضارية، وكل متأخر في المجيء قد لا يجد ما يحمل نفسه عليه إلا سقْط المعارف، وملتوي المناهج، وكليل الآليات.. وما نود تداركه من باب الاحتراس، أن القول ب(الشمول)، لا يعني الاكتفاء والانكفاء، كما أن القول ب(الغزو) و(التآمر) لا يعني الإسقاط والبراءة، ومن عوّل على الشمول والغزو للمقاطعة والإسقاط، فقد حاد عن مستقيم الصراط، وإذ دلل على قصور الحضارة الإسلامية برفض (الكيمياء) و(المنطق) و(الفلسفة)، وهو رفض له سياقه وحيثياته ومجالات تطبيقه فإن إدراك ذلك من مثله بعيد المنال، وبالعودة إلى الفتوى التي استصرخها الكاتب، ولم تمده بالنصر، نجد أن السؤال الموجه ل(ابن تيمية) عن (عمل الكيميائيين) وليس عن ظاهرة (علم الكيمياء)، وجوابه مرتبط بالنتائج القائمة على ممارسة الغش، وقوله: (وحقيقة الكيمياء إنما هي تشبيه المخلوق) إنما يعني بها ما يفعله الكيميائيون، و(ابن تيمية) فرق بين المخلوق، وهو (الذهب) الخالص، والمصنوع وهو ما يشبهه، مما يعمله الكيميائيون، وإحالته في نفي الشمولية إلى رفض المنطق إحالة من يجهل المراد والأنواع والحدود، وما لا بد من تحديده أن نعرف المقصود ب(المنطق) أهو المنطق الصوري - الاحتمالي - أم هو المنطق الاستقرائي، أم هو المنطق الأولي، أم التقليدي، أم المنطق الرمزي، أم منطق الجدل، أم العلم، أم الرياضة، وأي نوع من هذه تصدى له (ابن تيمية)؟.

والكاتب الجريء التقط الاتهام، ولم يستوعب المفاهيم، ولا المقاصد، ولا الحيثيات .. و(المنطق) الذي واجهه (ابن تيمية) وفنّده في كتابيه: (الرد على المنطقيين) و(نقض المنطق) يرتبط بالجانب الإلهي والفلسفة (الميتافيزيقية)، وليست له مواقف متشددة من المتفلسفة في (الطبيعيات)، والفتاوى تعبّر عن وقوعات محدودة، أما التأصيل ففي كتابيه اللذين أشرنا إليهما حول (المنطق: رداً ونقضاً) و(ابن تيمية) مستوعب ل(المنطق) و(الفلسفة) يعرف تجلياتهما وإخفاقاتهما، والذين يغالبون قراءة كتابيه في (الرد) و(النقض) يدركون تمكُّنه من المنطق والفلسفة (الميتافيزيقية)، ومتى استوعب معارف الخصوم، ووقف منها الموقف العلمي، كان ذلك مؤشراً شمولاً، وفلاسفة العصر الحديث وبخاصة الوضعيين منهم يفوقون (ابن تيمية) في التّحفظ على موضعة (اللا متشئ) و(اللا عيني)، ولا يعدون ذلك شاهداً على عدم شمول الحضارة، وعلى الكاتب استبانة آراء (زكي نجيب محمود) المبثوثة في كتبه، لتثبت فؤاده.

وإذا نقم الكاتب على (ابن تيمية) موقفه من المنطق، وهو موقف جدلي لا يعاب فيه، فإن (فرانسيس بيكون ت ١٦٢٦) و(جون ستيوارت مل ت ١٨٧٢) قد اتخذا سبيل (ابن تيمية) في نقد (المنطق الأرسطي) الصوري، والتّحول إلى المنطق الاستقرائي، ولقد أنصف (جولد تسيهر) (ابن تيمية) في كتابه (العقيدة والشريعة) وصدق في ذلك، وهو كذوب، وموقف (ابن تيمية) من المنطق الصوري - وهو موقف يحسب له، ولا يحسب عليه - أدى إلى منطق استقرائي، يشبه إلى حد كبير مناهج البحث العلمي الحديث، ولم

---

(١) تاريخ المقال: ٩/ ٨/ ٢٠٠٥

يكن (ابن تيمية) وحده الذي سخر من (المنطق) بل سبقه قبل الإسلام، بل قبل المسيحية (الرواقيون) و(الشكاك) ولقد أولع به (الغزالي)، ثم عدل عنه، بعد ما تبين خلله، وشايع (ابن تيمية) علماء وفلاسفة غربيون في الموقف من (المنطق) الأرسطي، ولو أن الكاتب توفرت له القدرة على قراءة الكتابين الآنفي الذكر ل(ابن تيمية) واستطاع أن يستوعب جدل (ابن تيمية) لأصبح موقف (ابن تيمية) من الفلسفة والمنطق والباطنية أقوى شاهد على شمولية الحضارة الإسلامية، ولكن الكاتب مبتسر لم يفهم ما نقل، وهذه الوساطة السلبية ستوقعه في الحرج، ذلك أن الحديث عن المنطق يتطلب الرصد التاريخي له منذ الحضارة اليونانية، ومروراً بالحضارة الإسلامية، وانتهاء بالحضارة الغربية، ومثل هذا التّقصي عصي المنال على المبتسرين المخفين الذين يرضون من اللحم بعظم الرقبة، وإذ قرر عدم شمولية الحضارة الإسلامية، وعول على رفض المنطق والتطاول في البنيان فإنني أرجو منه أن ندع القول والقول المضاد، ونعقد العزم على النظر الشمولي في فكر (ابن تيمية)، وإن كان خالي الوفاض، كليل الذهن فإنني أوجهه لقراءة الكتب التالية:

-تكامل المنهج المعرفي عند (ابن تيمية).

-منطق (ابن تيمية) ومنهجه الفكري.

-(ابن تيمية) وموقفه من الفكر الفلسفي.

-الإمام (ابن تيمية) وقضية التأويل، دراسة لمنهج (ابن تيمية) في الإلهيات وموقفه من المتكلمين والفلاسفة والصوفية، فعن طريق هذه الكتب سيضع قدمه على أول الطريق القاصد.

وإذ لا نتوقع قدرته على تفكيك (المنطق) الذي يجالده ويجاهده (ابن تيمية)، ولا تحديد التعريف الجامع المانع له، ولا التعرف على المحطات التاريخية الهامة في مساراته التّحولية، ولا تحرير مفاهيم (الحد) و(القياس) و(التّصور) و(التّصديق) وهي عمد المنطق، فإننا في الوقت نفسه لا نتوقع قدرته على تحديد مفهوم (الحضارة) لا من حيث الرؤية الإسلامية المتأخرة عند (ابن خلدون) التي سمّاها (العمارة) ولا من حيث رؤية الموسوعيين الغربيين المعاصرين، ولا من حيث اختلاف التاريخ والعلم والفلسفة في تصورها، ولا ماهية الحضارة وتداخلها مع (المدنية) و(المجتمع المدني) و(الثقافة)، ولا التعريفات اللمحية عند (فاريك) و(بتسر) وهما أصحاب معاجم معتبرة، ولا رؤية علماء النفس ك(تايلور) ولا رؤية (الموسوعة البريطانية)، ولا جدل المفهوم والمقتضى الذي اصطرع حوله (مالك بن نبي) و(سيد قطب)، ولو ألم بما أعده مفكرون عرب وعجم عن تاريخ الحضارات ومسارها لعلم علم اليقين أن الحضارة الإسلامية شمولية تعددية، وسعت (الرياضيات) و(الفلك) و(الطب) و(العمارة) و(الملاحة) و(الجغرافيا) و(الصناعات) و(الموسيقى) و(الفلسفة)، وقامت على أسس لم تقم عليها أي حضارة ك(التوحيد) و(الوحدة) و(العدل) و(العلم) و(العمل) و(القوة) و(الأخلاق) وتدبير المال والوقت والجهد، ولو استنطقها لاستجابت لكل خواطره.

ولأن العالمية والشمولية صنوان، فقد شكك فيهما المستشرقون من أمثال (وليم بيور) و(شك كبناني) وحجتهم أن الرسول ﷺ ما كان يعرف غير الجزيرة، وأنه لم يوجه دعوته إلا للعرب، وعاضدهما (جولد تسيهر) الذي أحال إلى (لا نتول فرانس) وحجة (تسيهر) أن محمداً ﷺ ما كان يعلم بانتشار دينه واستمراره، ولن نرد على منكري العالمية والشمول من مستشرقين أو مستغربين، ولكن نحيل إلى طائفة من الكتب منها على سبيل المثال: (دفاع عن العقيدة والشريعة) (للغزالي)، و(قضايا معاصرة في ضوء الإسلام) و(خصائص الدعوة الإسلامية) و(الحضارة الإسلامية) ل(متز) و(روائع الحضارة العربية والإسلامية) ل(الدفاع) و(حضارة الإسلام وأثرها في التّرقي العالمي) ل(جلال

مظهر)، والحضارة الإسلامية كما يقول (العقاد) قوة غالبة، وقوة صامدة، وعقيدة شاملة .. وعن الشمولية يقول في كتابه (الإسلام في القرن العشرين): (يبدر إلى الذهن أن الشمول الذي امتازت به العقيدة الإسلامية صفة خفية عميقة لا تظهر للناظر من قريب، ولا بد لإظهارها من بحث عويص في قواعد الدين وأسرار الكتاب وفرائض المعاملات، فليست هي مما يراه الناظر الوثني أو الناظر البدوي لأول وهلة، قبل أن يطَّلع على حقائق الديانة، ويتعمَّق في الاطلاع) ويستطرد إلى القول: (الناظر القريب قد يدرك شمول العقيدة الإسلامية من مراقبة أحوال المسلم في معيشته وعبادته).

ويتحقق مفهوم الشمول عند (العقاد) بتوازنه بين المادة والروح، حيث يقول: (إذ لا يوصف بالشمول دين ينكر الجسد كما لا يوصف بالشمول دين ينكر الروح) وهو بهذا يومئ على المسيحية واليهودية المحرفتين، وشمولية الحضارة الإسلامية بالتوازن من جهة وبالمساواة من جهة أخرى، فالتفاضل في التقوى المقدور عليها لكل إنسان، وليس للعرق ولا للغة.

وينهي (العقاد) بحثه بقوله: (وهذه العقيدة الشاملة هي التي أفردت الإسلام بمزية لم تعهد في دين آخر من الأديان الكتابية)، والكاتب تشابهت عليه مفاهيم الشمول ومجالاته، ونقص معارفه حمله على الأخذ بمقولة المستشرقين دون استيعاب لحيثياتهم، وتصوره أن الموقف من المنطق، وغش الكيميائيين، والموقف من المتطاولين في البنيان هي كل المعاول التي يهدم بها دعوى الشمول تصور بدائي .. وفاته أن فن البناء الغربي تأثر كثيراً ببناء الأقواس والقناطر والمنحنيات وهندسة القباب وفن الزخرفة والنقوش العربية، ويقيني أن الكاتب لو مكن نفسه من رصد حملات الاستشراق، واستوعب أطرافاً من مقولاتهم، لكان لقوله بعض التأثير، ولكنه سمعهم يقولون شيئاً فقاله.

وكم كنت أتمنى ان كانت لدى الكاتب بقية من أحبار أن ينفقها في سبيل الدفاع عن حوزة الدين المنتهكة، لا أن يشد عضد المستشرقين الذين لا يشفي صدورهم إلا التقليل من شأن الحضارة الإسلامية، وحماة الثغور ليسوا ممن يخدعهم الخب، بحيث لا يأخذون حذرهم، حيث يتواصى الفارغون بأخذ الإسلام من أطرافه والنيْل من مفرداته من مثل:

-خرافة الإعجاز العلمي.

-عدم شمولية الإسلام.

-اقتصار الحضارة الإسلامية على حفظ الحضارة اليونانية، ونقلها كما هي إلى الغرب.

-تاء الخجل في ظل الخطاب الذكوري.

-تقلب مفردات الحضارات البائدة في اللغة العربية، وليست في عقول العلماء العرب، وهذا النقد السلبي التجزيئي يحقق إعجاز التنبؤ في نقض عرى الإسلام عروة عروة.

وكل الذين دخلوا جحور المستشرقين قبل التحصن، نسلوا منها، وليس في غيابهم إلا الحشف وسوء الكيل، والذين يخوضون في الفلسفة، وهم ليسوا من أهلها، أو يجادلون في قضايا الدين، وليسوا من أهل الذكر، أو يتناجون في أنواع الفنون، وليسوا على شيء من الموهبة أو المعرفة، يكونون مثار سخرية، ولن يظفر بالاحترام إلا رجلان: رجل تختلف معه، وهو على جانب من العلم والوعي والسيطرة التامة على قضاياه، ورجل يعرف قدر نفسه فلا يخوض في القضايا الكبرى حتى يستكمل المعلومة، ويجود المنهج، ويتقن الآلة .. والخبيرون بالمعارف والمذاهب يعرفون الأدعياء بسيماهم، ومن تحدث في غير فنه جاء بالعجائب، وما ارتبكت مسيرة الأمة إلا حين انبرى للقضايا الكبيرة من لا يحسن الورود ولا الصدور، وكم يحلو لي تقصي معركة من معارك الفكر أو السياسة أو الأدب

أو الدين، لأقف على طرائق المصطرعين، وما يحيلون إليه، وما يحكمون به، وما يُحكِّمونه من طرائق تفل الخصوم، ولقد تبيَّن لي أن بعض المتقحمين كما الفراش يبحثون عن الأضواء، لكنهم يحترقون قبل الدخول في دوائرها، ولا يضرون الحقائق شيئاً، ومما لا شك فيه أن تقحم الإنشائيين يربك المسيرة، ويعكر صفو الرؤية، وقد يؤثر على الضعفاء والمتسطحين، ولربما يكون تقحم المتسطحين لعبة من اللعب التي تبطئ بالفهم.

ولا أظن أن ظاهرة الإثارة، وتهافت الفارغين على القضايا الكبرى من الصدف، إنها مكيدة حاذق أو تعالق أبله، ومن المصلحة تدبر الأمر مع الكائدين والمتعالقين، إذ ربما يكون خيراً من إجابتهم السكوت، ومتى كثر ترديد الكلام، وكثر المتعالقون واستسيغ جر العلماء الأفذاذ من أجداثهم دون اكتراث، فإن وراء الأكمة ما وراءها.

لقد استمرئ التّنقص والتّندر - وأصبح ابتسار الكلام من سياقه وأنساقه من الظواهر التي تجاوزت العفوية إلى التربصية، وكما قلت من قبل من باب التحفظ: ليس كل متقحم يقع تحت طائلة الاتهام، فكم من غِرّ راق له الاهتياج الأعزل، دون معرفة ببواطن الأمور، عرَّض نفسه للاغتياب، وحرمها من الدعاء المأثور (رحم الله امرأً كف الغيبة عن نفسه) وكم من حائم حول الحمى وقع فيه، فندم ندامة الكسعي، وكم أتمنى لو كان خيار الكاتب (التّحدي) بدل (الاستجابة) وهي ثنائية المؤرخ البريطاني (أرنولد تويني) في نظريته الحضارية.

إن الحضارة الإسلامية حضارة شمولية أصيلة قوية منيعة منتشرة، بدت في مواقع متباعدة: زماناً ومكاناً وإنساناً، تجلت زمن الخلافة العباسية في (بغداد) وزمن الخلافة الأموية في (قرطبة) وزمن الخلافة الفاطمية في (القاهرة) ومن الأندلس سطعت شمس العرب على الغرب، ولكي يتأكد صاحبنا من أن حضارة الإسلام تركت آثارها على الغرب فعليه أن يقرأ كتاب المستشرقة الألمانية (زيغريد هونكه) (شمس العرب تسطع على الغرب)، والذين يتنقصون الحضارة الإسلامية أقل ما يوصفون به التبعية والانهزامية، قد يكونون متذيلين للاستشراق أو الشعوبية، والنقد والتقويم يختلفان عن التنقص والنفي وجلد الذات.

وبعد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١] .

إذا طل منا سيد قام سيد .. ! [(١)]

أيها المفجوعون.
أيها المنتحبون.
أيها المصابون.

تماسكوا، واجتازوا مرحلة الصدمة بالصبر والسلوان، وقول ما يرضي الله، لتتحقق لكم صلواته ورحمته وهدايته. ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ (١٥٦) أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥- ١٥٧] . إذ لم يعد الوقت متسعاً للنحيب، ولا محتملاً للانكسار، ولا مناسباً للارتباك. لقد كانت وفاة الملك فهد صدمة مذهلة، ورحيله فاجعة مؤلمة، ولكننا على يقين أن ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، ولقد أكد الله لرسوله أنه ميت ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] . وإذ أقبل أبو بكر يجر رداءه، ليعلن موت الرسول ﷺ، فإنه لم يعلن بموته موت الأمة، وإنما جاء ليربط الأمر بمن لا يموت (ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت).

لقد وقفت قوة الإيمان وقوة الإرادة وجهاً لوجه أمام حدث جلل.
قوة الإيمان عند أبي بكر.
وقوة الإرادة عند عمر.

كانت قوة الإرادة بشرية، فخارت أمام المصاب الفادح، أما القوة الإيمانية فقد صمدت، وتجاوزت المحنة، (من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت). ثم تلا: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤] . واليوم نحن بحاجة إلى قوة الإيمان، فقوة الإرادة قد تخور، وتحملنا على فقد توازننا، وارتباك أوضاعنا.

ذلك أن الملك فهد -رحمه الله-، لم يكن ملكاً، يقبع وراء أبهة الملك، ولم يكن عابر سبيل، إنه الأب والقائد والتاريخ، إنه الإنسان الذي عرفناه، وعرفنا فيه الرائد الذي لا يكذب أهله.

-رجل المبادرات.
-رجل الملمات.
-رجل الخبرة والمسؤوليات المتعددة.

لقد تسلمت -رحمه الله- عدة حقائب وزارية، ولم يغب عن المشاهد المحلية والعربية والإسلامية والعالمية منذ نعومة أظفاره. وكان حكمه الذي امتدّ لأكثر من عقدين ذروة المسؤولية في حياته العملية، ومن ثمّ فقد وظّف كل خبراته وتجاربه لقيادة الأمة في ظروفٍ استثنائية يمر بها العالم، ظروف وسعت حروباً طاحنة، وسقوط إمبراطوريات عملاقة، وفشل مشاريع ثورية وقومية واشتراكية وقطرية وإرهاباً، ونزاعات واعتداءات وانهيارات اقتصادية، فكان الربان المحنك، الذي أرسى السفينة على شاطئ الأمان. وإذا

---

(١) تاريخ المقال: ٢/ ٨/ ٢٠٠٥

قضى الله أن يترجل من مركز القيادة، فقد شاءت إرادته أن ينهض إليها رجل مثله، قضى حياته بالعمل، واكتسب الخبرات، وألم بالمسؤوليات. وقدر بلادنا الحميد أن تكون فوق هام السحب، لها حضورها الفاعل على كل الصعد. وأي حدثٍ جلل يمر بالمشهد السياسي العالمي، يكون لبلدنا معه شأن كبير. ووفاة شخصية كالملك فهد لابد أن يقف العالم كله، لينظروا ماذا سيكون. وما علموا أن السياسة هي السياسة، وأن المواقف هي المواقف. ومنذ أن أرسى الملك عبد العزيز دعائم الملك، وأبناؤه من بعده يترسمون خطاه.

لقد اجتاحت المنطقة أعتى العواصف، وكادت مثمنات البلاد تذهب أدراج الرياح، أمام غطرسة القوة، وجنون التصرف، وتصادم المصالح، وصراع الحضارات، واقتتال الطوائف والأحزاب والأعراق، ولكن البلاد والحمدلله خرجت من غوائلها بكل رباطة جأش، وقوة وإرادة وثبات، وصدق إيمان بالحق. وفي أحلك الظروف وأخطر الأحداث خرج القائد ليعلن موقف المملكة القوي الحازم الواضح أمام أي اعتداءٍ على الشرعيات، والتف العالم كله من حوله، وكان النصر المظفر. وعلى المستوى المحلي تعرضت البلاد لتحولات عالمية متسارعة، كادت تفقد معها البلاد خصوصيتها، فكان أن تلاحقت المبادرات الرصينة، لتفادي التخلف عن العالم المتسارع في إيقاعه، دون أن يمس التغيير ثوابت الدين وخصوصية الوطن. فكانت الأنظمة والمؤسسات الشورية والمناطقية والإجراءات الانتخابية في تتابع سليم.

والقلم حين يراوح بين التأبين والتفجع، يتنقل الإنسان معه بين الألم والأمل والمملكة العربية السعودية منذ أن أرسى دعائمها المؤسس العظيم الملك عبد العزيز، وأقامها على قواعد الدين والوحدة والحرية والمساواة، وهي تنعم بالاستقرار السياسي، والأمن القومي، والرخاء الاقتصادي، وتداول السلطة بانسيابية وهدوء. لقد مات الملك فهد والموت يقين لا يدري أحد ماذا يكسب غداً، ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤]، وبعد لحظات من الوفاة تلقى الراية عضده الأيمن وخليفته في كل مهماته خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز آل سعود -حفظه الله-

ألم ممض وثقة قوية.

فقدنا رجلاً عظيماً.

واستقبلنا رجلاً عظيماً.

مات ملك وعاش ملك.

إنّها إرادة الله، وهي إرادة نرضاها، ونحمده عليها. فما كنا في يومٍ من الأيام نخاف فراغاً دستورياً، ولا تنازعاً على السلطة، رجال أشداء، عرفوا عظم الأمانة، فكانوا في ساعات العسرة أقوى منهم في ساعة الرخاء، سمو فوق كل المعوقات الطارئة. لقد عرفوا أن الأمة حية لم تمت، وان شأنها أكبر من كل شيء، فكان ان التفت الأسرة، وقدمت للأمة المصابة خليفة عاش حياته راصداً لسياسات سلفه ومواقفه، مستوعباً لثوابت هذا الحكم التي لا تتغير بتغير القائد: العقيدة والوطن. لا تفريط في ركنٍ من أركان العقيدة، ولا تهاون في شبر من أرض الوطن، وحدة إقليمية ووحدة فكرية.

لقد ارتبكنا، واهتزت أيدينا، وذرفت دموعنا. وأحسسنا أننا غير قادرين على التماسك، ولكن حملة الأمانة نسوا ما هم فيه، وفكروا فيما هم مقبلون عليه. نسوا آلامهم، وأعادوا للأمة التي وضعت كل مقدراتها في سلالهم اطمئنانها وأثبتوا لها: - أن القوة على

الثغور، وأن الأصابع على الزناد، وأن العيون مفتحة في كل الاتجاهات. إنها إرادة الله، وهل أحد يرد القضاء، لقد قضى الله أن يموت ملك، وأن ينهض ملك.

فالله نسأل أن يتغمد الفقيد بواسع رحمته، وأن يجزيه عن الأمة العربية والإسلامية خير الجزاء، وأن يأخذ بناصية الخلف، وأن يستعمله في طاعته، وإعلاء كلمته، والسعي في حاجات أمته العربية والإسلامية، وأن يسبغ الصحة والعافية على عضده وولي عهده الأمين ليواصل المسيرة خلف قائده، وهو قد سار معه نائباً ثانياً، وهو الآن يسير معه ولياً للعهد، كما نسأل الله جل وعلا أن يرزق الأسرة الكريمة الثقة والاطمئنان، واجتماع الكلمة، وتحمل المسؤولية الجسيمة التي اختارهم الله لها.

-إن الحدث عظيم.

-والخطب جلل.

-واللحظات حاسمة.

ولم نعد بحاجة إلى تقصي مآثر السلف والخلف. ولا أن نبدي ما في أنفسنا من حبٍ وثقة، وما اجتاحها من حزن وألم مريرين، ولكننا نعلن للعالم العربي والإسلامي والعالمي، أن البلاد ستظل بخير -إن شاء الله-، وأنها ستتقدم من حسن إلى أحسن، وأن رجالاتها تلقوا الراية من اللحظة الأولى، وأنها لن تسقط ولن تتوقف.

وثقتنا بالملك عبد الله وبالأمير سلطان أنهما عاشا طوال حياتهما مع والدهما وإخوانهما، ومع الراحل المحنك، يتخلقان بأخلاقه، ويستلهمان طموحاته، ويعرفان دخائله. وكل ما يبعث على الثقة والاطمئنان أن البلاد لم تظل في ترقب خائف لمن يمسك بمقاليد البلاد، وإنما بادر الراية الأحق بها، حيث اختارته الأسرة ورضيه الشعب وهيأه الراحل باختياره ولياً للعهد، وحين توقفت خطوة الملك الراحل، تحركت خطوة الملك القادم، وهكذا تظل المسيرة كما هي:

إذا طل منا سيد قام سيد

قؤول لما قال الكرام فعول

فليرحم الله خادم الحرمين الشريفين، وليسبغ عليه شآبيب رحمته، وليجعل ما عمله في خدمة كتابه ومقدساته في ميزان حسناته، وليوفق الله القادم الجديد، وليسدد على طريق الحق خطاه، ويشد عضده بولي عهده الأمين ورجالات حكومته الأوفياء، ولن نقول إلا ما يرضي ربنا: - ﴿إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ﴾.

سياسة التوازن وتوازن السياسة .. ! (١)

هذه التظاهرة العالمية مع أتراح البلاد وأفراحها، لا يمكن أن يتخطّاها الرَّاصد دون أن يتساءل: هل هذا مرتبط بالأُسرة الحاكمة، أم باحتياطي النفط الأكثر عالمياً، أم بالمقدّسات الإسلامية؟. وهل هو بالفعل أم بالفاعل أم هو في ذلك كله؟. وكلُّ متقصّ لأسباب الاهتمام بأحداث البلاد، لا بد أن ينظر إلى كلِّ ذلك. فالتنقيب عن الأسباب الحقيقية، لا يمكن فصلها عن تاريخ البلاد، منذ بدايات التأسيس، والاهتمام العالمي يجب ألاّ ينسينا ما تعانيه البلاد من غبطة تتحوّل إلى حَسَدٍ يتميّز أهله من الغيظ.

والمواطن السعودي المعايش لتقلُّبات الطقس السياسي، يرصد الجزر والمد، ويعرف أنّه مغبوط ومحسَّد، وكأنّي به يوجِّه نداءه إلى تلك الأسباب الثلاثة مجتمعة، كما (المتنبي):

أزل حسد الحساد عني بكبتهم

فأنت الذي صيرتهم لي حُسَّدا

والإعجاب والحسد يحملانه على ترجمة المواقف، وتحديد بواعثها، ومحاولة ترتيب أمره على ضوئها. والمتابع للتاريخ الحديث، يجد أنّ الأُسرة السعودية الحاكمة جزء من الكيان والتاريخ، فلقد مرّت الأُسرة والبلاد معاً بثلاثة أدوار، يحيل بعضها إلى بعض، ويرتبط بعضها ببعض ارتباطاً عضوياً، فهي ذات رسالة سياسية ودينية لا تحويل فيها ولا تبديل، قوامها ثلاث دعائم: وحدة إقليمية، ووحدة فكرية، ومنهج إسلامي واضح.

فالدور الأول هو الأساس الذي تخطّى بالأُسرة وبالوطن إلى عتبات التاريخ، وحوّلهما إلى كيان مهم ومثير، تخطّى الإقليمية والقبلية إلى مشارف السياسة العالمية. تمثل ذلك باللقاء المبارك بين (محمد بن سعود)، و(محمد بن عبد الوهاب)، وخطورة هذا اللقاء أنّه قضى على الإقليمية والقبلية والتشرذم في المجال السياسي. وقضى على الجهل والبدع، وحمى جناب التوحيد في المجال الديني. ولقد أصبح هذا التحوُّل نذير شؤم على المستفيدين من تلك الأوضاع المتردية، كما أنّه كشف عن سلبية (الدولة العثمانية)، التي لم تكن تحفل بقلب الجزيرة العربية، وما يجتاحها من فتن عمياء، وأمراض وبائية، وفقر مدقع، وحروب على المراعي والموارد، وما هي عليه من ضياع وانفلات في السلطة. فكلُّ قرية لها أمير، وكلُّ وادٍ له سلطان، وكلُّ قبيلة لها زعيم. والناس كما قطعان الماشية غنيمة لمن سبق. وبداية العهد السياسي الشامل، والديني السلفي له ما بعده، ولهذا فكلُّ الخصوم يستعيدون تلك البدايات الحاضرة في نسيج الكيان، فالمستشرقون والرحالة والمناوئون يبدؤون من حيث بدأ الدور الأول.

و(الدولة العثمانية) في ظل هذا التحوُّل الحضاري، ارتكبت خطيئتين: خطيئة المواجهة لهذا الكيان الحضاري الناشئ. وخطيئة تهميش قلب الجزيرة العربية، وعزلها عن العالم. وما انصبّ اهتمام العثمانيين في الجزيرة العربية إلاّ على (الحرمين الشريفين)، لمكانتهما: إسلامياً وإعلامياً، وهي دولة ما كنّا نود انهيارها، لأنّها تمثِّل رمز الخلافة الإسلامية، ولا ننقم عليها، لأنّ الغرب كاد لها وأرداها، ولا نصفها بالمستعمر ولا بالمحتل، كما يحلو للعلمانيين، ولكننا لا نقبل أن نعيش في ظل ظروف متردية، كان بالإمكان تجاوزها، فلقد تجرّع آباؤنا وأجدادنا مرارات الفتن والأوبئة والجهل. ولقد كان لقاء (المحمدين) بداية قوية، للتخلّص من أوضار الجهل، وذل المرض، وشقاء الفقر. وإذ أحسّت (الدولة العثمانية) بأنّ هذه الدعوة السلفية ستكشف عن خرافات التصوُّف

---

(١) تاريخ المقال: ١٦/ ٨/ ٢٠٠٥

و(الانكشارية) وإهمال الأطراف من الولايات، فقد عملت على إجهاضها. وبالفعل أنهت الدور الأول بالحملة المشؤومة (حملة إبراهيم باشا)، التي أتت على الحرث والنسل، وأعادت نجد ومن حولها من الأعراب والحواضر إلى ما كانت عليه من قبل: تخلُّف وفقر ومرض وإقليمية وقبلية. ولأنّ الشرعية مع الأُسرة، فقد عادت إلى الحكم مرة ثانية على يد الإمام (فيصل بن تركي)، الذي أقام الدور الثاني من الحكم السعودي، وإذ نجت من حملة مدمرة، فإنّها لم تنج من التآمر الذي فكّكَ أوصالها، ولما لم يكن بمقدور العثمانيين الدفع بحملة ثانية كما سلف، فقد استخدمت الدسائس واللّعب السياسية، حتى انشق الأشقاء من آل سعود على أنفسهم، وبهذا التنازع الأُسري انتهى الدور الثاني عام (١٣٠٨هـ).

وفي نهاية العقد الثاني من القرن الرابع عشر الهجري، تحرك الشاب الممتلئ حماسة وثقة (عبد العزيز بن سعود) من ملجئه في الكويت، الذي أمضى فيه مع والده وأُسرته زهاء عقد من الزمن، متجهاً صوب الرياض، وليس في يده عدة ولا عتاد، ولكنه يملك شيئين: - (المشروعية) و(السمعة). (المشروعية) وتتمثَّل باستعادة مُلك آبائه وأجداده، فلقد نفيت الأُسرة من أرضها. وانتزع من يدها حكمها ظلماً وعدواناً. و(السمعة) التي يحتفظ بها النجديون خاصة، وسكان قلب الجزيرة العربية على وجه العموم للأُسرة الحاكمة، فالأُسرة تحكم البلاد بالعدل واللين والمساواة، وتقيم شرع الله، ولا تأخذها نزعات قبلية ولا إقليمية. ولأنّ النجديين في مدنهم الرئيسة متحضرون، يعتمدون على الزراعة والتجارة، فقد كانوا أحوج ما يكونون إلى حكومة حضرية، تنهي التناوش على المراعي والموارد، ولهذا أصبحت حواضر نجد ترقب عودة الأُسرة بفارغ الصبر. ولما قدم الملك (عبد العزيز)، كانت عدّته وعتاده: الشرعية والسمعة. ومن ثم أقبل الناس بأنفسهم وأموالهم مختارين طائعين، وانضموا تحت رايته، وشكّلوا جيشه، وعدّته وعتاده.

وبعد إنجازه لمعركتي: (التكوين) و(البناء) قضى نحبه، فتلقّى الراية من يده أبناؤه: (سعود ١٩٥٣ - ١٩٦٤م) و(فيصل ١٩٦٤ - ١٩٧٥م) و(خالد ١٩٧٥ - ١٩٨٢م) و(فهد ١٩٨٢ - ٢٠٠٥م) - رحمهم الله جميعاً - و(عبد الله ٢٠٠٥م - .. ..) وفّقه الله، وكلُّهم يترسّمون خطاه، ويتخلّقون بأخلاقه. ولكلِّ عهد سماته ومبادراته وتحوُّلاته، وهي سمات ومبادرات وتحوُّلات تفرضها الظروف المعاشة، والأحداث المحيطة، إذ لم تضطرب أحوال البلاد داخلياً، ولكن أحداث فلسطين، واليمن، والعراق، والحروب العربية الإسرائيلية والحروب العربية العربية، والحروب الإسلامية، والفتن الداخلية، كلّها بطأت في تنفيذ الخطط التنموية الطموحة، ولكنّها لم تغيِّر ثوابت الملك. وسياسة البلاد الداخلية والخارجية لم تتبدّل، ولكنّها تتطوّر، لتوائم المتغيرات العالمية، وقد تكون هناك مبادرات ملفتة للنظر في بعض المحطات، كما حصل في عهد الملك (فهد) رحمه الله، إذ تحققت في عهده أكبر التحوُّلات للمجتمع المدني، وهي بمجملها تحوُّلات مصيرية تمثَّل بعضُها في:

- النظام الأساسي للحكم.
- نظام مجلس الشورى.
- نظام مجلس الوزراء.
- نظام المناطق.
- إنشاء المجالس العليا والمؤسسات والهيئات والمنظمات.

وأبرز ما في الأنظمة انتقال السلطة، وتداول المسؤولية، بحيث حددت مدة العمل لعضوية مجلس الوزراء والشورى وأمراء المناطق. ونظراً لأنّ المملكة تحتضن المقدسات الإسلامية، وتهفو إليها أفئدة الأُمّة الإسلامية، وفيها أكبر مخزون من النفط في العالم، ولها أعماقها الجغرافية والسكانية، وموقعها الاستراتيجي وعراقتها السياسية، وثقلها في العالمين العربي والإسلامي، فقد توخّى قادتها سياسة الاعتدال والوسطية

والتوازن، والدعم السخي للشعوب الفقيرة، وفتح جسور الإغاثة في النكبات، والدخول كوسيط حمَّال في مجمل النزاعات الأهلية والحدودية، والمتابع لخطابات الملك (فهد) رحمه الله، وتصريحاته وكلماته يجد أنّها تركز على سياسة عدم الانحياز، ونبذ أيّ خلاف، وعدم التدخُّل في شؤون الغير، ورفض أيّ تدخُّل خارجي في سيادة البلاد وقراراتها المصيرية، وتؤكد على احترام العهود والمواثيق العالمية، والتعاون مع المؤسسات العالمية، وخدمة السلام والأمن الدولي، وتَبَنِّي مجمل المبادئ الحضارية: كالعدل، والاستقرار، والتعايش السلمي. والحرص على إبعاد المنطقة عن الصراعات الدولية. ولكن الرغبة في توقّي الصراعات لم تتحقق، لانفراد بعض القادة العرب باتخاذ القرارات المصيرية، أو التورُّط في اللّعب الكونية.

كما أنّ المملكة بقيادته - رحمه الله - كان لها أكبر الأثر في حل المشاكل المستعصية إقليماً وإسلامياً. وليس أدل على ذلك من (مؤتمر الطائف) لحل الأزمة اللبنانية و(مؤتمر مكة) لحل الأزمة الأفغانية، واستقطاب العالم لتحرير (الكويت). لقد كان حضور المملكة في القضايا كافة، يمثِّل الدعم: الحسي والمعنوي، ويحقق التوازن في إقرار الحقوق الإنسانية، وحقوق الشعوب والأقليات. وممارسة الدول لقضايا السياسة العالمية تتم عن طريق القنوات المشروعة كالمنظمات العالمية.

وليس هناك أهم من احترام حقوق الشعوب في العالم الثالث المسكون بالفوضى والثورات الدموية، والتدخُّلات الأجنبية. وقد لا يتأتّى للشعوب المحكومة بالحديد والنار، والمهددة بالسجون والمنافي تقرير مصيرها، ولكن المملكة مع هذا تفضل احترام حقوق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها قدر المستطاع. والسياسة المتوازنة في المملكة تعارض استخدام القوة في حل القضايا، مهما كانت مستعصية. ولقد تبدت أفضال هذه الرؤية بعد احتلال (العراق) وتعرُّضه لفراغ دستوري. والمملكة عايشت تدخُّلات واحتلالات، وكان موقفها واضحاً. فاحتلال الكويت وأفغانستان والعراق شواهد على المواقف المتوازنة والذكية من قِبل المملكة. لقد حذّرت ونصحت وتحفّظت، ولكن لم يطع لها أمر، فكان ما كان.

وسياسة الاعتدال والتوازن والدفع بالتي هي أحسن والتناجي بالبر والتقوى، تمثّلت في نجاح الدولة في تسوية النزاعات الحدودية مع جيرانها، لقد جنحت للسلم، وأعطت تنازلات معقولة ومقبولة، ومارست حقها بالهدوء والسكينة وطول النفس، وطرح عدة خيارات، كما مارست سياسة الخطوة خطوة، واستبعدت خطابات التشنج والتهييج، وإقحام الشعوب في الهتافات الغوغائية، وتفادت الحديات وللاءات، ولم تسمح لأيّ طرف التدخُّل في مشاكلها الحدودية مع جيرانها. وتمثَّلت سياسة طول النفس واللقاءات الثنائية، والاشتغال في الممكن، ورفع الملفات الساخنة.

ومع رصدها لإيقاع التحوُّلات العالمية، فقد كانت استجابتها محكومة بالضوابط الشرعية، ومن ثم حاولت الانتقال إلى (المجتمع المدني) دون الوقوع في الممنوع، وتلك معادلة صعبة، لا يحسن تخطيها إلاّ أولو العقول الواعية والتجارب السديدة. فالتخطِّي إلى المجتمع المدني بمختلف صوره في زمن الخلطة المستحكمة والاندفاع الجامح، يحتاج إلى بصر وبصيرة، وحلم وأناة، ذلك أنّ التردُّد والاندفاع كليهما مؤذن بفساد كبير. والدولة بمختلف مؤسساتها استطاعت أن تحفظ التوازن، وأن تستدرك الأمر، وأن تأخذ من المتاح بأحسنه، ولهذا استطاعت أن تحقق متطلَّبات (المجتمع المدني) دون أن تفرِّط بشيء من ثوابت الدِّين، وفي إطار التحوُّل أعطت المرأة حقها في التعليم والعمل والتجارة، ولكنها لم تندفع، بحيث تمكنها من السّفور والتبرُّج والاختلاط والخلوة وممارسة الفن الهابط،

ومفارقة مهماتها الأُسرية. ومع الخلاف القائم داخل البلاد حول هذه الحقوق، فقد حفظت التوازن، ولم تنصاع لأيّ من الطرفين، وظلّت ترصد لكلِّ الخطابات وتأخذ بأحسنها.

وعلى مستوى القضية الأهم والأعقد والأخطر (القضية الفلسطينية) فقد واجهت المملكة تحدِّيات وتجاوزات وإحراجات، ولكنها تخطّت ذلك كلّه بالحكمة والروية، وكان لضلوع أمريكا في مساندة الكيان الصهيوني أثره الكبير في تحميل المملكة أثقل الأعباء. فأمريكا حليف قوي وصديق قديم مع المملكة، وليس من مصلحة الطرفين التفريط بتلك العلاقات التاريخية، بل ليس من مصلحة المنطقة العربية منازعة دولة كأمريكا، وأمريكا مع هذا منحازة إلى الكيان الصهيوني، وتلك معادلة صعبة لا يواجهها إلاّ الأشداء من الرجال. لهذا أصبح الخطاب السياسي في هذه القضية خطاباً حذراً ومعتدلاً، فلم يرض بالاعتراف، ولا بالتطبيع، ولا بالاتفاقات الثنائية مع الكيان الصهيوني، ولم يقع فيما وقع فيه غيره من الهرولة والاتفاقات المنفردة. وتلك من أصعب المواقف، فالدولة تواجه واقعاً عربياً يندفع إلى السلام دون ثمن، ودولةً كبرى يودُّ كلُّ رئيس فيها أن يسجِّل له التاريخ الحديث مبادرة إسرائيلية فلسطينية، كاتفاقية (كامب ديفيد)، ومع رفض المملكة قبول السلام بلا ثمن، فقد استطاعت أن تحتفظ بعلاقاتها الحذرة مع الولايات المتحدة، وأن تحتفظ في الوقت نفسه بالتزاماتها الإسلامية والعربية.

لقد كانت مواقف المملكة من القضايا العربية قائمة على العدل وتبادل المصالح والدعم غير المحدود في الأزمات للأشقاء والأصدقاء، وليس أدلّ على ذلك من موقف المملكة من احتلال الكويت. أما موقفها من القضايا الإسلامية، فقد تمثَّل بالتواصل الإيجابي القائم على التعاون، وتقديم المساعدات، والدفاع عن حقوق الأقليات والتوسُّع في إقامة المراكز والمساجد والمنظمات، ولولا أحداث الحادي عشر من سبتمبر، لكانت (أمريكا) برمّتها قاب قوسين أو أدنى من الدخول في الإسلام كافة. وعلى الرغم من ظروف الشك والارتياب من أي عمل إسلامي، فقد اضطلعت الدولة بمهمات جسام، تمثَّلت بالدفاع عن مجمل القضايا الإسلامية العادلة والمشروعة، ومساندة الحكومات والشعوب الإسلامية والأقليات والمنظمات والمراكز، أمام أيّ تعدّ يمسُّ كيانها أو سيادتها.

وتلك المواقف الداعمة تجسَّدت منذ عهد الملك (فيصل) رحمه الله، الذي سعى لإنشاء منظمات إسلامية قوية، كرابطة العالم الإسلامي، ومنظمة المؤتمر الإسلامي، وبنك التنمية، ومنظمة الجامعات الإسلامية، ورابطة الأدب الإسلامي، وسائر المنظمات العالمية، هذه السياسة المتوازنة الحصيفة، جعلت المملكة في ذروة الاهتمام العالمي، وفي الوقت نفسه جعلتها مادة حديث للإثارة وكسب الأضواء، فكلُّ من تعجل الظهور قبل أوانه، تناولها من أيّ زاوية، مفترياً الكذب، وهو في قرارة نفسه يعرف الحقائق. تلك هي سياسة التوازن وتوازن السياسة، التي جعلت المملكة في السياق العالمي دولة استثنائية أحبها قوم، حتى جعلوها فوق هام السحب، وكرهها آخرون حتى تآمروا على قتل قادتها.

ويقيني أنّ الطريق أمامها محفوف بالمخاطر، ولكن أرصدتها التجارية، وإمكانياتها النفطية، ومقدّساتها الإسلامية، وعراقتها السياسية قادرة على حمايتها متى أذن الله بذلك، وهو آذن إن شاء الله، فوعده الحق ﴿... إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١]، وخطبة التنصيب التي ألقاها الملك عبد الله، تنطوي على نصر الله وإقامة أوامره، وتلك بوادر النصر والتمكين.

مأزق التعالق ومزايدة الفارغين .. ! (١-٣)[(١)]

الراصد لكافة المشاهد الأدبية والسياسية والفكرية، يشد انتباهه ذلك التثوير المتعمد لقضايا قتلت بحثاً، وتفرق أهلها أيدي سبأ، والناجون منهم لا يقولون إلا معاراً أو معاداً من القول. والمصيخ لنجوى المختانين أنفسهم، يرتاب من استدعاء القضايا المحنَّطة، وبعثرة أوصالها على يد كُتاب لا يعرفون من الأشياء إلا رسمها ولا من الأفكار إلا اسمها، ولا يدرون كم تحت السواهي من الدواهي، ونكارة الاستدعاء أنه يأتي في ظروف بلغ فيها السيل الزبى، وطمع في مثمنات الوطن من لا يدفع عن نفسه، حتى لقد همّ الشجي أن يصيح:

إذا كنت مأكولاً فكن خير آكل

وإلا فأدركني ولمَّا أمزق

ومثل هذا التثوير والاستدعاء مؤشرٌ على سوء التوقيت والتقدير. فالعقلاء المدَّكرون المدركون للعواقب المشؤومة، يتخولون الظروف المناسبة والأجواء الملائمة، ولا يدفعون بأطياف الأمة إلى بؤر التوتر، ومضائق التلاحي، ومقترفات التنافي. وكل رفيق مشفق على تماسك أمته، حريص على وحدتها الفكرية وترابط جبهتها الداخلية، له في رسول الله ﷺ أسوة حسنة. فهو لا يمارس عمله الدنيوي ولا اجتهاده الشخصي إلا بعد الاستخارة والاستشارة، وهو مع المقترفين من الرحماء، لمعرفته بالضعف الإنساني، حتى أنه يفرق في المساءلة بين أقوياء الإيمان وضعفائه، كما في قصة الثلاثة الذين خلّفُوا. وهو كذلك يفعل في الأعطيات، كما في أحداث (غزوة حنين) وكما يفعل مع المؤلفة قلوبهم حتى لقد أصبحوا من أهل الزكاة، وهم الذين أسلموا، ولم يؤمنوا، أو الذين يعبدون الله على حرف. وهو في الحدود يندب إلى الستر، ويتوخى التلقين بـ«**لعلك قبَّلْت** ...»، ويلوم الدافعين للاعتراف بالذنب والحائلين دون التراجع عنه. وهو لا يريد مواجهة الأخطاء التي يقع فيها أصحابه أو مصاحبوه من المنافقين، مخافة أن يقال: إن محمداً يقتل أصحابه، وهو في المواقف الحرجة يجنح للسلام واللين ورأب الصدع. وما خيّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما. وفي الإسلام فسح (الاتقاء) وقبول (الإكراه) مع اطمئنان القلب بالإيمان، و(العدول) عن سبّ معبود الآخر إذا ترتب عليه سبّ للذات الإلهية عدواً بغير علم، وأحسب أنه من الانتهازية والمزايدة الرخيصة التهافت على القضايا المختلف حولها، وتحويلها إلى حدّيات صارمة، وما ذاك إلا لتصور البعض أن الرياح تهب لصالحهم، وأن مثلهم كمثل المرخي عمامته الذي استغاث به (أبو حرزة):

يا أيها الرجل المرخي عمامته

هذا زمانك فاستأذن لنا عمرا

وكأنهم بهذا التهافت يغتنمون الرياح قبل أن تسكن.

وإذا حُفَّت الأمة بالأعداء المتربصين، واستبطنت بفئات ضالة مضلة، وكيلت الاتهامات الجائرة لمناهجها، وقادتها، وحركتها الإصلاحية، ودعاتها، ومؤسساتها الإسلامية، وإسهاماتها الداعمة للأقليات وللمراكز الإسلامية، فإن واجب حملة الأقلام أن يهبوا للدفاع عن بيضتها، وإن لم تطاوعهم أنفسهم، فلا أقل من الصمت، وذلك أضعف الإسهام. ومن البلية أن يلح البعض في التنقيب عن القضايا المعترك حول مشروعيتها،

---

(١) تاريخ المقال: ١٩/ ٧/ ٢٠٠٥

والممكن تأجيلها، وبخاصة ما يود الأعداء اختراق سيادتنا من خلالها، وأن يتذرع مُنْكُئو الجراح بدعوى الإصلاح، سواء في ذلك ما يتعلق بقضايا السياسة أو الدين أو المجتمع أو الفكر أو الأدب أو غيرها من الدعاوى التي تبدو في ظاهرها الرحمة، وبعض هذه المقترفات مظنة الاتهام بالمواطأة. إذ ما الفرق بين كاتب يعمم في الاتهام، ويوغل في التشكيك، ويتشفى بالتنقص، ويحمِّل المبادئ مسؤولية الممارسة، وإعلام مغرض يروِّج التهم ذاتها. أهذا من باب وقوع الحافر على الحافر؟، أم هو من باب كلُّنا في الهم غرب. ومع الشنآن لهذه الخلائق، فإن العدل والمصداقية تحملاننا على عدم الجزم بالاتهام، لكن الشنشنات لا تخلصنا من هاجسه.

والذين يتعشقون نبش المسكوت عنه، وضرب السوائد المشروعة، والتحريض على قطع الصلة بالماضي، ووصل الحبال بأفكار الآخر وأخلاقه لا بعلمه وأشيائه (التقنية) ثم لا يحترمون مشاعر (الرأي العام)، إما جهلة أو مغرضون. والرسول ﷺ احترم (الرأي العام)، وقدره قدره، حين دخل مكة، وفكر بإعادة بناء الكعبة على قواعد إبراهيم، ولم يمنعه من ذلك إلا أن قومه كانوا حدثاء عهد بكفر، ولو كان مصير الأمة مرتبطاً بتغيير البناء لفعله، ولم يبال. والمملكة حين قامت بتوسعة الحرم المكي الشريف، أبقت على (مقام إبراهيم)، مع ما يشكله من عقبة في المطاف، وأبقت على (أروقة الحرم) التي بناها الأتراك، مع أنه من المصلحة العامة إقصاء (المقام) وإزالة (الأروقة). وكل القادة والعلماء والمفكرين الناصحين لعقيدتهم الرحماء فيما بينهم يرفقون بمشاعر العامة، ولا يتعمدون الاستفزاز، وبخاصة حين تكون الأوضاع غير ملائمة، أو حين تكون القضايا من الثانويات المؤجلة.

وهل أحد لديه أدنى شك في سوء الأوضاع العالمية، وعدم احتمالها لمزيد من نشر الغسيل. والمخلصون المجربون من يتفادون استدعاء أي قضية لا تشكل عائقاً لمسيرة الأمة، إذا كان في استدعائها إثارة للخلاف أو الخوف، وليس من المصلحة ضرب الرؤوس بعضها ببعض، وتأزيم المواقف بين فئات الأمة، والتمتع بصخب التكسير، مهما كانت العوائد. وجمع الكلمة مقدم على كثير من المصالح العامة، ومقدم على كل المصالح الفردية. وفي الحديث الصحيح: «**إنكم سترون بعدي أثرة وأموراً تنكرونها**» قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: «**أدوا إليهم حقهم واسألوا الله حقكم**» وقال في حديث آخر: «**من كره من أميره شيئاً فليصبر فإنه من خرج من السلطان شبراً مات ميتة جاهلية**»، وإذ نحمد الله على أن الخلاف لا يمس العلاقة بين الأمة والقيادة، فإن استدراج الرأي العام قد يقحم السلطة في الأزمة، وقد أقحمها في كثير من القضايا الثانوية، فضلاً عن الأولوية، والتناوش الصحفي يكاد يحتنك الهيبة والاحترام المشروعين.

ولحرص المصطفى ﷺ على وحدة الأمة وتماسكها نهى عن المنازعة وأمر بالسمع والطاعة في المنشط والمكره والعسر واليسر والأثرة، وألا ينازع الأمر أهله، ولكنه مع حرصه على جمع الكلمة، ولمّ الشمل، لم يترك الأمر على إطلاقه، بل حدد مسوغات الخروج بالقول أو بالفعل على ولي الأمر الجائر أو المخالف، بقوله: «**إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان**» وانظر إلى عدد من اللطائف التعبيرية التي غابت عن كثير من الناس: كقوله: (تروا) ولم يقل (تسمعوا) وربط الكفر (بالبواح)، وهو الظهور والمجاهرة، إذ ما خفي أمره إلى الله، وربط (البرهان) بالله دون غيره من العلماء، وأجمل اللطائف قوله (برهان) ولم يقل (دليل) ذلك أن (البرهان) لا يكون حتى يكون النص قطعي الدلالة والثبوت، فيما يأتي (الدليل) بنص احتمالي الدلالة والثبوت. فإذا اختلف العلماء حول الدلالة أو الثبوت، فلا برهان. وسيرة الرسول ﷺ وسير أعلام الأمة مليئة باللين والرفق والرأفة ودرء الحدود، وإقالة ذوي الهيئات عثراتهم، وكل من أطلق لقلمه ولسانه

العنان في القضايا المختلف فيها والمسكوت عنها والمثيرة لمشاعر العامة لم يتخذ الرسول ﷺ ولا سلف الأمة قدوة له. ومن المصميات ألاَّ يتوفر المزايدون على أدنى حد من المعرفة، وأشد من هذا وذاك التعالم، والتسلط، والتزكية، وشرعنة الفعل، ووصم المخالف بالتخلف، ووصف الصدمة الحضارية بالإعجاب البشري المشروع.

والذين يحيلون إثاراتهم على الإصلاح والنصيحة والتصحيح، يغالطون أمتهم، فما من عالم ناصح أو مفكر واعٍ إلا ويحمل همّ الإصلاح والنصح والتصحيح. ولكن الإصلاح لا يكون بالتعالق المطلق مع الآخر، ولا يكون بالاقصاء والاستعداء، ولا بإدانة المبادئ، ولا بتحريف المفاهيم، ولا يكون في قلب الحقائق، ولا يكون بالتشايل مع الإعلام الخارجي المغرض، ذلك أنه إعلام موجه، لا يريد بالأمة إلا الضعف والفساد والتناحر. وهل عاقل يتصور أن أعداء الأمة يريدون لها القوة: المعنوية والحسية؟ وكيف يودون ذلك؟. والقوة المعنوية متمثلة بالإسلام الذي عليه محمد ﷺ وأصحابه وبوحدة الأمة الإسلامية بكل فرقها ومذاهبها، والقوة الحسية متمثلة بأمر الله ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾، وما من عاقل مجرب أو متابع حذر يتصور قبول الصهيونية العالمية المتحكمة بوسائل المال والإعلام، ومن يشاركها الهمّ، ويشاطرها المسؤولية باستكمال القوتين: قوة الاقتداء والوحدة، والإعداد. وهل ما نتلقاه من الغرب بطوعهم واختيارهم يحقق لنا التوفر على القوتين؟ وهل حضوره العسكري والسياسي والإعلامي في مشاهدنا العربية والإسلامية ينطوي على خير للبلاد والعباد؟. ومتى سلمنا بسوء نواياه، وجب علينا أن نتخلى عن أي جدل يفضي بنا إلى الشقاق والتنازع. ومع أن الحق أبلج، فإن مصلحتنا في الكف عن منازعة الأقوياء، ما لم تضطرنا الأوضاع المتردية إلى قتال الدفع، ومتى اضطررنا إلى فك الاختناقات، فإن علينا الدفع بالتي هي أحسن، والجنوح للسلام، واتقاء الأقوياء المتغطرسين بالقدر المباح من التنازلات: ﴿إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ﴾.

وإذا كانت بوادر حضور الغرب في مشاهدنا لا تبشر بخير، فلماذا نبشر به، ونطرد الغربة عنه، ونطمئن إليه، ونحتفي برموزه من فلاسفة ومفكرين لا يقيل استدعاؤهم عثرة الأمة، ونهيئ للمعتدي الأجواء الملائمة لجمع الغنائم وطول البقاء، ولماذا نضيق بالمحذرين والمتحفظين على وجوده المطلق، ولماذا نخلط بين الإرهاب والمقاومة، وإسلام اللعب وإسلام السلف؟ ولماذا نبادره بإثارة القضايا التي يخادعنا بها؟ وتلك الإثارات تمهد الطريق له. لقد بدت نواياه ليس فقط من لحن القول، وإنما بدت من مباشرة الفعل والاحتلال المعلن بالقوة. ولسنا بمواقفنا المتحفظة نجهل قيمه ومنجزاته، ولا نحول دون الأخذ مما عنده، فحضارة الغرب منطوية على إيجابيات كثيرة، يستأثر بها وحدة، ولا يجود بفضله الكأس على من ظلوا يتغنون بأمجاده، وهو يشرب. والمدنية بادية للعيان في أنظمته، وتعليماته، واحترامه للدساتير والقوانين، وسعيه الدؤوب في مناكب الأرض للحرث والزرع والصناعة وبناء المعامل والمختبرات والمؤسسات التشريعية والتنفيذية القوية المحْكمة الصنع والمحَكَّمة في الشؤون العامة والخاصة. ومن المؤكد أن ديننا يحثنا على اقتباس ما صلح من كل الحضارات، والسير في مناكب الأرض، والبحث عن المنافع الدنيوية، دون النظر إلى مصادرها، متى كانت عامل قوة واستغناء، ذلك أنها من ضوالّنا، وكثير مما عند الغرب من مقطوع وممنوع يعد من ضوالنا. فهل جاد طائعاً مختاراً بشيء منها؟. وهل أخذنا نحن بأحسنها؟ بل هل خلاَّ سبيلنا حين نمارس ما يحيينا، ويقوي جانبنا؟، وماذا استفدنا منه بطوعه أو ببراعتنا منذ (حملة نابليون) حتى (حملة بوش)؟.

وهل شيء من أوامر الإسلام ونواهيه يحول دون تحقيق ما حقق الغرب من ظاهر الحياة الدنيا؟ بحيث نفكر في التحول عن ثوابت ديننا وهل قضايا المرأة وحدها التي تبني منصات الانطلاق لآفاق المعارف؟.

والفرائض الغائبة، تتمثل: في جلب علمه، لا في جلب مدنَّيته، وجعله موضوعاً خاضعاً للمساءلة والانتقاء، لا مهيمناً يفيض علينا بما يحفظ لنا أدنى حد من العيش الذليل، ولا يسمح بوجود مستقل، لا يركن إليه، ورب عيش أخف منه الحمام. ومن الفرائض الغائبة تخاذلنا وعجزنا عن الاستفادة من جوانب حياته الجادة المنضبطة، وتخاذلنا وعجزنا عن تمثل الإسلام قولاً وعملاً. ومع التأكيد على أخذ الحذر وتوخي المفيد فإن من الأجدى والأهدى مصالحته ومعايشته ومبادلته المنافع، والحذر من تقديم مبادئنا وقيمنا وعقيدتنا قرابين لاسترضائه. وقبل ذلك وبعده، يجب أن نعرف كيف نصطلح مع بعضنا، لتكون لنا كلمة واحدة في المحافل الدولية، تدرء عنا انتهاكاته الموجعة. وها نحن نطيل القول في التوفر على أدبيات الحوار مع الآخر، ولم تحن منا التفاتة لنرى حجم التردي في حوارنا مع بعضنا. فهل نحن واثقون من نجاحنا في الحوار الذاتي؟ وهل يصلح الحوار مع الآخر، ونحن شيعٌ يضرب بعضنا سمعة بعض، بل قد يضرب بعضنا رقاب بعض؟.

مأزق التعالق ومزايدة الفارغين .. ! (٢) [1]

أحسب أن ما سبق نشره في (١٣ - ٦ - ١٤٢٦هـ) توطئة لا بد منها، واستهلال لم يأتِ من فراغ، إذ هو مخاض رصد دقيق ومتابعة واعية لفلتات الألسنة حول الموقف من المبادئ والقيم الحضارية المهيمنة ك(الحداثة) و(الليبرالية) و(الاستغراب) وسائر المصطلحات الحاضر منها والباد. وكل المزايدات تتسم بالسخرية والتجهيل والتطاول والاستعداء من مبتدئين متذيلين، لا يفقهون شروط التعالق، ولا أدبيات الحوار، وهم لفيف من قراء وكتبة ما كنا نعرف إمكانياتهم ولا خلفياتهم الثقافية، ولا نعرف لهم قولاً محكماً في الشأن الفكري، ينفي عنهم جهل الذات، أو جهل الحال. ولسنا فيما نقول نحقر خطرهم، فالبعوضة تدمي مقلة الأسد، ولا نحقر ذواتهم، وقدوتنا فيمن طُلب منه إباحة الزنا، واتخاذ ذات أنواط، وما كان منه إلا التعليم، كما لا نود منهم الكف عن التساؤل، ولكننا نود منهم تساؤل المستعلم لا سؤال المستنكر، ليكون من المفيد تداول الآراء معهم. وحديثنا لن يمتد إلى سائر القضايا المثارة، ولن يوغل في التفاصيل، ولكنه محاولة ناصحة لإرشاد المزاحمين بالمناكب الغضة والأجنحة القصيرة. والدين النصيحة، وخشيتنا من أن تأخذهم العزة بالإثم. وتناولنا سيقتصر على بعض القضايا التي دأب الكتاب على ترديد القول فيها وعنها، إلى جانب ظواهر وقضايا ومذاهب، ليست من مفردات حضارتنا ك(العولمة) و(العلمنة) و(الليبرالية) و(الديموقراطية). ونفي المصطلح لا يعني نفي المقتضى الموافق لمقاصد الشريعة، وقد يمتد الحديث إلى قضايا اجتماعية وتربوية وغيرها. ف(الحداثة) بوصفها مفردة من تلك المفردات الفاقعة اللون، التي أدى التعالق معها إلى مزيد من التشرذم، حيث شغلت الأوساط الأدبية عن كل مفيد، وفرقت شمل الأدباء، وبخاصة بعد أن (أدلج) القول الإبداعي، وسيست القضايا، واجتالت المشاهد مذاهب مادية ووضعية، ليست من الإسلام في شيء. و(الحداثة) كما (الماركسية) من قبل، استأثرت بالمشهد الأدبي العربي ردحاً من الزمن، وقال فيها وعنها الأنصار والخصوم ما لا يتطلب المزيد. حتى لقد أصبحت من المعروف الذي لا يعرف، والذين أعادوها من كُتاب الشغب عبر رموزها أو عبر خصومها أو عبر مفاهيمها المتناقضة، أو عبر الكتب التي رصدت لمرحلة أصبحت في ذمة التاريخ لا يمتلكون التصور السليم عنها، وأن امتلكوه فإنهم لايتحرجون من لي ألسنتهم بالكذب. وحديثي عن (الحداثة) الموَّزع بين المقالات والمقابلات والتأليف والمحاضرات حديث رجل عاشها زمن الإقبال والإدبار، وعرف مالها وما عليها، وليس كما عابر السبيل، أو مثقف السماع، الذي لايجد حرجاً من التعالق مع كل طارئ. ولربما تكون (الحداثة) هي الوحيدة بعد (الماركسية) التي تحتل أكبر مساحة في مكتبتي: تنظيراً وتطبيقاً وإبداعاً، ولربما تكون الوحيدة التي عايشت أصحابها، وعشت معهم في (مصر) و(الشام) و(العراق)، فاكتشفت وجهها الآخر من خلال تصرفاتهم (البوهيمية) وممارساتهم (الوجودية)، حتى لقد رأيت البعض منهم يقلد في الأزياء والشعور و(الغليون) والحركات المتسمة بالفوضى، وكأني بهم مأخوذون بفرية العلاقة بين العبقرية والجنون، أو هكذا يتوهمون ويوهمون.

وقولي فيها وعنها قول متابع لكل رموزها من غربيين ومستغربين منظرين ومبدعين مؤصلين وتبعيين، لا قول خب يخدعه الخب. والذين يتعمدون إثارة الزوابع باستدعاء المتحدثين عنها والمؤلفين فيها بأسلوب ساخر، وتشبع فارغ، لا مكان لهم ولا لطرائقهم في مشاهد الفكر والسياسة. وظنهم الذي أرداهم تصورهم أن السخرية بالمتصدين للغربنة

---

(١) تاريخ المقال: ٢٣/ ٨/ ٢٠٠٥

بكل وجوهها ستر ديهم. و(الحداثة) التي ألهت بني جلدتنا عن كل مكرمة: ظاهرة فكرية وأدبية، بل هي ظاهرة حياة، وإذا سُلّم لها في جانب، فإنه من المستحيل التسليم لها في كل الجوانب، ولا يحق للمتعالقين أن يسفهوا من يتحفظ على تجاوزاتها: الفنية والفكرية والأخلاقية. ولو أن كل اختلاف يستدعي التسفيه والتجهيل والسخرية لفسدت مشاهد الفكر والأدب. والمعضل أن الذين يتحرشون ويحرشون، لا يلمون بشيء ذي بال عن المستجدات: الفكرية والأدبية والسياسية، ولا يعرفون أبسط مقاصدها، فـ(الليبراليون) الذين تلقفوا الراية من (القوميين) بعد سقوطها ومن (الثوريين) بعد فشل الثورات وتعري أصحابها، لا يدرون ما الجذور (الأيديولوجية) لمناطهم. وإذا أراد الغواة تبني المنافحة العلمية عن (الحداثة الفكرية) ولا أحسبهم قادرين على ذلك، ولا أحسب السدنة المؤصلين لحداثتهم متفائلين بنصر مَنْ لايملك إلا الهتاف الغوغائي - فإنَّ على كل غاوٍ أن يحيي ليله، ويظمئ نهاره، ويمسح آلاف المقالات والدراسات والكتب المؤلفة والمترجمة: المنظرة والمبدعة والمطبقة. وأن يعرف الأنساق والسياقات والأجواء، فلا خير في كثير من النجوى المقوية. فالحداثة ليست من السهولة، بحيث يقال عمن تصدوا لها قولاً صحفياً أقرب إلى الإنشائية، وليست الإثارة الصحفية لقلب الطاولة على من عايشوها من المهد إلى اللحد.

ومعاذ الله أن أكون غاضباً أو خائفاً، أو ساخراً بأحد، إذ ليس من المحامد أن ينهى أحد عن خلق ويأتي مثله، ولكنني لا أريد لمشاهدنا أن تكون مرتعاً للرجال الجوف الذين لايتوفرون على المعرفة ولا على مناهج البحث العلمي وآلياته. والمهمون المهابون من أهل الحل والعقد لن يختلط الشحم عندهم بالورم، لأنهم يتوفرون على كافة الإمكانيات، ويحسنون استخدام المجسات والمسابير، والوقوف على الحقائق طال الزمن أو قصر. وما نشاهده من إلحاح ولجاجة، ليس بإمكانه أن يلغي كل ما قاله الخبيرون بدخائل النفوس وجذور الظواهر، ولا أن يشكك بكل ما توصلت إليه بحوثهم وتحرياتهم. فأصحاب الفكر المتوازن أكبر منهم، وممن معهم من الذين يحسبون أن التعالق مع الحداثة على إطلاقه هو عين الصواب. وأدبُ الحداثة الفكرية، وأحب أن نضع تحت كلمة (فكرية) أكثر من خط، لأن هناك من يطلق الحداثة على التجديد، ومن يطلقها على المعاصرة، ثم لا يحسن التفريق بين التجديد والحداثة، حين يتحدث عن المنحرفين والساقطين، وإذ لا مجال للمغالطة في ظل توفر الوثائق الفاضحة التي يباركها المتعالقون، فإن من الكذب الصراح تضليل المتلقين بادعاء التجديد، وذلك من الالتفاف الغبي. والأهم من هذا وذاك أن الحداثة ليست رؤية أدبية وحسب، إنها ممارسة فعلية في علم الإدارة والاقتصاد والإعمار وسائر مستجدات الحياة. ونحن بتصدينا وتحدينا وصمودنا نعرف ماذا نعني ومن نواجه. ولقد قلنا إن الحداثة التي نواجهها هي (حداثة الفكر) وفق تصور الغرب الذي أنشأها، وليس وفق تصور المتعالقين معها من مثقفي السماع والتبعية. والأغرار غير الكرماء من الكتاب الذين يتصورونها مطلق التجديد، يجهلون أبسط المفاهيم. ونحن لا نتحدث عن هؤلاء، ولا نجد فيما يقولون قيمة معرفية، فما نحن إلا مجددون ومعاصرون، وتعلقنا بالتجديد لا مزيد عليه.

وإذا أراد أحدٌ أن يتقحم سوحنا بهمز أو غمز أو تساؤل إنكاري، أو أن يجالدنا ويجاهدنا، فعليه أن يتصور رؤيتنا، وما نذهب إليه، وأن يعرف ما نحن عليه من مواقف متوازنة، وما نتوفر عليه من معرفة تاريخية وجذور فكرية للحداثة، سواء كانت كما أرادها أساطينها في الغرب، أو كما أرادها غيرهم من دعاة الاستغراب. ونحن هنا لا ندعي، ولا نزكي أنفسنا، وإنما نؤكد معرفتنا بالظاهرة وخبرتنا بها. فالحداثة عصارة أفكار ومذاهب وتيارات، وكل متحدث فيها أو عنها، لا بد له من رصد دقيق لعقائد

المفكرين والفلاسفة وعلماء النفس والاجتماع، ومتابعة متأنية لسائر المذاهب الغربية، إذ لم تكن الحداثة نزعة خالصة، لا علاقة لها بما سلف من مذاهب وتيارات. ومراحل تشكلها ومرجعياتها أكثر من أن تحصر. فهل ألَّم المتعالقون بما كتبه المفكرون والساسة عن (عصر التنوير) وما يعج به من أفكار متناقضة، بوصفه الحاضن الطبيعي للحداثة الفكرية المنحرفة؟ وهل تعرفوا على (السريالية) و(الدادية) و(الوجودية) بوصفها المذاهب العبثية المرهصة أو المزامنة للحداثة؟

لقد كان جديراً بمن يستعذبون السخرية بالمختلفين معهم أن يرصدوا لتاريخ (النهضة العربية) وتحولاتها وانكساراتها من مشارف (الحملة الفرنسية) إلى (الحملة الأمريكية) ثم ليرجعوا أبصارهم كرتين إلى (ثورة الأنفوميديا) و(بنية الثورات العلمية) وتحولات العالم من اليقين إلى الشك، ومن الإيمان إلى التمرد والثورة على الثورة، وما خلفته من أزمات وصدمات، أدت إلى ثورة العقل على ذاته. وكل تلك المخاضات وسعتها مشاهد الغرب، فالحداثة لا يمكن تصورها بمعزل عن سائر المذاهب الفلسفية والاجتماعية ومفاهيم الحرية. وتلقيها من متعالق لا يحسن التفريق بين (قرنين) من الزمان، تقاس المسافة بينهما بالسنة الضوئية مؤذن بتفاقم الأمية. وذلك ما نراه متدفقاً عبر أنهر الصحف. ولست بهذه المناصحة والمكاشفة خائفاً أترقب من فلتات الأقلام، فأقلامنا وألسنتنا لما تزل قوية متحفزة، ولديها الاستعداد لمنازلة جديدة، فـ(الحداثة الفكرية) (حرب ضد الله) وإفساد متعمد للأخلاق، وجناية سافرة على سائر الفنون القولية، ومن أنكر ذلك فليأت ببرهانه، وما أقوله أحكام محكمة، لم أتقوه بها من عندي، ولا من عند علماء الإسلام، إنها مقولة أرباب الحداثة الذين يرونها مشروعهم ورهانهم الذي أنتجه العقل المنصف بالكونية والشمولية. ورموزها الفاعلون هم أهل الحل والعقد الذين يرجع إليهم في الإفتاء، وإذا سألنا غيرهم عن مفهوم الحداثة، فقد ظلمنا المشهد الأدبي. وما قلناه، وما نقوله عن الحداثة إن هو إلا قول أربابها وأساطينها، يطلقه المنظرون، وينفذه المبدعون. فهل المنافحون يرون مرجعيات أخرى؟. لقد استبعدنا من لايثقون بهم من علماء ومفكرين إسلاميين، أملاً في أن يكون شهودنا من أهلها.

والذين يودون أن يستبرئوا لدينهم وعرضهم، ويكفوا الغيبة عن أنفسهم، وينجوا من مآزق المصطلحات والمذاهب والمبادئ والظواهر الملتبسة بعد ما هلك فيها من هلك، عليهم أن يستبينوا طرق الاستقامة، التي يدعو بالهداية إليها كل مسلم في صلاته، وليست سهلة ولا ميسورة، والشيطان يتهدد، ويتوعد عندما أغواه الله ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]، ومن سولت له نفسه أن يخوض خضم الحداثة مع الخائضين فعليه أن يصيخ لخطابات قائمة وأخرى خاوية، وأن يرصد للتاريخ الفكري العربي والغربي وسائر التحولات ما جد منها وما اندثر، تمشياً مع مقولة (كانت): - (فلسفة العلم بدون تاريخ خواء وتاريخ العلم بدون فلسفة العلم عماء). فالعالم اليوم أصبح كما القرية الصغيرة، مختلط الأصوات ملتق الأمواج، وليس بين عذبه الفرات ولا ملحه الأجاج برزخ يحول بين بغي أحدهما على الآخر. ومن تقحم أمواج المعارف والمبادئ دون أن يحصن نفسه أصابه دخنها، بل أرداه وباؤها. وذلك ما نراه، وما نسمعه عن أناسي، كنا نعدهم من المفكرين المتمكنين فإذا هم رئيس في مهب الريح.

ودعك من ناشئة خالية الوفاض، غرر بها مَنْ لا خلاق لهم، واستدرجوهم من حيث لا يعلمون لمواجهة المتحفظين على كل طارئ والمتعاملين معه بحذر شديد واحتياط أشد. ولو كانت المواجهة متكافئة، أو كانت علمية يتجاذب فيها الأطراف حقائق المعارف، لما

كان في ذلك مشاحة، بل هو عين الصواب. وعلماء السلف اختلفوا فيما بينهم، وكانت لهم مذاهب، وكان للمذاهب أئمة، وكان للأئمة أتباع وأشياع، وكانت لكل مذهب أصوله وقواعده ومقدم مذهبه ومفردات إمامه، وما كان في ذلك من بأس. ومن تصور أن الحضارة الإسلامية لا تقبل الخلاف، ولا تحسن الحوار الحضاري، ومن ضرب الأمثال في ضيق عطنها ب(الحلاج) ومحنة (ابن حنبل) و(ابن رشد) فقد ضيق واسعاً، والتقط وقوعات مبتسرة من سياقها، وقد لاتكون بالضرورة معبرة عن نسق الحضارة الإسلامية وسياقها، ولو فعل مع حضارة الغرب فعله مع حضارته، لكانت الأضيق عطناً والأعنف تعنتاً. لقد أبدع المتعالقون المسرحيات الشعرية عن مأساة (الحلاج) بوصفه متحرراً، ونسوا إعدام (جيوفروي فاليه) عام ١٥٧٤م عندما ألف كتابه (ذروة الصفاء الروحي) المنكرة لوجود الله، وتضييق الخناق على (جول بيدل) عندما رفض التثليث، وآمن بوحدة الإله، فلكل حضارة شواذها المغردون خارج السرب، وليس من العدل الابتسار، والتقاط وقوعات خارج سياقها، وقد تكون هناك مسايرة بلهاء في العمليات الإبداعية ف(مأساة الحلاج) تفكيك ل(جريمة قتل في كاتدرائية).

والبائسون من المبهورين يقعدون من أساطين الحضارة الغربية مقاعد للسمع الأبله، ثم يعودون إلى أوباشهم، ليقولوا لهم إنا سمعنا ورأينا شيئاً عجباً، يستقبل أهله المادة، ويصنمون العقل، ويعبد ون الشهوات. والمؤلم أن الكذب الأبله أعذب الحديث، وتكراره وتقليبه يؤهله ويصدقه، وذلك بعض ما يفعله المصابون بداء الاندهاش، المستهلكون باستجداء الآخر. والصدام حول المستجدات من السنن الكونية، ومن الظواهر الصحية، ولكن لكل خافقة سكون يستدعي المراجعة والمساءلة والنقد والتقويم. وليس بدعاً أن ينبري لأي حركة فكرية أو دينية أو سياسية أو أدبية من يحرض على إجهاضها، والمتعالقون على غير هدى هم الذين يستفظعون المواجهة، ويعدونها من ظواهر التخلف، وعندما اندلعت الثورة (البلشفية) في أواخر العقد الثاني من القرن العشرين، انشق عليها عدد كبير من الأدباء والمثقفين والمفكرين، واحتضنتهم (أوروبا)، وأصدروا مجلات وصحفاً وكتباً تندد بالثورة والثوار، واشتهر منهم عدد كبير، استطاعت شهرتهم أن تدخل بهم مشاهد العالمية، أمثال (ديمتري) و(بالمونت) و(بوتين). وفي العصر الحديث نسمع ونقرأ لمفكرين وعلماء وأدباء غربيين يعارضون السياسة الغربية والفكر الغربي أمثال (جارودي) و(تشومسكي) و(تانباسي هسو) ولم يستخف أحد بعقلياتهم، ولم ينالوا من مكانتهم، وإن ضويقوا، وطوردوا من قبل المخابرات العالمية. والمستفيض أن الاعتراض قائم، وليس مؤشر ضعف أو تخلف، كما يتصور الفارغون، وإذ يكون الحكم على الأشياء فرعاً عن تصورها فإن أوجب الواجبات على المزايدين أن يعيدوا تكوين ذهنياتهم وبناء عقولهم، ليستبينوا الرشد قبل فوات الأوان، فإذا ضعف التكوين واعوج البناء جاءت بصائر الأمة حُولاً، على حد قول شوقي:

وإذا المعلــــم ســـــاء لحـــــظ بصـــــيرة

جـــــاءت علــــى يـــده البصــــائر حـــولا

مأزق التعالق ومزايدة الفارغين .. ! (٣)[1]

وطائفة من المتعالقين إساءتهم لحضارتهم ممتدة من الكهولة إلى أرذل العمر، وليست عارضة يرجى زوالها، وكل ما يشغلهم ترديد ما يقوله المستشرقون، حتى لكأن قولهم بضاعة ترد لأصحابها. والقراءة الاستشراقية المحايدة لمفردات الحضارة الإسلامية تتسم بالمادية والوضعية والأنسنة، أما المنحازة فمفتوحة على أسوأ الاحتمالات.

ولم يكن أحد من مفكري العرب وعلمائه المستغربين من يركنون إلى مناهج حضارتهم وآلياتها وتصوراتها في قراءة المفردات الحضارية في الغرب.

بمعنى أن تكون القراءة لمفردات الحضارة الغربية من خلال نظرية معرفية إسلامية. وإذ يمتلك الغرب حق القراءة لمفردات الحضارة الإسلامية من خلال نظرية معرفية غربية، قوامها العقل المحض والمادية الملحدة، فإن من حق العربي أن يماثل من سواه، ومن ساواك في نفسه فقد عدل.

ومن المذلة أن نشاطر المستشرقين نظرية القراءة، وأن تكون المشاطرة ناتج اندهاش صبياني، بحيث تكون أولى الخطوات الانبهار، ثم الإعجاب، ثم التمثل، ثم الإنابة في قراءة الذات. ولقد أفرز الاحتكاك غير المتكافىء مع الحضارة الغربية خطاباً استغرابياً، تقول به طائفة من مفكري العرب ك(الجابري) و(جعيط) و(أركون) ومئات آخرون، تعرف منهم وتنكر، والمؤذي أن ينبري جهلة متعالمون يحرفون مفهومك للأشياء، كي يسوغوا لأنفسهم وصفك بالتخلف والتقليد والماضوية والتكلس، وما شئت من تلك الكلمات الجاهزة.

وإشكالية الخطاب العربي، أن المتنفذين فيه فئتان: الرافضون للغرب على الإطلاق. والآخذون بعصمه على الإطلاق.

ولا مكان للوسطيين الذين ينشدون الحق، ويزورون عما سواه، متمثلين قول الباري:

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.

والذي يريد أن يؤصل لمعلوماته ويحرر مسائله، ويعرف (الحداثة) من حيث هي فكر وإبداع، يجب عليه أن يقرأ (الفلسفة الحديثة) القائمة على المادية والعقلية، والنافية للغيبيات كلها، وتصور الفلسفة الحديثة يتطلب ثلاثة أشياء:

أولاً: الرصد التاريخي للتحولات الفكرية في الغرب من خلال أساطين الفلسفة الذين يخلطون بين التأليه والإلحاد أمثال:

(هوبز ت ١٦٧٩م). و(هيوم ت ١٧٧٦م) و(شوبنهاور ت ١٧٨٨م) و(دارون ت ١٨٨٢م) و(ماركس ت ١٨٨٣م) ونيتشه (ت ١٩٠٠) و(راسل ت ١٩٧٠م) و(هايدجرت ت ١٩٧٦م) و(سارتر ت ١٩٠٥م).

وبخاصة الأربعة (ماركس، دارون، فرويد، سارتر) فهم عمالقة الفكر الحديث الماثل للعيان من خلال لحن القول التبعي، ولن نستدعي فلاسفة العلم ولا جدل اللاهوتيين مع الطبيعيين.

كما أننا لن نؤكد على الإلمام بظاهرة الإلحاد في الغرب عند أعلامها من أمثال (وليم جودوين ت ١٨٣٦م) و(شلي ت ١٨٢٢) و(ستيورات مل ت ١٨٧٣)، وإن كانوا جميعا لهم أثرهم فيما يجد من ظواهر.

ثانياً: الرصد التاريخي والفكري ل(الثورة الفرنسية) لكونها منطلق الحداثة ول(عصر التنوير) من حيث رؤيته لما وراء الطبيعة والمنطق والأخلاق، وكل متعلقات

---

(١) تاريخ المقال: ٣٠/ ٨/ ٢٠٠٥

الحياة التي تداولها (جون لوك) وبخاصة (مقالته في العقل البشري) و(فولتير) وقد أجمل الحديث عن طائفة منهم (ايسايا بيرلين) في كتابه (عصر التنوير) ومن لم يستوعب مطارحات مفكري (عصر التنوير) و(الثورة الفرنسية) فلا مكان له في الحديث عن (الحداثة).

ثالثاً: والباحث المحترم لنفسه ولقارئه من واجبه السيطرة على المصطلحات المتشعبة والمتقلبة عبر الحقب التاريخية، ومن أراد أن يسيطر على مصطلح (الحداثة) بوصفه مصطلحا مراوغاً، ويكبح جماحه، ويفهم الحداثة على وجهها، ويحمي نفسه من ضحك العارفين، لابد أن يعرف تحولات الأفكار والعقائد، بعد تحول السيطرة من الدين إلى العقل، ومن العقل إلى العلم، ومن العلم إلى الفوضى، و(الفوضوية) ظاهرة نسلت من (السريالية) و(الدادية) و(الوجودية)، وهي في الأصل (نظرية سياسية) ولكنها امتدت للأخلاق والاجتماع، ولقد أسس لهذه التحولات اكتشافات فلكية وعلمية وفكرية، دفعت العقل المفتوح على كل الاحتمالات إلى التمرد والدخول في متاهات الفوضى والإلحاد.

وقد أجمل الحديث عن (إرهاصاتها) عباس محمود العقاد في كتابه (عقائد المفكرين في القرن العشرين) مثل تحولات (مركز الكون) في الفكر المعاصر، (وقوانين المادة) المتسيدة، ومذهب (التطور) عند من أرهصوا (لدارون) وعنده، وعند من تلقوا الفكرة من يده دون وعي بجذورها ومناحيها، ولما تزل نظرية فرضية مدحوضة من العقل التجريبي، وسواء عولت على المادة والإلحاد، أو لم تعول، فهي الأكثر صخباً والأفشل نظرياً. ولأن (الحداثة) تشكل قواسم مشتركة لا قاسماً واحداً بين العلماء والادباء والفلاسفة، فلابد والحالة تلك من أن يلم الداخل في مآزقها بعقائد أولئك كل على حدة والذين يقاربون الحضارة الغربية وبالذات الأوروبية، لأنها تشكل المنطلق، ثم لا يحررون مسائل العقيدة في الغرب، وما يعكسه الخواء الفكري الذي استمرأ الإنكار المطلق لكل ما هو سائد بوصفه جزءاً من الانقطاع المعرفي الذي ربك المبتدئين، مثل هؤلاء يمارسون وجودهم كما (الأطرش في الزفة) .. وعندما اقرأ لمثل أولئك رداً أو تساؤلاً أحس بالخجل والألم، الخجل من جهلهم، والألم من تغريرهم بالمبتدئين، ثم أنفجر بالضحك، وشر البلية ما يضحك.

فالحداثة مخاض (ايديولوجيات) متشابكة، وأوروبا مرت بحالة زلزلة فكرية، صدعت كل شيء أتت عليه، وذلك بسبب تعارض الأصول العلمية مع الأصول الإيمانية المحرفة، وخلوصا من هذه الدوامة تلمَّس البعض نجاته المتوهمة بالرفض والإنكار أو التخلي، وصياغة معتقد وضعي يصنعه العقل وتباركه العاطفة والصائرون إلى الإنكار المطلق لا يجدون حرجاً في إنكارهم، ذلك أنه هروب من المساءلة والتحرير والتأصيل، والمنكرون للغيبيات استدبروا الأشياء والأفكار معاً، واشتغلوا في صناعة وجود على قدر عقولهم، لا يجدون فيه مشقة ولا عناء، والفلسفة الأوروبية قامت في معظم أمرها على النفي والإنكار، وعولت على عالم الشهادة، ولكن الثورات العلمية المتلاحقة نزعت من أيديهم كل شيء حتى المادة، فكانت فلسفة العلم، الأمر الذي أدخل النظريات في دوامة التناقض وتناسل القيم والمبادئ والمذاهب المرتجلة، وما (الحداثة) إلا شظية من شظايا فلك خرج عن مداره، والمبهورون الذين حولوا انبهارهم إلى ابتهاج بحضارة الغرب الفكرية لا الشيئية، يرون ذلك ناتج العقل والعبقرية، وما هو كذلك، فالمنكرون والنفاة يتخلصون من الأشياء، ولا يتخلصون من الأفكار السابقة، إذ ما من مذهب إلا وهو خليط من مذاهب شتى.

وذلك الذي دعانا إلى لفت نظر الشداة المهرولين وراء سرابيات الحداثة، لإعادة النبش في أجداثها، ولقد نهيت عن نبش الحداثة، وإن رم جرحها على فساد، ذلك أن الوقت غير مناسب، والمتلاسنون لا تبلغ المعرفة تراقيهم، ولاسيما أن الفكر الغربي ك:

ملاعـــب جنـــة لـــو ســـار فيهـــا

إن لكل مفكر غربي وجدانه ومنهجه وآلياته ومعتقده، وخلفياته المعرفية والثقافية، وهو مرتهن بهذه الخلفيات والأنساق.

ولذلك الوجدان بشقيه (الخالص) و(العملي) إن صح هذا التوقع على شاكلة (إمانويل كانت) في نزعته النقدية للعقل البشري منطلقات علمية أو (ميتافيزيقية) توجه مساره ولهذا قال (جيمس استيفن) في نهاية القرن التاسع عشر، وهو يحيل إلى العلم بوصفه الحل الامثل للمعضل الكوني: (إذا كانت الحياة الإنسانية في نشأتها قد استوفى العلم وصفها، فلست أرى بعد ذلك مادة باقية للدين، إذ ما هي فائدته، وما هي الحاجة إليه، إننا نستطيع أن نسلك سبيلنا بغيره)، وهذا الصوت النشز ليس هو المسيطر الوحيد على الفكر الغربي، إذ هناك من الف بين قوانين العلم والعقيدة اللاهوتية، نجد ذلك عند (ماثيو) في كتابه (مقالات في البناء)، وآخرون فرقوا، ومنهم من تردد بين الإيمان والإلحاد، وحتى المذهب الواحد يتبناه ملحدون ومؤمنون على الطريقة النصرانية، نجد ذلك عند مفكري (الماركسية) و(الداروينية). لقد نشأ الصدام بين العلم والإيمان، وهو صدام، مفتعل، إذ لكل تفكير وجهته، ولا تعارض بين صحيح المنقول وصريح المعقول.

كما يقول (ابن تيمية)، والمنعتقون من شرنقة الانبهار المردي، اكتشفوا الجفوة المفتعلة بين الدين والعلم، وهي جفوة أطلقها الماكرون صدقها المغفلون.

وكل متحسس لنبض (الحداثة) في نشأتها الأولى ومنشئها، لا يملك القدرة على الرصد الدقيق لتحولاتها واتجاهاتها، إلا إذا تقصى الاسباب والعلل التي هزت الثوابت، واكتسحت السوائد، ونفت المسلمات، وهي أسباب نسلت من جرأة العلماء والمفكرين والفلاسفة على تلاحق المساءلة. فالمذاهب المادية ألهت المادة، وأسقطت التصديق والقداسة والاعتقاد، ونظرية (دارون) التي منحت من المصداقية ما لم تمنحه أي نظرية، صادمت الأخبار الصادقة.

ولما فعلت فعلها في الفكر الإنساني، سقطت كأسخف نظرية، وأكذب فرية، ولكن آثارها باقية في أذهان الكهفيين، واختراق المفكرين لأصول الديانات وتجميعها وتقديمها للمتلقي الإنساني الخالي الوفاض أدى إلى الميل إلى أنسنة الديانات، والتعامل معها بوصفها جهداً بشرياً.

ولقد تولى كبر (الأنسنة) في الفكر العربي (محمد أركون) وإن تناوله من خلال التراث الأدبي ومن زوايا مغايرة، وذلك في كتابيه (نزعة الأنسنة في الفكر العربي) و(معارك من أجل الأنسنة في السياقات الإسلامية) ومن بعده (نصر حامد أبوزيد)، الذي أنسن الذكر الحكيم بمجرد تلبسه باللغة.

وظهور مذاهب مسيسة لعبت دوراً إكراهياً ك(الماركسية). أما الجانب الأخلاقي فتصدرته مناهج (علم النفس) و(علم الاجتماع) والتوت به إلى الفلسفة الأخلاقية التي اتخذها (الجابري) مناطاً لنقده للعقل العربي، وقد تناول ذلك في كتابه الرابع والأخير لمشروعه النقدي الذي قلد فيه (أمانويل كانت) حذو النعل بالنعل، كل ذلك يشكل جذوراً للحداثة المراوغة. والحداثة التي يتجاذبها الجذر العربي والمقتضى المصطلحي ستظل مزلة أقدام ومضلة أفهام، وهي بهذه المراوغة الدلالية كنافقاء اليرابيع، كل من حوصر

فيها نفذ بجلده مدعياً أنه يعني التجديد، وتسيد الجهلة والمبتدئين للمشاهد الإعلامية والأدبية سيزيد الموقف التباساً والتياثاً.

ولو طلبنا الشواهد الدامغة من مشاهدنا العربية لضربنا الأمثال ب(أدونيس) وفي مكتبتي أكثر من خمسين كتاباً له وعنه، هذا فضلا عمن تعرض له مدحاً أو قدحاً في عشرات الكتب. و(أدونيس) من أساطين الحداثة، وممن يعول عليه كل الحداثيين، هذا الإنسان يقول الكفر البواح والإلحاد الواضح والعهر الفاحش. ومن لديه أدنى شك في ذلك، فليرجع إلى كتبه (الثابت والمتحول) و(الصوفية والسريالية) إضافة إلى أعماله الإبداعية، ومن بعده أو معه يأتي (يوسف الخال) و(أنسي الحاج) و(نزار قباني) و(معين بسيسو)، بوصفهم مبدعين مثلوا القدوة السيئة لمن جاء بعدهم من عشاق الإثارة والأضواء.

أما على مستوى الإبداع السردي فحدث ولا حرج، فالروايات التي تنضح كفراً وعهراً تكاد تسود المشاهد، ويتقبلها الخليون بقبول حسن، وقد لا يجدون حرجاً من الدفاع عنها وعن أصحابه. ولك أن تتذكر (وليمة لأعشاب البحر) و(مسافة في عقل رجل) و(الخبز الحافي) و(أولاد حارتنا)، لتقف على تجاوزات لا يقبل بها العربي الجاهلي فضلاً عن العربي المسلم، ألم يقل عنترة بن شداد:

أغض طرفي إن بدت لي جارتي
حتى يواري جارتي مخباها

وكيف لا يحفل الشعر الجاهلي بالقيم الأخلاقية والرسول ﷺ بعث ليتمم مكارم الأخلاق، ولقد استوفى الأخلاقيات في الشعر الجاهلي الدكتور (زهدي الخواجا) في كتابه (الجانب الخلقي في الشعر الجاهلي).

إن الحديث عن الحداثة وعن أنصارها وخصومها يتطلب الامتلاء المعرفي من فيوض المشاهد الغربية والعربية، ومن لم يتمكن من ذلك فعليه أن يلحق بمدارس محو الأمية، لا أن يتصدر منابر الثقافة.

ليت شعري هذه السياحة لمن .. ؟! [(١)]

في كل عام تغص المطارات، وتنوس المحطات، وتشتعل المنافذ، وتُستنفر القوى البشرية، لفك الاختناقات، وتسهيل العبور إلى آفاق المعمورة.. وما أحد أخذ أولئك المتدافعين بالنواصي والأقدام، وإنما هو خيار شخصي محض، والمتدافعون لا تجد فيهم المثني ولا المعذر لعقابيل السياحة ومتاعبها.. وعجائب السياحة لا تنتهي، فالسائحون في كل زمان ومكان، لا ينفكون منها، ولا ينفكون من ذمها، والشكاية منها.. ولقد شكا (المتنبي) وهو في (شعب بوَّان) من المبارحة، واشتكى من ملاعبها، فكان قدوة لمن خلف.. والاختلاف حول الظواهر والقضايا والأناسي ظاهرة صحية، ومؤشر إيجابي، متى أخذت الأمور بحقها.. وهذا التباين في المواقف والآراء لمح من خلاله رائد العبقريات مؤشرات العبقرية، فما اختلف الناس حول شيء إلا كان له شأنه الذي لا يُستهان به.. وما من عبقري إلا وللناس فيه مذاهب شتى، يرفعه قوم، حتى لا يعلوه مخلوق، ويهبط به آخرون، حتى لا يكون دونه مخلوق.

والأشياء كالأناسي، فما من مؤسسة أو هيئة أو مسؤول إلا ولهم مستنهضون ومثبطون، مستفيدون ومتضررون. وليست العبرة بالفيض العاطفي، ولا بمجازفة المدح أو فاحش الهجاء، وإنما هي في الأداء المسدد والحضور الفاعل، والتصور السليم.. ولقد كان لي تناوش قبل عام مع هيئة السياحة، أحسبه مهذباً ومتوازناً، ومن نتائجه تقوية الروابط مع أربابها، ولم أكن يومها مادحاً، ولا قادحاً، بل كنت ناقداً يعيب نقص القادرين على التمام، ولا يطلب المستحيل، ولا ينكر الجميل.

وحين يحلو للكاتب أن يتحدث عن عوائق السياحة ومشاكلها، فليس ذلك بالضرورة منصباً في أوعية المسؤولين دون غيرهم.. وإذ تكون الهيئة أو المنطقة طرفاً في كل متعلقات السياحة فإنهما لن تكونا مسؤولتين عن كل تلك المتعلقات.. وحين تكون الهيئة أو غيرها طرفاً، ثم لا تكون سبباً رئيساً فإن من أولويات مسؤولياتها أن تنقّب في المعوقات، وأن تلتمس الحلول، لا أن تبحث عن المعاذير، ولا أن تشجع المعذرين .. وحين تبدو المعوقات ماثلة للعيان، أو مهداة لها من الكتاب، ثم لا تكشف عن ساقها، وتركض برجلها، لتلافي أي معوق، يتحوّل التساؤل إلى مساءلة، والتذكير إلى نكير.

وتجربتي مع صاحب السمو الملكي الأمير (سلطان بن سلمان بن عبد العزيز) ومن معه من صفوة العاملين مغرية بمزيد من المطالبات الطموحة، حيث استقبلوا ما سلف من نقد برحابة صدر، وأبدوا ما لديهم من مشاريع منفذة وأخرى تقرب التنفيذ.. وما استأت من شيء استيائي من تصريحات متذمرة، تشكو العوائق، وتضيق بالواقع الذي لا يبارك الخطوات التطويرية.. ولست أشك أن السياحة حمالة أوجه، وهي بحاجة إلى مزيد من التحديد والمكاشفة والعناية والدعم: الحسي والمعنوي، فالناس أعداء لما جهلوا، وفوضى السياحة فيمن حولنا مدعاة إلى مزيد من التساؤل، ومن عرف السياحة معرفتي بها خاف مما لا يخاف منه، وهي كما قضايا المرأة محفوفة بالشبهات.

وإذ تواجه مشاريع السياحة بعض المعوقات، فإن ذلك مؤذن بمزيد من التفكير والتقدير والتدبير، فالتحفظ حق مشروع لكل مواطن، وواجب المسؤول أن يستمع وهو شهيد لكل تساؤل أو تحفظ، فإن كان ما يُثار مشروعاً، وجب تقبُّله بقبول حسن، وإن لم يكن مشروعاً، وجب دفعه بالتي هي أحسن.. وحين يتخوّف (الرأي العام) من المبادرات، أو حين يبدي تحفظه على التصريحات فإن على المسؤول أن يصيخ، وأن يتصرف

---

(١) تاريخ المقال: ٦/ ٩/ ٢٠٠٥

بطريقة تبعث على الثقة والاطمئنان، فـ(الرأي العام) ظاهرة طبيعية، لا يجوز تجاهلها، وكل الوسائل الإعلامية والتربوية والدعوية بحاجة إلى إتقان سياسته، وتحويله من المواجهة إلى المعاضدة، و(الرأي العام) المتشايل أو المتسائل لا يعد من جماعات الضغط المتربصة.

وأي مجتمع مدني لا يخلو من جماعات ضغط وأحدية الرؤية، ورأي عام متعدد الرؤى والتصورات، ومثلما أن أي تجمع إنساني يتمخَّض عن سلطات متعددة: حميدة أو سيئة، فإن ذات التجمع حين يرقى إلى مستوى المدنية يتمخَّض عن جماعات ضغط وعن رأي عام حميدين أو سيئين، متأصلين أو عارضين.. وحق (الرأي العام) الملاطفة والتطمين، أما جماعة الضغط فشيء آخر.. ولكل ظاهرة آليات مواجهتها وتفكيكها.. وحين يفرز المجتمع مثل هذا النوع من الجماعات، ثم تجرؤ على تهييج (الرأي العام) تكون المواجهة أكثر تعقيداً.. وبلادنا والحمد لله لم تبلغ فيها جماعات الضغط ولا معارضة الرأي العام حد الظاهرة، وما يبدو من تساؤل أو تحفظ إن هو إلا ظاهرة طبيعية.. والموقف المتحفظ أو المتردد من المستجدات ليس حكراً على السياحة، فكل قطاع يشكو التساؤل والتأويل المخالف، وما نقوله عن السياحة إن هو إلا من باب ضرب الأمثال.

ولما كانت الدولة تتجه صوب المأسسة، ولما كانت كل مؤسسة قادرة على ممارسة مهماتها وفق مقتضيات المصلحة العامة، فإن عليها معالجة قضاياها بالحلم والأناة، والذين يظنون أن حياتهم العملية ستمر كما السمن على العسل يجهلون سنّة الله في خلقه، وهي سنّة الاختلاف (ولهذا خلقهم).. فالاختلاف والصراع إكسير الحياة، ولا حياة بدون اختلاف، بل لا لذة ولا قيمة للحياة بدون صراع إيجابي. المهم ألا تصل طوائف الأمة وأطيافها إلى حد الصدام المؤدي إلى الفرقة والتّربص.. والمتابع للتاريخ الاجتماعي، وبخاصة ما تمَّ رصده عن (الرأي العام) يقف على محطات متوترة، ولقد وقفت على دراسات اجتماعية عن أحوال العامة ومواقفهم في العصور الذهبية لصدر الإسلام، وبالذات في الحواضر الإسلامية كـ(بغداد) و(القاهرة) في العصر العباسي والفاطمي، فوجدت ما يُضحك ويُبكي في آن، وكم عنَّ لي أن أرصد تململ الرأي العام في التاريخ الحديث وأثره على مشاريع الدول ومبادراتها، وتراجع بعضها في بعض الأحوال أو تعديلها لبعض المبادرات .. والهدف من ذلك تسليط الضوء على أساليب المعالجة الحكيمة للمعارضات الإيجابية، وإثبات أن للرأي العام كلمته التي قد تعلو على كلمة السلطة الشرعية، وذلك مؤشر على أهلية (الفكر السياسي الإسلامي) وقدرته على مواجهة النوازل ومسايرة النظم السياسية الحديثة .. و(الرأي العام) عرف بمفهومه الحديث مع (الثورة الفرنسية)، لكنه بوصفه ظاهرة من ظواهر التجمع الإنساني يرجع إلى عهود تاريخية سحيقة، ولقد تمَّت رعاية مشاعره في الإسلام، بل روعي على يد رسول الرحمة.

أحسب أن هذه التداعيات شطت بي عن صلب الموضوع، وهي وإن كانت تداعيات مرتبطة بالحدث والحديث إلا أنها مأخوذة بالاستطرادات (الجاحظية) المحببة إلى نفسي، وعوداً إلى متن الحديث، أقول: إن الناس في كل مكان يشكون من السياحة، بل أكاد أجزم أن سوادهم الأعظم لم يفهمها على وجهها. ومصطلح (السياحة) كأي مصطلح حديث تتشعب به المفاهيم، حتى لا يكون جامعاً مانعاً.. وهو في (النص التشريعي) يعني الصيام وجذره اللغوي: الذهاب في الأرض، وهو كافٍ لتحمل المتعلقات الحديثة، وللغويين تأويلات بعيدة المناط حول ذلك .. والشايع في كتاباتنا الإصلاحية جعل المؤسسة والمسؤولين فيها المصدر والمورد، فهم وحدهم المقصرون والمسؤولون، وما من كاتب عدت عينه إلى الواقع وما يعج به من عواتق، فالمقدمات الخاطئة تؤدي في النهاية إلى نتائج خاطئة.

نعم هناك تقصير من المؤسسات ومن المسؤولين القائمين عليها، فهم في النهاية بشر عاملون، والعصمة للرسل وحدهم، لكن دعونا نتجاوز المسؤولين، ولو إلى حين، لنوقظ واقعنا المخدر بالتزكية والمثالية والادعاء العريض، ونقف به على تقصيره أو تثبيطه، والوقوف الشحيح معه سيكشف عن أكثر العقبات تعقيداً.

ومن نماذج المعوقات: تفاوت الآراء حول مشروعية (الترويح) بوصفه من أهم مفردات السياحة .. وللتذكير فقد تناولت هذا الموضوع وتأزمه بين الإفراط والتفريط في محاضرة سلفت، مع أنه ضرورة خارج إطار السياحة، ولا سيما بعد الغزو المحموم عبر القنوات والمواقع وثورة الاتصالات، وسوف تأخذ المحاضرة طريقها إلى النشر بعد تنقيحها .. ومجمل القول: إننا لسنا مع الانفتاح المخل بالحشمة، ولا مع الورع المفوّت للزينة واللهو البريء الذي يعجب الأنصار.

ولست أشك أن من المعوقات - وهي في نظري من المسلمات - ضعف التأهيل: الطبيعي والبشري، ونقص الاستعداد للتوفر على أجواء سياحية مغرية، وبخاصة في العنصر البشري، وإذ لا نفكر في تهيئة الكوادر البشرية في المنظور القريب فإن علينا أن نبادر في إنجاز ما يمكن إنجازه من الخدمات الأخرى، فالمساكن والمتنزهات والخدمات والمواصلات والأسعار والتسهيلات والعلاقات دون المستوى المطلوب، وإذ يكون لدينا ثلاث مناطق سياحية مهمة فإنها متفاوتة في الإمكانات: الطبيعية والصناعية. ف(أبها) تقدم قومها في الأجواء والدعاية وشيء من الاستعداد، وإن لم تزل دون المؤمل، أما ما سواها فمشيها وئيد، وقد يوصف بالتوقف .. ولأن البلاد تعتمد على الاستيراد والعمالة، فإن عوائد السياحة مدخولة، لكن النظر فيما تستنزفه السياحة الخارجية من المواطن مدعاة للتحرف السليم، وبين هذا وذاك ترتفع نبرة الاختلاف حول الضرورة والترف السياحي.

وما تمارسه بعض المناطق من إعداد مكثف للبرامج الترويحية، يمتلك جذب المواطن، ولا يغري السائح الغريب، وهو عمل صاخب لا يتم إلا بالإنفاق الباذخ والجهد الجهيد، وليس هناك توازن بين الإنفاق والعائد، وليس في مجمله تأصيل للسياحة، وإذ أكون سائحاً بطبعي، ومنوعاً للسياحة في الزمان والمكان والراحلة والرفقة فقد خبرتها حتى لكأني (بنو لهب) أو (حذام).

وفي كل عام أحاول نفض وضر العمل ومعاناة الرتابة بالفرار إلى منتجع سياحي داخلي أو خارجي، وقد أجمع بين الشتيتين، متى اختلفت آراء العائلة، فتكون الرحلة داخلية خاطفة، أنفذ بعدها بجلدي إلى رحلة خارجية، ولقد كانت رحلة العام المنصرم في منتجع (بلودان) أكثر إيجابية ومتعة، ومن فوائدها التّفرغ لقراءة فكر (عبد الله القصيمي) والخروج بملاحظات خاطفة تمثَّلت بمقالات (تداعيات قراءة دمشقية) .. ولقد هممت أن أعيد الكرة في مصر، فاختار مفكراً مثيراً مثل (العشماوي) أو (فودة) أو (أبو زيد) لكن (القاهرة) و(الإسكندرية) كانتا محطة عبور إلى منتجع (مارينا) قرب (العلمين)، ولقد وجدت مكتبات صغيرة منتشرة في المنتجع الممتد على طول عشرة أكيال أو تزيد على الساحل الجميل بزرقة مائه، وصفاء هوائه، وخفة سكانه، وتقارب مدنه السياحية ومنتجعاته.

ومنتجع (مارينا) الذي أنفقت فيه الشركات المحلية والعالمية المليارات من الدولارات، حتى فاق نظائره، ك(درة العروس) ينقصه الشيء الكثير، وينقص نزيله الشيء الأكثر، وهو منتجع ممتد عامر بالقصور والبحيرات الصناعية والأسواق والمطاعم والملاعب، وسوحه وأسواقه وبحيراته وشواطئه أشبه بملاعب الجِنَّة في (شعب بوّان)، والمنصرف إليه والمنصرف منه كما وقع السهام ونزعهن أليم.

وإشكالية السياحة الخارجية أنها محكومة بما لا يقبل به كل سائح من صخب سخيف يعده ذووه من الفن الرفيع، وما هو إلا العبث الوضيع، ومن تبرج وقح من فتيات عربيات وأعجميات كاسيات عاريات يعدونه من المدنية والتّحضر وحرية الممارسة الشخصية، وما هو إلا عين العهر والتفسخ .. والجميل في ذلك المنتجع الحديث أنه يتداخل مع مدينة (العلمين)، وهذه المدينة الصغيرة تتمطى على صفحات التاريخ الحديث، يعرفها كل من له أدنى إلمام بأحداث الحرب العالمية الثانية. ففي عام ١٩٤٢م تقدمت القوات الألمانية من (طبرق) ب(ليبيا) حتى مدينة (العلمين) في زحفها المدنس نحو الإسكندرية، وبعد عام من الزحف المشؤوم هزمت القوات البريطانية الألمان في معركتين رئيستين، عند تلك المدينة الصحراوية، ومنعت الألمان من غزو مصر .. ولقد ظلت المدينة الصغيرة الصحراوية البدوية تحتفظ بأشياء كثيرة، ولم يلحقها بالمدينة إلا ما اكتشف فيها من (بترول) ومن ذلك السيل الجرار من السياح العرب والغربيين الذين يقرؤون على صفحات الصحراء جنون الحرب وعنفوان التسلط، لقد أكلت الصحراء آلاف الجنود الغربيين وطمرتهم تحت سوافيها، ولم تزل صحراء العلمين تحدث الناس عن جنون الإنسان وتسلطه.

مررت بهذه المدينة الصغيرة، ووقفت حول مواقعها التاريخية (وقوف شحيح ضاع في التراب خاتمه)، وتأملت أحياءها وأسواقها ومنعطفاتها، وعدت بالذاكرة إلى تلك الساعات العصيبة التي عاشتها تحت سنابك الخيل ومجنزرات الراجمات والدبابات وعجلات المدافع وآلاف المجندين من ألمان متغطرسين وبريطانيين ماكرين، وما حقق المعتدون من تلاحم جيوشهم إلا الخسار والبوار.

وتأكد لي أن الآيات والنذر لا تغني عن قوم لا يؤمنون، فالمتغطرسون يعيدون الحرب جذعة، وشبابهم تزهق أنفسهم بعيداً عن ديارهم .. وقراءة المواجهات الشرسة في (العلمين) بين الألمان والبريطانيين ليست بأسوأ حال مما يجري في بقاع كثيرة من العالم:

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتمو

وما هو عنها بالحديث المرجم

لقد جنت الحروب على موقديها وعلى وقودها من الناس والأشياء ويلات وعذابات، وستترك آثاراً سيئة على المدى الطويل، وكل من خرج خاسراً لا يفكر بالخسارة، وإنما يخطط لجولة أكثر خسارة، ويكفي شاهداً عدلاً على ويلات الحروب ما نشاهده في (عراقنا) الجريح، الذي يفقد ذاكرته وعروبته ووحدته، وليس بمقدور أحد أن يعيد له بعض ما فقد .. وستظل السياحة مشروع تساؤل ومضمار لزز لكل من أنفق فيها جهده وماله ووقته، ثم لم يعد بموعظة أو بمعلومة، ولما كانت السياحة سفراً فإنها تسفر عن وجوه الرجال وعما هم عليه من أخلاقيات.

كتبة تحت الطلب .. ! [1]

في إحدى العواصم العربية، ونحن على مشارف النهاية من مؤتمر ثقافي تختلط فيه السياحة بالمهمة، أو تأتي في أعقابه لتمسح أتعابه، عنَّ لي أنا ورفيقي الذي سبقني بالسفر، وسيتخلّف عني بالعودة أن نقلب أوضاعنا المألوفة رأساً على عقب، فالسائح في أخريات أيامه يشغله ترتيب متطلّبات العودة، وتؤلمه مخاضات المغادرة، وتربكه مشاكل تصفية الحسابات مع المتعاملين، وتطييب خاطر المرافقين. وفيما سبق من زيارات عمل وسياحة امتدت على مدى ثلاثين سنة، أُتيحت لنا فرص ذرعنا فيها كلّ الطرق، ومشطنا كلّ الزوايا، وزرنا كلّ المتاحف والمكتبات والآثار، ولم تخف علينا خافية لها مساس بالسياحة، الأمر الذي حفزنا على استدعاء السائق، وسؤاله عما لم تطأه قدم سائح، وأمام هذه المفاجأة تلبث ملياً، يحك صدغه، ويجيل نظره، ويقضم أظافره. وبعد تردُّد وجل، قال: تلك مفاجأة لم أفكر فيها من قبل، وتضاحكنا من ارتباكه، وقلنا له: دعها مفاجأة من عندك، ونحن طوع بنانك. خرجنا من عامر المدينة، والتوت بنا أزقّة ترابية مليئة بالحيوانات الأليفة والأطفال المتربيين، وفجأة وقف بنا على مشارف طريق ترابي ضيق، لا تعبره إلاّ الدواب والكلاب، وما ان طلب منا الترجُّل، انتابنا الخوف، فالطريق خال معتم وفيه التواء ووحشة، والمباني تكاد تتعانق في السماء، لتزيد من الوحشة.

لقد أحسسنا أنّنا دخلنا في دوامة الإرهاب أو ترويج الممنوعات، ونظرنا إلى بعضنا بارتياب، وفكرنا في أمر السائق، ربما يكون من أصحاب السوابق، لكنّنا نعرفه من قبل، كان أسبقنا إلى الصلاة، وكان أميناً، لم نعهد عليه خيانة قط. ولما اثّاقلنا إلى المقعد الخلفي، ألحّ بالنزول، فلم نجد بداً من حزم أمرنا، والتوكُّل على الله، وتفويض أمرنا إليه، خرجنا من السيارة في خوف وترقُّب، وأحسسنا أنّ التعثُّر يعتري أقدامنا وألسنتنا، وقلنا بصوت متلعثم:

-إلى أين يا عوضين؟

-إلى مكان لم تطأه قدم سائح.

-وهل فكرت وقدّرت، نحن نخاف على سمعتنا، وعلى حياتنا، ولا نريد أن نُرى في مكان لا يليق بنا.

-ما عليكما، فأنا أعرف من تكونان.

ومشيناها خطى وئيدة، كأنّنا نحمل جندلاً أو حديداً، أو كأنّنا أسد (المتنبي) في وطئه للثرى، نحسب كلّ صيحة علينا، ونتنصّت تنصُّت المخبر. وفجأة هبّ لاستقبالنا أكثر من سمسار، كان في مقدمتهم رجل حليق الذقن، طويل الشارب، جاحظ العينين، حافي القدمين، حاسر الرأس، مهلهل الثياب، أسمر اللون، أغبر أشعث، نسل من باب ضيق. وقال: وبدون أيّ مقدمات:

-فرح أم ترح؟

-قلنا بصوت مشترك: سل صاحبنا.

-وانطلق السمسار إليه، وهو يردِّد: فرح أم مأتم. قال: لا هذا ولا ذاك.

-إذاً ماذا تريدون.

-مجرّد التعرُّف على (الوليّات). وساعتها ضرب كفاً بكف، مفتعلاً الضحك الصاخب، وقال: الفرجة في السرادقات يا (باشوات)، هنا مجموعة من العجائز والأرامل

---

(١) تاريخ المقال: ١٣/ ٩/ ٢٠٠٥

والعوانس، ينتظرن من يحملهن إلى سرادقات التعازي، أو إلى مخيمات الأفراح بثمن بخس، يرد عنهن غوائل الجوع والفاقة.

-قال السائق: نحن نريد أن نتعرَّف على هذه المهن، وأن نقابل بعض العجائز، وسوف نُكْرم الجميع.

صاح السمسار بصوت يعرفه كلُّ من في الشارع إلاّ أنا وصاحبي، وهبّت العجائز والأرامل والعوانس من كهوفهن، كما الأسمال التي تعصف بها الرياح، وأشار بيده إلى من تجمّع منهن، فبدأ العويل والنحيب وشد الشعر، وتمزيق الملابس، وحثو التراب على الرؤوس. وكدنا نصدق أنّنا أمام كارثة لا تبقي ولا تذر، وما أن تألمت نفوسنا، وضاقت صدورنا، واغرورقت عيوننا، ضرب كفاً بكف، فانقلب النواح إلى ترنُّم، والعويل إلى غناء والنحيب إلى مكاء وتصدية ومواويل، والتلوّي إلى تمايل، والارتعاش إلى زفن وهز أرداف، فانتابنا الابتهاج والسرور، ولم نتردّد في تكريم كلِّ من حضر.

وعدنا، وقد أخذنا العجب من قدرة النسوة المحترفات على الخلط بين نوح الباكي، وترنُّم الشادي في لحظة واحدة، وكأنّهن (المعري) الذي لا يُجدي عنده هذا ولا ذاك في رثائيته الخالدة:

غير مجد في ملّتي واعتقادي

نوح باك ولا ترنم شادي

وشبيه صوت النعيِّ إذا قيس

بصوت البشير في كل ناد

هذه الشريحة التي تحصل على قوتها من الفعل ونقيضه، تتحرّف لإتقان فنها والتأثير على جمهورها. وفي طريق العودة أخذنا بأطراف الحديث بيننا، وكان عن دهشتنا بهذا التلوُّن الحرباوي الذي لا يفصل بين متناقضاته الصارخة إلاّ لحظات.

وفي غمرة الاندهاش التفت إليَّ صاحبي، وقال: ألا تظن أنّ مجتمعك الصحفي يشبه هذه الفئة من (النائحات) و(المترنِّمات)، قلت: كيف؟ قال: إنّكم أصداء للأجواء المحيطة بكم، يتحسس المتابعون من خلالكم اتجاه الريح وتقلُّبات الطقس، لا تفكرون إلاّ بالتدفُّق على أنهر الصحف نائحين أو مترنِّمين حسب الطلب، وما من رأي تتفوهون به إلاّ وهو على موعد مع النقض، تغزلون وتنقضون غزلكم بعد قوة أنكاثاً، وتبنون وتهدمون، وتركِّبون وتفككون، وترفضون أن تُسألوا عما تفعلون. لم أمتعض من هذا الاتهام، فليس هناك مجتمع ملائكي، كما أنّه لا يمكن أن يكون مجتمع الكتّاب مجتمعاً شيطانياً، لا يقول إلاّ العهر أو الكفر. والواقعيون غير المثاليين، فهم يروضون أنفسهم على اختلاط الأصوات وأنكرها، ويعرفون أنّ كلّ تجمُّع فئوي فيه علية وأراذل، وهل عاب مجتمع الرسول ﷺ أن كانت فيه فئتا: اليهود والمنافقين؟. والواقعية المعتدلية لا تقبل تدهور المصداقية، ولكنها لا تمانع من المداراة والاتقاء وتقديم الصدقة بين يدي النجوى. ولكي نحسن الموقف، ونقر في المشاهد ما هو قائم، لا ما نشاء قيامه، نقر بأنّ المشاهد الإعلامية العربية تفيض بالكتّاب الذين لا يختلفون عن (النائحات) و(المترنِّمات)، وليست الإشكالية في وجود المتردية والنطيحة والموقوذة من الكتّاب، ولكنها في تشابه البقر على المتابعين والمتلقِّين، وعدم القدرة على التفريق بين أصحاب المواقف وأصحاب المصالح. فهل (أحمد بهاء الدين) بمثاليته وتوازنه مثل (محمد حسنين هيكل) بانتهازيته ومزايداته؟ وهل (جهاد الخازن) بمنطقيته ومعلوماتيته مثل (عبد الباري عطوان) بتسليعه للكلمة ولجاجته؟

وهل (مراد هوفمان) بمصداقيته وعفّة لسانه مثل (روجيه جارودي) بخلطه وارتزاقه بامكانياته، إنّ من الخطأ أن نجعل المسلّعين للألسنة والأقلام والأفكار كالكرام الكاتبين، ومن الخطأ أن نربط بين الضعف والخيانة، فالعملاء لا بد أن يكونوا مقتدرين على الإقناع والاستمالة، واللاعبون الكونيون يصنعون عملاءهم على عيونهم ويمهدون لشهرتهم واختراقهم للأجواء والأدمغة وبدوهم بمسوح الطهر والنقاء، ليخدعوا السذج والمغفلين.

ولو أنّ نظّارة المشاهد الإعلامية ومن فيها يعرفون الصادق من الكاذب، لكان الأمر جد يسير، ولكن التمويه والتقنُّع يفوتان الفرص على الناصحين، وآلية الفرز غير قادرة على القول: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩]، والعقلاء المجربون لا يقطعون بنظافة المجتمع من متخللين بألسنتهم كما البقر، ولا يراهن على سلامة الأمة من المندسين الذين يتربَّصون بها الدوائر إلاّ الغر الذي لم يكتو بلهب اللعب، والمسلِّعون لإمكانياتهم المعرفية وقدراتهم البلاغية تعرف في وجوههم بؤس الشقاء وريبة الصدور، وكلّ مساوم على مثمّنات أمته يواجه، ولا يعالج، وموعظتنا لمن فيهم رسيس من المروءة لتدارك الأمر. ولو استحوذت علينا المثالية، وتحكّمت بنا الحدية، فحالت دون المصانعة والمداراة والاتقاء، لضرَّستنا الأنياب، ووطئتنا المناسم. وحين نضيق ذرعاً، بالتناقض في المواقف ومسايرة الأوضاع، وتقلُّبات الطقس، فإنّما نشير إلى كتبة لا يواجهون ضغوطاً، ولا يعيشون تحت وطأة التباس الأمور، وإنّما نقصد الذين يركبون رؤوسهم، ويسغفلون السذّج من الناس، ويقولون الشيء ونقيضه على مسمع ومرأى من المتابعين الراصدين، وهؤلاء المقترفون كمن بلوا بالقاذورات، ولم يستتروا، ومثل هؤلاء لا يحترمون مشاعر الناس، ولا يبالون بالمجاهرة، وكأنّهم ممن لم يستحوا، ومن لم يستح يصنع ما يشاء.

والراصد لفيوض الإعلام العربي عبر صحفه وقنواته، يضيق ذرعاً، بمن يميلون مع السياسة العالمية حيث مالت، يناقضون أنفسهم، ولا يحتالون لتمويه كذبهم، فالسياسة في أبهى صورها، لا تعدو أن تكون (فن الممكن)، واللاعبون الجشعون لا ينظرون إلى الوثائق القولية عن اللعب السابقة من دراسات ومقالات وتصريحات وتحليلات ومعاهدات، والأغبياء المنفذون قد لا يعرفون قوانين اللعب، ولا يحسنون تهيئة النفوس لعكس الطريق، والذين يرقبون المشاهد في أمسها ويعونها في يومها ويستشرفون لمستقبلها، يفجؤون ويفجعون باختلاط المياه العذبة بالآسنة، وأكثر الناس تخدعهم اللعب، ويحسبون أنّ رهان الأقوياء هو نهاية التاريخ، ومن ثم لا يرفعون أقلامهم في سبيل تأهيلها، حتى إذا لعبت دورها، ورحلت لتحل محلها لعبة ثانية مناقضة قالوا عنها ما قالوه عن سالفتها، وهم بهذا يناقضون أنفسهم من حيث لا يشعرون. والمتابع للأحداث الجسام التي تمر بها الأمم يعرف كم هو الفرق بين خطاب ما قبل الحدث وخطاب ما بعده.

ولعلّنا لا نجد حرجاً من استعادة الهدير الثوري، قبل نكسة حزيران، وخوار القوميين قبل الحروب العربية العربية، والرغاء الاستسلامي بعد اتفاقية (كامب ديفيد)، ولعلّنا نقفز لنرى ونسمع خطابات ما قبل سقوط الاتحاد السوفيتي، وأثناء مقاومته في أفغانستان، وما بعد ذلك، وخطابات ما قبل الحادي عشر من سبتمبر وما بعده. ودعك من الخطابات المرهصة والمشيِّعة لحروب الخليج الثلاث، وبعد الاستعراض السريع لهذه الخطابات والخطباء نتساءل: هل هناك تقارب بين الخطابات أم أنّ هناك تناقضاً صارخاً، لا يمكن تصوُّره ولا احتماله؟. وهل أحد يقدر على التبرير والتعذير، والتاريخ يحتفظ برموز الكذب والمبالغة وبراعة المراوغة؟ وأين المعذرون من (أحمد سعيد) و(الصحاف) و(هيكل) و(عطوان) وما هؤلاء نشزٌ في السياق ولا في الأنساق، والمؤلم ليس في التدافع على القول، ولكنه في توظيف القدرات المذهلة، لافتراء الكذب، كما يفعل (هيكل)، في

هذه السن وفي ظل هذه الإمكانيات والتنفذ، ولقد هممت من قبل أن أنشر مقالاً في أعقاب صدور كتابه (خريف الغضب) تحت عنوان (من خريف الغضب إلى خريف السمعة) وحين وقعت على مستودته أسفت على تأجيله خوفاً من ردود الفعل. فما من متابع ل(هيكل) يشك في اقتداره وبراعته وجمال عرضه وغزارة معلوماته وكثرة أشياعه. وعندئذ هل (النائحات) اللاتي يحضُرن مأتماً ليمارسن البكاء والعويل، ثم ينتقلن في ذات اللحظة إلى سرادق احتفالي، ويمارسن الرقص والغناء، للحصول على البلغة وسد الرمق، كما الكتّاب المتقلِّبين بين لحظة وأخرى تكاثراً وجشعاً؟ أم الكتّاب الذين لا يمتلكون مواقف ولا يستبطنون (أيديولوجيات) كما (النائحات) و(المغنيات)؟ وحين نستلطف العجائز المرتزقات، فإنّه من الخطأ الفادح أن نستسيغ التذبذب الموقفي من كتّاب يعدون أنفسهم من قادة الفكر وحماة الثغور. وكلّ من تقلّب مع الطقس فهو نائح أو مترنِّم، ومن البلية أن يجد اللاعبون الكبار كتبة متطوعين، يريقون الأحبار ويبيعون ماء الوجه لشرعنة الاعتداء على حريات الشعوب والتدخُّل في شؤونها الخاصة وانتهاك سيادتها، ومن العار أن يعترض بعض الكتبة على إبداء مشاعر الاستياء من المقتولين بأفتك الأسلحة، وأن يحيل هذه المشاعر وهي أضعف الإيمان إلى وحشية المسلمين.

حبل الفجيعة ملتف على عنقي

من ذا يعاتب مشنوقاً إذا اضطربا

وإذا كان اليمين المتطرف الأمريكي يقول بأنّ (إعصار كاترينا) عقوبة الخروج من (غزة)، فمن ذا الذي يلوم المقهورين في إبداء مشاعرهم العفوية، ثم لا يتردّد في تحميله على الخطاب الإسلامي ظلماً وعدواناً.

وكتابات الحيص بيص تحال إلى حرية التفكير والتعبير، ويتطلّع هذا الصنف من الكتبة إلى أن يحمدوا بما لم يفعلوا. وكيف يقرأ الراصدون والمتابعون ما يفيض به الإعلام العربي من نيل جارح لكلِّ ما هو إسلامي؟ لمجرد أنّ الغرب تحوّل من سلفيته وجهاديته أثناء حرب الأفغان إلى غسيل الأدمغة وشحن النقيض، ولم يتحرّج من وضع الإرهاب في سلة الإسلام، وفات الطيبين السذج أنّ الإسلام لافتة يعلقها على واجهته كلُّ من تحرّكت في أعماقه شهوة التسلُّط، ولأنّ الغرب القوي المتغطرس قد أحال كلّ تصرف مدان إلى الإسلام، فقد شايله البعض دون وعي، وأصبح الإسلام المصدر الوحيد للعمليات التي تنفّذ في أيّ مكان، وكأني بالحجر يكاد ينادي: أيها الغربي هذا مسلم ورائي تعال فاقتله، ومصيبة المسلم أنّه لا يملك كما اليهودي شجرة (الغرقد)، ليحتمي وراءها. أحسب أنّ هؤلاء الرجال الجوف، وتلك العجائز الخاويات يدخلون ضمن الأشباه والنظائر، ويختلفون في النوايا والمصائر، والأعمال بالنيات. بل أكاد أجزم بألاّ فرق بين كاتب (براقشي) يطلع كلّ يوم بموقف يحرض على أهله وعشيرته، وعجوز يحملها سمسار على ظهر عربته مع أخريات لإحياء مأتم أو عرس، وفي النهاية تموت العجائز، وتزهق أنفس الكتّاب، ثم يبعثون على نيّاتهم.

درس في محو الأمية عن الحضارة الإسلامية .. ! [(١)]

قضيت نصف قرن ونيف في التعلم والتعليم على مقاعد الدراسة، وانخرطت في سلك التعليم، بعد حصولي على (الشهادة الابتدائية)، وكان من حولي يسمونني ب(الأستاذ الصغيّر) وسط نخبة من كبار السن والعلم، أفدت منهم ما قيدت به نفسي، (ومن وجد الإحسان قيداً تقيدا).

والحاجة المادية إذ ذاك الجأتني إلى الجمع بين التعليم ليلاً ونهاراً، وإلى التعلم انْتساباً وانتظاماً، فكان أن مارست التدريس المسائي في (المدارس الليلية) لمحو الأمية بمكافأة زهيدة، وكان الدارسون يكبرون أبي سناً، ولما كان كرسي الطلب سحرياً - كما يقال - فلقد بُليت بمدرسة كمدرسة المشاغبين، يمارس أشقياؤها الهمز واللمز، كلما غفلت أو استدرت صوب (السبورة)، وكان المهذبون منهم يمتعضون، وقد يتفوهون بالاعتذار، كلما احمر وجهي، وأحرجني الموقف، ومنذ ذلك الحين أدركت أن الدور للعقل الرزين والعلم الغزير، وليس للسِّن واللَّسن، وأن التاريخ يعيد نفسه، ف(الرجل السبعيني) كما يحلو للساخرين إطلاقه عليَّ، لن يعدم المتخلقين بأخلاق المشاغبين من الأميين في همزهم ولمزهم، كما عرفت أن الأمية ماضية إلى يوم القيامة، وأنها ليست وقفاً على الذين لا يقرؤون ولا يكتبون، فكل من ﴿ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ [البقرة ١٣٠] وتقحم سوح ما يجهل أميّ يثير الشفقة والسخرية.

و(أمية التخصص) ظاهرة مستفيضة، تؤكد ذلك، والعصر الذي فرض أدق التخصصات، وسَّع دائرة الأمية، وكم من حامل للأسفار.

كالعيس في البيداء يقتلها الظما
والماء فوق ظهورها محمول

والحياة المفتحة الأبواب على صنوف المعارف بحاجة إلى المثقف بمفهومه الأوسع، وهو: (من يعرف كل شيءٍ عن شيءٍ وشيئاً عن كل شيء)، إضافة إلى اتقان مهارة الوصول إلى المعلومة في أسرع وقت وأقل جهد مع دقة الملاحظة وقوة الحافظة، فثورة المعلومات والاتصالات والإعلام والمواقع والأقراص المدمجة والموسوعات والمعجمات وسهولة البحث والدخول على المواقع، قربت المعارف، وكشفت الأدعياء، وعرَّت الزيف، وفرقت بين المشِيئين والمتضلعين، وبين النص الإنشائي المتسطح والنص المعرفي العميق.

و(الثقافة) و(المثقف) مفهومان مشرَّعان على كل الاحتمالات، وإشكالية الأميين الذين لا يعرفون أميتهم أنهم يمارسون الجدل في القضايا الفكرية والسياسية والأدبية، وقد يتخطون ذلك، فيجرؤون على الفتياء الجازمة الصارمة في الدين والسياسة والفكر وسائر القضايا المصيرية، و(أجرؤ الناس على الفتيا أجرؤهم على النار)، وإذا أرشدت ضالهم، وسدَّدت مخطئهم، لم يكتفوا بالإصرار والاستكبار واستغشاء الثياب، وإنما يبيحون لأنفسهم الرتوع في عرضك المصون، مستدبرين القضايا مناط البحث، ومثل هذه الممارسات مؤشر جهل وإفلاس، فالقضايا هي مجال الاختلاف، ومن حق كل مقتدر أن يتعامل معها وفق رؤيته ومفهومه المحكومين بما لا تتحقق الحضارة إلا به، فحرية القول مقيدة بالرد إلى النص التشريعي القطعي الدلالة والثبوت، والثقافة المأخوذة على وجهها

---

(١) تاريخ المقال: ٢٠/ ٩/ ٢٠٠٥

تسهم في فك اختناقات الأمية المجهولة، ولكنّ المترفين من القراء والكتّاب لا يغالبون القراءة وفق نظرية (الاستقراء البيكوني) ولا يتمثلون القضايا على وجهها، والتسطح على الأشياء دأب المتسرعين والذوّاقين، وتلك مصيبة المشاهد الثقافية.

ومهما اختلفت الآراء حول القضايا الكبرى في الإسلام، كمفهوم الحضارة وعمقها وشمولها واحترام حملتها وحتمية الرد إلى نصها فإن هناك قاسماً مشتركاً يلتقي حوله الخصوم، وأدبيات الحوار والمناظرة لا يلقاها إلا ذو علم عميق، وعقل راجح، وتجربة واعية، والذين لا يفقهون ما أوتوا، ولا يتحلون بأدبيات الحوار يفرون من تلك القواسم المشتركة في محاولة مستميتة لحفظ ماء الوجه وتغطية الهزيمة النكراء، والعقلاء العالمون يستدرجون خصومهم المهتاجين العزل للتوغل في دوائر الضوء، كي يستجلوا اعترافاً لا إرادياً، يعريهم أمام الملأ، ويؤكد أنهم أميون فيما يخوضون فيه من معارف، ولا سيما أن قصة الحضارات السماوية والإنسانية مستوفاة وفي متناول اليد.

وقول المقوين في (الحضارة الإسلامية) قول مكرور، يستعيره الضغث من الإبالة، والإشكالية ليست في مبتسرات المقوين على غير فهم ولا نظام، ولكنها في غياب الاستيعاب والفهم والتمثل، كما هي عند (ابن مسعود) رضي الله عنه، وفي عدم الخلوص من سلطة النص المبتسر إلى سلطة القراءة، حسب الرؤية (التفكيكية) عند (جاك دريدا)، وفي الافتقار إلى دقة الملاحظة، وذكاء الرصد، ونباهة التحري، كما هي عند (الجاحظ)، وضرورة الوصول بعد التقويض إلى ضرب الآراء بعضها ببعض، والخروج برؤى وتصورات مدعومة بالحجج والبراهين الأقوى، وآراء العلماء والمفكرين المتناقضة ثاوية في الموسوعات والدراسات المؤلفة والمترجمة، ودور المستدعي الحاذق سرعة الوصول، ودقة الانتقاء، وإتاحة التفاعل بين القول والقول المضاد، ورباطة الجأش عند اكتشاف الرأي ونقيضه، وتفادي الوقوع تحت هيمنة المتداول الغربي، كالقول ب(الكهنوتية) و(التنوير) فأمر (الدين) قائم على التجديد، وسؤال أهل الذكر لمن لم يعلم، والرد عند الاختلاف إلى الله والرسول، ولو عرف المتهمُون لعلماء الإسلام حقيقة (الكهنوتية) لكرموا علماءهم، ولو قرؤوا كتب الخلاف بين المذاهب وفي المذهب الواحد والفقه المقارن وحتمية الاجتهاد وندرة الإجماع لأكبروا الإسلام وعلماءه، وتداول القول الغربي دون وعي بمدلوله مؤشر أمية وادعاء.

والفارغون المتنفذون في المشاهد والمواقع يجترون ببلاهة معتقة مهترئ القول الاستشراقي، ويعوّلون على من يمرُّ بهم على مفتريات من سلف ومن خلف منهم، وإذا انتهبوا تهمة من أكاذيبهم، ادعوا أنها من عند أنفسهم، ليظفروا بردود الفعل التي تعرَّض لها المستشرقون، وحسبهم أن يبنوا لأنفسهم قلاعاً ورقية في بؤرة الضوء الزائف، وما دروا أن هذه البؤر تكشف عن ثقافة التسول والخنوع والتملق، والغرب يستميت في نفي (الغزو) و(التآمر)، ويدعي أن تشكيكه في اليقينيات الكبرى لإنقاذ المسلمين من خرافة الدين، وأن اختراقاته لأجواء الفكر والسيادة من أجل توفير (الحرية) و(الديموقراطية) و(المدنية) و(التحضر)، وإذا كان بالأمس يجند رجالاته من رحّالة ومبشرين ومستشرقين لتسريب هذه المفتريات التي لا تخدع إلا الأمي أو المبهور المواطئ فإنه اليوم يجد من المغلوبين من ينهض بإشاعة حسن المقاصد، ويستبعد ظاهرة (الغزو) و(التآمر) ويرى أن إشاعتها للتبرير والتعذير والإسقاط وتزكية النفس، ويصف أهل الذكر ب(الكهنوت) ويستعير آلية (التنوير) لمواجهة الحاكمية والهيمنة الإسلامية، والغرب فتح شهية (الغزو) و(التآمر) في العصر الحديث باتفاقية (سايكس بيكو) تلك المعاهدة السرية الماكرة بين دولتين دائلتين (بريطانيا) و(فرنسا) بشأن تقسيم الولايات (العثمانية)، وهو اسم مركب من ممثلي الدولتين (مارك سايكس) البريطاني و(جورج بيكو) الفرنسي، تم ذلك عام

١٩١٦م، ولم يفتضح أمر المؤامرة إلا عام ١٩١٧م على يد القوات الألمانية، وقد تسربت الاتفاقية وبنودها الاثني عشر من روسيا القيصرية بعد الثورة.

ومضامين الاتفاقية وبنودها تجعل الأمة العربية قطيعاً مطيعاً، تتوفر له أجواء الحظائر لا ميادين اللزز والتنافس الشريف، وهو إذ فتح شهية الغزو والتآمر بما سلف، فقد أشبعها بمنظماته وصناديقه وهيئاته وعملائه ولعبه الكونية وحصاره ومقاطعته، ومن هذه الأجواء نسل اتباع الحضارة الغربية والذابون عن عواجيزها، وتنفسوا في أجواء القبضة المحكمة والضغط المرهق المدعوم بالغزو والاحتلال والاستيطان والقواعد، ظناً أن جحافل التغريب ستمضي قدماً من دول لأخرى، لتمنحهم الحرية المزعومة (يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا)، وما علموا أن الله يدافع عن الذين آمنوا، إن تجربة الغزو العسكري الماثل للعيان والضربات الاستباقية المهلكة للحرث والنسل، يحرض عليها اليمين المتطرف، ليبقي على التفوق (الإسرائيلي) وها هو (كولن باول) يكشف بعض الحقيقة في قضية غزو (العراق)، ومقولته تمثل صحوة الضمير المتأخرة، وهل ينفع العراق كلمة اعتراف، ودون الذي يؤمّله فراغ دستوري، وقتل همجي، وطمس للتاريخ، وتمزيق للوحدة.

وإذا لم يكن هناك (غزو) ولا (تآمر) فمن الذي بارك الدعوة إلى (الفينيقية) و(الفرعونية) و(البربرية) وأزهق أرواح مليون شهيد في (الجزائر)؟ ومن الذي ركل قبر (صلاح الدين) قائلا: - ها نحن عدنا يا صلاح؟ ومَن الذي أرهص للدعوة إلى (العامية) واستبدال (الحروف اللاتينية) ب(الحروف العربية)؟ ومَن الذي أقبل بجيوشه المدججة بالسلاح ليحتل أقوى دولة عربية؟ ومَن الذي ضرب المفاعلات أو منعها؟ ومَن الذي أجهض التجارب (الديموقراطية) في بعض الدول الإسلامية؟ ومَن الذي شوه الحضارة الإسلامية عبر (أفلام هوليود) و(مواقع الإنترنت)؟ ومَن الذي طارد العلماء العرب؟ وأين منكرو الغزو من (الحروب الصليبية) وحملة (نابليون)، وأمواج المبشرين، وحملات المستشرقين على القرآن والحديث والفقه والتاريخ الإسلامي وسائر المنجزات الحضارية للإسلام، مما تفيض به كتب المستشرقين؟ وأين هم ممن يتبنى المذاهب الهدامة، وينفق عليها، ويعلي من شأنها؟ وأين هم ممن يعزز الطائفية و(الإثنية) و(القومية)؟ وأين هم مما استفاض عن (الطابور الخامس) وسائر المنتديات التي يتبناها المناديب وكبار موظفي السفارات؟ سيقول المخذّلون: يدُ الأمة أوكت وفوها نفخ، ونقول ما قال (مالك بن نبي): تلك القابلية للاستعمار، والمخذِّلون مثل السوء لهذه القابلية.

والذين جندوا أنفسهم لتسويق الآراء الاستشراقية ما عرفوا أن ما يسوقونه بضاعة ليست من عند أنفسهم، إذ هي بضاعة الاستشراق التي استهلكت نفسها، ولم تعد مجدية يوم أن كانت تدار بأيدٍ قوية مدعومة في أوج جدتها وحدتها، فكيف يكون أثرها اليوم بعدما افتضح أمرها، وتلقاها بالشمال المشكولة جهلة مجندون، وصدق الله: ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾.

والذين يسخرون من تداول مصطلح (الغزو) و(التآمر) يعمقون السخرية بطلب ممارسته من (الشرق) المستضعف في (الغرب) المتغطرس. وكيف يتأتى (الغزو) و(التآمر) من أمة يخذلها أبناؤها العققة الذين غرسهم الغزاة ليجسدوا (الطابور الخامس)؟.

والآخذون بعصم الاستشراق تدركهم أزماته، ويقعد بهم اجتراره، فالأولون الهالكون منهم لم يغادروا من مترد، فقد استوعبوا كل المتشابه في كل مفردات الثقافة الإسلامية، ونفذوا من كل الثنيات، وشككوا في عالم الغيب والشهادة، وطالت أذيتهم كل المعارف،

ولم يتلقهم علماء الأمة وحماة الحضارة الإسلامية بثقافة الانبطاح، وإنما نفذوا إليهم بالحجج الدامغة والحقائق الملجمة، ومن جاء بعدهم من المتذيلين، لم يجدوا ما يقولونه لمن خلفهم من الأشياع والأتباع إلا اجترار مقولات مهترئة من الترديد.

وأزمة الاستشراق الحديث ظاهرة للعيان، وهي حقائق لا مجال لإنكارها، وقد استوفاها المهتمون بالشأن الاستشراقي، والذين يستفزون قومهم بساقط الرأي، لا يعلمون بهذه الإخفاقات الاستشراقية، وهم فيما بين أيديهم كما أهل الكهفَ ووَرِقِهم، وكنت أود من عقلائهم الأخذ على أيديهم واقتيادهم طوعاً أوكرهاً إلى مقاعد محو الأمية للحصول على مبادئ الجدل المعرفي، ومثلما أن الاستشراق بوصفه ظاهرة جدلية متذيل للاستعمار، ومشتغل في شأنه، فإن المتهافتين على مقولاته متذيلون للاستشراق المتذيل، وهذه المذلة تذكرنا بمقولة الشاعر:

ولو أن عبد الله مولى هجوته

ولكن عبد الله مولى مواليا

ونحن هنا لا نمارس التنابز بالألقاب، ومعاذ الله أن نتهم شخصاً بعينه وإن قال كلمة الاتهام، ولكننا نقتدي بالبر الرحيم في تنبيهه: «**مالي أرى قوماً يفعلون كذا**»، ونحاول باللمحة وضع المتذيلين أمام أنفسهم عسى أن يرعووا، ويستعملوا ما وهبهم الله في طاعته، والذب عن بيضة الإسلام، والمستشرقون المعاصرون الذين يتخذهم المتذيلون مناطاً لتشبعهم مصابون بداء الضعف المعرفي واللغوي والفكري في مقابل الصحوة والتطور المعرفي وسقوط (الايديولوجيات) الخادعة، ك(الماركسية) و(الداروينية) و(الوجودية).

والحضارة الإسلامية التي توصف بالتخلف والمحدودية، وتؤخذ بضعف المسلمين وتفككهم، ويعاد ترميم آلية الضربات الاستشراقية للإجهاز عليها، هذه الحضارة المحاصرة قابلة للمنازلة الشريفة والتحدي الواثق، والصمود المفحم، ومصدر بقائها تعهد الله بحفظها، واتساعها لكل ما يتطلبه إنسان العصر من صناعات واكتشافات وإعداد للقوة، والإسلام لا يشكل عقبة في طريق أي حقل معرفي، ويكفي قول الرسول: (أنتم أدرى بأمور دنياكم)، وما نشاهده من تخلف مادي مرده إلى سنة التداول والتدافع، ومع ذلك كله فإن (الحضارة الإسلامية) تمثل البنية التحتية للحضارة المهيمنة، وهي المستوعب الأقوى لما سلف من حضارات (يونانية) و(رومانية) و(آرية)، والشاهد الذي رأى كل حاجة، وألم بقصة الحضارة الإنسانية (ول ديورانت) يقول: (فإذا درسنا الشرق الأدنى وعظمنا شأنه فإنّا بذلك نعترف بما علينا من دين لما شادوا بحق صرح الحضارة الأوروبية والأمريكية وهو دين كان يجب أن يُؤدى من زمن بعيد).

وقوله هذا يحيل إلى حضارات الشرق الأدنى التي سبقت الإسلام، ونفذت إلى حضارة الغرب عبر مشاهد الحضارة الإسلامية، فهي الناقل المتفاعل، وليس الوسيط المؤدي فقط كما يحلو لبعض المستشرقين.

والحضارة الإسلامية استثمرت كافة المناهج والمبادئ وسائر المعارف التي نقلت بالترجمة أو بدخول الناس في دين الله أفواجاً يوم أن جاء نصر الله والفتح، واستوعبت الحضارة (السومرية) و(الفرعونية) و(البابلية) و(الآشورية) و(الفارسية) وتمثّل طائفةٌ من علماء الإسلام ما أبقته عوادي الزمن من مناهج وآليات، وما قامت النحل والملل، وما تفاوتت الفرق حول المنقول والمعقول إلا بسبب اتساع الإسلام لكل فيوض الحضارات، والعالم الإسلامي اليوم يشاطر الغرب في بناء الحضارة الإنسانية، فالعلماء والمفكرون الإسلاميون تتخطفهم حواضر العالم الغربي، والدول الإسلامية لم تتأب عن قبول

منجزات الحضارة العلمية، وكيف يتحقق التمنع وهي المستهلك الأقوى لمنجز الحضارة الغربية؟ والغرب يعرف المارد، ولهذا يثقل عليه القيود، ولا يصدر إلا المنجز للاستهلاك، أما الشفرات والأنظمة والطرائق فحرام عليه، والإسلام حين يرفض السلوكيات الموبوءة يحال هذا الرفض المشروع إلى رفض منجز الحضارة المادي، وهذا محض افتراء، وإذا اختلف علماء الكلام والفقه مع نظرائهم في المنطق والفلسفة فإن هذا الحراك مؤشر استيعاب وشمول وتفاعل، يحسب للحضارة الناقلة، وإن كان ثمة مزيدٌ من الارتكاس فإنه سيكون على يد من وصفهم (عبد الوهاب المسيري) بقوله: (نعيش حالة تخلف ثقافي شامل، ومثقفونا يعيشون على نفايات الثقافة الغربية) اليمامة ٦-٨-١٤٢٦هـ ولمكافحة الأمية أوجه بقراءة كتابين (قالوا عن الإسلام) لعماد الدين خليل، و(الإسلام في عيون غربية) لمحمد عمارة كبداية لفتح الشهية وتجاوز الأمية.

تداعيات اليوم الوطني .. !(١)

كلما ذكرنا (اليوم الوطني) تذكرنا: الزمان والمكان والإنسان واستذكرنا الظروف العصيبة التي أنجز فيها المؤسس ورجالُه هذا الكيان الكبير. وكل التداعيات تتجسد بشخص الملك (عبد العزيز) رحمه الله. والمتحدثون عنه من خلال هذه المناسبة، ينظرون إليه من زوايا متعددة، وستمضي المناسبة، وتمضي معها الأحاديث الطوال، وتبقى في شخصية الملك عبد العزيز مجالاتٌ رحبة للإشادة والدراسة.

في طفولتي المبكرة سمعت الناس يتهامسون فيما بينهم عن وفاة الملك (عبد العزيز)، وكلما أقبلت على أبويَّ لزما الصمت، أو صرفا الحديث إلى شأن آخر، لرهبة الحدث، والخوف من عقابيله. كان الناس كلهم في وجوم وترقب، ولقد كنت يوم ذاك مع لداتي نلعب حول (جامع بريدة)، والإمام يخطب مؤبناً ومتفجعاً، وبعد الفراغ من الصلاة التي لم نشهدها، سمعت المؤذن ينادي لصلاة الغائب على فقيد الأمة، لم يكن الحدث ملفتاً للنظر بالنسبة لنا كأطفال، ولهذا مضينا في لعبنا، وكل همنا التنقيب في ساحات الدكاكين الترابية عن شيء نمضغه أو نلعب به. وقبل هذا التاريخ، وأثناء زيارة (الملك عبد العزيز) الأخيرة للقصيم، قبل ستين عاماً، كنت مع أمي مختبئاً في عباءتها بين مئات النسوة اللاتي خرجن من خدورهن، ينظرن من تل رملي مطل على احتفالية (أهالي بريدة) بمقدم جلالته، كما خرجت عائشة مع رسول الله ﷺ، لتنظر إلى الأحباش، وهم يزفنون في المسجد. كان من أبرز مظاهر الاحتفاء العرضةُ السعودية، وما يصاحبها من زخات الطلقات النارية. ولما انتابني الخوف من اشتعال السماء بالنار، أسرعت بي أمي إلى البيت غاضبة من فوات المشاهد الممتعة.

لما تزل تلك الصورة ماثلة أمامي، ولما يزل موقع العرضة والاحتفال، وكأنه إلى الآن يفيض بالرجال والنساء، لقد كان في تقاطع (طريق الملك عبد العزيز) مع (طريق الملك فيصل)، وكان (الملك عبد العزيز) بطلعته البهية يزجي الصفوف تحت عَلَم التوحيد بلونه التفاؤلي، ويشارك المحتفين الغناء والرقص الرجولي. وتمضي الأيام سراعاً، ويشُبُّ الطفل عن الطوق، وتسوقه المقادير، ليكون دارساً، ومدرساً، وأستاذاً جامعياً، ومؤلفاً، ومشرفاً، ومناقشاً، ومحكماً في متعلقات أدب الجزيرة وتاريخه المرتبط ارتباطاً وثيقاً ب(الملك عبد العزيز)، ويتحول (الملك عبد العزيز) من حاكم عربي مسلم إلى مادة تاريخية، تتقاطع مع كل الأشياء، وهكذا العظماء، يشغلون المشاهد: أحياءً وأمواتاً، وإذ لم تمر بي هذه الشخصية الفذة في حياتها إلا مرتين: مرة في الاحتفاء الذي أرهبني، ومرة في الوفاة التي لم ترعني. ولكنها أثارت فضولي وتساؤلي: من يكون هذا الشخص الذي جمَّد الحركة، وغير الأوضاع، وهزَّ النفوس، وأسال الدموع؟

لقد قرأت الكثير عن هذا الإنسان الفذ في كتب المؤرخين والرحالة والمستشرقين الأنصار منهم والخصوم، وسأظل أقرأ، وسيظل التدفق المعرفي عن بطولاته بازدياد، وكلما فرغت من قراءة تطوعية، أو رسمية، أحسست أن الشخص يكبر في عيني، وأحسست أنني أطلب المزيد. بالأمس دخلت مكتبتي، ووقفت أتأمل ما يخص الجزيرة العربية وتاريخها وآدابها ورجالاتها من كتب في التاريخ والأدب والسياسة، ووجدت ان الذين مؤضَعوا (الملك عبد العزيز)، أخذتهم شخصيته، وبهرتهم عبقريته، وبخاصة أنه لم يتلق علم السياسة في الجامعات، وإنما حذق ذلك كله من دقة الملاحظة، وطول التجربة،

---

(١) تاريخ المقال: ٢٧/ ٩/ ٢٠٠٥

ورجاحة العقل. والحياة مدرسة العباقرة والموهوبين، فكان أن اتفق الأنصار والخصوم على أنه شخصيةٌ استثنائيةٌ.

كان فارساً ومتفرِّساً، وحليماً حكيماً.

قوياً بغير عنف.

وليناً بغير ضعف.

يلبس لكل حدث لبوسه، فلا يضع السيف في موضع الكرم، ولا يضع الكرم في موضع السيف، قوياً في الحق، لا تأخذه في الله لومة لائم، يمنح الثقة لرجاله بقدر ما يمنح الفرصة لخصومه، فإذا بالفئتين تستويان بالوفاء له والإعجاب به. كان شخصية جذابة مهيبة. يفد إليه كبار الساسة والمفكرين بمهمات مصيرية، وكل رهانهم أن يستحوذوا عليه، وأن يجعلوه غنيمة لدولهم، فإذا تراء الجمعان، أصبحوا هم الغنيمة الطائعة. يَصْدُق معهم، ويضعُهم أمام ضمائرهم، ويناشدُهم المصداقية، ويسبقهم إلى مكارم الأخلاق، فيكون لهم قدوة.

لقد عرفت الملك عبد العزيز في الواقع، لأن كل ما نحن فيه، وما نعيشه ونعايشه ثمرةٌ من ثمرات جهده. وعرفته عبر الكتب، فكان أن تمكن ذاتاً ومعلومة، وسيظل ملء السمع والبصر.

عندما أعددت رسالتي للماجستير (اتجاهات الشعر المعاصر في نجد) كان تاريخ (الملك عبد العزيز) واهتمامُه بالأدب مادة خصبة لهذه الأطروحة، فانجذبت إليه، وانجذب معي المناقشون للرسالة، من أساتذة كلية اللغة العربية ب(جامعة الأزهر).

وعندما أعددت كتاب (بريدة حاضرة القصيم)، كان (الملك عبد العزيز) مادة الكتاب في البعد السياسي والتعليمي والاقتصادي، وسائر وجوه الحياة المتحضرة، هذا الحضور أثار كوامن الرغبة في مزيد من الاختراق لحيواته الحافلة بجلائل الأعمال.

وعندما أعددت رسالتي للدكتوراه، عن الأدب العربي الحديث في (المملكة العربية السعودية)، كان تاريخ (الملك عبد العزيز) ومنجزاتُهُ مصدرَ الرسالة وموردَها.

وعندما درست شعر الشاعر الكبير (محمد بن عبد الله بن عثيمين) في كتابي (سعوديات بن عثيمين) تبين لي من خلال ثلاث وعشرين قصيدة مدحَ بها الشاعرُ (الملك عبد العزيز)، أن هذه الشخصية ثرةُ العطاء، متعددةُ الجوانب والمواهب، وأنها ألهمت الشاعر عيون الشعر.

وعندما اشتركت في تأليف كتاب (الملك عبد العزيز في عيون شعراء أم القرى)، والذي يقع في مجلدين، ويشتمل على كل ما قيل في (الملك عبد العزيز) من شعر على مدى ثلاثين سنة، أحسست أنني أتهجى تلك الشخصية، وأنني لما أزل في أبجدياتها.

كان مسلماً لا يساوم على إسلامه.

وكان عربياً لا يزايد على عروبته.

وكان مواطناً متفانياً في حب وطنه.

أنجز وحدة إقليمية لم يسبق لها مثيل. قَدِم إلى نجد من منفاه في (الكويت) تتهاداه التنائف أطحل، واختار شهر رمضان لنقص المؤونة وخوف العيون، يسري ليلاً، ويختفي نهاراً، حتى إذا بلغ مشارق الرياض، نثر كنانته، فلم يجد فيها إلا قوتين: -

-مشروعية مطلبه، فهو سليل ملك عريق.

-وسمعة أسرته الطيبة المتمكنة من القلوب.

فكان أن خفق بهذين الجناحين، على وهاد الجزيرة ونجادها.

ولأنه مُصلحُ فسادٍ، وجامعُ شتاتٍ، وموحدُ كلمةٍ، فقد تحركت المصالح التعارضة في وجهه، الأمر الذي طال معه أمد (معركة التكوين)، لأكثر من ثلاثة عقود، وفي النهاية

حقَّ الحقُّ وزهقَ الباطل، وأعلن (الملك عبد العزيز) وحدة البلاد، تحت مسمى (المملكة العربية السعودية) ليبدأ بعدها (معركة البناء) الحضاري.

هذا اليوم الذي وضعت فيه الحرب أوزارها، وأُعلنت فيه الوحدةُ، يُسمى ب(اليوم الوطني)، وهو ما نعيشه اليوم، ونتحدث عنه، وننعم بخيراته. هذا الكيان بكل ما يعج به من تعليم، وصناعة، وزراعة، وإعمار، وثراء، وأمن، واستقرار، وتلاحم، معطى من معطيات هذا اليوم، ومنجز من منجزات (الملك عبد العزيز) الباهرة. فهل يا تُرى يستحق هذا اليوم مثل هذه الاحتفالية؟ لتذكُّر الأمجاد، وتَذْكِير الأبناء ببناة الحضارة، والوفاء للآباء والأجداد الذين التفوا حول قائدهم الفذ، ومنحوه الأنفس والأموال. إن من واجبنا التوجُّه إلى الله بالحمد والشكر، وترجمة الحب إلى عمل إيجابي، لخدمة هذا الوطن، وتحقيق الحياة الكريمة لإنسانه، وتفادي الهتافات والشعارات الجوفاء، فالمواطنة الحقة: صدقٌ وإخلاصٌ ونزاهةٌ وعملٌ مشرِّفٌ وحمايةٌ لمثمنات الوطن، والتفاف إيجابي حول القيادة يتمثل بالوفاء والمناصحة. أحسب أننا لن نكون أهلاً لما وهبنا الله إن لم نشكر المنعم المتفضل، وندعو للمؤسس بالرحمة والمغفرة، ولعقبه بالنصر والتمكين، إن دولة آمنة مطمئنة، تشق طريقها وسط الأعاصير بثقة واعتزاز لجديرة بالبحث عن لحظاتِ تشكُّلها، والتعرفِ على بُناتِها، وتعريفِ الناشئة بلحظات التكون ومسيرة البناء عبر هذه المناسبة السعيدة، وتحويل هذا اليوم إلى محطة تذكر واسترجاع وتقويم واستئناف جاد للأداء السليم، وبخاصة في تلك الظروف العصيبة التي تمر بها الأمة العربية والإسلامية. ويقضي (الملك عبد العزيز) نحبه بعد إنجاز وامتياز، ويترجل عن سدة القيادة، ليتلقى الراية من بعده أبناؤه. ويقضي رجال (الملك عبد العزيز) نحبهم ليتلقى المسؤولية من بعدهم أبناؤهم، وتمضي المسؤولية مع من ينتظر، ولم يبدلْ تبديلاً. هذا الكيان أمانة في يد أبناء المؤسس، وأبناء رجاله، و(اليوم الوطني) الذي يمر بنا كل عام، جدير بأن يكون مشروع فعل رشيد وقول سديد، ومحاسبة للنفس، واستشرافاً للمستقبل، وما لم نراجع أنفسنا بثقة واطمئنان وشفافية تحول اليوم إلى ممارسة نمطية غير مجدية، حفظ الله البلاد وأهلها وسدد على طريق الحق قادتها، وردَّ كيد أعدائها إلى نحورهم إنه ولي ذلك والقادر عليه.

الرأي العام بين الاختراق والانغلاق .. ! (١) [(١)]

كل ظاهرة جديدة في لفظها أو في وجودها، يتوسل المتلقي بالتساؤل عن مدلولها اللفظي ومفهومها المصطلحي، وعن أمدائها ومجالاتها ومشروعيتها، وأسئلة مثل: ما الرأي العام؟ وما آليات الاختراق؟ وما وسائل الانغلاق، أو ما يمكن تسميته بالحماية والحجب؟. أسئلة مشروعة ومحتملة، وقد تكون الإجابة عصية، ولكنها ضرورية، وقد يكتفي المتلقي بالمعهود الذهني وإن قل أو ضل. وأصعب شيء عنده فيما أرى تعريفُ المعرَّف. فالظواهر العصية التجلي على حقيقتها هي البدهيات، كـ(الحب) و(السعادة) و(الشعر) و(الجمال)، وتلك أشياء نعيشها، ونعيش معها، ولكننا لا نستطيع تحرير مفاهيمها وتحديد معانيها بالقدر الكافي، وكما قيل عن (الفقر) و(المسكنة). و(الحمد) و(الشكر)، (والكرم) و(السخاء) إذا اجتمعا تفرقا، وإذا تفرقا اجتمعا.

فالدلالة تتغير بالسياق أو بالمناسبة، بالعموم أو بالخصوص، بالمجاز أو بالحقيقة، بالوضع أو بالعرف والشيوع. ومن ثم لا يغني الأصل الدلالي عما سواه من معطيات دلالية أخرى.

وللخلوص من دوامة المفاهيم، وهي غصص المشاهد ومتاهة المختصمين، نعود إلى جذر المصطلح اللغوي. ولـ(ابن فارس) رؤية في الأصل الواحد والأصول المتعددة في كتابه (معجم مقاييس اللغة). فـ(الراء، والهمزة، والياء)، أصل يدل على النظر بالبصر والبصيرة، وفي محكم التنزيل ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾. و(الرأي العام) ألصق بالبصيرة منه بالبصر، وقد تكون له فراسة تحمل على الفعل ورد الفعل، وفي الأثر الضعيف: - (اتقوا فراسة المؤمن، فإنه يرى بنور الله). وكلمة (العام) تلغي التشيؤ المحدد بوصف، ومثلما اختلف الفقهاء حول مفهوم (الإجماع) فإن علماء الاجتماع والسياسة اختلفوا في مفهوم (العام).

والرأي ما يراه الإنسان الفرد أو الأناسي عبر أي تجمع يوحد بينهم، ويتحدد على ضوئه تصرفهم. والتلقي يعقبه التفكير ثم التعبير بالصوت أو بالفعل. والتفكير فريضة إسلامية: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾ ﴿لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾. وتلك استفهامات إنكارية، تحفز على التعقل والتفكر والتدبر والتفقه. وحين ندب الله إلى التفقه في الدين استعمل فعل النفور، وهو السرعة والمبادرة ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾. ولقد عاب الذكر الحكيم القلوب التي لا تفقه، والعيون التي لا تبصر، والأذن التي لا تسمع، ونقم على اتباع الظن، وما تهوى الأنفس، واتخاذ الهوى إلاهاً. وكل هذه اللفتات معالجة استباقية لترشيد (الرأي العام) وهو معرض لكل هذه الأدوات. وأخطر ما تعانيه السلطة التجييش العاطفي، وهو الداء العضال الذي يعاني منه (الرأي العام) وحمايته من اختراقات التضليل حماية لمثمنات الوطن وإنسانه. وأخطر الأحوال التضليل من الداخل. فـ(الرأي العام) يحصن في الغالب من اختراقات الآخر المناقض. ولهذا أصبح الإنذار مطلباً شرعياً للتوعية وأخذ الحذر، فكأن القوم - وهم (الرأي العام) - مهددون بالتضليل، ولا سيما أن هذه الآية جاءت في سياق الحديث عن المنافقين والكفار وما بدر منهم من دسائس ومكائد. وتيه (الرأي

---

(١) تاريخ المقال: ٤/ ١٠/ ٢٠٠٥

العام) من الخلطاء الذين يداهنون ويركنون ويهرولون ويحسبون أن (الليبرالية) و(الديمقراطية) مطلق الحرية، والعدل والمساواة، ولو أنهم عادوا إلى المعاجم والموسوعات الغربية المترجمة، لعلموا أن (الحرية) مفردة من مفردات تلك المصطلحات، وأن نجاح الغرب في تسليمه لأنظمته ودساتيره، وأن إخفاق المسلمين في عدم تفعيل مبادئهم، وأن حل مشاكلهم ليس في اللحاق بالآخر، ولكنه في إعادة النظر في الذات.

وإذا كانت الإشكالية في التشكيل الذهني للرأي العام المؤثر في المسار والصيرورة فإنها الأصعب في تحديد (الرأي العام)، والتفريق بينه وبين جماعات الضغط والأحزاب والمنظمات والهيئات والنقابات، والتكتلات: العرقية والطائفية والإقليمية. وهي الأصعب أيضاً في تحديد مصادر التأثير عليه، وفي الخارج منه والداخل فيه. فهل النخبة - على سبيل المثال - من (الرأي العام)، أم هي مصدر التأثير عليه وتوجيهه؟ المستفيض أن هناك عقلاً جمعياً يتجلى في المظاهرات وجماهير الرياضة والفن، وسائر التكتلات، وعقلاً فردياً غير مندفع ولا مهتاج. والعالم والمفكر حين يندمجان في الجماعة، يكونان جزءاً من الرأي العام، وحين يعتزلانها، يكونان من النخبويين، يمارسان تشكيل الرؤية العامة. ولقد تجلت هذه الإشكالية في (شاعر غزية) الذي أبان لهم نصحه، وأقر أنه منها في الرشد والغواية، فهو في مناصحته نخبوي، وفي معيته جزء من (الرأي العام).

وحديثنا عن (الرأي العام) لم يمتد إلى المكون والطبيعة والحد والتعدد والمجال، وإمكانية الاتفاق أو الافتراق مع المجتمعات الأخرى، ولا في طرق الاتصال وتحليل المعلومات وصناعة النجوم وضبط الدعاية، فذلك مجاله الدراسة الموضوعية المعتمدة على الخطة والمنهج والكم المعرفي. ومع أهمية ذلك فإننا سنقف بالحديث عند خطورة تشكل (الرأي العام) تشكلاً عشوائياً متعدد الرؤى والتصورات في غياب مؤسسات المجتمع المدني، أو عجزها عن مواجهة المرحلة بكل إمكانياتها الرهيبة.

والحديث عن الاختراق والانغلاق يستدعي النظر في آلية النفاذ إليه، وآلية التمترس والحماية بالحجب أو بالاستباق. فالنفاذ تتنوع خطورته بتنوع المصادر والأهداف، والاحتراس تتنوع مستوياته بتنوع أساليب المواجهة. فالمنع، والرقابة، والتحذير، والتخويف، والتحريم، أساليب مشروعة، ولكنها مفضولة؛ لأنها دون التوعية والتربية والاستباق والتصدي المتكافئ والمنافسة على (الرأي العام) بوصفه مجال التحرف. إن (الرأي العام) المخترق أو المستبطن من الداخل بحاجة إلى آلية تشكيل لا إلى سياج حفظ، إذ لم يعد بالإمكان الاقتصار على الأمر والنهي والتخويف والتسييج، وإنما الإمكان والفائدة في التربية والتوعية، وتوفير الأجواء الملائمة، التي تمكنه من التضلع المعرفي السليم والمواجهة الذاتية. والإحالة إلى الحرية الشخصية، وحرية التعبير والتفكير والممارسة، والتعويل على البقاء للأصلح إحالة فيها نظر. فالحرية تختلف عن الفوضوية، و(العقد الاجتماعي) يضبط الحرية ولا يلغيها، ولا يمكن أن نتصور تجمعاً إنسانياً إلا بضوابط متفق عليها ومسلم لها، كما أنه لا هوية إلا بسمة مميزة. فالمسلم غير النصراني واليهودي والعلماني، ولكل قوم نحلة تحكم الحرية ولا تُحكّمها. والحرية التي لا يحكمها العقد حرية (وجودية) تقوم على الفوضى والرفض والعصيان. والحياة: حسية كانت أو معنوية، محكومة بنظام، ولا حياة بدون ذلك، وليس بين الحياة بضوابطها وبين الحرية تعارض.

والذين تكبح جماحهم ضوابط الحياة يحتجون بالحرية. ومسخ السمة والخصوصية مطلب الآخر، وليس مقتضى الحرية ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ

مِلَّتَهُمْ﴾. واتباع سنن الآخر قضية مسلمة (لتتبعن سنن من كان قبلكم)، والتشبث بحرية القول والفعل تعزيز للإرضاء واقتفاء للأثر، وستظل حدود الحرية مجال تنازع.

ومشكلة الإنسان بين التخيير والتسيير لما تزل مضمار لزز بين الفلاسفة وعلماء الكلام، وحرية الاختيار والفعل ضرورة ومطلب إسلامي، ولكن لا بد من ممارسة الحرية الإسلامية المقيدة بالمقاصد، وممارسة الأطْر والمناصحة بحدودهما الشرعية. والأمة الإسلامية أمة الدعوة والنصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والرعاية «**كلم راع ...**»، وتراتب المسؤولية التنفيذية. والمسؤولية الإسلامية لا تمضي مع مطلق الحرية التي يمارسها الغرب، ويركن إليها المستغربون. هناك حرية تحيل إلى (الديموقراطية)، وحرية تحيل إلى (الليبرالية)، وحرية تحيل إلى (الوجودية)، وحرية تحيل إلى (الإسلام)، وحريات متعددة بتعدد الملل والنحل، تلتقي وتفترق، إذ لكل حرية ضوابطها وأمْداؤها. ومتى ربطنا سائر المؤسسات بالمقتضى الشرعي طائعين مختارين، فلا بد من تمكين هذا المقتضى، ليأخذ دوره، وإلا طالنا المقت الكبير ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾. وشملنا عقاب من لا يتناهون عن منكر فعلوه. وسمة النخبوية الصادقة المخلصة تحديد (الموقف) و(المصدر) و(الانتماء) تحديداً لا تضطرب معه الرؤية، ولا يميِّع فيه الإسلام، ولا يلمَّع فيه الطغام، إذ كل متمرد أو متردد حين تلجمه الحجة يقول: لا مزايدة على الإسلام. والإسلام لا يتحقق إلا بثلاثة أشياء: الاعتقاد والقول والعمل. وما لم يصطحب المفكر والعالم والسياسي وسائر المتنفذين هذا الثالوث فقدوا المصداقية، وقالوا ما لم يفعلوا، وأضلوا (الرأي العام)، ويقال مثل ذلك عن مقتضيات المواطنة، فالشعارات والهتافات أصباغ حائلة، وما قتل الوطن إلا من وتَّنه من الثوريين.

والخطورة أن الخطاب النخبوي مفردة من مفردات التأثير على (الرأي العام) الذي يتشكل من عدة مؤثرات تربوية وإعلامية وثقافية ودينية: محلية وخارجية. وليست رؤيته انبثاقاً ذاتياً فورياً، وما كان وجوده طارئاً، بل ظل كامناً في المجتمع الإنساني البدائي على شكل مفهوم صوري، تحول في النهاية إلى حقيقة تصديقية ماثلة للعيان، تحسب لها المؤسسة السياسية كل الحساب، ولا سيما في الأنظمة (الديمقراطية) التي توفر الحرية، وتحيل مؤسساتها إلى الشعب، ولا ترد إلى مرجعية نصية، ومن ثم لا يكتسب أي قرار شرعية النفاذ إلا بموافقة جماهيرية عن طريق الاستفتاء. أما المجتمعات الأخرى فمتفاوتة في كسب ثقته، فقد تحيل بعض تلك الأنظمة إلى النص الشرعي بوصفها تجمعاً إسلامياً، أو إلى مقاصده، وقد لا تكون إسلامية ولا (ديمقراطية)، ولكل قوم شرعة ومنهاج اختطوها لأنفسهم، أو توارثوها على مبدأ: إنا وجدنا آباءنا على أمة، فرضوا بها، أو فرضت عليهم.

والفكر السياسي الإسلامي له مصادره النصية، المراوحة بين الاحتمال والقطع، أو الاجتهادية المتسعة للاختلاف المعتبر. ول(الشافعي) و(ابن عقيل) رؤية صائبة ودقيقة في ربط السياسة بالمرجعية الشرعية، فعند الشافعي: لا سياسة إلا ما وافق الشرع، و(لابن عقيل) تحديد وتفصيل: إذ يشترط عدم المخالفة، ولا يشترط التنصيص، أي لا يقول ب(لا سياسة إلا ما نطق به الشرع)، وهناك فرق بين ما نطق به ووافقه. وقد تحيل هذه الأنظمة قضاياها لكسب الثقة والمشروعية إلى (الرأي العام) المفترض فيه فهم المقاصد وتمثلها، وبخاصة حين تتعدد الخيارات.

وأنظمة الحكم والدساتير هي التي تحدد آلية كسب الثقة ونفاذ القرارات. وفي المقابل فما كل قرار يُربط بنصه الشرعي، ولكن التدخل النصي يكون في حال الجهل

بالمشروعية أو تعارض الآراء، استجابة لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلى اللهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] . وإذ تكون أطر وآليات ومبادئ فإن (الرأي العام) يضل أو يهتدي وفق رؤية المتعالق النخبوي، والإشكالية هنا تكمن في عدم التفريق بين (الأطر) و(الأيديولوجيات)، فـ(الديموقراطية) على سبيل المقال إطار من جهة و(أيديولوجية) من جهة أخرى، ومكمن الخلل في خلط السمات والخصائص.

وإذا تعددت النظم السياسية، وقبلتها الشعوب، لم يعد هناك مجال للمفاضلة ولا للتصدير، فالناس أدرى بأمور دنياهم، ومن حقهم التمتع بسيادتهم المنوط أمرها بمجالس منتخبة أو مختارة على كل المستويات الدستورية والتشريعية والتنفيذية. وفيما يتعلق بالفكر السياسي الإسلامي فإن حرية الاختيار مقيدة بموافقة النصوص أو المقاصد الإسلامية. ومع تلك الضوابط المشروعة فإن (الرأي العام) عبر من ينيبه من أهل الحل والعقد يقرر نظام الحكم، وأسلوب التداول، وتراتب المسؤوليات. والفكر السياسي الإسلامي له تجربته ونظريته. والقبول الطوعي بالنظام يمنحه المشروعية، ويقتضي العمل على ضوء محققاته، و(الرأي العام) هو المؤشر على الشرعية. وقناعته بالنظام الذي لا يشكل عقبة في طريق التطور لا يخول لكائن من كان خلط أوراقه، وتفويت الفرصة المواتية لتلاحم السلطة مع الجبهة الداخلية. و(الرأي العام) لا يظهر عنقه إلا حين يحس بأن هناك حدثاً ما يصادم مسلماته وأنساقه وسياقاته، وليس هناك ما يمنع من القبول بالتغيير، ولكن يجب أن يكون وفق الضوابط والممارسة المرحلية التي لا تربك الأمة، ولا تعرضها لصدمة المفاجأة.

وأياً ما كان الأمر فإن على المؤثرين على (الرأي العام) أن يلموا بأنظمة الدولة، وبخاصة (النظام الأساسي للحكم) و(نظام مجلس الشورى) و(نظام مجلس الوزراء) فكل هذه الأنظمة استبقت تحديث (الأطر) في ظل التأكيد الواضح على قواعد الشريعة الإسلامية. ولما تزل إمكانية الإضافات الأخرى على الأطر ممكنة وقائمة، أما القول عن إمكانية (الديمقراطية) أو (الليبرالية) أو (الدستورية) الغربية، وتجاهل تلك الأنظمة، فإن ذلك إرباك لا مبرر له، وتغريد خارج السرب.

أيّها الأمير ألا تحب أن يغفر الله لك .. !؟ (١)

كلُّ من سمع تشنُّجات وزير داخلية العراق (بيان جبر صولاغ) التي ردّ بها على تحذيرات وزير خارجية المملكة العربية السعودية الأمير (سعود الفيصل)، أُصيب بالغثيان والاشمئزاز والإحباط، وأحسّ أنّ العراق سيظلُّ مرتهناً لمن لا يحسن الصدور ولا الورود، حتى يقيّض الله له من يقيل عثرته، ويدرأ عنه عوادي الزمن، ويأذن بعودته إلى الصف العربي متخلّياً عن الإيضاع في الفتن، وإذكاء الطائفيات والعرقيات، والاتجاه صوب التقسيم. والذين صدمتهم هذه الاهتياجات الرعناء، تنوّعت عندهم ردود الفعل، وكلُّها على حساب بلد مهيض الجناح. وبقدر الاستياء، جاءت السخرية من الذين شهدوا نكوص الوزير على عقبيه عبر صحيفة (الشرق الأوسط) ٦-٩- ١٤٢٦هـ، ومحاولته مواراة سوأته، وذلك بعد أن تبيّن له أنّه شقّ عصا الطاعة، وخالف سياسة بلاده، وأحرج قادتها، وأكرههم على الاعتذار والتخلّي عمّا بدر منه ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ﴾، والمستاؤون والساخرون من القول ونقيضه يزدادون احتقاراً له وللواقع الذي وسع مثله، والحكماء يقولون: - لا تقولنّ شيئاً تحتاج معه إلى الاعتذار، ولا تدخلنَّ في أمر حتى تقدر على الخروج منه.

والخوف والإشفاق من أن تشكِّل هذه المتناقضات موقفاً عدائياً من العراق الجريح، وتصوّره خصماً واعياً لخصومته لدول الجوار وللمملكة على وجه الخصوص. ومن ذا الذي يستطيع امتصاص الاحتقان الشعبي، والتأكيد على أنّ هذا الرد غير الموفّق نزوة أحمق، وليس قرار أُمّة. ويقيني أنّ أسلوب المواجهة - عندي على الأقل - مختلف جداً، فما (العراق) وبعض مسؤوليه الموتورين والمتوتِّرين والشانئين إلاّ كما المريض الذي يهذي تحت تأثير المخدر، وحقه على كلِّ مسلم أن يواسيه أو يأسوه أو يتوجّع.

لقد سمعت مع السامعين تلك التجشؤات الفارغة من رجل مغلوب على أمره، يمشي على أشلاء أهله وعشيرته، ولمَّا يستطع لملمة تلك الأشلاء الطافحة فوق حمام الدم والمهترئة تحت أقدام الراقصين على الجراح ومواراتها. وردّ المسؤول العراقي المتدنِّي إلى حد التخلُّف على تحذيرات سمو الأمير، ردٌّ غير مسؤول، يكشف عن خبيئة المتفوه، ولا يصيب المقصود بسوء. وما هو إلاّ ترديد للعنتريات الثورية التي يجترّها ببلاهة معتقة المسلِّعون للخطاب البلاغي أمثال (نزار قباني) و(أحمد مطر) وشعراء الهزيمة وكتّابها ورغاتها، فلقد ساءهم تفجير الله لكنوز الأرض لمن أخذها بحقها، ولم يجدوا من المآخذ إلاّ غرابة الجمع بين الإبل والنفط، والبدوي الذي مر من فوق الأرض على جمله فامتلكها. وإذ يكون الاختلاف في وجهات النظر مشروعاً، وتحفظ الدولة المعنيّة على ما تراه في غير مصلحتها الخاصة من حق مسؤوليها فإنّ هناك أساليب وقنوات (دبلوماسية) يمارس من خلالها الاختلاف والرد. وما دامت المملكة حمَّالة المآسي، وعاقلة الجناة، وسموم الفتن تشوي أطرافها، فإنّ مراجعة مسؤوليها لا يكون بهذا المستوى، كما أنّ إبداء النصح ليس من الوصاية ولا من التدخُّل في شؤون الغير. وأحداث العراق الدامية يمتد دخنها إلى دول الجوار، ومن حقهم الرصد والمتابعة وإبداء التخوُّف وإسداء النصح. وكم نسمع من يعيب الصمت العربي، ويلوم المتخاذلين من أهل الشأن.

ولقد كنت ممن يفضِّلون مرور الكرام، واستذكار مقولة الشاعر:-

ولقد أمر على اللئيم يسبني

---

(١) تاريخ المقال: ١٨/ ١٠/ ٢٠٠٥

فمضـــــيت ثمـــة قلـــت لا تعنينـــي

ولكن طائفة من الردود العنيفة، تدعو إلى القطيعة، وتخلي المملكة عن دورها الرائد في الأخذ على يد السفهاء والأخذ بيد المتعثّرين، هذه الكلمات الحادة غيَّرت وجهة نظري، وفتحت شهيَّتي للكلام التطميني، ليس رغبة في التصعيد، ولا حبّاً في توتير الأعصاب، ولا حاجة في استعداء المقصود بالكلمات الهجائية المسفة. وإنّما تحرُّفاً لإطفاء الضغائن، وتهوين الأمر، والتذكير بواجب الأخوة الإسلامية على حد: -

إذا احتربـــت يومـــاً ففاضـــت دماؤهـــا

تـــذكرت القربـــى ففاضـــت دموعهـــا

وعلى حد لفتات (المتنبي) ل(سيف الدولة)، وهو يطارد فلول (بني كلاب):-

وكيـــف يـــتم بأســـك فـــي أنـــاس

تصـــــيبهم فيؤلمـــــك المصـــــاب

ترفّـــق أيّهـــا المـــولى علـــيهم

فـــإنّ الرفـــق بالجـــاني عتـــاب

وأخشى أن يكون مثل هذه البذاءات غير المقبولة من الجرم الذي يجره السفهاء على قومهم، ثم يحل على غير جارمه العذاب. والعراق الذي يتقلّب على سفود الفتن منذ نصف قرن بحاجة إلى من يسارعون لإنقاذه، لا إلى من يطربهم نحيب ضحاياه وهذيان محموميه.

وفي تلك الأجواء المكفهّرة أذكّر الأمير المتعذب من واقع أُمّته بكلِّ ما يتوفّر عليه من رحابة صدر واستجابة لله ولرسوله إذا دعاهم، أذكّره بما هو أعلم به مني، وأسوق له مواقف مشرقة في سير أعلام النُّبلاء، ولمَ لا يكون له بمن سلف أُسوة حسنة، وهو سليل أُسرة لها عراقتها في الشأن السياسي، ففي (حديث الإفك) دروس وعبر، أصبحت نبراساً لكلِّ من فتح الله عليه ووفّقه. فمن الذين أشاعوا الفاحشة على (عائشة) أم المؤمنين رضي الله عنها (مسطح بن أثاثة)، وكان (أبوبكر) الصديق رضي الله عنه، ينفق عليه لقرابته وفقره، ولما أن علم أنّه ممن أسهم في إشاعة الفاحشة على ابنته، بعدما نزلت براءتها في كلام يُتلى إلى يوم القيامة، أقسم ألاّ ينفق عليْه، وأن يقطع برّه وصلته. فنزل قول الله تعالى: - ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فما أن سمع هذا الأمر، وهذا الوعد، حتى قال بملء فمه: - (بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي). فأمدّ (مسطحاً) بما كان يمدُّه به قبل أن يشترك في إشاعة الفاحشة: -

ومـــا قتـــل الأحـــرار كـــالعفو عـــنهم

ومـــن لـــك بـــالحر الـــذي يحفـــظ اليـــدا

إذا أنـــت أكرمـــت الكـــريم ملكتـــه

وإن أنـــت أكرمـــت اللئـــيم تمـــردا

ووضـع النـدى فـي موضـع السـيف بـالعلا

مضـر كوضـع السـيف فـي موضـع النـدى

ولكـــن تفـــوق النـــاس رأيـــاً وحكمـــة

كمـــا فقـــتهم حـــالاً ورأيـــاً ومحتـــدا

ومثلما بدرت تلك المواقف الإنسانية الفذة من (أبي بكر) بدر مثلها من أبي حفص (عمر بن الخطاب) رضي الله عنه، حين قدم عليه (عيينة بن حصن) برفقة ابن أخيه (الحر بن قيس) الذي شفع له بالدخول على عمر، و(الحر) أحد القراء الذين يدنيهم عمر، ويقبل شفاعتهم، فقال (عيينة) ل(عمر) حين أذن له بالدخول عليه: - (هِيْ يا ابن الخطاب! فو الله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل) فغضب عمر، وهمّ بمعاقبته، فبادره (الحر) قائلاً: - (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين)، وإنّ هذا من الجاهلين، فكفَّ عمر، وكان وقَّافاً عند كتاب الله.

وشاعر الحكمة والتروي زهير بن سلمى يقول:

ومـــن لـــم يصـــانع فـــي أمـــور كثيـــرة

يضـــــرس بأنيـــــاب ويوطـــــأ بمنســـــم

والذين خاضوا معترك السياسة، وليسوا من أهلها، يأتون بما لا يستطاع احتماله، وما أضاع الشعوب، وهدَّم الديار، وأهلك الحرث والنسل إلاّ أغيلمة وجدوا أنفسهم بالصدفة على مدرجة السياسة المليئة بالألغام، فمشوا دون أن ينظروا إلى مواقع أقدامهم. وهل أحد لا يرثي ل(العراق) بكلِ ما ينطوي عليه من عراقة وحضارة؟ وهل تغني أمجاد التاريخ عن قوم لا يفقهون؟ ومن أراد أن يرى الاستقرار والأمن والرخاء والتلاحم غضاً طريّاً فليزر بلاد البدو الذين يمتطون الجمال، ويشربون من ألبانها، ويتخذون من أوبارها بيوتاً، يستخفونها يوم إقامتهم ويوم ظعنهم. وكم من مكلوم يتمنى أن يجد دفء البلاد ورخاءها واستقرارها وتلاحم جبهتها الداخلية. وإذ تكون البلاد مهوى أفئدة الطائعين، فهي مسرح عيون الطامعين، وحين جمع الله لها من كلِ شيء أحسنه، وفَّقها للمساندة والمساعدة، وممارسة الصُّلح والنُّصح.

لقد قدَّمت البلاد وأهلها تضحيات لا يمكن تصوُّرها، فضلاً عن حصرها لكلِ دول الجوار وشركاء الهم والعقيدة والمصير. تضحيات: مادية ومعنوية، عرَّضت خطط التنمية للتعثُّر والإبطاء، ووضعت مثمِّنات البلاد تحت طائلة المكر، وكادت تمس استقرارها بلا اضطراب. ولما لم نكن ملزمين بهذا القدر من الدعم فإنّ بإمكاننا ألاّ نفعل، بل كان بإمكاننا أن نكون كغيرنا قوَّالين غير فعَّالين. ولكنّنا مع النكران والمكر والإزلاق لمَّا نزل نستبق الخيرات بفتح الجسور الجوية للإمداد والرحلات المكوكية للإصلاح، وسنظل كما كنا، نفك الأسير، ونطعم العاني، ونواسي المصاب، فتلك سجية فينا. وإن قوبل إحساننا بالإساءة ومعروفنا بالنكران، فكم من أيدٍ كسرنا قيدها حتى إذا ذاقت طعم الحرية رمتنا بالحجارة وأزلقتنا بالأبصار، وكم من بطون جائعة أشبعناها حتى إذا أمتنا سعار الجوع سعَّرت تحت أقدامنا نار الحقد والضغائن. ومع كلِ خيبات الأمل سنبقى كما كنا نطعم القانع والمعتر، لوجه الله، لا نريد منهم جزاءً ولا شكوراً. ولما نزل مع طبعنا نقابل

الإساءة بالإحسان والذنب بالعفو، نفعل ذلك طبعاً لا تطبُّعاً، ونقف حيث يجب علينا أن نقف، ولو كان وقوفنا في جفن الردى، وهو مستيقظ لا نائم.

أيُّها الأمير المسكون بهم أُمّته وقضاياها، لا يثنيك حاسد ولا حاقد ولا جاهل عما أنت قائم به ف: -

على قدر أهل العزم تأتي العزائم

وتأتي على قدر الكرام المكارم

ويعظم في عين الصغير صغارها

وتصغر في عين العظيم العظائم

لقد كنت وراء مصالح أُمّتك، مترجماً إرادتها، ومعبِّراً عن سياسة حكومتك، تنصح وترشد وتحذر وتعد وتتوعّد، وقد لا يستبينون النُّصح ولا في ضحى الغد، ولو استبانوه لما آلت أمورهم إلى وضع لا يُطاق، ومرض لا يرجى برؤه، ف ﴿كُلَّ مَا رُدُّوَاْ إِلَى الْفِتْنِةِ أُرْكِسُواْ فِيِهَا﴾. والكلمات السوقية التي أطلقها مَن لا خلاق له إن هي إلاّ صراخ طفل جريح في وجه طبيبه الذي يضمد جراحه، دون أن يعلم أنّ العافية والسلامة بذلك التدخُّل الجراحي.

وكيف لرجل مثلك في تجاربه أن يطلب عند المبتدئين ما عند نفسه، وأن يتصوَّرهم آذاناً واعية، وقلوباً حافظة، ونوايا حسنة، ومقاصد سليمة، إنّ هذا تكليف للأشياء فوق طباعها: -

ومكلف الأشياء فوق طباعها

كملتمس في الماء جذوة نار

والأمير الممتلئ بهموم أهله وعشيرته الأقربين وبقضايا أُمّته من واجبه أن يريح قلبه من غمِّ العداوات والمناكفات والتلاسن، وأن يدفع الشر الذي تفيض به نفوس المرضى والمأزومين بالتي هي أحسن، وكيف لا تبادر إلى مثل هذه الفرص النادرة وطريق المغفرة والجنة في كظم الغيظ والعفو عن الناس.

إنّ المؤمن كما النخلة في الثبات والارتفاع على الترهات، وليس من المعقول أن يجاري الشرفاء أصحاب الخلق الدنيء، والشاعر العربي يقول:-

إذا جاريت في خلق دنيء

فأنت ومن تجاريه سواء

وما العيب إلاّ أن تكون مسابباً لمن لا خلاق له - كما يقول الشافعي -، وكم من الفرق بين الضعة والتواضع، بين الحلم والضعف، وقد يتصوّر ذوو الأنفة أنّ العفو من الذل والهوان. صحيح أنّ من يهن يسهل الهوان عليه، ولكن عفو المقتدر يُعَدُّ من صفح التفضُّل.

والذين يطلقون الكلمات المسفة، ولا يلقون لها بالاً يفتقرون إلى أبجديات اللغة السياسية، وتنقصهم الخبرة والتجربة، وهؤلاء إثمهم أكبر من نفعهم، وحسبهم مرور الكرام. وها هو بعد أن بدت له سوأة كلامه، يلعق إمضاءه، ويراجع نفسه، ويصف سياسة

المملكة بالحكمة والتوازن والهدوء، وينفي أن تكون تصريحاته رسمية أو معبِّرة عن رأي الدولة. وهو إذ يتخلّى عن تصريحاته فإنّما يؤكد من حيث لا يدري أنّه ركب مركباً صعباً ليس من أهله، لقد وصف تجاوزاته الشخصية بأنّها سحابة صيف، وما أكثر سحب الصيف التي تمر بأجوائنا ممن نتوقّع منهم الاعتراف بالجميل. وهو بهذه الحماقات الهوجاء لم يكن بدعاً من الأمر، فلقد تعرّضت المملكة وأبناؤها لتجاوزات من الذم والسخرية لو قيلت بحق غيرها لثارت ثائرته، وأفقدته السيطرة على مشاعره، ويكفي ما تعرّضت له البلاد بعد احتلال الكويت من إقبال المغفلين بسكاكينهم لاقتطاع حصتهم من (الكعكة) الشهية التي صوَّرها لهم جشعهم وسوء مقاصدهم، ولما خيّب الله ظنّهم، أقبلوا يردِّدون محفوظهم: - ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ ومرت كما سحابة صيف، وستظل سحائب الصيف يأخذ بعضها برقاب بعض، ونحن نتجرّع مرارات نكران الجميل. والكتّاب الذين انبروا لِصدِّ هذه المفتريات، أنحى بعضهم باللائمة على بلد مهيض الجناح، وما كان من القول السديد أن نجهر بالسوء، وألاّ تزر عندنا وازرة وزر أخرى، وبخاصة حين يبتدر الكلمات المجتثة من فوق الأرض من لا يغيِّر من الأمر شيئاً. وعلينا أن نروِّض أنفسنا على استقبال سحائب الصيف، وسماع عفا الله عما سلف، ولكن يجب ألاّ تكون ذاكرتنا مخروقة، ومن أغضب ولم يغضب فهو .. !

الماء والفسائل وفوضى المضاريات والفرضيات .. ! (١)[1]

ما من مخاضات فكرية أو سياسية أو اقتصادية، إلا وتسبقها موجات من الآراء وزخات من التخرصات. وما الرعد والبرق إلا مبشرات أو محذرات. فقد يتحول الرعد إلى صواعق، وقد يخطف البرق أبصار المشرئبين. والمصيخون للشائعات، والمستطلعون للرأي العام، تتفرق بهم بنيات الطريق. وكم من قرارات مصيرية استعان متخذوها على قضائها بالكتمان، ولكن الذين يدركون ليلهم يسبقون إلى التنبؤ بها، قبل أن ترى النور. وكل معني بالشأن المحلي، يتيح لنفسه فرصة للفرضيات، ومجالاً للخطرات، وقد يبني من الأماني قصوراً، ثم يهدمها النهار. وقد تعلو موجات الآراء، وتنهمر زخات التعليقات بعد أن تضحى القرارات. وليس بمستبعد أن تكون الشائعات كما الحشرات النافعة التي تخصب لمواجهة الحشرات الضارة، وتوظيف الشائعة لاستطلاع الرأي العام بعض الأساليب الرصدية الحكيمة للتعديل أو للتبديل أو للإلغاء (ويأتيك بالأخبار من لم تزود). وما أضر بالأمة إلا الصمت السلبي، أو الرغاء الرخيص. وإذ يكون المواطن هو المستهدف بهذه المخاضات فإن من حقه أن يقول، ومن واجب المسؤول أن يسمع، ومن مصلحة البلاد والعباد الالتقاء على كلمة سواء. والراصد للمخاضات الحاضر منها والباد، يرى أن البلاد قد مرت بتجارب متعددة، أفرزتها خطط التنمية التي سبقت ظلها، وخلفت انفجارات: تعليمية وسكانية وزراعية وعمرانية، لم تستوعبها شرائح المجتمع. وتفرقت بالناس الطرق، حتى لم يجد أحدٌ فضلة من جهد أو وقت، ليقول في الشأن العام كلمة عابرة، فالناس كلهم في شغل شاغلون. وكل من فتح فمه أو أطلق يده أو ركض برجله عاد بالخير العميم. ففي ذلك الزمن العجيب شرَّعت الدولة أبواب خزائنها عبر البنوك: العقارية والصناعية والاستثمارية، وأطلقت الأيدي في الإنفاق، واعتمدت كل ما بلغها من مشاريع، وواكب ذلك ازدياد في أسعار النفط وانفلات في إنتاجه. وفي تلك الأجواء المحمومة اندلقت أقتاب المشاريع في الوهاد والنجاد، حتى كادت تلد الأمة ربتها، ويتطاول الناس في البنيان. ولما كان التمام مؤذناً بالنقص على حد: (توقع زوالاً إذا قيل تم) أخذت بعض المشاريع بالتراجع، وذلك بعدما تبين للمسؤولين ضعف العائد، وتضخم الإنفاق، وهشاشة التأسيس. ومن تحت أنقاض التراجع المرتبك نسلت ظواهر الإفلاس والبطالة والعمالة السائبة، وانكمش كل شيء، وعاد النهمون إلى الاجترار. وفي ظل تلك الظروف أدرك الناس أنهم مضوا في التوسع بغير حساب. وما عاد أحد يحتمل تبعات هذا الاندفاع، ولا مصميات هذا التراجع، وفي هذا الوضع غير الطبيعي احتنك الناس الإحباطُ والخوف والترقب، فكانت النجاة بالأبدان دون ما تفرق من آليات وأصول عينية كالآبار والمعدات وأطلال المشاريع، ومهما تفرقت بنا طرق القول فإننا كسبنا التجربة، وخسرنا التمسك بما أنجز.

والخطأ المقدور على محاصرته، وحسر آثاره، ناتج طبعي للعمل، وإن كان كل مسؤول بما كسب رهين، إلا أن الخطيئة ألا نكترث مما بدر، أو حين تتكرر الاندفاعات والتراجعات دون مساءلة أو حساب، أو حين يستفحل الخطأ ويتجذر ويبقى كل نازح على بئره، أو حين تكون ردة الفعل مضرة بثروة الأمة وإنسانها. والأعمق استياء حين يمتعض المتصرفون بالشؤون من المساءلة، ويضيقون ذرعاً من تحسس الناس عن مصالحهم ومصائرهم وماذا يراد بهم ولهم. والمؤكد أنه قد مس الجميع طائف من مثل هذه الإخفاقات غير المقصودة، وبدت أطلال المعدات الزراعية خاوية، تتآكل مع الزمن،

---

(١) تاريخ المقال: ١٩/ ٤/ ٢٠٠٥

مؤكدة خطأ التجربة، قبل أن تعفيها الرواسس والسماء، وأخشى أن نكون رهينة لتتابع الأخطاء المتشابهة. وهل تنتفع أمة من تجاربها إذا لم تكن أخطاؤها العارضة مواعظ تقيها الوقوع بمثلها.

ولما كانت التجارة حرة، والسيولة النقدية متدفقة، فقد تدافع الناس وراء المساهمات والأسهم، ولم يأتل أولو الفضل والسعة في محاصرة التصحر، وجاء الدعم بالقروض مغرياً لكل من نكب عن ذكر العواقب جانباً. لقد أغرت الدولة بعطائها السخي من لا يقدر على تصريف شأنه العادي، فيتحول بقدرة قادر إلى رجل أعمال تتخطفه الشركات والوكالات، ولم يلبث أن ثوى مع معداته، يعوزه قوت يومه وليلته، تخيفه الديون، وتمضه الهموم. والسنبلة والنخلة والأسهم والمساهمات وسائر المؤسسات والمضاربات حين لا تحكمها الأنظمة وتسددها المراقبة ويتداولها المسؤولون العليمون الأمناء الأقوياء، تكون عرضة للفشل. ومكمن الخطورة حين ترتبط المشاريع بالثروات القومية ك(الماء) و(الطاقة)، وبخاصة بعد ما أصبح (الماء) مشكلة عالمية، لا ينفك الإعلام العالمي من تداولها، وتكريس الخوف من الشح أو النضوب ومن (حروب المياه). وما اختلفت الدول النامية إلا من بعد ما أحكم المتسلطون الكبار لعبة الهلع والفزع من النضوب، الأمر الذي حفز الوجلين على تصعيد المراجعات من الجدل إلى الصراع والصدام حول حقوقهم من المياه المشتركة والأنهار العابرة، لقد ثارت قضايا السدود والتحويل التعسفي لمجاري الأنهار، واستنزاف المياه الجوفية، وتبع ذلك سيل من الدراسات والمؤتمرات والكتب. وفي هذه الأجواء المشحونة بالتوتر والتآمر لم يعد الماء قضية محلية، كما لم يعد قضية علمية، وإنما أصبح لعبة سياسية، تقف جنباً إلى جنب مع (السامية) و(سلاح الدمار الشامل) و(تخصيب الأورانيوم) وتصدير (المبادئ) و(الديمقراطيات). لقد أقبل الناس على هذه اللعب وقبلوها، ودخلوا فيها أفواجاً، والتقى المسلمان بسيفيهما أو كادا.

وفي الشأن المحلي، فإن هواجس الخيفة تلوح من خلال التكاثر في الغرس والتفاخر فيه، واللغط المعاد حول (الماء) و(النخلة) وتقصي ما تستهلكه التمرة من الماء لتصل إلى فم المستهلك، وما يتطلبه كوب اللبن من كميات المياه ليستقر على المائدة. وإذ نكون مع الترشيد والتوعية، ومع تطوير أساليب الري فإننا ضد التصحر والاستيراد. إننا بحاجة إلى خطاب متوازن يحفظ (الماء) ويحقق الاكتفاء. والتكاثر واللغط يمهد بهما المكاثرون والخراصون لبوادر التولي من الزحف. وما ينجي الأمة من تكرار العشرات، واستنزاف المياه، وإضاعة الأموال إلا مواجهة الذات بكل ما لها وما عليها، وتجافي التبرير والتعذير وتزكية النفس، وتبادل أنخاب الثناء. فالتكاثر غير المحسوب، كالتخوف غير المبرر.

ومما تطمئن إليه نفوس الذين شقوا في الشأن الوطني أن المسؤولين عن (الماء) و(الزراعة) ومتعلقاتهما مخلصون وصادقون. نحسبهم كذلك ولا نزكي على الله أحداً. والصدق والإخلاص لا يعصمان من الوقوع في الخطأ، والوقوع فيه لا يقدح بالأمانة ولا بالمصداقية، ولكنه يشكك في القدرة على الحسم الإيجابي، ويستدعي الإيقاف والمساءلة، ومن أنيطت به مسؤولية وطنية مصيرية، فإن عليه أن يهيئ نفسه ويوطنها على تقبل ما يقال من نقد أو مساءلة، متى كان القصد منهما التوعية والتصحيح، والمعالجة والتسديد. فالخطأ أو التقصير عرض مرضي، والدواء ليس شراباً سائغاً، وإذاً لا بد في تجرعه من تحمل المذاق العلقمي. والاندفاع غير المحسوب في الأداء والدعم يستتبع تراجعاً سلبياً، وعلى مدرجة الذهاب والإياب تتساقط ثروة البلاد، وتخور عزمات أهل الدثور، وتضعف القوى، وتنعدم الثقة، وتعود الأمة إلى تصحرها، تأكل مما لا تزرع، وتلبس ما لا تنسج، وأضعف الإيمان تحقيق الاكتفاء الذاتي، فيما هو مقدور عليه. ولما لم يكن أصحاب الدثور ممن كانت لهم يد في الزراعة إبان الاندفاع غير المحسوب من القاعدين عن المكارم، فقد

تدارك بعضهم الأمر بعد التراجع في زراعة القمح، وتوجه إلى غرس (النخيل) و(الزيتون) و(الأعناب) والتوسع في الفسائل إلى حد يقترب من الاندفاع الأول. وحين توضع العقبات في طريق المتحرفين للعمل أو المتحيزين لقطاع الزراعة، ينفض سامرهم، لتتحول الفسائل إلى أعجاز نخل خاوية، ثم تكون النكسة الثانية أدهى من الأولى وأمر. وغياب المسؤول أو حضوره السلبي سيان، فلا خير في غفلة تستفحل في ظلها الفوضى، ولا خير في حضور تغل فيه الأيدي، وتكثر فيه العقبات، كغلاء الأسمدة والمبيدات والطاقة وسائر المعدات.

والإشكالية ليست في فشل المشاريع الزراعية، وإنما هي في عقابيل الفشل، وبخاصة ما ستواجهه الطبقة الزراعية، التي اعتمدت في دخولها على الزراعة، وفي العمالة التي نهضت بها. ففي كل إقدام تتشكل الشرائح المهنية، وفي كل إدبار ينفرط عقدها، ثم تترك في العراء، لتأخذ طريقها مع من تعول إلى مدن مكتظة بالعمالة الرخيصة. ومع التحفظ على المواجهة نتحفظ على الاندفاع، و(مشاريع النخيل) كادت تقتفي أثر السنابل، وقد تواجه ذات المصير الذي واجهته زراعة القمح والشعير، والخطأ سيكرر نفسه في ظل غفلة مألوفة. وأحسب أن الطامة الكبرى حين تبدأ هذه المشاريع العملاقة بالإنتاج، وتكون من الغزارة والرداءة النوعية وبدائية التخزين، بحيث لا تستوعبها الأسواق المحلية، ولا تقبلها الأسواق العالمية، وحينئذ يصاب المزارعون بإحباط الكساد، مضافا إلى إحباط التخلي والتخذيل وارتفاع نسبة التكاليف. وقد لا يجد المزارعون وأصحاب المشاريع إذ ذاك بدا من التخلي الاضطراري عن مزارعهم ومشاريعهم التي أنفقوا عليها الأموال الطائلة، واعتمدوا عليها في معائشهم. والتولي سيسهم في ارتفاع البطالة والفقر والديون والمنازعات، ويفرض إشكاليات غير مقدور على احتوائها. وهذا الوضع مؤذن بخلل اقتصادي، يستتبع خللا سكانيا وأمنيا، ويفرض على الدولة التزامات مالية، لو أنفقتها في دعم تلك المشاريع، لسارت الأمور على ما يرام. وأحسب أن مرد ذلك كله ممارسة الفوضى باسم الحرية التجارية، وتحامي الدولة إرسال عينها ووضع يدها. وكم نسمع بين الحين والآخر على المستوى العالمي من يطالب بتدخل الدول في الأسواق لحفظ العمالة والأثرياء والمستهلكين وإقرار التوازن بين أطراف العمليات التجارية. فالحرية التجارية غير المنضبطة مدعاة إلى فساد كبير، ولو استعرضنا مشاكل الإفلاس، وصكوك الإعسار، والتحايل، ومضاربات الأسهم، ومساهمات العقار، والشيكات بدون أرصدة، والتزييف والتزوير، وما تلاقيه المحاكم والغرف التجارية، وما تفيض به السجون، لكان أن عرفنا أن الحرية الفوضوية أسوأ من الضوابط التعسفية، وطفرة الأسهم والمساهمات والتبذير المحموم في الدعاية مؤشر انكشاف وانحسار وبوار، فعلى حساب من تنفق الملايين للدعاية، وعلى من تقع مسؤولية الكشف عن مصداقيتها. وإذا كان القانون لا يحمي المغفلين فإن السلطة المتوازنة مسؤولة عن حماية المخدوعين بالدعاية.

وكل عمل لا تحكمه ضوابط وأنظمة ورقابة صارمة وتخطيط مستقبلي، ولا يراعى فيه حجم الإنتاج ولا طرائق التخزين والتصنيع والتسويق، يكون مآله الفشل، وما من مضاربات تجارية مرتجلة إلا ويكون أصحابها على كف عفريت، وما تحققه تلك الاضطرابات من مكتسبات غير مشروعة لا يعول عليها، ودروس الطفرة أعطتنا شواهد، لو وعيناها، لكنَّا أقرب إلى السلامة. ولما لم يكن الناس مطمئنين على سلامة المضاربات، فقد أصبح العقار هو الملاذ الآمن، ولكن قفزاته غير الطبيعية، جعلته معرَّضاً لنكسات موجعة. وليست مضاربات الأسهم عن ذلك ببعيدة. وكلُّ الخبراء والمحللين لا يثقون بهذا التضخم، ولا بتلك الزيادات غير المبررة وغير المشروعة. ودخول المضاربين غير المؤتمنين وغير المجربين، ستكون له عواقب سيئة، ولقد مس الزراعة طائف من الجهل

والمغامرة. ومن الخير للدولة، ولرجال الأعمال، ولصغار المضاربين والمساهمين والمندفعين وراء المشاريع أياً كان نوعها أن يفكروا، وأن يقدروا، وأن يقيسوا أمورهم قبل أن يجدوا ما وفروه من قوت يومهم هباءً منثوراً، ويجدوا المضاربين بأموالهم قد تنازعهم الفقر المدقع والديون المذلة، وتلقتهم مكاتب الشرطة والمحاكم والسجون. والمآلات التي قد لا يلتفت إليها المسؤول أن شطراً من هذه الانكسارات تتحمله خزينة الدولة، ويغالبه موظفوها، وينعكس أثره السيئ على أخلاقيات الأمة. لقد تحدث الناس عن معوقات الاستثمار التي نيفت على المائة، وسرهم ما تعهد به المسؤولون من وعد جازم لإزالتها، وتلك المعوقات (البيروقراطية) لم تحد من الفوضى، ولم تقمع المغامرات، وهذا مؤشر على حضور غير فاعل وغير سديد.

وحين نخوف ونحذر ونتحي باللائمة على ضعف المتابعة وجماح المغامرين، فإننا لا نغمط ومضات مضيئة في سياق ذلك كله، ولا ننسى كفاءات متميزة، وظفت جهدها ومالها وخبراتها في سبيل الصناعة والزراعة، فكان حضورها مشرفاً ومفيداً، ولكن العتب كله والمؤاخذة جلها على نقص القادرين على التمام.

الماء والفسائل وفوضى المضاربات والفرضيات .. ! (٢)[1]

وحين نتجه بالحديث صوب التوسع المشهود في غرس (الفسائل) وتخويف المسؤول عن عقابيل الاندفاع غير المحسوب، وتلويحه بالحد من الإسراف في الغرس الذي يعد من ركائز الأمن الغذائي، بحجة المحافظة على المياه الجوفية، نجد أن التخويف من الجفاف والتصحر حين يبلغ ذروته، يضع الأمة تحت طائلة الخوف المبالغ فيه، وقد يعرضها لتراجع غير منظم، ربما يستتبع نكسات ما كان لها أن تكون في ظل ظروف مواتية وكنت أود من جهات الاختصاص أن يوجهوا شطراً من جهدهم إلى دراسة أساليب الري، والبدء من حيث انتهى الآخرون، وذلك بتقصي التجارب المحلية والعالمية، والتوفر على كل الدراسات، وخاصة ما أنجزه (البنك الدولي) و(معهد الموارد العالمية)، والعمل على إشاعة أحسنها في الوسط الزراعي، للتمكين من ثقافة زراعية، يفقدها كل المزارعين. ولما لم نكن من دعاة التلقي والقبول الفوري فإننا نود النظر في مدى علمية كل طرح، ومعقوليته، ومناسبته لأوضاع البلاد التي لها شيء من الخصوصية، وتثمين تجارب المشاريع الزراعية المحلية، وبالذات تجارب المتحملين لتبعات الفشل، والمصرين على التنقيب عن كل مفيد، ودعم الآخذين بها، وتمكين المزارعين من استعمالها، لتكون بديلاً لطريقتي الغمر الموحل أو الرش المبخر، كما يجب أن يفرق المسؤول بين المياه السطحية والعميقة في رصد النضوب أو الانخفاض، فالمجربون يؤكدون غزارة المياه الجوفية في بعض المناطق وسرعتها في استعادة وضعها وثباتها وتجددها في بعض المواقع والجهات المسؤولة لن تكون قادرة على بعث الثقة والاطمئنان في نفوس المواطنين الذين يجتاحهم هاجس الخوف من شبح النضوب الذي يشيعه الأباعد ويلوح به الأقارب إلا إذا توفرت على مراكز معلومات وفرق تحليل وتصنيف لما يرد من آفاق المعمورة ومن الداخل. ومن خاف من وقوع شيء لم يقع، تعجل الشيء قبل أوانه.

والمجربون يعرفون القدر المعقول من الاحتياط، فلا يجوز أن يصل حد الحرمان. ذلك أن القيم السلوكية حين لا تتوفر على الوسطية والتوازن تقع في المحذور، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ وقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾.

فالوسطية هي القوام المأمور به، والمطلوب في كل شيء، حتى في العبادة، ولهذا نهي عن الغلو، وذم المنبت. ولقد جاء في الأثر ضرورة الاقتصاد في الوضوء، ولو كان أحدنا على نهر جار، ولا أحسب التوفر على الاكتفاء الذاتي في الأساسيات الغذائية مضر بالثروة المائية، فنحن مطالبون على الأقل بالتوفر على الاكتفاء الذاتي في الأساسيات، كالغذاء ومتعلقاته كالأعلاف، وبخاصة الشعير وسائر المطالب الضرورية للحياة الكريمة. ومن أهم الأساسيات: الحبوب والتمور، ولا سيما أن القمح مسيس، وله تأثيره على القرارات المصيرية في الدولة التي تعتمد على الاستيراد أو المساعدات. وسبيل الاكتفاء القاصد أن تكون عندنا مدن صناعية لكافة الصناعات الخفيفة، وبالذات الوسائل الزراعية، ومشاريع زراعية تنهض بها الشركات والجمعيات ورجال الأعمال، كي توفر الأمن الغذائي، وتستوعب الأيدي العاملة من المواطنين الذين إن لم تتح لهم مجالات العمل، اقتحموا المدن بحثاً عن عمل غير متوفر، وعندئذ تمنى الدولة بظواهر البطالة والفقر، وهما مصدر كل شر. والمتابع للوقوعات، يدرك ارتفاع نسبة الجرائم بشكل غير طبيعي

---

(١) تاريخ المقال: ٢٦/ ٤/ ٢٠٠٥

وغير متوقع، مع ما تتمتع به البلاد من قوة في الحق، وارتفاع في الدخول. وإشكالية البلاد التي لا يغمض فيها إلا القاعدون إنها دولة الشباب الذين تفيض بهم المدارس والجامعات وأسواق العمل، وتضايقهم العمالة السائبة الرخيصة، ولا يمكن استيعاب هذه النسب العالية إلا في قطاع الزراعة والصناعة، فإن لم يكن القطاعان في مستوى نسبة الشباب والعمالة، ارتدت الطاقات المهدرة إلى أمن البلاد واستقراره. وتشجيع الصناعة والزراعة وحمايتهما ودعمهما، ليست فقط للتوفر على الغذاء والكساء والآلة وحسب، وإنما هو أيضاً لاستيعاب القادرين على العمل من الشباب الذين يجدون أنفسهم في الحقل والمصنع، ومن الحصافة الإبقاء على هذه الشرائح في مواقعها المناسبة لها. وحين لا يكون حقل ولا مصنع تستفحل الهجرة إلى المدن، فيقضى على الريف، وتختنق المدن، وتضطر الدولة إلى معالجة البطالة ببطالة مقنعة، وليس هناك أخطر من اضطراب التركيبة السكانية. وإذا استفحلت البطالة بشقيها: المكشوفة والمقنعة، تحولت مؤسسات الدولة إلى مكاتب للضمان الاجتماعي. ومواجهة البطالة بأسلوب اتكالي، يضيع الطاقات، ويحرم البلاد منها. ودعم الزراعة بالقروض والمساعدات والشراء التشجيعي والتسهيلات، يحول دون الهجرة، ويحمي المجتمع الزراعي من الانقراض، ويخفف الأعباء على المدن المختنقة.

ولأن المملكة مترامية الأطراف، طويلة الحدود مختلفة الأجواء والتكوينات الجغرافية، فإنه من الضروري استغلال الحدود الجغرافية بالمشاريع الزراعية العملاقة وبخاصة (البسيطاء) في منطقة الجوف، وربط الشركات الزراعية بأجهزة حكومية شورية إشرافية داعمة: مادياً وفنياً، ويكون من بعض مهماتها تحديد الأنواع والمقادير المنتجة، بحيث لا يتجاوز الإنتاج طلب السوق، ومراوحة الاستيراد بين أنواع الفواكه والخضراوات، وعند الاستيراد يجب تحديد الأنواع المنتجة محلياً للحيلولة دون المنافسة غير المتكافئة، فيمنع استيراد المسموح بزراعته، وتمنع زراعة المسموح باستيراده.

وفي ظل هذه الظروف المضطربة عالمياً ونزوع العالم إلى التكتلات الاقتصادية والاستعداد الهيكلي والإجرائي (للعولمة) وشروط الدخول في المنظمات العالمية واختراقات الشركات العالمية، وتسييس كل شيء، لا بد من دعم المزارعين من خلال التسهيلات، وتوظيف الخبرات، وضمان استقرار الأسعار لكافة احتياجات المزارع من بذور وأسمدة وآلات وطاقة. وقبل هذا وبعده لا بد من إنقاذ المزارعين من السماسرة الجشعين، ومن فوضى الإنتاج، وعشوائية التسويق ومزاحمة الاستيراد. وسبيل ذلك إنشاء شركات استقبال وحفظ وتعبئة وتسويق، والرصد الدقيق للطاقة الاستيعابية، وتوجيه المزارعين إلى ذلك، فلا يترك التحري للمزارع. ولو ضربنا مثلاً ب(الطماطم) و(البطاطس) و(البصل) وهي السلع الرئيسة لتبدت لنا فوضوية الإنتاج والأسعار، فتارة تصاب تلك الأنواع بالكساد، فتترك لتذوي في منابتها، وتارة تشح حتى يتطلع المواطن إلى المعلبات أو الاستيراد، والمزارع والمواطن متضرران في الحالين. وإذا لزم تنظيم الإنتاج لزم كذلك تنظيم الاستيراد، فلا يفاجأ المزارع بمنافسة غير متكافئة، والواجب حفظ كافة الحقوق للمواطن بوصفه مستهلكاً وللمزارع بوصفه منتجاً، ولثروات الوطن بوصفها مستنزفة.

والتباكي على نضوب المياه الجوفية يقمع السواعد القوية، ويطفئ نصاعة الجباه السمراء المتفصدة عرقاً في وهج الظهيرة، وهي تنسج حلة الصحراء بجنات معروشات وغير معروشات والنخل والرمان مختلفاً ألوانه وأكله، وتدعها تقلب أيديها على ما أنفقت فيها، وتنظر إليها، وهي خاوية على عروشها، وعندئذ نكون كمن يداوي بالتي كانت هي الداء. إن ما يفعله البعض من التخويف إجهاض جنائي لأجنة العطاء، ودحو فضولي فهواجس الخوف من أشباح المستقبل، وإنما ذلكم كله أو بعضه من تخويف أعداء الأمة،

كما الشيطان يخوف أولياءه. وزيادة الإشفاق والحرص على ثروات الأمة قد يدخل مرحلة التوجس والخوف غير المشروعين، وهناك ينقلب الأمر إلى ضده. ولسنا نشك أن القول في الغزارة كما القول في الشح وخوف النضوب. إنها رهانات يلز فيها العقلانيون والعاطفيون، وما من إثارة تحسم الخلاف، وتقر في جوف الأرض ما فيها. والمتخوفون يحيلون إلى محدودية المصادر، وانعدام مصبات الأنهار ومنابعها، وشح الأمطار، والإسراف في الاستنزاف. وإذا كان الفرقاء مجربون ودارسون يختصمون حول مسلماتهم، فإن من المصلحة أن يلتقوا وجهاً لوجه، ليطرح كل طرف حيثياته، والمواطن يسمع إلى براهين كل فريق، ويقرر مصيره على علم وبصيرة. واللقاء الذي أجري مع رجل الأعمال الشيخ (سليمان الراجحي) في (جامعة الملك سعود) مساء يوم الثلاثاء ١٣-١-١٤٢٦هـ أسلوب جميل وحضاري، ولا شك أنه وضع أقل النقاط على بعض الحروف، وزيارة معالي وزير المياه والكهرباء لمشروع الجوف ربما أنها مكنته من الوقوف المباشر على بعض الظواهر السارة. فما أحوجنا إلى المكاشفة والشفافية وكسر الحواجز وخلطة الآراء وتظافرها، لمعجمة كل الحروف. ومن الخير للبلاد والعباد أن تنهض وزارات: الزراعة والتجارة والمياه والصناعة والعمل لرسم (استراتيجية) موحدة شاملة تضع في اعتبارها التوعية والترشيد وإيجاد فرص العمل وحماية الأموال التائهة بين الأسهم والمساهمات، وأن تتخلى عن تجاذب الرداء الذي يحمل القضية، ثم لا تتمكن من النهوض بها إلى مكانها. إن الراصد للحراك يروعه اختلاف وجهات النظر، وتفاوت مستوى الحماس، وعدم إيمان المواطن بخطاب المؤسسات، وتصرفه بمعزل عن كل ضابط أو نظام.

ولأن قضاءنا وقدرنا الأزليين التصحر والجفاف والحرارة فإن رهاننا على (النخلة)، وعلينا أن نتميز في تجويد المهنة، وحماية الإنتاج، والتأكيد على الفنادق والمطاعم ومقاصف المدارس تقديم التمر غذاء وحلاوة، كما تفعل الخطوط السعودية. لقد تجسدت أهمية الفسائل في حرص الرسول - ﷺ - على غرسها في أحلك الظروف، ولا أحسب ظرفاً عصيباً يبلغ فجيعة قيام الساعة، فعندها تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، في هذه اللحظات المذهلة يقول الرسول - ﷺ- :

«**إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن يغرسها فليغرسها**».

والمعروف أن هذه اللحظة فوق التفكير وفوق التقدير، ومع ذلك نبه الرسول الرؤوف الرحيم بأمته إلى أهمية الأمن الغذائي. وإذا كانت (إسرائيل) في سباق مع الزراعة والصناعة، وما أحد خوفها من نضوب الماء، فإننا في المقابل نجد من يوجف بلسانه وقلمه، ويلوح بمسؤوليته، ليضع العصي في عجلات الزحف السليم. والغرب الذي يخوف من نضوب الماء، ويدس أنفه في خصوصيات الشعوب، يغري الدول النفطية على مزيد من الإنتاج، بل يمارس الضغط لرفع الإنتاج، وما سمعناه يوماً يحذر من نضوب البترول، ولأنه لم يقل في الشأن النفطي شيئاً فإن متلقي الأقاويل يلزمون الصمت، لأن القول ما قالت حذام.

وفي سياق أهمية (النخلة) فقد ورد ذكرها في القرآن الكريم عشرين مرة جلها في التذكير بالقدرة والنعمة والجمال والأمن الغذائي، وما من جنة أو حديقة إلا وهي محفوفة بالنخل، وكيف يسوغ لبعضنا أن يلقي في روعنا الخوف من تكاليف النخلة، والشح عليها في منابتها. إنها شجرة طيبة مباركة أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها. ولو أن (البلديات) اعتمدت النخلة والزيتونة في الحدائق والشوارع، لكان أن جمعت بين الجمال والمنفعة، وتخلصت من شجر يؤذي بخريفه ولقاحه وشوكه. ولكي

نجسد الخسارة الفادحة فإن علينا أن نسأل: كم شجرة زينة في مدن المملكة؟ وكم ينفق عليها من مال وماء؟ وما الذي يضير لو أن هذه الأشجار التي تعد بمئات الآلاف بل بالملايين كانت من النخل والزيتون؟ وما الذي يضير لو أن هذه الحدائق والأشجار سقيت من آبار سطحية ومن مياه معالجة؟ وما الذي يضير لو أن البيوت مكنت من استعمال نوعين من المياه: مياه للطهو والشرب وأخرى للغسيل والسقي والطرد، أليس ذلك من الفرائض الغائبة؟ لماذا يشتغل المسؤولون بالتخويف السلبي؟ أليس من الأجدى أن نوعي الجاهلين، وأن نستبق كل جديد في عالم الزراعة والمياه؟ وحملة التوعية التي تقودها وزارة المياه والكهرباء بادرة طيبة، ولكنها تأتي على استحياء.

وعوداً إلى أهمية (النخلة) في بلد واسع المساحة شحيح المياه نقول:

إذا كانت المجاعة تهدد العالم، وتطل بشبحها المخيف على ملايين البشر فإن من بيده سبع تمرات لا يُخشى عليه الهلاك. ولقد مرت الأيام وما في بيت رسول الله ﷺ إلا الأسودان: التمر والماء، وما شبع أهل بيته تمراً إلا حين فتحت (خيبر). لقد كانت النخلة أولى ركائز الاستقرار الاقتصادي، لطول عمرها، وقلة مؤونتها، وثبات أصلها، وحلاوة ثمرها، واحتوائه على مركبات رئيسة في الغذاء الصحي، وتحمله كل الأجواء، وطول صلاحيته. وإذا كانت الطفرة قد عدت بأيدينا وأعيننا عنها، فإن الزمن كفيل بإعادتنا إليها، وحين نعود، وقد ضيقنا عليها الخناق، ورضينا بالتصحر، لن نجد إلا التراب نسفه، كما المل.

فهل يعيد المشفقون حساباتهم، وينظرون إلى الغد المخيف؟

لقد آن لنا أن نحسم أمرنا، وأن نحاصر الفوضى والارتجال، فالعصر عصر العلم والمؤسسات والتخصصات، والتوقيت والتقدير وقبول النقد والتوجيه والشفافية والمساءلة واستشراف المستقبل. ومن بطأت به غفلته واتكاليته لم يسرع به تبذيره. لنكن في مستوى مرحلتنا معرفة وثقة وحسن أداء. لقد بدأت فكرة الغرس، وفسيلة السكري تباع بثلاثة آلاف ريال، وبعد التوسع أصبحت الفسيلة بمئتي ريال، وفي ظل هذا التوسع يجب أن يضع المسؤول يده لا للمنع ولكن للترشيد والدعم وتهيئة الأساليب المفيدة للري والمعالجة والإصلاح والتسويق والتخزين والتعبئة، وتعويد الناشئة على استعمال التمر كمادة غذائية.

وإذ لا نشك أن ثروة البلاد المائية تقوم على مصادر غير مأمونة وغير متيقنة وغير منضبطة، فهي إما جوفية لا نعلم حجمها إلا من خلال تحريات العلماء أو من خلال التجربة غير المعتمدة عند ذوي الشأن، أو هي مستمدة من الأمطار الموسمية غير المضمونة. يضاف إلى هذين المصدرين التقليديين مصدران مكلفان: (التحلية) و(المعالجة)، وهذه المصادر تقوم إلى جانبها معوقات، تتمثل بالجفاف والحرارة وضعف التعويض الجوفي. ومن عيوب البلاد وأهلها أنهم الأكثر استهلاكاً، والأكثر تحلية، والأرفع تكلفة، والأسرع في ارتفاع نسبة الطلب.

ومواجهة هذه المعوقات بتسليع الماء أو خصخصته، وتحديد استنزافه يجب ألا يمتد إلى الزراعة، وإذا امتد التسليع للاستهلاك السكاني يجب أن تراعى الدخول وألا ينظر إلى التكلفة. وآخر شكوانا التعويل على وزرائنا ذوي الشأن، فهم أهل الصدق والإخلاص، وأهل الطمأنة.

ليس كل ما يُثقفُ يلتقط .. ! (١)[1]

أخشى ما نخشاه في ظل انفتاحنا على الآخر، وتدافعنا عند عتباته، واتساع هوامش حرية التفكير والتعبير أن نكون ك(آل فرعون) يوم التقطوا (موسى)، فكان لهم عدواً وحزنا، وكم هو مفيد لو كان ما نَثْقَف من الغرب بحجم ذلك الطفل التائه في اليم، ولكنه الزبد الذي يذهب جفاء وقدر أمتنا العصيب أن مشاهدها الفكرية والسياسية والاجتماعية والأدبية تموج بالظواهر والمذاهب والتيارات والسلوكيات، وكأنها نثار أعراس يتهافت عليها الدهماء والرعاع. واستقبال المغاير فكراً وحضارة ودنية حين لا يكون المتلقي واعياً بالفوارق، يكون كحاطب ليل، يهوي بيده على كل سواد، فيعود بخشاش الأرض وهوامها، ويخطئ جزل الحطب.

والراصد الحذر للحراك الثقافي والسياسي يفزعه الإعجاب المطلق والقبول المطلق، والتزكية المطلقة لكل ما هو متداول في المشاهد الغربية مما هو صالح لهم ومستجيب لحاجاتهم وإذا تهافتنا على أشيائهم غير المتسجيبة لحاجاتنا القائمة أخذناها بقوة وكأنها الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وكأن قادة الفكر وأساطين السياسة في الغرب أبناء الله وأحباؤه، اصطفاهم لنفسه، وخصهم بفضائل الأعمال وروائع المنجزات، وأنهى بهم التاريخ، وعهد إليهم إنقاذ الإنسانية من براثن التخلف وقعر الانحطاط. وما الغرب في راهنه إلا متغطرس بقوته، مدل بمنجزه، نابذ لدينه المزور، مكب على شهواته، عالم بظاهر الحياة الدنيا. الأمر الذي مكنه من السيطرة على المادة التي محضها تفكيره وجهده، فيما أهمل الجانب الروحي، وغفل عما يُحييه ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾. والجانب الروحي معادل للجانب المادي، والحياة الأخرى معادلة للحياة الدنيا.

وقولنا هذا لا نزكي فيه واقعنا، ولا ندخل به مع الغرب لزز التفاضل، ولكننا نصف الواقع كما هو، وواقع العالم العربي والإسلامي واقع مؤلم لا يطاق، ولكن إنقاذه لا يكون بالتخلي عن الإسلام والارتماء في أحضان الغرب، إنه شيء آخر لم يهتد إليه الظلاميون ولا المتعلمنون. لقد ألّه الغرب عقله وأحب شهواته، ونفى ما سوى المادة، وقال الذين يريدون الحياة الدنيا: يا ليت لنا مثلما أوتي الغرب. وما الغرب في علمه البحث وجده وانضباطه واحترامه لإنسانه إلا استجابة لإعداد المستطاع من القوة التي أمر بها الإسلام، وندب إليها، وفقد محاسنه التي يدل بها ويتغنى بها الظلاميون ليست لفقد مذهبه في الحياة، بمعنى استحالة تحقيق ما حققه إلا باتباع ملته. والتحذير من التهافت على قيمه ومبادئه لا يعني الاستغناء عما سبق إليه من جلائل الأعمال. ونفيه على الإطلاق كاستقباله على الإطلاق، سواء بسواء. وإشكالية المشاهد العربية أنها موزعة بين هاتين الفئتين: فئة نافية لا تقبل من الغرب لا صرفاً ولا عدلاً، وفئة مستقبلة له لا تقبل به بديلاً، ولكل فئة حجج واهية، كرسها الفهم الخاطئ للإسلام أو التمسك الأعمى بالعادات على حد ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾.

وإذ تفوق حضارة الغرب سائر المعهود من الحضارات في العلوم والصناعات والمكتشفات المثيرة للانتباه والمبهرة للعقول، وإذ تَحْكم العالم بقوة السلاح والمال والإعلام، وإذ تسومه سوء العذاب، وتقيمه على الضيم راضياً أو كارهاً فإن ذلك كله لا

---

(١) تاريخ المقال: ٣/ ٥/ ٢٠٠٥

يعني إسقاط ما سلف أو ما هو قائم من حضارات خذلها أبناؤها، كما لا يعني تجاهل سنتي: (التداول) و(التدافع)، وإذا فاقت حضارة الغرب في فترة من الفترات، فليس معنى هذا أن يتخلى المسلمون عن حضارتهم، وبخاصة عندما تتسع حضارة الإسلام لما سبق إليه الغرب أو سبق به، ومعارف الغرب وعلومه البحتة ومنجزاته العلمية هَمُّ الحضارة الإسلامية ومبتغاها، وليس في الإسلام ما يمنع من تحقيق ما حققه الغرب من علوم وصناعات ومكتشفات، ودعاة العلمانية بالتولي والتهافت سيفقدون دينهم ودنياهم، فالحق ضالة المؤمن. وأي حق حسي أو معنوي أنجزه الغرب فنحن أحق به، وأقدر على تحقيقه، ومن ثم يجب أن نبادره مستصحبين كتابنا وسنة نبينا، لنأتي بمثله أو بأحسن منه، وليس هناك ما يمنع من الاستفادة عبر أي طريقة مشروعة، بل ليس هناك ما يمنع من التتلمذ على الغرب، والرسول - ﷺ - أناط تعليم أبناء المهاجرين والأنصار بالأسرى من المشركين. إن علينا أن نصالح، وأن نعايش، وأن نبعث الثقة فيمن حولنا من الحضارات والمدنيات، لنبلغ ولو آية، ولنستفيد من منجز الآخر. وإذا قبلنا من الغرب ما أنجز من علم بحت، أو وسيلة إجرائية، أو منهج معرفي، ثم اختلفنا في حكم شيء منه، وجب أن نرده إلى الله والرسول، بحيث لا نقع تحت طائلة المسخ، ولا نعرض أنفسنا لنواقض الإيمان. إن في ديننا فسحة، لو عرفناها لاستوعبنا كل جميل في حضارات الغير. إذ كل علم نافع أو عدل شامل أو حرية منضبطة، تنطلق من الإسلام وتعود إليه، والجهل والظلم والعبودية مقترفات لا يقرها الإسلام، ومن أراد العزة فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين.

ومما يثير تخوفنا الاندفاع غير المحسوب، وتلقي ما لا حاجة لنا به من علوم نظرية، أو تبني مذاهب فكرية، لا يستقيم أمرها مع مبادئ الدين الإسلامي، وذلك ما نراه حاضر المشاهد كلها. فما استقبلنا من الغرب مصانعه ولا معامله ولا مختبراته وما حصلنا على شفرات علومه، وما أفاض علينا إلا ما يفسد أفكارنا وأخلاقنا، و(العولمة) التي ينفذ بها عبر كل وسائل الإعلام ووسائط الاتصال لا (تعولم) إلا الأفكار والفنون والآداب والألعاب والأخلاق، وتلك لا تصنع آلة ولا تقر نظرية، أما العلم فحق خاص لا تجوز الإفاضة به على أحد، وكأن الله حرم ذلك على المسلمين فأمسكوا به وأسروه بضاعة، وما نقمنا من دعاة التنوير إلا قبولهم بنفاية الحضارة وسقطها. والمتابع للطرح الإعلامي يروعه ما يرى وما يسمع من تحولات موجعة وانسلاخ معيب. وإذا قوبلت هذه الانهيارات بالموعظة الحسنة والدفع بالتي هي أحسن، لويت أعناق النصوص، وحُمِّل المستدرك ما لا يحتمل، وقُوِّل ما لم يقل، واشيع عنه أنه خائف متخلف، وأنه رجعي مثبط، وما هو كذلك. فالمسألة ليست في تقبل ما عند الغرب من حقائق علمية، وليست في العمل على إقالة عثرة الأمة الاسلامية والأخذ بيدها من قعر تخلفها، المسألة في التبعية المخلة بالأهلية، وفي الانسلاخ من القيم الفكرية والأخلاقية، وفي الوقوع تحت براثن الغرب، وممارسة الثقافة المتذيلة ثقافة الانبطاح وإذلال النفس.

وتلقي سائر الظواهر المتداولة في المشاهد الغربية على إطلاقها مظنة الفساد والضياع، والمتداول يؤكد ما دعى إليه أساطين الاستغراب ورؤوس الفتنة، فالتنوير الغربي يتبناه من لا علم عنده ولا نباهة، والصحوة الشرقية يضطلع بها من لا فقه عنده، والدهماء أشتات بين سراب القيعان فالقائلون عن (حقوق المراة) وعن (الديمقراطية) وعن (الليبرالية) وعن سائر القضايا والظواهر المتداولة دون تحديد قول زائف موغل في الضياع. وكيف يسوغ لمفكر مسلم محكوم بعقيدة، ومقيد بنص، ومخلوق للعبادة، ومستعمر في الأرض أن يسترفد المستجدات في مختلف المعارف النظرية، ثم لا يعرف أنه ينتمي إلى حضارة ذات شرعة ومنهاج. إننا مع (حقوق المرأة) التي كفلها الإسلام. والمعضلة ليست في المعية، بل هي في نوع الحقوق، ومدى تعارضها مع القوامة

والطلاق والتعدد والإشهاد والإرث وسائر الأحوال الشخصية. فالمرأة في النهاية محكومة بما شرع الله لها، وتحفظنا على المختصمين حول المراة في غياب ما شرع الله، واستنكارنا لوضع المرأة في الغرب لا يعني حسم القضية لصالح الرجل، والمدافعون عن (حقوق المرأة) ممن يصفون أنفسهم بالتنويريين لا تقبل دعوتهم على إطلاقها، وإذاً فلا بد من تحديد المطلوب واستشعاركم هو الفرق بين المباح والمتاح، وفقه الأحكام، وفقه الواقع، فما هو مباح شرعاً قد لا يكون متاحاً واقعاً، وعند تنازع المباح والمتاح لا بد من الرجوع إلى المؤسسة الدينية لتمارس حقها في ذلك.

والقول في الشأن النسائي قول في الوقوعات، وليس قولاً في النظريات والمبادئ، وليس أدل على ذلك من استياء أحد المتحدثين عبر منابرنا من اتخاذ صالتين إحداهما للرجال والأخرى للنساء، وتصوره أن مثل ذلك إهانة للمرأة وشك في صلاحها وحماية نفسها. والدين الإسلامي يمنع الاختلاط وقاية، ويمنع الخلوة حماية، وقصة (يوسف) وحديث (الإفك) دروس حية، وما دام أن الفائدة بالفصل والتفريق حاصلة، وأن الطرفين يتبادلان الآراء حول مجمل القضايا دون اختلاط مثير للشبهات فإن المصير إلى تلك الدعوة مدعاة للهم أو للشك، وليس شرطاً أن يكون الإضرار في ذات الاجتماع. فالاختلاط المنضبط يجر إلى اختلاط غير منضبط. والعزل بين الرجال والنساء مطلب إسلامي، حتى لقد أوصى الرسول - ﷺ - بالتفريق بين الأبناء والبنات في المضاجع، فهل هذا التفريق يعد اتهاماً للأبناء والبنات الأشقاء، أم هو درء للمفاسد؟ وكذلك حين قال الرسول - ﷺ - عن (الحمو) إنه النار، فهل كل شقيق يحتمل تعديه على زوجة شقيقه؟ إن الخلوة والاختلاط والتبرج بدايات الفتنة والمفسدة، والذين يلوحون بالمطالبة، لا يحددون المطلوب، ولا يعرضون للمفاسد القائمة، والإطلاقات المجردة في قضايا حساسة تثير الوحشة والتخوف، والعاقل من وعظ بغيره.

إن اتخاذ الاحتياطات لا يعني الاتهام، والأنظمة والضوابط والرقابة والمساءلة ليست مدعوة ولا داعية للاتهام، فمن أمن العقاب أساء الأدب، والمال السائب يعلم السرقة، والله يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ والإنسان معرض للفتنة، وعليه ألا يعول على ثقته بنفسه، ويوسف قال لربه: ﴿وَإِلَّآ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾. فالمفاسد الأخلاقية لم تنشأ إلا من التزكية التي ليست في محلها، ومن الثقة التي لا مكان لها. ولقد سئلت مذنبة عما حملها على التمكين من نفسها، فقالت: قرب الوساد وطول الرقاد.

وبصرف النظر عن (قضايا المرأة) فإن كثيراً من المتعاملين مع المصطلحات والقضايا يتقبلونها بقبول حسن، ولا يأخذون بأحسنها، وإنما يأخذونها بحذافيرها، دون أن يضربوا أدنى حساب لحضارتهم المغايرة، ولو أنهم حين تلقوا ركبان المصطلحات في مختلف حقول المعرفة الإنسانية استشعروا أنهم أهل حضارة عريقة مغايرة، تؤكد على الرد إلى نصوصها المقدسة كل ما اختلفت فيه، فيما لا ترد الحضارة الغربية المتعلمنة إلى نص مقدس. وكم هو الفرق بين حضارة لا تحيل وأخرى تحيل، وكان على الذين يدَّعون اعتزازهم بحضارتهم أن يعرفوا مقتضياتها، إنها حضارة العقل والنص، فمن غيب أحدهما فقد أخل بالمطلوب، ومن غلب العقل على النص وقع فيما وقع فيه أهل الاعتزال، ومن عطل العقل واكتفى بظاهر النص وقع فيما وقع فيه الظاهريون.

إن الحرية التي يتخذها المستغربون مناطاً لخطاباتهم ولآرائهم حريةٌ غير منضبطة، فيما تأتي الحرية الإسلامية محكومة بضوابط، وإذا عوَّل أحد على الحرية فإن واجبه أن يفرق بين الحرية كما يراها الإسلام والحرية كما تراها الحضارة الغربية، وإذا طالب أحد

بحقوق المرأة فعليه أن يسبق بتحفظاته على ما هو قائم من تبرج واختلاط وخلوة لا يقرها الإسلام. وليس في ذلك القيد الإسلامي معوق عن الأخذ بما ينفع الناس من أمور دينهم ودنياهم. إذا لم نر الإسلام يمنع من علم ولا يحول دون عمل، لا في حق المرأة ولا في حق الرجل، وإذا تحفظ على شيء من ذلك فإنما هو من باب سد الذرائع ودرء المفاسد، وكيف يكون ذلك وهو الداعي إلى إعداد القوة والسعي في مناكب الأرض؟ ولمزيد من الحرية قال الرسول - ﷺ -:

«**أنتم أدرى بأمور دنياكم**» وقال: «**استفت قلبك**». والدراية والاستفتاء رهينا المقتضيات والمقاصد الإسلامية، وليسا مطلقين، وعلى المسلم أن يستشعر القول الثقيل والمكاره التي حفت بها الجنة، فالإسلام ليس ادعاء يطلقه الإنسان، إنه اعتقاد وقول وعمل.

ليس كل ما يُثقّفُ يلتقط .. ! (٢)[1]

والتعالق مع المصطلحات الفكرية والأدبية والسياسية الخالصة، والمصطلحات التي يتنازعها أكثر من حقل معرفي يحتاج إلى معرفة تامة بظروف تشكلها، وجذورها الفلسفية والفكرية، والتحولات التي طرأت عليها عبر تحركها التاريخي والنوعي، واختلاف المفكرين في حضارة المنشأ حول الشمول والمحدودية والمفهوم، والإلمام التام بمقاصدها، ومدى توافقها أو تعارضها مع حضارة الجالب. فما كل مصطلح قابل للجلب، وما كل مصطلح مستحق للنفي. فكل حضارة ترث أو تقترض ما يناسبها من الحضارات السالفة أو المجايلة، وكل نص يعيش في ظلال نصوص حاضرة أو غابرة، وكل مفكر لا ينطلق من فراغ، إنه محصلة مقروءة، وابن بيئته الفكرية والسلوكية، وربيب حاضرة، وقد قيل: - (قل لي ماذا تقرأ أقل لك من أنت). وما شقيت الأمة إلا برجلين: رجل يقول: كان أبي. ورجل يقول: كان الغربي. وكأننا بأمس الحاجة إلى القول: خلّ كان (فالليث ليس يسيغ إلا ما افترس).

ومن تصور أنه بفكره أو بحضارته بريء، فقد وهم، وما بعث الرسول إلا ليتمم مكارم الأخلاق. والعقلاء الواعون يعرفون حواضن المصطلحات، فما من حضارة إلا هي آخذة بنواصي مصطلحاتها، وهو أخذ يدع بقية لمصطلحات أخرى، وقد يكون المصطلح ذا شقين: (أيديولوجي) لا يصلح إلا للحضارة المنتجة، و(إجرائي) صالح لكل حضارة. ولو ضربنا الأمثال ب(الديمقراطية) و(الليبرالية) لوجدناهما ينطويان على المبدئية والإجرائية، ومن ثم لا يجوز التبني المطلق، ولا النفي المطلق. ف(الديمقراطية) (أيديولوجيا) تحيل إلى الشعب لِسَنِّ أي شرعة أو منهاج، وهذا الجانب (الأيديولوجي) الذي لا يجوز القبول به، ذلك أن (الإسلام) يحيل إلى النص والعقل المؤول، و(الديمقراطية) بعد تشريع الشعب، لها آلياتها ووسائلها وأسلوبها الإجرائي ومؤسساتها (البرلمانية) و(النيابية) وطرائق الوصول إلى السلطات التشريعية والتنفيذية. وكل هذه لا أجد فيما قرأت محرماً على أحد الأخذ بشيء منها. أما (الليبرالية) فموقف وممارسة، وتلك قد لا تكون خاضعة للتفصيل، لأنها أشبه بالكل الذي لا يتجزأ، ولنا عودة مفصلة عن تذبذبها بين الفكر والإجراء. وما نراه من تعالق واستفادة لا يكون شيء منه ما يفعله دعاة التنوير الشاربون لطفح الغرب شرب الهيم.

والمتعالقون مع المصطلحات أوزاع: فالبعض يظن أنه بالإمكان التوفيق أو التلفيق بين سائر المصطلحات، دون استثناء، والبعض الآخر يرى أن ذلك ممكن مع المصطلحات المتناظرة، وهو ظن قد يردي صاحبه من حيث يدري أو لا يدري، وطائفة أخرى لم تكن على شيء من المعرفة ولا على شيء من التأصيل ممن بهرتهم المكتشفات والمنجزات، يستبقون القبول بالمصطلحات دون انضباط. وإذا قيل لهم: إن المصطلح لا يخلو من وضر الحضارة المنتجة. قالوا: إنه إجراء يأخذ حكم الوسيلة. أو قالوا: إنه بالإمكان إفراغ المحتوى وملؤه بما يناسب الحضارة المستعيرة، ولسان حالهم يقول: - (إنما نحن مصلحون) والحق أنهم مفسدون ولكن لا يشعرون. وحتى مع إمكان ذلك، فإنه ليس من الرشد قمع الذات عن المبادرات، متى كان بالإمكان سك المصطلحات العربية المستجيبة للنوازل. فما الذي يمنع أمة الإسلام بكل ما هي عليه من ثروة علمية وفقهية وفكرية وعراقة تاريخية أن تسك مصطلحاتها، وأن تنجز مفاهيمها ومقتضياتها. وإذا وجدت الفائدة في مصطلح غربي، ثم لم تكن هناك محاذير، فلا بأس من الترجمة ما أمكن

---

(١) تاريخ المقال: ١٠/ ٥/ ٢٠٠٥

ذلك أو التعريب أو النقل في أضيق نطاق، وإعطاء المصطلح مقتضيات لا تناقض الحضارة المسترفدة.

وإذ يدعي بعض المستغربين أن هناك مبادئ وإجراءات ووسائل لا يُحسن فهمها ولا التفريق فيما بينها إلا أولو الألباب، وأن المعترضين يجهلون الفروق بين المبادئ والإجراءات، وهي واضحة، كالمحجة البيضاء، فإن على المتهافتين على لعاعات الغرب والمتأبين عليه علواً واستكباراً أن يتخلصوا من المستغربين، وأن يستنوا لأنفسهم طريقاً قاصداً ينبذ إلى الآخر على سواء، ثم لا تكون مصائر الأمة على قادة الفكر غمة، واستمراء التنابز لا يدفع غوائل الفرقة، والتبصر بالأمور يحول دون التهالك الماسخ أو التمنع الحارم. ولن يكون التوفيق الحكيم إلا بالتأصيل والتأسيس لسائر المفاهيم، وتحرير المسائل، بحيث تكون ماثلة للعيان، لا يختلف في فهمها اثنان. وربط مصالح الأمة المصيرية بالمؤسسات العلمية المتخصصة، فما عادت المبادرات الشخصية مجدية، وعلى كل الأطراف أن يعززوا آرائهم بالبراهين القطعية الدلالة والثبوت. وليس من حق أحد الاكتفاء بالتسفيه والتجهيل لمن خالفهم. وما من متابع لجدل (الغربنة) و(العوربة) إلا ويدرك الفرق بين المبادئ والوسائل، والإحالة إلى عجز التفريق حجة أوهى من بيت العنكبوت، والمتمسكون بحق الكينونة السوية يؤكدون على أن المبادئ لا يجوز المساس بها، ولا الخروج عليها، أما الوسائل فإن من حق المتمسك بمبادئه أن يتخذ منها ما يراه مناسباً، لتمثل هذه المبادئ وتطبيقها. ولكن مثل هذا القول يحتاج إلى تفصيل وتحفظ وتحديد، ولا يجوز إطلاقه على عواهنه. فالوسيلة تتغير بتغير الأزمنة والأمكنة. فلو ضربنا مثلاً بمصطلح (الليبرالية) الناسلة من رحم الاقتصاد، والممتدة إلى الدين والسياسة والاجتماع كما (العولمة) لوجدناه يقدس الفردية والحرية المطلقة ويتخذ العنف سبيلاً لتحقيق المراد كما (الوجودية) القائمة بكليتها على الحرية الفردية التي لا تحيل إلى ضابط نصي، فيما تقوم الحرية في الإسلام على ضوابط لا يجهلها إلا الأوباش، ومن ثم فليس هناك إمكانية للقبول بهذا المصطلح على إطلاقه، وإن عدّه البعض وسيلة لا مبدأ. والحق أن (الليبرالية) (أيديولوجية) في الأساس، وقد أحيطت بآليات تنفيذية، والرجوع إلى المعاجم والموسوعات المترجمة تؤكد ذلك. ويقال مثل ذلك عن (الديمقراطية) إذ لها جانبان: - مبدئي وهو الرد إلى الرأي العام، وإجرائي وهو تطبيق العدل والحرية والمساواة عبر مؤسسات وكيانات، وعلى ضوء ذلك يمكن الاستفادة من آليات الغرب ووسائله وإجراءاته، فهي من ظاهر الحياة الدنيا، ومن أمور دنيانا التي نحن أدرى بها.

ولسنا نشك أن الحضارة الإسلامية مرت بحالات خلط عجيب بين المبادئ والوسائل، وأن الخلافات تراكمت حول ذلك، الأمر الذي أدى إلى تخلف ذويها وابتعادهم عن كتابهم المحكم، وكلما ابتعدت الأمة أو تعرضت لتخلف وضعف وضلال تداركتها عناية الله، ولقد طمأن الرسول ﷺ أمته بأنه على رأس كل مائة سنة يبعث الله من العلماء والمصلحين من يتعقب تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، ويتصدى للجدل العقيم، وينفي ركام الخلاف البيزنطي. ومع الوعد بتعاقب المصلحين فإن هناك تطميناً آخر، يتمثل بالفئة المنصورة التي نرجو أن يكون كل من يشهد أن لا إله إلا الله، ويحيل إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ منها. وإذا سلمنا بوجود المماحكين المغالين في الدين، الذين يخلطون بين المبادئ والوسائل، ويحرمون ما أحل الله، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل، فإننا لن نسلم لمن يتخلون عن المبادئ بإخضاعها لوسائل لا تناسبها. فحين يقول قوم ب(الاشتراكية) أو ب(الليبرالية) أو ب(العلمانية) السياسية بوصفها وسائل وتطبيقات فإن ذلك يعني التخلي عن مبادئ إسلامية قائمة، تغني عن مبادئ الغرب والشرق. كما أن هناك وسائل وإجراءات مغايرة ومغنية أيضاً، وليس من الحكمة أن تنسلخ الأمة من فكرها

السياسي، وتحل فكراً آخر مع إمكان الاستفادة المحدودة، مع الاحتفاظ بجذور الفكر السياسي الإسلامي.

ولقد غُرِّر بعدد كبير من العلماء والمفكرين والأدباء إبان الحروب الباردة، فقيل عن اشتراكية (أبي ذر)، وقال (شوقي) يخاطب الرسول ﷺ: - (الاشتراكيون أنت زعيمهم)، وكلما اجتاحت المشاهد العربية لعبة سياسية، نهض السرعان من المتعالمين لاستقبالها، وتبنيها، وشرعنتها، حتى كادت تتحول مشاهدنا إلى أمكنة يكون العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان.

وإذا كان المفكرون قد آذوا وأوذوا في سبيل مبادئهم، فإن نقاد الأدب ومنظريه قد عانوا مثل ذلك لقد فرق شملهم، وشتت جمعهم ما جدّ من مصطلحات غربية، لم يفهمها الداعون إليها، ولم يحسنوا التعامل معها، والمشاهد الأدبية ملئت بالمترجم والمنقول والمعرب ك(البنيوية) و(التحويلية) و(التفكيكية) و(النقد الثقافي) وما درى المستغربون ما هي عليه من أفكار ومقاصد، لا تناسب القيم الحضارية للأمة العربية، وكلما خبت نارها في بلد المنشأ نفخنا رمادها التماساً لجذوة أو قبس، ثم لا يكون نصيبنا إلا الرماد الذي يعشي العيون، ويزكم الأنوف.

وأمام طوفان (الاشتراكية) يوم إقامتها، جاء من يحاول التوسط، فكتب البعض عن (التكافل الاجتماعي) وعن (العدالة في الإسلام). وعند طغيان أي مذهب ترانا نتزلف إليه، وندعي أن في ديننا ما يشابهه، وما كان أحرانا بالثبات والثقة بعقيدتنا، والاشتغال بهمومنا، والأخذ من الغير بعزة واقتدار، دون تملق أو اعتذار. وفي مجال الأدب استعيدت نظرية (النظم) الجرجانية، لتكون في مواجهة (البنيوية) والفرق بين الظاهرتين واضح. فنظرية (النظم) أسلوبية بيانية خالصة، فيما تأتي ل(البنوية) أمشاجاً بين الفلسفة واللغة ممتدة إلى النقد بعد أرذل العمر، والتهافت غير الواعي مظنة الضعف والتهالك، وتلك الممارسات رققت تلك المبادئ وطوعت الأذهان لها. وحين سقطت الشيوعية وانقض سامر (البنيوية) سقط معها ركام هائل من الكتب والدراسات والتوفيقات والتلفيقات التي نشأت في ظلها، وماتت معها، كما الأجنة في أحشاء الحيوانات الميتة. ولك أن تقول مثل ذلك عن (الوجودية(، لقد استخفت بعض أساطين الفكر الحديث أمثال (عبد الرحمن بدوي)، حيث نهض بها، وادعى أنه ابن بجدتها، وترجم لنفسه في موسوعة الفلاسفة على أنه زعيم الوجودية العربية. وحين خبت نارها، بقيت الكتب والدراسات تمثل مرحلة تاريخية، تدين الواقع العربي الذي يرقب القادم من الغرب، لينهض إليه، ويمنحه الشرعية. ولقد أحس (بدوي) باندفاعه، فراح يكتب عن القرآن والحديث والرسول، ليكفر عن ذنوبه، وإن قيل إنه بما يكتب عن الإسلام يتعرض لجائزة الملك فيصل.

والمستعرض للمشاهد السياسية والأدبية والفكرية تمر به مذاهب وتيارات استنفرت كل الجهود واستنزفت كل الطاقات، وفرقت بين الأخ وأخيه، ثم انقض سامرها، وخوت على عروشها، وأصبحت كأعجاز نخل خاوية، تحكي التفاهة والتسرع والتبعية. وكل الذين أفنوا زهرة شبابهم في ترويض الرأي العام لكل وافد، انقلبوا على أعقابهم، وأدى ذلك إلى اضطراب فكرهم، والتياث آرائهم، وفقد مصداقيتهم. لقد استقبلنا تلك المصطلحات بذات الجهد وبذات الإمكانيات، واستفدنا منها، وما سلمنا لها القياد، وحين ثوت في مشاهد الأدب، لم يضرنا ذلك شيئاً، لأننا لم نضع بيضنا في سلالها، كما فعل غيرنا.

وإذا احتملنا على مضض فلتات الألسنة من أبناء جلدتنا، وأحسنا الظن بهم، وترقبنا أوبتهم إلى طريق الرشاد فإن من التفريط أن نحتمل فلتات من وافدين لا يدرون ما مقتضيات الكتاب وما نواقض الإيمان. وما أضر بنا إلا وافد حركي يؤز الشباب حتى

يخرجهم عن مسارهم السليم، أو مقيم متفلت على الالتزام، يلتف حوله من لا يعرف حدود ما أنزل الله، فهذا وذاك، يتساوى ضررهم، لأن الحياة الفكرية قل أن تتخلص من الفعل ورد الفعل. فالمتشدد والمتفلت صنوان، وقولهما مدعاة إلى تمزيق الوحدة الفكرية للأمة. لقد تحولت مشاهدنا إلى ساحة للسمسرة، أفقدها الثبات والتأصيل، وفوت عليها فرصة التأمل وتلاقح الأفكار. فأين (الرومانسية) و(السريالية) و(الحداثة) و(البنيوية) وها نحن في أوج القول عن (العولمة) و(الليبرالية) و(حقوق المرأة) وفي المقابل القول في (الجهاد) و(البراء) و(الولاء) و(بلاد الكفر) و(الذمي) ولقد قيل عن دين (البحتري) الذي تحول من (القدرية) إلى (الاعتزال) ومنهما إلى (السلفية): - (هذا دين سوء يدول مع الدول) (أخبار البحتري) (للصولي) (ص١٢٣). ومصائبنا المصمية أننا لا نتعظ، ولا نعتبر، ولا نستفيد من الإخفاقات، ولا نلتفت إلى الوراء منذ أن عاد (الطهطاوي) خالعاً العمامة ومعتمراً القبعة، ومنذ أن تلقف الراية منه لفيف من العائدين من الغرب أو القارئين للمترجمات، والأمة مع هذه الأمواج البشرية الممسوخة في بوار، وليس فينا رجل رشيد، يستعرض اللعب والخدع، ويسائل الذات عن مقترفاتها، ويقوِّم المنجز، وكل حياتنا تهارش حول ملمات ليست في العير ولا في النفير. ومثلما يقال عن المستغربين يقال عن سائر الحركات الفكرية والدينية، فكل طائفة لا تحسن إلا تزكية نفسها، والله يقول: - ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾.

إن المفجوعين بتخلف الأمة العربية لم يدعوا فرصة للمراجعة والتأمل بل اهتاجوا كما المرتاع الأعزل، وما أرداهم إلا ظنهم السيئ بالإسلام، فلقد استحوذ عليهم المستشرقون بما يشيعونه من اتهامات جائرة ضد الإسلام، وما (العلمانية) و(التنوير) إلا بعض ما أسر به المبشرون والمستشرقون لمن تبعهم من المرتابين والجهلة والمتسرعين ومرضى القلوب. ومعالجة أوضاع الأمة لا تصلح بالإطلاقات والتعميمات، لابد من قانونية اللغة، وتحديد المراد، فالزمن لا يحتمل الإطلاقات، إنه زمن يملؤه دخن الفتن. وما علينا من بأس حين نوجه سؤالاً لأولئك المتحمسين ممن يعدون أنفسهم بالتنويريين وممن ينحون باللائمة على من سواهم لنقول لهم: - ما المبادرة الفكرية أو العلمية أو الأدبية أو السياسية التي قلتم بها ثم لم تكن بضاعة غربية ترد إليه؟. ثم ما الخطاب الفكري أو الأدبي أو السياسي الذي استقر في المشهد، وآتى أكله ووجد فيه العامة خلاصهم؟.

ويسألونك عن (الليبرالية) .. ! (١) [1]

-أما قبل: -

فإن التناوش مع المصطلحات السابحة في سماء المشاهد العربية كما الجراد المنتشر، يستدعي التأكيد على حرية التفكير والتعبير، والأخذ بما جد من أمور الحياة الدنيا، وتفضيل حوار الحضارات على الصدام، وقبول السلطة، ورفض الاستبداد، والإذعان لحاكمية الدين، والتحفظ على تسلط المتدين، واستباق المنجز الإنساني الذي تقوى الأمة به وتستغني، والجنوح للسلام دون الاستسلام، والفصل بين العنف والدفاع المشروع، والإيمان بسنة التدافع والتداول، والنظر إلى الغرب بوصفه موضوع درس لا منجم استرفاد، وتفادي الخلط بين المبادئ والوسائل، والأفكار والعقائد.

وعلى ضوء ما سبق فإن رؤيتي ليست حدية حادة، ولا ثنائية صارمة، بحيث لا تقبل الوسطية ولا المنطقة الرمادية، وبهذا الانفتاح أرفض تمييع الإسلام، وتلميع الطغام، والانفلات والركون والمداهنة، وإعطاء الدنية في الدين، وأجتهد ما وسعني الاجتهاد لمعرفة حدود ما أنزل الله.

-وأما بعد:-

فكم يثار بين الحين والآخر جدل صاخب حول مقتضيات المصطلحات المنقولة أو المترجمة أو المعربة. وهو جدل يمس التفكير، ويؤثر على المواقف والمبادئ، وليس هو من باب الاختلاف المعتبر. وكل الذين يخوضون في مصائر الأمة، ثم لا يفرقون بين الثوابت والمتغيرات، يثيرون اشمئزاز الرأي العام، ويشدون أعصابه، وقد يدفعون به إلى الاحتقان المخيف، ومن لم يتلطف في خطابه ويلن، ينفض الناس من حوله، حتى ولو كان رسولاً من أولي العزم ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾. ومن لم يحسب للرأي العام حسابه، فإنه يعرض نفسه للإيذاء، (ومن هاب الرجال تهيبوه).

والمشاهد الفكرية والسياسية والاقتصادية والأدبية تموج بالنقائض والنقائص، وإشكالياتها أنها مشرعة الأبواب منتهكة الحمى، فكل من عن له أن يثير الزوابع، أطلق لسانه وأجرى قلمه. وقد لا يكون الرأي العام واعياً للأهداف والنوايا والمقاصد، فيصبح كموات الأرض يحييها السابق، وما من متعقب لفلتات الألسنة، مصيخ للحن القول إلا ويصاب بالإحباط. فالرأي العام كما الشعوب والقبائل: إما أن تتعارف وتتقارب. وإما أن ترتاب وتتنافر. وذهنيته مرتبكة وسط ضجة السمسرة. وهو: إما موغل في الدين بعنف، مارق منه كما السهم يمرق من الرمية، يرتاب من كل صوت، كمن يحسب كل صيحة عليه. أو مبرمج تمر به المواعظ كما قطر الماء على الصفا. أو متسرع تجمعه الطبلة، وتفرقه العصا، يوفض إلى كل بارق. والطامة الكبرى ان يتحكم الهوى في النخب، حتى لا يكون لصحيح المنقول ولا لصريح المعقول دور في تشكيل الوعي. وما أضل الناس إلا اتباع الهوى، حتى لقد اتخذه البعض إلهاً.

والذين يلتقطون المصطلحات من أفواه الإعلاميين، يظنون كل الظن أنها القول الفصل الذي يقطع قول كل خطيب، وبهذه المصدرية المدلِّسة تشكل مثقفو السماع، وبهم شُغلت المشاهد. ولو عاد المختصمون إلى المعاجم والموسوعات والدراسات: التاريخية والتحليلية والنقدية، لعرفوا أنهم في كل واد يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يعقلون. وإذ تكون

---

(١) تاريخ المقال: ١٦/ ٥/ ٢٠٠٥

مشاهدنا حلالاً للطير من كل جنس باسم حرية التعبير، فإنها مشروع لفتنة عمياء، تؤدي إلى اختلال الوحدة الفكرية. ولو استأثر بالمشاهد أهل الذكر ممن نفروا للتفقه في الدين والسياسة والفكر والأدب لما اتسع الخرق على الرقع. ولو ان المبتدئين أعطوا القوس باريها، وأذعنوا للمؤسسات الكفيلة بتداول الآراء وحسم المواقف، لكان خيراً لهم. وليس من بأس أن تكون المشاهد مهيأة للاختلاف والتساؤل المشروع، ولكن البأس كله أن يجهل الناس ما هم عليه من فوضوية، ثم لا يبادرون إلى ايقاف التدهور. ومن جهل حاله استفحل به المجهول، حسياً كان أو معنوياً. فمريض الجسم ليس بأخطر من مريض القلب، ومن فاته التشخيص، أو جاء خاطئاً، فاتته فرص المبادرة لتلافي النقص.

إن هناك اختلافاً ظاهر العوج بين أساطين الفكر المنتج لهذه المصطلحات، حتى لقد نسبت (الليبرالية) إلى ثلاثة من أساطين الفكر، لكل واحد منهم رؤيته: (جون لوك) و(جان جاك رسو) و(جون مل) حتى قيل: - (الليبرالية اللوكية) أو (الروسوية) أو (الملية).

وهذا التنازع في حقل الفكر وبين أهلها، فكيف به في الحقول الأخرى، والحضارات المسترفدة، والقراء المختلفين، والمتعقب المقتدر يقف على آراء مجتثة، ما لها من مرجعية. ونظريات التلقي العربية غير بريئة، ذلك أن لها انتماءات متعددة، حتى داخل الفكر الواحد، وهذا الاضطراب يؤدي إلى اختلافات بعضها فوق بعض، كما الظلمات. وقضاء الأمة العربية أن مشاهدها مسرح للحرب الباردة بين الشرق والغرب. وهي اليوم مسرح اللعب التي تنفذ بالذخيرة الحية. والراصد للحراك الفكري والسياسي والثقافي يروعه ذلك الجدل المحتدم حول سائر المفاهيم. وجدلية المصطلح وإشكاليته كما القتيل الذي ضاع دمه بين القبائل. وطوفان المصطلحات النافذة إلينا بفوضوية، تحتاج إلى مؤسسات متخصصة تنقب في أحشاء المستجد، ثم تعمد إلى توحيد الترجمة أو النقل أو التعريب، تفادياً لوقوع الأمة في فوضوية المصطلحات، وهي بانغماسها إلى الأذقان في تلك الفوضى المستحكمة قد أصبح أمرها عليها غمة.

وإذ يكون المصطلح المجلوب ناتج حضارة مغايرة، فإن له دلالته ومقتضاه ومراحل تحولاته، والمؤصل العربي يجب أن يضع كل الاعتبار للجذور والمنابع، وإن كان عشاق (الليبرالية) قد تلمسوها لدى فلاسفة اليونان قبل الميلاد، وهو إغراق لا مبرر له. ومتى هيئت المؤسسات المتخصصة والمطاعة لتلقي المصطلحات ودمجها في الحضارة المستقبلة، كان من أوجب الواجبات أن يعرف أساطين الحضارة المتلقية المقتضى الأصلي والدلالة المحدثة. وليس في الاقتراض والتعالق الواعيين ما يعيب، فكل الحضارات تتفاعل مع بعضها، ويرث بعضها بعضاً، وتماس الحضارات عند تفاوت الإمكانيات قد يؤدي إلى التأثير السلبي، وذلك ما تعانيه الحضارة الإسلامية في راهنها بمواطأة من أساطين الفكر المستغرب. وواجب المتلقي أن يعرف القواسم المشتركة، بحيث لا يتجاوز المباح، ولا يقصر دونه.

ولقد أتيح لي الظفر بكتاب (مقدمة في علم الاستغراب) للدكتور (حسن حنفي)، الذي استهله بحديث (التبعية) وقال معلقاً بما يجب أن يكتب بماء الذهب: - (قد يعطي هذا الحديث الذي يقوم بديلاً عن الإهداء إيحاء بأنني رافض للغرب، متقوقع على الذات .. ولكني فقط أدعو إلى إبداع الأنا في مقابل تقليد الآخر، وإمكانية تحويل الآخر إلى موضوع للعلم بدلاً من أن يكون مصدراً للعلم). ونحن في زمن الانكسارات، لا نتطلع إلى موضعة الغرب، ولا نستنكف من أن يكون مصدراً للعلم، وإنما نتواضع إلى أبعد الحدود، ونعطي تنازلات لا مزيد عليها، ونرضى بأن نتلقى علومه، بدل أن نتلقى آدابه وفنونه ومعارفه الإنسانية وعاداته، فالحضارة الغربية ذات شقين: (علوم بحتة) و(معارف إنسانية)، وحاجتنا إلى الشق الأول دون الثاني. وإذا وجدنا في وسائل الشق الثاني ما يوفر

الجهد والوقت والمال ويحقق أفضل الخدمات، فليس في ذلك ما يمنع من الاستفادة على أضيق نطاق، ودون تهافت أو انبهار.

وعيب المستغربين أنهم تركوا ما هم بحاجة ماسة إليه، وركضوا وراء سنن من عاصرهم يتبعونها حذو القذة بالقذة. وما أحوجنا إلى إعادة النظر في علاقتنا مع الغرب، فنحن في أمس الحاجة إلى أشياء كثيرة سبق إليها. وغباؤنا المعتق حملنا على ترك ما نحن بحاجة إليه، والإقبال على ما ليس لنا إليه حاجة، ولا أحسب الغرب غافلاً عن هذا التصرف الأرعن.

إن تغريره وتصديره لضريعه الاستهلاكي الذي يسمن الأجسام ولا يقني الأجيال جزء من اللعب والغزو والتآمر، وأعجب العجب تداول مصطلح (عقدة التآمر) بين المستغربين، لشرعنة الركون إلى الغرب وموالاته، حتى لقد أصبح البعض يرى الغزو والتآمر دعوى زائفة. والمستفيض إلى حد التواتر أن الغرب لا يريد لنا أن نتعلم صيد السمك، ولكنه يريد أن نتناولها عن يد ونحن صاغرون، إذ لا يريد الندية ولا التكافؤ ولا الاستغناء.

لقد أطلت التوطئة، لعلمي أن المصطرعين في المشهد السياسي، سيفترون الكذب، ويشيعون حرصنا على القطيعة والصدام وحجب الرؤية والانكفاء على الذات. وما كنا متحدثين عن المصطلح الضجة، حتى يتبين الموقف المعتدل من الآخر. ومصطلح (الليبرالية) كمصطلح (العولمة) بدأ اقتصادياً، ثم تحول إلى السياسة والاجتماع، وكل مصطلح يبدأ متواضعاً ومحدوداً، حتى إذا تداولته المشاهد، أصبح كما كرة الثلج، تكبر في كل دورة، حتى تبلغ العنان، فـ(الليبرالية) الاقتصادية: مذهب يدعو إلى الحرية الكاملة سعياً وراء امتلاكه قوة المنافسة والمزاحمة. فدعاته يريدون من السلطات المعنية ترك المبادرات الشخصية تمارس حقها التجاري بحرية تامة، بحيث تحقق مصالح الفرد والجماعة في آن، بوصف الاقتصاد ملكاً للأمة، ودور الفرد تحريكه ليس غير. و(الليبراليون) الاقتصاديون ضد أي تدخل، يعكر صفو الحركة الاقتصادية، كان ذلك الهاجس مبدؤه ومبلغ دلالته، ومع الأيام تغير، وتعددت حقوله.

أما عن ظروف تشكله: فقد قام صراع أو تبادل مواقع بين ثلاثة مفاهيم متعلقة بالاقتصاد هي: (البرجوازية) و(البروليتارية) و(الليبرالية)، وذلك بعد الصراع المستميت بين (الماركسية) و(الرأسمالية) وفي ظل التنبؤ بإخفاقهما الذي تقصاه (حيدر غيبة) في كتابه (ماذا بعد إخفاق الرأسمالية والشيوعية) وهو طرح يحاول فيه استبدالهما بنظرية متوازنة، تتجاوز حتى (الليبرالية). وتعد (الليبرالية) زعزعة لما سبق، فهي تحمل أفكاراً جديدة متطورة، ذات طابع (راديكالي) وإذا قيل: (المذهب الاقتصادي الحر) فإنما يعنون (الليبرالية) الاقتصادية. وهذا المذهب لا يريد من المنظم تجاوز حد المراقبة من بُعد. ولقد حدث خلاف حاد حول مفهوم المراقبة لاستحالتها، فالمذهب (الليبرالي) ذو نزوع فردي، والمراقبة ذات انتماء جمعي، وظروف التشكل المتوترة مكنت المصطلح من الاتساع الدلالي والتحول المجالي، ومن ثم أصبحت (الليبرالية) ذات تحولات أفقدتها الموضوعية والمحدودية والثبات، حتى لقد كادت (الليبرالية) الاقتصادية تتحول إلى فلسفة في الاقتصاد، ولكل باحث فيها نظريته المغايرة، ولكنها مغايرة تبقي على المرتكزات (الديمقراطية) المتمثلة بتحكيم العقل، وتحرير الاقتصاد، وتفويض الأمر إلى الشعب. وأبرز العلماء الذين تبنوا هذا المذهب اقتصادياً وتشعبت آراؤهم:-

-(أ. سميث ٧٢٣ – ١٧٩٠).

-(بنتام ١٧٤٨ - ١٨٣٢).

-(مالتوس ١٧٦٦ – ١٨٣٤).

-(ريكاردو ١٧٧٢ – ١٨٣٢).
-(جون ستيورات ١٨٠٨ – ١٨٧٣).

وكل واحد من أولئك يؤكد على الانسجام والتوافق. و(الليبرالية) في النهاية مواجهة للقوى التقليدية.

-الملكية.
-الكنسية.
-الإقطاع.

والسواد الأعظم من الحالمين بها أدركوها في خريف عمرها، ولم تمتد نظرتهم إلى جذورها ولا إلى حقولها، وما كان لديهم من الجهد والوقت ما يمكنهم من ذلك، وما كانوا يعرفون منها إلا ما تسمح به وسائل الإعلام وثقافة السماع، ولو ردوا خلافهم إلى الموسوعات والمعاجم والدراسات الراصدة والمحللة لعرفوا أن في حضارتهم ما يستجيب لمتطلبات العصر. وداء المشاهد الضحالة والتسطح والاندفاع الأهوج، وفوات التأصيل المعرفي والتأسيس الديني.

والمتحفظون العلمانيون من الغربيين على (الليبرالية) يشغلهم شيئان: المجتمع المدني، والسلطة المشروعة للدولة. فيما يشغل المتدينين منهم، إضافة إلى ما سبق (الحق الإلهي). وعندما تندلق أقتابها في المشهد العربي المسلم، وتؤخذ من أقطارها، تتضاعف الإشكاليات. والمتابع لنشوء الأحزاب والمنظمات في العالم الثالث، وتذبذبها بين (الديمقراطية) و(الليبرالية) و(الدكتاتورية) و(التعددية) و(الطائفية) و(الأيديولوجية) يصاب بالذهول، ولا سيما إذا علم أن خطابات المحافل أمنياتٌ سرابية، وأن في العالم أكثر من خمسمائة حزب أكثرها في العالم الثالث، وبين الأنواع والأعداد تكمن الكارثة، وإذا كانت مشاريعها أضغاث أحلام، فإن الواقع لا يعدو تكريس التخلف وتعطيل التنمية. وعجز الثوريين عن بناء تنظيم حزبي قادر على إقالة العثرة أدى إلى إحباط وخيبات أمل متأصلة. وبالرجوع إلى كتاب (الأحزاب السياسية في العالم الثالث) للدكتور (أسامة حرب) يتبين سوء التوقيت والتقدير والادعاء العريض، ولست بحاجة إلى قراءة النتائج الحزبية فهي ما يراه العربي لا ما يسمعه، وكل حزب يصفي سلفه: وجوداً وسمعة، يقدم بين يدي خطابه حتمية (الديمقراطية) و(الليبرالية).

ويسألونك عن (الليبرالية) .. ! (٢)[١]

وإذ تكون (الليبرالية) عصية التطويع والتحديد في المجال الاقتصادي بوصفه حقل المنشأ، فإنها في المجالات الأخرى أشد تأبياً، ولك أن تقول مثل ذلك عن مدعي الوصل بها، فكل واحد له رؤيته ومفهومه، ولا يكون منصفاً من يجعل المتبنين لها صنفاً واحداً، ولا من يتهمهم بالعمالة على الإطلاق والتعميم.

أما ظهور بوادرها كمصطلح سياسي، فقد شارف حدود الحزبية في القرن التاسع عشر، ولم تكن وقفاً على مفكر واحد، ولا على فكرة واحدة، و(من هنا تبدو بلورة تعريف واضح ودقيق لمفهوم (الليبرالية) أمراً صعباً وربما عديم الجدوى) (الموسوعة الفلسفية العربية ص ١١٥٥-٢). وقد تصورها الراصدون من المؤرخين والدارسين تياراً (أيديولوجياً) لإلحاحها القوي على الحرية المطلقة من قيود المرجعية والتصدي لسلطة النظام: الملكي والكنسي. لكونها مواجهة قوية لسلطتين: السلطة السياسية، والسلطة الدينية، بوصفها حريات مقيدة. وحين تكون ردة فعل للتحكم الكنسي، أو التسلط السياسي، و(البرجوازية) الاقتصادية، فإن استدعاءها للمشهد العربي اقتصادياً كان أو سياسياً أو اجتماعياً يفترض وجود أجواء مجانسة. والمؤكد أنها لم تكن مشروعاً انقدح في الذهن، وإنما هي ردة فعل عنيف، استكملت وضعها من خلال الصراع مع القيم السائدة، والبعض تصورها مبدأً حزبياً وأسلوب تصرف، جسد ذلك (لابولاي إدوار) في كتابه (الحزب الليبرالي)، وكان من بين أهدافها المحافظة على مكتسبات (الثورة الفرنسية). والمصطلح بعد مشارفته على النضوج التنظيري، واكب أيَّ تحرف للحرية. وإشكاليته أنه يتذبذب بين الدلالة اللغوية، والمقتضى المصطلحي. وبالرجوع إلى (المورد) للبحث عن مجمل الدلالة اللغوية نجد أن الكلمة تعني:

-تحرري.
-متسامح.
-متساهل.

وبتجاوزها الدلالة اللغوية، أصبحت تعني (مبادئ حزب الأحرار).

وتصريف الكلمة قد يؤدي دلالات أخرى. ولم تكن (الليبرالية) السياسية ببعيدة عن سالفتها الاقتصادية. فهي فلسفة سياسية تقوم على استقلال الفرد الذاتي، والمناداة بحماية الحريات السياسية والمدنية والدينية التي حدَّت منها مبادئ سالفة، ومع أنها ردة فعل، فقد أسست لنفسها، لتكون ذات قيم ثابتة. والهدف الأسمى لمفهومها السياسي أن يكون تدخل السلطة السياسية محصوراً في أضيق نطاق، وبخاصة فيما يتعلق بحياة المواطنين وشؤونهم الخاصة. وإشكالياتها في المجتمع الإسلامي أنها تتناقض مع الحرية الإسلامية المرتبطة بخصوصية الإسلام المحفوف بالمكاره، كما أن الحرية العلمانية لها خصوصية العلمانية، ومن الصعوبة بمكان الجمع بين المفاهيم المتناقضة، إلا إذا تنازل أحد الطرفين عن خصوصية حضارته، وذلك مكمن الخطورة.

فـ(الليبراليون) يرون أن مصلحة البلاد تقوم على العفوية، وأن مهمة الدولة القيام على دعم حركات التحرر من أي سلطة. ومع التهافت عليها من المكتوين بنار الواقع العربي فقد جاءت تنبؤات المنظرين والمحللين على توقع تلاشيها، لأن (المجتمع المدني) يذعن للمؤسسات السلطوية، ويؤمن بالتخطيط والتنظيم. والنفس (الليبرالي) يرى أن في مثل ذلك قمعاً للحرية المطلقة. فهل تموت كما ماتت (الماركسية) و(البنيوية) و(الحداثة)؟

---

(١) تاريخ المقال: ٢٤/ ٥/ ٢٠٠٥

وهل نظل معها كما (جن سليمان) لا يدلنا على موتها إلا دابة الأرض؟ لا أستبعد ذلك. ونشدان الحرية تحت مظلة المبادئ والأحزاب الوافدة يعني أن ما نحن عليه من مبادئ تنقصها الحرية، في حين أنه لا مزيد على ما أقره الإسلام من حريات، وعلى مستوى الحرية السياسية نجد أن الفكر السياسي الإسلامي قد أسس لذلك، متمثلاً بمقولات نصية وعملية، ولقد فاضت المكتبة العربية بعشرات الكتب التي تتحدث عن الحرية في الإسلام، وأكتفي بمقولتين: (متى استعبدتم الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً) و(لا خير فيكم إن لم تقولوها، ولا خير فينا إن لم نسمعها).

وفي ظل التذبذب واضطراب الآراء والتصورات، حاولت تقصي المفاهيم المتعددة بتعدد الحقول التي تتداول المصطلح، وبتعدد المتداولين له. إن هناك حقلاً فلسفياً له رؤيته، وحقلاً سياسياً له تصوره، وحقلاً اجتماعياً له توقعه، وحقلاً اقتصادياً له مفهومه، والفلاسفة والسياسيون والاجتماعيون والاقتصاديون لكل واحد تصوره. والراصد المعرفي لابد أن يستفتي كل الحقول، وليس من حقه، وهو المتلقي أن يستأثر بالتعريف، لكي يمرر المصطلح بكل أوضاره. وعلى افتراض إمكانية الجمع بين مفاهيم الحرية في سائر الحضارات، فما الداعي لتداول المصطلح المنقول بكل ما يحمله من مراوغة وتوهيم. والسؤال المفحم لكل الأطراف: هل الحرية في الإسلام تحتاج إلى فهم صحيح وتمثل صريح، أم هي بحاجة إلى استبدال؟.

إن خلل التطبيق لا يستدعي النفي والاستبدال، وإنما يستدعي المراجعة والنقد. والإمعان في مقولات ذوي الشأن تكشف المضمرات. ففي (موسوعة لالاند الفلسفية) استهلها بالتعريف السياسي، ونظر إلى مقاصدها القائمة على استقلالية السلطة، وإعطاء المواطنين ضمانات في مواجهة التعسف. وهي من الجانب الفلسفي ترى أن الإجماع الديني ليس شرطاً لازماً ولا ضرورياً لتنظيم اجتماعي جيد، ومن ثم يطالب بحرية الفكر. وهذا التعريف يؤكد (أيديولوجيتها) وتعذر الأخذ بها على ما هي عليه، ومتى أجري التعديل على شيء من مفاهيمها فإنها تفقد كينونتها. وفي مجال نقد النظرية أحال المؤلف إلى السجال الذي أجراه (جاكوب) بين ما يسميه (الليبرالية) التجريبية والعقلانية. ولقد نظر إليها البعض نظرة إجرائية، بحيث تقتصر مهمة الدولة على الشرطة والعدل والدفاع العسكري.

ومعضلتها أنها مصطلح منقول صيغة ودلالة، وأي محاولة للتهجين يجعلها تحصيل حاصل، وفوق ذلك فهي أوزاع بين التطور الدلالي والتنقل المعرفي، وكلما استدعاها حقل معرفي أمدها بدلالة جديدة، وهذا الذي حير كاتب مادتها في (الموسوعة الفلسفية العربية). ونقل المصطلح دون ترجمة أو تعريب أبقاه بكل متطلباته، بل عمق هذه الإشكاليات بشموليته، فهو في المشهد الغربي حر طليق، يتمتع بكل ما له عبر حقوله المعرفية الغربية، وتطوره التاريخي. ولو سألت محتضنيه عما يعنيه لقالوا: (الحرية). وفي ظل هذه الكلمة استباحوا كل شيء. والحرية ليست غائبة في الفكر السياسي الإسلامي، بحيث تضطر إلى التقاط (الليبرالية). وهي بمقتضياتها تتجاوز الحرية بمفهومها الإسلامي، ولو كانت قصراً على (الحرية) لكان نقلها من التزيد، إذاً هناك مقاصد مضمرة، تتجاوز الحرية المنضبطة إلى ممارسات ليست مكفولة في الإسلام، والاختلاف معها لا يحيل إلى شيء آخر يتجاوز القدر المباح من الحرية في الإسلام، فنحن مع الحرية المنضبطة، وضد الفوضوية باسم الحرية، وحين يسلم معنا المولعون بالمستجد، يكون الأخذ بها من الاستبدال المحظور.

وتقصي جذور (الليبرالية) الاقتصادية بوصفها الأصل لكل التنقلات والتحولات يقتضي الرصد التاريخي لـ(البرجوازية) بوصفها المثير لحركات التحرر، ولو من خلال

كتاب (أصل البرجوازية) ل(ريجين برنو). والتحسس التاريخي لطرفي الفكر الاقتصادي (البرجوازي) و(الليبرالي) الغربيين يؤدي إلى مفهومين:
-اقتصاد مقيد بضوابطه وطبقاته.
-اقتصاد حر في تحركه ومعاهداته.
ولقد كان مدار الصراع حول (القمح) من حيث نقله وتصديره، وهو السلعة المسيسة حتى الآن، ثم اتسع ليشمل المصنوعات والمنسوجات والتصدير والاستيراد الحر.
و(الليبرالية) الاقتصادية ضد كل تدخل للدولة في الميدان الاقتصادي، ودور الدولة يقتصر على ضمان الحرية المطلقة ليس غير. وبعد الفوضى ارتفعت صيحات استغاثة تطالب بتدخل الدولة، لفك الاشتباك بين أطراف الاقتصاد، وهو ما لم ينتبه له المولعون بالمصطلحات المهترئة. والقمع لسلطة الدولة امتد إلى عدد من السلطات المشروعة، وقد نشأ صراع بين الدولة بوصفها ذات سلطة قانونية وحرية الأفراد، ذلك أن طغيان الحرية الفردية جاء على حساب حريتها وإضعاف سلطتها المشروعة، ولك أن تقول مثل ذلك عن (الدين) بوصفه واجبات والتزامات. ولم تكن (الليبرالية) المتداولة في المشهد العربي ذات صلة بالاقتصاد، بل لا يعرف المتداولون العرب أنها تعني شيئاً من ذلك، ولأنها فلسفة و(أيديولوجية) وليست مجرد إجراء فإن صاحب (قاموس المصطلحات السياسية والاقتصادية والاجتماعية) يرى استحالة المراقبة الموضوعية، لانطوائها على نزعة فردية وحرية مطلقة لكل فرد من أفراد المجتمع.
ولأنها قامت في وجه (البرجوازية) فقد تولدت عنها (البروليتاريا) وهكذا تتناسل المصطلحات بعضها من بعض على شكل ردود أفعال، ونحن ببلاهتنا ومحدودية وعينا وقصور معارفنا نتلقف المصطلحات المتلاحقة، دون وعي بجذورها الفلسفية، وظروفها السياسية والاقتصادية، وصراع العقل المعرفي مع السلطة الكنسية.
و(الليبرالية) بعد تقلبات مفهومية ونوعية أصبحت (أيديولوجية) مناقضة في مفاهيمها للحضارة المستعيرة، ومن تصورها وسيلة وحسب، فعليه أن ينسف ركام الدراسات التي أنشأها المفكرون الغربيون أنفسهم. يقول (بوريكو) صاحب (المعجم النقدي لعلم الاجتماع) ص٤٦٦: - (فإن الليبرالية هي أيديولوجيا تحكم على نوعية التنظيم الاجتماعي)، وهي كما قلت اقتصادية واجتماعية وسياسية، ولكل حقل معرفي تعريف لا يناقض ما سواه، ولكنه يخالف مخالفة تنوع لا مخالفة تضاد. ولقد أطلق هذا المصطلح لمواجهة الاستبداد السياسي بعد التحكم الاقتصادي والرقابة الاجتماعية الصارمة، وحقيقتها (السلطة بوقف السلطة).
وإشكالية (الليبرالية) من خلال الموقف الإسلامي أن الفعل عند (الليبراليين) تبرره قيمته، ولا تبرره مرجعيته النصية، إذ لا مرجعية، بمعنى: هل يقبل المجتمع بشرعنة المحظورات الدينية؟ إن كان الجواب: بنعم، فهذا القبول كافٍ للتبرير. والعمل من خلال المنظور الإسلامي، يكتسب مشروعيته من النص القائم على جلب المصالح ودرء المفاسد وسد الذرائع.
وفوق ما سبق من إشكاليات فإن مصطلح (الليبرالية) تحكمه جغرافيات فكرية متعددة، ففي (انجلترا) تستعمل بالمعنى الاقتصادي، وفي (إيطاليا) تستعمل بالمعنى السياسي الديني. وفي ظل فوضوية المفاهيم، فقد وضعها (هبمون) بإزاء (النظرية الانفلاتية) لأنها لا تعترف بأي حد مألوف وقانوني للحرية الفردية. بمعنى أن تفعل ما تشاء بشرط ألا يمس أحداً ضرر حسي من فعلك. وهي ذات صلة وثيقة بمعركة (الحداثة) و(الأصولية) وقد وصفها (إيميل بولا) بأنها تعني (تحرير العقل من أي سلطة). ولقد عرفها (شارل موراس) بأنها: - (مذهب متعدد الأشكال قائم على تحرير الإنسان من

سلطة الله وشرعه وتنزيله، وبالتالي فهو مذهب يحرر المجتمع المدني من أية تبعية للمجتمع الديني).

وفي ظل هذه المفاهيم تقع الدكتورة (زينب عبد العزيز) في ردة الفعل العنيف، إذ تقول في كتابها (هدم الإسلام بالمصطلحات المستوردة): - (ومهما تنوعت أوصاف (الليبرالية) في حلبة صراعها المتعدد الأطراف والمستويات فهي تشير إجمالاً إلى صورة مجتمع بلا إيمان، وإلى حرية بلا ضوابط وبلا إله). وإذ لا نتهم أحداً بهذا المفهوم، إلا أنه مفهوم متداول، سواء قبلناه، أو لم نقبله، ونحن في تقصيها نحيل إلى المتداول بين أهلها، وما شهدنا إلا بما علمنا.

وإذا كان المناوئون للحضارة الغربية يتصورونها رهينة (البرجوازية) و(الرأسمالية) و(الإمبريالية)، فإن المتطلعين لها يرونها خلقاً آخر، يراوح بين (الديمقراطية) و(الليبرالية) وفي ظل الفعل العنيف ورده الأعنف، راهن المناوئون لأنماط (الرأسمالية) العالمية على تلك المعطيات المناقضة، وكتب (لينين) نفسه كتاباً تحت عنوان (الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية)، شنع فيه على النظام الاقتصادي الغربي.

والعالم العربي بوصفه الصدى، فقد عاش رهين النقائض بين الشرق والغرب، ولم تكن له مبادرة تغنيه عن الطرفين، والذين يقيمون رهانهم على المتداول الإعلامي يحملون في أعماقهم قابلية التحول، متى انتصر خطاب على آخر. والغرب المستبد، سينشق على نفسه، وسيكون للحراك الأوروبي دور في تحول الخطاب، ولن يظل على مصطلحاته المتلاحقة، وبالتالي فإن عالم الصدى سيعيد الصوت كما هو بكل تحولاته، دون أن يحاسب نفسه عن (معلقاته) المادحة لما هو قائم قبل أفوله.

والتهافت على (الليبرالية) كما التهافت على (الاشتراكية) حذو القذة بالقذة، ولو أن النخب التفتوا إلى الوراء، وفتشوا صفحات التاريخ الحديث، لوجدوا أنهم يوفضون إلى نصب المبادئ، وأنهم لما يزالوا أصداء أصوات بعيدة، ولقد اعتز (المتنبي) بأنه (الصائح المحكي والآخر الصدى)، وما كنا بتهافتنا وتبعيتنا كذلك.

ولم تكن (الليبرالية) مخاض اللحظة، فما يتداول اليوم إن هو إلا اجترار لما سلف، فلقد صنف بعض الدارسين (النخب المصرية) إبان التأسيس للنهضة (الطهطاوية) متصوراً الحراك السياسي الأيديولوجي ذا أجنحة ثلاثة: - (العلمانية) و(الليبرالية) و(القومية)، وجعل من عمد الليبرالية: - (علي عبد الرزاق) و(طه حسين) و(أحمد أمين) و(محمد حسين هيكل) ولم يرَ (الليبرالية) مع هذا الجناح بصورتها الأصلية، فهي (ليبرالية) توفيقية. ولقد ادعتها أنظمة ثورية، كما ادعت (الديمقراطية)، ولأنها مجرد دعوى فرضية فإنها لم تكن مشروعاً عملياً، وإذ تصورها البعض ممارسة فعلية، فقد تلمسها في المشاهد، ولما لم يجد أثرها التمس أسباب فشلها، نجد ذلك عند (خلدون النقيب) في كتابه (الدولة التسلطية) في سبعة عشر موقعاً في كتابه وبخاصة (ص ٦٢، ٦٣) وهي لم تكن إلا ادعاء. وعند (محمد جابر الأنصاري) في كتابه (تحولات الفكر والسياسة في المشرق العربي).

والمتهافتون عليها استحوذ عليهم رهان (فرانسيس فوكو ياما) الذي أشاع نظرية (نهاية التاريخ) وهي مقولة سبقه إليها (هيجل) وقد سرقها منه، فـ(الليبرالية) معوَّلةُ، لكونها ذروة سنام التفكير الإنساني ومطبقة في الغرب تطبيقاً عملياً. وعلى أية حال فإن سامرها سينفض يوم أن يطرح الغرب نظرية أخرى، وعيب النخب الاسترفاد الغبي من (الطهطاوي) إلى يومنا هذا، ويا ليت قومي يستبدون ولو مرة واحدة (إنما العاجز مَنْ لا يستبد).

أيهـــا الكُتَّـــاب ادخلـــوا مســـاكنكم
لا يحطِّمـــنكم تتـــابع الأحـــداث!

هل تكون نملة (سليمان) أحذر منا، وأحرص على جنسها، عندما صاحت بجماعاتها:
﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

وهل سيبتسم صُنَّاع اللعب السياسية القاتلة من تنادي الكُتَّاب وتحذير بعضهم بعضاً من طوفان الأحداث المتداعية، كما الصخر حطّه السيل من عل؟. وهل سيأوي المفجوعون من هول المصائب إلى جبل يعصمهم من طوفان الكوارث الجسام؟. ولا سيما أن الحطم يتم بشعور اللاعب وبسبق إصراره، وليس كما حطم سليمان الذي لا يشعر بوجود النمل في طريقه .. ولست بهذا التحذير مُبالغاً في تصوُّر الأحداث المتسارعة كما وقع الحوافر، ذلك أن محترفي السياسة قراءة وكتابة ورؤية لن يكونوا أحسن حالاً من ذلك النمل، الذي راعه زحف الجيوش القادمة، والسعداء من الكُتَّاب مَنْ يمتِّعون أنفسهم بتناول القضايا المحلية، يخيفون بها الذين إذا قاموا إلى أعمالهم قاموا كسالى .. وما أكثرهم، وما أكثر المتأذين من التسويفات والمحسوبيات و(البيروقراطيات) الإدارية. ومثل هؤلاء أقل توتراً ممن يجيلون أنظارهم في الآفاق السياسية المكفهرة، وممن يستشرفون المستقبل المخيف، وممن يتابعون الأحداث العالمية المأزومة .. إن هذه الطائفة المعنَّاة تكاد تسف المل، وتتجرّع مرارة الانكسارات .. ومن ذا الذي يستطيع أن ينقِّب في مسرح السياسة، ويقرأ ما تحت السطور، ثم لا يُصاب بالرعب.

وقدر المفكرين والكُتَّاب المفيد والمؤلم معاً، أنهم ينظرون إلى أحداث العالم رأي العين، ويتعقّبون لعب الأقوياء المهلكة حية على الهواء، ماثلة للعيان، عبر القنوات والمواقع والصحف والإذاعات، والأقل من المتابعين من يتقن قانون اللعبة، بحيث لا ينزلق في تأييد مطلق، أو يعتزل برفض صارم .. وقطع الأمر مع غياب الوثائق، أو حضورها مزوّرة لا يقل خطراً عن التردد، ورأس الابتلاء أن كل حدث مصيري يستبطن (شفراته) الخاصة به، بحيث يتطلَّب نظرية معرفية، ومستوى قرائياً خاصين بالحدث، مستدعياً ذلك كله تكسيراً للقناعات والمسلمات، وتجهيزاً لخطاب (دبلوماسي) مراوغ .. وفي ذلك تكليف بما لا يُطاق، وإيذاء للمشاعر المتبلِّدة، فضلاً عن الحساسية .. ومما يعمّق المأساة أن معايشة الأحداث حية كما خلقها الله، تُواجه بضعف وهوان، وقِلة حيلة، وتنازع بين الأخ وأخيه، وخوف الإنسان من أقرب الناس إليه، وتدخُّل فضولي ممن لا ينفك يفسد بين المرء وزوجه .. والكُتَّاب بما هم عليه من رهافة أحاسيس، ورقة عواطف، يستقبلون الأحداث المؤلمة طرية كما وقعت، ويتقرون آثارها ومخلفاتها بأيديهم، وهم كما أطباء الإسعاف في تلقّي حوادث السير، فقد يصل إليهم جزء من جسم المصاب، ويظل الباقي مختلطاً مع قطع الحديد في موقع الحادث .. ورحمة الله في هؤلاء وأولئك الإلف والأمل والنسيان، وإلا كيف يحتمل الكُتَّاب التعايش مع المغالطات والمتناقضات وتعدد المكاييل والمحو والإثبات في آن .. فاحتلال يُزكَّى، وآخر يجرم، وترسانة تفتش، وأخرى تبارك، وتقنية تُخفى، ومساعدات لا تسد رمقاً، تأتي بالتقتير والتكدير والإيذاء، وإصرار على تحويل المسرح السياسي إلى مسرح عرائس، تحركها أنامل فوقية، وضرب للمنظمات الإسلامية، ثم انتهاك للسيادة الوطنية، وذلك بإبداء الرغبة في التفاوض مع رموز تلك المنظمات، وتغرير للشعوب بحجة تصدير العدالة والحرية.

وأي كاتب يتلوى على سفود السياسة، يرى أن من واجبه أن يعيش حضوراً واعياً لكل ما يسمع ويرى، وأن يكتب رأيه بعد التقاط الحدث بكل ملابساته عبر أي وسيلة

إعلامية، أو سياسية .. فالأوضاع بلغت حداً من التدهور والفوضى لا يمكن معه امتلاك الأعصاب، ولا التّوفر على رباطة الجأش .. وكيف يتوفر الكاتب الفولاذي على شيء من ذلك، والمهيمنون كما (بلفور)، الذي أعطى ما لا يملك لمن لا يستحق، ثم لا يجدون حرجاً من أن يتبعوا تعدياتهم تباكياً على المصداقية والعدالة والحرية؟ إنه زمن الهون والحزن، وكيف لا يخاف الكاتب وهو الأسفل، إنه زمن جسَّد مآسيه (المتنبي) بقوله:

واحتمـــــال الأذى ورؤيـــــة جانيـــــه
غـــــذاء تضـــــوى بـــــه الأجســـــام
ومــن نكــد الــدنيا علــى الحــر أن يــرى
عـــدواً لـــه مـــا مـــن صـــداقته بـــد

وإشكالية الأحداث المؤلمة أنها تعشي العيون، وتصم الآذان، ولا يستطيع أحدٌ أن يقول للمتحسِّر، أو للمتنصِّل: (يداك أوكتا، وفوك نفخ) .. وكل لاعب في مقدرات الأمم ومصائرهم، يتفنن في صناعة الخطاب الإعلامي المضلل، شأنه في ذلك شأن الشركات العالمية التي تُمارس من خلال إعلاناتها الدعائية الخداع البصري والسمعي، كي تستحوذ على المستهلك .. والكاتب قد لا يجد فرصة للتأمل، ولا إمكانية لانتظار ما تسفر عنه الأحداث من حقائق، تختلف عما أفضى به اللاعبون الكبار .. فهو إما مغلوب، أو مخدوع، أو مجند .. وحين تتكشّف الأمور، وتتعرّى المقترفات، يكون قد فرغ من تحديد موقفه، وإشاعته بين الناس .. ومن الصعوبة بمكان التّراجع، أو المراجعة، فقد قِيل ما قِيل إن صدقاً وإن كذباً .. وفوق إشكالية التّلون الحرباوي، يأتي تلاحق الأحداث الذي لا يتيح فرصة للمراجعة، ولا إمكانية للتقويم .. وارتباط كل لعبة بقانونها الخاص بها، وتراكم الأحاديث الفجة المرتجلة تصنع الذهنيات المضطربة .. والمَشاهد السياسية من أسوأ المَشاهد وأكثرها اضطراباً، وألصقها بالكذب، وأوسعها لتعدد الاحتمالات المتناقضة، وكيف لا تكون، والسياسة فن الممكن؟.

والمصاب بداء السياسة يروِّض نفسه على قبول المتناقضات والتّعايش معها، ولا يعرّيها لوقتها، إلا المذكرات والسِير الذاتية، التي يكتبها صنَّاع القرار، حين تلفظهم مطابخ السياسة في مزابل التاريخ، يفعلون ذلك كي يتخلصوا من تأنيب الضمير، ويفروا من عار التاريخ .. وكل زعيم استمرأ القتل، والهدم، والسجن والتشريد، وإهلاك الحرث والنسل، ومسايرة اللعب، أو تنفيذها طوعاً أو كرهاً، حين يفارق سدة الحكم مغلوباً على أمره، أو منهياً دوره التمثيلي، تجر قدمه قناةٌ أو صحيفةٌ أو ناشرٌ، ليغسل الدم بالأحبار أو بالرغاء الرخيص .. وقد يفضي بمواجيز الأحداث، ليتولى المتخللون بألسنتهم صياغة المذكرات، مستميتين من أجل تخليصه من سبة الدهر .. وساعتها يبدو فيما يقول، أو يملي، أو ينيب كحمامة سلام، تتعثّر بشراك الشائعات .. ولو سألته عما اقترف من خطيئات ماثلة للعيان، لما وجد بأساً من إلقاء اللوم على رفاق الدرب، وشركاء الذنب، وعصبة الحزب، أو أبناء القبيلة.

ومع تعرية الاعترافات والمذكرات والسِير، وتضاربها، وفضح بعضها لبعض، يأتي حق الإفراج عن الوثائق السرية كالعهود والمواثيق والاتفاقات الدولية، وذلك بعد مرور الزمن المحدد للإفراج عنها، وتلك من أكثر العمليات كشفاً لما خفي، وإن كان الكشف انتقائياً، وعلى أضيق نطاق، وقد يدخل الكشف عن الوثائق تغنص اللعب، فما يعرف المتابع الصادق من الكاذب .. وكم من كاتب راصد، أو محلل اكتشف أنه يتسكّع في أودية

التيه، وأن كل ما قال ركام من الأوهام .. فما يُقال عبر وسائل الإعلام في أعقاب الأحداث، أو ما يرهص لها، قد لا يكون صادقاً .. والذين يعوِّلون على ذلك، يكتشفون أنهم شهدوا وقائع الحدث، ولم يكونوا لدى المخططين إذ يختصمون، وأنهم كما الشاهد الذي سمع ولم ير، وما راءٍ كمن سمع، وتلك مصيبة المشهد السياسي .. وكم من مؤتمرين بعثت بهم دولهم، ليتدارسوا القضايا مع نظرائهم، فوجئوا بأن قضيتهم حُسمت بليل، وأن الاتفاقيات قد أخذت طريقها إلى المسرح العملي، وهم في غفلة عن هذا، يجادلون ويجالدون، ويظنون أنهم يكتبون التاريخ بمداد مخلوط بعرقهم ودمهم.

ومع كل الأجواء الملبدة بالمكر والخديعة، فإن الحلال بيّن، والحرام بيّن، وبينهما أمور مشتبهات .. فالكاتب الذي يلامسُ القضايا، يختلف عن المنغمس في مستنقعاتها .. والمتابعون لملفات الأحداث المصيرية، وما كُتب فيها، وما أُجري حولها من لقاءات مع أطرافها، أو مع المراقبين، أو مع المهتمين، أو مع سائر الإعلاميين، يقفون على أشياء مذهلة .. والصامتون حين يفك أسرهم، ويأمنون على أنفسهم، ينطقون بما يقلب الأوضاع رأساً على عقب .. وسليم النية والطوية أمام هذه المتناقضات الصارخة ينتابه الشك، حتى في نفسه. وكيف لا يشك الإنسان في نفسه والخليفة الراشد (عمر بن الخطاب) يسأل (حذيفة بن اليمان) رضي الله عنهما وأرضاهما عما إذا كان الرسول ﷺ قد عدّه من المنافقين .. لقد جاء جواب (حذيفة) بالنفي، ولكنه أتبع ذلك بنهي يُعمِّق الخوف والشك: (لا ولا تسألني عن غيرها)، أو كما قال .. إذ ربما ينكشف سر رسول الله ﷺ عند تتابع الأسئلة، والصحابة قد نهوا عن السؤال خشية أن تفرض عليهم الإجابة، ولهذا يفرحون بالأعرابي حين يتفجَّر بالأسئلة غير هيّاب ولا وجِل.

إن واقعاً كهذا، قمين بأن يُخاف، جدير بأن يُعتزل .. لقد أخبر الرسول ﷺ عن الفتن، وذكر منها ما هو كقطع الليل المظلم .. والحل لا يكون وقفاً على المواجهة، فقد يكون الاعتزال، وكسر السيف، ورفع القلم، وكف اللسان هو الخيار الأفضل، وبخاصة عندما تنعدم الرؤية، ولهذا ندب الرسول ﷺ في مثل هذه الحالة إلى كسر السيف، والعض على جذع شجرة، حتى يأتي الموت .. ومشاهد الأمة العربية وأحداثها المرعبة، تكاد تفوق قطع الليل المظلم، وتكاد تقتضي كسر القلم وتكميم الأفواه .. والمفجع أن الدهماء من الناس تخوض في الحديث عن تلك الفتن، وكأنهم أطفال يلهون بيوم مطير، وما علموا أنهم فوق أرضة ملغَّمة.

لقد مرَّت الأمة العربية بنكسات مُوجعة، وحروب أهلية دامية، وتناوش حدودي مُخيف، وإخفاقات عِرقية وطائفية، وأثرة حزبية، وعنف ثوري دموي، وتسلط عنيف، ولما يزل الإنسان العربي صابراً محتسباً، يتحرّف للخروج من هذه المآزق الخانقة .. وأمله ألا يغلب عسر يسرين، وبوارق الأمل تلوح في أفق ملبد بالغيوم، وكل أمله أن يَصْدُقَه القول أرباب اللسان والقلم، فلا يزيفون وعيه، ولا يصعدون ارتيابه، ولا سيما إذا اجتالته اللعب الكونية، وامتطى صهواتها مغلوباً على أمره .. فكم من لعب خادعة تهافت في أُتونها الخليون، كما يتهافت الفراش على اللهب .. وكم من أحلاف جائرة، انصاع لها الخائفون، فكانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار .. وكم من تكتلات هشة ظاهرها الرحمة، وباطنها من قِبلها العذاب، وإن بدا أصحابها باسمين، فإن الهمَّ يطويهم كما يطوي الأعرابُ شنانهم الفارغة من الماء .. والشأن العربي إما مترمّد تذروه الرياح، أو رماد يُرى خلله وميض نارٍ قابلة لأن يكون لها ضرام، والقلة الأقل من الكُتَّاب كما رجال الدفاع المدني، يتقحّمون الأُتون بالكمامات، والدروع لإنقاذ ما يمكن إنقاذه .. والنفعيون رضوا بأن يكونوا من آليات اللعبة، فاستخفوا بمصلحة الوطن .. ولو أعاد هؤلاء وأولئك قراءة ما قالوه بالأمس القريب، لتمنوا أن يكون بينهم، وبين ما كتبوا أمدٌ بعيد، فواحدهم: إما متسرّع

لم يُتح له تسارع الأحداث فرصة للتأمُّل .. أو جاهل يظن كل الظن أنه ابن بجدة السياسة .. أو أجير في سوق النخاسة الإعلامية، لا يبالي في أي وادٍ هلكت أمته .. والقلة القليلة من تتثبّت، وتقلّب الأمور، وتقدّر، وتستخير، وتستشير، قبل أن تضع السواد على البياض، فالكلمة عندها إما عمار، أو دمار، والإسلام يحث على القول السديد والكلم الطيب.

إن زمن التيه قائم على أشده، على الرغم من سقوط الأقنعة، وتعري اللعب، وافتضاح اللاعبين .. فماذا قِيل عن الحرب (الأفغانية)، التي أعادت ترتيب المسرح السياسي؟ وماذا يُقال اليوم عنها؟ وماذا قِيل عن الحرب (العراقية) و(الإيرانية) يوم أن كانت على أشدها؟ وماذا يُقال عنها اليوم؟ وماذا سيقول أزلام النظام العراقي البائد، لو تمت المحاكمة على وجهها الصحيح، ولم (تُفبرك)؟ وماذا قِيل ويُقال عن الحركات والأحزاب والمنظمات والرموز الأحياء منهم والأموات؟. وعلى المتابع أن يُمسك الأحداث حدثاً حدثاً، ثم ليقرأ ما قِيل فيه يوم أن كان مشتعلاً، وما يُقال عنه حين تحوَّل إلى هشيم مترمِّد، ليرى كم هو الفرق بين قول وقول .. ومع كل هذا فالكُتَّاب لا يعيدون قراءة ما كتبوا، فضلاً عما كتبه لداتهم، ليختطوا لأنفسهم طريقاً قاصداً، ينجيهم من معرَّة التناقض، وعذابات الضمائر .. وهل يكون التّحرف والتّحيز في الهروب من مدرجة الطريق والدخول في المساكن، كما فعلت النمل، أم تكون النجاة في ملاقاة الأحداث بصبر ومصابرة ومرابطة؟. ما زالت الخيارات غامضة، والمشاهد مكفهرة، والرؤية متدنية، ومن يعش من الكُتَّاب فسيرى اختلافاً كثيراً.

وفي كل يوم تطلع فيه الشمس، تتكشّف الأحداث عن زائف القول .. ولو عملت مجسات ومسابير فيما مضى، وفيما هو آتٍ، لكانت الأمور أكثر بشاعة، وفوق هذا فإن ثورة الاتصالات جعلت الحبكة تتفكك في مهدها، ولم يكن بإمكان منفذي الحدث، وحائكي خبره أن يطيلوا أمد الكذب والتغرير، لقد بثَّت وكالات الأنباء الطريقة المؤلمة التي قُبض فيها على (صدام حسين)، وجاء مجند أمريكي من أصل عربي، ليكشف كذب الحبكة، بتصويره طريقة القبض عليه، وليس مهماً أن يكون القبض عليه كما صوَّرته الوكالات، أو كما حكاه الضابط الأمريكي، ولكن الأهم أن الإعلام لا ينفك من الكذب والتّفنن في صناعة الخبر .. ويُقال مثل ذلك عن الطريقة التي اغتيل بها (الزعيم الشيشاني)، لقد صوَّرته وكالات الأنباء كما يريد منفذ الحدث، غير أن (زوجة) القتيل نفت ذلك، وذكرت تفاصيل الحدث .. وها نحن الآن مع صورة جديدة لـ(صدام حسين)، قد يأتي اليوم الذي يكشف فيه عن أهداف تسربها، وقل مثل ذلك عن تسريب ممارسة تدنيس القرآن الكريم، إنها لعبة تجرُّ بها الأقدام والأقلام، وتلك أمثلة حية لاضطراب الأخبار وافتعال الأحداث، وليس ذلك الاضطراب داخلاً فيما يُقال: (آفة الأخبار رواتها) .. ولكنه داخل ضمن مقولة: (كذب المنجمون وإن صدقوا). وبعد لقد كان المجرِّبون يقولون: آخر الطب الكي .. وكان يجب أن يقول المكتوون بنار التّقلبات السياسية: آخر الطب الصمت.

المسند من خلال إسهاماته الأدبية .. ! [(١)]

الحديث عن شخصية موزعة الاهتمامات، وعبر زمن طويل، ولاسيما إذا كان المتحدث يعيش معها الخلطة، ويشاطرها المسؤولية حديث لا يمكن أن يكون بريئاً. إذ للعواطف سلطانها وحقها المشروع، متى أمكن ترويض جماحها. ولقد فعل ذلك رسول الله صلى الله عليها وسلم مع زوج ابنته من أسرى بدر، ولكنه لم يستبد، بل استشار الصحابة، فكان أن أطلقه ورد قلادتها التي ورثتها من أمها (خديجة)، فعل ذلك، وهو يعلم أن الأسير سيقضي ما التزم به لقريش، ثم يعود مسلماً. والحديث عن عالم وأديب وتربوي وإعلامي، لم تشغله عوارض المرض ولا تعدد المسؤوليات عن أن تكون له يد مع العلماء والأدباء والإعلاميين عبر التأليف والصحافة والإذاعة والتلفاز، إضافة إلى عمله في قطاعات خيرية وإعلامية متعددة حديث متشعب، وهذه الإسهامات المتنوعة، يتعذر تناولها في حديث مقتضب، ومن ثم لابد من التقاط زاوية من نشاطاته، ومحاولة تغطيتها وفق المتاح. ولأن التنازع بين المهمة والوقت يحسم دائماً لصالح الوقت دون النظر إلى المهمة فإن ذلك مؤذن بالتخلي عن جوانب مهمة في حياة المدروس، وتناول جهود الشيخ (عبد العزيز المسند ١٣٥٣هـ - ...) العلمية والعملية يستدعي تصور الحواضن المعرفية التي أسهمت في تشكل الذهنية والمعرفية، فما من مترجم أو مؤرخ لعالم إلا ويلم بشيوخ المدروس ومقروئه، ذلك أن مفاتيح الأديب ما يقرؤه.

و(المسند) يتوفر على إمكانيات أدبية تضارعها إمكانيات أخرى، ليست بأقل أهمية منها، وإمكانياته الأدبية، لم تبرح أرض المحافظة، والفرق بين المحافظة والتجديد كالفرق بين المحافظة والتقليد. وكل منشأ في التراث تشده أمراسها إلى شوامخ القيّم الفنية والدلالية، بكل ماهي عليه من جمال وجلال، وكثير من جيل التأسيس المعرفي يصعب عليهم التخلي عن انتمائهم ومكتسبهم. والراصدون للحياة الأدبية في المملكة يوزعونها بين أجيال ثلاثة.

-جيل الرواد.

-وجيل التأسيس.

-وجيل الانطلاق.

ولما كانت المملكة مجموعة مناطق متفاوتة، فقد تم توحيدها إقليمياً بعد معركة التكوين التي خاضها الملك عبد العزيز رحمه الله وجاءت معركة البناء لتوحيد البلاد علمياً وأدبياً، وكل متحدث عن مرحلة ما بعد التكوين يجعل منطلقه أدباء الحجاز. وقد تكون هناك إيماءات إلى ماطق أخرى .. وجيل الرواد تتنازعهم سمتا: التقليد والمحافظة، مثلما تتنازعهم أنواع الإبداع. أما جيل المؤسسين فهم الذين تواصلوا مع أدباء مصر والشام ممن واكبوا النهضة التعليمية في الحجاز، وإذ كان (المسند) حاضر التواصل مع أدباء مصر والشام، لانتقاله بالقوة من نجد إلى الحجاز، حين عزم الملك عبد العزيز على النابغين من أبناء نجد باستكمال دراستهم، وبهذا اللحاق المبكر تشكلت مشاربه من ينابيع التراث الإسلامي، ومما جد في الساحة الأدبية والتعليمية والإعلامية، ومن هذا الجيل ومعه تشكلت شخصية (المسند) العلمية والأدبية، وهو قد أدرك نهايات جيل الرواد وبدايات جيل التأسيس، ولما لم يكن جيل التأسيس على وتيرة واحدة، فقد تنازعتهم تيارات أدبية وثقافية. فطائفة منهم سارت باتجاه الانطلاق والتفاعل الواعي مع المستجد الأدبي والاجتماعي، فيما سار آخرون باتجاه الرواد، متمترسين وراء كتب التراث وأنماط الحياة

---

(١) تاريخ المقال: ٧/ ٦/ ٢٠٠٥

السائدة، وبقيت طائفة أخرى في موقعها محققة ذاتها الواقعية. ولأن (المسند) ممن لم يضعوا كل بيضهم في المشهد الأدبي، فإنه مقل لا يقدر أحد على تصنيفه. لقد اشتغل في مواقع كثيرة، وكان عملياً أكثر منه تنظيرياً أو كتابياً، والمتحدث عن جوانبه العملية سيجد الشيء الكثير، ولاسيما في قطاع الجمعيات الخيرية والمجال التعليمي. وفوق تأثير المهمات العلمية والتعليمية، امتدت إليه الوسائل الإعلامية، فاستجاب لها. والعمل الإعلامي وإن كان يستمد نجاحاته من الخلفيات الأدبية والثقافية فإنه يبتعد بها عن الصياغة الأدبية والتأنق الأسلوبي، ليقربها إلى العامة أكثر من زلفى.

وإذ يكون العملُ الخيريُ والتوعيةُ الإعلاميةُ والعملُ الإداريُ ممارساتٍ عمليةً مهمةً، إلا أنها تأتي على حساب الأداء الأدبي إنشاءً ودراسة. ولقد قلت ذات مرة عن شاعر لم يأبه بالموهبة، ولم ينقطع للإبداع إنه (شاعر مع وقف التنفيذ)، فإنني أقول عن المسند: (إنه أديب مع وقف التنفيذ)، بمعنى أنه يملك الاستعداد، ويتوفر على الثقافة والإطلاع، ولكنه لم يشأ استغلال هذه الإمكانيات وحصرها في حقل معرفي واحد، بحيث يُعرف في الأوساط الأدبية كما عُرف غيره من نقاد: منظرين أو مطبقين، ومن شعراء أخرجوا للناس أعمالهم الشعرية، أو سرديين أخرجوا للناس أعمالهم السردية. لقد جعل الإمكانيات الأدبية مساندة للعمل الإعلامي والتأليف الاختياري، والمقالة الصحفية.

وحين نقول بأن ممارسة (المسند) للكتابة بشقيها التأليفي والمقالي تأتي حسب الفراغ والرغبة، نقول بأنها مرتبطة بلغة تراثية علمية، لا يشوبها لحن ولا عامية ولا عجمة. بل أكاد أجزم بأن تأسيسه وتأصيله لآليات اللغة العربية لم يكن عبر الدرس الأكاديمي المتخفف، وإنما كان تأصيلاً عبر حلقات الدرس التقليدي.

وهو تأصيل يعتمد على الاستظهار والتطبيق. وتراثية (المسند) تمس المكتسب وطرائق الأداء ومجالات التناول، وتلك الصفات الثلاث حين يقع الأديب تحت طائلتها، يكون ذا سمة محافظة وليست مقلدة.

والأدباء المؤسسون الذين بدأ معهم (المسند)، ثم فارقهم، يتنازعهم العمل التأليفي وممارسة التعليم والتعلم، إذ لم تكن عندهم مراحل فاصلة، فهم طلبة وطلاب في آن، على حد: (رهبان في الليل فرسان في النهار)، وقد لا يواكب ذلك تحول سريع، فالمؤسسون والرواد من أكثر الأدباء أناة، فمشيهم لا ريث ولا عجل، ووعي الآخر بهم وعنهم يتشكل على ضوء اهتمامهم، إذ هناك علماء برزوا من خلال مؤلفاتهم، وآخرون برزوا من خلال إسهاماتهم العلمية أو العملية. و(المسند) وإن أسهم في التأليف، إلا أنه لم يشأ أن يكون مرتهناً لهذا الجانب، ومن ثم تعددت حقول اهتماماته، وتعذر حصره في مجال من المجالات. وباستعراض إسهاماته التأليفية والمقالية والبرامجية الإعلامية، بوصفها وثائق إثبات لأدبية النص عنده، وبخاصة برنامجه التفسيري الممتد لعشرات السنين، نجد أنه يمتلك لغة توصيلية، تأخذ حظها من الأدبية، غير أن التأنق الجمالي والانزياح المغرق لا يشكل أولوية عنده، فيما تقوم سلامة اللغة ووضوحها وأدبيتها. والمتابع لمقالاته وكتبه لا يجد اختلافاً بيناً بينها، إنه يكتب كما يتحدث، ويتحدث كما يكتب. وهذا باستثناء برنامجه (منكم وإليكم) الذي يتخذ طابع المشورة والنصيحة لشريحة من المجتمع، مما يتطلب تفصيح العامي وتعميم الفصيح. والفرق بين الكتابة والشفاهية واضح، وكل كاتب للمقالة لا يرى نفسه محترفاً، لا يخضع للأسلوب الصحفي، ولا يجد حرجاً من توحيد كتابته التأليفية والصحفية.

وعنصر التنافس حين لا يشكل عاملاً رئيساً يظل الكاتب مشغولاً بتوصيل الرسالة وسلامة الوسيلة. وأياً ما كان الأمر فإن (المسند) بوصفه موضوعاً يتنازعُه العلماء والأدباء، فهو على شاكلة (الطنطاوي) الذي آلمه نفي الفقهاء والأدباء له معاً، فإذا خاض

معترك الفقهاء قيل له: ليس هذا العش عشك فأدرج، وإذا خاض معترك الأدب شاح الأدباء بوجوههم عنه، وهو الأديب المتمكن والفقيه المتبحر. وتلك إشكالية المثقف، فهو يأخذ من كل شيء بطرف، وقد يعرف كل شيء عن شيء، ويعرف شيئاً عن كل شيء، ولكنه مع تعدد اهتماماته، وتنوع مجالاته، لا يقيد هواه في الحقول التي يلم بها، إذ لا يتلبث فيها إلا قليلاً.

واستعراض عموده الأسبوعي في جريدة (القصيم) سابقاً، وفي جريدة (الجزيرة) لاحقاً (ما قل ودل) يكشف عن كاتب يتوفر على لغة أدبية مشوبة بالعلمية، وعلى خلفية ثقافية ذات مصدرين قويين: الفقه والثقافة، والمصدر الثقافي يستمد لحمته وسداه من كتب التراث الأدبي والتاريخي. ولهذا يوصف مقاله بالنص الثقافي، وليس بالنص الإنشائي، والكتبة المحترفون تغلب عليهم الإنشائية، ومن ثم لا يصنعون ثقافة، ولقد عُرفت شخصيات كثيرة، تهتم بثقافة النص، نجد ذلك عند معالي الدكتور الخويطر، وعند الأستاذ أبي عبد الرحمن بن عقيل الظاهري، وعند الشيخ عبد الله بن خميس، وعند آخرين من شرق البلاد وغربها. لقد سبق لداته من نجد حين تشكل وعْيُه الصحفي من خلال صحافة الحجاز، يوم أن كان يدرس هناك، كما أتيح له العمل فيها مصححاً ومراجعاً، وهي بحق صحافة الأدب الحي، إذا لا يلي أمرها إلا الأدباء المؤصلون لمعارفهم، وصحافة الأمس بهذه الكوكبة أصبحت ذات صلة بالعلم والأدب، فيما جاءت صحافة اليوم ذات صلة بالفن الصحفي والخبر التسجيلي والتحليلي، حتى كادت تنفصل عن أدبية النص، ولم يعد النص الأدبي مطلب القارئ الذي يريد من الجريدة أن تكون إخبارية تتابع الحدث ساعة بساعة، ومادة النخبة ليست القضية الرئيسة في صحافة اليوم. وهي وإن توفرت فإنما هي لشريحة محدودة، ولسنا بصدد الموازنة بين صحافة الأمس واليوم، إذ البون شاسع، وعالم اليوم يكاد يختلف كلية عن عالم الأمس، وصحافة اليوم تشكل (إمبراطورية) متعددة الإمكانيات، فهي بما هي عليه من قدرات متنوعة تلاحق المتغيرات، وتستخدم أحدث الوسائل وأكثر الإمكانيات. وما نود الإشارة إليه التأكيد بأن صحافة الأمس تهتم بالمادة واللغة ودسامة الموضوعات ومحدوديتها، ومن فتحوا عيونهم عليها طبعتهم بطابعها الموضوعي الصرف، البعيد عن فنيات الصحافة من حيث الإثارة والاستمالة والإمتاع، إنها صحافة الفائدة وحسب، والشيخ (المسند) في مطلع شبابه عاش تلك العوالم، فكان الكاتب الموضوعي البعيد عن الإثارة.

وهو إذا كتب المقالة الأدبية والاجتماعية فقد كتب الشعر، وكم قلت بأن الشعر ملكةٌ واقتدار، فأصحاب الملكة شعراء يحتاجون إلى ثقافة وموفق، أما المقتدرون فهم أولئك الذين خالطوا الشعر وحفظوا الشعر ودرسوه وألفوه وألفوا عنه، ثم قالوه في أضيق نطاق، وما أفرج عنه من مقطوعات ظفرت بها ابنته (الدكتورة غادة)، تشي بأنه ناظم مقتدر، وليس بشاعر، وهو قد أراح الدارسين والنقاد فقال بالنص (أنا لست شاعراً بالملكة ولا أقرض الشعر وإن طلبته قلته)، وما أكثر الذين قالوه اقتداراً، ثم انصرفوا عنه، لإيمانهم بأنه ملكة قبل كل شيء، من أمثال (طه حسين) و(حمد الجاسر) و(المنفلوطي) وعشرات آخرين، لقد توقف عدد من الأدباء عن نظم الشعر، نجد ذلك عند (أحمد محمد جمال) و(أحمد عبد الغفور عطار) و(راشد بن خنين) وهؤلاء متفاوتون في الإمكانيات، وقد يكون لسان حالهم أن جيده لا يقدرون عليه ورديئه لا يقبلونه لأنفسهم، أو أنهم كما الشافعي الذي قال:

ولولا الشعر بالعلماء يزري

لكنت اليوم أشعر من لبيد

وفي مجال التأليف فإن له أكثر من عشرة كتب، تمثل التنوع الثقافي، وهي بالجانب الشرعي ألصق، وقد يكون الدافع إلى تأليفها الشعور بأهمية القضية، ويهمنا منها ماله مساس بالثقافة والأدب، ومن بينها (الأندلس تاريخ وعبرة) و(الصين ويأجوج ومأجوج) و(سفينة الصحراء)، وقد تحسب هذه المؤلفات الثلاثة على (أدب الرحلة) وإن كان المنهجُ وأسلوبُ العرض يختلفان شيئاً قليلاً عن ذلك. ففي الأول يعتمد على التاريخ الأندلسي، ويحاول إثارة المشاعر والبكاء على الأطلال، فالأندلس هو الفردوس المفقود. وفي الثاني يسجل مشاهداته فيما سماه العالم المجهول، ويميل مع من يرون أن يأجوج ومأجوج عالم إنساني حي. فيما يحكي الثالث رحلة العقيلات على ظهور الجمال، ولقد طبقها مع لداته من هواة الرحلة كما لو كانوا من العقيلات وسلكوا طريق العقيلات المتجه نحو الشمال، وقد دوَّن مراحلها، وجسد ما كان يفعله المسافرون على الإبل، ووثق كل ذلك بالوصف والصور، ويعد كتابه هذا من أدب الرحلة التسجيلي.

ولأنه يحمل هم استحضار القدوة الصالحة، فقد قدم الشخصيات الإسلامية والأحداث التاريخية، جاء ذلك في كتب ثلاثة: (المنهج المحمدي) و(إمام الصابرين) و(متى ينتصر المسلمون) والواقع المعاش بأمس الحاجة إلى قراءة الأحداث التاريخية وسير أعلام النبلاء للاقتداء ومعرفة رجالات الفكر والعلم، وفي نهاية المطاف: من يكون عبد العزيز المسند العالم والأديب والكاتب والإعلامي والإداري والتربوي؟ إنه خليط من هذا وذاك وسيظل مادة حديث لكل من راقته الشخصيات المتعددة المواهب والاهتمامات نحسبه كذلك، ولا نزكي على الله أحداً.

النص الهادف تربيةٌ وتهذيبٌ .. ! (١) (١)

كل عالم أو مفكر أو أديب، يجب أن يسأل نفسه، قبل أن يضع سواداً على بياض: من يكون؟

وتساؤله لا يكون - بالضرورة - عن انتمائه الإنساني، فتلك نزعة مادية نوعية، تدخل ضمن مدلول ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ والمسلم يعي الحق الإنساني في سياق الحق العقدي، وقد لا يترتب على ذلك كبير فائدة، وإن كان قاسماً مشتركاً، يحل كثيراً من الإشكاليات. ومدار الكينونة الأهم إنما يكون عن الانتماء العقدي والمذهب الفكري، ليتم على ضوء ذلك تحديد هم الإنسان ومساره وحراكه الثقافي. فهو إذ يكون إنساناً بإزاء أمم أخرى: طائرة أو سابحة أو زاحفة أو ماشية، فإنه يكون منتمياً إلى (عقيدة) تفرض عليه الاستجابة لأمرها والعمل على إشاعتها، وليست كذلك بقية الأمم غير البشرية التي عُرضت عليها الأمانة، فأبت حملها، وأشفقت منها، وحملها الإنسان، لظلمه وجهله، فكان أن حُمِّل مسؤولية التكليف. وكل إنسان ألزمه الله طائره في عنقه يكون ملتزماً بالانتماء، حتى (اللا منتمي) يعد منتمياً إلى عدمية الانتماء، لأنه بالتخلي وبالالتزام يصبح صاحب موقف مضاد للانتماء أو موافق له، والمسلم ينتمي إلى عقيدته المبلغة إليه بنص قائم محفوظ، وهو في عقيدته بإزاء أناسي آخرين: يهوداً كانوا أو نصارى، يحملهم ولاؤهم وعملهم على عدم الرضى إلا باتباع ملتهم، وتَمثُّل العقيدة يعني النهوض بمتطلباتها السلوكية: تلبساً ودعوة.

وحين يتحدد انتماء الإنسان بطوعه واختياره، أو بولادته، وأسلمة أبويه له، تتحدد مهماته: الإبداعية والعلمية والعملية، وتتراتب تلك المهمات في سلم الأهمية، وليس هناك أهم من إشاعة القيم السلوكية: قولاً وعملاً، إذ المسلم مطالب بالجمع بين الحسنيين: القول السديد والعمل النافع، ولهذا كبر مقتاً عند الله أن يقول المسلم ما لم يعمل، ويكون في الدرك الأسفل من النار حين يكون منافقاً يظهر الإسلام ويبطن الكفر. ومهمة المسلم في الحياة: ذاتيَّة وغيرية. ومن الغيرية الاهتمام بأمر الإسلام، وحب الخير للمسلمين، ومجالات الاهتمام والحب كثيرة من أهمها: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله، والنصيحة لله ولرسوله ولِئولي الأمر، والحب في الله، وكف الأذى، وفي الحديث: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده**». وعلى ضوء ذلك يكون (تهذيب السلوك) جزءاً من مهمة المسلم المقتدر، وهو هم مشترك لكافة المؤسسات: التربوية والتعليمية والتثقيفية والأدبية.

و(الأدب الإسلامي) بكل أبعاده: الإبداعية والنقدية أدب هادف ملتزم، وليس ملزَماً، ولهذا فهو يحمل رسالة التوعية والتهذيب، وهو إذ يحمل هم التهذيب السلوكي، فإنه في الوقت نفسه يحمل هم تربية الأذواق وإمتاعها، وواجبه أن يحفظ التوازن بين أدبية النص السردي وشعرية النص الشعري والمضامين الأخلاقية. فلا تجعله مهمةُ يدعُ الأخرى كالمعلقة، ذلك أن مقاصد الأدب الرفيع تنمية الأذواق، وإمتاع العقول، وإشباع العواطف. والأذن تعشق قبل العين أحياناً، والصوت الجميل مطلب إسلامي وإنساني، وفي الحديث (ليس منا من لم يتغن بالقرآن) وإذا كان الشعر إنشاداً، فإن القرآن ترتيلاً وتغنياً، والله قد أمر بترتيل القرآن.

والمشركون تواصوا باللغو وبعدم السماع أملاً في الغلبة، وكل ذلك للحيلولة دون التأثير الجمالي للأصوات بوصفها تصدع بالنص الهادف، وجمال اللغة بحسن الصياغة،

---

(١) تاريخ المقال: ١٤/ ٦/ ٢٠٠٥

وسبيل ذلك الجرس والإيقاع والتقفية والسجع غير المتكلف والتوازي، والنص الهادف يحافظ على الجمال والجلال، حين يمّارس التهذيب والتربية.

ولا أحسبه بمبادرته للتهذيب السلوكي والتربية الذوقية يدّعي الاستئثار بهذه المهمة، ولا يعني الانقطاع لها، لأنه إبداع فني إمتاعي بالدرجة الأولى، وكم هو الفرق بين الفن وسائر المعارف الإنسانية. وهو إذ ينهض بالتربيتين: السلوكية والذوقية فإنما يتخذ طرقاً لا تعتمد الأسلوب الوعظي المباشر، ولا لغة العلم التوصيلية. فالأدب العربي منذ عصوره الأولى، حتى يومنا هذا، ينهض بعضُ شعرائه وأدبائه بهذه المهمات، ثم لا يكون ذلك على حساب اللغة الأدبية. ولقد قيل: (أبو تمام والمتنبي حكيمان والشاعر البحتري) وذوائق النقاد تختلف، فحكيم المعرة وصف شعر (المتنبي) بالإعجاز ووصف شعر (البحتري) بالعبث، والنقد الأخلاقي الممتد منذ العصور اليونانية والمدن الفاضلة حتى العصر الإسلامي الذي فرق بين شعراء الغواية والهداية، وأسس للكلمة الطيبة جزءاً من مهمة (الأدب الإسلامي)، وشاهد على عمقه الزمني. وما تحرف الأدباء لإبداع النص الهادف، وتحيزوا لمفاهيم الأدب الملتزم ومقتضياته إلا من بعد ما اختُرقت أجواءُ الأدب العربي بتعديات على المقدس والمعصوم والأخلاق، ولوثت فضاءاته، ففي ظل هذه الظروف المتردية أخلاقياً وفكرياً، وفي ظل التمرد على القيم الفنية واللغوية لزم نهوض الخيرين لتدارك الأمر، والخلوص من لوثات الفكر وتردِّيات الأخلاق، وإذ تعمدت وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة إفساد الأخلاق والأذواق فإن واجب الأدباء الإسلاميين إصلاحها، وما من عاقل رشيد يشك بأن إبداعات بعض الحداثيين وطائفة من الإعلاميين تضمر إفساد السلوك، فـ(الحداثة) المنقطعة الفوضوية أدت إلى فساد الأذواق والأخلاق، وترديات النصوص تتطلب صحوة متوازنة، تعيد الأدب إلى مساره الصحيح، وتقيل عثرته.

وما تخلف (الأدب العربي) عبر عصوره عن النهوض بمهمة التهذيب والتربية، وإن واكب ذلك جنوح فردي تعهده النقاد الأخلاقيون بالتقويم، ولو نظر المتابع الواعي إلى موسوعات الشعر العربي القديم والحديث لتبين له أن ما يلتمسه في (النص الهادف) نثار في تلك الموسوعات، وكل الذي يمتاز به (الأدب الإسلامي) بوصفه وعاء ذلك النص أنه يحول دون اختراق أجوائه بما يسيء إلى السلوكيات المهذبة، والذوقيات السليمة، والأفكار المستقيمة. وما تفرق الذين غمرتهم النصوص المدانة إلا من بعد ما جاءهم مصطلح (الأدب الإسلامي) ببيانه وحذرهم من مغبة القبول بالكلمة السيئة، وما كان هدف الأدب والأديب إلا إشاعة الكلمة الطيبة والقول السديد، ومن تصور الأدب الإسلامي غير ذلك، فقد وهم وجار في حكمه. ولهذا يكون تهذيب السلوك جزءاً من رسالته، لا ينقطع لها، ولا ينقطع عنها، إذ هو في الحالين يخل بمهمته الأخلاقية وأدبيته الأصيلة، لكونه إبداعاً قولياً له رسالة إصلاحية، وبرَاعته في حفظ التوازن، إنه يعرف كيف يتناول المهمة الأخلاقية، دون أن يكون ذلك على حساب فنيات الإبداع الشعري والسردي. وكل الذي يفصله عن (الأدب العربي) شعوره بأهمية شرف المعنى، وهو فيما سوى ذلك أدب عربي بكل ما يعنيه ذلك المصطلح من دلالات ومقتضيات، نقول هذا لنثبت أن (الأدب العربي) يحمل هذا الهم الذي أدركه الخليفة الراشد (عمر بن الخطاب) حين ندب إلى حفظ الشعر، بوصفه ديوان العرب.

وإشكالية الأدب الإسلامي، أن الذين يتلقون مصطلحه، يتصورونه شيئاً آخر، وأنه مختلف جداً عن سائر الآداب، وأن إسلاميته على حساب شعريته وأدبية سرده. وما ساور أحداً من دعاة الأدب الإسلامي أيُّ شك بأهمية الشعرية على قواعدها والأدبية على أصولها. وما شهدت المشاهد الأدبية صراعاً خارج أطر القضية، مثلما نشهده حول ذلك

المصطلح. ومعضلة المصطلحات الجديدة أنها تستقر في الأذان منذ أول يوم، ثم لا يكون من اليسير تغيير ما استقر، و(الأدب الإسلامي) استقر على غير مراد ذويه، ولما يزل يعاني من هذه المفاهيم الخاطئة، ومنشأ ذلك كله أزمة المصداقية، فلو أن خصومه تلقوا مفهومه من ذويه، ولم يفتروا مفهوماً غير مقبول، لكان ذلك مؤذن بقبوله والتفاعل معه، وعذر المتلقي أنه تلقاه من غير مصادره المشروعة، فكان الخوف من التصنيف والخوف على الأدب مرتبطاً بالمفاهيم الخاطئة، والمشفقون على وظائف الأدب وسماته من الأسلمة، كالذين يروجون تحفظاتهم وتخوفهم من أسلمة العلوم الإنسانية، كعلم النفس والاجتماع، وما دروا أن الأسلمة لا تمس قوانين العلوم ولا جوهر الأشياء، وإنما تطعِّمها بمقاصد الشريعة، وإذ يعتري الأدب سوءُ تعبيرٍ من الخصوم، فإن للمقصرين من الأنصار دوراً في غبش الرؤية، ولا أظن المقتضى المصطلحي مسؤول عن الجنايتين.

فالمصطلح ذو شقين:

-أدب يقتضي الأدبية والشعرية.

-وإسلام يقتضي الاستقامة على الحق.

ومن هنا يتبين لنا اضطراب المفاهيم فيما تتداوله المشاهد الأدبية.

ولو أراد المناوئون فهم (الأدب الإسلامي) على ما هو عليه، لأعدوا أذهانهم، واستعدوا لقبول الحق، ثم ما وسعهم إلا مناصرتُه، والعملُ من خلاله، ذلك أنه أدب بكل ما تعنيه كلمة الأدب، وإسلامي بكل ما تقتضيه كلمة الإسلام. وليس في طرح هذا المصطلح ما يثير التساؤل، وإنما التساؤل هو في تصوره شيئاً آخر، يغاير (الأدب العربي). وما هو إلا أدب كأي أدب هادف، يستمد لحمته من رسالة حضارته التي ينتمي إليها. والإسلام حضارة شمولية، لا تدع شيئاً أتت عليه إلا تركت فيه نصاً ظاهر الدلالة أو مضمرها، تُستلهم الأحكام من ظاهر النص القطعي أو من دلالته الاحتمالية، ونظرية التلقي والتأويل تحدد المفهوم المباشر أو المفهوم المحيل إلى المقاصد والمقتضيات بمساندة القياس أو الاستحسان، وعبر آليات الاجتهاد، وعلى ضوء الأصول والقواعد التي يحيل إليها فقهاء الأمة عند غياب النص بمفهومه الفقهي. فـ(النص) عند الفقهاء ما لا يحتمل إلا دلالة واحدة، ولهذا يقولون: (لا اجتهاد مع النص)، وعند غياب النص أو احتماله لعدة دلالات، يتوسلون بالمقاصد والأنساق والسياقات والأحوال، ويأتي من علماء الأمة من يستنبط الأحكام على ضوء المقاصد، وأدب كل أمة يسبح في فضاءات حضارتها، بحيث يستمد لحمته وسداه من مقاصدها، ومع أنه جزء مكمل لتلك الحضارة فإنه لا يكون متماثلاً مع الأجزاء الأخرى. لقد جاء القصص القرآني متوفراً على أحسن الأداء ومتضمناً لأحسن المضامين، وفي ظلاله سار القصص النبوي. والكلمة الطيبة تضطلع بمهمة التهذيب والتربية وتحتفظ بجمالياتها الإبداعية، وليس على الإبداع غضاضة إذا توفرت مقوماته لدى المبدع حين ينهض بمهمة التهذيب السلوكي والتربية الذوقية والأخلاقية، ومع تداخل المهمات بين الفنون والمعارف يعرف كل قوم مشربهم.

فعلماء التفسير والحديث والفقه والتاريخ والفكر والأدب يعرفون رسالتهم وأبعاد فنهم، وشرط نصِّهم، ومع افتراقهم في الاستخدام اللغوي والمؤثرات الجمالية فإن للجميع غاية واحدة، تحددها آيات ﴿وَاعبد رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ و ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعبدونِ﴾ و ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ومع هذا التنصيص يجدون أنفسهم أمام حاجاتهم البشرية التي تجسدها آيات: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ

مِنَ الدُّنْيَا﴾ و ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾. إن الإسلام يقوم على الوسطية والتوازن، يعطي الجسم حقه، ويعطي الروح حقها، ولا يبخس من الحقين شيئاً، كما أنه بتوازنه لا يقبل الغلو ولا التطرف ولا الانقطاع للعبادة، ويؤكد على الرفق عند الإيغال في الدين. وليس في الإبداع نصٌ لا يحمل رسالة، وليست هناك حضارة تقبل نصاً ينقض عراها عروة، عروة ويفسد أخلاق ذويها. وما النص الهادف إلا بعض مطالب الأدب الإسلامي.

النص الهادف تربية وتهذيب .. ! (٢) [١]

ومهمة (الأدب الإسلامي) ليست وقفاً على الفائدة الخالصة، وإنما هي خليط من الفائدة والمتعة، بل أكاد أجزم بأن الهدف الأسمى يقف حيث إشاعة الكلمة الطيبة، وتمكينها من النقاد عبر الكلمة الشاعرة أو النص الأدبي، وحين يحمل المبدع والناقد هذا الهم، يكون التهذيب السلوكي والتربية الذوقية عفويين يعبقُ بهما النص دون تعمُّل، وما من مبدعٍ متضلع من تراث حضارته، إلا ويكون إبداعه متعالقا مع مخرجات ذلك التراث، ذلك أنه تُراث يعيش الخلطة مع النص المقدس والحكمة الموحاة، وهو نتاج ثقافة إسلامية مهيمنة، لا يحيد عنها إلا هالك، وأثرها بادٍ حتى على العرب من غير المسلمين. وما تفرق أدباء الأمة إلا من بعد ماجاءتهم حضارة الغرب، وهم فارغون من كنوز حضارتهم، إذ ما من مَحْمَدة في سائر مجالات الحياة إلا وهي ضالة المسلم، وكيف يفتقر الإسلام إلى قيم الغير؟ والله قد أكمله وأتم نعمته ورضي الإسلام ديناً. وعلماء التربية والنفس والاجتماع الفارغون من معارفهم، يجوسون خلال معارف الغرب، ويأخذون بأسوئها، وما في كتاب الله وسنة نبيه خير مما يجمعون، ومع ذلك فليس هناك ما يمنع من الاستفادة المشروعة من كل طارئ أياً كان مصدره.

إن مهمة المبدع أن يجعل من بيانه سحراً حلالاً، لا يقود إلى بنيات الطريق ومتاهاته، وإنما يسلك بالمتلقي الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم، وليس في ذلك ما يضير، فالقرآن الكريم الزاخر بالقيم الأخلاقية السلوكية والدعوية، جاء في ذروة البلاغة والفصاحة والبيان، وكان إعجازه البياني مسرح الأدباء، ومجال البلاغين، محتفظاً بمكانته التي لا تنازع، ومن تصور أن شرف المعنى محسوبٌ على شرف اللفظ، فقد تقوَّل على الأدب الأخلاقي كل الأقاويل.

وحين يؤكد الناقد الإسلامي على أهمية الاضطلاع بمهمة تربية السلوك، واستثمار آي الذكر الحكيم وصحيح السنة النبوية وسير السلف الصالح، فإنه لا يغمط الشعرية ولا الأدبية شيئاً من حقهما، ومناشدة التهذيب والدعوة إلى مكارم الأخلاق، لا يستجيب لها إلا الذين أشربوا في قلوبهم حبَّ القيم الأخلاقية السامية.

ومهمة تهذيب السلوك مهمة كل مقتدر، وهي لذلك بعض مهمات الأدب الإسلامي، ولكل فن مسؤولية خاصة، ومسؤوليات مشتركة، والنهوض بالمهمة المشتركة لا يَفْترض التجانس بين التخصصات، بحيث يكون الأديب على ألق الشعر وسديد القول. ونكد الشعر يروضه الصدق ولا يغني عن صدقه كذبه، كما يقول (البحتري).

إن باستطاعة القاص والروائي والشاعر أن يتوفروا على سائر القيم السلوكية، دون الإخلال بالشعرية والأدبية، ودون الخروج بالأدب عن خصوصيته الإبداعية وسمته الجمالية. ومن قعدت به إمكانياته الفنية والجمالية، لم تسبق به دلالته الدينية، وليس أضر على (الأدب الإسلامي) من ذلك المفهوم. لقد شاعت بين الطوائف والأحزاب والفئات أخلاقيات المداهنة وإعطاء الدنية، فكان أن هبطت الفنيات، وفقدت الضوابط، وأصبح كل مفرط محمي بمظلة الموالاة. ومن الخير للأدب الإسلامي ألا يقبل شرف المعنى دون أدبية النص أو شعريته. والمجاملة على حساب الثوابت إضاعة للقيم الباقية. والخائفون على خصوصية الأدب - وهو تخوف في محله - يجب أن يعرفوا أن المصطلح يسبق في تركيبه إلى الأدبية، فالفقيه والواعظ والنظَّام لا يكون أحدٌ منهم أديباً، ولا تصدُق على ما ينحتونه من القول سمةُ الأدب، وإن كانوا جميعاً يحملون هم تربية السلوك.

---

(١) تاريخ المقال: ٢١/ ٦/ ٢٠٠٥

والأديب المسلم يدرك مسؤولية الكلمة ومهمة المبدع ورسالة المفكر، وطريق النفاذ إلى المتلقي عبر المحفزات الجمالية، فهو لا يطلق لقلمه ولا للسانه العنان، بحيث يقول الكلمة، ولا يلقي لها بالاً، وفي الحديث الصحيح (إن الرجل ليقول الكلمة لا يلقي لها بالاً تهوي به سبعين خريفاً في النار) وحديث (وهل يكب الناس على وجوههم في النار إلا حصائد ألسنتهم). وهو إذ يعي خطورة الكلمة، فإنما ذلك امتدادٌ لاحترام الإنسان. وهو حين يحرص على شرف المعنى يعرف جيداً القيمة الجمالية للكلمة وأثرها في إمتاع المتلقي واستمالته وإقناعه، وقدوته في ذلك (القرآن الكريم) الذي اعتمد في تأثيره وإعجازه على الجلال والجمال، فالجلال جمال معنوي كامن في النص، والجمال مدرك حسي، يتمثل في روعة النظم وجمال الصياغة والانزياح اللغوي والمجاز والإيجاز والاستعارة والتشبيه وسائر المحسنات اللفظية والدلالية. وليس هناك ما يمنع من توفر الجمال والجلال في النص .. ومع ما يكتسبه المتلقي في عوائد يحملها جمال النص وجلاله فإن الكلمة الطيبة الرقيقة الجميلة تسهم في ترقيق الطباع ولينها، كما المناظر الجميلة، فكلما خشنت المناظر خشنت الطباع، وحياة الصحراء والجبال ولوافح الرياح تخشن معها الطباع، وقد تصل بتأثيرها إلى حد الفظاظة والغلظة، وكلما رقت المناظر رقت الطباع، ولقد أدرك (يوسف) عليه السلام خشونة البادية وأثرها على الطباع، وحمد الله على خروجه من السجن ومجيء أهله من البدو، وكذلك بحث الفقهاء الموقف من (التبدي).

وعلماء الاجتماع يرون أن هناك علاقةً بين طباع البشر وطبيعة الجغرافيا التي يعيشون فيها، وحتى التعامل مع المخلوقات له انعكاساته، وفي الأثر (ما من نبي إلا رعى الغنم)، ذلك أن طبيعة الغنم الهدوء والنظر إلى مواطن الأقدام، بينما رعاة الإبل الغالب عليهم الخشونة والغلظة، وإذا ألف الإنسان سماع الكلمات الرقيقة الجميلة الطيبة تركت في نفسه أثراً حسناً، ولهذا ندب الإسلام إلى القول السديد قال تعالى: ﴿وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ وقال: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾وقال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ وقال: ﴿لاَ يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ﴾، وفي الأثر: ليس المسلم بالطعان ولا باللعان ولا بالمتفحش. فالكلمة الطيبة تسهم في تهذيب الأخلاق، وإن لم يتعمد المبدع ذلك، وتربية السلوك تأتي باستشعار المبدع، وتأتي كامنة في النص كما العبق.

و(الأدب الإسلامي) الذي يأخذ على عاتقه مهمات تربوية لا ينسى أبداً دوره الأصيل بوصفه أدباً، يعتمد الجمال والإمتاع، فإذا كان المعلمون والخطباء والوعاظ يحملون هم التربية السلوكية، ويجعلون ذلك كل همهم فإن الأديب الإسلامي يعرف أنه مشاطر بهذه المهمة، ينهض بها عفوياً وقصداً، ولهذا استوفى الدكتور (شوقي ضيف) الجانب الأدبي في شعر الزهد والوعظ وعده ظاهرة أدبية في عصور الازدهار، مع أن طائفة منه مأخوذة بالنظم والمباشرة .. ولما كان إنتاج (الأدب الإسلامي) محسوباً على الأدب فقد يضع كلَّ الاعتبار لتقييد نفسه في محيط الأدب لا يبارحه، بحيث لا يكون الأديب واعظاً أو فقيهاً، والذين يبررون تخليهم عن الانضباط الأخلاقي بحجة أن مهمتهم ليست وعظية ولا تربوية، يرتكبون خطيئة التفريط في شرف المعنى المعادل لشرف اللفظ، ويصادرون شطراً مهماً من وظائف الأدب، وهي التأديب، وفي الأثر غير الصحيح (أدبني ربي فأحسن تأديبي) فكلمة (أدب) قبل أن تكون مصطلحاً إبداعياً، هي ممارسة تقويمية، وتهذيب السلوك كامن في المصطلح ذاته. لقد تجاوز الأدب الظاهرة (الرومانسية)، وبقدر إغراقه السالف في الأحلام والأوهام أغرق في (الأدلجة) والتسييس، والأدباء والنقاد

مسرفون في الحالين فـ(المتأدلجون) و(الرومانسيون) لم يتوفرا على مطلب الوسطية التي ينشدها (الأدب الإسلامي).

ولأنه كأي أدب عالمي يحافظ على أدبية السرد وشعرية النظم، وما يتطلبان من جماليات ممتعة ومستميلة ومقنعة، فإن الخلوص للتهذيب السلوكي قد يأتي على حساب الجماليات الإبداعية، وتلافياً لذلك لا يكون (النص الهادف) منقطعاً لمهمات العلوم الإسلامية، وإنما يحمل منها ما لا يؤثر على خصوصيته بوصفه أدباً بالدرجة الأولى، كما أنه لا يطالب المبدع أن ينقطع لأي مؤثر على فنياته، ولكنه يؤكد على سلامة النص من أي إخلال بالقيم الأخلاقية. وإذا اضطر المبدع أن ينطلق من قعر الواقعية فإن (الأدب الإسلامي) يود منه ألا يمارس الوصف والتسجيل المباشرين، فيقع في الحديث عن القاذورات الواجب سترها، ولا يترفع عن سفاسف الأمور، وينصاع إلى أدب الاعتراف المخل بالقيم. وكل من جنح إلى النص الواقعي فعليه أن يكون قدوته في ذلك ما قصه القرآن الكريم عن (يوسف) عليه السلام مع امرأة العزيز، لقد عرض لآثار لخلوة وفتنة النساء، وجاءت النهاية محققة انتصار الفضيلة، وكل أدب يحكم الصراع بين الفضيلة والرذيلة، ثم يجعل الانتصار للحق يعد أدباً إسلامياً، ولو ضربنا الأمثال بروائيين عرفوا بالواقعية السلوكية كـ(نجيب محفوظ) وآخرين حاولوا حفظ التوازن كـ(نجيب الكيلاني) لأدركنا كم هو الفرق بين مشيع للفاحشة ومحذر منها، وكلاهما اتخذ شخصياته وأحداثه من الواقع الاجتماعي، وتشابهت عندهم الأحداث ولم تتشابه المصائر والمآلات، مع أننا نتحفظ على بعض إبداعات (الكيلاني).

وكل أداء تقبله الأذواق السليمة، ولا ينعكس أثره السيئ على الأخلاق، ولا يثير الغرائز الحيوانية، يعد من الأدب المقبول، وإن لم يكن في خدمة الإسلام المباشرة والمنقطعة. وفي الذكر الحكيم ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ ذلك أن الإسلام يقدر النوازع البشرية، ومن ثم فإن مهمة المسلم عمارة الكون وعبادة الخالق وهداية البشرية والتمتع بالطيبات الحسية والمعنوية، لهذا يفسح المجال للمتعة واللهو البريء، وفي الحديث الصحيح: (إن الأنصار يعجبهم اللهو)، وحين نضع مثل هذه التحفظات وتلك الاستدراكات فإنا نود الحيلولة دون رغبات جامحة تريد من الكلمة الإبداعية أن تكون وعظية لا تبرح الوعظ إلى غيره أو لا توفر أدبية النص عند الإلمام بالوعظ. وكم هو الفرق بين الأدب الإسلامي والأدب الديني وأدب الزهد والرقائق والتصوف، إنه أدب لا يدعو إلى طائفية ولا إلى رهبانية، إنه أدب فكر وهم وإحساس إسلامي، يلتمس فيه القارئ نصاعة الإسلام ونقاءه وسمو أهدافه ونبل غاياته.

إنه أدب عالمي يتسع لكل من يشهد ألا إله إلا الله، ويعتمد لغة الأمة وأخلاقياتها السامية، ويرفض العهر والكفر والتنازع وإثارة الضغائن، وكيف يحتويه شيء من ذلك، وهو يتخذ من خُلق الرسول - ﷺ - قدوة ونبراساً، وكان خُلق الرسول - صلى الله عليه وسلم - القرآن، وأسلوبه اللين، ولقد أشاد القرآن بصفاته ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾.

إن (الأدب الإسلامي) وهو يحمل هم الإسلام الدعوي، يحتفظ بكل مقومات الأدب، فلا يساوم على شيء منها، ولا يقبل من الضعفاء أن يكونوا شواهد في سوح الأدب، إنه الأدب الرفيع فناً ودلالة، كل الذين يتوسلون إليه بالمعاني الجليلة لا يقبلهم، إلا إذا توفروا على جمال النص وشرطه الإبداعي.

وحين يستبطن المبدع الإسلامي هم التربية السلوكية، والذوقية، يهيئ لها مجالاتها، فالقصة والرواية والسيرة الذاتية وأدب الرحلة وسائر السرديات والأنشودة والقصيدة والمسرحية (الشعرية والسردية)، كلها مجالات صالحة للتهذيب، وحين لا يحمل المبدع ذلك الهم فلا أقل من أن يتحامى الإساءة إلى المتلقي. لقد حث الإسلام على القول السديد، فإن لم يكن، فلا أقل من الصمت، وحث على تجنب القاذورات، فإن لم يكن بد من ذلك، فلا أقل من الستر، وتجنب المجاهرة بالمعاصي، وفي الحديث: «**كل أمتي معافى إلا المجاهرون**» و«**إذا بليتم بهذه القاذورات فاستتروا فإن من بدت لنا صفحته أقمنا عليه الحد**» وفي الذكر الحكيم: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾، إن الكلمة مسؤولية، والمسلم مرتبط بها ومحيل إليها.

شاعرية مع وقف التنفيذ .. ! [١]

لن أعيد مقولة: الشعراءُ أربعة، بحيث أضعُ شاعرنا في موقعه المناسب، فلربما تأخذني العاطفة، لأقول: إنه يجري ولا يُجرى معه. وهو فيما أعلم من أزهد الناس بالثناء، ولو كان الثناء شهادةً بما عُلم.

ولن أستذكر ما قلت من قبل، وكان مثار إعجاب البعض، وهو أن الشعر: موهبة أو اقتدار أو هما معاً. وكم من أدباء ألفوا الشعر: قراءة وتدريساً ومناقشةً وتحكيماً، فقالوه اقتداراً، ولم يقولوه موهبة، فجاء موزوناً مقفى، يحمل إيقاعاً ودلالة، ولكنه لا يحمل نبض الشعر.

ولقد مللت من تكرار القول: بأن الشعر: موهبةٌ، وثقافةٌ، وموقفٌ، وأجواء. فإذا تخلف عنصرٌ من هذه العناصر الأربعة لأي عارض تخلف الشعر. وإذا اكتملت العناصرُ اكتمل الشعر. و(المتنبي) الشاعر الفذ، الذي شغل الناس، ونام عن شوارد شعره، له شعرٌ رديءٌ، يود محبوه أن يدسوه في التراب، وإذا أمسكوه فإنما يمسكونه على هون، وسبب ذلك تخلف عنصرٍ من تلك العناصر التي قد تكون مفقودة عند الأكثرين من الشعراء.

ولما كان الشعر كالجمال والحب والسعادة لايُعرَّف، فإنه معهودٌ ذهني لا تكاد تخطئه العين. واختلافُ النقاد حول التجريب الشكلي أو الانزياح اللغوي، أو ما شئت أن تقولَه عن التحولات التي خَرجت بالكلام إلى مضائق الإبهام والانقطاع والانطفاء، كلُّ ذلك يصبُّ في اختلاف المفاهيم حول الشعر. ومن قال بأن الشعر وزنٌ وقافيةٌ واجهه المعارضون بالنظم العلمي. ومن لم يقلْ ذلك يواجه ب(القصيدة النثرية). ومثلما اختلف السلف والخلف حول مفهوم أدبية (النص الأدبي)، اختلفوا كذلك حول مفهوم شعرية (النص الشعري).

ولو رحتَ تسأل: ما الشعر؟ لتقطعت بك الأسباب، مع أن مفهومه أقرب إلى العربي من حبل الوريد، ولكن التمحل أبعد النجعة، وأخرج التجريب الشعري من دائرة الشعر إلى دوائر أخرى، فكان قولهم كما تفسير (الرازي) فيه كل شيء إلا التفسير.

أقول قولي هذا تمهيداً للوصول إلى نقطة لقاء، تؤجل المشكلة الشعرية، ولا تحسمُها، لأن في حسمها قطعاً متعمداً لأرزاق النقاد، وكما قيل: (قطع الأعناق ولا قطع الأرزاق). وحين نَقْدر على تأجيل المشكلة، نعود لنبحث عن موقع شاعرنا (عبد الله بن صالح العثيمين) في هذه المعمعة. والشاعر أيُّ شاعر قد يقوَّم من خلال لغة الشعر، أو من خلال شكله، أو من خلال صوره وأخيلته، أو من خلال مضامينه. وكل ناقد يلقي بأدواته في زاوية من زوايا الشعر التي تتسع لكثرتها والتوائها وتنوعها لكل قائل، يود أن يقول ما يعقل وما لا يعقل، وما يفهم وما لا يفهم. ولأن الذوائق تختلف فقد يقال عن أي شاعر ما يصعد به فوق هام السحب، ويقال عنه من فئة أخرى ما يهوي به في مكان سحيق. وقضايا الأدب مفتوحة على كل الاحتمالات، لأنها ليست عملية رياضية، ولا حكماً شرعياً قطعي الدلالة والثبوت. ولهذا فالنقاد في حل مما يقولون، متى حاموا حول الحمى. والشعراء مع النقاد كما (كثير عزة) مع محبوبته، يودون أن يكون ما استحلوا: (هنيئاً مريئاً غير داء مخامر).

ومع أن مناسبات التكريم تستدعي ذكر محاسن المُكَرَّم كما الأموات إلا أن ما بيني وبين الشاعر يجعلني في حل من ذلك، والذين لايعرفون ما أنا عليه من الخلطة، يتصورون أنني جئت لأبني له قصوراً من الثناء. ومع أنه شاعر لا غبار على شاعريته،

---

(١) تاريخ المقال: ٢٨/ ٦/ ٢٠٠٥

إلا أنه لم يشأ أن يكرِّس نفسه في مشاهد الأدب على أنه شاعر وحسب، وحين تتعدد إمكانيات الإنسان يصبح نهباً لها، وقدرُ الأدباءِ المتعددي المواهب والإمكانيات أن الناس يذودونهم عن الموارد. فالشعراء يقولون: إنه مؤرخ، والمؤرخون يقولون: إنه شاعر، والأدباء والنقاد والكتاب يفعلون مثل ذلك، ومن ليعيش كما الأعراف. غير أن شاعرنا ومؤرخنا وأديبنا (عبد الله العثيمين) لم يأبه بالمقولات، فهو لا يبحث عن المواقع، ولا يعنيه أن يذوده الآخرون، وكأني به يردد مقولة الأعرابي: (الصدر حيث أجلس).

ولقد قلت من قبل: إن سمة (الشاعرية) حين يجود بها من يحترم المصداقية لا تعني التسليم بأن كل ما أبدعه الشاعر يأتي في ذروة التألق، وكيف يكون ذلك والنقاد الأقدمون يختصمون حول (أبي تمام) و(المتنبي) ويطلقون مصطلحات (الحكيم) و(الشاعر)، وقد يتساءلون: هل جيد شعره أكثر من رديئه؟ لقد سلموا بالرداءة، ولكنهم لم يسلموا بالغلبة، ومع ذلك ظل (المتنبي) شاعراً لا يبارى، وظل من قبله (أبو تمام) شاعراً لا ينازع.

وبعد: أعيذها نظرات صائبة ممن يعنيهم أمر الشعر أن يحسبوا أن قولي هذا تمهيد لحملة نقدية جائرة ضد من يملؤني حباً وإكباراً. وأرجو - في الوقت نفسه - ألا يكون قولي من باب (وعين الرضى). فلقد عرفت الأستاذ الدكتور العثيمين منذ أمد طويل، وكنت من قبل أعده شاعراً لا يبرح رحابه، ذلك أن معرفتي به بدأت من كتاب (شعراء نجد المعاصرون) الذي صدر قبل نصف قرن، وكنت إذ ذاك شاباً أتوقد حماساً وثورة، وكانت موجة (الوحدة العربية) تعصف بالمشاهد، وكان شعره كما شعر (المتنبي) يجمجم عما في نفوسنا. إنه تعبير صادق عما ننطوي عليه من تطلع ملح إلى الوحدة العربية. وما كنا إذ ذاك ندري ما اللعب السياسية. ولما أن تبين لنا أنها (فن الممكن) تجرعنا مرارات الخطابات الثورية.

لقد كان شعره ملتهباً، يكاد يرتمي في أتون القومية وخطابها التشنجي، ولما يزل يعاني من تفكك الأمة وتناحرها، وعجزها عن النهوض من عثرتها. والراصد لإبداعاته التي استهلها ب(عودة الغائب) عام ١٤٠١ه، وختمها ب(دمشق وقصائد أخرى) عام ١٤٢٤ه، وجاء فيما بين هذا وذاك (بوح الشباب) و(لا تسلني) و(صدى البهجة) وهو شعر خصه لتقديم الفائزين ب(جائزة الملك فيصل)، المتابع لهذه الأعمال يحس بتحولات شعُورية ونضوج فكري. ولعل تخوم شعره قصيدة (بقينا كما كنا) التي تعد أقوى تعبير عن خطاب المرحلة التي تألق من خلالها، وهذه القصيدة من أوائل القصائد، وهي بكائية تجسد خطاب الستينيات الميلادية:

بقينا على مرِّ الليالي كما كنا

فلم نستفد منها ولا غيرت منَّا

ولأنه قد اكتوى بالوعود الثورية الزائفة، وركض خلف سرابياتها فقد صاح في وجه اللاعبين بعواطف الشعوب:

أتى بالمنى الخضراء حين مجيئه

وعوداً ولم يصدق بما كان قد منَّى

وجيل الستينيات من شباب العالم العربي كافة، من المحيط إلى الخليج وضع كل بيضه في سلة الخطابات الثورية، ومن ثم فوجئوا بخيبات أمل، قتلت فيهم كل التطلعات، وعلمتهم أن الممارسة شيءٌ، والخطابَ الإعلامي شيءٌ آخر. و(العثيمين) من ذلك الجيل الذي عايش السرابيات، وتكشفت له الأمور عن خيبات أمل.

والشاعر لم يستحوذ عليه الخطاب السياسي، ولم يكن ممن يستمرئون جلد الذات، ولا مقاومة السلطة بالطريقة الانتهازية. لقد وجّه نقده اللاذع وسخريته المرة للأمة التي أسهمت في الانكسار، وفي مطولته (رسائل من الجبهة) ينحي باللائمة على الأمة التي غفلت عن ثغورها، وشغلتها المتع الزائلة عن معايشة الأحداث بروح جهادية. فهذا الفدائي المجاهد يسأل أمه:

ألــم تــزل حفــلات الــرقص دائــرة
والليـــلُ يقتلُـــه التهـــريجُ والـــزار؟

والشاعر راصد أمين لأحداث أمته، وناقد بصير، يضع أصبعه على مفاصل القضية، وإذ ضاقت نفوس الخيرين من قرارات دولية، تصدر تباعاً، ثم لا يكون لها أثر في صد العدوان، فإنه يعبّر عن ذلك الضيق في قصيدة (الحل السليم):

كـــلُّ القـــرارات التـــي صـــدرت
وتعاقبـــت مـــن هيئـــة الأمـــم
بقيـــت كمـــا كانـــت بـــلا أثـــرٍ
لا خففـــت بؤســـي ولا ألمـــي
مفعُولهـــــا حبـــــرٌ علـــــى ورقٍ
مفعُولهـــــا حبـــــرٌ علـــــى ورقٍ

إن شاعراً يحمل هم أمته، ويعاني من انكساراتها، ويسجل أحداثها، لابد أن يقترب منها، بحيث يطمئن على وصول رسالته واضحة، ومن ثم جاءت لغته سهلة ممتنعة. وظاهرة (السهل الممتنع) تمتد إلى المفردات والتراكيب، وذلك ما يمكن أن توصف به لغة الشاعر، فيها سماحةٌ وعفويةٌ وتلقائيةٌ، ولكنها تحتفظ بقدر وافر من الشعرية.

لقد عرضت للشاعر تحولات دلاليةُ، فيما لم أجد تحولاته الفنية بهذا القدر، وإن كانت قصيدته (الأساطير) خير مثال على مجمل التحولات: الشكلية والفنية والدلالية، إلا أن تحوله من الاجتماعيات إلى السياسيات أقوى وأوسع، فلقد كان متناغماً في اجتماعياته مع (الرصافي) وبخاصة في قصيدته (بائسة) وقصيدته (ماذا يريد المستغيث) وهي قصائد تستثير، وتلوم، وتجسد واقعاً اجتماعياً غفل عنه كثير من الشعراء.

ولقد اتخذ سبيله إلى الموعظة عن طريق الحديث على لسان غني بطرت معيشته:

مـــا للفقيـــر المســـتغيث ومـــا لـــي؟
أنـــا قـــد نعمـــت بثروتـــي وبمـــالي
وترفعـــت عينـــي الكريمـــةُ أن تـــرى
كفَّـــاً معذبـــةً تُمـــدُّ حيـــالي

وهي فيما أرى من أجمل القصائد التي تجسد واقع بعض الأثرياء، وفيها استدرار للعواطف بأسلوب جديد، تسامت فيه المعاني والتراكيب، فكانت القصيدة وثيقة إدانة للأثرياء الجشعين، وأسلوباً جديداً في معالجة الأدواء الاجتماعية.

ولأن الشاعر يحمل هم أمته اجتماعياً وسياسياً، فقد كان الراصد والمتابع، وكأن شعره قد تحول إلى وثيقة تاريخية للأحداث. فهو مع ثورة الجزائر، ومع المقاومة الفلسطينية، ومع مؤتمر وزراء الخارجية العرب في بغداد، ومع قضايا التحرير والمقاومة في جميع أنحاء الوطن العربي، يرصد، ويجسد، ويبدي استياءه من الصمت والتخاذل والتناحر، وكأنه موكل بقضايا أمته يذرعها جيئة وذهاباً.

هذا اللون من الشعر المثقل بالهموم، لا تتاح له فرصة التحليق في فضاءات الخيال. إنه شاعر ملتزم بقضايا أمته، ومثلما التزم (الرصافي) و(عمر أبوريشة) و(بدوي الجبل) و(الشابي) وآخرون، فقد وقف شعره على تلك القضايا. ولم يفرغ لنفسه كما فرغ لها (عمر بن أبي ربيعة)، وأحسب أنه خص نفسه بالشعر الشعبي الذي رضي أن يجعله للهو البريء، وكيف لا يأخذ حقه من اللهو والرسول ﷺ يقول عن الأنصار: «**يعجبهم اللهو**»، لقد حجب عن الناس ذاتيات ممتعة، وحجب نفسه عن مجالات الغزل والسخرية، وارتهن نفسه في ملاحاة أمته. لقد كان في مواجهته لقضايا أمته عنيفاً متسائلاً:

قالوا: الخلافات القديمةُ سوِّيت
وتبددت ظُلَم وحُلَّ المشكل
ومضت دعايات الوفودِ قويةً
لمظاهر اللقيا تَبُثُّ وتنقل
أتوهموا أن الحقيقة تنطلي
ومكامن الزيف المقنع يُجهل
ما عاد سراً أمرُهم فليستحوا
أن يطمسوا أسرارهم وليخجلوا

نقد لاذع، وتحدٍّ سافر، ولوم عنيف، وكأنه في تساؤلاته ابن بجدة السياسة، يعرف خباياها، ويعي مغالطاتها، ويلوب (لوبياتها).

قلت إنني عرفت الشاعر من خلال كتاب (ابن إدريس) الذي ترجم له وذكر بعض خصائصه الشعرية، وقدّم نماذج من شعره، وهو في سن الطلب، ومع هذا فقد بدت بوادر شاعريته واتجاهاته الموضوعية. يقول عنه ابن إدريس: (شاعر تعتمل في نفسه من خلال شعره عواصف الثورة) و (هو من الشعراء الناقمين على المجتمع الذي تُقَدَّسُ فيه الماديات وتُحْتَقَرُ المثاليات الإنسانية). ولست معه حين عدّه من شعراء البؤس والحرمان، إنه شاعر مناضل ضد الظلم الاجتماعي، ومناضل ضد الظلم السياسي، وخطابه في الاجتماعيات لا يختلف عن خطابه في السياسيات: ثورة عارمة، وتحد سافر، ومساءلة ملحة.

وحين أقول بأنه: (شاعر مع وقف التنفيذ) فإن ذلك يعني أنه لم ينقطع للشعر، ولم يشأ أن يظل في ركاب الشعراء، فهو العالم المتخصص بالتاريخ الحديث، وبالتاريخ السعودي على وجه الخصوص، وهو الكاتب المتعدد الاهتمامات، وهو الأستاذ الجامعي المتألق، وهو المترجم لكتب الرحالة والمستشرقين، وهو المسؤول، والمستشار، وهو الإنسان المتواضع. وكثير من المفكرين والعلماء كانت لديهم مواهب فنية لم يتح لها النفاذ.

-كان العقاد شاعراً، ولكنه لم يعرف إلا مفكراً.

-وكان الرافعي شاعراً، ولكنه لم يعرف إلا أديباً.
-وكان المازني شاعراً، ولكنه لم يعرف إلا كاتباً.
-وكان الشافعي من قبلهم موهوباً غلب الفقه على شاعريته، وقال في ذلك:

ولــولا الشــعر فـــي العلمــاء يــزري

لكنـــت اليـــوم أشـــعرَ مـــن لبيـــد

وكان (عبد الله بن صالح العثيمين) شاعراً، ولكنه شغل عن الشعر بالعمل الأكاديمي، والعمل الإداري، والتخصص العلمي، فكان لا يلم بالشعر إلا حيث يخلص من كل هذه المهمات، وهو حين يلم به لا يراه القضية الأهم، فهو متحدث يعبر عن مواقفه، وكاتب يجسد رؤيته، وما الشعر إلا قناة من عدة قنوات شُغل عنها.

سيبويه بين جناية الفعل وسقوط المشروع .. ! (١)[1]

اللغة - أي لغة - وعاء الفكر، ومستودع الحضارة، ووشيجة التواصل، وصنو الدين، بوصفه علامة الانتماء، وصبغة الله. فبضعفها تضعف الأمة، وبانكماشها يتضاءل وجودها. وقيمة اللغة بضوابطها التي تحفظها من الذوبان والتآكل، وبخصوصيتها التي تميزها عن غيرها من اللغات، وبغناها الذي يمكنها من الاتساع لكل مستجد، وبمرونتها التي تتيح لها النهوض بمهماتها، وبنموها الذي يجعلها لغة عصرها، وبثباتها المستمد من عمقها التاريخي وتراثها المتواصل، وبحَفَظَتِها الذين يتناقلونها جيلاً بعد جيل، ويتعهدونها تنمية وتصفية.

وكل حضارة تعطي الدنية في لغتها تمكن عدوها من مقاتلها. وما انتصر عدو على خصمه بقتل أفراده، ولا بتهديم عمرانه، ولا بمصادرة أمواله. فالحسيات تبلى ويخلف الله، وإنما انتصاره في تدمير قيم الخصم المعنوية وإفساد عقيدته وتمزيق لغته. فبذهاب اللغة تمحَّى الذاكرة ويلتغي التاريخ، وبتدمير المعنويات وحدها يكون التدمير الحقيقي. و (الغزو) و (التآمر) اللذان يضيق بذكرهما المستغربون أخطر من المواجهة العسكرية. فالتحديات المعلنة تستعد لها الأمة، وتبذل ما تقدر عليه لصدها، وتوقي خطرها. وقد تكون الحروب سبباً من أسباب مراجعة الذات، وتصحيح الأوضاع. أما المكر والخديعة والغزو الفكري والتآمر الخفي فذلك الشر المستطير الذي يغفل عنه الخاصة، وينخدع به العامة، ويتفاعل معه المنافقون.

وإذا كانت الدول الكبرى تمضي في صناعة السلاح الفتاك، وتتفانى في سباق التسلح، وتنشئ المختبرات لتخصيب الجراثيم الفتاكة، وتنفق مئات المليارات في سبيل التوفر على قوة الردع فإنها لن تدخر وسعاً في استخدام أي وسيلة لإضعاف الخصوم، والتمكن من السيطرة عليهم. ومن هان عليه الإنفاق لإيجاد سلاح رادع فإنه يهون عليه الإنفاق للهزيمة النفسية والمعنوية. ولما كان (الدين) و (اللغة) هما مادة الحضارة ومصدري قوتها المعنوية، فقد أصبحا الهدف الرئيس لكل غزو أو تآمر، وإضعافهما أو إفسادهما إضعاف للأمة. وما دخل الاستعمار في بلد إلا وكان شغله الشاغل مسخ الهوية، وإلغاء الذاكرة، وطمس التاريخ، وإفساد الأخلاق، ونهب التراث والآثار. يروج له في فجاج الفكر المستشرقون والمبشرون والعملاء والجواسيس. وكل هذه المقترفات مما علم من الدنيا باليقين، والحرب ضد (الدين) و (اللغة) قائمة إلى قيام الساعة.

وقراء التاريخ الحديث يجدون بين طياته وقائع عسكرية، وأخرى فكرية. وقادة الفكر المناوئ لا يقلون في خطرهم وحقدهم عن قادة الجيوش. ولو نظر الراكنون إلى الذين ظلموا في صراع اللغات وحدها، لتبين لهم أنه من أشرس الحروب وأخطرها على مصير الأمة. ويكفي أن نلفت النظر إلى قضية موثقة يتداولها الدارسون، وهي قضية (الدعوة إلى العامية) فلقد كانت (مصر) إبان الاستعمار مصدر كل الدعوات الهدامة. وكان الشرفاء من أبنائها حماة اللغة العربية وردء القيم الأخلاقية. ويكفي أن يقرأ الحريص على تحرير المسائل كتاب الدكتورة (نفوسة زكريا سعيد) (تاريخ الدعوة إلى العامية وأثرها في مصر) ليجد ما رصدت فيه من المحاولات التي يشيب من هولها الولدان، ومن أخطرها التفكير في كتابة القرآن بعامية مصر. ولما كانت مصر واسطة العقد، فقد تجرعت كل المرارات، وواجهت كل الحروب، وكثر فيها إلى جانب ذلك العملاء والمستغربون، وظهرت دعوات الاستغراب والعلمنة وسائر النحل والملل المادية والروحية. ولم يزل

---

[1] تاريخ المقال: ١٨/ ١/ ٢٠٠٥

المفكرون والفلاسفة والمبدعون والنقاد في كافة المشاهد العربية يجودون بالقول الحق ونقيضه. والمؤلم أن الحضارات المهيمنة وجدت من بعض النخبويين ركائز، استطاعت من خلالهم أن تنفث سمومها، وأن تشكك الأمة العربية في دينها وفي لغتها. والأدهى والأمر تهافت الطلائع الفكرية على ما فرغ الغربيون منه، يقولون مثل قولهم، ولا يدركون خطورة ما يقولون وانتهاء صلاحية القول فيه.

لقد كانت (اللغة العربية) غرضاً لكل الرماة، ولعلنا نستذكر بكائية (حافظ إبراهيم) على لسانها وحرقته حين يرى كل يوم في الجرائد مزلقاً يدنيها من قبرها. ولعلنا نستذكر - أيضاً - جهود (مجمع اللغة العربية) وما قُدِّم فيه من بحوث، وما تبناه من كتب ومعاجم ومناهج، وما تداول فيه المؤتمرون من آراء، وما تضمنت قراراته من توصيات لا يعلمها إلا الأعضاء العاملون. لقد ضاعف المخلصون في مصر بالذات جهودهم لصد هذه التعديات، فكان أن حققوا الكثير، ولكننا في زمن الضعف والخور لم نُغْزَ من الخارج، وإنما غزينا من الداخل. وذلك بعض ما حفز الدكتور (محمد محمد حسين) رحمه الله إلى تأليف كتاب (حصوننا مهددة من الداخل) درس فيه ظواهر هذا الغزو الذي ينهض به أبناء المسلمين أنفسهم، وتلك علة باطنية من الصعوبة بمكان توقيها، والخطورة في تشابه القضايا والتباس الأمور والخلط بين المتناقضات، وأخطر منه ما تواجهه الأمة من تلبيس متعمد، فالغزو والتآمر على أشدهما، ثم يأتي من يشكك بذلك، ويعيب المنذرين والمحذرين، ولا يني يردد المقولة الماكرة باستفحال (عقدة التآمر) لكي يصرف الناس عن الثغور، مدعياً أن الأمة تعيش هذه العقدة، وأن التفكير فيها سبب التخلف، وأن الغرب جاد في تمدين الدول النامية وتحضيرها، وتمكينها من العدل والحرية والمساواة، ولكن تلك الدول لا تقبل ذلك، وما تلك الشائعات إلا بعض معطيات غسيل المخ. الغرب أرخى عنان فنه الماجن وأخلاقياته الساقطة، وشد الوثاق على مكتشفاته ونظرياته العلمية، ليظل العالم الثالث مستهلكاً متخلفاً.

وإذا كان المشيعون لظاهرة الغزو والتآمر يقصدون تبرئة أنفسهم، وتحميل الآخر جرائر إخفاقاتهم، فتلك خطيئة تضاف إلى غيرها من الخطيئات. أما إذا كانوا يحذرون الناس، وينذرونهم لقاء المتماكرين على حين غفلة، ويحثونهم على إعداد القوة، وتحصين النفس مع تحمل المسؤولية فذلك الصواب عينه. ومهما كانت الأهداف فإن (الغزو) و (التآمر) قائمان على أشدهما، ولا ينكرهما إلا جاهل أو مواطئ. وتخلفنا في التقنية والعلم التجريبي لا يحسمه اتباع ملتهم، وإنما يحسمه فهم ملتنا والعض عليها بالنواجذ وأخذ ما عندهم من علم بظاهر الحياة الدنيا.

والتفاعل والتعالق وتبادل المصالح والمعارف سُنَّة كونية، وليس في ذلك من بأس، ولا يعد شيء منه غزواً ولا تآمراً. ومصائب الأمة في اضطراب مفاهيمها واختلاف مواقفها. والمؤكد أنه ما من حضارة إلا ولها يد سبقت على غيرها، والحضارة التي لا تعدو عيناها إلى ما عند الآخر من الحق لا تسترجع ضالتها. والحق ليس وقفاً على حضارة دون أخرى، وليس هناك حضارة بريئة، فكل حضارة منقرضة تظل كامنة في خلفها. و (الحضارة الإسلامية) ليست بدعاً من الحضارات، فلقد وسعت محاسن ما سلف، وما بُعِث الرسول إلا ليتمم مكارم الأخلاق، ولقد قال ﷺ لأحد أشراف القبائل: «**إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة**» - أو كما قال -. ولقد أثنى على (حلف الفضول) ووصف أبا (سفانة) بأنه رجل يحب مكارم الأخلاق.

والإسلام حضارة عالمية إنسانية له ضوابطه ورؤيته وتصوره للإنسان والحياة والكون. ومن أراد اعتزال الحضارات واستدبار منجزاتها فقد اختار طريق الضعف والوهن، وفوت على حضارته أفضل الفرص. وبوادر الضعف والشقاق ناشئة من تفاوت

النخب في فهم الظواهر والتيارات والملل والنحل، واختلافهم في أسلوب التعامل معها، وقيام جدل بيزنطي عقيم حول مفاهيم واضحة، لا تحتمل الاختلاف. وهذا التنازع والتفرق جعل بأس النخب بينهم شديداً، ولو أنهم إذ اختلفوا فكرياً أو عقدياً حول أشياء العصر ومستجداته ردوا خلافهم إلى الكتاب وصحيح السُّنَّة لكان أن حسمت المشاكل أولاً بأول، ولكنهم يختصمون في غياب المرجعيات وجهل الأحكام. وما وقفت على خلاف حول المستجدات إلا وكان سببه الجهل والتعصب وتأليه الهوى والتصدر للفتيا في غياب مثلث الوعي السليم: فقه الأحكام والواقع والأولويات، والخلط بين الأفكار والعقائد، وعدم الفصل بين أمور الدنيا ومتطلبات النص التشريعي، وتقصير الخاصة في استغلال الفسح والتيسيرات التي اتسمت بها أحكام الإسلام: (إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم)، (استفت قلبك)، (أنتم أدرى بأمور دنياكم)، (ما خيّر رسول الله بين أمرين إلا اختار أيسرهما)، ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾، ﴿الآنَ خَفَّفَ اللّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً﴾، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾.

لقد حفز على هذه المقدمة التحفظية ما تتداوله المشاهد العربية من أحاديث حادة النبرة حول كتابين يمسان اللغة العربية، وينحيان باللائمة على علمائها الأوائل الذين أصلوا لقواعدها، وتوسعوا في معارفها، وحفظوها من عوادي الزمن، صدر أحدهما في مصر وصدر الآخر في الشام، هتف أحدهما بسقوط (سيبويه) واتهمه الآخر بالجناية. وكل مفكر له رؤيته ودوافعه وأهدافه، ولكن البعض يؤتى من الجهل أو من التسرع أو من الانفعال. والصدق والإخلاص غير كافيين للتوفر على الصواب، فكم من صادق مخلص أورد قومه موارد الهلكة، ومن ثم فنحن أحوج ما نكون إلى البصر والبصيرة والمعرفة وحسن التصور واستكناه القضية ومتعلقاتها، ومعرفة قضايا الدين والدنيا والمساحات المشتركة بين الحضارات وحكم النوازل والمستجدات. وإشكالية الأمة في مبتدئين مندفعين لا يلوون على شيء من المعرفة أو التجربة، ولا يدركون خطر الغزو والتآمر والتماكر، ولا يترددون في تقديم حسن الظن، وأخذ فيوض الإعلام، على أنها قضايا مسلمة، لا تسأل عما تريد ولا عما تفعل. وما أُتيت ثوابت الأمة إلا من أنصاف المتعلمين ومثقفي السماع وربائب الإعلام والذواقين، الذين يجمحون وراء بوارق الحضارة المادية، ولا يفرقون بين القيم العلمية البحتة والقيم والفكرية والأخلاقية.

والقول السيئ عن اللغة جاء مع الاستعمار الغربي، ولمّا يزل المجنَّدون لهدم اللغة يقلبون الأمور. وكلما أوقدوا ناراً للحرب هب المخلصون لإطفائها، ولكن البعض من الغيورين يجاري المناوئين في أساليبهم وأخلاقهم وطرائق تعاملهم، والشاعر الحكيم يقول:

إذا جاريتَ في خُلُقٍ دنيءٍ

فأنت ومَن تجاريهِ سواءٌ

والمدافعون عن قضايا الأمة المصيرية يجب أن يمروا باللغو مراً كريماً، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً. ثم إن طائفة من المشتغلين بالشأن الثقافي تنقصهم المعرفة، وتخونهم الوسائل، وهم أحوج إلى أن يتعلموا الأحكام والأصول وطرائق الأداء وأساليب الحوار الحضاري، ولن يتحقق شيء من ذلك إلا بالتفقه والرفق واللين والموعظة الحسنة. والذين يجندون أنفسهم للدفاع عن مثمنات الأمة مأمورون بعدم السب وبعدم الجهر بالسوء إلا في حالات محدودة ومحسوبة، والعفو مقدم على الاقتصاص. واللين مطلب رباني

ورحمة مسداة، والمسلم ليس بالطعان ولا باللعان، وما دخل الرفق في شيء إلا زانه، ونحن اليوم أحوج ما نكون إلى حسن التخاطب واستبعاد الفظاظة، والغلظة، وبخاصة أن الأمة تعيش حالة من الضعف والتعويل على ما عند الغير من ماديات. وإذا كان الله قد خفف على عباده حين علم أن فيهم ضعفاً، فإن على الأمة أن تعرف قدر نفسها، وأن تتحرك وفق إمكانياتها، وأن تبادر إلى تلافي ما ينقصها من قوة حسية ومعنوية استجابة لأمر الله ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾. فالضعيف لا يطاع له أمر، ولا يقام له وزن، ولا يكون قدوة صالحة.

سيبويه بين جناية الفعل وسقوط المشروع .. ! (٢)[(١)]

وإذا كنا نريد استعراض ما يحاك للغة القرآن من مكائد، وما تفيض به الكتب ووسائل الإعلام من هجوم سافر ودفاع متشنِّج فإننا لا نقف حيث يكون ذلك اللغط. فالمؤامرة على ثوابت الأمة ومثمناتها ممتدة عبر الزمان والمكان، تمس كل شيء أتت عليه، ومهمتنا تنقية الأجواء، وترتيب الصفوف، واختيار أحسن الطرق للجدل، وأمضى الوسائل لجهاد الدفع. ولن تكون تلك الحملة هي الأخيرة، بحيث نرمي بثقلنا فيها، ونلقي آخر سهامنا في أدبار الخصوم. إن راية الباطل يتلقاها المبطلون جيلاً بعد جيل، وإذا طلَّ منهم متربص قام متربص آخر أمضى عزيمة وأقوى جلداً. ولهذا لا بد من إطالة النفس، وترويض الأخلاق على الصمود والتصدي والصبر والمصابرة، فالمعركة طويلة، ووسائلها متنوِّعة، ومجالاتها متعدِّدة. وإذا كان كل عالم ومفكِّر وأديب على ثغر من ثغور الإسلام فإنَّ الأعداء ينسلون من كل حدب. وواجب المقتدرين اليقظة والاستعداد ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾، وواجبنا ترويض النفس حين يختلط المصلح بالمفسد، ويقع البعض تحت طائلة الاتهام مع أن مقصده قد يكون سليماً، ومنشأ ذلك سوء التعبير، ونقص البضاعة، والخلط بين المتباينات. ومثل هذه العوارض تجعل بأس الأمة بينها شديداً.

وفي هذه الأجواء المشحونة بالتوتر تداولت المشاهد الثقافية كتابين حول اللغة وقواعدها، وأسيء الظن بنوايا صاحبيهما، وقسا المتصدون لهما بالمواجهة. وما كنت أود ذلك، ما دامت هناك إمكانية للحوار، وقدرة على مواجهة الآراء المنحرفة بالإرشاد وحسن التصرُّف، تمكِّن من وضع المخطئ أمام خطئه، وتبيِّن له سوء عمله، فإن كان باحثاً عن الحق انصاع إليه، وسلَّم لذويه، وإن كان غير ذلك أسهم في تعرية نفسه وإبانة عواره.

أما أحدهما فكتاب (شريف الشوباشي) (لتحيا اللغة العربية: يسقط سيبويه) والكتاب من مطبوعات (الهيئة المصرية العامة للكتاب)، وهي هيئة رسمية تتوخَّى أحسن الكتب وأنفعها للناس. وهو كتاب أشبه ما يكون بظاهرة الثلاثيات الروائية، كثلاثية (نجيب محفوظ) إذ سُبق بكتابين (نهاية التفكير) صدر عام ١٩٩٨م و(الداء العربي) صدر عام ٢٠٠٢م، فيما صدر الكتاب الضجة عام ٢٠٠٤م. أما الكتاب الآخر فهو للكاتب (زكريا أوزون) (جناية سيبويه: الرفض التام لما في النحو من أوهام) وهو من مطبوعات (دار رياض الريس للكتاب والنشر). يقع الأول في خمس وتسعين ومئة صفحة من القطع الصغير. فيما يقع الآخر في ست وسبعين ومئة صفحة من القطع الصغير أيضاً، ولما جاء الجدل حولهما مرتفع النبرة حادَّ العبارة حرصت على قراءتهما، وبعد لأيٍ ومشقة حصلت عليهما، ليحتلا مكانهما بين عشرات الكتب المثيرة في زاوية من مكتبتي.

والكتابان ينحيان باللائمة على قواعد اللغة ومناهج تدريسها، ويعدان ذلك مصدر الضعف والتخلّف، ويتخذان من (سيبويه) منطلقاً لهما، بحجة أنه سنَّ في النحو سنَّة سيئة. و(سيبويه) صاحب (الكتاب)، رائد النحو العربي بلا منازع، وإسقاطه إسقاط للنحو العربي. ولهذا لم يكن استدعاؤه اعتباطاً، وكل من أراد القضاء على أي ظاهرة أتاها من قواعدها وذلك ما كان يريده البعض، والباحثان يختلفان في طرائق الأداء والتناول، وليسا فيما تبدَّي لي قاصدين النيل من اللغة، ولكنهما يسيئان من حيث يريدان النفع، ويستمرئان ركوب موجات التغريب، والأخذ بعصم المذاهب والمناهج، ويظنان كل الظن ألا تلاقيا بين التراث والمعاصرة. فالأول في كتابه كل شيء إلا النحو، والآخر ليس فيه شيء إلا

---

(١) تاريخ المقال: ٢٥/ ١/ ٢٠٠٥

النحو، ولكنه اجترار ممل لمقولات أكل الدهر عليها وشرب، وكأني به يعيد إلى موائد البحث ما غبَّ من الطبيخ، فمناهج اللغة العربية اعتورتها سهام المصلحين والمفسدين، والمتابع لسائر الأطروحات حول قواعد اللغة العربية يقف على آراء متناقضة. و(سيبويه) ك(المتنبي) شغل الناس، وأسهر الباحثين، وهو مجال مناسب للحضور ولفت الأنظار، فكل من أراد أن يتعجَّل الحضور قبل أوانه أنشب أظفاره في ذلك الجسد المحشو بالسهام على حد:-

وكنـــــــت إذا أصـــــــابتني ســـــــهام

تكسَّـــــرت النصـــــال علـــــى النصـــــال

ولمَّا لم يكن الكاتبان على شيء من معارف المجدِّدين في الشأن اللغوي، ولا على شيء من معارف التراثيين، فإن بضاعتهما مزجاة. ولا يشفع لصاحب الجناية ذلك الحشد من الشواهد، وذلك الترتيب للفصول، وتناول الكلمات والجمل والأسماء، والأدوات، وإعراب الجمل، والشواهد، والتخريجات، والموازنة بين الماضي والحاضر، فليس له ذلك إلى القص واللصق. ولا أظنهما في هذه العنونة المستفزة إلا قاصدين للإثارة والكسب والشهرة. وقد نالا منها بعض المبتغى.

فالصحف العربية وسعت ردود فعل عنيفة، حملت المتابعين على البحث عن الكتابين، والتساؤل عن هوية الكاتبين. ففي الأولى كسب مادي، وفي الثانية شهرة زائفة. ومثل هذه التصرفات الدعائية يعمد إليها الشداة والمبتدئون تعجلاً للأشياء قبل أوانها.

ولإسقاط المحاولتين البائستين، لا بد أن يقرأ المتابعون حركة تيسير النحو، وتبسيط قواعده، عبر عشرات المؤتمرات، ومئات الكتب: تطبيقاً وتنظيراً، وبخاصة البحوث التي قدِّمت لمجامع اللغة العربية في (مصر) و(الشام) و(العراق) و(الأردن)، وما أُلِّف من كتب تفاوتت في أساليب العرض، واختلفت في مادة التناول. ف(النحو العربي): تاريخ ومادة ونظريات وقواعد ومفاهيم وطرق وقضايا ومدارس. ورصد الحركة مؤذن بكشف الزيف وضبط الاسترفاد و(الشوباشي) و(أوزون) أصداء باهتة للتذمر، وما قالاه بعض ما قيل وما سيقال. وما استبدا إلا بالعناوين الصارخة، ليس غير. على أن (الشوباشي) اتخذ العنوان المثير، ولم يتلبث حوله، بل أمعن في جلد الذات العربية عبر مقالات تدين الضعف والتخلّف، ولا ترسم طريق الخلاص، فيما أمعن (أوزون) في الشواهد قصداً للإدانة وإثبات الجناية.

وقواعد النحو العربي وصرفه والنظريات المنهجية لتطويره وتيسيره تناولتها طائفة من العلماء، من أبرزهم الدكتور (مهدي المخزومي) في كتابه (في النحو العربي نقد وتوجيه) والدكتور (حسن عون) في كتابه (تطوير الدرس النحوي) والدكتور (عبد الكريم خليفة) في كتابه (تيسير العربية بين القديم والحديث) والدكتور (شوقي ضيف) في كتابيه: (تيسير النحو التعليمي قديماً وحديثاً) و(تجديد النحو) و(عبد الوارث مبروك) في كتابه (في إصلاح النحو العربي) والدكتور (حسن عباس) في كتابه (اللغة والنحو في القديم والحديث).

ومن قبل أولئك هبَّ الأستاذ (إبراهيم مصطفى) لإحياء النحو قبل سبعين عاماً، وبارك هبوبه (طه حسين) في مقدِّمة ممتعة، بلغت بالكتاب وبصاحبه السماء مجداً واقتداراً) وكادت تلتمس له فوق ذلك موضعاً. وجاءت حيثيات المؤلّف لإيقاف البرم والضجر والضيق بالنحو وقواعده وطرائق أدائه. ولقد وجد العلماء الأوائل من قبله ذلك البرم والضجر والضيق - على حدِّ تعبيره - الأمر الذي حملهم على تسمية كتبهم ب(التسهيل) و(التوضيح) و(التقريب). والنحو عنده لا يسعف بالقول الفصل، فهو مظنّة

الاختلاف والاضطراب والجدل، وتلك أدواء النحو التي أفسدته - كما يقول - وتحت طائلة تلك المعوقات فشل النحو في أن يكون السبيل إلى تعلّم العربية، لقد سخر من الأوائل، وكاد يطرح نظرية في النحو أو في المنهج وأدائه، وآلياته.

ومع أنه مسَّ النحو والنحاة مساً خفيفاً لاشتغاله بما يتوهمه فتحاً علمياً حول (نظرية الإعراب) فقد تصدَّى له من أوغل في نقده، وجاء كتاب (النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة) للأستاذ (محمد أحمد عرفة) رداً قاسياً عليه. والمؤلِّفان ينتمي كل واحد منهما إلى جامعة تختلف عن الأخرى أشدَّ الاختلاف، وكل منتمٍ ينحي باللائمة على الآخر. وإيغال الرجلين في التعصب فوَّت على المتابع أشياء كثيرة، وما كان التلاحي بين العلماء غريباً ولا مخيفاً، وثراء التراث في الخصومات العلمية، وإشكالية الراصدين للحراك المعرفي حول اللغة وقضاياها عجزهم عن تمييز الخبيث من الطيّب، ومعرفة المصلح من المفسد، فما يكتبه (لويس عوض) في هذا السبيل، يختلف عما يكتبه مصلح لم يحالفه التوفيق، وإذ يتهم (سيبويه) بالجناية، ويهتف البرمون بسقوطه، فإن آخرين دعوا لإماتة النحو العربي، ليخلوا الجو لنظريات حديثة ك(التحويلية)، ولن تخلو المشاهد من مرجفين وتبعيين وجهلة ومبتدئين ومتسرِّعين، يباهون باتباع سنن الغربيين.

وإشكالية اللغة العربية ليست في صعوبتها، ولا في تعقيد النحو وجنوحه إلى الفلسفة، ولا في تعويله على الحذف والتقدير والعامل، وإنما الإشكالية في أن مادة اللغة كامنة في المعاجم والقواميس، وأنظمتها حبيسة في كتب النحو والصرف، والناس يستعملون لهجات متعدِّدة بتعدّد المدن والقرى. وحياة اللغة وتكرسها وشيوعها في الاستعمال، وليس في الدراسة والحفظ، وكل الذين يتحدثون عن الصعوبة والغياب لا يستحضرون هذه الإشكالية. اللغة العربية نراها ولا نسمعها، نراها في الكتاب ولا نسمعها في الاستعمال، والسمع مقدَّم على البصر (والأذن تعشق قبل العين أحياناً) و(الأذن كالعين توفي القلب ما كان). وما جاء السمع والبصر في القرآن إلا وقدِّم السمع عليه لأهميته. وإذا كان النحو والصرف والبلاغة والأدب تدرس باللهجة العامية في الجامعات، وإذا كان طلبة اللغة العربية لا يحسنون الحديث، ولا يجوّدون الكتابة، وهم في قاعات الدرس فإن اللغة معذورة وعلماءها مبرؤون من خطيئة التعقيد ومسؤولية الغياب.

و(سيبويه) الملوم المتهم، لم يكن مبتكراً للمعيارية، وإنما كان مكتشفاً وراصداً، شأنه شأن (الخليل) في (العروض)، فاللغة العربية كائنة بشعرها ونثرها وقرآنها وسائر موروثات القول ومدوّناته قبل أن يكون (سيبويه)، ودوره المحمود مقتصرٌ على الاستقراء والوصف. و(الكتاب) الذي أَلَّفه وتداوله العلماء وخدموه بالشرح والتفصيل والإضافة والاستدراك يُعد أساس علم النحو والصرف، ويكفي أن يكون المصدر والمورد، وألا يتصدر أحد للتدريس في العصر الذهبي للحضارة الإسلامية حتى يقرأ (الكتاب) ويفهمه. لقد اعتوره العلماء في القديم والحديث: درساً وتحقيقاً وطباعة، وبخاصة الدراسات الأكاديمية التي تعد بالمئات، وخارج أروقة الجامعات، أُلِّفت عن كتابه مئات الكتب والدراسات، كما نقل المترجمون والدارسون (سيبويه) بعشرات الكتب، فهو بحق عبقري اللغة، والقول بسقوطه، أو جنايته شعارات جوفاء، لا تستفز إلا الفارغين والفضوليين. وما كنا نود الحديث عن الكتابين لولا ما فيهما من المغالطات.

لقد عيب على قواعد النحو والصرف جنوحها إلى التعليل والتأويل والتقدير، وهي مقولات تنطلق من الفلسفة وتعقيداتها، وتلك سمات تعد من عبقرية اللغة وعلانيتها. ولم يكن (سيبويه) وحده الناشط في تحرير النحو العربي، ولم تقتصر المعارف النحوية على أشخاص محدودين، بل كانت هناك طبقات من العلماء المستقلين بآرائهم، وكان هناك آخرون منتمين إلى مدارس ذات أصول ومناهج ك(المدرسة البصرية) و(الكوفية)

و(البغدادية) و(المصرية) و(الأندلسية). هذه المدارس أحياها عمالقة لا يزدريهم إلا مدخول في عقله أو في علمه أو فكره. أمثال (الخليل) و(الأخفش) و(المبرد) و(الكسائي) و(الفرَّاء) و(ثعلب) ولكل واحد أصحاب يشيعون مذهبه وينافحون عن آرائه.

سيبويه بين جناية الفعل وسقوط المشروع .. ! (٣) [(١)]

ولم يكن المتأخرون أول من نال من (سيبويه) ومن طريقته في التأليف أو في التقعيد، فـ(أبو العباس محمد بن يزيد المبرد ت ٢٨٥هـ) أول من تصدى لسيبويه، وأمعن في نقده، إن صحت نسبة الكتاب إليه. وكتابه (مسائل الغلط) أو (كتاب الرد على سيبويه) المفقود، ذكره المؤرخون للنحو العربي ورجاله ومدارسه والمدافعون عن (سيبويه)، واقتبسوا منه.

يقول (أحمد مختار عمر): (وقد كان لصدور كتاب المبرد هذا فعل قوي لدى النحاة إذ استكثروا جميعاً هذا الهجوم) وقد بسط الحديث عنه العلامة (عبد الخالق عظيمة) في مقدمة (المقتضب).

و(المبرد) جدير بمثل هذه المغامرة، فهو صاحب (كتاب المقتضب) ومثله حقيق أن يراجع أستاذه، فهو قد درس (الكتاب) لـ(سيبويه) وتبنى مذهبه، ودرس كتابه، وأثرى من تدريسه.

وارتباط (المبرد) بـ(الكتاب) جعل البعض يشكك في نسبته إليه، وخلوصاً من هذا الموقف الغريب من (المبرد) قيل إنه كتبه في شبابه، وعدل عنه في مشيبه.

وممن تصدى لـ(المبرد) (ابن ولاد) الذي ألف كتاب (الانتصار لسيبويه من المبرد)، ومع احتمال صحة النسبة فإن مآخذ العلماء على بعضهم لا تمس جوهر القضايا، وكل اختلافاتهم تصب في صالح اللغة .. فالمدارس النحوية مخاض علم غزير، وفهم عميق، واقتدار متميز.

وصراع العلماء واكبه صراع المدارس والعصور والأنحاء، فـ(الأندلسيون) يعيبون المشارقة ببعض ما يذهبون إليه، فهذا (ابن مضاء) يؤلف كتاباً في الرد على المشارقة في دعوى (العامل) في النحو. أما جعجعة المتأخرين واهتياجهم الأعزل فهو ناتج انبهار بالمستجد، وإقواء من التراث، وجهل مخجل بالمناهج الجديدة، ومواكبة غبية لأعداء الحضارة الإسلامية وقضاياها.

وكيف يستسيغ مبتدئ القول: بأن بقاء النظام اللغوي منذ العصر الجاهلي يعد تحجراً وجموداً وتخلفاً للفكر العربي، بوصف اللغة وعاء الفكر، هذا الاتهام بعض تهويشات (الشوباشي)، وما عرف أن اللغة العربية تنمو كما الأحياء، وهي بالنحت والاشتقاق والسياق والمجاز والانزياح والحذف والتقدير والخيال وسائر سماتها لغة نامية متحركة، مستجيبة لمتطلبات العصر.

لقد سيئت وجوه كثيرة من هذه الجنايات، وتجلت صور الاستياء بتدافع الغيورين للذبِّ عن اللغة عبر الندوات الإذاعية والتلفازية والمقالات والمؤلفات، ولعل أحدث ما أفرزته هذه الحملة كتاب الدكتور (إبراهيم عوض) (لتحيا اللغة العربية: يعيش سيبويه) وهو كتاب يقع في مائة صفحة من القطع المتوسط، وفيه الرد على (الشوباشي) بعض مآخذه على اللغة ونحوها.

والمتابع لمشاهد النقد ومناهج دراسة اللغة يصاب بالغثيان من متعالمين يمعنون في النفي والإقصاء والقطع بالموت، وما هم على شيء من علم بالتراث، ولا على بصر بالمعاصرة. والقارئ لكثير من تناولات هذا الصنف من الناس، لا يرى فيها إلا قولاً إنشائياً لا يدعمه شاهد، ولا يسنده دليل، ولا يعضده مشروع متكامل، يسد المكان الذي سدته مناهج السلف أو الخلف. واحتفاء القراء بهذه الفقاعات مضيعة للوقت، وتفويت لفرص ثمينة. إذ لو أن هؤلاء المتسطحين تضلعوا من التراث، وعرفوا مناهجه وآلياته

---

(١) تاريخ المقال: ١/ ٢/ ٢٠٠٥

وقواعده وأصوله وجهود علمائه، ثم نفروا إلى المستجدات في الشرق أو في الغرب، واستوعبوا ما عندهم، ومارسوا المثاقفة وساءلوا الغواص عن محاسن التراث والمعاصرة، ثم انتقوا من المستجد ما يخدم التراث، ويقربه إلى الناس، لكان ذلك عين الصواب، ولكنهم لا يحسنون إلا جلد الذات وتشويهها في كافة المشاهد والتعالق الغبي مع المستجد. وإذا قيل لهم تعالوا إلى موائد الحوار وإلى ما خلف الأوائل والأواخر، رأيت الأوباش منهم يلوون ألسنتهم، ويلوُّون رؤوسهم، ولا يلوون على شيء من الحق.

وتلافي الضعف، ووقف طوفان العامية، يتطلبان تحرفاً للإصلاح، ينطلق من التعليم، ويشيعه الإعلام، ويقدم عليه الكافة، وبوادر ذلك بدت فيما عرف ب(النحو الوظيفي) وهو الاقتصار على المستعمل من اللثة، واستبعاد التقعر والمماحكة والخلافات، والاستغناء عما لا تقوم الحاجة إليه، والتفريق بين علم يقوّم اللسان، ويحمي القلم، وعلم تخصصي، يتعقب المذاهب، وينقب في رؤى المدارس النحوية. ولم يقتصر رجال التربية والتعليم على تلمس أيسر الطرق وأسلم المناهج، بل مارسوا التطبيق، ولعلنا نذكر سلسلة (النحو الواضح) ل(علي الجارم) و(مصطفى أمين) وممارسات أخرى لم تكتب لها الشهرة، مثل (جامع الدروس العربية) ل(الغلاييني) و(المحيط) ل(الأنطاكي) و(النحو الوافي) ل(حسن عباس) وهو الأوسع والأشمل، إضافة إلى المعاجم النحوية التي لا تحصى.

وخسارة المشاهد جاءت من فئات أمعنت في النيل من عمالقة العلم والفكر والأدب، ولم تقدم بين يدي نيلها الجارح ما يدل على أنها خير خلف لخير سلف. وتلك سجية عرف بها عدد كبير من دعاة الاستغراب. ولو قُرئت امتعاضات العلماء والمفكرين من هذه المغامرات الطائشة، لكان أن عُرِّي هؤلاء، وانفض سامرهم. وممن تصدى للعابثين (محمود محمد شاكر) - رحمه الله - في مقالات ومؤلفات، ومن قبله (الرافعي)، ومن بعدهم (النفاخ)، وفي كتاب (مقدمة في علم الاستغراب) للدكتور (حسن حنفي) إفاضات جيدة، يحسن الإلمام بها، ومن بعد أولئك ومن قبلهم تعاقب المتذمرون والمتصدون لهذا التهافت المشين. وفي كل قطر عربي عزمات لا تلين. لقد كان (محمد سرور الصبان) رحمه الله من أوائل من نافح عن اللغة في كتاب استطلع فيه آراء الأدباء في الحجاز عما كتبه (ميخائيل نعيمة) عن اللغة، وطبع تلك الآراء في كتابه (المعرض) وكانت للأستاذ (أحمد عبد الغفور عطار) رحمه الله إسهامات في التحقيق والمنافحة، وفي كل بلد ينبري من ينافح عن لغة القرآن، ولقد بسطت القول في سلسلة مقالات نشرتها في جريدة (البلاد) قبل عشرة أعوام تقريباً تحت عنوان: (تنمية اللغة)، وفي كتاب مخطوط تحت عنوان: (الإبداع الأمي: المحظور والمباح).

وفي غمرة القول والقول المضاد اضطربت الآراء حول (المنهج) وبخاصة بعد ما شهد (علم اللغة) الحديث تطوراً في الغرب، وامتد أثره إلى المشرق العربي، وكان الناس من قبل لا يعرفون إلا (المنهج المعياري)، على سنن المتقدمين، ثم كان الإجماع أو كاد على (المنهج الوصفي) ولم يتلبثوا فيه إلا قليلاً، فكان هناك تحول وتفرق والتقاء حذر حول (المنهج التحويلي). ورواد هذه المناهج غربيون، أبلوا في البحث والتجريب بلاء حسناً. والمصداقية تحتم الإشادة بما توصلوا إليه، نذكر من أولئك على سبيل المثال (سوسير) و(تشومسكي) و(دريدا) ولكل واحد من أولئك منهجه واهتمامه ومجاله، ومن ثم عرفت (البنيوية) و(التحويلية) و(التفكيكية). ومع ما تركه هؤلاء من أثر واضح فيه منافع للغة وإضرار أكبر لبعض جوانبها كالتلقي والتأويل والنص المفتوح والمعلق فإن لعلماء النحو والصرف سبقاً وتميزاً، ولكن الناس لا يفقهون. وتميز الغربيين في آلياتهم ومناهجهم ومبتكراتهم ومعاملهم والقول ب(الكسبية) أو (الملكة) واستخدام الآلة والبحث وتقدم علم الصوتيات لا يعني التسليم المطلق لهم ونبذ ما بأيدينا، وفي الوقت نفسه لا يليق

بنا الاستغناء عما توصلوا إليه. والتفاعل مع المستجد يحتاج إلى كفاءات علمية، تحفظ التوازن، وتعرف كيف تصرِّف الأمور، وتوائم بين القديم والحديث. وعلم اللغة الحديث بحر لجي متعدد النظريات والمناهج والآليات، والفرضيات والنظريات التي ينقض بعضها بعضاً، والتحولات التي لا يقر لها قرار، وكل ذلك كم معرفي، لا يستغني عنه مهتم بالشأن اللغوي، ولا يستغنى به.

والاستياء والتذمر وتلمس أنجع الطرق حق مشروع، ولست أشك أن هناك عسراً في دراسة النحو والصرف منشؤه تعويل الأقدمين على المنطق وطريقتهم في الاستقراء والاستنتاج والقياس والعلة والعامل والحذف والتقدير والشرط والأحوال والجائز والممنوع، كل ذلك جعل مناهج الدرس النحوي والصرفي مجالات لكثير من التساؤلات. والعلماء المعاصرون الأفذاذ لم يدخروا وسعاً في البحث عن طرائق جديدة تؤدي إلى تقريب الدرس النحوي من نفوس الدارسين. وإحساس العلماء بالحاجة الملحة إلى تجديد النحو العربي لم يقف منذ أن بدأت بوادره على يد (الدؤلي) إلى يومنا هذا، ولكن المشتغلين بهذه القضايا يختلفون ويتفاوتون، وبعضهم أميون لا يفقهون، ولا يعرفون أنهم لا يفقهون، وضررهم أكبر من نفعهم. ولما كان العصر عصر مؤسسات فإن على المهتمين والمتخصصين عرض وجهات نظرهم وخلاصة تجاربهم على (المجامع العربية) وعلى (الجامعات) لتداول الآراء وتمحيص الأفكار والخروج بتوصيات تسهم في حل المشاكل وحماية اللغة، أما الاهتياجات الفارغة والاستبدادات الفردية فإن إثمها أكبر من نفعها.

ولو عدنا إلى الكتابين مجال البحث، ونحن عائدون ولا شك، لوجدناهما خاليين تماماً من التناول الموضوعي .. فالكاتبان استنفدا الجهد والوقت في اللوم والتقريع، ولم يقدما حلاً ولا نظرية ولا منهجاً ولا آلية، والنقد التطبيقي الذي مارسه (أوزون) عشوائي مكرور، ومشروعه المقترح هلامي لا يسد المكان الذي حاول تخليته من النحو العربي، وهو قد اقترف جناية أخرى رواها من أثق به، فألف كتاباً عن (جناية البخاري) وسماه الأستاذ (محمد دياب) (تقب الأوزون) (الاقتصادية ١٩-١٢-١٤٢٥هـ). والاثنان لم يقرآ (الكتاب) لسيبويه، ولو غامرا بقراءته لما فهماه، ولو فهماه لما استطاعا تطبيقه. ومع خلوهما المعرفي فقد احتملا بهتاناً بحق (سيبويه) وإثماً مبيناً بحق التراث العربي. والنيل من علماء الأمة ومن تراث الحضارة الإسلامية دأب المستغربين والمستشرقين. فالنقد الموضوعي غير التجريح الشخصي، وعرض البدائل غير النفي والإقصاء، وإشكالية مشاهدنا اختلاط الزيف بالأصالة، إذ ليس كل متصد للتراث مستغرب، فكم من عالم فذ نقب في كتب التراث، وأبان عما فيها من خطأ أو تقصير. وسنة الله في خلقه ألا يكمل في الوجود كتاب إلا كتابه، فكل عالم أو مفكر رادٌ أو مردودٌ عليه، وكل عالم أو مفكر يؤخذ من كلامه ويرد إلا الذي لا ينطق عن الهوى. واستياؤنا وتذمرنا ليس تعصباً للتراث، ولا تخوفاً عليه، ولا تزكية لعلمائه، ولا ادعاء عصمة لمنهج، ولكننا لا نريد الهرج والمرج، نريد بحوثاً ذات منهج وآلة وموضوع، تضع العين على مكمن الداء، وتصف الدواء، وتنصف في الحكم، وتعتدل في الآراء، وجلسات مجامع اللغة العربية تعدل وتبدل وتجيز وتمنع، وما أحد نقم على قراراتها.

وما كان صنيع الكاتبين أخذاً ورداً واستبدالاً، بحيث يندرج عملهما في ظل المشاريع الإصلاحية التي تسهم في التخفيف من ضجر الطلبة وملل المعلمين، وتقدم حلولاً لها وعليها ولكنها أقرب إلى الصواب وأجدر بالترحاب. وخطيئتهما المنكرة في النيل من علماء الأمة ظناً منهما أن صعوبة اللغة وغيابها عن لغة التخاطب مرده إلى صعوبة القواعد التي أنشؤوها، وفاتهم أنه لا حياة لأي ظاهرة إلا بالنظام .. فالحياة كلها ما ظهر

منها وما بطن، وما دق منها وما جل قائمة على النظام، ولا حياة لمن لا نظام له. فالنظام سنة كونية لا تتبدل ولا تتحول، بدءًا من نظام الكون وأجرامه ومجراته المشاهدة والغائبة إلى نظام الأجهزة المادية في جسم الإنسان، بل في جسم النملة والحشرة والخلية، وما لا يُرى من مخلوقات الله، التي تدب على الأرض، أو تطير في الهواء، أو تسبح في الماء، ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾. النظام إكسير الحياة، وقواعد النحو والصرف نظام، ومن أراد التفريق بين الشيء ونظامه فهو من يريد أن يفرق بين الجسم والروح، فلا جسم بدون روح، ولا تصور للروح بدون جسم. اللغة ونظامها كالجسم والروح، والقول بإلغاء الضوابط دخول في التسيب، وإذا أحسنا الظن بالكاتبين فإننا نشك في إمكانياتهما المعرفية، بل أكاد أجزم بأن (الشوباشي) يعيش أمية في النحو والصرف وفقه اللغة، وكتابه مجموعة من المقالات المتنافرة، وأن (أوزون) ناقل عشوائي عرف شيئاً وغابت عنه أشياء. وإذا كان أحدهما أو كلاهما على شيء من المعارف فإنهما يجهلان معارف النحو والصرف، ولو عرفا ذلك لما كان منهما القول في الشأن النحوي أو الصرفي بهذه الطريقة المتخلفة، والفاقدة لأبسط متطلبات البحث العلمي.

وإذا جهل الباحث مادة بحثه، ولم يعد هناك مجال للأخذ والرد معه، إذ هو بحاجة إلى أن يتعلم أولاً، وأن يمارس التطبيق ثانياً، ثم يبيح لنفسه التعاطي مع الموضوع عبر منهج وخطة ومادة وهدف. والكاتبان يفقدان ذلك كله، وحتى الهدف المقصود لا يتحرر، ولا يتحدد إلا من خلال منهجية وآلية وموضوعية ودراية ورواية، وفاقد الشيء لا يعطيه. والكتابان مجرد إثارة إعلامية ومحتوياتهما لا تصمد للبحث العلمي. والكاتبان لم يتيحا لنفسيهما فرصة الاطلاع على كتب النحو القديم بما فيها (الكتاب) ل(سيبويه)، ولم تكن لهما مرجعيات معتبرة، وكل ممارساتهما إنشائية إعلامية لمجرد الاستهلاك والإثارة. والقول في الشأن اللغوي يتطلب الإلمام بمدارس النحو وأمهات الكتب، وما سبق من دراسات تطبيقية أو تنظيرية، والأصوليون يقولون: (الحكم على الشيء فرع عن تصوره).

مواجهة الإرهاب بين الحملة .. والمؤتمر .. ![1]

مما يعرف عن البلاد وأهلها أنهم كانوا الأسبق في معرفة الإرهاب، والأنجح في مواجهته، والأكثر تضرراً منه. ويوم أن كانوا في مقدمة المتأذين من التطرف، كان العالم يحتمي بتعدد المفاهيم وتنوع المواقف، وكان يحيل تذمر المملكة إلى امتعاضها من حرية التعبير ونبرة المعارضة، فيما لم تكن ضدَّ المعارضة المشروعة، ولا ضدَّ الحرية التعبيرية المنضبطة، وإنما كانت ضد الغلو والتطرف والعنف المسلح، وضد الخروج على الشرعية، ومفارقة الجماعة، وتخويف الآمنين، وقتل الأبرياء والمستأمنين، ومصادرة الحرية التي كفلها الدين.

ويوم أن مسَّ العالمَ طائفٌ من لظى التفجيرات، وتجرع مرارات الخوف والرعب، اهتاج كما الأسد الجريح، متخبطاً في المواجهة والمطاردة، طائش السهام، محتدمَ المشاعر، واليوم يتقاطر مفكرو العالم وساستُه على بلد أبان لهم نصحه، وصدع بتحذيره، وحث على تجفيف منابع الإرهاب، وقَطْع دابره، وذلك بتفادي أسبابه، وتجنب مثيراته. ومفكرو العالم وساسته يلتقون، ليقولوا كلمتهم التي قالتها المملكة منذ زمن بعيد، ولم يستبنها زعماء العالم إلا بعد أن استيقظوا على صليل السلاح. وحرصاً من المؤسسة الأمنية على التوعية والمكافحة عضدت المؤتمر بحملة وطنية تضامنية، تنهض بها شرائح المجتمع، وتعززها كافة المؤسسات. وجدير بالمملكة أن تتقدم العالم في إطلاق لسانها بالتوعية، وبسط يدها بالمواجهة، فهي بلد السلام والتسامح والوسطية والتعايش وتبادل المصالح والجنوح للسلم، والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، والدفع بالتي هي أحسن .. منها انطلقت قوافل الجهاد والدعوة، وعلى ترابها تنزلت الرحمات من السماء، وفوق أديمها شمخ البلد الأمين، ورقد الجسد الطاهر، ومن خيراتها ملئت البطونُ الجائعةُ، وكسيت الأجسامُ العاريةُ، وجبرت الكسورُ المعوقة، وحقنت الدماءُ النازفةُ. وفي أبهاء قصورها التقى الفرقاء، ووقعت اتفاقات المصالحة، وعن طريق الرحلات (المكوكية) لمسؤوليها أطفئت الفتن، وفك الاشتباك، وكف البغي، وهُيئت موائد المفاوضات. ولما تزل إطفائية إسعافية، وكدنا بهذا التداعي لآلام الشعوب نتشبع ب(الأممية) وننسى (الوطنية). ويوم أن تعرض أمنُ الأمة للخوف، وتلاحُمها للتصدع، واستقرارُها للاضطراب، اضطلعت بمسؤوليتها، معتمدة على بارئها، مؤملة بوعده وعهده، متفائلة بنصره، لأنها أعلت كلمته، وأحيت سنته، وسعت بحاجة المسلمين في آفاق المعمورة، دعوة ومناصرة. ولمّا أن عم الإرهاب واستشرى، أصبح الحديث عنه بتعاريفه التي نيفت على المئة، وبمفاهيمه التي تعددت بتعدد الأسباب والمصالح والمواقف حديثا ذا شجون، والناس فيه بين قاطعٍ أمرَه أو مترددٍ فيه. والمواطنُ السليمُ الطوية، المتحسسُ عن الحق، المتثبتُ من أنباء الفاسقين، لا تُؤتى الأمةُ من قبله. ومن ذا الذي يود (لنفسه ودينه وعرضه وعقله وماله) أن تكون ريشة في مهب الريح؟ وتلك الضرورات الخمس مثمناتُ يستهدفها الإرهابيون. فهل أحد ممن بدت صفحة فعله المُشين فرّق بين محق ومبطل؟ وهل خليةٌ نائمةٌ أو مكشرةٌ عن وجهها تفادت الحرمات والمحرمات؟ وهل أحد من الذين مسهم الضرُّ يعرف لماذا أوذي في ماله وأهله ونفسه؟ أحسب أن الأمر من الوضوح، بحيث لا يحتاج إلى مزيد من القول. ولولا أن السكوت عن الحق شيطنةٌ خرساء، لما كنا بحاجة إلى القول المعاد. وحديثي في هذه الظروف العصيبة، ينطلق من مجموعة محاور، أجملها قادة الأمة:-

---

(١) تاريخ المقال: ٨/ ٢/ ٢٠٠٥

المحور الأول: ينطلق من مقولة خادم الحرمين الشريفين: - (لن نسمحَ للإرهاب بالمساس بأمن الوطن).

والمحور الثاني: يستبطن مقولة ولي العهد: -
(لا حيادية في معارك الخير والشر).

والمحور الثالث: يستلهم مقولة النائب الثاني:
(الأعمال الإرهابية دخيلة على بلادنا المباركة).

والمحور الرابع: يتمثل مقولة وزير الداخلية:-
(كلنا يدٌ واحدةٌ ضدَّ الإرهاب وتهديد الأمن).

والمحور الخامس: يستشعر مقولة أمير القصيم:-
(لا نقبلُ ولا يقبلُ هؤلاء الإخوة الذين عهدتهم أيَّ تبرير لمثل هذه الأعمال).

والمحور السادس: يستهدي بمقولة هيئة كبار العلماء:-
(الإرهابُ انحرافٌ فكريٌّ وفسادٌ عقدي).

ولكل أمير أو عالم أو مفكر مقولةٌ تستنكر، أو حديث يستنهض، أو فتوى تحرِّم. وهي مقولات تعد جماعَ المواجهة الفكرية، وزاد النخبة في المجالدة والمجاهدة.

ومع كل نازلة أو في أعقابها، كانت لي إلمامات متأنية متأملة، عبر المقالات والندوات والمؤتمرات والكتب، تستثيرها أقوال شاذة، وتذكيها ممارسات مستنكرة، أجملت بعض ذلك في الفصل الثاني من كتابي (أبجديات سياسية على سور الوطن) تحت عنوان (الإرهاب على السفود) تناولت فيه الظاهرة الشاذة، من حيثُ تضاربُ المفاهيم، وتعددُ الأسباب، وتدافعُ الانتماءات، وطرائقُ المواجهة، وقراءة الأحداث، وترتيبُ الحلول، وصناعة الإرهاب بين المناهج الدراسية واللعب السياسية، وفداحة الحدث، ومتاهاتُ التأويل، ومسؤولية رجل الأمن ورجل الفكر في الظروف العصيبة. وفي كل شوط دلالي أحيل إلى آي الذكر الحكيم، وإلى صحيح السنة المطهرة، وإلى منطق الفطر السليمة، وأحتكم إلى عقلاء الأمة، وأستفتي القلوب التي تطئمن إلى البر، وتتردد في قبول الإثم، فكانت كلمة الفصل: ﴿أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ و ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا﴾ و«**سباب المسلم فسوق وقتله كفر**».

و (الخطاب) الحضاري ينطلق من كليات الدين، ويستلهم تاريخ الأمة، ويركن إلى الرؤية الإسلامية الآمرة بالعدل والإحسان، والناهية عن الفحشاء والمنكر. ولما لم تكن مؤسسات الوطن مصدر إيذاء للبشرية، فإن قالة السوء تبعث من كل جانب، محمَّلة تلك المؤسسات شطرا من المسؤولية. وحين تحدونا تلك الظروف إلى مراجعة النفس، وتقويم الأداء، فإن ذلك لا يعني الاستجابة لمفتري الكذب، ولا الإذعان للمرجفين، ولا الخنوع للاتهامات الجائرة. ولكن لئلا يقال بأننا نزكي أنفسنا، ونؤله هوانا، ونصر على رؤيتنا، ومما لا مراء فيه أن الاختراقات الفكرية المنحرفة، وجدت طريقها إلى أدمغة الفارغين من أبنائنا، ممن لم نكن نتوقعُ اختراقهم بهذه السهولة وبهذا الحجم. وحين نكون أمام أحداث موجعة، اقترفها الضالون من أبناء البلاد ضد أهلهم، فإن العبارات المتمارضة الهروبية لا مكان لها، فالواقع يحتم الصدعَ بالحق، وإن كان مراً، ومصارحة النفس، وإن كانت مؤلمة، وتسمية الأشياء بأسمائها، وإن كانت قبيحةً. إن لدينا إرهاباً، ولدينا إرهابيين، وطائفةٌ من أبنائنا يتخطفهم اللاعبون بالنار. والميتون بغيظهم يهمزون، ويلمزون عبر القنوات المأجورة والصحف الفضائحية، والعمليات الإرهابية على أديمنا الطاهر أوضح

شاهد على أن اللعبة القذرة كشَّرت عن أنيابها، ومن ثم لم نعد بحاجة إلى الدليل. وكلمة ولي العهد تؤكد أن الموقف لا يحتمل (الحياد).

إن علينا لكي نكون واعين مسددين أن نفصل بين الظاهرة الإرهابية بصفتها العالمية والممارسة التخريبية داخل البلاد. والحديثُ المتجانس عن ظاهرة الإرهاب، يعني تماثل الأسباب والأهدافِ، وهذا غير صحيح. وإذا كان الواقع العالمي يستدعي المقاومة، فإن الواقع المحلي لا يتسع لأكثر من المشاطرة والشفافية والباب المفتوح والمناصحة، امتثالاً لحديث «**الدين النصيحة**».

وإذا كان الجذر اللغوي لكلمة (الإرهاب) ذا أصل واحد، فإن تعاريفه ومفاهيمه ومجازاته وانزياحاته، تتغير في الزمان والمكان والأحداث. ونحن لكي نُفعِّل موقفنا، ونرشِّد مواجهتنا، يجب أن يكون خطابنا عن الإرهاب الداخلي متسماً بالصدق والصراحة والصرامة والحدية وعدم المساومة أو المزايدة. وكل من عدت عينه إلى مواقع أخرى في (الغرب) أو في (الشرق) في (العراق) و في (أفغانستان) في (فلسطين) أو في (الشيشان) فإنه سيجد نفسه بين إرهابٍ متوحش، أو مقاومة مشروعة، أو دفع اضطراري. وحينئذ تضطرب المواقف، وتختلف الرؤى، وتكثر الثغرات، وتضيع قضيتنا البيضاء كما الشمس في رابعة النهار. وكيف ننساقُ وراء الآخر، ولكل من (البنتاجون) و(البيت الأبيض) تعريفهُ المغايرُ لصاحبه؟

إننا حين نتضامن مع العالم في مكافحة الإرهاب، وحين نعلن استنكارنا لأي ممارسة إرهابية، أو قتل عشوائي، وحين نستضيف قادة الفكر وأساطين السياسة في العالم، ليشهدوا مواقفنا الصريحة المتوازنة، فإن هذا لا يعني خلط الأوراق، ولا يعني القبول بالقول في عمليات الإرهاب المحلية على سنن القول عن العمليات الإرهابية العالمية. لقد حُمِّل الإسلامُ شطراً من التبعاتِ، وحملنا بعض الأوزار، واتهمت مؤسساتنا التعليمية والدعويةُ والخيريةُ، وحيل بيننا وبين ممارسة حقنا المشروع في الدعوة والدعم بسبب الممارسات الرعناء. والإسلام الحق وحملته المتمثلون لمقاصده ومقتضياته فوق الشبهات. وقضيتنا الأولى في المؤتمر والحملة تطهير البلاد من فلول الإرهاب، وحمايةُ الإسلام من حملات التشويه، ومشاطرةُ العالم مواجهته المشروعة، وحثهُ على حسم أسباب الإرهاب برفع الظلم ودعم الشرعية.

وإذا كان في الإرهاب العالمي أكثر من قول، فليس له ها هنا إلا قولٌ واحد: إنه إفسادٌ وحرابةٌ وبغي وتعد ونقضٌ للبيعة، وخروجٌ على جماعة المسلمين. وهو كما النص القطعي الدلالة والثبوت لا اجتهاد معه، ولا تفاوت في الموقف منه.

أما أشكاله وأنواعه وطرائقه ودوافعه ودركاته في آفاق المعمورة فإنه ظاهرةٌ عالمية تختلف فيه الآراء، لتعدد أسبابه وتنوع انتماءاته. ورفضنا له من منظور إنساني إسلامي، لا يدخل في التفاصيل، لأننا لا نتصور الأحداث كما نتصورها في بلادنا، ولا نعرف الملابسات كما نعرفها في بلادنا. ولهذا فإننا نشاطر العالم رفضه، ونحرص على تبادل الخبرات، ونود التقريب بين وجهات النظر، ولا نجد مانعاً من التعاون في مواجهته. وحقنا أن نثمن مواقفنا، وأن تلجم أفواهُ السفهاء والمأجورين عن الافتراء علينا. وفي سياق تضامننا الإيجابي مع العالم فإننا لا نسمح لأحد من أبنائنا أن يشق عصا الطاعة بقول لا تراه المؤسسة الدينية، أو بفعل لا تراه المؤسسة السياسية، أو انضمام إلى أي تجمع يضرُّ بالمصالح المشروعة، كما لا نريد أن يكون خطابُنا في الداخل كما هو في الخارج. إن علينا أن نجعل من خطابنا الداخلي: خطاب موقف يقطع بالتجريم والتحريم، وخطاب فعل يسهم في قطع دابر الشر. وذلك بالتأييد المعلن، والمساندة القوية.

وكلمة ولي العهد (لا حيادية في معارك الخير والشر) تذكرنا بخطابات تمريضية، قد تفوت علينا فرص الانتصار بأقل الخسائر. إن هناك من يمكن تسميتهم ب(اللاكنيين) وهم الذين يقولون: نحنُ ضدُّ الإرهاب ولكن .. ولكل مُستَثْنٍ (لاكنياتٌ)، لو جمعت، وجُعلت كلُّ واحدة منها جزءًا من المبررات، لكان ذلك مؤذناً بتبرير الإرهاب. وقطعاً لدابر (اللاكنيين) نقول: - إن الإرهاب بمفهومه العالمي غيرُه في مفهومه المحلي. ومن تردد في القول الفصل عن الإرهاب العالمي فإن حجته ضعفُ التصور، وتفاقم الأوضاع غير السوية. أما المتردد في القول الفصلِ عن الإرهاب المحلي فإن حجته داحضةٌ، ونواياه مريبةٌ.

الإرهاب المحلي مواجهة معلنة لثلاث ركائز، هي كل شيء في حياتنا:-

-الأمن.

-والعقيدة.

-والوطن.

ومتى استطاع الإرهابُ النفاذَ تحت أيِّ غطاءٍ فإن الضحية الحقيقيةَ هي ذلك الثالوث الأهمُّ في الحياة السوية. وإن كان ثمة (لاكنيات) فإنه يجب أن تكون بمعزلٍ عن مواجهةِ الإرهاب المحلي والموقف منه.

لقد جاءت كلمات القادة والمسؤولين والعلماء قاطعة لقول كلِّ خطيب، فالمؤسسة الأمنيةُ وُكِلَ إليها شأنُ المواجهة والمطاردةِ وتضييق الخناق.

والمؤسسات الدعوية والتوعويةُ والتربويةُ والثقافيةُ والإعلاميةُ مسؤولةٌ عن حفظ الأجواء، وتحصينِ الأدمغة البريئة من الإفساد، والحيولة دون الاختراقات الفكرية، والسعي الدؤوب لتنشئة الأجيال على الوسطيةِ والمواطنةِ، والأخذ بتحذير الرسول الرحمة-ﷺ- «**إن هذا الدين متينٌ فأوغلوا فيه برفق فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى**».

فحين لا يسمحُ وليُّ الأمر لأيِّ ممارسةٍ إرهابيةٍ بأن تمسَّ أمن الوطن فإن ذلك مسؤولية رجل الأمن. وكلُّ مواطن في النهاية رجلُ أمن.

وإذ يقول ولي العهد (لا حيادية في معارك الخير والشر) فإن هذا يعني ان الكلمة كالبندقية، لابدَّ أن تخوضَ معترك المقاومة، عبر المحرابِ والمنبرِ والمنصةِ والقاعةِ والصحيفةِ، والشريط، والكتاب، والمواقع والقنوات.

ويوم يقول النائب الثاني: (الأعمال الإرهابية دخيلة على بلادنا) فإن هذا يعني أن البنية الفكرية والدينيةَ لأبناء المملكة بنيةٌ سليمة، وأن سائر مؤسساتنا تتوخى مقاصد الإسلام، وأن إسلامنا دين الرأفة والرحمة، وأن الاختراقات الفكرية هبت رياحها من الخارج في غفلة من الرقيب.

وعندما يقول وزير الداخلية (كلنا يدٌ واحدةٌ ضدَّ الإرهابِ وتهديدِ الأمن) فإن هذا تجسيدٌ فعليٌّ لمقولة ولي العهد، فالكل مسؤول عن الأمن النفسي والفكري. ولا يُعذر أحدٌ على السكوت. فالقضية ليست مهمةً رسميةً ولا مسؤولية وظيفية. إنها قضية الوطن، قضية كلِّ من يعتز بانتمائه لهذه الأرض الطاهرة، قضيةُ العلماء والأدباء والمفكرين، ورجال الأمن والتربية والإعلام والأعمال والمقيمين، وقضيةُ المرأة في بيتها، والرجل في سوقه، والحِرَفي في معمله والعالم في مسجده، والأستاذ في قاعته، والأعرابي في باديته، والمزارع في حقله، قضيةُ كل مكلف يشعر أن الأمن له ولأهله كالماء والهواءِ.

وإذ لا يقبل أمير المنطقة تبريراً لمثل هذه الأعمال، فإنما يعني (اللاكنيات) الهروبية التي شغلتنا عن قضايانا. وعندما تجتمع كلمة كبار العلماء على أن الإرهاب انحرافٌ فكريٌ وفسادٌ عقدي فإن ذلك الحكمَ ملْزمٌ للخاصة والعامة، حتى يأتي حكم آخر

من ذات المؤسسة. وحين لا يطاعُ أمرٌ، ولا يسمعُ لكلام، تقع البلاد تحت طائلة العصيان المدني الذي يتمخض عن عصيان مسلح. وساعتها تفقد البلاد أثمن ما قدَّمه آباؤنا وأجدادنا بقيادة الملك الموحد عبد العزيز بن سعود- رحمه الله-. والإرهاب شئنا أم أبينا، رضينا أم سخطنا أصبح حقيقةً ماثلةً للعيان ووباءً مستوطناً، ولم يعد وقوعات عارضة. ومواجهته الحاسمةُ لا تتم بمعزل عن المسجد والمدرسة والجامعة والشارع والبيت وسائر المؤسسات الدينيةِ والأمنيةِ والثقافيةِ والتربويةِ والإعلاميةِ.

والإرهاب اليوم طاعون العصر، نزل بساحة العالم، وهمنا يجب أن يكونَ منصباً على أرضنا المقدسة بالدرجة الأولى، ولابد من نهضة جماعية، لتنقية الأجواء، والعودة بالبلاد إلى سالف عهدها أمناً واعتصاماً وتلاحماً، لنضطلع جميعاً بمسؤولياتنا قبل أن يتسع الخرق على الراقع.

ثقافة الإرهاب .. ! (١) [1]

عَنَّت لي فكرة الحديث عن (الثقافة النوعية) حين اخفقت بعض المؤسسات الخدمية والإجرائية في الحضور الفاعل، لجهل المستفيد منها بمهماتها، أو لعجزه عن إتقان طرائق التفاعل معها. وحين تحدثت فيما سلف عن (مأسسة الثقافة وثقافة المؤسسات)، أشرت إلى أهمية الثقافة الخاصة، وأنحيت باللائمة على كل الأطراف المتقاعسين. فالمؤسسة تُقصِّر عن التعريف بمهماتها، والمستفيد لا يعنيه التصور السليم عما يحيط به من مؤسسات أنشئت من أجله ولمّا أزل أحس بأن كافة مشاهدنا العملية بحاجة إلى توعية عميقة، تمكّن المنتفع من حسن التعامل والحصول على أكبر قدرٍ من الاستفادة.

ولما كان الإرهاب قضية ماثلة للعيان، كان لابد من التفكير الجاد للتوفر على ملاذٍ آمن يحمي الأجسام والأفكار والممتلكات وسائر المثمنات والضرورات، ولن يتم شيءٌ من ذلك، حتى نكون على بيّنة منه، وهذه البيّنة هي عين الثقافة، وأولوية ذلك أن نعرف القدر المعرفي، وطريق الوصول إليه، والشرائح المستهدفة.

ولتأكيد إشكالية الفراغ المعرفي دعونا نتساءل: هل أحد من العاملين في أي قطاع حكومي يعرف النظام الأساسي له، أو يتذكر التعديلات والإضافات على ذلك النظام، أو يختزن في ذاكرته أو في مركز معلوماته مجمل التعاميم المتعلقة بالعمل الإجرائي؟. وهل أحدٌ من المستفيدين والمستهدفين من أي قطاعٍ حكومي يعرف ما له وما عليه؟ وهل تستطيع النخبةُ فضلاً عن الدهماء أن تلم بالمكوِّنات الأساسية لـ(المجتمع المدني) الذي تسعى الدولة لاستكمال متطلباته: الحسية والمعنوية؟ وفي ظل هذا الانقطاع المعرفي فإن علينا أن نُرجعَ البصر كرتين كي ينقلب إلينا، وهو ممتلئ بالمعرفة وحسن الأداء.

ومما هو معروف عن (المجتمع المدني) بالضرورة قيامه على مؤسسات: دينية وتربوية وثقافية وخدمية وحقوقية وأمنية، لا تؤتي مهماتها إلا من خلال إجراءات وضوابط وشروط، ولما تكن تلك المؤسسات بكل ماهي عليه حاضرة الذهن الجمعي. ولهذا نجد السواد الأعظم يمارسون الفعل بمعزل عن تلك المؤسسات، مع أن (المجتمع المدني) لايكون سوياً حتى يرتبط بهذه المؤسسات وينطلق منها، وفق أوفى المعلومات وأدق الممارسات.

ولما لم تكن إشكالية العلاقة بين المواطن وسائر المؤسسات مقتصرة على الأخذ والعطاء المتوازن فإن ثقافة طرأت وفرضت نفسها، وأصبحت قضية موت أو حياة، هذه الثقافة مخاض الأحداث العالمية المتمثلة بالحروب الدامية: (الخليجية) و(الأفغانية)، و(سقوط الاتحاد) و(أحداث الحادي عشر من سبتمبر) و(الاحتلال) و(إسقاط الشرعية) و(الفراغات الدستورية) و(الحروب الأهلية)، وظهور (خطابات متشددة) وأخرى متوعدة، وتلويحات بالتدخلات العسكرية لفرض إرادة القطب الواحد، كل هذه التداعيات شكلت تنظيمات الغضب والتكفير واستحلال الدماء المعصومة، واستفحلت معها عمليات (الإرهاب). وفي ظل هذه التحولات المخيفة كان لزاماً على كل فئات المجتمع أن تعيها كما هي: ولادةً ومنشأً وانتشاراً، وأن تحدد الموقف ورد الفعل والتفاعل والاعتزال بوعي ومعرفة وتكافؤ، وهذا اللون من الثقافة كما أرى جزء من الثقافة العامة، فكان أن سميت تجوزاً بـ(ثقافة الإرهاب). فالعمليات الإرهابية الموجعة، استدعت خطابات جديدة موغلة في التناقض، وما كانت معروفة من قبل، والناس من حولها في أمر مريج. ولأن البلاد والعباد عرضة لهذه المخاضات فإنه من الضروري وعي المرحلة بالقدر الكافي، ومعرفة

---

(١) تاريخ المقال: ١٥/ ٢/ ٢٠٠٥

(الإرهاب) من حيثُ: مفهومهُ، وأسبابهُ، وطرقُ مواجهته، وانتماءاته. وفي ظل ثورة الاتصالات والمعلومات تداولت المشاهد عدداً من الثقافات الموصوفة ك(ثقافة الهزيمة) و(ثقافة الرفض) و(ثقافة الإقصاء) و(الغضب) و(العنف) وكل هذه الثقافات تحكمها الأنساق والسياقات والنسبية، وليس أدل على ذلك من اختلاط المفاهيم حول الجهاد والقتال، والمقاومة والدفاع، والبغي والعدوان.

وفي المقابل هناك ثقافات مؤسساتية ك(ثقافة الانتخاب) وقد شهدنا بعض التجاوزات في العمليات الانتخابية للمجالس البلدية، ووقفنا على إعلانات دعائية ووعود هلامية من بعض المرشحين، أدت إلى استبعاد عددٍ منهم لجهلهم بهذا الحراك الحضاري. وهناك (ثقافة الشورى) فالكثير من المنتفعين لايدري عما يُفعل به، وما يُفعل له. فما الشورى؟ وما جدواها؟ وكيف يستطيع المواطن المستفيد أو المتضرر من قراراته إيصال الرؤية إلى أعضاء المجلس. وهناك (ثقافة الحوار) وكم نشاهد عبر المؤسسات الإعلامية إسفافاً وفحشاً لايليق بالسوقة. ولو كانت لدى المتجادلين معرفةٌ بآداب الحوار وأساليب المناظرة، لما كانت تلك المناكفات المسفة. وهناك (ثقافة حقوق الإنسان)، وكم نسمع من المتحدثين في المنتديات والمجالس من يخلط بين الحقوق العامة والخاصة والحقوق السياسية والإنسانية. والهيئة الوطنية القائمة تتعثر بجهل الناس لرسالتها، وشكهم في جدواها، مع أنها مؤسسة تمتلك مشروعيةً ونظاماً لا يختلفان عما هي عليه سائر المنظمات العالمية. وللمتابع أن يستدعي (مجالس المناطق) و(المجالس البلدية) التي ستباشر عملها عما قريب، ليقف على إخفاقات كثيرة، منشؤها الجهل بهذه المؤسسات ورسالتها. وكل أمرٍ لا يقدم بين يديه تعريفاً مفصلاً عن ذاته يمكّن العامة من فهمه، والقبول به، والتفاعل معه، يظل في معزل عن الناس، وناتج ذلك ألا تتقبله الأمة بقبولٍ حسن. فالأمة هي التي تمنح المؤسسة الوجود الفاعل، وهي التي تجهض المشروع. ومكمن الإشكالية التقصير في إشاعة (ثقافة المؤسسة)، ولن تأخذ أي منشأةٍ خدمية وضعها الطبيعي حتى يكون هناك وعي جماهيري، يعطي كل شيء حقه، ثم يمضي في التفاعل معه والاستفادة منه. ذلك شأن العطاء، وهو شأن النفع، أما ظواهر الإيذاء فإن الجهل بها مؤذن بالاستفحال والتجذر وفداحة الأثر. ف(المنظمات الإرهابية) لايمكن استكناهها إلا من خلال اكتشاف (شفراتها)، وهي بعض الثقافة التي يفقدها أكثر الناس.

ولقد قلت من قبل: (إن المؤسسات غير الواعية، أو غير المستوعاة تتآكل مع الزمن، لأنها لا تزرع الثقة، ولا توطئ أكناف التواصل، ولا تحقق المراد بأيسر الجهد وأقل الوقت) وهذه المقولة توزع المسؤولية بين المفيد والمستفيد، إذ لا أريد أن تكون الإدانة لجهة دون أخرى، وما أردت جلد الذات، ولا تحقيق الانتصار الوهمي. إننا أحوج ما نكون إلى الشفافية والمكاشفة، ونشدان الحق، والكشف عن الأخطاء، وتحديد مجالاتها، ومن ثم النهوض للتلاقي لا للتلاحي، وللعمل لا لتبادل الاتهامات. وجهل المؤسسات النفعية أقل خطراً من جهل التنظيمات الضارة، وجمعنا بينهما لإثبات النقص المعرفي في الكل، وعدم التحرف الجاد لتلافي ذلك النقص.

وإذ ينشغل الوسط الاجتماعي بقضية خطيرة هي قضية (الإرهاب) فإنه لا بد من بسط الموضوع، وتلافي شح المعرفة عن كل تداعيات الإرهاب وتنظيماته، وأساليب أدائه، ومراوغته، وغنوصية خطابه. وتفادياً للتشتت فإننا لن ندخل في جدلية المفهوم، ولن نحفل بتعدد التعاريف. فالمؤتمرون في (الرياض) وهم أساطين الفكر والسياسة اعتزلوا هذه الجدلية، لأن لكل زمان ومكان التعريف المطابق له، ومن حق أي متعامل مع الإرهاب متضرر منه أن يحدد مفهومه والموقف منه على المستويين: المحلي والعالمي، شريطة ألا يشكل هذا المفهوم تعويقاً للتضامن العالمي، ولا مصادمة للمقتضيات

والمقاصد الحضارية. وإذا كانت للغرب مفاهيمه ومصالحه و(إستراتيجيته) فإن للشرق مثل ذلك، ومن الخير للعالم التحول من الصدام إلى الحوار، ومن التنازع إلى التعايش، وكل ذلك ممكن، ومن حق البشرية أن تعيش موفورة الكرامة، ولهذا فضّل الإسلام الجنوح إلى السلام. والتأكيد على أهمية التعرف على كل ظاهرة لا يعني التحريض على الصدام، أو الانغلاق على الذات، وإنما يعني معرفة الشر لاتقائه والخلوص منه.

ومن حق المتلقي أن يتساءل: ما ثقافة الإرهاب؟. وإذا صرفنا النظر عن التساؤل الأزلي: ما الإرهاب؟ فإننا لانجد مبرراً لصرف النظر عن تعريف محدد لثقافته. وإذ يكون (الإرهاب) ظاهرة تنهض بها الدول والجماعات والمنظمات والطوائف والأفراد، فإنها لم تعد عارضاً غير متلبث، لقد واكبت الإنسانية منذ (ابني آدم)، وستظل حتى يرث الله الأرض ومن عليها. وليست تلك الظاهرة الأزلية واحدة لا تتبدل، إنها تتغير بتغير الأزمنة والأمكنة والأناسي والأفكار، ولكل مرحلة زمانية ثقافة إرهابية مغايرة. والذين تناولوا الغلو والتطرف في القديم والحديث يختلفون في الآلية والمنهج وتحكمهم ماهية الخلفيات الثقافية وتعدد المرجعيات واختلافها، وهذا الاختلاف يجعل لكل مرحلة قراءتها، وليس أدل على ذلك من تباين القراءات حول (الخوارج) و(القرامطة) و(التتار) و(النازية) و(الفاشية) وسائر الظواهر القديمة والحديثة. إن هناك ثقافة تمكن من استكناه الظاهرة، وثقافة تمكن من اتقائها، والأمة مطالبة بالتحصن من المرض والتحذير منه. وأسلوب (افعلْ)، و(لا تفعلْ)، لم يعد مجدياً، فالناس يريدون الإقناع، ولا إقناع بدون معرفة تامة تعري الحقائق.

لقد كنت، ولما أزل وراء المستجدات الفكرية والثقافية والسياسية، فكلما تداولت المشاهد مصطلحاً، سعيت جهدي لتجميع القصاصات المتعلقة به من أخبارٍ ومقالاتٍ، حتى إذا استوت النازلة على سوقها، انهالت الكتب التي ترصد للظاهرة، وكل راصدٍ تحكمه خلفيته الثقافية والدينية والسياسية وآليته ومقدرته الذاتية. ومن الخير أن يكون للمتابع موقف ثابت، يستمد قوته من عقيدته ومواطنته ومصالح أمته. وتلك ثقافة الاتقاء، وهي جزءٌ من التأصيل المعرفي، وكل خائض في قضايا الفكر على غير علم ولا هدى ولا كتاب منير، يعرّض نفسه للأخطاء المهلكة، وضرورة التأصيل ومعرفة الآخر عرضتني للركام المعرفي، فلقد استوفيت الحديث عن (الماركسية) و(الوجودية) و(العلمانية) و(الحداثة) و(البنيوية) و(التقويضية) و(العولمة) وأخيراً امتلأت مكتبتي من الكتب التي تناولت (الإرهاب). وكلما فاض المعين من شيءٍ، أحسست أنني أشد مسغبة. فتعارض (الايديولوجيات) وتصادم المصالح، واختلاف المفاهيم، وتعدد المواقف، واختلاط اللعب المأجورة بالبحث العلمي المجرد جعل المتابع يعيش في أجواءٍ ضبابية لا يكاد يعرف الصادق من الكاذب. وإذ تتعثر (ثقافة الإرهاب) بتناقض الآراء، تظل ممنعة على الكافة، وهم الأكثر عرضة للإرهاب وتأذياً منه. وواجب المؤسسات الدينية والتربوية والإعلامية والثقافية إشاعة هذه الثقافة لتكون ميسورة التناول، ومن ثم يكون أخذُ الحِذر من الإرهاب والتصدي للتثقيف المضاد ممكناً ومطروحاً في الطريق للخاصة والعامة.

ثقافة الإرهاب .. ! (٢) [(١)]

والتعرّض لتعدّد الرؤى والمفاهيم والتصوّرات لا يحول دون مغالبة المواقف والنفاذ إلى مشارف السلامة؛ فالأمة لا تنجو بالاعتزال، ولا تنفذ بالاحْتيال. وهذا الوضع يتطلب سلطان العلم والقوة لتتمكن الأمة من الاتقاء والنفاذ، ولن يتأتى النفاذ من مختنقات المشكلة إلا بتحرير المسائل وتحديد المفاهيم ومعرفة أنجع الطرق للخلوص من تلك المآزق. ولابد والحالة تلك من التغلب على المعضلات المتنامية بالصبر والمصابرة والمرابطة، واستخدام المجسّات والمسابير والحفريات لمعرفة أدق التفاصيل عما يحيط بالأمة من أفكار وظواهر وتكتلات. وكل ذلك جزء من الثقافة بشقيها: الوقائي والعلاجي. والمثقف بوصفه أهم المرابطين على ثغور الأمة بحاجة ماسة إلى تشكيل معرفي سليم، يمكنه من تحصين نفسه أولاً، ثم الإسهام في إنذار عشيرته الأقربين، والعمل على توعية الناشئة المستهدفة من قرناء السوء ومحترفي التضليل من الغلاة والمجندين. وليس هناك أخطر من غسل الأدمغة، واستغلال الشباب المتحمّس للمثالية. وأكبر شاهد على خطورة الاختراقات الفكرية ما نعايشه في راهننا المحلي؛ فالذين يمارسون الأعمال الإرهابية شباب غُرّر بهم، وأخذوا على غرّة، حين غفل المقتدرون عن تجمّعات الشباب، فالمغرّر بهم لم يكونوا من كبار السن ولا من المتخصّصين في السياسة الشرعية، وهذا يؤكد أهمية الثقافتين: (الثقافة الشرعية) و(الثقافة الشريرة)، ويؤكد أهمية الشباب، فهم المستهدفون. وفي ظل هذه البوادر السيئة نكون أحوج إلى توفير (ثقافة الإرهاب) بوصفها جزءاً من التعبئة العامة التي تجعل شبابنا على بينة من أمرهم؛ فالثقافة المعرفية بإزاء الثقافة المضادة، تكشف عن المتربّصين والمتماكرين وقرناء السوء والمتعالمين، والغلاة والمتطرفين، وتضع أمام أعين المستهدفين كلّ الخيارات، ليكونوا على بينة من أمرهم، ولا يؤخذوا على غرّة.

إن المسجد والمنبر والمدرسة والبيت وسائر وسائل الإعلام والمؤسسات الثقافية هي المجال الأهم لإشاعة التوعية والإنذار والتحذير من هذه الظاهرة، ولا يمكن أن نشيع ثقافة الضدّ فيمن يعنيهم الأمر إلا من خلال هذه القنوات. ومَن لم يعرف الشرّ يوشك أن يقع فيه، وكان (حذيفة بن اليمان) - رضي الله عنه - يسأل عن الشرّ مخافةَ أن يقع فيه، وكان الخليفة الراشد (عمر بن الخطاب) - رضي الله عنه - يخاف على مَن لم يعرفوا الجاهلية أن يقعوا فيها.

وكلّ نظام جائر أو عادل، وكلّ منظمة مدنية أو بدائية، وكلّ تطرف دينيّ أو سياسيّ، وكلّ عنف أو غلو، لا يمكن أن ينطلق من فراغ. إنه مخاض ثقافة لا يمكن صدّها على أعقابها إلا بفهمها وتفكيكها وإبطال مفعولها قبل أن تفعل فعلها.

والمواجهة الثقافية لا تختلف عن المواجهة العسكرية، وإذا كانت الرؤوس المدمّرة المنقولة على صواريخ تواجه بما يفجّرها في الجوّ قبل وصولها، فإن ثقافة الضدّ لابدّ لها من آلية تنطلق إليها في مهدها لتبطل فعلها. وكل ذلك مندرج ضمن (ثقافة الإرهاب) ولا يتمّ ذلك على وجهه إلا بتقصّي تلك الثقافة؛ فالحكم على الشيء فرع من تصوّره، ولا يفل الحديد إلا الحديد. إن المواجهة شيء، والتوعية شيء آخر، ولابدّ أن يسيرا جنباً إلى جنب؛ فالسلاح والكلمة الطيبة صنوان. وإذا لاذ المفسدون في جحورهم، وتحولوا إلى خلايا نائمة، يأتي دور الكلمة السديدة، كما التحصين من الأوبئة المنتشرة.

---

(١) تاريخ المقال: ٢٢/ ٢/ ٢٠٠٥

إن (ثقافة الإرهاب) مؤذنة بمعرفته على حقيقته، وحسم المشاكل المترتبة عليه لا يكون إلا بعد التقصّي لها، ومعرفة أسبابها ومصادرها. وكل حضارة فاعلة لابد أن تستوعب ثقافتها، وأن تلمّ بقسط وافر من الثقافة المضادة على الأقل.

ومؤسسات (الاستخبارات) و(المباحث) و(مراكز المعلومات) الدولية منوط بها التوفر على الخطاب المناوئ والثقافة المضادة. ولأن الإرهاب ينسل من زوايا المجتمع المعتمة، ويندس أفراده في أوساط الشباب المتوقد حماساً والقابل للتشكل كما عجينة الصلصال؛ فإن على المؤسسات الثقافية والدينية والإعلامية كافة مواصلة التوعية، والعمل على تسييج المنافذ؛ لكيلا يتخطف الأبناء من كل جانب.

لقد أجمع العالم على رفض الإرهاب، ولم يبقَ إلا أن نكون على بينة من مفاهيمه: المحلية والعالمية، وأنواعه: الفكرية والدينية والطائفية والعملية، وأسبابه: الظاهرة والباطنة والذاتية والغيرية. فإذا اكتفينا بمواجهة الإرهابيين بقوة السلاح وأشكال المطاردة، وتركنا الحواضن، ظلت تفرخ لنا المئات بدل العشرات، وظلت المسألة في إطار الصراع الدموي والحرب الأهلية التي تقضي على الأمن والتنمية، وتؤدي إلى تفكك الوحدتين الفكرية والإقليمية. والمواطن جزء من العملية؛ فهو هدف للقتل، وهدف للتضليل، فإذا ظل جاهلاً بالإرهاب من حيث هو، وجاهلاً بأساليب الوقاية منه وطرق المواجهة له، فإنه سيكون مستهدفاً في البداية، ومشروعاً للإرهاب في النهاية.

ومن الخطورة بمكان أن نشتغل في ظل مفاهيم مغلوطة، بحيث نتصور الإرهاب على غير حقيقته، فلا نعرف الأسباب ولا الانتماء ولا أساليب المواجهة: الحسية والمعنوية. والفهم الخاطئ كالمقدمات الخاطئة يؤدي إلى نتائج عكسية، وخلوصاً من هذه المآزق لابد من التأسيس المعرفي ورسم خطة فاعلة، تضع الظاهرة بكل ملابساتها على المحك؛ لتكون العامة على بينة من أمرها في أخذ الحذر والخلوص من مكائد الإرهابيين وصناعهم. إن هناك وقاية، وهناك مواجهة؛ فالوقاية رهن الثقافة المزدوجة: ثقافة الذات وثقافة الغير، والمواجهة تكون استباقية، وتكون استئصالية، ولكل وضع ثقافته.

ولما كانت بلادنا في مقدمة الدول الحمَّالة: حمالة لهمّ الدعم والإصلاح وفك الاشتباكات، كانت وجبة شهية لكل من أراد لهذه المنطقة أن تعيش في أتون الفتن.

فلقد أصبحت مسرحاً لعدد من العمليات الإرهابية التي أزهقت الأرواح، وهدمت المباني، وأخافت الآمنين، وكانت هدفاً للاتهامات الجائرة، وكان أبناؤها هدفاً للمغرّرين والمخادعين. والأمر بهذا التنوع يحتاج إلى تحرف سليم يقوم على تجميع كافة المعلومات العميقة الشاملة الدقيقة عن كل متعلقات الإرهاب، ثم إشاعتها لتكون في متناول كل مواطن، والتواصي بالتكاتف والاعتصام بحبل الله، ومواجهة الأعداء صفاً واحداً كأنه بنيان مرصوص، وإعداد خطاب حضاري ينازل أدعياء السوء: ممن جندوا أنفسهم، ووظفوا إمكانياتهم لتشويه سمعة المملكة وتحريض العالم عليها، وممن نذروا أنفسهم لإفساد العقائد والسعي في الأرض فساداً.

لقد أحسن قادة البلاد صنعاً حين دعوا إلى عقد مؤتمر دولي لمكافحة الإرهاب، ليعرف العالم الموقف الرسمي والديني والشعبي الذي يمثل لحمة واحدة، وهو موقف حضاري لا غبار على مشروعيته. هذه التظاهرة العالمية أثبتت اتساع مشاهدنا لكل الخطابات وقدرتها على التفاعل الإيجابي مع أي خطاب متوازن، الأمر الذي أذهل الجميع، وحملهم على مراجعة مفاهيمهم عن البلاد وعلمائها ومناهجها. فالبلاد مستهدفة: عملياً وإعلامياً، ولا ينجيها من هذه المكائد إلا استجلاء الحقائق والبرهنة للعالم بأن ما يقال عنا ظلم وعدوان. وليس أدل على ذلك من تفاعل المواطنين مع الحدث عبر الحملة

الوطنية التي أثبت المواطن من خلالها رفضه الإرهاب بكل أشكاله، هذا المؤتمر جسر الفجوات، ومكننا من إسماع صوتنا الذي ظل حبيس أجوائنا.

لقد لفت نظري الجهل بمؤسسات المجتمع المدني وضعف التفاعل معها والأداء السليم من خلالها، وامتد هذا الشعور إلى النقص المعرفي بالظواهر السيئة، الأمر الذي مكنها من الاستفحال، وكان ذلك مؤذناً بالحديث عن (ثقافة المؤسسات) وعرض الحيثيات الداعية لذلك، ولما راعني الجهل بالإرهاب ومتعلقاته والتعويل على المؤسسة الأمنية لمكافحته، كان حديثي عن جوانب كثيرة تتعلق به، تناولت:

-الإرهاب بين تضارب المفاهيم وتعدد الأسباب.

-الإرهاب وتدافع الانتماء.

-الإرهاب وطرائق مواجهته.

وهذه المحاور فيما أرى هي جماع (ثقافة الإرهاب)، فلو نفر المقتدرون للتضلع من هذه الثقافة والتفقه بها ومعرفة مداخلها ثم النهوض بالإنذار عبر المنابر والقاعات والصحف والقنوات، لكان أن قطعنا الطريق على المتسللين بالعتاد والرجال والأفكار.

والأمة حين تستقر على مفهوم محدّد لأيّ ظاهرة سيئة، وحين تعرف أسبابها تكون أقرب إلى التعامل معها وفق متطلبات المرحلة. ومتى أتيح للمواطن الوقوف على جدل الحضارات حول ملابسات الإرهاب بوصفه من الظواهر السيئة، استطاع أن يعرف كيف يواجه الأعداء، وإذا أتقن الجميع طرائق المواجهة، تمكنوا من اتقاء الشر، ودفع الضرر بأقل الخسائر.

والمؤتمر الذي دعت إليه الدولة خرج بتوصيات متوازنة، لم تنل من رؤية البلاد، ولم تؤثر في مواقفها المعتدلة. ودعوة المملكة لإقامة مركز دولي للإرهاب قوبلت بترحيب دولي، ومهمات المركز كفيلة بتيسير المعرفة الوقائية، وهي الجزء الأهمّ من (ثقافة الإرهاب)، وفوق هذا وذاك جاءت الحملة الوطنية التضامنية تجسيداً للموقف الشعبي. وتعالقُ الموقف الرسمي مع الشعبي مؤشر إيجابي. ولم يبق إلا أن نعي هذه الظاهرة بكل ملابساتها، وأن نستصحب هذا الوعي إلى أمد طويل؛ فالظاهرة لا تحسم بيوم وليلة. والإرهاب المحلي وإن كان في لحظات الاحتضار إلا أن إمكانية التحرف أو التحيز متوقعة، وإذا حوصر الإرهابيون، وضيق الخناق عليهم فإن لفلولهم رفسة تشبه رفسة الذبيح، وهي من أخطر المراحل في أي ظاهرة تحتضر؛ ولهذا لابد من أخذ الحذر، وعدم الركون إلى نشوة الانتصار. وخوفاً من الخلايا النائمة فإن علينا أن نظل نشيع (ثقافة الإرهاب) للحيلولة دون كرّة موجعة، تؤدي إلى احتناك أبنائنا الأبرياء، وانتزاع الأمن والرخاء والاستقرار من بين أيدينا.

ويجب ألا تقتصر ثقافتنا عن الإرهاب على جانب منه؛ فالقتل والتفجير وتهريب السلاح وغسل الأموال والمخدرات كل ذلك يعد ظاهر الإرهاب، أما باطنه فيتمثل بالكلمة الخبيثة النافذة عبر عدد من التنظيمات السرية. ولما كانت مجالات الإرهاب متعددة؛ فقد أصبحت ثقافته متلونة كما الحرباء، ومراوغة كما الثعلب، ومخادعة كما السراب. ولقد نبه المؤتمرون إلى المثلث الخطير: تهريب السلاح، وغسل الأموال، وترويج المخدرات. والبلاد الغنية مرتع خصب لكل مفردات الإرهاب، ومسؤولية المؤسسات الأمنية والثقافية تتضاعف كلما تعرضت البلاد للعمليات الإرهابية، وكلما تعرضت الأدمغة للغسل، فلنأخذ حذرنا قبل أن نؤخذ على غرّة. وخلاصة القول:

١ - أن نضع (استراتيجية):

-أمنية .. تستبق الأحداث.

-توعوية .. تواجه الدعاية المغرضة.

-تربوية .. تنشئ الأجيال على الوسطية.
٢- أن نؤصل مفهوم المواطنة بحيث يعرف المواطن الواجبات بقدر معرفته الحقوق، وأن الأقربين أولى بالمعروف.
٣- أن نؤصل مفهوم السياسة الشرعية القائمة على احترام السلطات الثلاث:
-السياسة
-الدين
-المجتمع
٤- أن نعرف الأعداء وألا نتمنى لقاءهم.

وإذ يكون الإرهاب قضية الساعة، ووسيلة قذرة للاقتناص والاقتصاص فإن على الكافة التعرف عليه، وعلى أساليبه، وعلى منظماته، للتوفر على الوقاية الناجعة، وإتقان المواجهة الدقيقة، ولكل منهما متطلباته المعرفية والآلية، وذلك ما قصدناه ب(ثقافة الإرهاب).

موقعنا في سياق المشاريع الثقافية .. ! (١) [(١)]

كان بودي لو توافر لهذا الموضوع جهد ووقت ومرجعية كافية، تمكن من تفكيك الظاهرة، والتعرف على أدق تفاصيلها، والقول عنها بموضوعية وتقويمها بواقعية، وتدارك الأمر للتأسيس المعرفي لما نستقبل من مشاريع مؤسساتية أو فردية أو جماعية تتعلق بالثقافة بوصفها جماع المعارف النظرية.

ويقيني أن مجرد الإثارة لمثل هذه الموضوع مؤذنٌ بتحرف سليم، يضعنا بكل ما لدينا من إمكانيات في المكان المناسب بكل ممارساتنا الثقافية على الأقل، وساعتها تكون هذه الإثارة ذات مردود مفيد، وما كنت بامتعاضي متخذ الشامتين عضداً، فما أنا إلا من (غزية) في قوتها وضعفها. وحين أنحي باللائمة فإنما أنحي بها على نفسي أولاً إن كان ثمة قدرة معطلة، أو فكر مهمش.

لقد بدأ هاجس المشاريع منذ أن وجه القرآن الكريم إلى النفور للتفقه والإنذار بعد التضلع المعرفي. ومنذ أن أجلب العلماء بكل إمكانياتهم وخلفوا لنا ملايين المخطوطات. والتاريخ الحضاري للإسلام المتمثل بكتب الطبقات وسير أعلام النبلاء، وتاريخ المدن زاخر بالتاريخ المشرف للعلماء الأفذاذ الذين نذروا أنفسهم للمشاريع العلمية التي خلدت ذكرهم. ولن أمضي في الاستطراد واستعراض علماء التفسير والحديث واللغة والفقه والتاريخ ومنجزاتهم، فهو حاضر الذهنية المثقفة ثقافة تراثية. ولن تعدو عيني إلى الدول المتمكنة من ظاهر الحياة الدنيا؛ فمثل هذا السبق حاضر المثقف المسكون بهمّ أمته.

وحديثي عن موقعنا في سياق المشاريع الثقافية لن يقف عند حد الرصد والوصف، كما أنه لن يتردى في مآزق المفاضلة والادعاء. وإذ لا أسمح لنفسي بالوقوع في هذه المآزق فإنني في الوقت نفسه لن أستدر عواطف البَرِمين بجلد الذات؛ فالأمة محكومة بواقعها وبسياقها، وهي قادرة على كسر الطوق والخلوص من الارتهان لواقعها المأزوم. والفكاك من مخذلات الواقع يتطلب رسم أكثر من خطة للنفاذ من عنق الممارسة النمطية.

وتشكيل (المجتمع المدني) لا يعني المروق من مقتضيات الحضارة ومقاصدها، وإنما يكون بالخلوص من الأمية والبدائية والفردية وارتجال الفعل وفورية الممارسة، وتشتت الجهود، وعشوائية الأداء. وأي مشروع ثقافي لا يسبق بالدراسات المعمقة والخطط الدقيقة والدعم المتواصل والخبرات المتمكنة والعمل المؤسساتي الدؤوب، يكون مآله إلى التوقف، ثم التآكل. ومع نجاح كثير من المشاريع الفردية التي سنعرض لبعضها، إلا أن ضمان النجاح والاستمرار لا يكون بالقدر الكافي، والزمن زمن التكتلات، والخبراء الممارسون يركنون إلى المشاريع المؤسساتية مهما كانت بطيئة. وشأننا في التخوف والرغبة شأن (الشركات العائلية) التي تضيع بمجرد موت المؤسس، والمتابع للمشاهد العربية والعالمية تمر به إسهامات فردية ومؤسساتية ترقى بتكاملها وشمولها إلى مستوى المشاريع، وإن كان الفعل الفردي أو المؤسساتي لا يُضمِرُ همَّ المشروع.

وبين يدي الحديث عن المبادرات الفردية والجماعية والمؤسساتية يحسن بنا أن نحاول تحرير (مفهوم المشروع) بوصفه سمة أو مصطلحاً. ولست أعرف ما إذا كانت كلمة (مشروع ثقافي) قد أصبحت كلمة مصطلحية، لها مفهومها ومقتضاها. لقد نقبت في المعاجم والموسوعات، فلم أر فيها ما يؤكد مصطلحية الكلمة، أما في مجال (الاقتصاد) فهناك أكثر من ظاهرة أو ممارسة اقتصادية تستهل بكلمة (المشروع). وفي كتيب صغير يحمل عنوان: (مشروعك الخاص يترجم وجودك .. أنت بلا مشروع أنت بلا وجود)

---

(١) تاريخ المقال: ١/ ٣/ ٢٠٠٥

لمؤلفه (أحمد قائد الأسودي) وقفت على كلمة إنشائية محتدمة، تختلط فيها مشاعر الانتشاء بحالات البؤس والانكسار، عنوانها (ماهية المشروع)؛ إذ يؤكد استحالة غياب المشروع في الواقع الإنساني، بوصف الإنسان مشروعاً بحد ذاته؛ فهو - على حد قوله - مشروع الله في أرضه، خلقه واستخلفه واستعمره، وهو مساحة مستهدفة بالمشروعات، ما يوحي بأن الإنسان مشروع ومستهدف بالمشروع. ولست مع الهلاميات والإطلاقات العاطفية. وما أرمي إليه قيام الفرد أو الجماعة أو المؤسسة بتبييت النية وبلورة الفكرة وتجسيد الرؤية والتصور السليم الذي يحدد الحاجة، ويرسم الطريق، ويتوفر على المادة والجهد والوقت ويباشر العمل من خلال الخطة والمنهج والآلة، بعد فهم المهمة في لحظة التخلق إلى نقطة التحقق. وهذا التطلع لم أر أحداً نفله بدراسة علمية موضوعية على حد علمي، ولما كان الجهل بالوجود لا يعني العلم بالعدم، فقد نفيت علمي، ولم أنف الوجود.

ومع عدم تحرير المصطلح فقد وجد البعض في ذلك فرصة للادعاء العريض، إذ يطلق البعض على ممارسته الثقافية سمة المشروع، ويتلقف الإعلام هذا الإطلاق ويتداوله، وما هو في حقيقة الأمر مشروع. ومرد ذلك: إما إلى المفهوم الخاطئ للظاهرة، أو الرغبة في التشبع والادعاء. وقد يكون تبني أي ظاهرة أو تيار أو مذهب غربي مغرياً بمثل هذا الادعاء المتزيد. وتلقي المذاهب الغربية أو تبنيها لا يكون مبادرة ولا مشروعاً. لقد جُلبت مفاهيم وآليات ومناهج في التربية والأدب وعلم النفس والاجتماع وسائر (الأيديولوجيات) ولم يتردد المحتفون بها في وصف محاكاتهم بأنها مشاريع، وما هي كذلك، وإن كانت المشاهد قد استفادت منها، وإذا كان من حقهم التزود من معارف الغير فإن ذلك محكوم بضوابط لم يتمثلوها.

لقد كثرت المقولات حول المشاريع، مثلما كثرت دعوى (الثلاثيات الروائية). والمشروع لا يكون إلا بعد قيام الحاجة، وتوفر الإمكانيات، ورسم الخطط، وتحديد الأهداف، وتصور النتائج، وممارسة الفعل المنظم، وإنتاج العمل المستقل المتكامل، ونهوض طائفة مقتدرة واعية تتحرك في الوقت المناسب، وتملك الحق والشرعية والإمكانية، وأن يسبق الفعل تقدير وتوقيت وتحديد المسار والهدف. ومثل هذا لا يصدق على كثير من الممارسات الفجة المرتجلة التي يصفها أصحابها بالمشاريع، ويتلقاها أشياعها بالتصديق، ثم لا تكون كذلك، ومع الحرص على فرز الأعمال وتحديد العمل المشروعي والعمل العادي إلا أننا لا نجد الضوابط الدقيقة التي تتلافى مثل هذا الخلط المسيء للفهم. والمتابع للإنجازات الفردية والمؤسساتية يجد أن أعمالاً فردية، لم يبيت أصحابها نية المشروعية، ولكنها تفوقت بغزارتها وموضوعيتها وسدّها الحاجة على أكثر المشاريع المستحقة لهذه السمة، وقد لا يلحق بها من بيتوا النية وخططوا وأنفقوا.

فلو نظرنا إلى المشاهد الثقافية العربية إبان النهضة أو في أعقابها لتبدت لنا إنجازات فردية وجماعية ومؤسساتية تستحق الوقوف والإشادة، وإعادة النظر، لإعادة الكرّة ومواصلة المسيرة التي انقطعت بموت صاحبها، أو بتفرّق الجماعة. وليس هناك ما يمنع من الاستفادة والتأسي؛ فالثقافة والحضارة والهمّ العربي وحدة واحدة لا تتجزأ، وما ينجز في موقع جغرافي يسدّ خللاً كثيرة، وبتعقب المنجزات التي كاد يطويها النسيان نقف على محاولات رائدة في مختلف الحقول المعرفية.

لقد تبدت الإسهامات المشروعية في عدة حقول معرفية، ففي حقل الفكر الإسلامي ومعارفه بُذلت جهود من قبلِ أفراد ومؤسسات، وكان لهذه المبادرات المنظمة أثرها في سد فراغات معرفية طال انتظارها. لقد كانت هناك محاولة للتاريخ الحضاري للإسلام لمواكبة التاريخ السياسي، ويأتي في مقدمة ذلك مشاريع كثيرة، منها - على سبيل المثال - مشروع (أحمد أمين) عن فجر الإسلام وضحاه وظهره، وفي مجال الدراسات الشخصية

يأتي (العقاد) في عبقرياته، وفي مجال النص التشريعي نجد أنه في مجال (الحديث النبوي الشريف) يتبادر إلى الذهن العلامة (محمد ناصر الدين الألباني) - رحمه الله - لقد كان اهتمامه في التحقيق والتخريج والتصحيح فتحاً مبيناً، أدى إلى العدول عن كثير من المسلمات الفقهية، والتقليل من التعصب المذهبي الذي أحل النص الفقهي محل النص الشرعي، وخدمة السنة النبوية من لدنه مبادرة فردية يعجز عن النهوض بمثلها فريق عمل متفرغ؛ الأمر الذي حدا بعلماء المملكة إلى تثمين عمله المتميز، ومنحه (جائزة الملك فيصل العالمية) ومشروعه في خدمة السنة فتح الطريق أمام عدد كبير من العلماء الذين أسهموا في تحقيق كتب الحديث وتخريج أحاديث السنن والصحاح والمسانيد.

وأحسب أن النصف الثاني من القرن الماضي يعد من أميز الفترات وأخصبها؛ حيث شكل تحولاً في الفقه الإسلامي، حمل علماء المذاهب على مراجعة مسلماتهم، والقبول بإعادة النظر في كثير من الأحكام، وعمله من أهم المشاريع الفردية. ويواكب هذا المشروع ظاهرة (الفهرسة) لكتب الصحاح والمسانيد والسنن ووضع فهارس للصحيح والضعيف والموضوع. وتبع ذلك بدايات متعددة في مختلف المعارف توقفت قبل الاكتمال: إما لموت المؤلف، وإما لعجزه، وإما لفشل مشروعه. والمشهد الثقافي والمعرفي زاخر بالمشاريع التي بدأت ثم تفرقت بها السبل.

وفي مجال (الذكر الحكيم) يتبادر إلى الذهن (مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف)، أما عن الجهود الفردية فيتبادر إلى الذهن العلامة (عبد الخالق عضيمة) - رحمه الله - الذي أنجز عملاً فريداً، لم يحظ بالاهتمام والاستثمار، تمثل بدراسات نحوية صرفية لأساليب القرآن الكريم، حيث أفرغ النص القرآني وفق أبواب النحو والصرف، ويقع مشروعه في أحد عشر مجلداً، لا ينجز مثله إلا أولو العزم من العلماء الأفذاذ. ومن قبله مشروع الأستاذ (محمد فؤاد عبد الباقي) - رحمه الله - (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم). وفي مجال الحضارة الإسلامية لا يجهل أحد مشروع (فؤاد سزكين) الذي جاء تصحيحاً لعمل لمستشرق (بروكلمان)، ولو ذهبنا نستقصي ألوان المشاريع ومجالاتها لطالت علينا الشقة.

وعلى المستوى المحلي وفي مجال التراث والآثار وعلم الأنساب واللغة والمخطوطات يعد من أبرز الشخصيات الذين تركوا أثراً يفوق المشاريع المؤسساتية علامة الجزيرة العربية الشيخ (حمد الجاسر) - رحمه الله - فلقد اهتم بجغرافية الجزيرة العربية، والتف حوله عدد من الباحثين الذين أنجزوا جغرافية مناطق المملكة، وهو قد اهتم بتاريخ الأسر المتحضرة في نجد، وله اهتمامات تراثية ولغوية، وهي بمجملها تشكل وحدة معرفية تضارع المشاريع العملاقة. وبالإضافة إلى التحقيقات، فقد تعقب معاجم اللغة العربية واستدرك عليها ما يتعلق بأسماء المدن والجبال والأودية، وهو بإمكانياته واهتماماته الاستثنائية أصبح مرجعاً معرفياً موثّقاً لدى (المجمع اللغوي بالقاهرة)، ويعد من عمده فيما يتعلق بتاريخ الجزيرة العربية وجغرافيتها. وإلى جانب أعماله التأليفية والإشرافية يُصدر مجلة (العرب) وهي مجلة متخصصة، تهتم بذات الموضوع. ولقد نهض محبوه للمحافظة على استمرارية جهوده، وذلك بإنشاء مركز يحمل اسمه، ويؤدي ذات المهمات التي كان ينهض بها بمفرده. ولقد شُغل بعض الأدباء والمفكرين والمتخصصين بقضايا تاريخية أو تراثية أو فكرية أو أدبية وتمخض اهتمامهم عن منجزات كادت تصل إلى مستوى المشاريع، نذكر في هذا الصدد الدكاترة (عبد الرحمن الأنصاري) و(سعد الراشد) وجهودهم في علم الآثار، ومعالي الدكتور (علي النملة) وجهوده في علم الاستشراق، والدكاترة (سعد البازعي) و(ميجان الرويلي) وجهودهم في علم المصطلح، والدكتور (سالم محمد رشاد) - رحمه الله - وجهوده في تحقيق مؤلفات شيخ

الإسلام ابن تيمية، وهو مشروع رعته (جامعة الإمام)، ومعالي الدكتور (عبد الله بن عبد المحسن التركي) واهتمامه بالموسوعات التاريخية والعلمية.

موقعنا في سياق المشاريع الثقافية .. ! (٢) [1]

ولو ذهبنا نستبق المسكونين بالهم الثقافي والتراثي لتداخلت أمامنا القضايا، ولتشابهت علينا المسميات، فطائفة من الذين شغفتهم الأضواء حباً، وأنهكهم الإعلام ترويجاً يودون أن يستقروا في أذهان الغير على أنهم أرباب المشاريع وروادها، وما هم منهم لا في العير ولا في النفير، وإمعانهم في تكرار الادعاء جعل البعض يظنهم كذلك. ولو نظر المصدِّقون لهم إلى مواصفات المشروع وشروطه لما غلبت على ظنهم تلك الأقاويل، ولقد علمت أن قادة الفكر العربي يعايشون أكثر من مائتي مشروع ثقافي جماعي، تندرج تحته المنتديات والمنظمات والهيئات والروابط، وهذا عدد قليل إذا قيس بالمساحة والكثرة والحضارة والتاريخ. وحين أومأت إلى طائفة من العلماء والمفكرين محلياً تساءل البعض عن آخرين، لا يقلون عنهم هماً وإنجازاً، وما كان في نيتي التقصي، ولو كان ذلك من همي لكنت أشرت إلى مشروع (البابطين) وهو مركز حافل بالتراث، وقريب منه الصالونات والمنتديات والأندية والروابط كصالون (الرفاعي) رحمه الله، و(خوجة) و(المبارك) وآخرين، كانت لهم اهتمامات ثقافية لا تقل بمجموع منجزها عن منجزات أصحاب المشاريع.

وعلى المستوى العربي نجد رجالات علمية وثقافية تضارع في أدائها وفي منجزاتها ما أنجزه غيرهم، ولسنا بصدد الحصر الإحصائي، ولا العزوف عما لا تهوى أنفسنا، ولكننا نشير فقط إلى ما في الوطن العربي من بدايات موفقة، تحتاج إلى مزيد من الدعم والمواصلة، أو التقويم والتسديد.

ومما يدخل في نطاق المشاريع الفردية - على سبيل المثال - مشروع (محمد عابد الجابري) في نقد العقل العربي الذي يقع في أربعة أجزاء كبار، وهو مشروع استرجاعي نقدي تقويمي للبنية والمكون، وللبعدين: السياسي والأخلاقي، ولما يزل مجال أخذ ورد. ودونه مشروع (كتب غيرت الفكر الإنساني) للباحث (أحمد بن محمد الشنواني) وقد نيف على عشرة أجزاء، ودعوى تغييرها متفرقة أو مجتمعة للفكر الإنساني دعوى فيها أكثر من قول، وفائدتها أنها أجملت الوصف والتحليل لعشرات الكتب المهمة، وذلك المشروع الفردي مخاض مشروع مؤسساتي تبنته (الهيئة المصرية العامة للكتاب) وهو مشروع (الألف كتاب) الأولى والثانية.

ويضارع هذا المشروع المؤسساتي مشروعات مماثلة كمشروع سلسلة (اقرأ) وسلسلة (زدني علماً) و(كتاب الهلال) و(عالم المعرفة) السلسلة الشهرية التي تصدر من الكويت و(كتاب الرياض)، وتلك مشاريع عملية تقصد إشاعة الثقافة، ولا تخص علماً ولا ظاهرة بعينها، كمن فرغ لخدمة (الحديث النبوي الشريف) أو (العقل العربي)، ومن ثم يصدق على مثل هذه المنجزات مسمى (المشاريع الثقافية) وإن لم تبت لها النية، ومما هو في هذا المجال (مشروع الفهرسة) للشخصيات والمجلات، ويأتي على رأس ذلك مشروع الأستاذ (حمدي السكوت) وزملاؤه، فلقد نال بذلك جائزة الملك فيصل العالمية. وكذلك (شوقي ضيف) في تاريخه للأدب العربي عبر العصور الإسلامية. وعلى المستوى النسائي نذكر (سلمى الجيوسي) و(سلمى الحفار)، فقد اهتمت الأولى بترجمة عيون الإبداع العربي، واهتمت الثانية بآثار (مي زيادة). وعلى مستوى المؤسسات نجد (مؤسسة الفكر العربي)، و(منتدى الوحدة العربية)، و(مؤسسة الإنماء العربي)، و(منتدى المثقف

---

(١) تاريخ المقال: ٨/ ٣/ ٢٠٠٥

العربي) للدكتور (عبد الولي الشميري)، وما لا يحصى من المنتديات، وتلك تلحق بالمشاريع، ولكنها تعيش في ظلها.

ولأن القصد من هذه الأمثلة الإشارة لما يمكن أن يصدق عليه مفهوم المشروع فإننا نكتفي بالإشارة العابرة لبعض المشاريع وإن أشرنا له لا نود أن نأتي بمثله، لكونه تزيداً لا قيمة له، أو لكونه مناهضاً للثوابت الحضارية، ولكن يظل المخالف في نطاق المشروع الثقافي. وسيان عندنا في هذا السياق أن يكون المشروع على ما نريد ووفق رغباتنا أو لا يكون، فاكتساب صفة (المشروع) لا يخضع لموافقة الهوى، إذ إنه نوع من الفعل الفردي أو المؤسساتي يكتسب الصفة ولا يظفر بالتأييد. ولو ربط هذا المفهوم بالمنازع السياسية أو الفكرية أو غيرها لما اكتسب أي عمل مفهوم المشروع، وهذا يذكرنا بالخلاف حول مفهوم الحضارة بين (مالك بن نبي) و(سيد قطب) رحمهما الله، وهو اختلاف شكلي أريد له أن يكون فكرياً.

وإلى جانب المشاريع التأليفية أو التحقيقية تقوم مشاريع بحثية تجميعية مؤسساتية. هذه الاهتمامات تأتي على شكل مراكز بحوث، تخص (مدينة) أو (شخصية)، ففي (المدينة المنورة) جاء الاهتمام بتاريخ المدينة الحديث، وبخاصة ما يخصها إبان الحكم العثماني، وما يتعلق بالجانب الإداري والمالي، وما يمكن تسميته بما أهمله التاريخ السياسي أو العلمي. ولتدارك ذلك أنشئ (مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة) ومهمته تجميع شتات البحوث والأوراق والسجلات والآثار وكل متعلقات المدينة المنورة. وللجمع بين الدراسة والتنقيب تولى المركز إصدار مجلة محكمة اسمها (مجلة مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة). ولقد حفظ هذا المركز من المعلومات ما كان عرضة للضياع، ولما يزل ينقب، ويرتب، ويصنف ويدرس ويبدو أثره المعرفي بعد استكمال متطلباته.

وعلى سبيل الاهتمام الشخصي نجد (دارة الملك عبد العزيز) تهتم بتاريخ الجزيرة العربية الحديث، وتتابع ما كتبه الرحالة والمستشرقون عن مناطق المملكة وبخاصة أولئك الذين أتيح لهم الاتصال بزعماء البلاد، ممن كانت طبيعة عملهم متعلقة بالظروف السياسية للجزيرة العربية إبان الأدوار الثلاثة للحكم السعودي، إضافة إلى التاريخ الشفهي الذي اضطلعت به الدارة، وكذلك المراسلات الرسمية والشخصية مما له علاقة بالجوانب السياسية والمالية.

ولقد كانت (مجلة الدارة) بحد ذاتها مشروعاً تاريخياً. ولا تقل عنها في هذا المجال (مجلة الدرعية) التي يرأس تحريرها الأستاذ (محمد بن عمر بن عقيل) وهي مجلة فصلية محكمة تعنى بتاريخ المملكة العربية السعودية والجزيرة العربية وتراث العرب، ولا تقل (مكتبة الملك عبد العزيز) عما سلف من مراكز ودارات، وبخاصة أن المكتبة ترعى الموسوعات والندوات والمؤتمرات. وما أنجزته تلك المراكز ومجلاتها في مجالها من إضافة معرفية لا يقل عما ينجزه ذوو المشاريع المعلنة، وإذا كان التعويل على المنجز فإن أعمال تلك المراكز والدارات والمجلات المتخصصة لها من الأهمية ما تستحق معه أن تسمى مشاريع تاريخية أو فكرية أو علمية، ولعل الاختلاف حول المشروع وحدوده استدعى مثل هذه الجوانب.

ولقد بدت أعمال ثقافية استثنائية، لم يكن على بال أصحابها أن تكون على سنن المشاريع، ولكنها بعمقها وشمولها وثباتها واستمراريتها تجاوزت حدود المشاريع. فالعلامة (علي جواد الطاهر) ت ١٤١٧هـ بدعم ومساندة من العلامة (حمد الجاسر) نهض بمهمة تفوق أصحاب المشاريع، وبمفرده أنجز (معجم المطبوعات العربية في المملكة العربية السعودية) في أربعة مجلدات، وهو عمل فهرسي شامل، لا ينهض به إلا فريق عمل، ولا ترعاه إلا مؤسسة قوية، وقد سد بعمله فراغاً ما كان له أن يظل، حتى

ينهض له أستاذ عراقي زائر. والتقاطه لهذه الفكرة ونهوضه بها يقربه من ذوي المشاريع الثقافية. ولعل أكبر وأجود مشروع موسوعي (الموضوعية العربية العالمية) التي دعمها الأمير (سلطان بن عبد العزيز) وجند لها أكثر من ألف متخصص وباحث، وقد تناولت هذا المشروع بالدراسة. ومشروع المؤسسات تذكرنا بمشروع الأمير (مشعل بن عبد العزيز) (موسوعة مكارم الأخلاق) وموسوعة الدكتور عدنان الوزان (حقوق الإنسان) كحقوق المرأة وحقوق الطفل، وقد صدرت في عدة مجلدات.

وإن كان ثمة إشارة إلى ذوي الهموم الثقافية والتراثية فإننا لا نجد بداً من الإشارة إلى طائفة من أساتذة الجامعات الذين سكنهم هم التراث، وعملوا على خدمته تجميعاً وتحقيقاً. فالأستاذ الدكتور (عبد الرحمن العثيمين) في (جامعة أم القرى) يفوق باهتمامه وإتقانه لعمله ما تقوم به بعض المؤسسات أو ترعاه من مشاريع ثقافية. والأستاذ الدكتور (عبد العزيز المانع) في (جامعة الملك سعود) لا يقل عنه إنجازاً وإتقاناً. ولقد راد لأولئك العلامة (ابن بليهد) في كتابه (صحيح الأخبار) و(أحمد عبد الغفور عطار) في (الصحاح) و(ليس من كلام العرب). ولو ذهبنا نتحسس عن ذوي الاهتمامات والمنقطعين لتخصصاتهم لخرجنا عن مقاصد الحديث، والمتابع للمشاهد يعرف سلفاً أن هناك من تتنازعهم عدة اهتمامات، تكاد تقترب بهم من سدة المشاريع. والحضور الإعلامي، والاشتغال بأكثر من ظاهرة، وسرعة التحول من قضية إلى أخرى، والاهتمام الذي لا ينجز عملاً لا يكون أصحابه من ذوي المشاريع وإن ادعوا ذلك أو ادعاه لهم غيرهم.

وإذا قامت شخصيات أو جماعات أو مراكز بمهمات تاريخية أو جغرافية أو تراثية أو موسوعية فإن بعض الوزارات قد نهضت بتنفيذ بعض المشاريع المعرفية، فـ(وزارة التربية والتعليم) نفذت عدة مشاريع ثقافية، منها (سلسلة آثار المملكة العربية السعودية) حيث أصدرت عن كل منطقة مجلداً عن الآثار، بلغت ثلاثة عشر مجلداً، تقصت فيه آثار كل منطقة. وفعلت مثل ذلك حين أصدرت موسوعة عن رجال التربية والتعليم. وفي هذا المجال نهض أفراد أو مؤسسات أو مجموعة متخصصة بعمل موسوعات، وقد جاءت تلك الأعمال متفاوتة في جودة الأداء، وهي بلا شك مشاريع لها وعليها. فـ(دائرة الإعلام المحدودة) نهضت بمشروع (معجم الأدباء والكتاب) وكانت تنوي إصداره في أجزاء، إلا أنها عدلت عن ذلك، وأصدرته بطبعة معدلة تحت عنوان: (معجم الكتاب والمؤلفين)، وقد شكلت للمشروع المتواضع لجنة علمية، لإجراء بعض التعديلات والإضافات، وكنت واحداً من بين أعضاء هذه اللجنة.

كما قامت مجموعة من الأدباء بإصدار (موسوعة الأدب العربي السعودي الحديث .. نصوص مختارات ودراسات) صدرت الموسوعة في عشرة مجلدات، تناولت الأدب والنقد والإبداع الشعري والسردي مع تراجم ونماذج، ولقد قوبلت تلك الموسوعة بنقد حاد النبرة، وعلى الرغم من ذلك فإنها تعد إضافة جيدة وجهداً مشكوراً، ولا يخلو أي عمل من نقص يمكن تلافيه، كما فعلت (دائرة الإعلام المحدود) حين أصدرت الطبعة الثانية تحت إشراف لجنة علمية، وعلى هذا السنن قام أفراد بجهود مماثلة نذكر من ذلك على سبيل المثال (موسوعة الأدباء والكتاب السعوديين خلال ستين عاماً) للأستاذ أحمد بن سعيد بن مسلم)، ورائد أولئك جميعاً الأستاذ (عبد السلام الساسي) والأستاذ (عبد الله بن إدريس) والأستاذ (عبد الرحمن العيد) والأستاذ (محمد بن أحمد العقيلي) وآخرون من بعدهم، وقد لا تصل مثل هذه الأعمال إلى مستوى المشاريع، ولكنها تمثل إرهاصات لا يستهان بها، ولا يجوز تجاوزها.

وحين نتقصى مثل هذه المشاريع أو ما يمكن أن يسمى مشروعاً، وهو غير ذلك فإننا نود الدخول في التقويم والتخطيط واستعراض ما يمكن استعراضه من الحاجة الملحة

لتغطية حاجة الأمة الثقافية بالمشاريع المعرفية والثقافية، وما لم نقوِّم العطاء ونتقصى الحاجة فإن الزمن سيمضي دون أن نظفر بعمل ذي جدوى.

وإن كان ثمة رغبة في مراجعة المنتج، وتقويم الأعمال القائمة، والبحث عن مواطن النقص، فإن أهم شيء يجب أن نتخذه: توحيد الجهود، والتنسيق بين المؤسسات والجماعات، والتعويل على العمل المؤسساتي، ثم النظر في حاجة الأمة المتمثلة بأمور كثيرة من أهمها:

-الترجمة: والحديث عن أهميتها وإشكالياتها العويصة يحتاج إلى مؤتمرات وأكفاء يتقنون اللغتين والموضوع.

-الوصول إلى المخطوطات العربية التراثية المنهوبة من خزائن العواصم العربية عبر القرون الخوالي، والعمل على استعادتها، أو استعادة صور منها، وتحقيقها، وجعلها في متناول المتخصص العربي.

ولقد كان لمعهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية جهود لا يستهان بها، كما كان للمجامع العربية جهود مماثلة ولكنها دون المؤمل.

-المصطلح: وإشكالية المصطلح مرتبطة بإشكالية الترجمة، فكل مجمع وكل مترجم يعرب أو ينقل أو يترجم وفق جهده وإمكانياته، وقد أدى ذلك إلى التعدد والفوضى.

-العمل الموسوعي: وهذا الهم نهض به أفراد وجماعات ومؤسسات، ولكنه جنح إلى الفوضوية، ولم يكن الناهضون بمثل ذلك على شيء من أصول الإعداد الموسوعي، وصناعة الموسوعة تختلف عن صناعة البحث أو الكتاب.

-المعاجم: وتلك الرغبة تتطلب مؤسسات متخصصة قادرة على استقطاب العلماء الذين يتوفرون على معرفة متخصصة وخبرة عميقة تميز بين العمل الموسوعي والعمل المعجمي. ولو ذهبنا نعدد نواقصنا الثقافية لأذهلتنا الكثرة. وأهم شيء في هذه الظروف أن تعمد المؤسسات والجماعات إلى التنسيق بين الأعمال، وتوحيد الجهود، وتبادل الخبرات، والمواد، والكفاءات. ولعل أقرب شاهد على الفوضى ما نراه من منجزات مبعثرة ومكررة تمارسها (مجامع اللغة العربية) في الوطن العربي، وبخاصة في مجال الترجمة، وعلم المصطلح، والتحقيق.

إن المجتمع المدني مجتمع مؤسسات ودراسات وتخطيط وتخصص واستشارات، فهل نمتلك هذا الهاجس، لنحقق ما نحن بحاجة إليه في مختلف الحقول المعرفية. أرجو ذلك.

دعوا الحداثة فإنها منتنة .. !(١)

ما كنت أود أن تعاد أسمال الحداثة للرفو ولا للشماتة، بعد أفول نجمها، وتفرق جمعها ولا سيما أن هذا الزمن زمن مثقل بالمشاكل، وأن كؤوسها تدار بين أقوام يجتالهم الشك والارتياب، ويتنابهم الخوف والترقب، ويحتنكهم شيطان الفرقة. وما كنت أود أن تزل أقدام بعد ثبوتها، ولا أن يُزين للبعض حب الجدل لذات الجدل، ولا أن تستثار كفاءات شرعية وأدبية كنا نعدها لفك الاشتباكات وإطفاء الأزمات. وصراع الحداثة وصرعتها جاءا في وقت كنا فيه أبعد ما نكون عن الاختناقات المحلية والعربية والعالمية. وكان المتحدثون عنها: تأييداً أو معارضة لا يحسون بالخوف، ولا ترعبهم أشباح الفتن العمياء، ولا ترهقهم قوى البغي صعوداً، والفرقاء يجادلون ويجاهدون، وكل فرد منهم محمي الساقة والمقدمة.

وفي العقدين الماضيين أخذت (الحداثة) من الجهد والوقت ما فيه الكفاية، ولم نعد بحاجة إلى مزيد من اللجاجة. والذين اتخذوها شرعة ومنهاجاً، والذين اعتزلوها، يصر كل واحد منهم على قوله، وقلَّ أن يعطي أحد منهم الدنية فيما يذهب إليه. وقليل ممن استبان وجه الصواب قنع بكتمان رؤيته، ولم يبدها إلا للخاصة.

والأذكياء الذين تعرت أمامهم سوءاتها، مارسوا الالتفاف الغبي، فقالوا عن الحداثة: إنها مجرد التجديد، ومضوا يروجون لهذا الرأي، ليضربوا عصفورين بحجر: تبرئة أنفسهم من لوثة الحداثة بمفهومها الفكري والأخلاقي. واتهام خصومهم بأنهم ضد التجديد. والمطمئن أن أهل الذكر والعارفين ببواطن الأمور يدركون كم هو الفرق بين (الحداثة) و (التجديد). ولقد كنت وما زلت أبدئ وأعيد القول: بأن الحداثة شيء آخر، مختلف جداً عن التجديد، وأن من وقف في وجه التجديد جرفه تياره، وفاته قطاره، وكم سخرت من أناس ألجمهم الحق، فراحوا يصفون خصومهم بالتقليديين، ولما أزل مستهدفاً بوابل من هذه الاتهامات الجائرة، التي قابلتها بالصبر والمصابرة والمرابطة على ثغر الأصالة. وعزائي أنني بذلك أسفهم الملّ. وما استأت إلا من شدات مبتدئين، تقبلوا تلك المفرقعات الفارغة، وتصوروها أقوالاً محكمة لا يأتيها الباطل، ولم يترددوا في اجترارها ببلاهة معتقة، ويقيني أن الزمن كفيل بإحقاق الحق، وتعرية الزيف، والخطورة ليست في افتراء الأقاويل، وإنما هي في تزييف الوعي، وتضليل الرأي العام، فالمصطلحات الغربية كما ضوال الإبل، تحمل غذاءها وسقاءها، ومن تمطاها قصدت به مراد أهلها.

وما كان لي أن أعيد القول مرة ثانية، لولا ما أراه من حرص المشهد الصحفي على جر الأقدام، وتجريد الأقلام، وإعادة المناكفات جذعة. على أن تلك الزوبعة المفتعلة رهينة الأجواء الباردة، فكل المتداول حديث معاد، واجترار ممل، لا يقبل به إلا المقوون، الذين يبهرهم كل شيء، أو المصابون بعمى التعصب للأناسي أو القضايا. وكيف لا يبلغ التعصب بصاحبه حد العمى؟

وطائفة من المتعصبين للمذاهب الفقهية يقولون برأي شيخهم، وإذا واجههم خصومهم بنص قطعي الدلالة والثبوت، تمحلوا القول بالضعف أو النسخ أو الخصوص أو دخلوا في متاهات التأويل. ومن أراد ترويض نفسه على استفحال الاختلاف، فليقرأ كتب الفقه المقارن في المسائل لا في الأصول، أو ليقرأ كتب الخلاف في المذهب الواحد، مثل كتاب (الإنصاف ...)، ومن يتهيب الخوض في لجج المعارف الإنسانية يظل قعيداً كما الطاعم

---

(١) تاريخ المقال: ١٥/ ٣/ ٢٠٠٥

الكاسي، وما كان لنا النهي عن استشراف المستقبل والتنقيب عن المنجز الإنساني، وإنما النهي عن الجدل العقيم والاجترار الممل لقضايا لم يبق فيها مجال للحديث.

والراصدون لفيوض القول، لا يحتاجون إلى مزيد من الإضافات، فالحداثة أخذت نصيبها، ولم يبق فيها مجال لمتحدث. وإذا كنت أعتب على بعض المؤسسات الثقافية نزوعها إلى التحريش، ورغبتها في نبش الماضي القريب فإنني أود استدعاء قضايا وظواهر لم تأخذ حقها من البحث، وهي من الأهمية بحيث تستأهل الاستدعاء. وعند تداول الآراء حول ما يجد من قضايا يجب تفادي الصدام ومحاولة التمكين للحوار المتكافئ، الحوار المعرفي الذي يتجاوز الأناسي إلى القضايا، ويهدف نشدان الحق، والزهادة بالانتصار الوقتي الزائف. والمؤسف أن جهدنا المهدور نراه أشلاء مبعثرة تحت أقدام القضايا والظواهر التي ليس لنا فيها ناقة ولا جمل، والمتابع لحراكنا الثقافي، لا يراه إلا حيث يكون زامر الآخر، أما زامر الحي فإنه لا يطرب.

ويوم أن كانت الحداثة على أشدها، كانت لي صولات وجولات حادة النبرة معها ومع الحداثيين: الواعين لمفهومها، والمخدوعين ببريقها، تناولت مجالاتها: التنظيرية والإبداعية، وكنت قد بادرت إلى إلقاء محاضرة في (نادي الرياض الأدبي) قبل عقد ونيف، وتولت طباعتها فيما بعد (دار المسلم) تحت عنوان (الحداثة بين التعمير والتدمير)، وكنت أعِدُ نفسي وأمنّيها برصد تجربتي النقدية في كتاب اخترت له اسم (أكْتبُ ما حدث لأنه حدث) ولكن تقدم السن، وتتابع المسؤوليات والمهمات حال دون إنجاز الكتاب على الرغم من توفر المادة، ولست أشك أن في كل تأخيرة خيرة، فنحن اليوم أحوج ما نكون إلى تنقية الأجواء من الشوائب، والاشتغال في القواسم المشتركة، وما فات فات، ولنا الساعة التي نحن فيها. وتلك المراجعة لا تعني النكول عن الحق، ولا إعطاء الدنية في الثوابت. فالحداثة التي جالدناها وجاهدنا أصحابها، ما زلنا على رأينا فيها وموقفنا من ذويها، غير أن هناك سوء فهم والتباساً في المفاهيم، أديا إلى أخذ المقيم بالظاعن، مع إصرار وعناد من كل الأطراف صعَّدا الجدل، وحولاه إلى تلاسن شخصي. وإذا كان مثل ذلك قد حصل فإن وزره على الذين تجاوزا القضايا إلى الأشخاص، فأطلقوا الأحكام، وعمموا الاتهام، وأوغلوا في السخرية، وأمعنوا في التهميش، وانشغلوا بالاستهزاء والإقصاء. حتى لقد عف المقتدرون، وغلبوا جانب السلامة، ولاذ بعضهم بالصمت.

وما دام أن سامر الحداثة المحلية على الأقل قد انفض، وأن أنصارها ومريدوها تفرقوا أيدي سبأ، فإن من الفضول أن نعيدها جذعة، ونكرر الأخطاء والتجاوزات التي كانت سبباً في ضياع القضية.

ومهما علت الأصوات حول مفهوم الحداثة ومشروعيتها فإنها ستظل مصطلحاً غربي الولادة والنشأة والهم والهدف، يتداوله الدارسون والمنظرون والمبدعون وفق متطلباته ومقتضياته، وهي مخالفة لمتطلبات الحضارة العربية والإسلامية ومقتضياتها على حد سواء. وليس باستطاعة المعول على الآخر أن يتخلص من شوائب المصطلح، ولا أن يفرغه من محتواه. وحتى لو استطاع ذلك أو بعضه فإنه يظل منجذباً إلى أصوله ومقتضياته. والذين استقبلوا المصطلح يختلفون في مواقفهم ومفاهيمهم ورغباتهم. فطائفة منهم صاروا إليه نكاية بالحضارة الإسلامية، ومعاذ الله أن يكون من أبناء بلادي من يضمر ذلك، فهم أبناء الفطرة والسيرة، وعهدنا بهم أنهم رجّاعون إلى الحق، وآخرون منهم تساوت عندهم الأنوار والظلم، وقليل من المتعالقين يعيشون تحت وطأة التبعية والشعور بالنقص. والحضارة الإسلامية قادرة على تبني نظريات ومصطلحات، تستجيب للحاجة، وتسد الخلال، وتشق بها الطريق إلى التفاعل الإيجابي في مشاهد الحضارة

الإنسانية. وليس في الحضارة الإسلامية من الضوابط ما يعوقها عن اللحاق بالحضارة الغربية ومنافستها. ولملمة لشتات القول أستعيد ما قلت من قبل: إن لكل متواصل مع الحداثة حداثته الخاصة التي تنجيه أو ترديه، وعلى المنصف ألا يعمم الأحكام، ولا أن يوحد المواقف، وإذا كانت هناك حداثة فكر وفن وقيم معنوية فإن هناك حداثة حسية في الأزياء والمساكن وسائر التصاميم والصناعات. ولسنا معنيين إلا بحداثة (العهر والكفر) فهي وحدها التي نجالد ونجاهد، واستبراء للعرض والدين لا نتهم أحداً بعينه، وإذا رأبنا أمره قدمنا حسن الظن، وعلى الحائمين حول الحمى كف الغيبة عن أنفسهم.

ولما كانت مشاهدنا العربية قابلة للتبعية، محبة لإشاعة الجدل فإنها لم تتح فرصة التفكير في المبادرات بالقدر المتكافئ مع الإمكانيات، ولم تفكر طائفة من النخب المدانة في طرح البدائل ومحاولة التعريب والترجمة وامتصاص نسخ الحضارات. واختلاف التصورات والرؤى حول مفهوم الحداثة أضل كثيراً من الناس، وعمق الخلاف فيما بينهم. فالبعض يرى أنها تعني (التجديد) ليس غير! ومن ثم لم يكن منه تحفظ ولا تمنع ولا استثناء ينجيه من سلق الألسنة. والبعض الآخر يرى أن شرط الحضور الفاعل لا يكون إلا في اتباع سنن الغرب حذو القذة بالقذة، يفعل ذلك للنجاة من التخلف، أو لإرضاء الآخر، وكسب وده، وما علم أولئك أن النجاة بالاستقامة على المحجة، واستشعار أن الآخر لن يرضي إلا باتباع ملته. ومعضلات المشاهد كافة في تشابه المصطلحات على الناهضين بمهمة العصرنة وفي تعدد خيارات الخلوص من الهوان.

وإذا كانت الأمة العربية تعيش حالة من الضعف والتخلف، وحاجتها ماسة لإصلاح أوضاعها كافة فإن نخبها لم يتفقوا على صيغة موحدة لأسلوب الحل وسنِّ طريق محدد للخلاص، وهم من قبل ومن بعد لم يتفقوا على أسباب التخلف، ومتى تشابهت عليهم الأسباب تعددت الحلول. وهذا الاختلاف المضاعف من شأنه أن يعمق التخلف، وأن يرسى قواعده، وأن يجعل الأمر غمة. لقد حاولت بعض المؤسسات إعادة الجدل حول (الحداثة) بعد أن فقدت ألقها، وكان بود الإعلاميين أن يعيد الأطرافُ المتحاورون خطاب التشنج والتنابز، غير أن الطرفين أدركا اللعبة الإعلامية، فاتخذا طريق الموضوعية، وإن تمسك كل واحد بما يرى من قبل وفي سبيل الرغبة في الصخب وطحن القرون تلقف المحررون الصحفيون أطرافاً من الجدل الذي تفاوتت نبراته، فوصف البعض اللقاء بأنه اجترار للخلاف القديم، وحجَّر البعض السعة حتى نفى أن تكون لدينا حداثةٌ خاصة، متصوراً أن الحداثة لا تكون حتى تصطبغ بالإقليمية، وحتى تكون منتجاً محلياً، فيما ذهب آخرون إلى أن الحداثة ليست قضية، ولكنها إشكالية تتسع لعدة قضايا، ولقد طغت إشكالية المرجعية والمفهوم في الجدل المفتعل، وما أود قوله أن المتحفظين على الحداثة يهمهم بالدرجة الأولى أن يُهْدى المبدعون إلى الطيب من القول، وإلى الأصيل من الفن، وإلى الفصيح من اللغة، ولست أتوقع معارضة على ذلك.

وكل الذين تحدثوا أو استُفْتُوا في الحداثة، أطلقوا العنان لأنفسهم في غياب المفهوم، وغبش الرؤية. فالذي يقول: كلنا حداثيون، ولا يستثني، يتصور الحداثة مجرد التجديد، والذي يرى الحداثة إشكالية، وليست قضية، يعتمد استمرارية التغيير. فالحياة عنده بكل ما هي عليه كالنهر المتدفق، بحيث لا يكون هناك ثبات ولا توقف، وكل شيء عنده قابل للتحول المستمر، ومتى تلبثت الحداثة ولو للحظة واحدة فإنها تناقض نفسها، وأخطر ما تواجهه الأمة عدم التمييز بين الثابت والمتحول، وبين ما هو فكري، وما هو عقدي. وحين تتعدد المفاهيم بتعدد المتحدثين يظل المتلقي في أمر مريج. ومكمن الخلاف في التعويل على مفاهيم متناقضة، ومتى اختلفت المرجعية استحال الوفاق. والحديث عن الحداثة في معزل عن المفاهيم والمقاصد والمرجعية والنشأة والنسق الحضاري يعد من الرجم

بالغيب. وإشكالية المشهد أن السواد الأعظم يجهلون أصول ما يتحدثون عنه، وبضاعتهم ما تناثر من أقوال غير مؤصلة، ومثل هؤلاء ك (السماسرة) الذين يرقبون الجالب على مشارف الطريق، ومهمتهم اجترار ما يفد، وعقدة العُقد أن كلمة (حداثة) كلمة حمالة، فإن ردت إلى جذرها اللغوي، وسعت أشياء كثيرة، وكان المتحدثون والمتتبعون لها في حل وسعة، فهي تدور مع جذرها حيث دار. وإن ردت إلى مصطلحها ومصدرها الفني والدلالي فالناس فيها أوزاع، ذلك أنها أشأم من وافد البراجم. فالغربيون لهم رؤيتهم التي لا يمدها دين، ولا يعصمها خلق، ولا تحكمها عادة، ولا يبرهن عنها شرط فني. والشرقيون الذين تلقوها تتنازعهم مفاهيم الجذر اللغوي والمقتضى المصطلحي، والذين تهافتوا عليها، أحسوا أنهم غير قادرين على التمكن من الجمع والمنع. فالمصطلحات لا تكون كذلك، حتى تكون جامعة مانعة.

وحين أسقط في أيديهم راحوا يغيرون الصيغ فيقولون (الحداثة) و (الحداثوية) بحيث جعلوا الحداثة: تجديداً في الفن واللغة، لا يتجاوز الآخذون بها حدود التجديد، وجعلوا (الحداثوية) انقطاعاً ورفضاً وهدماً. وهم قد استعاروا هذه الصيغ للصحوة الإسلامية، فقالوا: (إسلامي) و (إسلاموي) واستعاروها للقومية والوحدة العربية فقالوا: (عربي) و (عروبي) وفوضوية المصطلحات ليست لها بداية ولا نهاية، والدخول في معمعتها مضيعة للجهد والوقت. والمؤسف أن إعادة الجدل حول الحداثة في ظل هذه المفاهيم وتلك المستويات الثقافية سيزيد حدته وتوتره، مع أنها لن تحقق أي جدوى، فالمعنيون أحرقوها، كما قيل عن (النحو العربي) أحْرقه قومه، ومن الخير للبلاد والعباد أن نطوي صفحة الحداثة، وأن نتجه صوب المستجد في المشهد الثقافي، فلم يعد هناك مزيد من الجهد والوقت، ولم تعد أوضاع الأمة قابلة لمزيد من التنابز بالألقاب.

شوقي ضيف في عمره الثاني .. ؟[1]

ما من مشتغل بالأدب العربي وفنونه: قديماً وحديثاً إلا ويذكر (شوقي ضيف ١٩١٠-٢٠٠٥م) حاضراً في المشاهد كلها، وفاعلاً في المؤسسات أجمعها، وهو بهذا الحضور المتنوع: تأليفاً وتحقيقاً وتعليماً وعملاً، والممتد طوال سبعين عاماً، قد صنع لنفسه عمراً ثانياً (والذكر للإنسان عمر ثاني).

و(ضيف) الذي خلف للمكتبة العربية أكثر من خمسين كتاباً في مختلف المعارف الإنسانية، بمعدل كتاب واحد عن كل سنتين من عمره تقريباً لم يكن متفرغاً للتأليف، ولا للتحقيق، وإنما كان حضوره المؤسساتي يفوق عمله التأليفي. وهو من خلال الإشراف والمناقشة والتحكيم و(المجمع اللغوي) و(الجامعات العربية) التي طاف بها زائراً أو معاراً شكل قاعدة عريضة من الطلبة المنتشرين في آفاق المعمورة. إذ كان حفياً بهم وبدراساتهم ورسائلهم العلمية وبحوثهم للترقية، رعاهم ودعمهم وسهل أمورهم، واستعان بهم كما يشاع في الأوساط الجامعية، وهي استعانة تفاوت القوم حول مشروعيتها، ولا أحسبه معيباً في ذلك، فالطالب بعض أستاذه.

وقدر هذا العملاق أن رحيله المتوقع جاء والأمة العربية عندها كل بنات الدهر، وقد تمر وفاته كما لو كانت وفاة رجل غريب الوجه واليد واللسان. وتلك الظروف تذكرنا بوفاة (طه حسين) أثناء حرب رمضان عام ١٩٧٣م. وإن كان ثمة أدباء وكتاب قد أبّنوه أو تفجعوا عليه فإنهم لم يقولوا، ولن يقولوا إلا ما خف حمله ورخص ثمنه، يذكرون أطرافاً من محاسنه وجانباً من إسهاماته. وكان بودنا لو أن المقربين منه والمقتدرين منهم فرغوا لأعماله يدرسونها، ويقوّمون ما اعوج منها، ويشيدون بإسهاماتها في سد الحاجة.

والمتابع الحصيف للمشاهد المعرفية كافة، يستبين بيسر على حجم إسهاماته ودورها في إثراء كافة الأوساط الثقافية والأدبية والأكاديمية. وخير أعماله موسوعته في تاريخ الأدب. وما من علم من أعلام الأدب الحديث كتب في (تاريخ الأدب العربي) إلا قصرت خطاه دون ما كتبه (ضيف). فمن الأعلام من كتب عن سائر العصور، وفق المنهج التاريخي التسجيلي، لا يحيد عنه قيد أنملة. فعل ذلك (الرافعي) و(الزيات) و(زيدان) و(الإسكندري) بالاشتراك.

و(الهاشمي) و(فروخ) و(أبو الخشب) و(ناصيف) و(الفاخوري)، وقارب هذا المنهج من المستشرقين ولكن بطرائق متفاوتة (بلاشير) و (كارلو نالينو).

و(بروكلمان) وإن كان له منهجه الفهرسي. ومنهم من كتب عن إقليم أو فترة أو عصر من العصور، فعل ذلك (البهبيتي) و(البركاتي) و(سلام) و(أبو رزاق).

و(المهدي) و(الهادي). وكل أولئك لم يسدوا المجال الذي سده (ضيف) في كتابه الجامع المانع (تاريخ الأدب العربي) الذي غطى فيه العصور الأدبية من الجاهلية حتى عصر الدول والإمارات (ليبيا، تونس، صقلية). وهو المجلد التاسع من تاريخه الذي وقف فيه على أعتاب العصر الحديث، حيث قال في مستهله: (هذا الجزء من تاريخ الأدب العربي قبل العصر الحديث). ولست أعرف ما إذا كان قد أنجز تاريخ العصر الحديث أم أن الشيخوخة أدركته قبل ذلك، ولقد قيل إنه أصدر المجلد العاشر، ولم أره، فإن كان لم ينجز تاريخ تلك الفترة الأهم، فإن واجب طلبته أن يسدوا ذلك النقص الذي قد يحتاج إلى أربعة أجزاء، ليكون تاريخه شاملاً للأدب العربي.

---

(١) تاريخ المقال: ٢٢/ ٣/ ٢٠٠٥

والتاريخ الحضاري لهذه الأمة المعطاء حفل بطلاب نجباء تلقوا الراية من أساتذتهم باليمين، ليواصلوا المسيرة. فهذا (السبكي) يكمل (مجموع النووي) بعد أن توفي قبل إكماله، وهذا (عطية محمد سالم) يكمل (البيان في تفسير القرآن الكريم بالقرآن) للشنقيطي، وآخرون أكملوا كتاب (الأعلام) للزركلي. والاستدراك أو التكميل منهج العلماء الأوائل، وبه تسد الحضارة خلالها. وتاريخ الأدب الموسوعي الذي أنجزه يفوق من سبقه ومن لحق به في أمور كثيرة، إذ لم يكن راصداً كما هو عند أصحاب (المنهج التاريخي)، ولم يكن بعيداً عن هذا المنهج، لقد كان واعياً لمكامن العصور الأدبية، متقصياً لحراكها العلمي والفكري والفلسفي ولظواهرها وتحولاتها واهتمامات علمائها، فهو لا يؤرخ للأدب وحسب، ولكنه يؤرخ للثقافة والفكر والحضارة والمدنية وسائر العلوم الإنسانية. وهو في تاريخه لا يعمد إلى الرصد والوصف، ولكنه يحلل ويقوم، ويستخلص النتائج، ومن ثم فإنه يسد كل الخلال، ولا يسد غيره مسده.

وميزة (ضيف) أن كتبه لما تزل حاضرة المشهد الأدبي، يسترفدها كل دارس ومدرس. وما فتئت ألم بها، إما مدرساً أبسط القول فيها، أو دارساً أرجع إليها مسترفدا أو مستشهداً، وما عدت إليه إلا وأحسست أنني أمام عالم مهيمن على فنه، وما أحلت إليه دارساً إلا وجد عنده ما يشفي غلته، فمنهجيته تتسم بالتأصيل والتقصي. ومهما أوتي من علم فسيظل عرضة للنقص أو الخطأ، وكل ما أنجزه هو أو غيره بحاجة إلى من يعيد النظر فيه، لا للإدانة ولكن للتسديد. إذ مازال في نفسي شيء من بعض آرائه، وهي هنات متوقعة من أي عالم مثله، أدركت ذلك حين أسند لي قبل عقد ونيف من الزمن تدريس العصر العباسي لطلاب (كلية اللغة العربية) بفرع جامعة الإمام في القصيم.

ففي حديثه عن بعض الظواهر الفكرية التي كان لها أثرها على الأدب العربي عرض لآراء المستشرقين حول ظاهرة (التصوف)، وهم إذ نفوا أن يكون التصوف إسلامياً، فقد جالدهم وجاهدهم، وأصر على أنه إسلامي الأصل والمنشأ والولادة، وما هو كذلك فيما أرى، ولكنه الفعل ورد الفعل. ولقد حاولت يومها أن أكتب إليه ليعيد النظر في المسألة على ضوء المرجعيات العلمية، ولكن الأيام مرت سراعاً، وأذكر أنني تحفظت على ما ذهب إليه، وأحلت الطلبة إلى مراجع تنفي أن يكون التصوف إسلامي المنشأ. والتصوف الذي أعني تصوف الفكر والمعتقد والخرافة والدروشة، وليس تصوف الورع والزهد والقناعة.

ويوم أن علمت بوفاته، أعدت قراءة التعليقات التي كنت أمليتها على الطلبة، ليكتبوها على هوامش التاريخ. فلقد قال رحمه الله بالنص: (وإذن فالتصوف إسلامي في جوهره وفي نشأته ونموه وتطوره، وهو الرأي العلمي الصحيح). وجاء تهميشي على رأيه: (لابد من التحفظ على هذا الرأي، ولابد أن تستعرض سائر الأقوال بالتفصيل ويرد عليه). و(ضيف) بقوله المحتدم يرد على طائفة من المستشرقين، منهم (نيكلسون) في مبحثه عن (الحلاج) في كتابه (في التصوف الإسلامي)، وعلى (جولد تسيهر) في كتابه (العقيدة والشريعة). وهو قد نقم من (فون كريمر) الذي يذهب إلى أن التصوف يعود في أصوله إلى (المسيحية) و(البوذية) ويعول في هذه الإحالة على عقيدة (الحلاج) القائمة على (وحدة الوجود). وكنت أقول للطلبة: (صدق المستشرقون وإن كذبوا) فالتصوف الفكري لم يكن إسلامياً، والفلسفة الوضعية لم تكن إسلامية، وعلم الكلام نشأ بسبب الجدل بين علماء السلف والفلاسفة حول قضايا الغيب والخلق والذات الإلهية والنفس وبخاصة الذين تأثروا بالفلسفات الوافدة عبر الترجمة أو الدخول في الإسلام أفواجاً. فهذا (ابن تيمية) يرد على الفلاسفة والمناطقة والمتصوفة، ويستوعب مناهجهم ومذاهبهم، وما هو منهم، وليسوا منه. فوجود الظاهرة لا يعني انتماءها. وحين تشيع الأفكار والمناهج والمذاهب

فإن ذلك لا يمس الحضارة المستقبلة لها، فكل الحضارات تتوارث وتتكامل، وما بعث الرسول إلا ليتمم مكارم الأخلاق، ومن ثم فليس هناك نص بريء ولا حضارة بريئة.

وفلاسفة الإسلام ك(ابن سينا) و(الفارابي) و(الرازي) و(ابن رشد) لا يسأل الإسلام عما بدر منهم، لأنهم لا يلتزمون مراده في كثير مما يذهبون إليه.

و(ضيف) حين يخطئ في مرجعية التصوف وأصوله يقع في الخطأ مرة ثانية في كتابه (الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية) وذلك حين يعول على آثار الأدباء عن الترف والغناء في الحجاز. ولقد تصدى له أكثر من دارس، لعل من افضلهم زميلنا الأستاذ الدكتور (عبد الله بن سالم بن خلف) في رسالته للدكتوراه (مجتمع الحجاز في العصر الأموي بين الآثار الأدبية والمصادر التاريخية)، وأذكر أن (نادي القصيم الأدبي) استضاف الدكتور الخلف لعرض وجهة نظره حول ما ذهب إليه (شوقي ضيف)، ولقد ألقى محاضرته (وقفات مع آراء د. شوقي ضيف في مجتمع الحجاز في العصر الأموي) مساء يوم الأحد ٩-٧- ١٤١٨هـ، فكان ذلك مؤذنا بحرب كلامية مع بعض إخواننا المصريين، تجاوزت المنصة إلى الصحف، وبخاصة مداخلة زميلنا طيب الذكر الأستاذ الدكتور (أحمد يوسف)، وأحسب أن الأمر تجاوز الحوار المعرفي إلى المناكفات الإقليمية. وظاهرة الغزل والترف والجواري والغلمان ومجالس الشراب المتداولة في الموسوعات لا يمكن تعميمها على مجمع يزخر بالعلماء والزهاد.

وخطأ (ضيف) في تعويله الكلي على كتاب (الأغاني) لإثبات ما ذهب إليه في موضوع (الغناء) و(المرأة) و(الغزل) و(الترف) و(التعميم) الذي قيل:

إن الأمويين أغدقوه على الحجازيين لشغلهم عن منازعتهم السلطة. ولا أحسبه في جمعه العشوائي قد محص وصحح وراجع، ومن ثم وقع في الخطأ الذي استدركه عليه أكثر من دارس، ولإيمانه بما ذهب إليه فقد أكده في كتابيه (العصر الإسلامي) و(التطور والتجديد في الشعر الأموي).

و(ضيف) متعصب لمصريته إلى حد كبير، وهو تعصب مقبول ومستلطف، تجلى ذلك في كتبه: (البارودي رائد الشعر الحديث) و(شوقي شاعر العصر الحديث) و (دراسات في الشعر العربي المعاصر) و(الأدب العربي المعاصر في مصر) و(مع العقاد). واستقطابه حول الذات المصرية شأن كثير ممن كتبوا عن الأدب المصري من المصريين، وتلك سجية بلغت دركاتها في الدعوة إلى (الفرعونية) حيث تحولت تلك الدعوة إلى حزب سياسي، يود عزل مصر عن العالمين الإسلامي والعربي، وليست تلك أولى الدعوات الهدامة التي تنسل من مصر على يد أبنائها العققة، ويتصدى لها أبناء مصر البررة. ومصر قطب العالم العربي، لا يغمطها حقها إلا عقوق جاحد. وهذه القطبية لا تخول إنكار الآخر في سبيل تكريس الذات. هذا الاستقطاب آذى المغاربة، وحفز الطرفين على المجادلة غير الحسنة وأفرز مناكفات وسعتها كتب متدوالة.

و(ضيف) الذي مرت أعماله بهدوء، له منهجيته التاريخية والموضوعية، وله وسطيته في النفي والإثبات، على الرغم من تتلمذه على يد (طه حسين) المتفرنس إلى حد الإيذاء، والمستفز إلى حد اللجاجة.

وحياته الحافلة بجلائل الأعمال تجاوزت إسهاماته المجال التأليفي إلى التحقيق، الذي بدأه ب(الرد على النحاة) ل(ابن مضاء القرطبي)، وهو كتاب قيم غفل عنه المهتمون بالنحو المقارن، ففيه تتضح رؤية المشارقة والمغاربة ومشاربهم الفكرية. ويتجلى جدلهم حول (العامل) و(العلة) و(القياس) و(التحليل) و(المصطلح) وجاء بسط ذلك في كتابه (المدارس النحوية).

وله اهتمامات خاصة بالنحو والنحاة، ولقد راعته إخفاقات المناهج النحوية وضعف الدارسين ومن ثم أنجز عملين (تجديد النحو) و(تيسير النحو التعليمي قديماً وحديثاً مع منهج تجديده). ومؤلفاته تنم عن رصده للحركة العلمية والثقافية، فهو لا يتزيد في التأليف، وإنما يسد خلالاً تستدعيها اللحظات المعرفية. فكلما استضافته جامعة عربية، نظر فيما ينقص الأستاذ الجامعي، ثم نهض لاستكماله، فعل ذلك عندما استضافته جامعات (الأردن) و(الكويت) و(السعودية).

والمتابع لمؤلفاته يجد أن أوائلها يفوق أواخرها، من حيث المنهجية والموضوعية والعمق والدقة والشمول، ذلك أن المسؤوليات في آخر حياته شغلته عن المراجعة. فلو نظرنا إلى كتابه (الفن ومذاهبه في الشعر العربي) الذي طبع قبل نصف قرن، وهو رسالته للدكتوراه، لوجدناه يفوق في عمقه ودقته وشموله وترابطه ومنهجه ما لحق به من كتب، ولا يقل عنه كتابه (الفن ومذاهبه في النثر العربي).

ويتنازع جهوده في التأليف خمسة حقول: الدراسات الأدبية، والنحوية والبلاغية، والإسلامية، وتحقيق التراث.

فله في (الدراسات الأدبية) زهاء عشرة كتب، منها (تاريخ الأدب العربي) الذي أصدر المجلد التاسع منه قبل اثنتي عشرة سنة. وله في مجال الدراسات (البلاغية) و(النقدية) أكثر من عشرة كتب ركز فيها على الفنون ك(المقامة) و(الرثاء) و(ترجمة الشخصيات) و(الرحلات). وله في مجال الدراسات النحوية زهاء أربعة كتب. أما في التحقيق فقد حقق سبع مخطوطات آخرها (السبعة في القراءات). ولأن لداته من أمثال (العقاد) و(زكي نجيب محمود) و(أحمد أمين) و(طه حسين) و(بنت الشاطئ) قد كتبوا سيرهم الذاتية فقد كتب هو الآخر سيرته الذاتية في جزأين تحت عنوان (معي)، صدر الجزء الأول في سلسلة أقرأ عام ١٩٨١م، وصدر الجزء الثاني عن دار المعارف عام ١٩٨٩م، ولعله حين كتب (مع العقاد) في جزأين، وحين كتبت زوجة (طه حسين) (معك) اختار عنواناً لسيرته (معي)، وقد اعتمد على المنهج التقريري الوصفي، ومن ثم لم تدخل السيرة عنده حقل الإبداع السردي، كما هي عند (طه حسين) في (الأيام) ولما كانت من صفاته الوداعة والهدوء، فقد جاءت سيرته بعيدة عن المزايدات والمناكفات، كما هي عند (عبد الرحمن بدوي).

وضيف الذي طاف أرجاء الوطن العربي أستاذاً زائراً في جامعاته ترك آثاراً باقية: إما تأليفاً أو دراسة أو طلاباً يذكرونه ويشكرونه. ولقد توجت جهوده بأنه اختير رئيساً لمجمع اللغة العربية بالقاهرة الذي دخله عضوا عام ١٩٧٦م، وهو قد حصل على جائزة الدولة التقديرية في الآداب عام ١٩٧٩م، ومنح جائزة الملك فيصل العالمية للآداب عام ١٩٨٣م، وفي عام ١٩٩٠م كرمه تلاميذه بإصدار كتاب يحمل اسم (شوقي ضيف سيرة وتحية)، أشرف على إعداده صديقنا الأستاذ الدكتور (طه وادي). والكتاب يقع في قسمين: قسم الدراسات عن شوقي، وقسم الدراسات المهداة إليه. ولقد تناول الدارسون في القسم الأول منهج شوقي في الدراسات الأدبية والنحوية والبلاغية ورؤيته الشمولية وجهوده اللغوية، وأسهم في الكتابة طائفة من طلابه الذين يقودون الحركة الأدبية في الوطن العربي أمثال (يوسف نوفل) و (ماهر فهمي) و (محمود حجازي) و(مازن المبارك) و(النعمان القاضي) وآخرون، ويقع الكتاب في أربعمائة صفحة، طبعته دار المعارف في مصر. ومن قبل هذا كتب الدكتور (عبد العزيز الدسوقي) سلسلة مقالات عن (ضيف) في مجلة الثقافة، ثم صدرت مجموعة في سلسلة (اقرأ) عام ١٩٨٧م وطابع المجاملة فيها هو الغالب، حيث عده رائد النقد والدراسة الأدبية، وما هو كذلك. و(شوقي ضيف) برحيله

المتوقع، سيترك فراغاً، وسيثير قضايا، سكت عنها طلابه ولداته يوم أن كان حاضر المشاهد، ورجل مثل شوقي ضيف سيكون كما الشهيد المصلوب الذي قال فيه الشاعر:

علـــوٌ فـــي الحيـــاة وفـــي الممـــات

لحـــقٌ أنـــت إحـــدى المعجـــزات

إخفاقات السرد بين تجريب القص وغياب النقد .. ! (١)[1]

(السرد) مصطلح بإزاء (الشعر) وبإزاء (الحوار). و (السردية) نمط إبداعي يميزه شرطه وشكله ولغته وتقنية معماره. ولا تكون السرديات مجرد الكتابة الحاكية لحدث ما. إن هناك أركاناً تداولها النقاد ك (الحكاية) و (الحبكة) و (الشخصية) و (اللغة) و (التكنيك الفني) أو ما يسمى ب (الشكل) أو (البناء) و (الزمان) و (المكان). وأي قول لا يحتكم ذووه عند الاختلاف إلى مرجعية، لا يكون فناً، وليس شرط المرجعية أن تكون مكتوبة، فكم من معهود ذهني يفعل فعل الشرط المكتوب، والتماس المرجعيات أو الإحالة إليها، لا يعني الحدَّ من التحرف الراشد للتجديد. ومن المثبطات أن محاولة الأخذ بحجز المتهافتين على التجريب، الرافضين لكل سلطان مغامرة محفوفة بالمخاطر. ومواجهة الروائيين والقصاص المخفقين بما هم عليه مؤذن بمناكفات مُسِفَّة على حد: (ما تركِ قولُ الحقّ لي صديقاً).

لقد كانت لي تجاربي غير السارة، فعندما تحدثت عن تاريخ السرديات المحلية فضَّلت ألا أكون حيادياً، يصف الواقع كما هو، بل غامرت في التقويم، وتحفظت على الاندفاع غير المحسوب وغير المتزن في التجريب، وأبنت نصحي لكل المغامرين الذين نكّبوا عن ذكر العواقب جانباً. هذه الرغبة المنطقية في الانْحياز الفني واللغوي والدلالي أثارت طائفة من السرديين والنقاد، بحيث حكموا بضعف إمكانياتي وبدائية تجربتي في النقد السردي، حتى قال قائلهم: (إن اشتغالي بالسرديات فضيحة نقدية). ولما أحسست أن طائفة من ذوي الشأن لم يستبينوا النصح، ولم يقارعوا الحجة بمثلها، لم أعاقب بمثل ما عوقبت به، ولم أصبر، ولم أكن في ضيق مما يقولون، وإنما مارست الدراسة التطبيقية للنقد البنيوي للرواية، وتعمدت نشرها تباعاً، حتى نيفت على ثلاثين حلقة. ولست أدري عما إذا كان المعترضون يصرون على حنثهم، أم أنهم لاذوا بالصمت، فما عاد يعنيني قولٌ لا يهدي إليّ عيوبي. والقارئ المتابع لكل مستجد، يكشف كل يوم عن جهل جديد بما يكتسبه من معارف لم يكن يعلمها من قبل. وكل معلومة يضيفها إلى رصيده المعرفي تعدل أو تلغي أو تضيف إلى ما قد قاله من قبل. ومن تصور أن قوله السالف قول فصل، وأنه لا معقب لرؤيته، فقد جمع بين الجهل والحمق، بل ربما زاد جهله، فصار كمن يجهل أنه يجهل. وهذا ما عرف بالجهل المركب، وما أكثر الذين يقترفون ذلك، ولا يدركون أنهم كذلك. لقد جئنا متأخرين إلى المشهد السردي، وكان مجيئاً متواضعاً يقعد به ضعف الرواد وهيمنة الشعر. فمحاولات (عبد القدوس الأنصاري) و (أحمد السباعي) و (محمد المغربي) لم تتوفر على أصول الفن، ولم يكن المشهد حفياً بالسرديات، كما لم يكن التأسيس من بعد على يد (حامد دمنهوري) مسنوداً بالقبول ولا بالنقد المعرفي المتمكن. ولما جاءت مرحلة الانطلاق، وكثر الموهوبون والمقتدرون والأدعياء واستخفهم نقد مساير أو مجامل، كانت المشاهد كلها تتخبط في لجج التجريب والحداثة وطوفان المستجدات والمترجمات. ومما زاد الأمر تعقيداً الإلحاح على حرية التعبير والتفكير، والتوسل بالواقعيات اللغوية والسلوكية، وطغيان أدب الاعتراف. ولما تزل حركة النقد السردي متواضعة وغير مطمئنة. فهي إما: انطباعية أو متشايلة أو مدارية. ولما يكن لدينا نقد روائي مضارع للنقد الشعري، ولا نقد روائي معرفي معياري، كما هو في بعض أنحاء الوطن العربي. والعائدون من البعثات، لم يكن رهانهم على السرديات، وإنما استزلهم سلطان الشعر،

---

(١) تاريخ المقال: ٢٩/ ٣/ ٢٠٠٥

وألهاهم التنظير، واستهلكهم العمل الأكاديمي، فكان أن خلا الجو (لقبّرات) باضت وصفرت.

ولأني خبير - كبني لهب - بمشهدنا الأدبي وإيقاعاته المتسارعة، فقد تجرعت مرارة المزايدات، وإصرار البعض على جودة ما يفيض به على مشهده، واستكباره على الناصحين، ورفضه لكلمة الحق. وعلاقتي بالسرديات لم تكن حديثة عهد، كما يحلو للبعض إشاعته، للتقليل من رؤيتي، وإن كان تخصصي في الشعر المعاصر، وسلطانه قد بطأ بالحضور السردي: إبداعاً ونقداً، وفوت على المبدعين السرديين مثولهم أمام مرايا النقد بكل تشكلاتها: المسطحة والمقعرة والمحدبة والمتجاورة. لقد كانت متابعتي للإبداع السردي وتحولاته الفنية واللغوية والدلالية: محلياً وعربياً سبباً رئيساً للإلحاح في التساؤل المشروع. والمبدعون المبتدئون لا يروق لهم أن يُسألوا عما يفعلون، فهم يريدون الحرية المطلقة والشاملة:

الحرية المطلقة من سلطة الدين والسياسة والمجتمع.

والحرية الشاملة للأبعاد الفنية واللغوية والدلالية.

أو على الأقل الأخذ بنهم، والمطالبة بإلحاح. وليس من مصلحة المشاهد أن تكون بهذه الفوضوية لا سراة لها، ولا سراة إذا جهالها سادوا. وكم هو الفرق بين السلطة والتسلط، والحرية والفوضوية، والتجريب والتخريب. ومن قلّب لمشهده الأمور فقد أراهم ما يرى من زائف القول. وهذا التفلت ضرب الفن السردي في الصميم، وأثار جدلاً (أيديولوجياً) وفنياً وأخلاقياً ولغوياً. وحق (الحرية) ومشروعية (التجريب) عول عليهما من لا يعرفون حدود الحرية وأمداء التجريب، ولحق بهم من لم تكتمل عندهم آليات الفن، ولم تنضج عندهم التجارب، ولم يتوفروا على الأجواء الملائمة، فكانت الإخفاقات الموجعة في ظل نقد غائب أو مداهن. والنقد حين لا يؤدي وظيفته، ولا يتوفر الناقد على ثقافة بمقتضياته المعرفية وبحسه الذوقي تكون الفوضى والتخريب، وهو ما لا يوده الحريصون على التوازن. والفوضى باسم الحرية، والتخريب باسم التجريب أبرز سمات الإخفاقات السردية: محلياً وعربياً، وهي التي شغلت المشهد، ولم يصل المتصارعون على حلبته إلى حل وسط، يفك الاشتباك، ويكفل الحرية المنضبطة والتجريب المشروع.

وفي خضم الصراع الذي لا تحكمه شرعة ولا منهاج، تحولت الظاهرة السردية إلى إشكالية مأزومة، أحس معها المؤصلون والمحررون لمسائلهم بالحرج. فالناقد المعرفي المعياري الأخلاقي لا يمكن أن يقيم وزناً للانفلات الفني واللغوي، ولا أن يسلم لفلتات العهر والكفر تحت أي اسم. وقدره الموجع أنه متى وجد نفسه ملزمةً بالتصدي لظواهر العبث والمجون والانحراف الفكري والسقوط الأخلاقي فإنه سيواجه بألسنة حداد، تتنادى بأنديتها، ثم لا تكون لديه زبانية تحميه من سلقها. وإشكالية الصراع الفكري والفني والأخلاقي تنتاب المشاهد العربية كافة، وتكاد تصدع الوحدة الفكرية. ولو عاد الأطراف المتشاكسون إلى كلمة سواء، لاقتربت الأزمة من الحل، فما استعصى على قوم منال إذا حكمتهم المرجعية، ونشدوا الحق. لقد تمرد روائيون على الثوابت، وكان أن لجت المشاهد وكان العتو وكان النفور، ورمّت الجروح على فساد، فما يدري ذوو الشأن متى تعود إلى الانفجار.

والإبداع بكل أنواعه القولية والفعلية تحكمه ضوابط وذوائق، وتسهم في تشكله بيئات وحضارات، وهو أشد وثوقاً بالأجناس البشرية، وقد تؤدي خلطة الحضارات إلى التجانس، ولكنها لا تغلي فناً على حساب الفن الآخر، ولا تهمش حضارة أو تزوي أخرى، فالتكافؤ والتكامل والتفاعل حق مشروع لكل الحضارات، وأي هاجس للهيمنة أو الإقصاء مُؤذِن بفساد الفن. وإذا كانت كل وجوه الحياة مضبوطة بسننها وأنظمتها ومعاييرها فإن

(الفن القولي) وجه من وجوه الحياة، وهو الأحق بالانضباط. والقول بالنظام واحترام خصوصية كل نوع فني لا يعني الجمود والرتابة والنمطية، وفي الوقت نفسه فإن التكسير والمغايرة المطلقة والذوبان في الآخر والتحلل من كل الضوابط والأعراف والمسلمات لا يعني التجديد. إن هناك تقليداً معيباً، ومحافظة محترمة، وتجديداً مطلوباً، وحداثة محظورة، وتخريباً مرفوضاً. وكل متعالق مع وضع من هذه الأوضاع يرى أنه الأحق والأصح. والمتابع للأعمال السردية والدراسات النقدية تنتابه الحيرة في التعرف على أنواع (الفن القولي)، حتى لا يدري ما القصة وما الرواية. والشعر الأكثر تميزاً مسه طائف من الفوضوية، فلم يعد متميزاً عن السرد بعد مجيء (قصيدة النثر) وتحولاتها الشكلية واللغوية والدلالية. وهذا الخلط العجيب حمل المتواطئين مع العابثين على إطلاق مصطلح (الكتابة) والاستغناء به عما سواه من أنواع الفن القولي، وكأن إطلاق هذا المصطلح منقذ من تمييع الفوارق بين فنون القول، وحاضر النقد وماضيه يفرق بين الأجناس وأنواعها.

والعمل الروائي حين يكون جنساً سردياً له أنواعه، يكون بجملته من نصيب مصطلح (أدبية النص)، ويكون على المبدع أن يتوفر على مقتضيات (الأدبية)، مثلما يتوفر الشاعر على متطلبات (الشعرية)، و (أدبية النص) مصطلح تشعبت فيه الآراء، ولما يستقر النقاد معه على وصف جامع مانع. يقول (توفيق الزيدي): (إن الأدبيّة مفهوم غامض إلى حد الحيرة مجرد إلى حد الاستعصاء). ومع الغموض والتجريد فقد تقصاه في كتب التراث ووقف على رؤى متعددة تشكل بمجموعها مفهوماً واضح المعالم.

والتراث النقدي يلمح إلى مستويات النص السردي بالانطباعية، وقد يشير إلى ما هو داخل النص أو خارجه من تخييل أو إيقاع. فحين يكون هناك استحسان، يكون هناك مفاضلة، ثم يكون تعليل يتحول إلى شرط أسلوبي. وتحقق (الأدبية) يكون بالضوابط والانضباط، ضوابط اللغة والفن والانضباط الأخلاقي، وإن كانت الفنيات في معزل عن الأخلاق، تمشياً مع التوجيه الرباني ﴿وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُون﴾ فقد سماهم شعراء مع ثبوت الغواية والكذب. وتعويلاً على النماذج تدرج الأدباء في التأصيل لسائر فنون القول التراثية من الانفعالية إلى المفاضلة، ومنها إلى التأصيل. أما في السرديات المعاصرة فالأمر مختلف جداً، لأن القص وصل إلينا من الغرب ناضجاً، ولم تتح لنا فرصة الانفعال والمفاضلة والتأصيل الذاتي، كما لم نأخذ بما لدينا من أحسن القصص، هذه الصيرورة فوتت علينا لذة المبادرة.

وعلى الرغم من أننا كما الطاعم الكاسي، فقد قام الجدل حول هذا اللون الإبداعي المجلوب، ومتى أحس المبدع أن السمة والضابط عائقان للإبداع دخل النقد في تنازلات مخلة بالأهلية. والمشهد النقدي الحديث تنازعته البنيتان: (اللغوية) و (الدلالية)، ولم تثره (الفنية) بالقدر الكافي. ولقد علت نبرة الجدل حول حرية المبدع ومفهوم الحرية، وألفت كتب كثيرة حول هذا المفهوم المستعصي.

وإشكالية الفن كامنة في التنازع حول مهمته بين الانفعالية والتوصيلية. فهل المبدع مصلح أو ممتع، موصل أو مثير؟ وهل من واجبه أن يفهم ضوابط الفن؟ بمعنى أن يكون على دراية تامة بأصول الفن أو لا يكون. الحق أن على المبدع أن يكون موهوباً بالدرجة الأولى، وأن يتوفر على الدراية والدربة، وأن يمر بتجربة ناضجة، وأن تظله أجواء كافية من الحرية. ولأنه جزء من المجتمع فإن عليه أن يحسن التعامل مع سلطاته الثلاث: الدين، والسياسة، والمجتمع. وفردية الفنان التي يلح عليها البعض، لا تعني تخويله الخروج المؤذي على المسلمات، إنه مطالب بالحفاظ على الفن من أن ينزلق في الفوضوية،

ومسؤوليته فنية وأخلاقية، ومتى تعرض الفن للانحطاط أو للنمطية فإن الناقد مسؤول عن إقالة عثرته وذلك بصد المتهافتين، وتعليم الجاهلين، وحماية جناب القيم كافة.

إخفاقات السرد بين تجريب المبدع وغياب النقد .. ! (٢)[١]

وتفاقم الاختلاف حول المفاهيم السلبية للحرية: حرية التجريب الفني، وحرية التعبير الدلالي، يكاد يكون هو السائد المأزوم في أوساط السرديين، وإن تمخض عن شيء قليل من النفع فإن ضرر الممارسة أكبر، وحين يقوم التشريع على التغليب، فإنه لا مكان لهذه المفاهيم الخاطئة. وعوالم الفن تمنح المبدع حق الرصد لانفعاله، ولكن ليس من حقه أن يرصد أي انفعال، دون النظر إلى طبيعة المجتمع، وليس من حق النقاد أيضاً أن يطرحوا كل شيء للنقاش. وكل مسألة تأويلية فيها نظر؛ ذلك أن أي حضارة لها مقدسها الذي لا يجوز المساس به، ولها طرائق أدائها التي لا يباح العدول عنها، إلا إذا كان فيها عوج أو طول. والفن له حدود وقيود وشروط لا يسوغ تجاهلها. وكل هذه الضوابط لا تمنع من التجريب، ولا من التناغم مع سائر المستجدات، ولا مع استشراف المستقبل. ومشروعية التجريب والتناغم والاستشراف لا تعني الانسلاخ، ولا استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير. وإذا كان الناس لا يصلحون مع الفوضى، فإن الفنّ هو الآخر لا يزدهر في ظل العبث بثوابته ومحقّقاته. وبعض الإطلاقات التراثية عن نكد الشعر، وعن عدم تألقه إلا في ظل الكذب، وعن كونه بمعزل عن الدين إطلاقات رهينة للمقتضى الإسلامي الذي لم يفرط في الكتاب من شيء.

والحرية التي يحيل عليها كل مستخف، لا بد أن تكون منضبطة، سواء على مستوى الفكر أو الإبداع أو الممارسة. وليس هناك أي تعارض بين ضوابط الحرية وهواجس التنوير والنهضة والتحيز العلمي. والمجتمع لا يكون مجتمعاً سليماً حتى تسود أعرافه ومسلماته وضوابطه؛ فكل تجمع إنساني لا يقوم إلا على (عقد اجتماعي)، ومخالفة مقتضيات العقد باسم الفن أو باسم الحرية الفكرية أو السياسية أو الاجتماعية خروج على المعقول.

ومشكلة الحرية تزداد تعقيداً يوماً بعد يوم، وبخاصة بعد استفحال (الوجودية) بكل ما تعج به من غثائية وعبثية وتمرد فوضوي أشعل فتيله الإلزام (الماركسي) والهيمنة (الرأسمالية). إنّ هناك (وجودية) إزاء (الماركسية) و(ليبرالية) إزاء (البورجوازية)، وكلما تطرف قوم بآرائهم هيؤوا الأجواء لتطرف مضاد. ومع أن بعض المذاهب خبت نارها، وصارت رماداً بعد سطوع ثاقب، فقد توهم المستغربون أنهم باستعادتها يزيدونها سعيراً. لقد أعطت (الوجودية) الإنسان المتمرد لوجه الشيطان والنفس الأمارة بالسوء مساحة واسعة أفقدته إنسانيته وكرست حيوانيته، ولما يزل مرتبكاً يلح في تساؤله عن حدود الحرية؛ لأنها عشقه ومشكلته في آن؛ ولهذا لم يستطع تعريفها ولا معرفة حدودها. فهل هي انعدام السلطة، أم قمع التسلط؟، وهل هي المساواة، أم هي حرية التصرف؟، وهل هي موضوع نظري أم ممارسة واقعية؟. لقد تحدث (زكريا إبراهيم) في كتابه (مشكلة الحرية) عن معناها وضروبها ومجالاتها (النفسية، واللاهوتية)، وفرق بين (حرية الإرادة) و(إرادة الحرية) و(الحرية) و(التحرر) وعلاقتها بالوجود الإنساني، ولكنه في النهاية قطع باستحالة حل معضلاتها.

ومن بعده تناولها على مستويات متفاوتة، وعبر مجالات مختلفة (سرّي نسيبة) في كتابه (الحرية بين الحد والمطلق)، و(محمد العزب موسى) في (حرية الفكر)، و(رفيق حبيب) في (المقدس والحرية)، و(إيزيا برلين) في (حدود الحرية)، و(حسن سليمان) في (حرية الفنان) .. وكل أولئك تحدثوا عن حرية الفن والفكر، ولم يتعرضوا بشكل مفصل

---
(١) تاريخ المقال: ٥/ ٤/ ٢٠٠٥

للحرية الأخلاقية في الإبداع السردي، ولا للحرية السياسية والدينية. والذي يهمنا هنا (حرية المبدع السردي) بوصفها من أهم عوامل الإخفاق. وتناول الحرية بمفهومها الواسع، يمس الجانب الأخلاقي والفني والشكلي واللغوي، وهذه الأبعاد هي مجال المعارك النقدية، وبخاصة بعد استشراء (الحداثة) واضطراب المفاهيم حول مقتضياتها الفكرية والأخلاقية والفنية، وتعالق الأغبياء والمتغابين معها تعويلاً على مدلولها اللغوي. وهذا التخبط حمل طائفة من النقاد على إعادة القول في النقد الأخلاقي: تنظيراً وتطبيقاً، وهو ما زاد حدة الخلاف بين فلول الحداثة ومن خالفهم.

لقد كان جديراً بالعمل الروائي بوصفه إبداعاً قولياً أن ينهض بمهمة التثقيف والتطهير والاستشراف والانطلاق في آفاق المعاصرة الواعية، وأن يعرف كم هو الفرق بين تجريب يحقق الأفضل، وعبث يمعن في إضاعة الجهد والمال والوقت، ويمكّن العاجزين والمقتدرين غير الموهوبين والموهوبين المتمردين على ضوابط الفن من تصدر المشاهد بكتابات فيها كل شيء إلا الفن السردي، وإذا تحقق الأفضل عند الموهوبين المجددين فإن طوفان التخريب أضاع لذة التجاوز إلى الأفضل.

إنّ دعوى التعصرن هدف الأكثرين اندفاعاً في مهاوي الانسلاخ. والفرق واضح بين مارق من قيمة كما يمرق السهم من الرمية، ومارق بقيمة لتكون حاضر المشهد المعاصر .. وكل خارج على الضوابط في مجال السرديات يدعي أنه الأحق بالنبوغ والأكثر صلة بالتجديد المشروع. والتجديد المعتبر لا يقبل بالتفلت من قيود الفن وضوابط الحرية. وما جناية النقاد المواطئين بأقل من جناية المبدعين المتمردين لوجه العبث المضاعف: عبث في القيم الأخلاقية، وعبث في القيم الفنية.

وإذا استقرت في الأذهان أصول الفن السردي، وتوارثها الأجيال بعد الانفتاح المبكر على الغرب، فإن ذلك لا يمنع من الإضافة والتعديل والمزج والابتكار. وحين يتمرد المبدع على المسلمات الفنية، فإن شرط القبول أن يأتي بما هو أحسن؛ ذلك أن التجديد لا يكون دركات، ولكنه يكون صعوداً في سلم الدرجات. والملتقي الواعي لا ينظر إلى الكم المنتج، ولا إلى المخالفة المطلقة، وإنما همه الكيف، وهدفه التحرف للأفضل، وهذا غير معتبر عند طائفة من هواة التجريب لذاته.

لقد شُغلت السرديات الحديثة بعدة خطابات، تتفاوت في سلم الأهمية والمشروعية:

- الخطاب الواقعي بشقيه: الاجتماعي والماركسي.
- الخطاب المادي.
- الخطاب السياسي بكل توجهاته.
- الخطاب العقلي.
- الخطاب (الوجودي).

وتنازع الروائيون والقصاص والنقاد هذه الخطابات، فكان الراصد والمؤرخ والناقد والمحلل والمتبني والرافض والمكسر، ودخلت هذه الخطابات في تنازع البقاء، وتبدى التنازع في تكريس المقتضى، بحيث طغت المادية على الروحية، والعقلية على النصوصية، والعبثية على الموضوعية. وكادت تستوي في المشاهد الأنوار والظلم، ومع تحكّم المادة النافية للما ورائي، والعقل النافي للنص، والشهوة النافية للحرمات بالمضمون فقد تحكمت الحرية الوجودية بالفن، وظلت عناصر الرواية وأركانها المجال الأوفر لرهان النقاد وتجريب المبدعين المتذرعين بالحرية والمتوسلين بحق التجريب. وطال التجريب كل العناصر، فكان (البطل) مرتكز التجليات والتخليات الخطابية. نلمس ذلك في دراسات رصدية وتحليلية متعاقبة عند (أحمد الهواري) في (البطل المعاصر في الرواية المصرية)، وعند (أحمد الحجاجي) في (مولد البطل في السيرة الشعبية) وعند (حسن

حجاب الحازمي) في (البطل في الرواية السعودية)؛ ذلك أن (البطل) جماع التنازع الحسي والمعنوي، ومن خلاله يستبين المتابع مراد المبدع.

ولأن الشخصيات الثانوية بوصفها الصف الثاني وراء البطل تشكل العنصر الأهم في الإبداع السردي، فقد أصبحت هي الأخرى مجال التجريب. ومن متابعة البطل والشخصيات الروائية يتبين إخفاق عدد من الروائيين في إحكام صنعها. ولكونها كذلك فإن إحداث تحوّل في جلبها وتلبسها بالفعل، يتطلب مراعاة دقيقة لمختلف الرؤى الفنية، وليست العبثية في أدوار الشخصيات وسماتهم من التجديد المعتبر.

وللشخصية الروائية أبعاد وأنواع، قلّ أن يحفل بها الكتبة الذين يملكون موهبة غير مصقولة، أو قدرة غير موهوبة، وكم تجني رغبة التجريب على فئتي الموهبة والاقتدار، فتظل الشخصية بكل أنواعها: المسطحة والنامية والنموذجية، وبكل أبعادها: المادية والاجتماعية والنفسية والفكرية متاهة لا يعرف المتلقي موقعه منها. فالمبدع المبتدئ والمقتدر المتعثر، يخلطان بين الأنواع والأبعاد، ثم لا يحسنان أساليب رسم الشخصيات. وإذ تكون السرديات العربية محيلة إلى ضوابط السرد الغربي، فإن على الروائي والناقد إمعان النظر في تقنيات رسم الشخصية من خلال التصوير القائم على الحدث والحوار، ومن خلال الاستبطان القائم على المناجاة الداخلية والتذكر والحلم، ومن خلال التقريرية في رسم الشخصية. ومع استشعار هذه الضوابط المتداولة لدى النقاد التطبيقيين والمنظرين فإننا لا نجد مانعاً من التجريب الذي يحمل على الاستجابة لتغيير مفهوم الإنسان المعاصر. لقد نال الشخصية الروائية من التجريب ما أثار سخط النقاد الذين يعون متطلبات المرحلة، ويدركون تنوع الشخصيات الروائية.

وحتمية التعدد الشخصي تقتضي تصور كل شخصية كما هي في الواقع، ثم تحويلها من سياقها الوجودي إلى سياقها الفني، وهما سياقان مختلفان اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، وهذا الوعي يقي من الوقوع في المسخ أو التضليل اللذين يحولانها إلى شخصية باهتة، بلا اسم ولا قدر ولا أعماق. والنقاد الغربيون تقصوا التحولات السردية إزاء الشخصية المقبول منها والمرفوض، وإن كان ثمة إضافة فلتكن خيراً مما أحدثوا أو يحدثون.

والخطابات المتعددة تنطلق من رؤية المبدع، وليس شرطاً أن تستجيب لتطلعات المتلقي، ولا أن تجمجم عما في نفسه؛ فالروائي ليس على المتلقي بوكيل. ولقد يكون من عوامل نجاح العمل الروائي أن يستفز قارئه بقدر يغير من تطلعاته ومسلماته، غير أن هذه المغايرة محكومة بمعايير قد لا تكون حاضرة المبدع، وقد يتعمد المبدع تغييبها ليمعن في الإثارة. ومشروعية أي تحرف لا تنجي الفعل من ضوابطه، وعوالم القيم لا مكان للعبث غير المسؤول فيها: فنياً وفكرياً ولغوياً.

وإذا تجاوزنا عنصر (الشخصية) في الرواية، نقف أمام (الشكل) الذي يعد من معضلات السرد. والمتابع للإبداعات يقف امام مفارقات أصبح معها (الشكل) إشكالية متنامية. وتفادياً للتشتت في الآراء سنصرف النظر عن الرؤى التنظيرية عند (هيجل) و(كولدمان) و(باختين) و(لوكاش) و(جوليا كرستينا) التي هالها صخب المنظرين، ومن ثم اعترضت على القول: ب(سيولة الرواية)، ورفضت انعدام الشكل، وأصرت على أن للرواية شكلها وقانونها وأسلوبها الخاص، وتحفظها على مقولة (روجي كابلوا) التي لخصها (حسن بحيري) في كتابه (بنية الشكل الروائي) ومفادها (أن الرواية ليست لها قواعد، فكل شيء مسموح به .. إنها تنمو كعشب متوحش في أرض بوار). ومثل هذه الاطلاقات غير المحددة تحولت إلى مهايع، تزاحم حولها كل من أعوزته الموهبة والثقافة، فكانت الفوضى في أبشع صورها. واتكاء على هذا الانفتاح عمد البعض إلى

كتابة سطر أو سطرين، وعد ذلك بمواطأة مشتركة من النقاد إبداعاً قصصياً. ولقد استهوت تلك الظاهرة الشكلية عدداً من القصاص (السعوديين) فتسابقوا في كتابة خواطرهم التي تقبلها المغررون بالقبول الحسن. والمتابع لكتب (يمنى العيد) (الكتابة تحول في التحول) و(في معرفة النص) و(فن الرواية العربية بين خصوصية الحكاية وتميز الخطاب) يقف على إرهاصات لهذه التحولات الجذرية، ولا أحسبها تقبل بهذا الاندفاع، ولا يرحب صدرها بهذا الحجم من القطيعة المتمثلة بالمعمار والإيقاع الدلالي، وهي بمجمل آرائها واكبت النقاد المغاربة الذين ألهتهم اللسانيات عما سواها، فكان ما هو معاش من انفلات فني ودلالي ولغوي وشكلي.

إخفاقات السرد بين تجريب القص وغياب النقد .. ! (٣)[1]

لقد تبدت الخلافات العميقة بين النقاد الغربيين حول علم اللغة وعلم الدلالة ومناحي الفن، واقتفى أثرهم كبار النقاد العرب بحيث تلقوا خلافاتهم وأمروها بوعي، أو بدون وعي على إبداعات المبدعين ودراسات الدارسين، الأمر الذي قاد المشهد النقدي إلى فوضوية مكَّنت المبتدئين من استغلال الموقف، والخلط بين القصة والأقصوصة، والرواية والخاطرة والمقالة والسيرة وسائر الفنون السردية.

ومهما عوَّل المنظِّرون على مقولة: إن الرواية عديمة الشكل، فإن المبدع الحق لا ينفك عن سمات الإبداع التي تميِّز الجنس الروائي، ومضمونه وفنياته عن سائر الأجناس السردية والأنواع الشعرية، ذلك أن مجرد القول معطى كل إنسان له لسان وشفتان، أمَّا الإبداع فصعب وطويل سلمه. إن للقول الإبداعي سردياً كان أو نظمياً نظاماً مضمراً يعيه المبدع، ويتمثَّله دون عناء أو تعمُّل، وله جماليات يختزن مواصفاتها من خلال ما تتداوله المشاهد من نماذج متميزة، لقد تعقَّب النقاد البناء الإيقاعي، ليس فقط ما يتعلَّق منه باللغة، وإنما امتدت الرؤية إلى الإيقاع في بناء الرواية ومعمارها وموضوعاتها وشخصياتها، ونظروا إلى حركة الحدث والزمان والمكان، وإمكانية ضبط حركة ذلك كله .. ولم يكن الإيقاع وقفاً على التكرار كما يراه البعض، ومتى جاء التكرار لأغراض فنية أو نفسية أو فكرية توفرت الدلالة والإيقاع - أي إيقاع الحدث - وإذا اختلف النقاد حول تحديد عناصر الشكل الروائي، فإن هذا لا يخوِّل المبتدئين والمقتدرين العبث الكتابي باسم العمل الروائي، يقول (البحراوي): (وبالرغم من أن معظم النقاد متفقون على وجود شكل روائي ممكن فإنهم غالباً ما يختلفون بشأن أهميته) .. ولست مع الذين يحصرون البناء الشكلي بالمكان والزمان والحدث والشخصية، ولا مع الذين يفاوتون بينها بالأهمية .. إن البناء الشكلي منظومة معقَّدة متساوية في الأهمية، وأي خلل بعنصر ينعكس أثره على بقية العناصر، كما يتداعى الجسم بالسهر والحمى لمجرد تعرُّض عضو فيه للمرض، والتجزيئية لا تحقق الشكل المتكامل.

ومسايرة المنظرين والمطبقين تجرنا إلى متاهة المفاهيم واختلاطها، وكل الذي نأخذه على (حداثة الانقطاع) إسقاطها لكل تصور فني سابق، يحيل إلى الأنموذج أو إلى الشرط .. وبذات القدر نأخذ على (جمود التقليد) تكريس النمطية والثبوت .. وبين الانقطاع والنمطية سبيل قاصد متى اهتدينا إليه استطعنا استباق التجديد واستصحاب الضابط .. إن قراءة النص الإبداعي يجب أن تتخذ مسارين: داخلي تفكيكي، وخارجي تصوُّري.

فالنص شكل يستشرفه القارىء من بُعد، فيرى تكوينه اللغوي والشكلي، وجمالياته، والنص بنية زمانية ومكانية وموضوعية وشخصية، ولا يتم اكتشافه إلا من خلال آليات نقدية مزودة بمعارف متعددة، تجلو الأشياء، ثم تقوِّمها .. والنص لا يتوفر على الفائدة والمتعة إلا إذا التزم بقدر كافٍ من الضوابط الفنية واللغوية .. إن هناك بناءً روائياً شمولياً وبناءً داخلياً لكل عنصر، كبناء الأحداث والشخصيات، ثم هناك بنية عميقة وبنية سطحية، تكون العميقة شمولية والسطحية جزئية، وتلك رؤية (توليدية) (تشومسكية) .. لقد كانت محاولات التجديد الشكلي الواعي على يد (نجيب محفوظ) الذي جاء معماره الفني المتميز مواكباً لموضوعاته ومستجيباً لها، ولقد جسَّد هذا التميُّز (نبيل راغب) في كتابه (قضية الشكل الفني عند نجيب محفوظ) .. ولقد أشرت من قبل إلى أن الحق الإبداعي لا ينتزعه الاختلاف حول البُعد الموضوعي، فالإبداع حق لصاحبه وإن أوغل في العهر والكفر.

---

(١) تاريخ المقال: ١٢/ ٤/ ٢٠٠٥

والمسألة الأهم يتنازعها الحضور المجامل والغياب السلبي .. وغياب النقد أو حضوره المضلل يكون في المبالغات التي لا تحتمل، والإطلاقات التي لا تحد، فإذا تحدث ناقد عن عمل رضي عن صاحبه أضفى عليه من الثناء ما لا يمكن تصوُّره، وإذا انطلق القارئ من التقريظ إلى النص أصيب بخيبة أمل، وإخفاقات السرد في الخروج المتعمَّد على كل الضوابط الفنية واللغوية والاخلاقية تحت مكاء المضللين وتصديتهم.

ذلك بعض القول عن (الشكل) بكل ما يعج به من تناقضات لا يمكن توقع الجمع بينها .. وعند الحديث عن (المضمون) فحدِّث ولا حرج، لقد ملَّ الروائيون والنقاد المثاليات، وتملق العواطف في قصص المآسي والمغامرات، وأرادوا مواجهة المجتمع بكل ما يعج به من آلام، وما يعانيه من نكسات، فكانت (الواقعية الاجتماعية)، وهي واقعية تقترب من الفضائحية، وقد واكبها في بعض المجتمعات قلق فكري وتمرد سياسي وثورة اجتماعية أعنف من الثورة السياسية، فإذا مرَّت بنا مذابح بشرية اقترفها الثوريون تحت أي مسمى، فليست المذابح الأخلاقية بأقل منها، لقد تسرَّبت من الواقعيات (التسجيلية) بشكل اعتراف ومن (التحليلية) بمقاربة تبريرية .. والاعتراف والتبرير مناقضان للمقتضى الاخلاقي، وليس ذلك من تسجيل ما حدث لأنه حدث، وهو التبرير الذي يعوِّل عليه الخطاؤون غير التوابين، وليس هو كما في القرآن من قصص الأنبياء ك(يوسف) مع امرأة العزيز، و(موسى) مع اللتين سقى لهما، إنه المجاهرة بالإثم .. وفي الحديث (كل أمتي معافى إلا المجاهرون) وحديث (إذا بليتم بهذه القاذورات فاستتروا)، ولن نشير إلى بعض الأعمال الواقعية التسجيلية التي تصوِّر الممارسات الجنسية دون حياء أو خجل، ولك أن تقرأ (الخبز الحافي) أو (وليمة لأعشاب البحر) أو ما شئت من أعمال أخرى أوغلت في الخطيئة .. ولك أن تقرأ (آيات شيطانية) أو (العار لا جا) ل(تسليمة نصرين)، والدراسات التحليلية لمثل هذه الأعمال، للدكتور (إبراهيم عوض) والدكتور (محمد عباس).

ومع تأكد المقترحات فقد ساند النقد هذا العهر بحيث أضافه إلى (صراع الحضارات) ليمنحه شرف المقاومة، تجد طرفاً من ذلك في كتاب (الصراع الحضاري في الرواية العربية رؤية تحليلية نقدية) لدكتور (عبد الفتاح عثمان). والمتابع للمشاهد يقف على إسفاف أخلاقي يصل حد العهر والتهتك، وبه يفقد النص شرف المعنى .. والظاهرة الروائية العربية مدانة بالهبوط المزدوج: هبوط في الأداء، وهبوط في الدلالة، فليس هناك شرف في اللفظ ولا شرف في المعنى، وقد يتوفر المبدع على جماليات فنية ولغوية، ولكنه يخفق في البُعد الدلالي، وذلك ديدن الكبار .. وحين ننحي باللائمة على الظاهرة الروائية، فإننا لا نغمط المستوفين لحقوقهم، الملتزمين بحقوق الآخرين، فحق المبدع في حرية التفكير والرأي والتعبير لا تلغي حق المتلقي في كف الأذى، ولا تخوِّل المبدع الإمعان في العهر والكفر وضرب اللغة والفن، فكل ذلك من الإيذاء الذي لا يحتمل .. ومع التأكيد على احترام القيم والثوابت فإن طائفة من النقاد لا تعرف تلك الحدود، ومن ثم تلزم المبدع ما لا يلزم، وتلك أذية تقع على المبدع، وهي أذية غير مبررة وغير مشروعة .. والمصداقية تتطلَّب الشهادة على النفس والأقربين.

والممتعضون من انهيارات الشكل والمضمون لو ينظرون إلى (لغة النص)، لهالتهم الركاكة والعامية والترهل والتسطح، و(البنيويون) يرون أن النص (لغة)، ومع ذلك لا يأطرون العابثين على لغة الفن، وإنما يسايرونهم باسم (الواقعية اللغوية)، والنظرة المعيارية للغة السرد تقوم على الإنجاز والمجاز والانزياح والخيال والفصاحة والحركة والتشخيص، غير أن المناهج اللغوية الجديدة حين اقتحمت عوالم النقد حوَّلت المفاهيم، وأصبح القول في اللغة وعن اللغة مخالفاً لما سلف، كنا نسمع بالتعبيرية والتصويرية، وكانت مفاهيم ذلك متفاوتة، واليوم بدأ الحديث عن الكلمة الشعرية، وعن دورها الجمالي،

أو التوصيلي الحيادي، والمعذرون لوسطية اللغة الروائية يركنون إلى التنوع النمطي والصوتي نظراً لتعدد الشخصيات والمستويات.

وفي هذا الإطار نظر النقاد إلى اللغة بوصفها ظاهرة مستقلة تملك خصوصيتها، أو بوصفها وسيلة يحكمها النوع وتشكِّلها الغاية، فهناك وحدة أسلوبية ووحدة لغوية .. وإذا سلَّمنا بأن هناك وحدة نظام، يجب على كل مبدع أن يحترمها في القول والإبداع، فإن هناك لغة شاعرة وخصوصية ذاتية على حد (الرجل هو الأسلوب)، وإذا كانت للسرديات الإبداعية لغة معينة فإنها لا تتعارض مع وحدة النظام ولا مع لغة المبدع، والمبدع الواعي للغته وفنه يوائم بين التصوير والتعبير والتوتير، ويتقن اللحظة الحرجة الفاصلة بين الحكي الشفوي العامي والإبداع السردي.

لقد فرَّق (ميخائيل باختين) بين (غير الفني) و(شبه الفني) و(الفني) وجعل الفني متمثِّلاً للكلمة الشعرية، ومثلما اختلف النقاد حول (الشكل) اختلفوا حول اللغة، فبعض النقاد يرى أن الرواية شكل مختلط تلفيقي، أو هو تشكُّل هجين، وآخرون يؤكدون على الفروق وخصوصية اللغة .. والروائيون المخفقون لغوياً ليسوا على وعي بالجدل الدائر حول اللغة والأسلوب، ولغة إبداعهم مرتبطة بإمكانياتهم، بمعنى أنهم يجسِّدون قدراتهم، ولا يحققون مذهبهم اللغوي، وإمكانياتهم المتواضعة توحي بالضعف والجهل: ضعف المحصول اللغوي، والجهل بنظام اللغة النحوي والصرفي، مع العجز عن التوفر على جماليات اللغة، والأعمال الروائية لا تكاد تجد فيها ما يشدك بأسلوبه على حد: (الناس كإبل مئة لا تكاد تجد فيها راحلة).

لقد عوَّل العابثون باللغة، والعاجزون عن تطويعها على دعوى (النص المغلق)، والذي يعني في هذا المجال ارتباط اللغة والأسلوب بالعمل الأدبي الذي يمتلك الاكتفاء بذاته، والانكفاء على ذاته، وحقه في تشكيل نظامه اللغوي، بحيث لا تفرض عليه شروط مسبقة أو خارج ذاته .. وأحسب أن (البنيويين) انطلقوا من واقعية اللغة، وعوَّلوا عليها، وهم قد ربطوا اللغة بالمتكلم من حيث هو إنسان مغاير، فالمتكلم صاحب رؤية وموقف وقدرة ومستوى اجتماعي، وهو قد يكون في إطار (الثقافة الشعبية) بإزاء (الثقافة العالمة) كما تقول (يمنى العيد)، وكلمة الإنسان بهذا التفاوت معبِّرة عنه أولاً، وعن دلالتها ثانياً، إنها تصوِّر الإنسان، وبقدر ما يكون الإنسان تكون الكلمة، هذه الكينونة أبعدت الكلمة عن خصوصيتها، وربطتها بخصوصية الإنسان .. وانجراف الكاتب مع القول بأن اللغة مادة التفكير والكلام في آن، واضطرابه في فهم ذلك، وبخاصة حين يكون الحديث في المجال الأخلاقي أو الديني، أدى إلى مزيد من التبرير والتغرير، وهو في الحالين مكتنف بالاعتراف السلوكي أو التصور العقدي، وحين لا يحكم أمره يُلقيه الاضطراب في مكان سحيق.

وإشكالية اللغة من حيث نظامها وقوة أدائها تزداد تعقيداً، كلما أمعن الأسلوبيون المحدثون في التعامل معها، ذلك أنهم يستبعدون الحق الإلهي، ويتداولون الضوابط والأنظمة، وإشكالية الدال والمدلول والشكل متنامية في ظل تغييب الضوابط والمرجعية وشرعنة الحرية والتجريب وفق مفاهيم لا تقبل بالحد ولا بالضابط، كل هذه تعمِّق الخلاف، وتعرِّض الإبداع السردي إلى انهيارات مخيفة، ومهمة النقد ووظيفته في هذه الظروف تفهُّم القضايا والظواهر واستكناه المشاكل، والوقوف على الأسباب والدواعي، والبدء في رحلة العودة إلى جادة الصواب، فما عاد بالإمكان احتمال مزيد من الإخفاقات .. وإذا كنا نرى أعمالاً متفوِّقة، ومبدعين متألقين من شباب وكهول، فإن ذلك الحضور المشرف لا يشفع للإخفاقات الواضحة، ومن قدَّم هذه النماذج النادرة لإسقاط الدعوى فقد ضلَّ سواء السبيل.

إننا لكي نوقف الزحف نحو الهاوية فإن علينا أن نبحث عن المبدع الموهوب الذي تعهَّد موهبته بالدربة والدراية، ومكَّن الموقف من النضوج، وأن نبحث عن الناقد الملم بكل قواعد الفن، والمستوعب لكل نماذجه، والمسيطر على مناهج النقد الحديث وآلياته، وتحوُّلات الفن ومقوماته، وضوابط اللغة وانزياحاتها، وعلينا قبل ذلك وبعده أن نحترم المصداقية وألا نقول إلا الحق، ومن أمن المتابعة جاء بالعجائب.

تداعيات القراءات الدمشقية .. ! (١) [1]

كنت كلما هممت بالسفر، تذكرت رحلات (طه حسين) السنوية إلى (فرنسا)، مع زوجته (سوزان) التي أصرت على البقاء على دينها وعلى لغتها الفرنسية. وشدته بأمراس كتان إلى صُمِّ حضارتها، فكان بذلك إمام المتهافتين على (الفرانكفونية) يستقبل بهم شواخصها. وتذكرت انتقاءه لما يعن له من كتب أدبية أو فكرية أو إبداعية، والفراغ لسماع قارئه، وهو يترنم بالشعر على جبال (الألب)، ثم الخروج بجهد تأليفي، يكون ثمرة السياحة. وأهم معطيات تلك الخلوات المزعومة، ما تمخضت عنه تلك الرحلة التي صحب فيها ديوان (أبي الطيب المتنبي) دون أن يصطحب ما عنده من دراسات وشروح، كان قد ألمَّ بها في عامه الدراسي، لكيلا يعول فيما توصل إليه على شيء منها، ولهذا اقتصر جهده في كتابه (مع المتنبي) على الإملاء، لا يتوقف فيه إلا لضرورات الحياة. ولم يتردد في إهدائه إلى تلك الزوجة الصابرة المشفقة الراحمة - على حد تعبيره -. وسواء صدق فيما يدعي، ام لم يصدق، فقد جاء الكتاب مثيراً وممتعاً ومغالطاً في آن، لا تمل من قراءته، ولا تود مسايرته فيما يذهب إليه من قراءة ذوقية انطباعية، فيها شيء من التعنت والإصرار والتحامل. و(طه حسين) حين يقدِّم أعماله إلى الناس، لا يتورع عن اللعب بعواطفهم، وإثارة فضولهم، وشد انتباههم. ومن يقرأ الاستهلال لا يجد بداً من قراءة الكتاب، وأكبر الظن أنني قرأته مرة أو مرتين ومازلت أغالب الشوق إليه والشوق أغلب. وإذ يريد من كتابه غمط المتنبي، وتزهيد الناس فيه، فإنه أدهى وأمكر من صاحبه (القصيمي) الذي لا يتقي، ولا يداري، ولهذا طُويت كتبٌ كثيرة عن المتنبي، وبقي كتابه متداولاً، غير أن المفاجأة المثيرة ما خرج به تلميذه العنيد (محمود محمد شاكر) مدعياً أن (أستاذه) سرق كتابه عن المتنبي، كما سرق رؤية (مرجليوث) في الشعر الجاهلي ومنهج (ديكارت) في الشك .. ولأنني في أمر مريج من هذا الاتهام فإنني لم أكلف نفسي عناء الحصحصة، وإن كان فيها ما فيها من اغتلاب الارتياب؛ ذلك أن ما بين الكتابين مختلف جداً، فكتاب (طه حسين) تغلب عليه الانطباعية والإبداعية والمراوغة والتماكر والغمز واللمز، فيما تغلب على كتاب (شاكر) العلمية والتمحيصية والترجيحية بين سائر الأقوال.

وكتاب (شاكر) هو الذي نال به جائزة الملك فيصل العالمية، وما كان يومها حفياً باختيار هذا الكتاب دون ما سواه من كتب أنضج وأعمق، فكتابه عن المتنبي كان في شرخ الشباب، وكانت له كتب وتحقيقات تراثية تفوق ما كُتب عن المتنبي، ولهذا نقد لجنة الاختيار والتحكيم بإيماءة ذكية، وظن الناس يومها ان قوله هذا من باب التواضع أو المزاح، وما عرفوا أنه يعتب على لجنة التحكيم اختيار أقل كتب شأناً. والكتابان يلتقيان عند نقطة حساسة، تتعلق بنسب المتنبي، ثم يفترقان إلى أبعد حدود الافتراق، وما كنت معنياً الآن - على الأقل - بتقصي ما انطوى عليه الكتابان من آراء ممحصة أو مرتجلة، منصفة أو متحاملة، وبخاصة ما يتعلق بالنسب، والعقيدة، واضطراب المواقف، والمبالغة في كل أغراض شعره.

لقد اضطربت الأقوال حول (نسبه) و(قرمطيته) و(تنبئه) وحق لها أن تضطرب، ومازال فيها بقية لمريد. وما من متحدث عن (المتنبي) لا تثبِّت قواعده غزارة المعارف، ولا تكبح جماح عواطفه نوازع العدل والإنصاف، إلا ويكون مجال التندر والسخرية؛ فالمتنبي كالبحر اللجي، إن خضت في شاعريته أو في أخلاقه، أو في نسبه، أو في عقيدته، غرق زورقك، وتكسرت مجاديفك، ومن ثم لابد للخائض في لججه من الفلك

---

(١) تاريخ المقال: ٧/ ٩/ ٢٠٠٤

المشحون بالمعارف. وما أكثر الذين يحسبون ورمهم شحماً وبعرهم درراً، لفظتهم أمواجه كالزبد الذي يذهب جفاء، وقليل من المتحدثين عنه قالوا ما ينفع الناس، فمكث كما تمكث البذرة في الأرض الطيبة، ترقب موسمها لتنشق عنها التربة بأطيب الثمار. وما أكثر ما ينتابني الشوق إلى الحديث عن (إشكاليات المتنبي)، وعن تعدد الرؤى حوله عند ناقديه في القديم والحديث، بحيث لا يكون التقصي رصداً إحصائياً وصفياً على شاكلة ما كتبه أستاذنا الدكتور (محمد عبد الرحمن شعيب) في دراسته الأكاديمية (المتنبي بين ناقديه في القديم والحديث).

وإذ يكتفي (القعيد الأعمى) بحمل كتاب لا يبرحه حتى يأتيه من أقطاره، فإنني ملول، لا أصبر على كتاب واحد، وليس من عادتي حين أبرح أرض بلادي أن أكتفي بما أحمله من كتب، وإنما اختلس شطراً من الوقت، وأزور ما تيسر من المكتبات، لأشتري منها أحدث الإصدارات في مختلف المعارف، ثم أطويها قراءة عجلى، تأخذ كل مستويات التلقي، فإذا اكتشفت في شيء منها تسطحاً أو ادعاء، تركتها حيث أقيم، مع ما يتركه كل مبارح من نفايات، محتسباً أجر الجهد والمال والوقت على الله. ولا يدخل في القبول أو الرفض اختلاف الآراء، فما كنت لأحفل بشيء حفولي بالذين يتحدون إمكانياتي، وما استأت من شيء استيائي من جهد قرائي لا يضيف إلى معارفي معارف، أو لا يضطرني إلى التحيز أو التحرف أو إرجاع البصر مرة أو مرتين لاختراق أجواء الكاتب الفكرية. وكم تخادعني العناوين وجودة الاخراج، فأنخدع، ودور النشر تبدع في ذلك، ومن ثم يقع في حبائلها الذين لا يعدلون بالكتاب شيئاً: - (وخير جليس في الزمان كتاب). وكم من كاتب متسطح لا يؤبه به، نفذ من خلال خداع العناوين وحسن صناعة الكتاب، مستخدماً جرأة بعض الناشرين. وها نحن نسمع بين الحين والآخر عن إصدار دراسة أو مجموعة إبداعية: شعرية أو سردية خارج البلاد، ويكفي المؤلف أو المبدع أن يقول: طبع لي كتاب في (بيروت) أو في (المغرب)، وكأن دور النشر في بلادنا زامر حي لا يطرب.

وفي كل مكتبة أدخلها أسأل صاحبها عن أحدث الكتب في مختلف الفنون والمعارف، فيتبادر إلى ذهنه أنني (معارض سياسي)، وأنني أبحث عما يتناول سياسة بلادي ورجالاتها، ومن ثم يركم أمامي هذا النوع من الكتب المغثية، فلا اجد حرجاً من استعراضها، فإن وجدت فيها ما يفيد، اشتريت منها ما أريد. ورحم الله من تطوع بإهداء عيوبنا إلينا .. (ويأتيك بالأخبار من لم تزود). وإن لم أجد ما يفيد تركتها حيث هي، وفرغت لتصحيح مفهوم الكتبي عما تعدو إليه عيني. فأنا أبحث عن كتب الفكر والسياسة والمعاجم والموسوعات الحديثة ومذاهب النقد الأدبي الحديث: تنظيراً وتطبيقاً. ولست معنياً بمن معي أو ضدي في الفكر والسياسة والأدب، المهم أن أجد قدرة في التناول، وغزارة في المعرفة، ووعياً عميقاً للظواهر والمذاهب والتيارات وانضباطاً منهجياً. وآخر ما أفكر فيه أن يكون المؤلف معي، بل ربما لا يعنيني من هو معي. وقد تنشئ هذه الرغبة جدلاً بيني وبين صاحب المكتبة، بحيث يمضي مع الريح، حسبما يتوافر عنده من معلومات تعجل في تجميعها عما تهواه نفسي. وما كان لي أن أضيق ذرعاً بما يتشكل عنده من انطباعات، وما تستند عليها من أقوال، فما هي إلا ساعة، ثم لا أراه بعدها. ولربما يكون هواه قومياً أو علمانياً أو وجودياً أو إسلامياً، وقد لا يكون مسلماً. وأسوأ ما يكون عندي حين يحترف السياسة، ثم لا يكون مدده إلا ما تضخه القنوات الفضائية أو ما تتدفق به أنهر الصحف السيارة. مع حماسه وانفعاله، لا يدع المداراة التي قد تصل حد المداهنة، لكيلا يخسر صيداً ثميناً، تفوح رائحة النفط من بين إبطيه. وحكايتي مع المكتبات حكاية تطول، وتتشعب، وعندي أمل في تقصيها، ففيها بعض الفائدة، وكثير من المتع. ولقد تحدث الكتبيون عن همِّ الكتاب، فأمتعوا عشاقه.

تذكرت (المتنبي) ومن حوله يوم أن عدت إلى شرفة السكن في منتجع (بلودان) متأبطاً بما ظفرت به من كتب، هارباً بجسمي عما يفيض به ذلك المصيف الريفي الجميل من السواح الخليجيين، الذين لا يدعون لك فرصة التمتع بالمناظر ولا التسوق في المعارض؛ فالنساء والأطفال والشباب والشيوخ يسرحون ويمرحون جيئة وذهاباً، ومن ثم لا تجد بداً من الخلوة في تلك الشرفة المطلة على الأودية الخضراء والجبال الشاهقة، ومن حولك ما تود قراءته من كتب مثيرة. لقد ظفرت في أولى جولاتي بثلاثة كتب ل(القصيمي) هي:-

-العرب ظاهرة صوتية.
-هذي هي الأغلال.
-عاشق لعار التاريخ.

كان الأول قد فقد من مكتبتي، والآخران لم أحصل عليهما من قبل. قلت في نفسي: هذا هو الوقت المناسب لاعادة قراءة القصيمي، بعد انقطاع طال أمده، فلقد عرفته قبل أربعين سنة، وأنا يومئذ في (الكويت) كان ذلك في عام ١٩٦٥م حين اشتريت أنا وأحد الزملاء كتاب (العالم ليس عقلاً) في طبعته الأولى، قبل أن يجزأ إلى ثلاثة كتب، على ما أذكر، وكانت تلك الطبعة قد صدرت قبل ذلك الوقت بثلاث سنوات، قرأناه بعد حل حبكه وتبادله أوراقاً مفرقة، وكلما فرغنا من قراءة ورقة، مزقناها، وألقيناها في اليم، ظنَّاً منَّا أننا بذلك نئد فكراً مناهضاً للإيمان. ومن بعد هذا نقبت في البلاد عن مؤلفاته، كلما ألقتني المناسبات أو المهمات في (بغداد) الرشيد، أو في (قاهرة) المعز، أو في (دمشق) الأمويين. ولم يند عني من كتبه إلا القليل، ولما قرأت كتابه (الكون يحاكم الإله) أحسست بأن الأمر بلغ دركه، وأنه لم يعد بالإمكان احتمال ما يقول. وإذا كان اليهود قد تجرؤوا على القول بأن: - ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾، فإن القصيمي قال ما هو أسوأ من هذا، غير أني لم أجد بداً من ترويض نفسي على قراءة المخالفين أو الاستماع إليهم، ما دامت نواصيهم بيد الله، وما داموا لا يعجزونه، وما دام انه لو شاء لهدى الناس جميعاً، وما دمت قادراً على منازلتهم، وكشف إلحادهم. وسلفي في ذلك (ابن تيمية) الذي جالد غلاة الفرق، وجدل المناطقة، وسفسطة الملاحدة، وخلَّف تراثاً لم يسلم من أغيلمة القنوات اللجوجين، وقنافذ الصحف الهداجين، ومواقع المعلومات والمنتديات المخجلة. والذين ينقمون على الغيورين على محارم الله الصادعين بما أمروا به، لا تحين منهم التفاتة واعية منصفة إلى المتجرئين على محارمه، المنتهكين لحدوده. وكأني بمثل هؤلاء يطلبون التخلي عن الثغور وإلقاء السلاح من طرف واحد. والمنصف من إذا أراد أن يفك الاشتباك، ويصلح ذات البين، أن يقف على مقولات كل الأطراف وأفعالهم، وأن يعرفهم بمقترفاتهم، وأن يحمَّل كل طرف جرائره. فالعدل والإنصاف يقتضيان سماع الدعوى والدفاع، والحَكم العدل مَنْ لا يحكم لطرف عند غياب الطرف الآخر. وما أكثر الذين يخدعهم معسول الكلام، فيظنون الاستسلام سلاماً، والضِّعة تواضعاً، والاتكال توكلاً، وما أكثر السذج ومثقفي السماع الذين يحسبون كل صيحة عليهم، حتى لقد طال الرعب ثوابتهم، فكان كل قول في الدين عندهم مؤشر تطرف وبداية إرهاب. ولو أتيح لدعاة الخنوع متابعة ما تطفح به كتب المتطرفين من علمانيين وطائفيين، لما وسعهم إلا أن يصدعوا بالحق، ويعرضوا عن الجاهلين. ومن الضعف والضعة القبول بالتعايش من طرف واحد، وذلك ما تريده دول الاستكبار وغطرسة القوة وشراذم التسلط. وإذا طلب منا الجنوح للسلام فإن شرطه أن يجنح الآخرون إليه، أما أن نترك للمتجرئين على المحارم حرية القول، ونعد ذلك من باب التسامح والوسطية، فذلك الخطأ بعينه، والتقصير نفسه.

تداعيات القراءات الدمشقية .. ! (٢) (١)

وفي ظل هذا العنت والصلف من الظلاميين والمارقين طفح الكيل، وبلغ السيل الزبى، وأعطيت الدنية في الدين، وكاد الواهنون المداهنون أن يخربوا عامر معارفهم بأيديهم. والمذعن للقلم وما يسطِّر، وللسلاح وما يدمِّر وفي إمكانه أن يفل الحديد، ويفند صلف العنيد لا ينفك من تجرع ذل العاجل وعذاب الآجل:

واحتمـــال الأذى ورؤيـــة جانيـــه

غـــذاء تضـــوى بـــه الأجســـام

لقد جمعتني هذه الخلوة في المصيف، بما أرفض من الأفكار، ومن أكره من المفكرين، وذكرتني ب(طه حسين) وب(القصيمي) وبآخرين جاؤوا من بعدهم، يكاد الوهن يشل حركتهم، ويكاد الاختلاس يبدو من بين سطورهم، ف(القصيمي) تحدث عن (المتنبي) حديثاً كأني أراه، وأسمعه، يخرج من أفواه أحياء يدبون على الأرض، يدَّعون أنهم أول من اكتشف عظمة المتنبي في الشاعرية وفي الاسترفاد، ولقد تمر بك جمل وعبارات، تحسب أنك قرأتها من قبل، فإذا تأملتها عرفت من أي المستنقعات هي. و(القصيمي) و(طه حسين) ينقمان على (المتنبي)، ولكل واحد منهما وجهة هو موليها، ولكنهما لم يستبقا الخيرات، وإن كان (طه حسين) أذكى من صاحبه وأقدر على استدعاء الأدلة والبراهين والخداع بالمراوغة الذكية، مستعيناً بطاقات اللغة التي مكن الله له فيها، فكان من ذوي الأساليب الفنية الأخاذة، فيما لم يكن بمقدور (القصيمي) المثري من اللغة إلا التكرار الممل. وكم كنت حريصاً على استكمال ما ينقص مكتبتي من كتب لمؤلفين معينين أو من كتب تتعلق بقضايا وظواهر ومذاهب وأفكار لها حضورها الأكثر شغبا في كافة المشاهد، ومن ثم ظفرت بما ينقص مكتبتي من كتب الهالك (عبد الله القصيمي)، أو مما هو من باب التعويض عما خرج منها معاراً، ولم يعد، وما أكثر المستعيرين الذين لا يجدون بأساً بالمماطلة، ولا حرجاً من الإنكار، وللعلماء أقوال وأشعار تتعلق بإعارة الكتب، وهم معذورون، فاستنساخ الكتاب أو شراؤه يتطلب جهداً ومالاً لا قبل لهم باحتماله. ومع ما ظفرت به من كتب القصيمي، ظفرت بكتب أخرى في الفكر المعاصر، وهو فكر مضطرب مهدور الجهد في خدمة الغير. لقد تحسرت على مفكرين مهيئين لطرح نظريات عربية تتناغم مع حاجة أمتهم، ولا تجد حرجاً من استثمار المستجدات المنهجية والآلية ثم لا يفرغون لها، وكأن أفكار الغرب ومصطلحاته وسائر شؤونه قصيدة (عمرو بن كلثوم) التي ألهت بني تغلب عن كل مكرمة، والداء العضال الذي تعانيه طائفة من مفكرينا وأدبائنا جهلهم بتراثهم، وعدم تمكنهم من التأصيل لمعارفهم، والتعامل مع الآخر بندية، والتفاعل معه للإفادة والاستفادة. ولما كانت قراءاتي ل(القصيمي) استعادة وتذكراً، فلقد كنت أعرف مراميه وأهدافه وقدرته على التلاعب بالألفاظ، وتقصي المترادفات والجمل المتشابهة، حتى لكأنه ملم كل الإلمام ب(تحويلية) (نعوم تشومسكي) يقلب الجملة، حتى لا يدع تركيباً إلا استدعاه، ولا مرادفاً إلا ساقه. ولقد تقرأ الصفحات الطوال، ثم لا تخرج إلا بمعلومة واحدة، كل ما تحويه الإنكار أو التنكر، يشقق لها العبارات، ولا يشقق المعاني، وفرق كبير بين الإمكانيتين. ف(الجاحظ) يمتلك القدرتين: تشقيق العبارات، وتشقيق المعاني. فيما لا يستطيع (القصيمي) إلا تشقيق العبارات. فإذا تحدث عن أي قضية حام حول حماها، وكأنه مشدود الوثاق برقبته إلى شاخص يلف

---

(١) تاريخ المقال: ١٤/ ٩/ ٢٠٠٤

حوله، بحيث لا يبرح مكانه وإن ظلَّ يركض برجله، وكل ما يملكه الجرأة الوقحة على المقدس، يغرق في التشكيك، ويقطع في الإنكار، ويمعن في الهجاء والسخرية، وذلك لعمر الله أحط ما عرفت من الأخلاق، وأسْفَه ما رأيت من القول، وأسخف ما قرأت من الكتابة، ولست أعجب من شيء عجبي من عدم تمعر وجوه بعض المتابعين لكتاباته، التي لا يشفع لها عقل ولا نقل. وإذا الإيمان ضاع فلا عقل ولا عاطفة ولا إنسانية. وكيف يكون الإنسان بلا إيمان، وهو فطرة الله التي فطر الناس عليها. وأساطين المادية والإلحاد يؤمنون بالوجود المطلق، ولهم تصورهم عن بدء الوجود، و(الله) في نظرهم قوة مطلقة، وموته عند (نيتشه) لا يعني عدمه، وإنما يعني شيئاً آخر، فيما لا يؤمن القصيمي بشيء من ذلك البتة، ولا يحسن توجيه أقوال الفلاسفة، أو لا يريد أن يشغل نفسه بغير الرفض والتمرد والإنكار، والمتعقب لآراء الفلاسفة وعلماء الكلام حول تصور الوجود وموجده، يقف على آراء تحيل على العقل أو على النقل، وقد يمضي المعقول في ظل المنقول، وقد يفترقان، أو يتعارضان، حتى إذا عجز العقل عن التصور وازورَّ عن الإيمان، وقع في المحذور، لأن المرتهن في عالم الشهادة ليس بقادر على استيعاب عالم الغيب، ما لم يعضده الإيمان والتسليم. ولم يكن القصيمي معولاً على عقل ولا على نقل. وإذا كان في الفكر والفلسفة مهرجون، فهو رائدهم، ذلك أن المهرج يقول ويطيل القول، ثم لا يتوفر على دليل نقلي، ولا على برهان عقلي، ولا يحيل إلى نص محكم، ولا يستدعي تجربة علمية، ولا ملاحظة دقيقة على مجريات الأحداث، ومن ثم لا ينفك من اللجاجة الفارغة.

و(القصيمي) الذي يثير بآرائه الاشمئزاز والغثيان، يتولاه من لا خلاق له، ممن استحوذت لوثة المفاهيم على عقولهم. ومن تابع كتاباته التي انهمرت بعد كتابه الفاصل بين الحق والباطل (هذه هي الأغلال)، لا يجد تطوراً في فكره ولا تعقلاً في آرائه، وكيف يتأتى له التطور، وهو لا يملك إلا الرفض، ولك أن تقرأ ما قاله عن (الثوريين) في (عاشق لعار التاريخ) أو ما قاله عن (المتنبي) في (العرب ظاهرة صوتية) أو ما قاله عن خالقه في (الكون يحاكم الإله) لتجد أنه يتداول قاموساً واحداً من الشتائم، ولك أن تتحامل على نفسك وعلى أعصابك، وتقرأ أطرافاً مما قاله في كتابه (الكون يحاكم الإله) لترى أنه لا يفرق بين (الثوري) و(المتنبي) و(الإله). والذين يرصدون أطروحات العلماء والمفكرين يجدونها تحيل إلى النص أو إلى العقل أو تحيل إليهما معاً، ثم يجدونها متماسكة في الآراء والتصورات، محيلة إلى مصادر الحضارات ومرجعياتها. والقصيمي لا يحيل إلى شيء منهما، وتلك خليقة الهدامين الذين لا يوفرون علماً ولا ثقافة، ولا يزودون قارئهم بقاعدة، ولا أصل، ولا منهج. فمن أحال إلى (عالم الشهادة) وحسب، فتفكيره مادي وضعي، ولكنه يوفر معلومات تجريبية عن ظاهر الحياة الدنيا، ومن أحال إلى (عالم الغيب والشهادة) معاً، فهو مفكر إيماني (ميتافيزيقي)، ولكل من الطرفين مرجعيته التي يحيل إليها، ويتعاضد معها، وله منهجه وآليته التي يعرف بها. إذ لا طريق لعالم الغيب إلا الإيمان أولاً، ثم الوحي القطعي الدلالة والثبوت ثانياً، فليس طريق ذلك العلم التجريبي ولا الرصد والمشاهدة. وليست هناك طريق لعالم الشهادة إلا المتابعة والملاحظة والتجريب على حد: - (أنتم أدرى بأمور دنياكم). وما شق الغرب طريقه إلى السنن الكونية إلا بواسطة (المعامل) و(المختبرات) و(المراصد) و(جمع المعلومات) وتحليلها. فالكون له نظامه وسننه، ومن أدرك شيئاً منها سيطر عليه. وليس شرطاً أن يكون المفكر المؤمن بالغيب سالكاً طريق الرشاد، فالطوائف الإسلامية المنحرفة تؤمن بالغيب وبالرسالات، ولكنها تخطئ في التلقي والتأويل، وهي فيما توصلت إليه درجات أو دركات، يؤخذ من قولها ويترك، فتصوف السلوك يختلف عن تصوف الحلول ووحدة الوجود.

ول(القصيمي) إلمامات متعددة، فهو حين يتحدث عن (عالم الشهادة) يسلك طريق مفكري الرفض والتمرد، أما حين يتحدث عن (عالم الغيب) فإنما يسلك طريقاً آخر، قلَّ أن يكون له سلف فيه، وقوام طريقه التهكم والسخرية والإنكار والتساؤل الذي لا يرقب إجابة، فهو تساؤل مجازي. حتى الذين ينكرون (عالم الغيب) لا يمتد إنكارهم إلى الوجود المطلق، وإنما يقتصرون على إنكار الرسالات أو البعث أو غيرهما، معتمدين على الطاقة العقلية، ولهم حججهم العقلية التي يسوقونها دون تطاول. أما (القصيمي) فيعمد إلى الذم والمساءلة أو التطاول، واتهام كل الأطراف: المعبود والعابد والمبلغ. فلا هو شكوكي (ديكارتي) ولا حائر (معري) ولا متأول (باطني)، وإنما هو رافض هدام هجاء متمرد. ومع وضوح ضلاله فإنه عِشْق المتمردين. وهو بمجموع غثائياته يشكل معيناً تكدره دلاء الحداثويين وعشاق الإثارة والاستفزاز، يبيتون ليلهم يقرؤونه، حتى إذا تضلعوا من مائه الآسن، ودنسوا ثيابهم من مستنقعه المتعفن خرجوا إلى الناس بقول يعيش في ظلاله، ويعب من ضلاله. فكان ذلك الاختلاس سبيلاً إلى الحضور، ومغرياً لوسائل الإعلام والنشر لتخطفهم كي تقضي بهم وطر الدعاية والجذب. وما من متمرد على الدين أو متطاول على خالقه إلا وعلى (القصيمي) كفل من مقترفه، وما أكثر ما نقف على فلتات الألسن، وزلات الأقلام من كتبة لا يتوقع من مثلهم مثل ذلك. وبمحاولة التعرف على مصادرهم يتبين أن (القصيمي) وأضرابه هم القدوة السيئة، ولقد تولى الروائيون كبر ذلك، فكان أن شككوا بالثوابت، وترددوا في صدق اليقينيات، ودنسوا المقدس، وأنسنوا الإله، وأحالوا كل ذلك إلى حرية التعبير والتفكير.

وإشكالية المتسطحين الذين يعدون أنفسهم من المفكرين المؤسسين عدم التفريق بين الخطأ العارض للمفكر والانحراف الفكري في المبدأ، وبين من يقرأ القرآن ويفهم معانيه ومقاصده، ويقيم حروفه، ثم لا يقيم حدوده. ولقد سمعت من يقول عن (طه حسين)، وعن (القصيمي) إنهما يحفظان القرآن ويحفِّظانه لمن حولهما من الأولاد. والقضية ليست في المعرفة ولا في الحفظ، ولكنها في الفكر والمنهج، فالمستشرقون كتبوا عن القرآن وعلومه من قراءات وناسخ ومنسوخ ومحكم ومتشابه، وأسباب نزول وغيرها عن علم غزير ومتابعة دقيقة، وعرفوا عن لطائف التفسير، والإعجاز البياني والعلمي ما لم يتوفر عليه كثير من علماء المسلمين، ولكنهم فعلوا ذلك للتضليل والتشكيك. وإذا كان (القصيمي) هدَّاماً فإن (طه حسين) غربي متفرنس، وفرق كبير بين الاثنين. ولأن (القصيمي) هدام قد طواه النسيان، فإنه لم يعد مطروحاً في المشاهد بمثل غيره من المنتمين. وأعداء الحضارة الإسلامية يستثمرون جهود (المنتمي) و(اللا منتمي) فالأول مبشر بحضارة الغرب، والثاني مخرج من حضارته، وأعداء الإسلام مستفيدون من الحالين، من اللاحق بهم، ومن الخارج على حضارته، والدوائر (الاستعمارية) و(الصهيونية) و(الماسونية) جادة في إذكاء الصراع العسكري والفكري بين أبناء الملة الواحدة، وها هي تجني ثمار مؤامراتها، فمن أشعل الحروب الأهلية والحدودية والطائفية أو باركها أو دعمها أو استغل حالات التوتر والارتياب؟ أليسوا هم الأعداء المتربصين الكامنين؟! وحين تقتضي المناسبات استدعاء مفكر عربي أو غربي فليس القصد الشماتة، وإنما القصد أخذ العبرة والاستفادة من الإخفاقات، فالخطأ يكون إيجابياً حين يحملك على التحرف للصواب، والعاقل من وُعِظَ بغيره، ودونه من وعظ بنفسه، وأسوأ الأحوال ألا يتعظ لا بنفسه ولا بغيره.

السؤال الأكثر إلحاحاً والأكثر تحدياً لكل المغمضين على تجاوزات القصيمي، ما الشخص الذي مجَّده القصيمي؟ وما القيم التي يتمسك بها؟ وما الحضارة التي أعجب بها؟

وما الايديولوجية التي ينتمي إليها؟ ولو صدقت (بروتوكولات صهيون) لكان القصيمي واحداً من معاولها.

إن مفكراً هذه خليقته لجدير بأن توزن الكلمات فيه وعنه، فالتعذير والتحذير مسؤوليتان، يحاسب عليهما الإنسان. وحين تصل الأمور إلى المصير لا يحسن الإغماض، ومن وجد فيه ما لم نجد، فليفض علينا مما عنده، فنحن طلاب الحق، وهو ضالتنا، وعليه ألا يحيل إلى القائلين عن القصيمي، وإنما عليه أن يحيل إلى أقوال القصيمي نفسه، ومن قرأ عن القصيمي، فهو تبع لمقروئه، أما الذين اجترحوا قراءته فأولئك الذين يخبرونه، ويعرفون منطوياته، وقليل ما هم، وكم هو الفرق بين أن تقرأ الشيء أو تقرأ عنه، تلك بعض التداعيات، وفي الذاكرة أشياء ترقب وقتها عن مفكرين ومبدعين لقيتهم عياناً أو عبر كتبهم ومن الخير للمشهد الفكري أن نعيد قراءتهم أملاً في إحقاق الحق وإزهاق الباطل، وما أردنا إلا التوفيق بين الأطراف وإصلاح الشأن العربي ما استطعنا .. وما التوفيق إلا بالله.

ذيل التداعيات الدمشقية .. ![1]

وتمتد التداعيات، تثيرها مشاهدات واعية، أو قراءات متقصية، أو أحاديث مجالس تؤزها الأحداث بكل أوجاعها. ومن حق أي متابع عبر أي مصدر من مصادر المعرفة أن يقول رأيه فيما يقرأ أو يسمع أو يشاهد، متى كان مقتدراً وذا فهم سليم. وتحفظنا على ذوي الأفهام الضحلة الذين يفسدون ولا يصلحون، ومع ذلك فلسنا عليهم بمسيطرين، وما نريد تهميشاً ولا إقصاءً، وما نقوله مسوغ في إزاء حقهم في التفكير والتعبير. ولولا تضارب الآراء لما انقدحت الحقيقة، ولقد ضاق المتنبي من ذوي الأفهام السقيمة، وأطلقها مثلاً يردده الناس:

وكم من عائب قولاً صحيحاً
وآفته من الفهم السقيم
ولكن تأخذ الآذان منه
على قدر القريحة والعلوم

وليست التجاوزات التي نضيق منها، ونضيق بها مرتهنة للفهم السقيم وحسب، ولكنها لون من التعنت والمجازفة وسبق الإصرار. يقترفها الخليون والمبتدئون وذوو المآرب وطلاب العاجلة، لا لشيء إلاّ للابتزاز أو للاستفزاز، وهو أسلوب المتعجلين للظهور أو النهمين للكسب، ولقد سئلت أكثر من مرة عمن يستعذبون الاستقطاب حول الذات، ويستمرئون اللجاجة والصخب، ويمارسون شد الانتباه بأيِّ أسلوب، ويتعمدون الحضور باجتراح القدح بالمتفق عليه من الأقوال والأفعال والأناسي، دونما حاجة قائمة أو استجابة ملحة، إلاّ ما هو معروف من كسب رخيص يتعجلون اجتناءه من كتب يؤلفونها أو مقالات يكتبونها لوسائل إعلامية تتقن لعبة الإثارة والاستقطاب. وليس بمستبعد أن يطرح البعض نفسه للتندُّر بثمن بخس، ولو خلت الحياة من هذه النوعيات لأخذ الناس بجد صارم. ولقد سمى العرب مثل أولئك المضحكين بالحركات أو بالأقوال أو بالأزياء (أهل السماجات) ولسنا معهم في كل ما يذهبون إليه ولكننا نقدر رؤيتهم ونقبل بعض آرائهم والرجل السمج هو الذي يقترف شهرته عن طريق استفزاز الرأي العام، ويتعمد المخالفة لذاتها بلا برهان، ومع ذلك فإنه ليس بحصيف من يستسلم للخطأ اتقاء الرأي العام المتشكل على غير هدى، ومثله من يتعمد إثارته رغبة في الشهرة، وكم هو الفرق بين أدب السخرية وسماجة الأدب. والسخرية ظاهرة فنية، تقصّاها النقاد، وعرفت بها طائفة من الكُتّاب، وفي القرآن الكريم أسلوب ساخر، تقصاه الدارسون للإعجاز البياني.

وما كل من ثار عليه الرأي العام معدود من ذوي السماجات، وما كل من خفت روحه، ولطفت عبارته، ولذعت سخريته محسوب من أولئك المهرجين. ولو أخذنا بهذا المفهوم على إطلاقه، لكان أن عطّلنا الاجتهاد والتجديد والإصلاح والتصحيح، وحلنا دون تعدد المذاهب والتيارات والإمتاع والمؤانسة، و(أدب السخرية) أدب يمتد مع الزمن، عرف به عمالقة الأدب في القديم والحديث، تجلّى ذلك في أدب (الجاحظ) وفي أدب (أبي حيان) في القديم، وتجلّى في أدب (المازني) و(مارون عبود) و(السعدني) وآخرين في الحاضر.

---

(١) تاريخ المقال: ٢١/ ٩/ ٢٠٠٤

وفي المقابل نجد العلماء الجادين ذوي المواقف كـ(العز بن عبد السلام) و(ابن تيمية) ومن سمّاهم البعض متمردين لوجه الله. وتاريخ الفكر الإسلامي حافل بالعلماء والمفكرين الأفذاذ ممن نذروا أنفسهم لقضايا أمتهم، وكم تعرّض بعض العلماء والمفكرين للسجن أو المقاطعة بسبب آرائهم المخالفة للجمود والنمطية المتوارثة. وحكايات العامة في بغداد في القرن الرابع مضحكة مبكية فلقد لقي منها العلماء النصب، وقصة (الطبري) مشهورة حين أوصدوا عليه بابه وبنوه بالآجرّ. ومثل هؤلاء الأفذاذ من العلماء وإن اختلفنا مع بعضهم يختلفون عمن يتقن فن الدعاية والإعلان وتسويق الذات بمثل هذا الأسلوب غير الحضاري، بحيث يُكذَّب الصديقون. وتُنكر البراهين، وتُدنس المقدسات، وتنسف المسلمات. مع أن هذه الطائفة ليست على شيء من العلم، ولا على شيء من الهم، وليس الاجتهاد ولا الاختلاف الذي يتصف به أساطين العلم والفكر والأدب من هذا النوع، وليست السكونية ولا الأبوية ولا تهيب المغامرة المحسوبة مما يحمد. والذين تعقبوا المسلمات، وفندوا خطأها، وحملوا الكافة من الفاضل إلى الأفضل يعدون مجددين، وكم هو الفرق بين المجددين الذين بشّر بهم الرسول ﷺ، والهدامين الذين يرفضون اليقينيات، وينهجون منهج الشك الديكارتي، والحرية المطلقة، والقلق المطلق. فما كنت لأعيب الاجتهاد من أهله وخاصته، ولا أمتعض من الاختلاف المعتبر، ولا أشفق من مواجهة المسلمات من عادات وتقاليد، ولكني ضد الخلط وفوضى الحواس. واستدعاء الثوابت واليقينيات والمسلمات والشخصيات باسم حرية التعبير والتفكير دخول في الفوضى. لقد كانت إلماماتي العجلى والمتأنية في كتابات (القصيمي) ومسترفديه مدعاة إلى استذكار عدد من المجازفين الذين لا يلوون على شيء مما يقولون، وما عندهم إلا الادعاء والتشبع والتجشؤ من فراغ. و(القصيمي) قدوة سيئة لهذه النوعية من الكتّاب. وجهابذة العلماء وكبار الشعراء وأساطين الفكر زاد لمن لا زاد له، وسلّم يرقى به القاعدون إلى سدة الأضواء، وسيظل العلماء الكبار والشعراء المفلقون مورداً لا تكدره الدلاء. واستدعاء (القصيمي) لشاعر كـ(المتنبي) حلقة في هذه السلسلة الصدئة، غير أنه في هذا الاستدعاء يود ان يؤكد دعواه بأنّ (العرب ظاهرة صوتية)، وأنّ صوت المتنبي خير من يمثل هذه الظاهرة، غير أنه في غمرة الحقد نسي ما يريد تحقيقه، وذهبت به تخبيصاته إلى أمور أخرى، ليست من مقتضيات الحديث عن الظاهرة الصوتية. وتلك من أبرز سماته، فهو يخب ويضع في أمور ليست من متطلبات حديثه، وكثيراً ما يقع في التناقض، حتى لقد أدرك عليه المتقصون لفكره نقض الحجة في موضع والاحتجاج بها في موضع آخر، وذلك بعض ما أشار إليه صديقنا (أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري) في كتابه (لن تلحد) وكتيبه (ليلة في جاردن سيتي).

وإشكالية (القصيمي) أنه لا ينتمي إلى نحلة لها أشياعها وأتباعها، وهو بهذا يُعَدُّ من المتمردين لوجه الشيطان، ومن أصحاب مذهب (اللامنتمي). و(اللا انتماء) توصف بها إبداعات (نجيب محفوظ) وهو الذي مهّد له الطريق إلى (جائزة نوبل)، وهناك فرق بيّن بين الاثنين، قد نعرض له حين نفرغ من الحقيقة (الدمشقية) و(الصنعانية) و(القاهرية)، والمتابع لفيوض (القصيمي) يجزم بأنه يخدم بهوسه واهتياجه وحقده خصوم الحضارات، فكل طائفة تتأذى منه في جانب، وتستفيد منه في جانب، فهو كجناحي الذباب، أحدهما داء والآخر دواء. وحين تقرؤه كوحدة دلالية، يتبين لك أنه يريد الخروج من كل شيء، والتصدي لكل شيء، وذلك سر نبذ الناس له، وسر حقده على الناس. ولقد مر في حياته الفكرية بثلاث مراحل في غاية التناقض، مرحلة (السلفية) ومرحلة (الليبرالية) ومرحلة (التمرد)، وهو عنيف في كل مراحله، فالذي يقرأ كتبه السلفية يدرك حدته وعنفوانه، تجد ذلك في (البروق النجدية) و(الثورة الوهابية) و(الإسلام والوثنية) وغيرها.

و(المتنبي) مضمار لزز تجري فيه الخيل الكرام وغير الكرام، وكل من أراد تجريب آلياته ومناهجه تخطى إلى مضاميره، لأن عالمه حافل بكل الاحتمالات، والاشتغال به على أيِّ شكل سبيل من سبل الحضور، غير أنّ الإطلاقات المعممة لا تغني ولا تقني. وقد يتقن البعض (البهلوة) فيجمع بين السيئتين: - الجهل والتعميم، وقد تتعمد وسائل الإعلام الإثارة للجذب والاستقطاب، ولا يهمها بعد هذا في أي واد هلكت القيم والمثمنات. على أن قضايا الفكر والدين والسياسة والأدب لا يجوز أن تكون سلماً للاشتهار. وجرجرتها عبر وسائل الإعلام ووسائط النشر إخلال بالبنية الفكرية للأمة، وتزييف لوعي الذين لا تعدو نظراتهم إلى تليد الفكر وطريفه. والمتابع لفيوض الإعلام المقروء والمسموع والمشاهد ينتابه الخوف من الخائضين في آيات الله دون علم. ولست أشك في أن مئات من المتحدثين عن العمالقة لا يريدون من وراء ذلك إلاّ أن يكون لهم ولو مفحص قطاة في مشاهد الفكر والأدب، وما عرف أولئك أنهم يبدون سوآتهم ويحرقون سمعتهم ويربكون الرأي العام ويحفزونه على الاحتقان دونما أي جدوى، والذين يخبرون العمالقة يعرفون مقاصد المتعالمين من المتعاملين، و(المتنبي) عرف ما هو عليه، وعرف أنّ ما ترك وراءه من شعر سيكون مجالاً للأخذ والرد، ولهذا قال:-

أنام ملء جفوني عن شواردها

ويسهر الخلق جراها ويختصموا

ومع إعجابي به وبشعره إلاّ أنه يظل مشروعاً لكل رؤية، ومجالاً لكل دارس، وهو كما الكلأ يشترك الناس فيه، وليس من حق أحد أن يحتكره، ولا أن يذود الناس عن مراتعه، غير أن تعامل (القصيمي) ومن عول عليه واستلهم ضغائنه من (الحداثويين) أو من (شعراء) أمعنوا في هجائه أو من (كتّاب) أمعنوا في ازدرائه، لا يعد من ذلك النوع المضيف، فهو حشد من الأحكام المناقضة للواقع، وحشد من الكلمات البذيئة الساقطة التي لا يتداولها إلا السوقة، فالعلم له آدابه، والعلماء لهم ضوابطهم، والمسألة واضحة المعالم. وليس من المزعج ولا المخيف أن يكون (المتنبي) مادة حديث مرتجل، ولكن الجرأة تجاوزت (المتنبي) إلى غيره من القضايا والأناسي، وهي قضايا تُعَدُّ من الثوابت، و(المتنبي) مظنة القول ونقيضه، لأنه خلف شعراً له وعليه، يجد فيه المادح ما يبرر مدحه، ويجد فيه القادح ما يبرر مآخذه، ولكن في حدود المعقول. ومآخذنا على الذين ينفونه من كل المشاهد، وهم كثيرون، ولقد كانت لي جلسات حديث ممتع في (صنعاء) مع لفيف من المعجبين والناقمين، وتبين لي أن (المتنبي) شاغل الناس إلى يوم الدين. ومن تتاح له قراءة ما قاله (القصيمي) ومن تطفل على نفاياته، لا يمكن أن يسلّم لأحد منهم، ولا أن يجد مبرراً لما يقولون، و(المتنبي) لم يثبت أقدامه في مشاهد الأدب إلا الخصوم، ولكنهم خصوم شرفاء، حاولوا التماس إخفاقاته، وهي كثيرة، ولم يفتروا الكذب، ولم يكتفوا بالهجاء المقذع والسب المقيت، والمثير للناقمين ذلك الشيوع والحضور، فكل متحدث عن أي قضية لا يحلو حديثه حتى يستدعي بيتاً للمتنبي، يُجْمل فيه رويته، ويُجَمِّل فيه حديثه. فهو مصدر (الإجمال) و(التجميل)، وخصوم المتنبي يغمرهم طوفانه، وإن أووا إلى جبل الكراهية، ليعصمهم من الحضور الملح والشيوع والسيرورة، وظاهرة الحضور ضاق بها ذرعاً معاصروه، حتى لقد نسوا ما هم فيه من حزن المصاب، واغتموا من شيوع شعره وورده على كل لسان.

للحديث صلة

ذيل التداعيات الدمشقية .. ! (١)

الحلقة الأخيرة

و(القصيمي) حين يتخذ من (المتنبي) سلماً موهماً نفسه أنه يَصَّعد في السماء، وهو في الحقيقة ينحدر إلى درك رؤيته في قومه، يظن كل الظن أن متطلبات الشاعرية من مبالغة وانزياح ومجاز وإيجاز وتفنن في تفتيق المعاني سنة عربية وخصوصية لا يُشاركهم فيها شعراء اللغات والحضارات الأخرى. ثم هو يزداد ارتكاساً في حمأة الرَّذيلة، حين يعتقد أن (المتنبي) ومن هم على سننه من الشعراء المغرقين في المبالغة والتملق يمثلون حضارة الأمة العربية في المواقف والالتزامات والأخلاقيات. وفات هذا الدعي أن الله وصف الشعراء بأوصاف تسقط حجته، وأنه جل وعلا استثنى آخرين غفل عنهم (القصيمي)، وتلك خليقة الممتلئين حقداً وضغينة على أمتهم، وهي حرفة المجندين لهدم الحضارات التي تملك القدرة على الصراع بندية واقتدار. ولقد نعلم أن هناك من سيعذر له، وذلك باستدعاء عشرات الأدباء والعلماء الذين شنعوا على المتنبي، وتقصوا عيوبه، وذكروا جانباً مما ذكره (القصيمي) ممن عاصروه، أو ممن جاؤوا من بعده، وإذ لا نجد بداً من الموافقة على ذلك وتصديق ما يقولون، إلا أن الفرق بين (القصيمي) ومن سبقه واسع، فـ(القصيمي) هجَّاء مقذع، ومعمم لا يستثني، ثم إنه جعل المتنبي مثلاً أعلى لأخلاقيات الأمة، كما أنه لا يعد دارساً يشتغل بالشاهد ولا ناقداً يفكك النص، وتلك السمات البينة العوار تلحقه بالمهرجين، وإذ نسلم بقدرة (القصيمي) ومبلغه من العلم فإننا نحيل موقفنا إلى هواه الذي اتخذه (إلاها).

وإذا كان (القصيمي) يحيل بحملته على (المتنبي) إلى أهداف بعيدة الغور فإن طائفة ممن ترسم خطاه من شعراء أو كتاب قد لا يحمل جلهم هذه الأهداف، ولكنهم حين قرأوا ما قاله القصيمي شدتهم حيله، واستهوتهم براعته في تقليب اللغة، ولما كانوا يحبون أن يعيشوا كما (الحوات) أو (الحكواتيين) وجدوا في العمالقة صيداً ثميناً، لا لذواتهم، ولكن لأن كل فضاءاتهم القولية والفعلية مرتع خصب للقول ونقيضه. ولربما كان (المتنبي) واحداً من أولئك الذين خاض الفضوليون في عوالمهم اللغوية والدلالية والفنية إذ يتوفر كغيره من العمالقة على فضاءات لغوية واسعة وابتكارات فنية رائعة وتشقيق بديع للمعاني، تمكن الدارسين والنقاد من التوفر على شرعية التناقض. وإذ كان (المتنبي) حاضر المشاهد الأدبية فقد يكون الاشتغال به سبيلاً للحضور، والإيغال في ذمِّه طريقاً قاصداً للشهرة، فكل قارىء أو سامع يسأل عن هذا الذي أسرف في النيل من شاعر بحجم (المتنبي). وإذا كانت طائفة تمعن في النيل منه فإن طوائف أخرى تدعي حبه، وتردد حكمه ونوادره في كل مناسبة، وذلك لعمر الله من أسرار عظمة المتنبي، وأين نحن من حكاية (الصاحب بن عباد) وشاهد (طوى الجزيرة ...).

ولا يضير (المتنبي) ما فرط من قول لا تحكمه ضوابط، ولا تحده قيم ممن خلف، وهو قد بشم من تعديات السلف ومن كيد الحاسدين، وهو قد ناشد ممدوحه بإزالة حسد الحاسدين بكبتهم، ولما لم يكبتهم سيف الدولة فقد اضطر إلى مبارحته ولما تزل سياطه تلهب كل ظهر، وتكشف عوار كل دعي:-

وإذا أتتــك مــذمتي مــن نــاقص

فهــي الشــاهدة لــي بــأني كامــل

---

(١) تاريخ المقال: ١٢/ ١٠/ ٢٠٠٤

ولو كانت ذوائق الناقمين سليمة لما كان لأحد منهم أن يعمم النيل منه، ولا أن يأخذه من أقطاره، ولو أن الناقمين تأملوا حكمه وأمثاله وتوظيفه لتجاربه وتجسيده لمواقفه لما أنحوا باللائمة عليه، ولو أنهم عرفوا الظروف العصيبة التي مر بها، والتحدي السافر الذي غالبه، والكيد الماكر الذي ناله من حساده لكانوا معه في السراء والضراء. لقد جسد معاناته، ونافح عن نفسه، ولكن الحساد اضطروه إلى الرحيل حتى قال ل(سيف الدولة):

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا

ألا تفارقهم فالراحلون هم

ولقد عايش أعداءه، وجاملهم وجسَّد معاناته معهم بقوله:-

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى

عدوًّا له ما من صداقته بد

وقوله:

واحتمال الأذى ورؤية جانبه

غذاء تضوى به الأجسام

ويكفي المتنبي أن يكون شعره تجسيداً لسيرته الذاتية، حتى لقد استأثرت مفاخره بنفسه على مدائحه و(القصيمي) الذي استحوذ على شطر من خلواتنا الدمشقية استدعى (المتنبي) لأنه من شوامخ الشعراء، وإسقاط الأمة يكون بإسقاط شوامخها.

لقد تناوله على مدى مئة صفحة، من كتابه (العرب ظاهرة صوتية) واتخذ سبيله إلى تلك اللغة الثرية بمترادفاتها، حتى لقد تقصى قاموس الشتائم، وليس بمستغرب من مثله ما يقول، وهو قد فعل مع (خالقه) ما هو أسف في كتابه (الكون يحاكم الإله)، وإذا عاب على (المتنبي) هجاءه المقذع، فقد سبقه إلى ذلك، بل أكاد أجزم بأنه بذَّ كل الهجائين المتفحشين. وتلك لعمر الله غاية العار والشنار. ولأنه مأخوذ بالإعجاب برأيه فقد رثى في مستهل حديثه ل(السوق العربية) التي ترادف في الدراسات الحديثة (المشاهد): الفكرية والسياسية والدينية والأدبية. فالداخل فيها عنده يستحق الرثاء، متى فهم أنها لا تميز الموهوبين في أي قطاع معرفي، فلكونها نبذته، وهو في نظر عينه عبقري موهوب، فإنها لا تفهم الفرق بين (النبي) و(القائد)، و(الزعيم) الصادق ونقيضه. وحين لا تفهم، فإنها لا تختار الجيد، ولا تحترم الشيء، لأنها لا تفهمه. ولأنه مكثار مهذار، فقد قلَّب القول على كل وجوهه، والقارىء الذي يحترم جهده ووقته تتنازعه رغبات متعددة: رغبة حفظ الوقت والجهد، ورغبة الوقوف على كل الخطابات الصاخبة التي شغلت المشاهد، واستهوت السذج والفارغين. وتلك معادلة صعبة. والقدر حين يلقيك على هذه المدارج، يخرج بك عن فضاء السيطرة والتحكم الذاتي، فأنت في هذه الحالة محكوم بتقلبات الأجواء، وتحولات الآراء، وتنوعات الأفكار، تعاضد، أو تخذّل، أو تتوقف، والناس من حولك لا يعذرون، لأنهم لا يعانون ما يعانيه المتابع من نزيف وقتي وجهدي، مع ما يخشاه المتقحم لهذه الأفكار على نفسه من تلوث فكري. فالدخول في عوالم المنحرفين كالدخول في البيئات الموبوءة، لا ينجو منها إلا من يملك المناعة وقليل ما هم.

و(القصيمي) حين يتوهم أنه يحكم السيطرة على هذه (السوق العربية)، ويؤكد عدم فهمها، يبدأ في طرح الأسئلة التي يتنازعها التحسر والتوبيخ على سنن البلاغيين في أنواع الاستفهام، طالباً تفسيراً منطقياً للتقديس أو للتدنيس. إذ يتساءل عن التفسير الحقيقي لتتويج

نبي أو معلم أو شاعر أو كتاب، وتحويله إلى مجد يهتف له التاريخ بكل الصراخ والجنون والنزق والغرور الوقح البليد - على حد تعبيره - وإمعاناً منه في جلد المشاهد العربية ينفي حتى احتمال التفسير، وكل استهلالاته التجريحية للمشاهد العربية مقدمة للحديث عن المتنبي. وما حديثه عنه إلا إسقاط ذاتي، فالقصيمي لم يكن مقبولاً من كل الأوساط، وإن كان قدوة سيئة للتافهين من كل الأوساط، فالذين يتسللون في العتمات لقراءة كتبه، لا يسرقون، ولكنهم يختلسون، وفرق كبير بين الاختلاس والسرقة.

فـ(المتنبي) في نظره تعظمه سوق الشعر والأدب العربي، حتى لقد أصبح قيصراً. وهنا يتساءل: لماذا؟ وبعد هذا الامتعاض والتحسر تنهمر التساؤلات عن عظمة المتنبي وشاعريته وعلى مدى صفحة أو أكثر ساق من التساؤلات ما لا يحتاج إلى مزيد .. ومن تساؤلاته المتوترة قوله: هل كان المتنبي شجاعاً أو قومياً أو إنساناً؟ هل صلب أو عذب أو طورد أو نفي أو سجن أو جاع مدافعاً عن حرية قومه وكرامته وعزتهم؟ ويمضي في تنازع مرتفع النبرة حاد العبارة مع هذه السوق التي نبذته كما سقط المتاع، واحتفت بشاعر كالمتنبي.

ودعني اقتطع لك سطرين من حملته، لتكون على بينة من أسلوبه وطرائق عرضه، يقول: (إن كلمات وصولي وانتهازي منافق متقلب متلون فضاح مفضوح بلا كرامة بلا حياء بلا مبدأ بلا ضمير بلا أخلاق إن جميع هذه الكلمات وأمثالها لا تستطيع أن تكون زياً أو وصفاً كافياً لحياة المتنبي). بهذا الأسلوب وبهذا التقصي القاموسي يكون حديثه عن المتنبي وعن غيره من الشخصيات والقضايا والأفكار. رجل حاقد، مليء بالانكسارات، يلاحقه شبح التشرد منذ أن كان طفلاً يبحث عن أبيه. وحين نمقت القصيمي، ونمقت المعذرين، فإننا ندافع عن حق أذن لنا أن ندافع عنه، فهذه حضارتنا، وهذا تراثنا، وتلك شخصياتنا، ومن لم يذد عن مثمناته فإنها تهدم وتدنس، (ومن لا يتق الشتم يشْتم) واتقاء الشتم ذو شقين:

-التعدي.

-والتوقي.

فالمتعدي على الآخرين بالشتم يعاقب بمثل ما عاقب به، والله قد نهى المؤمنين عن أن يسبوا معبودات الآخرين، خشية أن يسبوا الله عدواً بغير علم. والتوقي يعني إعداد القوة لمواجهة الآخر في الوقت المناسب، أي إعداد العدة ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾، ﴿وَلَوْ أَرَادُواْ الْخُرُوجَ لأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً﴾، ويعني اتقاء الملاعن كما في الأثر، فالذي لا يرد يد لامس، تتداعى عليه الأيدي، والذي لا يعد القوة يطمع به من لا يدفع عن نفسه، والذي يتعرض للناس يصدونه بما يخيفه، ولهذا فنحن مكرهون على التصدي، ولو تُركنا وشأننا لما كان منا أن نتحرش بأحد ولو كانت ممارسة النقد منضبطة بضوابطها الفنية والدلالية والأخلاقية لما كان في ذلك من بأس، إذ لسنا مع التسامي فوق المساءلة والنقد.

والذين يستدعون الشخصيات العلمية أو الأدبية، ثم يحاكمونها بأعراف الواقع ومسلماته، وينسون أو يتناسون الأنساق الثقافية التي عاشها أولئك العلماء والأدباء والشعراء يوغلون في الأذية. فشاعر اليوم يختلف نسقه الثقافي عن شاعر القرون الخوالي، ووظيفة الشعر في عصور الازدهار تختلف عن وظائفه في العصر الحديث، ومحاكمة المفكر أو الشاعر خارج انساقه وسياقاته تعدٍّ على ضوابط الأخلاق. والمتنبي لم يستبد بشيء، ولم يستقل بأنساقه وسياقاته، ولكنه حورب وطورد وكثر حساده، وهذا الحيف دفعه إلى التعاظم، حتى جاءت قصائد المدح عنده مغايرة لما عرف من قبل، فكان

أزهد الناس بالمقدمات الغزلية أو الطللية أو الخمرية، وأكثر الشعراء تعظيماً لنفسه، وأكثر الشعراء إعجاباً بشعره، وهذه الخصال الصارمة استعدت عليه الناس، وجعلته مشرداً يلتمس الأمان حتى قتل بسبب شعره، ولو أن القصيمي فكك شعره، والتمس عيوبه: اللغوية والفنية والدلالية، ونظر إليه من خلال عوالمه، لكان ما قال فيه إضافة لها وزنها، غير أنه لم يفعل، وتلك خليقة فيه، لا يعرفها إلا الذين يأخذونه من أقطاره، ولقد تلبس بهذه الأخلاق من لا خلاق له، فكان القصيمي قدوة سيئة لمن سلك طريقه، وما كنا معاتبين لناقد حتى يتحول بغثائيته إلى حاسد لمن آتاهم الله من فضله.

لم تنته اللعبة يا دوري .. ! [(١)]

الأستاذ الدكتور (محمد الدوري) المندوب الدائم لحكومة (صدام حسين) لدى الأمم المتحدة (دشن) كتابه (اللعبة انتهت) متعجلاً إصداره في ست وثمانين ومئتي صفحة. محاولاً فيه عقلنة الحديث وتقنينه، تمشياً مع تخصصه وأستاذيته للقانون الدولي في (جامعة بغداد)، قبل أن يلتقطه حزب القبيلة، ليكون لسان حالها ومقالها في أروقة الأمم معذراً ومبرراً خطيئاتها. وأحاديثه المتلفزة بين الحين والآخر، وبخاصة ما قدمته إحدى القنوات على مدى عدة حلقات، تستمرئ أخلاف الواقعية الحذرة، وتتقي لعنة التاريخ، وتفيض تحسراً ومرارة بعد فوات الأوان. ولا أحسبه الأول الذي حاول النفاذ بجلده من سبة الدهر، ولن يكون الأخير، ذلك أن فصائل الانقلابات يتقاذفون كرة الخطيئة، كي لا تستقر في شباك أحدهم، لأنها متى استقرت تشرذم الفريق بين قتيل وسجين ومشرد. ولقد كنت مغرماً بمتابعة اللقاءات الموسعة مع عراقي الشتات وفلول الانقلابات، ممن أفلتوا من قبضة النظام، أو اختطاف المحتل، وكانوا من قبل من آلية النظام التي طحنت كل شيء أتت عليه: يقتلون، ويسجنون، وينفذون أقسى العمليات بمبادرة منهم، أو بأمر من الحاكم المتسلط. وما من أحد منهم اعترف بجنايته على أمته وجيرانه، وطلب من المعذبين في الأرض الصفح والمغفرة، والتنصل سجية محترفي السياسة، يقتلون البريء، ثم يمشون في جنازته، ويحضرون مأتمه، ويتقبلون أحرَّ التعازي بفقده.

وإذا لم يكن الهدف من قولنا الشماتة، ولا حز الرقاب، فإننا نود أن تقال الحقائق، وأن يتوقف نزيف الكذب والإسقاط وتبادل الاتهامات، وأن يتحمل المقترفون ما اقترفوا، وأن يطلبوا من شعوبهم الصفح، وأن يعظوا الممسكين بأزمة الأمور، فما عادت الأكاذيب قادرة على طمس الحقائق، وما عادت الشعوب قادرة على احتمال مزيد من العذابات. والذين لطخوا أيديهم، ودنسوا سمعتهم، ثم نجوا بجلودهم، وما زالوا يبتغون الفتنة من بعد، ويقلبون للمتابعين الأمور، لا يليق بمثلهم مواصلة الأكاذيب والمغالطات، ولا يحق لهم أن يبرروا مقترفات الأنظمة الظالمة، ولا أن يبرئوهم من الجرائم الوحشية، ولا أن يشرعنوا لغطرسة المحتل. لا مراء في أن إسقاط النظام المنيخ بكلكله على صدور المواطنين فرج بعد شدة، ولا مراء في أن حضور المحتل بخيله ورجله أذية غير محتملة وسبة دهر لا يزيلها إلا رحيله غير مأسوف عليه، ذلك أن الاحتلال - أي احتلال - لا مسوغ لتبرير وجوده. وما يعانيه الشعب العراقي اليوم إن هو إلا حصائد ما زرعته أيدي النظام البائد. وهل عاقل يرضى بما يلاقيه الإنسان العراقي من قتل همجي وإذلال مهين؟ وهل أحد يتوقع لعراق الحضارة والأمجاد عوداً حميداً في عاجل الأيام؟ لقد اقترف أزلام النظام البائد أبشع الجرائم: تقتيلاً وتنكيلاً، ولما يزل الشعب المغلوب على أمره، يتخبط في حمامات الدم، وتلك مرحلة ليست بأحسن حالاً مما كان عليها من قبل. ومع هذا يطلع علينا المرجفون القنواتيون بين الفينة والأخرى بمقترفين، يبرئون أنفسهم، ويزكون أعمالهم، ويعذرون للمعتدين، ولا يضعون أصابعهم على مكمن الداء. فسقوط أي نظام مهما كان سيئاً مؤذن بفساد كبير، يؤدي إلى فراغ دستوري، ويستدعي تدخلاً عسكرياً، يحول دون استشراء حروب أهلية. وصدق القائل: (إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن). و (الدوري) الذي أفضى ببعض ما لديه، تطوع الصحفي اللبناني (جورج فرشخ) بتجميع الكتاب من اللقاءات المتلفزة من قبل ومن بعد، مع شيء من الإضافات والتشذيبات الملائمة للتحولات المفاجئة.

---

(١) تاريخ المقال: ١٩/ ١٠/ ٢٠٠٤

وليس المؤلم إنكار المقترف خطيئته، ولكن المؤلم أن يساير المقولة من دون قائلها في الفقه السياسي، ممن يتقحمون أتون المشاهد السياسية دون أهلية، ثم يقطعون مع القائلين: بأن اللعبة الكونية قد انتهت. ولو أن الفضوليين المجازفين لا يضلون إلا أنفسهم لهان الأمر، ومع ذلك فلسنا نتهم القائلين ولا المتلقين بالخيانة العظمى، فلربما يكون مبلغهم من العلم ما توصلوا إليه من مثل هذه النتائج.

وكل ما نريده الكف عن تضليل (الرأي العام). وإذا كان البعض يرى أن اللعبة قد انتهت، ثم لم يتبع قوله توقعات لما سيكون، فإن آخرين سايروه بنهاية اللعبة، ولكنهم جعلوا النهاية بداية للمأساة.

واحتلال العراق من قبل قوات شقت عصى الطاعة، وفسقت عن أمر المؤسسات الدولية، التي أريد لها صد الظلم وإقامة العدل، وكف أيدي الناس الأقوياء عن الاعتداء السافر، وحفظ حقوق المستضعفين في الأرض، يعد ذلك أو بعضه بداية لعبة جديدة تسكر العقلاء وتذهل المرضعات، فهي مع آثارها السيئة ستكون مغرية للمتمردين لممارسة احتلال عسكري، يسلب الحق، ويشيع لغة القوة والغطرسة. وهذا التعدي يفوق ما تركته اللعب القاصمة في (حروب الخليج) كلها. وقضاء الأمة العربية أنها تخرج من لعبة مصمية، لتدخل في لعبة أدهى وأمر. وما الحروب والانقلابات والنزاعات والتصفيات إلا لعب يأخذ بعضها برقاب بعض، والشعوب المهمشة تدفع (فاتورة) الحساب من قوتها وأمنها وحليب أطفالها، بحيث لا تجد من يطعمها من جوع، ولا من يؤمنها من خوف. ومن ثم تصبح وقود الصدامات: العسكرية والفكرية. وليست اللعبة وقفاً على إسالة الدماء، وإنما هي في إسالة الأحبار أيضاً، وما الأحبار إلا قطرات تحيي موات الفتن، وتنبت أفتك الأسلحة، مع أن مراد النفوس أهون من التعادي والتفاني - كما يقول المتنبي -. وكم من لاعب بلاغي أودى قلمه بحياة الآلاف من الأبرياء. والأصنام لا يحكم صنعها إلا الإعلام المتواطئ، والأقلام المرتزقة، وأنكر الأصوات. وهل أحد يجهل مقترفات الكتاب الذين كذبوا على أمتهم، وأضلوها سواء السبيل؟ وهل يستطيع مغتصب أن يبني أوهامه إلا عن طريق الأقلام التي تستمرئ الكذب؟. والضالعون في التبرير والتعذير والترويض فئام من جهلة، أو متسرعين، أو مواطئين، والله وحده العالم ببواطن الأمور.

وإذا كان (الدوري) الرجل الضالع في اللعبة قد روى ل(جورج فرشخ) عن نهايتها فإن (هشام عليوان) ألف كتاباً مماثلاً، وكم هو الفرق بين لاعب في المسرح السياسي ولاعب في المسرح الإعلامي، وإن كان لكل حقه من الخير أو الشر. وبين الكتابين تباين واضح، فالأول يحاول تخفيف حدة الغضب على النظام البائد بالتأكيد على خيانة السقوط، وإن كان يدينه في كثير من المواقف، فيما يأتي الكتاب الثاني راصداً للتحولات والمصائر، موغلاً في الإدانة وتضخيم الأحداث تبعاً لما وقف عليه من فيوض الإعلام. الكتاب الأول تحت عنوان (انتهت اللعبة)، والثاني تحت عنوان (نهاية اللعبة) ولم يكن الحديث عن اللعب السياسية جديداً، فلقد سبق أولئك شرقيون وغربيون، كتبوا عن لعب كونية وأخرى إقليمية، فجاء بعضهم مدلساً، فيما جاء البعض الآخر سافر الكذب، وقليل منهم من أسر النجوى في قول الحق.

وكان قدري أنني فتحت عيني، وعقلت أمري على أحداث دامية وأقلام راعفة، تصف الانقلابات بالثورة، وليس ما يحدث في الوطن العربي، حقيقاً بأن يوصف بالثورية، وإنما هو انقلاب عسكري، يتراوح بين الدموية وحمامات الدماء، وقل أن يكون انقلاباً أبيض، لا يشوبه عنف، ولا يدنسه ظلم. والفرق بين (الثورة) و (الانقلاب) أن (الثورة) إحداث نظام، و (الانقلاب) اختلاف حكام. بمعنى أن الثورة رؤية و (أيديولوجية) وشرعة ومنهاج، فيما يكون الانقلاب تنازعاً على التسلط لا على السلطة، يكون فيها

الشعب ومثمنات الوطن غنيمة. والمتحدثون عن اللعب السياسية من أربابها الذين فرغوا من أداء دورهم الغبي، قد يصدقون، لأنهم يفيضون بما لديهم، وفي حسابهم من يرصد لهم من مؤسسات وأناسي، ولقد بدأ وعيي السياسي مع كتاب (لعبة الأمم) ل (بوكلاند) فكان أن رسخ في نفسي أن كل شيء قابل لممارسة اللعب، وأن لكل لعبة قانونها المعرفي والإجرائي، ومن لم يتقن قانون اللعبة لا يحسن التمييز بين ما هو عمل ظاهره كباطنه، وما هو غير ذلك، وليس أضر على (الرأي العام) من الخلط بين الأحداث المختلفة الأسباب والدوافع، أو الخلط بين الظواهر والوقوعات.

استهل (الدوري) كتابه بمقدمة في اثنتي عشرة صفحة، تبدت فيها أنات المذنبين وحرقة المفلسين وتبرير المخطئين، وما كنت لأفسد الحديث بسوء الظن، ولن أستبق الحكم قبل قراءة الفصول التي جاءت على شكل إجابات على أسئلة (الدوري) بحيث جاء الفصل الأول إجابة على التساؤل عن كيفية استعداد اللاعبين. و (الدوري) أطلق كلمة (انتهت اللعبة) أو (اللعبة انتهت) في التاسع من أبريل عام ٢٠٠٣م، وهو قد تعمد تخفيف حدة الدعوى، بحيث وصف النهاية بأنها تعني (انتهاء المسرحية التي استمر عرضها سنوات طويلة على مسرح الأمم المتحدة). ولست هنا معنياً بالربط بين مسرحي: الواقع الذي يقوده (صدام) والمرافعات في هيئة الأمم المتحدة التي يقودها (الدوري)، وكون أحدهما يجهز للآخر، ويدفع إليه. فاللسان والسيف كلاهما صارمان، وقد لا يبلغ السيف مبلغ اللسان، وكل الذي أوده التأكيد على أن اللعبة شبكة من الحركات والفصول، تختلط فيها الحروب الباردة والساخنة. وعند إطلاق كلمة (اللعبة) يكون هناك نسيج قوي التماسك دقيق التداخل متعدد الفصول متنوع الشخصيات. فاللعبة رواية مطلقة، وليست أقصوصة مقيدة ببطلها وزمانها ومكانها. إن هناك عدداً من اللاعبين الأذكياء والأغبياء والظاهرين و (اللوبيين)، وإذا تكتم (الدوري) على بعضهم أو على بعض الأدوار فإن قراء السياسة يعرفونهم بسيماهم. وقدر الشعب العراقي والأمة العربية والإسلامية من ورائه أن اللعب كالظلمات المتراكمة بعضها فوق بعض، فها نحن نسمع ب (الصدر) ونراه، ونسمع ب(الزرقاوي) ولا نراه، وما الحرب إلا ناتج لعبة أو بداية لعبة.

لقد جاءت أحاديث (الدوري) في الوقت الضائع محاولاً ارتهانها في الوسطية، متحامياً القطعيات والحديات، متيحاً فرصة الاحتمالات ورياضة الفكر، والقارئ بهذه التعمية المتعمدة يلتاث عليه الأمر، فلا يحسم امراً في الشأن العراقي. والمذكرات والذكريات واليوميات والسير الذاتية السياسية، يمارس أصحابها لعبة التطهير والتدنيس في آن: تطهير الذات، وتدنيس الآخر. فيما يأتي حديث (الدوري) محاولاً المخادعة بالحيادية. والحيادية التي حاول التمويه بها لم تخلصه من شوائب الانفعال والافتعال، ولهذا حول كل الأفعال إلى مفردات في متن اللعبة الكونية. ولأن السياسة هي (النص) الحقيقي الذي يشتمل على ظاهر وباطن، وقد يتسم الظاهر بالرحمة والباطن بالعذاب، فإنه لا يحق الحق في مثل هذا اللبس إلا أن نفقه قواعد اللعبة، فهي التي توفر القدرة على قراءة الحدث السياسي وفق توجيه القواعد، متى استمدت كينونتها من المنطقية والعلمية.

والذين يعوِّلون على وسائل الإعلام في تفكيك الحدث السياسي، لا يتجاوزون ظاهر الرحمة، وبذلك يهيئون أنفسهم لباطن العذاب.

وليس أضر على الأمة من نمطية القراءة والتسليم لمقولة اللاعب الذي ربط القول بالفعل. وكل لعبة يؤرخها قوم، ويصفها آخرون، وتحللها فئة، وتقومها فئة أخرى. وإذا لم يتوفر المتعاطون معها على فقه الأحداث وقواعد الفعل وآليات التفكيك ومناهج التحرك فإن احتمالات التضليل أقوى من احتمالات التنوير، ولقد أشرت إلى المعولين على وسائل الإعلام ومثقفي السماع. والإشكالية أنهم الأكثر حضوراً والأندى صوتاً، وفيهم ومنهم

تتشكل الرؤى والتصورات، وناتج ذلك أن الأمة لما تزل في مرحلة التيه، ولن ينجيها من عذابات اللعب وتتابعها ونمطيتها إلا أن تقوي إيمانها بأن الأحداث لا تقرأ وفق رغبة الصانع للحدث أو منفذه، وما أحوج القراء إلى (موت المؤلف) ليخلوا للمتلقي وجه الحدث.

والكتابان (انتهت اللعبة) و (نهاية اللعبة) يقعان تحت طائلة تلاحق الأحداث التي قد تصنع نفسها، إذ لم تكن كلها ناتج إعداد مسبق، ومن ثم فقد يكون للأحداث المفاجئة دورها في نهاية دور الكتابين. (هشام عليوان) مؤلف كتاب (انتهت اللعبة) متابع للأحداث من الخارج، وراصد لها بالحرف والصوت والصورة، وهو قارئ للحدث من الخارج، فيما يكون مؤلف (نهاية اللعبة) (محمد الدوري) من منفذي الحدث غير أنه يتحامى قول الحقيقة عارية من لغة السياسة المراوغة. وإذ يجزم (عليوان) بأن لعبة جديدة قد بدأت، يقطع (الدوري) بأن اللعبة الكبرى قد انتهت، وأن ما يليها حصادها.

فالمتغيرات في نظر البعض نتائج، وليست لعباً جديدة، والإشكالية أن بعض قراء الكف السياسي يرون الفصل بين لعبة وأخرى، وأن كل لعبة لها ذيولها ونتائجها التي تستأثر بالمشهد السياسي، فيما يذهب آخرون إلى أنه لا مجال للفراغ، فاللعب كحلقات السلسلة، والنتائج لا تحول بين اللعبة وتاليتها. ويبدو لي أن (الدوري) يقول بنهاية اللاعبين، وليس معنياً بما يليهم، إذ ليس شرطاً أن يتلقف فريق اللعبة المنتهية راية اللعبة اللاحقة، ومن ثم فإن اللعبة بالنسبة له منتهية لأنه يربطها باللاعبين. وعلى كل الأحوال فإن (الدوري) لا يكشف المخبأ، ولا يستحضر الغائب، ولكنه يكشف عن نفسه، ويستحضر دوره، وهو كشف واستدعاء يلتحفان رداء التطهير الذاتي.

كل الذي نوده، ونحن نرثي لأحوال اللاعبين المنبوذين ك (الدوري) أن يكفوا عن ترميم السمعة المدنسة، وأن يدعوا للتاريخ فرصة ملاحقة (الأحداث، ليدونها بصدق وأمانة، وإذ لا يقدر العالم العربي ونخبه المتشرذمة على درء الضرر، فلا أقل من أن يتعظ الجميع بما يجري، بحيث لا تكون الأمة ونخبها كمن عُمِّيت عليهم الأمور، فصاروا وليمة مرتقبة لأكلة نهمين. فهل نتعظ بالآخر. أم نتعظ بأنفسنا، أم لا نتعظ بشيء، ونكون كالسائمة ترقب فراغ الجزار؟.

لماذا المساس بالعلماء والتشكيك بالثوابت .. ؟! (١) [(١)]

ما من عصر أو مصر إلا ويخلو فيهما من يربك المسيرة، ويصدِّع التلاحم، ويضع الأمة على مفترق الطرق، حتى لا تدري أين المفر.

وما تفرقت الأمة إلا من بعد ما جاءتها قوافل المستغربين، تحمل رايات التزهيد بتراث الأمة، والتشكيك بقطعيات الدلالة والثبوت، وحتى التاث أمرها بأنصاف المتعلمين، ممن احتلوا وسائل الإعلام للقول في سائر الشؤون، فكان أن ضيق عليها المتنطعون، حتى التقت أضلاعها، ووسع لها المتعلمنون، حتى فقدت ضوابطها، وأضلها الجاهلون حتى حارت بعد الكور. وضاع الوسطيون في ضجة الإفراط والتفريط، ولقد ظاهرت دعاة الاستغراب موجات الغزو والتآمر المتدفقة من كل حدب وصوب، مؤدية دورها المرسوم وتدبيرها المحكم. ومما صعد الإشكاليات فهم الأشياء على غير وجهها وذهاب كل مفكر بما يرى، دون بصر أو بصيرة. واشتغال غير أولي التخصص والتأصيل المعرفي بما سلف من علم شرعي أو بما خلا من علماء أجلاء، أقيمت على جهودهم حضارة أمة، قبست منها كل الحضارات. والحائمون حول الحمى: إما جهلة يفتقرون إلى معلمين، أو ضالون يتطلبون مرشدين، أو مواطئون يحتاجون إلى محذرين أو إلى متعقبين، يتجاوزون لحن القول إلى ما تخفي الصدور.

ومما يعكر صفو الحيوات الفكرية والحضارية، ويذكي أوار الارتياب والشك ما يتعمده ذوو القامات القصيرة والمحصول السمعي المضطرب من استدعاء غير مبرر لأساطين الفكر وجهابذة العلم، ممن جددوا لهذه الأمة أمر دينها، وتعاملوا مع النوازل بعلم غزير، وفقه دقيق وإلمام بمتطلبات المرحلة التي عاشوها بكل ظروفها وملابساتها، وخلوا بما كسبوا واكتسبوا.

واستدعاء العلماء الأفذاذ، لا يكون بابتسار مفردة من مفرداتهم التي خالفوا بها الإجماع، وأجمع خلفهم على انفرادهم بها، وكانت في النهاية من خطأ الاجتهاد، الذي لا ينفك منه عالم نذر نفسه لمواجهة النوازل وعالم أتقن العلوم وأصولها ونازل أساطين الملل والنحل، وفند أقوالهم، لا تسقطه مخالفة في الفروع، فلكل مجتهد مطلق أو مقيد، ولكل مذهب يحيل إلى الأصول والقواعد الخاصة به مفردات لا يعضدها إجماع، ولكنها تظل شاهداً على الحراك السليم للاجتهاد المشروع. وكيف نتأفف من خطأ الاجتهاد، والصحابة رد بعضهم على بعض، وخالف بعضهم بعضاً.

وكم كنت أتمنى من أولئك المغرمين بإيقاظ النوم، وإزعاج الآمنين، أن يدعوا من ودعهم من سلف الأمة، ممن لم تكن لهم مواقف أو آراء تناقض ما علم من الدين بالضرورة، وإن كان ثمة فضلة من جهد أو وقت، فإن عليهم إنفاقها في البحث عن منقذ للأمة، مما هي فيه من تخل عما يحييها، وتقاصر متعمد عما في أيدي الناس من مهارات، وما في أدمغتهم من معلومات عن ظاهر الحياة الدنيا. وعلماء السلف الذين يستمرئ الجهلة المغامرون النيل منهم، لا يمنعون من علم، ولا يحولون دون اجتهاد، ولا يضيقون واسعاً، ولا يدعون إلى رهبانية، ولا يحبذون انكفاء على الذات، ولا يصدون عن إعداد أي قوة: حسية كانت أو معنوية. وإذا كان قدرهم قد ألقاهم في آتون الفتن، وجاء بهم في زمن التداعي على الأمة، مما شغلهم بالتصدي والتحدي والصمود، فإن ذلك لا يعني عنفهم ولا صلفهم، وإنما يعني الدفاع عن بيضة الإسلام وحوزة الأمة، وأين الناقمون من حملات الصليبيين، وعنف التتار وجور المقتسمين لتركة الرجل المريض التي تمخضت

---

(١) تاريخ المقال: ٢٦/ ١٠/ ٢٠٠٤

عنها اتفاقية (سايكس بيكو)؟ .. وأين هم من غطرسة القوة ووحشية المحتل؟ فأي فترة من فترات الإسلام فعل فيها الحكام والعلماء ما يفعل بالمسلمين القابعين في ديارهم؟ .. والناقمون على علماء الأمة تمتد نقمتهم إلى تراثها، وكان عليهم إذا اتجهوا صوب الموروث العلمي أو الفكري أو الأدبي أو إلى أحد من رجالات هذه المعارف أن يكون ذلك لاستيعابه أولاً، وفهم أنساقه وسياقاته وظروف تشكله، ثم استصحاب ما تقوم الحاجة إليه، وما لا يتحقق الوجود الكريم إلا به. فما من حضارة إلا ولها كتابها المنزل، وشرعها المستنبط، ومنهجها المحكم، وحملة تلك الأمانة. وليس منتمياً من لا يتمثل الثوابت، ويظهر الدين: سلوكاً وشعائر ومنهج حياة. وبخاصة أن الدين الإسلامي: شرعة ومنهاج وشمول. ولن تأخذ الحضارة الإسلامية حقها المشروع حتى تكون بادية للعيان: بشعائرها ومشاعرها وأوامرها ونواهيها وأنظمتها ورؤيتها للكون والإنسان والحياة.

وليس بمسلم من يؤمن ببعض الكتاب، ويكفر ببعض وإذا استحر الهجوم على الإسلام ومؤسساته وعلمائه من الإعلام الغربي، فالواجب أن نكون ردءاً له، ندفع بالتي هي أحسن، ومتى استقاموا لنا استقمنا لهم، وابتدرنا الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، فلا نشايع معتدياً، ولا نسكت على باطل، ولا نقع تحت طائلة الانفعال والافتعال، نصدق القول الجائر، ونقبل الدنية في الدين. وإذا فهم المتنطعون والمتطرفون قضايا الدين على غير وجهها فإن ذلك لا يحمل الوسطيين والميسِّرين على إسقاطها أو الامتعاض منها، فـ(التكفير) و(الولاء) و(البراء) و(الردة) و(الجهاد) قضايا إسلامية، يعد المساس بها كالفهم الخاطئ لها.

وإذا كان قدرنا - وهو قدر حميد - أن ولدنا على الفطرة، وأن آباءنا أسلمونا، مثلما هود غيرنا أبناءه أو نصروهم، فواجبنا أن نكون كما أراد الله لنا متمثلين للإسلام، كما أراده الله، محتملين تبعاته في المنشط والمكره، مقتفين أثر السلف الصالح في تقدير الأشياء قدرها، كافين عن الخوض بما لا نعلم، عافين عن أعراض العلماء، فالعلم قبل القول والعمل. ووسط ضجة المتعالمين والمتعالقين مع الآخر لابد من احترام التخصص، والتضلع من العلم، والتزود بالخبرة، والتعامل مع المستجد وفق المقاصد والمقتضيات الإسلامية، وعلى ضوء المناهج والأصول والقواعد إذ ما كان بمقدور سلفنا إنجاز تلك المعارف والفنون، لولا ما توفروا عليه من علم غزير، وفهم دقيق، وخبرة واسعة، ومنهج واضح، وآلية مرنة، ومعرفة كل شيء عن مجال الاجتهاد وآليته ومنهجه. والمؤذي أن طائفة من الأحداث استدبروا النوازل، وأنشبوا أظفارهم بما كفوا مؤونته من كليات ناضجة، وبما خلا من علماء أفذاذ.

وهذا التحرش بالثوابت وبالعلماء أخلى الثغور لمن مالوا على الأمة بأفتك الأسلحة، وأحد الألسنة، فأهلكوا الحرث والنسل، وأيقظوا الفتن، وفرقوا الشمل. وكلما نهض الغيورون لفك الاشتباك، وإيقاف التدهور، وصفوا بضيق العطن، واتهموا بالحد من الحرية. وما علموا أنه من حق كل مقتدر مساءلة أي مشتغل بحيازات الأمة، فكان منه الإفراط أو التفريط وليس هناك ما يمنع من تلقي التراث، وقراءته بعيون العصر وإرادته، ولكن دون تنقص أو إسقاط. ولن تكون القراءة لحضارة الذات سليمة، ما لم يتزود القارئ بالمعرفة والخبرة والصدق والتقوى، ولن تستوي الحضارة ما لم تتزود بما ينقصها من حضارات الغير، مما لا يتعارض مع المقاصد والمقتضيات.

والصفقات الخاسرة في اشتغال الخلي بالتشكيك في بناة الحضارة، من علماء متمكنين، ومفكرين مقتدرين، ومصلحين ورعين. وهو بعد لم يسد المكان الذي سده أولئك، ممن أصبحوا مجالاً للاتهام والتجريح والسخرية والاستهزاء.

ولو أن علماء السلف الذين شيدوا صرح هذه الحضارة، كان ما تركوه من تراث عقبة في طريق التحضر والتمدن، لباركنا لهؤلاء مساسهم بهم.

ولو كانت المراجعة لموطن خلاف معتبر، ما كان منا امتعاض، ولا تذمر، ولا ارتياب. ولو أن أخذ العالم بالمسألة على رأي يترتب عليه اضطراب في المفاهيم، لكان لزاماً على من خلف تدارك ما سلف. ولو أن مقاصد المراجعة لرأب الصدع وإعادة الوفاق بين أطياف المذاهب، لكان مثل ذلك داخلاً في إصلاح ذات البين، وتنقية الدين مما علق به من دواعي الفرقة والتنازع.

ولو أن المراجعة تمت دون المساس بأهلية العالم أو التشكيك بقدرته أو الطعن في أمانته، لكان ذلك داخلاً في الاختلاف المشروع.

ولو كانت المراجعة لتخليص الأمة من حرج، أوقعها فيه العالم، لكان في ذلك تفريج لكربة الأمة، وتيسير عليها. وما خُيّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما، والله يريد بعباده اليسر ولا يريد بهم العسر.

ولو كانت المراجعة من عالم متخصص، يشتغل في مجاله، ويستكمل رؤيته، وفق النوازل والمعاصرة، لما كان في ذلك محذور، فباب الاجتهاد مفتوح. لكن الأمر غير ذلك كله، وكل الذين يتجرؤون على علماء الأمة ما هم منهم، لا في علمهم، ولا في ورعهم، ولا في حملهم لهم الدين والدنيا، ولا في صدعهم بالحق. وما تلك الزوبعة إلا من اللغط الإعلامي الذي يسد فيه الكاتب أو المتحدث فراغاً، أو يكسب فيه شهرة، أو يحصل به على ثمن بخس من لعاعات الدنيا.

وقراءة التراث قراءة مريبة، تقاطر عليها مستشرقون ومستغربون، كانوا خليطاً من متمكنين ومتسطحين، وباحثين عن الحق، ومضلين عنه. وتعشق الحديث عن المسكوت عنه عفة أو تفويضاً مؤذن بفساد كبير، وقد يكون المسكوت عنه من المتشابه، والراسخون في العلم لا يزيدون على الإيمان أو التفويض. والمريب أننا لا ننفك من طلعات موجعة، تشكك في اليقينيات والثوابت، وتستدعي المتشابه والمسكوت عنه، وتقدح بثقات أجمعت الأمة على عدالتهم وأهليتهم. وكيف تسلم الأمة عبر حقبها التاريخية لمتكلم، أو محدث، أو فقيه، أو مصلح. ثم يأتي نكرة لجوج يخرج على الإجماع، فيطعن في الأمانة، أو يقلل من المعرفة، أو يصف بالسفاهة.

والمتابع لفيوض الإعلام، ينتابه الخوف مما يعتري قضايا الأمة ورجالاتها من سهام أبنائها. ومصميات الأمة أن كل انتهاك لقطعيات أو تجريح لعلماء يسوغه المنتهكون بدعوى الحرية وحق الاجتهاد، وتلك شنشنة لا ننفك نسمعها من كل أفاك أثيم.

وإذا كان تراثنا مليئاً بالقول والقول المناقض فإن بإمكاننا أن نتخول الزمن المواتي والأسلوب المحكم، فالوضع المعاش مثقل بكل العوائق. وإذا استطاعت الأمة احتمال المواجهة فإن علينا أن نستعرض مفردات الحضارة على مهل، ثم نأخذ بأحسن النتائج فليس كل ما خلفه علماؤنا مما تقوم الحاجة إليه، وليست العصمة لأحد غير الرسل، فكل عالم راد ومردود عليه، ولكن المواجهة مركب صعب، لا يؤتاها إلا الأفذاذ، وليس من الاقتداء السليم أن نأخذ كل ما توصلوا إليه بحذافيره، ولا أن نتمثله كما لو كنا معهم في زمانهم. وكيف يتأتى ذلك و(عمر بن الخطاب) قد استحضر تغير الزمان، وأكد على أن أبناء معاصريه خلقوا لزمان غير زمانهم، و(الشافعي) قد استحضر تغير المكان، فكان له مذهبه القديم والجديد، وما تحفظنا إلا على ما نراه من نسف للتراث، وإدانة للعلماء، أما أن نعيد قراءة التراث بعيون العصر وإمكانيات الحاضر، فذلك عين الصواب، غير أن ما نسمعه، وما نراه، يختلف عن ذلك كل الاختلاف. وكيف يحتمل (الرأي العام) من يتكئ على أريكته باسترخاء، ثم يصدر أحكامه بكل برودة أعصاب وسوء قصد، فيحكم بكفر

عالم أجمعت الأمة على جلال قدره، وحفل التاريخ ببطولاته، وماذا يضيف منكر القول إلى أمة مثخنة الجراح مهيضة الجناح.
ومتى كثر لغط المبتدئين، وتعالى صخب المتعصبين، فإن من حق الشركاء في السفينة الأخذ على يد السفهاء والمجازفين، الذين يهزون الثوابت والمسلمات، ويشككون لذاتهم في يقينيات الأمة. والأدهى والأمر أن ذلك كله يتم دونما حاجة قائمة، وفي ظل ظروف غير ملائمة. فالأمة متوترة، والأعداء متحفزون، والقول في حق العلماء لا يحل إشكالاً، ولا يزيل عقبة، ولا يؤلف قلوباً، ولا يقيل عثرة، وما أتيت الأمة إلا من جهلة يتعالمون بقول معار أو معاد، وكل ما يقال لا يعدو كونه اجتراراً لما فرغ منه المستشرقون والمستغربون والمتعصبون لمذاهبهم وما تلقفه المستشرقون، وبنوا من ذراته قباباً، لا ينخدع به إلا الفارغون من المعرفة أو الغافلون عن مكائد الأعداء. والمتعقب للطرح المستفز، لا يجد فيه إلا طبيخاً مغباً أعيد تسخينه. فما ترك المستشرقون والظلاميون قولاً لقائل، لقد قالوا عن الله وفي الله ما يتعالى الله عنه علواً كبيراً، وقالوا عن رسوله، وعن مصدري التشريع، وعن سلف الأمة ما لا تحتمله الجبال الراسيات. وما أضر بالمسيرة الفكرية للأمة إلا الذين تصوروا أن كل قول يقال يمتلك الشرعية، وتحميه حرية القول، وإلا الذين لا يقرؤون أطروحات العصر وتقلباته الفكرية، وإلا الذين لا يفقهون المتغيرات، ولا يحسبون للواقع حسابه. إذ ما يقال في زمن القوة والتماسك لا تحتمله الأمة في زمن الضعف والتهالك. وأحوال الأمم كأحوال الأجسام، تتعرض للأمراض، ثم لا تقدر على الحركة ولا على الاحتمال، ومن عرض الجسم المريض لما لا يقدر على احتماله، فقد حمله ما لا طاقة له به. والله سبحانه وتعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها. وهل من عاقل رفيق يرى أن أمته بوضعها الحالي قادرة على الإمعان في بلبلة فكرها وإثارة شكوكها بآراء وتصورات ومواقف ليست من متطلبات المرحلة؟ وإذ نؤمن بأن بعض العلماء قد يتعرضون لإشكالية الخلط بين الثوابت والمتغيرات، وقد لا تدق رؤيتهم، بحيث لا يفرقون بين الشرائع والأعراف والسوائد والمسلمات فإن معالجة تلك الإشكاليات لا تكون بالنيل منهم والسخرية بهم، وإسقاط عدالتهم، والتشكيك بأمانتهم، وإنما هي بإرشاد ضالهم، وتعليم جاهلهم، والتماس العذر لمخطئهم، ذلك أنهم اجتهدوا ما وسعهم الاجتهاد، وحين لم يحالف بعضهم الصواب فإن من واجبنا أن نستدرك إخفاقاتهم، مع الترحم عليهم، والاستغفار لهم، وحسن الظن بهم، وعدم الجزم بصواب ما نرى وخطأ ما يرون. فقضايا الاجتهاد مجال للأخذ والرد، ومن خلط بين اليقين والاحتمال، وقع في تأليه الهوى. وليس من الحصافة أن نتبع سنن الأعداء، ولا أن نسلم لكل دعاويهم. لقد نالوا من مرجعيات الأمة: الكتاب والسنة، وطعنوا في حملة الرسالة وورثة الأنبياء، وكرسوا الطائفية والمذهبية، وعززوا جانب التعصب، وباركوا تنازع العلماء، ونقبوا في تراث الأمة بحثاً عن المتشابه، وكل من في قلبه زيغ يتبع ما تشابه منه. ولقد تلقت طائفة من أبناء هذه الأمة راية الطعن والتشكيك، واستمرؤوا الخوض في آيات الله بغير علم، واستحلوا تجريح علماء الأمة، وأحلوا قومهم دار البوار، فكان أن هددت حصون الأمة من الداخل.

لماذا المساس بالعلماء والتشكيك في الثوابت .. ؟! (٢)[(١)]

ومعاذ الله أن نكون من المرجفين، فنتقول على غيرنا كل الأقاويل، أو أن نكون وجلين لا نحتمل النقد ولا المساءلة، أو أن نكون مسكونين بالأثرة، مقترفين لجريرة الإقصاء، لنستأثر بالمواقف كلها، بدافع التعصب المُعمي والمصمي، حتى لا نقدر على رؤية حق، ولا نتمكن من سماع رأي، وما احتدمت مشاعرنا، وما توترت أعصابنا إلا من بعد ما رأينا خلال الرماد وميض نار. فالمتابع للإعلام المقروء والمسموع والمرئي، والداخل على مراكز المعلومات، تخيفه الجرأة الوقحة على علماء الأمة ورواد الإصلاح وقادة الفكر، من مختلف المذاهب، ممن شهد لهم القائمون بالقسط من علماء معاصرين لهم أو تابعين لهم بإحسان. وإحالة التعديات السافرة على حرية التفكير، وحق التعبير، وحتمية التنوير خطأ في فهم الحرية ومقتضى التنوير، فالحرية لا تكون إلا بضوابطها، والتنوير لا يكون إلا في تجديد الدين. أما الأخذ بالمكتشفات والمخترعات وإعداد القوة الحسية والمعنوية والاستفادة من تجارب الأمم وطرائقها فإنما هو استجابة متأخرة لأمر الله وأمر رسوله، وفريضة غائبة بسبب سوء الفهم لمقاصد الإسلام، كما أن الحرية المنضبطة لا تعني إطلاق اليد واللسان فيما يعن، ولو أخذ المتحدثون بهذا المفهوم، لفسدت أمور الناس. ومن حق كل راصد لحراك المشاهد الفكرية والسياسية حريص على مصالح الأمة رؤوف رحيم بها أن يتعقب المتجرئين على يقينيات الحضارة وعلى ورثة الأنبياء، وأن يتعرف على المخبّلين والمسرعين خلال الأمة لزرع بذور الفتنة، لإماطة الأذى وإيقاف التدهور، والكشف عما يعتمل في نفوسهم من ضغائن. فما من ظاهرة فكرية أو موقف متكرر من قضية أو مذهب أو عالم إلا وتكون وراءها مقاصد مشبوهة وجهات خفية تؤز الخلاف، وتذكي الشكوك، وهي مكائد قد لا يعلمها المثيرون أنفسهم. وكم من أحداث سذج جرّت أقدامهم، وأغريت ألسنتهم، وزين لهم سوء أعمالهم، حتى رأوا حسنا ما ليس بالحسن، ومضوا فيه، وفي اعتقادهم أنهم سباقون لإنقاذ أمتهم من موارد الهلكة، وحقيقة الأمر أن ما يفعلونه عين الهلاك وحقيقة الضلال، وكم من مبتدئ تصور أن لا مكان له في المشاهد إلا بإثارة الزوابع، وتحشيد المشاعر، وما علم ذلك المسكين أن تعشقه للأضواء كتهافت الفراش على اللهب، والمتدافعون على بؤر التوتر، حين لا يؤخذ بحجزهم، ويؤطرون على الحق أطرا، يثيرون (الرأي العام)، أو يضلونه، وقد يفقدونه صوابه، ويجرون قدمه لفتنة عمياء، وليست الوحدة الفكرية بأقل أهمية من الوحدة الإقليمية، واستفزاز (الرأي العام) مسايرة للأعداء، واستجابة لضغائنهم، وهو في النهاية مؤذن بتصدع الوحدة الفكرية.

والباحث عن المعرفة وتحرير المسائل، وإحقاق الحق، وتنقية المسار من شوائب الفرقة، يجب عليه الا يخلط بين مقاصد المذهب وممارسة الاتباع. ذلك أن المذهب أي مذهب، لا يتحمل أي مقترف باسمه، لمجرد الادعاء. وكم من مفتين أو متصدين لأي ظاهرة يخفقون، أو يخطئون في فهم مقاصد مذهبهم ومواقفه من القضايا، ثم لا يتورعون من إحالة مواقفهم على قواعد مذهبهم وأصوله ومناهجه. وكم من متعصب متماكر يتصيد أخطاء الأتباع، لينال من قواعد المذهب وأصوله، والتربص مؤشر على فقد المصداقية، وضعف الأمانة والإيمان. والمنقب في كتب المذاهب والمناقب، يقف على مرافعات، يمدها التعصب، ويؤزها حسد العلماء وأثرتهم، ولكن ذلك كله جاء في أضيق نطاق، وفي زمن القوة والتآلف والازدهار، فاحتمله جسم الأمة، كما يحتمل البحر اللجي ما يلقى فيه،

---

(١) تاريخ المقال: ٢/ ١١/ ٢٠٠٤

فيحوله إلى زبد يذهب جفاء. وفوق ذلك فالمتنازعون إذ ذاك يعملون لحساب الإسلام، وإن بدرت من بعضهم مخالفات، كشفها العلماء في وقتها، وأزالوا لبسها. أما جدل اليوم فمختلف جداً، إنه عمل غير صالح، والمشاهد الفكرية تموج بمثل أولئك الذين يفسدون باسم الإصلاح، ويدفعون بالناصحين المتألفين للقلوب إلى الوقوع في التنازع والتنابز والتدابر. وذوو الألباب ينظرون إلى الظروف والأوضاع، ولا يوغلون في التأزيم، وبخاصة حين تكون الغلبة لأعدائهم.

وإن تعجب فعجب ما يتداوله أبناء السلفية من قول، استمدوا وقوده من وقوعات تاريخية، أرادوا من استدعائها إدانة السلف الصالح، وفي الوقت ذاته عموا وصموا عما تفعله الحضارة المتعلمنة المتعولمة في ديار المسلمين من تقتيل وتشريد وهدم، وطمس للتاريخ وإلغاء للذاكرة، وعما يكتبه الساسة والمفكرون الغربيون من افتراءات، يتلقاها عرابات الحداثوية والعلمانية باليمين، ثم لا نجد أحداً من مروجي قالة السوء عن الإسلام وحملته من امتعض أو ثار أو تمعر وجهه من أجل الحق. ومن المثير للتساؤل مقابل هذا الصمت المريب، ما يتخذه أولئك الأبناء من أقوال علمائهم في قضايا (الفقه الأكبر) والذي عليه مدار الحياة تزلفاً وتملقاً وإرضاءً للأعداء. وكم يبَّيتون ما لا يرضي الله من القول. وقد يكون (شيخ الإسلام) الأكثر تداولاً على مختلف الصعد الإعلامية، فلقد تعمدوا تصيد أقواله المبتسرة من سياقها والمفصولة من أنساقها، لتكون وثائق إدانة، ولم يترددوا في دعم ملصقي الإرهاب بالإسلام بما توصل إليه علماؤنا من قبله ومن بعده في قضايا (الولاء) و (البراء) و (الجهاد) و (إظهار الدين) و (الحكم بما أنزل الله) و (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) مما هو واجب الذين مكن الله لهم في الأرض، ولأن المصلحين والعلماء يحيلون إلى اختيارات (شيخ الإسلام)، ويسترفدون (مفرداته)، فقد وجد المغرضون أن إدانة هؤلاء، لا تتم إلا بنسف أصولهم، وقطع صلتهم بمرجعيتهم، وإذا كنا نمقت الغلو، وندين التطرف، ونبرأ من مفارقة الجماعة، ونرى عصمة الأنفس المسلمة والمعاهدة والذمية، ونحفل بالوسطية والرفق والتيسير، والتعايش، والاتقاء، والوفاء بالعهود والمواثيق، فإن طريق ذلك لا يكون بإدانة العلماء، ولا باتهام المذاهب، وإنما يكون بالمراجعة والتصحيح، ورد كل حدث إلى مُحدثه، وتقصي الظروف والملابسات.

وأعجب من هذا التحرك المنظم، والتشايل المشبوه بين بعض طوائف الأمة الإسلامية لاستعادة ما وسعته صفحات التاريخ، وطواه التقادم من خلافات في علم الأصول أو الفروع، وهي خلافات لها سياقاتها وأنساقها وظروفها، والأطراف المتجاذبة لها في الحكم يرد أمرهم إلى الله وإلى الرسول، وبخاصة ما كان (ابن تيمية) طرفاً فيه، سعياً من أولئك البرمين من قول الحق، ورغبة في مظاهرة المتقولين عليه، وافتراء القول بأنه بتصديه للملل والنحل المخالفة لمذهب السلف، يؤسس لإرهاب منظم، نام كما أهل الكهف في صفحات التاريخ، حتى أعثر الله عليه المحتقنين منه الناقمين عليه. ولم يكن هؤلاء بالمنصفين، فاستدعاء عالم أو مذهب للمساءلة، يلزم معه معرفة خطاب المذهب الآخر وأسلوب مواجهته لخصومه. ولو أن المستدعين (لابن تيمية) تساءلوا فيما بينهم: لماذا سجن وعذب، ولم يسجن خصومه؟ أليس ذلك مؤشر عنف أشد، وتسلط أعنف ومصادرة للحرية من جانب واحد. ولست أشك أن هذه الحملات الكلامية مكيدة حاذق، سربت خيوطها، ليأخذ بها المواطئون والجهلة، ويتحقق من وراء ذلك هدفان:

الأول: - تحميل (الفكر السياسي الإسلامي) مسؤولية ما يعانيه العالم من اضطراب في الأوضاع كافة.

الثاني: - تشكيك الأمة الإسلامية في علمائها الذين تركوا من ورائهم أصولاً وأحكاماً وآراء، لو ابتدرها من بعدهم، لكان أن تخطوا بأمتهم كل العوائق.

وحين يعزز المتهم بالإرهاب مقولة المدعي بالاعتراف، تتحقق مكائد الأعداء، لأن ذلك يشرعن لوحشيته الفاعلة ولتحريشه القاتل، ثم يكون بأس الأمة بينها شديد. ومتى ألهيت الأمة بالشقاق، أصبحت مهمة الأعداء مقتصرة على تغذية الخلاف، وجني الثمار.

وذلك ما نراه بادياً للعيان، فبأس الأمة بينها شديد، وما من متابع للصحف والمجلات وسائر الإذاعات والقنوات ومختلف المؤسسات إلا ويجدها تؤز الفتنة، وتحرش بين أبناء الملة الواحدة، وتهيئ الأجواء لعشاق الأضواء، ليتبادلوا الاتهامات فيما بينهم، والتنقيب في صفحات التاريخ. وما من حضارة إلا وينطوي تاريخها على فترات مُضيئة وأخرى منطفئة، وما عهدنا تلك الفئات سباقة إلى نقد الذات، ومساءلة المنجزات، والكف عما بدر بين علماء الأمة من خلافات طواها التاريخ، فتلك أمم قد خلت لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت، وإذا لم يكن في الاستعادة جدوى، ولم يكن من إهمالها مضرة، فإن القول فيها مؤشر مكائد، أحكم صنعها الأعداء، وتطوع لتنفيذها المغفلون، واستخف بخطرها الجهلاء.

ولما كانت الأمة في حالة من الضعف الحسي والمعنوي، فإنها أحوج ما تكون إلى فترة نقاهة واستجمام، يتجه فيها الأبناء إلى المتفق عليه، ويدعون المختلف فيه. وماذا يفيدها حين يلتقي أبناؤها المنتمون إلى طوائفهم على مسمع ومرأى من أعدائهم في العقيدة، فيلعن بعضهم بعضاً، ويكفر بعضهم بعضاً، تاركين المساحات المشتركة لمن يكيد لهم، ومن ذا الذي يسره أن يرى وسائل الإعلام سباقة إلى بؤر التوتر، تذكي أوارها، وتعيد مراحلها التاريخية المليئة بالشقاق والاختلاف، وإذا كانت فتراتها المنطوية مرت بها في زمن القوة والصدارة، فإن إعادتها في زمن الضعف والتخلف، مؤذن بفساد كبير. والذين ينقمون على (ابن تيمية) أو على تلميذه (ابن القيم) أو على (ابن عبد الوهاب) أو على أي عالم من علماء الأمة، من مفكرين ومصلحين ودعاة متقدمين أو متأخرين، ممن قالوا ما يعتقدون، وفندوا أقوال خصومهم، لا تراهم يستحضرون ما قيل بحقهم وحق العلماء الذين يأخذون عنهم، فإذا كفروا قولاً أو طائفة فإن غيرهم أعادوا الكرة عليهم، وحكموا عليهم بمثل قولهم، بل كفروا المذاهب التي ينتمون اليها، والعدل والإنصاف يقتضيان استحضار القول والقول المضاد، ليؤخذ كل مذهب بما اقترفت أيدي أصحابه، والعقل والحكمة يقتضيان الخلوص من نبش الماضي، والصواب تحامي الخلاف ما أمكن ذلك، إذ ما من أحد من العلماء إلا وله خلافاته مع لداته ومعاصريه من العلماء. والمنصفون لا يستدعون الخلاف لإذكاء المذهبية، وتصعيد التعصب، ومصلحة الأمة الآني في إرجاء تلك الخلافات، أو تركها للعلماء المشتغلين بها بعيداً عن وسائل الإعلام.

فالعلماء يحتملون الاشتغال في مثل ذلك، ويرونه طبعياً، أما إقحام الرأي العام، وتحشيد مشاعره فأمر مريب، ومن رغب الوقوف على التاريخ العلمي أو الفكري أو الحضاري للأمة فليطلبه في طيات الكتب وفي أروقة الجامعات، ثم ليدعه حيث هو، إذ الخروج به عن مضاميره تفريق وتصعيد لعداوات الأمة. وحين يكون الاختلاف في فترات الازدهار مؤشر ثراء معرفي يكون استحضاره اليوم للإدانة والإسقاط، ولم يكن (ابن تيمية) بدعاً من الأمر، فما قاله من آراء، وما اعتقده من أقوال سبقه إليها غيره، ولحق به من بعده، ولخصومه أقوال وعقائد لها وعليها فلماذا يتعالق أبناء السلفية السمحة مع غيرهم، ولا ينظرون إلى ما قيل في حق علمائهم وأصول مذاهبهم؟ وكان حقاً عليهم أن يقولوا لمن حولهم من المتعصبين لمذاهبهم والرامين لغيرهم بدائهم: تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، نستعرض ما قاله كل عالم في خصومه، ثم نطويه، بوصفه وثائق

تاريخية للحراك الفكري والعلمي، ونستأنف حواراً جديداً ينشد الوفاق، فإن لم يحصُل فلا أقل من التعاذر والتعايش، فما عاد الزمن قابلاً لإذكاء الخلاف، وإيغار الصدور. ولو أن الناقمين على الإسلام غفلوا عن (ابن تيمية) لما استدعته الألسنة والأقلام التي تمارس هدم كياناتها بأيديها، تاركة فرصة للشماتة والتشفي، وما من عاقل رشيد، يستسيغ ما يقال بحق علماء الأمة بشكل تعميمي وبأحكام مجازفة، كما لا يستساغ تحميل المذاهب الإسلامية جرائر الإرهاب الوحشي الذي لا تقره ديانة، ولا تحتمله إنسانية.

و (ابن تيمية) له رؤية: عقدية وفقهية، مارس حقه فيها، كأي عالم يخالفه في الرؤية، فلماذا يخص بالتجريح والتجريم، ولما تكن له أقوال مجتثة، وليست له مبادرات منفصلة عن أصول اعتقاد السلف الصالح، فما ذهب إليه منتج استقراء للنصوص، وفق أصول المذاهب السلفية وقواعدها التي ينتمي إليها، ووفق متطلبات المرحلة العصيبة التي عاشها، وما يقال عنه يمس السابقين واللاحقين والمتعقب لاختياراته في الفروع يجده محصلة لعالمين جليلين هما (ابن عبد البر) و (ابن حزم) ومع اختلافه الواضح مع الظاهرية في الفروع والأصول، فإنه يترحم على ابن حزم، ولا يذكره إلا بكنيته، أما في الأصول فهو امتداد للمحدث والفقيه (أحمد بن حنبل)، والذين يختلفون معه من فلاسفة أو متكلمين أو طائفيين، يجب عليهم مساءلة المذهب الذي ينتمي إليه، والسعي لنقض قواعده وأصوله، ومتى استطاعوا نقض القواعد والأصول بحجة شرعية وقول محكم، سقط (ابن تيمية) ومن سبقه ومن لحق به، دون التنصيص عليه أو النيل منه، وإذا كانت الأحكام والآراء التي توصل إليها مناقضة لقواعد مذهبه وأصوله فإن علماء المذهب اللاحقين به، سيكونون الأسبق إلى الرد عليه ومساءلته، وهذا المحدث السلفي (ناصر الدين الألباني)- رحمه الله- تعقب بعض كتب (ابن تيمية)، وتقصى أحاديثها، وفرق بين الصحيح والضعيف فيها، وما نقم عليه أحد، وما اتهمه أحد، ذلك أن الحق ضالة المؤمن، كما أنه تعقب بعض علماء الدعوة، واستدرك عليهم في الحديث والفقه وغيرهما، وما ثار أحد في وجهه، وما أحد من المعتدلين ادعى عصمة لعالم، ولا قطع بصحة قوله. ولقد أثر عن الشافعي أو عن غيره قوله: (إذا صح الحديث فهو مذهبي) وقوله أو قول غيره: (قولنا صدق يحتمل الكذب وقول غيرنا كذب يحتمل الصدق)، ومثل هذا القول وإن كان عليه ما عليه من التحفظ، يفتح الباب أمام المراجعة والمساءلة والنقد، ويستبعد العصمة التي يدعيها الجهلة والمقلدون وأنصاف المتعلمين.

ومما فات كل المتجادلين حول مسلمات (ابن تيمية)، أنساقه وسياقاته، فالنسق المعرفي له، لا يمكن تصوره من تلك الابتسارات، ومواجهة (ابن تيمية) لا تكون بانتزاع الأقوال من سياقاتها وأنساقها، ذلك أنه يحيل إلى ضوابط وقواعد، وينطلق من ظروف خاصة، مسه فيها الضر، ومس أمته الهوان من (التتار)، والمبتسر يناقض الضوابط والقواعد وأدبيات الحوار، وليس من المعقول أن يناقض عالم مثل (ابن تيمية) مذهبه الذي يجالد ويجاهد من أجل إشاعته، فالذين يقولون إنه مجسم حشوي مكيف، وأنه ناصبي أو مبتدع، ثم يلتقطون جملة أو عبارة توهم بذلك، يرد ابتسارهم وقولهم إلى أصول مذهبه، الذي لا يرى التجسيم، ولا الحشوية، ولا التكييف، ولا التشبيه، ولا التعطيل، ولا يبتدع ولا يناصب آل البيت. والذين يجعلون أحكامه وفتاواه موطئة للإرهاب، لا ينظرون إلى ما لقيه شيخه أحمد بن حنبل من عنت وتسلط، ولم يكن منه إلا التسامح والدعاء لولي الأمر، وما لقيه (ابن تيمية) نفسه من نقد وظلم. ومن نسب إليه من أقوال يخالف فيها مذهب السلف فقد افترى عليه الكذب، والذين يقترفون العنف، ويوغلون في الدين بغير رفق، ويغلون في دينهم، ثم يبررون ما يذهبون إليه بقول (لابن تيمية)، يتحملون تصرفهم الخاطئ وإحالتهم الكاذبة. و (ابن تيمية) براء منهم ومن غلوهم، ولا يتحمل نتائج الفهم

السقيم، ولم يكن وحده مجال الشجب والاتهام، ولكنه واحد ممن أسيء إليهم، واستدعاء القضايا والأناسي مما خلا، واستدبار النوازل مؤذن بتخلف فوق تخلف، ولقد نهينا عن الجدل العقيم، وعلى الذين اتخذوا الإثارة سبيلاً لتثبيت الأقدام، وتسويق الذوات في نخاسة الإعلام أن يلطفوا بأمتهم، وأن يرحموا ضعفها وهوانها على الناس، وأن يلتمسوا مصادر شهرتهم وكسبهم من مجالات أخرى، لا تعرض مثمنات الأمة للضياع، ولا تعرض الأمة للصَّغار.

مأسسة الثقافة وثقافة المؤسسات .. ! (١) [1]

لكي تتضح رؤيتي، ويتحدد مفهومي، أشير إلى أن همي منصب على تيسير التفاعل بين الأمة وسائر مؤسساتها .. وتوقعي أنه لن يتم التفاعل الإيجابي حتى تُهيأ الأذهان .. وتقوم الثقة والألفة، وتتم المعرفة، وتجسر الفجوات، وتُنقى الأجواء، وتتحقق الغاية من الشفافية .. ويقيني أنه لم يتحقق أيسر المطلوب .. ولقد سميت التهيئة والتجسير والثقة والمعرفة والشفافية ب(ثقافة المؤسسات)، وما أردت إلا التوفيق بين طرفي المعادلة: الإنسان والمؤسسة .. وما كنت في شأن من شؤون الحياة مثلما كنت في تطلعي لإشاعة (ثقافة المؤسسات)، ليكون الناس على بيّنة من أمرهم، ولتكون الأجواء ملائمة، تتمكن في ظلها أيُّ مؤسسة في أي حقل: معرفي أو إجرائي من استغلال أقصى طاقاتها، وتحقيق رسالتها المنوطة بها، وتعويد الناس على انسيابية التعامل معها.

فنحن - مثلاً - أحوج ما نكون إلى إشاعة (ثقافة الانتخاب)، و(ثقافة الشورى)، و(ثقافة الحوار)، و(ثقافة حقوق الإنسان) بوصفها ذات مهمات طارئة، لم يألفها الناس .. وكل مؤسسة تمس الشأنَ المحليَّ ومصائرَه، وتنشق عنها طموحات العصرنة، تحتاج إلى مقدمات: معرفية وتأهيلية، تُمكِّن الإنسان من التصوُّر السليم لها، والتفاعل الإيجابي معها، وتثبت أفئدة المترددين في قبولها، وتربط على قلوب الوجلين .. وتزداد أهمية ذلك، حين تمارس الدولة مأسسة كلِّ شيء أتت عليه، بما في ذلك ما يفضِّل المجربون تركه طليقاً كالمهرة في الفلاة، وبخاصة ثقافة: الفكر والإبداع .. والمدنية والحضارة لا يستوي وضعُهما، حتى تُضم الأشباه والنظائر إلى بعضهما، وحتى توحَّدَ المرجعيات، التشريعيةُ والتنفيذيةُ، وحتى لا يكون أمر الناس عليهم غمةً.

وحركة الإصلاح والتطوير والتغيير التي تخوضها الدولة على تخوف وتردد، لن تحقق أهدافها المضمرة أو المعلنة، حتى تمس أدمغة الناس وأفكارهم، قبل أن تمس أحوالهم .. فلكي تتخلص الأمة من الانفعال إلى الفعل، لا بد أن تعي الآذان الواعية ما يقال، وتتقبل النفوس المطمئنة ما يُفعل، وحتى يَثْقَف الناس المهمة والهدف وأسلوب التعامل لكل ما يجد .. والتحرف للإصلاح الإداري، تمخض عن دمج وإلغاء وإحداث .. وتلك خطوة وئيدة، تتجه صوب الإصلاح والتفعيل المنظم .. وإيقاع الدولة المتسارع في المأسسة، وتحديث الأنظمة وإحداثها، وانشغال مجلس الشورى بالأحداث والتعديل، يتطلب: مهاداً واستقبالاً واستيعاباً واستجابة .. وتحقيق ذلك مُرتهن بإشاعة (ثقافة المؤسسات) لتنشئة الثقة والمعرفة، ولتمكين المؤسسة من تلمس أيسر الطرق وآمنها إلى شرائحها المقصودين بخدمتها، وتوفير الإفادة والاستفادة، والتعريف بمجال الأداء، وحجم الانتفاع .. ومتى شئنا تضافر الجهود المتجانسة واستقطابها، وتأدية مهماتها بشكل جماعي منتظم، فلا بد من تيسير النظام للمستَهْدَف، وتسهيل المجال للفاعل، والتعريف بمحاذير الاعتزال .. وسبيل ذلك كله أو بعضه مادة (التربية الوطنية) التي لم يجوَّد إعدادها، ولم يفعَّل أداؤها، وسائر المنابر: الدينية والثقافية والإعلامية، التي ما فتئت تجتر قضايا ثانوية، وتسخن ظواهر باردة، وفي الأحشاء ما فيها من لهيب المشاكل المصيرية.

والمؤسسات غير الواعية أو غير المستوعاة، تتآكل مع الزمن، لأنها لا تزرع الثقة، ولا توطئ أكناف التواصل، ولا تحقق المراد بأيسر الجهد وأقل الوقت. وتلك خليقة الشعوب النامية، المصابة بداء الشكلية العقيمة، و(البيروقراطية) المعيقة .. ومصلحة المستشرفين للمستقبل، تكمن في رفض الاستسلام لتلك الخليقة .. وليس هناك ما يمنع

---

(١) تاريخ المقال: ٩/ ١١/ ٢٠٠٤

الخلوص من تلك الأدواء المستوطنة، والتي أصبحت سمة بارزة في أداء العالم الثالث، والرقي بالوعي إلى مستوى المؤسسات، وتفعيل الواقع المعاش من خلالها، يتطلب الإلمام بأبجديات النظام والمنهج والآلية والمقاصد والمفاهيم، وهضم طبيعة المؤسسة ومهماتها .. وكم من مؤسسة كما البئر المعطلة، وكم من نظام مجهول أو معقد، وكم من تعليمات غامضة، عوّقت الأداء، وأطفأت وهج التفاعل .. وواجب المشرعين والمنفذين العمل على التفعيل والتعريف والتسهيل والتوضيح، ولا سيما أن ذلك كله هم وهدف كامنان في أعماق المشرعين.

إن قيام مؤسسات: دينية وشورية وأدبية واجتماعية وإعلامية وتربوية وادعائية وحقوقية وسياحية ومجالس عليا: للتعليم والاقتصاد والبترول والشؤون الإسلامية وأخرى لم تأت بعد .. وإنشاءَ روابط وهيئات وجمعيات ونقابات ومنظمات، يعني الاتجاه السليم صوب استكمال متطلبات المدنية والتحضر، وظهور المجتمع المدني، والاستعداد لمواجهة طوفان العولمة، ونوايا القطب الواحد، ومضمرات المشايعين له .. ولن يحقق الحراك المنظم هدفه المنشود، حتى يتوفر المُستهدف بهذه الخدمات على وعي سليم، وتمثل حضاري سديد، يستبعد الاعتزال والتعالي والتمارض واللامبالاة، ويوقف استفحال الأثرة، وينمي روح العمل الجماعي، أو ما يُسمى ب (روح الفريق الواحد)، وحتى يعرف القومُ ما هم عليه، ويفقهوا واقعهم على حقيقته، ويتصوروا إمكانياتهم الذهنية، وحجم مهاراتهم، ومدى توافق ذلك كله، وتكافئه مع حركة المؤسسات .. وكم نتابع الألعاب الرياضية الجماعية، وننظر كيف يتحقق النصر بالتفاهم والتعاون والانسجام، وتبادل المهمات والمواقع بانسيابية وفورية وتنسيق للجهود، ثم لا نعتبر.

إن فئات المجتمع في مضامير المؤسسات أشبه شيء بعمال المصنع أو بأفراد الفريق، لا تنتظم مهماتهم إلا بالتعارف والتعاون والتفاهم والتكتل .. ولن يظفر أي فرد أو جماعة بشيء من النجاحات المأمولة، حتى تقوم الألفة والمودة والثقة والإيثار بين الأفراد من جهة، وبينهم وبين المؤسسة التي ينتمي إليها كل فرد: عالِماً كان أو أديباً أو مفكراً أو معلماً أو عاملاً في أي حقل: معرفي أو مهني .. وأهمية الثقافة تزداد حين تستبق الدولة الزمن في سبيل التحول المؤسساتي .. والأطياف المتجانسة حين تثبطها اللامبالاة، أو يقعد بها الجهل، أو يعوقها الاسترخاء والتسويف، تقع في إشكاليات تعوّق المسيرة، وتشل الحركة .. ولن يتأتى الوجود المثالي لأي مؤسسة إلا بالتحامها مع من أُنشئت من أجله، وتمكينه من إدراك رسالتها، وحدود مسؤوليتها، واستيعاب الأسلوب الأمثل للتعامل معها، والوقوف على إمكانياتها، وفهم نظامها، واحترامه، ومعرفة ما تقدر على تقديمه لذويها .. والمتابع لكثير من مؤسسات الحكومة المدنية، يحس أنها لا تستغل أدنى حد من طاقتها: إما لسلبية ذوي الشأن، أو لعملهم بمعزل عنها، واستغنائهم عن خدماتها .. وأضر الأسباب وأخطرها توهمهم أنها تشكِّل عقبة في طريق انطلاقهم، وتخوفهم من أن ارتباطهم بها مثبط لحركتهم، قامع لتصرفهم، مطامن لوجودهم .. وللتغلب على هذه الأحاسيس، تقع المؤسسة في مأزق التنازلات المخلة، أو الادعاء العريض، وقد لا تجد قبولاً ولا إقبالاً ولا تصديقاً .. وتناولي لهذه الإشكاليات، لن يكون رهين الإقليمية، فلقد تعوّدت التخلص من الاحتباس في الشأن المحلي.

وإذا كان الأقربون أولى بالمعروف، فإن للسياق العربي أثره، وليس بمقدور أحد أن يأوي إلى جبل يعصمه من أخطاء المتماسين معه إلى حد الخلطة .. فالعالم العربي بجملته يفتقر إلى هذا اللون من الثقافة، فيما تفتقر مؤسساته إلى الواقعية، ومرونة التعليمات، والشفافية .. والإنسان العربي: إما مُرْهِق للمؤسسة بتحميلها ما لا تحتمل، أو مجبول على مواجهة السلطة، والوقوف منها موقف المنابذ المتمرد، وليس موقف المناصح المعارض

.. وأحسب أن هذه الخليقة بقية من رواسب الخطابات الثورية، التي زرعت في الأعماق العداء للسلطة، وأعني به العداء غير المبرر وغير المشروع .. مع أن الحضارة والمدنية لا يقر لهما قرار إلا في ظل سلطة قوية عادلة، وأمة واعية فاعلة. ومن ظواهر التعويق ما جبل عليه مؤسسو المؤسسات وواضعو أنظمتها، من مثاليات لا تطال، أو من تعليمات لا تُفهم، مما يؤكد على أن الإشكاليات عقبات مشتركة، وليست ناتج جهل وحسب، ومثل ذلك يتطلَّب المكاشفة ومواجهة التقصير بثقة وتحامي الإسقاط.

ومن المسلّمات أن كل نظام في الحياة له ثقافة: معرفية وإجرائية، تنظِّم أسلوب التفاعل المتبادل بين إنسانه ومؤسساته .. وما لم يتقن المجتمع ثقافة نظامه القائم، فإنه يدخل تحت طائلة الانفصام الشخصي .. ولا فرق بين الأنظمة في قيام الحاجة إلى الثقافة .. فالنظام من حيث هو، لا يتأسس إلى على تواطؤ، وتوافق، ورضا، يعقبها فهم واستجابة .. فلا قيمة للفهم بدون استجابة، ولا قيمة للاستجابة بدون فهم.

فالأنظمة السلطوية المستبدة.

والأنظمة العادلة القوية.

والأنظمة المدنية المتحضّرة.

والأنظمة البدائية المتوحشة.

والأنظمة المادية المتعلمنة.

والأنظمة الشورية المتأسلمة.

كلها لا تنهض من فراغ، ولا تعمل في فراغ .. إنها بحاجة إلى: مرجعية تقبل بها المجموعة، وتسلم لها على ضوء مستواها المعرفي وانتمائها الحضاري، وإلى أنظمة مفهومة يستجيب لها المستفيد، وإلى أمة عازمة حازمة تستمد من المفيد .. وحين ترضى الأمة بنظامها على أي شكل كان، يجب أن تمنحه المشروعية، وتتبناه في المنشط والمكره، وتتكفل له بالحماية والإشاعة .. وحين ننطلق برؤيتنا من مفهوم النظام، لا نتصوره طوباوياً مغرياً، ولا واقعياً محبطاً، وإنما نتصوره وجوداً فاعلاً على أي نمط، ونتلمس شكل العلاقات المتبادلة بين مؤسساته وأناسيه.

ولكل أمة (عقدها الاجتماعي) الذي يحكم حراكها على كل مستوياتها: الدستورية والتشريعية والتنفيذية والقضائية والإعلامية .. وكل كيان في بنائه الرأسِيِّ أو الأفقي، يصدق عليه المفهوم المؤسساتي، وإن تفاوتت ممارسته بين الفردية والجماعية، والكثرة والقلة .. وكل أداء منظم إن هو إلا علاقة متوازنة بين (الإناسة) و(المأسسة)، ومتى انفض سامر الناس من حول مؤسساتهم، لأي سبب مبرر أو غير مبرر، وسعوا وراء مصالحهم الذاتية بإرادة فردية، ولم يرضوا بما عقدوا الإيمان عليه، دبّ فيهم الضعف والوهن، وفشا فيهم الجدل العقيم، واستوت عندهم الأنوار والظلم:

وما انتفاع أخ الدنيا بناظره
إذا استوت عنده الأنوار والظلم

مأسسة الثقافة وثقافة المؤسسات .. ! (٢) [1]

ولقد يكون من الأهم أن نشير إلى ما تتداوله المشاهد من نقص في أهلية المؤسسات، وهو نقص يحال إما: إلى أنظمتها، أو إلى تنفيذها، وقلّ أن يحال إلى سوء التعامل معها أو سوء فهمها. ولربما يكون لذلك بعض الصدق أو كله، وقد يكون من باب تقاذف الكرة، والتخلي عن المسؤولية، فما عهدنا أحداً يحتمل الاعتراف بالخطأ. ولو جنحنا إلى التفصيل، وجدل التنصل من المسؤولية، ورد كل قول إلى مصدره لبعدت علينا الشقة، وفوتنا على أنفسنا ما نحن بصدد الحديث عنه. وما أردنا في حديثنا هذا استنزاف طاقاتنا في المماحكات عن ظواهر لسنا معنيين بها فيما نقول. ومع هذا العدول الوقتي فإن المتابع الناصح الواعي لا يكون خِبّاً ولا يخدعه الخبُّ. إن هناك تقصيراً لا يماري فيه إلا فضولي، وهناك شيئاً من الارتباك لا يستبينه إلا المتماس، وهناك نقصاً في الكفاءات لا يكتوي به إلا ذوو الحاجات، ولكن هذا كله لا يبرر النقص الكبير في (ثقافة المؤسسات)، وهذا النقص فيما أرى رأس كل خطيئة. ولو استطعنا تلافيه، لأمكنت السيطرة على البواقي، إذ ستكون المواجهة بين المؤسسة وإنسانها مواجهة حضارية، تقوِّم الاعوجاج، ولا تصدع العلاقة.

ومع هذا أو ذاك فإن تمثُّل ثقافة أي نظام تمثُّلاً منتجاً يعني فهمه فهماً حقيقياً وممارسة التفاعل معه، تفاعلاً يمده بالقوة والثبات والعطاء. ومعالجتنا ل(ثقافة المؤسسات) لا تفرض علينا النقد والتقويم، فهدفنا هنا منصب على نقص ثقافة المستفيد لا على تقصير المفيد، ومرادنا التوفيق بين المؤسسة والمقصود بخدمتها.

وفَقْد الثقافة قد لا يرتبط بالنقص ولا بالتقصير، ولا ينشئه الرفض ولا الاستياء، إذ ربما لا يكون بين الطرفين أيُّ خلاف في المبادئ، أو اختلاف في وجهات النظر، ومع ذلك لا يكون بينهما انسجامٌ ولا تفاعل. وحين نفتش عن السبب، نجده نتاج فَقْد ل(ثقافة المؤسسة). وحاجتنا الملحة لا تستدعي التزكية ولا الإدانة. إذ همُّنا الآلي، يحركه حرصنا على توفير آلية التفاعل المثمر مع كل مؤسسة، أريد لها أن تخدم طائفة من المجتمع. وعندما يكون الاعتزال ناتج ضعف في أداء المؤسسة، أو ناتج خللٍ في نظامها، فإن لذلك شأناً آخر. ومجال حديثنا حول القطيعة الناتجة عن قصور في الفهم أو خطأ في المفهوم.

ولن تتحقق جدوى أيُّ مؤسسة إلا بالتنسيق بين المنتج والمتلقي، واستيعاب كل طرف للآخر: استيعاب أداء، واستيعاب فهم. وحين نعدل عن تحديد سمة المؤسسة ومجالها، فليس ذلك استغناءً ولا استخفافاً، ولكنه انشغال بالمفضول، بوصفه مجهزاً للفاضل. كما أننا نركز على الخلل الواقع، نتيجة ضعف التبادل المعرفي والأدائي بين طرفي المهمة. وليس بالضرورة أن يكون العزوف ناتج الطعن في أهلية المؤسسة، أو التناقض معها مبدئياً، أو تقصير المؤسسة في توصيل المعلومة المرتبطة بشكل العلاقة وأسلوب أدائها. إننا نحمل المواطن قسطاً من المسؤولية، فهو قد لا يبالي في تلقي المعلومة المنظمة للتواصل والتفاعل، وإذا تلقاها قد لا يتمثلها. وسأضرب مثلاً بعلاقة المواطن ب(البنوك) بوصفها مؤسسات لها ثقافتها وأسلوب التعامل معها. لم لا يكون هناك ارتباك ولا تهميش من أحد الطرفين للآخر؟ مع ان (البنوك) لا تملك سلطة المؤسسات الغائبة أو المهمشة، علماً أن الذين يقفون بمعزل عن تلك المؤسسات، قد لا يشكُّون في سلامة مقاصدها، ولا في نزاهة منازعها، ولكنهم يفتقرون إلى مغريات التعامل، وتقنية التواصل، ومعرفة الأهمية. وهذا ما يفعله قطاع (البنوك)، وقد لا تفعله بعض المؤسسات.

---

(١) تاريخ المقال: ١٦/ ١١/ ٢٠٠٤

وإذ يكون من المهم استباق الحديث عن (التأسيس الثقافي) فإن الأهم النظر في تفعيل الممارسة من خلال المؤسسات المنوط بها استقطاب القادرين على الأداء، والمستحقين لناتج الأداء. فالمؤسسة فاعلة من خلال أطيافها، ومنتجة لحاجة هذه الأطياف.

وإذا لم يكن هناك توازن في تداول (الحقوق) و(الواجبات)، فإن المؤسسة تفقد من أهلية وجودها وفاعلية أدائها بقدر اختلال التوازن. والحديث عن تكافؤ الفرص بين (الحق) و(الواجب) والتوازن بين (الأخذ) و(العطاء) يفضي بنا إلى ما يمكن تسميته ب(ثقافة الثقافة)، وهو المنظور الاجتماعي للثقافة ف(علماء الاجتماع) حين تقحموا معمعة الإشكالية المأزومة لمفهوم الثقافة، التقطوها من جانب (التمثل والممارسة). ذلك أن الثقافة: معرفة وحذق وممارسة. ولسنا معنيين بنوع المعرفة، ولا بالقدر المدْرَك يكون المدْرِكُ مثقفاً، وإنما يعنينا سلوك المثقف على ضوء مكتسبه المعرفي، تمشياً مع رؤية (ابن مسعود) رضي الله عنه المتمثلة: بالحفظ والفهم والعمل.

و(العلاقات العامة) طرفٌ أهم في السلوك. ولهذا عول (علماء الاجتماع) على التفعيل السلوكي للثقافة. وهل تنتفع الأمة من علمائها ومفكريها ومثقفيها، إذا لم تُفعَّل إمكانياتهم، وتترجم إلى عمل، وما لم يبدُ أثرها في سلوك الفرد؟ وكأن لسان حال المؤسسات يقول:

وهل نافعي أن ترفع الحجب بيننا

ودون الذي أمَّلت منك حجاب

وكل هذه الإشارات المتناثرة، تصب فيما نقصده ب(ثقافة المؤسسات). وجماع أمر هذه الثقافة: أن يَفْعل المعنيُّ من خلال المؤسسة، بعد استكناه المسطور من نظامها، وأن يفعل من أجلها، بوصفها منطلق الأداء المنظم، وأن لا يسبقها بالفعل ولا بالقول، إلا حين يُجمع أهل الشأن على عجزها عن مسايرته، أو حين تخالف إيقاعها المطلوب، وحينئذٍ لا بد من وضع آلية لأسلوب المخالفة، إذ لا يجوز ترك الأمر لسائر الأمزجة والرغبات. ذلك أن الحياة لا تكون سوية إلا بالنظام وتحديد السلطات. ولا بد والحالة تلك من دخول المعمار، وإصلاحه من الداخل، وكل عمل خارجه أحسبه ك(مسجد الضرار)، لا يزيد الأمور إلاّ تعقيداً على أن لكل حدث حديث، ولا مجال للإطلاقات والتعميمات والنمطيات الرتيبة.

ولقد كانت المبادرات الفردية، وذهابُ كل راءٍ بما يرى سبباً في وهن الأداء وتسيبه، وتشتت جهود المؤسسة. ولو ضربنا مثلاً ب(المؤسسات الدينية)، ك(الإفتاء) و(الحسبة) أو ب(المؤسسات الأدبية) ك(الأندية الأدبية) و(الجمعيات)، أو ب(المؤسسات الوطنية) ك(مركز الحوار) و(حقوق الإنسان) لوجدنا أن مدار استدبار البعض لها: إما على الجهل أو الاستغناء أو الشك في المصداقية أو الاضطراب المفهومي. ولا أشك أن حسم مثل هذه العوائق رهين الإلمام بالثقافة الغائبة، وتحمل مرارة الاعتراف بالواقع، فادعاء الصحة مع استشراء المرض مؤذن بالهلاك الناجز. وممارسة مهمات المؤسسات خارج إطارها من قبل أفراد مجتهدين، أو مستبدين، سيؤدي في النهاية إلى التخذيل والوقوع في الفوضى. وقد يؤدي الاستبداد إلى الازدواجية أو الصدام. ودعك من المجازفين والخارجين على السلطة، فلأولئك شأن آخر، ليس هذا مجاله. ومكمن إشكالية المؤسسات ان كل فرد يجانس فعله فعلها، يرى أنه أمة وحده، وأن أطره ضمن العمل الجماعي المشترك، يعني إفشال توهمه الأممي. وحتى لو ترك يخوض في أوهامه، ما كان منه ان يعمل بمعزل عن أداء المؤسسة، بحيث لا يؤثر على مجال أدائها، وإنما سيكون منه سلقٌ وإزلاقٌ، ونزعٌ للثقة، وطعنٌ في الأهلية. الأمر الذي يعيق حركة المنشأة، ويغري من بداخلها على ان

ينفضوا من حولها، وقد تتحول تلك المخالفة المقدور على تلافيها بالإجراء العملي إلى ظاهرة عصية. فكل إنسان يود أن يكون أمة واحدة، يستبد بآرائه وإرادته. وليس من مقتضيات الثقافة أن يكون المقصود بخدمة المنشأة إمَّعة، لا يفرق بين السلب والإيجاب، ولا بين النجاح والإخفاق، ولا أن يكون كشاعر غزيه في غوايتها ورشدها، فالثقافة لا تكتمل حتى تتوفر الندية، وحرية القول المسؤول، والشفافية، واحتمال المساءلة. وحتى تُحفظ الحقوق، وتُؤدى الواجبات. ولكل فعل أو قولٍ ضوابطه وأهله.

إذاً ثقافة المؤسسات ذات شعب ثلاث:

-الفهمُ أولاً.

-والعملُ ثانياً.

-والوفاءُ بالعقود ثالثاً.

وكل ذلك تحكمه ضوابط وأدبيات وآليات للتعامل مع المؤسسات، متى فُقدت، أفضى ذلك إلى فقد الهيبة والاحترام، ومؤدى ذلك إعاقة الأداء، وتعطيل الحركة. وخلل التواصل غير المقصود، يتطلب التجسير والتيسير، وإزالة العوائق. وما منيت القيم بمثل ما يعرض لها من انكفاء على الذات. وظواهر الاعتزال التي قد لا يلقي لها البعض بالاً، تؤدي في النهاية إلى فقد المؤسسات رسالاتها. وفي النهاية تتحول إلى هياكل خاوية، وتصبح شكليات غير فاعلة، والدولة مجموعة من الأناسي والمؤسسات المحكوم تفاعلها بعقد مكتوب أو معهود. و(ثقافة المؤسسات) إضافة إلى ما سبق تعني:

-الفهم الدقيق لرسالتها، والثقة التامة بها، وممارسة العمل من خلالها، والاستفادة من خدماتها، والعمل على ترشيد أدائها، وتقويم عوجها بالحكمة والجدل الأحسن، وتقديم المشورة لها، ومصداقية التعامل معها، ومن خلالها.

-التفاعل الإيجابي بين كوادرها والمقصودين بخدمتها، وتكافؤ الفرص، وتداول المسؤولية، وتفادي الأثرة والإقصاء، وحدية المفهوم والأداء.

-إتاحة الفرصة لآلية المؤسسة، لكي تعمل في مجالها، وتهيئة الأجواء الملائمة لمزيد من العطاء.

-مرونة التعليمات، وقابلية التطور، وسرعة التكيف مع المتغيرات.

-إطراح التنافس حول سدة المسؤولية، والفراغ للأداء السليم، والتنافس في الإنتاج لا في السيطرة.

-الدقة في تحديد مسؤولياتها، ومدى قدراتها، تفادياً لتحميلها ما لا تحتمل وإدانتها بمسؤولية غيرها.

إن أمامنا ثلاثة مفاهيم:

-ثقافة المؤسسات.

-والتأسيس الثقافي.

-ومأسسة الثقافة.

ولكل مفهوم مقاصده ومقتضياته. واهتمامنا منصب على (ثقافة المؤسسات) وإن كان التأسيس والمأسسة من الأهمية بمكان.

-ف(ثقافة المؤسسات) أن يعي المعني ما يراد به، وما يراد له، وما يراد منه من خلال تلك المؤسسة، وأن يستشعر أهليتها في ممارسة حقها، وأن يتحرج من الخروج عليها .. متى التزمت بنظامها، ونهضت بمسؤوليتها.

-و(التأسيس الثقافي) يعني استكمال البنية التحتية للثقافة السائدة المهيمنة، بحيث يستوعب المنتمي ثوابت الحضارة التي ينتمي إليها، ويلم بيقينياتها، ويعرف نواقضها، ثم

ينطلق في آفاق المعرفة الإنسانية، كما النحلة، يلتقط من حضارات الغير بندية وتكافؤ ما لا تقوم الحياة الكريمة إلا به.

-أما (مأسسة الثقافة) فيعني تحول الحراك الثقافي الطليق إلى مرجعية إدارية تنظم تحركه، وترود له، وترسم مساره، وتضبط إيقاعه. وإذ نتفق مع المفهومين السالفين: (ثقافة المؤسسات)، و(التأسيس الثقافي). فإننا لا نجد حرجاً من قبول التحفظ على (مأسسة الثقافة)، ممن يخشون ضمورها، حينما يؤطرها نظام، ويحكمها إجراء. ولما لم نكن معنيين بقضايا المفاضلة، فإننا لن نستعرض وجهات النظر، وإن لم نجد بأساً من التفاوت في القبول بين المطلق والمشروط.

وكل الذي يشغلنا ما نعايشه من غياب معيب ل(ثقافة المؤسسات)، بين كافة المنتفعين والمعنيين، وما نراه من تعرض بعض المؤسسات للفشل الذريع، لا لعلة كامنة في نظامها، ولا لنقص في كفاءة مسؤوليها، ولكن لانقطاع المقصودين بخدمتها، واشتغالهم خارج أروقتها للأسباب التي أشرنا إليها سلفاً. وإذا كان الحكم على الشيء فرعاً عن تصوره، فإن العمل من خلال الشيء محكوم بثقافة إجراءاته وتعليماته، ويوم أن نفقه (ثقافة المؤسسات): معرفة وإجراء، تنحل أعقد المشاكل استحكاماً، وتزول أقوى العقبات رسوخاً، وتُقبل الأطياف للفعل والتفاعل تحت قبة المؤسسة. أقول ما تقرؤون، وعندي كل الثقة بأن في إمكاننا تخطي العقبات، فنحن أمة تمتلك مقومات العيش الكريم، وحاضرها مليء بالفرص، مستقبلها يفيض بالوعود الباسمة.

المحو والإثبات بين خطاب الكسب وكسب الخطاب .. ! (١) [(١)]

عاصفة الانتخابات الأمريكية تجتاح المشاهد السياسية كافة، حتى لا تدع رجلين على قلب رجل واحد، ولا تنفك وسيلة إعلامية من الامتلاء بالقول ونقيضه. ففي كل أربعة أعوام، تندلق الألسنة بالرهانات، وتجري الأقلام بالاحتمالات، فلا تسمع إلا صراخاً لا يفيق، وإلا صريراً لا يهدأ. وكأن المصائر معقودة بناصية الرئيس المنتخب، فيما لا تثير أي انتخابات أخرى أدنى اهتمام.

وقبل أيام وضع اللزز الانتخابي أوزاره، والتقط اللاهثون وراء المتسابقين انفاسهم وتحول الفائز من خطاب الاستدراج المكشوف لكسب الناخبين، إلى خطاب التملق الممجوج، لكسب الساخطين من الأصدقاء. وإسكات عويل الضعفاء من الاضطهاد. وتخفيف ضجر الصامتين من الأنداد. وذلك التلون الحرباوي يستدعي عملية مرهقة من المحو والإثبات، وخدر الأعداء والأنداد ببوارق الأمل. ولسان الحال والمقال لوافد الحزب يقول: ما فات مات، ولك اللحظة التي فيها. والذاكرة العربية المعطوبة بنت لحظتها، لأن كلام الليل يمحوه النهار. ولو أن المستهدفين بالمحو والإثبات يستحضرون ما قيل بالأمس وما يفعل بهم، لما كان بإمكان اللاعب أن يستدرجهم من حيث لا يعلمون. وأمريكا التي تذم بكل لسان، ويتملق لها كل إنسان، ستظل مشروع قراءة متعددة المناهج والآليات ونظريات التلقي. لأنها نص مفتوح، يتسع لكل القراءات. ولقد كنت مهتماً بهذه الرياضة الفكرية، منذ حملة الانتخابات ل(جون كندي ت ١٩٦٣م)، الذي لم يكمل مدته، حيث اغتيل، وظلت عملية الاغتيال غامضة إلى يومنا هذا، وظل الحادث مشروع دراسات وتأبينات تثير الفضول، وما الغيلة إلا نتيجة متوقعة لكل مغرد خارج السرب، فأمريكا تحكمها المؤسسات السرية والعلنية، ولا مكان فيها للاستبداد الفردي، وبإمكان المتردد استعراض قائمة الاغتيالات التي اتهمت بها المؤسسات المعنية بتصفية أي عنصر يشق عصا الطاعة.

والحملة الانتخابية في أمريكا بالذات وجبة شهية للخلي وللشجي، ولهذا كانت رغبة الكتابة عن ضجتها تساورني منذ البدايات الأولى لها، ولا سيما بعد أن طالها شك التزوير، وخضعت للمراقبة الخارجية لأول مرة. ولما أزل أمني النفس بالحديث عن أمريكا خارج ظروف الصخب الانتخابي، بوصفها الفاعل الرئيس في كافة المشاهد، والموضوع الأهم لكافة المتحدثين ولقد أحسست أن الحديث عنها مطلب لكل المكتوين بنار انحيازها المكشوف والمسحوقين بجرائر حربها الظالمة، ولما كنت أحوج ما أكون إلى قراءتها بلسان قومها، بعيداً عن تشنجات الساخطين، ولغط الاعلاميين، وهلوسة المبهورين، كان لا بد من الإصاخة للشاهد من أهلها، والوقوف على آراء الساسة والمفكرين الغربيين، ومن ضارعهم في التجربة والمعرفة من محترفي السياسة وقرائها العرب أمثال (هيكل) وبخاصة في كتابه الأخير (الإمبراطورية الأمريكية والإغارة على العراق). ولهذا كان همي متجهاً صوب ما ترجم من مؤلفات اساطين الفكر والسياسة الأمريكية وكافة الناشطين في البحث عن تجليات الحرية، و(الديمقراطية)، وحقوق الإنسان المتداولة إعلامياً على ألسنة مسؤوليها في سبيل تبرير تدخلاتها. وأمريكا لا يستوعبها الناظرون إليها من خلال مطل (البيت الأبيض)، ولا الذين يمتعون أسماعهم وأبصارهم وأفئدتهم بممارستها للديمقراطية وللحرية وتوفير حقوق الإنسان الأمريكي الأبيض، ولا الذين تبهرهم منجزاتها العلمية والمعرفية، ويشدهم استقبالها لكل المفكرين

---

(١) تاريخ المقال: ٢٣/ ١١/ ٢٠٠٤

والعلماء، ويعجبهم احتفاؤها بالنظريات، وحفولها بالتجارب، وهيمنتها على اقتصاد العالم. إنها أطياف كما (قوس قزح) أو كما (المرآة في كف الأشل). أمريكا عوالم لا تحسم أمرها صرخات المقهورين ولا هتافات المبهورين ومع هذه الاستحالة فقد هيئت لي في صيف هذا العام إمكانية المرور بأكثر من عاصمة عربية، والمرور بما أقيم فيها من معارض دولية للكتاب، وحضور ما نفذ فيها من مؤتمرات: فكرية وسياسية وأدبية، وما احتدم من مناقشات في (اللوبيات) بلغت أقصى حد من التناقض، فمن لاعن مشيطن إلى مسبح مقدس. فكان أن اتخمت بما سمعت ورأيت، وعدت بجر الحقائب من الكتب التي تتخذ من السياسة الأمريكية مجالاً لها، وبخاصة ما كان مكتوباً بأقلام ابنائها: المختلفين مع سياستها الخارجية، أو المثقفين معها: من مأجورين أو ناقمين على ردود الفعل العالمي، ممن يميلون معها كل الميل. ومن منصفين لا تأخذهم في الحق لومة لائم، ولا يجدون حرجاً في أنفسهم من أن يقولوا كلمة الحق، ويشهدوا ولو على أنفسهم.

والمتابع للراصدين والمحللين يذكر (روجيه جارودي) في شعرات الكتب، ومن أهمها ثلاثيته (قضية إسرائيل)، وإن كان فيما بعد قد ضل الطريق، ووقع في نخاسة الفكر، و(نعوم تشومسكي) في كتبه: (قراصنة وأباطرة) و(الأمريكية) و(ضبط الرعاع) و(تواريخ الانشقاق) وهما كتاب واحد ترجم مرتين، و(الصدمة ١١-٩) اضافة إلى الكتب التي ربما أنها أحدثت تحولاً في الرؤى والتصورات، مثل (صدام الحضارات) و(نهاية التاريخ) و(غطرسة القوة) و(درب السلام) و(العراك الدولي لتحقيق المزيد من المكاسب) و(من يجرؤ على الكلام) و(الاستعداد للقرن الحادي والعشرين) و(لعبة الأمم) و(اللاعب واللعبة) وكتب أخرى وكتاب آخرين، قد نستدعيهم كشواهد إثبات.

وكل هذه الكتب تستمد مادتها من مطابخ (البيض الأبيض)، وقد تشكل عمليات الانتخابات جانباً من المقبلات، فالفترات الرئاسية حواضن التجليات أو الاخفاقات وفي الأشهر الثلاثة الأخيرة من أي فترة رئاسية يكون مرشح الحزب قد أخذ طريقه إلى منازلة الخصم، وذلك مدعاة لانشغال وسائل الإعلام بمخاضات الانتخابات التي تشكل ما بعدها - كما يتوهم البعض - ومع حدة الجدل، لم يلتفت أحد إلى الطرف الآخر (العالم الثالث)، ليسأل عما يفعل بعد أن يجد الرئيس المنتخب طريقه إلى (البيت الأبيض). ولهذا لم أكن أرى مبرراً لهذا الاهتمام بهذا الحجم، وإن كنت لا أجد بداً من متابعته، إذ فيه على الأقل رياضة فكرية، والرئيس الفائز مرتهن لذوي الفضل والإحسان عليه ممن أدخلوه البيت الأبيض، إلا أن له دوره الترجيحي أو الإقناعي أو الترددي في بعض القضايا، كما أن له دوراً في تشكيل حكومته المستجيبة لجماعات الضغط، فإما أن يجعلهم صقوراً أو حمائم أو يزاوج بينهما وتبقى القرارات المصيرية من شأن المجالس والهيئات المخترقة بأكثر من حيلة. والتعويل المطلق على (أجندة) الرئيس الانتخابية بناء على جرف هار. وإخفاقات الرهان على الفوز مرده إلى أن المراهنين يحلون أنفسهم محل الناخب الأمريكي، ويحملون معهم همومهم الاقليمية ويتصورون أنهم القضية الأهم في (الأجندة) الرئاسية يطلبون الحل، ولا يناشدون التخلي، فأمريكا لو تركت الشرق للشرقيين، لكان أن قام الصراع بين أقطاره وتياراته، وفي النهاية فالبقاء للأصلح أو للأقوى. وأضعف الأحوال أن تكون العملية بيد صاحب الشأن على حد: (بيدي لا بيد عمرو) ولما كان العرب والمسلمون مكتوين بنار الحروب الاستباقية التي استعرت بعد الحادي عشر من سبتمبر. ولما كان (البيت الأبيض) مرتهنا لضغوط اللوبي الصهيوني، ومتشبعا بقناعات اليمين الإنجيلي الذي يرى تجمع اليهود في فلسطين قضية عقدية، ولما كانت الحربان الشرستان الظالمتان في (أفغانستان) و(العراق) لم تحققا للشعبين المسلمين أي مكتسبات، فإن التخرصات حين لا تكون مرتبطة بهذه الأحداث، تكون من الرجم بالغيب.

والرهان العربي لم يجد التخفيف من معاناته إلا بالمرشح الديمقراطي (جون كيري)، إذ لا يمتلك أحد منهم مبادرة ذاتية، يستغني فيها عمن سيدخل البيت الأبيض. والرهان على المرشح (الديمقراطي) حفز الأقليات العربية والإسلامية في امريكا على التطوع في الحملة الانتخابية لصالحه، وكان التعويل على فوزه.

وأخشى أن يعود انحيازهم بموقف متشدد من (بوش) يحول دون تمتعهم بأبسط حقوقهم. ولأنني أعيش حالة من الإحباط واليأس، فقد تساوت عندي الليلتان، على حد: (ما أشبه الليلة بالبارحة)، وكلما دارت حول الرجلين مقولات عاطفية، تذكرت (شهاب الدين) و(حسام الدين)، فالمسألة بكل المقاييس داخلة ضمن خيارين أحلاهما مر. ومصائب الأمة العربية ليست حصراً على الرئيس المنتخب، بحيث تضع الأمة كل بيضها في سلته، إنها أعمق وأعقد من ذلك كله. ومتى علقت الأمة آمالها على الرئيس القادم، أصبحت كمن يلهث وراء سراب القيعان. وأذكر انني ذات يوم كنت أتحدث مع مجموعة من المهتمين بالشأن الانتخابي، ولم أكن أكثر من مثير ومستمع، ويومها قال أحد المتابعين: إن الفوز سوف يكون للرئيس (جورج دبليو بوش) واستغرب البعض هذا التوقع، تحت تأثير الكره المتأصل في النفوس، مع ما يعيشه (بوش) من اخفاقات كثيرة على المستويين: الداخلي والخارجي، غير أن صاحبنا المتابع ساق طرفاً من المبررات اللافتة للنظر، كالقول بأن (كيري) يهودي متنصر، ومغرم بالأرامل الثريات، فليس له قبول ديني ولا عشق نسائي.

ومع أن الرئيس (بوش) قد فاز فعلاً، إلا أن تلك الحيثيات قد لا تكون السبب الرئيس في النجاح. كما أن الفوز لم يكن كاسحاً، لا في الفترة الأولى، ولا في الثانية. واضطرابات الفوز التي تعرضت لها عملية الانتخابات الأولى، كادت تعود مرة ثانية، لولا ان حسمها (الديمقراطيون) بإعلان الهزيمة في وقت مبكر. ولم أعهد رئيساً من قبل تعرض لمثل هذه الاحتمالات، مثلما تعرض لها (بوش). وبهذه البوادر المخيبة للآمال، لم يكن هو الخيار الوحيد للناخب المكره، وكل الذي أتصوره أن خيار الشعب الأمريكي محصور في سببين:

الأول: أن (بوش) بدأ حرباً غير شرعية، وهي لما تزل في ذروتها، والشعب الأمريكي مع خيبة أمله، لا يريد مزيداً من الترديات فيما لو جاء رئيس جديد، فالشعب يريد أن ينهي الرئيس مغامرته بنفسه وعلى مسؤوليته.

الثاني: أن (الديمقراطيين) لم يكونوا موفقين باختيار مرشحهم، فأصبح خوف الأمريكيين من دخول (كيري) للبيت الأبيض، وهو دون المستوى المطلوب ملجئاً إلى الرئيس (بوش)، ويمكن استذكار خطئهم عندما اختار (آل جور) نائباً يهودياً فاليهود وإن كانوا من أقوى جماعات الضغط إلا أن الشعب الأمريكي لا يقبل دخولهم البيت الأبيض كرؤساء وذكاء الحزب الجمهوري أبقى على خلافات الحكومة حتى فاز بفترة ثانية، ثم تلاحقت الاستقالات، وبالذات وزير الخارجية الذي يعد حمامة في جماعة الصقور.

وإشكالية زعماء العالم المعاصر كافة أن ثورة الإعلام والاتصالات، والتوفر على أدق التفاصيل بالصوت والصورة وبشكل فوري وميسر، كشفت المخبوء، واسقطت كل الأقنعة، وأطفأت ألق الزعماء المصطنع، ولم يعد أحد منهم وراء حجبه الخادعة، مما زهد الناس بهم جميعاً، وأذهب هيبتهم، وحولهم من التصنيم إلى الأنسنة. ولو عاد عمالقة الخمسينيات والستينيات إلى المشهد السياسي من جديد، لكانوا كما (بلير) و(بوش) و(شيراك)، ذلك أن زمن الاحتجاب ليس كزمن التجلي، وفي المثل (أزهد الناس بالعالم أهله) لمعرفتهم الوجه المحجوب عن العامة. ولعل تخلي من يحق له الانتخابات عن حقه دافعه الإحباط، فالجاذبية الشخصية لم تكن ممكنة في ظل الوهج الإعلامي.

ومع كل الإمكانيات المتاحة فإن مفاجآت الانتخابات تلجئ الحيارى إلى قراءة الكف السياسي والاستنجاد بالمشعوذين، وتحمل متاعب البحث عن أدق التفاصيل لفك الشفرات

المطلسمة ومهما حاولنا التنبؤ فإن نبض الشارع الأمريكي مخادع، ومخالف لكل التوقعات، الأمر الذي جعل الرهانات عليه تبوء بالفشل الذريع، فهو لا يختار بالفعل رئيسه بمحض إرادته، بحيث يستدعيه من الظل، بعيداً عن جاهزيات الأحزاب واللوبيات والشركات المتعددة الجنسيات.

إن أقصى ما لديه أن يفاضل بين مرشحي الحزبين الرئيسيين، وقل أن يظفر مستقل بالفوز، ذلك أن مرشحي الأحزاب حملوا بمحفات نسجتها أطماع الشركات.

فالطريق إلى (البيت الأبيض) تمهده مئات الملايين من الدولارات التي لا يقدر على توفيرها مستقل لا ينتمي لحزب، ولا يمالىء شركة، ولا يسيطر على إعلام، فمئات الملايين تملكها الشركات العملاقة، والكلمة النافذة تملكها المؤسسات الإعلامية القوية، والمسألة في النهاية: (مادة وإعلام)، ومقال (تشارلي ريس) الديمقراطية في خطر (الوطن ٥-١٠- ١٤٢٥هـ) تعبير صادق عن زيف الانتخابات وارتهان الرئيس للممولين.

ولما كان اليهود أكثر الأقليات امتلاكاً لهذين العنصرين، فقد كانوا من أقوى جماعات الضغط ومثلما قيل عن (المال) و(الإعلام) قيل عن اليمين المتطرف، وعن الأصولية، وعن المتدينين، الأمر الذي أدى إلى تهميش العنصرين: المادي والإعلامي في خطاب المحللين، وإحلال العنصرين: الديني والأخلاقي.

وهذه الرؤية وإن كانت محتملة لا تأخذ مكانها في سياق رؤى مماثلة وهؤلاء الذين يمترون أخلاف المؤشرات ما ظهر منها وما بطن، يأخذهم شيء من التفاؤل الحذر، فالاعتدال والأخلاقيات، وتمتين العلاقات مع الأصدقاء التقليديين، هي بعض (أجندة) الأصوليين الذين ثبتت الكنائس أقدامهم، وكثرت سوادهم باستغلال العاطفة الدينية المسيطرة على أكثر من أربعين بالمائة من الشعب الأمريكي ولو صدقت هذه الرؤية - مع أننا لا نقلل من شأنها - لكان الفوز كاسحاً ولما لم يكن كذلك فإن الأسباب الرئيسة والحاسمة غير ما أشار إليه المحللون والراصدون، والمسألة في النهاية ستكون مثل (كرة الثلج) تزداد بالدحرجة.

المحو والإثبات بين خطاب الكسب .. وكسب الخطاب .. ! (٢) [(١)]

ومهما اقتربنا أو افترقنا في وجهات النظر فإن نتائج الانتخابات تدل على أن الشعب الأمريكي يعيش حالة من الإحباط والتردد واليأس واللامبالاة، إذ لو حسم أمره، لكان كل من يحق له الانتخاب متمتعاً بحقه في التصويت، ولكان أحد المرشحين مكتسحاً للآخر، ولست مع الذين يحتجون بأن (بوش) فاز بالأصوات الشعبية، بحيث فاق خصمه بأكثر من ثلاثة ملايين صوت، وهي التي لم يحصل عليها مع (آل جور)، وهو قد فاز بالولايات أيضاً، ففوزه في نظر المحتجين مضاعف، ولست مع الذين يأنسون بارتفاع نسبة الناخبين عن ذي قبل.

تلك الرؤى وإن كان لها ما يبررها، إلا أنها رؤى تواجه برؤى أخرى تفلُّها، وقد تضعف من قيمتها، ولقد قيل إن السباق إلى (البيت الأبيض) تجاوز التنافس الشخصي إلى التنافس الحزبي، فالشعب الأمريكي فاضل بين الحزبين، ولم يفاضل بين المرشحين، والقائلون بهذا ينظرون إلى ظفر الحزب الجمهوري بأكثر المقاعد التشريعية، والمعروف من خلال تعاقب الحزبين أن اهتمامات (الجمهوريين) خارجية، وذات نفس إمبراطوري، فيما تجيء اهتمامات (الديمقراطيين) داخلية، وذات نفس تحرري، يتعلق بالأحوال الشخصية، وليست السمة على إطلاقها، ولكنها قائمة ومتداولة، ولو أخذت فترات (ريجان) و(البوشين): الأب والابن بإزاء فترتي (بيل كلنتون) لكان أن تجلت الفوارق الجذرية التي قد لا يرصدها إلا من دقت ملاحظاتهم وبعدت نظراتهم.

و (بوش) الذي يستقبل فترة رئاسية ثانية، بفضل (الحزب) أو (الدين) أو (الحرب الملوحة بشبح (الفتنمة) تواجهه إشكاليات، لم تحصل لمن سبقه، أخطرها: تخفيف حدة التصدع المخيف في الوحدة الموقفية الأمريكية من فلسفة الانتخابات واتجاهاتها، والخلوص من مآزق التدخلات العسكرية المأساوية التي ضاعفت الخسائر البشرية والمادية وأضعفت السمعة، وتخليص النظام العالمي الجديد من عقدة الولاء المطلق لأمريكا، والتخلص من نعرة القوة ونشوة القطبية، وتحديد مفهوم الأمن القومي، بحيث لا يشمل (إسرائيل) والأطماع ومواطن النفوذ، وفك الاختناقات الاقتصادية، والعودة الطوعية لسلطة المؤسسات العالمية، وحماية قراراتها واحترامها، وفوق كل ذلك تحقيق أفكار الدستور الأمريكي ومُثُله، وتمثله عقيدة ومنهج حياة، كما هي مفصلة في كتاب (مورتمرج أدلر) (الدستور الأمريكي أفكاره ومثله)، وكل واحدة من هذه الإشكاليات تحتاج إلى فريق عمل يختلف عما سواه، ولا أحسب فريق الصقور المندفع بقادر على أن يحسم هذه الأولويات الملحة، ولا أحسبه مستعداً لنقل القضايا من ميادين الحرب إلى قاعات المناقشة.

إن انتصار (بوش) المتواضع في الفترتين مؤشر اضطراب وتردد في الفكر الأمريكي، وخوف من عقابيل الحروب التي كاد ينفرد بها (الحزب الجمهوري) وفريق الصقور الذي ظهر استئثاره بالحقائب المهمة بعد موجة الاستقالات، واستبداده في التصرف إلى حد جعل الكتّاب والمحللين الأمريكيين يوغلون في الذم، والسخرية والتخوف، وتلك سابقة غير معهودة من قبل، وحين نستدعي الفترتين الرئاسيتين ل (كلنتون) نلفيهما قد شهدنا ضربات خاطفة، مع ما تحقق من فائض فاق الأربعمائة مليار دولار، فيما تجاوز العجز في فترة (بوش) الستمائة مليار، إضافة إلى حرب خاسرة: على الصعيدين الحسي والمعنوي.

(١) تاريخ المقال: ٧/ ١٢/ ٢٠٠٤

وقد يتفاقم تصدع الذهنية الأمريكية بعد فشل الحكومة في محاربة الإرهاب، وذهاب السمعة، واستفحال الكره العالمي، ليكون بداية حرب ثقافية على الأقل، وكل حرب أهلية أو اضطراب داخلي، لا يمكن أن يأتي من فراغ، وفوق هذا فإن أصحاب القرار في المؤسسة الأمريكية يتعرضون بممارساتهم التوسعية والعسكرية لأسباب سقوط الإمبراطوريات، فكل الإمبراطوريات أنهتها الحروب التوسعية وتصعيد العداوات، ومن تعقَّب أسباب سقوط الدول وجدها ربيبة الظلم وغطرسة القوة، والشعب الأمريكي المختلف حول أهلية المرشحين بهذا القدر لن يدع الأمور تمضي كما يريد الحاكم بأمره، إن هذا الوضع غير السوي ينطوي على حرب شرسة: ثقافية وسياسية. ولن يطفئ لظاها إلا شخصية تنتزع الثقة، وتكتسح الخصم من أول يوم.

أما أسلوب الضربات الترجيحية فإنها تشكل عذابات للضمير الأمريكي المرتبك، وحين لا يكون الانتصار كاسحاً، يعيش الطرفان حالة من الإحباط، وبراعة الأحزاب في دراسة النفسيات، وإتقان الفن الدعائي يأتي بالعجائب، ولكن تكافؤ الفرص والإمكانيات تكون كما سباق الجريمة، كلما خرج المكافح بأسلوب حاذق جاء المجرم بحيلة أحذق، وهكذا. والحزب الجمهوري لا شك أنه ببراعته وتجربته استثمر أخلاقيات اليمين المتطرف، لكسب العاطفة الدينية، وبخاصة أنه سيقف ضد مشروعين قذرين:

(مشروع الشذوذ) و (مشروع الإجهاض).

إلا أن أولويات الشعب الأمريكي فيما رأى، تتجه صوب شيئين آخرين هما:

(الاقتصاد القوي) و (الأمن القومي).

وهو ما لم يكن من أوليات الرئيس (بوش) وحزبه، وبخاصة أنه يعيش حالة الحرب الخاسرة على كل الصعد، وهي حرب تصب في صالح الصهيونية وتفقد أمريكا زعامتها النزيهة للعالم، وإن صمت الكبار، وشايع الصغار، فيما تتضاعف ديون الدولة بمئات المليارات، ولمَّا يستفد (بوش) وإدارته من المعالجات الحكيمة التي مارستها الحكومات الأمريكية السابقة، وحققت لها ولحلفائها مكاسب لا تخطر على البال، دون إراقة الدماء، أو تعميق للكره، فهذا (هنري كيسنجر) مهندس أعنف الحروب الباردة ينجح في فرض إرادة حكومته في قبول طريق السلام، وتنفيذ أخطر اللعب السياسية، ولقد جسد بعض ذلك في كتابه (درب السلام الصعب) ومن قبله (روبرت مكنمارا) في كتابه (ما بعد الحرب الباردة) والذي ذهب فيه إلى أن الأمن الحقيقي هو المؤسس على (قواعد القانون) الذي يحكم علاقات الأمم، ولا يحتاج إلى ضربات وقائية أو استباقية، وهو ما لم يأخذ به (بوش)، وكذلك كتاب الرئيس (ريتشارد نيكسون) (السلام الحقيقي)، وكم أتمنى لو تمكن (بوش) من استظهار هذا الكتاب الذي يعد عصارة تجربة رئاسية عظيمة، لم يكتب لها الاستمرار، بسبب ممارسة بسيطة، أعطيت أكبر من حجمها، فأسقطت أحكم وأنجح رئيس معاصر، إن فائدة هذا الكتاب قائمة على الرغم من ذهاب (الاتحاد السوفييتي) الذي يضرب به الرئيس الأمثال.

والذين يتحسسون عن أسباب نجاح (بوش) بالانتخابات في ظل أوراقه الخاسرة، تضطرب مفاهيمهم وتختل مقاييسهم، فهل كان (بوش) بطلاً قومياً انتصر لأمته يوم أن ضُربت قوتها: الاقتصادية والعسكرية؟ أم كان مغامراً ينكبّ عن ذكر العواقب جانباً؟ إن مواجهة (بوش) للإرهاب لم تكن متأنية ولا محدودة، ولا مدروسة، ومن ثم أصابت أقواماً ليسوا مع الإرهاب، فضلاً عن أن يكونوا فاعلين له، إن خسارة (بوش) بهذه المغامرة الخطرة، وبما مهد لها من تصريحات استفزازية ومواقف حدية، وخطابات اشمأز منها العالم الإسلامي، وتوقع منها كارثة عالمية، حتى لقد استساغ الكتّاب الأمريكيون أن يقولوا

عن (بوش) وفريقه: إنهما الوجه الآخر للإرهاب، أو أنه و (ابن لادن) وجهان لعملة واحدة، ومثل هذا القول ينطوي على خطورة ذهنية، لأنه لا ينطلق من فراغ.

وتداعيات هذه الأقوال تحيل إلى خروج (بوش) على الأعراف السياسية، وقفزه على المؤسسات العالمية، لقد غامر في خوض حرب شرسة، أدت إلى فراغات دستورية في دولتين منهكتين من قبل، فهو في أفغانستان يطارد أشباحاً ويصب جام غضبه على الكهوف والمغارات والأودية ومنابت الشجر، وتلك الحرب مدانة عالمياً، وإن سايرها البعض رهبة لا رغبة، ولا أحسب الشعب الأمريكي من الغباء بحيث ينظر إلى (بوش) على أنه بطل قومي، وأن هذه البطولة مكنته من الفوز. ولقد عمد البعض إلى تلمس الروح العدوانية السلطوية الإبادية عند الشعب الأمريكي، واتخذ طريق الفلسفة التحليلية الاسترجاعية، جاء ذلك في مستهل كتاب (هيكل) الأخير عن أمريكا، وفي ذلك تمحل طريف، لقد خاض (بوش) حربين مجانيتين، فقَدَ فيهما المال والرجال والسمعة، ولم يكن العائد متكافئاً مع ما أنفقه من مال، وما أزهقه من أنفس، وما قضى عليه من بنية تحتية، ستظل أطلالها شاهد بشاعة ووحشية، ولا أحسب تلك المغامرة غير الإنسانية إلا معجلة بالوجود (الصيني) و (التكتل الأوروبي) ليكونا بديلين عن (الاتحاد السوفييتي) المنهار، وسوف يعجل الخصم الإسلامي بظهورهما، كما عجل من قبل بسقوط (الاتحاد السوفييتي)، وكل مستخف بالقوة الإسلامية المعنوية والبشرية لا يمكن أن يظفر بقيادة العالم، وبظهور الأنداد تفقد أمريكا لذة القطب الواحد، ثم لا يكون لعمليتي (المحو والإثبات) أي قيمة، وبالفعل فإن القول بجلب الديمقراطية والحرية وتخليص الشعوب من تسلط الحكام، تكشفت عن خدعة ممجوجة، لا تثبت أمام الحقائق الدامغة، وإن انطلت على البسطاء من الناس والمتسطحين من الكتبة، وما أضر بقضايا الأمة إلا المختصمون حول الضحية، والعدول عن المعتدي، وتلك الخليقة من مؤشرات قابلية الاستعمار، ومن المؤلم للناخب الأمريكي أن تتحرك أقوى آلة عسكرية في العالم لمواجهة أمتين إسلاميتين منهكتين، تحت أغطية زائفة، كمكافحة الإرهاب، أو منع سباق التسلح، أو تعزيز الأمن القومي، أو تغيير الأنظمة أو إصلاحها، والحق أن تحريك تلك الأساطيل المرعبة ما كان إلا لحفظ التوازن بين دول المنطقة و(إسرائيل)، واحتواء المغردين خارج السرب بالقوة، وهل أحد يقبل أن يكون دون إسرائيل في القوة، وهي لا تشكل نصف سكان عاصمة عربية واحدة ك(القاهرة).

وحين نسلم بأن (بوش) ليس بطلاً، وإنما هو مغامر بقوته وسمعته ومجازف بعلاقاته مع الأصدقاء والحلفاء، فإن طائفة أخرى ترى أن فوزه بوصفه الرئيس المتدين الأخلاقي الذي لن يعرض أخلاقيات الشعب الأمريكي لدعوات الشاذين جنسياً والمتوحشات الداعيات إلى الإجهاض، وهذا التعويل الساذج يواجه بفوز (كلنتون) لفترتين رئاسيتين، وهو رجل لا أخلاقي، لا في سلوكه، ولا في اهتماماته لدى الناخب الأمريكي.

وحين نسقط السببين السابقين، أو حين يسقطان أمام ضربات الحقائق، تبقى حيثيات واهية، لا تستحق الاستعراض، لعل من أهمها اللعبة الإعلامية التي زرعت الرعب في قلب الأمريكي من ضربات الإرهاب في عمق الأراضي الأمريكية، و (بوش) الذي كذب على الأمة الأمريكية بمبررات التدخل العسكري في (العراق) لم يحاسبه الرأي العام الأمريكي على كذبته، وهو قد أرهق (كلنتون) في كذبة إنسانية، لأنه أراد المحافظة على صفاء العلاقة الزوجية، وأرغم (نيكسون) على الاستقالة في أعقاب عملية (التصنت)، والسبب بسيط، ذلك أن وراء الأكاذيب (لوبيات) تضخم ما تشاء، وتهون ما تشاء، للإبقاء على ما تريد، ونفي ما لا تريد، والشعب الأمريكي عاطفي، يلهث وراء الإعلام، وأحسب أن كلاً من (ماكس سكيدمور) و (مارشال كارتر دانك) بحاجة إلى إعادة النظر في كتابهما

(كيف تُحكم أمريكا)، ذلك أن الحاكم المستبد هو (اللوبيات) و (جماعات الضغط) و (اليمين المتطرف) الذي يمثله جماعة الصقور، ولم يكن شيئاً غير ذلك، وإن كانا قد تحدثا عن (مجموعة أصحاب المصالح) وتأثير جماعات الضغط في السياسة.

إن الفترة الثانية ل (بوش) ستكون رهينة المجازفات العسكرية في الفترة الأولى، وهي فترة ستسبب له ولحكومته وللعشب الأمريكي الكثير من المتاعب والكثير من الخسائر: المعنوية والحسية.

لقد أومأ (روبرت مكنمارا) إلى جرائر خمس وعشرين حرباً دائرة في العالم خلال عام ١٩٨٨م وكانت ممولة من القطبين.

إن من يقرأ كتابه يتصور أنه يتحدث عن فترة (بوش) الأولى، وأياً ما كان (المحو والإثبات) و (خطابات الكسب) و (كسب الخطاب) فإن الشعب العربي بحاجة إلى أن يرتد إلى الداخل في عملية مكاشفة شجاعة مع النفس، وتقويم منطقي للواقع والمستقبل، ومراجعة جريئة للمناحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية والإعلامية، وبحاجة ماسة إلى تنازلات في الآراء والتصورات والمواقف ليكون في مستوى الأحداث الرهيبة القائمة والمرتقبة، وهي أحداث لا يستخف بها إلا خلي يتصور الثبات في الأحوال، وبخاصة أن أمريكا ومن ورائها الصهيونية العالمية ترى أن الأمن القومي ذو ثلاث شعب:

(أمن قومي) و (أمن صهيوني) و (أمن مصلحي).

وأن الضربات الاستباقية والوقائية ستطول كل من تسول له نفسه التأثير على الأمن القومي بمفهومه الجديد، ولابد -والحالة تلك- من اتخاذ موقف متقارب، ينطلق من الواقع، ويحسب للإمكانيات حسابها، لعل ذلك يحد من تدهور العلاقات العربية العربية، وعلاقاتهم مجتمعين مع الآخر، ويفكر بالتخلص من بدائية المؤسسة السياسية واستبدادها، ثم يصوغ خطاب المواجهة، لتجميع الأشلاء، وتنقية الأجواء، واحتماء الاعتداء في زمن الصمت العالمي المداري إلى حد الخوف، ولا بد أن يكون من أولويات الصياغة الدفاع عن الإسلام ومؤسساته الدعوية والخيرية بوصفه القوة المعنوية التي لا تقهر، والمشروع الحضاري الذي لا يتسع للعنف، وليس في يد الأمة ورقة رابحة إلا الخطاب الإسلامي الوسطي التسامحي الجانح للسلام، الخطاب الذي يستبعد العنف، ويتخلص من مأزق المفاضلة والتصدير، وليس الطائفي الحزبي الثوري التصادمي المتشنج، ولن يتحقق الاعتراض الشجاع من الدول الكبرى، حتى يسمعوا أصواتاً عربية متداعية، تمثل حضارة تشاطر العالم في بناء الأمن والاستقرار العالمي، فالإسلام لا يريد للإنسانية أن تعيش الخوف والتسلط والعبودية والاستبداد، الإسلام ينطلق من تكريم بني آدم أولاً، ثم دعوتهم إلى ما يحييهم ثانياً، وإبلاغ كل سامع لكلام الله مأمنه، إنه خطاب إنساني حضاري ينبع من فطرة الله التي فطر الناس عليها، وأي خطاب قطري أو طائفي أو قومي سيكون في النهاية لقمة سائغة للآخرين.

من شرم الشيخ إلى شرم الأنوف .. !(١)

هاجسي أبداً مع اللقاءات، مهما تواضعت عوائدها، فالملتقون على الموائد المستديرة، قد ينقلون لغة التخاطب من دويّ المدافع إلى همس الحوار، أو على الأقل يخففون من الاحتقانات المحتملة للانفجار. وكل متابع لا تعدو عيناه إلى ما يملكه أصحاب القرارات النافذة، يظل قانعاً بما آتاه الله، فلا يكلّف المؤتمرين فوق طباعهم، فيكون كملتمس في الماء جذوة نار. والمؤتمرون أخلاط من الأقوياء ك(الثماني الصناعية)، والأقوى ك(أمريكا)، والضعفاء ك(منظمة المؤتمر الإسلامي)، والأضعف ك(جامعة الدول العربية)، و(دول الجوار).

والمقبلون على الاجتماعات أناسيّ، تحكمهم ظروف دولهم وواقع أمتهم، وهم مرتهنون لواقع يمتد ضعفه وتخلّفه منذ (المُلْكِ العضوض) الذي أخبر به من لا ينطق عن الهوى. والمؤتمرون في ذواتهم ليسوا ملائكة ولا شياطين، وكل وافد منهم بائع نفسه فمعتقها أو موبقها. ومن الصعب ان تقوّمهم كلمة واحدة جامعة مانعة، أو ان يشملهم حكم مطلق، فلا يندّ أحد بسابقة، ولا ينجو منتد بشعور. وإنما يحاسبون على نيّاتهم، ويقوَّمون على أساس مقاصدهم، وما بدر منهم، أو من دولهم من قول أو فعل. فمنهم المخذِّل، ومنهم المداهن، ومنهم الحريص على تأزيم المشاكل، ومنهم الساعي لإفشال اللقاء، ومنهم الملمِّع لنفسه على حساب الأشلاء والمستضعفين، ومنهم الغبي والمتغابي ومغسول المخ والخادع أو المخدوع باللعب السياسية. وقليل منهم من يحمل هماً إنسانياً، ويعرف كل من يلقى بسيماه، ويفرز الناس من لحن القول. ومع تداعيات الإحباط لا يني في السعي لحقن الدماء، ودفع الضر عن المتضررين. وشعوره بما هو عليه من شح في الإمكانيات، وهوان على الناس، ويكون كمن لا يحملون أنفسهم، ولا يجدون من يحملهم، فيتولون من المؤتمر، وأعينهم تفيض من الدمع حزناً. وكل مقبل تحكمه إمكانيات دولته، ومدى قدرته على إسماع صوته. ولهذا لا نزكّي الجميع ولا نجرّمهم، ولا نريد من حديثنا ان نحبط، ولا أن نخذل، ولا أن نشمت، وفي الوقت نفسه لا نريد من المتابعين ان يتصوروا ان مؤتمر (شرم الشيخ) سيندّ عما سلف من المؤتمرات، أو أنه يمتلك القدرة الخارقة على تصفية الخلافات، وفك الاشتباكات، وإعادة السيادة لكل من سُلبت منه ظلماً وعدواناً، وإرغام الناس على استتباب الأمن، مع صلف المحتل وعنته، ولا أن يظنوا الائتمار عملاً بطولياً، داخله مفقود وخارجه مولود، ولا أن يعدُّوه نزهة ساحلية في بلد توفرت فيه كل متطلبات الرفاهية. لقد تداعت الأمم له، ولكل مهاجر إليه مقاصده، وما أكثر مهاجري (أم قيس).

إنه في النهاية لقاء، كأي لقاء سلف، يتعثر بتعارض المصالح وجور الرغبات، وأقل ما يصفه به المتفائلون، انه محاولة متواضعة للخروج بتوصيات متوازنة، تراعي مشاعر كل الأطراف، وتحاول التقريب بين وجهات النظر. وقد يكون لمجرد تخدير الأعصاب، وتفويت أي فرصة لمزيد من الانفجارات المؤلمة.

وإشكاليته المستعصية ان المؤتمرين جاؤوا لاستعادة الأمن في العراق، وتهيئة الأجواء للانتخابات، ودعم الحكومة، وتأييد المحتل، متزامناً مجيئهم مع اجتياح (الفلوجة) وتضارب المواقف حول مشروعية اقتحامها، وهدم البيوت على الساكنين، وتقويض المساجد على المصلين، والإفراط في استخدام القوة والقصف العشوائي، إضافة إلى واقع عربي غير سويٍّ، فيه ضعف وتفكك، وكل قطر يفيض بالمشاكل، وتخنقه الأزمات،

---

(١) تاريخ المقال: ٣٠/ ١١/ ٢٠٠٤

وتخيفه المصائر. وكل وافد له تغريده الذي لا يناغم غيره، إذ ليس هناك سرب واحد، بحيث يحتمل تغريد البعض خارجه.

وفوق ذلك كله فـ(أمريكا) التي تحتل العراق، ثم لا تقدر على إقامة أدنى حد من الاستقرار، ولا تستطيع ان تحدد موعداً لحسم المشاكل، ولا زمناً للخروج منه، وتسليمه لحكومة شرعية قوية، تملأ الفراغ السياسي الذي أحدثته باحتلالها، وتعيد له بعض عافيته التي سلبتها غطرسة القوة. هذه الدولة القوية العاجزة، جاءت لتقرأ التوصيات قبل إعلانها، ولتفرض إرادتها على المؤتمرين. وكل مشارك إما راغب في كسبها المشوب بالحذر، أو خائف من غضبتها المضريّة الضرر. لقد عصفت رياحها، ولكنها لم تقتلع أحداً، لأن الجميع انحنت رؤوسهم، ولسان حالهم يردد: (اللهم لا أسألك إلا نفسي) الأمر الذي مكّنها من حمل المؤتمرين على دعم الحكومة العراقية، وتأييد الفعل الأمريكي، وتعليق الخروج من العراق. حتى لقد جاءت الصياغة حمالة لأكثر من قراءة. وجاء (كولن باول) في اللحظات الأخيرة من عهده، ليلقي في روع المؤتمرين ما يريده فريق الصقور الزاحف صوب (البيت الأبيض). لا نقول هذا تطاولاً على حدث عالمي، ولكنه (البدُّ الذي ليس منه بد). وما أكثر الكتّاب والمحللين الذين سيسخرون من البيان، ويشمتون بالمؤتمرين. ولو ان أحدهم تصدّر الجلسات، لسوّغ لنفسه التوقيع على بياض، وذلك مصدر الارتباك الذي يتخبط به المتابع العربي، فراكب الموج العاتي لا يقاس بمن رسا قاربه على شط الأمان، ومن رجله في الماء، ليس كمن رجله في النار، إنه زمن العض على جذوع الشجر. ومع هذا فلا بد من التفكير في مخرج، ولو كان كسَمِّ الخِياط، ولن يتحقق شيء من الانفراج إلا بالصبر والمصابرة والمرابطة والثبات على المبادئ، وما جاء نصر الله حتى استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا.

وفي ظل كل هذه الظروف غير السويّة فإن البيان لم يكن عنترياً ولا عاطفياً، ولم يكتب بإرادة عالمية حرة، إنه وسطي حمّال، كل قارئ يتصور نفسه فيه، وكل توصية فيها أكثر من قول. والتوصية التي ليس لها طعم ولا لون ولا رائحة التوصية العاشرة التي تنص على (أن ولاية القوة المتعددة الجنسيات ليست مفتوحة إلى ما لا نهاية، وأنها ستنتهي وفقاً لما هو منصوص عليه في الفقرتين (٤، ١٢) من القرار ١٥٤٦ أو مع انتهاء العملية السياسية). إنها توصية تطمينية للمغلوب، وإغرائية للغالب. ثم إن البقاء الأبدي الذي تنفيه التوصية، ينفيه التاريخ والواقع والفاعل، فليس هناك إضافة جديدة، وربط القوة بالتعدد الجنسي مجاملة زائدة لأمريكا، لأنها الكل في الكل، والتعويل على قرارات هيئة الأمم كالضغث على الإبالة، وفي النهاية فإن مثل هذه التوصية لا تسمن ولا تغني من جوع. ومن الأجدى الاستغناء عن مثلها.

والتعويل على قرار مجلس (تيمي) تقضى الأمور بغيابه، ولا يعتبر حضوره تعويل سرابي. فالمجلس لم يعد قادراً على حماية قراراته، وأحباره لمّا تزل رهينة الورق، ولا يتلقاها بالقبول المكره إلا الذين ترقبهم العقوبات والمقاطعات والضربات التأديبية، أما الشرذمة المدلّلة فمن حقها ان تقبل وان ترفض، ولديها من (الفيتو) نسخٌ موقّعة، تستلّ منها ما شاءت متى شاءت. وإذا كانت (الحرب العالمية الثانية) حملت على حل (عصبة الأمم) وإحلال (هيئة الأمم) مكانها لتتابع الاخفاقات فإن هذه الحروب الظالمة مدعاة لحل (هيئة الأمم) وإنشاء منظمات عالمية جديدة، تستأنف أعمالها، مستدبرة المؤسسات السابقة بكل ما تنطوي عليه من اخفاقات ومقترفات، فما عاد بالإمكان ترميم السمعة وإعادة العافية.

وما جدوى النازفين دماً، والمزهقين أرواحاً، والمسلوبين حرية من توصيات أُقرت قبيل الاجتماع، وتسرّبت قبل اكتمال الحضور، وفي ظل الوضع العالمي المتردي. وذلك

بعض ما حفز (هيكل) على الانحاء باللائمة على الأمة العربية، ومؤاخذة مصر على تراجع دورها في آخر تأوهاته. وكل وضع حرج يحتاج إلى قرارات قوية صارمة، وتصرف حكيم حازم، يردع الظالم، ويوقف فوضى التصرف المخلّ بسلامة الأمة العربية وأمنها. لقد مجّت الشعوب العربية كل شيء، ولم يعد بوسعها أن تحتمل مزيداً من التردّيات. واللاعبون الذين أسرفوا على أنفسهم في استغلال الغباء المعتق، لم يدعوا بقية من أقنعة، حتى لقد سقطت ورقة التوت، كما يقول (التوراتيون) وبدت سوأة اللاعب، وليس من حوله ورق أشجار يخصف منها.

لقد أوجف العالم كله بالخيل والرجل والأقلام والألسنة لمواجهة الإرهاب، حتى لقد أصبح كل شيء في نظر الغرب إرهاباً، واقبل بشراسة يهدم كل شيء أتت عليه يده أو لسانه، هدماً معنوياً وحسياً، وتطوع الأغبياء النافعون - كما يصفهم (نيكسون) - بالاستجابة الطوعية لأخذ المقيم بالظاعن. إن هناك إرهاباً متعدد المصادر والاتجاهات والمستويات، وكل دولة لها مصالحها و(استراتيجياتها) ومواقفها من هذه التصورات والإجراءات. وقد لا يكون بإمكانها تمرير خطابها إلا عبر التنظيمات السرية والعمليات الإرهابية. ومكافحو الإرهاب بهذه الهمجية هم صانعوه. والمتَّهمون به قد لا يكونون الفاعلين له بمحض الإرادة. إن عالماً يواجه مثل هذه الأوضاع لجدير بالوصاية، ولن تنهض بها إلا مؤسسات عالمية مدعومة، توقف التدهور المضاعف. ومؤتمرات ضعيفة مهزوزة لا يمكن ان تشفي النفوس، ولا أن تعيد الثقة المثبتة للأفئدة.

لقد عجز المؤتمرون عن احتمال أفراد من المعارضة العراقية، ممن جاؤوا ليبلغوا صوتهم للمؤتمرين بصفتهم مراقبين أو متظلمين، وليس بصفتهم مشاركين. ولأن المؤتمر يبحث عن (مستقبل العراق) فإن أبسط أدبياته أن يسمع كل الأصوات، وليس شرطاً ان يذعن لها، ولا أن يأخذ بتطلعاتها. لقد خرجت المعارضة من مصر، وهي تشكك بالمصداقية والأمانة، والشعب العراقي ليس على قلب رجل واحد، ومن ثم فإن خطاب المعارضة سيقلل من أهمية المؤتمر والتوصيات التي تمخّض عنها. والدعوى بأن الدول المشتركة قد تسامت فوق الخلافات، والتقت على الود والمحبة دعوى لا شاهد لها، فالذين دخلوا المؤتمر دخلوا متوتّرين، يحبسون أنفاسهم، وخرجوا ممتلئين، لا يلوون على شيء مما قالوا، فهم قد أذعنوا، بل انحنوا للرياح الأمريكية. والإذعان أو الانحناء لا يعنيان الرضى والقبول، وإنما يعنيان التسليم لواقع لم يتزحزح قيد أنملة صوب الانفراج. والأمين العام لجامعة الدول العربية قال بأن هذه التوصيات تمثل الحد الأدنى للتوافق. وأحسب أن هذه المقولة مبالغ فيها، وفوق الطاقة، فالمسألة ليس فيها حد أدنى ولا حد أعلى، لكنها تسليم لا إرادي. لقد كانت له رغبات وسطية، فيها شيء من الواقعية، دفع بها إلى المؤتمرين على استحياء وتردد، ولوّح بها إلى صاحبة القرار النافذ طوعاً أو كرهاً، ولكن التعنت ضرب بها عُرض الحائط.

إن هناك مسلّمات تكرر في كل مؤتمر، وهي أشبه ما تكون بفواتح الشهية، فالاستقرار، والإعمار، والوحدة الوطنية، والسيادة، ودور الأمم، وإدانة الإرهاب بكل أشكاله، وحسن الجوار، وخفض الديون، والمساعدات الإنسانية، كلها أحلام وتطلّعات طوباوية. فالاتجاه الغربي والرغبة الصهيونية عكس ما يحلم به كل مؤتمر يبحث عن إنقاذ الأمة العربية من أزماتها الخانقة. وتلك فواتح شهية ومقبّلات لم تعد مثيرة ولا مطمئنة. وما هي إلا استهلالات تفاؤلية، كالقول للمريض الذي نفض الأطباء أيديهم منه (شِدّة وتعدّي).

نحن أمام واقع مظلم، تتضاعف فيه المشاكل، وتدلهم فيه الأجواء، وتطمس فيه الهوية، ويدمّر فيه الحرث والنسل، ويستفحل فيه الفساد، وليس هناك بوادر انفراج، فكل

شيء يتجه صوب الهاوية، وكل الطرق تؤدي إلى مزيد من الدمار. ومع كل تلك الظلمات، فلسنا مع المتشائمين المردّدين لمقولة: (ليس بالإمكان أفضل مما كان). نعم لا نريد للشعب العراقي ان يتآكل عبر عمليات مقاومة عشوائية، ولا أن تُجرى الانتخابات في غياب طائفة مهمة كما أشار وزير الخارجية (سعود الفيصل)، ولا نريد لأمريكا أن تستسيغ العدوان مرة ثانية على بلد آخر ك(إيران) و(سوريا)، ولا نراهن على أن الحل الوحيد مرتبط بخروج القوات المحتلة قبل إعادة الأوضاع إلى حالتها الطبيعية.

لقد أسقطت أمريكا الحكومة الدكتاتورية، ولكنها أحدثت فراغاً سياسياً مليئاً بالطائفية المتوترة، والقومية المتشنجة، والإسلاموية المتعنتة، و(الراديكالية) المتطرفة. وكل هذه الأطياف وضعت العراق في حالة من الفوضى، لا يمكن معها نفض اليد والخروج منه قبل إعادة ما فقده من أمن واستقرار، وإعادة كل خشاش إلى جحوره. لقد خلق الغزو أوضاعاً مستعصية، ولا بد للساحر ان يحل سحره. لقد كانت حكومة صدام ظالمة جائرة مدمّرة، ولكنها مسيطرة، والناس لا يصلح أمرهم بالفوضى، و(نظام جائر أفضل من لا نظام)، ولا يمكن ان نقول: إن الحل يكمن بالمقاومة على إطلاقها، ولا نقول: بأن الحل لا يكون إلا بعد خروج القوات الأمريكية، وليس من حق المتكئين على أرائكهم ان يصدروا الأحكام والتوجيهات، ولا أن يحرّضوا على القتل العشوائي، ومن الخير لكل مستاء من الأوضاع ان يتوفر على مثلث الوعي: فقه الأحكام والواقع والأولويات، وان يحترم مثلث السلطات: الدولة والدين والمجتمع، وان يعرف مقاصد الفاعلين ونوازعهم وخفايا اللعب وتماكرها. إن علينا ان نتجاوز المقاومة والوجود الأمريكي، لنقدم للعراق حلولاً جذرية، تمكّنه من استعادة ما فقده بهذا التدخل الظالم. وعلى الأمة العربية قبل هذا وبعده ان تفكر بأدوائها، ففاقد الشيء لا يعطيه، وكل نظام لا تحميه الشرعية، ولا يحكمه النظام، ولا يسيّجه العدل معرض للسقوط عند أول عارض وبأي سبب مهما كان صغيراً. وأزمة الشعوب العربية أزمة أنظمة أغرت الطامعين، وهيأت أجواء التدخلات تحت غطاءات زائفة كتوفير الحرية و(الديمقراطية)، وعلى كل مستيئس استذكار ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾.

عضو هيئة التدريس من التكريم إلى التكريس .. ![1]

لفت نظري الأستاذ الدكتور عبد الله بن عبد الرحمن العثمان، وكيل وزارة التعليم العالي، إلى مبادرة كريمة كنت أعرف أطرافاً منها، وكغيري كنت كمن لا يطربه زامر الحي، ولكن هذا التذكير أثار كوامن النفس وهوامد الشعور، وكيف لا تحرك الإنجازات الحضارية مشاعر المسكون بهم أمته؟ في زمن تداعت عليها الأمم، ومسها الضر من دخن الفتن، وقضايا الأمة المصيرية لا يمكن أن تمر كسحابة صيف، ولا سيما في مخاضات التحولات، ومبادرة التكريس للمحطات المضيئة في حياة أعضاء هيئة التدريس بالجامعات المحلية، لقاء ما اخترعوا من أعمال استثنائية، وما قدموا لوطنهم من إنجازات علمية، ولقد كنت من قبل أعيش مرارة ما يشاع حول خلو قائمة الجامعات العالمية المتميزة من أي جامعة عربية، على الرغم من أن القائمة نيفت على الخمسمائة جامعة متفوقة، فيما جاءت بعض مؤسساتنا المالية في صدر القائمة (البنكية) الأكثر تداولاً للمال، وجاء رجال الأعمال ينتهبون الخطى صوب الصدارة، وتلك مفارقة أرجو ألا تمر دون إيقاف ومساءلة وتأمل، ومبادرة التكريم التي تفضل بالتوجيه إليها ورعايتها ولي العهد - وفقه الله - تشفي نفوساً مكلومة، لأنها ذات أبعاد: تثمين لجهود المتميزين من الأناسي والأعمال، وتذكير للغافلين والمتغافلين بأن في بني عمهم مَنْ ينافس على المقاعد الأمامية في صفوف العلماء العالميين، وأننا لم نكن دولة نفط، مرت ركائبنا على آباره، فشربناه شرب الهيم، وتكريس للمتميز، من أبناء البلاد للذكر والشكر والاقتداء.

والمكرمون سبعة عشر من ثلاث جامعات، جاءت اختراعاتهم ذات أنواع مختلفة في حقول العلم، كـ(العلوم الطبية)، و(الهندسية): - (المدنية) و(الكيميائية) و(الفيزيائية) و(الميكانيكية) و(البترولية). و(هندسة) (الحاسبات) و(كيمياء البترول) و(الطيران). وقد حصل كل واحد على (براءة اختراع) من أرقى الهيئات العلمية في العالم، حيث تميزوا بالتخصصات الدقيقة، وأسهموا في تطوير الحركة العلمية والصناعية والبحث العلمي، وتوجوا جهودهم بالحصول على تلك البراءات، فمكنوا جامعاتنا من اختراق أجواء المحافل العلمية الدولية، وهو اختراق له ما بعده، وليس من السهل أن يتمكن عدد من أساتذة الجامعات في المملكة من الحضور العلمي المشرف في أرقى دول العالم، مع بقائهم في جامعاتهم، يواصلون بحوثهم وتجاربهم وتعليمهم، ويستنهضون مَنْ حولهم مِنْ الزملاء، ليصنعوا مثل صنيعهم، وهذا التميز لن يكون مرتهناً لحساب جامعاتنا، ولكنه فخر لكل عربي، وبخاصة حين تذعن لهم المحافل العلمية العالمية، وتتقبل مخترعاتهم بقبول حسن، وتمنحهم راضية مطمئنة (براءة الاختراع) والبراءة لا تمنح إلا لمن تمخض تفكيره عن منتج جديد، أو طريقة جديدة: لصناعة آلية جديدة، أو تحسين منتج سابق في ذاته، أو في طريقة صنعه، ولا يتحقق شيء من ذلك بالصدفة، ولا يتأتى لكل إنسان، إنه نتيجة عمل دؤوب، وتجارب متعددة، وصبر وإصرار وثبات، ودقة ملاحظة، وصفاء ذهن، وإرجاع بصر، وعدم استسلام للرتابة والنمطية، إنه فعل استثنائي من رجال استثنائيين، ومثل هذا الإنجاز يعد إضافة متميزة في عالم التقنية والطب والهندسة ومجالاتها، وإسهاماً متميزاً في بناء الحضارة العالمية.

والنبوغ ليس وقفاً على جنس دون آخر، إنه موهبة وأجواء، تسهم في تفعيل القدرات، وتكريس المهارات، والجنس العربي كأي جنس إنساني له نصيبه من المواهب التي ترقب الحواضن، لتندلق كما العبق: زكاءً ونماءً، والعبقرية العربية كامنة في أدمغة الموهوبين،

---

(١) تاريخ المقال: ١٤/ ١٢/ ٢٠٠٤

وتخلف الأمة العربية عارض، وليس خليقة وما يمارسه بعض الكتبة الغربيين من التيئيس والإحباط والتعالي والقول بنهاية التاريخ، والتشبث ب(نظرية الأجناس) إن هو إلا حيلة غبية، لمنع الأمة من تكريس وجودها وحملها على التسليم وقبول التخلف، وكل ما تحتاجه كوامن الإمكانيات في الذهن العربي محفزات وحواضن، والتكريم من لدن (ولي الأمر) مؤشر إيجابي، وإذ لا نستغرب التكريم، لا نستغرب معه النبوغ، فالطرفان يستلهمان عقيدة متوازنة، تأمر بإعداد القوة، وتنهى عن نسيان أنصبة الدنيا، وتحث على السعي في مناكب الأرض، وتبيح الانتشار لطلب الرزق، والتاريخ الحضاري للإسلام شاهد إثبات، تجلَّى ذلك في (سير أعلام النبلاء) و(طبقات الأطباء) و(نوابغ العرب)، فلقد كانت للحضارة الإسلامية تجاربها العلمية، التي سطعت على الغرب والشرق وأضاءت سبحاتها آفاق المعمورة، لأنها كوكب دري يوقد من شجرة زيتونة لا شرقية ولا غربية، وكثيراً ما يتداول الكتاب والمحللون عجز الأجواء العربية عن تفجير المواهب، وشد أزرها، وتهيئة الظروف المواتية لاستغلال طاقاتها، واستثمار قدراتها، وكثيراً ما يتداول الممتعضون ظاهرة (هجرة الأدمغة) إما عن طريق الإغراءات المالية، أو عن طريق توفير الأجواء الملائمة للنوابغ، وتحت تأثير عوامل الطرد والجذب. والكتب التي ألفها المفكرون عن ظاهرة الهجرة تنضح حسرةً وألماً، فالكفاءات العلمية تسهم في بناء حضارة الضد، فيما تعيش دولهم عالة على لعاعات يعقبها المنُّ والأذى، ولو أن رعاة التعليم العالي في الوطن العربي فكروا وقدروا، لكان أن طوروا المناهج والوسائل والمقرات والمقررات، وامتصوا نسغ الحضارات، وبنوا كما كانت أوائلهم تبني، وصنعوا فوق ما يصنعون، وليس هناك ما يمنع من استئناف التفكير والتقدير، فما زال في الزمن بقايا لتدارك الأمر.

ومبادرة (ولي العهد) وتكريمه للموهوبين تخفف من حدة النقد الموجه للأجواء العلمية في العالم العربي، وتحفز القادرين المترددين، وهي في النهاية إذكاء للحماس، وشد للأزر، وحفظ للساقة، وريادة للمقدمة، وعيبنا أننا نطوي على كثير من الإمكانيات، ولكنها حبيسة الأروقة الجامعية المحلية، لا يعرفها إلا القلة القليلة، والرأي العام في معزل عنها، والذين يملكون الحديث عن التعليم، يوسعونه ذماً، ويستحثون الجهات المعنية على قلبه رأساً على عقب، وما أحد منهم أشاد ببعض التجليات، ومع الإيمان بحتمية التطوير والتجديد والحذف والإضافة والتقديم والتأخير، إلا أن ذلك يجب أن يكون طبعياً، وغير مسبوق بالذم والتجريح والإدانة، وتحميل التعليم مالا يحتمل من الاتهامات، إننا نتطلع إلى إرادة قوية، ذات عزمات، لا يقعد بها القمع، ولا تهن بالتردد، ولا تحزن بفوات الركب.

والدول المتحضرة لا تحتبس العمل الجامعي في الأروقة، ولا تعتمد الحشوية والتلقين، إن الجامعة مدينة فاضلة، فيها المعمل والمصنع والمختبر والمكتبة والساحات والصالات وكل متطلبات الأجواء العلمية، أو هكذا يجب أن تكون، إنها منارة تضيء عتمات الطريق، ومصنع تمد المجتمع بما هو في حاجة إليه من علماء وأدباء ومفكرين وأطباء ومهندسين وغيرهم، ومتى انفصل التعليم عن خطط التنمية، وقعت الأمة في غزارة الإنتاج وسوء التوزيع، وارتباط رجالات الدولة بالجامعات، ودعمها، والتحسس عن حاجاتها، والأخذ بيد الكفاءات المتميزة من رجالاتها مؤذن بنجاحات متعددة، وذلك ما نراه ونعايشه بين الحين والآخر، فمثل هذا التكريم ليس مجرد مناسبة احتفالية، تنطفئ مع انطفاء أنوارها واقتلاع سرادقاتها، وإنما هو مؤشر وعي بأهمية المحفزات لمزيد من العطاء، وتلك الأحداث الحضارية في الزمن المسكون بالانكسار، يجب ألا تمر كأي حدث استهلاكي، بل لابد من التنويه والإشادة والاستثمار، فالتعامل معها لا يقف عند حد الثناء، وإنما يتجاوز ذلك إلى التساؤل، ومعرفة المتألقين من أبناء البلاد، وتكريسهم في الذاكرة، فنحن من قبل لا نعرفهم، ولا ندري ما العلم الذي أسهموا في تطويره، وهم قابعون وراء

أجهزتهم ومعاملهم ومختبراتهم، يجودون بكل ما يملكون من جهد ووقت ومال، لتكريس حضورنا في المشاهد العلمية العالمية، إن الإشادة والتكريم لكفاءات الوطن فرض عين على كل مقتدر، ونهوض (ولي الأمر) به، يسقط شطراً منه، ويبقى حق الإشادة باللسان والمحبة بالقلب لكل من منح أرضه وأمته ما يقدر عليه من عطاء، وإذا لم يكن عندنا خيل نهديها ولا مال نجود به، فلا أقل من أن نضج بالإشادة، وذلك أضعف الإيمان، وكل مواطن على ثغر من الثغور، متى حفظه، كان مجاهداً جديراً بشرف المواطنة، غير أن (فقه الأولويات) يجعل هؤلاء في رأس القائمة، ومن أحسن فعلاً ممن تخطى بأمته إلى عتبات التاريخ العلمي الحديث، وأشاع ذكرها في المحافل العلمية العالمية.

والتكريم الذي ناله المتميزون في عملهم الأكاديمي محفز قوي للتنافس الشريف بين الجامعات من جهة، وبين أعضاء هيئة التدريس داخل أروقة الجامعة الواحدة من جهة أخرى، وإذ اقتسمت المجد ثلاث جامعات هي: - جامعة الملك عبد العزيز- و جامعة الملك سعود- و جامعة الملك فهد، فإننا نرقب المزيد، ونتطلع إلى التنافس الشريف، وليس هذا العدد من المخترعين محصوراً في إطار مخترع واحد، وإنما لكل واحد من السبعة عشر اختراع علمي مسجل في الولايات المتحدة أو في أوروبا، وكم كنت أتمنى أن يكون ل(مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية) دور أكبر تفعيلاً للدعم والدعاية والتبني والتشجيع وإشاعة بوادر التفوق والمتابعة، وبسط ذلك في دوريات تصل إلى المختصين والمسكونين بهم وطنهم، ولن أبيح لنفسي أن أكون شاهداً لم ير شيئاً، ولن أسمح لقلمي بالقول بأن الجهل بالشيء علم بالعدم، فكم في مؤسساتنا من إيجابيات لا نعلمها، ولما كان النوابغ في العالم بحاجة إلى أجواء ملائمة، لاستغلال نبوغهم، وبحاجة إلى دعم مادي ومعنوي، يشد من أزرهم، ويذكي حماسهم، ويحفظ حقوقهم المادية والمعنوية كان على كل مؤسساتنا شطر من المسؤولة قل أو كثر، فالأمة العربية مشروع حضاري، يرقب من يتلقف رايته باليمين، ليخوض به معترك التسابق العلمي المحموم.

والتكريم ظاهرة حضارية، ومفردة من مفردات الدعم المتعدد، والدولة حين تعيش حضوراً فاعلاً في مثل هذه الأجواء، تبعث الثقة والدفء في نفوس الصفوة من الكفاءات الوطنية، وتشعرهم بأن هناك مَنْ يرعى، ويبارك، ويدعم، وما نتطلع إليه أكبر وأكثر، وفعل الدولة المباشر أو من خلال مؤسساتها المعنية جزء من مسؤوليتها، فما نريد من الشكر والثناء أن نثبط العزائم، ولا أن نلهي بالمدح، ولكننا نشيد بالفعل المتميز من كل الأطراف، ونستحث المسيرة، ونرقب مزيداً من المبادرات، وبسط الأيدي بالعطاء، وكم نود أن يتوفر الوعي الحضاري والإحساس الديني والوطني لدى (رجال الأعمال) و(المؤسسات الاقتصادية)، بحيث يكون هناك تبنٍ ورعاية ودعم لنوابغ آخرين ومجالات أخرى، وإذا كان الأثرياء سباقين إلى مجالات العطاءات التقليدية: كالصدقات العينية، وبناء المساجد، ورعاية الأسر، ودعم الجمعيات الخيرية فإن هناك واجبات أخرى، لا تقل أهمية عما سبق، فالإسلام يحث على إعداد القوة: الحسية والمعنوية، والأمر كما هو عند الأصوليين يقتضي الوجوب وهل هناك في مجال القوة ما هو أهم من الاكتشاف العلمي؟ الذي يغني المسلمين عما سواهم، ويمكنهم في الوقت نفسه من خدمة الإنسانية، والإسهام في صناعة الحضارة، ولهذا فليس بكافٍ دعم الدولة لمثل هذه المناحي العلمية، إذ إن هناك فريضة غائبة، مع إمكان حضورها، تتمثل بدعم (رجال الأعمال) للبحث العلمي، ورعاية الموهوبين، وكيف يترددون؟ والدعم يعد من الإنفاق في سبيل الله، حتى لقد نظر كثير من الفقهاء إلى هذا الصنف الأوسع، بحيث شمل أعمال البر التي تنفق في سبيل الله، فبناء الملاجئ، وعمارة المساجد، وطباعة الكتب، ودعم الجمعيات والمنظمات والمراكز الدعوية، ورعاية الموهوبين، والإنفاق على بحوثهم، ورعاية المخترعين، وتفريغهم،

وتوفير المعامل والمختبرات، كل ذلك مع النية الصالحة والمقصد الحسن يعد من الإنفاق في سبيل الله، لأنه من القوة والعلم، إن على أهل الدثور أن يشدوا عضد المقتدرين علماً وفكراً ومهارةً، وأن يؤازروا دولتهم في الدعم الحسي والمعنوي، وعليهم أن يعرفوا أن الأقربين أولى بالمعروف، إذ لا نريد لنهضتنا أن تكون قلاعاً من الخرسانات، ولا طرقاً من الأسفلت، ولا نفطاً يترفنا حتى نؤخذ بالعذاب، بل نريدها إنساناً منتجاً، يشاطر العالم في صناعة الحضارة، وبإعداده تستطيع الدولة أن توازن بين مصادر الثروة القومية.

وليس من اللائق ولا المقبول أن نذكر أثرياءنا بأثرياء الغرب الذين ينفقون أموالهم بسخاء على مثل هذه المجالات، ويوصون بالإنفاق على التجارب العلمية ورعاية العلماء، إذ يجب أن يكون أهل الدثور من المسلمين كمن سلف يذهبون بالأجور، وأن يكونوا قدوة للآخرين، وأن تتسابق المؤسسات والشركات والأعيان في تمويل المعامل والمختبرات والتجارب، وليس من الصعب اضطلاع (البنوك) و(الشركات) و(رجال الأعمال) بمثل هذه الأمور، وما دام بين أظهرنا نوابغ وموهوبون وباحثون ومكتشفون، فإن واجب الجميع احتضانهم، وتسهيل مهماتهم، وحفظ ساقتهم، وبذل المال لهم، وتهيئة الأجواء المناسبة لمزيد من عطاءاتهم، وقد بادرت الدولة بإنشاء مؤسسة لرعاية الموهوبين، وشرفتها بنسبتها لباني هذا الكيان ولرجاله، وبدت بوادر ثمارها، وتلك المؤسسة أحوج ما تكون إلى الدعم والمؤازرة، لقد شرع الإسلام (الأوقاف) وهي ممتلكات يحبس أصلها، وتسبل منافعها، وليس أجدى ولا أهدى للأمة من عبقري ينطلق في الآفاق أو في الأنفس، ليرى آيات الله، ويحقق من خلال ذلك ما فيه عز للإسلام والمسلمين.

وإذا كان الغرب قد سبقنا بالاكتشافات، وهيأ الأجواء الملائمة للبحث العلمي، رعايةً وتشجيعاً وإنفاقاً وتكريماً واستكمالاً لمتطلبات النابغين فإن بقاءنا خارج المتن، وانتظارنا لإنجازات العالم العلمية يعد من الإبطاء، ومن بطأ به عمله لم يسرع به ادعاؤه، وكم هو الفرق بين العصامية والعظامية، ونحن في النهاية أبناء حاضرنا، ولسنا أبناء تاريخنا، لا نقول: كان آباؤنا، بل يجب أن نقول: ها نحن، وواجبنا جعل هذا التكريم مدداً لتحرف سليم، يُعزُّ فيه أهل النبوغ والعبقرية وتُحفَّز به الهمم الخائرة، والعيب ليس في أن تأتي متأخراً، وإنما هو في ألا تأتي، وواجبنا ألا يستمر الإذعان لهذا السبق غير المبرر. وإذ نبدئ ونعيد الشكر والتقدير لكل من وضع لبنة في صرحنا المعرفي، وكرس حضورنا في المحافل العلمية العالمية، نصل ذلك لكل نابغة يدوك ليله، ويحفد نهاره، لرفع رأس أمته، ناسياً ذاته في سبيل مصلحة الأمة الإسلامية، ولما أن كانت (وزارة التعليم العالي) ورجالاتها ممن فعل الخير أو دل عليه، ورعى الاحتفالية فإنها الأحق بالشكر، لقد مرت هذه المناسبة دون استثمار، ولأنها من الباقيات الصالحات فقد كان لزاماً على الأدباء والمفكرين والإعلاميين ركوب موجتها، واستنهاض الهمم واستدرار العواطف الدينية والوطنية للمبادرات الصالحة، والتخطي بأعضاء هيئة التدريس من التكريم إلى التكريس.

أخطر ظاهرة استعمارية .. ! (١)[1]

تمر الشرعية الدولية بأزمة لم تعهدها من قبل، ولا أحسب أن لها سابقة مماثلة في التاريخ الحديث، صعّد هذا التأزيم، أو ساق إليه استهلال الولايات المتحدة الأمريكية أعراس قطبيتها وأحلام إمبراطوريتها بالاحتلال العسكري لدولتين إسلاميتين، وإسقاط السلطة فيهما، وتعريضهما لفراغ دستوري خطير، هيأ الأجواء لاختلاط الإرهاب بالمقاومة، وكان الاحتلال مداوة بالتي كانت هي الداء. ولقد سوغت اجتياحها البغيض بحجة المكافحة المشروعة للإرهاب، أو الحيلولة دون إنتاج أسلحة الدمار الشامل. وإذ تكون مثل هذه الأنظمة المسقطة أنظمة مستفزة، ومغرية بالتدخل، ومفتقرة إلى أدنى حد من مقومات البقاء؛ فإن معالجة أوضاعها بهذا الأسلوب كمن يصب الزيت في النار. وهذا الإسقاط التعسفي الذي تعدى السلطة إلى مؤسساتها، أدى إلى فراغات دستورية، هيأت الأجواء لهدم وحرق وقتل عشوائي. وأغرت الأقليات: الطائفية والعرقية والإقليمية بتصفية حساباتها، وحملتها على التفكير الجاد في الانفصال، مما سيؤدي إلى تمزيق الكيان الواحد، والعودة به إلى الكفر الذي حذر منه الرسول ﷺ، وهو ضرب بعض الأمة رقاب بعض. والخطورة ليست في نفاذ الإرادة القوية، وليست في الضربات الخاطفة التأديبية، وليست في استمرار الصراع العالمي، فكل ذلك من سنن التدافع والتداول والابتلاء، ولكنها في أشياء كثيرة، يتجرع مرارتها مبتغو الفتنة والساقطون فيها، ومن يفضلون الجنوح إلى السلام العادل، وإنما هي في اختلاف المغلوبين على أمرهم فيما بينهم حول الموقف من الغالب وأسلوب التعامل معه تعاملاً حضارياً، يكرهه على مراجعة حساباته، والتخلي عن خلط الأوراق. وأمريكا التي فتحت شهيتها بالقنبلتين النوويتين، حين أرادت تخطي عزلتها، والتحول من دولة محايدة إلى دولة متحكمة، وأتبعت ذلك بأكثر من مائة وعشرين ممارسة عسكرية خاطفة أو طويلة الأجل، طالت كل أرجاء العالم، أغرت نفسها بغزو سافر خلّف الدمار الحسي والمعنوي. وأخطر من كل هذا وذاك: شرعنة هذا التدخل وتبريره من ضحاياه أو من المكتوين بناره، وإيهام المؤسسات الدولية بأنه حق مشروع. واضطراب المواقف السياسية والفكرية حول حدث لا يحتمل إلا رؤية واحدة مؤذن باستخفاف المعتدي وركونه إلى المعذرين. والمتابعون لملفوظ القانون الدولي وملحوظه، يشهدون تركيزه على (مبدأ عدم التدخل) وتأكيده على منع استخدام القوة فيما يمكن حله بالطرق السلمية. وميثاق الأمم المتحدة الذي أنشأه وسانده المخالفون له في وضح النهار، تنص مواده على احترام سيادة الدول. واللافت للنظر أن الخطاب الممهد للاعتداء عكّس المادة، وقلبها رأساً على عقب. إذ طرح المحتلون مبدأ (حق التدخل). وخطورة الفعل أنه لم يكن دبلوماسياً، ولا حرباً باردة، ولا تسليحاً للفصائل المتناحرة، وليس تأديبياً خاطفاً، مقتصراً على ضربة جوية أو صاروخية، وإنما هو غزو عسكري، ومصادرة للحرية، واحتلال للأرض، وانتزاع للسلطة، وإلغاء للسيادة، واستخدام لأفتك الأسلحة من دولة قوية مهيمنة، ينظر إليها العالم على أنها راعية للحرية والعدل والمساواة. وما كان اعتداؤها لإنقاذ مظلوم، ولا لإزالة خطر عالمي، وإنما هو لفرض إرادتها، وإشاعة حضارتها، وتأمين مصالحها، واستغلال خيرات البلاد، وضمان تفوق ركيزتها في المنطقة. وهذه السابقة الخطيرة التي يستخف بها البعض، ويراها حدثاً طبيعياً، يؤدي الاختلاف حولها إلى شرعنة ممارسات مماثلة، مع أنها عمل غير صالح، لمناقضته لأبسط القوانين العالمية. وكيف يحق لدولة تتقدم العالم في إمكانياتها ومبادئها،

(١) تاريخ المقال: ٢١/ ١٢/ ٢٠٠٤

أن تستخدم القوة في مواجهة شعوب ترفض التدخل في شؤونها، شعوب لم تطلب المساعدة ولا المساندة بهذا الشكل.

وإذا كانت السلطة العراقية البائدة قد نفذت أقذر اللعب وأخطرها، ومسّ شعبها الضر الذي لا يُحتمل، وشكل وجودها خطراً على أمن المنطقة واستقرارها؛ فإن التعامل مع إرادة شعبها وحريته لا يكون بهذا الأسلوب. لقد أشار (جاك شيراك) قبل زيارته (لبريطانيا) إلى أن إسقاط (صدام) عمل إيجابي، ولكن تصعيد المواجهة مؤذن باستفحال الإرهاب الذي تتذرع أمريكا بمواجهته، الأمر الذي حمل أمريكا على الرد الساخر، والتأكيد بأن الإرهاب قائم قبل التدخل، وهذا صحيح، ولكن (شيراك) لم يقل بعدمه، وإنما قال باستفحاله.

والمجازفة العسكرية جاءت بمبادرة فردية من دولة قوية، يفترض أن تكون صمام أمان، وقوة ردع لكل من ينتهك الشرعية الدولية، أو يعتدي على سيادة الدول الصغيرة. لقد كان مقبولاً منها قيادة الحملة العسكرية العالمية لتحرير (الكويت) وقبول ذلك، لا لمجرد الفعل، ولكن للتوقف عند انتهاء المهمة، كما رسمتها قرارات هيئة الأمم المتحدة، وللانسحاب الفوري بعد تحرير (الكويت).

وبمثل هذه الأحوال يكون هناك مسوغ لتدخل محدود، وفي أضيق نطاق، ومثل هذا التدخل تضمّنه ميثاق الأمم المتحدة. وقد حاولت أمريكا التقنع به، حين أعادت الكرّة، ولكن شتان بين إجماع دولي واستبداد فردي.

فميثاق الأمم المتحدة يجيز التدخل متى هُدد السلام العالمي، أو كان هناك اعتداء مُجْمَع على عدوانيته من دولة على أخرى. ولا يتم التدخل المباشر إلا بعد أن تستنزف المؤسسات العالمية كل الوسائل السلمية. ولو ضربنا مثلا بقضية (العراق) لوجدنا الولايات المتحدة قد مارست التدخل العسكري أكثر من مرة، تمثل بالضربات التأديبية والاستباقية. وتحرير (الكويت) خاضته أمريكا مع خمس وثلاثين دولة، ولقي فعلها ارتياحاً عالمياً، ولم يتحفظ عليه إلا طائفة قليلة، رأت أن معالجة الوضع يجب أن يكون عربياً، فيما ذهب المتعرضون للخطر إلى أن الأمة العربية غير قادرة على حسم الموقف، لضعفها أمام القوة العراقية، ولاختلافها حول الغزو، كما أن العرب من خلال جامعتهم لم يفلحوا في حل أي قضية، ولم يحققوا فض أي نزاع، ولا فك أي اشتباك. ومع هذا فإن الغزو والإخراج ألحقا أفدح الضرر بالأمة العربية، على حد (وقع السهام ونزعهن أليم)، وليس ببعيد أن يكون الفعل ورد الفعل لعبة موجعة للأمة، ولكن لا بد مما ليس منه بد.

وبعيداً عن الشرعية يأتي التدخل العسكري الأمريكي البريطاني في العراق وإسقاط النظام، فمثل هذا الفعل يهدد أمن العالم، كما أنه تعويل ساذج على مواد (الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة). ولقد أضافت أمريكا إلى هذا المسوغ (ضعف الأمم المتحدة). وأياً ما كان الأمر فإن تلك بادرة خطيرة، سيتجرع العالم العربي مرارتها لعقود طويلة، ولا يمكن قبولها، وإن ضلت فيها أفهام، وزلّت فيها أقلام، واحتدمت حولها الرؤى والتصورات. ولو كانت لهذه الممارسة الخطرة أقل نسبة من المبررات، لقيل بأن أمريكا تسرعت في استرداد كرامتها بعد أحداث (الحادي عشر من سبتمبر)، وكان عليها التحري، وتحديد المعتدي الذي مارس الإرهاب ضدها وضد غيرها. لقد اهتاجت كما الأسد الجريح، واتخذت من شرعية محاربة الإرهاب سبيلاً لفرض إرادتها، ومن ثم انفردت بالرأي وبالتصرف، ولا عبرة بالمشاركات الرمزية من بعض الدول المغلوبة على أمرها. ومؤشرات الأحداث تشي بأن أمريكا ستقف أمام نفسها، وتقر بخطئها في إسقاط مؤسسات النظام وإعلان الاحتلال واجتياح المدن، ولكن بعد فوات الأوان وخراب العراق ومن حوله. إن حرباً ضارية بهذا المستوى لا تكون إلا إذا هدد أمنها واستقرارها، والعالم

العربي أضعف من أن يهدد أمن (إسرائيل) فضلاً عن أمريكا. والحق أن المسألة كلها لتحقيق التفوق الصهيوني، الذي لا يريد للدول المحيطة به قوة ولا أمناً ولا استقراراً ولا وحدة. وفي هذا السياق جاءت الحرب (العراقية الإيرانية) مضعفة الدولتين المتحاربتين، ومعمقة الأضغان، ومستنزفة أموال الدول الخليجية التي ما فتئت تمد القضايا العربية المشروعة بالمال، وتدعم الأقليات الإسلامية في العالم، وتبادر في إقامة الجمعيات والمراكز الدعوية. وقد سبق هذه الحرب المدمرة حروب: أهلية وحدودية وطائفية، من أخطرها (أيلول الأسود) و (اجتياح لبنان) و (صبرا وشاتيلا) ودعك من (نكسة حزيران) وما لا حصر له من اللعب المصمية التي أتت على مقدرات الأمة العربية. وكل هذه اللعب المدمرة التي مارسها البعض بالتغرير أو بالاستدراج أو بالمواطأة، تصب في صالح إسرائيل. والأغبياء الإعلاميون ناضلوا بأقلامهم لتصنيم المغامرين والمقامرين، والأكثر غباء منهم من جاؤوا يعذرون للمحتل، ويبررون غزوه، ويرقبون معسول الوعود. وما فتئ الواقع العربي والإسلامي قابلين لمزيد من اللُّعَب التي مهدت لها ثورات دامية، وحروب أهلية وحدودية عنيفة، وصراعات فكرية وطائفية وعرقية، واختلاف مستحرّ حول الأسلمة والعلمنة والعولمة والمركسة والغربنة والحدثنة، ولقد استغلت لذلك عواطف متعددة من أهمها العاطفة الدينية، إبان الحرب في (أفغانستان)، وفيما انسلخ من قوميات من الاتحاد السوفييتي. وكانت المخابرات الشرقية والغربية وراء ذلك التحريض والتجييش. والدول الصغيرة أو الضعيفة المتناحرة مع جيرانها، أو التي تتعرض لحروب أهلية، مهيأة لهيمنة الدول الكبرى، فالنزعة الاستعمارية كالجراثيم، لا تستفحل إلا في الأجسام الضعيفة. وفي ظل هذه الظروف الشاذة يعود الاستعمار البغيض الذي أخرجته الشعوب بالدماء والتضحيات. وقيام الحكومات المتسلطة على شعوبها، واستفحال الأزمات، وتتابع الإحباطات، وغياب المنظمات، وخفوت الأصوات المنصفة، مُؤْذِن بانهيارات أمنية، تصيب الفاعل والمعتزل، وتعمق المآسي، وتشيع الفقر والجوع والخوف. والمنظمات العالمية من واجبها أن ترمي بثقلها في مثل هذه الظروف العصيبة لإيقاف التدهور، ورد المعتدي، واستنهاض همم الصامتين عن قول الحق. وكيف لا تنهض بواجبها، وهي تشهد القتل الهمجي والتدمير الوحشي. وإذ لا يكون باستطاعتها أن تثني المعتدي، فإن عليها - على الأقل - أن تضعه أمام نفسه، وأن تحمله المسؤولية التاريخية، وأن تستثير إنسانية الصامتين المعتزلين للفتنة، ليمارسوا واجبهم للتخفيف من حدة الانتهاكات.

وإذا كان المتداول في أروقة الأمم المتحدة عدم التدخل، وعدم اللجوء إلى القوة، وعدم التعرض لسيادة الدول وسيادة القانون الدولي، فإن ذلك كلام لا تحميه قوة، ولا تترجمه إرادة عالمية. ولم يفسد الهيئات والمؤسسات العالمية إلا ما يمارسه الصهاينة والمتصهينون من ضغوط في أروقة الأمم، ومؤسسات التشريع الأمريكي، وما تقترفه (إسرائيل) على الأراضي الفلسطينية ذات السيادة من قتل وهدم وتشريد، وما تمارسه الدول الكبرى من صمت مُدان أو تبرير كاذب، وما تنهض به وسائل الإعلام من تناول متمارض، واختلاف بيزنطي. كل ذلك جعل القطعيات احتماليات، رققت المصائب، وجعلت بينها وبين المنكوبين إلفاً، حتى لا تجد من يتمعّر وجهه غضباً للحق. وما يقترفه الكتَّاب من تردد واختلاف حول قضايا قطعية الدلالة والثبوت، إنْ هو إلا ناتج الهوان:

ومن يهن يسهل الهوان عليه

ما لجرح بميت إيلام

وإذا فقدت المؤسسات العالمية المصداقية، قلّت هيبتها، وضعف احترامها، وسقطت من حساب المتسلط والمستضعف، الأمر الذي يلجئ المقهورين إلى المقاومة الممكنة والإيمان بمبدأ (عليَّ وعلى أعدائي)، وقد يستغل الغضب، لتنفيذ لعب كونية، أو لتصفية حسابات قديمة، وذلك ما نشهده الآن في بقاع كثيرة من العالم. ولما كانت الحياة فلسفة، وليست مجرد وجود، تحول المقهورون إلى عبوات ناسفة من السهل استغلالهم، وتوظيفهم لتنفيذ أقذر العمليات. إن اليأس والإحباط مُؤْذنان بانفجارات مدمرة. والمواجهة غير المتكافئة مؤذنة بكسر العظام وإحراق الأرض. والخضوع والاستسلام مدعاة لمزيد من الإهانة. وحفظ التوازن بين اليأس والمواجهة والخنوع محك الاقتدار. وعلى الذين يملكون فك الاختناقات، أن يحذروا مواصلة الضغط على المستضعفين، إن ما نشاهده في العراق من تمرد وحقد وانتحار وقتل بشع للمخطوفين دليل على أن الفوضى لا تحكمها القوة، وأن انفلات الأمن فوق قدرة البشر بكل ما أوتوا من قوة. ولو أن القوة تحسم المشاكل، لَمَا كانت العراق مستنقعاً يتسع ويتعمق، ولَمَا كانت (فيتنام) من قبل مصيدة أذلت أمريكا. لقد جُرت قدم أمريكا ل (فيتنام) فزلّت، وجرت قدم الاتحاد السوفييتي (لأفغانستان) فسقط، واندفعت أمريكا بعنف في (العراق) فتورطت.

إن عمليات الاغتيال والخطف والتفجير ترجمة للإحباط والفوضى، وقد تكون خليطاً من الإرهاب والمقاومة وتصفية الحسابات بين دول لا تملك القدرة على المواجهة العسكرية. إنها لعب قاتلة أو بقايا لعب كونية، رضي العالم العربي أن يكون مسرحاً لها. والمتابعون لا يفرقون بين (الإرهاب) و (المقاومة) و (المواجهة) الخلفية بين الخصوم الألداء. وليس أدل على ذلك من القول بأن (شارون) رجل سلام، وأن الصراع مع الصهيونية صراع حضاري، وأن منظمات التحرير الفلسطيني منظمات إرهابية، وأن مقاومة العالم الثالث رفض للحضارة والمدنية والحرية، ومباركة منح جائزة نوبل مناصفة بين المقاومة والاحتلال. والمؤلم أن يستمرئ بعض الكتبة جَلْد الذات والتعذير للغزاة، وانتظار ما لا يأتي من وعود طوباوية، هذا الاضطراب في المفاهيم والمواقف سوغ أعمالاً لا تحتمل إلا تأويلاً واحداً. وبهذه الظواهر يكون العالم كله مداناً، ومعرضاً لغضبة ربانية، لا تقل عما أصاب قوم (نوح) أو قوم (صالح) أو آل (فرعون) أو أصحاب (الفيل)، فالله حرَّم الظلم على نفسه، وجعله بين الناس محرماً، ولو تكلم الصامتون، وكف اللاعبون، لعرف الناس طريقهم إلى السلام العادل، وعرفوا الإرهاب، وأسبابه، ومصادره، وطرائق مواجهته.

أخطر ظاهرة استعمارية .. ! (٢) [١]

وأخطر من الإرهاب تضارب الآراء في فهمه، وافتراء الكذب في البحث عنه في الكهوف والمغارات، وحصره في نحلة أو ملة أو عرق، والحق أنه أقرب إلى الفهم من حبل الوريد، لو أريد استئصال شأفته دون استغلاله لمكاسب ثانوية، واتخاذه قناعاً لمآرب أخرى. والتقنع أودى بحيوات كثيرة، فكان كما الأكلة التي منعت أكلات كثيرة. إنه في مواقع كثيرة مولود طبعي للتدخلات في أخص الخصوصيات العالمية، وردة فعل لاستخدام القوة دون مبرر، ورفض معلن للعنف الصهيوني وللوحشية في مواجهة المخالف. وذلك بسط لما قاله (شيراك) قبل زيارته ل(بريطانيا). ومن أراد للإرهاب أن ينزوي في أضيق نطاق، فعليه أن يكف عن الظلم وعن التدخلات، وعليه أن يمارس العدل والإنصاف والحياد الإيجابي. وإذا أكدنا على ما سبق فإن للغلو الديني، والتعصب الطائفي، والتأويل الباطل لنصوص التشريع، وفوضى الإفتاء، والخروج على الشرعية أثرها في تنامي الإرهاب واستفحاله. غير أن التطرف الفكري لا يواجه بذات العنف، لأنه ناتج تربية خاطئة أو مؤامرة دنيئة، حشدت المشاعر، وعبأت الرأي العام، حتى إذا آذن بالانفجار لاذ المخادعون بالفرار، يحملون الغنائم، وتركوا الحابل يختلط بالنابل. وللخلوص من ويلات الإرهاب لابد من معالجة الاحتقانات، والتعبئة الذهنية بذات الطريقة التي كونته وحفزّته. لقد تهربت الدول الكبرى من مسؤولية الإرهاب بإضافته إلى الإسلام وإلى مناهج الدراسة عند بعض الدول الإسلامية، وإلى بعض الطوائف الإسلامية، وإلى طائفة من المصلحين الذين كان لهم كل الفضل في نفي ما علق بالدين من تأويل المبطلين وانتحال الغالين وغلط الجاهلين، وشايعها في هذا التهرب الجهلة والمغفلون والمجندون. وتحت تأثير المغالطات أوقفت الجهود الإسلامية المعتدلة، وأغلقت المراكز الدعوية، وقلصت الجمعيات الخيرية المدعومة من دولة عرفت بالوسطية والدفع بالتي هي أحسن، والدعوى إلى سبيل ربها بالحكمة والموعظة الحسنة. والدول التي واجهت الإرهاب بالأساطيل، شككت العالم بالمسلمين على كافة الطوائف، وحملته على التحفظ على كل عمل إسلامي أياً كان. وما الإرهاب في حقيقة الأمر إلا مولود مبتسر لغطرسة القوة، والتنكر للشرعية الدولية. والذين يمارسون العدوان السافر، ويجتهدون في منح عدوانهم شرعية دولية يغذّون الإرهاب والعنف، ويساعدون على استفحالهما.

والمزعج أن الدول التي تمارس القوة في فرض إرادتها، لا تفتأ تحرض على احترام الشرعية، وتدعي حمايتها لقوانين هيئة الأمم، والمكتوون بنار اللعب الكونية والقمع المتعسف يصرخون في أودية سحيقة، لا تؤوّب معهم إلا الجبال، مؤكدين على أن الكبار هم أول من اخترق الشرعية، وعطل القانون، وحرض على الكرة والعنف. وكيف تسوّغ أمريكا لنفسها التدخل العسكري في (العراق) وهي حين اسقطت حكومته الظالمة، أعلنت أنها (محتلة) والاحتلال مفهوم له مقتضاه البغيض. وحين انتشر جنودها في أرجاء (العراق) هبت المقاومة، واندس بينهم أصحاب الثارات، وانتفضت كل التنظيمات السرية العنيفة، تنسل من كل حدب. فأمريكا وإن كانت تملك بصيصاً من الدافع الإنساني لتخليص الشعب العراقي من حكومته الظالمة، إلا أنها لم تحسن الدخول، ولم تضبط الممارسة، ولم تدع مجالاً للتفاؤل والثقة. وتصريح قادتها والتهديد والوعيد لدول الجوار يبعث على الخوف من العواقب الوخيمة. لقد فرضت على الشعب العراقي فتنة تتفاقم ساعة بعد أخرى، فتنة عمياء، وقودها الأنفس والأموال والحرث، وهل أحد يرضيه ما يحصل

---

(١) تاريخ المقال: ٢٨/ ١٢/ ٢٠٠٤

للشعب العراقي؟ وهل يود عاقل أن تؤول بلاده إلى ما آلت إليه الأوضاع في العراق؟ ومغامرة أمريكا أضرت بها، وأضرت بالمنطقة، وأسقطت الشرعية الدولية. ولو أنها حين أسقطت الحكومة الظالمة، سلمت البلاد لهيئة الأمم ولجامعة الدول العربية، لترتيب الأوضاع وفق مصلحة الشعب، وظلت ترقب الأوضاع من بعيد، لكان في ذلك حسم للفتنة، واستساغة وقتية محدودة للتدخل. ولكن حيثيات التدخل الواهية، وما نشأ عنه من تدمير بشع أسقطت معقوليته، وعمقت الشعور بالرفض وعلى افتراض وجود أسلحة دمار شامل، أو ضلوع في دعم الإرهاب، فإن رد الفعل أخطر من الفعل. وفوق ذلك كله فإن تدخل أمريكا لا يعد من باب الدفاع عن النفس، وكيف يكون ذلك، وهي الأقوى والأبعد، و(إسرائيل) ليست مهددة في ظل القوة الأمريكية والضعف العربي، والخوف كل الخوف من مؤامرة تصيب الدول كافة، وتزيد في اشتعال الفتنة واتساعها، حتى إذا استحكمت، وظنت أمريكا أنها غير قادرة على الحسم، ولت هاربة، تاركة الأشقاء يقتتلون، كما فعلت في (الصومال) وفي (لبنان) ومن قبل ذلك في (فيتنام)، وكل حرب ظالمة تترك آثاراً سيئة يصعب حسمها.

لقد تعرض أبناء الشعب العراقي على يد أبنائه من عصابة القبيلة وفلول الحزب للقتل والسجن والتعذيب والتشريد، ولقيت أطيافه تهميشاً ومضايقة ومطاردة، وفقد الشعب العراقي زهرة شبابه بين قتيل وسجين ومعوق ومهاجر، وحرم إنسان العراق بكل ما ينطوي عليه من شجاعة وحضارة من أبسط حقوقه على يد الطغمة الحاكمة، وتعرض جيران العراق للإيذاء، وتمنوا سقوط النظام الذي جر المنطقة كلها إلى حافة الهاوية، وفي ظل هذه الأزمات وجدت أمريكا مبرراً لتدخلها، من حيث هو إماطة للأذى، وإزاحة للكلكل المنيخ على صدور الشعب العراقي، غير أنها لم تضع ذلك في اعتبارها، ولو وضعته، لكان أن تدخلت قبل هذا الوقت، ولكان أن تدخلت في شأن دول أخرى، تعرضت شعوبها لويلات مماثلة. وما تعرضت له (العراق) أثناء الغزو، وما يتعرض له الآن أسوأ مما ناله من قبل، وما يرقبه من مصائر مظلمة تنذر بالخطر، وما ترقبه دول الجوار من انفلات في الأمن واستشراء في الإرهاب أنكى وأمر. فالعراق معرض لحروب أهلية طاحنة، ولتقسيم طائفي وعرقي خطير. وهو قد تحول إلى ساحة لكل متوحش يفسد في الأرض، ويسفك الدماء. وفي ظل هذه الفوضى فإن لكل دولة مصلحة وثارات، وأجواء (العراق) مناسبة لتصفية الثارات، وتحقيق المصالح. فكل من في ذمة أمريكا له مظلمة، يجد الوقت مناسباً لرد الصاع صاعين. وهذا هو حال العراق اليوم، قتل عشوائي، وتفجير عنيف، وذبح متوحش، وتسلل أجنبي، وتسريب للأسلحة، وتداخل بين الإرهاب والمقاومة. وإذا كان الشعب العراقي يهرول نحو الهاوية، فإن المنطقة بأسرها مشروع فوضى مستحكمة. وأمريكا هي الخاسر الأول، لأنها تحرج الأصدقاء المعتدلين وتخيفهم، وتفقد الأفضلية من الدول الغنية بثرواتها الطبيعية التي تعطيها الأولوية في الاتفاقات والصفقات، وتمنحها كثيراً من التسهيلات والامتيازات. وقد يؤدي عنفها واندفاعها وحساباتها الخاطئة إلى توريط المنطقة، وتدمير مصادر الثروة وشغلها عن التنمية والإنتاج، مما يعود أثره السلبي على الجميع، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله.

وكل عمل لا يملك مشروعية، يتسع لعشرات الأعمال المماثلة. فأمريكا دخلت دون أن يكون لدخولها أي مبرر، وكان بإمكانها أن تصيخ لتحذير الناصحين، وأن تتخذ مساراً يُضيق الخناق على الأنظمة المتهمة، ولا يعرض الشعوب للفتنة، وهذا التدخل السافر قد يغري كل متردد على ممارسة الكسب غير المشروع، لقد أصبح هذا التدخل بادرة سيئة، ستعقبها بوادر أخرى، ليست بأقل خطراً منها، لقد جاءت (حرب الخليج) الأولى مغامرة

طائشة أنتجت احتلال الكويت، ثم تتابعت الفتن، وتزامن مع ذلك قلب الحقائق وافتراء الكذب.

وقلب الحقائق والإذعان لما يسوّق إعلامياً من كلام مخالف للحقيقة يعني استمرار الظلم والقبول بالمغالطات. وإذا لم يتدارك عقلاء العالم الأمر فإن المنطقة ستكون مسرحاً لأحداث دامية، يمتد أثرها زماناً ومكاناً. وليس أمام أمريكا إلا أن تنقل القضية إلى هيئة الأمم، وأن تصدق في استفتاء الرأي العالمي، وأن تحتمل ما يقرره من خلال منظماته، لا أن تفتح ملفات ضد الأمين العام لطرده من المنظمة لمجرد أنه قال بعض الحق. فالواقع المؤلم للعراق وللمنطقة بأسرها لا يمكن أن تضطلع أمريكا وحدها بحله، وليس باستطاعتها ترتيب الأوراق دون مشاركة عالمية، تعيد للعراق وضعه الطبيعي، وتخلّص نفسها من هذا المستنقع، وبخاصة أن سمعتها لم تكن على ما يرام، والذين يسايرونها في مغامراتها، إما ماكرون أو مكروهون، وإذا كانت الأمة العربية عاجزة عن رد الظلم، وهي عاجزة ولا شك، فإن على نخبها وإعلامييها ألا يزيدوا الارتكاس بالاختلاف غير المحتمل، والنهوض بمهمة التبرير، وترويج المغالطات، والانحاء باللائمة على الشعب المقهور. إن على النخب المنهكة أن تقول خيراً أو لتصمت. وليست معذورة حين يكون هناك تباين بين الفعل والقول الأمريكي. لقد ادعت أمريكا الرغبة في التوازن، وباستطاعتها تحقيق ذلك دون تدخل يقلب الموازين. ثم إن استعمال القوة للقضاء على سلاح الدمار الشامل يجب أن يبدأ من (إسرائيل) التي تمتلك أفتك الأسلحة، واستعمال القوة لأهداف إنسانية يجب أن يبدأ من (إسرائيل) التي تمارس أبشع صور الاعتداء والقتل غيلة والهدم غطرسة، والخطف والسجن والتشريد والتسميم مهنة.

إن ممارسة أمريكا عرّضت سلامة الأراضي العربية للخطر، وعرّضت الاستقلال السياسي للإلغاء، ولم تحقق أمناً ولا وحدة، ولم تملأ الفراغ الدستوري الذي أحدثته. وإذا لم يكن التدخل العسكري لحماية رعايا الدولة المتدخّلة أو لحماية الأقليات العرقية أو الدينية حين تسلب حقوقها - مع أن ذلك لا يسوغ إلا بتخويل من هيئة الأمم ومؤسساتها، وتحت إشرافها وقيادتها -، فإنه يعد اعتداء سافراً لابد من التصدي له، ولو بالضغط السياسي، والاستنجاد بالدول المحايدة ك(فرنسا) مثلاً لممارسة الضغوط، وإنقاذ الأمة العربية من انهيارات سياسية واقتصادية وأمنية، فالغزو العسكري مرفوض على كل لسان وبكل نحلة، ومواجهته مشروعة بمختلف الإمكانيات الممكنة، وإن لم تكن استطاعة فلا أقل من قول الحق أو الصمت وذلك أضعف الإيمان. وإذ يكون في (العراق) ملل ونحل وأعراق تمثل أقليات مضطهدة ك(الأقلية الكردية) فإن إشكاليتها ليست قصراً على (العراق)، ف(الأكراد) موزعون بين خمس دول، وقضيتهم أصبحت مجالاً للاعبين الكبار، والأكراد أصبحوا يتخبطون في قضيتهم. أما (الشيعة) فليسوا أقلية، وإن مسهم الضر، ولما تكن لهم قضية في أروقة الأمم، وحتى لو كانت لهم قضية فإن معالجتها سلمياً أفضل، وأوضاع العراق داخلية، وليس من حق أحد أن يرمي بثقله. فالشأن العراقي، يجب أن يتداوله أبناؤه، وما على المتعاطفين إلا النصحية، والحيلولة دون الحروب الأهلية.

لقد مر العالم بتدخلات خاطفة، لإضعاف الخصم، وخضد شوكته، وانتهت بالانسحاب الفوري، ونقل القضايا المستعصية على الحل إلى أروقة الأمم، ولكن ما نعايشه في قضية (أفغانستان) و(العراق) يعد احتلالاً طويل الأمد، فلا هو من باب التأديب، ولا هو من باب الاحتواء، ولا هو من باب حماية المصالح، ولا هو من بال مواجهة الإرهاب، إنه عمل خطير ومخيف. وإذا كانت أمريكا تتذرع بشيء من ذلك فإن العالم بأسره مع التصدي والصمود في وجه الإرهاب، فالأمة المنصفة الحضارية ترفض القتل، وترفض التدخل، وترفض اختلال الأمن، وتحترم سيادة القانون. ولكن من ذا الذي

يملك تحديد الإرهاب ومواطنه، وأسلوب مواجهته. إن هناك إرهاب دولة، وإرهاب منظمات، وإرهاب طوائف، وإرهاب أفراد. وهناك مقاومة وحتى هذه اللحظة لم يشأ العالم أن يصل إلى تحديد مفهوم جامع مانع لما يمكن أن يسمى بالإرهاب فالمسائل نسبية، ولكن الحق أبلج، وما من أمة إلا وتعرف المحق من المبطل، ولو صدق الناس، وأنصف الأقوياء، لاستراح العالم، واستقرت الأوضاع. وهل أحد لا يعرف الإرهاب؟ الإرهاب الحقيقي هو ممارسة القتل والتفجير على أرض دولة شرعية متصالحة مع شعبها، ومسالمة مع جيرانها، محترمة للعهود والمواثيق، وليست لها أطماع، وليست لديها تدخلات في شؤون الغير. ولنضرب مثلاً على ذلك ب(المملكة العربية السعودية) التي واجهت إرهاباً عنيفاً متعدد المواقع والأساليب والأهداف. فالمملكة ليست معتدية، وليست دولة تسلطية، ولا تمارس تصدير الإرهاب، ومع ذلك تعرضت لأبشع العمليات الإرهابية، واتهمت بصناعته، وحيل بينها وبين الدعوة والدعم السلمي، وحتى حين كانت تستعدي دول العالم على الإرهاب، كان البعض يسميه معارضة مشروعة، وحين كشر عن نابه خف الجميع للمواجهة. لقد مارست إسرائيل أبشع صور الإرهاب، بحجة الدفاع عن النفس، وتأمين الحدود، ومنذ عام ١٩٦٧م وهي تحتل أراضي الغير على الرغم من قرارات الأمم المتحدة. وهي قد ضربت المفاعل النووي (العراقي) على الرغم من أنها تمتلك سلاحاً نووياً، وهي الآن تتحين الفرصة لضرب المنشآت النووية السلمية في (إيران)، وتمارس ضغوطها على الهيئات والمؤسسات لمنع إيران من أبسط حقوقها، ولم تجد أي رادع أو مسائل، إن هذا الاعتداء السافر والتأييد الظالم مؤذن باستفحال الإرهاب، والأمم الآمنة المطمئنة لا تريد العنف، ولا الرد الأعنف، وما يمارس على الأراضي العربية هو عين العنف والرد الأعنف.

واجتياح العراق، وإن لم يكن الأول بالنسبة لأمريكا، إلا أنه الأعنف، يعد من الأسباب الرئيسة لتنامي الإرهاب وتنوعه واستفحاله، وهو ما لا يريده العقلاء في كل أنحاء العالم. إن هناك إرهاباً وهناك أجواء ملائمة للإرهاب، فالاحتلال، والانحياز للمعتدي، وسكوت القادرين على الكلام من الأسباب القوية لوجود الإرهاب. لقد كان لأمريكا تدخلات عسكرية خاطفة، لم تكن بحجم التدخل في العراق، ولهذا لم تصعد العنف في الأوساط العالمية، ولعلنا نذكر ضرب (ليبيا) و(نيكارغوا) والتدخل في (الصومال) و(لبنان) ومناطق أخرى، ولأنها لم تكن احتلالاً عسكرياً، فقد مرت دون أن تكرس الاستياء أو أن تستدعي المواجهة، وقد يكون الضرب الخاطف من باب الاختلاف الحاد حول وجهات النظر والمصالح. وقد يكون ذلك بدافع قمع بعض الدول عن ممارسة الإرهاب الدولي أو دعمه.

المهم أن هناك اعتداءات تنفرد فيها أمريكا، متخذة لذلك أي مبرر، لكن ضرباتها الخاطفة، لم تكن بحجم اجتياح (العراق) و(أفغانستان) ولا بحجم اجتياحات إسرائيل للأراضي الفلسطينية. و(ليبيا) موّلت عمليات إرهابية، واغتالت شخصيات سياسية ودينية، واعترفت ببعض مقترفاتها، وتحملت تعويضات مادية باهظة، وقد اتهمت بعمليات كثيرة من أهمها (لوكربي) و(ملهى برلين)، وهي أخيراً بعد تعهداتها تورطت بالتخطيط لاغتيالات خطيرة، لعل من أسوئها التخطيط لاغتيال زعيم عربي، أنقذ ليبيا حين ادلهمت عليها الأمور، وهي من قبل قد اتهمت (حركة الإصلاح الديني) في نجد بالإرهاب، وكأني بها تنتقل من (اتهام المصلح) إلى (اغتيال الأصلح)، وكنا نود منها ومن (العراق) في عهده البائد ومن أي دولة ثورية تلعب بالنار تحامي الاستفزاز، والتخلي عن العنتريات، وخطابات التهديد والوعيد، وتصدير الثورات والنظريات، فبعض الزعامات المتهورة تثير الغضب، وتستفز الدول الكبرى، وتوجد أمامها مبرراً لممارسة الضغط

والحصار والمقاطعة وكسر العظم وإحراق الأرض وقتل الأنفس. وقد تحمل على المواجهة العسكرية، أو تدبير لعب موجعة، تجر المنطقة إلى مستنقع الفتن. ومثل هذه الممارسات محرض للضربات التأديبية. إن المنطقة العربية مقبلة على أوضاع عصيبة، وليس أمام زعمائها إلا الالتقاء على كلمة سواء.

المواطنة بين تعدد المفاهيم وتشعب القيم الثقافية .. ! (١) [1]

لقد اهتم التشريع الإسلامي، بالتأصيل لمجموعة من القيم: العقدية والسلوكية والحقوقية والتعبدية والانتمائية الاصطباغية ﴿صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً﴾، وجاء المنقبون من علماء الأصول والكلام، فقعدوا القواعد وأصلوا الأصول، وامتازت كل ملة أو نحلة بنظريتها المعرفية وقواعد مذهبها، وعرف كل أناس مشربهم، وتبدت هذه الأصول وتلك النظريات للمتلقي الواعي، وعرف كل قوم من لحن القول، وتشكلت عنده رؤية وسطية متوازنة، تعرف أركان الإيمان ونواقضه، وما هو قطعي يقيني، وما هو احتمالي اجتهادي، وواكبتها رؤية معرفية إيمانية لم تعطل الاجتهاد، ولم تعمله على إطلاقه في القطعيات واليقينيات والنصوص التي لا اجتهاد معها، كما يقول الأصوليون.

هذا الوعي الحصيف والرؤية النافذة روضت المستقيمين كما أمروا على قبول التعددية، واحتمال الاختلاف، وتقدير الآراء، واحترام الآخر، ما دام في النص بقية من فضاءات دلالية.

هذه الرحابة مكنت أهل الذكر من توقي التعويل على قيمة واحدة، تذر الأخريات كالمعلقات.

والرؤية لا تكون حقاً حتى تستوعب شمولية الإسلام وتتمثل توازنه، وتعي مجالات الثبات والتحول فيه، وتروض نفسها على أن الاختلاف أضعاف الإجماع، وأن العلماء متفقون على محدودية الإجماع وشمولية الاختلاف.

والذين اتخذوا بعض القيم معزولة عن السياقات والأنساق ومقتضيات العموم والخصوص والقوة والضعف والثبات والتحول، ولم يفرقوا بين الأفكار والعقائد، ومحضوا رؤيتهم الضيقة كل جهودهم، أضروا بمن حولهم، ممن صنعوا مثل صنيعهم، وممن حفظوا التوازن بين القيم. وكل من ذهب بما يرى، واتخذ إلهه هواه، وفارق جماعة المسلمين، وتفانى في تحويل فكرة إلى عقيدة، يكفر الخارج عليها، مستميتاً في استئثاره واستبداده، فهو واقع في نقض غزل الأمة من بعد قوة أنكاثاً، لأنه ترك المحجة، وتاه في بنيات الطريق، وكان أمره فرطاً. وكلما تعددت الثقافات بتعدد مصادرها، أو بتعدد نظريات التلقي، كان من الصعوبة بمكان اتفاق النخبة على وحدة المفاهيم والأفكار، وبخاصة أولئك الذين يوغلون في مسلماتهم، ويستسلمون للحساسيات المفرطة، ويقعون تحت عقدة الخوف غير المبرر فـ(المواطنة) في ظل هذه المخاضات الفكرية والثقافية مفهوم مراوغ، يتعدد بتعدد الرؤى والمصدريات ونظريات التأويل. وليست هناك إشكالية عصبية في التوفيق بين وجهات النظر، متى حسنت النوايا، وشرفت المقاصد، وقوي الإيمان بالثوابت واليقينيات المجمع عليها، وتسامى الناس فوق الجزئيات والثانويات. أما إذا ضاع الإيمان أو اضطرب، لا أمان ولا قوة، ذلك أن طاقة القوة الحسية والمحرك لها والداعم لها إنما هو الإيمان الراسخ بالمبادئ، والمعرفة التامة بتفاوت الأحكام، وتبدل الأحوال، ودوران الحكم مع العلة وجوداً وعدماً.

والناهضون بالدعوة والإنذار لا بد لهم من فهم دقيق لمقاصد الإسلام، واحترام لمذاهب العلماء الأفذاذ، وترويض للنفس على قبول الرأي الآخر، وإمكان التعايش معه على قدم المساواة. وليس من حق أحد أن يصر على نفي الرأي الآخر ما دامت التعددية واقعة تحت طائلة الاختلاف المشروع. وإذا كان المذهب الواحد يقع بين علمائه الاختلاف، وفيه حكم مقدم، يعرفه الراسخون في العلم، فإن من حق المذاهب الأخرى أن

---

(١) تاريخ المقال: ٤/ ١/ ٢٠٠٥

تأخذ حقها ومشروعيتها، ولا تجوز الملاحاة، ولا الإصرار على التهميش، ولا استنزاف الجهد والوقت في المماحكة والجدل البيزنطي، وبخاصة إذا كانت لكل الأطراف مرجعية مشتركة وأصول معتبرة، فتلك المؤهلات تضبط حراك الناشطين في المجالات التوعوية والدعوية. و(المواطنة) الإيجابية لا تتحقق بالأثرة، ولا بالتنافي. وفي التسامح والتفسح في المجالس استجابة للمقاصد الإسلامية، كما يراها علماء الأمة، إذ هي تؤلف بين المفاهيم المتعددة. ولن يتحقق ذلك إلا بفقه النص التشريعي من حيث الرواية والدراية والبراعة في إنزال الحكم على النازلة. ومن الأخطاء الفادحة تصور الفقه مقصوراً على (فقه الأحكام) ومجرد القول بأن هذا حلال وهذا حرام، وتناسي (فقه الأحوال) وهو المتعارف عليه ب(فقه الواقع) و(فقه الأولويات) و(الفقه السياسي). والرسول ﷺ استصحب هذه الأنواع الثلاثة، وما لحق بالرفيق الأعلى إلا بعد أن تركنا على (المحجة البيضاء)، ومن زاغ عنها بسبب الجهل، أو الهوى، أو التعصب، أو التقليد، هلك وأهلك من حوله من الأشياع والأتباع. وما استعصى على الرسل إلا (عقدة الأبوية)، وما استفحل التناحر، إلا في ظل الخلط بين الأفكار والعقائد، وما هلكت الأمة إلا على يد أغيلمة موغلة منبتة، تمرق من الدين كما يمرق السهم من الرمية.

و(المواطنة) الإيجابية تتجلى في القول، وفي الفعل، وفي الترك، وفي التوازن بين الحقوق والواجبات. وحين يبادر البعض مهمة القول في (الشأن الوطني) في حالة من اضطراب المفاهيم، وتكالب الأزمات، تبدأ نذر الخلل في الوحدة الفكرية والدينية للأمة، وينسل من ذلك خلل آخر، يؤدي إلى تفكك الوحدات الإقليمية والسياسية والدينية. ومن استخف بالقيم والمبادئ، وركن إلى الحسيات والماديات، فوت على أمته فرصاً ثمينة.

وإذ يكون (الأمن) أغلى القيم وأهمها، فإن أي حراك ديني أو سياسي أو ثقافي أو فكري يساوم أو يزايد عليه تحت أي راية يعد في نظر العقلاء والمجربين ظلماً وعدواناً وتفريطاً، ولا ينظر إلى عوائد مزايدته أو مساومته مهما كانت. ذلك أن (الأمن) مصدر كل خير، ولن يستطيع أي مصلح في أي حقل حضاري أن يمارس عمله إلا في ظل (الأمن)، ولهذا شدد الرسول ﷺ على السمع والطاعة ولزوم جماعة المسلمين، وغلظ على الخارجين، وأهدر دمهم، وقال: (فإنه من خرج من السلطان شبراً مات ميتة جاهلية)، ومواجهة المؤسسات الشرعية خروج على السلطان، على أن السلطان ليس شخصاً بعينه، وإنما هو مفهوم وقيمة، متى اجتمعت عليه الكلمة، تعين سلطانه.

وإذا كانت (المواطنة) قيمة و(الدين) قيمة و(التعدد الثقافي) قيمة و(السلطة) بشعبها الثلاث: (الدولة) و(الدين) و(المجتمع) قيمة، فكيف نُوفّق بين هذه القيم، ونحفظ التوازن فيما بينها، وندرأ عن أنفسنا معرة الشقاق؟ ونحقق في ظل هذه القيمة وحدة وطنية شاملة.

لقد كثر المتصدرون للقول في هذه القيم، وأصبح الرأي العام نهباً للقول ونقيضه، تخترقه القنوات والمواقع والخطابات، ويتربص به المتعالمون والمستغربون والأضوائيون، وإشكالية الراهن من فئات تتجاذب الآراء والأحكام، وهي بعد لم تع عوائد ما تقول.

وما أضر بالأمة إلا اضطراب المفاهيم، وأنصاف المتعلمين، وإحجام المتضلعين إيثاراً للسلامة.

إننا نخطئ في مفهوم (المواطنة) ونخلط بينها وبين مجمل النزعات (الأممية) و(الأخوة الإسلامية) حتى لقد وقع البعض في التخلي عنها، نتيجة الفهم الخاطئ لمقتضيات (الأخوة الإسلامية) و(الاهتمام بأمر المسلمين) و(التداعي الجسمي للعوارض) ومقتضيات (التكفير) و(الجهاد) و(ديار الكفر والإسلام) و(أهل الذمة) و(المستأمنين) وأضاع البعض حقوق الوطن في ظل التعبئة العاطفية لدعوات (القومية) و(الدينية)

و(الأممية) مع أنه لا تعارض بين هذه القيم، متى تعاملنا معها تعاملاً إسلامياً بعيداً عن (الفئوية) و(التطرف) و(هاجس التصفية للمخالف) ولقد أدرك الرسول ﷺ تنوع المفاهيم للجهاد وأحواله في (غزوة بدر) حين كرر كلمة (أشيروا علي) وكان قصده انتزاع موافقة (الأنصار) على مواجهة المشركين خارج أسوار المدينة، لأنهم لما يزالوا مرتبطين معه بعهد الدفاع عن حوزة المدينة. وهو المرتبط ب(جهاد الدفع). وما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم والمهاجرون (جهاد الطلب) أو هكذا خاف الرسول ﷺ أن يتصوروه.

وإذا كانت الأوضاع العالمية غير السوية في تصاعد مستمر، وتأزم مستحكم، كان لا بد من تبني أسلوب مرن، يحذر الاندفاعات غير المحسوبة، أو التردد الموهن .. فالقيم أخذت في ظل هذه الأوضاع المأزومة أبعاداً جديدة، وأصبح التعامل معها يتطلب عملاً مؤسساتياً، يتوفر على المعرفة والخبرة، ويتخلق بالحلم والأناة، ويمارس الدفع بالتي هي أحسن.

و(المواطنة) في ضجة الانتماءات وتناقض المفاهيم، ليست كلمة تقال، ثم لا تتبع ببرهان، إنها أخذ وعطاء، وتوازن بين الحقوق والواجبات. وتحقيق متطلباتها في ظل التعدد الثقافي قضية محفوفة بالمخاطر، وأخطر ما تواجهه الأوطان التعددية المعرفية والدينية والقومية والثقافية والطائفية. وبخاصة حين تتصور الأطياف أن تحقق انتمائها وولائها لا يتم إلا بإقصاء الآخر وتهميشه والنظر إليه بدونية.

وما سنومئ إليه لا يرقى إلى هذا التصعيد الخطير، ذلك أن وطناً ك(المملكة العربية السعودية)، لا يعاني من مثل هذه التعدديات الحدية الحادة، متى أخذت بحقها، وحيل بينها وبين الاختراقات المغرضة، فهو بلد إسلامي عربي خالص العروبة والإسلام. وإن كان ثمة إشكالية فهي في بعض الولاءات الخاطئة للإقليم أو للقبيلة أو للطائفة، أو لمناقضها من قومية أو أممية أو وحدة إسلامية غير ممكنة في ظل الضعف والاستكبار العالمي. غير أن ما منيت به البلاد شيء آخر، لما تزل بشأنه في أمر مريج. وفي ظل (الظاهرة الإرهابية) أصبح المتابع يخشى الاختراقات، ويعيش أسوأ الاحتمالات .. فالبنية السكانية والتعددية الثقافية والطائفية قابلة لكل الاحتمالات والاختراقات، والسمَّاعون للخطابات المتطرفة قابلون لمزيد من العنف والصلف والغلو والتطرف، وأحسب أن التعدد الثقافي من أهداف المناوئين والمتربصين.

وللحيلولة دون الاحتقانات والصدامات جاءت فكرة إشاعة ثقافة (الحوار)، و(مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني) مبادرة حكيمة، اضطربت في مفهومه ورسالته الآراء، ولقد مر بتجارب حوارية، التقت فيها أطياف متعددة، وأتيحت للمؤتمرين فرص لإبداء المرئيات، والتعبير عن التصورات، وهامش الحرية المتاح لم يواجه معه المؤتمرون مرحلة حرجة، ولم يصلوا فيه إلى طريق مسدود، مع أن الأطياف دخلت خائفة وجلة متوترة، والبعض جاء وفي ذهنه أنه داخل في صراع التنافي والتصفيات، ولم يدر في خلد البعض أنه من الممكن أن تكون هناك أرضيات مشتركة، تتسع للتعايش والتقارب أو التعاذر، وقد تبلغ الجدلية ذروة التفاعل الإيجابي، ومثل هذا الوضع يعد من المبشرات. ومع هذا التفاؤل العريض فإن هناك مواقف لا يجوز الإغماض فيها، وهي مواقف نشأت من خطأ التصور، واستفحلت في ظل غفلة الرقيب، وتعدد الانتماءات الثقافية، وتجاوز سلطة المؤسسات، وتلقي المفاهيم من مصدريات غير شرعية، وسلبية المواقف أو عجزها عن تفكيك الذهنيات المضطربة وإعادة تركيبها، والتفريق بين الفئة الضالة والفئة المضلِّلة.

لقد عشنا غفلة المؤمن، حتى جاء (الحادي عشر من سبتمبر) ليكشف أوضاعاً غير سوية، وغير متوقعة، و(رب ضارة نافعة)، فلو امتدت تلك الغفلة لكان أن اتسع الخرق على الراقع.

والمسارعة في إشاعة ثقافة لحوار ومأسسة الحقوق حيلولة مرحلية دون تفاقم الأمور وتدهور الأوضاع، وتناول مثل هذه الطوارئ في وضح النهار من الأساليب الحكيمة، فما دام أنه بالإمكان المكاشفة والشفافية ومعالجة الأمور دون الخوف من الاستحكام والتأزم فإن السكوت مسايرة خاطئة، وتأجيل وقتي. وفتح الملفات ومعالجتها في ظروف الصحة والقوة أفضل من إرجائها، حتى يأتي وقت لا يحتمل استدعاءها، وقد يجد المتربصون الفرصة في تحريك تلك الملفات في الزمن العصيب، وفتح هذه الملفات ليس وقفاً على المؤسسات الرسمية.

إن على المقتدرين من علماء ومفكرين وخطباء وإعلاميين تناولها والتحذير من مغبتها، وطرح البدائل التي تسد مسد المغريات، فالمكافحة والتخويف حلول وقتية، والتأسيس لفكر بديل قادر على المنازلة وانتزاع الحق من أولويات المهمات.

المواطنة بين تعدُّد المفاهيم وتشعُّب القيم الثقافية .. ! (٢) [(١)]

ولعل أولى الإشكاليات ما يتوهَّمه البعض من تناقض بين (الأخوة الإسلامية) و(المواطنة الإقليمية) المتمثلة في الحدود السياسية. ومع القطع بعدم التعارض تظل هناك تصرُّفات تؤدي إلى التناقض؛ فحب الوطن الإقليمي والعمل من أجله لا يقتضيان تصنيم الحدود، ولا المفاضلة، ولا التصدير، ولا يمنعان من الوفاء بمتطلبات الولاء والبراء، والنهوض بحق الأخوة الإسلامية. والحب الفئوي، والقطرية المنغلقة على ذاتها، وهاجس التصفيات للآخر بكل أنواعها ضربت مفهوم المواطنة في الصميم. وليست الممارسات على ضوء المفاهيم الخاطئة وَقْفاً على أمة دون أمة، وهواجس الخوف إن هي إلا بواعث ممارسات خاطئة، وحب الوطن لا يكون سليماً حتى ينفي عنه المقتدرون ما علق به من مفاهيم خاطئة وإغراق في التعالي والادِّعاء الأجوف، وخاصة حين تكون التركيبة السكانية قابلة للتنازع تحت أي ظرف عارض أو دائم؛ كالطائفية والعرقية والقومية. ومعضلة (الأقليات) الحقيقية في البلاد الواقعة تحت تأثير هذه الظروف مجالُ أخْذٍ ورد، حتى خرج مَن يقول: (مواطنون لا ذِمّيُّون)، و(الوطن للجميع، والدين لله). وحتى اضطرَّت بعض الدول إلى وجود قوة محايدة للحجز بين الطوائف المتصارعة، وحتى وُجد مَن يتحدث عن (الجِزْيَة) واليد الصاغرة، ومَن يطالب بصرف النظر عن الأحكام الشرعية؛ لارتباطها بوقوعات تاريخية. وفات الجميع أن الأمر محلول إسلامياً، ولكن الناس لا يفقهون. فـ(الرق) حين لا تتوفر شروطه لا يكون هناك (رقٌّ) بوصفه حدثاً، ولقد استطاع (الملك فيصل) رحمه الله حَسْمَ ذلك شرعاً، والخلوص من مأزق النقد العالمي، مع بقائه متى توفَّرت أسبابه. ولقد فعل مثل ذلك من قبلُ الخليفة الرائد عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين لم يُعْطِ المؤلَّفة قلوبُهم، وحين لم يُنفِّذ (القطْع) في عام الرمادة، وظنَّ البعض أن هذا تعطيلٌ، وما هو بتعطيل. و(الذِّمِّيَّة) حين لا تتوفر حيثياتها لا يكون هناك أهل ذمة ولا جزية، ولما تُحسم مثل هذه القضايا، وكان بالإمكان حسمها، فوجود حُكْمها لا يقتضي وجود عَيْنها. والحياة بدون سلطة تحسم وتعزم حياةٌ وحشيةٌ، والسلطة بدون نظام يحدُّ من غلواء كل الأطراف تسلُّطٌ وفوقيةٌ. ولعلنا نضرب المثل بحق (القوامة) وما يستتبعه من (طلاق) و(هجْر) و(تعدُّد)، لقد أخطأت أطراف كثيرة في فهم هذه الحقوق؛ إذ ربطتها بالوقوعات لا بالمقْتضيات، وأحسَّت بالحرج، وأعطى البعض الدنيَّة في الدين بوصفه - حسب تصوُّرهم - عاجزاً عن مواجهة الحضارة والمدنية، فكان أن اخترقت (العلمانية الشاملة) و(الفوضوية) باسم الحرية نظام الأسرة والأحوال الشخصية فأفسدتها، وفرضت واقعاً يُوهم بضرورة المراجعة للثوابت. وليس أمام المسلمين ما يحرجهم لو أنهم فهموا المقاصد والمقتضيات، واستجابوا لله والرسول. والمستجدُّ من القضايا بحاجة إلى دراسة فقهية مؤسساتية تتعامل مع النوازل، وتواجه الرأي العام العربي بحُكْم متَّزنٍ تتمخَّض عنه مداولات أهل الذكر. وكم هو الفرق بين حفظ التوازن بين سائر الحقوق والواجبات والاهتياج العاطفي الذي يصنِّم الحدود، ويُلغي كل حق في سبيل الحق الفئوي الأهوج للوطن أو للسلطة أياً كان مصدرها. وإذا حصلت مواقف فردية تُقصي حقوق المسلمين، وتضحِّي بها في سبيل النزعة القطرية، فإن ذلك لا يخوِّل الأطراف الأخرى نسف المواطنة الإقليمية وإلغاءها.

والتعدُّد الثقافي وتفاوت المفاهيم لا يحملان على الصدام، وإنما يحرِّضان على إيجاد أرضية مشتركة يمارس الفُرقاء من خلالها إعادة الوفاق ومبادرة الحوار، وامتحان

---

(١) تاريخ المقال: ١١/ ١/ ٢٠٠٥

المفاهيم؛ سعياً وراء تمحيصها، والتأليف فيما بينها، والنظر إليها بوصفها رؤًى متعدِّدة لا متناقضة. وكل ذاهب بما يرى يجب عليه ألاَّ يقطع بصحة ما يعتقد وخطأ ما يعتقده الآخر، إلا ما كان حُكمه مقرَّراً بنصٍّ قطعيِّ الدلالة والثُّبوت، وما كان من أركان الدين المعلومة بالضرورة، فهنا لا تكون مزايدةٌ ولا مساومةٌ ولا اجتهادٌ. ولكن يجب أن يكون التحديد ناتجَ تداولٍ مؤسَّساتي يضع في (أجندته) كل الاحتمالات، ولا تُؤخذ الأحكام المصيرية من أفراد يتَّكئون على أرائكهم ويطلقون الأحكام على عواهنها، لمجرد أنهم يعرفون فقه الأحكام، ويأنسون بحُكمٍ أطلقه عالم تُوجِّهه سياقاته، ولم يكن حكمه من باب الإجماع. وإذا كانت القضايا والرؤى والتصورات مجال اجتهاد فإن التعصُّب لها يُعدُّ من تأليه الهوى.
وأخطر قضية تعيق المسيرة الثقافية الخلطُ بين الأفكار والعقائد؛ فالأفكار قابلة للاختلاف، أما العقائد فهي من الثوابت والقطعيات، ولكن كيف نفرِّق بين الثوابت والمتغيرات واليقينيات والاحتماليات والأفكار والعقائد؟ إن هناك دليلاً يحتمل التأويل، وهناك برهاناً لا يحتمل إلا معنًى واحداً، ولهذا قال الأصوليون: (لا اجتهاد مع النص)، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم في منازعة الأمر أهلَه: «**إلاَّ أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان**»، ولم يقل (دليل)؛ لأن الدليل يحتمل عدة مفاهيم، أما (البرهان) فدليل قاطع. والعلماء اختلفوا في الفروع، وتقاربت وجهات نظرهم في الأصول، وكتبوا في قضايا الإجماع ومجالات الاجتهاد، واختلافهم لم يصل بهم حدَّ المواجهة، ولم يمتد إلى العامة إلا في حالات نادرة، حشد فيها البعض مشاعرهم، وتحوَّلت تلك المواقف في التاريخ الحضاري إلى حالة من التندُّر. وما أضرَّ بالأمة إلا التكثُّر والتقوِّي بالأتباع، وخَلْق جماعات الضغط الغوغائيَّة. والمواطنة في ظل تعدُّد الثقافات تعني المشاركة لا الأثرة، والتعاذر لا التنابذ، والتعايش لا التصادم. وليس في ذلك ما يمنع ما دامت الأمة متَّفقةً على الثوابت، محترمةً لما عُلم من الدين بالضرورة.

وإشكالية الأمة في عجزها عن استيعاب الخطابات المحتملة، وإذ يكون من المتعذَّر واحدية الخطاب فإنه يجب التماس مسوِّغات التعدُّد في إطار المفاهيم العامة، وليس بمستبْعَد أن يندَّ البعضُ فيضيِّق واسعاً، وقد فعلها بعض الصحابة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال قائلهم: دَعْني أضرب عنقه يا رسول الله، لمجرد أن المخالف ارتكب خطأً لم يحتملْه العاديُّون. وحين جاء عمر مُمسكاً بتلابيب أحد القرَّاء، فقال الرسول ﷺ: أرسلْه يا عمر، وطلب منهما القراءة، ثم قال لكلِّ واحد منهما: هكذا نزل القرآن. وحين أقسم البعض بنفاق مَن فارق المصلِّين بسبب الإطالة، ولم يُثْنِهِ إلا قولُ الرسول ﷺ: «**أفتَّانٌ أنتَ يا مُعاذُ؟!**». وإشكالية الأطياف عجزُها عن استيعاب شمولية الإسلام وتسامحه، وكون نصوصه حمَّالة أوْجُه، وأن هناك قضايا أمة وقضايا أفراد. لقد تسامح الرسول ﷺ مع المنافقين؛ لأن قضاياهم مندرجة ضمن قضايا الأمة، ولم يكن تسامحه موافقةً لهم، ولا إذعاناً لأذيَّتهم، ولكن لكيلا يقول الناس: إن رسول الله ﷺ يقتل أصحابه. وإذا لم يجد الرسول ﷺ بدًّا من حسم الموقف حسمه ولا كرامة، ولهذا قال: (مَن لي بابن الأشرف؟) فبادر أحد الصحابة لقتله غيلةً. ولكلِّ حدث حديث، فلقد كان في عهد الرسول ﷺ وعهد أبي بكر رضي الله عنه ظاهرة المؤلَّفة قلوبُهم، ولما قَوِيَتْ شوكة الإسلام منع ذلك عمر؛ إذ لا حاجة في عهده لتأليف القلوب المرتابة. وفي ظل العجز عن فهم شمولية الإسلام وقفت فئات بين الإفراط والتفريط، فكان هناك تمييع للأحكام، أو تحفُّظ على الرُّخص بحُجَّة سدِّ الذرائع. إن الأمة كالسفينة المليئة بالأناسي، كلُّهم ركبوها ليصلوا بها إلى ما يريدون، ولكلِّ واحد هدف وغاية ومقصد، ولكلِّ راكب حقُّ التصرُّف بالشكل والطريقة التي تناسبه، شريطةَ ألا يصل الأمر إلى خرْق السفينة.

والرسول ﷺ حين ضرب المثل بالسفينة والمُسْتَهِمين والخرْق أراد أن يؤكِّد أن السفينة هي الإسلام الذي يجمع كل الأطياف، وهم حين لا يُخِلُّون بمسارها، ولا يتعرَّضون لوسائل السلامة فيها، فإن ما سوى ذلك مستوعَب ومقبول. ولما كانت السفينة كياناً وحركة كان ذلك موحياً بأن الإسلام (كيان وحركة)، فلا يجوز التصرُّف بالكيان، ولا التدخُّل في اتجاه الحركة، وما سوى ذلك فآراء تختلف، ولكنها لا تتصادم. إن (المواطنة) مفهوم قد يتفاوت، ولكنه لا يفقد ذاته في زحمة المفاهيم؛ إذ لا بدَّ من توفُّر حق يتحقق معه الوجود الكريم، فلا يكون انقطاعٌ له، ولا انقطاعٌ عنه، والمقبول والمعقول أن تتَّخذ بين ذلك سبيلاً. و(المواطنة) تتحقق حين يشعر المواطن بحق الغير وبالحق العام. وكل إنسان يمتلك رؤية مشروعة لا تجوز مُصادرتها، ولا يجوز إلغاؤها، ولا يجوز إصرار صاحبها عليها بالقوة، متى كانت الرؤية الأخرى منسجمةً مع المقاصد الإسلامية، ومتى لم تكن من نواقض الإيمان المتَّفق عليها بين علماء الأمة.

وإذا كان ثمة إزعاج للرأي العام في طرْح الرؤية المشروعة في حين لا يترتَّب على حجبها ضرر بيّن، فإن على ذويها تفادي إثارة الرأي العام. ولقد احترم رسول الله ﷺ الرأي العام في أكثر من موقف، لعلَّ من أبرزها عام الفتح حين قال لعائشة رضي الله عنها: «**لولا أنَّ قومكِ حدثاءُ عهدٍ بكُفرٍ لأعدتُ بناء الكعبة على قواعد إبراهيم**»، أو كما قال.

والدول الرفيقة بشعوبها تُبقي على المفضول، ولا تُباشر الفاضل؛ مراعاةً لمشاعر الرأي العام الذي تشكَّل وعيُه على قناعات غير مُضِرَّة بمسيرة الأمة، فالأعراف القبلية مُعتبَرة، وإن كان من الأفضل التخلُّص من بعضها، وبعض الضوابط الحضرية قائمة، وإن كان الأفضل استبعاد بعضها، والتوسُّع في البعض الآخر، إلا أن مثل تلك الإجراءات قد تؤدِّي إلى إثارة الرأي العام، أو إلى عدم احتمال التفاعل مع المستجد. وكل قناعات تشكَّلت مع التقادم الزمني لا يمكن حسمها بين عشيَّة وضحاها، إن التعبئة الذهنية تحتاج إلى أزمنة مماثلة لإفراغها من محتوياتها وتعبئتها من جديد، ومن مُقترَفات الإعلام أنه يُمسي على رأيٍ ويُصبح على آخر، غيرَ مُبالٍ بما استقرَّ في الأذهان، وكأنَّ كلام الليل يمحوه النهار.

على أن لكلِّ مجتمع أعرافه، وأنماط سلوكه، ومواجهة هذه الأعراف بعنف، ونفيها دون تمهيد وإقناع، يعني تحشيد المشاعر والحمل على فُرقة الأمة. ولقد أشرْتُ من قبلُ إلى ضرورة إشاعة ثقافة المؤسسات؛ فالأنظمة والتعليمات والضوابط والإجراءات إذا لم يكن لها ثقافة مُشاعة فإنها لا تُمارس حقَّها، ولا تتفاعل مع أطرافها المستهدَفين بخدماتها. وكم من مؤسسةٍ ضمرت واضمحلَّت بسبب نقص الوعي في أوساط المستفيدين من خدماتها، وكم من مصلحٍ لم ينظر إلى الواقع أفسد من حيث يريد الإصلاح. وأخطر ما تواجهه الأمة ما يلتبس على الغُلاة والمُوغِلين في الدين بغير رفق، وانتزاعهم الآيات والأحاديث من سياقاتها، والخلط بين آيات الوعد والوعيد. والأصوليون يُفرِّقون بين أساليب التعامل مع النصوص، وخاصة خطاب الوعيد. والمُبتسرون يُنزلون النصوص على الوقائع إنزالاً مخالفاً لمقاصد الشريعة، ويتمسكون بآيات الوعيد وبعض الإطلاقات المقيَّدة دون فقه عميق. لقد قال الرسول ﷺ: (لا ترجعوا بعدي كفَّاراً يضرب بعضكم رقاب بعض)، والأخذ بهذا الحديث على إطلاقه يعني الحُكْم بالكفر المخرج من الملَّة، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾؛ فقد وصفهم بالإيمان مع قيام الاقتتال. ومثل هذه العموميات تحتاج إلى تبصُّر وفهم ورويَّة وبُعْد نظر، ذلك مثلٌ نضربه ليُفهم أن المسائل تحتاج إلى مزيد من التروِّي. إن المواطنة وثيقة الصلة بالدين والحياة

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾، ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾، فربَطَ القتال في الدين بالإخراج من الديار؛ لخطورة الفعلين، ﴿وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا﴾، فجعل القتال للمُخرَجين في سبيل الله. وهكذا تكون المواطنة جزءاً من الدين وقرينةً للعقيدة. والذين تفرَّقت بهم السبل، وضلُّوا طريق الرشاد، يعيشون تحت طائلة التعبئة الخاطئة التي فرضتها لعبٌ سياسية كونية. وواجب المؤسسات الدينية والتربوية والإعلامية تفكيك هذه الذهنيات، وتنقيتها مما علق بها، وإعادتها إلى سياقها السابق للأحداث، وهي سياقات منطوية على حفظ الحقوق بكل تنوُّعاتها.

تسديد النقد (المؤدلج) وتفعيله .. ![1]

تقوم بين الناقدين (سعد البازعي) و(عبد العزيز حموده) وشائج تقارب وافتراق، وكأني بهما يقتسمان الهم والمهمة والرؤية والتصور، ويتحسسان عن مواقع التيه والرشاد للنقد الحديث. واقتراب أحدهما من الآخر يوطئ له تجانس المصادر والموارد، إذ يتظامَّان في التلقي المنضبط من الآخر، ويقتربان من وعي الحد المسموح به. وما أكثر المتلقين وأقل الواعين.

فالذين ذهبوا إلى الغرب أو الشرق، وتلقوا معارفهم على أيدي أساطين الاستشراق، عادوا إلى حضارتهم واعدين أو متوعدين. فطائفة من المبتعثين استوعبت الحضارة الغربية، وعرفت مكوناتها ومحركاتها ومقتضياتها. وهذا حسن ومطلوب، ولكن عيبها أنها استبدلت الذي هو أدنى بالذي هو خير، ظناً منها أن الحضارة الاسلامية ترفض مدنية الآخر وعلمه، وأن إظهار الدين وإقامة شعائره عقبة في طريق المعامل والمختبرات وسبر الآيات في الآفاق والأنفس، ولم تكتف بالاستبدال، وإنما تجاوزت ذلك إلى الوقيعَة والتوهين والمساس بأهلية الحضارة الأحق بالوجود الكريم، وتحميلها تقصير أهلها المشهود بالصوت والصورة. ومن زكى أحوال المسلمين فقد واطأ على التخلف. وطائفة أخرى لم تكن قادرة على الاستيعاب، فعادت متورمة متشبعة، كالعائل المستكبر، أو كلابس ثوب الزور، تدعي تضلعها، وتدعو إلى أوهامها، وهذه الطائفة هي التي تملأ الرحب، وتستأثر بوسائل التوصيل، إذ تغامر ببدنها، والغريق لا يخشى من البلل، والذي لا يلوي على شيء لا يخاف من المغامرات، والنظارة تستهويهم البهلوانيات. وطائفة ثالثة تضلعت من الطارف والتليد، واختطت لنفسها طريقاً قاصداً، متيحة فرص التفاعل بين الأشباه والنظائر. إذ ما من حضارة إلا ولها مع سائر الحضارات مناطق لقاء وافتراق. والحصيف المتضلع من يدق نظره، ويلقي سمعه، ويفقه ذاته، ويستوعب غيره، حتى إذا التطمت في فكره أمواج الحضارات، أخذ من الطارف ما ينقص حضارته من قيم علمية أو فنية أو مدنية، واستدعى من التليد ما لا تقوم الحضارة إلا به من ثوابت، هن أم الحضارة. وكل حضارة لها حيازاتها التي تميزها، ومشاركاتها التي تفعلها. إذ ليس هناك نص محض، ولا حضارة محض. والإسلام استوعب طائفة من قيم الجاهلية، والرسول ﷺ أثنى على بعض أخلاق القوم وممارساتهم، وأثنى على خيارهم في الجاهلية، واستحسن إبداعات بعض الشعراء، وقال عن شعر (أمية) أسلم لسانه وكفر قلبه - أو كما قال - وأحسبه تمنى رؤية بعض الشعراء، وأكبر (سفّانه) لأن أباها يحب مكارم الأخلاق، وفضّل عمر بن الخطاب رضي الله عنه شعر (زهير)، وقال الرسول ﷺ لأحد زعماء القبائل بعد إسلامه: - «**إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة**». فهل (الشيوعية) تنصف (الرأسمالية)؟ وهل إحداهما تذعن للحق، وتسلم له، مثلما سلّم له الإسلام؟ ذلك بعض ما غفل عنه المبهورون، وأنكره المأجورون. وما أشرنا إليه دليل على تداخل الحضارات، وتقارضها، وتفاعلها. ومن تصور نفسه على غير ذلك، فقد أضر بحضارته وبغيرها، وما أصاب الأمة من الانكماش أو الضياع إلا الاحتباس أو الاندفاع غير المبررين. والذين ينقمون على حضارتهم، ويباهون بالآخر، ويبشرون به، ويقدمون بين يدي تبشيرهم التقليل من شأن موروثهم، لا يزيدون راهنهم إلا ارتكاساً في حمأة التبعية، وتعميقاً للخلاف. وهؤلاء القوم إما مخدوعون، أو مواطئون، أو جهلة بنواقض الحضارات، وأصول المبادئ، وحدود الحريات. والتاريخ الحديث تشف صفحاته عن

---

(١) تاريخ المقال: ١٣/ ٧/ ٢٠٠٤

مفكرين وأدباء وعلماء منهم الصالحون، ومنهم دون ذلك، ومنهم الذين مردوا على الوقيعة ممن يعرفهم الراصدون للحراك الفكري والسياسي والثقافي. وهل يخفى على المتتبع الحصيف ما تتجرعه الأمة من البأس الشديد بين أبنائها، وما يصنع فيها ولها من لعب؟. وإشكالية المشاهد جهل الحدود وأمداء القبول بالآخر ومفهوم الوسطية والتسامح والحقوق.

وما أحوج الأمة في ظروف التخطف إلى من يقسم بالله على الوفاء والولاء للعقيدة بمثل قسم الرسول ﷺ، حين عرضت عليه الدنيا ليتخلى عن رسالته. والمتعمدون لتوهين مفردات الحضارة الإسلامية لا يجدون حرجاً من جر الأقدام بأي ثمن، وعبر أي وسيلة. وضعفاء النفوس يتهافتون على شهوات الغرائز أو على شهوات الرغائب. وكل مدع للمعرفة مباه بالابتعاث غير مبلغ عن حضارته ولو آية مأخوذ من مأمنه أو من شهواته. وما اخترقت التحصينات إلا بمن غلبت عليهم شهوات المتع أو أضواء الشهرة. وما من لعبة مضرة إلا ولها كتّابها المأجورون أو المخدوعون.

فالألسنة والأقلام ليست بأقل أثراً من القاذفات والراجمات، ومن استخف بالكلمة، وقع في الحبائل. والمواجهة بين الحضارات لا تعتمد المناجزة والحسم بالسلاح، إن هناك سياسة النفس الطويل المتمثلة بالتحيز والتحرف والتقدير والتوقيت والترغيب والترهيب والغزو والتآمر والتماكر والتشكيك. وليس بغريب أن يواجه المسلم كل هذه الخطط، سواء نهض بها المستشرقون أو ناب عنهم المستغربون، وسواء تولت أمرها المحافل الماسونية أو الصهيونية أو السياسية، وليس شرطاً أن يكون كل حائد عن جادة الصواب من هؤلاء، ذلك أن المفاهيم والاستعدادات تختلف من مفكر إلى آخر، والغزو والتآمر لا يبرئان من المسؤولية وقابلية الاستعمار.

وفي ظل هذه الظروف العصيبة نحن أحوج ما نكون إلى الوسطية والتوازن والدفع بالتي هي أحسن، وتفادي سوء النوايا والأثرة، وأحوج ما نكون إلى استبدال الصدام بالحوار. فالعالم المادي يحكم قبضته على الضعفاء بآلته النافذة ومؤسساته الثابتة، ومن قلل من أهمية علمه أو من أسلوب مؤسساته الدستورية والتشريعية والتنفيذية، فقد ضلّ الطريق، وأطال أمد تخلفه. وإذا كان الغرب ينطوي على مثمنات ومناهج وآليات وأنماط حياة هي ضالة المسلم، فإن على قادة الفكر العمل على تمثل الحسن منها دون استهجان للذات، أو تعقب لعثرات الدعاة والمصلحين، ودون تفكير بحسم الاختلاف المشروع، والهم الإسلامي على أي مستوى لا يقتضي المنابذة ولا الصدام ولا تعمد الإفساد. وواجبنا أن نحاور ما أمكن الحوار، وأن نتفاعل ما أمكن التفاعل، وأن نستفيد ما أمكنت الاستفادة. وليس هناك ما يمنع من التتلمذ على الآخر بالذهاب إليه أو باستقدامه. والمسلم البصير بمقدوره ان يتعلم على أساطين الكفر ما يحتاج إليه الإسلام، دون أن يمس ذلك عقيدته أو يخل بولائه، أو يفسد أخلاقه، وما أضر بالأمة إلا القطيعة المطلقة أو الارتماء المطلق. وإشكالية المشاهد الفكرية والأدبية أنها أوزاع بين متهافتين أو متصومعين، ولما ينبري من يجمع بين الحسنيين: يلتزم الثوابت الإسلامية، ويستفيد من منجز الآخر. والإسلام دين الحضارة والمدنية، دين العلم والفكر، دين العمل والعبادة، فمن ظنه غير ذلك فقد أساء إلى نفسه وإلى أمته.

أقول قولي هذا وأنا أستعرض ما يمكن ان أسميه مشروعاً أدبياً تبنّاه الاستاذ الدكتور (عبد العزيز حموده) من خلال ثلاثة كتب، أثارت حفائظ البعض وضيقت الخناق عليهم وأفقدتهم صوابهم، وجاء معه أو من بعده الأستاذ الدكتور (سعد البازعي) يحمل ذات الهم وذات النفس وذات الإمكانيات في كتابه (استقبال الآخر الغرب في النقد العربي الحديث) والمؤلف يستخدم دلالة (الاستقبال) في التلقي والتوجه، كما استقبال القبلة، ولعله يقصد

الدلالة الأكثر مؤاخذة. وجميل من استاذ درس في الغرب أن يبتدر الأخذ بحجز المتهافتين عليه دون وعي، وجميل من نقاد متخصصين ومتمرسين يرصدون للتحولات والانتكاسات والتهافت بمصداقية واقتدار، ويقدمون أنجع الحلول للخلاص من التهلكة. والمؤلم ان مثل هؤلاء يزور عنهم المتابعون، ويمر بهم الإعلاميون مرور الكرام، فيما تبتدر وسائل الإعلام المخفين. والمثير أن المخفين أسرع وأشيع، على حد مقولة (المتنبي) عن الجيش والقتام، ولهذا تراهم الأكثر حضوراً والأكثر تأثيراً، وما ذاك إلا لأن بضاعتهم أشبه باللغط الإعلامي الذي يروق للدهماء. ولقد يخرج إلى الناس كتاب لا يقول شيئاً ذا بال، ثم تراهم يتسابقون عليه. والفاجعة ليست في خلو الكتاب من الجدوى، ولكنها في خلو أدمغة الدهماء، ووجود من يغرر بهم. وإشكالية العزوف ليست قصراً على من نمضي معهم، وإنما تمس من نختلف معهم، ممن نحترم التكثيف المعرفي والدقة المنهجية في أطروحاتهم، وسنعرض لبعض أولئك، لإثبات أننا مع الحق، وإن كان مع من نختلف معه.

والدكتور (سعد البازعي) الذي يعبر كتابه الساحة دونما صخب يعرض لإشكالية عصية، هي إشكالية التواصل مع الغرب في النقد الأدبي الحديث خاصة. وإن كانت الإشكاليات الفكرية والاجتماعية والاقتصادية أشد خطورة وأعمق تأثيراً. واشتغاله في هذا الجانب المهم جعله يتتبع حركة النقد العربي من خلال تواصلها مع المناهج الغربية، وموقف النقاد العرب منها: تبنياً أو رفضاً أو تأصيلاً. وقد مسح البحث فترة زمنية تبدأ بمرحلة التأسيس أو بدايات الاستقبال، وتنتهي بمرحلة التأصيل. وفي هذا المسار اكتفى ببعض المناهج الأكثر شهرة ك(الرومانسية) و(الواقعية) و(الشكلانية) و(البنيوية) و(التقويضية) مغفلاً الفلسفات التي تأسست في ظلها هذه المناهج وغيرها ك(الوجودية) و(المادية) و(التاريخانية) وما انبثق عنها من مناهج ونظريات نقدية عديدة. لقد اتيحت لي قراءة الكتاب مع طائفة من الزملاء، وكنت أكثرهم احتفاء به، واكثرهم تحفظاً على بعض رؤاه، ولقد أحسسنا معاً بتعالقه مع مشروع الدكتور (عبد العزيز حموده) وهو تعالق لا يمت بصلة إلى التناص أو الاستلاب، بل أكاد أجزم أنه لم يرجع إلى أطروحات (حموده)، ولكن الهم المشترك أوجد التجانس.

والدارس يفترض سؤالاً عن كيفية استقبال الآخر، ويتخذ موقفاً نقدياً محدداً ومبرراً من سائر النقاد، فمنهم المتخذ للمناهج الغربية على علاتها، نتيجة انبهار وتسليم كلي، ويصدق على هذه الفئة اتخاذ الغرب قبلة. ومنهم المؤصّل الذي يدعو إلى التمحيص والتصفية، بحيث يتفاعل ولا ينفعل، فيما أغفل المؤلف موقف المتلقي الثالث الرافض لكل ما يأتي من الغرب، وإن كانت له أصوله في التراث العربي، ومتضمناً في نظريات النقد الغربي الحديث. فالمناهج والنظريات لم تأت طفرة، وليس هناك أمة أحق بها من غيرها، لأن التفاعلات الحضارية وما صاحبها من صراع فكري وسياسي و(أيديولوجي) وثقافي أو مثاقفة لم تتم بمعزل عن الملابسات التاريخية.

والباحث يراوح بين اجراءات الاستقبال والمثاقفة، فالاستقبال يعني خلو المتلقي من رصيد معرفي نقدي مواز لرصيد الآخر، وبالتالي يصبح تابعاً أو مقلداً، في حين تعني (المثاقفة) موازنة الوافد على ضوء الموروث، وفتح حوار بين ندين متساويين فكراً وحضارة. وذلك ما يفقده المستغربون الذين يراهنون على جياد (الحداثة) و(الفرانكفونية) و(الاستغراب).

الباحث يرى أنه ليس هناك خصوصيات محضة في نشأة المناهج النقدية الغربية انطلاقاً من التفاعلات التاريخية بين الحضارات المتتالية، وما أفاده الغربيون من الحضارة العربية الاسلامية في الفلسفة والفكر العلمي، ولقد أومأ (العقاد) إلى ذلك في كتاب مقارن ألمح فيه إلى التعالق الفني ونقده.

والباحث ضرب مثلاً بمنهج الشك الديكارتي، وكيف ابتدعه (ديكارت)، ثم طوره (هوسرل) في منهجه الظاهراتي، وهذا المنهج له جذور تاريخية في الدراسات العربية، يراها البعض عند (أبي حامد الغزالي) في عنصرين: عنصر اليقين في الثوابت، وعنصر الشك في المتغيرات. وقد نقله إلى أوروبا خلال القرن الثاني عشر المستشرق (أدلر أوف) بعنصر واحد هو عنصر الشك، بوصفه باحثاً غير ملتزم باليقينيات الدينية كما هو الشأن لدى المسلمين. ولما جاء (طه حسين) حاول تطبيقه في دراسته للشعر الجاهلي بعنصر واحد أيضاً، مغفلاً العنصر اليقيني في الثوابت القرآنية، ولم يراع سياقه وملابساته التاريخية، ومن هنا جاءت خطيئته القاصمة التي أدت إلى محاكمته وإدانته.

وتمتد رؤية الباحث إلى التيار الواقعي بوصفه أدباً، وهذا يحفز إلى استشعار واقعيات: فنية واشتراكية ومادية ووجودية ... ولعل إغفال هذا التمييز هو ما حدا ببعض النقاد العرب مثل (محمد مندور) كي يجعل الواقعية مرادفة للأدب الملتزم أو الأدب المسؤول.

والدارس يرى أن البنيوية تفرعت من (الشكلانية) و(الواقعية)، ولم يشر إلى دواعي ظهور (الشكلانية) وملابسات إعادتها إلى بيت الطاعة (الماركسية) تحت مفهوم (التكوينية). والباحث يعود محدداً عمومية الرؤية أو مناقضاً لها بالقول عن تلبسها بأحد التيارات أو طرق التفكير. و(التفرع) و(التلبس) متباينان. كنت أود لو أسس لبحثه بمقدمة عن الجذور الفلسفية للبنيوية بأبعد مما ذهب إليه (فؤاد زكريا)، ثم هو يعدها منهجاً تحليلياً، وهي كذلك، ولكن التحليلية ليست من خصوصيتها، فالبنيوية صفة نص تستدعي آلية ومنهجية تفكك النص، وحتى كلمة (تفكيك) تكون إجراء، وتكون رؤية، وإشكالية المشتغلين عدم التمييز بين الرؤية والإجراء، وهذا ما أشار إليه الباحث، وهو يتحدث عن (التفكيكية)، ولأهمية هذا الكتاب وحاجة المشهد إلى مثله فسوف تكون لي عودة تفصيلية لبعض وجوهه، وبخاصة عند حديثه عن (البنيوية التكوينية).

إذا سَلِمْتَ .. !(١)

حمداً لله على ما أصاب.

وحمداً لله على ما أنعم.

ومثلما ألمنا للعارض، سعدنا بجلائه، وهكذا الدنيا فيوض من الأفراح والأتراح، وما كنا قادرين على احتمال أي حدث محزن، ولا سيما في ظروف تداعت فيها الأيدي الآثمة على مثمنات البلاد وأهلها، وإن كنا لا نقدر على رد القضاء، ولا نملك إلا الصبر والاحتساب وسؤال اللطف فيه. وكم تكون الشدائد خيِّرة معطاءة، لما تكشفه من معادن الرجال وقيم المجتمعات، ولما تعود به من فرج؛ إذ لا فرج إلا بعد شدة، ولن يغلب عسر يسرين، وما العارض الصحي الذي ألمَّ بالأمير العزيز (سلطان بن عبد العزيز) إلا حلقة في سلسلة الابتلاء الذي يتعرض له الأفراد والجماعات والكيانات، وما هو إلا مجسٌّ تبدت فيه قيم نعرفها من قبل، ولكننا لم نكن نتصورها بهذا الحجم:

-تلاحم أسري.

-وتلاحم شعبي.

-وتقدير عالمي.

وبقدر ما أفزعنا الحدث، وتشعبت بنا قراءاته وتنبؤاته إلا أن فيوض المحبة أسعدتنا، كما سرتنا بوادر التظاهرة الإنسانية التي أحيط بها سموه من أشقائه وأبناء وطنه ورجالات العالم، وكل ما أفرزه العارض من اهتمام: محلي أو عربي أو إسلامي أو عالمي تحال قِيمه إلى الأمة التي أنجبت المحتفى به، وإلى الشعب الذي ينتمي إليه، وإلى السياسة المتوازنة التي تتصف بها مؤسسات البلاد، وهو رجل فاعل من خلالها، وما من أحد إلا ويتمنى أن يرى مكانته في النفوس، ويسمع شيوع ذكره الحسن على كل لسان. و(الذكر للإنسان عمر ثانٍ). وما تَقاطُرُ الملوك والرؤساء وكبار الشخصيات على جناح سموه إلا تجسيدٌ عملي لمكانة البلاد ورجالاتها ووزنها الرزين في المحافل الدولية. وفي مثل هذه المظاهر تختلط مشاعر الزهو بمشاعر الخوف، حتى لا يكون بينهما برزخ فاصل.

ومثلما فزع (المتنبي) بآماله إلى الكذب من الخبر الذي طوى الجزيرة حتى بلغه فزعنا للأنباء المفاجئة عن الوضع الصحي لسموه الكريم، ولما لم يدع صدقه أملاً، عللنا أنفسنا بما صاحب ذلك من تدافع رجالات العالم للاطمئنان على صحته. وللعارض وتبعاته تداعياتهما وأثرهما في اضطراب المشاعر بين إشفاق واشتياق، غير أن ألسنتنا لم تتعثر في أفواهنا، كما تعثرت في فم المتنبي، بل أكثرنا من الحمد والشكر والدعاء أن يذهب بأس سموه، وأن ينعم عليه بالشفاء العاجل. ولا شك أن المحبين لسمو الأمير، العارفين بأفضاله، لا يحتملون ما تعرض له من وضع صحي أطال غيبته عن كافة المشاهد التي هي أحوج ما تكون إلى مثله، وليست لأحد القدرة على رد ما أراد الله، ومع كل ذلك يبتهج المحبون لسموه بهذا الاحتفاء المنقطع النظير، والتظاهرة التي قادها الأمير الإنسان (عبد الله بن عبد العزيز) بزياراته المتكررة، بددت الخوف، وقوَّت العزمات، وخففت الآلام.

وتعرض سموه لهذه الوعكة، وما استدعته من تدخل جراحي في ظروف ضاغطة: محلياً وعربياً وعالمياً، وما تطلبته من فترة للنقاهة امتدت كأطول ما يكون الامتداد، وهي مدة أثارت الكثير من المواقف والتوقعات والهواجس، فما كان هناك متسع من الجهد، ولا فائض من الطاقة لاحتمال مزيد من المفاجآت غير السارة، وما كان من إجراء عملية

---

(١) تاريخ المقال: ٢٠/ ٧/ ٢٠٠٤

جراحية ناجحة لسموه أدخل المهتمين بالشأن المحلي في دوامة من التساؤل والترقب، فما كان من السهل احتمال مثل هذا النبأ في ظل هذه الظروف العصيبة التي تجتاح العالم بأسره، وينفذ إلينا دخنها معكراً صفو أمننا واستقرارنا وسائر شؤوننا، ورجل مثل النائب الثاني لا يمكن الاستغناء عن مثله في ظل هذه الأوضاع المستحكمة.

فتعرض مسؤول بحجم سموه لحالة مرضية قد تبطئ بعودته إلى وضعه الطبيعي ومواصلة أدائه إلى جانب أشقائه ومواطنيه، والغياب الاضطراري سيترك أثراً في نفوس عارفيه ومحبيه، وسموه الذي شهد ما يكنه الناس له سيكون أرفع معنوية، وأقدر على مواجهة العارض وتحمل عقابيله، والمهتمون بوضعه الصحي تغمرهم السعادة من خلال التطمينات التي بثتها المؤسسة الصحية، وبعد أن تشرف بالسلام على خادم الحرمين وولي عهده الأمين تمهيداً لعودته إلى قواعده سالماً معافًى.

وانعكاسات الحدث وأثره على نفوس المواطنين عبرت عنه الزيارات المتكررة لسمو ولي العهد يوم أن كان طريح الفراش، ومن المبشرات أن الله لن يتر المؤمن الذي عرفه في الرخاء عمله، وأمر المؤمن كله عجب، فإذا أقعده المرض عن فعل الخير، كتب له ما كان يعمل من قبل، وإذا شِيك كتب له أجر ما يناله من ألم، وكل مسلم مرتهن بمرض أو أي عارض تمضي صدقاته الجارية في تعويض ما فات، وتمضي نيته الصالحة في كسب الخير، ولا شك أن وقع الحدث أشد أثراً على آلاف المستفيدين من فيوض إحسانه، من فقراء ومساكين وغارمين وأرامل وأيتام ومرضى، فوجئوا بهذا العارض على غير توقع، وكل مَن قيدهم إحسانه: (ومَن وجد الإحسان قيداً تقيَّدَا) يمطرونه بدعائهم الصادق، سائلين الله أن يذهب عن سموه البأس، وأن يكتب له الأجر والعافية، وأن يسبغ عليه نعمه الظاهرة والباطنة؛ ليستأنف سعيه في دروب الخير والعطاء، ويستأنف عمله في تصريف شؤون أمته عضداً قوياً وأميناً لأخويه اللذين شملاه بالعطف والرعاية وكل الذين يحملون همَّ أمتهم ويعرفون أوضاع المعوزين يشاطرون المشمولين بأفضاله فرحتهم.

وكم نحن متفائلون وواثقون ببشارة الصادق الأمين: «**صنائع المعروف تقي مصارع السوء**».

والصدقات والأقدار تصطرع بين السماء والأرض، والصدقة تطفئ غضب الرب، وهي برهان على صدق الإيمان، وما من ساعٍ في حاجات الناس إلا وله مَن يسعى في حاجته، وكم هو الفرق بين سعي الله وسعي المخلوق، وعلى الذين أنعم الله عليهم من أهل الدثور والوجاهة أن يقتدوا، وأن يكبحوا جماح النفس الأمَّارة، وأن يبادروا بالإنفاق من مال الله الذي آتاهم، وأن يبذلوا ما أنعم الله به عليهم من الوجاهة، لتسهيل مهمات ذوي الحاجات. والمؤمن المفعم بحب عباد الله، العامر القلب بفضائل الأخلاق، يحبه الناس، وهذا الحب العفوي يحفزهم على الدعاء له بظهر الغيب ممن يعرفه وممن لا يعرفه، وممن شمله بإحسانه وممن سمع عن كرمه وإحسانه، وأبواب الله مفتوحة، وقد وعد بالاستجابة وطمأن بالقرب، وكم من رجل لا يُؤبه له لو أقسم على الله لأبره، والله عند وعده، ومَن أوفى بعهده من الله، ولقد قال: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، وقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾.

وما من مسلم سعى الأمير في حاجته إلا ويلهج بالثناء والدعاء، وكل مسلم عامر القلب بحب الخير لعباد الله مستغنٍ بما أنعم الله به عليه عما سواه يحب مَن أحب العباد، ومن ثَمَّ يكون الدعاء من أسير الإحسان ومن حبه للآخرين، وإجماع الناس على الحب والثناء يوجب القبول، وفي الحديث قصة الميتين اللذين مرت جنازتاهما على الناس،

فأثنوا على واحدة، وذموا الأخرى، فما زاد الرسول ﷺ على قوله: «**وجبت، فالناس شهود الله في أرضه**». وقوله تعليم واستنهاض. والسعيد السعيد مَن سلم الناس من لسانه ويده، فكيف إذا طال الناس الإحسان من يده، والكلم الطيب من لسانه، وفاق برأيه وحكمته ومحتده وطلاقة وجهه. وتلك التظاهرة الاحتفائية تذكرة لمَن قعد بهم التسويف ممن أفاء الله عليهم بالمال أو بالجاه أو بالعلم أو بالمسؤولية، أو بهم جميعاً أو ببعضهم، وما أكثر ما يحول الشيطان بيننا وبين فضائل الأعمال، وكم يَعِدُنا بالفقر، ولو عرف المسوِّفون أنهم سيأتون الله فرادى تاركين ما خوَّلهم وراء ظهورهم لكان أن هانت عليهم نفوسهم ووجاهاتهم وأموالهم ثم تسلطوا عليها ينفقونها لإقالة العثرات وسد الفاقات.

لقد حرصت ألا تفوت مثل هذه الفرصة دون موعظة وتذكير، فلسنا مادحين، وليس سموه متطلعاً إلى المدح، ولكنها المناسبات السعيدة تحمل على الحمد والشكر والدعاء.

وهذه الوعكة التي ألمت بسموه ثم أنعم الله عليه بالصحة والعافية وأعاده إلى حيث كان ساعياً في حاجات الناس وحاجات وطنه، استدعت ما كنا نحفظه من عيون التراث العربي، وليس بدعاً أن تتداعى المتشابهات، وليس أقرب إلى الذاكرة من تلك الرائعة التي قالها أبو الطيب المتنبي بعدما عُوفي مثله الأعلى (سيف الدولة):

المجد عُوفي إذ عُوفيت والكرمُ
وزال عنك إلى أعدائك الألمُ

صحَّت بصحتك الغارات وابتهجت
بها المكارم وانهلَّت بها الدِّيَمُ

وما أخصُّك في برء بتهنئة
إذا سَلِمْتَ فكل الناس قد سلموا

فالمتنبي استدعى مكارم الأخلاق وخصال البطولة والإقدام وسداد الرأي، ومَن لم يكن ذا يسار وجاهٍ فقد وجَّهه المتنبي الوجهة السليمة:

لا خيل عندك تهديها ولا مالُ
فليسعد النطق إن لم تسعد الحالُ

لقد كنا في (جدة) يوم أن كان سموه على السرير الأبيض يتلقى فيوض المهنئين، وكان مرتَّباً لوفد (جامعة القصيم) أن يلتقي بولي العهد وسموه وسمو وزير الداخلية غير أن فترة النقاهة حالت دون ذلك، ولما يزل محبوه في (القصيم) يترقبون ما عوَّدهم عليه من زيارة سنوية أخوية، يطلع فيها على أحوالهم، ويلبي مطالبهم، ويزور أعيانهم.

اللهم أنزل لنا القبول في الأرض، واستعملنا في طاعتك، وشدَّ أزرنا لنسعى في حاجات عبادك، وجنِّب بلادنا وقادتنا وكل مخلص لدينه ووطنه غوائل الدهر وفجاءات النِّقم، فأنت وحدك مجيب المضطر إذا دعاه، وأنت وحدك كاشف السوء.

جدلية الخفاء والتجلي في المنهج .. ! (١) [(١)]

لا مراء في أن مستويات القراءة وأهدافها وخلفيات القراء: المعرفية والفكرية تستدعي مصطلحات ومفاهيم كثيرة، ولست بصدد إنكار دعوى وجود المضمرات في المناهج، ولست معنياً بالتزكية ولا بالإدانة، وكل همي منصب على أخطاء التوقيت والتقدير وإمكانيات المبادرين للحديث عن (الخفاء) و(التجلي) ومشروعية التناول ووثوقية الدليل. ويقيني أن مشاهد الأمة العربية: الفكرية والسياسية والأدبية متخمة بالكلام وحسب. وكأن قضاءها وقدرها أن تظل مرتهنة خارج دائرة الفعل، لا يملك أبناؤها إلا القول المحتدم والتلاسن السالق. وشاهدنا تتابع المصطلحات في مختلف القضايا: الإنسانية واللسانية، والخروج منها إلى غيرها بأقل النتائج وأفدح الخسائر. نستعذب سك المصطلحات: الفكرية والسياسية والأدبية متى تقطعت بنا أسباب الاختلاف، ومع كل موجة منها يقوم رهان التفوق ونهاية التاريخ. فإذا بلغ السيل الزبى نبذت كما سقط المتاع، لتَلَقِّي مسكوكات جديدة، وكأننا الأعرابي الذي يعبد (العجْوة)، حتى إذا جاع أكلها، وما أكثر ما تسك في الشرق أو في الغرب مصطلحات نكرات فنلتقطها لتكون لنا عدواً وحزناً.

ولو عدنا إلى بدايات النهضة الحديثة لوجدناها مُلئت بالمصطلحات ذات الوزن الثقيل ك(الخلافة) و(الدستور) و(القومية) و(القطرية) و(الأممية). ولو تقصى المتابعون الإبداعات الشعرية التي صدح بها شاعر واحد مثل (جميل صدقي الزهاوي) في أعقاب مخاضات (الدستور العثماني) لأدركوا أنهم ليسوا وحدهم ضحايا التغرير والإغراء، ومع اختلاط الخطابات فإنه غير مجدٍ في راهننا أن ننحي باللائمة على طائفة بعينها، ولا أن نستبعد التآمر والمواطأة، لنظل مرتعاً خصباً للمتماكرين.

والمتابع لمخاضات المشاهد ومبتسراتها، يقف على متلاسنين (ألج من الخنفساء)، وعلى مصطلحات يباب، استنزفت كل الجهود، وعلى أخرى جوف تجاوزها المتجادلون، بعد أن فاض معينهم بالضغائن والأحقاد. فأي مصطلح سياسي أو فكري أو أدبي نفض المعنيون أيديهم منه، بعد ما توصلوا فيه إلى قناعة جماعية؟ وهل سجل التاريخ الحديث قضية واحدة سلَّم لها الجميع، وابتدروها بالفعل بعد القول؟ وهل سجل مصطلحاً واحداً سكه الغرب، ثم رده الشرق على أعقابه، دون أن يفعل فعله في تفريق الكلمة، وتشتيت الفكر، وإهدار الجهود؟. وأي موقف مشرّف تبدت من خلاله وحدة الصف أو الهدف، وحُمِل إلى المحافل الدولية كإرادة عربية واحدة؟ وأي تجربة سياسية أو فكرية و أدبية ترقَّت بفعلنا إلى سدة الندية؟ إن هي إلا فتنة المصطلحات الثاوية كأعجاز نخل خاوية.

لقد شغل مصطلح (الخلافة) أساطين الفكر، وأحدث تصدعات لمَّا نزل نتجرع غصصها، وتمخض الجدل الذي أحكم المغرضون صنعه عن مصطلحات أخرى أشد عنفاً وأعنف قيلا ك(الحاكمية) و(العلمانية) و(الديمقراطية) والدولة: (الدينية) و(المدنية). وتشكلت منظمات وأحزاب وجماعات وإخوان، لكل واحدة منها خطابها الجامع المانع، الذي لا يزيغ عنه إلا هالك، ونهض علماء وساسة ومفكرون، كتبوا وحاضروا وألّفوا عن مفهوم (الخلافة الإسلامية) وتبعاتها: كالبيعة والاستخلاف والشورى والاختيار والانتخاب، ومصدر الحكم بين النص والشعب، وأهل الحل والعقد، وإمكانيات (الفكر السياسي الإسلامي) ومدى أهليته لطرح مشروع سياسي مستوعب للمستجدات: الدستورية والتشريعية والتنفيذية والرقابية، وما يلحق بذلك من مجالس متعددة المهمات والصلاحيات. وكتاب (الإسلام وأصول الحكم) ل(علي عبد الرزاق ت١٣٨٦ه) وما أحدثه

---

(١) تاريخ المقال: ٢٢/ ٧/ ٢٠٠٤

من تصدعات وخلافات أنموذج لإشكاليات سك المصطلحات، ودعك من (قضايا المرأة) و(قاسمها)، ومخلفات (الحرب الباردة) و(هيكلها)، و(الحداثوية) و(أدونيسها) و(البنيوية) و(سوسيرها) والتعالق المقوي مع المستجدات في مشاهد العلوم الإنسانية كافة. ومن ذا الذي لا يمسك على هون وثائق التبعية البائسة أو يدسها في التراب ليتخلص من عار الانهزام وقابلية الاستعمار، وفي القوم من يتشفى بجلد الذات وتمجيد المستعبد وشرعنة مقترفاته.

ولمَّا نكد نفرغ من الشقاق حول (العولمة) و(النظام العالمي الجديد) ومشاريع (القطب الواحد) كـ(الشرق الكبير) و(الإرهاب) حتى بدهتنا مصطلحات جديدة تتعدد مفاهيمها بتعدد المتلقين لها. وها نحن بعد هذا التطواف الممل، نتلقى مصطلحاً قديم الإطلاق جديد الإنزال على الوقوعات العارضة، مؤداه أن هناك منهجاً معلناً، يتداوله العلماء والمعلمون، والأدباء والمفكرون، والساسة والدعاة، وآخر خفياً لا يعرفه إلا العالمون ببواطن الأمور. وأن هذا الخفاء ينطوي على مناقضة لرديفه الجلي. والمصلطح قائم منذ أن عُرف (التلقي) و(التأويل)، ولكنه نائم كما الفتن، مثلما كانت (الخلافة) قائمة من قبل، حتى أيقظها (علي عبد الرزاق). وإيقاظ المصطلحات في ظروف غير مواتية كإيقاظ الفتن. وأخوف ما أخاف تصعيد الخلاف وتنويع مواقعه، وقد يأذن المتجادلون بإعادة التاريخ، وما يحمله من تنظيمات سرية وحركات باطنية، وما تداولته العصور الخوالي من مصطلحات (التغنص) و(الردة) و(الزندقة) وما تمخضت عنه من طوائف وأحزاب ومذاهب في الفروع والأصول، كالخوارج والمرجئة والمعتزلة والزيدية والشيعة والسنة وسائر الطوائف ذات البعد السياسي، إذ لكل نحلة منهجها الجلي والخفي. ومتى اجترح المتجادلون افتراض المنهج الخفي وحمَّلوه أوزاراً مفترضة وأحيل إلى فئة مفترضة أيضاً، دخلت الأمة في تنازع هي في غنى عنه. وإذ عشنا مرارات المساءلة الجائرة للمناهج وللدعوة السلفية وللجمعيات الخيرية وللمراكز الصيفية فإننا سنجد من يتلقف الراية ممن لا يريد للقطا أن ينام، ليزيد قوائم الاتهام، ولو عرف المستدعون لمثل هذه المصطلحات - ممن لا نتهم إخلاصهم ولكننا لا نثق بقدراتهم - أن هناك متربصين، لما كانت لهم رغبة في أن تتكسر النصال على النصال على جسم الأمة، ولا أن يخلص إليها الاتهام وعندها كل اتهام على حد:

أبنت الدهر عندي كل بنت
فكيف خلصت أنت من الزحام

لقد أشفقت على الذين استدعوا هذا المصطلح دون تحرير معرفي، ودون رصد تاريخي، ودون استصحاب للمحاذير، ودون استكمال للمادة والآلة، وأشفقت على الذين باركوه، وشمروا عن سواعدهم للخوض في لججه، دون حساب للعواقب، ودون تخوف من السماعين والمتربصين، وأشفقت على قوم آخرين من قبلهم طرحوا مصطلح (التنوير) وجروا قدم أعرق الجامعات، لتكون غرضاً للمساءلة. وأشفقت على الأمة المدانة من لغط أبنائها، وأشفقت من القبول بمصطلح (التنوير) بكل ظروفه وملابساته (الأوربية) في القرون الوسطى، وكأن الأمة تعيش ظلامها وطغيان كنائسها. وكأن الأخذ بأسباب الحضارة والتجديد والتطوير يعني الخروج من سراديب الظلام وكهوف التخلف إلى نور الحضارات. إن التسابق إلى نبش جثامين المصطلحات وإنزالها على واقع مغاير ومسيرة مختلفة يعني إثارة الرأي العام، وتحفيزه للتساؤل والتحفظ والاتهام، وما كان إشفاقي على المستدعين والمستقبلين إلا لأنهم كالمريب الذي يقول خذوني. والإشفاق لا يعني الاتهام ولا سوء الظن. وكيف يكون من مثلي الاتهام، وما شققت عن صدر أحد، وما كنت لدى

المشتغلين وهم يختصمون حول الخفاء والتنوير. غير أني أتوقع جانباً من المآلات متبديةً من لحن القول ومن المؤشرات، فما عاد خافياً ما يتخلق به البعض من اهتياج أعزل، وما يتعمده آخرون من فلتات ألْسِنةٍ غير محسوبة.

والخطأ في الاستدعاء أو الخطأ في التناول أو الخطأ في التوقيت لا يمس الأمانة، ولا يسيء الظن، ولكنه يقدح في الأهلية، ومن اشتغل في شؤوننا الحساسة فليرحب صدره للمساءلة. ومن ضاق ذرعاً، فليلزم بيته، وليطوي كشحه. والصدق والإخلاص والنصح غير كافية لشرعنة سك المصطلحات أو استدعائها. وواجب من يحملون هم قضاياهم ارتياد الخصب وتحري الأمان:

ومن رعى غنماً في أرضِ مَسْبَعةٍ
ونام عنها تولى رَعْيها الأسَدُ

وعلى المتقحم لهذه المضائق أن يعرف حال أمته المنهكة، وقدر نفسه المتواضع، وإمكانياته المعرفية المغايرة، وخبرته التجريبية الناقصة، ومن استمرأ السباحة ضد التيار فعليه أن يتأكد من لياقته وقدرته. ولأن مصطلحي (الخفاء) و(التنوير) عائمان، فإنهما بحاجة إلى تحديد المكونات والمفاهيم والمقتضيات والدواعي والمآلات. وفي مثل هذه الظروف لا تنفع الإنشائيات، ولا العاطفيات، ولا تبادل الاتهامات، ولا تهويل الوقوعات، ولا اجترار المقولات. وكل مسكون بالهم الفكري أو السياسي أو الأدبي يعيش حالة من الارتياب والشك، فبوادر الأمور لا تبشر بخير، وتتابع الإخفاقات لا تدع مجالاً للتفاؤل. وافتراء الكذب على مناهج التعليم، والحركة الإصلاحية، والجامعات، والجمعيات، والمراكز، لا يجوز تعزيزها من الداخل، وبخاصة حين تكون البلاد مشروعاً للإملاءات والتساؤلات. وكم تُجرُّ قدم المسكون بالهم من حيث لا يريد، ليقول في النوازل والقضايا والظواهر رأياً فطيراً، لا يزيد الأمور إلا تعقيداً واستحالة. وقد تتشابه الأمور على المتثبت فيقع في المحذور. وكم من مخلص تكشفت أمامه اللعب، فتمنى أنه لم يقل كلمة، ولم تخط يمينه سطراً. فأين الذين قالوا عن (الجهاد الأفغاني)؟ وأين الذين مجدوا (بطل البوابة الشرقية)؟ ألم يكن البْعض منهم صادقاً مخلصاً ناصحاً.

وأحسبني معذوراً حين أكون في ريب مما يقال وما يفعل على مختلف المستويات، ومن كل الفئات: محلياً وعربياً. وحين أكون (ديكارتياً) في شكه فليس ذلك لأن فلاناً من الناس ابتدر هذا المصطلح أو ذاك، ولكن لأن الوسط قابل للارتياب، ومن حق متابع مثلي أن يشك في نفسه، وقد فعلها (عمر) حين سأل (حذيفة): أعدّني رسول الله من المنافقين. ذلك أني خبرت المذاهب والأحزاب والتيارات والقضايا، واشمأزت نفسي من تجشؤات الفارغين وتشبع المتذيلين لنفايات الحضارة المادية، وفزعت من تدنيس المقدس والتطاول على الذات الإلاهية ونسف الثوابت، وتجرعت مرارات الخداع، واكتويت باللعب الكونية التي قلبت الأوضاع، وأضاعت المصالح، وأذلت الأمم، وقلت فيها ما أعتقد، أحسنت الظن في بعضها فعاضدت، وأسأته في البعض الآخر فخذلت، والتبست عليَّ الأمور في أخرى فتوقفت. وما ابرئ نفسي من اندفاعات غير محسوبة، أو من تردد لا مبرر له. والاعتراف بالخطأ فضيلة، والرجوع إلى الحق أفضل، ومحاسبة النفس قبل أن تحاسب من الكياسة. ولو أن المشتغلين بالشأن العام حين تبين لهم الحق أسرعوا العودة إليه، ولم يتهيبوا من الاعتراف بالخطأ، لكان أن صفَّت الأمة حساباتها أولاً بأول. غير أن الأخسرين أعمالاً يصرون على الحنث الصغير والكبير. والمتابعون لمذكرات الساسة وقاهري الشعوب من بعد ما نجوا بجلودهم من غضبها، يعرفون الجرائم المرتكبة، ولكنهم لا يعرفون المجرمين، فكل قادر على الكلام ينحي باللائمة على شركائه الهالكين أو

المرتهنين وراء القضبان. والطيبون يصدّقون ما يقال، ويقبلون بتلميع الوجوه المشوهة، وإبراء النفوس الظالمة، والمنصفون من يقولون كلمة الحق، ويعترفون بمقترفاتهم وجناياتهم على أمتهم، ويطلبون منها العفو والتسامح، ليكونوا كالذين تابوا من قبل أن تقدر عليهم الشعوب. وهل أحد ينكر زمن التيه، وفي القوم من يتطوع للدفاع عن (صدام حسين)، وفيهم من يبرر المقترفات الغربية، والقتلى المدنيون الأبرياء نيفوا على ثلاثة عشر ألف عراقي، وانتهاكات حقوق الإنسان تتصدع لها صم الجنادل، و(إسرائيل) تفتك بالإنسان الفلسطيني، ثم لا تجد من ينكر المنكر باليد ولا باللسان ولا بالقلب، وذلك أضعف الإيمان. بل نسمع ونرى من يشدو متغزلاً بشمطاء قبحت مخبراً ومنظراً وعاتية أفسد الظلم نضارتها.

إن الجنايات المتنامية فوق الساحة العربية ليست مقترفات ساسة وحسب، إنها جنايات علماء ومفكرين وعسكريين وحزبيين وطائفيين وأدباء ومبدعين. وما فتئت الأمة واهنة حزينة تحت وابل الكلمات الرنانة، حتى لقد نُبزت بأنها (ظاهرة صوتية). وهل أحد ينكر مقترفات أرباب الكلمة؟ إن الأمة العربية تتجرع مرارات من كل جانب، ومن تصور الأزمة بأنها (أزمة حكام) فقد اختصر المذنبين. إنها أزمة شعوب وعلماء وأدباء ومفكرين وحزبيين وطائفيين، وأزمة تسلط القوي على الضعيف، وكف يده وتفكيره عن التصرف السليم. أزمة شائعة في كل الأوساط ومن كل الأوساط، ولابد - والحالة تلك - أن يدع حملة الأقلام نبش العفن، وأن يكفوا عن الاشتغال بالفرضيات، تمهيداً لالتقاء الأطياف على كلمة سواء، والانطلاق إلى الثغور المكشوفة لوقف الاختراقات، فما عادت الأمة بوضعها المتردي قادرة على تحمل مزيد من التنازع والشقاق وإيقاظ الخلايا النائمة، وسك المصطلحات الأكثر التياثاً ومراوغة. فحاجة الأمة عودة نصوح، تمكن أبناءها من معرفة قدرها وإمكانياتها ومتطلبات مرحلتها. ولن يتأتى ذلك إلا بالبحث عن الحق المجرد، واستبعاد البحث عن براءة الذات، وإدانة الآخر، وإدامة التنازع. وما أحوجنا إلى تغليب الإيثار على الأثرة، والتفسح في منصات القول، وتفادي المصادرة والنفي والتهميش والإلغاء وواحدية الخطاب، وبرهان ذلك كله المشاركة الإيجابية، وصرف النظر عن قيل وقال، وكثرة ترديد الشائعات، وتحويل الوقوعات الجزئية إلى نظريات و(أيديولوجيات)، فالأمة لقيت في مسيرتها النصب والتعب وذهاب الريح، ولم تعد قادرة على تحمل مزيد من النكسات الموجعة، ولن يتحقق النصر إلا بأن نفيء إلى أمر الله، ونلزم الجماعة، ونعود إلى نصاعة النص المغيب. لقد حيل بين الأمة ومرجعيتها النَّصِّية البيضاء، واشتغل المفكرون والمنظرون ب(النص الرديف) الذي أنتجه قراء متفاوتون: زماناً ومكاناً وإمكانيات ل(النص الأصل) في ظروف تختلف عن ظروفنا. إن خطاب القوة يختلف عن خطاب الضعف، وزمن الثورات العلمية يختلف عن زمن المعارف النظرية، والقرية الكونية تختلف عن الإقليمية المغلقة والقلاع والمدن المسورة. ومع كل هذه التحولات فالأمة العربية أمة مسلمة، ولن يتحقق لها النصر إلا بالإسلام، إسلام التمثل لا إسلام الهوية والادعاء، الإسلام الذي لا تمليه طائفة، ولا يستغله مذهب، ولا تحتكره إقليمية ولا قبلية. الإسلام دين عالمي إنساني علمي حضاري مدني، ومن أراده على غير ذلك فقد أساء له ولأمته. ولو أن الأشتات المتفرقين عرفوا ذلك، وأخذوه من مصادره ومن جيله الأول، لما اختلفوا، ولما تناحروا. وإذا كنا نقدر الأنساق الثقافية وآليات التأويل ومناهج التفكير والتلقي فإننا لا نريد لهذه التعددية أن تصل بنفسها إلى حد القطيعة والتنابز وتبادل الاتهامات. نعم نقبل بالتعددية وبالتعايش والتعاذر، ونقبل بالخطابات المتباينة،

ولكننا لا نرضى بالانقطاع، ولا نقبل بالتحريف، نريدها حرية منضبطة ووسطية ممتثلة على حد ﴿وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾.

جدلية الخفاء والتجلي في المنهج .. ! (٢) [1]

و (التلقي) و (التأويل) نظريتان أوْلاهما علم اللغة الحديث كل الأهمية، وعول عليهما في تجسيد الرؤى والتصورات وافتراض (التجلي) و (الخفاء)، وألحق بهما (علم الدلالة)، و (الأنساق) و (السياقات) فكان أن أصبح النص محكوماً في دلالته بما هو خارج البنية اللغوية. ولما ذر قرن (التقويضية) كادت اللغة الماثلة للعيان تفقد مهمتها، لتحل محلها لغة مفترضة وغير محكومة الاستدعاء، وأصبحت مجرد هيكل لا يلوي على كل شيء. وكل مصطلح يبعد النجعة، حتى لا يكون للكلام المقروء أو المسموع دور رئيس في تجسيد الدلالة. و(الباطنيون) في قضية (الظاهر والباطن) سلف سيئ لمن خلف. و(الظاهريون) ردة فعل للتعليل والقياس، واضمحلال الحضارات من الأفعال وردودها ومن الاسترفاد وتهيب المبادرة والصراع حول بضاعة الغير بين متهافت بائس ومتمتع كالعائل المستكبر.

ومصطلحات علم اللغة الحديث ومتعلقاته الإبداعية والقرآنية وتداول المركزية بين (النص) و (المؤلف) و (القارئ) أسهمت في تشكل (المنهج الخفي) الذي استدعي بطريقة بدائية وتصور ساذج، ليكون ك (الثور) يضرب لما عافت البقر. على أن الذين استدعوه وتظاهروا حوله لم يدر بخلدهم إلا الوقوعات. وأخطاء التطبيق لا تنتج نظرية ولا تدين مبدأ، والوقوعات الاحتمالية لا ترقى بالقول إلى سدة التنظير. ولكيلا يقع المنظرون في متاهات القراءات فإنه من الممكن أن توضع ضوابط ل (التأويل) وقواعد ل (التلقي) بحيث يكون (المنهج الخفي) عند استدعائه حقاً مشروعاً تنتجه إمكانيات استثنائية، وتجسده رؤى وتصورات واعية، وحينئذ لا يكون استدعاؤه للمساءلة للإدانة. ولن يكون الاستدعاء مأمون العواقب حتى يقتصر التداول على المتضلعين من نظريتي (التلقي) و (التأويل) من الجهابذة الذين يأتون البيوت المعرفية من أبوابها. وقد فعلها سلفنا الصالح، بحيث جعلوا لكل مذهب قواعده وأصوله وآليات استنباطه وخطة مساره، وتراتب علمائه، وسقف اختلافه. حتى لقد عرف المجتهد المطلق، والمجتهد المقيد، وعرفت أسباب الاجتهاد وشرعيته ومحله وأقسامه وطرقه وشروطه: الذاتية والعلمية، ووسائله: النصية والتعليلية. وما عهدنا أحداً من العلماء المؤصلين عني بالوقوعات العارضة إلا للافتاء، وما كان أحد منهم متخذاً السقطات محفزة لسك المصطلحات، ولو أن كل جنحة أقيمت عليها رؤية، وسك لها مصطلح، لملئت المدارج بالحرس الشديد والشهب.

ومتى حددت القواعد والأصول، أمكنت مواجهة المرجعيات الدينية النصية، ولن يكون هناك -والحالة تلك- قطيعة بين فرضية المنهج الخفي والجلي. ومن خلال متابعة المتداول من القول حول المنهجين تبين لي أن المقاربة بدائية وغير حصيفة، لاعتمادها على المرافعة ضد غائب، واعتماد مصدريتها على قيل وقال. وليست إشكاليتنا الفكرية ناتج همّ الأسلمة، وكيف نتصور ذلك وهي مقتضى السياسة التعليمية، وليست إشكاليات المنطقة العربية ناتج تعليمها، بحيث نتصور أن خطاباً محلياً خافتاً كان بمقدوره أن يربك العالم ويغزوه في عقر داره. وهل ما يمر به العالم من رعب يعد ناتج انحراف معلم أو واعظ أو مركز صيفي أو جامعة تخلت عن رسالتها التنويرية؟ إن ربط مشاكل العالم بهذه الممارسة المحلية يعني استعدادنا لمواجهة العالم بأسره، وتعزيز ادعاءاته بأن بلادنا مصدر العنف، وعلى البراغشيين أن يعللوا لنا وحشية اليهود وغطرسة الأمريكان وهمجية القتل في الجزائر والحروب الأهلية الشرسة في بقاع كثيرة من العالم.

---

(١) تاريخ المقال: ٢٧/ ٧/ ٢٠٠٤

والتحفظ على الفرضيات مرده إلى هم المفترض ومراميه، فالأوضاع الاستثنائية تنفرد بأحكامها ومحظوراتها ومباحاتها، ولهذا عرفت (حالة الطوارئ). فما يقبل في ظل ظروف عادية ليس حتماً أن يقبل فيما سواها. وإذا اختلفنا فيجب ألا نقع في مأزق تبادل الاتهامات، وفرض وجهات النظر، وتحميل الآخر ما لا يحتمل، وتقويله ما لم يقل. التعاذر والتعايش هما السبيل الوحيد لاجتياز المنعطف الخطير.

وإذا صنع الغرب أعداءه بغطرسته، ولم يستطع تفكيك لعبه ف (يداه أوكتا وفوه نفخ)، ولسنا ملزمين باجترار أطروحاته وتصديق تخرصاته، ولا معذرين لمقترفاته. وليس من مصلحتنا استعادة ما تراكم من مخلفات الجدل العقيم في زمن الاسترخاء والنزف المعرفي وأجواء الثقة. وليس من المناسب أن نطرح أنفسنا بوصفنا طرفاً في قضايا العصر، ورؤوس الفتنة: (بوش) و (بلير) يصطرخان تحت أسواط الرأي العام، وقد تدركهما حرفة الكذب، كما أدركت (رتشارد نكسون) خطيئة (ووتر جيت) رغم مبادراته المتميزة. وحين يرهبنا ويرعبنا ما يحصل في بلادنا فيجب ألا يكون حملة الأقلام في معالجة الأحداث ك (سعد) في إيراده لإبله، ولا كمن أراد أن يعرب فأعجم. وإذا شُرع القول أو الفعل المغاير للسائد والمألوف في ظل ظروف قائمة فإن تبدل الأحوال وقيام الحاجة إلى قول أو فعل مغاير لا يقتضي استدعاء القول السالف وفعله للمساءلة، إن لكل ظرف خطابه وفعله، والسياسة (فن الممكن) ومن حق الرأي العام ألا تلغى ذاكرته، وألا تستفز عواطفه، بحيث يتحول الفعل المشروع في زمن إلى مقترف في زمن لاحق. ولعل من الطرائف المضحكة، وشر البلية ما يضحك، أن تكون من قائمة الاتهامات الموجهة ل (صدام حسين) حربه مع إيران، وهي الحرب التي منحها العالم كله الشرعية وأيدها ودعمها، وما كان فيها (صدام حسين) إلا لاعباً غبياً. وكم يكون الإنسان مكرهاً لا بطلاً، وكم يكون خياره محصوراً بين ضررين فلا يجد بداً من ارتكاب أهونهما. ومكمن الخطورة في سك المصطلحات لتكون وثائق مزورة بيد من لا يرقب في مؤمن إلاًّ ولا ذمة، ومشاهدنا العربية بليت بمن يأتي الغرب من أهله بنبأ غير يقين. والغلاة المتطرفون والمداهنون المتحللون وجهان لعملة واحدة يقتسمان الخطايا.

وخلاصة القول: إن المجتمع بكل أطيافه يتحمل شطراً مما حصل فيما تتحمل فلول اللعب الكبرى الأشطر الباقية، وعلينا أن نرسم طريق الخلاص، لا أن نمعن في التخلص، وإن علينا أن نرصد لاتجاه الريح، لنقوض أشرعتنا، ونحتضن مجاديفنا فالريح وحدها كفيلة بدفع السفينة، وإذا تفجرت بالراجلين ألغامهم التي زرعوها بأيديهم، فليس من الحكمة أن تدفع مؤسساتنا الثمن، ولا أن نقبل بالاتهام. وإذا كنا بما وهبنا الله مواسين وآسين ومتوجعين فليس من البر احتمال خطيئات الآخرين. كل الأوضاع الشاذة في الوطن العربي بقايا لعب كونية، ومن كثرت مسابيره ومجساته تكشفت له الأوضاع على حقيقتها. لقد كانت لي متابعات وإلمامات ومشاركات في مؤتمرات وحوارات داخل البلاد وخارجها، وتبدى لي أن كل ناهض بمهمته يدعي أنه رب الوسطية وصاحب الحق والشرعية، وأن للغلو والتطرف والتنطع أرباباً يحمونها ويؤزونها، وأن قوله صدق لا يحتمل الخطأ، وقول غيره خطأ لا يحتمل الصدق، وهذا التوهم يحمله على الشطط والانفعال وتصور نفسه منقذاً يمارس الإنذار، ولا يميل إلى الحوار، ويتعمد النقد، ولا يتخذ سبيل التساؤل والاستبانة. وكل منظر لا ينبس ببنت شفة، حتى يفترض ملائكيته وشيطنة ما سواه، وذلك لعمر الله بيت الداء ومكمن الإشكالية، وما رأس الدواء إلا البصر والبصيرة وتعزيز النفس اللوّامة وتخذيل الأمّارة، وحمل المخالف على خطأ التصور أو نقص المعارف.

وإشكالية (الوسطية) التي يدعي وصلها كل متحدث تزداد تعقيداً كلما أمعنا في التعويل عليها، دون تصور دقيق لحدودها ومقتضياتها. فالذي يتخذ من الوقوعات العارضة (أيديولوجية) لا يعد وسطياً، والذي يجمع كل الخطايا في سلة الخفاء ليس وسطياً، والحدِّي المحتدّ ليس وسطياً، والمتحلل من كل ضابط المميع للدين ليس وسطياً، وتلك الرؤى الخاطئة توقعنا في إشكالية المفاهيم الخاطئة. ولهذا يظل كل متمذهب يدعي الوسطية والتسامح، وسيظل الادعاء قائماً ما لم يحتكم الأطراف إلى مرجعية معتبرة نافذة القول. والأمة تواجه خطر الاستبداد بالرأي، وعدم احترام العلماء المشهود لهم بالعلم والصدق والإخلاص والاستقامة، ومتى ذهب كل مبتدئ برأيه، ولم يسلم للمرجعية المعتبرة اتسع الخرق على الرقع.

ولو أن حملة الأقلام عمدوا إلى تحديد دقيق لمفهوم الوسطية، وأذعنوا لمرجعية: نصية أو شخصية اعتبارية، تقطع دابر الخلاف، وتنهي الجدل. ولو أن كل الأطراف التزمت أو اقتنعت على الأقل بأن تحقق الوسطية لا يكون إلا بالاستقامة على المأمور لكان أن أرحنا واسترحنا.

والذين يفترضون التجلي والخفاء يشغلون المشهد بإضافة جديدة، غير ملموسة وغير محددة، فمن هم ذوو التجلي وما صفتهم، ومن هم ذوو الخفاء وما الحق منهم وما المبطل؟ القول بالتجلي والخفاء قول مشروع، لو لم تكن هناك غايات رديفة، ولو لم تكن هناك ظروف غير ملائمة، ولو لم يكن هناك منهج خفي يستبطنه المتصدي للمنهج الخفي، حتى لكأننا بهذه السفسطة المتنامية عشوائياً نقف أمام (المرايا المتقابلة).

والخوف من تداول المصطلحات ان يُجعل منها مجالٌ لتحميل الخطاب الديني كل جرائر الإرهاب، ومن ثم تعزز حجج اللاعبين الكبار، الذين يُحركهم يمين متدين متشدد لا يريد لغيره أن تحركه عقيدته. وإذ تلتطم في سائر المشاهد عدة خطابات، يحتمل كل واحد منها شطراً من تلك الظاهرة الخطيرة، فإن على المتقحمين لهذه المضائق أخذ الحذر وإعداد العدة، تفادياً لإصابة قوم بجهالة. ولست هنا معنياً بتبرئة أي خطاب، ولا الإحالة إلى خطاب بعينه، فكل خطاب له طرفان ووسط، وله أقوام يضلون بغير علم، كل الذي أريده تفادي سك المصطلحات، أو استدعائها لإعادة التنازع من جديد. وليس ببعيد عن هذا الهلاك من يتقحم سوح الفكر والسياسة ببضاعة مزجاة. وقوانين اللعب السياسية ليست بأقل من أصول المعارف، إذ ليس بفقيه من لا يعرف أصول الفقه وأقطاره الثلاثة: فقه الأحكام والواقع والأولويات. وليس بسياسي من لا يعرف التاريخ السياسي، ومكر الأعداء، و (اللوبيات) و (جماعات الضغط) و(الاستراتيجيات) و (التكتيك) وتعارض المصالح، واللعب الكونية، وتنازع البقاء، وسنن التدافع، وقانون التداول، وأسباب سقوط الحضارات. وحين نتخوف من تداول أي مصطلح قائم أو مفترض فإنما خوفنا من مستدعين متسطحين، ومن متلقين فارغي الأذهان، لا يعرفون إلا ظاهر القول، ومن (متأدلجين) أو (متحدثنين) أو (متعولمين) لا يقدرون جرائر هذه الصيرورة، ولا يعرفون نواقض الانتماء. وجدوها فرصة مواتية، فحسبوا أن الرياح تهب لصالحهم، فاغتنموها قبل أن تسكن، ومن فلول لعب قاتلة ذهب اللاعبون بالأجور، وتركوا المنفذين نهباً للضياع، ومن مشفقين ناصحين استدبروا الواقع، وأوغلوا في أرض موحلة مكشوفة، ليس لديهم من يحمي ساقتهم، ولا من يرود لمقدمتهم.

ومع التحذير من تداول المستجد من المصطلحات التي تُستدعى، ولا تقوم الحاجة إلى مثلها، فإننا لا ننكر أن لكل طائفة أو نحلة رؤيتها وتصورها ومفهومها للأحداث والنوازل، وأن أي متحدث عن النوازل أو الظواهر أو القضايا إنما يتحدث عن رؤيته وتصورها ومفهومها للأحداث والنوازل، وأن أي متحدث عن النوازل أو الظواهر أو

القضايا إنما يتحدث عن رؤيته وموقفه، متحملاً كامل التبعات والمسؤوليات، وأن من حق كل مفكر أن يتمتع بكامل الحرية في التفكير والتعبير ما لم يؤدِ ذلك إلى إخلال في الأمن أو خروج على الشرعية أو مخالفة صريحة ومتعمدة للنص الشرعي القطعي الدلالة والثبوت، أو إضرار بالآخرين. ولو أننا تعقبنا المفكرين وحجرنا عليهم، لكان أن دخلنا كهوف الرتابة والنمطية، واستفحلت فينا عقدة (الأبوية) التي واجهت بها الأمم أنبياءها. والاجتهاد لأهله المؤهلين مشروع، والاختلاف صنوف الاجتهاد، فهو اختلاف مشروع أيضاً، لأن قضايا الدين والفكر والسياسة والأدب تختلف عن ظواهر العلم التجريبي. فقانون الماديات كالسنن الكونية، لا تتبدل، ولا تتحول، والخلاف حولها لا يخرج عن الخطأ المحض أو الصواب المحض، أما ما سواها فالاختلاف يكون خطأ، ويكون دون ذلك. فتنوع الآراء يدخل في إطار الفاضل والمفضول والأفضل. وقلّ أن يكون ثنائي الخطأ والصواب. وما اختلف العلماء من قبل، وما ظهرت المذاهب، وما تعددت القراءات إلا لأن هناك رؤية خاصة وموقفا خاصا ومفهوما خاصا. تتعدد بتعدد القراء والعصور والنوازل. ولا يجوز أن نحيل ذلك إلى المنهج الخفي أو الجلي، ولا أن نجعل الخفي مداناً بإزاء الجلي، ولا أن نحمل الخفاء جرائر الاخفاقات. ولو فعلنا ذلك لكان علينا أن نعيد النظر في اختلاف أئمة المذاهب في الآفاق الإسلامية، الذين فجرت بقايا الحضارات في أقطارهم مواهبهم، إذ في الشام بقايا حضارة الرومان، وفي العراق فلول الحضارة الفارسية، وفي مصر شواخص الحضارة الفرعونية. ففقه (الشافعي) في مصر يختلف عن فقه (ابن راهويه) في نيسابور، وفقه (الأوزاعي) في الشام يختلف عن فقه (أبي حنيفة) في الكوفة وعن فقه (ابن حنبل) في بغداد. وما أحد من الأئمة خطّأ نده، ولكن المتعصبين هم الذين أفسدوا التعدد المذهبي، وما تجاوزت المسألة عندهم الراجح والمرجوح، أو المقدم من المذهب، وما كان الاختلاف إلا ناتج تعدد المناهج والآليات والقواعد والأصول والخلفيات المعرفية واتساع فضاءات النص وتفاعله مع النوازل.

وها نحن نواجه حضارة الغرب دون أن تكون مؤسساتنا الفقهية موحدة القوى، لمواجهة المستجد، وكم نود تفعيل (المجمع الفقهي) و (هيئات كبار العلماء) في آفاق العالم الإسلامي، لتبادر النوازل ب (فتيا) جماعية، قبل أن تختلف الآراء حولها، وتفرق كلمة المسلمين. ولو كان استدعاء المنهج (الخفي) من مقتدرين يمتلكون الآليات والأصول والقواعد، وفي ظل ظروف مواتية ومناسبة لما كان منّا تمنعاً ولا تخوفاً. وكيف نحمل هم الحجر والنص أي نص يحمل دلالات قد لا تتوفر في ذات النص، إذ ان هناك معهودات وسياقات وأنساق وفضاءات ومناسبات ونوازل وأرضيات معرفية تساعد على تعدد الدلالات وتنوعها، وكل قارئ يتوفر على شيء مما هو خارج اللغة تنبثق من قراءاته دلالات ليست من ذات اللغة. وليس من الحصافة أن نقول بأن هناك منهجاً خفياً أو جلياً، ثم لا نعول إلا على وقوعات قالها طالب أو مدرس أو موجه، وليس من المناسب القول في ذلك في وضع محتدم ومتوتر، كهذه الأوضاع التي يعيشها العالم بأسره. إننا نثير انتباه المتربصين، ونتيح لهم أكثر من مرتع، ونهيئ أنفسنا للمساءلة والإدانة. وهل بعد التملق ل (الناخب الأمريكي) من أحد مرشحي الرئاسة لاتخاذ موقف متشدد من المملكة العربية السعودية لو فاز في الانتخابات مزيد من النبش في المناهج.

وأي تناول تستدعيه أحداث عارضة يخرج من مفهوم البحث (الأكاديمي) إلى الجهد (الأيديولوجي) ضمن دائرة الصراع العالمي، مما يترتب عليه رؤية وإجراء لا يصيبان الذين ظلموا خاصة. ولو أن المنهج (الخفي) بلغ أجله لما ملئت السجون بالمذنبين، ولما ملئت دور الرعاية باللقطاء، ولتحول الناس جميعاً إلى عباد للرحمن يمشون على الأرض هوناً، وكم نحن بحاجة إلى المنهج الخفي للحد من الجريمة والسقوط الأخلاقي.

اضطراب المفاهيم حول (الفكر السياسي الإسلامي) .. ![1]

بيت الداء في الراهن العربي الحديث (السلطة) المتذبذبة بين (العدل) و(التسلط)، وما من فتنة تلتطم أمواجها العاتية إلا وتحركها أعاصير التنازع حول سدة الحكم، ومن كفي أمره فقد نجا من كل غائلة، ولمّا تزل مفاهيم العلماء والمفكرين في أمر مريج، منذ شهيد المحراب (عمر بن الخطاب) حتى قعيد الحفرة (صدام حسين). وفي كل مرحلة تبدو المشكلة بثوب جديد، ويكون لها خطابها وخطباؤها وإشكاليتها، ولم يستحر الجدل العلمي (المؤدلج) إلا في العصر الحديث يوم أن سُيّس الدين والأدب، و(أُدلج) كل شيء، وسيم المسلمون الخسف. وكل حركة أو تنظيم لا يقومان إلا بحبل من الله أو بحبل من الناس، فدولة العدل والمساواة وإظهار الدين منصورة بنصر الله، ودولة الظلم والاغتصاب والتسلط مسنودة بحبل من الناس.

ولما سقطت (الخلافة) على يد (مصطفى أتاترك) بمواطأة من الغرب المسكون بالخوف من أي تحرّف أو تحيّز فكري إسلامي، اذن لكل قادر على القول أو الفعل أن يدلي بدلوه، عبر خطاب مستقل أو منتمٍ. وفي هذه المعمعة نهض (الفكر العلماني) الذي جعل قضيته الأولى الإجهاز على أي فكر سليم يرد الحكم إلى الله والرسول. وتهافت المفكرون والعلماء والساسة على الحديث عن آثار خلو المشهد السياسي العالمي لأول مرة من (الخلافة الإسلامية). وهو خلو فاجع يدمي القلوب. وفداحة الصدمة لم تتح فرصة للتأمل والتفكير، وإنما أدخلت الأمة في لجج من الفتن، وأصبح بأسها بينها شديد. والصدمة جاءت مذهلة على الرغم من أن (الخلافة) لم تكن متمشية مع المقاصد الإسلامية، ولم تكن من القوة العلمية والعسكرية والاقتصادية بحيث تمارس حقها بندّيّة، وليست منذ أن انتهت الثلاثين سنة التي أخبر بها الرسول ﷺ متمشية وفق المقتضى الشرعي، ولكنها مع كل هذه المعوقات ظلت رمزاً ينظر إليه الكافة، كما ينظر أهل المريض إلى مريضهم، فلا يأس مع رحمة الله التي وسعت كل شيء، وكان معوّلهم أن المُلك لله يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء.

وكانت الشرارة التي تحوّلت إلى ضرام كتاب القاضي الشرعي (علي عبد الرازق ت ١٣٨٦هـ) (الإسلام وأصول الحكم) لأسباب منها:-

أولاً: - تطرّفه في تصور الفكر السياسي الإسلامي، إذ يرى أن الإسلام دين لا دولة وعبادة لا علاقة لها بالحكومة والسياسة، وأن الرسول لم يؤسس دولة، ولم يرأس حكومة، ولم يستخلف حاكماً، وما ورَّث إلا العلم.

ثانياً: - أنه جاء في لحظة حاسمة، فعندما سقطت (الأستانة) تململت (القاهرة) لتتلقى راية الخلافة، فأفسد هذا الكتاب ما كان القصر الملكي يؤمّله، وبهذه الضربة اللازبة قمع الاستعمار هذا التطلع، وشغل الأمة بالجدل العقيم حول مشروعية الخلافة من خلال هذه الصنيعة الماكرة، وقضي الأمر بعد اتفاقية (سايكس بيكو).

ثالثاً: - يعد الكتاب لعبة استعمارية للحيلولة دون التفكير بالخلافة من جديد، ومن ثم أصبح بداية حرب كلامية وتطرّف فكري مازال العالم الإسلامي يتجرع مرارته إلى ما بعد يومنا هذا.

رابعاً: - الظروف التي خرج فيها الكتاب ظروف استثنائية، فسقوط الخلافة أحدث فاجعة، أفقدت العلماء صوابهم، حتى حكموا بعودة الجاهلية الأولى، وتطرّف بعضهم بتكفير المجتمعات الإسلامية، لأنها استكانت، ولم تبايع خليفة، يحكم بما أنزل الله، ويرفع

---

(١) تاريخ المقال: ٣/ ٨/ ٢٠٠٤

راية الجهاد لمواجهة (العلمانية) التي التبست مقتضياتها في أذهان الخاصة والعامة، وأصبح القول فيها محور أي (أيديولوجية) أو تنظيم حركي.

ولقد سبق هذا الكتاب كتاب يتناول إشكالية الخلافة للعلامة السلفي (محمد رشيد رضا، ت ١٣٥٤هـ) (الخلافة أو الإمامة العظمى) ولكنه لم يثر من الجدل ما أثاره كتاب (علي عبد الرازق)، ذلك أنه جهد تطوعي، فيما جاء كتاب (عبد الرازق) جهداً تآمرياً، وإن قيل بأنه عمل صالح ضد تآمر المستعمر مع القصر بنقل الخلافة، ولو دخلنا في دوامة القول ونقيضه لبعدت علينا الشقة، ذلك أن بوادر السياسة كما آثار محترفي الإجرام تكون مطموسة المعالم، ودليل ذلك أن المؤلف لم يكن من ذوي الفكر السياسي، وما كان متوقعاً من مثله اجتراح مثل هذا العمل الجريء الخارج على كل الأعراف، حتى لقد وجّه الاتهام لمن هو أهل لمثل هذا التآمر وهو (طه حسين) إذ أشيع أنه هو المؤلف الحقيقي لهذا الكتاب الضجة. وفي تلك الفترة بدأت التحولات على مختلف المستويات، فعلى المستوى الاجتماعي كان (قاسم أمين)، وعلى المستوى الحضاري كان (طه حسين)، وعلى المستوى المرجعي كان (أبو رية) وما من قضية كبرى إلا ولها متمردها.

والمتابع لإفرازات الكتاب يقف على فرضيات متعددة، تدل على أنه عمل يكمن تحت سطوره عفن المكر الاستعماري. لقد تصدت له طائفة من العلماء والمفكرين أمثال (محمد الخضر حسين، ت ١٣٧٧هـ) و(محمد بخيت المطبقي، ت ١٣٥٤هـ) واقتصر جهدهما على نقض ادعائه، ولم يستدعيا ملابسات المقترف. فالإشكالية لم تكن حول اختلاف المفاهيم، وإنما هي حلقة من حلقات المؤامرة الكبرى التي لمَّا تزل تخلع قناعاً وتلبس آخر ويتعاقب عليها متمردون لوجه الرحمن أو لوجه الشيطان.

هذا التطرف في الآراء حول القضايا المحورية المصيرية أدخل الأمة في دوامة لا توقّف لها، وبهذه الآراء المتضاربة فُقدت (الوسطية) وحل محلها الغلو والتطرف والتنطع، وهذا الغلو نسل منه تطرف مضاد، ولكل رؤية وسط وطرفان، ولكل رؤية أشياع وأتباع، لا يترددون في إزهاق أنفسهم في سبيل فرض مشروعهم.

وعلى مستوى الدراسات الحيادية أو المنتمية طرحت عدة مشاريع:-

-مشروع (الفكر السياسي الإسلامي).

-مشروع (الفكر العلماني الديموقراطي).

-مشروع (الحكومة الدينية الثيوقراطية).

وكل هذه الأفكار ظلت حبيسة التنظير، إذ لم يفعّل مشروع منها وفق مقتضياته، وتداولت المشاريع الثلاثة ثلاثة انتماءات كمونية: الوطنية والقومية والدينية، وتخلل ذلك وسبقته إطلاقات جائرة، تكفر المجتمعات الإسلامية، لأنها لا تحمل بيعة إسلامية، ولا تخضع لخلافة إسلامية. ولقد كانت للمفكر الإسلامي (محمد عمارة) مجموعة من المؤلفات حول هذه المشاريع حاول فيها الوصف والتاريخ والتوفيق، وفي ظل التلبس العاطفي أمعن في عقلنة الخطاب، حتى عده البعض من معتزلة العصر. ووجدت طائفة من عشاق الشهرة والمخالفة أو عشاق العلمانية المتطرفة فرصة لإشعال فتيل الفتنة، وعلى رأس أولئك المستشار (محمد سعيد العشماوي) في مجموعة من الكتب من أهمها (الخلافة الإسلامية) و(الإسلام السياسي)، والماركسي الهالك (خليل عبد الكريم) في مجموعة من الكتب المليئة بالنقد الساخر للتاريخ السياسي الإسلامي، وبخاصة تاريخ الصدر الأول. ودخلت طائفة من (الحداثويين) والمفكرين الماديين في هذه المعمعة مصعِّدة التوتر معمِّقة الصدام، جاء على رأسها (محمد أركون) و(نصر حامد أبو زيد) و(علي حرب) وكل (المتعلمنين) أو (المتحدثنين) يدلون بدلوهم في الشأن السياسي ونمط الحكم والخلافة، إما بطريق مباشر أو غير مباشر. وكلما ألممت بحقل السياسة في مكتبي قلت في نفسي: - لن

يجتمع الأشتات، وتمنيت لو يتعاذروا ويذهب كل طرف بما قسم الله له. وآزر هذه الأشتات مصلحيون كل واحد منهم ركب الموجة التي تناسبه، حتى شاعت مقولة: - (لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين)، وحتى جاء من يقول مقابل مقولة: - (إن تطبيق الشرع هو الحل) (هو اللا حل ذاته)، وهذا التراشق غير المنضبط صعّد التوتر.

كما أن الحِدة والحدّيات صعدت الخلاف وعززت إمكانيات التطرف، ولو أن كل طائفة تحامت استفزاز الآخر، لكانت الأمور دون هذا التوتر. ولم يقف الأمر عند طرفي القضية، وإنما دخل المعمعة وسطاء توفيقيون أو تلفيقيون حاولوا التقريب بين وجهات النظر، دون معرفة تامة بالثوابت والمتغيرات، حتى لقد صار ضرر بعضهم أكبر من نفعه. هذا الصراع الفكري أتيحت له الفرصة ليتحول إلى صراع عسكري، وذلك بوصول بعض الطوائف إلى سدة الحكم، ولقد بلغت الأمة ذروة التوتر بتلاحق الثورات، وتعويلها على الدعم الخارجي الذي وجد الفرصة مواتية فثبّت وجوده بتعزيز الطائفيات والعرقيات والقوميات وجعل من كل ذلك ملفّات ساخنة يحركها متى شاء. وفي ظل التحكم الخارجي، واضطراب مشاريع الثوريين بين عدد من (الأيديولوجيات)، وفي درك الشقاء انحصرت كل الخطابات حول (السلطة) بوصفها الطريق الوحيد لطرح المشروع الفكري، وخرج الجيش من ثكناته، وأقبل من ثغوره، لينتزع السلطة منحياً المدنيين والدينيين، وتحول الشعب إلى غنيمة تعتورها سهام الأبناء والأعداء على حد سواء، وكم رددت الشعوب أمام مغتصبها من أبنائها:-

قفـوا وقفـة المعـذور عنـي بمعـزل
وخلّـوا نبـالي للعـداء ونِبالهـا

وفيما بين هذا وذاك التطم المشهد الفكري والسياسي بخطابات متعددة تبنّاها مصلحون سياسيون ودينيون مستقلون أو منتمون من أمثال: - (أبو الأعلى المودودي) و(سيد قطب)، ومثل هؤلاء تناولوا القضية من خلال انتماء فكري حركي معارض لسياسات قائمة، ولقد كان لمثل هذه التنظيمات دور في تنفيذ اللُّعب السياسية مواطئين أو متقاطعين، وكل لاعب محترف ينتهي بانتهاء اللعبة، وقد تكون لديه بقية من أقنعة تمد أمد بقائه على المسرح، ولمّا تزل قضية (الحاكمية) المصدر والمورد لكل مفكر إسلامي أو علماني أو متذبذب، والمختصون حول مفاهيم (الخلافة) و(الحاكمية) تجتالهم رؤى وتصورات يؤزها الضالعون في صنع اللعب والمتحكمون في مسرح العرائس. ولم تكن القضية شأن الحركيين وحدهم بل تناول الموضوع ساسة ومفكرون من خلال رؤية علمية، وما من متناول فكري أو علمي إلا وله همه ورؤيته وتشكّله الفكري وميله الفطري، فالنظرة العلمية الخالصة الحيادية غير ممكنة، ولو نظرنا إلى نقد (العقل السياسي) عند طائفة من المفكرين أمثال (محمد عابد الجابري) في مشروعه (نقد العقل العربي) لوجدنا كتابه الثالث في السلسلة يتناول الإشكالية السياسية من خلال محورين: (المحددات) و(التجليات). فالمحددات عنده تنطلق من عاملين: عامل الدعوة، وعامل الردة، ومؤداهما إلى الدولة أو الفتنة.

والمشهد الفكري زاخر بالأطروحات المتفاوتة حول الفكر السياسي الإسلامي ومشروعيته، فمن منطلق من التاريخ السياسي الإسلامي، ومن منطلق من النصوص الإسلامية غير المفعّلة، ومن مجتر لمقولات المستشرقين، ومن معوّل على عصور الفتوحات الإسلامية غير مدرك لواقع الأمة، ومن مستخذٍ محبط مُيئِس. وكل الأطروحات تتنازعها الوسطية والإفراط والتفريط. نجد ذلك عند (برهان غليون) في كتابه (نقد السياسة: الدولة والدين)، وعند (خلدون النقيب) في (الدولة التسلطية)، وعند آخرين

تتفاوت اهتماماتهم ومدركاتهم ك(عبد العزيز البدري) و(يوسف القرضاوي) و(محمد الغزالي)، وآخرين ركزوا على الصراع بين الإسلام والعلمانية. وأجمل من تناول نظام الحكم في الإسلام ووفَّاه حقه وحرّر مسائله وقدّمه بحثاً علمياً متوازناً الدكتور (عبد الحميد متولي) في كتابه (مبادئ نظام الحكم في الإسلام) وإن كان قد توسع في الحديث عن الفقه وأصوله بوصفه آلية تحديد الخلافة ومنهجها، والمتابع للطرح الفكري والسياسي تتفرق به السبل، وإن لم يكن على بينة من دينه فإنه سيضل الطريق، وقد يقع في التطرف من حيث لا يريد. وحتى الدساتير تجد بعضها يتملق الرأي العام فيقول: - إن الإسلام مصدر من مصادر التشريع وليس هو المصدر الرئيس ولا الشامل، وهذه التعددية في المصدرية تفتح آفاقاً من العلمانية بكل ما هي عليه من اضطراب في المفاهيم.

وحاجة الأمة في راهنها أن تحيد كافة الأطروحات المتشنجة والمثالية المتطرفة والصدامية المتنمرة، وأن تصرف النظر عن كافة الممارسات، وأن تسقط من حساباتها الخطاب الإعلامي التبريري، وأن تدخل معمارها القائم لإصلاحه من الداخل، فما عاد الاستبدال حلاً، وما عاد الهدم مطلباً، الإصلاح من الداخل وفي الداخل وبإرادة وطنية هو السبيل لتجاوز الأزمة القائمة، وليست المسمّيات ولا الأساليب مهمة، المهم النتائج. فإذا وجد العدل والإحسان والحرية والمساواة وإظهار الدين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فثمة الحكم الإسلامي، وليكن النظام: ملكياً أو جمهورياً أو سلطانياً أو إماراتياً شورياً أو (برلمانياً) اختيارياً أو انتخابياً استخلافاً أو غير ذلك. العبرة بالمصائر، وما يتوفر للشعوب من حقوق مشروعة. وأخطر ما تواجهه الأمة جماعات الضغط (المؤدلجة) المسيّسة، والجماعات المنازعة للسلطة من وراء قناع المعارضة المشروعة، والناكثين للعهد المفارقين للجماعة تحت أي مسمّى. وكأني بالخلافة الأزمة كمعدة الجسم الإنساني التي هي (بيت الداء).

ابن إدريس ناقداً .. ! (١) [1]

١-١الدهماء من الناس من يظن أن المحتفى به لا يستوفي متطلبات التكريم حتى يكون الأول في كل شيء. وفي ظل تلك الرؤى حُجبت المعرفة، وأفل العلم، وحل محلهما الثناء والمجاملات. وليس ذلك وليد الساعة، وإنما هو خليقة عرفها الباحثون عن الحق. وما على المتردد إلا أن ينقب في (كتب المناقب) و (سير أعلام النبلاء)، و (تاريخ الرجال)، ليرى ما لا يمكن توقعه من مبالغات قد تُخرّف القضايا وتؤسطر الرجال. ولما كنت ممن يُدعى إذا حيس الحيس وإذا تكون كريهة للحديث عن الرواد المكرمين أو المؤبنين، فقد روضت نفسي على مواجهة المواقف بأسلوب وسطي، يحفظ التوازن بين (الحق) و (الحقيقة) فـ (حق) المحتفى به أن نلتمس أحسن ما عنده. و (الحقيقة) ألا نقول عنه إلا الحق. وإذ يود المحتفون بالأديب (ابن ادريس) تسليط الضوء على جوانب متعددة من منجزاته، فقد وكل إليّ تناول حظه من النقد. و (النقد) مصطلح يقتضي الجمع والمنع، ولا يؤتاه إلا من كان متوفراً على مقتضياته: المعرفية والمنهجية. والقول عن نصيبه منه، يستدعي استعراض ما أنجز من أعمال نقدية، وتمريرها على أدنى حد من المقتضيات، فإن توفر عليها، كان ناقداً فاضلاً، وإن كان على شيء منها كان ناقداً مفضولاً. ولأن المتحدث عن الشخصيات والظواهر والقضايا يُري نفسه الآخرين، مبدياً من خلال حديثه مبلغه من العلم، ونصيبه من المصداقية فإنني سآوي إلى وثائق تعصمني من التجهيل أو التكذيب، وتنجيني من مغبة المجاملة أو معرة التحامل، إذ لو تصورت النقد على غير ما هو عليه لكنت جاهلاً في نظر العالمين، ولو قلت عن المحتفى به غير الحق لكنت كاذباً في نظر العارفين، وفي الحالين لا أفيد المحتفى به شيئاً، ولا أحفظ ماء الوجه.

والاستاذ عبد الله بن عبد العزيز بن ادريس خلَّف وراء ظهره فيوضاً من القول الأدبي المعهود في الأذهان، والمطبوع في الكتب، ولا أحد منا يملك إنكار شيء منها، ولا إضافة صفة لا يحتملها شيء منها، وليس بيد أحدنا أن يحمل تاريخ الرجال ما يريد، ولا أن ينزع منه ما لا يريد، فلقد رفعت الأقلام، وجفت الصحف، وإن كان ابن ادريس حاضراً بيننا، يقول، ويفعل، ويملي فصول حياته الأخيرة التي نرجو له فيها إنْساءَ الأجل، ومزيد العمل، فإنه وبعد هذا العمر الحافل بالأداء قد استقر في الأذهان منذ بوادره الأولى: شاعراً جزل العبارة، وناقداً حاد النبرة. ولمَّا تكنْ صلتي به طوال هذه المدة مقطوعة ولا ممنوعة. فلقد عرفته وأنا طالب يبهرني كل شيء، كان يومها في نظر لداتي الشاعرَ الذي لا يطاول، والأديب الذي لا ينازع، والصحفي الذي لا يبارى، والناقد الذي لا يجارى. ونمت معارفي، واتسعت مداركي، واقتربت منه: ذاتاً ومضموناً، وشبت رؤيتي عن الطوق، وتنوعت اهتماماتي، وتعددت قراءاتي، فكان واحداً من عشرات الكتّاب والشعراء والنقاد الذين يؤخذ من قولهم ويترك، وتخطى بي الزمن لأكون الصديق والزميل، وتوثقت الصلات، وتعددت اللقاءات، وتجاوزنا معاً مرحلة المجاملات، وما عاد أحد منا ينتظر من صاحبه إلا قول الحق، وفوق كل ذي علم عليم. ولأنه شاعر وأديب من بلادي، فقد كان قدرنا معاً أن يكون مادة بحث ودراسة، فاهتمامي بالأدب السعودي فرضه علي موضوعاً. تناولته شاعراً في رسالتي للماجستير وللدكتوراه، وتناولته ناقداً فيما كتبت من مداخل لدراسة الأدب السعودي. ومَوْضعة الذات تغيب العلاقات والمجاملات، بحيث يصبحُ الإنسان شيئاً من الأشياء، يقول عنه الدارسُ ما يقوله عمن سبقه من شعراء أو كتاب، لم يرهم من قبل، وإنما نفذت إليه أقوالهم وما قيل عنهم، مما حفظه التاريخ، فشعراء الجاهلية

(١) تاريخ المقال: ١٠/ ٨/ ٢٠٠٤

والإسلام، والمعاصرون من مبدعين ونقاد، أصبحوا خبرا بعد عين، ومواضيع يختصم حولها من بعدهم.

وابن ادريس الذي ترك السرى خلفه، وخلا بأعز جليس، تحوّل منجزه الكلامي إلى موضوع، يملك كل قارئ حق التعبير عما يراه إزاء ما يملك من وثائق. وهنا وفي ظل هذه الحيثيات والمسوغات، عدت قارئاً جديداً لما سبق أن قرأتُ عنه وله، ولما سبق أن كتبتُه عنه في غيابه. وليس من السهل في هذا الموقف أن أبذل القول غير القول، ولا أن أملك حرية القول في لحظة احتفاء واحتفال. والرسول ﷺ حين قال: «**إن من البيان لسحرا**» إنما استدعاه لهذا القول متحدث عن (الزبرقان) - فيما أعلم - رضي المتحدث عنه فذكر أحسن ما يعلم، وفي ذات الموقف سخط عليه فذكر أسوأ ما يعلم، ومع ذلك أقسم أنه صدق في الأولى، ولم يكذب في الثانية. والمتحدث ذو أحوال ثلاثة: - إما أن يكون راضياً أو ساخطاً أو طالباً للحق، لا يدفعه رضا ولا يثنيه سخط. وكل حالة توجه المسار. ومع كل هذا فإن القول عن أي ظاهرة محكوم بانتماء المتحدث فكرياً وبرؤيته فنياً وبإمكانياته معرفياً. ومن ثم فليس هناك قول فصل، ولو آمنا بالحدِّية لكنا قد فرغنا من شعرائنا وكتابنا منذ أمد طويل. والحديث عن ابن ادريس في جانب من اهتماماته الأدبية يحفزنا إلى استكناه ذلك الجانب مفصولاً منه، حتى إذا تصورناه نظرنا إلى مبلغه فيه. و (النقد) له سياقه المحلي والعربي، وله مذاهبه وتياراته وآلياته وتحولاته، وللنقد المحلي ريادته وتأسيسه وانطلاقه، وله رواده ومؤسسوه، ولكل ناقد مرجعيته واهتماماته، وابن ادريس في هذه المعمعة واحد من الدارسين والمؤرخين، وما من متعامل مع الحركة النقدية في المملكة إلا ويعرض له متفقاً أو مختلفاً معه، ويكفي أن يكون جزءاً من التاريخ الأدبي، والحديث عن النقاد يقود إلى الحديث عن النقد، وهو مصطلح قائم بذاته تتنازعه ثنائية: التطبيق والتنظير، وتتجاذبه الآليات والمناهج والمذاهب، ويختلف المؤرخون والمنظرون للنقد حول من يدخل فيه. ومن لا يدخل، فمتى يكون الكاتب ناقداً أو مفكراً أو فيلسوفاً أو مثقفاً أو مبدعاً، ومتى لا يكون؟ ومتى يستحق الجمع بين سمتين؟ وابن ادريس أبدع الشعر، وكتب النقد، ونازع في امتلاك السمتين، ولكنه لم يفرغ لواحدة منهما، وأخشى أن يكون قد سوِّد قبل أن يتفقه، ومع ذلك فقد أخرج للناس كتباً في الإبداع وأخرى في النقد، وحفز الدارسين والنقاد لقراءة شعره وتحديد مذهبه النقدي، ومهمتنا أن نعرف مبلغه مما نحن بصدد الحديث عنه وهو (النقد).

١ - ٢ والسؤال الملح:

يحدونا إلى التساؤل عن مكانته في سلم النقد وأنواعه، فهل عبد الله بن ادريس (ناقدٌ) أو (مؤرخ أدبي)؟. وحين نسلم بإحدى السمتين أو بكلتيهما، فأي السمتين الصق به:

النقد الأدبي بقسميه: التنظيري والتطبيقي.

أو التاريخ الأدبي بقسميه: الرصدي والوظيفي؟

وهل المؤرخ الأدبي يعد ناقداً؟ وهل مَن كتب في موضوعات الإبداع القولي، يعد ناقداً؟ وهل الانطباعية والذوقية منهجان من مناهج النقد؟ إننا أحوج ما نكون إلى تحرير (مفهوم النقد)، وتحديد مستوياته وأنواعه قبل وضع الشخصية المدروسة في موضعها الطبعي.

وأعيذها نظرات صائبة من المتلقي ان يحسبني أفتعل دوامة كلامية، وأثير غبار الاحتمالات، لأتسلل لواذاً كاتماً ما أرى، كمؤمن آل فرعون، ذلك أن الأمر لا يحتمل مثل هذه التحفظات، فمن جعل ابن ادريس ناقداً وجد ما يعزز به رأيه، ومن قصره على التاريخ الأدبي أو الانطباعية أو الذوقية وجد ما يدفع به غوائل المؤاخذة. ولا استبعد أن تكون مَوْضعةُ ابن ادريس إشكالية، فالنقاد الأكاديميون لا يتفسحون لغيرهم في مجالس

النقد، لتعويلهم على المنهج الصارم والخطة الدقيقة، والنقاد المتضلعون من فيوض النقد الغربي الحديث وتحولاته يرون النقد علماً ومعياراً، والنقاد الشعراء ومنهم ابن ادريس يعدون أنفسهم أبناء بجدة النقد، يوم كان الزمان زمان الشعر، ولما يزل في كؤوس الجدل بقية، وقد نخرج من جدلنا هذا بإضافة إشكاليات جديدة. لقد عرفت ابن ادريس منذ خمسين سنة يوم كنت طالباً في الصفوف التمهيدية، كان ذلك عام ١٣٧٤هـ، وكان يومها مفتشاً ملء السمع والبصر. وقرأت له منذ أربعين سنة، حين أخرج للناس كتابه (شعراء نجد المعاصرون) وأحدث به ردود فعل واسعة، وقدم به مرجعية تهافت عليها عدد من الدارسين. وتناولته ناقداً وشاعراً منذ ثلاثين عاماً، حين باشرت في إعداد رسالتي للماجستير، وعدت اليه قبل خمسة وعشرين عاماً حين درسته في رسالتي للدكتوراه، ولما يزل يتقلب بين يدي موضوعاً في قاعات التدريس، وصالات المناقشة، ومنابر المنتديات، أكتبه موضوعاً لدراسة أعدها، وأقرؤه موضوعاً لرسالة أناقشها. يرفعه قوم، ويضعه آخرون، ويتفق معه ناقد، ويختلف معه آخر. وما من أحد نفى شاعريته، ولا أنكر منجزه النقدي، وإنما الاختلاف حول قيمة هذا المنجز، وتصنيفه، وتوصيفه وموقعه في سياقه.
وإذ نكاد نتفق على انه شاعر وناقد، يظل الخلاف محصوراً في مبلغه من الشعر والنقد، والمريح إنه لم يظفر أحدٌ من الناس بالإجماع على مبلغه في أمر من أمور الأدب والفكر، فالنقاد قد يتفقون على السمة، ولكنهم يختلفون على مبلغ الانسان منها، فهذا (المتنبي)، مالئ الدنيا وشاغلُ الناس، النائم عن شوارد شعره، والمسهر للخلق، وخالق الخصومات منذ ألف عام أو تزيد، يختلف الناس حوله، وكلما تعمقت الخلافات عظمت الشخصية، وتكرس حضورها، والناس لا يختلفون إلا حول المتميزين، فهاكم (أبا العتاهية) يمر به القراء مر الكرام مسلمين بشاعريته، فيما يطيلون الوقوف حول (المتنبي) ثم لا يسلمون بشاعريته، وبين الاثنين مثلما بين الثرى والثريا. وقد قيل: أبو تمام والمتنبي حكيمان والشاعر البحتري.

١ـ ٣ ولسنا بهذه الاستهلالات نريد النفاذ من هذا المأزق، ولا نريد خلط الأوراق، وإنما نود أن نثبت أفئدة المتلقين، حين لا نتفق مع ابن ادريس أو حين لا نسلم بما سلم به غيرنا، على أننا جميعاً لا نقول إلا معاراً أو معاداً من أحاديث مكررة. والحديث عن الناقد يقود إلى إشكاليات النقد ومفاهيمه المتعددة، والناس بعد تحولات النقد وحدوث متغيرات في الآلية والمنهج والمقاصد غيروا من مفاهيمهم، واضطروا إلى إعادة ترتيب أوراقهم، وأبعد بعضهم النجعة، حتى لكأنك مع بعضهم في ملاعب جنة، لو سار فيها سليمان لسار بترجمان.

ذلك أن النقد اليوم غيره بالأمس، ولما يعد الوقت وقت مسلمات ونمطيات، والتسليم بكل التحولات يجعل من الأكثرية كتبة في الادب ليس غير، والخلطة النقدية مع الغرب غيرت المفاهيم والاهتمامات، وقلبت الأوضاع رأساً على عقب، ومذاهب النقد الحديث وظواهره كادت تطمس معالم النقد العربي القديم. والمنظرون للنقد الحديث نفوا من مدينة النقد من كنا نعدهم من رواد النقد وعمده، والدراسة المنصفة لأي شخصية من تأخذه في سياقه وإمكانيات مرحلته، ومن الخطيئة التخطي بمعطيات المرحلة وتقويمها على ضوء الإمكانيات القائمة. وحين لا نسلم بالتخطي والابتسار نسلم بما يعتري الحركة النقدية من تحول مستمر، ولكل زمان نقده ونقاده، ومن يعش منا فسيرى اختلافاً كثيراً، والمؤصل من يستوعب التراث والمعاصرة، ويؤاخي بين القديم والجديد، ويختط لنفسه طريقاً قاصداً، لا يفصله عن تراثه، ولا يحرمه من مستجدات العصر، وتلك معادلة صعبة ومعقدة، وليس لها ضابط متفق عليه، ولكن الحق أبلج، ولا مجال للتَّغنُّص، وعلى طلاب الحق ألا يستزلهم المستغربون، وألا تثبطهم عقدة الأبوية، والرحيل إلى التاريخ، والمتمكن

من لا يستسيغ إلا ما افترس من رؤى وتصورات، فانتظار النوال، والاهتياج الأعزل في وجه كل جديد مضيعة للجهد والوقت، والتولي عند مواجهة الآخر تخلية لثغور الحضارة، ومن الخير للأمة أن يرحب صدرها لكل طرح، ولكن في إطار ما يتطلبه الوجود الكريم، وما يحقق الهوية، ويحافظ على الخصوصية.

ابن إدريس ناقداً .. ! (٢)[1]

ولأن لحظات الاحتفاء ستنتهي، وتظل وثائقها. وما يصلح لزمن الاحتفاء قد لايصلح لما بعده، ولأن الحديث مقتصر على جانب النقد في حياة ابن إدريس، ولأن ابن إدريس لم يفرغ للنقد، ولم يشغل نفسه به، ولم يرد أن يكون ناقداً لا يبرح سوحه إلى غيره، فقد كان لزاماً علينا التحرف لنجوة من وقتية المناسبة، والالمامات غير العازمة. لقد كان الشاعرَ والكاتبَ والناقدَ والصحفيَّ والإداريَّ، فكان كما جسم المتنبي موزعاً في جسوم كثيرة، اشتغل في الصحافة محترفاً وكاتب مقال، واشتغل في كافة الأعمال الإدارية يتقلب معها، واشتغل في الشعر مبدعاً لا يلم به إلا حيث تحفزه مناسبة أو يثيره موقف. وكان اشتغاله في النقد مثل اشتغاله في الشعر ثانوياً، ولم تكن له عزمات جادة. ومع كل ذلك، فقد وثّق خطراته النقدية، ما كان منها عن جد وقصد، وما لم يكن عن جد وقصد. وما كتبه من دراسات تاريخية أو نقدية ينمّ عن وعي بما يدور في كافة المشاهد الأدبية، وإن جاءت إلماحاته النقدية مدفوعة بمناسباتها. ولكننا مع كل ذلك أمام عمل أدبي رائد، وظّف فيه كل خبراته وإمكانياته، وارتبط اسمه به، وقد لا أكون مبالغاً إذا قلت: إنه عرف به، ذلكم هو كتابه (شعراء نجد المعاصرون) ومع أنه من بواكير إنتاجه إلا أنه ظل الأكثر حضوراً، ولربما كان العملَ الوحيدَ الذي نفلَه جهدَه، وفرغ له، ولقد كانت لي معه وعنه أحاديثُ خبرت بها لماذا بادر إلى التأليف، ولماذا فرض شرطه الفني والدلالي على الشعراء المترجمين، ولماذا أراد له أن يظل كما هو، لايضيف إليه، ولا يحذف منه. ولقد أشرت من قبل إلى الخلاف القائم بين منظّري النقد في تصنيف النقاد. فقد يتردد البعض منهم في عدّ المؤرخين والمترجمين وأصحاب المختارات من النقاد. ويبالغ البعض حين يجعل النقد موهبة كالشعر، بحيث لا يكون كلّ من كتب في الدراسات النقدية ناقداً، وفي مقابل المضيّقين لدوائر النقد، نجد آخرين يتوسعون في مفهومه، فيجعلون أصحاب المختارات والموسوعات والتراجم والدراسات والتحقيق نقاداً. والنقد الحديث الذي ركن إلى العلمية والمنهجية، لم يحفل بالذوقية ولا بالانطباعية، والشعراء النقاد يميلون كل الميل إلى التذوق والانطباع ويدّعون القدرة النقدية، فهم أهل الشعر وخاصته، وهم الأدرى بما فيه. وأمام هذه التصنيفات نجد أنفسنا بحاجة إلى أن ننتزع الاعتراف بأن ابن إدريس ناقد. وليس شاهدنا في ذلك ما كتبه من تراجم ومختارات وخطرات نقدية غير عازمة، ولكن لما ينطوي عليه من استعداد مبكر للنقد، ولما قدّمه فيما بعد من خطرات تؤكد أهليته لذلك. ولا أحسبنا بحاجة إلى مزيد من المنافحة حول هذا الموضوع، والذين لا يعدّون المتذوقين نقاداً، لهم بعض الحق، ولكن الناقد الذي تجاوز التذوق والانطباعية أو تجاوز بهما يمتلك آلية النقد ومنهجيته، والمحدثون من المنظّرين للنقد لا يعدّون من قَصَر قراءته على التذوق الأدبي ناقداً، ولا من كتب في تاريخ الشعراء، وتلك رؤية قائمة لها أنصارها. وابن إدريس المتفاعل مع المشاهد الشعرية والنقدية يفرق بين (الذوقية) و(الانطباعية) من جهة وبين العملية النقدية بعلميتها ومنهجيتها من جهة أخرى، ويعترف باعتماده على الذوق، وهو يعي تماماً أن الذوقية مباينة لمناهج النقد الحديث، قال هذا في كتابه (كلام في أحلى الكلام) (ص٩) وأحسب أن الناقد الشاعر غيرُ الناقد العالم، وقد يُدِلُّ الشعراء النقاد بمعرفتهم النقدية، وتلك ظاهرة واكبت حركة الشعر العربي القديم والحديث، وابن إدريس في باكورة انتاجه النقدي (شعراء نجد المعاصرون) ناقدٌ متذوقٌ ووصَّافٌ وحكميٌّ وانتقائيٌّ ومؤرخٌ أدبيٌّ. تفلّت من إسار التاريخ الأدبي، وتجاوز متطلبات الترجمة، ولم

(١) تاريخ المقال: ٢٤/ ٨/ ٢٠٠٤

يكن متذوقاً ولا انطباعياً وحسب، وهو في كتابيه (كلام في أحلى الكلام) و(عزف أقلام) متذوق وانطباعي، يسجل انطباعاته عما يقرأ، وإن كانت له مناوشات مع لداته في (عزف أقلام) والمتابع لكتاباته يدرك وعيَه المبكّر للمتداول من القضايا والظواهر، وقد نفذ كثيرٌ منها عبر شبات قلمه، ولكنه لا يريد أن يكون مع أحد من النقاد، مثلما أنه لم يكن الناقدَ المخلص للممارسة النقدية، وما أحسبه فرغ له، ولا حبس نفسه لشيء من ذلك، وإنما يلم به متى شاء أو متى أثير. ولكي أدلل على وعيه بالظواهر والمذاهب النقدية أشير إلى كتابه الأول (شعراء نجد المعاصرون) لقد ألّفه والمشهد النقدي المصري حفي بمذهبين نقديين:

الاتجاه النفسي الذي يتزعمه (عباس محمود العقاد).

والاتجاه الاجتماعي الذي يتزعمه (طه حسين).

والمشهد النقدي اللبناني حفي (بالرمزية) فيما يأتي أوزاع من النقاد العرب في مصر والشام والعراق تتنازعهم الاهتمامات. والشعراء في نجد يصيخون هذه الظواهر، ويأخذون ببعضها، والنقاد الواعون للمتغيرات يرصدون تلك التحولات، وابن إدريس بحسّه وعلميّته رصد تلك الظواهر، وتلمّسها في شعر الشعراء المدروسين، وما على المتابع إلا أن يتأمل إشاراته الخاطفة في تراجمه للشعراء الثلاثة والعشرين الذين قدّمهم واختار لهم، ليرى أنه عوّل كثيراً على معطيات الاتجاهات النفسية والاجتماعية والرمزية. فهو حين تتبدّى نزعة دلالية عند شاعر نجدي، يلوذ بالحالة النفسية أو بالوضع الاجتماعي، ويحيل إلى أحدهما، فعل ذلك مع (عبد الله الفيصل)، ومع (حمد الحجي)، ومع (صالح العثيمين)، وتلمّس رمزية (بودلير) عند (محمد عامر الرميح) و(المنصور) ولأن المشهد الأدبي في مصر يوغلُ في الحديث عن (الواقعية) بكل تنوعاتها، وهو قد شارف على النهاية من حديثه عن (الرومانسية) فإنك تراه يقبض طائفة من الشعراء ليلحقهم في حقل الواقعية، ويمارس الفعل ذاته مع (الرومانسيين) وحين تشغله الدلالة فإنها لا تلهيه عن الفنّيّات: الشكلية واللغوية، وله في الظاهرتين كلام مفتوح، أقرب إلى التنظير، وألصق بالرؤى العامة غير المحررة، وما من أحد ندب نفسه لقراءة الحركة النقدية في المملكة إلا وعوَّل على كتاب (شعراء نجد المعاصرون) فهو لم يكن للترجمة وحسب، ولم يكن اختياره للشاعر ولنماذجه المختارة عفوياً ولا عشوائياً. لقد كان واعياً للمهمة النقدية، ومدركاً لشرطه الفني والدلالي، ولهذا صرف نظره عن طائفة ممن يعدّهم الوسط النقدي شعراء، ترجم للشاعر (محمد بن عثيمين) ولكنه لم يترجم للشاعر (محمد بن بليهد)، وهو شاعر له ديوان مطبوع، وأقيمت من حوله وعليه دراسات قطعت بشاعريته، وكذلك فعل مع (سليمان بن سحمان) صاحب المطولات الذي دُرس أكاديمياً كذلك، وكان بإمكانه أن يلملم طائفة من قصائد العلامة (حمد الجاسر)، ويجعله شاعراً من شعراء نجد، غير أنه لم يفعل، وهو قد سبق في تحفظه على شعر المناسبات، وتعويله على شعر المواقف والقضايا، وضوابطه تلك أعطت كتابه قيمة فنية ودلالية، وأثارت من حوله زوبعة من النقد، وتخطت به وهاد الجمع والترجمة إلى نجاد الدراسة والتصنيف، ولفتت أنظار كبار الأدباء والنقاد إلى كتابه أمثال (العقاد) و(مندور). وكتاب ابن إدريس (شعراء نجد المعاصرون) له قيمة سياقية وتاريخية تحولان دون المساس بسائر القيم. وتحولات النقد وإمكانياته المعاصرة لا تمس الأعمال الرائدة بسوء، ولا تقلل من أثرها في مرحلتها، لقد أدت ضوابط التأليف عنده إلى إعادة التفكير بالمواقف والمثيرات والأغراض والمعاني، وهذا بحد ذاته مؤشر وعي للعملية الإبداعية والنقدية على حد سواء، وليس هناك من بأس حين نتقرى همومه وهو ينقّب عن الشعراء وشواهد الشعر عندهم أن نسوق مقولات تُجمل رؤيته، وقد تصل إلى الجملة المفتاح، كما يقول أحد الدارسين، فهو يقول

عن الشاعر (صالح بن عثيمين) (شاعر يقف على الأعراف) وعند حديثه عن (عبد الله الجهيمان) يمارس المراوغة الذكية، ويصف شعر (المنصور) (بالتشخيص الأسطوري) ويقول عن رمزية الشبل: بأنها الايحاء والإبهام والغموض، وليست رمزية مذهبية. وقد عاب على (العيسى) ذاتيته، كما أشار إلى علاقة العروض بالمشاعر عند دراسته (لأبي أحيمد) وتلك قضية لم تحسم بعد، ووصف شعر (الفيصل) بالعفوية وشبوب العاطفة والتصوّف، فيما وصف شعر (عبد الله العثيمين) بالسلاسة والعمق والاتساق، وقال عن شعر (الحجي): - إنه يمتاز بالرواء والتناسق. ومع وقوعه في الإطلاق والتعميم إلا أن مقولاته تلك مؤشرات إيجابية. ولو تعقبت أحكامه على شعر الشعراء لأتيت على كل المتداول من الأوصاف، وإطلاقاته ليست اعتباطية. وعندما نهض للترجمة والاختيار اشترط (التأثير والموسيقية والتصوير والتعبير والخيال والعذوبة والتدفق الشعوري وعمق الإحساس)، وتلك السمات التي وضعها كشرط أساسي، ألحق بها (البناء العضوي للقصيدة) و(الصياغة) و(الصورة الشعرية). وقد جعل كتابه في قسمين: قسم للدراسة، تناول فيه نشأة الشعر وتطوره، ومركز نجد في الشعر، ومكانتها في النهضة العربية، ورصدَ للشعر في تلك الحقبة، وتحدث عن الشعر المعاصر وعوامل تطوره، ثم ناقش الاتجاهات الشعرية. ومن تلك الرؤى انقدحت عندي فكرة (اتجاهات الشعر المعاصر في نجد) والتي تحولت إلى موضوع أكاديمي، نوقش وطُبع وأصبح كتاباً يقرؤه الناس، فيسخر به بعضهم ويعجب منه آخرون. وحين أنجز المؤلف قسم الدراسة، لم يكتف بالترجمة والاختيار، وإنما التمس لكل شاعر مذهباً أو خصوصية، فكان بذلك المترجم والمصنّف والناقد والمختار. بهذه الإلمامة العجلى تتبدى لنا ملامحه النقدية من خلال كتبه الثلاثة التي وعت ما رضي عنه من قول في الأدب يدخل به مشاهد النقد بالاتفاق أو بالتغليب، ثم يكون الاختلاف على أشده حول موقعه داخل المشهد.

وما السياحة إلا ما علمتم وذقتموا .. !(١)

ما من ذي عيال إلا وله يد سبقت، أو هي قائمة مع السياحة داخل البلاد أو خارجها. وله ذكريات عذاب وأخرى عذاب - بكسر العين وفتحها - وما من عائل يقدم أهله في رحلة السياحة إلا ويكون - شاء أم أبى - آلة للصرف، غير أنها تأكل الطعام، وتمشي في الأسواق. وليس له بعد إلا العناء، فيداه تلوبان جنبيه للاطمئنان على الأوراق والورق، خشية السرقة، وعيناه في المقدمة وفي الساقة خشية الضياع. وما من رب أسرة ركب موجة السياحة إلا ويعود مجهد القوى، خالي الوفاض. وأهله وحدهم المتمتعون السعداء.

ومع كل هذه المنغصات، فإنه يرقب بشوق مع أسرته العطلة الصيفية، ليمتطي متن الريح، أو يذرع فضاء الأرض، ليقضي تفثه، وليوفي بوعده لأسرته. وفي كل عام يختار مكاناً بكراً للسياحة، يتحسس عنه كأخوة يوسف، فعام داخل البلاد، وعام خارجها. ولكل مكان في الداخل أو في الخارج مؤلفاته ومنفراته. وما يقال عن مناطق السياحة في الداخل أو في الخارج لا يَصْدق منه إلا القليل: قدحاً كان أو مدحاً، إذ كل إنسان يمر بظروف مواتية أو متمنعة، قد لا يمر بها غيره، فيظن أن الناس على شاكلته.

وإذا كنا نود أن يكون سمننا في دقيقنا فإن من واجب هذا الدقيق أن يكون شهياً، بحيث لا يضيع فيه السمن.

والذين احتوتهم المصايف الداخلية، يشكون، ويطيلون الشكاية من أمور كان بالإمكان تلافيها. وإذا كنا نريد لمشاريعنا السياحية أن تظل في نمو وازدهار، فإن علينا أن نطرح المجاملة جانباً، وأن نوقف تبادل أنخاب الثناء، وأن نواجه أنفسنا بما هي عليه من نقص ممكن التلافي فالسياحة في بلادي كما هي في كثير من بلاد العالم مرهقة: جهداً ومالاً.

وبعض المناطق السياحية تمتلك أجواء ملائمة، ومناظر جميلة، وجبالاً وسفوحاً جذابة، غير أنها لم تعالج لتكون مجالاً للسياحة، كما أن طبيعة الناس لا تمتلك أسلوباً سياحياً. فالسياحة فن، وصناعة الخدمات المناسبة فن. السياحة شبكة من الاستجابات التي لا ينفصل بعضها عن بعض، ولا يغني بعضها عن بعض.

وليست المسألة قدرة مالية، فكم من كوخ تخفق الأرواح فيه أقدر على توفير السعادة من قصر منيف. ومهما حاولنا الإغماض لتمرير الأمور فإن المصلحة في المصارحة، والنجاح في الشفافية، والتوفيق في الثقة، فالبلد بلدنا، والمشاريع مشاريعنا، والثروة ثروتنا، وليست لأحد دون أحد.

وفي النهاية (ما للصلايب إلا أهلها)، ومن ظن أنه وحده الآمر الناهي، فقد وهم، ولن يصلح شأن السياحة إلا بسماع القول ونقيضه، وتبادل حسن الظن.

ومهمة المسؤول عن قطاع السياحة أن يتقصى الآراء والانطباعات والملاحظات والتطلعات من السائحين أنفسهم، وبخاصة الذين طافوا أنحاء الوطن العربي على الأقل، والوقوف على ما يتطلعون إليه، وما يشكون منه، فيما يتعلق بالمساكن والمطاعم والمنتزهات والتسوق والخدمات .. فالسائح بحاجة إلى خدمات متعددة، ذلك أنه يريد الخروج من رتابة الحياة ونمطيتها، وحاجته إلى أجواء مغايرة تماماً. ومع الإيمان التام بأن السفر نار، وليس قطعة منها - كما تقول عائشة رضي الله عنها - إلا أن الوسائل والطرق خففت من غلوائه. ولقد يمر السائح بمواقف لا تسعفه فيها الأموال ولا الوجاهات. يلقى ذلك في الطرق، أو في محطات الوقود، أو في المدن، أو في منافذ الحدود.

---

(١) تاريخ المقال: ١٧/ ٨/ ٢٠٠٤

وحين يقف بما معه من أموال، ثم لا يجد حاجته، يحس بأن الموقع غير مؤهل لكي يكون معبراً أو مستقراً. وما أزهق أرواح المشاريع إلا المجاملات.

ولما كانت الخدمات السياحية تجارة، فإنها رهينة العرض والطلب.

أقول قولي هذا لأنني شاهد من أهلها، مررت لا ريث ولا عجل بكل المواطن السياحة في (أبها) و(الباحة) و(الطائف) وبالمدن الساحلية ك(جدة) و(الشرقية) و(ينبع) وكانت لي إلمامات عجلى فيما سوى مصايف بلادي (سوريا) و(لبنان) و(مصر) و(تركيا) ولكل موقع مشاكله ونواقصه، ولكنها مشاكل ونواقص تختلف من موقع لآخر.

والمواطن الخليجي بالذات حين يخرج من دياره يُنظر إليه كصيد ثمين، يزهقه الجميع بأبصارهم، بوصفة خزانة نقود متنقلة، حسبما يتوهم كل مستسمن ذو ورم. وفترة السياحة كما الرياح حين تهب، يسعى لاغتنامها كل قائم أو قاعد، وكل أعباء الاغتنام على كاهل السائح المسكين، حتى إنه لا يستطيع أن يقف في مكان، أو يستظل تحت شجرة، أو يدخل دورة مياه إلا ويدفع الثمن. وفوق ذلك فإن الباعة المتجولين والمتسولين المتفننين ينغصون عليه خلوته.

لقد وقع الخيار هذا العام على (بلودان) الريف الدمشقي الجميل في مناظره وأجوائه ومطلاته واختلاف أشكاله وألوانه. وكنت قد ألممت به من قبل مع بعض الرفاق أكثر من مرة، وفي أعوام متفاوتة، وفي كل عام أحس بأنه يتقدم في توفير متطلبات السياحة، لقد تبدى لي أن الدولة توفر للسائح من التسهيلات ما يجعله لا يحس بوجود سلطة على الإطلاق، ولقد تصورت أن سيارة السائح كبقرة الهنود المقدسة، لقد فاض بالخليجيين، وازدحمت طرقاته، وامتلأت منتزهاته ومطاعمه وأسواقه ومساكنه، وأصبح الناس فيه كما لو كانوا في المشاعر، حركة دائبة، وازدحام مرهق، وتنافس على المساكن والمواقع، غير أن الأجواء السياحية، والهواء البارد، والمناظر الخلابة، والفواكه الطازجة تنسي السائح بعض ما يعانيه.

وفي (بلودان) تحس بالفرق بين صناعة السياحة وعفويتها، وفوق كل ذلك تجد نفسك في عوالم أخرى من حيث الأجواء والمناظر والفواكه والمطاعم.

لقد كادوا ينحتون من الجبال بيوتاً غير فارهة، ولكنها جميلة أخاذة، بدت من حولها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين من أشجار متدلية بالثمار، ومطلات غنية بالمناظر، فيما تركنا جبالنا في (الباحة) أو في (أبها) أو في (الطائف) مسرحاً للطيور ومرتعاً للقرود، لا يصلها ماء ولا كهرباء، ولا تخترقها خطوط، ولا تقوم بها أشجار مثمرة، واكتفينا بعمارة المدن. والسائح يهرب من رتابة المدن إلى عفوية الأرياف.

ولما كانت السياحة في الخارج لها سلبياتها وانعكاساتها الاقتصادية كان علينا أن نستبق الإغراء لا الإكراه، فالسائح يبحث عن شيء مغاير تماماً لما هو عليه، يريد أجواء غير أجوائه ومناظر غير مناظره.

لقد كنا مع هم بلادنا، وكنا الأحرص على تحريك أسواقنا، وتنشيط الحركة السياحية المحلية، وبعث الطمأنينة في نفوس رجال الأعمال الذين أنفقوا في سبيل السياحة الشيء الكثير، وإذا اضطررنا إلى السفر خارج البلاد، وتدفقت أموالنا، تذكرنا بلادنا، فأحسسنا بالتقصير في حقها، وإن كانت الجهود فيها مستوردة، والسلع مستوردة، وما نجنيه من السائح تلتقطه العمالة الوافدة ودول التصدير. وعندما نلح بالمطالبة ونسلط الضوء على السلبيات فإننا نريد أن تأخذ البلاد نصيبها، فهي الأولى بلحم ثورها، ومع المراجعة والمساءلة لن ننسى الإيجابيات، ولن ننكر التفاني في سبيل خلق أجواء سياحية منافسة، فكل المسؤولين في المناطق السياحية في المملكة يبذلون كل طاقاتهم، ويوظفون كل

إمكانياتهم، ويستغلون كل قادر من أثرياء وإعلاميين ومرافق عامة، ومن لم يشكر الناس لا يشكر الله، ولا يعرف الفضل لذويه إلا ذوو الفضل.

لقد بذلت المناطق: مسؤولون ورجال أعمال جهوداً استثنائية، وأنفقوا أموالاً طائلة، وأسهم القطاع الخاص بالشيء الكثير، ولن نحقق ما نريد برفض النقد، ولا بالخوف منه، فما عاد العصر عصر مجاملات، ولن نواجه تبعات (العولمة) الاقتصادية إلا بالشفافية والمكاشفة.

وكل مسؤول: كبيراً كان أو صغيراً من واجبه أن يبذل ما يستطيع من القول والفعل والرأي، فذلك واجبه، ومتى وضع يده أو فكره كان عليه احتمال النقد والمساءلة، ومتى قلنا بأن فلاناً من الناس فوق المساءلة والنقد، أتحنا أكثر من فرصة لمن لا يريد أن يعمل، ولا يرضيه إلا أن يحمد بما لم يفعل، وتلك لعمر الله أولى العوائق، وكل من حاول أن يخرج من دائرة المسؤولية عند المساءلة، وهو عنصر فاعل أو مثبط فيها، يحول دون تلافي الأخطاء قبل استفحالها.

وبلادنا جادة في الشأن السياحي، والهيئة تمارس أعمالها وفق خطط مدروسة، ومع هذا فهي وحدها لن تعمل، والسائح حين يثني، ويزكي، يسهم في التثبيط وفوات الفرص. لا بد من المواجهة، ولا بد من تلافي الأخطاء.

المناطق السياحية بحاجة إلى إعادة النظر، وبلادنا أولى بأبنائها وأموالها. والسائح يبحث عن الأجواء الملائمة والإنفاق المعقول. ورب الأسرة حين يختار بلاده، لا يقدر على حمل أسرته على القبول، ما لم يكن اختياره في مكانه، وحين يهرع السياح إلى خارج البلاد تصاب المناطق السياحية بالكساد، ومن ثم ينفض سامر القوم، وتعود حليمة إلى عادتها القديمة. وتصبح مشاريعنا وقتية، وكم جاء رهاننا على أشياء كثيرة، لم يكتب لها النجاح، مع أنه لم ينقصها الإخلاص ولا الإنفاق، ولكن ينقصها التخطيط والمتابعة والشفافية وقبول النقد.

لقد قلنا بأن الأسر تبحث عن الأجواء الملائمة لها، من حيث الحشمة والبعد عن أجواء الصخب، وإذ تكون الأجواء ملائمة، في (الزبداني) أو في (بلودان) أو في (مضايا) كما هي في بلادي، وإذا توفرت الحشمة هنا وهناك، كان لا بد من أن نحسب للتنافس حسابه، فالأجواء الطبيعية والاجتماعية ملائمة، كما أن الإنفاق المعقول في تلك المصايف يشكل عامل جذب. لكل هذا فالسياحة في بلادي تواجه منافسة غير متكافئة. ولا بد من دراسة ميدانية، تمكن الهيئة من تجميع كافة المعلومات عن إمكانيات المصايف المنافسة، والعمل على توفيرها. إن لدينا أجواء ملائمة في (الجنوب) قد تسد الذي يسده ما سواها، غير أنها بحاجة إلى لمسات فنية تفر، بالناس من قعر المدينة إلى قمم الجبال. ولعلي لا أكتم الأخوة في الهيئة حديثاً حين أقول لهم: إن المصدر الأدق والأوفى والأوثق هو (السائح) الذي طاف المصايف كلها، وعرف حلوها ومرها في الداخل وفي الخارج. والخطوة الإيجابية أن توضع (استمارة) للاستبيان على شكل مربعات أو أسئلة، توزع على كل سائح، عاد من خارج البلاد أو من داخلها، ويطلب منه تعبئتها بما يخدم المصلحة العامة، وبعد تجميع الاستبيانات تفرَّغ المعلومات، وتصنف الأشباه والنظائر، وتحلل، تمهيداً للخروج بتوصيات تخدم السياحة، وتحقق لها النماء. أما الاعتماد على ما يقال في الصحف من مجاملة كاذبة أو تحامل جائر، فذلك كلام استهلاكي لا قيمة له، ولا جدوى منه.

هناك من يذم، لأنه لم يوفق في رحلته، وهناك من يمدح لأنه وفق، وهناك الفضوليون المجاملون، وكل هؤلاء لا يؤخذ بقولهم.

والتأسيس السليم لا بد له من تقصي الواقع، وتصور المؤمل والخروج بتوصيات مقدور على تنفيذها، ليست مثالية عصية المنال ولا واقعية متدنية الخلال. والدولة حين اختارت التحولات المؤسساتية فإنها تتحامى الارتجال والحلول الوقتية، وذلك بالتوفر على المعلومات الدقيقة، والتصحيح المرحلي، وتطوير كل المرافق وفق خطط مدروسة. والهيئة العليا للسياحة مؤسسة يجب عليها أن تصيخ لكل كلام، فتأخذ بأحسنه، ولا تحسب النقد سليماً من شوائب الذاتية، فقد يصدق كله، وقد يكذب جله، والمسألة تتطلب تعاملاً مؤسساتياً يزن الأمور.

ولما كان السفر يسفر عن وجوه الرجال، فإنه في الوقت ذاته يسفر عن إمكانيات المواقع. وليس من المعقول أن نكون في غفلة عن هذا اللازم، وما كنا مخذلين ولا مزهدين بالسياحة الداخلية حين نثني على بعض جوانب السياحة الخارجية. ولو لم يكن من منغصات السياحة الخارجية إلا الوقوف الطويل على الحدود في الجيئة والذهاب، وتعدد الإجراءات وتعقيداتها، وكثرة الحيل لاستغلال المواطن العربي عامة والخليجي على وجه الخصوص، وهي حيل تؤذي السائح. فالمسافر وبخاصة من معه أسرته ووسيلة نقله مضطر إلى أن يلهث وراء الجمارك والجوازات والصرافين والتأمين للتسجيل هنا والصرف هناك.

فهو يخرج من طابور ليقف وراء آخر، وكل العيون ترقب ما في يده، ولا يستكمل مسوغات الدخول أو الخروج إلا بعشرات الأوراق والأختام، فإذا لفظته نقطة الخروج منهكاً متوتراً، استقبلته على مسافة أمتار نقطة الدخول، ليمارس العمل نفسه، وينفق الأموال عينها، ولكثرة الزحام والأختام والأوراق وتوتر أعصاب كل الأطراف من عابرين وموظفين، تفقد بعض الوثائق، أو تعطى لأصحابها دون استكمال، أو تعطى لغير أصحابها، حتى إذا ركب السائح دابته، ومضى أعيد من حيث أتى، ليأخذ دورتين، دورة لتصحيح الأخطاء، ودورة لاستكمال النقص. ولقد شهدت من هذا الشيء الكثير. وفي كل طابور لا يدري السائح ما الذي يراد منه، وما الذي يراد به، وهل يكفي دفع المطلوب؟ وما المطلوب؟ يقف وهو لا يدري لماذا وقف، ومن ثم فهو خائف يترقب، عين وراء أوراقه، ويد تنزف من جيبه، وفي خضم هذه الإجراءات فإنني محق وملزم بالثناء على إجراءات المنافذ الحدودية في المملكة، فالقادم لا ينزل من سيارته، بل يناول أوراقه ويتناولها، وهو راكب في سيارته. ولولا ما تعانيه المملكة من عمليات التهريب، لكان أن أصبحت الإجراءات أفضل ما يمر به الداخل أو الخارج.

تلك شهادة حق لا نرجو من ورائها جزاء ولا شكوراً. وكم أتمنى لو أن منافذ الحدود الأخرى تختصر الإجراءات، وتأخذ ما تريد من ضرائب مجموعة في إجراء واحد، بدل عدد من الإجراءات المرهقة، وبالإمكان جمع كل الضرائب في ورقة واحدة، وما قتل السائح إلا (البيروقراطية) المؤذية، إن المرور بأكثر من شباك والوقوف في أكثر من طابور مظهر من مظاهر التخلف.

إن السائح لا يضايقه إلا تعدد الإجراءات، ولا يرهقه إلا الوقوف الطويل في طوابير، يمكن أن تجمع معاً، وإذا كان القصد دعم الاقتصاد، فما الذي يمنع من تقديمه عن طريق (القنصلية) في بلد السائح.

ومع كل هذه الإجراءات الكتابية والأختام المتعددة ليست هناك دقة في التطبيق، ولا حفظ للحدود، فأصحاب الجوازات لا ينظر إليهم أحد، فقد يدخل رجل باسم امرأة، وقد يدخل رجل بدون جواز، وموظفو الحدود يحرصون على استكمال الإثباتات القيدية وحسب، وما سواها من أخطاء فادحة قد لا تعنيهم، وكم كنت أتمنى أن تخرج (جامعة الدول العربية) بإجراءات مرنة، ومفيدة، وبخاصة بعد توفر الأجهزة المعلوماتية، ووقوف

المواطن العربي الساعات الطوال لاستكمال إجراءات الدخول أو الخروج مؤذن بتعميق الكره والاشمئزاز، وقد لا يتوفر الداخل على الراحة المطلوبة التي تعوضه عن الأتعاب التي مر بها على الحدود.

وآخر دعوانا أن يمنح الله الهيئات التشريعية والتنفيذية في الوطن العربي آذاناً صاغية واعية، وأن تتسع الصدور لتقبل النقد، كما وسعها لاستقبال الثناء، فتلك الخطوة الأولى في سبيل الإصلاح.

مساكين أهل الأندية الأدبية .. !(1)

كنت في مطلع شبابي مغرماً بالحكايات الخرافية: حكايات الحبّ والغرام والبطولات الأسطورية، مثل (تودّد الجارية) و(سيرة بني هلال) و(عنترة بن شداد) كنت أقرؤها على السُّرج وفي العشيات، ولا أحتاج إلى نظارات، ولا إلى نصاعة أوراق، ولا إلى صفاء جو، وحين أقرؤها لا يخامرني شك في صدق أحداثها؛ ولهذا أحزن في مواقف الحزن، كما يحزن الأبطال حين يخفقون في معركة حبّ أو حرب، وأبتهج في مواطن السرور حين يظفرون بإحدى الحسنيين، لا أعرف (الرومانسية)، ولكنني غارق فيها إلى الأذقان، وكنت ألتقط بعض الأبيات وبعض العبارات، وأمارس الكتابة الركيكة الفارغة، متمحوراً حول المقتبس، ثم أبعث به إلى الصحف، فلا أجد اسمي ولا حتى في بريد القراء؛ فأتهم ذويها بالجهل والغطرسة. ومما علق في ذاكرتي، وهي ذاكرة (شهرزادية) مقروء الليل يمحوه النهار قول الشاعر:

مساكين أهل العشق حتى قبورهم

عليها تراب الذل بين المقابر

وأذكر أنني كنت أترنم بمثل هذه الأبيات، وأنا مستلق أعدّ النجوم بانتظار ما لا يأتي من النوم الهانئ الذي تذوده عني الحشرات التي تنق، والبعوض التي تطن، وهبوب النسمات التي تلفح، وكأن عليّ رصدين: ضوء الصبح والإظلام: القراءة المؤثرة والأحلام المزعجة. ومع تطاول الزمن فارقت ذلك كله؛ فما عادت هناك (رومانسية) حالمة بعد أدلجة الأدب وتسييسه، وبعد أن غمرتنا فيوض المترجمات، ولم يبق في الذاكرة إلا القليل، فلقد حفظت البيت والعبارة والمثل، أرددها، وأذكرها كلما مررت بحدث أو حديث، وها أنذا أذكر هذا البيت عندما أوغل الناقمون والفضوليون، ومن ما زالوا في مرحلة الطفولة الأدبية في جلد (الأندية الأدبية) ومن حولها من أعراب الأدب، كما جلد الذات العربية، لقد هبّ هذا البيت من مرقده في الذاكرة، ولكن بصيغة جديدة:

مساكين أهل الفن حتى كهوفهم

عليها تراب الذل بين الدوائر

وما تذكرت هذا البيت إلا من بعد ما تبين لي أن المتصدين ل(الأندية الأدبية) بعنف وتعميم ممّن لم يكونوا حاضري المشهد الأدبي، وحتى لو أعطوا مفاتيحها، وتلقوا راياتها، وخلا لهم الجو، فإنهم لن يبيضوا، ولن يصفروا، ولست أدري لماذا يكال هذا الذم للأندية ولمن هم قائمون عليها من علماء وأدباء ومفكرين، وما لهم من ذنب إلا أنهم حُمِّلوا الأمانة فحملوها على وجهها، ولو قيل لهم تخلوا عنها، لتولوا، وهم يجمحون. قد يكون البعض من العاملين في الأندية حرياً ببعض ما يقال عنه من تقصير، وقد يكون بعض الناقدين محقين فيما يفيضون به من نيل؛ لما يلاقيه بعضهم من تهميش لا يليق ممّن هم على رأس المسؤولية في الأندية. وأنا فيما أكتب لا أدافع عن أحد، ولا أبرئ أحداً، ولا أقول في مشروعية النقد؛ فكل ذلك لا مبرّر له؛ فالنقد مشروع وحق، وكلّ الأدباء خطاؤون: القائمون على الأندية، والمختلفون إليها، والمختلفون معها، والمتخلفون عنها، غير أني أستغرب التعميم في المؤاخذة، والمبالغة في النيل، والانتقال من الموضوعي إلى الشخصي؛ فالأندية كغيرها من المؤسسات لها وعليها، ومن يبرئها أو يبرئ نفسه، فهو

---

(1) تاريخ المقال: ٣١/ ٨/ ٢٠٠٤

كمن يجازف في نقدها ويعمّم، لا فرق بين هذا وذاك، وكلا طرفي قصد الموقف النقدي والموقف منه ذميم، ولمّا يكن الخلاف حول مطلق النقد، وإنما هو حول طرائقه وأساليبه وعدم احتشامه، كما أنه لا يكون حول التزكية أو الإدانة، وكيف تسوغ التبرئة، والنفوس كما في الذكر الحكيم أمّارة بالسوء إلا من رحم ربك؟ وكيف يحال بين المحقين والنقد؟ وكل أمور الحياة لا تستقيم إلا به، غير أن لكل شيء حداً؛ فلا تجوز الإطلاقات ولا التعميمات، ولا تجريد الأندية من كلّ مكرمة، وليست الأندية وحدها في هذا الهمّ، فكم من مسؤول ضُرب ضرب غرائب الإبل، وحزم حزم السلم، ولم يحر جواباً، بل احتسب الأجر على الله. والمؤلم أن أكثر الذين ينالون من الأندية لا يعرفون ما هي عليه، ولا يدركون ما تعانيه من شحّ في الموارد، وندرة في الكفاءات، وهبوط في المستويات، وعزوف عن المحاضرات والندوات والأمسيات. ومع أن المتصدّين لها يلحّون في النيل، ويحزون إلى العظم في التأنيب والتأديب، ولا يدعون فرصة تفوت إلا استغلوها للاستخفاف، لا للموعظة ولا للنصيحة؛ فإنهم لم يقدموا لها ما يجب عليهم، ولم يستفيدوا منها كما يجب لهم. والأصوليون يشترطون التصور قبل الحكم، والمخلصون الصادقون من يسائلون أنفسهم قبل مساءلة الآخرين؛ فالحقوق صنو الواجبات، فكيف يجيزون لأنفسهم الإيغال في الذم، وهم أبعد الناس عن الأندية، وأزهد الناس بها، وأبخل الناس عليها؟ وإذ تكون الأندية منهم وإليهم فإن عليهم أن يسألوا أنفسهم: كم مرة زاروها؟ وكم مرة التقوا بالمسؤولين عنها؟ وكم مرة حضروا فعالياتها؟ وكم مرة قرؤوا مطبوعاتها؟ وكم مرة كتبوا عنها بموضوعية وإنصاف؟ وكم مرة قدموا لها الآراء والمقترحات؟ وكم مرة استجابوا لدعواتها، أو حضروا بعض اجتماعاتها؟ إن لها عليهم حقوقاً ممطولة، ولهم عليها حقوقاً لم يتقدموا لأخذها. ومما يؤسف له أن طائفة من النقاد: إما أن تكون لهم مشاكل خاصة، أو أنهم شلليون. وبعض هؤلاء يكشفون عن شلليتهم بحيث ينالون ممن لا يتفق مع هواهم، علماً أن التعددية الفكرية والأدبية مطلب مهم للأندية. ومما أعرفه جيداً أن طائفة من المبتدئين يودّون أن تكون الأندية والعاملون فيها موطئي الأكناف لهم، ليتخذوا منها سلماً يصعدون عليها، وسبيلاً قاصداً يسلكونها للشهرة والحضور، يطلبون منها أن تقدمهم للمشاهد نقاداً متفوقين ومبدعين متألقين، على الرغم من أن بضاعتهم مزجاة، وإمكانياتهم محدودة، وحين لا تستجيب الأندية لرغباتهم الفجّة يوسعونها ذماً وتقريعاً، ولا يتحرجون من النيل الشخصي من ذويها، وإذا كان المسرفون في النقد صادقين مخلصين فإن عليهم أن يأتوا الأندية من أبوابها، وأن يضعوا العاملين فيها أمام أخطائهم، وأن يحملوهم على تلافيها، وليس محرماً عليهم أن يساعدوهم على تجاوزها؛ فمجرد الرغبة في الإدانة لا تغني ولا تقني. والمقتدرون على الكتابة يحملون أمانة الكلمة، وهي أمانة ثقيلة، وواجبهم الصدق والتحري والتثبت، ومعالجة التقصير بالتلميح لا بالتجريح، وبالتوضيح لا بالتوبيخ. ومن كانت بينه وبين أحد من المسؤولين في الأندية ثأرات أو خلافات شخصية فليتحاشَ إصابة مَن لا ذنب له، وليكن شجاعاً محترماً للمصداقية يقول عن دوافعه؛ فالأندية حق مشاع لكل مواطن، وليست حكراً على طائفة دون أخرى. لقد أحسست بالغثيان من تطاول مقيت قد يطال الأمانات والأخلاقيات والمواقف، ولم أجد أي مبرر لمثل ذلك النيل الشخصي؛ فالأندية مؤسسات ثقافية وطنية، تعكس قدرة المشاهد الأدبية والثقافية على العطاء، وحين يغل المقتدرون أيديهم تنكمش الأندية، وتعطي صورة سيئة عن المشاهد الأدبية في البلاد، والعاملون فيها ممن يحتاجون إلى الدعم والمساندة، متى بدا منهم تقصير غير مقصود، فليس ذلك مسوغاً للنيل منهم بأعيانهم، وممارسة التهكم والسخرية والافتراء. وما علم الناقمون والساخرون أن طائفة من رؤساء الأندية وأعضائها العاملين يتوفرون على المكانة والمادة والحضور الفاعل

خارج الأندية، وأن بقاءهم فيها تحقيق للمواطنة التي لا يريدون من ورائها جزاءً ولا شكوراً.

ومع كلّ ما سبق أعرف جيداً أن من أهل الأندية من يظن أنها من ممتلكاته؛ يفعل فيها ما يشاء، ولا يرى لأحد الحق في أن يسأله عما يفعل، وأن منا من يتصور نفسه فوق المساءلة والنقد؛ فهو لا يرى مشروعية الممارسة النقدية فضلاً عن صحتها ومعقوليتها، وأن منا من يباهي بما يجب عليه، ويدّعي الأولويات، ويحسب أن كلّ نقد موجّه إلى شخصه حسد من عند أنفس الناقدين، مما يحمله إلى مجاراة سيئة بمثلها، وبعض الردود الانفعالية من بعض المسؤولين عن الأندية تعمّق العداوة، وتزيد من حدة المناكفات، وحين تُبادل الأندية المسفين بإسفاف مثله تفقد ألقها وأهليتها ومكانتها، وما وجدت أفضل من المرور الكريم على كلّ تطاول لا مبرّر له، والقبول الحسن لكل مساءلة معقولة ونقد موضوعي بناء وتوجيه سديد. والناقدون الباحثون عن الحق يختلفون عن الناقمين الذين يتشفون بالتجريح، والعلماء الأصوليون يفرقون بين النصيحة والتعبير، والحاذقون الراصدون يعرفون المزايدين ومسجلي المواقف بسيماهم، وليس من مصلحة المشاهد كافة المزايدات وتسجيل المواقف. والمتصدون للأندية أوزاع؛ فأناس يطلبون تغيير العاملين جملة، وآخرون يطالبون بإلغاء الأندية وتحويلها إلى مؤسسات أخرى، وموتورون يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله؛ فيصبّون نقمتهم على من يعيش حضوراً في المحافل والمناسبات، وكأن ذلك سبة الدهر، وما هو إلا الحسد والعجز، وكل أولئك أو بعضهم لا يدرون ما الأندية وما الأدب. والحقيقة والحق يضيعان بين هذا وذاك، ولو أنهم إذ سمعوا أو رأوا ما يسوء حرروا القضايا، وحددوا أوجه النقص، وطالبوا بإزالتها، وساعدوا على ذلك، وقدموا النصح والمشورة لكان ذلك خيراً لهم وللأندية التي ينقصها الشيء الكثير، ولا يستقيم أمر النقد حتى يقف حيث تكون المشاكل، لا يستدعي الأشخاص على حساب القضايا، ولا يسبق التأنيب المحاسبة. ونحن بهذا لا نبرئ الأندية ولا الأنفس. الأندية بحاجة إلى تجديد لوائحها، والأندية بحاجة إلى دعمها بوجوه جديدة وطاقات شابة، والأندية بحاجة إلى آليات مرنة، ولجان متعددة، وأنشطة متنوعة، وإمكانيات قوية، ومقارّ مناسبة، ومكتبات شاملة، ومراكز معلومات، وشبكات اتصال، وخدمات معرفية، وتنظيم معارض ومؤتمرات، وتجسير الفجوات بين المشاهد العربية كافة. ولكن شيئاً من ذلك لن يتحقق بالتلاسن والتلاحي والمناكفات وتصفية العاملين فيها. الإشكالية ليست في العاملين، إنها في الإمكانيات والإجراءات. و(وزارة الثقافة والإعلام) استقبلت مسؤوليتها بالحلم والأناة، فلم تدع الأمور على ما هي عليه، ولم تغامر في التغيير، وإنما شكلت لجنة متنوعة التخصصات والاهتمامات، لتقديم تصور حضاري لما يجب أن تكون عليه الأندية، ولو أن الناقمين صبروا حتى تخرج التوصيات إليهم وتباشر الوزارة عملها الجاد - وفق ما تحصل عليه بعد الاستشارة والاستخارة - لكان ذلك أفضل من سلق الأندية وذويها بألسنة حداد. والراصدون للتصديات والتحديات يسوؤهم ما يمارسه بعض الكتبة من تجريح ذاتي متعمد ظاهره الحرص على المصلحة العامة، وباطنه خلاف شخصي لا يجوز نقله إلى الصحافة، على أن طوائف أخرى من الكتبة يمارسون رياضة الكلمة، أو يحترفونها؛ فهي عندهم عمل وظيفي، لا بدّ من موضوع مثير أو كبش فداء بريء، فعيونهم على ما يثبت أقدامهم في العمل الصحفي لا على ما يجب، فهم كالصعاليك يضعون أيديهم على ما يقع تحتها متمثلين ما يحل باليد لا ما هو حلال، لا يفكرون فيمن يقولون عنه، ولا يعنيهم في أي واد هلكت الأندية والقائمون عليها، وإنما يفكرون فيما يقولون من حيث استكماله ضوابط اللغة وشرط المقال الصحفي. ومن الكتبة من يحترف الإثارة لقصد الجذب والكسب، ولأن الإثارة لون من

ألوان الممارسة الصحفية المشروعة فإن لها قواعدها وأسلوبها، فليس كل إثارة محببة، وليس كل إثارة مجدية، وليس كل إثارة مقبولة، وحين تواجه الساخر المسف أو المثير التافه، لا يأسف على فعلته، وإنما يستعد لفعل مماثل، لأنه لا يخشى على مثمنات، ولا يحرص على مكتسبات. ومع أن الكذب ملتاث الحبال وقصيرها، إلا أنه كما الرصاصة الطائشة، إن لم تصب تشغل البال، وقديماً لم يستجب أحد الملوك لمن أنكر ما وصفه به شاعر هجاء بقصيدة: (مهلاً أبيت اللعن لا تأكل معه) بل قال:

قد قيل ما قيل إن صدقاً وإن كذباً

فما اعتذارك من قول إذ قيلا

وليست الأندية الأدبية وحدها التي تعاني من حملات التأنيب والتأليب؛ فكل من لاقيت يشكو من الكتبة المبتدئين والكتاب المتحاملين، حتى لقد كدت أقول: (ليت شعري هذه الصحافة لمن؟)، ومع أن التعدي بالسوية يعده البعض عدلاً في الرعية، إلا أننا نود من النقد أن يكون معقولاً منصفاً، يسعى جهده لإحقاق الحق دونما إساءة تمسّ الظاعن والمقيم والمحسن والمسيء. ونحن إذ نقول قولنا هذا، لا نريد الكف عن النقد الموضوعي؛ فالأندية والظواهر والقضايا كافة لا يؤصّلها، ولا يشيعها، ولا يحرّر مسائلها إلا النقد، ومن ضاق به فليس أهلاً لتحمل المسؤولية، ولكن يجب أن نفرق بين النقد الموضوعي والتجريح البذيء. وفي النهاية فإن الاختلاف حول ما يثار ليس له علاقة في مشروعية النقد، وإنما هو في طرائقه وأساليبه وأخلاقياته وحدوده ومجالاته، ومن ناقش حول المشروعية فقد ضلّ ضلالاً بعيداً، والأندية الأدبية مع كل ما تواجهه من حملات لمّا تزل تؤدي دورها المنشود، وتعيش حضوراً فاعلاً، يتمثل بالندوات والمحاضرات والأمسيات والمطبوعات وحضور المؤتمرات والمشاركة في المعارض وتهيئة المكتبات والقاعات، وجهدها جهد المقل ومشيها وئيد، ولكنها حاضرة المشهد، ومن أنكر ذلك فليس من الحق في شيء، ومن بالغ في الثناء كمن بالغ في الذم، ومن دافع بالادعاء والتشيع سقط من عيون الناس، ومن الخير لمشاهدنا كافة أن تزن الأمور، وأن تعرف ما لها وما عليها، ولكي أطمئن من نال مني شخصياً أقول له ما قال عاشق لمعشوقته:

هنيئاً مرئياً غير داء مخامر

لعزة من أعراضنا ما استحلت

لولا اشتعال النار.. ![١]

الأمير سلطان بن سلمان يرحب صدره بقدر الفضاء الكوني الذي ذرعه في رحلته التاريخية التي ما زلنا نرقب ذكرياتها، وهو فيما أعلم ك(العود) الذي لا يعرف طيبه إلا حين تشعل النار فيه:

لـــولا اشـــتعال النـــار فيمـــا جـــاورت
مـــا كـــان يعـــرف طيـــب عـــرف العـــود

وأمام رحابة الصدر وكمون العَرْف اقترفت الإثارة والالحاح، وقلت ما بي، والسياحة في بلدي مغامرة محفوفة بالمخاطر والمغامرات، لأنها ممنعة بخطام القيم والأعراف والاستغناء.

لقد سعدت بالرد الموضوعي الهادئ الذي كتبه سموه الكريم على مقالي عن السياحة، وسعدت أكثر بدعوته الكريمة للاطلاع على منجزات الهيئة، وما كنت أشك في عملها ومشاريعها ولكنني عشت واقعاً ما كان لي أن أدعه يمر دون مساءلة وأي منشأةٍ يدعمها الكتاب لا تعد شيئاً، وأي منشأةٍ لا تأنس بتضارب الآراء واختلاط الأصوات حولها ليست ذات بالٍ و(عباس محمود العقاد) حين قدّم لكتابه (عبقرية علي) أشار إلى أن من بوادر العظمة والعبقرية أن يختلف الناس حول الشخصية وما اختلف أحد بمثل اختلاف المفكرين والسياسيين والدارسين حول علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ويكفي أن طائفة أحبته فعبدته وأخرى كرهته فقتلته، وهذا (المتنبي) شغل الناس منذ أن سقط قتيل شعره حتى هذه اللحظة، وويل للسياسي والفنان والمسؤول الذي لا يلتفت إليه الناس ولا تناله الأقلام، ولا تتأصل المذاهب ولا تتكرس إلا بفعل الخصوم، فليطمئن سموه على ما قيل، وما أشار إليه سموه من إنجازات ليست بحال اختلاف، ولكننا قوم نؤمن بمبدأ (خذ وطالب) ومع أنه لا يعرف الفضل لذويه إلا ذوو الفضل فإنه لا مكان عندي لاجترار المنجز، وكيف لي أن اقنع بما تم واقترف جريرة التثبيط، فالذين يبادلون المسؤولين انحاب الثناء يضعون العصي في عجلاتهم ورغم كل ما حصل فإنني أثمّن جهد الهيئة وأثق بما تنطوي عليه وأحمد للجهات العليا الحرص على وضع الرجل المناسب في المكان المناسب كل ذلك أضمره، ولكنني أظل أطالب وألح في المطالبة وأوقد النار ليعرف طيب عرف العود، والهيئة بكل ما استعرضه سموه من إنجازات في رده تظل مجالاً للأخذ والرد، والسائح هو الشاهد العدل وبخاصة من تتاح له فرصة التنقل من مكان لآخر، ولقد طفت هذا الصيف في ست دول عربية سائحاً أو في مهمات وخبرت حلو السياحة ومرها، وأحسب أن أمرّها من لا تتوفر فيه متطلبات السياحة، ولسنا بحاجة إلى استعراضها، وحين يكون في النفس حاجة فإن في سموه فطانة.

أقول قولي هذا وأنا على يقين من أن الهيئة وعلى رأسها سموه الكريم قادرة على تحقيق الشيء الكثير وهي قد حققت أشياء ولكنها دون المؤمل:

و(شـــــبابٌ قُنّـــــع لا خيــــر فــــيهم
وبـــورك فـــي الشـــباب الطامحينـــا)

تحية إكبار وتقدير لرجل قدّر النقد قدره وواجه التّساؤلات بموضوعية ورحابة صدر، وكم نحن بحاجة إلى مسؤولين يقتدون به بحيث لا يثورون ولا يغالطون ولا

---

(١) تاريخ المقال: ١٦/ ٩/ ٢٠٠٤

يناصبون النقاد العداء، وهل هناك أعز عندي من الدعوة الشخصية التي وجهها لي سموه لزيارة الهيئة والوقوف على منجزها إنها الأصالة والأخلاقيات، ومع هذا فلن تدرأ الطيبة لذعات النقد فيما نستقبل من أيام.

يوم لا كالأيام .. ![(١)]

لست مع الصامتين، ولا مع الذين يقتصرون في مشاركتهم بالمناسبات الوطنية على التمجيد والثناء، وإن كان لوناً من ألوان الوفاء، و(اليوم الوطني) يمر بنا كل عام، وقد لا نتذكره إلا من خلال وسائل الإعلام، والناس في بلادي لم يتعودوا على لغة الشعارات وهتافات الانقلابات، وإن كان حقاً عليهم أن يلهجوا بالثناء والدعاء لمن أنجز لهم هذا الكيان السياسي وأحكم صنعه.

وإذا كانت الخطابات الثورية تحلم بوحدة شاملة وتَعِد بها ويدعيها من لا يفتأ يفرق شمل أهله فإن الملك عبد العزيز قد أنجز وحدة ماثلة للعيان دون أن يسبق ذلك بقول، وكأني به يردد: (ماترون لا ما تسمعون) لقد أنجز وحدة إقليمية وفكرية يَتَقرَّاها القاصي والداني.

ولو أن أبناءنا الذين ولدوا في أحضانها ولم يشهدوا مخاضاتها المؤلمة عرفوا أحوال أمتهم يوم أن كان الملك عبد العزيز شاباً يتوقد ذكاء وحماساً في ملجئه في الكويت، ويوم أن عاد خالي الوفاض إلا من مشروعية فعله وحسن سمعته لكان لهذا اليوم طعم ونكهة لا يماثلهما شيء، لقد قضى ثلاثة عقود في معركة البناء يمده الناس بالسلاح والمقاتلين ويلتفون من حوله لأنه جاء على قدر، ولما ان لملم أطراف البلاد ووحد كلمة الأمة خلع لامة الحرب ولبس بردة البناء، فكان اليوم الوطني هو اليوم الفاصل بين معركة التكوين ومعركة البناء ويوم يفرغ فيه الملك عبد العزيز ورجاله من مهمة شاقة ويتحرفون لمهمة أشق جدير بأن يقف الناس جميعاً لينظروا كيف أنجز هذا الكيان وما مراحل إنجازه، إنه يوم حقيق بالتذكر الإيجابي، ولن تتأتى الإيجابية إلا حين نسأل أنفسنا: ماذا صنعنا لهذا الوطن؟ وهل فرغنا لرد الجميل؟ لقد ظل وظننا يعطي ويعطي ونحن نرفل بحلل الأمن والرخاء.

وها هي الذكرى السعيدة تمر بنا والوطن يتعرض لاختراقات مؤذية بالسلاح والكلام، وكأن لسان حال البعض منا يقول لرجل الأمن ولحملة الأقلام الشرفاء: اذهبوا أنتم وحدكم وقاتلوا إننا ها هنا قاعدون.

أحسب أن هذا اليوم الاستثنائي يمر بظروف استثنائية ومن ثم فهو بحاجة إلى قراءة متأنية لتاريخ البلاد في أمسها يوم أن كان لا جيش ولا عتاد بل كانت عزمات مخلصة صادقة وإلى قراءة حذرة للأوضاع المحدقة بالأمة، والخروج بموقف موحَّد نضع فيه أيدينا مع بعضها. ينطلق الأستاذ إلى قاعته والعالم إلى منبره والإعلامي إلى محطته والصحفي إلى صحيفته والمفكر إلى صومعته لنقول كلمة واحدة: (العقيدة والوطن) منهما ننطلق وإليهما نعود لا نزايد ولا نقامر فهما وجهان لعملة واحدة فمن نال من أحدهما فقد نال من الآخر، وإذا كان آباؤنا قد وفوا للقائد الباني وأنجزوا معه هذا الكيان العظيم فلا أقل من أن نفي لقادتنا لنجتاز هذا المنعطف الخطير بأقل الخسائر وأيسر التكاليف وكل عام وأمة الإسلام بخير.

---

(١) تاريخ المقال: ٢٤/ ٩/ ٢٠٠٤

المثقف بين الحقوق والواجبات .. ! (١) [(١)]

كلما أوغلت الأمم في الماديات، وحقق علماؤها مزيداً من الاكتشافات في الآفاق وفي الأنفس، أعاد علماء (المعارف النظرية) قراءة مسلّماتهم. وثورة المعلومات والاتصالات هزت يقينيات كثيرة، وغيّرت ترتيب الأولويات، وشقّت عن معميات بطأ بها اختلاف المفاهيم واختلاط الأصوات. وإذا كانت المرجعية مترددة في مشروعية التفاعل المنضبط مع المستجد، كان احتمال تجاوزها ممكناً. والمؤسسة الدينية بوصفها المهيمنة إن لم تتمكن من تجديد مناهجها وآلياتها ومجال تناولها، أصبح من الصعوبة بمكان احتمالها لمواجهة المستجدات المتلاحقة. ولأن القرآن الكريم من عند الله، ومبلّغه لا ينطق عن الهوى، والكون كله خلق الله، فإن محكم التنزيل وصحيح السنة قادران على استيعاب النوازل. وما يتبادر إلى الأذهان من تفاوت فإنما مرده إلى عجز المتلقي، أو إلى خطأ التأويل. فالنوازل تتطلب مبادرة وقدرة، لاستنباط حكمها من النص الذي يحتمل أكثر من تأويل، ويستجيب لأكثر من نازلة، ويتسع لأكثر من رأي، وطبعي أن تجعل الثورة المتعددة المثيرات وضع المثقف معقّداً ومهمته عصيّة. ومهما حاول ترويض نفسه، وتطويع واقعه فإن الأمر جد عصي.

وكيف لا يكون وضعه عسيراً، وهو يعيش وسط متغيرات: اجتماعية واقتصادية وسياسية، ويعايش ثورة معلوماتية، ويغالب مذاهب وتيارات فكرية ودينية ذات مناهج متعددة، ومقاصد متنوعة، وتتنازعه (ايديولوجيات) متناقضة، الأمر الذي ضاعف مسؤولياته، وعقّد أوضاعه، ومما يصعّد إشكاليته أن الوضع المعاش وضع مضطرب، تسوده القوة، وتقمعه الغطرسة، ويثنيه عن عزماته الاستبداد، ويقعد به تسلط القوي على الضعيف من الأناسي والدول. حتى لقد لجت تلك الكوابح في عتو ونفور، لتضعه على مفترق طرق، بحيث لا يعْرف معها أين المفر. فيما لا تزال بعض الرؤى المستشرفة للمستقبل متعثرة بعقدة الأبوية وألوهية الهوى وذهاب كل معجب بما يرى. وفي ظل هذه الظروف فهي أحوج ما تكون إلى مطابخ مؤسساتية بما تملكه من مجسات ومسابير واستشارة واستخارة لكي تهدئ الروع، وتبعث الثقة، وتحْسم الفرقة، وتقر في الأذهان صائب الآراء وصحيح المفاهيم. وفي ظل هذا الواقع المأزوم نسلت مذاهب وتيارات، ونجمت على إثرها صحوة عقلية واعية، حفزت المؤسسة السياسية إلى التحرف الصادق لمواءمة المستجد. ولما كان المثقف أول الفاعلين، وأسرع المتأثرين، وأشد المأزومين بهذه التحولات: العلمية والسياسية والاجتماعية والفكرية والأدبية والثقافية، فإن مسؤوليته تزداد اتساعاً وتعقيداً، ورؤيته تشتد اضطراباً وتردداً، وليس من السهل القول في الحقوق والواجبات، دون سبر الأغوار ورصد الآفاق.

والحقوق والواجبات في ظل هذه المتغيرات تتبدل ويتبدل معها تراتب الأولويات. والقول فيها لا تتحقق معه الجدوى بالاستدعاء المجرد، بل لابد من إرجاع البصر والبصيرة في التليد والطريف، إذ لكل زمان خطابه. وما أضاع الفرص إلا الثبوتية والتكرار. ومع مشروعية القول في عموميات القضايا وكلياتها فإن المواءمة دأب العالمين ببواطن الأمور. ولا مراء في أن حفظ التوازن أولى خطوات التخطي. وما استعصى على قوم منال إذا أسسوا بنيانهم على القيم الحضارية اليقينية الثابتة، ووطؤوا لذلك بتحديد المطلوب، وتحرير المفهوم، والخلوص من غبش التصور واضطراب الرؤى. وما أوهى اللقاءات الحوارية إلا ذهاب كل متحدث بما يرى، دون إفساح المجال للآخرين. وأحسب

---

(١) تاريخ المقال: ٢٨/ ٩/ ٢٠٠٤

أن النفي والمصادرة والتهميش وواحدية الخطاب لا يتسع لها عصر المؤسسات والمجتمع المدني. والتعايش الواعي مع المستجدات: محلياً، وعربياً، وإسلامياً، وعالمياً، يكشف عن مسلّمات وثوابت ليست على شيء من المشروعية، ومع ذلك فإن المساس بها مدعاة لإثارة (الرأي العام) الذي تشكّل عفوياً على هذه القناعات، ولم يعد بالإمكان ممارسة التصحيح والإصلاح دون تحرّف حذر، يعتمد الحلم والأناة وطول النفس والتحول المرحلي.

ومن حق (الرأي العام) الذي تشكّل في ظل ظروف غير سوية، ألا يواجه بالحقائق عارية من المداراة والاتقاء واللين والتراخي. ولقد أشار الذكر الحكيم إلى نتائج اللين ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾، فسواء غفل المثقف عن (الرأي العام) في مراحل التشكل، أو أسهم في تشكيله الخاطئ فإن على النخب المثقفة بوصفهم دعاة مصلحين كفلاً من المسؤولية. وتنصل الخطاب السياسي أو الديني أو الثقافي من المسؤولية مؤذن بتسلل خطاب متربص، ينساب كالخدر، ليعمّق المأساة، ويعقّد الحل. و(الرأي العام) حقيقة ماثلة في كل المجتمعات: المدنية والبدائية. وإذ تكون كينونته تطورية، وليست انبثاقية، فإن مسؤولية المتحكمين في شأنه ألا يتصوروه إناء يفيض بالرؤى، وأن بالإمكان إفراغه الفوري من محتواه وملأه بالمراد. إن الجهد والوقت اللذين استغرقهما (الرأي العام) في تشكّله وأخذ وضعه مساويان للجهد والوقت اللذين يتطلبهما المصلحون لتحويل مساره، وتغيير تصوره، وتحديد مواقفه من الأشياء حين يتعلق الأمر بالمتغيرات السياسية بوصفها لحظية، مصلحية، وليست موقفية. حتى لقد عرّفها البعض بأنها:-

(فن الممكن) تكون مفاجآتها التحولية عقبة دون الاستيعاب والاستجابة الطوعية. وقدر المثقف المأزوم اختلاط الأصوات السياسية والفكرية والدينية والإسراف في (الأدلجة) والتسيس لكل المشاهد.

وحين نحاول استبيان (حقوق المثقف) و(دوره في التنمية) في ظل هذه الظروف، يجب أن ننظر أولاً إلى الحيز الأدائي الذي يشغله إلى جانب المؤثرات الأخرى المسهمة معه في تشكيل الوعي الجماهيري، كالمؤسسات: التربوية والإعلامية والدينية والمعلوماتية، بوصفها شخصيات اعتبارية متشكلة من منظومة بشرية متخصصة، تتوفر على قسط كبير من الثقافة، ومن لم يحسب لثورة المعلومات والاتصالات ما يليق بها أدركه الغرق في طوفانها.

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن، ونحن بصدد القول في (الحقوق) و(الواجبات) بوصف الدور المؤمل من المثقف في التنمية عين (الواجبات): مَن المثقف؟ ومَن الذي يملك تحديد الحقوق وتفعيلها وحمايتها؟ ما نوع التنمية التي يمكن أن يسهم المثقف في تفعيلها؟ أهي خطط التنمية المتداولة؟ أم هي تنمية معنوية، تتحقق معها ثقافة المجتمع المدني المتجه صوب التشكل المؤسساتي؟ وفي ظني أن إثارة التساؤل لتحفيز الانتباه غير كافية، بل لابد من التحديد والتحرير والتأصيل. تحديد المجال، وتحرير القضية، وتأصيل المعرفة. ولو مضينا في تقصي ذلك، لخضنا في بحر لجي من الاختلافات. ويكفي أن نشير إلى أن (الثقافة) مصطلح لم يعد جامعاً مانعاً، فما توصّل أحد بعد إلى تحديد مفهومه. وما أكثر المصطلحات السهلة الممتنعة، التي لا تبرح المعهودات الذهنية، يتصورها المهتم، ولا يقدر على تحديدها أو تفسيرها، وإن فعل فإنه كمن فسّر الماء بعد الجهد بالماء، ويأتي على شاكلة (الثقافة) (الحب) و(السعادة) و(الجمال) و(الشعر). واضطراب

المفاهيم لا يشكل عقبة في طريق المستدعين لمثل هذه المصطلحات. وليس مهماً التوصل إلى مفهوم دقيق محدد مادام أن المعهود الذهني كافٍ للإجابة على الأسئلة الأولية.

ومصطلحات (الحقوق) سواء كانت مضافة إلى (الإنسان) أو إلى (المرأة) أو إلى (المثقف) أو إلى (العمال) أصبحت لوثة ألسنة ومزلق أقلام. ولقد وسعت المجتمعات المدنية منظمات ومؤسسات وروابط ونقابات، تدافع عن حقوق الإنسان والحيوان. ولم تكن (حقوق المثقف) صارخة ولا فاقعة اللون كما هي في (حقوق الإنسان) و(حقوق المرأة) على سبيل المثال. وليس هناك ما يمنع من التفكير الجاد بالحقوق مضافة إلى أي فئة، فهي من متطلبات (المجتمع المدني) وليس بالإمكان التشكل المجتمعي بمعزل عن العالم، ولاسيما أنه بسبب المكتشفات وتطور (التقنية) أصبح قرية صغيرة متفاعلة. وخيارات التجانس والتعايش والتعاذر خيارات صعبة، لا تقل صعوبتها عن خيار التدابر والتنازع والتدافع والأثرة. إذ كل فعل له رد فعل مساو. وقانون التحول المجتمعي نافذ، شئنا أم أبينا، وأولى لنا أن نستشرف المستقبل، وأن نحدد الحقوق والواجبات لقادة الفكر وزعماء الإصلاح ورواد النهضة، مثلما نحددها للنساء والعمال والحيوانات، وما لم نستطع استبانة الطرق، تفرقت بنا بنياتها.

ومن الخير لنا أن نعي المراحل الحساسة، مراحل التحول الحتمي، فإذا تمنعنا عن الاستجابة أو ترددنا معتمدين على عقدة الأبوية فاتنا الركب. وإذا ترددنا معتمدين على اضطراب المفاهيم حول الثوابت والمتغيرات وحجم اليقينيات والقطعيات وقعنا في إشكالية التنازع. وإذا سهل انقيادنا للآخر الأقوى في مادياته وراهنه، ولم ننظر إلى مواقع إقدامنا دخلنا مرحلة المسخ والاضمحلال. إذاً فالمعادلة صعبة، والإقدام والإحجام يقتسمان الخطورة والأهمية. والرأي السديد لا يعتمد الثنائية الصارمة في مجالات الفكر، بحيث لا تكون هناك مناطق وسط. وعلى ضوء ذلك فليس هناك إقدام محمود على إطلاقه، ولا إحجام مذموم على إطلاقه، وإذ تكون هناك قطعية: ثبوتية ودلالية، تكون هناك ثوابت ويقينيات. والقواصم في تضارب المفاهيم حول الثوابت والمتغيرات، وقدرنا الحميد أن لنا حضارتنا بكل سموقها ونديتها وتأثيرها على سائر الحضارات وإرثها لكل ما سبق منها، وتجاربها الناجحة على كل المستويات. وفي ظل هذا القدر المقدور، فإن استقبال الآخر دون شعور بأحقية الكينونة المتميزة يعني الذوبان، وليس من لوازم ذلك إقصاء الآخر، أو الاستغناء عنه. ولو فعلنا ذلك لوقعنا بما وقع فيه (اليهود) من دعوى نقاء (العنصر) و(المعتقد)، وفي ذلك إخلال بمتطلبات (عالمية الإسلام) ومرونته وتفاعله.

ولأن المثقف يمثل شريحة متميزة وقليلة في المجتمع - أي مجتمع - كان لابد من مقاربة مفهوم (الثقافة) و(المثقف) وتبيّن دوره في الحياة كافة، وفي التنمية على وجه الخصوص، ولاسيما في زمن الخلطة الفكرية والتواصل الجبري عبر القنوات ومراكز المعلومات. والحقوق أي حقوق تكون عامة للإنسان بسبب آدميته، وللمسلم بسبب إسلاميته، وللمواطن بسبب مواطنته، وللمثقف بسبب ثقافته. و(حقوق المثقف) مجال الحديث هي تلك الحقوق التي لا يشاركه فيها غيره. فحق الحرية والمساواة وتكافؤ الفرص والأمن حقوق مشتركة لكل مواطن، وليست للمثقف وحده. وتكريم الإنسان، وتمكينه من تحقيق الخلافة في الأرض حق مشترك للمثقف ولغيره من الأناسي.

إذاً فالحقوق التي ينفرد بها (المثقف) دون غيره من شرائح المجتمع سواء استحقوها بالإنسانية أو بالإسلامية أو بالمواطنة أو بالفئوية أو بالنوعية تحتاج إلى تحديد وتوصيف. وكم نسمع بـ(حقوق المرأة) وهذه حقوق نوعية، ونسمع بـ(حقوق العمال) وهذه حقوق فئوية، ونسمع بـ(حق المسلم) على المسلم وحق الجار وذوي الرحم، وتلك حقوق إضافية. وهناك حقوق وضعية عارضة كـ(حقوق المسافر) و(المعوَّق)، وحقوق أخلاقية كـ(حق

الطريق). ولن نمضي في استقصاء أنواع الحقوق إلا بقدر ما يساعدنا على تحرر مصطلحاتنا ذات العلاقة.

ولعل أولى هذه الحقوق (الحرية) وهي وإن كانت حقاً عاماً إلا أنها ذات خصوصية في جانب المثقف. فالمثقف يحتاج إلى لون خاص من ألوان الحرية، لأنه يعالج الأفكار والآراء والتصورات، ويبدي رأيه في الثوابت والمتغيرات على كل الصعد، يفعل ذلك لأنه يرى أن مسؤوليته في أن يرسم للأمة طريق الخلاص، وهو بسبب ممارسته القولية واقع تحت طائلة سلطات متعددة: سلطة الدين، وسلطة المجتمع، وسلطة الدولة، ولكل سلطة حقها في مساءلة المثقف حين يواجه القضايا العامة أو الخاصة، وليس هناك أصعب من تحديد الحرية تحت طائلة السلطات الثلاث. وكثير من المثقفين يطلقون لأقلامهم وألسنتهم العنان، ويصرون على أن من حقهم أن يقولوا ما يشاؤون، متى شاؤوا، وفي أي قضية تعن لهم. وقليل منهم من يفهم الحرية على وجهها، ويتصور المجال بكل أبعاده وحدوده. وللمفكرين آراء متضاربة حول (مفهوم الحرية) ومقتضياته ومجالاته. ومن الخير للمثقف المسلم أن ينطلق من المفهوم الإسلامي للحرية، ذلك أن بعض الرؤى الغربية ترى أن سلوك الفرد حيال الآخر محكوم بالقانون الوضعي المتفق عليه، فيما يكون سلوكه حيال ذاته مطلقاً لا يحكمه قانون، ولا تحده قيم، ولا تضبطه أعراف، والرؤية الإسلامية لا ترى ما يراه الغرب. ولكل حضارة رؤيتها، ولا مشاحة مع الاصطلاح، وإذا كانت الطرق كلها تؤدي إلى المراد، فليس هناك ما يمنع من تعددها واحترام هذا التعدد.

المثقف بين الحقوق والواجبات .. ! (٢) [(١)]

ولما كان المثقف يشترك مع غيره من الأناسي بحق (الحرية) العامة، كان له مجال ينفرد به، وهو (حرية التعبير)، وإشكالية هذا الحق تضارب الآراء حول إمدائها ومجالاتها وحدودها. فالمثقف حين يتناول القضايا والظواهر والمذاهب بالكتابة أو بالخطابة، أو حين يبدي صفحته، ويشيع فحشه، أو حين يمس المقدس، ويهز اليقين ينازع المالكين لحق الأطر حقوقهم باسم الحرية دون استذكار ما للكافة من حسيات ومعنويات من حواضن ومرجعيات وأنساق وسياقات. بمعنى أنّ الحرية مخاض حضارة لا تدعها غير منضبطة، ولا غير مصطبغة. وكل مثقف فهم الحرية على غير مراد حضارة الانتماء يخل بمقتضيات (العقد الديني) المقابل ل(العقد الاجتماعي) كما هو عند (جان جاك رسُّو). إذ كل مجتمع له قوانينه، وهي في بداياتها مواضعات عفوية وأعراف توارثية، سلّمت لها العقلية الجمعية، ثم أصبحت شرطا للكينونة، ومؤشراً لوجود الحرية. ومهمة المثقف تشخيص المواضعات والأعراف والتمهيد للتغيير بالتوعية لا بالتسلط. والحياة السوية تقوم على نظامين: حسي ومعنوي. ف(الحسي) ثبوتي، عبّر عنه الوحي بالسنن الكونية التي لا تتبدل ولا تتحول، وهو نظام الكون الذي استمد منه العلم قوانينه ومكتشفاته، ومحاولات اختراقها بأيّ تصرف إخلال خطير بنظام الكون، لا يغير السنن، ولكنه يسيء التعامل معها، ولهذا جيء ب(أخلاقيات الطب) وضوابط (التلوث البيئي) فالنار والماء والطاقة نعم تتحول إلى نقم، إما بالتدبير الإلهي أو بالخطأ التعاملي. أما (المعنوي) فهو إما ثبوتي أو تحولي، واكب بدايات التجمع الإنساني. ومصدريته إما: تشريع وضعي أو تكليف رباني. ولن نمضي مع التفاصيل الدقيقة لحراك التشكل ومراحل التحول، وحق الإنسان في التدخل. ومن إشكاليات الحرية على مختلف مستوياتها ومرجعياتها، اختلاف الناس حول (المفهوم) و(المقتضى) و(المجال) و(الثابت) و(المتغير) و(حق الإنسان فيها): تشكلاً وتمثلاً.

والإغراق في التفاصيل الدقيقة للحرية وحق التدخل في الأنظمة وحدودها يفضي بنا إلى متاهات الجدل السوفسطائي. والحرية في ظل كل المفاهيم حق مشروع لكل الذين ولدتهم أمهاتهم أحراراً، ولا بد من كفالتها وحمايتها. و(الحرية) و(التسلط) و(الاستبداد) و(السلطة) المشروعة قيم سلوكية، تستوي بما تحتاجه من جهود وإجراءات ودعم. وفي الحديث: (كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها) فهناك (غدو) يرمز إلى الجهد، ومصيره إلى النجاة أو الهلاك، وهناك (عتق) وهو الحرية. ومثلما يُستعبد الإنسان من إنسان مثله، يُستعبد كذلك من قيم فكرية أو سلوكية. وليس هناك أخطر من تأليه الهوى، وفي القرآن الكريم ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ فلا حرية مع الأهواء، ولا توازن مع العواطف، ولا سلامة مع العنف. والمجتمع السوي من يحمي الحرية وييسرها للتمتع. والمهم أن تكون الأمة واعية تحسن استعمال الأشياء وفق مقتضياتها. وإذا قلنا بحق (الحرية التعبيرية) للمثقف وكفالتها، فإننا لا ننفك من النسق والسياق. فما النسق الثقافي والديني والاجتماعي والسياسي للمتمتع بحرية التعبير والتفكير؟. إن المتعقب للرؤى والتصورات يُريانه أن مفهوم الحرية أصبح إشكالية، تَضَخَّم معها التنظير، وضاق حيز الممارسة. والناس قد يتمتعون بقسط لا بأس به من الحرية، ولكنهم لا يشعرون بذلك، لأن عيونهم تعدو إلى حريات أوسع تقترب من هاوية الفوضوية، وهذا التفاوت يعد إشكالية

---

(١) تاريخ المقال: ٥/ ١٠/ ٢٠٠٤

أخرى، لم يحسمها المغرمون بالتنظير. وأسوأ شيء في المفاهيم الخلط بين حرية السلوك وحرية الفكر وحرية التعبير.

وأحسب أن كفالة الحرية لكل من هب ودب وقوع في العبودية، فكل شيء تجاوز حده ينقلب إلى ضده، وإظهار الدين يقوم على مبدأ الأطر على الحق والإذعان للسلطة الشرعية، ومن مات وليس في رقبته بيعة مات ميتة جاهلية، والمسلم مطالب بالمصير إلى جماعة المسلمين.

وليست الحرية أن يمكن المثقف من التعبير عن وجهة نظرة وحسب، وإنما هي في تحديد المجال ودرء الضرر اللاحق به من (الرأي العام) حين يعبر عن وجهة نظره، وتوفير الأجواء الملائمة للتفكير والتعبير، والعمل على تثمين جهده الفكري، وتعويضه عنه متى شحت موارده. فإذا كان للجهد العضلي ثمن، فإن الجهد الفكري أولى به، وإذا كنا نتيح للمثقف أن يقول، ثم لا ندرأ عنه ما يناله من الآخر، لا نكون وفيناه حقه، وحق الحرية الشمولي يفضي بنا إلى حق آخر لا تكتمل الحرية إلا به، ذلكم هو ضمان العيش الكريم للمثقف، وإذا كانت حرفة الأدب طريقا للعوز فإن من حق المثقف أن يتوفر على مستوى معيشي مناسب، لا يكون به طاعما كاسياً، يمنُّ عليه غيره. فرب عيش أخف منه الحمام. ولن يتوفر العيش الكريم حتى تحفظ حقوقه الفكرية، وتكون بمنزلة غيرها من الجهود، فـ(الرياضي) أو (المغني) و(الممثل) تتخطفهم وسائل الإعلام، ويتلقون أثمانا باهظة لجهودهم، بينما يظل المثقف يعطي ولا يأخذ، وهو فيما يقول عرضة للاتهام والمساءلة. ولكي يحصل المثقف على حقه، لا بد أن تتشبع ذهنيات المجتمع بالقيم الحضارية، لترى قيمة للكلمة: فكراً وإبداعاً، مثلما عُرفت القيمة (لقدم الرياضي)، و(أنامل الموسيقي)، و(حنجرة المغني)، و(جسم الممثل). إذاً هناك:

-ضمان الحرية.

-وتوفير الأجواء.

-ودرء الضرر.

-والتعويض.

وإذا ضاع جهد المثقف، ونيل من سمعته فقد ضاع معه المفهوم المحدد لحريته والمتعقب للمفكرين والفلاسفة والعلماء الشرعيين، ممن عنوا بأمر الحرية على كل مستوياتها وانتماءاتها، يجد أكثرهم مرتبطين بقواعد معارفهم ومقتضيات انتماءاتهم، على حد: (وما أنا إلا من غزية) وهذه الكينونة الفئوية لا يمكن معها تحرير مفهوم الحرية، لتكون مفهوما وإجراء متجانسين. وحين نقول بحق الحرية فإننا نستصحب الحدود والقيود التي لا تتحقق إلا بامتثالها. ومثلما اختلف الفقهاء حول مقتضيات (سد الذرائع) و(درء المفاسد) وقاعدة (دفع المضرة مقدم على جلب المصلحة) فقد اختلفوا حول حقيقة الحرية، وعلى كل التوقعات، وفي ظل كل المحاذير فإن طلاب الحق قادرون على تحرير مسائلهم، ومن أهمها مسألة (الحرية).

ولما كانت الحرية لا تتعارض مع قيم الحضارة، فإنّ على المثقف ألا يكتفي باحترامها، وإنما عليه أن يدعو إليها، وأن ينافح عنها، ومهما اختلف الناس حول أهمية القيم وتراتبها في منظومة الأولويات، فإن الاختلاف لا يعني مشروعية المواجهة ما دام أن هناك حواراً يسبق الصراع والصدام، والأخذ بالأيسر مطلب شرعي. ومتى تبين للمثقف وجه الصواب، وجب عليه أن يتحقق من إمكانية المتلقي وقدرته على النهوض بالمبادئ التي يطرقها، ومن أهم واجباته: أن يعرف ذاته ومدى قدرته على تلقي النوازل وطرح الحلول المناسبة، بحيث لا يقع في خطأ التقدير أو التوقيت، والمساس بما لا يجوز

المساس به، كالعزوف عما يجب التعاطي معه، وتقحم القضايا دون استعداد معرفي تجريبي يعرض المجتمع إلى الارتباك وينزع الثقة بالمثقف.

ومتى سقطت أهليته وهيبته أصبحت القابلية للصدام قائمة، ومن ثم يتحول الأداء إلى داء. فالواقعية والمثالية والوُسْع ممارسات وتكاليف متفاوتة في القدر والمشروعية والحظر. ومتى استطاع المثقف فقه الواقع وفهم القضايا وأدرك الأهمية تمكن من معالجة الأشياء بإجراءات مناسبة. ولن تتحقق التنمية المعرفية والفكرية وسائر متطلبات الحياة في ظل التعنت والشطط. ومتى تبدّى للمثقف اختلاف في وجهات النظر ومشروعية هذا الاختلاف، وجب عليه تحامي الاندفاع العاطفي، وترويض نفسه وتمكينها من الدخول على القضايا بروح عملية وعقل متزن. ذلك أن القضايا الخلافية لا تستدعي الحماس ولا التشنج العاطفي، وما أكثر الذين يفقدون أدوارهم بالاندفاعات غير المحسوبة أو بالمثاليات غير الممكنة. ونحن بهذا نضيف إلى الضمان والأجواء والدرء والتعويض (التوازن في الممارسة)، والتوازن لون من ألوان الرفق، وما دخل الرفق في شيء إلى زانه.

إن أثمن شيء تحققه السلطات المتعددة: سلطة الدين، وسلطة المجتمع، وسلطة الحكومة هو (حرية الفكر والعمل والتعبير) ولن تكون الحرية سليمة ما لم تنسجم مع تلك السلطات الثلاث، وما لم تعرف حقها في ضبط التصرف والتعبير.

ومتى اختلت العلاقة بين الحرية والسلطات الثلاث، استفحلت الفوضوية، وتقلصت الفضائل، وقام الاستبداد مقام العدل، والعاطفة مقام العقل، وتلك سمة سادسة تتمثل ب(الانسجام مع سلطات المجتمع)، وهنا نكون أمام:

-ضمان للحرية.
-وتوفير للأجواء.
-ودرء للضرر.
-وتعويض للجهود.
-وتوازن في الممارسة.
-وانسجام مع السلطات.

وليس شرطاً أن يكون الخلل من جانب السلطة، إذ ربما نفهم الحرية على غير مراد المشرِّع، فيكون المجتمع نفسه هو الذي يصنع العبودية، مثلما يصنع الفقراء الفقر. حتى لقد أدرك بعض المفكرين ما يسمى ب(قابلية الاستعمار). وقد تسلب الحرية بقوى خارجية، تفرض رؤيتها ومناهجها ومفهومها للحياة والسلوك والكون، والمثقف ليس بأقل أهمية من المحارب المدجج بالسلاح لمواجهة الغطرسة، ذلك أن حرب الكلمة أهم من حرب السلاح، وفي البدء كانت الكلمة: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾.

وإشكالية المثقف العربي فيما أشرب في قلبه من حب للثورة والتمرد، والخلط بين مفهوم السلطة والتسلط، ومن ثم لا يجد المتعة إلا بمقاومة السلطات الثلاث، متصورا أن وجودها مؤذن بغياب الحرية. فالخطاب المعاصر تتنازعه (ثورية) عنيفة تجر إلى الصدام أو (راديكالية) صاخبة تجر إلى الصراع أو (ليبرالية) منفلتة تجر إلى الفوضى والاستخفاف بالعهود والمواثيق. وجهل مقتضيات العهود والمواثيق ك(البيعة) مثلا تحمل الأطراف على تعطيل الحرية. وإذا تضخمت في الأذهان سلطة دون أخرى، غفل المعنيون عن سلطة المجتمع أو سلطة الدين أو سلطة السياسة. فالعادات والتقاليد والمسلمات والثوابت واليقينيات والمقدسات التي ما أنزل الله بها من سلطان تلح المجتمعات في تكريسها وتقديسها، وإذا انبرى مفكر أو مثقف لتصحيح المفاهيم، قمعته واحدة من تلك السلطات، وأخطرها سلطة المجتمع متى حدَّت من حرية التعبير، ومع

خطورة هذه السلطة إلا أن لها أدواراً إيجابية، فما كل خارج على سلطة المجتمع مسدد الرأي صائب القول، ولو أن المجتمع والمثقف أذعنا عند الاختلاف لحكومة الدين والعقل والمنطق والعهود والمواثيق والأنظمة، واطَّرحوا جميعا الوهم وعقدة الأبوية لكان أن وجد المثقف طريقاً قاصداً لتصحيح الأفكار والمفاهيم.

ولما كانت الدولة في إطار الإصلاح الشامل سباقة في بلورة (المجتمع المدني)، ولما كان تحققه لا يتأتى إلا من خلال التشكل المؤسساتي فإن جماعة المثقفين أولى بهذا التجمع، والفئات الثقافية في العالم المتحضر تعتمد (النقابات) و(الروابط) و(الاتحادات)، ولها تجاربها في التنظيم والهيكلة والتشكيل والوسائل الانتخابية.

ومن حق المثقف أن يجد ملاذا فئوياً، يوفر له أجواء ملائمة للطمأنينة على مستقبله، ويهيىء له العطاء المناسب لمجتمعه. ولن تتوفر الأجواء بالتفرق، واعتماد كل مثقف على جهده الشخصي، وإذا كانت يد الله مع الجماعة، فإن العيش الكريم والأمن بكل شعبه لن يتوفر شيء منه إلا بتشكيل كيانات قوية ترود، وتحمي، وتدعم، وتهيىء الأجواء، وتوفر الحياة الكريمة للمثقف ولأسرته. وإذا كانت هناك تطلعات إلى بدائل محدودة كـ(صندوق الأديب) أو (مشروع التأمين) أو (الضمان الاجتماعي) فإن مثل هذه البدائل لا توفر الأجواء الملائمة للعطاء، وإن تحقق من خلالها جانب لم تتحقق الجوانب الأخرى التي ربما تكون اكثر أهمية. وهذا الحق يدخل في الحماية والتعويض كسمتين أوليين للحرية السوية.

ولأن المثقف قد لا يستطيع إيصال صوته إلى شرائح المجتمع المتعددة، فإن من حقه أن تيسر له قنوات التوصيل، ليسهل تداول آرائه وأفكاره، وأحسب أن تلك مسؤولية المجتمع والسلطة. فإذا كان من واجبه المبادرة في قول الحق، فإن من حقه تسهيل الطرق، ليقول هذا الحق، وليصل هذا الصوت إلى أكبر عدد ممكن من شرائح المجتمع، وقنوات التوصيل، وبخاصة الاعلامية منها بعض سبل النفاذ إلى الآخر، ولكن الأهم من ذلك، إيجاد (دور النشر) القوية ودعمها، فصناعة الكتاب دخلت فضاء الدعاية والإعلان وحسن التسويق، ولم يعد إنجاز المادة وحده كافياً، بل لا بد من الإخراج والدعاية والتوصيل، ومعضلة المعضلات في الوسط الفكري والأدبي عملية التسويق. والأدباء والمفكرون لا يجدون من يطبع إنتاجهم، وإذا طبعوه على نفقتهم، كسد في أيديهم، وإذا تولت دور النشر الضعيفة طباعة الكتاب، فإنها لن تحسن الطباعة، ولن تتقن الاخراج، ولن توفر الدعاية، ولن تقدر على التسويق. وتلك عقبات تحول دون إيصال الآراء والأفكار. وفوق كل ذلك فإن مجرد الإصدار والتسويق وحدهما غير كافيين، بل لا بد من الاستحضار وإثارة الانتباه، ولا يتم ذلك إلا بالحركة النقدية التطبيقية التي تكشف عن الآراء وتصحح الأخطاء، وتثري الفكر بالتلاقح، والمشاهد تكاد تكون خاوية على عروشها، فالأدباء والمفكرون يفضون بما لديهم، ولكنهم لا يحسون بمستقبل متفاعل، وهذا الحق داخل بحق التعويض والتمكين والأجواء، وتحقيق الفاعلية عصي المنال ما لم يكن هناك إقدام ومبادرة مشتركة. والمجتمعات المتحضرة توفر لمثقفيها الأجواء الملائمة لتواصل العطاء. ومدار كل شيء على العلم قبل القول والعمل. لقد أطلت الحديث عن (الحرية): مفهوماً وممارسة، لأنها جماع الحقوق والواجبات. ومتى فهمت على حقيقتها، ومورست وفق مقتضياتها، بلغت السفينة شاطىء السلامة، وتحقق ما سواها من حقوق، ومتى دعونا إلى التحول المؤسساتي لتجميع الجهود وحفظ الحقوق وتفاعل الآراء كان علينا أن نضع كل الأهمية للتجمعات التي لا تكون سوية، وقد بدت بوادرها السيئة في تشكيل ذهنيات متشددة أو منحرفة، تنذر بخلل الوحدة الفكرية للأمة، وآخر دعوانا ألا نستخف

بالمخاضات، وألا نستهين ببوادر الخطابات، والمثقف خير من نندبه لمواجهة النوازل والملمات.

القمة العربية بين جدلية التأجيل وحتمية التفعيل .. !![1]

بعد مفاجأة التأجيل تقاطر الساسة والمفكرون والإعلاميون بمختلف أطيافهم، وتعدد مشاربهم، وتنوع انتماءاتهم من عُرْب ومن عجم على الخوض في الحديث عن القمة متوسلين ببعض العلم، ونادر المصداقية، وكل الفصول، ولم يغادروا من متردم، وما من آراء اشتطت كما هي حول تنازع المؤتمرين للتوصل إلى صيغة مقبولة لجدول الاعمال وبنود التوصيات. ولقد غفلت كبريات الصحف عن المؤتمر وارهاصاته، حتى اذا فوجئ الجميع بالتأجيل، حدَّقت الأبصار المزلقة، وهبت الصحافة العالمية، وانتفضت الفضائيات، وتحركت مراكز المعلومات، لاحتناك مألوف الشقاق بين الإخوة الأشقاء.

ومع تلاطم الآراء، فالمقول دون الفرضيات، وحين لا تكون للرؤى مرجعية: شخصية أو نصية تحسم الخلاف تتشعب اشكالياتها، ومتى لم تبلغ الآراء قطعية الدلالة والثبوت، يكون الجميع في حل من القول والسكوت، وكم ترددت في الحديث عن التحول من المؤتمرات التي لا تنفذ توصياتها إلى المؤتمرات التي لا تعقد جلساتها، فكل طرف يدّعي انه الأسلم في التوقف، والأحكم في التصرف، ولكيلا أعمّق الخلاف فسأصرف النظر عن تحديد المسؤولية، وكيف لا اصرفه والواعون يعرفون الموضعين في التخذيل، الساعين لإفشال المبادرات، المربكين لكل لقاء يعوّل عليه المقهورون تعويل الظماء على احتساء قراح الماء، ولسنا نبحث عن النجاة بقدر بحثنا عن توصيات متواضعة، تحفظ ماء الوجه، وتحق بعض الحق، بوصفه ضالة كل مخلص لمجمل القضايا: المحلية والعربية والإسلامية والعالمية. ومن المسلمات المغفول عنها عند المشاحة، تشابك مصالح العالم، وتداخل قضاياه، إذ كل فعل فج ينعكس أثره على المشاهد: الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والفكرية، وواجب قادة الفكر وسائر المؤسسات تحامي السلبيات والدعاوى الطوباوية، وما أضاع المثمنات إلا الهدهدة بمعسول الخطابات، ولما لم يكن بالإمكان تصفية الآخر، ولا إقصاؤه، ولا الإيثار على النفس، فلا أقل من تجافي الأثره، ولم يبق - والحالة تلك - إلا التعاذر والتعايش والاحتفاظ بأدنى حد من الحق والخصوصية، والدخول على القضايا برؤية متوازنة تحفظ الحقوق، ولا تسيء للجار الجنب ولا للصاحب بالجنب.

والإسلام الوسطي وجّه إلى العدل بمحكم التنزيل: - ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ و ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾، و ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ فالقسط والعدل مع الأقربين والأبعدين مقتضى إسلامي، والعدول عنهما وقوع في الظلم من القادرين، واستعداء للآخر من العاجزين، وما أكثر المجازفين في القول العاجزين عن درء التعديات.

والخطابات التهييجية والمزايدات الرخيصة واللعب بعواطف الدهماء تعودناها في ساقة المؤتمرات ومقدماتها، الأمر الذي يضطر ذوي الحلم والأناة إلى بذل أقصى الجهود لتفاديها: إما بالغياب، أو المغالبة، أو بالتمرير السلبي، وما أفقد القمم السابقة أهميتها إلا التعنّت، لكسب الرأي العام، والذين يعوّلون على المزايدة أو الاستفزاز لا يلوون على مثمنات، ولا يخشون عواقب الأمور، ولا يلتزمون بعهد، ولا يوفون بذمة، وهم في مزايداتهم واستفزازاتهم يخاتلون ذاكرة عربية مخروقة وغفلة معتقة. ولو أن الرأي العام يملك القدرة على الحفظ والاسترجاع، لكان أن أحبط اللعب وعرّى اللاعبين، وأصحاب المواقف المسؤولة لا يقبلون بالقرارات الحبرية التي تأخذ طريقها إلى رفوف الجامعة،

---

(١) تاريخ المقال: ٦/ ٤/ ٢٠٠٤

كأي قرارات فوق الإمكان، وما قتل الأحرار إلا معرفة الحق والعجز عن إدراكه ومعرفة المبطل والعجز عن مواجهته.

والتأجيل المفاجئ جاءت تداعياته في الشارع العربي متراوحة بين اللامبالاة، والمؤاخذة، والتبرير، والسخرية، واجترار ما سلف من قمم. لقد تداوله نقاد المنافي وحداد الألسنة وألدوا الخصام ومحترفو السياسة عبر آليات ومناهج ومقاصد متباينة، وأصحاب القضايا أكثر تخذيلاً. فالعراقيون قللوا الأهمية من الإمضاء أو الإلغاء، والشارع العراقي المنشق على نفسه جسد انشقاقه من خلال آرائه، فطائفة استدعت مواقف القمم السابقة من الشأن العراقي، ولم يكن الاستدعاء بريئاً، وإنما ارتبط بمواقف: ذاتية وحزبية وطائفية، ومن الصعب التعويل على شيء منها، لكونها وليدة انفعال تستدعيه الظروف السيئة التي يمر بها الشعب العراقي، وتماهى فلسطينيو: الشتات والداخل مع تشاؤم العراقيين، وتراوحت آراء من سواهم بين المثالية والواقعية والتفاؤل والتشاؤم، وبما أن القمة غير قادرة على اتخاذ موقف حاسم في الشأن العراقي فإن المواطن العراقي لا يجد بداً من النيل من المؤتمر في حال انعقاده أو تأجيله أو إلغائه. والشأن العراقي يشكل عقبة صعبة التطويع للمؤتمرين، كما القضية الفلسطينية، فما كان وليد ظرف طارئ، وإنما هو نتيجة تراكمات من الأخطاء والسلبيات على مدى ثلاثين عاماً، ولما لم يحسم شيء منها في حينه، فقد أصبحت فوق الطاقة، وتحميل قادة الأمة العربية للقضايا المستعصية فيه إجحاف، فالإنسان العراقي عليه كفل من ذلك، واللعب الكونية المحكمة الصنع على صانعيها ومنفذيها والضالعين والمدلسين كفل من ذلك، وإدانة الشاهد دون الغائب أبعد للتقوى، وعقلنة التصرف تستدعي تمحيص المواقف، وتحرير القضايا، وتحديد المسؤوليات.

ووسط طوفان الآراء والمواقف لا أجد غضاضة من إرجاء القمة، لمزيد من المراجعات والمشاورات، وتلافي نقاط الاختلاف، والبأس كل البأس ألا تعقد القمة، أو أن تعقد ثم لا تفعّل التوصيات، والخرّاصون يجعلون إصلاح الشأن العربي وتجديد هيكل الجامعة بؤرة التوتر، إضافة إلى الشأنين (العراقي) و(الفلسطيني)، والمهم هو الإسراع في اللقاء والوصول إلى صيغة مناسبة للإصلاح الشامل ومواجهة معقولة للأحداث الجسام، والمتسرب من مداولات وزراء الخارجية حول الشأن العراقي لا يعد محرجاً، ولا مسيئاً لأحد، فالمتوقع ان المؤتمر سيرحب بالدستور العراقي، ويستنكر استهداف المنشآت العراقية والإنسان العراقي، ثم ان الدول العربية مقتنعة بحتمية الإصلاح الشامل، وهي مقبلة عليه، ولكنها محكومة بخصوصيات وإمكانيات وأولويات وأنساق ثقافية واجتماعية ودينية لا يمكن معها تجانس الأداء ولا توافق الإيقاع، كما ان القادرين على دفع الضرر لن يسلموا لكل تطلعات التحالف حول صيغة (شرق أوسطي كبير) لما تنطوي عليها من تمكين جائر لإسرائيل وتفعيل سريع للعولمة وتعميم شامل للعلمنة.

ومما يرفع من درجة التوتر أن الناس ينظرون إلى المؤتمرين على أنهم قادرون على كل شيء، وأنهم أناس يختلفون عن سائر الأناسي، فكأن لهم عقولاً تختلف عن عقول العامة، وأفئدة تختلف عن أفئدة الخاصة، وأنهم يفعلون ما يقولون، ولا يُسألون عما يفعلون، وما علموا أنهم محكومون ب(استراتيجيات) عالمية، وأحلاف ثنائية، وظروف معقدة، وإمكانيات متواضعة، ولو أن العامة نظروا إلى كافة المسؤولين كما خلقهم الله، ما وهنوا، وما استكانوا، ولما استيأسوا من روح الله.

ولقد كنت من قبل أحسب ان كل مسؤول يأتي على قدر من مسؤولياته، وأن كل بطل يولد على صهوة جواده، حتى إذا تمكنت من المتابعة والرصد والتقويم والوقوف على دخائل الأمور، تبين لي أن منهم من يقول ما لا يفعل ويدعي مالا يقدر عليه، ومع تلاحق

الإحباطات يجيب ألا نيأس، وألا نبتئس، وألا نبخس الناس اشياءهم، فكم من رجل يعدل ألف رجل، وكم من مئة من الإبل لا تكاد تجد فيها راحلة، والشارع العربي معه بعض العذر، فالارتباك المعاش جاء من شدة الصدمة وتلاحق الإحباطات، ومن ثم راح الناس يتساءلون، ويلحون في التساؤل: هل قرار التأجيل جاء بإرادة عربية مدركة لتصرفها، مسبوقة بتنسيق مستعجل مع خاصة الخاصة، أم أنه جاء بالإكراه؟ المؤكد أن بوادر الفشل لاحت في الأفق في وقت مبكر، وكانت هناك تنبؤات لتعثر المؤتمر بسبب اعتذار بعض القادة من ذوي الوزن الثقيل، وأياً ما كان الأمر فإن إلغاء القمة أو تأجيلها لن يكون بدون أسباب جوهرية، وبدون ظروف ضاغطة لا يمكن احتمالها أو التغلب عليها، ولقد أحال المتنبئون إلى تخوفات (الرئيس الجزائري)، حيث وصف القمة بأنها تمر بحالة من الغموض المؤدي إلى تعثرها، ولم تشر هذه التخوفات إلى إلغائها أو تأجيلها، وإن أحيل التخوف إلى اعتذار البعض عن حضورها.

وإرهاصات الفشل تبدّت في الجلسة الأخيرة التي امتدت خمس ساعات وارتفعت فيها حدة التلاسن بين ثنائيات عربية، ولقد كانت نقاط الاختلاف المتداولة تمس قضايا حساسة مثل:

*الإصلاحات السياسية والدستورية والاجتماعية التي يلوح بها الغرب تمهيداً لشرق أوسطي كبير، تخترق فيه إسرائيل والعولمة والعلمنة اقتصاد العالم العربي ومؤسساته وثقافاته.

*تفعيل دور المرأة العربية في مختلف الحقول الإجرائية.

*قبول صيغة للديمقراطية المؤمركة.

*إعادة هيكلة الجامعة العربية بشكل يؤثر على السيادة الإقليمية.

على أن التفاعل مع الطرح الأمريكي يشكل حساسية مفرطة بسبب فجوات الاختلاف الواسعة، فمن (مرتمين) في الأحضان، إلى (متمنعين) مبقين على التواصل، إلى (متأبين) لكل طرح.

ومستويات الموافقة المطلقة، والوسطية المتوازنة، والرفض العنيف لكل الطرح الأمريكي ربما كانت من (محفزات) الفشل.

وفوق كل ذلك فقد لعب بعض المؤتمرين دوراً تحريضياً استفزازياً لتأزيم المواقف والحيلولة دون الوفاق، ومن يدري فكم تحت السواهي من دواهٍ والسياسة فن الممكن، كما أن بعض الوزراء المجهّزين للقمة لم يفسح لهم في الوقت لمزيد من التقريب بين وجهات النظر، فيما لم تستغل طائفة منهم القواسم المشتركة، حتى إذا ضاق عطنهم عن احتمال الاختلاف تمخض الموقف عن التأجيل، ولربما تصور المضيف إن اختلاف الوزراء سيحول دون تجهيز صيغة توفيقية لخروج القمة بتوصيات مناسبة، ولقد قيل بأن (الأجندة) الإقليمية والعربية شارفت على النهاية، واتجهت صوب الاتفاق أو التوفيق، ومن ثم جاء قرار التأجيل صدمة مذهلة للمؤتمرين أنفسهم، الذين لم يدر بخلد أحد منهم أن الأمر سيصل إلى هذا الحد.

ولربما كانت هناك أوراق عمل وفد بها أصحابها لم تكن في الحسبان حدت بالزعيم التونسي لاتخاذ قرار التأجيل، وهو قرار أسخط الناس جميعاً، وحمّل تونس كل التبعات، ومع كل ما سبق فإنه لا يمكن العدول عن مناقشة التأجيل بحكمة وروية، فالحكم المطلق عليه قد يعمق الإشكالية، وتونس دولة مضيفة، ومن حقها تفادي الصدام أو الفشل، ولعلها لم تر أفضل من الإرجاء لمزيد من الدراسات، فما عاد الشارع العربي يقبل بالتمييع أو بالتنابز، والتأجيل فيما أرى افضل بكثير من الصدامات والسلبيات، فما عدنا نحتمل المزيد من الأخطاء والمزيد من العجز عن مواجهة الظروف العصيبة.

ولتصعيد النيل قيل: بأن الزعيم التونسي انفرد باتخاذ القرار بناء على توصية من امريكا، ولاسيما أنه عائد منها قبل القمة، وقد تحال تلك المقولة إلى عقدة التآمر، والتآمر والغزو قائمان، ولكنهما ليسا بهذه العمومية، ويحول دون صدقية هذا التوقع - فيما أرى - إسراع الدول الأكثر وسطية والأكثر تفاهماً مع أمريكا إلى التعجيل بعقد القمة في أقرب فرصة، ولو أن امريكا وراء الإلغاء لكان أن مارست ضغوطاً مماثلة على الدول القوية والمؤثرة في المنطقة، ولو أن امريكا حريصة على الإصلاح السياسي والاجتماعي كما يشاع لكان تنفيذ المؤتمر تعجيلا للإصلاح الذي تريد.

وفي هذه الظروف العصيبة التي تداعت فيها أيدي الأكلة على قصعة الأمة يجب على المتابع السعودي، وقد هيأ الله له أجواء ملائمة لرصد التقلبات السياسية أن يمارس الحياد الإيجابي، بحيث يتقي التأثر السلبي بالمتغيرات المفاجئة، إذ كل من تمكن من الرصد السليم للتحولات السياسية والاجتماعية والاقتصادية يود أن بينه وبينها امداً بعيداً. وليس في الحياد الإيجابي إلغاء للذات والأثر والتحرف للأفضل، فما من عاقل رشيد إلا وعليه كفل من نوازل الأمة، وإن لم ينفر المقتدرون لسد الثغور وحماية المكتسبات فإنه سينزل بساحاتهم ما يقض مضاجعهم، والإحجام والإقدام إن لم يُقدّرا يزيدان في الارتكاس، ولأن الواقع العربي والعالمي بلغ من التعقيد والتوتر حداً لا مزيد عليه فإن على أهل الحل والعقد التريث في المواجهة والاستشارة والاستخارة والمقاربة الرفيقة، فما عاد بالإمكان احتمال مزيد من المغامرات، ومع أن التعنت الأمريكي والاعتداء الإسرائيلي لا يحتملان، إلا أن بالإمكان احتمال الأذى والصبر والمصابرة والمرابطة والانحناء للريح الهوجاء لتمر بسلام، ومؤتمر القمة وإن استجاب لكل (الأجندة) فإنه لن يخرج بقرارات مصيرية، ذلك أنه يواجه ب(الاستراتيجية) الإسرائيلية التي لا تطاق وبمقتضيات احتلال دول التحالف التي لا تحتمل، وبالضعف والهوان، وبالتردد العربي في تحقيق الإصلاحات السياسية كما يريدها الغرب.

وصفوة القول: إن الذين يحرّضون على تقحم المشاكل دون النظر في الظروف والملابسات والإمكانيات وعواقب الأمور، يعرّضون مكتسبات الأمة لمزيد من الضياع، والمثبّطون الوجلون السلبيون الذين لا يهتمون بأمور أمتهم، ولا ينهضون بمهماتهم على وجهها، يتركون ثنياتهم للمترصدين والمتربصين، والمستغربون أدلاء كما الأغربة، وما أضاع الأمة إلا المغامرون الذين ينكبُّون عن ذكر العواقب جانباً، وإلا الهيابون الوجلون الذين لا يزيدون أهلهم في ساعات العسرة إلا خبالا، وإذا كان للصعود في سلّم المجد ناموسه فإن للانحدار في درك الضعف اسبابه، وجهل النواميس والأسباب مؤذن بمزيد من الانكسارات.

هوامش على (ملتقى قراءة النص) .. !(١)

قد يجتالني شيطان الغرور، فأقول عن نفسي ما قاله المصاب بجنون العظمة: - ما حظٌّ من سفر إلا إلى السفر، فكأنه موكل بفضاء الأرض يذرعه. وأحسب أنه ليس مهماً متابعة المرء للأسفار، ولا تعدد المهمات التي يُندب لها، أو يُدعى إليها، ولا المناصب التي يتبوأ غرفها، وإنما المهم ما يتركه من أثر حسن في كل مهمة ينهض بها، أو موقع يحل به، قلّ ذلك أو كثر، وما أكثر الذين تكشف المسؤوليات سوءاتهم، وما أكثر الذين يطيلون الكلام، ثم لا يقولون شيئاً، وما أكثر الذين يطوفون ابتغاء النجاة من الهلاك فيهلكون كما (تأبط شراً)، وما أكثر الذين يقترفون إصدار الكتب التي لا تساوي المداد والورق، وما أكثر الذين يتمطون بتثاقل على أنهر الصحف ثم لا يقرؤهم إلا المجيز والمصحح والطابع، ومهما خبَّ الإنسان أو وضع، ومهما طار وارتفع، فإنه عائد إلى الارض التي انطلق منها، و(حق على الله أن لا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه)، حتى ولو كانت (العضباء) ناقة رسول الله ﷺ. و: -(ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع) فكل إنسان له حد ينتهي إليه، ولقد قالت الأعراب: -(ما رأيت علة كطول سلامة)، فالمعافى من الأمراض يرقبه على مشارف الطريق أرذل العمر، وساعتها لا يعلم من بعد علم شيئاً، والحكمة الربانية بادرت الأنبياء والرسل بالموت، وهم في أوج عطائهم، لئلا تتحول هيبتهم، وتختلط أقوالهم. والذين على شيء من أصول علم (الحديث) تمر بهم مصطلحات ك (الاختلاط) فالثقات حين تتقدم بهم السن، ثم يروون أحاديث في أرذل العمر، يتحفظ عليها أصحاب السنن والمسانيد والصحاح، لتكون دون الصحيح، مع أنهم فيما رووه في أشدهم يعد صحيحاً، ومن ثم يقال: - فلان ثقة فيما رواه قبل أن يختلط، وما دام أن كل إنسان سيرد هذا المورد، فإن على الكيِّس أن يعيد ترتيب أموره، قبل أن يقع في أوحال الشيخوخة، وبالذات (أهل الدثور)، ممن يرقب وارثهم عجزهم أو اختلاطهم، ليحجر عليهم، والحجر حبس، يكون فيه المالك مسلوب الحرية، لا يختلف عن نزلاء دار العجزة، تحدد وجباته ونفقاته، وما أكثر المسوّفين من المقتدرين ورجال الأعمال الذين إذا حضرتهم الشيخوخة قال مفرطهم: - ياليتني أرد فأتسلط على مالي أنفقه في سبيل الله، ولكنها كلمة هو قائلها، ومن ورائه ندامة (الكسعي).

لقد تداعت هذه الهواجس المخيفة يوم أن خالطت البعض في أشدهم، ثم رأيتهم بعد أمة على أعتاب الشيخوخة، فرأيت خلقاً آخر، وسبحان المغير الذي لا يتغير، ومتى تقدمت بالمرء السنون فإن حاله تختلف، وانطباعاته تختلف، ومواقفه تختلف، ورؤاه تختلف، والذين لقيتهم في خريف العمر، وهنت عظامهم، واشتعلت رؤوسهم شيباً، ينظرون إلى الحياة بعيون مودع، ومشاعر المودع تختلف عن مشاعر المستقبل، وكم كنا نستقبل صرخة المولود بالضحكات، ونودع أنين المحتضر بالتنهدات، وما من حي إلا وله موعد مع الأنين، فماذا أعددنا لهذه اللحظات الحرجة؟!

عفا الله عن (أبي عثمان الجاحظ) أمير البيان وشيخ الاعتزال، فلقد شوّق لي الاستطراد، وحبب لي تداعي الأفكار، وقذف في قلبي حب السبحات في آفاق المعرفة والتأمل في أحوال الناس من خلال تحولاتهم، فما عدت أستنكف من ذلك، وإن رآه المنهجيون إخلالاً في الخطة وخطوات الكتابة، ثم إن لهذه الموعظة الحسنة دواعيها.

لقد جئت إلى (جدة) بغرام غريق، وهوى لا يفيق وذكريات عذاب، جئتها وأنا غلام اذا هز القناة ثناها، وعدت اليها وانا على اعتاب الشيخوخة، والتقيت بإخوة وزملاء من

---

(١) تاريخ المقال: ١٣/ ٤/ ٢٠٠٤

مفكرين وأدباء وإعلاميين، يحمل كل واحد منهم هموماً أدبية وفكرية، جئت مشاركاً في (ملتقى قراءة النص الرابع) وكنت قد جئت في (الملتقى الأول) قبل خمس عشرة سنة أو تزيد، وكنت إذ ذاك مجادلاً لا تغمز لي قناة، ولا يعزني مخاصم بالخطاب، أما اليوم فكنت متسامحاً، لا أكلم الناس إلا رمزاً، مما جعل البعض يظن ذلك تراجعاً في الموقف من الحداثة أو مداهنة للحداثيين، وما عرفوا أن للزمان حكمه، وللتجارب احكامها. وعلى هامش (الملتقى الرابع) تعددت المناسبات، حتى كادت تطغى الهوامش على المتن. هذه الهوامش ذكرتنا بالأيام الخالية، أيام الشباب، فعلى هامش الملتقى دُعي المشاركون إلى لقاء الإعلاميين في منزل الاستاذ (عبد المقصود خوجة)، وهو من هو في كرمه وطيب معشره ومشاطرته. وصالونه العامر بسديد القول، وصفوة القوم، وتنوع الأطياف، وتفاوت الأعمار من أعرق الصوالين وأجداها، مع ما بشر به رواد صالونه من نقلة نوعية، تتمثل بتحويله إلى مؤسسة مستقلة، لها دخلها الثابت وأعضاؤها الأخيار، وهذا اللقاء الممتع جمعنا برجال الإعلام المتقاعدين والعاملين والمتعاونين الذين تقاطروا على المنصة ليحدثونا عن ذكريات خُضر وأُخر يابسات. في هذا المساء رأيت فعل الزمن وكر الجديدين، نظارات مقعّرة، وعصي تحنى عليها الاصابع، وظهور محدودبة، وخطوات متقاصرة، وأصوات خافتة مبحوحة، وأطراف مرتعشة، وكم كانوا من قبل يملؤون الرحب بأصواتهم الجميلة وكلماتهم العذبة، نسمعهم من الإذاعة، ولا نراهم، ونتصور أن تلك الأصوات الندية تهبط علينا من السماء، كما الطل على جنان الروابي. كان ذلك يوم أن كانت الاذاعة سيدة الموقف، لا تزاحمها قنوات، ولا تهمّشها مواقع، ولا ثورة اتصالات.

وكيف يتصور طفل مثلي مذيعاً يتحدث من جهاز صغير، لا يقدر على امتلاكه، ولا على حرية استماعه، فلقد كانت حيازة (الراديو) من الموبقات، حتى لقد كنت أعرك اذني حين استمع إلى المذيع، لكيلا يعلق بها وضر الاثام، تشكلت صورة أولئك في ظل هذه الظروف، فكانوا في تصورنا كالغول، أو كالعنقاء، أو كالخِل الوفي، و(الخوجه) اعتاد على تكريم الصفوة، ولقد طالتني أفضاله حين كرمني يوم ١٤-٧-١٤١٤هـ أي قبل عشر سنوات.

وفي هذه السهرة الممتعة في ساحات قصره، كرّم رمزاً من رموز الإعلام، عرفناه من قبل ومن بعد ب(بابا عباس) إنه الاذاعي والدبلوماسي والقانوني (عباس فائق غزاوي) بكل ما يحمله من وقار العلم، وحكمة التجارب، وإشراقات (الدبلوماسية)، ومن حوله عشرات الإعلاميين العاملين والمتعاونين والمتقاعدين.

لقد كانت ليلة متحفية أخرجت الارض أثقالها من رجال الكلمة المسموعة الذين جفوناهم في وقت هم احوج ما يكونون إلى الذكر والتكريم. وكنا قد قضينا ليلة سلفت كُرِّم فيها الشاعر الفذ (إبراهيم العواجي) حضرها صفوة الادباء والنقاد، فكان أن جمعت السهرتان خيار الادباء وعمالقة الاعلاميين يتحدثون عن اخبارهم، وكأنها اساطير الاولين اكتتبوها أو امليت عليهم، وحين بدأ حديث الذكريات في ليلة الاعلاميين، عدت إلى طفولتي، وأحسست أنني اعدو في الفيافي والقفار، وأسبق ظلي، تذكرت الأموات، وتعرفت على الأحياء، تذكرت (عبد الله بالخير) و(الزمخشري) و(يونس) و(الذيابي) و(الشعلان)، ولقيت (كريم، وصبحي، ونجار، والعسكري) وعشرات آخرين، وتقت إلى لقاء (العيسى، والشبيلي، والشبل، وغالب)، وذكروني بالمتعاقبين على الوزارة، ممن تليت كلماتهم بالإنابة، ذكروني بمعالي الشيخ (إبراهيم العنقري) بكل رزانته وبعد نظره، وبمعالي الأستاذ (علي الشاعر) بكل حزمه وانضباطه، وبمعالي الدكتور(محمد عبده يماني)

المتألق بحضوره الفاعل، وبمعالي الأستاذ (جميل الحجيلان) الذي أجمع المؤتمرون على سمو أخلاقه وبراعة قيادته، وبمعالي الدكتور (فؤاد الفارسي) بتفتحه وتفاعله.

لقد كان (ملتقى قراءة النص) مناسبة طيبة جمعتنا برجال الفكر والأدب والإعلام، وجاءت على هامشه أشياء لا تقل أهمية عما دار في الجلسات من قراءات ومناقشات، ومع ما أحس به من سعادة بهذه المناسبة، فقد استأت من عزوف الكثير من الادباء وانشغال كبرائهم عن الحضور الفاعل، وضقت ذرعاً ببعض مداخلات وتعليقات توازعتها جلسات الملتقى وصفحات الصحف، ولست ببعيد عن مثل هذه اللقاءات وتلك المناكفات، فلقد حضرت (الملتقى الأول) الذي يشيد به من لم يشهده، وحضرت (الملتقى الرابع) الذي يسخر به من لم يشهده أيضاً، وسمعت لغطاً فارغاً وتحاملاً مشيناً، فـ(الملتقى الأول) كما يقول بعض المجازفين في الاحكام: حفل بأساطين الفكر والادب، فيما جاء (الملتقى الرابع) هزيلاً يمثل الانكسار، وهكذا تتحكم المذهبية المنغلقة على نفسها في أهواء البعض، ولست معنياً بتزكية الملتقى، ولا بالدفاع عن المشاركين، فما من عمل ولا عامل إلا وله نصيب من التألق، وعليه كفل من الاخفاق، وكل الذي يهمني احترام المصداقية، والتخلي عن الشللية، ولزوم النقد الموضوعي البناء.

ذلك أن تعميم الاحكام يصيب أقواماً بجهالة، فالملتقى حفل بأساتذة وأدباء وباحثين، اصاب من اصاب، وأخطأ من أخطأ، وهم احوج إلى من يفكك بحوثهم، ويوقفهم على مواطن النقص والتقصير.

أما الحكم على فشل الملتقى، وتعميم سمة الضعف على كل الأوراق، والتقصير من كل المشاركين والسخرية بهم، فأمر لا يقبل به أحد، وهو مؤشر فشل ذريع وتصوح معرفي.

وحين تكون الشنشنات معروفة ومتوقعة لا تزيد المسهم المتفاني والمتابع الجاد إلا ثقة بالنفس .. ورئيس النادي وأعضاؤه الذين لم يجدوا ما يحملون الملتقى عليه إلا أن يقترضوا مؤنة الملتقى، ولما يقصروا في تحمل تبعات الاستقبال والتوديع والتنظيم، جديرون بأن يقال لهم: أحسنتم لأنفسكم ولمشهدكم الأدبي، واذا نقم البعض من ضعف الاوراق، وعدم جدية بعض المشاركين، فليس من اللائق الاطلاق، وليس من ادبيات الحوار نسف كل الجهود، ولو أني عنيت وحدي بشيء من الملام، لآثرت الصمت، وما ضقت من همزات ولمزات سمعتها تتكرر من ثلاثين سنة، كاتهام ورقتي بالإقصاء والمصادرة ونفي الآخر، ولو أن القائل تواضع، وتغلب على هواه، وقرأ الورقة، أو تلطف واستمع بأذن واعية، لكان أن هدي إلى مواطن النقص واهداها إلينا، فهي ضالتنا وحاجتنا.

وعيب مشاهدنا أنها أوزاع، تعرف ما سيقوله كل فريق، فكل واحد رضي برمجة نفسه، ليكون كآلة التسجيل تغمزه فيقول ما استودع من قبل، حتى في تجمعهم داخل القاعات أو خارجها، يأوي بعضهم إلى بعض، يكثرون لمشايعة من يهوون، وإن كان أعيا من (باقل)، وينفضّون من حول من لا تهوى أنفسهم، وإن كان أفصح من (سحبان وائل)، ولأنني لست منتظراً من يثبت أقدامي بمنافحته، ولا خائفاً ممن يزلقني ببصره فإنني مستاء للمشهد الادبي، متألم من استفحال الشللية، فزع من جور الاحكام، حتى لقد قال أحدهم: - إن فشل (الملتقى الرابع) بسبب غياب عضو من أعضاء النادي، وكأن الساعة آتية إن لم يعد هذا العضو لإيقاف عجلة التدهور، وما هذا القول إلا مؤشر على تصوح المشهد الادبي. واذا كنا نتحفظ على بعض الأوراق، ونستاء من بعض المتحدثين فإن ذلك لا يستدعي أن نقول: - (ردة ولا أبا بكر لها)، ولقاء مثل هذا يحتاج إلى حضور، يستمع إلى القول، وينقب عما في الاوراق من تقصير في المادة أو خلل في المنهج، ثم لا يجد

حرجاً من محاورة المنتدين، وأيُّ منتدى كهذا، يحتاج إلى صحافة يقرؤ مناديبها الاوراق، ويقدمون ملخصات لها، والى متابعة اخبارية، لا تبخس المؤسسات الثقافية اشياءها، والمؤسف ان الملاحق الادبية في صحفنا، محرمة على بلابلها، حلال للطير من كل جنس، وفي ذلك انهزام وتقصير، واذا كنا نحتفى بالآخر، ونفسح له في صحافتنا، فإن من حقنا أن نحصل على مساحات مماثلة في ملاحقهم، وكم اشفقت على مساكين من ادبائنا، يعرضون انفسهم على من ينظرون اليهم باحتقار، ولو أنهم صانوا كرامتهم، لكانوا أنداداً، يفترسون حقهم، ولا يستجدونه.

ولقد شاهدت مواقف مخجلة في مؤتمرات حضرتها في الداخل والخارج، تتمثل في تهافت شبابنا وبعض كهولنا على أصنام لا تحمل طهر الصنم- كما يقول أبو ريشة -.

والذين مجدوا (الملتقى الأول) ونالوا من (الملتقى الرابع) أحالوا المكارم إلى فلول الحداثة الفكرية، ممن جيء بهم من خارج البلاد، يوم أن كانت الحداثة على أشدها، أمثال (كمال أبو ديب) و(جابر عصفور)، حتى لقد ذكرهم الناقمون من الملتقى بأسمائهم، وكأن ليس في بني عمهم رماح، وإذا كنت ممن حضر الملتقى الأول، ونافح عن قيم التراث، فإنني مشمول بكرم المشيدين به، مع أنهم القوم الذين يشقى بهم جليسهم، لقد ضاقوا بي ذرعاً، غير أنني مع هذا لا أعبأ بثناء القصد، فضلاًً عن ثناء الشمول، وحاجتي فيمن يمحضني النصح، لا فيمن يستدرجني بالمدح. لقد جاء (الملتقي الأول) في عنفوان الحداثة، وقدمت فيه ورقة تغيظ الحداثيين، حيث أبنت فيها عن ملامح الموروث في النقد الحديث، حتى لقد سخر قوم، واستاء آخرون، ونقبت طائفة منهم في تلافيف الورقة بحثاً عن أخطاء في المنهج أو نقص في المعلومات، ولم أستنكف من مراجعة ورقتي، ولا من قبول الحق، لأنه ضالتي، وقدمت في (الملتقى الرابع) ورقة عن (قصيدة النثر) وقطعت بعدم شعريتها، غير أن مداخلات البعض لم تحفزني على المراجعة، لأنها أحكام جاهزة مهترئة من الاجترار، والورقة مطروحة بمادتها ومنهجها وموقفها، وهي أحوج ما تكون إلى ناقد مقتدر، يصدع بالحق، ليقول فيها ما يسد خلالها، وليست بحاجة إلى هجاء مفحش، ولا إلى مدَّاح مداج.

ومع كل ما سلف فإنني مشفق على كل الذين حاولوا وضع العصي في عجلات المؤسسات الفاعلة، متمنياً أن يقولوا عن فعالياتها الحق، وأن يمارسوا النقد الموضوعي الذي ينفي عن مشاهدنا ما علق فيها من سلبيات ما كان لها أن تظل معوقاً لمسيرتنا المباركة.

قول في لغة القول .. ! [(١)]

-أذكر أنني قبل سنوات عبرت أحد ممرات الجامعة راجلاً في طريقي إلى قاعة الامتحانات للمراقبة، فشاهدت على جنباتها أكداساً من مذكرات الطلبة مطروحة في الطريق، ولما أن استهواني عنوان مذكرة في خمس ورقات عن (تنمية اللغة)، استعرضت مقاطعها على عجل، ثم نبذتها حيث تركها صاحبها، وتبدى لها أنها محفزة للمطلوب، وليست مستوعبة له.

ولما لم تكن في مستوى تطلعي، ظلت الفكرة تساورني، حتى إذا طلبت مني (جريدة البلاد) قبل عقد أو يزيد الانضمام إلى كتابها، بدأت معها، وتواصلت كتابتي قرابة خمس سنوات على ما أذكر، وكان مما أطلت الكتابة فيه الحديث عن (تنمية اللغة) مما أتاح لي الوصول إلى المراجع التي تتناول تاريخ اللغة وفقهها وسائر علومها في التراث والمعاصرة وجهود (مجامع اللغة العربية) التي لم تشع في أوساط المعنيين، وخاصة في قطاع الترجمة؛ الأمر الذي أدى إلى فوضى المصطلحات. وكنت من قبل على صلة باللغة وعلومها يوم أن كانت (البنيوية) سيدة الموقف، عند نقاد (المغرب العربي) ومن شايعهم من المشارقة. ومن خلال تلك المتابعة تجلت لي عبقرية اللغة، وتبدى غناها، واستأت من عقوق أبنائها وتماديهم في النيل منها، والتمكين للعاميّات عبر الشعر العاميّ، وما واكبه من دراسات، الأمر الذي اضطرني إلى إعداد كتاب عن (الإبداع الأميّ المحظور والمباح)، ولقد وقفت على دعوات مشبوهة، تبناها مناديب الاستعمار ومَن حولهم من الأشرار. ولما تزل تراودني فكرة إخراج كتاب عن لغة أذن الله أن تحفظ بحفظ القرآن الذي وسعته: لفظاً وغاية. على أن تكون نواة هذا الكتاب المرتقب تلك المقالات التي رجعت في إعدادها إلى أكثر من مائة كتاب في القديم والحديث والمترجم، وكلما هممت بالعودة إلى تلك المقالات، لاستكمال ما ينقصها، وإعدادها للطباعة، صرفتني التزامات أخرى. ولقد حفزني على ذلك ما تعانيه اللغة من سوء في المناهج، وخلل في طرق التدريس، واحتفاء مريب بالعاميات، وشيوع للهجات المحلية في الصحف والمجلات وسائر الوسائل الإعلامية، وضعف عام في اللغة، يطول أقسامها في الجامعات، ويوهن عزم المبدعين فيها من شعراء وقصّاص وروائيين. وظاهرة الضعف اللغوي تشغل العلماء والتربويين، وما من أحد بادر بحل يوقف التدهور، وإن خامر الجميع خوف وتحرف.

-في تلك الأجواء المشحونة بالخوف والترقب، هاتفني صديق قديم، طواه نسيان التقاعد، فما عاد يذكر نفسه، فضلا عن أن يذكره الآخرون، وكانت له اهتمامات بالكتب التراثية، يسألني عن كتب سبق أن اشتريتها منه في سني الطلب، وكنا إذ ذاك نتداول الكتب فيما بيننا استعارة أو ابتياعاً. حين نحتاج نبيع ما يسدّ الحاجة، وحين نتسلم المكافأة الزهيدة من (المعهد العلمي) نشتري ما نحن في حاجة إليه، وكم أسفت على بيع كتاب لا يعوّض، ولكن الحاجة تلجئ الإنسان إلى بيع أعز ما يملك. وفي كتب التراث حكايات مؤلمة، ساقها العلماء والأدباء والمفكرون، صوّروا فيها ما يعانونه من شظف العيش، وقسوة الحياة، واضطرار بعضهم إلى بيع مكتبته أو بعض كتبه، وقد يبلغ الإحباط بأحدهم حدّ الإقدام على إحراق كتبه، نكاية بمن لا يقدرون العلم وأهله، كما فعل (أبو حيان). وحديث الأدباء عن المعاناة تمثل نواة (السير الذاتية). وما أتعس الحياة؛ فلقد كنا من قبل أشداء أقوياء نلتهم ما يقع في أيدينا من كتب وصحف ومجلات، نتبادلها عن طريق

(١) تاريخ المقال: ٢٠/ ٤/ ٢٠٠٤

الاستعارة، ولما وسّع الله علينا بالمال والمساكن والوسائل، وأصبح بإمكاننا الحصول على ما نريد، تعطلت فينا أشياء كثيرة، وهنت قوانا، وضعُفت أبصارنا، وتشعبت مسؤولياتنا، فكنا ننظر إلى أكوام المعارف نظر المتحسر، فيما نجد من حولنا من الشباب الذين يتمتعون بما كنا نتمتع به من قوى بصرية وذهنية، ويمتلكون من الوسائل والأموال ما لم نكن نملك، يفرطون بقوّاتهم وإمكانياتهم وحياتهم التي لا تعوض.

-وكان فيما سأل عنه صديقي القديم الذي عانى ما عانيت من شظف العيش، ما ألف حول (الكلمات الدخيلة في القرآن)، الأمر الذي حملني على العودة إلى حقل اللغويات في مكتبتي، واستعراض ما يتعلق بهذا الحقل المعرفي. لقد قضيت بعض الوقت في سياحة علمية ممتعة، حرمتني منها صوارف المسؤوليات، والبحث في لغة القرآن، سواء في الصوتيات أو الصياغات أو المعاني أو الأساليب أو القراءات، وما يندرج تحت ذلك من نحو وصرف ولهجات واختلاف في توجيه المعاني والتأويل يفضي بالمهتم والمتخصص إلى آفاق رحبة فيها متعة واندهاش. وكلما انقطعت إلى التراث اللغوي أشفقت على المتهافتين على محدثات العصر المقوين من التراث، ممن حرمهم الله من ثروة لا تعوض. وكل مندفع وراء المستجدات دون تحصين وتأصيل، يورده الاندفاع موارد الهلكة.

-ولربما يكون من المفيد أن نشير إلى عنوان هذا المقال وهو: (القول في لغة القول) لما يوحيه من أن هناك لغة ليست من القول، وما لا شك فيه أن العلم الحديث القائم على الرصد والتجريب، والمعتمد على المختبرات والمعامل وجمع المعلومات، وتسجيل الأصوات، وتحليلها وتصنيفها وتوصيفها، أثبت أن للجسد لغة، وأن للعيون لغة، وأن لكل أمة سابحة أو طائرة أو ماشية أو زاحفة لغة، لا يفقهها إلا مَن لا تختلط عنده الأصوات. وها نحن اليوم أمام (برمجة اللغة العصبية) بين مندفع لا يلوي على شيء، ومتمنع لا يقبل بأي شيء. ولقد أشرت إلى لغات الأمم التي لا نفقهها، والجهل بالوجود لا يعني العلم بالعدم، وأثناء التقصي والمتابعة، وقفت على بعض المؤلفات المترجمة، ووقعت يدي على إبداعات روائية وقصصية وشعرية، تشير إلى لغة الجسد، وأحسن ما قيل في ذلك:

وتعطلت لغة الكلام وخاطبت

عيناي في لغة الهوى عيناك

كما عثرت على إشارات عن نباهة الحيوان. وتوسعت في الحديث حين تداركت على (البنيويين) قولهم عن (الإنسان بوصفه لغة) وتحفظت على المقولة المتداولة (الإنسان حيوان ناطق) وتبين لي فيما بعد أن الترجمة لهذه الكلمة محرفة، إذ ليس المقصود منه (النطق) وإنما المقصود (المنطق) ولم يتسن لي تقصّي هذا الخطأ الشائع، واتخذت سبيلي في البحث عن إمكانية اللغة لمخلوقات غير إنسانية، وسقت شواهد من القرآن الكريم حول لغة الحيوان والطيور والزواحف، وأن لكل أمة من الأمم لغتها، والله يقول: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ وهي مثلية متعددة ومتنوعة تنوع إمكانيات البشر، وقوله: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾ وكذلك تسبيح كل شيء بحمد الله مما لا نفقهه. كل ذلك يثبت أن الإنسان لا ينفرد باللغة ولا بالضحك، وإنما ينفرد بحمل (الأمانة). وقد اختلف المفسرون في تحديد مفهومها، وليس ذلك مجال تقصيها، وقد يكون ما ذهب إليه فلاسفة اليونان من أن ميزة الإنسان (المنطق) لا (النطق) هو الأقرب، لمواكبتها بعض الرؤى حول (الأمانة) المعروضة على السماوات والأرض والجبال. فإذا كانت

الأمانة هي أمانة التكليف، فلا تكليف إلا بالعقل، وإذا كانت الأمانة هي العقل، فهو مناط التكليف. ولما عدت إلى مكتبتي، تذكرت الشحيح الذي ضاع في الترب خاتمه، فأطال الوقوف، ودقق في التنقيب، وخاصة حين أكون بين كتب اللغة، ما تقدم منها وما تأخر.
ولقد زاد اهتمامي بعلوم اللغة بعد أن اجتذب العلماء الغربيون منهج (البنيوية) من حقله الفلسفي إلى حقول اللغة والاجتماع والنقد، وبعد أن تهافت عليها من المستغربين من لا يحسن الفهم ولا يتقن الإجراء. ولقد سبق ذلك التهالك ظهور مدارس حديثة: شرقية وغربية، ووقوع طائفة من مثقفي العالم العربي في حبائل تلك المدارس، دون علم باللغة العربية ومعارفها، ودون إدراك للجذور الفلسفية لتلك المذاهب، مع العجز الواضح عن التطبيق السليم. ولقد عرض البعض للمفاهيم الخاطئة، وضرب مثلاً ب(التقويضية) ومترادفاتها: (التشريحية) و(التفكيكية) وسوف أعود إلى ذلك، متى يسره الله، والعودة ملحة، ولا سيما بعدما انزلق البعض في خضم النقد الغربي الموغل في المعيارية والمعرفية، ولقد سبقت لي إلمامات ترتبط بتعالق النقد الحديث بالمستجدات الغربية، حاولت فيها ردّ بعض الظواهر النقدية إلى التراث، وكان ذلك بعنوان: (ظواهر النقد الحديث وجذوره في التراث) ونشر في هذه الجريدة أيام (٣، ١٠، ٢٤-٩-٢٠٠٢م).
والمناهج اللغوية التي ابتدرها (سوسير) أشعلت معارك طاحنة، لم يخبُ أوارها، ولعل آخر صيحات المناهج منهج (التحويلية)، وصراع الرؤى حول (الاكتساب) و(الملكة) وهو صراع تلقاه البعض باندفاع غير محسوب، وكل مندفع لمذهب أو تيار يحكم بموت ما سواه، و(تشومسكي) رائد (التحويلية) مدرسة لغوية، لا غبار على حصافة رأيه وعمق تجربته، والإشكالية فيمن يراه البديل، لا فيمن يراه الرديف، ونحن لا نمانع أن يكون منجزه إضافة متميزة، نسترفده لا ننقطع له، إذ من المفيد أن نتلقى أطروحات الغرب، وأن نفهم ما فيها، ولكن من المضرّ أن نلغي ما نحن عليه، أو أن ننفي تراثنا، لنحل محله الطارئ الذي قد لا يسد خلة، ولا يستجيب لحاجة. وكم هو الفرق بين الاستفادة من الشيء والانقطاع له. لقد تحدث الأستاذ الدكتور (سعد بن عبد الرحمن البازعي) عن جرائر (استقبال الآخر) أي جعله قبلة كما يستقبل المصلي الكعبة، وذلك ما يفعله كثير من المتسطحين الذين طافوا يبغون نجوة لمشاهدهم الفكرية والأدبية من الهلاك المعرفي، فهلكوا هم بأنفسهم. وحين نتصدى للمستغربين والظلاميين فليس معنى هذا أننا ماضويون، نرفض الجديد، ونحرّم التعالق، ونجرّم الحوار المتكافئ، ونرحل إلى التراث، ولا نرحل به، ونشتمل به، ولا نستبطنه، ومن تقوّل علينا، فقد افترى الكذب، ولا يجتر مثل هذه المفتريات إلا من أعوزته الحجة، وخذله الدليل. وكم حاولنا جاهدين ثني هؤلاء عن تحميلنا ما لا نحتمل، ولكنهم لو رضوا بذلك، لسُقط في أيديهم. فنحن مع التجديد إلى أقصى حدوده، ومع المناهج الحديثة التي لا تلغي خصوصيتنا، ولا تمسخ صورنا، ولا تضر بتراثنا، ونحن أبداً مع الاستفادة، ومع الحوار، ومع تبادل المعارف، ولكننا لسنا مع الاستبدال والتخلي عن الموروث، ولسنا مع التقليد الأبله، ولا مع الفهم الخاطئ، والادعاء الكاذب، ولا مع الذين إذا خلوا إلى أساطين الغرب قالوا: إنا معكم إنما نحن مستهزئون.
وإذا كنا نؤمن بأنه لا يمكن أن يكون هناك حضارة بريئة، فإننا في الوقت نفسه نثمن التفاعل والتقارض والتعالق والتثاقف، ولكن وفق ضوابط وآليات، ووفق إمكانيات استثنائية، يتوافر عليها كل داخل على الحضارات الأخرى، وما من داخل لم يؤصل لمعارفه، ولم يحرر مسائله إلا هو هالك لا محالة، وما أكثر المقتفين آثار الغرب بناجين، لأن اقتفاءهم غير واع وغير سديد، والراصد للتاريخ الفكري والأدبي والفلسفي المعاصر تتبدى له سوءات لا يجد أصحابها ورقاً يخصفونه لسترها، ومع التعري المخجل يظل العراة في مغالطاتهم يعمهون، وتجربة الاستغراب في انحدار، منذ (الطهطاوي) ومروراً

بالصليبيين العرب أمثال (جرجي زيدان) و(سلامة موسى) و(لويس عوض) و(غالي شكري) وانتهاءً بأساطين الحداثة (أدونيس) و(عصفور).

-وحين نعود إلى (القول في لغة القول) نجد أنفسنا أمام تراث لغوي يعد من مفاخر الإنسانية عامة، وما أضاعه إلا العققة من أبناء الأمة، الذين عاشوا تحت وطأة الانبهار أو المواطأة. ويقيني أن اشتغال علمائنا الأوائل باللغة لا يضارعه أي اشتغال في أي لغة أخرى، وأن عراقة اللغة العربية لا تدانيها أية عراقة، وأن نماءها وهيمنتها لا يمكن أن تطاولها فيهما أية لغة في العالم. ذلك ما نعتقد، وإن سخر مَن سخر، وامتعض من امتعض. ومما يحز في النفس أن المبهورين بمنجز الآخر يسخرون من دعوى المفاضلة، فما دامت اللغة (ملكة)، فهي مشاعة بين الأمم كافة، ولا فضل للغة على لغة، وكل لغة تغني أهلها، وتسدّ حاجتهم، وإذ نمضي مع هؤلاء في كثير من رؤاهم فإننا نرى أن اللغات تتفاوت في عراقتها، وتراثها، وضوابطها، وما ألف فيها من معاجم، وما اكتشف فيها من تصريف واشتقاق وتوليد ونحت وتعريب ونقل، وما قعد لها من ضوابط، تخدم المباني والمعاني والجماليات الصوتية، وما اكتشف فيها من قدرة على استيعاب الحضارات البائدة والقائمة. واللغة العربية من أفضل اللغات وأعرقها وأحفلها بمختلف المعارف. لقد واجهت اللغة نقلات خارقة، لم تظفر بها أي لغة، وصمدت بكل اقتدار. فلقد كانت في الجاهلية لغة مشافهة وفن، ولغة شعر وعواطف، ولما أن وسعت كتاب الله لفظاً وغاية، دخلت في التحدي، فكان أن استوعبت لغة الدين الجديد، وما جدّ فيه من مصطلحات ومعارف وعلم في التفسير والفقه والحديث وعلم الكلام وأصول تلك العلوم، ثم واجهت تحديات الترجمة في العصر العباسي، واستوعبت حضارات سادت ثم بادت، ولم تلن لها قناة، وها هي الآن تواجه مستجدات العصر الحديث لتكون بهذا: لغة العاطفة والعقل والعلم. ولم تواجه خلال تلك المراحل الثلاث أية إشكالية، ولم يتحرف علماؤها لإجراء يؤثر على خصوصيتها، لا في مبانيها، ولا في معانيها، وإذ قلنا لناشئة الأمة وكهولها: خذوا حذركم، وانفروا جميعاً لحفظ لغتكم، قال قائلهم: هي محفوظة بحفظ القرآن، وما علموا أن الخوف على حَمَلَتها لا على ذاتها، ولقد حذرنا الله بقوله لرسوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾، فالقرآن الذي نزل بلسان عربي مبين سيظل كما هو، فيما نكون بالتفريط من الأعراف، فلسنا عرباً نشرف بعروبتنا، ولا عجماً نعذر بعجمتنا.

الإرهاب بين تضارب المفاهيم وتعدد الأسباب .. ! (١)[(١)]

-يحسن بنا، ونحن في لجة من مخاضات أُذن لها أن تقلب الأوضاع العالمية رأساً على عقب استبعاد الافتعال والانفعال، وقصر الحديث على التناول الموضوعي والبحث المعرفي، بعيداً عن صخب الخطابات التنصلية، ومآزق التزكية الذاتية، والانحاء باللائمة على الآخر، دون مصلحة أو برهان. ومتى اعتمدنا في تناولاتنا تبادل الاتهامات، وممارسة الإقصاء والإدانات، زدنا الوضع تعقيداً والحل استحالةً، وانفض سامرنا بوضع أشد انغلاقاً مما سلف، والمؤتمرات العالمية حين تقارب ظاهرة كالإرهاب، يحسن بها تجسير الفجوات وتجفيف المستنقعات، وأحسب أن أوضاع العالم المتوترة تستدعي الكلم الطيب، والقول السديد، والدفع بالتي هي أحسن، استجابةً لأمر الله: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ الَّتِي هِىَ أَحْسَنُ﴾، ومتى كان التعايش السلمي ممكناً فإن المصير إلى ما سواه جناية بحق البشرية فوق أي أرض وتحت أي سماء وعلى أي ملة: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾، والدين الإسلامي أقدر الاديان على وضع الحلول السليمة للأزمات المستعصية، وتوفير أجواء تحقق للإنسانية العيش الكريم، وكيف تتأزم الأمور في ظله؟ وهو لا ينهى عن البر والقسط لكل مخالف في العقيدة، ما لم يقاتل في الدين خاصة، أو يخرج المسلمين من ديارهم، أو يظاهر عليهم الأعداء والمحاربين، وما لم ينبذ المسلمون إليهم على سواء، ولن تتأتى الرغبات المشتركة إلا إذا حررنا مسائلنا، وقاربنا بين مفاهيمنا حول القضايا المشتركة، وحددنا مصادرها، ورسمنا أساليب مواجهتها، ومتى توخت الحضارات العدل والصدق، ووفرت الحقوق، ووحدت المواقف والمكاييل، أمكن الانتقال من الصدام إلى الحوار، ومن التناحر إلى التعاذر، ومن التناوش إلى التعايش. ومجموع تلك الهموم الممكنة تتشكل منها تلك المقاربة الحذرة.

-ولما كنا نود الحديث عن إشكاليات الإرهاب المتمثلة باختلاف المفاهيم وتعدد الأسباب وتنوع الانتماءات وأساليب المواجهة، اقتضى التناول المعرفي السليم تعريف كل مفردة بما يقربها إلى الطرف الآخر، فإذا استقرت في الأذهان استقراراً معرفياً عقلانياً أمكن النفاذ إلى صلب الإشكاليات، لتصورها أولاً، ثم اتخاذ أجدى الحلول وأهداها وأيسرها، وسوف يكون حديثنا عن المفاهيم والأسباب أولاً ثم نفيض إلى سائر الإشكاليات، ولأن لكل طائفة من الأناسي والمفكرين والساسة رؤيتها وموقفها ومرجعيتها، فإن من أوجب الواجبات استكناه الرؤى والتصورات وحدود المرجعيات، ومحاولة التماس القواسم المشتركة والانطلاق منها، وحديثنا يمتد إلى كلمات: تعريفية وإجرائية: ك (الإرهاب)، ومفاهيمه و(الأسباب) وتعددها و(الانتماءات) وتنوعها و(المواجهات) وأشكالها، وتلك حيازات دلالية واجرائية، تتداخل كالدوائر، وتفترق كالمتوازيات، فما الإرهاب بوصفه ظاهرة؟ وما هو بوصفه فعلاً إجرائياً يمس أطرافاً معينين، ويقوم به أطراف معينون، ويقع في ظل ظروف معينة؟ ثم: ما الأسباب؟، والإشكالية ليست قصراً على تعريف جامع مانع، يتفق عليه كل الأطراف، وإنما هي في توحيد المواقف وتجنيس المواجهات، وأخشى ما أخشاه أن يتحول الإرهاب من مُفْرز لعبة إلى لعبة مستقلة.

---

(١) تاريخ المقال: ٢٧/ ٤/ ٢٠٠٤

وكل التساؤلات عن الظاهرة وأسبابها مشروعة لكل طالب حق يطرحها بين يدي حديثه عن الإرهاب، ومن أراد إطفاء لظى الفتن لزمه التحري والتحسس عن وجوه الالتقاء، وهي ممكنة عندما يجنح الجميع إلى السلام لا إلى الاستسلام. ومعضلات المفهوم أنها مرتبطة بالأزمنة والأمكنة والأحوال والمنفذين والمتضررين، وحين تخترق تلك المعضلات سدة المصطلح، لا يكون كما يجب جامعاً مانعاً، لاضطراب أحوال المتجادلين حوله، بحيث يتعذر الخروج بمفهوم جمعي، ولكن اليأس لا يمنع من زحزحة المشكل، ليقترب من فرصة الحوار، وقد يؤدي الحوار الحضاري إلى تنازلات جزئية، لا تمس جوهر المفاهيم، ولكنها توفر أرضية مشتركة، تقترب بالمفهوم من هامش الاتفاق أو التعاذر، وعندها تمتلك الأطراف المعنية فرصة الخلوص من دوامة الاختلاف المعمق للظاهرة، والإرهاب بوصفه ممارسة غير منتمية مسَّ العالم كله بالضر، ولما تزل كل أمة معرضة لمزيد من الممارسات الإرهابية، ذلك أنه آلية لتصفية الحسابات بين الدول والأحزاب والطوائف والأعراق والحضارات، حفز إليه تعذر المواجهة العسكرية لحسم المواقف، كما أسهمت في تشكله المفاهيم الخاطئة للحرية والحقوق وأغرى به تنازع السلطات، وعمليات الإقصاء والمصادرة، وتلاحق الثورات الدموية، وإخفاق كل المشاريع الوحدوية والقومية والحزبية، وتجذر الانهزامية، وخيبة الأمل، ولربما أشعل فتيل الإرهاب تصادم المصالح، وتعارض الأهداف، وعدم توازن القوى وتعددها، والوقوع في إشكاليات القطب الواحد، وتفكك كيانات تنطوي على (إثنيات)، وطائفيات وإقليميات، كل واحدة منها ترى أحقيتها بالاستقلال أو بالسلطة، مع عجز واضح وانحياز مكشوف للقوى القادرة على ضبط الإيقاع العالمي، ووقوع العالم في المتناقضات، التي أملتها اللعب وتناقض خطاباتها، فالإرهاب: - وضع العنف موضع الحوار، والهوان: - وضع الحوار موضع الدفاع المشروع، فإذا أمكن الحوار فلا مناص منه، وإذا قامت السلطة المشروعة العادلة الرفيقة فلا مقاومة، ومن مارس أحد النقيضين من عند نفسه، أسقط الأمة في الفتنة أو الذلة، ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾.

-وتصور الظاهرة يسبق الحكم عليها، والخلفيات المعرفية والثقافية والفكرية لا تمكن الباحث من الاستعانة بنظرية معرفية بريئة، وقراءة الأشياء من درجة الصفر مستحيلة وغير مشروعة، والمعضلة في صدق النوايا وسلامة التوجهات، وليست في تعدد التعريفات، ومع ذلك لو عدنا إلى مفهوم (الإرهاب) في ظل كل هذه التوقعات، ومن خلال منظور إسلامي لوجدناه موازياً لمفهوم (الردع)، فالدول الكبرى حين تخوض سباق التسلح وحرب النجوم، وحين تمتلك وزارات الدفاع عندها أخطر المعامل والمختبرات والتجارب الجرثومية والكيميائية والنووية فإنما تريد أن تكون مهيبة الجانب، وذلك ما حث القرآن عليه أمة الإسلام ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾، ولم يكن الإرهاب بوصفه من مصطلحات الإسلام ممارسة فعلية للقتل العشوائي والتدمير الشامل، وإنما يعني الإخافة والردع، وليس المصطلح بمفهومه الإسلامي مرتبطاً بمفهومه الغربي المعاصر. و(الرهبة) تكون محمدة عندما تكون من العبد لربه، وقد أمر بها القرآن (فإياي فارهبون) و(وإياي فارهبون) وتكون مذمة من جانب المخلوق المبطل للمخلوق المتردد (واسترهبوهم) ومحمدة من جانب المخلوق المحق للمخلوق المبطل ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ﴾.

و(الرهبة) و(الرهبان) مصطلحات دينية لديانات سلفت، والإسلام له مفهومه إزاءها، فهو يحفظ التوازن بين (الرهب) و(الرغب)، و(الرجاء) و(اليأس) فلا رهبة دون رغبة، ولا يأس دون رجاء، وعقيدة السلف الصالح الوقاف عند الحدود وسط بين الخوف والرجاء. و(الإرهاب) بالقوة حين يقابل (الردع) يكون مشروعاً وحقاً مشاعاً بين الحضارات، لتحقيق سنة التدافع، ولولاها لهدمت صوامع وبيع ومساجد، ومن وفر قوة الردع لنفسه، وحققها على مرأى ومسمع من الناس، فليس من حقه أن يحظرها على غيره، وما تمارسه الحضارة الغربية المتغطرسة من حظر للتسلح المتكافئ، يصل حد المحاصرة، والتدخل السافر في شؤون الغير مظنة (الإرهاب) التدميري، الذي تحاربه كل الحضارات، بما فيها الحضارة الإسلامية. والذين يجعلون (الجهاد) إرهاباً، يحملون المفهوم ما لا يحتمل، و(الجهاد) حين يكون ذروة سنام الإسلام في ظل تسامحه وجنوحه للسلام، لا يتسع للمفاهيم التي يتداولها المغرضون، ولما كان الإرهاب ذروة الغلو والتطرف، كان لابد من معرفة الدركات المؤدية إليه.

ف (الغلو) ظاهرة عرفتها كل الديانات، ولقد ظهر مصطلح (الغلو) المنهي عنه بالنص القرآني عند بعض الطوائف الإسلامية، ولا تخلو طائفة إسلامية من غلاة لا يمثلون (الوسطية) في الطائفة، ومع أن النص القرآني نهى أهل الكتاب عنه مرتين فإنه بحق المسلمين أولى، غير أن الغلاة لا يقرون بالغلو، والناقد المنصف يجب عليه ألا يحمل أي مذهب إسلامي ما يمارسه المتطرفون فيه، فضلاً عن أن يحمل الإسلام مسؤولية الإرهاب، والمتقصي لتاريخ الملل والنحل يجد أن لكل نحلة طرفين ووسطا، والإسلام حث على الوسطية، ونهى عن الغلو.

والرسول ﷺ أوصى بالإيغال الرفيق في الدين، والمتعاملون مع الطوائف أو الدارسون لها يجب أن يكونوا عدولاً، بحيث لا يداهنون، ولا يتحاملون، ولا يغضون الطرف عن تجاوزات لا يحتملها النص، فالمتأول المخطئ يختلف عن المخالف المتعمد للمقتضى القطعي، والمستغل للنص الحمَّال يختلف عمن يلوي عنق النص ليوافق هواه، وليس هناك ما يمنع من المداراة التي تكفل التعايش والتعاذر، وهي رخصة لا عزيمة، ولهذا قال الله تعالى في أعقابها: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾، وكم هو الفرق بين المداهنة والمداراة والتعامل والموالاة، وليس من مصلحة الأمة التعذير، ولكن مصلحتها رهينة التعايش والاشتغال في المساحات المشتركة، فالزمن لا يحتمل مزيداً من التنازع، ولما كان الغلو والتطرف والتكفير بيئة مناسبة لنشوء الإرهاب، كان لابد من تحديد دقيق لهذه المفاهيم، ذلك أن الاختلاف المتناقض حول المفاهيم هو الآخر يؤدي إلى العنف والإرهاب.

فما حقيقة الغلو والتطرف بوصفهما من بوادر الإرهاب؟ وما معيارهما؟ أحسب أنهما يعنيان طرفي الظاهرة، ف (الغلو) و(التسيب) طرفان، فيما يكون (الاعتدال) وسطيا، وحديث الناس يكثر عن التطرف الغلو والإفراط، فيما لا نجد من يتحدث عن التطرف المقابل، وهو (التفريط)، والحديث عن (الغلو) يعني نصف الحقيقة، فالمتشدد المتنطع المضيق على الناس المعول على سد الذرائع في تحريم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق لا يقل إيذاء عن الذي فرط في جنب الله، ممن يقبل خطاب العهر والكفر، ويوالي كل خائض في آيات الله بغير علم باسم حرية التعبير، فالتفريط قد ينشئ التطرف على سبيل الفعل ورد الفعل. ف (المرأة) المتبرجة الكاسية العارية المائلة المميلة الفاتنة، تحمل المتشددين على مواجهة التبذل بالغلو والتطرف، ومثلها (المتعلمن) المستفز و(الحداثوي) المدنس للمقدس، ومن خلل المفاهيم الانحاء باللائمة على (المتشدد) في

الدين، وغض الطرف عن الفاتنة والمستفز، وليست حال(المتنطع) و(المتميع) بأسوأ حالاً من المتعصب لمذهبه، المعطل للاجتهاد، وعلى كل الأحوال، فإن الرد إلى الله ورسوله يحتاج إلى فهم سليم للنصوص على ضوء المقاصد الإسلامية، وآليات تفكيك البنى الدلالية، كما هي عند علماء اللغة.

والخلط العجيب أو الميل لجانب دون آخر عمَّى على الناس فهم الأشياء على حقيقتها، فلو سئلوا: ما الإرهاب؟ لما اتفق اثنان على تعريف جامع مانع له، واختلاف الناس قائم على الرغم من توفرهم على كل ما يتداول من قول حول تلك الظاهرة.

ولأن مفهوم الإرهاب تحول إلى إشكالية معقدة، فإن الناس رضوا بالتوصيف لا بالتعريف، والتوصيف مرتبط بذات الحدث لا بذات الظاهرة، ولو قيل في تعريفه: (إنه ممارسة العنف ضد من لا يستحقه ممن ليس يملك حقه).

لكان أن جاء من يضع المحاذير، ومما يعمق الإشكالية تعدد مثيرات الإرهاب، اذ إن لكل مثير حيثياته ومغايرته، فالمثير السياسي أو الاقتصادي، أو الاجتماعي، أو الفكري، أو الديني، أو غير ذلك، يختلف عما سواه، وباختلاف المثير يختلف المفهوم والموقف، وحتى لو مارسنا التجريد، ونظرنا إلى الإرهاب من درجة الصفر، لكان أن واجهتنا إشكاليا أخرى، ترتبط بالمثيرات والحواضن، وذلك كله لا يمنع من أن نشير إلى المفاهيم العامة التي تقترب بالإرهاب من التجريد.

فالمنصفون يرون أنه ليس مرتبطاً بفكر معين، ولا بظرف زماني أو مكاني محدد، ولا بجنس مخصوص أو حضارة معينة، وحين يكون فئوياً تكون له أسباب عارضة: ذاتية أو خارجية، لا يستطيع المنصفون إنكارها. فالتسلط والكبت والاحتلال والاستبداد وسلب الحريات وفرض المبادئ والحزبيات وحكم الطائفة أو العرق والفقر والبطالة والأثرة ومواطأة المغتصب الظالم ومساعدته والإخفاقات المستمرة للمشاريع الثورية، وغياب الدستور، وتعثر السلطة المشروعة كل هذه أسباب محرضة، ولكل سبب مفهومه وحيثياته، وهنا يمكن القول: بأن التصدي للظلم ومقاومة الاحتلال لا يعد إرهاباً بالمفهوم المتداول، ومما يشكل عقبة في التفريق بين (الإرهاب) و(المقاومة) تعارض القوانين والاتفاقات الدولية مع بعض الممارسات، ولو أخذنا على سبيل المثال- القضية الفلسطينية- لوجدناها الأكثر خلطاً للأوراق، فإذا كانت القضية عادلة والمقاومة مشروعة، فليس معنى هذا أن نجعل كل عملية من العمل الفدائي المشروع، فالفدائي قد يفجر نفسه بين أخلاط من الديانات والجنسيات، ممن لا يعدون من المحاربين، وقد يمارس الفعل في زمن الاتفاق على تصفية الخلافات، مع أن عملية الانتحار قضية خلافية، وقد لا تكون من الاختلاف المعتبر.

الإرهاب بين تضارب المفاهيم وتعدد الأسباب .. ! (٢) [(١)]

وفي ظل تعدد الأسباب والمفاهيم، والمواقف والمكاييل، والحياد والانحياز تبدت للمتابع عشرات الرؤى والتصورات والثغرات المعمقة للمعضلات، بحيث لم تكن إشكاليات الإرهاب وقفاً على التعريف، وإنما امتدت إلى المفاهيم والمواقف. وأزمة المصطلحات تتنازعها المدلولات اللغوية، والمقاصد الاصطلاحية، والأنساق المعرفية، والسياقات السياسية، فجذر (رهب) من حيث لغويته، يعني (التخويف والقمع). ومن حيث (إجراؤه) يعني مباشرة (الاعتداء): حسياً أو معنوياً. ومن حيث (الممارسة) يكون: (فردياً وجمعياً) و(دولياً). ومن حيث (الأهداف) يكون ضد أي كيان: سياسي أو ديني أو عرقي. ومن حيث (الدوافع) يكون بسبب اضطهاد أو اعتداء أو انحياز، أو هو مبدئي تمليه (أيديولوجية) معينة، وتفرضه نحلة متطرفة. ومن حيث (النتائج) يؤدي إلى الفوضى والاضطراب واختلال الأمن وإهلاك الحرث والنسل. وفي ضجة التنازع هناك مسلمات قد لا يختلف حولها أحد، تتمثل في: الدلالة لا في المفهوم، وفي الإجراء والمصدر والإعداد والأهداف والدوافع والنتائج. وحين نفرق بين (الدلالة) و(المفهوم) نضع في الاعتبار تعدد المفاهيم بتعدد المتلقين، وفي ضوء ذلك يتعذر علينا الاجتماع على تعريف جامع مانع، تلتقي حوله الأطراف. وحين يتعذر الاتفاق الكامل، يتعذر الحل الشامل. ولا يود مخلص أن ينفض سامر المؤتمرين بمعروف حول الإرهاب والموقف منه دون التوصل إلى حل وسط، تحكمه التنازلات الجزئية، للخروج ولو بأقل الفوائد. وبدهي أن القول بالخير المحض كالقول بالشر المحض. فالخيرية المطلقة لا مكان فيها للاختلاف، والبشرية المطلقة لا مكان فيها للاتفاق. والمشاهد العامة فيها اتفاق نسبي، واختلاف نسبي. لوجود خيرية نسبية وشرية نسبية، وواجب الخيرين توسيع قاعدة الخيرية، وتضييق جانب الشر، ليحصلوا على الحكم التغليبي، وينجوا من مضلات الفتن.

وفي خضم التنازع حول المصالح والمفاهيم دخلت كلمة (الإرهاب) أروقة الجمعيات والهيئات والمنظمات، واكتنفها المعنيون من كل جانب، مما حفز على تشكيل لجان تنقيب عن المعلومات وأخرى تحللها، وأعقب ذلك مؤتمرات تصدر التوصيات، وكل (حرب كونية) أو إقليمية تصفي ذيولها بممارسات، يسميها قوم إرهاباً، ويراها آخرون دفاعاً مشروعاً والناس أوزاع بين هذا وذاك، حتى لقد تحولت هذه الكلمة العصية من كلمة عابرة إلى مصطلح مراوغ. ومحاولة تحديد بداية تاريخية للإرهاب، يعني الحصرية المرفوضة: عقلاً وشرعاً وقانوناً. فالإرهاب بدأ مع بداية التجمع الإنساني، واستهله (قابيل) و(هابيل)، وقصة بسط اليد للقتل أو كفها، تعني أن هناك معتدياً ومعتدًى عليه. ولسنا بصدد تحديد البدايات، وإنما نحن بصدد تحديد المرحلة الواعية للمفهوم، أو قل مرحلة (الإرهاب) المنظم المواكب للمواجهة الجمعية، مواجهة التفهم والحل. وأحسب أن اتفاقية عام ١٩٣٧م المصوغة تحت رعاية (عصبة الأمم) هي بداية التأسس للحدث والمفهوم، وتبع ذلك إنشاء (المحكمة الجنائية)، ثم توالت بعد ذلك المؤتمرات والتوصيات، وإنشاء المحاكم والمنظمات والجمعيات، للحيلولة دون الظلم أو التعدي، ولما تكن تلك المؤسسات والهيئات قادرة على ممارسة مهماتها بحيادية ومساواة، بل أصبحت في كل الأحوال إلا ما ندر أداة طيعة للأقوى، بحيث أصبحت بفعلها المنحاز أو المتخاذل محرضة على توتر الشعوب وغضبها. ومع تلاحق الأحداث غير المشروعة، تنامت المواقف المضادة، ومنذ السبعينيات أصبح (الإرهاب) مصطلحاً حاضر المشاهد الاعلامية والسياسية. ولقد

---

(١) تاريخ المقال: ٤/ ٥/ ٢٠٠٤

ارتبطت الاهتمامات والاتفاقيات بأحداث ووقوعات، سماها المتضررون إرهاباً، فيما سماها المنفذون مقاومة مشروعة، ولربما كانت دورات (الأمم المتحدة) تنطوي ملفاتها على مزيد من الدراسات والتوصيات التي لم تُفعَّل، بسبب اقتضاء بعض المصالح حماية المنظمات الإرهابية باسم المعارضة المشروعة، وساعد على ذلك تفاقم المشاكل الإقليمية وتسلط السلطات، وتعاقب الثورات والانقلابات، وارتباط ذلك بالتصفيات الجسدية والمقابر الجماعية والمنافي والسجون، ولما كانت الدول الكبرى ك(أمريكا) التي هي الأقدر على تفعيل التوصيات لم تعرها أي اهتمام، فقد رقدت على رفوف الهيئة، ومتى لم تتعرض دولة عظمى ك (أمريكا) للإرهاب، فإنها لن تلح في أمره، وحين لا ترمي بثقلها، لا يكون للظواهر وزن ولا حضور، وكم عانت دول عربية ك (المملكة) من العمليات الإرهابية، وكم حذرت ذوي النفوذ، ولكنها لا تُسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين. ولعل من المحفزات على تهميش قضية الإرهاب من قبل تناقض الآراء والمواقف، وتعدد المفاهيم، وحين اكتوت الدول المهيمنة بلهيبه، عدَّلت من مواقفها، حتى لقد تحولت المعارضة والمقاومة عندها إلى إرهاب، ولولا اكتواؤها لكان الإرهاب معارضة مشروعة تحتضن أطرافها. وإذا لم نستطع مواجهة الحقائق المرة وقول ما نعتقد وما نتصور أو لم نرغب ذلك، ظل الحديث من باب اللغط المملّ. وحين يستولي علينا العجب بآرائنا، والانفراد بالحل، والإصرار عليه، نكون كمن يسعى بمحض إرادته لتعميق الخلاف، ومن ثم لا بد من التسديد والمقاربة. فالقول بأن الإرهاب على إطلاقه معارضة، وتعمد مواطأة الإرهابيين وإيوائهم بوصفهم مقاومين أو معارضين لاتفاق فعلهم مع المصالح العارضة وغير المستقرة، وتعدد المواقف أمام الأعمال المتجانسة، والانحياز السلبي، وفرض الرأي بالقوة، كل ذلك مؤذن باتساع دائرة الإرهاب والاختلاف معاً. وإذ تتباين وجهات النظر حول المفاهيم، تختلف كذلك حول الأسباب وأساليب المواجهة. وحين تعرضت أمريكا لأبشع صور الإرهاب، أقبل الناس عليها يزفون، وتقبلوا مفهومها وأسلوب مقاومتها، حتى لقد طرحت أقسى تعبير عرفته الإنسانية: (من لم يكن معي فهو ضدي). ومع تعدد المفاهيم وتنوع الأسباب تتعدد طرائق التنفيذ ليكون الإرهاب بمفهومه المطلق أوسع من التفجير وأبعد، والمتتبع للاتفاقيات الدولية، يدرك أنه يتسع لإجراءات ومجالات متعددة: كالملاحة والموانئ والمنصات والمطارات واحتجاز الرهائن وخطف الطائرات والقرصنة وتسريب المواد النووية والاغتيالات والمطاريف البريدية المفخخة والمساحيق السامة ومخالفة الاتفاقات الدولية. وأي تخويف تمارسه جماعة مسلحة تحت أي مطلب يعد إرهاباً. غير أن ممارسة التفجير للمنشآت طغت على بقية الأنواع الأخرى، وبهذا العنف دخل الإرهاب إطار الزمان والمكان والحدث، وانفصل عن محدوديته، ومهما تعددت الأسباب فإن الإرهاب واحد بوصفه ممارسة، ومتعدد بتعدد أنواعه وظروفه وأحواله. والإرهاب أنواع، يتعدد بتعدد الظروف والأحوال، وقراؤه العدول يضعون قيماً حكمية لهذه التعددية، فإذا حمي وطيس الحروب، أو استشرى الظلم والقهر كان الإرهاب مخاض ظروف طبيعية، بمعنى أنه متوقع ومرتقب، وإن كان مرفوضاً في أعراف الدول، أما حين لا تكون حرب ولا يكون ظلم فإنه يكون مثيراً لعدم توقعه، وبهذه الأجواء يدخل إطار العبثية وصدق رسول الله الذي أخبر أنه في آخر الزمان (يكثر الهرج) ولا يعرف القاتل والمقتول لماذا حصل ما حصل.

وحين تنبعث الفتنة في إقليم دون غيره بسبب الجور والظلم أو بسبب التعدد الطائفي أو العرقي، أو بسبب غليان الأوضاع العالمية تكون ممارسة الإرهاب تعبيراً عملياً عن رفض الواقع القائم، وأسلوباً من أساليب حمل المتسلط باسم السلطة على فك الاختناقات،

وإقامة العدل والمساواة ومنح الأقليات حقها المشروع بوصفها شريكة في الحقوق والواجبات.

وفي هذه الحالة تختلف المفاهيم والمواقف والأسباب، وبخاصة حين تتحكم العلاقات والمصالح المتبادلة بالتدابير والوسائل. وفي ظل هذا التحكم تجد قوماً يصفون أي مواجهة بالإرهاب، وآخرين يعدون مثل ذلك شأناً إقليمياً، وقد نجد من يؤيد ويدعم، ولربما تعم العمليات آفاق المعمورة، وتصبح كل دولة معرضة للإرهاب، وذلك ما نشاهده الآن، أو قد تكون دولة دون أخرى معرضة مصالحها للإرهاب، وهذه الأنواع تضع المتابع في حيرة من أمره. فمتى يقطع بأن مثل هذا العمل وفق تنوع أوضاعه إرهاب أو مقاومة؟ والتعاطف مع المتضرر لا يحسم المشاكل، والمسايرة للمفاهيم الناتجة عن مواقف الانفعال لا تحظى بالقبول. وإذا كاد الناس يُجمعون على أن الحسم العسكري مع إمكان الحل السلمي يعد إرهاباً دولياً، فإنهم سيختلفون مع من يمارس ذات الحل العسكري اضطراراً، ليكون الأمر غمة، ونصف الحقيقة لا يضمن نصف الحل.

وفي حمأة الجدل الصاخب لم يعد من نوافل القول بأن الحديث عن (الإرهاب) حديث طال وتشعب، واختلفت فيه الآراء، وتعددت المواقف، وتباينت المفاهيم، وقيل فيه وعنه ما لم يُقل في أي قضية أخرى، لقد شاع الحديث عنه بين سائر العلماء والمفكرين والساسة، ووسعته علوم الدين والإجرام والنفس والاجتماع والسياسة والقانون. وما من داخل في متاهته إلا وله فيه قول يحيل إلى مرجعية خاصة، وينطلق من سياقات خاصة، وتوجهه أنساق وظروف خاصة، وفي ذلك ما فيه من مضاعفة الرعب والخوف، وكأننا في إرهاب الإرهاب. ولو صدق المهيمنون بالسلاح و(التكنولوجيا) مع أنفسهم ومع من حولهم من الأنداد، ومع سائر الشعوب المهمشة والأجناس والديانات المضطهدة لكان أن عرف الجميع الحق وتوفروا عليه، ثم لا يكون هناك إرهاب ولا سباق تسلح ولا هضم لحقوق ولا استعمار ولا احتلال ولا استيطان ولا إبادة ولا تفرقة بسبب عرق أو لون أو دين. وحين تملك المصالح و(الاستراتيجيات) حق إطلاق المصطلحات وتعريفها، ثم تتباين المصالح وتتعارض (الاستراتيجيات) يكون من حق المباين والمعارض أن يسك مصطلحاته، وأن يعطي مفاهيمه، أو يتلقى مصطلح الآخر، ويفرغه من محتواه، تمهيداً لشحنه بمفهوم مغاير، وعندئذٍ يظل الخلاف والتنازع في نمو مطرد، وذلك ما يعانيه العالم حول مصطلح (الإرهاب).

وإذ نقول بأن الإرهاب سليل اللعب السياسية فإننا لن نغفل الحواضن والمواثرات الأخرى. فالتطرف (العلماني) لعب دوراً تحريضياً، والتطرف (الحداثوي) لعب دوراً استفزازياً، و(التنظيمات الإسلامية الغاضبة المتطرفة) لعبت دوراً تضليلياً. وسائر المنظمات والأحزاب والجماعات، وبخاصة ما كان منها خارج السلطة تشكل أرضية قابلة لتفريخ الإرهاب، ولكن يجب ألا تغيب عن بالنا الضغوط المثيرة للغضب، بحيث لا نهمل أحداثاً شكلت منعطفات خطيرة في حياة الأمة تمثلت في:

-تلاحق الانقلابات والثورات العربية التي نشأ في ظلها طغيان الخطاب التشنجي الاستعدائي، واستمرار الخيانة، ونقض العهود، والتصفية للخصوم بالاغتيالات.

-استشراء الضعف والوهن والحزن في كيان الأمة العربية مع تنامي العنف والشراسة في الكيان الصهيوني، والتقدم المادي والرسوخ المؤسساتي في الغرب.

-نكسة حزيران التي أحبطت الإنسان العربي ١٩٦٧م.

-الثورة الإيرانية وإعلان الجمهورية الإسلامية ١٩٧٩م.

-اعتماد تصدير الثورات والمبادئ عبر الخطابات الإعلامية.

-فشل كل المشاريع الوحدوية و(الديمقراطية) والحزبية والقومية.

-ظاهرة التطبيع والهرولة مع العدو الاسرائيلي ١٩٨١م، في ظروف استشراء الإرهاب والتطرف اليهودي.
-الحس الكنسي الذي قوّى الروابط بين اليمين الأمريكي والتطرف الصهيوني.
-الحرب الأفغانية، والتوسع في أسلمة الحرب، والتعبئة الجهادية.
-الحرب العراقية الإيرانية، وتناقض الآراء والمواقف.
-احتلال العراق للكويت، وتصدع الصف العربي وانهيار القومية.
-تحرير الكويت من قبل التحالف العالمي، وغياب الحل العربي.
-احتلال العراق تحت ذرائع لم يتحقق أدناها، ودون إجماع عالمي، واستشراء الإرهاب في ظل الفراغ الدستوري.
-انكشاف اللعب الكونية والإقليمية وسقوط الأقنعة.

كل ذلك أدى إلى الإحباط واليأس واللامبالاة، ومع كل ذلك فإن العالم لم يشأ التفريق بين الإرهاب المرفوض والمقاومة المشروعة، وستظل إشكالية المفهوم في تنام وانبهام، حتى يأذن الله لهذه الأمة باستعادة عافيتها ومكانتها بين العالمين، ولكي نكون قادرين على تحرير المفاهيم وتحديد الأسباب يجب استبعاد الوقوعات الصارخة، فحدث مثل تفجير (الرياض) الأخير لا مجال فيه للاختلاف، لأن له سياقه الخاص الذي لا يؤدي إلا لموقف واحد، هو الرفض والاستنكار والتحريم والتجريم.

الإرهاب وتدافع الانتماء .. ! (١) [(١)]

وبعد تجاوز التعريف والمفهوم والحواضن والمحفزات نلتمس الحديث عن (الانتماء) الذي تدفعه كل طائفة عن نفسها، وتدفع به إلى غيرها، وإن كنا قد ألمحنا إلى أطراف من جدلية الانتماء في مجمل سياقات المفاهيم والأسباب، أو قل إن بعض الأسباب تحيل إلى الانتماء، لترابط ذلك كله ببعضه وما الفصل بينهما إلا كما الخطوط الوهمية، ودوَّامة الانتماء لا تختلف عن دوامة المفاهيم والأسباب.

وما من حزب أو نحلة أو كيان إلا ويدفع عن سمعته معرة الاتهام، وإذ يكون من حق كل بريء أن يدفع عن نفسه نسبة الإرهاب إلى مؤسساته أو مبادئه فإن الدفع لايقتضي الاتهام، ما لم تقم الحجة بالبراهين والشهود. والحق أنه ليس للتطرف والغلو والإرهاب انتماء، وإن اتسمت بعض الطوائف بشيء من ذلك، وليس من العدل القطع بانتماء الإرهاب لدين من الأديان، ولا لعرق من الأعراق، ولا لعصر من العصور، بل ولا لحضارة من الحضارات. والإرهاب في حقيقته عرض لمرض، فمتى نزل بساحة قوم في أي بقعة من الأرض فإنما هناك خلل يعرفه قوم، ثم ينكرونه، أويمارسونه ويصفونه بحق الدفاع عن النفس المعتدية، ويجهله آخرون، ثم يضربون في بنيات الطريق، بحثاً عن مصادره. فالعالم إزاءه بين جهل أو تجاهل، وعلى كل الأحوال فإن الإرهاب وسيلة، وليس غاية، وعرض وليس جوهراً. ولن تتأتى المواجهة الايجابية إلا حيث يتحقق المعنيون من أسبابه. لماذا وجد الإرهاب في هذا الزمان، وفي تلك البقعة، وعلى يد هؤلاء الأفراد أو الجماعات؟ فممارسته ليست عبثاً ولا تسلية والمنتحر لا ينتحر إلا عن عقيدة نافذة في الأعماق. والراصد لحركات الإرهاب يعرف شيئاً، وتغيب عنه أشياء، فبقدر معرفة أسبابه وانتمائه يكون سداد الرأي وصواب المواجهة، والحصيف من يتقصى كل المتعلقات، ومن يدقق في كل الأوراق، ولا يستعرضها، ذلك أن عقابيله كما الفتن تُصيب الضالع والممانع، ومتى أخطأ المتصدي في التوقيت أو في التقدير تفاقم الخطر. فالعمليات الإرهابية حين تنفلت خيوطها، أو حين يخطئ الطرف المقابل في تحديد مصادرها، يستشري ذووها، ويستمرئون مواصلة الأعمال الإرهابية، وليس من العدل المجازفة في نسبة الإرهاب لمن تقوم مبادئه على التسامح والتصالح والتعايش.

والأمة الإسلامية أمة الوسط، أقرب إلى التبين، وأبعد عن العنف في القول أو في الفعل، وأجواؤها أبعد الأجواء عن الإرهاب بكل مفاهيمه، ولقد استلهمت ذلك من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾، وهي الأكثر إمعاناً في التثبت امتثالاً للتوجيه الكريم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ ففي الآيتين أمر في عدم مباشرة الحرب إلا بعد التبين، وأمر بالتثبت في الحكم على الناس بالكفر. فهناك منع للفعل ومنع للقول، وهما مصدر الإيذاء. وأمة هذا شأنها لايمكن أن تتهم بالإرهاب، ذلك أن مؤشرات الغلو والتطرف تكمن في المبادرة في القتل أو التوسع في التكفير، وليس في القرآن ولا في صحيح السنة ما يوحي بشيء من ذلك. وكلما كانت هناك أركان وواجبات ومستحبات ومباحات لأي حضارة كانت هناك محرمات ومكروهات، ولايمكن تمييع الأمور باسم الحرية أو الوسطية أو التسامح، فالدين والحضارة والطائفة لايتحقق شيء منها إلا

---

(١) تاريخ المقال: ١١/ ٥/ ٢٠٠٤

بشرطه، وتمثل الشرط والدفاع عن المقتضى لايعد إرهاباً. وما كان الإسلام بدعاً بين الديانات الإنسانية في محققاته، وحين يكون من لوازم أي ديانة (الإيمان) و(الكفر) و(الردة) تكون الضوابط والاحترازات. ومع هذا نهي عن التنابز بالألقاب، وأمر باجتناب الظن، ووردت آيات تحذر من ذلك. وهل بعد تكفير المسلم من ظن سيئ؟. والإسلام نهى المسلمين عن قفو ما لا علم لهم به. وأوضح شيء في النهي عن التكفير ما جاء في صحيح مسلم: «**إذا كفَّر الرجل أخاه فقد باء بها أحدهم**» وفي رواية: «**إلا حار عليه**» وفي البخاري: «**ولايرمين بالكفر إلا ارتدت عليه، إن لم يكن صاحبه كذلك**» وعنده: «**ومن قذف مؤمناً بالكفر فهو كقتله**» وعند أبي داود: «**ثلاث من أصل الإيمان -منها-: الكف عمن قال لا إله إلا الله لا نكفره بذنب**» وفي حديث آخر جمع بين تحريم الدماء والأعراض والأموال، والثلاثة مجال الإرهاب. وعقيدة السلف الصالح ألا نشهد على أهل القبلة بكفر ما لم يظهر، وما في السرائر متروك لله. والاحتراز من التكفير واجب المستبرئ لدينه وعرضه، وتعمد القتل لمن نطق بالشهادتين بحجة التقية والنجاة يعد قتلاً لمعصوم، حتى ولو قالها حين يظفر به المسلم أو حين يعاين الموت. وقصة (خالد بن الوليد) رضي الله عنه واضحة في ذلك. وعلماء السلف المتشربون لأصول الدين السليم يدركون خطورة التوسع في التكفير، ولا يرونه إلا في الخارج من الملة الميت على ذلك، وفي تكفير المرتد عن الدين شرط الموت على ذلك، تمشياً مع قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ وقد أشار (ابن الجوزي) إلى أن حكم الكفر يستقر بالموت عليه.

وقد جاء ذكر الموت على الكفر في أكثر من آية قرآنية و(لابن تيمية) رحمه الله رؤية دقيقة في موضوع التكفير، لو وعاها الموغلون، لما كان لهم أن يقعوا في مثل هذه المآزق، ولما كان لأحد أن ينسب الإرهاب للإسلام، ومصطلحات علماء الكلام قد يكفر بموجبها من لم يفهم مقاصد المصطلح، وقد ضرب ابن تيمية مثلاً في مصطلح (تحيز الخالق) عن المخلوق. واحترازات السلف في شروط التكفير وموانعه تحول دون انتماء الإرهاب إليهم، فهم لايكفرون قائل كلمة الكفر جهلاً أو عن شبهة، ولايكفرون معَّيناً، وكون القول أو الفعل كفراً لايحكم على صاحبه به، والتحرز من تكفير المعين تحرز إيجابي. والسلف الصالح الوسطي المستنير لا يُقْدِمُونَ على التكفير أو التفسيق إلا وفق ضوابط وقواعد في غاية الشدة والاحتراز. واحترازهم يذودهم عن الاتهام، وحسن الظن بالمسلم يحجرهم عن المجازفة بالتكفير، وتوخيهم العدل والإنصاف يحيد بهم عن المجازفة في الأحكام. وأمة هذه أخلاقها لايمكن أن ينسب إليها عنف ولا إرهاب، وما رأيت حجة ساقطة كحجة من يحيل الإرهاب إلى الإسلام بعد وضوح رؤيته وتجلي موقفه من المخالف.

والذين يجازفون بالتكفير، ولا يحترمون أعراض المسلمين، لاشك أنهم لن يحترموا دماءهم وأموالهم. ولقد اجتاحت الأمة موجات من الاستياء والإحباط، أدت إلى ظهور طوائف من الغلاة الذين حملتهم شدتهم إلى مقاطعة الأمة واعتزال مساجدها، والتوقف عن الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأن المجتمعات في نظر هذه الجماعات الغالية كافرة، وليس بعد الكفر ذنب، حتى لقد قاطع بعضهم المدارس والوظائف، ولعبت بهم عواطف دينية هوجاء، حادت بهم عن الموضوعية وعن منهج السلف مع المخالف، ومثل هذه الموجات العارضة لا تجيز القول بأن الإسلام مصدر الإرهاب، والديانات القائمة والمنقرضة قد تتعرض لفترات مرضيّة تتمثل بالضعف أو بالعنف، والأمة

الإسلامية مرت بحالات ضعف صعدت عندها حالة الاستياء، وهي اليوم في أسوأ حالاتها، وبعض طوائفها غلت في الدين، وتوسعت في التكفير، وكان لطائفة التكفيريين أصول في غاية السذاجة والبدائية، والقول من خلالها مؤشر جهل وتخلف، كالقول: بأن عرب اليوم ليسوا في تمثل اللغة وفهم مقاصدها كعرب الأمس، ممن نزل القرآن بلغة التخاطب عندهم، وكالقول بثنائية الديانات: الكفر الخالص، أو الإيمان الخالص، وليس بين هذه الثنائية دركات ولا درجات، وكقسمتهم الإسلام إلى أصول وفروع، ثم القول: بعدم العذر لجاهل في الأصول. وابتسارهم الآيات من الذكر الحكيم هي أبعد ما تكون عن مساندة ما يذهبون إليه، ومثل هذه الطوائف ليست على شيء من الحق، ولايجوز لمنصف أن يتصور الإسلام من خلالها. ولقد تقصى هذه الأصول، وفندها واحداً واحداً الأستاذ (عبد الفتاح شاهين) في كتابه (ظاهرة التكفير: شبهات وردود)، وتبدت لطائفة من العلماء والمفكرين الراصدين للحركات الإسلامية بعض المشكلات المصاحبة لهذه الحركات، سواء منها من كان في الحكم أو من كان خارجاً عليه معارضاً له، وسواء منها من كان ذا طابع سياسي أو كان ذا اتجاه تعبد ي سلوكي تعاملي، لا ينظر إلى المسؤولية، ولا ينازع السياسة سلطتها. ولعل من أبرز المشاكل التي ارتبكت بسببها بعض الحركات الإسلامية: فقد التخطيط، واضطراب المفاهيم، وتعدد مجالات الأداء وحدودها، ونقص الكفاءات البشرية: إدارةً وقيادةً، والخلط بين الحل المرحلي والنهائي، ووضع الأهداف في معزل عن الإمكانيات، والتقاعس عن المحاسبة والتقويم، ونقد الذات، وتحمل مسؤولية النكسات، مع ممارسة الإسقاط، والمبالغة في دعوى الغزو والتآمر، وتجزيئية الرؤى والتصورات، وتغليب جانب الصدام والصراع على الحوار والتعاذر والتعايش، والإغراق في المثاليات والعنتريات والعواطف والانفعالات، في ظل فقد الأجواء الملائمة. وكل هذه العوائق لاتخول التخطي للإرهاب، ولكنها قد تجر إليه، وفي ظل هذه العوائق تتحفظ المؤسسات السياسية على تلك الحركات الاسلامية والقومية والطائفية، وتصعد التحفظ، بحيث يصل إلى حد التضييق والخنق، وقد تأخذ البريء بالمذنب فتكرهه على المواجهة غير المشروعة. ولقد مرت الحضارة الإسلامية كغيرها من الحضارات بفترات تاريخية تمخضت عن حركات غالية في السلوك أو في التعامل، أدت إلى صدامات دموية معلنة وتنظيمات سرية متغَلِّبة. ولما تكن الحضارة الاسلامية وحدها مَنْ مر بهذه الحالات، فكل حضارة لها مراحلها التي يستفحل فيها الغلو والتطرف. وما مِنْ منصف نسب الإرهاب إلى هذه الحضارة أو تلك، لمجرد أن طائفة أو نحلة غلت، ولوت أعناق النصوص، أو ابتسرتها من سياقاتها لتوافق نوازعها. ولقد عرف التاريخ السياسي الإسلامي قوى المعارضة ك(الخوارج) و(الشيعة) و(المعتزلة) و(المرجئة) و(الهاشميين) و(الزبيريين) بكل أبعادها: الدينية والسياسية، ولقد صنفها البعض إلى يمين ويسار، مسايرة للتصنيفات المعاصرة، فيما وصفها البعض الآخر ب(قوى الظل) والتمس بعض الثوريين المعاصرين أسباباً سياسية مباشرة لقيام هذه التنظيمات، بحيث عول على (الملكية الوراثية) في العصرين: الأموي والعباسي، والخلافة الكسروية المتداولة بين: الفرس والأتراك في العصر العباسي، وتبادل المواقع في المشهد الفكري بين الطوائف الإسلامية. وتاريخ الدول المتتابعة مليء بالأحداث الجسام، وظروف سياسية ودينية كهذه مؤهلة للتنظيمات السرية، وقد راوحت تلك الحركات بين العنف الثوري والدعوة السرية المنظمة، تصعد حتى تبلغ ذروتها على يد (القرامطة) و(الحشاشين) و(الزنوج) ثم تخبو وتبلغ قعرها عند (المرجئة) و(الباطنية)، والعنف الثوري المعاصر لايحمِّل الأمة العربية ولا الإسلامية معرة الإرهاب، فكم من حكومات إسلامية معتدلة، وكم من حكومات ثورية تجاوزت مرحلة العنف، واستقرت أمورها بعد موجات من العنف الدموي، والقارئ

للتاريخ الفعلي (للثورة الفرنسية) يروعه ما مُورِسَ فيها مِنْ عنف دموي، تستر عليه الممجدون لأم الثورات في العالم، والحروب العالمية الهمجية ليست من صنع الإسلام، والتعذيب غير الإنساني للسجين والأسير، والعنف في المواجهة، والاستيطان الصهيوني، والاحتلال البغيض، كل ذلك ليس من الإسلام ولا من المسلمين، بل هو واقع عليهم، وما من أحد قال بنسبة الإرهاب لحضارة الغرب التي أرهقت شعوب العالم، وكادت تفقدها صوابها وحكمتها في معالجة الأمور.

الإرهاب وتدافع الانتماء .. ! (٢) [1]

ومهما حاول العالم التنصل من ظاهرة الإرهاب، واجتهد في تحميلها جهة دون أخرى، فإن التاريخ السياسي الحديث يضع أصبعه على مفاصل المشكلة، وذلك بتتبعه لبؤر التوتر في العالم، المشكلة، ولو حاولت جهة ما تضييق الخناق عليه وتجفيف منابعه، لندت جراحات مفتوحة، تفور دماً، ولن يتمكن العالم من محاصرة الظاهرة مع وجود تلك البؤر، وإذا نسل منها العنف والتوتر، فقد لا تحتمل إثمه، ولا تقبل انتماءه إليها. فأين العالم من (قضية فلسطين)؟ وأين هو من ذيول حروب مجانية، حركتها المصالح الغربية: ك(أيلول الأسود)، (حرب لبنان) و(العراق) و(إيران) و(أفغانستان) و(الكويت) ودول الاتحاد المنهار؟، وأين الإعلام الإسقاطي من مشكلة (الصحراء الغربية)، و(الجنوب السوداني) و(إريتريا) و(الصومال) و(تشاد)، وحركات التحرر في (أمريكا اللاتينية)، والحروب الطاحنة في (جنوب شرق آسيا)؟. وأين المغالطون من الحروب الأهلية التي تذكيها الأقليات: العرقية والطائفية ويستثمرها عبدة الدرهم والدينار والخميصة كمشكلة (الأكراد) و(السيخ) و(التاميل)؟ وستظل تلك الحركات والتنظيمات المشروعة وغير المشروعة لعبة في يد الكبار، يحركونا كما (مسرح العرائس)، ولا يبالون في أي وادٍ هلك أصحابها. كل تلك المشاكل العالمية والإقليمية التي تتحرك ذاتياً تارة وبتدخلات خارجية تارة أخرى تعد بؤر توتر ومستنقعات تفرخ الإرهاب، وتسقط مقولة: إن الإرهاب بدأ من الإسلام وإليه يعود، وقد تتكون جينات الإرهاب من الشيء ونقيضه، فالتماس بين عقيدة وأخرى على أرض مشتركة محفز طبعي له، وبخاصة حين لا يحصل التوازن، ولا يتحقق تكافؤ الفرص بين الطرفين المشتركين في اللغة والأرض. ودعك من (الحركات الإصلاحية) سواء كانت منطلقاتها: دينية أو تربوية أو إدارية أو اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية، فإنها تتعمد الإصلاح لما هو غير صالح، فيما يكون وراء الأوضاع الفاسدة مصالح غير مشروعة، يحافظ عليها المستفيد، وقد يدخل في مواجهة مع المصلحين، ولكل من الأنصار والخصوم خطاباتهم المتواجهة. ومهما حاولنا عزل أي حركة عن تأثرها بكافة الأنساق والسياقات الماثلة للعيان أو الكامنة في اللاوعي الجمعي فإننا لا نستطيع ذلك. فالاستجابة العفوية أو الثقافية أو العرفية تعيش حالة من الكمون. ولو نظرنا إلى بداية (الحركات الإصلاحية) الدينية، لوجدنا الدعوة الإصلاحية التي قام بها المصلح المجدد (محمد بن عبد الوهاب) وإلى جانبها الحركات: السنوسية والمهدية والباديسية، ومن بعد ذلك (الإخوان المسلمون) في مصر وتحولاتهم على يد الحركيين المتسيسين، ووجود حركات في الوطن العربي، تستمد من حركة الإخوان طرائقها وأهدافها. كل هذه الدعوات تمر بتحولات لا يراها المعتدلون، ومع ذلك تنسب إلى الأصل. إن هناك انشقاقاً وإغراقاً في التطرف، وظهور فرق التكفير والهجرة لاشك أنه مؤشر خروج على مبادىء الدعوات الإصلاحية المعتدلة. وإلى جانب هذه الحركات - وبعد أن شرعت الشعوب العربية بمقاومة الاستعمار التقليدي - نشأت حركات: قومية وحزبية و(ثيوقراطية) وتجديدية وحداثية ومحافظة، واستعيدت مصطلحات قديمة على غير مراد ذويها ك(دار الحرب) و(دار الإسلام) و(الجهاد) و(الولاء) و(البراء) والاختلاف حول مفهوم (الذمي) و(المواطن) والدخول في صراع مستميت مميت، تغذيه أيد خفية، لا تريد لهذه الأمة الاستقرار. ولاشك أن لكل حركة أسسها ومرجعياتها: النصية والقواعدية والمذهبية. وكلما أخذت الحركات سبيلها إلى الشيوع والسيطرة، نهضت بإزائها حركات مضادة، تحركها

---

(١) تاريخ المقال: ١٨/ ٥/ ٢٠٠٤

أزمات كامنة كأزمة الهوية والشرعية، أو تحركها قوى معادية أو خائفة، وقد تطفو على السطح محرضات ذاتية، لا يلقي لها المتابعون بالاً، ولكنها وقود خفي، كاستشراء (الفساد) بكل صوره و(الظلم) بكل أشكاله (والطبقية) بكل صراعاتها: الخفية والجلية، والشعور بالضعف الحسي والمعنوي بإزاء الدول الكبرى المتسلطة، وافتقار التحديث إلى أرضية علمية وثقافية و(تكنولوجية)، وهذه التحديات تخلق حالات نفسية غير سوية، تتمثل بالتعصب للرأي، والاستعلاء والعدوانية والتشدد والشك وممارسة التخلي والإسقاط وادعاء العصمة، وتضخيم عقد الغزو والتآمر، وكل هذه المحرضات لا تخول أحداً بربط الإرهاب ربطاً عضوياً بالإسلام بوصفه المرجعية لهذه الملل والنحل.

والإرهاب قد تمارسه مؤسسات وأحزاب وطوائف وعرقيات وحكومات وأفراد، بوصفه الخيار الوحيد لمواجهة التحديات، وقد يكون منعطفاً خطيراً لاجتياز مرحلة عصيبة، من قَصره على ديانة خاصة أو طائفة أو حكومة أو عرق، فَقد المصداقية. ومقاصد الإرهاب متعددة، والمتعقبون لتاريخه يقفون على مقاصد عدة فمن مقاصده: فرض نمط سياسي معين، فقد تستخدم الإرهاب حكومات مستبدة لإخضاع الشعب المضطهد على التسليم والخنوع. ولقد أشار بعض المؤرخين إلى (الثورة الفرنسية) في آخر القرن الثامن عشر الميلادي، وتاريخ الثورة الفرنسية المتداول لا يشير إلى الإرهاب، ولكن الأحداث والوقوعات واستشراء القتل والاغتيالات تعد ممارسات إرهابية. وقد تستخدمه حكومات تفرض سيادتها على شعب من الشعوب، لإشاعة الروح الانهزامية، والرضوخ للمطالب التعسفية. ولقد مر الاستعمار التقليدي ومقاومته في الوطن العربي بأوضاع دفعت إلى المواجهات الدموية. وكل دولة قوية تفرض سلطتها بالقوة على أي شعب لا يبادرها بالمواجهة العسكرية تعد دولة تمارس الإرهاب الدولي، وإن لم تكن بمجمل سياستها إرهابية. وقد تستخدمه أقليات عرقية أو دينية، لتحقيق وجودها، والحصول على حقوقها إلى جانب الأكثرية، وهذا اللون يختلف قراء الأحداث في تصنيفه: فمنهم من يراه دفاعاً عن الحقوق ومقاومة ضد الظلم والاستبداد ورفض الإقصاء والتهميش. ومنهم من يراه إرهاباً وإخلالاً بالأمن. وأحسب أن مثل هذا اللون يتسع لكل القراءات، وتحكمه الظروف وطبيعة الأوضاع. فـ(الأكراد) مثلاً تتقاسمهم عدة دول، وليست لهم حقوق مستقلة، وقد تكون مقاومتهم في بعض الأحوال مشروعة، ولكن التعدي على الآمنين والأبرياء مجال اختلاف واسع، والإطلاقات غير الدقيقة لا تصيب المحز، ولا تحق الحق، وحتى قمع تمردهم داخل الدولة مسألة فيها نظر، فهي إرهاب عند قوم، وتصرف مشروع عند آخرين. ومثلما تعرضت (أفغانستان) للتدخل (السوفييتي) فإنها تعرضت مرة ثانية للتدخل (الأمريكي)، ولغة الخطاب مختلفة إزاء التدخلين. وفي مثل هذه الحالات تجب الدقة وعدم المجازفة في الأحكام. و(الجهاد) و(المقاومة) و(الإرهاب) ممارسات لا يجوز الخلط فيما بينها، ومع كل التحفظات فإن الأحكام تنطلق من مفاهيم متباينة ومصالح متعددة. ومع صعوبة التقارب في وجهات النظر يجب على كل مستقل أن يتحرى الحق، وأخطر من ممارسة الإرهاب تناقض المواقف، وفقد المصداقية، فربط الإرهاب بنحلة أو قومية، لا يختلف عن وصف المقاومة بالإرهاب، أو جعل الجهاد الإسلامي إرهاباً.

وفي ظل اختلاف المفاهيم والمواقف فقد تستخدم الإرهاب جماعات إرهابية بطبعها ووضعها، ومثل هذا المفهوم ينطبق على (الإرهاب اليهودي)، فلقد تشكلت عصابات إرهابية قبل الإعلان عن قيام دولة يهودية في أرض إسلامية يعد اليهود أقلية فيها. ولقد مارست هذه العصابات أبشع العمليات الإرهابية، عبر عصابات يهودية مدربة، مثل عصابات (أرغون زفاي) و(شترن) و(آغودات) مثل نسف المنازل، وإلقاء المتفجرات في

الأسواق، واغتيال الأطفال والنساء، وتنظيم المذابح الجماعية، كمذابح (دير ياسين) و(ناصر الدين) و(حوامسة) و(عليوط) و(حلحول). وكان الهدف من هذا الإرهاب حمل السكان الأصليين على الهجرة، وإخلاء القرى والضواحي والمزارع والمدن، تمهيداً لاستيلاء الصهيونية عليها، بمواطاة ودعم من دول العالم، ولو لم يكن هناك حبل من هذه الدول لما استطاع اليهود إقامة دولة عنصرية مغتصبة، فالاستعمار البريطاني أعطى الوعد، والولايات المتحدة تعهدت بدعمه وحمايته. ولم يكن الإرهاب شرقياً، إذ هناك جماعات إرهابية أوروبية مثل جماعة (بادر هوف) الألمانية و(الألوية الحمراء) الإيطالية و(توباماروس) بأمريكا الجنوبية. ولقد نيفت المنظمات الإرهابية على الثلاثمائة منظمة، كلها شرقية أو غربية، وإن كان هناك جماعات مقاومة ليست من الإرهاب في شيء، تطلق على نفسها جماعات التحرير، واكبت الاستعمار التقليدي، وقاومته: سلماً وحرباً، وخاضت معه المؤتمرات، ومثل هذه الجماعات، تمتلك شرعية المقاومة، فيما يطلق عليها الطرف الآخر صفة الإرهاب، مثل (الجبهة الوطنية) في مصر التي أسست عام ١٩٣٦م للتفاوض مع الحكومة البريطانية، ومثل (جبهة التحرير الوطني) في الجزائر التي تشكلت عام ١٩٥١م، ورسمت لنفسها سياسة تقوم على مقاومة الاستعمار، وإنشاء دولة جزائرية، ومثل (جبهة تحرير الجنوب المحتل) في عدن.

وهناك جبهات شرقية متعددة، مثل (الفييت كونج) الفيتنامية لمقاومة الاستعمار الفرنسي. وقد تتكون جبهات لمقاومة حكم قائم، وليس لمجابهة مستعمر خارجي، ويندرج تحت هذا المفهوم أحزاب المعارضة. وعلينا أن نفرق بين (الجريمة المنظمة) و(الإرهاب) ف (المافيا) غير (الموساد) ومثل هذا يدخل في تعدد المفاهيم والرؤى. ولو نظرنا إلى ظاهرة (الحرابة) في الفقه الإسلامي، لوجدناها لوناً من ألوان الإرهاب غير المنظم، وقد يتخذ الإرهاب مفهومه الدقيق حين يخيف المجتمع، ويعرضهم للقتل ويعرض ممتلكاتهم للتدمير.

وإذ نقول بأن الإرهاب لم يكن عربي الأصل والمنشأ والولادة فإن ما نقوله ليس ادعاءً لا نقيم عليه حجة، فالمتتبع للأحداث في السبعينيات والثمانينيات يدرك أن دولاً أوربية ك(فرنسا) و(ألمانيا) و(إيطاليا) و(إسبانيا) تجرعت مرارات الإرهاب، وها هي الأحداث الموجعة في (إسبانيا) التي أدت إلى تفجير القطارات، تؤكد أن الإرهاب عالمي الأصل والولادة والنشأة. ومثل هذه الأحداث المروعة تؤكد على أن هناك منظمات لما تزل قائمة، وأفعالها تقع ضمن المفهوم الدقيق للإرهاب، وكم من عمل إرهابي لا يكون لدفع ظلم، ولا لتصفية ثارات، وإنما يكون لإثبات وجود، أو لفت نظر، أو يكون للحيلولة دون نفاذ اتفاق تقترب منه فئتان أو دولتان، ولقد وضع الإسلام أعدل المواقف عند اقتتال الطوائف، فقدم الصلح، وعند البغي شرع القتل، حتى تفيء الطائفة الباغية إلى أمر الله، وبعده تبقى كل الطوائف إلى إطار الأخوة الإسلامية، وقد تتعمد مراكز القوى وجماعات الضغط إفساد بوادر الصلح فتمارس الإرهاب كوسيلة للإفساد والحيلولة دون السلام العادل. ومثل هذه الرسائل الموجعة لا تشكل ظواهر وأعراضاً، وإنما هي تعبير عن الإحباط أو تذكير بالوجود الفاعل والمؤثر، ومما يلفت النظر ويربك المواقف ما تتصف به بعض الدول من عنف في مواجهة الخصوم، ومن ثم تمارس الإرهاب تحت سمع العالم وبصره، نجد ذلك في (إسرائيل)، وقد تمارسه قيادة الدولة عبر عملائها واستخباراتها، حتى إذا انكشف أمرها أذعنت، وتحملت تبعات ذلك. وتاريخ الثورات الحديث مليء بمثل هذه الممارسات الإرهابية، وقد تسهم الدول كافة أو دولة بعينها أو مجتمع من المجتمعات بتشكيل فصائل إرهابية سواء جاء ذلك الإسهام اختياراً أو اضطراراً أو جهلاً أو تعمداً، نجد ذلك عند من حُملوا على المشاركة في (الحرب الأفغانية) فعند عودتهم كانت لهم

رؤى وتصورات وتصرفات أخلت بالأمن، ومست سيادة الدولة، ومن ثم أدت إلى مطاردتهم ومحاصرتهم وعزلهم عن المجتمع، وأي انقطاع اضطراري تنشأ عنه عقد نفسية، تتطور إلى حقد فمواجهة، والتعبئة الجهادية التي مارستها كافة الوسائل الإعلامية أثناء (الحرب الأفغانية) وتسهيل مهمة الشباب المتحمسين لمواجهة الاحتلال الروسي لدولة مسلمة شكل ذهنيات ترى مواصلة الجهاد ضد أي دولة غير مسلمة، وحين ضُيق الخناق على عشرات الآلاف من العائدين من أفغانستان والمقيمين فيها، تفرقت بهم السبل، وتلقفتهم عصابات خفية، وظلت فكرة الجهاد قائمة عندهم، وبعض هؤلاء الأشتات دخلوا اللعبة مرة ثانية عامدين متعمدين، مما أضر بالمشروعات الدعوية والإصلاحية، الأمر الذي حفزهم على إعادة تنظيم صفوفهم، وممارسة ضرب المصالح العائدة للدول التي مارست مطاردتهم، ومثل هذا العمل يعد إرهاباً، لأن الدول التي دخلوها ومارسوا الإرهاب فيها، لها سلطاتها، ولها أنظمتها، ولا يجوز الإخلال بالأمن تحت أي مبرر، ومع التحفظ على كثيرٍ من المفاهيم والمواقف فإن ذلك لا يبرر الإرهاب، وبخاصة داخل دولة لا تستدعي أوضاعها أي لونٍ من المواجهة.

ومما يزيد الإرهاب استشراء ويعمق الخلاف، الخلط بين الإرهاب والمقاومة، فكفاح الشعوب من أجل تحرير نفسها من السيطرة أو التدخل الأجنبي عمل مشروع، ومع ذلك لم تمنح هيئة الأمم المتحدة مشروعية ذلك إلا بعد ضغوط ومداولات، غير أن الأقوى هو الأقدر على تحديد المفاهيم، وليس أدل على ذلك من مقاومة الشعب الفلسطيني المستنكر من قِبل الإعلام الغربي وانتهاكات الجيش الإسرائيلي المحالة إلى الدفاع عن النفس. وكيف يقبل عاقل هذه الرؤية الجائرة؟ وهذه المقاييس المغالطة تسقط هيبة القرارات الدولية، وتدفع بالشعوب المغلوبة على أمرها إلى التنظيمات السرية والمقاومة العنيفة، التي قد تطال الأبرياء من رعايا الدول المتواطئة مع الظلم. وخلاصة القول في إشكالية انتماء الإرهاب أن ليس له أبوان شرعيان، وإنما هو لقيط أنجبه اتصال غير مشروع.

الإرهاب وطرائق المواجهة .. !![1]

لك ما يمكن قوله عن «الانتماء» في محاولة لإسقاط الادعاء المخادع الذي راوح في مخادعته بين تحميل الإسلام معرة الإرهاب، واتهام المناهج الدراسية بالتمهيد له. وخلاصة القول: أن الإرهاب ليست له أرض ولا ديانة ولا جنس، وأنه عرض لمرض، متى وُجد العرض فعلى المهتمين التماس المرض، وأن من مثيراته ممارسات غربية خارجة على الأعراف الدولية. وحينئذ نكون أمام «المواجهة» وهي عصية الانقياد ك«المفهوم» و«السبب» و«الانتماء»، وإشكاليتها أن لكل سبب أسلوباً في المواجهة، لا يصلح إلا له. وإذا كانت مثيرات الإرهاب: دينية أو سياسية أو عرقية أو غيرها، وليست مرتبطة بلعب كونية، فإن المشكلة تتفاقم، وقد تتحول إلى «حرب أهلية»، تفقد فيها الدولة السيطرة على الأوضاع، وتفقد فيها الأمة الحياة السوية، وقد تتعرض البلاد لفراغ دستوري، ولربما يمس الفراغ الدستوري دولاً مجاورة، ويغري دولاً انتهازية، كي تستغل الفوضى لغرس أقدامها، وتحقيق مكتسبات لا تحلم بها. وليس بمستبعد أن تستشري الفتن في المنطقة برمتها، فتصيب القاصي والداني، وقد ينقلب الضرر على مثيره. وأي دولة لا تضمن جبهتها الداخلية يكون الإرهاب فيها نذير شؤم على أهلها. وحينئذ لا بد من تقصي الأسباب والعمل على تلافيها، والتصنت لحسيس الداخل لا لزعيق الخارج، واتخاذ الحلول المناسبة، وعدم التعويل على الحسم بالقوة، لأن للقوة تداعياتها المضرة، وليس من الحصافة اقتصار المواجهة على مطاردة الفلول، فذلك مؤذن بتصعيد العنف، ولهذا لا بد من الفصل بين العرض والمرض، وتجاوز العرض إلى المرض. فالصداع قد تهدئه المسكنات، ولكنها لا تمتد إلى المرض المثير له. ولقد بدأت العمليات الإرهابية في بعض الدول على شكل مظاهرات فئوية أو كلية، تصاعدت بسرعة، لهشاشة الجبهة الداخلية وقابلية المجتمع للانفجار، وتحولت من الهتافات والشعارات إلى العنف والتخريب، وإشعال الحرائق، وتعطيل الحركة والعمل، والامتداد بسرعة من شارع لشارع، ومن مدينة لمدينة، حتى إذا وجد المتصدون للإرهاب أنفسهم أمام طوفان الغضب، اضطروا إلى التخلي عن مهماتهم والانضمام إلى الجماعات المعارضة التي تعبّر عن معارضتها بنسف الجسور، وتهديم المؤسسات، وإحراق الممتلكات. وقد تعلن الدولة حالة الطوارىء، وتنزل فرق من الجيش إلى الشوارع، وعندما تستنزف الدولة كل وسائلها وإمكانياتها، تخنع أو ترحل، أو لا تتمكن من كل ذلك، فتسقط. ولقد شهد العالم أنواعاً من المظاهرات المصحوبة بالعنف الذي أسقط الحكومات. أما حين تكون الدولة شرعية وجبهاتها الداخلية متماسكة، والإرهاب فيها محصوراً في فئة قليلة، ليس لها عمق بشري، ولا مشروعية، فإن عمليات المطاردة تكشف عن فئات الإرهابيين، بحيث يسقطون الواحد تلو الآخر. وهذا اللون من الإرهاب يكون جزءاً من لعبة سياسية، استكملت مهمتها، ولم تأبه بفلول المنفذين لها، أو هو إفرازات لعبة سياسية. وأقرب مثلين «أحداث إيران» زمن الشاه «وأحداث المملكة» زمن استفحال الظاهرة في العالم، بعد الحادي عشر من سبتمبر. فأحداث «إيران» أسقطت الدولة، فيما بدأت بوادر سقوط الإرهاب في «المملكة». وقد لا يكون الإرهاب ناشئاً من خلاف بين السلطة والأمة، وإنما هو ضد مصالح دولة كبرى منتشرة في أنحاء العالم، وعندئذ تدخل حسابات الخسائر والأرباح، وحين يتغلب الإرهابيون في نظر الدولة المحتلة، تلملم أطرافها، وترحل، تاركة البلاد تعيش حالة من الفوضى وحمامات الدم، وهذا ما نخشى وقوعه في العراق، فالتحالف أسقط الحكومة،

---

(١) تاريخ المقال: ٢٥/ ٥/ ٢٠٠٤

وأحدث فراغاً دستورياً، لم يسده بعد ورحيله، وذلك مؤذن بحرب أهلية مدمرة. والمتابع للحروب الباردة والساخنة وصراع المصالح، يقف على أعمال إرهابية خطط لها المتنازعون على الغنائم، ونفذت في موقع التنازع، وعدت من المقاومة المشروعة. وقد تتشكل في الدولة الواحدة مراكز قوى متعددة، تقود البلاد إلى تناوش في السلاح، منذرة بتفكك الوحدة الوطنية وتعدد الكيانات، متى كانت تركيبتها السكانية من عدة طوائف أو قوميات أو كانت أقاليمها ذات خصوصيات جغرافية أو تاريخية. ومثل هذه الأحوال تستدعي النظر الثاقب، وعدم خلط الأوراق، ولا يمكن مواجهة أي عمل إرهابي، وقطع دابره إلا برصد دقيق لكل ملابساته، ودراسة متقصية لأسبابه: داخلياً وخارجياً، ورسم خطة ناجزة أو مرحلية لمواجهته، والحيلولة دون نمائه وانتشاره وإيقاظه للخلايا النائمة. فالمواجهة قد تكون بالمثل، وقد تكون عن طريق الحوار والتنازلات، وقد يكون الإرهاب عرضاً زائلاً، لكونه إفراز ظروف خارجية، لا يكون للبلد فيه إلا الظرفية المكانية. وليست المواجهة قصراً على رجل الأمن، وليس الحل وقفاً على المطاردة والمصادرة، وتبادل إطلاق النار، وليست التصفية حصراً على التصفية الجسدية، فإذا كان وراء الإرهابي مبادىء يؤمن بها، فإنها ستظل قادرة على التفريخ، وإذا كان لا يفل الحديد إلا الحديد، فإن الكلمة المحكمة لا يفلها إلا الكلمة الأحكم، والذن يُقدِمون على العمليات الانتحارية، يستمدون إقدامهم على الموت من مبادىء يؤمنون بها، ومن علماء يزينون لهم الانتحار باسم الاستشهاد، ومثل هؤلاء لا يحسم شرهم القتل، ومن ثم لا بد من سلاح الكلمة، لتصحيح المفاهيم، وتحصين من لم يخترق الانحراف أدمغتهم.

والتصفية الجسدية قد تمتد إلى شباب غرر بهم، واتخذوا سبيل الإرهاب عن قناعة، ولو هيئت لهم حواضن فكرية ودينية وسطية متزنة وقادرة على استمالتهم وإقناعهم لكان أن تحولوا عما هم عليه، وندموا على فعلهم، ومتى أمكنت المواجهة بالموعظة والتوعية، فإن المصير إلى غير ذلك مصير إلى المفضول مع إمكان الفاضل، والمواجهة السليمة الحكيمة تكون من هذا ومن غيره، ولكل حدث حديث. والمصابون بداء التطرف والغلو والإرهاب لن يقتصر فعلهم على التفجير والاغتيال، إذ ربما يكونون أصحاب قضية، لهم أهدافهم وذهنياتهم، ولهم نظرتهم المستقبلية القائمة على الدعوة، وتنشيط الخلايا وتنميتها، وحين تكون قضيتهم عقدية فإن من الصعوبة بمكان قطع دابرهم بقوة السلاح بل لا بد من قوة الكلمة، ولقد شهدنا مؤشرات لذلك، وليس ببعيد أن يعيد التاريخ نفسه، ونرى خوارج العصر يمثلون الغلو والتطرف الذي اتصفت به طائفة الخوارج في الصدر الأول من الإسلام، ولقد شهدنا «معتزلة العصر» ممن عولوا على العقل، وهمشوا النص في «نظرية المعرفة». والتطرف العقدي أنكى من التطرف السياسي، وإذا كانت حركة التطرف العقدي تتنامى، والشباب من حول المتطرفين يتعاطفون معهم، ويستمعون إليهم، ويتقمصون رؤيتهم، ويمارسون عملهم، فإن الحل الأمثل لا يكون في واحدية المواجهة، ولا في عنفها، ولا يكون - أيضاً - في تسامحها، ومن ثم لا بد من التفكير والتقدير والنزول بكثافة الإمكانيات العلمية والثقافية والإعلامية، لإيقاف تشكلهم الذهني ونموهم البشري، والحيلولة دون ممارستهم للدعوة والتغرير بالناشئة، ثم النظر في أساليب الدعوة والإرشاد والموعظة، وتشكيل كوادر قادرة على مقارعة الحجة بالحجة، وقادرة على اعتماد الأسس النفسية الممكنة من اختراق أجواء الآخر، واستبعاد أي أسلوب قسري فوقي متعنت، والحيلولة دون قيام أي كيان تطوعي، لا يخضع للمراجعة والمساءلة والتقويم المستمر. والمتابع للخلايا والمنفذين يدرك أن وراءهم تعبئة ذهنية منظمة وقادرة على التكيف مع الأوضاع والسرعة في تحولات الخطاب، ولما كان الإرهاب يتطلب

تعبئة حسية ومعنوية، تعبئة السلاح، وتعبئة الأفكار، كان لزاماً على المسؤولين والمقتدرين من المواطنين أن تتضافر جهودهم لمواجهة التعبئتين:

-التعبئة المادية.

-التعبئة المعنوية.

ولما كانت التعبئة الحسية عند الإرهابيين قائمة على صنع المتفجرات، وتهريب الأسلحة، وتخزينها فإن المعنيين من المسؤولين والمواطنين أمام ثلاثة أنواع من أنواع التعبئة الحسية: - «التهريب» و«التصنيع» و«التخزين» ولكل نوع أسلوب مواجهة، ذلك على مستوى المواجهة الحسية، وهي أهون المواجهتين.

أما المواجهة المعنوية فإنها ذات شقين: - مواجهة الذات، ومواجهة الآخر، وكلتاهما تحتاج إلى تحرف متوازن. فالذات تحتاج إلى النقد والمساءلة والتقويم والتطوير، والآخر يحتاج إلى خطاب يراوح بين الإحكام والتفصيل، والمواجهة تكون بإزاء خطر قائم، وآخر متوقع القيام. فهناك مواجهة تتمثل بأخذ الحذر، وأخرى تأخذ بزمام المبادرة. والخطر القائم يكون قابلاً للنمو أو الانكماش أو الاجتثاث، وقد يتبدل من حال إلى حال، على سنن السباق بين أساليب الجريمة وأساليب المواجهة، وعلى ضوء هذه التوقعات يحتاج المسؤول إلى مراجعة مستمرة لكل أساليب الاحتياط والمبادرة، فذلك يحول دون جمود آلية المواجهة، واكتساب المناعة عند الممارسة الإرهابية. ولأن الجريمة والمكافحة في سباق مستمر، فكلما تفنن المكافح في آلياته تحرف المجرم في محاولاته فإن الوقوف في المكافحة ولو للحظة واحدة أو ارتهانها بالمقاومة المسلحة تمكن الجريمة من التحرف الماكر. وهكذا يستبق كل من المجرم والمكافح طريق النجاة. والظفر والنجاة مبتغى الطرفين، وكل طائفة تعد لهما ما استطاعت من قوة أو حيلة.

وما تعرض له رجال الأمن من قتل وما تمكن منه الإرهابيون من الإفلات والنجاة تعد مؤشر تفاوت في إعداد الخطط واتقانها، ودليلاً على تعدد الحيل للوقيعة في الطرف الآخر. وحين تتخذ المواجهة مساراً واحداً وأسلوباً واحداً، يتحرف الإرهابيون أنفسهم أو المخططون لهم من وراء الحجب لأساليب تمويهية، وقد تضطرهم المحاصرة إلى التحول من التفجير إلى الاغتيال، وقد يُضَيَّق الخناق عليهم، فَيُمارسون البيات، من ثم يتحولون من عصابات تنفذ الأعمال الإرهابية إلى دعاة على أبواب الفتنة، كما يجد المستفيدون فرصة التغرير والتضليل والتعبئة الذهنية، والجميع يتحينون فرص الغفلة أو الضعف أو خطأ التقدير والتوقيت والتدبير، فيما يتصور المتصدون لهم من رجال الأمن والمباحث أنهم قد قطعوا شأفتهم. ولهذا لا بد من تنوع أساليب المواجهة وتعددها واستمرار التوعية والمتابعة، ودخول المؤسسات الثقافية والفكرية والإعلامية والدينية طرفاً فاعلاً في المواجهة، وليس طرفا متطوعاً، وليس من المعقول أن تقتصر تلك المؤسسات على مواجهة نفسها ومساءلة بعضها. وفي تعدد أساليب المواجهة وتنوعها، وعدم الإذعان لمن يحيل على المناهج أو على الحركة الإصلاحية أو على بعض المؤسسات الخيرية بشائر خير. ومكمن الخطورة أن القبول بإحالة الإرهاب إلى المؤسسات التربوية والدعوية والخيرية يصرف المواجهة عن مسارها الصحيح. ومع أننا نصر على أن الإرهاب وافد على البلاد، وأن المؤسسات الإسلامية والدعوية والتربوية منه براء، إلا أن من الحصافة أن نأخذ كل شيء في الاعتبار، وألا تحملنا الثقة على الغفلة، إذ كل شيء ممكن، ولا أقل من الرصد والتحري، ووضع كل مؤسسة تحت المراقبة والمتابعة، والنظر في أساليبها التربوية والدعوية، فإذا سلم «المقرر» و» نصوصه» فقد لا يسلم «المنهج»، وإذا سلم «المنهج» فقد لا يسلم «الموصل» للمعلومة، وإذا سلم الجميع فقد تكون «المرحلة العمرية» للطلبة غير قادرة على استيعاب المقتضيات وتمثلها، ومن ثم لزم تحديث الناس

بما يعقلون، فسلامة المقرر والمنهج والمدرس قد يقابلها عقل المتلقي الذي أعطي ما لا يعقل، ولقد نهي حملة العلم الشرعي عن محادثة الناس بما لا يعقلون، حتى لقد عُدَّ مثل ذلك من دواعي الكفر بالله ورسوله، والدعوة المرحلية سبيل الرسل. ولقد أومأ أحد المسؤولين إلى أن «مادة العقيدة» تقع في عشر ورقات، ويمكن أن تقرأ في ساعة، ولكنها مع المدرس تظل طوال العام، فماذا هو قائل؟ إذ ما من أحد إلا وهو عرضة للخطأ أو الغفلة التي تمكن الماكرين من استغلال غفلته واختراق أجوائه، وليس بمستبعد أن يحرف الكلم عن مواضعه. ومن زكى مؤسساته وغفل، سبقه إليها من لا يهدأ له بال، ولا يقر له قرار إلا بالإفساد. وقد يعمل الإنسان لا يريد من عمله إلا الخير، وليس في نيته إلا ذلك، ولكن عمله يؤدي إلى ما سواه، وقد يندس في المؤسسات من ليسوا من أهلها، مستغلين الثقة المتبادلة ودعوى الحصانة أو العصمة. والقطاعات الأمنية والتربوية والتوعوية والإعلامية مسؤولة أمام الرأي العام عن كل ما يحصل من تقصير أو انحراف. وكل بلاد العالم معرضة للمؤامرات والمكائد واللعب الكونية، وكل مواطن على ثغر من ثغور أمته، عليه ألا تؤتى الأمة من قبله.

وإذا لم تأخذ الدولة حذرها، أخذتها المصائب من كل جانب، وليس أدل على ذلك من اختراق الحدود بأفتك الأسلحة والمتفجرات، واختراق الأفكار بأضل الأقوال. ولو كنا حذرين لما كانت الأسلحة بهذا الحجم، ولما كان الانحراف بهذه الخطورة. وصفوة القول أن تكون المواجهة حضارية متعددة المستويات، فوضع المواجهة المسلحة في موضع الحوار والتوعية مدعاة إلى مزيد من التدهور، ويقال مثل ذلك عن وضع الرأفة والرحمة والحوار موضع المواجهة المسلحة، فالمسألة مرتبطة بالأحوال، ولا يجوز الرهان على مواجهة محددة، ولكي تكون المواجهة حاسمة لا بد أن نحدد «المفهوم» و» الأسباب» و» الانتماء» فإذا وضح الأمر أمكن حسم المشكلة. وإشكالية العالم الثالث أن أموره تقضى في غيابه، وأنه لا يستشار عند حضوره، وأن خطابه نقيض إمكانياته، وأن أزماته في مؤسساته، وأن العالم المتغطرس يتخذ منه مجالاً لتصفية الحسابات واكتشاف القدرات، وكل لعبة يخطط لها، ثم لا يتقن تنفيذها، تكون مهيأة لتفريخ الإرهاب بوصفه الحل الوحيد لمواجهة التحدي.

ولا يمكن حسم الإرهاب إلا بمواجهة الذات قبل مواجهة الآخر.

التيه في التغرير والتعذير لدولة الأخطبوط .. ![1]

لا مساس فقد وقع الفأس على الرأس، والمثير أنه رأس بحجم الكرة الأرضية، بما جمع وأوعى من علم بظاهر الحياة الدنيا. وامكانياته الدقيقة العميقة الشاملة لم تحم دم الجنود الأمريكان وأشلاءهم من التدفق والانتثار في الصحاري والقفار، كأرخص ما يكون من الدماء والأشلاء، ولن يكون هذا الوضع مخاض هذه الامكانيات، ولا يمكن أن يهون عليه دم أبنائه، وهو الأنقى عنده من ماء السماء، والأثمن من كل سائل يُسيل اللعاب. وما كان لأفراد جيشه أن يُتخطفوا من كل جانب، وعلمه بدقائق الأشياء يفوق قدرة الشبكات العنكبوتية. ولو تصور الأعمى الأصم حجم الانفاق على مؤسساته: - الاستخباراتية والمعلوماتية وأقمار التجسس لقطع بأن أدق التفصيلات في حيوات الأناسي والمؤسسات والمنظمات لا تعزب عن علمه، ولتصور أن الكرة الأرضية ما هي إلا حبة مسبحة يقلبها بين أصابعه، وكيف يند عن علمه شيء من ظاهر الحياة، وهو ينفق أكثر من (ثلاثين مليار دولار) على المهمات التجسسية والمعلوماتية. ورغم ذلك ضاع دمه، وخفت هيبته في (العراق)، كما حصل من قبل في (فيتنام) و(لبنان) و(الصومال) ولم يتردد في الفرار من الزحف، وما كان فراره لتحرف ولا لتحيز، وإنما هو الفشل في التخطيط والخوف من تصاعد الخسائر. ومع المجازفات لن يكون القرن الواحد والعشرون قرناً أمريكياً كما يقول (بيارنيس) - ولنا عودة لهذا الكاتب - وأمام هذه النكسات الموجعة، والتدبير المرتبك، والحسابات الخاطئة، تستبعد طائفة من حملة الأقلام وقوع (أمريكا) في الخطأ، ولا تني في التبرير والتعذير. وما هي مع هذه الأخطاء الصارخة إلا كالعين المرمودة والفم السقيم. وصدق الله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾.

وحجة المنكرين لأخطاء التقدير والتدبير أنه من المستبعد، بل من المستحيل أن يكون تصرف (أمريكا) مرتجلاً، فهي عندهم بما وهبها الله من علم بدقائق الأمور تواجه الأشياء عبر مؤسسات استشارية، ومطابخ سياسية، وفرق عمل تصيب المفاصل، تمشي وئيداً في خططها، متخذة (استراتيجيات) طويلة الأجل، لا تعدل عنها، ولا تساوم عليها. وهي تعرف ما سيلاقيها، وكل عمل تباشره يكون لديها عنه من المعلومات ما لا تحتاج معه إلى مزيد، كما أن لديها عدة طرق، وعدة احتمالات، وعدة (سيناريوهات)، لن تفاجأ معها بمقاومة، ولن ترتبك بتمرد، ولن تتراجع من أجل خسائر تعرفها سلفاً، وخططها مرسومة، ومسارها محدد، ذلك ظن المبهورين الذي أرداهم. وإن تعجب فعجب قولهم: - إن ما يراه الناس أو يسمعون به من قتل أو تفجير أو اكتشاف تعذيب وحشي إن هو إلا بعض لعبها التي أحكمتها وتمويهاتها التي رسمتها، وكل شيء عندها محسوب ومحدد. ذلك قولهم بأفواههم، يعللون الضربات الموجعة، ويعذرون عن الأخطاء الفاحشة. وإذ لم نكن دونهم في معرفة امكانيات (أمريكا)، فإنهم دوننا في تقدير حجمها أمام قدرة من بيده أزمَّة الأمور. وأحسبهم يجهلون أو يتجاهلون، ان فوق الكون رحمن لكل مخلوق رحيم بالمؤمنين، حرم الظلم على نفسه، وجعله بين خلقه محرماً، لا يعزب عن علمه شيء، وهو القاهر فوق عباده، وهو اللطيف الخبير، رب يدبر، وقضاء يمضي: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾، لو عرف المخدوعون والمبهورون ذلك، لكانت لهم

---

(١) تاريخ المقال: ١/ ٦/ ٢٠٠٤

حسابات أخرى، لا تنكر الأسباب، ولكنها لا تسلم لها. نقول هذا ونحن نعرف الفرق بين التواكل والتوكل، ونعرف أن الأخذ بالأسباب واجب، وأن تركها دروشة، وأن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، وأن الملائكة لن تخفّ مردفة لتقاتل عنا، وألا نصر باعداد العدة والتعاون والاعتصام.

و(أمريكا) التي يراهن عليها البعض، تعيش حالة من الارتباك، تبدت في مقولات متذمرة، تفوه بها صناع القرار ومباركيه، مفادها ألا مقام لهم إذا كان الشعب العراقي لا يرغب ذلك، فيما قال آخرون نقيض ذلك تماماً. ولسنا على يقين من القرار الحاسم، غير أن ذلك كله مؤشر اضطراب. ومصيبتنا أن هذه المآسي الموجعة سوف تمر بالذاكرة العربية كسحابة صيف، كما نسيت من قبل مآسي موجعة مارسها الاستعمار: (البريطاني) و(الفرنسي) و(الايطالي).

وعذر الناس أنهم ممتلئون بمصائب حية، قد تلهيهم عن مآسي التاريخ. وعتبنا غير المُعتَب يستدعي التساؤل عمن غرر بهذه القوة العظمى، وجر قدمها إلى هذا الوحل، وعمن قام رهانه عليها، وأنها تصرف ذاتها بحكمة وروية، وأنها قادرة على حسم المواقف، متى شاءت، وكيف شاءت، وأنها مسددة الرأي في تأديب المتمردين على مصالحها، وعمن يتصور أنها جادة وصادقة في تسويق (الديموقراطية)، وفرض الاصلاح، وحماية حقوق الإنسان. فكل المغررين والمراهنين والمصدقين يقترفون تزييف الوعي العالمي عبر وسائط النقل ووسائل الاعلام، والخطيئة التي لا تغتفر أنه عندما يتحصحص الحق، وتنجلي الغمة، ينسى الكتبة والراغون ما قالوه، وما كتبوه من رهانات وتزكيات، ولا يترددون في استئناف أحاديث جديدة، هيئت لهم فواتحها. وكم قرأنا لمفكرين وساسة وكتاب مقولات قطعية، صارت هباء، وصارت سدى، وآلت إلى مزبلة التاريخ. والمؤلم أنهم يشحذون أقلامهم ليخوضوا في حدث غيره، وليدخلوا في رهانات خاسرة، يزيفون فيها الوعي، دونما خجل أو تردد. ولو كان عند أحدهم أدنى قيمة للمتلقي، لرفع قلمه، وطوى صحفه، وكفّ لسانه.

وكيف يكون الوهم أو التردد والأحداث المتلاحقة تشي بأن أمريكا تتجرع مرارات غزوها ولا تحصد إلا الكراهية ولا تواجه إلا المقاومة، وكان الأولى لها أن تفكر بالمخادعين. وكيف لا تفكر بمن يشوهون سمعتها وينصبون لها الفخاخ، ويتعمدون تدمير كرامتها وسمعتها، قبل أن يدمروا مثمنات خصومها؟ وليس أدل على ذلك من مداولات مجلس (الكونجرس) الذي يصيخ كل أعضائه لشرذمة قليلة مغروسة فيه.

والتعويل على عصابات الشر، من الحسابات الخاطئة، التي يستبعدها المبهورون، وما من حصيف ينكر خطأ أمريكا في التعويل على (المعارضة العراقية)، التي زينت لها الدخول في الحرب، وخدعتها بدعوى قوتها وتفكك الجبهة الداخلية. ومهما كان الحكم السالف سيئاً وظالماً فإن الاحتلال الأجنبي أظلم وأطغى. والفراغ الدستوري الذي أحدثه سقوط النظام، أيقظ الخلايا النائمة، ومكنها من ايذاء المحتل وخلط أوراقه، والدول المصطلية بنار الغطرسة الأمريكية وجدت الفرصة مواتية لتصفية الحسابات المتراكمة. لقد كان لاسقاط النظام أثره السيئ على العالم بأسره. والعقوق بدا بأبشع صوره، حين قال (بوش الابن): لن أكرر غلطة أبي بالتوقف دون اسقاط النظام وحسم الأمور. فيما كان الأب أصوب رأياً وأحكم تصرفاً. جاء لتحرير (الكويت)، والتف العالم من حوله، تحت هذا الهدف المشروع، ولما حررها، توقف قبل أن ينفض من حوله الحلفاء، وخرج راضياً بنجاح خطته قبل استشراء المقاومة، ولم يأخذه زهو الانتصار على كل المستويات: السياسية والعسكرية. ولو أن (الابن) سمع تحذيرات المخلصين، وجنب العالم ويلات الحروب، وجنب أمريكا كره العالم، واكتفى بمضاعفة الحصار ودعم المعارضة، لما

حصل ما حصل. ولو أنه حين ارتكب خطيئة الحرب، لم يتسرع في حل الوزارات، وتسريح الجيش، والتمكين من تسرب أسلحته، لكان في ذلك بعض التوفيق. لقد توالت الأخطاء في: انتشار الجيش المحتل في المدن والأحياء. وفي اعلان الاحتلال. وفي تشكيل مجلس حكم مرفوض. وفي العنف والأثرة، وفي التراجعات والاضطرابات، وفي العجز عن ضبط الأمن وعودة الحياة الطبيعية. وعجبي من غياب رجالات أمريكا وأساطين الفكر والسياسة عن مثل هذه التصرفات، وعلم الله أن أي حليف ل(أمريكا) لا يود لها هذا الوضع، إنها بحاجة إلى عقود لاستعادة مكانتها وسمعتها.

وبوادر الأوضاع تؤكد أن التغرير قائم على أشده، تحركه عدة قوى: مؤسساتية وغير مؤسساتية. وليس هناك ما يمنع من تعرضها للتغرير، ومؤشراته فيما يتسرب من تصريحات اسقاطية، تدل على الوقوع في مصيدته. وتمادي المغررين بالغي قائم بأبشع صوره، وها نحن نسمع بالمجموعات المتشددة في (الكونجرس) وهي تنحرف لمكائد جديدة، وهم الذين طرحوا من قبل مشروعاً لتحرير العراق، وشرعوا لذلك بحتمية القضاء على سلاح الدمار الشامل، واعادة الحرية والديموقراطية، وفك الأسرى والمساجين، وعودة الهاربين من ظلم البعث، وما شيء من ذلك تحقق. وأمام ذلك لا بد من البحث عن دوافع أخرى غير معلنة أو الاعتراف بأن دولة ك(أمريكا) يمكن أن تخدع، وبالتالي تسقط رهانات المزكين، ويصبح كل ما قيل وما حصل كذبة غير محكمة، مكنت لها أخطاء التدبير والتقدير والتوقيت. وعلى الذين يراهنون على تفوق (أمريكا) بكل شيء أن يلتمسوا لها المعاذير، ولا مجال للتبرير ولا للتعذير، فما يشاهده العالم من قتل وتفجير وتعذيب لا تمارسه الوحوش الضارية، فأين الحرية؟ وأين الديموقراطية؟ وأين الحقوق؟ وأين التاريخ النزيه؟ وأين المبادئ والمواقف؟ ومع كل هذه النكسات الإنسانية والحضارية نسمع ونرى أعضاء من (الكونجرس) لا يتحرجون من جر قدمها لمزيد من التوحش مرة ثانية وثالثة. وها هم أولاء يتحرفون لمشروع قانون جديد، خاص ب (سوريا) و(لبنان)، باسم قانون تحرير (سوريا ولبنان)، وكان حقاً أن يطالبوا بتحرير (الجولان) و(مزارع شبعا)، أو منع اسرائيل على الأقل من القتل والهدم، ومنع أمريكا من امدادها بالسلاح ودعمها بالتأييد في كل المحافل، وكان حقاً على الطابور الخامس أن يكف عن جلد الذات الإسلامية ونبش تاريخها. وإذا كانت (أمريكا) و(بريطانيا) قد خسرتا الأموال والأنفس والمعدات والسمعة في دخول العراق، فمن ذا الذي يرضى لأهله وعشيرته التورط في جناية أخرى. وعلى الرغم من كل هذه الترديات، فقد أعطى الرئيس ضوءاً أخضر لتضييق الخناق على (سوريا)، وجاء ذلك على شكل اصدار عقوبات اقتصادية. والأسلوب الفج المرفوض بكل المقاييس لن يزيد الوضع العربي إلا تعقيداً وتصعيداً، وحتى المخادعة بالاصلاح لم يتعاطف معها إلا المتعلمنون المتسطحون، وهل عاقل يقبل من دولة تحكمه أن توجه لحاجات شعبها من الخارج؟ وهل أحد يتصور أن الخطأ لا يمكن اصلاحه إلا بالضغط الخارجي؟ العالم العربي أحوج ما يكون إلى الاصلاح السياسي والاجتماعي والاقتصادي والتربوي، ولكنه بالوصاية لن يكون كما يريد المواطن، لا من حيث الصبغة، ولا من حيث الأولويات. وما جدوى الاصلاح الذي تحمل عليه الدولة كرهاً. وما الاصلاح الذي تنادي به دولة لها دينها وللآخرين دينهم، ولها حضارتها، ولهم حضارتهم إلا مسخ وانسلاخ. والشعوب المتطلعة إلى الاصلاح حين يخدعها المحتل، تكون كالمستجير من الرمضاء بالنار.

وإذا اخترق المتشددون (الكونجرس) وأضلوا كثيراً من المعتدلين، وحملوهم على الزج بمثمنات دولتهم البشرية والمادية والأخلاقية فإن اختراقات الدول الصغيرة من باب أولى. والمجموعة المتآمرة على مصالح أمريكا في (الكونجرس) تسمى من باب المخادعة

(مجموعات متشددة) والحقيقة أنها عصابات متآمرة على مصالح (أمريكا) وسمعتها، وعلى الموفين بعهدهم لها.

والتطوير والاصلاح مطلبان حضاريان، لا يجوز اتخاذهما مبرراً للتدخل. و(اسرائيل) المغروسة في الخاصرة العربية لا تريد للشعوب أن تملك ارادتها، ولا للحكومات أن تصالح شعوبها، ولا أن تصلح أوضاعها، لأن في ذلك مواجهة معها وسعياً جاداً لتقليم اظفارها. وما كانت (اسرائيل) التي غرست في (الكونجرس) عصاباتها تريد الرشاد للعباد. واقدام أمريكا على فعل عسكري أو سياسي ضد أي بلد عربي، سيمتد أثره السيئ إلى أمريكا نفسها. وها هي قد بدأت تفقد الأصدقاء والأعوان، وأخذت مصالحها تتعرض للاعتداء في آفاق المعمورة، ولن يبقى معها إلا العملاء والمأجورون، وهؤلاء غير مؤثرين، فالقبول أهم من القوة، والعدل أبقى من الظلم. ومن مصلحة أمريكا والعالم بأسره كشف هذه العصابات التي تتذرع بالشدة، وما هي في حقيقة الأمر إلا عدو متقنع، يخدم مصالح صهيونية، تضر بأمريكا وبأصدقائها، وتعرض وحدتها للتفكك. ومؤشرات افساد الأوضاع العربية، وتدمير العلاقات مع دولة القطب الواحد وجهت تلك العصابة إلى تقديم الدعم للمنظمات والأفراد داخل (سوريا) وخارجها، تحت ذرائع واهية، تتمثل بتعزيز مؤسسات المجتمع المدني، ولست أعرف كيف يكون دعم المجتمع المدني بدعم الحملة الإعلامية ضد حكومة قائمة، وتدريب فصائل المعارضة على حمل السلاح، أليس في ذلك اخلال بالأمن، وإثارة للفتن، وتحويل البلد المستقر إلى بؤرة من التوتر والصدام. وإذ نزكي أحداً، ولا ندافع عن أحد، ولا نجرم المعارضة، ولا يحق لنا التدخل في الشؤون الداخلية لأي بلد، إلا أننا نود تفهم التلويحات الأمريكية، والبحث عن المغررين بها المعرضين لسمعتها المضرين بمصالح الشعوب المتصالحة مع حكامها.

وأمام هذه المغامرات الهوجاء وتتابع الترديات، تنفست حكومة الظل وبدأت تعليقاتها اللاذعة للرئيس (بوش) ولسياسته الموصوفة بالرعونة، وحين يتقاطر المعلقون على الأحداث بطريقة ساخرة، يصل الفعل إلى طريق مسدود، وحتى رؤساء الحكومات الموالية لأمريكا، استهوتهم التعليقات الساخرة أو الشامتة، فالرئيس (الفنزويلي) طلب من (بوش) الركوع أمام الباب وطلب المغفرة من الانتهاكات، و(آل جور) يسخر من (بوش)، ويصف تعذيب السجناء بوصمة عار على سمعة أمريكا، وتهافت القادة والزعماء والمعارضين على اجترار الكلمات الشامتة دليل على أن اللاعبين الاذكياء فوتوا لعبهم على دولة المخابرات والاستخبارات والأقمار الصناعية لجمع المعلومات. وواجب العالم العربي انتهاز الظروف، والنفاذ من هذا الواقع المتوتر، فالأمة العربية متخمة بالمصائب مثخنة بالجراح مفعمة بالأزمات، ومصلحة الشعوب في الحِلم والأناة والسكينة، ولن يتحقق شيء من ذلك إلا بوحدة الصف والهدف، وتنقية الأجواء، وتفعيل المؤسسات، ومصالحة الشعوب، والسعي بمصالحها، ومبادرة الاصلاح، وتلافي الأخطاء، وفضح المرجفين والمخذلين، والاعتصام بحبل الله المتين لدرء الخطر القادم، خطر التآمر من داخل (الكونجرس)، فالمسألة ليست مسألة تشدد، ولا مسألة تعصب كنسي. المسألة مسألة ابادة للإنسان العربي من خلال التغرير بدولة ليست لديها الخبرة الكافية بأوضاع الشعوب الرافضة للاحتلال. إن الوجود العسكري على أي أرض عربية يعني تفجر الأوضاع، واستشراء القتل العشوائي، وأمريكا خارجة من المنطقة عاجلاً أو آجلاً، ومن الخير لها أن تدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله.

عندما نفجع بالنخبة أو نخدع بالمتنخوبين .. ! (١) [(١)]

لكل فجيعة أو خديعة مؤشراتها، فالنخبوي حين تتشابه عليه القضايا ثم لا يعرف حمى الله ورخصه. والمتنخوب حين يتمظهر بالتماس مع الثوابت، ولا يتحرج من نسف المسلمات، أو حين يتباهى بتجريح العدول من صفوة الصفوة، تقع الأمة تحت طائلة الفجيعة والخديعة: فجيعتها على حماة يعطون الدنية في الدين، وخديعتها بأحداث يخوضون في آيات الله بغير علم. وليس من الفجيعة، ولا من الخديعة مراجعة الأقوال، ولا تعقب الأفعال، ولا الأخذ والرد عن بصر وبصيرة. فكل عالم مجتهد يؤخذ من كلامه ويرد، وكل مسؤول قصَّر أو تجاوز، يجب أن يوقف ويُسأل. ولقد قالها عمر:- (لا خير فيكم إن لم تقولوها، ولا خير فينا إن لم نسمعها). وما أضر بالأمة إلا التصنيم والتعذير والسكوت عن المريب. وكم نود ألاّ يتصورنا المصطلي بنار تأوهاتنا مسلِّمين لقول، ولا مصنمين لقائل، ولا متسامين بمسؤول فوق المراجعة والمساءلة. وكم نود ألاّ يحال امتعاضنا وتفجعنا إلى ماضوية ترفض الجديد، ولا إلى فَرَقٍ يهاب الاقدام، ولا إلى تردد يفوت الفرص، ولا إلى مداهنة تزين سوء العمل، ولا إلى جهل بالمعارف والمقتضيات والمقاصد. فنحن مع النقد والمساءلة، والتجديد، والتجريب، ولنا تواصلنا ومتابعتنا للطريف والتليد عبر كل مصادر المعرفة. نستشرف المستقبل، ونعطوا إلى وارق الحضارات، ونرفض التشبع والادعاء، ونتأبّى الارتماء في أحضان الغير، ونتحفّظ على المسخ والتمييع. وفي الوقت ذاته نحترم المسؤولية، ونقدِّر المسؤول قدره، ونفرق بين الممكن والمستحيل، والواقع والمثالية، والتوازن والميل. وكل ما نحن عليه أننا نمقت المجازفة في التجهيل، ونرفض الإيغال في التسفيه، ونشمئز من الإمْعان في التجريح، ونبرأ من الجرأة على ضرب الثوابت، ونعيب اجترار ما قد فرغ من قوله المستشرقون، ومن والاهم من المستغربين. وما أضرَّ بالأمة إلاّ تعالم الجاهل، وتعجّل الصدارة من غير ذوي الأحلام والنهى. ولكل زمان أغيلمته المندفعون، وكهوله المتصابون، الذين يربكون مسيرة الأمة، ويُصدِّعون تلاحمها، ويهددون وحدتها الفكرية. ولكل أغيلمة طرائقهم في التوهين، وآلياتهم في التصديع، ورؤيتهم في تصوُّر الحرية والحقوق. وفهم الأشياء على غير مراد منشئها وقوعٌ في الفتنة. وكم حذَّرنا الرسول - ﷺ- من الأحداث والأغيلمة، كقوله: - «**هلكة أمتي على يدي غلمة من قريش**»، وكأنه يرى مغامراتهم عبر حقب التاريخ رأي العين.

وحين لم يتأدب المتحدث مع رسول الله ﷺ طلب أحد الغيورين من الصحابة التنكيل به، إلاّ أنّ الرسول ﷺ نهاه، مبيناً ما سيخرج من ضئضئة من نوابت سوء، نحقر صلاتنا وصيامنا عندهم، يحفظون القرآن، ولكنه لا يبلغ تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، لا يحملون أثراً، ولا يمتثلون أمراً. وما من متجرىء على حيازات الأمّة إلاّ ويكون فيه شبه من أولئك، ويكون وراءه من يمده بالغي، ويمكّن له في مسارح الفكر، وفوق أنهر الصحف، وعبر قنوات البث، وهم الدعاة الذين أخبر الصادق الأمين أنهم على أبواب جهنم. وإذا طُلِّت طائفة من هذه النوابت، قامت طائفة أخرى، تقول هجراً، وتفعل نكرا، ووجدت من يعذر لها، ويخذِّل الغيورين الناصحين، بحجج واهية، ومبررات مكرورة: كحرية التعبير، وحق الاجتهاد، ومشروعية الاختلاف، دون ضابط أو شرط أو إمكان. والمتابع للمغررين والمستجيبين يشمئز من أساليبهم في التغرير ومن سرعة الاستجابة لهم على كل المستويات. فإذا سمعوا قصيدة معوجة، أو قرؤوا قصة

---

(١) تاريخ المقال: ٨/ ٦/ ٢٠٠٤

ملتاثة، أو بدههم رأي فطير، أو تعقبوا فكرة فجة لأحداث مبتدئين، طاروا بها فرحاً، وأسبغوا عليها من الثناء ما لم تأذن به أصول المعارف. وها قد حصحص الحق، وظهر ما كانوا يخفون من زائف القول. وما يقال على مدرجة الفن، قيل ما هو أقبح منه في سوح الفكر ومطارح السياسة، وفي كل يوم تسقط أقنعة، وتحاك أخرى، والأمة تتجرع مرارات المقترفات من أبنائها.

والمتابعون للتاريخ الفكري، يقفون على محطات زمنية يعرفها الخبيرون من لحن القول، حتى يقول المسكونون بالهم والذين معهم: - إنّ التاريخ يعيد نفسه أو يكاد. ويكفي المرء توثيقاً أن يستعرض أطرافاً من تاريخ (الخوارج) و (المرجئة) و (المعتزلة) ثم ليقفز إلى التاريخ الحديث، ليشهد مصارع الحرية والحقوق على يد قادة الفكر والأحزاب والمنظمات، وليرى كم تلاقي الأمة من متناقضات صارخة وتحديات سافرة. وإذا كان لكل نحلة منهجها، وآلياتها، ومقاصد تأويلاتها، وقواعد مذاهبها فإنّ أغيلمة العصر لا يحسنون إلاّ الهدم، والتفلت، وما لأحد منهم مذهب محدد المعالم. وكيف يواتيهم الانتحال ومبلغهم من العلم أقل من أن يثبت أقدامهم على مدرجة، ولا أن يوجه أفكارهم إلى نحلة، فما هم إلا أصداء باهتة لمقروئهم الآني. ولأنهم قد يجهلون نواقض الإيمان، ويفقدون آداب الحوار، وتخفى عليهم مسلمات الحضارة فإنهم يقعون في الحمى من حيث لا يعلمون. والمتقرىء للتاريخ الحديث في تنوعاته وتقلباته: السياسية والفكرية والأدبية والاجتماعية يسمع حسيس مذاهب: ماركسية ووجودية وعلمانية وحداثوية واجتماعية، تلقتها عرابات من ملل ونحل شتى، لا تدري ما الإيمان ولا الكتاب ولا الثقافة ولا الأنساق، ومن ثم فرقت كلمة الأمة، وكدرت صفو منابعها. وهل أحد لم يتأذ من ترديات الأحوال، واستفحال الهوان؟.

والقراءة المتأنية المتأملة لفيوض هؤلاء تؤكد أن بين أظهرنا من يقتفي آثار تلك المذاهب حذو القذة بالقذة، دون وعي لمفاسدها، ودون إدراك لمناقضتها. يعنفون حتى يكون الدم كالماء، أو يلينون حتى يكون النسك والفجور سواء، أو يتعقلنون حتى لا يكون للنص مكان، أو يتسطحون حتى لا يفعِّلوا نصاً ولا يطلقوا عقلاً. والمتقمصون لهذه الظواهر يقترفونها عن قناعة واعية أو عن تقليد إمعي. وليست مصائب المشاهد في استعادة التاريخ القديم أو الحديث وحسب، ولكنها في التخلي الطوعي عما يصلح الأمة، ويجمع كلمتها، والارتماء التبعي في أحضان الآخر، بحجة أنه المنقذ من التخلف والهوان. وظنّهم الذي أرداهم تصورهم أنّ الإسلام عوّق المسيرة، وشرعن للعنف ومهّد للضعف والتخلف. وإذ نتوقع مثل هذه الآراء من ذوي الضغائن، ولا نستغربها من اليهود والنصارى المصرين على اتباع ملتهم، فإننا نمتعض من تداولها عبر ألسنة أبناء جلدتنا وأقلامهم، ولو أن نقمتهم على تراث أمتهم وقبولهم الحسن لما عند الآخر أقال عثرتهم، وجبر كسرهم، لقلنا فضلوا النقد على النسيئة، ولكن تهالكهم المزري ما زادهم إلا ذلة وهواناً وسخرية من الذين استعبدوهم. والراصد الحصيف يعرف أن التاريخ السياسي والفكري الحديث مرَّ بدعوات جادة، تحيل إلى المشروع الغربي بعلمانيته المارقة أو إلى المشروع الشرقي بماديته الملحدة، الأمر الذي عرض الأمة للتخبط، وحرمها من هداية الله إلى صراطه المستقيم، وعطَّل فيها إمكانية الابتكار والمبادرة. وما من فترة زمنية إلا خلا فيها من يفسد فيها، ويسفك المكتسبات على كل المستويات: الفكرية والسياسية والحضارية والتربوية والأدبية والاجتماعية. وكأن هذا التنوع أريد له أن ينقض عرى الإسلام عروة عروة. وفي عصر العلم وثورة الاتصال انبجست أكثر من عين، وعرف كل أناس مشاربهم الفكرية والمدنية، إلا هذه الأمة التي لا تشرب إلا كدراً وطيناً، كما استبدت كل أمة بشأنها إلا هذه الأمة التي يقضى أمرها غائبة ولا تستأمر عند حضورها،

ويا ليت نخبها إذ زهدوا بقيمهم جاد عليهم عدوهم بما يحييهم. وما من دعوة بائسة مسترفدة إلا ولها كتَّابها وصحفها ومشاهدها التي تمثل بشاعة العائل المستكبر. وما زاد التهالك أمة الإسلام إلا ثبوراً وتتبيباً. ومع أزمة الابتكار والإنتاج لا يُحسن العائلون المتكففون إلا التناحر فيما بينهم، والتطاول على رموز أمتهم، والولوع بخطابات الاحتدام والحدية. ولو أن التناقض والتناحر والاختلاف كان حول المتغيرات، لما سيئت وجوه المهتمين بأمر الأمة، ولكنه مستحر حول الثوابت التي لا يستقيم أمر الحضارة إلا بها. وما أصيبت الأمة في مفاصلها إلا ممن لا يعرفون نواقض الحضارة، ولا يميزون بين ثوابتها ومتغيراتها، يقولون في الحريات والحقوق عن غير علم، وبدون ضوابط، الأمر الذي زجّ بالأمة في متاهات الفوضى والضياع.

فدعاة الحرية لا يقفون عند حد، ودعاة التسامح لا يتمعرون من مقترف، ولا يردون يد لامس، ودعاة الوسطية لا يلتزمون بمقتضياتها، والمتنطعون لا يسدون الذرائع، ولا يدرؤون المفاسد وحسب، ولكنهم يغلقون الطرق، فلا يبيحون زينة، ولا يحلّون طيّباً من الرزق. وهكذا تضيع الحقائق والقيم بين تناقض المواقف، واضطراب المفاهيم. فالمتفلتو ن لا يتحرجون من شيء، ظناً منهم أن التسامح لا يتحقق إلا بالمودة والمداهنة والموالاة والهرولة والتطبيع والتمييع واستمراء العهر والكفر. والمتنطعون يقولون على الله غير الحق، ودعاة الحرية المطلقة لا تتحقق عندهم حتى يكون من حق المتكلم أن يقول ما يشاء فيما يشاء متى شاء، وحق الفاعل أن يفعل ما يشاء على أي شكل شاء. ولهذا تجدهم يتهمون الوقافين عند حدود الله ب(الإقصاء) و (الأثرة) و (السلطوية) و (المصادرة)و (الماضوية) و (الرجعية)، يسفِّهون ذوي الأحلام، ويجهلون ذوي الأفهام، ولا يملكون أدنى حد من أدبيات الحوار. وما علموا أن لكل حضارة ثوابتها ومتغيراتها ومحظوراتها ومباحاتها، وأن لكل حضارة مساحة مشتركة تتداخل فيها مع الحضارات الأخرى، وتمكن المستشرفين للمستقبل من الاشتغال في مساحات التقارب والتحاور والتلاقح والتقارض، وأن هناك حضارة ومدنية وعلماً وفناً وفكراً. وأن الحضارات تشترك في المدنية والعلم وفي شيء مما سواهما، فيما تبقى الخصوصيات في الفكر والفن، والتباين في العقائد والعبادات والمعاملات. وما علموا أن الحضارة لا تكون إلا حيث تكون المغايرة، وليس شرطها الصدام ولا الوئام، وليس من مقتضيات أي حضارة سرمدية التعايش والتصالح، فالصراع أكسير الحياة، وتلك الأيام يداولها الله بين الناس. ومتى أمكن السلام فلا مكان لغيره. ومن الفجيعة والخديعة أن ندع العلم التجريبي، والتقنية المتطورة، وإعداد المستطاع من القوة الرادعة، ونتلقى فيوض الآداب والأفكار والسلوكيات. وما مثلنا في هذا التناقض العجيب إلا كمثل من يأكل إذا عري، ويلبس إذا جاع. وما ترانا في أسواقنا وبيوتنا إلا مقلدين مستهلكين.

والذين يلوون ألسنتهم بالمقولات المستفزة في الفكر والأدب والسياسة يدعون أنها من عند أنفسهم، وما هي إلا ناتج اختلاس غبي وحديث في المسكوت عنه عفة أو حرمة ليكونوا بهذا الاستدعاء أصداء باهتة ممجوجة لطائفة من المفكرين المعاصرين الذين بنوا أمجادهم على أشلاء أمتهم، حتى لكأنك تستذكر بمقولات من لا يستحون ما كان قد قاله من قبل (الجابري) في مشروعه عن العقل العربي، في تكوينه وفي بنيته أو في كتابيه: (إشكاليات الفكر العربي المعاصر)و (الخطاب العربي المعاصر)، أو ما قاله (العروي)في مشروعه عن مفهوم الدولة والحرية والقومية، أو ما قاله (حرب) في نقده لمجمل الخطابات، أو ما قاله (العالم) أو (حنفي) أو (غلوم) أو (الأخضر) أو (حسين أمين) في كثير من قضايا الأمة بغياً وعدواناً، ودعك من أساطين الحداثوية ك (أدونيس) و (أبي زيد) ممن لهم وعليهم، أو ممن عليهم وليس لهم. وحتى بعض هؤلاء ترى فيهم ملامح

(طه حسين) في منهج الشك ومستقبل الثقافة، وضغائن (سلامة موسى) في صليبياته الحاقدة، وانفلات (قاسم أمين) في اجتماعياته، وعمالة (عبد الرازق) في سياسياته، وضلالات (أبي ريه) في ظلماته، وماركسيات (خليل عبد الكريم) في تاريخياته. وليس لأحد من أولئك الأغيلمة إضافة ولا مبادرة ولا استقلال، ولا أخذ محكم لا يتجاوز التناص إلى الاختلاس. ولا ينخدع بالمختلسين إلا الذين قصرت أخادعهم وخطواتهم عن أن يلحقوا بأساطين الفكر الإسلامي الأصيل أو يطاولوهم، ولما يعرفوا رموز الفكر المنحرف، وأساطين الحداثة الفكرية، وفلول الوجودية والماركسية، وبقايا الصليبية الحاقدة. وما أتاح لهؤلاء المتذوقين فرص الركض في فجاج الفكر والسياسة والدين إلا مثقفو السماع الذين لم يؤصلوا لمعارفهم، ولم يحرروا مسائلهم. والمؤسسات الثقافية والإعلامية بحاجة إلى مفكرين خبروا دواخل الفكر المادي ومنطلقاته، وعرفوا غثه وسمينه، وتابعوا استدعاءاته ومبادراته، ليأخذوا بحجز المتهافتين قبل أن تعريهم المشاهد، وينبذهم الرأي العام، وتخسرهم أمتهم. فكم من طُلعة توسم فيه المتابعون الخير، تقحم الحمى، فكان أن شاهت ملامحه. وكم من مجازف أوغل في النَّيل من رموز الفكر، فأدان نفسه، وأطفأ وهجه، وكم من متجرىء على المقدسات والمنزَّهات والقطعيات أردته جرأته، فعاش ذلة الخوف والهجر، وانطوى على نفسه.

والتعديات السافرة على فكر الأمة وعلمائها الذين أجمع السلف والخلف على عراقة أقدامهم في العلم وسلامة مقاصدهم، لا ترضي إلا مرضى القلوب. وصلاح الأمة وإصلاحها في تجديد خطابها والأخذ بأسباب الحضارة والمدنية ومراجعة المنجزات الفكرية لا تقتضي الإيغال في التجريح، ولا الإمعان في السخرية، والأمة بحاجة إلى من يحميها من دخن الفتن، لا إلى من ينبش عفن التاريخ، ويحيل ضعفها إلى ماضيها. ولا يتحقق ذلك إلا بالوعي، والوعي يتحقق بفقه القضايا، وفقه الواقع، وفقه الأولويات. فلا يكون حكم إلا بعد تصور، ولا تكون رؤية إلا بمعْرفة قَدْر، ولا يكون أداء إلا بترتيب المهمات. وقادة الفكر ورواد النهضة وزعماء الإصلاح سبقوا إلى التفقه قبل التسود، ولقد قالها عمر: تفقهوا قبل أن تسودوا.

عندما نفجع بالنخبة أو نخدع بالمتنخوبين .. ! (٢) [١]

وإذا كانت الأمة قد تأذت من البغاة المفسدين في الأرض، فإنها متأذية- ولا شك- من حملة الأقلام الذين يتخذون المضلِّين عضداً، وأكثر تأذياً من المتنطعين الهالكين المميتين للدين، وانحراف الفكر أخطر من انحراف الفعل، ذلك أن فلول الإرهاب تموت بموتهم ضغائنهم وأفعالهم المستنكرة، أما أصحاب الفكر المنحرف فزهاق أنفسهم لا يمتد إلى ما خلفوه من آراء وتصورات ومواقف، و (الكلمة) و (الرصاصة) تنطلقان: هذه من فوهات البنادق، وتلك من أفواه الأناسي، فإن أصابت الرصاصة هدفها آذت، وإلا ضاعت في التراب، أما الكلمة فهي باقية ما بقي الكتاب.

وما من إرهاب مسلح، إلا وله حواضنه ومنطلقاته: الدينية الغالية، أو العلمانية المتطرفة، أو الفكرية المنحرفة، أو الثورية الطائشة، أو اللعب الماكرة.

وحسبك داءً ما ترى الأمة عليه في الراهن، وفيما هو آت من فتن تموج كموج البحر، مما يهدد أمنها ووحدتها: الوطنية والفكرية. وكيف لا يخيف الواقع و(الفتيا) وهي آلية دينية ضرورية كادت تكون مصدر التضليل والتأزيم، وحلقات الدرس ومجالس الذكر خيف من عقابيلها، وكما ارتاب الناصحون من التجمعات التي لا يرقبها راسخ في العلم، وقاف عند الحدود، مدرك للمقاصد، يفقه الواقع، ويختار أيسر الأمرين. وحتى كاد يقع في مشاهد الفكر ما وقع فيه اليونانيون مع آلهتهم، يقدسونها في طقوسهم، ويسخرون منها في تمثيلهم، وذلك ما وقع فيه مردة الروائيين الذين وتَّروا أعصاب الغيورين. وما من متعالم حدث إلا يعد نفسه ابن بجدة: الدين والفكر والسياسة. ولم يعد غريباً أن نرى قارئاً يتهجى أبجديات المعارف، تستزله الدهماء بالمكاء والتصدية، بحيث لا يجد حرجاً من القول في القضايا المصيرية بما لم يأذن به الله. وإذا قيل لهم: - ليس هذا العش عشكم فأدرجوا، لاذوا بدعوى التعبير وحق المشاركة. وما عرفنا في تاريخنا الفكري والسياسي أن الناس سواسية إلا في الحقوق والواجبات. أما في المسؤوليات فإن لكل مجالٍ رجاله، وأما في التخصصات فإن لكل علم أهله، وآيات نفور الطوائف وسؤال أهل الذكر، والنهي عن قفو ما ليس للإنسان به علم ضوابط ومعالم، نسيها الناس فنسيهم السداد والتوفيق.

وأخطر ما تواجهه الأمة الفهم السقيم ل (الحرية) و (التسامح) و (الاجتهاد) و (الوسطية)، و (سد الذرائع) و (درء المفاسد)، ولقد أشرنا لهذه النقائص أكثر من مرة، لكونها مصدر كل انحراف. فكل متقول أو متأول أو متفسخ يحيل إلى حقه في حرية القول والفعل والاجتهاد وفُسح التسامح. ولو سألته عن: حدود الحرية، وشرط الاجتهاد، ومفهوم الوسطية، لم يحر جواباً. وأكاد أصاب بالغثيان حين تجمعني الظروف السيئة بطائفة من المتصدرين للقول في الشأن الديني والفكري والسياسي، ثم أنزلق من حيث لا أريد بمجادلتهم حول بعض القضايا المتعلقة بحرية التعبير، وحق القول في الشأن السياسي أو الديني. وكيف يتصور الإنسان نفسه تصوراً صائباً، وهو يتقحم كل جدل، ويقول في كل قضية، ويحكِّم نفسه في كل مسألة، يكون فقيهاً وعالماً وسياسياً ومفكراً في آن، وكأن الله قد جمع فيه كل شيء، حتى صار من آياته الكبرى.

ومما يؤذي المتأنين والمتثبتين أحداث مبتدئون، يبتسرون الأحداث من سياقاتها، ثم يلوون ألسنتهم بالقول فيها بمعزل عن ظروفها. أو ينظرون إلى الحدث الإقليمي الآني المعروف بكل ملابساته نظرة تعميمية، لا تشفي نفساً، ولا تبرىء سقماً، وقد يجنحون من التحديد إلى التمييع، ومن الحكم الناجز إلى الوعظية المترددة، مستبعدين احتمالات اللعب

---

(١) تاريخ المقال: ١٥/ ٦/ ٢٠٠٤

السياسية، والغزو والتآمر، مؤكدين على إدانة الذات، وتزكية الآخر، والثناء عليه، والتصديق بدعوى تحرير الشعوب، وجلب الديمقراطية، وإصلاح البيت العربي. ومعولهم في كل ذلك فيوض الإعلام، والمتداول من الدعاوى الزائفة. وما يدري أولئك أن ما يقال في العلن، يختلف عما يدور في (اللوبيات) وما يدار وراء (الكواليس). وما علموا أن ما تنطوي عليه الوثائق السرية نقيض ما تفضي به اللقاءات والمؤتمرات. وكل فعل متقنع بزيف الادعاء تمتد عروقه إلى طينة اخبال، طينة السياسة. وتاريخ الاستعمار الحديث لم يدع رذيلة إلا كان له منها أوفى نصيب، ومهما تعددت المسميات فإن الاستعمار واحد، وما الدول الكبرى في تبادل الأدوار إلا كمثل المصارعة الثلاثية أو الرباعية، يجول اللاعب حتى تنهكه اللكمات، فيلامس كف صاحبه، ليقفز إلى الحلبة مسدداً الضربات إلى الضعفاء والمساكين من أبناء العالم الثالث. وكم تجرع عالمنا المنهك بفعل أبنائه مرارات الاستعمار التقليدي الغابر، وها هو اليوم يسفُّ الملَ من جولة جديدة، ومن يدري فقد تتلقف (الصين) الراية من بعد، فقضاء العالم العربي أن يظل مسلوقاً بألسنة ابنائه الحداد، مثخناً بتداعي آلية المستعمر عليه بحيث أصبح إنسانه هدفاً وأرضه ميداناً ومقدراته فيئاً، فكأنه طريدة لذاته ولغيره. وليس التناوش بالكلمات أقلَّ خطراً من التناوش بالسلاح، والمتداول في مشاهد الإعلام وميض نار قد يكون لها ضرام.

ومصائب الأمة تتداعى عليها، كما القصعة والأكلة، وأغيلمتها كما (براقش) التي تجني على أهلها. وليست مصائب الأمة قصراً على المتعلمنين والمتحدثنين و (المتردكلين) وإنما هي من هؤلاء، ومن كل متطرف موغل في انتمائه بغير رفيق، متعصب لمذهبه دون موارية متعنصر لعرقه دون تواضع. والمتقصي لتاريخ الملل والنحل وسير أعلام النبلاء عبر التاريخ الحضاري للإنسانية كافة يقف على محطات بلغت فيها الحدة والحدية أقصى حالات التوتر. وما من متابع حصيف ينكر أن طائفة من (الإسلامويين) يستمرئون الحجر على التفكير، ويتعشقون التضييق على الخلق، بدعوى (السَّدِّ) و (الدرء)و (التورع). وإذا كنا نتأذى ممن يحيلون إلى النص الإسلامي المبتسر أو المؤول على غير مراد المشرِّع فإننا لا نقبل ردور الفعل التي تذر الإسلام كالمعلقة باسم الحرية والتسامح، أو تأخذه بجريرة المسلم الذي لم يفهمه على مراد الله. وما نسمعه من امتعاض واتهام للإسلام ومنظماته ومؤسساته ينذر بخطر يتربص بالأمة، فاستدعاء الإسلاميين ومناهجهم ومنظماتهم وروابطهم وجمعياتهم عند كل خطأ أو خطيئة انتهاز دنيء للفرص، ومسايرة غبية للمتماكرين، ومزايدة رخيصة. والمنصف من يحاسب كل الأطراف: إسلامية كانت أو غير إسلامية، فكرية أو سياسية، اجتماعية أو أدبية (مؤدلجة)، ومن لا تأخذه بالحق لومة لائم. فالأمة مطعونة بمدى أبنائها: المتأسلمين والمتعلمنين والمتحدثنين، وبمدى أعدائها المتغطرسين على حد سواء. ولا يقيل عثرها إلا العقلاء المنصفون الواثقون بنصر الله، الذين يملكون الشجاعة والإرادة لقول ما لهم وما عليهم، ولا يخافون من النقد الذاتي ولا من محاسبة النفس.

وكل معجب برأيه، متخذ إلهه هواه، قاطع بصحة ما يقول وخطأ ما يقوله غيره، لا يزيد الوضع إلا سوءاً وتعقيداً، وهذا ما نراه ونسمعه ممن ينهون عن السوء ويقترفونه، ويدعون إلى الحوار الحضاري ثم لا يحسنونه. وحاجة الأمة إلى علماء متبحرين، ومفكرين متمرسين، وساسة معتدلين، يحقون الحق بالرفق واللين، ويجادلون، أو يدفعون بالتي هي أحسن، ينشدون الحق، ولا تعنيهم الغلبة. ومن أراد الانتصار على غيره، وأخذته العزة بالإثم، فحسبه مزبلة التاريخ. وما أكثر المحتدمين والحديين الذين يعدُّون أنفسهم كما الرعاة الذين لا يتحرجون من أن يهشوا بعصيهم الخاصة والعامة، وكأنهم أوباش لا تكفيهم الإشارة، بل لا بد من أن يضربوا بالعصاء. ومع إسرافهم في جلد الذات

يرمون الآخرين بدائهم، ومن المقت الكبير أن تنقم من غيرك ما تفعل، تدعو إلى الحرية ولا تمنحها، وتطالب بأدبيات الحوار ولا تتحلى بها، وتخطىء المُقْصين والمهمشين، ثم لا تجد حرجاً في إقصاء المخالف وتهميشه.

وطالب الحق يفتح أبوابه ونوافذه، يحترم التعددية واختلاف التنوع، ويقول لكل صاحب قضية يتفق معه في الحضارة والمرجعية: - هلم إلى المحجة البيضاء، نرد إليها، ثم لا تكون لنا الخيرة بعد قضائها. ويقول لكل صاحب قضية يختلف معه في الحضارة والمرجعية، ثم لا يؤدي الاختلاف إلى قتال ولا إلى إخراج من ديار ولا إلى مظاهرة: - لكم دينكم ولي دين. وإذ لم يفرط الله في الكتاب من شيء، فقد وضع معالم في الطريق إليه. فعند الاختلاف في قضايا الفكر والدين أوجب الرد إليه وإلى رسوله، وقال وقوله الحق: ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ ولم يقل: كما ترى أو كما تهوى. وفيما يتعلق بأمور الدنيا جعل الرد إلى الأدرى بأمورها، وفق المقاصد الإسلامية. ومتى انبهمت الأمور جاء التوجيه الرباني: - ﴿ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾. ولا يستقيم أمر الفكر والدين والسياسة إلا بالاتفاق على المنهج والآلة والمرجعية. وحوار الطرشان الذي نعيشه في كافة المشاهد مردُّه إلى الدخول في حلبة الصراع بعواطف جياشة، وبضاعة مزجاة، وادعاء عريض، وتعالق متناقض، واعتماد على الجاهزيات. والمتقصي للمتصدرين ممن عَدَت عيونهم للأضواء، لا يراهم إلا نقلة لا يحسنون الانتقاء، ولجوجين لا يحسنون إلا الضوضاء. وإذا توفر القوي الأمين على فضلة من الجهد والوقت والرغبة وفكك مقولاتهم، وجدها عبارات مبتسرة من مقروء آني. ف (الأحداث) يبيتون ليلهم يقرؤون في كتب الفكر الحديث، حتى إذ أشرقت الشمس بنور ربها، أطلقوا العنان لأقلامهم، لتعيد إلى الناس ما كنوا قد قرؤوه، ولم يفهموه.

فالذين يطالبون بحرية المرأة وعملها وحقها- على سبيل المثال- لا يضعون أي ضابط، ولا يحيلون إلى أية نحلة. ولو قلت لهم: هلموا إلى ضابط الإسلام، لقال قائلهم: - من هنا أتيت المرأة. فكيف نقبل ب (القرار) و (الحجاب) و (القوامة) و (التعدد) و (الإشهاد) و (الإرث) و (نقص العقل والدين) و (الضلع الأعوج) و (الهجر) و (الضرب) و (الرجم) و (المُحرَم) و (الولي).

وإذا تحفظت على تهافتهم على التجربة الغربية، قالوا: - وماذا في التجربة الغربية، لقد تصدروا العالم، واسترهبوهم، وجاؤوا بعلم عظيم، وكأن الكاسية العارية المائلة المميلة هي التي أنجزت العلم والحضارة. لقد غفلوا أو تغافلوا عن امتياز كل حضارة، وعن قدر التفاعل بينهما، وعما يجوز أخذه. ومن سلم للقطيعة كمن سلم للخلطة، وما أردى الأمة في مهاوي الهلكة إلا الإفراط أو التفريط، وإلا الحدية أو الاحتدام. وليست (قضية المرأة) التي اختلف الصحابة حولها، ولما تزل في اتساع وتعقد هي القضية المستباحة، فكل قضايا الأمة مستباحة، يقول فيها الجهلة والمبتدئون، وكل متحدث يحيل إلى الحق والحرية.

وليس بمستغرب أن نصاب بالغثيان من أغيلمة طالت أذيتها سلف الأمة وعلماءها، دون تحديد للمؤاخذة، أو مناقشة علمية لأوجه المخالفة، وما كنا ممتعضين من قراءة التراث، ولا متخوفين من عنصرة الخطاب، ولا رادين عن مراجعة المنجز العلمي. فكل الناس خطاؤون، ورحم الله من تدارك على العلماء أخطاءهم، وحرر الراجح من الأقوال، وتخوفنا ممن يترسمون خطى الكنسيين في الهيمنة أو خطى المصلحين في العلمنة. والمؤسف أن المستفزين للرأي العام يجدون من يستقطبهم من صحف الإثارة وقنوات

الضرار والإضرار. والأدهى والأمر أن المحيلين إلى تجربة الغرب يمجدون عدله، ويتغنون بحريته، ويتباهون بتحضره، ويجرمون مقاومته، ويمتعضون من رفض احتلاله، ويسفهون المتحفظين على أهدافه ونواياه، على الرغم من أنهم يتجرعون مرارة ظلمه وعدوانه وإفساده، ومكمن فساد رؤيتهم انهم يخلطون بين مبلغه من العلم التجريبي وما يوفره لذويه من حرية وعدل ومساواة، وما هو عليه من فساد في الأخلاق، وانحراف في الفكر، واحتقار لغير إنسانه، وتعد على حقوق الغير، وظلم وإفساد، والله لا يحب الفساد، وينهي عن التظالم. ولو فصلوا القول، وعرفوا ما له وما عليه، لكان خيراً لهم. وإذا كانوا يدينون التاريخ الفكري الإسلامي أو السياسي بسبب وقوعات وأحداث عارضة، فإننا نقدمهم في ذلك، وما نبرىء تاريخ المسلمين من تجاوزات وإخفاقات لا تحتمل. ولو أنهم قاربوا الصواب وتمثلوا المقاصد، لما آلت أحوال الأمة إلى هذا الوضع، ومن العدل تعقب الحضارة المهيمنة واستقراؤها بما هي عليه من مبادىء منحرفة، وتعد سافر وتسلط جائر، وبغي عنيف. وليس ما يفعله الغرب من الوقوعات الخاطئة، ولكنه من أجل المصالح الجائرة، إن هناك فرقاً يجهله أو يتجاهله البعض بين (فساد المبدأ) و(خطأ التطبيق). فتاريخ المسلمين مليء بالوقوعات الخاطئة التي لا تتحملها المبادىء الإسلامية، فيما نجد أن المبادىء الغربية تفرز الأخطاء والتجاوزات، وليس أدل على ذلك من التعديات المتعمدة على القيم والمبادىء الإنسانية، وهي تعديات لا تحال إلى أخطاء الممارسة، وإنما هي متطلبات (استراتيجية)، وما عذابات الشعوب الإسلامية إلا شاهد إثبات لمن ألقى السمع وهو شهيد. وإذا أباح البعض لنفسه استدعاء حادث قتل أو جور أو سوء تصرف في التاريخ الإسلامي، وتلك أحداث قد لا نعرف أسبابها وملابساتها- والتاريخ كما نعلم لا يكتبه إلا المنتصر- فلماذا لا يمتعض أولئك من القتل الحي الحاضر المرصود بالصوت والصورة، مما يتعرض له العلماء والقادة الأبرياء من شيوخ وأطفال ونساء. وهل من بشاعة ووحشية وإذلال يعدل حصد الأسر الهاربة من لهيب القصف العشوائي؟ وكم من أسْرة ذاهلة إذا اقتربت من المنافذ أمْطرها المدججون بالسلاح بوابل من الرصاص.

وأي بشاعة ووحشية تعدل ذلك؟ ودعك من تعذيب الأسرى والمساجين، مما اعترف به المقترفون. فأين هؤلاء من هذه الأحداث؟ لقد قتل في شهر واحد ألف عراقي، وجرح أربعة آلاف، وكأن الشهداء المقتولين دون أموالهم وأعراضهم ووطنهم حشرات تساقطوا بفعل المبيدات. فأين الأغيلمة المتمردون على الشقاق من هذه الوحشية؟ وهل استدعاء مأساة الحلاج عند (عبد الصبور) وقتل الجعد عن غيره وليدة صدفة أم هي تشويه للإسلام بالإنابة؟.

ومن حقنا التساؤل عن استمراء النيل من عظماء التاريخ الإسلامي من علماء وقادة ومفكرين استناداً إلى مقولات احتمالية الثبوت، فيما يغض الطرف عن وقوعات حية قطعية الثبوت، يذل فيها أهل الطاعة، ويعز فيها أهل المعصية. إنها حرب القلم، وتلك حرب السلاح. وما هُدّت الحصون والأسوار بالمدافع، وإنما هدمت بأقلام الواقعين تحت طائلة التساؤلات.

النقاد حاضرون في مشهدهم .. ؟[١]

يثار بين الحين والآخر تساؤل عاتب عن غياب النقاد أو تخاذلهم في تلقي الإبداعات: الشعرية والسردية -المحلية على الأقل- وقد يستدعي المثيرون نقاداً بأعيانهم، وقد يُضرب المثل بشعراء بأسمائهم، وليس هناك ما يمنع من مثل هذه الإثارات، غير أن بعض المثيرين يحيل إلى أسباب واهية. وعثرات المشاهد من الإطلاقات والتعميمات، ومن السهل أن يقول الكاتب ما يعن له، ولكن من الصعب الإتيان بالبراهين. ومما هو في هذا الصدد ما أثير من قبل على صفحات (المجلة الثقافية) ٢٢-٢-١٤٢٥هـ الملحقة (بجريدة الجزيرة)، من أن المشهد النقدي متلفع بالصمت لأنه لم يفِ بحق شاعر كبير كالدكتور (عبد الرحمن العشماوي). والمحفز للحديث استدعاني من بين من يلام، بوصفي أنموذج المقصرين بحق من لا يستحق التقصير. وكأني عاقلة النقد، وحمَّال التقصير النقدي، وكأن أمر المشهد لن يستقيم حتى أثير عجاجته، وألزَّ في مضاميره، وليس فيما اقول امتعاض ولا استياء، ولكنه محاولة لدفع الالتباس، والحد من الإطلاقات التي تنحي باللائمة على سائر النقاد، وتصف المشهد بالتصوح، وقد تنفي وجود نقد متكافئ مع الإبداعات. ومعاناة المشاهد من هذه التعميمات التي لا يلقى لها المعنيون بالاً لفقدها الموضوعية، نقرؤها مكتوبة في الصحف والمجلات، ونسمعها أحاديث يتفوه بها المحاورون عبر الإذاعات والقنوات. ومثل هذه الإطلاقات تثبط العزائم، ولا تحيي موات النقد، وقلَّما تكون كالرياح اللواقح. وإذ أشكر للمستدعي ثناءه وتلطفه بالمؤاخذة، وتوسمه بي خيراً، أحب أن أطمئنه بأن النقد المحلي بخير، وأن الدراسات النقدية تكتنف الظواهر الأدبية والأعمال الإبداعية من كل جانب، وأن شاعراً مثل (العشماوي) يعيش حضوراً يليق بمثله، وليس بحاجة إلى من يقدمه إلى الجمهور. ولقد ذكرني ذلك بمقولة أحد الشعراء، وأحسبه (الصافي النجفي) حين لم يشأ تقديم ديوانه بالأسلوب المتعارف عليه، وإنما سماه (التيار) وكتب في مستهله: - (مقدمة التيار ما سوف يجرف).

وحين لا يمارس المشهد النقدي الاحتفالية بشعر شاعر ك (العشماوي) بالقدر الذي يتطلع إليه المعجبون به، فليس معنى هذا أنه لايستحق ذلك، ولا أن النقاد يرون شعره دون المستوى المطلوب، ولا أن النقد لم يكن حاضر المشهد. وإشارة المعاتب إلى قولي في تسجيلات (أحد) بخصوص موقفي من الشاعر إشارة مبتسرة. فالشاعر حين يفوق الشعراء ببعض خصائص الشعر ومقوماته، فإن هذا لا يمنع من توقع الاختلاف معه حول السمات: اللغوية والفنية والدلالية. وليس شرطاً أن يكون هذا الاختلاف ناتج ضعف أو تقصير، إذ ربما يكون ناتج تباين في الذوائق والانطباعات والرغبات، وتفاوتاً في سلم الأولويات عند المتلقي. فعشاق الهمس يعيبون الخطابية، وطلاب اللمحات يمتعضون من البسط، وهواة الغموض يضيقون ذرعاً بالمباشرة. ودعاة الفن للفن لا يقبلون خدمة الحياة والعقيدة، والذاتيون لا يرحِّبون بالغيرية، ولا يقبلون شعر المناسبات، والحالمون المسترخون على الأنغام الهادئة لا تطربهم الصلصلة ولا الجلبة، وإنما يميلون إلى الإيحاء الذي يدب في الأوصال كالخدر، والذين يرون الشعر إنشاداً يطلبونه عالي النبرة، وطوائف أخرى تراه مجازاً وإيجازاً وانزياحاً، وآخرون من المتلقين يرونه بسطاً وإيضاحاً. ودعك من الاختلاف حول الوظائف والمهمات والأشكال والمباني والموضوعات والمعاني. ولكل مورد وُرَّاده، فلا تسأل الناس عن ذوائقهم. وما من شاعرٍ سلَّم له النقاد، وما من شاعرٍ عظيم إلا وكان مصدر عظمته اختلاف الناس حوله.

---

(١) تاريخ المقال: ٢٢/ ٦/ ٢٠٠٤

ولقد كان من عادتي اصطحاب بعض الدواوين الشعرية كي أتخفف بقراءتها من عناء المغالبة لكتب الفكر والفلسفة، فكان أن صحبت في وقت واحد (إبراهيم ناجي) و (بدوي الجبل) وإذ لا يختلف أحد حول تألق الشاعرين، فقد وجدت (إبراهيم ناجي) شاعر مقطعات، و(بدوي الجبل) شاعر مطولات، وأحسست أن الشاعرين مأخوذان بهذه السمات، على الرغم من تألقهما. وما أحد لاقى من الإطالة والبسط بقدر ما ألاقيه من امتعاض، ومع ذلك لا أجد غضاضة من معايشة أصحاب المطولات: المتقدمين منهم ك (ابن الرومي) و(أبي العتاهية) والمتأخرين ك (الفقي) و(الأميري) و(بدوي الجبل). ودعك من هؤلاء وأولئك، وانظر إلى (المتنبي) في عصور الازدهار، وإلى (شوقي) في عصر النهضة، ينام أحدهما عن شوارد شعره، ليسهر الناس جراها ويختصموا، فيما يجزع الآخر، ويستعدي (القصر) على خصوم شعره. لقد بالغ خصومهما في النقد حتى كادوا يبلغون نفي الشاعرية عنهما، كما لقي (المتنبي) من العنف والحسد ما لم يلقه شاعر من قبل أو من بعد، وما قصر في المنافحة عن أصالة شعره، حتى لقد استنجد ب(سيف الدولة) ولما لما ينتصر له عاتبه عتاباً مؤلماً، ولم يجد بداً من مفارقته وهو يردد:

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا

ألا تفارقهم فالراحلون هم

والذين قادوا الحملة ضده من عمالقة الشعر وأساطين النقد، والذين نافحوا عنه كذلك، ومن ثم لا نعرف الصادق من الكاذب. وحكاية (المتنبي) مع النقاد والنحاة والشراح حكاية لا تنتهي.

وهذا (أبو تمام) من قبلهم سن في الشعر ما لم يأذن به النقاد الذين عرفوا الشعر على غير ما جاء به، فناصبوه العداء، ونفوا الشاعرية عنه، ووجد النقاد الحداثويون المحدثون سبيلاً إلى توهين الخصوم، وذلك بجعل مواجهته مثلاً لكل متحفظ على التجديد، والصراع مع الحداثة ليس مرتبطاً بالتجديد، وإنما هو صراع فكري خالص، وقد نعود إلى مثل هذا الالتفاف الغبي. والنقاد الحكميون شاعت مقولاتهم، واتخذها البعض قضايا مسلمة، مثل مقولة: (المتنبي، وأبو تمام حكيمان، والشاعر البحتري) ولو مضينا مع جاهزيات الأحكام لخرج من مشهد الشعر كل الشعراء، وبقيت سوحه خالية، ومع ذلك ظل كل واحد ممن نفي من مملكة الشعر كأنه علم في رأسه نار. وما انصرف النقاد إلا عمن لم يجدوا فيه إثارةً أو خروجاً على السوائد والمألوفات، وما أكثر الذين يعبرون الساحة لا لهم ولا عليهم.

وأود في ضجة القول المتناقض طمأنة المتخوف على مكانة شاعره الذي ملأ عليه أقطار نفسه، ان شاعره يحتل في المشهد وفي النفوس ما يليق بمثله، وانه يعيش حضوراً استنه لنفسه، ولم يكن كأصحاب التشايل والتنافخ، ممن تبدو محاولاتهم الفجة تحت الأضواء كأسوأ ما يكون الشعر، حتى لقد تمنوا أنهم ما دفعوا بأنفسهم، ولا دفع بهم غيرهم. فأين هم الآن؟ لقد ذرتهم رياح الحقائق، كما ورق الخريف. ومع تثبيطي لهمة المتسائل فإنني لو وجدت فسحة من الجهد والوقت لتعمدت الاختلاف مع الشعراء الذين ملكوا ناصية الشعر بما توفروا عليه من شرفٍ في اللفظ وشرفٍ في المعنى. ولما استدعيت محاسنهم البادية للعيان، وإنما نقبت عن مثالب شعرهم، وجميل جداً أن أختلف مع شاعر بوزن (العشماوي)، فالأصالة ليست وقفاً على الثناء الزائف، وتثبيت الأقدام لا يكون بالإعجاب وحده، ولقد قيل:-

لــولا اشــتعال النـــار فيمـــا جـــاورت

مـــا كـــان يعـــرف طيـــب عـــرف العـــود

فكم أود لو أن النقاد أشعلوا النار من تحت أقدام الشعراء الذين نواليهم، لينتشر عبقهم، فما ثبتت ظواهر ولا مذهب إلا بفعل الخصوم. لقد ظل (شوقي) شاعراً لا يثير، يوم أن كان (شاعر القصر)، ويوم أن حشدت له حاشية القصر الشعراء والكتاب من كافة أنحاء الوطن العربي ليجعلوه أمير الشعراء، ويوم أن عمل القصر على إنشاء (جماعة أبوللو) لتكون في وجه (مدرسة الديوان)، ويوم أن قال حافظ:

أميـــر القـــوافي قـــد أتيـــت مبايعـــاً

وهـــذي وفـــود الشـــعر قـــد بايعـــت معـــي

وهو حقيق بالإمارة، وإن غضب الشاعر والأديب معالي الدكتور(غازي القصيبي) الذي ملك عليه (المتنبي) نفسه وذوقه واحتل ذاكرته. وإذا كنا نقبل بإمارة شوقي فإننا لا نمانع من (إمبراطورية) (المتنبي). وشوقي المتألق بفنه أعشاه الثناء عن هنات شعره، فما كان يسمع إلا المكاء والتصدية. وحين تلَّه (عباس محمود العقاد) للجبين، وقسا في نقده، وتجاوز الحد في ذلك، تدارك أمره، وراجع شعره، ونفى منه أضعاف ما أخرج للناس، حتى جاء من ينقب في الصحف والمجلات ليخرج (الشوقيات المجهولة) وبعد تعهده لشعره ما كان من الناس المحبين والناقمين إلا أن وقفوا، لينظروا كيف يبني قواعد الشعر وحده، على حد قول الشاعر عن قومه:

وقـــف النـــاس ينظـــرون جميعـــاً

كيـــف أبنـــي قواعـــد المجـــد وحـــدي

ومضت دواوين العقاد الأحد عشر دون ذكر، فيما بقي شوقي شاعر العروبة والإسلام. لقد كان من الشعراء الأفذاذ، وكان (العقاد) من المفكرين والنقاد الأفذاذ، فما زاد الجور شوقياً إلا شيوعاً وتجذراً، وما زاد العنف العقاد إلا حضوراً وتألقاً، مع أن (العقاد) متحامل على (شوقي) وحجته داحضة. وقليل عندي من يعدل (شوقياً) باستثناء (المتنبي)، ولا أحسب أحداً من المفكرين يعدل العقاد.

وإذا كان المحب المعجب ب(العشماوي) يحسب أنه بحاجة إلى من يقدمه بالثناء إلى المشاهد فإنه يظلمه، ويظلم شعره. وحين لا يختلف المتلقون مع الشعراء تخمل سوح النقد، وتكسد سوقهم، وما تراهم يقولون إلا معاراً أو معاداً، بل لا تراهم إلا مفتعلين للقول، وجميل أن يبدئ النقاد ويعيدوا، وعلى المترددين أن ينظروا إلى المدارس النقدية والمذاهب الأدبية التي خلفها خصوم (أبي تمام) و(المتنبي)، لقد كان الاختلاف معهم سبباً في نشوء مذاهب نقدية، ولو سلَّم الناس لهما لما عُرفا إلا من خلال أعمالهم الشعرية وحسب. وما من شاعرٍ مرَّ به النقاد مرور الكرام أو سلموا له إلا كان أقرب إلى الانطفاء. وخمول المشاهد ناتج التسليم، وثراؤها ناتج الاختلاف المحكوم بضوابطه ودواعيه وتميز نقاده وشعرائه. وكل مضطلع بمهمة النقد يجد ما يلوم عليه، على حد: - (من نوقش الحساب عذب) والإعجاب لا يعشي العيون، وعداوة الشعراء في الراهن ليست بئس المقتنى، فما عاد الشاعر قادراً على الدفاع عن نفسه بشعره، وتقديراً للعتاب الرقيق من الأخ (فيصل العبودي)، سوف أغالب ظروفي، وأقرأ شعر العشماوي ناقداً لا متمتعاً، وأصدقكم القول فما من صعوبة تعادل صعوبة النقد لمن يملؤك حباً وإعجاباً، لأنك كلما

أوغلت في الثناء، أحسست أنك تبتعد عن الموضوعية، وكلما تخلصت من عواطفك أحسست أنك تصَّعَّد في السماء. وقد صدقت الإعرابية التي سئلت عن: - أي أبنائها أفضل؟ فجالت بنظرها في خفايا خصالهم ثم قالت: - (ثكلتهم إن كنت أعرف، إنهم كالحلقة المفرغة لا يعرف طرفاها).

وهكذا أنا مع طائفة من الشعراء السعوديين، فالحب قد يعمي ويصم، ولا أريد لأحد منهم، ولا لنفسي أن نتبادل أنخاب الثناء على حساب رسالة النقد. والتقريظ المجامل يضر بالشاعر، وما عهدنا أنفسنا مدَّاحين ولا متشايلين، وهل نفع المتذيلين للحداثة زائف المدح. لقد صدرت كتب بحالها، تتناول قصيدة واحدة لشاعر حداثي، ربما كان أغنى الشعراء عن مثل ذلك، ومع ذلك ظل كما هو في عيون المنصفين، وبعض المتعملقين على أكتاف المجاملات الزائفة ظلوا نكرات، وظل شعرهم كسقط المتاع. وحين يستعد الناقد الذي يحترم نفسه وقراءه للدخول في عالم شاعر ك(العشماوي) فإن ذلك يتطلب التفرغ لقراءة أعماله كلها، ليقف على أنساقه الثقافية، وسياقاته الدلالية، وسماته اللغوية، وتشكيلاته الموسيقية. فما من شاعر إلا وله عوالمه الممتدة معه من أول بيت حتى آخر قصيدة. والمتابعون يعرفون أن إبداعاته تشكل أشواطاً دلالية، تواكب النوازل، وترصد لأحداث عربية وإسلامية، وتنافح عن قضايا أمة مستباحة، وترافع ضد الظلم والتسلط والاستبداد. إنه شاعر يطربني بإنشاده وهمه وسلاسة لغته ونقاء موسيقاه وانسيابية قافيته وثورة عواطفه واحتدام مشاعره. وقد أقول مثل ذلك من المآخذ، وأكون صادقاً في الأولى، وغير كاذب في الثانية، وكأني بصاحبنا المعنف للمشهد النقدي يستذكر قول المصطفى صلى الله عليه وسلم: - «**إن من البيان لسحرا**»، فلقد قالها في موقف كهذا، رضي المتحدث فقال أحسن ما يعرف، وسخط فقال أسوأ ما يعرف.

ومع كل ما سبق أعترف بكل مرارة أن مشاهدنا النقدية لم تفِ بما عليها إزاء المبدعين من الشعراء والسرديين، وإن وفت بما سوى ذلك، وأخاف أن نكون كمن لا يطربه زامر الحي. ولولا ما أخشاه من امتعاض البعض لسحبت البساط من تحت عشرات تعدهم المشاهد من الشعراء، ولكشفت عن سقطات لغوية ونحوية وصرفية وفنية ودلالية لا تُقْبل من السوقة. ولولا ما أخشاه من كشف عورات في الإبداعات السردية لزدت مئات القصاص والروائيين، وأعدتهم بمحاولاتهم الفجة إلى مقاعد الدراسة، وهم من هم عند أنفسهم وعند من لم يفرقوا بين القول والإبداع القولي، والنقد والنقاد مدانون حين يغمضون في الرديء أو حين يقولون كلمة زائفة تمنح الشاعرية لغير الشعراء والأدبية لغير المبدع السردي، وما أتيت المشاهد النقدية إلا من خلال المجاملات الزائفة والتنافخ الفارغ، أو من خلال كتبة يعدون أنفسهم نقاداً، وما النقد إلا موهبة وثقافة ودربة.

جامعة القصيم .. إياك أعني .. واسمعي يا جارة .. ![1]

خطوات وئيدة، ولكنها ثابتة وقوية وقاصدة، خطاها التعليم الجامعي في القصيم .. كانت الخطوة الأولى يوم ان تم افتتاح فرع لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية قبل ربع قرن، وكنت إذ ذاك مدرساً في التعليم العام، وشرفت بالتعاون مع الفرع، لإعطاء محاضرات عن (الأدب العربي في المملكة) فما كان حينذاك من المتعاقدين من يعرف شيئاً عنه، بل كان البعض منهم لا يصدق بوجوده، وكانت طائفة من أدبائنا مخدوعة بالقومية التي لا ترى الاقليمية ولا المواطنة القطرية، وترتاب من التجزيئية، الأمر الذي أضاع أدبنا المحلي في ضجة الآداب المحلية، حتى إذا بادرته الدراسات العليا، كان حضوره الذي يليق بمثله .. ولما حصلت على الدكتوراه بادرت الانتقال إلى كلية العلوم العربية والاجتماعية في الفرع، ولمَّا أزل بعد التقاعد استاذاً غير متفرغ للأدب الحديث، ممتعاً نفسي بالنظر إلى غراسي الذي أينع وأعطى ثماره .. وهل من فرحة تعدل فرحة الاستاذ، وهو يرى طلاب الأمس وزملاء اليوم من حملة الدكتوراه والماجستير، يمارسون التعليم، وينهضون بمهمات العمادات، ويؤثرون أساتذتهم، وهم من هم في علمهم وأخلاقهم، وما من أحد يرضى أو يسلم بتفوق أحد عليه إلا الآباء لأبنائهم، وإلا الأساتذة لطلابهم.

وجاءت الخطوة الثانية بافتتاح فرع ل(لجامعة الملك سعود) .. ولما كان فرع جامعة الإمام يلحق بالأصل في اعتماد الكليات النظرية، اتخذت جامعة الملك سعود الجانب العلمي، وسار الفرعان جنباً إلى جنب في نمو مطرد، وتنافس شريف، وتنوع مطلوب.

وجاءت الخطوة الثالثة بشراء موقع الجامعة المرتقبة، والبدء في تنفيذ البنية التحتية، وبناء بعض الكليات والمعامل والمختبرات، وتلتها الخطوة الرابعة متمثلة بانشاء جامعة في القصيم، ليكون الفرعان نواة لها، واستبشر الناس، وانطوت مشاعرهم على فرحة غامرة بهذه المبادرات، ثم توجت تلك الخطوات بالخطوة الأهم، خطوة البدء الحقيقي، وذلك بتسمية الجامعة وتعيين مديرها.

نسبت الجامعة إلى الأرض التي منها خلقنا، وفيها نعود، ليكون رفاتنا بعض أديمها، أرض الخيرات والكفاءات، أرض السنبلة والنخلة والرمال والتلال، أرض البطولات في مرحلة تكوين هذا الكيان العزيز بقيادة الملك عبد العزيز، الأرض التي تمثل واسطة العقد الأجمل، عقد البلاد الفريد بكل مقدساته ومناطقه ومدنه وقراه ورجالاته .. ثم وقع الاختيار لإدارة الجامعة على كفاءة علمية عملية، عركته التجارب الأكاديمية، وحنكته المسئوليات المتعاقبة من تدريس وعمادة ووكالة وأمانة، وتلك التقلبات مكنته من الدربة والدراية، وستمكنه من توظيف هذه المكتسبات لمزيد من النجاحات .. وتعويلنا على من بيده ملكوت كل شيء، ثم عليه وعلى كوكبة العاملين معه من أبناء الجامعتين الأساس.

وحين نستبشر بهاتين المبادرتين: مبادرة التسمية والتعيين، فإننا نتطلع إلى تحرف جديد، وتحيز مفيد، لتكون (جامعة القصيم) الأخيرة في الولادة السابقة في التحديث والتطوير، مبتدئة من حيث انتهت رصيفاتها .. فالعصر العصي لم يعد قابلاً للتردد أو التهيب أو النمطية، إنه عصر المبادرات والمفاجآت والمتغيرات، ومن هاب اقتحام العصرنة المتوازنة عاش دهره في المؤخرة، ومن لم يسدده تقديره الدقيق وتدبيره الحصيف قعد به تسويفه أو تاهت به مجازفاته.

---

(١) تاريخ المقال: ٢٩/ ٦/ ٢٠٠٤

وإذ واجهت مخرجات التعليم الجامعي بعض الاخفاقات، بسبب ضعف التحصيل وضخامة التخصصات النظرية، فإن على الجامعة الجديدة الخلوص من تلك المعوقات، واعتماد (هيكلة جديدة)، ترفع من كفاءة الخريجين، وتحول دون التضخم النظري، على أن تتفادى التعرض للانكماش الذي يحول دون استيعاب حملة الثانوية العامة.

فالقصيمي لايريد ان توصد الأبواب في وجهه، وهو يعيش الاحتفالية بولادة جامعة طال انتظاره لها، كما أن أولياء الأمور يودون ان يكون التعليم مرتبطاً بالعرض والطلب، إذ لا مزيد على ما يعانيه خريجو بعض التخصصات من ترقب ممل لفرص العمل .. وإذ تكون مثل هذه الاجراءات مرتبطة بالسياسة العليا، فإننا نود أن يصل الصوت السليم إلى هذه السياسة، لتكون قراراتها وفق المتطلبات، فالسياسة العليا تنصت للمطالب والرغبات، وترصد التطلعات، وهدفها إرضاء الجميع، وتحقيق أفضل النتائج، وقراراتها لا تنزل من السماء، ولكنها تتشكل من الواقع ومما يشير به المنفذون. وإذا تفاعلت السلطات التشريعية مع التنفيذية، نسلت القرارات الراشدة، وتجسد العمل السليم، وأمر الأمة في النهاية شورى، ولأهميته استحضره الخالق في أكبر قضية: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، وأشار إليه في أصغر قضية: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾، والنصيحة جزء من المشورة.

إن أمام المدير الجديد عدداً من المطالب الملحة، لعل من أهمها استكمال متطلبات الأجواء الجامعية. فالجامعة (مكتبة) و(معمل) و(مختبر) و(قاعات) و(ساحات) و(ملاعب) و(مساكن) و(خدمات) و(مطاعم) و(حدائق) تستوعب آلاف الطلبة، وتعتمد اليوم الدراسي، متخلصة من الساعات الفصلية التي تجعل المباني خاوية طوال الثماني عشرة ساعة. ولأن الجامعة مجرد اطلاق تسمية، ولأن طلبة الفروع من قبل يفوق عددهم الخمسة عشر ألف طالب، وهم بازدياد مطرد، ولأن حاجة السوق تتطلب تخصصات معينة فإن المؤشرات تتجه صوب النوعية لا الكمية، وذلك منعطف حساس، يحتاج إلى جهد استثنائي وتفكير عميق، يجنب العملية التعليمية غزارة الانتاج وسوء التوزيع. وعلى المسئولين في كل جامعاتنا توعية الرأي العام المتخوف من الاصلاح المتحفظ على التغيير، وذلك بالتأكيد على أن التعليم صناعة واعداد للمستطاع من القوة: الحسية والمعنوية، وأنه يكون بالنية الصالحة عبادة، وأن من حق المواطن أن تصنعه المؤسسات التعليمية وفق حاجة الأمة، وأن إغلاق قسم وفتح آخر أو التوسع في تخصص دون آخر، لا يرتبط إلا بحاجة المجتمع وبمصلحة المواطن، وعلى الجامعات أن تكون واعية لمتطلبات المرحلة، بحيث تسعى جهدها لسد حاجات الأمة، وعلى (مركز خدمة المجتمع) في كل جامعة التأكيد على أن المفاضلة بين تخصص وآخر مرتبط بإغناء الأمة عن خدمة الغير. وقدر البلاد الأصعب ان عنصر الشباب والانفجار السكاني وتعميم التعليم، تفوق الإمكانيات، وإذا لم تبادر جهات الاختصاص بجهد استثنائي أصبحنا أمام أزمات مستعصية.

والإذعان للرغبات غير الواعية يفوّت على الأمة فرص الاكتفاء الذاتي في كثير من المجالات العلمية والطبية والفنية والحاسوبية والهندسية واللغوية وغيرها، كما أن الطرق التعليمية الحشوية والالقائية انعكست آثارها السلبية على التحصيل الكمي والمهارات الإجرائية، الأمر الذي أشاع الضعف، وبطّأ بالاكتفاء الذاتي، وأسهم في خلق بطالة غير متوقعة وغير معقولة. ودولة تستوعب أكثر من سبعة ملايين وافد، لا يمكن ان تبادرها البطالة بهذه السرعة، وبتلك الفداحة. ومؤشرات الاخفاق أن تمارس بعض الجهات غير

المعنية إدارة توطين الوظائف عن طريق الضغط والإلحاح. إن هناك خللاً مرده إلى مواد التعليم، وتخصصاته، وطرائق أدائه، وشح إمكانياته، وعلينا في مرحلة التطوير أن نجعل (الحبل) و(الفأس) اللذين أعطاهما رسول الله - ﷺ- للمتسول نبراساً لكل تغيير، لقد أبعده عن صحبته، وأقصاه عن مواطن نزول الوحي، ووجهه صوب الوهاد والنجاد، ليعفه من ذل السؤال. والرسول -ﷺ- لا يدفع عن الفاضل إلى المفضول إلا بمسوغ، وآية النفور ركزت على التبعيض، بحيث يكون التفقه والإنذار لطائفة من الأمة، فيما تبقى الطوائف الأخرى في مواقعها العملية .. فملازمة الرسول أفضل، وتفقه الإنسان في الدين أنفع، ولكن عارض الحاجة جعل المفضول فاضلاً، وذلك يؤكد أهمية (فقه الأولويات)، والمسلم مطالب بالتعادلية، فلا مساس بين مطالب الحياتين، كما أنه في عبادة في مسجده وفي بيته وفي سوقه وفي مصنعه متى حمل همَّ الأمة، ونصح لها، وقصد إغناءها، ولهذا كان أمر المسلم كله عجباً، وإصلاح المناهج يتجه صوب التخصصات وطرائق الأداء، وإقحام (الأسلمة) أو (العلمنة) مزايدة رخيصة وانتهازية مقيتة، فـ(العقيدة) و(الوطن) خطاب القيادة، وهما كثنائية (الروح) و(الجسد)، ومن أراد العز بغير الإسلام خذله الله، وفي النهاية فنحن لانريد أن يعود المتخرجون إلى بيوتهم، ليكونوا عبئاً على آبائهم، كما لا نريد مدرس الضرورة، ولا نريد وضع الرجل غير المناسب في المكان غير المناسب.

وإذ تكون الجامعة لملمة لفرعين قديمين منتميين لجامعتين عريقتين، لكل واحدة منهما اهتماماتها، ونظامها، وأسلوب تعاملها فإن الأمر تجاوز مرحلة التأسيس إلى معضلة التجنيس والدمج، وطرح الذات المنعتقة من التنميط.

ومع تباين الأداء بين الفرعين، يقوم تباين في المواقع، وتفاوت في القابلية، يضيق أحدهما عن الاستيعاب، فيما يتسع الآخر للاستيعاب، وتتوافر القابلية والأهلية في موقع، فيما تحول ظروف المكان والتصميم دون ذلك في الموقع الآخر، ولكيلا تضيع الجهود بين موقعين متباعدين، يحسن حسم الوضع، وتوجيه الاهتمام صوب الموقع الأصلي القابل للتوسع، ووضع خطة مرحلية لجمع الأشتات، وتفادي العمل المؤقت، وإن كان المثل الانجليزي يقول: (لا يدوم إلا المؤقت)، وليس هناك ما يمنع من تحويل الموقع المستغنى عنه للطالبات بعد تحصينه وتحسينه.

ولقد أشرت أكثر من مرة إلى أن الجامعة أحوج ما تكون إلى توفير الأجواء الجامعية، وبخاصة أنها لم تكن في عاصمة كـ(الرياض) المليئة بالمكتبات والمعامل والمختبرات والقاعات المساندة .. والأجواء الجامعية ليست ميسورة بالقدر الذي يتوقعه البعض، فـ(المكتبة) -على سبيل المثال- في الفرعين بإمكانياتها ومواقيتها وآلياتها لا تسد أيسر الحاجة، وطلبة الكلية فضلاً عن طلبة الدراسات العليا يجدون حرجاً من شح المراجع، فضلاً عن فقد المكتبتين لمتطلبات الخلوة والحاسوبات والتواصل مع مكتبات العالم.

والمعامل والمختبرات ومجالات التطبيق العملي كل ذلك يتطلب مزيداً من التوسع، ومزيداً من التحديث والمتابعة وتحسين النوعية والأداء .. ولن تكون الجامعة قادرة على الندية والمنافسة حتى تتغلب على أجوائها ومسانداتها، وحتى تهيئ لأعضاء هيئة التدريس كل الإمكانيات والفرص والوسائل المتوافرة لزملائهم في جامعات الحواضر، كالمساكن والخدمات ومدارس الأبناء وسائر المميزات .. ولن نتحدث عن تطلع أعضاء هيئة التدريس إلى كادرهم الموعود، فذلك شأن السياسة العليا، وهي السباقة إلى كل مكرمة، وكل ما نقول تطلعات تختلج في النفوس يمسك بعضها برقاب بعض:

وما استعصى على قوم منال

إذا الأقـــدام كـــان لهـــم ركابـــا

ومـن حـق كـل مـواطن أن يفكـر بصـوت مرتفـع، ليُسـمع القـادرين علـى تحقيـق الطموحات، فنحن أمة هيأ الله لها ما لم يهيئه لغيرها، والوقوف دون هام السحب إخلال بالأهليـــــــــــــة علـــــــــــــى حـــــــــــــد:

إذا غـــامرت فـــي شـــرف مـــروم

فـــلا تقنـــع بمـــا دون النجـــوم

والهواجس والتطلعات على قدر العزمات و(على أقدر أهل العزم تـأتي العزائم ...) ومعولنا على الوضع الجديد التخلص من هاجس الفرعية، فإمكانيات الفروع ما كانت لتفي بأقل المتطلبات، كانت من قبل بيوتاً مستأجرة وإمكانيات متواضعة، ثم انتقل فرع (جامعة الإمام) إلى المقر الجديد، وتكدست كل الكليات في مبنى كليـة واحدة، ثم بدأ التوسـع وفق الإمكانيات، وكان فرع (جامعة الملك سعود) لا يقل في أوضـاعه المؤقتة عما كـان عليه رصيفه، حتى انتقل إلى المدينة الجامعية المرتقبة.

ولما تزل الأجواء دون المؤمل على الرغم من كونها من أولويات المطالب، ودعك من عمادة البحث العلمي والدراسات العليا، وما يتطلبه ذلك من الإمكانيات البشرية والحسية، ولو أن أحداً أصاخ لما يدور بين الطلبة وأعضاء هيئة التدريس وكافة أفراد المجتمع من طموحات وتطلعات لتصور أن الأمر كالغول والعنقاء والخل الوفي، غير أن المسألة دون ذلك بكثير، وتعبنا في الطموحات التي لا تحد، وما على المسئولين من سبيل إذا سددوا وقاربوا وبشروا، والتكليف وفق الوسع.

لن يفوتني وأنا أجمجم عما في نفوس النـاس أن أشير إلـى جهود مشكورة، واكبت مشروع التعليم الجامعي في القصيم وأنشأته من لا شيء، تبنتها كوكبة من المسئولين، يقدمهم صـاحب السموّ الملكي أمير المنطقـة المتـابع لكـل صـغيرة وكبيـرة فـي المسيرة التعليميـة، كمـا أننـي بثنـاء لا يحـد علـى جهـود الجـامعتين الأصـليتين: (جامعـة الإمـام) و(جامعة الملك سعود) ومن ورائهما معالي وزير التعليم العالي. والشكر موصول لكل من يحمل همَّ أمته، أو يباشر العمل بصدق وإخلاص وأهليـة .. وكل عامل ناصح ينال حظه من شرف الخدمـة للدين والـوطن، وكل عامل متفانٍ يؤدي واجبين: واجب المسئولية وواجب المواطنة، ولا يكتم أفضال المتفضلين إلا العققة .. وكل مسلم على ثغر من ثغور الوطن، والسعيد من يسطر على صفحات تاريخه ما يشرفه، ويشرف انتماءه لهذا الوطن الذي أعطى الكثير، ولم نرد له أيسر حقوقه.

ولما لم يكن في حسابنا ان تختط الجامعة الجديدة لنفسها خطة منفردة، ولا أن تكون في معزل عن أنساقها وسياقاتها ورصيفاتها، ولا أن تقفز فوق الحواجز والإمكانيات فإننا نـربط أنفسنا ونقيد طموحاتنـا بمعطيـات الواقع، وهـو واقـع مـواتٍ، وقـادر علـى تخطـي العقبات .. ومن أراد ان يطاع فليطلب المستطاع، وليس من المنطق الخنوع لما يتصوره المتشائمون واقعاً غير مواتٍ.

وإشكالية البعض تكمن في وقوعه تحت طائلة (نكون كما نريد، أو لا نكون)، فيما يكون الأفضل أن نشتغل فـي المسـاحة المتاحـة، ونحـاول استغلال أقصـى طاقـات المتـاح، على مبدأ (خذ وطالب)، والجامعة في بدايتها لن تحقق كل الطموحات، ولكنها بالتدبير والموارية وترتيب الأولويات والمطالبة الملحة ستجتاز مشاكل البدايات، وهي مشاكل مقدور على تذليلها .. وكم نحن سعداء بهذا الحدث التاريخي الذي طال انتظاره، فجاء

مولوداً سوياً، وجاءت بوادره كالمبشرات، ورهاننا رهين الكفاءات والإمكانيات والأجواء وحسن النوايا، وهي قائمة فيمن وُكِّلَ إليهم الأمر، نحسبهم كذلك، ولانزكي على الله أحداً.

الجهود الأدبية للعلامة العبودي .. ![1]

كلما جمعتني المناسبات بالعلامة معالي الشيخ (محمد بن ناصر العبودي) طُوِيت أمامي بوادر الشيخوخة، وعزمات الكهولة، وذكريات الشباب، لينفلق عبق الطفولة بكل طهره وبراءته. وليس من السهل أن يقفز الإنسان بذاكرته نصف قرن، ليستعيد واقعاً بدائياً مفعما بالبساطة والعفوية.

كانت تلك اللحظة المترائية لي من بعد في إحدى صباحات صفر من عام ١٣٧٤هـ أي قبل إحدى وخمسين سنة. كنت يومها في الصف الرابع الابتدائي، وكان (المعهد العلمي) قد فتح أبوابه في ظل إدارة معاليه، والناس إذ ذاك ينظرون إلى تلك المعاقل وأناسيها على أنهم خلق آخر. ولن أنسى أول ليلة صعدت فيها منبر (نادي المعهد) الأسبوعي، لأقدم ركن الفكاهات، الذي اختارني له معاليه، موصياً بالتنقيب عن النوادر في العقد والمستطرف، وأخبار المغفلين والنوكى والأذكياء عند ابن الجوزي. وكان ذلك مؤذناً بالتعرف على كتب التراث الأدبي، وما زلت أذكر أول نكتة أملاها عليَّ من كتاب العقد الفريد:-

يقتـــــر عيســـــى علـــــى نفســـــه
ولـــــــيس ببـــــاق ولا خالـــــــد

ولـــــو يســـــتطع لتقتيـــــره
تـــــنفس مـــــن منخـــــر واحـــــد

وبعد دراسة متعثرة امتدت ثلاث سنوات، تفرقت بنا السبل، فما عدت أراه إلا من خلال منجزاته. وكلما نظرت إليه وإلى ما تركه من كتب، تذكرت الموسوعيين في القديم ك(الجاحظ) و(السيوطي)، وفي الحاضر ك(الطنطاوي) و(عبد السلام هارون). وكلما قرأت في سير أعلام النبلاء، أو في علم الطبقات، تبدت لي ملامحه. فغالب علماء السلف تتعدد اهتماماتهم، وتتنوع مقروآتهم، يحقرون المناصب والأضواء في سبيل التحصيل المعرفي والإنجاز العلمي.

ورجل أنجز مئات الكتب: إنشاءً وتأليفاً واختياراً في مختلف المعارف، لا شك أنه ترك الدنيا خلف ظهره، وصحبها بلا آمال زائلة. والحديث عن الجانب الأدبي في عطاءاته، يتطلب العودة إلى أنساقه وسياقاته وظروفه التي عاشها، ولأني واكبت بداياتها عن قرب، فإنه من اليسير تبين ملامحها. كانت مكتبة (المعهد العلمي) منطلق الصبغة الأدبية، لأنها ذات منزع أدبي، فأبرز محتوياتها الموسوعات الأدبية: ك (الأغاني) و(العقد الفريد) و(البيان) و(صبح الأعشى)، والمختارات ك (المفضليات) و(الأصمعيات) و(الحماسيات) و(الجمهرة) و(دواوين الشعراء الجاهلين والأمويين والعباسيين)، وكتب العلوم العربية ك (المعاجم) و(النحو) و(الصرف) و(البلاغة)، وكتب التاريخ ك (البداية) و(المروج) و(علم الرجال) و(الطبقات) و(السير)، وهذه التركيبة التراثية المتنوعة مؤذنة بتشكل نزعة أدبية مفعمة بثقافة تراثية عميقة وشاملة. والنص الأدبي حين يحفظ التوازن بين الجماليات الحسية والقيم الدلالية يحوز شرفي اللفظ والمعنى.

وكتب العبودي تراوح بين القيم الدلالية واللفظية، وتتوخى الوسطية، ولقد عرفت المشاهدُ الأدبية كتاباً انصبت اهتماماتهم على جماليات الصياغة، وآخرين عنوا بالمعاني،

(١) تاريخ المقال: ٦/ ٧/ ٢٠٠٤

فيما جمعت طائفة بين جمالية النص وثقافته، وتلك سمة الموسوعيين، ويند عن هؤلاء وأولئك العقلانيون والفلاسفة والمفكرون. والمشاهد بحاجة إلى هؤلاء وأولئك. فـ(العقاد) مفكر تشغله الفكرة عن العبارة، و(المنفلوطي) عاطفي تشغله العبارة عن الفكرة، فيما يأتي (أرسلان) معرفياً بيانياً، ويمتد خيط الجمالية متواشجاً مع الدلالة عند (طه حسين) و(أحمد حسن الزيات) و(الرافعي)، فيما تغرق العقلانية ب (أحمد أمين)، ولقد شغلت (الأسلوبية)، بكل مفاهيمها وتحولاتها طائفة من النقاد، وراوحت بين التنظير والتطبيق، فكان أن أغرق اللغويون في البنائية، وأغرق الدلاليون في التكوينية، وقامت بينهم ملاحاة لم تنته بعد.

وفي ظل هذه الاندفاعات المتناقضة سيئت وجوه البيان والمعاني والبديع على حد سواء، وما كان لعالم أديب ك (العبودي) أن يشغله لغط النقاد وتلاحيهم، ذلك أنه يكتب عن هم وسليقة، وهو يرسل كلمته مستبطناً همَّه متوخياً إيصال فكرته، فأصحاب القضايا يعتمدون الإمتاع والاستمالة والإقناع.

وتقصي أدبية النص عند موسوعي ك (العبودي) تبدو من المعضلات، لتنوع اهتماماته وتداخلها. حتى لا تكاد تفصل بين الديني والأدبي والتاريخي والجغرافي، وتلك سجية المسكونين بهم الثقافة. ولو عدنا مثلاً إلى الدراسات التي أنجزت حول (الجاحظ) مثلاً، لرأيناها أخلاطاً من الفكر والأدب والنقد والعلم والتاريخ وسائر المعارف. وكل دارس يجد مراده، حتى ليظن أنه المصيب للمخر، ويبقى (الجاحظ) يرقب دارسين آخرين، يكتشفون قضايا في عالمه المعرفي.

و(العبودي) من هذه النوعية، ومن ثم حاولت حصر دراستي في خمسة كتب من مؤلفاته أحسبها جماع الجهود الأدبية في تنوعات أدائه هي:-

- أخبار أبي العيناء اليمامي.
- كتاب الثقلاء.
- نفحات من السكينة القرآنية.
- سوانح أدبية.
- صور ثقيلة.

وهذه الكتب كما يبدو من عناوينها تراوح بين الجمع والدراسة والإنشاء: المقالي أو القصصي. ولقد حاولت أن أشير إلى محورين هامين في جهوده الأدبية:

- أدبية النص.
- والموضوع الأدبي.

وبين المحورين عموم وخصوص. فأمَّا (أدبية النص): فهي خاصة بجمالية اللفظ من حيث الكلمة والجملة والعبارة والأسلوب ومراعاة الجماليات: الصوتية في الجرس والإيقاع، والصورية في التخيل والحركة. وقد تمتد الأدبية إلى فنية الأداء كالقص والرواية أو الشعر. ويجب أن أشير إلى أن سلامة النص غيرُ جمالياته، فقد يتوفر الكاتب على سلامة اللغة وقواعد النحو وضوابط الإملاء، بحيث لا يلحن في اللفظ، ولا يتوهم في المعاني، ولا يخطىء في الرسم، ولكنه لا يتوفر على الجمالية الأدبية. فالمؤرخون والعلماء والفلاسفة لا يلحنون، ولكنهم لا يبدعون. وإشكالية الفصل بين السلامة والأدبية والدلالية لما تزل قائمة في المشهد النقدي، على أن طائفة من السرديين عولت على (واقعية اللغة)، وأحالت على (مراعاة مقتضى الحال) فهبطت باللغة إلى درك العامية.

و(أدبية النص) كما يشير (توفيق الزيدي) في كتابه (مفهوم الأدبية في التراث النقدي) تقوم على (التحول) و(الإيقاع) و(التقنية) و(الخصائص) ومتى عول الكاتب على عنصرين هامين في العملية الإبداعية هما:-

-المجاز.
-والانزياح.
توفر على أدبية النص، وسلم الأدبية يتفاوت، إذ ليس كل متوفر على المجاز والانزياح بقادر على توفير أسلوب أدبي متميز، وامتلاك المفاتيح لا تتحقق معه الرغائب، فالأسباب تهيىء المجال ولا تحقق النتائج. والسؤال البدهي: هل يستحضر العلامة (العبودي) هذه الضوابط، وهو يكتب في الموضوع الأدبي على الأقل، أم أنه يتوفر عليه طبيعة وسجية؟
لقد تبدت الأدبية: الموضوعية والأسلوبية في مجمل تناولاته، ولم تحل بينه وبين التعددية المعرفية، فهو حين يكتب في الجغرافيا أو في التاريخ أو في الرحلات تبدو أعناق الأدبية من خلال كتاباته، إذ هو أديب بطبعه واهتمامه، وتحول الاهتمام من الأدبي إلى الشرعي، لم يخلص عالماً ك (ابن القيم) من أدبية النص.
أما (الموضوع الأدبي) فقد سبق لي أن جسدته في الحديث عن (أدب الرحلة) عنده ليلة تكريمه في (المهرجان الوطني للتراث والثقافة)، وجاء البحث مركزاً على متطلبات هذا اللون من الأدب. و(أدب الرحلة) تتنازعه معارف متعددة، كالأدب والتاريخ والجغرافيا والسير الذاتية. وكل هذه المعارف تعوِّل على أدبية النص بمفهومه القديم والحديث وتحيل إلى الموضوع الأدبي.
و(العبودي) من الكتّاب الذين يهتمون بتدوين المعلومات والملاحظات، ما دق منها وما جلَّ، دون تكلف أسلوبي أو معاضلة تعبيرية، وما في كتبه من صياغة أدبية فصيحة فإنما هي قدرة ذاتية كسبية، فهو عالم بالتراث، ومؤلف معرفي قبل أن يفرغ لأدب الرحلة، والمتابع لكتبه لا يقدر على تصنيفه لا جغرافياً، ولا اجتماعياً، ولا سياسياً. ومن ثم فهو أقرب إلى الموسوعيين، لتوفره على القيم العلمية والأدبية، واللغة التي يعتمد عليها، ويتوسل بها لغة فصيحة سليمة، لا يعمد فيها إلى التزوير ولا إلى التنقيح، ولكنه يكتب كما يتحدث، وذلك سر الإكثار والقبول. وبعض الأساليب توصف بالسهل الممتنع، ف (طه حسين) كاتب جذاب وممتع، ولا تستطاع محاكاته، ولو كانت عند العلامة عناية لغوية أو أدبية أو معرفية دقيقة محددة، لكان أن قل عمله وانحصر مريدوه. ومع العفوية احتفظ بمستوى أدبي ولغوي ومعرفي يجعله في مصاف غيره من الأدباء الممارسين للكتابة الأدبية. لا تجده ناقداً ولا منظراً، وإن كان يستبطن التساؤل والمراجعة، كما في مداخلاته اللطيفة مع المفسرين في كتاب (نفحات من السكينة القرآنية).
على أنه لم يوجه اهتمامه لصناعة الأدب، ولم يشأ الاشتغال المنقطع لشيء من فنونه، وإن جود آلياته النحوية والصرفية واللغوية والبلاغية، فإنما ذلك بوصفها علوم العربية لا بوصفها آليات الأدب. وحفوله بالأدب حفول المتمتع، لا المحترف. كما لم تكن له إلمامات أدبية حديثة، بل كان ولما يزل مع التراث ينتقي منه ما يحلو له من الحكايات والأخبار والنوادر ولطائف التفسير، وعزماته الجادة تراها رأي العين فيما سوى الأدب من معارف إنسانية، ومتى وضع يده وحدد مهمته أعطى عطاء العلماء المتمكنين من معارفهم ومناهجهم وآلياتهم.
ومن هنا قلنا بأنه لم يكن جادا في ممارسته الأدبية، ولم يشغله الأدب بصفته الفنية مثلما شغلته اللغة وأدب الرحلة والأمثال والجغرافيا. وما كان الأدب عنده إلا من جهة أدبية النص، وسلامة اللغة، وثراء المعارف، وتنوع الاهتمامات، ومحاولات مترددة في القص جاءت في (سوانح أدبية) وفي مخطوطات لم تر النور.
وموسوعيته جعلته يأخذ من كل شيء بطرف، وتلك سجية العلماء الأوائل، وما أصابتنا أمية التخصص إلا بعد أن أصبح العلم صناعة والتعليم وظيفة، وإلا بعد أن تنازعتنا الرغبات، فكانت عين في الكتاب وعين في الوظيفة. وأما اهتمامه ب(العامية) فلأنها

مصدر معرفي أو تاريخي، ولم يهتم بها كلغة رديفة، ومن ثم ألف في الأمثال، وفيما انقرض من الألفاظ. ولما لم أكن حفيا بمثل هذا الاهتمام، فقد عدلت عنها، ووقفت منها موقف الرسول ﷺ من (الضب)، لم يحرمه، ولكن نفسه تعافه.

ومسميات الكتب الأدبية تشي بالاهتمامات والدلالات والخطرات، وأقرب ما توحي به أن الأدب عنده للإمتاع أولا ثم للانتفاع ثانياً. فلقد صرف همه إلى ما يمكن تسميته بالضحك الهادف، بحيث تقصى أخبار الثقلاء والنوكي والمغفلين ونوادر الأخبار، نقلها برواياتها وأسانيدها تارة، وعلق على بعضها و تولى روايتها بنفسه تارة أخرى. أما في (سوانحه الأدبية) فهو منشىء أو مبدع، وكأني به يتخفف بهذه الإلمامات من جد العمل، ولقد سلف من كبار العلماء من جعل الممارسة الأدبية انتباذا غير قصي عن جد العمل. نجد ذلك عند (ابن حزم) في (طوق الحمامة)، وعند (ابن الجوزي) في (صيد الخاطر)، وعند (ابن قيم الجوزي) في (روضة المحبين)، وفي (عقلاء المجانين) ل (النيسابوري)، وفي (كتاب التطفيل) ل (البغدادي). وكتابه (أخبار أبي العيناء اليمامي) من ذلك اللون الذي أشرنا إليه، وكل جهده يتمثل في التنقيب والبحث فلا هو دراسة ولا ترجمة ولا نقد، وإنما هو جمع وتخريج للاستمتاع والتملح والتفكه. وأجمل قاعدة نقدية قالها: - أن النقد والتقويم (شأن من يرى لا من يروي).

و(أبو العيناء) شغل طائفة من الموسوعيين والأدباء، فقد انتثرت أخباره في الموسوعات، ولو عدنا إلى الإحالات في الهوامش لهالنا عددها، ولم يكن من بينها (نثر الدرر في المحاضرات) ل (الآبي) الذي استل منه الدكتور (نعمان محمد أمين طه) كتاب(نوادر أبي العيناء ومخاطباته)، وقد أسِف على فَقْد مخطوطة (أخبار أبي العيناء) للصاحب بن عباد، وسمى كتابه باسمه ومع التشتت والضياع جاء كتابه أوسع وأشمل وأدق وأوفى من مستل (نعمان طه) الذي اقتصر فيه على تحقيق ما يخص (أبي العيناء) في المخطوطة.

ومعضلة هذه النوعية من العلماء الموسوعيين صعوبة التصنيف فليسوا بالفقهاء ولا بالأدباء. ولقد امتعض (الطنطاوي) من حالة (الأعراف) التي يعيشها، فالأدباء يذودنه عن حقولهم، والفقهاء يكبرون أنفسهم عن اهتماماته، فلا هو فقيه مع الفقهاء ولا أديب مع الأدباء، وإن كان يبز هؤلاء وأولئك. ولو استدعينا (أدب الرحلة) عند العبودي لكان فيه علماً من أعلام الأدب، ولو استدعينا (المعجم الجغرافي) لكان فيه علماً من أعلام البلدانيين، ولو استدعينا (الأمثال العامية في نجد) لكان فيها علماً من أعلام المحققين. ولكن إمكانية تصنيفه ضاعت بين قبائل العلم، فكان أمة وحده، وكان من حقه أن يقول لكل داع له إلى الصدارة: - الصدر حيث أكون.

جلد المناهج جلد للذات المقنعة .. ؟[1]

أصدقكم القول أنني حين أتحدث عن قضايا مصيرية كالمناهج والجهاد والولاء والبراء وقضايا الفكر والسياسة ينتابني خوف من القول وخيفة من الصمت، فالكلمة مسؤولية، يقولها الإنسان في سخط الله، لا يلقي لها بالاً تهوي به سبعين خريفاً في النار، وكم يقولها البعض عن قضايا وطنه يريد بها عرض الحياة الدنيا، فتطفئ وضاءة الوجه، وتضر بالمصلحة العامة.

ولقد تكشفت المشاهد عن انتهازيين ومزايدين وشكوكيين حاروا غثاء بعد سطوع وتألق، ولو عرف المترددون أو المجازفون خطورة السكوت عن الحق أو القول بغير علم، لتمنوا أنهم ماتوا قبل هذا، وكانوا نسياً منسياً.

وحين أتحدث عن أي قضية مصيرية سلباً أو إيجاباً أصبح كالقاضي لا يرضى عنه إلا المستفيد من الحكم، وعزائي أن ما أقوله دافعه المحبة والشفقة، وكل متحدث ناصح يرجو ألا يتلبسه رياء ولا سمعة، وألا يقول ما يقول لغرض دنيء أو عرض زائل، وألا يقول بغير علم أو تجربة، ومصائب الأمة من متقولين أو وصوليين، وإذا بدرت من الناصحين آراء غير موفقة فإن من حقهم على المقتدرين ألا يسكتوا عن إرشاد الضال، وألا يسيئوا الظن بالمخطئ ابتداء، وإذا تردد المقتدرون نزل بساحة القوم من لا يحسن الورود ولا الصدور، وذلك ما نراه، وما نسمعه، وما نضيق به.

والبلاد في ظل الظروف العصيبة محلياً وعربياً وإسلامياً ودولياً أحوج ما تكون إلى جهود أبنائها من العلماء والخبراء والمجربين وفقهاء الواقع، ممن يحملون هم أمتهم، ويدرؤون عنها عوادي الزمن، ويعتمدون السكينة والأناة، ولا أحسب أحداً معذوراً على السكوت عن الحق، ولا محموداً على استغلال الظروف لأغراض دنيئة، مادامت الأحوال كما نرى ونسمع عبر وسائل الإعلام العربي والعالمي.

وهل عاقل يشك بأن وراء الأكمة ما وراءها؟ وحملة الأقلام الناصحون في هذه الظروف المخيفة يمارسون «جهاد الدفع» المتعينة فرضيته على كل مقتدر، وليس الأمر من باب «جهاد الطلب» الذي يكون على الكفاية والاختيار.

والإشكالية التي تشغل الرأي العام، وتعتورها الأقلام، وتسلقها الألسنة الحداد بشكل تناحري إشكالية «المناهج» فكل طائفة ترى مالا تراه الطائفة الأخرى.

والناس شركاء في التعليم، لأن أكثر من على أرض البلاد في سن الطلب، وهم بين متلق للتعليم أو معلم له، وكل واحد من أبناء البلاد: إما دارساً أو مدرساً، أو أن له ولداً أو بنتاً أو أخاً أو أختاً، فالتعليم كالهواء يمس الناس كافة، ولكنه مع هذا لم يكن المؤثر الوحيد في السلوك أو في التفكير، حتى لقد عده البعض من المؤثرات التقليدية.

فثورة الإعلام والمعلومات والاتصالات وحمى «العولمة» كادت تنفرد بالتأثير، وحين تضطلع المناهج بمهمة التربية والتعليم، ثم لا تكون مخرجاتها مستجيبة لطلب السوق ولا متمثلة لأخلاقيات الحضارة، يكون هناك خلل في المهمتين، وما لا خلاف حوله أن المخرجات دون المؤمل، الأمر الذي يستدعي إعادة النظر، دونما اتهام أو تخوف.

ولأن قضية التعليم أصبحت من أهم القضايا الوطنية، والأكثر تداولاً، فقد تقحم سوحها العالم ومن دونه، والمتشدد والمتسامح، والمتحدث والمتثرثن، والمتعلمن والمتعولم، والمتفرنس والمتأمرك، و«الراديكالي» و«الليبرالي» و«الفرانكفوني»

---

(١) تاريخ المقال: ١٣/ ١/ ٢٠٠٤

والمذهبي والطائفي والانتهازي والمزايد، وهذه الضجة الكبرى تنطوي على أجنة سوية أو مشوهة، ومن حق كل عاقل أن يفكر، وأن يقدر، وأن يبدي تحفظه وتساؤله، فذلك حق مشروع، ولكن تجب الاستبانة، وتفادي سوء الظن، والتفريق بين الحقائق والشائعات، فإلقاء الكلام على عواهنه حول القضايا المصيرية قد يعيق عمليات الإصلاح والتطوير، ومما يزيد مشروعية التحري والتساؤل ما يشاع في الأوساط العالمية، من أن المناهج التعليمية في المملكة تفرخ الإرهاب، وأن هواجس التغيير والتطوير تطال الثوابت الدينية، ولعلنا نستعيد مبادرة «باول» في ٢٠٠٢/١٢/١٢م القائمة على أربعة مبادئ منها «الإصلاحات التعليمية» فما المقصود بها، أيريد العلمنة أم العلمية؟

وفي ظل هذه الظروف المدلهمة يشرع الخوف والتساؤل، وحسناً فعل المسؤول بالإعلان عن أسماء اللجنة المسؤولة عن تطوير المناهج، لقد فتح هذا الإعلان أبواباً من الآمال الباسمة والاطمئنان الواثق، والتفاؤل العريض، فالناس قبل هذا محتقنون، وحق لهم الاحتقان، فما يشاع عن مناهجهم من قول غير موثق، يبعث على الارتياب، والعامة لها أمثالها الناطقة بالحكمة كقولهم: «إذا قيل رأسك ما هو عليك رحت تلمسه»، فنحن وإن كنا واثقين بحملة المسؤولية مطمئنين بالتزامهم بمقتضيات سياسة التعليم المعلنة، إلا أن كثيراً مما يدور على الألسن وعبر الوسائط الإعلامية من أبناء البلاد أنفسهم، ومن غيرهم، يبعث على الخوف المشروع، ولقد سبقنا «أبو الأنبياء» بطلب الرؤية للاطمئنان: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى﴾، وليس على أحد من بأس أن يقول: «أروني كيف تطورون المناهج»، وواجب المسؤولين مواجهة الرأي العام، وبسط أهداف التغيير وأمدائه، وعدم الامتعاض من الأسئلة الملحة، ذلك أن قرناء السوء يخوفون الخليين، ويفترون الكذب، ويطلقون الاتهامات جزافاً، ويحسنون صنع الحرب النفسية، والمسؤول المطمئن إلى مشروعية فعله، يتصور أن الناس جميعاً يعرفون ما يعرف، ومن ثم يكل الناس على ما يتصور بلوغه إليهم.

وإذ كان لإعلان أسماء لجنة المناهج أثره الحسن على كل من لقيت، فإنه يحسن أن تجرى لقاءات متتابعة عبر وسائل الإعلام مع الأعضاء، يتحدثون فيها عن وجوه التطوير والتغيير، وبخاصة ما يتعلق منها بالعلوم الشرعية، ليحبطوا دعاوي المرجفين الذين يربطون عملية التغيير بما يروجه الإعلام الغربي، وليكشفوا عوار ما يتلقفه الفارغون الذين جبلوا على النوال وعدم المبادرة، وهم ألد الخصام، ولو أن المعنين بجلد المناهج عادوا لما قبل الحادي عشر من سبتمبر، وقرؤوا ما قالوه بألسنتهم عن العملية التعليمية، وما كتبوه بأقلامهم عن ضعف المناهج وعدم تأثيرها تعليمياً وتربوياً، ولو أنهم قرؤوا التقرير الذي أعده «سعد الدين إبراهيم» من قبل وأصدرته «مؤسسة ابن خلدون» عن التعليم العربي، لوجدوا أن ما قالوه من قبل، وما قرؤوه، لا يأتي على ذكر ما يتداولونه اليوم، ولم يقل النقاد، ولم تقل المؤسسات الراصدة بأن المناهج تصنع إرهاباً، علماً بأن «مؤسسة ابن خلدون» مظنة العمالة والإثارة والتشكيك.

فمن الذي صنع هذه الضجة؟ وإذا كان في المناهج ما يوحي بالعموميات والاحتماليات فإن من أولى مهمات اللجنة تقييد المطلق، وتحديد المعمم، وتفادي الحدِّيات الصارمة.

وإن كان ثمة تحفظ فإنه على وقوعات فردية أو آنية تمارس على هامش المناهج أو في ظلها من مناشط، ربما وجهت إليها ظروف استثنائية، وهذه تمت تحت بصر الجميع وسمعهم، ثم إن الطفرة التي اجتاحت البلاد قلبت الأوضاع رأساً على عقب، وغيرت

المفاهيم والمواقف، ومناهج التعليم آخر من يعلم، ولأن اللغط يقوم على الاهتياج الأعزل فإنه لا يفرق بين المناهج والمقررات والتربية والتعليم وطرق التدريس والوسائل والأزمنة والأمكنة، ولا يحسب لضعف المهارات ولا لقياس الجودة ومقاييس الأداء والضعف اللغوي والحشوية والمنهج الحواري أي حساب.

وسواء قال الغرب أو لم يقل فإن كل مفردات التعليم بحاجة ماسة إلى إعادة النظر والتطوير، سواء منها ما يخص العلوم البحتة أو الإنسانية أو الثقافة الإسلامية، فلكل زمان أولوياته، والإسلام يضع كل الاعتبار لفقه الأولويات، فنزع قضية وإنزال أخرى، لا يعني إلغاء الأولى أو التخلي عنها، وإنما يعني أنها لم تكن الأهم في السياق القائم، ولقد وجهنا الرسول المعلم عملياً إلى فتيا المناسبات، وإجابته عن طلب «التوصية» وعن «أي الأعمال أفضل» خير دليل.

ومما يساعد على تصعيد الشعور بالخوف ما يقترفه البعض بحق مقررات العلوم الشرعية، وما يلمحون إليه من رغبات ليست على شيء من الحق، وفوق ذلك فإن هناك مبالغات غير مبررة، تنحي باللائمة على المقرر، وعلى المعلم، وعلى المشرفين على النشاطات الطلابية، ومع أن في كل ذلك ما يحتاج إلى إصلاح، إلا أنه لا تجوز المزايدة وانتهاز الفرص وتحريف الكلم عن مواضعه، ومن الطبعي أن تبدو في المقررات كلمات حادة أو عبارات حمّالة، ومن الطبعي أيضاً أن يكون من المعلمين من لا يحسنون التأويل، ولا التوصل السليم، ومن الطبيعي أن يتطوع متشددون في النشاط الطلابي فيوغلون في الدين بغير رفق، كل ذلك ممكن، وكل ذلك متوقع، ولكن الوقوعات الفردية لا يمكن أن تجعل سمة عامة كل شيء، ولا يمكن أن تحفز على اتهام مفردات التعليم ومحاكمتها، فكل ذلك لا يجوز تضخيمه لإدانة المناهج والمعلمين والوزارة من ورائهم، وإذا كنا نسلم بوجود نقص أو تقصير في العملية التعليمية، ونحن مسلمون ولا شك، فإننا نجد في المقابل مزايدين يطلقون الاتهام ليسجلوا لأنفسهم مواقف زائفة، ولو طلبت منهم البينة لسقط في أيديهم، ومثل هذه المزايدات تثير الرأي العام.

لقد قرأت وسمعت حملات جائرة لن تزيد الأمر إلا تعقيداً، وكل مجازفة في الاتهام تولد مجازفة في التبرئة، وفيما بينهما تضيع الحقيقة، وعمليات التطوير جزء من العملية التعليمية، والمسؤولون عن المناهج يمارسون ذلك منذ أمد بعيد، وما من أحد أبدى تخوفه، غير أن الظروف الاستثنائية عمقت الخوف. فالوزارة بعمليات التطوير والمراجعة تمارس شطراً من مسؤوليتها، ولديها أجهزتها المسؤولة عن تطوير المناهج، ولم يثر فعلُها أي تساؤل، فالقائمون عليها أهل للمسؤولية والثقة، ومصائب الأمة تكمن في تقحم الجهلة المتطرفين من الطرفين، وفي الإمعان في تسييس الدين والتعليم وشؤون الحياة، فالسياسة ترتبط بالمصالح التي لا تدوم، فيما تقوم القضايا الإسلامية والتربوية على الثبات والمبدئية، وفوق كل ذلك فإن هناك خلطاً عجيباً بين الثوابت والمتغيرات، والتعليم والتربية، فالعلم الخالص صناعة يجب أن يراعى فيها العرض والطلب، وحاجة السوق، ومتطلبات التنمية، فيما تتجه التربية إلى تنمية المهارات وتأصيل القيم وتهذيب الأخلاق وإظهار الدين، وتثبيت معالم الحضارة، وهذا ما يعرف ب «أسلمة المناهج»، والأسلمة لا تعني تغيير القوانين العلمية أو التدخل في السنن الكونية، أو فرادة المناهج والطرق، وإنما تربط المكتسب بالحضارة وتصطبغ بها.

والتركيز على تغيير المناهج، والقول بأن الإصلاح يبدأ منها، ووضع البيض كله في هذه السلة يعد من الاطلاقات المعممة، فالمقررات كتب ورقية، والرهان على الحذف والإضافة رهان لن يبلغ شأوه، وإذ تكون الإشكالية أوزاعاً بين المنهج، والمقرر، والمدرس، وطرق التدريس وكافة الوسائل والمباني فإن علينا ألا نراهن على نزع صفحة

وإحلال أخرى، وعلينا ألا نسلم بأن مناهجنا تصنع الإرهاب، ولا أنها دون غيرها من المناهج العربية، ولا أن تكون رغبتنا في التغيير من أجل تجفيف مستنقعات الغلو والتطرف، الغلو والتطرف والإرهاب لها مصادرها التي يعرفها أولو الدراية بخبايا السياسة، والذين استثمروا الأحداث العالمية للضغط على الشعوب المسلمة للدخول في «العولمة» كافة يزيدون في احتقان الرأي العام ويهيئون لاشتعال المقاومة والإرهاب، ومن الخير للبلاد والعباد أن يكف المتطرفون من كل الفئات عن المزايدات وتسجيل المواقف، وأن تقوم الوسطية في كل شيء، بحيث لا يكون تطرف إسلامي، ولا تطرف علماني، ولا مزايدات طائفية أو مذهبية، مع الكف التام عن تداول ما يقوله الغرب حول مصادر الإرهاب، ذلك أنه ناتج أوضاع عالمية، يعرفها حذاق السياسة، والإحالة إلى المناهج وحدها حيلة لا ينخدع بها إلا الخب، وحين نبرئ مناهجنا من صنع الإرهاب، وتبني التطرف، فليس معنى هذا أن نصر على سلامتها والإبقاء عليها، ولا أن ندعي قدسيتها، وتجريم المساس بها، إنها صناعة بشرية، وكل صناعة بشرية لا تكتسب الثبات، ولا تسمو فوق المساءلة، وحين نباشر إصلاح المناهج أو تطويرها أو تعديلها أو تصحيحها تحت طائلة اتهامها بصنع الإرهاب، نقع في الخطأ، أو قل نستمر فيه، وقد تلهينا الأوهام عما يجب ان تمتد اليه يد الإصلاح، المدرس والوسائل والمباني وطرق التدريس وكل مفردات العملية التعليمية بحاجة إلى أن نتعهدها بالتطوير، ولقد سمعت في اللقاء الثاني للحوار الوطني كلمات لاذعة، لانطوائها على تخوف مثل «التدريس مهنة من لا مهنة له» و«البلاد ورشة لتدريب الوافدين» و«التعليم في واد والتنمية في آخر«.

وعتبي على الذين يتصورون أن الاصلاح يقتصر على مواد «العلوم الشرعية» وحسب، وعلى الذين يتصورون أن المناهج هي الصانع الوحيد للإنسان ولفكره، وعلى الذين يغفلون أو يتغافلون عن التقصير الحقيقي، وحين لا أرى من بأس في إخضاع «العلوم الشرعية» كما العلوم الإنسانية، وكما العلوم البحتة أو التجريبية أو الرياضية لعامل الأولويات، فإنني أرى البأس كله في ربط التغيير بالأحداث، أو الخنوع للاتهامات، والقبول الطوعي لها، أو الالتفات إلى عشاق الأضواء والمشتغلين في بؤر التوتر والمتعمدين لخلط الأوراق، وإذا أراد الله بالأمة خيراً حفز علماءها وخبراءها ومتخصصيها وقادتها لإعادة النظر في كل شيء، عند كل نازلة، إذ كلما ألمت بالأمة نازلة أو قامت حاجة استدعوا من نصوص الشريعة أو تجارب الحضارات ما يصلح لمواجهتها، فإذا نزلت بساحتهم أخرى شغلوا بما يناسبها، وتعمد إرجاء قضية وتقديم أخرى لا يعد خطيئة ولا تقصيراً بحق الدين، والنفور الكلي للتفقه في الدين إضاعة لمطالب الحياة، فالمتعلمون لا يراد منهم أن يكونوا أهل ذكر وإنذار وإفتاء، وإنما عليهم أن يتعلموا من الدين ما هم بحاجة إليه، مما يتعلق بالأخلاقيات والمعاملات والعبادات، وما سوى ذلك عن عويص المعارف الشرعية يترك للمتخصصين الذين يرجع إليهم في الفتيا وغيرها، ومن كلمات الأصوليين: «ما لا يقوم الواجب إلا به فهو واجب» وهذه القاعدة لو وعينا مقتضاها لعرفنا ما نحن بحاجة إليه من كل شيء، ولكيلا نصعد الخلاف يجب أن نعرف من نكون، وما طاقتنا، وما نحن بحاجة إليه؟ وليس بمقدور السياسة التعليمية أن تستجيب لكل متمذهب، ولا لكل متذوق، ولا لكل متلق لركبان المستجدات، ولقد قرأت لمعالي الأخ وزير التربية والتعليم في ١٤٢٤/١١/١٨هـ «الجزيرة ص٣» ما نسب إليه: «فنحن أصحاب دعوة ورسالة سامية ترفض التطرف والغلو بالقدر الذي نرفض فيه الانحلال»، وتلك كلمة متوازنة، وضابط لكل تغيير.

سلبيات الإفراط والتفريط والعنتريات .. ! [(١)]

و«المستغربون» على أي مستوى تجاهلوا أن «الصهيونية العالمية» المجرَّمة من كل الشرفاء في العالم ورمزها القائم «إسرائيل» ما كان لها أن تكون لولا مواطأة الغرب ودعمه وحمايته، وهذا الميل مسقط لدعاويه، ومضر بمصالح الأمة العربية، ومحفز قوي على احتقان الشعوب العربية، وليست الخطيئة قصراً على مجرد الوجود الصهيوني وحسب، وإنما تمتد إلى آثاره ومقتضياته، فالصهيونية لا يقر لها قرار بالوحدة العربية، ولا بوحدة أقاليم الدولة الواحدة، ولا بالوحدة الفكرية، ولا بقيام أنظمة دستورية، وكيف يحتمل العربي المسلم تشريد خمسة ملايين فلسطيني، ويقبل بجمع الشتات اليهودي في قلب الوطن العربي، ومع التشريد والتوطين فإن المحتل والمستوطن لن يسعدهما قيام «الديمقراطية» التي يخادعان بها، وكيف يرضي الغرب بقيامها في بلاد أذن لنفسه أن يجعلها سوقاً لمنتجاته وميداناً للعبة ومختبراً لتجاربه، ولهذا فإنه لن يغض الطرف عن أي مبادرة إيجابية في أي قطاع: دستوري أو تعليمي أو اقتصادي أو صناعي، وكل الذي يشغله المحافظة على تفوق الكيان الصهيوني في كل مجال، ولن يتأتى له تحقيق ذلك في ظل المبادرات الإيجابية التي تخل بالتوازن، ولن يذعن إلا مكرهاً أو مضطراً، ولو اجتمعت كلمة العرب، وخلت ارضهم من الاشياع والاتباع، لكانت لهم القدرة على ممارسة الضغط، ووضع الغرب أمام مسؤوليته.

وأخطر ما يواجهه الشرفاء ارتباط المصالح الأمريكية الإسرائيلية، وقيام المصالح الإسرائيلية على استمرار تفوقها، وترسيخ التخلف في الوطن العربي، وتأصيل الفرقة: الفكرية والسياسية والعرقية والطائفية، واختراق الأجواء والأدمغة، وتعميق بؤر التوتر، والحرص التام على قيام كيانات سياسية غير شرعية، لا تملك الاستمرارية ولا الاستقرار بالإدارة الشعبية، وإنما تملكها بالتكتنات العسكرية، وبحبل من الدول ذات المصالح، وما من أحد من المستغربين يود استدعاء مثل هذه الحقائق الدامغة، لأن مجرد تداولها كشف لسوآتهم.

وكيف يحلو للمستغربين التعذير أو التبرير أو الركون للغرب أو الثقة باطروحاته ووعوده، وهم يرون غزوه العسكري وتآمره الفكري رأي العين، متمثلة بامتصاص الخيرات، وإثارة العداوات، والتدخل في الخصوصيات، والاحتلال والقمع، ودعم الاستيطان، وتحريض الأقليات، والحد من إعداد المستطاع من القوة ومن رباط الطائرات والراجمات، وحجب «التكنولوجيا» الانتاجية، وإشاعة الاستهلاكية، والتستر على ما تلاقيه الشعوب من ويلات على يد أبنائها، مع قذف الطعم المسمم عبر مفاهيم جذابة كـ «حقوق الإنسان» و«المرأة» و«الحرية» و«الديمقراطية».

إن ضعف الشعوب العربية، وضعف كياناتها السياسية، وخوف الدول العربية من بعضها، واختلاف أحلافها ومصالحها وكل شيء فيها، مواطأة المصالح الاستعمارية للضعف والاختلاف، كل ذلك سيئة وأسوؤه يحتاج إلى تحرف جماعي، يستبعد المثاليات والعنتريات والتنازع وسيطرة الإحباطات، وتأثير العقد النفسية والمزايدات والتعذيرات، ويتوسل لمواجهة الواقع المتردي بالحكمة والأناة والتروي والعلم والعمل، وفق الإمكانيات المتاحة، وعلى ضوء الظروف القائمة.

ولسنا بدعوتنا محرضين على منازلة الغرب، ولا داعين لمقاطعته، ولا حائلين دون الاستفادة منه، ولا متحفظين على التفاعل الإيجابي معه، وإنما نريد تعاملاً ينطلق من

---

(١) تاريخ المقال: ٢٧/ ١/ ٢٠٠٤

الأشياء على حقيقتها، ويتوفر على الندية والتكافؤ، ولا شك أن تتابع النكسات، وانكشاف اللعب، وبوادر الغزو والتآمر يفضح تهالك المستغربين على ما تروجه المؤسسات الغربية وبوادر الغزو والتآمر يفضح تهالك المستغربين على ما تروجه المؤسسات الغربية من افتراءات تؤثر على السذج والمتسطحين.

ولقد سمعنا من يقول: إن عزلة المملكة عالمياً ستكون بسبب مناهجها، وعايشنا مروجين لهذه الفرية، وكأن أحداث التفجيرات فرصة سانحة للمسخ والإضعاف والتبعية، وإشكالية الأمة في «مناصرين» لا يحسنون المناصرة، وفي «متطرفين» لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة، وفي «مستغربين» يخادعون أمتهم، وما يخدعون إلا أنفسهم، وفي «مستفزين» يغثون في صخبهم، وفي «موبوئين» بعقد الأبوية ورفض التغيير، وفي «حكام» متورطين في اللعب أو المجازفات، فالمناصر الجاهل، والمتطرف المدمر، والمستغرب المواطئ، والمتمرد المستفز، والحاكم المجازف عقبات عصية، تتعثر بها مسيرة الأمة، ويرتاب منها العقلاء، ويتجرع مرارتها الحكام الصابرون على اللأواء، وجيلنا التعيس عايش انتهازيين، هيجوا الشعوب على قادتهم، ومفكرين منحرفين، شككوا الرأي العام بثوابت دينهم، وإعلاميين مأجورين، استعدوا الغوغاء على مؤسساتهم، وحكاماً مجازفين متسلطين، ساموا شعوبهم سوء العذاب، وحين سقطت الأقنعة، وتعرت الحقائق، طفق هؤلاء جميعاً يخصفون من كل شاخص ما يستر مقترفاتهم، ووجدوا من يواطئهم على الإصرار على الحنث العظيم .. وهل من حنث يبلغ درك الخيانة للأمة والوطن؟ ومن المستحيل حسمها بين عشية وضحاها، والمجازف كالمثبط حذو النعل بالنعل.

والتجاهل والتناسي والغفلة والتغفل والغباء والتغابي سمة المصطرعين في المشهد السياسي والفكري، ولو علموا وذكروا وتنبهوا لكان أن تسللوا لواذاً، خجلاً من قبح ما صنعت أيديهم، وقل أن تجد أحداً منهم ابتدر القضايا، واستلها كما الشعرة من بنية الأمة، وإنما الجميع أصداء لما يطرحه الإعلام الغربي، وما تفيض به مطابخه السياسة، وها هم اليوم في سفسطات تلهيهم عما يجري في فلسطين والعراق وأفغانستان ولبنان والسودان وما الجدل البيزنطي حول «المناهج» و«قضايا المرأة» و«الإطصلاح» إلا مؤشر غفلة مضرة، وما كانت تلك القضايا حاضرة المسرح الإعلامي، لولا أن جاء بها الغرب، لشغل المشاهد عما يجري من قتل وتفتيت وتشريد، ولو سألت مستغرباً عن حقيقة ما يغلي في مطابخ الغرب، وعما يراد بالعالم المستضعف، وعما يدور في المشاهد من مؤامرات ومواطآت وانتهاكات مؤلمة، تطال العقائد والأنفس والأوطان والأعراض والأموال لما تجاوز علمه ما يروجه الغرب عن «الإرهاب الإسلامي» و«الاصلاح السياسي» و«حرية المرأة» و«تغيير المناهج» ذلك أنه رهين ما تفرج عنه المؤسسات السياسية الغربية وسائر المنظمات التي تخادع الناس بدراسات وإحصائيات لا أساس لها من الصحة، وإشكالية هذا النوع من التبعيين أنه لا يفرق بين الوقوعات الفردية والمقاصد المبدئية، ولا بين مسؤولية المقترف وبراءة المبدأ، فأي الفريقين أحق بالمقت؟: القاتلون للأبرياء المخلون بالأمن، أم المواطئون للأعداء، المعذرون لمقترفاتهم وتجاوزاتهم، المشرعون لممارساتهم، أم المقامرون بمقدرات الأمة، أم المزيفون لوعيها المغررون بشبابها، أم الحداثويون المستفزون للرأي العام بتجاوزاتهم القولية؟ أحسب أن جميع أولئك في السوء والإساءة سواء.

لقد مس الأمة الضر من الإرهاب، ومسها الضر من الاستغراب، ومسها الضر من عقدة الغزو والتآمر، ومسها الضر ممن يركنون إلى الذين ظلموا، ومسها الضر من

المغامرات والمقامرات، ومسها الضر من تدنيس مقدساتها وإفساد قيمها الدينية والأخلاقية والفنية.

وما نزل هؤلاء جميعاً من السماء كما الكسف، وما انشقت عنهم الأرض كما اللغم، ولكنهم جميعاً منتج أوضاع قائمة، وسليل أنساق متعددة، ربما انفقنا الجهد والمال والوقت على تشكلهم.

ومصائب الأمة في الأنساق المنسوجة على غير مراد الحق، وفي السياقات المعاشة بكل ما هي عليه من تخلف، وفي الاندفاع الأهوج لإصلاح كل شيء في ظل العوائق الذاتية والغيرية، أو التردد الذي يترك الأمور على ما هي عليه، ولا نجاة للأمة إلا بحفظ التوازن، والإيغال في كل شيء برفق، وفهم طبائع الأشياء، وتفكيك بنية الأمة بأيد وطنية رفيقة، أيد تحسب للواقع حسابه، وتضع للإمكانيات مكانها، تمهيداً لإعادة صياغتها عبر كل المكونات: الذهنية والمعرفية والإجرائية، مستحضرة عروبتها وإسلاميتها ومقتضيات ذلك كله، ولن يتحقق الإصلاح المراد حتى تقوم الثقة مقام الشك، والعزم مقام التردد، وحتى يسلم الجميع لذوي الحل والعقد من علماء أفذاذ ومسؤولين شرفاء ناصحين، أثبتت الوقائع والتجارب سداد رأيهم، ونفاذ بصائرهم، أما إعجاب كل ذي رأي برأيه، وذهاب كل متعالم بما توصل إليه، أو القول بعصمة المسؤول وتساميه فوق المساءلة والنقد، أو جلد الذات المسلمة دون غيرها من المقترفين، فذلك العناد والفساد.

وحين تعترف النخب العربية: إسلاموية وحداثوية وليبرالية وعلمانية وظلامية واستغرابية بأنها طرف ضالع في الخطيئات، تكون الخطوة الأولى في طريق النجاة، وما لا مراء فيه أن طائفة من المفكرين والعلماء والساسة جزء من هذا النسيج، لأنهم سمعوا فسكتوا، وشاهدوا فأغمضوا، وخدعوا فصدقوا، وصنع الإرهاب خارج أرضهم ثم حملوا أوزاره فقبلوا، حتى شكوا في أنفسهم، وغلا ارتيابهم من مؤسساتهم: - التربوية والدينية والسياسية، ولما يزل المغلوب العربي يقول ما قالت: «حذام»، ولما يفكر بعد بأنه جزء من هذه التركيبة المتنافرة.

لقد بوركت أفعال في منتهى السخافة، ومجدت شخصيات في منتهى التفاهة، وزكيت مؤسسات في منتهى البدائية، وقعد مع أقوام يخوضون في آيات الله، وتولى الإعلام العربي كبر التزكية والدفاع والترويج، ولو أننا أعدنا قراءة ما سلف بالبصائر والأبصار، لكان أن سقطت أقلام، وتعرت شخصيات، وانكشفت سوءات، ولكننا قوم بلا ذاكرة، قوم لحظيون، نتطلع لما سيقال، ولا نمحص ما قيل.

لقد أشرت في أكثر من مناسبة إلى تهافت طائفة من النخب العربية على المتداول في المشاهد الغربية، وما تفيض به سائر مؤسساته، وتبنيهم الطوعي لتلك الظواهر والمذاهب، دون معرفة بجذورها الفلسفية، ودون تأصيل معرفي إسلامي، مع تقصير بحاجات الأمة، وعجز عن المبادرات، وها نحن نجد في الإعلام العربي، وفي مراكز المعلومات، وعبر المؤسسات المشبوهة ما يغثي النفوس من مسايرة وافتراء، ومع كثرة اللغط الرخيص لم تزل أوزاع من المتصدين للطرح الفكري والديني والسياسي تخلط بين الثابت والمتغير والمقدس والمؤنسن، وتشكك في قدرة الفكر الإسلامي على أدنى مشاركة حضارية، وتدعو لتبادل المنافع دون رد إلى المرجعية، فإذا طلبنا- على سبيل المثال- احترام الحجاب في «فرنسا»، فلنقبل بتبرج الفرنسيات في البلاد، وما أولئك وهؤلاء في مقولاتهم تلك إلا مسخنون لما غب من الطبيخ الاستشراقي، وراغبون في الاستغراب، وليست لأحد من أولئك مبادرات، ولا معايير، ولا مرجعيات، ولا ضوابط لسيل المطلحات.

فما الوسطية؟ وما التطرف؟ وما حد التعددية المذهبية؟ وما ضوابط التقارب؟ بل قد نسأل: ما الإسلام؟ وما الإيمان؟ وما الإحسان؟ فكل طائفة تفهم الأشياء وفق مرادها، وعلى ضوء مصلحتها، وحين نطلق التعويل على الإسلام، فأي إسلام نريد؟ ذلك أن لكل فرد تصوره ومفهومه، إن هناك خللاً في البنية الفكرية أدت إلى تعدد الموازين والضوابط الشرعية واختلاف القواعد والأسس العقدية، وبالذات حول قضايا الجهاد والبراء والولاء، وحدود التعامل مع غير المسلم، كما أن هناك غياباً أو تغييباً لمقتضيات الدستور المعول عليه، مع تمرد مكشوف، على المرجعية: نصية كانت أو شخصية.

وإذا كان النخبويون تخادعهم المؤسسات السياسية الغربية المتآمرة فإن العامة تجتالهم المؤسسات الإعلامية المغرضة، فيما تكون الدهما نهباً لكل ناعق، وحينئذ لا يكون هناك قاسم مشترك يدرأ عن الأمة الفوضوية، وأخطر ما تعانيه الأمة ما يتعرض له شبابها من تعبئة فكرية ودينية وسياسية ليست على مراد الحق، وليس أدل على ذلك من اقتراف عمليات التفجير باسم الدين، وعلى أيدي شباب مسلمين، نحقر عبادتنا عند عبادتهم، غير أنهم- وكما أخبر الصادق الأمين: - «**يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية**»، وكل يدعي أنه «الوسطي» حتى الذي يخوض في الدماء، ويكفر الدهماء، وينقض الميثاق، يركنون لإعلام الغرب ومؤسساته، والعارفون يغضون الطرف طوعاً أو كرهاً عن زعامات لعبت دور البطولة الزائفة، ثم ارتدت على أدبارها، الأمر الذي حفز «سلفان شالوم» وزير خارجية العدو الإسرائيلي إلى القول: ”إن إسرائيل تسعى إلى إقامة علاقات دبلوماسية مع عشر دول عربية»، وهذه العلاقة مشروطة بالتخلي عن أسلحة الدمار الشامل، فهو المنعم المتفضل، ومن ثم لا ينعم إلا بشرط.

لقد خنعت بعض الزعامات لمطالب الغرب، لأنها اقترفت على مدى عمرها السياسي خطيئات بحق أمتها وبحق الآخرين، حتى إذا مكنت من نفسها، بالاعتراف والتحمل، قالت: نعم، لتنجو من كسر العظم وحز الرقاب، واضطرت إلى فتح أبوابها للمحققين والمراقبين والمفتشين والمدمرين للسلاح، فيما قالت «كوريا» المتوازنة في الفعل والترك: إن قول نعم، والقبول بتدمير السلاح «ضرب من الجنون».

لقد آن الاوان للكف عن المزايدات الرخيصة وخلخلة تلاحم الأمة والتلاعب بمثمناتها، ولم يبق بعد كل هذه الاحباطات إلا العمل على وضع ارتيادية- «استراتيجية» - سياسية وفكرية وإعلامية توقف الانهيارات الفكرية والأمنية، وتحول دون التنازلات الموجعة، وتمكن القادة الناصحين لأمتهم من بدء الخطوة الأولى في سبيل الإصلاح الشامل، وعلى الخطاب «الإسلاموي» المتعدد الأصوات والانتماءات الخلوص من الفوضى والتعددية والحدية، والعمل على تحديد المرجعية والمفاهيم، وتحرير العقل من تراكمات الملل والنحل وتفعيله، والقطيعة مع أي خطاب جامد متعصب أبوي إقصائي حدي متطرف، وإشاعة التسامح والتيسير والوسيطة وحسن الظن والتماس المخارج لمن خانه التعبير، وفق معايير وضوابط لا تقود إلى التمييع والانمساخ وخلط العذب الفرات بالملح الأجاج، وعلى الخطابات «الراديكالية» و«الليبرالية» والانبطاحية المتعلمنة والمتعولمة والمتعالمة والظلامية الدخول في الدين كافة، والرد إلى الله، والرسول، وتجنب الاستفزاز والإثارة، فاللحظات الحاسمة تتطلب قرارات حاسمة.

أدب الرحلة عند العبودي .. ! (١) [1]

يوم لا أنساه، والأيام المحفورة في الذاكرة كثيرة منها المفرح، ومنها المترح، ومنها المخيف، ومنها المطمئن .. تتجاوز في أعماق النفس بتناقضاتها الصارخة، ومتى عفت مع تطاول الزمن، جاءت المناسبات كما السيول التي تجلى الطلول.

وتكريم العلاَّمة معالي الشيخ محمد بن ناصر العبودي في المهرجان الوطني أعاد لي يوماً يفصلني عنه نصف قرن، خمسون عاماً، إنه زمن طويل، ولكنه لم يستطع طمس أحداث ذلك اليوم، فكأن بيني وبينها ساعة من نهار.

في صبيحة الخامس عشر من شهر صفر عام ١٣٧٤هـ لملمت أطرافي المبعثرة، وغسلت وجهي المغبر، ولا أستبعد أنني استعرت عباءة وحذاء، ودفعت بكل هذه الملفقات إلىمكتب طيني صغير، يقبع في أقصاه رجل مهيب الجانب، تزينه وضاءة العلم، ويملؤه حنو المعلم، إنه العلاَّمة محمد العبودي، كنت يومها في السنة الرابعة الابتدائية، وكان لدى (المعهد العلمي) إذ ذاك مرحلة تمهيدية، يقبل فيها المتفوقون، ليدرسوا في المرحلة التمهيدية.

لم أكن متفوقاً، ولكن والدي جار جنب لفضيلته، ومازال الرسول يوصي بالجار، حتى كاد أن يورثه. نظر إليَّ كما لو كان يتقرأ ملامحي، ثم دفع بي إلى المراقب ليلحقني بالصف الأول تمهيدي، وكان حقي أن ألحق بالصف الثاني، ولكنه قوَّم أشيائي، ولم يقوِّم معارفي، فكان أن ضاع من عمري عام دراسي. هذا اليوم الاستثنائي في حياتي أدخلني إلى عوالم لم أكن أعهدها من قبل.

وبعد سنتين أو ثلاث جاءت زيارة الملك سعود- رحمه الله- إلى القصيم ومن ضمن برنامجها زيارة المعهد، فكان أن تقلدت مكبر صوت، لأهتف بكلمة واحدة (يعيش جلالة الملك) يرددها من ورائي الطلاب المصطفون على جانبي الطريق، لقد مكثت أسبوعاً أردد هذا الهتاف وأسبوعاً أطبقه، وساعة العسرة تلعثمت، فقلت: (يعيش جلالة الملوك) فكان أن سيئت وجوه المدربين، وارتبك المرددون من ورائي، ولم يشف نفسي، ويذهب سقمها إلا تلك التلويحة المخلصة من يد جلالته، مشعرة بالاستلطاف، مع نظرات حانية من خلف نظارة جلالته السميكة، ولكن الخوف ظل يساورني من مدير يقدم بين يدي مساءلته للمخالفين والمقصرين صفعةً على خد نحيف، وأحسب أنه لم يسمع ما سمع غيره، فمرت الحادثة بسلام.

لقد عودنا الانضباط والطاعة، وكانت له أياديه البيضاء في التأسيس للتعليم، وتعويد القراءة في (مكتبة المعهد) التي تعهد بإنشائها وإمدادها، وكانت انطلاقتي القرائية منها ومن (المكتبة العامة).

إنها ذكريات عذاب، وإن لم تكن على شيء من اليسار ورخاء العيش وآثار النعمة.

وحنين الإنسان أبداً إلى زمن البراءات والتطلعات، فالراكضون في عقد السبعينات- وأنا منهم- يصحبون الدنيا بملل وضيق، وإن طال أملهم، وأحبوا دنياهم .. ولأن حديثي عن جانب من حيوات المحتفى به، فإنني سأضرب صفحاً عن ذكريات العذاب والمقدمات المهمة من حياة المختفى به، لأدخل إلى (أدب الرحلة) عنده .. ومعالي الأستاذ (محمد العبودي) عالم وأديب ومثقف، له اهتماماته التاريخية والجغرافية والأدبية، وله نشاطاته التعليمية والدعوية، ولقد اسعفته ظروفه العلمية والعلمية، فكان أن استثمر كل لحظة من حياته، تعلماً وقراءةً وكتابةً .. ويأتي (أدب الرحلة) في مقدمة إنجازاته التأليفية كثرة،

---
(١) تاريخ المقال: ٣/ ٢/ ٢٠٠٤

واتساعاً، واشتهاراً .. إذ عرف (العقاد) مفكراً وهو شاعر، فقد عرف(العبودي) رحالة، وهو العالم المتعدد الاهتمامات والقدرات والمؤلفات. ذلك أن عمله الرسمي تعانق مع اهتمامه بالرحلة وآدابها.

وقبل مباشرة الحديث عن هذا الفن السردي المعرفي، نور الإشارة إلى (أدب الرحلة) بوصفه لوناً من ألوان السرديات، تتنازعه معارف متعددة، فهو كما الثقافة، يأخذ من كل شيء بطرف، إذ يكون تاريخاً أو جغرافيا أو علم اجتماع أو علم سكان أو سيرة ذاتية، أو ما شئت من أنواع السرديات العلمية والأبداعية .. والرحالة وحده القادر على إعطاء (أدب الرحلة) عنده نكهة خاصة، تميزه عن غيره ممن كتب في هذا اللون.

فما(أدب الرحلة): فنيّاً وتاريخيّاً وموضوعياً؟ ومن هم أعلامه؟ وما نصيب الحضارة الإسلامية من هذا القول السردي؟ .. وحديثي عن علم من أعلام هذا الأدب يقتضي اللمحة دون البسط، إذ لست بحاجة إلى الرصد التاريخي لهذا الفن، وفي الوقت نفسه لن أطيل الوقوف على الأبعاد الفنية وتحولاتها، ذلك أن (أدب الرحلة) واكب الوعي الإنساني، واختلط بعلوم: (الجغرافيا) و(التاريخ) و(السياسة).

ولم يكن علماً مستقلاً، وإن أشير إليه عرضاً في دراسة الأعمال أو الشخصيات.

لقد كان لكل حضارة نصيب من هذا الفن، ولا أحسبنا بحاجة إلى الدخول في ضوائق المفاضلة أو الريادة، فالرحلة لصيقة بالإنسان، وحديثه عما لقيه فيها من نصب، وما شاهده من أشياء يأتي عفوياً.

والشعر العربي يفيض برصد ما يعانيه الشعراء المسافرون، في ظعنهم وإقامتهم، ولكن تسجيل معاناتهم، وما يتحدثون عنه من راحلة ورحلة وأطلال ومحبوبة وموارد مائية وجبال شاهقة وأودية سحيقة: غائرة الماء أو واقعاً في صميمها، ومطالع القصائد العربية القديمة لا تخرج عن وصف ما يمر به الشعراء، وما يقفون عليه من إقواء وعفا وأحجار وملاعب وأطلال ومواقد وبقايا معاطن، ولقد تقصاها دارسون ك (حسين عطوان) و(وهب رومية) وآخرون، غير أن ما نحن بصدده يختلف تماماً عن الرحلة في الشعر العربي، وعن المطالع الطللية أو الخمرية.

فالشعر لا يحفل بالمشاهد والمواقف إلا بقدر ما تنطوي عليه من ذكريات مرّ بها الشاعر، ثم هو يتحدث عن الصحراء لمجرد أنها ظرف مكاني للقاء متخيل أو حقيقي مع محبوبة حقيقية أو وهمية.

و(أدب الرحلة) اتخذ مستويين إجرائيين: مستوى الرواية الشفاهية، ومستوى التدوين. والشفاهي سابق على التدوين، ولكل حضارة بداياتها الحضارية في عمق التاريخ، ولكل علم بداياته العفوية. فلقد كان الراحلون من كل نحلة وعصر وعنصر يتحدثون إلى بعضهم كما يقول الشاعر:

أخـــذنا بـــأطراف الأحاديـــث بيننـــا
وســـالت بأعنـــاق المطـــي الأبـــاطح

وإذا عادوا إلى ديارهم، رووا لمن خلفهم ما لقوه في سفرهم من نصب، وقد يبالغون فيما يلقونه ويشاهدونه، ثم إن المتلقين عنهم يعيدون ما سمعوه للمتعة أو للاعتبار، فكان (أدب الرحلة) شفاهيّاً كأي بداية معرفية أو فنية، وحين بدأ التدوين، دونت العلوم والمعارف الجغرافية والتاريخية، واختلط (أدب الرحلة) فيها، ثم اتخذ سبيله إلى التميز والاستقلال، وما أن أسهم الرحالة في الكتابة حتى مالوا شيئاً قليلاً إلى (أدب الرحلة)، فكان أن تخلق هذا الأدب، كما الأجنحة في الأرحام، وامتاز عما سواه من فنون الكتابة، والرحلة غير الاغتراب، ف (المهجريون) وطائفة من (العقيلات) كما يسميهم النجديون،

خرجوا من ديارهم ولم يعودوا، ومن ثم نشأ (الأدب المهجري) و(أدب الاغتراب)، وقد يتداخلان مع (أدب الرحلة) .. و(الرحالة) غير (المهاجر) وغير (المغترب)، فالرحالة ينطلق في مهمة ليعود إلى بلده.

ولقد خلفت لنا كل الحضارات الإنسانية مخطوطات، يمكن أن تكون بدايات لهذا الفن السردي.

ففي كل حضارة، وعند كل أمة رحّالتها وهواة المغامرات فيها .. قيل إن كتاب (بوزانايس): (جولة في بلاد الإغريق) المؤثر الأول في (أدب الرحلة) وهو قد ظهر في القرن الثاني الميلادي، والحشد المعرفي لهذا الكتاب لم يجعله المؤسس الأول لهذا الفن، بل جاء من بعده مؤرخون وجغرافيون أسسوا لهذا اللون من السرديات، إذ خصوا (أدب الرحلة) بكتب مستقلة، لا تتسع إلا لما يدخل في هذا اللون من الأدب حسب مفهومه الحديث، وفي القرن الرابع الميلادي تجلت التقاليد الأدبية (لأدب الرحلة)، كان ذلك على يد (إكسينفون) في كتابه (أنابيزيس)، وميزة هذا العمل- كما يرويه المطلعون عليه- تتمثل في أمانة الوصف، وفي احترام القيَّم الفنية.

والراصدون لهذا النوع السردي الحفيون به، يتعقبونه في مظانه عصراً عصراً، حتى العصر الحديث، يرصدون للتحولات السردية والدلالية، يؤرخون لهذا اللون ولرجالاته، ويصفون فنياته وموضوعاته، ولما أن جاء عصر النهضة وأصبح معه(أدب الرحلة) نوعاً أدبياً متميزاً، له سماته وخصائصه وطرائف أدائه، نهض في تكوينه الرحالة والمكتشفون والمستشرقون والمناديب وذوو السفارة السياسية والدينية والعلمية، وساعدت وسائل الموصلات والاتصالات المتطورة على توسيع قاعدته ومشمولاته، أصبح هذا اللون أدباً وعلماً في آن، وتعددت فصائل المهتمين به والمستثمرين له، وكاد أن يختلط ب (اليوميات) و(المذكرات) و(الذكريات) و(السيرة الذاتية)، وفي خضم هذا الزخم، عرفت الآداب: (الأوروبية) و(العربية) عمالقة في (أدب الرحلة)، ومن تعقب ذلك عند من كتب عن (أدب الرحلة) عرفهم بأسمائهم وبأعمالهم، وعرف الأهداف والدوافع والنتائج، فطائفة من الدارسين ذيلوا كتبهم بمسارد للرحالة ولكتبهم ولمن سبق من الدارسين لهذا الفن.

والرحلة وسيلة وليست غاية، ومن الرحالة من حركته الأطماع السياسية أو الاقتصادية أو الدينية، ومنهم من استهوته الرحلة وحب الاطلاع، وقلَّ أن ينفك التدوين عن الأهداف والنوايا والرغبات: السيئة أو الحسنة، ولكن (أدب الرحلة) حين يصاغ باقتدار ينفصل عن خصوص السبب إلى عموم الفائدة، فيكون العمل إبداعاً إنسانياً، تمتد إليه الأيدي دون النظر إلى الدوافع والرغبات.

ولقد أومأ كثير من الدارسين إلى أنواع كثيرة في (أدب الرحلة) وإلى اهتمامات متعددة، جعلت هذا الأدب شيقاً ومفيداً، إنه أدب واقعي، يحمل رسال معرفية، وإن كان ثمة إمتاع فإنما هو إضافة يوفرها تمكُّن الكاتب من لغته ومن فنيات السرد، هذا إذا استبعدنا (الرحلات السندبادية) ورحلات المغامرات التي تعتمد على الخيال، وقد تمتد إلى الخرافة والأسطورة، وهذا اللون لا يدخل فيما نحن بصدد الحديث عنه .. ولأهمية (أدب الرحلة) فقد ألفت عنه كتب عدة تعمدت التأريخ لهذا اللون أو التنظير له أو الدراسة التطبيقية لبعض الرحالة ورحلاتهم.

أعرف من هؤلاء (شوقي ضيف)، و(حسين نصار)، و(الحسن الشاهدي)، و(حسني حسين)، و(علي مال الله)، و(جورج غريب)، و(حامد النساج)، و (عواطف نواب). كل هؤلاء ومثلهم معهم لم يكتبوا أدب رحلة، ولكنهم درسوا هذه الظاهرة، ونظروا وأرخوا لها أو درسوا كتاباً في الرحلة دراسة تطبيقية.

أما الرحَّالة الذين خلفوا للثقافة العربية والعالمية كتباً في الرحلة فأكثر من أن يحصروا .. وممن اشتهروا في هذا الفن في القديم (ابن حوقل)، و(المقدسي) و(المسعودي) و(البيروني) و(ابن جبير) ومئات غيرهم. وفي العصر الحديث (الطهطاوي) و(الآلوسي) و(عبد الله فكري) و(الشدياق) و(البستاني) و(طه حسين) و(هيكل) و(حسين فوزي) و(أمين الريحاني) و(أنيس منصور) وآلاف سواهم، ولكل واحد طرائقه واهتماماته ودوافعه فمن متعمد للتسيلة، ومن مهتم بالفائدة، ومن متحرر من كل القيود، ومن ملتزم محتشم، ومن كاتب بلغة أدبية، ومن كتب بلغة علمية.

أما على مستوى (أدب الرحلة) في المملكة السعودي، فقد استوفى جانباً منه الأستاذ(عبد الله بن أحمد حامد آل حمادي) في رسالته الأكاديمية(أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية)، وفيما يتعلق بأدب الرحلة عند العبودي فقد تقصاه الأستاذ(محمد بن عبد الله المشوح) في كتابه المطبوع حديثاً(عميد الرحالة محمد بن ناصر العبودي)، وممن كانت لهم كتب في(أدب الرحلة) من علماء المملكة العربية السعودية وأدبائها ومؤرخيها فهم: العلاَّمة(حمد الجاسر)، و(أحمد عبد الغفور عطار)، و(عاتق البلادي) و(عبد العزيز الرفاعي) و(عبد العزيز المسند) و(عبد القدوس الأنصاري) و(عبد العزيز الرفاعي) و(عبد الله بن خميس) و(علي حسن فدعق) و(فؤاد شاكر) و(محمد السديري) و(محمد عمر توفيق) و(يحيى المعلمي)، وآخرون .. وهؤلاء يتفاوتون في مستوياتهم واهتماماتهم، ولكنهم جميعاً لم يتميزوا بما كتبوا في أدب الرحلة، بمثل ما تميز به (العبودي) لا من حيث الكثرة العددية التي لم تسبق، ولا من حيث التقصي والشمول والتنوع، وقد يتفوق بعضهم على بعض بأسلوبه أو بتبويبه أو بعمق ثقافته أو بدقة معلوماته.

أدب الرحلة عند العبودي .. ! (٢) [(١)]

والعبودي الذي استهل أعماله التأليفية بدراسة (الأمثال العامية في نجد) تخطى هذا الاهتمام، وسبح في معارف متعددة، فكتب في الأنساب والجغرافيا والدراسات القرآنية والتراث، وطبعت له عدة مؤلفات في مختلف المعارف وفي عدة أجزاء، منها (معجم بلاد القصيم) و(أخبار أبي العيناء) و(الأمثال العامية في نجد) و(كتاب الثقلاء) و(نفحات من السكينة القرآنية) و(سوائح أدبية) و(صور ثقيلة) وغيرها، وهو فيها توثيقي ممحص، يضرب الأقوال ببعضها، حتى تنقدح له الحقيقة. فعل ذلك في معجمه الجغرافي عن القصيم. وهو معدود من الموسوعيين، وليس من ذوي الاختصاص، ولكنه حين يكتب في فن ينازع المتخصصين إمكانياتهم. ويكاد (أدب الرحلة) عنده يغطي كل جوانب حياته، وينسي المتابعين جهوده العلمية والعملية وإسهاماته المتعددة في مجالات متنوعة. والذي يلتمسونه في حقل معرفي لا يأتونه من أقطاره، إنه عالم متضلع من التراث العربي بكل تنوعاته العلمية والأدبية. وانقطاعه للتعلم والتعليم وملازمته لكبار العلماء وعمله معهم مكنه من التوفر على الكتب والمراجع التي لم تكن في متناول أنداده، ثم هو رجل إدارة حازم، تقلب في عدة مناصب تعليمية ودعوية، وجاء اهتمامه ب(أدب الرحلة) بعد أن لحق وظيفياً ب(رابطة العالم الإسلامي)، ومكنه عمله الدعوي من الرحلات المتواصلة والمهمات الرسمية المقيدة بأداء المهمة الدعوية على أصولها، وما فضل من جهد أو وقت قضاه في المشاهدات، وتقصي جوانب الحيوات المتعددة لشعوب العالم، وتفحص المعالم والآثار والمتاحف والمناظر الطبيعية وأحوال الشعوب ودياناتهم ومستوياتهم الحضارية والمدنية والاقتصادية. وهو راصد دقيق بعيد عن المبالغة والإغراق في الخيال، وأدبية النص عنده من تلك الخلفية المعرفية في أدب التراث وعيون الشعر العربي، وقد فاقت مؤلفاته المطبوعة مائة كتاب، وله مثل ذلك من المخطوطات، وجل هذه الكتب تمثل (أدب الرحلة) بحيث لم يسبقه أحد في حجم ما كتب في هذا اللون، ومن أسباب تألقه في هذا المجال سفارته المتنقلة، وتوفير كل الوسائل له، وشغفه الذاتي بالرحلة، وحرصه على تدوين كل ما يعن له من مشاهدات وملاحظات. ولقد قال عن نفسه ما يدل على دقة الملاحظة عنده، حتى لكأنه (الجاحظ) في عنايته بأبسط الأشياء، ومن ثم تراه يحتفي بكل التفاصيل، فإذا أقيم حفل تكريمي استوفي فقراته، وإذا ألقي خطاب ساق مجمله، وإذا جلس على مائدة ذكر ألوان الطعام فيها، وإذا دخل سوقاً ذكر طرائق بيعهم وطرائف تصرفاتهم. ولقد تجلت في كتاباته العفوية والبساطة والتقريرية والنمطية والاهتمام بكل دقيق وجليل، فهو بين إقلاع واستواء وهبوط واستقبال وتوديع وجولات رسمية ورحلات خلوية إلى أطراف المدن، لا تقتصر على المواقع الدعوية، وفئات الدعاة والقضايا الدينية، وجولات راجلة يقتطعها من وقت راحته، يدخل الأسواق، ويختلط مع الباعة ولا يتحرج من السؤال عن أي ظاهرة، ينقب عن الآثار، ويتفحص المتاحف، ويستعرض المكتبات، وكتاباته تتسم بالتسجيلية، وكأني به يرصد كل شيء في مذكرة محمولة في جيبه، حتى إذا خلا له المكان أعاد صياغة ما كتب والبسط فيه، ثم الدفع به إلى المطابع، لا ينظر إلا في ترتيب الأحداث والوقوعات، ومن ثم يحصل التكرار، وبخاصة عما يعرض له من مواقف متكررة في المطارات والمطاعم والمساجد والأسواق، وإن كانت له إلماحات سريعة يخلص بها من الرتابة والنمطية، وأكاد استبين محاور كتب الرحلات عنده، فهي تتحدث عن قضايا (الدعوة) و(الأقليات) و(الأجناس) و(اللغات) و(العادات) و(أحوال الشعوب)

---

(١) تاريخ المقال: ١٧/ ٢/ ٢٠٠٤

و(أطرافاً من تاريخهم) و(جغرافية بلادهم) و(أنماط الحياة عندهم) و(الأزياء) و(تصميم المباني) و(أنواع المستعملات) و(أحوال النساء) و(عاداتهن) و(المأكولات) وكل ما يخطر على بالك حتى (الفلكلور الشعبي) حتى (الغناء) و(المغنين) الذين لا يعنيه من أمرهم شيء، ولكنه إذ فرض عليه السماع أشار إلى شيء مما عندهم، وإن لم يهتم بالاستماع، وقد يشير إلى (الرقصات الشعبية) وغيرها، ثم لا يجد حرجاً من التعرض لها على سبيل الوصف، وقد يمعن في وصف النساء وأزيائهن ومحادثاتهن ببراءة وعفة، ومع كل ذلك فإن المحرك الرئيس عنده هموم المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، ولأنه يمارس في رحلاته عملاً رسمياً فقد استوفى في كتبه تلك الأعمال تحدث عن (الجمعيات) و(المنظمات) و(جماعات تحفيظ القرآن) و(إعداد الدعاة والأئمة)، كما فصل القول عن الاجتماعات والمؤتمرات واللقاءات وما دار فيها وعن الكلمات التي ألقيت وعن الترحيب الذي يلقاه وعن المهمات التي أنجزها، ولا أشك أن تثار الآراء والأفكار والمواقف تشكل خصوصية في أدائه السردي، ولكن كثرة أعماله، وتركيزه على قضايا الأقليات يفوت على المتابع الوقوف على اللمحات الكثيرة، أو بمعنى آخر الجوانب الأخرى التي لا تسمح مهماته الرسمية الوصول إليها، وقد يضيق المتابعون باحتفائه بالوقوعات العادية المتكررة في كل رحلة. وأسلوب الكاتب يتسم بالوضوح والسلامة، والميل إلى التقريرية، وأشواطه الدلالية تعتمد التجزيئية، وله استطرادات قصيرة - كما وصفه - أحد دارسيه. ولأن أدب الرحلة عنده واكب السفارة الرسمية ومتابعة أحوال المسلمين والأقليات الإسلامية في آفاق المعمورة فقد ارتبطت القضايا والموضوعات بذات الرسالة أو كادت، ومع أننا لا نسلم بذلك على إطلاقه، إلا أننا نجد همه منصباً على قضايا المسلمين والأقليات منهم.

بدأ العبودي الرحلة والكتابة فيها منذ أربعة عقود، وخلال هذه المدة طاف أرجاء المعمورة، ولم يتمكن غيره مما تمكن منه، فالذين كتبوا في (أدب الرحلة)، كتبوا عن رحلة امتدت شهراً أو شهرين لبلد سياحي أو دولة اقتصادية، أما هو فقد امتدت معه الرحلات أكثر من أربعين سنة، وأتت على ما أتى عليه الإسلام، حتى لقد أوغل في البلاد الشيوعية التي لم تكن تسمح بأي تحرك إسلامي، ولعل تسامحه وبعد نظرته ودفعه بالتي هي أحسن ودعوته بالحكمة والموعظة الحسنة فتح له الحدود والقلوب، ولما يزل لا يحط من سفر إلا إلى سفر، ولاهتمامه بأدب الرحلة فقد أعطى نفسه مزيداً من الجهد والوقت ليتعرف على كل شيء. لقد وقف على طبائع الدول والمدن وأهلها وما فيها من أنهار وجبال وأودية وأعراق وعقائد وعادات، وما هي عليه من غنى وفقر، وما هو نظامها السياسي، وتقصي مشاكل الأقليات، ولقد بلغت مؤلفاته في أدب الرحلة قرابة مائة وعشرين كتاباً، طبع منها سبعين كتاباً، وآخر ما طبع له فيما أعلم (القلم وما أوتي في جيبوتي) ولقد شدني من كتبه أولها (أفريقيا الخضراء) الذي صدرت طبعته الأولى عام ١٣٨٤هـ وكان الأوسع والأدق والألصق بأدب الرحلة، وهو فيما يكتب يعتمد العناوين الجانبية، فله مشاهدات تسجيلية، وملاحظات نقدية، وتساؤلات تعجبية، ومعلومات نقلية، ولا يكاد ينفك من الحديث عن الوسيلة من طائرة أو سيارة أو باخرة أو قطار أو سيارة أجرة، وقد يتحدث عمن يقود تلك الوسائط أو يخدم فيها. وحتى الحفلات والاستراحات والوجبات والجلسات الخاصة أو العملية والفنادق والمساجد والمتاحف والجمعيات يفصل القول فيها، وقل أن يترك الرصد التاريخي والسياسي للدولة أو المدينة التي يزورها، يتحدث عن نباتها وتصميم مبانيها وطبها الشعبي وعادات الزواج وشعائره والأعياد ومناسباتها وملابس الرجال والنساء وما لا يخطر للقارئ على بال، ويكاد يكون الحديث عن الإسلام والمسلمين محور الحديث في كل ما كتب في رحلاته، وهو حريص على اللطائف والمثيرات، يرصدها، وقد يبالغ في تعميق أثرها، وبالذات عند حديثه عن

النكسات الاقتصادية، كقوله في كتابه (صلة الحديث عن أفريقيا) (الدجاجة بتيس والتيس ببقرة) فالعنوان لا يوحي بمضمونه، ولكنه يشوق إليه، وله نظرات ثاقبة في أحوال الشعوب وطبائعهم، حتى لكأنه موكل بكل دقيق وجليل في حياة من يرى ويجالس ويحادث، يقول في كتابه (غيانا وسورينام): (ومن أهم ما يميز الهنديات الأمريكيات عن الهنديات الآسيويات كثرة ابتسامهن للرجال وبساطة طباعهن وإسراعهن إلى الاستجابة للحديث) ص٩٦. وهو يخص المرأة بأكثر من إشارة، لها أكثر من معنى، وفوق ذلك فهو كثير التفصيل في وصف التحركات، ويكاد (أدب الرحلة) عنده يتحول إلى سيرة ذاتية في كثير من أحاديثه. وهو بهذا الاستطراد والتنويع يراوح بين (اليوميات) و(المذكرات) و(الخواطر) و(السيرة الذاتية) و(أدب الرحلة)، وقل ان يخلو أي كتاب من صور (فوتوغرافية) ملونة، يكون فيها بين مودعين أو مستقبلين أو مشاركين في رحلة برية أو مهمة رسمية، يصور الأنهار والجبال والأودية والمساجد والأسواق والآثار، وكل ما هو ملفت للنظر، وقل أن يخلو كتاب من حديث عن مسجد، يذكر بانيه ومصممه وما فيه من زخارف، وقد يتحدث مع إمامه ومؤذنه، ويتعرف على ما يمارس فيه من البدع، إن كان ثمة بدع، وحين يصرفه المرافق عن شيء من ذلك، يلح بطلب الوقوف على كل شيء، وإن كان لا يقره، بحيث يصرف المثبط بقوله: -(إنني أحب أن أطلع عليه فالاطلاع مهم في هذه الحالة التي ربما تكون فرصة ولو في المستقبل بتبصير هؤلاء المخرفين المنحرفين) ص٨٨ من كتاب (في شرق الهند) وهو يوزع كتبه إلى مجاميع حسب القارات أو التكتلات السياسية (أفريقية) و(أوروبية) و(هندية) و(آسيوية) و(أمريكية جنوبية) و(بلقانية) و(أسترالية) و(روسية) و(سيبيرية) وكيف لا يصنفها إلى مجاميع جغرافية، وهي تنيف على المائة كتاب، وكل مجموعة تنيف على عشرة كتب، وأحسب أن (رحلاته الهندية) تفوق كل رحلاته، فهي تفوق العشرين كتاباً، طاف بها شرق الهند وشماله وبلاد الهند والسند، وهو يطلق على كتبه مسميات أخاذة، ففي رصده لرحلاته إلى (مولدوف وأرمينيا) يطلق عليها (مواطن إسلامية ضائعة) أو (تائه في تاهيتي) أو (من بلاد القرنشاي إلى بلاد القيرداي) أو (سطور من المنظور والمأثور عن بلاد التكرور)، وهو في اختيار العناوين وتركيب العبارات ذو أسجاع مستساغة.

والعبودي من الكتّاب الذي يهتمون بتدوين المعلومات والملاحظات ما دق منها وما جلَّ، دون تكلف أسلوبي أو معاضلة تعبيرية، وما فيه من صياغة أدبية فصيحة فإنما هي قدرة ذاتية وكسبية، فالمؤلف عالم بالتراث، ومؤلف قبل أن يفرغ لأدب الرحلة، والمتابع لكتبه لا يقدر على تصنيفه لا جغرافياً ولا اجتماعياً، ولا سياسياً، ومن ثم فهو أقرب إلى الموسوعيين. والمؤلف متوفر على القيم العلمية والأدبية، ولكنه توفر عفوي، واللغة التي يعتمد عليها ويتوسل بها لغة فصيحة سليمة، لا يعمد فيها إلى التزوير ولا إلى التنفيج، ولكنه يكتب على سجيته، وكأنه يتحدث إليك، وذلك سر الإكثار وسر القبول، فلو كانت له عناية لغوية أو أدبية أو معرفية، لكان أن قل عمله وانفض سامره. ومع العفوية فقد احتفظ بمستوى أدبي ولغوي ومعرفي يجعله في مصاف غيره من الرحالة، وإذ لا تقدر على تصنيفه من بين الرحالة فإنك لا تجد منهجية محددة، ولا خطة في التأليف صارمة، يدون ملاحظاته، ثم يعود إليها ليبسط القول فيها، وخطة الكتابة عنده مرتبطة بتنقلاته، ومنهجيته تراوح بين الوصف والتحليل والنقد والسرد الحكائي، وهو الراوي والبطل، وقل أن يتحدث بضمير الغائب، أو أن يدع لمتحدث آخر ليأخذ زمام المبادرة إلا ما يأتي من حوار. ومهما اختلفنا معه أو اتفقنا فإنه الرحالة المتمكن من آلياته، الشمولي في تناولاته، المضيف في معلوماته. لقد ترك للمكتبة العربية والعالمية وثائق معرفية متعددة، قلَّ أن تكون حاضرة المؤرخين أو الجغرافيين، وهو بما خلَّف من معارف، وأنجز من أعمال،

وقام به من مهمات تعليمية ودعوية جدير بالتكريم والاحتفاء. والمهرجان الوطني بهذا التكريم يعبر عن مشاعر العلماء والأدباء والقراء، وينهض بواجب وطني، فالعلامة معالي الشيخ محمد بن ناصر العبودي علم من أعلام التربية والتعليم ومن الدعاة الناصحين، ومن العلماء المتمكنين، ولما يزل ثر العطاء، تختزن ذاكرته مشاريع معرفية متعددة، وكتاباه في الأمثال والجغرافيا خير شاهد على توثيقه وتقصيه، نسأل الله له مزيداً من الصحة والتوفيق.

أيها المشتغلون في شأن الحج: خذوا عني رأي مجرب .. ![(١)]

ما ان تجرعنا مرارات الحزن والألم على (رجال الأمن) الذين قضوا نحبهم مغدوراً بهم، وماتوا وهم يؤدون واجبهم، دون ان يطلقوا ناراً، أو يدفعوا أذى، حتى اصابتنا مصيبة (الحجاج) الذين ماتوا، وهم يؤدون مناسكهم، وليس من السهل ان يحتمل الانسان المسلم مصيبتين في الاشهر الحرم، وفي البقاع الطاهرة: شهداء الواجب وشهداء الشعائر، ولن يشفي نفوسنا، ويلملم جراحها إلا ان يحق المسؤول الحق، ويوقف كل الأطراف، ليسألهم: لماذا حصل هذا؟ وكيف حصل؟ إلا حين لا تتكرر مثل هذه المصائب، وقبل ان نخوض في الحديث عما كان، وعما يجب ان يكون، علينا ان نشهد بما علمنا، وألا نكتم الشهادة، ومن يكتمها فإنه أثم قلبه، وما نشهد به، ونشهد الله عليه، ونقوله لوجه الحق، ولا نخشى فيه لومة لائم، ونعرف اننا سنسأل عنه يوم القيامة: ان دولتنا خير من يلي امر الحاج، وخير من يطهر البيت للطائفين والعاكفين والركع السجود، وانها بذلت في التوسعة والإصلاح والخدمات ما لا مزيد عليه، وانها لما تزل من أحرص الناس على توفير أقصى ما يمكن توفيره للحجاج والمعتمرين، ومن غمطها حقها أو قلل من جهودها فقد ظلم نفسه، ولقد امتدت هذه الاخلاقيات إلى المواطن، فكان ان تبارى الموسرون في توفير المأكل والمشرب والإيواء، وتسابق المتطوعون في الإرشاد والتوعية والمساعدة، وما من منصف إلا ويثني على جهود الدولة وانفاقها في الاعمار والكباري والأنفاق، واستنفار كل الأجهزة: الأمنية والصحية والمرورية والإرشادية، وكل ذلك شرف وفضل ومنة من الله على أهل هذه البلاد، لا يدلون به، ولا يمنون، ولا يريدون الجزاء ولا الشكور إلا من الله، فكل الفعل لوجهه الكريم، ومع كل ذلك فإن من واجبنا جميعاً ان نبدي اسفنا واستياءنا مما حصل، حتى ولو جاء من الحجاج انفسهم، ذلك انهم يجهلون، ولا يمتثلون، ويعرضون أنفسهم للخطر، وكان حقاً على المسؤولين حمايتهم من جهلهم، وحملهم طوعاً أو كرهاً على امتثال التعليمات، وإلقاء التبعات على المتوفين أو الناجين لا يحسم المشكلة، وفداحة الحدث لم تكن من السباطة بحيث ترفع اوراقها بهذا التصريح أو ذاك، ولا يجوز احتمال الكارثة دون تقصي اسبابها، ومعرفة اطرافها، ممن وكل إليهم التفويج، أو التنظيم، أو المراقبة والرصد أو الارشاد، وولي الأمر الذي استنفر كل طاقاته المادية والبشرية، ووقف بنفسه مع كل الاطراف للاشراف، لا يرضى ان يتعرض الحجاج لمثل ما تعرضوا له، والمواطن السعودي يحس بالمرارة والألم، لأن الدولة لم تأل جهداً، ولم تقتصر في شيء.

ولما أن جاء الحدث بهذه الضخامة والفداحة، وفي ظل امكانات واستعدادات متفوقة، لم يكن بالإمكان إهالة التراب عليه، ولا تجاوزه، ومن ثم بادرت الدولة بتشكيل (هيئة لتطوير مكة المكرمة والمدينة المنورة والمشاعر المقدسة)، وأناطت بها وضع خطة شاملة تمتد لعشرين عاماً، وخولتها الاستعانة بكل الاجهزة الحكومية، ومراكز البحوث، والخبرات المتخصصة، داخل المملكة وخارجها، ومن قبل هذا أصدرت (هيئة كبار العلماء) بياناً ارتأت فيه ضرورة النظر في أمر الشعائر، والخروج برؤية شرعية تسهم في تلافي الكوارث، وأحسب ان هاتين المبادرتين مؤشرا إحساس بفداحة الحدث، وإضافة جديدة للاهتمام المتواصل بشأن الحج وشعائره، والأمل معقود بنواصي الأطراف المناط بها هذا الشأن:

فما استعصى على قوم منال

---

(١) تاريخ المقال: ١٠/ ٢/ ٢٠٠٤

إذا الاخــــلاص كـــان لهـــم ركابـــاً

مع الاعتذار ل(شوقي)

ولو أن ما حصل يوم الحج الأكبر نتيجة عجز في الانفاق، أو قلة في العدد والعدة، لكنا طالبنا بمزيد من الانفاق والقوى، ولكن في الأمر ما فيه، فالحجاج بجهلهم، والمطوفون باستخفافهم، وأصحاب الحملات ببدائيتهم، وضعف امكانياتهم وطمعهم، والجهات المسؤولة باتكالية بعض افرادها، أو بتداخل بعض مسؤولياتها، والعلماء بتشددهم، والزمان والمكان بضيقهما عن استيعاب الكثافة البشرية، كل ذلك اسهم في وقوع الكارثة، ويجب ان نحدد السبب ونشخص المشكلة، بثقة البريء، وقوة المحق، فاذا قلنا ان ما حصل ناتج خطأ، فأين المخطئ؟، لقد تسرع المسؤولون، وتفاوتوا في تصور الأسباب، وتسابقوا في القاء اللائمة على الحجاج، فلوزير الحج رؤية، ولوزير الصحة الاندونيسي رؤيته، ولقائد القوات الخاصة رؤيته، ونحن امام كل الجهات المشتركة في التنظيم والمراقبة، وهي كثيرة، ومن ثم فإن كل جهة سوف تجتهد في نفي المسؤولية عن نفسها، وليس من سداد الرأي ضياع الحدث بين الجهات، فالناجون من الحجاج شهود بما علموا، والمباشرون من المسؤولين حول موقع الحدث خير من يجسد الحدث وملابساته، المهم ان يكون هناك تقص ومساءلة لتحديد المسؤولية، ووضع ترتيب لا تتكرر معه فاجعة أخرى.

وإذا لم نكن جادين وحريصين ومحصحصين للحق فإن كارثة اخرى ترقب حجاجاً آخرين، وإذا كنا نتوقع مثل ذلك في ظروف لا يعلم كنهها إلا من غالبها، وتجرع مفاجآتها، فإننا يجب ألا نسلم لكل كارثة، بدعوى أن كثافة بشرية بهذا القدر سيؤدي ازدحامها إلى كوارث فادحة، وعندما نراهن على الصدق والإخلاص والتفاني والاقتدار، فإننا لا نراهن على التوفيق، ولا على نجاح الخطط، وإذا كان (الحاج) بجهله وتسرعه وتسيبه وافتراشه للأرض في المواقع الحساسة، وإذا كان (المطوف) و(صاحب الحملة) بحرصهما على إنجاز شعائر يوم النحر بسرعة البرق، ليفرغ كل واحد منهما لنفسه، وإذا كان (العلماء) الورعون بفتاواهم المتشددة يساعدون على حصول الأزمات والاختناقات، فإن على المسؤولين ان يتدارسوا الأمر كله، وبشكل جماعي، تدعي اليه الكفاءات العلمية والمهنية والمرورية من الداخل والخارج، ولا يجوز استعراض الملفات من جهات محدودة العدد والامكانيات، ليقال في النهاية: ان ذلك قضاء وقدر، ايذاناً برفع الملفات، وإذا كنا نسلم بقضاء الله وقدره، ونؤمن بأن كل شيء لا يحصل إلا بعلم الله، حتى الورقة التي تسقط من الشجرة يعلمها، وحتى دبيب النملة السوداء على الصفاة السوداء في ظلمة الليل، فإن علينا ان نفرق بين (الاتكال) و(التوكل)، وفي الأثر (اعقلها وتوكل)، وإذا أعطت الدولة عطاء من لا يخشى الفقر، وإذا وضعت خططاً للمرور وللراجلين، وللدفع من المشاعر، وفوّجت الحجاج، ثم خولفت أنظمتها وتعاليمها، فإن الضحية ستكون الحاج البريء الذي لا يعرف ماذا امامه، ان بامكاننا ان نتلافى المصائد الخطرة، لأنها معلومة، ومحدودة: الزمان والمكان، بل أكاد اجزم أن احلك الظروف تبدأ من الدفع من (مزدلفة) حتى رمي (جمرة العقبة) والموت الزؤوم في رمي تلك الجمرة، وعلى المسؤولين ان يرموا بثقلهم في هذه اللحظات الحاسمة، ولأنني حججت أكثر من مرة: راجلاً وراكباً ومفرداً وقارناً ومتمتعاً، وحدي أو مع أهلي، قبل التوسعات وبعدها، فإنني أحس بأن الأمر قابل للحل، وأن الأخطاء في مثالية التعليمات، وتداخل المسؤوليات، وكثرة المخيمات الحكومية، وتشكيل المسؤوليات الجديدة في كل عام، وانفصال المطوفين وأصحاب الحملات عما يدار في غرف العمليات، وتهافت الجميع على إنجاز شعائرهم في صبيحة

يوم النحر، وكثرة المتخلفين والمفترشين والباعة، وغياب فقه التيسير، وجهل قواعد الضرورات، وتكاد الإشكالية تنحصر في تأخير الدفع من مزدلفة ومباشرة رمي (جمرة العقبة)، فالناس جميعاً والمطوفون وأصحاب الحملات على وجه الخصوص، وحتى الأفراد يودون ان ينهوا أعمال يوم النحر في أسرع وقت، ليسترخوا في مخيماتهم، وذلك بمواصلة السير، وإنهاء شعائر يوم العيد، من (الرمي) و(النحر) و(الحلق) و(الطواف) و(السعي)، والعودة إلى المخيم بمنى، وبهذا يكون كل شيء قد انتهى بالنسبة للحاج وللمسؤول عنه، وأسال به خبيراً، فذلك ما كنا نشعر به، ونسعى إليه حينما نحج، ولا يصرفنا عنه صارف، نخالف الأنظمة، ونتحايل على الخطط، وندفع برجال الأمن والكشافة والطوارئ، ونتنازع معهم، ونرى انهم يحولون بيننا وبين المشاعر، وإذا سقط حاج أو تأذت مجموعة، أنحينا باللائمة على المسؤولين، واستبقنا الحدث نلوك ألسنتنا، وندوك ليالينا، وما من احد سأل نفسه أو حاسبها على تعمد المخالفة للأنظمة، ومع كل ذلك فالمسؤولية لا يمكن ان تسقط في الأرض، لابد ان نبحث عن المسؤول، سواء كانت المسؤولية مشتركة أو محددة، وسواء اسهم فيها الحاج أو لم يسهم، المهم ان نعرف الخلل، وأن نحدد المسؤول عنه، وإن لم نفعل كنا كمن يرم جرحه على فساد، ومما يسوؤنا، ويغثي نفوسنا ان هذا الحدث اتاح فرصة ثمينة للحاقدين والمأجورين وسماسرة النخاسة الإعلامية، فبدل ان يأسوا أو يواسوا أو يتألموا أو يقدموا النصيحة، انطلقت ألسنتهم الحداد موغلة في النيل والسخرية من البلاد والعباد، مستعدية الرأي العالمي، وحين نعود إلى الكارثة وملابساتها، نجد أننا امام زمان محدود، ومكان محدود، وأداء فردي وجماعي فوري من أناس يختلفون في لغاتهم ومعارفهم وأحوالهم الصحية، وأمام تعليمات لا تطبق، ونظام لا يحترم، وتوعية لا يستمع إليها، واختلاط في المسؤوليات، وتداخل في المهمات، وأفراد جدد جمعوا من أطراف البلاد، وكل هذه الهنات قابلة للحل، فأما ما يخص (الشعيرة) وحكم الشرع فيها، فذلك موكول أمره إلى (هيئة كبار العلماء)، وقد اجمعوا أمرهم، وخولوا ولي الأمر، ولما كانت الانساك بكل اركانها وواجباتها ومستحباتها ومباحثاتها ومحظوراتها بين أيدي العلماء، ولما ان كان الاختلاف قائماً على اشده بين المذاهب عامة، وبين مجتهدي المذهب الواحد على وجه الخصوص، وفي الاختلاف رحمة وفسحة ومجال لمراعاة الأحوال والظروف، فإن على العلماء ان يتقوا الله، وييسروا على الناس، تمشياً مع قاعدة (الضرورات تبيح المحظورات) و(التقوى على قدر الاستطاعة) و«**إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم**» ولكل قاعدة أو أمر أو نهي ضوابطه التي يعلمها أهل الذكر لا أهل الفكر، ولما كانت (جمرة العقبة) هي العقبة، ولما كان فقهاء الأمة قد وضعوا زمن اختيار، وزمن اضطرار، وزمن اداء، وزمن قضاء: فمن رماها بعد طلوع الشمس وقبل زوالها فقد رماها في وقتها، فإنهم قد اختلفوا فيمن رماها قبل الفجر أو بعد الزوال: فالمالكية شددوا في ذلك، فيما أجاز ذلك الأحناف والشافعية والحنابلة، وإن كان المستحب عندهم الرمي بعد طلوع الشمس وقبل الزوال، وحجة المالكية حديث: (**خذوا عني مناسككم**) عند أحمد ومسلم ٣/٣١٨: ٢/٩٤٣ وحديث: (**لاترموا الجمرة حتى تطلع الشمس**) وهو في السنن والمسانيد، ومن جوز الرمي قبل طلوع الفجر، وبعد الزوال، فحجتهم حديث (أسماء) وهو في الصحاح والمسانيد والسنن، وحديث ذوي الاعذار، وحديث: (رميت بعدما أمسيت، قال: **لا حرج**) وهما في الصحاح والمسانيد والسنن، وما سئل الرسول في يوم النحر عن شيء إلا قال: افعل ولا حرج، وإذا كانت المسألة خلافية، فإن على العلماء، وقد شهدوا ضرورات مهلكة وشدة مرعبة ان ييسروا على كافة الحجاج ما وسعتهم خلافات الفقهاء وفقه التيسير، وبخاصة مع النساء والمسنين والمرضى، وفي أوقات الذروة، وأن يجعلوا الوقت مفتوحاً من بعد نصف ليلة

العيد إلى ما بعد الغروب، وأن يوجهوا إلى الدفع من مزدلفة قبل منتصف الليل، والاكتفاء بالمرور بها وجمع الجمرات، اسوة بمن مر بعرفات، وكيف لا والله يقول: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] والرسول الرؤوف الرحيم بأمته يقول: (**يسروا ولا تعسروا**)، ومع أن: (**الحج عرفة**) فقد يسر الرسول صلى الله عليه وسلم الذي لم يدرك الوقوف إلا قبل طلوع الفجر، وإذا لم تنحل المشكلة بالتيسير، فعلى الجميع اتخاذ الخطوات التالية:

الخطوة الأولى:

المصير إلى التوكيل الإلزامي، للنساء والمسنين والمرضى وحمل الدول الإسلامية على توعية الحجاج.

الخطوة الثانية:

المصير إلى تأخير الرمي لليوم الثالث، بحيث يسمح للنساء والمسنين والمرضى بتأخير الجمرات إلى اليوم الثالث، ورمي الجمرات دون توكيل، وفي ذلك خلاف معتبر.

الخطوة الثالثة:

التفويج المزدوج، وضبطه بالضوابط التالية:

أ- تصنيف الحجاج إلى ثلاث فئات: حجاج الطوافة، والحملات، والأفراد.

ب- تفويج التحرك من المخيمات، وتفويج الدخول إلى مواقف الرجم.

ج- أي وفاة تتم بسبب المخالفة يتحمل المطوف أو صاحب الحملة دية الميت.

د- التعرف على جنسيات المفوجين، ومنع أي جنسية تسبق زمنها.

الخطوة الرابعة:

منع الافتراش في مواقع الازدحام، وإيجاد بدائل، واستخدام خراطيم المياه، لتفريق المفترشين في أماكن الاختناق، وعدم مراعاة المشاعر على حساب فساد الشعائر.

الخطوة الخامسة:

تحويل الحملات الداخلية إلى شركات قوية مدعومة ومدربة، ومنع التملك الشخصي للحملة، بحيث يكون لكل منطقة شركة قوية أو أكثر، ويكون لها شعار. ولسياراتها لونها الخاص، وتشكل لها مجالس مناطقية، وليس هناك ما يمنع من إسهام الدولة وشركة النقل الجماعي والمصالح الحكومية كالتقاعد والتأمينات.

وإذا كانت الإشكالية في المكان، فإن على المسؤولين النظر في أمره توسيعاً لدائرة أحواض الرجم، ورفعاً للشاخص فيها بالقدر الذي يحقق شرطي الرجم: قذف الحصوات باليد، واستقرارها في الحوض، وتحويل مكان الوقوف للرجم إلى أدوار كالمدرجات، وتهيئة مداخل واسعة وكثيرة تفصل بينها جدر بطول القامة، بحيث يدخل الحاج الطريق إليها، دون ان يعرف إلى أي الأدوار يسير، موهمة بالتجانس والتساوي والتجاور وطويلة بحيث تستوعب أكبر قدر ممكن وتوزع الحجاج على الأدوار بالتساوي، دون تدخل أو توجيه، وإذا انتهى الحجاج من الرمي، تكون لهم مخارج مماثلة لا تتسبب في تلاقي الأفواج، ورهان النجاح يتحقق بالوعي والانضباط ودقة الملاحظة وتشكيل ادارة أمنية ومرورية مستديمة.

مصداقية التسامح ومغالطة التماكر .. ! [(١)]

يفترى على الإسلام بأنه فرض نفسه بالسيف، وشق طريقه بالعنف، وتولى كبر الإفك العظيم والتماكر الأثيم طائفة من المستشرقين الجلدين، وتلقاه عنهم الموغلون في الاستغراب وأصحاب ثقافة الضرار، وأشاعه السماعون من المخفين عقلاً ومعرفة والمجتثين مكانة وكلمة. وكل متسلل إلى سوح الفكر دون تأصيل معرفي حضري شرعي تستخفه المغالطات، كما استخف سحرة فرعون الدهماء واسترهبوهم. ومن ملك ناصية المعرفة الشرعية، وتضلع من تراث الإسلام، وعرف دخائل الحضارات السائدة والبائدة، تلقف حبال أولئك وعصيهم بعصا موسوية. وما أضر بالأمة إلا سفهاؤها المتصدرون، وجهلتها المتعالمون، وعبدة المادة المتهالكون.

والمؤلم أن عمالقة الفكر العالمي وقادته، وزعماء الإصلاح وروداه من علماء الغرب لا يكتمون الحق، ولا يجدون غضاضة من القول عن عظمة الإسلام وعبقرية رسوله. ووثائق الإثبات القولية والفعلية قريبة التناول لمن طلب الحق، فلو نظرنا إلى موقف الإسلام من أصحاب الديانات الأخرى، وقفينا العقول على آثار النصوص، لتبدت لنا أسمى آيات التسامح. فالإسلام لا ينال من الرسل، ولا من دياناتهم ولا من كتبهم، بل يعلن الإيمان بما أنزل على موسى وعيسى، وما أنزل على النبيين من قبلهم، ولم يفرق بين أحد منهم، ومن أنكر رسالة موسى أو عيسى فقد كفر بما أنزل على محمد. فيما يكذب اليهود عيسى ومحمداً عليهما السلام، ويكذب النصارى محمداً عليه السلام. وإذ يقطع المسلمون بتحريف الكتب اليهودية والنصرانية ونسخهما بالإسلام يقف (العلمانيون) من الديانات كلها موقف النفي والتعطيل، واستبدال الذي هو أدنى. فالدخول في العلمنة الشاملة إسقاط لكل ديانة. ومع وضوح الحق فإن مشيئة الله مرتبطة بحكمة لا نعلمها، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، ولو شاء لآمن من في الأرض كلهم. وهذه المشيئة تمنع إكراه الناس على الإيمان. والرسول المؤيد لا يهدي من أحب. وما عليه إلا البلاغ، لنفي السيطرة والإكراه في الدين، ولكي يتحقق ذلك، وجه رسوله إلى الدعاء بالحكمة والموعظة الحسنة وألزمه المجادلة بالتي هي أحسن، ووصفه باللين، ونفى عنه الفظاظة والغلظة، وتلك بعض مؤشرات التسامح.

وتسامح الإسلام يتوثق في القول والفعل، وليس ادعاء يجتره الأدعياء، ويقلبه المزايدون. وإذا مرت بعض طوائف الأمة الإسلامية بمراحل عنف أو تسلط فإنما ذلك من أخطاء التطبيق، والمنصفون يفرقون بين مقتضيات المبدأ وأخطاء الممارسة، وبين النسق والسياق. وكم من مسلمات وسوائد ما أنزل الله بها من سلطان، ولهذا بشر الرسول أمته بالمجددين. والمتابعون لتاريخ التطرف والغلو يدركون أن هناك محطات مظلمة في تاريخ المسلمين، عول عليها المغرضون من المستشرقين، وتلقفها المرتابون من أبناء المسلمين، واجترتها وسائل الإعلام للإثارة والجذب. ولو أذعن المتقصون للمراحل التاريخية الإسلامية للحق، لنظروا إلى النص المحفوظ والنطق الموحى، وانطلقوا منهما، فالله أنزل القرآن وتعهد بحفظه، والرسول لا ينطق عن الهوى، ولا يتقول على الله، وهو فيما يفعل يفرق بين الرأي الذي يراه والوحي الذي يتلقاه، ولهذا جاء القرآن في مواضع كثيرة، يستدرك على الرسول وينهاه، ويأمره، ويعتب عليه، ويحذره، والصحابة يراجعون الرسول، وقد يأخذ بما يرون.

---

(١) تاريخ المقال: ٢٤/ ٢/ ٢٠٠٤

والله حين يأمر رسوله بالدعوة إلى سبيله ﴿بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ يستثني من هذا التعامل الذين ظلموا، كالمقاتلين في الدين، والمخرجين من الديار، والمرتدين بعد الإيمان والناكثين للعهود المفارقين لجماعة المسلمين والمحاربين لله ورسوله الساعين في الأرض فسادا. وما من حضارة إلا ولها لسان ينطق وسنان يفصل، وحمى وحدود، ومحظور ومباح. وإذا كانت الضرورات الخمس مكفولة الحماية، فإن ذلك لن يتحقق إلا بقوة رادعة أو حكمة بالغة.

وحين لا يكون قتال على الدين، ولا إخراج من الديار ولا اعتداء على الضرورات، ولا انتهاك للحرمات المتفق عليها يكون التسامح والإبلاغ القولي. وحين تحتدم مشاعر الرسول، ويبخع نفسه على آثار من لم يؤمن بالقرآن أسفا يأتي القرآن ليهدِّئ من روعه، ويثبت فؤاده ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ﴾ ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾.

ومتى تولى المشركون عن التوحيد فما على الرسول إلى أن يقول لهم: ﴿اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾. وحتى المشرك المستجير، علينا حمايته، وإسماعه لكلام الله، وإبلاغه مأمنه.

ولأن الإسلام قيم وسلوكيات، فقد ألزم أتباعه بالعدل مع المشنوئين والأقربين، كما ركزت نصوصه على الوفاء بالعهود، وجعله من علامات التقوى. وقد عقد الرسول عهودا كثيرة وفعل ذلك خلفاؤه من بعده، وكانت وصايا خلفائه الراشدين في غاية الرأفة والتسامح، وما دخل الناس في دين الله أفواجاً إلا بعد أن عايشوا التسامح فعلاً لا قولاً، ووجدوا من المسلمين وفاء ورأفة ورحمة.

والعهود التي أبرمها الرسول - ﷺ - مع المشركين التزم بها، مع أن بعض الصحابة حسبها من الجور على الإسلام والمسلمين. وما كان الرسول ليبرم عهداً يجور به على الإسلام، ولكن البعض من الصحابة لا ينظر إلى العواقب، ولا إلى وعد الله بإظهار الدين. أما الرسول فيعلم أن المسألة مسألة زمن، وأن العاقبة للمتقين، ولهذا فقد ألمح إلى ذلك مع (سراقة بن مالك) وفي حديث (زَوْي الأرض) وحديث (الأمن وخروج الظعينة). وشروط (صلح الحديبية) من خلال المنظور البشري جائزة بحق المسلمين، ولكن الحكمة الربانية تخفى على البشر في بعض المواقف، كما خفيت على موسى عليه السلام، وهو يتبع (الخضر) ليعلمه مما عُلِّم رشدا. ولقد امتُحن الوفاء بالعهود حين قدم (أبو جندل) و (أبو بصير مسلمين، فردهما الرسول إلى قريش، ولما صاحا به، واستعطفاه، أوصاهما بالصبر والاحتساب.

ولقد تجلت رحمة الإسلام وتسامحه، في مواقف كثيرة مع (أسرى بدر) وإطلاق أسرى (بني المصطلق)، ومن قوله لأهل مكة عام الفتح (اذهبوا فأنتم الطلقاء)، والمتعقب للفتوحات الإسلامية ووصايا المجاهدين يقف على أبهى صور التسامح، ولقد ألمح المستشرق (آرنولد) إلى طائفة من تسامح المسلمين في كتابه (انتشار الإسلام) حيث أشار إلى طائفة من النصارى الذين استوزرهم الأمراء وإلى طائفة من الأطباء الذين استخدمهم الخلفاء. وفعل مثل ذلك (هنري كاستري) في كتابه (الإسلام)، وكتب عشرات المستشرقين المنصفين عن عظمة الإسلام، ولقد تعقب مفكرو الإسلام المعاصرون أقوال المفكرين الغربيين عن الإسلام وعن الرسول، سواء منها ما كان حقا أو ما كان باطلاً، وقربوا ذلك لمريديه عبر عشرات الكتب التي تعمد المستغربون تهميشها والتعتيم على أصحابها. واستعانة المسلمين بغيرهم في مجالات العلم والطب والتجارة والإدارة مؤشر تسامح وثقة وبحث دؤوب عما تتطلبه الحياة المتجددة تجدد مياه النهر المتدفق. وما فعل غير المسلمين

مع المسلمين ما فعله المسلمون مع غيرهم، وما انفتحت حضارة على المستجدات انفتاح الحضارة الإسلامية. وتاريخ بغداد، ودمشق، والأندلس حافلة بالمواقف الرائعة. وما حصل من بعض قادة المسلمين عبر التاريخ الإسلامي من قسوة عارضة فإنما هو ناتج جهل أو هو بسبب استغلال غير المسلمين لتسامح المسلمين، وتمكين غير المسلمين من ممارسة الأعمال المؤثرة على أمن الأمة. والإسلام لا يحول دون عمل غير المسلمين في بلاد المسلمين ولا يمنع التعامل معهم، وأكل طعامهم، والزواج من الكتابيات، وتبادل الحب الطبيعي معهن، وإن بقين على دينهن، وليس أدل على ذلك من تعامل الرسول مع يهودي، ورهن درعه عنده. وثقة المسلمين بأنفسهم حفزتهم إلى التعلم على أيدي غير المسلمين وقد جاء ذلك مع (أسرى بدر). وأي إجراء يحسبه أهل الكتاب إجحافا بحقهم فإنما مرده الحرص على المشاعر العامة. فالعامة من المسلمين قد لا يستوعبون تسامح الإسلام، ومن ثم تكون هناك ردات عمل من غلاة أو متشددين أو ورعين، وقد تطال الأذية (الذمي) و(المستأمن)، وما ذلك من خلق المسلم الحق. والرسول ﷺ يقول: «**من آذى ذميا فقد آذاني، ومن قتل ذميا لم يرح رائحة الجنة**». وفي مقابل تسامح المسلمين وتوددهم وبرهم نجد أن هناك سوءا في التعامل من اليهود على من سواهم، وتسلط من الدول النصرانية على المسلمين، وصراع المصالح لا يحال على المبادئ، ومن قال بصراع الحضارات وأحال عليه كل خلاف فقد أساء الفهم.

وإذ تعقب المستشرقون التاريخ الإسلامي، ونقبوا فيه، ووقفوا على محاسن الإسلام، وأبرزوا جوانب منها، واستفادوا منها فإن طائفة من المفكرين العرب استدبروها، وتهافتوا على ظواهر الحضارة الغربية، وبهرتهم مواقفها من (الحرية) و(الحقوق) و(قضايا المرأة) وما شيء من محاسن الحضارة الغربية إلا وفي الإسلام ما هو خير منه. فالذين يتحدثون عن معطيات (الديموقراطية) يظنون أنها من عند الحضارة الغربية، ولو عرفوا عدالة الإسلام ومساواته وما كفله من حرية في التعبير والتفكير والرأي لكان أن قالوا (للديمقراطيين): هذه بضاعتنا ردت إلينا. ومناوأة الفكر السياسي الإسلامي ل(الديمقراطية) مناوأة فكر لا مناوأة إجراء ومقاصد، ف(الديمقراطية) ترد للشعب، والسياسة الإسلامية ترد لله والرسول، فيما تلتقي المطالب والمقاصد.

والمتعلمنون والمستغربون شغفتهم الحضارة الغربية حبا وأعشت عيونهم عما اشتملت عليه حضارتهم الإسلامية من تسامح وتفاعل، وتمتع بزينة الله، وأخذ بكل معطيات العلم ومكتشفاته، واحترام للعقل وابتكاراته، وتأكيد على العدل والمساواة والإحسان. ولأنهم تلقوا فيوض الحضارة الغربية، وهم على جهل تام بحضارتهم، لم يستطيعوا التخلص من عقدة الضعف وقابلية الخنوع. وإذا قيل لهم إن في حضارتكم ما هو أهدى وأجدى، وأنها لا تمنع من صناعات السلم والحرب وتعلم الطب والفلك والهندسة، ولا تمنع من إقامة المعامل والمختبرات وإجراء البحوث والتجريب وممارسة التجديد وغزو الفضاء، وأن نصوصها تتسع لثورة المعلومات والاكتشافات والاتصالات، وأن الفكر السياسي الإسلامي فيه من المرونة وقابلية الاستفادة ما يجعله مفتوحا لكل جديد، جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم. ومن تباهى ب(الديمقراطية) فإن مصادر التشريع الإسلامي لا تمنع من تأسيس النقابات والاتحادات والمجالس وسائر الهياكل التنظيمية والضوابط الدستورية والقانونية والقضائية والانتخابية، ومن أخذ بمبادئ الإسلام فقد أخذ بحظ وافر من العلم والتحضر.

ومن علامات الجهل ومؤشرات الغفلة الخلط بين الإسلام وأوضاع المسلمين، فإذا أخفق أحد من الإسلاميين في التطبيق، وإذا ضعف المسلمون وتخلفوا وجار حكامهم، لم يجد المناوئون للإسلام من أبنائه مانعا من إضافة هذا الإخفاق والضعف والجور إلى

الإسلام. والذين تورطوا في الثورات الدموية، واتسعت خطاباتهم للقومية والشيوعية والحزبية، وتغنوا ب(الديمقراطية) باؤوا بالفشل الذريع، لقد هربوا من جور الحكام والضعف العام وحسبوا أن للإسلام دورا في ذلك، فادعوا الأخذ بأنظمة الغرب. ومع كل النكسات لما يزالوا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء. وكيف يجرؤ مسلم على اتهام إسلامه بالإخفاق، وهو من عند الله؟. وما من متحدث عن الإسلام من أبنائه المستغربين إلا ويبدو خلال كلامه وميض الفتنة، فهم لا يتورعون عن المجازفة بالاتهام والتحذير من الإسلاميين والمطالبة بإلغاء المؤسسات الإسلامية ك(هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) و(المحاكم الشرعية) و(الجمعيات) التوعوية و التعليمية و(المنظمات) و(الروابط) ذات الطابع الإسلامي، ولم يزالوا في خوف من الأسلمة وإظهار الدين ولم ينظروا إلى المنظمات والمؤسسات والجمعيات التي تخدم الحضارات الأخرى.

ومثل ذلك مؤشر إذعان وتصديق لسيل الاتهامات التي يطلقها المغرضون، وكأن الإسلام مصدر التخلف والغلو والتطرف والإرهاب. ومكمن النقص المعرفي والتخبط المنهجي. إن طائفة من المفكرين يخلطون بين تاريخ المسلمين السياسي وتاريخ الإسلام الحضاري.

وعندما تحدثت وسائل الإعلام الغربي عن التطرف والإرهاب والغلو ونسبته إلى الإسلام ومناهجه التعليمية تلقاه السماعون للكذب المعولون على الأعداء، وأذاعوه، ولم يفكروا بما في هذا الاتهام من جور ومكيدة وتمهيد للقضاء على المسلمين ليستبدل الله غيرهم ثم لا يكونوا أمثالهم، وتلك سمة المنهزمين ومرضى القلوب. وليس أدل على الانهزام من القبول بالشائعات، ومسايرة اللوبيات المغروسة في المحافل الغربية. ولقد وقفنا على فلتات ألسنة مريبة، تشيع عن كافة المؤسسات الإسلامية قالة السوء، وتتشايل مع الحملات المسعورة، وتقبل بإحالة الغلو والتطرف والإرهاب على المؤسسات العلمية والفكرية والثقافية، وكل ذلك إنكار ضمني لتسامح الإسلام ووسطيته وإكرامه للإنسان وعصمته للدم والمال والعرض وتحريمه للظلم والجور. ولو أن المرتابين جندوا أنفسهم لتقصي الأحداث والأوضاع، وردوا كل معلول إلى علته وكل تطرف وغلو إلى مصدره، وعرفوا أن اللعب السياسية وراء كل خطيئة، لكان أن صححت المسارات المنحرفة في الحضارة الإسلامية والحضارات المهيمنة.

وإذا كانت الجيوش تغزو بعددها وعتادها فإن الكلمة الخبيثة تواكب قوافل المحاربين عبر وسائل الإعلام وسائر الوسائط السريعة النقل، وما من مستشرق أو مبشر أو مستغرب إلا ويمارس الإغراء والإغواء والإغراق في الاتهام متوسلا بكل الوسائط.

إلى الظلاميين في زمن الادعاء التنويري .. ! (١) (١)

تظل الأيام معي كما هي مع (المتنبي) أشكو إليها ضيق الوقت، وتشتت الفكر، وجور الجشع القرائي، وهي جند ذلك كله، تحرمني من قراءة من يفرحني، ومن يترحني، ومن يجمجم عما في نفسي، ومن يتحدى مشاعري، ومن هو فوق هام السحب، شرفاً في اللفظ، وتألقاً في المعنى، ومن هو مترب مقو، لا يغني ولايقني، ومن يؤذي كما العقرب التي يقول ملسوعها (حب الأذية من طباع العقرب) ومن هو برٌّ رحيم، يحمل هم أمته، ويرود لها موارد النجاة، ومن هو فظ غليظ القلب، لايحمي ساقه، ولايرود لمقدمة.

وفي هذا الزمن المتلفت كتبته الأحداث والمتصابئون على كل الضوابط، أمرٌ بمقترفات كتابية لطائفة من مدعي التنوير والطلائعية، ولمن خلا لهم الجو من مبتدئين، ويسترفدون مقروءهم الآتي، فيأتون به كما (طيلسان ابن حرب). ومع طوفان التعاضد مع المضل، واسترفاده، منّيتُ نفسي بقراءة ذلك كله، لأتمكن من نصر الأخ الظالم أو المظلوم، استجابة لحديث: - «**انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً**». حتى إذا توارت تلك المقالات بالحجاب، بكل ما تحمله من خطأ وخطل ومناصرة وتخذيل، رأيت الناس منها في برم وضيق وتذمر، فقلت مكرهاً: ردوها عليَّ، لتظل في حقيبتي أياماً، وحين لايجود الوقت بساعة من نهار لقراءتها، ألقيها جانباً، وفي النفس ما فيها من الحسرات. غير أن امتعاض الخيرين واستياء الغيورين يضطراني لإرجاع البصر، ولو لمرة واحدة، لأرى أكثر من فطور. وكلما هممت باستخدام المجسات والمسابير، ونقض الأنساق الثقافية التي تصدر منها تلك الآراء الفجة والتصورات الخاطئة، وتحيل إليها، شُغلت بنوازل يرقق بعضها بعضاً.

ولما أن بلغ السيل الزبى، وتجرأ على الثوابت من لايزن الأمور، عقدت العزم على مكاشفة أولئك الموغلين في الإثارة والتجديف ضد التيار. ولقد تذكرت وأنا في حمأة الاستياء قول الله لرسوله ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ ولمحت في هذه الآية معطى دلالياً، في غاية الأهمية، وهو أن عظمة المبدأ لاتكفي وحدها لاستمالة الآخرين وإقناعهم، بل لابد من وسيلة تُمتِّع وتستميل وتقنع، وهي (اللين والتودد) ومن قبل هذا قال الله لموسى وهارون، حين أرسلهما إلى فرعون: ﴿فَقُولاَ لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ وما أصحابنا الذين أوذينا باستفزازهم ومزايداتهم إلا مسلمون جنحوا للغرب، وأُشربوا في قلوبهم عجله، وقليل منهم مجتهدون، لم يحالفهم التوفيق في كثير مما يقولون. وما هم ونحن إلا طلاب حق، وحقهم علينا ألا نسيء الظن بهم ابتداء، وفي الوقت نفسه لايخدعنا الخبُّ ولا المتماكر، ومن غايته الحق فواجبه ألا تأخذه العزة بالإثم، فإذا قيل له: اتق الله، لزمه الإذعان ومحاسبة النفس قبل أن يحاسب، والكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت. والذي أتوقعه في سائر الكتبة في صحفنا - على الأقل- وفي المشاركين في حوار القنوات من أبناء البلاد أنهم لايتعمدون المخالفة. وأن أحدهم يكتب ما يكتب، ويقول ما يقول عن حسن نية وسلامة قصد وحرص على الموافقة لمقتضيات الدين ومقاصده، وإذا اندس فيهم من لايحمل همهم، أو حاد أحد منهم عن جادة الصواب، لزمهم التنبه له، والبراءة مما يصنع. ولنا في (نوح) عليه السلام وابنه قدوة، ولنا في أبي الأنبياء (ابراهيم) عليه السلام وأبيه أسوة. وأملنا أن يكون المثيرون قولا وعملاً واعتقاداً من أهلنا، فأبناء الفطرة رجاعون إلى الحق، ولو ثبت أن أحداً ممن نحسن الظن به يتعمد مناقضة الأحكام،

---

(١) تاريخ المقال: ٢/ ٣/ ٢٠٠٤

ويصر عليها، لما وسعنا إلا مواجهته بما هو عليه، ولا كرامة، فالساكت عن الحق شيطان أخرس. وهناك فرق بين الخطأ ابتداء، والخطأ إصراراً وعناداً، فمن بان له وجه الصواب، ولم يرعوِ، فهو مصر معاند، وعلى من يملك تغيير المنكر باليد أن يأطره على الحق، متى تبين له العناد والإصرار وتعمد المخالفة. ومصائب الأمة في مفهوم الثوريين للحرية، وفي إيمانهم بحتمية العداء لكل أشكال السلطة، وتخوين الموالين لها، وهو مفهوم خاطئ، مخالف لآليات الحضارة الإسلامية وأساليبها في الحكم وإنكار المنكر. ولأن طائفة من الظلاميين باسم التنوير يخلطون بين الشرائع والمناهج والإجراءات، ويدعون أنهم وقّافون عند الكتاب والسنة، وأنهم يسلمون لهما، وأن ليست لهم الخيرة من أمرهم، متى قضى الله ورسوله أمراً، فإن واجب العلماء أن يرشدوا ضالهم، وأن يعلموا جاهلهم. وإذا لم يقيض الله لهم من يواجههم بالحقائق فإن واجب كل واحد منهم أن يسأل نفسه: لماذا أصادم الرأي العام؟ ولماذا الناس يختلفون معي؟ ولماذا يتعرضون لي بالسب والشتم والمضايقة عبر قنوات الاتصال والمواقع؟ هل الناس جميعاً على ضلال، وأنا وحدي على الحق؟ وهل سألت نفسي يوماً ما: عماإذا كان ما يقوله الناس حقاً؟ وهل تواضعت لحظة من نهار، وحملت مجموعة من مقالاتي أو كتبي المثيرة للاشمئزاز لمن شهد له الناس بالعلم الشرعي والتقوى والوسطية، وطلبت منه عرضها على مقاصد الشريعة ومقتضيات نصوصها القطعية،؟ وهل اختلافي مع المفكرين الإسلاميين وفقهاء الأمة من الاختلاف المعتبر؟ ولماذا هذه الجفوة بيني وبين حملة العلم الشرعي والفكر الإسلامي المستنير وركوني لمن هم موضع الشبه؟ إن الكلمة مسؤولية، وهي دمار أو عمار، وحملتها ممن يسنون سنناً حسنة أو سيئة، وهم شركاء بالأجر أو بالوزر إلى يوم القيامة، وما قامت الملل والمذاهب والنحل والأحزاب والدول (الدكتاتورية) من (ماركسية) و(فاشية) و(نازية) إلا على اللسان والسنان (﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾. والمؤسف أن كثيراً من الكتبة والمحاورين يطلقون الكلمات المدانة أو الاتهامات المعمَّمة، لايلقون لها بالاً، تهوي بسمعتهم، وتشكك في نواياهم، فيما يتقحم المشاهد مبتدئين بثقافة سمعية، لاتؤهلهم للقيادة الفكرية، ومع ذلك لايراجعون، ولايتراجعون، ولاينفكون من العناد، ومعول نكراتهم وأحداثهم أنهم لايلوون على مثمنات، ولايخشون استعداء الناس، وكأني بسراتهم وجهالهم يردد كل واحد منهم: - (أنا الغريق فما خوفي من البلل)، وطائفة منهم متمكنون في علمهم غير أنهم فهموا الاصلاح والتجديد على غير مراد الحق، فكان أن عولوا على حضارة الغرب لتنقذهم من التخلف. ولما أن كانت حركات الاصلاح الغربي قائمة على (العلمنة الشاملة) فإن البعض من هؤلاء لايجد حرجاً من مقاربة ذات التوجه، ولايخفي تذمره من نفاذ (التيار الديني) في كبريات المؤسسات، وليس من الكياسة أن نداهن هؤلاء، ولا أن ندعهم وشأنهم، ذلك أنهم معنا في السفينة، وخلخلة الوحدة الفكرية من أخطر الظواهر، وما نعايشه عبر وسائل الإعلام الصحفية والقنواتية ومراكز المعلومات وبعض المواقع نذير شؤم، فالمفكرون ومن دونهم يصطرعون حول الثوابت والمسلمات، وليس الخلاف فيما بينهم معتبراً.

وما أكثر السامريين المصرِّين على أن المناوئين لهم ما ضويون، وأكثر المصدقين لهم، ومتى أطلقوا (الماضوية) ظنوا أنهم حسموا الموقف لصالحهم، وما عرفوا أن أكثر الوقافين عند حدود الله أمضى منهم في التجديد، وهل من التجديد، ما يكتبه نكرات متعالمون، أومثقفون مستغربون؟ يتناولون فيه قضايا (المرأة) و(المناهج) وسائر الأوضاع بطريقة مؤذية، وكأن من حولنا من الدول العربية ممن أتاحوا للمرأة التبرج

والاختلاط والخلوة ومزاحمة الرجال، وملأوا مشاهدنا بالمغنيات والممثلات والراقصات قد حققوا من وراء ذلك غزو الفضاء، وصناعة الإنسان، وسلاح الردع، وكانوا أعزة أغنياء، وأننا بالتزامنا ومحافظتنا تخلفنا عنهم، وفاتنا الركب.

ومع ما غمرنا من طفح القول ومشبوه الكلم فإنني لا أجد الوقت الكافي لقراءة كل ما يدور من دعوات مغثية، تثير الاشمئزاز، وتبعث على الخوف. لقد زودني البعض بقصاصات وكتب، وزودني آخرون بنقاط مستوحاة مما ينقمون به على مثل هؤلاء. وإذا لم تكن تلك النقاط مبتسرة من سياقها فإنهم محقون في تذمرهم. وأحب في غمرة التمرد مناصحة من أتوسم فيهم الخير من شركائنا في مهنة الكتابة، وهي مهنة معتقة أو موبقة، وكلي ثقة برحابة صدورهم وثقتهم بأنفسهم، ومفاتحتي إياهم دافعها الحب لعقيدتي ولوطني وحرصي على سلامة المجتمع الذي أنتمي إليه، وأنعم بأمنه واستقراره وتلاحم أبنائه، وحبي للكتبة أنفسهم، امتثالاً لحديث: «**لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**» وإذا كنت أحب لنفسي أن يستعملني الله في طاعته، وفي خدمة عباده، وأن أمتلك الشجاعة في محاسبة النفس، والقدرة على كف اللسان، وعدم قفو ما ليس لي به علم، وتحامي افتراء الكذب على الآخرين، وإذا كنت حريصاً على أن تظل الفتن نائمة، والأمة متلاحمة، ولو على المفضول، اقتداء بالرسول الرحيم، يوم فتح مكة، حيث لم يعد بناء الكعبة على قواعد ابراهيم، جمعاً للكلمة، وتفادياً للشقاق والتفرق، إذا كنت في ذلك كله كذلك. فإنني أحب لكل عالم أو مفكر أو كاتب أن يكون كما أريد. ولعل أصحابنا الذين يقترفون ما هم مقترفون من مخالفات لا تحتمل التأويل ولا التبرير على علم بأنني أحرص الناس على أن يأخذ كل مقتدر حيزه، وأنني أبعد الناس عن مصادرة الحقوق والإقصاء، ولست ممن تأسره المذهبية، ولا ممن لا يرى إلا واحدية الرأي، ولست حدياً صارم الحدية. وحين لا تجمعني بأحد منهم إلا اخوة الإسلام، ونعمّا هي من علاقة، إذا أخذناها بحقها، فإن من أولويات حقها أن أصدقهم القول، وأن أنصح لهم، وأرجو ألا يكونوا ممن لايحبون الناصحين. والصدق والنصيحة لا تتحققان إلا إذا كان كل واحد مرآة صافية، ينظر فيها الآخر ذاته المعنوية بكل ماهي عليه. وإذا بدت من أحدنا غلطة فمن حقه على كل متلق أن يبادر إلى إهدائها إليه، ورحم الله من أهدى عيوبنا إلينا، وكفى المرء نبلاً أن تعد معايبه. وكم أود من بعض أولئك الذين يخوضون في مصائر الأمة بغير علم، ويبغون حكم الجاهلية في قضايا المرأة والمناهج والاجتماع، أن يكونوا على علم بفقه الأحكام، وفقه الواقع، وفقه الأولويات، وأن يعرفوا قواعد المذاهب وأصولها وشروط الاجتهاد عندها، وحدود الحرية ومجالات الاختلاف، ومقاصد الشريعة، وسد الذرائع، ودرء المفاسد، والمحرم لذاته، والمحرم لغيره، ومدى حق السلطان في الحظر والإباحة والطاعة، ومقصد الأصوليين من مقولة (لا اجتهاد مع النص) ذلك أن جهل مثل هذه القاعدة بالذات أردت علماء وفقهاء ومفكرين، فـ (النص) هنا: هو ما لايحتمل إلا دلالة واحدة، وليس المقصود به مطلق القول. وحين لايحتمل النص إلا دلالة واحدة، لايكون للاجتهاد فيه مكان. وكثير من المتعالمين: إما أن يخوضوا في كل نص، أو يحجموا عن الخوض في كل نص، ولايفرقون بين القطعي والاحتمالي، محققين معجزة من معجزات الرسول الغيبية في (رفع العلم) في آخر الزمان، وذلك ما تعانيه كافة المشاهد في راهنها. فلقد شارفنا على نزع العلم الشرعي أو كدنا، وعلى نزع الورع والحياء أو كدنا. وأين المتسرعون اليوم من (أبي بكر الصديق) الذي سئل عن (الأب) في قوله تعالى ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ فقال: أي أرض تقلني، وأي سماء تظلني إذا قلت في كتاب الله بغير علم؟ وأين هم

من (الفاروق) الذي يجمع الصحابة عندما تنتاب الأمة نازلة؟ ويطلب من رواة الأحاديث من يشهد لهم، بل أين هم من (لا أدري) وهي نصف العلم، ومن قالها فقد أفتى. لقد سمعنا أغيلمة أحداثاً يتشامخون، ويتعملقون، ويقولون بكل جرأة في قضايا الأمة: الفكرية والدينية والسياسية والاجتماعية. وارتيابنا من الاحتفاء بهم، وتمكينهم من وسائل الإعلام، مع ما هم عليه من ضحالة في التفكير وسوء في التعبير، ورأينا أشيمطين متصابين يوغلون في النيل من حراس الفضيلة، ويبسطون أيديهم لناشئة ليست على شيء من العلم، ولا على شيء من التجربة. وإذا قيل لهم: اتقوا الله، وقولوا قولاً سديداً. قال قائلهم:-نحن رجال وهم رجال، وقال آخرون:- إن ما نقوله من حرية الرأي والتعبير المكفولة لكل إنسان. وحسبك من هؤلاء ما تشاهده من قتل للأبرياء، وهدم للمتلكات، وإخلال في الأمن وخلل في الفكر، وتمردعلى السلطة، وخوض جريء في آيات الله. ولو أنهم لم يؤلهوا الهوى، ولم تعجبهم آراؤهم، ولم يتزببوا في زمن الحصرمة، ولو أنهم عرفوا قدر أنفسهم، لكانوا قد سألوا أهل الذكر، وردوا خلافهم إلى الله والرسول وأولي الأمر منهم. وإذ تكون حجتهم في التغيير ضعف الأمة وتخلفها، تكون حجتنا ذات حجتهم، ولكننا نختلف في الحل، فهم يودون اللحاق بحضارة الغرب والانسلاخ من حضارتهم، فيما نود فهم الإسلام ومقتضياته والانطلاق منه والرد إليه، بحيث يكون النور الذي نهتدي به موقداً من شجرة زيتونة لاشرقية ولاغربية.

إلى الظلاميين في زمن الادعاء التنويري .. ! (٢) [1]

وإذ مسنا الضر من تطرف الموغلين في الدين بغير رفق وبغير علم فإننا على وجل من المتطرفين في الفكر، الخارجين على رأي الجماعة، المستمرئين للنيل من كفاءات الأمة العلمية والفكرية، ومن القائلين في القضايا الفكرية والتربوية والاجتماعية دون تثبت، ودون تسليم للمرجعيات المعتمدة، وكيف يقبل عاقل رشيد الخوض في (قضايا المرأة) دون استصحاب الموقف الإسلامي، ودون تحفظ أو استثناء في زمن نرى فيه تسليع المرأة واستغلال جمالها في الإعلام والتمثيل والدعاية والتجارة، وقبولها تلك النخاسة، واستمراء الرجل لذلك وما من عاقل رشيد غيور يقبل على محارمه أن يكن كاسيات عاريات مائلات مميلات، ولقد خصم الرسول ﷺ الشاب الذي طلب منه ان يحل له الزنا، فكان أن سأله عما إذا كان يرضاه لأمه أو لأخته أو لزوجته أو ابنته.

وفي الوقت نفسه لن يمانع اي عاقل رشيد أن تأخذ المرأة وضعها الطبيعي في المجتمع، وأن تكون عضواً عاملاً، متى دعت الحاجة إلى خروجها من المنزل. وحين يتحدث مدعو الإصلاح عن (حقوق المرأة) فعلى اية شاكلة يرونها وما التجربة المثلى التي يحيلون إليها؟

إن التجارب القائمة في سائر أنحاء العالم تقتضي المصير إلى التحديد والتوصيف ووضع الضوابط، وهذا ما اختلف فيه مع الظلاميين، ولأنني لا اريد نسف الجسور، ولا تعطيل قنوات الاتصال بيني وبين أي محرض على التمرد والسفور والاختلاط وعلمنة المناهج فإنني أحاول أن اضع كل واحد أمام ضميره، ولن أقابل مجازفات اولئك بمجازفات مماثلة، تحيد بكل الأطراف عن جادة الصواب، وتؤدي إلى المجاراة في المنهي عنه، ولن أبحث عن شواهد الإدانة، ولن أصعد الخلاف، فأنا طالب حق، ولست طالب انتصار، ومبدي نصح، ولست باحثاً عن إدانة، وكم أود أن يجري الله الحق على لسان من أخاصم. وإذ لا اقطع بضلال أحد، فإنني لا أريد لهذا البلد الذي قام على العقيدة السلفية الوسطية، الرادة عند الاختلاف إلى الله والرسول ان تعصف به الأهواء، ولا أن تؤول أموره وأحواله إلى ما آلت إليه أحوال الدول التي شط أبناؤها في آرائهم ومواقفهم وتصرفاتهم، فكان ما نراه من تصدع في التلاحم، واختلال في الأمن، ونقص في كل وجوه الحياة، وما ذلك إلا بسبب صدام الأفكار، وتنازع السلطة والخروج على شرعة الله ومنهاجه. وما نقم مني البعض تصريحاً أو تلميحاً إلا لأنني ادعو إلى أخذ الحذر من دعاة السوء، والتزود من المعارف قبل التصدي والتصدر، امتثالاً لأمر عمر: (تفقهوا قبل أن تسودوا) والرد عند الاختلاف إلى الله والرسول وأولي الأمر.

فإذا قلت: إن المكان الطبيعي للمرأة هو البيت، فليس معنى هذا انني اعارض التعليم والعمل ومشاركة المرأة بما هي أهل له، ثم إنني بهذا القول أرد إلى الله، والله يقول: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ فلماذا يحيل الناقمون القول عليّ، ولا يحيلونه إلى مصارده. وإذا كان الوضع الطبيعي أن تقرّ المرأة في البيت، فإن الوضع الاضطراري ان تبرحه، وحين تكون المبارحة اضطراراً كان لابد من ضوابط، وليس من متقضيات القرار تحريم الخروج والعمل، ونساء الصحابة خرجن وعملن، والرسول عمل أجيراً عند (خديجة) والتحفظ الذي نقول به حملنا عليه ما آلت اليه أوضاع المرأة من تبذل وامتهان وإخلاء للبيت لتحتله امرأة اجنبية. وإذا قلت: إن عمل المرأة مشروط بشرطين (قيام الحاجة وعدم الاختلاط) فإنما أرد إلى الله، والله يقول على لسان ابنتي

---

(١) تاريخ المقال: ٩/ ٣/ ٢٠٠٤

شعيب: ﴿لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: ٢٣] فصدور الرعاة من الموارد خشية الاختلاط، وشيخوخة الأب لتأكيد قيام الحاجة لعمل المرأة، وإذا قلت: إن عمل المرأة خارج المنزل ضرورة تقدر بقدرها، فإنما أرد إلى الله، والله يقول لآدم: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [طه: ١١٧] ولم يقل (فتشقيان)، لأن العمل الشاق من مسؤوليات الرجل. ولأن الرجل هو الكادح والمنفق فقد كفي الحمل والرضاعة، وحّمل القوامة والسعي في مناكب الأرض، فيما أعطيت المرأة ما لم يعط الرجل من الحنان والعطف والنعومة، وأعطي الرجل ما لم تعطه المرأة من القوة والخشونة الجسدية، فما عيبت امرأة في بكاء، وما حمد رجل عليه ولأن لكل من الرجل والمرأة خصائصه الجسمية والنفسية، وله مجاله الاختياري الملائم لخصائصه فإن القول بمطلق المساواة، أو القول بتوحيد المناهج قول مخالف للسنن الكونية التي رتبت عليها السنن الشرعية، وإذا قام الاختلاف العضوي والنفسي بين الرجل والمرأة فإنه يلزم من ذلك قيام الاختلاف في المهمات والاحتياجات، وإلا أصبح التنوع من العبث، ولأن الله رتب الكون على ثنائية الازدواج، فقد فضل احدهما على الآخر، ليجعل له سلطة التدبير المتخلية عن التسلط والاستبداد، ومن ثم كان جل الخطاب للمفضل، ولم يكن خطاباً ذكورياً كما يعتقد البعض، ومع ان الغرب أوغل في المساواة الا أن المرأة الغربية تظل دون الرجل في كثير من المسؤوليات بما فيها رئاسة الدولة، ذلك ان الطبيعة تغلب التطبع، فالمرأة الغربية لها مطلق الحرية في الفعل والترك والمشاركة، ومع هذا تظل مسبوقة بمسافات كبيرة من قبل الرجل، لا بقوة القانون، وإنما بتفاوت التكوين والمصير العفوي للطبيعة البشرية، والقائلون بغلبة الخطاب الذكوري العربي لا يفكرون بغلبة الرجل الغربي على المرأة مع غياب الخطاب الذكوري.

وحين أقول بمنع السفور والاختلاط فإنما أراد إلى الله، والله يقول: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاء حِجَابٍ﴾ ويقول ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ وأيما امرأة خضعت أو اختلطت أو خلت أصبحت عرضة للريبة والطمع، ولنا في أم المؤمنين (عائشة) رضي الله عنها موعظة، لقد تعرضت لخلوة اضطرارية، فكان (حديث الإفك)، وفي الأثر أن نفراً مروا برسول الله ﷺ، وهو يكلم ابنته، فقال: إنها فاطمة، ولما عجبوا قال: إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، أو كما في الأثر فأين نحن من (عائشة ومحمد وفاطمة)، ولما حصلت الخلوة بين (يوسف) عليه السلام وامرأة العزيز ﴿غَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣] ولما كان حديث البعض من دعاة التفرنج عن المرأة يتجاوز المشروع كان لزاماً علينا أن نرد قولهم إلى الله والرسول، وعليهم أن ترحب صدورهم إذا قلنا: هاتوا برهانكم ولا برهان إلا من آية أو حديث، نذعن لهما ونسلم، ونحن طلاب حق وبلادنا محكومة بالكتاب والسنة. وتجربة (المنتدى الاقتصادي) خير دليل على أن الناس بحاجة إلى وزاع سلطاني، وأطر على الحق، وفي الأثر: أن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن. وحين لا نتناهى عن منكر فعله المتسرعون طالنا ما يطال اليهود الذين أخبر الباري عن عدم تناهيهم عن المنكرات، ومشروعية اشتراك المرأة في المنتديات والمؤتمرات لا يستدعي السفور ولا الاختلاط، وما أضاع الأمة وحرمها من سماحة الإسلام إلا الافراط في المنع أو التفريط في الإباحة،

ولو أن النسوة اللائي اشتركن في الملتقى عرفن ما لهن وما عليهن لكان أن تمتعن بحقهن المشروع الذي يوفر كل الحقوق ويمنع كل التعديات.

والذين يدعون فيما يكتبون أنهم مصلحون، وان المرأة محرومة من حقوقها المشروعة، ثم يسوقون شواهد من وقوعات أو من تعامل جائر مع المرأة يحيلون ذلك إلى الكافة، والكافة منه براء، وعليهم حين يحكمون على جور أملته العادات أن يربطوا الأسباب بالمسببات، وأن يقارعوا تلك الظواهر بما درج عليه سلف الأمة، فالمرأة لها مثل الذي عليها بالمعروف، واشكاليتنا في تحديد هذا المعروف، فهو واقع بين افراط المتشددين وتفريط المتسيبين، أقول قولي هذا وأنا اعرف حق المرأة في (العلم) و(العمل) و(التجارة) والخروج المنضبط، وأنها نصف المجتمع، وشقيقة الرجل، وأن قوامة الرجل الشرعية لا تسلب حقاً، ولا تعطل قدرة، ولا تمنع من الاستجابة لخدمة المجتمع في المجال الذي لا تسده إلا المرأة، أو أن من الخير ألا تسده إلا المرأة، وتقرير ذلك كله لذوي الاختصاص والمسؤولية، فمثل ذلك النوازل، و(فقه النوازل) لابد له من اجتهاد جماعي ورؤية مؤسساتية، فحين لا يكون على المرأة (جهاد) ولا (نفقة) وحين تلزمها الشريعة الإسلامية بالمحرمية في السفر، فمن ذا الذي يقرر خروجها وجهادها وانفاقها وسفرها في حالات الضرورة؟

وحين تقتضي الحياة خروج المرأة من البيت للدراسة أو للتجارة أو للعمل، فمن ذا الذي يحدد ذلك ويرسم طريقه ومجالاته، أهل الذكر والحل والعقد أم المستغربون المتعلمنون؟

أقول ما تقرأون، ولي تجاربي التي تحميني من الاتهام بالشدة والإمعان في منع المرأة من حقوقها المشروعة، فأنا اب لاثنتي عشرة بنتاً هن عندي زينة الحياة وبهجتها، ثمان منهن جامعيات، واربع منهن عشن في أمريكا مع ازواجهن ودرس بعضهن هناك، وواحدة منهن اعطت محاضرات في الكمبيوتر في الجامعة، وهن زوجات موفقات، منهن العاملات، وأكثرهن ربات بيوت، عملن ثم فضلن التفرغ للزوج والأولاد وشؤون البيت بالطوع والاختيار والاستغناء، ولم ازل اشرف على ثلاث رسائل دكتوراه لثلاث طالبات، فهل سيكون موقفي من المرأة القائم على القرار في البيت والتزام الحجاب وتفادي الاختلاط والخلوة والتبرج سبباً في ضياعهن أو جهلهن أو تعطيل نصف المجتمع، كما يحلو لدعاة السوء أن يقولوا عني؟

دعك من قضايا المرأة، وخذ بيدي إلى قضايا (المناهج)، و(السياسة)، ولما كنت ابني بجدة (المناهج) تعلماً وتعليماً وممارسة منذ نصف قرن فإنني حقيق بالقول، ولا فخر، لقد درست في ثلاث جامعات عربية، وتخصصت في التربية وعلم النفس، ومارست التعليم على مدى خمسين سنة، وحاضرت في المناهج، وألفت في ذلك، وخبرت التعليم من الكتاتيب حتى الدراسات العليا، وأشرفت على رسائل الدكتوراه وناقشتها، ولم أزال اتقلب في التعليم منذ السادسة عشرة من عمري، ومع ذلك لم اسلم من الغمز واللمز والسخرية، وكأنني كهفي أبعث بورقي إلى المدينة. وحين أقول: أن مناهجنا لا تصنع ارهاباً، ولا تكفر أعياناً، فإنني أقول: إنها في الغالب لا تخرج إلا كتبه، وانها لا تساير خطط التنمية، ولكنها مع هذا ليست سيئة بالقدر الذي يشيعه المستغربون والمتسرعون، ويكفي أنها خرجت الأطباء والمهندسين والعلماء، وعشرات الآلاف من المتخصصين في مختلف العلوم الإنسانية والعلمية، وربما كانت بلادنا من أكثر دول العالم في الابتعاث للدراسة إلى الخارج، وما كان احدهم بدعاً في تربيته وتعليمه، وما كانت مناهجنا من قبل مثل جدل ولا استنكار ولا استغراب. والذين عادوا متأثرين بالأفكار الغربية شكلوا طوائف (ليبرالية) و(فرانكوفونية) ان هم إلا سليل تلك المناهج التي تتهم من الداخل والخارج، ومع إصرارنا

على التطوير فإننا نفرق بين الاتهام السافر والملاحظات المتزنة، وإذا لم نطور مناهجنا يوماً بعد يوم، ونأخذ من مناهج الغير أحسنها وأقدرها على مواكبة الحياة المعاصرة سبقنا العالم. وأسلمة المناهج لا تشكل عقبة في طريق الإصلاح ومواكبة الحياة، ومن فهم الأسلمة على غير ذلك ففهمه مرورد عليه، وعمليات التطوير شيء والاتهام والاستعداء شيء آخر، والذين يسايرون الأعداء في اتهام مناهجنا بالارهاب أو بالتكفير، ويحتمون بمراوغة اللغة، يجهلون أو يتجاهلون (سبعين عاماً) من عمر التعليم، ويتجاهلون الملايين من مخرجاته ممن يختلطون مع مختلف الجنسيات والأديان، ويجوبون آفاق المعمورة، دون أن يمسوا أحداً بأذى، ولقد كان (الأمريكيون)، بالذات يذرعون فضاء أرضنا جيئة وذهاباً، منذ عهد الملك (عبد العزيز) الأشد تمسكاً بالسلفية، ينقبون عن المعادن، لا يرافقهم إلا أعرابي طارت شهرته في الآفاق، ولهم اسهامهم في تعليم أبناء البلاد، مما هم بحاجة إليه في القطاعات العسكرية والتخصصات العلمية، كما أنهم يمارسون مختلف الأعمال في المستشفيات والمصانع والمؤسسات، وما قيل عن احدهم انه قتل غيلة، ولم تكتشف اللعبة، وهمت كل طائفة بأختها وصفيت الثارات، ولكيلا ترد الأحداث إلى مصادرها فتتعرى اللعبة، وينفضح اللاعبون، حملت المناهج وزر غيرها، واستخدم طغام الظلاميين لترويج الفرية.

أما السياسة فلست ابن بجدتها، ولكنني قارئ نهم، بدأت قراءتها فيما كتب عن (لعبة الأمم)، وصدام المصالح، وصراع الحضارات، ودسائس الاستشراق، ومكر التبشير، ومكائد الاستعمارو وسير الزعماء ومذكراتهم، والاستخبارات ومغامراتها وقصص الثورات وعمالتها، ومتابعة الوثائق التي يفرج عنها كل حين وملفات القضايا المصيرية، وما تعانيه الشعوب من ويلات، وعايشت احداثاً مؤلمة من نكسات واحتلال وتطبيع ومواطآت وتراجعات مؤلمة، فتبين لي أن العالم العربي والإسلامي يعيش تحت وطأة لعبة سياسية كونية، أتت على مقدارته وأمنه، وأذهبت ريحه، ولما يزل يخرج من لعبة قذرة، ويدخل في أخرى، ومن تعاطى السياسة كما يتداولها الاكاديميون أو كما تبثها وسائل الإعلام فقد يضر بمصالح أمته السياسية، فن الممكن، ولقد عايشها عقلاء مجربون، فخرجوا من مستنقعاتها، وهم يلعنون ساس ويسوس وما تصرف منها وعجبي من مفكرين وكتاب يظنون أن ما يقوله الإعلام الغربي حق لا مراء فيه، ومن ثم يرتبون أمورهم ومواقفهم على ما ينتهي إليهم منه وصدق الله ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وبعد: كل الذي أرجوه من اولئك الذين آذوا البلاد والعباد ان ينظروا في مسلماتهم، وان يتزودوا من العلم الشرعي، فهو مرجعية حضارتهم، وان يؤصلوا لمعارفهم، وان يمحصوا مواقفهم بالمراجعة والمحاسبة والمساءلة، وحين تلتبس عليهم الأمور، عليهم ألا يجدوا حرجاً في أن يسألوا أهل الذكر، فدواء العي السؤال، وفوق كل ذي علم عليم، وإذا كان بعض اولئك غاضباً على الذين يؤذونه بالاتصالات، ويسبونه من خلال المواقع المعلوماتية، ومن خلال الردود والرسائل فليعلم ان البادئ أظلم، ولو ترك القطا لنام، وما بعد البعد نقول: (انج سعد فقد هلك سعيد).

أيها المستجيبون والممانعون عقلنوا خطابكم .. !![1]

لم يعد الزمن مواتياً، بحيث يصدع كل امرىء بما يرى، ولم يكن الدين انتقاء، بحيث يؤمن الكسالى ببعض الكتاب، ويكفرون ببعض، ولمّا يكن أحدنا ك (ذي القرنين) الذي آتاه الله من كل شيء سبباً .. وأمام تعذر الصدع وفساد الإيمان الانتقائي، يتميز الصِدِّيقون ممن يعبد ون الله على حرف. ومع تداخل القطعيات بالاحتمالات فقد مضت سنة الله في خلقه على التفاوت في العقول والأفكار والاهتمامات والرغبات والقدرات: الحسية والمعنوية، ولما علم الله أن فينا ضعفاً خفف عنا. ومع كل ما سلف تبلى الأمة بالموغلين والمنبتّين والغلاة والبَرِمين من الاختلاف. وحين نُروض أنفسنا على مشروعية التفاوت والاختلاف في الأمور الاحتمالية، يكون حريّاً بنا أن نفرق بين الاختلاف المثري والتنازع المصمي، وأن نتوخى جدال من يشاركنا المصير بالتي هي أحسن. والمتابع لما يدور في القنوات الفضائية، وما يقال في المؤتمرات والندوات والمجالس الخاصة يصاب بالإحباط. لا لأن الناس يختلفون، ولكن لأنهم في المواجهات يحيلون إلى سوء النوايا، وفساد المقاصد، وتزكية الذوات، وتخوين الآخرين، والإمعان في الشك والارتياب. وحين تفضي المناكفات والملاسنات إلى التجريح والاتهام تهمل القضايا، وتصبح المشاهد كحلبات المصارعة، لا ترى فيها إلا متلاكمين، يبحث كل واحد منهم عن الضربة القاضية.

ومتى أدى التناوش الكلامي إلى نبش الضغائن، يصبح الصمت من ذهب والحياد من فضة. والصمت والحياد مصائر اضطرار لا موارد اختيار، وسمات انهزام لا علامات انتصار، وليسا من الإسلام في شيء، فالساكت عن الحق شيطان أخرس، كما أن الخائض في جدل لا تحكمه ضوابط يعد سفاهة وإسفافاً، وانزلاقاً في مهاوي الرذيلة. ومؤدى الإسلام: الاستسلام والانقياد والخلوص وعدم الخيرة من قضاء الله ورسوله. وحين يندر الإجماع لا يتعذر الاجتماع، إذ ليس شرطاً تلازم عدم الإجماع في الحكم مع عدم الاجتماع في الكلمة. ولنا في أئمة المذاهب قدوة، فهل نقم (أحمد) على (أبي حنيفة)؟ وهل سخر (الشافعي) من (مالك)؟. والخائضون في الشأن الإسلامي أو الوطني أو الفكري أو الاجتماعي أو الأدبي بغير علم ولا روية ولا تجربة يمسُّون مثمنات حسية ومعنوية تطال الشاهد والغائب. والشأن العام حق جماعي، الناس فيه شركاء، فالسكوت والقول إشكاليتان، متى لم يسعد النطق، ولم يجمل السكوت.

وإذا كانت طائفة من العلماء أو المتعالمين والفلاسفة أو المتفلسفين تتقحم سوح الجدل بعبارات نابية، واتهامات سافرة، ومعلومات ضحلة، وتأويلات بعيدة، فإن طوائف أخرى تتعمد التدابر والتباغض، دونما سبب يستدعي ذلك.

والاختلاف في الرأي المشروع لا يسوّغ القطيعة، مثلما أنه لا يسوّغ الوقيعة فالإسلام لا يتحقق إلا بالأخوة والمودة والرحمة بين المسلمين، ولهذا وصفهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالجسد الواحد والبنيان الذي يشد بعضه بعضاً. والتهاجر مناف للاعتصام بحبل الله، والتدابر مخالف لأمر الرسول ﷺ. وهجر العصاة والمبتدعين الذي يعول عليه البعض ليس على إطلاقه، فإذا ترتب على الهجر مفسدة أكبر من مفسدة المخالطة، أصبحت المخالطة مطلوبة، ذلك أن الأصوليين يقيمون أحكام الإسلام على التغليب، ويحكمون مواجهة المخالف بالأفضل، بحيث تكون باليد أو باللسان أو بالقلب، وممارسة الإنكار دون مراعاة مقتضى الحال مفسدة للحياة. والاختلاف في الآراء لا يحال على

---

(١) تاريخ المقال: ١٦/ ٣/ ٢٠٠٤

الابتداع، ولا على المجاهرة بالمعاصي، وإذا ندر إجماع الأمة، وجب عليها ملاطفة المخالف ولو في الفروع على الأقل.

وفي الوقت نفسه فإن على كلّ ذي رأي مخالف مراعاة مشاعر العامة، فالمجاهرة مدعاة للاستفزاز والاشمئزاز، وإذا اختلف الخاصة أو العامة مع غيرهم، وجب عليهم الإبقاء على جسور التواصل. فالمسلم مطالب بالدعوة والدفع دونما صلف أو إكراه، ونسف جسور التواصل يحول دون الإسماع وإبلاغ المأمن المأمور به في حق المشرك. وما كان بين الأطراف من عداوة فإنه يزول بالإجارة والأمان والدفع بالتي هي أحسن، وكل ذلك مطلب إسلامي، والمصير إلى التهاجر والتدابر من معمقات الفشل المنهي عنه.

والعداوة لا تكون إلا حين يكون سوء الظن بالمسلمين: خاصتهم وعامتهم وولاة أمرهم، وإلا حين يكون سوء التقدير والتدبير. ومواجهة المخالف بالحق عالماً كان أو سلطاناً واجبة، ولكنها لا تكون إلا وفق ضوابط وشروط وأساليب لا تعمق الخلاف. ولهذا حث الإسلام على السمع والطاعة، تفادياً لما هو أسوأ، فقد يكون هناك جور وأثرة أو تقصير أو إبطاء. ومواجهة ذلك كله مشروعة، ولكنها مشروطة. ولقد أخبر الصادق المصدوق بالمتغيرات، وبما ستؤول إليه حال الأمة «**ومن يعش منكم فسيرى أختلافاً كثيراً**». وأمام حتمية الاختلاف رسم طريق الخلاص. وحين لا يُحسن العامة أو الخاصة معالجة ذلك، يتحول الجور إلى عنف، والأثرة إلى استبداد، والإبطاء إلى تعطيل. وكم فوتت المعارضة الفجة فرصاً ثمينة. وفي كتاب (الإمارة) ل(الخلال) آيات صريحة وأحاديث فصيحة وأقوال محكمة لعلماء الأمة الذين يجمعون بين العلم والتجربة، ويمتازون بحسن التصرف وبعد النظر، ويغلّبون درء المفاسد على جلب المصالح، وكل هذه الآيات والأحاديث والأقوال تحث على الاجتماع والاعتصام والسمع والطاعة والمناصحة والصدق والأمانة والوفاء. وليس معنى هذا أن يُسلِّم الناس للظلم والاستبداد، ولكن عليهم أن يعالجوا الأمور وفق متطلبات المرحلة، وإذا كانت مرجعية الأمة (الكتاب والسنة) فإن الاختلاف حول المفاهيم والدلالات لا يقتضي الطعن في أمانات الناس ونواياهم. ومن اختلف مع غيره حول مفهوم آية أو حديث، لزمه سماع الرأي الآخر، واستقصاء حيثياته ومعرفة الأصول والقواعد والآليات والمناهج المعول عليها، وتفادي الوقوع في تأليه الهوى والإعجاب بالرأي، والمتابع لمعطيات الفكر السياسي الإسلامي يجده جماع الخير كله، فلا هو حفي بعنف الثوريين، ولا بمداهنة المتزلفين.

وكم يكون خيار التعاذر والتعايش أفضل من التلاوم والتدابر، وبخاصة في ظروف عصيبة كالمعاش على كل الصعد. ومما يخاف منه العقلاء تمادي الأطراف المتنازعة فيما تذهب إليه، دون السماع والإسماع في أجواء من الأمن، فالمخالف يصر على الحنث، والمناصح لا يتخول بالنصيحة، ولا يتوخى الوسطية، ومن ثم يصطدم إصرار الحانث بفظاظة الناصح وغلظته، ثم تكون الفتنة. وإذا كان الاختلاف سمة المجتمعين وفق أي رابط عقدي أو مدني أو إقليمي أو لغوي أو عرقي أو أسري فإن الأوجب اتخاذ الآلية الحضارية لتفادي التمادي في الغي أو الصدام في المواجهة. وإذا كانت المحاكم المدنية - القانونية أو الشرعية، تتولى فض المنازعات وفك الاشتباكات بين الدول والأفراد والجماعات عند اختلافهم حول الحقوق فإن قادة الفكر السياسي أحق بوضع الآليات المناسبة لمواجهة الاختلاف في وجهات النظر حول القضايا المشتركة، فالحق الجماعي أولى من الحقوق الفردية، وحين لا تكون آلية ولا منهج تدخل الأمة في الفوضوية، مستنزفة كل طاقاتها في سبيل الهوى والشيطان. وما من أمة إلا ولها دستور وقانون، يحكم الأول العلاقة بين الحاكم والمحكوم، ويحتكم الخصوم إلى الثاني لفض المنازعات. وأي تجمع يكون بعض أفراده فوق القانون يقع في الفتنة من حيث لا يشعر. والتجمع

الحضاري لا يحكمه الرجال، وإنما تحكمه الأنظمة والمؤسسات، وما الرجال إلا منفذون ورعاة، ومع هذه المسلمات البدهية لا مناص من اختلاف وجهات النظر حول المفاهيم والإجراءات.

والاختلاف يكون بين العلماء حول الأحكام والمفاهيم والمقتضيات، ويكون بين الساسة حول المواقف والمصالح والقضايا، ويكون بين العامة والسلطة حول الأوضاع والإجراءات والحقوق والواجبات. وكل مجتمع بشري تتعدد فيه الفئات والرغبات والمسلمات يقوم بين فئاته اختلاف، فإذا بادره عقلاء الأمة وأهل الحل والعقد وجهوه الوجهة السليمة، وإن استحكمت الفوضى، وغلب السفهاء، فسدت الحياة واستشرت الفتن. وكل اختلاف لا يبادره حكماء القوم ينتقل من التلاسن إلى التطاحن، ومن إراقة الأحبار إلى سفك الدماء، ومن البحث عن الحق إلى البحث عن الانتصار:

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتمو

وما هو عنها بالحديث المرجّم

وكل حرب دامية لا تكون إلا ناتج خلاف لا يبادره حكماء القوم، والنار من مستصغر الشرر، وكم قال الحكماء:

أرى خلل الرماد وميض نار

وأخشى أن يكون لها ضرام

وإذا كانت الأمة - أي أمة - تتوفر على أمن وارف، واستقامة راشدة، ورخاء عام، ثم لم تكن شاكرة لأنعم الله، مراعية لحقه، انقلب الأمن خوفاً، والاستقامة انحرافاً والرخاء فقراً. ومتى أصيبت الأمة بأمر جلل وجب عليها التفتيش في علاقتها مع بارئها أولاً. وتحصين حدود الأرض لا يكون إلا بعد تحصين حدود الله، فإذا كانت على مراد الله، وجب عليها أن تنظر في علاقاتها مع نفسها ومع غيرها.

لقد تعرضت الأمة العربية في تاريخها الحديث لمتغيرات سياسية وفكرية، كشفت عن رداءة في التصورات وأخطاء في الإجراءات. وليس أضر على الأمة من سيادة الخطابات الطارئة: خطابات (الثوريين) في مجال السياسة، وخطابات (الحداثويين) في مجال الفكر والأدب، وخطابات (المداهنين) و(المتعلمنين) و(الراديكاليين) و(الليبراليين) في مختلف المجالات، وخطابات (الإسلامويين) المتطرفين. والخطابات المتلاطمة في مشاهد الأمة مدانة بالوثائق والمصائر. فهل حال الأمة تسر، بحيث نتخذ من هذه الخطابات قدوة، لاستكمال المسيرة؟ مع أنها تعد الخطابات السائدة؟

إن مواجهة السوائد والمسلمات الخاطئة بالخطابات المتشنجة المخوّنة المحرضة لا تختلف عن خطابات التزكية والتصنيم والتكريس والتبرير، وليست السكونية الاستسلامية بأحسن حالاً من المغامرة غير المحسوبة، وما أضر بالأمة إلا المغامرون الذين يصرون على القفز، مع إمكان المعالجة المرحلية، وإلا السكونيون الذين يبطئون، ويفوتون الفرص.

ف (الثوريون) اختلقوا الاختلاف مع السلطات الشرعية، وحين أسقطوها تحولوا إلى وحوش ضارية، وتحولت لغة الحوار عندهم إلى لغة السلاح، فكان أن أثخنوا في أوطانهم، وحولوها إلى زنزانات خانقة ومقابر جماعية، و(الحداثويون) اختلفوا مع ثوابت الحضارة، وحين همشوها، تحولوا إلى هدامين ودعاة سوء في الأفكار والأخلاق، (والتنويريون) اختلفوا مع الماضويين، وحين تهيأت لهم الأسباب طافوا بقومهم على سقط

الحضارات، و(الإسلامويون) الذين اتخذوا الإسلام غطاء لأطماعهم، جعلوا العنف سبيلاً لتحقيق مآربهم، فكان أن أتاحوا الفرصة لأعداء الإسلام لجعله مصدراً للإرهاب. وحين ننقم على نوابت السوء، لا نزكي مناقضها، ولا ندعو إلى رفض الإصلاح والتجديد، وإنما نود أن يكون المصلح والمجدد عوناً للأمة على تجاوز المنعطفات الخطيرة، بحيث يتخول المصلحون والمجددون الرأفة والرحمة والحلم والأناة والرد إلى مصادر الحضارة ومنجزات علماء الأمة المشهود لهم بالعلم والصلاح والصدق والأمانة.

ومن تصور أن ما نقول من باب التهويل أو التخذيل فلينظر إلى ظواهر الحياة ومصائر الأحوال، ثم ليكن حكماً عدلاً، يزن الأمور، ويربط الشاهد بالغائب، وإذ نقطع بحتمية الاختلاف وضرورة الإصلاح، ولا نجد أي مبرر لإبقاء الأمور على ما هي عليه فإننا نود أن ننظر في الآليات والمناهج والإمكانيات والأرضيات والأوضاع وأحوال الأمم المؤثرة في مصائر العالم، وأن نسبق ذلك كله بالإعداد الحسي والتهيئة النفسية والأخلاقية، فالذين فتحوا عيونهم على أوضاع ونشِّئوا عليها، لا يمكن قسرهم وتحويلهم بين عشية وضحاها، فالسوائد والمسلمات أقوى من الطوارىء، ولنا في قصص الأنبياء أسوة ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ فعقدة (الأبوية) ماضية في الأمم، ولا يقدر على تحولها إلا العقلاء الذين يقدمون بين يدي ممارساتهم ما يطمئن الذين اعتادوا على أوضاع يظنون أنها الأفضل. ومن عايش أوضاع من حوله، واكتوى بمصائرها، تمنى الإبقاء على المفضول خوفاً من ذهاب الفاضل والمفضول معاً.

تكاثر المسؤوليات أم طوفان الغثائيات .. ؟[(١)]

لكل زمان ظواهره وطرائق أهله، كان (الشعر) سيد المواقف، ولسان السلطة ثم سيئت مشاهده، حين جاء الإعلام بكل تنوعاته والسرديات بكل أنواعها، حتى قيل ب(السلطة الرابعة)، و(زمن الرواية)، فيما قيل من قبل: (الشعر ديوان العرب) الأمر الذي قفز بأرباب الكلمة الصحفية من الهواية إلى الاحتراف، ومن الهامش إلى المتن، وما أن فاق الطلب العرض، رعي الهشيم، وسبح البغاث في مجالي النسور.

والنخبويون أو المتنخوبون الذين يلتزمون بالكتابة الدورية المنتظمة في الصحف والمجلات، أو يقدمون البرامج الإذاعية أو التلفازية في الأسبوع مرة أو مرتين، لايجدون بداً من أن يقولوا أو يكتبوا: طوعاً أو كرهاً. وقد تصاب آليات بعضهم بالتعثر، أو يصبح ماء معارفهم غوراً، لأي سبب، فيضطرون إلى الاجترار الممل، والتكرار المخل. والمتلقي الذي اعتاد على الجاهزية، لايفكر بما يعانيه الكاتب الجاد الذي ضُرب له موعد، وأفرغت له صفحة أو بعض صفحة، ليطلع من خلالها على قرائه طلوع البهجة أو طلوع المنون، في موعده الذي لايتقدم عنه ساعة ولايتأخر. والمعاناة تتضاعف حين يعيش الكاتب تحت رقابات متعددة: مجتمعية أو سياسية أو دينية أو نسقية ثقافية. فالمجتمع بكل ما يعج به من مؤسسات منظورة: شرعية أو تطوعية، أو غير منظورة، يكاد يكره الكاتب أو المتحدث على لزوم ما لايلزم. وبعض فِئام من الناس صنعت ذهنياتها على غير هدى ولا كتاب منير، مما يجعل رقابة بعضها تسلطات متعنتة، تحمل على كتم الحق مخافة الأذية.

وإذ يكون الكاتب في عيون المتابعين في مستوى معين: موضوعياً، وموقفياً، ومعرفياً، يكون عليه ألا يفقد درجة من هذا المستوى. والمحافظة على المكتسب أضعف الإيمان. وكان على المتلقي أن يتصور نفسه، وقد أصيب بوعكة صحية، أو امتلأ وقته بمناسبة فرح أو ترح، أو مر بظروف يكثر فيها اللغط، وتستحكم فيها الخلطة الملهية عن كل مكرمة، أو تتضاعف فيها المجاملات والمداراة، ثم لم يشعر إلا بهاتف المسؤول، يستعجله المقال لقرب موعده. وكيف يتمكن الكاتب الذي يحترم مطبوعته وقارئه، وهو واقع تحت طائلة المشاغل، من تجهيز مقاله المناسب في موعده المحدد، وفي مستواه الذي يريد؟ ولاسيما إذا كان في وسط لايحسب للوقت أدنى قيمة، ولايعرف كم يبذل الكتبة الجادون من جهد ووقت وطول قراءة، لكي يتمخضوا عما يرضيهم، ويحفظ مكانتهم عند قرائهم. ومجتمعات الفضول يفاجئك بعض أفرادها في ذروة اشتغالك وانشغالك بزورة غير مشروعة، بحيث لايستأذن في لقاء، ولايتخول فرصة فراغ، ولاتكون الزورة غبّاً، ولاينتشر إذا طعم. وقد يهاتفك في عوراتك الثلاث، فيطيل الحديث، ثم لايقول شيئاً. وكيف لايضيق الجاد بالفضوليين، ورسول الهدى قد أسعفه الذكر الحكيم، حين وجه بالانتشار بعد الفراغ من الطعام، وحين روضه باصطبار نفسه مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي. وما طردهم، ولاتعجل بالانصراف عنهم إلا لمهمات دعوية، حتى لقد عبس وتولى حين داهمه (ابن أم مكتوم) وهو يستدرج صناديد قريش للإسلام. وقليل من الناس من يعرف أدب المجالس ويتخلق به. والموزَّعُ المسؤوليات يود لو فرغ لنفسه ولأهله الذين لهم عليه حقوق كثيرة، لم يف بأقلها تحت وابل المساءلات، والمسؤوليات، وطوفان الفضول. ومع أن مجالسة الرجال لاتمل، إلا أن خير جليس في الزمان كتاب، وخلوة التأمل والاسترخاء المستجم خير من شد الأعصاب ولو بحضرة الأحباب.

---

(١) تاريخ المقال: ٢٣/ ٣/ ٢٠٠٤

وسمني ما شئت: سميناً أو ذا ورم، نخبوياً أو متنخوباً، فلقد بقيت ذات (عيد) طوال أيامه الحوافل، أستقبل وأودع، وبقي من حولي في جيئة وذهاب، لإحضار وجبة، أو لرفع أخرى. وفي أعقابه تفرقت بأولادي الأودية والشعاب في رحلات خلوية، وظلت الجريدة تطحن كتابها، فهي على موعد مع قرائها في مطلع كل يوم، وهي الأحرص على إمتاعهم واستمالتهم وإقناعهم، ولايتأتى لها شيء من ذلك، حتى تحلب المفكرين والساسة والأدباء أشطرهم، وتقدمه قولاً ممتعاً ومفيداً للقارئين. وهي كما كتابها في عناء وشقاء، فعن يمينها وشمالها من يباريها، كما الخيل تباري الأعنة في لزز التنافس. وكيف لها أن تنام بمقلتيها، ومن حولها عجلان ينتهب الخطى؟. وكم شكوت إلى ذي مروءة ما أعانيه، ولكن (كلنا في الهم شرق)، ومهما عدونا فإننا لن نسبق ظلنا.

وما أن لملم العيد ما عاد به علينا من أحبة، وما تأبطه من عوارض، إن أمطرت، فستمطر كسفاً من السماء، وما أن تداعى الكافة على مدنهم وقراهم للعمل أو للدراسة أو لانتظار ما لا يأتي، خوى البيت على عروشه، وخلا من زائريه، وقامت السكينة مقام الضجة، يومها أحسست أنَّ من حق نفسي عليَّ أن أُروح عنها، فهي تمل وتكل، مثلما تمل الأجسام. ومع أن هم الأعمال المؤجلة يعكر صفو السياحة، إلا أنني مصر على الترويح واللهو البريء، وكيف لا، والرسول -ﷺ- يقول عن الأنصار: «**يعجبهم اللهو**»، وهو قد أخذ بيد عائشة يوم العيد لتنظر معه إلى (الأحباش) وهم (يزفنون) في المسجد. وهو بأبي وأمي، قد اضطجع مستدبراً جويريات -لسن بالمغنيات- يضربن الدف في بيت الصغيرة المدللة، الأمر الذي تمعر معه وجه أبي بكر، وصاح بهن: -أمزمار الشيطان في بيت رسول الله، مما حمل رسول الهدى على نهيه عن نهرهن، معللاً ذلك بأن اليوم يوم عيد، وكأني بمزمار الشيطان يباح في يوم العيد، فلو لم يكن الغناء من مزامير الشيطان لما أقر الرسول -ﷺ- قول أبي بكر، والفقهاء بارعون في التأصيل الشرعي واستنباط الأحكام ومع كل ذلك فأنا أعرف حدود ما أنزل الله في أمر اللهو المباح والمحظور، ولست ممن يسعى لشرعنة الفسق والفجور الذي تفيض به المشاهد كافة، ولست مع الذين يميلون كل الميل إلى سد الذرائع، وتحريم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، تاركين الحقوق المشروعة كالمعلقة. فـ(المتصوفة) أو طائفة منهم، جعلوا الغناء جزءاً من العبادة، فيما توسع (الظاهريون) في إباحته، وكرد فعل لهؤلاء وأولئك جاءت طائفة من الورعين فحرمته على الإطلاق، ولم تستثنِ، وضرب العامة بكل هذه الأقاويل عُرْض الحائط، وشرعنوا لأنفسهم ما يريدون، وبين هذا وذاك ضاع الحق الصراح.

ولما لم أكن حفياً بهذا الخلط العجيب، توخيت الوسطية في كل شيء، مبتغياً بين ذلك سبيلاً، وأعني بالوسطية (العدل) و(الاستقامة)، والفضيلة وسط بين رذيلتين، ومع ذلك فـ(لا اجتهاد مع النص القطعي الدلالة والثبوت)، وليست الوسطية ما يتداوله العامة، إنها صفة عموم وليست خصوصية حدث. ولكي أنال قسطي من الراحة، تركت المسؤوليات خلف ظهري، وأتحت للتنائف أن تتهاداني مع رفقة لاتقل مشاغلها عن مشاغلي، ولكنها أصرت على استدبار الجد واستقبال الفراغ. وانطلقنا ترفعُنا النجاد، وتحطنا الوهاد، نقضي كل لباناتنا بأنفسنا، لانرقب زوجة ولا خادمة ولا ابناً باراً. نعجن ونخبز، ونحتطب، ونسقي لأنفسنا ولا يسقي لنا أحد، ننام في العراء، ونستضيء باللهب، ونصطلي على فاكهة الشتاء (ومن يرد أكل الفواكه شاتياً فليصطلي)، ونحسو قراح الماء، والماء بارد. ونحقق سكن الليل ومعاش النهار، وإذ بورك لأمة محمد في بكورها، فإن الناس في بيوتهم وأسواقهم ومدارسهم ومكاتبهم، يَدَعُون ذلك لسوارح الكلاب وأسراب الطيور. ولما كانت أرض الله آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان، في زمن الفتن

العمياء، فقد ذرعنا فضاء الله، كما لو كنا موكلين به، ومن كتبت عليه أكيال مشاها، وحين تقضت لبانات كثيرة:

أخــذنا بـــأطراف الأحاديـــث بيننـــا

وســـالت بأعنـــاق المطـــي الأبـــاطح

وتمنيت لو كان بالإمكان ذرع فجاج الأرض على صهوات الجياد أو على ظهور الإبل. وبعد أيام مرت كلمح بالبصر، عدت متلكئاً، فالأعمال لاتنجز نفسها، ولكنها تترصد، وتتربص، حتى إذا عاد إليها الشجي تكاثرت من حوله كما:

تكـــاثرت الضـــباء علـــى خـــراش

فمـــا يـــدري خـــراش مايصـــيد

وقلت في نفسي: إنها راحة ساعة، وشقاء دهر، وعند الصباح يضرب النائمون كفاً بكف. والاتكاليون من ينعمون بما أترفوا فيه، والمنبتُّون من لايروحون عن قلوبهم. وبين المترف والمنبت ضاعت مثمنات كثيرة.

وكيف يتأتى لمثلي حفظ التوازن، ثم لاتتكدس الأعمال والمطبوعات من حوله بشكل لاقبل له باحتماله. لقد كنت حفياً باستعراض المطبوعات اليومية والأسبوعية والشهرية وما يُهدى من كتب: إبداعية أو نقدية أو تحقيقية، ولما أن عدت إليها وجدتها كورق الخريف تغشى مسارح النظر. ولك ان تتصور إنساناً تمر به كل يوم عشرات المطبوعات، بحيث لايجد بداً من استعراضها والتقاط ما ينقصه أو يلائمه منها، ثم غاب عنها أسبوعاً أو أكثر، وعاد، وكان عليه أن يفليها، منقباً عن لذعة أو لسعة أو لدغة أو نادرة هنا أو هناك، أو متابعاً لفيوض الآراء والتعليقات والتحليلات في مختلف القضايا والمعارف والأحداث، ولاسيما في زمن رديء، تداعت فيه الأمم على مثمنات الحضارة، وأعانها عليها متأمركون أو متفرنسون، يقعدون مع المتسهزئين والخالفين.

وفوق ذلك فإن النقاد لايغفل بعضهم عن بعض، فهم أبداً في عراك مستحر، فمشاهدهم لاتعمر إلا بالفرضيات وافتعال الخلافات، ولهذا يتعمدون الإثارة، مثلما يفعل شعراء النقائض، بإغراء واستدراج من الخلفاء الذين يودون تلهية الناس بالهجاء وتسليتهم بالمذكرين والقصاص. والصحف اليوم تفعل فعل الخلفاء من قبل، ولكل زمان وسائله وآلياته ورجاله، ودعك من استطلاعات الرأي التي يبدهك بها خلي عن أتفه الأشياء، ومن إجراء المقابلات المكرورة المملة، ومن أخذ الانطباعات والتصريحات عن كل مناسبة، فهي تتتابك عبر كل وسائل الاتصال المتاحة، ومن وراء ذلك كتب يفتري أصحابها الكذب لتسليعها، حتى إذ امتلأت جيوبهم من لعاعات الدنيا، وتلطخت سمعتهم من التكذيب والتجهيل بادروا المشهد بلعبة صبيانية أخرى. والمتابعون لفيوض القول في شر مستطير، فهم بين منشَّيِن في الحلية، ومستفزين في الآراء، وخليين من كل معرفة، أغرموا بدس الأنوف في كل شيء، يتحدث أحدهم عن الدين والسياسة والاقتصاد وكل الظواهر والمبادئ والقضايا، ويحضر المناسبات بزي عربي، يحاول به أن يخرق الأرض أو يبلغ الجبال طولاً، يكتب مع الكاتبين، ويخوض مع الخائضين، فيما يهم، ومالا يهم، وما يتصوره ومالا يتصوره، يكتب القصة والرواية والقصيدة: مغالبة أو استكراهاً، ويخط بيمينه النقد بشقيه: التنظيري والتطبيقي، وينشئ المشاريع، ويشرعن للتفاهات، ويقايض ويقارض، يمدح ليمدح، ويشهد ليشهد له، ويعين ليعان، ويعطي ليأخذ، وكأنه الكل في الكل، وماهو إلا القطمير أو الهباء المنثور.

ولو تجاوزت المشاهد المعهودة، وتسلقت محاريب (الانترنت) لرأيت العجب العجاب، فبعض أصحاب المواقع كالقرد المقَّفص في حديقة، يمر به الفارغون الذين يتفننون في إثارته، حتى تخور قواه، ويلوذ بالصمت. لقد جاءني بالأوراق المسحوبة من المواقع من لم أزود، فقرأت فيها المضحكات المبكيات، فالمتوقع يسأل عن كل شيء، ثم لايتحرج من الإجابة عن كل شيء، ومع الضربات الموجعة تراه متشامخاً متورماً، يغرس يده في تراب أبجدياته السرابية، يحثوه يمنة ويسرة، وكأنه يملك عصى موسى، وطب عيسى، وبلاغة محمد. لقد كدت أتسلل خجلاً مما أرى، ومما أسمع، فكل متورم يرى أنه ابن بجدة العلوم والمعارف وحذامها. وإذا كان الغرب ينتج الآلة للاستفادة والإفادة فإننا نستهلكها للعبث والإثارة، وبئست المهنة، وبئس الممتهن. والرحلات الخلوية التي يستجم بها المثقلون بالأعمال لم تعد قادرة على استعادة الراحة، فالإشكالية لم تكن من تكاثر المسؤوليات، ولكنها من طوفان الغثائيات. ولا أحسبنا قادرين على الرشد في زمن لاتسمع فيه إلا الجهر بالسوء، من ظلم، وممن بطش بالأبرياء العزل بطش الجبارين، وكل ألدٍّ في الخصام على ثغر إعلامي، يتجشأ من فراغ، وقد امتلأتْ نفسُه حقداً وضغينةً على مَنْ آتاه الله من فضله.

لعبة الموت بين: (شارون) و(ياسين) .. ! [1]

أن تموت بلا ثمن، فتلك خسارة فادحة، وأن لا يُحسن الخلف استثمار الثمن فذلك تفريط مدان. وكل الأبطال يختارون الشهادة، و(ابن الوليد) مات على الفراش حتف أنفه.

وحين يكون الموت واحداً، والأسباب متعددة، فإن المحظوظين يودون أفضل الأسباب. و(أحمد ياسين) رحمه الله شيخ كبير مقعد، لم تعد الحياة تساوي عنده جناح بعوضة، وليس بمستبعد ان يقضي نحبه بين ساعة واخرى. لقد وهن عظمه، واشتعل شيبه، وانشلت حركته، والتاث لسانه، فهو مقبل على الآخرة، ولو مات بأي عارض غير الاستشهاد لكان رحيله بلا ثمن لمن خلفه من الصامدين، ولكن الله تفضل عليه وعلينا بهذه النهاية الثمينة، فله منا الدعاء المضاعف على جهاده واستشهاده. والغدر به حمَّل رفاق دربه دمه، وهو حمل ثقيل، ومتى أضاعه قومه مات بموته خلق كثير، وضاعت بضياع دمه حقوق أكثر.

لقد جاء استشهاده بيد وغد من أوغاد اليهود، فسق عن أمر سيدته وصانعة جبروته، ولما يزل يقول شططاً، ويفعل فحشاً. وحين طُعن (عمر بن الخطاب) رضي الله عنه، وهو قائم يصلي في المحراب، كان سؤاله عن القاتل، مخافة ان يكون من صحابة رسول الله ﷺ، ولما علم بأن القاتل غلام المغيرة بن شعبة، حمد الله.

وإذا كان (شارون) يريد بقتله للشيخ المعوَّق -وهو خارج من المسجد- التخلص من شخصه، فقد حقق ما يريد. أما إذا كان يريد أن يقمع إرادة الشعب الفلسطيني، ويجهض مواقف الشعوب العربية والإسلامية فإنها حية لا تموت، ولن تنقلب على أعقابها بعد قتله. و(شارون) منذ أن دخل (المسجد الأقصى) إلى أن استخدم أفتك الأسلحة يمارس التصعيد، ظناً منه أن إذلال الإنسان العربي يوهن العزم، ويحسم القضية. وإذا كان الصهاينة والمتصهينون على شاكلته في الاقتحام والمحاصرة والتصفية والهدم، فإن العاقبة للإنسان الفلسطيني، لأنه مظلوم، والله أقسم على نصره ولو بعد حين. واغتيال الشهيد حين يُحسب بعوائده الإيجابية يصير كما العملية الفدائية، وإن خطط له في (الكنيست). وكم من متجبر متكبر فكر وقدر، ثم قتل كيف قدر. و(شارون) فعل ما كان قد فعله (فرعون)، حين اتخذ موسى، ليكون له عدواً وحزنا. و(شارون) يريد ان ينتفع من قتل (أحمد ياسين)، ولكنه أذكى الحماس، ووحد الصفوف، وعمق الكره، وخيب الآمال، وأحرج الأصدقاء والداعمين والمهرولين، وشرعن لمزيد من العمليات الفدائية. ولو كان ذكياً استذكر ما ترتب على اغتيال (عباس الموسوي) و(يحيى عياش) إذ جاء بعد (عباس) (نصرالله) الأشد، وأسقط اغتيال (العياش) (بيريز) بعد اغتيال ستين صهيونياً.

و(شارون) بجريمته يزج بالمنطقة في أتون الفتن، مثلما جرَّت (لوبياته) دول التحالف ليرموا بفلذات أكبادهم في الصحاري والكهوف والمغارات. وهو بفعلته النكراء يدفع بشعبه إلى حمامات الدم، ويعرضهم للقتل والخوف والإذلال، وما أغباه حين أغراه الوضع العربي المنهك بمزيد من العمليات الإرهابية. وإذا كان قادة العالم العربي في وضع لا يقدر أحدهم معه أن يتجاوز كلمة الشجب، فإن إرادة الشعوب العربية لا تقهر، والشعب الفلسطيني يستمد طاقته من إرادة الشعوب العربية والإسلامية. ومتى استبطن الإنسان العربي الريبة والكره للمحتل والداعم فإن حياة المحتل في خطر، وسوف يقضي أيامه وراء ترسانته، وبئست حياة لا تحميها إلا الترسانات أو الجدار العنصري، وكلما رفع الصهاينة درجة الاستعداد والتخندق، كان ذلك على حساب التنمية والاستقرار.

---

(١) تاريخ المقال: ٣٠/ ٣/ ٢٠٠٤

وإذا كان المحتل الصهيوني يراهن على (الفيتو الأمريكي) و(الإف١٥) و(الأباتشي) فعليه أن ينظر إلى من هو فوق الخلق يدبر الكون، ويعد بنصر المظلوم، ولو بعد حين. ومن ركن إلى الله فليقبل قضاءه وليفر إليه، وليتعرض لوعده بشرطه ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾. وعلى الشعوب العربية أن تستوعب الحدث وان تستثمره، وأن لا تدعه يمر بدون ثمن، ولكي تستعيد الأمة عافيتها ووضعها الطبيعي، لا بد لها من تجاوز الجزئيات إلى الكليات، وتفادي بؤر التوتر المفتعلة، ولن يتحقق شيء من ذلك إلا بتوحيد الجبهة الداخلية، واجتياز الظروف العصيبة بقوة المؤمن وثقة المحق.

لقد حمدت الله حمداً كثيراً على هذه النهاية السعيدة للمجاهد (أحمد ياسين)، بل هي نهاية سعيدة له وللأمة العربية والإسلامية. إنه في حالة حرب مع المغتصب، والصهاينة لن يقدموا له باقة من الورود، ولكنهم لو كانوا يفقهون لتركوه يرقب أجله القريب، غير أن غباءهم جعله بطلاً: حياً وميتاً، وتلك خسارة فادحة لهم. لقد ضج العالم بالاستياء والاستنكار والإدانة، وتوعدت الفصائل بالانتقام، مما حدا بأمريكا إلى القول: لم يكن لنا دور ولا علم، وذلك مؤشر خوف، وحين لم تشجب فلأنها أسيرة (اللوبيات). وموقف كهذا في غاية الضعف والوهن، فهي من جانب تحاول النجاة بنفسها من الرد العنيف، وذلك بنفيها العلم أو الإسهام، وهي من جانب آخر لا تقدر على اتخاذ موقف جريء يدل على استقلالية قراراتها. لقد تبين أنها محكومة بالخوف من المقاومة، ومسلوبة الإرادة الحرة من جماعات الضغط الصهيوني. وكيف لها ان تنهض بمهمات (القطب الواحد) وهي خائفة عاجزة: خائفة من ردود الفعل، وعاجزة عن الاستبداد بالرأي؟ ؟.

لقد رأيت وسمعت المنتحبين المتفجعين، ولم أكن لأحزن معهم، فالشهيد لن يدفع أجله، ولو مات على فراشه لمات ميتة مجانية، أما وقد كان لحياته ثمن، ولموته ثمن، فإن ذلك غاية ما يمكن ان يتطلع إليه مثله. لقد خدم أمته حيا وميتاً، وسيظل حدث وفاته وقودا لنفوس ظمأى للكفاح المسلح.

ومن غباء (شارون) أنه تعجل في استثمار الانكسار العربي، شأنه شأن كل متسرع في استثمار النتائج قبل نضوجها، ولأنه الغريق في وحل الجرائم فإنه لم يعبأ بما يضيفه إلى سجله الدموي من جرائم، لا يحتملها الضمير المتوحش، وكيف لا يخجل من مواجهة شيخ مشلول محمول بثلاثة صواريخ، تكفي لمواجهة كتيبة مدججة بالسلاح؟! وهو بسلسلة جرائمه المستقذرة من كل شرفاء العالم يصعد الأزمات، ويدفع بالمنطقة إلى دوامة العنف والإرهاب الذي سيكون له ولقومه النصيب الأوفر منها. وإذا كان العرب قد جنحوا للسلم، وتلاحقت مبادراتهم التنازلية، فإن لكل شيء نهاية، ولا أحسب الشعوب العربية ستلحق بقادتها في طريق التنازلات. وحين لا يكون من الموت بد، فمن العار أن يموت الانسان العربي ميتة مجانية، لا قيمة لها. وما عمليات الانتحار إلا إنهاء لحياة فقدت مشروعيتها. ولما يزل بإمكان (أمريكا) ومن معها توفير أدنى حد من الحياة السوية للإنسانية المعذبة في كثير من بقاع العالم، وبهذا تتفادى ما تحسبه ارهاباً. لقد أنفقت (المليارات) وأزهقت أرواح الآلاف من شبابها في سبيل مطاردة الإرهابيين، وما زادتهم إلا عتواً ونفوراً. وليس من شك أن الإنسان -أي إنسان- حين يقف أمام خيار الموت بلا ثمن أو بثمن فإنه سيفضل الموت بثمن. وما الإقدام على العمليات الانتحارية إلا من أجل الخلوص من مأزق الإذلال والامتهان والقتل العشوائي، وعلى (أمريكا) أن تتخذ طريق العدل والمساواة، وأن تعدل عن التدخل في خصوصيات الشعوب، فذلك الطريق القاصد لتجفيف منابع الإرهاب.

وعلى الذين اختاروا مواجهة الإرهاب بالسلاح الفتاك ان يأخذوا على يد سفهائهم، إذ ليست هناك سفاهة تضاهي سفاهة (شارون) وعصابته، فالحروب المعلنة لها أعرافها، بحيث لا تطول الزعماء، وحين لا يسلم (شارون) لهذه الأعراف تتفجر الأوضاع بشكل همجي من كل الأطراف. ولربما أنه فعل فعلته تلك لكسر شوكة الحركة أو لتفويت نشوة الانسحاب من (غزة) أو لبدء عمليات تصفوية شاملة، واسرائيل الأخسر بكل المقاييس. لقد اختار (شارون) المواجهة على المحاورة، والسلاح على السلام، وغره في ذلك ما أمده به الناس من حبال قد توردِه موارد الهلكة، وعلى الدول الكبرى التي تلوح للأبرياء بطعم الإصلاح و(الديمقراطية) أن تخلي بين القادة وشعوبها، وألا تستخدم أرضهم للعب الكونية والتجارب العسكرية، وأن تحجز سفيهها الذي أحرجها مع أصدقائها وحلفائها وشركائها في الغنائم.

لقد وجه (شارون) لطمة لكل الأطراف، وجاءت جريمته لتجعل القادة العرب ومؤتمرهم القادم أمام تحديات لا أحسبهم بأوضاعهم الداخلية والعربية قادرين على مواجهتها بما يشفي ويكفي، غير أن الخطوة العملية هي أن يعي المؤتمرون قوة اللطمة، وأن يعرفوا أنهم إن لم يردوها بأقسى منها أو بمثلها فإن لطمة أخرى ترقبهم. ومن أمن العقاب أساء الأدب و:

مـــن يهـــن يســـهل الهـــوان عليـــه

مــــا لجـــــرح بميـــــت إيــــــلام

ولـيس هنـاك أسـوأ مـن ممارسـات (شـارون) المعلنـة كمـا الفـواحش، والمكتومـة كمـا النفاق، ولن يثنيه عن تماديه إلا التضحيات من قادة الأمة، متى نجحوا في تلافي الخلاف، ومتـى أصـلحوا بيـنهم ووحـدوا مـوقفهم ورجعـوا إلـى ربهـم، وبـذلك يواجهـون عـدو الله وعدوهم. والشعوب العربية المحتقنة لن تسمح للقادة باتخاذ موقف متخاذل. وأمام هذه الانتهاكات المتلاحقة فإن واجب الأمة العربية وقادتها وإعلامها ان يستثمروا الحدث بأسلوب حضاري، يحاصر اللوبي الصهيوني الذي لما يزل يمارس لعبته القذرة على المؤسسات الأمريكية المهيمنة على العالم. وبوادر النصر في تسلل (الدول الأوروبية) من الهيمنة الأمريكية، ومجال اختراقنا لن يكون عبر المؤسسات الدستورية والتنفيذية الأمريكية الواقعة في شرك الصهيونية واليمين المتطرف، وإنما هو في دول أوروبا التي أحست بأنها تتجرع مرارات التصرف الأمريكي، ورهاننا في الشعب الأمريكي الذي أضلته الامبراطوريات الاعلامية، ومتى أحست أوروبا بأن العرب يثمنون مواقفها، خلعت ربقة التبعية للغطرسة الأمريكية، وليس شرطاً ان نضع كل البيض في سلة القادة الأوروبيين، ولا أن نصعد خلافنا مع أمريكا، كما أنه ليس من المعقول ان يرجع الأوروبيون خفاف العياب، فيما تعود أمريكا بجر الحقائب، إننا بالحكمة والتصرف الحسن نضع الصهيونية العالمية وحلفاءها أمام مسؤولياتهم.

وواجب دول المنطقة، وهي مقبلة على قمة استثنائية بكل ظروفها، أن تترك ملفاتها الإقليمية في بلادها، وأن تدع المزايدات والعنتريات وتجييش العواطف، وأن تفاتح نفسها من (درجة الصفر)، فالوضع العربي لم يعد قادراً على احتمال مزيد من الخطابات الثورية الهوجاء. لقد ضاع العراق، وكان بإمكان المؤسسات السياسية العربية ألا يضيع، ولقد شرعنت التصرفات الرعناء لبعض القادة العرب لأوضاع استسلامية شاذة في المحيط العربي، وكان بإمكان القادة العرب ألا تكون، ولقد قامت حروب أهلية وحدودية في كل أنحاء الوطن العربي، وكان بإمكان القادة العرب ألا تقوم، ولما تزل الأوضاع الأمنية والاقتصادية والعلاقات العربية العربية تزداد سوءا، وكان بإمكان القادرين من

القادة العرب إيقاف هذا التدهور. ومن العيب الكبير أن يكون القادة قادرين على تصحيح الأوضاع ثم لا يفعلون.

إن على قادة العالم العربي، وهم يتنادون إلى مؤتمرهم، أن يفقهوا واقعهم، وأن يفقهوا أولوياتهم، إذ لا سلامة بدون فقه عميق للواقع، ولا عملاً سليماً بدون توفر على فقه الأولويات. ففقه الواقع يقي من المثاليات والمغامرات، وفقه الأولويات يحمي من الاشتغال في الثانويات. وحين لا يكون بمقدور الأمة العربية مواجهة اسرائيل عسكرياً، فإن في مقدورها التخطيط الدقيق لمواجهة اقتصادية وسياسية واعلامية وقانونية، فالمقاطعة والمحاصرة والتصدي والصمود والمرافعة القانونية مع وحدة الصف والهدف، وتصفية الخلافات، والانطلاق إلى المحافل الدولية بخطاب واحد معقول ومقبول، ستضع الكيان الصهيوني على نار هادئة. وعلى الاعلام العربي ان يتخلى عن النحيب والتفجع، وأن يدع الخطابات الرعناء والمثاليات الجوفاء والعنتريات الهوجاء والهجاء الفاحش، فما عاد من الخير أن يكون نصرنا بكاء، ومساعداتنا شتائم. والوضع المتردي يتطلب تضميد الجراح، ورأب الصدع، ورفع المعنويات. ومن خلف مجاهداً في أهله كان له مثل أجره، والشعب الفلسطيني المحاصر اقتصادياً والمخوف أمنياً بحاجة إلى ايصال المساعدات (اللوجستية) إلى مدنه وقراه ومخيماته، لكي يقدر على الصمود والصبر والمصابرة. وليس هناك ما يمنع من إشباع الجوعى، وستر العراة، وعلاج الجرحى، وفك الاختناقات عن طريق المنظمات الإنسانية.

ومتى استطاع الشعب الفلسطيني الفراغ من مشاكله الداخلية تفرغ للمواجهة وحسم المواقف لصالحه، ولن يتحقق ذلك إلا باستغنائه، وبتلاحم جبهته الداخلية، وبالتنسيق بين منظماته وجبهاته، وذلك وحده الذي يمكنه من إرهاق العدو: تصدياً وتحصناً. وتلك كانت رؤية الملك (عبد العزيز) رحمه الله، منذ أن أعلن الاستعمار البغيض عن قيام دولة صهيونية. وإذا عرف الجميع أن القوى الفاعلة في المحيط العربي لا تريد للمنطقة الاستقرار والفراغ لمشاكلها الداخلية، فلا أقل من أن يلتف القادة حول أنفسهم، ليخرجوا بحل معقول، يبقي على أدنى حد من العيش الكريم.

إن إقدام الصهاينة على اغتيال قيادي مسلم معتدل في خطابه، وتخاذل الدول الكبرى في مواجهة الانتهاكات، دليل على أن القوى الظالمة لا تريد لهذه المنطقة ان تأخذ وضعها الطبيعي. وحين أذعن الجميع لأمريكا في خططها التصفوية للإرهاب، فليس من المعقول ان يقبل شرفاء العالم مواطأتها للصهاينة، وإطلاق أيديهم لتصفية الشعب الفلسطيني. وفي النهاية فإن الإرهاب لا يصنعه إلا الظلمة المعتدون:

واحتمال الأذى ورؤية جانيه
غذاء تضوى به الأجسام

ولن يقبل العقلاء دعاوى الأعداء المغتصبين للحقوق، المنتهكين للحريات إلا مكرهين:

ومن نكد الدنيا على الحرّ أن يرى
عدوا له ما من صداقته بدُّ

ومع كل الترديات فإن المتفائلين لن يفقدوا الأمل، ولن يظنوا بالله الظنون، ونصر الله آتٍ ﴿أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيب﴾.

إلى جنة الخلد يا عبد السلام .. !(١)

كنت أسمع عن الشاب التقي النقي عبد السلام البرجس، ولما أره، ولما رأيته زدت محبة له وإعجاباً به، لم ألقه إلا مرتين، كانت الأولى في اللقاء الثاني للحوار الوطني في مكة المكرمة، وكانت الثانية في لجنة المشورة في المهرجان الوطني، ولقد عرفت فيه حسن الخلق وبشاشة الوجه والاقبال على الكافة بروح عالية وخلق جميل، ولقد أسهم في اللقاءين بوعي ووسطية وحرصٍ على مصلحة الأمة.

وكنت على موعد معه لاستضافته في المنطقة لالقاء محاضرة وفوجئت بخبر وفاته -رحمه الله- بعد عودته من المنطقة الشرقية مسهماً في الدعوة والارشاد، وفقد شاب مثله في علمه وخلقه يعد خسارة فادحة نسأل الله له المغفرة والمثوبة ولذويه الصبر والسلوان، لقد كان رحمه الله حريصاً على التواصل يتحرك بين المؤتمرين كالنحلة، يصحح مفهوماً أو يضيف معلومة، وكانت مداخلاته -رحمه الله- في غاية الهدوء والتهذيب، ولم تمر جلسة من جلسات الحوار إلا وكانت له اضافة يوافقه من يوافقه ويخالفه من يخالفه، وما كان في يوم من الأيام متعصباً لرأي ولا مستبداً بموقف.

وكانت رؤاه التي يطرحها تتسم بالوسطية والواقعية والمعقولية وكلما استشف امتعاضاً من أحد تصيَّده في ردهات الفندق أو على طاولات المطعم وجادله بالحسنى، وكان مجلسه لا يمل، ولقد أسفت كثيراً على تأخر اتصالي به ورحيله قبل الاستفادة من معارفه.

وكم اتمنى من زملائه ومخالطيه تجميع تراثه من محاضرات وندوات ولقاءات وكتب وتجهيزها للطباعة لكيلا تضيع بوفاته.

نسأل الله ان يجعله مع الصديقين والشهداء والصالحين وان يخلف عليه شبابه وأن يجبر مصاب أهله ومعارفه واصدقائه.

---

(١) تاريخ المقال: ٥/ ٤/ ٢٠٠٤

بغداد يا قلعة الصمود .. !(١)

يبدو لي أنه لم يعد بمقدور المتبلدين إحساساً احتمال ما يرونه من مناظر مفجعة، وما يستمعون إليه من أخبار مزعجة، تجتاح مشاعرهم في الغدو والآصال عن عذابات (بغداد الرشيد)، بكل ما تنطوي عليه من طارف وتليد. ولا أحسب رجلاً فيه ذرة من إنسانية لا يتمعر وجهه مما يعانيه الإنسان العربي المسلم في بلاد الرافدين، مرقد الحضارات الشرقية والإسلامية، إلا إذا كان ك(المتنبي) في تساؤله المتألم:

أصخرة أنا ما لي لا تحركني
تلك المدام ولا هذي الأغاريد؟

وليس على أرض العروبة إلا العلقم والفحيح والويل والثبور، وما أكثر الذين لا تحركهم تأوهات المتعذبين، ولا يعتصر قلوبهم أنين المدنفين، ولقد أطلقها (حكيم المعرة):

غير مجدٍ في ملَّتي واعتقادي
نوح باك ولا ترنم شادي

وبئست حضارة لا ترحم ولا تلين، ولا تقتضي نصوصها العدل والإنصاف والرأفة والحرية، وبئست أمة تقول آمنَّا، وهي لم تُسْلِم فضلاً عن الإيمان، والدين المعاملة والحب المتبادل والاهتمام بأمر المسلمين.

ومن ذا الذي لا يمضه الألم، ولا تذهب نفسه حسرات على ما يعانيه شعب عربي، مسه الضر، وأضنته المصائب، وتجرع مرارات الذل وعذابات الفقر ومنغصات الخوف، على امتداد الحكومات الثورية، وعلى يد قوات الاحتلال الأجنبي، الذي أحدث فراغاً دستورياً، تململت من تحته الخلايا النائمة، وتمكنت كل الفئات والطوائف والأعراق المكبوتة من أن تتنفس من تحت الماء، ممارسة أعنف المواجهات الدموية لتصفية الثارات واقتسام الغنائم، حتى لقد أصبح الإنسان العراقي شَويَّةً على سفُّود حكم جائر طاوله عشرات السنين، وفراغ دستوري مفزع، ومحتل يحسب كل صيحة عليه. والقارعة أن هذه الأوضاع تشكل خطورة محلية وإقليمية، وتهدد أنظمة وكيانات جُرَّت بالسلاسل إلى أتون الفتنة. فالحكم الثوري المتسلط انتزع الحرية، والمحتل المعتدي انتزع الأمن، فكان هناك أمن الخوف، ثم أعقبه خوف الفوضى.

والشعب العراقي الذي فقد إمكانياته المادية وطاقاته البشرية ومقوماته الحضارية طاولته محن الحروب الشرسة عشرات السنين العجاف التي أكلت البقرات السمان والسنبلات الخضر، حتى لقد ذهبت معها الأنفس والأموال والثمرات، واستفحل الجوع والخوف والمرض، وانتهكت الأعراض، وديست الكرامات، ولمَّا تلح للمتفائلين ولا للمتشائمين بوارق أمل، فكل شيء ينحدر إلى الهاوية، والناس من حوله في ذهول وارتباك وعجز. فالثورات في العراق دموية عنيفة، تعمدت التصفية الجسدية، واستمرأت الحروب الحدودية والطائفية، واختارت القبضة القبلية والحزبية الإكراهية، وتعمدت نسف جسور التواصل مع الأقارب والأباعد.

تحت هذه الظروف الضاغطة حاولتُ الهروب من الواقع المرير إلى الماضي المجيد، أملاً في بلسمة الجراح، فكان أن عدت إلى (مكتبتي)، وعنَّ لي أن أقرأ (بغداد) الحضارة والتاريخ، (بغداد) الأمجاد، (بغداد) الخلفاء والقادة والعلماء والشعراء

---

(١) تاريخ المقال: ٢١/ ١٠/ ٢٠٠٣

والمفكرين، (بغداد) الحضارة الإسلامية والإنسانية. (بغداد) التراث والآثار، (بغداد) المكتبات والمتاحف، (بغداد الرشيد) الذي نظر إلى سحابة لم تمطر، فقال لها: (أمطري أنَّا شئت فإن خراجك عائد إلي)، وأربط بين بغداد الأمس المبهجة وبغداد اليوم المفجعة، وأسأل عمن اقترف هذه الجرائم المتنامية، وأعاد شبح الضياع. لقد تبدت لي في أعماق النفس جراحات (الفردوس المفقود). وما (قرطبة) و(طليطلة) و(غرناطة) من (بغداد) ببعيدة. وما حضارة (الأندلس) بأقل من (حضارة الرافدين) وما الظروف التي عاشتها (دول الطوائف) من تفكك وتنازع وانهزام فكري واستعداء للأعداء وضعف عسكري وديني واقتصادي وعصبية وإقليمية وطائفية وتفلت على الشرعية ببعيدة عما تعيشه دول المنطقة في راهنها الأليم. ولما كانت نقطة الضعف القاصمة في المثقف العربي أنه لا يقرأ الحضارة العربية إلا من خلال التاريخ السياسي، أو من خلال التجريح الاستشراقي، كان لا بد أن ننبه إلى ما أهمله القارئ العربي، ولم يهمله التاريخ، ذلكم هو (التاريخ الإسلامي) ولا سيما في ظل الظروف القائمة، التي تحمِّلُ الإسلام مقترفات المسلمين، وتُوجِّه بالحلول العلمانية، وكم هو الفرق بين تاريخ بغداد السياسي وتاريخه الإسلامي، وإن كنَّا لا نجهل «قرن الشيطان» ومطابخ الفتن وجدل (المغيرة) مع (عمر) و(الحجاج) و(البرامكة) والمحن والإحن والتاريخ الدموي.

ومع كل ذلك كنت أقول: إن هناك تاريخاً للإسلام وتاريخاً للمسلمين، وأن هناك فجوة بين التاريخين، وحضور تاريخ المسلمين يكاد ينفي حضور التاريخ الإسلامي. فالذين يقرؤون التاريخ السياسي وما أفرزه من ممارسات مناقضة لمقتضيات الفكر السياسي الإسلامي ومن صراع على السلطة، وظلم وجور واستبداد واستباق إلى الفتنة يصابون بالإحباط والشك والارتياب، وقد تبلغ بهم الحماقة ذروتها فيحمِّلون الفكر السياسي الإسلامي كل الجرائر، ولا يجدون ملجأ إلا أن يسايروا المعولين على تجارب الغرب العلمانية الشمولية، بحيث لا يفرقون بين محاسبة المبادئ ومراجعة الإجراءات، ذلك أن الفكر السياسي الإسلامي يستوعب محاسن السياسات السابقة منها واللاحقة، ولو أخذ به الساسة المسلمون كما أراده المشرع لكان القدوة لكل نظام سياسي، وقد أنكر الله على من استشرف لحكم الجاهلية ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾.

والذين يتجاوزون أوضار السياسة، ويصلون حبالهم بالتاريخ الحضاري الإسلامي، يشعرون بمرارة الضياع. وقد تنبه البعض لهذه الحلقة المفقودة، وحاول أن يكتب فيها بعض ما يجب، نجد ذلك عند المؤرخ للعقلية العربية (أحمد أمين) في سلسلته الحضارية (فجر الإسلام) و(ضحى الإسلام) و(ظهر الإسلام) وهي دراسة حضارية لها وعليها، وميزتها أنها ارتبطت بالإجراء، ولم ترتبط بالنظرية، وانطلقت من التاريخ، ولم تنطلق من المساءلة والنقد، كما فعل (الجابري) في مشروعه الأكثر حضوراً وإثارة عن (نقد العقل العربي). ودراسة (أمين) حاولت أن تعيد قراءة التاريخ الحضاري بعيون العقلية الاعتزالية. وأكاد أجزم بأن أهم مرجعية لتأريخ الإسلام إنما هو: (تاريخ بغداد) و(تاريخ دمشق) و(سير أعلام النبلاء) وسائر كتب الطبقات والمناقب، ذلك أنها ترصد تاريخ صناع الحضارة والعلم، فيما يرصد التاريخ السياسي الحوادث المؤلمة والحروب الطاحنة والصراع على السلطة، وبين التاريخين يأتي (تاريخ التمدن الإسلامي) الذي أراد له المغرضون الحاقدون أن ينطلق من القصور وما فيها من الغلمان والجواري، ومن الحانات وما فيها من القاذورات، فعل ذلك (جرجي زيدان). وإذ غفل التاريخ السياسي عن المعطيات الحضارية، فقد غفل المؤرخون للتمدن الإسلامي عن المدنيات وزينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، وهكذا ضاعت الأمجاد بين الرغبات والشهوات.

وكنت كلما عشت حالة من الكآبة واليأس والإحباط عدت إلى تاريخ الرجال، أجيل النظر فيما تركوه من حضارة فرطنا فيها، وتمثلها سراق الحضارات، وما فرطوا في شيء مما هو مناسب لمادياتهم، بحيث نقلوها مادة تتمثل بملايين المخطوطات وقطع التراث، وكتابة تقوم بتحقيق المخطوطات وترجمة المعارف، وامتثالاً يتجسد بالممارسات الدستورية والتشريعية والشورية، ولهذا قال بعض المفكرين: - رأيت في الغرب إسلاماً، ولم أر مسلمين، ورأيت في الشرق مسلمين ولم أر إسلاماً. وهي مقولة لها دلالتها، فالعدل والحرية والمساواة وتكافؤ الفرص وإعداد القوة العلمية والاقتصادية والعسكرية من المقاصد الإسلامية التي تمثلها الغرب، وأهملها المسلمون، منشغلين بالتنازع على السلطة أو مُستَغلِّين بالغزو والتآمر.

و(تاريخ بغداد) الذي ركضت إليه برجلي بحثاً عن مغتسل بارد وشراب وثَّق حضارة العالم الإسلامي، وترجم للخلفاء والملوك والأمراء والوزراء والأشراف من علية الناس وسائر طبقات حملة العلم من النحاة والصرفيين والبيانيين واللغويين والقراء والمفسرين والمحدثين والمتكلمين من سائر النحل والملل والمنطقيين والأصوليين والمجتهدين والفقهاء والقضاة والفرضيين من سائر المذاهب والزهاد والنساك والمتصوفة والقصاص والوعاظ والرياضيين الحسَّاب والمهندسين والفلكيين والمنجمين والموسيقيين والأطباء والصيادلة والجراحين والكتّاب والخطاطين والمتأدبين والإخباريين والنسابين والمؤرخين والعروضيين والشعراء والمغنيين والرماة والفرسان وحذاق الصناع. كل هؤلاء يذكرهم، ويذكر مؤلفاتهم، وكل هؤلاء عاشوا في بغداد أو مروا بها، وها هي اليوم تخوض مستنقعات الفتن، ويكثر فيها الهرج والمرج، ويهددها التقسيم الطائفي والعرقي، ولا من ولي ولا نصير يواسي أو يأسو أو يتوجع. و(البغدادي) الذي أتى على كل هذه المعارف عاش في القرن الخامس الهجري، فكم من العلماء والمفكرين ممن جاؤوا من بعده، وجسدوا بعلمهم وثقافتهم وحذقهم جانباً من التاريخ الإسلامي.

هذه الفيوض وسعتها أرض الرافدين، ولما يزل العلماء والمفكرون والشعراء والأبطال يداس رفاتهم، وكأن المعري أدرك هذا ليقول: - (خفف الوطء ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد)، وها هم علماء العراق وخبراؤه يتخطفون من حوله، كما تنتهب معالم الحضارة ونوادر الآثار، وكأن المحتل موكل بطمس الذاكرة والتاريخ معاً.

والخطيب البغدادي كما في (الوفيات ١/٩٢، وتهذيب ابن عساكر ١/٣٩٨، وطبقات السبكي ٣/١٢، والمنتظم ٨/٢٦٥، والمعجم ٤/١٣، وتذكرة الحفاظ ١١٣٥، والعبر ٣/٢٥٣، والشذرات ٣/٣١١) من الحفاظ المتقنين المتبحرين، وله إلى جانب التاريخ مائة مصنف، برع في الفقه والحديث والتاريخ، ولد سنة ٣٩٢ وتوفي سنة ٤٦٣هـ. لقد رصد جانباً من حضارة العالم الإسلامي الذي يعده المستكبرون من الشعوب المتخلفة، وما حل به وحال بينه وبين مواقعه الطبيعية إلا الاعتداء والمواطأة، اعتداء الدول الكبرى التي نظرت إليه كمارد في قمقم، ومواطأة الشعوب الإسلامية ممثلة بقادتها ونخبها وقابليتها للخنوع والخضوع والاستسلام. هذا التاريخ الحضاري حفظ للمنبهرين بمدنية الغرب من أبناء الإسلام ما تنطوي عليه بغداد الجريحة. والمؤلم أن هذا التاريخ الحضاري المشرق نبذه الأبناء العققة، وتلقفه الرجل الأبيض، ليشرق كما الشمس في ظلمات التخلف. والمستشرقون الشرفاء الباحثون عن الحق، ينصفون الحضارة الإسلامية، ويذكرون أفضالها على كل ما لحق من حضارات، والحاقدون الناقمون يكتمون الحق، وهم يعلمون، والتبعيون من أبناء المسلمين يسايرون أولئك، ويتصورون أنهم عالة بالفطرة على الغير، مؤكدين بفعلهم أنه لا فلاح لهم إلا بالمروق من الدين والدخول في الحضارة المادية. ولقد أصِّل الردة الحضارية في نفوسهم ما مروا به من تجارب وحدوية وقومية وحزبية فاشلة،

وما عايشوه من حكومات عسكرية سامتهم سوء العذاب، وفي كل تجربة يرذلون، لأنهم يعودون لما نهوا عنه، ولا يستجيبون لما أمروا به.

والهروب إلى التاريخ الحضاري يبلسم الجراح، ويشفي الصدور، ويفتح أبواب الأمل، فالأمة التي تمتلك مقومات الحياة الكريمة قادرة على التحرف السليم، وإذا هبط النسر من قمته إلى السفح لأي سبب، فإن نسوراً أخرى قادرة على أن تعود إلى قممها، والنسر مهما ضعف لن يكون من بغاث الطير.

والأمة العربية التي تزحف في السفوح باستخذاء أبنائها ومكر أعدائها فيما يخفق بغاث الطير في الذرى بحاجة إلى من يعيد إليها ثقتها، ويبصرها بأمرها وبرسالتها في الحياة، لتبدأ رحلة العودة. وإذا كان (ديجول) و(تشرشل) قد أقالا عثرة (الفرنسيين) و(البريطانيين) في أحلك الظروف فإن (صلاح الدين) من قبل و(عبد العزيز بن سعود) من بعد فلا مثل ذلك، فحرر (صلاح الدين) بيت المقدس ولملم «عبد العزيز» أطراف الجزيرة، ولم تزل الأمة قادرة على إنجاب القادة المنقذين الذين يزنون الأمور، ويعالجون مناطق الضعف، ويعرفون الثنيات المهملة ومكائد الأعداء، ويفقهون الواقع، ويلبسون لكل موقف لبوسة، فلا يموؤون في وقت الصهيل، ولا يزأرون في وقت الضعف والهوان وقلة الحيلة.

لقد زرت العراق أكثر من مرة، يوم أن كانت المنطقة تعيش خدر اللعبة الكونية، وكانت النخب كما شاعر غزية في معيته الغاوية لا في إبانته الراشدة، والتقيت يومها بعمالقة الفكر والثقافة والأدب، وهم يعيشون حالة من الشلل الفكري، وتزودت من إبداعات المبدعين ومعارف المثقفين، ودخلت مكتباتها العريقة وتزودت منها بنوادر المطبوعات، واليوم لا نراها إلا مهيضة الجناح، لا تشم في أجوائها إلا رائحة البارود، ولا ترى على أديمها إلا الرماد والرميم.

عراق الحضارة تعرض لحملتين شرستين: - (التتار) و(التحالف) مهدت لهما أوضاع شاذة، خارجة على كل الأعراف والدساتير، والأعداد المتربصون كما الأوبئة تخمل عندما تقوى أجهزة المقاومة، وتستشري عندما يضعف الجسم، وتقل المناعة. وما أتى العالم الإسلامي إلا من قبل نفسه، فهو بأوضاعه وممارساته يشكل قابلية للاستعمار. والعراق العريق تتقاذفه أمواج عاتية من جور أبنائه إلى حقد أعدائه، ومن سوء أفعاله إلى خوف جيرانه، ولا منجى ولا ملجأ من الله إلا إليه، وعلى كل المضطهدين أن يفكروا ويقدروا، وألا يمكنوا العدو من أن يقتلهم من حيث يكون التفكير والتقدير.

مَا أغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ .. ! [(١)]

في ظهورهم، وفي العراق كل يوم تقطع أصابعهم أما إذا دخلوا إيران فستكون حياتهم فيها ليلاً ليس له آخر!

قام من فراشه قبيل الظهر، كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس، متناسياً أنه سبعيني مكانه في الصف الأول بين المصلين، ولما تقم شمطاؤه نؤومة الضحى، ولا أولاده الذين تقطعت بهم الأسباب، وتسربوا من الدراسة، بعدما أترفهم بما يغدقه عليهم من مطعم ومشرب لم يطبهما. ولم يكن من حوله في اليقظة، ولا في النوم إلا طائفة من العمالة الذين لا يدُلُّهم على استيقاظه من نومه إلا سعاله وتمخطه وصراخه البذيء وسبه لمن حوله. وما أن أطل عليهم بجسمه المترهل، حتى هبوا خائفين لاستقباله وخدمته وإصلاح ما أفسده الدهر من شعره وتجاعيد وجهه، فهو في كل صباح يحتاج إلى ساعة أو بعض الساعة لمغالبة عوادي الدهر واستكمال متطلبات الخروج إلى الناس بوجه مرمم. لم يطل الوقت، كانت المسافة الزمنية بين زعيقه وشتائمه وارتمائه على أقرب كرسي في الصالة لا يتجاوز عشر دقائق على الأكثر، وكان القائمون على خدمته وترميمه لحظتها يتجمدون خلفه، حتى يرتد إليه طرفه الشاخص، وحتى يلتقط أنفاسه اللاهثة، فعند كل استيقاظ لابد أن يلتف من حوله منظم الشعر وصابغه، ومقلم الأظفار، وكواء الملابس، وحامل الطيب والمدلك، كانوا أربعة من جنسيات مختلفة وديانات مختلفة ولغات مختلفة، وكان التفاهم بينهم بالإشارات، تسهلها عليهم رتابة العمل ونمطية الممارسة، فكل واحد موكل بمهمة يمارسها كل صباح. ولما أخذ الشيخ «مسعود» زخرفه وازين، نهض متحاملاً على عصاه، وقد أمسك بعضده سائقه، ودخل صالة الطعام، ليأكل ما لا قبل له باحتماله، وما ليس بحاجة إليه من السكريات والدهنيات والنشويات والبروتينات، ولم يكن أحد من أفراد العائلة في طريقه ولا في صحبته، وما اعتاد أن يلتقي بأحد منهم، ولا أن يقضي إجازته الأسبوعية أو السنوية مع أحد منهم، لا يلتقون به إلا حيث يتعرض أحدهم لمشكلة أو يحتاج إلى مال، وويل لهم من وابل السب والشتم، خرج يجر جسما أقعدته الشحوم، وأثقلته السنون، وبهظته الطعوم، وهدته الهموم، وبين البيت والحديقة لقيه ابن عمه «سعيد» فسلم عليه، وقبل رأسه، وهم بالحديث، ولكنه أحس بأن الأجواء مكفهرة، وما كان من عادة «مسعود» أن يهش أو يبش بأحد، إلا حيث تكون الدثور، ولكن الحاجة تحمل المحتاج على إراقة ماء الوجه، لقد أحس الحارس بالحرج، فهو الذي سمح ل «سعيد» باختراق أجواء البيت، وماذا يفعل أمام ابن عمه. التف «سعيد» ليمشي خلفه، وتوقع أن يسأله عن حاله وأهله وأقاربه، ولكن السكون القاتل لا تقطعه إلا سعلات حادة أو مكالمات متحشرجة في «الجوال» يتلقاها تباعا من موظفيه الذين يسردون له مجمل العمليات التجارية، وما تلقاه من سائر الفروع من مضاربات مع الشركات، وكان لا يزيد في الرد على كلمة: «ثم ماذا ...» و«ماذا بعد» و«كيف تصرفتم؟» ووصل الثلاثة إلى السيارة الفارهة، فتح السائق الباب، وساعد الشيخ على الركوب، برفع رجله اليمنى، ورد الباب برفق، ثم أسرع إلى المقود، وتحركت السيارة، فيما بقي «سعيد» شاخص البصر، متجمدا في مكانه.

ولما يفق من ذهول الصدمة إلا بوقع أقدام الحارس الذي طلب منه مغادرة القصر. خرج متثاقلاً، لا يؤرقه إلا ما تعانيه أسرته، وما يترقبه من ضروريات، لام نفسه: لماذا لم أفاتحه بحاجتي؟ سلمت عليه، وتمكنت من المشي خلفه، وهو صامت، كان من واجبي أن

(١) تاريخ المقال: ٢٨/ ١٠/ ٢٠٠٣

أفصح عما أريد، إنني رجل خجول مفرَّط، وهذا جزائي. لا بأس، هناك أكثر من فرصة، بإمكاني أن أعود إليه يوم غد، وسوف أباشره بالمفاتحة. إنه رجل ثري، وأنا أقرب الناس إليه، أليس هو ابن عمي، ويعرف جيداً أنني فقير، وأن أبي كفله يوم أن مات أبوه، وهو صغير، حقاً إنني رجل خجول، ما كان لي أن أتردد في عرض حاجتي عليه، ولكن أليس من واجبه أن يسأل عما أنا عليه، وعما أتعرض له من ضوائق، أبداً هو يعرف أنني قضيت حياتي سائقاً في إحدى الإدارات، وأنني تقاعدت، وأن تقاعدي لا يسد حاجتي فضلاً عن حاجة أسرتي، وبيتي يمتلئ بالأبناء والبنات والأحفاد والأسباط، لا أرد قادما، ولا أمنع سائلاً، إنه يعرف جيدا ما أعانيه من الفقر والفاقة، ويعرف أنني أقل منه مالا وولداً، وأن الله جعل له مالاً ممدوداً، غير أنه لم يعرف أن كل ذلك لا يغني عنه شيئاً إذا تردى، ولكن لماذا لا ألحق به في مكتبه، وأنجز مهمتي، فما عاد وضعي يحتمل التأخير، ولقد علمت ما يدفعه من تبرعات، وما ينفقه في المناسبات، وما يبذره في الرحلات، وما يغدقه على أولاده العاطلين العققة، مع أنه يحب المال حباً جما، ولا يبالي من أي الطرق أخذه، ولا كيف أكله، وسواء عنده أكله، بالإثم أو بالظلم أو بالباطل، كل هذه الهواجس خطرت على بال «سعيد»، كان يفكر فيها بصوت مرتفع، ومما يزيد ألمه أن سيارته قد لا تصل به إلى ابن عمه «مسعود» ثم تعود به إلى بيته، فالوقود على وشك النفاد. حسنا ستصل بي إليه، ولن يخيب أملي. وانطلق صوب المكتب، وترجل من سيارته، التي لم يسمح لها بالدخول في ساحة المبنى، ودخل على مدير المكتب الذي يعرفه جيداً، ويعرف أفضال أبيه على سيده. طلب منه مقابلة ابن عمه، رحب مدير المكتب، وأسرع إلى سيده، ليعلمه بأن ابن عمه «سعيد» يود مقابلته، وكان يشعر بأنه يقدم إليه بشارة، كانت لحظة عصيبة، لقد اكفهر وجه «مسعود»، وقطب جبينه، وتفلت لسانه بكلمات تفيض بالوقاحة، حملت مدير المكتب على التراجع إلى الخلف، ثم النفاذ بجلده، وانتابته الحيرة، ماذا سيقول للقابع في مكتبه بانتظار الإذن له بالدخول؟

توقف برهة في المكان الفاصل بين المكتبين، ليفكر ويقدر، إذ لم يستطع مصارحة ابن العم بما تم، وتحامل على نفسه، وأقبل على صاحبه يجر رداءه، وقال بصوت متقطع: «العم» في حالة نفسية سيئة، فهناك صفقة خاسرة، لما يزل في اتصالات مستمرة، لتخفيف حدتها على نفسه، ولم أشأ مفاتحته بوجودك، لعلك تختار وقتا آخر أكثر مناسبة، أو تجعل زيارتك له في قصره، فهو ملتقى العوائل، أو تعود إليه غدا أو بعد غد. وهنا كانت الطامة، السيارة في الرمق الأخير، فوقودها لن يبلغه مأمنه، وليس بمقدوره أن يكاشف مدير المكتب بشيء، ولأن الأمر لا يحتمل إلا حلاً واحداً، فقد أسر له بأن الوقود قد ينفد، ولم يكن معه مال ولا بطاقة صرف، وما كان يتوقع نفاد الوقود، ولم يتردد مدير المكتب، بل ناوله مبلغاً من المال على شكل قرض، وانفضَّ سامر القوم. وبعد يوم أو يومين سأل «مسعود» مدير مكتبه عما فعل مع ابن عمه، فأخبره بما تم، فاستحسن ذلك، وأوصاه بأن يصرفه كلما جاء بمبلغ مماثل. جاء الخبر كالصاعقة على مدير المكتب الذي لم يكن يعرف ما آلت إليه ظروف «سعيد» الممتلئ حياء وبشاشة وكرما، لقد تبين لمدير المكتب أن «سعيداً» يمر بحالة حرجة، وأنه جاء يستمد العون من ابن عمه، أزعجه الموقف غير الإنساني من رجل ثري تربى تحت كفالة عمه والد «سعيد»، ولم يف ببعض حقه لولده الذي اضطر إلى استرفاده.

ومرت الأيام سراعاً، وعاد ابن العم إلى ابن عمه، فنهض مدير المكتب لاستقباله، وأخذه بالأحضان، وأجلسه حيث يريد، وأقبل عليه متهللاً، فما كان من «سعيد» إلا أن أعاد القرض شاكراً، ولما أن طال الانتظار فاتح المدير:

أليس ابن عمي في مكتبه؟

بلى.

بودي لو أقابله على انفراد.

كان بودي.

ولكن ما الذي يردك.

رغبة ابن عمك في أن أصرفك كلما جئت بمبلغ من المال تسد به رمقك.

أو فعلها وأخبرك عما أريد.

ما كنت أود معرفة ما بينكما، ولكنه الشح ونكران المعروف.

وهل أخبرك بأفضال والدي عليه.

كان يحدثنا عن كفاحه، وتبذير والدك، ولما أن تلطفت له بالقول، وألنت له الحديث، وحاولت ترقيق قلبه صاح بي قائلاً.

لقد كنت إلى جانب عمي، وهو يحتضر، بعد ما أغرقته الديون، فلمته على تبذيره وترك أولاده فقراء يتكففون الناس، أتدري ماذا قال لي عمي وهو يحتضر.

لقد تركت في رقبة كل إنسان معروفا، وسوف لا يحتاج أبنائي. والمقيدون بإحساني يملؤون الأسواق، وها أنت أيها المدير الغبي تراه يتردد علي، ويستلف منك، إنها خرافة:

كـــل النـــــداء إذا ناديـــــت يخــــذلني

إلا نـــــداء إذا ناديـــــت يـــــا مـــــالي

نعم كفلني وأنفق عليّ، وفتح أمامي آفاقاً واسعة، ولكنني لن أكون مثله مبذرا يتهافت عليه المستغلون، فيسلبون ماله، أيريد مني أن أذعن لخرافة الكرم، لتفعل في مالي ما تشاء، لقد مات فقيرا، وكان بإمكانه أن يكون مثلي يخدمه المال، وهو مكدس في خزائنه، إن للمال طاقة حرارية تنبعث من أعماق الكنوز، فتحرك الجميع لخدمة صاحبه، ألا تراني في اوساط العامة، وكأنني علم في رأسه نار، كلما رأتني الجموع تصدعت كما تصدع البحر لموسى، وما أحد منهم نال منها ولن ينال، إن للمال جاذبية، وإن له لسحراً، فلا تبذره بل تمترس خلفه. ودع «سعيداً» يبحث عن أفضال والده، فالفقر لا يصنعه إلا الفقراء.

ومر عام أو بعض عام و«سعيد» يعيش الصدمة، كيف لا يسأل عنه ابن عمه؟ ولا يقيل عثرته التي أقالها الأباعد حين علموا ما يعانيه، ولم تكن اقالتهم في الاعطيات، بل كانت بالمشاركات والتسهيلات، حتى لقد استقام أمره، وأقبلت عليه الدنيا، وهي صاغرة، وبعد عام آخر علم «سعيد» أن السمنة والشيخوخة حالت دون مباشرة «مسعود» لتجارته وسائر أعماله، وأن تصريف الامور تولاها أبناؤه الجهلة المترفون، لقد كان يغدق عليهم الأموال، ولا يمكنهم من معرفة ما هو عليه، ولم يحسن تربيتهم وهم كما هو لحم نبت على السحت، لقد حرمهم من أيسر الحقوق، وما أن بلغوا مبلغ الرجال استاؤوا مما يمارسه والدهم من التكتم على أحواله، والاعتماد على الأباعد، مع الحرص والشح والجشع، فكان أن أقبلوا على المتع والتبذير، ولأنهم يجهلون السوق وفن التجارة وحذق المضاربات فقد تعرضوا للخسائر المتلاحقة، وما كان الأب يعرف شيئاً عما حل بمؤسسته وفروعها وأعمالها والخلاف المستشري بين أبنائه وكبار موظفيه وجاء «سعيد» ليزور ابن عمه، وهو على فراش المرض، فرآه في حالة سيئة، ومنظر بشع، شعر أشعث ووجه أغبر، وتجاعيد تحكي مرارة الألم، قبّل رأسه ودعا له بالشفاء والأجر، ولم يشأ إشعاره بما لقيه منه، ولما هم بالانصراف حاول «مسعود» استبقاءه، فالوحشة والوحدة وآلام الشيخوخة تقتله، وما من صديق ولا رفيق وما من زوجة ولا ولد، يزحف لحاجته، وقد تمده الخادمة بما يحتاج إليه، وما أن استجاب «سعيد» وجلس، حتى انطلق في سب أولاده وأصدقائه

وأقاربه الذين لا يمرون به، ولا يسألون عنه، ولم يجد «سعيد» بداً من القول، ولكنه لم يشأ إنكاء الجراح، ولم يزد على قوله: وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه في ساعة العسرة، لقد كانت تلك الكلمة رصاصة ضربت سويداء القلب، وسبقت الدموع اللسان، واكفهر الجو، فانسل «سعيد» على نشيج ابن عمه، هذا الموقف الضاغط أعقبه شلل نصفي أصاب «مسعود» فعطل الجسم عن الحركة، ولم يكن بد من إلقائه في المستشفى بين عشرات الفقراء والغرباء، وكان إن انقطع عنه الزوار، وقست عليه الظروف، ولم يكن بحاجة إلا إلى مزيد من الرعاية، ولما لم يكن أولاده على شيء من المال أو البر، فقد ترك حيث هو، حتى تقرح جسمه وساءت حالته، وقررت إدارة المستشفى نقله إلى دار رعاية المسنين الخيرية، ودخلها ليحمل رقما في رقبته، وعاد «سعيد» يسأل عنه فلم يحر جوابا، وراح إلى قصره الذي لقي فيه أحرج المواقف، ليستجلي الأخبار السيئة، فلقيه ساكن جديد، وسأل عن مصير أولاده، فعرف أنهم تفرقوا أيدي سبأ، يبحثون عن عمل يوفر لهم أدنى حد من الكفاف، فأخذته الحمية وانتابه الدوار، ليسقط على الأرض مغشياً عليه، ولم يصح إلا بين الأيدي الناعمة في المستشفى، ومن حوله أبناؤه وبناته وأحفاده وأسباطه وزملاؤه وأصدقاؤه، يحفون به، ويؤنسون وحشته، فحمد الله، وتمنى لو أن ابن عمه «مسعود» شهد هذه التظاهرة العائلية التي فقدها حين لم يحسن تصريف المال، وأحسب أن «مسعوداً» لن يسمع بعد هذه إلا قوله تعالى: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴾.

لقد لقينا في سفرنا هذا هلكة ولكن الله سلّم .. ![١]

تصور نفسك على متن طائرة تشبه القرية المسوَّرة، فيها ما لا يتوقع من الأناسي والأشياء، وهي تسبح فوق هام السحب، والناس فيها يريحون ويسرحون، وفجأة لجَّ صوت الإنذار، مختلطاً بأصوات آلية، وضجيج بشري، وحركة غير عادية. ثم غمر ممراتها ومقاعدها دخان كثيف، كادت تحتجب معه الرؤية، وتبع ذلك اضطراب الناس، كلٌّ يحملق في شرود، والكلُّ يسأل في ذهول، ولا أحد مخول بالإجابة، ففوق كل ذي علم عليم، ولا مفر ولا وزر، فالجميع مرتهنون داخل صفائح من حديد، وسابحون على ارتفاع شاهق، والركاب فيهم الكبير والصغير، والرجل والمرأة، والصابر المحتسب والهلوع الجزوع، والمتفائل والمتشائم، والسليم والسقيم. ثم انظر كيف تكون وسط هذه الضوائق والضواغط، إنها ستكون حالة حرجة، تتبدل فيها الأوضاع غير الأوضاع والمشاعر، تبرز فيها الخيفة، ويختل التوازن، وتنشل الحركة، ويقف كل محشور في هذه الزنزانة الطائرة أمام الموت وجهاً لوجه.

ذلكم الموقف العصيب تتبدى فيه فرصة الشيطان المَرِيد، الذي يقعد لبني آدم كل مرصد، ويحتنكهم بالوسوسة والتسويل والتخويف والتخذيل والنزغ والاستدراج، مستدعياً صغار الأبناء وعظائم الذنوب، ليعقد الألسن عن ذكر الله، ولا يتيح إلا فرصة النظرات الذاهلة، وهو قد هدهد الغافلين عن معالي الأمور، وقال لكل منهم بطاعة: (نم عليك ليل طويل). إنها لحظات حرجة يقف فيها الزمن، ويضيق فيها المرء بكل شيء. وكل راكب تختنق أنفاسه، ويصبح ثوبه الفضفاض زنزانة تختلف داخله أضلاعه، ويحاول عبثاً أن يقدَّه من قُبُلٍ أو من دُبر، ليخرج النفس المحتبس في الأعماق، وكأني بكل راكب مغموساً في بحر لجي من الخوف والهلع، وهو ينظر إلى من حوله، ممن كان يأنس بهم، ويأنسون به، فيكونون من حوله كما الخشب المسندة. وهؤلاء الناس الذين يملؤون الطائرة حركة وحيوية يتحولون إلى أكداس من اللحوم المجمدة. منهم من يتلفت بذهول، ومن ينظر نظر المغشي عليه، ومن يلزم رأسه بيديه، وكأنه إناء زجاجي يتصدع، ومنهم المرأة التي تضم ولدها إلى صدرها، وكأن أحداً يغالبها على انتهابه.

في هذا الجو المشحون بالتوتر، تعيش غربة قاتلة، كأنك وحدك في مهب الريح، والأناسي الذين كنت من قبل لحظات تخوض معهم وتلعب، وتتحدث بكل ما يعن لك من الكلام، وتسمع منهم أحسن القصص، ما لبثوا أن غارت عيونهم، وتخشبت ألسنتهم، وتجمدت حركاتهم. إنها ساعة راجفة، يذهل فيها كل مخلوق عن كل ما حوله.

هكذا كنا، ونحن على متن طائرة (الإيرباص) المتجهة من (الرياض) إلى (الخرطوم) فجر يوم الأحد، الثالث والعشرين من شعبان. كنتُ لحظتها أغط في نوم عميق بعد الإفطار، واستعراض صحف الصباح. ولقد سمعت وأنا في سنة النوم أصوات إنذار وأصواتاً مدوية، غير أني لم أعرها أي اهتمام، لأنني بين اليقظة والمنام.

وما أن عمَّ الدخان أرجاء الطائرة، أحسست بضيق في التنفس، ففتحت عيني، فإذا به يغطي مقاعد الدرجة السياحية والأولى، ولم أزد على كلمة:-

-ماذا حدث، ما هذا الدخان الكثيف؟ ولم أسمع جواباً، وكأن المخولين بالإجابة أو المالكين لها نذروا للرحمن صوماً، فلن يكلموا اليوم إنسيّاً. ولو أنهم كذبوا للتطمين، كمن يكذب لإصلاح ذات البين، وقالوا: تسرب زيت خفيف على صفيح ساخن، نفذ مع التكييف، لما أصاب الركاب ما أصابهم.

---

(١) تاريخ المقال: ٤/ ١١/ ٢٠٠٣

التفت إلي الدكتور (عبد الرحمن العشماوي) القابع خلفي، وهو يطل من النافذة في خوف وترقب.

-قلت له: ما الذي حصل؟

-قال: المحرك الأيمن احترق وتوقف.

ولما لم يكن أحد منا يعرف درجة الخطورة في مثل هذه الحالة، ولمَّا لم يكن أحد يعرف ما حصل بالضبط، ولما لم يتطوع أحد لتهدئة الأنفس الوجلة، فقد ذهبت بنا الظنون أسوأ المذاهب، التهبت مشاعرنا، و اضطربت نظراتنا، وتوقعنا امتداد الحريق إلى الوقود، وامتداد التوقف إلى المحرك الثاني، لتكون الراجفة. ولمَّا أصبح الأمل معلقاً بالمحرك الثاني، فقد حدقنا به الأنظار، وتسمرنا حوله، وكأنه وحيد أمه المسجى على سرير المرض، وهو يغالب سكرات الموت، كان هو الأمل بعد الله.

في تلك الأثناء لم أفكر في شيء تفكيراً واعياً إلا بمساءلة نفسي: هل قرأت أورادي المعتادة؟ وتأكدت أنني تلوتها، بل كررتها بعد صلاة الفجر في (مطار الرياض).

وقلت في نفسي: هنا أرقب وعد الله الذي لا يخلف الميعاد، وبدأت النفس تهدأ، ولكنها تعود إلى الاضطراب، فهي بين الرجاء والخوف، ولاسيما أن الدخان نذير شؤم، ولا يمكن أن ينبعث من لا شيء، والطيار ومن معه في صمت مريب، ومن حقنا والحالة تلك أن نتوقع تدهور الأوضاع، وألا نستبعد التشظي في الفضاء.

كنت من قبل، يوم أن كنت حرَّاً على الأرض، أسأل نفسي عن مشاعر السجين المحكوم عليه بالإعدام، وهو يرقب تنفيذه كلما صَرَّ باب السجن، أو المريض الذي نفض الأطباء أيديهم منه، وتركوه بانتظار قدره، كيف تكون حالهم؟ وكيف يفكرون؟ و كيف يرون الأشياء من حولهم؟ وهل يحسون بآلام الترقب، أم أنهم في حالة من الانفصام الشخصي؟ وما أكذب المتنبي حين قال لممدوحه: (تركتني أصحب الدنيا بلا أمل). فحين لا يكون أمل، يكون الإنسان خارج الحياة ودون الموت، فلا هو حي فيرجى، ولا هو ميت فينعى، وما من حي إلا ولديه بصيص من الأمل، وفي المثل: (دون سَلِّتِ السيفِ فرج).

وما أن تفرقت بنا الظنون، وتعددت الاحتمالات، تفاقمت التوقعات السيئة، وحاولت عبثاً أن أستعيد غفوتي، لأنسى ذلك الزمن المنيخ بكلكله المتجمد في لحظته الحرجة، فلم أستطع، لقد دخلت في يقظة لم أكن أتصورها من قبل، زُويت لي كل الأشياء، وتمثل لي الأبناء والبنات، والأهل والأحباب، والأحياء والأموات، وتغولت الغيلان في داخلي، ولم يبادر أحدٌ بالأذان، فالناطق الرسمي على الأرض، ولا بد لكل تصريح أن يغبَّ وأن يصاغ بطريقة تملصية. أحسست أنني أحاول الهروب إلى المجهول، أغمضت عيني، وجعلت أصابعي في أذني، واستغشيت وسادة، وغرست رأسي في أخرى، لقد كانتا من قبل رقيقتين ناعمتين، أما الآن فقد صارتا كما كيس من حسك السعدان، عدت إلى وضعي الطبيعي كما يطلب التسجيل، ربطت الحزام، وبدأت أتوسل إلى الله بما أعرف من صالح الأعمال، وتذكرت أصحاب الصخرة، وصاحب الحوت، ويعقوب وأيوب، وما جأروا به من الدعاء، وبدأت أردد: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ وتساءلت كما المضطهدين: ﴿مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ فسمعت هاتفاً من الغيب: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ نظرت إلى من حولي، فوجدتهم يغالبون الأحزان، وينظرون في وجوه بعضهم. الشيء الذي خفف بعض المعاناة أن المضيفين والمضيفات يركضون هنا وهناك، يبللون المناشف لوضعها على أنوف الركاب وأفواههم، يصطنعون التجلُّد، ويفتعلون رباطة الجأش، كي نرى أن ريب الدهر لا يزعزعهم، ولكن المنية إذا أنشبت أظفارها: (ألفيت

كل تميمة لا تنفع)، وتداعيات الموقف جعلتهم لا يكلمون الناس إلا همساً، لقد خصيت الشفاه، فكلما انطلقت التساؤلات قيل لنا: - لا شيء، وكيف لا يكون شيء، والدخان يملأ الرحب، والمحرك متوقف. لم يكن بدٌّ من التسليم اليائس، أخذ كل منا مكانه، وساد الهدوء، وسلم الجميع لقضاء الله وقدره.

وكلما دخل الانسان في مرحلة ألفها، وسلَّم لها، لقد أيقنَّا أننا قاب قوسين أو أدنى من الموت. قلت في نفسي كيف تكون السعادة والفرحة حين تحط بنا الطائرة المنكوبة سالمين، واقتربنا من الأرض، وتراءت لنا معالم (الخرطوم)، ونظرنا إلى النهرين وملتقاهما، هبطت الطائرة محفوفة بسيارات الاطفاء، واستقبلنا مندوب (وزارة الثقافة) وأعضاء الرابطة بالتهاني، وكأننا ولدنا في ساعة اللقاء، كانوا يحدثوننا عما يسمعون، وكنا نسألهم عما حدث، وكانوا يسألوننا، ولا يجد أحد من الطرفين جواباً شافياً، وكأنه محرم علينا أن نعرف ما يخصنا.

ولما كنت في السماء والمنايا مواثل، والطياران البشري والآلي يزجيان كل الإمكانيات على مقعد القيادة، كنت أقول: لو نجوت لما حزنت ما بقي من حياتي، وما هي إلا فرحة اللحظة، أعقبهما حمد وشكر، ثم أخذنا الأمل والنسيان، كما أخذنا الخوف والفزع من قبل، ولم يكن الحدث إلا ذكرى أليمة، نحدث بها من سأل ومن لم يسأل. وما أن بارحنا المطار حتى عادت الأمور إلى مجاريها، أمل عريض، وتفكير منظم، وتطلع واسع، وغضب ورضى، ورجاء وخوف، وسبحان من قدر الأقدار، ويسر كل مخلوق لما خلق له، وأعطى كل شيء خلقه ثم هدى، فالكون لا يعمره إلا حجب الحقائق، وإلا فحياة محفوفة بالآفات، مختومة بالوفاة، معاشة بالمنغصات، لا تساوي عند بارئها جناح بعوضة.

ومع الإغراق في المشاغل والاستعداد للمحاضرات والندوات واللقاءات الاذاعية والتلفازية والصحفية والجلسات الإخوانية وجدول الأعمال المليء بالفعاليات في (أسبوع الأدب الإسلامي) الذي تستضيفه (وزارة الثقافة السودانية)، فقد أصبح الحدث كما النوبات القلبية، يفجؤك بين الحين والآخر، فيشدك إلى ساعة العسرة وتقطع الأسباب، ثم لا تلبث أن تفيق، وقد تفصدت عرقاً، لتتحسس نفسك، أأنت على الأرض أم على متن الريح؟ ولولا فضل الله علينا ورحمته ما نجا منا أحد، وما كنا نتوقع الحدث يمر بسلام، دون ارتطام بالأرض يخلطنا بأشيائنا، أو هزة عنيفة تترك السليم معاقاً، وكان بالإمكان تخطي المحنة لو أن أحداً من المسؤولين طمأن الركاب، وإذا لم يفعل، فقد تصورنا الأمر من الخطورة، بحيث لا يُغني فيه الصدق ولا الكذب.

بقي ان نتساءل عاتبين مستغربين: - لماذا لم نسمع كلمة تُطمئن أو اعتذاراً يرضي. من المعقول ان يصمت الجميع أثناء مغالبة الحدث، ومن المعقول أن يكذب المسؤول ليخفي بعض ما حصل، إن كان ثمة خطورة، أما أن نروَّعَ، ثم لا يتلقانا الطاقم ولو بوجه طلق، فإن في ذلك إخلالاً في العلاقات العامة، وإذ سلَّم الله، فإن من حق الراكب أن يعرف الأسباب والمسببات دون تفصيل، ودون تنصل من المسؤولية. لقد فتحت الأبواب، وعَدَوْنا كقطيع من الغنم، ونفد كل بجلده، وكأن شيئا لم يكن، كنت أتوقع أن يتحدث قائد الطائرة أو مساعده أو كبير المضيفين عما تعرضت له الطائرة، وما بذله الطيار، وما نسبة الخطر. الحدث خطير، وآثاره واضحة، كتل من الدخان الخانق وأصوات إنذار مفزع، ولا شيء بعد ذلك. إن لزوم الصمت في حدث كهذا يعني اللامبالاة، فالراكب بكل ما ينطوي عليه من مشاعر يتحول عند إخواننا في الخطوط إلى شيء من الأشياء، شأنه شأن متاعه الذي عُهد به إلى هذه الآلة، ليكون حمله وفصاله في ساعة أو ساعتين.

لقد لقينا في سفرنا هذا هلكة ونصباً، وكان أقل ما يجب أن يقول المعنيون - (نأسف لما حصل، وهو خارج عن إرادة الجميع، ومتوقع في كل رحلة، ومن فضل الله أن تغلبنا عليه، ولم يضار أحد). لقد ترك الحادث آلاماً نفسية، وأصبحنا نتخوف، وحق لنا أن نتخوف، فما من رحلة إلا ولها مشكلة، فما أن عدت في العاشرة صباحاً من يوم الجمعة الثامن والعشرين من شعبان إلى (جدة) وكنت على موعد مع أحد الأقارب لترتيب جلسة بحرية، وأكلة بحرية، ولقاء حميم نقضيه في منتجعات (جدة) الجميلة، استعداداً للمواصلة إلى (القصيم) بعد سبع ساعات، إلا وكان الحدث الآخر، وتكون (الخطوط السعودية) السبب الرئيس في إفشال كل شيء، كان الداعي على متن الطائرة المتوقع عودتها من (اسطنبول) وشاء الله أن يحبسهم خرابها، لتفوت الفرصة، وأقضي الساعات السبع متسكعاً وحدي في ممرات المطار، وإمعاناً في الإيذاء، تعلن الخطوط عن تأخير رحلة (القصيم) مساء ذلك اليوم ساعة أو بعض ساعة، وكل ذلك يحصل دون أن يتمعر وجه، أو يخاف مسؤول، فما من منافس يحملهم على تلافي التقصير، ولا من مُسائل يحاسبهم على الخطأ أو التأخير، وكأن الخطوط المدللة ترقب (ستة مليارات) أخرى متخطية كل الأولويات الإنفاقية لشراء أسطول آخر، كي تفك به الاختناق المزعوم، وتتطلع إلى تعيين أرتال من الموظفين، ليضربوا الرقم القياسي في البطالة المقنعة، التي شكلت العقبة الأولى في سبيل الخصخصة. أحسب أنه من الضروري ايقاف المسؤول للمحاسبة والمساءلة، أو قطع ألسنة المواطنين الذين ما فتئوا يتحدثون بتندر وسخرية عن الأعطال والتعطيل، مع غزارة في الامكانات وسوء في التوزيع، طائرات جاثمة لا تباع ولا تستعمل، وآلاف من الموظفين الكتبة يأكلون ما كان، ويضيقون في المكان، وقلة في المهندسين الذين يسلقون الصيانة سلق البيض، وشح في الطيارين. ومع هذه الغضبة المضرية لا ننكر الفضل لذويه، ولو شئنا الثناء على الخطوط لوجدنا ايجابيات كثيرة، ونكون قد صدقنا في الثناء، ولم نكذب في الذم، وعلى معالي المدير العام بما عهد فيه، وما عهد إليه، وما عرف عنه، ألاَّ تلهيه القصائد التغلبية، فكم تحت السواهي من دواهي.

مسوغات الأدب الإسلامي .. ![1]

ما من مصطلح جديد إلا ويواجه بالتساؤلات والتحفظات، ويطلب من ذويه البرهنة عن مشروعيته ومرجعيته وتخطيه من الفرضية إلى النظرية، ومراد الأفكار أهم من مراد المعدات والشهوات، ذلك أن الأفكار تشكل المواقف والتصورات، وتنقب في السوائد والمسلمات، وتنشئ الملل والنحل، وتوقظ الفتن، وتدفع إلى الحروب، ومن ثم أصبحت قضايا الفكر هي القضايا الأهم. لأنها تجمع الأشتات، أو تفرق الجماعات، ولأن الأدب عامة و«الأدب الإسلامي» خاصة بعد موجة «الأدلجة» والتسييس قضية من أهم القضايا الفكرية والأدبية التي تتداولها المشاهد الفكرية، فقد كان لزاماً على المصدقين بمشروعيته إبداء الأسباب والمؤيدات، سعياً وراء الإقناع والاستمالة، أو الدفع بالتي هي أحسن، ولن يتأتى الإقناع إلا بتقصي حيثيات المشروعية ومسوغات الطرح، والتناوش من مكان قريب، وعقلنة التداول، والمصطلح المثير ثنائي التركيب ثنائي المقاصد، فالأدبية لها شرطها، والإسلامية لها مقتضاها، ولابد و- الحالة تلك- من النظر في كل وجوه المصطلح المركب ومقتضياته ومشروعية قيامه، وبخاصة بعد الخلطة المستحكمة بين الفن والفكر، ومثل ذلك يتطلب تلقي التساؤلات والتحفظات بصدر رحب، ومجادلة بالتي هي أحسن، في سبيل تبرير مشروعيته، وسط أطياف المذاهب والتيارات والقضايا والمبادئ التي تملأ الرحب، ومشروعيته تتحقق بحشد المسوغات والتماس المبررات، ولاسيما أن هذا المصطلح لم يقم إلا بعد قرون من قيام «الأدب العربي» الذي تحمل مهام الإمتاع والإقناع، ولأن الفن عامة والفن القولي خاصة سابق على التشريع، ومختلف بلغته وغاياته عن سائر المعارف، فإن النظر إليه بعد التشريع يختلف عما كانت عليه النظرات من قبل.

و«الأدب الإسلامي» يواجه تحديات متعددة، فخصوم الإسلام خصوم الداء، والمتفلتون على القيم الأخلاقية، ممن لم يجتنبوا كبائر الإثم والفواحش خصوم متفاوتون بين متحفظ ومتخوف، أو متردد بجهله أو بوقوعه تحت تأثير المفاهيم الخاطئة، ممن يرى أن الفن القولي بمعزل عن الدين، ثم لا يعرف قدر الاعتزال وأمداء التداخل، وأمام تلك المواجهات لابد من أن يقدم المعنيون بالمشروع مسوغات مشروعهم، وأحسبها إن لم تكن معهوداً معرفياً فإنها معهود ذهني، إذ ما من متلق واع إلا ويعرف لماذا طرح المشروع، وما هي دواعيه ومقاصده، ولعل من أهم المسوغات:-

-هيمنة الإسلام، وشموليته وحاكميته وحقه الإلهي في أن يكون كل شيء على مراد الله، ومن جعل الفن خارج أمر الله أعوزه الدليل، وحق الفن في التشريع كحق سائر الممارسات القولية والفعلية، ودراية الأمة بأمور دنياها مرتبطة بوعي المقاصد الإسلامية.

-مشروعية تكافؤ الفرص، وتساوي الحقوق، فالقبول ب «أدب حداثي» أو «وجودي» أو «ماركسي» يلزم بقبول «أدب إسلامي» وبخاصة بعد أن وسع «الأدب العربي» كل هذه الاتجاهات وأصبح نهباً لها.

-تصحيح العلاقة بين «الادب» و «العقيدة» ولما كان واجب الأدب- أي أدب- أن يكون في خدمة عقيدة الأمة التي ينتمي إليها الأدب، كان لابد من تصحيح العلاقة بينهما، لتتم الخدمة على أقوم طريق، فالأدب وثيق الصلة بالحياة، ولن تتحقق العقيدة منفصلة عن الحياة، ولن يكون الأدب بمعزل عن تواشج الحياة بالعقيدة.

---

(١) تاريخ المقال: ١١/ ١١/ ٢٠٠٣

فالأدب تعبير عن موقف، وإبداع المنتمي مصطبغ بالانتماء، فالأدب إذاً بطبيعته تعبير غير مباشر عن العقيدة، ولكي يكون التعبير سليما مطابقاً لمراد المشرع، كان لابد من وعي المقتضى، وما لا تقوم العقيدة إلا به فهو عقيدة أو جزء منها، ولأن العقيدة هدف أسمى، كان لابد أن يكون قول المعتقد في خدمة هذا الهدف، ولعلنا نلمح للدلالة اللغوية لجذر «عقد» إذ يوحي بعقد مبرم بين طرفين يلزم بالوفاء، فهي من تعقيد الأيمان، وعقدها غير اللغو فيها، ومن لم يلتزم بمقتضيات العقيدة فهو يلغو فيها، والخصائص الايمانية لا تتحقق إلا بالتمثل قولاً وعملاً واعتقاداً، فمن قال ولم يعمل كبر مقت الله له، ومن اعتقد بقلبه وناقض الاعتقاد بالقول أو بالفعل أخل بالمقتضى الايماني، ولهذا جاء «الادب الإسلامي» ليصحح العلاقة بين ثلاثي التحمل: الاعتقاد، والقول، والعمل، ولا يمكن أن يكون الأدب بمعزل عن العقيدة، كما لا يمكن أن تكون الحياة بمعزل عنها، وفي الوقت نفسه لا يكون الأدب خالصاً لها، ولكنه يكون مخلصا لها، والفرق دقيق بين الخالص والمخلص، هذه القطعيات الطردية تؤدي إلى حتمية ارتباط الادب بالعقيدة ارتباطاً يعي الفرق بين «الأدب» و«علم الكلام»، إذ ما من أدب أمة إلا ويكون مصبوغاً بعقيدتها، و«تولستوي» يربط عظمة الفن بقدر ما يعكسه من إدراك ديني، ولعل شهرة «الإلياذة» مرتبطة بما تعكسه من وثنية معتبرة في لحظة الإبداع، ويقال مثل ذلك عن «الكوميديا الإلهية» «لدانتي» حيث تجسد العقيدة «الكاثوليكية»، وكذلك «الفردوس المفقود» «لملتون» إذ فيها تصوير لموقف االمسيح من الله والعالم.

وحتى الآداب ذات البعد العاطفي لا يمكن أن تثير الكوامن النفسية إلا من خلال العواطف الدينية، فالعقيدة سدى الفن ولحمته ومدده، وبدونها لا يكون الأدب أدباً خالداً، والقول ب «اللامنتمي» يعني الانتماء لعدم الانتماء، فما من قول إلا وله مضمون وهدف وانتماء، وإذا تبدت عقائد النصارى واليهود والبوذيين في آدابهم فإن العقيدة الإسلامية أولى في الظهور والتمثل، ومع هذا يجب أن نفرق بين «الأدب الديني» و«الأدب الإسلامي»، فالأول يشتغل بالموضوع الديني، والآخر يشتغل وفق المقتضى الإسلامي.

-وإذا تجاوزنا المقتضى العقدي بوصفه الركيزة الأساسية تبدى لنا مسوغ آخر، يتعلق بالسلوكيات، وحفظ القيم الأخلاقية مطلب إنساني، قبل أن يكون مطلباً إسلامياً أو مطلباً أدبياً يهتم بقيم الإسلام، والجذر اللغوي لكلمة «أدب» في كل دلالاته وثيق الصلة بالقيم الأخلاقية ف «الأدب» - بسكون الدال- هو الدعوة للزاد، وهو عين الكرم، والكرم مفردة أخلاقية، والتأديب تهيئة نفسية وسلوكية لتمثل المكارم الأخلاقية، وإطلاق كلمة «أدب» مسمى لتدارس الشعر والنثر إطلاق مولد، نظر فيه إلى التأديب والدعوة، ولقد قيل للمعلم مؤدب، لأنه يحمل طلابه على مكارم الأخلاق، فالأدب دعوة وتطويع، ومن ثم تصبح كلمة «أدب» مرتبطة بالقيم الأخلاقية على كل دلالاتها، والتمرد على الآداب السلوكية خروج على مقتضى الدلالة، والشاذ يفقد مسوغه، وأدب الرذيلة لا يعد أدباً بالمفهوم الأخلاقي، وإن كان أدباً بالمفهوم الفني، والدول التي تعتمد الحرية الدينية والسلوكية، يروعها الانحراف الخلقي، ومن ثم تحاول محاصرة الأخلاقيات المسفة، وإن حماها قانون الحريات الشخصية، وحين أصبح دور الأدب المتهتك في الانحرافات السلوكية دوراً فاعلاً، تحرف المسؤولون عن الأخلاقيات لترشيده والحد من تهتكه.

ولقد ارتفعت نبرة الجدل حول أولوية الجمال أو الجلال، وإذ يسلم الجميع بأن الجمال الحسي مرتبط بالغرائز، فإنهم يسلمون بأن الجلال المعنوي مرتبط بالقيم المعنوية، والإنسان في النهاية مجموعة قيم، وليس مجموعة غرائز وحسب، ذلك أنه بالقيم يمتاز عن سائر الأمم، فالغرائز قاسم مشترك بين الإنسان والحيوان، بينما القيم الأخلاقية خاصة بالإنسان.

وتبعاً لذلك يكون الجلال المعنوي شرط الجمال الحسي وأسُّه، وجمال القيم والأخلاق أهم من الجمال الحسي، وشرف اللفظ والمعنى أزكى من شرف اللفظ وحده، وقد نبه المشرع حين حذر من «خضراء الدمن» وأكد على مكارم الأخلاق في أكثر من آية وحديث، والأخلاقيات المطلوبة في الأداء الإبداعي امتداد لاهتمام الإسلام بالأخلاق، وحرصه على عدم الجهر بالمعاصي، وحديث «كل أمتي معافى إلا المجاهرون» يؤكد أهمية التستر، وعدم إبداء الصفحة، فمن بدت صفحة خطيئته لزم ردعه وأطره، وإشاعة الرذيلة عبر الكلمة الجميلة عين التهتك، وعين المجاهرة وبدو الصفحة، والعملية الإبداعية طاقة موجهة، فلابد أن تكون بناءة.

-ومن مسوغات «الأدب الإسلامي » ما عليه الآداب العالمية والعربية من سقوط وانحراف وهبوط في المستويات الفنية واللغوية، ف «الأدب الإسلامي» هدفه إقالة عثرة الأدب العربي، والنهوض به من كبواته المتعددة، والمتابعون لفيوض الإبداعات والدراسات والكتابات: التنظيرية والتطبيقية، يدركون الانحرافات الواضحة عن جادة الصواب، انحراف فكري، وسقوط أخلاقي، وتمرد على الشرط الفني، وإلغاء لخصوصيات الأنواع الإبداعية، وتفلت على ضوابط اللغة، وترد في مهاوي العامية، ونسف لقنوات التواصل، بافتعال التغامض، وخلق الأسطورة، وتعمد التغنص.

«والأدب الإسلامي» يسعى لتلافي ذلك كله، ويتعمد إشاعة القيم الفنية واللغوية والأخلاقية على حد سواء، ويحرص على حمل الناس عليها طواعية لا إكراهاً، وهدفه أن يقدم مشروعه بالتي هي أحسن، لا يكره الناس على أن يكونوا أدباء إسلاميين، إنه دعوة سلمية، تحاول إغراء المتعطشين إلى الكلمة الطيبة والقول السديد بالنهوض بهذه المهمة قولاً وتلقياً، ولما كانت طائفة من دعاة «الأدب الحديث» تعيش عالة على كل القيم الفنية والدلالية الغربية، ولما كان مشاهير الأدباء المعاصرين في لهاث وراء سرابيات المذاهب والتيارات الوافدة، كان لابد من التماس قيم عربية وأخلاقيات إسلامية تميز الأدب العربي عن غيره من الآداب، والمتابع للمشاهد الأدبية لا يسمع إلا بمذهب غربي، ولا يعايش إلا ظاهرة غربية، والأدباء العرب يصطرعون حول قضايا ومذاهب لا تمت إلى الحضارة الإسلامية بصلة.

لهذا كان لابد من استشعار الواقع المتردي للأدب العربي، والعمل على تلافي نقاط الضعف سعياً وراء إقالة العثرة.

و«الأدب العربي» جزء من مفردات الحضارة الإسلامية، منها ينطلق وإليها يعود، وارتماؤه في أحضان الحضارات الوافدة مسخ له وإذابة لخصوصيته، ولاشك أن طائفة من عمالقته تولت كبر الارتماء في أحضان الغير، ونافحت عمن تعجل إلى الحضارات، دون تضلع من التراث، يمكن من التمثل، ووسط هذا التهافت على المستجد دون وعي ودون حاجة اقتدار وتمثل، كان لابد أن يكون لنا أدبنا المتميز الذي يستصحب التراث، ويتفاعل مع المستجد، لا ينسلخ من قيمه الفنية والأخلاقية، ولا يعتزل المعاصرة، فالناس أبناء حاضرهم، وليسوا أبناء تاريخهم، والتفاعل الإيجابي مطلب حضاري، ومؤشر قوة واقتدار، وكم هو الفرق بين أن يحتويك الطارئ أو تحتويه، والنزعة التقليدية هي احتواء التراث للمبدع والناقد، وليس تقليد الغرب بأحسن حال من تقليد التراث، والمحافظة غير التقليد، ومحاكاة الغرب ليست تجديداً، ان مهمة «الأدب الإسلامي» أن يحتوي التراث والمعاصرة معاً، ويستن لنفسه طريقاً قاصداً، يستجيب فيه لحاجة الأمة، ويشبع رغباتها المشروعة، ولن يتحقق التميز إلا إذا انطلق أدباؤنا من التصور الإسلامي لله والكون والحياة والإنسان، والتصور الإسلامي لا يناقض أدبية النص ولا شعريته ومن قال بذلك حمل "الأدب الاسلامي » ما لا يحتمل، وإذا تحققت أدبية النص في الإبداع الوجودي

والماركسي فإن تحققها في «الأدب الإسلامي» أولى، وما القرآن إلا معجزة بيانية في الدرجة الأولى، مع أنه وعاء التشريع والتوحيد والقيم الأخلاقية.

-ولما لم يكن الأدب في سالف عهوده مؤدلجاً ولا مسيساً لم تقم الحاجة إلى أسلمته، إذ هو إسلامي لتوفر الحاكمية والتزام الناس بالمقتضى الإسلامي وقوة الوازع الديني، وما مرت به عصور الأدب من نزوع صوفي أو شعوبي أو طائفي أو سياسي يعد مبادرات شخصية، وليست مذاهب مقصودة، نجد في أدبنا العربي القديم شعر «الخوارج» و«الهاشميين» وشعر «الشعوبيين» و«المتصوفة» و«الشكوكيين» و«الماجنين»، ولكنها عوارض مقموعة بالغلبة، وليس لها ثبات المذهبية.

أما في العصر الحديث فقد تجلى الالتزام، وقامت المذهبية، ودخل الأدب في ضوائق السياسة و«الأيديولوجيات» وحين تعي المذاهب الفكرية أهمية الأدب ومهمته، وتسعى لتوظيفه في خدمة المبادئ والمذاهب يكون من حق المفكرين الإسلاميين استنهاض الأدباء للقيام بواجبهم الإسلامي. ومقاصد «الأدب الإسلامي» لا تقف حيث يكون شعر المواعظ والزهد والتصوف والشعر الديني والابتهالات والأناشيد الإسلامية، إنها مقاصد تستوعب الطارف والتليد، وترمي إلى غايات أبعد مما يتصوره المتحفظون.

إن أمامنا أدباً ماركسياً، وأدباً حداثياً، وأدباً وجودياً، تشيع المبادئ والأفكار والقيم بطرائق لا تكون فيها مباشرة الدعوة، إنها تمثل للمبادئ والأفكار، وتحرك وفق مقتضياتها، وذلك ما تسعى إليه نظرية «الأدب الإسلامي»، ولو كان هناك توظيف واع وقاصد للأدب العربي لما كان هناك تفكير في الأسلمة، ذلك أن الأدب إسلامي بطبيعته، وذلك ما يجنح إليه البعض ممن يتحفظون على التسمية، ولا يعترضون على الممارسة، ولكن «الأدلجة» حين حادت بالأدب العربي عن طرائق العفوية، أصبح من الضروري طرح مشروع «الأدب الإسلامي».

وفوق هذا وذاك فإن الأدب «كلمة» وللكلمة رسالة تواكب رسالة المسلم في الحياة، فما رسالة المسلم في الحياة، قبل أن يكون مبدعاً، وبعد أن كان؟

إن «الكلمة» مسؤولية ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] ﴿وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠] ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [الحج: ٢٤] ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ﴾ [النساء: ١٤٨] وإذا كان الإنسان محاسباً على ما يقول، وإن تصور أنه في قوله يخوض ويلعب، فإن من واجبه ألا يقول إلا حسنا، أحسب أن الواقع المعاش يستدعي مثل هذا المشروع، فالواقع العالمي وواقع الأدب العربي يقتضيان التحرف السليم لصناعة الكلم الطيب والقول السديد، مع الاحتفاظ بحرية الأديب وأدبية النص، فالأدب غير الفقه وغير التفسير وغير التاريخ، ولكنه يستمد منهما ما يحقق انتماءه لحضارته، وما حضارته إلا الإسلام، وما الإسلام إلا أمر ونهي وحرام وحلال وأطر على الحق، يقع على القول مثلما يقع على الفعل، والحرية لا تكون إلا بضوابطها.

أرى خلل الرماد وميض نار.. !(١)

بعد تواصل المطاردات واكتشاف الخلايا النائمة والمتململة والناشطة في أطراف البلاد وفي حدقات العيون وسويداء القلوب أرض القداسات، ووقع التفجيرات المحكمة التخطيط والرهيبة التنفيذ، عاج المفجوعون والذاهلون من هول الصدمة إلى الاستنكار والشجب والتجريم، وعجت أسأل عن الفواعل والمفاعيل، وعن المواجهات والمعالجات، وعن مستوى أفراد الأمن وآلياتهم، وعن دور المواطن التوعوي والتعقبي الغائب أو المتخاذل أو المتردد أو الفاعل على استحياء، عجت أسأل عن: المفعول به، وفيه، ولأجله، وعن الفاعل، ونائبه: الظاهر والمضمر.

وعن مدى العلاقة الطردية أو العكسية بين الفاعل والمفعول فيه: (المجرم) و (الوطن)، ومن وراء الفعل: تمويلاً وتسهيلاً وتمويهاً؟ وهل الفعل مقاومة وطنية، كما يتصور السذج والحاقدون؟ أو هو استعجال للإصلاح، كما يشيع المغفلون؟ أو هو لعبة خطيرة اتخذت لنفسها أشكالاً وألواناً: من حروب أهلية، إلى مناوشات حدودية، إلى صدام طائفي، إلى احتلال سافر، وإلى تفجير مدمر، أو هو لعبة ارتدادية ضد اللاعب الأكبر خارج أرضه، أو أن ذلك رسالة ثقيلة المضمون ضد صمود البلاد وأهلها، لتركيعها، أو إزاحتها عن طريق الحلول الاستسلامية، وكأن خارطة العالم الجديدة ليس فيها متسع لأناس يقولون: ربنا الله، ويصرون على حقوق عالمهم المنتهك من كل جانب.

وكل هذه التخمينات لمجرد أن التفجير العشوائي يحصل في بلد ليست لديه قابلية للإرهاب، وليس أهله من شرار الخلق، فهم لا يعرفون القتل الهمجي، ولا المقابر الجماعية، ولم يألفوا توارث السلطة عن طريق الثورات الدموية والتصفيات الجسدية والانقلابات البيضاء المدفوعة الثمن للساكت والداعم. ومع كل هذا فقد ملئت أرضهم بالسلاح الفتاك، وشاعت في أوساطهم الأفكار المنحرفة والانتماءات المتعددة والرؤى والتصورات المتناحرة، ومما زاد الحال سوءاً تسابق القنواتيين على تداول شؤونهم الخاصة في الغياب والحضور، وكأنهم من (بني تيم)، وتهافت الوُصوليين لتمويل هذا الفضول الممقوت.

وأحسب أن الأمر بعد أن تداعى الفارغون والماكرون والحاقدون على الإثارة والتحريض والفعل التدميري لا يكفي فيه مجرد الاستنكار، ولا المواجهة الهجائية، وديننا وجهنا لذلك. وفي الحديث: «**لا تلعنوا الشيطان فإنه يزهو**». وطلب منا الكف عن النيل من مقدسات الآخر: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾. والأمة في السلم والحرب والرخاء والشدة مأمورة بإعداد القوة: قوة التقدير والتدبير، والقول السديد، والفعل الرشيد.

ونحن في ظل هذه الظروف العصيبة بحاجة إلى خطة محكمة تطاول الزمن، يقل فيها الكلام المتشنج، ويكثر فيها العمل المحكم، وتشدد فيها وطأة المحاسبة لكل من امتدت يده الآثمة إلى مثمنات الأمة، أو انطلق لسانه في تغذية الفتنة، ودعم عناصرها، ولو عن طريق التلميح، خطة لا تقتصر على المطاردة والمداهمة والتناوش بالألسنة والسلاح.

وإذ يكون الإرهاب ظاهرة تتسم بالثبات والديمومة، فإن مواجهته تختلف عن العرض الزائل، ومكمن الإشكالية يتراوح بين الممارسة الإرهابية والمواجهة غير المتكافئة. وتجاوز الحدث بكل مراراته وويلاته، يمكّن من التبصر والتروي للمواجهة: الرسمية والشعبية، بعد قراءة الأحداث على كل المستويات، وبعد إحكام الخطط، وفهم الدوافع

---

(١) تاريخ المقال: ١٨/ ١١/ ٢٠٠٣

والأسباب والمصادر. فالذين يحصرون دوافع الإرهاب في الأوضاع المحلية القائمة يصيبون الوطن بما هو أسوء من الإرهاب، والذين يحيلونها على المناهج الدراسية يضربون في فجاج التيه، والذين يحصرونها بالصحوة الإسلامية يقعون في حبائل المتماكرين. وفوق كل ذلك فالذين يوقظون رجال الأمن للمواجهة: ثم يغطون في نوم عميق، تواكلاً لا اتكالاً، لا يختلفون عمن يحرفون الأسباب عن مواضعها.

رجل الأمن وحده في ظروف عصيبة كهذه الظروف التي تعيشها البلاد لا يحقق أدنى حد من المواجهة، نحن في زمن عصيب ومخاضات لا تنتج إلا الأشأم، زمن تحولت فيه لغة الكلام إلى لغة السلام، والشخوص الماثلين إلى أشباح لا تكاد تستبان، إنه زمن مشكل، يتطلب عملاً جماعياً، يستنفر له كل قادر، وتستدعى له كل الخبرات والتجارب في كل بقاع العالم، ويستعان من أجله بكل الممكن، فما بعد الوطن وأمنه من مكرم، ولما نزل ننعم بالأمن، ولا نخشى إلا الله والذئب على الغنم، والخوف من تفاقم الأحداث. ولتفويت الفرصة على المتربصين لابد من حالة طوارئ، توضع فيها خطة أمنية لا أمنية، ينفر فيها كل الناس، وتوجه لها كل الجهود، تشكل لجان، وتنشأ مديرية خاصة بالمكافحة، وتقام أسابيع توعوية، في كل الحقول، ومن كل الحقول المعرفية والفكرية والثقافية والتربوية والتعليمية، ويزج في أتون المواجهة كل مقتدر، فهناك تشبع فكري منحرف، وتشبع إرهابي عنيف وسلاح فتاك، ولا تواجه هذه الظروف إلا بالنفور الجماعي:

-الأستاذ في فصله.
-والدكتور في قاعته.
-والإمام في محرابه.
-والخطيب على منبره.
-والعالم بين كتبه.
-والمرأة في بيتها.
-والأب بين أولاده.
-والإعلامي في صحيفته أو إذاعته أو قناته.
-والتاجر في متجره.
-والمزارع في مزرعته.
-والبدوي في صحرائه.
-وكل عاقل رشيد يملك القدرة على القول أو الفعل.

فما عاد الوقت وقت رسميات، ولا تسلسل سلطات، ولا فروض كفايات، المسألة مسألة حياة أو موت، فالأمة مستهدفة في عقيدتها ومقدراتها ومكتسباتها وإنسانها وأمنها، ومن أحال إلى المعارضة أو إلى التنازع على السلطة فقد وهم.

وكيف نتواكل والبلاد التي تنفست فيها الفتنة، وفحت فيها الأفاعي، ليست بلدًا متخلفًا فقيرًا منهكا، يعيش أهله تحت الشجر ويشربون الماء الكدر، ولا يجدون ما يقيم الأود ولا ما يستر العورة، إنه بلد حضاري، توغل في المدنية، حتى فاق أهلها، وتواصل مع العالم حتى زويت له الأرض، له قلاعه الصناعية، ومحافله العلمية، ومؤسساته الدستورية والتشريعية والشورية، وبنيته التحتية، وإمكانياته الاقتصادية التي تتحلب عليها أفواه الجشعين الحاقدين، بلاد ركضت في فجاج الحضارة والمدنية لا يمكن أن تعود إلى ما كانت عليه من قبل.

وإذا كنا نفزع إلى المساجد للصلاة والقنوت، ونصعد على المنابر للشجب والاستنكار والدعاء بالويل والثبور كلما خر مسلم صريعاً في (الشيشان) أو في (أفغانستان) أو في

(كشمير) أو في (الفلبين) فإننا أحوج ما نكون إلى اللجوء إلى الله والإلحاح بالدعاء والتركيز على التوعية مما نحن فيه، فالنوازل تحدو بالأمة إلى القنوت، وكم قنتنا من أجل نازلة ألمت بالمشرق أو المغرب الإسلامي، وهل بعد ازهاق الأرواح المعصومة أو الآمنة من كارثة تستحق أن ننادي لها ب: - (الصلاة جامعة)، وهل بعد الوطن المطعون في الخاصرة من فتنة. ومن واجب كل مواطن يعي واقعه وأبعاد واقعه: دينيا وسياسيا واقتصاديا واجتماعيا أن يلح بالتساؤل، وأن يتجاوز الأنماط والسوائد، فالوقاعات غير المتوقعة لا يكفي فيها التعامل (الروتيني). والبحث عن تفاصيل الحدث، يسبقه البحث عن معقولية الحدث، بمعنى: هل من المتوقع وفق أوضاعنا القائمة أن يحصل في أرضنا مثلما هو حاصل؟. كلنا مقصرون، وكلنا خطاؤون، ونحن أحوج إلى الإصلاح والتغيير والاستخارة والاستشارة في كل صغيرة وكبيرة، وما من شيء من ذلك يبرر أن يصدح صوت أو تعلو يد، فضلاً عن أن تراق قطرة دم. البلاد ليست مهيأة لما حصل، وأهلها لم يألفوا هذه الظواهر، فلقد عشنا الأمن والاستقرار والرخاء، وإذا بدرت خطيئة حسمت بين عشية وضحاها، وحين لا تكون الأسباب مرتبطة بالمسبب، يتجاوز التساؤل الحدث إلى امكانية وقوعه. لقد وقعت التفجيرات، وهلك من هلك دون بينة، ولم يعد بالإمكان أن نقول للمتوفين والمصابين: (أيديكم أوكت وأفواهكم نفخت)، ذلك أنهم لم يكونوا أبرياء وحسب، وإنما هم في بلد آمن مستقر - وسيظل إن شاء الله- يوفر الكرامة والحرية لكل قادم، بل أكاد أقول: إننا نحن الضيوف والوافد رب المنزل. وحين لا يخطر على بال أحد أن يتعرض لمثل ما تعرض له، يتجاوز التساؤل الحدث من حيث وقوعه إلى الحدث من حيث أسبابه ودواعيه، فلم يعد البحث عمن فجر، وإنما البحث عن الأسباب والكيفيات ولحساب من. وفوق كل ذلك: - كيف استطاع المجرم أن يتوفر على الأجواء الملائمة للفعل النكرة؟ وكيف وصلت هذه الأرتال من الأسلحة؟.

إن هناك خللاً، ومن أوجب الواجبات أن نتجاوز الإدعاء والاتكالية، وأن نعترف بتقصيرنا مواطنين ومسؤولين، وعلينا أن نملك الشجاعة في الاعتراف، فكل مريض ينكر مرضه لا يمكن أن يشفى، وكل جاهل ينكر جهله لا يمكن أن يتعلم، وكل عاجز ينكر عجزه لا يمكن أن يحقق شيئاً. ليس عيباً أن نخطئ، وإنما العيب أن ننكر الخطأ، أو أن نصر عليه، البلاد مزروعة بالإرهابيين، ومليئة بأسلحة الدمار، فكيف غزيت الأرض والأدمغة؟ هل واطأ المواطن أو غفل المسؤول؟ لقد وحد الملك عبد العزيز البلاد، وليست له وزارة دفاع، وزرع الأمن وليست له وزارة داخلية، كان المواطن جنديه ورجل أمنه، وهل من المعقول أن يفرط عاقل رشيد بهذه المنجزات؟ دعونا نقول بكل تجرد: إشكالية البلاد من أبنائها المقتدرين الذين غفلوا.

نعم أوضاع العالم اليوم غيرها بالأمس، والفتن من حولنا تعصف بالحيوات والمثمنات، ولابد - والحالة تلك- أن نصاب بدخنها، ولكن الدخن بدأ يتحول إلى ضرام، والأحداث المتلاطمة من حولنا كشفت عن ثغرات، ومن الخير لنا أن نستبق إليها، لسدها قبل أن يتهافت من خلالها المفسدون في الأرض، البلد بلد الجميع، والأمن أمن الجميع، ومن وكل أمره المصيري إلى غيره فوت على نفسه أهم الفرص، لقد حان الوقت للنفور كافة بالأقلام والألسنة والأفكار والخبرات.

وعلى الذين أنشأوا الصناديق والجمعيات والمؤسسات للأعمال الخيرية في الداخل والخارج أن ينشئوا مثلها لمكافحة الإرهاب، وتخليص البلاد من وباء قادم، قد يحولنا إلى متلقين لإعانات الغير، ومحتاجين إلى المؤسسات الإنسانية، وما لم يضع المواطن يده مع السلطة في المواجهة تنامت الفتن، وما تحت أديم السماء من قوي يراهن على السلامة.

إن ما نشهده من أحداث توجب على كل مقتدر أن يوظف كل طاقاته، وألا ينتظر حتى يطلب منه الإسهام، فالوضع يتطلب أن يكون كل مقتدر رجل أمن يتقدم إلى المسؤولين بالرؤى والتصورات والأساليب والمعلومات. وأوجب الواجبات أخذ الحذر في كل سوق وبيت ومكتب ومسجد ومدرسة. وعلى كل الخطباء وكل العلماء وكل المعلمين أن يواجهوا الأحداث بلسان عربي مبين، لا تورية فيه ولا كناية ولا تلميحا. انتهت فترات التردد، وانتهت فسح التأويل والتبرير والتعذير، وجاءت لحظة (إن لم تكن معي فأنت ضدي). هذا لسان الوطن، فلمن نكل أمره، إلى عدو يتربص به، أو إلى جشع يتلصص على خيراته، إن لدينا قبلة الموحدين ومعبود الجشعين الأسودين: الكعبة والبترول.

وإذا فقد الأمن فُقد كل شيء، بل ساء كل شيء، إنه قضية المخدرة في بيتها، والطالب في مدرسته، والمواطن في سوقه، والطفل في حضن أمه، والوافد في عمله، والظاعن في صحرائه، الأمن حق مشروع كالماء والهواء، فإذا بادرنا إلى تصفية الماء من الكدر، وتنقية الهواء من التلوث، وجب أن نحفظ الأمن من نواقضه، وإذا اختل الأمن مس الضر كل من أقلته أرض الوطن وأظلته سماؤه. والأمن ليس قضية تخص وزارة الداخلية ومكافحي الشغب وقوة الطوارئ والمباحث الذين أبلوا بلاءً حسناً، الأمن حق لكل مواطن ومسؤولية كل مواطن، وحين يختل ترخص بعده الأموال والأنفس والثمرات، وكيف لا ترخص وفي (باب الفتن)، أن الرجل يمر بالقبر ويتمنى أن يكون مكان صاحبه، لما يراه ويعيشه من أهوال.

وعلى العقلاء أن يلتفوا حول المسؤولين للنهوض بالمسؤولية المشتركة، فالمسألة لم تعد بحيث ننام ملء جفوننا لمجرد أن رجل الأمن يسهر على راحتنا وأمننا.

الأحداث تحولت من دخان إلى ضرام، ولما يزل المواطن في مأمن، ولكنه أمن الخائف، وعلى المسؤولين لإحكام المواجهة وترشيدها تجنيد كل مقتدر من طلاب الجامعات وخريجيها للمتابعة والمكافحة والتحري والتوعية، ورصد التحركات المشبوهة وتزويد مراكز المعلومات الأمنية بما يصلون إليه من معلومات، لا لمحاصرة المفسدين في الأرض، ولكن لاجتثاثهم.

السؤال الأكثر إلحاحاً واستحالةً وتعقيداً: من يكون هؤلاء؟ وماذا يريدون؟ ومن هم خصومهم؟ وإلى أي شرعة أو منهاج يرجعون؟ وإلى أي قانون يحتكمون؟ لو رأيناهم أو سمعناهم أو عرفناهم، ولو من وراء حجاب، لكان أن حسمنا أمرنا معهم، ولكننا لما نزل مع أشباحهم في أمر مريج.

علاقة الأدب الإسلامي بالأدب العربي .. ؟[1]

كلما استفحل الخلاف بين طوائف الفكر والأدب، نظرت إلى اختلاف المفاهيم، فوجدتها «جوف الفراء» كما يقول المثل: «كل الصيد في جوف الفراء».

ذلك أن «نظريات التلقي» تحول دون استكناه الأشياء واستنطاق المصطلحات، وفق مراد منشئيها. ولما كان شرط المصطلح ان يكون جامعاً مانعاً يجمع اطراف القضية، ويمنع دخول ما سواها، كان على المتلقي استنطاق المصطلح، لا النطق عنه. وحين ينهض المصطلح بمهمته ومقتضياته، ثم لا يكون المتلقي واعياً للمقاصد والحدود ومناطق الاشتراك بين المترادفات، يلجأ إلى الافتراضات والتخرصات، ويرتب موقفه على ذلك، ثم يكون التنازع بديلاً عن الوفاق. وحين لا نقرأ الأشياء من خلال نصوصها قراءة تقترب من البراءة ولا تكونها، تجتالنا «نظريات المعرفة» التي توجه التأويل، ليكون نقيض المقاصد، وكل قراءة لا تمتلك قسطاً أوفى من البراءة والحيادية تحمل النص ما لا يحتمل، وتكرهه على أن يقول ما يريده المتلقي، لا ما يريده المرسل.

ومن تحت عباءة النظريات: القرائية والمعرفية والتأويلية نسلت الملل والنحل، وانشغل رواد النهضة وقادة الفكر وزعماء الإصلاح بتصحيح المفاهيم التي يقصدونها، لا بتقديم المعارف التي يودون توصيلها. ولو أن المشاهد الفكرية والأدبية تلقت المصطلحات والظواهر والقضايا على ما هي عليه لحوصر الخلاف في أضيق نطاق، ولو أن المتجادلين لم يتخذوا أهواءهم آلهة لما بعدت الشقة على طلاب الحقائق.

إن هناك معلومة، وهناك سبيلاً للحصول عليها أوالوصول إليها، وبمعنى أوضح، أن هناك إرسالاً وتلقياً ومتى استقامت وسائط ذلك توفرت المعلومة كما هي عند المرسل، وما من مفكر أو أديب إلا ويود أن تصل رؤيته إلى الآخرين كما يعتقد. وما وجدنا أكثر ذوي المبادئ إلا مستهلكين في تحرير مسائلهم، وتوضيح وجهات نظرهم، وتصحيح أخطاء التلقي والتأويل، وما أتيت المذاهب والأفكار إلا من سوء الفهم، أو من شطح التأويل، أو من التعصب المقيت أو من زيف المواقف، وكم من كتَّاب كنا نعدهم من أصحاب المواقف والمبادئ استزلتهم أهواؤهم ورغباتهم الذاتية ومصالحهم، والمصالح لا تتحكم إلا في المشاهد السياسية، أما المبادئ فتحتاج إلى مواقف تبحث عن الحق ولا تنشد الكسب غير المشروع.

وما «الأدب الإسلامي» من كل ذلك ببعيد، وإشكالياته وعقباته ناشئة من آليات التلقي، لا من مقتضياته ومقاصده، إذ ما من رجل رشيد يعترض على الكلم الطيب والقول السديد. والأدب حين يلتزم الفضيلة يظل أدباً، وحين يقع في الرذيلة يظل أدباً، وحين يحارب القيم السلوكية والأخلاقية يظل أدباً، فالأدبية والشعرية مقتضيان فنيان لا يرتبطان بالدلالة على كل أحوالها التألقية أو الانطفائية، وتحقق أدبية الأدب أو شعريته رهينة الشرط الفني ليس غير. و"علم الدلالة» أصبح من القضايا المهمة في مشاهد النقد الأدبي، وهو محور الجدل عند المشتغلين بـ«الأدب العربي» و«الأدب الإسلامي» وإن كانت نظريات «علم الدلالة» توغل في قضايا ليست واقعة ضمن اهتمام «الأدب الإسلامي».

ولأن «الأدب الإسلامي» مصطلح حديث، فقد تصوره المتلقي حديث المقتضى والمحتوى والشرط، بحيث ربط بين التاريخية والممارسة ربطاً عضوياً، ولو أن المتلقي نظر إلى الممارسة منذ أن نزلت «آيات الشعراء»، ومنذ أن وجه الرسول صلى الله عليه وسلم. الشعراء من أصحابه إلى المنافحة عن حوزة الدين، ومنذ أن دعا لحسان بن ثابت،

---

(١) تاريخ المقال: ٢٥/ ١١/ ٢٠٠٣

لكان أن عرف أن «الأدب الإسلامي» كائن منذ أن كانت الرسالة. وتصور الدارسين والنقاد بأن «الأدب الإسلامي» يشكل مع «الأدب العربي» اختلاف تضاد لا اختلاف تنوع استدعى القول في العلاقة بينهما. ولو أنهم فكروا في ثنائية التنوع أو العموم والخصوص لما احتاج الأمر إلى مزيد من القول. ولما كان «الأدب العربي» في صدر الإسلام وعاء الفضيلة ومنطلق القيم الإسلامية لا يزاحمها ولا ينازعها إلا ما جن ذليل أو شعوبي حقير، فإنه لم يكن أحد يفكر بهذا المصطلح، ولا يفكر باعتزال الأدب الذي وسع كل مناحي القول. ولو أن الذين يسكون المصطلحات لم ينسبوا الأدب إلى لغته، ولا إلى زمانه أو مكانه أو حكامه أو مضامينه لما كان لأحد منا أن يفكر بنسبة الأدب إلى الإسلام، أووصفه به، ولو أن الأدب لم «يودلج» ولم يسيس، ولو أنه ترك للامتاع والتسلية لما أدلى الإسلاميون بدلوهم، أما وقد حمل الأدب العربي ما لم يكن يحتمله من قبل، وأبيح له ما لم يبح له من قبل، فقد لزم اقتطاع جزء من مساحته الواسعة، كما تقتطع الأرض، لتكون مكاناً للعبادة، والأرض اقلت المساجد والملاهي والحدائق والمزابل والصحاري القاحلة والرياض الغناء. وهكذا الأدب يتسع لكل فنون القول وأغراضه، وكل فن وغرض يحمل سمته واسمه ولا مشاحة في ذلك.

ومعايشة المشاهد للأدب موصوفاً بأولويات مقاصده يستدعي إلف ما يجد من مصطلحات، وعدم التحفظ عليها فضلاً عن الرفض، لقد وصف مصطلح «الأدب» بما لا حد له من المصطلحات أو الكلمات التي تحولت فيما بعد إلى مفاهيم مصطلحية، لقصد التخصيص والتميز وتكثيف الأداء فقيل: الأدب العربي أو الفرنسي أو الانجليزي أو الألماني. وقيل: الأدب الصوفي أو الحداثي أو الماركسي. وقيل: الأدب العباسي أو الأموي أوالسعودي. وقيل الأدب الحجازي أو المصري أو السوري. وما اعترض أحد على شيء من تلك التسميات، وما تساءل أحد عن مشروعيتها، وحين قيل «الأدب الإسلامي» ثارت الثائرات، وأثيرت التساؤلات، وسيقت التحفظات، وقيل بالتجزيئية والتصنيفية والأدلجة والتقييد ومصادرة الحرية الفنية، وافترضت الثنائية المتضادة زوراً وبهتاناً، بحيث لا يكون في ازاء الأدب الإسلامي إلا الأدب الكافر. ولسنا بصدد التزكية أو الإدانة أو سوء الظن، ولكننا نود أن نلتمس الوشائج والمساحات المشتركة بين «الأدب العربي» و«الأدب الإسلامي» سعياً وراء تصحيح المفاهيم، وتقريب وجهات النظر، وكشف الدعاوي الواهمة، وتطمين النفوس القلقة، فأدب الأمة يتوفر على المرجعية لكل ما نسل منه من مصطلحات جديدة. وإذ يكون «الأدب الإسلامي» مصطلحاً مركباً من كلمتين اصطلاحيتين: مصطلح «الأدب» ومصطلح «الإسلام».

يكون «الأدب العربي» هو الآخر مركباً من مصطلحين، أولهما مشترك بين العروبة والإسلام، وهو كلمة «الأدب» وأما الآخر، وهي كلمة «العربي» فهو مصطلح يحدد لغة النص، ليس غير، ومن ثم يلحق به الأدب الإسلامي إذا أبدع بلسان عربي، وعلى هذا فإن هناك التقاء وافتراقاً، أو قل التقاء مطلق وآخر مقيد. والتقاء في الأدبية ومقتضياتها، والشعرية ومطلباتها، واللغوية وجمالياتها، وافتراق في مشروعية المضامين وتنوعاتها لا في تضادها. وافتراق الصفة المخصصة لا يشترط فيها تناقض المضامين، بحيث لا يكون «الأدب العربي » إلا أدب عهر وكفر، وعلى نقيضه «الأدب الإسلامي»، ولكن يظل «الأدب العربي» متسعاً لكل المضامين، بما فيها المضمون الإسلامي، فيما يقتصر «الأدب الإسلامي» على ما يقتضيه الإسلام من قيم وأفكار وتصورات، ومن ثم تكون العلاقة بين الأدبين علاقة عموم وخصوص، وليست علاقة تضاد، ف «الأدب العربي» منسوب إلى لغته وإلى ما وسعته اللغة من مضامين، وبهذا يكون أدباً عربياً، وإن تعددت مقاصده وتصوراته ومضامينه، واللغة العربية وسعت كتاب الله لفظاً وغاية. و«الأدب

الإسلامي» منسوب إلى مضمونه، فما وسعه الإسلام من المضامين فهو مادة «الأدب إسلامي» وما وسعته اللغة فهو أدب عربي، ولأن اللغة العربية وعاء الفكر والدين فإن أدبها يكون الأوسع والأشمل.

وكلمة «أدب» ترحل بمقتضياتها الفنية وتصطحبها مع كل اضافة، فهي كما هي في الأدب الحداثي أو الوجودي أو الماركسي أو العربي أو الإسلامي. مثلما أن الإسلام كما هو عند الهندي والفارسي والعربي لا يتغير بتغير اللغات، ولا بتعاقب الأزمنة، ولا بتعدد الأمكنة.

فالمقصد الرئيس، وهو أدبية الأدب قائمة في الأدب العربي والإسلامي. واللغة العربية وعاء الإسلام، وما من عربي إلا هو ربيب الإسلام، لأن علاقة اللغة بالفكر كعلاقة الجسد بالروح، ولهذا لا تجد تميزاً حاداً في أدب نصارى العرب، لا في القديم، ولا في الحديث، يتجسد ذلك عند الأخطل التغلبي في العصر الأموي، وعند الأخطل الخوري في العصر الحديث.

وعلاقة «الأدب الإسلامي» ب «الأدب العربي» كعلاقة العلوم الإنسانية بالفلسفة، ف «علم النفس» و«علم الجمال» نسلت من عباءة الفلسفة. ولهذا فإن هناك عموماً وخصوصاً بين الأدبين، ف«الأدب العربي» وسع كل الآداب الإسلامية والحداثية والسريالية والدادية والماركسية والوجودية التي أبدعت باللغة العربية، ذلك أن شرطه أدبي لغوي ليس غير، ومن ثم فإنه ليس معنياً بالدلالة، وليس له شرط دلالي، بدليل أن ما أبدع في اللغة العربية فهو أدب عربي، وليس كذلك الأدب الإسلامي، فالأدب العربي يقتصر اهتمامه على الأدبية بوصفه أدباً وعلى فصاحة اللغة بوصفه عربياً. ولأن لكل أدب موصوف أولوية وشرط تفرضها الصفة، فقد اتخذ كل أدب موصوف سمته التي تكرس صفته وشرطه.

فالأدب العربي يتسع لكل مناحي الفكر والأخلاق، ولا تكون لغته إلا عربية، فيما يضيق «الأدب الإسلامي» موضوعياً، بحيث لا يتسع إلا لما يقتضيه الإسلام من قول أو فعل أو معتقد، ويتسع لغوياً بحيث يكون عربياً وغير عربي. وتميز «الأدب الإسلامي» يرتبط بالدلالة وحسب، بحيث لا يختلف عن «الأدب العربي» في ثوابت الأدب ومقتضياته اللغوية والفنية والشكلية والعاطفية، وإن كانت له مواقفه من الغموض والأسطرة وبعض الجوانب الفنية والشكلية، غير أنها مواقف ترتبط بأدبية النص لا باسلامية الدلالة.

«الأدب الإسلامي» له رسالة وهدف وغاية ومقتضى، قد لا يحفل بها الأدب العربي، ولكنه لا ينفيها، ولا يضيق بها، فقد يلتقيان في الدلالة فيكون «الأدب الإسلامي» قد عاد إلى مصدره، وقد يفترقان فيكون «الأدب العربي» أدباً بفنيته ولغته فيما يكون «الأدب الإسلامي» أدباً بمضمونه دون الاخلال بأدبية النص وشعريته وفصاحة لغته وانزياحها. وكم من أديب عربي لا يعرف مصطلح «الأدب الإسلامي» اتى بما لم يأت به الأدباء المعنيون بهذا المصطلح مجتمعين، وكم من ناقد أو سارد أتيا بما لم يستطعه المنتمون لهذا المصطلح.

والتفاوت في الشرط الدلالي لا يفرق بين الأدبين من حيث الثوابت. وتعدد المصطلحات لا يقتضي التعدد الفئوي، كما لا يقتضي الضدية، ذلك أن الشيء يوصف بما يغلب عليه، ولا تقتضي الصفة نفيها عن غيره، فوصف «عمر بن الخطاب» بالعادل لا يعني أن ما سواه جائر، وكذلك القول ب «الأدب الإسلامي» لا يجعل ما سواه أدباً كافراً. وحرية التعبير التي يطيل المتحدثون الوقوف عندها مكفولة في «الأدب الإسلامي»

بشرطها، إذ ما من حرية إلا ولها شرط وضابط وانضباط، وإلا أصبحت فوضى، وليست الفوضى من الحرية في شيء.

وعندما تختلف المفاهيم حول الحرية يحمل «الأدب الإسلامي» شطراً من أوزار المفاهيم الخاطئة، وكأنه يريد من المبدعين أن يتركوا الإبداع، ومن تخوف من القيود والحدود، وأشفق على الفن من ضوابط «الأدب الإسلامي» فقد عميت عليه المقاصد والضوابط والنظائر، ذلك أن الماركسي والحداثي، متأدلجان» ملزمان مشترطان، ومع ذلك جاء إبداع المنتمين إلى تلك «الأيديولوجيات» في غاية الجودة والتألق، فالمسألة مسألة اقتناع وتمثل وصدق واقتدار وموقف. وعلى ضوء ذلك فإن المسألة محكومة بالالتزام لا بالالزام، وبالاقتناع الطوعي لا بالاقناع القسري، وبالرغبة لا بالرهبة، فمن خاف من شرط الأسلمة تسلطاً تعثر في ابداعه، ومن دخل في الدين كافة، وأشرب في قلبه الايمان لم يستطع أن يقول إلا الحق وهو غاية كل أديب اسلامي.

ومعتصر المختصر: أن الأدب ذو رسالة امتاعية اقناعية استمالية، وهو رهين الانساق الثقافية والاجتماعية السائدة، ومتى فسق عن أنساقه وسياقاته المعتبرة شرعاً وعقلاً دونما وعي بمسؤوليته، أصبح وبالاً على أمته، ولأن الانساق تتشكل لحمتها وسداها من حضارة عريقة عميقة شاملة تمس حياة الإنسان الخاصة والعامة، بل الأخص منها والأعم. فإن مسؤولية الأدب بوصفه مفردة منها تتضاعف، ولما لم يكن «الأدب العربي» مضطلعاً بمتطلبات المرحلة وفق المنظور الاسلامي مع ما يعتريه من عجز أوتمرد، فقد اقتضت مصلحة الأمة مساءلته عن العجز أو الشطح في سبيل ترشيد مساره، وتوظيفه لخدمة العقيدة والحياة وفق المقتضيات الشرعية تمشياً مع الأوضاع القائمة، وعلى ضوء ذلك فإن «الأدب العربي» يشكل الدائرة الأوسع التي تمتلك فيها الآداب المؤدلجة أوالمسيسة حيازاتها لتصبح العلاقة في النهاية علاقة عموم وخصوص. ومن قصر «الأدب الإسلامي» على أدب الدعوة أو الزهد أوالتصوف أوالرقائق فقد تجنى، ذلك أنه يتسع لكل ذلك ويتجاوزه، إنه الابداع القولي المت. وفر على كل متطلبات الإبداع المرتبط بالرؤية الإسلامية للكون والحياة.

الثوابت والمتغيرات في مواجهة التفجيرات .. !؟ (١) [(١)]

تمر الأمم في محطاتها التاريخية بلحظات حاسمة: توصف تارة بالمبادرات الانسيابية، وتارة أخرى توصف بالمخاضات الابتسارية، وهناك فروق دقيقة بين الحالتين، لا يفهمها إلا الراسخون في علم السياسة.

وقد تفاجىء الناس حالات ولادة متعسرة، تأتيهم بياتاً أو هم قائلون، وكل ظرف عصيب يواجه: إما بالمستطاع من التقدير والتدبير والحلم والأناة واختيار الأيسر، وإمّا بالصلف والعنف والتطرف، وما دخل الرفق في شيء إلا زانه، وما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا اختار أيسرهما، وحين تصاب الأمة بنازلة مذهلة، تتفرق بجماعاتها الطرق، فتبلى بالمراء الظاهر والباطن أو بالتنازع والتفرق، ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ [الرعد: ١١] وفي مثل هذه الظروف المذهلة يجب أن تتفادى الأمة التخبيص والرجم بالغيب، والناجون من مثل هذه الأوضاع من يبادر عقلاؤهم إلى الالتفاف حول بعضهم، والتبصر في أمورهم، والحيلولة دون الارتباك، ولا تتحقق النجاة حتى تلتزم عامتهم ما تخرج به المطابخ السياسية والدينية فالعصر عصر مؤسسات وليس عصر أفراد، والنوازل قد تخلط الأوراق، وتعرض ثوابت الأمة إلى التصدع، ولاسيما أننا أمة مسلمة، علمها دينها كيف تواجه المصائب، وكيف تتفقه في الدين، وألزمها التفريق بين الأركان والواجبات والسنن والمباحات، فكان أن بني الإسلام على ثوابت، لا يجوز المساس بها، ولا الاجتهاد معها، وقد قيل: «لا اجتهاد مع النص» ويعنى به قطعي الدلالة وفي المقابل أحيطت تلك الثوابت القطعية بمتغيرات، يحكم بها ذوو العلم والحجا، تجلت في مساءلة الرسول ﷺ لرسوله «معاذ» رضي الله عنه، بم يحكم، وباستفتاء القلب، وما يحوك به من إثم، وما يطمئن إليه من بر، وبدراية الأمة بأمور دنياها، والأمة الإسلامية لها ثوابتها التي لا تحيد عنها ولو وضعت الشمس في يمينها والقمر في شمالها، وحين يدير ذوو الشأن والاختصاص كؤوس المعرفة والرأي حول القضايا المصيرية، ويضطرون إلى نقض البنية وإعادة تأسيسها، يجب عليهم أن يفكروا بالقدرة الذاتية على فهم الشيء ونقيضه: الذات والآخر، ماذا نريد؟. وماذا يراد منا؟ فلم نعد أهل قرية مسوَّرة، لا نحتاج إلى سوانا، ولا يحتاج سوانا إلينا، وحين نتقحم متاهات الفكر، ومضلات السياسة، وأعماق الدين، ونوغل فيها بعنف، دون أن نؤسس لأنفسنا معرفياً، يستخفنا المتربصون فنطيعهم، ثم نفقد مع الأشياء الذوات، بوصفها منتمية إلى شيء لا مزايدة عليه.

وما من شيء إلا وله ثوابته، فللسياسة ثوابتها، وللدين ثوابته، وللتربية ثوابتها، وللاقتصاد ثوابته، وليس من مصلحة الأمة أن يتهافت غير أولي المعرفة والتجربة والاختصاص على القول في القضايا المصيرية، وليس من مصلحتها أيضا أن يلوذ المقتدرون بالصمت، بحجة الأجواء الملوثة والانفلات الفكري، فكل مقتدر راع، وكل راع مسؤول عما استرعاه الله عليه، والقول في الدين مسؤولية كفائية، وهو قائم على التفصيل وعدم التفريط، والأزمات تقود إلى النجاة أو إلى الهلكة، فإذا تلقَّى الراية أهل الحل والعقد، تفادت الأمة الهلكة، أما إذا بادرها سواهم تحت شعارات الغوغائية التي ألحقت الضرر بالأمة فإن الطريق سيؤدي إلى الهاوية.

---

(١) تاريخ المقال: ٢/ ١٢/ ٢٠٠٣

ولأننا نتحدث في ظروف عصيبة، وحول قضايا مهمة، ولأن الإسلام بحسب للأولويات حسابها، فإن أولويات الثوابت في هذه الظروف:-

-«الدين» و«السلطة» و«المرجعية»، فـ«لا دنيا لمن لم يحي دينا»، وليس هناك أمن بدون سلطة قوية عادلة مطاعة، تأطر على الحق، وتمتلك العزمات، وليس هناك اجتماع كلمة دون مرجعية علمية شرعية محترمة حاسمة للخلاف، يصار إليها، ويذعن لها، تلك هي أهم الثوابت في قضايا التنازع السياسي والفكري والديني، وهي مجتمعة أو متفرقة لا تؤدي رسالتها، ولا تحقق مقتضياتها على الوجه الأكمل إلا إذا تفادينا «الغلو» في الدين، وتحامينا «التصنيم» للسلطة، واتقينا دعوى «العصمة» للعلماء، وإلا إذا أوغلنا في كل ذلك برفق فالإفراط والتفريط نقيضان مهلكان، والوسطية هي السمة الإسلامية المنجية، فالله لم يجعل علينا في الدين من حرج، ولم يكلف نفساً إلا وسعها، ولم يعصم إلا رسوله:

﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ ولم يجعل أحداً فوق المساءلة ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]، والسلطة بشرية لها وعليها مسؤولية وغير معصومة، وهي أحوج إلى الاستشارة والاستخارة والمناصحة والمعاضدة والرد عن الظلم والتسليم لشروط البيعة الإسلامية أو الدستور المتفق عليه، فمن اختار «الديموقراطية» وحاكمها بالفكر السياسي الإسلامي، وقع في المتناقضات، ومن اختار السياسة الإسلامية وحاكمها بالفكر العلماني أو «الديموقراطي» فقد وقع في الفتنة، والممارون في القنوات الفضائية يتقحمون «استديوهاتها» دونما تحديد للمرجعية، ودونما تأصيل للقضايا، ودونما تحرير للمسائل، ودونما أهلية لتبادل الآراء، ولهذا يقع المتلقي في دوامة من الشك لا تزيده إلا إمعاناً في الضياع.

والعلماء الربانيون مطالبون بالاجتهاد أمام النصوص الاحتمالية الدلالة والثبوت وبين يدي النوازل، بعد استكمال مسوغات الاجتهاد كما ساقها الأصوليون، والخطأ في الاجتهاد متوقع، وإذا توفرت آليته وإمكانياته وشروطه ودواعيه، ثم مارس العلماء حقهم فيه وأخطؤوا، كان لهم أجر الاجتهاد، وإذا أصابوا جمعوا بين أجري: الاجتهاد والصواب، وهذا الوعد الرباني للمجتهد الذي لم يحالفه الصواب ترغيب في الاجتهاد، وحث عليه، ودفع للتحرج والتردد، ومن تجمد في مذهبية، أو سلَّم لطائفية، أو أذعن لحزبية فقد أوقف حركة التاريخ، والغى حقه ووجوده الطبعي، ومن تقحم مضائقه بدون أهلية جنى على المقتدين به والمفتي المخالف للإجماع مجتهد، فإن لم يكن من أهل الاجتهاد صدَّع تلاحم الأمة واستزل الرِّجال الجُوف، وحين يكون المتبني للقضايا الفكرية أو الدينية أو السياسية من العامة، فليسعه ما وسع الخاصة، وليس من حقه حمل الناس على ما هو عليه، وليس من حقه القطع بخطأ الآخر والعمل على توهينه، فالمقلد لا مزيد على تقليده، وليس له إلا الامتثال، لأنه غير متفقه، وإنما هو متلقٍّ، ينذره الذي نفر للتفقه في الدين، ومن تقحم مضامير الاجتهاد والدعوة والإفتاء، فليعدَّ لها عدَّتها الباهظة التكاليف، ومن لم يعرف أسلوب المراجعة والنقد والمساءلة مع العلماء أو مع السلطة أخل في أدبيات الحوار، وصار ضرره أكبر من نفعه، ومن نظر في سلامة «الغاية» فعليه أن يتقن مشروعية «الوسيلة»، بوصفها آلة توصيل ومسؤولية، فالإسلام لا يرى مقولة: «الغاية تبرر الوسيلة»، ولهذا فإن قائل الحق أمام «دال» و«مدلول» وسلامة أحدهما لا تبرر الآخر، فالكلمة اللغوية بوصفها وسيلة/ دالٌّ، لها ضابطها: النحوي والصرفي، والإملائي والتركيبي، والمضمون «مدلول» له حكمه في المشروعية والحظر، ومن ثم لابد من مشروعية «الدالِّ» و«المدلول»، ولا تتحقق الثوابت المشار إليها إلا بـ «الالتزام» و«الهيبة» و«الاحترام» التزام الدين كما تركنا عليه رسول الله ﷺ، الذي قال:

«**تـركتكم علـى المحجـة البيضـاء** .. » وهيبـة السـلطان، المجمـع علـى شـرعيته، واحتـرام العلماء المشهود لهم بالعلم والاستقامة، ومتى مُيِّع الإسلام، وأصبح كل شـيء مباحـاً باسم حرية التفكير والتعبير، وتمرد العامة على السلطة باسم حق التعبير عن الرأي، وأصر كل ذي رأي علـى رأيـه بحجـة «نحـن رجـال وهـم رجـال»، حلَّـت الفوضـى، وفقـد الأمـن، فالتسامح وحرية التفكير والتعبير وحق الاجتهاد مشروعة بضوابطها ومؤهلاتها وحقها، والأحـداث التـي تعصـف بـالأمن والاسـتقرار، امتحـان لـوعي الأمـة، وجـس لتماسـكها، واكتشاف لقدرتها على احتمال البلوى، وتصرفها في ساعة العسرة ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢]، وما الأحداث إلا تحديات تؤثر على كل المقدرات والمكتسبات، والعامة يواجهونها على كل مستوياتهم وحقهم في التصدي بمواقف مختلفة، وقد يستزل الهوى والشيطان من لم يحسب للعواقب حسابها، فلا يذعنون لشـرعية، ولا يرجعـون لمصـدرية، ولا يسـألون أهـل الـذكر، ومـن ثـم يواجهـون الـنص القطعي الدلالة والثبوت الذي لا اجتهاد معه بحداثة سن وضحالة معرفة.

والتلاسن الكلامي حول الثوابت والقطعيات يفضي بالأمة إلى خلل ذريع، يفوق بـأثره السيئ أثر الحدث، فالحدث غالباً ما يكون مادياً ينتهي بلحظته، ولكن الاختلاف الفكري والديني والسياسي غير المنضبط يمتد أثره، ويتجذر، ويشكل طوائف وأحزابا، ويدخل بالأمـة فـي دوامـة الصـراع الفكـري والـديني، وتغييـب دور الثوابـت ووظائفهـا يسـهم فـي تطوير الخلاف وتأليه الهوى، ليشكل طائفية مقيتة، وحين تتشرذم الأمة تصبح البلاد مليئة بالعبوات الناسفة، لتكون ورقات ضغط بيد اللاعبين الكبار، وكم من دولة تفرق شعبها بين قبليات متوترة، وطائفيات قلقة، وحزبيات متحفزة، وإقليميـات متدابرة، بحيث شكلت هذه التكتلات ثغرات نفذ منها الأعداء، مما اضطر الدولـة المصـابة بهذا الداء العضـال إلـى تحييد اللاعبين الكبار بتنازلات مصيرية تمس الثوابت والحريـات وحق تقرير المصير، وما يعانيه العالم من إرهاب عنيف منظم ليس شرطاً أن يكون ناتجاً محلياً، ذلك أن أساليب الضغط والمساومة والتسلط تمارس كل شيء في سبيل تحقيق المآرب.

والذين يحيلون إلى «الـدين» أو إلـى «المنـاهج» أو إلـى «حركـات الإصـلاح» أو إلـى «اختـلاف السـلطة مـع الأمـة» أو يلمحـون إلـى «جامعـة» بعينهـا، يواطئـون النـاقمين علـى الإسلام المصرّين على إجهاض مشروعه، وإن لم يستشعروا هذه المعية، والمتابع لفيوض القول يدرك أن اللعبة محكمـة، فالإسـلام أصبح المتهم الأول، ولـم يتنبـه ذووه إلـى المكيـدة الحاذقة، بل ظلوا يرددون ببلاهة ما تـردده الوسـائل الغربيـة المناوئـة، وإذا حصـل اعتـداء وحشـي دمـوي همجـي، لا يعـرف بالتحديـد فاعلـه، ولا تعـرف دوافعـه، ولمّـا تحـدد قضـيته، فإن واجب العامة ألا تخوض فيه، وألا تتعجل معرفة الفواعل والـدوافع والنتـائج، لأنهـا إن فعلت ذلك ثبطت عزمات أهل الحل والعقد، ومهما تفاوتت الآراء فإن:-

-الإخلال بالأمن القائم والمعاش جريمة.
-وقتل الأبرياء: مسلمين أو مستأمنين جريمة.
-وتصفية الاختلاف في وجهات النظر بالسلاح جريمة.
-والطعن في أمانة العلماء وكفاءتهم جريمة.
-ومنازعة السلطة المجمع على شرعيتها جريمة.
-والتسليم لحكم إسلامي ثم محاكمته على ضوء أنظمة وضعية جريمة.
-واستفزاز الرأي العام بالتطرف الديني أو العلماني جريمة.

وهذه الجرائم دركات، فحرمة المسلم تفوق كل حرمة، واختلال الأمن رأس كل خطيئة، والفراغ الدستوري ذروة كل بلية، وللحديث بقية.

الثوابت والمتغيرات في مواجهة التفجيرات .. ! (٢)[1]

وإذا اتفقنا على ما سبق من ثوابت ومتغيرات ومفاهيم، ونحن ملزمون بالاتفاق أو بالتعاذر أو بالتعايش على الأقل، لأن ترك الأشياء معلقة تعويق لمسيرة الحياة، إذا اتفقنا لزم أن نفرق بين «الاختلاف المعتبر» و«التنازع المحظور». كما يجب أن نفرق بين «المعارضة» المشروعة و«التمرد على السلطة»، وأن نفرق بين «مراجعة العالم» الشرعي و«الطعن في كفاءته وأمانته ونزاهته». وفي الوقت نفسه يجب أن نفرق بين «السكوت» عن الحق و«المجادلة» عمن يختانون أنفسهم. ولن يستقيم لنا شأن حتى نسمي الأشياء بأسمائها، ثم نتفق على وسيلة مقبولة لتداول القضايا الخلافية، ونهيئ قنوات مأمونة للتواصل بين ذوي الرأي والسلطتين:

السياسية والدينية وإذا نسلم بمساءلة الذات، فإننا مضطرون لحوار الآخر، للإسماع والاستماع عن مراد كل طرف، أو لتصحيح المفاهيم المتبادلة. ولا يتم ذلك على وجهه إلا بالتحرير الدقيق للمسائل المختلف حولها، وتحديد الموقف منها، ومعرفة الثوابت التي لا مجال للبحث فيها، والمتغيرات التي يمكن النظر فيها. ولا بد أن نعرف من نكون. فمن جادل وهو يجهل ذاته أرداه خصمه. وما من دابة عاقلة إلا ولها انتماؤها، وكل انتماء لا يتحقق إلا بالإصرار والاعتزاز والتمثل. وبهذه الضوابط يتحقق التحرف الحصيف لمواجهة متكافئة: مادياً ومعنوياً وبشرياً ومعرفياً. فإذا قيل لنا: بأن «الإرهاب» منتج إسلامي، بحجة صدوره من أفراد ينتمون إلى الإسلام، وإذا زيد في النيل، وقيل: إنه منتج إسلامي محلي، لأن من أطرافه من ينتمون إلى هذه البلاد، لزمنا التفريق بين المبدأ والتطبيق، وبين الطرف الموالي والمعارض والمنشق على السلطة. فنحن وأبناء الإسلام، كما أراده الله، وكما تركنا عليه رسوله، ونحن حماته وحملته إلى العالمين، لا نسوغ لأنفسنا قتل «هرة» فضلاً عن قتل إنسان معصوم، وفي ديننا: «**أن امرأة دخلت النار بهرة حبستها فلا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض**» وفيه المنع من اتخاذ الحيوان غرضاً للرماية، وفيه «**كل نفس رطبة فيها أجر**»، وفيه «**أن امرأة مومساً سقت كلباً فدخلت الجنة**»، وفيه التحذير من إشهار السلاح، وفيه الحث على الحلم والأناة والرفق والسكينة والتيسير. وحتى في الحرب نهينا عن قتل المرأة والطفل والشيخ الكبير والأجير والمستجير. فكيف نساير الأعداء في تداول الإسلام بوصفه مصدر التفجير والتدمير؟ ثم نقبل إحالته على البلاد وأهلها. وكيف يكون منا أو من ديننا ما يخل بالأمن القائم، أو يسعى لإحداث فتنة أو فراغ دستوري، وهو الذي يحذر من الخروج على الشرعية، لأنه طريق الفتنة، كما أنه لا يقبل قتل المعصومين بالدين أو بالذمة لأنه عدوان، والسلطة الشرعية عنده شرط الحياة السوية، و«من مات وليس في رقبته بيعة مات ميتة جاهلية». وإذا تزيّا أحد من القتلة بزي الدين، وابتسر الآيات والأحاديث والفتاوى من سياقاتها، ومارس المزايدة على الدين، فإنما ذلك من باب الكذب والافتراء والتضليل. ولقد علمنا ما كان يفعله المناديب والجواسيس والمبشرون والمستشرقون من تودد وتلطف وإسلام مزور. ومن الحصافة ألا ننخدع بالدعاوى الكاذبة، وألا نساير الغلو الديني والعلماني والحزبي، وألا يستدرجنا الخطاب الغربي من حيث لا نعلم، فهؤلاء وأولئك يخلطون بين الإرهاب والمقاومة والجهاد، ويجعلون الإسلام مصدر العنف والإرهاب. ومسؤوليتنا التصدي لمفتري الكذب على الإسلام وأهله، وتصحيح المفاهيم عن الدين أولاً وعن الذات ثانياً. وإشكالية العالم الإسلامي أنه خافت الصوت، لا يُسمع اعتراضه، ولا

---

(١) تاريخ المقال: ٩/ ١٢/ ٢٠٠٣

يبلغ رسالته، وفوق ذلك فهو مشتت الانتماء: - طائفياً وحزبياً وسياسياً، والقوة الإعلامية لا تقل عن القوة العسكرية، والحرب النفسية ليست بأقل شأناً من الحرب الميدانية، ولا قوة مع التفرق. وفي ظل السعار الإعلامي يجب أن يكون خطابنا قائماً على ركيزتين:

-تحديد عربي إسلامي لمفهوم الإرهاب والمقاومة والجهاد.

-عدم تداول الإسلام بوصفه طرفاً في قضايا الإرهاب، ولو قال الإرهابيون بأنهم إسلاميون، فالذين يمارسون الإرهاب الحقيقي الذي نراه رأي العين في بلادنا ليسوا إسلاميين، وليست قضيتهم قضية إسلامية، وليست مطالبهم مطالب وطنية. فالحق والباطل واضحان، والأمور المشتبهة لا يجليها إلا ذوو العلم والحجى والتجربة وفقه الواقع، والعامة مطالبة بسؤال أهل الذكر. وإذ نكون مضطرين لمجادلة المتقول علينا أو على ديننا فلا بد أن يكون خطابنا مسالماً لا عداونية فيه، صحيحاً لا مغالطة فيه، ناجزاً لا مماطلة فيه، متحدا لا تفرق فيه، عازما لا تردد فيه. فكم من إنسان أو أمة سقطت حين نطقت. ولأن لكل حدث حديثاً فإن المقدمين على تفجير أنفسهم وقتل من لا يعرفون ومن لا يقصدون بأسمائهم وبأعيانهم ما هم من الإسلام في شيء، والنص قطعي في تحريم قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق والانتحار، وما أولئك إلا عصابة يستخدمها أعداء الدين والحرية والحقوق الإنسانية واستقرار الشعوب، ليهدموا المعنويات والمثمنات. وإذا كان المستخفون لهم بالفتيا أو بالتأييد يدعون أنهم مجاهدون في سبيل الله، وأنهم يواجهون الكفر، وجب أن يسبق ذلك مسوغات الجهاد الإسلامي، ومنها: - الخلافة الإسلامية. ودخول الكافة في الإسلام: قولاً وعملاً وحاكمية. ومباشرة الدعوة. ومتى استنفدت الأمة: القوية المسلمة المتحدة في كل أقطار العالم كل الوسائل السلمية الممكنة، وجب إعداد القوة الرادعة، واستلهام آية: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ [الأنفال: ٦٦]، والاستغناء التام عن العدو المحارب، ليس فقط بالمقاطعة، ولكن بالمنافسة والمماثلة والاكتفاء الذاتي، والاستغناء عن دعمه، وعما عنده من عدة السلم وعتاد الحرب، مع تكافؤ الامكانيات، وبعد ذلك كله النظر في مصالح المسلمين كافة: هل هي بالصلح والدفع بالتي هي أحسن أم هي بإعلان الجهاد؟ وهل هي في نبذ العهود أو باتمامها إلى أجلها؟ وحينئذ لا بد من النبذ إليهم على سواء. فالقتل ليس هدفاً بذاته، والجهاد ماض إلى يوم القيامة، وهو ذروة سنام الإسلام، ولا جدال حول مشروعيته، وهو من ثوابت الدين، وشتان بين الجهاد الإسلامي وما يقترفه الغادرون. لقد أقره النص القطعي، ولم يختلف العلماء حول مشروعيته، وإنما اختلفوا حول أمور تتعلق بالخيارات المتاحة، كالاستئناف أو الإرجاء، وحول من يعلنه، ومتى يعلنه. والأجدى أن نقف حيث انتهى علماؤنا من ثوابته، ونمضي في الاجتهاد حول متغيراته وظروف المرحلة، مستصحبين خطورة إعلان الحرب المرتبط بالترسانة النووية، غير أن الدفاع مطلوب مهما كانت الظروف، ولأن للأمة خيارين:- الدعوة أو الجهاد. ولأن الدعوة ممكنة، وبخاصة في ظل الانفجار المعرفي، وثورة الاتصالات، فإن على الأمة أن تتحرف لها عبر كل قنوات الاتصال. ويظل «الجهاد» الذي يحيل عليه خوارج العصر، ويعولون عليه كالصلاة والزكاة والحج والصوم، له شروطه، وموجباته، وموانعه، وخياراته، وأهليته، فليس كتاباً موقوتاً كالصلاة، وليس من حق أحد أن يعلنه بدعوى غياب الخلافة، ولا بدعوى أنه ضد دولة كافرة، فالكافر يكون حربياً، ويكون مستجيراً، ويكون معاهداً، ويكون مستأمناً، ويكون ذمياً، ويكون قوياً متسلطاً، لا يدفع بالمواجهة، ولكن بالمصالحة أو بالاتقاء، ولكل طائفة أو طرف أسلوب التعامل معه، وبلاد الكفر فيها أقليات مسلمة، تمارس شعائرها، والدول الإسلامية المعنية بالدعوة ورعاية مصالح المسلمين أتيح لها ممارسة الدعوة والدعم، كما

أتاحت تلك الدول للدعوة والدعاة ما لم تتجه بعض الدول المنتمية للإسلام، والعالم في الظروف العادية يحتكم إلى مؤسسات عالمية، يشرعن من خلالها ما يريد. ومع كل التحفظات فليس لأحد أن يعطل شعيرة الجهاد، ولا أن ينال منه، ولا أن يعلنه في ظل ظروف غير مواتية، ولا أن يتوانى في إعداد القوة. وكيف نتوانى ونخلط بين «اللاعنف» و«الضعف» والغرب وركائزه في أرض المسلمين يتسابقون في التسلح، ويستأثرون بحق إنتاج السلاح النووي، وكأنهم يريدون الاستسلام باسم السلام، وما من دولة تمارس سباق التسلح إلا وهي على موعد مع الحرب. وعند معالجة ظواهر الإرهاب والعنف والمقاومة والجهاد، فإنه لا يجوز ابتسار النصوص، ولا استلال فتاوى العلماء خارج سياقها، فالذين يستحضرون «ابن تيمية» أو «ابن عبد الوهاب» أو غيرهما، ثم لا يستحضرون معهم سياقاتهم وظروفهم يفترون عليهم الكذب.

وإذا كنا نرفض الإرهاب، فإننا لا نرفض المقاومة، وإذا كنا نرفض الاعتداء والغدر ونكث العهود، فإننا لا نرضى بأن يكون الإسلام طرفاً مداناً منزوع السلاح، وإذا كنا نسعى للوفاق، ونجنح للسلام فإننا لا نرضى أن يكون ذلك من طرف واحد. ثم إن كل حدث يؤخذ بسياقه، فإذا وقع التفجير في «إسرائيل» أو في «العراق» أو في «أفغانستان» قلنا بأن المواقع ساحات حرب، تتسع لمشروعية المقاومة، فهم بين «طغاة» أو «غزاة»، وكل أهل بلد أدرى بمصالحهم، وأحق في تقدير ظروفهم، واختيار الطريقة التي يواجهون بها المحتل، فلسنا عليهم بوكلاء، ولكن من يصنع القنابل في «مكة» ويحولها إلى ترسانة أسلحة، مستغلاً غفلة المؤمنين، لا يكون مجاهداً ولا مقاوماً، ولا يحق لأحد أن يعالج الموضوع على أن الفاعل مسلم متطرف. التطرف الإسلامي غير الإرهاب الدموي، قد يكون التطرف حدة في الأقوال أو شدة في المواقف، أو غلطة في الأفعال بحيث يأخذ البعض بالخيار الأصعب في مواجهة الخصم. والصحابة رضوان الله عليهم اختلفت مواقفهم في مواجهة الأحداث، بين متشدد ومتسامح، نجد ذلك في قضية «الأسرى» في «بدر» وفي قضية «الردة» زمن أبي بكر، وفي الخلاف الذي بدر بين الصحابة، وذهب ضحيته «عثمان» و«علي» رضي الله عنهما، وفي الأحداث التي حصلت في حياة الرسول، فكان من الصحابة من يبادر في الاستئذان لقتل المخالف، فيما لا يراه رسول الله ﷺ. وما يفعله السفاحون في البلاد الآمنة المطمئنة المسلمة لا يعد تطرفاً إسلامياً، فضلاً على أن يكون جهاداً، إنه العنف والإرهاب الذي لا يمت إلى الإسلام بصلة. قد يكون اللاعبون الكبار مارسوا غسيل الأدمغة، وقد فعلوها من قبل، ولما تزل ذيولها قائمة، ومن ثم أوحوا إلى المنتحرين بما يوهمهم بأن عملهم هذا جهاد، كيف لا؟، وقد كان الجهاد قضية «أمريكا» يوم أن حارب المسلمون بالإنابة عن العالم كله لإسقاط القطب المعادل. والمتصدون للإرهاب من المسلمين يجب ألا يسلموا لغيرهم بكل المفاهيم، بحيث يواجهون معهم الإسلام والمسلمين بوصفهم مصدر الإرهاب، وألا يتصوروا أن الصحوة الإسلامية والدعوة إلى الله والفرار إليه تؤدي في النهاية إلى التطرف. وكم نجد من يتحفظ على المناهج، والأسلمة، والإصلاح، والدعوة، وإظهار الدين، وتحكيم الشرع، والتضامن الإسلامي، ودعم الجمعيات الخيرية، ظناً منهم أن ذلك كله يغذي الإرهاب. وتداول الإسلام والتجمعات الإسلامية كطرف في اللعب الخطيرة جناية على الإسلام والمسلمين، وإن صدرت من بعض الكتاب المنتمين إلى الإسلام بالهوية.

إن على قادة السياسة والفكر في العالم الإسلامي أن يمضوا في سبيل الدعوة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ودعم الأقليات الإسلامية لممارسة شعائرها بحرية، وإنشاء الجمعيات الخيرية، والروابط الإسلامية، والسعي الدؤوب لأسلمة المناهج، وتحكيم الشريعة، وإقامة شعائر الدين في كافة الأقطار الإسلامية، وعدم الالتفات إلى الدعاوى

الكاذبة والدسائس المغرضة من العلمانيين المتطرفين، والصليبيين الحاقدين، والصهاينة الماكرين، والعمل على قمع التطرف في شقيه:- العلماني والإسلامي، وتحامي الصدام مع أي طرف ما أمكن ذلك، والتأكيد على الوسطية، واحترام مشاعر العامة المتدينة، فالإسلام دين الرأفة والرحمة والعدل والإنصاف والحرية. ومن أراد أن يعالج ظاهرة الإرهاب، فعليه أن يعرف ثوابت الدين، لكيلا يعرض نفسه لخطيئة تمس مشاعر المسلمين، وعلى الكافة أن يستدعوا كل محتل ومغتصب بوصفه رأس الإرهاب، وأن يقللوا من الربط بين الإسلام والإرهاب، لكيلا يتعرضوا للردة في القول عن ثوابت الإسلام بغير علم. فالغرب الذي يضخ لنا مبادئه ومفاهيمه وعلمانيته وعولمته بقوة السلاح يهمه أن يصيد عصفورين بحجر: نزع الأمن والإيمان معاً من بلاد المسلمين وقلوبهم. ومسايرة الخطاب الغربي ينقض الإسلام عروة عروة، ويحول دون التمييز بين الثوابت والمتغيرات. فالإسلام دين حضاري، والجهاد ذروة سنام الدين، والإرهاب لا جنس له ولا دين، وهو مرفوض في كل الشرائع، والجهاد غير الإرهاب، و«آية» إرهاب العدو كقوة الردع. وأخشى ما أخشاه في ظل هذه الفتن، أن نعطي الدنية في ديننا، وأن يخفت صوت المحقين، ويعلو صوت المبطلين، لقد جنحنا إلى السلم، وبقي الآخر متمترساً خلف ترسانته. والتنازلات من طرف واحد مكمن الكارثة، فالمسلم في ظل الإسلام لا يكون عزيزاً إلا بإعداد القوة اختراعاً وإنتاجاً وعلماً واقتصاداً وصناعة، وهو في ظل الهيمنة الغربية تابع ممتهن، يرزقه العدو ويسلحه بثمن باهظ والعالم الغربي بامكانه تحقيق التعايش السلمي متى كف أذاه، وأعطى للحضارات الأخرى حقها في الوجود، وبقدر تعديه تتسع هوّة الخلاف، وتستشري المقاومة، وحين لا يقدر المضطهد على التعبير عن رأيه والحصول على حقه بالطرق السلمية أو بالحرب المعلنة يلتمس ذلك من أي طريق، ولو أن يتحالف مع الشيطان، فالسياسات الرعناء تهيئ الاحتقان والتوتر، كما أن التطرف العلماني يسهم في إيغار الصدور، وشد الأعصاب، ومصلحتنا لن تتحقق حين نغمض في الحلول، أو حين تملى علينا، أو حين لا نبتدر خطابنا، وما أحوجنا إلى وعي ظرفنا الخطير، وصياغة خطاب سديد لينقذنا من التضليل، فليس كل طلقة إرهاباً، وليس كل طلقة من عند العالم الإسلامي، وليست الحضارة الغربية العادلة هي المنقذة. والعمليات التي تنفذ في أنحاء العالم منها ما يحال إلى المقاومة المشروعة، ومنها ما يعد إرهاباً، لا تبرره ديانات ولا حضارات. وليس من الحصافة إطلاق الأحكام على عواهنها، ولا تعميم المواقف، ففي «فلسطين» وفي «العراق» وفي «أفغانستان» وفي كل بؤر التوتر تمارس المقاومة والإرهاب معاً، وتختلط اللعب الكونية بالعمل المشروع، ويحال ذلك كله إلى المقاومة المشروعة، أو إلى الإرهاب المحظور، وعلى القائلين والمتقولين ألا تستزلهم الفتن، وكم من عملية إجرامية هزت الضمير العالمي اختلفت الآراء حولها، بحيث لم يتفق على حظرها أو مشروعيتها أو مصدرها اثنان.

وأمام الفتن العمياء يجب التثبت، فمن أطلق كلمة كمن أطلق رصاصة، وكم من كلمة أثارت فتنة، وكم من رصاصة أزهقت الأمن والاستقرار، وجرّت الويل والثبور، ومع ذلك فالفتنة أشد من القتل، وما الفتنة إلا في اختلاف الأمة في قراءة الأحداث، وذلك ما يكيد به الأعداء المتربصون، وإذا سلمنا بمحاربة الإرهاب، ونحن مسلمون لا شك، فهل يسلّم غيرنا بأن يمارس في «فلسطين» من الصهاينة ذروة الإرهاب؟ وإذا سلمنا بأن المتطرفين الإسلاميين إرهابيون، فهل يسلّم غيرنا بأن قتل الشعب الآمن في عقر داره إرهاب؟ إن علينا ألا نعطي الموافقة والتسليم من جانب واحد، ونقتل معنوياتنا، وندمر امكانياتنا، فيما يمارس غيرنا رفع معنوياته وبناء امكانياته، إن تهافتنا على تداول ما

يطلقه الغرب وما يطلبه، وأخذه بقوة، مؤشر ضعف وتبعية، فهل ننصف ديننا وأمتنا وقادتنا وعلماءنا؟

التخليات لا تحقق التجليات والمعارضة غير المفارقة .. ! (١) [1]

الراصد لأحوال الأمة العربية في عصرها الراهن لا يعايش إلا افتعال المواقف وانفعال الردود، والخلط بين المفاهيم، والإسراف في الإقبال، والتولي الجامح في الإدبار. نجد ذلك عند حملة الأقلام، وحملة الأعلام، وسائر النخب الفكرية والسياسية، وطائفة من الموغلين في الدين بغير رفق. فالطرف المطاع يصل به المريدون إلى حد التصنيم والعصمة والإحساس بأنه لا يُسأل عما يفعل، فيما يكون الطرف المخالف أو المناوئ شيطاناً أكبر، لا يصدر منه إلا منكر القول والتآمر والعمالة، وليس له ها هنا إلا ما للخاطئين من مسكن ومطعم، وما من وسطية لا تخرج البشر من بشريته، ولا تُحمِّل النفس فوق طاقتها، بل هناك توتر وانفعال وشك وارتياب وشقاق ونفاق وتأليه للهوى. وتذبذب الرأي العام بين المصنمين والمشيطنين جعله رهين المحبسين، لا يفرق بين الموالاة والمعاهدات، ولا بين الاتقاءات والمداهنات، ولا بين المحارب والمعاهد، ولا بين المعارضة والمنازعة.

وهذا الخلط أدى إلى استحالة القبول باختلاف التنوع، وألجأ المستهمين على بطن السفينة وظهرها إلى إحلال الصدام محل الحوار، والتلاوم بدل التعاذر، وسوء النوايا بدل حسنها، والقطع بدل الاحتمال، ولغة السلاح بدل لغة الكلام. وهكذا أصبح الإنسان العربي شؤيَّة التناقض، وهذه المرحلة المتوترة أتاحت للمرتكسين في الفتنة أكثر من فرصة، فكل مواجهة ضدهم يتربصون بها الارتداد السريع والتراجع الذي لايلوي على شيء، فكل مهتاج أعزل من الإمكانيات المعرفية والمادية مصيره إلى التولي دون أي مسبقات. وعندما يختار البعض الطريق الأصعب والأشد، يقع في عزلة شديدة الوطأة، تضطره إلى التسربل بالدروع، والتمترس خلف الأكمات، والفرار إلى الكهوف والمغارات، وما أن تأخذه وحشة المسيء لنفسه، ويجد الطريق أمامه مسدوداً يضطر إلى التخلي عما بدر منه من قول أو فعل أو إقرار، وحين يتخلى عن آرائه يتصور البعض أن كل من قال كلمة الحق على موعد مع الرجوع عنها. والأسوأ من هذا إضفاء التجليات على المندفعين بغير علم، وبدون أهلية، وبدون أي مسوغ لتصدر الفتيا، مما يعني ان هذه المواقف هي عين الحق على كل الصعد: العلمانية والدينية والفكرية والأدبية، حتى إذا سادت وأصبحت قضية قطعية لا مجال للبحث في مشروعيتها تبدلت الآراء غير الآراء والفتاوى، وعول المتخلون عن فتاواهم على مبدأ (الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل). أملاً في أن يكتسب المتخلي عن سالف أقواله (تجليات) جديدة، تعطيه فوق ما أعطته اندفاعاته، ويكون بهذا ملء السمع والبصر في الإقبال على الآراء المتطرفة، وملأهما في الإدبار. وكأني بهذه المكتسبات تغري المترددين باختصار الطريق إلى البطولة الزائفة. فمن جازف بالآراء، ثم ضُيِّق عليه، وأطر على الحق، لم يجد بداً من الانقلاب على نفسه، كان في نظر البعض بطلاً في الأولى ومتألقاً في الثانية، وهو في حقيقة الأمر متسرع في الأولى، ومنهزم لا يلوي على شيء في الثانية. وكان يجب والحالة تلك أن نفرق بين الرجوع إلى الحق وفشل المشروع والتخلي الاضطراري لتفادي الخسارة الشاملة، وإذا قبل غيري إضفاء البطولة على مثل هذه الممارسات، فإنني أجد أن من حقي التغريد خارج السرب، فـ(ذلك فزدي). والحكماء المجربون يحذرون القول الذي يضطرهم إلى الاعتذار أو الانكسار، والعاقل الحصيف من يعرف المخارج قبل المداخل، ولقد رأينا طائفة من المجازفين وعايشناهم، وكان بإمكاننا أن نفعل فوق ما فعلوا، وخطؤنا التردد في

---

(١) تاريخ المقال: ١٦/ ١٢/ ٢٠٠٣

الإنكار عليهم، وتفضيل الموقف الحيادي، حتى صرنا إلى ما صرنا إليه، ثم كان أن تخلوا عن كل ما قالوه، وحسناً فعلوا، وقبيحاً أن نسمي الأشياء بغير أسمائها. ولما لم يكن اندفاع الرأي العام وغوغائيته وقفاً على حدث بعينه محلياً أو عربياً، لزم استدعاء كثير من الظواهر والأشخاص الذين ملؤوا المشاهد السياسية والفكرية والدينية والأدبية، منذ بدء الثورات العربية، التي أذلت الإنسان العربي، ولعبت بعواطفه من علمانية متطرفة، إلى قومية متشنجة، إلى طائفية متسلطة، إلى غلو ديني مدمر، إلى استغراب ماسخ، أو تبعية مُذلَّة. فماذا كان الموقف من الحرب (الأفغانية) و(العراقية الإيرانية) إبان اشتعالها، وما الموقف من ذيولها وآثارها ونتائجها، بعد ان تعرت اللعب، ووضعت الدعاية أوزارها، وكم ألقي على كراسي القيادة العربية من أحزاب ومبادئ وأنظمة، ولكنها لم تنب، كما ناب سليمان عليه السلام. وعلى مستوى العلماء والدعاة والساسة نضرب المثل بالمواقف: (الذاتية) و(الغيرية). فهذا (سيد قطب) رحمه الله، اندفع الرأي العام المناوئ للاشتراكية والعلمانية إليه، واقبلوا على كتبه وآرائه يطبعونها ويوزعونها بالمجان، ظناً منهم أنها صالحة لكل زمان ومكان، وما علموا أن مشروعه الإسلامي صيغ ليكون في وجه الاشتراكية الشرقية والعلمانية الغربية. ولما أن تبين المراهنون على مشروعه أنهم قدروه فوق قدره، واستعملوه في غير محله، كانت ردة الفعل، إذ نبذوه، ونالوا منه، وحمَّلوه مسؤولية التطرف، على شاكلة الاسقاطيين الذين يبحثون عن المشاجب، ليتخففوا من تأنيب الضمائر، وما كان من حقهم من قبل أن يأخذوه بقوة، وما كان من حقهم فيما بعد ان ينبذوه بعنف، ويذموا صاحبه على الإطلاق. (سيد قطب) عالم ومفكر ومفسر ومجاهد، عرفته يوم أن كان صدى لفكر العقاد، ويوم أن تخطاه إلى الفكر الإسلامي، ويوم أن تجَلَّت حركيته واقتيد للمشنقة، فكان أن استفدت من معارفه وتجلياته، ولم أتبن عزماته. وحقه علينا الدعاء والترحم، وما تركه من كُتب تعد إضافة للفكر الإسلامي، وليس شرطاً أن تكون مشروعاً عملياً، نأخذ بها جملة وتفصيلا. مع أن مشروعه ومقاصده إذ ذاك تحيل إلى ماهو قائم في البلاد من إظهار للدين، وتحكيم للشريعة، ومن ثم فإن مشروعه السياسي دواء لوضع غير وضعنا، وحين ضربه المتسرعون، أحدث عندهم مغصاً ودواراً، فقطعوا بفساده، وما كان الفساد إلا في تصرفهم، ومن ذا الذي يجرؤ على النيل من (الظلال) وأشياء من (العدالة ..) و(أمريكا من الداخل)، ولو فعل الناس مع كل من يختلفون معه فعلهم معه لما بقي على ظهرها من محسن، وها نحن نجد من ينال من مشروع (ابن تيمية) رحمه الله ومشروع (محمد بن عبد الوهاب) رحمه الله، وما كان الخطأ إلا في ابتسار النصوص أو تبني الأفكار مع تغير الأحوال، فمشروع (ابن تيمية) الجهادي في زمن (التتار) ومشروع (ابن عبد الوهاب) لحفظ جناب التوحيد، في زمن الجهل والخرافات والتمزق والقبليات والإقليميات، وفاتنا أن لكل زمان دولة ورجالاً.

ولا أن يحرم من حقوقه بوصفه مواطناً، كل الذي نريده وضع الأمور في مواضعها، وإنقاذ الرأي العام من قلب الحقائق، فالمعارض يختلف عن المنشق، والراجع إلى الحق يختلف عن الفاشل المغلوب على أمره، إذا عرفنا ذلك، وأيقنا به، فليس لنا من بعده أن نطالب بصيغة معينة من التعامل، بل نطالب بالعفو والصفح ليعود المنشق الفاشل أو المتخلي إلى الصف كما خرج منه، ومتى تصورنا الأمور على غير ذلك، رمَّت جروحنا على فساد، وأتحنا الفرص لمغامرين آخرين. إن على مثل هؤلاء أن يعودوا متجردين من التمشيخ، ويقصدوا مقاعد الطلب بتواضع وندم، ليعرفوا حكم الله في المخالف، لقد خطؤوا أنفسهم فيما قالوا بمحض إرادتهم، وبدون أن يتنزل عليهم وحي من السماء، وما ارتكبوه من أخطاء أدت إلى مصائب فادحة، إن كان المفجرون قد أخذوا بآرائهم. لقد كانت لهم آراء في مقترفات ومقترفين، وفجأة برؤوهم دون تحفظ أو تحديد أو تخفيف ومن

المخالفين من لا تبرأ الذمة بتزكية قوله، فالمخالف المقترف فعلاً أو قولاً يظن أنه على صواب، ومن ثم انطلق يهنئ مخالفه على التوبة، ولما يزل على خطيئته أو لممه. إن هذه الدوامة من الفعل ورد الفعل خلطت الأوراق، وفتحت أكثر من ثغرة، فلا المعتدل يعرف أنه معتدل، ولا المخطئ يعرف أنه مخطئ، وتلك كارثة تصيب الأمة في الصميم، إن من حقنا الحيلولة دون ان يتنفس الحاقدون، ليقولوا هذا هو الإسلام، وهؤلاء هم أهله، يحرِّمون بلا دليل، ويحلِّلون بلا تفصيل، فحين نقبل المتخلي عن قول أو فعل، فإنما يجب قبوله للعفو عما سلف، لا أن يعود رمزاً يبحث عن تجليات جديدة، ليغرق في التطرف المضاد، ثم نكون مع قضايانا المصيرية العربية بين الافتعال والانفعال.

لقد كانت لعلماء الأمة بحق وحقيق مواقف من علماء ومفكرين وأدباء لم يصلوا بها إلى حد التكفير، ولم يشرعنوا لأنفهسم المواجهة المسلحة أو استعداء السلطة عليهم، وإنما أعلنوا مخالفتهم، وحددوا وجوه الخلاف، وألزموا خصومهم كلمة الحق، ومازالوا على آرائهم يختلفون مع غيرهم، ولكنهم لا يكفرون، ويعترضون، ولكنهم لا يفجرون، ويصدعون بالحق، ولكنهم لايخلون بالأمن، لايصادرون حقاً، ولا يستعدون سلطة. وهؤلاء الذين غلوا في الدين بغير رفق، وكانت مواجهتهم عنيفة، ثم فجأة ألقوا السلام، وشرعنوا لمخالفيهم ما كانوا كفروهم عليه، خرجوا من النقيض إلى النقيض، وكلا طرفيهما ذميم. هذا الاضطراب مدعاة إلى الشك والارتياب وتضليل الرأي العام. وفقهاء السلطان المتزلفون المرتزقون كما يسميهم أولئك مازالوا عند رأيهم الذي تجاوزه الناكصون في الذهاب والإياب، حتى لكأني أراهم ألعوبة بين الإفراط والتفريط. لقد مللنا من تزييف المواقف وقلب الحقائق، وإذا كان علماء السلف يختلفون فيما بينهم ثم يلتقون حول ما طلب منهم الرد إليه، يرجعون إلى ما تطمئن إليه نفوسهم، ومن تعقب كتب الفقه المقارن: كـ(المغني) وكتب الخلاف كـ(الإنصاف) تجلت له عظمة العلماء، وعرف متى يكون الرجوع إلى الحق فضيلة.

التخليات لا تحقق التجليات والمعارضة غير المفارقة .. ! (٢) [(١)]

والذين يخرجون على الشرعية بقول أو بفعل، ثم لا يفرقون بين المعارضة ونقض الميثاق، يزجون بالأمة في أتون الفتن، ويفقدون الاعتصام الهادي إلى صراط مستقيم، فكل نظام سياسي لا يكون فاعلاً حتى يجد سبيله إلى التمثيل، والنظام السياسي الإسلامي يقوم بالبيعة، وهي لا تقوم إلا على السمع والطاعة في المنشط والمكره، ولا يسوغ نقضها إلا عندما يحدث الخليفة كفراً بواحاً عند العلماء فيه من الله بيان قطعي الدلالة والثبوت، والمعارضة غير النقض، لأنها اختلاف معتبر، فيما يكون النقض فسخاً للبيعة، وإذ لا تكون المعارضة محظورة يكون من واجب ولي الأمر الإصاخة لذوي الرأي، ومن حقه عند اختلاف التنوع العزم والحسم، وهو ما توحي به آية الشورى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ فالعزم هو البت في القضايا المختلف حولها عند الملأ المفتين وأهل الرأي والمشورة، ولو لم يكن لولي الأمر عزم يبت فيه مسائل الاختلاف لكان أن وقعت الأمة في المراء العقيم، وضاعت مصالح العامة، وتحول الناس من جد العمل إلى فضول السفسطة والمناكفات، والسفسطة: ظاهرة فلسفية إجرائية مؤداها الجدل من أجل الجدل، و«العزم» المنقذ في لحظات الارتباك لا يعني مخالفة كل الأطراف، ولا يعني الاستبداد بالرأي، ولا يعني حكم الفرد وإلغاء الرأي العام، كما لا يتسع لمفهوم أن الشورى ملزمة أو غير ملزمة، وتداول مثل هذه المفاهيم يعني التقليل من أهمية الشورى الإسلامية، والقدح في الفكر السياسي الإسلامي، وكل ما أفهمه أن «العزم» يعني الميل إلى ما تطمئن إليه النفس عند تضارب الآراء واختلاف وجهات النظر وعدم الوصول إلى رأي موحد، وحين يحصل الخروج على الشرعية باسم المعارضة المشروعة يرتبك الرأي العام، بحيث لا يفرق بين المعترض على الفعل والخارج على الفاعل، وفي ظل هذه الأطياف فإن على المتقَحِّمين لمشاهد السياسة أن يتقنوا المفاهيم، بحيث يفرقون بين المواقف، فالمعترض يجادل بالقول، والمفارق يواجه بالسلاح، والمعارض يراجع في المسائل، والمنشق ينازع على الشرعية، وبين الاثنين مثلما بين لغة الكلام ولغة السلاح. فالاختلاف والمراجعة والنقد والمساءلة والمناصحة وإبداء الرأي حق مشروع بضوابطه وعبر قنوات التوصيل المعتبرة والمأمونة العواقب، وقد قالها عمر بن الخطاب رضي الله عنه:- «لا خير فيكم إن لم تقولوها ولا خير فينا إن لم نسمعها»، ثم إن الاستماع للرأي المعارض لا يعني القبول به على إطلاقه، وليس من تمام المعارضة أن تنصاع السلطة إليها، ولا أن يُجمع الناس على أنها الأجدى والأهدى. المعارضة حق، وسماعها واجب، والقبول بها مرتبط بمصلحة الأمة وبقدرة قادرها على التنفيذ، فقد يكون رأي المعارض فاضلاً، وما عليه ولي الأمر مفضولاً، ولكن الظروف والإمكانيات تحول دون التحول من المفضول إلى الفاضل، المهم أن يسمع ولي الأمر، وأن يوفر قنوات مأمونة للتواصل، تمكنه من استجلاء الآراء والأخذ بأحسنها، وأن يجد المعارض حرية القول المنضبط، ولس من مقتضيات المعارضة عدم الولاء والمحبة، ولهذا جاء في الحديث: «أعن أخاك ظالماً أو مظلوماً» ولما أشكلت إعانة الظالم على الصحابة، وضحها المشرع بأن الإعانة تعني رده عن الظلم، وإذ يكون من مقتضيات الولاء السمع والطاعة لا يكون من مقتضياتها القبول المطلق، وإنما هي المشروطة، والقول عن الخطأ غير المقصود أو التصرف غير السديد من النصح والولاء والاخلاص والمحبة، وليس من مقتضيات المعارضة التحزب ولا

---

(١) تاريخ المقال: ٢٣/ ١٢/ ٢٠٠٣

التكتل، ولا تعمد تفتيت الأمة، ولا تشكيل الزعامات المعارضة، وليس من مقتضياتها التباهي بها والادلال، وليس من مقتضياتها تشكيل جماعات الضغط، وتهييج الرأي العام، واستغلال العقل الجمعي، وليس من مقتضياتها أن يكون المعارض أزكى من الموافق أو الصامت، فالخطاب الثوري يفترض العداوة مع السلطة وتخوين الموالين لها دونما تفصيل، ومن الخير أن يقول المعارض كلمته ويمضي، وعلى ولي الأمر أن يلقي السمع وهو شهيد.

والذين يكيدون لولي الأمر يكيدون للبلاد، والذين يصدقونه ولا يصدقون معه يكيدون له، والمقتدرون الصامتون عن الحق إيثاراً للسلامة وصفوا بأنهم شياطين خرس، وكم هو الفرق بين صامت يتأمل ويستبين وصامت لا يبالي بأي واد هلكت الأمة، والذين يطوقهم ولي الأمر شطراً من مسؤوليته ثم لا ينصحون لله ولرسوله وللمؤمنين، يخونون أماناتهم، وعلى كل الأحوال فنحن أحوج ما نكون إلى فهم الأشياء على أصولها، وإذ نكون مع «المعارضة» بضوابطها فإننا ضد الانشقاق، فالمفارقة والمقاومة تؤديان إلى الفتنة، وقد تمتدان إلى الفراغ الدستوري، والمسايرة الخاطئة أو تبرير الأخطاء تؤديان إلى الفساد الكبير، وخيانة الأمانة تعوق مسيرة البناء، وما نسمعه ونشاهده عبر المواقع والقنوات من نيل مباشر وافتراء كاذب ومبالغات زائفة دليل على أن المسألة ليست معارضة مشروعة، وإنما هي نقض للميثاق، وتنازع على السلطة، وخلط للأوراق، تفوت الفرص على الناصحين، واختلاف وجهات النظر لما تزل قائمة عند العقلاء والمجربين، والصحابة رضوان الله عليهم راجعوا الرسول ﷺ فيما هو من أمور الدنيا وقال لهم: أنتم أدرى بأمور دنياكم، فعلوا ذلك، وهم يعلمون أن من ثوابت العقيدة أن يكون الرسول أحب إلى المؤمن من نفسه وماله وولده، ومتى تعرضت الأمة لعدم التفريق بين المعارضة والنقض، واختلطت عندها المفاهيم، تحركت الأيدي الآثمة المتربصة لتخلق التناقضات والتناحرات، ثم تمد هؤلاء وأولئك بالسلاح، تبديه تارة، وتخفيه أخرى، حتى إذا شارفت أي فئة على حسم الموقف، اتجه التأييد إلى خصومها، وهكذا تعيش الأمة المصابة بهذه الأدواء بين جزر ومد، لتفقد في النهاية أمنها واستقرارها وثروتها بل تفقد وجودها الكريم، وحتى لا يعرف المقتول لماذا قُتل، ولا يعرف القاتل لماذا قَتل، وإذا كانت السلطة غنيمة تتنازع عليها القبليات والطائفيات، وتحسم أمرها التكتلات العسكرية تصبح العامة كقطيع الماشية، أما إذا كانت المصلحة العليا هي الهدف فأي مواطن تلقى الراية فهو أحق بها، وواجب الخاصة المقتدرة أن تحمي الساقة وترود للمقدمة، وتحويل السلطة إلى هدف أسمى يعرض البلاد إلى الويلات، و ما الثورات المتلاحقة إلا ناتج صراع على السلطة، وكل الذين ينتزعونها بقوة السلاح، لا يحافظون عليها إلا بقوة السلاح، ومن أراد أن يعرف خطورة الفراغ الدستوري فلينظر إلى من حوله من دول كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان، ثم عصفت بها الفتن، ودخل أهلها في حروب أهلية أو طائفية أو حزبية أو حدودية، أذهبت الحرث والنسل، إنها بلاد ذاقت حلاوة الأمن، وتمتعت بالاستقرار، ونعمت بالرخاء، ثم اختارت التنازع على التعاون، والتفرق على الاعتصام، ومنازعة الشرعية على مناصحتها، ونقض الميثاق على الوفاء بالعهود، فأصبحت ناراً تلظى، وفقد أهلها كل مقومات الحياة الكريمة، والنكسات المؤلمة ربيبة من لا يفرق بين التآمر والتقصير الذاتي، ولا بين الوصولي والأصولي، ولا بين المقاومة والإرهاب، ولا بين المعارضة المشروعة والانشقاق المحظور، وعجبي من أناس يعيشون حالة من العقد النفسية، بحيث يجعلون كل خطيئة ناتج تآمر، وأعجب من ذلك مثقفو سماع جوف ينفون التآمر جملة وتفصيلاً متخذين الحضارة الغربية قدوة وعضداً، ومصائب الأمة من كتبة منشئين على عين الأعداء، يقولون ما قالوا، ويزعمون استيعاب الحضارات، ومن ناشئة

لا تعرف الفتن، لقد فتح شبابنا عيونهم على الأمن والرخاء والاستقرار، وظنوا أنه باق فيهم، وأنهم أهله وخاصته وأحق به، ولقد أشار «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه إلى أن نكبة الإسلام والمسلمين ممن لا يعرفون الجاهلية، إن على قادة الفكر والإصلاح والدعوة أن يبصّروا الشباب بخطورة الوضع واختلال الزمن النفسي والفكري، فما عدنا نتحمل مزيداً من الترديات، ودعاة السوء يتخطفونهم من كل جانب، ويدفعون بهم إلى مهاوي الهلكة، والكتبة المبتدئون والمتهافتون على القنوات والمواقع دون وعي، يتعمدون الإثارة بمقاربة المناطق الحساسة، وقد يتبنون أفكاراً منحرفة، لا يعرفون حكم الله فيها، ولا يعرفون مجالات الاختلاف المعتبر، وما لا مجال فيه للاجتهاد، ولم يحرروا أركان الإيمان ولا نواقضه، من ثم يتسلقون إلى محاريب الضوء، ليكونوا على كل لسان، ويحسبون ذلك من المغانم، وما هو إلا عين المغارم، وليست مصائب الأمة في «عالم» متمكن يختلف مع بعض السوائد والمسلمات في خطبه أو مواعظه أو فتاواه، وإنما هي في «متعالم» فج الآراء متسرع في الأحكام، يختط لنفسه مشروعاً سياسياً قائماً على العنف وتصفية الطرف الآخر، ويتفانى في إسقاط السلطة، وهو لا يملك مشروعاً ولا كوادر ولا قاعدة عريضة، وكل حساباته تقوم على الحلم الطوباوي الذي يحسب أنه يتحقق بإسقاط النظام، ثم لا تكون له حسابات فيما بعد، ولقد قدمت أمريكا أوضح الأمثلة، حين أسقطت النظام في العراق، ولم يكن في حسابها أن إعداد البديل أخطر من إسقاط القائم، فكان أن انغمست وانغمس معها شعب بريء في حمأة الفتن، وحتى الذين يطالبون بخروج المحتل في ظل هذه الظروف يدفعون بالشعب العراقي إلى حمامات الدم، الاحتلال خطأ فادح، وإسقاط النظام دون بديل خطأ فادح، وخروج المحتل واللحم على الوضم نكبة موجعة، والشعوب دائماً تكون ضحية «المتعالمين» و«الطوباويين» و«المجازفين»، إننا نخلط بين العالم والمتعالم والمعارض والناقض ومن يريد إسقاط الشرعية ومن يريد إصلاحها، ومثلما تتضرر الأمة في اختلاط المفاهيم بين المعارضة والانشقاق، تتضرر كذلك في الخلط بين «عالم» يملك مشروعية الاجتهاد، ويتوفر على أهلية الطرح، ويقول رأيه في القضايا، وهو على علم بالظروف والأحوال والممكن والمستحيل وفقه الواقع ومتطلبات المرحلة، و«مبتدئ» مهتاج أعزل لا يقدِّر ولا يدبر، يتبنى شق عصا الطاعة، ويجمع من حوله المريدين، ويناصب الآخر العداوة والبغضاء، يتبنى الحدية والواحدية، ويشكك في الأهلية والأحقية والأمانة، ويحرض على المقاومة والتمرد، ولن تستقيم أحوال الأمة حتى توضع الأمور في مواضعها، فلا يقال للمخفق إنه متراجع، ولا للمتراجع إلى الحق إنه انتهازي .. وعلى الرأي العام ألا يندفع وراء سراب القيعان، ولكيلا أُقرأ على غير ما أريد، أقول: إنني أرحب بعودة الهاربين بأبدانهم أو المخالفين بأفكارهم، وأحمد الله على لمّ الشمل وتوحيد الكلمة، وليس بعد هذا من مزيد، وأتمنى من كل قلبي أن يعود الهاربون بأبدانهم وأفكارهم خارج البلاد والمنشقون المختفون في الكهوف والمغارات إلى أهلهم وذويهم، وأن يمارسوا حقهم في المراجعة والمناصحة تحت ضوء الشمس، فما عادت الأمور تتطلب مزيداً من المشاكل، والبلاد وأهلها وقادتها بأمس الحاجة إلى الكفاءات الوطنية التي أخطأت الطريق أن تعود إلى سربها، إن البلاد تنعم بالأمن، وما عليه قادتها ومسؤولوها وعلماؤها ومفكروها من تقصير يمكن علاجه بالتي هي أحسن، وكلنا خطاؤون وخير الخطائين التوابون، وما عصم إلا الأنبياء، ومن ثاب إلى رشده من قبل أن تقدر عليه السلطة استحق اللطف في المساءلة والرأفة في العقاب، فليبادر أبناؤنا وفلذات أكباد البلاد إلى حضنه الدافئ وعطائه الثر، وعلى رجال الفكر أن يتلقوا راية النصح والتوعية والتهدئة بروح متفائلة وموعظة حسنة ودفع بالتي هي أحسن فالزمن غير مواتٍ، والعبوات الناسفة تملأ الرحب، والعالم العربي والإسلامي يعيش حالة من الضعف

والتفكك والهوان، وليس بمقدور أحد من حملة همه أن يضع التصور النهائي للمستقبل، ولكن عليه أن يعي نفسه وواقعه، وأن يمد رجله على قدر لحافه، والزمن زمن الهدوء والسكينة والارتداد إلى الداخل والتعاذر والتعاون على البر والتقوى.

لكل حدث قراءته والموقف منه .. ! [(١)]

الحوادث الأليمة المتلاحقة في الساحات العربية والإسلامية والعالمية طوت صفحات، ونشرت أخرى، جاعلة التاريخ السياسي الحديث ذا مرحلتين: مرحلة ما قبل تهديم «البرجين» وضرب «البنتاجون»، ومرحلة ما بعدهما. على غرار التاريخ السياسي العربي قبل «النكسة» وبعدها، وقبل احتلال «الكويت» وبعده، وقبل «سقوط بغداد» وبعده. إذ كل يوم تطلع فيه الشمس يكون للأمة العربية بداية تاريخ أليم. وبعد كل لعبة موجعة تنقلب الخطابات، وتختل الموازين، ويصاب أصحاب المواقف المبدئية بإحباطات مؤلمة.

فعندما رفعت أقلام المؤرخين، وجفت صحف التاريخ الحديث بجزئه الأول، طويت معه «أجندة» السياسة المهيمنة، ونزلت إلى المشهد «أجندة» جديدة. والبسطاء من الناس من لا يمتلكون إلا آلية واحدة للقراءة، ولا ينظرون إلا إلى زاوية واحدة من زوايا الحدث، تحكمهم الثبوتية والنمطية، وتتحكم فيهم واحدية الرؤية. وقراء الأحداث المعمَّاة كقراء الكف، يفترضون مصائر قد لا تكون، وهم مع هذه الأدواء القرائية لا يتخلصون من امكاناتهم المعرفية وأنساقهم الثقافية وسياقاتهم الآنية: فالسلفي والعقلاني والقومي والعلماني و«الراديكالي» والذرائعي، والمادي والطائفي، ومن رجله في الماء البارد، ومن رجله في النار الملتهبة، لكل واحد منهم آليته ومستخلصات قراءته ورؤيته المستقبلية. وقل أن تجد قارئاً بريئاً لا تحكمه أنساقه، وقلَّ أن تجد توافقاً في القراءة، وقلَّ أن تجد قارئاً متنوع القراءات، ينتاب الحدث من عدة زوايا، ويكتنفه بكل هذه الأنساق، وبكل مستويات القراءة وآلياتها، ويخرج بنتائج معقولة وموضوعية.

ولما كانت الأزمنة والأحداث والأناسي ليسوا سواء وجب أن يكون لكل مرحلة «خطابها» و«مستواها القرائي»، ولكل قارئ رؤيته وتصوره. إذ كل نخبوي أسائله عن حدث بعينه تكون له رؤية مخالفة أو مناقضة لمن سبقه أو زامنه أو لحق به، حتى لقد كدت أذهل مما أسمع. و«أمريكا» بوصفها الأكثر حضوراً وتقحماً على خلوات القراء، تشكل المقروء الأصعب، كما أنها القارئة الأخطر، لأنها الأقوى، والأشد اندفاعاً، والأكثر تدخلاً في خصوصيات الآخرين، وبخاصة بعدما تجرعت مرارات الذل في لحظات التعملق والفرادة. ومن حق كل ممسوس بالضر من هذه القسوة المتغطرسة، أو خائف منها أن يختط لنفسه منهجاً قرائياً ونهجاً تعاملياً مواكباً لهذه الحالة الاستثنائية المتوترة. وعلينا نحن نواجه تحديات متعددة أن نقرأها قراءة واعية. فـ«أمريكا» المدنية، وأمريكا العلم، وأمريكا الاقتصاد، وأمريكا الشعب، غير أمريكا «البيت الأبيض» و«البنتاجون» و«المخابرات» و«الإعلام» و«جماعات الضغط الصهيوني».

وقراءة الثالوث: السياسي والإعلامي والمخابراتي تختلف عن قراءة الوجه الآخر، وجه المدنية والحضارة والعلم و«التكنولوجيا» التي نلتقي مع الكثير منها، ونختلف مع الأكثر، ولكنه اختلاف يمكن تلافي سلبياته. وقراءة «أمريكا» المحمومة المتوترة غير قراءتها في وضعها السوي. وحين نرتب موقفنا منها على ضوء قراءة مبتورة أو لحظية نخسر الرهان السليم، وقد نتجرع مرارة ضربة استباقية، أو محاصرة إرهاقية، أو نضطر إلى تراجع مذل واستسلام مهين، مثلما فعلت بعض الزعامات المتعثرة على خواء وجبن.

أمريكا دولة قوية في كل شيء، ضالعة في كل شيء، ولديها أكثر من ورقة تلعب بها ضد من يعكر صفوها أو يتعرض لمصالحها، والناس: اللاعنون لها والمربتون على

---

(١) تاريخ المقال: ٣٠/ ١٢/ ٢٠٠٣

أكتافها يودون احتواءها وتصفية الخلافات معها. وكم من لاعن لها على رؤوس الأشهاد يسبح بحمدها ويقدس لها من وراء الكواليس. ومع كل ما هي عليه، وما بدر منها فإن من مصلحة الشعوب النامية أن تقترب منها، وأن تتحامى منازعتها، لأنها دولة لا تنظر إلا من خلال كوة المصالح، وسياستها «ميكافيلية»، كما أنه ليس من مصلحة الصغار أن يضعوا أيديهم في يدها لمواجهة خصومها، فهي حين تكون معك، تغطي كل عيوبك، وحين تقضي منك وطرها تحمِّلك عيوب غيرك، والأجدى ألا نناصبها العداء، وألا نعادي من أجلها، وتلك معادلة صعبة، ولكنها ممكنة.

وإذا كانت أمريكا في راهنها المضطرب لا تملك خطة واضحة ولا طريقاً قاصداً في مواجهة الأحداث، ولما تزل في ارتباك منذ أن تفكك الاتحاد السوفيتي، ومنذ أن ضُربت في الصميم، فكيف يتأتى لمن سواها الاتزان، وأنى للدول المسكونة بالقلاقل ترتيب طرائق المواجهة أو الموافقة. لقد كان أمامها بعد الضربات المذلة مسؤوليات:

الأول: رد الاعتبار، وإثبات أنها لم تتأثر بعد غزوها في عقر دارها، وأنها قادرة على الوصول إلى خصومها في مخابئهم، وقد فعلت ذلك، فغزت «أفغانستان» و«العراق» ولوحت لـ«سوريا» و«إيران» وطوعت «ليبيا» و«السودان» ولكنها لم تحسم الموقف لصالحها.

الثاني: إعادة التركيبة العالمية:

-ثقافيا.

-واقتصاديا.

-وسكانيا.

-وأيديولوجيا.

وقد باشرت ذلك الفعل الخطير، وبدأت تتدخل في المناهج والثقافات وأنظمة الحكم، ممتطية صهوة «العولمة»، وهي إذ نقضت غزل بعض الأنظمة وجعلته أنكاثاً لم تحقق ما وعدت به من أمن وحرية و«ديموقراطية» لتحفظ أصدقائها وتمنع أعدائها.

الثالث: إعادة ترتيب الأولويات فيما يتعلق:

-بالأصدقاء.

-وبالمصالح.

-وبالقواعد العسكرية.

وقد فعلت الكثير في هذا السبيل مختصرة ذلك كله بمقولة: «إن لم تكن معي فأنت ضدي» بحيث قست في لومها، وجارت في مطالبها، وتعسفت في إجراءاتها.

الرابع: إحكام قبضتها على العالم، وتحقيق مفهوم القطب الواحد. وها هي توالي حملاتها على دول المنطقة الملتهبة فارضة أقسى الحلول. وأمام هذه الأولويات المؤذية لا بد من تحرف رشيد لصيغة الخطاب وآلية القراءة ليحدا من الفوضى، ويقربا بين وجهات النظر، مع التحسب لقراءتها الخاطئة، وكل مقدمة خاطئة تؤدي إلى نتيجة خاطئة.

ومما يضاعف تعقيد الإشكالية أن حساباتها لمواجهة مسؤولياتها لم تحقق نسبة النجاح المطلوب، وإذا حققتها فبأثمان باهظة، تطال الأنفس والأموال والعتاد والعدد: أمريكياً وعربياً وعالمياً. والإخفاقات تطال الممارسات والتحركات «المكوكية». فزيارة «بوش» لحليفه وشريكه في الاحتلال تجلت فيها متغيرات في الشارع الأوروبي عامة وفي اضطرابات الخطاب البريطاني على وجه الخصوص، وفي النتائج. ولعلنا نذكر الاستفتاء الأوروبي الذي قلب الطاولة على الصهيونية، وزيارة «شارون» لـ«إيطاليا» التي أعادته دون المؤمل. والارتباك الواضح يتجلى للمتابعين لخطابات «بوش» و«بلير» وكل ذلك يحال إلى خطأ القراءة.

لقد كانت مهمتهما الأولى مواجهة الإرهاب واجتثاثه، وقبل الناس ذلك، وبدأت أمريكا المواجهة في «أفغانستان»، ولما تزل الأوضاع سجالاً، فلا «قرضاي» انتصر، ولا «الملا عمر» قتل أو أسر أو انتحر.

و«أمريكا» وحدها التي تدفع الثمن الباهظ من رجالها وعتادها وسمعتها. ودافع الضرائب الأمريكي يصيخ إلى النتائج، ويتحكم بكل شيء، بحيث يحسب له الحزب الحاكم كل الحساب، فهو الذي يدخل زعيمه البيت الأبيض عزيزاً أو يخرجه منه ذليلاً، وذلك هو المأزق لكل رئيس، وبخاصة حين لا يكون هناك بوادر انفراج يلمع بها الرئيس وجهه، ولو في فترة الانتخابات الحرجة. ولم يكن المواطن الأمريكي وحده الراصد والمتابع، بل وقف الناس كلهم أجمعون: الموالون والمناوئون والحياديون، ينظرون جميعاً إلى الفعل وإلى النتائج. فكان أن جاء الفعل مرتجلاً والنتائج عكسية، فما وسع الموالين إلا التبرير، وما وجد المناوئون إلا الشماتة، أما الحياديون فانشقوا على أنفسهم، وتقاسمتهم فئتا: المعية والمناوءة. وكل الفئات لم تتمكن من الوقوف على حقائق دامغة، فالمسألة رهانات على طائر في السماء أو على سمك في الماء، ولو قرنت الأحداث والمحدثين وفق متطلبات المرحلة، لكان أن خفت وطأة الفتن، وأمكن تلافي الشتات والشقاق.

ويظل الراصد والمتابع والمستشرف في حيرة من أمرهم، فالرهانات المتداولة في الشارع العربي ليست متقاربة. فرهان حول تفكك أمريكا على شاكلة الاتحاد السوفييتي، ورهان على سقوط الحكومات العربية والإسلامية وقيام أنظمة «ديمقراطية»، ورهان على الاستسلام غير المشروط لمن بقي من الدول الهشة والتوقيع على بياض، ورهانات أخرى ليست من المعقولية على شيء، وفي النهاية تجري الرياح أو تسكن رغم أنف الربّان. وأمريكا التي تورطت في أكثر من عملية، وخرجت منها بخسارة فادحة وخطيئة غير مغتفرة تعيد «السيناريوهات» نفسها في مواقع جديدة مكرهة لا بطلة.

ولم يضطرب الخطاب الأمريكي بوصفه ناتج قراءة خاطئة اضطرابه في الشأن «العراقي»، لقد جيء بسلاح الدمار الشامل كمبرر للحرب، وضرب العراق الضربة الموجعة له، وللعالم العربي من حوله، وللمؤسسات العالمية، وللشرعية الدولية. وجاءت الغلطة القاصمة لظهر أمريكا بإعلان الاحتلال، وبحل وزارة الدفاع والداخلية، ونهوض الجيش المحتل بحماية الأنفس والمدن والثغور، وفات «أمريكا» أن مجرد الفراغ الدستوري كاف لشغلها. ذلك أنه يؤدي إلى فتن عمياء، نشاهد أطرافاً منها، والمستقبل ينطوي على ما هو أسوأ.

وتتكشف أوهام القراءة وتخبط الخطابات، وتتعرى اللعب عند عدم العثور على سلاح الدمار الشامل، وتظهر خطيئة الكذب على الشعب، وممارسة الكذب من أخطر المقترفات في الدول «الديمقراطية»، ومع ذلك انتظر الناس كثيراً، ولما تهتد أمريكا ولا بريطانيا إلى شيء من مسوغات الحرب، حتى بعض القبض على «صدام». وبدأت نغمة محاكمة القادة لكذبهم على شعوبهم، فكان أن تحول الخطاب إلى جعل مهمة الغزو الأمريكي إحلال «الديمقراطية» وتحرير الشعوب المضطهدة. نقول هذا لنؤكد أن خطأ القراءة ليس وقفاً على طائفة دون أخرى، فقراءة أمريكا للأوضاع العربية قادتها إلى أنفاق مظلمة ومستنقعات موحلة. إن قراءة الرجل العادي ورجل الدولة لمجمل الأحداث والوقوعات يجعلهما يعيشان في حالة من الذهول والارتباك، وقراءة الراهن مغامرة محفوفة بالمخاطر، فهل نغامر بالقراءة أم نطوي الصحف إلى حين، وندع الأحداث تنبئ عن نفسها؟ إنها معضلة، فالإقدام والإحجام لكل منهما آثاره ومحاذيره.

ولما تزل تحولات الخطاب الأمريكي واضطرابات القراءة قائمة، وفي كل تحول تفقد أمريكا أشياء كثيرة، تفقد الأصدقاء، والمصداقية، والموالين، والمعجبين، والمحبين،

ويتنفس أعداؤها المنبوذون والمطاردون والمحاصرون والمتربصون، فيستفحل الإرهاب، وتنشط المقاومة، وتتعرض مصالحها للتفجير مما يحرج أصدقاءها، ولما تزل في غباء أو تغابي، بحيث لا تريد القراءة البريئة ولا الخطاب الثبوتي، فهي إذ تسهم في صنع الإرهاب أو في تكوين حواضنه من خلال ممارساتها، تصر على إحالته إلى منهج أو دين أو أمة، ويظل معها الخليون يقولون ما تقول، وتظل في الساحات الملتهبة كما نرى، تمنى بنكسات موجعة، وتظل في الساحات العالمية كما نشاهد، تواجه تحديات ومظاهرات وتساؤلات، وقد لا تريد قراءة الأحداث كما هي، بل كما تريد، وهي إذ تظل مع إحالة الإرهاب لدول وحضارات ومناهج وحركات يظل المتسرعون معها في المنشط والمكره ينوبون عنها في ترويج الافتراء.

وأمام هذا الاضطراب، وهذا الاهتياج العملي والقولي يجب على النخب الإعلامية والعلمية والثقافية وقادة الفكر أن تدق نظرتهم في قراءة الأحداث، وأن يعوا مسؤوليتهم، وأن يتخذوا أحكم الطرق وأسلمها لتجاوز هذه المرحلة المضطربة. فالذين يتخذون في قراءتهم موقفاً «استراتيجياً» ولا يضعون في اعتبارهم «التكتيك» المرحلي، قد ينالهم ما لا تحمد عقباه. فالمرحلة تستدعي التصرف الحكيم، وفي القرآن ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ مع مراعاة الاستدراك ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾، بمعنى يجب أن تنتبهوا، ولا تجعلوا التقية المؤقتة ارتماء في الأحضان وامتثالاً للأوامر وموالاة مطلقة. فقد يقول الإنسان كلمة الكفر، وقلبه مطمئن بالإيمان، وقد يقولها وهو شاك مضطرب، وقد يقولها وهو مؤمن بها. فاللفظة هي اللفظة، ولكن النِّية تحيل إلى الاضطرار المعذور أو إلى الإلحاد المحبط. والذين يقولون ما تقوله أمريكا في شأن الإرهاب والتصحيح والتعديل يواطئون على الخطايا. وعلى قادة العالم العربي والإسلامي أن يقدروا هذه المرحلة، وألا ينجرفوا في تيارها، لأنها مرحلة عارضة، وليس من مصلحة أي دولة أن ترتب أوراقها النهائية على معطياتها. فالصبر والمصابرة والمرابطة هي سلاح الناصح الأمين، ذلك أن أخطر ما تواجهه الأمة إطلاقات الغرب وتصديق المتسرعين لها، وإدارة خطاباتهم على ضوئها.

إن التعامل مع أمريكا يحتاج إلى أكثر من مستوى قرائي، وإلى خطاب حضاري قادر على الجمع بين المداراة والاتقاء وتجاوز المنعطف الخطير بأقل الخسائر، والصهيونية التي زجت ب«أمريكا»، عرفت الطريق إلى استدراجها، وهو ما يفقده العالم الإسلامي والعربي: المال والإعلام والقراءة الواعية لكل حدث وموقف، وتجاوز المؤسسات إلى الشعب الأمريكي، هي مفاتيح الأمة الأمريكية.

لا تلوموا (صدام) ولوموا أنفسكم .. !(١)

وصيد (صدام) كما تصاد الجرذان المؤذية، ووصل كل الأطراف إلى مشارف القضايا، وأصبح كل شيء في ذروة تعقيده، واستحالة تصوره.

فالشعب العراقي تنفس الصعداء، لأن العفريت الذي انفلت من قمقمه عاد إلى قبضة قوية لن يفلت منها. وعلى ضوء الخلفيات الذهنية لم يكن أحد يتصور النهاية البشعة والمهينة، وإن كانت تجارب الأمة مع ثورييها تشي بمثل هذه المصائر المؤلمة، فالزعامات الثورية لا تغرس عروقها الظالمة إلا على الجماجم والأشلاء، مختصرة الوطن في شخص المغتصب، مكرساً إعلامها شخصنة المؤسسات، غير ملتفت إلى تشخيص الأدواء.

والذين انهالوا على (صدام) بأقذع الكلام وأسقِّه، يفوتون على راهنهم فرصة التأمل (لما بعد صدام)، لقد انتهى شر نهاية، وطويت صفحته بما فيها من بشاعة وقبح، وسيظل وثيقة إدانة لسياقه وأنساقه التي عاشها، وإن تمت كل تجاوزاته تحت سمع المخابرات الغربية وبصرها. ويوم أن كان يقاتل عنهم بالإنابة، كان الدعم ينهال عليه من كل جانب، ولما أن فرغ من دوره على مسرح الدمى، لم يحتمل الاقصاء، فعاد يكسر في خلفيات المسرح وفي الدمى، قبل أن تنتهي فصول المسرحية، الأمر الذي جعل اللاعب الغربي يأطره على رغبته أطراً ويصوغ خطابه على ضوء المستجدات، ناسياً ما سلف، دون أن يتغير شيء من المقاصد، ومصيبة الأمة ليست فيما حصل، وإنما هو في فهم ما حصل على غير حقيقته، وتصديق الرأي العام للمتغير الأدائي.

و(صدام) الضجة لم يكن عدوّاً للغرب بقدر ما هو عدوٌّ لأمته ومصالحها، لقد كان مخلب القط في كل حروبه الخليجية، وحين تبين له أنه ألعوبة غبية، وأن ليس له مما فعل إلا العار والخسار، ولما لم يقبض ثمناً لأدواره الجارحة للكرامة العربية، ثارت ثائرته، واختلطت عنده الألوان، وتداخلت الأطياف والرؤى، ووجد نفسه كما (الثور الأسباني) في الحلبة، يمعن المصارع في تهييجه، حتى يثخنه، وحتى تخور قواه ويسقط، ثم يسحب من ذيله، وكل الفرق بين الاثنين أن (صداماً) سحب من شعر رأسه ولحيته، فيما سحب الثور المصارع من ذيله، لقد وقف على مفترق الطرق يتنازعه: - الخنوع لتبعات اللعبة، أو مواجهة قدره.

ومنذ أن دحرته القوة العالمية في الكويت، لم يكن يتصرف بعقل، ولم يبد على حقيقته إلا حين نسل من حفرته أشعث أغبر، لقد ظهرت الحقيقة التي أخفاها وراء حجب من الأقنعة. وأمريكا التي تتقن فنون الحرب، وتملك آلياته، تتقن كذلك متطلبات الحرب النفسية والإعلامية، لقد أحكمت التمثيل والإخراج لخطوات القبض عليه، ولم تمسه بقدر ما مست كرامة الأمة العربية.

وحيث أجمع المتابعون للقطات القبض عليه على أنها مصنوعة بإتقان، لإهانة الكرامة العربية، وتعميق أثر الحرب النفسية، فإننا نود لو أن القابضين عليه احترموا مشاعر العرب، واكتفوا بالعرض المقتضب، لتأكيد الخبر، لا لتعميق الإهانة. وإذا كانت أمريكا قد حققت نصرا بهذا القبض، فإنها دخلت نفقا مظلما، قد لا يكون المستقبل أحسن حالا من الماضي. والذين يغامرون في مواجهتها في مواقع عدة من العالم، بدؤوا يتجهون لمواجهتها في العراق، ومتى تحول العراق إلى ساحة لتصفية الحسابات فستظل أمريكا

---

(١) تاريخ المقال: ٦/ ١/ ٢٠٠٤

تدفع بمزيد من الجنود والعتاد حتى إذا لم تستطع حسم الموقف لصالحها سلمت السلطة لمن يعيد العراق إلى سالف عهده المظلم.

والقواصم أنها شرعنت لنفسها الغزو، وأعلنت من جانبها أنها محتلة، وليست باحثة عن أسلحة، ولا محاربة لإرهاب، ولا جالبة الحرية. وكم هو الفرق بين الاحتلال والمواجهة لهدف معلن.

لقد كانت تتقلب في حيثياتها، وتنوع مبررات حربها، وكلما أسقط في يدها، التمست حجة أوهى من بيت العنكبوت، ولن نمضي معها في تقلبها، فذلك قول متداول يعرفه القاصي والداني، وإنما نريد أن نلوم الساسة والمفكرين والكتّاب العرب الذين تلهيهم الدعاوى الكاذبة فيشتغلون فيها عما أوجبه الحق عليهم، وكأنهم فقهاء (بيزنطة).

والقبض على (صدام) وأسلوب العرض المؤذي أضاف إلى آلام الأمة آلاماً، ولم يحملها على تغيير ما في نفسها، وقد يؤدي ذلك إلى قلب الموازين. (صدام)، فرد صنعته القبلية أو الحزبية أو (اللعب الكونية)، ودعمه الإعلام الكاذب، وتسترت عليه القوى العالمية لمقاصد بعيدة لا يعلمها إلا الراسخون في علم السياسة. (صدام) شفرة محكمة الصنع إذا تمكن التاريخ من تفكيكها فإن الإدانة ستمتد إلى كل من يستطيع القول ثم لم يقل، ولكل من يستطيع الفعل ثم لم يفعل، ولكل من يستطيع الاعتزال ثم لم يعتزل.

وإذا كان (صدام) على رأس المؤسسة القبلية والحزبية (الدكتاتورية)، فإن آخرين خارج المؤسسة دعموا أو باركوا أو صمتوا، وهم شركاء في الخطيئة.

وإذا كنا مع الذين يحاربون أعداء الإنسانية، ويرفضون الظلم، فإننا لن نقع في رذيلة النظر بأكثر من عين، والكيل بأكثر من مكيال. سياسيون وإعلاميون ساندوا النظام المنحل، وباركوا خطواته، وأغمضوا عن جرائمه، وفي مقدمتهم دول الحضارة و(الديمقراطية)، وحين وقع في المصيدة، انحلت عقد ألسنتهم، وانطلقت تسلق ذات الرئيس، وكأنه وحده الذي حارب واحتل وقتل وعذب وشرد وسجن، وما هو في حقيقة الأمر إلا حلقة صدئة في سلسلة طويلة من الخطائين: جماعات وأفراداً. ولسنا هنا ندافع عن هذا المجرم الذي تولى كبر الجرائم، ولكننا نود ألا يكون وحده المشجب الذي تعلق عليه كل الجرائم، ثم لا نجد حرجاً من إعادة الفعل وصناعة الأصنام.

وإذ نرى محاسبته حساباً عسيراً، وأخذه أخذ عزة واقتدار، نود ألا يكون ذلك (بيد عمرو)، فأمريكا ليست على الأمة العربية والإسلامية بوكيلة، لا يحق الحق إلا هي، ولا ينصف المظلوم إلا هي، ولا يجلب العدل والمساواة إلا هي، ولا يصدر (الديمقراطية) إلا هي. ومن العار أن نستورد الحرية والعدالة والمساواة كما نستورد السيارة والثلاجة والتلفاز، ومن العار أن نردد كالببغاء ما تقوله وسائل الإعلام الغربي، فإذا تحدثوا عن الإرهاب التقطنا الخيط منهم، وقلنا مثل قولهم، وإذا ادعوا أنهم يذرفون الدمع على ما تعانيه الشعوب من ظلم وجهل وتخلف بادرناهم وسرنا وراءهم كالقطيع، وإذا حددوا مصادر الإرهاب أسرعنا إلى التنازلات.

ومع ضجة الفرح والشماتة والاستياء والامتعاض بعد القبض على الرئيس فإن الخبيرين الضالعين في صنع الدمى وإحكام اللعب يتخوفون من (محاكمة) صدام على مشهد من الرأي العام، ذلك أنه لن يعترف، ولن يعتذر، وإنما سيمارس الإسقاط والتخلي، ومن ثم فقد يزج بدول ساندت وبأشخاص باركوا، فالمؤكد أنه ليس الضالع الوحيد في اللعب الكونية، وليس هو الطاغية الأوحد، ولا الغبي الأوحد. وحين تتاح له فرصة الدفاع عن نفسه فإنه سيقول الواقع، والواقع لا يشرف الجميع. ثم إنه سيخفف من حدة المساءلة باستدعاء لاعبين كباراً، مارسوا معه الدعم أو غض النظر ردحاً من الزمن، دعموه بالقوة وبالمعلومات وبالدعاية، حتى إذا استهلك كل الأقنعة، وغرد خارج السرب امتدت أيديهم

إليه، ولو أنه حين استخفوه أطاعهم لظل زعيماً مدعوماً، وهو حين لم يطع لم يكن مدفوعاً بالوطنية ولا بالإنسانية ولا بالعقل، وإنما تداخلت عنده الخيارات، حتى لم يستطع في اللحظات الحرجة من التمييز بين المنجي والمهلك.

وحين يقدم للمحاكمة فمن المدعي؟ أمريكا المحتلة، أم الشعب العراقي المهمش، أم دول الجوار المتأذية.

وهل أمريكا محقة بحربها، مقتصدة في مواجهتها؟ وحين لا تكون محقة ولا مقتصدة، فبما تواجه صدام؟ إن واجهته بسلاح الدمار الشامل فحجتها واهية، وإن واجهته بوصفه مجرم حرب، فهي لم تخول دولياً بطرح الدعوى، وكم من مجرمي حرب يسرحون ويمرحون، وإن واجهته بأنها محررة لشعبه ومقيمة للحرية، فهي قد أعلنت أنها محتلة والاحتلال نقيض الحرية. أحسب أننا بحاجة إلى أرضية قانونية شرعية تقنع الرأي العام العالمي الذي لم يعد ألعوبة للدعاية المشكوفة.

(صدام حسين) طاغية، ودموي، ودكتاتوري، أذل شعبه، وأضر بجيرانه وأهان أمته وفرق كلمتها، وحقه أن يلاقي كل جزاءات ذوي الحرابة من قتل أو صلب أو تقطيع أيد وأرجل من خلاف أو نفي من الأرض، غير أن الإشكالية ليست في نوع العقوبة، ولا في المحاكمة السرية أو العلنية، ولا فيمن يتولى ذلك، الإشكالية في نتائج حرب غير مشروعة، واحتلال أرض حرة، وإسقاط حكومة، وإلغاء وزارات، وإحداث فراغ دستوري، وإتاحة الفرصة لقيام كيانات قبلية وطائفية وعرقية، ومقاومة عنيفة لا يعرف مصدرها ولا هدفها ولا مداها، كل ذلك تجاوز بفداحته فعل الطاغية وحدث اعتقاله ومحاكمته.

وحين لا نرحب بمزيد من الفضائح، وحين نغلب جانب رفع الأقلام، وطي الصحف، ونسيان الماضي ومآسيه، ورفع كل الملفات المتمثلة بالخيانات والمواطآت، استعداداً للنظر إلى المستقبل، والأخذ بالحلول المرحلية، فإننا ننظر إلى وضع أليم تعيشه الأمة العربية، ولن يتأتي ذلك إلا بتضافر الجهود العالمية والعربية لحل إشكالية العراق، وأحسبها تتمثل بالخطوات التالية:

-حصر الوجود الأمريكي في أضيق نطاق، وعلى شكل قاعدة عسكرية مؤقتة تمثل صمام أمان بعد الفراغ الدستوري، وتحول دون استبداد أي طائفة بالسلطة أو قيام حرب أهلية تصفى فيها حسابات وثارات.

-تسليم جميع الملفات لهيئة الأمم المتحدة ولجامعة الدول العربية.

-تشكيل أمن داخلي، وتسليم أمن كل منطقة للأغلبية السكانية فيها، وتحميلها مسؤولية استتباب الأمن.

-البدء في الإجراءات الدستورية والقضائية والتنفيذية، ومباشرة وضع دستور وآلية انتقال السلطة، وتوزيع المناصب والحقائب الوزارية: إقليمياً وطائفياً وقبلياً، حتى إذا وعت الأمة مسؤوليتها، وذاقت طعم الحرية، أجريت انتخابات حرة، تحت رقابة مشددة: محلياً وعربياً ودولياً.

-وقبل كل ذلك تعليق كل المشاكل، وإيقاف المحاكمات، وتأجيل كل الديون، وفك الاختناقات الاقتصادية، وتخفيف حدة الفقر والبطالة، وإعادة القدر الكافي من البنية التحتية، وذلك من خلال ممارسة إنسانية تنسي الشعب العراقي ويلاته ومصائبه.

فأحداث العراق تنتقل من سيئ إلى أسوأ، وليس من المصلحة نشر الغسيل، إن هناك جريحاً ينزف ومجرماً في السلاسل، فهل ندع الجريح، ونشتغل مع المجرم؟ لقد وقعت الزعامة العراقية في أخطاء فادحة، لها ما بعدها، وليس من السهل حسم ذيولها، فحربها الحدودية مع إيران عمل سيئ.

واحتلالها للكويت وانصياع دول عربية مع العراق شكلت كارثة الكوارث، ولكن الأسوأ من ذلك العناد الغبي ثم التسليم المهين.

واحتلال العراق من قبل القوات الأمريكية كارثة عالمية، لقد هيأ الفرصة لحرب أهلية دموية لن تزيد الشعب العراقي إلا ارتكاساً في حمأة الفتن العمياء التي تجعلهم يترحمون على (صدام حسين). ذلك أن صداماً لا يبطش بطش الجبارين إلا فيمن يعترض سبيله، أما فتنة الاحتلال والفراغ الدستوري فإنها ستمتد إلى المقيم والظاعن والساعي إلى الفتنة والهارب منها.

والقبض على (صدام) سيؤدي هو الآخر إلى مزيد من المتاعب لأمريكا، لأنها تمارس أعمالها القمعية في جو من الاستياء المحلي والعربي والإسلامي والعالمي، ومهما سايرتها الأنظمة العالمية وجاملتها مداهنة أو مداراة أو تقية فإن الشعوب بما فيها الشعب الأمريكي لها تحفظات وتساؤلات، لا يمكن غض النظر عنها.

إن إنهاء حكم (صدام) الحزبي القبلي الجائر ضرورة، وإنقاذ الشعب العراقي ضرورة، ولكن الإجراء لم يكن هو الخيار الأفضل. ومع أنني متأكد من أن أحداً داخلياً أو خارجياً لن يستطيع إسقاط النظام، ولولا مغامرة أمريكا وخروجها على الشرعية لظل كما هو زعيماً أوحد لا ينازع، فإنني كنت أتمنى من المعارضة العراقية عدم تحريض أمريكا على المواجهة العسكرية، وكان بالإمكان تشديد الوطأة عليه، وجمع كلمة الأمة العربية، لتضييق الخناق، حتى يذعن كما أذعن غيره.

ومع تهافت الزعامات المطاردة من قبضة أمريكا إلا أن الخصم الألد لأمريكا ليس حصراً في الخمسين رجلاً تطاردهم، الأعداء المتربصون من يسربون السلاح والمقاتلين ومن يفخخون السيارات ويفضلون الموت على الحياة، ومن هانت نفسه عليه فلن تثنيه ترسانات، ولن تقصيه مخابرات. وأمريكا التي تحتفل بالقبض على (صدام) لم يدر بخلدها أن المقاومة لو وجدت (صداماً)، لقتلته، المقاومة تصفية لحسابات وثارات، وعلى أمريكا أن تعيد حساباتها، فالطريق شاق والخروج من المأزق صعب.

الإصلاح السياسي بين (الديمقراطي) .. و(الثيوقراطي) .. ! (١) [1]

الهدف الأسمى لهذه المقولة لملمة أشتات الرؤى والتصورات التي يدرك بها البعض ليل السياسة العربية الضاغط، بغية الوصول بها إلى صيغة سياسية انتقائية أو توفيقية أو تلفيقية، تحقق المقتضى الإسلامي، بوصفه إرادة شعبية، وتمكن من امتصاص نسغ التجارب الأخرى، وتواكب المتغيرات الإيجابية، وتخلص الأمة العربية الممتحنة من خطابات مغثية، يخوض بها المتسطحون على الأحداث. ومتى تحقق المقتضى الإسلامي في الحكم، على أي شكل من أشكال السياسة، وعبر أي نظام متداول في المشهد القائم، تحقق معه: العدل، والمساواة، والحقوق، والمشاركة، والنهوض بمتطلبات العصر. فالإسلام كفل للإنسان على الأرض، وللطائر في السماء، وللسمك في الماء، ولكل أمة من الأمم التي لا يعلمها إلا الله حياة تناسب وجود أي كائن ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾. ومتى استدبرت أمة الإسلام مقتضياته، وركضت وراء بوارق الأنظمة القائمة في الشرق أو في الغرب، فوتت على نفسها فرصاً كثيرة. والإخفاقات التي تتعرض لها المؤسسات السياسية المنتمية للفكر السياسي الإسلامي عبر التاريخ إن هي إلا إخفاقات تطبيق، والعلاج لا يكون بنفي المبدأ، وإنما يكون بتمثله حقيقة لا ادعاء. فـ«الديمقراطية» التي تشكل الأنموذج المعشوق شكل سياسي ناجح في الغرب، وهو المهيمن على كل التطلعات. ولقد هُدهِد العالم الثالث على سرابياته ولما تزل دعوى الكاذب، ومطلب المغلوب، وحجة الثائر، وكل الأطراف تعرف استحالة التمثل الكامل لها، لأن طبائع الشعوب وحضاراتها المتجذرة في الواقع وفي أعماق النفوس لا يتأتى في ظلها الإحلال البديل، ومن جهلها أو تجاهلها غرق في متاهاتها. وما من أمة إلا خلت فيها أشياؤها: الحسية والمعنوية، وتجذرت، حتى لايمكن القضاء عليها بسهولة، أو الاستغناء عنها بيسر. فالأمم والشعوب تقوم على مبادئ وأعراف وشرائع: وضعية أو سماوية، عرفية أو أبوية، ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ هذه السوائد توارثوها جيلاً عن جيل، وأصبحت جزءاً من التاريخ ولبنة من بنائه. والصيرورة الكلية الفورية إلى أي نظام طارئ مهما كانت مشروعيته أو معقوليته من المستحيلات. فأين المبادئ والأحزاب والأنظمة المبتسرة التي أنفق الثوريون في سبيل تكريسها خبز الجائعين وألحفة المقرورين وأحذية الحافين، وروّي بدمائهم صعيدهم الطيب؟. إن هم الإصلاح الرفيق يختلف عن جناية الاستبدال المستشيط، والتجمد والنمطية والخوف من التحرف للأفضل مؤشر جهل بطبيعة الحياة المتجددة، وإعجاب بالرأي وبالذات. وواجب المنظرين والمنفذين أن يراعوا الأحوال، والإمكانيات، والسوائد، ورغبات الشعوب، بحيث لايكرهون الناس على أن يكونوا كما يريدون .. وأحد أنبياء (الديمقراطية) كما يسميه (أدوار بيرنز) (يذهب إلى أنها نظام في الحكم لا يصلح لجميع الشعوب). ذلك أن لكل أمة إرادة صائبة أو خاطئة، والبراعة في تصويب هذه الإرادة، دون إثارة. والشعوب الإسلامية كافة لا ترضى بالإسلام بديلاً، واستكانتها أمام المبدلين استكانة العاجز المتربص. ولهذا فكل انتخاب حر نزيه صحيح يفوز به الإسلاميون، حصل ذلك في (تركيا) وفي (الجزائر) وسيحصل في كل بلد إسلامي يمارس الانتخاب الحر النزيه. وإذا أخفق المشروع الإسلامي، فليست العلة في ذات المشروع، ولكنها في الممارسة

---

[1] تاريخ المقال: ١٧/ ٦/ ٢٠٠٣

التطبيقية، وفي فعل الوصوليين الذين يخادعون الله، وهو خادعهم ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾.

وكل دولة مستبدة تدعي أن نظامها الأفضل، وأن شعبها أسعد الشعوب، والدول النامية هي الأكثر ادعاء، والأكثر نقداً وتلاحياً فيما بينها، والأقل فعلاً وتفعيلاً لمؤسساتها الشكلية. والدول (الديمقراطية) حقاً، لاتتحدث عن ممارساتها التطبيقية، ولا تتقحم مآزق المفاضلة والتصدير، ولكنها تترجم مقتضيات النظام عملاً، يكفل للمواطن الاستقرار والثقة والاطمئنان والحياة الكريمة. و(الديمقراطية) التي يلوكها كل لسان، ويدعيها كل نظام، تختلف من خطاب لآخر، والناس معها مقل ومكثر، تكون إجراء صرفاً، وتكون إجراءً و(أيديولوجية). فهناك (ديمقراطية) شرقية، وأخرى غربية، وهناك أنظمة وأنماط رديفة للمفهوم (الديمقراطي)، تفرضها (أيديولوجيات) متفاوتة، قد تحد من الحرية المطلقة للأمة. وواجب النخب المتصدرة، ان تفرق بين المدلولات، ذلك أن الخلط بين المفاهيم مظنة التعثر. والخطاب السياسي، وبخاصة الشورى، لايميز، أو لايريد أن يميز بين مفهوم (الديمقراطية) و(الحرية). والعالم بأسره مر بنظريات سياسية، صلحت لمرحلة أو لأمة، ولكنها لم تكن صالحة في زمن آخر، ولا في مكان آخر، ولا لأمة أخرى، ونظرية الإحلال الفوري مغامرة محكومة بالفشل الذريع، والناس جميعهم عيال على المطارحات (الميكافيلية)، وان تسللوا لواذاً متقنعين ب(الديمقراطية) التي بلغت أوجها في القرن العشرين، وتناولها (بيرنز) في كتابه (النظريات السياسية في العالم المعاصر) من خلال فرضية سماها (أنبياء العهد الذهبي) واستهل حديثه بتأزيم المصطلح، فهو الأكثر غموضاً وإبهاماً، بحيث يستوعب جميع أنواع المعاني لدى الناس جميعاً، والمصطلح حينما لايكون جامعاً مانعاً، لايكون مصطلحاً.

وحين تمر الدولة بحالة ضاغطة: داخلياً أو خارجياً، تعيد النظر في نظامها أو في تربيتها، وتحاول التحول من مفهوم لآخر، لتلافي مثل هذه الحالة، ولكن البعض لايعدو كلامه حد القول. والدول الثورية أكثر ادعاء، لأنها تبرر ثورتها بغياب (الديمقراطية) أو بخيانة الوطن، والقادمون أكثر تغيباً وأكثر خيانة. وحين يلوح أي نظام بالإصلاح، يدب ذوو البيات الشتوي من جحورهم، معلنين أو ملوحين، بما ينطوون عليه من رؤى وتصورات، فيكون العلماني الشمولي المتطرف، والعلماني التنظيمي المعتدل، والإسلامي الموغل بعنف أو برفق، والحزبي التنظيمي أو (الأيديولوجي) أو الأصولي المتعنت، وتلتطم الآراء، ثم يدب الخوف والخلاف، ويفضل العقلاء ما هم عليه، خوفاً على البلاد والعباد من لعبة قاصمة، أو مؤامرة قاضية. وكل من يدعي التغيير المطلق يفقد المصداقية، فالدساتير لايمكن ان تنكس رأساً على عقب، والإصلاح المرحلي المتدرج هو الحل الأمثل. والدول الحكيمة هي التي تتعامل مع شعوبها برفق، وهي التي تمشي الهوينا على طريق الإصلاح، شأنها شأن العلاج أو اللقاح الجديد، لايعمم إلا بعد تجربة جزئية محدودة، مصحوبة بمراقبة وحذر وتقويم.

والعالم الثالث لما يزل يمر بحالة من التعدد والارتباك والتجريب، فهناك حكومة الحزب، وحكومة الطائفة، وحكومة العرق، وحكومة القطر، وقد يمتد اسم الدولة ليكون سطراً، بينما الحاكم بأمره كلمة ناقصة، وكل هذه الأشكال تقوم على فتن نائمة، واستكانة الشعوب استكانة المتحين، فأي ظرف استثنائي قد يفجر الواقع، ومن ثم تدخل الأمة في حرب أهلية دموية، تهدد الاستقرار والأمن، ومن لم يؤمن، فلينظر إلى من حوله من دول تلعب بها أعاصير الفتن، وتعصف بها الحزبيات والطائفيات والعرقيات، مهيئة الأجواء

للمجاعة والخوف والأوبئة والتدخل الأجنبي بدعوى تحرير البلاد وإيقاف نزيفه. والمذكرات والاعترافات واللقاءات عبر الكتب والصحف والمحطات تكشف عن سيئات الحكومات المتعاقبة، ومن أصاخ إلى فلول الحكومات في المنافي والملاجئ يصاب بالغثيان، وبحمدالله أن نجا بدينه وعرضه ومثمنات بلده، ومثل هذه الحكومات: إما أن تكون (دكتاتورية) متحزبة، أو (دموية) متعلمنة، أو أنها تجمع بين السيئتين، أو أنها إسلامية الشعارات لا الشعائر، وقلما تكون (قوية عادلة). والقوة والعدل تكون في الغالب منتج السياسة (الثيوقراطية)، ومن ثم لا تتحققان في ظل التعددية: الطائفية أو الدينية. والمتابع لايقف على ضابط يقيس به ما يواجهه من خطابات، ذلك أن مسألة العالم الثالث مفتوحة على كل الاحتمالات، والأصوليون يقولون: (الاحتمال لايقوم به الاستدلال). ولقد تمر الدولة بحالة من الاستقرار، ثم تصاب بنكسة مدمرة، ثم لا يكون للحالين معيار دقيق. وكل الأنظمة التي تعيش على الصدف، ولا تعول على المؤسسات والثوابت، تكون عرضة للفراغ الدستوري القاتل، ولهذا يؤدي غياب الحاكم لأي سبب إلى فتنة عمياء.

والإصلاح المتزن لا تأتي به طفرة هوجاء، ولا ثورة دموية عمياء، ولا يحققه الخروج على الحكومة الشرعية، ولا يجلبه التدخل الأجنبي، و(الديمقراطية) لا تصدر، ولا تفرض بقوة السلاح، إنها حضارة وفكر و(أيديولوجية) تكون في البدء بذرة، ثم تنشق عنها الأذهان، فتتفتق، ثم تصبح وارفة الظلال. وما لم تتهيأ الأمة لتقبلها، تتحول إلى فساد كبير. وما فوته الثوريون على أمتهم باسم (الديمقراطية) أو القومية أو الوحدة أو الحزبية لا يقدر بثمن. وكل دولة قائمة تستطيع أن تمارس الإصلاح المرحلي، وأن تتحول أشياؤها من النقص إلى التمام، وذلك فرض عين، وبخاصة من القادرين على استكمال ماينقص، والتحول المرحلي المؤسساتي هو الطريق القاصد، ولابد ان يسبق ذلك بالتوعية لا بالدعاية. فالتوعية مهمة، لأن الأمة الواعية لا تقع تحت طائلة التآمر والدسائس. والسمة النظامية ليست مهمة، ولا حتى الهيكلة والشكليات، وإنما المهم النتائج. وإشكالية الخطاب الثوري أنه ظل واقفاً عند السمة، فهو مثلاً ضد (النظام الملكي)، لمجرد أنه مغاير للسمة (الجمهورية)، وكلا النظامين بوصفهما سمة لا قيمة لهما، القيمة في الأداء والممارسة والنتائج. و(الديمقراطية) دعوى الخطاب الثوري الإعلامي، يتغنى بها، ولكنه لايحقق أدناها، فكأنه خطاب شعري، يقول ما لا يفعل، ولا يلحق به إلا الغوات من الغوغاء، ولما يزل الخطاب في تقلب مستمر، فيما لم تتم المكاشفة والمراجعة، فالذين يدعون (الديمقراطية) ماذا حققوا من مقتضياتها؟ والذين ينقمون على سائر الأنظمة، بماذا يدلون؟. والمد الثوري جعل شيطانه الأكبر منبع (الديمقراطية) الحقة، مع تغنيه بها. والقادمون بها على مطايا الفرقاطات والراجمات، لو مكنوا الشعوب منها، وأخضعوا الحكام لها، لكانوا أولى قرابينها. إن الأمة مغلوبة على فكرها قبل أن تكون مغلوبة على أمرها، وغلبة الفكر أن تظل في الوهم، وأن تظل النخب في انتظار القادم، لتقول مايقول، وكأنه (حذام).

وإشكالية المبادئ والمشاريع تعدد الأقنعة ووحدة الوجوه. والرصد التاريخي للخطاب (الديمقراطي)، يحيل إلى مفاهيم جديدة، تخطت ربط مصدرية السلطات بالشعب إلى أشياء أخرى، كالمساواة والحرية، علماً بأن مثل ذلك من طرائق الحياة (الديمقراطية) أو قل من نتائجها، فالرجوع إلى الشعب يعني التوفر على الحرية والمساواة.

وأياً ما كان الأمر فإن العالم العربي يعيش حالة من الارتباك والتردد والتناقض، والبوادر لاتبشر بخير، ولاسيما أنه مغلوب على أمره، محكوم بحاجته التي لم يستطع التوفر عليها أو الاستغناء عنها، ومع كل هذه التحذيرات فإنني لست متشائماً، ولست

متحفظاً على أي محاولة تجديدية، ولست مشيداً بأي ممارسة، ما لم ألمس نتائجها ماثلة في الطبيعة، ولست متمسكاً بالسوائد ولا مؤمناً بمقولة: (ماترك الأول للآخر شيئاً).

الإصلاح السياسي بين (الديمقراطي) .. و(الثيوقراطي) .. ! (٢) [1]

والسواد الأعظم، المتهافت على المصطلحات، دون فهم دقيق لجذورها الفلسفية، ودون تحفظ على حواضنها الفكرية، يمنون بالفشل الذريع. والغرباء الأقل عدداً، والأخفت صوتاً، يأخذون حذرهم، فيفرقون بين المفاهيم والمرجعيات والمبادئ والإجراءات، ويضبطون إيقاع التحولات والتناقضات، وإن اتحدت المسميات. فـ(الديمقراطية) الغربية تختلف عن (الديمقراطية) الشرقية. و(ديمقراطية) الإجراء تختلف عن (ديمقراطية) المبدأ. والمغرمون بتداولهم لها يعرضون مبادئهم للمداهنة، والمناوئون يغرقون في المجادلة في غياب البصيرة، معرضين أنفسهم للتجهيل وفقد المصداقية. ولو أن الأطراف وعت المصطلحات حق وعيها، لاتخذت منها مواقف مدعومة بالمعرفة ومحكومة بالقسطاس المستقيم. و(المتأدلجون) مع المبادئ والمذاهب غير المتفاعلين معها دونما صيرورة عقدية، والأدعياء غير الأولياء، والقابلية غير المغالبة. والمتهافتون لا يكتفون بمشاركة الأمة في صياغة الدستور، بل يؤكدون على أن الشعب مصدر السلطات: التشريعية والتنفيذية، والموائمون منهم يقولون: - (إن صوت الشعب هو صوت الله). والمحاورون يدخلون في لجج من الرؤى والتصورات، ولما يُعدوا للجدل عدته، وتلك سجية يمنى بها المهتاجون العزل. ولأن (الديمقراطية) حمالة أوجه، فقد تتسع للشيء ونقيضه، فالاشتراكيون يرون التماس الحكومي مع كثير من أحوال الشعوب جزءاً من (الديمقراطية)، فيما لا يراه الغربيون الذين يعتمدون الاقتصاد الحر، وما ظاهرة الخصخصة للشركات والمؤسسات إلا سبيل من سبل العولمة الناسلة من عباءة (الديمقراطية)، فهي تحجيم لسلطة الدولة بمفهومها القديم، وبداية لعزلها عن التدخل المباشر والشامل. ومع هذه التجربة، نجد أن (العمالة) تطالب بعودة الحكومة إلى الساحة، لتفك الاشتباك بينها وبين رأس المال المستأثر بالفائدة. فالحكومة مع كل التحولات ضرورية، وضبط سلطتها ضروري أيضاً، والغوغاء المنتخبون يعانقون الرافضين للسلطة، ويحسبون أنها تغيب مع قيام (الديمقراطية) ولما يعرفوا أنها لون من ألوان السلطة، وأن الحرية المنضبطة لا يحققها إلا القوة والعدل.

و(الديمقراطية) بوصفها غربية الممارسة، (يونانية) الانتماء، وضعية الاعتقاد، أخذها الشيوعيون بمفهوم آخر، بحيث أطلقوا عليها (الديمقراطيات الشعبية) وقيادة الحزب الشيوعي لسياسة الدولة يعني إجهاض المدلول الغربي. وقد أخذت بعض دول العالم الثالث المنتمية للكتلة الشرقية بهذا المفهوم (الدكتاتوري) الاستبدادي التسلطي، المعتمد على العنف والدموية، ولهذا لم يكتب للشيوعية البقاء، وكل نظام يتخذ الظلم والتسلط شرعة ومنهاجاً مآله إلى الانهيار. وقد جاء في القرآن ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]، ولم يقل «صالحون»، ومعنى هذا: أن الله لا يهلك القرية المشركة، وأهلها يتعاطون الحق فيما بينهم، ولا يضمون إلى شركهم، وهو ظلم، ظلماً آخر. والذين اتخذوا الماركسية من دول العالم الثالث أوغلوا في الدموية، ومن أراد الاطمئنان، فليستعد التاريخ الحديث، وبخاصة ما يتعلق بالصدامات الحزبية في (عدن) قبل الوحدة، وفي (العراق) إبان الوجبة الأولى من الثورات مستعرضاً إجابات (إبراهيم الداود) جريدة (الحياة من ٩ إلى ١٤٢٤/١٢هـ). لقد أضاف الشيوعيون العرب أسلوباً همجياً وروحاً تدميرية، فكان ان استحقوا عذاب الله، وأخذه العزيز المقتدر، إذ لم يكونوا

---

(١) تاريخ المقال: ٢٤/ ٦/ ٢٠٠٣

صالحين ولا مصلحين. ومن نشد الإصلاح والأخذ بمعطيات الحضارة، فليس هناك ما يمنع من المواءمة، وبخاصة من جانب المستفيد، إذ من الممكن تحويل (الديمقراطية) من (الأدلجة) إلى الإجرائية، وليس شرطاً الأخذ بها على أنها (ايديولوجية) ذلك أن سيادة القانون، وقيم الحرية والعدالة معطيات متعددة المرجعيات، فالفكر السياسي الإسلامي يتسع لما تتسع له (الديمقراطية)، ومن الممكن الاستفادة من إجراءاتها وتنظيمات ذويها. وكل مذهبية أو حزبية أو طائفية أو عرقية تتعصب لواحدية الانتماء تقضي على وجودها الحسي والمعنوي، والقول بمحورية واحدة مع تعددية المتمحورين رؤية مفتوحة، تحتاج إلى ضابط، تتحدد معه المرجعية والهوية والانتماء.

وفقاعة (الديمقراطية) تعشي (زرقاء اليمامة)، ففي كتاب (من فقة الدولة في الإسلام) (للقرضاوي) إيماءة عازمة لمشروعية الاقتباس من (الديمقراطية): - (لتحقيق العدل والشورى، واحترام حقوق الإنسان، والوقوف في وجه طغيان السلاطين العالين في الأرض) - على حد قوله -. وما أشار إليه من عدل وشورى واحترام لحقوق الإنسان إنما هو بعض مضامين الفكر السياسي الإسلامي، والأخذ بشيء من ذلك أخذ من مقاصد الإسلام، وليس أخذاً من (الديمقراطية)، فحد (الديمقراطية) أن يكون الشعب مصدر التشريعات والسلطات، فيما هو في الإسلام منفذ السلطات، وعليه اختيار الطرق والوسائل والنظم الملائمة للمرحلة المعاشة، وكنت أود لو أنه - وهو العالم الضليع - قال بالاستفادة من التنظيمات والتشكيلات والإجراءات الحديثة. فالعدل مطلب إسلامي، ولكن كيف يتحقق، ما الإجراءات السديدة التي يتحقق بها العدل، فالتنظيمات والإجراءات هي مكمن الاختلاف المشروع لا الخلاف المحظور. فمن الأنظمة من تحققه بطريقة بطيئة مكلفة، ومنها من تحققه بأسلوب سريع وغير مكلف، وكلما جدت طرق وأساليب، وجب الأخذ بأحسنها، وأيسرها على الأمة، لأنها ضالة المؤمن، وما لا يتحقق الواجب إلا به فهو واجب، ويقال مثل ذلك فيما يتعلق (بحقوق الإنسان) القائمة على (المساواة) و(الحق) و(الحرية) ولكلِّ محورٍ مجالاته. واللغط حول الحقوق كثيرة. والإسلام ضمن الحقوق للإنسان والحيوان وخشاش الأرض، وهل من رحمة تعدل مثوبة (مومس) سقت (كلباً)، وتعذيب امرأة حبست (هرة)، والحقوق كما يراها الغرب، تختلف عنها في الإسلام، وليس من الممكن مسايرة الخطاب الغربي، ذلك أن للمسلمين حضارتهم، وللغرب حضارته، وإذا قلنا بالإسلام، وجب أن يكون خطابنا إسلامياً. لقد ساد القول بالحق منذ التصورات الذهنية (للقانون الطبيعي) قبل الميلاد، حتى (توماس الأكويني ت ١٢٧٤)، على أن الفكرة لم يسلّم لها الكافة، بل هوجمت من قبل (فقهاء الألمان) وجاء من بعدها مصطلح (مبادئ العدالة). فـ(العقد الاجتماعي) وانتهاء بـ(حقوق الإنسان) المعلن عن ١٩٤٨م، متضمناً: (المساواة) بمجالاتها الستة، و(حقوق الذات)، و(الحياة)، و(الحريات): - حرية التفكير، والضمير، والدين، والرأي، والتعبير، والسياسة. والذين قالوا بالحق الفردي، نسوا أو تناسوا حق الشعوب في تقرير المصير، وحقها في ثرواتها ومواردها، وحقها الثقافي والاجتماعي، وهي حقوق معطلة من قبل حماة الحقوق على حد: -

وقتل شعب آمن قضية فيها نظر

والإسلام الذي حدد الحقوق والواجبات، ترك أسلوب توفيرها لأهل الحل والعقد، فقد تكون عن طريق المؤسسات الرسمية، أو عن طريق المنظمات الشعبية، المهم أن يتوفر الإنسان على حقوقه المشروعة، وهنا نعود إلى مصدرية الحق: أهو الوحي أم العقل، أم الإرث أم العرف، أم هي معاً؟. وما لا شك فيه أن (الديمقراطية) معطى عقلي، اكتسب مشروعيته من العقل المستبد، وكل الحضارات الوضعية وغيرها تتوخى الأفضل،

وتستثمر ما سلف من حضارات، ويبقى الإسلام من عند الله، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً. ومع أنه من عند الله، فقد تقاطع مع كل الحضارات، والتقى معها في كثير من مبادئها. وإذ تكون هناك مساحات مشتركة، فإن من الحصافة أن يستغلها الخطاب الإسلامي، لتهدئة الأمور، والجنوح إلى السلام. والعقلانية المستبدة كغيرها من مصادر التشريعات الوضعية، ليست بريئة في منجزها، إذ هي محصلة تراكمات حضارية، لهذا كان بالإمكان أسلمة العقلانية، والأسلمة تعني الرد إلى الله والرسول، وربط كل المكتسب التجريبي والتنظيمي بالمقتضى الإسلامي، وليس هناك ما يمنع من الاستعانة ب(العقل) و(الإرث) و(العرف)، متى لم يخالف شيء منها (نصاً) قطعي الدلالة والثبوت. ولقد ذهب البعض إلى أنه لا معنى (للديمقراطية) ولا (للعلمانية) في ظل الإسلام، إذ هما مطلوبتان في ظل حضارات تفتقر لمثليهما. فالعلمانية تخليص من سلطة (الكنيسة) المتجمدة وتسلط (الكهنوتية) المستغلة، وليس في الإسلام سلطة كنسية ولا كهنوتية متسلطة، ذلك أن نظامه السياسي شوري اجتهادي وتطوري مرن، يحيل إلى العقل والتفكير، والبر ما اطمأنت إليه النفس، وحديث (استفت قلبك) تفويض مضبوط بالمقاصد، والكليات الإسلامية.

والذين نفوا وجود نظام سياسي إسلامي صالح، لم يكن لديهم استعداد للقراءة البريئة والتأمل العميق، كما لم يفهموا بعد مقتضيات ذلك الفكر ومقاصده، وتصوراتهم الخاطئة أردتهم. نجد ذلك عند (علي عبد الرازق) وعند سائر العلمانيين والماركسيين من بعده، وبخاصة (محمد سعيد العشماوي) الذي أوغل في الطعن في الخلافة والحكومة والحكم والتشريع الإسلامي، وتصور الحكومة الدينية كما يتصورها الغرب. وفي ذلك مسايرة غبية للغربيين المنكرين لفكرة وجود مبادئ للدولة في الإسلام، و نصوص الشريعة متضمنة لمبادئ السياسة وقواعد العلاقات التي لها أبعادها العالمية والإنسانية وضوابطها للعلاقات الدولية في حالة السلم والحرب. على أن طائفة من المستشرقين أشادوا بالقيم السياسية في الإسلام من مثل (شاخت) و(نللينو) و(ستروتمان) و(ماكدونالد) و(جب) وغير أولئك كثير. ومن مختلف التصورات فإن الإسلام يركز على النتائج، تاركاً الأساليب للظروف، ومن ثم فإن تحكيم الشرع، وإظهار الدين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنهوض بأمر الدعوة، تمثل مقتضيات الفكر السياسي الإسلامي. وكيف لا تكون في الإسلام مبادئ سياسية، والله أنزل الكتاب بالحق والميزان، ليقوم الناس بالقسط، و(صحيفة المدينة) إن لم تثبت سنداً فقد ثبتت متناً، وبهذا تعد منتجاً مبكراً للوثائق والدساتير.

و(الثيوقراطية) مصطلح سياسي، يجري عليه من الاختلاف وتباين وجهات النظر ما يجري على مصطلح (الديمقراطية). وبالجملة فإن مقتضياته تتأدى على أساس عقدي ديني، وإذ تستمد (الديمقراطية) سلطتها من الرؤية والتصور الشعبي، فإن (الثيوقراطية) تستمد سلطتها من الدين، وكل متحدث عن هذا المصطلح يربطه بمصطلحات أخرى ك(الحق الإلهي) و(ولاية الفقيه) و(الحكومة الدينية) على مختلف تصوراتها، وإذ تدخل هذه المفاهيم في المصطلح أو لا تدخل، فإنه لا يُلزم بها الفكر السياسي الإسلامي، فالحكومة الدينية أو المدنية يحتويها الإسلام، ولا تحتويه، وتعرف به، ولا يعرف بها، وإخفاق التطبيق لا يتحمله المبدأ.

إذاً هناك معادلة ثنائية:

(الديمقراطية) تعتبر الشعب مصدر: التشريع والسلطة.

(الثيوقراطية) تعتبر الله مصدر التشريع، والشعب مصدر السلطة.

والإشكالية في فهم المقتضيات، وصياغة المفردات والحقوق والواجبات. والمقولات بأن (الحاكم بمثابة ظل الله على الأرض) أو مقولة ب(أنه مفوض من السماء) أو أنه (يستمد مقوماته من المشيئة الإلهية) مقولات فيها تعميم. وهي إطلاقات المعادل المناوئ. وحتى القول بمطلقية (الحق الشعبي) أو (الحق الإلهي) في الممارسات التطبيقية للمصطلحين المتناقضين قول فيه أقوال. وعلينا قبل الدخول في المعادل الإشارة إلى أن الإسلام ليس ديناً شعائرياً (ميتا فيزيقياً) فحسب، الإسلام دين ودولة، شرعة ومنهاج، علاقة بين الخالق والمخلوق، وبين المخلوق والمخلوق بكل أنواعه، حتى بين البهيمة الجماء وذات القرون. وبهذه الدقة والشمولية والرأفة والثبات يختلف الإسلام عن الديانات المحرفة. وإذا أخفقت (الكنيسة) في إفراز نظام سياسي، فإن الإسلام قادر على طرح مشروعه السياسي المستوعب لكل متطلبات إنسان العصر ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾، والأصوليون يختلفون في مفهوم عدم التفريط، و(للشاطبي) رأي وسط في (موافقاته).

والمصداقية تقتضي أن نقول: إن هناك أشكالاً وأنظمة في الحكم الوضعي عادلة وناجحة، ولكن ذويها لا يرجون من الله ما يرجوه المسلمون عند إقامة العدل، وتحقيق النجاح واستعمار الأرض، والإحسان إلى الناس كافة. وبعض المسلمين بالاسم نفوا إسلامهم، وابتغوا حكم الجاهلية ادعاءً لا امتثالاً ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾ [المائدة: ٥٠] . وهذا التذبذب بين الإسلامية و(الديمقراطية) التبست معه الأمور، وأخفقت فيه النتائج، فإذا وصف (الديمقراطية) حاكم مثل (إبراهام لنكولن) وقال: - (بأنها حكم الشعب بالشعب وللشعب) فإن مقولته هذه صادقة، لأن (الديمقراطية) عنده تمثل مقاصدها المكتوبة، وليس هناك رئيس يستطيع أن يحرف شيئاً من ذلك، ولا أن يتعالى فوق القانون، ولكن إذا قالها (ثوري عربي) فإن في المسألة أكثر من نظر. إذاً هناك كلمات تطلق هنا وهناك، فتكون في مكان حرية نابضة، وفي آخر شكلية فارغة.

ومما لا مراء فيه أن المشهد الفكري العربي يمر بحالة من الاضطراب المخل بأهلية التصدي للمتداول: تنظيراً أو ممارسةً، رؤيةً أو واقعاً. وكل المحاولات التوفيقية أو التلفيقية أو الإحلالية فشلت في إيقاف هذا التدهور والإبقاء على ثمالة الوفاق، إن كان ثمة رسيس يبل الصدى. والذي أسهم في تعميق الترديات صراع الانتماءات الشكلية، بل صراع الذات مع نفسها. فهناك: القومي، والبعثي، والعلماني، والشيوعي، والناصري، والإخواني، والقطري، والقبلي، والطائفي، وكل خطاب يكيد للآخر، ويتربص به الدوائر، وهذه الصراعات المستحرة تغذيها قوى خارجية، وليست في جملتها منتجاً وطنياً، بحيث يمكن التوفيق بين وجهات النظر. لقد كان الصراع في الخمسينيات والستينيات وشطر من السبعينيات ثنائياً: - يسارياً أو يمينياً. وكل خطاب يتوسل بالقومية، بوصفها القاسم المشترك، وبعد تراجع اليسار وانهيار القومية، صعد خطاب إسلامي متعدد المفاهيم والتصورات والحدِّيات، وأحسبه الخطاب الأكثر تعميقاً للصراع، لأنه الخصم التاريخي المتحفظ على كل الخطابات، والمتحفظ عليه من كل الخطابات، ولهذا لا يجوز أن يكون مشاعاً ولا مستباحاً لكل من قدر على القول، أو رغب في الانتهاز، ولكي يطرح المشروع الإسلامي نفسه كما أراده الله، فلا بد من الدخول في المؤسسات كافة، والخروج بخطاب موحد، يصالح ولا يصادم، ويبادل ولا ينابذ، ويفرق بين اختلاف الاجتهاد وخلاف المبادئ والمرجعيات.

الإصلاح السياسي بين «الديمقراطي» .. و«الثيوقراطي» .. ! (٣) [1]

و«الديمقراطية» الحقة كما يراها الغربيون ذات سمتين:
-مشاركة الشعب في سن القوانين: «المصدرية».
و:
-مشاركة الشعب في اختيار نوابه وحكامه «النيابية».

ولا تتحقق إلا بالتوفر على السمتين. ولكن متى رضيت الأمة بحكومة تستمد سلطتها من مجموعة مؤسسات مختارة أو مرشحة، وقامت هذه المؤسسات بما تقتضيه المصلحة العامة، توفر الانسجام، وتحققت الشرعية. وفي ظل التحولات في المفاهيم فإن هناك «ديمقراطية» قديمة، وأخرى حديثة.

بمعنى أن هناك «ديمقراطية» مباشرة أو صرفة. وأخرى نيابية. والنيابية لا تقتضي استمرار الشعب في ممارسة الحكم، وتنفيذ المسؤوليات كما تراه «النظرية الثالثة»، وإنما يختار الشعب نواباً عنه، يقولون ويتصرفون باسمه، ويتوخون مصالحه، ويمنحون السلطة مشروعية الفعل، وقد يتولى أهل الحلّ والعقد اختيار النواب، بحيث تتوافر الكفاءات والتخصصات. ومع كل ذلك فإن هناك اشكاليات عدة تتمثل في موضوع «الأهلية: العقدية والحلية» تراها طائفة خاصة بعلماء الشريعة، فيما يراها آخرون مشاعة بين مختلف التخصصات ومجالات التجريب. وفي الخلط بين المبدأ والإجراء، وأسر الخطاب بين ثنائية الخير المطلق أو الشر المطلق، وفي اختلاف المفاهيم، وجهل المحطات التاريخية للمصطلح، إذ كلما تقادم العهد بالديانات أو بالمصطلحات، تبدلت الديانات غير الديانات، والمصطلحات غير المصطلحات. وما الذين يُبعثون على رأس كل مائة سنة ليجددوا للأمة أمر دينها إلا تأكيد على انحراف التأويل، واختلاف التصور، وابتعاد الأمة عن محجة الدين البيضاء، بسبب تعدد القراءات المحكومة بالأنساق الثقافية، والبنى الاجتماعية، والتعصب المذهبي. ولو أن المتعقب لتاريخ أي مصطلح أرجع البصر كرة أو كرتين، لانقلب إليه بمفاهيم متعددة، قد يناقض بعضها بعضاً.

ولو ضربنا الأمثال ببعض العمليات الإجرائية واختلاف الملأ حولهما، لكان أن تبين لنا كم هو الفرق بين طائفة وأخرى، كـ«الانتخاب» و«الاختيار»، ومتى استطاع المرتبون للإجراءين تلافي السلبيات حققنا الفائدة المرجوة، دون الدخول في مأزق الرهان أو المفاضلة، وليس من الصحافة لأي نظام تشريعي أو تنفيذي ان يرسل صوته لعراك المفاضلة أو التصدير، فليس «الاختيار» أفضل من «الانتخاب» على إطلاقه، ولا «الانتخاب» افضل من «الاختيار» على إطلاقه.

وتفويض الانتخاب للرأي العام يتطلب وعياً حضارياً، لا يستحضر معه سوى الكفاءة والأهلية.

ولما كان الانتخاب مرحلة تالية للاختيار فإن الصيرورة تتطلب وعياً جماهيرياً وحيادية تامة، لا تلعب فيها الاقليمية أو القبلية أوالطائفية أو الحزبية دورها الانحيازي السلبي، على شاكلة «متنبئ حنيفة» و«شاعر غزية»، وليس هناك ما يمنع من الاعتماد على الإجراءين، كمرحلة انتقالية.

والخلوص من هواجس الطهر الملائكي والعصمة المطلقة يحدو إلى اصطحاب التجديد المتواصل المتحامي للطفرة والارتجالية. والتجديد: الجزئي أو الكلي، المرحلي أو الناجز يعني العودة إلى المنابع الصافية، وتجريد النصوص مما تراكم عليها من تأويلات

(١) تاريخ المقال: ١٥/ ٧/ ٢٠٠٣

محكومة بالمذهبية أو الطائفية. وقراءة النص قراءة واعية، قراءة استكناهية، تحقق المقاصد والغايات، وتوفر الحلول المناسبة للنوازل التي لم تكن معروفة من قبل. وليس هناك ما يمنع من تفعيل المقتضيات الإسلامية البعيدة كل البعد عما يتصوره البعض فيها من «طوباوية» مستحيلة، فالنصوص تراعي الأحوال والطبائع وتستشعر الضعف البشري وطغيان الشهوات والغرائز، وذلك بعض واقعية الإسلام وشموليته، المتمثلة بانفتاح نصوصه، وقدرتها على تقديم أنجع الحلول وأيسرها على الناس. ومقاصد الإسلام وغاياته تراعي حاجات الإنسان: الروحية والجسدية، الدنيوية والآخروية، والدين الإسلامي إذ لم يكن شعائر تعبد ية ولا طقوساً دينية وحسب، فإنه شرعة ومنهاج، ومن ثم أكد مصدراه على الحكم بما أنزل الله. والذين يمارسون التفلت من هيمنة الإسلام وتبيانه لكل شيء، يحسبون أن الدعاوى حول التجربة الإسلامية هي التي آلت بالأمة الإسلامية إلى ما هي عليه، ومن ثم يظنون بدينهم السماوي ظن السوء، ولو عرفوا ما هم عليه، لكانوا أسرع الأمم عودة إلى عقيدتهم، واتخاذها شرعة ومنهاجاً، فهي المنقذة من ترديات الحاضر، ونحن في هذه الظروف العصيبة أحوج ما نكون إلى واقعية متزنة مرنة، وأحوج ما نكون إلى الابتعاد عن الثرثرة «الديماغوجية» لكي نهيئ أنفسنا لآفاق «استراتيجية» رحبة، والتطلع إلى الحاكمية الإلهية لا يعني القطع بقيام خلافة إسلامية واحدة، تُزوى لها الأرض، ويبلغ سلطانها ما بلغته الشمس.

وإذ تكون لكل فكر سياسي أسسه: القومية أو الإقليمية أو العلمانية أو العقدية، فإن الفكر السياسي الإسلامي يعتمد الأساس العقدي ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] . والحاكمية، ذلك أن مبدأه الأول ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧] ثم تتعاقب: مبادئه، وأطره، وأشكاله، وواجباته، وحقوقه: للراعي والرعية. فمن مبادئه: المساواة، والعدالة، والإحسان، والحرية، والشورى. ولقد شهد لهم أعداؤهم بالتفوق لو عقلوا. يقول «دوسون»: إن المسلمين لو ساروا على سنة نبيهم، وتحلوا بأخلاق الخلفاء الراشدين، لأصبحت امبراطوريتهم أبعد رقعة، وأبقى على الزمن من الامبراطورية الرومانية.

والفلاسفة الربانيون يعولون في شأن التطبيق «الديمقراطي» على «الناموس الطبيعي» بمعنى ان خالق الكون - حسب رؤيتهم - يفترض فيه العقل والعدل والمحبة، و«الله» في ظل هذا التصور لا يتحقق علوه المعنوي إلا بتوفير الحياة الكريمة للمخلوق، وقد يطلق عليها البعض «الحقوق الطبيعية» وهي مقتضى «العقل الكلي». وهذا الإيمان يمثل «توحيد الربوبية» عند المسلمين، وقد آمن به مشركو مكة، ويتجلى ذلك في حوار الرسول معهم، كما جاء في القرآن ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ [يونس: ٣١] وبهذه التصورات يرى الفلاسفة حتمية «الديمقراطية»، وذلك من خلال المنظور «الميتافيزيقي» الذي يؤمن بشطر من الغيبيات، التي قد لا تكون مطابقة للرؤية الموافقة للنص المقدس، بوصفه المصدر الوحيد لعالم الغيب، وهم قد لا يجمعون على الإيمان بإمكانية الاتصال بين السماء والأرض، لا عن طريق الوسيط، ولا عن طريق التكليم، ولا عن طريق الإلهام الحسي. وليست هذه المتاهات تعنينا بشيء، وإنما ألمحنا إليها لنتصور المعوقات القبولية التطبيقية.

والمد الثوري العربي تسارعت معه التحولات، واستمر معه التجريب، حتى لقد اصبح المسرح السياسي كالمسرح التجريبي التمثيلي، يعتمد المغايرة سبيلاً للجاذبية، وطرد الملل، والعيش على الأمل. وإذا كان النظارة في المسرح التمثيلي ينهون علاقتهم

بمجازفات المجربين بمبارحة القاعة، ولا تتجاوز خسارتهم قيمة التذاكر مع ساعة من نهار، فإن النظارة في المسرح السياسي يدفعون الثمن من دمائهم وأموالهم وأمنهم.

والمغامرون لا يفرقون بين المبدأ والممارسة، ولا بين الثابت والمتحول، ولهذا يمنون بنكسات موجعة، تتجرع الشعوب مرارتها، ولو أنهم عرفوا ما هم عليه، وما يجب أن يكونوا عليه، لحرروا مسائلهم، وأصّلوا معارفهم، وفرقوا بين «التحول» و«الاقتباس» و«الطيباوية» و«الواقعية» والإيمان ببعض الكتاب. ولأن الإسلام كل لا يتجزأ، والدخول فيه كافة مطلب رئيس، لزم أن يتفقه المفكرون، وان يعرفوا ما لهم وما عليهم إزاء دينهم. فالإسلام غني بكلياته ومصطلحاته ومقتضياته، ومع ذلك فالحق ضالته، فكلما وجد أنظمة أو إجراءات تحقق مقاصده، كان له حق الاقتباس، أما التحول من الحكم الإسلامي إلى أي حكم وضعي فهذا يعني الوقوع في نواقض الإيمان، ولقد حسم ذلك النص ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ والوقوع في نواقض الإيمان عمداً أو جهلاً اصبح من ظواهر العصر، ومن طرائق الشهرة، فكل رويبضة تريد التعملق تطال بقلمها الثوابت، وذلك مصدر القلاقل العمياء التي جرّت البلاد والعباد إلى فتن مدلهمة.

وإذا كانت «الديمقراطية» تعني الحرية أو العدل، أو المشاركة في الحكم، أو ما شئت ان تصفها به فإن «الحاكمية الإسلامية» لا تتحقق إلا بمثل ذلك، دون العلو أوالفساد في الأرض. وإذا سيء تطبيق الإسلام فقد سيء من بعده تطبيق «الديمقراطية». فكل خطاب ثوري يردد ببلاهة معتقة سمات مشروعه السياسي مستهلاً ذلك ب«الديمقراطية» والحرية والقومية والوحدة، مع انه لم يتحقق أدنى حد من تلك الدعاوى الكاذبة، وما أحد نال من «الديمقراطية» بمثل ما نيل من الحاكمية الإسلامية، وكلا المشروعين تعرضا للاخفاق في التطبيق، فلماذا يصار إلى العلمانية بحجة اخفاق المسلمين في التطبيق؟ ولم يطلب التخلص من «الديموقراطية» لذات العلة، مع ان التطبيق الإسلامي حقق نجاحات تاريخية ومعاصرة، ومع ما يعتريه من إخفاقات في التطبيق فهو الأرأف والأرحم.

وليست «الديمقراطية» بوصفها عشق المقهورين واحدة، وإنما هي «ديمقراطيات» متعددة، منها المعدل، والمهجن، والمدجن، والمتابع للتاريخ السياسي الحديث ينتابه الذعر، فكل راصد لا يحيل إلى الأحداث كما هي في الواقع، وإنما يحيل إلى الأحداث كما هي في تصوره، وكما هي في رؤيته، واذ نقبل مقولة: «لا يكتب التاريخ إلا المنتصر» فإننا نجد المنهزم يكتبه بصلف أكبر وعنجهية أشد، وكلما مررت بحقول السياسة في مكتبتي، وهي حقول أقرب إلى الاعتباطية «الحقل الثيوقراطي» - اليهودي المسيحي الإسلامي و«الحقل الديموقراطي» بكل تنوعاته و«الحقل الماركسي» و«الحقل التاريخي» و«الحقل التحليلي» و«الحروب» و«التاريخ السياسي» القديم والحديث، و«الغلو» و«الارهاب» و«الحزبيات» و«الحريات» و«العلمانية» و«الجاسوسية» و«الميكافيلية» أحسست بغثيان ودوار. فالمشهد السياسي مخادع مخاتل، و«الميكافيلية» طاغية أو قل مسيطرة. ولربما كانت بداياتي القرائية سبباً في تعميق الشك، فلقد كان قدري أن اقرأ كتاب «لعبة الأمم» وكتب الجاسوسية «ومطارحات ميكافيلي»، و«المذكرات» و«السير السياسية» و«اعترافات المجربين». هذه الثقافة الموبوءة اعطتني نظرة سوداوية من الصعب جداً التحول عنها.

وأعقب ذلك أحداث مؤلمة:

-تتابع الثورات العربية الدموية المجانية.

-فشل التجارب الوحدوية والقومية.
-نكسة حزيران وفاجعة أيلول.
-استفحال القطرية والطائفية وتصنيم الحدود.
-«كامب ديفيد» والتطبيع، والممارسات الشارونية.
-التسهيلات العسكرية.
-حروب «العراق وإيران» «العراق والكويت» «العراق ودول التحالف» و«الحروب الأهلية».
وعلى المستوى العالمي:
-حق الفيتو المعرقل «للديمقراطية».
-نظرية «مونرو» و«سايكس بيكو» اللتان شرعتا انتهاك الحق والحرية.
هذه المحطات الجارحة عمقت اليأس والإحباط، ومع كل الشواهد الشواخص يظل الخطاب السياسي يقول ما لا يفعل، ويدعي بدون بينة، وتظل النخب العربية تسهم في تزييف الوعي، وتبرير الخطيئات، وإذا كان سوط الثوري يسوق إلى هاوية الذل، فإن قلم المفكر يقود إلى زيف الفكر.
ومهما قيل عن المشاريع من صدق ومن كذب فإن أي مشروع سياسي لا يمكن أن يدق نظره، ويدخل في أدق التفاصيل مثلما هو عليه الفكر السياسي الإسلامي، مع ما يمتلكه من مرونة وانفتاح وقابلية للتطوير، ذلك انه يعتمد على مقاصد عامة كحديث «**لا ضرر ولا ضرار**» و«**أنتم أدرى بأمور دنياكم**» و«**استفت قلبك**» كما أنه يعول كثيراً على «العقل» و«الاجتهاد» و«الاجماع» و«القياس» و«الاستصحاب» و«المصالح المرسلة». وعلماء الأصول قعدوا القواعد وأداروا عليها النوازل في أمر العبادات والمعاملات والأحوال الشخصية، وبإمكان الساسة الدخول معهم في دراسة النوازل السياسية، وتقنين الفقه السياسي.
وإذ أعطي كتاب «الأمير» لـ«نيقولا ميكافلي» أهمية قصوى، فإن رسالة «طاهر بن حسين» لابنه عبد الله في مستهل القرن الثالث لم يؤبه بها، مع أنها تمثل جانباً من الفكر السياسي الإسلامي، لاشتمالها على نصائح في غاية الدقة والأهمية مثل: تقريب الفقهاء، وحسن الظن، ومباشرة المسؤولية، والعدل، والوفاء بالعهود، وإبعاد بطانة السوء، وعدم التسلط، والتقوى، والخوف، والكرم، وسماع المتظلم، والبشر. وقد ساقها بنصها «ابن الأثير» في «الكامل ج١ ص ٣٦٤».
وفي كتاب «الديمقراطية وتحديات الحداثة بين الشرق والغرب» اشارة إلى الأعباء النظرية في الفلسفة «الديمقراطية»، وهي إشارة ذكية واعية، فـ«الديمقراطية» ذات مرجعية «عقلية» مادية تنويرية، بمعنى أنها لن تتخلق في ظل الإرث «الميتافيزيقي» وهذه الظلال تحجب النظر العقلي في المبدأ، بوصفه ضد الدين، مع أن لها جوانب إجرائية، يمكن أن تعالج في ظل الخضوع للمقتضيات الدينية. واستدعاء الأنظمة الثورية لـ«الديمقراطية» استدعاء مخادع، فهم لا يرون التسليم الشعبي المطلق لها، إذ هي ليست في مصلحة السلطة المطلقة. وإنما هي في مصلحة الأمة. وعلى ضوء ذلك فإن الناس سيختلفون حولها، مما يشكل مخارج للسلطة الثورية، فإذا ضيقت «الديمقراطية» الخناق عليهم، عولوا على الخطاب الديني، وإذا لم يجدوها متمشية مع اللعبة عولوا على الخطاب العلماني أو القومي أو القطري، وهكذا تشكل النظريات أنفاقاً، ينفذ منها المتلاعبون في عواطف الجماهير. والمذاهب السياسية في الغرب على الأقل، وفي المجال التنظيري، تراوح بين المثل العليا والواقعيات، وبين الوضعيات و«الأيديولوجيات» وكل هذه تراوح بين مفاهيم الثبات والتحول. ورذ تقوم «الثيوقراطية» على الأسس الدينية مشكلة نظرية

سياسـية معتبـرة، تقـوم إلـى جانبهـا أسـس «سـيكلوجية» وأخـرى «اجتماعيـة» وثالثـة «قوميـة»، وسـتظل النظريـات السياسـية تـراوح بـين الوضـعية والدينيـة، ومـا دامـت فـي القضية السياسية فسحة فإن علـى الإسلاميين طـرح مشـروعهم، واستغلال الفسـح المتاحـة للتعديل والتبديل، واستثمار أطروحات الآخر، مما يوافق مقتضيات الإسلام، مـع استبعاد فكرة التآمر والصدام، وذلك بالارتداد للداخل، واستثمار القواسم المشتركة، وهي كثيرة.

أيها العرب: إن لم تتحدوا فتعاونوا وإلا فتعاذروا .. ! (١)

ما من زعيم أوحد، ينتزع الحكم من سلفه على صهوة دبابة أو على متن طائرة، إلا ويقدم مشروعه الأشمل والأكمل، قائماً بالقسط، مشتملا على الوحدة والحرية والقومية و(الديموقراطية)، مع وقف التنفيذ، لتظل الوعود مشروعا يرقب ثائراً جديدا. وكلما دخل زعيم قصر الرئاسة، أنحى باللائمة على سلفه، ومع أن بعض الثوريين توفروا على فسحة من الوقت، وكثير من الإمكانيات، وطوفان من الجماهيرية، إلا أن إثمهم أكبر من نفعهم، كما الخمر والميسر، ومن شذ كرَّس القاعدة. ومدار حديثنا على النتائج، لا على الأفراد، ومن ساءه قولنا، فليستفت عمله. ومن نظر بعين الناقد الناصح، أو الشامت الفاضح، أيقن أن الأجواء العربية متخمة بالخطابات العاطفية، والمجاملات الرسمية، المستهلة بكلمة (الأشقاء) و(الشقيقة) وما زادتنا المداراة والمداهنات في كل سنواتنا العجاف إلا خسارا، ولقدسمعنا من (عراقيِّي) الشتات والأرض المحروقة من ينحي باللائمة على الصمت المريب، أو المجاملة الخائفة، لحاكم استذل العباد، أو لتحالف احتل البلاد. والواقع العربي المعاش خير شاهد على الخسران المبين، وعندما لا تكون المصائر بصائر، تتردى الأمة في مهاوي الهلكة.

والمشهد السياسي العربي إذا خلا له الجو، علا هديره الفارغ، وإذا سمع هيعة تحول هديره إلى رغاء، وهكذا دنيا العروبة زئير ومواء. وصخب خطاباته الفكرية والحزبية والطائفية والإقليمية طابعها الزيف، وسمتها التمويه، ونتائجها التناحر والتدابر، لأنها تجنح إلى ما يكرس الفرقة، ويغذي الخوف، ويبعث الارتياب. و(الحقائق) حسرات في أعماق الشعوب، و(الفرائض) مقموعة بسياط التسلط. وما لم تلتق الأطراف بعد كل هذه المحن والإحن على (البساط الأحمدي) لمواجهة الذات بكل هناتها فإن قضايا الأمة ستظل معلقة، لا مضمومة ولا مطلقة. وحاجتها اليوم ليست في تفتيش الدفاتر القديمة، ولا في تجريم المراحل الذاهبة في الغابرين، حاجتها في أن تعترف بكذب وعودها، وخسارة رهاناتها، وفشل تجاربها، وفي تقبل هزائمها بروح عالية، وتفكير سليم، وتقدير دقيق، وفي بدء حياتها من درجة الصفر، نافية ملفاتها الماضية بكل وضرها إلى غير رجعة، مستحدثة ملفات جديدة. والنحيب على البلوى لا يرد قضاء، ولا يشفي غليلا، وما دامت أمام قادة الأمة فرص ممكنة، فإنه لا يليق بها أن تمشي مكبة على وجهها. وأجزم أن بإمكان الناصحين أن يبادروا إلى العمل النصوح، وأراهن على أن الخيرية في هذه الأمة قائمة إلى قيام الساعة، وأنها بانتظار من يملك تلقي الراية باليمين ليتخطى بأمته سوياً على صراط مستقيم. والبداية الصحيحة صعبة المراس، ولكنها ضرورية، وإذا لم نخط الخطوة الأولى على الطريق القاصد، بطا بنا التخويف، ولم يسرع بنا التسويف. وإذا لم نستشر، ونستخر، ثم نعزم ونتوكل تدخلَّ القويُّ: عدةً وعتاداً، لترتيب بيتنا العربي على عينه. وبعض القادة الناصحين يدركون أن (البيت العربي) مبعثر الأثاث. وانتظار الخوارق لترتيبه دروشة واتكالية، وترتيب الغير له بالوصاية سبة ومذلة. وقبول التشتت، ومزيد العبث، والقابلية للَّعب السياسية، تغري القوى المتغطرسة التي تدعي الضرر وحق التدخل بدعوى تحرير الشعوب من أبنائها بتنفيذ ما تريد، وما هي إلا صانعة اللعب المدمرة واللعب المضادة. ولقد بدت سابقة التدخل العسكري، ولم تزل في الجعبة بقايا للضربات الاستباقية أو الوقائية، لمن لا يملكون كشف الضر عن أنفسهم ولا تحويلا. والمؤكد أن استفحال التدهور لا يصيب الذين وقعوا فيه خاصة، فالعالم اليوم متداخل، كما أهل قرية

---

(١) تاريخ المقال: ٢٢/ ٧/ ٢٠٠٣

خائفة مضطربة، تهوي عليها مصائبها من كل مكان. والنمو الاقتصادي الذي تتطلع إليه دول العالم، يتطلب أوضاعاً مستقرة، توفر الأجواء الملائمة للعمل والإنتاج، وعودة الأدمغة المهاجرة ورؤوس الأموال المتسربة. والانتعاش في أي بلد يمتد أثره كالرياح اللواقح، كما أن الانكماش يعصف كالريح العقيم، بحيث تطال الظاعن والمقيم. والعالم اليوم يشكل شبكة عنكبوتية معقدة، سريعة الاستجابة والتداعي. ولقد كنا منذ الخمسينيات نعيش تحت وابل الخطابات الوحدوية والقومية و(الديموقراطية) والحزبية، نخوِّن بعضنا، ونعد بتصدير المبادئ الثورية، المحبرة على الأوراق، مما دفع البعض إلى الاحتماء بالأقوياء. ولما تتقدم الأمة المأزومة خطوة واحدة من فيوض الكلام إلى شواهد العمل. وإذا كان الوضع العربي على مختلف الصعد يؤكد أننا نقول بألسنتنا ما ليس في قلوبنا، فإن بوادر الخلاص تبدأ من الشفافية، والمكاشفة، والتنادي إلى كلمة سواء. أو التعاذر، والتبصر بالذوات، والارتداد إلى الدواخل، للعمل الجاد، وصناعة الإنسان، وإصلاح ما أفسده الأقربون. فهذا أو ذاك بعض الإرهاصات المناسبة للوحدة، أو لما دونها من التعاون على البر والتقوى.

ومما لا شك فيه أن هاجس الإنسان العربي يتمثل في وحدة تقوي جانبها، أو في تعاون ينمي اقتصاده، أو في تعاذر يصرفه لمصالحه. والوحدة لا تتم بين عشية وضحاها، إنها عمل إصلاحي، لابد له من تضحيات وضحايا، وتنازل وإيثار، وعمل رفيق لمعالجة الواقع، ومواجهة النوازل، واستلال المعوقات، كما تسل الشعرة من العجين، وبخاصة في بداية العمل التقاربي الصادق. وكل ذلك أو بعضه لن يتأتى عن طريق الشعارات الزائفة، والهتافات الفارغة، والمظاهرات الهوجاء، أو الخروج على الشرعية، ومنازعة السلطة، والتناجي بالإثم والعدوان في الأقبية والكهوف، أو التطرف في القول، والإرهاب في العمل، والغلو في الاعتقاد. والأمة المتخمة بالمعوقات المفتعلة بحاجة إلى مؤسسات مدعومة بالأهلية والكفاءة والإمكانيات والصلاحيات، لتعالج الأمور بهدوء وطمأنينة، وطول نفس، وبعد نظر، تدبر وتقدر، وتوقت وترتب، لا تتملق الرأي العام، ولا تغرر به، ولا تزكي نفسها، ولا تسمو فوق المساءلة والمحاسبة والنقد. وكل عمل مصيري بحاجة إلى مطابخ هادئة، ذات دربة ودراية، تنضج المشروع ببطء، وتأخذه بحلول مرحلية لا فورية، وبقرارات ذاتية لا شرقية ولا غربية، تناسب الوضع القائم، وتلائم الإمكانيات المتاحة. ولما لم تكن هناك أجواء ملائمة، كان لابد من التنقيب عن مال وتمويل، وخبرات ومواهب، وإمكانيات وقدرات، وعلم وطاقات، لتكون أرضية الانطلاق صلبة. وكل من ركن إلى الخطابات المثالية والدعاوى والوعود المستحيلة، حرم أمته من اللحاق بركب الحضارة. والمشاهد السياسية بوصفها البوابة الأولى لأي عمل مشترك تنقصها المصداقية، وتعوزها العزمات فالإنسان العربي عاش خيبات الأمل، وتجرع مرارات الفشل، في كافة تجارب التقارب، وفي كل المواجهات الحضارية، وشهد زيف المشاريع، ونكسات الحروب، وتصور حملة الكتاب الذين لم يحملوه:

كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ
والماء فوق ظهورها محمول

ومن الصعب والحالة تلك إقناعه بقبول الوعود أو التطلعات. وحين لا يطمئن، لا يزيد أمته إلا خبالا، تاركاً أثر سلبيته على الجبهة الداخلية، وحاجته في ظل هذه الأجواء النفسية السيئة إلى الوعود المتواضعة الممكنة، ليتحول من شكوكي رافض إلى مطمئن واثق. والوحدة الشاملة أو الجزئية التي تحلم بها الأجيال، لن تتحقق في ظل الأوضاع القائمة، فالاحلاف العربية مختلفة، والمصالح متعارضة، لانتماءات ولهويات متعددة،

وأنماط الحياة متفاوتة، والمستويات الثقافية والاقتصادية والاجتماعية متباينة، والدساتير والأنظمة والقوانين متنوعة المرجعية، ومناهج التعليم ومواده متناقضة، والحدود مصنمة، والشخصيات مقدسة، والأفعال مزكاة، ولما يلح في الأفق أي تصرف صادق للوحدة، على الرغم من وجود المقومات اللغوية والعقدية والحضارية والإقليمية والتاريخية. والخطاب الإعلامي بوصفه الوسيط والشارح والمقنع استهلك أقنعته، وانتهت صلاحيته، ولم يعد المصدر الأهم للمعلومة، ولا المؤثر الرئيس في تشكيل الذهنية، وتهيئتها لقبول التغيير، ولهذا فإن استمراره يشكل مزيدا من الأعباء والفرقة، وكان بالإمكان تحويل مؤسساته القائمة إلى القطاع الخاص، ليأخذ موقعه مع سائر القنوات والمؤسسات الوطنية، متخلصا من التزامات الدولة ومداراتها. ذلك أن الإعلام المخصخص يملك مساحة من الحرية، تمكنه من تناول القضايا عبر هوامش واسعة، لا تؤثر عليها التزامات الدولة ولا عهودها ولا صداقاتها ولا مصالحها القطرية. وإذا كان للدولة رأي أو تصور فإن بإمكانها أن تبديه في ساعة من نهار البث. وتفكير الدولة بتحويل قنوات الإعلام إلى مؤسسات مستقلة خطوة موفقة، فالدول المؤسساتية الدستورية بحاجة إلى لسان الحال لا إلى لسان المقال. والدولة التي تهفو إليها أفئدة الملايين من واجبها أن تغض الطرف، كلما بدت لها سوآت الآخرين، وأن تمر باللغو مر الكرام.

وبصرف النظر عن الإعلام الرسمي، وكونه عقبة في طريق الوحدة المرتقبة، فإن ثمة أنكر الأصوات صوت (القنوات الفضائية)، التي دخلت الحرب الباردة بألسنة حداد، وببائعين للقدرات البلاغية والإمكانيات الإعلامية الجذابة، وهي بجناياتها أو بجنايات بعضها تفسد في ساعة ما يفسده الإعلام الرسمي في سنة، وتلك نوابت سوء، امتدت ريحها العقيم إلى الشعوب، بحيث أصبح التلاحي بين أفراد الأمة، لا بين كياناتها السياسية. لقد اقترف الموغرون للصدور خطيئة التنقيب في الخلفيات التاريخية، بين المذاهب والمعتقدات والعرقيات، ومشاكل الحدود والأقليات، والسعي الدؤوب لإيقاظ الفتن النائمة، وممارسة صراع الديكة، بين فضوليين أضوائيين، تفلتت سرابيات الادعاء من بين أيديهم، فانطلقوا لا يتخافتون، وإنما يجاهرون بالعداوة والبغضاء، لإذكاء الضغائن، ونبش الدفائن، وذلك لا يعوق مشروع الوحدة وحسب، وإنما ينسف الجسور، ويوسع الفجوات، ويعمق الخلافات، ويحفز على المواجهات، وأرجو أن تكون الفضائيات موجات تلهث وراءها موجات، لتتلاشى دون سواحل التقارب وشطآن التعاذر، وما ذلك على الله بعزيز.

ولأن الوحدة تتطلب أجواء ملائمة من الوفاق والتسامح وتناسي ما فات من ويلات وإساءات، وتقتضي تنازلات تطال السياسة والساسة والوطن والمواطن وسائر وجوه الحياة فإنه من المستحيل أن تتحقق في ظل إحياء النعرات الطائفية والقطرية والحزبية والقبلية و(الإثنية)، وتغني كل قطر بليلاه، ومن المتعذر أن يتحمل المواطن قسطا من متطلباتها، ثم لا يراها ماثلة للعيان، مؤدية إلى القوة والتلاحم، مقيلة لعثرة الأمة، صادة عنها عوادي الزمن.

ومن تصورها سهلة انسيابية دون أي معارضة من الداخل أو عقبات من الخارج فقد وهم، فالوحدة لا تتحقق إلا بالقضاء على مسلمات وسوائد وقناعات يحسبها الدهماء من الثوابت. وكل إصلاح تمارسه أي سلطة، لابد أن يطال مصالح من الصعب التخلي عنها، وأن يمس مصلحيين من الصعب تنازلهم عن غلولهم. والوحدة كما الإيمان: قول وعمل واعتقاد، لها بوادرها وإرهاصاتها، التي لم تكن بعد، إذ لم نزل في لغو الأحلاف، ولما نعقِّد الأيمان عليها. وإذا كان التنازع قائما داخل القطر الواحد، وإذا كانت حصون (الوحدة الوطنية) مهددة من الداخل، فكيف نتطلع إلى وحدة عربية؟ إن على القادة أن يعملوا على

التجانس والتعايش والتسامح بين فئات الشعب الواحد، فالاستقرار الداخلي أهم مقومات الوحدة العربية، والتركيبات السكانية عبوات ناسفة، ما لم تستل فتائلها بالتكافؤ والتعاذر.

والكلام الإعلامي العاطفي الاستهلاكي انتهى دوره، ولم يعد مناسبا للمرحلة المثخنة، ولا للواقع المرير. الوحدة حلم، والتعاون مطلب، والتعاذر أضعف الإيمان، ولن يتحقق شيء من ذلك إلا بالتنازلات، والشروع بالفعل، وبث الطمأنينة في أجواء المتحفظين والمتربصين والمتخوفين، فالدول الكبرى ذات المصالح تعرف جيداً أنها لن تسود إلا بالتفريق، ولن تستأثر بالأنفال وحدها إذا كانت الكلمة للشعوب القوية المعتصمة بحبل الله جميعاً، ولأن دول الاستكبار والاستعمار جشعة واستغلالية، فإنها لن تقبل المشاركة، ولن ترضى باقتسام الغنائم. والوحدة والحرية لن تتحققا في ظل التسلط الأجنبي والتطبيع الصهيوني، وإن وعد المحتل بهما، وشرعن لتدخله من أجلهما، وإذا استطعنا ان نقنع المتحفظين، ونواجه المتربصين، ونطمئن الخائفين، فذلك خير، واحسن قيلا، وإلا فلا أقل من أن نعمل على تحييد من لا نقدر على مغالبته، وذلك بزرع الطمأنينة في نفسه، وعدم المساس بمصالحه، والكف عن سبه أو منازعته، ولقد نهينا عن سيء القول، وسب الذين يدعون من دون الله، فضلا عن مطاردته، وضرب مصالحه. وإذا كانت هناك عهود أو عقود، مضت بها رغبات القادة في أزمنة الوفاق، فمن الممكن العمل في المساحات المشتركة، واهتبال الفرص المتاحة، حتى تبلغ العقود محلها، وإدارة الأزمات لا تكون بالعنتريات.

والأمة العربية محمية بإسلامها، موعودة بنصر الله إن نصرته، وهي بهذا تتوفر على أساسيات العزة والتمكين، ولكنها لم تأخذ بها. وإذ لا نقدر على الوحدة في ظل الظروف القائمة، فعسى ألا نفشل في التعاون أو التعاذر. والأمة العربية مع كل الإحباطات تمتلك مقومات الحياة الكريمة، والعجب أن تذل وتخنع، وتمتلك وسائل الإنتاج من: أنهار متدفقة، وتربة صالحة، وسواعد قوية، وطاقات: نفطية وشمسية وهوائية، والعجب أن تصبح رهينة لرغيف العيش وأسمال الثياب. والأمة العربية قبل هذا وبعده تمتلك الكفاءات البشرية المقيمة والمهاجرة ورؤس الأموال المجمدة أو المهجَّرة، والعجب ان ترقب فاعلاً أو مساعدا. إن الدرك الأسفل الذي بلغته عرضٌ لاسمه، وممارسة لا خليقة، ولن تقال عثرتها إلا على يد أبنائها، فليؤثروها على أنفسهم، ولو كان بهم توق إلى السلطة، وليجنحوا إلى السلم العربي العربي، والعربي الغربي. فحاجة الأمة إلى هدير المصانع لا إلى دوي المدافع وإلى السنابل لا إلى القنابل، وصدق الله: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤] .

نقاد زائفون ونقاد مزيِّفون .. ؟[1]

أجمع الراصدون والمؤرخون للحضارات أنها لاتستوي على سوقها، ولا تؤتي أكلها إلا بالإيمان، والاعتزاز، والصدق، والصدع بالحق، والتفقه، والاجتهاد، وتحرير المفاهيم، وتحديد المقتضيات، والتفريق بين الثوابت والمتغيرات، والدخول فيها كافة.

وعلماء الأصول الذين يستنبطون قواعد التعامل مع وثائق الحضارة النصية، يحددون القطعيات والاحتماليات، ومجال الاجتهاد، والنصوص التي لا اجتهاد معها، والمفكرون المنتمون يعرفون الفوارق والقواسم المشتركة بين حضارة وأخرى، ويتفادون مسخ الذات والتلقي عن يد صاغرة، وأي خلط بين الثوابت والمتغيرات، أو بين القطعيات والاحتماليات، أو بين الحديات واللاحديات، يسهم في مسخ الحضارة وإذابة كيانها، وذلك شأن الشكوكيين والمأزومين والمتعالمين، ممن تعيش حضارتهم ريبة في صدورهم، وليس ببعيد وجود المرتابين في هذا العصر الموبوء، وهم قد وجدوا في عصر النبوة، حتى قال الله فيهم: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة: ٤٧] .

والخطاب الفكري المعاش: إما أن يكون حدياً صارم الحدية، فيما هو احتمالي، أو مائعاً منفلتاً، فيما هو قطعي الحدية، والحضارة أيُّ حضارة مجموعة عوالم، تشكل منظومة من القول والفعل والترك، فإذا استطاع حملتها أن يعطوا كل مجموعة ما تقتضيه، استوفت جلالها وجمالها، وتمكنت من الرسوخ والتجذر والسموق والندية، وإلا تحولت إلى جذاذات مبعثرة، تذروها الرياح، وكل حضارة مجموعة من العرى المتماسكة، لاتنتقض في لحظة واحدة، ولكنها تتفلت عروة عروة، بتخاذل أبنائها وضربات أعدائها.

والفكر والعلم والثقافة والدساتير والأنظمة والفن والنقد وكافة الظواهر الاجتماعية والنفسية وسائر الأوضاع الحسية والمعنوية مفردات تتشكل منها الحضارات، وكل مفردة لها أهل ذكر يحرسونها، ويرعونها حق رعايتها، ويقولون فيها أو عنها قولاً سديداً، أو يفرطون فيها، ويستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير، ويلي أمرها زعانف لا تبقي ولا تذر، وفي النهاية فكل طائفة تتفقه فيما تجد نفسها من علم أو فن، وتركيز حديثنا عن «النقد» و(النقاد)، بوصفهما من اولويات الحضارة ومرتكزاتها ومنطلقاتها، ولما آلت إليه قضايا الأدب في ظل التحولات «الأيديولوجية» والفنية والتعالق غير السديد وغير الرشيد مع المدنيات المهيمنة، والمتابع لهذه المفردة من مفردات «الحضارة الإسلامية»، ينتابه الخوف، لأنه يتجرع مرارة الفوضى المستحكمة، ويتعثر بأشلاء مثمنات فكرية وفنية على يد متقولين بغير علم، ولو تركت المشاهد على ما هي عليه، لضاع الفن القولي الجميل باسم مشروعية الحوار والحرية، والعبثية والغثائية والرفض لايمكن أن تُشكل رؤية سليمة لأي مشروع حضاري، لا على مستوى الفكر، ولا على أي مستوى دون ذلك، وبعض المتقحمين باسم حرية الحوار ونسبية الحقيقة وحتمية التسامح يرى أنه إذا كان الوعاظ محمَّلين بالحقائق فإنه محمل بالشك والتساؤل، أو كما أُثر عنه وتلك المقولة بقية من فلول «الوجودية»، التي عكرت صفو الفن والحياة معاً، ثم عصفت بها رياح التغيير، وليست بقية الله، ومن قال بها، فهو كهفي يحتفظ بورقه، وقد تتضوع هذه المقولة بنكهة «معرّية» تحمل السمة، ولا تنطوي على الاقتدار، وعلى ساقة «المعربين» و«الوجوديين» جاء «المستغربون» و«الفرانكفونيون» و«المتأمركون» و«المتعلمنون» و«المتعولمون» بغير هدى ولا تأصيل، يقولون بمثل ما يقول به أصحاب الحضارات المادية دون وعي بالفوارق، ظناً منهم أن ما يقولونه ابتدار ومبادرة، لم يُسبقوا إليه، وكل ما يتداولونه فيما

---

(١) تاريخ المقال: ٢٩/ ٧/ ٢٠٠٣

بينهم من تمرد وشك وفوضى ورفض مررنا بسباطته متلثمين منتعلين اتقاء ما يتصاعد منه من شك وارتياب، ومن نقب عنه، وجده ثاوياً في أرض المستشرقين.

ورسيس «السريالية» و«الدادية» و«المستقبلية» و«الوجودية» وما سبقها أو واكبها أو خلفها من مسميات لما يزل بقية في أيدي المستفزين وحذاق البهلوة، الذين ينقبون عن حشف هنا أو سوء كيل هناك، ليعيدوا صياغته، ويتقحموا به المشاهد، والمؤذي أنهم يفيضون به على سماعين ذوي مسغبة أو متربة، يفغرون أفواههم انبهاراً واندهاشاً، معبرين عن ذلك بالمكاء والتصدية، ومن ليست له دراية بتلاحق المذاهب، ومقولات المستشرقين عن مفردات الحضارة ورجالاتها، وترديد من لحق بهم من الظلاميين، يعد ما يقوله مثل هؤلاء من التجليات، وما يأخذ به اولئك من تلك المذاهب الوضعية المادية يردي الإبداع الشعري والسردي والعمليات النقدية، لأنه أخذ على ضعف، كالضغث على الإبالة، ولو أنهم إذ جنحوا إلى الاستغراب توفروا على ملكات وإمكانيات توفر عليها من قبلهم أمثال «طه حسين»، و«أحمد أمين»، و«هيكل» و«زكي محمود»، و«مبارك»، لكان في ذلك بعض العزاء، ومما تتأذى به المشاهد صلف المكابرين المقوين من صد متعمد عن سبيل الفن الاصيل، بحيث يشرعنون للرديء من القول، وللمنحرف من الأفكار، وللساقط من السلوكيات، ومع حداثة مشهدنا المحلي، فقد مرت به على عجل فلول الحداثة والبنيوية والتفكيكية والتحويلية، ومن قبلها تداول البعض مصطلحات لا حصر لها، وكلها اقتيدت على أيدي جالبيها إلى مزبلة التاريخ الأدبي، مصحوبة بما أهدر من جهد ووقت ومال، ولما يزل الذواقون يتحرفون لمذاهب مماثلة، ولما تزل الغوغاء متذيلة وراء المتذيلين.

والنقد المواطئ للضعفاء والمتمردين يزيد ارتكاس الفن في درك التخلف، وهو نقد بالتجوز، ومثلما يقال عن النثر: بأنه شعر، وعن الكلام الشائع المبتذل: بأنه سرد فني، يقال عن المجاملات والانطباعات: بأنها نقد أصيل، والساحة تفيض بالأدعياء والفارغين والمغثين، وقليل من المتميزين.

ولو سألت بعض المتصدرين للمشاهد النقدية، أسئلة أولية:

**ما النقد؟

**ما وظائفه؟

**ما ثقافة الناقد؟

**ما آلياته؟

ولو تجاوزت ذلك قليلاً بسؤال عن محطاته التاريخية مثل: كيف بدأ النقد؟ وكيف اتخذ طريقه إلى الاكتمال؟ وكيف تقلب في أعطاف المعارف والعلوم والثقافات؟ ولو تقدمت خطوات أبعد، وسألت عن الفرق بين مذاهب النقد واتجاهاته ورموزه وجغرافياته، ولو أبعدت النجْعة، واستطلعت الرأي عن الآليات التي تُخترق بها أجواء النصوص، من نحو وصرف وبلاغة ولغة وتفكيك، وعن المنهجيات من لغويات وفنيات ودلاليات، وعن ماذا يخص النقد العربي القديم والحديث وسائر الاتجاهات والمذاهب النقدية، لو فعلت شيئاً من هذا، لما عاد لك الصوت بجواب جامع مانع، ومع هذا الخواء الفاضح ستجد متعالمين يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا، والمشهد النقدي عربياً أو محلياً لا يستقيم أمره إذا تسيده متذوقون يتخطفون ما يتساقط من ورق المصطلحات الغربية.

ومثلما نتأذى من المتعالين في مشاهد الأدب، نعتز بكفاءات علمية وثقافية وأدبية على جانب من الخلق الكريم، والمعرفة العميقة الشاملة المتنوعة، والتوازن والاتزان، ولكنها فئة قليلة، تكاد تكون غريبة الوجه واليد واللسان، وقد تغلب بإذن الله فئات كبيرة، ومثلما نجد الإفلاس والإسفاف في مشاهد الأدب، نجدها كذلك في مواقع كثيرة من مفردات

الحضارة، فنجد من يقول عن الدين والفكر والفلسفة والحرية والحقوق، وعن المرأة والثقافة، وعن السياسة والاجتماع والاقتصاد بغير علم، ونجد من يصدقهم، ويصغي اليهم، وأنفسنا تذهب حسرات على الفن الرفيع الذي تسور محاريبه من لا يحسنون تذوقه، فضلاً عن تفكيكه واستكناهه وإعادة بنائه، ممن هم مجهولو الذات والحال، والإشكالية ان يتمكنوا من تصدر المشاهد، والنفاذ عبر الوسائل، لإفساد الفن بعد إصلاحه، وما يلحق الفن من إفساد يطال بناءه اللغوي، وشكله الفني، ومنطوياته الدلالية، وما من ضياع وضلال يعتري الأمة، إلا ويكون على المبدعين والنقاد والمفكرين كفل منه، فهم إما حماة وإما جناة، وكلما ظهر الفساد في عوالم الكلمة استفحل في كل العوالم، ففي البدء كانت الكلمة، وأول اتصال بين السماء والأرض كان أمراً بالقراءة، وتنبيهاً بأهمية القلم الذي علم الله به الإنسان مالم يعلم، وما المذاهب السياسية الثورية الدكتاتورية الدموية من «نازية» و«فاشية» و«ماركسية» إلا ربيبة الفكر وناتج الفن، وما طرح «ماركس» شيوعيته إلا بعد أن قرأ الطارف والتليد في مكتبات العالم، والنقد بوصفه المعقب لحكم الإبداع: موهبة، ومعرفة، ودربة، واقتدار، وموقف، وثقافة، ووعي، وهم، ووسيط، وفاحص، ومصحح، ثم حاكم بالعدل، بعد عرضه على ضوابط الفن، ونظام اللغة، وتناسق الجمال، وقيم الحضارة، ليقول في النهاية كلمة الفصل، لاينفعل، ولا يفتعل، ولا يماري، ولا يجامل، ولا يكاثر بالتملق والكذب، والنقد بهذه المهمات الجسام رسالة، والرسالة تتطلب معرفة وموقفاً ونزاهة، والذين يمارسون النقد أو بعضهم على الأقل تتخلف عندهم بعض شروط الأهلية، أو يفقدون أمانة الأداء، وعند تخلف شيء منها، يمتد أثرهم السيئ إلى المتلقي، فالفكر كالجسم، ينمو مما يتلقاه من جيد القول أو رديئه، فإذا نسجت الأفكار من آراء وتصورات منحرفة أو ساقطة أو متسطحة أو فجة، أصيبت الأمة بقيمها الحضارية، وإذا نسجت خلايا الأجسام من أغذية فاسدة، أصيبت الامة باعتلال أفرادها، وإذا كانت الأمم المتحضرة تنشئ المؤسسات لحماية البيئة، وتقيم المراقبة الصحية على المشروبات والمأكولات فإنها ملزمة بإنشاء مؤسسات لحماية الأفكار والسلوكيات من التلوث والانحراف، والدولة الإسلامية حين تنشئ وزارة للدعوة والإرشاد، أو هيئة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو إدارة لمراقبة المطبوعات فإنما تمارس حقاً حضارياً، سبقت به دول العالم المتحضر، والمتمردون لوجه الشيطان، لا يفرقون بين السلطة المشروعة والتسلط المقيت، ولا بين الحرية المنضبطة والفوضى المؤذية، والناقد الأدبي بقدر اهتمامه بحماية جناب الأدب من أن يتقحم سوحه مبتدئ لا يعرف ضوابط الفن أو جاهل لا يجود نظام اللغة، أو منحرف لا يستبرئ لعقيدته، أو ساقط لايستر ما بلي به من قاذورات، يكون أهلاً لهذه الرسالة الجسيمة، والمؤلم حقاً أن طائفة من النقاد يفقدون الأهلية المعرفية والموقف الأخلاقي معاً، ومن ثم يزيدون في الارتكاس الدلالي والانتكاس الفني، ولأن الناقد بمثابة الرائد، والرائد لا يكذب أهله فإن مسؤوليته تتضاعف في الأزمنة الرديئة، ذلك أن المتلقي المتذوق يستشرف رؤية النقاد، ويتقبلها بقبول حسن، والنقاد المعاصرون الذين ينطلقون من حرية التعبير والتفكير والحوار ويعودون إليها، ويعوّلون على مشروعيتها، لا يعرفون أولا يعترفون بحدودها وضوابطها، والذين يتغنون بها يطلقون للغرائز العنان، يؤلهون الهوى، ويفوضون للعقل، وهم بهذا التسليم المطلق يذبحون الحرية من الوريد إلى الوريد، فالحرية الإنسانية لاتتحقق بفعل الممكن، وإنما تتحقق بامتثال المشروع، والكف عن المحظور، والرد إلى الله والرسول، ولا أستبعد أن الأمانة التي عرضت على السماوات والأرض والجبال، وأبين أن يحملنها، وأشفقن منها، وحملها الإنسان بدافع الظلم والجهل، هي أمانة العقل ومسؤولية التكليف، وما سمي العقل عقلاً، إلا لأنه إلزام والتزام، وتلك حدود الحرية التي نومئ إليها، ونستدعيها كلما حزبنا

أمر، والنقاد الزائفون والمزيّفون يريدونها «ميكافيلية»، والنقد الأصيل المؤصل لسائر القيم ينهض على ثلاث دعائم: الذوق والمعرفة والمصداقية، وتتنازعه اتجاهات ثلاثة: القيم المعرفية، والقيم الأخلاقية، والقيم الجمالية، والمتفلتون على الضوابط هم المتسيدون، ولأن الناس لا يصلحون بالفوضى، فإنهم لا ينضبطون بسيادة الجهلة، ولا بهيمنة المراهقة الفكرية المتأخرة، وشر البلاد بلاد لا يحكمها نظام، ولا تسودها قيم، ومنع «التفكير» كمنع «التكفير» والله لم يتردد من مخاطبة المخالفين حين قال لهم: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٦] وخطأ المكفرين لا يمنع حقيقة الكفر.

وإذا لم نضبط إيقاع النقد تحول إلى صخب ممل، وذلك ما تعيشه بعض المشاهد، فالمسيطرون على آلياته ومعارفه: إما أن يثنيهم عن الصدع بالحق الخوف أو المجاملة، أو إيثار السلامة، أو قمع الشللية، أو التكاثر من الأشياع، أو الجهل بالطارف والتليد، وبعض المتصدرين في المشاهد يقوِّمون ذواتهم بكثرة المريدين، وفيما يقال عنهم من تقريظ مقايض، وفات هؤلاء أن الرسل يأتي بعضهم، وليس معه أحد، وإذا كان الإنسان يحب المعجبين والأصدقاء، ويكاثر بهم خصومه، فإن الحق يعلو ولا يعلى عليه، وما نقم البارئ من اليهود ولعنهم إلا لأنهم لا يتناهون عن منكر فعلوه، والذين لاتتمعر وجوههم للفن الأصيل، يعطون الدنية في فنهم، ولا يتناهون عن منكر القول والفعل.

وإذا أضاع الشعراء الشعر، وأضاع الروائيون الرواية، وأضاع النقاد النقد، وأفتى الجهلة وفكرَّ المتسطحون فقدت الحضارة أهم مرتكزاتها، وظهر الفساد في بر الفن وبحره بما كسبت أيدي النقاد، الذين يداهنون ويجاملون، أو يجهلون، والعلم لاينتزع من الصدور.

وإذ نغض الطرف عن المجاملة والمداهنة والخوف من المغمورين والضعفاء فإننا لن نقبله من «الأكاديميين» الذين يقتدي بهم تلاميذهم، ويتوقع منهم حماية الفن الأصيل والقيم الجمالية والأخلاقية، والذب عنها، واذا تخاذل المتخصصون، وغلَّبوا جانب السلامة فإن من دونهم أولى بالمجاملة والخوف، وكم نود التفريق بين اللين والرحمة، وفظاظة القول وغلظة القلب، فالبعض يخلط بين اطراف الممارسات والمواقف، وكل شيء له وسط وطرفان، ومن الحصافة أن يعرف الإنسان كم هو الفرق بين الضعة والتواضع، واللين والغلظة، والشجاعة والتهور، والكرم والتبذير، والحدية الحتمية والأفق المفتوح، وإذ مسنا الضر من المتطرفين والجهلة فإنه لايجوز أن نتخلى عن مقتضيات الحضارة، من تفكير وتكفير وجهاد وأمر بمعروف ونهي عن منكر وحماية لجناب التوحيد والانهزامية كالاهتياج الأعزل حذو القذة بالقذة.

مسؤولية رجل الأمن ورجل الفكر في الظروف العصيبة .. ! (١)[١]

المخاض الكبير الذي قلب أوضاع القطب الواحد، بكل مايملكه من سطوة، وما يقوم عليه من مؤسسات: دستورية وتشريعية، تحول معه إلى دولة نامية مغامرة. هذا المخاض المذهل إذهال سقوط المعادل، تبعته مخاضات عديدة، وضعت أجنتها المشوهة المخيفة في بقاع كثيرة من العالم الثالث، أدت إلى تعرضه لفراغات دستورية، وإلى انقسامات طائفية وإقليمية وعرقية، هيأته لانفجارات مدمرة للقيم الحسية والمعنوية. فكان أن استفحلت فتن قائمة، واستيقظت فتن نائة، وتعطلت خطط تنموية، أدتْ إلى البطالة والعجز والمظاهرات والصدامات، بحيث أفقدت كثيراً من السلطات شرعيتها، وشرَّعت الأبواب لكل الاحتمالات السيئة. وما من حدث أو حادث إلا ويقوَّم من خلال أنساقه وسياقاته، فإذا كان مستغربا في زمان أو في مكان، فليس من اللازم أن يكون كذلك في زمان أو في مكان آخر. والغرابة أو الاستغراب حالة نسبية، يستعظم الحدث قوم، ويستصغره آخرون. وليس هناك ما يمنع من أن نضرب الأمثال بالتفجيرات التي تعرضت لها البلاد، وأدهشت القاصي والداني، ذلك أن السمة العامة تمثُّل المواطنين لأمر ربهم، وانسجامهم مع قيادتهم، واعتقادهم بأن الإنسان في سعة من الأمر حتى يصيب دماً حراماً. وفي المقابل فإن الدولة قوية بأجهزتها الأمنية، وسطية بمؤسساتها: التعليمية والتربوية والدينية والدعوية، وذلك مكمن الغرابة. وما أصاب البلاد من تفجيرات، هدَّمت المساكن، وقتلت المعصومين، وأخافت الآمنين، وما تعرضت له من متطرفين في التصرف، وغالين في الدين، ترك آثاراً نفسية سيئة، وأثار تساؤلات عصية، ونبه المواطن والمقيم والمسؤول إلى ثنيات حدودية وذهنية غفل عنها حماتها من باب الثقة أو من باب غفلة المؤمن، فكان الانحراف في التفكير، والتشفي بالتفجير. هذه المقترفات غير المألوفة، وغير المتوقعة في بلد أذن الله أن ترفع فيه راية التوحيد، وأن يُقام في ربوعه حكم الله، اقتضت ضرورة التفكير في الخطاب: الديني والسياسي والتربوي والأمني، وكشفت للعالم عن متانة الجبهة الداخلية، وعن قدرة رجال الأمن على تصيُّد أفراد الخلايا الواحد تلو الآخر، كما أكدت نكارة الفعل وشذوذه. ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩] و(رب ضارة نافعة). ولكن بقي ان نسأل أنفسنا: لماذا؟ وكيف؟ وعلى يد من؟ ولمصلحة من حصل كل هذا؟ وهل هذه الخلايا النائمة أو المستيقظة كانت ناتج تقصير في الرعاية، أو في الوقاية، أو نقصاً في الكفاءة أو في الكفاية؟ وهل هي جماعات ذات مرجعية واحدة أم هي أمشاج تنجم هنا وهناك؟ وماذا يريد هؤلاء الذين لايملكون إلا لغة القتل الهمجي؟. إن علينا أن نواجه أنفسنا بشجاعة، قبل أن نقف وجهاً لوجه أمام واقع لاينفع معه تساؤل ولا عتاب، بحيث يسبق السيف العذل. فما لم نواجه أنفسنا بمزيد من الأسئلة، أصبحنا مهيئين لفعل إرهابي أكثر ضراوة، وأقوى شراسة، وأوسع تدميراً وإهلاكاً وإخافة. ولقد قالها مسؤول الأمن، محملاً الآباء مهمة المتابعة لأبنائهم، من خلال تصرفاتهم وخلطاتهم ووجهة سفرهم. ورهاني الذي لا أحيد عنه، يعد ما حصل بقايا لعب كونية، وفلول مقاومات أسهم الغرب في صناعتها، ولم يحسن تفكيكها، فهو الذي دعم الجهاد والتكفير للإجهاز على الماركسية. وواجبنا في ظل هذه الظروف وفي ظل كل القراءات أو التصورات ألا يكون أحد فوق المساءلة والمحاسبة والنقد. وحاجة المؤسسات الفكرية والتربوية والأمنية أمام هذه الأوضاع إلى العارفين الصادقين لا إلى الخليين المصدِّقين، وإلى المجربين لا إلى الحفظة، وإلى فقهاء الواقع لا إلى نقلة أحكام الوقائع.

---

(١) تاريخ المقال: ٥/ ٨/ ٢٠٠٣

والحدث حين يبديه المسؤول الآمن أو المنشغل بما دونه، يعطيه الانذار الأول، ليأخذ حذره، وينفر بكل ما أوتي من عدد وعدة، لتلافي أيّ نقص في الآلية أو في المنهج أو في الكفاءة. ومن أحسن الظن، وأمن مكر الأعداء، واتخذ السلامة عادة، فجأته الحوادث، وهو غارق في الثانويات من المسؤوليات، أو ملق أعباءها على من لايحسن حملها، فنحن في يوم له ما بعده، وأيُّ خطأ في التوقيت أو في التقدير يكون غلطة معلم. والدور الآن لرجل الفكر والتربية والتعليم والأمن، ومن خلفهم ومن بين أيديهم المواطن، بحسه وإحساسه، ونظره الثاقب، وملاحظته الدقيقة. وفي النهاية: إذا الإيمان ضاع فلا أمان ... ولا دنيا لمن لم يحي دينا ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢] و(اتق الله يحفظك) والأمن عصب الحياة، وإكسير الرخاء، ومادة الاستقرار، وماء النماء. وبئست حياة وجلة خائفة مترقبة. واختلال الأمن مؤذن بنشوء مجتمع متوحش، يستمرئ الغدر والقتل والسلب والنهب، كما أنه مهيء لقيام كيانات طائفية، أو إقليمية، أو عرقية، بحجة حماية نفسها. وإذا تعددت مراكز القوى، كشف الإرهاب عن وجهه الكالح، وكشر عن أنيابه، وخرج من سراديبه إلى وضح النهار، ووجد الأعداء سبيلهم لتصفية الحسابات، واقتسام الغنائم، والسعيد من وعظ بغيره. ومن استبعد الممكن أخذته المآزق من كل جانب. وكيف يستبعد العقلاء الفتن، والشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، والنفوس الأمارة بالسوء تجتال أصحابها، والإنسان ظلوم جهول، عجول هلوع جزوع، مناع للخير معتد أثيم، إلا من عصم الله، وقليل ماهم، والدور الأهم في مثل هذه الظروف للمواطن، لأنه الهدف الأهم للاختراق. والمملكة بما وهبها الله من إمكانيات: حسية ومعنوية، وأموال مدحوة في الأرض، أو منتشرة على سطحها، أو متداولة في الأيدي معرضة لكل الاحتمالات، على حد: (كل ذي نعمة محسود) وإذا كان من واجب أمريكا أن تسأل نفسها: لماذا يكرهها الناس؟ فإن من واجبنا أن نضاعف الأسئلة، بحيث نتساءل: لماذا نحسن إلى الناس، ويسيؤون إلينا؟ ولماذا نعطي عطاء من لايخشى الفقر، ولا نطلب من عطاءاتنا المتدفقة جزاء ولا شكوراً، ثم نفاجأ بأذية تطال أمننا واستقرارنا؟ نتجرع مرارات الاحتمال والمدارات، ونحن نرى الجناة ينوسون من حولنا، وقد نأخذهم بالأحضان. لقد كشفت المطاردة الأمنية لفلول الإرهابيين عن أسلحة ومتفجرات وإمكانيات، لا يمكن ان يكون وراءها أفراد جهلة عزل، وكشفت المتابعة الفكرية عن معتقدات لا يمكن أن تكون وراءها تربية محلية، ونفاذ هذا العتاد الرهيب لن يكون بتدبير محلي، وتكرس هذه المفاهيم المنحرفة لايمكن أن يكون ناتج علم سلفي. إن وراء هذا الكم الهائل من وسائل التدمير ما وراءه، ووراء هذه الرؤى والتصورات والقناعات ما وراءها، ومهما حاولنا التكتم، وابتلاع المصائب، من باب العفو والصفح والصبر فإن التساؤل سيظل قائماً. وها هي بعض الوسائل الإعلامية تُشير بأصابع الاتهام إلى تعاون بين (القاعدة) و(الموساد) في سبيل زعزعة الأمن في المملكة، وليس ببعيد أن يتحالف أصحاب المصالح مع الشيطان، لتحقيق أهدافهم. غير أن مجرد الإحالة إلى جهة أو جهات لايشفي صدور المتسائلين، إذ لابد من فتح ملفات كل قضية، وتقصي أسبابها ومساءلة أطرافها، لا للمحاسبة وحسب، ولكن لسد الثغرات، وحفظ الثنيات. وها هي التقارير الأمريكية تضعنا في قائمة المسؤولين عن التفجيرات. وها هي المداولات في مجلس الشيوخ الأمريكي تتحول إلى جدل حول المملكة ودعمها للإرهاب. كل ذلك ومثله معه لم يأت اعتباطاً، وعلينا أمام كل حدث أو تآمر ان نقوِّم أداءنا: الفكري والتربوي والأمني والإعلامي، وأن نأخذ احتياطاتنا، فإذا تألقنا في المواجهة الأمنية، ولم نتألق في الوقاية، كان ذلك من نقص القادرين على التمام. وإذ نواجه تحديات في عقر دارنا، قوامها السلاح الفتاك، والتنازع

حول الثوابت والمسلمات: الفكرية والسياسية والدينية، فإننا نكتشف بين الحين والآخر أطرافاً ضالعة في المكر والمكيدة، تبدي أعناقها عبر الصحف والقنوات والمحافل، ثم لا تجد من يرد العوادي. وما دام لنا ثقلنا العربي والإسلامي والعالمي، ولنا وزننا الاقتصادي، وعمقنا الجغرافي والسكاني، وثقلنا السياسي، وحضورنا الفاعل في المحافل كافة، ولنا تأثيرنا على كثير من القرارات فإننا سنظل مستهدفين، ولكن ليس بهذا المستوى المخيف، إننا نقبل الحرب الباردة، وقد نضطر إلى قبول المنابذة على سواء، أما الممارسة الإرهابية بهذا الحجم وبالدوافع الدينية كما يراها المنحرفون فأمر يحتاج إلى مزيد من التقدير والتفكير، فنحن أبناء الدين وحماته ومظهروه ومحكموه، ولسنا بحاجة إلى من يجلب التمر إلى هجر، ولا إلى من يبيع الماء في حارة السقائين، وسلفيتنا واكبت الحضارة، ومدت الجسور، وجنحت للسلم، وانتزعت ثقة العالم وإكباره، وعلماؤنا هم علماؤنا، ومنهجنا هو منهجنا، فأين إذاً مكمن الخطر، والثقة والشك يجب أن يكونا في محلهما: ووضع الندى في موضع السيف بالعلا ... مضر كوضع السيف في موضع الندى وعلى كافة مؤسساتنا أن تكون في مستوى قامتنا وأحداثنا. وإذ نكون الأحسن في سياقنا العربي، فإننا سنكون الأكثر استهدافاً للخطاب الإعلامي النفعي، والأكثر تعرضاً للعمل الإرهابي. إن هناك شفرات لما تزل بحاجة إلى تفكيكها، ففئة تحاربنا لأننا أشداء على الكفار رحماء بيننا، وأخرى تحاربنا لأننا أولياء للكافرين، وثالثة تتهمنا بالإضرار بقضايانا المصيرية، ورابعة تضع العراقيل في طريقنا لأننا مع القضايا المصيرية. الصهيونية ضدنا، والإرهاب ضدنا، والشارع الأمريكي ضدنا. والأدهى والأَمَرّ أن طائفة من إعلاميي الاغتراب ومفكريه، يفترون الكذب باتهام البلاد وأهلها بالتواطؤ ضد مصالح الأمة العربية أو التخاذل والتخذيل في قضاياها المصيرية، وتشايلهم مع المحافل الصهيونية التي تطالب بتطبيق أقسى العقوبات على البلاد وأهلها، مثار شك وارتياب، ومما يعمق الشك أننا نجد طوائف من المتعالمين والمتغالين يروننا دون المستوى المطلوب في الامتثال الديني، وفي مقابل كل ذلك نجد أن كل الممسكين بأزمة الأمر الفلسطيني، تتلاحق اعترافاتهم بأفضال البلاد وأهلها، ونجد المؤسسات السياسية الأمريكية جادة في تبرئة المملكة من الضلوع في العمليات الإرهابية، ومع أننا لا نزكي أنفسنا، ولا نباهي بفعلنا، إلا أننا نعجب من هذا التناقض الصارخ، وما من أحد سأل نفسه عن هذا التناقض، مع أنه شاهد عدل، وليست الاشكالية فيما يقال عبر الصحف والقنوات من فلتات ألسنة تدل على ما تخفي الصدور، مما هو أكبر، فذلك مدفوع الثمن، ولو شئنا لقلبنا المعادلة، وحولنا المهاجمين إلى مدافعين، فالمسألة مطروحة في سوق النخاسة البلاغية، وإنما الإشكالية في سرعة الاستجابة، وفورية التصديق، وكأن المستزِّلين حذاق في التنويم (المغناطيسي).

مسؤولية رجل الأمن ورجل الفكر في الظروف العصيبة .. ! (٢) (١)

وإشكالية المواجهة أن البلاد بإزاء الشيء ونقيضه، فالذين يدَّعون عداءهم للصهيونية، يواجهون البلاد بقدر ما تواجهها به الصهيونية، وليس من المعقول أن يجتمع الشتيتان، ثم لا تكون ريبة، وليس الارتياب من افتراءات (الصهيونية العالمية)، الحريصة على إشعال الفتنة ضد العالم العربي بأسره، وضد المملكة على وجه الخصوص، وعلى تأليب الرأي العام العالمي ضد من تتوقع تأثيره على القرارات الدولية، وإنما الارتياب من التخندق معها، والكيد معاً لدولة ليست بدعاً من الأمر. والمعممون في نيلهم ليسوا كالمحددين، والموثّقون ليسوا كالمتخرصين، وما من عاقل يبرئ نفسه الأمارة بالسوء، ولكنه لا يرضى تحميله ما لا يحتمل، وأخذه وهو مقيم دون الفتنة مع الظاعنين إليها، والعتب ليس على من يلوم على التقصير، ولا على من يستحث الخطى، ولا على من يطلب الإصلاح، وإنما هو على من تتلاحق افتراءاته الآثمة، متواشجة مع الطرح الصهيوني الحاقد. وما أنكى أن تجد زيداً المسلم مع (بنيامين) اليهودي، يُريشان معاً سهاماً كثيرة، ثم لا يجد حرجاً من تصويبها لمن علمه الرماية ونظم القوافي:-

ولو كان سهماً واحداً لاتقيته

ولكنه سهم وثان وثالث

فهذا (برنارد لويس) المستشرق اليهودي الأمريكي، يقول، كما نقله (جهاد الخازن):
- (إن السعوديين الوهابيين ينفقون أموال النفط لتمويل الإرهاب) وهي ذات المقولة التي أطلقها (القذافي). والمؤكد أن (لويس) لا ينطلق من فراغ، بل هو مجند صهيوني لتعبئة الرأي العام الأمريكي ضد المملكة التي تتعرض للإرهاب، وتعاني منه قبل أمريكا. والصهيونية العالمية تعرف متانة العلاقات السعودية الأمريكية، وتعرف أنها لن تسيطر على الرأي العام الأمريكي ولا على المؤسسات التشريعية والتنفيذية بالقدر الذي تريده، إلا إذا نسفت هذه العلاقات، وجعلت المملكة غير مرغوب فيها، والصهيونية لم تقنع بما أعطيت من (حق الفيتو) و(اليمين المتطرف) و(أحدث ما تملكه الترسانة الأمريكية). وهي إذ تحارب الإسلام لذاته، تخادع المغفلين بمحاربة (الوهابية). لقد اخترقت (اللوبيات) المناوئة المجالس التشريعية والتنفيذية، وكسبت مؤيدين مؤثرين في الإدارة (الأمريكية)، حتى لقد حمَّلت البلاد جانباً من أوزار التفجيرات في (أمريكا)، وما أحد من إعلاميي الشتات العربي تمعر وجهه من هذه الاتهامات، وعرف أن المؤامرة ضد الإسلام، وما أحد من المتباكين على مصالح الأمة العربية سأل نفسه عن دوافع هذه الحملات الشرسة ضد الحكومات والشعوب الفاعلة.

ومما لا شك فيه - والحالة تلك - أن وراء هذا التوافق في المواقف ما وراءه، فإما أن تكون الصهيونية قد حسبت الشحم ممن شحمه ورم، فتصددت للمملكة، دونما وعي بحقيقتها، وإما أن يكون الأقربون يغمطون المملكة حسداً من عند أنفسهم، و(قديماً كان في الناس الحسد) وما أشد مرارة الظلم، تتجرعه البلاد من ذوي القربى، والمؤمل من رجال الإعلام وأرباب القلم تحشيد الإمكانات وتوحيدها، والانتقال بها من التنصل والاعتذار والاجترار المحلي إلى المحافل الدولية، وإطراح لغة التفاضل والتباهي، وممارسة الحوار الحضاري المتزن، المدعوم بالوثائق، المتودد بالحكمة والموعظة الحسنة، والسعي لكسب

---

(١) تاريخ المقال: ١٩/ ٨/ ٢٠٠٣

المناوئ أو تحييده لا إلى تصفيته. فالمملكة تملك مشروعيات كثيرة، ومن الخير لها ألا تشوبها باللجاجة والتوتر.

وكتاب آخر ل(دوري غولد) يهودي صهيوني يتحدث فيه عن دعم المملكة للإرهاب، ويتطاول فيه على الدين الإسلامي.

هذه الحملات المنظمة المركزة، تتم في المحافل الدولية، والمعنيون في غفلة عن هذا. والمؤلم أن من أبناء المسلمين من يساير الصهاينة في النيل من الإسلام والمسلمين، وعدم التحرج من وصف المملكة بالعمالة والتواطؤ، فيما يغفلون عمن حولهم من المعترفين والمطبعين والمهرولين والمتبادلين للمصالح في وضح النهار. وما شيء من ذلك فعلته المملكة، ولو تبدى لنا ما نراه من غيرها، لما وسعنا السكوت فضلاً عن المسايرة. والمملكة تكاد تكون الوحيدة التي تضع كل بيضها في سلة القضية الفلسطينية، اعترف غيرها، ولم تعترف، وطبع غيرها، ولم تطبع، وتملق غيرها، ولم تتملق، ووعد غيرها ولم يعط، وأعطت المرة تلو الأخرى. حتى لقد بلغ المواطن حداً من اليأس والإحباط، وفضل أن يكون سمننا في دقيقنا، فالمواطن يعاني من بوادر الضوائق والبطالة ما يجب معه التحرف السليم. والطفح الرخيص من ساقط القول، وبذيء الكلام، لم تصنعه الصدف ولا العفوية، وإذا قلنا بالغزو أو بالتآمر، أنكر ذلك علينا المستغربون، وعدُّونا اسقاطيين، نبرئ أنفسنا، ونتهم غيرنا. وما تلاحقت الثورات، وما توترت الحدود، وما استفحلت الطائفيات، وما لعنت كل أمة أختها إلا نتيجة اللعب الكونية. وما الواقع العربي المؤلم إلا ربيب مكائد يمسك بعضها في رقاب بعض، منذ الامبراطورية التي لا تغرب الشمس عن ممتلكاتها، حتى زمن القطب الواحد، وما الحروب التي كانت (العراق) طرفاً فيها إلا حروب بالإنابة، في أجوائها حصد المغتصبون الشرعية والاعتراف والتطبيع. وأول مطلب واجه به (بريمر) مجلس الحكم العراقي الاعتراف بإسرائيل، فهل شيء من ذلك جاء اعتباطاً، نعم الأمة العربية مدانة بقابليتها للعب، ومدانة بارتمائها في أحضان الغير، وتصديقها لأعدائها، ومدانة بتهافت أبنائها على المدنية الزائفة والحضارة الوضعية المادية، ومدانة بتقصير علمائها ومفكريها في تفكيك الطارف والتليد، واتخاذ الطريق القاصد والموقف المتزن والتفاعل الإيجابي، ومن ثم فإن هناك غزواً وتآمراً، وهناك قابلية عربية لذلك، وقولنا بالغزو والتآمر ليس للتبرئة، وإنما هو لأخذ الحذر والنفور للمواجهة.

والدولة التي يخترق أجواءها الإرهاب من كل جانب، بحاجة إلى أن تفكر وتقدر، وأن تعرف أنها مستهدفة: إعلامياً وأمنياً وسياسياً واقتصادياً وفكرياً، وأن ما أصاب غيرها من تدمير للمثمنات، وتبذير للثروات، وتشتيت للكفاءات، وإخلال بالأمن، وخلق للعداوات سيطالها دخنه، فإن كانت لديها قابلية استفحل، وإلا كمن كما الخلايا النائمة، في انتظار تصدع القشرة، والمؤكد أننا دخلنا دوامة الإرهاب، وأصبح ظاهرة مخيفة، ودخلنا دوامة التصدع الفكري، وهذه الأحداث النافذة علينا من كل جانب بحاجة إلى (مكافحة) و(معالجة).

-فالمكافحة مسؤولية رجال الأمن والمباحث والطوارئ.

-والمعالجة مسؤولية رجال الفكر والعلم والتربية والإعلام.

ولا أشك أن فلول اللعب (الأفغانية) و(الحروب الخليجية) المطاردة من قبل أمريكا التي أسقطت الشرعية في (أفغانستان) و(العراق)، ولم تنجح في سد الفراغ الدستوري، ولا في إحكام القبضة، هذه الفلول قد عادت إلى أراضيها جذعة، تحمل الفكر الجهادي والعقيدة التكفيرية، على غير هدى من الكتاب وصحيح السنة، وكان اللاعب الأكبر قد بارك (التكفير) و(الجهاد) حتى قضى بهما وطره، وحسب الناس أن هذا الفكر المتعسكر، وتلك العقيدة المتشددة، ستنتهيان بانتهاء اللعب الكونية، ومن ثم كانت غفلة المؤمن،

واسترخاء الواثق عن الثغور وعن الأدمغة، ولو لم تكن الغفلة من الطرفين لما نفذ العتاد إلى البلاد بهذا الحجم، ولما عشعش الانحراف في الأدمغة بهذه القوة، ولما التقى الوباءان على قدر، لتكون محاولة الإخلال بالأمن، وتصديع الوحدة الفكرية والدينية والوطنية التي لم تتحقق، ولكنها تنذر بالخطر، وما لم يلتق الطرفان: رجال الأمن، ورجال الفكر، لرسم خطة محكمة، وأسلوب رشيد، تفلتت من بين أيديهم خيوط المشكلة، ووجد الموتورون أرضية مناسبة لصناعة محكمة، تفجر الأوضاع، وتنسف الأمن، وتشتت الفكر. إذ بقدر ما يحكم رجال الأمن الطوق، ويجوِّد رجال الفكر القول، يمكن تطويق المشكلة، وإن كنا نتوقع السباق بين الجريمة والمكافحة.

والإرهاب غنوصي التصرف، سِرِّي التخطيط والتنفيذ، تقضي أموره تحت الظلام الدامس، وفي أعماق الكهوف المظلمة، ولا يقرؤها الناس إلا في بيوت مهدمة، ونفوس مزهقة، وأمن مختل. ولهذا لا بد من التقدير والتدبير، واستباق الأحداث، والتوقي، ومباغتة المناوئ قبل أن يغدر أو يفر. ولن يتمكن رجال الأمن من قطع شأفة الإرهاب بإمكانات عادية، أو إجراءات روتينية، ودون مؤازرة من العالم والمفكر والمواطن، واتخاذ فسحة من الحوار الحضاري الذي تسوده الثقة، وتحكمه القيم، وتسمو فوقه مصلحة الأمة، وفوق كل ذلك فإن العمل الإرهابي حدث استثنائي، لا بد له من مواجهة استثنائية، ورجل الأمن روض نفسه على مواجهة الوقوعات العارضة، مما لا يبيت لها بليل، أما وقد دخلت البلاد في دوامة الإرهاب المنظم، والتطرف المتعنت، وأصبحت اللغة (الديناميتية) هي لغة التخاطب، فإن أحداثاً وحوادث جديدة ستواجه رجل الأمن ورجل الفكر على حد سواء، وستربكهما. وقوة الطوارئ، وفرق المداهمة، والأجهزة والآليات، وسائر المؤسسات التعليمية والثقافية والإعلامية بحاجة ماسة إلى تمكينها من التوفر على أعلى الكفاءات، وأحدث الأجهزة، وأدق التدريبات وأحدثها وأوسعها، حتى لا تفوتهم فلول الإرهاب، ولا يسبقهم دعاة السوء، وحتى يتمكنوا من استيعاب الطرفين أو قطع دابرهما. إن هناك إرهاباً قوامه السلاح الفتاك، وتطرفاً قوامه الكلمة المؤثرة، ولكل ظاهرة ما يناسبها من المواجهة، ولا بد - والحالة تلك - من رجل استثنائي، وتخطيط استثنائي، وعمل استثنائي، وإمكانات بشرية وآلية وإجرائية استثنائية، وحركة فورية في اتخاذ القرار، ومرونة في التصرف، تستجيب لمتطلبات المرحلة الحرجة، فنحن أمة لها مكتسباتها، ومثمناتها، وقواعدها الاقتصادية، وقلاعها الحضارية، واستهداف هذه المنجزات من السهولة بمكان، وتعرضها للتفجير حتماً سيعرض البلاد لخسائر فادحة.

ورجل الأمن أمام هذه الطوارئ يعيش مرحلة تحد عصيب، فإما أن يسيطر عليها باقتدار، ويلملم خيوط الممارسات الإرهابية التي اندلقت أقتابها بين أيدينا، ويعيدها إلى قمقمها الذي انفلتت منه، وإما أن ندفع الثمن الغالي.

لقد دوت الانفجارات فاستغربنا، ودوت ثانية فذهلنا، ودوت ثالثة فتساءلنا، وتحركت أجهزة الأمن، تطارد فلول الهاربين، وتساقطوا في يدها الواحد تلو الآخر، وكان في ذلك نصر مبين، ولكنه كشف عن ثغرات أمنية، أثق تماماً أنها حاضرة المسؤول، ولكن المواطن بوصفه ضحية الخلل، يسبق بتساؤله، ومن حقه أن يلح في التساؤل، ومن واجب المسؤول أن يسمع، وأن يهدئ الروع، ويطمئن النفوس القلقة، فالمسألة ليست عادية، لا على المستوى الفكري، ولا على المستوى الأمني، وإذا تحملنا، وقبلنا ما دون ذلك من الخلل، فإننا لن نقبل بالمعدات الثقيلة، تزيح الأتربة عن مئات الأطنان من المتفجرات المطمورة في باطن الأرض. أين رجال المنافذ الحدودية؟ وأين خفر السواحل؟ وأين الحوامات؟ وأين العيون الساهرة؟ نحن نجزم بل نراهن على أنهم لم يخونوا أماناتهم، ولكننا لا نستطيع التغاضي عما عثر عليه من وسائل التدمير، وما ظهر من شذوذ التفكير،

ولن نقبل التصدع الفكري في بلد السلفية الناصعة بمحجتها البيضاء، أين العلماء؟ وأين التربويون؟ وأين أساتذة الجامعات؟ وأين الخطباء؟ ولماذا يُتخطف أبناؤنا من بين أيدينا، ونحن غافلون؟ في بلادنا إرهاب في الفعل، وتطرف في التصورات والمعتقدات وعلينا أن نواجه قدرنا بثقة واعتراف، وأن نرسم الخطط البعيدة المدى، وأن نعيد النظر في كل شيء، نسائل العالِم قبل الضابط، والمعلم قبل الإعلامي، كي يستقر الجميع على أرضية صلبة، وإذ نتفق على أن تربيتنا ومناهجنا مبرأة من صنع التطرف فإنها مسؤولة عن عدم الحماية.

السؤال الذي ما كنا نوده: لماذا امتلكت أجهزتها الأمنية القدرة الفائقة في الإجهاز على عدد كبير من الخلايا في وقت قياسي؟ في حين تمكن الإرهابيون في زمن متطاول من تشكيل وجودهم، وجلب آلياتهم ومتفجراتهم، وتفرقهم في البلاد، وحصولهم على أفتك الأسلحة، رجال الأن الذين غفلوا غفلة المؤمن فنمت بذور الشر في غفلتهم، هم رجال الأمن الذين أثلجوا الصدور، ورفعوا الرؤوس، وحققوا من الانتصارات ما لم تحققه أي أجهزة متفوقة بالعدد والعدة، ورجال الشريعة وأساطين الفكر ورجال التربية الذين يتبادلون الراية منذ الحركة الإصلاحية، هم الذين يمسكون بمقاليد المؤسسات: توعيةً وإرشاداً وتعليماً وإفتاء. سؤال مشروع ولكنه محرج، نحن بحاجة إلى الشفافية والمساءلة، ولا نريد لأي مؤسسة أن تكون فوق المساءلة والمحاسبة والنقد، ما الخلل الذي نشأت في ظله الأفكار المنحرفة والأيدي الشرسة. قلت من قبل: إن التطرف والإرهاب وافدان، ولما أزل على شيء مما قلت، غير أن تنامي الإرهاب والتطرف، وشراسة المواجهة، بحيث يتساقط الشهداء من رجال الأمن في كل عملية مواجهة، كل ذلك يتطلب إعادة النظر في كل ما سبق، فحين لا يكون للتربية والتعليم دور في صناعة الإرهاب، فالواجب أن يكون لهما دور في التصدي له.

ولقد كنت في كل مواجهاتي النقدية أفرق بين (فساد المبدأ) و(خطأ التطبيق)، ومن ثم فإن الفساد لا يصلح معه الترقيع، إذ لا بد من نسفه والتأسيس من جديد، ولهذا فإننا والحمد لله نحسن الظن بمؤسساتنا، ونراهن على أنها تقوم على الصلاح والإصلاح والصدق والإخلاص، ولكننا لا نراهن على النجاح في كل ما تأتي وما تذر، ولأن الأيام حبلى يلدن كل عجيب، فإن علينا أن ننسق بين المؤسسات الأمنية والتربوية والإعلامية والدعوية والتوعوية، ووضع خطة جماعية تشكل تصوراً دقيقاً للواقع والمستقبل، وتباشر العمل بأسلوب الفريق الواحد، وما إنشاء (مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني) إلا بادرة حضارية، لها ما بعدها، والمواطن وحده القادر على إحباط أي محاولة بحسه الأمني، ويقظته ووعيه، إنه المسؤول الأهم، والجبهة الخلفية التي تحمي الساقة. وإذا كنا نثق برجل الأمن وبالمفكر وبالعالم وبالإعلامي، فمن الواجب أن نواجه الجميع بتساؤلاتنا الملحة، وأن نتحمل قسطاً من المسؤولية، ومن ثم يجب أن يَقْدُم المواطن كلَّ المسؤولين في المساءلة، ماذا قدَّم، وماذا ينوي أن يقوم به في ظل هذه التداعيات.

الحوار الوطني من الشتات إلى التجمع .. !(١)

التحولات المؤسساتية ترسيخ للأمن، وتفويت لاحتمالات الفراغ الدستوري، وتجميع لشتات الجهود، واستثمار للمعارف والخبرات، وتكافؤ للفرص، وامتحان لكفاءة المواطن ووعيه، وانعتاق من ضوائق «اللوبيات» إلى فسح المؤسسات.

والدولة اي دولة حين تقلص دور الفردية، وتتجه صوب المؤسسة الجماعية، تتخلص من المغامرات والصدف، والرأي الفطير أو الدبير، محققة فرص التمحيص والمراجعة والتثبت، والاستجابة لعرض المؤتمرين على إنشاء مركز للحوار الوطني تحول نحو الكون الجمعي المتأبي على اعتداء الخطوب، وخلوص من التفرق العاجز عن صد العوادي. والأمة العربية تحت الضربات الموجعة بحاجة إلى من يقيل عثرتها، ويجبر كسرها، ولن تنهض من كبوتها إلا إذا عمل كل راع على إصلاح ما استرعاه الله عليه، ودخن الفتن لايصيب المقترفين خاصة، ولهذا فقد مسنا الضر من مقترفات العابثين بمقدرات الأمة، الخائنين لأماناتهم، وقل أن يكون المستقيمون على الطريقة قدوة لمن يمشي مكباً على وجهه، ولأن الوحدة الوطنية من أولويات اهتمام المؤسسة السياسية الواعية فإن البحث عن منهج سليم، وآلية دقيقة، وتجمع منظم للحوار الفكري من متطلبات المرحلة الموبوءة بتعدد الكيانات وتشتت الولاءات، وبخاصة في ظل ما تعانيه الشعوب العربية من احتقان يتصاعد، وتوتر يتزايد.

والدولة المستشرفة للمستقبل، المؤمنة بحتمية التحول والتعصرن، تتحسس مكامن الخطر، ومنتجعات السلامة، وتسعى جهدها لتلافي أي خلاف يفضي بقادة الفكر والثقافة إلى الصدام المدمر، والنخب العلمية الفكرية حين تجد الأجواء الملائمة، والدعم السخي، والرعاية الناصحة، تتوفر على إمكانيات الأداء السليم، متفادية المهاترات والمخاصمات، متعففة عن النيل من رموز الأمة وعلمائها.

ولوثة الغلو والتطرف والظروف المتفاقمة في الداخل والخارج اقتضت النظر في أمور كثيرة، لتأليف القلوب وتنقية الأجواء، وصد الاعتداء، لعل من أهمها ترشيد «الخطاب الفكري»، وبخاصة أن الأمة منيت بظواهر لم تكن مألوفة من قبل، ادت إلى اختلال الأوضاع الأمنية والفكرية والدينية في مواطن كثيرة، حتى أريد في البلد الحرام الظلم والإلحاد، على الرغم من أن الله توعد المريدين لهما فيه بالعذاب الأليم.

والإرهاب المشتمل بعباءة الدين، طال دولاً متعددة، وظهرت في خطابه المتوتر قضايا إسلامية قديمة، بمفاهيم منحرفة ك«الجهاد»، و«الولاء والبراء»، و«التكفير»، و«فقه الولاية» من حيث السمع والطاعة والخروج، ونجمت في مشاهد الفكر نوابت سوء، تضلعت من عفن التراث، أو من نتن الاستشراق، وعلقته أدمغة خالية فتمكن منها، وتخطى بها إطار الاعتقاد المضمر إلى المواجهة المسلحة، واستفحال الإرهاب والتطرف جعل من أولويات الدول الناصحة أن تعيد صياغة خطابها، وأن تضبط إيقاع التحول ليتم بإنسيابية، وإذا لم نحسن الحوار فيما بيننا، ولم نتمكن من وضع مفاهيم للقضايا المختلف حولها، فإننا لن نستطيع حوار الآخر في القضايا المشتركة. وتصومع العلماء والمفكرين إضاعة للعامة، واجتيالهم بغرائب الآراء ومنكر الأقوال تمزيق لوحدة الفكر التي لاتقل أهميتها عن وحدة الوطن، والمؤسسة تجميع للجهود، وتصفية للآراء، وتهذيب للحوار، وترشيد للمسارات: الفكرية والسياسية والدينية، متى التقت السلطات: الفكرية والسياسية والدينية على كلمة سواء.

---

(١) تاريخ المقال: ١٢/ ٨/ ٢٠٠٣

وسنة الله في الاختلاف حول قضايا الدين والفكر والفن ماضية إلى قيام الساعة ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ وإذا كان الاختلاف قضية ازلية فان على الأمة أن تضع منهجاً وألية وحدوداً للحوار، تمكن الأطراف من تفادي الأثرة، والتخلق بالإيثار، وتغليب الحق على الانتصار، والقبول بالرأي الآخر، متى كان في إطار الاختلاف المعتبر، والمسلم الحق وقاف عند حدود ما أنزل الله، وهو قد أمر بإبلاغ المستجير الكافر مأمنه بعد سماع كلام الله، وهو قد نهى عن سب المعبودات تلافياً لسب الله عَدْواً بغير علم، وهو قد حذر من سباب المسلم وقتاله المؤديين إلى الفسوق أو الكفر، وهو قد نهى عن تكفير المسلم، وهو قد علم نفي الخيرية عن أي تناج لايكون فيه أمر بالمعروف أو إصلاح بين الناس.

والهادي الامين وصف الأمة والوطن بالجماعة المستهمين على سفينة، مما يؤكد أن قضاياها المصيرية مشتركة، بحيث لايجوز الاستبداد، ولا مطلق التصرف، فالحرية مقيدة بضوابطها، وليست مطلقة لا حدود لها، كما يتصورها الوجوديون والثوريون و«الراديكاليون» ولهذا أمر الإسلام بأن نأخذ على أيدي السفهاء، ونأطرهم على الحق أطراً، ونأمر بالمعروف، ونغير المنكر باليد أو باللسان أو بالقلب، حسب الإمكان والاقتدار وتفادي الإضرار، وتلك سمة الحرية في الاسلام، والأخذ على الايدي يعني أن هناك حدوداً لحرية الحوار، والذين يتصورون الحرية مطلقة، يتواطؤون مع الذين يقترفون خرق السفينة، ليغرقوا أهلها.

والصفوة في ظل المبادرات الحضارية أحوج ماتكون إلى وعي دقيق لمفهوم الحرية، ومفهوم الأمتثال للقطعيات الدينية، ومفهوم المواطنة، ومفهوم السلطة، وأهمية الأمن واجتماع الكلمة، فمن أخضع كل شيء للحوار، حوّل الأمة من مسارها الحضاري إلى مسار همجي بدائي، إذ كل حضارة لاتكون إلا بثوابتها ومسلماتها، فالله لا يُسأل عما يَفعل، وليس للمؤمن خيرة في قضاء الله ورسوله، والمحجة بيضاء، ومن تصور الحوار بلا حدود، وبلا ضوابط، كمن عطل الاجتهاد وحرية التفكير والتعبير، ومن فهم «الجهاد» و«التكفير» على غير مراد السلف، كمن نفاهما على الإطلاق، وتورط الأمة في النفي والإثبات الانفعاليين مؤذن بفساد كبير، والمركز بوصفه قناة للتعبير والتفكير من واجبه حفظ التوازن وتهيئة النخب كي تتحرف لمواجهة حضارية، تضع في اعتبارها أهمية الحدث وصعوبة المرحلة، ولكي يولد المشروع سوياً فإنه يتطلب إحكام ضوابطه، وضبط إيقاعه، والتوفر على إمكانيات مادية، وكفاءات بشرية، وحياد إيجابي من الدولة، وأداء طوعي صادق ناصح من النخب، واستكمال المتطلبات يجعل الحوار داخل أروقته علمياً مؤصلاً، يزن الأمور، ويقدر الظروف، ويعطي كل شيء ما يتطلبه.

ولقد قلت من قبل ما ظهر لي سداده من رأي حول «الحوار الوطني» الذي تم بسرعة وسرية على يد أطياف قليلة من المفكرين والعلماء، الذين أرادوا الخروج بتوصيات «دبلوماسية» حمّالة، وما أقوله حول قضايا الأمة كافة مبادرة شخصية، ليس عليها مسيطر، ولا أحسبها معصومة غير قابلة للمراجعة أو التراجع. ومما أحمد الله عليه أنني باحث عن الحق، غير مهتم بالانتصار، وكم من رأي بادرت به، ثم تبين لي فيما بعد أنه مفضول أو ناقص أو معوج، فكان أن تراجعت، أو أتممت، أو عدّلت بثقة واطمئنان، والذين يتصدرون منابر القول، وتتدفق آراؤهم، عبر أنهر الصحف، وموجات الأثير، وقنوات الفضاء، ومواقع المعلومات، ويقولون في مصائر الأمة وقضاياها، من واجبهم

التفقه والتثبت والتقصي والتضلع من المعرفة وإتقان الآلية والمنهج وقواعد المعارف وأصولها ومفاهيمها، والاستعداد للتراجع في أي لحظة يتضح لهم أن ما يقولونه دون المؤمل. والرجوع إلى الحق فضيلة، والخاسر من تأخذه العزة بالإثم، وفوق كل ذلك الرفق، ففي الصحيح: «**استأذن رهط من اليهود على النبي ﷺ، فقالوا: السام عليكم، فقالت عائشة: بل عليكم السام واللعنة، فقال الرسول: يا عائشة إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله، قالت: أولم تسمع ما قالوا، قال: قلت: وعليكم**»، ومامنيت الأمم بالفشل إلا ممن يتعصبون لآرائهم الفجة، ويؤلهون أهواءهم الجامحة، ويركبون رؤوسهم الخاوية. والحوار الوطني الذي ينشده الناصحون الصادقون الحفيون بالمنجزات هو الحوار المنضبط بشروطه وآدابه وأهليته، الحوار المسؤول المحترم للثوابت، البعيد عن المصادرة والإلغاء، الحوار الذي ينشد الحق لذاته، الحوار الذي يغلبُ مصلحة الوطن، وما يتطلبه من وحدة ووفاق وتعاذر، والدولة في ظل الظروف العصيبة تريد لهذا الوطن ان ينأى عن الدوامات العاصفة، وينجو من الضر الذي مس القاصي والداني، والفتن العمياء التي أصابت المقيم والظاعن، واقتلعت الشرعية من جذورها، وحولت طوائف الأمم من الاعتصام إلى التفرق، ومن لغة الكلام إلى لغة السلاح، جاعلة مصلحة الوطن دون مصلحة الطائفة أو العرق أو الإقليم، متيحة الفرصة للمتربصين بالأمة الدوائر لإشعال الفتن، وإمداد المتناحرين بالمال والسلاح، وتأييد طائفة على أخرى، حتى إذا أثخنتهم الجراح، دخلوا وسطاء لإيقاف النزيف الدموي، واستنزاف خيرات البلاد.

الحوار الوطني المراد هدفه: تجميع الشتات، وتحرير المسائل، والصدع بالحق، والحيلولة دون ما آلت اليه احوال الاحزاب المتناحرة والطوائف المتدابرة المؤدي إلى خلل مخيف في الوحدة الفكرية والوطنية، ويكفي أن نلقي الضوء على «تسعين» حزباً من الأحزاب والطوائف والأعراق في «العراق» التي تقدمت بمشاريعها السياسية للحاكم بأمره «بريمر» ليكون لها نصيب من «الكعكة» المتعفنة.

ومجيء فكرة المركز في أجواء عالمية ملتاثة ملوثة، وعلى مدرجة ملغومة، وفي ظل حذر وترقب عالمي مفجوع، تتطلب الدخول بنوايا حسنة، وأهلية تامة، وإمكانيات: حسية ومعنوية، واهتمام بالذات، وعدول عن منازعة الناس أشياءهم، وعلينا أن نعرف أن الظروف التي تحيط بالأمة ظروف عصيبة، تتطلب التسامح، والوئام، وتغليب المصلحة العامة، ونجاح أي مؤسسة يقوم على الثقة والصدق ووعي الواقع وامتلاك الآلية والمنهج، ومن ثم فإن المركز يتطلب إعداد لائحة تنظيمية، ورسم خطة دقيقة، ووضع ضوابط يرجع إليها عند الاختلاف، مع قيادة حكيمة، وأجواء علمية مناسبة، ومركز معلومات وطنية، ودورية محكمة، تعالج مختلف القضايا، وتطرح مختلف الرؤى، وتوثق البحوث والحوارات والتوصيات، واستفادة من تجارب من سبق كـ«منتدى الفكر العربي» و«مؤسسة الفكر العربي»، و«مؤسسة زغبي الدولية» وكافة التجمعات الفكرية، فإما أن نستفيد أو نتعظ.

ومن تصور أن المركز حين تلتطم فيه كل الاطياف، وتصطرع فيه كل الآراء والتصورات والثقافات سيسير على مايرام، وان الاختلاف لن يكون، وأن موائده ستكون سمناً على عسل فقد وهم، واضاع الفرص المواتية، وعلينا في ظل كل التوقعات أن نروض أنفسنا لجدل مرتفع النبرة، لا تتطابق معه وجهات النظر، ولكنها تتعايش وتتجانس، وحين استهل الأمير كلمته بـ«التعاون على البر والتقوى»، فإنما يريد الا يكون اثم ولا عدوان، واذا ادى التجمع إلى تعميق الخلاف، والتهاب المشاعر واتساع التصدع فإن من الخير للأمة ان تعود إلى ما كانت عليه، ومن بوادر الفشل دخول الأطياف بقضايا فكرية مسبقة وبأفكار مبرمجة، وبمرجعيات متعددة، وبضوابط متباينة، ومتى دخلنا بحثاً

عن الحق، والتماساً للوفاق، وعلم الله منا ذلك، يسر أمورنا، وسدد حذفنا ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧] .

وإذ يكون تعدد المشارب والتوجهات قضية مسلمة فإن الاختلاف سيكون، وعندئذ لابد أن يتفق الجميع على مسلمات وثوابت، لا يطالها الاختلاف: «العقيدة»، و«وحدة الوطن»، و«ثوابت الحضارة»، و«مسلماتها»، فإذا احترم الجميع الثوابت الدينية، وآمنوا بأهمية الوحدة الوطنية، فليكن بعد ذلك مايكون، ومصير المركز بيد النخب الوطنية، وعليهم أن يبادروا بكل ما أوتوا من قدرة، وأن يتلقوا هذه الرغبة بكل ما تتطلبه من إمكانيات معرفية وأخلاقية.

والإشكالية ليست في إنشاء المركز، فذلك سهل وميسور، وإنما هي في مخاضاته ونتائجه والأطياف التي ستلتقي فيه والقضايا التي ستطرح على موائده، ومدى تمثل المؤتمرين لأدبيات الحوار، واستجابة الدولة لنتائجه، والأمة أحوج ما تكون إلى التلاحم، فالأعداء يحيطون بها من كل جانب، والمكائد والتآمر والغزو على اشده، وقد نجحت بعض الاختراقات التي أثرت على أمن الوطن، والعلماء والمفكرون هم الردء المعنوي الذي يشد أزر المؤسسة السياسية، ومع كل ما نراه من ظروف غير مناسبة فإننا متفائلون بنجاح هذا المشروع الحضاري.

وعلينا في نهاية المطاف أن ندخل أروقة المركز بأهداف وضوابط:

**نعرض الآراء ولا نفرضها.

**ونستمع لآراء الآخرين ولا نصادرها.

**نحترم تكافؤ الفرص، ولا نغمط الحقوق المكفولة.

**لانثير الشكوك، ولا نسيء الظنون.

**نؤسس للمعارف، ونؤصل للقضايا، ونقارب بين المفاهيم.

**نتسامح ولا نتعصب، ونسعى للتقارب أو التعاذر.

**نحكم العقل، ولا نتبع الهوى.

**نهمش الطائفية والمذهبية، ونرد إلى الله والرسول.

**لا نتحرج من سؤال أهل الذكر، ولا من التوقف عما خفي.

**نحترم العلماء، ولا نصنمهم، وندعم السلطة، ولا نكتمها الحق.

وإذا عزمنا فلنتوكل على الله، ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] .

الانحناء للريح خير من الاجتثاث .. ! (١)

الحروب الخليجية المتواصلة، بكل ما فيها من عنف ودموية ومجانية، وخروج على الشرعية، وتطاول زمني، أتى على كل المقدّرات، ونتج عنه انكماش وديون وبطالة وارتباك.

-وتفكك الاتحاد السوفييتي، ودخول أشلائه في حروب عرقية وطائفية شرسة، تعاقب على تغذيتها المنتفعون، وما تبع ذلك من تغير في التركيبة السكانية، وتبدل في الخطط السياسية، وظهور القطب الواحد بكل غطرسته.

-وأحداث الحادي عشر من سبتمبر، وجرح كبرياء الولايات المتحدة، واهتياجها، وأخذها الظاعن والمقيم، ومباشرتها للحروب في ظل تخلف الحلول السياسية.

-والإرهاب «الشاروني» الذي فجر الأوضاع وبورك من قبل رعاة السلام.

-وإسقاط الحكومتين «الأفغانية» و «العراقية» من خلال عمليات عسكرية متوحشة، لا تملك غطاء شرعياً، وما نجم عن ذلك من فراغ دستوري، وتكتل عرقي وطائفي، ومواجهات متصاعدة، حولت القطرين إلى مستنقع موحل، ألجأ امريكا إلى الاستعانة بمن ادارت ظهرها لهم عند اتخاذها لقرار الحرب.

-واللعب الكونية الكبرى التي غيرت «الاستراتيجيات» والاحلاف والقواعد العسكرية، وخلطت الاوراق، وهمشت الهيئات والمجالس الأممية، وجعلت العالم الثالث دولة بين الأقوياء.

-والأحداث المصيرية التي تعاقبت، واستبدلت الذي هو أدنى بالذي هو خير، من اعتراف وتطبيع وهرولة.

-والتصدعات الوطنية، والاختلافات الفكرية، وفحيح الطائفيات الافعاوي، والهجمات الإرهابية الهمجية المتلاحقة، وتوفر الأجواء الإعلامية والمعرفية من قنوات ومراكز معلومات تهرف بما لا تعرف، وتزرع الشك والارتياب، وتثير الفتن.

-والغفلة المعتقة في الشارع العربي، ومسايرة الأعداء في الافتراء وتولي كبر الإفك على المصلحين والدعاة والناصحين.

كل هذه الأشياء التي جاءت عبر إجراءات ابتسارية إكراهية متلاحقة لا يمكن أن تمر بسلام، ولا يمكن أن ينجو من وضرها احد، ولا يمكن أن تظل اوضاع الدول التي اتخذت أراضيها مسرحاً للاحداث كما كانت من قبل. وإذ يكون التغيير حتمياً، فإن على الاطراف المعنية ومسارح الأحداث والحوادث تعميق التفكير ودقة التدبير، ومن الخير أن يكون التغيير بيد صاحب الشأن، لا بيد غيره، على حد: - «بيدي لا بيد عمرو» وأحسب أن تدخل الأقوياء في الشئون الداخلية وإكراه الشعوب على التخلي عن الثوابت لن يحقق التغيير المطلوب، وإنما يؤدي إلى التدمير، فالشعوب عصية الانقياد، وهذا «العراق» يتأبى على الوجود الأجنبي، على الرغم من أن خروجه قبل ملء الفراغ الدستوري يعد كارثة عربية إسلامية، وإسقاطه للنظام إزاحة «لدكتاتوري» اناخ على الصدور بكلكله، فهو في ويل من الوجود وويل عليه، على حد: - «وقع السهام ونزعهن أليم».

ومن تصور أنه يملك جبلاً أو مغارة تعصمه من طوفان الفتن، فقد وقع فيما وقع فيه «ابن نوح»، حين قال له والده الذي يعرف اخذ الله القوي العزيز: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ [هود: ٤٢] ﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ

---

(١) تاريخ المقال: ٢٦/ ٨/ ٢٠٠٣

يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [هود: ٤٣] ولأن نوحاً عليه السلام يعرف أن وعد الله حق، فقد توجه إلى ربه: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥] . ولما لم يكن يعرف من علم الغيب شيئاً، فقد وجهه إلى الحق ﴿قَالَ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦] . والمؤلم والمخيب للآمال أن بوادر الواقع العربي لا تنفك تعيد مقولة الولد الشقي: ﴿سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ [هود: ٤٣] فكل دولة عربية تتصرف وحدها، دونما تنسيق بين وجهات النظر، ودونما عمل رشيد يحدو إلى اتخاذ موقف جماعي، ينقذ ما يمكن إنقاذه، أو يسهم في إيقاف التدهور، وكأن الدول العربية في معزل من الماء، والماء ينهمر من فوقها، ويتدفق من تحت ارجلها، مفككاً تماسكها الوطني، ومخلخلاً وحدتها الفكرية، ومحيياً فيها نعرات الإقليمية والعرقية والطائفية، والخليون يهدهدون أنفسهم بجنون العظمة الذي خلفه لهم «عنترة» و «عمرو بن كلثوم» و «المتنبي» وما من موقف واقعي جماعي يعرِّف الأمة بواقعها، ويوقف نزيفها، تتبناه «الجامعة العربية» أو مبادرة يطلع بها «مؤتمر قمة طارئ»، فكل دولة لها شأنها الذي يغنيها، ولها مشاكلها الداخلية والخارجية، وثاراتها مع جاراتها، ومصالحها المتعارضة، واحلافها المتناقضة، وأوضاعها التي لا تسمح ولو باللقاء التشاوري، فضلاً عن موقف جماعي، يعيد للأمة شيئاً من هيبتها، ويحولها إلى شريك مؤثر في القرارات والاحداث، وهذه الترديات المؤلمة تذكر بمقولة الشاعر:

ويقضى الأمر حين تغيب تيم
ولا يستأمرون وهم شهود

والأحداث الجسام التي يمر بها العالم كله، وتنفذ فعالياتها على مسرح الدول النامية، لا يمكن أن تمر بدون ثمن باهظ التكاليف. ومن تصور أنه قادر على معايشتها، دون تحرف لنجاة، أو تحيز لتدبير عاقل رشيد، عرضته الفتن العمياء لانهيارات اقتصادية، واختلال أمني، ومع أن احداث الساعة كأهوال الساعة، تذهل فيها كل مرضعة عما ارضعت، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى، وما هم بسكارى، الا أن الإبقاء على رسيس الماء الذي يبل الصدى في اللحظات الحرجة يتطلب التحرك قدر الطاقة، والله لا يكلف نفساً الا وسعها، وتفادي الرياح العواصف بالانحناء المؤقت، حتى تهدأ العاصفة. ولن يتقي الضاحون هوج الأعاصير الا بالاعتصام بحبل الله، وتبادل الآراء مثنى وثلاث ورباع، عبر الرحلات «المكوكية» والتنازلات المعقولة والتعاذر والعفو والصفح، وتناسي كل ما مضى من المآسي، فما عاد الوقت وقت حساب وجزاء، وإن كنا تمنيناه من قبل، لتصفية القضايا أولاً بأول، أما وقد تركت الامور فوضى لا سراة لها، حتى استفحلت، واستعصى الفكاك منها، فلا اقل من العفو عما سلف، واستئناف حياة جديدة، تفعل برفق، ولا تنفعل بصلف، وتساند بصدق ولا تدابر، وتدعم بأريحية ولا تخذل، وتفقه الواقع بوعي ولا تغامر عن جهل.

ولما كان الواقع العربي المنهك، والواقع العالمي المتوتر، والمطامع الغربية الجائرة، والنفوذ الصهيوني المتغلغل، والتخاذل العربي المؤلم، والخوف والترقب بين الشعوب والحكام، والتطرف الفكري المتناقض بين اصولية موغلة بعنف، وعلمانية مندفعة

بوقاحة، لا تمكن من اتخاذ موقف «استراتيجي» ناجز، ولا موقف «تكتيكي» مرحلي، كان لابد من تفكير سليم، وتصرف حكيم، متوفراً على حلم «معاوية» ودهاء «عمرو» اللذين تفاضلا في التصرف الحكيم في وجه الازمات، بحيث قال عمرو: ما دخلت في شيء الا وأحسنت الخروج منه، وقال معاوية: ما دخلت في شيء الا وعرفت من قبل كيف أخرج منه.

والممسكون بأزمة الامور سياسياً وعسكرياً وفكرياً أحوج ما يكونون إلى شعرة معاوية، وإلى ما يحبه الله من الحلم والأناة والتبصر والتدبر والتشاور. فالأمة العربية تعيش حالة من الضعف والهوان والتفكك، لا تستطيع معها اجتياز الوضع بشكل جماعي. ولكيلا تزداد الاوضاع ارتكاساً، فإن على اقطارها ان تتقي الله ما استطاعت، وأن ترضى باليسير، وان تدفع بالتي هي أحسن، لتوفر لنفسها اجواء ملائمة لتصحيح الاخطاء، وتدارك بعض ما فات، وأن ترتد إلى الداخل لإصلاح ذاتها، قبل أن تفكر في إصلاح ذات البين، مطّرحة الخطابات العاطفية، والدعاوى الكاذبة، والتطبيل الزائف، والتصنيم المقيت، مقلصة القول التحريضي، متوسعة بالفعل التوفيقي، وتخدير الشعوب والضحك على الرأي العام. استنفدا كل اقنعتهما، ولم يبق الا تمزيق آخرها، ومواجهة الشعوب بالحقائق المرة، ومناشدتها تقبل قدرها بالصبر والسلوان واحتساب الاجر عند الله، والتفكير الجاد ببدء رحلة العودة، اذ لم يكن هناك بقية من تقيّة، ومواجهة الامة بما هي عليه خير من مخادعتها. واذ تلوح القوى المتغطرسة «بحقوق الانسان» و «حرية المرأة» و «بالاصلاح الدستوري» وبـ «الديموقراطية» و بـ «تغيير المناهج» و بـ«الاعتراف» وبـ«التطبيع» وبـ«محور الشر» وبمقولة: «اذا لم تكن معي فأنت ضدي» وتفسر «الارهاب» و «التطرف » وفق رؤية خاصة فإن على الأمة العربية أن تلتف حول بعضها، لا من أجل المواجهة، فالحرب باهظة التكاليف، كما علمنا وذقنا، ولكن من أجل الحيلولة دون الاختراقات الصهيونية، فلقد تجرعت الأمة العربية الممزقة مرارة التطلعات الصهيونية، التي ما فتئت تؤكد على إذلال العرب نفسياً بعد سحقهم عسكرياً، وإصابتهم بالإحباط الشامل. وعلى الأمة أن تعرف أنها صاحبة حضارة مغايرة، وثقافة مغايرة، وتاريخ مغاير، وأن لكل حضارة ثوابتها ومتغيراتها، وعليها في ظل هذه الظروف أن تعمل في القواسم المشتركة ما أمكنها ذلك، وأن تبادر مشاريعها الإصلاحية وفق ظروفها وإمكانياتها واسلوب ممارستها بالحل الناجز أو المرحلي، بحيث تحول دون تفكك الجبهة الداخلية، تحت ضربات من لا يرعى فيها إلاً ولا ذمة. وفي ظل هذه الظروف المدلهمة، لم يبق للقادة الا الشعوب، فهم الرهان الوحيد، وبدون الجبهة الداخلية لا يمكن تجاوز المرحلة المعقدة، وما لم ينتزع القادة التأييد والثقة تفلتت الأمور، وانفلت العقد، وانغمست الأمة في حمامات الدم، وهي الفرصة الذهبية التي ترقبها الصهيونية العالمية، ويتطلع إليها اعداء الشعوب، وما العمليات الإرهابية الغنوصية التي لا تُعرف اهدافها الا بوادر نجاح للمؤامرة الكبرى، لنسف الأمن والاستقرار الذي تنعم به بعض الشعوب العربية.

وواجب الشعوب المستهدفة أن تعي خطورة المغامرة والأثر السيئ لاختلال الأمن والموت الزؤوم من جراء الفراغ الدستوري، وما أحكم واعلم رسول الهداية حين ندب إلى قتل من يأتي إلى الامة وأمرها على رجل منها، والفتنة اشد من القتل.

إن على الشعوب أن تحمي الثغور، وأن تقطع دابر الخلافات الداخلية، وأن تضع يدها في يد قادتها، تمحضهم النصح، وتبصرهم في الأمور، تحمي ساقتهم، وترود لهم، لا تكذبهم، ولا تخفي عنهم الحقيقة، فالزمن رديء لا يحتمل أي هزة، فكل شيء يترنح، ولكل شيء قاب قوسين أو أدنى من الفتن العمياء، وعليها أن تصلح نفسها، وأن تصنع

إنسانها، وأن تستثمر خيراتها، وأن تتقي الظلم ومنازعة الأقوياء حقهم، وعلى الحكومات أن ترفع الظلم عن شعوبها، فالله الذي حرم الظلم على نفسه، وجعله بين الناس محرماً، لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وهو قد اقسم بعزته وجلاله على نصر المظلوم ولو بعد حين، والدول التي تظلم من دونها والحكام الذين يظلمون شعوبهم على موعد مع اخذ الله الأليم الشديد. ولأن العالم العربي يمر من عنق الزجاجة، واللعب الكونية قد فعلت فعلها في تفرق الكلمة، وتشتت الآراء، وانفراد كل قطر باتخاذ القرارات المصيرية، دون تنسيق، ودون استشارة، ودون استخارة، فإن الوقت عصيب والوضع رهيب، وعلى الحكام مراجعة القرارات، وعلى الشعوب الركون إلى الهدوء، فما عاد الوضع قادراً على احتمال مزيد من الاختلاف والتمزق.

أيها السرديون .. أربعوا على أنفسكم ..![(١)]

عندما بادر «نادي القصيم الادبي»، ونفذ على هامش «مؤتمر رؤساء الاندية السابع عشر» الذي استضافه ندوة عن «الرواية بوصفها الأكثر حضوراً»، ووجهت تلك المبادرة بطائفة من المتحفظين والساخرين، دونما اي مبرر، ولما لم نكن مكترثين من مثل هذا الكلام المجاني وغير المسؤول، فقد مضينا في سبيلنا، تاركين الرد للمشاركين في الندوة من ادباء ونقاد و«أكاديميين» وإن كنا غير متفائلين من استجابة المتحاملين وقبولهم للبراهين، وإذ نفذت الندوة، وطبعت اعمالها، فإنه لم يمتعض مثيرو اللغط، ولم يراجعوا انفسهم، لأن تصدياتهم جاءت للتخذيل والاحباط، ولم تكن نشداناً للحق، وعتبنا ان كنا من المعتبين على النقاد المتمكنين، الذين سايروا مثل هؤلاء، أو صمتوا إيثاراً للسلامة، والحق أحق ان يتبع، واذ لم يكن من الكياسة ترك الامور يحكم بها الذين لا يعلمون، كان لابد من تعليم الجاهلين، وتنبيه الغافلين، ممن لم يدركوا مبلغهم من الفن السردي خاصة، وممن لم يعرفوا نصيبهم من مواهبه، والمشهد أي مشهد بحاجة إلى سرات يضبطون إيقاعه، ويأخذون على أيدي مهتاجيه، والمتابع لفيوض الكتابات السردية، وما يكتنفها من تنظير أو تطبيق نقديين، يدرك أن هناك فوضى مستحكمة ومغالطات مخلة، وانه من الضروري مواجهة الواقع، وإن كان مراً، دون النظر إلى من قال: ما ترك قول الحق لي صديقاً، فمن آتاه الله المال طالبه بالزكاة والصدقة والتمتع، ومن شرفه الله بالعلم ألزمه كلمة الحق والصدق والتقوى، والذين يدَّعون الإبداع وليسوا بمبدعين، والمواطئون لهم من ادعياء النقد، لاتقتصر إساءتهم على انفسهم، وإنما يصيبون المشهد، ويدينون المرحلة، ويزاحمون المبدعين الموهوبين والنقاد المتمكنين.

ومن المسلمات التي يجب الا تغيب عن كل مشتغل بالسرديات أن الفن أنواع: قول وفعل، شكل وصوت، آلية ومادة، طرائق اداء وشروط فعل، ضوابط فنية ودلالية، حرية وانضباط، مواصفات مستقاة من النماذج الاولى، التي هدي اليها المبدع الاول بفطرته، لا بتعلمه، والتي جعلت الشعر شعراً، والسرد سرداً، وفرقت بين المثل والحكمة والخطبة، دونما تدخل مسبق، أو توجيه واع، والفن موهبة قبل كل شيء، لا يؤتاه أي مندفع لجوج، ولا ينتزعه من مستحقه اي ناقد لدود، وحين نقول بذلك، فإنما نريد التفريق بين المهنة المكتسبة، والموهبة الملهمة، ومع هذا فقد يمارس المقتدر غير الموهوب اي نوع من انواع الفنون، فيكون اداؤه كالصناعة التقليدية، تخدع النظر، ولكنها لا تفوت على الخبير، وقد يتسرع الموهوب رصد التجربة قبل النضوج، فيجد من ينسيه قدره، فيتوقف حيث ابتدأ، وقد فعلها غير ناقد، والموهبة الملهمة بإذن ربها، لاتضطلع وحدها بعملية الابداع، ولا بتألقه. وحين نقول: إن الفن إبداع، والابداع وليد موهبة، فإننا نستحضر روافدها المتمثلة ب«الثقافة، والدربة، والموقف، والحرية المنضبطة، ونضوج الفكرة، والاجواء الملائمة، ومتى تخلف شيء من تلك العناصر، انعكس أثرها على الإبداع، وقد يؤدي ذلك إلى تعثر المبدع، وفتح ثغرات عليه، قد تصل بالنقاد إلى نفي الشاعرية أو السردية عنه.

ف«المتنبي» مثلاً مبدع، موهوب، عميق الثقافة، وله مواقفه الضاغطة، التي فجرت شاعريته، ولكن رديء شعره ينازع جيده، وحين نتفق على ذلك، نتساءل: لماذا أنتج شعراً رديئاً، وآخر في غاية الجودة والإبهار؟ أليس ذلك دليل تخلف عنصر من عناصر العملية الابداعية؟ قد يكون افتعال الموقف سبباً من اسباب الإخفاق، نجد ذلك في مدائحه ل«كافور» إذ لم يكن مثله الأعلى، ولم يكن مقتنعاً بما يقوله فيه، كان مثله الأعلى «سيف

---

(١) تاريخ المقال: ٢/ ٩/ ٢٠٠٣

الدولـة»، ولكـن الأجـواء لـم تكـن ملائمـة لـه، ومـن ثـم خـرج مغاضبـاً، وقـال قولتـه التـي أصبحت مثلاً، وأصبح الجيل بعد الجيل يرويها:

إذا ترحلــــت عـــن قـــوم وقـــد قـــدروا

ألا تفـــــــارقهم فـــــــالراحلون هـــــــم

قيل عن «المتنبي» وعن سيرورة شعره «إنه يجمجم عما في نفوس الناس» والحق ان «المتنبـي» إنسـان لـه تجاربـه، التـي نسلت منهـا قصـائده، وكـل شـعر يـرتبط بتجربـة انسانية، يكتب لـه الخلود والسيرورة، والاعمـال السـردية قد تتوفر لهـا التجـارب الحيـة، فتكـون بهـذا أكثـر سـيرورة، وبخاصـة ان كثيـراً مـن الاعمـال الروائيـة تمثـل سـيراً ذاتيـة، وأبطالها في الغالب كتابها.

وما يقال بحق الابداع الشعري، يقال مثله عن الابداع السردي، ومتـى تيسـر الوقـوف علـى فنيـة الابـداع الشـعري، صـعب الوقـوف علـى فنيـة الابـداع السـردي، لوضـوح معـالم الشـعر، وخفـاء معـالم السـرد، وان حـدد النقـاد طائفـة مـن الفنيـات بـالقول عـن اركـان الفـن الروائي ومحققاته، مـن: حـدث، وحبكـة، وشخصـيات، وزمـان، ومكـان، وحركـة، وعقـدة، وتـأزيم، وحكايـة، وحـوار، وسـياق، ومناجـاة، ونـص، وتيـار وعـي، وتبئيـر، وغيرهـا، ليضـعوا الضـوابط والسـمات والفـوارق التـي لـم يسـتبطنها المتعمِّلـون، وخلوصـاً مـن تلـك الاشـكالية، أصـبحت اللغـة محكـاً رئيسـاً، وهـو مـالم يتـوفر عليـه الأدعيـاء، الـذين يـؤذون حراس الفن والفضيلة.

وفـي ظـل الخلـط والجهـل جـاء الحـديث عـن «الشـعرية» و«الأدبيـة» شـعرية اللغـة الشعرية، وأدبية اللغة السردية، ومثلما حاول النقاد تحديد مفهوم «الشعرية» حاول آخرون تحديد مفهوم «الأدبية»، والسرديون الذين لايحترمون اركان الفن السردي وشروطه، ولا يسيطرون علـى اللغـة الشـاعرة بطبيعتهـا، بحيث لايتـوفرون علـى ثـراء لغـوي، ولا علـى تجويد لنظامها المتمثل بالنحو والصرف، ولا يمرون بموقف ضاغط، ولا يتناولون قضية مهمة، ثم يقترفون ما هم مقترفون من كلام متسطح هابط، يشي بالجهل والضـعف، هـؤلاء حين يتخلصون مما في بطونهم من غثاء وعناء، ينحون باللائمة على النقاد الذين يجتنبون كثيراً من آثامهم، وكان الجدير بهم ان يعرفوا ماهم عليه من ضعف، وماهم فيه من بؤس، ليكفوا عن ملاحاة النقاد، ومؤاخذتهم على ما يتصورونه تقصيراً في حق مايسمونه ابداعاً سردياً، وما هو الا لغو ممل، وكلام رديء مخل، ذلك انه لايشتمل علـى اي صـفة إبداعيـة، ولا علـى اي ميـزة لغويـة، ولا عبـرة بالمبـدعين حقـاً، ممـن اسـتكملوا العـدة والعتـاد، ولمـا يزالوا واعدين، وهم الذين تدل محـاولاتهم علـى موهبـة وموقـف واقتـدار، ولكنهـا مغمـورة بغثائيات تعلـو كمـا القتـام، حاجبـة الرؤيـة السـليمة، ومثـل هـذا الكـلام، لايعـد مـن الادب فـي شيء، وإن سماه ذووه والمواطئون لهم قصة أو رواية ذلك أن الابـداع القـولي يختلـف عـن سائر الاقاويل، ومن تصـور أن مجـرد الكـلام إبـداع، فقـد أضـاع جهـده، وامتـدت جنايتـه إلـى جهـد الآخرين ليضيعه، ومثلما ان المشهد الابداعي مليء بالادعياء المتعملقين فـإن المشـهد النقدي مليء بالمتقولين المغررين، الذين لايتقنون مهمات الناقد، ولا يتوفرون علـى ثقافتـه، ولا يحسـنون تـذوق الفنـون، ومـع ذلـك يكرسـون الـوهم، ويصـفون القـول العـادي بالابـداع، وليس باستطاعة المقتدرين الناصحين الذين يبخعون انفسهم على آثار المنحرفين عن جادة الفن ان يواجهوا المشهد بنقاده المجاملين وكتابه المقوين، ويكفي مثل هؤلاء نكالاً، ان من خدع بهم، ثم اقترب منهم، ترحل عنهم، كما التائب النادم العازم على عدم العودة ..

ومما فات اولئك وخسـروا بفواتـه الشـيء الكثيـر، ان الـنص الابـداعي القـولي معتمـده علـى اللغـة الادبيـة، اللغـة المثاليـة المتعاليـة، واللغـة: مـادة ونظـام وصـياغة، حقيقـة ومجـاز،

إيجاز ورمز، صورة واسطورة، شيوع وغرابة، عمق وتسطح، تقنع وسفور، كلمة وجملة، عبارة واسلوب، جرس وايقاع، والذين يتعاملون من خلالها، ولا يكونون متضلعين منها، متمكنين من السيطرة عليها، مميزين بين لغة الفن ولغة العلم وحديث المجالس، هؤلاء جميعهم ليسوا مبدعين، وان اطبق الناس على التغرير بهم، واذا لم تشدك اللغة في خيالها ومجازها وايجازها وصورها وغرابة مفرداتها وطرافة صياغتها وانزياحها ومراوغتها ومخاتلتها وفضائلها اصبحت القراءة مضيعة للوقت والجهد، فالقارئ الذي ألف عيون الشعر، وشوارد الابداع كقاصد البحر، ومن قصد البحر استقل السواقيا، وعلى مثل هولاء ان يعذروا العازمين الذين لايجدون ما يغري بالقراءة فضلاً عن النقد.

والقارئ المتذوق الواعي لجماليات اللغة، وأركان الفن، حين لا يعيبه التركيب، ولا تتمنع عليه الدلالة، ولا تشده براعة الصياغة، ولا يحس بجرس ولا إيقاع، ولا يصيخ لإيحاء، ولا يجد حصافة ولا رصانة ولا قضية يحس بخيبة أمل، والذين لا يفرقون بين القول المتداول والقول الابداعي، كمن لا يفرقون بين ضجيج المصانع وانغام الموسيقى، ولا بين المشي والرقص، واذ قيل: الشعراء أربعة: منهم من لاتجد بداً من ان تصفعه، فليس هناك مايمنع من ان تضرب المئات من ادعياء السرديات على ادبارهم، لتطردهم من مشاهد الفن.

والذين يكتبون كيفما اتفق، ويدفعون به إلى المطابع، ثم ينقمون على النقاد الذين يمرون بهم مر الكرام، يقترفون خطيئتين: خطيئة الغرور، وخطيئة القصور، وإشكالية الابداع السردي انه سهل المرتقى، ومن ثم يتهافت عليه الموهوب والمقتدر والخلي من السمتين، وقد يجد الفارغون من يخدعهم بأنفسهم، وينسيهم ما هم عليه من ضعف وضحالة، وقد يعمد الفارغون من سائر القيم إلى المخالفة في اللغة والفن والاخلاق، ليكونوا حديث المشاهد، ومتى سمعوا كلمة الحق، لم يترددوا في إحالتها إلى الوصاية والمزايدة والتسلط، معولين على حرية التفكير والتعبير.

ولو ان النقاد احترموا المصداقية، وتوفروا على آلية النقد ومنهجيته، وتمكنوا من ثقافة الناقد، وعرفوا وظيفته، واعتزوا بما هم عليه من معرفة وتذوق، لكانوا أبعد الناس عن المداراة والتغرير.

والكتبة المتزببون في زمن التحصرم، يدَّعون التجريب، والتجريب له ضوابطه وامكانياته ودواعيه، وكيف يتأتى التجريب لكاتب لم يقدم وثيقة التألق عبر عمل متميز، يدل على اقتداره، التجريب محاولة للتجاوز، وليس تحرفاً للانتكاس على الاعقاب، وكيف تؤمل من مخرب يدعي التجريب، وهو يدفع بنص ممتلئ بالاخطاء النحوية والصرفية واللغوية والإملائية والتركيبية مسف في الدلالة دان من العامية، لا ينبض بشيء من سمات الفن، ولا بمؤشرات الجمال، فضلاً عن جهله بلغة الفن، وسمات الأنواع الابداعية.

التجريب لا يتأتى إلا لمن فسقت امكانياتهم على سمات الأنموذج، ذلك أنه رقم قياسي، والمجرب الحق من يقدم على تحطيمه باقتدار وتفوق، بمعنى ان يأتي بنص افضل مما سلف ليكون مثار إعجاب النقاد المتذوقين واكبارهم، نقول هذا القول بحق من يخفقون في البناء اللغوي والشكل الفني، اما من يخفقون في البعد الموضوعي، فحدث ولا حرج، وجنايات بعض الروائيين الاخلاقية والفكرية لا تحتمل، والمشاهد الثقافية تعيش حالة سيئة من هذه الفئات التي ايقظت العداوات والمناكفات، وفرقت بين الأخ وأخيه.

والمتابع لفيوض الإبداعات السردية: محلياً وعربياً، يقف على تجاوزات دلالية، لا قبل للعامة باحتمالها، فضلاً عن الخاصة، ذلك انها تغثي النفوس باسم حرية التعبير، وأدب الاعتراف، وبخاصة في السير الذاتية، ولقد اتيحت لي فرصة التحكيم في بعض

الاعمال السردية، وفرص المناقشة لبعض الرسائل العلمية، فكان ان وقفت على تجاوزات لاتحتمل، وقلَّ ان تجد من يفرق بين الحرية المنضبطة، ومهاوي العهر والكفر، واذا وهنت الأعمال بالاخفاقات البنائية والشكلية والدلالية، ثم شايعها من يعملق تقزمها، ضاع الفن، وتلوثت أجواؤه.

وتلك لعمر الله ردة فنية ولا رجلاً رشيداً لها، اننا بحاجة إلى من يصدع بالحق، فيقول للمحسن أحسنت، وللمسيء أسأت، ولا كرامة، لقد سيئت وجوه الفنون السردية بتقحمات فجة، تمردت على ضوابط الفن واللغة والأخلاق، ووجد المتقحمون من يحمي ساقتهم، ويرود لهم مهاوي الرذيلة، وحين تناول المنتدون «الرواية بوصفها الأكثر حضوراً»، اخذوها من زوايا متعددة، وقدموا رؤى متباينة، نعرف انها خليط من الجليد والأجود والرديء والأردى، ولكنها لا تصادم ذوقاً، ولا تنسف ثابتاً.

وعلينا في ظل هذه الترديات الفنية واللغوية والدلالية ان نضع ضابطاً، يبقي على الحد الأدنى من سائر القيم، ومهمة «الصفحات الأدبية» و«الأندية الأدبية» و«الأقسام الأدبية» في الجامعات ليست في الترويج للرديء والساقط، وانما مهمتها في تلافي النقص، وتسديد القول، وكشف الزيف، ومناصحة المواطنين لرديء الكلام، وساقط الفن.

وضوابط الفن، وسمات اللغة، وحدود الحرية، والحق، مستفيضة في الكتب والمعاجم والموسوعات، ومن الفوضى الا يحتكم المختلفون إلى مرجعية مستقرة في الصدر أو مجموعة في القمطر، مما أجمع عليه اهل الفن المؤصلون لمعارفهم، ومن ضاق ذرعاً بالمعيارية والعلمية، فلا أقلَّته ارض، ولا أظلته سماء، ومن تبرم من رد المسائل إلى اهلها فهو دعي ضرره أكبر من نفعه، فحسبه أن يلجم فمه، ويرفع قلمه، فالحياة نظام، والنظام حد، والحرية انضباط، والفن موهبة، ومن رغب عن ذلك، فليس جديراً بأن يفسح له في مجالس العلم والأدب.

اتقاء الفتنة أو ابتغاء الخلوص منها .. ؟[1]

ليس غريباً أن يقع الناس في تنّور الفتن المسجور، والرسول ﷺ يقول: «**كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها**» وما عصم منها صفوة الصفوة من أصحاب رسول الله ﷺ، رضوان الله عليهم، قال ﷺ: «**أنا على حوضي أنتظر من يرد علي، فيؤخذ بناس من دوني، فأقول: أمتي، فيقال: لا تدري مشوا على القهقرى**». هذا على مستوى الأمة. ولهذا استعاذ ابن أبي مليكة من أن يرجع على عقبيه أو يفتن. أما على مستوى أصحاب رسول الله ﷺ فقد قال: «**حتى إذا أهويت لأناولهم اختلجوا دوني، فأقول: أي رب أصحابي، يقول: لا تدري ما أحدثوا بعدك**» وفي حديث آخر: «**يرد علي أقوام أعرفهم، ويعرفونني ثم يحال بيني وبينهم**». والله قد سأل سؤالاً استنكارياً لمستبعدي الفتنة ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾ والناس كلهم أجمعون معرضون لنكسات في الدين أو في الدنيا، وفي الدعاء المأثور: «**ولا تجعل مصيبتنا في ديننا**» هذه النكسات تشكل دركات، إذ الفتنة في القرآن على ثلاثة عشر معنى، قد تزيد بمترادفاتها، وبينها وبين «الابتلاء» عموم وخصوص، والفيصل في كل ذلك السياق النصي أو الأثر النقلي. ولقد استبعد الصحابة أن يكون ما أخبرهم به رسول الله ﷺ من الفتن واقعاً في حياتهم حتى رأوها. وكيف لا تكون، وقلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن، يقلبها كيف يشاء، ومن الدعاء المأثور: «**يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلوبنا على دينك**». والفتنة لا تؤمن على أحد. قيل عن الإمام «أحمد بن حنبل»، وهو الصابر المحتسب الصادع بالحق الوقاف عند الحدود، المتعرض لفتنة «خلق القرآن» والممتحن فيها: أنه لما كان في سكرات الموت، كان يردد «بعد .. بعد» فلما سئل، قال: يأتيني الشيطان، ويقول: فُتَّني يا أحيمد. فأقول: بعد .. بعد. ولقد سمعت أن العلامة «ابن باز» رحمه الله لا يرغب تسجيل سيرته في حياته، ويطلب إرجاء ذلك حتى يموت، ولما سئل عن ذلك قال: إن الحي لا تؤمن عليه الفتنة.

والسعيد السعيد من يدركه الموت، وهو ثابت على شهادة التوحيد، متخلص من حقوق العبيد، متق للفتن، ملازم لجماعة المسلمين. وأنى لمؤثري السلامة النجاة، والفتن تعصف كالريح العقيم، تجتال الجميع، ولا تصيب الذين ظلموا خاصة.

وليس بغريب - والحالة تلك - أن يفتتن الناس بالظاهر منها والباطن، يكثر القتل، ويختل الأمن، وتنتهك الحرمات، وتتفرق بالناس الولاءات، وتتعدد المرجعيات، حتى يغبط الأحياء الأموات، وفي الحديث: «**لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه**»، ولذلك أسباب كثيرة، وقد أومأ المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى إلى الأهم منها، فقال: «**بنزول الجهل ورفع العلم**» وذلك ما نعيشه ونشاهده في كثير من الأوساط. شباب مهتاجون تخطفوا الآيات والأحاديث، دونما إحاطة بها، أو فهم لما فيها، أداروا عليها أحكاماً سياسية، تطال العامة والخاصة، وبرروا بها أعمالاً تقع في صميم الفكر السياسي، بكل حساسيته وخطورته، وسوغوا بها الخروج على جماعة المسلمين، وهم جهلة بضوابط الاجتهاد والاستنباط والفتيا وشروطها، من معرفة بالعموم والخصوص، والناسخ والمنسوخ، والقطع والاحتمال، والتقدم والتأخر، واختلاف التنوع والتضاد، وقواعد الفقهاء، وضوابط الأصوليين، والمفاهيم والمقاصد، وفقه الأحكام وفقه الواقع، مع فقد العمق والشمول والتجارب وآليات اللغة وفقهها.

---

(١) تاريخ المقال: ٩/ ٩/ ٢٠٠٣

ومـا أضـل النـاس إلا دعـاة السـوء الـذين يشـرعنون للمنكـر، ويشـيعون الرذيلـة، ويحرضـون العامـة علـى التمـرد، لا يحترمـون العلمـاء، ولا يهـابون السـلطة، وإذا قيل لأحدهم: اتق الله أخذته العزة بالإثم، يمارسون التضليل والفوضى باسم الحرية والحقوق، يستأثرون بهـا، ويصـادرون حق الغير، ومن ثم يكفرون الأشخاص والطوائف، لمجرد المخالفة في الرأي، وهذا فيما أرى هو رفع العلم ونزول الجهل، والعامة غنيمة باردة لمن سبق، يحسنون الظن، ويصدقون الكذبة، ويزكون المزيفين. ومن الصعوبة بمكان تصحيح المفاهيم الخاطئة بعد رسوخها، وظاهرة «غسل المخ» خير مثال على ذلك، فكم من شاب أقدم على اغتيال أو تفجير، قتل فيه نفسه ومن حوله، دون أي مسوغ شرعي.

ولقد أشار المصطفى ﷺ في حديث صحيح إلى أن هلكة أمته على يد «**أغيلمة من قريش**»، والمقصود هنا كلمة «أغيلمة» جمع مصغر لغلام، فهو قد جمع سبتين: تصغير الكلمة والسن. والشباب مظنة الافتتان، وما سيئت مشاهدنا إلا من أغيلمة تطيش سهامها، كما طاشت يد الغلام في الصحفة، فكان أن وجد من يرشده: «**سمِّ الله يا غلام وكل مما يليك وكل بيمينك**» والرسول الذي لا ينطق عن الهوى، يعرف ماذا ستلاقي أمته، ولهذا أوصى بالصبر قائلاً: «**إنه لا يأتي عليكم زمان إلا الذي بعده شر منه**» وها نحن نشاهد ذلك حياً على الهواء، فـ«العراق» الذي تجرع الأمرين في العهد البائد، حيث سيم الخسف: تقتيلاً وتشريداً وإذلالاً وعوزاً، خرج من ظلم ذوي القربى إلى احتلال معلن، لم يخلف إلا فوضى مستحكمة، وانفلاتاً أمنياً مخيفاً، وفراغاً دستورياً مفجعاً، وإيقاظاً لخلايا نائمة، تنذر بـ«أفغنة» أو «لبننة» أو «صوملة» أو «سودنة» وقودها الناس والأموال والثمرات، ونتائجها الجوع والخوف والنقص في كل وجوه الحياة. ويكفي أن نستعيد تفجير «النجف» لنعرف لغة الفراغ الدستوري، وأم المصائب اختلاف النخب حول بدهيات لا تحتمل الاختلاف، ووقوع الكافة في تناحر باللسان والسنان.

والموقف يزداد تعقيداً حين يأتي الإرهاب باسم الإسلام، مستهدفاً المسلمين الآمنين، والرسول ﷺ يقول: «**من حمل علينا السلاح فليس منا**» بل يزيد في أهمية حرمة المسلم، وتوفير الأمن له بمنع الإشارة بالسلاح، فلقد قال: «**لا يشير أحدكم على أخيه بالسلاح**»، وكيف يستسيغ مسلم ترويع أخيه فضلاً عن قتله، والرسول ﷺ يقول: «**سباب المسلم فسوق وقتاله كفر**» وهو قد نهى أمته عن الرجوع إلى الكفر بعد الإيمان قائلاً: «**لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض**» وفي خطبته التي بلغ بها أمر الله، وأشهده على الإبلاغ، وأشهد الناس على أنفسهم، قال فيها: «**فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم وأبشاركم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا**»، وخطورة الفتن التي تجتاح الأمة ليست في الوقوعات، ولكنها في المفاهيم. فالذين يقبلون على الانتحار أو التفجير، ويقتلون أنفسهم، ويقتلون المعصومين والمستأمنين، ويهلكون الحرث والنسل، لم يفعلوا ذلك من أجل مكتسبات دنيوية، ولا من أجل تعارض المصالح، وإن كان وراء ما يفعلونه أطماع، ألبسها المهندسون للعب لبوس الدين، فانجر إليها من لم يكتو بمكر الماكرين. هؤلاء الانتحاريون لديهم إيمان راسخ بمشروعية فعلهم، فمن يقتل نفسه، ويقتل الآخرين، لا يمارس ذلك من أجل عرض الحياة الدنيا، ومثل هذه العقيدة المنحرفة، لا يمكن حسمها على يد رجال الأمن والمباحث، ولا بحد الحرابة من قتل أو صلب أو قطع أو نفي، إنها بحاجة إلى مواجهة بالكلمة الطيبة والقول السديد، ينهض بهما العالم والمعلم والواعظ والخطيب والمفكر والمبدع.

فالمواجهة القادمة ليست بالسنان، وإنما هي باللسان، وليست حصراً على رجال الأمن، بل أكاد أجزم بأن الدور الأهم لرجل الفكر والقلم واللسان. إننا حين لا نجد ملجأ ولا مغارات نحتمي فيها من الفتن فان علينا أن نحسن التعامل معها، والخلوص منها،

بأسرع وقت، وأقل خسارة، فلقد أصابت قوماً فخرجوا منها سالمين، واستدرجت آخرين فأردتهم، وسلبت ما أفاء الله به عليهم من مال وقوة مادية ومعنوية، وخلفت فيهم الفرقة والعداوة والبغضاء والتنازع إلى يوم يلقونه، ولقد واجه الرسول ﷺ الفتن باللين تارة، وبالقوة تارة أخرى، وترك لليهود والمنافقين أكثر من فرصة، وأحسن التعامل مع من فاء منهم، وما كفر من فعل الكفر، وما قيد فعل المخالف بموقف واحد، فعل ذلك مع «ابن أُبيّ» و«حاطب بن بلتعة» وما استجاب لمن هم بقتل المخالف، مخافة أن يقال: محمد يقتل أصحابه، والفتنة لازمة، والأمة تخرج من فتنة إلى أخرى، ولكل فتنة موقف، وفي حديث حذيفة التساؤلي عن تتابع الفتن: «فهل بعد الخير من شر؟ قال: نعم، دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه بها»، ونحن نعيش زمن الدعاة المضلين، وهذا يتطلب تحرفاً دعوياً، تكون فيه الكلمة سيدة الموقف، والشاهد في ذلك سؤال حذيفة لرسول الله ﷺ: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: «**تلزم جماعة المسلمين وإمامهم**»، وحذيفة رضي الله عنه يمعن في السؤال، حيث استطرد قائلاً: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: «**فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك**».

والبلاد الإسلامية قد تمر بحالات مماثلة، بحيث لا يكون جماعة ولا إمام. ومن ثم كان التوجيه على كل الأحوال: التوجيه بالمحافظة على الأمن واجتماع الكلمة، والتوجيه إذا جاء المسلمين خارجٌ على السلطة الشرعية، وكلمتهم على رجل منهم، والتوجيه حين تكون الفتن مع وجود الجماعة والإمامة، والتوجيه حين لا تكون جماعة ولا إمامة. وأجزم ان العالم العربي يعيش الحالات كلها، فهناك أمن واستقرار، وهناك فتن عمياء مع وجود جماعة وإمام، وهناك حالة من الفراغ الدستوري الذي لا يكون فيه جماعة ولا إمام. والرسول ﷺ قد وجه أمته في كل الحالات، وأعطاها من الوصايا ما يمكنها من التعامل الحسن مع الفتن، ومع بوادرها. والذين يتصورون الحرب حلاً وخياراً وحيداً ولا يفكرون في تحرف أو تحيز أو دفع بالتي هي أحسن يداوون الأوضاع بالداء العضال، على حد: «وداوني بالتي كانت هي الداء» ولقد استشهد «البخاري» في صحيحه عند حديثه عن الفتن التي تموج كموج البحر بأبيات لأمرىء القيس:

الحرب أول ما تكون فتية
تسعى بزينتها لكل جهول

حتى إذا اشتعلت وشبَّ ضِرامُها
ولَّت عجوزاً غيرَ ذات حليل

شمطاءَ يُنكرُ لونُها وتغيرت
مكروهة للشم والتقبيل

وفي رواية الحميدي: «شمطاء جزت شعرها» واختيار الحرب يوقع الأقوياء في المستنقعات، ويضطرهم إلى التماس المخارج، وإعطاء التنازلات، وها هي قوى التحالف أحسنت هندسة الحرب، ولم تحسن هندسة ما بعدها، والحرب حين تقوم تنقلب الأوضاع رأساً على عقب.

وإذا لم يكن من الموت بدٌّ
فمن العار ان تموت جباناً

ولقد تداول الصحابة بحضرة «عمر» رضي الله عنه ما أثر عن الرسول في شأن الفتنة فقيل: بأن هناك فتناً تكفرها الصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي الابتلاء والامتحان بالنعم أو بالنقم، كفتنة الرجل في أهله وماله وولده وجاره، أما التي تموج كموج البحر فهي فتن الاعتقاد والولاء والبراء وتفرق الكلمة، والتقاء المسلمين بسيفيهما، والخروج على السلطان الذي لم يحدث كفراً بواحاً فيه من الله دليل. ولقد أومأ الصحابة إلى «كسر الباب» إيذانا بقيام الفتنة إلى قيام الساعة، وجعلوه قتل «عمر» وهو قائم يصلي على يد غلام المغيرة بن شعبة. والقارىء للتاريخ القديم تؤلمه مبادرة الفتن، وما حصل بين الصحابة، وما نجم عن ذلك من فرق ضالة شرعت لقومها من الدين ما لم يأذن به الله، وليست قراءة التاريخ الحديث بأقل إيلاماً، والناصح لأمته المهتم بأمرها يعتصر قلبه ما تعانيه أمته من ويلات دمرت الاقتصاد، وعطلت المشاريع، وأخلت بالأمن، وأشاعت الفوضى، وأحبطت النفوس، وأذلت الأحرار، ودنست الحرائر وأخرجت الناس من ديارهم. ولست أعرف أقسى على الإنسان من أن يهاجر مكرهاً من وطنه، ليعيش غريب الوجه واليد واللسان والعقيدة، ولقد استعظم القرآن الكريم الإخراج من الديار، وعده من أكبر الجنايات، وجعله مسوغاً للمقاومة، وأخذ الميثاق على بني اسرائيل بعدم سفك الدماء والإخراج من الديار واستنكر المخالفة ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ وجاءت آيات كثيرة تستعظم ذلك، مما يؤكد حق المواطنة، وأهمية الوطن، ومشروعية حبه والدفاع عنه، والموت في سبيل ذلك، فهو من الضرورات الخمس أو الست التي يتداولها العلماء، ومن مات وهو يدافع عنها مات شهيداً، والفتن القائمة تمخضت عن ملايين المقتولين والمسجونين والفارين من ديارهم. وعلينا وقد أصابنا دَخَنُ ذلك ألا ندع الدخان يتحول إلى ضرام، فليس بيننا وبين الله نسب، وما أوجب على نفسه النصر إلا لمن نصر دينه وامتثل أمره، والذين شردوا من ديارهم، وقتلوا، وسلبوا أموالهم وحرياتهم أناس مثلنا، ومن الخير لنا أن نتعظ بهم، وأن نسعى جهدنا لإتقاء الفتن، فإن نفذ شيء من فلولها فلا أقل من أن نطوق ذلك في أضيق نطاق، ولن يتحقق النصر إلا بمبادرة النصح لله ولرسوله ولائمة المسلمين وعامتهم، والدعوة على بصيرة، وأول خطوة نخطوها الفرار إلى الله، والدخول في الدين كافة، فالدين عصمة أمرنا، والقلم واللسان في هذه الظروف أولى من السيف والسنان، إن على علماء الأمة ومفكريها وأهل الحل والعقد فيها، أن يلتقوا على كتاب الله وسنة نبيه، لا يتخذون أهواءهم آلهة، ولا آباءهم قدوة، وقد تركوا على المحجة البيضاء، التي لا يزيغ عنها إلا هالك، ومن رضي بالإسلام عقيدة ومنهج حياة، فليتفقه في الدين، لينذر قومه، وما تسلط أراذل الناس على أمة الإسلام إلا بسبب البعد عن سواء السبيل، فهل نشخص الداء، ونصف الدواء، ونجرب العودة النصوح إلى الدين الخالص.

من أرهق الأمة صعوداً: الثوريون أم المصلحون .. ؟ (٢) (١)

وليست الخطورة في الاطلاقات الطائشة، ولا في الاجترار الأبله للقيل والقال وكثرة السؤال، وإنما هي في تقبل الشارع العربي للمغالطات، وتأثره بالشائعات، وخنوعه وخضوعه للعابثين بذاكرته. وقد تكون الخطورة في لزومه للصمت مغلباً جانب السلامة بالجنوح إلى اللامبالاة باسم الحياد الإيجابي، وكأن الأمر لايعنيه. وسكوته نوع من أنواع السكوت عن الحق، وفي الحديث: - (الساكت عن الحق شيطان أخرس). والأَمَرُّ والأنكى أن تلتزم المؤسسات العربية الرسمية الحياد السلبي أمام المقترفات القولية والفعلية، أو أن يكون موقفها متخاذلاً مقموعاً. والعبث بسمعة الأمة ومقدراتها طوال الخمسين سنة الماضية، ووضعها بين الحين والآخر في مواقف حرجة أمام الرأي العام العالمي، كل ذلك يطال سيئه المستهمين على سفينة الحياة، ولا يقتصر أذاه على طرف واحد، وذلك شأن الفتن فيمن تصيب، واستعداء الدول الباغية أو مواطأتها يعيد قصة المثل: - (أكلت يوم أكل الثور الأبيض). والأمة في ظل هذه الترديات ملزمة بمواجهة قدرها، مجتمعة لا متفرقة، مكاشفة نفسها، متعظة لا شامتة، متخلية عن الحلول التسكينية، متحامية القفزات البهلوانية. فما تراكم عبر عشرات السنين لا يمكن حسمه بجرة قلم، وفي ظل هذه الظروف لابد من عقلنة التصرف ومرحلة الحلول، والنظر إلى الفساد المتعدد: السياسي والإداري والاقتصادي.

إن المسكنات الإرجائية لا تقيل عثرة، ولا تصحح مساراً، ولا تنهي تدهوراً، وعلى الدول العربية المسؤولة أمام الرأي العام العربي، والتي تملك أعماقاً متعددة أن تكاشف الشارع العربي، فالوضع لايتطلب مزيداً من المجاملات، وإن كان من الخير نسيان الماضي، واستئناف حياة جديدة، ولكن بعد أن يعرف المقترفون ما اقترفوا. الواقع العربي يتطلب هزة عنيفة، تهمش الضعفاء، وتعرفهم قدرهم، وتوقظ النائمين، وتذهب الغشاوة عن العيون، وتزيل الوقر عن الآذان. وألم ساعة يحسم الشر خير من تخدير عام يبقي عليه. ومواجهة الخطاب الإعلامي المسف، سواء صدر من مأجورين أو مناوئين أو موتورين بمثل تعدياته مجاراة في الخلق الدنيء. وإذا كان الله لا يحب الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم فإنه حرض على العفو والصفح، ومن ثم فإن التحرف لمواجهة حضارية أفضل من المهاترات والتنابز بالألقاب.

والراصدون لمغامرات القنوات يدركون أنها تخلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، وأن تنقية الأجواء وعودة الأمور إلى مجاريها في ظل هذه الظروف رقم على اليمّ، ولم يبق إلا اتخاذ موقف حضاري، ينتشل الخطاب الإعلامي من دركات الاسفاف إلى درجات القول الكريم. ولقد تذكرت وأنا أتعقب تلك المقولات المسفَّة ما جاء في صحيح البخاري قال: - (قدم عيينة بن حصن بن حذيفة فنزل على ابن أخيه «الحر بن قيس» وكان من النفر الذين يدنيهم «عمر»، وكان القراء أصحاب مجالس «عمر» ومشاورته، كهولاً كانوا أو شباناً. فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي، هل لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لي عليه، قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباس: فاستأذن (الحر) (لعيينة) فأذن له (عمر) فلما دخل عليه، قال: هَيْ يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل. فغضب «عمر» حتى هم أن يوقع به، فقال له «الحر»: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ وإن هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها «عمر» حين تلاها عليه، وكان وقافاً عند كتاب الله)- أهـ بنصه-، ولست أشك،

(١) تاريخ المقال: ٣٠/ ٩/ ٢٠٠٣

بأن كل من تعقب أحداث الأمة وما يشاع عنها وما يفترى على قادتها ومفكريها وعلمائها ومصلحيها يرى نفسه أمام عشرات لايختلفون عن (عيينة بن حصن)، وان بعض المواقف تضطر المتأذي تمثل أمر الله لرسوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ غير أن اتهامات البعض بلغت أفئدة خالية، وآذاناً صاغية، وتلقفها شرار الخلق من صهاينة ومتصهينين، في زمن التصعيد الحاد للحرب الباردة ضد قيم الأمة، وواجبنا حين يبدهنا الاتهام الجائر أن نمر باللغو مر الكرام في طريقنا إلى المتلقي، وعلى المتأذي ظلما وبهتاناً أن يسبق الأفاكين إلى الرأي العام، ليحمله على استيفاء شروط التلقي من تثبت وإثبات وبرهان، وليس أقل من ذلك. ومما يؤذي صاحب الحق المغموط أنه قد يتكلم بحضرة شر الدواب، وشرها عند الله الصم البكم الذين لايعقلون.

ومغامرات المناوئين الكلامية ليست بأغرب من مغامراتهم العملية التي أرهقت الأمة وأذلتها، وشواهد المجازفات ماثلة للعيان، وعلى المتردد أن يتابع المكاشفات والحوارات والاعترافات والمواجهات القنواتية مع الضالعين في الشأن العربي، ممن زلت بهم الأقدام. على أن واقع الأمة خير شاهد: مجاعات ومطاردات وهوان واختلافات وضعف وتخلف واحتلال واستيطان. ولن نستعيد المغامرات العسكرية والتدخلات السافرة في الخصوصيات، وما آلت إليه، وما ألحقته بالإنسان العربي من أضرار فادحة، أسقطت هيبة الأمة، وشوهت سمعة العربي. وما يطلقه البعض من مفتريات وفرضيات تذكرنا بفرضيات الكاتب الفرنسي (تيري ميان) صاحب كتاب (الخديعة الكبرى) الذي حقق من وراء فرضياته مكاسب مادية لاتقدر، حيث اتهم أمريكا بعملية الحادي عشر من سبتمبر، وجعل (ابن لادن) عميلاً أمريكياً، ومع أن السياسة تعني: فن الممكن، واللعب السياسية تستوعب ما هو أكبر وأغرب، إلا أن الفرضيات تحتاج إلى أدنى حد من المعقولية، ولو قال بأن (ابن لادن) عميل غرد خارج السرب، لكان قاب قوسين أو أدنى من الحقيقة.

والإعلام العربي الذي يدفع بؤسه بإذكاء الضغائن ونبش الدفائن، لم يمتعض مرة واحدة من المسرعين ابتغاء الفتنة، وذلك لعمري مكمن الارتياب. واتهام الموقعين عن رب العالمين بصناعة الإرهاب وتصديره امتداد لما أثر عن خصوم الدعوة من نفعيين وطائفيين. والاختلاف مع (الحركة الإصلاحية) مشروع، والتوقف أو التحفظ ممكن، متى توخى المختصمون الحق، وتخلصوا من الافتراءات والاطلاقات العامة. والخلاف المعمم والتحامل الجائر قديمان قدم الدعوات، وما لقبه المصلحون كافة بعض ما لقيه الأنبياء والرسل، والدعوة الإصلاحية ووجهت من الإمارات الإقليمية والزعامات القبلية ومن علماء الطوائف المخالفة لمنهج السلف ومن العلماء المستنفعين من الأوضاع المتردية: ديناً ودنيا. وشطر من هذا التحامل رعاه صراع المصالح و(الاستراتيجيات) الدولية. وبالجملة فهو خلاف متعدد الأسباب، تذكيه المصالح الاستعمارية والخلافات المذهبية والتناحر الطائفي، هذا الركام التقطه البعض ليجعل منه خلافاً عقدياً، تخالف فيه الدعوة منهج السلف، وكان من المفترض ان يتحول إلى مرحلة تاريخية، يستحضر للموعظة والذكرى، ولقد اعتورت الدعوة والداعية أقلام المفكرين والطائفيين والمستشرقين، أنصفها من أنصفها، وتحامل عليها من تحامل، ولما تزل مجالاً للأخذ والرد، وأهلها أحق بالدفاع عنها وحجتهم الدامغة أن تراث الداعية لاينفرد بحكم في الفروع أو الأصول.

وأذكر ذات مرة -وعلى سبيل المثال- أنني كنت في زيارة لصديق في بلد شقيق، وكنت قاب قوسين أو أدنى من لقاء مفتوح مع طلبة إحدى الجامعات العربية، فقال لي: -إياك إياك أن تذكر كلمة (وهابية) فهي الأبشع على مسامع البعض، وبخاصة الطائفيين منهم، قلت: -لقد جئت لتصحيح المفاهيم، ولم آت لتكرير المعلومات وتملق الجماهير. قال:

خذها نصيحة من خبير. وشكرته، ومضيت. وما أن صعدت المنبر حتى قلت: -جئت إليكم من أرض المقدسات، ومهوى الأفئدة، من (أم القرى) مهبط الوحي، ومن (طيبة الطيبة) مرقد الجسد الطاهر، ومن سهول (نجد) مدرج الشعراء الجاهليين والإسلاميين، ومصدر الفصاحة، وعرين العروبة، ومسرح حملة الرسالة المحمدية البيضاء، الإقليم الذي شهد الفتن العمياء، والحروب الشرسة، والجفاف والتصحر والقبلية، حتى أنقذه الله (بالمحمدين) محمد بن سعود، ومحمد بن عبد الوهاب، حيث جددا أمر الدين، ووحدا شتات السياسة، وأردفت: أعرف أن بعضكم متحفظ على كلمة (وهابية) وهي كلمة أطلقها المناوئون، وصدقها الطيبون، فما سمى المصلح نفسه وهابياً، وما سماه أنصاره، وما حمل هم المذهبية، ولم يحدث في الدين ما لم يأذن به الله، وكل الذي فعله التصدي للمحدثات، وبخاصة ما يمس جناب التوحيد، فهو (حنبلي) في الفروع (سلفي) في الأصول، وسطي في التعامل، والبعض منكم يرى (الوهابية) مذهباً خامساً، فسقت عن أمر ربها، ولكن دعوتي أفاتحكم بدعوة الرسل: ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾ [آل عمران: ٦٤] وبأمر الله: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] رجل تعلم في نجد، وتربى فيها، ورحل في طلب العلم، وتزود من علماء الآفاق، وجادلهم، ووقف على جهل قومه، وفرقتهم، واستفحال الخرافة فيهم، فكان أن جاء إلى أوزاع من القبائل، وأشتات من الأقاليم، يغمرهم الجهل، وتضلهم الخرافات، وتحصدهم الفتن، وتقتلهم الأمراض، يأخذ القوي منهم الضعيف، لايجدون فرصة للعمل، ولا ساعة للتعلم، يعميهم التعصب، ويضلهم الهوى، يقتتلون على المراعي والموارد، ولا يتردد أحدهم من قتل صاحبه من أجل تمرة أو ثوب أو دابة، يدعون الأولياء، ويتوسلون بالرمم، يتطيرون بمن لقوا، وطائرهم معهم، ويعلقون التمائم، ويؤمنون بالخرافات، جاء إليهم بالكتاب وصحيح السنة، يحترم سلف الأمة، ويدين لعلمائها بالولاء والمحبة، يأخذ بمخرجات الاجتهاد والقياس والاجماع، ويقدم النص، ويستعين بقواعد الفقهاء، ويشيد بجهود علماء المذاهب في الفروع، يترحم على المحسنين، ويدعو للمسيئين، ولا يشهد لأحد من أهل القبلة بجنة ولا بنار، ولا يكفر أحداً منهم، ويكف عما بدر من الصحابة، يحبهم، ويترضى عنهم، والكفر عنده دركات، والإيمان درجات، والنفاق أنواع، وآيات الوعيد لها أحكامها، ومن ثم يمرها كما جاءت، والدعاء عنده مخ العبادة، استقى رؤيته الاصلاحية مما سلف من العلم والعلماء، وربط بين الدين والسياسة، بحيث لايرى الزعامات القبلية أو الإقليمية أو الطائفية، وقدوته (ابن تيمية) الذي لم يقطع بتكفير الثلاث والسبعين فرقة. وما ان فُتح باب الحوار، قال أحد الحضور: وماذا تقول بكلام العلماء والمفكرين عن الوهابي؟ قلت: -المصلح قدم إلى ما قدم، ولا نزكيه على الله، وليس بين أيدينا إلا ما ترك من كتب، وما خلفه من علماء، وما دون عنه من تاريخ، ومرد الخلاف إلى مصدري الدين: الكتاب والسنة، فهات ما قال، لا ما قيل عنه، واعرضه على الكتاب وصحيح السنة، فما وافقهما لزمك اتباعه، وما خالفهما لزمنا اطراحه، ومن أخطأ من علماء الدعوة أو العامة في التطبيق، فذلك لايضاف إلى المبدأ، وهو رد على صاحبه، وخوض الحروب ما كان إلا للدفاع عن النفس أو المبدأ، والمصلح لم يشهر سلاحه إلا للدفاع عن النفس، والواجب أن تؤخذ الحركة في سياقاتها، قال: -وهل ندع قول علمائنا، ونأخذ بما تقول؟ قلت: - خذ بما أمرت بالأخذ به، فما جئت لأدين أحداً، وإنما جئت لأنقذ مظلوماً، وأنت محاسب على ما تفعل، وتذكر: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ [النحل: ١١١] وقد ألزمت الحجة، وبلغتك الرسالة، فهل أنت مع الحق أم مع الرجال، قال: -أنا مع الحق. قلت: -وهل الحق

مع الرجال أم الرجال مع الحق. قال: -الرجال مع الحق، وأردف يقول: - وهل معك شيء من كتب الوهابي. قلت: -الحكم على الشيء فرع من تصوره، فإما أن تتصوره، وإما أن تكف عنه، حتى يتبين لك الحق. قال: -وقول علمائي الذين أثق بهم، قلت: -وهموا كما وهمت، وأضلهم الخلط بين الديني والسياسي، ومضوا دون ان يتثبتوا، أو يبصرهم أحد، والله سيحاسبهم على نياتهم، وعلى مبلغهم من العلم، وإن كان من واجبهم التثبت، وصحة التصور، وسؤال أهل الذكر، ورحمة الله وسعت كل شيء، أما أنت فقد قامت عليك الحجة، قبل ان أسمعك الحق أنت معذور، أما وقد وضح الصواب فإن عليك ان تقبل الحق. إن الدعوة الاصلاحية التي قام بها، الشيخ المصلح (محمد بن عبد الوهاب) دعوة سلفية ترد إلى الله والرسول. وما نسب إليها من حروب أهلية ينظر إليها من خلال سياقاتها التاريخية وظروفها الوقتية، لقد طرد من مسقط رأسه، ولُوحق في مسارح دعوته، وتدفقت الجيوش من البر والبحر لإجهاض دعوته، هدمت الدرعية واقتيد قادتها إلى السجون والقتل والإقامة الجبرية، وما أحد نظر إلى عذاباتهم، وما نقموا منه إلا أنه يسعى لتنقية العقيدة ووحدة الكلمة، وقوة السلطان، والقضاء على الإقليميات والقبليات والطائفيات والخرافات. والدولة القائمة لا تنفرد بعبادة، ولا تختص بنظام، دولة إسلامية تحترم القوانين والحقوق والأنظمة وتجنح للسلم، وتتقبل معطيات الحضارة والمدنية، لاتعتدي، ولا تغدر، ولا تنقض عهداً، ولا تقتل مستأمنا ولا ذمياً، ولا تفجر طائرة ولا مبنى، ولا تخفر ذمة، عقدت مع الدول الكبرى عقوداً ومواثيق وصفقات تجارية، فكانت الأوفى، وما تعيشه الأمة من إرهاب إن هو إلا من فلول اللعب الكونية، وهي كغيرها مسرح للعمليات وليست وكراً للتفريخ.

من يعتذر للإنسان العربي .. ؟[١]

عندما أنقم من الوسائل الاعلامية كافة، أو من طائفة من المفكرين، أو من احد من الادباء أو النقاد الحداثويين أو الحداثيين على سنن المفرقين بين صيغتي حداثي وحداثوي فإن محل النقمة لايمتد إلى الامكانيات الذاتية ولا إلى الايجابيات المخلوطة بالعمل السيىء، ولا تستدعي النقمة الاستغناء عن مستجدات العصر: الحضارية والمدنية، ولا تقتضي العودة بالأمة إلى الخيمة والجمل والسيف والرمح، وليس شيء من الاعتراضات مؤشر ماضوية، كما يحلو للبعض ترويجه، ولا احسب عاقلاً رشيداً يقطع بمحض الخير أو الشر، بحيث يعمم النقد، ويستبعد الفائدة، ويستغني عن المستجدات، والقائلون بمثل ذلك متحاملون يفقدون العدل والمصداقية، وما اكثرهم في مشاهدنا الثقافية والفكرية والادبية، ومع تجاوز السلب والايجاب فإن بعض تلك المحدثات اثمها اكبر من نفعها، مبئسةً: ولاية ونصيراً، وكل هذه الاشتات جزء مما نعايشه مع «قنوات الفضاء» و«مراكز المعلومات» و«وسائل الاعلام» ومن رابه الأمر فلينظر إلى تداعي الترديات على كل المستويات.

و«القنوات الفضائية» بوصفها ظاهرة توعوية سريعة التأثير، قوية الاثارة، ضالعة في التشكيك والتفريق والتلبيس والتدليس فإنها مع كل الامكانيات والدعم السخي وتهافت المنتفعين والموتورين والاضوائيين تمر بفراغات موضوعية تضطرها إلى الافتعال والانفعال والتنقيب في الخبايا والزوايا بحثاً عن قضية وهمية يتلهَّى بها الشارع المتعطش لكل مثير، والرأي العام حين تتوتر اعصابه، وتحتقن مشاعره، وتشتد وطأة المشاكل والاحباطات عليه، يحتاج إلى صمامات امان تقيه احتمالات الانفجار، ولقد ضحكنا قليلاً من مسرحيات ساخرة هادفة، وابهجنا تصورنا الساذج انها مبادرات بريئة لحرية الرأي، وبكينا كثيراً حين تبين لنا فيما بعد انها جرعات مهدئة، يعمد اليها الممسكون بأزمة الأمور، كي تخدر الألم، ولا تحسم الداء، وفوق هذا فإن الطرح الاعلامي لا يتهافت عليه المشاهدون الجوف إلا حين يوغل في النيل من أهل الحل والعقد، على حد:

إنَّ نصــــفَ النـــــاسِ أعـــــداءٌ لمـــــن
ولـــــي الســـــلطة هـــــذا إن عــــدل

ولقد أطلَّت علينا بعض القنوات بأسلوب التباكي على وضع الانسان «العراقي» وكأنه المعذب الوحيد في المشهد السياسي العربي، وجاءت الدعاية للموضوع على طريقة التساؤل المنتفخ الاوداج: من يعتذر للشعب العراقي: العرب الذين سكتوا، أو واطؤوا النظام الصدَّامي، أو تعتذر المعارضة التي جسَّرت الفجوات لقوات التحالف؟

وعلى كل التصورات فإن الشعب العراقي مع أنه ظالم ومظلوم في آن، لا ينقصه الاعتذار، وحاجته الملحة في الانقاذ مما ألم به جراء الاحتلال والفراغ الدستوري واليقظة البشعة للفتن النائمة، وما قتل الشعوب العربية إلا فيوض البلاغة والتعويل على الكلمة ونقيضها، فإذا أدين العرب، أو أدينت المعارضة، وحملوا أو حمل احدهما على الاعتذار المشهود، أيكون في ذلك إنهاء للمعاناة؟ أحسب اننا بمثل هذا نعيش مرحلة الظاهرة الصوتية.

و«القنوات الفضائية» التي لاتجد ما تحمل الناس عليه من قول فصل تمارس الزعيق الأجوف، لا تزيد الأمة إلا ارتكاساً في وهدة الشقاء، فالجعجعة الكلامية التي تجيد صنعها، يقابلها حز إلى العظم، ينتاب مفاصل الأمة العربية، فالصهاينة يحرقون الأرض،

---

(١) تاريخ المقال: ٧/ ١٠/ ٢٠٠٣

ويكسرون العظم، ويهتكون العرض، ويزهقون الأنفس البريئة، ويجتاحون المدن، ويغلون الأيدي، والأمة العربية تعايش الهرولة والتطبيع، وتختلط عندها مشاعر الحزن والغضب، وحراس الحرية والحقوق الانسانية كما يزعمون يواطئون المعتدي، بحيث يعدُّون المقاومة إرهاباً والإرهاب دفاعاً عن النفس، واللاعبون الضالعون في الخطيئات ينفضون أيديهم من لعبة، ويباشرون أخرى، وكل لعبة يظهر معها الفساد في البر والبحر، وتتجرع الشعوب العربية مراراتها، ومعاناة الأمة العربية لاتنتهي بانتهاء ويلات الشعب العراقي، الذي تبدت عذاباته يوم اقامة حكومته الجائرة، ويوم ضعفها، وماتبع ذلك من حلّ لجيشها، وإلغاءٍ لإعلامها، وتفرُّقِ الممسكين بأزمة الأمور بين قتيل وسجين وخائف يترقب في مخبئه، والنابشون للعفن السياسي يتهافتون على المعذرين من فلول النظام سعياً وراء التلميع والتمييع، وإذا لم يكن هناك موقف محدد من الأحداث والمحدثين تساقطت القيم كما ورق الخريف، وذلك ما نعايشه.

إن معاناة «الشعب العراقي» قائمة ما اقامت دول التحالف التي تتصرف في الشأن العربي كله، وتسري في جسم الأمة كما الخدر: إما بالقوة حين تبدو للعيان، وهي تجوب الشوارع، وتمخر عباب البحر، وتخترق الأجواء، أو حين تلوِّح بها، أو حين تهدد بفرض العقوبات التي تقضي على الكرامة والحيوية، أو حين تفرض على الحكومات المستضعفة ما لا قبل لها باحتماله، أو حين تدفع بها إلى المواجهة الاعلامية أو العسكرية، وعلى كل الاحوال تضع عليها الاصر والاغلال، ولا تضعها عنها، وتحدد لكل شعب آليته العسكرية التي لاتخل بالتوازن، ولغته الاعلامية التي لاتكشف السوآت، ومداولاته الاقتصادية التي لاتؤثر على المكتسبات، وهي لاتقنع حتى يكون الشعب رجلها التي تمشي بها، ويداها التي تبطش بها، وإذا امرته اطاع، واذا سألته اجاب، وهو اذا نقل شكايته إلى المؤسسات العالمية ومنظمات حقوق الانسان ماسمع في أروقتها الا «الفيتو» أو الامتناع عن التصويت، أو الوعيد والتهديد بقطع المعونات، وإذا لفظته المنظمات خارج اسوارها خاسئاً وهو حسير لم تسمع منه إلا الحمد والشكر والثناء والصبر والاحتساب، وكأنها «عزة» التي يدعو لها المتعذب:

هنيئاً مريئاً غير داءٍ مخامرٍ

لعزة من أعراضنا ما استحلت

وإذا بدرت من ذلك المسكين «التيمي» هنةٌ كاللمم قامت الدنيا ولم تقعد واصبح كما عدو «ابن محمد»: الخائف في اليقظة والمنام، يخوف بالمقاطعة، ويرهب بالمطاردة، ويقتاد إلى محكمة العدل الدولية ليحاسب على القطمير، ومجرمو الحرب انتقائيون، ذلك ان مفهوم الاجرام يتم وفق مواصفات خاصة، بحيث يكون «احمد ياسين» مجرماً يؤخذ بالنواصي والاقدام، فيما يكون «شارون» مسالماً يؤخذ بالاحضان، وفوق ذلك فإن من مجرمي الحرب من منح «جائزة نوبل للسلام»، والأمة العربية المقهورة تسمع، ولا تجد بداً من ان تصدق، وإن لم تفعل عرضت نفسها لويلات لا قبل لها باحتمالها، يزامن تلك الويلات استخفاف اعلامي مطاع، فالاعلام العربي عبر قنواته الفضائية وأنهر صحفه اليومية ومن خلال مواقعه المعلوماتية لا يفتأ يتهم أهله، ويطلب من أمته المغلوبة على امرها الاعتذار، وكأنها الاقدر على منع الاحتلال والحيلولة دون حل حكومة العراق، متناسياً اختلاف الزعامات العربية حول الاسلوب الأمثل لإخراج «العراق» من «الكويت»، غافلاً أو متغافلاً عن سوءات الحضارة الغربية التي ينظر اليها وكأنها قطب الجلال والجمال والطهر والنقاء، ولو ان الاعلام العربي استبد ولو مرة واحدة وقال كلمة

الحق، ولو ان الأمة في زمن المحنة هبت وقاطعت الحكومة العراقية، لما قضي الأمر بأيدٍ أجنبية، استمرأت فيما بعد ممارسة الوصاية والتدخل في أدق الخصوصيات.

وإذا كانت تلك القنوات تُفيض على الانسان العربي بهدير كالرغاء وصهيل كالحمحمة، وتمارس جلد الذات المهترئة، وتستمرئ كشف العورات المؤذية، فأين هي من منظمات تسائله عن قتل امرئ في غابة، ولا تسأل غيره عن قتل شعب آمن، ومنظمات «حقوق الانسان» و«مجلس الأمن» و«هيئة الأمم» و«محكمة العدل» وسائر المؤسسات التي افرزتها ويلات الحرب العالمية الثانية، ما اريد بها وجه الحق، اذ نراها تطارد الانسان الثالثي عند كل صغيرة وكبيرة، واذا طرق ابوابها لتنصفه من اكلة لحوم البشر، كلَّ متنه عند ابوابها الموصدة، واذا نكص على عقبيه، لحقت به لتقضي امره، وتتصرف في شأنه، مشرعنة للأقواء تصريف شؤونه، غير عابئة بكرامته، ولا معتبرة لحريته، هذه المنظمات تريد للعالم الثالث ان يعيش متذيلاً لغيره، لا يُعدُّ قوة ترهب، ولا يخطط لزراعة ولا لصناعة تغنيان، وكل اهتمامها منصب على السلخ والمسخ والتمييع والتلميع والإلغاء، فهي تطالب بإلغاء التعددية «الأيديولوجية» والحضارية والعمل على التجنيس بالتبعية لا بالاختيار، وكيف تتحقق حرية الاديان وارادة الشعوب، ويعم الامان دونما ايمان صادق، يجسده الإقرار والقول والعمل و:

إذا الإيمـــان ضــاع فـــلا أمـــان
ولا دنيـــا لمـــن لـــم يحـــي دينـــا

والإسلام حضارة، والمسلم له حقوق، وعليه واجبات، ومن حقه امتثال مقتضيات عقيدته، وعلى الاقوياء احترام التعددية «الايديولوجية»، غير ان المنظمات الموجهة ب«الريموت» تسلبه الحقوق، وترهقه بالالتزامات، ولا تتركه وشأنه، والإعلام العربي كما «براقش» مهمته ان يجني على أهله، والدين أي دين، والحزب أي حزب، والمذهب أي مذهب التزام بالمبادئ والمناهج، واحترام للثوابت، وما لا يقوم الاسلام إلا به فهو عراه التي لا يجوز نقضها، ومن حق الشعوب ان تُلزم نفسها بما تفرضه «الأيديولوجية» المختارة، ومن واجب المنظمات ودول الاستكبار احترام مشاعر الشعوب واعرافها، فهل تحملت تلك الحضارة الغربية مسؤولياتها الانسانية وعدلت بين الظماء، واتقت الارهاب بمنع اسبابه؟ وما اسبابه إلا الكبت واللعب الكونية.

إن هناك صراعاً أزلياً بين الشرق والغرب، صراعاً «أيديولوجياً» وصراعاً «حضارياً» وصراعاً «استراتيجياً»، ومراوحة بين الحرب الباردة والساخنة، ومع انه بالامكان اعتزال هذه الفتن، واغلاق النوافذ لصد الاعاصير الا ان عالمنا يهرع اليها سواء دعي أو لم يدع، وسواء كان من مصلحته ان يخوضها أو لم يكن، ولأن هذا العالم الغريب يوظف كل امكانياته للحروب الكلامية والعسكرية بالأصالة أو بالإنابة فان المتصارعين يتخذون من انسانه دروعاً بشرية ومن أرضه ساحة قتال ومن مقترفاته مشروعية تدخل، والقارئ للتاريخ الحديث يقف على محطات لاينفع فيها التمويه ولا التبرير، وفي ظل هذه الترديات لاتحسم الاشكاليات العصية بالاعتذار للإنسان العراقي، وإن كان لابد من اعتذار فإنه حق للإنسان العربي، فمن يعتذر له؟:

الغرب بكبريائه وغطرسته وتحريشه وايقاظه للفتن أو صياغتها.

أو الشرق برعونته ومغامراته وتخاذله.

أو حكام العالم العربي بجورهم وظلمه.

أو المفكرون العرب بكذبهم وتضليله.

بل اكاد اقول: أيعتذر الانسان العربي من ذاته لذاته، فهو الذي ظلم نفسه، وظلم ذوي قرباه، فمن نفذ مظالم الحاكم العراقي، ومن الذي سام العراقيين سوء العذاب، اليسوا من ابناء جلدتهم، والتاريخ السياسي الحديث يؤكد ان المتأذي من المجازفات والمغامرات انما هو الانسان العربي بما فيه الانسان العراقي، إذ لم يكن الانسان العراقي وحده من مسه الضر، وغفل عنه من تجمعه بهم العقيدة واللغة والتاريخ والأرض، والمواطن العراقي يحتمل ما يحتمله الانسان العربي، فهو الذي صنع الصنم، وهو الذي خاض معه كل الحروب، وهو الذي هب معه لاجتياح «الكويت»، وهو الذي سام ابن جلدته سوء العذاب، وهو الذي اقام الحجة على نفسه، وإن كانت حجة واهية، اتخذها القطب الواحد ذريعة للاحتلال العسكري، ودول التحالف الذين اعلنوا الاحتلال، ليستغلوا مقتضياته، لم يستأذنوا المعارضة العراقية، ولم يستفتوا الانسان العربي، ولم يكتسبوا الشرعية من المنظمات، لقد كذبوا على شعوبهم، واضلوهم بدعوى القضاء على سلاح الدمار، وتحرير الشعوب، وإقامة العدل والحرية، وهم حين اقترفوا ماهم مقترفون احسوا بخطأ التصرف، ولكنهم وصلوا بسياستهم إلى مرحلة اللاعودة.

لقد جاء الإيذاء من كل جانب، لفحات تؤزها الأحقاد والضغائن، ويطال لهبها القاصي والداني والبريء والمذنب، فكان الايذاء حروباً أهلية وحدودية، وكان إفكا يشكك بالعقائد والأفكار والنوايا، وكان احلافا تضر بالمصالح، وتعرض الأمن والاستقرار العربي للاضطراب، وكان تنفيذاً للعب: إقليمية وكونية، وكان كبتا للحريات، ومصادرة للحقوق، ومغامرات طائشة، جلبت الفقر والفاقة، وعوقت الخطط، وأضاعت المقدرات، وتشتت الكفاءات البشرية ومقدرات الأمة في آفاق المعمورة، وكان غلوا في الدين ووقاحة في العلمانية، تؤزها أيد خفية، وكان جهادا حين كان في السرب وارهاباً حين غرد خارجه، وكان من قبل ومن بعد اعلاماً مضللاً يفرق ولا يجمع، ويستعدي ولا يصد، ويشيع قالة السوء ولا يعف، ومع كل ما هو قائم فإن في الكأس بقية، وباب الأمل مفتوح، فهل يعقب الاعتذار تحرف راشد، يستبينه أهل الحل والعقد قبل ضحى الغد؟ ارجو ذلك.

قراءة الأحداث وترتيب الحلول عليها .. ؟[1]

المفكر الفرنسي (تيري ميسان) في كتابه (الخدعة الكبرى) قال: إن أمريكا هي التي صنعت اللعبة الكبرى، وهدّمت برجيها، وضربت (بنتاجونها)، هذا لون من القراءات والتصورات للأحداث الجسام، والمشتغلون بتفكيك الوقوعات السياسية لايستغربون مثل هذه القراءة غير المبررة، وصناع القرارات المصيرية قد يرون ما يراه مثل أولئك القراء المغربون، فيكون الفعل الشاذ شذوذ الهوج القرائي وبالقراءة والفعل الشاذين تقع الكوارث. ولا مراء في أن أي ممارسة لا تستند إلى مشروعية ولا إلى معقولية تكون تربة خصبة لتناسل الآراء والتصورات الشاذة. والحروب التأديبية أو الوقائية أو الاستباقية والتدخلات القسرية في شؤون الغير محفزات لممارسة القول الخرافي، وتجليات القطب الواحد تتسع للقول ونقيضه، لأنه تلون حرباوي تحكمه المصالح، ولا تصرفه المبادئ. والضربات المفصلية مظنة الفرضيات الغريبة، والحديث المتناقض عن الأحداث الكبرى يظل في نماء وتشعب، حتى يخرج من الواقعية إلى الخرافة ومنها إلى الأسطورة، ويكون الفعل المترتب عليه اسطورياً.

وتداعيات الحادي عشر من سبتمبر بدأت تتجه صوب المستحيل وغير الممكن، ومثل هذه القراءات التخرصية عن تلك الأحداث قالها غربيون، ولو قالها غيرهم لم نشر إليها، ومن حقنا أن تكون لنا قراءتنا مثلما لغيرنا قراءته. والإشكالية ليست في تعدد القراءات، وإنما هي في ترتيب الحلول على تناقضاتها، وليس من قال: إن أمريكا هي التي هدمت أبراجها بأغرب ممن قال: إن المناهج الدراسية والحركات الإصلاحية في المملكة هي صانعة الإرهاب، ولو أذعنت المملكة لمثل هذه القراءات وغيرت مناهجها وأدانت دعوتها الإصلاحية لكانت الطامة الكبرى. وضرب أمريكا في الصميم مظنة التخرصات، ولاسيما أن الفاعل الحقيقي لما يزل في ظهر الغيب، وحين لايكون ماثلا للعيان يكون من حقنا ان نفكر، وأن نقدر وفق إرادتنا، ولو على سبيل الرياضة الفكرية، وقد نخطئ من حيث التفكير والتقدير، وإذ تكون السياسة عصية الانقياد فإن كل شيء فيها قابل للقراءة عبر كل المستويات، وكل مخرجاتها قابلة للتأويل، والقواصم في تحفيز القراءة الغرائبية للفعل المصيري، والعواصم في السبر والجس والاستواء على أرضية الحقائق.

وكل إنسان مغرم بالتفكير والتساؤل، ومن ثم قيل: - (فكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله). وإذا ارتاب الناس بالمغيبات، وأباحوا لأنفسهم الخوض في كل شيء، فهم مع عالم الشهادة أشد ارتياباً وتساؤلاً. وقد تستدرج الرغبة المستخفين لقومهم فتتجاوز بهم المجال الممكن إلى غير الممكن، ومن ثم تكون الهواجس إشاعات، وتتحول الإشاعات إلى رواسب فكرية، ينعكس أثرها على تصرفات الآخرين، و(حرية التفكير) تختلف عن (حرية التعبير)، فالإسلام منح الإنسان حرية التفكير المطلقة، ولكنه نصحه بعدم القفو لما ليس له به علم، ولما لا طائل تحته من فضول الأشياء، فيما قيده في مجال التعبير ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] ﴿وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠] ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٤٨] ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [الحج: ٢٤] .

والمتابع لفيوض القنوات، ومستقر المعلومات، وما خط في الصحف والمجلات يصاب

---

(١) تاريخ المقال: ١٤/ ١٠/ ٢٠٠٣

بالذهول والارتباك والارتياب، إذ يسمع أو يقرأ أو يقف على تصورات في غاية الشذوذ، وبالتالي تربكه أفعال في غاية الغرابة، والذين يأتون بالإفك، والذين يتقبلونه بقبول حسن، والذين يرتبون أفعالهم على ضوئه، يقترفون الأخطاء الفادحة، ويحملون الأبرياء جرائر لا قبل لهم باحتمالها، وما العمليات الانتحارية والإرهاب المنظم إلا ناتج قراءة خاطئة أضلت من أضلت، حتى جاد المنتحر بأغلى ما يملك، لتفقد أمته أغلى ما تملك، وهو الأمن والاستقرار.

وحين تكون الآراء والتصورات وقراءة الأحداث شاذة أو متناقضة، يصبح المتابع فريسة للأوهام والتخرصات، وحين لايستقر الإنسان على رأي حصيف ممحص يكون المجال مهيأ للمفسدين والانتهازيين وأصحاب الأهواء، بحيث يستزلون المترددين، فلا يجدون بدا من طاعتهم والوقوع في حبائلهم. وأخطر المشاكل مشكلة المفاهيم واختلافاتهم والتأويلات وتعددها، وما احترب الناس إلا حين اختلفت مفاهيمهم، وما نسلت الملل والنحل إلا من عباءة التلقي، والمفكرون يتصدون للأفكار ومصادرها، ويستخفون بآلية التلقي والتأويل، وإشكالية الحضارات في تعدد (نظريات المعرفة) و(نظريات التلقي) و(آليات التأويل). والحياة تتناسل فيها المشاكل بمثل ما تتناسل المقومات، والصراع أكسير الحياة، والوفاق حلم الطيباويين، والإشكالية ليست في الاختلافات المتنامية، إذ قيامها حتم، ولكنها في أسلوب المواجهة وطرق الحل. والذين يريدون الحياة ملائكية خالية من أي منغص يضربون في فجاج التيه. والدول الكبرى ذات الأيدي الطويلة والقوة الرادعة حين تتخطى القول إلى الفعل، ثم تمنى بإخفاق ذريع لا يحال ذلك إلى ضعف قوتها، وإنما يحال إلى خطأ قراءتها للأحداث وترتيب المواجهة على ضوء مستخلصات القراءة، وأمريكا لم تهزم عسكرياتً في (كوريا) ولا في (فيتنام) ولا في (الصومال) وإنما أخطأت التقدير والتوقيت، بسبب خطأ القراءة، وأحسبها وقعت في الخطأ ذاته في (أفغانستان) و(العراق) وفي تصدرها لرعاية السلام بين العرب واسرائيل، وفي فهمها الخاطئ لمصادر الإرهاب، والمنطقة مقبلة على شر مستطير ما لم يعد الجميع قراءة الأحداث والمصائر بعقولهم لا بعواطفهم.

إن الحصافة ان تضع الدول والجماعات والأفراد في حساباتهم تكاثر المشاكل وتناميها، وتعدد القراءات وتناقضها، لكيلا يكون المستضعفون دولة بين الأقوياء، فكل من توقع شيئاً هيأ نفسه لمواجهته، وحين يكون الاستعداد وتعدد خيارات المواجهة، تكون مؤشرات النجاة أكثر، واحتمالات التغلب أقوى، والذين لايمتلكون بوابات توقف العابرين وتساؤلهم عن الرؤى والتصورات تفيض أوعيتهم بالخداع والتضليل.

لقد سمعنا من المؤسسات الغربية تباكياً على (حقوق الإنسان)، ومجت أسماعنا ما يتداولونه من لغط حول انتهاكات الحقوق من المؤسسات السياسية، وحسناً ما يفعلون. فكم من حكومات ظالمة تحتاج إلى من يعينها على نفسها، وكم من فئات مضطهدة لايرفع عنها الظلم إلا التصدي للسلطات الظالمة وكشف سوءاتها، وجميل موقف الدول الكبرى لو أنها لم تكن انتقائية ولا مصلحية، ولو أنهم قرؤوا الواقع بعيون ثاقبة ونوايا حسنة ومقاصد سليمة. غير أنهم حين يريدون استغلال أي نظام يدعون تحرقهم على (دستوريته) و(برلمانيته) وتداولية السلطة فيه، وحين يكون قوياً عادلاً أو دستورياً برلمانياً، ثم لايكون في ركابهم، لايمانعون من افتراء الكذب، والعمل على اسقاطه بأي حجة، ولا يترددون في المبادرة إلى طرح ملفات نائمة: ملفات (حقوق الإنسان)، و(الأقليات) العرقية والدينية، وملفات (الحدود)، و(المعارضة)، و(قضايا المرأة) والسكان والأرض والاقتصاد والتلوث وسقف الانتاج والسعر، وسائر متطلبات العولمة المتأمركة. وحين لايجدون ملفات حقيقة بالفتح يخلقون من الحبة قبة، أو يفتعلون قضايا لم تكن

معروفة من قبل. والشارع العربي المحتقن يصيخ لكل قول، ويصدق كل ادعاء، فهو من السماعين للاتهامات والناقلين للإشاعات، وحكومات العالم الثالث مظنة أي اتهام، فهي كالأجسام القابلة للجراثيم و(الفيروسات).

وإذ لا ننكر المظالم ولا (الدكتاتوريات) ولا المقابر الجماعية ولا السجون والتشريد وكبت الحريات فإننا نود أن يكون الغرب صادقاً في إثارتها، موثقاً للتجاوزات، منصفاً في المواجهة. بحيث لا يتستر على مظالم، فيما يشيع أخرى لمجرد التخويف أو التركيع، وبحيث لايدس أنفه في قضايا شعب آمن متصالح مع حكومته. وكيف يستقيم أمر العالم والمتكبرون والمتجبرون يصنعون (الأيديولوجيات) كما يصنعون السيارات؟ ويريدون أن يكون تصدير الفكر والآلة بمستوى واحد وقبول واحد.

لقد شهد العالم فظائع (إسرائيل) ولم نر ولم نسمع إلا (الفيتو) عند إثارة المظالم وإلا التسليح والمساعدات والتأييد عند اتخاذ القرارات التي تحق الباطل وتبطل الحق. وفي ظل التطاول والتعدي فكرت بعض دول المنطقة في التزود من قوة الردع غير التقليدية، فما كان من الغرب المحكم قبضته إلا أن عرقل مشروعها، بدعوى حفظ التوازن، ومع أننا ضد التسليح النووي إلا أن الغرب يغض الطرف عمن يريد تسلحه، ويضيق الحصار على من لايريد، وقد مارس ضرب المفاعلات النووية، حتى وان كانت للأغراض السلمية.

والنخب العربية مع وضوح الانحياز وتجلي التجني يختلفون فيما بينهم، والاختلاف حول المعلوم من السياسة بالضرورة مؤشر تخلف أو مواطأة، ولو ضربنا المثل بظواهر في منتهى الحساسية لتبدت لنا ثغرات في الفكر النخبوي الذي لايحسن القراءة، ولا يتصرف حين يُهدى إلى الحق. فالإرهاب العشوائي الدموي يمارس من قبل الصهيونية على أرض فلسطين، ويمارس في مواقع عدة من العالم، وقراءة الممارستين تختلفان حدة ومواجهة، وما من قارئ رشيد يربط بينهما، بحيث تكون ردود الفعل متجانسة، وما كانت (إسرائيل) في وضع من العلاقات الحميمة مثلما هي عليه الآن، فالاعتراف والتطبيع والتبادل التجاري العربي الإسرائيلي يتقدم خطوات إلى الأمام، فيما تتعقد القضية الفلسطينية، فهل هذا ناتج قراءة مضللة أم أنه مواطأة متعمدة؟.

ومع الانتهاكات البشعة فإننا لا نسمع أي كلمة منصفة بل نجد من يبرر فعل اليهود بالمواطنين الفلسطينيين العزل، ويحيل الإرهاب الإسرائيلي إلى الدفاع عن النفس، ويحيل المقاومة الفلسطينية إلى الإرهاب، والناس في حيرة من أمرهم. فأمريكا حين تنتزع العالم ثم تكيل بعدة مكاييل تفقد مصداقيتها واحترامها والتعاون معها، ومع كرهنا لكل عمل غير إنساني نود من دولة قوية كأمريكا ان تكون عادلة منصفة، يذعن لها الجميع رغبة لا رهبة. والرغبة لا تتحق إلا بالعدل والانصاف والمساواة، والرهبة تفرضها قوة السلاح، ولكن ثمن الإرهاب باهظ التكاليف، وزمنه قصير. فالظلم ظلمات، والله أقسم على نصر المظلوم ولو بعد حين، والدولة الظالمة مصيرها للدمار، مسلمة كانت أو كافرة، لأن الظالم مؤسف لله، والله حين يأسف ينتقم، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥] والتخطي بالحلول من (الدبلوماسية) الفاضلة إلى القوة القهرية المفضولة بوادر ظلم، تعرض الظالم لعقاب ممن حرم الظلم على نفسه. وليس ببعيد أن تكون المبادرة العسكرية ناتج قراءة خاطئة أو مخادعة. ودول التحالف حين وقعت في المستنقع، بدأ الضالعون في القراءات الخاطئة يحيلون إلى ما بلغهم من الاستخبارات من تقارير حرفت فيها الحقائق، فوقع القارئ في فخاخها، وما انتحار (كيلي) واستدعاء الأطراف الضالعين للإدلاء بشهاداتهم إلا مؤشر تقدير وتوقيت خاطئين، وكل حدث يرد إلى قراءته.

والحل العسكري الذي بادر إليه الأقوياء ما كان له أن يسبق الحلول السلمية، فهو حين لايحقق النتائج المطلوبة يبدأ العد التنازلي لمستخدمه، وأمريكا اختارت الحل العسكري على سائر الحلول، وهي إذ تركن إلى قوتها العسكرية، وتفرض القرارات بقوة السلاح يتحول العالم إلى عدو متربص، قد يذعن لهدير المدافع وقصف الراجمات، ولكنه سينسل من تحت غبار الهدميات، كما نسل (اليابانيون) من تحت الإشعاع النووي، واختاروا الحرب الاقتصادية فهزم الغرب كله. واهتياج أمريكا وإقدامها على مغامرات محفوفة بالمخاطر قد تكون مدفوعة بالقراءة الخاطئة أو بالكتابة المحرفة، وكم من زعامات تشظت بسبب الخطأ في قراءة الأحداث أو القراءة عنها.

والنكسات الموجعة التي يتعرض لها العالم العربي والإسلامي سيكون لها أثرها الايجابي، متى أحسن المتضررون تغيير ما في أنفسهم، ولا أستبعد صحوة تجعل الإنسان العربي يفكر في مصيره وموقعه. وحين تمل أمريكا من حرق الأرض وكسر الظهر، تعود لتقويم النتائج والتفكير في الحلول السلمية، وساعتها يكون الإنسان العربي قد جرب القتل العشوائي، وقدم الضحايا المجانيين، وتحول من مسالم إلى مقاتل، ومن مصالح إلى منابذ، وأدرك أنه بحاجة إلى ان يبدأ التفكير الجاد لإقامة أنظمة دستورية ومجالس تشريعية وعمل جاد لمواجهة الحياة بكل ما تغص به من مشاكل.

إن الأزمات تخلق الحلول، وما من أزمة خانقة إلا وتؤدي إلى فضاءات رحبة. المهم ان يعي الإنسان العربي أنه رهين عمله وتفكيره فليكن جاداً وحاداً، جاداً في العمل حاداً في التفكير. ومتى علم الله منه حسن النوايا وسلامة المقاصد والأوبة النصوح سهل له طريق الرشاد. ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] . وقانون التداول والتدافع نافذ، ولا عمارة للكون إلا بالصراع فهو أكسير الحياة، ومتى أمن الإنسان وشبع استرخى، وإذا خاف وجاع فكر في طريق الأمن وطريق الشبع، والحاجة أم الاختراع.

لقد يُسِّرت المصائب للاتعاظ: فهل من متعظ .. ؟! (١) [(١)]

جئت إلى القاعة متأخراً، ولم أجد الوقت الكافي لانتظار المصاعد، فمشيتها خطوات عجلى، ققزت بها الدرج مسرعاً، وما أخذت مكاني على المنصة، حتى أحسست بتفصد العرق، وانتابني لهاث متلاحق، فطفقت أخصف ورق المناشف، لأجفف الأصداغ والحواجب، وتلمضت بلساني لأرطب الشفاه التي جمدت على الكمد، وكنت يومها حديث عهد بقراءة أعمال المؤتمر الدولي الأول للحضارات المعاصرة «العولمة وحوار الحضارات: صياغة عالم جديد» المنعقد في القاهرة، الذي كانت لي فرصة المشاركة في فعالياته، وطبع بحثي ضمن أعماله. ومثل هذه المؤتمرات تفتح بصيص الأمل لحوار هادئ، يجنب العالم ويلات الحروب الشرسة.

والطلبة الاستشرافيون يعودون من مراكز المعلومات، وفيوض القنوات، متخمين بالقول ونقيضه، في مختلف المعارف والقضايا، ثم لا يجدون بداً من ان ينكوا الجراح، ويحزوا اللحم إلى العظم، لأنهم في زمن التشكك الذهني، وقدرهم انهم جاؤوا في الوقت الذي تتناسل فيه الفتن كقطع الليل المظلم، ولهذا تراهم كلما ادلهمت الأمور، واستحكمت الشدائد، أمطروا أستاذهم بوابل من التساؤلات، وكأن الخوض فيها يسكن الأوجاع، ويخفف الصداع، وفي ظل ما أعانيه من انهاك نفسي وجسمي كنت أطمع في أسئلة في المنهج، أو أسئلة عما قرأت وسمعت في ذلك المؤتمر الذي جاء على قدر، ليجمع الأشتات عبر القواسم المشتركة، ولكن أصداءه العذاب تلاشت تحت أزيز الطائرات ودوي المدافع، لقد اجهضت تطلعاته مغامرات دامية، صدمت المتفائلين بحوار حضاري، وعولمة متزنة متوازنة، ليس فيها تعسف ولا إكراه، ولم يكن في حسابي ان تكون الأسئلة حول المصائب الجسام التي تصب جام غضبها على عالمنا العربي المرتكس في الفتنة إلى الأذقان، يتقلب في أمواجها منذ فجر التاريخ الحديث، دون ان تلتقمه الحيتان ليريح ويستريح، أو تنبذه في العراء سقيماً أو صحيحاً، لينظر العقلاء في أمره. لقد أوجست خيفة من قصف الأسئلة التي تعتورني عبر عشرات القصاصات، لتصل تباعاً متنقلة من طالب لآخر، وكلها تستجلي الوضع المتردي، متناسية «نظرية الضرورة» واحتمال الأذى عند العجز عن رده، ولما ان تكدست بين يدي، لم أجد بداً من فرزها إلى مجاميع، ولما ان استعرضتها على عجل ووجل، وجدتها تدور حول ثلاثة محاور:

١ ما المبرر لحروب خليجية ثلاث؟

٢ هل من موقف عربي موحد إزاء القضايا المصيرية؟

٣ وهل يضع الغرب وزناً للموقف العربي، عندما يقضي أمراً يعنيهم؟

لقد حوصرت بمرارة الحقيقة، وخطورة المصداقية، وتمنيت لو أوتيت حنجرة «أحمد سعيد» وتمثيل «سعيد الصحاف» وقلة حياء الساسة، لأهرف بما أعرف، وأمام هذا الحصار لم يكن بد من خيارات ثلاثة: فإما ان أتعمد اللغة «الدبلوماسية» المراوغة، وأحفظ ماء الوجه، إن كان ثمة بقية من حياء عند من يتعاطى السياسة، وإما ان أصدقهم القول، وأكشف عن الواقع المرير، وإما ان اعتذر عن الإجابة، ونصف العلم «لا أدري» ومن قالها فقد أفتى. والإجابة الصحيحة الدقيقة آتية لا ريب فيها، على حد: «ويأتيك بالأخبار من لم تزود». ولم يطل ترددي، ومن ثم أطلقتها كحشرجة المحتضر: «لا مبرر» و«لا موقف» و«لا وزن». وهي «لا ءات» ثلاث، أطلقها من قبل المؤتمرون في السودان، بعد النكسة الموجعة، ولكنها صارت هباء، وصارت سدى، بمغامرة «الكامب

---

(١) تاريخ المقال: ١٥/ ٤/ ٢٠٠٣

ديفيد» التي جرَّت أقداماً كثيرة، وأعطت تنازلات أكثر، وتمخضت عن أوضاع ومصطلحات سياسية، ما كان اليهود يحلمون بأيسرها، وما أكثر المغامرات والمغامرين والمقامرين بمقدرات الشعوب.

وما أن لملمت أشلائي المبعثرة، وروضت مشاعري الدامية، وحاولت إبداء تجلدي للشامتين، لأريهم أني لريب الدهر لا أتضعضع، حتى بدهني شقي آخر، انبعث صوته من مؤخرة القاعة: وهل من تحرف صادق لإيقاف التدهور، ومعالجة الانكسارات؟ وبخاصة بعد السقوط «الدرامي» الذي جاء متأخراً، لكي يتمكن التحالف من تدمير ما لم تدمره عصابة الشر، وجاء الجواب كسوابقه، وعاج الشقي يسألني: إلى متى؟ ولماذا؟ وكيف؟ .. إننا بحاجة أن نعرف: هل من الممكن ان يبدأ العرب الخطوة الأولى في طريق العودة إلى جادة الصواب، كي يعيدوا ثقتهم بأنفسهم، وتفعيل جامعتهم، وتوحيد كلمتهم.

وساعتها لم يكن بد من الدخول في التفاصيل، فليس من مصلحة الناشئة العربية ان يتركوا في جهلهم يعمهون، والسؤال الملح عن الحروب الخليجية المتواصلة من أشعلها؟ ولمصلحة من أشعلت؟ وما خسائر الأمة: المادية والبشرية والمعنوية؟ ومن الخاسر فيها؟ ومن الرابح؟ أسئلة مشروعة، وواجبة الإجابة. ولو اننا وقفنا عند كل حدث، وساءلنا كل قضية، وحاسبنا كل مقترف، واعترفنا أمام الناشئة بالحقائق العلقمية، لما آلت مصائر الأمة إلى الدرك الأسفل من الضعة، ولما حفزناهم على البحث عن مجيب، يشكل وعيهم على عينه، ليجعل منهم عدوا وحزنا. إنهم يعيشون حالة من اليأس والإحباط والفراغ والاحتقان، وقابلية الانفجار، وهذا التوتر يغري شياطين الإنس باجتياهم واحتناكهم، ولن يتوقع أحد سلامة الذهنيات في زمن العجائب والغرائب والمفاجآت.

حروب الخليج التي دمرت كل شيء أتت عليه، وألهت المخلصين عن كل فعل إيجابي. إما: أن تكون بالإنابة، بحيث يكون المحارب لاعباً غبياً لتأديب خصم لدود، وضع يده على ترسانة عسكرية، تهدد المنطقة. وإما: أن تكون نزوة مجنونة من نزوات الثوريين الدمويين، وفق حسابات وتقديرات خاطئة، شرعنت للأقوياء المهتبلين لأي فرصة سانحة، لينهضوا بمهمة التأديب بثمن باهظ وإما ان تكون تطلعاً إلى صياغة جديدة للعالم من خلال إعادة تشكيله، واحتوائه، والسيطرة على مؤسساته ومقدراته، بحيث يكون التابع الذي ينتج قدر الطاقة، ويأخذ دون الحاجة. وهذه الحروب الذكية بقدر ذكاء القذائف خططت لها مؤسسات لا تخاف الله، ولا ترحم عباده، وليس لها من هدف إلا الانتهاك والإذلال، وكلها مصائب تصب حممها على الأبرياء. ولا شك ان ما تتعرض له بلاد المسلمين: يكون ابتلاءً، أو يكون عقوبة.

فالابتلاء يتطلب الصبر والمرابطة والتقوى. وأما العقوبة، فلا تكون إلا بسبب المخالفة لأمر الله، وهي تتطلب مراجعة النفس، والفرار إلى الله، وإعادة النظر فيما اقترفته الأمة من مظالم، فلقد يُسرت المصائب، بحيث يراها من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، ولم يبق إلا أن نكون مدكرين، ولكن هل من مدكر؟ والعقوبة والابتلاء متوقعان، فالمصائب مما كسبت أيدي الناس، والابتلاء تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢] و ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [المائدة: ٧١] . والعقلاء المتمرسون لا يزكون أنفسهم، وإنما يعترفون بتقصيرهم، ويدينون أنفسهم قبل أن يدانوا، وحين منيت الجيوش الإسلامية بنكسات غير موجعة، عرف قادتهم ان ما أصابهم من سيئة فمن أنفسهم، ولهذا بادروا إلى التوبة النصوح. وما الحروب الخليجية المتعاقبة إلا ابتلاء أو عقوبة، وكان متوقعاً أن تكون آيات ونذر مغنية

لمن يعقل. وثالثة الأثافي كسلفها من حروب، أديت بالأصالة أو بالإنابة، وإن تعددت الأسباب وتنوعت الدوافع، وأمريكا التي تولت كبرها، وكانت وراء كل اللعب الكونية، لم تجد بداً هذه المرة من ممارسة التصفية بنفسها، وبسلاحها الفتاك، وعلى مسمع ومرأى من العالم، ضاربة بالشرعية عرض الحائط، متحدية أصدقاءها وشركاءها. ولما كانت شرذمة الحكم العراقي ضالعة في اللعب المميتة، متقنة لكل الأدوار القذرة، كان الدعم والتأييد ينهال عليها من كل جانب، وحين أنهت أدوارها، كان لابد من خلع أنيابها، وقمع انتفاخها، وحين تأبت، لم تتردد أمريكا في شطبها من الوجود، لتنهي دور اللاعبين الذين استهلكوا كل أقنعتهم. ولقد صدق مندوب النظام، وهو كذوب، حين قال «انتهت اللعبة». ولن تتخلص الأمة العربية من المكائد إلا بقراءة الأحداث كما هي، ووضع كل مقترف أمام مسؤوليته، ومعرفة العدو من الصديق، والتعامل مع الآخر وفق الإمكانيات، وعلى ضوء خيارات متعددة، ليس من أولوياتها الصدام، ولن يتأتى ذلك إلا حين تحترم الدول المصداقية، وتتحامى تعريض نفسها للذل والضياع، وبخاصة في زمن الاستكبار والغطرسة، وضرب الشرعية العالمية، والتدخل السافر من دولة يتوقع منها حماية العدل والحرية يشي بأن العالم مقبل على انهيارات تطال الشرعية والأخلاقية والمصداقية. واستياء الناس من أمريكا، ليس لأنها فعلت فعلتها النكراء لقتل شعب آمن، ولكن لأنها الحامي الذي تحول إلى مغامر يلعب بالنار، ويستن سنة سيئة لم يسبق إليها.

ومع الاستياء العالمي لتخطيات أمريكا، نجد من يتحدث عن الوجه المشرق لها، ونقرأ لمن يتفاءل بدخولها الحرب التطوعية أو التأديبية مردداً: «رب ضارة نافعة» مستدعياً ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا﴾، ومع ان من حق كل إنسان ان يعبر عن وجهة نظره، إلا ان هناك قطعيات ثبوتية ودلالية، تشكل خطوطاً حمراء، لا يستساغ تجاوزها. فالبعض يأخذه التفاؤل، كما تأخذ المسترخي المتعب سنةُ النوم، ثم يغرق في الأحلام. والمتفائلون يحيلون إلى الآثار الإيجابية التي أعقبت دخول أمريكا حروباً طاحنة ضد بعض الدول مثل «اليابان» و«كوريا» و«ألمانيا» وطرحها بعد الانتصار مشاريع اقتصادية وصناعية وتجارية، واعطائها قروضا مخفضة، وفات هؤلاء وأولئك انه لا تجود المقارنة مع الفارق، فأمريكا لها تجاوزات لا يمكن احتمالها.

الأولى: الوجود الصهيوني المتوحش المدعوم عسكرياً وسياسياً واقتصادياً من أمريكا.

والثانية: الموقف المعلن من الحضارة الإسلامية، بوصفها المعادل الأقوى لحضارة الغرب.

والثالثة: إلصاق الإرهاب بالإسلام، ومواجهته وفق مفهومه الغربي بكل قسوة وعنف.

ويأتي على أعقاب المتفائلين والملتمسين لإشراقات الوجه الأمريكي من أخذتهم الخيفة من دعوى «حقوق الإنسان»، الأمر الذي حفزهم على التفكير الجاد للمسايرة بتعديل الأنظمة، أو التخفيف من القوة في الحق، وحسبوا أن يساءلوا عن سجين لم يبادروا في محاكمته، أو عند معتد أثيم لم تتح له فرصة المغالطة والبحث عن قوة الحجاج، لينجوا من العدالة متحرفاً لاعتداء آخر. ومع التباكي فوجئ العالم بأن هذه الدعوى لا تبلغ تراقي الدعاة. وكيف يصدقون، وهم يلقون حممهم على المنكوبين من حكامهم، فيما يختبئ الحكام في سراديبهم، ويتهيئون للفرار للعيش المترف بالأموال التي سرقوها، تاركين أمتهم رهن الضياع والخوف والفقر. وكيف ينهض الظلمة بالمطالبة بالحقوق، وهم قد

انتزعوها بالقوة من أفواه الجياع وجيوب المعسرين، والفجوة السحيقة بين الدعوى والممارسة،

لقد يُسِّرت المصائب للاتعاظ فهل من متعظ .. !؟ (٢) (١)

ولو أن أحدنا استعاد الرضخة «الحزيرانية»، وما تمخضت عنه من ذلة وهوان وخوف، لعرف أن ما تعايشه الأمة اليوم، لا يختلف عما سلف، ولكن لكل حدث أسلوبه وطرائق أدائه. والهزائم الموجعة محسوبة على الأنظمة الثورية المجازفة، وليست على إمكانيات الأمة، ومثلما منيت الخطة العسكرية الأمريكية ببوادر الفشل، دون أن تهزم القوة، فقد منيت الأنظمة العربية بسلسلة من الهزائم، ولما تتح للأمة ممارسة امكانياتها.

ولو أن المنظومة العربية: قادة وشعوباً وعت الدروس، وفكرت في أمرها، وقدرت واقعها، لما آلت أمورها إلى ما هي عليه الآن. وبدهيًّا أنه ليس من صالح القوى المستبدة، ولا الأنظمة المتسلطة أن تعي الأمة ما هي عليه، لأنها لو وعت، لوضعت المصالح والأنظمة أمام مسؤولياتها. والواقع العربي بلغ الدرك الأسفل من الضعة، ومن ذا الذي يجيل نظره في القنوات، ثم لا يتميز من الغيظ على من فعل مثل هذه الفعلة النكراء بالإنسان والحضارة والمدنية. وهل أحد يستطيع الصبر واحتمال الأذى الذي يستبطن إخواننا في «العراق» منذ ثلاثين عاماً أو تزيد، وفي «فلسطين» منذ سبعين عاماً أو تزيد، وفي «الجزائر» و«السودان» و«الصومال» مما تتناقله وسائل الإعلام، ولما تزل سوح القتال تلتهب بالسلاح الغربي المتطور في كل الحروب التي مرت بها المنطقة.

ففي «نكسة حزيران» ظاهرت أمريكا إسرائيل، وأمدتها بالعتاد والعدد والخطط والتأييد في المحافل الدولية، وجلست غير بعيد ترقب الأحداث. وكانت «مصر» قد خرجت منهكة من «اليمن»، فيما كان العالم العربي مقطع الأوصال، تسكنه الريبة، وينتابه الخوف من الأقربين، وكان على دول المواجهة أن تختار الوقت المناسب للحرب، فلا تفرض عليهم، ولا يقادون إليها، وهم لم يعدوا للحرب عدتها، ولما لم يكن العالم العربي مهيئاً لأي مواجهة فضلاً عن المواجهة العسكرية، فقد لعب الأذكياء الماكرون الدور التحريضي، واستدرجوا الثوريين العُزَّل إلى حافة الهاوية، وساند ذلك إعلام فضائحي مخادع، شحن النفوس، وهيج العواطف، وألهب الأحاسيس، وأعمى الناس عن الواقع المرير. وفي ظل هذا التوتر، وقعت الواقعة، وجاءت الطامة، وتلقى العرب من المحيط إلى الخليج ضربة قاضية، عاش في عذاباتها الواعون حالة من اليأس والإحباط والذهول.

وكان يجب أن تكون «النكسة» بداية جديدة لحياة حافلة بالتلاحم أو التعاذر، وإعداد القوة بكل متطلباتها، والبعد عن المجازفات والخطابات الغوغائية، وتجنب الدخول في الحرب الباردة غير أنهم لم يدركوا، بحيث عاد الثوريون إلى ما كانوا عليه من قبل، حرب كلامية تقوم على الوعيد والتهديد والتخوين والاتهام بالعمالة، والتحريض على هدم العروش، وتصدير المبادئ والأحزاب، مع تسخين للحدود، وتكريس للطائفيات والقوميات والعرقيات المتعددة، وتمكين لمحاور الشر لاختراق الثغور، وكسب الدثور، مما حوَّل مقدرات الأمة إلى وقود لصراع القوى العالمية، ولما تكن كنوز الله الذي يوقد من شجرة زيتونة لا شرقية ولا غربية، بل كانت أشتاتاً تمارس الحرب الباردة بالإنابة عن الشرق أو الغرب، وكل زعيم يدعي أنه الناهض بما ينفع الناس. ومرت الأيام، ونسي العالم العربي نكسة لا يمكن تصورها، ولا يمكن احتمالها، وعادت الأمور إلى مجاريها، وبدأت مخاضات حروب أدهى وأمر. كانت حرب الخليج الأولى مدعومة بخطاب قومي، ثم جاء احتلال «الكويت» ضربة للخطاب القومي، انهارت معه القومية العربية. وحين دحر

---

(١) تاريخ المقال: ٢٢/ ٤/ ٢٠٠٣

المعتدي، ظل مع المتواطئين معه في المشهد السياسي دون أقنعة، وظل الشارع العربي يتخبط في دياجي التناقضات، ولما نزل حتى الآن في فوضى مستحكمة من الرؤى والتصورات، ويكفي تدافع المجاهدين، وعودة الناجين منهم يتلاومون.

ومثلما أخفق العرب في «حزيران» حين دخولها دون استعداد، ودون تخطيط، دخلوا تالياتها مرة ثانية وثالثة ورابعة، وفي كل حرب يخرجون مثخني الجراح، مثقلي الكواهل بالديون والعداوات والشكوك والالتزامات التي تضع مصادر ثروتهم بأيدي غيرهم. والحرب لا تبقي ولا تذر، والكاسب فيها خاسر، ومن استخف بها أذاقته سوء العذاب. وأمريكا التي تملك مقاليد الدنيا، انجلقت في أتونها أكثر من مرة، وخرجت منها خاسرة، تضمد جراحها، وتعالج ذيولها. وها هي قد انجرفت في ضوائقها، دون رصيد معنوي، ولا دعم شرعي على كل الصعد، ودون أن يكون لها موقف مشرف من القضية الأم «قضية فلسطين». وحين تحركت أساطيلها، لم يسبقها استرضاء ولا تهدئة للأوضاع، ولا طمأنة للمتضررين، بل راح كبار المسؤولين فيها، ممن يطلق عليهم «الصقور»، يهددون، ويتوعدون، ويبعثون برسائل ملغومة، مما يشي بأن العراق يعد الخطوة الأولى في رحلة التأديب والاحتواء. وجاءت التصريحات المتلاحقة محيلة إلى أصولية دينية، جندت أمريكا نفسها للقضاء عليها، وذلك من المقت الكبير، فهي تحارب الأصوليات، ثم تنطلق منها.

وأمريكا التي أخفقت في السمعة، أخفقت في تقديرها لتداعيات الحرب، كما أخفقت من قبل في تقديرها للوضع القائم في العراق، بحيث بنت معلوماتها على توقعات المعارضة العراقية. وأحسب أن الحمم التي تلقيها على رؤوس الآمنين العزل الأبرياء، تنال من سمعتها ومكانتها أضعاف ما تناله من مقدرات العراق وأناسيه. لقد كرهها العالم، ونزع ثقته منها، ولم يعد يثق بمواقفها، وكم ستلاقي من «اللاءات» التي لم تسمعها من قبل، وليست تداعيات ما بعد الحرب بأحسن حال مما قبلها ولا مما في أثنائها، والوجود العسكري مؤذن بخلق حالة من الإرهاب الشرس، الذي لا يمكن السيطرة عليه.

وكيف تتأتى السيطرة، وهي قد جاءت بخطة عسكرية لم تراع فيها كره الشعب العربي للاستعمار، فضلاً عن الاحتلال، ثم هي قد تبنت خطاباً إعلامياً لم تراع فيه ردود الفعل العربي والإسلامي والعالمي، وهي قد ركنت إلى القوة العسكرية مجهضة القوة القانونية. والحرب التي يتابعها العالم خطوة خطوة خارجة على الشرعية، ومهمشة للشركاء الأقوياء، ومثيرة لكوامن النفوس، التي ستؤثر الموت على الحياة، ومثل هذه التداعيات تحتاج إلى مدكر يقرؤها بإمعان، وهو ما لم تفعله أمريكا، ولم يفعله العرب. وبدء العمليات كشف عن إخفاقات ذريعة، هزت هيبة أمريكا، وأفقدتها المصداقية، ولم يعد الأمر بيدها. والمضي في الحرب غير المتكافئة له ثمن باهظ، والتراجع من منتصف الطريق له ثمن باهظ، على حد قول الشاعر المحب:

وقـــع الســـهام ونـــزعهن ألـــيم

ومثلما أخفقت أمريكا في بعض تقديراتها، أخفقت حكومة العراق البائدة في كل تقديرها وممارساتها، وماضيها لا ينطوي على إية إيجابية. والذين يكرهون الحكم في العراق، وينقمون على تصرفاته القمعية، ويودون زواله، يكرهون أن تكون نهايته على يد قوى خارجية، تستمرئ التدخل السافر في شؤون الآخرين.

فقد يرضى المعذبون بالبقاء تحت طائلة العذاب المستطير، لعلمهم أن إنقاذهم بهذه الطريقة، سيقودهم إلى ما هو أسوأ، وبوادر الفتنة تبشر بعذاب أليم.

وحكومة العراق التي كانت قاب قوسين أو أدنى من كسب الرأي العام العالمي، لم تحسن التصرف، فلقد ساءت مظهراً ومخبراً، ومما يزيد الطين بلة أن الخطاب العراقي في المؤتمرات المعقودة لإنقاذ الموقف المتأزم، وفي اللقاءات الحرجة خطاب بذيء متعالٍ، لا يحيل إلى أخطائه الفادحة، وإنما يمارس الإسقاط بكل وقاحة، ثم إنه لا يواجه الطرف اللصيق بالتي هي أحسن. وعلينا أن نذكر بموقفين سيئين، صدما الإنسان العربي الناصح المتحفز لمناصرة الشعب العراقي، والساعي لتخليصه من ويلات الحروب التي تعاقبت عليه، وأتت على الماديات والمعنويات على يد حكومة ظالمة، عرضته لفتن عمياء، وخاضت به ثلاث حروب مدمرة، شردت كفاءات، وقضت على مثمنات.

الموقف الأول: مهاجمة وفد الكويت في مؤتمر وزراء الخارجية، ومبادرة الإمارات الإنسانية بأسخف الكلمات، وأحط العبارات، الأمر الذي هيأ الشعب الكويتي لاستقبال الأساطيل الغربية استقبال الفاتحين، أملاً في أن يقطع دابر الفتنة، ويقطع الألسنة البذيئة.

والموقف الثاني: النيل من وزير خارجية المملكة الأمير «سعود الفيصل» ومن سفيرها الأمير «بندر بن سلطان». جاءت هذه البذاءات الصبيانية، والحرب على أشدها، والعراق أحوج ما يكون إلى جمع الكلمة، ولم الشمل، وإتاحة الفرصة للمساعي السلمية، التي يقودها وزراء الخارجية العرب.

وها قد سقطت الحكومية، وتفرق شملها، وعاشت البلاد فراغاً دستورياً، أشاع الفوضى، وهيأ فرص السلب والنهب والقتل، ولو أطيع لقصير أمر لحقنت الدماء، وسلمت المقدرات، وأسقط في يد دولة جاءت بكل قواتها، محددة مطالبها، ولو أن عصابة الشر في العراق عندما استحكمت الأمور، فوضت الأمر «للجامعة العربية»، لكان بالإمكان تلافي حرب مدمرة. وإذ يكون الصمت العربي مؤلماً، يكون القول في صالح القضية محفوفاً بالمخاطر، وتلك حالة ليست استثنائية، فالأمة العربية تعيش حالة من التوتر والمجازفات وتبادل الاتهامات.

والذهنية العربية يشكلها خطاب هائج مائج، لن يؤدي إلى صالحها ويتنازعها إعلام متناقض، إلى حد لا يمكن معه الاستقرار على رأي محدد مقبول.

والسياقات التي رصدها المتابعون هي الأخرى تزيد الأمور تعقيداً. ومع كل ذلك: هل من مدكر؟ الشيء الذي لا يمكن أن يطاق تعرض الخليج العربي لحروب ثلاث طاحنة، لم يكن شيء منها لصالحه، وهي وإن أخلت في توازن القوى، فإنها تركت هوة سحيقة من الشك والارتياد والتفرق الذي لا يمكن تلافيه من خلال الامكانيات المتاحة.

والذين يودون تقصي الأمور، والتدرج معها، عليهم أن يسبقوا أحداث الحروب الخليجية إلى الأيام الأخيرة لـ«الشاه» وسقوطه، والسنوات الأولى للثورة الإيرانية، واحتدام مشاعرها، وخطابها المتعالي القائم على المفاضلة والتصدير، والدور الأمريكي في كثير من أحداث الشرق الأوسط، وشرق آسيا وإفريقيا، واقترابها جميعاً من الفشل. والمكسب الوحيد الذي حققته اللعب الكونية سقوط «الاتحاد السوفيتي»، وهو في نظري سقوط سبق وقته، وأربك أمريكا نفسها، ولم يمكنها من النهوض بواجبها بوصفها تمثل القطب الواحد.

لقد انعكس أثره السيئ على العالم العربي والإسلامي، بوصفه النائب الغبي، لتصفية حسابات عالمية، أثناء ما يسمى بـ«الجهاد الأفغاني»، كما انعكس الأثر ذاته على أمريكا، فهي التي تقنعت وراء الجهاد الإسلامي، وهي التي دعمته، وهي التي كمنت في داخله، متصورة أنها الكاسب الوحيد، ولكن الرياح هبت باتجاه معاكس فكانت أحداث «الحادي عشر من سبتمبر» نتيجة طبيعية لهذه المكائد. وحين هبت أمريكا لملاحقة من تصورتهم الجناة، لقيت في مواجهتها أفدح الخسائر المادية والمعنوية، ولا أحسبها قادرة في الزمن

القريب على استرجاع صحتها الاقتصادية وسمعتها وهيبتها. وذهول الصدمة: صدمة سقوط الاتحاد السوفيتي، وصدمة «الحادي عشر من سبتمبر» حولها إلى دولة نامية سيئة السمعة، تلاحق الإعلاميين، وتداهم الآمنين، وتتعدى على الحريات المكفولة بالدستور الأمريكي. وسقوط الدول يبدأ من أول طلقة طائشة غير محسوبة، ولأن العالم العربي والإسلامي غير قادرين على سد الفراغ الذي تركه المعادل فإن سقوط القوى لن يكون في صالح الأمتين العربية والإسلامية، وأمنياتنا ليست في تفكك أمريكا وسقوطها وإنما هي في وعيها للحق والعدل، وفي استفادة الأمة العربية من النكسات.

وتصور أمريكا أنها لكي تحكم قبضتها لا بد أن يكون لها وجود عسكري في كل موقع مؤذن بانهيارات عالمية، ستحول العالم إلى بؤر من الفتن، فالناس اليوم غيرهم بالأمس، والإعلام الذي يلاحق الحدث بالصوت والصورة في كل مكان، أعطى الإنسان المغيب من قبل فرصة للتأمل وتصور الموقف الإنساني، هذا التفكير العسكري أجهضة التفكير الدبلوماسي، وبدل أن تكتفي أمريكا بتبادل الكلمات الهادئة مع حلفائها وأصدقائها أصبحت بحاجة إلى تبادل القذائف مع الشعوب التي لن تقبل بوجودها، وفشل الممارسة السياسية تدفع الفاشل إلى ممارسة الحل العسكري، وعندها يبدأ العد التنازلي. وليس أدل على ذلك من انهيار السمعة والاقتصاد، وامتلاك القدرة على مواجهة أمريكا عبر المظاهرات والمقالات، وهو ما لم يكن مألوفاً من قبل.

هذه المآلات الموجعة آيات ونذر، أحسبها كافية لجمع الكلمة العربية، والقبول بالتنازلات، والاشتغال في المساحات المشتركة، وإعادة النظر في كل الظواهر، لتوفير التجانس، وتهيئة الأجواء، لتفاعل إيجابي، يحل الثقة محل الشك، والأمن محل الخوف. ولن تجتمع كلمة الأمة إلا بالرجوع إلى مصدر العز والتمكين «الكتاب» و«السنة».

إن إلى ربك الرجعى .. !(١)

لست أدري لماذا أصبح الموت في نظري سفراً قاصداً.

يقال لي: مات فلان.

ويقال: سافر فلان.

فكأن وقع القولين واحد لا يثير.

الموت آت كالساعة لا ريب فيها، ومن فرَّ منه، لاقاه، ولم يلحق به، وكل نفس ذائقة الموت، والذوق أمكن من الرؤية أو اللمس، والطامة أن تزهق الأرواح، وهي غارقة في الخطيئات.

والسعيد السعيد من مات موحداً لله، مطيعاً لرسوله، ساعياً في حاجات عياله، مخالقاً الناس بخلق حسن. وعندما نسمع بالسفر الأبدي، نتألم ساعة من نهار، ثم يأتي «الأمل» و«النسيان»، ليعيدا المفجوعين إلى الحياة الطبيعية. بنسيان الأم وحيدها، والابن البار والديه، والحبيب حبيبه. ولهذا قيل: أحبب وأبغض هوناً ما، فإنك مفارق. وعند فراق الأحبة، يحزن القلب، وتدمع العين، ولا يقول المؤمن الصابر المحتسب إلا ما يرضي الله. وتلك نعمة يمن الله بها على الصالحين من عباده، ومثلما نستقبل الولادات بالتهاني، نودع الوفيات بالتعازي. وهكذا الدنيا نزول وارتحال. وحين قضى الأمير «ماجد بن عبد العزيز» نحبه، ولم ينتظر، مس الجميع ألم الفراق، وتجلت محبتهم له عبر مظاهر العزاء والتأبين والتفجع، ومن خلال شهادة الخاصة والعامة بما علموه عنه ومنه، ومن دماثة خلق، وسماحة نفس، ورحابة صدر، وسعي في حاجات الناس، وتبسط معهم، وتودد اليهم.

وما تناقله الكتبة والمتحدثون، وأفاضوا به، يجعل المتابع أمام شخصية استثنائية واجماع الناس على حبه مؤشر زكاء وذكاء. وقدري أنني لم أكن قريباً منه، مقتدياً أو منتفعاً، ولا مخالطاً له، بل كانت صلتي به عرضية، يكون راعياً لحفل، ثم يكون لي شرف الحضور، ويتدافع المحتفون به للسلام عليه، فأكون واحداً منهم.

ويتحدث إلى المحتفلين أو المؤتمرين، فأستمع اليه، وهو يتحدث، وأستمع إلى الذين يتحدثون عنه، ممن لهم أكثر من مدخل عليه، فيكون حديثه حديث البشوش المتودد، الساعي في حاجة الأرملة والمسكين، ويكون حديث الناس عنه حديث المحب المعجب المرتهن لاحسانه، ومن وجد الاحسان قيداً تقيدا. وعرفت فيما بعد نجله الأمير عبد العزيز بن ماجد حين شرفت القصيم به نائباً لأميرها المتألق. وحين خبرت الرجل، تبين لي أنه سليل بيت كريم، لما يتمتع به من خصال حميدة، كسبته القصيم، ليكون عضداً لأميرها الممتلىء بالمسؤوليات الجسام. وكلما لقيته تذكرت مقولة لشاعر:

ومـــن يشـــابه أبـــه فمـــا ظلـــم

ومنذ أن عرفت الابن، عرفت الأب، ولم يخب توقعي، فلقد جاءت كلمات التأبين التي فاضت بها الصحف مليئة بالثناء والدعاء، ولم يقتصر الثناء ولا الدعاء على الذين احتكوا بالفقيد بوصفه وزيراً أو بوصفه أميراً لأقدس بقعة في الأرض، بل تجاوز ذلك إلى كل الذين كانت لهم حاجات في مواقع مسؤوليته، وكل الذين خالطوا خلطاءه، كانت النفوس مفعمة بالحب والتقدير، وما إن ترجل من المسؤوليات، وفرغ للاستجمام والعبادة، ثم بارح الفانية بعد حياة حافلة بجلائل الأعمال، نضحت الأواني بما فيها. ولقد صدق من

---

(١) تاريخ المقال: ٢١/ ٤/ ٢٠٠٣

قال: «موعدكم يوم الجنائز» و«الناس شهود الله في أرضه» لقد أوجب الله ثناء خلقه، وقبل دعاءهم، فلقد قال الرسول ﷺ عند الثناء والذم: وجبت.

والذين تدافعوا للثناء والدعاء لا يرجون العاجلة، وليس لأحد سلطان عليهم، لقد قالوا ما قالوا بمحض إرادتهم، والله أكرم من خلقه، فإذا هب الناس بالثناء والدعاء، وذلك كرم منهم، فإن الله أكرم منهم في المغفرة.

لقد لقيت شقيقه الأمير سطام وولديه مشعلاً وعبد العزيز في ساعة العسرة، والأمير المحبوب يغالب سكرات الموت، فكانوا مثال الصبر والاحتساب، يسترجعون، ويحتسبون، ولا يقولون إلا ما يرضي الله. ثم لقيتهم، ومعهم الأمير فيصل بن بندر الوفي دائما معزياً ومواسياً، فكانوا أمتن صبراً وأكثر احتساباً. والله الذي وعد الصابرين بالصلوات والرحمات والهداية أوفى بوعده، ومن أوفى بعهده من الله، وعليهم أن يستبشروا بصبرهم واحتسابهم الذي بايعوا به الله.

تعازينا الحارة للانسان السعودي: ملكاً وأميراً وشقيقاً ونجلاً، ودعاؤنا الصادق للراحل الكريم إلى الرب الكريم بالمغفرة والرضوان إنه ولي ذلك والقادر عليه.

الكبرياء العربية والجبروت الأمريكي في مأزق ... ! (١) [1]

هل وضعت الحرب أوزارها؟ بعد الصفقة أو الخيانة التي فاجأت العالم باختفاء الحكومة والجيش العراقيين معاً، وروضت جماح بغداد وأسقطت رهانات الإعلام المزيف للوعي، والواعد بأن العاصمة العراقية ستكون مقبرة للعلوج، أم أن هناك حرباً من نوع آخر، تكون أشد ضراوة وأفدح خسائر وأطول استنزافاً، تخوضها الكرامة العربية المجروحة، والكبرياء الأمريكية المهزوزة، حرباً لا يحسمها التفوق العسكري، وإنما تحتاج إلى سلاح الفكر وترسانة السلاح معاً متوقية لحمام المواجهات الموجعة التي ترقب الطرفين.

فالعرب بحاجة إلى موقف مصالحة بينية: بين الحكومات والشعوب، وبين الحكومات ونظائرها، وبين طوائف الشعب الواحد، يسمو بوحدة الشعب فوق العرقية والطائفية والإقليمية، جاعلاً مصلحة الأمة المفجوعة فوق كل المصالح.

وأمريكا بحاجة إلى موقف يطمئن كل الأطراف، ويزيل شبح الاحتلال ولغة الغزو. وهو ما لم يفعله الطرفان. لقد انحسرت الجيوش، واختفت المؤسسات، وغاض ماء الأمن، وطمست الحضارة والتاريخ والذاكرة، واقتيد العلماء إلى مخافر الاعتقال والتحقيق، وخضدت الشوكة، ونهبت غير ذات الشوكة، والتفت كل طائفة حول نفسها داخل إقليمها، تراقب الوضع على حذر، فيما فاضت المواجهات، واغتيلت المشاعر، وقامت المظاهرات المناوئة للمحتل، ودخل الناس جميعاً في صفوف الرافضين للوجود العسكري، واتخذ المناوئون خططاً، لا يمكن السيطرة عليها، لأنها تستمد وقودها من موقف الرفض المطلق لأي تدخل أجنبي، ولأي وجود عسكري، متخذة آلياتها من الفداء والمقاومة والمظاهرات. ولا أشك أن جيوش التحالف سيتعرض أفرادها لقنص أو تفجير أو انتحار، فيما يتعرض الشعب العربي لقتل جماعي، وحرب نفسية، واختلال في الأمن وتجويع مفتعل، ولن تلوح بوادر الانفراج في المنظور القريب، وعمليات التصدي والتحدي والصمود تؤزها كرامات مجروحة، لا يبلسمها لا العمل الاستشهادي، من فتية يرجون من الله ما لا يرجوه طالب العرض الزائل، وهو ما لا نريده، وما لا نود اللجوء إليه، وإن كان آتيا لا محالة، متى استمرت المكائد بهذا الحجم، وبهذا العنف، والمفادون والفدائيون في مواجهاتهم الموجعة والمخلة بكل الموازين، لا يقتصون للحكم البائد، وإنما يدافعون عن كبرياء مأزومة. والشعوب العربية قد تخضع لحكومات مستبدة، ولكنها لن تسلم مقاليدها إلى مستعمر أجنبي. وليس ببعيد أن تمارس دول التحالف تجييش النعرات، وأن تستزل الطائفيات، وأن تصنع الزعامات، ليعود العراق إلى حمامات الدم من جديد، إذ ما زال في اللعب بقايا، والعراق كهشيم المحتظر، سماؤه كالمهل، وجباله كالعهن، وأهله في ذهول، حتى لا يسأل حميم حميما. ومن الخير للطرفين البحث عن مخارج أخرى تجنح للرفق، وتحفظ ماء الوجه، وتبقي على شوارد الأمن والأنفس والأموال والثمرات التي أفناها كرّ التآمر. وعلى أمريكا ومن معها - والحالة تلك- أن يسارعوا بالعودة إلى بلادهم، وليأخذوا توصيات المؤتمرين في الرياض مأخذ الجد، فأهل مكة أدرى بشعابها، وتوصياتهم معقولة، بحيث لا تتجاوز التأكيد على: وحدة العراق، وأمنه، وتسليمه لأهله، وتمثيل كل طوائفه، وتبرئة سوريا مما وجه إليها من اتهام، يرمي إلى تهيئتها لمواجهة لاحقة، أو يشغل الرأي العام عما يُفعل في العراق. وليس هناك ما يمنع- وقد سقط صدام حسين- من أن ينزع سلاح الدمار الشامل، إن كان ثمة ترسانات في جوف الأرض، وعندها تنتهي

---

(١) تاريخ المقال: ٢٩/ ٤/ ٢٠٠٣

مبررات الغزو وحيثياته، وجيوش التحالف حققت كل الذي جاءت من أجله، وليس لها بعد هذا إلا الرحيل. وإن كانت ثمة أطماع أخرى، فإنها لن تتحقق بالثكنات العسكرية، ولا بالحاكم العسكري اليهودي، ولا بالإرغام على الاعترف والتطبيع مع العدو الصهيوني. والحسابات بهذا المستوى دخول متعمد في دهاليز المقاومة العنيفة، وصناعة متعمدة للإرهاب الشرس، مع سبق الإصرار. لقد خرج العراق من مأزق مظلم بسقوط حكومته، حكومة الحزب الواحد والرجل الواحد، وارتكس في مأزق أشد حلكة بالوجود العسكري على أرضه. وعلى الأمة العربية والإسلامية أن تمارس واجباتها القومية والدينية في انتشال جثته من مستنقع الفتن، وعلى أمريكا أن تعرف أنها دخلت في نفق مظلم، لا تضيء عتمته الترسانة العسكرية، إن كانت بوجودها تريد أن تظل لإعادة صياغة الشرق على عينها، فإن هذه المغامرة ستحول المنطقة إلى بورة فتن، تدمر نفسها ومن حولها، وعليها أن تنظر إلى ما فعله «شارون»الذي تصور أن الترسانة العسكرية قادرة على تركيع الشعب الفلسطيني.

ومما لا مراء فيه أن سقوط النظام شر أزيح عن كواهل العراقيين والكويتيين معاً، ولكن الفراغ الدستوري والوجود الأجنبي شر مستطير، وكم من متسائل يردد: - أشر أريد بمن في العراق أم أريد بهم رشد؟ هناك اختلاف غريب وعجيب في وجهات النظر، وفي قراءة الأحداث، هذا الاختلاف المتنامي يجتال الخطابات العربية: الرسمي منها والشعبي، وهناك إلى جانب الصخب صمت الخائف وترقب المرتاب وهناك تناقض في الرؤى والتصورات لا يحتمل، فمن محيل إلى السنن الكونية، ومن معول على الخوارق، ومن مراهن على جواد القوة، ومن حالف على جواد الإرادة، ومن مؤمن تقي، لا يفقه الواقع، ومن مادي شقي لا يقدر الأقدار ولا نقمة الملك الجبار، ومن متحدث عن الوجه المشرق لأمريكا، ومن متفائل بهذا الغزو. وليست هناك وسطية يتفيأ ظلالها المتعبون من تداخل الأطياف. وبوادر هذا التناقض والاختلاف. لا يبشر بخير، ذلك أن أصحاب القرارات المؤثرة لن يستدبروا هذا اللغط المتناقض إلى حد التناحر فقد يجدون فيه ملاذاً ومغارات، وليس من شك أنهم الأقدر على تعميقه واستثماره، والإعلام سلطة مؤثرة، لعب دوراً خطيراً في الحرب الخليجية الثالثة، مما اضطر أمريكا لضرب بعض مواقعه، واحتلت «الحرب النفسية» الصدارة. والحرب الباردة معادل قوي للحرب الساخنة، ومن استخف بالكلمة، أضاع فرص المواجهة المحكمة. والذهنيات الفارغة حين تشكلها الدعاية الرسمية أو المتطوعة تصنع العجائب. والحكومات الخائفة من الداخل والخارج لن تجد الظروف المناسبة لاتخاذ القرارات المصيرية، وستظل في حيرة من أمرها على حد: - «أمي وصلاتي» والأجواء العربية المكفهرة، غير مهيأة لاتخاذ قرارات مؤثرة، فلكل دولة شأن يغنيها، والاختراقات الصهيونية والغربية أجهضت كل المساعي الخيرة، والإعلام الموجه ليس بقادر على الاستبداد، والذهنية المشتتة ليست بقادرة على الفرز، ولسنا ببعيدين عن التعبئة الذهنية أيام «الجهاد الأفغاني» الذي استجاب لرغبة أمريكا، وأسقط بالنيابة عنها «الاتحاد السوفيتي» ولم تستطع أمريكا بعد أن لعب دوره من تفكيكه، حيث اتجه إليها بوصفها دولة معادية للحضارة الإسلامية. والفراغ الذي تشكل في أعقاب السقوط المفاجئ للحكم في العراق، واحتدام الجدل بين المعارضة العراقية في الداخل والخارج، واحتقان الطائفيات والعرقيات واضطراب الرأي العام، كل ذلك ومثله معه، يشكل مأزق بعضها فوق بعض كما الظلمات وهذه الحرب التي باركها قوم، واستبشعها آخرون، اعتزلتها «الشيعة» وآزرها «الأكراد» وبقيت دول الجوار تفكر، وتقدر، وتعد وتتوعد، وكل واحد من هؤلاء وأولئك يقول في داخله: - اللهم سلم سلم. هذه الحرب غير الشرعية، ستخلق

إشكاليات مستعصية، ولكل لعبة ذيولها الأكبر منها، وما «صدام حسين» إلا لعبة اختل تركيبها، فنمت نمواً عشوائياً، كما الأورام السرطانية.

إن باستطاعة أمريكا، وقد تمكنت من تفكيك ذيول اللعب أن ترضى من الغنيمة بالإياب، وتترك ولو مفحص قطاة للمؤسسات العربية والعالمية، لكي تسهم معها في صناعة الحكومة المعتدلة المتزنة الموالية، ولن تتخطى المأزق الحرج بالأثرة، ولكنها مع هذا لم تفعل، ولا أحسبها تفكر، لأنها لا تستطيع إشراك من لم يشاركها على المكاره، كما أنها لن تستطيع البقاء في العراق على مسمع ومرأى من الناس. فالعراقيون لن يقبلوا بالوجود الأمريكي، ولا بالحكومة «القرضاوية» المفروضة عليهم. ولن تجد أمريكا حاكما دموياً مسعوراً كـ «صدام حسين» يسوم العراق سوء العذاب. وأحسب أن حكومة يختارها العراقيون بمحض إرادتهم لن تكون مراعية لمصالح أمريكا في الشرق بالقدر الذي تطمح إليه، ويحقق حلم الصهيونية العالمية، والحكومة التي تشكلها أمريكا لن تكون مقبولة لا من العراقيين ولا من العرب، وأمريكا في تجربتها العادلة مع دول عربية ما يبعث على الأطمئنان، لو أنها اتخذت سبيلها إلى مصالحها بالتي هي أحسن متخلية عن مغامرات اليمين المتطرف.

والشائع مظهراً ومخبراً أن العرب بمجملهم غربيون وحتى في زمن المد الشيوعي الذي ظاهره إعلام متفوق، وكثافة بشرية، لم يكن أحد من العرب متشرباً للماركسية، وإنما كانوا متصنعين وإعلاميين، والذين اتخذوها شرعة ومنهاجاً، تحولت سوحهم إلى حمامات دم، وقامت بين فصائلهم حروب أهلية عنيفة، ساقتهم جميعاً إلى مزبلة التاريخ. ومن المسلمات أن:

-الاقتصاد العربي غربي رأسمالي.

-والمدنية العربية غربية.

-والهوى العربي غربي. وواجب أمريكا ألا تفرط بهذا المكتسب، الذي وضع بذرته «نابليون» وتعهدته البعثات والترجمات والمبشرون والمستشرقون والمستغربون. وعلى أمريكا ألا تميل إلى الأثرة، وألا تصيخ للأصولية والصهيونية، فالزمن لا يحفل بالعنف والعنف المضاد، وشركاؤها الأوربيون، لن يسلموا لها بالغنائم، ويعودوا بالمغارم، والموتورون منها، والخائفون من مخططاتها، سيدعمون أي مقاومة، والجيش المتفوق يرتبك أمام فوضى المواجهات، وأمريكا من قبل التدخل العسكري مستأثرة بالكثير من المصالح، وأصدقاؤها التقليديون أوفى منها، وأي تحول من طرفها، سيعكر صفو العلاقات، ومزيد المكاسب الذي تطمح إليه ستنفقه على حماية مصالحها التي لمَّا تزل مستهدفة. لقد دخلت أمريكا في مأزقها منذ أن جُرحت كبرياؤها في الحادي عشر من سبتمبر، ولما تفق بعد من هول الصدمة، وما من أحد قدَّر وقع الصدمة عليها، ولهذا استغرب الجميع تدخلاتها العسكرية، التي لم يجارها فيها أصدقاؤها الأوربيون.

وأوربا بوحدتها الإقليمية تنازع أمريكا الزعامة، وتقاسمها المصالح، لقد اختطت لنفسها موقفاً متزنا، قد يكون في صالحها. ثم إنها تحقق نجاحات إقليمية واقتصادية مذهلة، في تقاربها وتعاونها واتحادها، مما يشكل معادلاً قوياً، وشريكاً مؤثراً في الأحداث العالمية، ودول شرق آسيا تسابق الزمن في التحدي الصناعي الاقتصادي. وما لم تتدارك أمريكا الأمر، وتعتمد على قوة العقل والعدل، وتعد تحسين صورتها، وتطهير سمعتها، وما لم تفق من هول الصدمة فإن الفرصة الذهبية متاحة لأوروبا، وبخاصة بعد الحرب غير الشرعية التي خاضتها منفردة، وبدون غطاء قانوني، ولا أحسب العرب قادرين على مزيد من الصمت، ولا على مزيد من التهميش، وبخاصة حين يتفاقم غليان الشارع العربي، وحين تتعرض مصادر الثروة عندهم للخطر، أو حين تمتد اللعب إلى إنتاجهم

القومي ومصدر أمنهم الغذائي، ولا أحسب أمريكا قادرة على احتمال المتاعب التي تعرضت لها في سوح القتال، وفي المشاهد السياسية. وإذ يكون العراق مغدوراً يتشحط بدمائه، ويغالب سكرات الموت، فليس من المعقول أن يظل العرب بكل مؤسساتهم وبكل أرصدتهم القومية التي أتخمونا بها خارج الحدث، وتلك لا شك مآزق محرجة لكل الأطراف. فأمريكا تضع يدها على الزناد، وليس لديها فرصة لتداول الرأي مع الآخر، والعرب مصابون بوهن الفرقة وفشل التنازع، والوضع القائم لا يمكن احتماله. فمن الذي يملك المبادرة، لإقالة العثرات، وفك الاختناقات، وتجاوز المآزق المتنامية؟ هذا الخيار بحد ذاته يعد مأزق المآزق.

الكبرياء العربية والجبروت الأمريكي في مأزق .. ! (٢)[1]

وأطراف الإشكالية: الغرب، والعرب، والعراق، ومن ورائهم أطراف أخرى، تتمثل بما بقي من العوالم: الإسلامية والغربية والشرقية، ودول الجوار، كل أولئك يعيشون حالة من التوتر والترقب الحذر. وليس أحد منهم بقادر على فك الشفرة، فكل شيء بعيد قريب، والمحير سقوط الحكومة، واختفاء رموزها، ثم تساقطهم الواحد تلو الآخر، وإلحاح بعضهم على الاعتقال، لحقن دمه، وعدم الرغبة الملحة في العثور على سلاح الدمار الشامل ورأس الفتنة. وإذ يغيب الطرفان المشرعنان للحرب: رأس النظام والسلاح، أو يغيبان، تظل المأزقية قائمة، ويظل معها الناس في أمر مريج، ولن يجرؤ أحد على إثبات ما لم ترد الرؤوس المدبرة إثباته، وإذا كانت أمريكا تعيش سكرة الانتصار العسكري، وذهول الصدمة «السبتمبرية» فإن الوقت ساعات حبالى يتمخضن عن مفاجآت معضلات، وستكون يوماً ما أحوج ما تكون إلى من ينتشلها من مستنقع الفتنة، ويخفف عنها أعباء المسؤولية الجسيمة. فملء الفراغ الدستوري الذي خلفه غياب السلطة في العراق بالشكل المقبول عزيز المنال، وإعادة القدر الكافي من البنية التحتية التي دمرتها ثلاث حروب شرسة، وديون العراق التي نيفت على مائة مليار دولار، لاتحتمل المزيد من الالتزامات. ولن تنفرد أمريكا بملء الفراغ، وإعادة البناء، وحل إشكالية الديون، وأصدقاؤها الذين لم تُطع لهم أمراً في الشأن العسكري، لن يكونوا معها كما تريد في شأن الإعمار وفك الأسر على الأقل. وفوق هذا وذاك فإن العالم بأسره يتجرع مرارة حربين شرستين، أدتا إلى إسقاط عقيدتين: فاحتلال العراق للكويت، أسقط رهان (القومية العربية) وحرب أمريكا الخارجة على الشريعة، أسقطت رهان الحرية والعدل و(الديمقراطية الغربية.

-العرب فقدوا مصداقية: القومية.

-والعالم فقد مصداقية: العدل والحرية و(الديموقراطية).

وبقي ركام الكلام الذي قاله المفكرون القوميون عن حتمية العقيدة القومية، وركام الكلام الذي أطلقه المستغربون عن إنسانية الحضارة الغربية وعدالتها، دونما قيمة.

وأدرك المتهافتون على سرابيات الحضارة الغربية أنه أسقط في أيديهم، وانقلبوا خاسرين، والطرفان: الغرب والشرق ستكون أمامهما خيارات، كل واحدة منها أعقد من الآخر، ولابد لهما من لغة إعلامية مطمئنة، لا لغو فيها، ولا تأثيم، وتحرف سلطوي دستوري متوازن، يعيد المشاهد كافة إلى سواء السبيل، ويحقق أدنى حد من المعقولية والمصداقية. وكل من استعاد لغة الأمس، متصوراً أنها ستفعل فعلها السالف، سيمنى تحرفه بالفشل، ذلك أن العذاب المستطير الذي تجرعته الشعوب العربية، كشف لها زيف اللغة الإعلامية، ومحاولة تشفير الذهنيات، لتقبل الواقع المرير، لم يعد أمراً هيناً، لقد سقطت كل الأقنعة، وتعرت كل الزيوف، ولم تعد الأذن العربية مهيأة لقبول كل مايقال.

وإذ تكون تلك الحرب الخارجة على الشرعية بتدبير ومكيدة ومباركة من اليهود الذين ينتابهم الذعر، ويحسبون كل صيحة عليهم، وبتنفيذ متسرع وغير مسؤول من دول كبرى، وقعت تحت تأثير الأصولية اليمينية المتحزبة على الأمة، فإنها تذكرنا ب (غزوة الأحزاب) التي تنادى إليها كفار الجزيرة العربية من الشمال والجنوب والشرق والغرب (قريش) و(بنو سليم) وقبائل (غطفان) و(بنو مرة) و(بنو أشجع) و(بنو فزارة) و(بنو أسد)، وإذا كانت الآيات هي الآيات، فإن الرجال غير الرجال، ومثل هذا التكالب

---

(١) تاريخ المقال: ٦/ ٥/ ٢٠٠٣

المتعجرف المتغطرس قد أعاد التاريخ، فإنه سيترك ظلاله القاتمة المأزومة على الذهنية العربية المشلولة، مشكلاً عقبة في طريق الحلول المجحفة التي يتأبطها صناع القرار، ودافعاً إلى مزيد من العناد والمغامرات والانفجارات، مشكلاً مزيداً من الأزمات الطاحنة. والأمة العربية التي أخرجت الاستعمار (البريطاني) و(الفرنسي) و(الايطالي) بملايين الشهداء، لن تقبل به آتياً تحت أي مظلة، وسوف تكون مستعدة بدفع الثمن مضاعفاً، وسيطفو على السطح في ظل هذه الممانعات لاعبون تحركهم الثارات، وليس هناك مايمنع المقهور من أن يتحالف مع الشيطان، ولا أحسب المؤسسات السياسية بقادرة على التحكم بالرأي العام، ذلك ان الامتعاض الذي فاض معينة، لن يكون من السهل ترويضه، ولن يكون للاستعمار موطىء قدم مرئي، ما لم يمكن له طرفا القضية: السلطة والأمة. وكل منهما وجل من الآخر، وحتى لو خدمت الظروف العائد الجديد، فإن الثمن سيكون باهظاً على الطرفين. والأهم من كل هذا وذاك وعي النخب الذين غنوا للقومية العربية وللحضارة الغربية معاً، ثم فوجئوا بغدرهما، هل سيتحرفون لتجاوز عقابيل الإخفاقات. ومما لاشك فيه -ومن خلال المنظور القريب - أن الذين خاضوا الحروب، وخسروا الرجال والأموال والسمعة، لن يرضوا بالحلول الوسطية، التي تحق الحق، وتبطل الباطل. وكيف لعربي أن يحلم بالإنصاف، وهو غارق إلى أذنيه في وحل المكائد الصهيونية، والأطماع الغربية، التي استغلت الضعف والتخلف والتفرق، وقوت من جانب الطابور الخامس. والحكم البائد في العراق الذي شرعن بتصرفاته المناقضة لأبسط الأعراف لكل مكيدة، راح ضحية صلفة وجهلة بأبجديات السياسة. والمأزق الأصعب في إمكانية عودة البقية من كل الأطراف المحتقنة بكل قابليات الانفجار من: معارضين وطائفيين وعرقيين إلى الصف العربي، لبدء رحلة شاقة، تضمد الجراح، وترأب الصدع، وتجمع الشتات، وتمكن العراق من أخذ مكانه الطبيعي، محتفظاً بوحدته الإقليمية وتجمعه البشري. ومن تصور أن سقوط النظام العراقي يعد نهاية المشكلة فقد وهم وأوهم. الخطوة الأولى في الطريق إلى الهاوية اختفاء العصابة الظالمة، التي أذاقت الشعب مر العذاب، ثم جاءت الصاخة، على يد قوة أجنبية أمطرت الشعب العراقي بوابل من الحمم، أحرقت الأرض، وشوت الوجوه، وتعمدت طمس الذاكرة والتاريخ والحضارة. وقدر الأمة الأتعس وقوعها تحت قيادات تحرض على نفسها، وتثير اشمئزاز الآخرين، وتحملهم على قمع كبريائهم الفازعة المصطنعة، وحين يجد الجد، تتخذ تلك القيادات من الشعب الأعزل دروعاً بشرية، تختفي وراءه، هذه الظواهر غير السوية تؤزم الأزمات، وتضع الأطراف في مآزق حرجة. وفي لجة المشاكل وعتوها فإن هناك تصورات للأحداث متباينة، وقراءات متعددة لتداعيات الحروب الأهلية والحدودية والتحريرية، لو صدق أكثرها تفاؤلاً، لكانت كارثة تواجه الأمة العربية. ومهما حاولنا محاصرة التشاؤم والقلق، فإننا لا نستطيع الإغماض على أهداف مخيفة، يلوح بها المعنيون والمراقبون، وتزحف بها فلول الأحزاب البائدة. وتحت وابل الضربات المتلاحقة، وتتابع المكائد العظيمة، واللعب المكشوفة، فإن الأمة العربية لما تزل في حالة من الذهول والارتباك، ولم تتخذ أي موقف جاد، يخفف من المعاناة، ولما تلح في الأفق بوادر وفاق، يضع كل المشاكل تحت الأقدام، ليمكن الأمة من مواجهة قدرها المأزوم بروح جماعية متفائلة، وأسلوب موحد، ذلك ان ذيول الحرب الشرسة ستنسحب على كل مصالح الأمة، ولاسيما أنها تعيش على حافة الانهيارات الاقتصادية والأمنية. فالأزمات مستفحلة، والجبهات الداخلية مأزومة، والعنف على أشده، والخطابات متناحرة، حتى لاتكاد تجد رجلين على قلب رجل واحد، والغرب القادم على مطايا القوة، له أطماعه ونواياه المخيفة، التي لا تواجه بمبادرات فردية، ولا بقرارات فورية.

فالحرب التي تولت كبرها أمريكا، لايمكن ان تكون تطوعية، ولا إنسانية، وليست وقفا على تحرير العراق، وتدمير السلاح. والمليارات التي استنزفتها تلك الحرب، لن تتحملها الخزينة الأمريكية وحدها. والتحدي السافر للشرعية الدولية، وتقديم القوة العسكرية على القوة القانونية، لايمكن ان تحرض عليها أسلحة الدمار الشامل، ولا دكتاتوروية (صدام)، فكم في العالم من أسلحة مدمرة، وكم فيها من حكام ظلمة، ولاشك ان وراء الأكمة ما وراءها. وإذ نكون سعداء بسقوط النظام العراقي، لما يشكله من أعباء على المنطقة الخليجية، وعلى الأمة العربية، فإننا لا نرى ممارسة الوصاية، ولا أن تتولى دولة كبرى عملية إسقاط الحكم، وحين لا نختلف حول النوايا والمطامع، فإن الأمر يتطلب من المعنيين تصرفاً حكيماً، بعيداً عن المثاليات والعنتريات والغوغائيات، وهو ما لم تهيئ الأمة العربية نفسها له، ولا قيمة للمزايدات التي نسمعها بين الحين والآخر، على مستوى الزعماء السياسيين أو الحزبيين أو الدينيين، فلقد سمعنا الكثير الكثير، ودخلنا في رهانات خسرناها، قبل أن يجف المداد، وكم زايد على المثاليات من لاينطوون على مثمنات، ومن يمتلكون أكثر من نافقاء، حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، نفذوا بجلودهم، تاركين الأبرياء يتجرعون مرارة المجازفات والمغامرات المجنونة، وذلك ما يفعله الجهلة المتهورون، والأضوائيون المفوهون، وأدعياء المواقف، ممن لايحسنون صنع القرارات، ولاتنفيذ المخططات، ولا فقه الواقع، ولا احترام المصداقية. لقد كان بإمكان العراق في الحرب الثانية أن يخرج من الكويت، مفوتاً على العالم بأسرة الضربة القاضية، ولما لم يحسن التصرف، وهو كذلك منذ أن خلقه الله، فقد دمرت ترسانته، وأحرقت أرضه، واقتيد كما السائمة إلى خيمة في (صفوان) ليوقع على بياض، ملتزماً بما لايقدر عليه من غرامات، قابلاً التجرد من كل سلاح مرهب أو رادع، وهو قد فعل أسوأ من ذلك في الحرب القاضية، وقد يفعلها غيره. والأمة العربية وسط هذه النكبات والنكسات، تعيش حالة من الغياب، أو التغييب، فالدول الكبرى تتداول وضع العراق، فيما بعد الحرب، وكل دولة أوروبية تتقدم برؤيتها أو تحفظها أو اعتراضها. وكأن العراق غنيمة أو فيء يقتسمه المجاهدون في سبيل الحضارة الإنسانية والحرية، والدول العربية ليس لها أي دور في عراق ما قبل الحرب، ولا فيما بعده، وجامعتها تصارع ذاتها، وتعيش حالة من التوتر، وخلافها مع بعض الدول الأعضاء، حفزهم على الامتناع عن دفع حصتهم، وهي مع هذا الوضع الطارئ في أحلك الظروف، لا تستطيع أن تكون شريكاً في تقرير المصير العراقي، وكيف لها أن تفكر، وهي بعد لم تقرر مصير نفسها. وغياب الأمة ومؤسساتها، واكتفاء كل دولة بتصريح استهلاكي، لايسمن، ولايغني من جوع، يشكل مأزقاً حرجاً، والمأزق يشتد ضيقا حين لا تلوح في الأفق بوادر وفاق عربي مؤقت، يدفع بكلمة واحدة، تحمل الحلفاء على التفكير بحل يقترب من الإنصاف، ولايكونه. ومع الويلات المتلاحقة، فإن الحلفاء الذين دمروا الآلة العسكرية والبنية الاقتصادية في العراق، أشعلوا فتناً عمياء، سيكون لها مابعدها، فمن سيحكم العراق؟ وبماذا سيحكم؟ - وذلك موضوع قادم-. وفي بؤرة التوتر، وعلى حافة الهاوية، يجب على أمريكا ان تفعّل دور العرب، وأن تكرههم على أن يؤدوا أيسر الأدوار، لتهدئة الشارع العربي، وليس هناك ما يمنع من أن تتقنع بهم، لتجتاز بالمنطقة ويلات (اللاسلم) و(اللاحرب)، وعلى العرب ان استؤمروا، أن يمارسوا الوسطية، وأن يجنحوا للسلم كافة، وان يعطوا أمريكا شيئاً من الثقة والاطمئنان، فالواقع المرير لايحتمل المزايدات الكلامية، ومنطقة الخليج لا تحتمل حرباً رابعة، وحين نستبعدها، فإن أمريكا لن تجد بداً من ممارسة الضغوط الاقتصادية، وتحريك العبوات الناسفة من مشاكل: طائفية وحدودية، وحزبية، وبخاصة ان الأوضاع القائمة في المنطقة العربية قابلة للاشتعال، والإشكالية، بل أم المشاكل على سنن (أم المعارك) و(أم القنابل)،

تكمن في تحديد المآزق، ووضع الحلول المرحلية المناسبة، وتنكب المزايدات، وتوعية الشارع العربي، والكف عن تملقه وتخديره أو تهييجه، والتحرك وفق السنن الكونية، لا وفق الخوارق، فالله جعل النار برداً وسلاماً على (ابراهيم)، وفلق البحر (لموسى)، وأخرج (يونس) من بطن الحوت، و(يوسف) من غيابة الجب، وسخر الريح (لسليمان) وأمد (محمداً) بالملائكة المردفين، ونصره بالرعب، وهو القادر والقاهر فوق عباده، وليس الجبروت الأمريكي بمعجز في الأرض، والله وعد بالدفاع عن الذين آمنوا، ولكن أحداً من المغلوبين لم يفرّ إلى الله، ولم يدخل في الدين كافة، ليتعرض لنفحات الله، وإذا أصاب الأمة قرح، فقد أصاب عدوهم قرح مثله، وتلك الأيام يداولها الله بين الناس، فهل نحن فيما نحن عليه مؤهلون لمدد الله؟ وهل استكملنا العدد والعدة، إن علينا التفكير بخطاب يعلم، ولايزيف، ويؤلف ولايفرق، ويطمئن ولا يهيج، ويعطف الخصوم ولاينفرهم. الأمة العربية تنطوي على إمكانيات مهدرة أو مهملة، وأمريكا تمتلك قدرات متعددة، وهي إذا قالت فعلت، ومن واجبنا أن نقدر ونوقت، وأن نكف عن خطاب المزايدات والمواقف الزائفة.

البابطين في ضيافة الصالح .. ! [(١)]

عهدي برجل الأعمال عبد العزيز البابطين يوم كنا محظيين عنده نحضر تظاهراته الثقافية في دمشق والقاهرة والكويت، وبعد أمة سكنت الرياح وما عدنا نسمع الا اخبار مبادراته الايجابية التي نحمده عليها ونغبطه على ايْسرها ونود لو ان رجال الاعمال في بلادي اتخذوه قدوة وبعضهم يفعل فوق ما يفعل ولكننا نطلب المزيد.

والبابطين الذي يكرمه الاستاذ الكبير والمربي القدير الشيخ عثمان الصالح كأنه علم في رأسه نار، يعرفه المسكونون بهم الثقافة والادب لاسهاماته الايجابية في خدمة الفكر والثقافة، ومع اننا نود ان يكون اكثر انفتاحاً واوسع استيعاباً لمختلف الخطابات ونحرص ان يعدل في الظماء فاننا نثمن جهوده ونقدر عطاءاته، ونعد هذا مؤشر تحضر ووعي والذين يعنيهم الشأن الثقافي ليسوا بحاجة إلى من يذكر طرفاً من انجازاته على كل المستويات الثقافية والفكرية والادبية، غير اننا ومن باب شد ازره نبدئ ونعيد اطرافاً من اسهاماته التطوعية، وكم نود لو كان فيما يعمل قدوة للمترددين من أصحاب الدثور.

لقد هاتفني الاخ الكريم الاستاذ بندر بن عثمان الصالح لتأكيد الدعوة التي بعثها متفضلاً ومناشداً ان اشارك في الحديث عن الضيف ومنجزاته المتميزة لعلمه انه يهمني الشأن الثقافي، ولما لم اكن قادراً على حضور هذه الاحتفالية فقد حرصت على الا تفوتني المناسبة ولو بكلمة من بعيد.

والاديب الاريب عبد العزيز بن سعد البابطين له علينا حقوق كثيرة فهو الشاعر الرفيق، الذي اصدر ديوانه الاول «بوح البوادي» واسهم في خدمة الشعر العربي الحديث بموسوعته التي تشكل مرجعية للباحث العربي، ولما نزل نرقب مزيداً من الموسوعات، ومزيد من الشمولية في خدمة الادب العربي، فلقد قيل لي بأن مؤسسته تهتم بجانب منه ولما يتحقق لي ذلك، ورجل كريم مثله يجب ان يكون مشرع الابواب متعدد الاهتمامات حفياً بكل كلمة شعرية أو أدبية تخدم أدب الامة.

الشيء الذي اسعدني كثيراً اهتمام المشاهد الادبية والفكرية والاكاديمية به ومنحه الشهادات والاوسمة وتنظيم الحفلات التكريمية تقديراً لجهوده، ويأتي تكريم الصالح له حلقة في سلسلة التكريم الذي يلقاه من مؤسساتنا الثقافية والتعليمية.

ما اود الاشارة اليه وقد طالت افضال الرجل مواقع كثيرة ان يهتم بأشياء من اهمها:

اولاً: الترجمة فالعالم العربي يفتقر إلى مؤسسات اهلية أو حكومية للترجمة وما هي الا جهود فردية مبتسرة.

ثانياً: «المصطلح» العالم العربي يعيش حالة فوضوية في تلقي المصطلحات وترجمتها وقد يكون للمصطلح اكثر من تعريب أو ترجمة أو نقل. ولو وضع للمصطلح مجمع أو مركز معلومات وطلب من ذوي الشأن والمهتمين بشأنه الوفود اليه والانطلاق منه، ولقد كان المصطلح ولايزال اشكالية المشاهد الفكرية.

ثالثاً: التشرذم الفكري والسياسي والادبي والثقافي والدخول في مآزق الصراع والتنازع، والمشاهد المضطربة بحاجة إلى جهود جماعية توسع ارضية القواسم المشتركة وتسهم في التقليل من حدة التنازع. ولقد فعلها الامير الشهم خالد الفيصل بمبادرته الانسانية «مؤسسة الفكر العربي».

والامل معقود على لداته وامثاله ليهتبلوا مبادرات مماثلة تسهم في لم الشمل وجمع الكلمة ورأب الصدع والعودة إلى مرجعيات الحضارة الاسلامية والانطلاق منها فهي

---

(١) تاريخ المقال: ١٢/ ٥/ ٢٠٠٣

وحدها القادرة على معالجة المشاكل القائمة .. ولقد طاف المفكرون العرب في كل آفاق المعرفة، وجربوا كل المبادئ فكانت القوميات والعلمانيات والحزبيات ولم يبق الا ان ينسوا جراحات الماضي ويفتحوا صفحة جديدة تسهم في تضميد الجراح وجمع الكلمة ولا احسبهم جميعاًً الا صفوة الصفوة ولن تجتمع كلمتهم الا على مصادر الثقافة والحضارة الاسلامية فهي وحدها القادرة على تلافي ما فات.

تحية حب وتقدير للضيف العزيز وشكر وثناء لمن ناب عن الجميع في تكريم كفاءات الوطن العربي.

قل: هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة .. ! (١) [(١)]

الحالة الراهنة في الوطن العربي حالة استثنائية قلقة، لا تحتمل أنفاساً كريهة، ولا تنقيباً عن نوَّم الفتن، وإنما تقتضي تحامي مناطق التماس، وتوقي مكامن الإثارة، وتحتم استدعاء القواسم المشتركة، والعمل على تقوية الروابط من خلالها، والعفو والصفح، وتجافي المحظور والمسكوت عنه، والكف عن النيل من أقوام بأعيانهم، تغليباً للمصلحة المرحلية، ولماً للشمل. ومثل هذه الظروف الضاغطة مجال خصب للانتهازيين، الذين يبيّتون مالا يرضى من القول. وحين يجازف الفارغون من فقه الواقع، والمفتقرون إلى أدنى حد من الثقافة الشرعية في اقتحام الحمى، والخلط بين مواجهة المبادىء والإجراءات والوقوعات، ينتفض الرأي العام، المحتقن من ضغوط الواقع، وينتقض غزله، ويتفكك ترابطه، متصورا أن مثل هذه المفرقعات الفارغة قادرة على تحويل المسار، وما هي في حقيقة الأمر إلا تجشؤات من فراغ، لا تقدم، ولا تؤخر ولكن كيف يتأتى لك إقناع الرأي العام، وتبشيره بطول السلامة كما «مربع»؟ وفي ظل التداعيات المزعجة، يحس المقتدر أن التوتر وردود الفعل الانفعالية قد بلغت حداً لا يحسن معه السكوت، ومن ثم وجبت الموعظة: إما للهداية، أو للمعذرة، على حد ﴿مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤] ومع هذه الزوابع الكلامية، التي تكاد تحجب الرؤية، ترددت كثيرا في مقاربتها، لأنها زوابع مترببة، اختلط فيها الجد بالهزل، والحق بالباطل، واللغو بالسَّبِّ، ومما صعد الشعور بالتردد أن تجربتي مع ذات الكتبة البائسين بؤس مراميهم تجربة سيئة، لا تشجع على مزيد من المقاربات، غير أن ترك الثنيات يتسلل منها الخائضون في سمعة الأبرياء والمتحرشون بالمبادئ بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير إغراء بمزيد من التجاوزات، وكم كان بودي توفر الأجواء المناسبة للحوار المهذب، لنصل بقضايانا إلى بر الأمان.

ومما حفز على القول تنادي الأشباه والنظائر، واتخاذ بعضهم بعضا ظهرياً لمنع المدافعين عن أنفسهم، على الرغم من لغطهم بحرية الرأي، وتكافؤ الفرص، وذلك عين المقت. ومع كل المحاذير والتحفظات، يظل رد المسيئين لغيرهم من الأناسي والقضايا على أعقابهم واجباً عينياً لا كفائياً، وبخاصة حين تمتد الأذية للمبادىء. وإذا قوي المرتاب بارتيابه، فإن على صاحب اليقين ألا يضعف بيقينه. ومتى بادر المهتاج الأعزل إلى النيل من قناعات المقتنع مبتدئاً تعديه، ولم يتهيب من جرح المشاعر، وكان المتأذي قادراً على دفعه، تعين ذلك، ولكن بالتي هي أحسن، دون الإحالة إلى ما يسيء إليه، ودون النفي المتعمد له، أو مصادرة حقه في البرهنة عن وجهة نظره، إذ إن مطارحة الأفكار حق مشروع، ولا يتحصحص الحق إلا بالحوار المتوفر على برهانه وآدابه ودواعيه المشروعة. مع استشعار أن الخطأ ابتداء، لا يحمل على الإدانة. وأن الإصرار عليه بعد ما يتبين وجه الصواب، يقتضي ممارسة الحق السلطوي، فالناس لا يستقيم أمرهم مع الفوضى. ومن تصور أن حرية الرأي تبيح الخوض في كل شيء، والإيغال في أعراض الآخرين، وجب تعليمه بالطريقة التي يفهم من خلالها.

فقسا ليزدجروا ومن يك راحماً
فليقس أحياناً على من يرحم

---

(١) تاريخ المقال: ١٣/ ٥/ ٢٠٠٣

ومن مات، وليس في رقبته بيعة، مات ميتة جاهلية، وتحمل البيعة تحمل لتبعاتها، ولهذا سميت الولايات بالسلطات، والإيمان بالعقيدة وهي عقد. والواقع في الخطيئة: جهلاً وتأولاً وتعمداً وإصراراً، للمجادلة معه ثلاث حالات:

فإما أن يكون طالب حق، لم يهتد إليه، ومن واجب المجادل أن تهديه سواء السبيل.

أو يكون طالب باطل مصراً عليه، مدركا خطورته أو غير مدرك، ومسؤولية أهل الذكر والحل والعقد أن يبينوا له خطورة مطلبه، فإن امتثل وإلا وجب على السلطة رده إلى الجادة.

أو يكون عاشق أضواء، يريد ان يكون حاضر المشاهد، وحديث المجالس، متقناً انتهاز الفرص المواتية، مستغلاً الظروف العارضة، وواجب الناصحين أن يخاطبوا الدهماء الذين يخلقون بالتفافهم حوله بطلاً زائفاً لا قيمة له، لينفضوا من حوله.

وأيا ما كان الأمر، فإن طائفة من الكتبة يتقنون لعبة الإثارة والقفز إلى بؤر الأضواء، وليس يعنيهم ما يقال بحقهم، ومثل هؤلاء لا يتورعون من الرتوع في الأعراض المصونة، ولا يعفون عن العناد والتعدي والإيذاء، لفقدهم المثمنات واستسهالهم الهوان، والمتعقب لما تتداوله صحف الإثارة من اندفاعات فجة في الدين والسياسة والفكر والأدب والثقافة ينتابه الخوف. فالمشاهد حفية بكل متقول لا يهاب يوم الحساب.

ومشاهد الفكر والسياسة والدين لا تصلح فوضى لا ضابط لها، وتقحم الجهل والمبتدئين، وأنصاف المتعلمين، ومثقفي السماع إرباك لمسيرة الحياة الفكرية، والواقعون تحت طائلة الأمية التخصصية، يهرفون بما لا يعرفون، ويعولون على نخبوية خاوية، وفهم سقيم للحرية.

والمشاهد الإعلامية لا تخلو أبدا من أناس يستعذبون إثارة الرأي العام، وشد انتباهه، وإرباكه، وذلك بالخوض في مسلماته، دون مصلحة مرجوة، كما لا تخلو من دعاة على أبواب جهنم حذر منهم رسول الهداية. والموغلون في المواقع الحساسة، يعرفون حجم الإساءة، ولكنهم ك«الساديين»الذين يلذ لهم التعذّب والتعذيب، والخطورة أنهم كالمستهمين على السفينة، إن تركوا يخرقون في نصيبهم غرق الجميع. والمهتم بالمثمنات والقيم، يسوؤه أن يخوض فيها من لا يقدرها قدرها، ومن لا يقتدي برسول الهداية واللين والرفق، المراعي للرأي العام، المتجنب لإثارته، والمبقي على المفضول إيثاراً لتهدئة الأمور، وقد فعلها بأبي هو وأمي، حين دخل مكة. والذي لا يعرف خطورة الإثارة، ولا يخشى عواقبها، يظل ناقماً ومنقوما عليه، ولما يزل تتخطفه صحافة الإثارة وقنوات الضرار، معولة على حرية التعبير، وحرية التعبير تتحقق فيما دون القطعيات والثوابت، وفيما دون المعلوم من الدين بالضرورة، وبئست حياة يكرهها شهود الله في أرضه، ويكرهون انبعاثها، وكفى بالمرء عيباً ألا يعرف حدود حضارته، التي هي في النهاية حدود الله، ولا يمكن تصور حضارة أو سلطة بدون خطوط حمراء، ومن تصور الحضارة والحرية بدون حدود فقد ضل سواء السبيل. والتعدي على الحرمات تحت مظلة الحرية، تحفز المهتمين بأمر الجماعة إلى ركوب المكاره، وليس ما أكتبه قصراً على من قال في شأن «الدعوة والدعاة» بغير علم، ولكنه تصد لظاهرة تزداد يوماً بعد يوم، باسم حرية التعبير وحقوق الإنسان، كما تراها الحضارة المادية والمفوضون إلى العقل.

وما أكثر الكتبة الذين يخوضون في قضايا الدين، ويتجرؤون على الفتيا، وينصبون من أنفسهم قادة فكر وأهل ذكر، ولما يعرفوا النص واحتمالاته: الدلالية والثبوتية، أو قطعيتها، ولا قواعد الفقهاء وآلياتهم الاستنباطية، وليس لهم من شفيع إلا أنهم حملوا الشهادات العالية، أو تذبذبوا بين الإيغال في الدين والسياسة بدون رفق، ثم نكصوا على أعقابهم، وبهذا الاضطراب أو الجهل فرضوا أسماءهم كتابا مسموعين، وهم أجهل الناس

فيما عدا رسيس تخصصاتهم، وأقلهم وعياً بنواقض الإيمان، ومقتضيات الحضارة التي ينتمون إليها، وأضعفهم فقهاً للواقع. ولهذا تراهم يثورون، ويثيرون، وحين تناصحهم، وتبين لهم إن الذي قالوه محض افتراء، وفرضيات مؤذية، وتعد على الثوابت، يتحرفون لمقولات جاهزة، كالتجهيل والوصاية والمزايدة، ويتحيزون لمشايعيهم كشاعر غزية، معولين على رغبتهم في الإصلاح، وما هم بمصلحين، فالمصلح الناصح يتثبت من الأنباء، ويتبين دقائق الحقائق، ويتحامى إثارة الرأي العام.

ولقد شهد أحدهم بمحض إرادته، معترفاً بمئات الاتصالات، وعشرات الكتابات الناقمة عليه، فهل كل هؤلاء البرمين من التعدي والتجني جهلة، وهو وحده العالم النحرير، والناصح الأمين؟ ولقد سبق لي أن أشرت من قبل، وأنا بصدد الرد على ذات الكاتب إلى من لم يؤصلوا لمعارفهم، ولم يعرفوا ثوابت حضارتهم ومتغيراتها، ومن يغطون افتقارهم متظاهرين بالتشبع بالعلم الشرعي عبر سياقهم لقاعدة فقهية في غير محلها، أو حكماً شرعياً على غير وجهه، أو حادثة عارضة أو دليلاً لا يصح. والأسوأ من هذا وذاك: اختلاف المفاهيم حول حدود الحرية، ومجالات الاختلاف، وحق الاجتهاد. ومن فاته الركب تعجل في اللحاق به عن طريق الحديث عن المسكوت عنه، معلناً تسلقه محاريب العلم الشرعي بحرية التعبير وحق الاجتهاد. والعلماء الناصحون يعرفون حقهم في القول، وحق حضارتهم التي ينتمون إليها، وتأبى كرامتهم أن ينالوا منها، تحت تأثير الحضارات المهيمنة، وأخص خصائص الحضارة «الحكومة المدنية المسلمة» و«الدعوة إلى الله» ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ومن قال بالاستغناء عن الدعوة، تعويلاً على إسلاميته أو فطرته، فهو إما جاهل أو مكابر، وكيف يتأتى له ما يريد، والقرآن الكريم استنفر من كل فرقة طائفة، للتفقه في الدين، وإنذار قومهم إذا رجعوا إليهم، وجعل الذكرى تنفع المؤمنين. والمستبرئون لعرضهم ولدينهم هم الذين إذا قاربوا قضايا الدين، حرروا مسائلهم، وحددوا مواقفهم، وأحكموا آراءهم، وفصلوا مقاصدهم. والمخفون من المعارف يعتمدون على الإطلاق والتعميم، لكي تكون أقوالهم حمالة أوجه، وما هي إلا حمالة الحطب.

وإذ يكون الاجتهاد مطلبا إسلاميا، وحقاً متاحاً، يكون من أوجب الواجبات، أن يعرف المقارب له، أنه ممارسة علمية، وأن من ضوابطه: أن يملك المجتهد شرط الاجتهاد، وآلياته، ومتطلباته المعرفية. وعلماءالأصول ذكروا ذلك، وحددوا مجالاته وآلياته وشروطه، ومواصفات المجتهد، ومن أطلق مقولة: «من اجتهد فأصاب فله أجران ومن اجتهد فاخطأ فله أجر واحد». ثم أتاح الاجتهاد لكل أعزل من معرفة، وخال من ورع، فقد ضل ضلالاً بعيدا. وفوق ذلك، إن الاحتهاد لا يكون إلا في النصوص الحمَّالة. والزمن المأزوم زمن مؤسسات ومجمعات فقهية، تنظر في النوازل، لا زمن مبادرات فردية، وذهاب كل متقول بما اختلق، فذلك مؤذن بالتنازع، وفقد للاعتصام بحبل الله.

والاجتهاد: مطلق ومقيد، من حيث الإجراء والممارسة.

ولهذا يقول الأصوليون: «لا اجتهاد مع النص». والذين يتداولون مصطلح (النص) ثم لايعرفون تعدد دلالاته بتعدد الحقول المعرفية والفترات الزمانية والمذاهب الفقهية والكلامية والفلسفية وبالذات مفهومه عند السلف، يتصورون أن السلف يمنعون الاجتهاد مع وجود أي نص، حتى لقد ظهرت مصطلحات «العقلانية» و«أهل الرأي» و«الظاهريين» و«النصوصيين» مع أن كل هذه الطوائف تستخدم العقل والفكر، ولكن بطرق متفاوتة، وفات المتقولين على السلف. أن «النص» الذي ليس معه اجتهاد، يعني القول الذي لا يحتمل إلا دلالة واحدة، مثل «لا إله إلا الله» فهذا نص لا يحتمل إلا دلالة

الوحدانية المتفردة، ومن اجتهد في تحميل النص دلالة «تعدد الآلهة»، فقد خالف القاعدة «لا اجتهاد مع النص». ويقال مثل ذلك في أمر «الدعوة إلى الله» و«الحكومة الإسلامية»، والله يقول: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: ٥٠] و ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩] و ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾ [المائدة: ٥٠] . والله يقول لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨] . ويقول: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل: ١٢٥] و ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥] و ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ [الحج: ٦٧] و ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ﴾ [الشورى: ١٥] و ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤] و ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ [فصلت: ٣٣] . ومع أن الدعوة سبيل المؤمنين، وأحسن القول، ولا مجال للجدل حول مشروعيتها، فإننا نسمع، ونرى مجازفين، يغثونك بتقولات غير مسؤولة، وتعميمات غير محددة، لا يحكمون، ولا يفصلون، بحيث يزيلون اللبس، ويمنعون عن أنفسهم قالة السوء، ويحولون دون البلبلة، وتصعيد العداوات. ولهذا تراهم يخلطون متعمدين أو جاهلين بين المبدأ والتطبيق. فالدعوة مبدأ، وهو أحسن القول بشهادة الله، والتطبيق ممارسة بشرية لها وعليها، ولكن لحن القول، وتوجيهه يطال المبدأ، كقول أحدهم: «وتساعد المناهج نفسها هؤلاء على أن يكونوا دعاة» إضافة إلى خروج الكاتب من التعليم إلى برامج وزارة الشؤون الإسلامية ومعارضها ومهرجاناتها، وإلى شركة الكهرباء وإسهاماتها. ولو أنه وقف حيث يكون خطأ التطبيق لحمد الناس له ذلك، وأذعنوا له، ولاسيما أننا نعاني تجاوزات مشهودة، ومعاشة في التطبيق الدعوي. والوزارة المعنية لما تزل تتعقب كل مخالف لمناصحته أو منعه. وإذ لا يخلو أي مجتمع من نوعيات تتقن لعبة الإثارة، فإنك لا ترى هذه النوعيات إلا حيث تكون الريبة، متكئة على آراء في غاية الفجاجة والاستفزاز والتسرع، منقبة عن المسلمات، موغلة في المتشابه، غير متحرجة من موضعة كل شيء، متقحمة أي محظور متناغمة مع الحرب المشبوهة على مناهج التعليم في المملكة، معطية للمتربصين بنا فرصة ذهبية، مقدمة شبهة يلتمسها أعداء الأمة. وهل بعد القول: «فقد اصطبغت الكتب الدراسية جميعها بصبغة دينية، فلا تدرس مادة اللغة الانجليزية مثلا لذاتها بل لتكون وسيلة للدعوة إلى الله» من تجن مؤذ.

قل: هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة .. ! (٢)[(١)]

وإذا كان الكاتب ينقم على طائفة من المدرسين - وذلك حق، يتطلب البينة- فلماذا يربط بين (الدعوة) و(الضعف)؟ ويقحم أطرافاً أخرى، ويمتعض من امتثال أمر الله ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤] . ويتجاهل قول الله عن عيسى عليه السلام: ترديده (بإذن الله) في النفخ والإحياء والإبراء؟ وعيسى يعلم ويؤمن أن الله خالق كل شيء، وليس عنده نقص في الفقه. إن لحن القول كله، يحيل إلى مواجهة الدعوة، لا مواجهة أخطاء الدعاة، ومواجهة أسلمة المناهج، لا العمل على تفعيلها. وفي ذلك مسايرة لحملات التشويه. وعليه أن يعيد قراءة ما كتب من قبل.

وبصرف النظر عن ركاكة التعبير، وضحالة التفكير، وسوء التوقيت والتقدير في التعاطي مع أخطر القضايا، وأهم المسائل، فإن تخبيصات الكاتب، وخلطه بين أمور في غاية الأهمية، وأخرى في منتهى التفاهة دليل ارتباك وتوتر واضطراب. وكاتب يقارب أخطر قضيتين في حياة الأمة: (التعليم) و(الدعوة) ثم لا يزن الأمور، ولا يستبرئ لعرضه ودينه، يعرض نفسه للاتهام والتجهيل والمساءلة (ومن لا يتق الشتم يشتم)، ومن حق المتأذين أن يبادلوه سوءاً بسوء، فلقد وصفهم بالهلوسة ونقص الفقه، وقطع بتدهور التعليم. وما يتعرض له من ردود فعل، يراها هو، ومن شايعه مزايدة على القضايا، وتنقصاً من الحريات، وما هي كذلك، إنها استكمال للحرية التي يراها، ويتحرج منها حقيقة. وإذ لا نرى التسامي بأحد من الخلق فوق النقد والمساءلة، ولا نزكي أي مؤسسة تعليمية أو دعوية تحت أي مبرر، فإننا نفرق بين نصيحة المهتم بأمر الدعوة والتربية، وفضيحة الساخط عليهما، الناقم على ذويهما. وليس غريباً على ذات الكاتب ما نراه منه من اندفاعات، تضعه تحت طائلة المساءلة، ولا تقل ارتباكاً: (مالي أرى أقواماً يفعلون كذا) فذلك هدي المصطفى. أما الرشق العشوائي، والمجازفة في الاتهام، فشأن المقوين من المقومات. وقادة الفكر والاصلاحيون يمنعهم الحياء من سوء الأدب مع الكافة، فضلاً عن صفوة المجتمع. وهل بعد المعلمين والدعاة من مكرم؟ وإذا لم يكن المعلم والمعلمة داعيين إلى الله على بصيرة، فمن يكون؟ وإذا لم نحصن أبناءنا وبناتنا من احتناك شياطين الإنس والجن واجتيالهم، عبر القنوات، والمواقع، وسائر الوسائل الإعلامية، فمن ذا الذي يحصنهم؟ وإذا لم تكن المملكة التي شرفها الله بخدمة مقدساته، ونشر كتابه، وتحكيم شرعه، وإقامة دينه، مهيئة الطلبة والمدرسين معاً للدعوة إلى الله، وحفظ جناب التوحيد، وحفظ التوازن بين مطالب الحياتين، فمن ينهض بمثل ذلك؟ إنه لا يضيق بالدعوة إلا مشبوه، أو مدخول في فكره، وإذا كان الكاتب مع الدعوة، كما يدعي، وكما نرجو أن يكون، وله ملاحظاته الوجيهة، فإن عليه أن يتخذ سبيل الدقة والتخصيص والتركيز. وهو قد حاول لملمة أطراف القضية، بعد أن ضيق عليه الرأي العام الخناق، ومع أن الحق قد يعتريه سوء التعبير، إلا أن المقال المثير مواجهة لا مناورة، وإدانة لا اتهام، وتقرير لا تساؤل.

ومع الاحتفاظ بثوابت الدين من وعظ وأمر ونهي فإن من صرف الوقت لغير ما هو له، فقد أخطأ الطريق، وفرط بالواجب، كائناً من كان، ولكن تذكير المخطئين لا يكون بهذا الأسلوب التعميمي القطعي. أما قضية ربط المواد بالدين، فالدولة تلح على أسلمة المناهج، وليس هناك ما يمنع من استحضار عظمة الخالق، حين التعرض لقانون علمي، يتعلق

---

(١) تاريخ المقال: ٢٧/ ٥/ ٢٠٠٣

بالآفاق أو بالأنفس، وليس من مصلحة الأمة ان تمارس التربية بمعزل عن الدين. وكيف لا نؤسلم المناهج والمواد، ونربط الظواهر العلمية والفلكية بالإيمان؟ ما الذي يمنع من أن يكون استاذ الرياضيات واللغات داعيين إلى الله، مذكرين بعظمته وجلال قدره، ألم يقل بعض الصحابة لبعض: (تعالى نؤمن ساعة)، أو لم يقل الله عن الصالحين من عباده ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١] ويقول: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] . أحسب ان اتهام المناهج والمدرسين والمدرسات بالتفريط، وإضاعة التعليم، اتهام ليس في محله، ولا يمارسه إلا إنسان لا يحترم المصداقية، ولا يحسب للظروف حسابها، ولا يعرف حدود ما يجب، وواجب المقتدرين إرشاده، وواجبه قبول الحق، وعدم التبرم ممن يشاطره السفينة، مستحضراً قوله تعالى: - ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ﴾ [النساء: ١٤٨] .

والمدرسون الذين على جانب من التقى والورع، لا يمكن أن يفرطوا بحق الطلبة، ولا برسالة التعليم، وهم حين يجدون أنفسهم بحاجة إلى التوعية ينشئون الجمعيات، ويتطوعون بجهدهم ووقتهم، دون المساس بوقت المناهج. واتهام التعليم بهذا الحجم، وإحالة الضعف إلى الدعوة والدعاة، تشويه لرسالة المسلم في الحياة. وإذا وقع مدرس أو مدرسة فيما لا يصح من القول، فإن هذا لا يسوِّغ التعميم. الخطأ في القول حاصل، والتقصير في العمل حاصل، والتجاوز في الفعل حاصل، ولكن لا تزر وازرة وزر أخرى. ولو صدق بعض ما يقوله المرجفون المتواطئون على الخطيئة لكنا بحاجة إلى مواجهة أربعة ملايين طالب وطالبة ومئات الآلاف من المعلمين والمعلمات وأساتذة الجامعات، وهو ما لم يكن، ولن يكون إن شاء الله.

وكيف يتأتى الامتعاض من تفشي الدعوة والإرشاد في أمة تنص المادة (الثالثة والعشرون) من نظامها الأساسي للحكم على قيامها بواجب الدعوة إلى الله؟.

والدولة ومن ورائها أهل الحل والعقد من العلماء ورجال التربية والتعليم يعيشون حالة استثنائية، ويتأذون من اتهامات ظالمة، يؤزها اللوبي الصهيوني ضد التعليم في المملكة، ويتحرفون لكشف النوايا السيئة، التي ينطوي عليها أعداء الإسلام، والخائفون من (الصحوة الإسلامية) يحاولون إثبات أن المناهج تصنع الإرهاب، وأن الإرهاب بمفهومه الغربي منتج إسلامي، وفي هذه الظروف الحرجة، يأتي من يقول كلمة في صالح الأعداء، لا يلقي لها بالاً، وواجب المسلم في الأزمات أن يكون على شاكلة من قال الله فيهم: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] . إن هناك مرتابين، يخافون من مطاردة أعداء الله لعباده، ويصدِّقون كل صيحة، ومن ثم يعطون تنازلات في ثوابتهم، ويسايرون إشاعات العدو، ويسلمون له، وتلك بوادر انهزام داخلي، وتحقيق لما حذر منه المفكر الإسلامي (مالك بن نبي) من قابلية الاستعمار، وفقد شروط النهضة. ومما لا مراء فيه، أن هناك تطرفاً دينياً ودعاة غلاة وآخرين جهلة، تتأكد معالجة أوضاعهم، والحيلولة دون تمكينهم من تشكيل ذهنيات الناشئة، بطريقة تتأذى منها المؤسسات الأمنية والدعوية، ولكن ذلك شأن ولي الأمر وعلماء الأمة، وهم جادون في معالجة كل ظاهرة بالطريقة التي نسأل الله لهم فيها التوفيق والسداد.

ومن أراد أن يدلي بدلوه في تصحيح مسار (التعليم) أو (الدعوة)، وهما بلا شك في أمس الحاجة إلى المتابعة والتصحيح، فعليه ألا يقع في فرضية واهمة، تجعل من الدعوة والدعاة سبباً رئيساً في تدهور التعليم، مجازفاً في إطلاق التهم، دون تحديد، ودون إثبات، مستفزاً الخيرين، جاعلاً منهم خصوماً، متعمداً معاداتهم. وماذا عليه لو دخل مع رجال التربية والتعليم والدعوة في حديث ودي، شاطرهم فيه همهم الدعوي والتربوي، ونبه إلى بعض التجاوزات التي نراها رأي العين، ونثق أننا أحوج ما نكون إلى من ينبه عليها، ولكن بغير هذه الطرق الفجة. وهل لا يستقيم أمر الكاتب إلا بالإثارة والعداوة، وتحميل الأمور ما لا تحتمل؟ ومن ذا الذي يتعمد الإساءة لمن بذلوا وقتهم ومالهم وجهدهم للدعوة والإرشاد؟. والتعليم بوصفه القضية الأهم والأخطر، لا يمكن تناوله بهذه المجازفات المرتجلة. التعليم في المملكة قائم على خطط ومناهج، لها وعليها. وجامعات المملكة تستوعب كل التخصصات العلمية البحتة، وأبناء البلاد يبتعثون إلى سائر دول العالم المتقدم علمياً بالآلاف، ويعودون بأرفع الشهادات، والمملكة مليئة بالمتخصصين الذين تلقوا تعليمهم في مدارس المملكة، فهل يستطيع التعليم المنهار بإمداد ثماني جامعات بمختلف التخصصات، بل يفيض عن حاجتها.

ومع هذا فلسنا من الصفاقة ولا الحماقة، بحيث نزكي أنفسنا أو مؤسساتنا، إن هناك ضعفاً ينتاب كل مرافق الدولة، وهناك مقصرين أو مهملين أو متلاعبين، يبلغ حد الفساد الإداري، نعرف ذلك حق المعرفة، وليس من حقنا أن نزكي، ولا أن ندافع، ولا أن نمنع من الإصلاح، وبودنا لو تصدى لكل هذه الهنات من يزن الأمور، ويفرض احترامه على المخطئين والمقصرين. والمتفق عليه أن التعليم في جميع أنحاء العالم ينتابه الضعف، والتربويون يتعقبون مناهجه ومواده بالإصلاح والتعديل والإضافة والحذف، وما أحد منهم سخر، أو استهجن أو افترض عامل ضعف ثم عممه. وكان على الكاتب لو كان غيوراً ناصحاً ان يضع أصابعه على مكامن الداء، لا أن يطلق المفرقعات، مسقطاً التعليم، والمعلمين، ووزارة التربية والتعليم، والتعليم العالي، والتعليم الفني، ووزارة الشؤون الإسلامية، والدعاة، والدعوة. متهماً الجميع بإضاعة الطلبة.

إذ نجد لفيفاً من الكتاب الواقعين في الحمى باسم حرية التعبير فإن على المسؤولين عن هذه الحمى أن يخرجوا عن صمتهم ليكشفوا عوار هذا التحامل، وأن يضعوا أي كاتب متعد مستفز في حجمه الطبيعي، لكيلا يسنوا سنة سيئة، تبيح الإطلاقات غير المسؤولة، وفي الوقت نفسه يجب ألا يأخذ المسؤولين العجب، بحيث يَسْمون بأنفهسم فوق النقد والمساءلة، ويغفلون عن أي تقصير. والحرية في التفكير والتعبير حين تكون مكفولة، أو حين يجب أن تكون مكفولة، فإن علينا قبل هذا وذاك أن نعرف حدودها ومجالاتها. فليس لكل مجازف في القول ان يحيل إلى الحرية. الإنسان بطبعه اجتماعي، وهو ملزم بمقتضيات «العقد الاجتماعي» المستمدة ضوابطه من حضارة الانتماء، و(العقد) يعني الحرية المنضبطة. وإشكالية المشاهد العربية كافة أن الأكثرين من نخبها لا يحتفون بحدود الحرية، ولا يعرفون مقتضيات حضارتهم، ومن ثم يوغلون في (العهر) و(الكفر)، ويعدون مثل هذا الإيغال محصناً بحرية التفكير وحق التعبير. ومثل هذه المفاهيم المريضة تضع الفوضى موضع الانضباط، وتجعل كل شيء تحت المساءلة والنقد، وقد تطال المساءلة فعل الله، وتُحقُّ الخيرة في قضائه، والله لا يسأل عما يفعل، وليس لأحد الخيرة إذا قضا الله ورسوله أمراً. والتطرف في الآراء ينشئ تطرفاً مضاداً، مما يعرض الأمة لفوضوية مخلة بالحرية المطلوبة من الطرفين. ومن المعلوم من الدين بالضرورة ان الأمة أمة دعوة، وأمر بالمعروف، ونهي عن المنكر، وما لعن الكفرة من بني اسرائيل إلا

لأنهم لا يتناهون عن منكر فعلوه، ومن اقترف خطيئة من الدعاة أو الآمرين، فيجب ان يؤخذ بخطئه، دون ان يمتد ذلك إلى المبدأ أو المهمة أو الغير.

ومثل هذه الإثارات توغر الصدور، وتثير الشكوك، وتخلق كيانات متناحرة. والمملكة: حكومة وشعباً، لن تقوم لهما قائمة إلا بتقارب وجهات النظر، والانطلاق من سياسة الدولة الدعوية التي نصت عليها أنظمتها، وأنشئت لذلك (وزارة) و(رئاسة) و(مجلس أعلى) يرأسه الرجل الثالث في الدولة. وإذ لا نمانع من نقد التعليم ورجاله، والدعاة وأساليبهم، والهيئات وتجاوزاتهم، وما ينتاب بعضهم من جهل أو غلو أو تطرف، فإننا نرفض التعميم والمواطأة لأعداء الأمة، والتذمر من إظهار الدين، ونرفض الإطلاقات التي تحتمل أسوأ التأويل، وأقبح الاتهام، ونرفض الخوض بآيات الله دون علم شرعي مخول، ونرفض الركون إلى الذين ظلموا.

فداحة الحدث .. ومتاهة التأويل .. ![1]

لقد وقعت الواقعة، واستطاع الخارجون على الشرعية والمشرعنون للفوضوية والوجود الأجنبي أن يفجروا ما بقي بأيديهم، وأن يستغلوا ما بقي لهم من وقت.

فكان أن هدمت بيوت، وأزهقت أرواح، وأحرقت ممتلكات، واختل أمن، وذعر الناس مما وقع، ومما هو آتٍ. وما علينا عند الصدمة الأولى إلا الصبر والاسترجاع، لنكسب الوعد الصادق بالصلوات والرحمات والهداية. وكالعادة أعقب ذلك الدوي دوي إعلامي موازن، انطلقت به الحناجر، وسالت به أنهر الصحف، تروي ما حصل، وتتشهد بما سمعت، لا بما رأت، وأقبل المحللون والمعللون والمعلقون والمتنبئون يخبطون خبط العشواء، ويقرؤون الحدث قراءة متسرعة أو غير بريئة، فكل يحيل إلى أهدافه وغاياته وتصوراته، ويسترفد خلفياته المعرفية، ويوظف الحدث لتكريس رؤيته، محملاً الوطن ومؤسساته مسؤولية ذلك ووقف أهل الشأن في ذهول، عينٌ على الحاضر، وأخرى تستشرف المستقبل، ويد على الصدر، وأخرى تلزم الرأس المصاب بالدوار. فالحدث جلل، والنار من مستصغر الشرر، ومن استخف بما حدث، هيأ نفسه لما هو أدهى وأمر، وإن كانت البلاد وأهلها يحتمون بعز الله الذي لا يضام وبعينه التي لا تنام.

وحدث كهذا لا يُحسم بثورة كلامية، تلامس أطراف القضية، مكتفية بالتجريم والتخوين والتخمين، وإنما يواجه في الحفر العميق، والتفكيك الدقيق، وتقصي خلفيات اللعب وفلولها، والمؤامرات وذيولها، والتخطي إلى الحواضن الحقيقية التي نسل منها المنتحرون، من شباب غسلت أدمغتهم، وذرعوا فجاج الأرض الواسعة في عمليات قتالية باسم الجهاد: تارة في أفغانستان وأخرى في البلقان، وثالثة في الشيشان، ورابعة في العراق، فكان أن تحولوا من آدميين إلى دمويين. والحدث العصي على التصور والاحتمال لا يتخلص من ذيوله بالإحالة على مؤسسات البلاد ورجالاته، وإنما يصار إلى معرفة النشأة الأولى، ومن وراءها من دول وساسة و(لوبيات) و(ميكافيليات) حولت العالم الثالث إلى مقاتل أجير.

إننا بحاجة إلى أن نجوس خلال (أفغانستان) و(باكستان) و(البوسنة والهرسك) و(الشيشان)، وأن نتعرف على الجماعات والتنظيمات القائمة والمنحلة، هنا وهناك، وأن نخبر القيادات الدينية والحركية، التي تقاطرت من كل فجاج الأرض إلى بؤر الصراع العالمي، موظفة إمكاناتها لمن يدفع أكثر، ومن ثم هيئت لها الأجواء للتدريس والتأليف والتنظيم والقيادة، وفتحت لها الخزائن، وجمعت لها التبرعات، والتطمست أفكارها على مسمع ومرأى من كل الدول الكبرى، بوصفها اللاعب الرئيس، وبهذا الاستشراف لا يكون الحدث الرهيب وليد اللحظة، وليس صناعة محلية، إنه حلقة في سلسلة أحداث مماثلة، وقعت في بقاع كثيرة من العالم، وعلى فترات متباعدة، وليس من الحصافة أن ندين أنفسنا ومناهجنا وقادة الفكر في بلادنا، لنتعرض لتفجير داخل التفجير، ونمزق أنفسنا بقدر ما مزقت العبوات شواهق العمارات. والفضوليون الفارغون لا يتورعون من التأويل الجائر، ولا يتهيبون من إحداث تصدع الجبهة الداخلية، ومن ثم يلقون الكلام على عواهنه، ولا يظنون بذويهم خيراً.

والعمليات الانتحارية المنظمة لا تحركها تربية أمة، ولا تصنعها مناهج دولة، وإذا أحلنا عليها ما نلاقيه، أو أحاله المتنفسون من تحت الماء، فلمن نحيل تفجير (فندق ممباسا) و(منتجع بالي بإندونيسيا) و(سفارات أمريكا في كينيا وتنزانيا) و(مركز التجارة

---

(١) تاريخ المقال: ٢٠/ ٥/ ٢٠٠٣

العالمية في نيويورك) و(سفينة كول في عدن) و(عمليات الدار البيضاء) قبل ثلاثة أيام وعشرات العمليات المجهضة قبل التفجير، وفوق هذه كلها (أحداث الحادي عشر من سبتمبر) لماذا نساير الأعداء في توجيه الاتهام إلى مراكزنا ومؤسساتنا، ومن رام الإصلاح وهو حتم فليضع التصور، ولا يكتفي بالاتهام الجائر، ومن أحال إلى مناهج التعليم في البلاد، فقد غفل عن رؤوس الفتنة القابعين في الأدغال والكهوف. ولغط المتحاملين يزيد في العنف بسطة، ومن واجب المترفين ألا يظاهروا أعداء الأمة باتهام التعليم.

إن هناك حلقة مفقودة، لما نزل بحاجة ماسة إلى العثور عليها، وما لم نواجه الحدث برمته، بوصفه ظاهرة عالمية، لا مفردة زمانية ومكانية، فإننا سنظل نفتح ملفاً ونرفع آخر، ونزيد في حجم الكيانات المناوئة وتعددها. ولست ممن يتوقع حسم الشر، ولا ممن يصر على تزكية الذات، ولكنني ممن يسعى لتحديد مصادر الشر ومحاصرته، والعودة به إلى حجمه المعقول، فالجريمة في سباق مستحر مع المكافحة.

وتعرض البلاد لمثل هذه الممارسات المتباعدة زمناً، والمتشابهة حدثاً، تتطلب رد العجز على الصدر، وقراءة الأحداث منذ النشأة الأولى، واستجلاء كل الآراء، واستدعاء كل القراءات، واسخدام المجسات والمسابير في كل الأحداث المماثلة في الشرق والغرب، واستبعاد واحدية المصدر، فالذين يحيلون على الداخل، ويجعلون الحدث منتجاً محلياً له أسبابه ودواعيه المحلية، ويغفلون عن اللعب والثارات، وتعارض المصالح، ومحاولة إرباك الخصوم، والحيلولة دون نفاذ التسويات السلمية، يفوتون على أنفسهم مؤشرات مهمة، والذين يستبعدون أحداث فلسطين، وأفغانستان، ولبنان، والسودان، والصومال، وإيران والكويت، والعراق، والجزائر، وسقوط الاتحاد، وسباق التسلح، وصراع الحضارات، والتنظيمات المفككة، والحركات المطاردة، وفلول اللعب ترم جروحهم على فساد، واعدة بانفجار جديد. لقد طالت المواجهات الإرهابية أقوى دول العالم عدة وعتاداً، وأقدرها تحرياً ورصداً، وأمضاها هيمنة وسلاحاً، فهدمت أبراجها الاقتصادية، وقوضت معاقلها العسكرية، ولما يزل الحدث الجلل أخفى من دبيب النملة السوداء على الصفاة السوداء في ظلمة الليل. ومهما حاول الإعلام العربي والمتنخوبون بكل ما هم فيه من ريبة تحديد الفاعل ومقاصده، فإن المسألة تظل حمالة أوجه، وستظل أكثر انغلاقا على الأفهام من قتل الرئيس الأمريكي (جون كندي). لقد طاف الباحثون بالعمليات الانتحارية على كل الطوائف والتنظيمات والديانات والعرقيات، وكل قوم ينفون علاقتهم بها، ويقدمون الشواهد، وينضمون إلى فريق التصدي، وقد يقدمون بين يدي إثباتهم ضربة وقائية، ليبرهنوا عن صدق مواجهتهم للإرهاب بمفهومه الغربي. ولم تتريث أمريكا المجروحة حسا ومعنى، حتى يتحصحص الحق، بل بادرت إلى فرضيات متسرعة، وضربت ارضا محروقة وشعباً منهكاً، وصدَّق الناس مقولتها، ومضى كلٌّ إلى غايته، وبقيت الضارة كما هي، تنام حتى يأمن الناس، فإذا غفوا أخذتهم بغتة، وهم لا يشعرون، والمتوقع أن يتسع انتشارها، لأنها مارد انطلق من قمقمه، وعلى المستهدفين أن يقعدوا له كل مرصد.

ولهذا وتلافياً لما هو حاصل بالفعل فإن المواجهة الانفعالية، وتبادل الاتهامات، وانتهاز الفرص، لإعادة الخطابات الفئوية، وتصفية الثارات، لا تحسم الإشكالية، بل تزيد في استفحالها. إن الحدث خطير، ومدان بكل المقاييس، ولن يلتمس له عاقل أي عذر أو مبرر، وقد قالها (الأمير عبد الله) ليلجم أفواه كل الأضوائيين والانتهازيين، فالأنفس المسلمة معصومة بإسلامها. والأنفس الأخرى معصومة بذمة ولي الأمر التي أعطاها، والمسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، فما بالك بأعلاهم، ومن قتل ذمياً لم يرح

رائحة الجنة، ومن آذى ذمياً فقد آذى رسول الله، والذين يؤكدون بأفواههم من مواجهة أمريكا، هم الذين شرعنوا لها الوجود، والذين يواجهونها اليوم، هم الذين خدموها بالأمس.

وإذ يكون الحدث ماثلاً للعيان بالأشلاء والأطلال فإن الأدمغة المدبرة والأصابع المنفذة لما تزل غائبة، والأجهزة الزمنية تركض وراء الخيوط، التي قد تلتاث في منتصف الطريق. ومما لاشك فيه أن هناك أسباباً، وحواضن، وأطرافاً تحلم في أن تجني من الشوك العنب. ومن الحصافة أن يسعى المعنيون إلى تقصي الإشكالية، ووضع الحلول، لتوقي ما بقي من شرورها، والمؤلم أن العالم الإسلامي لما يزل مجالاً لتنفيذ اللعب الكونية، عليه غرمها، ولغيره غنمها.

والسؤال الأكثر إلحاحاً: من جمَّع هؤلاء؟ ومن صاغ أذهانهم، ودرب أجسامهم؟ ومن خطط لهم، وأعطاهم المال والسلاح؟، وعبر أي المنافذ دخلوا بما معهم؟ وأين رأس الحية المدبر؟ ولماذا لم تصل إليه اليد الأقوى مضاء، يد أمريكا المستهدفة مصالحها؟ لقد وضعت في أولويات مهماتها في (أفغانستان) و(العراق) الوصول إلى الرؤوس المدبرة أحياءً أو أمواتاً، ولكنهم جميعا لما يزالوا مجهولي المصير. ويمضي لهاث الأسئلة الحائرة: لماذا تطالنا الأذية من أيد آثمة، من بينها أيد سعودية، خرجت من ديارها، نظيفة الفكر، سليمة العقيدة، تحت مظلة الجهاد الذي باركته أمريكا، لتعود إليها بعد أن تضلعت من الشر، ممارسة أبشع الأعمال وأجرمها؟ وهل هذا العمل الإرهابي بتدبير خارجي، ومن أجل أهداف سياسية عالمية، أم هو بتدبير داخلي، ولأهداف محلية؟ وهل العمليات لمواجهة السياسة المحلية، أم أننا مجرد ساحة لمواجهة الآخر؟ بلادنا أبعد الدول عن المواجهات الأهلية والحروب الداخلية، وما يحصل من عمليات إرهابية، لا تعدو أن تكون تصفية حسابات، وعلينا ترتيب مواقفنا على ضوء ذلك، ومن أحال إلى غير ذلك فقد أسهم في تعميق سذاجتنا.

والتفجير البشع الذي رمَّل ويتم، وقتل الوحيد والحبيب، استهدف مواقع معينة، والمؤشرات تؤكد أن التدبير خارجي، وأن الأهداف سياسية عالمية. والمخططون المنفذون ليسوا ناتج مناهج، ولا سلالة حلقات ولاجماعات، إنه عنف دولي منظم، لا يقدر عليه أفراد بمفردهم، وإذ وقع الفأس على الرأس، فإن علينا مواجهة التداعيات. لا الوقوف عند الوقوعات، وعلينا استثمار الحدث وتداعياته، وتجويد مواجهته، إذ إن كل حدث له آلياته المناسبة له، وليس من المصلحة الاهتياجات والانفعالات، وتبادل الاتهامات. وفي ظل متاهات التأويل: هل نبادر من باب الوقاية إلى تحصين حدودنا، بحيث لا تتسرب الأسلحة، ولا يتسلل المنفذون، أم نحصن أبناءنا، بحيث لا تشكل ذهنياتهم على غير مراد الله؟ وهل من خيارات أولية أو ثانوية تسبق هذين الخيارين؟ وهل المواجهة وقف على (وزارة الداخلية)، أم أن هناك جهات أخرى، يجب أن تشارك في المواجهة أو في الوقاية؟.

إن هناك سطواً حسياً على الأرض، وسطواً معنويا على الأفكار، ولابد من تحرف سديد لصد السطوين، ومن ثم لابد من التأسيس لحوار شمولي، تلتقي حوله كل الأطراف، ويعرف المتحاورون مشروعية الرؤى، وحدود الحريات، ومقتضيات الانتماء، ومجالات الاجتهاد وأهليته، وليس من الحصافة أن نربط الإصلاحات الشاملة والضرورية بما نلاقيه من أحداث، فالإصلاحات السديدة لا تحركها الاهتياجات العاطفية، وقد ألمح إلى شيء من ذلك خادم الحرمين الشريفين في خطابه التاريخي يوم السبت، مؤكداً على حتمية المراجعة الذاتية، مستبعداً أن تكون محاولات الإصلاح استجابة لضغوط خارجية، مؤكدا على الخطاب الوسطي المعتدل، مناشداً علماء الشريعة النهوض بمهمتهم الجسيمة.

إن ما بعد الحدث أشد وأعتى من ذات الحدث، وأشلاء المعنويات أخطر من أشلاء الحسيات (والفتنة أشد من القتل) وتعميق الاضطراب في قراءة الحدث أشد بلاء من عقابيله الحسية، فلكم لقيت من يسأل عن الأسباب والدوافع، وعمن يواجهون أمريكا لذاتها، ثم لا يجدون إلا أرضنا مجالاً لمواجهتها، أهم ضد وجودها في أرضنا؟ أم ضد نفوذها في مشرقنا العربي؟ وإذا كان وجودها في مشرقنا مؤذياً، فإن وجودها على أرضنا لم يكن طارئاً، بحيث يستفز أحداً من الناس. لقد عاشوا في أرضنا أكثر من سبعين سنة، ينقبون في الصحاري الشاسعة، لا يرافقهم إلا أدلاء من الأعراب العزل، يستنبطون كنوز الأرض، يأخذون، ويعطون على قدم المساواة، وما سيء لأحد منهم، فضلاً عن أن يُغتال، ولقد عايشناهم في أحلك الظروف، ظروف المد الثوري الاشتراكي، وظروف الصراع بين المعسكرين الشرقي والغربي، وما شكلوا عبئاً على خطابنا السياسي، ولا على مركزنا الإسلامي.

وعلينا ألا نسلم للخطابات المجتثة من فوق الأرض، خطابات الإحالة على الإسلام بوصفه مصدر الإرهاب أو الإحالة على المواقف السياسية بدعوى استسلاميتها، أو الإحالة على المناهج تناغماً مع اللوبي الصهيوني. العنف والإرهاب حسب مفهومه الإسلامي لا جنسية له، ولا وطن، ولا عقيدة، ولا زمان، وما اغتيالُ (عمر) و(عثمان) و(علي) إلا ذروة الإرهاب.

والصهاينة في فلسطين يمارسون أبشع العمليات الإرهابية. إننا أحوج ما نكون إلى تحديد المفاهيم، وتجويد التأويل، وحفظ التوازن، والأخذ بالوسطية، وعدم الانتقال من لغة التفجير إلى لغة التفريق. والانتهازيون الذين يحددون طائفة أو عقيدة أو قبيلة أو بلداً أو منهجاً أو فئة بعينها، يزيدون في ارتكاس الأمة في الفتنة، المسألة شائكة ومعقدة، ومن اليسير تكثيف المطاردة والوصول إلى طائفة من الفعلة، وتنفيذ الحكم الشرعي بحقهم، ولكن من الصعب جداً حسم المشكلة، متى استمرأنا تعميق الاختلاف حول قراءة الحدث. إننا بحاجة إلى نظرة شمولية، ودراسة مؤسساتية متقصية، ومواجهة صريحة، ومعالجة حاسمة، وتستشرف الواقع العالمي وتحولاته السريعة، وتتوقى بؤر التوتر في العالم، والمسألة في النهاية بقايا لعب، كما الألغام التي يمر بها الغافلون.

ولأن أمريكا ضالعة في أمور كثيرة، فإنها مستهدفة عالمياً، وهي تعلم ذلك علم اليقين، وهي تعلم أن الذين يتربصون بها هم بقايا صنائعها، واستهدافها لا يقتصر على أن لها وجوداً غير شرعي في المملكة، ولا لأنها تهيمن على مصادر الثروة البترولية في البلاد، فوجودها وفق معاهدات دولية، يملك الطرفان حق التصرف فيها، وقد فعلتها المملكة بإنهاء الوجود العسكري بانتهاء دواعيه، والثروة البترولية بيد أصحابها، وقد فعلتها المملكة حين اشترت أسهم الشركة الأمريكية وسعودتها، والثروة خاضعة للعرض والطلب، ونحن أحوج إلى الأسواق من الأسواق إلى خامنا. والدولة مسلمة سلفية، وأمريكا رأسمالية علمانية، وليس هناك تأثير على الثوابت، بحيث يأنف الإسلاميون الذين يحال إليهم كل فعل.

ووجود امريكا في البلاد حسياً أو معنوياً ليس له تأثير على القرار الداخلي، أما هيمنتها على العالم في قراراته الخارجية وخروجها على الشرعية فأمر لا يخص المملكة وحدها. وحين يتأفف البعض من وجودها الحسي فإنها متوغلة في كل بلاد الدنيا: مدنياً وحضارياً وصناعياً واقتصادياً. وحين لا أبرىء أحدا بعينه من الحماقات، فإنني لا أريد التخلي عن الإسلام والأسلمة، لمجرد أن طائفة من المسلمين ضلت الطريق، والخوارج في صدر الإسلام وبخاصة (الأزارقة) منهم كان لهم عنفهم وصلفهم وغلوهم ودمويتهم،

ولم يفكر معاصروهم بإعادة النظر في إسلامهم، على أن الواقع المعاش مختلف جداً، إن علينا أن نفكر باللعب وبالثارات، وصدام المصالح ليس غير.

والمواجهات الإرهابية مواجهة مع أمريكا، يتخذ خصومها مواقع عدة في العالم، والمملكة قد تكون واحدة من تلك المواقع. وعندئذ لا يكون التفجير حدثاً مرتبطاً بالسياسة المحلية، وليس منتج تربية وتعليم، وليس منتجاً محلياً، إنه وافد على أرضنا. وإذا شارك بعض أبنائنا في العمليات الانتحارية في المملكة أو خارجها، فليس معنى هذا أن نكون مصدر إرهاب، فهم قد خرجوا من ديارهم سلفيين وعادوا إليها، وهم إرهابيون. ولو سايرنا الجهلة والمتسطحين لقطعنا بإرهاب أربعة ملايين مواطن، وهم مجموع طلابنا، إن علينا مواجهة الحدث بأسلوب لا يقف عند تبادل الاتهامات، متناسياً أبعاده العالمية ودوافعه المتعددة.

أمريكا ضالعة في كل اللعب، منتشرة في كل الآفاق، مؤثرة على كل المصالح، وليس بغريب أن تضرب مصالحها، وأمريكا تعرف أن مواجهتها ليست مواجهة بين (الكفر) و(الإسلام). ومثلما دعمت الجهاد لإسقاط الاتحاد، فإن هناك من يدعم جماعات التكفير والأصوليين لرد الصاع صاعين، وعليها وعلى المتساذجين المغثين بهمزهم ولمزهم أن يقرؤوا الخطاب العالمي بعيون ثاقبة، وأن يعرفوا اللعب واللاعبين. والبأس كله أن تتجاهل أمريكا هذا الواقع المؤلم، والأشد بأساً أن يقع النخبويون في مأزق التضليل ومتاهات التأويل.

تعارض مصالح لا صدام حضارات .. ! (١) [(١)]

ما من أحد يصاب بصداع الرأس، وفقد الذاكرة، واضطراب النفس والفكر، إلا وله النصيب الأوفى من قراءة الخطاب السياسي والثقافي في كافة المشاهد العربية، وعليه كفل من تلقي طوفان الآراء المتناحرة، وركبان الثقافات المستكبرة المهيمنة، والمشاهد العربية تنوس بها بطائن سوء، تضرب ثوابت الأمة في الصميم، تحت مسميات جذابة، كالحرية، و«الديموقراطية»، وحقوق الإنسان، وحرية المرأة. ولا تنفك عن التناحي بالإثم والعدون حول ما يسمونه بالثالوث المحرم: «الدين» و«الجنس» و«السياسة»، ولا تأخذ حذرها مما يعانيه العالم المغلوب من أزمات طاحنة، تقوض أمنه واستقراره، وتفرق شمله، وتستدرجه من حيث لا يعلم إلى المهاوي السحيقة.

والعالم اليوم يعيش حالة من الاضطراب والتوتر، وتنتابه نوبات من اللعب الكونية، والمؤامرات الدنيئة، والفساد، والتخذيل، والعلل الباطنة. وليس ببعيد أن تتزامن الانهيارات: الحضارية، والاقتصادية، والأمنية، والدستورية، وتتغير كل الخرائط الجغرافية، والتركيبات: السكانية والإثنية والطائفية، ويبدأ العالم في التشكل من جديد، كما بدء الحياة أول مرة يعود، وكأن شيئاً لم يكن من قبل، فالأيام دول، والثواني حبالى، يلدن كل عجيب، والناس لا يستقرون على حال، وكم من حضارات سادت، ثم بادت، والبقاء على الحال محال، «ومن سره زمن ساءته أزمان» ومن لم يتوقع الزوال بعد التمام، ولم يحسب الحساب الدقيق لما هو آت، يفجؤه الطوفان، كمن ينام في بطون الأودية في الأيام المطيرة، والشاعر الحكيم يقول:

توقــــــع زوالاً إذا قيـــــل تــــــم

وفي الحديث: «**عهدٌ على الله ألا يرتفع شيء إلا وضعه**»، أو كما قال صلى الله عليه وسلم، حين سُبقت «ناقته»، وتألم الصحابة من تغلب أعرابي ب «قعوده» عليه، على حد:

مــــــا طـــــار طيــــــر وارتفـــــع
إلا كمـــــــا طـــــــار وقـــــــع

والحضارة الغربية بلغت حداً لا مزيد عليه، لا من حيث الإمكانيات، ولا من حيث التعديات، وأقرب الحضارات إلى الزوال من تجمع بين «التمام» و«الظلم» وكيف لا و«العدل أساس الملك».

والقول في «صدام الحضارات»، و«تعارض المصالح»، مضلة أفهام، ومزلة أقدام، وكل رهان حولهما، يجد ما يطمئن أصحابه، فالمسألة من الاحتمال بحيث:

لا يعـــــرف الغـــــادون فيهــــا دربهــــم
فكــــــأنهم بمســــــــيرهم غربـــــــاء

وكل خائض في الحديث حول «الصدام» أو «التعارض» غريب يتقرى الأشياء بأنامله، إذ لا يتمكن عند استحكام الحلكة من قراءة الأشياء بعيونه، ولو عدنا نستقرىء واقع أمتنا بلمس، لوجدنا المسألة مرتبطة بتعارض المصالح، لا بصدام الحضارات. ولقد قرأت كتاب «صامويل هنتنجتون» «صدام الحضارات إعادة صنع النظام العالمي» للمرة الثانية، ووجدت أنه صوت من الأصوات، وقد لا يكون أفضلها، وقد لا يدوم حضوره

---

(١) تاريخ المقال: ٣/ ٦/ ٢٠٠٣

شاهدا على العصر، ولو ذهبنا نضرب الأمثال بما هو قائم، لإثبات أن المواجهات ليست وقفاً على الاختلاف في الدين وإن رآها «جيل كيبل» ماثلة للعيان في النصف الثاني من القرن العشرين، متجلية في الصراع بين «العلمانيين» و«المحافظين» بحيث يرى أن هذه المرحلة تمثل يقظة أو صحوة دينية كونية، أطلق عليها «ثأر الله» بحيث يميل إلى الرغبة في «أنجلة» أوربا، أي عودتها إلى «الإنجيل»، وها هو اليمين في «البيت الابيض» يستمد وقوده من أصولية مسيحية متصهينة، وقد يأتي من يقول ب «القرأنة» أي عودة العالم الإسلامي المتعلمن إلى القرآن، ولست أعني طائفة «القرآنيين».

أقول: لو التمسنا الأمثال الحية المؤكدة لصراع المصالح، لتبدت لنا الأدلة كفلق الصبح، مطروحة في الطريق. والمعوِّلون على «صراع الحضارات» وحسب، يتعمدون تهميش صراعات أخرى لا تقل عنها، ويتجاهلون العلاقات المصلحية والنزاعات الطارئة حول لعاعات الحياة الدنيا، ولقد كادت تفعل فعلها في المجتمعات الخيرة، وذلك عندما وزع رسول الله ﷺ «الفيء» بعد الفتح في «غزوة حنين» على المؤلفة قلوبهم، ووكل المهاجرين والأنصار إلى إيمانهم، وهي مقاصد بعيدة المنال، لم يدركها بعض الصحابة و«سورة الأنفال» نزلت لتحسم التنازع حول الفيء في «غزوة بدر»، وهل أحد مثل صفوة الصفوة. فالمصالح عنصر مهم في عمليات الوفاق والنزاع الدوليين، وتجاهل المصالح أو الخلط بينها وبين الصدام الحضاري تفويت لثغرات مهمة. وإذ تختلف معالجة «تعارض المصالح» عن معالجة «صدام الحضارات» فإنه يلزم استحضار الحالين، لأن لكل حالة لبوسها. وعلى سبيل المثال فإن المعهود ذهنياً وواقعياً أن «المملكة العربية السعودية» حليف تاريخي، وصديق عريق «للولايات المتحدة الامريكية»، ليس في ذلك مواربة، ولا مداراة، نقول ذلك بلسان الحال والمقال، وكانت علاقات البلدين تزداد قوة ومتانة، يوم أن كانت المصالح مشتركة، ووجها النظر متطابقة، ويوم أن كانت أمريكا حمالة التوفيق بين الأطراف، ملتزمة بمنع التعدي على الحقوق والحريات، ويومها كان الإنسان السعودي أثيراً عند الإنسان الأمريكي، وكانت له معاملة خاصة، يلقاها في أي مكان من الولايات الأمريكية، حتى لكأنه واحد منهم، وخلال العقود السبعة التي مرت بها العلاقات السعودية الأمريكية، منذ اللقاء التاريخي بين الملك «عبد العزيز» رحمه الله، والرئيس الأمريكي «روزفلت»، لم تتحول المملكة عن سلفيتها، ولا عن تمسكها بثوابتها الدينية، ولا عن مناهجها الدينية، فيما لم تتحول الولايات المتحدة الأمريكية عن رسماليتها وعلمانيتها، ولم يحصل في يوم من الأيام أي تماس بين الفكر السياسي الإسلامي السلفي للمملكة والفكر السياسي الديموقراطي العلماني لأمريكا. كان ذلك يوم أن كان الصراع على أشده بين المعسكرين الشرقي والغربي، ولماَّ تزل المملكة ملتزمة بما عاهدت عليه، قائمة على أشدها في الدعوة إلى الله، متبنية لفكرة «التضامن الإسلامي»، ودعم الجمعيات والمؤسسات الإسلامية في قلب أمريكا، وكانت أمريكا تعيش غفلة الواثق، حتى إذا قصم ظهرها بالتفجيرات، وتبنى ذلك الإسلاميون، أخذت حذرها من الإسلام ودعاته، وفي مقدمتها المملكة، وباشرت المواجهة العسكرية. وحين تحولت من الحياد الإيجابي التوفيقي إلى الانحياز السلبي لقطبيتها وللصهاينة، وحين تعارضت تبعا لذلك المصالح، دب الخلاف بين صديقين تقليديين، وإن كان كل منهما يحيل إلى الإعلام المغرض، ويزكي المواقف الرسمية، إلا أن في الأنفس شيئاً، لماَّ يزل الطرفان يتكتمان عليه، ويحاولان إقصاءه، تهدئة للأوضاع، ومحاولة حكيمة لاجتياز المنعطف الخطير، حتى لا يراق الزيت على اللهب، ويتحول وميض النار إلى ضرام، وتلك الظاهرة العملية المعاشة تؤكد أن الخلاف مع الغرب، لا يحال كله إلى «صراع الحضارات»، ولا إلى اختلاف الديانات، وإنما يحال جلُّه إلى الظروف الطارئة والمصالح المتعارضة. المملكة يسوؤها

الكيل بمكيالين، وتمتعض من تناقض المواقف، ففي القضية الفلسطينية، لأمريكا موقف منحاز لمصلحة اسرائيل، وفي الشأن العراقي لأمريكا موقف منحاز لمصالحها الذاتية، فالظلم والاضطهاد والفوضى واقعة على الشعبين الفلسطيني والعراقي، دون النظر في الشرعيات، وسيادة القانون، واستقلال كل بلد بشأنه. والاتقاء والمداراة والدفع بالتي هي أحسن شأن العقلاء، ولكن الأمر بلغ حداً لا يطاق، وما يتعرض له الشعب الفلسطيني لا يمكن احتماله، كما أن الموقف من الإسلام بعد الأحداث لا يمكن قبوله.

والمؤسسات الإعلامية حين تركز على الصراع الحضاري، وتستدير تعارض المصالح والظروف الطارئة، فإنما تبحث عن وقود للرأي العام من أجل كسبه. وكل زعيم تزداد حاجته للجبهة الداخلية، كلما تعقدت الأزمات، ومن ثم يلجأ إلى الصراع الحضاري ليذكي فيه كوامن الإيمان، فالإنسان متدين بفطرته، وإن تعلمن، وعلينا ألا ننظر إلى وحدة المشاكل من خلال منظور إقليمي آني ضيق، إن هناك رؤى وتصورات ودوافع بعيدة المدى، جاء على طرف منها صاحب كتاب «صدام الحضارات» وصاحب كتاب «نشوء وسقوط القوى العظمى» وكتاب «الإعداد للقرن الحادي والعشرين» ل «بول كيندي».

ومما لاشك فيه أن سقوط الاتحاد السوفيتي بهذه السرعة، وبهذه المفاجأة، وبهذا الشكل الدرامي، وعلى يد الجهاد الإسلامي، الذي باركته أمريكا، ولم تمانع من شحن الأنفس بواجب الجهاد، وحب الاستشهاد، له أثره في تأزيم الأزمات، ومما زاد الأمور استحكاماً تعجل أمريكا بعد غياب الاتحاد لسد الفراغ، واستيعاب المعسكر الشرقي بكل خلفياته التاريخية والثقافية، وبكل مشاكله الاقتصادية والإثنية والطائفية، وبكل رواسبه النفسية. وهذا الموقف المتسرع المرتبك، حداها لاستئناف سياسة مغايرة، لما كانت عليه من قبل، وحملها على إعادة ترتيب الأولويات والأصدقاء، والبحث عن معادل آخر، تثير به كوامن الشارع الأمريكي، هذا السقوط ربك أمريكا، وخفف من اهتمامها بمعسكرها الغربي، سعياً وراء استرضاء المعسكر الآخر، وسرعة احتوائه، ليتأقلم مع الأوضاع الجديدة. ولأن صراع المعسكرين عريق، وله أعماقه المتجذرة في آفاق المعمورة، وله ثاراته وذيوله العصية الانقياد، ولأن الجهاد الاسلامي لعب الدور الرئيس في المواجهة مع الاتحاد المتداعي على يده، فقد أصبح من الصعوبة بمكان حسم إشكالياته بالطرق الدبلوماسية.

وكان أن التف الماركسيون حول أنفسهم يراهنون على أن الإخفاق الماركسي إخفاق تطبيق لا إخفاق مبادىء، فيما أسرع الإسلاميون للمطالبة بحقهم من «الأنفال» التي لم تكن لله ولا للرسول، ولكنها كانت لأمريكا التي استأثرت بكل الغنائم، ولأنها جربت نتائج الجهاد الاسلامي، وحصدت ثماره، فقد أوجست خيفة من لفظة «الجهاد» الذي حقق لها ما لم تكن تحلم به، نعم دعمته بالمال والعتاد والعدة والتأييد، وحمت ساقته ومقدمته، ولكنها لم تكن حاضرة الساحات ولا المغارات، وإذ نجحت في بنائه، فإنها لم تنجح في تفكيكه، ومن ثم لم تجد بداً من طرح مصطلح «الإرهاب» وانتزاع الموافقة العالمية على ملاحقته، وأخذ المقيم بالظاعن، ولقد ساعدها على ذلك وجود عصابات تمارس الإرهاب، وتحيل عملها إلى الإسلام، وما هو من الإسلام.

وإذ يكون الإرهاب الدموي الهمجي المتوحش قائماً ومستفحلاً وخارجاً على كل الأعراف فإن الإشكالية في اختلاف المفاهيم والمواقف، ودخوله بوصفه آلية من آليات الصراع المصلحي لا الديني، وحين نختلف حول مرجعيته، نختلف حول مشروعية مواجهته على الإطلاق، ذلك أن هناك مقاومة مشروعة يعدها البعض إرهاباً، وفي تلك الأجواء، تنفست الفتن النائمة، واختلط الجهاد والفداء والاستشهاد والمقاومة بالعنف والإرهاب، وطورد المحقون والمبطلون، واختلط المجاهدون بالعملاء والمأجورين.

ووجدت أمريكا نفسها بين أصوات متداخلة، وحسبت أن كل خطاب ينازعها القطبية، ويقاسمها المكاسب، ومن ثم فوضت أمرها إلى الترسانة العسكرية، بدل أن تعالج أمورها من خلال المؤسسات السياسية، ولمثل هذا عواقبه الوخيمة، ونتائجه الباهظة التكاليف، وها هو العالم الثالث يتحول إلى ساحات دموية، تستهدف المصالح الأمريكية، وها هي ساحات الفكر والإعلام تحيل إلى مناهج الدراسة، وإلى الدعوة الإسلامية المباركة، والى ثوابت الدين، كالدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد، وفي مقابل إحالة المرجفين، يأتي خطاب الإرهاب نفسه محيلاً إلى الإسلام، بحيث أصبح الإسلام مناط القول ونقيضه، ومن الخطورة بمكان الاختلاف حول البواعث. وهذه العمليات المدمرة، قد لا يكون للعالم الثالث فيها ناقة ولا جمل، ولكنه ناقلٌ لرسائل باهظة التكاليف.

تعارض مصالح، لا صدام حضارات .. ! (٢)[1]

وبصرف النظر عن أسلوب المواجهة فإن هذا الصراع أو الصدام أو التعارض نوقش على عدة مستويات، ومن عدة حقول معرفية، وكل طرف يرى أن قوله الفصل، وأنه لا معقب لحكمه، والقضية كالمذهبية، فيها تابع متعصب، يسعى لاحتواء الناس، ومتمسك غير متعصب، لا يستبدل ما يراه الأدنى بالذي هو خير، ولكنه كمن يقول: لكم دينكم ولي دين، ووسطي منفتح على كل الخيارات، يبحث عن الحق، لا عن مؤيدات الرؤية. وهذه الفئات تصطرخ فوق حلبة الصراع، وبدل التعاذر، والقبول بتعدد الآراء، نشأت بين أبناء الحضارة الواحدة والوطن الواحد العداوات والتصفيات والمزايدات. والخلاف في حقل الأدب (المؤدلج) أشد ضراوة، فلقد تعقبه دارسون ونقاد، تحسسوا عن الصراع في القول والفعل، ورصدوه: واهمين أو متيقنين، أو مفتعلين. ومن النقاد المعاصرين من تعنت في إكراه النصوص الإبداعية، وبخاصة السردية منها، ليجعلها متسعة للصراع الحضاري. ولقد كانت لي إلمامات متأنية حول هذا الموضوع، في دراسة (تحكيمية) اطلعت من خلالها على مماحكات وافتراضات تعجب من صدورها من أناس نعدهم من خيار النقاد، ليس لها من الحق شيء، ولقد كانت من الكثرة والإلحاح، بحيث اغتلى فيها ارتيابي، وكدت أركن إليها شيئاً كثيراً، ولقد انقدحت فكرة (الصراع الحضاري) عند المبدعين حقاً، وعند المقتدرين قولاً وثقافة، فكتبوا، كلاماً مفيداً أو مضراً، وسموا ما كتبوه روايات، وصدّقهم من لا يحترمون المصداقية، والحق أنها كتابات فيها الجيد والرديء، ولكنها ليست من الفن الروائي في شيء. وأبدع الموهوبون مالا غبار على فنيته وجودته واستيفائه لمقومات الفن، ولكنه يفتقر إلى صدق الرؤى، وكل هؤلاء وأولئك نذروا أعمالهم للصراع الحضاري، واتخذوا من الجنس المتفحش متكأ، حتى لقد تصدر (العهر) سدة الصراع، وكانت رواية (الطيب صالح) (موسم الهجرة إلى الشمال) الكذبة السوداء، التي سلم لها الجميع. وإشكالية النقاد التعاقب، بحيث يكون المبتدئ أمير الركب، والتابع متوسعاً فيما سبق. والمبادرة قد تأتي، ولكنها لا تغلب الكثرة، على حد: - (قد قيل ما قيل). فمن النقاد الواثقين المقتدرين الذين لا تأخذهم بالحق لومة لائم من يكون مستبداً، ينهي وقوع الحافر على الحافر، مبتدئاً رحلة العودة إلى مظان الحق، رافضاً التقاطر، ولعل التعاقب على جعل التفحش الجنسي رمزاً أو قناعاً للصراع الحضاري أدق مثال، لافتعاله فيما لحق من روايات، ولقد هيئ لتلك الافتعالات من المسايرين من كرروا الكذب، وأوغلوا في الفحش، حتى كاد يكون صدقاً. ومثلما أوغل المبدعون والنقاد في فرضية الصراع الحضاري في الأعمال الروائية، وتصديق العامة لهذه الدعوى المبالغ فيها، وجدنا من العلماء والفقهاء والمفكرين والخطباء من يحيل كل خلاف مع الغرب على صراع الحضارات، مستعيناً بالخلفيات التاريخية، وعلى رأسها (الحروب الصليبية) والإحالة على هذا التصور على إطلاقه، يحمل كل الأطراف على امتشاق السلاح بوصفه القادر على حسم الإشكالية، وكان بالإمكان تفادي هذا التصور والجنوح إلى السلام والتحرف للمواجهة الإسماعية الإبلاغية، لأن في واحدية الحل تفويتاً لفرص إيجابية، ما كان لها ان تفوت، في زمن وضحت فيه الرؤى والتصورات، أو كادت. ومع الإيمان الجازم بأن العداوة في الدين قائمة، وأنها عصية الحل، وأن اليهود والنصارى لن يرضوا عن مسلم، ولا عن أمة مسلمة حتى يتبعوا ملتهم، إلا ان النصارى في ظل الحضارة المادية المهيمنة دخلوا في العلمانية الشاملة كافة، ولم تكن النصرانية

---

(١) تاريخ المقال: ١٠/ ٦/ ٢٠٠٣

همهم الأول، والدليل على ذلك أن (المملكة العربية السعودية) - على سبيل المثال - تمنع التبشير، وإقامة الكنائس، وممارسة الطقوس الدينية على أرضها، ولا يجد الغربيون غضاضة في ذلك، فيما تمارس (المملكة) نفسها في المقابل دعم الحركات الإسلامية في الغرب، وإقامة المنتديات، وعمارة المساجد، وإنشاء الجمعيات، وطبع الكتب، وتنفيذ المؤتمرات، وتوزيع المصاحف والمطبوعات، ودعم التجمعات الإسلامية، وبعث الدعاة والأئمة. ولولا ما منيت به أمريكا من ضربة قاصمة للظهر في أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وتحميل الإسلاميين مسؤولية ذلك، لكان للحركات الإسلامية في الغرب شأن عظيم، ولكن المكائد والمؤامرات أيقظت أمريكا، لتمنع كل التحركات، وتضيق الخناق على المسلمين، وتطاردهم في عقر دارهم، وفي ذلك تفويت لفرص ذهبية. والعقيدة الإسلامية لم تمنع أمريكا من منح جنسيتها لمن تتوافر فيه الشروط، والحركات الإسلامية تجد من الحرية والحماية في أمريكا أضعاف ما تجده في عدد من الدول الإسلامية، ولولا ما ينتاب الحركات الإسلامية من تعصب مقيت، وما يجتالها من عداوات بغيضة فيما بينها، لكان لها تأثير في الرأي العام الغربي، وهذا التسامح الغربي للتعددية الدينية في إطار مواطنة شاملة يؤكد ان الخلاف مع الغرب لا يحال بجملته على الصراع الحضاري، وهذه المؤامرة الماكرة التي وضعت المشاريع الدعوية تحت المجهر، استبشر بها بعض الإسلاميين، وبخاصة (الراديكاليون) منهم، وعدوها نصراً مبيناً لهم، وماهي في حقيقة الأمر إلا نسف متعمد للدعوة الإسلامية التي آتت ثمارها، في بلاد يتعطش أهلها إلى من ينقذهم من دوامة الشك والارتياب، ونسف لجسور المصالح المشتركة مع دولة قوية في مؤسساتها ومعارفها وترسانتها العسكرية ونفوذها الأقوى في الهيئات والمجالس التي تشرعن للمواقف العالمية. وما نقوله ونذهب إليه لايعني استبعاد ان يكون هناك صراع وعداوة في الدين، ولا يعني ان نغفل ذلك الجانب، ولايعني التزكية والتلميع لأمريكا، فنحن نعرف كم تجرع العالم من الويلات، وكم لقيت قضايا الأمة العربية العادلة من الاجهاضات، ولما كان الغرب ملة واحدة فقد لعبت من قبل (بريطانيا) ذات الدور في المشرق العربي، ولعبت (فرنسا) ماهو أنكى وأمر في الجزائر، ولعبت (إيطاليا) في ليبيا. والمشرق العربي كحلبة المصارعة، كلما خرج مصارع دخل آخر، وفي كل جولة نقول: هذه هي الضربة القاضية، ولكن المسألة مع كل هذه الجولات الشرسة ليست باللونين الأبيض والأسود، ومن ثم يجب ان نتيح فرصاً للتصورات والخيارات، وان نشتغل في القواسم المشتركة، وأن نمارس الدعوة، ونسمع الآخر كلام الله، ونبلغه مأمنه، فلكل زمان مشروعه الدعوي، ومن أراد المواجهة العسكرية فليعد لها عدتها، ولينفق على التسلح ما تنفقه أمريكا، وكيف تتأتى المواجهة المتكافئة مع دولة اخطبوطية، تنفق على تسلحها أكثر من ثلاثمائة وسبعين مليار دولار، وهو مبلغ فلكي، لم تنفقه ست دول كبرى مجتمعة على تسلحها، وعلى الذين لايرون إلا خيار المواجهة ان يمارسوا الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن. ومع دعوتنا للتعويل على تعارض المصالح، فإننا لم نغفل تأثير الأصولية في أمريكا، والإحياء الديني، وصعود اليمين المسيحي، ولم نتجاهل الدعم المتواصل لليهود، والعمل على عودتهم إلى فلسطين بدافع ديني، أكد عليه من قبل (ويليام بلاكستون) في كتابه (يسوع قادم) كما لا نجهل الحركة المسيحية التي استخدمت الشبكات (التلفزيونية) تحت مسمى (الكنائس المرئية). ومع التباس الأمور، وتعدد الاحتمالات، فإن هناك دقائق في أمر (الحضارة) و(الدين) لايجوز تجاهلها في سبيل تهييج الرأي العام، وكسب ولائه. ف (الحضارة) رؤية شمولية، فيما يأتي (الدين) نصاً تنظيمياً عقدياً تعبدياً، بلد الحضارة، ثم يكون روحها النابضة، والرؤية الشمولية للإسلام تتجاوز مظاهر العبادة والمعاملات والمرافعات والأحوال إلى أشياء أوسع وأشمل من

ذلك، ومن سمات الدين الإسلامي شموليته وشرعيته وانفتاح نصه، بحيث يتسع للنوازل، ويستجيب لمطالب الحياة المتجددة، والتراجع حين يكون تحرفاً أو تحيزاً، لا يكون فراراً من الزحف، وحالة الضعف تستدعي التخفيف والسكينة، وذلك ما جاء به الذكر الحكيم وتحدث عنه فقهاء الأمة في قضية (الجهاد). ومع كل التحفظات فإن (الصراع الحضاري) قد يكون قائماً، ولكنه لايقف حيث يكون التدين والممارسات الدينية. ولنضرب على ذلك مثلاً بالعلمانيتين: الشاملة والتنظيمية المحدودة، واختلاف المفكرين حولهما، بحيث تكون الشاملة عزل الحياة عن الدين، وما دون الشاملة تعني عزل الدولة عن الدين، فالشاملة تمنع الاعتقاد وممارسة العبادة وتحكيم الشريعة، فيما لا تهتم العلمانية التنظيمية في أمر العبادة، والأحوال الشخصية، ولكنها تفضل (الحكومة المدنية) على (الحكومة الدينية)، و(الحكومة المدنية) قد تجعل دستورها إسلامياً وأحكامها إسلامية، ولكنها لا تضيق على نفسها كما (ولاية الفقيه) ومسألة المستويات الحكومية مسألة دقيقة وشائكة، لأنها مختلفة باختلاف المفاهيم. ولقد قيل لتحقيق ذلك الانفتاح (لا سياسة في الدين ولا دين في السياسة) وجاء من يستبعد قيام (الدولة الدينية) دون ان يوضح الطرفان مفهومها ومقتضيات هذه المفاهيم، وهل (الحكومة الدينية) معادلة للحكومة العلمانية، أو معادلة للحكومة المدنية؟ وكل هذه الإطلاقات التعميمية الحمقى، لم تضع تصوراً محكماً ومفصلاً، يتحقق معه إظهار الدين، وتحكيم الشريعة، وتحقيق مقتضيات الإسلام التي من أهمها العدل والحرية والمساواة وتكافؤ الفرص والوعظ والتناهي والتذكير، وبتحقق ذلك لايكون هناك ما يمنع من ان تكون الحكومة: ملكية أو جمهورية أو سلطانية: (فدرالية) أو (كنفودرالية) (شورية) أو (برلمانية) (اختيارية) أو (انتخابية) إذ المهم ليس في المسميات والأشكال والإجراءات، ولكنه في المصائر والمآلات والمرجعيات، ومن قال في الدولة (الدينية) أو (المدنية) أو (العلمانية) ثم لم يكن على معرفة دقيقة بالفكر السياسي الإسلامي، فقد يقع في الشبهات، وقد تكون لنا فيما نستقبل من أيام إلمامات موضوعية في السمات الثلاث للدولة، أملاً في كشف النوايا المرتابة، وتحديد الخطابات الجامحة الرعناء، التي تتفيأ ظلال المفاهيم المتعددة.

وما أذهب إليه لايدعو إلى ترك الثنيات، وعلمنة الحياة، وإنما يدعو إلى وضع الأمور في مواضعها، ومعالجة الأحداث على ضوء دوافعها وظروفها وكوامنها، وعلى المؤمن أن يكون كيساً، فطناً، عدلاً، لايجرمنّه كره الآخرين على عدم المصداقية. وحين تفيض مشاهدنا بفرضيات لا أساس لها من الصحة، نغفل عن حقائق، تجد من غفلتنا فرصاً ثمينة للتجذر والتوسع، وخطأ التقدير والتوقيت يفوت على الأمة فرصاً كثيرة، وعلينا، وقد ادلهمت الأمور، وبلغ السيل الزبى ان نتحرف لخطاب يصطحب (تعارض المصالح) بدل (صراع الحضارات)، ولايضع (الأنجلة) أو (القرأنة) الخطاب الفرد، وإذا كان بالإمكان الدفع بالتي هي أحسن، فإن المصير إلى الصدام سبق مفضول، وما خُير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما، والصلح خير، ولا يتأتى الرفق إلا باستبعاد التوتر وصراع التفاضل والتصدير والهيمنة. وحصر المواقف في خيار واحد مع إمكان التوفر على خيارات متعددة تعنت لا مبرر له.

شيخ حقيق بالتكريم .. ![1]

كلما استدعت المناسبات شيخا من شيوخ الفكر والادب عادت معه ذكريات عفا عليها الزمن، وألذ شيء في الحياة ان تنقلك المناسبات إلى عهد الشباب، وما فيه من ذكريات جميلة.

وتكريم الاستاذ عبد الله بن ادريس من تلك المناسبات المبهجة، فلقد عرفت ابن ادريس منذ نصف قرن، وبالتحديد عام ١٣٧٥هـ يوم كنت طالبا في المعهد العلمي في بريدة، في المرحلة الابتدائية، وكان هو في عنفوان شبابه مفتشا في الرئاسة العامة للمعاهد والكليات، وكان من عادة الموجهين أن يحضروا الدرس بزيهم العربي، يقدمهم احد موظفي المعهد يحمل كرسيا ليضعه في مقدمة الفصل، ثم يأتي الموجه أو المفتش كما كان يسمى، ويجلس ويمضي المدرس في درسه، وكنا اذ ذاك ننظر إلى الموجه أو المفتش كما ينظر القروي إلى عجائب الصناعات، ولما سئل احد العامة في المسجد عن اكبر مخلوقات الله قال: «القطار» ونحن في ذلك الوقت نتصور ان المفتش اهم المسؤولين واكبرهم، وظلت النظرة عالقة في اذهاننا، فكلما نظرنا إلى مقال بقلم عبد الله بن ادريس اصبح في نظرنا من اكبر المقالات نقترب منه في هيبة وجلال، وقد نتهيب قراءته.

ولما يزل عالقا في أذهاننا ذلك الرجل حتى اذا أخرج للناس كتابه «شعراء نجد المعاصرون» اصبح في نظرنا فتحا مبينا وهو بحق، ومن خلال سياقه اضافة متميزة وما زالت قيمته الادبية والتاريخية قائمة.

ومع السنين اقتربت كثيرا من ابن ادريس الشاعر وابن ادريس الكاتب. وكلما قويت الصلة بيني وبينه اكتشفت المصداقية والاخلاص والنزاهة والاعتزاز بالرأي، وسواء اتفقنا معه أو اختلفنا حول المفاهيم والمواقف فان الرجل يمتلك آليات نقدية وموهبة شعرية، وله إسهاماته المتعددة عبر مختلف المواقع الرسمية: تربويا، وادبيا، واعلاميا ولقد تناوله الكتاب والنقاد اختلفوا معه كثيرا، واتفقوا معه اكثر، والمسألة ليست في ان نتفق أو نختلف المسألة في ان يعود هذا الاتفاق والاختلاف بفائدة على المشهد الادبي.

وعندما حضرت لشهادة الماجستير «اتجاهات الشعر المعاصر في نجد» كان ابن ادريس موضوعا لدراستي بوصفه شاعرا من شعراء نجد المعاصرين، وكان كتابه «شعراء نجد المعاصرون» من اهم المصادر التي رجعت اليها وعولت عليها.

وحين اصدر ديوانه «في زورق الحلم الجميل» تناولته بالدراسة النقدية ونشرت الدراسة في مجلة «التوباد» وعندما احتدم الجدل بين ابن ادريس والاستاذ عزيز ضياء رحمه الله حول «التراث ونقده» تدخلت لفك الاشتباك ونشرت مقالا من حلقتين في جريدة الرياض كان ذلك عام ١٤٠٦ه واحلت الاختلاف بينهما إلى الاختلاف في المفاهيم لا في المواقف.

وحين كرمه نادي الرياض الادبي كنت المتحدث الرئيس حول مبلغ بن ادريس من النقد، والقيت ورقتي التي اثارت اطرافا كثيرة وحظيت بمداخلات متعددة ذلك انها اعتمدت على اثارة التساؤلات لا تقرير الحقائق، ولما تزل الدراسة بانتظار النشر صحفيا أو كتابيا ليفصل فيها القراء ويقولوا كلمة الحق.

واليوم وبعد هذا العمر الطويل الحافل بالعطاء، جاءت الاسرة لتكرم واحدا من ابرز رجالاتها، وجاء الامير سلمان لينوب عن الجميع بتقدير ذلك الرجل الذي تجلت امكاناته

---

(١) تاريخ المقال: ١٤/ ٦/ ٢٠٠٣

ومواهبه في اكثر من موقع ولما يزل يتواصل مع قرائه ومحبيه محتفظا بامكاناته العلمية والادبية.

وعلاقتي به علاقة التلميذ والصديق والزميل اختلف معه فيرحب صدره، وأتفق معه فيرحب صدري، وسيظل حاضرا بذاته، وبما تركه من اعمال ابداعية واعمال نقدية واسهامات صحفية في فترات حساسة من فترات العالم العربي.

ومثل هذه المناسبات تعيد الانسان إلى ايامه السعيدة ايام الشباب وطموحاته فلكل من اسهم في تكريم الكفاءات الوطنية الحب والشكر والتقدير.

أيها المؤتمرون عنا في اللقاء الوطني: فعِّلوا التوصيات .. !(١)

الأزمات تحرك العقل الباطن، ليأخذ حذره، ويحفز طاقات الأمة، لمواجهة الأحداث الجسام، و(اللقاء الوطني للحوار الفكري) ائتمار بالمعروف، ينسل من تحت ركام الفتن التي تعصف بالمنطقة المنكوبة، والممتد إلينا دخنها الخانق. وهو مؤتمر لم أسعد بحضوره، وليس مهماً ولا واجباً أن أدعى إليه، وليس من شرط المشروعية والنجاح أن أكون حاضره. فمثل هذه المبادرات الإيجابية فروض كفاية .. وليس ما أقول من باب العتب، ولا من باب التطلع ولفت النظر، ولكن ليُعلم أنني قارئ محايد، يبارك تلك الخطوات، ويرجو لها التسديد والتوفيق والنجاح. ولو تمنيت أن أكون معهم، فإنما لأبثهم شكايتي وتأوهاتي، فالواقع العربي والإسلامي يشقى به الجهال قبل ذوي العقول، وقديماً قيل: (ذو العقل يشقى في النعيم بعقله) فكيف به إذا كان وسط الشقاوة، تتقاذفه أمواج التآمر والتماكر، ويحاصره الغزو العسكري والفكري، ويشلُّه التدخل في أخص خصوصياته، فيما يجتال الإنسان العربي دعاة سوء، وهو في غفلة عن هذا، لم يكشف عنه غطاء الجهل، ولما يكن بصره حديداً. وفوق هذا يعج المشهد الفكري بخطابات متناقضة الانتماءات والتصورات، يختلط فيها الغث بالسمين، والسياسي بالدين، ويتنازع فيها الوصولي والأصولي والحداثي والعلماني والسلفي والانتهازي. وما أكثر الناس ولو حرصت بعارفين لأصول هذه الانتماءات، ولا متفهمين لدلالتها، ومع ذلك يحسبون أن الحرية تعني فعل الممكن والخلط بين الثابت والمتحول، وإعطاء العقل ما للنص وتمكين الدهماء من حقوق النخبة، والخوض في آيات الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير. هذا الإنسان المنتهك، يجمع بين العيلة والاستكبار، وينهكه جدل (البيضة) و(الدجاجة)، ينهش ذاته، وينازع نفسه، ولا يزيد قومه إلا خبالاً. ولما كانت في النفس حاجات، وليس في القوم فطانة، فإن كتمانها لا يكون جواباً ولا خطاباً. ولا بد - والحالة تلك - من التفكير بصوت مرتفع، للخلوص من ضواغط الواقع. والوطن العزيز بأهله ومبادئه، المصاب بدخن الفتن، بحاجة إلى أبنائه الناصحين لله ولرسوله ولولي الأمر، يرودون له، ويحمون ساقته، ويكونون ظهيراً لقادته، يصدقونهم القول، ويمحضونهم النصح، ويُسرُّون لهم بالتقصير، يَعذرون ولا يُعذرون، ويُسددون ويقاربون ولا يتملقون.

والتوصيات التي أفاض ببعضها المؤتمرون مخاض عقول، عركتها الحياة، وحنكتها الخبرات، ومن ثم جنحت إلى الهدوء، والسكينة، وإصلاح ذات البين، متمشية مع الظروف القائمة، المقتضية للتهدئات، وفك الاشتباكات، والتعاذر، والتبصر في الأنفس، والاشتغال بالذوات. فكل إنسان يحمل من النقص والتقصير بحق نفسه وعقيدته وأمته ما يحتاج معهما إلى الجهد والوقت والتأمل الذهني للتخلص مما ران على القلوب، ومع أن التوصيات من معتصر المختصر، فإنها جاءت فضفاضة عائمة، وإن كنت أتوقع أن في السقاء بقيةً لم تدلق في أنهر الصحف. وعلى كل الاحتمالات فإنها أحوج ما تكون إلى فريق عمل يصنفها، ويتقصى متعلقاتها، و يدفع بها إلى جهاتها، بحيث تتسرب عبر المناهج التعليمية، والخطب الوعظية، والوسائل الإعلامية، ليتمثلها الشباب الذين يجمع لهم الناس ما يرديهم، وأفكار الشباب كالأرض الموات يظفر بها من سبق وأحيا. ولأهمية مثل هذا اللقاء فإنه يتطلب الشفافية والإشاعة والإذاعة والإرهاص والإعداد المسبق، ليكون في مستوى النكبات المتعاقبة (كسهام المتنبي)، غير أن المنظمين والداعين للمؤتمر فاجؤوا الوسط الفكري بما لم يكن في الحسبان، فلم نسمع عن موعده، ولا عن دعاته

---

(١) تاريخ المقال: ١/ ٧/ ٢٠٠٣

ومدعويه وضوابطهم، ولا عن جدول أعماله، ما يمكّن من تهيئة الأنفس، وتحشيد المشاعر. ولقاء بهذه الأهمية والاحتفالية، وفي ظل هذه الظروف العصبية، لا بد أن يُسبق بتهيئة الأجواء، المتمثلة باستطلاع الآراء، واستشارة ذوي الاختصاص والمهتمين، من فقهاء في الدين والواقع، ومعلمين يعرفون دواخل الشباب وحاجاتهم و«أكاديميين» متخصصين في معارف العصر، وأدباء ممتعين مستميلين مقنعين، ومفكرين يعرفون دخائل الأفكار، وإعلاميين يبلغون رسالات النخب.

ونظراً لتفاقم الأوضاع العربية والعالمية، وحاجة الأمة إلى السكينة والجنوح للسلم، وتأليف القلوب، فقد تمحور المؤتمر وتوصياته حول عنصرين هامين: (الوسطية) و(الاعتدال) حتى لقد سبق إلى ذلك خطاب (ولي العهد) للمؤتمرين.

وجاء هاجس (الوحدة الوطنية) في أكثر من سبع توصيات، مؤكداً الاهتمام بالجبهة الداخلية، فيما تمخض اللقاء عن اثنتين وعشرين توصية، تمثلت في (التقوى) و(المشاركة) و(الوحدة الوطنية) و(احترام العلماء) و(تعميق معاني البيعة) و(الاهتمام بالمواطن) و(تكافؤ الفرص) و(التربية والتعليم) و(قضايا الشباب) و(الإعلام) و(الإصلاح) و(الوسطية) بين الغلو والتحلل و(الحوار) و(قبول الاختلاف) والتعايش معه و(دور المرأة) و(حرية التعبير) بضوابطها الثلاثة و(ضبط الفتوى) و(الحد من قاعدة سد الذرائع) و(وعي الظروف) و(ضوابط الجهاد) و(دعم المقاومة) و(استنكار الاعتداء) و(مناهضة الاحتلال) وكل محور من هذه المحاور عولج بلغة دبلوماسية حمالة، تكاد تصل إلى حد: (تحصيل الحاصل). وأخشى أن تكون التوصيات رغبات وتطلعات، وليست قضايا حدية مؤطرة ملزمة، بحيث يمكن مباشرة العمل على ضوئها، إذ لم تحدد جهة التنفيذ والمتابعة، وإن تطلع المجتمعون في (التوصية الثالثة) إلى إنشاء (مركز للحوار الوطني)، يقوم بمهمة التنظيم وإعداد البحوث، وكم نود لو أنشئت (أمانة عامة) تشكل من الوزارات المعنية: بالتعليم، والثقافة، والدعوة، والاجتماع، والشباب. تكون مهمتها المتابعة والرصد والتوجيه والإعداد للقاءات دورية. ولأن التوصيات قد جمعت وأوعت، فإنها بحاجة إلى تفكيك وتصنيف، وقيام كل جهة بتنفيذ ومتابعة ما يخصها. والتفكيك والتصنيف والتنفيذ والمتابعة ضرورة ملحة، ذلك أن كل واحدة من التوصيات يندرج تحتها كم من الضوابط والرغبات والتطلعات التي تساور كل مخلص لدينه ووطنه وأمته. والإشكالية ليست في القول السديد، ولا في الكلم الطيب، فما من ناصح إلا ويستبطن ذلك ومثله معه، وله رؤيته ومفهومه وتصوره وإحساسه، وإنما هي في البرهنة الفعلية، والاستعداد للتضحية، وإيثار المصلحة العامة، وقبول التنازلات الطوعية، وتقريب وجهات النظر، مع تفادي تمييع الحدود، وتلميع النكرات، وانمساخ الذوات، بحيث لا تكون هوية ولا ماهية. فحين نقول ب(الوسطية) - مثلاً - فإن لها مفاهيم بعدد المتصورين لها، فكل مفكر يدعي أن رؤيته تمثل الوسطية. ولهذا لا بد أن نقيم الحدود، ونحدد (المرجعية): النصية والشخصية، وأن نقارب بين مفاهيمنا: للحق، والحرية، وأمداء التأويل، ومجال العقل والنص، وضوابط التعامل مع المستجد. وأن نعي معنى (الوسطية) و(التطرف) و(الغلو)، ولا تجوز في مثل هذه المواقف الحساسة الاطلاقات العامة العائمة، ولا التعويل على المعهودات الذهنية، فلقد نهى القرآن عن (الغلو) مرتين، وربطه بالأمثال، وقال الرسول ﷺ بحق الغلاة في العبادة، فضلاً عن غيرها: (من رغب عن سنتي فليس مني) وربط ذلك بالأمثال، ولقد مرت الأمة الإسلامية بحالات من التطرف والغلو، انعكس أثرها السيىء على مستقبلها، وكان أولها موقف الثلاثة الذين تقالُّوا عبادة الرسول، وموقف (أبي ذر) في أمر الكنز، وأخطرها تطرف (الخوارج) الذين تقربوا إلى الله بقتل من يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله. ومعالجة الغلو في الدين

يجب أن تواكبها معالجة الغلو في (العلمنة) و(الاستغراب) فـ(كلا طرفي قصد الأمور ذمم)، وكل تطرف يتولد منه تطرف مضاد، وحفظ التوازن يتوقف على نزع الفتيل من الطرفين. وكان على المؤتمرين الدقة في تحديد مفهوم الاختلاف، بوصفه طبيعة بشرية، الاختلاف المعتبر الناشئ من الاجتهاد المشروع. إذ ليس كل اجتهاد مشروعاً وليس كل اختلاف مشروعاً، ومن ثم فإن التوصيات لم تعمق الرؤية عن مشروعية الاجتهاد، وصفة المجتهد، ومجال الاجتهاد، وحق الاجتهاد. ولعلماء الأصول قول حاسم في مراتب الاجتهاد ومشروعيته، وكل خلاف منشؤه الاجتهاد. فالقراءة التفكيكية للنص ترتبط بالخلفية الثقافية والمذهبية، أو ما يسمى بالأنساق، وقلَّ أن يكون هناك قراءة بريئة، تنشد الحق، ولا تبحث عن تأييد الموقف، فحين يكون النص حمالاً أو غائباً، يكون الاجتهاد واجباً، والاختلاف متوقعاً، ولهذا قال العلماء (لا اجتهاد مع النص) ولقد كانت لي إشارة سابقة حول مفهوم (النص) عند الأصوليين، وهو مفهوم مغاير للمفهوم المعاصر، فـ(النص) عند (النصوصيين) لا يعدو الاهتمام بالبناء اللغوي، ومن ثم شاعت (الألسنية) و(الأسلوبية) و(البنيوية) و(التشريحية) ومرادفاتها: (التقويضية) و(التفكيكية). أما (النص) عند الأصوليين فهو: (القول الذي لا يحتمل إلا دلالة واحدة). واختلال الجبهات الداخلية، وتعكير صفو الوحدة الوطنية، إنما تأتي من مبادرة الاجتهاد الفردي غير المشروع، والخروج برؤى مناقضة لما عرف من الدين بالضرورة. ولو أن المجتهدين نظروا أولاً في أهليتهم، وأهلية النص، وقدرته على إعطاء دلالات جديدة، لاستيعاب النوازل، ولو أنهم قدموا مصلحة الأمة المتمثلة بجمع الكلمة، ووحدة الصف والهدف، لما كان هناك خلاف يؤول بالأمة إلى اضطراب وحدتها وارتباك جبهتها.

وإذ سيئت الأوضاع من تلاحق (الفتاوى) الفردية في القضايا المصيرية كـ(السياسة) و(الجهاد) و(التكفير) و(الولاء والبراء) و(السمع والطاعة) فقد جاءت إحدى التوصيات أكثر عمومية وإطلاقاً، مع أن الفتيا المخالفة ناتج اجتهاد غير مشروع، أو تقليد غير واع، وكان يجب التفريق بين فتيا (العبادات) و(المعاملات) و(الحقوق) المتعلقة بذات المستفتي، والفتيا (الأممية) المتعلقة بالفكر السياسي الإسلامي، فما كان فردياً يمكن أن يفتي فيه أي عالم شرعي، وما كان (أممياً) فلا بد فيه من الرجوع إلى (مجمع فقهي) أو (مؤسسة علمية) معتمدة من قبل الدولة، وموثوقة من قبل الأمة الإسلامية، على أن تراعى فيها (أحوال المسلمين) المتردية و(العلاقات الدولية) و(العهود والمواثيق) و(المصالح المشتركة) و(مقتضيات البيعة) ومن توقف من العلماء المفتين أوتحفظ أذعن للأغلبية، ولم يشع موقفه بحثاً عن الاتباع. وإشكالية (الفتيا الأممية) أنها تأتي على صيغة معارضة لما تواضعت عليه الأمة، وعلى شكل منشور، وقد تكون ناتج تسرع وعدم تثبت، ولم يتوفر مُصدرها على الفقه وأصوله، ولا على فقه الواقع وضوابطه، ولا على مقتضيات البيعة الإسلامية، ثم لا يكون المفتي ورعاً، ولا مهتماً بما تحدثه الفتيا من تفرق في الكلمة، وبلبلة في الأفكار. وقد تكون الأسئلة موجهة ومسيسة، بحيث تتمخض عن إجابة مثيرة، لا تستوعبها براءة المفتي. ولهذا يجب أن تحدد هذه التوصية، وأن تفعل، وأن يمكن سائر العلماء المتخصصين في الفقه من فتيا (العبادات) و(المعاملات) و(الأحوال الشخصية)، أما فيما يتعلق بقضايا الأمة ومصائرها والفقه السياسي، فيوكل إلى مؤسسات علمية، تراعي الأحوال والظروف.

ولما كانت (المرأة) مناط المشاكل في الطرح الإعلامي، فقد عرض لها المؤتمرون بما لا يشفي ولا يكفي، وقضايا التماس بين المصطرعين حول المرأة لا يكفي فيها مرور الكرام، فحرية المرأة، وعملها، وحقوقها، مناط كل ذي ريبة، و(تحرير المرأة) لما نزل معه، منذ (قاسم أمين)، حتى يومنا هذا، يقول به المحق والمبطل، حتى لقد آلت المطالبات

بأحوال المرأة إلى أن: رقصت، وغنت، ومثلت، وتبرجت، واختلطت، وخلت، ومالت، واستمالت، وتعرت وهي كاسية، عارضة أزياء، ومستعرضة مفاتن، تاركة مملكتها وزوجها وفلذات كبدها للوحدة أو لامرأة أجنبية، لتتشرد في مملكة الرجال، تشقى في المصانع، وتعمل في المكاتب، وتخدم في المقاهي والمطاعم والطائرات، منفقة كسبها في الأصباغ والمساحيق، مستنكفة من خدمة الزوج ورعاية الأولاد، ولما يزل الأوصياء يطالبون بمزيد من التنازلات، ولم يتمعر وجه أحد منهم مما وقع لها ومنها. والمرأة في ظل الإسلام حرة مكرمة، فهي من الولادة حتى الزواج في دلال الأب، ومنه حتى اليأس في دفء الزوج، ومنه إلى الوفاة في بر الأبناء والأحفاد، الجنة تحت أقدامها، والنظر إلى وجهها عبادة، ومن ثم فهي بين الجمال والجلال. وكان علينا - والحالة تلك - أن نبحث في (حرية الرجل)، فهن يغلبن الكرام، ويغلبهن اللئام، وخير الرجال خيرهم لأهله، وقد حدد القرآن عمل المرأة بشرطين:

-قيام الحاجة.

-ومنع الاختلاط.

وذلك في قصة (بنات شعيب) مع (موسى) ومتى قامت الحاجة، أبيح العمل، ووجب التعليم، للتوفر على الأداء السليم (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف) والقول في الحقوق على الإطلاق مظنة الفتن، فكل خائض في قضايا المرأة يرى أنه المحق، وتوسيع دائرة مشاركتها، لتكون معلمة أو طبيبة أو تاجرة أو مشاركة في الرأي، أو فيما لا يقوم به سواها مطلب عادل، وحق مشروع، ولكن يجب أن يعلم الجميع أن المرأة حين تبارح المنزل لعمل يمكن أن يقوم به الرجل فإنها ستترك مملكتها لامرأة أجنبية، وسترفع نسبة البطالة بين الرجال. فالقرار في البيت هو الوضع الطبيعي، والخروج منه ضرورة، تقدر بقدرها، وما ينال المرأة من حيف أو ظلم من اللئام، لا يمت إلى الإسلام بصلة. وقد طالبت الصحابيات بحقوقهن من رسول الله ﷺ، وشكون استبداد الرجال، ومنهن (أم عُمارة الأنصارية) فليس هناك من بأس أن تطالب المرأة بحقوقها المشروعة، ولا أن يُثنى الرجال عن تجاوز حق (القوامة)، وقد ثار الجدل بين الصحابة حول حديث: «**لا تمنعوا إماء الله مساجد الله**»، ولكن البأس كل البأس أن يحاول الغربيون والمستغربون تحويلها إلى جنس ثالث ممسوخ، أو أن يخلطوا بين مهمات الرجل والمرأة. والمرأة الغربية التي أعطيت ما لم تعطه امرأة في التاريخ، لما تزل تعيش التعاسة والبؤس، ولما تزل تتعشق دفء البيت وقوامة الرجل. وإذ يكون اللقاء للحوار الفكري فإن عليه ألا يمتد إلى ما سواه من أمور الحياة المعيشية، وأن ينتقل من الحوار إلى الفعل، وأن يفرق في التحاور بين عصمة النص وقداسته وخطاب المتدين واحتمالاته، ويبقى اللقاء مع كل التحفظات والتساؤلات حلقة مضيئة في سلسلة المبادرات الإيجابية، فإلى مزيد من التجليات، وإلى مزيد من تفعيل التوصيات، وتقليص الشكليات.

ليس تأبيناً ولا تفجعاً عليك يا أمي .. ولكنه اتعاظ وموعظة .. ![1]

كلما عظم المصاب، التاثت الألسن، وتعثرت العبارات، وغاض معين الكلام، واحتبست شبات القلم، وحق لها أن تحتبس، فما من كلمة تستطيع أن تجسد فقد الأعز، أو أن تفي بالحق للأكرم، ومع ذلك فلابد أن أقول، لا متفجعاً ولا مؤبناً، ولكن متعظاً وواعظاً، ومتخففاً من ضواغط الألم. ومثلما يسكّن الدمع والعويل تململ الأحزان في الأعماق، ينفس الكلام كرب المكروبين، والبررة أدرى بما تكنه القلوب المفجوعة بالآباء أو الأمهات.

وكم تتعطل لغة الكلام في لحظات الفرح الغامر أو الترح الساجر.

وكم يجهش الإنسان بالبكاء، حين يطفح كيل الأتراح، أو يفيض دفق الأفراح، ثم يكون أحدهما فوق طاقات الانسان الشعورية. وما تدفق الدموع إلا صمام أمان، يقي من الانفجار المهلك، وقد قالها رسول الهداية: إن القلب ليحزن، وإن العين لتدمع، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا.

وهكذا كل امرئ تجتاحه مشاعر الحزن، عند فقد حبيب، لا يجد بداً من أن يبكي، ويطيل البكاء، ويحزن حتى يمضه الحزن، بيد أنه في النهاية يخلد إلى السكون والسكوت والسلو ونسيان ما فقد. ولولا الأمل والنسيان لتعطلت مصالح الانسان، والله الذي استعمر الناس في الأرض، هيأ لهم من الأخلاق والطبائع ما يساعدهم على مواصلة العطاء، رغم تفاهة الحياة، ولولا النسيان ما بقي على ظهر الأرض من دابة.

ومثلما يبتلي الله من يشاء من خلقه بشيء من الجوع والخوف ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، فإنه ينعم عليهم بالصبر والسلوان، ويتفضل عليهم بالنسيان والأمل، وهما نعمتان مجهولتان، فمن بكى على حبيبه، يتصور أنه لن يسكت، ومن ضاقت عليه الأرض بما رحبت، بسبب فقر أو خوف أو مرض أو ظلم، يتوقع أنها لن تتسع، ولكن كر الجديدين كسوافي الرياح، يطمس معالم الحزن، حتى تنهض لتجديدها مصائب أخرى.

والله سبحانه وعد الصابرين ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦] بالصلوات والرحمة والهداية. وتلك أعطيات ثلاث، تنجي من هلكة الدنيا والآخرة، فهل تعدل صلوات الله على عبده الصابر المحتسب صلاة؟ وهل تضاهي نفحات الرحمة التي يتفضل بها عليه نفحات من إنس أو جان؟ وهل وعد الله لعبده المبتلى بالرحمة يساوي أي ثمن؟ ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١] وعلى الصابرين المحتسبين أن يستبشروا ببيعهم الذي بايعوا به الله.

فالله حين يسبق قضاؤه إلى محبوب، فينتزعه من بين محبيه، ثم يجد منهم الصبر والاحتساب والقبول والرضا، يحفهم بالسكينة ويتغشاهم بالرحمة، وفي الحديث: «**إذا أخذت حبيبتي عبدي فصبر فله الجنة**» أو كما قال. وعجب أمر المؤمن، وكل أمره عجب، إذا أصابته سراء فشكر، كان له أجر، وإذا أصابته ضراء فصبر، كان له أجر. والسعيد من كان من الشاكرين المأجورين، ينعم في دنياه بالسراء، وينعم في آخرته بجزاء الشكر، وإذا أحب الله عبداً ابتلاه، ليمحص ذنوبه، أو ليضاعف أجره.

ولقد كان أولو العزم من الرسل أكثر خلق الله ابتلاء وامتحاناً، امتحنهم الله في أنفسهم، وفي أممهم، وفي أهلهم، فصبروا على ما أصابهم، ويكفي أن نتذكر ما جرى للرسول الخاتم، من فقد حبيب أو ظهير أو سكن. فلقد مر بأبي هو وأمي بعام الحزن،

---

(١) تاريخ المقال: ٨/ ٧/ ٢٠٠٣

وتعرض لحجارة العبيد والغلمان التي أدمت عقبيه، وطرد من مكة التي يحبها وتحبه، وطورد في طريق الهجرة، وتحالفت عليه الأحزاب، حتى بلغت القلوب الحناجر، وتجرع مرارة الإفك في أحب النساء إليه، وفقد اثنتين من بناته وابنه ابراهيم، فصبر واحتسب، ولم يقل إلا ما يرضي الله، ومن قبله أبو الأنبياء، ويعقوب، ويونس، وسليمان، ويوسف، وما جرى لهم من أممهم، وهم لها ناصحون، ومن تصور الحياة جنة وارفة الظلال، فجأته المصائب الجسام، وهو في غفلة عنها، فكان وقعها أليماً، وأثرها عصيبا. ومن استعد لمصائبها ونكدها وكبدها مرت عليه كما البرد والسلام، والمترفون هم الذين يفرحون بما أوتوا، وينسون عواقب الأمور، حتى يفجأهم بأس الله ضحى، وهم يلعبون، أو بياتاً، وهم نائمون.

وما من ضجة فرح إلا وتعقبها صرة حزن وألم، وما من قوة إلا إلى ضعف، وما من نضرة شباب إلا إلى ذبول وهرم ووهن، وما من صحة إلا وتليها علة، وحتى لو امتد العمر، وسلم الجسم من الأمراض، فإن الموت غاية كل حي، والعرب تقول: «ما رأيت علة كطول سلامة» وبئست حياة تنتهي بصاحبها إلى أرذل العمر، حتى لا يعلم من بعد علم شيئا، يحجر عليه، وهو حي، وتقضى الأمور، وهو زائغ النظر، شارد الفكر، وكان من قبل مهيب الجانب وملء السمع والبصر.

وما تعلقنا بالحياة، وركضنا وراء سرابياتها، إلا لحكمة بالغة، لا يعلمها إلا هو، وكلما أشرقت بنور العقل، تبين العقلاء قبحها ودمامتها:

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت
له عن عدو في ثياب صديق

ولو كانت تساوي عند الله جناح بعوضة، ما سقى منها الكافر شربة ماء، ولقد وصفها القرآن الكريم بأنها لعب ولهو في أربع آيات، والشاعر الحكيم هوَّن أمرها بقوله:

نفسي التي تطلب الأشياء ذاهبةٌ
فكيف أبكي على شيء إذا ذهبا

ومهما تعلق الإنسان بوالد أو بولد أو بأرض أو بمال أو بجاه أو بمنصب أو بما شاء من لعاعات الحياة، فإنه مفارق، والحكماء المجربون لا يرون البكاء على شيء من لوازمها، فالموت مصير لا مناص منه:

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته
يوماً على آلة حدباء محمول

والشاعر الآخر يقول:

لدوا للموت وابنوا للخراب

والزاهدون المزهَّدون، يرددون «وكل الذي فوق التراب تراب» ومع هذا فلا عمارة للكون إلا بقبول المغالطات، ومخادعة الأنفس، ولهذا أشار القرآن الكريم إلى الغرور والتغرير ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [لقمان: ٣٣] ، ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] .

وفي كل يوم تطلع فيه الشمس، تستقبل الحياة مواليد يصرخون، وكأنهم يرفضون مبارحة القرار المكين، وتودع أمواتاً أضناهم الأنين، وكأنهم يرفضون ضيق اللحود، فمن عائدين بمواليدهم إلى بيوتهم، تعلو وجوههم نضرة النعيم، ومن راحلين بأمواتهم إلى قبورهم، ترهق وجوههم قترات الحزن والأسى، وهكذا الدنيا نزول وارتحال. لقد فجعت الأمهات بالأولاد، والزوجات بالأزواج، والآباء بالأولاد، والأصدقاء بالأصدقاء، وذرفت الدموع، وبحت الحلوق، وتجمدت الشفاه، وتخشبت الألسن، ثم تلاحقت الأيام والليالي لتطمس تجاعيد الحزن، حتى لا يسأل حميم عن حميم، فكأن المفقودين لم يدرجوا على ظهرها. ومهما تشبث الناس بالبقاء، وخادعوا أنفسهم، فإنهم راحلون، و ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، وكل حادث إلى زوال، حتى الحزن يزول، والدموع تجف، لتستعد الأنفس لصدمة أخرى وحزن جديد، فليس هناك متسع من الوقت لمعايشة حزن واحد ومصيبة واحدة، والمتنبي تساءل مستنكرا خلوص المرض اليه من زحام المصائب السابقة، وصور ذلك بتكسر النصال على النصال:

وكنت إذا أصابتني سهام
تكسرت النصال على النصال

وقال للحمى:

أبنت الدهر عندي كل بنت
فكيف خلصت أنت من الزحام

وكل فرحة ولادة، تعقبها ترحة وفاة، وإذا لفظك رحم الأم، استعد لاستقبالك رحم الأرض، فأنت مولود قادم على الحياة، وهالك مُقدم إلى حياة برزخية، لا يعلم كنهها إلا الله، ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥] وما تدري النفوس ماذا أخفي لها، وما بين لحظة القدوم وساعة المغادرة إلا زمن ليس لك منه إلا الساعة التي أنت فيها ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤] . ومع كل هذه التفاهات يصطرع الناس حول توافه الحياة. لقد كنت أرقب كل ساعة رحيل أمي، لأنها مسكونة بأمراض مستوطنة، إذا نزلت لا ترحل وحدها، ولكنني مع ذلك أفكر في ساعة الفراق، ولا أتصور فداحتها، وكم تساءلت: كيف يكون وقعها؟ وكيف يحتمل الإنسان فراق أمه التي تلقته نطفة لا ترى، وتشكل في أحشائها خلية خلية، نشز عظمه من دمها، ونبت لحمه من حلو لبنها؟ الأم التي لا يلذ لها طعام، ولا يهنأ لها مقام، حتى ترى ابنها ملء السمع والبصر، تؤثره على نفسها مع الخصاصة، تعلك له الطعام، وهي ساغبة، ثم لا تجرؤ على ابتلاعه، الأم التي كلما رأيتها عدت إلى طفولتك الوديعة، فهي لا تراك كما يراك الناس، تخرق الأرض، وتبلغ الجبال طولا، وإنما تراك عرياناً مستلقياً، ترفس الأرض بقدميك، وتزوي شفتيها بيديك، وتنهش جسمها بأسنانك، تريدك بلثغتك التي لا تكاد تبين، فهي تقرؤها كأفصح ما يكون الكلام: تسبق إلى حاجاتك، وكأنك جزء من جسمها، انفصل عنها ليتداعى معها، وتتداعى معه، تسهر لتنام، وتجوع لتشبع، وتعرى لتكتسي، وتشقى لتسعد. وإذا استويت على عودك، حصدتك امرأة أجنبية، قد لا تعينك على برها، ومن ثم تؤثرها على أمك، وتستأثر بك عنها، حتى لا تراك إلا

عابر سبيل، تومئ لها برأسك، وتتمتم لها بلسانك بتحية رتيبة، تلحقك بنظراتها، وتخفي عنك زفراتها، لكيلا تعكر صفو حياتك، تضحك أمامك، وفي النفس ما فيها من الحسرات، ومع ذلك يظل فؤادها فارغاً، يتحرق عليك، ولا تبدي به، ولو علقتما أنت وزوجك لعرفتما أن البر سلف.

لقد أحسست أنني أدخل في حيوات جديدة، حيوات لم آلفها من قبل، فيها وحشة الوحدة، وخيفة الاغتراب. ومن ذا الذي يسد فراغاً تركته امرأة لا ترى الحياة إلا من خلالك، ولا الهناء إلا بوجودك، امرأة تلغي كل شيء من أجلك، بل ترى أنها لم تأت إلى الوجود إلا من أجل أن تحملك في بطنها، وتحتضنك في حجرها، وترقبك بنظراتها، ترويك من صدرها، وترى كل شيء دونك، فأنت الأجمل منظراً، والأعذب صوتاً، تنطلق من بين يديها، وكأنك فلذة قدت من كبدها، فهي ترقبها لكي تعود، الأم ومن يبلغ مبلغها في الحب مع جفائك، والشفقة مع غلظتك، والمتابعة مع نسيانك. وما عرف قدرها إلا الله، حين جعل الجنة تحت أقدامها، وجعل النظر إلى وجهها عبادة، وربط حقها بحقه أعطاها ثلاثة حقوق، فيما أعطى الأب حقاً واحداً، ووصى الإنسان بوالديه احسانا، ونهى عن الأف والنهر، وأمر بالقول الكريم، وخفض جناح الذل من الرحمة، وإذ تكون الأم كذلك، فإنها سوق رابحة، وغنيمة باردة، بل هي أقصر طريق إلى الجنة، فهل استطعنا أن نرد لها أيسر حقها؟ والبررة الذين أعطوا ما يقدرون عليه، لم يعطوها حق لحظة من لحظات المخاض، ولا نوبة من نوبات الألم.

فيا أيها المدركون لأمهاتهم، اغتنموا فرصكم، ولا تغرنكم الحياة الدنيا وطول الأمل، لقد علمت بوفاة أمي، وأنا أرقب ذلك، فهي قد ردت إلى أرذل العمر، وحين فجعت بها، لم تأت الملائكة الكرام لتربت على كتفي، وتشكر لي ما فعلت، بل تمثل لي الشيطان الرجيم، ليقول لي: فاتتك أمك أيها المسكين المفّرط، لقد كان بإمكانك أن تفعل أكثر مما فعلت، يالك من محروم بذّر كنوز الدنيا، فقد ملوماً محسوراً، كان حريصاً على أن يصرفني عنها في حياتها، وحريصاً على أن يغرس في قلبي خنجر الندم بعد وفاتها، نعم كان بإمكاني أن أفعل أكثر مما فعلت، أن أكون إلى جانبها على السرير وقتاً أطول، فلقد كنت ألم بها ساعة من نهار، حتى إذا اطمأنت، وسكن روعها، تسللت لواذاً، أطارد توافه الحياة، لقد كانت تسعد بقربي، حتى لقد فاتحتني بذلك، يوم أن تعرضت «لجلطة» أفقدتها الوعي، فكنت أضع يدي على جبينها وسط آلات النبض والتنفس، ولما تمكنت من النطق، وصفت هذه اللحظة بأسعد اللحظات، ولأنها لما تزل، وحتى في ساعة العسرة، تؤثر راحتي على راحتها، فإذا استأذنتها أذنت، ودعت، ومن شدة شفقتها عليَّ، كانت توصي من حولها بألا يخبروني بوفاتها وأنا جائع، خشية أن أصدم، وتوصي بألا تدفن وأنا في سفر، بل عليهم أن يرقبوا عودتي، وألا ينزلها القبر أحدٌ غيري، لم يذهلها المرض، ولم تشغلها الآلام، وكل أم تكن لأولادها ما تكنه أمي، وتشفق عليهم بمثل شفقة أمي عليَّ، فيا أيها المحظوظون بوجود آبائكم وأمهاتكم اغتنموا الفرصة، فما من عاقل إلا ويقول: بعد فوات الأوان: ردوها عليَّ لعلي آفي ببعض حقها، وأتزود من البر والتقوى، ومن الخير للإنسان أن يدرك أبويه أو أحدهما، فيدخلاه الجنة، وما أتعس من أدركهما، أو أدرك أحدهما، فلم يدخلاه الجنة. لقد مررت بشدة، ولن أدعو لها بكل خير، كما فعل الشاعر من قبل، حيث عرف بها أعداءه من أصدقائه، وإنما أحمد الله على ما أفاء به عليَّ من نعمة، وما كشف لي من معادن أصيلة، وخير عميم، وتلاحم قوي، يربط أبناء البلاد وقادتها ورجالاتها، لقد غُمرت بأفضال، لست من أهلها، وتقدير لا استحق أيسره، وتجلت لي أصالة الأخلاق في الأمراء والوزراء والعلماء والزملاء والأصدقاء والأقارب، ولن أسرد المعزين شخصياً أو صحفياً أو برقياً أو هاتفياً من أصحاب السمو الملكي الأمراء والمعالي الوزراء

والفضيلة العلماء وكافة الأصدقاء والزملاء، فلعل منهم متفضل صادق الدعاء وموفور الشكر. لقد تعلمت منعم الوفاء والزكاء، وما فعلوه من خير أدخل السرور على أخ لهم، هو أحوج ما يكون اليهم في هذه الظروف العصيبة.

حقوق الإنسان وتهافت الفارغين .. ! [1]

كل يوم تطلع فيه الشمس يطلع معها مشروع فكري أو ديني أو سياسي أو اجتماعي، ويطلع معه خليون يتعهدونه بالاشاعة والتأييد والتنطع. والطاعم الكاسي يقعي بفؤاد هواء، يرقب ما يأتي، مما هو بحاجة إليه، ومما ليس بحاجة إليه، فالمستهلك الخاوي عروش الفكر والمعرفة يبحث عن ملء الفراغ، ولو بالفراغ، مثله كمثل الهرة الطوافة بحثاً عن خشاش الأرض. والاشكالية ان المقعين والمقوين يعدون أنفسهم من النخب: الفكرية والدينية والسياسية والأدبية، ممن هم صفوة الصفوة، ومعتصر المختصر. ومع أنني حفي بالمستجدات، حريص على توفر كامل الحريات والحقوق، ومع قطعي بأن المشاهد العربية بكل تنوعاتها بحاجة أمس إلى المؤسسات بكل أنواعها: - الدستورية والشورية والتشريعية والتنفيذية وغيرها فإنني أراهن على أن المجتمع العربي يجتر القيم والمبادئ الغربية كما «اللبان» ولا يبلع إلا ريقه، فحكم الفرد، وتسلط الطائفية والفئوية والحزبية واحتكار السلطة من أدواء المجتمعات النامية، وهي أحوج ما تكون إلى الأدوية الناجعة التي تتحول بها من الفردية إلى المؤسساتية، ومن الأثرة والاستئثار إلى الشورى والمداولات والإيثار، ولما لم أكن سكونياً ولا ماضوياً، ولا مأخوذاً بعقدة الأبوية ولا خائفاً من التجديد، فإنني أمقت الذواقين الفارغين الذين لا يستقرون على قرار، ولا يؤسسون لفكر، ولا ينهضون لتحرير قضاياهم والتأصيل لها، ولا يصبرون على ثوابتهم، ولا يعرفون ضوابط الحرية ولا مستوياتها، وكل فعلهم أن يتلقوا ركبان المستجدات، ليأخذوها بالأحضان، ثم لا يترددون في إراقة مياههم كلما تراءت لهم سرابيات القيعان، وإذا أبديت امتعاضك واستياءك وطلبت التريث والتثبت والأخذ بأحسن ما عند الآخر، قالوا لك: - إنك جمودي مقلد متخوف، لا تريد لهذه الحياة أن تسبح في آفاقها المتاحة. ولو أن أحدنا نظر إلى ما حوله من المذاهب والظواهر والتيارات الحاضر منها والباد، لهالته كثرتها، وراعه تناسخها، وأزعجته الجهود والأموال والأوقات المهدرة في سبيل استقبالها واستدبارها، دونما رشد أو تثبت في الحالين. ولكل أمة وجهة وهاد إليها، ولا تكون الأمة أمة، ولا تستكمل مقومات وجودها إلا إذا كان هداتها على بينة من الأمر، يعرفون الثابت والمتحول، ويردون الاختلاف إلى ما أمروا بالرد إليه، ومتى وجدوا الدليل القطعي الدلالة والثبوت استجابوا لله وللرسول دون أن تكون لهم الخيرة، ومع التسليم والرضى فليس هناك ما يمنع من استقبال فيوض الحضارات والأخذ بأحسنها ولكن بعد وعي عميق للذات وللآخر، وبمعرفة تامة بحاجات الأمة وطاقاتها، وبما يصلح لها من تلك الفيوض. ومرحلة الغثائية، لا تتحقق، ولا يتمكن الأكلة من التداعي عليها إلا إذا فقدت الأمة مقوماتها الحضارية، وسادها جهالها، واتبعت سنن من كان قبلها. والرسول ﷺ الحريص على أمته حذرها من زمن «الغثائية» و«تداعي الأمم» على قصعة الحضارة و«اتباع سنن الآخرين» و«كثرة الهرج» و«التقاء المسلمين بسيفيهما»، ومن نظر بعين البصر والبصيرة في الفتن واشراط الساعة وعلاماتها التي أجملها الرسول ﷺ أيقن أنها حاضرة، يديرها القوم فيما بينهم. ومما نعايشه الآن من مستجدات الغرب الضاحك علينا بمئل شدقيه «العولمة» و«الارهاب و«حقوق الانسان» ولما تزل مشاهدنا كمطارح الفتن، تتناثر في أرجائها أشلاء المذاهب والعقائد والأفكار، فيما تنحسر المعارف الانسانية والعلوم التجريبية والحقائق العلمية، لقد نشبت فيما بين الأخ وأخيه والجار وجاره حروب: باردة وساخنة، حول «الماركسية» و«القومية». وما أن أذعن لها المغلوبون على أمرهم: طوعاً

---

(١) تاريخ المقال: ٢١/ ١/ ٢٠٠٣

أو كرهاً انشقوا على أنفسهم، وأعادوا التنازع جذعة حول المفاهيم والأولويات، حتى لقد وصف المنشقون سلفهم بالردة والتنكر لمبادئ الحزب، وقامت عشرات الثورات البيضاء والحمراء من أجل تلك المفاهيم التي لم تبلغ التراقي. وإذا كنا جميعاً لا ننكر ذلك، ولا يجهل أحد ما خسرته الأمة من رجال وأموال ومثمنات في سبيل هذا التطاحن لزم إعادة النظر فيما هو آت، وهل أحد منا يجهل التبذير المسرف للأموال والجهود والدماء والمقدرات من أجل تكريس مذهب طارئ أو عقيدة زائفة، وما على المتردد إلا أن يقرأ التاريخ الحديث للأمة العربية من ثورة «حسني الزعيم» إلى اليوم، ليعرف كم من كفاءات بشرية ومثمنات: حسية ومعنوية أريقت تحت أقدام المستجدات، فاضت المنافي وامتلأت السجون واكتظت المقابر، وما استقر أحد من هذا العالم النائم المتخلف على نحلة أو مذهب. والأمة التي زين لها سوء عملها لا تعيد قراءة التاريخ، ولا تقوّم الأحداث، ولا تتأمل أحداثها وحوادثها الجسام قبل الاستقبال أو الاستدبار، وحين لا يكون للأمة ذاكرة، ولا مركز معلومات، ولا حكيم يتولى أمر الصدور والورود تظل في حالة من النزيف الدموي الذي يدخل بها مرحلة الغيبوبة ثم الموت الزؤوم.

وإذا كنا فيما مضى لا ندخل في نحلة حتى نفرغ من سالفها، فإننا اليوم نشتغل في أكثر من نحلة، نضع أيماننا في عقيدة، وشمائلنا في أخرى، فيما نستشرف بعيوننا مذهباً مادياً قادماً من بعيد، ونلقي السمع لما عند غيرنا، مما يصلح، ومما لا يصلح، نجمع الأشتات، ونحفل بالنقائض، ونقبل تحقيل أنفسنا للتجارب. ومصدرو المذاهب والعقائد يجرون فينا تجاربهم، مثلما يجري العلماء تجاربهم في مختبراتهم على حيواناتهم الأليفة والمتوحشة. ومصائب الأمة تتضاعف، ومشاكلها تدلهم ومصاعبها تتفاقم، حين تقع الغفلة المعتقة بين نخبها وقادة الفكر فيها. ولو ضربنا المثال بدعوى «حقوق الانسان» وتهافت الأدباء والمفكرين والعلماء والإعلاميين والساسة عليها، لتبدت لنا السذاجة والبلاهة، وتهافتنا يوحي بأن الحديث جديد، وأن «حقوق الانسان» من لدن المشرق أو المغرب، وما كان نور الله الذي يهدي إليه من يشاء من شجرة شرقية ولا غربية، ولم يكن الغرب حفياً بنا، وبما نلاقيه من ظلم ذوي القربى، وكأننا لم نعرف هذا الحق إلا حين أشاعه الغرب في أوساطنا، وكأن إسلامنا خلو من ذلك. ولو كنا نعقل ونفكر ونتدبر لأوقفنا هذه الدعوى خارج مشاهدنا، واستفتينا إسلامنا عما عنده من قيم ومبادئ، تحفظ حقوق الخاصة والعامة: - سياسياً، واجتماعياً وفكرياً، وتحول دون الظلم، وتدعو إلى العدل والاحسان والمساواة، فإذا توفرت المبادئ واكتملت الاجراءات طرحنا مشروعنا وأخذنا بمقتضاياته، وكيف لا نجد في إسلامنا ما يشفي ويكفي، وهو قد حفظ للحيوان حقه، فمنع حبسه، وأدخل النار امرأة حبست هرة، وأدخل الجنة مومساً سقت كلباً، وجعل في كل كبد رطبة أجر، وأمر بإبلاغ المشرك المستجير مأمنه، وجعل إيذاء الذمي كإيذاء أكرم الخلق.

والغرب الذي يدوف لنا سراب الوعود بمعسول الكلام يلهينا بمصطلحات جذابة كـ«الحرية» و «الديمقراطية» و«حقوق الانسان» ولو أن قائداً عربياً أخذ بشيء منها أخذ صدق وامتثال، كما هي شائعة عندهم، لحالوا بينه وبين ما يشتهي، ذلك أن ما يقولونه، ويتداولونه لمجرد الدعاية والاستهلاك، وكيف يودون لنا العلم والحرية والاكتفاء، وهم ينظرون إلينا بوصفنا غنيمة باردة، يشترون خيرات البلاد العربية والإسلامية بثمن بخس دراهم، ويعيدونها إليهم بعد تحويلها إلى مستعملات مستهلكة بأغلى الأثمان، يجربون في مشاهدنا وعلى حدودنا وبين فئاتنا سلاحهم وخططهم العسكرية ولعبهم الماكرة، ويخوفون بعضنا من بعض، يحيون فينا أسباب الفرقة، ويعمقون بؤر التوتر، ويجذرون الكراهية، ويساعدون بعضنا على بعض، حتى إذا غرسوا في نفوسنا الشك والخوف والارتياب والعداوة والبغضاء، تنحوا قريباً، وجلسوا جلسة الشامت، ينظرون إلى أثار تآمرهم فينا.

وحين نحفل بمبادئهم المفرغة من محتوياتها، ونقبل بها، فهل تكون احتفاليتنا مرتبطة بما في حضارتنا من قيم وآليات لتنفيذها؟ لهم دينهم ولنا ديننا، ولن يرضوا عنا إلا باتباع ملـــــتهم.

الإسلام له رؤيته الثاقبة في كل شؤون الحياة: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] وقد جاء كتاب الله ﴿تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩] .

والحضارة الغربية لها رؤية تناسب حياة ذويها، وتسد حاجاتهم، وتستجيب لمطالبهم، حتى لقد تربوا عليها كحيوانات «السيرك» وما عندهم من حق وعدل ومساواة وعمل جاد وإعداد للقوة المعنوية والحسية يعد ضالتنا، فالأمة الإسلامية مطالبة بالأخذ بأسباب الحضارة المادية. وما لا تقوم الحياة السَّوية إلا به شأن المؤسسات الإسلامية من أنظمة وشروط، وهذا الافتراض مشروع، متى لم يلغ الخصوصية، ولا يحول دون الدخول في الدين كافة.

و«حقوق الإنسان» في الإسلام مكفولة مع «الجلد» و«الرجم» و «القطع» و «القتل» و«الصلب» و«النفي من الأرض» و«قضايا المرأة» و«الانجاب» و«الإسكان» وسائر الظواهر الاجتماعية، أما حقوقه في الحضارة الغربية فإنها تمنع قتل القاتل وقطع يد السارق وجزاء الحرابة ورجم المحصن الزاني وجلد ما سواه والطلاق والإرث. وإذا أخذنا بمفاهيم الغرب تمشياً مع رؤيته لحقوق الانسان خرجنا من ديننا، وإذا أخذنا بمفاهيم الإسلام عطلنا «حقوق الانسان» كما يفهمها الغرب. فكيف نحافظ على ثوابت الدين، ونحق الحق. والغرب الذي يتغنى بالحرية والعدل ماذا فعل بالإنسان العربي، وماذا فعل بالمسلم المستضعف في كل بقاع الأرض وعبر التاريخ الحديث، فأين هو من الإنسان الفلسطيني، والانسان العربي خاصة والانسان المسلم عامة وانسان العالم الثالث، وأين هو من «حقوق الانسان» كما هي عنده؟

أحسب أننا أحوج ما نكون إلى المواجهة الحضارية، مواجهة الحوار وتبادل المصالح، وإلى مساءلة الغرب المتغطرس ليحقق مقتضيات «حقوق الانسان» مع غيره، وعلينا أن نصوغ رؤيتنا لحقوق الانسان من خلال حضارتنا العربية والإسلامية، وأن نقدم مشروعنا، وأن نثبت للغرب أنه أول المتنكرين لحقوق الانسان.

هامش:

*قد نصل الحديث عن حقوق الانسان في الإسلام.

بعد إدكار المراجع.

ثقافة المتن وثقافة الهامش .. ! (١) [١]

وجدت في احدى (الأجندة) المهترئة في جيبي كلمة، نقلتها على عجل ل (ألبرت مكسيكو) تقول: (جئت لهذا الوجود لأختلف معه). ولست أعرف عن هذا المشاغب شيئاً، ولما أزل أبحث عنه في غيابة التاريخ. فمن يعرف عنه شيئاً، فليبلغ أقرب صديق لنا. وكنت أحفظ كلمة قالها الدكاترة (زكي مبارك) عفا الله عنه للدكتور طه حسين الذي دمَّر حياته، وقَدَرَ عليه رزقه عامله الله بما يستحق تقول: (الويل لنا إن لم نختلف). ولست أدري أين قرأتها، فمن يعرف موقعها من كتب (المبارك)، فليشر إليها، فكتبه، وما كُتِبَ عنه في زاوية مغبرة من مكتبتي، التي شغلني عنها وعما يماثلها من جيد القول وعميق المعرفة وسداد الرأي جيلُ الشغب والإثارة، ملأ الله أفواههم علماً وحكمةً، وأفعم قلوبهم هداية وثباتاً على الحق.

ومقولتا (مكسيكو) و(مبارك) سُقتهما فاتحةً للجدل الذي قد يصل إلى حد المراء الباطن لا الظاهر، ومقدمة كما الصدقة بين يدي النجوى، لإطفاء غضب المتحفزين للمناكفات. والذي جر قلمي إلى هذه التهويمات والتحْويمات والمقدمات الإطفائية ما يقال عن (الثقافة) المحلية، أو العربية، أو الإسلامية المتداولة في المشهد العربي والعالمي، واقتراف تقسيمها إلى: ثقافة (متن)، وثقافة (هامش)، وافتراء الكذب بجعل ثقافة الأمة المسلمة ثقافة وَهْمٍ وهامش، دون استثناء أو تحفظ.

والإطلاقات العامة رماية طائشة، تؤذي، وتخيف، وتكشف عن جهل وتسرع وتحامل لا يليق من مجتمع (الرياضة) و(الفن) فضلاً عن مجتمع الفكر والحضارة، والقول دون استثناء إيغال في العموميات وإذكاء للاختلاف، واقتراب من (الخلاف) المورِّث للتنازع والفشل وذهاب الريح. فالكاتب المتمرد على الثوابت والسوائد حين يتولى كِبر التقسيم، لاشك أنه يستأثر بالمتن، جاعلاً ما سواه في الهامش، وهو بعد حدث في رحاب العالم، وإن وهن عظمه، واشتعل رأسه شيباً، وقسمة كتلك تعد قسمة ضيزى. وطبعي أن يأتي مهمَّش آخر لينتزع المتن من مدعيه، قائلاً له: (ليس هذا العش عشك فادرج) ويظل الجميع كعشاق (ليلى):

وكـــل يـــدعي وصــــلاً بليلـــى

وليلـــى لا تقـــر لهـــم بـــذاكا

وهذا على أصح روايات البيت وخبرتي القرائية والعراكية التي ناهزت نصف قرن ولا فخر أثبتت لي أن أقل الناس خبرة، وأقلهم معرفة، واحدثهم سناً اجرؤهم على التطاول والمباهاة، وأحفلهم بالتصنيف والقطعيات والأثرة وبالتالي بالحكم الناجز والحرمان القاطع. وتلك مصائب المشاهد والمواقع والمنابر. والأحداث المتزببون يتعجلون العملقة بصلف القول وفجاجة الرأي. والتصدي لهم أو التعفف والمرور الكريم مركبان أحلاهما مرٌّ، فحين تمر بمثل أولئك وكأنك لم تسمع، ولم يقل، تساعد على إخلاء الثنيات، ليتحكم الجهلة في رقاب الحقائق، والتصدي لهم يرفع رصيد البذاءات، ويجعل الحصيف الآخذ بحجز المتهافتين عرضة للسَّفاهات والتفاهات.

وما لا مراء فيه، ولا اجتهاد معه وجود (المتن) و(الهامش) في أي ثقافة: إسلامية أو غير إسلامية، متى كانت منجزاً بشرياً، يحكمه التفاوت العقلي والمعرفي والتجريبي، ولكن المراء وكل الاجتهاد في تحديد المتن والهامش، فتلك قاصمة الظهر، ومراتع الفتنة.

---

(١) تاريخ المقال: ٢٨/ ١/ ٢٠٠٣

فبعض المنشَّئين في الحلية، وهم ألد الخصام، يرون أن الثقافة الإسلامية بكل ما وسعت من قيم: عقدية وتشريعية وأخلاقية هي الهامش، فيما تأتي ثقافة التمرد والانقطاع والتبعية ثقافة متن، وتلك لعمر الله بلية البلاوي. وإشكالية (الحدية) و(القطعية) عند المتعالمين والمرجفين ومثقفي السماع تكشف عن التسطح والتسرع وقول ما قاله النَّائين بجنوبهم. فحين يتحدث أحدهم عن (التجربة الغربية) أو (التجربة الشرقية) ثم يربط نجاحها بشكل قطعي حصري بالتخلص من (الدين) بواسطة (النقد) الصريح والمواجهة العنيفة.

وحين يأتي آخر، وهو بصدد الدفاع عن (الأدب العامي) ليقول: إن أوربا لم تنهض إلا بعض اهتمامها بلهجاتها، ثم يعقبه ثالث ليقول إن (اللادينية) هي منطلق الحضارة والمدنية، ويتهافت متربيون على القول عن (المرأة) أو (الثقافة) أو (الحرية) أو (الديمقراطية) وكل هؤلاء بمجازفاتهم لا يزيدون أمتهم إلا خبالا، ومع الترديد لمقولات سلفت، ملتها المشاهد، ومجتها الأسماع، يكون لكل هؤلاء القائلين عما ليس لهم به علم ولا لآبائهم أشياع وأتباع، يطيرون بما يسمعونه منهم فرحاً، وكأنه تنزيل من التنزيل، أو قبس من الذكر الحكيم، ومع أن هؤلاء وأولئك كما المتردية والنطيحة إلا أنهم يغثون ويؤذون ويعوِّقون.

وليس لأحد منهم سابقة إلا سابقة المخالفة، وضرب السوائد، والاستفزاز، واجترار المقولات التي مجتها أسماعنا منذ (رفاعة الطهطاوي) و(عصر النهضة) و(قاسم أمين) و(مصطفى عبد الرازق) و(طه حسين) وحتى (أدونيس) و(أبي زيد) و(خليل عبد الكريم)، وهي مقولات جاهزة تشيع الذكر، والمتخلل إليها بلسانه كما البقرة يكون حاضر المشاهد.

والمشاهد الضاوية الأجسام الخاوية المظاهر يحركُ ساكنها من يوردون الأمور ولا يصدرون، وآلاف المفكرين والفلاسفة والكتاب قالوا مثل قولهم، وعشرات القادة غامروا، فقال قائلهم: (لا دين في السياسة، ولا سياسة في الدين) فيما ترى وتسمع من اللاحقين بهم من لا يقولون إلا معاراً أو معاداً من القول المكرور، ومن ثم فإن الجديد عندهم في السياق والربط، ووصف ثقافة الواقع المحلي بالهامش أو الوهم. فما (المتن) وما (الهامش) وما (الوهم) وما (الحقيقة)؟ سؤال حقيق بالطرح، ملزم بالجواب الأدق للتحديد، فمثل هذه الإطلاقات والمفرقعات لا تقال عن مثل هذه القضايا المصيرية.

وحين يربط الكاتب المسلم بالهوية أو العقيدة أو بهما معاً عن جهل أو عن علم وإصرار نجاح أوربا (إزاحة الدين)، وب (حرية النقد)، يكون قوله تحريضاً وإغراءً للجهلة ومرضى القلوب على ممارسة التجربة الغربية مع ثوابت الأمة، من كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومن سنة صحيحة، لم ينطقها صاحبها عن الهوى، وهو قول سمعه من كان قبلنا، وليس ببعيد أن يسمعه من سيأتي بعدنا، فالمقوون كالأثرياء المفلسين، يفتشون في أوراقهم القديمة، وما يقال عن فكاك أوربا من هيمنة الكنيسة وانطلاقها نقل تاريخي متداول، ورواية صحيحة لا غبار عليها، فالنهضة الأوربية لم تنجح حتى لملمت ذيول السلطة الكنسية (وطقَّستها) وجعلتها للفارغين والمعوَّقين، والشيوخ والعجزة والعجائز، ولكن الكارثة حين يلح المستدعي للتجربة الأوربية على نقلها، محرضاً أمة الإسلام على (تطقيس) دينهم، ورفع مصحفهم الذي جاء تبياناً لكل شيء.

والواقعة الباقعة أن (المتعلمنين) حين يتفجعون على واقع أمتهم، وهو بالشك واقع مفجع، يمعنون في ارتكاسها، وما منا من أحد إلا وهو متفجع على هذا الواقع، متألم منه، ملتمس الخلاص من وهدته، ولكن الخلاص لن يتحقق بالفرار من الدين، وإنما بالفرار إلى الله جميعاً، وحتى ندخل في الدين كافة، ونتمثله اعتقاداً في الجنان، وقولاً في اللسان،

وعملاً بالأركان، محققين مقتضياته في التفكير والتدبير والتوقيت وإعداد القوة، لا أن نفر من ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وعلى هذا فالاختلاف في الحل، وليس في توصيف الواقع الأليم، ذلك أن واقع الأمة الإسلامية لا يطاق، وأم المشاكل في تحديد طريق النجاة، وسؤال المستبدلين سؤال مشروع، فالكاتب حين يخط بقلمه ما يرى، ثم يفضي به إلى الناس، يكون من حقهم التساؤل، فالقول كالغذاء، فالمعدات تلتهم الطعام، والأدمغة تلتهم الأفكار، وكلا الغذاءين مؤثر على المتلقي: آكلاً أو قارئاً، والكارثة أن مثل هذا الغذاء الفكري تضوى به الأفكار.

وما أضاع الأمة إلا اقتلاع التجربة الغربية والأخذ بعصمها، دون وعي لخصوصية كل حضارة وإمكانيات كل أمة. والنفور من المساءلة والمراجعة دليل على ممارسة الوصاية وحسم القضايا المصيرية مع غياب ذوي الشأن، ومن مصائب راهننا أننا حين ننفر لحماية الثغور وإحقاق الحق، يحال نفورنا إلى الجهل والتخلف، ولو تنادينا إلى كلمة سواء، وحررنا قضايانا ومسائلنا، لاستطعنا تخطي العقبات والمعوقات.

ثقافة المتن وثقافة الهامش .. ! (٢) [1]

ومشروعية التساؤل عن المرجعية والأحقية للمتداول من القيم والأفكار الطريف منها والتليد قد يضايق البعض، ويرفع نبضه، ويربك حركته، ولربما يقلبها رأساً على عقب، ذلك أن طائفة من المشتغلين بالثوابت، أو المتحدثين عن المسكوت عنه، أو المتسائلين عن هوية السوائد، يتصورون أنهم يقولون كلمة الحق، وأنهم لا يسألون عما يفعلون، وأن المناوىء لهم مغرم بالتجريم والتحريم والإدانة ليس غير، وكأن هذا البعض قد ورث المشهد من أبيه وأمه. وما درى هذا المسكين أن الله لم يمض مع رسوله المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، والذي لا يتقول على الله بعض الأقاويل، في كثير مما تعجل به، أو فعله بوصفه بشراً، حتى لقد راجعه في الدعاء على من لقي الأذية منهم، فقال له:- ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] . وهو قد خالفه في أمر الفداء وفي تحريم ما أحل الله له لمرضاة أزواجه، واستدرك عليه مواقفه من الأعمى وممن يدعون ربهم بالغداة والعشي. وهؤلاء الذين يتلقون ركبان الاستغراب، ويسارعون في طمس الهوية والسمة والخصوصية مندمجين مع الآخر الحفي بخصوصيته وسمته وهويته إلى حد: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ﴾ [البقرة: ١٢٠]، هؤلاء لا يحسون بما تركوه من أثر سلبي وإرباك متعمد للمشهد الفكري والثقافي. وبخاصة عندما تكون الآراء فجة، والمتحدثون نقلة لما لا يفهمون، وكثير مما نقرؤه مضى زمنه، وكلحت نضارته وشمطت ملامحه.

وبعض الكتبة يقول الكلمة المخلة بالقيم والخارجة على الضوابط، لا يلقي لها بالاً، تهوي به سبعين خريفاً من عيون العارفين بالمقتضيات والمقاصد، ومع ذلك تعرج به إلى سماوات البهرجة والشهرة الزائفة عند من لا دراية ولا رواية عندهم، وما أصدق الحكيم المجرب حين قال لأحد جلسائه: «تحدث حتى أراك». وأبو حنيفة المتأذي من آلام ركبته، لم يمكنه من مد رجله إلا كلام المظهري الفارغ. وبعض الكتبة تحتدم مشاعرهم، وتتوتر أعصابهم، ويدخلون الحلبة بورقة واحدة، ولو دخلوها بأكثر من ورقة لكانوا أربط جأشاً، وأرحب صدراً. وكلما أوغل الإنسان في المسؤوليات، واستشرف المعارف، وحنكته التجارب، وخبر حلو الحياة ومرها، كان أكثر هدوءاً، وأرحب صدراً، وأقرب إلى التعذير.

وما أضر بالأمة إلا المبتدئون الذين يخطفون كلمة من هنا وكلمة من هناك، ثم يشعلون بهما نار الفتنة، ويربكون المشاهد، وإذا دعوا إلى كلمة سواء لووا رؤوسهم، ولقد يكونون موغلين في الدين بدون رفق، فيحرمون ما أحل الله من زينة أو طيبات، ويحيلون حدتهم وشدتهم إلى سد الذرائع والغيرة على الدين، ومن هؤلاء من نحقر عبادتنا عند عبادتهم، وصلاتنا عند صلاتهم، ولكنهم أحداث يمرقون بتنطعهم في الدين كما يمرق السهم من الرمية، وضياع الدين بين جاهل متنطع ومنافق جلد، فهما بين الإفراط والتفريط، وكيف بنا إذا عشنا حتى نرى متنطعاً يغلو في دينه، ثم ينقلب على عقبيه حاملاً معه جلابيب الدين، بعد أن حولها كما المستغيث، فكان على نقيض تنطعه ورهبانيته، وهو في كلا الحالين نقمة ووبال. وكيف بنا إذا خبّ السفيه ووضع في مراتع الفتن وتنقل بين«الراديكالية» و«الإيغال» في الدين بلا رفق! ثم لم يجد من يأخذ على يده، ويأطره على الحق أطراً.

---

(١) تاريخ المقال: ٤/ ٢/ ٢٠٠٣

والمحيل على التجربة الأوروبية، وضاربها مثلاً، ونسيان ما هو أهم مثله كمثل الذي ضرب مثلاً ونسي خلقه وصنيعه لعبة مكشوفة وعملة قديمة متحفية، ومؤشر انهزام داخلي، والمجتر لها كهفي يغدو بورقه إلى ذوي الشأن، ليكشف عن ماضوية تجاوزتها أبجديات العصر. والتجربة المعشوقة ما زالت ليلى المغفلين والساذجين والماكرين والمأجورين.

وأين هم من تجارب أخرى شرقية وجنوبية وشمالية من ذوي الديانات الوضعية المضحكة؟ ومع ذلك لم تحل دياناتهم الوضعية الخرافية بينهم وبين اختراق الآفاق، والاتيان بمثل ما أتت به أوروبا وأمريكا المتعلمنة. لقد طرحت مشاريع كثيرة متناقضة لإقالة عثرة الأمة العربية، ولم يكن من بينها العودة إلى ما كان عليه محمد وأصحابه، وكل تجربة مضرة تبدىء وتعيد مقولة"عزل الدين عن الدولة» أو «عزل الحياة المتحفيين تذكر «غاندي» و«نهرو» و«أنديرا» فكيف بمن هم على المحجة البيضاء، واليهود المتعصبون ليهوديتهم وللغتهم استطاعوا تحقيق متطلبات الحياة الدنيا، وبحبل من الذين كفروا أقاموا دولة دينية تعتمد المؤسسات والديمقراطية، وما أحد منهم شكك في أثر الدين اليهودي المحرف على المعاصرة. وعلى ضوء ذلك فإنه لا يمكن ربط التخلف بالعقيدة، والقرآن الكريم قد أشار إلى ذلك«يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا»، وحين يتفوق الأوروبيون مدنياً فإنهم مخفقون حضارياً، وليس لهم في الآخرة من خلاق، وحين يتفوق الإسلاميون مدنياً يتفوقون حضارياً، ويرجون من الله مالا يرجوه غيرهم.

إن «ثقافة المتن» و«ثقافة الهامش» و«ثقافة الوهم» تكون عند العلماني وعند الإسلامي، متى لم يحسن أحدهما التعامل مع المستجدات، ومتى لم يحسن الإسلامي تمثل المقتضيات والمقاصد الإسلامية، ومتى غاب الإسلام ممارسة، وحضر ادعاء، والأمة الإسلامية تمر بوضع حرج وتحديات لاقبل لها باحتمالها، وجبهتها الفكرية حين يكون أفرادها كما بني إسرائيل وبقرتهم يدب في أوصالها الداء، ويصيبها الوهن والحزن، ولا تحقق العلو الذي أراده الله لها، وإذا كانت مثخنة الجراح من سهام العلمانيين والحداثيين والذوّاقين وأنصاف المتعلمين فإنها ضاوية الجسم خائرة العزيمة من طوائف الإسلاميين الذين يظنون أن المواجهة القولية والفعلية هي الحل، دون تربية وتصفية وفهم وعمل، وعزاؤها وعد الله بالنصر لمن نصره، والبقاء للطائفة المنصورة، والمبعوث المجدد على رأس كل قرن.

إن ما نريده من السائمين في مزابل الغرب المجترين لمقولات تكشف عوارها أن يجربوا الاستبداد ولو لمرة واحدة، وأن يحاولوا طرح مشروع إسلامي حضاري، يحترم العلم والمدنية وإنسانية الإنسان، ويقدس النظام والحرية والوفاء بالعهود، مما يجعل العدو كأنه ولي رحيم، فهل نظفر بهذا النوع من المفكرين؟ أحسب أن الوقت مواتٍ، والظروف مناسبة، ولم يبق إلا صياغة الخطاب الحضاري.؟

على هامش المجتمع والتربويين .. قلت: اطبخوا لي جبةً وقميصاً .. !
(١) [(١)]

لو دعيت إلى التظاهرة التربوية الكبرى، لتحديد المراد المتبادل بين ثنائية: (المجتمع) و(التربويين) لكان في فمي ماء، وكيف ينطق من في فيه ماء!. أما وقد كفيت عناء المجادلة والمجاهدة، أو المجاملة والمداهنة، فقد وجدتها مناسبة (لأرسلها العراك) على حدِّ قول (لبيد) ورأي (سيبويه). ونحن في غمرة التلاحي أحوج إلى التوفيق منه إلى التحريش. وما من أحد منا تختلط عنده الرؤى والمفاهيم، إلا ويكون قوله (ضغثاً على إبَّاله). فالوزارة الأخطبوطية المنتشرة كالضباب مجلّلةً الوهاد والنجاد، لا تطلب المزيد من العناء، ولا رد اللفحات، وإنما تعطو إلى نسمات اللطف. ومن الحقائق الغائبة في ضجة الجدل أن (التعليم) يكون صناعة، ويكون فريضة وعبادة. والدهماء من الناس لاتفرق بين المهمتين، مشكّلةً بلحمها وعظمها عقبة في طريق التحرف السليم، وما لا مراء فيه ان لكل مطلب مرجعيته ومشروعيته، فصناعة الإنسان للإنتاج تتطلب العصرنة، وصناعته للعبادة تتطلب الترثنة. وفوق ذلك فالتعليم شطر التربية، كما «**الحياء شطر الإيمان**»، ومن جعله الكل في الكل، ونسي البيت والسوق والمسجد وضخ القنوات وتدفق مراكز المعلومات، وما تحمله وسائل الاتصال، وما يختصره ويزويه عصر القرية الكونية، وما تفاجئ به التحولات الحضارية والمدنية فقد حمّل التعليم ورجالاته مالا يحتملون، وغفل عن تلك المؤثرات التي تطال التفكير والتدبير والقيم والمفاهيم والمواقف. ومع هذا وذاك فإن التعليم شبكة معقدة من المشاكل والإشكاليات، لا تحسم بذهاب مسؤول ومجيء آخر، ولا تقلّص بنزع غلاف من مقرر ووضع آخر، ولا تحل بتغيير مسمى المفتش بالموجه ولا المراقب المرشد، ولا تنقض مشاكله عروة عروة بابتداء لقاء وانتهاء آخر، ولكنها تكون بتلك وبأشياء غائبة. ومن توقع أن أحداً من المشرعين أو المنفذين يمكن أن يأتي متوكئاً على عصا موسى، أو أن أمره بين (الكاف) و(النون) فقد وقع في أضغاث لأحلام، وفوت على قومه فرصاً لا تعوض.

وعلى المشرِّعين والمخططين ومن دونهم من المنفذين ومن حولهم من المتابعين: الراضين أو الساخطين معرفة ذلك تمام المعرفة، لمواجهة مجمل التساؤلات والإشكاليات مواجهة حضارية. وحين تُخْلط الأوراق، ثم لايفرق المتعقبون للعملية التعليمية بين (التعليم الدنيوي) القائم على التدريب المهني والتأهيل المعرفي والتعليم التجريبي، لإعداد القوة المادية من أطباء ومهندسين وعلماء تجريبيين وإداريين وفنيين وحرفيين ومحاربين، و(التعليم الشرعي) للتفقه في الدين، وإعداد القوة المعنوية من فقهاء ومحدثين ومفسرين ومتكلمين وناهضين بمسؤوليات القضاء والدعوة والحسبة يستفحل فيما بينهم التنازع والتنابز والهمز واللمز، الذي قد يبلغ أحطَّ دركاته. والسرعان من الناس من يخلطون بين: الديني والدنيوي، ولايفرقون بين طلب العلم الفريضة وطلبه الاختياري، ومثل هذا التشابه يهيئ الأجواء لتناسل الارتياب والاتهام، وقتل السمعة. ولو أن المتجادلين فرقوا بين الثابت والمتحول، وعالجوا الأمور وفق أهدافها وغاياتها، وفي إطار مجالاتها، وعلى ضوء الإمكانات المتاحة، لهدوا إلى الطيب من القول، وهدوا إلى صراط الحميد.

والدولة حين ترتبط بالشريعة: وجوداً وعدماً، وتصدر منها، فيما تأتي وتذر، وتخضع لها حاكمية، يكون إقدامها وإحجامها حساسين، وتحرفها مثيراً للمساءلة والتحفظ، ويكون الإشفاق من أي محاولة للتغيير، مهما كانت المبررات والحيثيات. فالزمن الرديء

---

(١) تاريخ المقال: ١١/ ٢/ ٢٠٠٣

لايبشر بخير، والأوضاع المتردية عن يمين وشمال تخيف المخيفين، وما من أحد إلا وفي أعماقه عقدة التآمر والمكر، لكثرة تعرضه لها وقوعه في حبائلها، فالأعداء المتربصون وممن حولنا من المداهنين، يأتون السوائد والثوابت ينقصونها من أطرافها، ويمهدون لذلك بما يشيعونه عن البلاد وأهلها وتعليمها من قالة السوء. ولقد تناولت أطرافاً من هذه الشائعات بمقالين عن: - (صناعة الإرهاب بين المناهج الدراسية واللعب السياسية) (الجزيرة ٢١٤٢٣/٢/٤ و١/٣/١٤٢٣هـ). وفي ظل هذه الأجواء المتوترة لا يكون تفكير في التغيير إلا ويكون إلى جانبه تفكير في الاعتراض. وجميل أن يكون تفكير وتساؤل واعتراض حصيف، ولكن الأقبح أن يحال التغيير إلى سوء النوايا، أو أن يربط بالحملات الإعلامية الغربية، فينشأ تردد معيق وارتياب مخيف. وعندما نبيح لأنفسنا التشكيك بالعمل والعامل نعطل المسيرة ونظن بأنفسنا ظن السوء، ونتيح للمشاكل أن تتراكم، كما الظلمات التي بعضها فوق بعض. والمعترض على أي إجراء: إما أن يكون ناصحا لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، وإما أن يكون نقيض ذلك أو دونه، على غرار: - «**فمن كانت هجرته**». وعلى شاكلة المقاتل الذي يكون قتاله لإعلاء كلمة الله، أو يكون حمية أو شجاعة. ولما كان أمر الدنيا على الظواهر، وأمر الآخرة على البواطن، كان من واجبنا ألا نتعمد شق الصدور.

والأمر لاينتهي عند حسن النية أو عند سوئها، ولا عند التبين والعلم، وإنما يتجاوز ذلك إلى أمور أخرى، تتعلق بأسلوب الممارسة وظروفها، وحجم التطلع وإمكاناته. ثم إن المعترض يكون ناصحا وصادقا، ومع ذلك يكون عرضة للجهل أو للتسرع أو لخطأ التقدير أو التوقيت، وقد لايتوفر في مواجهته على ما يحب الله من الحلم والأناة، وقد يكون متأثراً بالشائعات، غير منصاع للتثبت، رابطاً بين ما يثار من اتهام، وما يشاع من ريبة، وعند هذا لايكون نصحه وصدقه منجيين، والنصح الصادق لابد له من الدراية الواعية والتثبت الدقيق، وشيء من فقه الواقع، ومعرفة الأحوال والمتغيرات والأجواء والإمكانات، وحسن النية وإحسان الظن، والتماس العذر لمن لم يحالفه الحظ. فنحن أحوج ما نكون إلى الأجواء الملائمة للمحو والإثبات. وليس من شك أن العلم الدقيق بالملابسات أولى بشائر التسديد والتوفيق، والعلم شرط القول والعمل، فالسبيل الدعوي الذي أمر الرسول ﷺ بإعلانه، ربطه الله ب (البصيرة) وهي العلم.

والبصيرة ليست فقط في إتقان ما يقال، ذلك أن الإنسان يكون حافظاً لكتاب الله، مقيماً لحروفه وحدوده، مستوعباً للحكمة: قولاً وعملاً وإقراراً، ولكنه غير فقيه، سواء أكان الفقه: فقه أحكام أو فقه أحوال و«**رب مُبلّغ أوْعى من سامع**». إذاً نحن أمام شرط أساسي في مواجهة المتغيرات المصيرية، وهذا الشرط تجمله (البصيرة). ولكل حقل معرفي بصيرته، فالسياسي له بصيرته السياسية، ولكل من الاقتصادي والتربوي والأديب والمفكر والفيلسوف ورجل الأعمال بصائرهم. و(البصيرة) لا تكون على المحجة البيضاء حتى يخالطها الصدق والإخلاص والاستبراء للدين والعرض. فكم من عالم نحرير أضله فساد الفكر أو انحراف المعتقد أو سوء الظن بالمسلمين، أو الهوى المتأله. وبصيرة العصر تختلف عن بصائر ما سلف، ذلك أن النوازل تعقد الأمور. كما أن تعدد الاحتمالات، والتماكر، والمخادعة، وبراعة اللاعبين، ولطائف اللعب أمور يشيب من هولها الوليد. وإذ يكون المتابعون للعمليات المصيرية رواداً فإن السمة اللازمة للرائد ألاّ يكذب أهله، ولعلي فيما أقول حفي بأوضاع القائلين بشأن التعليم لا بالتعليم ومتطلباته، فالشنشنات تكاد تعرِّف بنفسها، ووميض النار من خلل الرماد يكاد يكون ضراما، ومتى سدد الله على طريق الحق أطراف العملية، أخذ التعليم طريقه القاصد، وذلك ما كنا نتطلع

إليه. ولما كانت الأمم العظيمة محفوفة بتربية عظيمة، لزم أن تكون الأمم الضعيفة متعثرة بتربية ضعيفة، وعلينا وعي أنفسنا، ومعرفة من نكون، وماذا يجب أن نكون.

والدولة حين يأتمن الله مسؤوليها على مصالح المسلمين وأموالهم وأعراضهم ودمائهم وأفكارهم وأخلاقهم، يكون عليها واجب، ولها حق. فواجبها التفاني والنصح، وحقها السمع والطاعة والمناصحة. وليس أضر على الأمة من الخيفة المتبادلة. فالدولة حين تخشى الرأي العام وتداريه، والكافة حين تخاف الدولة وتلوذ بالصمت، تقوم الريبة، ويستفحل الخوف. ومتى قامت الريبة بين المتعاقدين صُرفت كل الجهود تلقاء حماية الذات، ووجهت كل الأفكار للتحايل، وتمرير المراد بوسائط غير مشروعة. وجهل العلاقة الشرعية بين طرفي العقد، يؤدي إلى قيام أنماط من العلاقات غير السوية. وما علينا من بأس حين نواجه أقدارنا بشجاعة، ونعرف كيف نتصرف في ظلها، فالتكتم كالداء الدفين، يستشري في الأبدان، وتضوى به الأجسام، ك (احتمال الأذى ورؤية جانية). ولسنا بدعاً في مجمل السياقات التاريخية والسياسية والدينية والإقليمية، فكل فترة لها مشاكلها، والحازم من يقدر على تكييف نفسه مع ظروفه، ويجتهد في التغلب عليها، ومن قال: -بأن الأمور سمن على عسل، وأنها على خير ما يرام، فقد أضلّ بالتصديق ولم يهد بالصدق. وإذ نتفق على أن هناك خللاً في التربية، يكون لزاماً علينا تداركه، سواء مايتعلق منه بالمهارات أو بالتعاملات أو بالأخلاقيات، وإذا كان لكل زمان دولة ورجال، فإن لكل زمان تربية وتعليماً.

والدولة المعاصرة مهيمنة، وممسكة بكل المصائر، كما رب الأسرة، وإن كانت (العولمة) وراء تحجيم دورها وخصخصة مجالاتها، وعزلها عن كثير من مهماتها. وهيمنتها تتطلب منها ملاحقة المستجدات والشفافية والمصارحة، إذ لا مكان للخائف المترقب ولا للمداري المتردد. وحين يكون الطرفان: -الحاكم والمحكوم في سفينة واحدة - وهم كذلك- فإن عليهما توخي السلامة، لأن أي خلل يعترض السفينة يمس الكبير والصغير. وقد ضرب الرسول -ﷺ- الناصح لأمته المثل بالقوم المستهمين على المواقع داخل السفينة، مبدياً أهمية الأخذ على الأيدي المضرة بتصرفها لنجاة الجميع، وكان حقاً على المقتدرين استصحاب هذا المثل الحي، ومعرفة حدود (الحق) و(الحرية): حق طرفي العقد وحرية التصرف واحترام النظام. وطريق الحفاظ على سلامة السفينة لا يكون بالضرورة طريقاً لتبادل الاتهامات والإسقاطات. والاختلاف في وجهات النظر لاينزع الأهلية، ولايدعو إلى الإخلال بمقتضيات العقد الاجتماعي، وكم نرى ونسمع من بعض المؤتمرين أو المنتدين أو القنواتيين أو الكاتبين إطلاقات في النقد وتعميمات في الاتهام. وكيف يمكن القبول بهذه التعميمات وكافة المسؤولين قد مروا بمراحل التعليم، وتسنموا بموجبها مختلف المناصب، وقبلتهم أرقى الجامعات العلمية في كل أنحاء العالم، حتى لقد روى لي أحد العاملين في إحدى ملحقياتنا في الغرب اطمئنان الجامعات (الكندية) إلى حملة الشهادات الطبية من جامعاتنا. وما على المرتابين إلا أن يجيلوا أنظارهم في جامعاتنا ومستشفياتنا وسائر المواقع العلمية والعملية: التشريعية والتنفيذية ليروا أبناءنا من حملة الشهادات الجامعية. فهل تكفلت جامعات العالم ومدارسه بتعليمنا؟

نقول هذا، ونحن على يقين من قيام الحاجة الماسة والملحة إلى النظر الشامل إلى مناهجنا، وتلافيماينقصها، وعلينا قبل البدء في النقد تحديد مواطن الضعف ومصادر الخلل، وإرشاد المسؤول إليها، وحمله على مباشرة التصحيح، دون أن نشيع الخطأ، أو أن نضخمة، أو أن نمعن في السخرية والتيئيس، أو أن نركن إلى الإطلاقات والتعميمات، ودون أن تأخذ المسؤول العزة بالإثم، إذ لانريد أن نكون ك (غزية) وشاعرها الذي أبان لها النصح، فلم تستبنه إلا في ضحى الغد.

على هامش المجتمع والتربويين .. قلت: اطبخوا لي جبةً وقميصاً .. ! (٢)[1]

ومما لا نماري فيه ظاهراً ولا باطناً حاجتنا إلى مواكبة التحولات السريعة في ميادين العلم التجريبي، وسائر المعطيات الإنسانية. ولن يتأتى التوفر على المعرفة بظاهر الحياة الدنيا إلا إذا عرفنا ما نحن بحاجة إليه، وعرفنا كيف نحافظ على الخصوصية الحضارية مع تحقيق المتطلبات المدنية. ولا مراء في أن المعادلة الصعبة تتمثل في حفظ التوازن بين مقتضيات النقل وسبحات العقل. ولقد نجمت الإشكالية بينهما في وقت مبكر، واستطاع «ابن تيمية» حسمها في درء التعارض بين المنقول والمعقول. ولما كانا يلتقيان على وجوب إعداد القوة بكل أشكالها، لزم أن يكون من أوجب واجبات التربية صناعة الإنسان، فهو القوة والثروة.

وإن كان ثمة إشكاليات قائمة بين أهم المصادر المعرفية: العقل والنقل، فإن مردها خلل المنهج وضعف الآلة، وإلا فخالق العقل هو موحي النص، ولن يكون بينهما تعارض ذاتي، وحينئذ يكون علينا توخي الطريق القاصد للجمع بينهما، بوصفهما مصدرين هامين لبناء المعرفة، وتشكيل النسق الثقافي، وصناعة الإنسان المعاصر. والعملية التعليمية من أخطر العمليات وأهمها. وحين سبق الشرقيون إلى غزو الفضاء، لم يكن بد من مساءلة الغربيين لتعليمهم، وإناطة المسؤولية به. والأمة الإسلامية فيما هي عليه من ضعف وتخلف وتفكك بحاجة ماسة إلى مساءلة ملحة لتعليمها قوامها نشدان الحق الذي هو ضالتها، ومن يتهيب الرأي العام، ثم لا يواجهه بالحقائق، تقعد به حساباته الاحترازية.

وإذا كنا على يقين بأن الدولة تنفق ربع ميزانيتها على التعليم، فإننا على يقين مماثل بأن التعليم لا يواكب التنمية، ولا يستجيب للحاجة بالقدر المطلوب، ولا يصنع الإنسان، ولا يوازن بين حق «المدنية» و «الحضارة» ولا يوفي كلاً منهما حقه، وهل أحد ينكر أهمية التعليم في توفير الثروة الحقيقية للأمة؟ وهل عاقل يقدِّم على صناعة الإنسان أي صناعة؟ فالثروة الحقيقية ليست في كنوز الأرض، وإنما هي في مكتنزات الأدمغة، وبراعة الأنامل، وقوة السواعد، ولا يتحقق شيء من ذلك إلا بتوفر المعارف والعلوم والتقنيات التي سبيلها التعليم التجريبي.

وفي المقابل فإن من الإسراف في النقد أن نحيل إلى التعليم كل مظاهر التخلف، ونجعله السبب الرئيس في تكريسها، وقد لا يقتصر الناقمون على ما يخصه، مما هو مرتبط به ارتباطاً مباشراً، وإنما تمتد رؤيتهم إلى جوانب المعاملات والتصورات والمواقف والمهارات والأخلاقيات. ومثل هذا التوسع في التحميل الجائر، يتيح الفرصة لمعوقات بادية للعيان، كي تلعب دوراً بارزاً في تكريس التردد والارتباك. وحين لا نتردد في تحميل العملية التعليمية جانباً من المسؤولية فإننا أحوج ما نكون إلى العدل بين المعوقات، وعلينا أن نستصحب السياقات والأنساق، والضعف وقلة الحيلة وهوان الأمة، والتدافع وتداول الأيام بين الناس. والذين يمعنون في مؤاخذة التعليم وحده، ثم لا ينظرون إلى المناخات القائمة، يعطلون دور متابعتهم، فالتعليم كالنوابت التي تسقى بماء واحد، ولكنها تختلف جودة وغزارة لاختلاف المناخات والمتابعات، وليس أضر على التعليم من الأجواء السياسية والاجتماعية والدينية والثقافية غير الملائمة.

وحين يتقن أطراف العقد سواء كان: سياسياً أو تعليمياً أو غيرهما بنود عقدهم، ويجتهد كل طرف في مجاله، تعمر القلوب بالمحبة، ويسود الوئام، وتقوم الثقة مقام الشك

---

(١) تاريخ المقال: ١٨/ ٢/ ٢٠٠٣

و الارتياب. وليس شرطاً اقتصار الأطراف المتنازعة على المؤسسة السياسية وما يليها، إذ كل شخصية: اعتبارية أو ذاتية تبادل شخصية أخرى الفعل باتفاق مسبق، يقوم بينهما عقد يتفاوت في الأهمية والخطورة. فوزارة المعارف أو الصحة أو العدل أو المواصلات لكل واحدة موقعها في سلم الأهمية، وإنسانها يكتسب ذات الأهمية، ولك أن تنظر لما دون ذلك حتى الحارس الأمي ولما فوق ذلك حتى الخليفة الصادق، على حد «**كلكم راعٍ و كلكم مسؤول عن رعيته**».

وحين نخطئ السبيل القاصد، وتأخذنا بنيات الطريق، نحيل ما يكون من الإخفاقات المتوقعة وغير المتوقعة إلى النوايا والأثرة، حتى تفيض أوعيتنا بالحزازات والعداوات. ومع الزمن تتضاءل القضايا وتتضخم الشخصيات، ثم لا يكون في الساحة إلا غاضب ومغضوب عليه.

والإشكالية عند الاختلاف تتمثل في الخلط بين خطأ الاجتهاد وخطيئة الإصرار، وبالتالي تستشري مفاهيم: التآمر والعمالة، وتتضخم عقدة الشك والارتياب. ولو قامت بين المختلفين ضوابط الاختلاف المعتبر، وأحسن كل طرف ظنه بالآخر، وعد ما هو حاصل من تقصير من باب خطأ الاجتهاد، وما سيحصل من تحرف لتدارك التقصير من باب النُّصح، لعمرت البلاد واطمأن العباد. والكتبة عبر وسائل الإعلام، والمتحدثون في المنتديات أو في المجالس، والناقمون عبر المواقع لا يحررون مسائلهم، ولا يحددون مجال نقدهم، ولا يعِفُّون عن النيل من الكفاءات، ولا يبادرون بالحلول الممكنة: الناجزة أو المرحلية، ولا يقتصرون فيما يكتبون وفيما يقولون على القضايا المعينة المحددة بأوصافها وأسبابها، وإنما يعمدون إلى الاطلاقات والتعميمات واستدعاء الشخصيات، وذلك بعض ما يعانيه العاملون في مختلف الحقول، ولا شك أن العواطف والانفعالات تجتال الأكثرين من المتعقبين لخطأ التقصير أو لخطأ الاجتهاد، بحيث يفقد تداولهم جانباً من أهميته وأهليته، فكل من سُئل عن «مناهج التعليم» على سبيل المثال لا الحصر أو تحدث عنها، أوسعها ذمّاً، ونال منها دون اقتصاد، ودون تحديد، وسلبها أبسط منجزاتها، وإذا فكر المسؤول بالاستجابة ثارت ثائرة الشكوك والاتهامات، حتى لقد كدنا نقع تحت طائلة «احفظ ولا تصلح». وحين لا نجد غضاضة من القول فيما ينقص المناهج، نجد كل الغضاضة في الإطلاقات غير المسؤولة. فالدولة التي تنفق عشرات المليارات، وتستقبل الملايين من الطلبة والطالبات في مختلف المستويات من الحضانة والروضة إلى الماجستير والدكتوراه لا يمكن أن تصر على الحنث العظيم، بحيث لا تفكر في التطوير والإصلاح، وملاحقة المستجدات، وحين تفكر في التغيير لا يمكن أن تصادم الثوابت.

ووزارة بلغت أشدها، وبلغت خمسين عاماً، تقع في التقصير، ولكنها لا تقع في الخطيئة والجهل. وحين يبدو الضعف في مخرجات التعليم، وتسوء الأخلاق في أوساط الناشئة، أو يفوق العرض الطلب، أو يكون هناك غزارة في الإنتاج وسوء في التوزيع، أو حين تضيق المقاعد الدراسية بأهلها، يكون هناك: خلل مخل، ولكن ذلك لا يستدعي الإدانة وحدها، ولا الإطلاقات الطائشة، وإنما يستدعي تقصي المعوقات، والتحرف الصادق للمواجهة الشجاعة. والوزارة إذ تفعل ما في وسعها لمواجهة الترديات، تكون بحاجة ماسة إلى من يتعقبها بالحكمة والموعظة الحسنة، والنقد الهادئ المشفوع بحسن النية والتفاؤل. والويل لأمة يستبد مسؤولوها، ويغفل نخبها، وكل الويل لأمة يستحر الشجار بين مسؤوليها ونخبها، ثم لا يكون إلا تبادل الاتهامات وتزكية الأنفس.

وكم كان حسناً لو أن الناقمين على «المناهج» وبخاصة في زمن تتواكب فيه الاتهامات من الخارج المعادي ومن الداخل المرتبك، أخذوها بمتابعة دقيقة وتقويم موضوعي، ووضعوا أيديهم على مكامن الضعف ومفاصل المشكلة، وطافوا حقول

التربية والتعليم العالمي ليقطفوا من كل حقل زهرة، مشكلين «فسيفساء» أخاذة و«سمفونية» ممتعة، ولما لم يكن أحد منا ببعيد عن الممارسة التعليمية. فالمناهج والمقررات بين أيدي الطلبة والطالبات، وكل كاتب له أبناء وبنات يدرسون، كان على الناقمين التخلص من العموميات والرشق العشوائي، والتحديد بالصفحة والسطر أهم المآخذ، وشفعها بالبدائل، وبخاصة في المواد «الدينية» و«العربية» و«الاجتماعية». غير أنا لم نبرح جلد الذات، ولم نتجاوز التهكم والسخرية والنيل المباشر من رجال هم من أبناء جلدتنا، أحسبهم يحترقون من أجل النجاح، ولا أزكي على الله أحداً.

ولما كانت العملية التربوية تركيبة عجيبة يتنازعها: البيت والسوق والمسجد والمدرسة والاتصالات والقنوات و مراكز المعلومات، ولما كانت المدرسة: مقراً ومكتبة ومختبراً وصالة وساحة ومقصفاً وأستاذاً وكتاباً ومنهجاً ومادة ووسائل وأسلوب أداء، كان على المتعاطين مع القضية التعليمية والتربوية تحديد واطن الخلل. وما لا مراء فيه أن التعليم في بلادي بحاجة ماسة إلى النظر في كل مفرداته، وبحاجة ماسة إلى التعديل والتبديل في كل مرحلة من مراحله، وفي كل لحظة من لحظاته، في متطلباته المدنية المحملة على التعليم، وفي مقتضياته الحضارية المحملة على التربية، وأطرافه بحاجة إلى تبادل الثقة، وإشاعة الطمأنينة، والشجاعة في مواجهة الأقدار. والأسئلة الملحة: كيف نحدد الحاجة؟ وكيف نحدد المنهج؟ وكيف نقدر وننوع، ونستجيب لمتطلبات العصر؟ وكيف نرسم الطريقة المثلى؟ وكيف نعد المدرس؟ وكيف نهيىء الأجواء الملائمة: زماناً ومكاناً؟ وما النوع المعرفي المطلوب؟ وما القدر المعرفي الكافي؟ وما المهارات؟ وما التخصصات؟ وما حاجة المجتمع؟ وفوق كل ذلك: ما الامكانيات التي يجب أن نتحرك على ضوئها؟ وهل نمارس «التكتيك» أو «الاستراتيجية»؟.

إن علينا أن ندع أطراف القضية يتبادلون الخيارات، والمسألة في النهاية: عرض وطلب، ولكل واحد منا نصيبه من تلك الثنائية المعقدة، حتى لكأن أحدنا ذلك المسكين المتذمر من أسماله المنفجر أمام عروض ليس بحاجة إليها:

قالوا اقترح شيئاً نجد لك طبخه

قلت اطبخوا لي جبة وقميصاً

المسألة في النهاية فيما أحتاج، لا فيما أنت قادر على إنجازه، نريد تعليماً يغنينا عن «سبعة ملايين وافد»، يستنزفون أكثر «من خمسين ملياراً» من ثروة الأمة، تعليماً لا يترك مواطنا عاطلاً، ولا مكاناً شاغراً، لا يغرق سوق العمل بما لا يحتاج، تعليماً يربي الناشئة على تمثل القيم وإظهار الدين. فهل نملك القدرة والشجاعة على مواجهة الحقائق؟ وحين تحاصرنا التطلعات، وتكبّلنا الإمكانيات، يجب أن نتصرف بحكمة ورويّة، بحيث لا نفوّت الفرص بعنجهية: نكون أو لا نكون. إننا أمام خمسين في المئة من المقرات المستأجرة، وتحت طائلة ستمائة مليار من الديون، وعشرات الآلاف من التخصصات النظرية غير التربوية، وأمام حمل بعير من المقررات التي يغني عنها حمل طفل، وأمام احتقانات عاطفية يكاد المرء معها يشك في نفسه.

والنقد حين لا تحدد موارده، وحين يتخذ سمة الاستخفاف والإحباط والتيئيس والإطلاقات العامة والتطلعات الباذخة، لا يقيم له المسؤول وزناً، ومع تكرره على الألسن، وقرعه للأسماع، تألفه الآذان، وتتبث معه الأفئدة، ثم لا يكون مثيراً، فمثله كمثل الأدوية التي تُتَناول بدون وصف أو تحديد.

إن علينا في خِضَمِّ اللَّغط حول العملية التعليمية أن نعي الفرق بين: تعليم الفريضة على كل مسلم، وتعليم التأهيل الكفائي. وكيف لا نعي مثل ذلك، والذكر الحكيم ندب إليه

بقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢] ولم يقل: فلولا نفرت كل الأمة، وعلينا قبل هذا وبعد هذا أن نتخذ من التعليم ما يظهر الدين، ويفعّل قيمه على حد: «**الدين المعاملة**».

فالسمة العامة شيء، والتخصص الدقيق شيء آخر، وأَسْلَمَةُ المناهج وهي مُؤَسْلَمَةٌ بلا شك تحقق السمة، والحاجة تحقق التخصص. والأذكياء من يتقنون التركيبة الأدق والأعقد، ويرتدون إلى الداخل، ويمارسون صمت المتأمل، وقضاء الحوائج بالكتمان، نريد كوكبة من الخبراء والمجربين الذين لا يُرى إلا أثرهم بادياً في الأنفس وفي الآفاق. وبعد تفاقم الأزمات، وتعدد الاتجاهات، واعتزام المسؤولين على خوض معركة التغيير الجذري، لا بد من التحرف الحصيف لتحقيق مادة مناسبة وأسلوب سليم، وأجواء ملائمة. وعلينا أن نحاصر الشائعات، وأن نبني الثقة المتبادلة، وألا نستغل الظروف المشحونة بالتوتر لبناء الشخصيات الزائفة، إن الزمن رهيب والمستقبل عصيب. والعالم من حولنا يركض في دروب المدنية، ونحن بين: مرتاب خائف، ومتهم غاضب، وقضية كاد يضيع دمها بين الفريقين. إن مهمة التربية والتعليم صناعة الإنسان لمواجهة الحياة، فما الحياة القائمة؟ وما الذي نحن بحاجة إليه لمواجهتها؟ تلك هي الحلقة المفقودة في جدل «المجتمع» و«التربية» لقد أخطأنا في الصناعة والزراعة والتجارة، والمعنيون ماضون في تلافي الخطأ، ولا شك أننا نمارس الكثير من الأخطاء في صناعة الإنسان، وليس لدينا ما يمنع من تلافي الخطأ، فلنكن في مستوى عصرنا ومسؤوليتنا، وإذا عزمنا فلنتوكل على الله، صارفين النظر عما يشاع من أقاويل لن يزيدنا السماع إليها إلا خبالاً. ومراد المجتمع لن يتحقق إلا بتحرف جذري، يأخذ العملية التعليمية من جذورها بثقة وشجاعة واطمئنان، إن علينا ألا تضيع الفرصة بين ناقد لا يفهم ومسؤول لا يستبد، وإمكانيات لا تفي بالمتطلبات.

ويلي عليك وويلي منك يا عرب .. ! [(١)]

كنت - ولما أزل - مشغولاً بتقصي الخطابات والتصريحات المتلاحقة اللاهثة وراء بعضها، ومتابعة الرحلات المكوكية واستباق الزمن بما يذرعه أو يُفيض به إلى آفاق المعمورة أخطر ناطق بالوعد والوعيد وما يتبعه من مؤسسات ومن رجالات، لم يقيدوا نعمة القطبية، ولم يحسنوا استغلال ظروفها ومعطياتها. بحيث تجلت مثبطات الغطرسة من ضجة العالم، وتصدع الوئام بين رموز القادة الغربيين في سابقة لا مثيل لها. وكان المعنيون بخطابات التهديد والوعيد والمجاورون لهم، يتفحصون المنطوق، وينقبون عن المضمر بحذر وخوف وتفاؤل، ويستمطرون قرَّاء الكف، ومفككي الشفرات، وحذاق التأويل، لمعرفة المستبطن وما تحت السطور، ويستشرفون ما سيتركه الحلان العسكري أو الدبلوماسي، وهما الخياران اللذان يستبقان الصدارة، ويَقِدُّ كل واحد منهما قميص الآخر من قبل أو من دبر. وخطابات الزعيم المتعالي وتصريحاته إن لم تترجم إلى فعل ناجز، أوضع خلال الفرقاء يبغيهم الفتنة، وممن حولنا من المتربصين سماعون لهم، وما أن يتفوه بوعده أو وعيده، حتى يتلقفهما المترجمون بالصوت الفوري، ثم يتعقبهم آخرون بالتفكيك والتشريح والتقويض بحثاً عن المضمرات، وتطوعاً لايصال ذلك كله إلى المعنيين بالترغيب أو الترهيب، عبر رؤى وتصورات وتأويلات تدع العاقل في حيرة من أمره، ولاسيما ما يعقب ذلك من تعليقات ودراسات تضرب في فجاج التخرصات، لقد سمعت لغطاً تؤزه أوكار الحقد ومدافن الضغينة، ويتهافت عليه الخليون والماكرون والطيبون، ممن لا يحسنون فك الشفرات، ولا قراءة ما تحت السطور، ولأن هذا اللغط يحز إلى العظم، فقد عدت إلى خبراتي وقراءاتي ومتابعاتي، عبر كل المطبوعات والقنوات والمواقع، استعين بها لفلك الطلاسم، ومعرفة أي الخيارات أجدى وأهدى لأمة لا تقدر على دفع الأذى عن نفسها، والفتن التي تعصف في أرجاء الوطن العربي لا تهدد بلداً عربياً، ولا تكسر عظماً (أيديولوجياً) واحداً دون غيره، إنها فتن عمياء، تهب كالريح العقيم، فتقتلع الأشجار المثمرة، وتهدم البيوت المأهولة، وتذرو الأسواق العامرة، تقتل الشيخ المنقطع، والعجوز المتبتلة، والطفل الرضيع، والعذراء المخدَّرة حياء وعفة.

والواقع العربي بهذه الفتن الهوجاء لا تقف فيه على وفاق سياسي، ولا ثقافي ولا إعلامي، فقادته وجلون، ومفكروه مرتابون، وعامته متخبطون، والكل في غمة كاسفة، ليس لها من دون الله كاشفة، حتى يقول الناجي من أهل الحل والعقد: اللهم إني لا أسألك إلا نفسي، ولربما عاد التاريخ ليذر قرنه من جديد، فقلد قال الرجل الصنم: «تركيا للأتراك» واليوم، وتحت الضغوط والفتن عاد آخرون يؤكدون القطرية، فيما تلاشت سائر الانتماءات، وقد يكون لبعض أولئك شيء من الحق، فعندما تدلهم المشاكل، يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه، فلكل زعيم وقطر شأن يغنيه، فعاجز عن توفير الرغيف ومتخاذل عن حماية الثغور، ومشغول بقهر المصفدين والتحسس عن الخلايا النائمة، وما أكثر العجزة في زمن بلغت فيه الأمة الدرك الأسفل من الذلة والهوان. وبعد لأي ومشقة ويأس محبط عدلت عن قراءة الخطابات ومثيراتها، وعدت أفكر في واقع عربي مؤلم، يصنع عذاباته بيده، ويعمق فرقته بلسانه، تؤزه نار الكلمات الحاقدة، وتوقظ فتنه النائمة زعانف لا تلوي على مثمنات معنوية ولا مادية، وأخوف ما يخاف العقلاء من صعاليك يتسكعون في سوق النخاسة البلاغية، يقول قائلهم:

أنـــا الغريـــق فمـــا خـــوفي مـــن البلـــل؟

---

(١) تاريخ المقال: ٢٥/ ٢/ ٢٠٠٣

والعالم العربي بما كسبت أيدي عملائه ومغفليه وثواره ومقامريه، وبما اقترفته بعض ألسنة إعلامية، وبما حبّرته أقلام كتابه، يمر بمرحلة حرجة، ومنعطف خطير، فكل اقليم لديه ما يذهله عن غيره، وصدق الله: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ [الحج: ٢] فالفتن المشتعلة في بقاع العالم عامة، وفي أرجاء العالم العربي خاصة، وعلى أرض الخليج وما جاورها بالأخص، بلغت حداً لا يطاق، وما من دولة عربية بقادرة على اتخاذ قرار مستقل، لا يتقي ولا يداهن، وبوادر الاستعمار الذي لملم نثاره، ورحل بثمن باهظ من الدماء الطاهرة، عاد من جديد، يذكيه الحقد الصهيوني، وتشعله بؤر التوتر في عالمنا الموبوء، من طائفية و«إثنية» ومشاكل حدودية ونزاعات قبلية، هذا الوجه الجديد الذي جاء بمسميات جديدة من «نظام عالمي» و«عولمة» وبمبررات مكافحة «الإرهاب» ونزع «السلاح» صنعناه بأيدينا، ليتحكم بالمصائر، ويؤدب بكسر العظام، وإحراق الأرض، وإشعال الفتن، ومن ورائه مرتزقة يجازفون بالتخوين والتجريم، وهم ربائب الغرب وأذنابه، هذا الوضع المتردي لا مثيل له إلا ما عرف من (حكم الطوائف) في الفردوس المفقود.

ومع أن مصالح العالم العربي على شفا جرف هار، فإن من يعوَّل عليهم من علماء ومفكرين وساسة وإعلاميين، تستدرج الأندى صوتاً منهم الغوغاء، ويحدوهم لهيب العواطف، وتستخفهم المظهرية، وتغريهم الأضواء، فلا يقفون لتأمل، ولا يفرغون لمراجعة، وكيف تتأتى لهم فرص الاستخارة والاستشارة ومن حولهم من محترفي الإعلام والمتاجرين بالأقلام، يؤزمون المواقف، ويوغرون الصدور، وينبشون ماضياً دفيناً، وما أحد منهم حاول تقريب وجهات النظر، وسعى في نسيان المآسي، وسبق إلى تضميد الجراح، واثّاقل عن نكئها، وفرَّ إلى الله، فهو القادر على كشف الضر، ومن أعوزه الدليل فليصخ إلى القنوات، أو ليقرأ الصحف، أو ليدخل إلى الشبكة «الإنترنت»، أو ليلق السمع إلى هدير المنابر، ليسمع التناقض العجيب، والتناحر الغريب، من همز ولمز وكل خطيب تحسبه واقفاً على ترسانة نووية، يلوم الآخرين ولا يحاسب النفس، ويدين الأبعدين، ويبرئ الذات، لا يدعو إلى تفكير، وإنما يحرض على تدمير، ولا يؤلف بين القلوب، وإنما يوغر الصدور، ومثمنات الأمة يفري حشاها الأبعدون، وما من حكيم يأطر على الحق، ويثبت القلوب الواجفة من الفتن الراجفة، فكل وجه إعلامي وهبه الله القدرة على الإثارة والجذب عمد راغباً أو راهباً إلى توظيف طاقاته لإشعال العداوات وإحياء الأحقاد، وكل كاتب قدير سخر قلمه للوقيعة، وتلفيق التهم، وإشاعة الكذب، والتحريض على الشر، وإحياء الضغائن والأحقاد بين الأخ وأخيه والجار وجاره، وكل عالم متمكن أجهد نفسه سعياً وراء فتوى مرجوحة لتفريق الكلمة، وتكريس الطائفية والمذهبية، ونبش عفن التاريخ، وكل سياسي أجهده الركض وراء سراب القيعان، بحثاً عن الحماية من الأخ وابن العم، وما درى أولئك أنهم بهذا الركون المبادر أو المضطر مأكولون، وقصة الثيران الثلاثة تعيد نفسها، كما التاريخ، ومقولة: «أكلت يوم أكل الثور البيض»، ليست ببعيدة، إن علينا قراءة تاريخ الفردوس المفقود إذ ما أشبه الليلة بالبارحة، وبديهي أنه عندما تبلغ الروح الحلقوم تضيق الخيارات، وتنعدم فرصة المراجعات، ولا يبقى إلا طريق قاصد: إما الفرار إلى الله: وإما التردي في الهاوية، وبعد انكشاف الضر، لا بد من المراجعة والمساءلة، لكيلا تعود حليمة إلى عادتها القديمة، وكم أبدأنا القول وأعدناه، وناشدنا الفرقاء تضميد الجراح، وتناسي ما فات، وتجاوز المرحلة العصيبة، ونصحنا بالسكينة ولزوم الجماعة، والبحث فيما يرأب الصدع، ويستل الضغائن، فما بأيدينا صرنا إلى ما صرنا إليه، إن هناك تحولات ومصائر تطاولت مع الزمن، وقضيت بليل، وقلنا وما زلنا نقول: -

إن اللعب بالنار حول الهشيم ينذر بحريق هائل، يأكل الرطب واليابس، وها هي طبول الحرب الخليجية الثالثة التي ستكون أرض الخليج وإنسانها مسرحاً ووقوداً لها، تقترب من درجة الصفر، وبطل المغامرات يتعنتر تارة، ويستخذي تارة أخرى، يجني على قومه، ويلجئ من لا ناقة لهم ولا جمل إلى مواقف الضعف، حتى لا يجدوا بداً من الدفع بالتي هي أسوأ، ومتى انقشعت الغيوم، عاد كالهرة التي تأكل أولادها، أنهك المنطقة، وشل حركتها، وقتل شبابها، وأحيا نساءها للترمل والضياع، وعوق أصحاءها، وشرد أهلها وأذل شرفاءها، ولما يزل يجد من يموء من ورائه، الأمر الذي جعل الحليم حيران، فبقاء مثله مظلمة كبرى، وضرب أمة منهكة من أجل تصفيته جريمة لا تغتفر، وليس أضر على الأمة من نقيضين لابد من ارتكاب أحدهما، ومع انبلاج الحق يظل الناس في حيرة وتردد وتناقض، فلا تخلو الاجتماعات المصيرية من رافض أو متحفظ أو مقاطع، ولا تخلو البيانات من أسلوب دبلوماسي مراوغ، يحفظ ماء الوجه، ويعدد المخارج، والقطب الواحد لا يضع عصاه عن كتفه، يشج رأس هذا، ويكسر عظم ذاك، يستقدمه خائف، ويشرعن لفعله موتور، ويشيطنه متصعلك، ويتحداه غريق لا يخشى من البلل، ومن الظواهر الحدية التي لا تحتمل المراء تلقف ذلك القطب لراية الاستعمار البغيض التي كانت في يوم من الأيام بيد امبراطورية لا تغيب الشمس عن ممتلكاتها، وبعض الشر أهون من بعض، فميزة الاستعمار القديم أنه يعتمد التفتيت والتفريق، والتماكر والمخادعة والإيمان بمبدأ «آخر الطب الكي» وتسمين المحلوب والمأكول فيما يذهب الاستعمار الجديد إلى أن الأجدى والأهدى أن يكون «الكي» و«الانهاك» أولاً. وليس من المعقول أن يعيد المستعمر نفسه في زمن الحرية والديموقراطية وحقوق الانسان، فلكل زمام أنماطه وأساليبه، وليس من المعقول أن يقبل أحد بالوجود الأجنبي، مهما كان الثمن، على أن مواجهة المتغيرات المصيرية باهظة التكاليف، والدول المستهدفة هي التي ستدفع الثمن، وأمريكا التي تزحف بترسانتها، وتزج بشبابها، لن تعطي المتفرجين شيئاً من الكعكة، ومن ثم فسوف يحل الخلاف مكان الوفاق، قد تنتصر في المنظور القريب، وسيظل الناس جميعاً يخافونها، ويحسبون لها ألف حساب، ولكن دولة الظلم لا تدوم، والمقتدرون مادياً أو استراتيجياً سيرتكبون أهون الضررين، وسيمنحونها تسهيلات أو دعماً غير مشروط، ولكنهم سيكونون معها كراكب الأسد، يخيف الناس، وهو منه أخوف، وعندما تقوم الأوضاع على الظلم والإكراه، تظل يد الظالم على الزناد، ويظل في حالة حرب، لا يفرغ لنفسه، ولا يدع الآخرين يفرغون لأنفسهم، ومن ثم يتعسكر العالم، ويدخل مرحلة إرهاب عنيف، يفضل فيها الجائع الرصاصة على الرغيف، في زمن لا يحتمل المزيد من الترديات والانهيارات الاقتصادية، التي بدأت نذرها بإفلاس شركات عملاقة.

وأمريكا اليوم تدخل مرحلة المقامرة والمغامرة، ومن ورائها أتباع مغررون، يجرون قدمها إلى الوحل، لتنشط تجارة السلاح، وتتسع رقعة الإرهاب، وسيظل العرب مسرحاً لكل الأحداث، والتوغل في هذا المسار سيعود عليها وعلى حلفائها وأصدقائها بالضرر، والشيء المؤكد أن مكافحة الإرهاب بعد الاتفاق على مفهومه عربياً وإسلامياً وعالمياً، وتغيير النظام في العراق ضرورة إنسانية، وواجب وطني، أما نزع السلاح فقضية فيها نظر، وفي الوقت ذاته فإن اضطلاع أمريكا بالمهمة منفردة، واستخدام القوة ليس ضرورياً ولا واجباً ولا حتمياً. ومع أن إشكاليات الحكم في العالم الثالث بحاجة إلى إعادة النظر إلا أن التدخل الخارجي غير مشروع، وغير نزيه، وغير عادل، فكم من أنظمة ظالمة متلاعبة، وجدت من يدعمها ويحميها، وكم من أنظمة وطنية عادلة، وجدت من يشكك في أهليتها، والمسألة لم تعد في صالح الشعوب المغيبة عن المغانم والمستحضرة في المكاره، لقد أسهم العالم الثالث في شرعنة التدخلات العسكرية، ورضي أن يكون

مسرحاً للعب الكونية والتجريب الحي، ولما غفل اللاعب الأكبر عن الجيوب والخلايا الناسلة في ظل الانشغال بالعمليات المصيرية تحولت إلى ظواهر ليست بأقل خطراً من القضايا الرئيسية، وما التدخل في الصومال والسودان ولبنان ومن بعد في أفغانستان والعراق إلا لملمة لهذه الذيول، والطامة الكبرى تكمن في الجبهات الداخلية التي تنسل من حدب الظروف الصعبة وفي ساعة العسرة لتربك أهل احل والعقد، وتهيىء الأجواء لملائمة اللارتماء في أحضان العدو، وتمكينه من استعمال عصاه الغليظة، والأمة العربية التي تعيش أسوأ حالاتها، لم ترعو، ولم تعرف أسلوب التعامل مع الأحداث المصيرية، ونخبها وإعلاميوها ومفكروها يؤزون فتنها، ويعمقون فرقتها، ويمارسون التيئيس والاحباط، ويستبقون الأضواء بالحديث عن المسكوت عنه، ولم يفكر أحد منهم بجمع الكلمة، ورأب الصدع، والتقريب بين وجهات النظر، والحمل على التعاذر، وتناسي الضغائن والأحقاد، والعمل على تماسك الجبهات الداخلية، فويل ثم ويل لأمة يهدم صفوتها جبهتها الداخلية، وكأنهم بفعلهم يستعجلون العذاب، وما علموا أنه قد يأتيهم بغتة، وهم لا يشعرون.

حصاد اليوم وجبة غير شهية .. ! [(١)]

١/ قد لا يَسبق استعراضي للصحافة صباح كل يوم أيُّ فعل قرائي، بحيث آوي إلى فراشي بعد قراءة جادة، قد تمتد إلى الهزيع الأخير من الليل، ثم لا أعود إليها قبل الاستفتاح بصحف الصباح. وفي كل يوم أجد على مكتبي أكثر من عشرين مطبوعة، ما بين صحف محلية ومهاجرة وعربية، ومجلات أسبوعية وشهرية ودورية، ومطبوعات وزارية، قد تكون بعدد الوكالات والإدارات العامة في الوزارة الواحدة. وأمام هذا الكم أباشر القراءة الاستعراضية العجلى للعناوين البارزة أو الجانبية، ثم أعود لما علق بالذهن من مقالات أو دراسات أو تحليلات أو أخبار مزعجة أو مبهجة في الفكر والسياسة والأدب، لأقرأه على مكث، فأستل ما أريد، لاستدعائه متى دعت الحاجة إليه. وفي كل يوم أصاب بالذهول، وينتابني شيء من الخوف جراء ما أقف عليه من حوادث وجرائم وكوارث تجتاح العوالم: العالمية والإسلامية والعربية والمحلية. وأقول في نفسي عما تقع بين ظهرانينا: كيف يحصل هذا في بلد يطبق الشريعة، ويتوفر على قطاع أمني قوي، وتقوم مناهجه على التربية الإسلامية، وتقام فيه الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر، الأمر الذي يحفزني على التساول عن مكامن الخلل، فلما نزل نسمع عن قتل الأبوين أو التخلي عنهما في ساعة العسرة، أو انتهاك المحارم، وعن السطو والسرقة والرشوة، وحوادث المرور، التي يغيب فيها الموت أسرة بكاملها، وعن ترويج المخدرات، وارتكاب المحرمات. كل ذلك يمر بنا، وكأنه مخيال برع في صياغته مبدع موهوب.

ومما لا خلاف فيه أن هناك نسبة من الكوارث والحوادث والجرائم متوقعة، لوقوع مثلها والرسول ﷺ بين أظهر المسلمين، من حرابة وسرقة ورشوة وزنا وخمر وإفك. وحصولها في حدود المعقول لا يثير الانتباه، لأنه ما من مجتمع صاخب، يشكل اقتصاده وتنميته أرضية جذب مغرية إلا وكان له نصيب من المنغصات، وكيف لا تتفاقم المشاكل، وفوق أرضه سبعة ملايين وافد، وحدوده مسرح للتسلل الفردي والجماعي المنظم، والمتخلفون من الحج والعمرة بمئات الآلاف، والمواطئون والمتسترون من ضعفاء النفوس يفوتون فرص الانضباط. ولست ممن يتطلع إلى مجتمع ملائكي، ولكن الأمور حين تتجاوز النسبة المعقولة، أو حين تقع الجرائم أو تنفذ بشكل بشع، أو تتكرر بشكل مثير، يكون هناك مشروع تساؤل ومتابعة وتفكير في كل الأوضاع، ليس فقط فيمن اقترف الذنب، ولكن فيمن حفز الأسباب، وفيمن وضع الحلول ونفَّذها.

ولكي أكون «رقمياً» في لغتي، فقد استعرضت الصحف الصادرة يوم الخميس ١٩/١٢/١٤٢٣هـ وتتبعت الحوادث والكوارث والجرائم بوصفها حصاد يوم أليم، ليس بأقل إيلاماً من أي يوم سلف أو خلف. ومثلما أن للمجتمعات الفقيرة مشاكلها، فإن للمجتمعات النفطية مشاكلها، وحتى نوع الأمراض وأساليب الحياة: «وكل من لاقيت يشكو دهره» وما سأعرض له عينات تتكرر، ولكن بصيغ مختلفة.

٢/ فكان أولى الحصاد التغطية الصحفية في جريدتي «الجزيرة» و«الرياض» وغيرهما لتشييع جنازة وكيل الإمارة بـ«الجوف» المغدور، كخطوة ثانية بعد اغتيال قاضي المستعجلة في مكان واحد، وتحت ظروف غامضة متشابهة، وتلك سابقة لا مثيل لها، فلم يكن أهل هذه البلاد عدوانيين، ولم يكن القتل سهلاً، فالمسلم يعرف أنه حين يقتل مؤمناً متعمداً فإن جزاءه نار جهنم خالداً فيها. والتساؤل الملح: ما الدوافع؟ وهل مثل هذه الجرائم ناتج خلل في التربية، أو خلل في الأمن، أو خلل في الأداء. نحن لا نشك أن

---

(١) تاريخ المقال: ٤/ ٣/ ٢٠٠٣

استشراء القتل أو السطو ناتج خلل، ومن واجبنا أن نواجه أنفسنا به، أياً كان مصدره: تربوياً أو سلطوياً أو أمنياً، وإن لم نفعل رمت الجروح على فساد، وبان منها إهمال المسؤول، ولست أشك أن رجال الأمن جادون في متابعة الحدث، والبحث عن خيوط الجريمة، وليس من الحصافة ممارسة المهمات تحت عدسات التصوير لإشباع الفضول، غير أنا مع كل ما نحن فيه من ثقة واطمئنان، يأخذنا ما أخذ إبراهيم عليه السلام، حين قال لربه: ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، ولربما كانت «الشفافية» بوصفها منهجاً حضارياً سبباً من أسباب اطمئنان القلب، بيد أنها كشفت عن أشياء، ما كنا نعرفها من قبل، ومن ثم وجدت الصحافة نفسها أمام مثيرات تستقطب بها القراء، بحيث تركت الحرية لكامراتها ومتابعات محرريها، كي ينقبوا في البلاد عن أي كارثة أو جريمة لتقديمها إلى القراء وجبة غير شهية، ومثل ذلك يدفع بالمواطن إلى الاحتقان والتوتر. و«الشفافية» في نظري، ليست وقفاً عند حد معرفة «دراماتيكية» الحدث، «الشفافية» تعني: أن يعرف المواطن كيف حصل الحدث ولماذا؟ وكيف تمت مواجهته؟ ومن الطرف الضالع فيه؟ وهل قطع دابره؟ فالجزاء وحده غير كاف، متى تُركت مخرجاته، تستعد لإنجاز جريمة أخرى، والشاعر الحكيم يقول:

لا تقطعن ذنب الأفعى وتتركها
إن كنت شهماً فأتبع رأسها الذنبا

وأهم معرفة يتطلع إليها المواطن: كيفية المواجهة والعلاج، وهل تلقفت وزارات «التعليم العالي» و«المعارف» و«العمل» و«الشؤون الإسلامية» و«الإعلام» ملفات القضايا، والتفت حول بعضها للتحليل والدراسة والتقويم ووضع الحلول؟ فالمشاكل لا يعالجها رجل الأمن بإزالة آثارها، وإنما بالعمل على قطع دابر أسبابها، ومواجهة كل الأطراف الضالعة فيها، ذلك أن الحياة تقوم على عقد بين طرفين، فأي إخلال في العقد تنشأ عنه جنايات وكوارث وجرائم. وعلينا إزاء هذه الأحداث ألا ندع أي جهة أو شخص فوق المساءلة والنقد، ولا يمكن تلافي الأخطاء بالتعذير، والدفع بالحدث إلى مجهول، أو القول: بأن العملية تمت بنجاح.

٣/ وفي حصاد اليوم متابعة لحادث قتل الجندي «علي يحيى دعسيس» رحمه الله، وكنا من قبل قد قرأنا عن حوادث مواجهات مسلحة لرجال الأمن، تمكن فيها المجرمون من فتح ثغرات، أو اهتبال ثغرات مفتوحة من قبل والهروب، وإن تم القبض عليهم فيما بعد. وتعريض حيوات رجال الأمن للقتل وسمعتهم لحديث المجالس، يحتاج إلى مراجعة، فالمداهمات أو التحريات حين لا تكون بمستوى الجريمة، يتولد منها جرائم أخرى، أشد نكاية منها. والمداهمات يجب أن يخطط لها، وأن يتوفر الأفراد على وسائل أمن ووقاية، تمنع تعريضهم للإصابات القاتلة، وتمنع انفلات المجرم من محاصرتهم، ولعلنا سمعنا ما حصل عند مداهمة «الشقق المفروشة» في الرياض، وتمكن المطلوبين من النفاد بأنفسهم، بعد قتل وإصابات، ولو أن هناك خططاً دقيقة محكمة مدروسة لما حصل ما حصل، وحتى لو حصل تبادل لإطلاق النار، لما تمكن المجرمون من اختراق الأطواق المحكمة، فمن الذي جازف، ومن الذي اتخذ القرار بالمداهمة، دون احترازات وأطواق أمنية، تحول دون نفاد المجرم بجلده؟ ومن الذي عرَّض رجال الأمن للإخفاق؟ سؤال مشروع، وممكن الحل في المستقبل، والغلطة إذا أفادت تعد درساً توعوياً.

٤/ وفي حصاد اليوم اصطدام سيارة بـ«جمل» يذرع الطرق، ووفاة شخص «الرياض ص١٢» وفي كل يوم تقع حوادث مماثلة، و«الجمال» السائمة تسرح وتمرح

قريباً من الخطوط، وتُرى رأي العين من العابرين ورجال المرور وأمن الطرق، وما من أحد اتخذ موقفاً رادعاً، فلماذا لا يتخذ قرار بمصادرة المواشي السائمة حين تقترب من الطرق بمسافة لا تزيد عن خمسمائة متر، وذبحها، وتقديم لحومها للجمعيات الخيرية، ومن راجع فيها، يحمَّل تكاليف المصادرة والذبح والتوزيع، ولو اتخذ مثل هذا القرار، لكان كل مالك للمواشي السائمة رجل أمن وجندي مرور. و«من أمن العقاب أساء الأدب»، ويكفي تجهيز سيارة شحن برافعة تابعة للمحافظات أو لمراكز أمن الطرق، تقوم بمسح الطريق بين الحين والآخر، وتقتنص كل ماشية تقترب منه، مع توعية خطية للعابرين، تذكر بمهاتفة أمن الطرق، متى شوهدت المواشي مقتربة من الطرق.

٥/ ومن حصاد اليوم «الرياض الصفحة الأخيرة» «الإمارات تصدر جوازات سفر خاصة للصقور» ويعد هذا الإجراء الأول من نوعه في العالم، ولما يكن هذا الخبر هو الوحيد الذي يبادر به الخليجيون، فلقد سمعنا عن »خيول» و«جمال» و«تيوس» و«حمام» تباع بالملايين. وتابعنا مهرجانات تستنفر فيها كل الجهود لمثل هذا النوع، ومن حق كل عاقل رشيد أن يتساءل عن هذا التبذير والإسراف في مدخرات الأمة وكنوز الأجيال، ومتى يعرفون أن المبذرين كانوا إخوان الشياطين؟ وإن لم يعرفوا فلا أقل من أن يستتروا، ولا يعرضوا أنفسهم للغيبة؟ و«رحم الله امرأً كف الغيبة عن نفسه». والذين أفاء الله عليهم بالأموال من واجبهم أن يرعوا نعمة الله، وأن لا يعطوا صورة سيئة عمن لم ينالوا خيراً. وإذا أوسع الله على أحد منهم، فعليه أن يتبنى مشروعاً: علمياً أو إنسانياً، يدرأ به عن نفسه وعن بلاده مكر الله، وفي الحديث: «**صنائع المعروف تقي مصارع السوء**»، وها نحن نرى طائفة من المحسنين، تبدي الصدقات أو تخفيها.

٦/ وفي الصفحة الأخيرة من الرياض أيضاً «إطلاق نار على حافلة تقل فريقاً طبياً في حائل» والحدث صدر من أحداث أربعة، يستقلون سيارة. والسؤال: من أتاح الفرصة للأحداث كي يحملوا السلاح، ويعرضوا أنفسهم للقصاص، لو أن هذه الرصاصة الطائشة استقرت في موقع قاتل من جسم إنسان بريء. أليس هذا التسيب مسؤولية الأباء والمعلمين ورجال الأمن، إن حمل السلاح أولى خطوات الجرائم، وإذا كان لا بد من حمله، وعلى أضيق نطاق، فليكن للرجال العقلاء، وفي المواقع المخيفة، بحيث لا يسمح بحمله في المدن والأسواق والمدارس والجامعات والمساجد وسائر المواقع العامة، ومن و جد معه سلاح صودر وسجن وغرم. والله شرع الحدود، وأباح التأديب، ومن رغب عن سنة الرسول فليس منا، وليس من مقتضيات الحرية الشخصية، ولا من متطلبات حقوق الإنسان ترك الحبل على الغارب، لا بد من الأطر والأخذ على يد السفيه.

٧/ وفي الصفحة الأخيرة من جريدة المدينة «القبض على ثلاث طالبات مدمنات في الخميس» وبالتحليل تبين تعاطيهن المخدر منذ فترة طويلة، وتلك كارثة الكوارث، وطامة الطوام، فكيف وقعن في المخدر؟ وكيف حصلن عليه؟ وهل الوصول إليه بهذه السهولة؟ بحيث تتمكن طالبات ثانوي من استعماله وخلال مدة طويلة. وكيف تتفشى الظاهرة، ولقد تذكرت اعتراض المجالس التشريعية لمطالبة «كلينتون» رفع ميزانية مكافحة المخدرات، بحيث تتجاوز الأربعة مليارات دولار، لعدم تحقيق أي تقدم من المكافحة، على الرغم من الميزانيات الباهظة والإمكانيات الضخمة.

ونحن في بلادنا نقتل المهرب والمروج، ونعالج المتعاطي، وتلك طرائق سليمة، ولكن المخدرات وآثارها لما تزل بازدياد. فما نقطة الضعف بعد تنفيذ أشد العقوبات؟ أهي في الإجراءات أم في الجزاءات؟ إننا بحاجة إلى أن نسأل، وأن نبحث عن الحلول الجذرية التي تحسم الإشكالية، أو تضعها في الحجم المقبول. ولا أحسب الذين يُقتلون لمجرد أنهم هربوا الهيروين المركز في أحشائهم كاف لحسم المشكلة، المشكلة أكبر من الأحشاء

والأدبار. إن علينا أن نضع مركز معلومات لهذه الظاهرة القاتلة، وأن نضطلع بإجراءات حاسمة، تحول دون تفشي المشكلة بشكل مخيف، ومن الأفضل أن نمسك الخيط من بدايته، حتى نصل إلى الضالعين بالتهريب. ولما كانت المخدرات وكر الجرائم وأم الخبائث، كان علينا أن نراهن على حسمها، وألا تأخذنا الرأفة ولا الرحمة. فالمخدرات تدمير للأمن والاقتصاد والصحة، وإذا قطع دابرها، رجعت مؤشرات الجرائم إلى الوضع الطبيعي. ولن أمضي مع بقية الكوارث والجرائم، فالأمة العربية تعيش تحت أزمات قاتلة، وما الحرب التي تتدفق معداتها وعددها ورجالها من كل صوب إلا أم الكوارث، وفي «الاقتصادية» توقع خسارة ستين مليار دولار للبنوك العربية وحدها، لو قامت الحرب، فأين منا الرجال والنساء والأطفال والثروات الظاهر منها والباطن؟ ومع هذا لا نجد أية بادرة عربية لمواجهة الاحتمالات السيئة، وتلك مصائب جسام، ليس لها من دون الله كاشفة.

مفهوم «الحق والحرية» في السرديات بين: الإفراط والتفريط .. ! (١)[(١)]

علينا قبل القول المباشر في اشكاليات الابداع السردي الناجمة عن الفهم الخاطئ لـ«الحق» و«الحرية»، أن نحدد مفهومنا الشخصي لمفردات العنوان، وهو مفهوم تكاملي، «يتناص» مع مفاهيم متعددة، مشكلاً معها دوائر متداخلة - لا مستقلة ولا مطابقة -، وليس ببعيد أن يثير اختلافاً كثيراً، وتأويلات تحيد به عن مقاصده، وبخاصة ممن لا يحترمون المصداقية، وليس هناك أدنى احتمال للتوافق بين وجهات النظر، ما لم يكن هناك معرفة ومصداقية. بل أكاد أقول: - بأنه ليس هناك رغبة في التوافق، متى كان الاختلاف في سبيل البحث عن الحق، فنحن أحوج ما نكون إلى المزيد من الاجتهاد، والمزيد من الاضافات، ومع مشروعية الاجتهاد والاختلاف، فإنه لابد من أهلية وضابط، للتوفر على قواسم مشتركة، تمكن من تقارب وجهات النظر، أو التعاذر، وهو ما نود مناهزته في بحثنا هذا، وفيما نستقبل من بحوث. ولما أن كانت المفاهيم متعارضة أو متفاوتة، كان علينا أن نحاول استعراض مجملها، وأن نكشف عن السلبيات والايجابيات جراء اصرار المختلفين الذين تجتالهم العموميات، وتستزلهم محدثات غيرهم، مما لا يعد من مشتركات الحضارات الانسانية، دون علم بالمعاصرة، ودون استيعاب للأصالة، والمتقحمون للمشاهد برؤى مهزوزة، وتصورات سقيمة، وبضائع مزجاة، يسيئون للمتضلعين والمتثبتين، لأنهم لا يتوفرون على القدر المطلوب من أدب الحوار ومؤهلاته المعرفية، فتقليد الطارف ليس بأحسن حال من تقليد التليد، والمجدد الحق من يتقن لعبة «التناص» بحيث يغيب الآخر، ولا يغيب فيه، وأكثر المتحدثين لا يتقنون هذه اللعبة، ومن ثم فهم واقعون فيما ينهون عنه، وما ظواهر الخلل المضاعف إلا بعض مقترفات من تلتبس عليهم الأمور. ولما كان الاجتهاد مشروعاً، كانت نتائجه مشروعة. ومشروعية الاجتهاد لا تكون إلا لمن يملك حقه من علم أصيل، وتجريب معاصر، وفقه للواقع ومتطلباته، ومنهج دقيق، وآلة معرفية، وتحرف سليم، وعقل وتفكير متزنين. والحديث من السرديات يطال مرتكزات حضارية.

حديث عن «اللغة» بوصفها الشفرة التواصيلة، ولاسيما في ظل المستجدات اللغوية من «بينوية» و«تفكيكية» و«تحويلية». وحديث عن «المضمون» بوصفه مضغة الجسد السردي، ولا سيما في ظل تعدد «الأيديولوجيات» وصراع الحضارات. وحديث عن «الفنيات» بوصفها الحد الفاصل بين أنواع الفن القولي، ولاسيما في ظل التحولات والتخليات. وإذ يكون للشعر ضوابطه، تكون للسرديات ضوابطها، ومن استخف بها، كان استخفافه بقية من رؤى سلفت، لا تقيم وزناً للقص، لأنه لا يرقى إلى سدة الفن الشعري الرفيع، حسب زعمهم الذي أردى الفن السردي إلى حين، والتفلت على الضوابط دون قيد الغاء ضمني للتنوع الابداعي، وهو ما يقترفه المترسمون خطى الغرب باسم التجديد تارة، وباسم الحداثة تارة أخرى، وباسم الحق والحرية تارة ثالثة. وما من شيء من ذلك ابتدروه، أو استبدوا به. وإذ يكون هناك متاهات في حدود الحق الفني، تكون هناك متاهات أشد وأنكى في حدود الحق الديني والأخلاقي والحضاري، وحديثنا عن حدود «الحق» و«الحرية» في: «اللغة» و«المضمون» و«الشرط الفني»، يتطلب منا معرفة المفاهيم، واعتماد الوسطية. و«السرد» أو «السردية» مصطلح مراوغ، وهو في نظري يقابل «النظم» بمفهومه الشعري، وإن كان بين مصطلح «السرد» و«النظم» عموم وخصوص، فهو عند «الخليل» غيره عند «الجرجاني» الذي يراه: تركيباً للكلام بطريقة ابداعية

---

(١) تاريخ المقال: ١١/ ٣/ ٢٠٠٣

معجزة، وعبر لغة انزياحية، و«السرد» الابداعي مثله، ومن ثم يختلف عن «السرد» العادي. وحين يكون ابداعاً، تكون له ضوابطه: البنائية، والشكلية، والدلالية، وهو مصطلح يطلق على صيغة مخصوصة من صيغ الخطاب، تتعلق بحبك الأحداث ومتعلقاتها: الشخصية والظرفية، لا وصفها أو رصدها كما اتفق، وله أنواعه ك«السابق» و«اللاحق» و«المزامن» و«المتداخل» و«المضاد». و«السردية» علم السرد المميز له عن «المسرحية» و«القصيدة» و«القول» العفوي. واختلاف طبيعة النص، فوتت على المعنيين تحقق علمية السرد، في ظل «علمية النقد». وقد أحال الدارسون إلى رؤية «جينيت» و«قريماس» و«باختين»، ولا يتحقق التصور السليم إلا إذا عرفنا ما تتحقق به الأشياء، وما تتميز به. وقديماً قيل: - «الحكم على الشيء فرع عن تصوره»، والذين يكتبون بلغة شائعة، وتراكيب مألوفة، ونصوص فارغة، وحوار ممل، لا يكون أحد منهم من ذوي المواهب ولا المعارف يميتون الفن، ومن لم يتوفر على معرفة تامة بنظام اللغة: من نحو وصرف، وأساليب الكلام، وجماليات الفن، وضرورة الكلم الطيب والقول السديد، ومقتضيات القيم الحضارية التي ينتمي إليها المبدع، والناقد، ثم لا يكون المبدع موهوباً، يمارس بموهبته، وبمحفزات موقفه، وتجربته، وثقافته، ووعيه للأنموذج، ومنازعته قصب السبق، يكون كل ما يأتي به غثاء كغثاء السيل، وزيد يذهب جفاء، يلفه النقاد الحقيقيون، كما يلف الثوب الخلق، ثم يرمون به وجه صاحبه. ولا تخلو المشاهد من الطائفتين: الضعفاء والجهلة، ولا عبرة بالمجاملات، والمسايرات والمقايضات التي يستبقها البعض. ولو أنصف النقاد، وصدعوا بالحق، ولم يخشوا به لومة لائم، تلاشت فلول الأدعياء، وصينت كرامة الفن واللغة والقيم. والمجاملات، وبناء الأمجاد الوهمية بالتملق تصيب المشاهد بالتصوح، ثم يكون ركام الروايات، التي لا تكاد تجد فيها راحلة، تبلغ بك الغاية من اثراء جمالي ولغوي وقيم ثقافية وفنية وأخلاقية.

ولأن المبدعين والمتلقين كما المستهمين في سفينة الحياة والفن فإن مفاهيمهم ل«اللغة» و«المضمون» و«السرد» و«الشكل» و«الحبكة» و«الحرية» حين لا يَضْبِطُ إيقاعها شرط، ولا تحكمها قيم، تُخرق السفينةُ، ويَغرق أهلها، سواء كانوا أهل فن أو لغة أو قيم. وما لم يكن كل شيء بمقدار، وخاضعاً لنظام، ومدعوماً بمعرفة، يعود الانسان إلى بدائيته الأمية، وكيف نرضاها، وما من أمة إلا خلا فيها حراس فضيلة، وأهل علم، يأطرون، ويعلمون. وليس من مصلحة الفن ألا ينبري لهذه الفوضى المستحكمة والعبثية المستشرية حكيم، يقول الحق، ويهدي سواء السبيل، ولا شك أن المجاملات والمداهنات، تدفع بالبعض إلى استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير: دلالة ولغة وفناً. بحيث يدعي التألق الفني من لا يحمل الموهبة. والفن القولي وغيره لا يؤتاه إلا موهوب، ولا تتفجر الموهبة إلا في اللحظة الضاغطة. وحين لا يبدع الشعر إلا شاعر، ولا يبدع السرد إلا سارد، فإن هناك طوائف من المقتدرين: لغة وثقافة، ينظمون الكلام، ويكتبون القول، ثم يجدون من يؤكد لهم أوهامهم. والشباب المبتدئون حين لا يروض جماحهم حكيم مجرب وعالم حصيف، يستخفهم الثناء الكاذب، ثم يرون أنفسهم فوق النقد، وفوق التوجه والمراجعة. وقد يبلغ بالناشئين منهم سوء الخلق إلى منازلة الناصحين، والرتوع في أعراضهم، من أجل الاحتفاظ بما أهدي لهم. ولما كان واجب العارفين بالظواهر الفنية والبواطن اللغوية الأخذ على أيدي الجريئين المجازفين لطمس المعالم والغاء الشروط، أصبح من الطبيعي أن تدار القضايا والظواهر السردية سعياً وراء الوصول إلى أرضية مشتركة، تحسم الخلاف، أو تخفف من حدته. وإذ لا نرى بداً من الاختلاف في وجهات النظر، فإننا لا نريد لهذه اللازمة أن تصل بالمختلفين إلى حد التنازع المخل بالمروءة، ولا نريد لغير أهل الاجتهاد أن يجتهدوا، فيوقعوا الآخرين في اللبس. وإذ يكون التجديد

والتغيير والتبديل من السنن الكونية، يكون من لوازم ذلك أن يكون المجدد متجاوزاً بتجديده الأنموذج الابداعي الذي شد الانتباه، وقدم السمة، وحدد النوع الفني، وبلغ الرقم القياسي، الذي لم يحطم، الأنموذج الذي أمد النقاد بما انطوى عليه من سمات ابداعية. وحين تكون للأنموذج سمته، يكون من واجب المجدد أن يجتهد في تقديم نص أفضل منه، وإذا لم يكن قادراً على التحدي والتجاوز، فمن الخير له وللمشهد أن يحافظ على المنجز، لا أن يهدمه، ثم لا يقيم بديلاً أفضل. ولا يعني حق التجديد مطلق المغايرة، وإنما يعني: الاستجابة للحاجة، والتواؤم مع الذائقة، وتحقيق الأفضل. وتقليد التجريب الغربي لا يكون تجديداً، وأصحاب كل علم أو فن يفرقون بين التجديد والمحاكاة، ويعرفون القدر المشروع من «الحرية» و«الحق العام»، ويعرفون حق المتضلعين بشروط الفن وضوابط القيم في الأخذ على يد كل من يقترف الخطايا أو ينتهك الفنون باسم الفهم الخاطئ للحرية والحق، وما من عاقل يقول بمطلق الحق، ومطلق الحرية، ويرضي اختلاط الفنون، وفقدها لأبسط سماتها، بحيث يكتب الكاتب ما شاء، عما شاء، بالشكل الذي يريد، وعبر اللهجة العامية التي تؤسس للازدواج اللغوي، وتفصل الأمة عن تراثها، ثم يكون في نظر المسايرين: رغبة أو رهبة الشاعر المفلق، والروائي المتألق. وعلينا استرجاع ما قيل عن أعمال روائية، لم يكتب أصحابها من قبل شيئاً، وما أن تلقفتها الأيدي، أو سمعت بها الآذان، حتى أصبحت الفتح المبين في عالم السرديات، وتقاطر السرعان من الكتاب والنقاد يمطرونها، ويمطرون أصحابها بالثناء الباذخ. ولنضرب المثل بروايتي «الحزم» و«سقف الكفاية» حتى لقد سخر الأخير - رغم حداثة سنة - بالمندفعين سخرية مرة. ولو نظر فيهما النقد العلمي المتزن، وتفحصهما بآليات المعارف وموازين القيم، لأخذت كل رواية موقعها الطبعي. وماذا أبقى المغرّرون للسنوات القادمة والأعمال المرتقبة، ولقد شهدنا امتعاض البعض منهم واستغرابهم من تزويد المؤسسات بالنصائح للمبدع، وما علم أولئك أن: - «الدين النصيحة» وأن المبدع وغيره يظل طالب علم، ومن استغنى عن التعلم والنصائح، فهو مصاب بجنون العظمة، ومما خدعنا به اهتام القارئ «الأوروبي» واحتفاء النقاد الغربيين بالمنجز السردي الشرقي، مع أنه لا يعد شهادة تفوق ولا تألق، فالغربيون يحتفون بإبداعاتنا التي تكرس مفهوم البدائية والهمجية والتوحشية والشبقية. ولك أن تنظر إلى ما كتبوه عن «ألف ليلة وليلة» وما هي إلا حديث خرافة بلغة عامية، تهبط بالمدينة والحضارة المشرقية إلى درك البدائية، حتى لقد تعقبها بعض الدارسين، وبرهن عن مصادرها اليهودية. ولما نزل نراها سفيرنا إلى عوالم الابداع السردي، ونساير الغربيين في اختصارنا ابداعياً فيها. ومتى رأيت احتفاء غربياً بفن أو فكر عربي، فالتمس حوله عهر أو كفر، إلا من رحم ربك، وقليل ما هم. ولو أعطى الناس هذا القدر من الحرية في القول ورد القول، لهدمت فنون، وعقائد، وقيم، تضبط إيقاع الحياة، وتحفظ توازنها. والمتحدثون دون علم بضوابط الفن، ودون موهبة، ودون ثقافة، يشيعون فيما بينهم هذا القدر من الحق المطلق، وهذا النمط من الحرية الفوضوية، ليشرعنوا كل خطأ أو خطل. ولو قبل منهم هذا الاطلاق، لضاعت الحقوق، وانعدمت الحريات، وما من مُخِفّ من المعرفة، خال من الموهبة، مقو من اللغة مفتقر إلى الحياء والحشمة إلا يعوض تلك النواقص بالتزود من الفحش في القول، والامعان في المناقضة، والانتهاك للغة والفن، والايغال في المسكوت عنه، ليلهي الناس عن ملكة معطوبة، وجهل مستحكم، وخلق دنيء. وهذه النوعية تعول على الحرية والحق ورفض الوصاية والنصح. وكم نود من المبدعين السرديين والنقاد المواكبين لهم أن يعرفوا حدود الحرية في القول وفي الفن، ومفهوم: الحكاية والخرافة والأسطورة، ومقتضيات الحبكة، ومتطلبات السرد، والزمن، والمكان، والشخصيات، لكي يحال بين الفن الرفيع وساقط القول. ولقد مرت بنا مقولات

البرمين من ضوابط الفن، وبخاصة الشعر، حتى لقد بلغ المترخصون حد النثرية، وشاع مصطلح «قصيدة النثر» ووجد المجازفون من يبارك تجاوزاتهم التي ألغت فن الشعر، وخلطت بينه وبين النثر. ومعلوم أنه لا يضيق بالضوابط إلا من لا يتوفر على موهبة، ولا يضيق بالاحتشام والالتزام الأخلاقي إلا من لا يتمثل القيم الحضارية. وفي اطار استصحاب الحدود والقيود، نجد من يُحكم القبضة ويقدس الأنموذج، ويستمرئ مقولة: - «ما ترك الأول للآخر شيئاً» حتى لا يتمكن أحد من الحصول على الحد الأدنى من حقه المشروع في التفكير والتعبير، فيما نجد آخرين يلغون الحدود والقيود، حتى لا يعرف أحد حدود ماله وما عليه. وفيما بين الافراط والتفريط، تقوم الوسطية الراشدة، وذلك ما نسعى إليه، ونراه ضرورة في ظل الفوضويات التي أباحت المحظور. وإذ يوجه القرآن الكريم إلى ألا تجعل اليد مغلولة إلى العنق، ولا مبسوطة كل البسط، ويوجه بعدم الغلو في الدين، فإن عوالم الفن كعوالم المال والعبادة، لا بد لها من حفظ التوازن والوسطية. والمطالبون بتبسيط اللغة، لا يقبلون بالعامية، والمطالبون بتيسير الدين لايقبلون بالتحلل والمجون، والمجددون الحقيقيون لا يلغون ضوابط الفن، وخصوصيات الأنواع. وقبل التعالق مع الغرب، كان للأمة العربية سردياتها، التي غلب عليها سلطان الشعر، فأبقى عليها، كما كانت عند القصاص والمذكرين الشفهيين، وامتداد الشفاهية أضاع ثروة لا تعوض، إذ لم يتسع التدوين إلا للعلوم والمعارف والشعر. وجاء القرآن الكريم موظفاً القصص لأهداف تربوية، وبعد أمة جاءت «المقامات» و«الرسائل» التي تعتمد الخيال والحوار والشخوص والأحداث والأمكنة والأزمنة مؤسسة للفن السردي، وظلت حالة القصص مقموعة بسلطان الشعر، حتى نفذت سرديات الغرب ونظرياته الروائية والقصيية، وتمثلها المبدعون، واستقرت أشكالها، وتوارثتها الأجيال، وأصبحت بشكلها وشرطها، كما لو أنها جزء من التراث، ومثلما واكبنا الغربيين في التماثل، واكبناهم في التعبير، غير أن وعينا للتماهي أدق من تصورنا للتغيير.

مفهوم «الحق والحرية» في السرديات بين: الإفراط والتفريط .. ! (٢) [(١)]

ولما كانت «السرديات» الإبداعية وهي مجال بحثنا متعددةً متنوعة، كان لا بد أن نميز كل نوع بسمته، ثم نجعل هذه السمة كالاسم، لا تكون إلا له، ومن أحدث في السمة ما ليس منها فهو رد، لأنه يطمس معالمها. ولزوم السمة لا يمنع من التجديد، ولا من مواكبة الحياة. وعندما ندخل مرحلة الطمس، يكون لزاماً على ذوي الأبصار والبصائر والذخائر المعرفية بذل العلم، وإسماع الجاهل. والذكر الحكيم ندب إلى سؤال أهل الذكر، والرسول الكريم أبان بأن دواء العي السؤال. وإذا استبد الجاهل بمثمنات الحضارة، تحت أي مظلة، نقضت حضارة الأمة عروة عروة، وانمسخت شخصيتها، والمتعالون على التعليم والإرشاد، وهم أحداث مبتدئون ترتفع بهم خفة عقولهم، كما الدخان أو القتام، وكيف يرفض التزود من العلم عاقل، ومن ذا الذي شب عن الطلب، واستغنى عن المؤسسات الثقافية، وما نحن عليه من ضعف واستكبار مؤشر استبداد جاهلي، وغلبة حداثية، خرجت بالأمة من شرطها النهضوي، ولم تسلك بها طريق الرشاد، فكان أن تقطعت بها الأسباب.

ولو ضربنا الأمثال فيما نحن بصدده، لتبدت لنا عثرات ألْسنة، وسقطات أقلام. ومن البدهيات أننا حين ندعو الأشياء بأسمائها ونقول: هذه «رواية» وتلك «قصة» وتيك «سيرة ذاتية» وهذا «أدب رحلة» فإنما نقول ذلك بموجب معهود ذهني، يضمر الشرط والضابط المتكرسين مع التداول. واحترام المعيارية والقيم لا يعني السكونية والتحجر، وحمايتها لا تعني الوصاية، فالفن واللغة كوائن حية تنمو، مثلما تنمو الأجسام والأشجار، فالجسم ينمو، ولكنه يحتفظ بالمكونات الأصلية والملامح المميزة، ويظل جسماً لا يختلف أحد حول جسميته، قد تتغير ملامحه، ويزداد في الخلق بسطة، ولكنه لا يبرح سمته، ولا معهوده في ذهن المتصور له، والنمو والتطور لا يجعل القرد إنساناً، إلا فيما ذهب إليه «الداروينيون». ومثلما يكون النمو والتطور مع الإنسان، يكون مع الفن، ولكنه لا يحيل النثر إلى شعر، ولا الشعر إلى نثر، ولا يجعل الخاطرة قصة، ولا المقالة رواية. وحين يكون من حق «المبدع» السارد و«الناقد» المنظر الدخول في معمار أي سمة فنية للتعديل أو التبديل بالقدر الذي يحفظ لهذه السمة مرتكزاتها، يكون من حق «الناقد» الحكمي التطبيقي، بوصفه رديفاً للمبدع، أن يتصدى لكل من أراد تحريف المصطلحات عن مواضعها، وأن يمسك بالمتسلقين محاريب الفن من المبتدئين الذين لا يحملون موهبة، ولا يتقنون لغة، ولا يتوفرون على ثقافة، ولا يستحون من ممارسة الرذيلة وتحويلها إلى نص سردي، يفسد الذوائق والأخلاق. وحين لا يذود الناقد المتمكن عن حياض الفن الرفيع، تهدم أركانه، ويستباح حماه. وفنون القول لا يعددها إلا تعدد سماتها، واحتفاظ كل نوع بسمته. ومن خطل الحداثيين القول بمصطلح «الكتابة» ليكون فن القول مجموعاً بهذا المصطلح. ويكون من حق المتسلق أن يخلط بين الفنون، كما يخلط المبتدئ بين البحور الشعرية، ثم لا يرضيه إلا أن يكون الشاعر والقاص والروائي والمسرحي، موجباً على النقاد أن يجعلوه المجلي في كل فنون القول، وإن لم يفعلوا أحال اعتراضهم لكبت الحرية، وغمط الحق، وممارسة الوصاية وسلطة المؤسسة، والقصاص والروائيون ليسوا بذي شوكة بحيث نتألف قلوبهم، وواجبهم سماع الرأي، وواجبنا مواجهتهم حتى يفيئوا لأمر الفن واللغة والقيم.

والمتعقب للإبداعات السردية يقف على انتهاكات فنية، وإخفاقات لغوية، وضحالة دلالية، وسقوط أخلاقي، وانحراف فكري، ومدارة ومداهنة، وكأن العابثين قِدِّيسون

---

(١) تاريخ المقال: ١٨/ ٣/ ٢٠٠٣

معصومون، وكأنه محرم علينا إرشادهم. حتى لقد ادعى بعض المتطاولين على الفن الموهبة الروائية والقصصية والشعرية، و لم يقدم لإثبات هذه الدعاوى العريقة إلا كلاماً سوقياً، لا يحمل أي سمة من سمات الإبداع الروائي أو القصصي أو الشعري. ولقد وقفت على مؤلفات تشبه الموسوعات، تتداخل مع كتب التاريخ، وتأخذ من كل فن بطرف، بحيث لا يدلك على نوعها إلا ما كتب على أغلفتها. ولو أن ذكياً نزع الغلاف، وطمس اسم الكتاب، وقدمها إلى قارئ عادي، لما عرف لهذا الجمع أصلاً معرفياً، ولما أعاره أدنى اهتمام، ولكن الأسماء الملمَّعة، والمذهبية المغْمِية، والشللية المصمة، غمرت المشاهد، وحالت دون أعمال متميزة: فنياً ودلالياً ولغوياً. ولو رضينا بما يتبادله أولئك من أنخاب الثناء، وأعطينا المدعين بدعواهم، لما كان شعر ولا رواية ولا قصة. وذلك بعض ما تعاني منه مشاهد الأدب، وما على المرتاب إلا أن تمتد يده إلى فيوض الإصدارات، ليقف على مقترفات لا تغتفر، ولسنا بدعاً من الأمم، فالروائيون والقصاص ومن ورائهم النقاد المواطئون على الخطايا، يلبسون الحق بالباطل، ويكتمون الحق وهم يعلمون، وهذا أشهر الروائيين المعاصرين أوجوستوفورنتيرو/ ت٢٠٠٣» كتب سطراً أو بعض سطر، مدعياً أنه أقصر قصة. وهذا نصها: «.. وعندما استيقظ كان الديناصور ما يزال هناك» ولقد تقبلها النقاد بقبول حسن. ومن مبتدئينا من كتب السطور الثلاثة، وسماها قصة، ووجد من يداهنه. وإذ نعرف عمق الاختلاف المشروع حول «شكل الرواية» وحول مفهوم «السرد» فإننا لا نأخذ بالصرامة والحدية والقطعية، ولكننا نفسح المجال لكل التصورات المنضبطة. ولقد تقصى الاختلاف حول «الشكل» و«مفهوم السرد» دارسان في كتابين التزما فيهما المنهجية والموضوعية، هما كتاب: «بنية الشكل الروائي» تأليف حسن بحراوي، وكتاب «السرد في الرواية المعاصرة» تأليف د. عبد الرحيم الكردي، بحيث استوفيا كل الاحتمالات. واستفحال التناقض بين المفاهيم والتصورات، يحدو بالباحث عن المعلومة، توخي الحق، وعدم البحث عن الرخص أو العزائم وحدها. وما لا نريده، انفلات العقد في صرعة التجريب، وتبرم المبتدئين ورفضهم السلطة باسم التسلط. وإذ تكون المختبرات العلمية تُسِرُّ فعلها التجريبي، ولا تبدي به، حتى يُعتمد من ذوي الخبرة والاختصاص، فإن على التجريبيين في الفن ألا يتخذوا تجريبهم قضية مسلمة، وعملاً لا معقب له، ما لم تتفحصه المؤسسات، ويختبره النقاد، وتقبله المشاهد.

ولما كانت الإشكالية المتولدة عن تعدد المفاهيم، قد دفعت بأطراف القضية إلى الإيغال في الانقطاع المضاعف: انقطاع بين المبدع والمتلقي، وانقطاع بين المبدع والفن بشروطه وجذوره، وانقطاع بين المبدع والناقد من جهة، وسائر القيم الحضارية من جهة أخرى، فإننا والحالة تلك سنتقصى الطرائق التي تكفل أدنى حدٍ من التواصل، ولا تقع في الخطابية والمباشرة والتسطح. وليس أضر على أمة الفن من التلاحي في غياب الاستيعاب للطارف والتليد، وذهاب كل مخاصم بمفهومه للحدود والآفاق. وأين منا من يرى «التجلي» وصمة إخفاق و«الخفاء» سمة تألق، ثم لا يكون تحديد للقدر المطلوب منهما؟ وأين منا من ينتمي لحضارته، ولا يرى المزايدة حول ثوابتها ومحققاتها في الأنفس والآفاق، ثم يخالف ما هو معلوم منها بالضرورة؟ وإذا قيل له: اتق الله. أحال إلى التسلط والوصاية والمزايدة. وتلاحق التخليات، أدت إلى تباعد الشقة بين أمهر المتلقين وأبرع المبدعين .. وبالخفاء المتعمد والمتكلف تعطلت لغة الكلام، وقامت مقامها معميات ومبهمات باسم الغموض والانزياح والرمز والأسطورة والإشارة والقناع، وما شيء منها جاء على أصوله وضوابطه، وإن كانت حدة الانقطاع ماثلة في الشعر الحداثي، كما هي عند «أنسي الحاج» وأضرابه، فقد تستشري في السرديات، إن لم يتدارك النقاد الأمر، ويثبتوا أفئدة الناشئة التي عصف بها الاستدراج. وإذ نكون مع الرمز والأسطورة والعدول

والقناع فإن الكينونة مشروطة بمعقولية ذلك كله ومشروعيته. وإذ تكون السرديات الإبداعية غير «الشعرية» في قصدية الجمال والانفعال، يكون النص السردي أقرب إلى «الأدبية»، فيما يكون النص الشعري أقرب إلى «الشعرية»، ولقد حاول البعض الإيغال في الأدبية السردية، لتناهز الشعرية، وتلمسها النقاد في بعض الإبداعات المتميزة، نجد ذلك عند «بشير القمري» في كتابه «شعرية النص الروائي» وعند «سامي سويدان» في كتابه «في دلالة النص وشعرية السرد».

وتلك الرؤى والتصورات تجعلنا أمام مستويات قولية:

القول العادي المهتم بمجرد التوصيل القطعي الدلالة، دونما جمال أو إمتاع أو ضابط فني، ويشمل: كلام العامة فيما بينهم، والقول العلمي الحامل لرسالة معرفية، مثل كلام الفقهاء والمؤرخين، ومن في مستواهم.

والقول الأدبي الذي يحمل هم الإمتاع والاستمالة والإقناع، ويتطلب توفر «أدبية» السرد و«شعرية» النظم، وهما سبيل المحفزات الفنية.

وعلى ضوء ما سبق فإن هناك «الشعرية» و«الأدبية» و«القولية» والإبداعات السردية تحتل الوسطية، فليست «شعرية»، وليست «قولية»، وإنما هي «أدبية»، والتخلي عن الأدبية بحجة الواقعية اللغوية رجوع إلى الوراء، وخروج من دائرة الفن.

وهنا نتساءل عن امكانية جعل النص نصاً أدبياً، ومتى يكون المرسل قادراً بالعفوية لا بالتعمل على إنتاج نص أدبي، يتميز عن سائر النصوص المعرفية؟ ولتجلية الامكانية الإبداعية، نحتاج إلى تقصي «مفهوم الأدبية» في التراث والمعاصرة، لنعرف أي الحزبين بلغ في التمييز بين سائر الأنواع القولية: المنضبطون أم المتفلتون الذين لم يصبروا على لأواء الفن ومتطلبات الإبداع. وفوق كل هذا: هل من واجبنا الإذعان لكل قول، والقبول بما يضفيه عليه المواطئون من صفات، دون الاحتكام إلى ضوابط الفن، ونظام اللغة، وموازين القيم؟.

وهل ممارسة هذا الحق المشروع يعد وصاية تقمع الحريات، وتسلب الحقوق؟ لقد ظهرت نغمة الوصاية والمزايدة والتحكمية، كاتهام لمن يحاول التصدي للترديات اللغوية والفنية والدلالية. وهي إطلاقات تخلصية تملصية، فالنقد حق مشروع للمتلقي: انطباعياً كان أو ذوقياً أو معرفياً، فنياً أو لغوياً أو دلالياً. والقائلون ب«الشعرية» و«الأدبية» يعرفون شرطهما المستخرج من النماذج المتطاولة مع الزمن، والمتداولة بين النقاد، والمصار إليها بالعفوية، دون تكلف أو تعمل.

ومثلما عرف «العصفور» كيف يبني عشاً في الشجر، عرف الشاعر كيف يبني قصيدته، وعرف السارد كيف يبني روايته أو قصته أو أقصوصته. وإذ لا نجد القول الفصل في نشأة اللغة، لا نجده عن نشأة الشعر على هذه الشاكلة، وبتلك الصفة. والحالة تمتد إلى الإبداع السردي. لقد فرق المتلقي بين القاص، والعالم، والمؤرخ، والفقيه، والواعظ، وعرف المذكرين والقصاص. فمن الذي علمهم ذلك؟ إنها: الفطر، والمواهب، والأعراف. ولا عبرة بتعدد التقنيات السردية، ولا بالأنماط المختلفة، حتى بين أعمال الكاتب الواحد. وتمسكنا بضوابط التحول والثبات، لا يحيل رؤيتنا إلى لزوم نمط واحد، وتقنية واحدة، فالمسألة ليست عملة ورقية، لا تختلف إلا بالرقم، إننا نتصور الشعر والرواية والقصة على الرغم من التحول المستمر. ولا أتصور اجتماع طائفة من الناس للتواضع على مفهوم «الشعرية» أو «السردية»، وإذ تكون اللغة في نظري تعليماً وإلهاماً، تكون «الشاعرية» و«السردية» وسائرمفردات الفن إلهاماً وموهبة، ينميها الصقل، وتثريها الثقافة، وتفجرها المواقف. وإذ لا يقدر أحد على الإحالة إلى المواضعة، تكون المسألة الإبداعية إنتاج موهبةٍ كالغريزة. والقائلون ب«الأدبية» يعرفون شرطها،

والعابثون الذين يتحللون من الشرط، يلغون «الشعرية» و«الأدبية» ولا يأتون ببديل يتوفر على قدر كاف لتحقيقهما على أي شكل، وإذا أسقطت دعوى الإصلاح عندهم لاذوا بمقتضيات الحرية، وحق التعبير، ووصفوا المتصدي لهم بالوصي والمرشد والمزايد والأصولي. ولقد يبلغ بهم التخلي عن الحضارة حداً يكونون فيه غربيين أكثر من الغرب، و«فرانكفونيين» مأجورين. وهذا الاستخذا للآخر، والتنمر على الأهل والعشيرة، يفوت على المشاهد كل فرص العلاج لهذه الترديات. و«الشعرية» و«الأدبية» من الثوابت التي لا يمكن القبول بالتخلي عنهما، تحت أي مبرر.

مفهوم «الحق والحرية» في السرديات بين: الإفراط والتفريط! «الحلقة الأخيرة» .. ![1]

والذين يحيلون الخلاف فيما بيننا وبينهم إلى جدلية التجديد والتقليد، أو المعاصرة والمحافظة يفتقدون المصداقية، فنحن دعاة التجديد، وكيف يتأتى التجديد من مثلهم، وهم ينسفون الثوابت، ويقلدون الآخرين؟ والسمة ضابط ثبوتي لمسمى لها ما يحقق انضباطيتها، ولن تتحقق الهوية دون حد أدنى من السمات والشروط التي يحيل إليها المختصمون، وحين لا تكون سمة ولا شرطاً، فإلى أي شيء يكون الرد؟ وحين يصر المتحدثون وأعني بهم المتذيلين لا المبدئيين المبادرين على دعواهم الكاذبة بقيامهما في القوليات، تختلط الأمور، ثم لا يكون درجات ولا دركات. وإذ يقولون بمطلق «الحق» و«الحرية» فمقتضى ذلك ألا يستقيما مع شرط سابق يخل بالمطلقية. وهذا الدرك الذي بلغوه في النثرية وللاأخلاقية ناتج طبعي لهذه الدعاوي، واقرؤوا إن شئتم «الخبز الحافي» لشكري و«الوليمة» لحيدر، وما أحدثته الأخيرة من تصدع مخيف في المشهد الفكري والأخلاقي، ومن الناس من يرى ان التصدي لمثلهما يفقد الحرية والحق. ومثلما تردى الشعريون في النثرية والسرديون في العبثية المضاعفة، وقعوا في الانقطاع بكل أنواعه: انقطاع المرجعية، وانقطاع التواصلية، ونشأ من جراء الانقطاعين خلل في اللغة، وخلل في القيم المعرفية والأخلاقية، فجاء التغامض المتكلف لا الغموض الطبيعي، وتسربت العامية الاقليمية، واستشرى الانحراف الفكري، وشاع الفحش القولي، واحتج كل قبيل بحق التعبير وحرية التفكير، وعولوا على ظواهر سلوكية، ركن إليها الغربيون، حيث اتخذوا «أدب الاعتراف» حجة ومحجة، وما عرفوا ان كل مقترف معافى إلا المجاهرون، وان المبتلى بالقاذورات من واجبه الاستتار. وإذا قيل لهم عن «الاستتار» و«العفو» قالوا: إنما نحن رواة أحداث، وحكاؤون لوقائع، وما فعلنا ذلك إلا لقصد الحبك الفني. وقد يكون لأكثرهم بعض المسوغ، متى عرفوا حدود الحق، ومقداره، ومجال الحرية ومداها، ومتى جاء بالجنح دون تفحش، ليصرعها الحق، وينقيها الطهر، وتنتصر عليها الفضيلة، وما قصة يوسف وامرأة العزيز إلا من هذا النوع المعول عليه، دون فهم للمقاصد وحدود التناول. ولقد ارتكس من ارتكس عن جهل أو عن بينة، وحل ما يسمى بالحرية الجنسية، وتهافتت على هذه المثيرات المغريات طائفة من المبدعين، نجد ذلك عند «غادة السمان» التي تربت في بيت علم وأدب وتصوف، ثم تمردت عليه، لقد قالت عن ردة فعلها على ما أسمته بالكبت وسلب الحرية: «فهذه التربية القاسية منعتني من لقاء شباب مراهق مثلي دفع بي ببساطة إلى استدعائه للبيت ليلاً بعد ان ينام الجميع دون ان يرف لي جفن ولكن المسكين كان يرتعد خوفاً وفقد كل حرارته فعفوت عنه وسمحت له بالهرب» هذا الاعتراف معدود من الحرية، والحق انه من العهر والتهتك، اللذين أفسدا الفن، وهدما الأخلاق، ومعهما لا يسع ناقداً ينتمي لحضارة تمثل الشرعة والمنهاج ان يغمض فيه، ولا ان ينخدع لمفهوم الحق والحرية على الطريقة الحداثية أو الوجودية.

ولما كانت الأعمال السردية داخلة في الاتصال اللغوي، فإن على المبدع والناقد ان ينظرا في ترسيمات الاتصال، كما هي عند مشاهير اللغويين المعاصرين .. ولنا ان نعوّل على «ياكبسون» بوصفه الحكم العدل عند الحداثيين. فلقد حصر عناصر الاتصال في «المرسل، والمتلقي، والرسالة، والسياق، والشفرة، والصلة» وهذه العناصر الستة في المجال السردي تجعل «الرواية» و«القصة» أو «السيرة الذاتية» أو «أدب الرحلة»

(١) تاريخ المقال: ٢٥/ ٣/ ٢٠٠٣

رسالة من سارد، يرسلها إلى مسرود له، يقرأ السرد أو يسمعه، و«شفرتها» اللغة التي لا تطاوع الطرفين، حتى يتقنا نظامها النحوي والصرفي، وحين يحسن المبدع استعمالها استعمالاً أدبياً يعتمد الانزياح والجرس والايقاع والايجاز والمجاز والايحاء والتمنع والاحتمال الدلالي، ولا يكتفي بالتوصيل المباشر دون أي محفزات، و«صلة» الرسالة الكلامية هي الرسم الإملائي، و«سياقها» الثقافة والأوضاع والأعراف المشتركة بين طرفي: الارسال والتلقي، ولأن لكل عنصر مكوناته، ولكل مكون سماته، فإن «الحق» و«الحرية» إزاء التصرف بالعنصر ومكوناته مقيدان بما يحقق ما هية العنصر، وليس لأحد ان يتصور العنصر دون ضابط، ولن تتأتى الحرية المطلقة مع الضابط، والسياق بوصفه الأهم، يكون: عاماً أو خاصاً، خارجياً أو داخلياً، فالخارجي يرتبط بالمكونات، والداخلي يرتبط بالتكوين، وبمعنى أدق: الظروف التي ترسم النص، والنص الذي يرسم الأحوال، فالنص له راسم ومرسوم كما الدال والمدلول. وراسم النص ليس هو المبدع مفصولاً عن المكونات والمؤثرات .. ومصطلح «التناص» يؤكد انه ليس هناك نص بريء، وليس كل تأثير خفي من السرقة أو الاسترفاد المخل بالعملية الإبداعية، فالمبدع في النهاية وصي، جسَّد الأثر، وتجسُّدُ الأثر يضاعف السياق، بحيث يكون للنص مرجعيتان سياقيتان: سياق خارجي، يعني النسق الثقافي، وسياق داخلي، يعني النسق اللغوي، والمبدع والناقد حين يجهلان الانساق والسياقات، ولا يقيمان لهما وزنا، تضطرب عمليات الأداء والاتصال، وذلك ما نعايشه في مشاهدنا باسم «حرية القول» و«حق التعبير»، والمتمردون على الضوابط والأنظمة والقيم يصفون من يأطرون عليها بالأوصياء وبالسلطويين، ويفتعلون الأنفة ليحموا أنفسهم من مباضع النقد، الساعي لاحقاق الفن، بكل ما له من جلال وجمال.

ومثلما نازع الثوريون السلطة، نازع الحداثيون الضوابط والأنظمة والقيم والحضارات، ومن هذا التمرد غير الراشد وقعت الشعوب في حمامات الدم، ووقع الفن في وحل التسيب، فالذين اتخذوا العامية لغة للنص أخَلَّوا بعنصرين: عنصر اللغة، وعنصر السياق في جزئه الداخلي. والذين استمرءوا الفجور والتهتك والفحش دونما حياء أخلُّوا بعنصر السياق في جزئه الخارجي، ومثلهم الذين اتخذوا «الايديولوجيات» و«الأنساق الثقافية» المغايرة لأفكار حضارتهم وأنساقها، والذين رضوا بأن يطلقوا على ما يقولون سمة فنية كـ«الرواية» أو «القصة» ولم يترددوا في مناقضة المقتضيات، كل أولئك خارجون عن مفاهيم «الحق» و«الحرية»، ولا يعد ما يأتون من باب التجديد، ولا يكون الاعتراض عليهم والأخذ على أيديهم وثنيهم عن غوايتهم من باب الوصاية والمزايدة.

وكيف يكون شيء من ذلك والناس كافة تمارس أداءها وفق عقد اجتماعي ملزم سواء كتب أو عرف؟ ومن لا يختار الالتزام بمحققات حضارته التي يدين بها ويدين له، وجب الزامه، فمن رضي بها لزمه تمثلها، والتخلي عن مقتضيات العقد فوضى، ترجع بالأمة إلى الخلف، ولأن النص الإبداعي لغة فإن المبدع لا يكون متألقاً ما لم يمتلك ناصية اللغة، وما لم تكن اللغة معه طائعة انسيابية، يشكلها كما يشكل الرسام صوره بالألوان، وكما يشكل النحات أشكاله بالأدوات، وكما يصوغ الموسيقي ألحانه بالأنامل والآلات فإنه يعيق الحركة الإبداعية، ويشكل عبئاً ثقيلاً وعقبة معوقة، والسرد كالشعر صعب وطويل سلمه، ومن استخف به فإنما يستخف بنفسه، ولسنا فيما نتطلع إليه معارضين ولا معترضين على التجديد، ولا على التفاعل والتبادل مع الآخر، ولكن البون شاسع بين ما نقول وما يفعله المتهافتون على منجز الآخر.

ومع ان أماني المفكرين في حضارة عالمية تتفادى الصدام أماني رومانسية، وليست واقعية، وما يفعله البعض لا يعد من التقارب وإنما هو انسلاخ وانمساخ وتمييع لكل ضابط وَحَدٍّ، والذين يعطون التنازلات يلغون حضارتهم، ويؤصلون لحضارة الغير، وقد تكون المدنية الغربية قد فعلت فعلها بالترويض للهيمنة الحضارية، وإذ تكون اللغة وعاء الحضارة ومنطلقها، فقد قرضت من كل جانب، وإذا لم يستطع المتأمركون والمتفرنسون إحلال لغة حضارة أخرى مكانها فلا أقل من ان تنازعها العامية لتدخل الأمة مرحلة الازدواجية، وما العامية إلا أولى خطوات الانقطاع الفكري مع التراث، وأهم مرتكزات «الرسالة» اللغة، فهي الوسيلة الأهم، والرسالة بوصفها عملاً سردياً تحيل إلى وسيلة الأداء، وكل وسيلة لها توصيفها ونظامها، والرسالة قبل ان تتلبس بوسيلة الأداء تمتلك توصيفها ونظامها، وهنا فنحن أمام مواصفات: «الرسالة» و«الوسيلة» وليس لكائن من كان ان يعول على «الحق المطلق» أو «الحرية المطلقة» ليحمل الرسالة أو الوسيلة على مناقشة السمة المميزة لها، وهل أحد يقبل الحاق عالم الحيوان بعالم الإنسان، أو ان يخلط العذب الفرات بالملح الأجاج؟ وهل أحد يستطيع ان يحلّ حرفاً مكان حرف في المعنى الوضعي أو في الدلالة الصوتية؟ والمجازيون أقاموا علاقة عند مصائرهم الاستعارية أو التشبيهية أو المجازية المرسلة، ولا يمكن ان تكون الاستعارة أو التشبيه اعتباطيين، ولو أن أحداً من المبدعين لم يضع أي قيمة للعلاقة أو لوجه الشبه كان قولاً هذراً لا قيمة له، مع انه مارس في هذه الاعتباطية حرية القول وحق التعبير المطلقين، وفي ظل هذه التحفظات التي قد تحيل إلى الوضوح والمباشرة، أو قد يفهمها البعض فهماً آخر، فإننا نعرف «الرمز» و«الاسطورة» وحدود «التجلي» و«الخفاء» المشروعين، وليس هناك مبدع حقيقي، ولا إبداع حقيقي بتلك الصفة إلا وهو على شيء من الانزياح اللغوي الذي ينقل اللغة من الاستعمال العادي إلى الاستعمال المتميز، بكل ما يتطلبه النص من جمال وجلال، وفي الذكر الحكيم جاء الاستهلال بالحروف المقطعة، ثم أشار بعدها إلى «الكتاب» فكأن في ذلك على رأي بعض المفسرين إشارة تحدٍّ وتنبيه إلى ان مادة القرآن من تلك الحروف، التي يستعملها الناس في أحاديثهم العادية، ولكن النظم شيء آخر يختلف عن استعمال البشر، فاللغة هي اللغة، ولكن النظم يختلف، وهكذا يجب ان يكون الإبداع البشري، استعمال اللغة، ولكن بطرائق لا يبلغها إلا المبدعون، ولما كانت السرديات بوصفها رسالة صامتة تحمل شكلها وشفراتها إلى من تفترض فيه القدرة على فهم المعنى المقصود بفك الشفرة، كان على المبدع مراعاة أمرين:

الأول: ألا تناقض الشفرة دلالتها المصطلح عليها.

الثاني: ألا تناقش الرسالة شكلها المعتبر والمميز لها، والتشفير حين يناقض المعهود بين طرفي الرسالة: المرسل والمتلقي، تفقد الرسالة مهمتها الرئيسية، ولا تكون شيئاً ذا قيمة، بمعنى انها تفقد القيمتين: الشكلية والدلالية، وكل ما نسوق من تحفظات واحتراسات تحفظات لا تمنع التجديد ولا التعصرن، ولكنها تحفظات واحتراسات تمكن من اكتشاف الفرق: بين التجديد والتخريب، والحرية والفوضوية، والحق والتسلط، وتكشف عن ذوي المواهب والتجارب والثقافات، ومن يندس معهم من الأدعياء والمتقولين على الفن والمواطئين لهم، والاحالة إلى حرية القول وحق التعبير بلغ بالإبداع حد الانفلات والطلسمة، بحيث لا يعرف الغادي الذي هو رائح، والذين اهتاجوا مما نقول، يحسبون كل صيحة عليهم، والمتعقب للغطهم، يدرك ما يعانونه من ريبة في صدورهم.

ومثلما أوغل البعض في الانقطاع السياقي مما انطمست معه معالم الفن، أوغلت طائفة من الحداثيين في الانقطاع اللغوي، واتخذوا الانغلاق والإحالة سمة مميزة، وساقوا تراكيب وعبارات ليست مفهومة، وليست مقبولة، وتلاحقُ هذه التراكيب والعبارات

واغراقها في المغايرة ينسف جسور التواصل، ولقد خلفت «السريالية» و«الوجودية» عبثية وغثائية أوغل فيها الحداثيون، فكانوا إلى العبثية أقرب منهم إلى الانضباطية، والعبث بالقيم الفنية لا يكون تجديداً، والعبث بالقيم الأخلاقية لا يكون من الحضارة ولا من التمدن، و«الحق» لا يغمطه الأطر على الجادة، بل لا يتحقق إلا بالأطر، ومن تصور الأشياء على غير مفاهيمها، واحتج بحرية التعبير وحرية التفكير وقع في الشبُهات، والنقاد كالقضاة في فض المنازعات وكالرواد في البحث عن الطريق القاصد والمرتع والمخصب الآمن، فإذا جار القاضي، وكذب الرائد، حلت الفوضى، واستفحلت الغثائيات، وذلك ما نشاهده ونعايشه، ومجمل القول ان السرديات كلام من الكلام، حسنه حسن، وقبيحه قبيح، ولأنه صنو الشعر وشقه فإن مبدعها كمبدع الشعر، يحتاج ما يحتاجه الشعر من موهبة تولد مع الشاعر، ومن دربة تواكب حياته، ومن ثقافة تنمو بنمو مداركه وحاجاته، ومن موقف مثير، وناقد خبير متيقظ، يسدد ذويه، ويحمي ساقه الفن ومقدمته من ان يلحق به من ليس من أهله، والمتضاوون من قولنا، يخشون كشف عوارهم.

ثم إن السرديات رسالة مقروءة، وحين تكون كذلك، فإنه يجب ان تستكمل شروط المكونات والوسائل، ولما كان القارئ يريد من قراءته إثراء معارفه، وتوسيع ثقافته، وتهذيب اخلاقه ولسانه، وامتاع نفسه، كان على السارد ان يتوفر على ذلك، ففاقد الشيء لا يعطيه، وعلى القارئ ألا يفرط بجهده وماله ووقته في قراءة لا تزيده إلا جهلاً، وعلى الناقد الحكيم ان يكون أميناً صادقاً في نهوضه بدور الوسيط والمقوم والشارح والمتذوق والمنقب عن المضمرات، ولن تبلغ السرديات تمامها حتى يكون الثلاثة: المبدع، والمتلقي، والوسيط، على وعي تام بما يجب ان يكون، ومن قعدت به موهبته أو ثقافته أو موقفه ان يعرف قدر نفسه، وألا يقتحم مدارج الفن ليعيق الباحثين عن القيم الفنية والمعرفية والأخلاقية واللغوية، والذين يبطئ بهم تفريطهم باللغة الفصيحة والفن الرفيع والخلق الحسن لا يسرع بهم افراطهم بالتمسك الحرفي بكل ما سبق، ولن تؤتى مملكة الفن الرفيع إلا بالمفاهيم الخاطئة والتعويل على الفوضوية باسم الحرية والتقليد للغرب باسم التجديد والمجاهرة بالرذائل باسم أدب الاعتراف والوقوع في العامية باسم الواقعية اللغوية، ولتحقيق الإبداع الرفيع المثري للمعارف، المهذب للأخلاق، والمقيم للسان، لابد من تمرير المسائل، وتحديد المفاهيم، وحفظ التوازن، والصدع بالحق، والاعراض عن المجاملات والمداهنات، والمرور الكريم باللغو، وذلك ما نود ان نأخذ به أنفسنا ما استطعنا إليه سبيلاً.

تفكيك الوهم ووهم التفكيك: الخطاب الثوري أنموذجاً .. ! (١) [(١)]

بين مفهوم «الدول النامية» و«الدول النائمة» فاصل وهمي، محكوم بلغة دبلوماسية مخاتلة. وذلك سر التعثر، وناموس الفشل، وداء الاحباط واليأس. ومع ما يعتري هذا العالم الثالثي، - وبخاصة العالم العربي، بوصفه ذروة سنامه - من تفرق في الكلمة، واختلاف في الانتماء، واستفحال في الريبة والخوف، واستشراء للوهن والحزن، فإنه يمشي في أرض السياسة مرحاً، دون أن يخرق الأرض، أو يبلغ الجبال طولا. ورغم ضعفه، وضعته، وقلة حيلته، وهوانه على الناس، تراه يعيش حالة من النرجسية، وجنون العظمة، والمغالطة، وممارسة التحدي والتصدي، دون استعداد للمواجهة، أو إعداد للقوة. وكل ضربة تلقيه على الأرض، تمحو ما علق بذاكرته عن مشاكله ومكائد أعدائه، الأمر الذي يحمله على نسيان المآسي، والخلط بين الأعداء والأصدقاء، وتصديق الأوهام، والتخبط في الظلام. وما قصة «أشعب» منه ببعيدة، فلقد كذب على من حوله بدعوى الوليمة، ولما انطلقوا إلى الوجهة التي أشار اليها، خاف أن تكون الكذبة حقيقة، فلحق بهم. والعالم المتنرجس بكل عيلته المستكبرة، لا ينفك من حالة الوهم والتوهيم، بحيث لا يفرق بين المبادرة والاسترفاد، ولا بين الأخذ بيد صاغرة والافتراس، ولهذا تراه عندما يدّعى أحدٌ من ثورييه أو متعالميه مشروعاً، أو يعلن عن حزبٍ، أو يحدث نظاماً، أو يختلس ظاهرة، أو يقلد نظرية، أو يظاهر قضية، يستلحق نسبها، ويزعم ابتكارها، ويتحفز للمقايضة عن حق الامتياز، ويتهم الآخر بسرقة النظرية، ويفتش عما يمكن أن يرافع من خلاله عن حقوق الملكية الفكرية، ويخفي موتها، كما فعلت «شجرة الدر»، ويميت ما سواها، كما يفعل المبهورون بنظريات الآخر. وإذا أعوزت أحد هؤلاء العصامية، لاذ بالعظامية، وإذا أعياه قول: ها أنذا، قال: - كان أبي، ثم لا يتردد في مزاحمة الأقوياء بالمخلب الغض والجناح القصير والتصدي لمن إذا قال فعل، يعرض المهتاج الأعزل لضربات موجعة، ويضعه تحت طائلة المراقبة والتقزيم، وهو لا يلوي على شيء مما يتعنتر به. وليس من شك أن مثل هذه الأوهام والأحلام تحال إلى جنون العظمة، واستفحال الهلوسة، وعشق الذات. وهي خصال بادية للعيان. فالخطاب الاعلامي يجعل من الصحراء المترمدة جنة تجري من تحتها الأنهار، ويجعل الفظَّ الغليظَ ليّن الجانب مخفوض الجناح من الذل. وكل فارغ من القيم المعنوية والمعرفية والموقفية، يجنح إلى الحرية الفوضوية والثورية الدموية، ثم لا يجد حرجاً من منازعة السلطة، وشق عصا الطاعة، ومفارقة الجماعة، برؤية فجة، وقول ضعيف، ورأي مرجوح، وحجة واهية، ممعناً في سك المشاريع والاغراق في الادعاء العريض. يكون ذلك على مستوى المنظومة، وعلى مستوى أفرادها. فالأمة مجموعة أفراد يشكلون رؤيتها، والوادي المتدفق قطرات من المطر تتجمع ثم تتدافع، وهوس المشاريع عند الأفراد المتعالمين، تتناغم مع هوسها عند المؤسسات المتحكمة بمصائر الشعوب. ومثمنات العالم العربي وطاقاته استنزفها التجريب وأذهبت ريحها جرائر الايمان بالمبدأ أول النهار، والكفر به آخره. وكل نظرية يبادر بها الغرب، ثم ينبذها وراء ظهره، يتلقفها المنشَّؤون في الحلية باليمين، مدّعين أنها من بنات الأفكار، متحفزين للغيرة عليها، كما الغيرة على البنات الأبكار، فيما تبقى ثوابت الأمة كالأيتام على موائد اللئام. ومع ذلك لا يعدم أحدهم الغوغاء والفارغين، الذين ينفخونه حتى التورم والتوهم، منفضّين من حول المؤصلين المتحسسين عن الحق، ليكونوا غرباء، - وطوبى للغرباء -. ولِمَ لا تكون الغربة؟ والرسول يأتي ومعه الرجل، ويأتي ومعه

---

(١) تاريخ المقال: ١/ ٤/ ٢٠٠٣

الرجلان، ويأتي وليس معه أحد. فيما يأتي عبدة الشيطان والفروج والبقر، ومن ورائهم سواد عظيم، وكم نتذكر البلابل، وهي تذاد عن دوحها، لتكون حلالاً للطير من كل جنس. وتزيين سيئ الأعمال لمقتحمي الصدارة الفكرية أو السياسية، تحجب الرؤية، وتعمق المحنة والابتلاء، وما أُتيت الأمة إلا من هذه النخب التي تمارس تفكيك الأوهام على أنها حقائق، وحين تنهض النخبة بمهمة التوسط بين السلطة والأمة أو بين المرسل والمتلقي تعيش حالة من الوهم، مشكلة ظواهر صوتية فارغة من أي معنى.

والظواهر الصوتية على مستوى الساسة والأدباء والمفكرين والمبدعين إفراز طَبَعي لهذه الأجواء الموبوءة بالدجل والادعاء، وحكم الفرد المتغلب المستبد، وتحكم المستعمر بمؤسساته ومساعداته ولعبه وعملائه. ولا يندُّ عن ذلك إلا من يبعثه الله على رأس كل مئة سنة، ليجدد للأمة أمر دينها، ولم تفقد الأمة مثل ذلك، تحقيقاً لوعد الرسول بالطائفة المنصورة. وأدواء الدول الصوتية كثيرة متناسلة، وكأنها زعيمة بحفظ النوع المكتوب عليه التخلف. ولو استمع المسكون بهم أمته، المتألم من ترديباتها إلى لحن الخطابات المتوارثة، لاستبان النمطية، والتناظر، وعدم التفكير بما تراكم من مشاكل واحباطات، وكل ما تجود به خطاباتها التلميع والتمييع والتحريف والتزييف. وكأنه محرم على هذه الأمة من المحيط إلى الخليج مساءلة الذات عَمّا بدر منها. ولن يستقيم أمرها ما لم تراجع نفسها، وتحاكم فعلها، وتقوِّم منجزها، وتمتلك الجرأة والشجاعة على مواجهة الذات بكل ما هي عليه من مقترفات بحق الأهل، أو بحق الغير، ثم لا تجد غضاضة من المراجعة والنقد. ومن تأبى على الشرعة والمنهاج وفق ما تمليه عقيدة الأمة وتستهلُّ به دساتيرها، متجاوزاً حدود ما أبيح له، كره الناس انبعاثه، وانفضُّوا من حوله، ووكله الله إلى حبال الناس المتهافتين على إمداده، بمقدار، وبثمن باهظ من كرامته وحريته. ومتى آلت الأحوال إلى هذا المستوى، تفرقت به السبل، وضل الطريق القاصد، وتخطفه شرار الخلق، ليكون اللاعب الغبي، مزلقاً أمته في مهاوي المكائد. ولو نظر المتابع إلى ما مرت به الأمة من أحلاف وأحزاب وطوائف ومبادىء، وما اعتراها من ضعف، وما اقترفه أبناؤها من تعديات على بيضتها، لعرف أن الضياع هو الرهان الوحيد. والأمة العربية مرت بفترات متفاوتة في أنماطها السياسية، وتقلباتها: الحزبية والطائفية والقومية والقطرية والدستورية، وفي تجريبها المتسطح، ولما تزل تجتر مآسيها، ثم لا تجد من يقيل عثرتها، وإذ يكون العاقل من وعظ بغيره، فانها لم توعظ بنفسها، على الرغم من النكسات الموجعة على كل الصعد، وعبر كل الفترات، ومن ثم تلاحقت نكباتها، وتضاعفت مصائبها، واضطربت في مشاريعها: السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، وتعارضت مصالحها، وتنوعت ألوان كتبها من «أخضر» إلى «أبيض» إلى «أحمر» إلى «رمادي»، وكل زعيم يذهب في ادعاءاته العريضة، متألهاً بأوهامه، ومن ورائه بطائن سوء، تقلب له الأمور، وتزين له سوء الأعمال، وتحول بينه وبين المحب الناصح. وهذا الاستبطان، ينسيه ما يكتبه التاريخ، ويشغله عن التفكير بلحظة العودة إلى بارئه، كما خلقه أول مرة، تاركاً ما خوّله وراء ظهره. وما من خطاب عاطفي أهوج، ارتفعت نبرته في تجريم سلفه، وتخوينه، إلا وهو وثيق الصلة بذات الخطاب المجبول على التخوين، والتخوين المضاد. والناس مرتهنون بين قادم على مطايا السلاح الذي اقتطع ثمنه من خبز الفقراء، ليكون عدواً وحزناً، يخيف به الآمنين، وهالك تكشف وعده عن غرور. ومع حدة الخطاب وصلفه، تظل الأمة بانحدار، مرتكسة في وحل الضعف، والتمزق، والافتقار إلى أدنى حد من الامكانيات اللائقة بانسانية الانسان. وما تتعرض له الأمة اليوم من تدخل سافر، وقتل متوحش، وهدم متعمد لكل الامكانيات وخضد للشوكة، وإذلال للكبرياء، وحرق للأرض، وكسر للعظم، إنما هو ناتج طبعي لهذه الترديات. ولو أخذ المتألمون قضايا أمتهم من

خلال سياقاتها، لما استنكروا تلك المآلات الموجعة. فالوضع العربي لا يمكن ان يتمخض إلا عما هو قائم من قهر واضطهاد. والقوي المتغطرس المتمرد على الشرعية الدولية يبحث عن الغنائم الباردة، وعن الشعوب المتخلية عن ثغورها، العاجزة عن افراز أنظمة ملائمة لمتطلبات عصرها.

وبامكان الأمة لو صدقت مع نفسها أن تقلب المعادلة، بحيث ترتد إلى الداخل لتصنع الانسان، وتستغل الخيرات، وتصون المقدرات، وتفعل المؤسسات، وتحترم عمقها التاريخي والفكري، وكيف لها أن تفعل هذا والثورات المتلاحقة تتعمد طمس التاريخ الحديث، واستئناف تاريخ جديد يبدأ بعيد الثورة، ويعتمد على الخطابات الاقليمية القائمة على التخوين للسلف، في سبيل تزكية الخلف. والناس في ترقب خائف من احتقان يهدد بالانفجار عن ثوري، يمسح الذاكرة، ويمحو التاريخ، ليثبت ذاته بوصفه الأول والآخر، معيداًنغمة الادعاء، والاشكالية ان الناس ينطلقون في مواقفهم ثباتاً لا مجتمعين، يختلفون حول الحقائق التي لا تحتاج إلى دليل، ويحتربون حول أتفه الأسباب، وكلما تطابقت المصالح تبودلت أنخاب الثناء وعبارات التزكية، ومتى اختلفت تفجرت النقائض، دون مقدمات أو مبررات، والذاكرة العربية «سبورة» مدرسية، لا تنفك من المحي والاثبات، ولا أحد يخجل مما قاله بالأمس، وذلك مؤشر امتهان للانسان العربي من ذويه، والشارع العربي خير مثال على غياب الوعي، تراه يهتاج ضد الشيء ونقيضه، عبر حركة غوغائية غير محكومة، مما يتيح للعابثين بمقدرات الأمة فرصة ذهبية، تمكنهم من ضرب بعضهم ببعض. ولو صدق المؤتمرون في القمم، وفيما دونها، مع أنفسهم، ومع من يلون أمرهم، ولم تأخذهم بالحق لومة لائم، وقالوا للمسيء أسأت، وللمحسن أحسنت، لعرف كل متصرف انه سينظر إلى نفسه في مرايا الآخرين، ومتى عرف ذلك، أخذ حذره، واستعمل نفسه في سبيل الحق. وذهاب ريح الأمة يكمن في المداراة، والمجاملات، والتردد في المواجهات، والاشتغال في الأوهام. فكل زعيم فرضت زعامته شرعيةُ حكمه ومشروعية فعله، ومتزعمٍ انتزع الزعامة بالحديد والنار، يلتقيان على قدم المساواة، في اللقاءات، والمؤتمرات، وعلى ضوء «البروتوكولات» وقد يكون المتسلط أقوى صوتاً وأكثر هيبة واحتراما. وسنظل في خبال متى جاملنا أعداء الأمة من أبنائها، وحملنا العقلاء جرائر السفهاء، وأتحنا لمقترفي الجرائر مخادعتنا، يخطئون فنبرر، ويجرحون فنضمد، ويهدمون فنبني، ويكذبون فنصدق. ولن أطوف في مزبلة التاريخ الحديث، لآتي بالبراهين، فالواقع كالشمس في ضحاها، لا يحتاج إلى دليل، وعلى المرتاب أن ينظر إلى الحروب الاقليمية المجانية، التي أتت على الحرث والنسل، وامتدت لسنوات طوال، مخلفة ملايين القتلى وملايين المعوقين، ومدمرة البنية التحتية، ومعطلة مشاريع التنمية، ولو أن الآثار السلبية وقفت حيث المقترف لهان الأمر، ولكن الأمة العربية كالمستهمين على السفينة الواحدة، متى خرقها السفهاء، ثم لم يؤخذ على أيديهم غرقوا جميعاً. والشارع العربي مسكون بالوهم والغفلة، ولهذا تراه يتدفق كالطوفان ضد القرارات الجماعية، مجسداً الشيء ونقيضه، واقعاً في أتون الفتن، ولينظر المترددون إلى قادة يسومون شعوبهم سوء العذاب، يذبحون أبناءهم، ويشردون كفاءاتهم، في سبيل لعب كونية خاضوها بكل مقدرات أمتهم، خلفت الذل والهوان، ولينظروا إلى الاقتصاد وانهياراته، والى العملات وسقوطها، والى السكان ومصائرهم، بين المقابر والمشافي والسجون والمنافي، والى الأدمغة وهجرتها، والى الأموال وتهجيرها، ثم لينظروا إلى التناحر الطائفي والقبلي، والى الخيفة التي يستنبطها كل من عنده أدنى احساس، واهتياج الشارع العربي يشرعن للتخلف والوهم. وكارثة الكوارث تكمن في نخب ثقافية وفكرية واعلامية تسبق العامة في الشرعنة للتخلف، وتمضي مع الأوهام، وتتاجر بمقدراتها في سوق

النخاسة، تتخلل بألسنتها كما البقر، تزكي الخونة، وتساند الظلمة، وتزيف الوعي، وتشق عصا الطاعة، وتفرق وحدة الكلمة، وتفكك الجبهات الداخلية، وتستبق الأضواء، وتنتهز الفرص. والمتابع الحصيف يستبين ذلك، دونما عناء.

تفكيك الوهم ووهم التفكيك: الخطاب الثوري أنموذجاً .. ! (٢)[(١)]

ومما نتفق عليه ما ينتاب الأمة من الضعف، والوهن، والهوان، والإغراق في الوهم والتوهيم، وتفرق الكلمة، وتنوع الانتماء، وتعارض المصالح، وتعدد الأحلاف، واستفحال التخاذل. وحالة موجعة كتلك، تتطلب منا ألا نيأس، وألا نقنط من رحمة الله، وألا نمارس الإحباط، وجلد الذات، ولن يتحقق الإيمان الصحيح الصريح إلا بالخوف والرجاء، والأخذ بالأسباب، وعدم الركون إليها، فالتوكل المشروع يتطلب استكمال متطلبات المواجهة. ومصدر الوهن والهوان التباس (التوكل) ب(الاتكال)، فالاتكاليون يميتون إسلامهم، بانتظار الملائكة المردفين، والمتوكلون حقاً يُعِدون ما استطاعوا من قوة، ثم يستمدون النصر والتثبيت من الله ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾.

وما أكثر الناس ولو حرصت بقادرين على التخلص من النقائض والتكتم عليها. والشفافية وتشخيص الأدواء حين يروضان على الاستكانة، واستمراء الضعف، والاكتفاء بالإسقاط والتلاوم، ثم لا يحملان على إعادة النظر في المناهج والآليات المستخدمة في قراءة الواقع وتفكيكه، والوصول إلى أدق تفاصيله، يكون التكتم خيراً منهما، فالأصل فيهما تحفيز المعنيين على جس النبض، وسبر الأغوار، والوقوف على مكامن الداء، دونما محاباة أو مجاراة. فالداء العضال لا يحسمه كتمانه:-

واحتمـــال الأذى ورؤيــــة جانيـــه

غـــــذاء تضــــوى بـــــه الأجســــام

وسوف أضرب صفحاً عن تقصي الشواهد، لأنها مطروحة في الطريق، يتعثر بها الناس، ويتجرعون مرارتها، دونما استساغة: -

ومــن نكــد الــدنيا علــى الحــر أن يــرى

عـــدواً لـــه مـــا مـــن صـــداقته بـــد

وليس هناك ما يمنع من استدعاء بعض الظواهر المفشلة ك: (لعبة المفاضلة) بين مشروع ومشروع و(مأزق التصدير) لتلك المشاريع، والرهان على الأشخاص على حساب القضايا، مما هو ديدن الإعلام المضلل، و(المفاضلة) و(التصدير) و(التصنيم) من لوازم العالم الثالث، المصاب بداء الشرعنة لكل فعل، قصرت أخادعه من العملقة الحضارية. وقد أومأ أحد المسكونين بوباء الانهزام عن (شرعنة الفوات الحضاري). وكل مشروع سياسي أو ثقافي أو فكري يقدمه الإعلام المزيف للوعي، ثم لا يكون الرأي العام حفياً به، يرد بالمثمنات موارد الهلكة، وبئس الورد المورود، وقد يتعثر المشروع بظروفه المحيطة، بحيث لا يكون سيئاً بذاته، إذ ربما يكون مثالياً، ولكنه فوق الطاقة، بحيث يفقد صواب التوقيت والتقدير. وقد يطلقه الماكرون، ويتلقفه المغفلون. وكم تمر بنا مشاريع سلفية ناصعة، أو قومية جادة، أو وطنية صادقة، ويكون من ورائها صهاينة بالأصالة، أو متصهينون بالمواطأة، لا يريدون من الدعم والتمويل إلا الإيضاع في الفتنة، واجتثاث ما تجذر من المشاريع، واستمرأها الناس، ولقد فعلها المنافقون من قبل، حين بنوا مسجد الضرار، ليزاحموا به أول مسجد أسس على التقوى. والذين يتقحمون المشاهد برؤية فاضلة أو مفضولة، ثم لا يتحقق شيء مما يريدون إلا بتفرق الكلمة، والتخلي عما عليه

---

(١) تاريخ المقال: ٨/ ٤/ ٢٠٠٣

الجماعة، في زمن الغثائية وتداعي الأكلة، إنما هو جزء من الفتن، وكيف لا، والرسول قد استعدى الأمة على من يأتيها وأمرها جميع، وهو قد أخذ بالمفضول في إعادة قواعد البيت، احتراماً للرأي العام. والمتابع للغط المتعالمين وفيوض الإعلام يفزعه الطرح المحتدم والمثير والمبتسر في آن، مما ينذر بشر مستطير، وكم من مبادئ لا يتسرب إليها الشك، تتعثر بعامل المفارقة بين المثالية والواقع. ومثلما تسبق المبادئ زمنها، يسبق النوادر من الرجال زمنهم، بحيث يولدون في غير وقتهم، والمعذبون في الأرض أمام هذه المتناقضات هم العقلاء الذين يشقون في النعيم. والإشكالية التي أدت إلى ارتكاس عالمنا في الفتنة، ولم يفكر أولو الأمر في التخلص منها تعدد المشاريع، ومراكز القوى، ونزع الثقة من المرجعية الدينية، وفهم الحرية والحقوق على غير وجهها، والجدل العقيم حول مشروعية كل رأي وأهليته، والإيغال في تمجيد ذويها أو تجريمهم، حتى لكأنهم ملائكة أطهار أو مردة أشرار. والتحبس في ثنائية: الشيطنة أو الملائكية، والضلوع المدان في عملية التصدير للمبادئ والأحزاب عبر ترسانة البلاغة، أو ترسانة السلاح، فوت على الأمة فرصاً كثيرة، واستنزف كل طاقاتها. ولما نزل في مُنْخَنق الانفعال والافتعال، حبيسة اللحظة المعاشة، بحيث لا تستعيد الماضي، ولا تستشرف المستقبل. وما الحرب الحدودية والأهلية: ساخنة أو باردة إلا ترجمة فعلية لهلوسة المفاضلة والتصنيم والتصدير. وكم تكرر في القاموس السياسي الحديث مصطلح (تصدير الثورة)، الأمر الذي زج بالدول العربية في حروب طاحنة، وزرع الريبة في الصدور، وأغرى الأعداء باختراق الأجواء، والدخول بين الأخ وأخيه. ولكي تكون الأجواء ملائمة لخطيئة التصدير، كان لابد من التورط في جدلية المفاضلة. وهكذا تدخل النخب: مخدوعة أو مأجورة في هذه اللعبة الأكثر عمقاً والأقل عمقاً. وتتخطى ذلك العقم والتسطح إلى التصنيم للقائد الملهم، لتقترب به من الطهر الملائكي، والعصمة النبوية، ليفعل ما يشاء، وكأنه من (البدريين)، مع توهيمه بإمكانية تصدير النظرية، عبر آلية الترغيب أو الترهيب، مما يحمله من تبذير مقدرات الأمة، وإشعال الفتن، وإلجاء الضعفاء المكتوين بنار التعدي إلى ارتكاب المحاذير، وذلك بجر الأساطيل التي تمخر العباب، وتجوب السحاب، وتثير النقع، معيدة الوجه الكالح للاستعمار البغيض، وإذ يقترف البعض خطيئة التعدي المدان بكل المقاييس، يبادر البعض الآخر منفرداً باتخاذ قرار قومي مصيري، يفاجئ به الأمة، ويثير به الرأي العام، ويصدع الوفاق العربي والإسلامي والاقليمي، ثم يجد من يسانده: عربياً وإسلامياً وعالمياً، فيما يحمل البقية على الإذعان المكره، أو الرفض الأعزل، متيحاً الفرصة للأعداء المتربصين، ليجتالوه، ويقاضوا خصومهم من خلاله. وما أكثر اللاعبين الأغبياء لحساب غيرهم. وأياً ما كان الأمر، فإن القاموس السياسي يفيض بهذه المفاجآت التي تربك الصف العربي. واتخاذ قرار الحرب، أو التسوية مع العدو، أو استقدام القوى الأجنبية أو الخروج على الشرعية، إن هي إلا قرارات مصيرية، لا يجوز اتخاذها دون إجماع عربي، ولا سيما إذا تم الاستقدام من دولة صغيرة، ليست لها قضية، وليست بحاجة إلى مال أو حليف، وليس لها حدود ساخنة. ذلك أن أثر الوجود الأجنبي سيطال المقيم والظاعن. ولأن الأمة واقعة تحت طائلة المغامرات فإنها أحوج ما تكون إلى الناصحين، الذين يجنبونها الفتن، ويواجهونها بالحقائق، ويصدقونها القول. والأمة العربية منذ ثورة حسني الزعيم عام ١٩٤٩م، وهي في نكث للعهود، وطعن في الدين، وتثاقل في الأرض، إلا من رحم ربك، وفي هذا العراك لا تسمع إلا دوي الكلمات الجوفاء، وهمس المجاملات، وسك المشاريع التي يقوم بعضها على أنقاض بعض: حرية، اشتراكية، قومية، علمانية، حداثة، ديموقراطية، وحْدويَّة، شَعْبَويَّة. ومن ورائها (ثورة) و(زعيم)، يحفهما إعلام يكيل التهم لحفنة توارت بالحجاب، من الخارجين الخونة، الذين باعوا

وطنهم، وكانوا من قبل ملء السمع والبصر، ويبشر بطلائع قادمة من المنقذين، الذين استردوا وطنهم ممن باعوه بثمن بخس، فكأنهم ﴿فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾، وما هم في الحقيقة إلا لصوص سرقوا شعباً بكامله، فقصَّوه، وسرحوا في فضاءات أرضه. ولما تزل الأمة منغمسة في أتون الفتن إلى الأذقان، مغلوبة على أمرها، مغيبة في المغانم، شاهدة في المغارم. وإذا لم تُدِنْ الأمة نفسها، وتواجه أخطاءها، وتقبل مرارة الحقيقة، ستظل كما هي لا عزٌّ ولا ظفر، والوضع القائم لا يقبل المزيد من النكبات، ولا يمكن احتماله، الأمر الذي يحتم مواجهة الحقيقة العلقمية بشجاعة وثقة، للخروج من وهدة الاحتقار، والخلوص من استخفاف الأقوياء، وتفكيرهم بالوصاية علينا، حتى لا يجدوا حرجاً في أنفسهم من التدخل العسكري، بدعوى تَخليص الأمة من ظلم أبنائها، وانتزاع المسؤولية من أيد لا تحسن النهوض بها، واقتسام الغنائم، وأصحاب الشأن صامتون أو مواطئون. وإذا كان الشرقيون والغربيون يتفانون في تصدير نظرياتهم، وحضاراتهم، وقومياتهم، وتعميم ثقافاتهم، ولغاتهم، ومدنياتهم، والعمل على هيمنتها، فإنهم جميعاً يدعمون مشاريعهم الديموقراطية، والعدل، والإحسان، والمساواة، وتكافؤ الفرص، وتداول السلطة، واحترام الدساتير، والقوانين، والأنظمة، وتفعيل المجالس التشريعية، وتمكين شعوبهم من ممارسة حقهم، والتوفر على ما يكفل لهم الحياة الكريمة: صناعياً، وزراعياً، وسياسياً، وفكرياً، وعسكرياً. ثم إن مشاريعهم تأتي انبثاقية صنعوها بأيديهم، واتخذوها بطوعهم واختيارهم، وفصَّلوها على قدر أجسامهم، ووفق حاجتهم، وفي إطار إمكانياتهم. ولم يكن شيء منها مصادم لما استقر في أذهانهم. ومشاريع العالم النامي المتورط في لعبة المفاضلة والتصدير والتصنيم طارئة مجلوبة، لا تمت إلى واقع الأمة بصلة، ولا تستجيب لحاجاتها، ولا تلائم ما جبلوا عليه من عقائد وعادات وتقاليد. للعامة دينهم، وللقادة دينهم، وكل القضايا المصيرية تقضي بليل، وما يقال عبر قنوات الإعلام حبر على ورق، وكم هو الفرق بين مبدأ تمهد له النخبة، وتؤمن به الكافة، وينهض بأعبائه المسؤول، ومبدأ تكفر به العامة، وتتملق به النخبة، وتفرضه السلطة بالقوة. والذاكرة المعطوبة تنسي الأمة ما سلف من ويلات، وتحملها على ملاحقة الكذبة الجديدة، والخنوع للمفترين الذين يخدرونها بالشعارات الزائفة، والدعاوى الكاذبة. ومتى انكشف أمرهم، ألهبوا الحدود، وافتعلوا الخلاف مع الجار، ليتمكنوا من إخراس الألسنة، وإطلاق صوت المدافع وأزيز الرصاص، سعياً وراء شغل الرأي العام، وإخضاع البلاد لحالة الطوارئ، بحيث لا يتكلم إلا رجل السلطة. وإذا أراد الله بقوم سوءاً، أمَّر عليهم أراذلهم، ووضع مصائرهم بأيد آثمة، خائفة مخيفة، ليس لها عمق تاريخي، ولا رصيد وطني، وتلك مؤشرات فتن عمياء، تجعل كل شيء أتت عليه كالرميم، وتشرعن للأقوياء المتغطرسين التدخل في الشؤون الخاصة، وتقديم الحل العسكري على المواجهة (الدبلوماسية) مما لا يطال الضالعين في الخطيئة وحدهم، وإنما يمتد إلى من عرفوا قدر أنفسهم، وقدروا الأمور، وتحاموا الفتن. وعلينا أن ننظر إلى الحمم التي تمطر أرض الرافدين، إنها تهدم البيوت، وتمزق الأشلاء، وتسلب الحرية، وتحقق التخلف، وعصابة الحزب الحاكم في أعماق الأرض مختبئون، لا تراهم إلا حيث تكون شتيمة أو غنيمة، وهم قد خرجوا بجلودهم من حربين عنيفتين مجانيتين، أهلكتا الأمة، ولم تحققا أي مكتسب، لا على المستوى الاقليمي ولا العربي ولا الإسلامي، ولم يكن لها أي مبرر، ولما تزل عصابات الشر من أبناء الجلدة في انتظار ما يأتي من ويلات، والشارع العربي تتدفق هتافاته لحساب اللحظة الضاغطة، مستدبراً قضايا مهمة في الوطن العربي، ومغمضاً عمن قتل الكرامة، وأشعل الفتن، وجلب الويلات، وفرق الكلمة، وجر الأساطيل إلى المنطقة، وشرعن التدخل العسكري. والمؤلم

ان المستقبل امتداد للحاضر، وليست هناك بوارق أمل، للخروج من ضوائق المرحلة الحرجة، فالأمة تعيش حالة من الانفعال والوهم والاحتقان. وإذ يعيش الخليج أزمات الحروب الثلاثة التي أتت على كل المقدرات، ومهدت الطريق لوجود عسكري خارجي بغيض، لم تشهد له مثيل من قبل، شرعنت له نزوات مجنونة، والجأ إليه الخوف من مغامرة عسكرية غير محسوبة، فإننا لم نسمع كلمة صادقة حاسمة، تحدد المسؤولية، وتحاسب الضالعين في الخطيئات، وترسم طريق الخلاص، وتمكن الأمة من مواجهة الأحداث، وتحمل المسؤولية، وامتلاك شرعية التدخل في اللحظات الحرجة، وتفعيل المؤسسات العربية لممارسة حقها، والحيلولة دون وصاية الأجنبي. ومع وضوح الحقائق فإن الناس منشقون على أنفسهم. إننا لكي نخرج من دوامة اليأس والإحباط والوهم، يجب علينا استحضار السياقات، وربط الأسباب بالمسببات، وتقصي ما سلف من الخطيئات، ومعرفة من تآمر على الأمة، ومن زرع الأحقاد، وإن لم نفعل، أنجينا الذين ظلموا، وأخذنا الأبرياء بعذاب بئيس. والمؤلم أننا كلما صنعنا عذاباتنا بأيدينا، رفعناها إلى السماء ملطخة بوحل الخطايا لنقول: - يا رب يا رب، نسب الذين كفروا، ليمعنوا في النكاية، وسب الله عدواً بغير علم. وكيف يستجاب لنا، ونحن متلبسون بالمخالفات في مشاربنا ومطاعمنا وسائر تصرفاتنا. لقد بلغ السيل الزبى، وتداعت الأمة على مثمنات الأمة، وسيق الأبرياء والضعفاء إلى بؤر الفتن، وما من رجل رشيد يبين للأمة وجه الصواب، ويأخذ بيدها، ويقيل عثرتها، ولن تقال عثرة الأمة بالتنافي، ولا بتعدد (الأيديولوجيات) الأمة أمة (عربية مسلمة)، وإذا لم تلتف حولها عروبتها وإسلامها، تفرقت شيعاً وأحزاباً، كما تفرقت قطعاً متجاورة متناحرة، وليس أضر على الأمة من التقاء المسلمين بسيفيهما، ولن يلتقيا حتى يستفحل التقاؤهما بلسانيهما. وإذا لم تتوفر الأمة على (العروبة والإسلام)، فلا أقل من أن تتعاذر، ويرتد كل إقليم إلى الداخل، لإصلاح نفسه، وتفعيل مؤسساته، والخضوع لقوانينه ودساتيره وأنظمته التي تلقاها من السماء، أو خطها بيمينه. لقد أجهش المسلمون بالبكاء متضرعين إلى ربهم، مستعدينه على الأعداء الظاهرين، ولكن أحداً منهم لم يتجه إلى الأمة، ليحملها على تغيير ما في نفسها، ويضعها أمام مقترفاتها، ويدعوها إلى العودة إلى بارئها، وتحكيم شرعه، وتنفيذ أمره بالعدل والإحسان وإعداد القوة، ويواجهها بمفاهيمها التي صيرتها لقمة سائغة لأعدائها المتربصين بها الدوائر، ويحملها على أن (تعقل وتتكل)، لقد مرت بنا مقترفات نراها رأي العين، ونعرف المقترفين بأسمائهم، والتغاضي عنها مهد لما هو حاصل. ومع ذلك نظل أبناء لحظتنا، لا نفكر بالطابور الخامس الذي صيرنا إلى ما نحن فيه، من جهل وضعف وخوف. فأين نحن من مكائد الاستعمار، وبطش الجبارين، ومواطأة الأقربين. وفي ظل الظروف العصيبة لابد من تفكيك التاريخ الحديث، لنصل إلى مفاصل المشاكل، ونحسمها أولاً بأول، نصفي الحسابات، ونميت القضايا، بعد إدراك أدق تفاصيلها، لنعرف أن محاور الشر الحقيقي ليست وحدها دول لتحالف.

جذور التنازع المعرفي ومحفزاته .. ! (١) [١]

الاختلاف والتدافع والتداول سنة ماضية، لا تتأتى عمارة الكون إلا بها، والبراعة والتوفيق يبدوان في تحويل ذلك كله إلى اختلاف إيجابي، يتسع للتعاذر، والدفع بالتي هي أحسن، ويحول دون التنافي والأثرة والعداوة والبغضاء، متى كان الاختلاف في إطار التنوع لا التضاد، وبحيث لا يؤدي التعاذر إلى الإيمان بمبدأ تعدد طرق الخلاص، كما يراه المفكر الفرنسي المتأسلم (روجيه جارودي)، ذلك ان قيم الدين ومتطلباته من تغيير المنكر بمستويات التغيير الثلاثة، والأطر على الحق، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعوة، وإبلاغ الآية، وإسماع كلام الله ليس وجوبها مجال اجتهاد أو اختلاف، وإنما الاختلاف معها يكون حول مؤهلات الناهض، وأسلوب النهوض، والقدر الكافي من التبليغ، ومستويات التكليف. وحديثنا عن التنازع وجذوره ومحفزاته حديث شمولي، يطال الفروع من الدين ولأصول من الفن والفكر والسياسة والاجتماع، وماهو داخل ضمن المعرفة الإنسانية. ومهما حاول الإنسان توقي محفزات الاختلاف، فهو واقع فيها، لارتباطها بالعقول المختلفة والمكتسبات المتفاوتة والتصورات المتعددة والأحوال المتباينة، وحين لا يكون بدّ من الاختلاف فإن تطلعنا ألا يرقى إلى الثوابت وأصول العقائد وألا يصل الاختلاف إلى الخلاف، ويبلغا معاً مشارف الفتنة، والإسلام قد عالج أساليب التعامل مع المخالفين، ورسم طريق النجاة حين يبلغ الصدام ذروته، ويتحول إلى فتنة يكثر فيها الهرج. وحين يصل الاختلاف حد الفرقة، ويوشك على التقاء المسلمين بسيفيهما، يكون الاعتزال هو الحل الأمثل، وقد عالج الفقهاء اتقاء الفتن، وجاءت النصوص قطعية الدلالة والثبوت، ترسم للمسلم طريق النجاة، حتى ولو لم يبق إلا أن يعض المتعرض للفتنة على أصل شجرة بانتظار أمر الله. وتنازع الأنام الذي يساورني همه في هذا المبحث لا يمتد إلى تنازع العقائد والحضارات، مما يعد (خلافاً)، وإنما هو عن (الاختلاف) داخل المنظومة الفكرية الواحدة. والفرق بين (الخلاف) و(الاختلاف) أن الأول اختلاف في الطريق والمقصود، والثاني اختلاف في الطريق دون المقصود.

وحين يكون (الاختلاف) ناتج الاجتهاد، ويكون الاجتهاد مشروعاً في ثلاثة من مستويات النص الأربعة، (الدلالة والثبوت) بين (القطعية والاحتمالية) يكون الاختلاف حتميا، ويكون العمل على توفير (الاجماع) من إضاعة الجهد والوقت والمال. والتاريخ الحضاري للأمة الإسلامية مر بمراحل مضيئة، استطاع علماؤه ومفكروه تلافي المواجهات التدميرية، بحيث ارتدوا إلى دواخل القضايا، واشتغلوا بها، الأمر الذي مكنهم من إنجاز المعارف، والأنظمة، والقوانين، والعقود، وصياغة الفكر السياسي، والأساليب الاقتصادية، وتحرير ضوابط الفن والفكر والسلوك. ولقد استوعبوا فيوض الحضارات القديمة، وأسَّسوا بمجموع إنجازهم للحضارة الإنسانية، وسطعت شمسهم على الغرب.

ونشوء العلوم والمعارف والمذاهب والآليات والآراء والمصطلحات ناتج حوار فكري إيجابي، يبحث عن الحق، ولا يفكر بالانتصار. فهذه مذاهب الفقهاء، واتجاهات المفسرين، وضوابط المحدثين، ونظريات المعرفة، وأصول المذاهب، وقواعد العلوم، شاهد عدل على حصافة الرأي ودقة الملاحظة وعمق المعرفة والدأب والمثابرة والرحلة في طلب العلم مع سلامة المقاصد وحسن النوايا والمنعطف السلبي الذي أشعل النعرات، وأذكى التعصب، وقدَّس الشخصيات، وأهمل القضايا، ودفع إلى التلاسن البذئ، ناتج ضعف معرفي واجترار عقيم لمنجز الأفذاذ من العلماء، وانقباض متخوّف، وعجز عن

---

(١) تاريخ المقال: ٨/ ١٠/ ٢٠٠٢

الاكتشاف والاختراق. وقد أفرزت بعض المراحل المنطفئة في التاريخ الإسلامي خطابا تنازعياً، أذهب الريح، واستفحل معه الفشل. ووجد فيه المتماكر الاستشراقي مجالاً للنيل من الحضارة الإسلامية، وإغراء للمستضعفين، لإعادة المناكفات جذعة، والفرح الحزبي ينصب دائماً على مفردات الاختلاف، ولا يتجه صوب بوادر الإضافات. ومع أن تعدد المناهج والآليات والرؤى والتصورات سبيل إثراء، وطريق تأصيل وتحرير، إلا أن التعصب المسنود بالعرقية، والإقليمية، والأثرة، والعقم، وخلل الفهم، وانعدام الورع وضعف الإدراك، والوقوع في مأزق المفاضلة، وصرامة الحدّيّة، وحب الهيمنة والتصدير والعجب بالرأي، حوَّل الإيجابيات إلى سلبيات، وعطل القدرات التي أفاء الله بها على عباده.

والتعقب الحصيف لأشلاء المثمنات، يتجاوز الأثر إلى الجذور، والناتج إلى المحفزات، فما فات من جدل عقيم مات، ونحن أبناء لحظتنا الأبدية، والمؤمل من عقلاء الأمة السعي الحثيث لتجفيف مستنقعات الخلاف، وردم بؤر التوتر فنحن في زمن لايحتمل مزيداً من المناكفات، وفي وضع رديء لايطلب مزيداً من الاخفاقات. وعلى أهل الحل والعقد تجاوز البحث عن المسيء إلى الإساءة لتلافيها، فالأخطاء ناتج تراكم من المشاكل الممتدة مع الزمن، وليس لمتصور سليم أن يُحمِّل اللحظة الزمنية الراهنة ولا إنسانها مجمل الإخفاقات والإحباطات التي نتجرع نتائجها. فنحن ضحايا ركام من المقترفات المذهبية والسياسية والعرفية وسائر المسلمات التي شارفت على التقديس والتصنيم لما هو قائم من الأشياء والأناسي.

وحين لايكون بد من الاعتراف بالتقصير والعجز، فإن علينا ألا نتخفف من المعاناة بالمشاجب التي نلقي عليها بالمعاطف الملوثة، متى كان بإمكاننا غسلُها وإعادتُها إلى طهرها ونقائها وجدتها، ولن يتأتى لنا ذلك إلا بمواجهة الهزيمة بروح واثقة، وعزيمة صادقة، ومعرفة مناسبة، لكي ننهض من عثرتنا قبل إلفها واستساغتها، على شاكلة المهين الذي يسهل الهوان عليه، ومتى قبلنا الذل تحولنا إلى جرح ميت لا يحس بالألم. وفقد الإحساس موت معنوي، لا قيمة للحياة معه، والنهوض التطوعي للمتداخل مع المخالف يتطلب التوفر على (فقه الاختلاف) و(آداب الحوار) و(مسوغات الاجتهاد) ومعرفة طرائق التعامل الحضاري مع المخالفين، مع تصور الأشياء تصوراً سليماً، والتعرف على أصولها وقواعدها وضوابطها، والتمكن من آليات الحوار ومقوماته المعرفية، ورباطة الجأش. وبين أيدي المتابعين عدد كبير من الكتب التعليمية والتوعوية حول (أدب الحوار) و(فقه الاختلاف) و(شرط الأطراف) و(ضوابط الأهلية) و(أسباب الاختلاف) و(آداب الجدل والمناظرة) ومن جهل الأصول والأسباب والآداب والشروط فليس له أن يخوض معترك الجدل. وإذ نفترض أن مرد التنازع وجذوره ومحفزاته إلى نواقص عامة وخاصة: معرفية وأهلية، فإن علينا أن نلمح إليها، وأن نعمل على تلافيها، وكل من خاض مع خصومه معترك الجدل وسعى جهده للوفاق عرفماينقص المتجادلين. ولقد وجدت من المناسب أن اتخذ مما لقيت في سفري المعرفي من أتعاب شاهداً على ما تمس الحاجة إليه، ولعل أولى الفواقر وإكسيرها فقد (المصداقية)، واختلاف (المفاهيم) وتفاوت (الأفهام) و(الضعف المعرفي) وما تستتبع هذه الجذور من جهل للواقع، ولطبيعة الأشياء، ومن غياب للمشروع، وانعدم للورع، وسوء في الأدب، وواجبنا ان نقف عند متطلبات الجدل الإيجابي، وأولها (المصداقية) وضوابط (المفاهيم) وتفاوت (الأفهام) وعلينا وقد شهدنا تدنيات في أخلاقيات الحوار أن نسعى للأطر على قول الحق، وتقريب وجهات النظر، وتربية (الأفهام) وصقلها وتدريبها وتوسيع مداركها. والمتابع للعراك في كافة

المشاهد الدينية والعلمية والفكرية والأدبية يقف على خلل واضح في (المصداقية) عند كافة المختلفين، إلا من رحم ربك، وقليل ماهم.

فبعض الخصوم حين تعييهم الحجة يفترون على خصومهم الكذب، وهم يعلمون، وما على المردد إلا أن يستعرض مدونات المعارك، وبخاصة (المعارك الأدبية والفكرية) التي عشناها قولاً وعملاً ومتابعة، ومتى تقراها المتابع بحيادية وعدل وإنصاف تبين له افتقار المشاهد إلى (المصداقية) وقد يتعمد البعض تحريف الكلم عن مواضعه، وتقويل الطرف الآخر ما لم يقل، أو المصير إلى التأويل الكاذب، وبخاصة حين يسعف المناوئين الابتسارُ النصي أوالانفتاحُ الدلالي. ومتى استمرأ المتجادلون الكذب، طُمست الحقائق، وتحول المتحاورون إلى هجَّائين، لايرقبون في خصومهم إلاّ ولا ذمة. ولقد لقيت في مراجعاتي وحواراتي نصباً، وفوجئت من بعض من أتوسم فيهم المصداقية والبحث عن الحق بقول كذب، أرجو ألا يكون ديدنهم، وإن كشف بعضه غيري، ولزم الكذبة الصمت، وهذا الإلباس المتعمد، يمنع المقتدر من الدخول مع مثل أولئك، مما يوفر للأدعياء أجواء مناسبة تمكنهم من تفريغ آرائهم وتصوراتهم الكاذبة الخاطئة. وحين يستمرئ النخبويون الكذب، ولايجدون في ذلك غضاضة يُنشّأ ناشئ العلماء والمفكرين على ما كان عودهم سلفهم، وحين تشيع خليقة الكذب، وتكون ممن يتوقع منهم الصدق، تصاب المشاهد العلمية والفكرية والأدبية في الصميم، وتكون الأمة كمن غص بالماء الزلال، فالذين يتوقع منهم الإسهام في تربية الأخلاق بالتعليم وبالقدوة الحسنة، ينقلبون على أعقابهم، ويكونون قدوة سيئة. وكيف يتعمد النخبويون الكذب؟ وهم يعلمون أن المسلم يكون بخيلاً، ويكون جباناً، ولكنه لايكون كذّاباً. إننا أحوج ما نكون إلى (المصداقية) في مواجهاتنا، ومتى صدقنا مع أنفسنا، ومع قبيلنا في سرنا وفي علننا، في منشطنا وفي مكرهنا، أشعنا الفضيلة، وضيقنا الخناق على دواعي التفرق، وإذا كان الحقُّ ضالةَ المؤمن فإن الغاية لاتبرر الوسيلة، والإسلام حث على العدل والصدق، والمفترون المحرفون ظالمون ومزورون، وفقد المصداقية ليست وقفاً على زمان أو مكان، وليست سمة خاصة بالأدباء وحدهم، وليست واقعة من كل الخصوم، وسأضرب مثلاً على فقد (المصداقية) بموقفي من (الحداثة) أو من (الشعر العامي) ولو شئت ضربها من خلال مواقف أخرى عند الكافة من الأدباء والمفكرين لتبدت لنا بأبشع صورها، وحين أضرب المثل بما لقيت فإنما أريد كتابة ماحدث لا من أجل المباهاة أو الادعاء، وإنما القصد الإبانة عن الموقف والدفاع عن النفس. فبعض الذين يختلفون معي حول هذه القضايا، يعرفون من خلال ما أقول لهم في كل مواجهة: انني لا أختلف حول التجديد، ولا أعترض على قراءة الآخر، ولا أرفض (المثاقفة) ولا الاستفادة من أي فكر أو فن لايصادم الثوابت، وانني أقبل المنهج والآلية متى أمكن تفريغها وعوربتها، وانني أفرق بين التحديد في الشرط الفني والبناء اللغوي والشكل الابداعي وبين مقتضيات الحداثة الفكرية، وان موقفي من الحداثة لايتجاوز انحرافها الفكري، وسقوطها الأخلاقي، وانقطاعها المعرفي، وضربها لثوابت الحضارة الإسلامية التي لاتتحقق إسلامية المسلم إلا بها، وبهذا فأنا مجدد أكثر من المجددين، وعصري أكثر من المعاصرين. ومع هذا يقول قائلهم: إنني ضد التجديد، وانني أريد الارتداد بالأمة إلى الخيمة والجمل، وبعض من لاذوا بالفرار من وضر الحداثة التي تلبسوا بها فترة من الزمن، حاولوا الالتفاف الغبي، وعادوا يقولون: - بأن حداثتهم تتسع للتجديد وحسب، وكأنهم يريدون وضع الطرف الآخر ضمن دائرة التقليد. والوثائق والمواقف والهموم والخلطة والمولاة تكشف عن المغالطة، والإحالة إلى التجديد والتقليد تحرف ضعيف. ومع علمهم بما هم عليه يظلون يكررون هذه المفاهيم الزائفة، دون أن يثنيهم إرشاد، أو يخوفهم.

جذور التنازع المعرفي ومحفزاته .. ! (٢)[(١)]

ومصائب المشاهد المصمية ليست بمن يَلْبَسون لكل موقف لبوسه، ويقولون لنا ما يرضي حتى إذا خلوا إلى من يودون قالوا: إنا معكم. مصيبتنا في المتلقي الذي تشابهت عليه بقرات الحداثة، وخدعته الأقاويل، والتبست عليه الألاعيب، وأتاحت غفلته المعتقة لمثل أولئك التصرف البهلواني:

وما انتفاع أخ الدنيا بناظرة
إذا استوت عنده الأنوار والظلم

لقد وقفت على تصورات ورؤى، اخذتها الدهماء بوصفها قضايا مسلمة، فالأمر عندها تقليد أو تجديد، وليس حداثة فكرية منحرفة وتجديدا متزنا، ثم ان المتحدث عن «الفكر الإسلامي» والمتبني «للأدب الإسلامي» في نظرهم مدعٍ للطهر الملائكي متقمصاً الفوقية والوصاية، فيما يكون غيره في نظر ذلك المفكر المظلوم ضالاً مضلاً تابعاً. وعلم الله انني ما عهدت احداً ممن يحملون هم الدعوة، ويضطلعون بقضية الأدب الإسلامي قال بذلك، وما تصور أحد منهم أن الآخر رجس من عمل الشيطان.

المفكر الإسلامي والأديب الإسلامي يشعر كلٌّ منهما بواجبه حيال أمته، وحيال قضيته، وحيال عقيدته، وهو يمد غيره بما يراه حقاً وصواباً، ولا يرى فيمن حوله دونية في مكان، ولا ضعفاً في علم، ولا خللاً في فكر، ولا سوءاً في أخلاق، إلا إذا كان عنده مما هم عليه من الله برهان، والتناصح لا يشترط فيه ان يكون بين مؤمن وكافر، ولا بين ضال بيّن الضلال ومؤمن قوي الإيمان، التناصح تبادل خير بين طرفين متماثلين، ومن تصور دعاةالفكر الإسلامي سلطويين فوقيين متهمين للآخر، وعمم، ولم يخصص، فقد افترى عليهم الكذب، وفقد المصداقية التي يحب توفرها كحد ادنى للاستقامة على الحق. ومثلما احيلت الحداثة إلى التجديد، ووصف مناوئوها بالماضوية والتسلطية، احيل الوقوف في وجه «العامية» ومظهرها الأهم «الشعر الشعبي» بانه منع للإبداع، وتجريم للشعراء العاميين، واستهجان بالمتذوقين له من خاصة القوم وعامتهم، وعلم الله موقفي من «الإبداع الأمي» يقف عند حد الحيلولة دون تقعيده ودراسته بآليات الفصحى والتخطي به إلى محافل التعليم. ومن فعل ذلك فقد أصَّل للعامية، وشرعن للازدواج اللغوي، وأحيا النعرات اللهجية، ومكن للتزاحم بالعاميات المتعددة عند أبواب المدارس والجامعات. وحري بنا وقد انفقت الدولة الأموال الطائلة لتعليم اللغة العربية ان نساعد على حضورها في كل محفل، وان نحاصر العامية وظواهرها الإبداعية في محيطها الشفوي، وفي اوساطها العامية، بعيداً عن التدوين والدرس، وان علينا ان نتمثل ما علمنا قولاً وسلوكاً، فالعلم لا يكون حتى يتمثله المتعلم، وإذا تعلمنا لغتنا، ثم لم نستعملها في القول والكتابة كنا مبذرين مقصرين، ولغتنا ليست كاللغات، انها مرتبطة بكتابنا الذي تعبد نا الله بتلاوته وفهمه وتدبره والعمل بما فيه، ولن يتأتى ذلك مع استفحال العامية. هذا ملخص موقفي من الحداثة والعامية، غير ان الخصوم الذين لا يحترمون المصداقية يتقولون على خصومهم كل الأقاويل، وينسبون اليهم ما لم يقولوه، وعلينا ان نحمد الله على ما انعم به علينا من وحدة اللغة والعقيدة والأرض، فلسنا شيعاً يضرب بعضنا رقاب بعض، ومن واجبنا ان نتحامى الوقوع في أي فرقة: فكرية أو دينية أو عرقية أو اقليمية أو لهجية، وفقد المصداقية قد يتجاوز كتم العلم أو تحريفه إلى الافتراء والاختلاف، وذلك الدرك الأسفل

---

(١) تاريخ المقال: ١٥/ ١٠/ ٢٠٠٢

من سوء الخلق وخيانة الأمانة، ولقد تعرضت طائفة من العلماء والمفكرين والأدباء إلى الكذب والافتراء، ونسب اليهم ما لم يقولوا، ومع نفيهم وتكذيبهم فإن المشاهد قد لا يصل إليها قولهم بمستوى الإشاعات الكاذبة عنهم، ومن ثم يأخذ السماعون بتلك الإشاعات بوصفها حقائق ثابتة. ولو أن المتجادلين توفروا على الصدق فيما يقولونه ابتداء، وفيما يروونه عن غيرهم اتباعاً، لما بلغ بهم الجدل إلى حد التنابز بالألقاب، ولعلنا نستعيد دروس (الإفك)، وما تركه من عظات وآية (التبيُّن) وما شرعته من أسلوب في التلقي.

ومثلما يقال عن (المصداقية) بوصفها خليقة طبْعِيَّة أو تطبعيَّة يقال عن اختلاف (المفاهيم) إلا أن (المصداقية) تحال إلى القيم الأخلاقية، فيما تحال (المفاهيم) إلى التصورات والرؤى المعرفية، ودواء الأولى في التربية السليمة، ودواء الثانية في التعليم الجاد. و(مفهوم) المصطلحات والظواهر والقضايا حين لا يكون كما أراده المنشئ يوقع في اللبس، وإشكالية (المفهوم) من أعقد الإشكاليات، وهي مبعث الاختلاف، وجذرُ التنازع ومحفزُه.

والمصطلحات المتنامية عبر الترجمة أو التعريب أو النقل هي التي توقع في اللبس، فهي تتشكل عبر تصورات المترجمين أو المعربين أو الناقلين، الذين يلتمسون ما يقابلها في العربية، من كلمة تحمل ذات الدلالة، أو صيغة صرفية تستوعب بعض المقاصد، أو نقل يرادفه تعريف، قد لايطابق مراد المنشئ. وفوضى الترجمة والتعريب يواكبها متلقٍ يعطي مفهوماً زائداً أو ناقصاً أو مناقضاً، ويشتغل على ضوئه. ومكمن الخطورة في المصطلح الحمَّال للمتناقضات. فالجذر العربي (حدث) تعني دلالتُه الوضعية مجردَ التحديد أو جدَّةَ الحدوث، ولكن الدلالة الاصطلاحية كما يراها المنشئ الغربي، تعني أشياء أخرى، ليست من الجدة، ولا من التجديد في شيء، والمتبنون للمصطلح أوزاع، منهم الواعون لمقاصد الحداثة، كما يراها الغربيون، ومنهم الغافلون الذين لايتجاوزن بالمفهوم حد الجديد. والمفكرون الإسلاميون المتصدون للحداثة قد لايتثبتون، ومن ثم يصيبون الذين لاتتجاوز المعارف تراقيهم بجهالة، وتعدد المفاهيم يطال الجميع، وإذا اختلطت المفاهيم حول (مصطلح الحداثة) وتعدد مقتضياته فإن إشكالية مصطلح (الأدب الإسلامي) عددت مستويات الخصوم بين رافضين ومتحفظين ومتسائلين، ولم يختلف أحد منهم حول مصطلح (الأدب الجاهلي) ولا (الأدب الوجودي) ولا (الأدب الماركسي) وقد يجمع بعض الإسلاميين خصومه في سلة واحدة، وفي ذلك ظلم عظيم، فالمتحفظ والمتسائل يختلف عن الرافض الذي يستمد رفضه من رفض الحاكمية الإسلامية وإظهار الدين. واضطراب الرؤى حواضن مخصبة للتنازع المورث للعداوة والبغضاء. والحداثة الفكرية المنحرفة تخادع الخليين بتعدد المفاهيم، وأساطينها كما المنافقين، إذا واجههم النقاد الناصحون قالوا: - إننا مجددون، وإذا خلوا إلى أساطين الحداثة المنحرفة قالوا: - إنا معكم حداثيون. وقد يكون المدَّعون للحداثة لايتجاوزن بها حد التجديد، ومن ثم فإنه من الظلم ان نجعل المجددين كالمنحرفين، ومن حق المحكوم ان يقول: - ما لكم كيف تحكمون؟ ودافع الحكم الجائر مرده إلى اختلاف المفهوم باتساع الجذر لعدة دلالات، على أنه من الخطأ ان يعاند المجدد، ويصر على ان الحداثة لا تعني إلا التجديد، والقرآن الكريم منع أن نقول: - (راعنا) من الرعاية، لأنها قد تحمل بالتنوين مفهوم (الرعونة)، وإذا كان المفهوم المتعدد يوقع في اللبس، ويعرض الأبرياء للغيبة، فإن الضائعين في خطيئة الحداثة الفكرية يتقون بالتعددية سهام الحق.

والناقد المنصف من يتجاوز المصطلح، ومن تبناه عن مواطأة أو عن جهل، إلى الوثائق النقدية والإبداعية، وإلى المواقف من أساطين الحداثة من مبدعين ونقاد، فالوثائق والولاء والبراء لا مجال فيها للمغالطة أو الإدعاء، والالتفاف الغبي على تعدد المفاهيم لا

يغني من الحق شيئا. ولو أننا تحرينا الدقة في تحرير المفاهيم، وربطنا شاهد الوثائق بغائب المفهوم، ولم نبادر بالاتهام لكنا عادلين منصفين. ومتى فُقد العدل والإنصاف مع المخالف وقعنا في التنازع الجالب للفشل وذهاب الريح. ومتى توفرت (المصداقية) وتحرر (المفهوم) تراءت لنا جذورٌ ومحفزات أشد وأعتى، نجد ذلك في تعدد (نظريات المعرفة). وإشكالية التلقي والتأويل مع النص المفتوح أو النص الحمَّال من الإشكاليات التي لا يقل أثرها السلبي عن فقد المصداقية وتعدد المفاهيم.

والحضارة الإسلامية تعرضت لهذه الإشكالية، وتولدت الملل والنحل والمذاهب من تعدد (نظريات التلقي)، ولسنا نتطلع إلى حسم هذه الإشكالية، ولكننا نود التقريب بين وجهات النظر، ومتى استوعبناها، خفت حدة التوتر، واستطعنا توقع ما سيقوله المختلفون معنا، وقد تكون الاستبانة سبيلا من سبل التقارب أو التعاذر أو الاعتزال، والمتابع للعلوم والفنون يجد ان مرد الاختلاف فيها إلى اختلاف (نظرية التلقي)، ومع مشروعية التعدد فإن بعض المذاهب بلغت بها نظرياتها المعرفية إلى حد تحريف الكلم عن مواضعه، والأشد خطورة حين يجتمع مع اختلاف (نظرية المعرفة) اختلاف (المرجعية) أو اختلاف (أصول العلم) فالمذاهب الكلامية والفقهية والفلسفية لها نظرياتها المتعددة ومرجعياتها المتنوعة وأصول معارفها المتباينة. فبعض المذاهب يركن ذووها في التلقي إلى الحدس والتذوق والكشف والرمز والإشارة، والبعض الآخر يأخذ بظاهر النص، ومن الطوائف الإسلامية من يدعي الظاهر والباطن، ويصنع تصوراً مغايراً لمعنى المعنى أو الدلالة العميقة أو الدلالة المجازية، بحيث يعطل دور اللغة، ويركن إلى دعوى العلم اللَّدنِّي، ومن المذاهب من يفوض للنص معطلاً العقل، ومنهم من يفوض للعقل معطلاً النص، ومنهم من يفوض للمصدر معطلاً العقل والنص معاً ك (للاأدرية) و(المفوضة)، وكل مذهب له آليته ومنهجه ونظرية تلقيه ومرجعيته وأصول علمه، وليست كل نظرية صادقة كل الصدق، ولا كاذبة كل الكذب، وإنما مرد الأمور إلى التغليب، وهكذا كان التشريع، وعلينا أن نستفيد من كل نظرية معرفية ونتوقى مزالقها وشطحاتها، وبخاصة حين يصاحب ذلك اختلاف المرجعية. والتنازع الناتج من تعدد نظريات التلقي، واختلاف المرجعية تنازع عقدي، قد يبلغ بالأمة حد القطيعة، وقد لا تتيح تلك النظريات فرصة الحوار المعتدل، الحوار الباحث عن الحق دون الانتصار والغلبة. والحق الخالص ضالة المؤمن، وحوار الطوائف المتناقضة قد يبرر للوسيلة المنحرفة بالغاية المدَّعى سلامتها، والإسلام لا يجعل سبيلا لتبرير الوسيلة الجائرة. وإذا تجاوزنا، (المصداقية) و(المفاهيم) و(التأويل) و(المرجعية) واجهتنا إشكالية دون ذلك، وهي تفاوت (الأفهام)، وقد أشار إلى ذلك رسول الله ﷺ، حين ندب أصحابه إلى التبليغ قائلاً: **(فربَّ مبلَّغ أوعى من سامع)** وحين شبه ما نزل عليه بالمطر، واصفاً المتلقي بالأرض وتفاوتها في تقبل الماء، فالوعي خاصية إنسانية، يهبها الله لمن شاء من خلقه مؤمناً كان أو كافراً. وقد يؤدي الفهم السقيم إلى إذكاء حدة التنازع، فالمرسل قد لا يراعي مقتضى الحال، والمتلقي قد لا يعرف قدر نفسه، ومن ثم يتقحم على المعضلات، مثلما يهتاج المرتاع، وهو أعزل، ونزع العلم الشرعي وكثرة الجهل من أشراط الساعة، والأدعياء الذين لا يستحون يصنعون ما يشاؤون، وكم نسمع كلمة:- (نحن رجال وهم رجال) يتفوه بها غلام لايهز القناة، ولا يثنيها، وارتباك المشاهد واللغط الذي لايُبين يتأتى من هذه النوعيات المتسرعة في القول وفي الحكم، ولو قام الجدل بين العلماء المجربين لكان الاختلاف مقدوراً عليه: -

ومن البلية عذل من لا يرعوي
عن غيه وخطاب من لا يفهم

ومما تفتقر الساحة الثقافية والأدبية والفكرية إليه تجويد آليات المعارف وضوابطها وأصولها ومناهجها وأسبابها وآداها، فالكم المعرفي وحده غير كافٍ للتوفر على الحوار الحضاري والجدل المتزن، ومثقفو السماع، وسائر الكتبة، ينقصهم التأصيل والتحرير والتأسيس. ومتى لم يكن هناك تأصيل معرفي، وتحرير للمسائل والمصطلحات، وتأسيس قوي فإن الحالة تزيد سوءاً. إننا لكي نُحاصر التنازع، ونضّيق الخناق على الاختلاف المؤثر على وحدة الأمة وسلامتها، يجب علينا أن نأتي المشاكل من قواعدها، نَصْدُق، ونَعْدِل، ونُحرر المفاهيم، ونؤلف بين نظريات التلقي، ونوحد المرجعية، ونعي أصول العلم ومناهجه وآلياته، ونبادر إلى معالجة الضعف والهوى والاستبداد والعقم والتقليد، نربي أذواقنا، ونَصَّفي نصنا، ونرسم مناهجنا، ونحدد مشروعنا، وأهدافنا، ومكمن اختلافنا، ونثري نقدنا، ونؤدب حوارنا، ونعرف قدر أنفسنا ومبلغنا من العلم، فذلك طريق السلامة وسبيل النجاة.

الشاعر المقل الذي صمت .. ! [(١)]

١/ لم تكن القلة أو الكثرة في الإبداع مقياس جودة، ولا مؤشر ضعف، والشعراء المكثرون في التاريخ الأدبي قد لا يحفل بهم النقد بمثل ما يحفل بغيرهم، وحين يمر بهم الدارسون قد لايجدون في شعرهم ما يثير، وليس ضعف المكثرين قاعدة طردية، ولقد عرف من المكثرين في القديم (أبو العتاهية) و(ابن الرومي)، ومن المعاصرين (محمد حسن فقي) و(بهاء الدين الأميري) وإذ تدور حول جودة المكثرين الشكوك، فإن المقلين في معزل عن ذلك. وشعراء القصيدة الواحدة أكثر حضوراً، ومع هذا فليس للمقلين أو المكثرين ارتباط لازب في الجودة أو في الرداءة، بمعنى ان النقاد لايربطون بين الجودة والكثرة أو القلة، ولكن أصحاب القصيدة الواحدة يملؤون النقاد إعجاباً، ولقد عرفت المشاهد النقدية (الشنفرى) بلاميته و(مالك بن الريب) برثاء نفسه، ولقد شغلت (اللامية) النقاد، فيما شغلت رثائية (ابن الريب) لنفسه كافة الدارسين، والشعر يكون تزيداً أو موقفياً.

وهو حين يرتبط بالمواقف يظل في انتظارها، وقد لاتأتي المواقف والتجارب بالقوة الكافية لتفجير الموهبة، ولهذا يتمنع الشاعر، أو يتمنع الشعر على الشاعر، ويروى عن بعض الشعراء الفحول قوله: - لخلع ضرس أهون عليَّ من نظم بيت. يكون ذلك في حالة التمنع. والعملية الإبداعية، أو لحظة المخاض تدخل بالراصدين لها عالم الأسطورة والخرافة. وظاهرة (شياطين الشعر) يحال إليها ما لا يمكن توقعه من روائع الإبداع، فالمتلقي حين يستمع الشعر المتميز، ينتابه شعور غريب، لايستطيع السيطرة عليه، ومن ثم يحيل إلى الشياطين وتنزلاتها، وقد فعل مشركو مكة مثل ذلك، حين سمعوا القرآن، لتصورهم ان الرسول شاعر موهوب، تتنزل عليه الشياطين. والمتذوق للشعر المتمكن من لغته وشرطه الفني ينتابه ما ينتاب العربي السليقي من إعجاب، لايعرف مصدره، ومن ثم تنطلق منه كلمة الإعجاب والإكبار ولقد سمعنا بسجدة الشعر، ومقولة أحد الخبثاء: إن للشعر مثلما للقرآن سجدة، نسب هذا القول (للفرزدق) حين أعجبه الوصف في جلاء السيول للطلول. والذوقية والانطباعية حواضن النقد، والانطباعية الجارفة تحدو إلى التفضيل الملح، حتى إذا تنازع القوم حول أفضلية شاعر على شاعر، رجعوا إلى مدركاتهم، ليلتمسوا الحجة والشاهد، ومن هنا انبثق نقد المعيار والعمود، وظهرت المناهج، وعرفت المصطلحات، ووضع للشعر نظامه وضابطه وأسباب تميزه. وكل ناقد لابد أن تكون لديه حجته حين يفضل شاعراً على شاعر، والنقاد في عناء من هذا التفضيل. فالمفضول وأنصاره يكيدون لمن فضَّل عليهم، وقد وصف (عبد الواحد لؤلؤة) وضع النقاد المحرج، فهم كالنافخين في الرماد بحثاً عن جذوة أو قبس، ومن ثم فإن نصيب الناقد ما يتطاير من ذرات تغشى العيون، وتزكم الأنوف، وغيره المستفيد.

وكلما أريد مني أن أتحدث عن شاعر أو أديب أو ناقد أو مفكر في ساعة تكريم أو تأبين، تذكرت الرماد والجذوة، وقبلت قدري صابراً محتسباً، فأنا بين أشياع يودون مني المجاملة، ومستعلمين يودون مني المعرفة، وخصوم يودون مني التحامل والتجريح. وليس بمقدوري أن أكسب إلا فئة واحدة، ولن تعذرني الفئتان الباقيتان، وحتى الذين يرضون مني اليوم، سوف يسخطون مني غداً، وهكذا مصير الناقد يخلق العداوات في جيئته وذهابه، وقول الحق لايترك لصاحبه صديقاً، والناقد كالقاضي بين الخصوم، ولقد قيل لأحد القضاة بعد أن ترك القضاء: -كيف أصبحت؟ قال: - توليت القضاء وليس لي

---

(١) تاريخ المقال: ٢٢/ ١٠/ ٢٠٠٢

عدو، وتركته وليس لي صديق. غير أن الناقد المتمكن المحترم للمصداقية حين يقول كلمة الحق، ويمتلك آليات النقد، ويعرف جيد الشعر ورديئه، وتكون لديه ذائقة سليمة ودربة مستمرة، ينام قرير العين جذلانا. لأنه يقول كلمته ويمضي، ولايعنيه أن يرضي زيداً أو عمراً، فالمسألة تسجيل للرؤية والموقف. ومن ملك ناصية القول أو آلية النقد فإن عليه أن يقول مايريد لا مايريده الآخرون، ومن أصاخ لرغبات الآخرين، كان كالطبل، يرقب من يضربه، ليحدث صوتاً.

لقد كان قدري دائماً ان أُدعى للحديث عن شاعر أو مفكر أو أديب في مناسبة التكريم أو التأبين، وقد يمثل الشاعر أو المفكر أو الأديب أمامي، ثم لا يحس أحد منهم أنه انتقل من الذاتية إلى الموضوعية، وأنه حين (يتموضع) ينفصل من ذاته ومشاعره، ويكون ازدواجياً: ذاتاً يقرؤها الآخرون بوصفها موضوعاً، وأخرى تأكل الطعام، وتمشي في الأسواق. ولو أن الشعراء والأدباء والمفكرين (المتموضعين) أحسوا أنهم بالتموضع لم يعودوا كالأناسي، لأراحوا واستراحوا، ووفروا على الدارسين كلمات المجاملة والثناء الزائف، وسائر القضايا لاتتحرر بالمجاملة وتبادل الأنخاب.

٢/ (وحديثي) عن الشاعر المجدد إلى حد التمرد والانقطاع والنثرية (عبد الرحمن بن محمد المنصور) المولود في مدينة الزلفي عام ١٣٤٥ والمبارح لأرضه ودياره في زمن الطفولة سعياً وراء طلب العلم في الحجاز ثم في مصر حديث يعود بلبوس آخر. فلقد درسته قبل ربع قرن في رسالة أكاديمية، تقدمت بها إلى (كلية اللغة العربية) في (جامعة الأزهر)، وكان عنوان الرسالة (اتجاهات الشعر المعاصر في نجد)، وكنت يومها صارم الحدية، لا أرى إلا الأنموذج العربي الخالص العروبة، وشاباً يتوقد حماساً وإصراراً وعناداً، ومبتدءاً ينقصه الشيء الكثير، وقلت ما قلت، ثم دفعت بالرسالة إلى المطابع على ماهي عليه من قطعيات، لا تقبل الخيارات، وخرجت إلى الناس بكل ما فيها، ووجدها المكتوون من مواقفي الأدبية فرصة للنيل من إمكانياتي والسخرية بي انتصاراً لأنفسهم، ولو أنني فعلت مع نفسي مايفعلونه معي لوقفت على ثغرات كثيرة في الرسالة لم يقفوا عليها، فالطالب المبتدئ حين يقول كلمته تظل وثيقة رصدية لمرحلة من حياته، تقف حيث هي، ولكنه لايقف، ولقد أشفقت على بؤس هؤلاء لتصورهم انني لما أزل حيث كنت قبل ثلاثين سنة، وها أنذا أعود إلى الشاعر بعد ما نلت منه ومن لداته أمثال (محمد عامر الرميح) وتأتي عودتي بعد ما تغيرت البلاد ومن عليها، وتبدلت الرؤى والتصورات، وأصبحنا غيرنا بالأمس، والذين يقرؤون رأيي فيه اليوم ورأيي فيه بالأمس سيجدون التغير والتبدل. وقد لايحسنون الظن، ولكن عليهم ان يعرفوا ان الإنسان الطلعة يعيش حيوات تتبدل ساعة بعد أخرى، ولكنه يظل على مبادئه الثابتة، ومواقفه العامة التي تحفظ قيمه وخصوصيته وهاجسه.

والشاعر (عبد الرحمن المنصور) كما قلت شع نجمه شاعراً ملء السمع والبصر، ثم خبت أنواره، وطوى كشحه، واستدبر الكلمة المبدعة الجميلة، ولم أسمع منه ولا عنه إلا الأقل. وكم كنا نود لو أنه واصل عطاءه، فلقد كان من النوابغ، وممن سبقوا زمنهم في رمزيتهم وواقعيتهم وتمردهم ويأسهم وقنوطهم وضجرهم ومللهم من الحياة:

دربُنا مظلمٌ وشحته الأماني بثوب الرياء

فبدى مشرقا وهو ليل دجى

وبدا داجيا وهو شمس الضحى

دربنـــــــــــــــا مظلـــــــــــــــــم

خرج من نجد طلباً للعلم، وقد تركت أحوالها المتردية إذ ذاك آثاراً مؤلمة جسدها في تأوهات شاكية باكية:-

العـــيشُ والمحـــراث والفـــأسُ الثلـــيم

والأرض نزرعهـــا ويحصـــدها الغـــريم

وكآبـــــــــــــة خرســــــــــــــاء

تقضـــــمنا علـــــى مـــــر الســـــنين

وقصد الحجاز وتخرج في معاهدها ثم قصد مصر وتخرج في جامعاتها، ولم يعد إلى نجد يوم أن عاد يحمل المؤهل الجامعي، بل جذبته منابع النفط واستهوته مسارح الكسب والعمل، ولعله لم يشهد ما حفلت به (نجد) من رخاء واستقرار، وما أفاء الله به عليها من علم ومدنية وحضارة. وتوقفه عن الإبداع حال دون تسجيل التحولات التي مرت بها بلاده. وهو كما قلت شاعر مقل، ومجدد بادر إلى حالة من الانقطاع، بحيث تجاوز المرحلة التي عاشها، فكان كما (المتنبي) غريب الوجه واليد واللسان، فلم يحفل به المشهد الأدبي، ولم تصخ له الأذن التي ألفت الإنشاد، عاش في مصر شاباً يتلهف إلى المعرفة أدرك عصر العمالقة والمدارس الأدبية، ووعى زمن التحولات الفنية والدلالية وشهد المعارك الأدبية، وأصاخ بوعي لكل المستجدات، وسايرها بثقة واقتدار، وامتلك الجرأة على كسر عمودية الشعر متجاوزاً سوائد الفن واللغة والدلالة، وقد يكون تجاوزه الجريء الذي لانمضي معه فيه إلى نهايته سبباً مهماً من أسباب عزوفه. فالمشهد الأدبي حين لايحفل بالنوابغ تنطفئ في أعماقهم شعلة الإبداع، والذين تتاح لهم فرصة استعراض النماذج الشعرية والدراسات الأدبية التي واكبت انطلاقته المبكرة سيخرجون بانطباع جديد، قد يختلفون مع بعضهم، والاختلاف حول الشاعر أو المفكر من الظواهر الصحية، وحسناً ان يكون الشاعر مثار خلاف، فالمشاهد لاتحيا إلا بالجدل والمعارك الأدبية، والمبدعون لايكرسهم إلا الاختلاف حول اهليتهم.

والأمل كبير أن يحدث هذا الكتاب التوثيقي ضجة حول الشاعر وشاعريته، فنحن أحوج ما نكون إلى استعادة شعرائنا الهاربين، وأحوج مانكون إلى المراجعات المعرفية التي تبحث عن الحق، ولا تهتم بالانتصار.

لن أتحدث عن شاعرية الشاعر، ولا عن قضاياه الفنية والدلالية واللغوية فمجال ذلك متن الكتاب، والدارسون والنقاد اكتنفوه من كل جانب، وتحدثوا عن شاعريته المبكرة ومذهبه الشعري، وتأثره بشعراء مصر والشام وإضافته للتحولات الفكرية والسياسية، وتعالقه الواعي بالمستجدات، ومع اكتفائي بما يقال فإنني أود الإشارة إلى ظاهرة يمتلكها الشاعر، وهي جديرة بأن تستعاد، تلكم هي تجديده الشكلي للقصيدة، وانفتاح النص عنده، فهو قد ناهز النثرية، وأوغل في الرمزية، الأمر الذي سيجعل الناس في خلاف شديد حول مشروعية المناهزة والإيغال. وشوارد الشعراء هي التي تذكي الخلاف. قيل عنه إنه واقعي والواقعية في زمن المد الاشتراكي تحال إليه، وهي من قبل تحال إلى الواقعية الاجتماعية، وتداول الواقعية في ذلك الوقت حساس ومثير، وأحسب أن واقعيته اجتماعية، وقيل عنه أنه رمزي ورمزيته كما رمزية (محمد عامر الرميح) تتعالق مع المدرسة الرمزية الألمانية التي وجدت ملاذها في بيروت عند (البيير أديب) ومجلته (الأديب)، وقيل عنه إنه يستلهم شعر (نازك الملائكة) صاحبة المشروع العروضي الذي استبدل العمودية

بالتفعيلة، مع عدم التزامه بشرطها العروضي الذي أثار حفيظة (محمد النويهي) وسيقال عنه أشياء كثيرة بعد صدور هذا الكتاب، ولكنه سيبقى شاعراً لاغبار على شاعريته. والمؤسف أنه حين عاد من بعثته أخذ بلسانه يجره إلى الصمت، مثلما أخذ موسى بلحية أخيه وبرأسه يجرهما إليه. وليته أطلق للسانه العنان، ليصدع بروائع الشعر وجميل القول.

إنه شاعر خسرته المشاهد المحلية والعربية، وخسر نفسه، حين جمد الكلمة على شفتيه وهي بعد لم تأخذ وضعها الطبيعي، وما كان له أن يقسو على موهبته، فيعطلها، ولا على المشهد الشعري فيحرمه من خير كثير، وما حصل حصل، والتاريخ وحده كفيل بأن يقول الحق، فهو الحكم العدل. بقي أن نشكر الذين ذكروه بعد ما نسيه الأقربون، واستعادوه بعد ان طواه النسيان. واستعادة الرواد على أي شكل تمكين للدارسين والنقاد، كي يجربوا آلياتهم، ويعيدوا قراءة من صمت المشاهد عنهم بعدما اقترفوا جريرة الصمت الاختياري.

حواضن الأدب السعودي وملامحه في العشرينية .. ! (١) [(١)]

*أولاً - الحواضن:

١/١ عَهِدَتْ مشاهدُ الأدب والنقد في كل العصور تناولَ الحركة الأدبية على مستوى الأشخاص أو القضايا أو الأقاليم أو الأزمنة، في سبيل الرصد التاريخي أو الفني أو الموضوعي. وممارسةُ الوصف أو التفكيك الجزئي أو المرحلي لقصد المعرفة أو التقويم تُمَكّنُ من شد أواصر الأجزاء، والتوجه صوب تشكيل وحدة كلية، بعد استيعابها واحدة واحدة. وإذا كان بعض الدارسين يحبذ الشمولية، ويَحْذرُ التجزيئية، ويرى أن الأدب العربي لاتفرقه الأقاليم، ولا تشرذمه السياسة فإن البعض الآخر لايرى بأساً من الاتجاه صوب المقاطع الزمانية أو المكانية أو اللفظية أو الدلالية أو الفنية، لاستكناه جانب من جوانبه، متى كان السبرُ والجسُّ لتعميق المعرفة، والتخطي المرحلي إلى الشمولية، فدراسة المقاطع الأدبية على أي شكل، يكمل بعضها بعضا، ومن لم يستكنه الأجزاء لايتصور الكليات.

وحديثي عن مقطع زمني في سياق الأدب العربي في المملكة العربية السعودية، ومقطعٍ مكاني في سياق الأدب العربي المعاصر كافة، يُقصد منه تعميق الرؤية لجانب من جوانبِ الأدب العربي، ولا تُراد من وراء ذلك المفاضلةُ، ولا المفاخرةُ، ولا التجزيئيةُ، ولا التصدير. ذلك أن الأدب العربي منظومة واحدة في لغته وهمِّه وأعماقه وثقافته. وهو في المملكة حلقةٌ في سلسلة الأدب العربي المعاصر، من المحيط إلى الخليج. لا نفرق بين أحدٍ من أجزائه، وهو في المملكة لا يختلف عن أدب الأقطار العربية إلا بقدر ما تختلف مسارحه في الأوضاع السياسية والاقتصادية والدينية، وهي مختلفة ولاشك، وليس الأدب في المملكة بمعزل عن بقية الأدب العربي، وإنما هو متواصل متفاعل، ينهض بمهمته المشتركة، ويقف على ثنيته بكل اقتدار، ولا تحول بعض سماته دون الاندماج والتعالق.

وحوافز هذا اللقاء ترتبط بمناسبة وطنية، أحياها الأدباء والعلماء والمفكرون في المملكة، فلقد مرَّ من عهد خادم الحرمين الشريفين عشرون عاما، حفلت بعدد من المنجزات، على مختلف الصعد، ولم يجد النخبويون من الأدباء بدأ من مواكبتها بقراءة نقدية لأدب تلك الحقبة: للتصور والتقويم ورسم الخطط المستقبلية وبَعْد الفراغ من القراءة ورصد المعطيات الأدبية، ايصال النتائج إلى الإنسان العربي، ليكون على معرفة كافية بأدب جزء من الوطن العربي. و(الحركة الأدبية) في المملكة جزء من معطيات هذه الفترة. وتجسيدُ الحركة: كماً ونوعاً، ومعرفةُ توجهاتها وتحولاتها، ومدى تفاعلها مع المستجدات، لطرح ذلك كله في المشاهد العربية للتواصل والتفاعل مطلبٌ ملح. فالمشاهد العربية هي المجال الطبيعي لمنجز الأدباء. والتقدم بأدب الأقاليم يحفزه الحرص على تشكيل وحدة أدبية تجمع الشتات، وتوحد الهم، وتجانس بين الأنواع. فالوحدة المرتقبة لاتتم إلا بعد تهيئة الأجواء، وتجنيس الوحدات، لأن ذلك بعض ماتود المؤسسات السياسية تحقيقه. وأدباء العالم العربي بحاجة ماسة إلى التواصل والتعارف، وتبادل المعارف، لأن همهم مشترك، وقضيتهم واحدة. والمخلصون منهم يلتمسون أدنى الأسباب لفتح القنوات وتجسير الفجوات. ولأن أيَّ مَشهد عربي يعد جماع المشاهد ومنطلقها وعمقها الثقافي، فقد رغبت في تصوري عن مقطع من الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية عبر عقدين من ذلك العهد، وهو حقيق بالقراءة الاستكناهية، لما توفر له من ظروف مواتية. فالأمن والاستقرار والإمكانيات الاقتصادية، والخطط التنموية، والتحولات المؤسساتية،

---

(١) تاريخ المقال: ٢٩/ ١٠/ ٢٠٠٢

والمبادرات الإيجابية، كل ذلك أسهم في تحقيق جانب من تطلعات الأمة في ظروف عالمية عصيبة، يمس عالمنا كلُّ دخنها. ويأتي الأدب بكل فنونه في الصدارة، فلقد استطاع الأدباء في المملكة تحقيق قفزة كميّة ونوعية.

١/ ٢ وتناول الحركة الأدبية على مدى عشرين عاماً من ١٤٠٢هـ - ١٤٢٢هـ لا يتأتى إلا عبر تقص للظروف والبيئات التي توفرت لهذه الحركة، ومكنتها من الأداء المتعدد والمتنوع، وحواضن الأدب تشي بملامحه، وتقصي المكونات يُسّهل طريق التصورات السليمة عن أدب أية أُمّة.

والفترة المدروسة امتدادٌ لعهود سلفت، ولكل عهد سياقاته وأنساقه الخاصة التي فرضتها المتغيرات المحلية والعربية والعالمية. والأدب صدى للظروف المحيطة: محلياً وعربياً وعالمياً، والشعراء والروائيون والنقاد ضمير الأمة ولسانها ورائدها الذي لايكذب. ومع أنه من اليسير استبانة الحواضن فإنه من الصعوبة بمكان تلمس الملامح الخاصة في السياق المحلي، ومن الأصعب تلمُّسها في السياق العربي المعاصر. فالأدب العربي: زماناً ومكاناً ولغة وثقافة وحضارة من التجانس والتواشج والتداخل، بحيث يعسر تفكيك تماسكه، وأحسب أننا نبالغ لو قطعنا بإمكان الوقوف على الفوارق الجذرية، ولكننا مع هذا لا نعدم بعض الخصوصيات الحسية أو المعنوية، التي يتوفر عليها إقليمٌ دون إقليم، أو فترة دون فترة، أو مبدعٌ دون مبدع. فالخصوصيات لاتلغي وحدة الأدب العربي، كما أن الوحدة الشاملة لاتحول دون تداخل الألوان والأشكال المتناغمة، فالروضة المربعة الغنَّاء، تختلف فيها الأشكال والألوان والطعوم والروائح، وذلك سر جمالها، كما أن الإنسان القارئ يتغيربتغير المقروء، وأناسيُّ المنظومة الفكرية الواحدة يختلفون باختلاف مقروئهم، والظروف الخاصة لها دور الظروف العامة، والمتابع المدقق في حياة شاعر أو أديب، يجد أنه يتشكل من مراحل فيها بعض المتغيرات، وهذه المتغيرات لا تُخِلٌ بالوحدة الكلية لأدب الأمة، وليس من شك أن لكل مرحلة خطابها، فالمتغيرات السياسة، والتحولات الاجتماعية، والتنوعات المعرفية، تغير نبرة الخطاب واهتماماته وترتيب أولوياته. وليس هناك ثبات لازب في التناظر لا يريم، ولكن هناك أُطر عامة، وخصوصيات مندرجة تحت هذه الأطر. وتغير الاهتمامات، وتعدد الكيانات السياسية، وما تمر به الأقاليم من نجاحات أو إخفاقات، ينعكس أثر كلُ ذلك على آداب الأقاليم. والظروف الخاصة تفعل فعل الظروف العامة، ولكل أديب بيئات ثلاث: - عامة، وخاصة، وأخص، ولكل واحدة دورها الفاعل وقد يكون للبيئة الأممية الأعم دورها المضارع لما دونها من بيئات، والأمة تنتظمها بيئتان: عامة وأعم، وكلما دقت النظرة تبدت الخيوط الخفية، وهمُّنا مقتصر على الكشف والتوصيف والتعريف وقد يكون من نافلة القول الإيماء إلى بعض الملامح والخصوصيات.

وقدر العالم العربي أنه كيانات سياسية، لكل كيان همومه وخياراته ومشاكله وإمكانياته وتركيبته السكانية، وله تحولاته وظروفه الخاصة والعامة، والراصدون لتحولاته سيجدون مادتهم في الإبداع القولي، فهو صدى الأحداث، يعطي أدق الملامح، ويشكل جزئيات التصور. ولما لم يكن التواصل بين أدباء العالم العربي، ولا بين آداب الأقاليم العربية قائماً على المستوى المطلوب، فإننا أحوج ما نكون إلى من يجدد هذا التواصل على أي شكل، ويلتمس الأسباب الداعية له. ومناسبات التواصل ترسخ العلاقات، وتنمي المعلومات، وتصحح المفاهيم الناقصة أو الخاطئة، وتلك بعض الحوافز التي حدت بنا إلى استغلال هذه المناسبة.

١/ ٣ والظروف السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية في المملكة هي التي رسمت مسار الأدب، وحددت مطارح الأدباء، واستقبلت فيوض الأدب العربي والعالمي،

وتفاعلت معها، واستفادت منها، واصطبغت ببعض صبغتها، ولما تكن سائر الأوضاع في معزل عن رياح التغيير العالمي، وبخاصة في الفنون والآداب. والأدب العربي في المملكة مع هذا الانفتاح والاستقبال يملك القدرة الكافية للتحكم. فالضوابط العامة قادرة على الاستقبال الواعي والانتخاب المحسوب، ولا عبرة بمن جرفته تيارات التغيير، فانسلخ من حضارته، ولا بمن غَلَّ يده، وغض بصره عن استشراف الآتي، وانكفأ على نفسه، وصار ابن تاريخه لا ابن حاضره، ذلك أن لكل وضع طرفين ووسطاً، ومع هذا لم تكن الغلبة للأطراف وإنما هي للوسطية الواعية، فالضوابط الدينيةُ والسياسيةُ والاجتماعيةُ تحول دون الاندفاع غير المحسوب، ولكنها لاتعيد القاصية إلى الجماعة، ومع الضوابط فإن الإمكانيات التواصلية قادرة على تجسير الفجوات، وتوسيع القنوات، واستدعاء المستجدات على كل الصعد العربية والعالمية. فالمشهد الثقافي في المملكة يعج بمختلف التيارات، الأمر الذي عدد الخطابات، ولأن سياسة المملكة ذات عمق تاريخي، فإن نظامها السياسي يتوارثُ ضوابطه وسماته وخصائصَه منذ الدور الأول على يد (محمد بن سعود) قبل ثلاثة قرون. وأدوار الحكم السعودي، وإن واكبت متغيرات محلية وعالمية تصطحب ذات الضوابط المستمدة من الشريعة الإسلامية والقيم العربية: تحكيماً وامتثالاً وإظهاراً. والأدب العربي في المملكة في ظل هذه الظروف، نشأ نشأة عربية خالصة، إذ لم يتواصل في بدايات تشكله بالآداب العربية، ولم ينفتح على الآداب الغربية، لعدم وجود الاستعمار التقليدي، فالظروف الدينية المعززة بالمقدسات، وبضوابط الدعوة الإصلاحية، والوضع الاقتصادي الضعيف، والموانع الجغرافية المتمثلة بالتصحر والجفاف، وتقلبات الأحوال، وتموجات التركيبة السكانية القائمة على التبدِّي والقبليةَ والترحُّل، والإمارات الإقليمية والعشائرية، كل ذلك مكَّن الأدب العربي في المملكة إبَّان بداياته من التشكل العربي التقليدي الخالص. وظل عربياً خالص العروبة، وسلفياً خالص السلفية، وضعيفاً بيّن الضعف وملتفا حول نفسه، حتى جاء الدور الثالث من أدوار الحكم السعودي على يد المغفور له (الملك عبد العزيز) الذي أخذ بأسباب الحضارة، فكان أن مكَّن للأدب من الانفتاح.

وبعد توحيد البلاد، وما تبع ذلك من استقرار سياسي، وثراء اقتصادي، وتوطين إلزامي للبادية، وتحول مؤسساتي ألغى الولاءات القبلية والإقليمية، بدأ التواصل بين الأقاليم ومع الأقطار العربية، وأسهمت الكفاءات العربية في صناعة الأدب العربي في المملكة، الأمر الذي هيأ للتلاحم الأدبي والتفاعل الايجابي في وقت مبكر. ولقد عزز الاندماج الإقليمي ومشروع التوحيد الشامل الإسراع في تعميم التعليم النظامي والتوسعُ في عمليات الابتعاث إلى مصر، واستقدام المدرسين، والعلماء والكفاءات: الإعلامية والصحفية والسياسية، وسد الحاجة من المقتدرين من أبناء مصر والشام والعراق، وفي ظل هذه الظروف أعاد الأدب تشكيل نفسه مصطحباً ضوابطه العربية والإسلامية. وفي العشرينية كانت المؤسسات العلمية والأدبية والإعلامية في أوج نضجها وأدائها واستكمال آلياتها، فكانت تلك الفترة بما هيئ لها من ظروف مواتية فترة استثنائية على كل المستويات. ولعل الأحداث الجسام التي مرت بالوطن العربي أسهمت في تنوع الأداء وأصالته، فالمواقف الحساسة الضاغطة، والأحداث المصيرية، تفجر المواهب، وتهيئ المتلقي للتفاعل الإيجابي. والأدب العربي في المملكة لم يكن في معزل عن المشاهد العربية، منذ التوحيد إلى الانطلاق، ولكن تواصله عفوي غير منتظم وغير متصل. وإذا كان عمر الأدب العربي في المملكة قصيراً إلى جانب أعمار الآداب العربية المعاصرة في حواضر العالم الإسلامي: دمشق والقاهرة وبغداد فإن إمكانياته في إقليم الحجاز وظروفه المواتية فيما بعد مكنته من اللحاق بتلك الآداب، والوقوف إلى جانبها، والنهوض

بما نهضت به، من إمتاع واستمالة وإقناع وإفادة ودفاع عن قضايا الأمة العربية والإسلامية، مع استكمال واع لمقومات الآداب الحية. وهذا التميز والحضور الفاعل، والتنوع، والأخذ بالمستجدات، حفز كبار الأدباء والنقاد في الوطن العربي على استدعائه والحديث عنه، في وقت مبكر، يقدم هؤلاء عميد الأدب العربي الدكتور (طه حسين)، ومن بعده (محمد حسين هيكل)، و(العقاد) و(مندور) وسائرُ الدارسين الأكاديميين، الذين موضعوا مفرداته وشخصياته، لتكون مادة ثرة للرسائل العلمية وبحوث الترقية. ولقد نفله الأدباء والنقاد من كافة أرجاء الوطن العربي بكتب وبحوث ومقالات، تقصَّيْتُ عناوينها ومسمياتها مع اثنين من زملائي في كتاب (الأدب السعودي بأقلام الدارسين العرب).

حواضن الأدب السعودي وملامحه في العشرينية .. ! (٢) (١)

٢/ ١ ولأن حديثنا عن (الأدب العربي في المملكة) مقتصر على (العشرينية). فإنني سأضرب صفحاً عن تقصي البدايات، وعن مرحلتي الريادة والتأسيس، تمهيداً للدخول في صلب الموضوع، وسوف يكون تركيزي على (مرحلة الانطلاق)، التي بدأت بوادرها في العقدين الأول والثاني من القرن الخامس عشر، إذ هما مشمول (العشرينية)، على أن ذلك يستدعي بعض الاستطرادات والنظر في الظروف المحيطة. والناقد التكويني يتقصى مخرّجات الأدب ومشكّلاته وحواضنه، ليسهل تفهُّمُ بنيته الداخلية واستكناهُ خصوصيته، وتصورُ حجم وجوده. فالأدب تنسجُ لحمتُه وسداه المعطياتُ البيئيةُ والظروف الآنية: المؤثرة والمحركة والموجهة. و(العشرينية) استقبلت نتائج الخطط التنموية الأولى، وعاشت ذروة الطفرة الاقتصادية، التي اجتاحت المملكة بفيوضٍ من الإمكانات التي قلبت كل الموازين، وغيرت كل التوقعات. وكان أن تمخضت الطفرة عن مؤسسات علمية وأدبية وإعلامية، أسهمت في تنشيط الحركة الأدبية، وفي إحداث متغيرات جذرية في توجهاتها. ففي تلك الفترة عادت طائفة من المبتعثين إلى أوروبا وأمريكا، تحمل المؤهلات العالية في الأدب والنقد ومناهج اللغة، وكان لانتشار هؤلاء في الجامعات والمؤسسات أثره البالغ في إشاعة المذاهب والآليات النقدية والأدبية الجديدة، بحيث راوحت بين السلب والإيجاب، إضافة إلى ما أحدثته من ارتباك واضح، وهي إلى الإيجاب أقرب. وليس أدل على ذلك من تتابع التيارات والتيارات المضادة، ك (الحداثة) بكل اتجاهاتها وبعدياتها، والمناهج (الألسنية) بكل تحولاتها وتنوعاتها و(الأدب الإسلامي ونقده) و(المحافظة والتجديد)، وإثارة المعارك الأدبية، وقيام حوار متعدد الاهتمامات بين أنصار الجديد والقديم، وبين المجددين والحداثيين، وبين الآخذين بآليات النقد البنيوي المعْلِي لشأن اللغة، والآخذين بآليات ومناهج نقدية تعلي من شأن الجماليات أو الدلالات، والمستعيدين لجذور النظريات التراثية، والنافين لها، وفيما بين هؤلاء وأولئك نسلت شرذمة قليلة استخفت بالموروث وامتعضت منه. وهذه المعارك الأدبية والنقدية التي تبدت بكل وضوح في هذين العقدين تطلبت خلفية ثقافية ورصيداً معرفياً، لتحفظ التوازن، وتحققَ سنة التدافع والتداول، وتُمكن كل طائفة من حماية ما تنتمي إليه من مذاهب وأفكار. واحتدام المشاعر والمشاهد مؤشر إيجابي، أسهم في تحريك الركود، وحفز ذوي المذاهب على الارتداد إلى مذاهبهم لتطوير آلياتها، وتحرير مسائلها، وتكريس حضورها في المشهد الأدبي. والجدل الذي أحدثه الانفتاح، تجاوز بالأدب وفنونه قاعات الدرس وأروقة الجامعات إلى مشاهد الأدب وقنوات الإعلام ومنافذ التأليف والنشر والمؤسسات الثقافية، وأتاح فرص التواصل مع الأشباه والنظائر من الأناسي والظواهر والقضايا والمذاهب في كافة المشاهد العربية.

٢/ ٢ هذه المخاضات تطلبت مؤسسات إضافية لاستيعاب هذه المعارك، كان من بينها فكرة (الأندية الأدبية) التي بدت في وقت سابق، ولكنها كانت إذ ذاك محدودة ومتواضعة. وفي (العشرينية)، أخذت وضعها المتميز، ووعت رسالتها، وتوسعت اهتماماتها، وتقاطر تأسيسها في حواضر المدن، ودُعمت من الدولة بمساعدات سخية، مكنتها من طبع الكتب، وتنفيذ المحاضرات، وعقد الندوات، وتنويع الأمسيات، وإقامة معارض الكتاب، وحضور المهرجانات، واحتضان الناشئة، وتشجيع الموهوبين منهم. ولقد هيئت في كل ناد مكتبةٌ عامرةٌ بالكتب مكتظةٌ بالرواد، فيها صالات للمطالعة، إضافة إلى أن لكل ناد دورية أو أكثر، محكمة وغيرَ محكمة، منها ما يختص بالتراث، ومنها ما

---

(١) تاريخ المقال: ٥/ ١١/ ٢٠٠٢

يهتم بترجمة الأعمال الإبداعية والنقدية العالمية، ومنها ما هو مُعتن بالأعمال النقدية الحديثة: تنظيراً وتطبيقاً. ويأتي (نادي جدة الثقافي) في مقدمة الأندية في إصدار الدوريات المتنوعة والاحتفاء بالمستجدات المصطلحية: كالنصوصية، والتناص، والبنيوية والتفكيكية وتحولات ذلك كله. وسلبياتُ هذا الاحتفاء -إن كان ثمة سلبيات - متمثلةٌ بالمندفعين دون تأصيل معرفي وبالمندسين دون فهمٍ للمقاصد والمقتضيات، وبالمستبدلين دون انتقاء، وبالمستخفين بالتراث دون تبرير أو تحديد. ولا تخلص أيُّ حركةٍ بهذه القوة والشمولية من سلبيات، والمشاهد العربية كافة لاتخلو من فئات رضيت بأن تكون صدى لما يدور في المشاهد العالمية.

٢/ ٣ وفي العشرينية تقاطرت مبادرات أهل الدثور من رجال الأعمال وكبار الشخصيات ممن لهم روابطهم بالفكر والأدب بافتتاح (الصوالين الأدبية) واستقطاب الأدباء والمفكرين والمحاضرين لإحياء الأمسيات والمحاضرات، وتكريم الرواد والمتميزين من الأدباء والمبدعين، وتداول الرأي حول الظواهر الأدبية والفكرية، ففي حواضر المملكة (أحاديات) و(اثنينيات) و(ثلوثيات) و(أربعائيات) و(خميسيات) تغطي أيام الأسبوع، وتُذكّر بصالونات (العقاد)، و(مي زيادة) في الحصر الحديث، ومجالس (سكينة بنتِ الحسين) ودواوين الأمراء والكبراءِ ومجالس العلماء و(مجالس الأدب العربي في الأندلس) ومن قبل هذا (أسواق العرب) وما أنجزته من علم وأدب. ففي هذه (الصالونات) يُكرَّمُ الأدباءُ، وتنفذُ الندوات والأمسيات والمحاضرات. وتقوم (اثنينية الخوجة) في (جدة) - على سبيل المثال - بطباعة الأعمال الأدبية والإبداعية، ورصد ما ينفذ في كل لقاء، وطباعته وتوزيعه، وقد صدر عن (الاثنينية) أعمالٌ شعرية وروائية ودراسية. وبعد وفاة العلامة (حمد الجاسر) تحولت مشاريعه العلمية وندوته (يوم الخميس) بدعم من الدولة إلى (مؤسسة ثقافية) لها مشاريعها العلمية، ومجلتها المتخصصة بجغرافية الجزيرة وتاريخها، وقد شُكل للمؤسسة مجلسٌ إداري من العلماء والأدباء، ودعمت مادياً ومعنوياً من الدولة ومن ذوي اليسار، ولما تزل تمارس عملها العلمي والأدبي. وفي ذلك إثراء للحركة الأدبية في البلاد.

وفي تلك الفترة اتجهت الجامعات الثماني في المملكة إلى تأسيس جمعيات جغرافية وأدبية ولغوية وفقهية، وشُكلت لكل جمعية مجالس إدارة، ووضعت لها لوائح تنظيمية، ومصادرُ تمويل، وباشرت عملها تأليفاً وتحقيقاً وطباعة، مع ممارسة الأنشطة المنبرية. كما منح بعض الأدباء والعلماء امتياز إصدار مجلات محكمة تختص بجغرافية المناطق وتاريخها وآدابها، ومعتمدة فيما تنشر على التخصصية والتحكيم. ولكل مؤسسة أو وزارة إصداراتها: البحثية والدعائية.

٢/ ٤ وإلى جانب (الأندية) و(الصالونات) و(الجمعيات) و(الدوريات) قامت مكتبات علمية وأدبية، تمارس أنشطة ثقافية، وتصدر مجلات أدبية محكمة. تقْدمُ ذلك (مكتبة الملك فهد الوطنية) بما هيئ لها من إمكانات، وبما أنيط فيها من مسؤوليات، وبما أنجزته من أعمال و(مكتبة الملك عبد العزيز) التي أنشأها ولي العهد، وتعهد بتمويلها، والتي نفذت على أحدث الطرق، وزودت بأحدث الأجهزة، ومكنت من التوسع في المهمات، فكانت بحق مؤسسة ثقافية، تعج بفنون القول. وهذه المكتبة المؤسساتية تصدر (مجلة أدبية)، وتنفذ ندوات عالمية، تستضيف لها مئات الأدباء والمفكرين من أنحاء العالم، وتطبع كتباً وملفات، وتنتج برامج (تلفازية)، وتتوفر على آخر الإصدارات من الكتب، تجهز قاعات المطالعة، وتوفر الأجهزة الحديثة، إضافة إلى ماحظيت به المؤسسات القائمة من قبل من تطوير ودعم وتحديث وسائل، ف (دارة الملك عبد العزيز) من معالم البلاد العلمية والثقافية لها مجلتها ومطبوعاتها وإسهاماتها المتعددة. و(مؤسسة الملك فيصل الخيرية)

وما يتبعها من (مركز ثقافي) و(جائزة عالمية) و(مجلة محكمة) و(مكتبة حديثة) و(مركز معلومات) وما ينفذ فيها من ندوات ومحاضرات. و(المهرجان الوطني للتراث والثقافة) وهو تظاهرة ثقافية تراثية، يقام كل عام، وتنفذ على متنه وفي هوامشه ندوات رئيسة، تكون لها محاورها، وبحوثها، وأخرى ثانوية، إضافة إلى محاضرات وأماسٍ متعددة الاهتمامات، وطبع كتب، واستضافة رجالات الفكر والأدب و(جمعية الثقافة والفنون) و(مؤسسة سلطان الخيرية) وما تقوم به من مبادرات علمية وثقافية، و(المكتبات) و(دور النشر) و(المؤسسات الخيرية) لكبار الأثرياء، كل ذلك يشكل حواضن أدبية. هذه المؤسسات حظيت بدعم مادي ومعنوي من قبل الدولة، مكنتها من تنويع اهتماماتها. وفي سبيل تنشيط الحركة الأدبية اتيحت فرص (لعقد مؤتمر الأدباء) السعوديين، بعد توقف دام ربع قرن، وجاءت نتائجه لصالح الحركة الأدبية، فعلى هامشه نفذت (ندوة أدبية متخصصة، وطبعت أعمالها من دراسات وبُحوث في (أربعة مجلدات)، كذلك أعيدت صياغة علمية (لمؤتمر رؤساء الأندية الأدبية)، بحيث يكون على هامش كل مؤتمر (ندوة أدبية)، حول قضية أدبية، تنفذ أعمالها، وتطبع فعالياتها. والاحتفالية المتعددة الاهتمامات التي جاءت (بمناسبة مرور مئة عام) على تأسيس المملكة العربية السعودية، نفذ على هامشها ندوة كبرى قدمت فيها مئات البحوث، ودعي لها آلاف الأدباء والمفكرين من أنحاء الوطن العربي والإسلامي والعالمي، وطبعت أعمالها، وقامت كافة المؤسسات العلمية والأدبية والثقافية والإعلامية بتنفيذ الندوات والأمسيات وطباعة عشرات الكتب: ابتداء أو إعادة، وكان النصيب الأوفى للدراسات الأدبية والإبداعات، وتلتها (العشرينية) التي تأتي هذه المحاضرة من مفرداتها، وفي سبيل دعم الروابط والمؤسسات وافق المقام السامي على فتح (مكتب إقليمي لرابطة الأدب الإسلامي العالمية) وخصص له إعانة سنوية، وأمر بشراء مقر مناسب له، ومن مهمات هذا المكتب تنفيذ لقاء شهري، وإصدار مجلة شهرية، وطبع الكتب الأدبية. ولما تزل إسهامات كبار الشخصيات في المملكة تنقب عن مجالات العطاء الفكري والأدبي والثقافي. ولعل آخر مشروع عالمي (مؤسسة الفكر العربي) التي شملت العالم العربي، وسوف تنهض بمهمات فكرية وأدبية، وتقدم مشروعاً عربياً متزناً، يمتلك آلية الحوار الحضاري.

وتميز عهد خادم الحرمين الشريفين بتعزيز مشروع الموسوعات العلمية والثقافية والأدبية، وقد أُنجز في عهده ثلاثة مشروعات موسوعية:

أ - الموسوعة العربية العالمية. التي صدرت عن (مؤسسة سلطان بن عبد العزيز الخيرية). التي استقطب لإنجازها آلاف المفكرين، ونيفت على سبعة عشر ألف صفحة، وثلاثة وعشرين ألف عنوان، ومائة وثلاثين ألف مادة بحثية، وجاءت في (ثلاثين مجلداً).

ب - موسوعة مكارم الأخلاق التي مولها الأمير مشعل بن عبد العزيز، وأنجزها فريق أكاديمي، وجاءت في أكثر من (ثلاثة وخمسين مجلداً) شملت مكارم الأخلاق في الشعر والتراث العربي.

ج - موسوعة الأدب السعودي في (ثمانية مجلدات) ممولة من سمو الأمير سلطان بن عبد العزيز.

تلك بعض حواضن الأدب العربي في المملكة العربية السعودية، وبعض المنجزات التجهيزية، فماذا عن ملامح الأدب العربي في المملكة؟

حواضن الأدب السعودي وملامحه في العشرينية .. ! (٣)[1]

**الملامح:

٣/ ١ أوجزنا الحديث عن «الحواضن» بوصفها مؤشرات ايجابية، على المستويين الكمي والكيفي، وعلى التحول المستمر، اما عن «الملامح» فإن شأن الأدب العربي كشأن الآداب العالمية، لا يستقر شيء منها على حال، ولا يمتلك لون من ألوان الأدب مكان الصدارة، بحيث يبقى في مركز الأهمية، ثم لا يبادله مكانه لون آخر، وتحولات الادب العربي الحديث: محلياً وعربياً كسرت كل الضوابط، وغيرت كل المعايير، ولما تكن تحولاته في العصر العباسي على يد «بشار» و«أبي نواس» و«أبي تمام» مثل تحولاته على يد «أدونيس» و«أمل دنقل» و«أنس الحاج»، ذلك أن التحولات العباسية لا يستبينها الا الخبراء المتمرسون، وتحولات الابداع السردي والرؤى النقدية، ليست بأقل من التحولات الشعرية، حتى لقد بلغ الأدب بسائر فنونه حد الانقطاع أو كاد، وهو ما يدعو له نقاد الحداثة ومبدعوها، ثم ان الابداع القولي في العصر الحديث لم يكن خالصا للشعر، وانما كان مجاله: السردية والشعرية. وسرديات العصر الحديث تختلف عن سرديات ما سلف، ولما كانت الصدارة منذ القرون الأولى حتى العصر الحديث للشعر، فقد همش سلطانه كل فنون القول، وبطأ بها، وبقي على ما كان عليه من «بناء» و«شكل» و«صور» و«أغراض» منذ «امرىء القيس» ومن لحق به إلى العصر الحديث، مما استطاع معه الراصدون والمنظرون ضبط ايقاعه، فكان اكتشاف بحوره ومعياره وعموديته دليلاً على الثبات والنمطية. ولما ان جاء البشير بطلائع الاستغراب، وسع العصر الحديث كل الخطابات، واتصل العالم العربي بحضارة الغرب، ينهل ويعل من رفدها المحمول على أجنحة الاستعمار ومناديبه، والمستشرقين وعضدهم، والمبشرين والمبتعثين والمترجمين. وبلغت الهيمنة والاستغواء بين المستغربين حد التدافع والاستماتة، حتى لقد نهضوا بالنيابة عن كل أولئك في «غربنة» الآداب: القولية والسلوكية وظلت بقية من خيرة القوم، تتفاعل مع المستجدات بندية، تأخذ ما يفيد، وتنفي ما لا يستجيب للحاجة، ومالا ينسجم مع الذائقة، وما لا يوائم فطرة الأمة التي فطرها الله عليها، ووقعت طائفة من ناشئة الفتيان والفتيات في النثرية والغموض والانقطاع، باسم التجديد وحرية التعبير، وبقيت طوائف اخرى على ما كان عودهم السلف: مقلدين أو محافظين، واوغل فئام من المتعلمنين في بوادر المدنية الغربية والشرقية من دون رفق، ولم يمن الأدب في مرحلة الانطلاق في معزل عن دخن ذلك. وعلى كل مستويات التلقي تغيرت دولة الشعر، وقامت دولة السرد، تقرض سلطان الشعر، ونهضت إلى جانب السرديات المستجدات: الشكلية والدلالية واللغوية، تبدل لحمة الشعر، حتى لكأنه غير الشعر الذي عرفه الأقدمون، والتحولات: الفنية والدلالية واللغوية، ومجيء الابداع السردي بهذه القوة، كاد ذلك كله يفصل الادب العربي عن جذوره، وبخاصة حين علا كعب السرديات، إلى الحد الذي أطلقت معه مقولة: «زمن الرواية» وتحول نقاد الشعر إلى النثر، فكان الزمن: زمن الناقد الروائي، والمبدع الروائي، والقارىء السردي، وفوق ذلك كله جاء «الابداع الأمي» يسد خلالا كان يسدها الشعر الفصيح، ولو كانت المنافسة للشعر قصرا على الرواية لقاسمها المواقع، وشاطرها الاهمية، ولكنها منافسات متعددة، قلبت موازين الشكل الشعري، وأحلت السرديات والعاميات محله، ونهضت وسائل الاعلام بما كان ينهض به الشعر. هذه البدائل والمتغيرات طالت الظاعن والمقيم من أدباء العالم

---

(١) تاريخ المقال: ١٩/ ١١/ ٢٠٠٢

العربي وآدابه، واعادت رسم ملامح الأدب العربي في كل بقاعه، بما فيه الأدب العربي في المملكة، وبخاصة في «مرحلة الانطلاق» التي وسعتها «العشرينية» بوصفها ناتج التجارب السابقة، ومثلما فعلت المستجدات فعلها في سائر الآداب العربية من متغيرات في: اللغة والشكل والدلالة والانواع، هبت رياحها على شعراء المملكة وروائييها ونقادها، فكانت لهم اشكالياتهم ومشاكلهم واهتماماتهم، وتحولت معاركهم من سوح القديم والجديد إلى مسارح المعاصرة والحداثة. وإذا كانت الخصوصية من قبل تُلتمس في الفن والشكل واللغة والدلالة وسائر الأنواع فإنها الآن لا تكاد ترى الا في بعض الجوانب الدلالية. ذلك ان الخلطة والمرجعية الغربية وتعدد قنوات الاتصال جعلت الأدب العربي ذا لحمة متشابهة، وما نريد الحديث عنه مجرد التعريف الكمي والكيفي والنوعي غير مفصولة عن السياقات والانساق العربية، وحين نستذكر ما اشرنا اليه في شأن الحواضن تتبدى لنا الملامح والسمات التي تتشكل في ظل الخصوصيات السياسية والاجتماعية والدينية والاقتصادية، وهي خصوصيات مخترقة بعامل الانفتاح.

٣/ ٢ والأدب العربي في المملكة مر بثلاث مراحل، لا احسبها قسمة رياضية لا تُخلِفُ التوقع، ولكنها فرضية بادية للعيان: «ريادة» و«تأسيس» و«انطلاق». وتأتي «العشرينية» ضمن «مرحلة الانطلاق»، وأهم التجليات تتمثل بانطلاقة السرديات: القصة، والرواية، والسيرة الذاتية، وأدب الرحلات وب«النقد» بمذاهبه وآلياته واهتماماته وتحولاته السريعة التي كادت تقلب موازينه وبخاصة النقد اللغوي على ضوء المناهج الحديثة. وبالتحولات الفنية للشعر متمثلة في «الثنائيات» و«الرباعيات» و«مجمع البحور» وفي «شعر التفعيلة» و«قصيدة النثر» و«الصورة الحديثة» و«النص المفتوح»، وفي «الاغراض الشعرية»: «ميتافيزيقيا» و«صوفيا» و«تأمليا» و«أسطوريا» و«خرافيا» حتى لقد زهد الشعراء والنقاد على حد سواء بشعر «المناسبات» و«المديح»، والخطابية و«المباشرة»، ولما أن جاءت الحداثة المراوحة بين الفنيات والدلاليات والشكليات واللغويات، تغير كل شيء أتت عليه، وواكبت ذلك كله حركة نقدية يتنازعها: «النقاد المذهبيون» و«النقاد الاكاديميون» و«النقاد الصحفيون»، وكان الخلاف على اشده بين الفئات الثلاث، وبين افراد كل فئة، ووسعت «العشرينية» هذه التحولات وتلك الصراعات التي لم تكن على شاكلة ما سبق، ولو نظرنا إلى سائر المتغيرات، والى تبادل المواقع بين السردية والشعرية في «مرحلة الانطلاق» لكدنا نتصور حالة من المتغيرات الجذرية ولو ألحقنا «الحركة النقدية» بالحركتين الابداعيتين: الشعرية والسردية لاتضحت لنا حالة الأدب في تلك الفترة الاستثنائية وهي حالة تنبىء عن تواصل مع القديم والحديث والأحداث، فالشعراء والنقاد المحافظون على أشدهم، ونظراؤهم من المجددين والمتحدثين على قدم وساق، وكل فئة تظن كل الظن انها المسيطرة على المشهد، وانها القادمة اليه على قدر، وما من شك ان «مرحلة الانطلاق» التي وسعتها «العشرينية» من اخضب المراحل، واكثرها فعلا وتفاعلا واذ تكون المملكة في دورها الثالث على يد المؤسس قد مرت بمعركتين مهمتين: «معركة التكوين» و«معركة البناء» بحيث امتدت «معركة التكوين» قرابة الثلاثين عاماً من عام ١٣١٩هـ حتى ١٣٥١هـ ثم تلتها «معركة البناء» من لحظة الاعلان عن اسم «المملكة العربية السعودية» فإن المعركتين أرهصتا لنهضة ادبية ذات صبغة مغايرة لما سلف، فالمملكة تشكلت من اربعة اقاليم، لكل اقليم ظروفه وخصوصياته. يقدم الجميع علما وأدبا وثقافة «اقليم الحجاز»، لأنه الامكن علما وتحضراً، والأقوى تواصلاً مع أدباء مصر والشام، وبخاصة مع جيل العمالقة. وامكانية الدمج الفوري مع هذه الفوارق لا تتم بجرة قلم، بل لابد من رحلة مرحلية شاقة، توظف لها كل الامكانيات، لتكون المملكة الموحدة اقليمياً متوحدة علمياً وادبياً واجتماعياً وذلك ما

أراده المؤسس، يوم ان اعلن قيام المملكة، فلقد وحد المناهج والمؤسسات: الدستورية والتشريعية والقضائية والتنفيذية واهتم بالتوطين والتحول من الرعوية إلى الزراعة والصناعة والمدنية وسائر متطلبات الاندماج. وبتجاوز هذه الصعوبات ونجاح الملك عبد العزيز في اقامة وحدة شاملة اقتربت من اذابة كل الفوارق، توافر ابناؤه من بعده على اجواء ملائمة لمواصلة الانطلاقة التعليمية والادبية، وهو الذي يعنينا في هذا الحديث. واتساع الحركة الأدبية: الشعرية والسردية بشقيها: الابداعي والنقدي، زاد من الاهتمام بالنقد، وبالذات الجانب التنظيري، وكان هَمُّ التوفيقيين منصباً على تسوية النزاع بين المجددين والمحافظين، والمجددين والحداثيين، وتسوية الخلاف مع نفسه في سرعة التبادل بين مراكز الاهتمام بين: اللغويات والفنيات والدلاليات. واشتعال الصراع بين الفرقاء وسائر التحولات منحت الحركة الأدبية حيوية لم تكن لها من قبل ومع استياء المحافظين وتذمر المجددين فإن العاقبة ايجابية لأن كل طائفة عرفت المسيء من المحسن، وان التبس الامر على البعض، مع انه لا يخلو تيار من فائدة.

حواضن الأدب السعودي وملامحه في العشرينية .. ! (٤) [(١)]

٤/ ١ و«العشرينية» شهدت متغيرات فرضتها التحولات العالمية والعربية والمحلية:
فالشعر أصبح غير الشعر.
والسرديات غير السرديات.
والنقد غير النقد.

وما أبدع من نظم وسرد، وما كتب حولهما من نقد، زوحم بمستجدات استأثرت بالعناية والأهمية، وكادت تربك المشهد الادبي والمتابع لفيوض المطبوعات من كتب وصحف ومجلات، والمستمع للمحاضرات والندوات والأماسي، والمتابع للقنوات والاذاعات، يدرك ان المشهد غير المشهد، وان هناك مخاضات سيكون لها ما بعدها، ولأن فترة «العشرينية» واقعة في «مرحلة الانطلاق»، فقد وسعت المبدعين حقاً والمقتدرين ثقافة ودربة والمقلدين والمحافظين والمجددين والحداثيين، وكانت الكثرة والغلبة فيها للمثقفين من الشباب ولذوي الدراسات العليا المبتعثين والمقيمين ولمن هم دون ذلك من مثقفي السماع. ولقد استطاع «النقد الصحفي» المشايع لبعض التيارات والمشيّع لابداعات بعض الناشئة المغامرة ان يغير كثيرا من الاولويات والاهتمامات، وان يحاول اكراه الناس على ان يكونوا كما يريد، فبعض من يمسكون بأزمة الاعلام المقروء، يديرون المعارك، ويختارون التوقيت والتقدير المناسبين للعمل الصحفي، وقد لا يتأتى لهم ذلك، وبخاصة حين يجد الجد، ويبدو الحيف أو التحامل. ومع ما يقترفه «النقد الصحفي» من تجاوزات، فانه الأقدر على تحريك الركود وجر الأقلام، وبدون التناوش لا تكون حركة أدبية نشطة، ومع تذمر البعض من تجاوزات «النقد الصحفي» إلا أنه اسهم في تحفيز المقتدرين لحماية مقدراتهم. والمفاهيم الخاطئة تتمثل في حصر الحركة الادبية بمن يلمون بالوسائل الاعلامية وتناسي كفاءات متميزة، تقف حيث قاعات الدرس وممارسة التأليف والتحقيق. ومن الخطأ تقويم الحركة الأدبية من خلال التداول الاعلامي، وذلك بعض ما نسمع به. والحضور الاعلاميُّ وحده مؤشر لا غير، يحفز على التنقيب في الوثائق. والنقاد الذين يلاحقون المستجدات من مناهج وآليات، وبخاصة ما يتعلق بالنقد الحداثي أو البنيوي خلفوا ضجة من مشاهد الأدب في البلاد، وحملوا المناوئين والمتحفظين على استرجاع الأصول وتمحيصها، والتأسيس لنظريات نقدية ذات جذور تراثية، وهذا الاحتدام لم يكن خاصا بالمملكة، ولم يكن وقفا على الفترة المدروسة، ولكنه كان الأكثر حضورا، والأقوى جدلا وتحفيزا للأطراف، والدفع بهم إلى أتون الجدل. وما اعترى هذه الفترة اعترى كافة المشاهد العربية. واحسب ان الانفتاح المتاح، والتواصل المتعدد القنوات، والامكانيات المادية جعلت المملكة طرفا فاعلا ومتفاعلا وسوقا مغرية لترويج الكتب والصحف والدوريات واستضافة المؤتمرات والندوات والمهرجانات ومعارض الكتاب العالمية.

وتلك الفعاليات حولت العملية الأدبية إلى خلق آخر، أثار انتباه الراصدين والمؤرخين. ولقد كان الشعراء والروائيون والنقاد الشباب وراء هذه التحولات، يكرسونها ابداعاً: سردياً وشعرياً، ونقداً: تنظيرياً وتطبيقياً. والحركة النقدية حول الشعر تنازع صدارتها: نقاد المشهد الادبي غير المؤسساتي، وكانوا شعبتين: شعبة المثقفين المتضلعين من المستجدات، وشعبة الصحفيين المشايعين، ونقاد أكاديميون عبر الدراسات والمحاضرات. فكان نقاد المشهد أسرع إلى التعديل والتبديل والهيمنة، فيما كان

---

(١) تاريخ المقال: ٢٦/ ١١/ ٢٠٠٢

الأكـاديميون أقرب إلـى العلمية والمنهجية والنمطيـة ومثلمـا تفرقت السبل بنقاد المشـهد الأدبي اختلفت مواقف الأكاديمين من المتغيرات، فنجد طائفة من أعضـاء هيئة التدريس في «كلية الآداب» بـ«جامعة الملك سعود» و«جامعة الملك عبد العزيـز» أكثر مرونـة وتقبلاً للتجديد وايغـالاً في المنتج الغربـي الـذي قد لا تقوم الحاجة إلـى اكثره، فيمـا نجد نظراءهم فـي كليـة «اللغة العربيـة» «بجامعـة الامـام محمد بـن سـعود الاسلامية» ومثلهم اعضاء هيئة التدريس بـ«جامعة أم القرى» أميل إلـى التريث والثبات، وأحفل بـالتراث، ولا تخلو الجامعات الأربع من عناصر تحـالف لسمة الأمـة، ولكن شـواذ القاعدة تكرسـها ولا تلغيهـا. ونسـتطيع القـول بـأن النزعـة التاريخيـة والـدرس الأدبـي سـمة بـارزة لـدى المحـافظين، فيمـا تكون النزعـة التنظيريـة والتطبيق الألسـني بكل تحولاتـه «العلائقيـة» و«السيميائية» و«التفكيكية» سمة بارزة لدى المجددين، واحتدام الجدل بين تلك الطوائف مؤشـر ايجـابي. والتبـاين فـي المشـهد الأدبـي، وفـي أروقـة الجامعـات أسـرع فـي تشـكل المذاهب والتيارات، وفي ظل هذه الظروف الاستثنائية تبدت حركة نقدية تمخضت عن عدد من القضايا والظواهر التي حفزت كل طائفة على تكريس نفسها، واشاعة مذهبها، وفي ذلك اثراء واغراء.

٤/ ٢ وجاء مـن بين هـؤلاء وأولئك ناشئة متسـرعة اسـتدرجها تعـدد المشـاهد وتنـوع المـذاهب وامكانيـة القـول، واسـتهوتها تلـك الظـواهر، وغرهـا فـي فنهـا التـرخص، بحيث تقحمت المشـاهد الأدبية بامكانيات ضـعيفة وتصـورات مهزوزة، فكـان ابداعها تصـنعاً، وتجديدها تقليداً، ولم ينهض احد من النقاد لمساعدتهم على معرفة انفسهم وصقل مواهبهم، بل استطيع القول بأن البعض اوهمهم وغرر بهم. لأن «مرحلـة الانطـلاق» تتسم بـالكثرة والتنوع والتسارع في التغيير والاستبدال فقد كثر الأدعيـاء والمقتدرون الـذين يكتبـون من خلال امكانيات ثقافية لا من خلال مواهب ومواقف، ولا يستبين الفروق الدقيقة بين كتابة المقتدر وابداع المجرب الا الناقد الخبير. هذه الظواهر السلبية عمت الأدب العربي، وكـان للحركة الأدبية في المملكة منها أوفى نصيب. والمصداقية تتطلب منا وصف الواقع الأدبي كما هو، اذ لسنا بدعاً من سائر المشاهد العربية. ولو صـوبنا النظر إلـى العمليات الكتابيـة والابداعية، ونظرنا اليها من خلال أبعادها: الفنية والدلالية، وأنواعها: السردية والشعرية، ومبـدعيها: الشـباب والمخضـرمين مـن النسـاء والرجـال لوقفنـا علـى مسـتويات متباينـة واتجاهـات متعـددة، فـ«مرحلـة الانطـلاق» خضـعت لمفـاهيم ورؤى وتصـورات، دارت حـول «حريـة التعبيـر» و«حريـة التفكيـر» وامكانيـة خلـط الانـواع الابداعيـة، والتلـويح بمصـطلح «الكتابـة» الـذي يلغـي ضـوابط الفـن وشـروط الابـداع، وقـد مـارس هـذه الحريـة الفنيـة والدلاليـة طائفـة مـن الشـباب الـذين اسـتلهموا فسـح الحداثـة المؤكـدة علـى الانقطـاع والاغتـراب والاعتـراف والخلـوص مـن الضـوابط والشـروط والحـدود والقيـود. ولـم تكـن معطيـات هـذه الطائفـة هـي السـمة البـارزة فـي الابـداع والنقـد، ولكنهـا قائمـة ومعاشـة، ولا يمكن إغفالها. واختلاف المفاهيم حول سائر المصطلحات الجديدة التي لـم تحـرر مفاهيمهـا كادت تربك العمليات الابداعية والنقدية وتؤزم الصـراع، ومع تـدفق المسـتجدات فقد ظلـت هناك طـوائف مـن الشـعراء والسـرديين متمسـكة بـالأنموذج القـديم، محتفيـة بكافـة القـيم، أو مجددة بمقدار، ولكـن المشـاهد لـم تكـن حفيـة بمثـل اولئـك، الامـر الـذي جعـل البعـض مـنهم يتخلـى عمـا هـو عليـه، ليتـوفر علـى موقـع مناسـب مـن المشـاهد. وشـعراء مرحلـة الانطـلاق خليط من شعراء المراحل الثلاث، اذ ليست هنـاك حدود جامعـة مانعـة، ولكننـا سنشـير إلـى من كان حضورهم في تلك المرحلة اكثر تميزاً واقرب إلى التجديد بمفهومه الصحيح، ذلـك ان كلمـة «التجديـد» اطلقـت بتوسـع حتـى شـملت مـن قلـد الآداب الغربيـة دون وعـي ودون اقتـدار. فمـن المجـددين مـن الشـعراء المحتفظـين بالخصوصـية وبمرتكـزات القـيم الفنيـة

والدلالية الشاعر «محمد بن فهد العيسى». والشاعر «غازي القصيبي». والشاعر «محمد العيد الخطراوي». وعشرات آخرون تتوازعهم المذاهب وتتنازعهم التيارات، وبعض هؤلاء الشعراء مخضرمون، سبقوا بإبداعاتهم، ولكنها كانت محاولات لم تقل الشعر الا في «مرحلة الانطلاق»، وقد قصرنا الاشارة على الأمكن منهم، أما المتمكنون فبالمئات، ومثلهم الذين استوت ملكاتهم، وطبعت أعمالهم في مرحلة التأسيس ك«القرشي» و«الفيصل» و«سرحان» و«عرب» و«ابن خميس» و«العقيلي» ذلك ان حديثنا مقصور على حركة الأدب في العشرين سنة الاولى من قرننا الهجري، وليس بمقدور بحث محدود ان يأتي على الأسماء المشمولة بالفترة فضلا عن ذكر الخصائص والسمات والشواهد. والتحول من المحافظة إلى التجديد، أو الايغال في الحداثة الفنية عمد اليهما البعض تطبعا لا طبعا، والأقل الاقل من كان تحوله طبعا، فممن أوغل في الحداثة وتبدى اقتداره «محمد العلي» و«الثبيتي»، ولو نظر المتابع إلى ما سلف وما خلف من اعمال لأحس ان النقلة عند بعض اولئك ليست طبيعية، وليست عفوية. والاشكالية فيمن لم يحسن الأداء في الحالين، وتلك الظواهر تتطلب نقداً واعياً لطبيعة التحول وامكانيات الشاعر في المرحلة الانتقالية، وهي مرحلة حرجة وأحسب ان الشاعر «محمد عيد الخطراوي» خير شاهد على التحول المتمكن من التجديد إلى التحديث، وهو خير من يمثل الخضرمة: زماناً وفناً. وتلاحم المخضرمين مع ناشئة تلك الفترة أذاب الفوارق، ومكن من الاندماج. ومن الذين راحوا بين التجديد المتزن، والايغال بغير رفق في حداثة الفن «عبد الله بن عبد الرحمن الزيد» «وسعد الحميدين» و«عبد الله الصيخان» ويحلو لهؤلاء ان يوصفوا بأنهم من طلائع الحداثيين، ولاشك انهم في بعض ابداعاتهم يتعمدون النثرية والغموض، مما يشي بالتطبع. ومن دونهم طائفة من الشباب الذين يتعلمون، ويكرهون انفسهم على ان يكونوا كما كان أساطين الحداثة، الأمر الذي أوقعهم في النثرية والاحالة وخلق الأسطورة، فالكلمات المنثورة على غير نظام، لا تحمل دلالة، ولا تجسد صورة، ولا تشد قارئا، ولا تؤدي مهمة.

والنقاد الحداثيون غير المؤتمنين يعدرون أو يصمتون، والعارفون من النقاد قد لا يعبؤون بما يصيب المشهد من اولئك، وفي ذلك تمكين لمن لا يستحق التمكين، وقد يكون عند بعض اولئك موهبة، ولكنها تفتقر إلى ثقافة ودربة وموقف وناقد يقول الحق، ويهدي إلى الفن الأصيل بالصدق والمكاشفة.

أما عن المجددين والمحافظين والمقلدين في هذه المرحلة المتميزة بالكثرة والتنوع فحدث ولا حرج: كثرة وتنوعا وتفاوتا في المستويات، نجد من هؤلاء الشاعر «عبد الرحمن العشماوي» و«أحمد الصالح» و«عبد العزيز العجلان».

و«مرحلة الانطلاق» يتنازع الصدارة فيها المجددون والمحافظون، والحداثيون: المعتدلون والموغلون، ولاشك ان الغلبة والشيوع للمجددين. والتجديد والمحافظة يمتدان إلى الشكل والموسيقى واللغة والاسطرة والرمز والصور والأغراض، وليست هناك مرحلة وسعت المتناقضات مثلما وسعتها «مرحلة الانطلاق» ولهذا حفل المشهد بالشيء ونقيضه، ولم تعدم اي ظاهرة شكلية أو فنية أو دلالية مريدا متفانيا لا يرى لغيره حق الوجود. والدارس لظواهر هذه الفترة تربكه الأشكال والألوان. وفي تلك المرحلة علا كعب «الشواعر»، حيث آتى تعليم المرأة ثماره وعرفت الساحة الأدبية مئات المبدعات في الشعر والقصة والرواية والدراسات والنقد، وهن أقل من الرجال اندفاعا وراء بوارق التجديد والأكثر حضورا في الابداع السردي.

موسوعة الأدب السعودي وتداعيات الصدور.. ! [(١)]

من إشكاليات المشهد الأدبي: محلياً وغربياً عقدة الملائكية الخالصة الخيرية، أو الشيطانية الخالصة الشرية، فيما يقوم الفراغ الهوائي بين القطبين بحيث لا ينوس فيه إنس ولا جان. والحدية الصارمة تعد إشكالية المشاكل في كل المشاهد: ا لسياسية والفكرية والأدبية، وعليها وعلى الثنائية تُحْمَل دواعي الصراع والصدام، والمتحسس عن الوسطية، والمتلمس للمخارج يعيش غربة الوجه واليد واللسان. والمسدِّدون والمقاربون كالغرباء الذين يُصْلِحون ما أفسد الناس، وحاجتنا إلى أخلاقيات الحوار أشد من جاجتنا إلى مراجعة المنجزات وتسديدها.

والجدل المحتدم المتداعي إثر صدور الموسوعة ينذر بسوء، ولا يبشر بخير، وأحسب أن الأطراف تمارس تصعيد التنافي في حين أنه بالإمكان الخلوص من وهدة الاتهامات إلى صعيد المراجعات، والمؤلم أن ذروة الصعود إلى الهاوية تولى كبرها أستاذان جامعيان، ما كان لأحدهما أن يبلغ به الغضب مبلغه، ولا أن ينزلق في مهاوي الاتهام الشخصي. وإذا كان العمل الموسوعي مبادرة حضارية وحاجة ضرورية فإن حماية المشروع ونقده لا يكون سوقياً، إذ لابد من تكافؤ الفعل ورد الفعل.

والموسوعة كالمولود امتلك حتمية الوجود بمجرد ولادته الطبيعية أو المبتسرة، ولم يعد بالإمكان دسه في التراب، لقد قضي الأمر الذي فيه يتجادل المتجادلون، وسبق السيف العذل، و أصبحت الموسوعة بين أيدي القراء في الداخل والخارج رضي من رضي وسخط من سخط. وحين لا يكون بالإمكان رد الدر إلى الضرع ولا إيلاج الجمل في سم الخياط فإن من اللجاجة الاشتغال بالمحال والعزوف عن الممكن، ولم يبق إلا قراءة المشروع قراءة علمية منهجية حيادية متزنة مدعومة بالأدلة والشواهد، دون اتهام أو تخوين، فالفريق الذي أنجز العمل حريص على ألا يقول إلا الحق، ولكن الحرص لا ينجي من الأخطاء، والمسألة في النهاية تعود إلى التغليب، فإذا غلبت الإخفاقات النجاحات فشل المشروع، وإذا فاقت النجاحات الإخفاقات ملك العمل مشروعيته، ومهما اختلفنا أو تحفظنا على المنهج أو الآلية أو المادة أو المنفذين فإن النجاحات تفوق الإخفاقات. ومن حق الفريق العلمي علينا أن نسدده ونبادله النصيحة، وعليه ألا تأخذه العزة بالإثم، وألا يتمترس خلف أي سمة.

ويبقى الخلاف والحالة تلك حول هنات لا يخلو منها أي مشروع فكل قول أو فعل لغير المعصوم يؤخذ منه ويرد، ولا يمكن التسليم المطلق لأي منجز، وإذا لم يجعل الله لأحد من قبل رسوله ولا من بعده الخلد فإنه لا يكون لأحد التسامي فوق المساءلة والنقد، وليس لأحد أن يمنح نفسه أو قبيله العصمة أو العظمة، ومصائب المشاهد التسامي بالبعض إلى سدة العصمة، بحيث يكون المساس بهذا البعض مساساً بالمقدس، ولو عرف كل واحد منا قدر نفسه لما هدِّمت شوامخ ولا شمخت عوائل، وداء المشهد التشايل والتمظهر وتعالي القتام والشللية.

وتأتي الموسوعة ذِبْح المشهد، يقول فيها وعنها محق ومبطل، وناقم وعالم، ومجتهد ومصيب، ومخطئ ومتقحم لا في العير ولا في النفير، ومن ألف فقد استهدف. وعلينا توطين الأنفس، وتقبل أقدارنا بالتسليم والرضى، وكنا نتوقع أن تستقبل الموسوعة بممارسة نقدية متمكنة، هادئة مطمئنة، تحسن الظن، وتلتمس الأعذار، وتشير إلى مواطن النقص، ولا تتهم، وتقف حيث تكون القضايا، ولا تمتد إلى الأشخاص، ولا إلى النوايا،

---

(١) تاريخ المقال: ١٢/ ١١/ ٢٠٠٢

وتتعاظم المصيبة حين لا يتمخض القدح والمدح عن إيجابيات، وذلك ما أخشاه وما نعانيه، فالمشهد يعيش حالة من التوتر وتبادل الاتهامات، وحاجتنا إلى حكيم حليم يورد القضية موارد النجاة لا موارد الهلكة، والذين استقبلوا المشروع نقموا من ذويه: سريتهم وقلَّتهم ونوعيتهم وأثرتهم ومنهجيتهم وعدم تقصيهم مع ترهل الموسوعة.

والمعتورون تختلف نوازعهم ومقاصدهم ومستوياتهم المعرفية، ويتراوحون بين معمم ومخصص، ومُهْمَل له حق المساءلة ومبخوس له حق المطالبة، ومُبْتَسَرٌ له حق المناشدة. وطبعي وقد امتدت الموسوعة إلى الشاهد والغائب والمقيم والظاعن والشاعر والناثر و الناقد والكاتب أن يكون لكل واحد رأيه فيما قيل عنه أو نقل منه، وجميل لو أن المشتغلين بالموسوعة استشاروا واستخاروا واستعانوا، ولم تكن استعانتهم على قضاء حوائجهم بالكتمان، وأجمل من هذا لو أنها استقبلت بنقد موضوعي معرفي لا يمس الأهلية ولا الكفاءة ولا الأمانة، فالذين أُهْملوا ولهم حق الحضور، من حقهم العتب حتى يرضوا، والذين بُخِسوا لهم حق المساءلة حتى يستوفوا حقهم، ومن ليس لهم ولا عليهم أمثالي ولكنهم يودون منهجية أحكم وآلية أسلم وفريق عمل أكثر دربة وتخصصاً يجب أن يُسمع قولهم، ويؤخذ بأحسنه، فما نريد إلا الإصلاح ولا عاصم إلا الله.

ومن المقت الكبير أن نطالب بسماع الحق ثم لا نسمعه، أو ننفي العصمة عن الغير وندعيها لأنفسنا، فما نقوله عُرضة للأخذ والرد، وما نحن إلا من غزية، وفريق العمل الذي نهض بالمهمة أهل لها ولا شك، ولكن الأهلية لا تعصم من الخطأ، ولا تعني الأفضلية، وفوق كل ذي علم عليم. والموسوعة في طبعتها الأولى بحاجة إلى خطوات إيجابية ومبادرة واثقة:

الخطوة الأولى:

إصدار ملحق تُستدرك فيه الأخطاء الواضحة، ويضم فيه من فات على الفريق من مبدعين ونقاد وكتاب.

الخطوة الثانية:

تشكيل فريق عمل جديد ممن سبق اشتراكهم ومن غيرهم تراعى فيه المؤهلات التالية:

أ. التخصصية العامة: بحيث يكون الفريق من المتخصصين في الأدب الحديث.

ب. التخصصية الخاصة: بحيث يكون الفريق من المتخصصين في الأدب العربي في المملكة العربية السعودية.

ج. الممارسة: بحيث يكون فريق العمل ممن يعيش حضوراً فاعلاً ومتميزاً في الدراسات والموسوعات.

د. التنوع: بحيث يكون الفريق متوفراً على متخصصين في النقد ومناهجه القديمة والحديثة، والتاريخ الأدبي والدراسات.

هـ. التحكيم: بحيث يكون هناك فريق محكمين لمراجعة المواد من حيث الموضوع والخطة والمنهج والآلة والشمول والتركيز.

و. الإشراف: بحيث يكون هناك فريق إشراف متخصص بالمنهج، والمادة.

ز. التصحيح: بحيث يكون هناك فريق عمل لتصحيح المادة لغوياً ونحوياً وصرفياً وأسلوبياً وشكلياً، وقبل ذلك لابد من وضع خطة عمل، فالمشروع نسل إلينا على حين غفلة.

ذلك أن العمل الموسوعي عمل معرفي توثيقي مرجعي جماعي نيابي، وليس جهداً فردياً، والمتلقي العربي يعد الموسوعة وثيقة لا معقب لها، لأن الموسوعية كالمعجمية عمل مسؤول ومؤسساتي، ومن ثم فإن احتمال الخطأ فيه نادر، وفي أضيق نطاق.

ومع كل ما سبق فإن الموسوعة مبادرة جيدة تستحق منا الاحتفاء والنقد الإيجابي وقراءة الإنجاز بمنهجية وعلمية تحمل على التسديد والمقاربة، ولا يجوز التعميم ولا التقليل من قيمتها، ومهما اختلفنا مع المنهج أو الآلية أو المادة أو أهلية أحد أفراد الفريق العلمي فإن الود باقٍ، وبإمكان المشروع في طبعته الثانية أن يستدرك الفوات، وكل الموسوعات والمعاجم مرت بمثل ما ستمر به الموسوعة، وعلينا أن نوازن بين الطبعة الأولى «لأعلام الزركلي» مثلاً وما لحق من طبعات، وأن ننظر إلى «دليل الناقد الأدبي» للأخوين «الرويلي والبازعي» في طبعته الأولى والثالثة، وأن نستدعي أي مشروع معجمي أو موسوعي في طبعته الأولى وطبعاته اللاحقة.

وأحسب أن مشروع الموسوعة عمل حضاري، يجب أن نعضده، وأن يوضع له مركز معلومات، ويؤلف له فريق عمل مساند لفريقه الأصلي، يتلقى الملاحظات والإضافات، وأن تحال أجزاؤه العشرة إلى طائفة من المتخصصين في الأدب الحديث ونقده، وفي الأدب السعودي وأنواعه، لإبداء ملاحظاتهم على كافة الجوانب تمهيداً لطبعة جديدة منقحة، وإذ بادر «نادي الرياض الأدبي» مشكوراً بالاحتفاء بالموسوعة وذويها فإن عليه أن يكون مثابة لفريق العمل وللمستدركات والإضافات، وليس من مصلحة الحركة الأدبية في المملكة أن يجهض المشروع، ولا أن تنزع الثقة منه، ولا أن يظل كما هو، وفي الإمكان تلافي التقصير، وليس من المصلحة أن يظل دُوْلةً بين ذويه الساخطين أو الراضين لا يتجاوز تراقي البلاد. يجب أن يكون رسولنا إلى آفاق الوطن العربي، فكم تجرعنا مرارة العزلة وجهل الآخرين بنا.

والموسوعة بطبعتها المنقحة المرضية لكل الأطراف خير من يصلنا بالمشاهد العربية، وعلى المتخصصين المبادرة إلى قراءة الموسوعة، وتدوين الملاحظات المتعلقة بالمنهج أو بالموضوع بأسلوب علمي بعيد عن التهوين أو الاتهام، وعلى الفريق أن يتقبل النقد برحابة صدر الواثق وثقة العالم، فذلك طريق النجاح.

خسره المنصب وكسب نفسه .. ؟[1]

أذكر جيداً النصيحة التي تلقيتها من محبٍّ عالم مجرِّب، وذلك حين أسندت لي في مطلع شبابي مسؤولية ادارية، تمس حياة شريحة معوزة من المجتمع. وكنت يومها في عنفوان الشباب وميعة الصبا، مقبلا بكليَّتي على الدنيا، ولمَّا تكن لديَّ حسابات المجربين، ولا خوف الورعين، ولا تحفظ الخائفين. والطاقة العارمة حين لا تعقلها التجربة، ولا توجهها المعرفة، ولا يسددها التوقيت والتقدير، تقود إلى مهاوي الهلكة.

قال لي ذلك المجرب العارف المخلص: - يا بني هذا الكرسي الذي تجلس عليه، جلس عليه سلفك، وسيعقبك عليه خلفك، وأنت بين يومين: - يوم الجلوس وهالاته وأفواج المهنئين، ويوم التحول وعتمة التهميش وتفرُّق المودعين، ومن الخير لك ان تحسب ليوم التحول حسابه، ولا تُصاب بزهو اليوم الأول، ومهما امتدَّ بك الزمن، فإنك مفارق: ميِّتاً، أو متقاعداً، أو صاعداً لما هو أرفع، فلا تكن الرابعة فتهلك، وبعد المبارحة لن يبقى لك إلا الذكر، فليكن ذكراً جميلاً «فالذكر للإنسان عمر ثان». فالشهادة أو الواسطة تصل بك إلى الكرسي، ولكنها لا تضمن لك النجاح ولا النجاة.

ومرت الأيام بحلوها ومرها وإقبالها وإدبارها، وتلك الكلمات تأكل معي وتشرب، وجاء يوم التحول، وتركت الكرسي صُعداً، وخلفني عليه أكثر من واحد، وما ندمت على شيء ندمي على تقصير القادرين على التمام، لقد فعلت ما يطمئن إليه قلبي، ولكن كان بودي لو تزودت من الخير، وما من محسن بعد الفوات إلا تمنى مضاعفة الإحسان، وندم على ما فرط في جنب الله، لقد خرجت راضياً بما قسمه الله لي، شاكراً لأنعمه عليَّ، وما أردت فيما أقدمت عليه أو أحجمت عنه إلا الاصلاح. وأزلية المفارقة تحفز على استباق الخيرات، قبل الفوات، وكيف يغفل من إذا فرَّ من الموت لاقاه. ومن لم يبارح عمله بالرقي أو بالانحدار، بالاضطرار أو بالاختيار بارحه «بالتقاعد». ففي كل عام تخرج أفواج الموظفين بقوة النظام التقاعدي، تترك الأضواء، وتفرغ من السلطة، وينفض من حولها سامر القوم. وتعود إلى ديارها وأهلها خالية الوفاض، إلا من الذكر الجميل، أو القبيح، وشيء من مال قليل أو كثير، طيِّب الكسب أو مشوب بالشبهات. ومن لم يطب مطعمه لن تُجاب دعوته، وكل لحم نبت على السحت فالنار أولى به. وهذه الأفواج المتدفقة خارج المسؤولية متفاوتة الأحوال والمآلات: فمنها من خسره المنصب وكسب نفسه، أو خسرها، ومنها من تخلص منه المنصب، وتخلص من أذيته الناس، إذ كان عقبة كأداء أزيلت عن طريق المارة، فكل من سمع بذهابه بادر إلى القول: -«مع الذين لا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون». وفي ذلك اليوم الحاسم تجد كل نفس ما عملت محضراً، فإن كان خيراً تمنت لو أنها تزودت منه، وإن كان غير ذلك تمنت لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً.

ولا شك ان طائفة من المبارحين خرجوا من مناصبهم، وهم يضربون كفَّاً بكف، ويتمنون لو أُرجعوا إليها ليعملوا غير الذي كانوا يعملون. ولكن أنَّى لهم ذلك، وقد رفعت الأقلام، وجفت الصحف، وآخرون خرجوا، وهم يحمدون الله على أداء الأمانة، والنصح للأمة، وكسب ما بقي من أرذل العمر، وهؤلاء ولدوا يوم أن تركوا أعمالهم بقوة النظام.

وصديقنا الأستاذ أبوعبد الرحمن ابراهيم البليهي مدير عام الشؤون البلدية والقروية نحسبه من هذه الفئة والله حسيبه، لقد تقلب في عدة مناصب حساسة ومغرية لكسب القناطير المقنطرة من الذهب والفضة والسيارات الفارهة والأنعام والحرث والضياع والجاه والأصدقاء، ولكنه زهد بكل ذلك، وولاها ظهره، واتجه صوب الأمانة والنزاهة

---

(١) تاريخ المقال: ٢٧/ ١١/ ٢٠٠٢

والاخلاص، فخرج ثرياً بسمعته، نقياً في ملبسه، طيباً في مطعمه، وما شهدنا إلا بما علمنا. وإذا كان قد كسب الأقل من الأصدقاء فإن القالين له سيراجعون أنفسهم ويذكرونه بخير.

لقد شغل رئاسة البلدية في أكثر من موقع، «وختم أعماله بادارة الشؤون البلدية والقروية في القصيم» وكان في كل المواقع مثال الصدق والاخلاص والنزاهة والمثالية والتفاني، وحين خسره المنصب كسب نفسه: قارئاً ومفكراً وكاتباً، تختلف معه أو تتفق، ولكنك لا تجد بداً من أن تجله وتحترمه: - لعمق ثقافته، وثبات موقفه، ونبل غاياته. وحين نؤكد على انه كسب نفسه فإنما نومىء إلى انه قارىء خبير، ومفكر عميق التفكير، ومثقف واسع الثقافة، وجاد صارم الجد، لا يفرغ لنفسه، ولا لجيبه، وقد لا يفرغ لأهله ولا لأحد من أصدقائه إلا لكاتب هذا التأبين، وإذ برح مكتبه الصاخب، فإنه سيعود إلى مكتبته الهادئة المليئة بآلاف الكتب، والتقاعد الذي يشكل فراغاً قاتلاً للفارغين، حتى قيل: «مُت .. قاعداً» لن يحس به، لأن سعادته تكمن بين دفتي الكتاب، فهو قرينه، ونعم القرين، يخلو به بعيداً عن الأضواء والضوضاء والمتع الزائلة «وخير جليس في الزمان كتاب»، ولقد كلَّت السنتنا وحفيت أقلامنا في سبيل مناصحة طلابنا لجعل القراءة هواية، يسدون بها فراغ التقاعد إذا امتدت بهم الحياة، وهي بلاشك مسؤولية خطيرة.

والأستاذ البليهي الذي وضعت مسؤوليته أوزارها، كان وراء كثير من النجاحات واللمسات الجمالية، وتجلي صدقه وأمانته مكّن له من قلوب المسؤولين وأصحاب القرارات، فكانت حقائبه تغدو خماصاً وتعود بطاناً لمصلحة العمل، ومع أنه يحمل هم المسؤولية، فقد لقي في سفره المخلص نصباً، انعكس على رؤيته الفكرية، وكاد يصيبه بالإحباط، وكنت ممن يحاول تثبيت فؤاده، كلما اقتربت صمامات الأمان عنده من الانفجار، لقد خرج وفي نفسه غصص من فئات تحارب الخضرة، وتستعدي على التشجير، ولأنه باخع نفسه على آثارهم، فقد استغاث بالمؤسسات وبحملة الأقلام لإنقاذ مشروعه من القتل. ومع تلك التحديات ظل وثيق الصلة بالكتاب، يهوّن به على نفسه مصائب العمل، فكان قارئاً وكاتبا وراصداً واعياً لكل التحولات، استطاع أن يوائم بين تبعات المسؤولية وأهمية الثقافة. ولم يحرم الادارة من ثقافته وتجاربه، وكتابه «النبع الذي لا ينضب» الذي طبعه «نادي القصيم الأدبي ببريدة» يعد من أهم مراجع قسم الادارة في بعض المراحل الجامعية، فلقد جمع فيه عشرات المقالات التي كتبها متخصصون ومجربون ومخلصون عن الأداء الوظيفي والكفاءة الادارية والعمل المخلص، ولما يزل من خلال مقالاته الصحفية من أبرز الكتاب الذين يعتصرون الأفكار ويختصرون التجارب، ويجوبون مسارح الفكر ومطارح الفلسفة، ولا يتورعون من حز اللحم إلى العظم، وجلد الذات حتى الموت والعويل على الواقع المرير.

ولو لم يكتب محذراً من «الجهل» و«التخلف» لكانت سيرته الصارمة الحميدة خير مرشد ومفيد، والمجتمع بأمس الحاجة إلى القدوة الصالحة والى الفعل الايجابي، فلقد مللنا التنظير والمثالية الورقية، ولأنه لا يقول إلا ما يعتقد وما يفعل فقد كانت كلماته مؤثرة ومثيرة، لأنها تنكأ الجراح. المسؤولية الرسمية إذ تودعه إلى حين فإن المسؤولية الوطنية تأخذه بالأحضان بوصفه من أبرز الكتاب الذين يصدعون بما يعتقدون، وإن لم يتفق معهم أحد، فهو من الذين لا يصانعون في أمور كثيرة، وإذا كنا نودع كفاءة وطنية، فإننا نستقبل كفاءة أخرى، أخذت الراية عن تخصص وخبرة وسمعة طيبة، نستقبل المهندس القدير «أحمد الصالح السلطان» الذي كانت فرحتنا به بحجم فجيعتنا على سلفه، والخيرية قائمة، ومجتمعنا والحمد لله ودود ولود، وعلى الذين من حولهم من أعراب الوظائف ممن لم يكونوا أمثالهم أن يتشبهوا بهم. وفي كل مناسبة أقول، وأتحمل مسؤولية ما أقول: إن

المسؤول الأول في المنطقة إذا كان قوياً في أدائه، أمينا في مسؤوليته حفيظاً لمثمنات الأمة، عليما بشؤونها، وكان مع المسؤولية كما وصفه المتنبي:

فكأنهـــا نُتِجَـــت قيامـــاً تحـــتهم

وكـــأنهم ولـــدوا علـــى صـــهواتها

نامت الأمة قريرة العين، وذلك ما يبدو لنا، نحسب من نحسن الظن بهم كذلك، ولا نزكي على الله أحداً، فالله حسيبهم. وفيمن قضى مسؤوليته موعظة أو قدوة لمن ينتظر، وما يُلقَّى الاتعاظ بالمقصرين والاقتداء بالمجلّين إلا ذوو الحظوظ العظيمة.

ضربة معلم نود أن تتبعها ضربات .. !(١)

الهامش الدعائي لأي مسؤول قضية ليس فيها نظر، والخطأ الأكبر ان يتسع الهامش، أو ان تتسع الإحالة إليه، بحيث تحال كل أفعال الزعماء المتميزة إلى ذلك الهامش الدعائي.

ومثلما ان الخبطات الصحفية تحرك الركود، وتشد الانتباه وتؤتي أكلها، متى كانت متقنة ومحسوبة فإن ابتكار الإجراءات وأساليب المعالجة تفعل فعل الخبطات الصحفية المسددة.

وبعض القادة النابهين يعولون على المبادرات المفاجئة غير عابئين بما تحدثه من ارتباك في تلقيها واستكناهها، وجل اهتمامهم ان تعطي عائداً أفضل وأسرع. فالمواطن حين لا يخطر على باله أي فعل استثنائي له مقاصده النبيلة وغاياته الحميدة، ثم يفاجأ به، ترتبك آلياته، وقد تأخذه الاتكالية، فلا يكلف نفسه عناء القراءة وفق قوانين الحدث، متخذاً إحالة كل جديد من الأفعال أو الإجراءات إلى الهامش الدعائي ديدنه، وبهذه الإحالة يفرغ من ملاحقة الأحداث وتقويمها. ولأننا لسنا بدعاً في مجمل سياقاتنا فإن تعدد القراءات لأي حدث مثير متوقع ومشروع، ومن واجبنا امتلاك الثقة وتوقع أي قراءة. فالمتميزون هم الذين يشغلون الرأي العام، ويربكون المشاهد، ولكن القارئ الذي يفصل الحدث عن سياقه وأنساقه يقع في الابتسار المخل بالمصداقية. والمبادرة الذكية تتطلب قراءة ذكية، ليحصل التكافؤ ولن تستدرجني قراءات المبادرات والأحداث وقوانين اللعب الكبيرة والصغيرة وضرب الأمثال، فالأمر من الوضوح بحيث لايتطلب مزيداً من التمحك. وما حداني إلى تلك المداخل إلا طغيان القراءات المتسطحة أو المشبوهة، والتهافت عليها. ومما لا شك فيه أن القادة لهم حساباتهم وتطلعاتهم ونواياهم وأهدافهم، فليس هناك عمل لا تكون وراءه أهداف خاصة أو عامة، وليس هناك لعبة إلا ولها قانونها، ومن تصور الأمور بمعزل عن مقاصدها وقوانيها فوّت على نفسه أشياء كثيرة، والقراءات الخاطئة والإشاعات المغرضة سمة المشهد السياسي.

لقد اشتغلت في كافة الأوساط المحلية المبادرة الإنسانية للأمير (عبد الله بن عبد العزيز)، ولما يزل الناس يدوكون ليلهم في تقويم هذا الحدث، فالأمير عبد الله اخترق وبدون سابقة معاصرة فضاءات المعوزين من فقراء وعجزة ومعوقين وأيتام، على سنن العسس الإسلامي، ولم يتسلل إليها على حين غفلة من الرقباء وإن باغت ذويها وفاجأ حاشيته، بل أعلنها على أوسع نطاق، ولم يتردد في طرحها أمام الملأ. ولقد حرصت كغيري على مشاهدة الحدث، وتمنيت لو أن الإعلام عرض الجولة بكل تفاصيلها، ولم يكتف باللمحة الإخبارية. وبعد المتابعة انتصبت أمامي عدة قراءات يحتملها تأويل الحدث، ولكن الحق لايتعدد، واستمعت إلى عدة رؤى. وأبحت لنفسي استعراضها، فمن حق كل مواطن أن يموضع قادته، وأن يقرأهم وفق سياقاتهم وسوابقهم، إذ هم في النهاية بشر، يجتهدون، وقد لايحققون ما يريدون من خير. وتساءلت في تلك الأجواء المشحونة بالتساؤلات: لماذا اختار الأمير عبد الله لجولته الوقت والمكان والشريحة؟ ولماذا أعطى لوسائل الإعلام كامل الحرية في المتابعة والتركيز على المناظر المؤلمة؟ ولماذا ذرع الأزقة جيئة وذهابا، واستمع إلى التأوهات والتذمرات، وأذن لمن حوله ان يتأمل تلك الأوضاع؟ أيريد الحسم أم المحاصرة أم تجديد الآلية أم إدانة الطرف الآخر من مسؤولين وأثرياء؟ كل ذلك وارد ومحتمل. ويقيني ان الإعلام لو فعلها وحده لكان موضع تقدير

---

(١) تاريخ المقال: ٣/ ١٢/ ٢٠٠٢

الجميع، ولكن أما وقد فعلها الرجل الثاني في الدولة وبمباركة من الرجل الأول في سياق (الشفافية) و(الباب المفتوح) الذي يدعو إليهما فإن الأمر له ما بعده، وإن قضية الفقر خرجت من إطار الممارسة الروتينية إلى فعل آخر، ومن حق أي متابع ان يتساءل، وأن يلح في التساؤل. ماذا يريد من هذه الخبطة الإعلامية؟ ولماذا أراد لنفسه ان يكون شاهداً عدلاً، يسبق أصحابه في اقتحام المغارات، متلطفاً للفقراء والمقعدين والأطفال، يخرج من بيت إلى بيت، ومن حي إلى حي، إن حدثاً كهذا يمتلك من فضاءات الدلالة مايجعل لكل قارئ رؤيته، ولأنني مواطن، أحس بمسؤوليتي إزاء الإجراءات التي يبادر إليها رجل مثل عبد الله بن عبد العزيز، فإنني سأترك لنفسي كامل الحرية في قراءة الحدث وفق رؤيتي، وليس شرطاً ان تصيب المحز، وسوف لاأتردد في سماع القراءات الأخرى حسنة النوايا أوسيئتها، إذ كل مجتهد له حظه من الإخفاق، ومتى حسنت النوايا وسمت المقاصد احتملت الأخطاء الاجتهادية، فالقادة والزعماء تجاوزوا ذواتهم وخصوصياتهم، وتحولوا إلى موضوعات قابلة لأكثر من قراءة، وأكثر من إحالة. والرجل الذي ترك القصور الشاهقة وراء ظهره، وكسر طوق الحجّاب، وأطفأ أبهة الملك، وجاء إلى أكواخ الفقراء، يخوض المستنقعات مع الخائضين، ويركل النفايات بقدميه، ويرفع ثوبه لكيلا يتبلل بالوحل، ويتطامن أمام الأسقف التي لا تتسع لقامته الفارهة، يقبِّل الأطفال بكل ما يعلوهم من غبرة وأسمال، ويصيخ للشاكر والشاكي، ويقف عند رأس امرأة مريضة متدثرة، يعد بالخير ويبشر بالفرج. ومن ورائه كبار المسؤولين عن تلك الشريحة، الرجل الذي يفعل ذلك بمحض إرادته، لا يضيره أن يحال تصرفه إلى أي تفسير، فهو لا يريد جزاء ولا شكوراً، لقد قالها بلسان حاله ومقاله. ومن مصلحة الفقراء أن نمسك طرف الخيط، وأن نمضي معه إلى النهاية، فنجاح الجولة سيكون لها أثرها على كل المستويات، كيف لا والفقر مصدر كل شر، حتى كاد يكون كفراً. ويقيني أن مثل هذا الفعل يُعدُّ (ضربة معلم) لأنه تنقيب في أحياء الفقراء المهمشة، وتقليب لقضاياهم المؤجلة، واستثارة لكل فئات المجتمع من مسؤولين وأثرياء، ومحاولة لكشف المخبأ. فالآخرون يظنون أن كل سعودي في بيته (بئر بترول)، وأن كل سعودي يعيش حالة من الرفاهية، وأن كل سعودي ملزم بأن يكون حمالاً لهموم الأبعدين.

(ضربة المعلم) .. تريد أن تقول (الأقربون أولى بالمعروف).
(ضربة المعلم) .. تريد أن توثق الفقر بوصفه ظاهرة أزلية.
(ضربة المعلم) .. تريد ان تستدر العطف وتؤنب الجشعين.
(ضربة المعلم) .. تريد أن تقول: الناس سواسية في خيرات بلادهم.
(ضربة المعلم) .. تريد أن تدع الحقائق تعبر عن نفسها.
(ضربة معلم) تريد ان تؤكد ان (صنائع المعروف تقي مصارع السوء).

لقد كان بإمكان سموه أن يخرج على الناس عبر كلمة أو تصريح، يدعو فيه للمساعدة، ويذكر الناس بالفقراء، يسجل فيها موقفاً عديم الجدوى، ويسقط فيها مسؤولية. غير ان الناس كسبوا مناعة ضد المواعظ. وخطاب الأمير خطاب عملي قاطع مفحم، خطاب وثائقي، لايدع مجالاً للتأويل، أو للتملص. لقد ضبط الواقع بالصوت والصورة، وقال للأثرياء وللمسؤولين وللعالم بأسره: هؤموا أشهدوا معي المأساة، وتحملوا معي كافة المسؤولية، فنحن جميعاً قادرون على تلافيها، ولكننا لم نفعل بكل ما نملك من طاقات، وكأنه يردد في أعماقه مقولة الشاعر:

ولــم أر فــي عيــوب النــاس عيبــاً
كــنقص القــادرين علــى التمــام

ولم تكن هذه الضربة المسددة هي الأولى، ولا أحسبها ستكون الأخيرة، لقد عايشنا ضربات مسددة، أعقبتها مؤسسات تربوية لرعاية الموهوبين واقتصادية استقطبت الأثرياء والعلماء والتربويين، ولا شك أن استعداده الذاتي لفعل الخير مع جهود البطانة الصالحة ومن يسرون النصيحة، حفزه لمثل هذا العمل الإنساني، لقد ألقوا في روعه أشياء كثيرة، وذكروه بمشروع (العسس الإسلامي) الذي بادر إليه الإمام العادل (عمر بن الخطاب) رضي الله عنه، ولا شك أن الرجل يحس بثقل المسؤولية، ويحمل هموماً كثيرة، ولا شك أنه أحس بأن هذه الفئة الصابرة المحتسبة خَفَت صوتها وسط ضجيج الفئات. إن كشفه لأحوال المعدمين المتعففين تحويل طوعي للطوق الذي يلتف حول عنقه إلى أعناق الأثرياء، الذين يبذّرون أموالهم في آفاق المعمورة على ملذاتهم الزائلة ولا ينفقون إلا وهم كارهون، وإلى المسؤولين الذين يتباطؤون في محاصرة الفقر والعوز، ويتعثرون بمخلفات (البيروقراطية) أما الذين يؤثرون على أنفسهم والذين يطورون آلياتهم فهم مع قادتهم في خندق واحد. ومن التوفيق والسداد أن بدت بوادر الاستجابة الإيجابية والفورية بشكل لم يتخيله أحد، ولو لم يكن من نتائج هذه المبادرة إلا هذا التبرع السخي من أصحاب السمو الملكي الأمراء مشعل بن عبد العزيز وسلطان بن عبد العزيز والوليد بن طلال بن عبد العزيز لقلنا إن هذه الجولة قد أدت كل ثمارها، فكيف بها وهذه التبرعات السخية خطوة أولى ستعقبها خطوات من ذوي الدثور. المؤكد ان الفقر لن يحسم، لأنه ظاهرة أزلية وقضاء رباني، ولكنه سيحدد وسيحاصر، وسوف لا يهبط إلى درك المجاعة، ومتى سيطرنا عليه، وقللنا من أثره، حققنا الشيء الكثير. إن مبادرة الأمير عبد الله لن تقف عند حد الإنفاق والإعالة السلبية، وإنما ستمتد إلى التأهيل والتشغيل وتحويل الأسر المعولة إلى عائلة، بحيث ترحل آلاف الأسر من حد الفقر إلى حد الكفاف. وتلك مواجهة حضارية، ومصاحبة معالي وزير العمل المتألق الاستاذ الدكتور علي النملة لسموه في هذه الجولة الموفقة مؤشر على أن المقصود منها وضع خطة مؤسساتية حضارية لمواجهة الفقر والروتين معاً، ووضع حد معقول له في بلد أنعم الله عليه بالأمن والرخاء وفجر لأهله كنوز الأرض، لقد كانت لسمو الأمير مبادرات متعددة، جرَّت أقدام الأثرياء، وأرْخت جيوبهم، وبسطت أيديهم بالعطاء السخي، وما أحوجنا إلى ضربات متلاحقة تطال (العمالة) و(البطالة) المقنعة والمكشوفة و(التسيب الوظيفي) و(الفساد الإداري) و(الديون المخيفة) و(حوادث السيارات) و(أزمات التعليم) و(البيروقراطية) المتعفنة و(الأنظمة المهترئة) و(المحسوبيات) وسائر وجوه الحياة، فالزمان غير الزمان، والأمة مقبلة على نوازل تزلزل العقول، وليس لها بعد الله إلا من مكن الله لهم في الأرض.

«الإرهاب» بين: الكبيسي .. ومشعل السديري .. !(١)

الكاتب المثير الأستاذ«مشعل السديري»، يتعرض في بعض تناولاته إلى كبوات غير موجعة، وغير مفقدة للثقة به، مما يضطره في بعض الأحيان إلى الاعتذار الساخر حتى من نفسه، بحيث يزين صمته على نطقه، وتلك محمدة وشجاعة، لا مذمة ولا مجبنة. وواجب المحبين له - حين لا يتدارك الخطأ- أن يبادروا إلى تسديده، والصديق من صدق لا من صدق. وإذ يكون من الكتاب المقروئين والمؤثرين، وممن يحتلون الصدارة، يكون من حقه على قرائه أن يأخذوا على يده، متى أحسوا بحيدته، ولا يضيره التسديد حين يجتهد، بعد توفر آليات الاجتهاد وشروطه، ثم لا يصيب .. ورده إلى الطريق القاصد مع الاحتفاظ بمكانته والثقة بنواياه وبأمانته من الإرشاد المأمور به. والمستبرئ لدينه وعرضه من يتوقى إحالة الكبوات إلى سوء النوايا والمقاصد، مما هو ديدن بعض الغيورين المتسرعين في معالجة الخطأ بخطأ أسوء الكبوات إلى سوء النوايا والمقاصد، مما هو ديدن بعض الغيورين المتسرعين في معالجة الخطأ بخطأ أسوأ منه، وكأنهم قادرون على شق الصدور.

ومما أود تسديده فيه رده على المفكر الإسلامي«أحمد الكبيسي» حول مفهوم «الإرهاب» «جريدة عكاظ ١٤٢٣/٩/٢١هـ» ولست في ردي مدافعا عن ذات «الكبيسي» ولا عن مجمل رؤاه وآرائه، فكم له من الأخطاء التي يجب تعقبه فيها، وإنما أدافع عن الاختلاف حول مفهوم «الإرهاب» بينهما، وتداركي ذو ثلاث نقاط: -

الأولى: حول مفهوم «الإرهاب» ف «الكبيسي» في «عكاظ ١٤٢٣/٩/١٩هـ» عوّل على آية: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾، فيما عوّل«السديري» على المفهوم الشائع عند وسائل الإعلام كافة، المتمثل بالتفجير، والقتل العشوائي، والإخلال بالأمن، ونسف المصالح والاتفاقات، والخروج على السلطة الشرعية، وخفر ذمتها بالغدر بالآمنين والمستأمنين وأهل الذمة، ومن هم في حكم رسل الحكومات، وربط ذلك بوقوعات معينة كحادث«الحادي عشر من سبتمبر». وكلاهما مسدد في إحالته وتعويله، والخلاف بين الاثنين ناشىء من تعدد المفاهيم والتصورات، فالأمة الإسلامية مطالبة بإعداد القوة: قوة العلم وقوة الاقتصاد وقوة السلاح، وقوة الأمة المتمثل بتماسك الجبهة الداخلية وشرعية المؤسسات السلطوية، لكي تخيف أعداءها، وترهب المتربصين بها الدوائر، وهذا ما سعى إليه، وقال به«الكبيسي»، يقول: - «وكان على المسلمين أن يرهبوا هؤلاء الأعداء لأن الإرهاب هو أول خطوات الدفاع عن الحق باتجاه الظالم الغاصب، وهذه هي الحالة الوحيدة التي يصبح الإرهاب فيها مقدساً، من حيث كونه جهداً عسكرياً مشروعاً»، وانتبه إلى قوله: - «من حيث كونه جهداً عسكرياً مشروعاً»، ولا أحسبه بهذا القول يحرض على الإرهاب المرفوض، ولا أحسبه يبرر الأحداث المستنكرة عالمياً، وقوله يتساوق مع قوله تعالى: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾.

و«السديري» الحريص على تجاوز الأمة الإسلامية محنة التحدي غير المتكافىء، حين فاته المفهوم الذي عوّل عليه«الكبيسي» انجر وراء مفهوم الإرهاب المرفوض إسلامياً، وأحال إليه مقولة الكبيسي، واختلاف المفاهيم لا يقتضي منا إسقاط المفهوم الذي يقتضيه الإسلام، ذلك أنه مشروع لكل مضطهد مسلوب الحق والحرية. وعلينا بوصفنا أمة ذات حضارة لها مصطلحاتها ومفاهيمها وتصوراتها الربانية: للكون والحياة

---

(١) تاريخ المقال: ١٧/ ١٢/ ٢٠٠٢

والإنسان، ألا نرقب الرؤية الغربية للأشياء، فالإرهاب كما يراه الغربيون يعني أي مواجهة ضده، وإن كانت دفاعاً مشروعاً عن النفس والمال والعرض والوطن والدين.

والغرب وراء مغريات«العولمة» بوصفها وجهاً جديداً للاستعمار، لايريد للعالم الإسلامي أن يمتلك من القوة السياسية والاقتصادية والعسكرية ما يبلغ به حد التكافؤ وحماية الحقوق.

وحين يريد إحكام السيطرة على العالم، يشرعن لنفسه التدخل العسكري، وينفرد بتحديد المفاهيم، والناتج الطبعي لهذا الاستبداد: أنه لايرى بأساً من امتلاك السلاح النووي لدولة صغيرة، لا يبلغ سكانها سكان حي من أحياء القاهرة. فـ «إسرائيل» تمتلك رؤوساً نووية رادعة، وقادرة على تدمير العالم الإسلامي، والغرب حفي بهذه القدرة الرادعة، داعم لها، فيما لايرى من حق أي دولة إسلامية امتلاك الأقل من القوة غير التقليدية.

يتجلى ذلك في موقفه المعلن من«العراق»، ومن «باكستان» وفي مواقف سرية ضاغطة، يمارسها لتحجيم القوة التقليدية: آلياً وبشرياً عند دول المواجهة لإسرائيل.

ومع ما يقترفه«العراق» من تجاوزات لانقره عليها، إلا أننا نستغرب إلحاح الغرب في نزع القوة بكل أشكالها، وإلحاحه في تنفيذ قرارات الأمم المتحدة، مع وجود دولة مغتصبة، رفضت عشرات القرارات، ولم يكن منه أدنى موقف، بل أتيحت ل «إسرائيل» فرصة التمتع المطلق بحق«الفيتو» فيما لم يستخدم هذا الحق ولو لمرة واحدة لصالح العرب.

أفلا يكون هذا الفعل إرهاباً منظماً؟

تمارسه دول مسؤولة عن العدل والحرية والديمقراطية والاستقرار كما تزعم. وإذ لا نقدر على المواجهة وحمل الغرب على الإذعان للحق والعدل فإن علينا- ونحن نطالب العراق بالامتثال لقرارات الأمم المتحدة- أن نلح على الدول المتحكمة كي تنصاع للحق، وتنظر إلى فظائع الصهيونية وإلى الإرهاب الممارس عالمياً على يد منظمات غربية.

و«الكبيسي» الذي يدعو إلى تكوين القوة المرهبة، يعي تماماً كم هو الفرق بين الإرهاب غير المشروع، حتى في المنظور الإسلامي والإرهاب المشروع الذي تمتلكه أصغر دولة في الشرق الأوسط هي«دولة إسرائيل»، إن قوتها النووية مرهبة ومخيفة للعالمين العربي والإسلامي، وهي في ذاتها دولة إرهابية مغتصبة، تمارس تحت سمع العالم وبصره ودعمه أبشع عملية إبادة للإنسان وإفساد في الأرض ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾، ومع ذلك لا نبرح الحديث عن الإرهاب العالمي كما يراه الغرب منسوباً إلى الإسلام، ونحاول استرضاءه بشكل مذل، إن الدفع بالتي هي أحسن، واتقاء الأعداء مطلب إسلامي، غير أن ما نمارسه عين المذلة والهوان، والضعة لا التواضع، وإذ يكون من مصلحتنا مشاطرة العالم في محاربة الإرهاب، يكون من حقنا بل من واجبنا الإلحاح في طرح الممارسة الصهيونية، لكونها عين الإرهاب، ووضع أمريكا أمام مسؤوليتها، لأنها راعية السلام.

إن الإرهاب الذي يدعو إليه«الكبيسي» يعني إخافة الاعداء وحفظ التوازن، فالأمة الإسلامية لايمكن أن تحمي مشروعها الرباني إلا بالقوة، والله أمرها بإعداد القوة، لإرهاب عدوالله وعدوها، والجنوح للسلم والتصالح والتعاذر والتُّقاة لا تقتضي أن نكون أذلة، لانملك ما ندفع به عن أنفسنا، ومن أراد السلام فليستعد للحرب.

وسلام الشجعان لا يتحقق إلا بعد أن نصنع السلاح الذي يحمينا، ونزرع الطعام الذي يغذينا، وننسج اللباس الذي يكسونا، ونتقن العلم الذي يغنينا، فذلك سبيل السلام والعزة التي

أرادها الله لأوليائه، ولا يتم شيء من ذلك إلا بالعدل والمساواة والحرية، لأنها أركان الحياة الكريمة في الدنيا، مثلما أن الصلاة والزكاة والحج أركان الحياة السعيدة في الآخرة. ومشاطرة العالم في محاربة الإرهاب الحقيقي الإرهاب الذي تتفق كل الحضارات على مفهومه لا يعني الكف عن إعداد القوة المرهبة: حسياً ومعنوياً وإجرائياً، وحين تغل أيدينا عن صناعة السلاح وإنتاج المطعم والملبس وإشاعة العدل والحرية، وحين يحل الظلم محل العدل والعبودية محل الحرية، والفقر محل الغنى بفعل الآخر ومباركته فإن من حقنا ألا نذعن، فكل خطوة في سبيل إهانتنا ستتبعها خطوات أدهى وأمر، و«من يهن يسهل الهوان عليه»، وإذا سايرنا الغرب على مفهومه للإرهاب، عشنا أذلة، والله لايريد لعباده الذلة والمهانة.

ومن حق المجتمع الإنساني المتمدين أن نشاطره في المفاهيم المشتركة، وأن نسهم معه في صناعة المدنية والحضارة ومطاردة الإرهاب الحقيقي، الذي يسيء العلاقات، وينسف الاتفاقات، ويؤثر على المصالح المشتركة.

ويشرعن للقوى الكبرى حق التدخل، ومتى أريد منا أن نكون: أذلة لا نملك السلاح، فقراء لا نملك الإنتاج، مستعبد ين لا نملك حق تقرير المصير كان حقاً علينا ممارسة ما يعيد لنا إنسانيتنا بالأسلوب الذي نريد وبالطريقة التي نمتلك.

ومن أبسط حقوقنا تعريف الإرهاب، وتحديد مفهومه، وتحديد النوع الذي نحاربه ونشاطر الغرب في محاربته.

أما التوفر على القوة المرهبة لعدونا، وأما الدفاع المشروع عن حقوقنا، فليس من حق أحد أن يسلبنا إياه، باسم محاربة الإرهاب، وإذا تسلط الغرب على مصالحنا وعلى إخواننا العزل وعلى قضايانا المصيرية، فليس من الحكمة أن نسترضيه بالتنازلات، ولا أن نسايره باسم الوفاق العالمي، وفي سبيل الحصول على حقوقنا المشروعة يجب علينا فقه الواقع والتقدير والتوقيت، فالله قد خفف عنا، وعلم أن فينا ضعفاً، ولهذا فليس علينا تكليف أنفسنا فوق وسعها، ولنا- والحالة تلك- أن نجادل بالتي هي أحسن، وأن نتعمد أهون الضررين: -

وإذا لم يكن من الموت بد
فمن العار أن تموت جباناً

وكيف تليق بنا المسايرة والغرب يصف الفدائيين الذين يختارون الموت الشريف على الحياة المهينة بالإرهابيين، وما هم إرهابيون، إنهم يدافعون عن أرضهم وعن حرياتهم وعن أعراضهم.

والغرب الديمقراطي الحامي للحرية ولحقوق الإنسان، كما يدعي، لا يتردد في وصفهم بالإرهابيين، فهل خرجوا من ديارهم لممارسة المقاومة، أم انهم أخرجوا منها، إنهم يقاومون على أرضهم المغتصبة، ويدافعون عن أعراضهم المنتهكة، ومع ذلك فالعدو بعدده وعتاده يمارس مع الأطفال والشيوخ والعجائز أبشع صور الإذلال، والغرب يشايعه، ويبارك خطواته، فيما يوظف البعض منا طاقاته البلاغية لاسترضائه وترسيخ مفاهيمه.

أما الثانية: فقد وقع في خطأ آخر، ما كان له أن يفوت عليه، وهو العنوان «العنز التي تناطح الجبل» فالأمة الإسلامية وإن كانت في وضع موجع، ليست عنزاً إلى جانب جبل، ولو أن العالم الإسلامي لملم أطرافه، وسحب يداً واحدة من الغرب، وصفّى خلافاته الوهمية، وارتد إلى الداخل: يصنع إنسانه، ويحرث أرضه، ويكف شره عن جاره، ولم يكن مسرحاً للعب السياسة، ولم يختلف حكامه مع شعوبه، ولم يبذر مقدراته، ولم ينازع

الغرب مصالحه المشروعة، ولم يستعن به على الأقربين، لكان مع وضعه مهيب الجانب، ولا تجوز الاستهانة بالأمة، مهما بلغت من الضعف، ذلك أنه ضعف من صنع أيدينا، وضعف عارض، وليس سمة ملازمة، وكيف يكون الضعف طبيعة، والإسلام سبق الحضارات في البحث والعلم والصناعة والفكر الاقتصادي والسياسي والعدل والمساواة والحرية وسائر القيم، وما من عمل أو نظام أسعد به الغرب إنسانه إلا أبانه الإسلام وسبق إليه، والإحباط واليأس والمرارة تزيد في الارتكاس، وتعطي للآخر فرصة الإيغال في الإذلال والإهانة، إن الغرب يزرع فينا اليأس والإحباط، ويمارس حرباً نفسية منظمة، أدت ثمارها.

أما الثالثة: فأسلوب المعالجة الهزلي الموغل في الهزلية، فالقضية التي ندب الأستاذ«مشعل السديري» نفسه لمواجهتها مسألة فكرية عقدية مصيرية، وليس من الحصافة أن تعالج بهذا الأسلوب الهزلي، وبخاصة أن الكاتب يواجه مفكراً إسلامياً جاداً، ومع احتفائنا بسخرية الكاتب إلا أن لكل مقام مقالاً.

منخنقات: المعية .. والضدية وتفخيخ الأسئلة .. ! (١) [1]

عندما تتأزم الأمور، وتزلق المشاهد، يرتبك خطاب النخب والمتنخوبين والعلماء والمتعالمين، وتدخل الأمة في نفق الشك وجنون الارتياب، وتستفحل ظاهرة الأسئلة المريبة، أسئلة الاستكشاف والتصنيف، لا أسئلة الاستعلام والتعلم، ومثل ذلك عرض لمرض، ومؤشر على خلل في البنية الفكرية واستفحال للمراء العقيم باسم الجدل والمنطق. والخلي من هذه الريب تنتابه غفلة المؤمن، فلا يقيم وزنا للتحفظات ولا للمراجعات، قبل التفوه بأي اجابة، ومن ثم يبادر السائل بالجواب. والجواب الآمن يتعرض لأكثر من علامة استفهام، ويؤخذ بأكثر من مدخل، ويخضع لأكثر من تفسير. ومثلما يختل الأمن النفسي، يختل الأمن الفكري، مما يدفع بالمفكر إلى كتم تفكيره ومسايرة الآخرين حبا للسلامة وايثارا للعافية، اذ هناك فتن يجسدها «الهرج» وأخرى تتبدى في «التهريج» واللسان آلية الحرب الباردة المحفزة والمنشطة لخلايا الحرب الساخنة. والمشاهد العربية تتصدع عن أسئلة مفخخة، تستدرج الشجي والخلي. وحين يعيش العالم والأديب والمفكر في حالة من الخوف والترقب، يتصوح نبت المعارف، ثم لا يكون عالم بصير، ولا ناصح خبير، ولا قدوة حسنة. ووابل الأسئلة التربصية تعمق الخيفة والتردد، وتحبس القول السديد في الحناجر. والرقابة غير المشروعة، وغير المؤسساتية، وغير المنظورة رقابة غوغائية، وهي أخطر على الفكر من أي رقابة، يتحرك ذووها وفق أصول وضوابط وصلاحيات مستمدة من شرعية السلطة، ومتطلبات الحرية المنضبطة. وحماية الأجواء الفكرية من التلوث أهم من حماية البيئة.

وكم يتعرض المثقفون وأنصافهم والفارغون لأسئلة لا تخطر على بال، يبده احدهم بها متوتر أو متربص أو متعصب، لا يطلب علما، وانما يسبر حالا، ويكشف عن انتماء، وقد لا تتاح للمكره على الاجابة فرصة التأمل، ولا مندوحة التعويل على مقولة العالم المتضلع: «فيها قولان»، ولا الركون إلى نصف العلم «لا أدري»، فالسائل يريد صريح العبارة، ومحدودية الموقف، ليشكل رؤيته عن المسؤول، ويصوغ اسلوب التعامل معه وسمة الموقف منه.

فعندما يقول لك قائل: هل أنت مع امريكا أو ضدها؟. أو يقول لك آخر: هل أنت مع الارهاب أو ضده؟ وهل أنت مع ضرب القاعدة أو ضرب العراق؟

وحين يستوضح ثالث عن موقفك من الحزب القائم في الاذهان، أو الحرب المتدخلة في الأوطان، أو المذهب الشائع على كل لسان، أو التيار السياسي الثائر على كل سائد، أو المعتقد الديني الخارج عن الاجماع والاجتماع، أو المنحى الفكري العابث بكل مسلمة، أو العالم الناقم البرم، أو المعارض المتشنج، أو التصريح السياسي، أو الفتوى القنواتية، أو التغيير في المناهج، أو حتى عن الكتاب الذي لم يقرأه، أو المقولة التي لم يفهمها، أو الفتيا المتداولة في الأوراق، أو الموقع المعلوماتي الزاخر بالبهتان، أو ما شئت من فيوض القلم واللسان.

ويتقاطر آخرون بطرح ثنائي يدور حول «المعية أو الضدية» تحس أمام كل ذلك بأنك مستهدف، وانك تقترب من مأسدة مخيفة، تتحول معها سمعتك إلى حديث مجالس ومادة مواقع، واستنطاقك يلوي على مشروع تصنيفي تصفوي، يدخل بك إلى الفئوية لتكون مع السائل أو ضده، محرما عليك الوسطية، أو الحيادية، أو التوقف، حتى الاستبانة والتثبت، وهما منهج اسلامي ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾.

---

(١) تاريخ المقال: ٢٤/ ١٢/ ٢٠٠٢

وهناك تكون عدوا لدودا لمن يكره الحزبي المعين أو المعارض المعروف أو يحبه، أو يكره «أمريكا» أو يعذّر لها، أؤ يأخذ بتلك المقولة، أو بتلك الفتيا، أو يتبع ذلك العالم أو ذاك الحركي، أو يخالفهما. واشكاليتك تتضاعف حينما لا تكون مهتما بهذه المواقف المتشنجة، أو حينما تكون ممن خاف الفتنة فاعتزل المشاهد وما فيها من أشياء وأناسي، واهتم بخويصة نفسه.

والتصنيف واستمراء الأعراض لا يصدران الا من مبتدىء أو عاطفي لا يؤمن بالتعددية المعتبرة، أو من متسطح لا يعرف دواخل الامور وقوانين اللعب، أو ممن تحقر صلاتك إلى صلاته وصيامك إلى صيامه، ولكنه يمرق من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ودم المسلم المعصوم عنده أهون من اراقة الماء العكر.

ومن شاء ان يطمئن قلبه فليدخل على «المواقع الانترنتية» ليرى ماهو أسوأ من مذبحة «قانا» أو «حلبجة» مما يبعث على الاستياء والخوف، فمثل هذا الصنيع ناتج أخلاقيات خطيرة نُشىء عليها خليون، كانوا من قبل شبابا على فطرة الله التي فطر الناس عليها يكتظ بهم الشارع العربي من المحيط إلى الخليج.

واشكالية المشاهد في فترات التوتر والاهتياج انها تعيش صرعة التصنيف، فكل متكلم أو كاتب لابد أن يكون منتميا لطائفة فكرية أو دينية أو سياسية، سبقت تسميتها، وفرغ الفضوليون من تصنيفها، وليس لأحد بعد هذا حق الاجتهاد أو الاختيار. والمسألة اما ان تكون: معي أو تكون ضدي على الطريقة «البوشية».

ولكن ان تستعرض المسميات الفكرية والسياسية والدينية في سائر المشاهد العربية، من مثل «القومية» و«العلمانية» و«القطبية» و«الاخوانية» و«السرورية» و«العقلانية» و«الحداثية» و«الليبرالية» و«الحبشية» و«الجامية» و«الراديكالية» وما لا نهاية له من تلك المسميات التي فرقت كلمة الأمة، وجعلت أهلها شيعا يضرب بعضهم سمعة بعض، وقد يتطور الخلاف ليكون الضرب في الرقاب. وما عرفنا ذلك في طفولتنا، ولا في شبابنا، ولا في كهولتنا، ولما فوجئنا وفجعنا به، لم يكن في مقدورنا، وقد وهن العظم واشتعل الرأس شيبا ان نأخذ بحجز المتدافعين، ونردهم إلى جادة الصواب.

ولو نظرنا في صراعات تلك الطوائف، وتصفياتها للسمعة، وتراشقها ببذيء الكلام، وساقط القول، لهالنا الامر. وما من احد من هؤلاء واولئك الا هو هارب من النار، ولكنه ركب رأسه، واعجب برأيه، وجعل اصابعه في أذنيه، واستغشى ثيابه، وأصر، واستكبر استكبارا، فوقع في الهلكة. والذين يرسخون مفهوم «الحدية» و«الثنائية» يقترفون خطيئة كبرى، لانهم يضيقون واسعا، ويوسعون رقعة الخلاف والتنازع والشحناء. والرسول - ﷺ - يتفادى دائما الحدية، وفي «حجة الوداع» ما سئل عن شيء الا قال: افعل ولا حرج. أو كما قال. والصحابة يختلفون، ولا يعادي بعضهم بعضا، واذا احتدم الخلاف بينهم، انتهوا إلى رسول الله ﷺ فصوب آراءهم، أو سكت عن الاجابة، فعل ذلك عند امره بصلاة العصر في بني قريظة، وعند اختلاف عمر مع قارىء القرآن. وقد يحسم الموقف، كما في قوله: «**أفتّان أنت يا معاذ؟**»، وقد يتولى الله فض المنازعات، كما في اقتتال «الطائفتين». وما من مخطىء بحق رسول الله ﷺ أو بحق الاسلام أو بحق نفسه الا ويسمع من يقول بحضرة الرسول: دعني يا رسول الله أضرب عنقه، والرسول الحريص على جمع الكلمة والرؤوف الرحيم بأمته، يؤلف القلوب، ويؤاخي بين المؤمنين، ولا يرضى ان يتحدث الناس بأنه يقتل أصحابه، وتلك نظرة ثاقبة لآثار حرب الشائعات. وحين لحق بالرفيق الأعلى، وتوقف وحي السماء، واندس «السبئيون» لتمزيق وحدة الأمة، وقعت الواقعة، ونال الأمة ما حذرها منه، وأخبر به بقوله: «**لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض**» وقوله: «**اقرؤوا القرآن ما ائتلفت قلوبكم فاذا اختلفتم فقوموا عنه**». وحين

اختلفوا عنده في مرض وفاته، صاح بهم: «**قوموا عني**»، فهو يكره الاختلاف والتنازع، ويعرف أثرهما على قوة الأمة وهيبتها، ولهذا أمر بالسمع والطاعة في المنشط والمكره والعسر واليسر والأثرة، ونهى عن منازعة الأمر أهله، الا ان يرى المؤمن كفرا بواحا عنده من الله فيه برهان، وصدق الله: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ وما نشاهده اليوم تدافع مستميت للفتنة، وعشق متيم للصراع، وكل من أراد استقطاب الغوغاء اقترب من المسكوت عنه، وكل من عشق الأضواء لغم كلماته، ثم أرسلها لتصنع له العجائب.

منخنقات: المعية .. والضدية .. وتفخيخ الأسئلة .. ! (٢)[(١)]

وتفخيخ الأسئلة، والاستدراج عبر تلاحقها الملح، يشيع في الأمة الريبة والخوف، ويوطئ الأكناف للفتن العمياء، ويجمد على الشفاه تطلعات المفكرين والعلماء. وغياب مبدأ التعاذر، وافتقاد حسن النية والرأفة والرحمة مؤذن بفساد كبير. وأي سؤال تربصي وغير بريء يتخلل لحمته وسداه مشروعُ جواب استدراجي توريطي، وعند كل نحلة أو طائفة أسئلتها المزيفة، وقد تعرض كبار العلماء لمثل ذلك، ولعلنا نضرب المثل «بأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري» صاحب الصحيح وبموقفه من قضية «خلق القرآن» فكلما دخل مدينة لطلب الحديث وروايته، دبرت له أسئلة تربصية مفخخة، فكان أن لقي الأذى والمضايقة والطرد. والأسئلة التربصية ينشئها غير مستعلم، ويتلقاها غير حصيف، ومن ثم لا تحيل إلى أزمة قائمة، وإنما تخلق أزمتها، أو تصعد أزمتها القائمة. وأحسب أن من المسلمات كمون الأزمات في زمن التحولات السياسية والفكرية، وتساؤلات الخيفة أو التخويف تحققية لا استعلامية. وتثوير ما لم ير صانع المشروع الوصول إليه يتيح فرصة التخلق للأمة، وفي زمن التخطيط لأي مشروع تتلاحق الأسئلة الاستشكافية أو الاسترشادية أو التعجيزية أو التوريطية. وعندما تمارس مثل هذه الرغبات مع الرسل يتولى المرسل حسم الموقف ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١] وفي الصحيح عن أنس: أن رجلاً قال: يا رسول الله أين أبي؟ قال: «**في النار**» وفي الصحيحين: «**إن أعظم المسلمين في المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم على المسلمين فحرم عليهم من أجل مسألته**» وفيهما: «**فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم**». وحين صعَّد السائلون أزمة الأسئلة، وأحفوا الرسول بالمسألة صعد المنبر قائلاً: «لا تسألوني عن شيء إلا بينت لكم». الأمر الذي حمل كبار الصحابة على الندم والبكاء، وتجديد الإيمان، والرضا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً، مستعيذين من سوء الفتن، وكأن الأسئلة غير السوية طلائع للفتن.

والإمام مالك رحمه الله فيما أعلم سئل عن مسألة، فقال للسائل، هل وقعت؟ قال: لا. قال: إذا وقعت فاسأل عنها من قِبَلك. أو كما قال.

ولهذا فإن كثرة الأسئلة مؤشر حالة غير سوية، والمشاهد السياسية والدينية تعج بأسئلة افتراضية يتراشق بها المرتابون، ويفخخها المتربصون، ويغذيها الحزبيون والفئويون والمذهبيون المتعصبون والفضوليون، أسئلة لا تُستمد من الواقع، ولكنها تنسل من أفكار مرتابة متخوفة أو متربصة، تفترض أسوء الاحتمالات، وتشك حتى في اليقينيات، مقتربة من الشك الديكارتي، غير أنها لا تبحث عن الحقيقة. والتسييس الثوري لكل شيء أخطر من عسكرة الأمة، وفي كل منهما سلبياته القاتلة، وتلاحق الأسئلة عن الموقف من الأشياء والأناسي لقصد الاكتشاف والتصنيف مردهُ إلى ما تعيشه كافة المشاهد من ضغوط وتوتر، وما ترقبه من مخاضات، وما تتوقعه من تصرفات غير مأمونة العواقب، إضافة إلى صرعة التسييس والعصبية المقيتة. ولو أن السؤال منتج موقف ضاغط لتجاوز زيفه وتأزيمه، وأصبح قابلاً لجواب مفعم بالإيجابية. وحتى الفتيا التي تجيء في أعقاب سؤال ماكر ترفع نبض المشهد، وتعمق الخلاف، وتحشر الناس إلى ولاءات إقليمية أو فئوية. ومما أدركنا من تجارب سلفت استدراج المفكر إلى مصيدة المتماكر، ووضعه في موقف حرج أمام فخ السؤال المريب. والذين تتهاداهم قاعات التدريس أو منصات المحاضرات والندوات يحسون بالملاحقة المريبة، والاستدراج من

---

(١) تاريخ المقال: ٣١/ ١٢/ ٢٠٠٢

حيث لا يحتسبون. والأسوء من كل ذلك أن تستدرج من حيث تعلم أو لا تعلم إلى وسيلة إعلامية ليتمتع بك الخليون، وتشفى بك صدور الحاقدين، ويملأ بك فراغ الفضوليين، ثم تنبذ بعد ذلك كسقط المتاع، لقد اشتركت القنوات والمستجيبون لها في إحراق السمعة، وليس من شك أن ملء الفراغات مهم ولكن بمقدار.

والسؤال حين يتضلع من الافتعال والانفعال، ويفتقر إلى الضرورة والفعل، يتحول بذاته إلى إشكالية تتصدع عن نوابت سوء، تستفحل معها الإشكالية، ويستعصي تفادي أثرها السلبي. وكلما أتحنا فرصة لهذه النوعيات التي قد تحقر فعلنا إلى جانب فعلها أعطينا الدنية في ثوابتنا، وماذا علينا لو ملكنا الشجاعة، ووثقنا بأنفسنا وبمواقفنا، ولم نتح فرصة للمتخللين بأسئلتهم في نسجينا المتلاحم، وأعدنا السؤال إلى نحور أصحابه، بحيث لا ينالوا شيئاً، معتمدين على مشروعية «لا أدري» وقد سئل الرسول ﷺ أسئلة استعلام وأسئلة تحدٍ، سئل عن: «الروح والساعة والأنفال والإنفاق والقتال والخمر والميسر واليتامى والمحيض وذي القرنين والجبال» فلم يجب على الفور، بل انتظر وحي السماء، ومن حقنا انتظار ناتج التأمل والمراجعة وتقويم المواقف، ومن حقنا التفصيل في الإجابة والتعددية والاحتمالية. والمشاهد الفكرية والدينية والسياسية حين تقع تحت طائلة هوس الأسئلة المفتعلة تصاب بدخن الفتنة، وتتحول متونها وهوامشها البشرية إلى متربصين تصفويين. وحين يبدهك إنسان من هذه النوعية بسؤال مصيري تكون حسب المفاهيم السائدة ملزماً بالإجابة الفورية، وكأنك في مسابقة تحسب زمن التأمل، وحين تتردد أو تتلعثم أو تتخلص كما «أسلوب الحكيم» تقع تحت طائلة الاتهام. ولأن السؤال يحمل ثنائية صارمة فإنك محصور بين «لا» أو «نعم»، وليس من حقك «قد يكون». وهذه الظواهر غير السوية ناتج تربية سيئة، من واجبنا أن نعيد النظر فيها، وأن نواجهها بقوة وثقة، لا نخشى فيها لومة لائم.

والمسألة الدينية التعبد ية وغير التعبد ية والرؤى السياسية وسط أعاصير التحولات هي المجال الأرحب لصناعة السؤال المزيف من العامة والدهماء التي يتحاماها الجميع، لأنها تعيش تحت وطأة التجييش العاطفي الأهوج، ومتى تشكل وعيها من أسئلة الزيف تحولت إلى تيار جارف، يفرض الفوضوية وسيادة الجهل، وكيف لا يكون والرسول ﷺ قد أخبر بنزول الجهل ورفع العلم وكثرة القتل. وتشكيل الوعي الجمعي من السؤال والجواب والشريط والمنشور والمواقع المتسربة من محدودي الفهم والعلم والتجربة يحول الرؤى والتعددية والفسح والاحتمالات إلى مواقف حدية صارمة كحد السيف. واحتدام العامة، وتدخلهم في اختصاص المؤسسات لا يكون ملفتاً للنظر إلا في الظروف المتوترة، وقد مر التاريخ الإسلامي بمثل هذه الحالات، والدراسات المثيرة عن أحوال العامة في بغداد في القرن الرابع والخامس انطوت على تصرفات غريبة. و«الحدية» تفوت على الأمة فرص التفكير، إذ المسألة عندها إما أبيض فاقع اللون، أو أسود قاتم اللون. وعندما لا يكون طرفان ووسط، ومواقع رمادية، تتعطل لغة العقل، وتنعدم فرصة الخيارات، وتلك قاصمة الظهر.

ولست أشك أن الخطورة المترتبة على استمرار الأسئلة لا تقل عن الجرأة على الفتيا، ذلك أنها ناتج سؤال متوتر، وفي الأثر «أجرؤ الناس على الفتيا أجرؤهم على النار». إن افتراض إشكالية دينية لم تقم، تعني تعطيل الفعالية أمام إشكاليات قائمة. وهلوسة الأسئلة تستدعي كثرة المجيبين، ومن ثم يكثر المتعالمون والجهلة، ذلك أن مثل هذه الحالة غير السوية تدخل بالأمة نفق العرض والطلب، فإذا كان السؤال طلباً فإنه يفوق العرض، ومن ثم يختل التوازن، ويكثر الطلب على المهيئين للإجابة على الأسئلة، وإذا استشرت ظاهرة التعالم لسد الثغرات هلكت الأمة. وصرعة الأسئلة الاستدراجية حملت

الكفاءات العلمية والفكرية على التراجع، وعرضت آخرين للمساءلة، ومتى أصاخ العالم و المفكر، وأوجس خيفة من القول والصمت تشكلت الذهنيات المرتابة، وأصبحت المشاهد مساحة ملغومة، ومما ضاعف الإشكالية هوس المواقع على «الانترنت» فكل من ضاقت به الحيل، وأرهقه الفراغ، تمطى على موقعه، واستقبل فيوض القول في الجرح والتعديل والتزكية والتخوين والوعد والوعيد، وكل داخل على الموقع للاستخبار يقول: اللهم سلم سلم. وسؤال الأسئلة: من المسؤول عن اندلاق أقتاب الأسئلة المريبة، ومن المسؤول عن إيقاف النزيف؟ التربية أم السلطة أم النخبة؟.

رهان (الحداثة) بين التجلِّي والتولِّي .. ! (١) [(١)]

بعض الدارسين والنقاد والمحاضرين والمؤلفين المناوئين للحداثة يقطعون بأنها اضمحلت تحت وابل الضربات المسددة، وكل الشامتين يقوم رهانهم على ان توليها مرتبط بغياب من كانوا تحت رايتها ملء سمع المشاهد وبصره، فيما يقولون، وفيما يراهنون عليه من غلبة واستفاضة لقيمها: الفنية واللغوية والدلالية.

وبعض المتفائلين الظانين بها ظن السوء أخلوا ثنياتهم، وهبوا لجمع «مخيال» الغنائم التي خلفها لهم الوهم، مصوراً لهم ان الحداثيين تركوا فلولها في ساحة الوغى، مثلما فعل الرماة في «أحد»، وهم يحسبون ان الذين اغثونا بادعائها في مشاهدنا المحلية هم خاصتها وعيبتها وسوادها الأعظم، وان انطفاءهم مؤذن بانطفائها في كل بقاع الأرض الواسعة، والتأسيس النقدي على ان الحداثة والحداثيين أصبحوا خبراً بعد عين تأسيس على جرف هار، ذلك ان الذين لم يتقوا الشبهات بادعائها ممن اعطوا الدنية في ثوابتهم لأساطينها الضالعين فيها شرذمة قليلة، لا يقدمون، وقد لا يؤخرون، ولا يدق تمييزهم بين المحظور والمباح في سائر العوالم: الدينية والأدبية والاجتماعية، وكل ما يوصفون به انهم سماعون لسدنة الحداثة، ممن ينظرون إليهم نظر المزدري، لعلمهم بأن هذه النوعية غوغاء، لا يضيفون شيئاً، لأنهم لا يملكون خيلاً يهدونها ولا مالاً يعطونه، ولا منطقاً حسنا يعوضون به إقواءهم المعرفي، حين لا تسعدهم المعارف ولا تسندهم الآليات، وكل الذي يؤدونه ان يذكروا عند أربابها بما لم يفعلوا، وغياب مثل هؤلاء أو بياتهم الشتوي، لا يحفز على تداول القول في تخلف الحداثة عما سواها من الظواهر، فضلاً عن القطع بذهابها.

و«الحداثة» التي نقف في وجهها، ونتقرب إلى الله بالتصدي لمعتنقيها باقية، متنامية، متعددة المواقع والقضايا والظواهر والمفاهيم، وتجذرها في المشاهد الغربية وأثرها في الرؤى والتصورات والمواقف من المسلمات التي لا مجال للتشكيك فيها، وكيف يبشر الناقمون بزوالها، وهي قائمة في الإبداعات السردية والشعرية وفي النقد، حاضرة في الصحف والمجلات والكتب والمنتديات، مؤثرة على «اللغة» و«الشرط الفني» و«القيم الدلالية» شائعة كالوباء في الفن والفكر والأخلاق، لها حماتها من النقاد والدارسين، ولها أشياعها من القراء والكتاب، ولها مجالاتها في الصحف والمجلات والكتب والروابط والنقابات والمؤسسات والقنوات، والمتابع الواعي لا يغتر بخلط الأوراق، فالحداثة مصطلح مصنوع، والتجديد مصير محتوم، ومع اننا نتصدى لفيوضها لا يجرمنا شنآن أقوامها على ألا نقول الحق، فيما أحدثوه، وفيما أضافوه من مناهج وآليات في مجال النقد، ومن عمق دلالي وتألق فني في مجال الإبداع، فأصحاب المواهب والمتقفون من الحدثيين استطاعوا ان يتركوا أثراً عميقاً، لا ينكره إلا مغالط، ثم ان الموهبة والاقتدار والثقافة إمكانيات ذاتية، لا ترتبط بمذهب، ولا تختص بنحلة. والرسول ﷺ عرف لخصومه حقهم واقتدارهم، ولهذا دعا ربه ان يعز الإسلام بأحب «العمرين» إليه: «عمرو بن هشام» و«عمر بن الخطاب» وهما إذ ذاك، كافران يكيدان له وللإسلام وللمسلمين، فهدى الله ابن الخطاب رحمة، وأضل أبا جهل عدلاً، فأساطين الحداثة على جانب من المواهب والإمكانيات المعرفية، وليس كذلك الغثائيون والزبد الذين ينقُّون كما الضفادع، ثم لا يُسمنون ولا يغنون من جوع، وكل أقلية منبوذة تكرس جهدها، وتشرعن له بإعداد القوة والسيطرة على مجالاتها من علم وإعلام ومال، والذين يودون معرفة أحوال الحداثة

---

(١) تاريخ المقال: ٧/ ١/ ٢٠٠٣

الفكرية ومحاكمة ذويها بعدل وانصاف ومعرفة، عليهم ان يضعوا في اعتبارهم عدة اشكاليات، لعل من أهمها:

الأول: المفهوم.
الثاني: المجال.
الثالث: الاقليمية.
الرابع: الادعاء.

وما يتناسل منها من اشكاليات مربكة، ولست على يقين من حسم هذه الأمور في الوقت المنظور، وما انا ممن يربطون بين الكُمُون والذهاب، ولا مع الذين يحسبونها ماثلة في الذوات دون الواقع، ولا مع الذين يقصرون أحكامهم على مدها وجزرها الاقليمي، ذلك ان اجواء بعض الاقاليم ليست ملائمة لحداثة الفكر، وان تهافت عليها من لا يلوون على معرفة، ولا يخافون على سمعة، ولا يفرقون بين الجمرة والتمرة، وبعض المتهافتين على الطوارئ لا تسبقهم المسابير ولا المجسات، ولا يقيسون قبل ان يغوصوا في أعماق المستجدات، فهم أشبه بالفراش، يتهافتون على اللهب ليحترقوا، ولهذا لا يجدون معرة في التحول السريع.

والتعالق مع أي قضية يكتنفها الغموض، وتناسل مفاهيمها يحول دون كف الغيبة عن النفس، وحين تتقطع بمثل أولئك الأسباب، يحصرون مفهوم الحداثة عند حد التجديد والتغيير والطفرة، والمتحدث في أي قضية فكرية أو أدبية مشتركة بين حضارة وأخرى لم تتحرر عنده: تاريخاً وموطناً ومفهوماً ومرجعية وتحولاً، يأتي بالعجائب، ويكشف عن قدرة إنشائية، لا تلوي على ثقافة، ولا على معرفة، ولا تقول شيئاً، وبعض السرعان من هؤلاء الأشياع والأتباع يصلون بخفتهم وتقلبهم في المذاهب حافة البهلوانية، فيكثر نظّارهم، ويرتفع من حولهم المكاء والتصدية، ويختلط الأمر على المتابعين لهم، فكل ما يقولونه يدل على ان المعرفة لما تدخل في قلوبهم، إذ لم يكونوا بالمؤصلين، ولا بالصابرين على لأواء المغالبة، وتقصي القضايا، وتحقيق الإيمان الذي يطمئن معه القلب، وتسكن عنده الجوارح. وبين «المتحدثنين» و«المتعالقين» تأتي طوائف أخرى، تتوهم انها على فهم دقيق بمجريات الأحداث الفكرية والأدبية، حتى إذا فُزِّع عن قولهم، تجلى الزيد المجفو، وظهر الرجم بالغيب، فالمبادئ والمذاهب والمناهج والآليات لا يكفي تلقفها من وسائل الإعلام، ولا من ثقافة السماع، بل لابد من تقصيها من تخومها، والوصول إليها في مطارح أهلها، ورصد الأجواء الفكرية لمنشئها، والتعرف على جذورها الفكرية وتحولاتها المقصدية، ومراحل تقاطعها مع التيارات، وتنقلها بين المبادئ والمذاهب، وما يلقى مثل ذلك إلا الصابرون، أما الراكضون في ركابها: تبعية وإمعية، وان اشتعلت رؤوسهم شيباً، ووسدت بعض الأمور إليهم، فقد تعوزهم المعرفة، وتنقصهم الأهلية، والمشاهد العربية تنوس بها نكرات ومعارف: مقتدرون وادعياء، وتطفو في مشاهدها مذاهب وآليات ومناهج، و«الحداثة» تتسع لهؤلاء وأولئك، فآليات النقد اللغوي الحديث كـ«البنائية» و«التحويلية» و«التفكيكية» نسلت من أحداب كثيرة، ولك ان تقتفي أثر «البنائية» وتقلبها في العلوم، وهي: آلية، وتصور، وفرضية، لها جذورها الفلسفية، وبوادرها الضاربة في عمق التاريخ الفكري واللغوي والأدبي والاجتماعي والنفسي والاقتصادي وسائر المذاهب، وسوف تقف من هذا الاقتفاء على العجب العجاب، والذين التقوا بها، أو تقاطعوا معها على أي صعيد من هذه الصعد يتصورونها من خلال ذلك المجال، وليست لدى بعضهم القدرة ولا الإمكانيات التي تساعدهم على ملاحقتها في كل حقل معرفي، ومثلهم في ذلك مثل «العميان» الذين جمعوا حول «فيل» ليتمكنوا من تصوره، فكل واحد منهم تقرّاه بلمس، كما صورة انطاكية التي راعت المتلمس، وحين

اجتمعوا لتحديد تصورهم له، أتوا بالمضحكات، وانفض سامرهم دون اتفاق، ولو انهم أبصروه لما اختلفوا، وهكذا «البنيوية» نظر إليها اشباه «أم الحليس» مثلما تلمس «العميان» جوانب «الفيل»، ويقال عن «الحداثة» و«العولمة» و«العلمانية» ما قيل عن «البنيوية» فهي قائمة في كل شيء، ف«الشكلانيون» و«التشكيليون» ومصممو «الأزياء» و«المساكن» يصفون اضافاتهم وتجديدهم بأنه عين «الحداثة»، وفي تصورهم انها تتحقق بمجرد المغايرة، والموجفون عليهم بخيلهم ورجلهم، والذائدون عنها بسلاحهم، حين تتجلى لهم بصورتها الحقيقية، يعرفون انهم يضربون في فجاج الوهم، وذلك بعض ما نشاهده من الخصوم والأنصار، والجذر اللغوي «ح. د. ث» يعطي ذات المفاهيم، ويوقع في اللبس، ولكن الدلالة الوضعية تضمحل في ظل الدلالة المصطلحية، ومن ثم فإن «للحداثة» حكايات لا تجليها المغالطة، ولا يحررها الجهل، ف«الحداثة» غير التجديد، وغير المعاصرة، وغير التحديث، وغير المجيء من البدو إلى الحاضرة، ومن القرية إلى المدينة، والتحول من الجمل إلى السيارة، إنها «ايديولوجيا» صنعت على عين الغرب المادي، وبوحي من الفلسفة الوضعية، وكل قائل عنها يعري نفسه على حد: «تحدث حتى أراك» ومعتقدنا وتصورنا: انها: مذهب «فكري» و«سلوكي» يقتضي: «العدمية» و«التدمير» و«الانقطاع» و«التهتك»، و«الغموض» و«الهروب» و«العصاب» و«الازدراء» و«النفي» و«الالغاء» و«التساؤل» و«الاحتجاج» و«التوتر» و«الغثيان»، وكل ذلك بعض ما يقوله ذووها بأفواههم، لا ما نقوله نحن، ومثلما يدعيها غير الأدباء، يدعيها المبدعون والدارسون والنقاد والمهندسون والتربويون وعلماء الاجتماع واللغة والنفس، وهي في تقلبات مع المفكرين والسلوكيين والساسة وسائر علماء المعارف الإنسانية، فأي حداثة يريد القائل بذهابها، والمتملقون لها في المشاهد المحلية لا يملكون الحسم في أمرها، وكيف يتأنى لعائل مستكبر ان يقول كلمة الفصل، وهو الطاعم الكاسي؟.

رهان الحداثة بين التجلي والتولي .. ! (٢) [1]

والنقاد الذين يرصدون لها من خلال الحركة الداخلية، ليسوا على شيء مما يدور في سائر المشاهد العربية. وتجلي الحداثة في القول أو في الفعل يتطلب الدقة في تحديد المراد، والمتعاملون معها بوعي سليم، وتصور دقيق، تعن لهم مجالات وأنواع وقضايا وظواهر. واستدعاء اللغط الدائر حول إقبالها وإدبارها يقتضي الإيماء إلى إشكاليات ثنائية، ففي شأن «الحداثة الأدبية» نجد: -

-حداثة الفن: - السردي والشعري.

و- حداثة الدلالة- الفكرية والسلوكية.

و- حداثة النقد: التنظيري والتطبيقي.

وما لم يكن المتحدث على معرفة تامة بهذه الثنائيات فإن حديثه أضغاث احلام. فعلى أي الثنائيات يقوم رهان التولي والانكماش الذي يدعيه البعض؟ وإذا كانت الرؤية الحداثية واضحة لأساطينها في الوطن العربي، متجلية للمتصدين لها هنالك، فإنها لدينا ملتبسة، ذلك أن المتعالقين معها: إما جهلة بمرجعياتها الفكرية والسلوكية، أو جهلة بمفاهيمها الفنية المتعددة بتعدد المتصدين لها. وتبذبذها بين: الفن والفكر، وبين الإبداع والنقد، وبين الأداء والتلقي، وبين التشيع والتمنع كل ذلك ومثله معه يزيد في صعوبة الاستيعاب. والقائلون بنكوصها على اعقابها وذهاب ريحها إنما يمنون أنفسهم ويعدونها. وكيف يتصور البعض أن خفوت صوتها على صفحات الصحف المحلية، وتفرق مدعيها بين المذاهب والتيارات مؤذن بنهايتها؟ وهل الحداثة منتج محلي، بحيث نتحكم بمصائرها؟. وهل لهؤلاء أثر في شيوعها، وتجذرها، وتقلبها في البلاد؟ بحيث ينعكس انطفاؤهم عليها، لقد أحسوا انها سبة الدهر، فخلصوا نجيا، ولم يرحلوا بها معهم إلى ملاذاتهم ومدخلاتهم، بل ظلت كما هي، مع من يملكون قلب المعادلات، والذين فرقتهم أيدي سبأ خرجوا بأقنعة جديدة، وسيظلون يستبدلون قناعاً بآخر، حتى تنفد الأقنعة.

والحداثة بمفهومها الفكري وتصورها الشمولي وانقطاعها المضاعف مع التراث والمتلقي ليست محلية، بل ليست عربية، وريحها العقيم التي هبت على مشاهدنا لم يكن مصدرها من اجوائنا، ولهذا ضوت وخوت، وتوقع البعض انحسارها، بل هبوا لاقتسام الأنفال والغنائم، وإذ تفرق اشياعها في الراهن المحلي فإن ذلك تفرق لا يقلل من أمرها شيئاً. وحين نتقصى إشكاليات الحداثة المشار اليها في مستهل الحديث، نجد أن «المفهومية» إشكالية تطال كل المصطلحات الوافدة، وهي أم المشاكل، ومصدر الإزعاج، ومجال الخلاف والاختلاف، ولو اتفق الجميع على مفهوم المصطلح لحسم الأمر، وقام مقامه الوفاق على كلمة سواء، ولهذا نجد الوالغين في مستنقعاتها والمدانين بقولهم يدَّعونها، وهم أحق بها وأهلها، كما ان المجددين دونما خطيئة دلالية تقتضيها حداثة الفكر يدَّعونها، وهم ليسوا من اهلها، والذين خبُّوا ووضعوا في مضاميرها، تشبثوا بتعدد المفاهيم، ولاذ بعضهم بمفهوم التجديد، والمتصدون لها، يأخذون «الوالغ» و«المجدد» على حد سواء لانضوائهم تحت مصطلح له مفهومه المنحرف عند المتصدين لها.

والمصطلح حين يتنقل عبر الوهاد والنجاد الفكرية والحضارية تتغير مفاهيمه من محطة إلى اخرى، والداخلون فيه، والخارجون منه، أو عليه، لا يعطون الوصف الدقيق، فهو في تحول مفهومي مستمر. وقضية «الثبات» و«التحول» مثلما تكون في ممارسة

---

(١) تاريخ المقال: ١٤/ ١/ ٢٠٠٣

الأداء، تكون في تحديد المؤدى، ولهذا فإننا بحاجة ماسة يفرضها العدل إلى ان نسأل «المتحدث»» عن حداثته، ما مفهومها عنده؟ وما مقاصدها؟

وعلينا ان نقرأ معطياته الإبداعية، أو النقدية، لندينه من فمه، أو نصدق دعوى التجديد عنده، ذلك أن الأداء والقول في سلم التقويم الفكري والسلوكي دركات أو درجات، ومثلما أن النفاق قسمان: - نفاق عقيدة، ونفاق عمل، والمنافقون في الدرك الأسفل من النار، فإن الحداثة هي الأخرى «حداثة فكر» و «حداثة فن» و«حداثة تجديد» وبين الحداثات مسافات واسعة، لا يعلمها الا قليل، والمراء فيها يؤدي إلى تعميق الخلاف. ومثلما أن «الإسلام» دون «الإيمان»، وقد نُبِهَ الأعرابُ بأن الإيمان لمَّا يدخل في قلوبهم فإنه لا يجوز التغافل عن الدركات حين القول في شأن الحداثة والحداثيين. ولعل القائلين بغياب الحداثة المحلية ينظرون إلى انطفاء المصطلح في التداول، دون المفاهيم المتعددة.

ومثلما تختلف «المفاهيم» حول الحداثة تختلف «المجالات». فما مجال الحداثة، أهو اللغة؟ أم الفن؟ أم الفكر؟ أم السلوك؟ أم الحرية الفوضوية؟. إن تحديد المجال الذي تتجسد فيه يحاصر التشتت في المفاهيم، نجد الإبداع عند «أدونيس» له طابعه الحداثي، وهذا يحال إلى الفكر، ونجده عند الروائي «محمد شكري» له طابعه الاخلاقي، وهذا يحال إلى السلوك، ونجده عند الشاعر «أنس الحاج» له طابعه اللغوي الانقطاعي وهذا يحال إلى الغموض، وإن كانت لبعض هؤلاء شطحات فكرية وسقوط أخلاقي، وهكذا يجلي كل حداثي في أكثر من مجال، ثم تكون له منازعه ونكهته الخاصة، وتجلي التحديث اللغوي والفني عند بعض أولئك لا يشرعن الدلالة والمقاصد.

وتبذبذب المواقف بين الفني والدلالي، وحداثي الأصل والتبعي، يؤدي كل ذلك إلى سوء الظن بطائفة من النقاد، حيث اتهموا بالحداثة، وتلبستهم الريبة، لادعائهم إياها في جانبها الفني دون تحفظ أو براءة مما يصنع غيرهم، وتلبست الريبة طائفة اخرى اشادت بأساطين الحداثة الفكرية المنحرفة، والتصقت بهم، وخالطتهم، والتفت بعباءاتهم، ولم تعتزلهم حين يخوضون في النيل من ثوابت الأمة.

وإشكالية «المجال» التعدد والتنوع والتباين، فمجال الحداثة «اللغة» بوصفها وعاء الفكر و«الإبداع» بوصفه مجال التجديد والمغايرة و«الأخلاقيات» بوصفها مجال الممارسة و«الفكر» بوصفه مجال الاعتقاد والتصور، و«النقد» بوصفه المنظر والمعذر والمجادل. ثم إن تجليها في «الفن» دون «الدلالة» لا يحمل على التجريم، ولا على التفسيق. فالتجديد في الشكل واللغة والشرط الفني من القضايا التي لا تمس قضايا الفكر والاخلاق. ومن ثم فإنها في بعض المجالات غير مثيرة، لوقوعها في مجال الاختلاف المعتبر. والإشكالية أن طائفة من المتصدين لها لا يفرقون بين المجالات، وفي ذلك ظلم لا يليق. وعند تخطي «المجال» إلى «الإقليمية» نجد أن الحداثة تبدت في مشاهدنا الثقافية وتلقفها «عرابات» كثيرون، وتلقفها من هم دون ذلك. فأساطينها من المنظرين والنقاد والمبدعين في الوطن العربي من امثال «أدونيس» و«جابر عصفور» و«الماغوط» و«الصائغ» و«الخال» و«درويش» يدركون أبعادها الفكرية والفنية، ويتصورونا كما لو كانت من عند انفسهم. أما من هم دون ذلك من المتعالقين معها دون وعي، ودون ثقافة، ودون فهم دقيق، فهم غوغاء لا تؤخذ منهم عينة، ولا ترصد حركتها من خلال سكونهم أو تحركهم. ولهذا تجد طائفة منهم تدعيها في تباه وتطاول، ولا تقول من خلالها، وطائفة أخرى مرت بها، ولم تتلبث بها الا قليلاً، وأوزاع حاولت أن تقلد في الإبداع السردي أو الشعري، فلم تفلح، ولأن الجميع في ركابها زوائد وزبد، وليسوا أصولاً ومنافع، فقد تساقطوا كورق الخريف، ثم انسحقوا، وذرتهم الرياح. وأمام هذا الاضمحلال تصور الراصدون المحليون أن الحداثة ذهبت بذهابهم، وما علموا انها قائمة بذهابهم، وستظل

قائمة، وإن خبت جذوتها المقتبسة في المشهد المحلي. اما عن «الادعاء» فحدث ولا حرج. وكما أن الحديث عن بني اسرائيل مباح على اطلاقه فإن الحديث عن غثائيات المدعين كذلك، ومدعو الحداثة يحفزهم عشق الأضواء والحضور والإثارة، ولما يدركوا خطورة الانتماء لمذهب فكري منحرف باعتراف أساطينه. ومثلما يغثينا أدعياء الحداثة يغثينا المتصدون لها بدون فهم، ومشهدنا مليء من هذه النوعيات التي لا تتقن إلا شهادة الزور، وتزكية من لا تعرف، والركض في فجاج التيه، والقضية في النهاية كما «الجيش» و«القتام» يعلو الاخف وينحط الاثقل. وما على المراهنين على زوالها إلا أن تعدو عيونهم إلى مطارحها في الآفاق، ليروها جذعة قوية، وكيف نقطع بزوالها وشيطانها الذي يؤز قومها من المنظرين إلى يوم الدين.

الثروة الوطنية بين: الخنزرة والسرطنة .. ! (١)[(١)]

لمّا نزل نقرأ بين الحين والآخر نقداً ايجابياً أو سلبياً، يوثق لشائعات مغرضة عن مشاريعنا الوطنية. تطلق عن مكيدة واعية، أو عن غفلة معتقة. فتارة توصف المشاريع بالجشع والاستغلال والغلاء، واخرى يتهم ذووها بالتعدي على المراعي والشواطئ واستنزاف الثروة المائية، وثالثة يفترى عليهم الدخول في مزاد «منديل ام كلثوم» أو «فستان سعاد حسني»، ورابعة ينال المغرضون من سلامة المنتجاة، فهي اما: مشتملة على مادة خنزيرية جريدة «الاتحاد الاماراتية» أو مسببة للسرطان، أو مدعومة بالهرمونات المضرة بالصحة. والكتبة المتعجلون يزلقون الصحافة المتأنية بانفعالهم، أو بافتعالهم، وعدم ترويهم، فبعضهم كالراوي «الصدوق» الذي لا يفتعل الكذب، ولكنه لا يحترس من الرواية عن الكذابين، والعداوة المفتعلة، والشحناء المصطنعة بين طبقة الكادحين والاغنياء، بقية من بقايا الماركسية، التي افلحت بمساواة الناس في الفقر، وفي تعميق العداوة والبغضاء بين أصحاب رؤوس الاموال المستثمرين والعمال والمستهلكين، وذلك بتكريس مفهوم الطبقية، والاستغلال، والتسلط، وامتصاص جهود الكادحين، وحين ولت الماركسية الادبار، تركت في معاطنها بقية من اثر السوء. والتناوش بين مصادر الانتاج والمستهلكين يصاب بهذا الدخن، وكل من ناصب الاثرياء العداوة دونما سبب، فهو اما: حاسد غير كظيم، أو منافس غير شريف، أو مصاب بدخن الماركسية البغيضة، عن وعي مكتوم أو جهل معلوم. والخائضون اللاعبون في اعراض الاثرياء المستقيمين على الطريقة، يحبطون، ويخذلون، ولا يزيدون الناصحين الا خبالا، يحرم الوطن من المال والخبرة. والاعمال الروائية والقصصية، زمن المد الشيوعي، تفيض بسخرية مرة، واستهزاء مسف، واستعداء سافر لا يصيب الذين ظلموا خاصة والذين تلمسوا شخصية «المتدين» أو «الثري» من النقاد والدارسين في مثل هذه الاعمال، يصدمهم التجني الظالم، والوقيعة المرة، ولسنا نعدم بين الحين والآخر في المجالس وعلى صفحات الصحف ترويجاً للشائعات المغرضة، تحركها الاهواء والضغائن، وكأن الاغنياء لصوص، تسلقوا على الناس بيوتهم، أو عصابات كسرت خزائنهم، وما عرفوا ان الحكمة الالهية قضت بتفضيل بعض الناس على بعض، وجعلت بعضهم لبعض سخريا، والجميع في النهاية خادم ومخدوم، كما يقول الشاعر:

الناس للناس من بدو وحاضرة
بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

والتفاضل سنة كونية ماضية، وسيبقى الاكرم عند الله الاتقى. والاسلام المؤاخي بين الاغنياء والفقراء، ينهى عن حسد ذوي الفضل. وفقراء الصحابة رضوان الله عليهم، لم يمتعضوا، لأنهم فقراء، وإنما استاؤوا لأن اهل الدثور ذهبوا بالاجور، يصلون كما يصلي الفقراء، ويصومون كما يصومون، ويتصدقون بفضول اموالهم، فيما لا يجد الفقراء ما يتصدقون به. وحينما صرف الرسول ﷺ أنظار الفقراء من الصحابة إلى التسبيح والتهليل والتحميد، علم بذلك الاغنياء ففعلوا، وحين اعاد الفقراء شكايتهم، لم يزد الرسول صلى الله عليه وسلم ان قال: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. فالمال مال الله، يعطيه من يشاء: شاكراً أو جاحداً لأنعم الله، محسناً أو مسيئاً، كافراً أو مسلماً. فالمال الوفير، والجاه العريض، والصحة في الاجسام، والامن في الاوطان، ليست دليل رضا، ولو كانت الدنيا تساوي عند

---

(١) تاريخ المقال: ٩/ ٧/ ٢٠٠٢

الله جناح بعوضة، لما سقى منها الكافر شربة ماء، ولا يقيد النعم الا الشكر، وكم من قرية ظالمة، استدرجها الله بالنعم، وأمهلها بالامن، ثم اخذها اخذ عزيز مقتدر.

والذين بطرت معيشتهم، ولم يرعوا حق الله فيما اعطاهم، يفاجئهم الله بياتاً، وهم نائمون، أو يأتيهم البأس ضحى، وهم يلعبون، ولا يأمن مكر الله الا الاخسرون. والسعيد من كان عبداً شاكراً لأنعم ربه، والشكر: قول وعمل ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] . والاغنياء الذين يوظفون اموالهم، وجهودهم، وخبراتهم، لتوفير الامن الغذائي، وإتاحة فرص العمل لإخوانهم، واحياء موات الارض، وعمارتها، واستخراج اثقالها، لا شك انهم من الشاكرين لنعم الله، متى كان كسبهم حلالاً، واكتيالهم ليس فيه تطفيف، وبيعهم ليس فيه غش. ثم انهم بمشاريعهم التنموية يعدون ثروة وطنية، فالنفع لا يخصهم وحدهم، الا اذا كانت اموالهم ارقاماً في البنوك، أو ارصدة ربوية في الخارج، وفي آخر تقرير تناقلته الصحف اشار إلى حجم المدخرات الهاربة، بحيث تجاوزت «٦٥٠» مليارا «الرياض ١٩/٣/١٤٢٣هـ». والمستثمرون لأموالهم داخل اوطانهم، منعمون متفضلون، لهم حق الحماية والتشجيع، والذب عن سمعتهم، وعن مشاريعهم، وإشعارهم بأهميتهم، وحفظ ساقتهم، ليأمنوا على سمعتهم، واموالهم، ويوفروا طاقاتهم لمضاعفة العمل والانتاج، وذلك بعض شكرهم على افضالهم، وبعض حق الوطن علينا. واذا اشيعت عنهم أو عن مشاريعهم قالة السوء، فالواجب التثبت، والتحري، والحيلولة دون تأثير الشائعة على سمعة مشاريعهم، فالقبول بالدعاية السيئة وترويجها، ينعكس اثرها السلبي على الانتاج الوطني، وحين تتعثر المشاريع الوطنية، تختفي رؤوس الاموال الخائفة المترقبة، وتهرب الاموال المترددة بين العمل والهجرة، وانكماش المشاريع القائمة، يخل بالامن الغذائي، وهل هناك اهم من الأمنين: الغذائي، والنفسي، وقد ذكر الله «قريشاً» بنعمتين توجبان العبادة: - الامن من الخوف، والامن الغذائي قال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٣، ٤] . والتعدي على سمعة المشاريع كالتعدي على ممتلكاتها، وتصفية السمعة لا تقل ضرراً عن تصفية الاجساد، وفوضوية التعامل يحمل أصحاب المشاريع افراداً أو شركات على تسريب العاملين، وتصفية المشاريع، والبحث عن اجواء آمنة خارج البلاد، وناتج ذلك ارتفاع نسبة البطالة، والاعتماد على الاستيراد، وفي الهجرة دعم لمشاريع الدول الاجنبية، التي لا تود لنا الاستقلال الكريم، ولا الاستغناء الشريف. والدول التي تعتمد على الاستيراد، تظل محكومة بالحاجة. والاستقلال الحقيقي لا يكون الا بقوتين:

-الاقتصاد القوي.

-والعلم التجريبي.

وحين امر الله الامة بإعداد القوة، اطلق وخصص. اطلق حين قال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾، وخصص حين قال: ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾، وقول بعض المفسرين بأن «القوة» الرمي واحد من المعاني، وإلا فالقوة تشمل قوة «العلم» و «الاقتصاد» و«السلاح». والاقتصاد عصب الحياة، وبؤرة التوتر بين الشعوب، فالمصالح حين تتعارض تنشأ العداوة، وقد تتطور، لتصل إلى حد الصدام المسلح، وكل هذا يؤكد على اهمية الثروة القومية، ولا تكون كذلك حتى تندلق اقتابها في النجاد والوهاد، في ظل الاجواء الآمنة، ولقد مرت بنا الآيات والنذر، فكم من دول انهارت عملتها، وكسد

اقتصادها، دون حرب أو تدخل، واخرى تعولمت عملتها وعوّقت وانتعش اقتصادها، فهذه «دبي» بعد الانفتاح، وأسلوب الجذب، وتلك دول شرق آسيا مما يسمى «بالنمور»، وتهافت المشاريع والانكماش الاقتصادي ناتج تحد سافر أو سياسة مرتبكة، فالسياسة الحكيمة، والرأي العام الواعي حين يتفاعلان يصنعان العجائب، وليست الثروة ما تملكه الدولة، وليست الارصدة النقدية في الداخل أو في الخارج، وانما الثروة ما يقوم على ارض الواقع، من مزارع، ومصانع، وما يتوفر من كفاءات مخلصة فاعلة، وسواعد مدربة، تجد في ارضها الدعم والتشجيع والتسهيلات. والمواطن المخلص الناصح، من يسعى لتنمية ماله، واستثماره في صحاري بلاده، يسد باستثماره حاجة الامة من مأكل ومشرب وملبس ومستعمل. والشعب الغني يعول الدولة، ويدعم اقتصادها، والامة الفقيرة تعولها الدولة، وليس هناك اسوأ من شعب فقير، تعوله دولته، استناداً إلى امكانياتها المكتسبة دون تحرف، اوتعويلاً على مساعدات الدول الغنية، وما من دعم الا وله ثمن من الكرامة والحرية. واذا كان من اوجب الواجبات على المواطن مواصلة الدعم لمشاريعه الوطنية فإن على الدولة السعي الدؤوب، لجذب رؤوس الاموال الاجنبية، وتهيئة المناخات المغرية للاستثمار فضلاً عن رؤوس الاموال المحلية.

وواجبنا التوفر على وعي حضاري، يرى ان المصانع والمزارع وكافة المشاريع الانمائية التي تعود ملكيتها للافراد أو للشركات، هي ملك للامة، ورِدء لها، وضعها الله في ايدي الاثرياء أو الشركات، وهو سائلهم عن وجوه الكسب، وطرائق الانفاق، ومجالات الاستثمار. والذين يناصبون ذوي الدثور العداوة، ويختلقون الاقاويل عن المشاريع الوطنية دون تثبت، بحجة حماية المستهلك، يقترفون جنايات كثيرة، وبخاصة حين تكون قالة السوء عن مشاريع انتاجية غذائية، كمزارع الحبوب، والنخيل، والفواكه، وكافة الثمار، ومشاريع الدواجن، والالبان، والاسماك، وتربية المواشي. والمشاريع الوطنية في ظل المنافسة الشرسة، وبوادر «العولمة»، والشركات متعددة الجنسيات، وعمليات الاغراق ومشاكل العمالة، وبدائية التسويق، بحاجة ماسة إلى الدعم والتشجيع والحماية. ولا سيما ان المشاريع الاجنبية المنافسة، تعمد إلى الاختلاق والكذب، للتشكيك في جودة المنتج الوطني، وكفاءة ذويه، وجعل البلاد تعتمد على الاستيراد، والاشد نكاية حين تكون المواجهة باسم الدين، بحيث ينبري الطيبون الورعون أو الماكرون المأجورون لترويج فتاوى تحذر أو تحرم بغير بصر ولا بصيرة، و لقد سمعنا وقرأنا الاشاعات المغرضة عن مشاريعنا الوطنية، يطلقها المنافسون غير الشرفاء، ويتلقفها الغافلون الابرياء ثم لا تجد من يتصدى لها، ويكشف عن دوافعها، بل ربما نجد من يتلقاها باليمين، وينشرها، عن حسن نية، والمواطنون المخلصون الصادقون حين يغامرون بأموالهم وذممهم وسمعتهم وجهودهم، ويسهمون في دعم الاقتصاد، يودون ان يجدوا المناخات المناسبة، المتمثلة بالتسهيلات الحكومية، والتشجيع الوطني، والحماية المستمرة. واذا لم نسهم في توفير المناخ المناسب، فشلت التجارب، وجبنت الاموال، وتسلل بها أصحابها إلى الخارج، مكتفين بالمضاربات الربوية، مسهمين في دعم اقتصاد الاعداء.

ومثلما يتهافت الخليون على الاثارة لذاتها، ويوغلون في النيل من شخصيات بأعيانهم، أو من قضايا وظواهر في الفكر والسياسة والدين والأدب، ينالون من شوامخ المشاريع، وقلاع الانتاج، وعباقرة الفكر والاقتصاد، ظنا منهم ان ذلك يفيد المشروع، ويحمي المستهلك، وقد يكون تدافعهم تهالكاً على الاضواء، وذلك ينسيهم ما يترتب على تشكيكهم من اضرار جسيمة، تمس الثروة الوطنية، التي رضي أصحابها في بسطها للمنتفعين، وتوظيفها لتوفير الامن الغذائي، فالمصانع، والمزارع، وسائر المشاريع

الانمائية، تعتمد في نجاحها على ثقة المستهلك واطمئنانه، وحماية الدول للمنتج الوطني، ومقاطعة المنتج المستورد.

وحين تشاع قالة السوء عن اثر منتجنا الصحي أو عن رداءة جودته، أو عن غلاء ثمنه، بغير علم، ينعكس ذلك على علاقة تلك المشاريع بالمستهلك، ومتى اهتزت الثقة، تأثر المشروع، وهبط تسويقه، واحتاج إلى زمن طويل لاستعادة الثقة، ورد الاعتبار، وقد تلجأ المشاريع إلى قنوات اعلانية، تشاطرها كسبها، وتحملها على رفع الاسعار، لكي تمول الدعاية والاعلان، والثراء الذي يصب في جيوب القنوات الاعلانية مأخوذ من جيوب المستهلكين، ولو ان كافة الاعلاميين والكتاب تحروا الدقة، لأمن الجميع على اموالهم، وخرجت الملايين من خزائنها، ورجعت المليارات من الخارج، وعادت الكفاءات المهاجرة، تستنبط الماء، وتحرث الارض، تزرع وتغرس، وتستقطب الايدي العاملة، وفي ذلك خير كثير.

الثروة الوطنية بين: الخنزرة والسرطنة .. ! (٢) [(١)]

وحديثنا عن ثوابتنا الاقتصادية، لا يعد تصدياً لواقعة يتعرض لها ثري، أو شركة ثم لا تتكرر كما أن اللغو المتنامي ليس واقعة بعينها، يرافع ضدها من تعنيه، وإنما هو على شاكلة الظواهر المألوفة المتنامية، والظواهر تحتاج إلى مواجهة جماعية، تحد من استشرائها وتأثيرها. وحين نمتعض من مثل هذه الظواهر، نعرف جيداً أن الصحافة لسان الأمة، ورائدها الذي لا يكذب، ومتى غفل الرائد أو واطأ على الخطيئة فقدت الأمة مقومات البقاء الشريف. ولسنا نود من كتّابنا، ولا من صحافتنا التخلي عن الثنيات، ولا افتراض النقاء والملائكية، ولسنا نريد لكائن من كان أن يكون فوق النقد والمساءلة، وإنما نريد التحري، وعقلنة المواقف، والتفريق بين أثرياء يأخذون بحق، ويعطون عن رضا، وآخرين إذا اكتالوا على الناس يستوفون، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون، ثم لا يكون لهم عمل مفيد، ولا صدقة جارية، ولا هم بأمر المسلمين، وكل الذي يعنيهم خُويصة أنفسهم. ودفاعنا عمن يوظفون أموالهم في أي مجال من مجالات التنمية والانتاج الوطني لكافة الأغذية من الدواجن والألبان والخضروات والفواكه واللحوم وسائر المواد الغذائية يمثل الأخذ والعطاء العائدين بالنفع العميم، ولا تقل عنه المصانع التي تستوعب الأيدي الوطنية، وتمكنها من التدريب والتأهيل والمزارع. والمصانع بهذا الشكل ليست خالصة لأصحاب رؤوس الأموال، ولا للشركات وليس أصحابها قابضين وحسب، إنها ثروة وطنية، لا مقطوعة، ولا ممنوعة، تُفعل المال، ليمتد نفعه إلى عدد من شرائح المجتمع، وذلك بعض موجبات المحافظة عليه، والمحافظة لا تعني كف الأذي، والتحري عند أي شائعة مغرضة وحسب، وإنما هي بالدعم: المادي والمعنوي، وبث الثقة في نفوس الأثرياء الأوفياء لأمتهم ووطنهم، ممن غامروا بأموالهم، وجهودهم، وراحتهم، فجروا الينابيع، وأحيوا موات الأرض، واستثمروا الشواطئ السبخة، وحولوا الصحراء القاحلة إلى مروج وأنهار، جلبوا أحدث الأجهزة، واستقدموا أمهر الخبرات، وأقاموا أدق المختبرات، وكان حقاً علينا في مقابل ذلك مؤازرتهم، وتشجيعهم، وإغراء المحجمين من لداتهم، ليفعلوا مثل فعلهم، إن هجرة الأموال والأدمغة وإحجام الكفاءات الوطنية مؤشر سلبي، فبلاد الجذب، والإغراء، وتهيئة الأجواء، والدعم المادي بلاد يستحق أهلها الحياة الكريمة، والبلد النكد من تتسرب أمواله، ويهاجر أهله، وتنطوي كفاءاته على نفسها، إنه بلد ينقص ذويه الوعي والأهلية، فالأثرياء يبحثون عن المناخات المناسبة، والمجالات الآمنة لاستثمار أموالهم، والدول الواعية تمنح التسهيلات، وتهيئ الأجواء وتوفر الضمانات: وتخفض الضرائب، وتيسر الاجراءات، وتمنح الأراضي والقروض، وتحمي سمعة المشاريع، لكي تظفر برؤوس الأموال والخبرات والتجارب، وتبعث الثقة والاطمئنان، وحين تكون الأنظمة احتراسية، و(البيروقراطية) مستفحلة، والرأي العام متذبذباً، والصحافة متسرعة، والكتاب سباقين إلى الإشاعات، والناس خائفين مترددين شاكّين، تنكمش الأموال، وتكف الكفاءات البشرية أيديها، وتحجم الشركات الأجنبية، وتتسلل الأموال بحثاً عن دول داعمة وشعوب واعية، وعلينا أن ننظر كم من المليارات وآلاف الكفاءات من العالم الثالث خارج أراضيها، وكم لدى العالم الثالث من أموال الغرب وكفاءاته. إن هجرة الأدمغة، وتسرب الأموال مؤشران على ضعف البنية المعرفية والاقتصادية، وارتباك الأوضاع السياسية، واستفحال الأنظمة المعقدة، وتنامي الغفلة الجماهيرية المتخلفة من عوامل الطرد. وكل دولة تتسرب أموالها، وتهاجريجب عليها

---

(١) تاريخ المقال: ١٦/ ٧/ ٢٠٠٢

النظر في كافة أوضاعها. ولقد شهدنا بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر كيف منيت الأسواق العالمية، وكيف بدأ الانهيار الاقتصادي لعدد من الشركات وكيف بدأت لعبة التضليل المحاسبي، الذي لم نكن أذكياء في استثماره، لإثبات أن التخلف ليس وقفاً على الشرق، ولست ممن يودون انهيار الاقتصاد العالمي، وإن كان لدول يمسنا منها أذى كثير، ذلك أن اقتصاديات العالم يؤثر بعضها على بعض، وبودي أن يكون اقتصادنا محلياً وعربياً وإسلامياً متيناً، قادراً على المنافسة، وتحمل الصدمات. ولن يكون كذلك، حتى يمتلك الرأي العام وعياً اقتصادياً، يقيه غوائل التضليل، وحين تكون الأوضاع طبيعية، فإن علينا أخذ حذرنا من المنافسات غير الشريفة، التي تقوم بين مصادر الثروة والانتاج، إذ هي مصدر الإشاعات والتشكيك، وحرب الأسعار، والإغراق، وليس أضر على مشاريعنا من تضليل الرأي العام، وتعبئته بالأوهام والأكاذيب. فتارة يشاع أن الدواجن الوطنية تعتمد في غذائها على (الهرمونات) وهذا يحِّول المستهلك إلى الدواجن المستوردة التي لا نعرف عن ظروفها الصحية والغذائية شيئاً، وأخرى يروج المغرضون أن أفراخها متخنزرة، الأمر الذي يحمل الدول المجاورة على اغلاق منافذها في وجه صادراتنا، وثالثة نسمع أنها متسرطنة، وذلك كاف لاصابة المواطن والمقيم والمستورد بالهلع. وحين اشتعلت حرب الشائعات حول (جنون البقر)، و(الكولسترول)و (الهرمونات) خرج رسامو (الكاريكاتير) برسوم تكشف عن مطاردة (الضبان)، تعبيراً عن تأثير الشائعات، فيما خرج حماة الحياة الفطرية في مواجهة أولئك، والشركات تواجه المروجين للشائعات مستعينة بالمختبرات العالمية، والشهود المحايدين، لاثبات الجودة والسلامة. ولكنها لا تضمن إعادة الثقة والخلوص من كساد منتجها، وما يقال عن المزارع يقال مثله عن المصانع، طعناً في الكفاءة أو تشكيكاً في الأمانة أو نفياً للجودة أو غلاء في الأسعار، وإذا كانت الشركات الوطنية تواجه الاشاعات بتقارير مخبرية عالمية، تثبت خلو منتجها من كل العوارض المضرة بالصحة، فإن وزارة التجارة تتابع المنتجات، وتراقب المصانع، وتضع علامة الجودة والسلامة دون محاباة أو مواطأة، ولكن أكثر الناس لا يفقهون، والمصانع والمزارع تثبت سلامة منتجها، وتطلب المواجهة الشريفة، وهي قد فعلت ذلك عبر صحافتنا المحلية، وطلبت من المقترفين الاعتذار، أو توثيق مقولاتهم، ولكنهم لاذوا بالصمت دون اكتراث، وكان عليهم أن يعتذروا عما بدر منهم، أو أن يثبتوا دعواهم. ومن الأجدى حين تشاع الأخبار الكاذبة، أن تتواصل وسائل الإعلام مع الشركة، ومع الجهات الحكومية المعنية بالأمر، للتحقق من صحة ما يقال، وليس هناك ما يمنع من نشر الشائعة والرد الحاسم عليها، لإحباط الادعاءات الكاذبة، وليس من المصلحة أن يكون الاتهام ناجزاً، والبراءة نسيئة، ومنتجاتنا الوطنية بجودتها وسلامتها وغزارتها غزت الأسواق العربية، ولنضرب مثلاً ب(الوطنية) و(بسابك) و(بالأدوية) و(الأسمنت) و(بمنتجات التجميع) اضافة إلى كافة المنتجات الزراعية، الأمر الذي حفز الشركات العالمية على المواجهة غير الشريفة معتمدة على تلفيق التهم، وإشاعة الأخبار الكاذبة، ولا شك أن أي إشاعة لها أثرها، وحرب الشائعات أسلوب خطير، متى لم يكن المتلقي على وعي تام بالصراع العالمي، وإذا كانت الدوائر السياسية تعتمد على حرب الشائعات، وصناعة الكذب، فإن الاقتصاد هو الآخر يعيش الصراع نفسه، ولن تكون الأمة في مستوى الأحداث، حتى تعرف أسلوب التصدي لهذه الأساليب الذكية.

وتعريض المنشآت الاقتصادية العملاقة للإساءة، يطال الأثرياء المتفضلين، والعاملين المستفيدين، والعملاء المستهلكين، ويصب في صالح رؤوس الأموال الأجنبية، التي يحرص ذووها على أن نأكل من غير زراعتنا، وأن نلبس من غير نسيجنا وأن نحارب بغير سلاحنا، بحيث نظل كما أراد (الحطيئة) لمهجوه:

دع المكـــــارم لا ترحـــــل لبغيتهـــــا

واقعـــد فإنـــك أنـــت الطـــاعم الكاســـي

ولا مراء في أن للشائعات عوائدها السيئة على حد: (قد قيل ما قيل إن صدقاً وإن كذباً) والمثل العامي المصري يقول: (الرصاصة التي لا تصيب تدوش)، وفن الدعاية يضع حيزاً لنزع الثقة من المنافس، وقطاع الدعاية والإعلام والعلاقات في المشاريع قد لا يكون قادراً وحده على التصدي لفيوض الإشاعات، وهنا يأتي دور المواطن، فهو في النهاية راع في موقعه، وكما أنه على ثغر من ثغور الإسلام، فهو كذلك على ثغر من ثغور الوطن، وواجبه أخذ الحذر، وتقصّي الحقائق، وما راء كمن سمعا، والرؤية تطمئن القلوب، وتقوي الإيمان، وفي هذا السبيل شهدت بعيني مشاريع اقتصادية تشكل ثروة للبلاد، كمشروعات (الوطنية) من (الدواجن) و(الروبيان) و(الأغنام) و(الزيتون) و(النخيل) و(الأعناب) وحرصت على معرفة وسائل الجودة والسلامة، وأسلوب التسميد، والمعالجة، فما زدت إلا ثقة واطمئناناً، وتأكد لي حرص المسؤولين على السلامة والكفاءة، والخلو من أي عارض صحي، وحمدت الله على ذلك، وتمنيت لو أن كل مواطن أتيحت له فرصة الوقوف على المختبرات، والمعامل، والمجسات، والتجارب، والنظافة، واستخدام الآلة في الجني، والتعقيم، والتغليف، لكي يكون أكثر اطمئناناً وثقة، كما سمعت عن مشاريع وطنية مماثلة في مواقع متعددة من بلادي، يملكها أفراد، أو تديرها شركات، ولم أشرف بالوقوف عليها. ومشاريع الشيخ سليمان الراجحي التي خبرتها عن قرب، تبعث على الإعجاب والإكبار والاطمئنان، إنها ثرورة وطنية، وظف في سبيلها آلاف الملايين، وشغلت صحاري شاسعة، وشواطئ طويلة، واستقطبت كفاءات وطنية، وهو كما وصفه الأستاذ إبراهيم البليهي من عباقرة الاقتصاد والثروة البشرية للبلاد (الرياض ١٤٢٣/٣/٢١هـ) وهو خير مما يقول: «صدقاً، وأمانة، واحساناً، وتواضعاً. نحسبه كذلك، والله حسيبه»، ولما يكن وحده في الميدان فبلادنا والحمد لله غنية برجالاتها وبأثريائها، ولكن «زامر الحي لا يطرب» و «أزهد الناس بالعالم أهله» وكم في البلاد من أثرياء ناجحين، محسنين، يدعمون مرافق الصحة والتعليم والسياحة والثقافة والجمعيات الخيرية، وكم فيها من المؤسسات الخيرية والثقافية التي يمولها الأثرياء لوجه الله، ولم نجد من بيننا من يبادر إلى الثناء أو ينبري للدفاع، حين يتعرض أولئك أو تتعرض مشاريعهم للتعدي، وإذا كان مشروع الوطنية للدواجن يدفع إلى سوق الاستهلاك صباح كل يوم نصف مليون دجاجة، وضعف ذلك من البيض، وألف مولود من الأنعام، ومئات الأطنان من الفواكه، والتمور، والخضروات، والعسل، والزيوت، والطيور، والأسماك، والألبان، وإلى جانبه مشاريع أخرى، تصنع مثلما يصنع، فإن واجب المواطن دعم مثل هذه المشاريع الوطنية، ولو بكف الأذى، ومتى بدر منها تقصير أو ضعف، وهو متوقع، فواجبه التثبت أولاً، ثم المناصحة بالتلميح لا بالتصريح، وإذ يكون الجالب مهدياً فإن بناة الاقتصاد محسنون. ومن لم يشكر المحسنين فليس جديراً بالاحسان، وما أكثر الكفاءات الوطنية التي لا نشعرها بقيمتها، فالأثرياء، والعلماء، والأطباء، والمهندسون، والمحسنون، وكبار المسؤولين حين يخلصون، ويصدقون، ويتألقون، ثم لا يسمعون كلمة شكر، تذبل حيويتهم، ويشعرون بالإحباط، فكيف إذا تنكرنا لهم، وبادرنا في تلقف الاشاعات عنهم. لقد قيل عن شركات (التقسيط) فما أكترثنا، لأن فيما يقال مساعدة للمحتاجين، وتوقف الشركات عن (التقسيط) لا يضر بالمصلحة العامة، ذلك أنه عمل مالي صرف، لا يترتب عليه أضرار تطال المواطن، وقيل عن (المشروبات الغازية)، فما امتعضنا، ذلك أن منتجها من الكماليات، وقيلت كلمات صادقة ناصحة، فسعدنا بما قيل،

ولما نزلْ بانتظار مقولات تحترم المصداقية، وتستبعد المثالية والملائكية. وافتراء القول عن المصانع والمزارع وسائر الشركات ذات النفع العام ينعكس أثره على مصلحة الأمة، ونحن هنا لا ندعو إلى الغفلة، ولا نحبذ غض البصر عن الهفوات، ولا نميل إلى حمد من لم يفعلوا، ولا نستبعد مرضى القلوب، ومن لا يحلو لهم العمل إلا في ظل الغش والاختلاس، وهؤلاء قلة نادرة، وغثاء كغثاء السيل، يذهب جفاء، وليس أمامنا إلا أن نتربص بهم خاتمة السوء، وأخذ الله القوي الأليم، فالله من ورائهم، ومن غش الأمة فليس منها: تاجراً كان أو مسؤولاً، وكل جسم نبت على السحت فالنار أولى به، والكسب الحرام يمحق البركة، وهو حسرة وندامة على أصحابه، فلا يسعدهم في حياتهم، ولا يريحهم في شيخوختهم، وإنما يكون وبالاً عليهم، يحملون أوزاره، ويضاجعهم إثمه في قبورهم، وتعود ثمرته إلى وارث، لم يَشْقَ في جمعه، ولن يحاسب عليه، ولن يدعو لمورّثه، ولا عبرة في الشواذ الذين خانوا الله والرسول، وخانوا أماناتهم. لقد أحسست أن هناك فجوة مفتعلة، بين المنتجين والمستهلكين، ليس لها أي مبرر، وكل عامل على توسيع الهوة مقترف ذنباً في حق وطنه وأمته، وعلينا أن نكون عيوناً واعية على مشاريعنا، لا ندع لها فرصة اللعب، ولا ندع للآخرين فرصة العبث في منجزاتها، وبلادنا بحاجة إلى جهودنا، وخبراتنا، وحمايتنا، ووعينا، والتفافنا، واعتصامنا بحبل الله على كل الصعد، لقد استهدفنا في عقيدتنا، وفي مناهجنا، وفي أخلاقياتنا، وفي أمننا، وفي اقتصادنا، وفي وحدتنا، وعلى الذين يتصورون أنهم آمنون أن يطوفوا عبر القنوات والمواقع والاذاعات والصحافة العالمية ليعرفوا حجم المكائد، ولن يحمينا إلا الفرار إلى الله.

العقل والنص وغواياتهما .. ! (١) [1]

تمخض عصر المادة ووثنية العلم عن طوائف تطلق للعقل العنان، ليقول ما شاء عما شاء، مستدبرة وحي السماء، ناظرة إلى العلم والعقل على انهما مناط كل شيء، واصفة كل من سواها بالماضوية والنصوصية والسكونية والتسطح، ولأن كل تطرف يتولد عنه تطرف مضاد، فقد وهبت طوائف أخرى، تحارب العقلانية لا على مفهومها الغالي وحسب، وإنما بتجاوز ملغ لأهلية العقل، مصادر لحقه، تفعل ذلك نكاية في الذين يلغون النص في ظل العقل، والرصد التاريخي للتطور المعرفي، يمر بمصطلحات، يدور مدلولها حول آلية القراءة للأشياء ومنهجها: كالظاهرية، وأهل الرأي، والمؤولة، والسلفية .. وفي العصر الحديث نقف على مفاهيم أخرى، تشير إلى طرائق التعامل مع الأشياء ك«الجدلية» و«الشك الديكارتي» و«التفكيك»، والذين تدق نظرتهم، ويتزن موقفهم، يعطون ما للعقل للعقل، وما للنص للنص، ومع كل ذلك يظل الخلاف في المفاهيم والمقتضيات على أشده، لا في ذات الاطلاق وحده، وإنما يمتد إلى الحق والأهلية والمجال والتصور، وعلى كل الأحوال فالعقل والنص صنوان لا قيمة لأحدهما في غياب الآخر، بل لا وجود لأحدهما في غياب الآخر، ولا استقامة للحياة بدون نص محكم، وعقل حصيف متدبر، والعقل في النهاية طاقة ذهنية استرجاعية، في غالب أحواله، وليست طاقته انبثاقية إبداعية على اطلاقها، كما انها ليست كسبية محضة، إذ يضاف إلى الاسترجاع والكسبية الاختمار المعرفي، والاستنباط التفاعلي، وإذ لا يكون العقل هذا ولا ذاك، فهو تشكلٌ مزجي، من ذاتية التكون وكسبيته، وقدرة المتكون مرتبطة بأداة التكوين، ولما كان العقل مورد الحواس التقليدية، وتفاعل محصلاتها، ومجال توجيهها، كان مداه الإدراكي مرتبطاً بقدرة المكونات الخمس، والعلائق التي تنتج من معطياتها، وإذا كنا قادرين على تحديد إمكانات هذه الحواس، نكون في الوقت نفسه قادرين على تحديد قدرة العقل، أو تصورها على الأقل وتحديد القدرة، يحدد المهمة والمجال المتاح للتحرك، والعقول تختلف في مداها الإدراكي، من ذكاء وغباء، وكذلك الحواس تختلف قوة وضعفاً، وليس الحكم على الحواس مؤذناً بالحكم الطردي على العقل، بمعنى ان شخصاً ما يكون حاد البصر، قوي السمع، ولا يكون ذكياً في حين نرى الأصم والأعمى آية في الذكاء، وقد لا يكون كذلك، والمصطلح لا بد ان يكون حدياً، جامعاً مانعاً، والحواس توفي العقل ما كان، ولكن للعقل ذاتية مستقلة في الاستقبال، والتحويل، ورد الفعل المعرفي، والنص والعقل يقتسمان المهمة، ويتفاعل مؤداهما، لتأتي الحقيقة ناتج تلاقح العقول والنصوص، وبخاصة فيما يتعلق بقضايا الفكر والدين، وإذا حكّم العقل في غير مجاله، وأنزل النص في غير منازله، جاءت النتائج كما أشار المتنبي إلى «السيف» و«الندى» ووضع أحدهما موضع الآخر، ونظرية «التناص» تكاد تفوت على العقل فرصة البراءة في الطرح والخلوص إلى درجة الصفر في الكتابة.

*والعقلانيون الذين ينحون باللائمة على من سواهم، يحرفون الكلم عن مواضعه، فالسلفي المستنير المجتهد يبيح للعقل ما يستحق، ويأطره عند المقتضى النصي، والقرآن الكريم دائماً يربط بين العقل والحواس، ويخص السمع والبصر، لأنهما منافذ العقل الرئيسة ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ [الفرقان: ٤٤] ﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾ [المائدة: ٧١] ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨] ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ

(١) تاريخ المقال: ٢٣/ ٧/ ٢٠٠٢

تَهْدِى الْعُمْىَ﴾ [الزخرف: ٤٠]، والإسلام كرّم الإنسان بالعقل، وليس من المعقول ان يعطل مصدر الكرامة. وأمانة التكليف مرتبطة بالعقل، والقلم مرفوع عن الصغير والنائم والمجنون، لغياب العقل، ثم ان ربط العقل بالحواس دليل على تشكله منها، وهي في النهاية محدودة الإدراك، معرضة للخداع، والعقل بهذه الإمكانيات المحدودة أحوج ما يكون إلى النص، وأي فكر لا يخفق بجناحي العقل والنص فكر كسيح، نقول هذا، ونحن نعرف طاقاته الهائلة، وإمكانياته المذهلة، ومع ذلك لا نغفل جانب النص، وبخاصة عندما يكون قطعي الدلالة والثبوت، ولا نغفل دور العقل حين يكون النص احتمالي الدلالة والثبوت، فالفقهاء مجتهدون، والمفسرون توصيليون، والمحدثون موثقون، والكلاميون متأملون مؤولون، والفلاسفة محللون، وكل طائفة من أولئك تؤاخي بين «النص والعقل» والمؤاخاة تركيبة خلطية تحدد الخطأ والصواب، فالمفسر يختلف عن الفيلسوف في استغلال طاقات العقل، والمحدث يختلف عن الفقيه المجتهد في التعامل مع المتن النصي، وأهل الرأي من الفقهاء يختلفون عن الظاهريين، والمدرسة العقلية في التفسير تختلف عن المدرسة اللغوية أو أهل الأثر، وهكذا يتبادل النص والعقل الصدارة.

وإطلاق العنان للعقل كما يريده الفلاسفة والعقلانيون من الوهم الجامح، الذي أضل كثيراً من أساطين الفلسفة والفكر، حتى بلغ الأمر بأكثرهم إلى الالحاد وحرية التفكير والتعبير حين لا تكون انضباطية، تفضي إلى الفوضوية والهلكة، ثم لا يكون إيمان، ولا مؤمن وقاف عند حد ما أنزل الله، والآخذون بعصم أولئك ينتهون إلى ما انتهوا إليه من الضلال، ذلك انهم اعطوا عقولهم ما لا قبل لها باحتماله، تقول بغير علم، وتحكم بغير سلطان، وتقلب الأمور. والعقل المستبد يفاجأ كل يوم بجديد، لم يكن له سابق عهد به، وهو تحت وابل هذه الظروف بحاجة إلى اعادة تشكيل واستشراف مستقبلي، ومنهجية دقيقة وابتعاد عن المواقف الانفعالية، التي تمكن للعواطف، وتهمش العقول، ولو ان العقلانيين قمعوا جماح عقولهم، وأطروها في مداها المتاح، لسلموا من تلك المزالق، ونجوا من هذه الموبقات، وخلصوا الإنسانية من متاهات الهلكة. فالمتزندقون يرددون: «اثنان أهل الأرض: ذو عقل بلا .. دين وآخر دين لا عقل له» فيما يقول النادمون: «نهاية إقدام العقول عقال» .. ومن بوادر الصلف، وأمارات الغرور سخرية العقلانيين، واستهزاؤهم «بالسلفيين» الذين يقفون مع النص، ويؤمنون بالغيب، ويصرفون تفكيرهم عن الذات الإلهية إلى التفكير بآيات الله الواضحة المنبثة في الآفاق وفي الأنفس، ويعرفون انهم الأدرى بأمور دنياهم، وان الدين لا يمنع من التفكير، وان العقل مناط التكليف بل انهم يرون التفكير فريضة إسلامية، وقد ألف «العقاد» في ذلك كتاباً، ليقمع افتراء المفترين. ومعتزلة العصر المتهافتون على مناهج الغرب وآلياته بدون تأصيل معرفي إسلامي، يصفون الوقافين عند حدود ما أنزل الله بالنصوصيين المقلدين من باب السخرية وما تراهم يقولون إلا معاراً أو معاداً من قول الغرب في عملية تلفيقية بينة العوار، ولما يبرحوا رصيف الانتظار لكل قادم على مطايا الاستشراق ليكون استغراباً ليس لهم فيه إلا التكرار، والذي تتاح له قراءة الفلسفة منذ العصر اليوناني إلى العصر الحديث يدرك جنايتها المنفلتة من الضابط الشرعي على الإنسان، مع انها مصدر معرفي مهم، لا غنى لأي مفكر عن منجزها وآلياتها ومناهجها، وبخاصة فيما هو متعلق بعالم الشهادة، ولكن القول بغير علم مظنة الضياع والمروق، ومن تجاوز بنظره مسارحه الممكنة أتى بالعجائب، لأن مقولاته من رجم الغيب، والسلفية الواعية المستنيرة تعطي العقل ما له، ولا تعتدي على حق النص، والفرق الجوهري بين الطائفتين: ان العقلانيين يديرون النص في فلك العقل، فيما يدير السلفيون العقل في فلك النص، وحين تدلهم الأمور، لا يجدون بداً

من القول: (لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك انت علام الغيوب) ومصطلح «النص» يتفاوت بين «الفقهاء» و«الفلاسفة» و«الأدباء» فهو عند الفقهاء: «ما لا يحتمل إلا معنى واحداً» ولهذا قيل: «لا اجتهاد مع النص»، ووجدها المغرضون فرصة للوقيعة، تعويلاً على اختلاف المفاهيم، إذ ان مصطلح «التناص» و«النصوصية» و«النص» عند الأدباء والنقاد مختلف جداً، فرؤيتهم له تنبع من رؤيتهم للكون والإنسان ومبدأ العلة، فـ«الكلاسيكي» و«الرومانتيكي» و«الرمزي» و«الطبيعي» و«الماركسي» و«البنيوي» و«ما بعده» و«المقارن» لكل واحد من أولئك مفهومه المباين أو المناقض لمصطلح «النص»، وتحديد المفهوم يحدد نظرية التلقي والتأويل، وتلك معضلة يصعب تقحمها، وقراءة النص عند المفكرين والأدباء تختلف عن قراءته عند الفقهاء والمتكلمين والمفسرين، ذلك ان هؤلاء يحيلون إلى أصولهم وقواعدهم وآلياتهم ومناهجهم، فيما لا يكون لأولئك آلية ولا منهج، أو تكون آلياتهم ومناهجهم مفضية إلى الضلال .. ومستويات القراءة الحديثة، ونظريات التأويل والتلقي أضافت على المشاهد أعباء جديدة، أحلت القارئ محل المؤلف، ومن ثم أميت المؤلف، وتمركز القارئ، وأصبح سيد الموقف.

العقل والنص وغواياتهما .. ! (٢)[1]

وكم نحن بحاجة ماسة الى قراءة ما انتهت اليه مصائر الذين أطلقوا للعقل العنان، وأتاحوا له فرصة الحفر في غياهب الغيب، والى الذين قيدوه، ووقفوا به عند ظاهر النص، دون اعمال لفكر او اجهاد لعقل، لندرك حجم الفواجع التي أصابت الفكر الاسلامي، نتيجة الاقدام المتهور، والاحجام المتردد، على المستوى العقدي بين المعطلة والمشبهة، وعلى المستوى الفقهي، بين اهل الظاهر واهل الرأي. واذا كان الذكر الحكيم قد نهى عن قفو ما ليس للانسان به علم، فانه طلب النفور للتفقه في الدين، تمهيدا للقيام بمهمة الانذار، كما انه في سبيل وقف النزيف الفكري المجاني في مجاهيل المستحيل اثنى على المؤمنين بالغيب، لتحقيق التصديق والتسليم. والخوض في المغيبات لا يعضده دليل قولي، ولا تجريب علمي، ولا تترتب عليه مصلحة دنيوية، ولم يتعبد الله خلقه في شيء من ذلك. وحين استقبل الصحابة رضوان الله عليهم «وهم الوقافون عند حدود ما انزل الله والمصدقون بوعد الله ووعيده» قوله تعالى: «ان تبدوا ما في انفسكم او تخفوه يحاسبكم به الله» اخذتهم الرجفة، حتى تداركهم الله بقوله: «لا يكلف الله نفسا الا وسعها» والقول في عالم الغيب من تكليف الأنفس ما ليس بوسعها. ولو امتدت نظرتنا الى العصر الحديث لزاد تفجعنا، لأن الماضين ضلوا، بسبب بحثهم في «الذات الالهية» من خلال النص، وعلى ضوء القواعد والأصول، اما المستغربون فقد تنكروا للمرجعية، ونبذوا المنهجية، وأنكروا العلة المنفصلة عن تفاعل المادة، وقالوا بكل وقاحة «لا اله والحياة مادة» مع الأخذ بحرية الغرب غير المنضبطة واخضاع كل شيء للمساءلة والنقد، والله «لا يُسأل عما يفعل» و«الخضر» مع «موسى» فعل ما فعل عن «علم لدني» وما فعل عن امر نفسه، وذلك توجيه رباني للايمان بالقضاء والقدر دون مساءلة، واشكالية الفلاسفة الماديين تكمن في الانفصال التام عن الوحي، والخضوع المطلق لسلطان العقل بقسميه: المحض والعملي. ولو رجعنا الى تراثنا، والى نظريات المعرفة والتلقي والتأويل ومستويات القراءة، والى ما خلفه صراع الفلاسفة: المناطقة والعقلانيين، والمتكلمة والنصوصيين والمتصوفة والشيعة، لأدركنا ان التراث استوعب كل المحاولات، ووسع كل الشطحات، مع اختلاف في تصور الخالق، وفعله، وارادته: الكونية والشرعية، وخلق افعال العباد، وحدوث الفعل، والارادة، والجبر، والتخيير. ويكفي ان نضرب المثل بعلمين، لكل واحد منهما وجهته التي هو موليها هما: «الغزالي» و«ابن رشد».

فالغزالي تصدى للفلاسفة، واوسعهم نقدا وتجريحا، وكاد بتصديه يعطل العقل، ويصادر حقوقه، حتى لقد ألف كتابه «تهافت الفلاسفة»، رد به على مقولات فلسفية غيبية، وخص بالنقد «الفارابي»، «وابن سينا»، وهما ممن استهوتهم الفلسفة اليونانية ومنطقها وفرضياتها فانزلقوا في ظلماتها. والغزالي المتحمس في رده، لم يتركه الفلاسفة بل، تصدى لمقولاته «ابن رشد»، وفندها، وحاول ان يعيد صياغة الفلسفة الاسلامية، حيث الف في الرد عليه كتاب «تهافت التهافت» والمهم هنا التحذير من اطلاق العنان للعقل المحدود المدركات على حساب النص، او اطلاق العنان للنص المعطل للتأمل على حساب العقل، والتحذير من نغمة موجعة نسمعها بين الحين والآخر من مفكرين معاصرين، يريدون لهذا العقل ان يستعيد سلطانه التسلطي التجاوزي، متخطيا حدوده التي رسمها له خالقه الادرى بإمكانياته وقدراته، بحيث تصوروا ان «العقل العربي المسلم مقهور ومرهب ومكبل ومحبوس داخل قمقم أصول وقواعد وضوابط علم اصول الفقه»

---

(١) تاريخ المقال: ٣٠/ ٧/ ٢٠٠٢

«مساهمة في حل أزمة العقل العربي المسلم» «ص ٧». وصراع الفلاسفة يؤكد ان النقد الشمولي قائم في الحضارة الاسلامية، وليس هو من عنديات الحضارة الغربية، كما يتوهم البعض، ممن اغرم بنغمة الاستغراب، ولم يكن على شيء من الثقافة الاسلامية وتراثها العريق الشمولي، والقول بأن «النقد هو السبب الحقيقي في نهوض اوربا وتقدمها» قول له وعليه، والقول بأنه «أي النقد»: «لا يحق لنا كعرب ومسلمين ان ندّعي اننا مارسناه» «الشرق الاوسط ١٤٢٣/٤/٢٨هـ»، قول غير مسؤول، ولا يقول به الا من لا يحترم المصداقية، او من يجهل أبسط المعارف التراثية، ويكفي كبداية مجتهد ونهاية مقتصد ان يعود صاحبنا الى علم الجرح والتعديل، والى «سير أعلام النبلاء» والى مشاريع الاحزاب السياسية والاسلامية والى الجدل في القرآن، وكتب المناقب والخلاف المذهبي والى تراث علماء الكلام، ويغني عن كل ذلك قراءة ابن حزم وابن تيمية. والمعضلة ان التخطي المعاصر تم في ظل الجدلية المادية، والحتمية التاريخية. والمناهج الحديثة، وهي آليات وتصورات مادية صرف، تربط الوجود بالمادة او بالطاقة الفاعلة، أو بالعلاقة الناتجة عن تفاعل متناقضين ولا ترى شيئا غير المادة، فعلم النفس، وعلم الاجتماع، وجذور البنيوية كلها تربط الأحداث بالمادة، وبالحركة الداخلية، وبالطاقة، ولا تعول على مبدأ العلة المنفصلة، وفي ذلك إغراق في المادية، وتعويل عليها، وليست العقلانية المعاصرة امتدادا للاعتزال، بحيث نستعيد الجدل التراثي، وليست الفلسفة الحديثة امتدادا للفلسفة القديمة، بحيث نستحضر منجز الأفذاذ من علماء الأمة، وإن كانت هناك بعض الروابط، وفي هذا الانقطاع المنطقي والآلي والمنهجي والمرجعي إيغال في الحداثة وحافز ملح لاستكناه الفلسفة الحديثة، واعادة تشكيل العقل العربي، للتمكن من التكافؤ والندية. والعقلنة الاعتزالية، والمنطق الفلسفي التراثيان عولا بعض التعويل على النص، وجاء الخطأ في اسقاطه عند توقع التعارض، او في تحميله ما لا يحتمل من الدلالة، تعويلا على التأويل والمجاز.

والغزالي الذي تصدى للفلسفة، عرض لها بهدوء وعلمية في كتابه «مقاصد الفلاسفة» ثم عاد ليخوض معركة دامية مع الفلاسفة في «التهافت» ومرد ذلك ما يؤثر عنه من تذبذب، وتحول مستمر، فتارة يكون صوفيا غارقا في الشطح، واخرى يكون فيلسوفا تحكمه عقلانية متأملة، لا تذعن لنص، ولا تخضع لدليل، وتراه حينا من كبار الفقهاء، الذين يكتبون في الأصول، فيخرجون للناس أروع ما توصلت اليه العقلية الاسلامية، «كالمستصفى»، «والشفاء».

ومن مجموع أعماله يبدو لنا اضطراب مزاجه، وربما كان كتاب «التهافت» مرحلة من مراحل الاضطراب، وفي كل عصر يضطلع العقل بقضية عويصة شائكة، حتى اذا استوت على سوقها، أو وصلت الى مرحلة الاحتراق، لاحت في الأفق قضية اخرى. وفلاسفة الغرب ونقاده بدأوا من حيث انتهى فلاسفة الحضارة العربية، التي استوعبت باقتدار كل الفلسفات السابقة من «يونانية» و«رومانية» و«هندية» على اختلاف اهتماماتها، وفي ذروة إدهاشها ظهر مصطلح «الاستغراب» - بالعين المهملة - وفي ذروة ادهاش الحضارة الغربية اعجمت العين ليكون «الاستغراب» والفلسفات القديمة والاسلامية تشكل مرجعية للحضارة الغربية، وان كان الغربيون الناقمون يرون الحضارة الاسلامية جسرا عبرته الفلسفات السابقة، دون ان تترك فيه أثرا، او ان تحمل منه أثرا. وكل اللّت والعجن حول القدم والعلة والحدوث والارادة القديمة والقضاء والقدر والذات الالهية بين الحشو والتجسيم والتعطيل والتأويل والتفويض والتوقف والمثلية واللا مثلية، محصلة اطلاق العنان للعقل المحصور المدركات بالحواس، ومحصلة اعتماده على المنطق اليوناني، وحين طويت صفحات الحديث عن الذات الالهية، وعن قدم العالم،

فتحت صفحات جديدة، ققفاها العقل بدون علم، وهي اشكاليات المرحلة المعاصرة، وبالذات «مبدأ العلة» و«الطاقة الفاعلة» و«الفلسفة البنيوية» و«المادية» و«الوجودية». ومعتزلة العصر ليسوا كسلفهم، ولكنهم مثلهم في التعدي على ما انزل الله وليس كل من دعا الى التفكير واعادة تشكيل العقل منحرفا عن جادة الصواب، بل عين الصواب ان نتعمق في التفكير، وان نمنح العقل مساحات شاسعة، وان نمكنه من ممارسة حقه، كي يتقاسم مع النص مهمته، اذ كل مرحلة تحتاج الى اعادة النظر في صياغة العقل، واتاحة الفرصة له ليأخذ وضعه الطبعي. فالقيود والحدود والآليات والمناهج منجز انساني، لا يمكن ان تمنح الثبات والاستمرار. اننا بحاجة ماسة الى «توهج العقل المسلم وقدراته الهائلة التي رباه عليها الاسلام؟!.. العقل القائس القادر على ادراك علل الاشياء.. المتبصر بأحوال الأمم والجماعات.. القادر على فهم السنن الاجتماعية والأسباب، المتتبع للمسار الحضاري في نشوء وسقوط الحضارات» «حول اعادة تشكيل العقل المسلم» «ص ١٢». واشكالية العقل ليست في اعادة تشكيله، وانما هي في استغرابه، وانبهاره، والتنكر لمنجزه العظيم. وصراع الفلاسفة مع ما تركه من حدة في الذكاء، وبعد في النظر، وتحرف للآليات والمناهج، الا انه أضل أمما، وأضاع فرصا.

ومن هذا العراك الخطير يتبين لنا ضياع الفكر المحسوب على الاسلام، واضاعة مثل هذه الجهود محسوبة على المسلمين، لأنها لو صرفت فيما هو خير وأبقى، لكان للأمة الاسلامية شأن خطير، في عالم يموج بالانجازات الحضارية المذهلة. والمدرسة العقلية التي أخذت تعيد تشكلها في الآونة الاخيرة على غير هدي من الكتاب وصحيح السنة تنذر بالخطر، لأن الرؤية المعاصرة مشوبة بوثنية العلم، ووضر المادة، وعلمانية الفكر، وعولمة الخطاب، والحرية غير المنضبطة. والمعضلة تزداد بتعدد مفاهيم «الحرية» ومجالاتها: الفكرية، والسياسية والأخلاقية والتخبط في حدود العقل، فيما يتقحم المشاهد قراء يتصيدون الآراء، مثلما يتصيد الأطفال «الجخادب» لا يؤصلون لمعرفة، ولا يخططون لبحث، ولا يستوعبون لنظرية، ولا يتبنون لفكر ناجز محرر منحاز برؤيته ومنهجه، وانما هي تخرصات وتلفيقات، وقراءات متسطحة غير واعية مع ما يصحبها من صلف وسوء أدب.

والاشكالية المستعصية «موضعة العقل» حتى لقد بدت مشاريع فكرية تجتال العقل بوصفه مناط التفكير والتقدير والتدبير شروعا بذاته لذاته، كالذين يتحدثون عن اللغة باللغة، من النحاة والصرفيين واللغويين، وسائر أصحاب المناهج الحديثة «كالبنيوية» و«التحويلية» و«التفكيكية»، والعقل حين يتموضع يصبح اشكالية تضاف الى اشكالياته، بوصفه ممارسا لا معقب لحكمه، ولعل من أبرز المشتغلين بالعقل بوصفه موضوعا على المستوى العربي المفكر المغربي «محمد عابد الجابري» الذي أخرج للناس مشروعه الواسع الشمولي المتمثل بأربعة كتب هي:

- تكوين العقل العربي.
- بنية العقل العربي.
- العقل السياسي العربي.
- العقل الأخلاقي العربي.

وقد تعقبه «جورج طرابيشي» بكتابه «نظرية العقل» متخذا «التفكير بالعقل» و«التفكير في العقل» منطلقا لتقويض مشروعه. وجاء «إلياس مرقص» في كتابه الكبير «نقد العقلانية العربية» مستعرضا أكثر من طرح على المستويين: التنظيري والعملي، مركزا على مشروع الجابري، وممن اتهم الجابري بالسطو الانصاري الذي يرى تعويله على «أحمد أمين» من كتبه الفجر والضحى والعصر ورائد المشتغلين في موضعة العقل

«عمانوئيل كانط» في كتابه «نقد العقل المجرد» ترجمة «أحمد الشيباني» رحمه الله. وقد ترجمه بتركيز أكثر «موسى وهبة» تحت عنوان «نقد العقل المحض» ومن بعده تعاقب الدارسون للعقلية الانسانية، فألف «نورمان بريل» «بزوغ العقل البشري» ومن قبله «هيجل» في كتابه «علم ظهور العقل» ولهيجل مؤلفات اخرى تمس العقل من أطراف معرفية متعددة مثل كتاب «العقل في التاريخ» وللإسلاميين رؤية مغايرة وستكون لي عودة موسعة لموضعة العقل، أتناول فيها نقدة الفكر القديم والمعاصر من خلال التحرف لاعادة تشكيل العقل العربي، مؤكدا على العقل الفاعل في التراث العربي عند المعتزلة من أمثال «عبد الجبار» وعند الفلاسفة من أمثال «ابن رشد» وعند السلفيين من أمثال «ابن تيمية» سعيا وراء تحديد المجال المشروع للعقل والنص.

الموت اليقين .. ![١]

ليس هناك مولود اضحك بقدومه، الا وابكى عند فراقه، وليس لبشر الخلد، فكل نفس ذائقة الموت، وما من صرخة وضع الا وتعقبها انة نزع، تلك سنة الله في خلقه ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾، ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ الكون له نظام، وكل شيء بدونه عديم، وتلك هي سنن الله الثابتة، جعل الموت نهاية كل حي، يموت الانسان جنيناً أو طفلاً أو شاباً أو كهلاً، أو يظل حتى ارذل العمر، والعرب تقول: «ما رأيت علة كطول سلامة» فالموت غاية كل حي ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ والموت اليقين الذي لا يتقدم ساعة ولا يتأخر، قلَّ ان يكون مذكوراً، فنحن بين نعمتي: الامل والنسيان في غفلة عنه، حتى اذا لقيناه اخذتنا رجفته، واخذ بعضنا بعضاً بالاحضان في مواساة أو تفجع، ومن لطائف الذكر الحكيم واعجازه البياني، ان الموت لا يلحق الهارب، ولكنه يلاقيه، والخوف ليس من الموت، فهو آت، ومعلوم بالضرورة، الخوف مما بعد الموت، ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى﴾ واذا كانت للموت هيبة فان لموت الاحبة في وقت غير متوقع رجفة، والمؤمن مطالب بالصبر والاحتساب، وهو بايمانه ممتثل لذلك، ساع إلى ما يرضي ربه، وان بكت العين وحزن القلب فانه وقاف عند امر الله، صابر على قضائه وقدره، والبكاء والحزن رحمة جعلها الله في قلوب عباده «**وإنما يرحم الله من عباده الرحماء**»، وامر المؤمن كله عجب: ان اصابته ضراء فصبر كتب له الاجر، وان اصابته نعماء فشكر كتب له الاجر. والله الذي اعطى فأوسع في العطاء، وانعم فأغدق في النعيم، واستعاد بعض ما اعطى له الحمد وله الشكر، و هو المنعم المتفضل في الحالين.

وفاجعة الامير الشاب احمد بن بان يقف الجميع معه في مصابه، فكم وقف مع المصابين والمعوزين، وكم مسح ادمعاً، وضمد جراحاً، وادخل السرور على اسر فقدت اعز ما عندها، والفقيد الذي تبارى المؤبنون في ذكر محاسنه وافضاله حقيق بكل هذا، فهو الفارس الذي تصدر الرياضة الاسلامية كما يريدها الابطال. وهو الاعلامي الذي وقف في وجه الاعلام المناوئ، «والرياضة» و«الاعلام» حين يخترقان اجواء الآخر بهذه القوة وبذلك الاقتدار يكونان مؤشرين على كفاءة من ورائهما.

والفقيد الذي رحل تاركاً اكثر من فراغ حقيق بهذا التأبين والتفجع في حدود ما يرضى الله، فلقد اثنى خلطاؤه ومعارفه والمتعاملون معه بما يعرفونه عنه، وما شهدوا الا بما علموا، وحين لا يكون لي شرف التعرف على مثله فان استفاضة الثناء من الخلطاء والمتعاملين والمصاحبين تزكية يغبط عليها، وبشارة خير، والله الاكرم يوجب الثناء للميت حين يستفيض على الالسن، وذكر محاسن الموتى من سنن الهدي، وتلاحم الامة مع قادتها يتجلى بأبهى صورة في الازمات والشدائد، وتلك نعمة ومنة من الله، وقد ذكر الله بها رسوله حين قال: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ ان مظاهر العزاء حين يشهدها المحرومون من الوفاق، يعرفون كم هو حجم التلاحم بين القادة والامة، وعزاؤنا الصادق ومواساتنا لصاحب السمو الملكي الامير سلمان بن عبد العزيز

---

(١) تاريخ المقال: ٢٥/ ٧/ ٢٠٠٢

ولوالدة الفقيد الصابرة المحتسبة التي لم تندمل جراح آلامها من ابنها السلف حتى واجهت المصاب الآخر بابنها الخلف، وعزاؤنا لزوجة الفقيد التي ستعيش مرارة الفراق متجدداً في ملامح ابنه وبناته ولاشقائه ولزملائه واصدقائه الذين فجعوا بفراقه غير المرتقب.

فيلسوف الموت يموت .. !؟[١]

ما رأيت مفكراً شغله الموت، وأخافه إلى حد الهلع، وأفرغ جهده الفكري والفلسفي في سبيل استكناهه، مثلما فعل (عبد الرحمن بدوي ١٩١٧ - ٢٠٠٢م) الذي عاش عذابات الغربة، ونكد العزوبية، ومرارة الحياة، ورهبة المطاردة من الساسة والمفكرين والأكاديميين، حتى قضى حياته حاقداً ومحقوداً عليه، متعاظماً بذاته وبمبْلغه من العلم. ومع ذلك الكيد الممض طاف جامعات العالم ومحافلها العلمية والفلسفية، وأسهم في التعليم والتأليف والتحقيق والترجمة، ووضع المناهج، وخلّف وراء ظهره مائة وخمسين مؤلفاً، تُرجم بعضها لأكثر من لغة، واعتمد البعض الآخر كأهم مرجع للدراسات العليا في جامعات العالم. وما ان علمت بموته المتوقع، هرعت إلى مكتبتي لأجد حقله فيها واحداً من أهم حقول الفلاسفة المعاصرين، من أمثال «زكي نجيب محمود»، «وفؤاد زكريا»، «والعقاد»، «ومحمد أركون»، «وحسن حنفي»، «والجابري» وحقول فلاسفة الغرب، أمثال «كانط» و«ديكارت» و«سبينوزا» و«كير كجرد»، و«سارتر» وكان آخر مشاويره التأليفية كتابيه الإسلاميين في الدفاع عن القرآن والرسول، وسيرته الذاتية التي ألهت الوسط الإعلامي والفكري ساعة من نهار، لكونها ملحمة هجائية مقذعة، في مجلدين، نيفا على سبعمائة صفحة، ولما تنته بعد، ولكن الموت سبق إليه، تاركاً بقايا الغضب يتجمد على شفتيه، ويخبو في صدره، كما البركان الخامد.

وفي هذه السيرة عرض معرفي لبدايات حياته العلمية واهتماماته في «الأدب» و«اللغات»، «والفلسفة»، «وعلاقاته بأساتذته العرب والمستشرقين»، و«رحلاته في طلب العلم والتعليم»، و«حضور المؤتمرات»، وفيها إلى جانب ذلك تصفية لحسابات وثارات قديمة، آلت به إلى الغربة والحرمان، واضطرته إلى الشح والتقتير. لقد سعيت جهدي بحثاً عن تلك السيرة الضجة، وكنت يومها على وشك مناقشة رسالة أكاديمية عن «أدب السيرة الذاتية»، وفي صدد تحكيم آخر في «أدب السيرة»، وكنت من قبل ولمَّا أزل حفياً بسير أعلام النبلاء من علماء ومفكرين وفنيين وساسة، وبخاصة ذات الطابع الروائي، ممن يملكون موهبة قصصية، فكان ان بعثت بها إليَّ تلميذة وفية، نقبت عنها في مكتبات مصر، وحين حيزت لي، مع طائفة من المقالات والمقابلات التي جاءت في أعقابها من مقربين وأباعد، أصبت بخيبة أمل، وتمنيت أنه لم يفعل ما فعل، وكنت على وشك الفراغ من قراءة سيرة ذاتية متميزة «لادوارد سعيد»، «خارج المكان» بأسلوبها وحركتها الداخلية، وقد نقلها إلى العربية «فواز طرابلسي». والحق ان سيرة «بدوي» بهذا المستوى اللغوي والفني والموضوعي لم تكن من أدب السير الفنية المتميزة بأي مقياس، وإنما هي خواطر وأحداث ومعلومات وتاريخ لقضايا متنافرة، كتبها في خريف العمر والسمعة معاً، بحيث أومأ إلى التاريخ السياسي الحديث لمصر «ص٤٦» ووعد بمزيد من التفصيل، وتحدث عن التاريخ الأكاديمي «ص٥٥» ولما ينفك من الحديث عنه عبر أشواطها الدلالية، وعن «المؤتمرات» وبخاصة ما يتعلق منها بالمستشرقين، وتناولاتهم لفلاسفة الإسلام، جاعلاً نفسه الراوي والبطل والخصم والحكم. غير ان الشيخوخة والمرض أقعداه، ولما ينته من نفثاته الحرّى، والسيرة التي اشتعلت كما «نار الورق» خبت، وكأنها لم تكن، لفقدها مقومات البقاء، إذ لم تكن «كالأيام» لطه حسين أو «سبعون» لميخائيل نعيمة أو «غناء البجعة» لزكي محمود فهي الأقل جاذبية من بين عدد كبير من السير والذكريات والأيام، وأحسبها لا تطاول قاعة الفيلسوف الوجودي، الذي

---

(١) تاريخ المقال: ٦/ ٨/ ٢٠٠٢

ترك بصمات واضحة في المشهد الفلسفي الحديث، وبخاصة فيما يتعلق بفلسفة الوجود، التي جذر لها في أقسام الفلسفة في الجامعات المصرية، وفي جامعات «الكويت» و«لبنان» و«ليبيا» التي عمل فيها ردحاً من الزمن. ومهما اختلفنا معه، فهو قامة شامخة، لا تطاول في مجال الفكر الفلسفي القديم والحديث، وأحسبه الأفضل في تحرير الفلسفة اليونانية، ويكفي أنه كتب عن «أفلاطون» و«أرسطو» أكثر من عشرة كتب. لقد حرصت على الظفر بسيرته مؤملاً حكايتها عن المسكوت عنه، وكشف ما غمض من تحولاته، علماً أنه الفيلسوف «السكوني» الذي توقف عند الوجودية ومستشرقي الخمسينيات الميلادية، ولم يتعمق في الظواهر الجديدة «كالبنيوية» التي أشار إليها بمستوى مثقفي السماع «ص٢/٢٦» واصفاً التحولات بالبدع الفكرية، وكنت أود لو أنه كتبها في الخمسينيات من عمره، ليبرز سيرته العلمية بوصفه منتجاً ثر العطاء، قادراً على تعرية التيارات الفلسفية القائمة على أشدها إذ ذاك، ولكنه لم يفعل، ومن ثم جاءت سيرته نفثة مصدور ورفسة ذبيح، فخصومه السياسيون والأكاديميون ذبحوه من الوريد إلى الوريد، مستغلين جنون العظمة عنده، بحيث ألجؤوه إلى الهجرة والانزواء في فندق «لوتيسيا» الشهير في فرنسا، يهيم على وجهه رابعة النهار دون هدى، ثم يأوي إلى غرفته كالخفاش في عتمات الليل دون أنيس، يجتر ماضيه الذي غيّر وجه الفلسفة، ويتحسر على أمجاده التي أضاعتها غطرسته، فلقد كانت أسرته من ذوي الأطيان والسيادة، ولكنه لم يصن هذه الأمجاد، وما نقم من الثورة والثوريين إلا لأنه أحد ضحاياها في عمليات الإصلاح الزراعي، بمراحلها الثلاث. والغريب ان كل أساطين «الإلحاد» عوقبوا بالتشرد والضياع والانطفاء، وعلينا استعراض حيوات «رسل» و«نيتشه» و«سبنسر» و«شوبنهور» و«سارتر» وبدوي فيما لقي من لداته، وفيما هو عليه من علم غزير يشبه «زكي مبارك» الذي مات مخموراً من القهر الذي تعرض له على الرغم من علمه الواسع وثقافته العميقة. والمؤسف ان خصومة الأنداد في مصر عنيفة وقاسية، وغير أخلاقية، حتى لقد ضاع عدد من المفكرين بسبب المكائد التي لا تليق بصفوة الفكر والأدب، وصراع العمالقة في مصر ليس من المعارك الأدبية والفكرية التي تسعى إلى تحرير المسائل، وإنما هي ضغائن ومكائد وتنافس غير شريف، تنتهي بتصفية إحدى الطائفتين، ولقد تولى «طه حسين» كبر هذه المعارك الدنيئة، ولربما أعود إليها متقصياً ضحاياها، وما تركته من سلبيات.

لقد ضاع «عبد الرحمن بدوي» مع من ضاع من رواد الفكر والفلسفة، ولسنا آسفين على ضياعه، لأنه نتاج العمل الاستشراقي في الجامعات المصرية، ولأنه ممن مكَّن للفلسفة الوجودية الملحدة، مدعياً ان لها جذورها العربية، ضارباً المثل «بأبي حيان التوحيدي»، بوصفه رائد الوجودية العربية، وما هو منها بقريب.

وما لقيه من الساسة والفلاسفة جعله يكتب سيرته بقلم يتميز من الغيظ لم يتورع، ولم يعف عن أعراض الأموات، فلقد نال من «جمال عبد الناصر» ومن «محمود فوزي» ومن زعماء مصر قبل الثورة، وبخاصة «سعد زغلول»، ونال من الأزهر وعلمائه، ولم يثن إلا على الأقل «كمصطفى عبد الرازق» ومما قاله عن «عبد الناصر»: - «هكذا كانت وستكون تصرفات جمال عبد الناصر خارجياً وداخلياً تصرفات حمقاء طائشة لا تحسب حساباً لأي شيء غير الدوي الأجوف العقيم حول شخصيته مهما ترتب عليها من خراب وويلات لمصر وشعب مصر ومكانة مصر في المجتمع الدولي «ص١/٢٣٨» وقال عن «فوزي» ماهو أدهى وأمر، وقال عن علماء الأزهر: - «وشيوخ الأزهر بطبعهم طماعون حاقدون يأكل الحسد قلوبهم .. لا يتورعون عن استخدام أخس الوسائل: من وقيعة ودس ووشاية واختراع الأكاذيب» «ص٦٢» وفي المقابل مجَّد المستشرقين أمثال «أندريه لالاند» وأوغل في النيْل من زملائه ولداته من أمثال «العقاد» «وفؤاد

زكريا»، ومن الأقسام العلمية، وبعد الخمسينيات أسقط من حسابه أقسام الفلسفة في البلاد العربية والأوروبية مستخفاً بكل ماهو قائم.
لقد استحر القتل في سيرته، وسالت دماء بريئة وأخرى مدانة، ومع ذلك لم يتوفر على لغة جميلة، ولا على تميُّز فني، ولا على تماسك موضوعي، على الرغم من جودة لغته وأدبيتها فيما كتب في غير السيرة. وتحت عجاجة الهجاء المقذع تحدث عن جوانب كثيرة من حياته العلمية والفكرية والعملية والسياسية، عرض للسياسة في «مصر» وفصل القول عن السياسة والدين في «إيران» وكأنه ألصق حديثه عن «إيران» إلصاقاً، ليختتم به سيرته. والغريب أنه لم يذكر شيئاً عن وجوده الأطول في الكويت، فيما أفاض بالحديث عن وجوده في «ليبيا» و«إيران» مما أثار حفيظة «محمد الرميحي» «الحياة ١٤٢٣/٥/١٧هـ»، لقد بدا في سيرته متغطرساً مدلاً بعلمه وعمله، وهو حقيق بأن يدل، لولا ان سمة العلماء التواضع، وخفض الجناح، ولكن أنى له هذا، وقد طورد في رزقه وعمله، وحيل بينه وبين أبسط حقوقه، وفي ركاب الهجاء، أشار إلى ظواهر فلسفية وطائفية ومذهبية إشارة عجلى، وأفاض بالحديث عن عمله في «ليبيا» وعن سجنه، وملابسات السجن، وتطورات الأحداث، ومتابعة «أنور السادات» لاخراجه من السجن، ولم يأت من يقول الحق عن أسباب سجنه، ولعل إجابة أخيه «ثروت بدوي» واحدة من تخمينات السبب.

وهو قد كتب عن سيرته الذاتية، وعن مذهبه الفلسفي، حين ترجم لنفسه بوصفه فيلسوفاً وجودياً في «موسوعته الفلسفية» التي تقع في مجلدين كبيرين، وعدَّ نفسه الفيلسوف الوجودي الوحيد في الوطن العربي، «ص٢٩٤ج١» وجعل مدار فلسفته: «الموت» و«الوجود» وهما موضوع رسالتيه للماجستير والدكتوراه، وقد لخصهما في موسوعته الجزء الأول «ص٢٩٨ و٣٠٦» والحديث عن الوجودية والوجوديين في الوطن العربي، وفي مصر بالذات حديث ذو شعب لايمكن استيعاب شفراته في كتاب، فضلاً عن مقال متخفف، لقد عرف عدد كبير من المفكرين ممن لهم اهتماماتهم الوجودية، ودخلت الوجودية في الأقسام الفلسفية في الجامعات المصرية، ونهض الأكاديميون للترجمة والتأليف والدراسة عن ظواهرها: الإيمانية والإلحادية، مثلما ألَّفوا وترجموا عن «الماركسية» ولكنه عمل غير صالح، ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً﴾ [النمل: ٥٢] وتلك أربابها يقلبون أكفهم على ما أنفقوا فيها ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩]، ولربما كان الاحتفاء بالوجودية حافزاً «لسارتر» على زيارة مصر والحديث عن قضية فلسطين، وبين التعالق والمفارقة اتهم البعض بالوجودية، «فالعقاد» عدَّ وجودياً، لقوله: إذا كانت الوجودية تعني الحرية والعدل والمساواة فإنني وجودي، على حد: إذا كان حب آل البيت تشيعاً فأنا متشيع، ومثلما أزلقت «الماسونية» طائفة من العلماء في سرابها، فقد فعلت «الوجودية» مثل ذلك، فالحرية والعدل والمساواة مطلب كل حي. وفي مجال التعلق بالفكر الوجودي ترجمت أعمال «جان بول سارتر» الذي نقم عليه «بدوي» وسخر من مقدرته، وإن ترجم أحد كتبه، ومما ترجم «لسارتر»: «الأبواب المقفلة» و«التخيل» و«المادية والثورة» و«تعالي الأنا موجود» و«الكلمات» و«ما الأدب» و«الوجود والعدم» «والوجود مذهب إنساني» وقد راد عبد الرحمن بدوي لهذه الحملة الوجودية، حين جاءت رسالتاه العلميتان عن الوجودية، ولمّا ينج من تعقب بعض المفكرين والراصدين للاتجاه الوجودي أمثال «الجابري» و«عبد المنعم حنفي» و«فؤاد كامل» حتى لقد حكم عليه بعضهم «بالإلحاد» وماهو منه ببعيد.

و«بدوي» الذي شغله الموت بوصفه مفردة من مفردات الوجودية اخترمته يد المنون أعزل من كل شيء، فلا زوجة، ولا ولد، ولا جاه، ولا مال، ثوي دون أي ضجيج. ولعل أقوى دراساته الأكاديمية وأمكنها في المذهب الوجودي رسالته «مشكلة الموت في الفلسفة الوجودية» التي حورها بناء على رغبة أستاذه «لالاند» إلى «مشكلة الموت في الفلسفة المعاصرة» لأن «لالاند» يرى أن الوجودية «موضة» وبدعة لا قيمة لها، وتحول الإشراف إلى مستشرق آخر مكَّنه من العودة إلى وجوديته والرسالة لم تطبع بهذا الاسم، ويأتي كتابه «الزمان الوجودي» الأهم، وهو رسالته للدكتوراه، ومؤلفاته وتحقيقاته وترجماته، كلها تدور حول الفلسفة العالمية. منها المبتكرات، والدراسات الغربية، وخلاصات الفكر الأوروبي، والدراسات الإسلامية، والمترجمات. وله مؤلف مطبوع متداول تحت عنوان «الموت والعبقرية» يعد من بواكير مؤلفاته، ولم يشر في قوائم مؤلفاته إلى رسالة الماجستير «مشكلة الموت» فهل غيَّر في العنوان، إذ من المؤكد ان الرسالة كتابه المطبوع «الموت والعبقرية».

و«بدوي» في النهاية فيلسوف وصولي نفعي، قسا في اتهامه، وكشف بخله وحقده أحد تلاميذه الدكتور «فؤاد زكريا» الذي زامله في «جامعة الكويت»، جاء ذلك في لقاء أجري معه، ونشر في كتاب «عبد الرحمن بدوي فيلسوف الوجودية الهارب إلى الإسلام» من تأليف الصحفي المقيم في فرنسا الدكتور «سعيد اللاوندي» الذي كانت له علاقات ومغامرات مع بدوي، وقد أشار إلى مواقف بدوي غير المقبولة من المفكر الكبير «عباس محمود العقاد»، ومن المفكر الجزائري «محمد أركون».

وإذا كان بدوي علمانياً وجودياً اتهمه بعض دارسيه «بالإلحاد» فإن له عملين إسلاميين، صدرا قبل وفاته بسنتين، وترجمهما عن الفرنسية «كمال جادالله» أحدهما «دفاع عن محمد ضد المنتقصين من قدره» والآخر «دفاع عن القرآن ضد منتقديه» وقد قصر دفاعه على القضايا العلمية الصرفة، والملفت للنظر ان «فؤاد زكريا» اتهمه في مقاصده نافياً إسلاميته قائلاً: «إنه يضع عينيه على جائزة خدمة الإسلام التي تحمل اسم الملك فيصل، وهذا جزء من حبه للمال، وهو مستعد ان يذبح نفسه في سبيل الحصول على هذه الجائزة» «ص١١٥» من كتاب «اللاوندي»، ذلكم هو عبد الرحمن بدوي الفيلسوف الوجودي الشامخ شموخ الجبال، الذي خرج من مصر وأنفه في السماء، وعاد إليها وأنفه في الرغام.

والمملكة بين: التخوين والتآمر .. ! (١) [١]

لمَّا فرغتُ من الحديث عن (ثروتنا الوطنية بين: الخنزرة والسرطنة). تبدت فئات أخرى، تروج شائعات من الوزن الثقيل عن بلاد أذن الله أن تكون مثابة للناس وأمنا، بلاد يسبق أهلها قادتهم في الدعم المادي والمعنوي. والمؤلم أن الضالعين في الأذية ممن علمناهم (الرماية) ونظم (القوافي)، ولو أن ما يقال عن تلك البلاد وأهلها خطأ يحذر منه، أو تقصير يحث على تلافيه، لما كان في الأمر من بأس، فالسياق العربي -نحن جزء منه- بحاجة إلى من يرود له، ولايكذب، ويمحضهُ النصح، ولايشطط، وكم نودُّ ألا يكون بأسُنا بيننا شديداً، فنحن أحوج ما نكون إلى قطرة المداد وإلى كل العتاد، لمواجهة الحملات الشرسة: إعلامياً وعسكرياً، وليس هناك من بأس أن أكون مخطئاً أو مقصراً في نظر الآخر، لأن مثل ذلك من العوارض المتوقعة والمواقف المشروعة، وكل متحدث أو فاعل يؤخذ من كلامه أو من فعله ويرد، إلا المعصوم، وكل صغير أو كبير موقوف للمساءلة والنقد، فليس لأحد كائنا من كان أن يزكي نفسه، ولا أن يأنف من المساءلة، ورفضنا المشروع لإحالة الخطأ أو التقصير إلى الخيانة والتآمر وسوء النية. ولو سيق النقد والمؤاخذة لكل المشتغلين على مسرح الأحداث العربية لما كان هناك ما يلفت النظر. أما حين أكون وحدي مَثَلَ السوْء، ومادة التخوين والتجريم، فأمر لايحتمله إلا مهين و:

من يهن يسهل الهوان عليه
... ما لجرح بميت إيلام

والأمة المتحضرة تقبل المراجعة، ولا تصعد حساسيتها من النقد، ولكنها تفرق بين الناقم الأجير والناصح الخبير، معرية الناقمين الأغبياء الذين يهتكون أستار حقدهم باستدبار الضالعين في الخطيئات والنيل من سمعة القائمين بالمهمات. وما من صادق ناصح إلا ويرحب صدره للنقد والمراجعة. ولا يخاف من كلمة الحق إلا الضعفاء، ولا يتأبى النظر في المرايا المقعرة أو المحدبة أو المسطحة إلا المرتابون، والمبصِّر بالعيوب كالمهدي، ولكن المتداول عبر الصحف المأجورة والقنوات الموتورة لا يمت إلى النقد البناء بصلة، والمسألة ليست (مرايا) ولا (إهداء عيوب)، المسألة حرب منظمة، وافتراء ما له من فواق، تتردد أصداؤهما بين الصهاينة المزروعين في المؤسسات الأمريكية والمأجورين المتسكعين في العواصم الأوروبية، يؤز هؤلاء وأولئك منتفعون من توهين الدور الرائد لهذه البلاد، وإيضاع الفتنة في جبهتها الداخلية، توقاً لخلخلة تماسكها، وشغلها بنفسها في زمن متفجر بكل الفتن. ومما أذكى الحساسية، وأثار الشك قيام من يزكي رؤوس الفتنة ومروجي الاتهامات، ومن يرى أن قالة السوء عنهم حسداً من عند أنفسنا، وصداً عما أفاء الله به عليهم من قول الصدق، ومن يسعى لحمايتهم ورد اعتبارهم، باسم الدفاع عن الحقوق، متهيئاً لجولة قضائية، تقطع دابر المدافعين عن حياضهم، وتكمم الأفواه المنتصرة لأنفسها. والمتعقب لخطابي المرافعة ضد جريدتي (الجزيرة) و(الوطن) يدرك ان صاحبهما لم يكن ملماً بأبجديات الأحداث السياسية، وليس على علم بفيوض الاتهامات التي تنهال من راجمات الترسانة البلاغية على قادة البلاد وأهلها، عبر صحف مهاجرة أو قنوات مناوئة، ولمَّا يعلم بعد أن من حق المعتدى عليه أن يرد بالمثل، وتصرف المحامي يحال إلى تسرعه وجهله بمجريات السياسة، وواجبنا ابتداءً مجادلته بالتي هي أحسن، وذلك: (أن الرفق بالجاني عتاب) حتى يتبين له الحق، فإن أصر

(١) تاريخ المقال: ١٣/ ٨/ ٢٠٠٢

واستكبر واستغشى حججه المسفسطة كان من حقنا التحرف لرد رادع. وإذا كان أعداء (الثروة الوطنية) يفترون الكذب بإشاعة الرداءة والغلاء فإن أعداء الأمة يمعنون في التشكيك بأمانتها وأهليتها، مؤكدين على خيانة العين وتآمر الفعل. ومع أن مثل هذه الهجائيات يتداولها من هم على شاكلة خطباء (الهايدبرك) إلا أنه وبعد أن أخذت الظاهرة بعداً قضائياً، أصبح لها شأن آخر. وعلى الرغم من كل هذه الحيثيات فإنني لست ممن يحبذ ملاحقة مثل هؤلاء، امتثالاً لثناء الله وأمره لعباده ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣] .

ولخاصته الذين ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢] ولكن التمادي في النيل، وتنويع قنواته ومواقعه، وتنظيم حملاته، والتركيز على القضايا المصيرية، وحصر الخيانة والعمالة فيمن أجمعت الأمة العربية ومعهم أهل الشأن على سلامة مقاصده ووفائه بالتزاماته، واختراق الجبهة الداخلية على مطايا المحاماة، لشرعنة النيل والتجريح وإدانة الدفاع عن النفس، كل ذلك يجعل الإنسان مكرهاً لا بطلاً، ويحمله على التفكير الجاد في الأمر، ولايكفي أن نرد بالمثل، بل لا بد من دراسة هذه الظاهرة العدائية، عبر مؤسسات تضطلع بهذا العبء الثقيل، وترسم أسلوب المواجهة. ومروجو الشائعات عن البلاد وأهلها، ليسوا من الناصحين الذين يحسنون الظن، ويتلطفون بالدعوة إلى الصواب، وليسوا ممن يفككون الخطأ حيث وجدوه دون مفاضلة أو انتقاء، وليست لهم مواقف تحمل على هيبتهم. والتصدي لهم أو المرور الكريم بلغوهم موقفان أحلاهما مر. والملفت للنظر، أننا نلاقي الشائعات المغرضة من (لوبيات) متناقضة ظاهرياً: من عرب يلعنون الصهيونية، ومن صهاينة يلعنون العرب، ومن ضالعين في العمالة، تعرفهم بسيماهم، ومن متشابهين كبقر بني اسرائيل، فيما نتلقى الثناء والشكور من زعماء العالم، ومن الصامدين تحت وطأة الاجتياح، ومن الصابرين المحتسبين في الأرض المحتلة، ومن زعماء المنظمات. فأي الفريقين أحق بالتصديق؟ ولماذا لا يلام أولئك على ثقتهم وثنائهم وتأييدهم لمواقفنا. وما كان لنا مجاراة ذوي هذا الخلق لولا أنه طفح الكيل، وبلغ السيل الزبى، وهمَّ بنا من لا يدفع عن نفسه، وحين مس أولئك شواظ التعرية، تحرفوا بغباء معتق، متسلقين محراب القضاء السعودي، معولين على نزاهته، راضين بحكمه على حد:-

فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

وذلك التحرف المتذاكي يمثل تزكية للنفس، فاتهاماته المتتابعة صدق صريح ودفاعنا المتردد إفك مفترى، ولتأكيد الثقة اتخذ من المحاماة ونزاهة القضاء السعوديين برهاناً يخدع به السذج، معتمداً على ألوان الطيف في آفاق السياسة وعلى المحامي الذي نظر إلى الطعم ولم يع مزالق الطريق. ومع ان السياسة العالمية والعربية تقرأ على عدة مستويات، وفيها مغارات ومفازات كثيرة، إلا أن مواجهة الحق الصراح لا يبرره أي احتمال. وحتى لا نكون نشزاً، في سياقنا، ولا مثار تساؤل للفضوليين فإننا لن نقف عند تزكية النفس وتخوين الخصم، كما ان اعتراضنا ليس ضد النقد، ولا ضد المنافسة الشريفة، ولا على تنازع المصالح والأدوار، وإنما هو على التخوين والتشكيك بكل ما نأتي أو نذر من فعل أو قول أو صمت وعلى التغاضي عمن استدبروا القضايا أو عملوا ضدها. والغريب أننا في المؤتمرات نجلس حول مائدة مستديرة، حتى إذا خرجنا بموقف مشترك، سيئ الظن به، وأحيل التآمر علينا، دون شركائنا وإذا كان المتنصتون المحرفون للقول من بعد

مواقعه صادقين مخلصين، فأين هم من أبناء جلدتهم المجندين لخدمة الصهيونية، أما كان من الأجدى والأهدى تعقب هذه العصابات العميلة التي سهلت اقتناص المجاهدين، وتوعية ضمائرها، أو تنبيه المجاهدين لأخذ حذرهم، وكيف يتأتى للصهيونية اقتناص القادة الناشطين الواحد تلو الآخر لولا خيانة المسكوت عنهم.

وليس من شك أن متنفس الماكرين كون السياسة: (فن الممكن)، وممتهنوها أشد الناس عناء وتعباً وعرضة للنيل. وغنوصيتها جعلتها كالماء العكر، يكثر على شواطئها هواة الصيد. ومفاجآتها لا تمكن أبناء بجدتها من ترتيب أمورهم وأخذ حذرهم، فضلاً عن الفضوليين الذين يدرجون في عش ليس بعشهم. والمثاليون الذين يفترضون في السياسة الفضيلة والصدق والشفافية يصابون بخيبات الأمل، ويتعرضون للإحباطات الموجعة، فالحرب الباردة والساخنة خدعة. ومبدأ الكتمان يحمل قناصة المواقف على التخمين، وقراءة الكف، والضرب بالحصى، وزجر الطير. وكل أولئك لايدرون بما يدار خلف (الكواليس)، وما يتداول في (اللوبيات). والشفافية السياسية ضرب من الوهم، إذ لو شفَّت لما حصل المرتزقة على ما يسد الرمق، ولما نفذت اللعب الموجعة. والكتبة الذين يتعقبون ظواهرها وآثارها، لايقر لهم قرار، ففي كل يوم لهم معها شأن جديد، قد يكون مناقضاً تمام المناقضة لسالفه. وأصحاب المبادئ والمواقف يلعنون (ساس) و(يسوس) وما تصرف منها، لأنها تجر أقدامهم إلى مهاوي الانتهازية والتلون الحرباوي، ومع هذا فقدرهم أن يعيشوها بالطول والعرض. والخطاب السياسي خطاب مراوغ، كالمرآة في كف الأشل، بحيث تتعدد حوله الرؤى والتصورات، وهذه الظاهرة الحلزونية مكنت مسوقي التهريج من ترويج بضاعتهم، وتضليل الرأي العام، ومع تلك الإمكانيات لايقدر بعض اللاعبين على تزوير مفترياته، وكم من كذَبَةٍ استهلكوا كل الأقنعة، ولم يعد أحد منهم صالحاً للعمالة، وإذ تكون بعض اللعب كونية المجال فإن بعض اللاعبين يكون على مستوى الدولة، وكم من زعيم قضى حياته وهو يرقص على خشبة المسرح. والدول الحصيفة الواعية الحريصة على مصلحتها تتكلم وفق إمكانياتها، وتعمل على قدر أعماقها الاقتصادية والبشرية والسياسية والجغرافية، ولا تلقي بيدها إلى التهلكة، ولا تتردد في ارتكاب أهون الضررين، غير عابئة بالمحرضين ولا بالمخذلين ومن يدوكون ليلهم في رسم المثاليات حتى إذا أشرقت الشمس عرضوا على تصوراتهم فعل الشجيين، ثم راحوا يجرمون بالجملة، يفسدون ولا يصلحون ويزلقون ولايثبتون الأقدام. والمتورطون في اللعب الخطيرة من ينسون حجمهم وإمكانياتهم، ويدفعون بأنفسهم وسط تيارات جارفة، تطوح بهم بعيداً عن مصالحهم، وإن وفرت لهم هالة وقتية، لاتتجاوز مدة قضاء حاجة الكبار منهم، حتى إذا انتهى دورهم تركوا في العراء (كالعرنيين) يستطعمون فلا يطعمون، ويستسقون فلا يسقون، لأن عار اللعبة تلصق بهم سبة الدهر. واللاعبون الأغبياء يكونون أفراداً وجماعات ودولاً لا طعم لها ولا لون ولا رائحة، ومثل هذه الممارسات تفوت على ذويها فرصاً ثمينة، وتلجئهم إلى الإفك والبهتان واستقطاب بائعي الكلام، المتسكعين على أرصفة الضياع، في زمن لايحتمل المزيد من الفرقة. ولأن السياسة تميل حيث تميل الرياح فإن المتطلعين إلى الثبوتية في العلاقات والمواقف تحبطهم التحولات المستمرة، ولهذا لا بد من ترويض النفس على معايشة الشيء ونقيضه، سواء جاء زعيقاً من الحناجر، أو دوياً من المدافع، دسيسة أو منابذة، من ذوي القربى أو من الأباعد. ومتى أكره الإنسان على المواجهة فليحاول الدفع بالتي هي أحسن. فالأمة مثخنة الجراح، وعلى موعد مع مزيد من الانهيارات المضرة، والحروب المدمّرة. والمحترف النابه من لا يسرف في الحب ولا في البغض، فصديق اليوم قد يتحول إلى عدو لدود في ذات اليوم، وعدو الأمس يصير في لمحة البصر وبدون أي مقدمات صديقاً

غير صدوق، والطيبون يعيشون لحظة أبدية من الذهول والتعجب، فيما يملك المرتزقة أكثر من قناع، يمكنهم من إتقان الإضحاك في الأفراح والإبكاء في الأتراح، وعيونهم على جيوب الدافعين لثمن المسرحيات (الهزلية) أو (المأساوية)، غير عابئين بما يتركونه من خيال. وحين نقطع بأنه لا يدوم في السياسة إلا المصالح فإن علينا التكيف مع التقلبات، لمواجهة قدرنا العصيب. وتقلب الصداقات واستمرار المصالح قالت به حذام (التاتشرية) وهي امرأة حديدية، وإن بكت مرتين: -عند ضياع ابنها. وعند غرق إحدى فرقاطاتها الحربية في حرب (فوكلاند). ومع تقلبات الطقس السياسي، يكون الحاذق وسطياً، يعطي بقدر، ويأخذ بقدر، ويتقي بقدر، ويعادي ويصادق بقدر، ويبادل الطرف الآخر حديثاً (دبلوماسياً) يمتلك معه أكثر من مخرج، ويحتمل أكثر من تفسير، فالسياسي بحاجة إلى أن يقلب المدح إلى هجاء والهجاء إلى مدح، على شاكلة أبي الطيب مع (كافور الأخشيدي). وأنا هنا لا أريد من السياسة، ولا من الساسة أن يكونوا (ميكافيليين) لا أخلاقيين، في ظل ما يأتون، وما يذرون، ولست من دعاة الكذب وعدم الوفاء بالعهد، ولكنني لا أريد للطيبين أن يكونوا لقمة سائغة للمكائد، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه استعاذ بالله من ضعف التقي وجلد الفاجر.

وعلى ضوء ذلك فإنه ليس من مصلحة الجادين ان يزعجهم كل ناعق، ولا أن يفت في عضدهم كل حاقد، وإن كانوا مضطرين في بعض المواقف لإسراج جياد الجهل لمواجهة مثلها، كي يحموا صفو أعمالهم ان تكدرا. وما لا أريده جر أقدامنا إلى الفعل العاطفي المفوت لفرص التأمل والتروي والتقدير والتوقيت، وإذا بليت بشخص لا خلاق له فليس شرطاً ان تكون كأنك لم تسمع ولم يقل، إنك بحاجة في كثير من الحالات إلى أن تستمع، وإلى أن ترد الصاع صاعين، (وإذا لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب):

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه
... يهدم ومن لا يتق الشتم يشتم

و(لايسلم الشرف الرفيعُ من الأذى
... حتى يراق على جوانبه الدم)

وفي المقابل:

ومن لم يصانع في أمور كثيرة
... يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

وبين (الذود) و(المصانعة) معادلة صعبة، لا يضبط إيقاعها إلا العالمون بخبايا السياسة. فكم من مهرج سادي، يود ان يتلقى الصفعات أمام النظارة، ليجعل من نفسه بطلاً قومياً، ومن ثم يكون المرور به دون سمع أو نظر تفويتاً لفرصته. والمتتبع للمشاهد كافة يرى عجباً، فالروائيون الذين لايُدهشون ب (اللغة) و(الفن) و(الموقف) يثيرون ب(المجون) و(الإلحاد) و(التمرد) والكتبة الذين لايشدون المتلقي ب (الموضوعية) و(الثقافة) و(الوعي)، يستفزون ب(الوقاحة) و(الادعاء) و(الافتراء) ولك ان تقول مثل ذلك عمن يتماسون مع السياسة تحت أي مسمى، حتى إذا استُهلكت كل الأقنعة، عاد كل مفتعل إلى فعله، ومنطلق إلى قواعده: سالماً أو معيباً، والطبع يغلب التطبع:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة

... وإن خالهـــا تخفـــى علـــى النـــاس تعلـــم

والمملكة بين: التخوين والتآمر .. ! (٢) [١]

وكلما زادت موضعة الأشياء، أعطت مؤشرات عن اتساع الاختلاف، وأهمية الذات المموضعة، سواء كانت ذاتاً حقيقية أو اعتبارية. والدولة الفاعلة المؤثرة مثيرة للتساؤل، مغرية بالدخول في خصوصيتها، وعليها رفع قدرتها على احتمال الفضول، والتمكن من التصدي والصمود. وبالمناسبة تذكرت تذمر مسؤول من الشائعات، وقولي له:

وهلاّ قرأت ما قاله «العقاد» عن مؤشرات «العبقرية»، وما يتداول عن طلب موسى عليه السلام من ربه، أن يكف ألسنة الناس عنه، وقول ربه له: ما كففتها عن نفسي، وقول اليهود: «يد الله مغلولة». وهلاّ وقفت على مكائد «المنافقين» والرسول بين أظهرهم، ينزل عليه الوحي المحذر من إنزال سورة «تنبئهم بما في قلوبهم». والواعون لسنن الله في خلقه، لايعبؤون بأحاديث الإفك، ولايعطونها أكثر مما تستحق، ولايصنعون من المغمورين أبطالاً، وإن كان من حقهم رد الاعتداء بمثله، مع تحامي ردود الفعل، وقبول الاختلاف بوصفه من السنن الكونية، ومن لوازم الاجتماع الإنساني. والصراع اكسير الحياة، ولو لم يكن هناك عداوات وحزازات لسعى الإنسان لخلقها، وإن كان مراد النفوس أهون من التعادي والتفاني. و«حرب الشائعات» أسلوب معرفي، وسلاح نافذ، له أساطينه، وصانعو مفاجآته، والمخططون له. ومكاتب «صناعة الكذب» تعتمد في إحكام فعلها على العلماء والخبراء «النفسيين» و«الانثروبولوجيين» و«المفكرين» و«الساسة» ولهذا تأتي الإشاعة محكمة، لا تنضح الماء، ولايساورها الشك. وصناعة الكذب جزء من «الحرب النفسية» التي يمهد بها الأعداء لضرباتهم الحاسمة، وهي وسيلة قائمة على أشدها، لاينفك منها أي مجتمع، والدول ذات المصالح، تتخذ مختلف الأساليب، لتوهين الأطراف المؤثرة على مصالحها، أو المقللة من فرص الكسب السياسي والإعلامي والاقتصادي. ومن مؤشرات التميز والتأثير في الأحداث المصيرية ان تكون الذات الحقيقية أو الاعتبارية مادة حديث، ومصدر خلاف واختلاف، وهدفاً للحرب الباردة أو الساخنة. وإذا كان البعض منا يضيق ذرعاً بملفقي الاتهامات، ويرى فعلهم خروجاً على المألوف، فإنني أرى ما لا يرون. فيما أرى ضرورة ان تكون المواجهة بمستوى إمكانيات الطرف المضاد، وأهميته، وحجم أثره، وموقعه من الأحداث. ولكل من صناعة «البطل» و«العدو» و«الصديق» أسلوبها الذي لا يعيه إلا القلة. والذين لايكون لهم وزن في المشاهد، ولا يؤبه بحضورهم، ولا يحس بغيابهم، يستميتون من أجل أن يصنع الآخرون منهم أبطالاً، ويمارسون الممكن لخلخلة الصفوف، والنفاذ إلى دائرة الضوء، وقد لا يكون من المصلحة الالتفات إليهم، لتفويت فرصة الحضور عليهم، ومعاملتهم بنقيض قصدهم. ولا شك أن جر القدم للمواجهة، وتحديد نوعها وزمانها ومكانها جزء من التماكر. ووضع الطين والعجين في الأذن أسلوب من أساليب المواجهة. وحين يهب كتّابنا لمنازلة كل ناعق، يمكنون له في مطارح السياسة، ويهيئون له هالة ليس من أهلها. والهجاء حين لايلتفت إليه ثقة بالنفس واعتزازاً بالفعل، يتضاءل، ويضمحل أهله. وكم كان بودي لو بادرنا إلى ما يتداوله أولئك، فأعدنا نشره في صحافتنا، ودعوناهم ليقولوا ما بأنفسهم، فذلك العلاج الناجع لقطع دابرهم.

وليس غريباً استهداف المملكة، لأنها شريك مؤثر، على كل الأصعدة، وصداقاتها التاريخية لها وزنها، والأطراف الضالعة تثمِّن أعماقها الاقتصادية والجغرافية والبشرية، وتحسب لمكانتها عربياً وإسلامياً، وفعلها قامع لكثير من ذوي السيقان الخشبية، والأقزام

---

(١) تاريخ المقال: ٢٠/ ٨/ ٢٠٠٢

الذين يتمنون ان يحمدوا بما لم يفعلوا، وأن يذكروا ولو في التوقيع على بياض، يؤذيهم الانطفاء وسط الوهج، ويؤلمهم قضاء الأمور في غيابهم، وصرف النظر عنهم، وهم حضور، وثمن التميُّز باهظ التكاليف:

لـولا المشـقة سـاد النـاس كلهـم ...

الجـود يفقـر والإقـدام قتَّـال

ويبدو لي أن مشكلتنا أكبر من صحفي لاينفك من صنع الأكاذيب، وأكبر من محامٍ يتصيد غرائب القضايا، وبخاصة أن قدرنا وضعنا بحجم إمكانياتنا ومكانتنا وإذ يكون أمام إعلامنا وكتّابنا مسؤوليات بحجم دولتهم ومهماتها فإن مهمات الجميع فوق التنابز بالألقاب، والعالم اليوم غيره بالأمس، والمشاهد مليئة بقضايا يشيب من هولها الوليد، ومخاضات الأحداث الجسام سيكون لها ما بعدها، والأفضل أن نكون بمستوى دورنا الفاعل، فالأمة العربية والإسلامية مقبلة على واقع عصيب، والذين يجدفون في المستنقعات الآسنة كهفيون، يظنون أن ورقهم متداول، وأن بإمكانهم أن يفعلوا شيئاً ذا بال، والمملكة بما تضطلع به من مهمات، وما تنهض به من مسؤوليات، ليست قادرة على توسيع الجبهات وتعددها، إنها أمام أدوار قيادية، وعليها ان تمضي في طريقها، فإعراضها عن الجاهلين أنكى وأمر، والخطورة ليست فيمن يعلن عداءه، ولا يملك إلا عنتريات «الستينيات» العجاف، ولا فيمن يقبض الثمن البخس للوقيعة الكلامية، الخطورة فيمن يكيد في الخفاء، وفيمن يدفعون ثمناً باهظاً لتزييف الرأي العام. وبائع الكلام المتاجر بالإمكانيات البلاغية بوصفه ظاهرة صوتية، لا يشكل جبهة المواجهة، ولا يجب ان يقف إعلامنا بإزائه، فهو أهون من أن تراق الأحبار من أجله، وخير من ملاحاته إبلاغ صوتنا، وطرح ذاتنا، بكل ماهي عليه، وحين يضطر أحدنا لقراءة مثله، فالأفضل استدعاؤه بسياقه وأنساقه. وليست حالته بأسوأ من حالة الدال على مواقع الفدائيين، لتمكين العدو من اقتناصهم أو أخذهم أسارى. ولو أن المهرجين يحملون هم أمتهم، لوظفوا إمكانياتهم البلاغية للتعبئة العامة، والرفع من معنويات الصامدين، وحث المقصرين على الدعم المادي والمعنوي، والتخفيف من عَدْوِ المهرولين صوب العدو، والتودد إلى الداعمين للقضية، وشد أزرهم، ومؤازرة المطالبين بالمقاطعة بكل أشكالها، لكي يتقدم المخذلون والخارجون عن الصف خطوة واحدة صوب ما أخذت به المملكة طائعة مختارة من مقاطعة شاملة للعدو، وهو ما لم يتوفر عليه المسكوت عنهم. ومواقف المملكة من القضية التي تقاعس عنها الأدعياء المدّعون عرّضها لمواقف محرجة، وفوت عليها فرصاً ثمينة، وليس أدل على ذلك مما يتداوله الإعلام الأمريكي، وبعض المؤسسات الشورية والمعلوماتية في أمريكا من تحريض سافر ضد أمن المملكة ووحدتها واستقرارها. وما نيل منها إلا بسبب مواقفها المتصلبة من أجل القضية، ودعمها السخي ولم تكن المملكة في يوم من الأيام أشد ثباتاً والتزاماً بالقرارات الشرعية منها في هذه الأيام العصيبة. وعلى الباحثين عن الحق تتبع الحملات ضد المملكة في أنحاء العالم، والتعرف على دوافعها، والموازنة بين ما يروجه الصهاينة، وما يجتره العققة من أبناء جلدتنا، أفلا يكون هؤلاء وأولئك في خندق واحد لإثارة المملكة، وحملها على التخلي عن القضية؟ وها نحن نسمع من يدعو الدولة من المواطنين إلى التخلي عن القضية، حسماً للمشاكل، وإيقافاً لمثل هذه الحملات التي آذت البلاد وأهلها.

وكنت أتمنى ممن جردوا أقلامهم لمواجهة «المحامي» و«المدعي» ألا يجاروا في تبادل الاتهامات، وألا يقطعوا الطريق أمام المحامي الموغل في الخطيئة، فإتاحة الفرصة لمثله، تكشف عن تسرعه. فلو تركنا له فرصة المراجعة بوصفه مواطناً له حق الملاطفة،

ومخطئاً له حق النصيحة، ومتسرعاً له حق التهدئة، وجاهلاً لخبايا السياسة له حق التعليم، لكان خيراً لنا وله. فجهله بالأحداث السياسية، وانحصار همه في الكسب والدعاية أنسياه أشياء كثيرة، لو تأملها حق التأمل، لما أقدم على فعلته. وحين أقدم تحت أي دافع، كان عليه ان يتساءل عما جرى، وعن مشروعيته، لا أن يزكي موكله، ويدين قومه، وواجبه سرد التعديات على موكله، مقرونة بالوثائق، ثم ان المحامي الذكي لايقبل القضية الخاسرة، ولا يستمرئ ظلم ذوي القربى، وإفلاس الدعوى ألجأه إلى الخطاب الإنشائي الوعظي الذي لاينطوي على أي حقيقة ولا يتسم بلغة حقوقية. وإذ يكون من واجبنا نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً، كان الأجدى رده عن ظلمه بالتوعية لا بالمواجهة، فالمجاراة مضيعة للحق، وبخاصة ان أمام صحافتنا وكتّابنا قضايا محلية وعربية وإسلامية وعالمية هم أحوج إلى الجهد والوقت والرزانة لمغالبتها.

وفي سياق التدافع، أود الإشارة إلى أنه ليس شرطاً أن يكون المتنازعون معنا أعداء للقضية العربية بالتواطؤ والإصرار، وإن كانوا ضدها بالمآل، بحيث لا يواجهون، ولايدانون، ولايتهمون إلا بقدر موقفهم الخفي أو المعلن منها.

وليس من الحصافة أن نحيل كل خصوماتنا مع الآخر إلى القضية الفلسطينية، ذلك أنها جزء من مهماتنا واهتماماتنا، وإن كانت في الصدارة، ولايعنينا أن يكون المتصدي لنا عبر الصحافة أو القنوات عميلاً للموساد، أو لا يكون، المهم أنه أجير جنَّد كل إمكانياته للإساءة إلينا، والتقليل من شأننا، والتشكيك في موقفنا من القضية، ولسنا بحاجة إلى شرعنة التصدي لخصومنا بالبحث عن مصادر تمويلهم، والأفضل من كل ذلك إبلاغ فعلنا بالوثائق والأرقام، وعدم ربط حضورنا بعوارض الأحداث، فنحن أمة تمر بنا الأحداث، ولا نمر بها، وتعرف بنا، ولا نعرف بها، ثم إن صيانة أعراضنا، وحفظ حقوقنا، والذود عن حياضنا، وتحقيق وجودنا الكريم بكل متطلباته الحضارية بالطريقة التي نراها حق لنا وعلينا. ولنا وحدنا تحديد أسلوب حمايتها، والأهم من كل ذلك أننا الأولى بالأمن والمعروف، بحيث لانجود إلا بما فضل عن حاجتنا، وبما هو وفق طاقتنا، وليس لأحد تحميلنا مايريد، ولا أن يسائلنا عن تراكمات الأخطاء العربية، ولا ان يحاسبنا عن تخلف الأمة وعجزها عن رد التعديات، ولا أن يربط مصيرنا بمصيره، فالأخطاء مشتركة، والضعف عام والعنتريات والمثاليات فوتت علينا كل الفرص. وليس مهماً ان يكون أعداؤنا وخصومنا مع القضية أو ضدها. فالذي يكيد لنا عدو مبين، سواء أساء للقضية أم لم يسئ، وبعدائه لنا على موقفنا منها، يكون مسيئاً لها، شاء أم أبى. وعند احتدام المشاعر لابد أن نفرق بين من يختلف معنا في الإجراء، وممن يناقضنا في المواقف والمبادئ، فالاختلاف حول الاجراء حق مشروع وفرصة للمراجعة، إذا تمَّ دون تخوين أو تجريم أو اتهام بالنوايا والمقاصد وجاء ممن يماثلنا بالدعم والمؤازرة. ومن حق الأباعد والأقارب أن يقولوا رأيهم، ومن حق الفلسطينيين بالذات أن يبدوا وجهة نظرهم، فنحن لانملك حق الوصاية عليهم، ودورنا يقتصر على الدعم والمناصحة، وعلينا مطالبتهم بالتدخل متى جاءت الأذية من فلسطيني يدعي مناصرة القضية والمثير للارتياب أن ماتواجهه المملكة ليس نقداً مشروعاً، ولا اختلافاً حول الإجراءات، إنه تدخل سافر في أخص خصوصياتنا، ووصاية فوقية، واتهام جائر، يطعن في مصداقيتنا. والمجندون لقلب الحقائق نسوا أنهم تحت أضواء الإعلام العالمي، وتحت قنوات الاتصال، ومراكز المعلومات. ونسوا أن نيلهم ممن رفض الاعتراف والتطبيع والتبادل بكل أشكاله إلا بعد التزام العدو بالقرارات الشرعية يُعد ضرباً للقيم العربية، سواء امتلأ حقداً وضغينة علينا، أو امتلأت جيوبه ثمناً لهذا الافتراء. ومصلحتنا تقتضي ألا نقف عند حد الدفاع والتكذيب وتبادل الاتهامات ما دمنا نملك الوثائق الدامغة. والذين يتهمون خصومهم بالعمالة «للموساد» أو لغيره يقفون

عند حد الدفاع، والدفاع لايغني عن الحق شيئاً، ثم إنه لايعنينا أن يكون بعض خصومنا عميلاً لإسرائيل، أو لغيرها، إذ ليس غريباً ان يكون كذلك، متى علمنا أن شبكات التجسس والعمالة المتعددة المهمات ظاهرة لا مجال للاختلاف حولها، وكشف العملاء ليس قصراً على اعترافهم، أو ضبطهم متلبسين بالخيانة، إن الاستمرار في مواجهة الحق، والعمل على تخذيل الناصحين المخلصين، مؤشر قوي، ومشروع اتهام صريح. والذين يجندون أنفسهم لمواجهتنا في كل موقف، ويغضون الطرف عمن حولهم، يحملون الريبة، وتحوم حولهم الشكوك. وإشكاليتنا معهم ليست قصراً على الاختلاف في وجهات النظر، ولا في تعددية الرؤى والتصورات، الإشكالية في ضلوعهم في بيع الإمكانيات لتوفير النفقات الباذخة، فالحياة في بلاد الضباب، والسكن في القصور الفارهة، يتطلبان التزامات كثيرة، ومن ثم تكون الأفضلية لمن يدفع أكثر. والصحفي النزيه لايتجاوز دخله الكفاف. وحين لا يقبل المتولون يوم الزحف البقاء بين أهلهم وعشيرتهم فإنهم بحاجة إلى نزيف بلاغي لدعم متطلباتهم «الارستقراطية»، وليس مهماً عندنا أن يكون دافع الثمن «شارون» الصهيوني أو «سعيد» العربي المسلم، متى كان العائد لصالح أعداء القضية، ولكي نرد الكيد إلى النحور، ونميت الأعداء في غيظهم، لم ينالوا شيئاً، يكون الأولى بنا المضي في طريقنا القاصد، نطرح المبادرات، ونثني الأصدقاء عن دعم العدو، ونمد الصامدين بالغذاء والدواء، نرمم الجسور، ولاننسفها، ونتقي ولا نكابر، ونعرف قدر أنفسنا، وحجم إمكانياتنا، ونقول ما نفعل، نقاطع العدو، ونصيخ للناصحين، ونقبل الاختلاف في الطرائق لا في المقاصد، ولا نتردد في مطاردة الممولين للمسيئين لقضايا الأمة، نمسك الخيط من لسان العميل إلى أصابع المحرك، لنعري مسرح العرائس، ونفضح غباء اللاعبين الذين يكشفون أوراقهم بطرحهم إياها جملة عند كل إشارة من دافع الثمن. واللاعبون الأذكياء من يمتد معهم زمن اللعب، دون تعرية فاضحة أمام شرائح المتلقين الذين لا يعرف أكثرهم تمويه اللاعبين، وليس من الأفضل تصيد اللاعبين، إذ ان تجاوز طنين البعوض إلى المستنقعات أفضل من مطاردتها، فتجفيف المنابع يوفر أشياء كثيرة، والكتبة المرتزقة، والقنوات المجندة عوارض لمرض يختفي بفيروساته وجراثيمه، والطبيب الحاذق لا تلهيه الأعراض عن جذور المرض، وحين تحتدم مشاعرنا، وتشغلنا الأعراض، تكون الأصابع الخفية قد حققت أكثر من مكتسب، إذ تأكد لها تأثير فعلها بما حصل من استفزاز لنا، واستنزاف لطاقاتنا.

وبهذه الغفلة تتمكن الحواضن من الاستمرار في تفريخ المرتزقة، بما يملكونه من طنين ولسع، وأذناب الأفاعي لاتغني عن أنيابها. وبفواتها يفوتنا شيء كثير، فلعلنا نستبد، ونلاحق المضلين إلى جحورهم، لكي نعريهم بكل تشوهاتهم. ثم إنه لا بد من كسب المناعة ورباطة الجأش، فالمشاهد العربية مقبلة على مزيد من القنوات الموجهة، لغسيل الأدمغة، وتضليل الرأي العام، يقدم المتحرفون للحرب الكلامية أمريكا وإسرائيل، والحرب الكلامية سيكون لها شأن خطير. والحديث عن ظاهرة «المناوئين» يمتد بنا إلى ظاهرة أخرى، تبدت من جديد، هي ظاهرة الدعاوى الحقوقية، ومحاولة الانتصار للجناة من مكاتب المحاماة. وقد سمعنا بأكثر من دعوى ضد صحف وصحفيين. وليس في الأمر من بأس، فطلب مكاتب المحاماة هنا أو هناك مقاضاة الصحافة وكتّابها تحقيق «لمحاكم الآداب» التي طولب بها من قبل، ولكن لابد من النظر في الحجج قبل العمل على اقتياد الخصوم إلى أقرب محكمة.

واحسب أنه من حق الأمة كلها ان تنفر جميعاً لمحاكمة «المدعي» عما لقيته من اتهامات متواصلة. ولأن الأقربين أولى بالمعروف فإن على «المحامي» ان يقلب المعادلة، بحيث يقتاد «موكله» إلى المحاكمة، فإذا أنصفها، وكف الأذى عنها، كان من

حقه أن يقاضي كاتباً أو أكثر فيما أشاعه عن «موكله». والمحاماة المتوفرة على القضايا والوثائق لا تعتمد في مرافعتها على الرقائق، والسعي لتصفية الخلافات بالدعوة إلى التنازلات، والمحامي المحترم للمهنة لايبادر إلى التزكية.

ومرافعة المحامي داحضة لأنه ألح في تبرئة الموكل وتزكيته، وإدانة الخصم. وكنت أود من صحافتنا وكتَّابنا قراءة خطابي المحامي، ومساءلته عن وثائق البراءة للموكل، ووثائق الإدانة للخصم. ومثل هذا الإجراء سيسقط الوكيل والموكل. فالموكل وظف كل إمكانياته لتشويه سمعة المملكة: حكومة وشعباً، متصوراً أننا بقرة حلوب تحاسب على التقصير ولا تشكر على العطاء وعليها أن تقطع كل لسان بالدرهم والدولار والمحامي وظف كل إمكانياته لحماية الجاني وتبرئته، وكان عليه ابتداء مساءلة موكله عما قال بحق خصمه، وعما لديه من وثائق، وهل كان موقفه من الكافة واحداً، ومكياله واحداً، وحماسه واحداً؟ وساعتها ستنكشف اللعبة واللاعب، وتتهافت القلاع الورقية.

أيها النخبويون إنكم لمسروقون .. ! (١)

كلما جمعت اللقاءات والمهرجانات المفكرين، والأدباء، والأكاديميين، في أبهاء الفنادق، أو في «ردهات» المؤسسات، بعد جد العمل، وضوابط المجاملات، وحدود المسؤوليات، اندلقت فيما بينهم أقتاب المشاكل، وشكا بعضهم إلى بعض ما يتعرضون له من نهب متعمد لجهودهم الفكرية، ونزف مسرف لمعارفهم، وما من أحد منهم إلا يشكو تعديات المؤسسات العلمية والإعلامية على حقوقه وأثمان جهده، فكل شيء عند غيرهم، ومن غيرهم بثمن ناجز، لا يتبعه منٌّ ولا أذى، أما أشياؤهم فهي مبذولة كما الأوقاف المعرّفة: بـ«تحبيس الأصل وتسبيل المنفعة». ولو أن أحدهم سأل أبخس الأثمان لجهده، لقيل عنه: وصولي مرتزق. وإذا كانت أقدام الرياضيين توزن بالذهب، فلا أقل من أن توزن أدمغة المفكرين بالفضة، وذلك أضعف الإيمان.

ولما لم أكن متعرضاً لكل هذا النزيف المجاني، الذي تشكو منه الأغلبية، ولا ممن يقتات من قلمه، وتلك من النعم التي يمن الله بها على من يشاء من عباده، وليس عيباً أن يكون القوت من شباة القلم، ولكن من النعمة ألا يكون، فإن من واجبي والحالة تلك أن أعرض على المستنزفين لطاقات الكفاءات الفكرية ما يعانيه البعض منهم من مصادرات لوقتهم وجهدهم، وأخص منهم المقتاتين لا المتكسبين، إذ يُدْعَوْن للحضور أو للمحاضرات، وكأن الداعي منعم متفضل، يدل بدعوته، فيأتون رجالاً وركباناً بُجْر الحقائب، يسعون بجهودهم التي ترمدت عيونهم في سبيل التنقيب عنها في بطون الكتب، وحفيت أقلامهم في مطاردة شوارد الأفكار ونوادر المعارف التي عقلوها، وأنهكت أدمغتهم من أجل الظفر بأحدث ما توصلت إليه الإنسانية وما شُغلت به من قضايا وظواهر في مختلف المجالات، فإذا عرضوا أنفسهم بالقول، وعرَّضوها للمساءلة، عادوا خفافاً عيابهم، ونصيبهم في الأعمال الأكاديمية من إشراف ومناقشة وتحكيم دون ما يبذلون من جهد ووقت. يُستكتبون في الأفراح والأتراح وسائر المناسبات، والويل لهم إن لم يرتجلوا آراءهم عبر الهاتف أو يبعثوا بها عبر الناسوخ. وتُستطلع آراؤهم فيما يريدون وما لا يريدون، وفيما يفقهون، وما لا يفقهون. ويستدرجون إلى حوارات غير متكافئة، تتحول إلى مناكفات مخلة بالأخلاق، وقد يُصعدها الخليون إلى معارك مسفة، تلجئهم إلى طي الكشح، والنجاة بما بقي من سمعتهم. ودعك من أعضاء هيئة التدريس في الجامعات الذين تتخطفهم عضويات المجالس، وتنهكهم البحوث والرسائل: إشرافاً ومناقشة وتحكيماً، وترهقهم القاعات: تدريساً وامتحاناً. وتأتي الطامة الكبرى على هؤلاء وأولئك حين يقترفون خطيئة التأليف، حتى إذا لم يجدوا ناشراً، غامروا بطباعتها على حسابهم، ثم تكون عليهم «ندامة كسعية»، وقد تضطر أحدهم الظروف إلى طرق أبواب المشترين تشجيعاً، فلا يجد من يأسوه، أو يواسيه، أو يتوجع. وحين يبحث عن مسوّق، يخلصه من ركامها المؤذي له، والمضايق لأهله، يطلب منه المسوِّق دفع مبلغ من المال لدعم عملية التسويق، إلى جانب الكتب المسوَّقة، وساعتها لا يجد بداً من أن يُتْبع نفقة الطبع دعماً للتسويق، وقد تعاد إليه الكتب بعد أمة، ولا يعاد معها دعم التسويق، بحجة إنفاقها للنقل أو للأرضية، ويعلَّق المبيعُ إلى التصفية التي لن تتم، فيكون كمن عاد «بخفي حنين». وتزيد المرارة حين يرى المخفين من المعلومات والأفكار، وقد طارت بأعمالهم خفتها، فحصدوا المال والشهرة.

---

(١) تاريخ المقال: ٢٧/ ٨/ ٢٠٠٢

والصحف التي تستنزف جهد من أدركتهم «حرفة الأدب»، لا تنظر إلى أكثرهم ليلة القبض على الأرباح، واقتسام المغانم، وقد يكون المسكين ممن حضر القسمة، ومن حضرها من أولي القربى واليتامى والمساكين فواجب المقتسمين أن يرزقوهم منها، وإن لم يفعلوا فإن قسمتهم ضيزى، وليس الاقتسام إرثاً فرضه الله، لنقبل بنسخ الارزاق بحديث: «**لا وصية لوارث**».

و «حرفة الأدب» آتية من دسِّ الأديب نفسه بين كتب ضيَّق ثمنُها قوتَ معوليه، وضيقت كثرتها عليهم سكنهم، فيما انطلق غيره، كما الطير، تغدو خماصاً وتعود بطاناً. لقد كنا عند فورة الشباب، وطوفان المثاليات، والتهالك على الأضواء، وفي زمن صحافة الأفراد المتطوعين بجهدهم ومالهم ووقتهم، نتندر، ونسخر من طلاب العوض على ما يكتبون، وحين قيل عن أحد المفكرين بأنه طلب التعويض عن مقابلة أجريت معه، ثارت الأقلام المثالية، تنال منه، ومن تهالكه على المال، مستنكرة متاجرته بفكره، حتى لقد كنا نستعيذ بالله من هذا الطمع، الذي بلغه هذا الإنسان الجشع، وكأن ثمن الفكر محرم كما «حلوان الكاهن» أو «ثمن الكلب». وفاتتنا أشياء ما كنا قد مررنا بها، كانت رؤيتنا منحصرة في أن المفكر ك«الكلأ» و «الماء» و «النار» الناس فيها شركاء، وأن على المفكر ألا يمنع شيئاً من معلوماته، محيلين التمنع إلى كتمان العلم، وللجام من النار، حتى إذا وقعنا تحت طائلة المهمات الأكاديمية والملاحقات الصحفية، وأمطرتنا وسائل الإعلام بالأسئلة المتعاقبة، والاستكتاب المتواصل، لتسد خلتها، وتسوِّد صفحاتها من جهدنا المكرور بدون فائدة، وبدون ثمن، وبدون اقتصاد، تبين لنا وجه الصواب. وفي نقدنا الموجع لهذا المفكر المسكين فاتنا ما يترتب على الملاحقة من إضاعة مضاعفة، تطال الحسي والمعنوي، من مال وسمعة. وأنهر الصحف كما «نار المجوس»، لا تعف ساعة عن جهد المحتطبين، وكيف تعف الصحف والقنوات؟ وهي تنافس على عدد الصفحات، وتنوع المعلومات وطرائق الإثارة. وتبين لنا ألا علاقة بين «التمنع» و «الكتمان». ومما يضاعف عناء الأكاديمي تدفق آلاف الطلاب على الجامعات، وتسرُّبُ مئات الأساتذة خارج أروقتها.

ولقد أشرت إلى هذا الاستنزاف من قبل، وناشدت تخفيف القضاء، ولم أتطلع إلى رده، ولما تكن الأوضاع إذ ذاك كما هي الآن على المستويين الجامعي والإعلامي. إذ في الراهن تعددت منافذ الإعلام، واستفحلت المنافسة، واستشاط النزف المجاني، أما عن التعليم الجامعي فإن علينا استنطاق الأرقام للمقارنة بين الأعضاء والطلاب. وحين أعيد القول، وأبديه، فإنما أريد كفالة حق الفكر المهدر، ليكون الحق دون مستوى قدم الرياضي، ولسان الممثل، وأنامل العازف، وبخاصة بعدما تحولت الصحافة إلى شركات تجارية، وتحولت وسائل الإعلام كافة إلى مصدر كسب مادي مشروع، وأفسح المجال للجامعات الأهلية. فالصحفيون المتعاونون والمحترفون والمبتدئون، يتأبطون أجهزة التسجيل، وأوراق الكتابة، وكمرات التصوير، ولاقطات الصوت، يطاردون من يعرفون ومن لا يعرفون، ومن ينطوي على فائدة، ومن هو خالي الوفاض. ومما فاقم الأمور، وضاعف الأعباء ظهور الناسوخ «الفاكس»، ففي كل يوم يفاجأ الأديب أو المفكر بصفحة أو أكثر من الأسئلة في الأدب، أو الدين، أو السياسة، أو سائر المناسبات الاجتماعية، تقتحم عليه خلوته، وتعكر صفوه، وقد يسبق الناسوخ مكالمة هاتفية، يسمع فيها الثناء والرجاء والاستعجال. وأذكر أن الكاتب المثير الأستاذ «داود الشريان» قال: إن الأدباء والكتاب مثلهم مع الإعلام مثل «الطقاقات» لا يذكرون إلا في المآتم، يدعون إلى إحيائها: ترحاً أو فرحاً، وتصور البعض أن ذكرهن مذمَّة، وفات المتعضين أنهن بانتظار المناسبات، ليأتينها سعياً بثمن، فيما ينتظرها الأديب والمفكر فيأتيانها مجاملة.

وفوق هذا فإن اقتراب النخب من وسائل الإعلام - مع ضرورته تعب يرهق الأعصاب، ويحول دون استكمال متطلبات التحصيل، ذلك أن المفكر والأديب والمبدع كالنحلة، لا بد أن يطوفوا ويمتصوا نسغ الكتب، وإن لم يفعلوا ضوت أفكارهم، كما تضوي الأجسام الجائعة. والمفكر المسكين الذي أكلنا لحمه وشحمه، ووصفناه بأقذع الأوصاف، مر بهذا المشوار الشاق الذي نقطعه جيئة وذهاباً، ونحن ما زلنا صغاراً إلى جانبه، وهو حين وضع هذا الكابح، لم يكن همه في الدرجة الأولى كم يستلم؟ ولكنه أراد أن يدفع عن نفسه وطأة الملاحقة، فلم تسعفه الحيلة بحل مناسب، فكانت وسيلته لصرف الصحفي مظنة الاتهام. ولو أنه كان سمحاً، لتحولت حياته كلها إلى تحبير متواصل، مجيباً أو مستجيباً لما يبلغه عبر الهاتف أو «الفاكس» أو التسجيل أو الرسائل. وويل له ولنا إذا وعدنا وأخلفنا، أو سوَّفنا، أو اعتذرنا، أو حتى عدلنا في الأسئلة، أو ألغينا شيئاً منها، أو كانت إجاباتنا قليلة لا تغطي المساحة المكلف بتغطيتها ذلك المحرر، والمتروكة له ليملأها، بما يملكه من شطارة وعلاقات طيبة، مع الذين يقولون، ويكررون القول، ثم لا يقولون شيئاً.

ولما كان الأديب مطالباً بمتابعة ما يحدث في المشاهد، وتقصّي التليد والطريف في الفكر والأدب والسياسة والثقافة، فإن ملاحقتها تتطلب مزيداً من الجهد والوقت والمال، وهو في ظل هذه المهمات لا يقدر على تلبية كل الدعوات، ولا الإجابة على كل الاستفتاءات، ومن الضروري أن ينتج عملاً باقياً، يرفع من قيمته، ويحافظ على مستواه، وبعض هذه الحوارات المكررة والاستكتاب المتواصل مضيعة لوقت كل الأطراف: السائل والمجيب والقارئ. والحوارات والندوات والاستطلاعات تأتي وليدة حاجة خاصة بالصفحة لا بالصحيفة، وهي قد تعد بشكل رديء، لأنها في الغالب لا تمس اهتمامات القارئ، أو لا تقع ضمن تخصص المشارك ورغبته، ومع هذا فالنخبوي ملزم أدبياً أن يجيب، وأن يبعث بإجابته، وليس من حقه الاحتفاظ بأقل الحقوق. والبارعون من الصحفيين يتحرفون لمواجهة الأديب بأسئلة «بوليسية» أو قل «إبليسية»، بحيث يجرون أقداماً بعيدة ويوقظون فتناً نائمة، حتى إذا اشتبك الأطراف بالمحابر والأقلام، رقصوا على أشلاء سمعتهم، وفي التنابذ والتنابز ملء للفراغ، وتسويق للعمل، وذلك أقصى ما يحلم به البعض.

وإذا صرفنا النظر عما يستحقه من مكافأة مادية، بوصف الجمع في انتظار أثمان الجهد الشريف والمضاربة النقية. وجب أن أشير إلى حقوق أخرى غير مستوفاة، كان بودي أن تراعى من قبل كل الأطراف. فالوجوه حين تتكرر تمل، كما أنه ليس من اللائق أن يُسأل المثقف عن كل شيء، حتى في الأمور التي لا يعرفها، فتارة يسأل عن قضايا المجتمع، وأخرى يحشر في قضايا: الدين والسياسة والفكر والاقتصاد، وثالثة يتداول مع غيره أموراً ليست في العير ولا في النفير، يمدح من لا يفعل، ويزكي من لا يعرف، ويحمد على المكروه، ويحشر مع غير جنسه، المهم أن يكون رقم هاتفه موجوداً عند المحررين والمراسلين وأصحاب الخبطات الصحفية، كما يقول قاموس الصحافة، وهو حين يتحدث راغباً أو راهباً، يختلف أداؤه، وتتباين تصوراته، لأنه يقول ما قالت «حذام».

هذا المسكين المستهلك إلى حد الإنهاك له حق، ليس شرطاً أن يكون مادياً، إنه مشرد بلا خطيئة، وملاحق بلا ذنب، ومستَغَل بلا ثمن، ولا أقل من مراعاة حقه الأدبي على الأقل، ومن حقه الأدبي ألا يسأل إلا في مجال اختصاصه، وفي محيط اهتمامه، وألا يكثر طرحه حتى لا يمل. وأن ينشر رأيه كاملاً، وبدون ابتسار أو استفزاز. وأن يوضع في المكان المناسب لمستواه المعرفي والوظيفي ومكانته الاجتماعية، فقد يواجه المسكين بوضع إجابته في زاوية منطفئة، وبحرف دقيق لا يُقرأ، وبدون أي إشادة، وقد يحشر مع

العامة والسوقة الذين سئلوا عن انطباعهم عن شيء ما، وقد يأتي في ذيل إجابات أخرى، أعطيت من الأهمية فوق ما تستحق، وإذا لام أو عاتب، قيل له: الأمور محكومة بظروف الطبع والإخراج، وليس للتقديم أو التأخير أي اعتبار، ومع الرد الجاف، والتصرف الجارح، يفاجأ بعد ساعة أو أكثر ب«الفاكس» ينقل إليه رغبة أخرى للمشاركة، أو مهاتفة من طرف لم يشهد عذاباته. ومما هو مثير ومسيء اتصال بعض المراسلين هاتفياً، ومحادثته في أمور شتى، وطرح قضايا متعددة، وجر قدمه للحديث عن قضايا أو أشخاص لا يريد أن تكون للنشر، فيفاجأ بأن هذا المحاور يسجل حديثه الأخوي، ثم يصدم بنشره مستهلاً ب«مانشتات» مثيرة، وإذا أنكر أو استنكر، قيل له: لدينا الوثائق الدامغة التي تدينك، لقد قلت ما نشر.

نعم، قال هذا بصفته حديثاً أخوياً، ولم يقله كي ينشر على الملأ، وكل إنسان له حديث مجالس، لا يرى إشاعتها، ومن أدبيات المحاورة أن يشعره المحاور بمقاصده، وأنه سوف ينشر ما دار بينهما.

وكل إنسان سوي له حديث مجالس، فيها الهزل، وفيها الجد، وفيها ما لا يريد إشاعته بين الناس، فما تقوله في مجالسك الخاصة، وعند زملائك وخاصتك، لا يمكن أن ترضى به حديثاً صحفياً ينشر على الملأ. والرسول ﷺ قال عن قادم إليه: «**بئس رجل العشيرة هو**»، ثم لقيه وأكرمه، وعلل ذلك حين سئل باتقاء الشر. وكل صحفي يلتقط مثل هذه الأحاديث، ثم ينشرها، يقع في دائرة النمامين الذين يفسدون في ساعة ما يفسده الساحر في سنة، والأسوأ من هذا أن يذهب الصحفي إلى الطرف الآخر، ويعرض عليه ما سمعه، ليأخذ رداً قاسياً، وقد يكون الطرف الآخر مسناً له حق التقدير، أو مريضاً له حق الرأفة. ومثل هذه «القفشات» الصحفية، تسيء أكثر مما تحسن، والذين يجرُّون أقدام المفكرين والأدباء عن طريق الاحتيال تتساقط سمعتهم كما ورق الخريف، ويتواصى الناس بالبعد عنهم، والأنكى حين يكونون متمرسين، أما إذا كانوا حديثي السن والتجربة، فإنهم لا يقدِّرون المواقف قدرها، وقد يرون ذلك من البراعة الصحفية، ومن ثم لا يهمهم ما يترتب على ذلك من قطيعة أو شحناء، وقد لا يأبهون بما يترتب على هذا الفعل من إساءات، ومثل هؤلاء لا ينزلون الناس من منازلهم.

ومما لا يختلف فيه اثنان أن طرق أبواب الأدباء والمفكرين، وإجراء الحوارات واللقاءات معهم تقدير لهم، واهتمام بآرائهم، وأنَّ صرف النظر عنهم، وعدم الاستعانة بهم في مثل هذه الأمور تهميش لهم.

ولكن يجب أن يكون هناك ضوابط، ولابد أن يكون هناك أخلاقيات، تدرأ عن الجميع المساءلة الأدبية، وتحفظ للنخب شيئاً من حقوقهم.

إن على المفكر والأديب ضريبة وطنية، يجب أن يقدمها راضية بها نفسه، سواء كان أستاذاً جامعياً أو مفكراً أو أديباً، ولا يمكن إشاعة الفائدة إلا عبر وسائل الإعلام، وإذا تمنع الأدباء والمفكرون والأكاديميون عن إشاعة الفائدة، جمدت الحياة، وصوح نبتها، ثم رعي الهشيم. النخبة مطالبة بخدمة المجتمع، وتوظيف خبراتها وامكانياتها لترشيد مساره، وتهذيب أخلاقه. هذه قضية مفروغ منها، ولكن من حق النخبة على هذا المجتمع أن تراعي حقوقهم المادية والأدبية، وألا يساء إليهم باستغلال يضيع معه الجه دوالوقت والسمعة، أو بتكرار يغثي القراء، أو بابتسار لا يسمن ولا يغني من جوع، أو بافتراء وتحريف يضع المسكين تحت طائلة المساءلة، وعلى النخب أن يفكروا، ويقدروا، قبل أن يُقْدموا أو يحجموا. تلك خواطر تراكمت مع الزمن، وسمعت بعضها من السنة المتأذين، وأصابني شيء من دخنها، وهي ظاهرة قائمة ما أقام عسيب، ولكن علينا أن نحدَّ من استشرائها، وعلى الكتبة المبتدئين أن يسترشدوا بمن سبقهم، فلا يبنوا مجدهم على سمعة

الآخرين، ولا يفرغوا لاستغلالهم. وسوف أوفي الموضوع حقه، حين أكتب عن «حكايتي مع الصحافة» في سلسلة الحكايات التي تشكل جزءاً من السيرة الذاتية.

على هامش الحادي عشر من سبتمبر

أمريكا الأمس .. وأمريكا اليوم .. والدفع بالتي هي أحسن .. ؟![1]

مثلما ان العالم العربي دخل مرحلة جديدة بعد نكسة ٦٧م، ولم تتغير شفرته، ولا أسلوب الدخول على مواقعه، فإن أمريكا دخلت مرحلة أجدّ، بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وتغيرت كل الطرق إليها. بل أكاد أجزم ان العالم بأسره ينقاد راغباً أو راهباً إلى حياة خائفة مخيفة، حياة طلسمية، يحتاج معها إلى تعامل مغاير، وستكون لهذه الحياة حساباتها العسيرة، وتصوراتها الأعسر، وطبعي توقع ما حصل، فكل دولة تشرعن لنفسها حق التدخل في شؤون الغير، تكون معرضة لمثل ما تعرضت له امريكا، وهذه الأحداث جعلتها في شغل غير فاكه، لرسم المسار وأخذ الحذار، وما من مشهد سياسي إلا هو في تحرف جاد، لتجاوز الظروف العصيبة، وتجهيز خطاب جديد، قد لا يكون الأفضل، ولكنه الحاصل الذي لا مناص منه، ولا ينكر حتمية التغيير الجذري إلا من ليست لديه القدرة على متابعة الاحداث الموجعة والذين يظنون امريكا كما هي بالأمس، يصدمهم تصرفها التحفظي الاحترازي التعسفي، ومن ثم فلن يتمكنوا من معايشتها بأساليبهم القديمة، ولن يكونوا على معرفة تامة بمتطلبات حاضرها المضطرب، وواجب المرتبطين معها بصداقات أو أحلاف أو مصالح قديمة أو حديثة ان يعيدوا النظر في صياغة خطابهم، ورسم أسلوب تعاملهم، وعلى الطلبة والمهاجرين والمستثمرين في امريكا تقبل شكلها وارتيابها واحتمال مضايقتها ومجازفتها، فلم تعد امريكا اليوم تثق بذاتها، فضلاً عن ان تثق بأصدقائها، فأمريكا اليوم غيرها بالأمس، وأحداث الحادي عشر من سبتمبر قلبت الموازين، وغيرت المفاهيم، وأعادت ترتيب الأصدقاء والأعداء، وتحديد مواصفات كل منها، والخطورة في الأمر ان تصرفها جاء اعتباطياً ومرتجلاً وفورياً، كما لو كانت دولة نامية، لقد نبذت وراء ظهرها مسلمات ومواضعات، وتحولت إلى دولة أفراد، وإدارة «بيروقراطية» معقدة، بعد أن كانت دولة مؤسسات، مشرعة الأبواب، مرنة الإجراءات، انسيابية الحركة، مغرية وجذابة، يألفها القريب، ويحن إليها البعيد.

وإذا كان العالم العربي لم يستفد من نكسة ٦٧م لوجود معوقات ذاتية وغيرية فإن أمريكا لم تستفد من أحداث سبتمبر على الرغم من غياب المعوقات.

بل أكاد أجزم انها باهتياجها وتخبطها أضافت نتائج عكسية، وخدمت خصومها الذين لم تعرفهم بعد، وهم أقرب اليها من حبل الوريد، لقد حققت لهم بهذا التخبط أكثر مما يتطلعون اليه، كان تطلعهم لعزلها، وضرب اقتصادها، والتشكيك بمصداقيتها، إعادة رسم خريطتها التوسعية، وقمع هيمنتها، والحد من غطرستها، والتطلع إلى تفكيكها كما «الدب الروسي»، وها هم الأصدقاء يتسللون من عباءتها، وها هي الأموال تتسرب من بنوكها، وها هي «اللاءات» والتساؤلات يطلقها أقرب الناس اليها، عبر الشكوى والتذمر من اعتراضها ورفضها وانسحابها من كثير من الأحلاف والاتفاقات، من مثل «اتفاق كيوتو» و«اتفاق ريو» و«حظر الصواريخ» و«حظر الألغام» و«المحكمة الجنائية» و«اختلاف المواقف والمكاييل» وها هي تقول ما لا تفعل، وتفعل ما لا تقول، تنال من الإسلام ثم تمجده، تصهل ثم تموء، وتُقدم ثم تحجم، وتمدح وتهجو في آن، وتعد وتتوعد، وها هي ظاهرة الصقور والحمائم، ولا شك ان الكارثة المذهلة التي تعرضت لها فوق التصور والاحتمال، وهي بهذه الفداحة تتطلب بصراً وبصيرة، وحكمة وأناة، وطول نفس، وتحرّياً وتخطيطاً، وتهدئة للشارع العام، ذلك انها لم تفاجأ بحرب معلنة، ولم تواجه جيوشاً جرارة

---

(١) تاريخ المقال: ١٠/ ٩/ ٢٠٠٢

زاحفة على أراضيها، بحيث تهب لايقاف الزحف، إنها تواجه عملا خفيا يدب في اوصالها، كما حمى «المتنبي»، وعليها ألا تخادع نفسها، فعمليات التفجير التي تعرضت لها، لا يقوم بها فرد، ولا يخطط لها مقاتلون يمتطون الجياد، ويسكنون الكهوف والمغارات، ويرتدون أسمال الثياب، إنه عمل محكم، وضربة معلم، لا يجوّد صنعه إلا المهرة المتمكنون من الآلة والمعرفة، إلا اذا كان حلقة في سلسلة اللعب، كما يشأ الراجمون بالغيب، والناس في قراءاتهم المتنافرة لهذا الحدث «أسطروا» الفعل والفاعلين والأبراج، فمن يا ترى جعل الأبراج جذاذاً، أهو كبير القوم أم مشرد يقال له «ابن لادن»؟ لقد فوت المتنبؤون على المتابعين فرصة التقصي ولملمة أطراف الحدث، والإمساك بالخيط من أوله، وإذ غمّ الأمر ونكس القوم على رؤسهم فليس من مصلحة امريكا ان تبادر في تسمية المتهمين، وخلق الأبطال من لا شيء، وليس من مصلحتها مباشرة الرد، وليس من مصلحتها ان تضيّق فسحة الاحتمالات، بحيث يكون الأمر عندها محصوراً في اللونين: «الأبيض» و«الأسود» والناس عندها إما: أعداء أو أصدقاء، ليس إلا. ودولة القطب الواحد يجب ان تمارس مهمات «كبير الأسرة»، بحيث لا تسبق يدها إلى المغانم، دون المغارم، والزعامة لها مواصفاتها ومتطلباتها، «وكبير القوم» لا يحمل الحقد ولا الضغينة ولا الأثرة، والظلم مرتعه وخيم.

لقد رجتها الأحداث رجا، وبست آراءها بسّاً وارتكبت حماقات بحجم التفجيرات التي تعرضت لها، وفوتت على نفسها سياسة الاحتواء بالحروب الوقائية والاستباقية وغسل العار ومواجهة محور الشر، وكان بإمكانها ان تمتص الانفعال، وان ترتد إلى الداخل، لتسأل نفسها: لماذا غزيت في عقر دارها، وهي حامية الحمى؟ ولماذا يكرهها الناس بهذا القدر، ويكيدون لها بهذا الحجم، ولماذا ينتحر المستاؤون منها بطوعهم واختيارهم في سبيل تعريض مصالحها للدمار وسمعتها للعار؟ وعليها قبل هذا وبعده ان تسأل نفسها عمن اسهمت في صناعتهم، وعلمتهم الكر والفر والرماية، وقضت منهم وبهم أوطاراً متعددة، أليس هذا كله بمباركتها ودعمها؟ لقد تنكرت، وأنكرت، وأحالت الخطيئة على المتأذين من الإرهاب، وعلى المطالبين بتخليها عن الارهابيين يوم كانت تأوي إلى جبل يعصمها من الماء، وحين ادركها الغرق آمنت بخطرهم، ولو أنها قرأت الرسائل في زمن الرخاء، وفكت الشفرات واستبانت الرشد قبل ضحى الغد، لتوقت الضربة القاضية والعار الأبدي، ان الذين حاربوا الاتحاد السوفييتي من الأفغان أو من العرب هم من الضالعين معها، واللاعبين البارعين في تنفيذ لعبها، أو المتفقين معها في الأهداف والمصالح، المختلفين في المقاصد والنوايا، وكم من مجاهد قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، حقق لها من المصالح ما لم يحقق أيسره لمهمته، والسؤال التوبيخي الاستنكاري: لماذا جهلت هؤلاء وأولئك؟ ولماذا انكرتهم، وتنكرت للتعبئة الروحية والمادية التي زادت عن حاجتها، فارتدت عليها؟ ولماذا غيّرت أسماءهم؟ لقد كانوا بالأمس مجاهدين شرفاء، وهم اليوم ارهابيون سفاحون، ولماذا أحالت المواجهة إلى مناهج الدراسة في الدول الإسلامية وحصرته في الجنس العربي؟ وهي تعلم علم اليقين ان «يديها أو كتافوها نفخ» ولماذا فوتت على نفسها فرصة التفكيك السلمي للبنية الجهادية التي احكمت تركيبها، ولم تحسن تقويضها؟ تاركة المقاتلين في العراء، يأكل القوي منهم الضعيف، حتى إذا لم يجدوا ما يأكلونه امتدت أيديهم اليها، كما النار تأكل بعضها ان لم تجد ما تأكله، لقد كان بإمكانها بعد سقوط الاتحاد السوفييتي سد الفراغ بالدعم والمشورة، وزرع الثقة، وتحويل الأفغان من مجتمع حرب وعصابات وقبلية إلى مجتمع سلمي منتج، وتجفيف مستنقعات الفتن، وردم بؤر التوتر.

سؤال مشروع وحضاري وممكن، إذا أردنا قطع دابر الفتنة وإعادة الأمور إلى طبيعتها. إن حدثاً كهذا يتطلب استنفار علماء السياسة والنفس والاجتماع والدين والقانون لدراسة الواقع الذي خلفته «اللعب الكونية»، ووضع الحلول. غير انها استبدت بالأمر والنهي والإقدام والإحجام، وهمشت الشركاء، وتنكرت للأصدقاء، ومن ثم فوتت على نفسها مكاسب كثيرة، خسرت معه تعاطف العالم، ونسيت أو تناست ان سياسة «اللعب الكونية» لا يمكن أن تقف حيث يريد الصانع، لقد كانت وراء حركات ثورية، ومع تنظيمات اسلامية، وفي أتون حروب دامية: حدودية وطائفية وعرقية، تؤيد وتدعم، ولا تحسم، فكل حرب تُرِمُّها على فساد. صنعت أشياء كثيرة، وغيّرت خرائط متعددة، وأعادت تركيبات سكانية، ضربت الطوائف ببعضها، وأشعلت حروباً مجانية، وأمدت مقاومات متعددة، واعطت الضوء الأخضر لأصدقائها وحلفائها للدعم والتشكيل الذهني، تعضد وتخذل، وحين تحقق ما تريد، تحمل الغنائم، وتدع المغارم، تاركة مخلفات اللعب وشراسة اللاعبين وراء ظهرها، ظناً منها أن جميع اللاعبين واعين للأهداف، أو أنهم غير قادرين على اللحاق بها. لقد قاتل المقاتلون لوجه الحق، ولم يعرفوا من وراء ذلك، ولكن خروجها من اللعب بهذه الطريقة المكشوفة، ملأ القلوب حقداً وضغينة.

وأمريكا قبل أن تصحو من ذهول الصدمة، اشتغلت بالنتائج، ونظرت إلى حجم الأضرار الحسية والمعنوية، ولم تنظر إلى الأسباب. وحاولت أن تخلط الأوراق، لتشغل الناس بفعلها عن فعل خصومها، لقد فضلت غسل العار أولاً، ثم حرب الاستباق والوقائية ثانياً، ثم تشكيل محاور الشر ثالثاً، ولن تزيدها هذه الخطوات إلا ارتكاساً في حمأة الفتن، ولسنا بما نالها أو بما تفعل شامتين، ولكننا محذرون ناصحون، فنحن أصدقاء وحُلفاء، ومن مصلحتنا ألا نؤتى من قبلها، كما نود لهذا العالم أن يستقبل «ألفيته الثالثة» بالوفاق والسلام، فأوضاع العالم لا تتطلب المزيد من الفتن والحروب، وأمريكا بتصديها للإرهاب، وبتخطيها لمؤسسات هيئة الأمم المتحدة، تخلق إرهابا من نوع آخر، وتشرعن لردود فعل ادهى وأمرّ، ونصرها الحسي والمعنوي قد يتحقق لو ان الحرب نظامية، والأطراف يمارسون الدفاع عن أنفسهم بذات السلاح، وبذات التخطيط، وبذات المواجهة، أما وقد كانت المواجهة بين قوة مرعبة وأشباح مخيفين مختفين، فإن الدك سيكون للجبال الشاهقة، وبطون الأودية السحيقة، ومنابت الشجر، وكلما هدأت الراجمات والقاذفات نسل الأشباح يمسحون عن عيونهم غبار الأتربة المتصاعدة من المفازات المخيفة، يطلبون الموت كما تطلب أمريكا الحياة، وسيجدون من يبارك خطواتهم، ويسهل تنقلاتهم، فكل متضرر يقول: «عليّ وعلى أعدائي».

ومع أن الحدث الموجع الذي تعرضت له أمريكا ليست خسارته مادية وحسب، وإنما هو صدمة نفسية وخسارة معنوية، هزت المصداقية والثقة والقدرة معاً فإن المبادرة في المواجهة ليست من مكيدة الحرب الحاذقة، ودولة بحجم أمريكا وبإمكانياتها تتعرض لأسوء كارثة إرهابية، تطال مرفقين هامين كأهمية حدقة العين:

المرفق العسكري.

والمرفق الاقتصادي.

ليس مستبعداً أن يجن جنونها، إنها كما يقول أحد الساسة الغربيين: أسد جريح من الخير ألا تواجهه. والأشد نكاية، والأمر مذاقاً، أن الاطراف المتهمين والمطلوبين ما يزالون خارج السيطرة الأمريكية، إنهم أشباح يتراءون لها في الكهوف والمغارات. وكأنها معهم أعداء «ابن عم محمد» الذي يقول عنه الشاعر:

وعلى عدوك يا بن عم محمد

رصـــــدان ضـــوءُ الصـــبح والإظـــلامُ

فـــــإذا تنبـــــه رعتـــــه وإذا غفـــــا

ســــلّت عليـــه ســــيوفك الأحـــلامُ

فهي خائفة منهم في اليقظة وفي النوم، لأنهم يأتونها من حيث لا تحتسب، وعمليتا التفجير والاغتيال للرئيس الأفغاني قبل أيام رسائل مخيفة. وجر قدمها إلى افغانستان ليس ببعيد عن جر قدم الاتحاد السوفييتي الذي تداعى تحت ضربات التآمر والجهاد، وإذا كان «الروس» قد وقعوا في المصيدة نتيجة مغامرة غير مسبوقة في الزمن المعاش، فإن أمريكا تسلك ذات الطريق متعثرة بأشلاء من سبقها، وكان الأجدر بها أن تتمتع بالنتائج المذهلة التي حققها المجاهدون، لا أن تنزلق كالاتحاد السوفييتي، الذي يتربص بها الدوائر، وقد يصنع جهاداً إسلامياً ومقاومة وطنية تعيد إلى أمريكا الصاع صاعين. والقول بأنها وجدت المبرر لتحقيق تطلعات كانت تحلم بها، وهو الوجود العسكري في أفغانستان، ثم في العراق للخنق والعزل والسيطرة والاستغلال قول مجازف، ولا أحسب الفرضيات تحملها على مواجهة العالم بأسره، فالأفغان الذين دحروا الاتحاد السوفييتي سيجدون من يدعمهم لدحر أمريكا، والوجود العسكري الأمريكي في أي موقع لن يريح الأطراف الأخرى: عربياً وإسلامياً وعالمياً، وليس من مصلحة أمريكا التي تدعي حماية العدالة والمساواة والحرية والديموقراطية أن تركن إلى الحكومات متجاهلة الشعوب والعقائد والأعراف، ولا أن تفرض وجودها بالسلاح الفتاك، فالقوة أشبه بعصا المربي من الافضل ان يكون معلقا على الجدار، بحيث يراه الآخرون، ولا يكون كعصا الراعي الذي يهش به على غنمه، لأن ذلك يشعر الآخرين بأنهم قطيع مسلوب الإرادة، وكم هو الفرق بين «عصا المربي» و«عصا الراعي»، لقد أرادت امريكا بمباشرة التأديب ان تكون راعية قطعان، وهو ما لا يمكن قبوله، ولا احتماله، ولا تحقيقه، وسيكون الثمن باهظاً عليها، وعلى حلفائها، ومحرجاً لأصدقائها، ومخلاً بأمنها واستقرارها واقتصادها. فالحرب لا تستقيم معها الحياة السوية، وقديماً قيل: «وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم».

لقد واجهت الأمة العربية أحداث حزيران بألم ومرارة، وعاشت عقابيلها بحالة نفسية متردية، وكانت امريكا مهندسة الحرب، وصانعة النصر، وجانية الغنائم، لقد ارتمى العالم العربي في احضانها، وعاد اليها بحالة استسلامية، أدت إلى الاعتراف والتطبيع. وكان عليها وعلى الغرب كافة ان يحسنوا التصرف، وان يبعثوا الثقة، وان يتيحوا للمغلوب فرصة لصناعة إنسانه، وإحياء مواته، واستغلال طاقاته، لإنعاش البلاد، وتوفير فرص العمل والعيش الكريم، ومن ثم توفير الخامات وتهيئة الأسواق لصناعات الغرب وشركاته متعددة الجنسيات، فحالة الفقر والاضطراب تشكل عبئاً على المتسلط، وامريكا التي تمر بضربة موجعة، تصرفت مع احداثها وكأنها دولة نامية، فلم تقدّر ولم تفكر، وإنما نظرت إلى من حولها، ثم عبست، وبسرت، ثم اقبلت لتأخذ المقيم بالظاعن، والبرئ بالمتهم، ولا أشك أنها ستخسر الجولة، فالعالم لا يرضى الظلم، ولا يقبل الأثرة:

ولا يقــــيم علــــى ضــــيم يــــراد بــــه

إلا الأذلان عيــــرُ الحــــيّ والوتـــــدُ

والضعيف المعدم قد لا يجد قدرة على المواجهة، ولكنه سيعمل على تفويت الفرص، وإضاعة المكتسبات. لقد أمعن الغرب في التدخلات غير المشروعة في خصوصيات دول العالم الثالث، أخذ منها ولم يعطها، وحولها إلى مسرح لعب سياسية، تجرعت مرارتها،

وها هو شرقنا المشتعل يخرج من مكيدة إلى أخرى، ومن حرب إلى حرب، ومن مؤامرة إلى مؤامرة، و«لو ترك القطا لنام» وها هي دول الغرب التي لم يتدخل احد بشؤونها تنام ملء جفونها، إن اضطرابات العالم الثالث صنعتها الأصابع الخفية التي تبحث عن بؤر التوتر، لتبقي على مصالحها.

وأمريكا بفعلها عسكرياً وإعلامياً واقتصادياً تقترب كثيراً من اهتياجات العالم الثالث أمام أحداثه التي يصنعها بنفسه، ويتجرع مرارتها بسوء تصرفه، وعلينا إزاء المتغير الجذري في السياسة السلمية والحربية والاقتصادية والأمنية التي تمارسها الإدارة الامريكية ان نعيد النظر في رؤيتنا، وفي مواقفنا، وفي أسلوب تعاملنا، وان نعرف قدر أنفسنا، وان نتحرك وفق إمكاناتنا، نعايش أمريكا اليوم بكل صلفها واهتياجها وارتيابها وتشتت رؤاها بين ثالوثها الغريب: «الإعلام، والإدارة، والشعب» بطريقة مغايرة تماماً تفوت عليها الفرصة، وتهدئ من روعها وتمكنها من مراجعة الدروس القاسية. وإذا كان الإعلام الأمريكي الموجه بفعل التآمر الصهيوني قد هيج الشارع الامريكي، ومنح الإدارة الأمريكية مشروعية التصرف العسكري فإن المآلات ستكون لصالح المهدئين المبتعدين عن طريق الاهتياج المدمر، ومن الخير للأمة العربية والإسلامية الهدوء والسكينة حتى تعي أمريكا نفسها، وتعرف انها تلعب وحدها، وحتى يتأكد لها، ان هناك فرقاً واضحاً بين لعبة تصنعها، وينفذها غيرها، ولعبة تصنعها، وتمارسها بنفسها، وعلينا ان نرقب بحذر شديد صراع الصقور والحمائم، فالمواجهة باهظة التكاليف، لقد حانت لحظة الدفع بالتي هي أحسن، ليكون الذي بيننا وبينه عداوة كأنه ولي حميم، فلنكن من ذوي الحظوظ العظيمة، ولنكن من الصابرين المصابرين، والعاقبة للمتقين.

ظواهر النقد الحديث وجذورها في التراث .. ؟ (١) [1]

قبل عشر سنوات أو تزيد «نظم نادي جدة الثقافي» لقاء أدبياً لقراءة جديدة للتراث النقدي، وصلته بالمستجدات، أو إغنائه عنها، ولما لم يكن المشاركون متناغمين، فقد جئت نشزاً في بعض السياق والأنساق، وليس شرطاً ان أكون الأحق بالفضل منهم، ولكنني أروي ما حصل. وفوق ذلك فقد كنت ممن غامر في مقاربة مثيرة، بحيث التمست ملامح الموروث في الظواهر النقدية الحديثة، ومما يسوء الحداثيين والمستغربين استدعاء التراث أو ذكره بخير. ولما كانت «البنيوية» إذ ذاك «صاحبة الجلالة وسيدة العلم والفلسفة» كما يقول «زكريا ابراهيم»، فقد وقفت عندها «وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه»، ولم أتردد يومها في ممارسة المؤاخاة بين ظواهر النقد الحديث، وقضايا النقد العربي القديم، مثلما آخيت بين البنيوية ونظرية «النظم» عند الجرجاني. وكان ممن حضر اللقاء «عز الدين اسماعيل»، و«كمال أبوديب» و«جابر عصفور» و«مصلوح» و«فضل» و«مرتاض» و«برادة» وآخرون لا يقلون عن بعض من ذكرت حماساً في التهوين من شأن التراث واندفاعاً في الرفع من شأن الظواهر الحديثة، وفيما بين هؤلاء وأولئك دهماء، يقولون ما قالت «حذام» دون أن يفقهوا شيئاً من التراث، أو يعوا شيئاً من الجديد، وفي كل حقل من حقول الثقافة والأدب لا نعدم «المتأمركين» أو «المتمركسين» أو «المستغربين» ممن يشطُّون على أنفسهم وعلى قبيلهم، ويمسُّون ثوابتهم بسوء. والذين يقرؤون بعض المداخلات في ملف اللقاء الذي طبعه «نادي جدة الثقافي»، يلفت نظرهم حدة الاعتراض وصلف السخرية. ولأني أقول قولي وأمضي مستقبلاً مايجد من مناهج وآليات وأفكار غير عابئ بما يقال، ما لم يكن حقاً، فقد طويت كشحي متلقياً ركبان الطوارئ، وإن بخعتُ نفسي على آثار من لم يتأمل مآلات ما أقول. على أني لو أعدت قراءة ما كتبت بالأمس لاتخذت السبيل إلى إبراز قيمة التراث وأهمية استعادته لا العودة إليه، دون الحاجة إلى البحث عن العلائق والإرهاصات، ولربَعْتُ على نفسي، ولأوغلت برفق، فالحضارة الإسلامية محفوظة ما حفظ كتابها، والمناوئون لها أمواج على سفح جبل، وليس من شك ان احتدام الأجواء تحفز على الاعتداء بالمثل، ولكن الصدع بالحق والإعراض عن الجاهلين أجدى وأهدى. على أن تحرفي لن يجعلني معهم في ضرب السوائد والثوابت، وطبعي أن يكون في كل قول يقال اختلافُ كثير، وما تم إلا كتابُ الله المحفوظ ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ والتراجع والمراجعة يأتيان في غياب العجب بالرأي، وعند الوعي السياقي للتحولات السريعة في المشاهد الفكرية. و«التحول والثبات» قضية عويصة محفوفة بالمخاطر، خاضها عدد كبير من المفكرين، ووقعوا في المحاذير، فمسالكها شائكة، تجر أقلام المفكرين إلى مزلآت الأقدام ومُضلاّت الأفهام. ذلك ان حدود «الثابت والمتحول» ومشمولاتها ومفهوماتها تختلف من فئة لأخرى، فما هو ثابت عند «أدونيس» مثلاً يختلف عما هو ثابت عند «الجابري» أو «أركون» أو «فؤاد زكريا» ممن يلتقون معه في كثير من الأمور، وممن لايُحَدُّ تسامحهم، بحيث يصل في بعض الأحيان إلى مشارف تعدد طرق الخلاص، كما يراها «روجيه جارودي»، وهؤلاء مجتمعون يختلفون عما هو ثابت أو متحول عند من يحملون هم الفكر الإسلامي المستنير. وعوار «أدونيس» في كتابه المريب «الثابت والمتحول» بأجزائه الثلاثة ليس في الاختلاف المعتبر، فهو لا يرى الثبات فيما هو معلوم من الدين

---

(١) تاريخ المقال: ٣/ ٩/ ٢٠٠٢

بالضرورة، وليس لديه ضابط للثابت أو المتحول، ورؤيته عقلية مادية غربية، وإن شدت بأمراس كتان إلى باطنيته، التي جذرها بقوله:

قـال لـي تـاريخي الغـارس فـي (الـرفض) جــــــــــــــــــــــــــــــذوره
كلمـا غبـت عـن العـالم أدركـت حضـوره

وكل مشروع ثقافي لـه موقفه من «الثبات والتحول»، واختلافي مع هذه الفئات قد يكون في بعضه اختلافاً في المفهوم، أو في المقاصد، أو في الإجراء، وبين الاختلافات أمور كثيرة. واختلاف المفاهيم عرَّض كثيراً من المفكرين إلى تهم موجعة، ليسوا من أهلها. ولو استعرضنا تاريخ «الماسونية» و«العلمانية» و«الوجودية» و«الحداثة» لوجدناه يفيض بالضحايا، الذين وقعوا في متاهات المفاهيم وتباينها من مفكر لآخر، والمصطرخون في أتونها لايتداعون لكلمة سواء، وإنما يتراجمون بالاتهامات المصفية للسمعة. ولقد كانت لي إلمامات متفاوتة حول تراتبية التحولات، وحين استعيد هذا الموضوع فإنما لأتناول من خلاله قضية واحدة، ربما كانت جزئية في سياق البحث الذي فرغت منه، وتركته خلف ظهري، بسبب تكاثر المستجدات وتدفق المعلومات عبر كل الوسائط. ولربما كانت ندوة «قراءة النص» التي نفذت «بنادي جدة الثقافي»، ولم تطلب مني المشاركة، ولم أدع للحضور سبباً في تذكر ما مضى، ولست عاتباً، ولا مؤاخذاً على ذلك، ولا قائلاً: - «وإذا يحاس الحيس يدعى جندب» لكون الأمر طبعياً. فالمدعوون سدوا الخلال، وهم حقيقون بالدعوة، كما أنني لست مهمشاً ولا خلياً فأستشرف، ومع ذلك فلو دعيت لاستجبت حباً في الاستزادة ورغبة في لقاء الأحبة. ولما كان عنوان المنتدى عائماً، لايلوي على هدف واضح، فقد شكل ثنية أخلاها الرماة. فـ«قراءة النص» لفظ عائم، لا ضابط له، وليست له غاية محددة، والعناوين سواء كانت على أغلفة الكتب، أو على صدور المقالات، أو كانت مسميات للمؤتمرات أو الندوات بمثابة سؤال محدد، وحين تعوَّم الأسئلة، يعوَّم معها الأداء، بحيث لا يملك خصوصية، ولا يحقق هدفاً، إلا إذا كان المعنى دُوْلةٌ بين المنتدين، أو كان في بطن المستفيدين من هذه التظاهرة الحميدة في بعض أحوالها. ف «القراءة» ذات مستويات وطرائق وآليات ومناهج ومقاصد، ولست أعرف أي المستويات القرائية قصدها المنتدون. ويقال عن «النص» مثل ذلك، فأي نص تتجه إليه القراءة؟ والمعروف أن من شرط العنوان أن يكون جامعاً مانعاً، شأنه شأن المصطلح، ومثل هذا الإطلاق، لا يجمع ولا يمنع، ولعل المنتدين يريدون مجرد اللقاء، فحاولوا التجديد في العناوين. و«النص» مصطلح مراوغ، ومغرٍ، في كل أحواله الإفرادية أو الإضافية أو الوصفية أو التركيبية، وله مستوياته بين الغياب والانغلاق والانفتاح، والمتهافتون عليه قد يجهلون الكثير من خلفياته ومقاصده، ولربما أعود إليه لأجلّي تصوره عند كل مذهب، منذ الرؤية الإغريقية واللاتينية حتى العربية قديماً والغربية حديثاً وعن تصوره في كل فلسفة أو نظرية معرفية. وعلى أية حال فقد خلَّفت لنا تلك الندوة ملفاً تنوء بحمله العصبة أولو القوة، وإن شكل أشتاتاً لم يؤلف المؤتمر ولا ملفه بين هموم المؤتمرين ومعارفهم وما يعتلج في صدورهم، ومايزال بانتظار قراءة على القراءة، أو مايسمى ب «نقد النقد» لاستجلاء نوع القراءة ومنطويات المقروء، وأهداف القراءة، ومستويات البحوث، التي أجزم أن بعضها لم يستحضر متطلبات الندوة، ومن ثم اكتفى البعض من المشاركين بتلخيص همومه ومواقفه من الأشياء أو قام باختصار بحوث أو كتب سلفت. والوقوف على النتائج التي توصل إليها القارئون وإنصافهم يحتاج إلى تجاوز القراءة الاستعراضية التي تعاملت من خلالها مع الملف، ولم أجد الجهد والوقت لمبارحتها إلى قراءات معمقة تبحث عما خفي، وعما سُكت عنه، والبحوث وإن ند بعضها عن

القضية المرتبطة بالنص وبالقراءة، فهي قد تناولت قضايا وظواهر نقدية، ليست بأقل أهمية مما تُرك. ولما كان من ألصق الأشياء ب «القراءة» وب «النص» ظاهرة تراثية جَلَتْ عن طلولها سيول التذكر بعد اشتغال النقد الحديث ب «لغة النص» الذي حركته تعالقات اللغوي بالنقدي، ودخول مصطلحات نقدية ولغوية متميزة ومهيمنة، ك«البنيوية» و«التحويلية» و«التفكيكية» وسائر المصطلحات المترادفة أو المتباينة ك«النصوصية» و«الألسنية» و«الأسلوبية» و«التقويضية» و«التشريحية» مما يدور في فلك الأسلوبية واللسانية من مترادفات فرضتها فوضوية الترجمة، فقد كان لزاماً استدعاؤها. ومصطلح «النص» كرس وجوده بعد انحسار سائر الرؤى النقدية وانحصارها في اللغة الموضوعية واللغة الشارحة. ولأن المتعالقين مع الظواهر والقضايا النقدية الغربية لايستبدون، ولأن النقاد العرب المعاصرين يجيلون نظرهم في المفاهيم الغربية لمصطلحات تضمنها التراث وأوسعها درساً، فقد نسوا «مفهوم النص» في تراثهم، قانعين بما أفاء الغرب به من مفاهيم معقدة ومتعددة، تظهر من خلالها عمليات تبادلية في مراكز الاهتمام بين النص والذات المنتجة، وبين اللغة والدلالة، ذلك ان للنص في التراث شأناً لا يقل عن شأنه في الغرب، ولقد اكتنفه الأدباء والنقاد وعلماء الكلام والبلاغة والمناهج والآليات والمصطلحات. ولعل ألصق المصطلحات التراثية بنظرية النص وأهمها مصطلح «النظم» كما يراه عبد القاهر الجرجاني، لما ينطوي عليه من قيم فنية ودلالية ولغوية، وهو معطى «أيديولوجي» بالدرجة الأولى، والدخول به في معمعة المستجدات يحفظ للنقد العربي خصوصيته المستباحة وحضوره غير المستأمر. وليس هذا المصطلح بأقل استيعاباً من «البنيوية» كما يراها «سوسير» الذي ألصقت به الكلمة، وهو لم يقلها بالنص. و«الجرجاني» إمام من أئمة النقد الأسلوبي، وإن تحفظ المبهورون بالمستجد على مثل هذا الإطلاق، ومواهبه تتجلى في مجال ما أحدثه من جديد في عالم اللغويات. وقد رَبَطْتُ من قبل تبعاً لعدد من النقاد نظرية «سوسير» بنظرية «النظم» عند الجرجاني، وكنت بصدد الربط بين «التفكيكية» عند «جاك دريدا» والقراءة «التذوقية» عند «ابن عربي» و«النفَّري» وسائر المتصوفة، ذلك أن «المفككين» يقوضون النص بحثا عن المسكوت عنه، والمتصوفة يفترضون في النص ظاهراً وباطناً، ليس على شاكلة «معنى المعنى»، إلا أنني الآن أتردد كثيراً في ذلك الربط المطلق، معتبراً نظرية «عبد القاهر» نظرية مستقلة، ومثلها «التذوقية» إذ ليست لهما علاقة قوية بما جد من نظريات لاختلاف المرجعيات والمحفزات. ومع تحفظي فإنني أومئ إلى عدد من كبار النقاد الذين عرضوا لهذا التعالق، وعدوا «نظرية النظم» نظرية رائدة لكل ما جد من النظريات في «علم الأسلوب» فهذا «محمد مندور/ت١٩٦٤م» وهو رائد من رواد النقد الحديث، له وزنه وأثره في آن، يقول: «إن منهج عبد القاهر هو المنهج المعتبر اليوم في العالم الغربي» مع أن مندور شدته الاتجاهات النقدية الواقعية، وحملته على تبنيها وعاش التجربة النقدية الغربية بوعي تام. وكذلك يذهب بعض الدارسين إلى أن اللمسات البلاغية عند «ريتشاردز» وبخاصة في قضية «معنى المعنى» تلتقي مع إنجاز الجرجاني. يقول الدكتور «فتحي عامر»: «يحق لنا أن نقرر في زهو وخيلاء استمرارية هذه النظرية التي تنسب إلى عالم جرجان في فلسفتها وشرحها والتدليل عليها وتعليلها وتطبيقها»، «وريتشاردز» يلتقي مع «عبد القاهر» في كتابه «فلسفة البلاغة» وليس شرطاً ان يكون نقل منه بالنص، ولا أن يكون قد قرأ له، فالحوافر يقع بعضها على بعض، و«المثاقفة» وفق رؤية «المقارن الأمريكي» أسقطت الشرط الأوروبي، كما ان مصطلح «التناص» ترك لعوامل التأثر فسحاً واسعة. وحين نعتز بمبادرات التراث، فليس معنى هذا إلغاء الآتي أو الاستغناء عنه، وليس رغبة في التقليل من شأن المستجدات، والذين يقولون عنا مثل هذا يفترون الكذب، والذي يُدلُّون

بفهم النظريات، متصورين أن إدراك معناها القاموسي كافٍ للأخذ بها أو الحديث عنها كلابسي ثياب الزور، فالمسألة أعمق وأشمل، ومن لم يُحِطْ بالمرجعية والتاريخية والإجرائية والتحوُّلية فليس له حق الاجتهاد ولا الإفتاء، ونحن بما نقول نلح على الإثبات المتواضع لأهلية التراث، وحقه في العودة والتفاعل في زمن العقوق والتنكر، وهذا بعض ما أذهب إليه حين أدافع عن حوزة التراث، ولما كنت من قبل أَعُدُّ نظرية «النظم» مصدراً من مصادر «البنيوية» فقد ترددت فيما بعد في تعميق هذه الرؤية، مع الاعتزاز بما وصل إليه علماؤنا في زمن لم يكن هناك شرق ولا غرب. لقد قُدِّرَ لي بعد ذلك بزمن التفرغ لدراسة النظرية عند «عبد القاهر» دراسة منفصلة عن البحث في التعالق بعد أن ساورتني الرغبة في الوقوف على حقيقة تأثير «الجرجاني» في النظريات الغربية الحديثة، ومصطلح «التناص» الذي تهافت عليه الدارسون كعادتهم مع كل طارئ، يؤكد أنه لايوجد «نص» بريء، ولا حضارة بريئة، وكل شيء عبارة عن توارث وإضافة، فالحضارة الغربية ليست انبثاقية، ولا أحسبها منهية للتاريخ ولا للإنسان، كما يراها المدَّعون بدون برهان، والقول بالتأثير والتأثر قول مشروع وممكن، ونفات تأثير الحضارة الإسلامية فيما لحق من حضارات مؤشر انهزام ودونية واحتقار للذات، وقد اعترف المنصفون من مفكري الغرب بذلك، وسجلوا رؤيتهم المنصفة في كتب يتداولها الناس، فيما نالت طوائف من أبناء الحضارة الإسلامية من حضارتهم، إرضاء للرجل الأبيض الذي لم يفض عليهم إلا بالحشف وسوء الكيل.

ظواهر النقد الحديث وجذورها في التراث .. ! (٢) [١]

وما أن ساورتني الريبة في أمر التقارب بين ما فات من نظريات، وماهو قائم في المشاهد الأدبية والفكرية، رجعت إلى النظرية الجرجانية في كتاب «دلائل الإعجاز» قراءة وتعليق العلامة «محمود محمد شاكر» رحمه الله، وشاكر من ألدِّ خصوم المتهافتين على نظريات الغرب، وكانت له صولات وجولات مع المستشرقين والمستغربين، دون استثناء أو تحفظ، فلقد عرَّى أستاذه «طه حسين» الذي اضطره إلى قطع دراسته، بما أضافه إلى كتابه «المتنبي» الذي نال به فيما بعد جائزة «الملك فيصل»، كما أرهق «لويس عوض» في كتابه «أباطيل وأسمار» وله إلى جانب ذلك «رسالة في طريق مستقبل الثقافة»، أصْلى بها المستشرقين سقر الكلام. واتضح لي بعد استقراء ما كتب عن نظرية الجرجاني، ان هناك فرقاً واضحاً بين «البنيوية» كما هي عند الغربيين و«نظرية النظم» كما هي عند «الجرجاني»، ذلك أن «البنيوية» وإن تشابهت من بعض الوجوه مع «نظرية النظم» فإنها تنطوي على فروق جذرية، مع أن مرجعية النظريتين «أيديولوجية» وتبقى «نظرية النظم» مؤشر عبقرية عربية، وآلية نقد أسلوبي. وإذ نسلِّم بأن «نظرية النظم» وليدة همٍّ «أيديولوجي» فإن نظريات الغرب كافة تنسلُّ من رؤى فلسفية مادية خالصة، لا تحيل إلى وحي، ولا تؤمن بغيب، وقد لا تستشعر مبدأ العلة المباينة، وبخاصة عند طائفة الملحدين الغربيين، وعلينا أن نعرف الجذور الفلسفية لكل مصطلح يطرحه الغرب، وإن لم نفعل خلطنا العذب الفرات بالملح الأجاج، والمتهافتون عليها من أبناء جلدتنا تجذبهم بروقها الخُلّبْ، دونما وعي بحواضنها.

وإن كان ثمة تشابه أو التقاء فإنه واضح كل الوضوح بين النظرية النحوية عند «سيبويه» ومن بعده عند «الجرجاني»، والنظرية «التوليدية» لـ«أفرام نعوم تشومسكي» الذي درس علم اللغة والرياضيات والفلسفة، وعمل عضواً في عدة جمعيات علمية ولغوية، وارتفعت أسهمه عربياً نتيجة مواقفه الإنسانية على الرغم من يهوديته، ولما يزل قائماً في المشهد المعرفي والسياسي، يعالج نظريته التي لم يسلِّم لها الجميع، وإن أذعن له السرعان والخليون، وأراقوا ما في أوعيتهم احتفاءً بها، ولسنا ننكر أهميتها، وإمكان الاستفادة منها، دون إلغاء لما سواها.

ولقد حاول بعض الدارسين تقصي مصادر «تشومسكي» ومرجعياته، لمعرفة تأثير «النحو العربي» ومنجزات العلماء العرب على نظريته. فالدكتور «حلمي خليل» الذي ترجم كتاب «نظرية تشومسكي» من تأليف «جون ليونز» يقول: (ولكن من الغريب حقاً أن كل الذين كتبوا عن حياة «تشومسكي» أو نظريته، يجهلون هذه الفترة من حياته العلمية، ولايتوقفون أمامها، فاللغة العبرية- كما نعلم- هي إحدى اللغات السامية، ومن المعروف أن نحاة العبرية الذين عاشوا في كنف المسلمين في الأندلس، مثل «سعديا الفيومي»، و«مروان الجناح» قد أقاموا درسهم النحوي للغة العبرية على طريقة العرب ومنهجهم في درس العربية).

وهذا بعض ما أشار إليه المرحوم «حسن ظاظا» في كتابه «الساميون ولغاتهم» ولقد تساءل الدكتور «حلمي خليل» عما إذا كان «تشومسكي» قد اطلع على النحو العربي ودرسه، وأقام نظريته على ضوء ما توصل إليه من معلومات نحوية عربية. وفي رسالة تلقاها أحد المغرمين به، قال «تشومسكي»: -«وحين التحقت بجامعة بنسلفانيا في سنة ١٩٤٥م بدأت مباشرة بدراسة اللغة العربية مع «جورجيوليفي ديلافيدا» الذي كان من

---

(١) تاريخ المقال: ١٧/ ٩/ ٢٠٠٢

أبرز المتخصصين في اللغة العربية ثم أومأ إلى أنه قرأ كتاب «سيبويه» وأكد في النهاية باعترافه احتمال وجود تأثيرات كبيرة.

وتعرف نظرية «تشومسكي» بالنظرية «التحويلية» أو «التوليدية» وخلاصتها: افتراض جملة عميقة يتولد منها جمل كثيرة، لاحصر لها، وقد قدمها في كتابه «التراكيب النحوية» أو «البُنى النحوية» كما هي ترجمة «يوئيل يوسف عزيز» وهو قد عاصر مدارس فقه اللغة، التي عوَّلت على فرضية «الكسبية» فيما نظر هو إلى «الملكة» وعول عليها، استناداً إلى ما في العملية التوليدية من جمل ليست بمكتسبة، و«الكسبية» في نظر خصومها تحصيل وإعادة، فيما تنفرد «الملكة» بالتوليد على غير مثال محصل. والذين يتهافتون على نظرية «تشومسكي» يأنسون بفرضيات «دارون»، فهناك نوع من المعاضدة والشواهد، فتحولات المخلوق وتولده قد تشبه إلى حد كبير تحولات اللغة وتولدها. والمتضلعون من تراثهم المتمكنون من المستجدات يأنسون بالفرضيات، ولايعولون عليها، لأنها غير ثبوتية، والغرب دأبة البحث والتنقيب والتحول، وفي ذلك بعض المحمدة، وإذ يكون تحوُّلنا مضبوط الإيقاع بضوابط القيم، يكون من واجبنا التحرك وفق مقتضيات القيم، وضوابط اللغة ترتبط بالقيم الحسية، والإخلال بها إخلال بالتراث كافة، ولو تعقبنا التحولات في النظريات اللغوية على كل مستوياتها، لوجدنا كل حزب يراهن على رؤيته، وما من أحد سلم لأي نظرية، فيما نجد من بيننا من يقطع بموت نظريته، التي واكبت حضارته منذ القرون الأولى، ولما تزل قائمة على أشدها، وحين يخنع أحدنا، ويلغي نفسه في الآخر، يلتغي بسقوط فرضيته، وهذا ما نراه رأي العين في الذين اندفعوا وراء المبادئ والمذاهب. فأين «الماركسيون» و«الوجوديون» الذين أصبحوا أثراً بعد عين؟. وتحفظنا على التبني والفرادة والتخلية، وليس على الاستيعاب، ولا على الاستفادة أو التواصل أو التفاعل. والإسلام حين منع التبني شرع الأخوة الإسلامية. (وتشومسكي» كرس نظريته بالانفتاح والتلقي والاستجابة لكل تساؤل، ومن ثم فإنها لما تستقر بعد، والمعولون عليها حين يميتون «النحو العربي» تظل رؤيتهم كالمعلقة، ذلك أن «النحو العربي» معياري توصيفي لتراث قائم، فيما تأتي النظرية «التشومسكية» فرضية احتمالية بإزاء نظريات غربية قائمة، وليس بإزاء «النحو العربي» نظريات عربية مضادة، ثم إن «النحو العربي» ناتج رصد وتحليل ووصف وضبط ومعيار وإجراء، وخلاف النحاة إجرائي، وليس استبدالياً، وجزئي لا كلي، نجد ذلك عن «الجرجاني» و«ابن مضاء» ونجده بين «الكوفيين» و«البصريين» وبين «مدارس النحو» في الشام ومصر وبغداد، والتعدد والتنوع في الإجراء، والتأسيس لا يقوم على الفرضيات، إذ هي مرحلة تسبق النظرية، وإذا كانت نظريات الغرب تساعد على الإجراء أو التوصيل المعرفي، فهي منهج له وعليه، وليس من حق أي نظرية أن تنفرد بالمشهد، وليس من حق المتذيلين لها القول بموت ما سواها، وكيف يتأتى «موت النحو» وهو داخل في نسيج النظرية باعتراف صاحبها؟

ونظرية «الجرجاني» محاولة جادة لصياغة «النحو العربي» على شكل جديد، يخفف من المعيارية، ويتخطى النمطية، ويربط بين مقاصد النحو ووظائفه الوصفية والمعيارية، ولايلغي الأصول. وكان علينا نصر نظرياتنا التراثية، متى كانت قابلة للوجود الفاعل، ناهضة بمتطلبات البحث العلمي، متمكنة من مواجهة ما يجدُّ من نظريات، وداخلة في بنية الحضارة وثوابتها.

والتحسس عن مفهوم النظريات التراثية ومقاصدها يكاد يؤاخي بين التليد والطريف. ولقد أحسست بعد التوغل في «التفكيكية» ان هناك اقتراباً وافتراقاً بينها وبين مقاصد «التذوقية» كما يراها متصوفة الاعتقاد في النص، ويلتمسونها بالحدس. فالحسية التفكيكية

والحدسية التذوقية، تبحثان عما لم يقل، والمتصوفة لكي يحققوا المقاصد يركنون إلى نظرية معرفية خاصة وطريقة مغايرة للتلقي والتأويل. ولما كنت بصدد استكمال هذا الموضوع، فسوف أصرف النظر عنه إلى حين التفرغ لقراءة النظريتين القرائيتين. والقول في مستجدات الدرس النحوي يسقط مفهوم «الإحراق» و«الموت» المتداول عند بعض المتقدمين والمتأخرين، فلقد بدت الآراء حول مستجدات الدرس اللغوي متشابهة، أو ربما متناسخة، فكثير من الدارسين يرى أن «البنيوية» امتداد لنظرية «عبد القاهر»، وأن التحويلية أو التوليدية تحوُّل طبعي للبنيوية مشكلة تعالقاً بيّناً مع «النحو العربي»، وأن النقد الألسني أو الأسلوبي أو النصوصي أو ما شئت من هذه المسميات بكل تحولاتها خطوات متراتبة، أو قل سيراً وئيداً على حلقة مفرغة، يبتعد عن اللغة، ثم يعود إليها، يستدعي الدلالة في عملية إئتلاف مع الشكل، ثم يستدعيها عبر ظاهرية الدلالة أو عمقها، ثم يتعالق مع ناتج العلاقات والأسلوب والعبارة والجملة والكلمة بين التحليل والتحويل، ف «سيبويه» يعرب و«الصوفي» يحدس، ويتذوق، و«سوسير» يحلل، و«تشومسكي» يحوّل و«دريدا» يفكك، ولكل من: المعرب، والمتذوق، والمحلل، والمفكك، مقاصده الدلالية والشكلية، ثم إن «سكنر» يحيل إلى «الكسب» و«تشومسكي» يحيل إلى «الملكة» وآخرين يحيلون إليهما معاً، مسنودتين بالدربة والمقصدية، ومادة الجميع «اللغة» بوصفها نظاماً و«الكلام» بوصفه تطبيقاً، وليس من حقنا ممارسة التنافي أو الأثرة، إذ من المصلحة التفسح في المجالس، متى أمكن الجمع. ويأتي «الشكل» في هذه المعمعة منقسماً على نفسه، بحيث يعني الشكل اللغوي تارة، كما هو عند «مدرسة براغ» التي هي امتداد طبعي «للشكلانيين الروس» الذين انصبَّ اهتمامهم على الايقاع الشعري، ويعني التركيب الهيكلي للنص الناظر للإيقاع لا للبنية اللغوية أو الدلالية، مستمداً بعض مشروعيته من «عمود الشعر» بوصفه مصطلحاً استيعابياً للشرط الشعري، وليس خاصاً بالوزن كما يتصوره من قصرت هممهم، وأنا ممن قال ذلك، وأنس به، في طفرة الانفعال، وحاول جهده تقصي طائفة من النظريات القديمة والحديثة مثل «عمود الشعر» و«النظم» و«البنيوية» و«التحويلية» و«التفكيكية» و«التشكيلية» أو «الشكلانية» أو «شكل القصيدة» ولكن تبيَّن لي أن فيما نذهب إليه شيئاً من الخلط والتسرع والمبالغة، وأحسب ان الذين يفكرون برد الظواهر الحديثة إلى الأصول التراثية بشكل قطعي وشمولي، يحمِّلون النظريات ما لا تحتمل، وقد يبلغون بالمبالغة حد التقوُّل على التراث كل الأقاويل. ولو أننا تعاملنا مع الموقف بروية وأناة، واستبعدنا الشعور بالنقص، لكان لدراساتنا «المقارنة» شأن كبير، وما نفعله تحت ظل هذا الشعور فيه شيء من الخلط والتجاوز. ومشكلة الطرح النقدي عندنا أنه لايصدر عن قراءة مباشرة للنظريات من مصادرها، ولا يستكمل المعلومات عن أي مصطلح، وليس أدل على ذلك من عقد ندوة «لقراءة النص» والنص نظرية شائكة، تستدعي أشياء مسكوت عنها في بحوث المنتدى مثل: «المفهوم، والتكوين، والأبعاد، والإنتاج، والسياق، والنحو، والوظيفة، والجنس، والاستعمال، والتشكيل، والتأويل، والتعالق، والأفق، والترميز، ومستويات البنية، والصوتيات، والتداولية، والدلالة، والنمطية». وما لا نهاية له من متعلقات النص، وعلى المخفِّين الرجوع إلى نظريات النص، ومتعلقاته، ومسارد المصطلحات النصوصية، لكي يقولوا عن علم، ذلك أن بعض المتعالقين مع النظريات يكتفي بالقراءة عنها، أو التعويل على ترجمات غير أمينة، أو قد تكون لغة بعضنا الإضافية غير قادرة على تفكيك الرؤى والمقاصد، وما أكثر الذين ذهبوا إلى الغرب، ولم يستطيعوا تجويد لغته العلمية والثقافية، ولا السيطرة على ماتنطوي عليه تلك اللغة من فكر، ومن ثم لم يعولوا إلا على المترجمات التي تتنازعها الترجمة الحرفية المعجمية أو الترجمة بالمعنى ممن لم يستوعب المعارف المصطلحية،

وكلتاهما غير دقيقة، وغير أمينة، ثم إن بعض القراءات يحجبها «الانبهار» بما يجدُّ من مصطلحات مترجمة أو معربة أو منقولة. والدهماء المحجوبة بعجزها عن استيعاب معطيات الثورة العلمية توجف وراء المتسطحين على الظواهر، فتخدعهم بأنفسهم، وتقترب بهم من سِدَةِ التصنيم، وقد شغل اتهامي بالانبهار طائفة من المتعالقين مع المستجدات، ممن ليسوا على شيء من فهم المقاصد، ولا على شيء من اتقان الاجراء، وهم الذين طفح بهم الكيل، حتى أدى انفعالهم إلى خروجهم من سمتهم، وفقد صوابهم، وعندما يشتغل المحاور بالذات المحاورة تضيع القضايا، وذلك بعض مالقيته من ذوي النزعات الاستغرابية.

والمذاهب والنظريات التي يتلقاها المبهورون صاغراً عن صاغر، لم تستقر عند ذويها، ولم تصل إلى مراحلها النهائية، ونحن نتلقاها على أنها قضايا مسلمة. فـ«البنيوية» قبل ان تدخل عالم اللغويات، وقبل ان تستخدم في الدرس اللغوي، ثم في النقد، وفي سائر المعارف تعد نظرية قائمة بذاتها، لا علاقة لها بالأسلوب، ولا باللغة، ولا بالدرس النحوي. وعندما نظر «سوسير» في السياقات والأنساق والعلاقات، وهو نظر حصيف ولا شك، وتلقف رؤيته طلبة بررة، تحولت محاضراته المحررة بأقلامهم إلى نظرية صاخبة أطلقوا عليها «البنيوية» ولو ان من جاء بعدهم أخذ بتواضع «سوسير» ومعقوليته، لما منيت النظرية بما منيت به، وفي طفرة التعاطي بها ومعها جاء التفريق الدقيق بين اللغة المبدعة واللغة الشارحة، وجيء بالوفيات، ومثلما بولغ بالتعلق، بولغ في الرد إلى التراث، فالمميت مسرف في تعظيم الجديد، وملتمس الجذور في التراث مبالغ في الادعاء. ومثلما ردت «الوجودية» و«الماركسية» إلى الجذور العربية، ردت «البنيوية» إلى التراث وهكذا تقلبت المشاهد بين القطع بموت ما سلف والقطع بعودته متقنعاً وراء الجديد، والبنيوية التي خوت على عروشها هنا وهناك، وأصبحت أثراً بعد عين، بعد أن فرقت الكلمة، وأشاعت العداوة والبغضاء، كانت المنهج الأكثر صخباً وادعاءً في الدراسات اللغوية، وكانت من قبل ومن بعد المنهج الأكثر شيوعاً عند علماء الاجتماع والنقاد والفلاسفة، وحتى الواقعية الاشتراكية حاولت أن تستفيد من هذا المنهج، وأصبحت البنيوية كـ«علم النفس» تدس أنفها في كل شيء، فجاءت «البنيوية التكوينية» وتهافت النقاد الماركسيون عليها، لاستجابتها لهم. وأعد الدكتور «حميد لحمدائي» رسالة علمية عن ذلك، قرأتها بتمعن مع ما قرأت من دراسات نقدية سردية، وكتبت عنها بوصفها منهجاً من مناهج نقد الرواية، وأثارت دراستي فضول البعض، حتى قال قائلهم: بأن ما كتبته في هذا الشأن «فضيحة» بوصفه قول من يجهل إبجديات النقد، ولما أزل أسمع من فلول المتذيلين الغمز واللمز، وما من أحد منهم واجه برأيه متوخياً الحق، ولم أجد بدّاً من ملاحقة فلولهم إلى جحورهم على غير ما اعتدت من المرور بمثلهم، وكأنني لم أسمع ولم يقل، وقصدت بذلك كشف تبعيتهم وإمعيتهم. وتهالك بعض المعاصرين على المنهج البنيوي فوّت على المشاهد النقدية فرصاً ثمينة، وحمل بعضهم على ممارسات نقدية لا تمت إلى الفن بصلة، وخير شاهد على تخشب «اللغة الثانية» الشارحة استفاضة «النقد الإحصائي» الذي أوغل فيه بعض النقاد، من مثل «سعد مصلوح» وحين وجدوا أنفسهم في متاهات لا نهاية لها، نبذوا تلك المناهج - تبعية لا استقلالية- وراء ظهورهم، ولم يتعرفوا على أنفسهم، ولا على حضارتهم، وإنما استشرفوا الآتي من المشارق والمغارب.

ظواهر النقد الحديث وجذورها في التراث .. ! (٣)[1]

والذين نفضوا أيديهم من التراث، واستقبلوا فيوض المشاهد الغربية، ستكون لهم تحولات مرتبطة بتحولات من يفيض عليهم كدره وطينه، فيما يشرب المفيض الصفو في الورد والصدور، وما من أحد من أولئك المتلقين للمياه العكرة توخى حاجة الأمة، وبادر إلى ذلك، دون أن يكون رجعاً كرجع الصوت لخطاب الآخر. والمستلهمون لهذا الخطاب منهم مقلٌ ومكثر، ومسيء ومستوعب، ومتسطح ومتعمق. فتبعية (طه حسين) واستئناس (عباس محمود العقاد) وتعالق (محمد مندور) ليست على شاكلة من جاء بعدهم، ممن انسلخوا فكراً. ويقيني أن المشهد النقدي بانتظار ما سيأتي به المستغربون، مما فرغ منه الغرب، ونبذه وراء ظهره. وإذ لا أكون ضد الاقتراض والاستزادة والمثاقفة الواعية مع ما هو مستجيب لحاجاتنا، ولست ضد سنّة الحياة القائمة على التحول المستمر، فإنني أعرف كم هو الفرق بين التفاعل الواعي والتلقي العقيم. ومثلما أن النظريات تنسل تباعاً في مشاهد الغرب، فإنها كانت من قبل تنسل من مشاهدنا، يوم كنا مستبدين مبتدرين منقبين عن حاجاتنا بأنفسنا وبإمكانياتنا وبمحض إرادتنا. وليس أدل على ذلك من (نظرية النظم) إذ المعروف أن (عبد القاهر) طرح نظريته في مواجهة نظريات (المعتزلة) حول الإعجاز القرآني، ولم يرقب الآتي، ولم يعول على أحد، بل أعمل فكره ليواجه نظرية معرفية حادت بالنص عن جادة الصواب. لقد حاول من خلال طرحه هذا ان يلغي كثيراً من إنجازات المعتزلة في مجال الإعجاز القرآني. والمعتزلة أداروا النص في فلك العقل، وابتكروا مخارج لقطعيات الدلالة، وأحكموا صنع آلية البلاغة، ولما يكن الجرجاني ولا السلفيون كذلك. ومن ثم فإنه تعامل مع اللغة وأصاخ لها. وتراث المعتزلة له وعليه، ومفسروهم وشُرَّاحهم نقبوا في خبايا اللغة، وكشفوا عن جمالياتها، ولكنهم أخذوا بسلطان العقل المطلق، ولم يعولوا على النص إلا من حيث كونه مجالاً لبراعة العقل، وإن كانت لهم لطائف مبهرة ومثيرة. وكل قراءة واعية ترتبط بنظرية معرفية، نجد ذلك عند (السلفيين) و(الأشاعرة) و(المعتزلة) و(المتصوفة) و(الشيعة) و(الباطنية) ذلك أن النص هو النص، ولكن النظرية قد تميل بصاحبها عن جادة الصواب، وتنطق النص بما لا يريده المرسل. ونظرية (موت المؤلف) تهميش لمقاصده من الرسالة، وتفويض مطلق للقارئ. و(نظرية المعرفة) عند الطوائف الإسلامية أسهمت في انفتاح النص، ومكنت ذوي الملل والنحل من تحميله ما لا يحتمل. (والمركزية) في عملية (القراءة) تبادلها: النص والمؤلف والقارئ. وكل محتل للمركزية من الثلاثة يقوم بين مكوناته صراع على المركزية من داخله، ف (النص) على سبيل المثال حين همش المؤلف والمتلقي، اصطرعت في داخله على مركزية الأولوية: (اللغة) و(الدلالة) و(الفن)، والنقاد يتنقلون بين هذه المكونات المصطرعة، والمقلدون منهم لا يعون المحاذير، ولا يدركون المقاصد، وإنما سمعوا الناس يقولون شيئاً فقالوه. والتحرف الواعي يمكِّن العلماء والمفكرين والنقاد من إنتاج مناهج وآليات توجه النصوص وفق رؤيتهم، وقراءة معاجم المصطلحات النقدية القديمة تؤكد ثراء التراث بالمناهج والآليات وتشير إلى تعدد الاهتمامات، وما على المترددين إلا ان يقرؤوا ما أعده د(أحمد مطلوب) و/د(محمود الربداوي) و/د(الشاهد البوشيخي) وآخرون تقصوا التراث النقدي، وكتبوا عن مصطلحاته منفردة أو مجتمعة. وقد يستهلك المصطلح الواحد رسالة علمية كاملة، كما في كتاب (مفهوم الأدبية) للدكتور (محمد الزيدي)، ومن قبل أولئك (محمد مندور) الذي تعقب المنهج النقدي العربي وحرره. ولكل

---

(١) تاريخ المقال: ٢٤/ ٩/ ٢٠٠٢

نحلة طريقتها في التلقي ولم تفترق الأمة إلا بسبب تعدد نظريات المعرفة. والمذاهب والنحل والملل ناتج قراءة واعية، تجاوزت التراتب والنمطية، ورسمت لنفسها نظرية في القراءة، وإشكاليات التأويل فرقت كلمة الأمة وحققت خبر الصادق «**وستفترق هذه الأمة ...** » ومع ان عوائد تلك النظريات أضر بنقاء التصور الإسلامي للأشياء، إلا أنه أسس للفكر الإسلامي. ومثلما جنح الفلاسفة إلى (علم المنطق)، فقد تحرف الإسلاميون (لأصول الفقه) وقواعده، وركنت طائفة منهم إلى (المنطق اليوناني). و(الجرجاني) فيما يرى البعض انطلق في نظريته من النحو، ولم يبرحه، وقد يطلق على مشروعه (نظرية نحوية) وهذا يفتح أبواب الاحتمالات، ويحدو بالنقاد المقارنين إلى افتراض التقائها مع نظرية (تشومسكي) في المرجعية على الأقل، أكثر من دعوى التقائها (بالبنيوية) ذلك أن (البنيوية) استدعيت من حقل مغاير على افتراض أن اللغة بناء وتفكيك وإعادة بناء. حتى أن الدكتور (عبد الله بن حمد الخثران) في كتابه (الاتجاهات التجديدية في الدرس النحوي) جعل هذه النظرية عند (عبد القاهر) منهجاً جديداً في الدرس النحوي، نائياً بها عن المنهج البلاغي الصرف، وماهو حقيق حين ذاد عنها حقولاً كثيرة، كالبلاغة والأسلوب والإعجاز. وكأنه أراد أن يعزلها عن البلاغة والأدب، بدافع التعصب للنحو، لكونه أحد فرسانه، ولربما حفزه إلى ذلك أنه رأى فيما يذهب إليه الدارسون ميلاً إلى جعلها في سياق تاريخ النقد الأدبي وتاريخ علوم البلاغة، ومنشوء ذلك كله الافتعال والانفعال. ول (الخثران) بعض الحق فيما ذهب إليه، لأن الهمَّ الذي يحمله الجرجاني همٌّ نحوي يخالطه شيء من البلاغة، فالنحو طريق قاصد للدلالة، والبلاغة طريق قاصد للجمالية، والطريقان قد يتبادلان المهمات، أو يصطحبانها، وإن كان أعد مشروعه ليكون برهانا على الإعجاز البياني للقرآن الكريم، ورداً على (المعتزلة) وعالمهم الكبير (القاضي عبد الجبار)، وهذا ما كشفه العلامة (محمود محمد شاكر) في مقدمته. ومن العجيب أن الدكتور (عبده راجحي) في كتابه (النحو العربي والدرس الحديث) لم يعرض لهذه النظرية، ولم يشر إليها، ولم يعدَّها إرهاصاً للدرس النحوي الجديد، وهي نظرية نحوية واضحة، وإن اتسعت للبلاغة والأسلوب. أما الدكتور (أحمد مطلوب) في كتابه (عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده) فيعتبر بحق رائد الدارسين لهذه النظرية واكتشاف منحاها النحوي حيث يقول: (مرَّ النحو قبل عبد القاهر بتطور كبير بعد أن وضع سيبويه كتابه الشهير وصنف المبرد كتاب المقتضب) ... إلى أن قال: (ويختلف منهجه عن منهج النحاة في بحثها ... وكان النحو عنده البيان الذي يحلل النصوص ويوازن بينها) (ص٥٧). وكأنه بهذا يحاول الربط بين النحو والنقد من جهة، وبينه وبين البلاغة من جهة أخرى، ملغياً الفواصل الحدية. ونحن هنا لا نغمط الدكتور (أحمد أحمد بدوي) حقه في حديثه عن النظم، وربطه في المنهج النحوي، ولكن تجريد القضية وتحديد مسائلها، كانت بالفعل على يد (أحمد مطلوب) ومن بعده الدكتور (الخثران). و(بدوي) الذي أدرك فكرة النظم، لم يشأ جعلها تطورا في الدرس النحوي، بل رآها أسلوباً من أساليب البيان الذي استخدم النحو في سبيل ظهورها وتحريرها. وعلى هذا الأساس نستطيع أن نقول بأن هناك فرقاً واضحاً بين (البنيوية) باعتبارها فلسفة مجردة من الاستخدام المعرفي لعلم النحو والاجتماع والأدب ونظريات (عبد القاهر) و(تشومسكي). وكان بودي لو وجدت الجهد والوقت والمرجعيات الموسعة لأتعقب جذور البنيوية الفلسفية، والوقوف على طرائق المفرغين لمحتويات المصطلحات، وتجلية الغفلة والجهل عند أدعياء البنيوية، ولست أشك أن جذورها مادية جدلية، وأن إمكانية التفريغ التام عصية، وجذور البنيوية الفلسفية تعول على المادة والحركة والطاقة وناتج العلاقة، التي تزول بزوال العلاقة وتفاعلاتها، ولا تؤمن بمبدأ العلة المباينة. ولأنني لم استكمل هذا الجانب فانني أغري المقتدرين من طلائع شبابنا

الجادين في الدراسات العليا في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة، ليتلقفوا الخيط، ويمضوا مستكملين ما بدأه (فؤاد زكريا) في كتابه (آفاق فلسفية) و(زكريا ابراهيم) في كتابه (مشكلة البنية) الذي تحدث عنها من خلال (الماهية) محيلاً إلى قانون التحولات والأنساق، وبعد أقل من خمسين صفحة قفز إلى البنية في ميدان اللسانيات، و(الانثروبولوجيا) و(الابستمولوجيا) و(السيكولوجيا) وانتهاء ب (الماركسية). وإذا كان النقاد استخدموا المنهج البنيوي كأسلوب نقدي جديد، فإنهم يتناولون هذا المنهج كما يتناوله (سوسير) و(تشومسكي) وغيرهما، وكما ذهب من قبل كل أولئك عبد القاهر. وعلينا لكي تدق رؤيتنا في تصور الأشياء أن نقتفي أثر المصطلح في عملية رصدية استكناهية، فالفلاسفة واللغويون و(الانثربولوجيون) و(الماركسيون) والنقاد كل أولئك قالوا من خلال (البنيوية) وهي معهم في تقلب مستمر، مفاهيمها داخل الحقل المعرفي الواحد تختلف من مرحلة لأخرى، ومن مفكر لآخر، فكيف بها حين تبرح حقلها إلى حقل مغاير، ولهذا فإننا لن نستطيع ان نقول إن (النقد البنيوي) امتداد (لنظرية النظم) عند (عبد القاهر)، وإن كان هناك بعض التشابه، لأننا حين نغوص في أعماق هذه النظريات يتضح لنا الفرق الدقيق بينها، وهذا ما لم يكلف بعض الدارسين نفسه فيه، الأمر الذي أوقعنا في شيء من الخلط العجيب. وفلول الدارسين الذين يرددون مصطلح (النص) ويتهافتون على القراءة من خلال مفاهيمه التي لم يستوعبها بعضهم، ويربطون بينه وبين المنهج والآلية مكتفين بالقراءة التلفيقية أو الاعتباطية يتجاوزون مقتضيات تلك المصطلحات، أو يقصرون دونها، (فالنص) قد يحيل إلى البناء اللغوي، وقد يكتفي باستحضار سلطانه بوصفه بديلاً لسلطان المؤلف أو الموضوع، وقد يحيل إلى أشياء غائية. وقراءته عند بعض الاتجاهات تعني تقويض اللغة بآليات تمتلك القدرة على تفكيك البنية بطريقة دقيقة لانتاج دلالة تتعدد بتعدد القراء، وهذه الفرضية أفقدت رسالة النص مهمتها التوصيلية، بحجة (التوتر) و(الانقطاع) و(الانفتاح)، وأتاحت الفرصة للتأويل المتمرد على كل قيد. حتى لقد أدان بعض المتعقلنين فقهاء الإسلام بما توصلوا إليه من استنباطات مرتبطة بقواعدهم وأصولهم، محيلاً إلى ثبات الحكم بشأن الدلالة دون النظر إلى تغير الأحوال. وحين نسمع ب (قراءة النص) كما فعل (نادي جدة الثقافي) تشرئب أعناقنا إلى مقاصد المصطلح ومفاهيمه، ويتبادر إلى الذهن (البناء اللغوي) الذي لا يمتد إلى الدلالة، وإن كان (الماركسيون) دسوا أنوفهم، وطوعوا المنهج البنيوي ليكون قادراً على استيعاب البعد الموضوعي و(البنيوية التكوينية) اشتغال بالدلالة بوصفها (بنيوية موضوعية)، وقد يأتي من يفكر بمقاصد (الأنساق الثقافية) بوصفها تخطياً من جماليات النص إلى معطياته. و(النقد الإسلامي) له وقفات مع النص، تصطحب معها البنية ومفاهيم الجماليات متخطية إلى الدلالة وانعكاسها على الممارسة، وهذا المقصد لايتحقق إلا من خلال الاشتغال بالنسق الثقافي المستذكر بعد آمة. والنقاد الذين لا يستبدون، ولا يبادرون، ولا يفكرون، يظلون مرتهنين لتفكير الآخر. وقد تؤول بهم الاتكالية إلى غبش الرؤية، وارتباك التصور، ولهذا لابد من تأسيس حركة نقدية عربية، تآخي بين التراث والمعاصرة، وتضع كل الاعتبار للقيم الحضارية، وتتفادى الذوبان، وتتمكن من هضم الجديد، ليمكث منه في الذاكرة ما ينفع الأمة، تاركة الزبد يذهب جفاء. ولا يُحْسِن المؤاخاة إلا الذين تضلعوا من التراث، وعرفوا إشاراته الذكية، واستوعبوا المستجد دون انبهار. وعلى الذين أسرفوا على أنفسهم باستدعاء النص، أن يعرفوا تداعياته، لا من حيث مداخله التاريخية وأشكاله ونظرياته المتعددة بتعدد المتحدثين، وبتعدد الأزمنة والأمكنة، ولكن من حيث ما ذكر، وما لم يذكر، مما هو مرتبط بمفهوم النص في الماضي والحاضر، وفوق كل ذلك لابد من السيطرة على مفاهيمه التي تسهم في تناسل النظريات. والذين يعولون على النص بوصفه

المصطلح الأكثر حضوراً في الراهن النقدي لابد أن يلموا بأبنيته التي لا يمكن تفكيكها والغوص في أعماقها إلا من خلال تجويد (نحو النص) والحد من (نحو المعيار). والذين أسهموا في قراءة النص، عبر ملتقاه وجاءت دراساتهم ضمن الملف الذي أصدره (نادي جدة الثقافي)، لم يستوعب أكثرهم مقاصد المصطلح، ولم يستشعروا رؤى أساطين (نظرية النص) من أمثال (ماينريش) و(منڈايك) و(بتوني) ولم يعوّلوا على منجز المفكرين والأدباء، وبخاصة المغاربة منهم مثل د(محمد مفتاح) و(حمادي صمود) و(سعيد يقطين) والمصريين مثل د(جابر عصفور) و(نصر حامد أبوزيد) الذي أضلته نظريات (قراءة النص) فجاء بما لايحتمل، حتى اضطر إلى النجاة بجلده والهروب خارج وطنه، إضافة إلى إسهامات (يمني العبد) و(علي حرب) و(جوليا)، على أن مصطلح (الكتابة) بدأ يؤتي ثماره مهمشاً نظرية (النص). إننا سعداء باستدعاء النظريات والمصطلحات والمناهج، وما من سبيل إلى التلاقح الحضاري إلا من خلال الجسارة، ولكننا أخوف ما نخاف على راهننا من الاهتياج الأعزل، وتقحم المفازات سعياً وراء سراب القيعان، ومآل ذلك كله تشكيل ذهنيات مزيفة، تحرف الكلم من بعد مواضعه. وتداول المصطلحات، دون فهم دقيق، ووعي عميق، يكشف عن تسرع يربك العملية الاستيعابية، ومتى قصرت أيدينا عن أخذ المستجد بقوة فإن الأجدى تمثل تراثنا استعداداً لتلقي ما يفد. والذين استدبروا تراثهم، وأخذوا بعصم المناهج الجديدة لا يقدر أكثرهم على المؤاخاة المطلوبة، ولايقدرون على الحوار المتكافئ، ولا يحتملون متطلبات التأسيس والتأصيل. ومع كل ما ينتابنا من الخوف فإن مشاهدنا المحلية والعربية لا تخلو من كفاءات استوعبت التراث والمعاصرة، واختطت لنفسها منهجاً متوازناً، يستجيب لمتطلبات المرحلة. والخوف كل الخوف من دهماء تحسب الشحم ممن شحمه ورم.

تكريم الرواد .. !(١)

الأديب العالم الداعية معالي الشيخ محمد بن ناصر العبودي، لي اليه أكثر من مدخل، وحديثي عنه تتنازعه عدة قضايا.

فلقد عرفته تربوياً يمتلك قوة الشخصية وقوة المعرفة. وعرفته إدارياً محنّكاً يمارس العمل الاداري وفق أدق الطرق وأشملها وأقدرها على الأداء السليم. وعرفته قارئاً نهماً يرشدنا إلى الكتب والمجلات والدوريات؛ ويغرينا بالقراءة لكتب التراث وأمّهات الكتب.

في الثالثة عشرة من عمري، تقدمت لمعهد بريدة العلمي، وكان إذ ذاك يقبل طلبة «الرابع الابتدائي» فما فوق، وكنت في الصف الخامس الابتدائي، وحين دخلت مكتبه، أحسست بهيبته وجلاله وهو رجل مهيب وحازم وهو أميل إلى القوة مع الطلبة فلا ينبس أحد عنده ببنت شفه، ومن بعد ادارة المعهد تلتقطه مواقع علمية ودعوية، وكان ان سهم في تأسيس الجامعة الاسلامية في المدينة ثم عمل وما يزال في رابطة العالم الاسلامي، وكل المسؤوليات التي واكبها منذ أكثر من نصف قرن لم تقفه عن التأليف في مختلف العلوم والمعارف، وبرز كاتبا لأدب الرحلات، حيث أتاح له عمله في الرابطة أن يكون كما وصفه «المتنبي»: «ما حطَّ من سفر إلا إلى سفر» أو كما وصفه «الشنفرى»: «تَهاداهُ التنائف أطحل» لقد طاف العالم ولم يدع بقعة من بقاع الأرض إلا وحطت فيها رحاله.

وألّف عن كل دولة، أو بلد، أو مقاطعة كتاباً أو أكثر تحدث فيه عن حضارتهم، وعاداتهم وتقاليدهم ولغاتهم وآدابهم وأديانهم وكل ما يهم القارىء، وخلّف وراء ظهره أكثر من مائة كتاب في «أدب الرحلة» وهي ثروة تاريخية جغرافية فكرية تهم كل مثقف ومسؤول.

وفي العام الماضي كرمه «نادي القصيم الأدبي ببريدة» تحت رعاية صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن بندر بن عبد العزيز أمير منطقة القصيم، ويومها تفضّل صاحب السمو بالأمر بتسمية أحد الشوارع ببريدة باسمه، وتسمية إحدى المدارس الثانوية باسمه وقد تم ذلك وهذا جزء مما يستحقه أمثاله فهو العالم الجليل الذي قضى شبابه وكهولته في خدمة الدين والوطن وأسهم في التأسيس لحركة علمية ودعوية.

وتكريم المنتديات والمؤسسات لأمثاله بادرة طيبة ووفاء لرجالات البلاد وأملنا في أن تحذوا كل مؤسسة أو ندوة أو جامعة حذو الذين بادروا في التكريم و«ثلاثية المشوح» التي أنشأها الأخ الكريم الشيخ محمد بن عبد الله المشوح أسهمت في تكريم عدد من الكفاءات الوطنية من رجال العلم والتربية والأدب، وهو اسهام مشكور وسلوك حضاري وبلادنا والحمد لله تعي مسؤولياتها إزاء علمائها وأدبائها وكافة العاملين من أجل خير المجموعة.

نسأل الله السداد والعون والتوفيق.

(١) تاريخ المقال: ٢٨/ ٩/ ٢٠٠٢

النجومية بين: التألق، والانطفاء .. ![1]

ليست كل النجومية كاذبة خاطئة، وليست كلها مليئة بالإيجابيات والطهر الملائكي، والممحصون لعوارض التألق والانطفاء يربطونها بأحوال الأناسي وشهواتهم وبالظروف وتقلباتها. والأناسي منهم الصالحون والطالحون، والسابقون في الخيرات والظالمون لأنفسهم. والواقعون فيها ليسوا جميعاً بلُّوريين يشعون النور من الذات، ولايعكسونه من الآخر. ومَن تصور النجومية مليئة أو جوفاء، دون حفرية معرفية وخبرة استكناهية، فقد ظلم نفسه وقبيله، وهي مع هذا التفاوت تعد إشكالية العصر، وبخاصة بعد ثورة الاتصالات، وتدفق المعلومات، وانتشار القنوات، وتعدد وسائل الإعلام الجذابة المغرية. والنجوم الجوف كالعملات المزيفة، لايكشف زيفها إلا التداول بين أيدي الخبراء، وإذا كان الإيمان يُحكُّ بالدرهم والدينار، ليبدو صدقه من كذبه، فإن النجومية تعريها المواقف والأزمات والمواجهات، وتكشف عن أصوليتها أو وصوليتها سنة الله المتمثلة بالامتحان ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾.

وقد فتن مؤمنون ومدَّعون، فعلم الله الصادق من الكاذب. وقد تسهم الأضواء التي صنعت النجوم في تعريتها، كما السحر ينقلب على الساحر. والمواجهة بكل صورها آلية مهمة من آليات الجس والسبر، وهي بلاشك إحدى السبل التي تكشف عن الأصالة أو الزيف.

هذه الخواطر انقدحت في ذهني، وأنا أمتري أخلاف الذاكرة، لأجيب على سؤال بدهني به أحد الزائرين الذين يودون الإجابة على كل ما يعن لهم، أو هكذا يتصورون إمكانياتي، وكأني ابن بجدة المعارف والمواقف. وما درى الزائر أن نصف العلم (لاأدري)، وأن من قالها فقد أجاب. والملائكة الكرام لا علم لهم إلا ما علمهم ربهم، وموسى عليه السلام، قال لعبد من عباد الله: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾. فمن نكون إلى جانب الملائكة الأبرار والرسل الأخيار؟

قال ذلك السائل: -لماذا تقترف وسائل الإعلام إحراق النجومية بمحاصرة الضيف بالأسئلة التي لايحير لها جواباً؟ ولماذا يكون جوابه متسطحاً لا يلوي على كبير فائدة؟. ولماذا ينكص النجم على عقبيه، ويقول ما لا يعتقد، أو يعتقد ما لايقول؟. وبعد أسئلته تابع القول: إننا نعيش حالة من الانبهار والإكبار لمن كنا نعدهم من الأخيار، حتى إذا سمعنا أو قرأنا لبعضهم، تساقطت الانطباعات، وتعرت الحقيقة المرة. وسؤاله هذا لملم لي أطراف النجوم في كل مجال، وأنكا جراحات دفينة.

قلت للسائل: -ليس من شرط النجومية الامتلاء المعرفي، ولا الطهر الملائكي، ولا الثبات المبدئي، النجومية قد تكون ناتج ضربة حظ، أو افتقار مشهد، أو غفلة مُشاهد. وفي الأساطير مقولة المتألّه: - (قيل: من أمرك؟ قال: من نهاني؟) ومن ثم فإن هناك فرقاً بين من يزحف في القارعة إليها (كما زحفت فوق الصعيد الأراقم)، ومن تأتيه منقادة تجر إليه أذيالها، كما الخلافة مع الممدوح، بحيث لا تصلح إلا له، ولا يصلح إلا لها. إذاً هناك (متناجمون) و(نجوم) وساعون إليها، وساعية إليهم. والأقل الأقل من المتابعين من يملك القدرة على الفرز بين نجم تهاوت النجومية تحت قدمه، وآخر استمات في سبيل التشبث بأذيالها، يدعي وصلها، وتدعي بُعْدَه و(المتناجمون) نفذوا إليها في غفلة من الرقباء،

---

(١) تاريخ المقال: ١/ ١٠/ ٢٠٠٢

فكانوا كمن تسلق المحراب، وأتى البيوت من غير أبوابها، ومن فرغ لامتحان الظواهر تكشفت له عن تفاهات مخيبة للظن، وقديماً قيل: -(أزهد الناس بالعالم أهله) ذلك أنهم يرون منه ما لا يراه الأباعد.

والنجومية تكون في (الدين) بكل مذاهبه وتياراته واتجاهاته، وفي (الفن) بكل أنواعه: القولية والفعلية، وفي (العلم) بمختلف فروعه، وفي (السياسة) عند إقبالها وإدبارها، وفي سائر الأوضاع الاجتماعية، ودعك من نجوم (كرة القدم) وما أفاء الإعلام به عليهم من مكرمات يتطامن أمامها كل النجوم. ولكل حقل معرفي نجومه المزيفون والحقيقيون، ولكل مؤسسة دينية أو سياسية أو أدبية أو علمية أو فكرية أو اجتماعية نجومها الراغبون في النجومية والمكرهون عليها.

ومن علماء الأمة الورعين من يضيق ذرعاً بالراكضين خلف أعقابه في غدوه ورواحه، بحيث يراهم من الفتنة والافتتان، ويجتهد في صرفهم عن ملاحقته، حتى أن من الزاهدين في الأضواء من يغلق عليه بابه. والمستخف منهم من تستدرجه المظهرية، وتخدعه الشهرة، وتعميه الأبهة، فينسى رسالته في غمرة الأشياع والأتباع، وتتحول عنده المظهرية إلى خمرة مسكرة، تشله ضراوتها، ويضطره تملق الجماهير إلى استقراء رغباتهم، ولو الجأه ذلك إلى النكوص عن جادة الصواب، على سنن (هكذا يريد الجمهور).

وتألق النجم قد يأتي بالصدفة، أو يأتي نتيجة الخطأ، فبعض الإجراءات المتسرعة، وغير الحصيفة، تصنع النجم. والأذكياء من يفوتون الفرصة على المتماسين مع الثوابت، فلا يعارون اهتماماً، ولا يقام لهم وزن، والخصوم أسرع من الأنصار في صناعة النجومية، ولهذا يبرع بعض الخاملين في ضرب السوائد والمسلمات، أو تعمد الإثارة، سواء كانت عن طريق التهتك الأخلاقي، أو الانحراف العقدي، أو التمرد السياسي، أو الإغراق في الإغراب. ولكل متناجم آليات لعبته التي قد تخفى على الدهماء وغير المجربين، مثلما تلتبس خفة الحركة في الألعاب البلهوانية. وكل ذلك لمجرد الإثارة ولفت الأنظار. وحين تضج المشاهد مستنكرة السفاهات والتفاهات، تنهض الرويبضات لتقول عن (حق الحرية) في القول والفعل، ومن هذا اللغط تشع النجومية الزائفة، وأقرب مثل على ذلك ظاهرة (الروائيين) الذين تهتكوا أخلاقياً، أو انحرفوا عقدياً، أو تمردوا سياسياً، أو تحللوا فنياً، فكانوا حديث المجالس، ومادة النقد، وسبيل الجذب لمواقع المعلومات. ومثلهم (النقاد) و(المفكرون) و(العلماء) فمنهم من قضت عليه لعبته الخطيرة، ومنهم من شردته خطيئته، فتكفلت المؤسسات المشبوهة بحمايته، وتعهدت بتلميعه من جديد. وقد يكون النجم مفردة من مفردات اللعب السياسية، والذين يقرؤون بعض مذكرات الزعماء الغربيين، يمرون بإشارات ذكية، تكشف عن حذق التدبير في صناعة النجم لأغراض سياسية. فالذي يعول عليه في تمرير لعبة مصيرية، لابد أن يكون لامعاً وجذاباً وشعبياً، وليس بمقدور أي صانع للألعاب واللاعبين أن يخطف أي شخص، ويجعل منه نجماً بين عشية وضحاها، بل لابد ان تكون لدى المختار استعدادات شخصية، تمكنه من الاستجابة، واتقان التمثيل، وقد يمر بمثل ما يمر به رواد الفضاء من تدريب مكثف. وهذه الطائفة من النجوم ينتهي وجودها بانتهاء اللعبة، فإما أن يُقضى عليهم فيموتوا، ويطمروا مع لعبهم كما النفايات النووية، وإما أن ينطفئوا، ويختفوا كالأموات. والأنظمة والأعراف والمسلمات الاجتماعية تسهم في خلق النجوم، كما أن الظروف قد تخدم طائفة منهم، وتخذل أخرى، والوسائل والوسائط تصل بالنجم إلى سِدَة النجومية، ولكنها لا تحميه، ولاتوفر له مقومات البقاء.

فكم من متناجم عرف تركيبة النجومية، ولكنه لم يعرف متطلبات البقاء على عروشها، فكان كالقارئ في كتب الشعوذة والبهلوانية، يدخل بها دوائر الضوء، ومجود آلية النجومية الذي لايحمل مؤهلاتها، يتشظى كالجرم الخارج عن فلكه. والوصول المزيف يفضح صاحبه، ويسقطه إلى الأبد. ولعلنا نضرب الأمثال بنجوميات خادعة، كشفت عن زيف وجهل وعجز. نراهم يشعون بسرعة النجم إذا هوى، ثم يغيبون في كهوف النسيان. والمجتمع البدائي يبهره كل شيء، وتكون فرص النجومية فيه سهلة المرتقى، ومن ثم يعتمد عشاق الأضواء على المخالفة لكسب الذكر على حد المثل القائل:
- (خالف تذكر).

ومجالات النجومية كثيرة: فالمعارضة السياسية سبيل من سبل النجومية، وهي الأسرع في صناعة النجم، يعمد إليها البعض عن قناعة وموقف ومبدأ ومشروعية، ويتخذها آخرون سلماً سهل المرتقى، دون أن تكون لهم قضايا، وتكثر المعارضة في الدول النامية، لقيام دواعيها، ولوجود الداعمين لها، وقد تقوم في الدول الديمقراطية، فهذا (تشومسكي) في أمريكا -على سبيل المثال- معارض لسياسة ديمقراطية مؤسساتية، عارض حروباً وأحلافاً وتدخلات، وكسب النجومية، ومعارضته ليست رغبة فيها، ولكنه يؤمن بمبادئ، تختلف مع (ميكافيلية) المؤسسات الأمريكية، وليس شرطاً ان تتفق رؤيته مع العدالة والحق، وليس شرطاً أن يكون نجماً في المنظور العربي أو الإسلامي، المهم أنه تألق بمعارضته، وأصبح علماً من أعلام المعارضة، ونجماً من نجوم السياسة، وعلى شاكلته كُتَّاب ومفكرون وساسة.

وفي الدول النامية آلاف المعارضين، الذين يسلكون مختلف الطرق، ويثيرون مختلف القضايا، ويتبنون مختلف الاتجاهات، ويتخذون مختلف الأساليب. منهم الصادق الناصح، ومنهم الوصولي، ومنهم المتهور المنكّبُ عن ذكر العواقب جانباً. ولو استعرضنا الثورات العربية، وخطاب كل طائفة، لتبدت لنا فداحة المصائب التي جرها الثوريون على أهلهم وعشيرتهم، وبلغت بالأمة الدرك الأسفل من الهوان، ومع ذلك تجد من يقول عنهم ما لو تحقق أيسره، لكانوا من أولي العزم من الرسل، وتاريخهم الدموي التدميري التبعي لاينكره إلا مغالط أو مدخول. ولاشك أن التَّماس مع المؤسسات السياسية طريق سريع للوصول إلى النجومية. والمعارضة قد تكون بدواع سياسية أو اقتصادية أو دينية أو اجتماعية أو عرقية أو إقليمية أو طائفية صادقة أو كاذبة، وحين تكون صادقة، تكون موفقة أو غيرَ موفقة، مقدِّرة للموقف ومؤقّتة له، أو غير مقدِّرة وغير مؤقتة. فليس كل نجم يحالفه الحظ، وهذا مصداق التساؤل: - ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ﴾.

والناس دائماً بحاجة إلى من يثير كوامنهم، ويشبع فضولهم، ويستجيب لمتطلباتهم، وينوب عنهم في النبش عن المسكوت عنه. ومجال الدين واختلاف علمائه من فقهاء ومتكلمين ومفسرين وشراح كمجال السياسة والمعارضة، لهذا نجد من ينقب عن شواذ الآراء في (الفقه)، ويتخذ الفتاوى الراجحة أو المرجوحة سبيلاً للتألق، فيفجرها وسط أمة خالية الذهن موحدة الفكر، غير مكترث بما تتعرض له وحدة الأمة الدينية، ثم يلحق به السرعان، حتى إذا عذُبت في فمه، وحسنت في عينه النجومية تصدر للفتيا، واستمرأ المخالفة، وربك المشاهد، وما علم أن الرسول -ﷺ- أخذ بالمفضول دون الفاضل احتراماً للمشاعر، وحرصاً على اجتماع الكلمة. وإذا كان (الإجماع) من الظواهر النادرة، حتى لقد قال بعض العلماء: (من ادعى الإجماع فقد كذب) فإن التنقيب عن مسائل الخلاف، ومنازعة العلماء فيها إخلال بالمروءة العلمية، مع أن كل مسائل الخلاف معلومة متداولة بين العلماء، وفيها مؤلفات في متناول أيدي المتابعين، تختص باختلاف المذاهب فيما

بينها، وأخرى تختص باختلاف علماء المذهب الواحد، وماترانا نقول إلا معاراً أو معاداً من قولنا مكروراً. ولن يستقيم أمر الأمة إلا بمرجعية دينية يذعن لها الجميع، وتطمئن إليها النفوس، ويرجع إليها الكافة عند التنازع. والعلماء الأفذاذ يحترمون الرأي متى كان على حق مفضول، وبعض العلماء أخذ برأي فقيه البلد، حين يمر بها احتراماً له ولأشياعه. ولو أن الجمهور لم يندفع وراء المتناجمين ومثيري الشغب العلمي، ولم ينخدع بالبروق الخلّب، ولو أنه تأمل في كل خطاب، وفكك كل رؤية، واهتم بالقضايا، ولم يهتم بالأشخاص، لقطع دابر النجومية المزيفة، ومكن القطا من أن ينام ملء جفونه، فالمتلقي يتحمل شطراً من المسؤولية، لأن الانبهار يُعدُّ من الحواضن المساعدة على تناسل النجوم المزيفين.

والمشاهد المتعددة حين يكون نظَّارتها عاطفيين انفعاليين تحجب الرؤية السليمة فيها، وتتاح الفرصة لكل وصولي لا يؤمن بحق الحياة الكريمة للأمة، واحسب أن للتربية دوراً مهماً في هذا، ولكنه من الفرائض الغائبة، ذلك أن التعليم يقف عند الممارسة التلقينية الحشوية، ولا يأبه ذووه بالتحليل والتقويم، وتربية الأذواق وتهذيب الأخلاق وتصفية الدين مما علق به. وشباب الأمة حين تستنزف طاقاتهم بالهتاف الأجوف، تستدرجهم الانتماءات المتصارعة، وتفوت عليهم الفرص الثمينة.

والذين يتهافتون على الأضواء، ويحرصون على أن يظلوا في الذاكرة الشعبية، تتولد عندهم الطرائق، وتتناسل القضايا، بحيث لايستقر لهم قرار، فكلما انطفأت قضية، وعجزت عن تكريس حضورهم، قفزوا كالقردة إلى قضية ثانية، فهم لايريدون أن يغفل الناس عنهم ساعة واحدة. والنجومية الزائفة مرض نفسي، يحمل صاحبه على المغامرات، والتنقل من ظاهرة لأخرى، والمقوون يخدعهم التورم، وشر الإقواء مايعرض لذوي الصدارة. وعشق النجومية يهبط بالعالم والمفكر والسياسي والممثل، ذلك أنه يجس نبض الشارع، ولا يقوِّم الفكرة، ولا يثمن الحاجة، ولا يجد بداً من التعديل والتبديل في صياغة خطابه، كي يناسب الجمهور، متناسياً ما يجب. والمتمادي في تملق الجمهور يجد نفسه في حالة استسلامية لايملك معها الاستقلالية، فالجمهور هو الذي يصوغ الخطاب، ومتى حاول النجم المتصنع مواجهة الرأي العام قعدت به مثمناته الذاتية ومكتسباته الآنية، مثلما يقعد بالمعيل عياله، وقد قيل: الأولاد (مجبنة) (مبخلة) (مجهلة)، وإذا صنع الجمهور النجومية، تدخل في صناعة الخطاب، فكان النجم ك(عجل) بني إسرائيل، جسداً له خوار.

وسؤال الزائر المثير ينصب على أولئك الذين يلحون بالحضور عبر وسائل الإعلام، ثم لايكونون مثيرين، ولا جذابين، ولا وقافين عند مبادئهم التي تعملقوا في ظلها، ولما لم أكن متابعاً لكثير من تحولات النجوم ولمَّا لم أكن قادراً على شق الصدور ومعرفة النوايا فإنني لست أعني أشخاصاً بأعيانهم، وعلى كل من حيزت له النجومية بحذافيرها أن يحاسب نفسه، فالمفتعلون للمواقف يسارعون في السيئات، ولا يسارعون في الخيرات. علماً أن تعدد المواقف يؤدي إلى التناقض وخلط الأوراق، ويقيني أن سوء الفهم ناشئ من خطأ التصور، فالعلماء والأدباء والمفكرون والساسة الحقيقيون يقولون ما يعتقدون، دون تفكير استدراجي للمتلقي. ومثلما نقطع بزيوف النجومية، نقطع بأن المجتمع ودود ولود، يدفع إلى مشاهدنا بالنجوم الحقيقيين الذين لايشك في صدقهم وإخلاصهم واقتدارهم إلا مدخول في فكره. وعلى الجميع من النجوم والأشياع أن يتذكروا ابتلاء السرائر، وتحصيل ما في الصدور، وختم الأفواه، وإنطاق الجلود، وقول المالك ليوم الدين:-

﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴾ [الصافات: ٢٤] .

العقيلي الراحل .. !(١)

مثلما تبدو قامة العلاَّمة حمد الجاسر في نجد تكون قامة محمد أحمد العقيلي في الجنوب.

ومثلما قدَّم الجاسر لأرضه ولأهله وسعى في مناكب التاريخ، ومنابت الشجر، وحفر في اعماق التراث لتجسيد امجاد امته قدم العقيلي لذات الأرض ولعين الأهل، ومن ثم فان رحيله محطة ألم واستذكار، ألمٌ على فراق لم نرقبه، واستذكار لمنجزات زهدنا بها، حتى اذا طواه الثرى نفرنا مسرعين لاستذكاره من خلالها.

سوف يمتد معنا الحزن.

وسوف تمتد معنا أحاديث التأبين والتفجع وفي النهاية سنفرغ لاستقبال احداث اخرى: سعيدة وحزينة، والامل والنسيان نعمتان يخفف بها الإنسان وطأة المصاب.

بقي ان نعيد العقيلي إلى الساحة من خلال ندوات علمية متخصصة نستعرض فيها منجزاته.

ومن خلال اعادة طباعة كتبه المتعددة الاهتمامات ومن خلال توجيه الدارسين الأكاديميين إلى اعماله التاريخية والجغرافية والأدبية لتكون حاضرة المشاهد الثقافية محليا وعربيا.

والملاحق الصحافية أسهمت بما يستحق العقيلي من تكريم، والعقيلي الذي فقدته المحافل العلمية والمشاهد الثقافية طاقة علمية وادبية متميزة.

ويتوفر على مواهب متعددة فهو عالم جغرافي حدد معالم الجنوب، وعالم تاريخي رصد احداثه ومحطاته التاريخية، وشاعر موهوب سجل الاحداث الهامة، وهو فوق ذلك صاحب اهتمامات متعددة امتدت إلى التراث الشعبي والامثال. والعقيلي من الكفاءات العلمية النادرة، وفقده سيترك فراغا معرفيا، واحتفاء النخب الفكرية والادبية به يعد رحيله امتداد للاحتفاء به في حياته على كل المستويات.

وكم اتمنى توفر الجهد والوقت لاعادة قراءتي عن بعده الادبي، وقد سبق لي ان درست شعره في رسالة الدكتوراة «النزعة الاسلامية في الشعر السعودي المعاصر».

ولما تزل هناك بقايا في البعدين المعرفي والأدبي لدى الراحل الفقيد.

رحمه الله رحمة واسعة.

---

(١) تاريخ المقال: ١٣/ ٤/ ٢٠٠٢

الموقف من الإنسان والأشياء في العمليات الأمنية .. !؟[1]

المجتمع المدني المتحضر يتطلب رجل أمن تتكافأ إمكانياته المعرفية والأخلاقية والإجرائية مع إمكانيات الشرائح المجتمعية التي يتعامل معها، ومع المثمنات المادية المتنوعة والمتعددة والمعقدة في كثير من الأحيان، والأكثر خطورة إزاء العوارض حتى يتعامل معها في هدم أو حريق، ومتى سوِّيت الفجوة بين المرتكزات الثلاث:

*الإنسان.

*الأشياء.

*الموقف.

نجحت العملية الأمنية، وتفادى المسؤول أيَّ سلبية محتملة الوقوع، ومتى اتسعت الفجوة بين رجل الأمن وشرائح المجتمع ومثمناته، تفاقمت عملية الاتصال، وأدت الممارسات إلى تصعيد لمشاكل، تتنامى مع الزمن، لتضع الجهاز الأمني في حرج، وبدل أن يقضي على جيوب المشاكل، يعمق بفعله بؤر التوتر والحساسيات، ويشكك بالثقة، ومتى فقدت الثقة تعطلت كل الفعاليات، ولهذا لابد من خلق أجواء ملائمة، تمكن رجل الأمن من زرع الثقة في الأنفس: ثقة في الإمكانيات، وثقة في الأخلاقيات، وثقة في سلامة الإجراء، وثقة في الكفاءة الذاتية، وروافد الثقة الثلاثية:

*الإمكانيات.

*الأخلاقيات.

*والإجراءات.

ليس من السهل التوفر عليها بالقدر الكافي، ذلك أن إعداد الكوادر البشرية المؤهلة للاضطلاع بالمهمة الأمنية لا يمكن أن تتأتى بسهولة، إذ هناك عوائق غير مقدور على تذليلها، قد تتعلق بالإمكانيات المادية، أو بعدم التكافؤ بين رقعة الخدمات وتعدد مستوياتها من جهة ورجل الأمن الميداني المباشر، وقد تتعلق بالإمكانيات الآلية كمّاً وكيفاً، إذ إن مباشرة الحدث لا يكون بالضرورة من رجل أمن مؤهل بالمعرفة والخبرة، وعمليات التوظيف ليست انتقائية، وليس هناك فترات تدريب كافية بحيث يمكن تلافي أوجه النص.

ولهذا فإن تصور الموقف ميسور، ولكن التوفر على الإمكانيات التي تجسده في الواقع على أحسن صورة قد تكون عسيرة المنال، وعصية التحقيق، وحين لا تتأتى الإمكانيات، فإن واجب المسؤول المضي في المحاولة وعدم اليأس، فالذي لايدرك كله لا يترك كله، وبعض الشيء أفضل من لاشيء، وواقع الفعل الأمني في بلادنا مشرف، إذا قوم من خلال سياقاته العربية، وكفى المرء نبلا ان تعد معايبه.

والمؤسسة الأمنية حين تمنى بأي إخفاق يجب ألا يحصر في سبب واحد فقط، ولا ان يحال على سوء النية أو يحال على الموقف غير الحضاري، أو على الإجراء غير السليم، أو على الامكانات غير المتكافئة، فقد لايكون منها البتة، ذلك ان الاطراف الثانوية غير المتمثلة في مسرح الحدث تؤثر على الموقف، دون ان يتصورها الرأي العام، فهو دائما يحيل إلى الاقرب للموقف، وهو رجل الأمن، وحين يكون رجل الأمن امام حدث ومحدث وظرف لهما فإنه بحاجة إلى إعطاء كل طرف ما يتطلبه، وهو لكي يتمكن من السيطرة على الحدث والعودة بالاوضاع إلى وضعها الطبيعي، لابد ان يفهم الأجواء، ويرسم الخطط، ومع هذا يجب ان يضع في تصوره النسبة المحتملة للإخفاق، إذ هو امام مقترف ربما يكون محترفا، يضع في اعتباره كل الاحتمالات.

---

(١) تاريخ المقال: ١٦/ ٤/ ٢٠٠٢

وإذ لا يتمكن المسؤول من التوفر على التوازن بين رجل الأمن والمستفيد منه، فإن الواجب مواجهة القدر بشجاعة، بحيث يعرف أطرافُ الاشكالية الممكن والمستحيل، بالتالي يقوم التعاذر بدل التلاوم، والرضا بالميسور بدل السخط على الواقع، والمكاشفة والشفافية تتطلبان شجاعة وثقة، شجاعة في مواجهة العارض، وثقة بإمكان التخطي إلى الافضل، فالتقصير خطأ، والخطأ ابتداء ناتج عمل، ولكن الإصرار عليه، أو التكتم عليه، أو المغالطة والمكابرة في مواجهته، يحول الخطأ إلى خطيئة، والتسامي فوق المساءلة والنقد يشرعن للنقص والخطأ، ومن بوادر الثقة مواجهة الاخطاء والنقد بروح رياضية، وعلينا استشعار مستويات الثقة: ثقة بالذات، وثقة بالغير، وثقة متبادلة، وقيام الثقة بكل مستوياتها يحول دون الصدام والاتهام، ويحصر الخلاف في اطار التساؤل والتشاور والتناصح، وكم هو الفرق بين المراجعة الودية والصدام العنيف وتبادل الاتهامات.

وحين لا تكون الثقة بين طرفي العملية الامنية تتحول الاشكالية من معالجة الاحداث إلى التناجي بالإثم والعدوان، وحديثنا عن «الموقف» يستدعي التحفظ على المثاليات المتعالية عن الواقع، فالذين يقرؤون «الموقف» قد لا يقرؤونه بواقعيته، وانما تعدو اعينهم اليه بوصفه مشروع فعل، وليس فعلاً، وهناك فرق كبير بين مشروع الفعل والفعل، فالمشروع دائما يستمد مشروعيته من اقصى حدود المثالية، فيما يأتي الفعل متدنياً ومجسداً لمجموع الامكانيات المتاحة، والاشتغال في عيوب الآخرين دون النظر في عيوب الذات مخل بالأهلية، وذلك بعض معوقات التفاعل الايجابي في المرجعيات.

ورجل الأمن بوصفه المطبق الفعلي للعملية الامنية قد تنقصه اشياء كثيرة: ذاتية، وغيرية، وشبكة الاشكالية معقدة، إذ ربما يكون كفاءة متميزة في خلقه وذكائه وأهليته ومناسبته للمكان، ولكن الطرف المستفيد دون ذلك، وقد يكون طرفا العملية في مستوى الكفاءة، ولكن الإمكانيات الآلية دون ذلك، ولأن هناك كوادر بشرية وكيانات إدارية تأتي في أعقاب ممارسات رجل الأمن أو معه ك«القضاء» و«الصحة» فإن بوادر السلبيات التي تنتجها الاطراف الثانوية تضاف إلى الطرف الرئيس بوصفه ماثلاً في الصورة، ومثل هذه الرؤية المقعرة تحول دون الانطلاق الآمن الواثق. والمواقف الأمنية بوصفها ممارسة سلطوية شرَّع لها النظام واقتضتها متطلبات الاجتماع فإن النفس البشرية مجبولة على عدم استساغة الخضوع المشروع للسلطة، مهما بلغت شرعيتها، وهذه الحالة النفسية قد لا يضع لها الموقف لحظة الإجراء أي اعتبار، ومن ثم تشكّل عقبة في طريق الأداء الوظيفي، وعلم الاجتماع الجنائي، وعلم النفس الجنائي، والقانون الجنائي تفيض بالضوابط والأساليب الإجرائية المناسبة والمجسدة للإشكاليات.

والأحداث، والحوادث، والجرائم في سباق مستعر مع المواجهة، وكلما طرح مسؤول الأمن اسلوباً ذكياً لتعقب الجرائم والمجرمين، اتخذت الجريمة اسلوباً أدق للنفاذ من مسام الشبكة، وهكذا، وبالتالي فإن التوفر على الإمكانيات يتطلب ترقي المعادل، ورجل الأمن قد لايتمكن من استعمال كل إمكانياته تمشياً مع إمكانيات المستفيد، ومأزق الموقف في فورية التقدير والتوقيت، وتسارع البدائل الإجرائية، وتغيير الخطط في مسرح الجريمة، وبالتالي فإن هرمية المسؤولية لا مجال لها، وممارسة الصلاحيات المؤقتة امتحان لقدرة رجل الامن الميداني الذي قد لا يتوفر على امكانية التواصل مع غرفة العمليات، بحيث تتحمل معه قسطاً من الإخفاقات، وهو حين ينهي العملية بنجاح يشاركه غيره، وحين لا يحالفه الحظ، يتحمل المسؤولية وحده، وهذا قدره المحتوم والمجحف في آن.

وحين نتحدث عن «الموقف» تتجسد امامنا صورته الحضارية ومرجعيته الاسلامية، بحيث لانقطع بتوفر المستوى المطلوب، لا من حيث الصورة، ولا من حيث مقتضى المرجعية، وليس مستساغاً إحالة هنات الموقف إلى الجهل أو سوء النية، فالخطأ أو

التقصير حين يعالجان بهذا المفهوم تتعمق هوة الخلاف، والبعض تتشكل رؤيتهم من خلال البحث في السلبيات واستصحاب التجهيل وسوء النية، وتلك مواقف تحمل الاطراف على التحول من الحوار الايجابي إلى الصدام المخل بمتطلبات العلاقة الايجابية، وباستدعاء الموقف تتجه الانظار صوب من يتحقق على يده نجاحه أو إخفاقه، وهو رجل الأمن الميداني، وليس القابع وراء مكتبه المخملي، وهنا تتجسد صورته في المخيلة كفارس أحلام، ليس في شكله ووسامته، ولكن بممارسته الحضارية، فما هي الصفات التي يتطلع اليها المواطن المرتبط أمنه واستقراره وسلامته بتصرفات رجل الأمن؟ ذلك أنه حين يضطلع بأخطر مسؤولية، وأهم مسؤولية، تكون صفاته وأخلاقياته استثنائية، قد لا تتوفر بالقدر المطلوب، وهو بتحمله تلك المسؤولية، ينتقل بمواصفاته العامة التي يشترك فيها مع سائر الناس إلى متطلبات المهمة الامنية المتمثلة: بالعزم، والحزم، والشجاعة، والتضحية، والعدل، والحيادية، والفراسة، والصدق، والأمانة، والنزاهة، والسيطرة على الأهواء الشخصية، وضبط الأعصاب، والتكيف مع المستجدات والعوارض، ذلك أن مهمته جماع الفضائل، ودعك من القيم السلوكية خارج إطار المسؤولية، ودعك من التوفر على المعرفة الشرعية التي تحدد اسلوب المواجهة ومرحليته، فالموقف لا يكون مشروعاً بالقوة، وإنما القوة للقانون الملزم، والقوة المادية كالوازع، وكما في الأثر: إن الله لينزع بالسلطان ما لايزع بالقرآن. وحين لا يكون رجل الأمن رجلاً عادياً فإن سلوكياته تتضخم إلى حد الاستحالة، وتكون صفحة السمعة عنده فاقعة اللون، تجسد أي خدش، وتضخم أي مخالفة، وتصورنا للمواصفات النفسية والسلوكية والمعرفية يحملنا على تفادي الثنائيات، فالشجاعة يجب ألا تصل إلى حد التهور، واللين يجب ألا يصل إلى حد الضعف، والحيادية يجب ألا تصل إلى حد السلبية، ولابد والحالة تلك أن تدخل الصفات الخلقية في مفهوم التوازن، والموقف يزداد حساسية في ظل المستجدات العالمية والإسلامية والعربية، بوصف الدولة فاعلاً رئيساً ومؤثراً ومسؤولاً، والإعلام المعادي بمعرفته لحجم المملكة يتلقط السقطات ليحولها إلى عقبات معوقة في طريق الأداء السليم.

وإذا كانت مهمات رجل الأمن ذات مواقف متعددة وفورية ومباغتة ومتغيرة وفق أجواء الأحداث وغير مقدرة فإن الإمكانيات الشخصية يجب أن تكون بمستوى مواصفات المواقف ومراوغتها، ولكل موقف متطلباته، وقد تكون من أولويات مهمات رجل الأمن: الوقاية لمنع الجريمة من الوقوع، وتعقب اطرافها بعد الوقوع، وتنفيذ حكم السلطة القضائية بعد مواجهة المجرمين بمقترفاتهم، وصدق الإثبات والإنصاف في الإدانة، وهو بهذا يكون مع الجنح منذ بدايتها حتى نهايتها، وهو معها في كل محطاتها، وتتواصل المعية لتأخذ بآثارها وانعكاساتها على ذات الجانحين، وعلى المقربين منهم، وعلى المجتمع، ومن ثم تكون معلوماته المصدر الرئيس للقضاة وللإصلاحيين الذين يرسمون المناهج ويقترحون أساليب العلاج.

ولأن الجريمة تختلف باختلاف الدوافع، والنتائج، وحجم الضرر، وتجاوزه وشموليته فإن المواقف يجب ان تكون مرنة في تحولاتها الفورية. فجريمة المخدرات ترتبط بالمهرب والمروج والمستعمل، وهناك مستويات متفاوتة للمهربين والمروجين والمستعملين، لا من حيث السبب، أو التنظيم، أو المقاومة المسلحة، وإنما هي من هذه وغيرها.

وجريمة المخدرات تختلف كثيرا عن جنح الأحداث التي تسهم في صناعتها الاسرة والمدرسة والوضع الاقتصادي والفراغ والإعلام، ومستويات السرقة بين السطو والاختلاس، وبين الاحداث والعصابات، وحتى الجريمة تختلف من حيث التنظيم والفردية، كل هذه الامور تشكل امتحاناً عسيراً وفورياً لرجل الأمن، والمواقف تتطلب

اتخاذ القرار الفوري وغير المؤجل، واتخاذ القرار يؤثر على خطوات الحل، فقد يكون الإبطاء في اتخاذه سبيلاً لضياع الخيوط، وقد يؤدي التردد ولو لدقائق إلى فوات الفرص النادرة، وملفات الحوادث حين تقرأ، تبدو الثغرات المفوتة لأهم الفرص وأندرها، ولهذا فإن الموقف حساس وهام، وليس من الممكن تبرير أي تصرف يسهم في انفلات الاطراف أو تعقيد الحل، وكم هو الفرق بين منع الجريمة، ومكافحتها، وملاحقة المجرمين، والكشف عن غموضها، فالمجرم المحترف يختلف كثيراً عن المجرم المبتدئ، ومذكرات رجال الامن تنطوي على مفاجآت غريبة، وقد يفقد رجل الامن حياته بسبب تصرف فوري، لم يحسب له الحساب المناسب، وكم نسمع بين الحين والآخر عن شهداء الواجب الذين فقدوا حياتهم، وقد تضيع بضياعها معالم الجريمة. وبقدر المفاجآت الموجعة هناك مفاجآت سعيدة، فقد تكتشف جرائم غامضة بالصدفة، وبدون اي تخطيط، والحملات التي تنفذ بين الحين والآخر تكون لها محصلات متعددة، ليست واردة في حسابات الحملة.

ولأن الوقاية من الجريمة من أولويات مهمة الأمن فإن من الأفضل ألاّ تتم وفق منهج ثابت تتوارثه الاجيال، وواجب المسؤول ان يكون قادراً على ملاحقة المستجدات، فهناك وسائل وقائية تقليدية، فيها الثابت والمتحول، كالعقوبات، والرقابة، والتوعية، ووسائل المعالجة، والكشف، وبعض هذه تدابير وقائية، ولكن لابد من التخطيط والبرمجة، والفهم الدقيق «للاستراتيجية»، «والتكتيك»، وفصل اجهزة المواجهة عن اجهزة الوقاية خطوة نحو التطوير، ولتنمية قدراتنا الوقائية لابد من اتاحة الفرصة للباحثين العلميين للاطلاع على كافة الاحوال والمواقف، لكي يفاعلوا بين معرفتهم وخبرة الآخرين، فالقطاعات المسؤولة من اولويات مهماتها الارتفاع بكفاءة رجل الأمن وقدراته، وذلك بعقد الدورات وبرامج التدريب المستمر، وربط ذلك بالترقية والعلاوة والمكافآت التشجيعية، سواء كانت مادية أو معنوية، كالشهادات والأوسمة.

ولن تتطور فعاليات الوقاية والمواجهة إلا بتنمية الطاقات البشرية، وتوفير الإمكانات المادية، والتحول بالتوعية من الوعظية إلى العلمية المقننة، وتمكين المستفيد من الوقوف على آخر ما توصل اليه علم الجريمة من نتائج. والعمل على اصلاح المنحرفين والمجرمين وإعادتهم إلى المجتمع قد لا يكون مسؤولية رئيسة لرجل الأمن، ولكن من مصلحته ان يسهم في هذا القطاع، موظفاً كل خبراته وتجاربه، إذ ان أسلوب الوقاية يطال ثلاثة محاور:

*رجل الأمن.

*المجرمين.

*المجتمع.

وإذ يكون التشريع الاسلامي في قضايا الجريمة ذا شقين: الوقاية والعقاب، فإن على المسؤول تنمية الجانب الوقائي، وتحديثه، وتطوير الاجهزة في شقيها: الأمني والقضائي، وما يتتبع ذلك من رقابة وتحقيق وادعاء وعلاقات.

ولأن الجرائم ذات صلة وثيقة بسائر الاوضاع الاجتماعية والنفسية والاقتصادية والثقافية والاعلامية فان الاسلوب الوقائي الناجح هو الاسلوب الشمولي الذي ينظر إلى الجريمة بوصفها منتج فعاليات متعددة، وليست محصورة بذات المقترف. فالمجتمع قد يصنع المجرم، والوسائل الإعلامية قد تهيء الأرض الخصبة لتنامي الجريمة، فالجريمة لا تنزل من السماء، إنها مُنتج مجتمعي، والسؤال هل تنشأ الجريمة ثم تبحث عن المجرم؟ أم ينشأ المجرم ليبحث عن الجريمة؟ وهذا التساؤل يدخل بنا في سفسطة «البيضة والدجاجة» أيهما الأول، ولكن تصور العلاقة بين المجرم والجريمة والمجتمع تهيئ الاجواء الملائمة للحل.

ومحاولة إصلاح الذات غير مجدية، ما لم يمتد الإصلاح إلى الأوضاع الموثرة على الذات، إن عودة المجرم إلى المجتمع السليم قد يساعد على سلامته، وإذا عولج المجرم داخل السجن بوصفة مؤسسة إصلاحية، لا زنزانة عقابية، ثم خلي سبيله ليختلط في مجتمع ينتج الجريمة، كان مهيئاً للعودة إليها مرة ثانية.

إن الوقاية أهم خطوات رجل الأمن، والوقاية بحد ذاتها تعد إشكالية معقدة، وإذ يتطلب الموقف فهم الفئات المنحرفة ودوافعها النفسية والأخلاقية والاجتماعية والعاطفية ومستوياتها، كالقتل، والسطو، والاختلاس، والسرقة، والاغتصاب، والاحتراف، والصدفة، فالمعرفة، والفهم تنتقلان إلى التحليل واتخاذ الموقف، والتنبؤ بما سيحدث، ومن ثم فإن سبق الحدث أفضل من تعقبه.

وإذا كان الموقف يتجاوز الإنسان إلى الأشياء، فإن رجل الأمن بمثلما هو مؤتمن على الأنفس فهو مؤتمن على الأموال، وحفظ الأموال يمتد إلى التصرف الحكيم إزاء مواجهة الكوارث كالحرائق والسيول والزلازل، وكم تضاعفت الخسائر بسبب التصرف غير المنظم من رجل الأمن، ولهذا فإن الموقف من الإنسان في العملية الأمنية لا يقل أهمية عن الموقف من الأشياء، والحديث عن الموقف يستدعي الحديث عن الوسائل، فرجل الأمن كالمقاتل، كلما كانت آلياته حديثة ودقيقة ومتطورة، تمكن من السيطرة الفورية، وحين يعتريها أي نقص ينعكس على أدائه، وحين لا تكون في مستوى الحدث فإنها تؤدي إلى مضاعفات، يتحمل أعباءها الوطن.

إن الحديث عن الموقف يستدعي ظواهر تسهم بتعقده وتنامي إشكالياته، وهي ظواهر ليست من اختصاص مسؤول الأمن، ولكن حلها يهبط بمعدل الجريمة، فـ«البطالة» مثلاً ليست مرتبطة بقطاع الأمن، ولكنها مقلقة له، وكم يود ذلك القطاع أن تكون صورته في المجتمع مشرفة، إن معدلات الجريمة تحال لرجل الأمن، وهي إحالة جائرة، والمسهمون في معدلات الجريمة ليسوا في الصورة بينما يستدعى رجل الأمن عند كل مخالفة، إن الإشكالية في تنامٍ مستمر، ونحن أحوج ما نكون إلى وضع الأمور في مواضعها الطبيعية.

تفكيك الخطابات المتلاحقة في المشهد السياسي .. !![(١)]

ليس مصطلح«الخطاب» مرتبطاً بالقول المنبري وحسب، إنه اندلاق وامتداد، بحيث يشمل أي مشروع: سياسي أو اقتصادي أو فكري أو أدبي.

والخطاب بهذا المفهوم يمر بعمليتين «ديناميكيتين»:

بناء الخطاب.

تفكيك الخطاب.

وعملية البناء تتشكل من خلال سياقات وأنساق عارضة أو ثابتة، أو منهما معا، فخطاب ما بعد الحادي عشر من سبتمبر، يختلف كثيرا عما قبله، والعالم كله يتسابق في طرح خطابات مغايرة عما سلف، ليسبق إلى المقاعد الأمامية، والأمة العربية بوصفها غنيمة ليست باردة على الإطلاق فإنها تقع تحت طائلة الخطابات الحساسة، وكان عليها أن تعي متطلبات المرحلة ومقاصد الخطابات المتوازية والمتقاطعة والمتصادمة، ليكون خطابها أكثر انسجاما مع المتغيرات، ويكون تفكيكها لخطابات الآخر أكثر واقعية مما سبق، إذ ليس البناء بأقل خطرا من التفكيك، وخطأ البناء أو التفكيك مربكان.

والتفكيك هو الآخر يتشكل من سياقات وأنساق، وليس شرطا أن تكون كما سياقات وأنساق البناء. وتلك إشكالية المرسل والمتلقي، والعالم يمر بحالة من التحولات السريعة والخطابات الأسرع، فكل خطاب يحمل معه شفراته، قد لا تصلح الاستعانة بشفرات قديمة لتفكيكه، فالمتغيرات السريعة تحول دون الثبات ونمطية المواجهة، والمتابع يمكن أن يصف أي حدث مثير بالخطاب، لأنه رسالة من نوع آخر، وإشكالية العالم العربي أنه لم يرق بخطابه إلى مستوى الأحداث المصيرية«أحداث الحادي عشر من سبتمبر» و«حروب الألفية الثالثة» و«محور الشر» و«انتفاضة الأقصى»و«العولمة» و«الاجتياح الإسرائيلي». ولو ضربنا الأمثال بعدد من مفردات الخطابات المتناسلة من الخطابات الرئيسة لتراءت لنا عن قرب:

زيارة كولن باول: بوصفها آخر حدث، إنها بنية سياسية، كل محترف يفككها وفق رؤيته، والمتابعون مختلفون حول الأهداف والنتائج. لماذا جاء؟ وبماذا جاء؟ ولمن جاء؟ هل جاء بخطة؟ أم جاء لصناعة خطة؟

مبادرة الأمير عبد الله تعد بنية سياسية، وخطاباً جريئاً لم يتفق المشهد السياسي عليها، وإن ظفرت بما لم يظفر به أي خطاب في ظروف عصيبة كهذه الظروف التي تمر بها الأمة العربية والإسلامية، لقد تحولت من تصور واقتراح إلى مبادرة عربية، وأصبحت محوراً لأكثر من خطاب، والرافضون لها تحت أي مسمى ينضم إليهم«آرئيل شارون» حين أعلن مؤخراً رفضه لها، وكان قد رحب بها من قبل، وهذا تفكيك يؤكِّد الارتباط بالسياقات والأنساق والظروف الطريفة أو التليدة.

زيارة الأمير عبد الله لأمريكا ومقابلة بوش في أحلك الظروف. ماذا تعني؟ وما النتائج المتوقعة؟ وهل هي امتداد لتحرك دبلوماسي أفرزه تفاقم الأمور، وحرض عليه تمادي إسرائيل في التوغل والحصار والقتل والاعتقال؟ يضاف إليها ما أثير في طريقها من عوائق لتعطيل فعاليتها مثل: عرض لأفلام عن«القاعدة»، وما أثير حول قصيدة السفير«القصيبي»، ورفض شارون للمبادرة، وتصنيف جمع التبرعات على أنه دعم للإرهاب.

ولك أن تقول مثل ذلك أو فوق ذلك عن:

---

(١) تاريخ المقال: ٢٣/ ٤/ ٢٠٠٢

تعاقب الحروب على أفغانستان.
ظاهرة الإرهاب وتعدد المفاهيم.
محور الشر كما تتصوره أمريكا وحلفاؤها.
التلويح بقطع النفط العراقي والليبي والإيراني عن أمريكا.
قمع المظاهرات أو منعها.
ثني أمريكا عن ضرب العراق.
دعم أمريكا لعمليات الاجتياح كرد فعل للموقف العربي من ضرب العراق.

أشياء كثيرة تقرأ على عدة وجوه، والمتابع الشريك يختلف عن المتابع المتأثر الذي ليس له يد في البناء، وليس بقادر على التفكيك السليم، ولكنه يتجرع نتائج الخطاب السياسي في هذه الظروف الأكثر حساسية وخطورة، وليس هناك ما يمنع من محاولة تفكيك أي خطاب، وإن تباينت الآراء وتعددت التصورات.

وكم من مشتغل بالسياسة فكك«انتفاضة الأقصى» بوصفها خطاباً سياسياً استرتيجياً أو تكتيكياً، ومع تباين الآراء عند استقرائها، فإنها مرت بتحولات كثيرة، وأبلغت رسالة واضحة للعالم، واخترقت فضاءات عالمية، وغيَّرت مفاهيم كثيرة، وحولت مواقف، وحدت بالمتوحش الإسرائيلي لارتكاب أبشع الجرائم لتركيع المحاصر الفلسطيني وإذلاله. وكان من تداعياتها الرحلات المكوكية بين دول العالم، لإيجاد مخارج من هذه المآزق، ومن بين هذه التحركات مجيء«كولن باول» الذي عاد بخيبة أمل، وهو ما عبَّر عنه الرئيس بوش بقوله: «إما السلام وإما الإرهاب».

والقراءة المنصفة أن يقول: «إما السلام وإما الحرب».

هذه الانتفاضة الميمونة، كشفت من جانب آخر عن ضعف المواقف العربية، بوصفها مواقف متخاذلة. على أن تفكيك«الضعف» و«التخاذل» بوصفهما سمة الخطاب العربي، يختلف من قارئ لآخر، فالبعض يحيل إلى التآمر العربي على القضية، ويرى أن«الضعف» و«التخاذل» مصطنعان، وأنه بالإمكان اتخاذ مواقف أكثر فعالية، فيما يرى آخرون أن ذلك الموقف طبيعي، وأن الوضع العربي لا يستطيع أن يقدم أكثر مما قدم، ويحيل لسلسلة من الأحداث والقضايا والاتفاقات التي كبلت الخطاب العربي. فمعاهدة«كامب ديفيد»، وحرب الخليج الأولى والثانية، وحرب لبنان، وحرب التحرير الأفغاني، والحروب الأهلية في السودان واليمن والصومال، والخلافات الحدودية، وتعارض المصالح والأحلاف، وتسجيل المواقف، والعنتريات الفارغة، وتباين الأيديولوجيات، والتفاوت الاقتصادي والاجتماعي، كل ذلك أسهم في صناعة أجواء ملائمة لمثل هذه الممارسات الصهيونية والمواجهات العربية المتخاذلة.

والعودة إلى سلسلة الأحداث التي فتَّت في عضد الأمة ضروري ومهم، فقراءة الموقف العربي لا يمكن أن يكون مجدياً، مالم نربط ذلك بكل الأحداث التي اجتاحت الأمة العربية، وأنهكتها مادياً ومعنوياً، وزرعت الشك والارتياب والخوف، والحلقة المفقودة أن بعض المفككين للأوضاع حين لا يقبلون بالرأي الآخر، يحيلون إلى الخيانة والتآمر والعمالة، ولو أنهم قرئوا بذات الآليات والحيثيات/ لكانوا الأكثر تآمراً وخيانة وعمالة، غير أن الأمر مختلف جداً، إن هناك سراً لا يبلغه المفككون، فالسياسة فن الممكن، وهي تتسع لكل الاحتمالات، وسيظل المعنى في بطن صانع اللعبة دون اللاعب، ومتى خفيت بعض الحلقات، تحولت قراءة الخطاب إلى رجم بالغيب.

وأي قراءة معمقة لأي حدث أو خطاب لا ترتبط بسلسلة الأحداث إنما هي قراءة مسطحة، وقراءة«الأبيض»و«الأسود» قراءة تعسفية. والإشكالية ليست وقفاً على الواقع، وتفكيك أحداثه، الإشكالية في ذاكرة الإنسان العربي، لأنها ذاكرة معطوبة، تنسى الماضي

بكل مآسيه، وتستفتح كل يوم بخطاب جديد، لا يحيل إلى المآسي السابقة، ولا يستعيد صناعها بكل بشاعتهم، وهذا النسيان أو التناسي يصب في مصلحة العدو، لأنه يكسر العظم، ويحرق الأرض، ثم يغسل العار بالتقادم، ويستر الخطيئات بالصفح والعفو عما سلف، والمسيء حين تفضل بإيقاف الإساءة، لا يتعثر بماضيه المجحف بحق القضايا العربية.

لقد لعب الاستعمار دوراً دنيئاً منذ«وعد بلفور» ويوم كانت بريطانيا سيدة الموقف، كانت الأكثر ميلاً مع الصهيونية، والأكثر دعماً لها. وقراءة الأحداث حين تجتث من فوق الأرض، ولا ترتبط بجذورها، تغري أي دولة قوية على ممارسة الرض والكسر والإحراق والإزهاق، ثم غسل آثارها بمرور الأيام، لتعود إلى المشهد طاهرة مطهرة، وعلى ضوء ذلك يجب أن نفكك زيارة«كولن باول» باستحضار الخطايا لا بنسيانها، فزيارته محاولة لسل شعرة أمريكا من عجينة المشاكل، وممارسة التطهير، للدخول من باب الأصدقاء الأوفياء، الذين لهم النصيب الأوفى في المغانم، وعلينا الكفل الأكبر من المغارم.

والزيارة رغم دعمها والحاجة إليها لم تنجح، فهي في نظر البعض«فاشلة»، وفي نظر الفلسطينيين«كارثة»، وفي نظر أمريكا«حققت بعض التقدم»، وهذه مستويات ثلاثة من التفكيك للزيارة، بوصفها مفردة من مفردات الخطاب الأمريكي. «بول» جاء لإرغام ياسر عرفات على الاعتراف بأن ممارسات المقاوم الفلسطيني إرهاب، وأن ممارسة إسرائيل دفاع عن النفس، والرئيس الأمريكي من ورائه يطالب بدعم عربي لمكافحة الإرهاب، بوصف العمل الفلسطيني إرهاباً، فيما يرى العالم العربي أن الفعل الإسرائيلي هو عين الإرهاب، وبتناقض هذه المفاهيم ستتحول العلاقات العربية الأمريكية من سيىء إلى أسوأ، ومن ثم فإن من الطبعي أن يفشل بول في«مرثونه» بينما يحمِّي «تينت» لمباشرة «مرثون» محكوم عليه بالفشل، والاثنان يركضان في مسارين متوازيين:

المسار السياسي.

والمسار الأمني. بوصف أحدهما على قمة السياسة، والآخر على قمة الأمن.

والأمير عبد الله الذي يحزم أمتعته لمواجهة الرئيس بوش في أحلك الظروف مع ما نشر في طريقه من أشواك أومأت إليها لن يخرج بخطابه عن الصف العربي والأمل الفلسطيني، ومن ثم فلست متفائلاً من الموقف الأمريكي، ولكن يجب ألا نمل من المحاولات.

وإذا كان«بول» قد جاء وفي تصوره رؤية الصقور والحمائم الأمريكان، الذين سيفككون مضامين رحلته ويقومونها، فإن الأمير عبد الله سيواجه مهمته وفي باله أكثر من صقور وحمائم عربية.

دعاؤنا الصادق أن يكلل الله أعماله بالتوفيق والنجاح، لإيقاف هذا التدهور، وإذا كان المناوئون للمبادرة والزيارة قد نثروا عوائقهم بذكاء فإن الاختراق الجديد من وزير الخارجية السعودي بزيارته«لموسكو» محاولة تمهيدية للضغط على أمريكا، وقد تكون ظهيراً لزيارة الأمير عبد الله، ولست أعرف كيف يقرأ هذا الخطاب؟ وهل سيكون هناك مزايدات كما ألفنا؟

قد تقرأ زيارة الأمير عبد الله لأمريكا، بأنها مواجهة صريحة، وعتاب عنيف للأصدقاء الذين خذلونا في ساعة العسرة. وبول الذي عاد بخفي حنين ماذا سيكون خطابه القادم، وكيف يتم تفكيكه من قبل الأطراف المتلقية، وهو قد ترك الباب مفتوحاً، ولم يؤمن بالطريق المسدود الذي حشر نفسه فيه.

جميل جداً أن نجد متسعاً للقراءات المتعددة، والأسوأ أن نسيء الظن بمن يخالفنا الرأي.

تفكيك الفعل الأمريكي .. !(١)

١ - لم نصف دور أمريكا بالموقف، وإنما تجاوزنا به إلى الفعل، والدولة الشريكة في الأحداث لها: موقف، وفعل. وأمريكا ضالعة في صناعة الفعل، أو في الرعاية له، أو في الموقف منه، أو في ممارسة الفعل: منفردة أو شريكة.

والمطابخ السياسية العريقة تقد القمص على قدر الأبدان، فلا مجال للارتجال ولا للمجازفة ولا للقرارات الفردية ولا للتصرفات الانفعالية، وليس فيما نقول تزكية، ولكنه تحريض على المواجهة بالمثل، وأمريكا صاحبة القدح المعلّى في تعدد المكاييل والموازين والتناقض الصارخ. والتخطي بالتفكيك من الموقف إلى الفعل له دلالته، إذ ربما يكون الموقف مؤيداً لطائفة على أخرى، أو محايداً، ثم لا يكون لحالتيه التأثير الذي نعيشه مع الفعل الأمريكي، ولو نظرنا إلى مواقف الدول الأوروبية على سبيل المثال، لوجدناها كما نومة الذئب الذي:

ينام بإحدى مقلتيه ويتقي
بأخرى الأعادي فهو يقظان نائمُ

فالأوروبيون ينظرون بعين حذرة وجلة إلى الحق، وبالأخرى إلى المصالح المشتركة مع الخصم، إذ ليس هناك فعل أو موقف إلا بثمن، والأقل الأقل من يأخذ بالحق الإنساني، وبالعدالة المطلقة، وحق الشعوب في تقرير المصير.

ومثلما أن لأمريكا مصالح في أوروبا، فإن للأوروبيين مصالح دون تلك في أمريكا وفي الوطن العربي، ولهم قضاياهم ومشاكلهم التي تتطلب حبلاً من الله أو حبلاً من أمريكا، لإنجازها أو تذليل عقباتها، وأمريكا بما تملكه من أذرعة طويلة قادرة على إجهاض المواقف وتقويض الأفعال، يحسب لها القاصي والداني كل الحساب، وليس من المصلحة لأي طرف نسف قنوات الاتصال معها، ما أمكن ذلك.

٢ - وموضعة الفعل الأمريكي وتفكيكه، يتطلبان إمكانيات استثنائية، إذ ليس من السّهل على المتخصص في السياسة والمشتغل فيها وصانع أحداثها أن يراهن على تمكنه من قراءة السياسة الأمريكية قراءة سليمة، فكيف بالذين لم يتخصصوا، ولم يشتغلوا، وكل ما لديهم لايتجاوز المتابعة الإعلامية، والقليل من القراءة الاستعراضية للدراسات والمذكرات والمقالات المتسطحة والمتناقضة إلى حد الفوضى وبما أن المسموع والمرئي والمقروء عبر الوسائل الإعلامية قد يكون جزءاً من اللعبة السياسية إذ لا يفيض إلا بما يخدمها، وقد يتعمد التضليل، ورد الفعل لا يتجاوز التدفق العاطفي الفارغ من المعلومات والحقائق، بحيث لا يتجاوز الهجاء المقذع أو التبرير الواهي. ولقد كدت أذهل حين قرأت عملين للكاتب السياسي الشهير «محمد حسنين هيكل» يتحدثان عن مرحلة سياسية واحدة شرق أوسطية: أحدهما يعتمد على الخبرة السياسية، فيما يعتمد الآخر على الوثائق السرية المفرج عنها بعد أمة، مع أن الإفراج لا يمتد إلى الوثائق التي تضر بالمصالح القومية، وقد تكون الوثائق مزورة أو مسلوكة في اللعب الذكية، وأحسب أنه لو ألف كتاباً ثالثاً لناقض ما سالف.

والحديث في السياسة عن السياسة يقترب من قراءة الكف والتنجيم والضرب بالودع، تنبؤات ورهانات تقترب من الصواب، ولكنها لا تكون عينه، ولو أن الكتاب السياسيين أعادوا قراءة ما كتبوا بعد انكشاف اللعب، لتمنوا أنهم لم يقولوا ما قالوا، ومع هذا فإن

(١) تاريخ المقال: ٣٠/ ٤/ ٢٠٠٢

القول في السياسة يوفر للكاتب فضاءات واسعة، ذلك أنها في النهاية «فن الممكن». والكتبة لا يلتفتون إلى الوراء ليعرفوا كم حققوا من الصواب، وكم هي مسافة الإيغال في الخطأ، ولم أنهم فعلوا ذلك لخجلوا من أنفسهم.

وصناع القرار، والمنفذون له، والمتداولون للقضايا السياسية عبر المؤتمرات واللقاءات يخرجون إلى الناس بوجوه باسمة، وأعصاب باردة، فيما يعيش الأبعدون عن صنع القرار وعن المؤتمرين في أقصى حالات التوتر والانفعال والاستياء، وقد تصل بهم الحال إلى الاشتباك بالأيدي، وتبادل الشتائم والاتهام بالعمالة، ذلك أن المشتغلين والمؤتمرين يعرفون بعض الحقيقة، فيما يعرف سواهم نقيضها، مع الجهل التام بمجريات الأحداث التي تمسهم في الصميم، ومن هنا نشأت المعارضة والخطاب التشنجي.

ولأن القول في السياسة لا يحيل إلى مرجعية وثوقية، ولأن بوادر الأحداث لا تعبر بالضرورة عن طبيعتها فإنه من الصعوبة بمكان كشف المتقولين كل الأقاويل على السياسة والمتهمين في تشكيل الوعي الزائف والمحرضين للرأي العام على المواجهة. ومع هذا فالسياسة مغرية على الحديث وعلى السماع، بل تكاد تكون فاكهة المجالس، والمؤكد أن الشعب المسيَّس لا يقل خطورة عن الشعب المعسكر، ولما كانت أجواء السياسة مشحونة بالأحداث الجسام، كان على حملة الكلمة دقة التحري، وتلافي التهييج، وتحامي تصعيد الاحتقان.

٣- والحديث عن الفعل الأمريكي كما التواصل السياسي معها محفوف بالمخاطر التي تمس المصلحة والسمعة معاً، ذلك أنها متوغلة في الخصوصيات، ضالعة في صنع اللعب الموجعة، منحازة لألدِّ الأعداء، والناس بقدر ما هم متوغلون معها فإنهم معادون لها، وتلك معادلة صعبة، قل أن يحسب لها أدنى حساب، وخطابهم إزاءها خطاب عاطفي متأجج، لا تحكمه دراية ولا روية، ومع كل ذلك فإن الجميع يمرون بها في غدوهم ورواحهم، شاؤوا أم أبوا، والحتمية تفرض التفكير الجاد لعبور هذا المنعطف الإلزامي. وكأن أبا الطيب المتنبي يعيش بيننا، يتجرع مرارة الذل الذي نتجرعه، ويعاني المهانة التي نتعرض لها، ويتلوى من التوجع الذي نغالبه، وليس من شك أنه بكبريائه وإبائه وقلة حيلته وهوانه على الناس، مر بما نمر به، وعانى ما نعانيه، وأسقط في يده مثلما أسقط في أيدينا، وذلك حين قال:

ومن نكد الدنيا على الحرِّ أن يَرَى
عدواً له ما من صداقته بدُّ

وأمريكا التي نزعت قناعها، وكشرت عن أنيابها، وكشفت عن ساقيها، وتقاسمت مع «شارون» آلة الحرب المزدوجة:

حرب الأسلحة الذكية.

وحرب السياسة القوية.

أعطته أحدث المعدات، وتولت كبر الحرب السياسية في كل المحافل مع حفظ ساقته «بالفيتو» و«التجويع» و«تسييس الإعانات والقروض» و«تحريك الملفات» التي لا يود المستضعفون تحريكها، وهي رائدة لمقدمته بكل ما تملك.

وتظل بكل هذا الانحياز الدولة الوحيدة التي بيدها مقاليد الأمور، ومفاتيح الأعمال، وحل الإشكال، فهي راعية السلام، واللاعب الأهم في كل الأحداث، وصوبها تتجه المناشدات والمظاهرات والنداءات، طائفة تطالب بالمقاطعة لها، وأخرى تطالب بالضغط عليها، وثالثة تصيب الأقربين، وتتهمهم بالعمالة والمواطأة، ورابعة تحدو قومها لاتخاذ أي موقف، يحفزها لكي تحق الحق، وتقمع الظلم، وتوفر الحقوق الإنسانية التي قالت في

سبيلها الكثير، وكل الزعماء المثقلون بهموم أمتهم، يعولون عليها، ويتمنون أن يكون فعلها في سبيل الحق، ولو بكلمة واحدة، تحاج لها أمام الناقمين عليها من أصدقاء صدقوا معها، ومتعاملين شرفاء، وفوا بالعهود والمواثيق، ومنحوها دعمهم وتأييدهم في مواقف كثيرة، وصدقوها وهي كذوب.

٤- وأمريكا التي تهتف الجماهير بسقوطها، تظل الأكثر تأثيراً في الأحداث المصيرية، والأكثر حضوراً بأشيائها مع ألد خصومها. ومتى امتلك المعنيون سبيلاً إليها فإن من واجبهم سلوكه، فالحرب العسكرية غير ممكنة في ظل الظروف والإمكانيات القائمة، ولم يبق إلا الحرب «الدبلوماسية» على سبيل «التكتيك» لا على سبيل «الاستراتيجية»، إذ الجهاد فريضة إسلامية، وإذا كان «الأمير عبد الله» يخوضها عبر جولتين: «المبادرة» و«الزيارة» فإن من واجب الأمة كافة أن تشد أزره، وأن تدعو لمساعيه بالسداد والتوفيق، إذ ليس بالإمكان إلا ما كان، ومن يملك خطاباً آخر، أهدى وأجدى فليأت به، فالوضع العربي كافة والفلسطيني خاصة في حالة لا تتطلب المزيد، والمؤتمرون يلتقون في خيمة بين الصفين على أشلاء القتلى لحقن الدماء وفك الاشتباك. والمتجهون إليها، لا يقرون مواقفها، ولا يباركون خطواتها، ولا يمنحون انحيازها مشروعية، ولكنهم يبذلون أقصى حد من العمل لإيقاف هذا الفعل الذي لا يليق بدولة بوزنها، تفرط بسمعتها وبأصدقائها في سبيل شرذمة قليلة، لا ترقب في مؤمن إلاًّ ولا ذمة.

ودولة بحجم أمريكا وباقتدارها وبإحكامها اللعب السياسية وصناعة الكذب تستطيع أن تكون «سلفية» و«شارونية» في آن، وهي قد فعلت حين أحكمت قبضتها على الإتحاد السوفييتي في أفغانستان، لقد وطأت أكنافها لكل الإسلاميين، تمدهم بالسلاح والمال والمعلومات، وتحجب عنهم المواقف المناوئة، حتى إذا سقط الاتحاد، نسلت من اللعبة موجهة فوهات البنادق إلى الذين التقت معهم في مصالحها. وحين انجلى الغبار وبان الفرس من الحمار، لم يتحمل المجاهدون فداحة اللعب، فكانت كارثة الحادي عشر من سبتمبر بداية لاستهداف مصالحها، وهنا تحول الغول من «السلفية» إلى «الشارونية»، وظهرت مصطلحات «الإرهاب» و«محور الشر»، وكلتا السمتين «السلفية» و«الشارونية» لا تخرجان عن اللعب السياسية، فنحن نستفظع «التَّشَوْرن» بمثل ما استفظع الاتحاد السوفييتي «التَّسَوْلف».

وركوب الموجة حين تكون باتجاه الهدف غنيمة باردة إذ ليس من بأس على راكبها. وعلينا تحت هذه الظروف أن نعمل على توازي الخطوط لا على تقاطعها، فنحن بوضعنا القائم غير قادرين على طرح خطابات مستقلة.

وتبقى أمريكا هي أمريكا تتلمظ، وتخلل أسنانها لفريسة أخرى، وفعلها كالأيام التي يداولها الله بين الناس فيوم لك ويوم عليك، والذكي من امتلك مرونة التحرك حتى يستقل برأيه وقراره:

فإما سلام الشجعان.

وإما حرب الأقوياء.

وليسوا بغير صليل السيوف

يجيبون صوتاً لنا أوصدى

لقد جاوزوا المدى

ولو كنا قادرين:

لحـــــقَّ الجهـــــاد وحـــــق الفـــــداء

ولكن ليس بأيدينا إلا حرب الدبلوماسية، فلنتفق على أسلوبها، بانتظار ما لا يأتي.

صناعة الإرهاب .. بين المناهج الدراسية واللعب السياسية .. ! (١) [(١)]

بعد سقوط المعادل الشيوعي، نجمت معضلة (القطب الواحد)، بكل ما يحمله من تسلط واستبداد وبكل ما يرافقه من انعدام لمبدأ التدافع الحافظ للتوازن والتداول. ولما جاءت (دراما) السقوط مفاجئة، وغير متوقعة، ربكت المعادل الذي لم يهيئ نفسه لمهمات (القطب الواحد) وارتبك تبعاً لذلك العالم الثالث بوصفه الغنيمة المتنازع عليها، والمجال الرحب للعب السياسية، والحرب الباردة، والحقل المناسب لتجارب الإمكانيات والمكتشفات وتسويق الصناعات واستغلال الخيرات. هذا العالم المغلوب على أمره، كان يجد في صراع الأقطاب متنفسا للحرية، واستغلالاً للحظات التنازع على الغنيمة، ولما يكن التكتل الأوروبي قد فرغ من رسم سياسته، فحساباته مرتبطة باستمرار القطبين.

الانهيار المفاجئ وغير المتوقع للاتحاد السوفييتي، حرض الولايات المتحدة الأمريكية على سد الفراغ السلطوي والنهوض بمتطلباته، ولم تكن أمريكا من الغباء بحيث تفوت الفرصة، وإنما التفت على الإرث بأسلوب ذكي وسريع، وقطعت قول كل خطيب بتصدرها العالم بوصفها الأقدر على قيادته: تقنيا وعسكرياً واقتصادياً وإعلامياً، ولما لم تجد في طريقها من يحول بينها وبين ما تشتهي بعد خلو الجو من المنغصات الشيوعية، فقد بدت هواجسها تدور حول الخصم القادم، وتحرك عقلها الباطن باتجاه التراكم التاريخي.

لقد قفزت نظراتها إلى نجاحات الإسلام في تجربته العالمية، وفتوحاته المظفرة، وسرعة الاستجابة له، ودخول الناس فيه أفواجاً، واستحضرت ويلات الحروب الصليبية وتكسر أمواج الغزو الصليبي أمام صمود المسلمين وقوة إيمانهم، واستذكرت تجربة الصراع المرير عبر أحقاب التاريخ، ولم تفكر في الوحدة الأوروبية، فهي معها في خندق واحد، وإن اختلفت المصالح، لقد نظر الأمريكان إلى العالم الإسلامي نظرة ارتياب، ووجدوا فيه المعادل المنتظر، مما حفزهم على تصعيد الصراع معه على كل المستويات: الإعلامية والاقتصادية والعسكرية والثقافية، حتى لقد تجاوز الصراع إمكانية الاحتمال، حيث دخل في حرب مدمرة، وغير معلنة، تمثلت بالتدخل السافر، والوقيعة المكشوفة، وإثارة النعرات الطائفية والإقليمية، وتزويد الضعيف حتى يقوى ثم الانقلاب إلى خصمه، مما أدى إلى زرع الخوف، واستنزاف الطاقات، وشغل العالم عن التفكير في صناعة نفسه. ولاشك ان استخدام المكر تارة والقوة تارة أخرى، وتصفية الطرف الآخر الذي لايملك سلاحا متكافئاً هو ذروة الإرهاب وسنامه.

والغرب يبرر المواجهة مع العالم الثالث بما يمارسه من إرهاب، ولايفرق بينه وبين المقاومة المشروعة لاستعادة الحق السليب من أرض مغتصبة واقتصاد منهوب وحرية غائبة. فهو حين يمتد بسلاحه إلى آفاق المعمورة يصف فعله التسلطي بمواجهة الإرهاب، وبحرصه على إقرار السلام، وحفظ التوازن، وإعادة الحقوق الإنسانية. فيما يرى العالم الثالث ان ممارسة القمع، والتسلط، والإذلال، ومصادرة حقوق الإنسان، والمنع من التوفر على قوة الردع هو الإرهاب، ذلك ان الإرهاب ليس قصرا على ازهاق الأرواح كما يفسره الغرب.

ولأن أمريكا تتصور أنها قادرة على قطع شأفة القوة المنافسة، فإنها بحاجة إلى تدمير القيم المعنوية والمقومات الحضارية لطمس المعالم ومسخ الذات. ولتحقيق هذا الحلم فتحت جبهة جديدة على (المناهج الدراسية) بوصفها المنتج لقيم الحضارة والمشكلة لوعي

---

(١) تاريخ المقال: ٧/ ٥/ ٢٠٠٢

الأمة، والمحددة لمسارها ولموقفها من الأشياء، معتبرة إياها بهذه المهمات محرضة على الإرهاب، وصانعة للإرهابيين، فكان ان وجهت إعلامها ضد (المملكة العربية السعودية)، بوصفها قبلة المسلمين ومهوى أفئدتهم، والمحكمة للشريعة والمظهرة للدين، ومتى خضدت الشوكة سهل عليها القضاء على ماسواها، وساعدها على ترويج هذه الشائعة انتماء بعض المتهمين بحوادث الإرهاب إلى المملكة بالجنسية أو بالدراسة، مع ان كل مايشاع كذب لا يحتمل الصدق، وليس صدقا لايحتمل الكذب. والضالعون في تدمير المنشآت والمصالح الأمريكية من مختلف الجنسيات والأعراق كانوا معها في مواجهة الشيوعية، فهي التي صنعتهم، وشكلت وعيهم، وحين تخلت عنهم، وسعت لتصفيتهم، لم يقبلوا بالموت المجاني، وإنما أخذوا ثمن حياتهم بالمواجهة وفق الإمكانيات. والقول بأن المناهج تصنع الإرهاب قول مغالط، والصهيونية المسيطرة على المال والإعلام في أمريكا هي التي تصنع تلك المفاهيم، وفات اللوبي الصهيوني الناشط في ترويج هذه الشائعات ان الإرهاب الحقيقي إنما ينسل من اللعب السياسية التي تصنع في الغرب، وتنفذ في بقاع كثيرة من العالم الثالث. وصناعة اللعب يضطر الصانع إلى الممارسة (التكتيكية) بحيث يتقلب في اعطاف المبادئ، تتناقض خطاباته، وتتعدد أحلافه، وتختلف مصالحه، وقد أشارت (تاتشر) ذات مرة إلى ان الصداقات لاتدوم، لأنها محكومة بالمصالح، والمصلحيون يتلونون كما (الحرباء) حتى لاينكشف أمرهم ولايبطل كيدهم.

واللعبة السياسية لايدق خفاؤها حتى ترتبط شكلا وأسلوبا بالمنفذ، وصانعها يحاول قدر المستطاع إخفاء وجوده والحيلولة دون ظهور أي مؤشرات على تورطه. وبراعته تتجلى في بعده عن مسرح اللعبة، وهذا الفعل يضطره إلى القبول بأيديولوجية مناقضة لأيديولوجيته، وتجهيز خطاب إعلامي مغاير لخطابه المعلن، ولربما يكون ناتج هذه المغايرة مخلا بتوازن القوى، الأمر الذي يضطر صانع اللعبة إلى تخلية الموقع من مخلفاتها، وقد تكون عملية التخلية بحاجة إلى لعبة أخرى لإبطال مفعولها، وقد يكون منفذ اللعبة ذكيا، بحيث يستغل الظروف، لكي يصنع آلية اكبر من طاقة صانع اللعبة، وليس شرطاً ان يكون اللاعب واحدا إذ ربما تتداخل اللعب، بحيث لايستطيع المتابع التفريق بين ماهو فعل اضطراري نابع من الحاجة، وماهو لعبة صنعها الأقوياء ونفذها الضعفاء، لحفظ توازن، أو لتأديب متمرد، أو لهبوط بمستوى اقتصادي، أو تفكيك لوحدة قوية، واللعب تكون كونية، وتكون اقليمية، تكون طويلة الأجل أو قصيرته، وقد تكون متبادلة بين طرفين كما الجاسوس المزدوج، وقد يكون حتف الصانع فيها.

ولعلنا نستعرض قضايانا العربية، فيما بين العرب، وفيما بينهم وبين غيرهم، وفيما بينهم وبين اسرائيل بالذات، فالمستويات الثلاثة تشكل سلسلة من اللعب بكل أنواعها، ومقاصد اللاعبين في ان تبقى الأمة العربية في مستوى عسكري واقتصادي لايخل بتوازن القوى في المنطقة، ولايجعل اسرائيل في وضع لاتملك معه قمع أي محاولة سياسية أو اقتصادية أو عسكرية تمس أمنها أو تهدد وجودها، وأحداث المنطقة خلال العقود الخمسة الماضية مليئة بالعبر، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وكل حدث تستطيع ان تقرأه على عدد من المستويات.

وحين يضطر صانع اللعبة إلى إعادة الأمور إلى مجاريها، يحس المنفذ لها بالغبن والقهر، ذلك انه أضاع جهده ووقته وماله، تحت تأثير الكذب والخداع، ثم لم يجن من دوره الذي قام به إلا خيبة الأمل، وهنا يفقد صوابه، ويحس أنه بحاجة إلى استعادة كرامته، وإذ لايقدر على المنابذة على سواء، يتخذ الإرهاب سبيلا للنيل ممن غرر به، واستغل سذاجته.

واللعب القاصمة تصنع ابتداء في أوكار لاترعى في اللاعب إلاًّ ولا ذمَّة ويكون اختيار المنفذ وفق الموقع الجغرافي المناسب والأعماق السكانية والاقتصادية والحضارية المناسبة، وقد يكون الحدث قائماً وصالحا لكي يحول إلى لعبة، والمتابعون الأذكياء يعرفون اللعب بسيماها، ويعرفون اللحظة التي يدخل فيها الحدث مجال اللعبة، ويعرفون اللاعب الذكي واللاعب الغبي. وحين تشارف اللعبة على النهاية، تقترب شفراتها من الانكشاف، بحيث لايجد صانعها بداً من الانسحاب تاركا اللاعب الغبي يجمع أشلاءه ويراجع حساباته، ولحظة التنوير هي التي تصنع الإرهاب، لأن اللاعب الذي أضاع مقدراته وجد نفسه على المسرح وحده، فيما هرب الصانع بالغنيمة، وهنا يتحول اللاعب المخدوع إلى كتلة من الحقد، يحفزه للأخذ بالثأر، ولأنه لايقدر على إعلان الحرب لفقده الندية فإنه يلجأ إلى العنف والإرهاب ومطاردة الهارب الذي تركه في منتصف الطريق في عقر داره. ذلك وجه من وجوه صناعة الإرهاب، ولو ان المناهج لها دور في صناعة الإرهاب لتحولت الأمة كلها إلى عصابات، والجريمة المنظمة منتج غربي، وليست من الإسلام في شيء، والمناهج مطالبة بالتأصيل، وتحرير المسائل، وتشكيل الأمة على هدي من نصها المقدس.

أما الوجه الآخر من وجوه صناعة الإرهاب، فهو تسلط الأقوياء على الضعفاء: شعوباً أو دولاً أو جماعات أو أفراداً، فالمقهور حين يتجاوز القهر معه حد الاحتمال، ينفجر في وجه من قهره، ذلك ان الحياة قيم وفلسفة ومعنى، وحين تفقد قيمها ومعانيها يكون الانتحار الفردي أو الثورة الجماعية، فالصبر له حدود والاحتمال له نهاية، والتدخل السافر في أمور الدول الضعيفة وقضاياها وفرض الحلول المناسبة للمتسلط تؤدي في النهاية إلى مواجهة دامية تجسد مقولة: «عليَّ وعلى أعدائي). والعالم الثالث مسرح القهر والتسلط، ومع ذلك لم تمتد يده إلى مصالح الأقوياء، ولا إلى أراضيهم ولكنه كبت وغلت يده، وحيل بينه وبين حقوقه المشروعة. ان هناك وجودا تسلطياً من الغرب، ودعماً لحكام متسلطين، وهناك نزاعات إقليمية وطائفية، يحركها الغرب، ويمولها، ويسهم في إشعالها، فيما لم يحاول العالم الثالث التدخل في شؤون الكبار، وهو غير قادر على ذلك، ان الظلم، والقهر، والكبت، وسلب الحريات، ودعم الحكام المتسلطين، واستنزاف الخيرات، وإحداث العداوات بين الأشقاء، ونصر جانب على آخر مدعاة إلى الكره والحقد الذي يترجمه المقهور بالتفجير والمظاهرات وضرب المصالح.

صناعة الإرهاب .. بين المناهج الدراسية واللعب السياسية .. ! (٢) [(١)]

وإذا كان العالم الثالث يواجه حرب تجويع وتطويع، فإن العالم الإسلامي يواجه حروباً مزدوجة: شيئية وحضارية، ولن يستقيم أمر العالم كلِّه مع الظلم والتسلط، وكبت الحريات، والإخراج من الديار، وتدمير الحضارات. والدولة الظاملة: مسلمة أوكافرة عرضة لأخذ الله وقصمه وإهلاكه ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ [هود: ١٠٢] و ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ [الأنبياء: ١١] و ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]، والدولة العادلة: مسلمة أو كافرة أضمن بقاءً واستقراراً. وأمريكا بالظلم أو بالمواطأة عليه، تفقد الأنصار والاستقرار والاستمرار، وتنمي العداوات والخصومات. وعمليات الحادي عشر من سبتمبر ألحقت أضراراً بهيبتها واقتصادها، وأعطت المناوئين لها أملاً في محاولات جديدة تصيبها في الصميم. وإحالة المواجهات إلى (صراع الحضارات) دعوة باطلة، فالإسلام دين متسامح، مصالح، مسالم، ينابذ على سواء، يُسْمع المستجير كلام الله ويبلغه مأمنه، ويدفع بالتي هي أحسن، ولا يكره على دين ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩] و ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] و ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ [هود: ٢٨] لا يمنع من علم، ولا يكبت غريزة، دين الفطرة والعدل والإحسان والحرية. ومع ذلك شرع الجهاد والحدود، وعقوبة المحارب والمرتد، ونظم علاقاته مع دار الحرب والسلام وأهل الذمة، وصدق الله ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] فالمواجهات أخلاط من صراعات تؤزها المصالح والاستراتيجيات والأحلاف، والإرهاب في ظل هذه الأطماع، لا يمكن أن يحال إلى حضارة، ولا إلى فكر، ولا إلى مناهج، وقول دول الاستكبار: «إنه صراع حضارات»، مشرعن للاعتداء ومهيج لمشاعر المواطن الغربي لدعم تسلطه. ولو أراد الغرب القضاء على الإرهاب لتوقف عن صناعة اللعب السياسية، وتعامل مع شعوب العالم على قدم المساواة، وكفَّ عن التدخل في النزاعات (الإقليمية) و(الإثنية) و(الطائفية) و(وحد المكاييل) وحفظ (توازن القوى) ومكّن الجميع من (قوة الردع). وكيف تقر عينه وهو يغذي بؤر التوتر، لقد كان فاعلاً رئيساً في أحداث فلسطين ولبنان والعراق وأفغانستان والصحراء والسودان وأرتيريا والصومال وأنغولا وموزمبيق والتشاد وأمريكا اللاتينية وجنوب شرق آسيا، وسائر النزاعات والحروب لإحكام سيطرته، حتى إذا شارفت اللعب المدمرة على النهاية، دبَّر اغتيال اللاعبين الضالعين، وعاد بثوب المصلح لذات البين.

والغرب المتماكر المتوغل في صناعة الإرهاب يخادع قومه بالتأكيد على أن الدين الإسلامي مصدر الإرهاب ومأوى التخلف، وما كبرت في عيوننا تلك الاتهامات التي تخرج من أفواه إعلامه، فهي لا تبعث على الاستغراب، ولا تحمل على الانفعال، فالإسلام يتلقى عبر مسيرته إفكاً وأذى كثيراً. والإعلام الغربي المتصهين حين يوغل بقوله: - إن المناهج التعليمية في المملكة خاصة تصنع الإرهابيين، فإن ذلك قول متوقع من مثله على مثل المملكة، وجميل أن يظهر المتصهينون ما بأنفسهم، وجميل أن يجاهروا بما يتناجون

---

(١) تاريخ المقال: ١٤/ ٥/ ٢٠٠٢

به من الإثم والعدوان وعلينا أن نستقبل اتهاماتهم بالحلم والأناة ورباطة الجأش، كي نتمكن من إبلاغ مقاصد ديننا وإنسانيته ورأفته وإكرامه للإنسان، دون نظر إلى دين أو لون، فنحن أصحاب رسالة ومهمة في الحياة. وهم يحوكون المكائد لإثارتنا، وفقد صوابنا، كي نعجز عن السيطرة على مشاعر الثورة والغضب فينا، ومن ثم يحققون رغباتهم الشريرة، وبهذا نكون قد ساعدناهم على أنفسنا، وحققنا مرادهم، إن من واجبنا أن نسمع، ومن حقنا أن نرد، وليس من اللائق أن نثور ونمور. والعقلاء المنصفون يعرفون أن الإرهاب قائم منذ (هابيل) و(قابيل) و(الغراب) الذي يري الظالم كيف يواري سوأة أخيه. والإرهاب مفهوم نسبي أزلي استأثر بالأهمية بعد أن رمى الله برجي أمريكا فهدمهما، وحين لا نؤيد الفعل، لا نقبل الإحالة على الإسلام.

ولو نظرنا إلى التمرحل الزمني لمصطلحات ((الإرهاب)) و((العنف)) و((التطرف)) و((اللاعنف)) و((المقاومة السلمية أو المسلحة)) لوجدناها مع الأيام في تقلبها، وتداولها، ولوجدنا الفاعلين والقائلين عنها أوزاعاً مختلفين، فهم بين الإفراط والتفريط، والتطبيق والتنظير، فـ«الصليبيون» و«النازيون» و«الفاشستيون» و«الثوريون» منتج غربي، ونجد على رأس المطبقين «للمقاومة السلمية» ((غاندي ت ١٩٤٨م)) وله فلسفته التي عرفها كل المشتغلين في مقاومة الاستعمار، وعلى رأس المنظرين المفكر الجزائري «مالك بن نبي ت ١٩٧٣م» الذي عاش أحداث حرب التحرير الجزائري، وتجرع أحزان المليون شهيد، وجاء من بعده «جودة سعيد» ليحيد بالمبدأ عن جادة الصواب، متطرفاً في «اللاعنف»، وآزره على ذلك الدكتور «خالص جلبي». وهذا الإغراق في «الحمائمية» لم ينظر إلى عنف «الصقور»، وخطاب «جودة سعيد» تعطيل للجهاد الإسلامي، وإجهاض للمقاومة المشروعة، دون إدانة للطرف الآخر الذي يمثل أقصى حد في التسلط وسباق التسلح.

والمؤكد أن التطرف والإرهاب والعنف لا يرتبط شيء منها بزمان ولا بمكان ولا بدين ولا بقومية، إنها عمل إجرائي، تفرضه الظروف، ويفرزه أسلوب التعامل بين أطراف متعددة، ويحدو إليه الظالمون، فالكبت في الديار أو الإخراج منها، يحدث الانفجار، والظلم هو المنتج الطبيعي للإرهاب، والدول المتسلطة، والحكام الجائرون، حين يكتمون الأنفاس، ويسلبون الحريات، يحملون على الإرهاب، وما حيلة المضطر إلا ركوبه. ولما كانت الحياة فلسفة وموقفاً، أصبح من المتعذر القبول بها على غير مفهومها، وعمليات الانتحار الفردي أو الجماعي تعبير عن رفض الحياة المناقضة للموقف وللفلسفة، غير أن الانتحار موت مجاني أثيم، لا يقره الإسلام، فيما تكون العمليات الانتحارية موتاً بثمن، والحياة في نظر البعض مجموعة من القيم، وليست مجرد الأكل والشرب والمشي في الأسواق. وعندما يفقد الإنسان القيم الحياتية يصبح في نظر نفسه ميتاً، وإن عاش كما الحيوان. والتسلط استلاب للقيم، ودخول في العدمية، وحمل على العنف والانفجار، إذ ليس هناك أهم من الحرية والأمن بكل مفرداته، وعند فقد الحرية والأمن يتحول الإنسان إلى حيوان غير أليف، ينتزع طعامه ويوفر حريته وأمنه بالناب والمخلب. وحين يكون المضطهد واعياً لإنسانيته، تفقد الحياة بفقد الانسانية قيمتها، ويصبح الموت هو الحل الطبيعي، وإذ لا يكون من مصلحة المضطهد أن يموت بلا ثمن فإنه يقدم على انتزاع قيمة حياته المهدرة بمبادرة الموت عن طريق تدمير العدو وأشيائه، ومن هنا يكون الإرهاب الاضطراري الذي دفع إليه الظالم، ولم تبادر إليه الضحية. وليس بعيداً أن يكون الإرهاب جزءاً من اللعبة، أو ناتج غلوٍ أو تغرير، أو تحرفاً لقتال، إذ لكل ظاهرة شفراتها، والإطلاقات والتعميمات لا تحرر الظواهر والقضايا.

ومقاومة الظلم يسميه الظلمة إرهاباً، ولكنه في حقيقة الأمر مقاومة مشروعة، والقتيل في هذه الحالة شهيد، وقد سماه الدين الإسلامي شهيداً، فالقتال دون الدين أو النفس أو العرض أو المال أو الأرض قتال مشروع، والحرب خدعة، الذكي الحاذق هو الذي يختار أسلوب المواجهة. والخلاف بين الفقهاء حول مشروعية العمليات الانتحارية المتمثلة بتفجير الذات خلاف معتبر، ولكل عالم حيثياته وشواهده واستنباطاته، ولا يجور للمختلفين تبادل التهم، وإنما المشروع تبادل الأدلة والحجج، وبسط الآراء أمام الرأي العام، لتحرير المسائل وإبراء الذمم.

ثم إن الإرهاب من حيث الحكم إرهابان:

-مشروع .. ومحظور.

وهو من حيث النوع إرهابان:

-إرهاب مسلح .. وإرهاب فكر.

ومنه التعصب الأعمى للمعتقد، الموصِّل لتأليه الهوى، وظاهرة الفرق الغالية في الحضارة الإسلامية كما تحدث عنها «السامرائي» في كتابه، قائمة في كل الديانات، وعنها نجمت ظاهرة «التكفير»، وتلك إشكالية، وقعت فيها بعض الطوائف الإسلامية: القديمة والمعاصرة، وقراءة كتاب «الغلو في الدين» للدكتور «عبد الرحمن اللويحق» تقف بالقارئ على جذور التطرف، من معتقدات ونحل، استخفت بأمر التكفير وبالدماء المعصومة. وقد تقصى ظاهرة «الصحوة» و«التكفير» طوائف من العلماء والمفكرين المعاصرين، من مثل «عبد الفتاح شاهين» و«نعمان السامرائي» و«سالم البهنساوي» و«عبد الله القرني» و«مقداد يالجن» و«القرضاوي» و«حسن العواجي»، و«حامد سليمان» في كتب مستقلة، فيما وقع آخرون في الأرجاء من مثل «خالد العنبري» و«علي الحلبي». والإسلام ينهى عن التنازع، وعن حسم الخلاف بالقتال بين المسلمين، وفي الحديث: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار**»، وعلى خلافه القتال لقمع الفتنة، وقتال الخارجين على وحدة الكلمة أو وحدة الصف. لقد نجم في العصر الحديث طوائف إسلامية مسيَّسة، اعتمدت على المواجهات الدموية والتكفير، وتبنت الخطاب الثوري، وتعقب هذه الظاهرة علماء ومفكرون، كتبوا عنها بأساليب متفاوتة، ودوافع مختلفة، وفي المقابل تناول كتّاب ومفكرون علمانيون وعقلانيون وليبراليون هذه الظواهر بالدراسة أو بالمواجهة، ومن أهم الكتب «الإرهاب: إسلام أم تأسلم»، وسلسلة «كتاب النقد» عن العنف الأصولي، وبحوث المنتديات و«الأصولية» كتابان مترجمان لـ«دليب هيرو» و«ريتشارد هرير دكمجيان».

والحديث عن العنف أو التطرف أو الإرهاب يستدعي حركات إسلامية وصفت بـ«الأصولية» و«الوصولية»، وتصدى للإسلام من خلالها مفكرون يتخذون من الماركسية والعلمانية وسائر المذاهب الغربية ملاذاً ونصيراً، ووجدها الغرب فرصة سانحة للوقيعة بين المنشقين على أنفسهم. فالماركسيون والحداثيون والعلمانيون والإسلاميون، ينتمون إلى لغة واحدة، وحضارة واحدة، وتحتضنهم جغرافيا واحدة، والجدير بهم التلاقي على كلمة سواء، وهذه الفرصة النادرة، مكنت الحضارة المعادية من الوقيعة، وسك المصطلحات، وإشباعها بالمفاهيم السيئة، وإلصاقها بالمنظمات الإسلامية، تمهيداً لاختراق تنظيماتها، وزرع بذور الفتنة بين أفرادها، ولقد تولى التنويريون التصدي الإعلامي لكل التنظيمات الإسلامية، وبدل أن تتجه فعاليات التنظيم للدعوة والحوار الهادي، استنزفت طاقاتها في الدفاع تارة، والهجوم تارة أخرى، ولم تكن «الأصولية» وقفاً على الإسلام، فقد تقصتها «كارين آرمستونج» في كتابها «معارك في سبيل الإله»، وكنت قد نشرت في جريدة «البلاد» قبل سنوات عشر حلقات عن «الأصولية

والوصولية» ووعدت بالعودة، ولما أعد .. والإرهاب يكون فردياً وجماعياً ودولياً، وكل من تخطى أرضه، وخاض الحروب والدسائس للإخضاع أو للاستغلال فهو إرهابي، عرف ذلك واعترف، أم جهل وأنكر. والصهيونية الغاصبة، الحاقدة المتعطشة للدماء والدمار، حين تُعميها الضغائن، وتضلها الأحقاد، تصعِّد بهمجيتها الموت المجاني، تكون إرهابية تفرض المقاومة المشروعة، وتسميها إرهاباً، وحين يرى الإنسان الفلسطيني المحاصر أنه يموت بلا ثمن، يحفزه ذلك على قبض الثمن الربيح بالعمل الفدائي. فالمقاوم الفلسطيني يبرر فعله بقوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا﴾ [البقرة: ٢٤٦]، وكل الدول الغربية خاضت معارك التحرير، وسمت فعلها بطولة وفداء، فلماذا شرعنت لفعلها، وجرَّمت الفعل الفلسطيني.

إن التعدي السافر، وقتل النساء والأطفال والشيوخ، يحرض على المواجهة والرد الأعنف. والقوة النظامية المدججة بأحدث الأسلحة، والموجهة من غرف العمليات، والمحروسة من كل الجهات، والمزودة بأدق وسائل الحماية وأرقى آليات السبر والتحري والاستشراف، حين تمارس - وبأسلوب متغطرس - التدمير والتجويع والتركيع، ينهض الأباة لرفض الركوع والاستسلام، فتعديها ظلم، ودفاعه حق. وسيظل العمل الفدائي قائماً، حتى تعي إسرائيل ومن وراءها أن الإنسان العربي يستكين، ولكن الكرامة لن تموت بداخله، وإذا طلب العاجزون الانسحاب، وإيقاف الاعتداء، فإن النفوس المجروحة لن ترضى فقط بإيقاف العمليات دون حساب وعقاب، وإن سكنت لتمرير الاتفاقات، فالدم لا يغسله الماء، ولا تواريه الأحبار.

والمناهج الدراسية: مادة وأهدافاً ومقتضيات تركيب متوازن من القيم والتصورات والمعارف والمهارات، روعي في إعدادها حاجة الأمة المتجددة ومتطلبات حضارتها. ولأن لكل أمة حضارتها المشتملة على عقيدتها وشرعتها ومنهاجها فإن من أبسط حقوقها أن تشكل وعي أفرادها على ما يحقق هويتها، فالتفقه في الدين مطلب أولي. والقرآن الكريم والسنَّة النبوية المطهرة بوصفهما المصدرين الرئيسين للتشريع، لا ينطويان على عنف، ولا على إرهاب، ولا على تسلط. ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ [الحج: ٣٩]، ﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣]، ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]، ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]، ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة: ٨]، كما أنهما يحثان على الجدل بالحسنى، والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، والجنوح إلى السلام، والله قد كرم بني آدم ورزقهم من الطيبات، ونهاهم عن القتل إلا بالحق. وإذا وقعت بعض الطوائف الإسلامية في خطأ التأويل فإن هذا لا يحال إلى الإسلام. وإذا احتربت العرقيات أو الطائفيات كما في «الجزائر» و «أفغانستان»، وشرعنت فعلها بالإسلام، كذب ذلك «النص» و «التاريخ»، فالرسول ﷺ عايش المنافقين، ولم يشهر السلاح في وجوههم، مع فضح القرآن لهم.

إن على الغرب لكي يعيش آمناً مطمئناً أن يتحرر من اللوبي الصهيوني، وألا يمنحه (الفيتو) و(السلاح) وأن يتخلى عن غطرسة القوة، وعن الظلم الذي حرمه الله على نفسه،

وأن يوحد مكاييله، وإن لم يفعل فليستعد للفتن العمياء والإرهاب العنيف، مما لا تصنعه المناهج، ولا يحبذه الإسلام: (ومن عاشر بالمكر كوفئ بالغدر).

أيها الخليجيون خذوا حذركم من العمالة .. !![1]

كل أسواق الجذب في العالم تمر بمخاضات موجعة، وهي إذ تكون مضطرة أو ملزمة باستيعاب العبوات الناسفة من العمالة المتفاوتة، يكون من واجبها أن تتحسس مواقع أقدامها، وأن يكون لديها الاستعداد التام لرفع درجة الحذر والحيطة، وتوجيه كل طاقاتها لرصد رياح التغيير الناتجة من تقاطر الوافدين الذين لا ينظرون إلا بعين الكسب: مشروعاً كان أو غير مشروع، وما يتركونه من آثار سيئة على كل المستويات.

وحين ينعم الله على الأمة بالمال الوفير، والأمن الوارف، والخطط التنموية الطموحة، يتهافت عليها العاملون والمستثمرون، وتمارس معها الضغوط لتسهم في فك اختناقات البطالة عند الآخر، وقد تستدرج بالإغراء تارة، وبالترغيب أو الترهيب تارات أخرى، وتكون عشق الملايين من الناس ومهوى أفئدتهم. وإذا كان المعسرون يعانون الأمرين في سبيل الحصول على لقمة العيش، فإن الموسرين يعانون مثل ذلك في سبيل ترشيد المسار، وتحامي الانزلاق في مهاوي الترف واللامبالاة. وضريبة الغنى كضريبة الفقر، والمسألة في النهاية معادلة صعبة أو تعادلية متوازنة، فلكل وضع مشاكله، وأسلوب مواجهته، ومن ظن أن الموسرين على شيء من الراحة والاسترخاء، فقد وهم، فالحياة كلها كبد ومغالبة، وللأغنياء مثلما للفقراء همومهم وتطلعاتهم.

وقدر (الخليج العربي) أنه منطقة جذب، يتهافت عليه أفواج من الناس المختلفين في لغاتهم وأعراقهم ودياناتهم وعاداتهم وأخلاقياتهم، يستنزفون الخيرات، ويضيقون فرص العمل على أبناء الوطن، ويتركون آثاراً سيئة لا يعرف مداها إلا المكتوون بها، ومع أن تلك الظاهرة عبوة موقوتة فإن الناس ألفوها، وعايشوها، ولم يأخذوا حذرهم منها، والراصدون لآثارها من رجال الأمن والتربية والاقتصاد يكتمون بعض ما يعرفون خوفاً من إزعاج الناس، ولو أنهم أظهروا ما عرفوا من إشكاليات العمالة، ثم وضعوه بين أيدي الكافة بكل بشاعته، لأخذ الناس حذرهم، واكتفوا بالأقل من العاملين، والدليل على ذلك أن المكتوين بويلات البعض منهم صرفوا أنظارهم عن الاستقدام أو الاستعانة فضلاً عن التوسع.

لقد كانت لي إلمامات خليجية، تقف بي على متجر هنا، أو فندق هناك، أو منتزه هنالك، وفي كل موقع أشعر أني غريب الوجه واليد واللسان، حتى لكأني في ملاعب الجنة التي قال عنها (المتنبي):- (لو سار فيها سليمان لسار بترجمان). مع أن الله علمه منطق الطير، وهذه الغربة لا شك أنها موغلة الأثر في الأسر الخليجية، ولا سيما الأطفال، والتلقين في الصغر كالنقش على الحجر، فما يتلقفه الصغار من لغة أو عادة يتأصل في وجدانهم، وكأنهم ورثوه من الآباء والأجداد. وإذا تركت العمالة أيسر ما عندها من سلبيات، ورحلت، تحولت ظواهرنا الاجتماعية إلى خليط عجيب، لا تعرف له أصلاً ولا فصلاً، وتلك رزية لا قبل لنا باحتمالها، ولو كانت تلك المؤثرات عربية لما كان في الأمر من بأس، ولكنها أخلاط متناقضة، وعجمة مستحكمة، ومما يؤسف له أن العمالة ربما تجمع بين العجمة واختلاف الدين والتخلف بكل وجوهه، والطفل المولود على الفطرة يجد المربية والسائق والخادمة الذين قد لا يهودون ولا ينصرون، ولكنهم ينسون الأطفال ما تعودوه من آبائهم وأمهاتهم، وإن لم يتهودوا ويتنصروا فإنهم بلا شك سيتأثرون بمن لا يذكرون الله ولا قليلاً، ومن ثم تتحول البيئة إلى بيئة موبوءة، وهذا بحد ذاته كاف

---

(١) تاريخ المقال: ٢١/ ٥/ ٢٠٠٢

لإطفاء المشاعر وتبليد الحواس، وكيف تتأتى لنا التربية السليمة والآباء والأمهات لا يلمون بأطفالهم إلا قليلاً، وما أجمل مقولة شوقي عن غفلة الآباء وانشغال الأمهات: -

ليس اليتيم من انتهى أبواه من همِّ الحياة وخلفاه ذليلاً
إن اليتيم هو الذي تلقى له
أمّاً تخلَّت أو أباً مشغولاً

ولو أن هذه الإشكاليات جلبتها المؤسسات الحكومية لسمعنا تشنجاً وعويلاً، أما وقد كان المواطن هو الفاعل مع سبق الإصرار فإننا لا نسمع عنها إلا همساً، والأسرة الخليجية مهددة من «الخادمة» و«السائق» و«عامل النظافة» و«المسوِّق» وهذا الحصار المحكم الذي صنعناه بأيدينا لا يمكن أن يمر بسلام، ولو أن جهات الأمن كشفت عما تضبطه من سوءات وإساءات تمس كل جوانب الحياة لعاش الإنسان الخليجي في خوف لا قبل له باحتماله، وكيف تطمئن نفوس واعية والبلاد يسرح فيها ويمرح أكثر من ستة ملايين وافد، تختلف مستوياتهم ولغاتهم وعقائدهم وعاداتهم، منهم المرضى، ومنهم المجرمون، ومنهم المشعوذون، ومنهم الناصحون الساعون في فجاج الأرض لطلب الرزق الحلال، فيما يقابلهم من المواطنين العاميون، والمعسرون، والمستغلون، والمتحايلون، والمهملون والمغفلون والقابلون للاستغلال، هذه التركيبة العجيبة لا يمكن أن تأتي معطياتها سليمة كما يتوقعها المتفائلون. ومما يضاعف الإشكالية المتسللون من الحدود والمتخلفون من الحج والعمرة والهاربون من كفلائهم والمتستِرون على كل هذه المخالفات من المواطنين الذين يواطئون على الخطيئة.

والعدد المخيف يتزايد يوماً بعد يوم، والإشكالية أن الجهات الأمنية والمواطنين على الخطيئة في سباق (مرثوني) فكلما أحكمت الجهات الأمنية ضوابطها، خرق المتحايلون على النظام خرقاً يتسع على الراقع، حتى إذا بدا عواره تداركه واضع النظام. ومع تزايد العمالة، وتشعب إشكالياتها فإن المملكة تعد من أعلى دول العالم في نسبة المواليد، ومن أعلاها نسبة في فئة الشباب المحتاجين للعمل أو المقبلين عليه، وظاهرة البطالة بادية للعيان بنوعيها: البطالة المكشوفة والبطالة المقنعة. ومما يؤزم البطالة انعدام عنصر المنافسة، فالوافد يجد نفسه ميسور الحال بأقل الأجور، فيما لايكفي ما يتقاضاه لسد قيمة المحروقات أو أجور المكالمات للشاب السعودي، وهذا الفارق يحفز صاحب العمل على التمسك بالعمالة بقوة النظام أو بالتحايل.

ومما يضاعف الإشكالية أن العمالة الوافدة يستدعيها من لا يحسن إدارتها، أو من لا يستطيع الوفاء بحقوقها، حتى إذا وقعت الواقعة بسبب الجهل أو العجز تسربت العمالة من بين أيدي الكفلاء بالتواطؤ أو بالحيلة، وحين لا تجد الكسب المشروع، التمسته في الكسب غير المشروع، فتكون السرقات والاختلاسات والسحر والشعوذة والتطبيب الشعبي وصناعة الخمور والقمار والدعارة، ويكفي ما نواجه به من أخبار مفزعة عن تصاعد نسبة الهروب، وبخاصة عند فئة الخادمات، وما نسمع به من عثور عن طريق الرصد أو بالصدفة على أوكار الخطيئة المتعددة. وقد تضيق السبل بالعمالة، أو يقسوا الكفلاء على المكفولين، فيكون الغدر القاسي الذي قد يقع على الأطفال الأبرياء. وكل هذه الظواهر لو عرفها الناس لما فُزِّع عن قلوبهم، ولكن الجهات الأمنية تتكتم خوف الإزعاج، وما كان من مصلحة المواطن أن ترأف الدولة بمشاعره، حتى يقع في الكارثة من حيث لا يدري، إن على أجهزة الأمن أن تكشف عن كل هنات العمالة، وأن تضع المواطن في الصورة، ليأخذ حذره، ويقلل من فرص الاحتيال على النظام، وتسريب المكفولين للعمل غير المشروع.

وإذا كانت المملكة بسبب عمقها الجغرافي، وكثافتها السكانية، قد احتملت شيئاً من هذه السلبيات، واستوعبت الكثير منها، فإن بقية دول الخليج نالها من هذه التركيبة الغريبة ما لا يمكن احتماله، وهي مقبلة على مؤثرات لغوية وسلوكية، قد تطمس الهوية، وتقلب التركيبة السكانية رأساً على عقب.

وتلك الظواهر لم تكن وقفاً على الخليج فلقد مرت بها دول كثيرة واتخذت من الاحتياط ما خفف الآثار السيئة، وعلينا أن نستفيد من تجارب الآخرين، نجد ذلك في أمريكا الشمالية والجنوبية قبل قرن من الزمن، حيث كانت مواطن جذب واغراء فيما كان المشرق العربي إذ ذاك موطن طرد، فكان أن نشأت ظاهرة (المهجرين العرب) حيث كان لتكتلهم وتعلقهم بلغتهم وآدابهم نتائج إيجابية، بحيث نشأ ما عرف ب (الأدب المهجري)، وذلك على مستوى المهاجرين من الشام. أما في (نجد) التي يقول أهلها عنها: إنها تلد ولا تغذي، فقد عرفت ظاهرة (العقيلات) وهم رجال عصاميون من حواضر نجد، خرجوا للتجارة والعمل، وعاد من عاد بعد الاستقرار والرخاء، وبقي منهم خلق كثير، وقد شكلوا فيما بعد تاريخاً استهوى طائفة من المؤرخين، وسيقت عن بعضهم حكايات بطولية، ووسع الشعر العامي طائفة من حكاياتهم، وانتهت ظواهر (المهجرين) و(العقيلات) لتحل محلها ظواهر أدهى وأمر، هي ظاهرة (هجرة الأدمغة) و(الكفاءات العلمية) لتوفر المناخات العلمية والتقدير المادي.

إضافة إلى ظاهرة اللاجئين الذين لم يحتملوا جور الحكام، ولم يطيقوا شظف العيش، لقد فاضت الملاجئ بالحزبيين والخارجين والمناوئين والهاربين، وكل ذلك ناتج قلق سياسي واضطرابات أمنية وضلوع في اللعب السياسية، وكل هذه الظواهر جعلت الكافة من الخليجيين يعولون على غير العرب في سد حاجتهم في الأيدي العاملة، الأمر الذي أخل في تركيبتهم السكانية، وأفسد عليهم لغتهم، وستظل العمالة مصدر إزعاج وبؤرة عادات سيئة وعاميات غير مستقرة وبطالة مؤثرة على القيم المادية والمعنوية، وواجب الخليجيين تدارك الأمر قبل فوات الأوان.

والأمة أحوج ما تكون إلى (عوربة) العمالة بعد تسويات سهلة، فالأقربون أولى بالمعروف.

وأحوج ما تكون إلى الفصل بين العمالة والعلاقات السياسية ورياح التغيير.

وأحوج ما تكون إلى مراعاة الحاجة، بحيث لا تنظر إلى تخفيف حدة البطالة عند الآخر، والأجدى لها أن يكون بحث شؤون العمالة اقتصادياً صرفاً، يدار وفق الحاجة، من حيث الكم، ومن حيث النوع، ومن حيث نسبة العمالة إلى نسبة السكان، وعبر مؤسسات متخصصة بشؤون القوى البشرية، لا مؤسسات مهتمة بالأمور السياسية.

ونحن في المملكة أحوج ما نكون إلى تجميع شتيت المسؤولية، إذ أن وزارة الداخلية، ووزارة العمل، ووزارة الخدمة المدنية، تقتسم المسؤولية، وقد لا تتبادل الخبرات والمعلومات، وحين توحد جهة الاختصاص، وتسلخ الإدارات من تلك الجهات لتجتمع في دائرة واحدة، تكون الأقدر على التقدير والتقويم والتدبير والتطوير والرصد الدقيق. كما أننا أحوج ما نكون إلى حماية السواعد الشابة التي زوحمت في عقر دارها، ومورس معها الإغراق بأرخص الأسعار، وتتم الحماية بمضاعفة الضرائب مع استثناء المؤسسات الإنتاجية كالزراعة، وبتمويل مراكز التدريب من تلك الضرائب التصاعدية، والإغراء على التدريب، وذلك بصرف مكافآت مغرية للمتدربين على المهن التي تتطلب مهارات، وتمكين المتدربين بعد استكمال تعلمهم من فرص العمل، وذلك بمنح قروض ميسرة، بدعم من البنوك، وفي سبيل تحسين الأوضاع لابد من تجميع الوحدات الصغيرة من الورش بمجمعات مشتركة تستفيد من التأمين والخدمات الصحية والقروض وغيرها. أما عن

العمالة المنزلية فيحسن إنشاء شركات نقل لخدمة الأسر التي تحتاج إلى خدمات النقل، وتحويل كفالة الخادمات إلى شركات بدل كفالة العوائل، على أن يكون عملهن باليوم أو بالشهر أو بالسنة، وفق ساعات العمل المطلوبة بحيث يسهل الاستبدال عند سوء الفهم، وفوق كل ذلك لابد من متابعة وإحصاء ودراسة وتقويم مستمر.

الفكر والبيئة بين النقاء والتلوث .. ! (١) [١]

أذكر أنني قرأت أمشاجاً من كتاب «التلوث مشكلة العصر»، وتجرعت مع غيري مرارات التلوث، في أعقاب تفجير حقول النفط الكويتي، وفي زمن الطفرة الزراعية. وكتبت عن خطورة ذلك، وضل عني الكتاب والمقال، ولما تزل تجتال المشاهد أنواع أخرى، تلوثت منها الآفاق، والتاثت فيها الألسن، وارتابت معها الأفكار. وإذا كانت الأوبئة تنسل من المستنقعات وعوادم المعدات، فإن الفتن العمياء توقظها لوثة الأفكار وعنت السياسة. ومتى فسد الفكر، وتلوثت البيئة، شقي الناس، ومع كل أنواع التلوث، يظل حقلان هما الأخطر: تلوث البيئة، وتلوث الفكر. ولقد استذكرت النوعين ساعة كنت في مطار الملك خالد الدولي في طريقي إلى القاهرة، لحضورمؤتمر «العولمة وحوار الحضارات» المنفذ «بجامعة عين شمس» في مستهل شهر صفر ١٤٢٣هـ، إذ لقيت في أبهائه لفيفاً من المتخصصين السعوديين بصحة البيئة، وهم في طريقهم إلى القاهرة لحضور مؤتمر آخر، يتعلق بتلوث البيئة، فيما كنت مع أربعة من المفكرين والاجتماعيين والأدباء والاعلاميين نحزم أمتعتنا لحضور مؤتمر يتعلق بتلوث الفكر. وكانت بعض المؤسسات في المملكة قد تبنت من قبل مثل هذه الندوات «فمكتبة الملك عبد العزيز» و«رابطة العالم الاسلامي» قد فرغتا للتو من تنفيذ ندوات مماثلة، وقلت في نفسي: إن وراء هذا الاحساس أكثر من تساؤل، فتعاقب المهرجانات والمؤتمرات والندوات، وتتابع الكتب، مؤشر اهتمام وخوف، يسبق المخاضات التي لها ما بعدها، وفوق ذلك فقد تحرفت دول عربية واسلامية لانشاء مراكز لدراسة الحضارات المعاصرة، إذ أنشىء مركز في «طهران» وآخر في «جامعة عين شمس»، وعلمت ان مؤسسات علمية في المملكة بصدد انشاء مركز مماثل، تتعقب من خلاله كل المؤتمرات والندوات والكتب والمحاضرات التي تجعل من «العولمة» أو «حوار الحضارات» أو «النظام العالمي الجديد» مجالا لفعلها، وفي ذلك خير كثير. وقادة الفكر عندنا خير معوان لحماية البلاد من دخن الأفكار المنحرفة، ولا خوف من فلول الحداثة وذيول الماركسية وسدنة التغريب، وسائر التبعيين الذين يحلو لهم وضع العصي في العجلات وتعكير صفو الوحدة الفكرية التي تنعم فيها البلاد، ويحس بدفئها العباد، ومع ما هم عليه من شغب مفتعل فإن عودتهم مأمولة، فهم أبناء فطرة لا يبعدون النجعة.

لقد كان هذا التحرك الاستثنائي المثير عبر كل المشاهد العربية سببا مباشرا في استدعاء تلك القضية الأهم، وهي «تلوث الفكر» وأهمية حمايته، و«تلوث البيئة» وأهمية تنقيتها، ولاسيما في زمن الانفتاح والصناعة. الانفتاح المعرفي والاعلامي والمعلوماتي، والتسابق القنواتي، والمتاجرة بالامكانيات. وليس «التلوث البيئي» بأحسن حال من «التلوث الفكري»، والحديث عنهما مطلب رئيس في ظل التحولات الصناعية والزراعية والكثافة السكانية في عواصم الجذب، واستشراء قنوات الفضاء، وتسابقها في الجذب والاغراء والتغرير، وسهولة الدخول على المواقع عبر الشبكات العنكبوتية، وامكانية الوقوف على كل ما انتجه الفكر الفلسفي المادي.

والخبراء الغربيون ورجال الأعمال منهم، ممن يمرون بالمنشآت الزراعية في المملكة زمن الطفرة لتقوية العلاقات مع الشركات الزراعية والأفراد، يفزعهم الاستعمال غير المرشد لسائر المركبات الكيماوية، سواء منها ما يتعلق بالتقوية أو بالمكافحة، فلقد ملئت المحلات بالمبيدات والكيماويات المركزة التركيب، وتهافت المزارعون عليها،

---

(١) تاريخ المقال: ٢٨/ ٥/ ٢٠٠٢

بدون وعي لأضرارها، وبدون معرفة لاستعمالها، ولقد كنا نحس بظاهرة التلوث، حين تنطلق بنا السيارات باتجاه الشمال، إذ نشم روائح ملوثة، تزكم الأنوف، وتسيل الدموع. وأصحاب المشاريع الحيوية يمنون بأوبئة، تجتاح مشاريعهم، ثم لا تبقي، ولا تذر، وبخاصة مشاريع الدواجن. فأين منها حفظة التوازن، وجهات الاختصاص، الذين يحمون الأجواء والتربة من فساد كبير؟ وأين منا المرشدون الذين يعلِّمون المزارع، ويوعّونه، ويحذّرونه؟ لقد خلت الأجواء للاعلان التجاري، وضل عن الجميع ما هم بحاجة اليه.

ومشكلة التلوث البيئي من أكبر المشاكل التي يواجهها العصر، ومن أكثرها خطراً على مستقبل الحياة في الأرض، ولعلنا على علم بالمؤتمرات المتلاحقة حول «الثقب» الذي أحدثته نفايات الأرض في طبقة الأوزون، وما يمكن ان يتركه من آثار سيئة، تطال كل جوانب الحياة، وإذ لا أكون مع المبالغين في التهويل والهلع، أجد في الأمر شيئا، لا يصل حد التهويل الذي نسمع به. وعلينا ان نفرق بين «التخويف» و«التحذير» و«المكائد»، فالتسليم لكل ناعق مضيعة للمثمنات، وتعطيل للامكانيات. وسائر المشاهد لا تخلو من لاعبين أذكياء يخوفون أولياءهم، ويصدونهم عن الاعتماد على النفس والاكتفاء الذاتي، وعلينا ان نعيد النظر في كل ما يطرحه الغرب، فلربما يكون طرحه من باب المكيدة الحاذقة، وبخاصة ما نسمعه عن «حرب المياه»، وتعمده ارباك المشاريع الزراعية، حتى لقد خوت المزارع على عروشها، ونجمت مشكلة تصدير فائض المعدات الزراعية، وبيعها بثمن بخس، واجهاض تجربة مثيرة، وفقنا بها على مشارف الاكتفاء الذاتي والأمن الغذائي.

ومشكلة التلوث فتحت شهية عصر القطب الواحد وغطرسة القوة وحمى الأمركة وصبغة الغرب، ومن لم يستجب سيم سوء العذاب، حتى لقد فرضت ضريبة تعسفية على دول النفط لمكافحة التلوث، فيما لم تفكر الدول الصناعية في التعويل على دراسات متخصصة لتطوير أجهزة العوادم. و«النفطويون» لا يملكون أكثر من ترويج البترول الخام، وعلى الذين يتولون التكرير التحرف لمزيد من التقنية. وحسم التلوث لا يتم إلا بالتعاون الصادق بين الأطراف، لتكون «التقنية» و«التنقية» صنوان، وكم نتمنى لوان دول العالم كافة استدبروا المكائد والابتزاز، وفكروا جيدا في عمل مشترك للتخفيف من حدة التلوث الذي خلف أوبئة وأمراضاً مستعصية.

ومع الاشفاق الكاذب، ودموع التماسيح، اكتشف العالم فضيحة الدول الغنية التي تستأجر شواطىء الدول الفقيرة المتخلفة، لطمر النفايات النووية. والدول التي تلوح بورقة الدفاع عن حقوق الانسان والمرأة والاسكان، لتخيف الناشزين عن عصمتها والمتلملمين تحت وطأتها، هي الساعية مع سبق الاصرار لحرمان هذا الانسان من أبسط حقوقه، وهي الصانعة للارهاب والمصدرة للتلوث، وهذا التناقض الصارخ، لا يمكن تبريره على أي شكل من الأشكال، والتقدم الصناعي الذي حقق مزيدا من الرفاهية للانسان، ومكنه من التواصل، يعد من أكبر أسباب التلوث الطبيعي، فالمصانع والمعدات ووسائل النقل البري والبحري والجوي تنفث غازات ضارة، تلوث البر والبحر والجو، اضافة إلى مخلفات المصانع وسائر الكيماويات الزراعية وأدوية المكافحة. والتلوث حين يمتد إلى البحار، يميت أحياءها، ويلوث ماءها وشواطئها، وأهمية البحار الاقليمية زادت بعد مشاريع التحلية والسياحة.

والدول التي لم تستكمل البنية التحتية، وبخاصة ما يتعلق بالصرف الصحي، تتعرض لأضرار مادية وصحية، وتدمير لما نفذ من بنية تحتية، لأن طفح المياه في المنخفضات وفيض المياه من البيارات وتسرب المياه من الشبكات الضعيفة يقضي على سائر التمديدات والخطوط والطرق، مع ما يتركه من تلوث بيئي ونزف للثروة المائية، وقد

شوهدت آثار ذلك في بعض مناطق المملكة، وبدأت التحركات الجادة لمواجهة الأضرار في وقت مبكر، ولكننا لم نستكمل ذلك، لا على مستوى تصريف المياه المستعملة، ولا على مستوى مياه الأمطار، ولم نستكمل مشاريع المعالجة الصحية، وتدفق مياه المجاري في المنخفضات تصرف بدائي، واستخدامه زراعيا دون تنقية مضر بصحة الانسان والحيوان، والتلوث مؤذن باختلال التوازن بين عناصر البيئة المختلفة.

والتوازن بين عناصر البيئة أصبح يشكل قضية جديدة، لم يلتفت اليها العالم، إلا بعد استفحال التلوث، وتعدد مصادره ومجالاته، كتلوث الهواء بثاني أكسيد الكربون، وتلوثه بالشوائب، وتلوث الماء، والتلوث النووي، المتمثل بالتجارب النووية أو بالتوسع في استعمال محطات الطاقة النووية وتسربها، وبالنفايات النووية، وما يترتب على الاستخدام النووي السلمي من حوادث ونفايات وتلوث حراري. ومن عجائب العصر ما عرف بالأمطار الحمضية، وأثرها على النبات والانسان والحيوان. وتلوث آخر منشؤه الكثافة السكانية. والذين يعيشون في الحواضر المكتظة بالسكان، ويقيمون في العمائر الشاهقة، يعانون من أمراض «الربو» و«الحساسية» و«الأمراض الجلدية»، ومع ما يعانيه سكان العواصم والمدن الصناعية فإن الانفاق على مكافحة التلوث لا يكاد يذكر، وفوق ذلك نجد عدم الالتزام بالاتفاقات العالمية لمكافحة التلوث، كما ان أساليب التوعية بدائية وثانوية، وليس هناك مؤسسات مستقلة للرصد والدراسة والتوعية والمكافحة. ومن ظواهر التلوث عرفت الهجرة واللجوء، إذ هناك اثنان وعشرون مليون لاجيء بسبب التلوث. ومع ان العواصم العربية تعرضت لاشكاليات الكثافة السكانية بسبب تكديس المنشآت والمصانع ومجالات العمل والدراسة المغرية على الهجرة، فإننا لم نستفد من ذلك، ومدينة «الرياض» مقبلة على كثافة سكانية مهيأة لتلوث بيئي، وكان بالامكان تلافي ذلك، لو اتعظنا بغيرنا، ولم نجعل «الرياض» مثابة لكل شيء.

ومع ضعف المقاومة والتوعية تتعدد مصادر التلوث وأسبابه، ولم تعد الصناعة وحدها مصدرا من مصادره، فهناك النفايات التقليدية والنووية، والحروب الجرثومية، ومياه الصرف الصحي، والمستنقعات، والطفح، والسيول، والأوبئة، والضوضاء، والكثافة السكانية، والأخطر من كل ذلك معامل وزارات الدفاع الغربية الساعية لتطوير أسلحة الدمار الجرثومية، حتى لقد اتهمت البنتاجون بتسرب فيروس «الايدز»، والعالم الثالث لم يتخلص بعد من مصادر التلوث التقليدي كالمستنقعات. والبلاد مرت بحالات من عقابيل التلوث التقليدي، ظهرت في «جازان» وفي «سواحل الخليج» وبخاصة بعد الحربين الخليجيتين، وفي مدن الجذب كـ«الرياض» و«جدة». ومكافحة التلوث لا تتم إلا بتضافر الجهود واخلاص النوايا، وأحسب ان العالم بعد لم يخلص النية، ولم يصدق عزمه على تجنيب كوكبنا الأرضي من نكبة مدمرة، بسبب التلوث الناتج عن الاهمال أو التعمد. وإذا كنا نؤازر العالم في الحد من التسلح النووي وأسلحة الدمار الشامل فإن عليه تعميم المتابعة والعدل بين الظماء، وذلك بالحد من التسلح عند الجميع، أما ان تمارس الضغوط والعقوبات الذكية والغبية على طائفة دون أخرى، فذلك الظلم الذي لا يطاق، والجور الذي لا يحتمل، والظلم هو الحاضن المخصب للعنف والارهاب، وإذ لا نجد بداً من القبول بالحد من التسلح، نود ان يمتد إلى العصابات الصهيونية، التي تعيث في الأرض فساداً، وتتلقى الدعم السخي من حماة العدل والحقوق والديمقراطية، وعلى عالمنا الموصوف بالتخلف والانفجار السكاني والفقر ان يكل أمر مكافحة التلوث لمؤسسات قوية، تستشرف المستقبل، وتخطط له، وتواجه الواقع المرير، وتحسن اشكالياته.

إن العالم النامي والنائم يتعرض لحملة بشعة تضعه تحت طائلة الأوبئة والتضليل، فلا هو قادر على الرؤية السليمة بسبب التضليل، ولا هو قادر على ايقاف التدهور البيئي

بسبب الاستغلال البشع، وسيبقى ضحية التضليل والاستغلال حتى يأذن الله بيقظة قادته ووعي نخبه واستجابة كافته وعدل الأقوياء في الأرض.

الفكر والبيئة .. النقاء والتلوث .. ! (٢) [١]

ومع الخوف والهلع اللذين يصيبان الانسان من تلوث البيئة، يقوم إلى جانبه تلوث آخر، لايقل عنه خطورة، ذلكم هو «تلوث الفكر» وهذا النوع من التلوث يستشري بين العلماء والمفكرين والأدباء ممتداً إلى الكافة، بحيث يؤدي إلى خلل في وحدة الفكر ووحدة الصف، ومن خلل الوحدتين تنسل الفتن، والأعداء لا يخوضون الحرب المسلحة حتى يوهنوا الخصم بإشاعة الخلاف والفرقة، وتحويل الأمة إلى شيع وقبائل، يضرب بعضها رقاب بعض.

وما دون ذلك من التلوث يتمثل في الخلاف حول المرجعيات والمفاهيم، والخلط بين الوسائل والغايات، والمتناكفون حولها لا يفرقون بين الثوابت والمتغيرات، ولا بين ما هو معلوم من الدين بالضرورة وما طريقة التفقه، ولا بين ماهو مجال للاجتهاد وما لا يحتمل الا التسليم، وليس من شك ان مثل هذه الظواهر ناتج عن تلوث فكري، لم يحل بالأمة دفعة واحدة، وإنما تسرب عبر الثنيات المهملة كالخدر، على حين غفلة من حراس الثغور، أو اشتغال بما دون المهم ويستفحل دخن التلوث حين يؤدي الاختلاف إلى العداوة والبغضاء والتنابز بالألقاب، إذ ليس من التلوث الاختلاف ابتداء، وليس منه الجدل في سبيل تحرير المسائل وإحقاق الحق، وليس منه البحث الجاد عن الصواب، وما أجمل مقولة الشافعي: «إذا صح الحديث فهو مذهبي» ولقد قال زكي مبارك لخصمه اللدود طه حسين «الويل لنا إن لم نختلف» والاختلاف المقبول هو ذلك الاختلاف حول «النص وصحته» «النص ودلالته» و«الدلالة ومقاصد الشريعة» و«تعدد الدلالات وفق الواقع»، أما الاختلاف حول شرعنة الباطل، وتأهيل المنكر، فاختلاف مذموم، ولقد عشت الاختلاف في كل لقاء أحضره، وفي ثنايا كل كتاب أقرؤه، وعبر كل حديث أسمعه، ولما يكن بعضه من الاختلاف المعتبر المتوقع الذي يتعاذر فيه المختلفون.

واستفحال التنازع في المؤتمرات التي أريد منها تقريب وجهات النظر، وتنقية المشاهد من شوائب التلوث الفكري ظاهرة مألوفة، لقد رأيت وسمعت في مؤتمر «العولمة وحوار الحضارات» في القاهرة، وفي ندوة «مشروع النهضة العربية .. » في دمشق اللذين حضرتهما مشاركاً مؤشرات التلوث الفكري، فبعض المشاركين لاتحكمهم مرجعية يرضون بالرد إليها، ولا تستوعبهم أيديولوجية يركنون إليها، فكل واحد تعدو عينه إلى مرجعية مغايرة، وإلى أيديولوجية مناقضة، فهناك قومي مغرق في القومية، وعلماني متطرف في العلمانية، وإسلامي كما الأعراب الذين قالوا: آمنا، ولما يدخل الإيمان في قلوبهم، وإسلامي موغل في الإسلام بدون رفق، ولعل من بين ما سمعت اختلافا مخيفا في وجهات النظر، وآراء متضاربة، لا توحدها مرجعية، ولا يشغلها هم مشترك.

والذين جاؤوا من آفاق العالم العربي للحديث عما يجب اتخاذه من احتياطات، عمقوا الخلاف فيما بينهم، ولما يكن اختلافهم حول مفهوم الظاهرة، وإنما امتد إلى المرجعية، وفوق ذلك فقد القى بعض المؤتمرين ملخصات بحوثهم ب«اللغة الانجليزية»، في حين ان المستمعين لا يجيدون إلا العربية، وفي ذلك تهافت مخل بالأهلية على لغة حضارة مغايرة، من أهم أهدافها عولمة العالم: لغة وحضارة، واللغة وعاء الفكر، وعنوان الحضارة، والتخلي عنها في لحظات البحث في مشروعيتها مؤذن بفساد كبير.

وكل الذين يدافعون عن الفكر الأصيل، ويؤكدون على الخصوصية العربية، وما لها من موروث عريق، يحاولون صد هذا الطوفان، ومع ما لهؤلاء من دور فعال فإن

---

(١) تاريخ المقال: ٤/ ٦/ ٢٠٠٢

الخطورة تكمن في طوائف تقمصت هم الاستشراق .. والاستشراق قضية عويصة في ذاتها، فضلاً عن مقاصدها.

وتلوث الفكر المتعمد والمبيت والقصدي لايقل خطورة عن تلوث البيئة الاضطراري واللاقصدي، فهذا يفسد المادة، وذلك يفسد الروح، والحياة الدنيا طريق للحياة الأبدية، وتلوث الفكر نتيجة تفكير ومكيدة مدبرة يؤزه حقد دفين، والمتماكرون أذكياء، ومتفانون في خدمة مصالحهم العاجلة، ولكل تنظيم وسائله وسبله المتعددة، ولا يمكن تحديد مصادره، ثم هو باقٍ ما بقيت تشكلاته.

ولكيلا نديم الإحالة على المكر والتآمر، ولكيلا نمعن في جلد الذات وعمليات الإسقاط نجد ان طائفة من المفكرين تحيد بهم أفكارهم وتصوراتهم ابتداء عن جادة الصواب، ويبلغ بهم الإعجاب بالرأي حداً يفوق عبادة الهوى، والإسلام ذم من اتخذ إلاهه هواه، ومرد ذلك سوء الفهم، أو التعويل المطلق على العقل، واستدبار النص، وما نسلت النحل والملل إلا من لعبة «النص والعقل» أيهما الحاكم والمحكوم، وما حدود كل منهما، ولسنا بصدد تحرير الموقف من «النص والعقل» فذلك له مجاله الذي نود تقصيه في موقف آخر، وعلينا أن نتلمس مصادر تلوث الفكر المتعددة والمتنوعة، ولا شك أن «الكلمة» حجر الزاوية في النقاء والتلوث، والفائزون من يهدون إلى الطيب من القول.

والكلمة هي الوسيلة الأهم، لأنها تسهل في تشكل الفكر وصياغة الذهن، وحين تصاغ الذهنية العامة على عين الجهلة وأنصاف المتعلمين والحاقدين الماكرين يصعب تصحيح ما فسد، وقنوات التواصل تعددت وتنوعت، ومن أخطرها القنوات الفضائية، والشبكة العنكبوتية، ومراكز المعلومات، وفيوض المطبوعات، وسرعة الاتصالات، وسهولتها، والخلطة المستحكمة، ورقة الدين، و«الرأي العام» أصبح فريسة للإعلام الموجه وللمتفلتين من جماعة المسلمين، وحين يتشكل وعي «الرأي العام» على عين الأعداء يصعب اختراقه واستمالته وإقناعه في سبيل تشكيل جبهة داخلية متماسكة، تحمي الساقة، وتمكن القيادات الفكرية من النظر إلى الأمام.

والأمة الإسلامية واجهت حروباً شرسة من أخطرها «حرب الكلمة»، فالمبشرون والمستشرقون والمستغربون والمتعالمون المتصدرون للفتوى المتزاحمون على القيادات المعرفية كل أولئك يمارسون مكيدتهم أو جهلهم أو تعالمهم تحت نوايا ورغبات مختلفة، ولكن النتيجة واحدة، والإعلام المتوغل ناقل سريع لهذه الأدواء، ولم يكن الإعلام وحده في المعركة، فالأدب المؤدلج جنح إلى الالتزام الفكري، والممعنون في الأدلجة غير مؤصلين، والروائيون الماجنون المنحرفون المتمردون على شرط الفن وضوابط اللغة وأطُر الاخلاق، يفسدون الذوق واللسان والسلوك، والنقاد الصامتون أو المؤازرون يواطئون على الرذيلة باسم حرية الفن، والجميع لا يعرفون حدود ما أنزل الله ومن ثم يلوثون الفكر ويدمرون الأخلاقيات، وما فتئ أعداء الإسلام يتحرفون للوقيعة، ويمارسون مختلف الأعمال لتزييف الوعي، وتشكيل الذهن الإسلامي على مرادهم، ليكون منفلتاً، يشرعن لكل شيء، ويلتمس العذر لكل منحرف، أو يكون متشدداً يحرم كل شيء، ويكفر كل مخالف، وهذا التلويث المتعمد، زرع الشقاق، وأشاع الخلاف، وعدد الولاءات والانتماءات، وأذهب ريح الأمة، وجعل أهلها شيعاً تتناحر حول القضايا المصيرية، مثلما تتجادل حول أتفه الأمور، ولتلويث الفكر مجالاته المتعددة، ويأتي في مقدمتها التعصب للرأي والإعجاب به، والانتصار للذات، والتأكيد على المذهبية والحزبية، وخلق مناخات للصراع، وتكريس الرغبة في التشرذم والتجزيئية، وتصنيم الحدود الإقليمية، وتقديس العادات والتقاليد، وتأصيلها، والتأكيد على أهمية المحافظة عليها، واعتبارها جزءاً من حياة الأمة، وإثارة الشكوك حول الرموز الدينية، والدخول في مأزق المفاضلة في الأفعال

الإجرائية لا في الأهداف والمقاصد، وطرح عدد من المصطلحات الغربية بمفاهيمها ومقتضياتها، أو بمفاهيم مستحدثة، بدعوى إفراغها من محتوياتها، والخلط بين مفهوم التجديد والحداثة الفكرية، والالتفاف الغبي على المفاهيم، وتسجيل مواقف الارتياب على حساب الفكر الاسلامي المستنير، واجترار الاخطاء الاجرائية بوصفها أخطاء مبادئ، وليست اخطاء منتمين للمبادئ، وإثارة الجدل حول ظواهر وقضايا بينة العوار كـ«العلمانية» أو «الحداثة» أو «العولمة» أو «الحاكمية» وغيرها، ومحاولة زرع الخلاف حولها بتعدد مقتضياتها، فالعلمانية مثلاً تطرح على أنها «عزل الدين عن الدولة» أو «عزل الحياة عن الدين» وقد يقال إنها «الدولة المدنية» في إزاء «الدولة الدينية» وضرب المثل مع الفارق، فالغرب متقدم بالعلمنة في إزاء دين محرف، والشرق متخلف في إزاء دين غير محكَّم، وهكذا يختلف الناس حول دينهم، ثم يختلفون حول مجلوبهم، وإذا اختلفوا حول الثوابت فسدت الحياة الدنيا، وهذا الجانب من أخطر جوانب التلوث، وتأتي قضايا كثيرة يختلف الناس حولها، ولا يردون خلافهم إلى مرجعية متفق عليها، تفض النزاع، وتحق الحق، والمشاهد الفكرية تعج بعشرات القضايا «كالمرأة» و«الحرية» و«الاقتصاد» و«المناهج» وسائر الأنظمة، وما من أحد يرد إلى الله والرسول.

وإذا كانت الدول المتحضرة تخسر المليارات في سبيل حماية البيئة من التلوث الحسي فإن واجب الدول الإسلامية التأكيد على أهمية الفكر وحمايته من التلوث العقدي، وأهمية المجتمع وحمايته من الفساد الأخلاقي، وأهمية ذلك مرتبطة بما يترتب عليه من نتائج، لقد كان الخلاف سابقاً بين فئات من الناس لا تملك التغيير، أو قل خلافات العلماء والنخب داخل دوائرهم العلمية البعيدة عن الرأي العام، أما الآن فإن الخلاف يمتد إلى مؤسسات لها سلطة التغيير، وإلى شرائح من المجتمع لا تعي ما يقال، ولا تعي خطورة ما يقال، وهي قادرة على سماع ما يقال، والأخذ به دون فهم دقيق، ودون قدرة على استبانة المرجعية، وهذا الخلاف في هذه الأجواء المشحونة بالتوتر قد يدفع إلى مواجهة مخلة بالأمن، واختلال الوحدة الفكرية لا يقل خطورة عن خلل الوحدة الإقليمية، والتناوش الفكري والطائفي من أخطر القضايا، وأي دولة لا تضمن صفاء جبهتها الداخلية، لا تستطيع الفعل الإيجابي.

إن على الدول الإسلامية أن تحسب للتلوث الفكري حسابه، وألا تحيل الصراعات القائمة على أشدها إلى حرية الرأي وحرية التعبير، دون ضوابط، ودون فهم لمقتضيات الحرية لأن مردود هذا الخلل لا يقف عند حد الانحراف الشخصي، بل يتعداه إلى إحداث فوضى فكرية تمزق وحدة الأمة وتلاحمها، وتزرع بذور البغضاء، وتتيح فرصة للمفسدين ليندسوا بين المختلفين الناصحين المتعاذرين، وينفثوا سمومهم، والذين يعولون في لغطهم على «الحرية» ثم لا يفهمونها يبلغون حدَّ الفوضوية، والحرية هي النظام والانضباط، وتفويض حمايتها إلى سلطة قوية تقمع الظلوم الجهول، وتأطر السفية، ومن أخطر حالات التلوث الفكري أن نفهم الأشياء على غير وجهها الشرعي، وإشكالية الاختلاف في المفاهيم مصدر مزعج من مصادر التلوث الفكري، وقد يعتمد المستفيدون من خلاف الأطراف الإيغال في مسائل الخلاف وتضخيمها، والخلط بين الوسائل والغايات، وتشجيع تعدد المرجعيات، وضرب المؤسسات الدينية، والتشكيك في علماء الأمة، والنيل الصريح من كفاءتهم وأمانتهم واستمرار النيل منهم، وليس ببعيد ان يكون تلوث الفكر نتيجة مكيدة حاذقة على خلاف تلوث البيئة، وقد يكون لرموز الفكر يد في ذلك، وأساطين الفكر الحديث لهم مشاريعهم الفكرية المخالفة لمقتضيات الإسلام، ومذاهبهم لاتندرج تحت مفهوم الخلاف المعتبر، ولا يشرعن لها حق الاجتهاد، إذ هي

مذاهب غربية، ليست من الحضارة العربية والإسلامية في شيء، وتلوث الفكر يتلون كالحرباء، وتتعدد مواقعه، والمتابعون ببصر وبصيرة، يدركون مواطن الريبة، ويعرفون مرضى القلوب من لحن القول.

والسعيد من وظف قلمه ولسانه لخدمة العقيدة الناصعة والمحجة البيضاء، ولزم الجماعة حتى وإن بدا له ان القاصية من الغنم على الأفضل، وهو على الفاضل.

والأمة التي تعيش تحت مظلة وحدةٍ فكرية متناغمة، تسمو بنفسها فوق النزهات والنزاعات، ومتى اختلت الوحدة الفكرية في الأمة، دب الخلاف، واستفحل الشقاق، وتمزقت الأمة، ومن أوجب الواجبات على قادة الفكر في أي مجتمع أن يجنبوا «الرأي العام» مثل هذا الاختلاف في وحدة الفكر، وأن يحاولوا التسامي فوق الخلافات الجزئية لدرء الفتن «والفتنة أشد من القتل»، وقادة الفكر ليسوا بأقل خطراً من قادة الجيش، ولهذا فإن اختلافهم مؤذن بفساد كبير، والمؤسف أن العامة تستعذب الاختلاف، وتدفع إليه، وتعلي من شأن المتنازعين، وتتهافت على المثيرين، وعشاق الأضواء كالممثلين يتلمسون الرغبات ولا ينشدون الحق.

ومن أخطر ظواهر التلوث ان تختلط الأمور بحيث لانفرق بين الاختلاف المشروع والخلاف المحظور، إن هناك من يطالب بالفوضوية باسم حرية الرأي وحرية التعبير، بحيث لا تكون حدود ولا قيود، ولا أطر على الحق، وكل من حرَّم فهو عندهم ضد الحرية، وكل من أباح فهو العالم النحرير، ولهذا ارتفعت أسهم التمشيخ القنواتي، وفات البعض ان الدين مجموعة من الأوامر والنواهي والعزائم، وأن الصبر على الأقدار كالصبر عن الشهوات المحرمة، والصبر على الأوامر العازمة، لقد عايشنا خطابات لا ترى الحظر ولا الأمر، فكل ما حلَّ باليد حلال، وكل فعل ممكن مباح، وتلك حياة بهيمية، لا يستقيم أمر الأمة معها.

ومن ظواهر التلوث تقحم البعض منابر الخطابة، ومجالات الافتاء، ومواقع «الإنترنت»، والسعي الدؤوب في سبيل البحث عن آراء شاذة أو مخالفة للسائد، والقول بها، بدعوى «نحن رجال وهم رجال»، ولم يفكر أولئك أن من مقاصد الإسلام لزوم الجماعة، وإن كانت مع المفضول، ذلك أن يد الله مع الجماعة، ومن شذ شذ في النار، ومن الخير الأخذ بالمفضول، حفاظاً على وحدة الكلمة، وتجنيباً للأمة عن مزالق الهوى والأثرة، وإن كان ثمة صيرورة إلى الأفضل فليكن عن طريق مؤسسات علمية ومجمعات فقهية.

تفكيك المفككين لبيان المثقفين (١) [(١)]

- ٣/١/١قبل عشرين سنة أو تزيد، حبَّب إليَّ مسؤول تعليمي زيارة «مزرعة نموذجية»، تتبع لمؤسسته وكلمة «النمذجة»، حفزتني على قبول الزيارة، وما كنت أدري أنها تعني مزرعة التدريب الطلابي، لتطبيق ما يتعلمونه في الفصول والمعامل والمختبرات من دروس نظرية. لقد وجدتها دون المؤمل فكل مدرب له أسلوبه، وكل متدرب له رأيه وطريقته. والبذرة والشجرة تتعرضان لممارسات متناقضة، مما يؤدي إلى تعثر النمو، واصفرار الأوراق، وقد تتحول الأزواج البهيجة إلى هشيم تذروه الرياح.

وإذا كانت التجارب التطبيقية يجريها الطلاب الزراعيون على نوابت الأرض، ويجريها طلاب الطب على جثث الأموات، فإن النقاد يلتمسون عملاً سردياً أو شعرياً، ليجروا عليه تجاربهم، مستدعين كل نظريات التلقي، وكل مستويات القراءة، وكل آليات النقد ومناهجه، وقد يتعالقون مع غيرهم فلا يكون انتقاء لمدروس، ولا تجويد لدراسة. ولعلنا نستذكر رواية الطيب صالح «موسم الهجرة إلى الشمال»، وكيف اعتورتها أقلام النقاد، وحمَّلتها ما لا تحتمل من فرضيات، حول أركان الرواية، ولغتها، وأسلوبها، ومقاصدها، تحدوهم الرغبة في تجريب المذاهب والآليات التي درسوها، ولم يفهموها، أو قلدوها، ولم يحسنوا التقليد. مع أن حقول التجريب لا تكون بالضرورة على شيء من التميز وإن تصور البعض رواية الطيب فتحاً مبيناً في عالم الإبداع الروائي.

وبيان المثقفين السعوديين «على أي أساس نتعايش»، أخذ المصير نفسه، بحيث امتدت إليه أيدٍ كثيرة، سلفية متشددة، وأخرى مستنيرة، وليبرالية متحررة، وحداثية متطرفة، وتنويرية ظلامية. وطبقت في قراءته مذاهب ومناهج وآليات متعددة، وتهافتت عليه المنصفون والمقتدرون والنطائح والمترديات، ومن استهوته مناهج الغرب. ولما يكن الدافع للأكثرين منهم استبانة الحق، ولا الوصول إلى النتائج، وإنما هي رغبة في اكتشاف الذات من خلال الآخر، مع أن بعض النفوس لا تخلو من دخن الضغينة، والمتابع النابه يعرف ذلك من لحن القول ولست بصدد الدفاع ولا المشايلة، وإنما هي الرغبة في تشخيص المواقف والوقوف على أزمة الحوار الداخلي.

- ٣/١/٢فناقد عول على «النسقيَّة»، وعلاماتها الثقافية، مكرراً مصطلح «النسقية»، بشكل ممل ممثل: لغة النسق، والخلفية النسقية، والتصور النسقي والكارثة النسقية، والبعد النسقي، والحيلة النسقية، والوقوع في النسقية، والشعار النسقي، وأساليب النسق، والمضمر النسقي، واللحظة النسقية، وألاعيب النسق، ومع ذلك فهو الأكثر إنصافاً وترويا ً «الرياض ١١، ١٤٢٣/٣/١٨هـ»، والنسقية «السوسيرية»، التي حولها المريدون إلى «بنيوية»، قفزت بقدرة قادر من «اللغة»، إلى «الثقافة»، وهي قد قفزت من «الفلسفة»، إلى «الاجتماع»، وقد تقفز يوماً ما إلى مصطلح رديف. وناقد آخر تملق «التحويلية»، موغلاً في الإدانة اللغوية والمقصدية ناسفاً دعوى النسقية الوطن «١٤٢٣/٣/٦هـ»، و«الرياض ١٤٢٣/٣/٢٥هـ»، وثالث أمعن في القذف الصريح والاتهام السافر، ورابع اكتشف أن الحداثة مجتثة من فوق الأرض، وأنها لا تملك عمقاً شعبياً، وأن مبدأ الحوار مرفوض سلفياً «الحياة ١٤٢٣/٣/٢هـ»، وثُبَاتٌ آخرون، لهم نوازعهم الفكرية أو السياسية، المتشددة أو المتسامحة، المتسائلة أو المدينة. كل أولئك ومثلهم معهم أوجفوا بأقلامهم، وكأن البيان قاضي «قم»، الذي عزله حب الوالي للسجع، حيث قال: «أيها القاضي بقم قد عزلناك، فقم»، فكتب للخليفة مقسماً بالله أن الوالي لم يعزله إلا حباً للسجع.

---

(١) تاريخ المقال: ١١/ ٦/ ٢٠٠٢

والآخذون بعصم الخاوي من مذاهب الغرب يكرهون النصوص على أن تستجيب لمتطلبات آلياتهم ومناهجهم، ولو أن هذا البيان صدر في ضجة «البنيوية»، لأخذوه بآلياتها، ولو أنه تأخر حتى يتجاوز الغربيون مذهباً من المذاهب لما كان بد من أخذ البيان بما فرغ منه الغربيون. وما ترانا نقول إلا معاراً أو معاداً من قول الغرب مؤكدين القابلية للتبعية، حتى البيان جاء في أعقاب البيان الغربي، ويا ليت قومي استبدوا مرة واحدة «إنما العاجز من لا يستبد».

ومثلما أن مزرعة التدريب لم تكن أفضل المزارع، وأن جثة التشريح ليست بأفضل الجثث، وأن رواية «موسم الهجرة إلى الشمال»، لم تكن أفضل الإبداعات السردية فإن «بيان المثقفين»، لم يكن أفضل البيانات، كما انه في الوقت نفسه ليس بأسوئها، ولا يعيبه ألا يكون كذلك، فكل عالم ومفكر، يؤخذ من كلامه، ويترك إلا من لا ينطق عن الهوى. وما من مجتهد أفضى بقول، إلا تمنى في الغد أنه تريث، وأعاد النظر فيما قال، ويأبى الله إلا أن يتم كتابه «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً»، والتهافت على قراءة البيان ليس مؤشراً على قوته، ولا على تأثيره، ولا على أهميته. وأثره منحصر في كشفه عن خلاف مستحر، داخل المنظومة الواحدة، وفي الشك في مشروعيته، وفي فراغنا، وكثرة لغطنا، الأمر الذي ذكرني بمقولة «وليم بلجريف»: «الواقع أن كل شيء كان عربياً تماما، كلام كثير وفعل قليل»، وسط الجزيرة العربية وشرقها ص ٢٦٤ جزء ١». والذين كتبوه متعجلين أو متريثين، وأمروه على الموقعين، لم يكن أحد منهم يتوقع أن تعتوره سهام النقد من كل جانب، ولو أن المتصدرين لإعداده توقعوا بعض هذا الاهتمام لحبروه تحبيراً، وسدوا المنافذ على كل مجرب، والبيان وما أثاره من ردود فعل لا يعد ظاهرة صحية، ولا فتحا مبيناً، وإنما المسألة مجرد تداعيات متفاوتة، تحال إلى أزمة الحوار التي أشرت إليه في مقال سابق «اليمامة ١٤٢٣/٣/٦هـ»، ووجدها البعض فرصة لطنطنة الفارغة.

- ٣/١/٣لقد فتح «البيان»، شهية الكتاب، ونبه المتربصين لخصومهم وجر أقلاماً «ديناميتية»، وأخرى مجازفة، أوغلت في الاتهام والتشفي، وكأن الموقعين من أصحاب السوابق. ومثلما أن الموقعين شعوباً وقبائل، فإن المتصدين مثل ذلك، ولو كان الموقعون والمتصدون من «صبغة واحدة»، لمر البيان بهدوء، كما مر سلفه الذي وقعه مائة ونيف من أدباء البلاد وإعلامييها. وبعض من تصدوا للبيان لم يتورعوا عن النيل من بعض الموقعين، وتصفية الحسابات معهم، على الرغم من اختلاف مشاربهم وثقافاتهم وهمومهم ومواقفهم من الأشياء والأناسي. وليس من أدبيات الاختلاف أن نمس أحداً من الموقعين بعينه أو بصفة تعينه، ولا أن نوجه الاتهام لسائرهم «الشرق الأوسط ٢٠٠٢/٥/٢٥م»، وإن انطوى البيان على أخطاء في الأفكار أو في الأسلوب، أو قل قصر في استيفاء ما يجب استيفاؤه من القضايا، أو جاء مناقضاً لفكر الضالعين في إعداده. إن على المداخلين أن يفترضوا حسن النوايا، وسلامة المقاصد، وأن يحيلوا التقصير إلى خطأ الاجتهاد المأجور، وعليهم أن يعرفوا أن العصمة غير متأتية لأحد من البشر، ولو أن أحداً من المفككين فعل مثل فعلهم، لكانت له أخطاؤه المتوقعة، ومن نقب وجد، ومن نوقش الحساب عذب. والملفت للنظر ذلك الأسلوب «البوليسي»، المعتمد على النبش، واستدعاء الملفات، وتقصي السير الذاتية، والحديث عن ماضي البعض وسلفيته المنغلقة، وتناقض مقاصد البيان مع تاريخية المتحدث، فيما لم يعرج أحد على مشروعية الفعل.

والبيان مثار الجدل جاء في أربع عشرة صفحة، ووقعه مائة واربع وسبعون شخصية سعودية، فيهم العلماء: الشرعيون، الطبيعيون، القضاة، المحامون، المفتون، الدعاة، الاكاديميون، الأدباء، الصحفيون، رجال الأعمال، النساء والأطباء، وما دون ذلك.

واشتملت صفحاته على أشواط دلالية استوعبت: ممارسات إسرائيل، ودعم أمريكا، وتلخيص بيان المثقفين الأمريكيين «على أساس نقاتل»، وطلب المقاطعة، والتحول عن الولاء الفكري والتبعية، والمطالبة بتأسيس أجواء تفاهم مشترك، يقوم على تفهم «للحوار»، و«استشعار القيم والأسس»، و«تداعيات أحداث سبتمبر»، و«الموقف من أمريكا»، و«الإسلام والعلمانية»، و«الحرب العادلة والارهاب»، وكل فقرة بمثابة خاطرة موجزة تحدد: المفهوم، الموقف، أسلوب الأداء، وعلى الرغم من التركيبة «عراب البيان»، كما يقول أحد القراء، وقد تصدت للبيان سهام الباحثين عن الحق، واللاهثين وراء الوقيعة، وتنفس من خلاله الغيورون والوصوليون والصادقون والمدخولون، وذرعته أقلام نصائحية، وأخرى فضائحية.

وعند استعراض المفهوم والمشروعية والتصديات يجب الا نحيل على جاهزيات الأحكام، وألا نشق عما في الصدور، وألا نفترض النوايا السيئة والأهداف الدنيئة، وألا نمارس تصفية الحسابات. فالبيان موقع من عشرات العلماء، القضاة، الخطباء، والوعاظ والمفتين الأفاضل، والأدباء المتمكنين، والمفكرين المدركين، والأكاديميين المجربين، ممن نجلِّهم، ونثمن إسهاماتهم، ونقدِّر مواقعهم، ولا نزكيهم على الله، والإيغال في النيل منهم لا يقل خطورة عن الإسراف في الثناء المجازف، والتزكية المطلقة، وإذا سقط البيان بكل المقاييس، فلا يكون بالضرورة سقوطا لمن وقعه. وعلى القارئ الناصح لله ولرسوله وللمؤمنين أن يتقي الله فيما يأتي ويذر، فالقول الجزاف يمس رجالات أوفياء لأمتهم ولقادتهم ولدينهم. وأجزم أنه لو كانت هناك «محكمة آداب»، وتقدم المتهمون إليها لأعوزت المجازفين الحجة. وصحافتنا أحوج ما تكون إلى الأناة والتدبر كيلا تتحول إلى صحف فضائحية، يتسلى بها القارئ، ولايعول عليها.

- ٣/١/٤لقد عُرِضَ عليَّ البيان في لحظاته الأخيرة، وطلب مني التوقيع عليه، فاعتذرت لأسباب كثيرة لعل من أهمها: أنني أعد كل مقال سياسي أكتبه بياناً يعبر عن وجهة نظري، وقد يبلغ من التأثير ما لا يبلغه البيان. وأن هناك من سبق إلى اصدار بيانات مماثلة، ولست أقبل التبعية، متى أمكنت المبادرة، وأنني لا أرضى لنفسي الالتفاف بعباءة الآخرين، وإن بادلتهم الاحترام، وشاركتهم الهم، وأنني لا أقبل الانضمام للركب في اللحظات الأخيرة، فالبيان أعد وطبع دون علم مني، ودون استجلاء لوجهة نظري، حول الطريقة والموضوع واللغة والأسلوب والمشروعية. وتمنعي يحال إلى الاختلاف حول الفعل الإجرائي، مع أن هناك تحفظا حول المبدأ وآخر حول الإجراء، وإن كان الهم الذي يساور الموقعين يساورني، والأذية التي تمسهم من جنايات الغرب تمسني، والإحساس الدائم في التحرف لمواجهة أجدى وأهدى قائماً ما قامت مكائد الغرب، غير أني لا أرى التعبير عن وجهة نظري بهذا الأسلوب، ومن ثم لم أوقع، ولم يسألني أحد لماذا لم أوقع. ولما أزل أتمنى لهذا البيان تأدية الغرض المنشود منه، ولا سيما في ظروف الحملات الإعلامية الجائرة التي طالت الإسلام والمسلمين، ونالت من الإنسان السعودي ومناهج التعليم في البلاد.

تفكيك المفككين لبيان المثقفين .. ! (٢) [١]

-١/٢/٣والمفككون الذين صُدموا بتحولات بعض الموقعين: الموقفية والفكرية، يجهلون (فقه الواقع) و(لغة العصر)، فالعالم اليوم يمر بتحولات جذرية. ومناطقه تجتاحها متغيرات، لم تستوعب، لكثرتها، وسرعة تلاحقها. والأحداث كالرياح العاتية، توجه السفن، أو تضطرها إلى التوقف، حتى هدوء العواصف. وكل حدث يطرح خطابه ورجالاته، وكل زمان له دولة ورجال، والنوازل تضيء عتمة النصوص، وتخصب دلالاتها، وتحيل مواقف التصلب إلى لين، والقصد إلى تردد. و(السكونية) التي يفترضها البعض، ليست التصور السليم، وعلينا أن نتوقع تقلب القلوب والأبصار، وأن نسأل الله الثبات على الدين. ومع أنني لم أكن من المتشددين في شدتهم، فإنني لم أكن معهم في تسامحهم، وإن تقاطعت معهم في الحالين، وفق رؤيتي الذاتية، التي لم يملها عليَّ أحد، ولا أدل بها على أحد، ولما لم يكن في المخلوقات مغير لا يتغير فإن الإحالة على الماضوية تعنت لا مبرر له.

وأحسب أننا نمر بحمَّى التحولات الانقطاعية، ولكل تحول شفرته وأنساقه. وصرعة البيانات بوصفها خطاباً جديداً منتج هذه التحولات، وعهدي أنه لم يسبق أن اتخذت مشاهدنا في التعبير عن وجهات نظرها مثل هذا الأسلوب، وإن جاءت ممارسات سياسية وفكرية: قديمة وجديدة على هذه الشاكلة، فعلى المستوى العالمي هناك (البيان الشيوعي) المعروف ب (المانيفستو الشيوعي) وهو النداء الذي وجهه (ماركس) و(انجلز) إلى الطبقة العمالية عام ١٨٤٧م، وعلى المستوى العربي صدرت عدة بيانات بشكل جماعي وفردي، إبان (المد الثوري) ك (البيان الثلاثي) و(بيان طرابلس) و(بيان ٣ مارس)، ثم هناك البيانات التي تتمخض عنها الاجتماعات والمؤتمرات، وكل طائفة تعبّر عن وجهة نظرها بالطريقة التي تراها مناسبة. وبعد أحداث سبتمبر، ومواجهة الإرهاب، والتصدي العنيف للانتفاضات، والانحياز الغربي المدان للاستيطان الصهيوني، انفرط عقد البيانات. ففي (باريس) أصدر عدد من المثقفين العرب بياناً يدينون به الاعتداء على اليهود، وفي أمريكا صدر بيان أعده (معهد القيم) ووقعه ستون أمريكياً، يتساءلون فيه عن مشروعية الحرب الأخلاقية والايديولوجية، والموقف من مثيراتها وأهدافها، وعن حتميتها، وعدالتها. ثم تلاه بيان مضاد من مائة وثمانية وعشرين مثقفاً أمريكياً، ومن بعده صدر بيان موقع من مائة وثلاثة عشر مثقفاً ليبرالياً وأكاديمياً وتنويرياً وصحفياً سعودياً، وعلى أثر البيان الأمريكي وقَّع مائة وأربعة وسبعون مفكرا إسلامياً، وأديباً، وعالماً شرعياً، وأستاذاً أكاديمياً بياناً، يشكل رد فعل للبيان الأمريكي، وبعد مدة تراجع بعض الموقعين، وبدأت التهديدات بإصدار بيانات مضادة، واشتعلت في أثره المقالات الصحفية، وامتلأت المواقع المعلوماتية، بين مؤيد ومعارض، وساخر وشامت، ومفسق ومكفر، وأعقب ذلك بيان توضيحي في محاولة يائسة للالتفاف على الخلاف. ومن يعش منا فسيرى اختلافاً كثيراً، والسعيد من كان على المحجة البيضاء، والمرتاح من تخلص من لعبة (التقليعات)، ووسد الأمر إلى أهله، وأدرك أنه من المستحيل اجتماع سيوف في غمد واحد، ومن أخطر المواقف مجيء اللعبة أكبر من اللّاعب.

-٣/٢/٢ والبيان الذي تعددت قراءاته، لم يكن مثيراً في شيء: فاللغة قريبة من لغة الإعلام، والخطاب وإن ركن إلى الاستدلال، فإنما هو استدلال يتكىء على معارف متداولة، ومنطق مشاع، والمشاهد متخمة بمقولات مشابهة، وحسبنا أن نستمع إلى

---

(١) تاريخ المقال: ١٨/ ٦/ ٢٠٠٢

الإذاعات والقنوات، أو أن نقرأ فيوض القول في الصحف والمجلات، أو أن ندخل على المواقع، كي نستبين ملامحه، فليس فيه شيء من المسكوت عنه: عجزاً، أو جهلاً، أو حظراً. والمثير فيه: (كشكولية الموقعين) وتحول الصقور إلى حمائم، والدوي إلى زجل، وتصور بعض القنوات، أنه شق لعصا الطاعة، وخروج على سياسة المؤسسات.

لقد حاول البيان أن يحدد الفعل ورد الفعل، متجهاً صوب الجمع بين النقائض: (التعايش) و(التقاتل) و(الحوار) وهذا الثالوث الجدلي، لم يتحرر بطريقة معرفية، وإنما هي فرضية تمرحلية ساذجة، تحاول التأسيس على التوفيق أو التلفيق أو التأليف، بوصف الآخر وجوداً متجانساً، يمكن مواجهته بخطاب واحدي النزعة والتصور، ولما يكن التصور لاختلاف الدين، وتعارض المصالح، وحتمية الصراع واضحاً لدى المنشئين للبيان.

لقد حاول البيانيون تحديد (الأنا) و(الآخر) وتصور المسافة الفاصلة بينهما، وهي مسافة سحيقة في خطاب الأمس، قصيرة في خطاب اليوم وذلك مثار الاستغراب والجدل. والبيان بهذه المحدودية: مادة وإمكانية، لم يقدم مشروعا، يراهن على فك الاختناقات، وتجاوز المراحل الحرجة، وإن كان يحمل هم الإفضاء ببرنامج للتعايش، ولكنه في النهاية برنامج يضمر الرغبة في إثارة المشاعر والانفعالات، وكأني بمنشىء البيان يحيد عن ازدراء (الآخر) ومناهضته وهو الخطاب السابق للحادي عشر من سبتمبر إلى شرعنة حق (الأنا) في التماثل مع (الآخر)، وليس في ذلك قول (معسول أو مغسول)، وليست ثقافتنا المحلية (إملائية اكراهية احتكارية)، كما (أن ثقافة الأمة لا تقوم على الحفظ والتكرار)، كما يزعم البعض (الوطن ١٤٢٣/٣/٥ه). وحتى لو قبلنا بوابل الاتهامات، لكان من الإنصاف تحديد الاتهام، وعدم تعويمه، وإذا كان الكاتب ناقماً على ثقافة أمته، فإن الموقعين يمثلون أنفسهم، وليست ثقافة الأمة من الضآلة، بحيث تختصر في عدد من المثقفين، وقد يشفع لمعدي البيان دون موقعيه، أن التأسيس لمرحلة ما بعد المواجهة تتطلب لغة مغايرة، وجهل الكاتب بمقاصد السلم والتعايش ضخَّم عنده مشروعية (البرّ) و(القسط) مع الجانحين للسلام. وأخطر من هذا، من حمَّل الموقعين مسؤولية الإطاحة بشواهد الحضارة الأمريكية، والتغرير بفلذات الأكباد التائهين في الأحراش والمرتفعات (الشرق الأوسط ٢٠٠٢/٥/٢٥م) وفاته أن اللعب السياسية هي صانعة (الإرهاب) و(الجهاد) (جريدة الجزيرة ٢/٢٤ و١٤٢٣/٣/٢ه) (صناعة الإرهاب بين المناهج الدراسية واللعب السياسية). وإذا كان الموقعون قادرين بتعبئتهم البلاغية على تشكيل جبهة طويلة الأيدي، بحيث تطال الغرب في عقر دارهم، فنعمَّاهم، إذ هم قد فعلوا ما لا تفعله الجيوش المدججة بالسلاح، غير أن في الأمر حلقة مفقودة لا يعرفها إلا العالمون باللعب السياسية، وكم من صانع لعبة لقي حتفه على يد اللاعب بها. وعلى كاتب (الشرق الأوسط) أن يربع على نفسه، فالقضية أكبر مما يتصور، وعرائس المسرح لا تبهر إلا الأطفال.

-٣/٢/٣ومشروعية الارتياب من بعض المفككين يوحي بها اشتغالهم بهذا البيان، دون غيره من بيانات: محلية وعربية، فما من أحد منهم تمعر وجهه من تعاطف (بيان باريس) مع الصهيونية، وقد وقعه عرب مسلمون، وفيهم سعوديون فرانكفونيون، أسرفت في تمجيد التافه من أعمالهم السردية فلول الحداثة. كما أن بيان العلماء والقضاة والمفكرين والأدباء والأكاديميين، زامنه بيان مماثل من شريحة سعودية مغايرة، حيث وقع مائة وثلاثة عشر مثقفا وصحفياً بياناً يطالب الحكومات العربية باتخاذ موقف جاد من الاختراق الأمريكي والإسرائيلي للمنطقة العربية والإسلامية، ويؤكد على ضرورة المقاطعة. والبيانان لا يختلفان عن بعضهما: همَّاً ومضموناً وأسلوباً، والقارئون لبيان

العلماء والقضاة والأكاديميين يمكن أن يقفوا على ذات الهنات في بيان المثقفين (الراديكاليين)، ولكنهم لم يفعلوا، الأمر الذي يؤكد على أن البعض مدفوع بموقف مسبق، ونية مبيتة، وليس الأمر مرتبطاً بعوار البيان. لقد مر بيان المثقفين الشباب بسلام، ولم يقرؤه أحد، ومن قبله مر (بيان باريس) بذات الهدوء، مع ما فيه من الجنايات، فيما تهافت العشرات على قراءة بيان المثقفين والعلماء، فمن ناقم، ومن ناقد، ومن موفّق بين الأطراف. وإذ لا أكون معترضاً على مجرد القراءة فإنني أتحفظ على الدوافع والمآلات، وأساليب العرض، وكثرة اللغط حول قضايا ومواقف، لا تستحق كل هذا التدافع والتكاثر، ولاسيما أننا في ظروف قاسية، تستدعي الترشيد حتى في الكلام. والمؤسف أن طائفةً من المتقحمين، لا تحسنُ الورودَ ولا الصدور، والاشتغال في (الدين) و(السياسة) من المرتقيات الصعبة، التي يتهافت عليها من لا يحسن قراءة أبجديتها، وتلك من الظواهر السيئة التي ربكت المشاهد، وكشفت عن الضعف، وجعلت أبا حنيفة يمد رجله ولا يبالي. ومع أنني لم أوقع مع الطائفتين، ولا يمسني القول سلباً أو إيجاباً عن إحداهما أو عن كلتيهما، إلا أنني ألح على المصداقية والواقعية، وأكره التشفي، والإيغال في الذم دون مبرر. فنحن جميعاً في خندق واحد، ونحمل هماً واحداً، ومن التفاهة والسفاهة أن نصفي حساباتنا الوهمية من خلال قضايانا المصيرية.

وإذ لا نرتفع بأحد إلى سِدَةِ العصمة، ولا نرى لأحد الحق في التسامي فوق النقد والمساءلة، فإننا في الوقت نفسه نرفض الوقيعة، والسخرية، والاستهزاء، والإسقاط، ونريد حواراً بعيداً عن تصفيات السمعة. فلقد وصف البعض (الوطن ١٤٢٣/٣/٦هـ) لغة البيان (بالضعف اللغوي والركاكة الأسلوبية الظاهرين في كل فقرة منه) إلى أن قال: (بل لا أبالغ إن قلت إن أكثر من تسعين بالمائة من الجمل فيه تحتاج إلى إعادة صياغة لإنقاذها من الوهن). ويمضي الكاتب في سخريته المرة قائلاً: (وأنا أترك نسبة العشرة بالمئة الباقية لوجه الله تعالى). وفات الكاتب أن الله طيب لا يقبل إلا طيباً. فيما اتهم آخر موقعي البيان في نواياهم، واصفا البيان بالبهتان العظيم، وموقعيه بالمضلين والخادعين، مستثنياً طائفة من المجاملين، غير محدد لأحد من الفئتين (الشرق الأوسط ٢٠٠٢/٥/٢٥م). ولن أمضي مع زخات السخرية، ورجوم التهكم، ورد النصوص الشرعية، دون فهم للمحظور والمباح في التعامل مع الآخر: فاسقاً كان أو كافراً. ومع أن جانباً من الملاحظات اللغوية والأسلوبية والمضمونية قائمة إلا أن سوء الأدب، والاتهام السافر، والقذف الصريح، ولغة الانتفاخ والتعالي أفسدتها. وقد أوغل البعض في النيل من أحد الموقعين، محيلاً إلى مرحلة التشدد، مضخماً متطلبات (الولاء) و(البراء) و(الجهاد) التي تداولها السلفيون في فترات سبقت، ومع أن (الجهاد) و(الولاء) و(البراء) من صميم المشروع الإسلامي وليست لطائفة دون أخرى، فإن استدعاءهما في ساعة العسرة والجنوح إلى السلام نوع من الوقيعة، وكم هو الفرق بين استدراك العالم وشماتة الناقم، وفات المتسطحين أن الفكر السياسي الإسلامي ينطوي على تعدد المواقف بتعدد الأحوال، وأن للسلم مثلما للحرب قواعده وآلياته، فهناك نظام المعاهدين، وطرائق الجزية، وأساليب الجنوح للسلم، وضوابط سيادة الدولة في إطار التعددية الدينية، واختلاف دين دول الجوار. والنص القرآني لا ينهانا عن (البر والقسط) مع غير المحارب، كما أنه منعنا من التعدي، ولم يجعل لنا سبيلاً على من اعتزلنا، ولم يقاتلنا، وخفف عنا في حالة الضعف، ومن ثم أتاح لنا فرصة التعايش السلمي، والتحرف والانحياز، وحدد مفهوم التولي يوم الزحف، وقبل الزحف، ووضع ضوابط الجهاد والدعوة، ولن ندخل في التفاصيل، وتقصي متطلبات (آية السيف) ومنسوخها، والاختلاف حول (الإنساء) و(النسيان) و(النسخ المرحلي) و(النسخ الناجز)، والمحكم والمتشابه وخلاف العلماء حول (الصّغار) في دفع الجزية (وأضيق

طريق) والعموم والخصوص، فتلك مهايع من الصعب الركض في فجاجها. والبيان مع ذلك يفتقر إلى الفكر السياسي الإسلامي، الأمر الذي حفز المتصدرين إلى التعديل والإيضاح، وحفز المجاملين إلى التسلل ولحس الإمضاء.

-٤/٢/٣والمؤسف أن البعض من الموقعين تحت وابل النقد والضغوط لوّح بالتراجع عن توقيعه مبدياً الأسباب الحاملة على التراجع (الوطن ١٤٢٣/٣/٦هـ). ومهما كانت الأسباب وجيهة، فإن التراجع في حد ذاته يهز شخصية المتراجع، ذلك أنه يجب ابتداءً عدم المجاملة في التوقيع على بيان سياسي بهذه الأهمية، ومن فئة على هذا المستوى، إذ من بين الموقعين أكثر من مائة أستاذ جامعي، خمسون منهم من جامعة الإمام، وخمسة وثلاثون من جامعة الملك سعود، والبقية من جامعات أخرى، وفيهم ثمانية قضاة، وأحد عشر طبيباً، وست عشرة امرأة، معظمهن أكاديميات، وعدد من المفكرين والمحامين والصحفيين، وثلاثة أعضاء من مجلس الشورى. وكان على الذين وقعوا، وهم بهذا المستوى أن يقرؤوا البيان كلمة كلمة، وألا يوقعوا إلا بعد قناعة ذاتية، إذ لم يشهر القائمون بإعداده وتمريره سيوفهم على الرقاب، وحين تكون المواقف ارتجالية وعاطفية من نخبة بهذا المستوى، وبذلك التعدد، فإن الأمر لا يليق من علماء وأدباء ومفكرين وقضاة وأكاديميين. وإذا تبين خطأ الفعل أو خطأ المضمون فعلى المقترف الاعتراف، وتحمل كل ما يترتب عليه من مسؤوليات، ذلك أن المغانم مع المغارم. فالذين ينشدون الآخرة أو زينة الحياة الدنيا، لابد أن يعرفوا أن الطريق إليها محفوف بالمخاطر والمكاره.

وإشكاليتنا أن المبادرات الشخصية والمجاملات تحكم الكثير من تصرفاتنا، بحيث تعن الفكرة لأحدنا ابتدارا أو محاكاة أو ردة فعل، فيستأثر بكل شيء، ولا يجد الوقت الكافي لطرح الفكرة على المشاركين، وتداولها مع طائفة ممن يثق بهم، وتشكيل فريق عمل متعدد التخصصات والتجارب، وفوق ذلك تحكم البقية المجاملة، فإذا قُدِّم لأحدنا بيان أو خطاب، لم يتردد في توقيعه، ظناً منه أن العلاقات الشخصية تقتضي الاستجابة الفورية. والبيان الذي استأثر بردود فعل حادة، وقعه العلماء والمثقفون والمفكرون بأسلوب (تمريري)، ولم يعايشوه من درجة الصفر، وتلك إشكالية، لم نتخلص منها، حتى في الأعمال الإدارية، فالفردية والمركزية ظواهر سلبية بادية للعيان، ومن الأجدى والأهدى ان نمتلك الشجاعة على التساؤل والتمحيص، وان نقول: (لا) بملء أفواهنا وبمحض إرادتنا، ويجب في قضايا الفكر والدين والسياسة ألا تأخذنا فيهما لومة لائم.

وحين اعتذرت عن التوقيع، لم أبال بالسخط، أو بالرضا، بل لم أفكر في شيء منهما، ولم أتوقع أن يكون سخطاً من أحد، ذلك ان طريق النجاة لم يكن محصورا في التوقيع، فما أكثر الطرق التي تؤدي إلى النجاة، والذين يربطون صداقتهم بالمسايرة كما (شاعر غزية) لا يستحقون الاهتمام.

تفكيك المفككين لبيان المثقفين .. ! (٣) [1]

-١/٣/٣ولأن الموقعين خليط غير متناغم، وغير متفاهم، وغير متكافئ، فقد فقد البيان انتماءه، فالقارئ السلفي أوغل في نقد السلفيين الموقعين، والمفكر المتحرر في تفكيره، نال من المفكرين الذين نسوا ماهم عليه، والسياسي المتمرس في اللعب السياسية سخر من السياسيين الذين تناسوا الإحالة إلى جهابذة اللاعبين.

وكل قارئ حاكم البيان من خلال خليفته الثقافية وموقفه من الأحداث. والبيان الذي مُزق كل ممزق، يأتي في سياق مخاضات متعددة، وطرائق قدداً في سبيل التعبير عن المواقف والآراء، وصنع القيادات الفكرية والدينية، وكل حزب بما لديهم فرحون، وهذه الفلتات، قد ينعكس أثرها على وحدة الصف ووحدة الفكر، لأن ذويه يشكلون نخبوية، تنفرد بالتعبير عن موقف: مصيري وجماعي، وقد أدى بالفعل إلى خلافات ومناكفات، في زمن نحن أحوج ما نكون إلى الالتفاف، ولا شك أن الواقع العربي والعالمي يشكل ضغطاً على المشاعر، ويسهم في خلط الرؤى والتصورات، ولما تزل حرب الخليج كليل «امرئ القيس»، الذي أرخى سدوله بأنواع الهموم، التي أثقلت الكواهل، وعمقت اليأس والقنوط، فالمفكرون والساسة والعلماء في حالة من الارتباك والفوضى، وبخاصة بعد الانتفاضة، وعمليات التفجير، ومواجهة الإرهاب بحرب موسعة مدمرة، لقد زادت الفوضى الفكرية، وتعمق الخلاف، وشاع الوهن، واستفحل الارتياب، وادلهمت الأمور، وناقض الإنسان نفسه، بحيث تحول البعض من سلفي متشدد إلى «ليبرالي»، متطرف أو «راديكالي»، متعنت، وكشفت مواقع «الإنترنت»، عن سوآت ما كنا نتوقعها، وأخلاقيات ما كنا نعهدها، وتلك مخاضات سينعكس أثرها على أخلاقيات الأمة .. ومن الظواهر السيئة استغلال المنجز العلمي، كالمواقع «الإنترنتية»، و«القنوات الفضائحية»، لنشر الغسيل، وتبادل الشتائم، وإيقاظ الفتن، ونبش الماضي، وتلفيق التهم. وكان بالإمكان تحويل هذه المواقع إلى منابر لرأب الصداع، وتضميد الجراح، ورفع المعنويات، والتسديد والمقاربة، وتبليغ ما أمرنا بتبليغه. وأحسب أننا أحوج ما نكون إلى التخلص من ردود الأفعال المتشنجة، والفراغ لاستئناف الأقوال ابتداءً، ومن الخير لنا أن نطرح مشروعنا الإسلامي، كما جاء، وكما أراده المشرّع. لقد قالها رسول الله ﷺ بكل صراحة: «بلغوا عني ولو آية»، فالطائفيات، والمذهبيات، والتعصب الأعمى: للقضايا والشخصيات مضيعة للجهد والمال والوقت. لقد ضمد العالم جراحه، وتناسى خلافاته، والتقى على كلمة سواء، نابذاً الخلاف وراء ظهره، مستقبلاً الوفاق المشترك، وكان الأحرى بنا أن نسبق إلى الاعتصام بحبل الله وعدم التفرق.

-٢/٣/٣ومع كل هذه الضجة، فإن البيان لم يكن مبادرة، ولا ابتكاراً، لقد سبقته بيانات أخرى من مثقفي أمريكا، ومن مثقفين عرب: مهاجرين ومقيمين، ولحقته بيانات من «ألمانيا»، «الوطن ٩ و ١٠/٤/١٤٢٣هـ»، وهو أشبه ما يكون بردة الفعل الوديعة، وقد يحيله البعض إلى تسجيل المواقف، والتذكير بالحضور. وإشكالية كل البيانات العربية: إسلامية أو قومية «ليبرالية» أو «راديكالية»، أنها لا تخرج في مضامينها عن المتداول إعلامياً، فليس هناك إضافة تذاكر. وكل المثير في بيان المثقفين: أنه جمع الأشتات الذين يظنون كل الظن ألا تلاقيا، وتشكيلة الموقعين يتحكم فيها الممررون للبيان بعد طبعه، والمدقق في المواقع العملية للموقعين يدرك ذلك، «فمستشفى الملك فهد» استأثر منسوبوه بأحد عشر توقيعاً، فيما لم يوقعه عدد دون ذلك من مستشفيات مماثلة، ومن المثير تأكيده

---

(١) تاريخ المقال: ٢٥/ ٦/ ٢٠٠٢

على أصول التعايش من أطراف، لم يكونوا يسمحون لغيرهم التقارب مع المناقض، فضلاً عن أن يصدر طواعية من عند أنفسهم، فلقد جاء البيان مغيباً ما ألفنا الحديث عنه «كالجهاد»، و«الولاء والبراء» وإن كان التغييب لإفساح المجال للسلم المشروع، والحوار المطلوب، ولكن البعض استنكر هذا التحول في الخطاب: إما لسلفية تستنكر مجرد التفكير بالحوار، وإما لجهل أو تجاهل لظروف الطرح ودواعيه. فالبيان يحمل هم التخطي من الحرب إلى السلام. مؤسساً لأسلوب تعايشي من طرف واحد، وبعض المفككين للخطاب يرون فيه حالة استثنائية، تمثل غياب «الأصولية»، المتشددة، وبروز «الوصولية» المتزلفة، والمصير إلى انفراج غير متوقع، ومع أنه خطاب يتحامى مآزق المفاضلة والتصدير، إلا إنه يستبطن التميز والخصوصية، وتغييبه متطلبات «الولاء والبراء» و«الجهاد»، لمجرد أنه في حالة المصالحة في سبيل الخلوص من وهدة القتل المجاني، الذي استخدمت فيه أحدث الآليات وأبشعها، ولكل حدث حديث، فالمفاوض غير المحارب، والمصالح غير المنابذ، والجانح للسلم غير المتحرف للقتال وكنت أتمنى لو ماثل البيان «الألماني» في جدليته ونديته «الوطن ٩ و١٠/٤/١٤٢٣هـ».

ومع أن الموقعين خليط متناقض، إلا أن الانفراج ولغة التصالح والتعاذر استهوتهم جميعاً، وبعد إفراغ الشحنة العاطفية المتأججة، أعاد البعض منهم قراءة البيان، ونظر إلى من حوله، فأنكر الوجوه واستنكرها، وأنكر على نفسه الاندفاع، دون التروي والمراجعة والاستخارة، حتى لقد أعلن البعض منهم تراجعه، بعد أن فند الأخطاء والتجاوزات: العقدية والمبدئية، ولم يلم نفسه على اندفاعها العاطفي، بل مارس الإسقاط مبرئاً نفسه من كل التبعات على حد: «أنج سعداً فقد هلك سعيد». ولربما جاء التراجع نتيجة قراءات سلفية متفاوتة ذكَّرت الموقعين بمواقفهم ومبادئهم، وأوجفت عليهم بسيل من الفتاوى والمناشير، التي ما كنا نود أن تكون بهذه الحدة وبتلك الحدِّية. وإذا كان بعض الناقمين يحيل إلى ماضي البعض المتشدد، فإن قارئين آخرين يطالبون بالعودة إلى التشدد، مما حول الموقعين والبيان ومقتضاه إلى معضلة «جحا» و«ولده» و«حماره».

والبيان لا يحتمل كل هذه الضجة، فهو تجشؤ من فراغ في فراغ، ونفثة مصدور ذابت في الأثير، وسيعود الجميع إلى «تيميتهم» المعهودة، بحيث يقضى الأمر في غيابهم، ولا يستأمرون وهم شهود. فالعالم المتغطرس لا مكان فيه للضعفاء، ومن أراد السلام فليستعد للحرب. وكيف تتأتى الندية، وكل إقليم مثلُه كمثل العائل المستكبر، يصنم إنسانه وحدوده، ويرى نفسه مركز الكون. ومعضلتنا، أننا عاطفيون، اندفاعيون، لا نحب هوناً ما، ولا نبغض هوناً ما، ولا نوغل برفق، فنحن في كل قضايانا أشبه بالمنبتِّ الذي لا يقطع أرضاً ولا يبقي ظهراً، ولقد وصف البعض هذا الارتباك بـ«نكسة المثقفين» «الشرق الأوسط الأحد ٢٠٠٢/٦/١٦م». والحق أن النكسة قائمة من قبل، ولكن الأثرة، والتنازع على دوائر الضوء، وتوهم المغانم، والتهافت على أشباحها أضاع الرشد، وذكرنا بـ«أشعب» و«الوليمة».

-٣/٣/٣وإذ يشكل بيان المثقفين الأمريكيين وبيان المثقفين السعوديين فعلاً ورد فعل، فقد تشابها في عرض الحيثيات والمقتضيات، فالأول اتخذ عنوان «على أي اساس نقاتل» فيما اتخذ الآخر عنوان «على أي أساس نتعايش» مستهلاً بيان الأمريكيين فاتحته بخمس حقائق إنسانية: - الحرية، والبحث عن الحقيقة، واحترام الأديان، والتزام مقتضى الإيمان، ومحورية الإنسان، وتأهيل الحضارة الغربية لقيادة العالم، معترفاً بالخطأ، معتزاً بقيم الحرية والعدل والديموقراطية، متطلعاً إلى تبادل القيم المشتركة، مؤكداً على احترام الأديان، مبرراً للعلمانية والعولمة، راغباً في التسامح، وقراءة الأديان لفهمها، محذراً من الحرب، مؤكداً على مشروعيتها لرد العدوان. ولما يستهل بيان المثقفين السعوديين فاتحته

بالقيم الإنسانية، وإنما جاءت حقائقه المحايثة في الفقرة الثانية من الصفحة الرابعة، لم تكن خمساً، بل جاؤوا بثمان هي: - تكريم الله للإنسان، وتحريم قتل النفس إلا بالحق، وعدم الإكراه على الدين، والعلاقات الأخلاقية، وخلق كل شيء للإنسان ومن أجله، ومسؤولية الجناية على الجاني، والعدل، والدعوة بالحسنى.

والبيان الأمريكي تبريري إسقاطي شمولي دعائي، فيه خبث وذكاء، فالحرب ضد الإرهاب عادلة، لأنها من أجل الدفاع عن المبادئ الإنسانية، ومن ثم فليس من المعقول معاداة الأمريكيين من أجلها، فيما يفقد البيان العربي كثيراً من لعبة المراوغة و«التكتيك»، وتنقصه فنيات الحوار، وبراعة الالتفاف على المحاور.

والفرق بين البيانين: أن الأول أعده «معهد القيم الأمريكي»، والثاني أعد بجهد فردي، وكم هو الفرق بين «المطبخ السياسي العريق» و«أكشاك الوجبات السريعة»، ورد المثقفين «الألمان» على البيان الأمريكي أقوى وأدق وأشمل.

والبيان إذ يكون موجهاً لشريحة بشرية، لها مستواها المعرفي، كان لابد من مراعاة التماثل بين نصه وإحالته من جهة، والمتلقي من جهة أخرى، ولن يؤدي وظيفته التواصلية، ولن يحقق الاستجابة، ما لم يخاطب الآخر في إطار القواسم المشتركة، ومنشئه حاول ذلك، حين عول على «العدل» و«الحرية» و«المساواة»، وهي مفاهيم يتداولها كل مشروع سياسي أو اجتماعي حتى «الماسونية» طرحت هذه المقتضيات، وأزلقت بها أقداماً كثيرة، والمهم ليس في التطلع، ولكنه في الممكن والمفهوم. والبيان أعد بلغة إنشائية عاطفية، تتصيد حجتها من فيوض الإعلام، ولا تنجو من ارتباك، وتزيد، وشوائب: في المفردات والتراكيب. وهي الثغرات التي نسل منها الموغلون في النقد، ومع التسرع والارتباك، فإن لغته ليست سيئة، ولا سوقية، كما يتصور البعض «الوطن ١٤٢٣/٧/٦هـ»، ولكنها لم تكن بالمستوى الملائم لعشرات المفكرين والعلماء الذين وقعوا عليه، وكان يجب أن يعولوا على «لغة التفاوض» بكل متطلباتها: الوضوحية، والمحدودية، والامتلائية. وثغرات لغة التفاوض والاتفاقات والبيانات تديم مطال المتلاعبين، ولهذا يحرص صاغتها متى كانوا ناصحين على تجويدها، واستبعاد الكلمات والصياغات التي تحمل أكثر من تفسير، وقد سبق الجميع إلى تحرير «لغة التفاوض»، علي بن أبي طالب رضي الله عنه، حين قال: - لا تجادلوهم بالقرآن، فإنه حمال أوجه، ذلك على اعتبار شرعية الفعل، وجدواه، والبيان حين مثل للعيان، لم يعد هناك جدوى من القول في الشرعية، لأنه أصبح قضية ماثلة.

-٤/٣/٣ولو أننا أحلنا «البيان» إلى «لغة التفاوض»، وهو بلا شك نوع من أنواعه، فإننا نستذكر مقولة «ديفيد بيل»: - «إن المفاوضات من أكثر العمليات الذهنية تعقيداً» ومعدو البيان «سلقوه» بسرعة، وبطريقة مرتبكة و«ديفيد بيل» يؤكد على الانتباه «للغة» و«الاتصال»، ومعد البيان لا يمتلك لغة تفاوضية، ولا لغة قانونية، وإنما هي لغة وعظية استرقاقية خطابية، ولعلنا نستعيد الأسئلة التقليدية عن عمليات الاتصال: - من قال؟ وماذا قال؟ وكيف قال؟ وعن أي شيء قال؟ وما أثر القول؟ ولو تقرينا الإجابة على تلك الأسئلة، لتحددت لنا أبعاد البيان، وتجلت لنا هناته، ونحن على كل المستويات، لّما نزل بحاجة ماسة إلى لغة محكمة، تخترق كل التحصينات، وتحمل الطرف الآخر على أن يصيخ.

ولابد في «لغة التفاوض» من أن نفرق بين «لغة النص» و «لغة الخطاب»، والنص لا يقتصر في مفهومه على البناء اللغوي فحسب، وإنما يمتد إلى نوع النص، وظروف النص، وأطراف الأداء والتلقي، وهو ما يعبر عنه بلاغياً ب «مراعاة مقتضى الحال». فيما يكون «الخطاب» أوسع من ذلك بكثير، فهو المشروع بكل متطلباته ومقتضياته، ومن ثم يأتي «النص» بكل مفاهيمه مفردة من مفردات الخطاب.

ومن حقنا أن نتساءل عمن ناب عن المجموعة في التفكير والتدبير، وكتب البيان، سواءً كان فرداً أو مجموعة، وسواءً جاء عن طريق التداول وفريق الصياغة، أو كان مبادرة من فرد فكَّر وقدَّر وخطه بيمينه، ثم أخذ التوقيعات عليه، على شاكلة «القرارات التمريرية». وهل هذا الفرد أو تلك المجموعة على فهم عميق بحقائق الأشياء والأحداث وحجم اللعب؟ وهل يعي حجم إمكانياته وقدراته على تفعيل ما يقول، وتحقيق ما يتطلع إليه؟ وهل لديه فهم دقيق لتطلعات الرأي العام، وتصوراته للأشياء، وموقفه منها؟ لقد جاء البيان ناكئاً للجراح، مشتتاً للشمل، مثيراً للرؤى والتصورات، معيداً لما كنا قد مللنا الحديث فيه وعنه. لقد مثل البيان للعيان، وليس من حقنا الركون إلى الظن فبعض الظن إثم، وهو في نظري مسؤولية جميع الموقعين بالتساوي، ومن نكص على عقبيه باء بإثمه. ويقيني أن الناقمين والمعذرين يركنون إلى سوائد المفاهيم، ويحيلون إلى فرضيات محتملة.

إن فينا من يفترض الغزو والتآمر، ويميل إلى الانكفاء وسد الذرائع، فيما يأتي أقوام آخرون يستبعدون الغزو والتآمر، ويحيلون على نقص الأهلية في الذات العربية، تمهيداً لشرعنة الاستغراب، وفيما بين هؤلاء وأولئك، من يعول على اللعب السياسية، التي تصنع الفتن، وتجيش الجيوش، وتلبس لكل لعبة ما يناسبها، وفينا العصاميون، والعظاميون، وأبناء العصر، والمحيلون للتاريخ والأمجاد، والجالدون للذات، والمحبطون، والناقمون، والسماعون. والدخول في هذه المعمعة يتطلب خلفية ثقافية متعددة المصادر والمرجعيات، ولا أحسب البيان مستوعباً لكل هذه الرؤى، متسعاً لكل هذه التناقضات. لقد فوض الموقعون الغربيون أمرهم إلى مؤسسات مليئة بالمجربين والمتخصصين والخبراء والمستشارين، وجاءت أفعالهم وأقوالهم بعيدة عن الانفعال والافتعال، فيما عولنا على سلطة الفرد، يقول عنا، ويفعل عنا، حتى لقد صرنا كما المتنبي مع ممدوحه «تركتني أصحب الدنيا بلا أمل»، أو كما قوم موسى معه: - «إذهب أنت وربك فقاتلا». أحسب أن البيان جاء متواضعاً، لا من حيث المعلومات، ولا من حيث الرؤى والتصورات، ولو استذكرنا قدرات التواصل الأربع: - «الثقافة، اللغة، النفس، السياسة» لوجدنا البيان يلم ببعضها إلماماً عفوياً لا معرفياً، ولكنه إلمام لا يحفظ التوازن. ومهما تعثرت لغة البيان وتسطحت معلوماته، فإن على المفككين احترام الكفاءات المدبرة، والأخرى المتواكلة، ذلك أن خطأ الفعل لا يحبط ما قبله من أفعال، وكلنا خطاؤون، ولا يظفر بالتميز إلا الرجاعون إلى الحق.

-٥/٣/٣والقارئون للبيان أدركوا ثغرات كثيرة، ووجدوها فرصة لتصفية الحسابات، وفاتتهم ثغرات أخرى، وكما أشرت فإن مداخلات متفاوتة الإمكانيات متعددة النوازع، جاءت عبر الصحف، وعبر المواقع، وبعضها أوغل في الذم والاتهام والتشفي، وحاول بعضهم التذكير بالمواقف السابقة التي تختلف كثيراً عما حواه البيان من لطف ورقة وتعاذر، ولما يعول البعض على قوله تعالى: - ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقوله: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة: ٨] وقوله تعالى: ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٠] فلا سيطرة، ولا وكالة، ولا إكراه في الدين.

والاختلاف - في تصوري- ليس حول النصوص، وإنما هو حول المفاهيم والمقتضيات، فـ«السلفي» يفهم ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ فهماً مغايراً، فيما يراه «العلماني» و«الليبرالي» شيئاً آخر، وأعجب شيء قضية «المفهوم» فما من اختلاف إلا وللمفهوم يد فيه. ولا شك أن صدور البيان بهذه الصيغة، وبتلك الإمكانيات، مداعاة لمزيد من المساءلة. ومواجهة فكرية وسياسية بهذا المستوى، تتطلب مؤسسة متخصصة، ومسؤولة، تمتلك النيابة، وحق الفعل، متوفرة على فريق عمل، ينهض بإعداد البيان، والتعبير عن الرأي والموقف، بحيث تراعى فيه متطلبات الحكم واللغة السياسية وسياقات الأمة وظروفها وموقف الآخر. وفوق كل ذلك لابد من شرعية الفعل وأهلية الفاعل، فليس من مصلحة الأمة انفلات العقد، ومن أراد أن ينوب عنها فلينطق بلسانها، وليعبر عن همومها، بلغة رصينة، ومعلومة دقيقة، وحكمة بالغة، وتفويض مشروع، ومتى اجتهد المقتدر، وأقدم على الفعل، وجب احترامه، وحسن الظن به، ورده إلى الحق رداً جميلاً، وكل الذين داخلوا عدلوا عن شرعية الفعل إلى أهليته، وفي نظري أن «الشرعية» و«الأهلية» صنوان، وعلينا أن نفكر دائما في الشرعية، متى نهضنا بمهمة جماعية فالإنابة لا تملك شرعيتها بمجرد الاقتدار على القول، وعلى الذين تساورهم رغبات القول، أن يتوفروا على المناخات الملائمة، وأن تكون عندهم دقة في حسابات الخسائر والأرباح.

العملات الدينية المزيفة ستنكشف عند استخدامها في بلاد الحرمين ..![1]

كشفت الأحداث المتلاحقة منذ هجمات ١١ سبتمبر أن هناك «عملات دينية مزيفة» أنتجتها مؤسسات مختلفة لاستخدامها لأغراضها، فهناك مؤسسة اسمها «منظمة القاعدة» وهناك حركات «جهادية» و «سلفية» مختلفة ومتخالفة تتيح لنفسها قتل المخالفين وتكفير المناوئين وجهاد المؤمنين وتخوين المجتهدين.

إنها «عملات مزيفة» أنتجتها مؤسسات مسيسة متطرفة، وسوقت لها في ظروف حالكة مستغلة التناقضات والإحباطات في حياة الأمة.

الإشكالية أن التصدي لتلك المؤسسات «الدينية العسكرية» يحتاج إلى مؤسسات ثقافية مستقرة تحظى بالشرعية وتتسم بالمصداقية وتتحرى المهنية .. لتستطيع مجابهة المؤسسات الجهادية والدينية المتطرفة التي زجت بالأمة في حروب ثقافية وعسكرية وإعلامية واقتصادية مع أهل الأرض جميعاً.

استطاعت تلك المؤسسات القليلة العدد والعدة أن تنتشر في أكثر من «٤٠» دولة وأن تجند لهجماتها ومعسكراتها شبابا متحمسا من «٧٦» دولة من مجموعة «١٨٩» دولة في العالم، كما أنها كبدت العالم خسائر مادية وبشرية وأدبية وهي غير مبالية بكل ذلك بل هي تعتبر ذلك نجاحاً لأنها استنزفت الدول المحاربة لها بأقل خسائر مالية.

من يصدق أن في دولة مثل المغرب يفكر مواطنون فيها بنسف مبانٍ ومنشآت! من يفكر بأن في دولة مثل السعودية يقوم أفراد من مواطنيها بإيواء مجرمين وبالتخطيط للقتل وللتفجير! من يتصور أن شبابا يفجر في نفسه من أجل زعزعة نظام مستقر في بلده المسلم وهو يعلم أن اليهود في فلسطين منذ أكثر من نصف قرن ولم يساند إخوانه هناك بشيء يذكر .. معتبرا أن عليه أن يبدأ ببلاده الآمنة المستقرة أولاً ثم بعد ذلك يذهب ليحرر المسجد الأقصى.

إنها «المدرسة الدينية الثائرة» التي فهمت الدين فهما خاطئاً، وفهمت العالم فهما خاطئا، عاشت في عزلة عن العالم فلا ترى إلا من خلال نظارات «الزعيم المجاهد» ولا تسمع إلا محاضرات وخطب «الزعيم المجاهد» ومن يؤيد نهجه، ولا تقرأ إلا بيانات «الزعيم المجاهد»، ولا تطلع في الإنترنت الا على مواقع تلك المؤسسات الدينية المنتجة للعملات المزيفة.

إن تلك «المدرسة الدعوية» تعاني من عدة مشاكل، وبالتحديد هناك أربع قضايا أساسية ارتكزت مناهج تلك المدرسة عليها وهي باختصار: الموقف من النصوص الشرعية، الموقف من المدنية الحديثة، الموقف من المجتمعات المسلمة، والموقف من الدول والحكومات المسلمة.

أما النصوص الشرعية فإن تلك المدرسة تريد أن تلويها لأهدافها وأن تسخرها لمنطلقاتها بدون النظر في ما قاله الفقهاء والمجتهدون. وهي تأخذ بـ«السلفية الثورية» فتطبق آيات الجهاد في غير مكانها، وتطالب الأمة بكل شيء في وقت واحد .. بدون اعتبار لعالم آخر ودول أخرى ظانة أن في ذلك نصرة للإسلام واعتزازا به وأخطر من ذلك كله أنها تنزل الأحكام الشرعية التي تختص بولاة الأمور وقادة الأمة على زعمائها وقياداتها المعروفين أو الغائبين لذا، تمنح الولاء لهم وتوجب طاعتهم وتنزع الشرعية من قادة الأمة وزعمائها وولاتها المعروفين.

---

(١) تاريخ المقال: ١/ ٧/ ٢٠٠٢

أما الإشكالية الثانية فهو موقف تلك المدرسة من المدنية الحديثة، إنها «رافضة» للمدنية الحديثة وتدعو إلى العودة بالعالم إلى الوراء، وما فعلته حكومة طالبان في أفغانستان قبل سقوطها ترجمة لأفكار تلك المدرسة وإن كان هناك احتمال تطوير أفكار حكومة طالبان لو بقيت وارداً، إلا أن المدرسة الدينية الجهادية التي تتزعم اليوم محاربة العالم تمثل «جبهة الرفض» للمدنية الحديثة جملة وتفصيلاً .. مما عجل بالقضاء عليها.

تريد تلك المدرسة عالما متصارعا متحاربا متباينا يصادر الإنسان فيه باسم الدين، وتصبح الغلبة فيه للفقهاء والمحدثين، وتلغي فيه وسائل الإعلام إلا الناطقة باسمهم والمذيعة لبياناتهم وأمجادهم.

أما الإشكالية الثالثة فهي الموقف من المجتمعات المسلمة: تلك المدرسة تكفر المجتمعات المسلمة وترى أنها «جاهلية» لأنها لا تحكم بالشريعة ولا تنقاد للمجاهدين منهم، وأنها فاسدة فاسقة وعلى المجاهدين أن يعيدوها بالقوة «أمة الاستجابة» وهذه المدرسة لا تعترف بالمؤسسات التعليمية والدينية والقانونية والمدنية القائمة بل تثور على من يعمل فيها وتؤثمهم وتفسقهم وتكفرهم أحياناً.

الإشكالية الرابعة الموقف من الحكومات المسلمة، تلك المدرسة لا ترى شرعية الحكومات وتكفرها وتوجب البراءة منها وإعلان الحرب عليها.

من تلك الإشكاليات الأربع يمكن أن نفهم مآرب وأفكار الحد الأعلى من المنتمين للمدرسة الدينية المتطرفة التي أشعلت العالم بشعارات عالمية وهي تستهدف «إنجازات قطرية» ومحلية في ضوء مناهج مدرستها المذكورة آنفا.

أشعلت تلك الجماعات والخلايا المستخفية الحروب بدون أن تخسر كثيرا من المال حيث قدر بعض الباحثين أن «منظمة القاعدة» لم تخسر أكثر من عشرة ملايين دولار على هجماتها في السنوات الثلاث الأخيرة، لكنها كبدت الدول الخسائر المالية الكبيرة، كما أنها لم تخسر أعدادا كثيرة من كوادرها القيادية لكنها استطاعت أن تتسبب في قتل الألوف من مسلمين وغير مسلمين، كما أنها لم تتعب كثيرا لأنها المتحكمة في الحرب والمبادرة بشن الهجمات لكنها كبدت الدول أموالاً كبيرة وأنفساً كثيرة لأنه لابد وأن تأخذ تلك الدول بالحيطة ولا تستطيع أن تخبط خبط عشواء لالتزاماتها الدستورية المحلية والقانونية الدولية.

إنها مدرسة الشقاء والعناء والتناقضات و «اختطاف الدين» واستخدام شعارات الأمة لتزييف «عملات دينية» لابد أنها ستنكشف عند استخدامها كما هو حاصل، فالعالم لا يترك المتهورين أنى كانوا ليعبثوا بإنجازاته وقوانينه وتقاليده، والمملكة العربية السعودية محضن الحرمين الشريفين وموطن الوحي ومثوى رسول الله ﷺ ومنطلق الدعوة الحقة في القرون الثلاثة الأخيرة ومنتجع العلماء والدعاة والمصلحين المخلصين مما يمكن معه القول باطمئنان، أنه لن تجد فيها العملات والزعامات الدينية المزيفة موطنا، بل أنها ستكتشف وتنبذ فور استخدامها من قبل منتجيها ومروجيها.

إن الإسلام هو الدين الخاتم الذي ارتضاه الله لعباده وهو حافظه وحاميه وناصره فمن نصره بصدق وإخلاص ومتابعة نصره الله ومن ادعى نصرته استغلالا أو انتقاماً أذله الله.

كم هي خسارة على الأمة أن تزج بشباب يافع مخلص في أتون «حرب دينية» خاسرة، وكم هي خسارة على الأمة أن يسقط شبابها الذين يمكن أن يمثلوا الفئات الخيرية فيها في حمأة العنف والتحايل والتزييف. غيروا أسماءهم وزيفوا جوازات أسفارهم، وباعوا أوطانهم، وتحاملوا على اخوانهم الدعاة والتقاة، وسخروا الروابط الدينية المقدسة من تزاوج وتآخٍ من أجل خدمة أهداف خيالية شمولية تضر الأمة في مشارق الأرض ومغاربها.

إن قوة الأمة الإسلامية تكمن في صحة عقيدتها وعدالة شريعتها وصدق مبادئها وإنسانية منطلقاتها وكل عمل يتناقض مع ذلك يضعف الأمة، ولا شك في أن «المدرسة الدينية العنيفة» تسير في تناقض مع العقيدة والمبادئ والمنطلقات للأمة الإسلامية مهما خلعت على نفسها من أردية القداسة، ومنحت قادتها من أوسمة الجهاد وألقاب العصمة والسداد فهي «مدرسة تخلف» تخدم أغراض أعداء الأمة بدون أن ينفقوا عليها شيئاً ذا قيمة.

لقد اتضحت الصورة وبان الزيف وكان الله في عون أسر الشباب المجندين الذين انخرطوا في معسكرات «جند الله المتهورين» في غيبة علماء الأمة وعقلائها فجروا على أنفسهم المتاعب والمصاعب وعلى أمتهم الحروب والخسائر.

أما المملكة العربية السعودية فهي كما كانت ستبقى صامدة صادقة تناصر المؤمنين المخلصين وتحارب المزيفين والمتهورين مهما كلفها ذلك.

الصَّيفَ ضَيَّعْنَا كُلَّ الألبان .. ! (١) [(١)]

خطب أعرابي امرأة في الصيف فرفضته، فلما كان في الشتاء، ومسّها البرد والجوع، طرقت بابه تطلب لبناً، تسد به فاقتها. فقال لها كلمته التي أصبحت مثلاً: - «الصيف ضيعت اللبن».

والناس في بلادي يضيِّعون في الصيف أشياء كثيرة، ويتجرع الفقراء منهم ومحدودو الدخل مرارات الالتزامات الصيفية المتنامية عاماً بعد عام، ويبدو الشح والضيق في كل المرافق العامة، وتعلن الدوائر الخِدمية والزمنية حالة الطوارئ.

ترتفع في الصيف درجة الحرارة إلى حد لا يطاق، حتى لا تستطيع معه الأجهزة المسخرة لتكييف الطبيعة على التغلب عليه، وترتفع مع درجة الحرارة نبضات القلوب، وتتوتر معها الأعصاب، وتصعد نسبة المشاكل والحوادث والخلافات.

وفيه تكثر المناسبات، وتعمر قصور الأفراح، وتعج الأسواق بالمتسوقين، ويزداد نهم الناس، ويستذكرون ما غفلوا عنه، أو أرجؤوه، أو شغلوا عنه في أيام الدراسة، من مقومات الحياة ومتطلبات العصر. والمؤلم أن الصيف المرتقب من الآباء والأبناء للانطلاق في أرض الله الواسعة، للراحة والاستجمام، يرهقهم صَعوداً، ويخنقهم سعيراً. والمعهود أن الإجازات تفيض بالبهجة والسرور، واستعادة النشاط. والبسطاء والخليون والموسرون يحسبونها كذلك، ويظنون كل الظن أن الجميع بعد فراغهم منها، يعودون إلى ديارهم وأعمالهم، وهم ممتلئون بالحيوية والنشاط، وما درى أولئك أن السواد الأعظم يمرون بفترة الصيف اللافح، وكأن الأقدار قد جمعت لهم فيها كل العذابات والضوائق.

أطفال أكملوا السابعة، يحتاج أولياؤهم إلى مراجعات للمدارس والمستشفيات والأحوال، تمهيداً لإلحاقهم بالمدارس، فمستهل العام الدراسي في أعقاب الصيف. وحملة الثانوية العامة من بنين وبنات بكثرتهم، وتدني معدلاتهم، يتدافعون إلى الجامعات، التي لا تستوعب شطرهم، ومكملون يحتاجون إلى دروس خصوصية، ومتفوقون يرقبون الاصطياف، ومؤخرون للزواج يتحفزون لاستكمال نصف الدين، وبيوت تحتاج إلى ترميم، وأجسام تتطلب فحوصات وعلاجاً، وأوضاع كثيرة يسوِّف بها أصحابها إلى العطلة، حتى إذا جاءت، جاءت معها بكل المصاعب والمتاعب. وخمسة ملايين مواطن يبرحون أرضهم وديارهم كل عام، جُلُّهم للاصطياف، كما في تصريح أحد المسؤولين، وخمسون مليار ريال، تراق تحت أقدام الاستجمام ومتطلبات السياحة خارج البلاد، كا يقول مسؤول آخر، وكل شيء في الصيف قابل للاشتعال، حتى الفيروسات والبعوض والجراثيم، وكل مراجع يتأبط بشماله ملفاً، يمسك بيمينه شفيعاً، وهو يردد: - «إن السفينة لا تجري على اليبسِ».

وفي الصيف ينتهي العام الدراسي الذي قيد العفاريت والأشقياء من الطلاب والطالبات في البيوت للمذاكرة، وفي فصول الدراسة للتعلم، وفيه يفرغ الشباب من شبح الدراسة، ورهبة الامتحان، ولزوم البيوت، ومطاردة أوليائهم لهم، من أجل التحصيل، وحل الواجبات، وتنظيم الوقت، والنوم المبكر، والاستيقاظ المبكر، حتى إذا سلّموا آخر ورقة في الامتحان، لفظتهم البيوت، بما يتوفر لهم من: شباب، وفراغ، وجدة، وشيطنة. والثلاث الأول منها، «مفسدة للمرء أي مفسدة»، وما أن تغلق أبواب المدارس، تفتح أبواب المشاكل، فتضج السيارات بالحركة: جيئة وذهاباً، على غير هدى، وبدون حاجة، مما يعرض المارة للخطر، والسكان للأذية، ويعلو صريخ العجلات المزعج، تعبيراً عن

---

(١) تاريخ المقال: ٢/ ٧/ ٢٠٠٢

البهجة بأيام الصيف، ولمواجهة هذا التعبير المتخلف، تنتشر سيارات المرور والدوريات، لتخفيف حدة الإزعاج، والحيلولة دون المخالفات والحوادث. وقد يصعّد الشباب التعبير عن مشاعرهم ب «التفحيط»، الخطر، والمواكب المزعجة، والسرعة المرعبة، والقطع المتعمد لإشارات المرور، وفي المنتزهات يختلط الحابل بالنابل والخليّ بالشجيّ، ثم لا يكون احترام لكبير ولا رأفة بصغير ولا غض لبصر، الأمر الذي يضطر جهات الأمن إلى إعلان حالة الطوارئ، وفي كل ذلك يتحمل الآباء مصائب الكوارث، والحوادث، والغرامات، والمطاردات، ويتحول حديث الناس إلى تفجُّع ومواساة، ومن لم تشبع فضوله التجمعات في الساحات، والمطاعم، والمقاهي، والحدائق، وأطراف المدينة، والاستراحات، والمراكز الصيفية النمطية المتقشِّفة المتسوِّلة، يأخذ ما خف حمله، وغلا ثمنه من أشيائه، مع ما يسلبه من جيب والده من مال، ويطوف مع زملائه أرجاء الوطن يبغي الرفاهية الموعودة، حتى إذا جاءها لم يجدها، ووجد الغلاء وأزمات السكن عند بوارق الدعاية، وقد تعدو عيناه إلى مطارح السياحة في الخارج، فيكون فريسة المغريات، ويعود بعد أمة، خالي الوفاض: جيباً وجسماً. واللافت للنظر أن نصف المغادرين كل عام، حسب إحصاء «إدارة الجوازات»، يذهبون إلى دولة البحرين، فماذا يجدون؟ وبماذا يعودون؟.

وحين يغرق الشاب المسكون بكل الشهوات والرغبات في دنياه الحالمة فوق مرتفعات الجبال، أو على سواحل البحار، ينتابه كرم حاتمي، فيحثو الدينار والدرهم يميناً وشمالاً، مما يضطره إلى مهاتفة أبيه، طلباً لمزيد من النفقة أو إشعاراً لأهله بتمديد زمن الرحلة. والأب المسكين غارق بضيوفه الذين يتهافتون عليه من هنا وهناك، يستهل أيام العطلة بالولائم الدسمة، والترحيب العريض، والتعرض لكل قادم، فإذا شارفت العطلة الصيفية على النهاية زوته الحاجة، وأنهكه التعب، وتكاثرت عليه المناسبات، حتى يكون «كخراش»، الذي تكاثرت عليه «الظباء»، فما يدري ما يصيد، غير أن المسكين يتكاثر عليه «الغول»، فما يدري ما يواجه أو يتقي، فيجنح إلى الوجبات الخفيفة، والاعتذار المتواصل، ومحاولة التسلل لِواذاً من كل مناسبة، فلا يسلم جيب، ولا يتوفر عرض، ولا تحصل راحة.

ولأن النساء والأطفال والبنين والبنات فارغون من كل شيء، فإن نهارهم يتحول إلى سبات، وليلهم إلى معاش، وتصير الهواتف والجوالات هي المتنفس الوحيد، وتظل الكهرباء على أشدها، وكل ذلك على حساب العائل الفقير، الذي أضناه عام الجد، وسحقته أيام الراحة والاستجمام، فما وجد الراحة في عام الجد، ولا وجد الاستجمام في أيام اللهو البريء.

وصيف نجد من أسوأ الفصول، وأشدها حرارة، ولا يطفئ لظاه إلا تدفق الماء العذب والهواء البارد، ولا يتوفر ذلك إلا بأغلى الأثمان، و «شركة الكهرباء»، و «مصلحة المياه»، تدخلان في أزمات طاحنة، وعجز مخل بالوفاء، وفي هذا الفصل تكثر الشكاوى والتذمرات، من انقطاع التيار الكهربائي، ونضوب الخزانات، نتيجة الأحمال والاستغلال، وأزمة مياه الشرب قاتلة، فثمن الماء قد لا يكافئه راتب القاعدة العريضة من موظفي الدولة، وشح الماء يجعل «بورصة»، «الوايتات»، تضرب رقماً قياسياً، وتبدو ظاهرة السوق السوداء، الأمر الذي يضطر السلطات إلى التدخل لحماية المستهلك.

ودعك من سائر المناسبات التي تعرف منها وتنكر، كمناسبات الزواج التي تشتعل في كل مدينة وقرية، وما يصحبها من إنفاق باذخ، لا يدرك حجمه إلا الوالدان والأقربون، فكل الأسواق، وبخاصة أسواق الذهب والهدايا والحلويات والزهور والعطور والأقمشة تعج بالحركة.

كما ينشط مصممو الدعوات وطابعوها، ومصممو الأزياء، وخياطو الملابس والفساتين، وترتفع أسهم «الطقاقات»، و«الطهاة»، و «الكوافير»، وهذه المناسبات مضيعة للجهد والمال والوقت، تأتي على ما جمعه الآباء، وما وفره الأبناء والبنات من رواتب ومكافآت. ومما يضاعف الأعباء أن الأبعدين في مقار سكنهم من المعارف والأقارب والأصدقاء يقبلون بِقَضِّهِم وقَضِيضِهِم: سائحين أو مشاركين في المناسبات، ولا يجدون الراحة إلا في بيوت أقاربهم، بدعوى صلة الأرحام، والتواصل، وتعارف الأبناء. وتقاطرهم جماعات ووحدانا يزيد الطين بلة، فبعض البيوت صغيرة، لا تتسع للساكنين الأصليين، ولا توفر الكفاف من خدمات الماء والكهرباء في الصيف لذويها، فإذا بها تستقبل العديد من الأقارب، لحضور مناسبة عارضة، أو زيارة واجبة، والعائل المسكين في جيئة وذهاب، لتوفير الأجواء الملائمة للنساء والأطفال داخل البيوت، ولذويهم من الرجال في المتنزهات والشاليهات والاستراحات، واليد القصيرة والعين البصيرة في جيئة وذهاب، لإنفاق ما في الجيب، في انتظار ما لا يأتي من الغيب، مستأنساً بالمثل التفاؤلي «أنفق ما في الجيب يأتيك ما في الغيب».

والإنفاق مطلب ديني، والكرم سمة الرجال، وصلة الرحم من صفات المؤمنين، ولسنا ندعو إلى نقيض القيم والمثل العربية والإسلامية، ولكن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، وإذا كان الموسرون قادرين على الإنفاق، وإذا كانت البيوت الواسعة قادرة على الاستيعاب، فإن الأغلبية لا يملكون مالاً، ولا يتوفرون على مساكن واسعة. ومع أن التزاور والتواصل مطلب إسلامي وعربي إلا أن الصيف بكل ضوائقه، لا يحتمل التحركات الجماعية، والوفادات المتواصلة، فهل من مدكر؟.

ومناسبات الأفراح والأتراح باهظة التكاليف، ولا سيما إذا كان الأقارب يتعاملون مع بعضهم على مستوى «البروتوكول» الحاتمي، ومقتضيات الضيافة العربية، التي طواها التحضر، بحيث تُنحر الكُوم من بهيمة الأنعام، وتُقام الولائم، ويدعى الجَفَلَى من الأقارب والأباعد على حد: -

نحن في المشتاة ندعو الجَفَلَى

لا ترى الآدِبَ فينا ينتقر

وإذا استوت الذبائح على الجفان، لا يجد المضيف بداً من الاعتذار عن تقصيره في حق الضيف، مؤكداً أن حقه ليس فيما يوضع في الجِفان الغُرّ، التي تلمع في العتمات، وهذه الطوائف التي بَطِرَتْ معيشتَها، وجرَّت أُزُرَهَا، وفتلت شواربها، لا تنظر إلى المشاعر، ولا إلى الإمكانيات، وإنما تُسمِّرُ عيونَها على الوليمة، مؤمنةً بأن الإنسان يُقوَّم من خلال أشيائه، لا من خلال ذاته وأخلاقياته، وما علموا أن المرء إذا لم يدنس من اللؤم غرضه، «فكل رداء يرتديه جميل»، وهي بهذه الرؤية الشيئية، تقوّم ذاتها بالشاء والبعير، مما لا يؤكل، ولا يترك في الجيوب لمناسبات أخرى. و «الجمعيات الخيرية»، التي تستعمل فيوض المناسبات، تضيق ذرعاً بالدعوات، للملمة أشلاء الولائم الممزوجة بأشلاء المساكين، وتكون المنعمة المتفضلة، حين تبادر إلى منزل الداعي، وتخلصه من بقايا مائدة باهظة التكاليف، لم يؤكل منها إلا اليسير، وماذا على الطرفين: - الضيف والمضيف، لو أقيمت وليمة مناسبة، تكفي للضيوف، وتحد من الإسراف، وتحول دون تبذير ثروة البلاد من المواشي والأرزاق والطاقات، وإخلاء جيوب المواطن، وامتلاء جيوب العمالة الوافدة التي تتولى: الذبح، والطبخ، والتخديم. وما توفر من الاقتصاد والتعقل، لا يودع في البنوك، وإنما يصرف نقداً للجمعيات الخيرية، أو تستقبل به مناسبات أخرى، أحسب أننا لو فعلنا مثل ذلك، ونهض به الأثرياء والأعيان بوصفهم القدوة، لكنا

أكثر تحضراً، وأقرب إلى المثوبة. وما يقدمه البعض لضيوفه، يعد من الإسراف المذموم، وما يصير من فائض الأغذية إلى صناديق النفايات، يفوق المأكول منها، وفي ذلك كفر للنعم. ومما يزيد الإثم، ويحقق التخلف الحضاري، لجوء المضيف إلى الاقتراض أو الاستدانة بالتقسيط، أو حين ينعكس انفاقه الباذخ على واجباته الضرورية إزاء أسرته، أو حين لا يقوم بحق القانع والمعترّ والسائل والمحروم من ذوي القربى والأرحام. وكم من مسرف تعقدت حياته، وتشرد أهله، بسبب العادات السيئة، التي لا تعد مؤشراً حضارياً، ولا مطلباً إسلامياً. ومن شاء معرفة تحول العادات السيئة إلى بدعيات تعبد ية، فلينظر إلى «أيام العزاء»، وكيف يواجه المصابون من التكاليف، وكيف يستقبلون من العوائل والمعزين، الذين يطيب لهم المقام، فيأكلون، ويشربون، ويتحدثون في أمور الدنيا، ويغتابون، وهم في مجلس العزاء البدعي، فيجمعون بين بدعية الظاهرة، وإثم الممارسة. ثم لينظر إلى الذين يصنعون الطعام للمصابين، في سبيل إحياء السنة التي ندب إليها الإسلام، مما يسرفون على أنفسهم، ويقدمون الولائم الباهظة التكاليف إلى محزونين لا يحتاجون أكثر من سد الرَّمق، وقد يكون الأقربون للمصابين عاجزين عن المسايرة، فيتركون السنة عجزاً لا تقصيراً، ومن ثم يعرضون أنفسهم للمؤاخذة، وبهذه الأساليب البدعية المتخلفة تتحول السنن إلى مباهاة وبذخ. والصيف الذي ترتفع فيه درجات الحرارة في الطبيعة، ترتفع فيه درجات الحرارة في الصدور، وينعكس أثر ذلك على العلاقات الأسرية، وبدل أن تقضي الأسرة صيفها بالراحة والاستجمام، تكون العذابات المستطيرة، والخلافات والمنازعات. وما أحوج الأمة إلى حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا، وصدق الشاعر: -

ولا خير في حلم إذا لم تكن له
بوادر تحمي صفوه أن يكدرا

ولا خير في جهل إذا لم يكن له
حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

إن الصيف ضيف ثقيل مملٌّ: بطبعه ومتطلباته. شبحه مخيف، وظله لا ظليل، ولا يغني من اللهب، ولما نزلْ بانتظار «الحكيم»، الذي إذا أورد الجهلة أصدر الورد بحكمة وروية. فلا كنا، ولا كان الصيف بهذه المواصفات، ولو تبصّرنا، وعقلنا، لكان صيفنا صيفاً سعيداً، لم يضيّع فيه ماء ولا لبن.

الصيف ضيعنا كلَّ الألبان .. ! (٢)[1]

قال خَاطِبٌ لرافِضَتِه في الصيف حين جاءت تستجديه لبناً في الشتاء: (الصيفَ ضَيَّعْتِ اللبن).

وهذا المثل العربي تذكره كما تذكر (الخنساء) أخاها صخراً:

يـــذكرني طلـــوعُ الشـــمسِ صـــخراً
وأذكـــره بكـــل مغيـــب شـــمس

إذ نحن على موعد مع الأزمات نرقب فترات الذروة المخيفة في كل شأن من شؤون الحياة العامة، حتى لقد أصبحت الأزمات مألوفة، ما أن تبرحنا حتى تعود إلينا صادقة الوعد كزائرة (المتنبي) إلا أن ليس بها حياء، وسريعة العودة كجواد (امرئ القيس) ألمكر ألمفر المقبل المدبر معاً، ومع الصدق والسرعة تضارعها تنصلات مسؤولي المرافق المأزومة، كالماء والكهرباء والمرور وبعض المرافق الأخرى في لحظات الذروة حين تغور المياه، وينقطع التيار وتصبح الشوارع كتلا من حديد يغلي في مكانه، وفي الصيف يكاد يضيع كل شيء وليس اللبن وحده كما في المثل. ومنشطات الأزمات في الصيف تهب من كل جانب، زيجات بالمئات، ورحلات بالآلاف، وتموجات سكانية لا يقر لها قرار والتزامات مرهقة لذوي الدخول المحدودة، وتهافت محمود على ما لا يلزم وفراغ يقلب الأوضاع رأسا على عقب، تغلق المدارس والجامعات فتخرج الأرض أثقالها، ويصبح كل بيت:

ملاعـــب جنـــة لـــو ســـار فيهـــا
ســـــليمان لســـــار بترجمـــــان

تعج بالأطفال المردة الذين يستيقظون حين يهجع الأسوياء وينامون حين تشرق الأرض بنور ربها، وفي ضجة الفراغ الممل تخور عزمات المرافق العامة وتمتلئ الساحات والمطارات والفنادق والمتنزهات، وكأن الناس في ذهابهم وإيابهم جراد منتشر يضيقون بكل شيء ويضيق بهم كل شيء تتضاعف المصروفات وتكثر الالتزامات وتتعدد المناسبات، ويخرج الناس من رعب الامتحانات إلى مشاكل القبول في الجامعات، ويضيع دم المسؤولية بين قبائل المسؤولين فلا تدري من تلوم ولا إلى من تتوجع، والذاهلون من تفاقم الأمور يخوضون في لجج ضاع فيها المجداف والملاح، ومخلفات كل صيف عصيب لا تحمل على تدارك الأمور وتفادي المشاكل والاستعداد لما هو آت من مشاكل تكرر نفسها، فهل ما يلاقيه المترفون ضريبة الترف المقيت؟ أم أننا كحليمة وعادتها القديمة؟ وكأن ليس لنا إلا اللحظة التي نحن فيها.

وإذ لا مستحيل فإن بإمكان كل متصرفٍ في أي مرفق أن يفكر ويقدر، وأن يستعرض كل الخيارات الممكنة لكيلا يكون محكوما بالعادة، فالكيس من أفادته التجارب وحزبته الظواهر وبادر الضربات الاستباقية والاحتواء المبكر قبل أن يتسع الخرق على الراقع، وقبل أن تتكاثر الضباء على فراش، فالغفلة والتسويف والتعذير والتبرير توهن العزم وتفوت الفرص، وهذا ما توصم به جل المرافق العامة، والصيف مفازة مضلة لا يعبرها إلا الخرّيت إذ فيه ترتفع درجات الحرارة ويتقد الحصى ويذوب لعاب الشمس فوق الجماجم كما يقول (جرير) حتى تضيق بالناس بيوتهم وأسواقهم، ومن ذا الذي لم يتجرع

---

(١) تاريخ المقال: ٣٠/ ٦/ ٢٠٠٩

المرارات في المطارات بين الاعتذار والإلغاء والتأجيل ومن ذا الذي لم يتفصد عرقا وهو يجوب الشوارع بحثا عن الماء والمأوى في المصايف ومن ذا الذي لم يلهث في أروقة الجامعات بحثا عن مقعد لابنه أو ابنته ومن من المسؤولين الذي لم يحاصر في مكتبه أو في بيته أو عبر هواتفه لإنجاز حق ممطول، وأي بيت لا يكون فيه مؤهل بدون عمل أو مؤهلة بدون مقعد دراسي وهل أحد ينكر أزمة الكهرباء بوصفها الأطول والأوسع والأعمق أثراً بما تتركه في النفوس من خوف وعناء وفساد للأطعمة ودمار للأجهزة وتعطيل للأعمال وإرهاق للأجسام وإفشال للحفلات وإرباك للمرور ولا سيما أن إنسان العصر وبخاصة في دول النفط تحول إلى إنسان آلي تسيره الآلة، فالكهرباء في محيطه كما القلب في جسمه، والطاقة الكهربائية مرتبط بها كل شيء من ساكن ومتحرك، وإشكالياتها أن أزمتها تتكرر كل عام:

ويصـــــدق وعــــدها والصــــدق شــــر

إذا ألقـــــاك فــــي الكـــــرب العظـــــام

لقد جاء هذا الصيف أشد وأعتى؛ غبارٌ خانق وحرارة كفيح جهنم حتى لقد تململت الأرض من تحت سكانها، وكشف عن تقصير في التخطيط والتقدير، ومهما أوتي المسؤولون من قدرة على التعذير والتبرير والإقناع فإن الأزمة تظل مؤشر فوضى وارتجال وتخبط، وتقلبات الطقس المتوقعة لا يحكم إيقاعها إلا التخطيط الدقيق والتقدير المحكم واستشراف المستقبل، ولا سيما أن بلادنا بلد جذب يفد إليها الناس من آفاق المعمورة عبر الجو والبر والبحر، وتلك الملايين تشكل عبئا على كافة المرافق الخدمية، وقد لا يحسب لها الممول حسابا يغطي احتياجها فيكونون كالطفيليات التي تسبق الشعيرات على امتصاص الغذاء فيصاب الجسم ب(الأنيمياء) على أن بعض المرافق الخدمية تسير على البركة، ولهذا فكل مسؤول يشكو وضعه، وشركة الكهرباء بوصفها ذروة المشاكل لا تحد من مشاكلها الحلول المؤقتة ولا الجزئية، وإن كان لا يدوم إلا المؤقت - كما يقول المثل الغربي - فهي مثقلة بالديون والالتزامات والنفقات الباهظة والبطالة المقنعة والخسائر الفادحة وجل معداتها قد تجاوزت عمرها الافتراضي، ومن ثم فهي في سباق غير متكافئ مع متطلبات المرحلة، وأحاديث المجالس عما هي عليه من أوضاع يبعث على التشاؤم والإحباط، ومما يشاع أنها تبيع الطاقة بأقل من سعر التكلفة، وأن قطاعات متعددة لا تسدد قيمة استهلاكها، وهذا يضعها تحت طائلة استجداء الدولة واستنزافها غير المشروع للمال العام، وما نرجوه أن يكون ذلك من الشائعات المرجفة، وعلى الناطق الرسمي في الشركة أن يواجه الناس بالحقائق ليقطع دابر الشك، والمتابعون للتصريحات التطمينية لا يجدون بارقة أمل، فالمشكلة على ضوء المتداول غير مقدور على حلها في ظل الإمكانيات المتاحة، وعلى أية حال ف:

قـــد قيـــل مـــا قيـــل إن صـــدقًا وإن كـــذبًا

فمـــا اعتـــذارك مـــن قـــول إذا قـــيلا

والوعود المتلاحقة هدهدة بمعسول الكلام الذي لا يغني من الحق شيئا، ولما لم يكن بمقدور أي مرفق خدمي أن يذلل العقبات بالقول ولا أن يستل السخائم بالوعود فإن على القائمين على تلك المرافق أن يأتوا بنيانهم من القواعد، فالتسويف لا يزيد المشاكل إلا تجذرا.

ومما يزيد الوضع سوءا واستياء أننا في زمن مواتي وفي ظل إمكانيات مادية لا نظير لها، ومساعداتنا السخية بلغت آفاق المعمورة ومكنتنا من انتزاع لقب (مملكة الإنسانية) فكيف بنا إذا شحت الموارد وكسدت الصادرات وتعددت الالتزامات، واستوفت المشاريع العملاقة عمرها الافتراضي، ولا سيما أننا نعيش تحت وطأة الانفجار السكاني الذي لا يدانيه أي نمو وفي خلل التركيبة السكانية التي لا تشبهها تركيبة سكانية إذ أسوأ التركيبات عندنا التركيبة العمرية، فالمملكة يصدق عليها اسم مملكة الشباب، والمقبلون على الحياة لهم مطالبهم العلمية والعملية والسكنية والخدمية.

والتركيبة العمرية تواكبها إمكانيات مادية تفرض التوسع الباذخ في الإنفاق والاستهلاك، وحساباتنا المتناظرة مع الآخر تفاقم الأزمات فالمواطن السعودي في استهلاكه واستعماله وسكنه لا يدانيه في نهمه أحد، وذلك مكمن الأزمات والاختناقات، فإذا قدر له ما يقدر لنظيره في أي بلد عربي أو غربي وإذا رتبت الأمور على هذا التقدير فوجئ المسؤول بخطأ التقدير لأنه تقدير مع الفارق، ومثلما نخطئ في التقدير مع الأناسي نخطئ أيضا في التقدير مع (المدن) الرئيسة، فالمشاريع المنفذة بمدينة ك(بريدة) - على سبيل المثال - قدر حجمها واستيعابها على قدر سكانها المقيمين دون مراعاة لظواهر الجذب والهجرة وتفضيل المجاور لمرافقها ظنا منه أنها الأفضل بحيث تصبح مرافقها لكل أبناء المنطقة، فيما تستقبل كل محافظة مجاورة بمشاريعها لا يشاركها فيها أحد، إن لغة الأرقام تقطع قول كل خطيب ولكن الهوامش والخصوصيات قد تطغى على المتون بحيث يستغل المشروع من المستهلكين أضعاف ما قدر له، وذلك مكمن الإشكالية لكل مدن الجذب.

كما أن من مؤشرات التأزيم مبالغة بعض الوزارات في المشاريع الثانوية وعدم الدقة في ترتيب الأولويات، وتحكم ممثلي وزارة المالية عند مناقشة الميزانيات المقدمة، وشطب بعضها بطريقة عشوائية، وقد تتحكم الإقليميات والمحسوبيات والعلاقات في المصالح، كما أن تكتم المرؤوسين على جوانب التقصير لا يضع المتسبب أمام المسؤولية.

إن صيفا يضع الأمة أمام نفسها لجدير بأن يكون المحك والمرآة ومن بدت مرافقه في ساعات الذروة أكثر ثباتا فهو الأصلح والأنصح والأنسب لمواجهة المعضلات.

ونعود لنقول إن المسؤولين كافة على موعد مع الصيف فهو وحده الذي يعري الحقائق ويحرج الفوضويين فهل نستطيع الخلوص من تكرار المشاكل وإلفها باعتماد (الإستراتيجيات) واستشراق المستقبل والسيطرة على فترات الذروة دون أن يتحمل المواطن مراراتها وحده؟

إننا أمام إخفاقات ذريعة وأزمات خانقة وبإمكاننا أن نتجاوزها متى واجهنا الحقائق بثقة وقلنا للمخطئ أخطأت وللمحسن أحسنت.

الحرُمات بين غطرسة القوة وصلف الخطاب .. ! (١)[١]

الأوضاع المتفجرة في بقاع كثيرة من العالم المستضعف فتن كقطع الليل المظلم، لا يعرف الغادون والرائحون في مدارجها مواطئ أقدامهم. وجرائر الفتن وطرق توقيها استوفاها العلماء، وتقصاها المجربون، ووثقها المؤرخون، وعرَّفها القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، لمن أراد السلامة والهداية. فلقد حذر المصطفى ﷺ أمته من إيقاظها أو الوقوع فيها. وصفُها بالنائمة مؤشر لما يعرف بالملفات الساخنة ويؤر التوتر: ينياً وطائفياً وحزبياً وحدودياً. وهي عبوات موقوتة، وبراكين خامدة، كما النائم المرتقب قيامه. ودول الاستكبار والغطرسة تلوح بالملفات لكل من عنده قابلية، وللحكماء مقولة تعد من معتصر المختصر: «إذا أقبلت الفتن لم يعرفها أحد من الناس، وإذا أدبرت عرفها كل الناس». وتلك مقولة واعٍ مجرب. وطبيعة الجهلة التهافت على اللهب كما الفراش، وسمة العارفين التأمل والحلم والأناة والاعتزال وتفويت الفرص على الأعداء، ولكنَّ معرفة المدْبر لا تغني من الحق شيئاً. والشريعة الإسلامية كان لها موقف راشد من الفتن، لمعرفة خطرها حين تقبل وآثارها حين تدبر، والناصحون الواعون من المسلمين تعاملوا معها بحذر شديد. قال تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١] ومن ثم أذن بالقتال للحيلولة دون حدوثها ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣] ذلك أن«الفتنة أكبر من القتل».

ولأنها كالأوبئة تفتك بالمقيم والظاعن، وتطال المعتزل والضالع، ولا تفرق بين معتد ومسالم، ولأن أثرها التدميري يبقى على أرض الواقع، وأثرها النفسي يتجذر في الأعماق تتوارثه الأجيال في ترصد وتربص، فقد حذر الله منها، وحفز على اتقائها، والأخذ على يد السفهاء ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] . والفتنة تكون: فكرية تنشأ من الاختلاف حول نظرية التلقي والتأويل والمرجعية، وتكون فعلية تحركها أصابع خفية ومصالح متصادمة، وينفذها مكرهٌ أو غبيٌ. والقرآن الكريم فصل القول في الفتنتين، وسوى بينهما، إذ كل واحدة منهما تفضي إلى الأخرى ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ [آل عمران: ٧] . والمخالفون لما أمروا به يعرضون أنفسهم للفتنة ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ [النور: ٦٣] . والفتن التي اجتاحت العالم الإسلامي عبر تاريخه الطويل منشؤها مخالفة الأمر الشرعي أو التأويل الطائفي للنصوص.

وهي دركات: فمنها مالا يبقى ولا يذر، ومنها ماهو كرياح الصيف. منها فتن محدودة، وأخرى شاملة، بعيدة الأثر، أو قصيرة المدى، منها فتن تكفرها الطاعة والتسبيح والاستغفار، ومنها مالا بد له من التوبة النصوح بشروطها عند الفقهاء، منها العارض المنذر، ومنها المفاجئ المباغت، وأشدها ما كانت كما وصفها عمر بن الخطاب رضي الله عنه تموج كموج البحر، وهي قد نفذت إلى الأمة بعد أن كُسِر بابها المغلق. ومن ثم فهي قائمة إلى قيام الساعة، حتى لقد قال عنها عمر: ذلك أحرى ألا يغلق بابها أبداً، ولا تكفي لمواجهتها حسن النوايا ولا سلامة المقاصد، بل لابد من بصر وبصيرة، ومعرفة بالحكم

---

(١) تاريخ المقال: ٢٥/ ١٢/ ٢٠٠١

وتنزيله، واجتماع كلمة، واستطاعة مواجهة، والذين يتفلتون بفتاواهم وآرائهم، ويبادرون إلى القول الخارج على جماعة المسلمين إنما هم كقاصية الغنم، والمشاهد العربية والإسلامية تموج بالطوائف والأحزاب المتصارعة في القول وفي الفعل، مما يخدم العدو، ويشرع له التدخل إما للتحريش أو للتصفية.

والفتن كما اللهب للفراش، أو كما المتبرجات بزينة لمرضى القلوب، تجر أقداماً وتستهوي أنفساً، فقد يقع الإنسان في الفتنة مجبوراً أو مستبصراً أو عابر سبيل، يوقظها أو يسعى إليها، وكل أولئك يمسهم طائف منها، فيهلكون مهلكاً واحداً كما في الحديث الصحيح ولكنهم يصدرون مصادر شتى، إذ يبعثهم الله على نياتهم، ومن هذا الحديث يتبين لنا، أن الإنسان قد يكره على الوقوع في الفتنة، ثم لا يملك القدرة على التخلي منها، فيكون فاعلاً مكرهاً، وقلبه مطمئن بالإيمان. ومراجعة عائشة رضي الله عنها لرسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر الجيش الذي يغزو مكة ثم يخسف بأولهم وآخرهم، وإجابته لها، دليل على أن العذاب يعم، والجزاء يخص، فكل هالك يبعث على نيته. وقد يخرج الرجل من بيته مجاهداً في سبيل الله، متصوراً أن دعوى الجهاد قائمة، وأن الصراع القبلي، وصراع المصالح والاستراتيجيات، واللعب السياسية من الجهاد المشروع، فيقع أجره على الله، محيلاً الإثم على من غرر به، ومن جر قدمه بالقول أو بالفعل.

وقد تتقاطع الفتنة مع مصالح الأمة، بحيث لاتجد بداً من الدخول فيها على كره منها، وقد لا تكون في العير ولا في النفير، ولكن لأنها في سياق موبوء، يمسها طائف من دخنها. وتحذير الرسول ﷺ من الفتن والإشارة إلى مطارحها، حفز الناجين من صحابته رضوان الله عليهم إلى معرفة طرق الخلاص، وهم قد أشاروا إلى الإكراه والانطلاق بالمعتزلين إلى أحد الصفين، والرسول ﷺ قد بين لنا أسلوب التعامل الراشد. والمكره أو المتقاطع أو المتعرض للفتن دون اعتراض: دولاً أو أفراداً، من واجبهم اختيار أهون الضررين والدفع بالتي هي أحسن، إذ النائم عن الفتن خير من اليقظان، واليقظان خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي. وتلك مضامين أحاديث كررها الرسول ﷺ على أصحابه، فوعاها من وعاها، وغابت عمن أراد الله له الوقوع في أتونها: عقاباً أو تمحيصاً. ومن وجد ملجأ أو معاذاً، فليعذ به كما في الصحيح. ومن لم تكن له إبل ولا غنم ولا أرض يلحق بها، ويعتزل الفن، وجب عليه أن يدق على حد سيفه بحجر، ثم لينج إن استطاع النجاء. والكاتب الذي يحمل قلماً فاعلاً مؤثراً، والبليغ الذي يتوفر على لسان فصيح مثير، والعالم بالأحكام المتصدر للفتوى على جهل بالنوازل، وعدم معرفة بإنزال الأحكام عليها، لا يقل أثرهم عن الخائض بسلاحه، وواجب أولئك مراقبة الله، وتحري الأصلح للأمة، والمصير إلى ما يجمع كلمتها، ويقيها مصارع السوء، والصمت ورفع القلم للمعافى غنيمة باردة، إذ كل من لحق بالفتنة بناء على فتوى أو تحريض، فعلى المفتي والمحرض جريرة فعله، وكل من كان قوله سبباً في إشعال الفتنة عليه كفل منها. وحسان بن ثابت رضي الله عنه جمع بين سيفه ولسانه في التأثير، ووصفهما بأنهما صارمان بل زاد ليقول: «ويبلغ مالا يبلغ السيف مقولي». والحروب الطاحنة بين طوائف المسلمين يغذيها سلاح الأعداء، وتحريض الجريئين على الفتيا، والمغرِّر كالمموِّل سواء بسواء.

وإشكالية الفتن أنها تضل العقلاء، وتحير الحكماء، إذ ربما تقوم الفتنة بين فئتين دعواهما واحدة، فيما تكونان باطلتين، أو تكون إحداهما محقة والأخرى باطلة، وقد يخون المحقةَ سوءُ التعبير أو ضعفُ التدبير، وقد أشار الرسول ﷺ إلى ذلك. وما يعيشه العالم اليوم من قتل همجي مجاني وحروب أهلية، يؤزها المستفيدون، ويغذيها المصلحيون تحقيق لنبوأة الرسول ﷺ الذي أخبر عن كثرة الهرج وهو القتل. والقتال الشرس العنيف

بين طوائف المسلمين، والحقد الدفين الذي يحمل على قتل الجرحى والأسرى، يبعث على الاشمئزاز ومراجعة النفس قبل الخوض مع الخائضين. فأين أخوة الإسلام؟ وأين ما جعله الله بينهم من مودة ورأفة ورحمة؟ وما ينال المسلمين المتناحرين من عدوهم دون ما ينالونه من أنفسهم. والمؤذي أن كل فتنة عمياء دافعها الحقدُ والضغينةُ وحبُّ السلطة تحالُ على الإسلام، وكل ممارسة إرهابية تجد من يشرع لها، والفارغون للقول ومن الورع، المتسرعون في إصدار الأحكام، يصدِّقون الدعاوي الكاذبة، حتى إذا انجلى الغبار، وبان العوار، صمت الكل، ولم يجرؤ أحدٌ على تصحيح فتياه، ولم تكن الجرأة في الاعتراف بالخطأ كالجرأة في دفع المتحمسين إلى أتون الفتن، وجاهزيات القول تشوه سمعة المسلمين، و تحرض المندفعين على تجريد السلاح من الأغماد.

والمُطمْئِن أن الله أعطى لرسوله وعداً، والله لا يخلف الميعاد. فلن يهلك أمته بسنة عامة، ولن يسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم، يستبيح بيضتهم. والذين يمتعضون من الصراعات الدامية بين طوائف المسلمين، لا يستذكرون عدم استجابة الله لرسوله ﷺ، حين سأله ألا يجعل بأسهم بينهم. وواجب العلماء الناصحين أن لا يذكوا البأس، وألا يشرعوا للفتن بتأييد طائفة على أخرى. أو تحريض المتحمسين على عدو يتربص بالآمنين الدوائر، ويملك أزمة الأمور، وإذا لم يتمكن القادرون من نزع الفتيل، فلا أقل من اعتزال الفتنة بالصمت، وحين لا يتحقق الوئام، فليكن فك الاشتباك، وكيف نتطلع إلى الوئام، وقد أخبر الصادق الأمين أن بأس المسلمين بينهم قائم، وتحقق هذه النبوأة تحمل العقلاء على ألا يكونوا بالضرورة من وقود الفتن، فالرسول الذي سلم بقيام الفتن بين طوائف المسلمين، أرشد إلى أهمية اعتزالها، وتوقي شرورها، وحتمية القيام تأتي في سياق الامتحان ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢] . وإذا استحال الاعتزال، وتعذر لزوم الصمت، وجب على الواقعين معالجة الأمور باليسر والرفق والجنوح للسلم، وفي الحديث الصحيح أن الله يثيب على الرفق مالا يثيب على العنف، والتيسير مطلب إسلامي، والحلم والأناة في مواجهة الفتن سمة الناصحين لقومهم المؤتمنين على أموالهم وأعراضهم ودمائهم من قادة وعلماء ومفكرين، وهما خصلتان يحبهما الله، كما قال الهادي البشير «للأشج»، وقد وصف عمرو بن العاص الروم حين سمع أنهم أكثر الناس عند قيام الساعة بأنهم أحلم الناس عند فتنة، فمواجهة الفتن لا يتطلب الاهتياج الأعزل، ولا المبادرة الفجة، ولا التقحم المتسرع، ولا التصدر للفتيا المخالفة للإجماع، ولعل إيماء الرسول ﷺ لكثرة الروم إنما مرده تفاديهم تقحم الفتن، وهو ما أحال إليه عمرو بن العاص رضي الله عنه.

وآيات الذكر الحكيم، والأحاديث النبوية الشريفة، وتقصي العلماء لبوادر الفتن وأنواعها ومستوياتها ومثيراتها ونتائجها مواعظُ لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. وأصحاب القرار والنخب العلمية والفكرية والسياسية إن لم يكونوا على علم مفصل بأدق متعلقاتها، وما تجره من نكبات وفواجع، وما يتوفر لها من سهولة في قيامها، وعسر في حسمها، فإن واجبهم العلم قبل القول والعمل. فلقد جر الجاهلون المتسرعون على بلادهم الجوع والخوف والقتل، وأصلوا العداوة والبغضاء، وزرعوا الفتن، وفرقوا الكلمة، وامتد ذلك إلى الأمة العربية والإسلامية، فأذهب ريحها، وقعد بها عن القيام بواجبها، وسلط عليها عدوها الذي نفذت سلطته باسم توفير الحرية وحقوق الإنسان، حتى لقد امتلك بوثائق الإدانة حق التدخل العسكري، والمصطلون بلهيب الفتن يعرفون القدرة على إشعالها لكل مريد، وتأبى الخروج منها على كل داخل فيها متضرر منها.

ولسنا فيما نقول محكّمين، نضطلع بمهمة التزكية أو التجريم لا لواقع فيها ولا لمحرض عليها، ولسنا مبررين لتصرف «النسر النبيل» أو دعوى«العدالة المطلقة»، ولسنا جاهلين بما قاله كل من«فوكوياما» عن نهاية التاريخ وما قاله"صامويل هاتنقتون» عن الصراع، وما قاله«فوليرايت» عن«غطرسة القوة»، وما قاله"أقطاب حلف الناتو» عن أن الخطر والعدو المقبل والمستهدف هو الإسلام، ولسنا غافلين عن التلويح بالحرية والحقوق وانحراف المناهج التعليمية، ولا مطمئنين على ما يتداوله الإعلام الغربي بتحريض من اللوبي الصهيوني، ولا مصمّين الآذان عن حقد «في. إس. نايبول» الذي دفعه ثمناً لجائزة نوبل. كل ذلك نعرفه حق المعرفة، ونعيه بكل تفاصيله. وليس الوقت مواتياً لتفصيل القول ولا للإصلاح بين الطوائف المتصارعة لخطأ في الاجتهاد أو لضلوع في اللعب، ولا الإمكانيات قادرة على مقاتلة الطائفة التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله. فلقد أنهك العقلاء وأجهد المتهورون، وأصبح الجميع بحاجة ماسة إلى من ينزع الفتيل، ويجفف منابع التوتر وبؤرها، دون أن يسأل عمن أشعل الفتنة. إن ما نريده أن ننظر في خاصة أنفسنا، كما ندب الرسول ﷺ.

وعلينا وقد ادلهم الخطب أن نمسك بحجز المتدافعين الذين غَرَّر بهم من لا يُحسن الورود ولا الصدور. ومن أراد الحساب العسير أو اليسير فإنه سيعرض نفسه للعذاب، ذلك أن الفتن العمياء قائمة، والحقيقة الناصعة غائبة، والوضع المتردي لا يحتمل المساءلة ولا الإدانة. وإنما هو بحاجة إلى كم الأفواه، ورفع الأقلام، وتجفيف الصحف، وإغماد السيوف، ووضع الأوزار، والتعاذر، وتماسك الجبهة الداخلية في البلاد التي لم يُجر قدمها بعد لأتون الفتن، والتسلل من مسرح الأحداث قولاً وعملاً، ومعاضدة المؤسسات الدينية والسياسية والإعلامية لتوقي التفنة، والعبور بالأمة من عنق الزجاجة بأقل الخسائر، واستئناف الحياة بعيداً عن أي تماس يضيف أعباءً، ويعزز اتهاماً، ويشرعن لتدخل غاشم يتعطش لحرق الأرض وإذلال الأمة وفتح ملفاتها الأخطر عليها من عدوها المبين. ومن مسه طائف الفتن فإن عليه تخلية المواقع من الأشلاء وحطام المعدات، وتضميد الجراح، وبل الصدى، وسد الرمق، والإغماض عما مضى واستقبال ما هو آت. والبلاد التي لفحها لهيب الفتن، ولم تشتعل من أعماقها تستطيع جبهتها الداخلية أن تزور بوجهها عن وقع القنا، لكي يتفرّغ حماة الثغور لصد العوادي: إعلامياً واقتصادياً وعسكرياً، وفي هذه الظروف العصيبة الحساسة يجب الكف عن القيل والقال، وكثرة السؤال، وإضاعة الجهد والوقت والمال في البحث عن المحق أو المبطل، وطرح الخيارات، وتزاحم التصورات، وتحامي وضع الذات تحت دائرة المساءلة، وبخاصة في لحظات الاهتياج، وذروة الفتن، والنمر الجريح أمضى من السليم، ورفسة الذبيح مهلكة. وعندما تدلهم الأمور يجب أن تكون الكلمة واحدة. والدولة التي طُعِنت في الصميم، واهتزت مصداقيتُها، واخْتُرقت تحصيناتها ستذهل عن منطق الحق، وتتيه عن طريق الصواب، وتركن إلى غطرسة القوة، تطارد الأشباح، وتدك الصخور، وتدمر كل شيء أتت عليه، حتى تفيق من صدمتها، وتراجع حساباتها، وتعرف أن الإرهاب عارض لمرض، يجب حسمه ليزول العارض. وأن الذين شُحنت عواطفهم الدينية، وقُضيت بهم المآرب، لا يُتركون بعد تحقيق أهداف الغير يتيهون في الصحراء، واللاعب النفعي حين يصنع المنفذ، ثم لا يعيده إلى وضعه، يستمر في ممارسة مهمته، ويكون جاهزاً لكل مستثمر، ومن ثم ينقلب السحرُ على الساحر، والاستطلاع المجرى من مؤسسة أمريكية أثبت أن السياسة الأمريكية الخارجية وراء كراهيتها ووراء ظاهرة الإرهاب.

والإرهاب ظاهرة إنسانية لا يحال إلى دين ولا إلى جنس ولا إلى حضارة، يقوم به أفراد، أو جماعات، أو دول. وهو أسلوب من أساليب الحرب"والحرب خدعة». فإما أن

يصنع بوعي، وإما أن يكون نتيجة فعل، وقد يتداخل الإرهاب المصنوع بالإرهاب الناتج عن أوضاع غير سوية، وواجب العالم تفهم الوضعين ومعالجة الظاهرة بما يناسبها، إذ ربما يكون تخلي الدولة عن أسلوب من أساليبها معالجة ناجعة لحسم ظاهرة الإرهاب، وليس من الخير أن يعالج الإرهاب بإرهاب مثله.

الحرُمات بين غطرسة القوة وصلف الخطاب .. ! (٢) (١)

وإذ تعيش الأمة العربية والإسلامية والعالم بأسره حالة من التوتر والغليان، وعشوائية في التخبط، فإن على الناجين من أعاصيرها، أن يرعوا هذه المكتسبات، وألا يتقحم أحد منهم بقول أو بفعل ما يؤجج غطرسة القوة، ويدفعها إلى كسب الرأي العام، واتخاذ موقف استعدائي ضد دولة تؤثر السلامة، وتجنح للسلام، وقدوتنا في اعتزال الغليان والانفجار، ما اختاره الورعون من الصحابة رضوان الله عليهم، حين اشتعلت الفتنة الكبرى، حيث اعتزلوها، وأغلقوا أبوابهم على أنفسهم، والإسلام شرع طريق الخلاص والنجاة، حين وجّه إلى الصبر والاحتساب والاعتزال.

والحروب المشتعلة في بقاع كثيرة من ديار المسلمين، تخوضها فصائل عرقية أو اقليمية أو دينية، تدعمها قوى خارجية، وحين تشوبها أدنى الشوائب، لا تكون مشروعة، ولا تضاف إلى الجهاد الإسلامي، ولا يجوز للممتلئين غيظاً من غطرسة القوة أن يتخذوها متنفساً لهم، والطائفتان المقتتلتان، وصفتا بالإيمان، وندب إلى قتال الباغية منهما، وعلى هذا لا يكون من مصلحة الأمة، ولا من مصلحة أحد من أفرادها التورط في تلك الحروب: قولاً أو عملاً، إلا إذا كان الدخول فيها حقناً للدماء، أو إصلاحاً لذات البين، أو تخفيفاً من معاناة الأبرياء الذين أصابتهم الفتنة، دون أن يكونوا من الضالعين فيها. على أن يكون الفعل تحت ضوء الشمس، وعبر القنوات المشروعة. وحين سئل الرسول ﷺ عن مشروعية القتال، جاء جوابه حاسماً وبيناً: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**». و «الجهاد الإسلامي» لا يكون إلا بحاكم مسلم، يقدّر، ويدبر، ويوقت. مع اجتماع كلمة تعصم، ووحدة أمة تخيف، وقوة من صنع الأيدي ترهب، و لا يكون الجهاد إلا بعد دعوة بالغة، ومنابذة على سواء، ووفاء بعهود. وكيف يتصور جهاد، والأمة اليوم ممزقة الأشلاء، متعددة الأهواء، لم ترد الخروج ولم تعد له عدته. ذلك على مستوى المبادرة، أما صد الاعتداء والدفاع عن الحق والنفس فشيء آخر لم يلتفت المختلفون حوله ولم يتحمس المفتون من أجله، ومن بادر الحرب أو سعى لإثارتها بدون تلك المسوغات، فعليه أن يتحمل وحده تبعاتها، ولا يجوز الحديث عن تلك الفتن على أنها من الجهاد، ولا يجوز تحميل الإسلام ما لا يتأكد من إسلاميته. ومن خانه سوء التدبير أو سوء التعبير، ولم يصدر في تدبيره ولا في تعبيره عن مشورة أو مواطأة، فليس له على غيره حق، وليس من حقه القول باسم الإسلام. وما على الذين قدّروا، ودبّروا، واعتزلوا الفتنة بتقديرهم وتدبيرهم السليم أن يزجوا بمكتسباتهم، ولا أن يفرطوا بهيبتهم، ولا أن يضيعوا ثقلهم العالمي وأدوارهم الايجابية في صد العوادي.

كما أنه ليس من مصلحة الأمة نكث العهود، وحل المواثيق، ونسف قنوات الاتصال. وإذا كانت للأمة سياستها الناجحة في معالجة الأمور، ومواجهة الأحداث، وحل المشاكل، ودرء الفتن، فإن التخلي عنها مغامرة محفوفة بالمخاطر. والدعوة للمواجهة، ومسايرة المغامرين، وقوع في الفتنة، ومعانقتهم في خطاباتهم الاستعدائية تعميق وتعميم لها. والدخول في اللعب السياسية باهظ التكاليف على كلا المستويين: الحرب الباردة، والحرب الساخنة. والذين رضوا لأنفسهم ولشعوبهم مسرحة أرضهم، وتنفيذ المخططات عليها تحت أي مسمى، ثم تجرعوا مرارات الدخول في الفتنة، لا يتحفظون العقلاء بمعسول الوعود. وكم نرى ونسمع من الخطابات ممن هو ضالع في اللعبة من طوائف وفئات ودول أوْهَى من بيت العنكبوت. وإذا كان الله قد أكد للمسلمين بسماع الأذى الكبير من

(١) تاريخ المقال: ١/ ١/ ٢٠٠٢

الذين أوتوا الكتاب، فقد أمرنا بالصبر والتقوى، وجعل ذلك من عزم الأمور. كما أنه نهى رسوله عن أن يكون في ضَيْق مما يمكرون. وخيار المسلم والتسامح في هذه الظروف أرأف بحال الأمة المستضعفة. وهل أحد يجرؤ على إعلان الجهاد، والسلاح من صنع الأعداء، والعالم يداول مشاكله في المجالس والهيئات والمؤتمرات، ويقوي نفسه بالتكتلات متعمداً نسيان ما سلف. إن حاجتنا الملحة في الجهاد الأكبر، جهاد النفس الأمارة بالسوء، وإعدادها لذروة السنام، إذ لم يكن بد منه، ولكن بعد إعداد القوة المتفوقة والمرهبة، وقد فصل الله لنا مشروعية الإقدام والإحجام في آية التخفيف. والخطوب حين تدلهم، وغطرسة القوة حين تخلع القناع، تحدو أفراد الأمة وطوائفها إلى تقوية الجبهة الداخلية بالتعاذر والتماسك، وتوحيد الخطاب، وتفويض الأمر إلى أهل الاختصاص والمسؤولية، ممن ندبوا لذلك، وجهزت لهم الإمكانيات، ووفرت لهم المعلومات، وعرفوا دخائل الأنفس ودواخل الأمور، ودوافع المواجهات، ومقاصد اللعب السياسية، وإمكانية مواجهتها، أو توقيها، وحمّلوا مسؤوليّة التفكير، والتدبير، والتوقيت، والتقدير، والدفع بالتي هي أحسن، والمصير إلى أيسر الخيارين رفقا بالأمة، وصيانة لكرامتها، وتوفيرا لهيبتها، واقتداء برسولها الرؤوف الرحيم عندما يخير بين أمرين. ولأن السياسة فن الممكن، و «الميكافيلية» على أشدها، وحكومة الصقور في أعنف حالات اهتياجها، والمطابخ السياسية تحكم صنع اللعب، وزرع الألغام، وجر الأقدام، فإنه لا مكان للاهتياج العاطفي، ولا للمزايدات، ولا لصنع النمور الورقية، واقتراف تحشيد المشاعر، وتأزيم النفوس، وتجييش الرأي العام، والتشكيك بالمواقف. ولا مكان للمبادرات الشخصية: قولاً أو عملاً. ومن شمله العهد والميثاق، وجب عليه العدول عن القول الرافض المناهض في النوازل العامة التي هيئت لها المجالس، وندب لها الأكفاء، ومن عدل عن القول المخالف محافظة على مصداقية دولته، وتمكينا لها من استغلال ظروف السلم والاتفاقات وتبادل المصالح، ومن عدل عن الفتيا درءا للفتنة، وجمعا للكلمة، فالعادلان لا يدخلان في وعيد الله للذين يكتمون ما أنزل من البينات والهدى، ولا في وعيد رسوله ﷺ: «**من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار**» وهو ما يعول عليه البعض. إذ أن من شروط وجوب الإفتاء تعينها على المفتي بالتكليف أو الخلو، وأن لا يخاف المفتي غائلة الفتيا، فإن خاف وقوع شر أكبر من الإمساك أمسك، لأن المفسدة لا تزال بمفسدة أعظم منها. ولما كان المفتي مخبرا بحكم الله عن الله بدليل لمواجهة نازلة، وجب عليه أن يراجع نفسه، قبل الاقدام على ذلك، وأن يعرف متطلبات النص المعول عليه، من ناسخ ومنسوخ، وخصوص وعموم، وتعارض لا يتيح الجمع، ولا يحمل على الإسقاط وقطعية دلالة وثبوت، أو احتماليتهما، ثم ليعرف أن لكل زمان ظروفه وامكانياته، وما أفتى به أو قال به علماء الأمة من السلف في ظل ظروف مواتية، لا يمكن إنزاله بحذافيره على واقع مغاير. ولهذا لزم أن يكون المفتي «مجتهداً» «أصولياً» «عالماً بالحكم» و «بالواقعة» و «بضابط الإنزال» و «بمقتضى الحال».

وتوقي كتمان العلم له طرق غير التصدر لشق عصا الطاعة، كالإرشاد، والتعليم، والفتيا في العبادات والمعاملات، وإفتاء السائل المعين باسمه مشافهة، وحين لا يكون بد من القول، فلا يجوز التضييق على الناس بالمقدم من المذاهب، متى كان هناك ما هو أيسر في ذات المذهب من أقوال، فضلاً عن المذاهب الأخرى. والرسول ﷺ سكت عن الترجيح بين أقوال المختلفين، حين احتمل النص الرأيين في قضية «صلاة العصر» في بني قريظة، وهي قضية جهادية، ولو طبقنا شروط المفتي وصفته كما تداولها الأصوليون، لما جاز لكل متعلم أن يتصدر للفتيا، لأن من شروط المفتي: الاجتهاد بضوابطه، ومعرفة أصول الفقه، ومن لم يكن كذلك فهو «حاكي فقه» وما أكثر

«الحكواتية» في زمننا، ممن يقولون: «نحن رجال وهم رجال». والذين يعولون في فتياهم على فتيا سلفهم، يجهلون أن زمن السلف تتكافأ فيه القوى، وتتخلف أهلية القيادات. أما اليوم فليس هناك تكافؤ، مع تخلف في أهلية القيادات والأمة، ومثل هذا الوضع يتطلب تحرفاً لصناعة الأمة، لا زجا بها في أتون الفتن. وكم نسمع من يتعطش لعودة «صلاح الدين» وكأن الأمة تفتقر إلى قائد يلملم إمكانياتها المتكافئة مع إمكانيات الآخر. وكان علينا أن نتعطش إلى أمة تتخلص من غثائيتها التي أخبر بها من لا ينطق عن الهوى، وهي التي تنتج القائد التاريخي، يقول «جوستنيان» الإمبراطور الروماني، وصاحب المدونة في «الفقه الروماني»: «إنه لكيما تحكم الدولة حكماً صالحاً في وقت السلم وفي وقت الحرب لا يجد صاحب الجلالة الإمبراطور بدا من الاعتماد على ركنين:

الأسلحة .. والقوانين.

بالأسلحة يستمر قاهرا لكل عدو من الخارج يقصد الدولة بسوء، وبالقوانين يقطع دابر المظالم التي يبيتها بعض الأهالي لبعض» ذلك قوله في زمنه، أما اليوم فإن هناك مطالب حضارية، لم تُستكمل بعد، ومن أراد السلام فليستعد للحرب، وليصنع الأمة، وليقوي النظام، وليحترم القانون.

وإذا كانت أمور الجهاد، والعلاقات الدولية، وتبادل المصالح، وعقد الاتفاقات منوطة بولي الأمر المبايع على الكتاب والسنة، والمستحق للسمع والطاعة فإن على من هو خارج المسؤولية ألا يشق عصا الطاعة بقول أو فعل، وألا يحرض العامة بقبول رؤيته المخالفة لرؤية الجماعة، متى كان في الأمر فسحة. وعند تعدد الرؤى والخيارات، يلزم الأخذ برأي الجماعة، وإن كان مفضولاً. ويتحتم الإحجام عندما تشتعل الفتن، وتعظم البلوى. أما حين تستقر الأحوال فإن إبداء الرأي من حرية القول المكفولة لكل مقتدر ينشد الحق، ويعرف آداب مخاطبة السلطة، وتداول الرأي معها.

ومنازعة السلطة حقها في الخطوب يعد من مداخل الفتنة، ولا عبرة لمثيري البلبلة بدعوى الورع وإبراء الذمة، فمعرفة الحكم الشرعي وحده في قضايا السياسة ومنازلة الأعداء لا يكفي، إذ لا بد من «فقه الواقع» المتمثل: بفهم النازلة، ومثيراتها، وحجم المواجهة، وقدرة المتصدي لها: عسكرياً واقتصادياً وبشرياً، وفهم اللعب السياسية، والوقوف على تفاصيل القضايا والملفات، ومعرفة النوازع والدوافع، والركون لذوي الاختصاص من أساطين السياسة، بالخبرة أو بالدراسة، واستصحاب حق الولي ومقتضيات البيعة، والفهم الدقيق لمصالح المسلمين، واعتبار إمكانياتهم، والنظر في الخيارات، والأخذ بأيسرها، ومراعاة ضعف المسلمين وأحوالهم، المتمثلة: بتقطع أمرهم، وتفرق كلمتهم، وضرب بعضهم رقاب بعض، وتصنيم حدودهم، وتقديس المفرطين من قادتهم، وتعدد ولاءاتهم، وشح أغنيائهم، وعمالة المستضعفين منهم لعدوهم، وتخلف سوادهم الأعظم، وتعلمن مترفيهم، وفقر أكثرهم، وركونهم إلى عدوهم، وعدم استغنائهم عنه، في صناعاته: السلمية والحربية، وحاجتهم إليه، لحفظ التوازن، وفك الاشتباكات، وفض المنازعات، وصد العدوان، واشتراكهم معه في منظماته، وأحلافه، وإفادته، والاستفادة منه.

فخيار المواجهة قولاً بصيغة التحدي والصلف، أو عملاً بالمناجزة غير المتكافئة، في ظل هذه الظروف المتردية، ليس هو الحل الأمثل، ولا الوحيد. ولما لم يكن بد من التحرف القولي أو العملي فإن هناك عدة مستويات مندوب إليها، ليس منها خيار الصلف في الخطاب أو الحرب في المواجهة، وما دامت الأمة متشرذمة، وفي أشد حالات الغثائية، وتحت سلطات متعددة، وأيديولوجيات متناحرة، ومستويات اجتماعية واقتصادية متفاوتة، وخلطة مستحكمة مع غيرها. وما دامت العدة غير مرهبة، وما دام الدعاة إلى الله قادرين

على إبلاغ الدعوة، عبر مراكز الإسلام ومنظماته، وكافة وسائل الاتصال، وما دامت شعوب العالم غير المسلم مستعدة لسماع الدعوة، والأقليات الإسلامية تتمتع بحق المواطنة، وتتحسن أحوالها يوماً بعد يوم. فإن الحوار والحالة تلك أفضل من الصدام، والوفاق العالمي أفضل من الافتراق، والدفع بالتي هي أحسن أرفق بالمستضعفين، وبالأقليات الإسلامية، والأمة منهية عن تمني لقاء العدو، ولاسيما أن الدخول في الإسلام يبشر بمستقبل أفضل، واختراقات المسلمين لأجواء الديانات الأخرى لا يقابلها اختراقات مماثلة لأجواء الإسلام، ويكفي أن الخيرين يبنون المساجد، ويقيمون المراكز، ويندبون الدعاة، ويوزعون الكتب، ثم لا يبادلون بإقامة الكنائس في بلادهم واستقبال المبشرين. مع إن الخطابات الإسلامية عبر منظمات العنف لا تملك مشروعاً حضارياً، يضمن الاستقرار والاستغناء، حتى لقد جر تفكك الاتحاد السوفيتي غوائل بسبب واحدية القطب وغياب المعادل الإسلامي. وجرأة المفتين المحرضين على القتال أو المشرعنين للإرهاب توغر الصدور، وتؤزم المواقف، وتوقظ الغافلين عن مشاريع الدعوة إلى الإسلام. وتصفية الثارات، ورد الظلم لا يكون بالغدر، ولا يكون بالعنف. وما كان العلماء المجتهدون الأصوليون يتسرعون في فتيا العبادات والمعاملات، فكيف «بحاكي فقه» يتصدر للفتيا في مصائر الأمة، مناهضا لولي الأمر، مخالفاً لفتيا المكلف، قادحاً في عدالته، طاعنا في أمانته. والعقلاء الورعون من علماء الأمة من يدفعون بالسائل إلى من يليهم، خوفاً على أنفسهم من زلة عالم تطال مصلحة الأمة، فضلاً عن أن يبادروا إلى القول في النوازل المصيرية، وقد كفوا مؤونة ذلك بمن هم أهل للفتيا، ومسؤولون عنها. وليس هناك ما يحمل على التزاحم على منابر القول، ومراكز المعلومات، لتبرير الإرهاب، أو للتحريض على المواجهة، أو لشرعنة الحروب العرقية والطائفية والتسلطية والسلطوية، وإضفاء قدسية الجهاد الإسلامي عليها، ولاسيما إذا اهتاج الأقوياء لضر مسهم، وملكوا شرعية الرد العنيف لمن غزاهم في عقر دارهم. والقول عندما تُعمى الأمور، وتدلهم الخطوب كالفعل، فالذي يضرب بسيفه، كمن يضرب بلسانه. فذلك يفعل، وهذا يدفع إلى الفعل، ومن ظن أن كلمته غير المحكمة، وغير الممحصة، تطير في الهواء، فقد وهم. فما أشعل الحروب إلا بوادرُ القول، وما تفرقت الأمة إلا باختلاف علمائها ومفكريها، وما كَبَّ الناسَ في النار على مناخرهم إلا حصائِدُ ألسنتهم، وليس من المصلحة العودة إلى ما كانت عليه طوائف التطرف والعنف الديني: كالخوارج، والقرامطة، والمعتزلة، ممن جروا الويل والثبور وعظائم الأمور على علماء الأمة وعامتها. ولعلنا نستعيد ما هو دون ذلك، وهو فعل «العامة ببغداد» في القرنين الثالث والرابع الهجري، ومطاردتهم لمن خالف رأيهم، وبخاصة «الفصل الثامن عشر» «ص ٤٦٥» من كتاب «العامة ببغداد». وتعصب كل طائفة وإعجابها برأيها مؤذن بإعادة التاريخ، فالذين يخوضون معارك السلاح، ليسوا بأسوء حال ممن يخوضون جدل القول. واختلاف الآراء بين الناصحين العقلاء الصادقين المخلصين لا يؤدي بالضرورة إلى التنازع، وتصفية السمعة أو الجسد، وإنما يحيل إلى المراجعة وتداول الآراء، والتماس الحق، ثم القطع والعزم والتوكل، ومن لم يؤخذ برأيه، وجب عليه السمع والطاعة والتسليم، ومن بحث عن الانتصار أو الكسب صعب عليه الإذعان، وكيف لا نقبل بالتغليب، ونحترم الأغلبية، وبعض أحكام الشريعة مدار حظرها وإباحتها على التغلب، فإذا غلب الخير على ما دونه شرّع. والرسول ﷺ الذي يتلقى الوحي من السماء، استشار أصحابه، وألح في طلب المشورة، ولم يجد بأساً في العدول عن رأيه.

ولا يليق بالعلماء والمفكرين أن يحملهم العجب بالرأي، والإصرار عليه، على مفارقة الجماعة، ولا على النيل من أندادهم المخالفين أو المتوقفين. وسكرات الفتن تفرز

حقائق النتائج التي تصيب الجانحين إلى الوئام، والمتذرعين بالصبر والتقوى، وما نشاهده ونسمعه، وما نستدعيه من مراكز المعلومات، وما يتبادله البعض من مسترجعات ومصورات، وما تضخه قنوات الإثارة، وما يسره الفضوليون، وما يعلنونه، لا يبشر بخير، ولا يبعث على اطمئنان، فالمتقحمون بأقلامهم وألسنتهم إن هم إلا يوقدون نار الفتنة، فطائفة تؤيد، وأخرى تعارض، وثالثة تفسّق، ورابعة تكفّر، وعالم جليل يخون، ومفكر ناصح يتهم، ومخلص تشاع عنه قالة السوء. والنفوس مليئة بالحقد والضغينة، وظاهرة التصنيف والاتهام على أشدهما، لا يهاب سلطان، ولا يحترم عالم، ولا تقال عثرة، ولا يلتمس عذر، وما أحد أحسن الظن بالمخطئ، ونبه إلى الصواب برفق، بل كل يدعي أن قوله صدق لا يحتمل الكذب، وقول غيره كذب لا يحتمل الصواب. وتلك ظواهر ما عرفناها، وما كانت من أخلاقيات السلف الصالح، الذين إذا ادلهمت الفتن اعتصموا بحبل الله، وردوا خلافهم إليه وإلى رسوله، ثم لا تكون لهم الخيرة. ولو أن المتنازعين لزموا جماعة المسلمين، وأيقنوا أن من فارق الجماعة شبرا فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، ولو أنهم توقوا الابتداع واتباع الهوى، والتعصب والتحزب لكان خيرا لهم، ومثل هذا التدافع على القول عبر المنابر والمنشورات ومراكز المعلومات والقنوات، والتهافت على الأضواء، وكسب الغوغاء مخل بالمروءة، مشكك بالمصداقية، طاعن في الإخلاص. وما يرافق من أخبار عبر المواقع أشد خطرا مما يراق من دماء في ساحات القتال. فأين الورع؟ وأين الخوف؟ وأين سلامة الصدور؟ وأين حسن الظن؟ وأين النوايا السليمة؟ وأين حرمة المسلم التي قال عنها المصطفى في «حجة الوداع» ما تقشعر له الجلود؟ وأين مذهب السلف الصالح في التعامل مع المخالف؟ لماذا تحولت الصفوة المؤملة في الظروف الحالكة من التفكير إلى التكفير، ومن التحري إلى الجزم، ومن الورع إلى الجرأة، ومن الإيثار إلى الأثرة، ومن حب السلامة إلى الجماح في فجاج الفتنة؟. وإذا كنا نحتمل لغط العامة في مجالسهم، فإن مقولات النخب وثائق تصب في أوعية من يتربصون بالأمة الدوائر. والدول القوية الظالمة تتعقب زلات العلماء والمفكرين، ممن يقولون عن النوازل والأحداث دون تروّ أو تمحيص، تحلل، وتستثمر، وتحتج، وتثبط عزائم الناصحين. وأنى للخائضين في لجج الفتن المصدر المحايد، الذي ينقل لهم الحدث بكل دقة وأمانة وصدق. والعدو المتربص هو الذي يبث الأخبار، وينتقي الصور، ويصنع الرأي العام، ويستفز المتسرعين، ثم يدفعهم إلى قول متشنج، لا يغير من الوضع شيئا، وإلى فعل متهور لا يقلب موازين القوى، والعدو المتربص المترصد يحيل آراءهم وأفعالهم إلى مواقف دولتهم، فيصيب هدفين بضربة واحدة: يكسب الرأي العام، ويفرق كلمة الأمة، ويثبط عزيمة الدولة. والعقلاء العالمون، يفوتون الفرص على الانتهازيين، ويحولون دون اختراقاتهم، والبلاد التي أطعمها الله من جُوع، وآمنها من خوف، ووقاها مصارع الفتن، وحماها من أعاصير السياسة، ومن صلف الثوريين، ومغامرات الحزبيين، وفجور العلمانيين، عليها أن تعرف أن ذلك ناتج تصرف حكيم، وتوفيق من رب رحيم، وعليها أن تعرف أن استبداد كل عالم أو مفكر برأيه واستقلاله بفعله يعد بداية تفكك، ونذير تفرق، وظاهرة اختلاف، وذلك مؤذن بزوال النعم، ولسنا دعاة تزكية لأحد، وإنما نحن دعاة اعتزال للفتنة، ولزوم للجماعة، وتحر للصواب.

الحرُمات بين غطرسة القوة وصلف الخطاب .. ! (٣) [(١)]

والأوضاع القائمة التي بلغ فيها السيل الزبى، لا تحتمل الفوضى باسم «حرية الكلمة»، ولا تعدد المشيخات والقيادات الفكرية والدينية باسم «حرية الفكر» وضرورة «الاجتهاد»، إذ لم تعد الأمة قادرة على احتمال مزيد من التحزبات لرأي أو قول، ولا للتجمعات حول متقحم بآرائه ورؤاه وتصوراته، ولا لتصنيم الأشخاص وتهميش القضايا. إذ ليس لدى الأمة المثخنة مزيد جهد كي تقعر الرؤية حول القضايا الفرعية وتلهو بالهامشيات التي لا تغير مجرى الأحداث بإهمالها أو بأعمالها. وليس من مصلحة الأمة كثرة الجدل حول المذهبية واللامذهبية، والمقدم والمؤخر من الأقوال. والجبهة الداخلية حين يجتالها المتنطعون والمتفيهقون والمماحكون والغالون في دينهم أو في أفكارهم ثم يؤدي ذلك إلى ارتباكهم وسط تضارب الآراء، وتناقض التصورات، تشكل عبئا ثقيلاً على أصحاب القرار، وتصبح عرضة للانفجار في أي لحظة، لأن الخلاف مع غياب المرجعية وتعدد القيادات الدينية تضخم القابلية للفشل وذهاب الريح، وتكون الأمة هدفاً للدسائس واللعب السياسية، والكائدون للأمة يمدونها بما يشغلها عن معالي الأمور، ويستغلون أبناءها الفارغين للجدل والفارغين من المعرفة بمجريات الأحداث. والذين يثير انتباههم كثرة الهالكين من حولهم، لا يعرفون ضلوع المستعمر في أدق تفاصيل الحياة، والوعي المتشكل من الفيض الإعلامي ليس مؤهلا لتداول الرأي، فضلا عن التصدر للقول المؤثر على مجريات الأمور.

وليس من شك أن بعض ما تعانيه القيادات من تفلت الرأي العام إنما مرده إلى البون الشاسع بين ما يقال في الإعلام وما هو كائن في الواقع، حتى لقد كدنا نتصور المتداول من القول على كل الصعد «قصيدة كلثومية». وقد كانت الرضة «الحزيرانية» مؤذنة بغياب هذا الصوت، وكاشفة للمفارقة بين الخطاب الإعلامي والواقع العربي، غير أن دابر التآمر لا ينقطع إذ الذين اتخذوا طريقهم إلى السلطة محمولين بمحفة اللعب السياسية لا يقدرون على اعتزالها، ولا على قول الحق، ولا على الفعل الخالص من الشوائب، لارتباط مصائرهم بمن مكن لهم. وصنَّاع الزعامات يوقعون العداوة والبغضاء بينها وبين من تلي أمره، ليسهل تأديب إحدى الطائفتين بالأخرى، والمصنوعون حين يكونون ممثلين أغبياء يفوتون على بلادهم فرص النماء والاستقرار، وكل لاعب بالإنابة أو بالأصالة يشرعن للعبته باسم الدين، أو باسم القومية، أو باسم الحرية، ويهيل على الأطراف الأخرى تراب الذل، ثم يجد من يقبل بهذه الكذبة السوداء، معرضاً أهله وعشيرته للهيب الفتن، محملاً دولته أعباء التطهير، مثبطاً عن فعل إيجابي يدرء الشر.

وقد مرت المشاهد العربية بزعامات فاقعة اللون، استهوت الخليين، وصعدت لغط الرهانات، وعند انجلاء الغبار تقطعت بالمراهنين الأسباب. والمؤلم سريان تلك الخطابات كالخدر في أوصال البعيدين عن دخن الفتن، وما ينشئه من تناحر لا يبرح فيوض الطرح الإعلامي، والعراقة السياسية المتجذرة مع الزمن، والمشروع الأيديولوجي المستجيب لحاجة الأمة، البعيد عن الصدام والإثارة مكتسب لا يجوز التفريط بشيء منه تحت أي ظرف. والطوارئ وإن كانت تتسم بذات الصبغة الدينية لا يمكن أن تتشكل بمعزل عن المشروع العريق المجانس، ما دام الدخول في المعمار الأصل والعمل من خلاله ممكناً. و علينا لكي نستبين الفواجع والبواقع ونحسب ألف حساب لكل رؤية جديدة أن نقرأ غيضاً من فيض الكتب التي نُسيت في غياهب الفتن وغيابة اللعب، ومنها على سبيل المثال لا

---

(١) تاريخ المقال: ٨/ ١/ ٢٠٠٢

الحصر: «لعبة الأمم» و «من يجرؤ على الكلام» و «لا سكوت بعد اليوم» و «تنظيم الغضب الإسلامي في السبعينات» و «اللعبة واللاعب» و «ألغام في طريق الصحوة الإسلامية» و «بؤر التوتر في العالم» و «الإرهاب والإرهابيون» و «الأصولية الإسلامية في العصر الحديث» و «الإرهاب إسلام أم تأسلم» و «الصهيونية والعنف» وسلسلة «العنف الأصولي» و «الاستعداد للقرن الحادي والعشرين» و «على مشارف القرن الحادي والعشرين» و «الصراع بين التيارين الديني والعلماني» و «صدام الحضارات .. إعادة صنع النظام العالمي» و «نهاية التاريخ والإنسان الأخير» و «غطرسة القوة» ومذكرات الساسة، والعسكريين، ورجال الاستخبارات في الشرق والغرب، وما قامت به من تصفيات علمية وسياسية وقضاء على مشروعات عسكرية وسلمية واقتصادية، وتحليل الوثائق السرية المفرج عنها، و «الغليان» و «الانفجار» لهيكل، و «تزييف الوعي» و «المفترون» و «حمى سنة ٢٠٠٠» وصراعات المفكرين، وتناحر المذهبيين، وجدل المارقين، وعلينا استعادة المشاريع «الأيديولوجية» ومصائر زعمائها، وصدامات المتبادلين للمواقع فيما بينهم وصدامهم مع مراكز القوى المهيمنة، وتعدد الخطابات والانتماءات، وما تبديه من ظواهر الرحمة، وما تلوح به من مغريات، والقراءة الحيادية لما ذكر ولتاريخ الحركات المتعددة كاف لمراجعة النفس، ففي كل ذلك تكمن الدروس والعبر.

والذين يتهافتون على الصراع، ليسوا على شيء من معرفة خلفياته، فأكثرهم مثاليون مصدقون وصادقون، أو هم وصوليون ميكافيليون، ومنهم من إن تسأله عن حيثيات رؤيته لا يدري ما هي، وما السياسة، وقد يكون همه محصوراً في رغبة الحضور ضمن دائرة الأضواء، و ذلك أضعف المطالب. ويستطيع الواعي أن يستبين هذه الفئات مثلما يعرف أسلوب توقي النوازل وتلقيها، والتعامل معها. وحين نحذر من تلك البوادر، نعرف الأكفاء من الساسة ونحفظ لهم حقهم، ونعرف لعلماء ومفكرين إسهاماتهم المعرفية والفكرية ممن قضى نحبه، وممن ينتظر، ونعي ما تركوه من كتب. وما عرف عنهم من سير عاطرة شاهد على سلامة مقاصدهم، فنحن لا نريد أن نبخس أحداً حقه، ولا نسعى للإحباط والتشكيك والتيئيس، فالأمة الإسلامية ولود ودود، والطائفة المنصورة قائمة، وستظل قائمة حتى يأتي أمر الله.

والتحذير من المزالق لا يقتضي السكوت وكتمان الحق، ولايعني العدول عن المراجعة والمساءلة، ولكن هناك فرقاً بين المراجعة والمرافعة، وبين اختلاف وجهات النظر وتعمد التخوين والاتهام للآخرين. وجدير بنا وقد ادلهمت الأمور واستحكمت الشدائد أن ننظر بعين البصر والبصيرة إلى أوضاع الدول التي رضي قادتها تنفيذ اللعب السياسية على أرضها باسم الدفاع عن الثغور أو القضاء على الرجعيين والدكتاتوريين، وأن نستعيد الخطابات الثورية، وأن نستعرض معطيات المصطلحات المتداولة ك. «اللبننة» و «الصوملة» و «السودنة» و «الأفغنة» وما تنطوي عليه من مآس. وعلينا أن نتأمل ما آلت إليه أحوال الشعوب المغلوبة على أمرها من تشرد وضياع بين المنافي والسجون والمقابر والملاجئ ودور المعوقين، وما بلغته الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية من ترديات لا مزيد عليها، كل ذلك، ومثله معه، يحمل على التفكير الجاد قبل القول في الأحداث المتلاحقة، والاختلاف حولها. وفي الحديث المقتضب لأوهام النخبة تحدث الدكتور «علي حرب» عن خمسة أوهام، يهمنا منها «وهم الحرية» وهي المزلق الأخطر، لأن الذين يتحركون في ظل مشروعيتها لا يفرقون بينها وبين «الفوضوية» التي أصبحت فيما بعد مشروعاً له أصوله ودعاته منذ أن ألف كتاب «ضد المنهج» ولحق بصاحبه من أوغل في هذه المهايع. والحرية حين تفهم على غير وجهها تكون أخطر من

«الدكتاتورية» والاستبداد. لقد تداول البعض كلمات خطيرة وحساسة، وجعلوها شعاراً لمفهوم الحرية، مثل مقولة قاسم أمين: «الحرية الحقيقية تحتمل كل رأي ونشر أي فكر وترويج كل مذهب». وتعريف الحرية بهذه العبارة تفضي في النهاية إلى «اللادينية» و «اللا أخلاقية» بل و«اللاإنسانية» إذ التجمع الإنساني يقتضي عقداً اجتماعياً، يحتمي به كل متعايش. فالدول «الديموقراطية» تنتخب من تذعن له، والدولة الإسلامية تبايع من تسمع له وتطيع في غير معصية الله. والإذعان والسمع والطاعة ينتج «الحرية المنضبطة» التي فقدناها في ظل «المغالين» و «الحداثيين». ولعل أخطر ما يواجهه العالم المستضعف ارتباكه في فهم ثنائية «الحرية» و «السلطة» وحين لا يكون المعول عليهم على فهم جيد لحدود مفردتي: الحرية والسلطة فإن الكارثية لن تحل قريباً منهم، بل ستكون وسطهم، ولقد عالج المفردتين أساطين العلم الشرعي وعمالقة الفكر الحديث وكبار الساسة، وما من متقحم لهذه المهايع أخذ نفسه بجد المتابعة لمعرفة أدنى حد من متطلبات القول في قضايا السياسة.

والعالم المضطرب في أحواله، المتوحش في تعامله، المقتدر بوسائله: الراصدة والمدمرة، لا يتحمل مسؤولية أطره على الحق من تحيط به الفتن من كل جانب، ولا من هو ساع بماله على المشردين، ولا من هو موظف كل إمكانياته لتخفيف الأعباء عمن يواجهون شواظ الحقد ولهيب الضغينة، وكيف يسوغ كاتب أو عالم أو مفكر أو خلي حدث السن لنفسه زج مقدرات الأمة لمواجهة الطوفان، وتحمل مسؤولية الترديات، والعمل العازم على إرجاع كل آلة حرب إلى قواعدها، وهل المواجهة في ظل هذه الظروف المتردية مطلب لا ينظر معه إلى الامكانيات والعواقب الوخيمة؟ وليس من العقل أن يتصرف البعض على أساس ان القادة قادرون على حمل الكون، وما يعج به من فتن، على ما يريد من عدالة «عمرية» واستقامة «سلفية»، بين غمضة عين وانتباهتها، وكيف يتأتى التدخل، والأخ يقتل أخاه، والشقيق يخوِّن شقيقه، والجار لا يأمن غدر جاره، والحروب الطائفية والقبلية والحدودية قائمة على أشدها، والعالم العربي والإسلامي يترنح من مغامرات أبنائه، وصلف قادته، ومكائد أعدائه؟. وكل الخسائر التي تتعرض لها دول العالم الثالث تصب في خزائن الأعداء. إن علينا الدعوة بالحسنى، وإصلاح ذات البين، وليس من حقنا شرعنة حرب غير متكافئة، أو تبرير أي فتنة عمياء يفجرها من لا مثمنات له يخشى نفوقها، وما علينا من حق لمن رضي أن يجعل أرضه وأهله مسرحا لصراع المصالح وتصادم الاستراتيجيات وتصفية الحسابات.

وليس من حقنا ولا من مصلحتنا تسويغ الإرهاب الذي لا يقمع معتد، ولا يرد مظلمة. وفي الوقت نفسه يجب أن نميز بين «الإرهاب» الحقيقي الذي لا يحتمل إلا تصورا واحدا، و «المقاومة» المشروعة لردع ظالم عن مظلمة واستعادة حق مشروع لا خلاف حول أحقيته. وعلى كل الأحوال فإن ضبط النفس واستنفاد كل الوجوه الممكنة سلميا أفضل من الاندفاع والتهور.

وتجربة مؤتمري «الطائف» و «مكة» وتشكيل اللجان والجمعيات لجمع التبرعات وتصدير الإعانات للدعم السلمي وإنشاء المراكز وعمارة المساجد ودعم الجماعات السلمية خير مثال للنهوض بمهمتنا الحضارية، بوصفنا مسلمين، نتداعى لآلام إخواننا في آفاق المعمورة. والأوضاع القائمة بحاجة إلى من يعالجها لا إلى من يواجهها ويؤججها، والمريض المقعد لا تتلّه بيده، ليركض برجله، ولكن تجلسه برفق، وتعرف داءه، ثم تبدأ بعلاجه، لينهض بنفسه، ويمارس مهمته باقتدار، وإذا كانت الصهيونية تمارس أبشع صور الإرهاب على مرأى ومسمع من العالم وبتمويل منه، ثم لا تجد من يردع طغيانها من دول التحكم بمصائر الشعوب، فإن من واجب الأمتين العربية والإسلامية الخروج

بموقف جماعي مرحلي مستطاع، يحسب له الأعداء حسابه، لا يتهورون بفعل غير مأمون العواقب، ولا يجازفون بقول غير مستطاع التنفيذ، ولا يهيجون الرأي العام الذي أصبحت له أهميته في السلم والحرب، وليس من العقل الاستخفاف به، وعند المبادرات يجب أن ننظر إلى الأسباب التي آلت بالأمة إلى هذا الوضع، إذ المؤسف أننا بلا ذاكرة، لا نستعيد الأحداث، ولا نقرأ التاريخ الحديث، ولا ننطلق في آرائنا ومواقفنا من خلفية معرفية رصدية، ولا نعترف بأخطائنا، ولا نحذر من مقولات قلناها ثم تبين لنا فيما بعد خطؤها، نسأل الله هلاك الأعداء، ولا نسأله صلاح الفساد، نلعن الشيطان ولا نستعيذ منه، وحين تنهض الأمة بما تقدر عليه، يكون في ذلك معذرة إلى الله، ولعله يكتب النصر، ويكشف الضرَّ، وما تمارسه الدولة من ضغوط عبر قنواتها جهد المقل، وما تدفع به من إعانات عبر مؤسساتها واجب المستطيع، والمؤمل المزيد من هذا وذاك، وليس من حق أحد أن يدفع بمقدرات الأمة في مهاوي الردى. والله العالم بالضعف خفف على رسوله وعلى أمته، ولم يحمِّل أحداً منهم تحقيق النتائج ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢] ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] ﴿لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١] ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦] ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٣] ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] . وإذ لم يلزمنا بالنتائج، فقد ندب إلى فعل الأسباب، وحدد إمكانية الفعل ومشروعية الاتقاء: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ [الأنفال: ٦٦] ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ [آل عمران: ٢٨] ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] ومن الدعاء ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦] .

إن أحداث العالم فوق الوسع وفوق الطاقة، وهي تنذر بمستقبل مخيف، وفتنة عمياء، ولمَّا يتعظ العالم الثالث، إذ ما يزال مسرحاً للفواجع، وميداناً للتصفيات، وساحة لتجارب السلاح، ومجالاً لتنفيذ اللعب السياسية. والإعلام الغربي الذي ذاق بعض غوائل الإرهاب بعد أمن، ومسته ضوائق الاقتصاد بعد رخاء، وانكشف ضعف تحصيناته بعد ادعاء، وطالته جرائر فعله ونتائج سياساته غير المتوازنة وغير العادلة، يشن حملات مريبة، على بلاد وفت بعهودها، وتجرعت ويلات الإرهاب من قبله، وواجهته بوضوح وقوة، بلغت قطع الرقاب، وإسقاط الجنسية، و استنكاره على لسان مرجعيتها الشرعية، ولم تفرق في مواجهته بين إرهاب يستهدف المواطن أو المقيم. فالذمي عندها له حق الأمن، و «**من آذى ذمياً فقد آذاني**» و «**من قتل ذمياً لم ير رائحة الجنة**». وحين يحرض الإعلام الغربي القوة المتغطرسة على الضاعن والمقيم، ويحفز المتجبرين على التدخل في الصميم، وتمتد نظرة الغرب المريبة إلى الثوابت والمصائر من: مناهج، وثروات، وتحكيم للشريعة، وحق السيادة، يأتي دور القادرين من علماء ومفكرين وأدباء وإعلاميين، لتشكيل جبهة داخلية، متماسكة، ملتفة خلف قادتها، محتمية بمؤسساتها، مؤازرة في التصدي للحرب الإعلامية الشرسة، متعاذرة عند اختلافها، لكي تكون مواجهتها حضارية، وخطابها متزناً. والأوضاع العالمية المتوترة لا تستدعي مزيدا من المشاقة، بعدما تبينت المقاصد والنوايا، وأصبحت مشروعية التدخل العسكري لتقليم

الأظافر وحفظ التوازن وتحديد مواصفات الزعيم من الأمور المألوفة، وتلك بوادر خطيرة ما عهدناها من قبل، وليس فوقها من خطورة.

وعلى الأمة والحالة تلك أن تتخذ الأسباب المأمور بها من إعداد الإنسان قبل القوة، وأخذ الحذر قبل المنازعة، وأن تستعين بمن وعد بالنصر ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١] . ولكن بعد استقامة على المأمور، وتغيير لما بالأنفس، فحق النصر الذي أوجبه الله على نفسه للمؤمنين لا يتحقق إلا بذلك، وما نعظ به، لا يسلب حقاً، ولا يعطل حرية، ولا يمنع واجباً، ولا يخون مجتهداً فاته الصواب، ولا يعمق خشية، ولا يؤصل خوفاً من عدو متكبر متسلط، ولا يمنع من مساعدة مسلم متضرر بالقول أو بالفعل. وإنما لكل مقام مقال، ولكل ظرف خطاب، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾ [التغابن: ١٦] . والزمن زمن السكينة والتهدئة واجتماع الكلمة، والدفع بالتي هي أحسن، زمن الالتفاف، والتعاذر، وحسن الظن، زمن اللجوء إلى الله، فهو الذي يدبر هذا الكون، وهو المدافع عن الذين آمنوا، وهو الذي بيده نواصي الأمور، زمن الارتداد إلى الداخل، وترتيب البيت، وإعداد أبنائه لمواجهة الحياة العصيبة زمن التصرف الحضاري، والفعل الواعي لمجريات الأمور، و «فوكوياما» أوجز قواعد النجاة لأصحاب المنهج الواقعي بأربع قواعد: «توازن القوى» و «اختيار الأصدقاء» و «القدرات لا النوايا» و «فصل كل الأخلاقيات عن السياسة عند التقويم» ونحن أحوج ما نكون إلى إعادة النظر في كل شيء في القوة والأخلاقيات والأصدقاء. فالحادي عشر من سبتمبر حد فاصل بين حياتين مختلفتين، وهو كما السابع من حزيران، الذي كشف الغمة، وفضح الخطاب العنتري. وما نرجوه من الله، لا يمنع من أن نحسب كل الحساب للأسباب والسنن. نعد القوة: قوة الفكر، والاقتصاد، والعلم، والسلاح، والإنسان، والتعاون على البر والتقوى، والاعتصام بحبل الله. وعلى قادة الأمة، وقادة الفكر أن يعوا متطلبات المرحلة الحرجة، فعند الأزمات لا بد من القوة والعدل، وإعلان حالة الطوارئ، ليكون الخطاب غير الخطاب، والموقف غير الموقف. فالصلف الخطابي في المواجهة تحريض لغطرسة القوة، وتفرق العلماء والمفكرين وإعجاب كل ذي رأي برأيه والتنازع فرصة الأعداء المتربصين. والجنوح إلى السلم، و الدخول فيه، تحرف مشروع، ومصير منطقي، ومن وجه فوهة بندقيته إلى خصمه، فعليه ألا يترقب من يرشقه بالتين والزيتون، ولا من يتولاه بالرأفة والرحمة، وعليه أن يستعد لمواجهة تزهق الأرواح، وتحرق الأرض، وتشعل الفتن، وتخيف الآمنين، وتشرد المستقرين، وتدفع بالانتهازيين، وتدفع إلى تصفية الثارات وبعثرة الملفات. و من فكر وقدر، ثم لم يضع في اعتباره الاستعداد لهذه الكوارث، فهو كمن يحلم. والذين يتقحمون المنابر، وينتشرون في المواقع، ويتصدرون المشاهد، لا يقدمون مشروعا، ولا يقدرون عدة ولا عتادا، وأقصى ما يملكونه الاهتياج العاطفي الأعزل، والرهانات غير المقبوضة «وما الحرب إلا ما علمتم وذقتموا»، وما نشاهده الآن من إرهاب دولي، وانتهاك متعمد لحرمات المسلمين، يحفزنا على التساؤل «متى نصر الله»؟ ويحفزنا على ترقب الفرج بعد الشدة ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف: ١١٠] ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] .

لقد ابتلي الأنبياء فصبروا، وابتليت أقوامهم فاتقوا واحتسبوا، وحورب الإسلام بصنوف المكائد من إفك، وتشكيك، وإثارة للعصبيات، وإغراء، وإغواء، وإغراق في الشهوات، وصد عن الذكر. وعرف المسلمون جذور البلاء، وثقافة الضرار، وأجنحة

المكر، معرفة لا شائبة فيها. فما اعتزلوهم، وما جودوا فقه التعامل مع المخالف، ففتحوا بجهلهم أكثر من ثغرة، وأغروا بصلف خطابهم أكثر من عدو، وأتاحوا بموالاتهم أكثر من فرصة للمكر والمكيدة.

والأخطر أن يختلف المتخندقون في خندقهم، والناصرون لله حول نصرتهم، فذلك البلاء المستطير. هذا ما أقول وما سوف أواجه الله به، وأجادل فيه عن نفسي متوقعاً صحته، وما أردت إلا الحق والإصلاح ما استطعت، ومن وجد خيرا مما أقول فليفض علينا من صوابه.

رحمك الله أبا خالد .. ! [١]

إذا قيل إن الموت «نقاد» فلا تظنن أنها مقولة مرتجلة، فالحكم والأمثال نتاج تجارب طويلة، ورصد دقيق، ومتابعة واعية، صحيح أن ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ﴾ وأن الموت «يلاقي» ولا يلحق، وأنه ينفذ إلى الكبار في بروجهم المشيّدة، والى الضعفاء في أكواخهم المهلهلة، ولكنه حين يأتي بغتة وفي غير موعده، يكون كما «النقاد» الحبير الذي ينتقي الأجمل والأروع، يخطف العائل من بين زوجته وأبنائه، وينتزع المحبوب من أحضان محبوبته، ويسل العالم من بين طلابه، ويقتاد الموسر المنفق من بين فقرائه، يخطف الوحيد من حجر أمه، والشاب المتوثب من طريق آماله، يهدم البيوت على أهلها، ويطفئ أنوار الأسرة باختطاف عميدها، ومن بعد الأب الحاني، وصديقنا الغالي غانم بن عبد الله الغانم الذي وافته المنية في مشافي أمريكا من الذين رحلوا في وقت مبكر، وفي وقت نحن أحوج ما نكون إلى مثله في حسن شمائله، ورحابة صدره، وسرعة بديهته، وخفة ظله، وروعة لذعته، وسعيه الدؤوب للملمة شمل الأصدقاء، وتنظيم لقاءاتهم، وملئها بالمرح البريء والسعادة الغامرة، لقد ترك فراغاً مملاً، فقده أصدقاؤه الذين أفعم حياتهم بالسعادة، وصدم زملاؤه الذين ملأ وقتهم بالعمل، وفجع ذوو الحاجات من معارفه وأقاربه، وخلى منه مسجده الذي يتعهده في كل موسم عبادة بالطيب والمشروب، لقد كان بيته مثابة لذوي الحاجات من معارفه، يشفع لهم، ويسعى في أمرهم، يأوي إليه الأقارب فيجدون عنده رحابة الصدر وكرم الضيافة وقضاء الحاجة، لقد كان وفيّاً في حضور المناسبات، ولحوحاً في البحث عن الأصدقاء، وكانت جلسته ضحى الجمعة ملتقى الأصدقاء الذين تباعد بينهم المشاغل، والذين يعرفون سجاياه الحميدة، يبكون كما أولاده وأحباؤه.

لقد بكيناك أيها الغالي حين علمنا بدائك العضال، وبكيناك حين غادرت البلاد سعياً وراء الاستشفاء، وبكيناك حين تذكرنا ما تفيضه على أصدقائك من بهجة وسعادة، ولكننا أحسسنا بالغبطة تطفئ لظى الفرقة، حين تدفقت أمواج المصلين عليك، حتى ضاقت بهم أرجاء المسجد، وما وسعتهم الأسواق، وحين سمعنا دوي الدعاء، وحين رأينا المتدافعين وراء نعشك، وحين لم يُعرف المعَزي من المعزّى، فكل واحد من معارفك وأصدقائك يحس بذات الحزن والألم، ويتلقى التعازي بفقدك.

لقد كنت الصديق الوفي، تملأ المجلس بهجة، وتحييها بالمرح وبالمزاج البريء والنكتة الخفيفة خفة نفسك وسلامة صدرك، كنت كريماً، ومضيافاً، وسباقاً إلى كل خير، ومما زاد الألم أننا ما كنا، وما كان الأقربون يتوقعون رحيلك بهذه السرعة، وما كنا نتوقع أن يتسلل المرض إليك من ثنيات عدة، فيحول بينك وبين التدخل الجراحي لإنقاذ حياتك، كنا نراك تذبل، ولكنك صبور كتوم، تشيع البهجة والسعادة على جلسائك وأصدقائك، وفيك ما فيك من ألم ممض، وحين أحسست أنك لا تقدر على احتمال مزيد من المرض، امتد إليك حرص الأبناء والأصدقاء وشملتك رعاية الدولة فتلقتك سفارتها في أمريكا بكل ما لديها من إمكانيات، وفتحت لك أرقى المستشفيات في العالم، وحف بك أولادك البررة، وتبعتك دعوات أصدقائك الأوفياء، ولم نتوقع أن رحيلك حيا متحاملا على نفسك سيكون الذهاب إلى الأرض التي ستموت فيها ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤]، وهناك كنا معك في قلوبنا وفي اتصالاتنا، نتابع حالك ساعة بساعة، وفي كل يوم نحس أننا نقترب معك إلى النهاية، ومضى الأمل معنا كما سراب القيعان يخفف الأعباء،

---

(١) تاريخ المقال: ١٠/ ١/ ٢٠٠٢

فلقد غدوت من أهلك تبحث في المشافي عن شفاء الله الذي أنزله لكل داء، وكنا متفائلين بشفائك، وما زدنا على الدعوات الصادقة التي تحفك من يمين وشمال سائلة الله أن تعود كما أنت في حيويتك ونشاطك ومرحك العفوي، ولكن قضاء الله سبق كل شيء، وعدت محمولاً إلى الأرض التي منها خلقت، وعليها درجت، الأرض التي أحببتها وقضيت زهرة شبابك وبوادر كهولتك في خدمة أهلها، عملت في الصحافة مراسلاً، وكاتباً، وعملت في قطاعات كثيرة موظفاً، وكنت إنساناً اجتماعياً تشارك في كل المناسبات، عرفتك الصحافة في زمن مبكر، ثم شُغلت عنها، ونسيتها لتنساك، إلا من إشارات وشذرات كتبها رواد الصحافة من أمثال «عبد الفتاح أبي مدين» في مذكراته، ومرت السنوات الأربعين التي عرفناك فيها كغمضة عين وانتباهتها، فإلى جنة الخلد أيها الغالي الذي لن يغيب، وأحر التعازي لوالدك الصبور، وزوجتك المفجوعة، وأبنائك الذين كانوا معك في أيام الشدة، و«لمهند» الذي نقرأ في بريق عينيه ملامحك الوادعة، إلى أسرتك التي كنت لها الظل الظليل والأب الرؤوف الرحيم، ولأصدقائك وزملائك الذين وجدوا فيك الأخ والصديق الذي يجمع الشمل ويبذل الجهد..

النقد الثقافي: البديل أو الرديف .. ؟ (١)[1]

لكيلا يُحرف الكلمُ عن مواضعه وهو محرف ولا شك، ومن باب قطع الطريق على الذين يقوِّلون خصومهم ما لم يقولوا، ويجدون من يستمع اليهم، ويروج تحريفهم، اقول: بأن مجرد الاشتغال بـ«النقد الثقافي»، أو القول من خلاله في الثقافة أو عنها، أو الدعوة إلى شيء من ذلك، لا يكون من لوازم هذا الاشتغال أو القول ضعف، ولا انحراف، ولا فسوق. والقول في الثقافة أو من خلالها ثم ادعاء الفرادة في ذلك تفريط في المصداقية والنقد منتمياً للثقافة بوصفها موضوع نقد، أو آلية نقد، أو منتمياً للأدب، أو للبنيوية، أو لما شئت من الاضافات الفنية أو الموضوعية لا يعدو كونه ذلك كله ومثله معه منهجا وآلة، يخدمان الخير أو الشر، ولا يكون الشر أو الخير كائنين في الذات كينونة عينية، بحيث ندخل في مفهوم الشر المحض أو الخير المحض، وانما النية والطوية والاهداف والدوافع الكامنة في نفس المستخدم لهذه المناهج ولتلك الآليات هي التي تحدد السمة الحسنة أو السيئة. والشفرة الحادة تنحر الهدي أو تغدر بالآمن، والهجرة تكون لله أو لأم قيس. والمقترف لشيء من تلك الخطيئات أو الاخطاء لا يكون مرتدا خارجا من الملة، ولا منافقا في الدرك الاسفل من النار، ولكن خطيئته بحسب علمه ونيته وأثر فعله على الغير. والخطأ يكون في الفن والفكر والدين، والله وحده الذي يحصِّل ما في الصدور، وليس أمامنا عند الاختلاف في الدين الا الرد لمن امرنا بالرد اليه.

وكل اختلاف فيما سوى الدين فمرده إلى قواعد العلم أو الفن واصولهما، ولذوي الاختصاص في كل فن، مع المراعاة التامة لمقاصد الاسلام وهديه، وبدون ذلك تكون الفوضى، وتنفلت الامور. والاشتغال بـ«النقد الادبي» أو بـ«النقد الثقافي» أو بما شئت من منهج أو آلية لا تفاضل بينها تفاضلا ذاتيا أزليا لا محيد عنه، وانما التفاضل يتحقق اذا قامت الحاجة: عارضة أو ثابتة ثم ان الاشتغال بشيء من ذلك لا يستدعي نفي الآخر، كما ان قراءة ما تفيض به اي حضارة سابقة أو لاحقة أو مزامنة، والاخذ منها بالضوابط والتحفظات الاحترازية لا يكون شيءٌ من ذلك محظورا، بل هو من مكملات الثقافة. والمثقف الحق عندي من يقرأ لخصومه اكثر من قراءته لانصاره. وتلاقح الحضارات كتلاقح الأفكار، والتلاقح غير الارتماء في احضان الآخر.

وجميل ان نوسِّع مجالات النقد بكل دلالاته، وان نفك اسره من ضوائق النص الابداعي في لغته وفنه، واجمل من هذا ان نلقي السمع بشهود وثقة إلى كل ما يقال، وما يستعمل، وان نأخذ بأحسنه بشرط وبمقدار. وفي المقابل نقول: ان من القبيح ان نبارح مواقعنا التي تمثل عمقنا الحضاري كما الرماة في تخلية الثنيات، والاقبح ان نصير إلى مواقع الحضارة المضادة نحمي ونشيد ونطرد الغربة. في حين انه بامكاننا ان نمتص نسغ المعطيات الحضارية لنحول دون تشخصها في مشاهدنا. والقبول أو الرفض المطلقان في مستوى واحد ازاء التحفظ، ومن ثم لابد من معالجة خيار الحوار أو الصدام أو الاعتزال بأسلوب حضاري، فالأفضلية ليست وقفا على حالة دون اخرى، ومن ثم ينتفي الاستمرار على صيغة واحدة.

وان كان ثمة تحفظ أو رفض فانما هو للتعالق الاستلافي النقلي من مفردات الآخر ومستعملاته: مذهبا، أو منهجا، أو آلية، واستدبار الحضارة الام: استخفافا، أو تهاونا، أو استغناء، أو استكبارا، ثم مخادعة المتلقي بدعوى المبادرة والاختراع، واستدراج الذين لم يتضلعوا من المعارف ولم يتميزوا بالمتابعة وقراءة الآخر، وشحن عواطفهم للدعاية

---

(١) تاريخ المقال: ١٨/ ٩/ ٢٠٠١

والادعاء، وتحفيزهم للنيل من الذين يختلفون أو يخالفون مثل هذه التوجهات العقوقية الخنوعية. كل ذلك أو بعضه يحملنا على المناصحة بالحسنى، ويدفعنا إلى تقصي اسباب النقل والاحلال ودواعيهما، وحوافز المخادعة واهدافها، ومقاصد التغرير وآثاره، والتعرف على دوافع المواطأة الاعلامية لمن لا يستحق المواطأة، اذ الاعلام كالانواء يحفز على التنبؤات ويثير التساؤلات. ولما كنا في سفينة وحدة مستَهَمين على مواقعها، كان من حقنا ان نسأل عما يراد بنا، وعما يراد بأدبنا ونقدنا ولغتنا ونحونا وسائر مفردات حضارتنا، وبخاصة حين يصاحب التعالق دعوى الموت، وهي دعوى لها جذورها الفلسفية ومقاصدها المتمثلة بالانقطاع واقصاء المرجعية، والتساؤل عما يفعل اولئك من اخذ بالجملة، ونفي بالجملة، هل يكون نتيجة استغباء للآخر، أو تغابيا مفتعلا، أو غباء حقيقيا؟ وهل هذه الاحوال تمس ذات المتعالق بوصفه الفردي، أو تمتد إلى الفئة التي تسلم له القياد، وتتخذ ما يدعيه دولة بينها، وتأخذ بعصمه، وهو لا يختلف عن قاطرة البضائع المستوردة؟. وحين نسلم بواحدة من هذه الأحوال الثلاث، يتحتم استقراء نتائجها وانعكاساتها على الذوات الاخرى وعلى المشهد المنتمي اليه. والضجة المفتعلة ازاء اوهام المشروع والمؤسس في حين لا مشروع ولا تأسيس تنشىء تساؤلات مشروعة. اهي ذكاء وقدرة فائقة عند افراد الحضارة المصدرة في مقابل غباء مستحكم في ذات المتلقي؟ ام هي ذكاء في الآخذ وغباء في المعطي؟ هذا اذا كان التلقي من الآخر ليس تفاعلا متكافئا بين طرفي التبادل، واستزادة منه، اذ تلك الحالة تعد من الظواهر المشروعة والمطلوبة. ان التساؤل التوبيخي: حين يباشر الناقل جلب ما لا يتقن وما لا يحتاج اليه، وحين يقترف طرد الأحق مدعيا موته بوصفه النظير في حضارته وحين يتعمد الجالب تجميع المندهشين، وتوزيع ادوارهم، دون اسهام معرفي يؤصل وينمي ويحرر المسائل، في زمن شب القوم فيه عن الطوق، وبلغت الشفافية ضحاها، واصبحت القنوات ومراكز المعلومات والمشاريع الثقافية والفكرية والترجمة في متناول المتابعين، وقد يكون بعض هذا في متناول الأطفال.

وكم نسمع ب«موت النحو» و«موت النقد الأدبي» سعيا وراء تحقيق التواصل الاندماجي مع مذاهب ومناهج لم تأخذ وضعها الطبعي في مناخها، ولم تسلم لها الكافة في بلد المنشأ، والقول بالموت يعني الانقطاع المعرفي التام مع التراث بوصفه مرجعية الممات، وتلك خصلة ذميمة تتلبس البعض: اما جهلا أو مواطأة حتى لا ترى هذه النوعية الا مع المجلوب، تراها مع «الحداثة»، بحيث لا ترى الاشياء الا من خلالها، أو مع «البنيوية» بحيث لا تقيم وزنا للأشياء الا بآلياتها، أو مع «النقد الثقافي» بحيث لا تحتمل بقاء سواه على قيد الحياة، أو مع «التحويلية» نابذة علم النحو والصرف كسقط المتاع، مع امكان الأخذ من الجديد والابقاء على التليد، كما يقول «امبرتو ايكو»: «ان العمل على تطوير الفكر لا يعني رفض الماضي بالضرورة» ودعوى الموت ليس رفضا للماضي وحسب، انه اكبر من الرفض، ومع انه تجشؤ من فراغ الا انه ايذاء لا يحتمل، والبعوضة تدمي مقلة الأسد.

والزمن الرديء الموبوء لا يمكّن في المشاهد الا لهذه النوعيات التي تشبه ما يصف به احد المرشحين منافسه: بأنه من الغباء بحيث لا يجمع بين عملين في وقت واحد: مضغ اللبان والمشي، اذ لا بد من ممارسة كل عمل على حدة، فاذا مضغ اللبان وقف، واذا مشى عض على اللبان. والبعض منا لا يأخذون بالنقد الثقافي أو التحويلة حتى يميتوا ما سواهما.

والوقوع في «الغربنة» بوصفها حضارة مضادة تكريس للزمن الرديء ورفض للتعددية الممكنة. والانحياز أو الحياد اجراءان، لا يؤخذان بمجرد وقوعهما، ولكن

بأسلوب الفعل، وبالمقاصد، وبالنتائج، و«عوربة» الاشياء ليس بنقلها كما هي. والتبدي والتحضر كينونة، وليستا تقمصا أو نفيا لما هو آت من الغير، والتركيبة الحضارية جمعية معقدة، اقرب إلى النمو البذري منها إلى التركيب الهيكلي، أو الترقيع المستبشع، والبنوة غير التبني.

فـ«الحداثة» غربية ولاشك.

و«البنيوية» غربية ولاشك.

و«النقد الثقافي» بأهدافه المعلنة غربي ولاشك.

و«التحويلية» التشومسكية غربية ولاشك.

والقول بـ«الملكة» أو «الكسبية» قول غربي ولاشك والقائل بشيء من ذلك كله مقلد ولاشك. اذ لا يجوز ان يوصف احد من المختصرين انفسهم بشيء من تلك المذاهب والايديولوجيات الغربية بالمبادرة، ولا بالاكتشاف، ولا بالتجديد، ولا يجوز لأحد يحترم المصداقية ان يصف فعل احد من اولئك بالمشروع، فضلا عن ان يصف احد منهم نفسه بذلك، وان قيل عمن تبنى، ولم ينجب، أو قال هو عن نفسه ما قيل، وان فوَّزه قوم، ودرس مشروعه آخرون، فكم دفع الساسة والمفكرون والمبدعون من الثمن الباهظ ليأخذوا طريقهم إلى «نوبل»، والتاريخ كفيل بالافراج عن الوثائق السرية، ولكننا كما وصفنا الله «خلق الانسان عجولا». يكون المتبني لشيء من هذه المذاهب اديباً، ويكون ناقدا، ويكون استاذا جامعيا، ويكون مثقفا واسع الثقافة، ويكون عالما غزير العلم، ويكون متحدثا، ويكون ألد الخصام. ولكنه مع هذه مجتمعة أو متفرقة أو غير موجودة البتة، يكون عاطفيا لا يملك الأناة أو ساذجا لا يقدر على التمييز أو بهلوانيا لا يستقر على حال، يظل عالة على الغير مقلدا له، زاهدا بما عنده، فاذا جلب شيئا من ذلك، واحسن الانتقاء والتوظيف والأداء، حمد له ما صنع، وان كان غير ذلك، ثم كان منه تعملق على سيقان خشبية واساءة لمن حوله وإماتة لمفردات حضارته، وجب على القادرين الأخذ على يده بالتي هي أحسن، وبأسلوب: مالي ارى قوما يفعلون كذا، وان ثار أو مار فدواؤه مرور الكرام.

ودأب الذين يُبهتون بما نقول: انهم يهربون إلى الامام، محولين التناوش المعرفي إلى حطيئيات مخجلة، في حين لا يملك أحد منهم الشجاعة والمقدرة والتواضع كي يقف مع المختلفين معه وجها لوجه، لتحرير المسائل، واحقاق الحق، والالتقاء على كلمة سواء. والحق ان طائفة من اولئك لا يكون بمثل ما انعم الله به علينا من متابعة لكل المستجدات، واستفادة منها، دون إلغاء للذات أو جناية بحق الحضارة، أو تعمد لتحقيق الانقطاع المعرفي باشاعة الموت لشيء من مفرداتها، ونحن نرى ان الحياد الرفضي السلبي الانطوائي الانكماشي التقوقعي ممارسة غير راشدة، لا ندعو لها، ولا نرحب بها، كما ان الارتماء الذليل في احضان الآخر، وتعمد الانقطاع باشاعة الموت والانحياز الاستسلامي الاستلابي الاندماجي النقلي ممارسة غير راشدة، نرثي لأصحابها، ولمن خلفهم. ومن هنا لا بد من اخذ كل ظاهرة بذاتها: اندماجا أو انكماشا، وتقويمها على ضوء ما يبدو من ذويها، وكذلك يكون الأمر بالنسبة لأي ظاهرة تطل علينا من الغرب أو من الشرق، ثم يهرع اليها البعض ويَزْورُّ عنها آخرون. فالمتعالقون من مثقفي السماع والذواقين وغير المؤسسين وغير المؤصلين يختلفون عن المرتدين فكرا وخلقا الذين يعلنون انفصالهم عن ثقافتهم وقيمهم. وما اكثر المفكرين المتمكنين الذين طرحوا مشروعات تمثل الردة الفكرية، لا على مفهوم الحداثة الذي يرى ان العودة إلى التراث الاسلامي والفكر الاسلامي ردة، بعد النهضة المستغربة والثورة المتمركسة، وانما هو على مفهوم الردة كما يراها الاسلام، ومثقفو السماع هم الذين يستقبلون فيوض الآخر على ماهي عليه، ويدلون بها، وكل الذي يعني هذه الطائفة ان تطرح النظرية في المشهد المغاربي أو

الغربي أو المصري، حتى اذا استفاض الحديث عنها، اخذوها دون تصور سليم، ومع هذا يجدون من يستمع اليهم، ويبسط ارديته لفيض عطائهم. والمصطلحات المقبولة ظاهريا، قد تنطوي على مقاصد لا يمكن القبول بها على هوى أصحابها، وسوف نتحدث عن «التموضع» و«التأدلج» و«التعقلن» من خلال رؤى متعددة محظورة ومباحة، والذين يأخذون بها لا يفرقون بين مستويات المقاصد والاهداف، «فالموضوعية» و«الايديولوجية» و«الوضعية» و«العقلية» ذات مقاصد متباينة متضادة.

و«النقد الثقافي» طارف وتليد، وفق رؤية المنشيء أو الجالب، يتفاوت من فترة لاخرى، ومن مكان لآخر، ومن شخص لشخص، واخذه العادل لا يكون الا من خلال وثائق منشئة أو مدعية، لا مما يشاع من مقتضيات مصطلحية شرقية أو غربية وهو في «تليده» وتعايشه مع التعددية في اهتمامات الدارسين والنقاد لا يثير جدلا، ولا يحفز على المواجهة، شأنه شأن مئات الظواهر التي نتلقاها من الغرب بكرة وعشيا ولكنه في «طارفه» وكما يتراءى لنا من لحن القول، جاء منطويا على الاثرة لا على الايثار، وعلى نية مبيتة لضرب الثقافة والحضارة من خلال الانساق المفترضة لا القائمة. وهو حين حل ضيفا على مشهدنا المحلي باستضافته الاعلامية، وحين فكر المضيفون له بتخليه المواقع من اجله، كان علينا الا نكون كبني «تيم»، فنحن شركاء في سوق المضاربة، لنا حق القبول أو الرفض، واذا قيل عن بضاعتنا ما يعرضها للكساد، وجب علينا الدفاع، وحق لنا ان نجازي سيئة بمثلها، ونحن اذ نكون جزءاً من تاريخ المشهد الادبي فاننا لن ندع الذواقين والادعياء يستأثرون بتسطيره ليكون علينا كفل من اوزاره. ومن حقنا والحالة تلك ان نقول بحق المستغربين مثل قولهم في حقنا، فاذا وصفونا بالمقلدين والرجعيين والجموديين والماضويين، وليس فينا شيء مما يقولون، كان من حقنا ان نقول عنهم ما هو فيهم، ولكننا سنحاول ايقاف المناكفات من طرف واحد، ونبسط ايدينا اليهم، فان قبلوا، والا فلا اقل من ان نبلغهم مأمنهم، وننبذ اليهم على سواء، بعد ان نعظهم بواحدة: هي البحث عن الحق لا الانتصار. والناهضون لتفعيل «النقد الثقافي» عربيا ومحليا بوصفه آلية لضرب الثقافة لا اشتغالا في الثقافة بوصفها مادة نقد، لم يمكنهم المشهد من التجاوز إلى الفعل الجماعي، اذ لما يزل هذا المصطلح رهين المشهد الاعلامي، يجتره ذوَّاق استنفد كل الأقنعة، وجرب كل المستجدات، وسيظل خارج التأسيس بمفهومه «المتفرنس» أو بمفهومه «المتمصر»، وهو كحضور ما سلف من «تحويلية» و«بنيوية» و«حداثة» وتحولاتهما وبعدياتهما. وهذا الضجيج الاعلامي يحفز المعنى بأطروحات المشاهد ليقذف بصوته في ضجة الاحتفالية، «كبنت الدهر» علَّه يخلص من الزحام، وان كان تغريده خارج السرب، وهو تغريد يوصف بالرجعية والمرجعية الماضوية الممقوتة عند الحداثيين، وما حفزني إلى ذلك الا تطاول الدهماء وادعاؤهم السبق والاسكات وتساؤل السائلين الذين يظنون ان الصمت عجز، أو خوف، أو جهل بهذه المصطلحات واجراءاتها، وكيف يكون الجهل أو الامتياز ونحن وهم قراء لهذه المذاهب؟ لم ينفرد احد منا بالتخصص فيها، وكلنا نمر بها مطروحة في الطريق، وما الصمت الا انتظار منا للقفز على شاخص آخر، فصاحب «التقليعات» كالمزواج المطلاق، كل يوم هو في واد، يقول ولا يفعل، فما عهدنا استقرارا، ولا ألفنا تأسيا. وجناية بعض الملاحق الادبية وقوعها في الشللية وتعمدها نفخ الاشياء التي يتفوه بها من يوالي، حتى ولو قال: ان العسل من البصل. ولأن مشاهدنا شبت عن الطوق، ولأن الفجوات بين المشاهد العربية مجسرة فان من المخجل ان نكون بهذا المستوى البدائي، ننبهر من ابسط الاشياء وندعي جدة ما اكل عليه الدهر وشرب، لا نفرق بين التجديد والتقليد، ولا بين المبادرة والمحاكاة، وكيف تكون منا احتفالية بما شاخ عند غيرنا؟ ومع هذا واحتفاظا بحق المصداقية نقول: بأن مثل

هذه الاثـارات مفيـدة إلـى حـد مـا، اذ فيهـا حفـز علـى التسـاؤل والمتابعـة، فلقـد عرفنـا عـن الحداثـة والبنيويـة والتحويليـة مـا لـم يكـن ليتهيـأ مثلـه، لـو لـم يـأت مثـل هـؤلاء، ليمارسـوا الاستفزاز والاثارة، ولو انهم حملوا الاسفار على ظهورهم وبلغوها لمن يحملها لما كان في ذلك خلاف.

النقد الثقافي: البديل أو الرديف .. ؟ (٢) [(١)]

ومما يحدو على التساؤل ذلك الزخم الإعلامي المفتعل حول ظاهرة أو شخصية أو كاتب لا ينطوي أي شيء منها على كثير، حتى إذا فزع عن المشهد، وجد المتابع نفسه في قيعة سرابية، ووجد هذه المفردات بسبب هذا الزخم قد تحولت عند البعض إلى قدسية لا يمسها إلا متهم بعقله أو بدينه أو مواطنته أو بعلمه. وهذا التقول مع ما يؤدي إليه من تشكيل رؤية خاطئة ومفاهيم معوجة، يحجب الرؤية العامة، ويمنع التعامل الحضاري مع أي حدث، ولا يمكّن المشاهد العربية من التعرف على مزيد من المذاهب والتيارات والمبادئ والكفاءات العلمية والفكرية والأدبية التي تموج بها أروقة الجامعات وتزخر بها المشاهد الثقافية في الداخل والخارج. ومما يزيد الاستياء تعمد النيل مما هو قائم من الظواهر أو من الكفاءات، أو التواطؤ على تهميشها، لصالح فرد يستقيم أمره دون الحاجة إلى المساس بالآخرين. وقد فعلها البعض لغرض الاثارة ولّما يلتفت إليه، وحسناً فعل المعنيون بالتهوين، ولربما يظن أولئك أنه لا يتم حضور من يودون حضوره، وحضور مصطلحه إلا بموت ناجز لظواهر راسيات كالجبال أو بتهميش جائر للمشتغلين من خلال ظواهر ليست على هوى أنفسهم. وظاهرة "النقد الثقافي" التي سيئت من أجلها وجوه كثيرة، لم تعد جديدة لا على المستوى الغربي، ولا على المستوى العربي، فضلاً عن أن تكون جديدة على المستوى المحلي. ولأن المصطلح طارئ، والمفهوم قائم، فقد حاول البعض الإيغال في الوهم والامعان في التوهيم. ظناً منه أن المتابعين يجهلون المتداول في المشاهد الأخرى. واستمر تبعاً لذلك التنازع حول القول عن المنهج والآلية والمجال، كما أفسح المجال أمام المتعاضدين ليقولوا على بعضهم وعما يجهلون ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ومتكأ أولئك غياب الحقيقة، ومثل هذا الغياب يحال على اشكالية المفهوم المراد، وليس على المفهوم المعهود، اضافة إلى اشكالية المشروعية. و"النقد الثقافي" يقع تحت طائلة تنازع المفهومين، والاشكاليتان: - المفهوم والمشروع مثار خلاف عريض، وهو ما سنتناوله في بحث مستقل، وبخاصة فيما يتعلق باشكالية المفهوم، إذ كل متعامل مع مصطلح جديد لا يحدد مفهومه بلد المنشأ، أو تكون مقاصده المحددة متحفظاً عليها في بلد الاستهلاك يتعرض لتعويم ذكي، يخلص من تبعات المقاصد الأصلية، وقد حصل هذا مع كثير من المصطلحات الغربية ذات البعد الأيديولوجي المناقض ك"الحداثة"، غير أن الاشكالية تمتد لتأخذ أبعاداً أخرى، تُحال على الجهل، وليس على المكر ولا على المواطأة. فبعض الذواقين ينقصهم التأصيل الشرعي، ولا يعرفون حدود الحرية ومقتضيات الولاء والبراء، وهم بهذا الاقتراب من الحمى أو الوقوع فيه، لا يقدرون على كف الغيبة عن أنفسهم، وهكذا تكون الطوارق على غير المتابعين للمستجدات وعلى غير المستوعبين لها ولمآلاتها الفلسفية، هذا الالتياث يطال كل الأصعدة، ويمس مختلف العلوم والفنون، ومن جهل شيئاً أنكره أو هوّله أو حرفه. ولما لم نكن نجهل "النقد الثقافي" بوصفه معهوداً ومفهوماً بكل اهتماماته وتنوعاته ومجالاته وتصوراته، فإننا لا ننكره، ولا يستفزنا شيء منه، ولا نجد حاجة لتخلية المواقع من أجله، سواء اتخذ الثقافة مادة حديث أو مجال نقد، وسواء اشتغل بالمهمل والمهمش أو بالمتن والمعتنى به، فذلك كله قائم في الحاضر والباد، و"الجاحظ" خيرمثال على الاشتغال بما هو دون "البلوت" والمتابعون لأطروحات الغرب بثقة وصمت، لا يثور انتباههم، ولا يفغرون أفواههم، ولا يحملقون عيونهم لمجرد أن زيداً من الناس وضع آلية مكان أخرى، أو أحل منهجاً ليس له به علم مكان آخر أو اشتغل بما

---

(١) تاريخ المقال: ٢/ ١٠/ ٢٠٠١

لم يشتغل به غيره من دقائق الأشياء ومهملها، وليس من الحصافة أن يأتمر البعض بسوء، فيتعمدون اختصار الكل في واحد: شخصية أو قضية أو فترة زمنية. لقد فرضت علينا عبر تاريخنا المعاصر أيديولوجيات ومذاهب، وطغت شخصيات تجاوزت حد التصنيم، وقامت في سبيلها العداوات، وانقسمت المشاهد على نفسها، وألهيت النخب عما هو أهدى وأجدى، ثم سحبت المذاهب وخونت الشخصيات، وأحل مكانها بدائل ليست بأحسن حال منها.

والغرب الذي يعول عليه البعض ليست له مرجعية، وليست له مسلمات، وهو مأخوذ بالمادية المستغنية عن مبدأ العلة والعقلية المتعالية على النص، ولهذا فهو على مبدأ التطور الدارويني، بحيث يراه قانون الأشياء والأحياء، وهو مع مطلق التجريب والتجريد، وهو مع المغامرة الأخلاقية والتساؤل والعبث والفوضى واليأس، وجميل لو قرئ مقال "رينيه ويليك" "خريطة النقد المعاصر في أوروبا" ومقاله "الاتجاهات الرئيسة في نقد القرن العشرين" رغم صغرها.

وكلما اشرأبت أعناقنا لطارق جديد مما يفرزه الغرب، مارسنا معه من الصدام والتنازع أو الارتماء في الأحصان ما كنا قد فعلناه مع ما سلف، وهكذا أضعنا الجهد والوقت والمال والسمعة، ولم نستقر على حال، ولم نؤسس لرؤية حضارية تذيب الأشياء ولا تذوب فيها، وتستتبعها ولا تتبعها، وتخضعها ولا تخضع لها.

وهذه الظواهر السيئة ليست وقفا على الأدباء ولا على المفكرين، وإنما هي نوابت سوء في كل الحقول المعرفية الانسانية، نراها عند بعض علماء النفس والتربية واللغة والتاريخ والاجتماع. والناقمون على تراثهم المحتفون بالطوارئ لا يلوون على شيء من التراث ولا يتقنون شيئاً من المعاصرة، فالعالم الرزين لا تستفزه البوارق بحيث يستخف بمن حوله من اللدات ويزهد فيما بين يديه من المماثلات.

وما بأيدينا من بوادر النقد الثقافي تنظيراً أو تطبيقاً على "العبة البلوت" أو "الاستراحات" بوصفها من المهمل والمهمش، لا يكون فيه شيء غريب، لا في القول، ولا في الفعل، ولا حتى في المآلات، وأنصاف المتعلمين من خطباء الجمع يتناولون أشياء مماثلة، ثم لا يكون شيء مما يقولون مشروعاً ولا تجديداً، وحين لا يكون جديداً فلماذا كل هذه الضجة؟. يقال هذا على افتراض المضمر المعرفي والدلالي والمعهود الذهني لمفردات المصطلح.

على أن "النقد الثقافي" في النهاية حلقة من تلك السلسلة الصدئة، اندلقت أقتابه في مشهدنا على حين غفلة وتصوح معرفي عند الأكثرين، وانشغال مجهد في بقايا مذاهب مماثلة قيل في استقبالها ما قيل في استقبال "النقد الثقافي" ولأنه لم يأت بعد من ينقل المعلومة الدقيقة والأمينة والموضوعية عن هذه الظاهرة ومقاصدها الجديدة في الغرب أو في الشرق، فإننا سنظل معها في مفهومها التراثي، أما حين لا تكون تراثية، فإننا سنكون معها في أمر مريج، كما الطارق المجهول الذي أزعج سكون القوم، ولما خفوا إليه لم يجدوه، فانتابهم طائف من التساؤلات، فرق جمعهم. وأي قادم على مطايا التقنية محفوف بتظاهرة التبعيين يسد الأفق كما القتام. بحيث يحجب الرؤية.

وتعاقب الظواهر يحملنا على الاحالة إلى المجانس في تراثنا، نتصورها وفق معهوداتنا الذهنية، حتى يأتي من نثق بعلمه وأمانته ليقطع قول كل خطيب. ف"النقد الثقافي" إما أن يكون اشتغالاً في الثقافة أو نقداً لها، وحين لا يكون إلا كذلك، لا يكون هناك مجال للادعاء ولا للجنائزيات. أما حين يكون الأمر غير هذا، فإننا بانتظار من يحدد المفاهيم، ويقدم النماذج والمناهج التي تحرر المسائل وفق نظرية معرفية معتبرة، تحملنا

على القبول بإزهاق الأرواح. على أن الربط بالثقافة أو الاحالة إليها مصير إلى ما لا ينضبط، فالثقافة باتساعها تكسر الحد، وتظل الاحتمالات والتوقعات قائمة.

و"النقد الثقافي" حين يتخذه مبتدر أو مقلد، آلية أو مادة، لا يستحق كل هذه الاحتفالية، إذ هو خيار وسط زحمة من خيارات كثيرة، فحين يكون بديلاً كما يحلو لجالبيه أو رديفاً كما يجب أن يكون، يتشايل مع "النقد الأدبي" الذي يشتغل في "مكونات النص: - ذاتاً وثقافةً" أو في "ذات النص: بنيةً وشكلاً"، أو "فيما بعده: - تعاطفاً أو مثاقفةً"، متوسلاً بأطراف من فلسفة الجمال أو علم النفس أو الاجتماع أو اللغة، وقد تتنازعه اضافة إلى كل ما سبق أيديولوجيات متعددة، تتوارث، أو تتنازع، أو تتصالح. وما من أحد من المنظرين المبادرين حاز شيئاً من ذلك لنفسه، وخولها الاجهاز على الغير. ومن أراده بديلاً لكل هذا، فليستعد لتصريف الكم المتراكم عبر مئات السنين من مخرجات "النقد الأدبي"، ومصادرة عدد من مناهجه وآلياته عبر تحولاته في القديم والحديث، وتدريب النقاد ليستأنفوا حياة جديدة. ولن يدعي هذه القدرة إلا مدخول في فكره أو في تصوره. ومن قال بالموت فتلك أحلامه. وهذه المغامرة تذكرني بمقولة عبد العزيز فهمي بعد طرحه لمشروع الحرف اللاتيني، يوم سئل عن امكانية تحويل التراث الإسلامي من الحرف العربي إلى الحرف اللاتيني، قال بكل فجاجة: "ننقل ما نحن بحاجة إليه مما كتب بالحرف العربي"، ونسي أو تناسى لريبة في قلبه ملايين المطبوعات والمخطوطات، وفوق كل ذلك نسي الذكر الحكيم والرسم العثماني واشكاليته مع الرسم الإملائي.

والمشهد المتصوح يجتاحه نزف مسرف للأحبار إزاء أي عارض لا يمكن تصوره، والذين يفاجؤون ب"التقليعات" وهم خاليون من المعرفة ومن المهمات، تطول معهم فترة الاندهاش، ويرتبكون في تحديد مفاهيم تلك الطوارق ومقاصدها. ولو أن ما يقال عن وافد الآخر دولة شفهية داخل قاعة مؤصدة، بحيث لا يقرؤه المتمرسون والعارفون في الوطن العربي لكان الخطب يسيراً، لكن ما يكتبه أولئك عما طرأ أو عمن احتفى به أو عمن صدّ، يطرق المشاهد العربية، ليكشف عن هشاشة فكرنا وتهويلنا لما هو دون المألوف، مما تجاوزه الآخرون، كما أنه يعري بعدنا عن المتناول والمتداول في المشاهد العربية. والذي يخرج من بيته مشاركاً في المؤتمرات والمهرجانات في الداخل والخارج، ويلتقي بالعمالقة المبتدئين، ويأخذ معهم بأطراف الأحاديث ينتابه الخجل حين يرى ما هو مبهر عندنا عادياً أو دون العادي عند الآخرين، والذين يواطئون مثل هذه المجازفات من أدباء المشاهد العربية ومفكريها إما: مجاملون أو قابضون أو مقايضون. إذ هم قد أخذوا بأطراف من تلك الطوارئ، ولكن أحداً منهم لم يعلن موت النقد الأدبي ولا موت النحو العربي، ولم يستخف بلداته، ولم يتخذ كتبة يتفانون في تلميع صدئه وتوصيل أصدائه. ولسنا فيما نقول ضد من يسخن ما غبَّ من طبيخ الفرنسيين أو المصريين، وإنما نرثي لحالة من يعيشون حالة من الاندهاش، ملقين بما في الأيدي بانتظار ما لا يأتي سوياً على صراط مستقيم. والاستعانة بمنهج أو بآلة أو بفكر استفاض شيء منها في مشاهد الغرب أو الشرق لا يحملنا على التخلص مما توارثناه أباً عن جد بدعوى الموت، ولا على التقليل من شأن النقاد الذين عرفوا تلك المذاهب، ولم يحفلوا بها. ومعاذ الله أن نكون مقموعين في أطر "الوِجادة" بحيث لا نستشرف الآتي. وفي سبيل قطع الطريق على المفترين أؤكد بأن المكبلين بعقد الأبوية كالنابذين للتراث سواء بسواء. والمثقف السوي لا يرضى لنفسه أن يكون من دعاة التقوقع ولا من محبذي الانحباس الحضاري. ومن الحيل التي سمجت عند البعض التعويل على التخلص من مجادليه بالإحالة الجماعية على الماضوية الجمودية، متصوراً أنه بهذه الإحالة قد فرغ من خصومه، وما أكثر الذين يجازفون بالتصنيف، ثم لا يتجاوزون تلك الغنيمة الباردة، وحين لا أكون متقوقعاً، فإنني لست من المشرعنين لأي

فوات، ولا من المبررين لأي تقصير، حتى ولو كان من عند الأقربين، ولكن المحظور ألا نقدِّر الأمور قدرها، نقترف إلغاء الأشياء الثبوتية والأناسي الفاعلين، لتكون شيئاً واحداً لم يتقرر وإنساناً واحداً لم يستقر.

وهذه الدعاوى العريضة ألفناها، وتأذينا منها، لتعويقها تحقيق الندية ولاعطائها صورة غير سوية لمشهد عربي غير ذي عوج، تصدَّر المشاهد، وأمدها بالعلوم والمعارف، وهل أحد من مفكري العالم العربي والإسلامي لا يهفو فؤاده إلى تلك المسارح يوم كانت عربية خالصة وإسلامية نقية، تستقبل فيوض الحضارات كما البحر في استقبال السواقي.

لقد جاءت "الحداثة" بوصفها أيديولوجية انقطاعية تصفوية متقنعة بالمعاصرة والتجديد، وما هي منهما في شيء، فالغي كل شيء في سبيلها، وحمّل المصطلح ما لا يحتمل. وجاءت "البنيوية" بوصفها آلية تختصر الكل في اللغة، فاستخف ذووها بكل منهج من أجلها. وجاء "النقد الثقافي" متفلتاً من: أدبية النص، وآلية اللغة، ومحدودية المجال. فحكم على ما سواه بالموت. وجاءت "التحويلية" مؤكدة على الغريزة نافية للمفاضلة فأميت النحو. ولسنا متقولين على أحد، فتلك وثائقهم تشهد عليهم، كما البعرة تدل على البعير، ولم نر في المشاهد العربية من يحكم بموت شيء من تراثه مع أن فيهم من يملك طرح المشاريع والتواصل الندي مع الآخر. ولو كان المتلقون لهذه الطوارئ على شيء من تراثهم العميق الشامل، أو على إلمام متمكن بالطرح الفكري العالمي أو العربي الجديد، أوكانوا على شيء من فقه الأولويات، وبخاصة عند تعدد الخيارات وتتابع المستجدات، لكانوا كقواصد البحر يستقلون السواقيا، ومن ثم يمرون بها مرور الواثق الممتلئ، تاركين الطريق أمامها لتصب في بحر الثقافة العربية اللجّي، قائلين لمثلها ما قاله الرشيد لسحابة مرت ولم تمطر: - "أمطري أنَّى شئت فإن خراجك عائد إلي". ومع هذا يجب أن نفرق بين العزة التي أقرها الله لنفسه ولرسوله وللمؤمنين وجنون العظمة التي يقع فيها العائل المستكبر .. ومن باب الاحتراز نقول: إنه ليس من مصلحة الحضارة الإسلامية أن توصد الأبواب، ولا أن تغلق النوافذ، وفي الوقت نفسه ليس من مصلحتها أن تسمح للرياح باجتثاث أشجارها. والذين صنموا لحظة الانعطاف من علم الأدب إلى مشمولات الثقافة أو اثارهم الانحباس داخل شرنقة البنائية، أو ادهشهم التنفس في فضاء التكوينية بشقيها:

-الأدبي.

-والبنيوي.

هم الذين يجلهون التحولات اللغوية والنقدية والفنية، ولما يتمكنوا من تصور التعايش في العملية النقدية بين التراث والمعاصرة والمراوحة بين التاريخية والفنية واللغوية والفكرية والثقافية، والقارئ لتاريخ النقد منذ الجاهلية حتى اليوم يقف على التحولات الانسيابية وتداول العملية النقدية بين المذاهب والآليات والأفكار، ولا يحس بموت ناجز، ولاحياة غريبة، والتعجب مما ليس بمعجب مؤشر تخلف وبدائية، والأذكياء هم الذين يتحولون من الصدمة المركبة إلى المواجهة المتوازنة ومن الدونية إلى الندية، ومن الخنوع إلى الحوار. والذين استمعوا إلى قول المبشرين بالفتح المبين، أو قرؤوا ما يعدون به ويمنون لم يضعوا أيديهم على حقائق تتكافأ مع هذه الضجة الكبرى، ولم يكن فيما وقفوا عليه متكافئاً مع جناية الحكم بالموت للسالف، وقضايا الفكر والأدب والسياسة لا تعالج بهذه الاندفاعات العاطفية، فالحكم بالبدلية لا يكون إلا بعد استقرار البديل وشيوعه وقبول الكافة به، ونهوضه بكل متطلبات المرحلة، والتمكن من مناهجه وآلياته، أما تداول الموت عند كل طارئ فلوثة طائشة لا يقول بها إلا مبهور أو مستبطئ للانسلاخ الاستغرابي، أو

جاهل لمقاصد الموت عند متداوليه الغربيين. إن لكل ظاهرة أو مصطلح غربي فلسفة والتقاطهما دون وعي دقيق لفلسفتهما يحولهما إلى عدو وحزن، ولن نعرض لفلسفات المصطلحات المتداولة في مشرقنا المنتهك، وإنما نحيل إلى السمة المادية التي تنفي مبدأ العلة، وهذا بحده كاف لأخذ الحذر الذي ندب إليه الإسلام.

وبتجاوز الايغال في قراءة المضمر الفلسفي، نجد أن التدافع المنفعل للإشادة بممارسة نقدية تجاوزها الزمن عند غيرنا، يعني أننا في مؤخرة الركب، وأننا نعيش فراغات معرفية، ويقيني أن التسامي فوق أجواء الجعجعة الفارغة أفضل من المسايرة، ولا سيما أن هذه الجعجعة إزاء طارئ لم يكن بمفاهيمه وضوابطه ومقاصده الجديدة من عند أنفسنا، ولم نفاجئ العالم العربي به، ولم نقدم من خلال آلياته ومقاصده قولاً معرفياً يحمل على التقدير، وكيف يكون التعويل على الشرعنة والفحولة والإحالة على الحكاية الخرافية منطلقاً معرفياً، مع أنه لم يكن بمفهومه القديم غريباً على الثقافة العربية، فالاشتغال بمفردات الثقافة على أوسع تعريفاتها، وعلى أي شكل يعدُّ نقداً، بوصف النقد وسيطاً أو حكيماً أو تنظيراً أو رديفاً، واتساع مشمولات الثقافة وتعدد أساليب النقد وآلياته، يجعل الكتّاب والدارسين والنقاد يلمون بالنقد الثقافي، وهم في سبيل النقد الأدبي، من حيث لا يشعرون، ومن حيث لا يقدرون.

غير أن الذي أتوقعه من هذه الاحتفالية أن الذين خرجوا فينا لن يزيدونا بما نريد وبما نفتقر إليه، إذ أن الثقافة في اطار هذا المشروع ليست كماً معرفياً يحملون من أجله هم التصفية والتنمية والتربية، وإنما هي سلطة قائمة مهيمنة تشكل سلوك الأمة ووعيها ونظرية المعرفة عندها، ونحن إذ لا نزكي أنفسها لا نبيح للآخذين بالمستجد الغربي افتراض وثائق الإدانة وتحميل التراث جريرة الضعف والانحراف. ولو أن الذين ملوا من "الحداثة" و"البنيوية" و"لغة الفحولة" و"النحو والصرف" و"النقد الثقافي" دخلوا في "النقد الثقافي" أو "التوليدية" دون تسلط على مفردات حضارتهم، ودون تطاول على من غردوا خارج السرب، ودون نية مبيتة لضرب مصدر مهم من مصادر التراث وهو "الشعر" و"النحو والصرف"، كما كان في الأمر من بأس. إلا إذا كان "النقد الثقافي" بطرحه الجديد، يرمي إلى مقاصد أخرى، اكتسبها من انعطافه المضموني، لتكون حاجة ذويه متجهة صوب تصفية ما سلف والدخول في الاستغراب كافة.

النقد الثقافي: البديل أو الرديف .. ! (٣) [1]

ولست أدري ما إذا كان «النقد الثقافي»، وهو الصيحة الجديدة، وليست الأخيرة، يعني الانفتاح المجرد على مشمولات الثقافة بوصفها المعرفي، وهي مشمولات ليست متناهية، أم يعني الاشتغال في الأنساق الاجتماعية بوصفها منتجاً ثقافياً متمثلاً، وما إذا كان هذا الانفتاح سيأخذ سمة النقد المتوسل بالأدلة المُدِينة، أم يكتفي بالعرض المعرفي المجرد من الرأي، أو الوصفي المجرد من المؤاخذة؟ والقول في الأنساق لا يحيل بالضرورة إلى الثقافة بمفهومها المستقر في الأذهان، فقد يحيل إلى «الأيديولوجيا»، إذا كان القول في الأنساق العقدية، وقد يحيل إلى «علم الاجتماع»، إذا كان القول في الأنساق الاجتماعية، والقول في سلطة الفحل واللغة الفحولية لا يكون المتصدي لهما قائلاً في الثقافة إلا من طرف خفي. وما قرأناه خليط من قول في السياسة على شاكلة الثوريين وتشنجاتهم، وقول في الاجتماع، وأمشاج من هنا وهناك، تحيل في النهاية إلى ثقافة الوهم. ثم إن الفحولة مصطلح نقدي عربي، لا يمت بصلة إلى التفحلن كما يراه الناقد الثقافي.

وذكورية اللغة، وذكورية الخطاب القرآني، وذكورية الإله وعروبته تصور استشراقي سنعرض له.

وهنا نتساءل: هل يُحدد «النقد الثقافي»، بموضوعه، أو بآلياته ومناهجه، أو بمقاصده وأهدافه؟ وهل لا يكون نقداً ثقافياً حتى يضرب الأنساق الثقافية القائمة أو المفترضة، كما «التشعرن»، أو «التفحلن»؟. وحين يدخل الناقد الثقافي متن النص بأوسع مفاهيمه ومقتضياته وتنوعاته وعلاقاته وعلاماته: لغوياً كان، أو غير لغوي، بوصف النص يمثل البروز والتشخصن المعبر عن ذاته، بما حصره «الجاحظ»، فيما يطلق عليه نظرية «المنازل الخمس»، وهي: «النصبة» و«الخط» و«العقد» و«الإشارة» و«اللفظ»، ثم لا يشتغل باللغة بناء، ولا بالفن شكلاً، ولا بالموضوع معنى، وإنما يشتغل بمكونات النص المضمونية المتمثلة بالأنساق المفترضة وجوداً والمفترضة توجيهاً للسلوك، ونقل المفترض من الحدث الجزئي العارض إلى الظاهرة الكلية الشائعة المتجذرة، وافتراض تشكلها من قيم الشعر الدلالية المختصرة بالأحط من الأخلاق، وانفرادها بالتأثير، أو استخلاصها من «الحكاية الخرافية»، كما هو في «اختراع الصمت نسقية المعارضة ٢٠٣»، فإنما يشرعن الفاعل لنفسه بهذه الدعاوى الجائرة ضرب الثقافة. والأنساق التي تشكلت مع الزمن ثم تدخلت وفرضت نفسها في تشكل النص: لغوياً وفنياً ودلالياً، أو فرضت ممارسة سلوكية جمعية أممية وتصوراً للأشياء ونمطاً تعاملياً معها لا تكون بالضرورة كما يتصورها البعض مختصرة في مؤثر واحد هو «الشعر»، وفي أسوأ حالاته الدلالية. وهذا بالاختصار المريب نفي لما سواه من المؤثرات، إلا ما يأتي توسلاً بالخرافة وهو إلى جانب ذلك نفي للقيم الأخلاقية في ديوان العرب، وإن أومأ إليها من باب الاحتراز الغبي، ولم يرها المؤثرة «ص ٩٨»، وهذا الاختصار الجنائي لواحدية المؤثر، تأتي في أعقابه خطيئة أخرى تتمثل في نفي كل مضامين الشعر الشريفة، نفي تأثير لا نفي وجود «ص ٩٨»، وتضخيم لمضمون واحد، يتمثل في «الاستجداء»، و«المدح»، وليس من باب الصدفة إحكام ورقة الاتهام، وكم هو الفرق بين وجود الظاهرة في سياق ظواهر أخرى والتركيز عليها بوصفها الكل المؤثر. إن هذه الاختصارات، في مقابل تضخيم الظواهر، وترتيب المواجهة على ضوئها دأب المناوئين، وعلى سبيل المثال قال الأقدمون بـ«الانتحال»، تعويلاً على شواهد محدودة، ولغرض شريف، وأخذه «مرجليوث»، وهو

---

(١) تاريخ المقال: ٩/ ١٠/ ٢٠٠١

بصدد تحقيق «معجم الأدباء»، لضرب الشعر الجاهلي، ثم التقط الخيط «طه حسين»، فقول «ياقوت الحموي»، ومن قبلَه من الأدباء في الانتحال هو الذي فتح شهية الاستشراق للوقيعة، ومع الاتفاق حول مصطلح الانتحال بين «الحموي»، و«مرجليوث»، اختلفت النوايا والمقاصد والنتائج، وقول «ياقوت»، يختلف عن قول «مرجليوث»، المستشرق اليهودي ومن بعده «طه حسن»، الذي عول على كتاب «مرجليوث»، «أصول الشعر العربي»، واتهم بسرقته والتقنع بتداول المصطلح أو الظاهرة لا يشرعن التعميم والضرب في العمق. وهل لا يكون «النقد الثقافي»، حتى تلفق تهمة «التشعرن»، و«التفحلن»، والإحالة على «الحكاية الخرافية»، و«الإيغال في تجريد النسق الثقافي من الفضيلة»، وفي ذلك ضرب عصفورين في جرة قلم: ضرب الشعر العربي وضرب الثقافة العربية ويبدو لي أننا بحاجة إلى استدعاء المثل «استنوق الجمل»، ونفي التعويل على الخطاب النثري الخرافي المعول عليه في اختراع الصمت للفحل بحضرة الأفحل على حد قولهم للقول بأن الأنساق الاجتماعية، والتي هي ألصق بعلمي السياسةوالاجتماع استنوقت بدخولها في النقد الثقافي، وهذا الجنس المتشكل كما الجنس الثالث مؤشر ارتباك وعدم فهم لمقتضيات «النقد الثقافي». على أن الخروج بالنسق من خصوصيته إلى عموميته الثقافية يعني تمييع الأنواع، تمشياً، مع إلغاء أنواع الفن بمصطلح «الكتابة»، فالنسق يضاف إلى موضوعه، ومن ثم لا يستقل بذاته، لأنه أشبه بالقالب يضاف إلى محتواه، وتبئير النسقية الثقافية لا يكون بالضرورة تحبيساً على «النقد الثقافي»، والنسقية المعيبة والمدانة ظلت الأمة في عمى عنها لقرون، حتى جاء «النقد الثقافي»، كبديل «للنقد الأدبي»، لكشفها «الغلاف الأخير»، وتلك هي إضافة المشروع المزعوم ودعواه، ولست أعرف سر الربط بين أدونيس ونزار من جهة والمتنبي وأبي تمام من جهة أخرى إذ لما يكن أدونيس ونزار من الشحاذين ولا من صانعي الطاغية السياسي.

إن القول «بالتشعرن»، أو «بالتفحلن»، ثم تخويل الذات ضرب الثقافة واللغة يعني: الاتهام والمحاكمة وتنفيذ الحكم من طرف واحد. وما الثقافة المدانة؟ إنها ثقافة أمة لما تزل في حرب مستحرة مع ثقافات متعددة. ومواجهة الثقافة واللغة بعد تلفيق التهم غزو من الداخل، كشف سوآته مفكرون نذروا أنفسهم للدفاع عن أجوائهم المخترقة بمواطأة من الداخل، ومثل هذا التهديم يحفز على ضرورة التقصي والتساؤل. وليس في التحفظ والتبين تزكية مطلقة للثقافة أو الحضارة، وليس فيه مواطأة على صناعة الطاغية، فالثقافة العربية وسعت الشعوبية والباطنية والفلسفية المصادمة للوحي ووحدة الوجود وأدب المجون وسائر الطوائف من ملاحدة وفرق ضالة، تعقبها حماة الحضارة، وكشفوا عن زيوفها. والعلماء الذين تصدوا لبعض الجنح في الحضارة العربية لم يناصبوها العداوة والبغضاء ولم يتذيلوا لغيرهم وإنما دخلوا في معمارها، شخصوا الداء دون افتراض تشعرن ودون اختصار للشعر في الأرذل من القول، والتشعرن والتفحلن ليسا بدائين قائمين. وهل أحد يسلم بمحاسبة اللغة والثقافة بدعوى الفحولة والتشعرن؟ ثم إن الفحولة مصطلح نقدي، وليس مصطلحاً اجتماعياً، يخترع الصمت. والثقافة العربية ليست الخيرية فيها «فترة استثنائية نادرة ١٠٣»، وليست «في حال من التناقض ٢١٢»، حين تحث على الصمت، وهي التي تقول: «الساكت عن الحق شيطان أخرس»، وتأمر بتغيير المنكر باليد واللسان والقلب وفق الطاقة والإمكان. كما لا يسوغ التعويل على الخرافة في التوصيف، ولا أحسب راشداً يرضى أن تتشكل أنساقه الثقافية من الحكاية الخرافية؟ ومن الذي يقبل التأسيس على الوهم. وما القطع بأن ثقافة سطعت شمسها على كل الحضارات وغفت ملايين مخطوطاتها أسيرة المكتبات العالمية مدانة بمقولة غير مسؤولة وغير راشدة تحيلها على العاطفة والشحاذة والمدح والخرافة إلا تأسيساً على الوهم؟

و «النقد الثقافي»، مع هذا وبعده مصطلح يفقد الجمع والمنع، ومن ثم يكيِّفه كل ناقد على حسب فهمه وهدفه والدور المرسوم له، ليحقق من خلال منهجه وآليته ما يخفي صدره. إن هناك اشتغالاً بالثقافة من خلال أي آلية نقدية، وهناك آلية نقد ثقافي، تشتغل في أي ظاهرة ثقافية، وهناك آلية نقد أدبي لا تشتغل إلا في أدبية النص وشعرية اللغة أو اللغة الشعرية المتعالية. ولكل مفكر وأديب ومثقف وجهته، حين يتخذ مصطلحاً حمَّال أوجه، فالثقافة تتأبى على الحد والمعوِّل عليها لا يؤطره موضوع، وبين «النقد الأدبي»، و«النقد الثقافي»، علاقة عموم وخصوص، والقول بموته لا يضيف شيئاً للبديل إذ هو داخل فيه، ولأن مشاهدنا مستباحة للتجريب والتخريب والإحياء والإماتة فإن بإمكان أي منشئ للكلام قادر على التعبير أن يقول مثل قول الجنائزيين، يقول بموت «الماركسية» و«الوجودية» و«الداروينية» و«الفرويدية» و«البنيوية» و«الحداثة»، و«النقد الثقافي»، وليس عليه حق البينة ولا اليمين، ولم لا والمشهد الفقهي الأشد حساسية وخطورة يتسلقه المتسرعون بحجة: «نحن رجال وهم رجال»، ومن ثم تتلاحق الفتاوى بالحظر والإباحة والقتل والردة، وفي اللحظة يخرج نقيض ذلك، ممن يخولون أنفسهم حق الفتيا ونقضها. وصراع المشيخات القنواتية والموقعية «الأنترنتية»، والطائفية والأضوائية في جزر ومدّ، وكل شيخ أو متمشيخ له أشياعه وأتباعه ومواقعه، والمشهد الثقافي والأدبي والإعلامي ك«ملاعب جنة لو سار فيها سليمان لسار بترجمان»، ولما يعد في هذه الظروف التي أحلت الفوضوية محل الحرية، والرذيلة محل الفضيلة من يقدر على استبانة المحق من المبطل، إلا من رحم ربك، وإذا كنا نعيش تحت وابل القول الفردي في قضايا الشريعة وحكم النوازل والقول المناقض ممن يجهلون أركان الفتيا المهمة: وفقه الواقع. وفقه التنزيل على النازلة. فإن القول المماثل في قضايا الفكر والثقافة والسياسة والأدب يتخذ ذات المسار. وفي هذه الأجواء المشحونة بالتوتر يجب على القادرين المبادرة لتنوير الرأي العام، والحيلولة دون تزوير وعيه وغسل مُخِّه والعمل على تحذيره من الركض وراء السرعان الذين لا يحترمون الوحدة الفكرية للأمة.

والمتابع للمشاهد تتبدى له لعب محكمة التدبير والتقدير ينجر وراءها مغفلون ومواطئون وفارغون، وأوجب ما يجب على من تمكنوا من فك بعض الشفرات أن ينذروا قومهم إذا قدروا على ذلك. واللعب المحكمة من بعض المنظمات والتيارات تستزل أقدام الأكثرين طيبة، ممن لا يملكون جلد المنافقين، وتحت وابل تلك الظروف المليئة بالدخن أود لو أن الذين مكن الله لهم في سوح العلم والفكر والأدب ملؤوا فراغات المشاهد، لكيلا يدعوها خالية لمن لا يحسنون تدبير أنفسهم، والراصد المتابع لا تتشابه عليه اللعب الذكية والغبية.

لقد ركن البعض إلى «الخرافة»، تهافتاً على مكيدة الاستشراق الرامية إلى اختصار تراث الأمة وأمجادها وتميزها فيها، واتهم الشعر واختصرت مشمولاته، وسوي عالم الغيب بعالم الشهادة، وألّه العقل، ووثِّن العلم، وكُذِّب الأصدق قيلاً وكل ذلك تعويل على حرية الفكر. وحين تختصر الثقافة في الخرافة ويختصر الشعر في الشحاذة وتشكل الأنساق منهما تضوى حضارة أمة بلغت مشارق الأرض ومغاربها. نحن لا ننكر أثر الشعر السيئ ولا نتحرج من الاستئناس بالأسطورة والخرافة، والرسول ﷺ قال: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»، والمفسرون الموغلون في الأسطورة تعويلاً على هذا الحديث أساؤوا إلى التفسير وفتحوا ثغرات لضربات الاستشراق، وسوف نكشف في بحث لاحق عن ظواهر مريبة كالإعلاء من شأن الخرافة، وإجهاض الكلمة الطيبة بالعبث أو بالغموض، وتدنيس المقدس، وأنسنة الإله، وضرب الثوابت ليقف المترددون على الأشباه والنظائر، والتواطؤ على الهدم وفق ما تسمح به الجغرافيا الفكرية، على أن هناك لعباً

أكثر فقاعة ونكاية، لعل من أكثرها إيذاءً ما يتعمده الفارغون من مواجهة للتيار، لمجرد الإثارة على كل المستويات الدينية والأدبية. فالذين لا يملكون موهبة فنية، ولا لغة شعرية أخاذة، ولا ثقافة عميقة ولا قضية هامة وليست لهم مكانة في المؤسسات الفاعلة، يتقنون لعبة الاستفزاز عبر السقوط الأخلاقي لاستقطاب المراهقين، والانحراف الفكري لجذب المرتابين، والحركات البهلوانية لشد انتباه المتفرجين، والاستفزاز السياسي لتأليب الناقمين، ثم يجدون نقاداً يشرعنون لذلك القول فالفجور والفحش والتهتك يحال على الصراع الحضاري «اقرأ الصراع الحضاري في الرواية العربية لعبد الفتاح عثمان»، والانحراف العقدي وتدنيس المقدس وأنسنة الإله يحال على حرية الفكر، «اقرأ مطارحات نصر أبو زيد وجابر عصفور»، ومنازعة السلطة مهماتها وتفريق كلمة الأمة يحال على حرية الرأي والتعبير. والحركات البهلوانية لشد الانتباه «اقرأ النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية»، وبهذه الجنايات التي أفسدت الذوائق والأخلاق والفكر والفن وكشفت عن الوعي المنقوص، يشغلون المشاهد بالجدل حول مشروعية قولهم، وهذه الممارسات تحرف ذكي، إذ هم به لا يثيرون «النقد الأدبي»، للبحث في مستوى إبداعهم وقيمهم الفنية واللغوية، وبهذا التحايل التعويضي يفرضون وجودهم بتخاصم الناس حول أمور لا تتعلق بفنيات الفعل. ومثل هؤلاء من يطلع على الناس بمحاولات فجة، يسميها مشروعاً، وما هي إلا شروع في فعل غير مشروع، فضلاً عن أن تكون تأسيساً لمشروع.

إن المشاريع الفكرية والسياسية والأدبية، حين يعلنها أصحابها، أو حين يتصورها قراؤهم، تحتاج إلى ريادة وتأسيس واستجابة طوعية لحاجة الأمة، وتحتاج إلى تأصيل علمي وتواصل جماهيري متفاعل وإضافة معرفية وثبات موقفي وتجاوز لما هو سائد، وانطلاق من التراث، وانطلاق به في عملية استبطانية لا احتسابية، دون إماتة لمفرداته أو تجريم لأنساقه، والجنائزيون يتصورون أن الشروع في الشيء مشروع، وهذا تصور لا يتفق معهم عليه إلا الدهماء والغوغاء.

ولما كان لبعض المفكرين العرب مشاريع فكرية وأخرى أدبية نتفق مع بعضها ونختلف مع البعض الآخر، فإن الاختلاف لا يمتد بالضرورة إلى كفاءات أصحابها ولا إلى قيمة المشروع المعرفية يكون أصحابها أساطين فكر، وتكون القيمة المعرفية عريقة وعميقة، ولكنها مع هذه الإمكانيات الذاتية والمعرفية لا تكون مع الحق، فرفضها لا يقتضي التجهيل. غير أننا في مشهدنا المتسطح نعايش أدعياء كلما كتبوا دراسة أو استدعوا قضية أو جمعوا مقالات في كتاب سموها مشروعاً، وإذا اختلفت مع أحد منهم، استدبروا مجال الخلاف إلى ذات المخالف محققين ظاهرة التفحلن مخترعين الصمت الذي يحاربونه ويتهمون الثقافة باستفحاله.

لقد روج البعض لمذاهب نقدية هبت أعاصيرها من الشرق أو من الغرب واستغلوا الخليين والمبتدئين والمتسلقين كي يصفوا هذا الفعل بالمشروع النقدي أو الفكري، وما عهدنا النقل من الآخر والترويج لمشاريع سبق القول فيها وعنها فيما نعلم يسميان بالمشروع. واعتراضنا ليس على مشروعية النقل أو الترويج وإنما هو على وصف هذا الفعل بالمشروع وتخويله أحقية الهيمنة، وتهميش الآخر، والدخول في مأزق المفاضلة. ظهر «النقد الحداثي»، بكل جناياته واستشرى «النقد البنيوي» بكل ضوائقه، ثم تناسل منه «التفكيك» و«التشريح» و«التقويض» و«التحويل» و«النصوصية» و«الأسلوبية» و«التكوينية»، وأخيراً داستنا حوافر «النقد الثقافي»، ليموت «النص»، ويلحق به «النقد الأدبي»، وكان «المؤلف»، قد أميت من قبل، فهل من أثارة تثبت المبادرة وتحرير المسائل والثبات عند حد؟ وما الذي يحلو لأولئك أن يوصفوا به.

هل نقول عنهم إنهم حداثيون أو بنيويون أو نقاد ثقافيون أو علماء اجتماع تشابهت عليهم الأمور؟ اشتغلوا بالفن، ثم اشتغلوا باللغة، وامعنوا في نفي ما قبل النص والمضمون، وهاهم اليوم يستدبرون الفن واللغة، ويتهافتون على المضمون وانعكاساته السياسية والاجتماعية، ويشتغلون بالمهمل والمهمش وبالطبقات العميقة وبالحكاية الخرافية.

وإذ لا نجد بداً من القول بأن «النقد الثقافي»، حين يمكن من الخروج من ضوائق النص: بنيةً وبناءً وشكلاً، يحفز على الاهتمام بما هو خارج النص، ويطيل الوقوف عند المضمون ويكشف خبايا الأنساق الثقافية والاجتماعية والسياسية والفكرية، فإننا لا نستطيع المضي إلى أبعد من ذلك بحيث ندعي الجدة لهذا الاهتمام ونبارك الادعاءات العريضة، إذ المؤكد أن «النقد الثقافي»، لم يكن جديداً ولم يكن مبادرة عربية فضلاً عن أن يكون مبادرة إقليمية، توصف بالمشروعية، وتنشأ حولها حلقات الدرس. فنقد الأنساق منتمية لأي مُسمَّى همُّ المفكرين والعلماء والمصلحين وليس في ذلك جديد، وكيف تكون الجدة والقادرون يكتبون في مختلف المعارف: اعتراضاً أو مسايرة.

النقد الثقافي: البديل أو الرديف .. ! (٤) [1]

وحين نؤكد على أن «النقد الثقافي» معهود ذهني قائم في الثقافة العربية، قبل أن يكون مصطلحاً ذا خصوصية محلية، تقوم على تحديد مهمته: باختراع الاتهام، وصياغة المواجهة، فإننا نتحفظ على القول بالمبادرة، ولا نراها إلا بهذه النسقية «البراغشية»، ونتحفظ على النتائج ونتمنى أن ترحب الصدور الحصرة للرأي الآخر، سعيا وراء تحرير القضايا المشتركة. والحديث المسقط عن «النظرية والمنهج ٥٥» ودعوى النقلة النوعية للفعل النقدي من كونه الأدبي إلى كونه الثقافي، والعمليات الاجرائية المتمثلة بالنقلات الأربع: «المصطلحية» و«المفهومية» و«الوظيفية» و«التطبيقية» كمن يحاول الاستتار بثوب الزور، والمشروع المعرفي غير الشروع في التهديم.

لقد شاع «النقد الثقافي» في الغرب بوصفه مصطلحاً ذا أيديولوجية محددة على يد «ليفس ترادي» المعروف بنزوعه الماركسي، والماركسية هي التي ركعت البنيويين، ليكونوا تكوينيين، يشتغلون بالموضوع، ولا يهربون إلى اللغة، على طريقة الشكلانيين الروس. ثم اتخذ طريقه بهذا الهاجس إلى مصر على يد رموز الحداثة، في محاولة يائسة دنيئة: يائسة للخروج من نفق المضايقة، التي واجهها الظلاميون من الرأي العام المصري المسكون بالعاطفة الدينية. ودنيئة لضرب «ثقافة الردة» كما يسميها التنويريون، ويقصدون بها «ثقافة الفكر الإسلامي».

على أن «النقد الثقافي» من قبل التدنيس الماركسي والتمويه الحداثي أمشاج من اتجاهات ومذاهب وآليات، تخلط الاجتماعي بالأدبي، والثقافي بالفكري، وتتبادل المواقع، منذ الجاحظ وابن قتيبة والأصفهاني وأصحاب الموسوعات إلى الآن، ولا يكفي تعميده باختراع عنصر سابع يضاف إلى توصيف «باكبسون» ولأنه مصطلح يتساوق مع مصطلح «النقد الثقافي» و«الأدب المفتوح» الفرنسيين، فقد شغل الذين لا يتابعون، ولا ينظرون إلى الأشياء إلا من كوى أشياخهم. والذين يظنون أن النقد العربي بكل ما هو عليه من مناهج وآليات وقضايا وظواهر، والأدب العربي بكل تحولاته واتجاهاته غير مشتملين على مثل تلك الظواهر، يجهلون أو يغالطون. وفرصة المتجشئين من فراغ تكمن فيمن لا يعرفون التراث، ولا يتابعون فيوض المعاصرة، ممن تلقيهم محصور في أنهر الصحف. و«النقد الأدبي» منذ الجاهلية الأولى حتى جاهلية القرن الثاني والعشرين خسفت به وبما هو عليه من تراثية ومعاصرة حماقة نزقة، بدعوى انشغاله بالجماليات العظيمة التي تخبئ القبحيات العظيمة المؤسسة للشخصية العربية ص ٩٤، وعدوله عن قبح الأنساق. وكانت البنيوية من قبل قد همشته لاشتغاله بما هو خارج لغوية النص، وفات الجنائزي ظاهرة «النقد الأخلاقي» وهو منهج نقدي تمتد جذوره منذ العصور اليونانية، ومنذ ظاهرة «المدن الفاضلة» التي نفي الشعراء منها، ومنذ التوجيه الرباني الذي فرق بين شعراء الهداية وشعراء الغواية، وهو ما سنفرد له حديثاً في سياق الحديث عن «النقد الإسلامي» لاثبات أن «النقد الأدبي» يشتغل بالجمالية البلاغية والأخلاقية، ولما يقصر عما امتدت إليه يد «النقد الثقافي». ومن الظلم أن يقال إن: «النقد الأدبي مع هذا وعلى الرغم من هذا أو بسببه أوقع نفسه وأوقعنا في حالة من العمى الثقافي التام عن العيوب ص٨». وهل أحد من النقاد والدارسين قد عمي عن تألق النص حين يجمع بين «شرف اللفظ"و«شرف المعنى»؟ وهل غفل القرآن الكريم وهو المؤثر الأقوى في صياغة الأنساق الثقافية عن أهمية الكلمة، وكيف تغفل الثقافة الإسلامية والكلمة اعجازها ووعاء تشريعها؟ وجناية

---

(١) تاريخ المقال: ١٦/ ١٠/ ٢٠٠١

البنيوية الموثقة بـ«الخطيئة والتكفير» بوصفه وثيقة لواحد من المشاريع الخاوية على عروشها هي التي تركت الفراغ النسقي المستدرك بالنقد الثقافي، ومستعيرو البنيوية كما استعاروا النقد الثقافي هم الذين أغثونا بها زمناً لم يطل أمده، وقلموا بها أظافر «النقد الأدبي» التي كان يمارس بها الحفريات المعرفية والنسقية، وأصحاب «التقليعات» أضاعوا الجهد بالفعل ورد الفعل. فحين كان «النقد الأدبي» متسعاً للتكوينية والموضوعية والأسلوبية، حصره البنيويون بالبنائية اللغوية، وحين أحسوا بالعزلة عن الحياة، كانت ردة الفعل متمثلة بالنقد الثقافي، محققة العود على بدء.

و«النقد الثقافي» حين لا نقيم وزناً لدعوى اختراع العنصر السابع «النسقي» وعلى أحسن أحواله، لا يعدو كونه اشتغالاً بالمثقوف من القول والفعل، من خلال ضوابط فنية وأخلاقية وفكرية واجتماعية، نفيت بدعوى اختراع الاتهام لشرعنة الوقيعة. نقول هذا على افتراض حسن النية، وإلا فـ«النقد الثقافي» «المُمَصَّر» ضربٌ لما يسمى «بالردة الثقافية» بعد تجربة «النهضة» على يد محمد علي، ثم «الثورة» على يد الثوريين الذين عصفت بهم العلمانية والماركسية والوجودية والواقعية والفرويدية، وسائر الأيدلوجيات التي كان البعض منا معها كما الأغربة الأدلاء. و«النقد الثقافي» في مرحلة «السعودة» يتوسل بـ«النسقية» المتشرذمة بين: السياسة والاجتماع والشعر.

وحين تطرح المصطلحات الحمالة في مشاهدنا الفكرية والثقافية والسياسية فمن حقنا أن نتساءل، لا من أجل الرفض بدعوى الاستغناء والتشبع، ولكن من أجل التصور السليم والقبول الكريم والتعامل الرشيد. لماذا طرحت؟ ولصالح من طرحت؟ وهل من تفريغ لمحتوياتها؟ وهل نحن بحاجة إلى مثلها بمقاصد منشئيها أو برغبة مستعيريها؟ ولماذا اتخذت بديلاً، ولم تتخذ رديفاً؟ ولماذا مهّد الطريق لها بإدانة «النقد الأدبي» وتقبيح الثقافة العربية واتهام الشعر؟ ولماذا فوجئنا بها تطبيقاً دون تأصيل معرفي، إلا ما جاء في سياق الحديث عن رؤية «ياكبسون» واضافة عنصر سابع؟ وهل لا يكون «النقد الثقافي» حتى يكون البدء بمحاكمة الانساق الثقافية من «أواخر العصر الجاهلي ١٤٣» والقول بـ«تحول الخطاب الثقافي إلى خطاب كاذب ومنافق»، ووصف هذا التحول بأنه «أخطر تحول حدث في الثقافة العربية ص ١٤٣» والمتمثل بظهور «شاعر المديح ص ١٤٣»؟ وهل لم يكن هناك تحول في الثقافة العربية في أواخر العصر الجاهلي موصوف بأخطر تحول إلا ظهور شاعر المديح؟. إن خطر شاعر المديح أهون ضرراً من ناثر الهجاء لثقافة أمة اختصرت بشاعر المديح، وكيف يجرؤ كاتب على القول بأن شاعر المديح أخطر حدث في أواخر العصر الجاهلي، أن يقول ذلك أعجمي يعميه الهوى المطاع فأمر متوقع، أما أن يقوله غير أعجمي فأمر يبعث على الارتياب. وهلا عرفت ثقافات الأمم وأنساقها شعراء المديح لتمرغ ثقافة العرب وأنساقها في الرغام بسبب انفرادها بشاعر المديح. إننا لو نزعنا اسم المؤلف من الكتاب المشروع، واستفتينا الرأي العام، لمن يكون؟ لأحيل إلى الاستشراق بمعلنه لا بمضمره.

لقد طرحت نظريات ومذاهب، يقدمها تنظير يضبط إيقاعها. طرحت البنيوية بمقدمات نظرية، لم تشهد مثلها الظواهر من قبل، ولما يطرح «النقد الثقافي» بذات القدر من التنظير. والهلاميات، ودعوى الاختراع النسقي، لا يكفي لتحرير المشروع. لقد اتخذ «النقد الثقافي» سبيله لتجريح النسق الثقافي العربي كما المصارع الذي ينقض على خصمه، قبل خلع الملابس، وقبل اطلاق الحكم الإذن بالبدء: "تغير المنصور من رجل يستشير في كل أمره إلى رجل مستبد ومطلقٍ، غَيَّره بيت من الشعر ١٥٦»، «وأخلاق الوالي تغير أخلاق الشاعر كما غير عمر جريراً ١٥٧ .. ولكن .. ماذا جرى لحادثة عمر بن عبد العزيز .. ؟ هذه الحادثة التي ظلت معزولة، وكأنما هي جملة ثقافية معترضة

١٥٨» فالخيرية جملة اعتراضية في النسق الثقافي العربي، أما تغير المنصور وعدم استشارته فقد ظل قائماً، وبمثل هذا التقحم العنيف يكون توجيه «الكرم العربي»، إذ لا يحيل على الشيم العربية، وإنما يحيل على «أن عدم استضافته يعني الموت ١٤٥»، وأين هو من «إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا» و«يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة» و«يطعمون الطعام على حبه». ضغائن لا مبرر لها، وقد تكون وثيقة إدانة مزورة للثقافة يلتقطها المناوئون، لقد كان بإمكان «النقد الثقافي» أن يكون دون موت للرديف ودون إدانة للثقافة.

والمصلحون الناصحون لا يقفون حيث يكون استقصاء القبحيات. وحين نسلم بكل ما وسعه الكتاب المشروع من قبحيات، فما البديل الذي طرحه الناقد الثقافي، لقد ساق القبحيات يداً بيد، ولّما يقاضي ولو بالنسيئة. والسؤال: هل «النقد الثقافي» يعني الاقصاء المتعمد لأي مؤثر غير الأرذل من الشعر؟ وربما كان القول بالموت قطعاً لدابر أي منهج يتطلف في تعامله مع السوائد والأنساق.

أميت «المؤلف» مع «البنيوية»، وأميت «النقد الأدبي» مع «النقد الثقافي» وأميت «النحو والصرف» مع «التوليدية»، ومع القتل الهمجي المجاني لم نكن بإزاء بدائل تجبر المصاب، ولما يعد الشك في حياة أي شيء ممن حكم بموته، ولكن الشك كل الشك في حياة «البنيوية» و«النقد الثقافي» و«التوليدية» وقد كفينا الحكم بموت «البنيوية»، إذ جاءت من ذويها، وعما قريب سنسمع بموت «النقد الثقافي» من ذات القوم. وفي احتفالية الإحياء والإماتة نتخلى عن أي معهود أو مفهوم، ونتساءل: ما «النقد الثقافي» بوصفه دعوى محلية على كل التوقعات؟ لقد عرفناه «مصرياً» و«فرنسياً» على اعتبار أن هناك دعوى فرنسية تحال إلى الماركسية ودعوى مصرية تحال إلى الحداثة، ولما نتصوره محلياً إلا من خلال تجليات النسق الثقافي القبيح المتوسل بجماليات الشعر القولية المسكون بهم التطهير النسقي، والسؤال الممتعض: ماذا فعل مع قبحيات الرواية، ولماذا لم يضع «الخبز الحافي و«الوليمة» بدل «الشحاذ العظيم «و»المداح العظيم»؟ فالزمن «زمن الرواية» كما يقول الحداثيون، ولربما تعاد صياغة الأنساق من خلالها. وحين لا يتردد أحد في القول بأن «النقد الثقافي"ليس مبادرة محلية، فما علاقة الدعوى المحلية بالمصرية والفرنسية: وهل هو على إطلاقه أو على تقييده بالمحلية؟. وحين نقيده بالمحلية، فهلا يكون إلا حطيئياً ممعناً في الهجاء معيداً التفحلن؟ ولكنه هذه المرة للنثر، وليس للشعر، وبالتالي لا نحقق إلا قيام فحل بتسلط بالقبحيات، فبدل أن تكون العملية: قبحاً يتوسل بالجمال. تكون قبحاً يتقحم بالقبح، ويكون الناتج نقداً ثقافياً.

والظواهر المجلوبة لا تتخلص من شوائبها غير أنها تكون مقموعة برقابة السوائد والأنساق، ومن ثم تتخذ لبوساً توسلياً لا يتحرف إلا في الظاهر، وهذه التوقعات لمعرفتنا إن هناك جغرافيات: فكرية واجتماعية وسياسية ومعرفية ومنهجية لا ينفك من آثارها أي وافد، ولا ينفلت من صبغتها أي ناشئ ينسل من رحم الحاجة، أو يتسلق المحراب. ولأن «النقد الثقافي» لم يكن مبادرة محلية، وإن بورك من الغوغاء فهل سيكون كما هو عند الحداثيين في مصر، أو كما هو عند الماركسيين في فرنسا؟ وهل يختص بمنهج أو بآلية؟ أم أنه سيقتصر على ضرب الأنساق المتنازع عليها بين الثقافة والاجتماع والسياسة والأيديولوجيات؟ وهل العنصر النسقي السابع المخترع كاف لتحرير المقاصد والأهداف. لقد كانت مواجهة الأنساق الثقافية وتصورها وقصرها على السيئ من الشعر والكاذب من الخرافة من حوافز الارتياب، و«النقد الثقافي» بهذا الاتجاه ليس بحاجة إلى تخلية المشاهد، إذ هو يشتغل في أشياء ليست من الأدب إلا في شكلها. وحين نقضي بموت «النقد الأدبي» لارتكابه جريرة مخادعتنا بجماليات النص، وتستره على قبحياته التي

شكلت أنساقنا وأحدثت لنا عمى ثقافياً، فهل نميت معه الأدب الحامل لهذا الفيروس النسقي، أم يكون مفردة ثقافية هامشية مدانة؟ بوصف «النقد الثقافي» متوسلاً بإدانة الثقافة ببعض مفردات الأدب. وحين لا يكون الموت للأدب، فهل يظل تحت الوصاية منزوياً في هوامش الثقافة محكوم عليه بالمؤبد، ولا يُستدعى إلا حيث تتهم مفرداته بالتشعرن والتفحلن؟. وهل «النقد الثقافي» لا يبرح نقد الثقافة السائدة بآلية ومنهج ثقافيين على حد: اشتغال باللغة في اللغة، كما قيل عن بعض الأعراب بوصفه للنحاة والصرفيين: يتحدثون باللغة عن اللغة؟ وحين يكون نقداً للثقافة من خلال أنساقها المضمرة في الشعر والمتجلية في السلوك، وذلك ما لمسناه، فما القدر الذي فوق النقد وفوق المساءلة؟ وهذا تساؤل مشروع، فالثقافة الإسلامية لها خصوصية، لأنها مزيج من الوحي والقول البشري، وهي على العموم منتج إسلامي لا ينفك منها نصارى العرب فضلاً عن مسلميهم. وحين يوغل «النقد الثقافي» المحلي في نقد أنساق الثقافة، فهل سيقال عن جوانب الثقافة الايجابية ما قيل في النسق السياسي العمري «وكأنما هي جملة ثقافية معترضة ١٥٨» وكأن الخيرية في ثقافتنا تشكل جملاً اعتراضية، لا مكان لها إلى جانب القبح المضخم، وهو ما سنعرض له بالنص الموثق. وحين يتجه «النقد الثقافي» إلى ذات الثقافة بشقيها: النصي، والسلوكي، هل يتخلص من علم الاجتماع، وعلم النفس، بوصفهما علمين ينتمي إلى كل منهما مذهب نقدي متلبس بذات التخصص؟. فهناك «النقد الاجتماعي» الذي حرر مسائلة «تين» وتوسل به «طه حسين»، وهناك «النقد النفسي» الذي نظّر له، وطبق من خلاله عدد من الأدباء والمفكرين والنقاد من مثل «العقاد» و«عز الدين اسماعيل وآخرين. أحسب أن «النقد الثقافي» كما المصطلحات المجلوبة مراوغ متعدد التصور بتعدد الأزمنة والأمكنة وطوايا النقاد، ولهذا لا أجد من الانصاف جمع المتبنين له غربياً وعربياً ومحلياً في سلة واحدة، فالمقلد يقعد به قصور الفهم، وجور الفرضيات، وعجز التطبيق، واختلاف الجغرافيا الفكرية عن أن يكون كما المؤصل للمنهج. وتجربة أولئك مع الحداثة والبنيوية تعيد إلى الذاكرة انطباعها الخائب. ومراوغة المصطلحات ليست ذاتية، وإنما هي عارضة، ذلك أن الذين تمتد أيديهم إليها يدَّعون محليتها، فيما يدعي آخرون وفادتها، فيأخذ بها قوم على ما كانت عليه في المنشأ، ويحاول آخرون التغيير الظاهري، ومن ثم تنشأ المراوغة، في اطار لعبة الاحتمالات ونافقاء اليرابيع، وأخشى ما أخشاه على ثقافتنا تلقي راية الحقد الاستشراقي والنهوض بمهماتها على يد الداخلين في جحور الضباب، والقيم لا يجهز عليها جملة واحدة ولكنها تنقض عروة عروة.

النقد الثقافي: البديل أو الرديف .. ! (٥) [1]

إننا لكي نحرر المصطلح في ظل استبعاد الجغرافيا الفكرية: فرنسياً ومصرياً ومحلياً، لابد أن نحرر مفرداته، ونردها إلى جذورها اللغوية النقية، وإلى مقتضياتها المصطلحية المتلبسة عند المصطلحين. على أن استقفاء الجذور اللغوية لا يحمي من تذرع المنطوين على الوعي المنقوص وتوسلهم بمخادعة الدلالة الوضعية.

والمصطلحات تكون: مفردة ومركبة، والتركيب يكون: مزجياً أو إضافياً أو إسنادياً أو وصفياً. يكون من كلمات معجمية نقية، أو من كلمات مصطلحية متلبسة متعددة المفاهيم بتعدد الجغرافيات الفكرية، وانتماء الذوات المتوسلة بتلك المناهج. ونحن هنا أمام مصطلحين سابقين، ركب منهما مصطلح جديد:

نقد.

وثقافة.

فما النقد؟ وما الثقافة؟

أحسب أن المهتمين على الأقل يعرفون «النقد» من خلال مناهجه وآلياته واهتماماته وتحولاته الوظيفية وانتماءاته الأيديولوجية، ويعرفون الخلاف حول الداخل فيه والخارج منه من سائر فنون القول ونواحيه. ويعرفون ”«الثقافة» ويعاضلون مئات التعاريف المتضاربة، ويعانون من تعليق الاتفاق حول مشمولاتها من المعارف والذوات والأمم، إذ ما من أحد سلّم بتعريف جامع مانع لا على مستوى ثقافة الأمة ولا على مستوى ثقافة الأفراد، ولا على القدر المعرفي والنوعي والسلوكي المجلي لها. والأمر لا يقف عند هذا الحد، فحين ركب من المصطلحين مصطلح واحد، وطرح في فرنسا، فإنه سيكون وفق مقتضيات ودوافع لايجوز تجاهلها، إذ لا ينشأ مصطلح على البراءة، ولايمكن أن تفرز حضارة مغايرة مصطلحاً يصلح اتخاذه على إطلاقه لحضارة أخرى، وإذا قامت الحاجة إليه في حضارة أو في ظرف زماني أو مكاني، فليس من الضروري أن تقوم الحاجة ذاتها في حضارة أخرى، وإذا نجح في زمان أو مكان أو حضارة فلا يضمن نجاحه في موقع آخر، ولست مطمئناً من اقتفاء المستجد من المذاهب والآليات دون وعي سليم للذات وللآخر، وبخاصة حين توجه آليات المصطلح المجلوب بتطرية للاشتغال من خلاله بالأنساق الثقافية والاجتماعية والنفسية والسياسية المدانة ابتداء، ومن خلال وثائق هلامية أنتجها الكلام الذي لايقول شيئاً. والنقد حين يطلق الاتهام، ثم يشتغل بآلية توجه للإدانة، يقع في الأيديولوجيا، ولا يكون معيارياً لكشف نظام اللغة أو شروط الفن وأركانه، واكتشاف الأنساق اللغوية أو الشروط الفنية لا يكون بخطورة الأنساق الثقافية التي اكتتبها أو استملاها دون أن يتأملها. يكون من الممكن التوسل بمنهج لغوي كما البنيوية مثلاً لاكتشاف نظام لغوي، ويكون من الممكن التوسل بمنهج فني لاكتشاف شرط فني، فالاشتغال هنا في المعيارية أو الشرط، والمعيارية ربما تكون قاسماً مشتركاً بين عدة لغات، إذ هناك بنية لغوية عربية تفكك مثلما تفكك أي بنية لغوية أخرى مع فارق الخصوصية إعرابياً وصوتياً، مع أن طائفة من البنيويين العرب لم يحسنوا تفكيك لغتهم لجهلهم بنظامها النحوي والصرفي ومستويات هذا النظام وارتباطاته الدلالية والصوتية، ولربما كان هذا الجهل سبباً في إخفاق البنيوية، فالذين اتخذوها اتخذوا معها معياريتها التي قد لا تكون مناسبة للغة العربية المغايرة، والشرط الفني ربما يكون قاسماً مشتركاً كما المعيارية اللغوية، ومع هذا يكون الضرر عند التناول أقل .. أما الأنساق الثقافية فهي

---

(١) تاريخ المقال: ٢٣/ ١٠/ ٢٠٠١

ألصق بالخصوصية، والاشتغال بها في آليات مغايرة لايكون مأمون العواقب. هذا المصطلح المعمَّى التقطته الحاسة الذكية عند الحداثيين في مصر، ليكون جلداً حرباوياً، يمكن من صرف أنظار الراصدين، ولو إلى حين، ثم اتخذ سبيله إلى المعوضين بالتبني عن المبادرة، الذين إذا خبت من حولهم الأضواء، طلعوا بقول جديد، يناقض تمام المناقضة ما كانوا عليه بالأمس، ف (النقد البنيوي) لايتجاوز بنية اللغة إلى المعنى، و (النقد الثقافي) لايتجاوز المعنى إلى بنية اللغة، والثقافة حمَّالة، فهي كما الوليّ لمن لا وليَّ له. فهل الراكضون وراء عجاجة صاحبهم سألوه عن مبررات هذا التناقض، وحاسبوه على إضاعة الجهد والوقت في الحداثة والبنيوية؟ وهل هم معه في إزهاق روح (النقد الأدبي) لأنه (غير مؤهل لكشف هذا الخلل الثقافي ص٨)؟ وهل سألوه عن حدود الخلفية العلمية لنظريته التي يدعي توفرها؟ وهل لا تكون التحولات إلا حيث يكون (ريتشاردز) و (رولان بارت) و (فوكو)؟ وأين مكان التحولات النقدية العربية، منذ (أم جندب) إلى عصرنا الحاضر، لماذا غيبت في سياق الحديث عن التحولات النقدية؟.

وأمام الظعن والإقامة في ساقة المستجدات، أصبحنا بحاجة إلى أخذ النفس لتقدير الخسائر والأرباح، وتقليب ركام المذاهب التي سمسر لها من لا يستقرون على حال، والاستعانة باستكناه الممارسة التطبيقية عند المبتدرين والمستعيرين، فهي التي تجلي المشروعية والمفهومية والمشمولية والمقصدية، وتحسم الرجم بالغيب. فهل من سبيل إلى ذلك؟ أحسب أن في الأمر صعوبة، فالذين اتخذوا (النقد الثقافي) وأماتوا ما سواه، لم يقدموه تنظيراً يجلي معرفته ومعياره، ولم يقدموه تطبيقاً واعياً، ولم يقفوا أثره في تقلباته الزمانية والمكانية لواذاً من معرة التبعية وتثبيتاً لدعوى المبادرة. ودعوى التشعرن والتفحلن والإحالة على الحكاية الخرافية وإدانة (النقد الأدبي) واختراع العنصر النسقي غير كافية لتحرير المصطلح وأهدافه. ثم إن الإشكالية ليست في تحرير المصطلح، الإشكالية في هذا التلفيق وتلك الفرضيات وهاتيك الإدانات المتلاحقة. وكأني بالشعر مع (النقد الثقافي) كما الذئب مع إخوة يوسف. ولأن هناك إلمامات تراثية وتمثلاً معاصراً للمارسة النقدية الثقافية تتراءى للمتابعين على مدى التاريخ الأدبي، وهي إلمامات تتقاطع مع مهمات النقد الثقافي، وهناك مصطلح غربي قائم لاتربطه بالثقافة العربية إلا وشائج ضعيفة، وهناك استدعاءات حداثية تقنعية، فإن استكناه المشروع الذي يدعيه البعض، يتطلب تقديمه معرفياً وتطبيقياً، وبخاصة ممن يصف نفسه بأستاذ النظرية التي يفترض أنه تلقاها في غربته، ولما يكن قد درسها أكاديمياً، ولما يستطع تحريراً نظرياً في ظل السوفسطائيات والهلاميات والفرضيات الوهمية، وفي ظل هذا التخبيص، لم يوفق في تجليتها تطبيقياً. ومثلما خذله التطبيق البنيوي، بدت بوادر الخذلان في النقد الثقافي، وسوف نبرهن عن الانخذالين بالمفارقة بين المقتضى والأداء، والأستاذية المدعاة لا تكون إلا ببرهان، وعلى الذين يدعون أو يناصرون الأدعياء أن يأتوا ببرهان وكم هو الفرق بين البرهان المجتلى والبهتان المفترى، ولأننا شركاء في الهم الأدبي: إبداعاً ونقداً وتنظيراً، ولأننا المتمثلون سلوكاً للثقافة المجترحة. فإن من حقنا أن نتساءل: عن المنهج والآلة، عن المجال والمقصد، وعن مدى التحولات في أجواء الجغرافيا الفكرية. وعن مدى ارتباط (النقد الثقافي) في مصر بما هو عليه في فرنسا وعما سيكون عليه في أي إقليم عربي، يلتقط الخيط، ويباشر هدم الكيانات القائمة على رؤوس أصحابها، بدعوى (إجراء تحويل في المنظومة المصطلحية ص٨) الياكبسونية، وليس من أدبيات الحوار المتحضر أن يصف المسؤول السائل بالجهل أو بالماضوية، متصوراً أنه لا معقب لرأيه، وأنه ممن يأتي بما لم تستطعه الأوائل. إننا طلاب معرفة بما يراد بنا، فإن كانوا من أهل الذكر

فليجيبوا، ومن المجازفة أن يوصف معارض الحداثة الفكرية بمعارضي الرسالة النبوية وإحالة ذلك إلى نسقية ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا﴾.

فالقضية ليست بهذه السهولة (جريدة الرياض ١٤٢٢/٨/٢هـ)، و (النقد الثقافي) لايملك خلط الأوراق بهذه الفداحة.

وقواصم الظهر في مشاهدنا مصادرة حق السؤال والمراجعة، والتعالي كما القتام، أن يجلب أحدنا منهجاً أو آلة فذلك حق مكفول، ولكن أن يلغي من أجله ما هو قائم، أو أن يوجه هذا المنهج وتلك الآلة إلى إدانة الثقافة فذلك تعدٍّ لامبرر له. وأن يربط معارضيه بمعارضي الرسائل السماوية فتلك جناية لاتطاق، والواقفون في وجه الحداثة لايكونون ضد الجديد، المسألة صراع حضاري وليس اختلافاً حول التجديد والتقليد، وأحسب أن الناس لم يعودوا بهذه السذاجة بحيث يقبلون الإحالة على الجديد والقديم، والمحاولة اليائسة للتصور السليم لهذا المشروع تحول دونه عوائق كثيرة، وما بين أيدينا من تنظير وتطبيق لايحسم الإشكالية أزعم أن مجرد التطبيق على (لعبة البلوت) أو (الاستراحات)، ودعوى (التشعرن) و (التفحلن) و (المرأة/ الجسد) و (المرأة/ الرمز) و (الهلاميات) و (أحلام اليقظة) وقراءة (الحكاية الخرافية) والتأسيس على معطياتها، والقول بقبحيات النسق الثقافي، و (تسكين المتحرك) في (حكاية الحداثة) المواجهة ب (النسق الساكن) المتسلط بمعهود الأسلاف، كل ذلك غير كاف للبرهنة عن استقلالية المشروع محلياً وتجليته منهجياً وآلياً ومقصدياً. والمنظومة المصطلحية المعدلة محلياً لا تخوّل القول بحق ثقافة تشكلت من روافد عدة، لم يكن الشعر إلا واحداً منها. ولكيلا نظلم الطرف الآخر، لانقطع بالإدانة المطلقة، بل نجد الحاجة إلى الاستبانة امتثالاً للتحذير الحكيم: (أن تصيبوا قوما بجهالة)، ومع التثبت فإننا لانشك بالوقوع في المحذور، فالقول بالنسقية القبحية المستمدة من مؤثر واحد ومن جزئية صغيرة منه مؤشر ريبة في الصدر، ومن ثم لانستطيع التزكية، والوثائق تقطع قول كل خطيب، وليس بين أيدينا إلا ما أشرنا إليه من قبل، فظاهرة الارتباك واضحة. والتلاعب اللفظي والمراوغة غير كافيين لتحرير المشروع، كما يدعيه الجالب، ويباركه المتلقي، وتلك الجنايات لاتمس الفن، ولكنها تضرب في الصميم. ثم إن القول بعاطفية الإنسان العربي المستمدة من التشعرن قول استشراقي، لسلب العقلية المدبرة والمخترعة، وإلا فالشعر ليس خصوصية عربية، وهل أحد قال بتشعرن الإنجليز بسبب (شكسبير)؟ وهل أحد اختصر الحضارة الغربية بالحكاية الخرافية، كما اختصر البعض من المستشرقين ومن تبعهم من الحداثيين الثقافة العربية بحكايات (ألف ليلة وليلة)؟ والمريب اهتمام الحداثيين بالأسطورة والخرافة والتواصل مع الغرب من خلالها لإبعاد المرجعيات الثقافية الأخرى، كالقرآن والحديث والفقه وعلم الكلام وعلومها والفكر الفلسفي الإسلامي.

ومن الصدف العجيبة تزامن قراءتي لبعض أعمال تعتمد على تعميم الأحكام وعلى الفرضيات: (النقد الثقافي) و (التلقي والسياقات الثقافية) و (التأثر الإسلامي بالجاهلية). فحين يرى صاحب (النقد الثقافي) هيمنة الشعر وانفراد قبحياته بتشكيل النسق الثقافي. يرى صاحب (التلقي والسياقات الثقافية) د/ عبد الله إبراهيم أن الخطاب الديني: القرآن والحديث مارس استراتيجية الإقصاء، وأن المتداول الشفهي: الشعر والنثر تعرض لإكراهات وانزياحات وإقصاءات كثيرة، ويمثل القرآن القوة المركزية الفعالية والمؤثرة في الثقافة العربية الإسلامية. فيما يرى (خليل عبد الكريم) أن القيم الإسلامية استلاب للقيم الجاهلية، وشرعنة لها بعد تعديل طفيف. والتعميمات والإطلاقات ليست من التداول العلمي في شيء، لقد كانت مع الحداثة، وكانت مع البنيوية، وكانت مع المرأة واللغة،

وهي كائنة مع (النقد الثقافي) وما من أحد تبصر في شأن هذا الاهتياج، واعترض سبيل المهتاجين وقال: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾.

فالحضارة الإسلامية لا تقبل اللت المتغنص، وإنما هي مع البرهان ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾.

ولأن المتقحمين لسوح التراث لايلوون على شيء يزيد عن خطف آلة من هنا أو منهج من هناك أو كلمة أو رأي أو تصور لايصلح إنزال شيء منها على سوائد الأمة وأنساقها وثوابتها، فإن لكل واحد من هؤلاء المتقحمين وجهة هو موليها، لايسوغ معها إلقاء الحبل على الغارب، وقعدة المتلقي عند من لايعول على قوله. وبدهي أن نقول: إن الاشتغال بمشمولات الثقافة بنيَّة النقد يعد نقداً ثقافياً، بوصفة من المعهودات الذهنية. ولكنه لايكون (النقد الثقافي) الذي يفترض منجهاً وآليات ومقاصد، لاتقف عند حد الاشتغال بمشمولات الثقافة، أو الاشتغال على الأقل بالمهمل والمهمش من القضايا والأناسي والأنساق والمسلمات والسوائد. وما بين أيدينا من قول في المرأة واللغة أو قول عن النظرية النقدية العربية في (المشاكلة والاختلاف)، أو قول في سيرة القوم من خلال النسق الثقافي لايمكن اتخاذه أثارة على اختراع مذهب في النقد تطهر من أجله مشاهد الثقافة والأدب، ذلك أن ما ظفرنا به من وثائق ما هي إلا قول في الوهم، وما من أحد من السابقين أضله تفكيره بمثل ما جاء صاحب النقد الثقافي من اختصار واعتصار لأنساق الأمة المجروحة بظلم ذوي القربى.

إن هناك مضمراً سيكشفه الزمن، كما كشف مضمرات كثيرة نفثتها صدور بعض عمالقة الفكر المعاصر ممن صنعهم الغرب على عينه، ومن رصد المشهد الفكري والأدبي العربي المعاصر أفزعه ما كشفه الزمن من زيوف لا يشرف أحد بادعائها، من تكذيب صريح لخبر القرآن الكريم عن قصة إبراهيم قال به طه حسين، إلى دعوة لفصل الأمة عن تراثها بإلغاء الحرف العربي دعا إليها عبد العزيز فهمي، إلى تدنيس للتاريخ الإسلامي وتمدنه اقترفه جرجي زيدان وتلقف الراية من بعده (عوض) و (شكري) والسلسلة الصدئة تمتد من (حملة نابليون) متشعبة في الأيدي التي تعطي عن صغار، والقول بالبدائل ليس من السنن الحسنة، فالحضارة الحية تستوعب ولاتستبدل. وعلى ضوء هذه المفاهيم التي قدرنا على توفرها، فإننا لسنا بحاجة إلى من يطرح المشروع بهذه الحدة وبهذا الضجيج، ثم ينادي بموت (النقد الأبي)، ولسنا بحاجة إلى من يأتي في ساقته مدعياً إسكات النقاد ولهاثهم وراء عجاجته، إلا إذا كان لمدعي المشروع أهداف وغايات مسكوت عنها، وهو ما لا نرجو أن تكون، وما لا نستبعد كونها، وخوفنا من هذا المنهج قبل تبلور أهدافه، والمطمئن أننا قد تعودنا من أولئك نقض ما يغزلون، قبل أن يستعملوا غزلهم. وعلى كل الاحتمالات، فالأديب يكون ناقداً اجتماعياً أو ثقافياً أو أدبياً أو أخلاقياً أو جمالياً أو نفسيا أو لغوياً أو إسلامياً، يكون مؤرخاً أو مقارناً، ينعطف من الموضوع إلى النسق، ومنهما إلى اللغة، أو إلى التاريخ الأدبي، دون التمهيد للمشروع أو الشرعية. وهو مع النص اللغوي، أو مع المواضعات السلوكية بوصفها نصوصاً، أو مع الفن بشرطه ناقد، غير مستقر على صفة، بحيث لا يمارس غيرها.

والأدب ونقده كيان متجذر فيه الخير والشر، ولايمكن أن يأتيه مدع من القواعد، فينسفه، وهو متكئ على أريكته، إذ هو بإزاء الفقه وقواعده، والتفسير وأصوله، والتاريخ ومناهجه، وعلم النحو والصرف ومعياريته، وعلم الكلام ومنطقه، والفلسفة وآليتها، وعلوم النفس والاجتماع والتربية، وكل هذه الفنون والعلوم تشكل منظومة الحضارة

الإسلامية، ومن الصفاقة التجني على شيء من ذلك، يبلغ حد الحكم بالموت، وما بعد الموت عقوبة، ومن قال بموت النحو والنقد يقول بموت الفقه والتفسير والفلسفة وعلم الكلام، وإذا كان صاحب مشروع (النقد الثقافي) قد مل الدوران في حلقات اللغة والفن المفرغة، وعنّ له التخطي إلى آفاق المضامين فإنه مسبوق إلى ذلك، وتهميش المضامين خطيئة البنيوية التي تبناها في محطة من محطاته المتعددة. والمتابعون للحركة النقدية لايجهلون مداخل النقد الأخلاقية والنفسية والجمالية والاجتماعية والأسطورية والخرافية والأيديولوجية واللغوية والتكوينية والمقارنية، ولايجهلون أساطين النقد العربي، كالجاحظ، وابن قتيبة، والجرجاني، والقرطاجني، ولايجهلون أساطين النقد الغربي ممن تم التحول النقدي على أيديهم، من مثل (أرنولد١٨٨٨) و (سانت بيف ١٨٦٩) و (هيبوليت تين ١٨٩٣) و (تولستوي ١٩١٠) وبخاصة في كتابه (ما هو الفن) و (اليوت١٩٦٥) و (ريتشاردز ١٨٩٣) و (أديموند ولسون ١٩٧٢) وكل واحد من هؤلاء وأولئك شكلت أطروحاته التنظيرية أو التطبيقية، أو هما معاً تحولاً جذرياً في المفهوم النقدي ووظيفته ومنهجه وآلياته، ولا أعرف أحداً من أولئك ادعى أنه صاحب مشروع، كما لم يجرؤ أحد منهم على قصف أرواح مفردات حضارته وتهميش المكونات الحقيقية للنسقية الثقافية، وما أحقر أمة لاتشكل نسقيتها الثقافية إلا من الشعر فضلاً عن سيئه. وهذه الرؤية الجائرة لصالح من تحال؟ وحين نغض الطرف عن إقذاعات المشروع نود معرفة العوض الذي قدمه ثمناً لهذا، لقد تحول الشعر العربي في أعقاب هذا المشروع إلى جانٍ لايحتمل السكوت عليه، وإن ثبتت جنايته بهذا الحجم فهو الأجدر بالموت من النقد الذي واطأه على الخطيئة. فهل الطريق ممهد لمغول الداخل لذبح الشعر، كما ذبح النقد، وكما ذبح النحو، وكما ذبح المؤلف، وفي جو مشحون بالتوتر والتصفيات، هل قدم السفاحون لأمتهم بديلاً يقيل العثرة ويجبر المصاب؟ وهل صرف نظرها إلى ركائز التراث الإسلامي ونصحها بتمثله، أم أنه ذادها بتفحلن من نوع آخر لترد المياه الآسنة؟.

النقد الثقافي: البديل أو الرديف .. ؟ (٦) [1]

وسؤال هذا الناس عن التحول العكسي الصارخ من البنية إلى الدلالة ومن التلطف بالمعالجة إلى التعميم في الاتهام والعنف في الإدانة، لحساب من كل هذا؟ فالذي جاء بطريقته البديلة، كان من قبل المناقض لها، ف (البنيوية) بكل تحولاتها تستدبر المضمون، و (النقد الثقافي) بكل ممارسات صاحبه يستدبر الشكل والفن والبناء اللغوي. هذا على مستوى التنظير والادعاء، وإلا فالقول عن (الخطيئة والتكفير)، قول في الدلالة، وليس قولاً في اللغة، وإن أحيل توهماً على واحدة من تحولات البنيوية، وهي (التشريحية)، التي لا تعد معادلاً كما يوحي العنوان، وإنما هي اشتغال ضمن منظومة البنيوية أو قل: البنيوية المعدلة.

وقد يكون القول في الدلالة محمولاً على (البنيوية التكوينية)، ولكنها لم تكن حاضرة المتذوق الذي لم يدرك البنيوية الأصل إلا في مرحلة متأخرة من عمرها القصير، وهو إدراك جاء بعد أن ثوت مع تحولاتها في أرض المنشأ وسوف نفصل القول عن هذا الخلط العجيب، ف (الخطيئة) و (التكفير)، مع انهما مصطلحان متحفظ عليهما لا يكون الحديث عن شيء منهما من متطلبات البنيوية اللغوية، وإنما هو حديث ثقافي موضوعي يحملان النص ما لا يحتمل من مضمرات سلوكية فرضية، والقول من خلالهما على كل الأحوال جناية بحق الشاعر وشعره، وتقول عليهما كل الأقاويل، وإن أحيلت تلك الفرضيات السلوكية على التشريح أو التفكيك بوصفهما مرحلة متأخرة شرَّع لهما (دريدا). ومن أراد استبدال الأوسع بالأخص فليقدم بين يدي دعواه ما يحمل الكافة على القبول والإذعان.

وكيف يكون القبول بفعل كلام هلامي، يؤسس على (الحكاية الخرافية)، التي لم يُفهم مُظهرها فضلاً عن مضمرها لقد اتخذ (استنواق الجمل) و (الإقواء)، و (كجلمود صخر حطه السيل من عل)، شواهد نصية قطعية الدلالة والثبوت، لفحلنة النسق الثقافي، ثم ضربه في الصميم، لأنه نسق يفرض الصمت. هذا النسق يعتبر طرفة بن العبد «مجرماً تجب معاقبته لأنه لم يلتزم بحقوق العلاقات الفحولية ص ٢١٣»، ومع القبول بانفتاح النص، كما يقول (بارت)، وبإمكان إعادة تشكيل دلالته، وفق هم القارئ، متى كان النصُّ حمَّالاً، فإن اختصار الأنساق فيه لا يكون من قطعيات الانفتاح، ودعوى الانفتاح التي عول عليها الفضوليون، وتنفس من خلالها المحرفون للكلم عن مواضعه، أوقعت النص في متاهات التأويل، وغيبت مقاصد المرسل الذي هو جزء من عناصر الاتصال التي اتخذها الدارس ذريعة للفعل النقدي، ودعوى الانفتاح عند من لا يحسنون التعامل مع المعنى المباشر أحالت إلى فوضوية الدلالة، بحيث لم يكن هناك ضابط تأويلي يفض النزاع وهاجسه حفز الفارغين إلى التغنيص والإحالة والتشفير ومكن المعدمين من التقول على النصوص الأمر الذي عمق الانقطاع المضاعف بحيث ترك النص معلقاً لا يتصل بتراث ولا بمعاصرة، وستكون لنا عودة إلى دعوى الانفتاح، قد تمتد إلى جذوره التراثية، وقد نستدعي الموقف من المجاز ومستويات التأويل، وعلم المتشابه واحتمالات المحكم، ومتنفسات التفويض والتوقف، وهي مصطلحات في نظريات التلقي والتأويل والمعرفة، قصرت عن إدراك كنهها مدارك المستغربين. والخرافة التي ارتفع كعبها عندما أضيفت الوظيفة النسقية على سداسية (ياكبسون)، قد يستعان بها بوصفها قناعاً أو مثالاً، ولكنها لا تكون مصدراً شمولياً لتعميم الأحكام، ف (الأمثال)، تواجه بها النوازل ولا تضرب بها

---

(١) تاريخ المقال: ٣٠/ ١٠/ ٢٠٠١

الثقافات. وليس من الإنصاف أن تعالج ثقافة الأمة بالمضمون الخرافي، ولا أن تختصر بدعوى التشعرن، ولا أن يقال بأن الشعر (توسل بجمالياته لتمرير قبحياته ١٣٣).

فالمتعة بالجمال من الانزياح اللغوي، والفائدة من الحكمة، وهما المعطى الشعري السليم، وتخلف شاعر (ما)، عن شيء من المتعة أو الفائدة يسقط الشاعر ولا يسقط الشعر، ويدين الأطراف المقترفة ولا يدين الثقافة المستوعبة، ذلك أن الثقافة الإسلامية وانساقها ترتبطان بضابط أخلاقي ووازع سلطاني، ومنازعة الضابط والوازع، تحال إلى المخالفة، ولا تكون نسقاً تحميه الثقافة أو تدان به، ولا يقول بشيء من ذلك إلا مناوئ للثقافة.

وهذه التصورات الفجة لمفهوم النقد الثقافي (المسَعْوَد) حملت صاحب المشروع على نسف الثقافة العربية والشعر العربي، ولم تحفزه على الدخول في المعمار ومعالجة الأدواء. وكم هو الفرق بين النصائح والفضائح، ثم إن هذه الغيرة الجامحة عند صاحب المشروع لم تحرك ساكناً عنده ازاء جنايات السيئ من الرواية العربية، التي حرفت العقائد وأسقطت الأخلاق وأشاعت العبث والفوضى وأفسدت الفن واللغة، وهي قد فعلت هذا بوصفه شرعة ومنهاجاً، وما عمله بعض الشعراء الأوائل ابتلاء بالقاذورات. وفوق كل هذا فإن التعامل مع الخرافة لم يكن مسدداً، مما ضاعف الإشكالية، إذ التلفيق واضح، والاستنتاج خاطئ، والحكاية الخرافية لا يؤسس عليها، لأنها لا تتجاوز العبرة والموعظة والمتعة الخيالية. وكيف نحيل على الاسطورة والخرافة في زمن العلم؟!

الأسطورة والخرافة للمتعة وضرب المثل، ولا يكون شيء من ذلك لضرب ثقافة عريقة وحضارة متجذرة تشكلت من مصادر متعددة. وحين نعود لاستنطاق الحكايات الخرافية نجد أن (المتلمس)، لم يحكم بالموت على من تطاول على فحولته ولكنه أعجب بذكاء طرفة، وانبهر بوعيه، وتنبأ بموته، لأنه قال: ويل لرأسك من لسانك، وهذا الكلام ليس وعيداً ولا عقوبة، ولكنه إعجاب وتنبؤ فالأذكياء والعباقرة يتنبأ بموتهم بوصف الذكاء والعبقرية محرضات للقتل، ولما يكن المتلمس الأفحل هو الذي قتل (طرفة) الفحل، جزاء وفاقاً لتطاوله على الفحولة. والملفت للنظر أن القول عن (الفحولة)، لإدانة السلطة واللغة والقول عن الرجل بإزاء المرأة، والقول عن الشاعر بإزاد من دونه قول لا يعضده عقل ولا نقل. والحكايات الخرافية الثلاث لا تنطوي على مظهر فحولي ولا على مضمر يعري النسق الفحولي، ويسخر منه والحكايات كلهالا تتسع ل (مبدأ نسقي)، ولا ل (نهاية نسقية)، ولا ل (تعرية نسقية)، ولا ل (اختراع)، فحل ولا لخلق (طاغية). و (نسقية الكون) لا تجمع معارضي (الرسالة النبوية)، بمعارضي (الحداثة الفكرية)، في سلة واحدة، بوصف دعاة الحداثة كما الرسل والمصلحين وبوصف معارضيهم كما مشركي مكة الذين ناصبوا الرسول ﷺ العداء (جريدة الرياض ١٤٢٢/٨/٢هـ)، كما لا يمكن أن تكون الحكايات الخرافية (أول وأهم معارضة في ثقافتنا ٢١٧)، ولا تكون وثائق لإثبات الفارق النوعي بين الخطاب الشعري والخطاب السردي، بحيث يغرق الشعر في نسقيته المدحية، فيما يمتلك السرد المعارضة والسخرية والتعرية. سيل من احكام واستنتاجات وتأسيسات مضللة ووهمية ومضحكة، وما أبأس وأتفه ثقافة وحضارة يكون الأخطر في أحداثها ظهور شاعر المديح، ويكون مضمر الحكاية الخرافية أول وأهم معارضة.

ولعلنا في سبيل تقصي ما يعتري صاحبنا من توهم نستعيد (النص الغرائبي)، و (جماليات الكذب)، و (الموروث الشعبي)، و (تكاذيب الأعراب)، وهي عناوين لموضوع واحد، القى ضمن فعاليات (الجنادرية) ثم نشر في (جريدة الرياض)، و (مجلة فصول)، وكنت قد نقدت ذلك البحث من خلال منهجه وآلياته وعلاقته بالعنوان واستنتاجاته وتأسيسه على خرافة لم يفهم الكاتب إمكانية انفتاحها، وكان نقدي القشة التي أشعلت سعار

التجهيل والتهميش والتورم الزائف، ودفعت صاحب المشاريع إلى تمثل مقولة (ميكافلي): «احرص على أن تكون مرهوباً ولا محبوباً»، وكنت أحسبه قد تنبه لعوج التصور ولخطأ التقدير، ولعجز الأكذوبة عن تجلية الموروث الشعبي في الشعر، ولكن التصور الخاطئ لمعطيات الخرافة عاد كما كان من قبل، وكأن شيئاً لم يكن، ومن أخذته العزة بالإثم استحب العمى على الهدى، وكل الذي أرجوه من القراء العودة إلى دراسة تكاذيب الأعراب مع استصحاب مقاصد العنوان الرئيس (الموروث الشعبي)، وإلى (الفصل الخامس)، من الكتاب المشروع ليقفوا على فداحة الوهم. وسأعرض بالتفصيل للتعويل الاستشراقي على (الحكاية الخرافية)، واختصار الثقافة العربية فيها، متخذاً (ألف ليلة وليلة) وثيقة لذلك. والمتهالكون على مستجد الآخر حالوا دون قيام مشروع نقدي عربي غير ذي عوج وقد أومأ إلى هذه الثغرة في مشهدنا العربي (د. عبد العزيز حمودة)، في كتابه (المرايا المقعرة)، الرديف لكتابه (المرايا المحدبة)، الذي عرى فيه (المشروع الحداثي) وقد أحال في أزمة النقد العربي الحديث إلى كتاب (البحث عن المنهج في النقد العربي الحديث) للبحراوي. ومشروع (النقد الثقافي) تعميق للأزمة، وبودي لو تواضع القتاميون، والتقينا معاً على كلمة سواء. وكل ما بين أيدينا من قول لا يخوّل صاحبه دعوى المشاريع، و (النقلة الإصلاحية ص ٦٢)، التي أضافت عنصرا سابعاً إلى مقولة (ياكبسون)، لا يمكن أن تكون مشروعاً، ولا يمكن أن تخول صاحب المشروع ضرب الثقافة، نقبل بالإضافة ونحمدها، ونغض الطرف عن الدعوى وعن القول من خلال أي مسمى نقدي ونبارك التجديد ونرفض الوقوف في وجه أي محاولة أو تواصل راشد مع الآخر ولكننا لا نخوّل أي شيء من ذلك الإجهاز العنيف على ثقافة الأمة ومشاريعها، وسوف نعود إلى (الفصل الثاني)، بوصفه جماع التنظير، لنكشف عن خطأ المقدمات المؤدي إلى خطأ النتائج.

ومن ذا الذي يقبل بتخويل الإضافة على وظائف اللغة (الياكبسونية)، بحيث تفضي هذه الإضافة إلى القول بموت (النقد الأدبي) وإفساح المجال لمن يختصر أنساقنا في السيئ من الأشياء على سنن المستشرقين. ثم لماذا لا نهضم مشروع (ياكبسون)، وغيره وننشئ المهضوم خلقاً آخر، كما الأسد والخراف، لماذا نقف حيث الأخذ المباشر والإحلال المباشر، كما الترقيع الذي يجعل ثقافتنا ك (طيلسان ابن حرب)، الذي لم تبق فيه إلا الرقع، وحين يسلم الرأي العام بدعوى (موت النقد الأدبي)، كناية عن تعطيل مهماته التي حددها المؤرخون للأدب والنقد، في وقت لم تعرف المشاهد النقدية مهمات النقد الثقافي، ولم تسلم قيادها لمتذوق لم يستقر على حال. ثم إن النقد البديل لم يتجاوز القول من طرف واحد، ولما يفهم مقاصده المشايعون فضلاً عن المترددين، وفي هذه الحالة الطائشة ينشأ فراغ كما الفراغ السياسي حين يغيب القائد مع غياب البديل الذي حدد مواصفاته الدستور، وحتى لو لم يكن هناك فراغ، فإن هناك إشكاليات حول المحكوميات الجائرة، ولو قبلنا بدعوى الموت فكيف يكون واقع الآلاف من النقاد الذين فرغوا (للنقد الأدبي)، والآلاف من الدراسات والمناهج؟ في وقت لم تلح في الأفق أي مبادرة تحفز النقاد على استبدال آلياتهم وترتيب اهتماماتهم وهل أحد يقبل بأن يذاد عن مساره بقرار فوري مرتجل؟ ولو ان صاحب المشروع عرض مشروعه في المشهد، ولما يعلن موت المشاريع القائمة لكان الأمر مقبولاً، أما وقد مورست الوصاية فأمر فيه نظر. ومثلما تكون حالة النقاد الذين فوجئوا بموت النقد الأدبي تكون حالة المبدعين، وتعود المساءلة عن، وضع من يقولون الشعر ويبدعون الرواية ويكتبون القصة حين لا يجدون من يحفل بفنهم، ولا من يسعى لاكتشاف مواهبهم، وتقصّي جماليات إبداعهم، والتصنت لسماع هواجسهم، واستنطاق

نصوصهم عن صدقهم الواقعي والفني، ولايجدون من يشيد بتميزهم، أو يشد من أزرهم؟ وكيف تواجه الجامعات بأقسامها الأدبية هذا الحدث الأليم؟

إن ذلك مؤذن ببطالة مذلة لمساكين قصروا مناهجهم وآلياتهم على (النقد الأدبي)، وحين لا يموت النقد وإنما تفرض عليه الإقامة الجبرية، لينهض، (النقد الثقافي) بالمهمة على طريقة العسكريين الثوريين الذين لا تحلو لهم الحياة إلا بتصفية خصومهم، تفقد الأمة عنصراً مهماً من عناصر حضارتها، والنقد رديف الإبداع، والذين يودون أن يكون (الناقد الأدبي) هامشياً مع قدرته على ألا يكون كذلك، لا يوفرون البديل، وما نقوله اليوم صراع من أجل البقاء، وكأني بأرسطو قد عاد للتو ليبني مدينته الفاضلة نافيا الشعراء من قبل، ومعهم نقاد الأدب. ومن الخير ألا يزعم أحد أنه بمشروعه سيقتل ما سواه، وإن كنا نقول كما يقول جرير: «أبشر بطول سلامة يا مربع»، إن من العقل والمعقول أن تشتغل كل طائفة بما يسرت له وبما تيسر لها دون إماتة أو إقصاء ودون تقليل من أهمية القائم من المناهج والآليات، والمشاهد تتسع لكل ذلك. والذين ينقمون على التفحلن وعلى تضخم (الأنا)، يمارسونهما بأبشع صورهما، وهل بعد القول بالقبح الشامل للثقافة وإماتة (النقد الأدبي)، والتفرد في المشهد من تفحلن وأنانية؟.

ربما قيل: بأن دعوى الموت كلمة مجازية، القصد منها المبالغة في التكريس والتهميش، تكريس البديل، وتهميش المبدل، وان أخذها على الحقيقة فيه ظلم وجور وتحميل للكلام بما لا يحتمل، فالموت لا يكون إلا لذوات الأرواح، ومن ثم فإن الموت يعني ترتيب الأولويات والتعايش التراتبي، والقول بالموت يكون كذلك لو كان مبادرة من أولئك، لكن القول بالموت كالقول بالبنيوية والحداثة والتحويلية استرفاد مذل، والقول بالموت على هذا الاساس يعود مفهومه وتقوم دلالته عند من اشاعوه من قبل، والسنة السيئة تحال إلى (نيتشه)، الذي قال: (بموت الإله)، ثم تهافت الغربيون ومن قلدهم على هذه الإطلاقات، و (نيتشه)، يعي ما يقول، إذ مقولته منتج فلسفي، أما القائلون بموت النقد الأدبي والنحو العربي فمقلدون سمعوا غيرهم يقول شيئا فقالوه، وحين يكون (النقد الأدبي)، و(النحو العربي)، معنيين قائمين بالذوات المستعملة، ونحن منهم بحكم التخصص العلمي والممارسة الوظيفية والهم الحضاري، فإننا نستخف بالقول وبالقائلين، ونحيل قولهم إلى خليقة تبعية مقموعة لا تستحق الصدارة، وإذ تكون نغمة (الإماتة)، و (النقد الثقافي)، و(التحويلية)، وسائر المذاهب والاتجاهات من عند حضارة مغايرة فإن الأخذ بشيء من ذلك يجب أن يعرف قدر نفسه و«**اليد العليا خير من اليد السفلى**».

ثم إن القول بالموت ينطوي على مقاصد الانقطاع المعرفي، وذلك ما تدعو إليه الحداثة الفكرية، وتداول الموت يعيده إلى مقاصد القائلين به ابتداء وفلسفة (موت الإنسان)، تنسحب على موت النقد وموت النحو وسائر الدعاوى غير المؤصلة.

والآخذون بهذه الاطلاقات دون وعي لجذورها الفلسفية يعد أخذهم تقليداً أو مسايرة، والمقلدون لا يملكون حق تخلية المقولات الغربية من مقاصدها المستمدة من الفلسفة المادية، وإعطائها مقاصد مجازية، فهم أقل من أن يملكوا مثل هذا الحق، وأقل من أن يفهموا هذه المقاصد، إذ لو فهموها لأخذوا حذرهم ونفروا ثباتٍ أو نفروا جميعاً للتفقه ومعرفة الجذور الفلسفية لكل ظاهرة فكرية أو أدبية غربية أو شرقية، فإذا رجعوا إلى قومهم قالوا عن علم ودراية، ولكن ما كان نفورهم إلا ليصنعوا على أعين الحضارة المناقضة، حتى إذا رجعوا تولوا إشاعة الموت لثوابت حضارتهم. ولقد كنا نود من صاحب (النقد الثقافي)، وصاحب (التحويلية)، إنفاذ ما يودان إنفاذه دون تصفية لتراثهما ودون استخفاف بأندادهما ودون ادعاء عريض للمشاريع، ولو انهما طرحا رؤاهما في

خضم المشاهد لما اعترض عليهما معترض فحق التجريب مضمون والتجريب غير القتل.

النقد الثقافي: البديل أو الرديف .. ! (٧) [١]

وحين نقبل بالتعايش السلمي بين النظريات المعاصرة ـ وهو ممكن ـ مستبعدين لعبة الموت أو النفي أو الأثرة، فليس شيء خارج الثقافة، إذا لم يُختصر (النقد الثقافي) في نسف الأنساق والتفحلن الحطيئي على الشعراء الذين ملؤوا الدنيا، وشغلوا الناس، والعمل على تحويلهم إلى شحاذين ومداحين.

فالثقافة رؤية تعويمية انفتاحية حمالة، فكأنها هاجسٌ لعولمة النقد، وكسرٌ لحدود التنوع. ذلك أن كلَّ ما سطره القلم على الورق، وكل ممارسة واعية، وكل سلوك اجتماعي، وكل ما ثقفه الإنسان بأي حاسة أو بأية وسيلة، وعلى أي شكل جاء الاكتساب، وبأي صيغة تمت الممارسة، يعد ذلك كله من الثقافة وإليها. وأي قول في هذا أو عنه هو قول في الثقافة، وليس من الضربات اللازبة أن تكون الثقافة ونقدها وقفاً على ضرب النسق الاجتماعي أو الفكري أو الديني أو السياسي، واتخاذ الشعر كبشاً للفداء. وليس من لوازم المشروع أن يكون حرباً ضارية ضد ثقافة الأمة، ومآلات المشروع حين تحدونا إلى واحدية المفهوم، ندخل في مضائق المقاصد والنوايا التي يشدنا إليها الفعل. وليس في كتاب المشروع شيء يحمل على حسن الظن وسلامة المقاصد؟ فالثقافة التي لا نبرئها، ولا نزكيها، ولا نمانع من التحرف لإصلاحها، لا نجد مبررا لإتيان بنيانها من القواعد، وقد تكون المكيدة للشعر على أيسر التصورات تحقيقاً لمقولة (جابر عصفور): إن الزمن زمن الرواية، وهو ما حشد له الشواهد والبراهين في كتابه: (زمن الرواية) الصادر عام ١٩٩٩م، ولكن صاحب مشروع التشعرن والتفحلن أخطأ الطريق. وبصرف النظر عما سلف فإن القول في الثقافة أو من خلالها على تلك الطريقة، يتحول معه الكتاب كلهم أجمعون إلى نقاد، وذلك الخلط العجيب يفوّت على ذوي التخصصات فرص الامتياز عمن دونهم أو عمن يخالفونهم الهم، ولا أحسب الراشدين من العلماء والأدباء يقبلون بهذه الخلطة.

قد لا يكون هذا التخوف قائماً، وقد لا تكون تلك الرؤية مسددة، ولكننا مع من لا يحسنون تحرير مسائلهم في أمر مريج، وحين نقتفي أثر المشروع فإنه يمر بنا على سفاسف الأشياء، ولم لا يكون الأمر كذلك والمشروع قد استهل تنزيله بـ(لعبة البلوت)، وتلك بداية تفتح على صاحبها أكثر من تساؤل وتضع حوله أكثر من علامة، فهل أصبحنا فارغين إلى حد أن يذهب أساتذة الجامعات إلى استهلال مشاريعهم بالحديث عن الألعاب الشعبية؟ ومن المسلمات أن الإفضاء إلى آفاق الثقافة يؤدي في النهاية إلى الانفلات. فالذي يكتب عن الخدمات البلدية أو الصحية أو العمالية أو التعليمية أو المرورية أو المواصلات أو الاتصالات أو عن أي ظاهرة سلوكية أو عن الألعاب الشعبية أو عن سائر الظواهر (الفلكلورية) يعد ناقداً ثقافياً، وها هو صاحب المشروع قد ضرب لنا الأمثال حين استهل مشروعه بالحديث عن واحدة من اللعب الشائعة ليجسد القطيعة مع المتعاليات، واقتفاء لأثر هذا المشروع فإن صفحات الرأي السياسي والاقتصادي والاجتماعي في الصحف وكتاب المقالات والزوايا ومعدي البرامج الرياضية والترفيهية كل أولئك نقاد ثقافيون، وتمشياً مع هذا الانفلات لا الانفتاح لا يكون فقهاء ولا أهل ذكر يسألون في مجال اختصاصهم. وقد يأتي من الفارغين من يخترع مصطلح (النقد البلدياتي) أو النقد المنزلي) أو (النقد المروري). و كنا قد عرفنا من قبل (النقد الرياضي و (النقد الفني) ثم يكون من حق أي واحد من هؤلاء وأولئك أن يميت ما شاء من المصطلحات، منكباً عن ذكر ما

---

(١) تاريخ المقال: ١٣/ ١١/ ٢٠٠١

أنتجته من ضوابط وطرق وأفعال إجرائية، وسعتها الكتب، واتسعت لها الصحف والمجلات جانباً، وعندئذ نكون في حوسة من أمرنا. ولا شك أن مندفعاً كهذا سيجد المتطوعين للهتاف، ممن لا يملكون الحضور إلا على أكتاف الآخرين. والدهماء (المتنخْوِبون) هم الذين ينشرون القول الفارغ من ذهنيات فارغة، ويصنعون النمور الورقية، ولو أنهم يقرؤون ماجدَّ ويتابعون ما حدثَ ويلاحظون التحولات المستمرة، لما بهرهم التهريج، ولما أوجسوا خيفة من الحبال والعصي. والدخول في فوضى القول كالدخول في فوضى الحواس يفقد الأمة الضبط والربط، وليس من المصلحة انفلات الأمر، فالتخصص ظاهرة العصر، ولكل علم أو فن أصوله وقواعده ومناهجه، والتخصصات الدقيقة في سائر العلوم والآداب ظواهر حضارية. نقول هذا ونحن نعايش في مشاهد القوم عبثاً وفوضى فـ(الوجودية) و (الدادية) و (الفوضوية) مذاهب فكر وأدب وسياسة، لها أشياع وأتباع، ولن نعدم من ضعاف النفوس من يرث رفاتها، وقديماً قيل: (لكل ساقطة في الحي لاقطة).

وإذا فقدت المشاهد سراتها، وخلف من بعدهم خلفٌ أضاعوا جد التحصيل وأهمية التأصيل، حلَّت الفوضى محل الانضباط، وقام التيه مقام الرشد، وذلك ما ينتاب مسارح الفكر والأدب، وهو الذي حدا بالعقلاء للتفكير في اكتشاف البنى العلمية وملامح الثورات العلمية وضرورة العلم، كما هو عند (توماس س. كوهن) و (ماكس بيروتز) و(فرنك كليش) في (بنية الثورات العلمية) في ترجمتين للدكتور علي نعمة، وأخرى لشوقي جلال، وكتاب (ثورة الأنفوميديا) ترجمة حسام الدين زكيا و (ضرورة العلم) ترجمة وائل أتاسي، ومثل هذه الكتب وتلك الهموم يمكن استدعاء نظائر لها في تراثنا العلمي والفكري مما هو حاضر الذهن المتابع. وحين نمتعض من إيجاف الفارغين نشير إلى عمالقة في الفكر والأدب المعاصر كانت لهم مبادرات ثقيلة الوزن عميقة المعرفة شمولية التصور نختلف مع بعضهم، ولكننا نحترم جدهم، ونثمن اقتدارهم، ولا ننكر أثرهم السيئء والحسن، ومن منا لا يعرف (الجابري) و (العروي) و و(الحنفي) و (المحمودين) وحتى أساطين الحداثة ينطوون على علم وفكر سخروه لخدمة الآخر، والمخجل أن الفارغين لا يتوفرون إلا على الحشف وسوء الكيل، وموقفنا معهم يذكرنا بمقولة المتنبي:

لا خيل عندك تهديها ولا مال

فليسعد النطق إن لم تسعد الحال

وفي إطار التفلت من إسار العلوم المؤصلة والمقعدة والمشروطة، يحسن بنا استعادة مصطلح طار به الذواقون ثم ثوى كسوالفه، هو مصطلح (الكتابة) الذي ذر قرنه في أعقاب انحدارات إلى درك الفوضى، و(الكتابة) مصطلح تداوله البعض في سبيل إلغاء أنواع الفنون، وإلغاء التنوع الفني، وتمايز الموهوبين من المقتدرين والأدعياء، بحيث لا تكون قصة، ولا رواية، ولا شعر، ولا سيرة ذاتية، ولا مقامة، ولا مقالة. فالمسألة قلم يجري على ورق، لينتج كتابة.

والمحتفون بمثل هذه المصطلحات أو الفارغون منهم - على الأقل - لا يدرون ما النوايا ولا الأهداف التي يسرها المتآمرون على الكلمة الطيبة، وهذا ما حفزني دائما على تخفيف وطأة الاتهام، فالمتابعة المتأنية الرفيقة للمتعالقين مع المستجدات تكشف عن بلاهة وسذاجة، وخلو ذهني، تمكن من معرفة الجذور الفلسفية. للظواهر الأدبية والفكرية ولا تمكن من معرفة أهداف الحضارات المستكبرة التي تسعى لاقتلاع جذور المناوئين لها. وبالعودة إلى هم التفلت نجد إن هناك دعوة للانفلات، تتمثل بثلاثة مصطلحات، استقبلناها ببلاهتنا المعتقة، ولم نلق لها بالا هي: (الكتابة) و (الأدب المفتوح) و (النقد الثقافي) وقد

بشر بها على فترات من تطوعوا لتجسير أنفسهم، وتوطئة أكنافهم لعبور الآخر الينا، كما جسّرت دجلة والفرات بتراث الأمة لعبور التتار. وما بأيدينا من بدائل إن هي إلا مصطلحات غربية تلقفتها المشاهد الثقافية والأدبية، وأشاعها أدعياء المشاريع ومدعو المبادرات، ثم صدقهم السرعان من الكتبة الذين يشايعون الطواري باهتياج أعزل، ليكون لهم حضور لا ينالونه إلا بالتبيعة للتبعيين.

وكل هذه الظواهر التي يحملها الجالبون على اكتافهم كما الأوزارلما تزل على مستوى التنظير، فالفنون قائمة، والتخصص محترم، والنقد الأدبي على أشده، والنحو والصرف سيدا الموقف، وكيف يموت ما وسعته ملايين الكتب وآلاف المخطوطات، وحفظته صدور الرجال، ووعته أفهامهم، واستمد وجوده من الذكر الحكيم المحفوظ بوعد الله، ومن أوفى من الله؟. والفاجعة ليست فيمن يطلع كل يوم بمذهب مجلوب، الفاجعة في دهماء يغرر بهم، وآخرين يدعون المعرفة والنخبوية، ويتصدرون المشاهد في زمن التصوح، ثم لا يستبدون، الفاجعة في هذه الدهماء التي ألغت نفسها، وعطلت وعيها وألقت قيادها لمن لا يحسن الورد والصدور، ولمن لم يؤسس، ولمن لم يستقر على قول. هذه الدهماء قبلت بموت (المؤلف) وبموت (النحو) وبموت (النقد الأدبي) وتصورت أن مثل هذه الإطلاقات مبادرة فذة، لا يقول بها إلا عبقري لا يفري فريه. وليت هذه الدهماء حين طفح كيلها بالوفيات تسأل صاحبها: عما إذا كانت هذه (التقليعة) هي نهاية التاريخ، بحيث ننفض أيدينا مما علق عبها من مذاهب وتيارات، وبحيث نرتب أمورنا على ضوء ما هو قا ئم، أم أن في الجعبة مشروعاً خامساً لم يؤذن له بعد؟ ويا ليت هذه الدهماء النخبوية بمؤهلاتها ومهماتها المعطلة أو المغيبة بطوعها واختيارها تكون جريئة مستبدة، فتسأل صاحبها عما خلف من كتب عن الحداثة والبنيوية واللغة والمرأة والفحولة، هل هي في إطار المنسوخ حكماً ولفظاً؟ أم في إطار الممنسوخ حكماً دون اللفظ؟ وهل يجوز أن تقرأ ويستفاد مما فيها؟ أو أنها تمات كما مات النحو والمؤلف والنقد.

وحين نلحقها بالموكب الجنائزي، فعلى من يكون العوض عما أنفقنا من الجهد والوقت والمال للشراء والقراءة والاستيعاب والتمثل؟ وكيف نخلي الذهنية مما علق بها من هذا القول الملح بمشروعيته. لقد قيل عن (الحداثة) و(الحداثيين) ما كنا نتوقع أنه إيمان بالمبدأ لا يتزعزع، وقيل عن (البنيوية) و(البنيويين) ما كنا نتوقع أنه نهاية التاريخ، ومن قبل قيل عن (الماركسية) و(الوجودية) وعن عشرات المذاهب والتيارات المجلوبة ما لا مزيد عليه، وها نحن نستمع إلى منكر من القول عن النقد البديل، وعن التوليدية البدلية عن النحو. فهل سيكون قول آخر يلحق النقد الثقافي بما ثوى من مذاهب ومناهج؟. إن من مصلحة المشاهد أن يمارس أصحابها التجريب والإضافة. ومن حواتم المعرفة أن نستبطن المستجدات، وأن ننقب في بطون الحضارات ما جد منها وما سلف، وأن نلوب افاق المنجزات الإنسانية، لنعيش حضوراً مشرفاً يليق بنا. وليس من العقل أن يمارس الجالبون لسقط المتاع النفي والاستبدال، ولاسيما إذا كانت البدائل لا تفي بالحاجة، وليست من عند أنفسنا. إن على أساتذة اللغة والنحو والصرف والبلاغة والأدب والنقد أن يسألوا أنفسهم: هل ما يلقونه على طلبتهم يأخذ طريقه إلى المشاهد الأدبية والفكرية، ويستخدم لشرح النصوص وتفكيكها والوصول إلى أعماقها الدلالية وبنيتها اللغوية وسماتها الفنية، أم أن ما يعلمونه داخل أروقة الجامعات يسبقهم إليه زملاؤهم في المشاهد، ليطلقوا عليه رصاصة الرحمة، معلنين موت النحو والنقد؟ وحين يلدون للموت الناجز ألا يعدون ذلك من العبث المسرف، وكيف يستقيم أمر أمة تنفق الكثير على تعليم النحو والنقد الأدبي، ومن بين أبنائها من يحكم بموت ذلك، ألا يكون ذلك من باب العبث والتبذير. وحين نسلم بالتجديد وسنة التداول، ونقطع بأن لكل زمان حقه في صياغة ذويه، وأننا خلقنا لزمان غير زمان

السالفين الأولين فإن هناك ثوابت ومتغيرات. وإشكالية الثابت والمتحول من أعقد الإشكاليات وأخطرها وأدقها وأكثرها حساسية، والخطأ فيها يعني الدمار، والثوابت غالباً ما تكون في المبادئ، والمتغيرات تكون في الوسائل، وقد يجر سوء التعبير على صاحبه سبة الدهر، وهذا ينطبق على أصحاب الاطلاقات الطائشة كالقول بالموت، فالنحو العربي من ثوابت الأمة، ولكن وسائل توصيله وأساليب أدائه من المتغيرات، ولو أن المبهورين بما جد من وسائل أحسنوا الجلب وجودوا الدعاية لما وقعوا في الشبهات، وقد تحال مفرقعاتهم إلى هذا التأويل، ولكنهم قوم يجهلون الفرق أو التفريق بين الأهداف والوسائل.

وحين نتحدث عن مقاصد (النقد الثقافي) محلياً، ونستبعد الأهداف والمقاصد عند أساطين الحداثة ممن اتخذوه معول هدم للثقافة المضادة، فإنما هو فيمن نحسن الظن بهم، ونطمئن إلى سلامة الفكر عندهم: إما بقوة الوازع المهيمن أو بجهلهم لمقاصد ما يجلبون. أما أساطين الحداثة وقادة الظلامية في الوطن العربي فنواياهم تختلف كثيراً. لقد مارس (المبشرون) عمليات (التنصير) ولم يفلحوا، وتحولوا إلى مهمة أشد نكاية وأعمق خبثا، وهي إخراج المسلمين من دينهم بالإفساد والتحريش والتشكيك. و (الحداثيون) تفانوا في (حدثنة) الأمة، ولما لم يفلحوا، قلبوها إلى ضرب الثقافة السائدة باسم (النقد الثقافي) الذي تلقف رايته من عرفوا بعشق الطوارئ، ومعاذ الله أن نتهم الذواقين الذين كما الأطفال، تمتد أيديهم إلى الجمرة وإلى التمرة. وذلك معولنا لدرء الإدانة، وإلا فإن آثارهم تنبئ عما تحفظ عليه. ومن الغباء الالتفاف على وثائق الإثبات، والقول بأن (الحداثة) هي التجديد، وكيف يقال ذلك، والحداثة حركة فكرية بيّنة العوار، ومن أحال إلى التجديد فهو كمن أحال الاستهزاء بالله وبرسوله وبآياته إلى الخوض واللعب، وحين نمضي مع الإحالة إلى التجديد فإن واجب من فهم الحداثة هذا الفهم أن يحدد موقفه من الحداثيين الذين ضربوا الثوابت وأسقطوا القيم وأحاطت بهم وثائقهم القولية والسلوكية. والتاريخ يعيد نفسه ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ﴾ [آل عمران: ١١٩] .

وحين لا يكون (النقد الثقافي) منطوياً على نوايا مشبوهة، ومن الممكن أن يكون كذلك، فإنه في بعض تجلياته نقد إصلاحي، يتقاطع مع (النقد الإسلامي) وقد يكون امتدادا للنقد الأخلاقي الذي وضعه القرآن الكريم وتوجيهات الصادق الأمين وتأكيدهما على أهمية الكلمة. و (النقد الإسلامي) تجسيد لهذا الهم، فهو بمقاصده يحمل هم استقامة الأمة كما أمرت، وهو ما حمل البعض على التنبؤ بهذا التقارب، وذلك التنبؤ كمن جعل (عالمية الإسلام) مشروع (عولمة) مقابلة. والقول في مثل ذلك مؤشر تقصير في فهم المقاصد لكل من (العولمة) و (العالمية) وكيف يمكن التجنيس مع اختلاف المرجعية. و(النقد الثقافي) في إطار هذه المقاصد يوحي بكمونه في الثقافة العربية، وهو كغيره من مفردات الحضارة، يلوب آفاق الحضارات الأخرى، يصطبغ بصبغتها، وينهض بمهماتها، وله في كل حضارة مقاصد، وفي كل فترة مهمات، وعند كل متخذ رسالة، وهو قد تحرك من رحم الحضارة، ليتحول إلى هاجس مشروع جديد قديم، يزاحم بمنكبه الغض وجناحه القصير مرتكزات الحضارة وثوابتها، وحين يحاول المتسلطون إكراهنا على القبول بواحدية الرؤية وواحدية المذهب، أفلا يكون الأدب ونقده أحق مما سواهما؟ وكيف يتأتى لمستنسخ من الآخر أن يبعد النجعة، ويمعن في النكاية، يقول بالمشروع ولا مشروع، ويحكم بالموت ولا فوت.

وكيف يكون مشروعاً ولما يكن بمفهومه التراثي غائباً، والمتابعون للتراث ولعصر الموسوعات بالذات يجدون ملامحه ماثلة للعيان، وهو بكل مفاهيمه يلم به كل كاتب من

حيث لا يدري ومن حيث لا يقدر، ومن ثم لا يكون مبادرة من أحد بهذا المفهوم. أما حين يراد له ومنه خلاف ما هو عليه، وبخاصة حين يركز على ضرب الأنساق والسوائد وسيادة الثقافة ذات المرجعية، أو حين يسعى النقاد الثقافيون إلى إدانة الثقافة القائمة ونسفها، فإنه يكون شيئا آخر وهو ما سنوفيه حقه عند القراءة النقدية لكتاب المشروع، ونحن في الحالين مخولون لنفي الجدة وإنكار المشروع والتصدي لنقض الغزل وهدم المحكم من البناء، وحين نسلم بأن واقع المسلمين وأخلاقياتهم بحاجة ماسة إلى إصلاح، وأن الإصلاح يتطلب ممارسة نقدية، فإن علينا أن نبحث عن نقاط الضعف الحقيقية وأسبابها المشروعة ونعالجها، لا أن نفترض أسباباً، ولا أن ندين الشعر العربي بتشكيل الأنساق السيئة، ونختصر إخفاقات الثقافة كلها بالتشعرن، ثم نبيح لأنفسنا بأن نكون الخصم والحكم. وحين تختصر الخطايا بالشعرنة نغفل عن أدواء حقيقية، ونمكنها من أن تعيث الفساد، ونكون كمن يصارع طواحين الهواء لافتراض مذنب غير قائم في الواقع.

ونود أن نشير في هذا السياق الجدلي إلى أن جوهر الخلاف ليس في التحول من (النقد الأدبي) إلى (النقد الثقافي)، فمن حق أي أديب أو مفكر أن يتخذ المنهج الذي يراه، وأن يعمل في الحقل المعرفي الذي يجد نفسه فيه، جوهر الخلاف في اختراع الخطيئة، وصياغة الإدانة، وطريقة التنفيذ، وعدم الاكتفاء بالتحول. ولو ترك النقاد لناموا، كما القطا الذي قالت عنه الأعرابية محذرة قومها: (لو ترك القطا لنام). إذ بإمكان المتعالقين مع الآخر أن يدلوا بدلائهم في آبار المعرفة تاركين الدلاء الأخرى تنزع مما شاءت، أما حين تكون المسألة أثرة وتصفية وإماتة فإن من حق المتضررين التحفظ على تلك التعديات، والتخلص من فرض أحادية الرأي والمذهب والآلة وضمان حق الاختلاف الذي قضي عليه بنغمة الموت.

النقد الثقافي: البديل أو الرديف .. ! (٨) [1]

و«النقد الثقافي» في منهجه وآلياته ومقاصده لا يكون بالضرورة ورقة إدانة للثقافة الماضية مع الزمن السحيق، ولا معول هدم للتراث العريق، ولكن الذين اتخذوه لهذه المهمات يوقعونه في الارتياب، ويحيدون به عن جادة الصواب.

وحين لا يحمل هذا الهم المريب، ولايمتاز عن مذهب النقد بمنهج واضح ولا آلة مغايرة، لا يحتاج إلى تبرٍّ، ولا إلى تخلية المشهد النقدي من أجله، ولا يجوز أن نتصوره مشروعا بدهنا به دارس لم يتخلص من شوائب تعالقات نقضها قبل ان يحكم نسيجها، فهي معه أنكاث من قبل ومن بعد. وإذا كنا لا نعرف هدف هذا المشروع ولا منهجه ولا آلياته، أو أننا نفهمها على غير ما هي عليه، فليس هناك ما يمنع من الأخذ بأيدينا، وإيصال المعلومة إلينا برفق وأناة، وأحب الخصال إلى الله الحلم والأناة، والضعيف أمير الركب. وحين يكون المشروع أخذا بالمضمون وعدولا عن اللغة والفن فإن طوائف النقاد في مختلف مراحل التاريخ يراوحون بين هذا وذاك، وقد يجمع الواحد منهم بين الأمرين، وقد يكون مع أحدهما تارة ومع الآخر تارة أخرى، ثم لا يكون مع هذه التحولات موت ولاحياة. ولو أن هذا النوع من الذواقين سلك سبيل«النقد الثقافي» أو غيره بهدوء، وبدون مواجهة تصفوية لما هو قائم، لما كان في الأمر من بأس، فنحن نمارس«النقد الثقافي» حين نشتغل بالثقافة، ونمارسه حين نشتغل من خلالها، ولا نحمل هم الفرادة ولا حلم الريادة، ولا نجمع الأشياع، ولا نقيم التظاهرات الجنائزية. وكيف تكون مشاهدنا لو كنا كلما بدهنا كاتب بدعوى نفضنا أيدينا مما فيها، ولحقنا به؟ نجثو على الركب لنتلقى أبجديات مستجداته، نميت «النحو» راهبين، ونميت «النقد الأدبي» راغبين، وندين اللغة بفحولتها، ونهجو الأمة بتشعرنها، ونصم الشعراء بمعرة الشحاذة والمداح، ونحملهم جريمة شعرنة الأمة. وبدهي أنه ما كان شعراء العربية وحدهم الذين انقطعوا للمدح والسؤال، وما قال عاقل بأن حضارة من حضارات الدنيا قد تشعرنت، لأن فيها شعراء مدحوا غيرهم، أو طمعوا بالعطاء من غيرهم، وما قال عاقل رشيد بانفراد الشعر بتشكيل نسق الأمة. فالمدح والسؤال غرضان من أغراض الشعر وهما ظاهرتان عالميتان، والشعر موهبة لا تخص حضارة دون حضارة، وإن تميز العرب دون غيرهم بفن القول، حتى لقد كانت معجزة رسولهم بيانية، وقديما قيل: «نزلت الحكمة على ألسنة العرب». والفصاحة والبلاغة والبيان مما امتاز بها الإنسان العربي، ولم ينفرد بها، إذ السبق في الشيء لايعني حرمان الآخرين منه. وإذا قيل بالتشعرن، فقد قيل من قبل: إن العرب ظاهرة صوتية وكلتاهما جناية بحق الأمة.

وحسنا لو طرحت المصطلحات في ظل المؤاخاة والتعايش، ولكن المزعج والمثير أن جالبي هذه البضائع لا يرضون بالحضور المشترك، ولا يفرقون بين الاستهلاك والإنتاج، ولا بين النصائح والفضائح، فهاجسهم أن يلتف الجميع بعباءاتهم، ومطلبهم أن يصدق الجميع فريتهم، وليسوا بدعا من الأمر، فالمشاهد العربية لا تخلو من إطلاقات يستفز بها المهمشون مشاعر العامة ليدخلوا متن المشاهد، ويشيع ذكرهم، وسوف أفرغ لتقصي نماذج من هذه الإطلاقات، وقد لايكون المستفزون متكئين على مجرد الإطلاقات، وإنما تكون أذيتهم بالتبعية المذلة. والتاريخ الأدبي يكشف عن صدق مقولة ابن خلدون في تقليد المغلوب للغالب، والغلبة هنا انكسار في النفس وضعة في الخلق، تتلبس البعض، ويأنف منها آخرون، والمتلبسون بها يتقنعون بدعوى التجديد والمبادرة، ويتعللون بما يمر

(١) تاريخ المقال: ٢٠/ ١١/ ٢٠٠١

به العالم الآن من تغيير ثقافي كبير، وإذ نتفق معهم، ونرى تباطؤنا في الاغتراف من مناهل العلم التجريبي الذي لاتتبدل قوانينه، إلا أن الاستجابة غير التخلي وغير اللحاق بالآخرين، ومن ثم فإن الاختلاف مع أولئك ليس في التحرف، ولكنه في أسلوب الأداء، وفي موضوع التناول وفي المقاصد، والتغيير المطلوب لا يكون باستبدال صبغة الغير بصبغتنا.

لقد ملئت مشاهد عصر النهضة ب «داروِن» و«فرويد»، وملئت مشاهد عصر الثورة ب «ماركس» و«سارتر»، وملئت مشاهد عصر الحداثة ب «بارت» و«دريدا»، وملئت مشاهد عصر البنيوية ب «سوسير»و«ياكبسون»، وهي في كل مرحلة تمتلئ بشرقيين أو غربيين.

وميزة التحول الغربي ترابط مراحله وتناميها، فيما يأتي تحولنا انقطاعاً، واستدباراً، وتخلياً، وتحول الغرب من منتجه إلى منتجه المعدل وتحولنا استهلاكي ليس غير، فعلماء الاجتماع يقلبون «دور كايم»، وعلماء النفس يرددون «فرويد»، وعلماء الفلسفة يجترون «ديكارت»، والعقاد لوح ب «هازلت»، وطه حسين استن ب «تين»، والواقعيون أزاحوا الجماليين، والبنيويون طردوا الواقعيين، والثقافيون أماتوا الأدباء. وكل مرحلة من مراحل الحياة الفكرية والأدبية ينسل في ربوعها أديب أو مفكر غربي، ويغيب آخرون، وكأن قدرنا أن نظل كالطاعم الكاسي ندَع المكارم ولا نرحل لبغيتها، نقتبس من نار الغرب، ثم لا نتمكن من إشعال نارنا. وإذا انطفأ وهج المذاهب هناك، ترمد قبسها هنا.

وهكذا قضت التبعية والدونية علينا، حتى تحولنا إلى تنابلة، نرقب الآتي من بعيد، فما نقول إلا ما قالت «حذام» وكأن الله لم يخلق لنا أدمغة تفكر ولا عقولاً تدبر ولا ألسنة تقرر، ومن أراد تصور الفجائع والهزائم فليقرأ في كتب الحداثيين، ليقف على القطيعة مع التراث واستحضار المتداول الغربي من الأسماء والكتب والمصطلحات، وياليت أننا حين أخذنا بعصمهم كنا مثلهم في استكمالهم واستيعابهم ما يتعلق بظاهر الحياة الدنيا. وياليت أنا حين استدعيناهم كنا باعتزاز العقاد أو بسعة ثقافة طه حسين أو باقتدار محمد مندور أو بأنفة زكي مبارك، وهذه الضعة جرأت«فوكوياما» على القول ب «نهاية التاريخ والإنسان الأخير» وإصدار هذا الرأي الذي خولناه بفعلنا عام ١٩٩٢م، وأحسبه قد راجع نفسه، وتحفظ على مقولته، وسوف نومئ إلى دوافع تلك المقولة وأسباب التراجع من خلال قفو آثار اللاحقين بالمستشرقين، وتقويم أثرها الاجتماعي والنفسي وإشعالها لفتنة الجدل الذي عوق مسيرتنا.

وإشكالية الذين اتخذوا المصطلحات الغربية ضراراً وتفريقاً بين الناس، أنهم لم يعولوا على ما في تراثهم من الأشباه والنظائر، وإلا فإن«النقد الثقافي» بنواياه السليمة ومقاصده الحسنة ومرجعيته التراثية موجود منذ الجاحظ في «حيوانه» و«بخلائه» و«رسائله»، ومنذ الأصفهاني في «أغانيه»، ومنذ ابن الجراح في«ورقته»، ومنذ الأندلسي في«عقده» ومنذ الإبشيهي في «مستطرفه»، ومنذ الشابشتي في«دراته». كما أن«النقد الأدبي» موجود منذ«أم جندب» إلى «أمبرتو» و«ياكبسون» و«بارت» والمتعمقون في نظرتهم يستبينون إرهاصات «النقد الثقافي» عند«طه حسين» في «حديث الأربعاء» وعند«أحمد أمين» في «فيض الخاطر» وعند«عباس محمود العقاد» في سائر دراسته وعند«مارون عبود» وعند ذوي النزعة الواقعية من أمثال «حسين مروة» و«محمود أمين العالم» وقد ترى ملامحه عند التراثيين من مثل «محب الدين الخطيب» في «حديقته» وعند سائر الموسوعيين. واهتمامات النقاد: الشكلية أو اللغوية أو الفنية أو الموضوعية موجودةٌ من قبل ومن بعد. ومن الخير لنا أن نقبل بكل منهج، وبكل آلية، شريطة ألا تكون على حساب ثوابتنا وخصوصيتنا وعمقنا اللغوي والفني والموضوعي،

وشريطة ألا يمارس معنا المستلبون الأستاذية والريادة والإسكات، كما في جريدة «الوطن ١٤٢٢/٣/١٧هـ»، وشريطة ألا يحرض المبتدئون ويغرر بهم للإغارة على الآمنين لتشويه سمعتهم والنيل من مكانتهم واتهامهم بما لا يليق بالسوقة. ليشتغل من شاء بآليات البنيوية، وليأخذ من شاء بالنقد على أي اتجاه، وليعالج اللغويون اللغة على مذهب «سوسير» أو «سكنر» أو «تشومسكي» أو «ابن مالك» وليقل من شاء في اللغة على سنن المتقدمين أو المتأخرين، وليتحدث من شاء عمن شاء من المتعاليات أو المتدنيات، ولكن لا يتبعون ذلك إزهاقاً لأرواح، ولا اتهاماً بجهل، ولا تجنيداً لمرتزقة يسخرون بكفاءات البلاد، ولا يكون عويلاً جنائزياً، ولا شللية تختصرنا في شخص واحد، أو تفترض عجزنا عن اللحاق بمن طارت به خفة بضاعته وعدم ترويه، ولا أن يطلب صمتنا ليكون ناطقاً واحداً. لتبق لنا شخصيتنا، ولتبق لنا تعددية الآلة والمنهج وتغليب اللفظ أو المعنى، الثقافة أو الأدب، دون مشاحة أو ضيق في المادة أو المكان، كل ذلك ممكن، فالنص الأدبي ذو أبعاد: ثقافية وأدبية وفنية ولغوية وتكوينية ودلالية ونفسية وجمالية واجتماعية، وله أنساقه وسياقاته وتناصه، وللناقد أن يتخذ من النص ما يحلو له، وما هو في حاجة إليه، و«نظرية التلقي» تعدد صور القراءة والاهتمامات، والمتسطحون يختصرون أنفسهم في زوايا ضيقة، ويكرهون الآخرين على أن يكونوا أمثالهم. وحين تصفى قضايانا، ونذاد عما نريد لما يريدون يكون من حقنا القبول أو الرفض، وليس في الخيارين مزيد فضل محض، لا يكون مرتبطاً بالحاجة والمشروعية. وما نواجهه من صلف الجنائزيين عين التفحلن الذي ينهون عنه، ومثل هذا من كبير المقت، لأنه قول لا يعضده فعل، وصدق الله ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣].

لقد طغت «الحداثة» بكل بعدياتها وأوذينا من ذويها، ثم ولت الأدبار، وطغت «البنيوية» بكل بعدياتها ونفينا من المشاهد، ثم ثوت وانفض سامرها، وطاف علينا النقد السوسيولوجي والنفسي والأسطوري والأيديولوجي، والجديد بكل اهتماماته الأسطورية والخرافية والأنثوية، وتقحم علينا «النقد الثقافي» ووصفنا بالمستكيتين اللاهثين وراء عجاجة المبادرين، وجاء المتماهون مع «نعوم تشومسكي» ساخرين بالنحو العربي وبالنحاة، مميتين لهؤلاء وأولئك، يراهنون على «الملكة والغريزة»، ويرفضون «التفاضل» بين اللغات، لا اكتشافاً من عند أنفسهم لما يقولون به، ولكن تلقياً غير حصيف، وكل من قلد ظاهرة غريبة، لم يفهما، ولم يحسن التعامل من خلالها، أوغل في النيل من حضارته، وتولى كبر التقليل من شأنها، ونفي بعض مفرداتها، وكأنها سبة الدهر وعار الزمن، وما السبة والعار إلا ركونهم على الغير وتمثل أخلاقيات العائل المستكبر.

إن تخلية المشاهد بدعوى الموت أو النفي ضرب من «التشعرن» الذي ينهض «النقد الثقافي» لضربه، وهي عين «الفحولة». وهل بعد الإماتة والإسكات من فحولة عاطفية متأججة وتشعرن متسلط. ولو أن التفحلن والتشعرن في التعامل مع الآخر جاء يرود للمبادرات، ويحمي ساقة المجددين لكان ذلك مستساغاً ومتوقعاً، وإن لم يكن من فضائل الأعمال، ولكن الطامة الكبرى أن أولئك كما وصف أخذهم من الغرب الحداثي المتمركس «محمود أمين العالم» في دراسته «الجذور المعرفية والفلسفية للنقد الأدبي العربي الحديث والمعاصر» في ملف «الفسلفة العربية المعاصرة» بقوله: «لقد كان استنساخاً بليداً وتقليداً أعمى وتكراراً مسطحاً ص ٧٥» وهو شاهد من الأهل، وذلك ما علمناه في المتفحلنين، وما شهدنا إلا بما علمنا.

والمؤلم أن الذين يمنون أنفسهم بالاستحواذ على المشاهد لا يستوصون بها خيراً، ولا يبتدرون، والذين يتعرضون لسقط الآخرين لا يتقنون، والذين يستبدلون الأدنى لا يستقرون، وضِغث الإبَّالة ينقادون وراءهم ثم لا يسألون.

والموجع أن الذين يقودون هذه الحملات«التتارية» على ثوابت حضارتهم ليسوا من السوقة الذين لا يؤبه بهم، ولا من الضعفاءالذين لا يلتفت إليهم، ولا من الهامشيين الذين لايخشى من تأثيرهم، وليسوا ممن لم يبلغوا الأشد، بحيث نرقب نضجهم وعودتهم إلى جادة الصواب. وإذا كان البعض منا لايزال يعيش مرحلة الصدمة الحضارية والرضخة الحزيرانية، ويتكلم من اللاشعور ومن«تيار الوعي»، فإن فينا من تحامل على نفسه وسحبها بجراحها النازفة خارج مأسدة«المغول» القادمين من الداخل، وباشر تضميد جراحه والتحرف للفعل الحضاري. والخلطة المستحكمة مع الآخرين والحاجة إلى بعض ما عنده تفرضان فهم الطوارئ وأهدافها ونوايا أصحابها، وتحفزان على تأمل نتائج فعل المتسرعين في الأخذ والتخلي، وليس من الحصافة أن نعول على دعوى إفراغ المحتويات والمضامين، ولاعلى قوة الوازع، وهيمنة السلطة، ولا على بقاء الطائفة المنصورة، وحفظ اللغة والدين بحفظ الذكر، فالخوف على ضياع الذات لا على اضمحلال المبدأ. لقد عرفنا الغرب منذ«حملة نابليون»، وأخذنا منه بدون شرط، ورفضناه بدون تروٍّ، وتحكم المستغربون في المشاهد والوسائل، وانكمش الرافضون، فماذا حققنا على مستويات القبول والرفض المرتجلين؟ هل كنا كما هو في قوته واحترام إنسانه وعلمه بظاهر الحياة الدنيا؟ أم أننا في انحدار وضعف؟ أخذنا ب «الوضعية» و«المادية» و«المثالية تأسلم قوم، وتعلمن آخرون، وتمركست طائفة، وترسملت أخرى، وادعينا«الديمقراطية»، وحررنا الوصول إلى المرأة، وطبقنا المناهج، وأوغلنا في الاغتراب، وها نحن في حال لا تسر الصديق، فهلا نفكر بتحرف جديد؟ لماذا لا نكون جريئين، نستقرئ الواقع المعاش، ونحاول تحسس أوجاعه، ونتحرف لتدارك الأمر من خلال حوار حضاري يضمن تكافؤ الفرص، وتوفر الندية؟

وما نقوله هنا ليس تصدياً لمقترفات شخص أو شخصين، وإنما هو تصد لمنظومة فكرية عربية، تعمدت إفساد الأخلاق وانحراف الفكر وغربنة القيم.

وهي منظومة تمتلك المقدرة المعرفية، والوسائل المهيمنة، والدعم السخي، والحماية القوية من حضارة الاستكبار. وما من مفكر أو أديب أصيب بدخن الفكر المادي، إلا وتظل الحضارة العربية عنده متهمة ومستباحة، وحماتها مدانون بشرعنة الفوات الحضاري، وبالردة الثقافية. والخطورة أن«مغولها» ينسلون من الداخل، وفات المخبلين والمخذلين أن الحضارة أي حضارة لها أعماقها التاريخية وثوابتها ومرجعياتها ومناهجها وآلياتها ومناخها الذي لايقبل إسقاط التجربة الناجحة في محيط آخر، ثم مطالبتها باستيعابها والتفاعل من خلالها، في حين يقبل هذا المناخ التأسيس والاقتراض. والنكبات التي أوجعت الحضارة الإسلامية والمصائب التي تجرعتها الأمة العربية ولم تستسغها، إنما جاءتها من هذا الاستلاب الفوري وغير المتأمل، ومن الطبعي في أي حضارة أن ترفض الأجسام الغريبة، وأن تضوى مما لا يتفق مع نسيجها، والعققة من أبنائها هم الذين يكرهونها على أن تنسلخ من ثوابتها، والماكرون يربطون بين التخلف والأسلمة، ويحيلون حق التساؤل والتحفظ على محاربة التفكير بعد منع التعبير، وفات أولئك المتسلطين أن التفكير فريضة إسلامية، وأن التعبير حق مشروع. والتخوين والإدانة من مفردات الثواب والعقاب في أي مبدأ أو عقيدة، والإشكالية ليست في مشروعية الحكم، ولكنها في مسوغات الجزاء، وإذا اختلطت المفاهيم عند المشروع الإسلامي فهي أكثر اختلاطا عند

ما سواه من المشاريع، والإسلاميون يردون إلى مرجعيتهم عند التنازع ويرجون من الله مالا يرجوه غيرهم.

النقد الثقافي: البديل أو الرديف .. ! (٩)[1]

والحضارة الاسلامية التي تُنقَض مفرداتها عروة عروة، بدأت بالكلمة المعجزة: نظما ودلالة، وهي مرجعيتها، وانسانها محكوم بالمرجعية في البدء وفي الاختلاف، والحرية فيها منضبطة، لأنها محكومة بالكلمة، وأي دعوة لحرية الرأي أو لحرية التعبير أو لحرية التفكير، لا تضع في تصورها ضوابط المرجعية هي حرية مزيفة، لأنها فوضوية، وحرية الآخر حين نحيل اليها، لا نستذكر كم هو الفرق بين «العقد الاجتماعي» في ظل حضارة مادية، وحاكمية «الذكر الحكيم» في ظل حضارة سماوية، ومن ثم لا يجوز القول من خلالها، ولا التعويل عليها، ولا أن ينهض لها دعاة، والمؤسف ان كل الذين يتحفظ على طرحهم المستغرب يحيلون إلى مقتضيات الحرية، ويظنون أنهم حسموا الموقف لصالحهم، ومفهوم الحرية وحدها يعد اشكالية تتأبى على الحل، ما لم ترد إلى الاسلام. وحضارة الاسلام لها أعماقها البعيدة الأغوار المتعددة الخطابات، ولها تراثها الذي وسع اختلاف طوائفها والمتمثل بملايين المخطوطات والمطبوعات، ولها أبعادها التاريخية والفكرية والأدبية والثقافية والمعرفية، ولها ضوابطها، وعلى المشتغلين بالنفي والاثبات والاحياء والاماتة أن يقتربوا من هذا التراث وان يلموا ولو بما لا يجوز الجهل به، ليكون نفيهم واثباتهم عن علم. والمتعالقون مع مفردات الحضارات الأخرى لا يجوز لهم الأخذ المطلق، ولا تخلية مشاهدهم من مفردات حضارتهم، وكيف تتأتى الامانة أو التهميش من طوائف لا يعرفون ما هم عليه، ولا ما عليه الآخر، ولربما فاتهم ان حضارتهم كالبحر اللجي يموج بمخلوقات غريبة وعجيبة، وإذا اتخذ مخلوق خداج طريقه إلى أعماقها سربا، ضاع وسط آلاف الأنواع من المخلوقات، يذوب فيها، ويتشكل وفق مفهومها، وقد يمارس المؤاخاة أو تنازع البقاء، ولا يجوز لأي جالب ان يجعله الحاكم بأمره، المهيمن على الأشباه والنظائر. وإذ يكون من حق أي مفكر أو ناقد أو مبدع أن يجرب، وأن يتمنى ما عند الغير من ظواهر الحياة الدنيا، وان تعدو عينه إلى المستجدات، فإن من واجبه أن يعرف قدر نفسه وقيمة حضارته، وان يتواضع أمام شموخها وتراثها. و«النقد الأدبي» و«النحو العربي» مفردات من مفردات تلك الحضارة لا يترتب على نفيها فوز ولا على بقائها خسارة، إذ ليس شيء من تلك المفردات بمعوق لتحرك «النقد الثقافي» أو «التحويلية» التشومسكية فلماذا هذا الاقصاء؟

ولماذا هذه الضجة الكبرى التي لا تنطوي على شيء، ولا سيما ان الطارىء المحتفى به له جذوره في حضارتنا، وإن لم يكن بفقاعة الطارىء، وحين لا يكون شيئاً من مفردات الحضارة حائلا دون الاستفادة وحسن الوفادة، فإن من التجني النيل من تلك المفردات، ومن الخير لنا والحالة تلك ان ندخل في المعمار الحضاري العربي، ونطور في مفرداته، لا أن نتشفى في الاجهاز عليها واحدا تلو الآخر لحساب مفردات حضارة أخرى. كانت «نظرية النظم» عند «الجرجاني»، ومن الممكن التحرف في معمارها لتكون بديلة عن «البنيوية»، وكانت الماحات ذكية عند «سيبويه» قد تغني عن كثير من نظريات اللغة عند سوسير وتشومسكي، لو أننا حاولنا المؤاخاة، ولم نقترف خطيئة الازهاق، وكانت بوادر علم الاجتماع عند «ابن خلدون»، ولمحات علم النفس عند «ابن سينا»، وكان تراث المعتزلة والمتصوفة منطويا على قيم جمة، وان تحفظ السلفيون على بعض ما عندهم، ولكن الانبهار والتبعية فوتا علينا فرصا كثيرة، مع هذا العقوق فإن بالامكان التعايش والمؤاخاة وذلك أضعف الايمان.

---

(١) تاريخ المقال: ٢٧/ ١١/ ٢٠٠١

يكون «النقد الثقافي» وهو كائن من قبل ومن بعد، ويكون «النحو العربي» وهو كائن من قبل ومن بعد، وتكون مناهج البحث اللغوي كما هي عند «سوسير» و«سكنر» و«تشومسكي»، وهي كائنة من قبل ومن بعد، وتكون «الملكة» أو «الكسبية»، ويكون «التفاضل» أو لا يكون، ويكون تبادل الآليات فيما بين المناهج، وهو كائن من قبل ومن بعد، ولكن لا يجوز ان نتصور أننا نعيش تخلفا حضاريا ولا أن المنقذ لنا من ضعفنا الحضاري واللغوي بيد الناقد الفرنسي، أو اللغوي الأمريكي، وحضارتنا لا تحول بيننا وبين الاستفادة من كل جديد، انها تدعو إلى الاعداد والسير في مناكب الأرض وتحفز على النظر في الأنفس وفي الآفاق وفي ملكوت السماوات والأرض وتحث على التبدر واستكناه السنن، ولكنها لا تقبل أن تنقص من أطرافها. والمؤسف ان الذين آذونا من قبل، وحصرونا في ضوائق «النقد البنيوي»، عادوا ليخرجونا منه بذات «الترويسة» وعاد معهم «الكومبارس» ذاته بذات الاحتفالية التي كنا سمعناها في استقبال «البنيوية» و«الحداثة»، وسمعها من قبلنا حين طرح «النقد النفسي» و«النقد الاجتماعي» و«النقد الجمالي»، وحين طرحت المذاهب «الوجودية» و«الماركسية» و«الواقعية» وغيرها. فأين تلك المذاهب؟ وأين دعاتها الذين حكموا بنهاية التاريخ؟ إنها تركة تركض فيها دابة الأرض، فهل تدلهم على موتها، ليتبينوا ضلالهم؟ ولما تنزل التركة البائسة وثائق تفيض بها رفوف المكتبات، مؤكدة خيبات الأمل، ولكنها خيبات لم نستفد منها، وان ألف المتأذون من خيبات الأمل عن «بؤس الماركسية»، و«بؤس الفلسفة»، و«بؤس البنيوية» وهي كتب تعكس حالات الاحباط، وكان يجب أن تكون كالنذر والآيات، والمؤسف أنها لم تغن، وكيف يغني بها قوم لا يعقلون، وممارسة القتل المتلاحق والموت الناجز لم تمكن أولئك من مواراة سوءات مذاهبهم الذبيحة، التي أغثوا المشاهد بها، وهم أحوج ما يكونون إلى غراب يبحث في الأرض ليريهم كيف يوارون تلك السوءات التي قتلوها، وتركوها في العراء.

وإذا كان «النقد الثقافي» من خلال همه أو منهجه أو آلته إن كان ثمة آلة ومنهج، أو كان ثمة مجال وهم قد أفرغ من مرامية ومحتوياته الفرنسية أو الحداثية، وعاد كما نعهده من قبل، فإنه مشروع حضاري لا غبار على حضوره دون أثرة أو ايثار، وإنما يكون حضوره كحضور أي ظاهرة تشغل حيزها، ولا تعدو عينها إلى ما متعت به ظواهر أخرى، ومثل هذا الاتجاه لا يحتاج إلى مبشرين، ولا إلى مشاريع، ولا إلى هتافات وغوغاء. أما حين تكون له نوايا وأهداف أخرى، وهو مالا نرجوه، ومالا نستبعده، وبخاصة حين جعلت الأنساق هدفا، واختصرت القيم والممارسات في السيء من القول الشعري، وحين اتهمت اللغة بالفحولة، وحين ضربت الثقافة لتشعرنها، وضربت اللغة لفحولتها، وضرب النحو لنظامه، فإننا محقون في الارتياب، ومحقون في اعانة الأخ الظالم والمظلوم، واعانة الظالم رده عن ظلمه. والمريب أن كل تحول لا يعدو التعالق مع الطوارىء يقابل باحتفالية جماهيرية، والاحتفاليات المجانية تنبىء عن اندفاعات لا مبرر لها، كما ان طرح الرؤية بهذا الزخم ودعوى المشاريع تحفز الأنفس المتلقية إلى التطلع إلى مشروع له اضافته المتميزة ومرجعيته المعتبرة وضوابطه ومناهجه وآلياته ومجالاته التي لم تطرق من قبل ونتائجه التي لا تتحقق إلا من طريقه. و«النقد الثقافي» لا يلوي على شيء من تلك التطلعات، وهي أيسر ما يمكن توفره في مشروع ضج الفارغون في استقباله، وما صنعت الشخصيات الفارغة إلا بالتشايل والتنافخ، ولو سألت الراكضين عما يلوون عليه لما وجدت شيئا، وكيف يعرفون الحداثة وبعدياتها والبنيوية وتحويلاتها، وكيف يتبينون اضافات «دريدا» من خلال «تفكيكيته» وكيف طبق »شتراوس» آلية لغوية على ظاهرة اجتماعية.

و«النقد الثقافي» حين نسلم بأنه مشروع نقدي كما «البنيوية» في عالم اللغة ابتداء ثم في عالم الأدب انتهاء، وكما «التحويلية» في عالم اللغة، لا نجد له ضوابط منهجية متميزة، ولا توصيفا آليا محددا، ولا تحديدا دقيقا لمضاميره، انه ضرب من ضروب الانفتاح غير المبضبط، وإذ لا يعدو في أقرب تصوره الاشتغال بالمضمون أو بمكون المضمون فإنه لا يستحق هذه الضجة الكبرى. والمتعقب لتحولات النقد الغربي يجد ان طائفة كبيرة من النقاد اتخذت الأنساق مجالا نقديا، وان لم تسم عملها نقدا ثقافيا، نجد ذلك عند «كريستوفر كوريل ت١٩٠٧م» وعند «لوسيان جولدمان ت ١٩٧٠م» وعند آخرين تقصاهم عدد من الراصدين لاتجاهات النقد الحديث منهم: «د. سمير حجازي» في كتابه «النقد الأدبي المعاصر». لقد جاء «النقد الثقافي» محليا على الأقل مختصرا مهمته باتهام الثقافة العربية بالتشعرن ومدينا اللغة العربية بالتفحلن، والتعويل على هذين الاتهامين لا يخول الاستبدال، ولا يشرعن الوفيات، وصيغة «الشعرنة» و«التشعرن» و«النسقية» لم تكن مبادرة من صاحب المشروع الذي اعتاد على التلفيق من هنا وهناك، لقد جاءت «الشعرنة» في كتاب «جمال الدين بن الشيخ» «الشعرية العربية» في «الفصل الثالث» الذي تناول فيه «شعرنة الواقع»، وسوف أعود إلى قراءة هذا الملمح الذي عول عليه مشعرن الأمة. وجاء مفهوم «النسقية» في أعمال كثيرة، كما في كتاب «الشيخ والمريد» لعبد الله حمودي الذي يحيل في قراءته السياسية على الأنساق الثقافية، وكم نتمنى الوقوف على مشروع «كريم عبد » الذي بدأه بمقالات نشرها من قبل على حد قوله، تمهيدا لجمعها، ليجعل منها مشروعا في زمن النبوءات، فكل من «حك استه» وتمثل الأمثال، وعد بالثلاثيات الروائية، وبالمشاريع الفكرية والسياسية والأدبية، لقد طلع «كريم عبد » من تحت ركام النسيان، واتهم صاحب كتاب «النقد الثقافي» باعتماده على بعض مقالاته، واتهمه بسرقة المشروع، والمفلسون من القضايا يحيلون إلى السرقة، وكأن أرض العلم والثقافة ضيقة، ولما يزل شبح السرقة يطارد صاحب المشروع الثقافي، حتى في غلاف «الخطيئة والتكفير»، ولست مع دعوى السرقة، لا في الأولى، ولا في الثانية، إذ لا مبرر لها، وما قاله الاثنان كلام مطروح في الطريق لا يحتاج قائله إلا أن يفتح فمه ليملأ الرحب بضجيج فارغ كما طحن القرون. وحين نختلف مع أحد فليس من مستلزمات الاختلاف أن نصفه بالجهل أو بالضعف ولا أن نتهمه بالسرقة، قد يجهل بعض مفردات قضيته التي يشتغل بها، وقد يخطىء الطريق اليها، ومن ثم فإن القول بالسرقة قول جائر لا مجال له.

والاشكالية ليست في السطو وانما هي في التوهم كالقول بالتشعرن مثلا. وإذا سلمنا بالتشعرن القائم على الشحاذة والمدح فكيف نتصور الثقافة دون الشعر والشعراء، وكيف نتصور اللغة العربية دون الفحولة وبدون النحو العربي.

وسوف نسلم بأن «النقد الثقافي» في بعض وجوهه اشتغال بالنص في أوسع تصوراته، وبما هو خارج النص، وتحقق ذلك يتمثل بالأنساق المتعددة التي شكلت وعي منتج النص بواسطة نصوص سالفة متعددة، غير أننا مع هذا لن نسلم بأن الأنساق مخرجات السيء من الشعر خاصة، وهذه السلوكيات المتشعرنة تحولت بعامل الاستكناه والاختراق والتفاعل إلى أنساق معيبة، لأن من لوازم التشعرن الهياج العاطفي والشحاذة والمدح الذي يصنع الطاغية، وإذ نسلم بأن النص يسهم في تشكل الوعي نستدرك أشياء كثيرة تناثرت في سياقات الدراسة، ومع التسليم نود ألا يكون قيام «النقد الثقافي» مرتبطا بادانة الأنساق الثقافية، كما يتصوره البعض، ليكون فعله مقتصرا على ضرب السوائد والقيم بحجة تشكلها الخاطىء من تأثير الشعراء الشحاذين والمداحين، على افتراض ان شعر «المتنبي» لا يمثل إلا الشحاذة، كما يبدهنا به المبشر بهذا المذهب النقدي، وكم أتمنى لو ان المتنبي شعرن الأمة، فشعره مليء بالحكم والتجارب والقيم، وما سار شعره إلا

لجلال معانيه وجمال مبانيه، وما قتله إلا الاعتزاز والأنفة، وكيف يجرؤ انسان على ادانة مضامين المتنبي، والشعراء كافة لا يستقلون بالتأثير، ولا يقدرون على الشعرنة، فأمتهم أمة البيان والاعجاز القولي، وإذا كان المستشرقون يحرصون على اختصار ثقافتنا في الخرافة والعامية ويحيلون إلى «ألف ليلة وليلة»، فإن القول بالتشعرن والاحالة إلى رديء الشعر يواشج هذا الهم الاستشراقي وليس شرطا أن يكون هناك مواطأة.

والأمة التي تقوم حضارتها على الاعجاز البياني لا تتشعرن جملة وتفصيلا، الشعر صوت جمالي امتاعي لا يستأثر بشعرنة الأمة، بحيث تكون رهينة الشعر ومصوغة منه ذهنيا وسلوكيا، ومن ثم تكون شحاذة كشاعرها «الشحاذ العظيم»، وتكون مداحة كشعراء المدح والارتزاق، الأمة يكون فيها الشحاذون، ويكون فيها المداحون، ولكنها لا تختصر في شيء من هذا أو ذاك، وعلى افتراض الأمة الشحاذة المداحة، فإن الثقافة لا تدان من خلال ظواهرها الاجتماعية التي لا تفرضها، ولا تكون من مشروعها الواعي، ثم ان الثقافة ليست مجرد التطبيق السلوكي، إنها تراث جاثم في الكتب والموسوعات، يدان الناس بممارساتهم، ولا تدان الثقافة إلا من خلال المعطى النصي القطعي الدلالة، ويحميها من المؤاخذة احتماليات الثبوت واحتماليات الدلالة، وأجمل ما قيل عن احتماليات الثبوت ما ذهب اليه ابن حزم الظاهري، وهو يعالج قضية اثبات السنة وحجيتها، على أن احالة الضعف على الثقافة محاولة لشرعنة ضربها أو احلال بديل عنها يتولى صياغة ذهنية الأمة وسلوكها وفكرها، وتلك عين المشروع الاستشراقي، والمؤكد ان كل الثقافات خليط من نصوص مثالية وأخرى دون ذلك، ولكن التطبيق يصدق ذلك أو يكذبه. واعتوار الأمة من خلال ادانتها بالتشعرن تقويض لحضارة عريقة، علمت العالم كل القيم، وفقدت الكثير منها بسبب نخبها الذين استدبروها، ووصلوا حبالهم بمفردات الحضارة المضادة، ومثل هذا يشبه الداء الدفين في الأعماق.

ومشروع «النقد الثقافي» لا يقتضي بالضرورة دعوى التشعرن، ولا يلزم معه افتراض انساق مشتعرنة، ولا يخول اتخاذ موقف من ثقافة الأمة، واتخاذ الأنساق ذريعة لاستدعاء «النقد الثقافي» يثير الارتياب والتساؤل. وإذ لا يكون من بأس في القول عن الأنساق القائمة حقيقة والمتشكلة من مرجعيات متعددة يكون البأس كله في اختلاق أنساق ليست قائمة، وقصر تشكيلها على السيء من مصدر واحد، والمؤمل ألا يتصور البعض تحفظنا على التحولات النقدية وكل ما نوده التأكيد على ان التحفظ لا يعدو ربط التحول بادانة الثقافة. وتحولات النقاد مع ظواهر العصر المتوقعة والمطلوبة فعل مشروع، ولكن التحول المشروع لا يستدعي الكيد لثقافة قائمة ومتشكلة من مرجعيات متعددة، والنقاد المرنون في استجابتهم للتحولات قد يتعرضون للاخفاقات، وبخاصة حين لا يمتلكون آليات التحول ولا ينطوون على امكانيات معرفية وثقافية ترود لهم وتحمي ساقتهم، ومثل هذا متوقع، والمؤذي ان تجتمع التحفظات كلها في مشروع «النقد الثقافي»، وتحولات النقاد في الغرب الأوروبي وفي المشرق العربي ومغربه معروفة ومرصودة والتحيز إلى طائفة من هؤلاء أو أولئك لا يكون مشروعا، ولربما يكون «النقد الثقافي» تحولا من «قانون اللغة» كما يرى بارت إلى «قانون النسقية» كما يرى شتراوس، وكلاهما عول على البنية بوصف اللغة نسقا عضويا وبوصف السلوك نسقا اجتماعيا أو ثقافيا. ولو أن الذين اتخذوا «النقد الثقافي» قنعوا بالترادف، والتمسوا مفردات الأخطاء، وعالجوها بالتي هي أحسن، لما كان في الأمر من بأس، إذ من حق أي أديب أو مفكر أن يتحرف أو ينحاز، ولكن التحرف والانحياز يجب أن يكونا لصالح الأمة ولمفردات حضارتها.

واشكالية الأنساق الثقافية المتفق عليها أو المختلف حولها أنها مخادعة، بقدرمخادعة المدعي، فهي بين الفرضية والواقع وتعدد مصدرية التشكل، البعض يختصر النسق في

الشعر، كما اختصر اللغة في الفحولة، وقطع بأن الأمة متشعرنة في أخلاقياتها، بمعنى أنها تعيش بالعاطفة بوصف الشعر فناً عاطفياً. ولهذا وصف الشاعر الحكيم الذي سار شعره بالشحاذ العظيم والمداح الكذاب، ليكون المشكل الوحيد للنسق الثقافي العربي، والناقد الذي استدبر الفن واللغة واستقبل الأنساق التي اختلقها أو استملاها، يشرعن بهذا التشكيل ضرب الثقافة. وفات المدعي أن الأنساق الثقافية العربية ليست متشعرنة على الاطلاق. لماذا لا نقول بأنها انساق ثقافية قرآنية، أو انساق ثقافية فلسفية أو فكرية؟ أو هي على الأقل خليط من هذا وذاك، بحيث لا يكون الشعر وحده المستبد في تشكيل أنساق الثقافة، وحين نقطع بالتشعرن، لا يجوز لنا أن نختصر الشعر العربي في المدح والشحاذة. والنقاد يكادون يجمعون على ان المتنبي حكيم، وأنه يجمجم عما في نفوس الناس، وأنه أكثر الشعراء سيرورة، وهو قد عرف من قبل من أين تأتي مذمته، و«المعري» جرَّ من رجله حين لفت إلى ذلك في مجلس أحد الكبراء الناقمين، ومن ثم فلن أعرِّض نفسي لمثل ذلك، بحيث يكون الجزاء معلقة هجائية كما سلف من تصديات تدع الحليم في لجة من أمره، وما فوت علينا فرص التحرير المعرفي للأشياء إلا من هم ألج من الخنفساء، تعرض لأخطائهم، وتود منهم ان يدافعوا عن أنفسهم، ثم تراهم يكيلون الشتائم دون حياء أو استحياء.

وسأدع المتنبي يحمي نفسه أو يحميه غيري مردداً: «أنج سعد فقد هلك سعيد».

النقد الثقافي: البديل أو الرديف .. ! (١٠)[1]

ولكيلا ينثني السهم عائداً بذات النفاذ إلى مصطلح يقبل التعايش، ولا يتنكر لجذوره ومرجعياته وضوابطه، أشير إلى أن «النقد الثقافي» بمعهوده الذهني، لا بتحديده الإقليمي الاعتباطي وغير المسبوق، لا يختلف عن «النقد الإسلامي»، إذ يشكلان انعطافاً «مضمونياً» ليس غير، إذ ليس لهما منهج أو آلة يفترقان فيهما عما هو عليه «النقد الأدبي» وتوهم الاستقلالية حدا بالبعض إلى الإنكار أو التحفظ. ومشروعية «النقد الإسلامي» أنه يشكل اتجاهاً من اتجاهات «النقد الأدبي» مفترضاً قيام الأصل، فيما يتعمد «النقد الثقافي» الإقصاء والأثرة. وافتراء الاتهام للنقد الأدبي وافتراض السلطان والإسراف في القتل ظلماً وعدواناً.

والمتعقب للدراسة التطبيقية من خلال كتاب «النقد الثقافي» يجد أنها تحيل على واحد من أخطر مفهومات الثقافة، وهو: السمة والخصوصية والأداء والتصور للأشياء والموقف منها. وهو مفهوم تتنازعه الحضارة والثقافة والاجتماع ومن وراء ذلك الدين، وهذا الجمع الابتساري يفوت المقتضى الرئيس لأي مصطلح، وهو الجمع والمنع، ثم إنه يفضي في النهاية إلى محاذير من أخطرها أنه يقرر تحول القيم الثقافية من بعدها الانساني إلى بعد نفعي ذاتي، وتحول الخطاب الثقافي إلى خطاب كاذب ومنافق، وبخاصة حين يعمم ولا يستثني، ويشيع ولا يصلح، ويفضح ولا ينصح. وهذا التصور يكفي لإدانة «النقد الثقافي» إقليمياً، والنسق الثقافي العربي ليس هو الأسوأ في السياقات الثقافية العالمية، وليس تشكله وقفاً على السيئ من مصدر واحد. وسوف نرجئ التفصيل في هذا لوقته، ولكن ليس هناك ما يمنع من الإشارة إلى: دعوى التشعرن، وقصر الشعر على أقبح الأغراض، وقصر التأثير عليه، والقول بأن أخطر تحول حدث في الثقافة العربية هو ظهور شاعر المديح، وتسليع البلاغة، ووصف المتنبي بالشحاذ العظيم، وتعميم النسقية المدانة، والتحيز إلى المتماكرين بالشعر العربي، وكلها تهون إلى جانب اختصار النسق الثقافي في السيئ من الشعر، تمهيداً لمشروعية التصفية، دون إحلال للبديل أو تحديد لمشكل نسقي قائم إلى جانب أنساق أخرى، وذلك قول لم يقل به أحد من قبل، وإساءة لحضارة لم يجرؤ على اقترافها منتمٍ إليها. وليس مُسلَّماً القول وما بين الأقواس من كلام صاحب المشروع في كتاب المشروع بأن: «النسق الثقافي العربي كله وهو نسق كان الشعر وما زال هو الفاعل الأخطر في تكوينه أولاً وفي ديمومته ثانياً ص ٩٣»، كما لا نسلم بأن: "عيوب الشخصية العربية ذاتها ص ٩٣» من النسقية التي ينطوي عليها الشعر. ولا نسلم بأن الشعر هو أهم المقومات التأسيسية للشخصية العربية، وليس من الانصاف للإنسان العربي أن نقول في حقه: «إن النفس العربية قد جرى تدجينها لتكون نفساً انفعالية تستجيب لدواعي الوجدان أكثر من استجابتها لدواعي التفكير وصارت الذات العربية كائناً شعرياً تسكن للشعر ولا تتحرك إلا حسب المعنى الشعري الذي تطرب له غير عابئة بالحقيقة، وما كانت الحقيقة قط قيمة شعرية، وبالتالي فإنها لن تكون قيمة ثقافية طالما أن شعرية الخطاب هي اللب اللغوي والقيمي لثقافتنا ص ١٠٥». وما سقناه قول المبشر بـ«النقد الثقافي» الإقليمي الذي استقبل باحتفالية فارغة من غوغاء فارغين. وإذ لا نزكي الثقافية العربية بوصفها السلوكي والتصوري أو بوصفها المعرفي، فإننا لا نرضى بالتعميم واستدبار المؤثرات الأهم، ولا بافتراء الاتهام، وإصدار الحكم من كاتب لم يبرح درك السمسرة. وخشية الابتسار نحيل إلى الكتاب، ونتمنى أن يتوفر المستحيل

(١) تاريخ المقال: ١٨/ ١٢/ ٢٠٠١

على إمكانيات التفكيك والاستكناه، ليكون تصوره دقيقاً، وموقفه عادلاً، فلا تأخذه العزة بالاثم، ولا يجرمنه الشنآن على ألا يعدل، كما نتمنى أن يكون على شيء من المتداول في المشاهد بحيث لا يقزمه الانبهار بما هو دون العادي، والموفق من تمني جريان الحق على لسان الأنصار والخصوم على حد سواء. وما نقوله من آراء، وما نَخْلصُ به من نتائج، يحال إلى وثائق نصية، قرنت ومحصت من لفيف من الأدباء والمفكرين والأكاديميين داخل البلاد وخارجها كما يدعي المؤلف في كلمة الشكر التقليدية لمقدمات الغربيين «ص٥»، وما على المواطنين أو المتحفظين أو المترددين إلا أن يعيدوا قراءة الكتاب مستصحبين تساؤلاتنا، ثم ليرتقوا مع القول ونقيضه، ليستبينوا وجه الحق، ولا يسكتوا عنه خشية الوقوع في الشيطنة الخرساء.

وأمام جناية الاختصار والتعميم: اختصار التأثير بالسيئ من الشعر، وتعميم ذلك في ثقافة الأمة، نتساءل: أين تأثير الذكر الحكيم والسنة المطهرة؟ وأين فيوض الفلسفة العربية ورؤى أساطينها وصراعاتها بين «التهافت» و«تهافت التهافت» و«رسائل إخوان الصفاء» و«الرد على المنطقيين»؟ وأين انعكاسات «التصوف والمتصوفة» وشطحات الصوفية وشخصياتها: القلقة والمستكينة والمتدروشة؟ وأين بوادر «علم الكلام العقدي» وطوائف المتكلمين من سلفيين وأشاعرة ومعتزلة وجهمية ومعطلة ومؤولة ومفوضة وحشوية ومشبهة؟ وأين جدل أولئك وهؤلاء حول عالم الغيب والشهادة وتصوراتهم لخالق الكون في أسمائه وصفاته وألوهيته وربوبيته وفعله وقضائه وقدره؟ وأين «أصول المعارف والعلوم» و«قواعد الفقه» وضوابط المعرفة وعلوم الآلة: نحوياً وصرفياً ولغوياً وفنياً عند سائر العلماء والفلاسفة والمتكلمين؟ وأين أثر المفسرين وشراح الحديث، وما تركوه من معارف وأحكام وقيم وأفكار وتصورات وجرح وتعديل وتصحيح وتضعيف؟ وأين أقوال السلف في الرقائق والمواعظ؟ وأين رسائل الأدباء العلمية والفلسفية والإخوانية؟ وأين كتب الحكم والأمثال؟ وأين مستويات الخطاب العربي وأنواعه وتعدديته الطائفية والمذهبية والحزبية؟ وأين سير الرسل وأصحابهم والتابعين وأعلام النبلاء؟ وأين التاريخ الحضاري والتمدن الإسلامي؟ أين الموسوعات في مختلف العلوم؟ وأين أئمة المعارف والمذاهب وجهابذة الاجتهاد وعباقرة الاكتشاف والتأصيل؟ وأين أدب الأحزاب كالخوارج والهاشميين؟ وأين النزعات الدينية والفكرية والفلسفية والشعوبية في الشعر العربي؟ وأين بلغاء العرب وحكماؤهم وقادتهم الذين بهروا العالم؟ وأين العبقريات العربية في العلم والفلسفة والتاريخ وعلم الرجال والأنساب والهيئة والحيوان؟ وأين ما كتب عن حياة الأبطال والفاتحين والمجاهدين، كما صورها الأدباء والمفكرون؟ وأين جدلية الفكر السياسي، وما واكبه من فتن، وما خلفه من وجوه القول وعميق الرأي؟ أين حضارة أمة سطعت شمسها على العالم عبر ملايين المخطوطات المرتهنة في مكتبات العالم؟ إن التجاهل أو الجهل لكل ذلك وحصر الثقافة في الشعرية واختصار التشعرن بالشحاذة والمدح وصناعة الطاغية تمريغ لكرامة الأمة، وتشويه لصورة أبنائها وتجهيز مهين «للهليوديين» كي يقدموا الإنسان العربي في أبشع صورة متوحشة عرفها التاريخ، والقول بالتشعرن على إطلاقه فضلاً عن حصره بالسيئ من الشعر إدانة دنيئة للحضارة العربية، واسترضاء للحضارة المستكبرة، التي تخادعنا بالتحذير من تداول «الغزو والتآمر»، ولا ترضى إلا باختصارنا في سقط التراث كـ«ألف ليلة وليلة» و«التشعرن» و«الابداع الجنسي الهمجي» وتحويل الروايات العربية إلى «سير ذاتية» تختصر الإنسان العربي في «الجنس» و«التوحش» و«البدائية» لإضحاك الآخر وتسليته، وجر أقلامنا لتدنيس المقدس وأنسنة الإله، وإقناعنا بقبول حصر الصراع الحضاري بما يتداول من روايات موغلة في الفحش والتهتك، لنظل في عتمة الترميز الفحولي. هذه الممارسات قتلت

كرامتنا وعكست مفهوم أزلية الصراع، وأخلت مواقعنا في تنازع البقاء، وفات المتسللين من مشاهد الصراع إلى مغارات القمع أن القعود عن مواجهة الخصم وانتظار من يدبر الحياة يعني التنازل عن مهمتنا في الدعوة وإبلاغ الرسالة والخنوع. وكيف نتصور الحياة بدون صراع، وإذا قبلنا بالتعايش فلماذا سباق التسلح وقوة الردع، ومنع الطرف الآخر من الاستعداد بالمثل، لماذا تحدد الحرية، والحقوق، والإرهاب، والعولمة من طرف واحد، ولا يتجاوز دورنا القبول والترويج؟. لقد مارس الحداثيون قمع أنفسهم، وأعطوا الدنية وهم صاغرون، واتخذوا من المستشرقين أئمة ومعلمين وقدوة، ونسوا علماء أمتهم وتراث حضارتهم. المستشرقون يوحون إلى المبهورين بهم أنه لا صراع، وأنه بالإمكان تعدد طرق الخلاص، وهم إذ يمارسون معنا تقليم الأظافر وخلع الأنياب يشحذونها ويطيلونها عندهم.

والمستشرقون العاملون لحساب المصالح العالمية يتخطفون نخب الأمة الواحد تلو الآخر، ويصنعونهم على أعينهم، ويكلون إليهم استكمال الخطط والمهمات، التي تبدو وكأنها قضايا علمية خالصة لا يشوبها مكر ولا مكيدة، وليس كل من أخطأ الطريق موصول الحبل معهم، ولكنه الإعجاب وخلو الوفاض يعتري البعض فيكون كأنه منهم. لقد طرح المستشرقون مصطلحات كثيرة ومراوغة لضرب حضارتنا، وطرنا بها فرحاً. قال «مرجليوث» بالانتحال استكمالاً لمشروع ضرب «الرواية» التي بدأت بالحديث النبوي. والطعن في القرآن والحديث «رواية» و«دراية» والنيل من الرسول ﷺ قضية استشراقية معروفة، ولربما يكون المفكر الوجودي «عبد الرحمن بدوي» آخر من سلط الضوء على فداحة الظلم للإسلام في كتابين استقصائيين هما: «دفاع عن القرآن» و«دفاع عن محمد»، والخليون من المستغربين يعيشون تحت خدر القول بالتعايش المتكافئ، ومن ثم يدهنون من طرف واحد، وقد بدت مهانة التهافت. لقد طار المستغربون بمصطلح «الانتحال» فأجراه «طه حسين» وعززه. وقال آخرون بعجز الحرف العربي عن ضبط الشكل ودقته فأجراه «عبد العزيز فهمي» بالدعوة إلى الكتابة بالحرف اللاتيني، وقالوا بعجز اللغة عن أن تكون لغة علم فتهافت المتسطحون على تلك المقولة، وقال المستشرقون عن «الحريم» فتولى قاسم أمين توفير حرية الوصول إلى المرأة، وقال «فرويد» بالجنس فاختصر جرجي زيدان البطولة الإسلامية وحرب الفتوح في الجنس، وحصر التمدن الإسلامي في اللهو والمجون وقصور الخلفاء وقيل ب«الوضعية» فاتخذها «نجيب محمود" لتخريف «الميتافيزيقا» وقيل ب«الواقعية الفضائحية» واللا انتماء فكانت الطريق إلى «نوبل»، وقيل «بأدب الاعتراف» فكان العهر والتهتك، وقيل ب«المادية» فضربت الروحية، وقيل ب«الروحية» فضربت الانسانية الخليط، وقيل عن «الحرية» فَحَلَّت «الفوضوية» وقيل بالماركسية فاستدعي أبو ذر الغفاري ليكون اشتراكياً، وقيلت في كل مفردات الحضارة الإسلامية أقوال مريبة فتلقفها أبناؤنا بوعي وبدون وعي، واتخذوها تحت ذرائعيات تتكرر يوماً بعد يوم، يحيلون إلى حتمية التجديد والتغيير، وليس كل طارئ تجديداً، وليس كل تغيير مفيداً، إذ كل أمة لها مقوماتها وحاجاتها وثوابتها ومتغيراتها، والقول بأن صلاح الأمة بما صلح به أمر الغرب بإزاء القول صلاح الأمة بما صلح به ماضيها قول مريب، ولقد تفوه به البعض، مع أن ما صلح به أمر الغرب من أمر الدنيا هو ضالة الأمة ما دام حقاً، والعود إلى ما عليه محمد ﷺ وأصحابه لا يعني رفض ما استقام فيه أمر الغرب من عدل وحرية وخضوع للقانون وأخذ بظاهر الحياة الدنيا. والذين يحيلون تخلف الأمة على تمسكها بدينها يكيدون ويمكرون، ولكنه مكر ضعيف وكيد مهين، فالإسلام مع العلم ومع الاكتشاف ومع السعي في مناكب الأض وآفاق الكون وإعداد القوة وإرهاب العدو، والمواطئون للغرب يمتعضون من القول «بالغزو والتآمر» ومن ثم اخترعوا مصطلح

«العقلية التآمرية» لتكريس الغفلة، ولم تغن النكبات التي تعرضت لها أمتهم حساً ومعنى، ولم يوقظهم القمع والتهميش وتقاسمهم كالغنائم، منذ اتفاقية «سايكس بيكو» ووعد «بلفور» إلى عصر اللعب السياسة الموجعة، عصر الحروب الطائفية والحزبية والعرقية والحدودية، وفتح الملفات الساخنة أمام كل من تنفس من تحت الماء أو رفع رأسه بحثاً عن الهواء، ولم يتأمل أحد من المستغربين ما يمس أمتهم من تعديات على مختلف المستويات: حسياً ومعنوياً، والمواطئون أو المصدقون لمعسول القول يظاهرون الأعداء، ويأتون حضارتهم ينقصونها من أطرافها، والقول بالموت والتشعرن والعقلية التآمرية معاضدة للمكائد، وها نحن اليوم نواجه حملة مسعورة تقودها الصهيونية ونحن عنها غافلون فمناهجنا في نظرهم مصدر للإرهاب، والحدود الشرعية غمط لحقوق الانسان، ومقاومة الظلم إرهاب، وقوامة الرجل تسلط، ومنع الخلوة والاختلاط تعطيل لفاعلية نصف المجتمع، وإظهار الدين إرهاب ديني وإكراه عليه، والأمة المستضعفة تصب عليها أسواط العذاب، ونخبها تغازل الجلاد.

وبتجاوز كل البوادر على الصعيد السياسي والعسكري والإعلامي وسائر جهات المواجهة مما توارد على الخاطر نتساءل: كيف تتشعرن الأمة والقرآن الكريم تصدى للشعراء، وذم طائفة منهم، وصفهم بالكذب والهيام بأودية الادعاء، ووصف الذين يتبعونهم بالغواة، ونفى عن الرسول ﷺ الشاعرية بحيث لم يعلمه ولا ينبغي له، كما ذم الذين يحبون أن يمدحوا بما لم يفعلوا. قال تعالى: «لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم» «١٨٨ آل عمران». والرسول ﷺ ذم المداحين وقال: «احثوا في وجوه المداحين التراب» وجعل المدح قتلاً، وحذر من امتلاء الأجواف بالشعر، وفي ذلك تحذير من خلوه من القرآن، والفقهاء اشترطوا للمدح: الصدق، والتوسط، وأمن الغرور، وإتباع المدح بقول: أحسبه كذلك ولا أزكي على الله أحداً. وأبو بكر رضي الله عنه حين ضاق من المدح سأل الله بقوله: «اللهم اغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون واجعلني خيراً مما يظنون». لقد جعل المدح خطيئة بحق الطرفين. كما أن الإسلام ذم «التسول» وصوره بأبشع الصور، والرسول ﷺ علَّم السائل طريق العزة والكرامة، وأقصاه من مجلسه للكسب، وحث على العمل، ولن نحول هذا المقال إلى خطبة وعظية، نتناول فيها أقوال المفسرين والمحدثين والفقهاء حول السؤال والمدح، والنصوص والأحكام مستفيضة ومعروفة لمن لهم أدنى اهتمام بالثقافة الإسلامية.

فكيف نقطع بتشعرن الثقافة الإسلامية، ونبيح لأنفسنا ضرب أنساقها؟ الأمة العربية الإسلامية ضعيفة مستضعفة، وهي بحاجة إلى مصلحين ومجددين، ممن بشر الرسول ﷺ بخروجهم، وواقع الأمة لا يحتمل الصبر، وهو أدعى للإصلاح والمراجعة والنقد، ولكن لا يجوز اختلاق أسباب الضعف، ولا التغرير بها لكي تتخلى عن تراثها ومصدر عزها وصلاحها، لا بد من التماس الأسباب الحقيقية من واقعها. فأزمة الأمة متعددة الأسباب والمصادر، وممتدة مع الزمن، إنها أزمة حكام ومثقفين وغزو وتآمر ومكائد، أزمة وعي منقوص، ومناهج لا تستجيب لمطالب الحياة وتهافت مهين على سقط الحضارات وموالاة للآخر. إن علينا ألا ننسى الأسباب الحقيقية، وعلينا ألا نلهي الأمة بالأوهام، لا نقبل القول «بالغزو والتآمر» أو نقبله في كل تواصل مع الغرب. نستدبر الحقائق ونقول بالتشعرن والفحولة، ولما يكونا سبب الضعف والتخلف والاستضعاف، ولو عدت مساوئ الشعراء الهجائين أو المداحين أو الشحاذين لما كانت إلا كما هي في الثقافات الأخرى، فلماذا نتعمد ضرب مفردات الحضارة الواحدة تلو الأخرى بحجج واهية وتصورات خاطئة، والشعر العربي المؤثر بقيمه النبيلة لما يزل هدفاً تعتوره سهام

المناوئين، لقد اتهمه «أحمد أمين» وقال بأنه «أدب مَعِدَة»، مما حدا ب«زكي مبارك» إلى إصدار كتاب تحت عنوان «جنايات أحمد أمين على الأدب»، ومن قبل «أحمد أمين» «طه حسين» الذي عول على «مرجليوث» في قضية الانتحال. والقول بالتشعرن مكيدة بائرة غبية، وإن تعمدت إسقاط «الدلالة» بعد إسقاط «الرواية» على يد طه حسين، والذين دعوا إلى النثرية والتغامض والعامية من حداثيين وباطنيين يتحملون مسؤولية إجهاض الكلمة. ولا تخلو المشاهد ممن يوظفون إمكانياتهم لضرب شوامخ الشعر العربي، وسوف أتقصى هذه الجنايات على مدى التاريخ الأدبي الحديث، ليعرف القراء أن الأمر لم يكن صدفة ولا مبادرة، فالضرب المبكر في «الرواية» ثم استكمال المشروع لضرب «الدلالة» ومواصلة المكيدة إلى «العبارة» خطوات محكمة أو محاكاة بلهاء.

النقد الثقافي: البديل أو الرديف .. ! (١١)[(١)]

ولو نظرنا إلى القيمة المعرفية «النقد الثقافي» بوصفه جماع المشروع: تنظيراً وتطبيقاً، لوجدناه دون المؤمل من مثله، بوصفه كتاب مشروع يغمره الواردون للامتياح، ويغمر المشهد بجدة منهجه وآلته وشرطه، وبوصف صاحبه من كبار المثقفين الذين لا نغمطهم حقهم، وإن اختلفنا معهم، إذ هو بدون ثقافة وثوقية، وكأنه تفسير الرازي المقول عنه: «فيه كل شيء إلا التفسير»، وكل صيده جملة من الافتراضات، وحشد من التلاعب اللفظي والتشقيق الكلامي، والتكرار الممل لكلمات: «النسقية»، و«التشعرن»، و«التفحلن»، وجلد مميت للشعر العربي، ممثلا بتعيس الحظ «أبي الطيب المتنبي»، وبالسيئ من غرض المدح، دون سائر الأغراض الأخرى، من فخر وحماسة ووصف وحكمة وغزل وعتاب ورثاء، وتلميع زائف للذات، باستدعاء متأخر ل«نزار قباني» و«أدونيس» اللذين صنما من قبل على يد رفاق الدرب، ومشروع نقدي يخلص من زحام المذاهب يستأثر بالمشهد مميتاً ما سواه لابد ان يكون في محتواه وإجرائه استثنائياً، أما وقد قزَّم الأشياء لتكون بحجم تصوره للثقافة العربية جاهلاً أو متجاهلاً ما يتوفر عليه الشعر العربي من قيم متعددة، وهو مفردة من مفردات الثقافة المنكوبة بأبنائها العققة فإن الموقف لن يكون ودياً ولا مطمئناً، وبخاصة حين يتنكر لديوان العرب، ولو انه عاد إلى الدراسات الأكاديمية عن القيم الأخلاقية في الشعر العربي القديم والحديث وعن النقد الأخلاقي في مختلف العصور، لتبين له انه يرجم بالغيب، على انه في إحالته للمرجعية التراثية التي يلم بها كما نَدْل الثعالب، إنما يعول فيها على احتمالات دلالية لا تحتمل، وكأنه بعض المفسرين اللغويين ذوي النزعات الطائفية الذين يتغصون في البحث عن أدق الدلالات، لتعزيز رؤيتهم، دون النظر إلى الأنساق، وبصرف النظر عن الإنشائية والتغنص والندل والالتفاف الغبي على رواسب الماضي وسمعته، هنا، وفي «حكاية الحداثة» فإن التعامل مع النص الإبداعي، أو مع مكوناته، أو مع مضمونه، أو مع انعكاساته وتشكيلاته السلوكية والتصورية والمفهومية يتقاطع في بعض تلك الوجوه مع «البنيوية التكوينية» التي خرجت ب«النقد البنيوي» من سلطة اللغة بوصفها بنية: «علائقية أو توليدية إلى سلطة الأيديولوجيا، وذلك حين فرضها الماركسيون على الشكلانيين الهاربين من الالتزام الماركسي، ممن وصفهم «جابر عصفور» بالنقاد الهروبيين وإن كانت «التوليدية» ذات نفس ماركسي كما ان «النسقية» توصيف بنيوي، والمشروع برمته لا يبرح الترويج لتحولات نقدية غربية، تدعي كسر الطوق وتفكيك الدائرة اللغوية المفرغة التي كبلت روح النص، وعطلت قيمه الحقيقية وتشكيلاته السلوكية، وكأني بهذا التحرف الفج التقاط غبي لهذا الخيط من تحت أنقاض التداعيات الماركسية والبنيوية والحداثية، إذ ان النقد بهذا الانعطاف المتعدد الاحتمالات يعدُّ خروجاً من سلطة النص اللغوي الذي لا يبرح «العلاقة» و«العلامة» و«الجمالية» والاحتباس داخل نفق «الفن للفن» إلى فضاءات لا حدود لها، فهي باتساع مشمولات الثقافة وإن أركس في دعوى «التشعرن» المتشكل من الفهم السقيم، والمحمَّل جريرة تشكيل الأنساق الاجتماعية، وذلك بعض ما يقرره صاحب المشروع بطريقة عازمة جازمة، لا مكان للاحتمال عندها، وهذا التحرف عودة إلى ما هو خارج النص، وإحياء للمؤلف الذي قضى نحبه بذات اليد التي أحيته، واشتغال بالمضمون، أو بمخرجات المضمون، بوصفه تشكيلاً للوعي وللسلوك، وبالتالي فهو ضربة لازب للبنيوية اللغوية التي أغثينا بها فترة من

---

(١) تاريخ المقال: ١٥/ ١/ ٢٠٠٢

الزمن الرديء، فأميت من أجلها المؤلف، ونفي المضمون، وقضي على جغرافيا الفن على الطريقة «الهيغلية» الذي قال يوما ما ب«موت الفن» في سبيل مواكبة «الجمالية الفوضوية» وقد يتاح للبنيوية أو لرواسبها في آفاق «النقد الثقافي» «مفحص قطاة» وبالذات «البنيوية الانثروبولوجية» كما هي عند «شيتراوس» و«البنيوية بكل تنقلاتها: اللغوية والأدبية والاجتماعية وبكل تحولاتها المفهومية والإجرائية: كالتقويض والتفكيك والتشريح وبكل مسمياتها: اللسانية والأسلوبية والنصوصية لم تبرح أدمغة المستغربين الذين لا يملكون إلا الاهتياج الأعزل لاستقبال كل طارئ، ولكيلا نغمط البنيوية حقها نشير إلى انها ذكرت البعض بأهمية الحفريات اللغوية، وحفزت على الاهتمام بالوظيفة اللغوية على حساب المعيار الصرفي والنحوي مع الاستعانة به بوصفه آلة ووسيلة، وهي قد نبهت إلى أهمية «الشعرية» بوصفه مصطلحاً خفف من غلواء الشرط الفني، وإن أخفق البعض في تفهمه كما انها ضيقت الخناق على التاريخية التي طغت ردحاً من الزمن، ولكن الذين اشربوا في قلوبهم عجل الغرب سفسطوا الأمور، وبرعوا في القول الفارغ، وحملوا النصوص من الدلالات ما لا تحتمل، وتقولوا على المبدعين كل الأقاويل لا بعضها، و«النسق الثقافي» الذي عول عليه «النقد الثقافي» المحلي مصطلح من مصطلحات علم الاجتماع، واستدعاؤه ليكون المجال الأوحد للمشروع، لا يمكن من خلط الأوراق وتعمية الأمر على من لهم قدم صدق في مفردات «علم الاجتماع» والصيرورة إلى «النقد الاجتماعي» صيرورة فعلية إلى «النقد الثقافي» وهنا لا يكون من حق أحد وضع اليد على معروف لا يحتاج إلى تعريف، وقد أومأت من قبل إلى ان المشروع مشاع تتنازعه معارف متعددة، وضياع هويته بين قبائل المعارف يحول دون التبني. والاشتغال بالمضمون أو بتشكيلاته النسقية بعد القطيعة ارهاص للخروج من هيمنة النص اللغوي الإبداعي المزدوجة: هيمنة اللغة، وهيمنة القبح المضموني المتوسل بالجمالية، كما يدعي صاحب المشروع إلى ما وراء النص، أو إلى أثر النص بوصفه المشكل الأقوى للنسق الاجتماعي، ثم ان القول بالنسقية الثقافية كالقول بالنسقية اللغوية، فهاجس الأنساق مراوحة بين الثقافة واللغة، وليس في ذلك مساحة كافية للدعوى العريضة والإجلاب عليها بالمصححين والممحصين والصابرين على اللأواء من زوجة وأبناء، والناقد الثقافي من خلال رؤيته المحلية يمارس محاكمة القبح الدلالي المفترض والمتضخم في الشعر، وامتداد المحاكمة إلى «النقد الأدبي» المظاهر له، لأنهما ومنذ ظهور شاعر المديح في آخر العصر الجاهلي إلى «نزار» و«أدونيس» يقترفان جريمة شعرنة الأمة، بحيث تكون: «شحاذة» «مداحة» ومن ورائهما اللغة المتفحلنة، وجريمة الشعر العربي في قبحيته المتوسلة بالجماليات لتسريب القبحيات المشكلة للأنساق الاجتماعية المتسيدة، ومن حقنا في ظل هذه الغيرة المصطنعة ان نتساءل عن غيابها وغفلتها أو تغافلها في جنح «الرواية» وترديات الروائيين في وحل الرذيلة والعامية؟ والزمن كما يقول الحداثيون «زمن الرواية»، ولست أدري لماذا غفل النقاد الحداثيون الذين ضخموا القذات الشعرية عن جنايات الرواية، بل اتجهوا صوب مناصرة المنحرفين والساقطين من المبدعين الروائيين الذين بلغوا حد الدعارة، ولم تكن كتاباتهم عن موهبة، ولم تكن لغتهم لغة فن رفيع، والنقاد الحداثيون لم يغفلوا فقط وإنما تفانوا في سبيل شرعنة هذا السقوط الذريع والانحراف المريع حيث جنحوا لربط الصراع حول مشروعية هذه الجنايات بحرية الفكر وحرية التعبير ولو ان «التشعرن» قائم في الثقافة لما كان في الأمر من بأس ولكنه وهم من الأوهام، وليس الاشتغال به إلا تلهية عما هو قائم من جنايات موجعة، على ان النصوص المستدعاة للمحاكمة والإدانة للأنساق ليست من اللغة في شيء، وإن أنتجتها نصوص شعرية، كما يفترض صاحب المشروع، فالأنساق بوصفها نصوصا تحال إلى

الثقافة الرؤيوية التصورية، وكل شيء معنوي أو حسي أو إجرائي نص بالنظر إلى المدلول الوضعي المحيل إلى «البروز»، ثم النظر إلى كل ظاهرة على انها نص، والتعامل معها بهذا المفهوم، فلم يعد النص اللغوي هو المجال الأوحد للنقد، وإنما كل شيء قائم في الذهن أو متشخص في السلوك أو متمثل خارجه مشتمل على نظام ومرجعية هو «نص ثقافي» والاشتغال فيه «نقد ثقافي» ذلك ما لمسته، وذلك ما لا أرى بأساً في الأخذ به، ولكن ليس على طريقة صاحب المشروع في تحديد المفهوم، واختلاق النسق، وافتراض المرجعية، وتخويل الذات إقامة الدعوى وتنفيذ الحكم. و«النسق» و«النص» و«التفحلن» بقايا رسوبية من مصطلحات البنيوية، أفرغت من محتوياتها وملئت بمدلولات تقترب من الثقافة ولا تكونها، وهذا التقليب العقيم لا يضيف شيئاً ذا بال، ومع كل هذه المقترفات والتحرفات والتوهيمات والتغريرات لا جديد في المشروع، ولا تحديد للمنهج، ولا تعيين للآلة، ولا حتمية للمجال، إذ المشمول الثقافي لا يحتويه مذهب، ولا يحيط به مشروع، وتلك الدعوى بهذه المواصفات لا تستحق كل هذه التظاهرة التي تدل على بدائيتنا وجهلنا للمتداول في المشاهد الأدبية والثقافية والاجتماعية والنفسية، والذين يتابعون المشاهد وما فيها لا يجدون فيما يقال باسم «النقد الثقافي» أية إضافة تستحق كل هذه الجلبة، و«النقد الأدبي» مرَّ بتحولات «سوسيولوجية» و«إنثربولوجية» و«ميثولوجية» و«أيثولوجيا» و«أيديولوجيا» هي الأقرب إلى «النقد الثقافي»، ولما يفكر أحد من رواد هذه التحولات بادعاء مصطلح جديد للنقد ووصفه بالمشروع الذي يمات من أجله ما قبله، إذ التحولات طبيعية والتجديد عفوي، ولتعذر الجمع والمنع المصطلحي، إذ الثقافة: «وجادة»، و«اقامة»، و«سمة»، و«طريقة» والاشتغال بأي مفردة من مفردات الثقافة لا يضاف إلى الثقافة وحدها، وعلى الذين تتواصل معهم لحظة الصدمة والانبهار العودة إلى «التنمية البشرية والخصوصية السوسيوثقافية» و«العقل الأخلاقي العربي» للجابري، وهو الجزء الرابع والأخير من مشروعه المثير، و«المنهج الموضوعي: نظرية وتطبيق» للدكتور عبد الكريم حسن، و«محاولات في دراسة اجتماع الأدب» للدكتور نوري القيسي، و«التحليل الاجتماعي للأدب» للسيد ياسين، و«السوسيولوجيا والأدب» للدكتور قصي الحسين، و«سوسيولوجيا الأدب» «لروبيرا سكاربيت» ترجمة آمال عرموني، وإلى بعض مباحث «استراتيجية التسمية في نظام الأنظمة المعرفية» لمطاوع صفدي، و«النقد الأدبي والعلوم الإنسانية» ل«جان لوي كابانس» ترجمة د. فهد العكام، بل العودة إلى مكتبة خاوية على عروشها حول الواقعية الاشتراكية، والذي يحسم الخلاف ما وعته معاجم «علم الاجتماع» التي تناولت طائفة من المصطلحات التي عوَّل على بعضها صاحب المشروع بوصفها مبادرة وتجديداً وما هي من المبادرة والتجديد بقريب. والنقد الاجتماعي «السوسيولوجي» يحال إلى الثقافة تذرعا بعلاقة العموم بالخصوص، بحيث يطلق عليه «النقد الثقافي» ولو استغنى بمصطلح «السوسيو ثقافي» لما تغير في الأمر شيء، فعلماء الاجتماع وكتابه، لا يرصدون وحسب، وإنما يحللون، ويقومون، وذلك عين النقد، والقول ب«النقد الثقافي» إنما هو نظر لاهتمامه بمجموعة من البنى: الاجتماعية والدلالية والتفاعلية، على انه لا يكون جديداً بمجرد الإضافة إلى الثقافة، التي وسعت أشياء كثيرة، وهو إذ يحيل إلى النسقية الذهنية أو السلوكية، ينظر إلى النسقية البنيوية التي امتد القول فيها زمن الطوفان البنيوي، و«النقد الثقافي» بكل معطياته المفهومية لا يند بطائل، ولا يبرح المنجز «السوسيولوجي» الذي نجد بوادره في القرن التاسع عشر عند «مدام دي ستيل»، وقد التقط الخيط منها «الماركسيون» حين جعلوا الأدب مجرد «واقعة اجتماعية» وليس هنالك كبير فرق حين تحولت «الواقعة» إلى «نسقية»، وليس من شك ان هناك تداخلاً دائرياً بين «النسقية الثقافية» و«الواقعية

الاجتماعية» وليس شرطا ان يكون هناك توارث ايديولوجي بين التصور الماركسي و«النقد الثقافي»، ولسنا نريد من وراء ذلك إلا اثبات ان «النقد الثقافي» قائم منذ أمد بعيد، مثله مثل «النقد الإسلامي» الوريث الشرعي «للنقد الأخلاقي» منذ ارسطو إلى اليوم، والذين تدق نظرتهم في تقصي اهتمامات «لوكاش» و«جولدمان» لا يجدون أدنى فرق بين «الواقعة» و«النسقية»، على ان الراصدين للاتجاهات النقدية لم يعطوا هذه الظاهرة كبير اهتمام، وبخاصة «رينيه ويليك» في رصده التاريخي والموضوعي والفني للحركة النقدية، و«ويليك» بهذه اللامبالاة يحيل إلى عجز هذا الاتجاه عن تقديم «أسس تتلاءم مع المشكلات الدينامية التي تطرحها الظواهر الأدبية الحديثة» «النقد الأدبي المعاصر ص٣٨» وعلى المتابع المهتم ان يقرأ كتابي «آفاق العصر» و«زمن الرواية» لجابر عصفور ففيهما ترديد ممل لهذه التحولات، واستعادة لما رصده «رينيه ويليك» عن جغرافيا النقد، والنقد في القرن العشرين، وقد أشار من قبل «سمير حجازي» لقضايا النقد واتجاهاته وإلى مجموعة من النقاد «السوسيولوجيين» وإلى طائفة من أعمالهم وتحولاتهم، ففي ألمانيا «ميسهرج» ت ١٩١٦» وفي روسيا «بليخانوف ت ١٩١٨» وفي أمريكا «جرانفل ماكس» وفي انجلترا «كريستوفر كوريل ت١٩٠٧م» الذي نقد «ثقافة الحضارة» الفردية والحرية البرجوازية، وقد يكون صاحب «النقد الثقافي» بتجريحه الجائر وغير المتزن وغير العلمي للنسق الثقافي العربي المتشعرن على حد قوله مقلدا غبيا لـ«كوريل» ولن نمضي مع طبيعة التحولات النقدية المربكة ومحاولات «العوربة» و«الأسلمة» و«العلمنة» و«العولمة» والرهانات الرابحة والخاسرة، إذ لو مضينا مع ذلك لبعدت علينا الشقة، وإنما نكتفي باللمحات والإحالات لنؤكد ان «النقد الثقافي» مجرد رداء حوله اللابس من يمين إلى شمال، كما يحول «المستغيث» رداءه تفاؤلاً بتحول الحال، وهذا التشبع والتجشؤ من فراغ أوهم البعض بأنه اتيان بما لم تستطعه الأوائل. وكم أتمنى لم تقصى الراكضون وراء عجاجة صاحبهم ما كتبه «ويليك» عن ملامح التحولات النقدية، وما أفاض به سائر النقاد الماركسيين والواقعيين والحداثيين، وما وسعته معاجم المصطلحات الحديثة، وبخاصة معاجم المصطلحات النقدية وعلم الاجتماع وملفات المؤتمرات وحلقات الدرس الأدبي، إذ لو فعلوا ذلك لعرفوا ان التحولات لا تصل إلى مستوى المشاريع، ولست معترضا فيما أقول على تجديد التسميات، ولا على تنويع المجالات، ولا على المراوحة بين المواقع، وأملي ألا يكون المتقصون للحقائق ساذجين، ولا قابلين لمخادعة الساذجين، بحيث يصدقون ما يقال من ان الخلاف حول مشروعية التجديد والتغيير، فنحن مع التجديدات، ومع التغيير، ومع كل الاطروحات الأدبية والنقدية والفكرية، نستوعب، ونقترض، ونتابع بنهم كل جديد، ونبارك المستجدات، ونرى ضرورتها، ولا ندعي مبادرة ولا ريادة ولا مشروعا، ولا نميت، ولا نقترف خطيئة الازاحة لما هو قائم، ولا نكره أحدا على واحدية الاهتمام، وحين تفرز المشاهد الثقافية أو الأدبية أو الفكرية أو الدينية معارضين متشنجين للمستجدات فإن هذا لا يخول العابثين باسم التجديد حشر كل المتسائلين أو المتحفظين في قائمة واحدة، لشرعنة عبثهم، والإحالة الماكرة على أساليب المعارضة أو التحفظ وجمعها في سلة واحدة مكر يمكره الكائدون في مدينة الفكر والأدب ولكنه مكر ضعيف بائر، ولو ضربنا مثلاً بحركة التجديد الاقليمية التي اتخذها البعض شاهداً على المواجهة للتجديد وبالناقد المجدد «محمد حسن عواد» لألفيناه بين متحفظين على اندفاعه، ومجرّمين لهذا الاندفاع، وليس من حق الراصد حشر الطائفتين في سلة واحدة، و«العواد» رحمه الله دعا إلى «السفور» و«العامية» و«النثرية» وهو ما لا يجوز الاتفاق المطلق معه عليه، ومع هذا فإن «الحداثة» التي هتف لها الفارغون لا تمت إلى مشروع «العواد» بصلة، إنها قول في «التفكير» وليست قولاً

في «الفن» ولا يجوز تلويث سمعة المجددين. واعتراضنا لا يمتد إلى التناول من حيث هو، ولا يمنع أي أسلوب في التناول، وإنما هو على المغالطة والاتفاق الغبي، فـ«الحداثة» ليست التجديد، ومن قال بذلك فهو جاهل أو متجاهل، «الحداثة» مشروع فكري لا يمت إلى التجديد بصلة، و«النقد الثقافي» ليس وقفاً على ضرب الثقافة العربية، والاعتراض يمتد إلى دعوى المبادرة والتجديد، والأثرة، وعلى إكراه الناس، وحملهم على اتجاه نقدي لا تربطه بالأدب رابطة، وعلى استدعاء مصطلحات لا علاقة لها بالأدب، وتصور اغنائها إلى حد إماتة «النقد الأدبي» القائم ما قام الأدب، وعلى تجميع الظواهر الاجتماعية، وتسميتها بالأنساق الثقافية المتشعرنة، لتبرير دعوى «النقد الثقافي»، وكل هذه الابتسارات والاكراهات ليست بشيء إلى جانب «التشعرن» وما تستتبعه هذه الصيغة من مفاهيم جائرة لا تليق بثقافة الأمة وابداعاتها القولية التي وسعت جلائل الأمور، ولو ان المفكر الغربي أطل على الثقافة العربية من كوة «النقد الثقافي» وتطبيقاته الاقليمية لأثلج صدره ذلك التقزيم، وهو بلا شك سيطل، والعمل سيترجم إلى أكثر من لغة، وسيطبع أكثر من مرة على شاكلة رواية «الحزام»، لأنه يشفي صدوراً كثيرة، تود لهذه الحضارة ان تختصر في الخرافة والاسطورة والعامية والتشعرن والتفحلن، وحين لا ننكر تعرض الأنساق الثقافية لشيء من ذلك فإن هناك فرقاً بين التخصيص والتعميم، والنصيحة والتعبير، وما حواه الكتاب من قول عن الثقافة العربية وأنساقها، لم ينظر إلى خصائصها الربانية وما تتميز به من: شمول، واتزان، وأخلاق، وتوازن، وواقعية، وعالمية، وإنسانية، وإيجابية، ولم يستحضر الخيرية الباقية بانتظار نصر الله. والأسوأ من كل ما سبق التصور الخاطئ والفهم السقيم، وعدم وعي المتلقي بمآلات الاستنتاج، وإذا كان «لويس عوض» و«محمد مندور» و«عبد المحسن بدر» و«عبد المنعم تليمة» و«محمود أمين العالم» ومن قبلهم «حسين مروة» وسائر النقاد والمنظرين والمبدعين قد ركنوا إلى «الواقعية» بكل مستوياتها واتجاهاتها: الماركسية والاشتراكية والاجتماعية فإنهم استبطنوا «الجمالية الأدبية» واستطاعوا إحكام لعبتهم، أما صاحب «النقد الثقافي» فقد خسر مشروعية محاكاته، بدعوى موت «النقد الأدبي»، وقد ألمح د. سمير حجازي إلى بعض المحاولات المشابهة لمهمات «النقد الثقافي» بقوله: «إن محاولة الربط بين الفرع المبدع والجماعة والأثر هذا الثالوث لا يلتقي إلا في إطار الإبداع الفني أو الأدبي على المستوى السوسيو ثقافي» «ص٤٨ النقد الأدبي المعاصر»، ولو ان «النقد الثقافي» وسَّع «الإبداع» و«الاجتماع» وتفاعلاتهما، وما يفرزانه من أثر يتشكل في ظله «النسق الثقافي» الحقيقي، وليس التوهمي، لكان رديفاً لا بديلاً، وهذا أقصى ما يملك الحصول عليه، أما الاستئثار فضرب في فجاج الوهم والتوهيم.

النقد الثقافي: البديل أو الرديف .. ؟ (١٢) [(١)]

والاتجاهات الحديثة للنقد الأدبي مهايع مهولة، لا يستكنه مبلغها إلا متابع حصيف، حتى لقد قال «بييرمورو» وهو بصدد الحديث عن «التكوينية» و«الأسلوبية» و«الموضوعية»: «مفهوم هذه الكلمات مطاط، وغير واضح، ويدعو للتداخل، حتى في ذهن من أطلقوها أنفسهم»، فكيف بمن تلقاها دون وعي، وأجراها دون فهم، واتخذها كظل شجرة مر بها في سفر؟ وكيف يكون المعولون على هؤلاء؟ لقد أضر بمشاهد النقد من تصدرها وزعم أنه ابن بجدتها، وهو لا يلوي على شيء. وتحولات النقد واتجاهاته لا تسمح بالتلبث الطويل ولكن التحول شيء، ودعوى المشروع والموت شيء آخر، وفي ظل التحول المستمر وصف البعض مشاهد النقد بأنها «تطن طنين خلايا النحل».

ولو أن صاحب المشروع إذ مال إلى جانب من جوانب القول لم يتعد على خيارات الآخرين، ولم يتجن على ثقافة الأمة، بدعوى التشعرن والتفحلن، ولم يكن ذا ادعاء عريض، لما كان في الأمر من بأس، فلقد قلنا من قبله تبعا لغيرنا ب «النقد الإسلامي» ولم ندع المبادرة، ولم نكره الناس على أن يكونوا مثلنا، ولم نتخل عن «النقد الأدبي» فضلا عن إماتته، ولم نقل بأن ميلنا مشروع له ما بعده.

والمقتدرون يجلبون ويجربون، وقد يبتكرون أو يعدلون أو يضيفون إلى ما هو قائم، ولكنهم يعرفون قدر أنفسهم وأقدار مجلوبهم، فلا يدعون، ولا يميتون، ولا يغررون بالذين ينبهرون بالصيغ اللفظية والدعاوي العريضة، لخلو أذهانهم، وقصور هممهم عن المتابعة. والتواصل الاستهلاكي الخنوع بالمشاهد النقدية العربية والغربية لتمكين الذات من الحضور الهامشي البائس لا يخدم أدب الأمة، ولا يصون مثمناتها، وهي التي أمدت الآفاق بصنوف المعارف وعيون الإبداع.

و«النقد الثقافي» بمفهومه الإقليمي أو المصري أو الفرنسي إن هو إلا قطرة من بحر أو بعوضة على رأس جبل، ومدعيه لن يخرق الأرض، ولن يبلغ الجبال طولا. وإشكالية الاهتياج غير الحصيف أنه يقع في واحدية الاهتمام، وحين يحس بالعزلة والانكماش يفر منها إلى النقيض ليعود إليها، ف «البنيوية» مثلا انقطعت للغة، ونفت ما سواها، و«النقد الجمالي» انقطع للفن، ونفى ما سواه، و«النقد الثقافي» رفض الاتجاهين معا، واضعا كل ثقله في الأنساق الثقافية والاجتماعية المتشكلة من الشعر بوصفه الأوحد في التأثير وهو ما لم يقل به أحد من قبل ولن يجرؤ أحد من بعد إلا صاحب المشروع الضجة. والمبهورون بما يقال مما هو مطروح في الطريق، هم الذين لا يقرؤون، ولا يتابعون، ويقفون حيث ثقافة السماع، وإفضاءات الصحف. ولو أنهم حين فوجئوا ب «النقد الثقافي» كانت خلفيتهم الثقافية شاملة وعميقة ومتابعتهم للمستجد متواصلة، لما لعب الذوّاقون بعواطفهم، وما عليهم إلا أن يعودوا إلى كتاب المشروع، وينظروا فيه بعيون واثقة، ونفوس مطمئنة، ثم ليبحثوا عن منهج سليم، أو آلة دقيقة، أو معلومة موثقة، أو مبادرة توسع المدارك، وتثري المعارف.

لقد قرأت الكتاب فلم أخرج إلا بثلاث كلمات يتقلب معهما الكاتب جيئة وذهاباً «التفحلن» و«التشعرن» و«النسقية» وسنفرغ بعد الحديث عن «تهافت النظرية» لتناول «خطيئة التطبيق» معتمدين على الوثائق النصية في شقي الكتاب، وفيما زامنه من كتب أرهصت لهذا المشروع. لقد احتملنا على مضض ضجة الحداثة، وقلنا لعلها تكون تجربة فجة، يعود بعدها التائهون إلى جادة الصواب، واحتملنا بعدها جعجعة البنيوية، وأتحنا لها

(١) تاريخ المقال: ١٢/ ٢/ ٢٠٠٢

أكثر من فرصة، أملا في أن يستقر الذواقون، ويعيدوا النظر فيما خلفوه. وها نحن الآن في مغالطات فجة، واحتواء غبي مع «حكاية الحداثة» في محاولة لربطها بالتجديد، ليكون الخصوم تقليديين، ويكون الصراع بين الطرفين صراع مجددين ومقلدين، وهل أحد يقبل بهذا، ويصدق بأن الصراع مع الحداثة الفكرية صراع تجديد وتقليد، وأن المعارك الأدبية التي خاضها في المملكة محمد حسن عواد وحمزة شحاتة رحمهما الله كالمعركة مع الحداثيين، ولعل الهزة العنيفة التي تعرضت لها «حكاية الحداثة» من الأستاذ الدكتور سعد بن عبد العزيز الراشد «الرياض ١٤٢٢/١١/٢٤هـ» تحمل الحاكي على مراجعة حكايته، وإذ لم نحتمل «الحداثة» بمفهومها الفكري فإنه لم يكن باستطاعتنا أن نتحمل «النقد الثقافي» بهذا التصور المحدود والإجراء الجائر، مثلما أنه ليس مجديا تخلية المواقع من أشلاء الحداثة ب «حكاية الحداثة». والمغالطة وتلاحق البدائل في المشهد الأدبي، والتقدم به إلى سجلات التاريخ الأدبي بهذه الفوضوية وتلك المغالطات يمس سمعة المعاصرين، ويدين المرحلة التي تشملهم، ولو أن مؤرخاً للحركة الأدبية، تابع في رصده هذه التحولات غير الراشدة وغير الناضجة لما كان في وسعه إلا إدانة هذه المرحلة التي وسعت هذه الفوضى، ولست أقصد بها التعددية المذهبية، فالتنوع والتحول الواعيان بين متعددين يختلف عنه عند واحد جمع الله فيه كل المتناقضات.

ومع ما سبق من تحفظات قد تفسر على غير ما نريد فإننا لا نرى بأسا في تشعب الاهتمامات، وتعدد الاتجاهات، وتنامي الظواهر والقضايا الإبداعية والنقدية، والمراوحة بين لغة النص وشكله وفنياته ومضامينه ومكوناته وانعكاساته، لأنها وقائع مألوفة، وغير مثيرة. والنقد وتبدل مناهجه وآلياته أمر قائم ومألوف، لا يثير الانتباه، ولا يستدعي التبني، ولا حفظ الحقوق، ولا تقليد الغرب بمقدمات كتبهم، وتوزيع الشكر بين الزوجة والأولاد والزملاء، من قراء للنص ومساعدين في تحضير المراجع ومراجعة المشروع والمساعدة في الفصيح والعامي، وعقد المنتديات من المحيط إلى الخليج، لتمحيص الكتاب، والإضافة إليه، والحذف منه، وتلافي النقص المحتمل قبل أن يستوي على سوقه، مع أن صاحبه لما يزل حديث عهد بمذاهب أخرى.

والكتاب برمته ومن قبله ما يسمى بالإرهاص له «المرأة واللغة» كلام ممطوط، ولغة مترهلة، ولت وعجن مملان على طريقة الذين يتحدثون ولا يقولون شيئا. وكبار الأدباء والمفكرين الذين أنتجوا المشروعات العملاقة وألفوا الكتب والمعاجم والموسوعات، لم يقل أحد منهم: إن المحافل النقدية من المحيط إلى الخليج ناقشت مشاريعهم، وآزرت في مراجعتها، وهل كتاب ككتاب «النقد الثقافي» يستحق كل هذا الإيجاف؟ فأين صاحب المشروع من «عبد الرحمن بدوي» و«حسن حنفي» و«زكي نجيب محمود» ومن قبلهما «عباس محمود العقاد»؟ وأين هو من مشروع «عبد الخالق عظيمة» في أساليب القرآن و«فؤاد سزكين» في «التراث» و «شوقي ضيف» في «التاريخ الأدبي» و«ناصر الدين الألباني» في خدمة الحديث، وعشرات من العلماء والمفكرين والأدباء والنقاد ممن كتبوا عن «الفكر العربي» و«العقل العربي» و«النقد الأدبي» و«التاريخ العربي» ك «الجابري» و«العروي» و«جدعان» و«غليون» و«عز الدين إسماعيل» و«صلاح فضل» و«لؤلؤة» الذي كتب وترجم في المصطلح الحديث، و«مطلوب» صاحب معجم البلاغة والنقد القديم، بل أين هو ممن هم دون ذلك بكثير؟. لقد عهدنا من يتحدث عن أشياء: كبيرة أو صغيرة، حسية أو معنوية، كالأزياء والألعاب والمأكولات والمستعملات والعادات، لا يكون أكثر من «كاتب اجتماعي» أو «ناقد اجتماعي» أو «ناقد ثقافي» أو «ناقد واقعي» أو «ناقد أسطوري» أو «ناقد أنثربولوجي»، وكل هذه الاتجاهات قائمة ومتداولة، وليست العودة إلى شيء منها بحاجة إلى ذلك الحشد

البشري «لتدشين» المشروع. لقد ضرب لنا صاحب المشروع «المدشن» مثلا باتخاذ «لعبة البلوت» مجالا لتطبيق «النقد الثقافي» وقد يأخذ بمثلها آخرون، بوصفها تطبيقا للنقد الاجتماعي، مع أن القول عن هذه اللعبة في زمن مدلهم بالمشاكل، مليء بالأحداث الجسام، استهلال فيه تخذيل وإحباط للرفاق. وحين نسلم بأن الحديث عن قانون اللعبة وشرطها وأنواعها خير مثال لمشروع «النقد الثقافي» وقد سلم المشايعون بذلك، فإن «فؤاد عنقاوي» هو الرائد الحقيقي ل «النقد الثقافي»، لأنه أول من ألف عن «لعبة البلوت» كتابا متداولا من عشرات السنين. والبحوث التي أعدها المتخصصون الأكاديميون في أقسام علم الاجتماع في الجامعات المحلية والعربية، وهي بحوث تناولت كل الظواهر الاجتماعية، وكل الأنساق الثقافية، وقامت على منهجية دقيقة، وعولت على معلومات صحيحة، هذه البحوث تخول أصحابها الريادة والتأسيس والانطلاق.

ومصطلح «النقد الثقافي» المتفلت من أي قيد، السابح في كل مجال، المحتمل لكل تصور، المستعير لكل منهج ولكل آلة، يحال إلى «اللامحدودية» و«الحد المكسور» كما يقول المصطلحيون لا يكون مصطلحا، ومجالات الثقافة أوسع من الحد، ولم يتفق المعنيون بالثقافة على تحديد لها، يحول دون التسيب وليس مسلما الإطلاق والتأطير في آن، والمشروع لا بد أن يكون مؤطرا معروفا لدى المعنيين، والاشتغال بالثقافة لا يكون محدودا، فالثقافة تحصيل وتعديل وحذق، ومن ثم فهي صفة وليست موصوفا، والمشروع يتطلب التوصيف، وصيرورة «النقد الثقافي» إقليميا إلى ما يدين الثقافة من خلال أنساقها القائمة بالفعل أو المختلقة من خلال سوائدها ومسلماتها لا يمكن معها تأطير المصطلح. ومع القبول بأي تعالق منهجي أو آلي لا يتعمد نفي القائم من المناهج والآليات، ولا يدين المرجعية ونصها القطعي الدلالة والثبوت، ولا يخالف ما هو معلوم من الدين بالضرورة، تبقى هناك أولويات ومواضعات ومسلمات وقناعات وثوابت ومكتسبات، لا يمكن الخروج عليها، أو المساس بها، ولا نسلم بأنه لا شيء فوق النقد والمساءلة، إلا للفعل البشري، ومن ثم لا بد من التفصيل، ف «الإيمان» يقتضي التسليم للنص التشريعي القطعي الدلالة والثبوت، لأنه المصدر الوحيد، فالعقل وموارده لا يملك قطعية الدلالة النصية، ولا يحسم الخلاف في أمر «الميتافيزيقا«. والأنساق ودعوى الفحولة ليست من المقدس، وليست من المغيب، ولكن اختلاقها من المقترفات التي تستدعي المساءلة. والحديث عن الأنساق بوصفها المجال الأوحد للنقد الثقافي، وفق رؤية البعض، يحملنا على تصورها مفهوما على الأقل. فالنسق: هو النظام، والتنسيق التنظيم، والمناطقة يرونه: مجموع القضايا المرتبة في نظام معين بمقدماته ونتائجه، والأنساق أو النسق عند الثقافيين: جملة أفكار متآزرة ومرتبطة، يدعم بعضها بعضا، ومنها يتشكل وعي الأمة وموقفها من الأشياء، و«الذهن النسقاني» هو المتشبث بفكرة سابقة، والنسقي نسبة إلى النسق، وقد يطلق النسق على المذاهب، ومن ثم أضيف النسق إلى الفلاسفة فقيل «نسق أرسطو»، و«نسق ديكارت»، وقد ينبري من المريدين من يضيف نسقا أو أنساقا إلى صاحب المشروع، لتحاز له الأمجاد بحذافيرها، وأوسع من تحدث عن النسق في الموسوعات «محمود زيدان» في «الموسوعة الفلسفية العربية»، ولربما يكون «النقد الثقافي» المحلي مرتبطا ب «الذهن النسقاني». على أن هناك مجموعة من النقاد والمفكرين والساسة، توسلوا بالأنساق، وتذرعوا بها للتخلل برؤيتهم وسط البنى القائمة، فهل يكون «الناقد الثقافي» متعالقا مع هذه المتعاليات، واعيا دوره في مواجهة الثقافة، أم أن القضية مجرد احتماء وراء لافتات المريدين؟

ومأزق المصطلح، وتهافت التنظير، يقعان بين الثبات الوضعي ومحدودية المصطلح أو فضاءاته. ولن نتحدث عن مأزق «المفهومية» القائم على أشده بفعل المشمول الثقافي،

فالإدانة ليست في المفهوم، لأن المفهوم يفرضه مصطلح الثقافة قبل أن يتلبس بالنقد. وحين تجتاز الكلمات مدلولها اللغوي إلى المدلول المصطلحي، يتطلب الأمر الرجوع إلى الكلمتين بوصفهما اللغوي والمصطلحي السابق للمدلول التركيبي ومعرفة المقاصد، ولا سيما إذا كانت الكلمة تستعمل مصطلحا في أكثر من علم أو فن، فجذر «ن س ق» مصطلح: فلسفي، وأدبي، واجتماعي، ومنطقي. بل هو جذر صالح لأي إطلاق، بحيث يمكن وصفه أو إضافته لأي مفهوم قائم أو محتمل القيام. والحاذق هو الذي يسيطر على مراوغة المصطلح، ويحول بينه وبين التعويم والتوهيم، وذلك من خلال الممارسة التطبيقية على ضوئه. و«النقد الثقافي» كما «الحداثة» لها تشكلها الظرفي والفكري، ولها فوق ذلك أزمتها المفهومية التي تضاف إلى اتساع الدلالة والمقتضى بفعل النوايا المبيتة، ولكنها تظل كما هي عند المنشئ، ذات مقتضيات ومقاصد، وقد يلح المستعير في صبغها بالصبغة التي يريد، ولكن استفاضة مفهومها الجديد، وقبول المشاهد الفكرية به، يكون من المستحيل على الذواقين تحويل دلالة المصطلح أو تغيير مفهومه أو استئناف مهماته الجديدة، ذلك أن تحويل دلالة المصطلح تتطلب قدرات وظروفاً ومشاهد استثنائية، ولا أحسبنا بحاجة إلى هذه التهويمات، فنحن بإزاء وثائق تطبيقية لا فكاك منها. ويكفي أن نحيل إلى معطى «التشعرن» القائم على تأكيد مقولة المستشرقين «بفاعلية» الغرب و«انفعالية» الشرق، وقد ألمح إلى ذلك الدكتور «تمام حسان» في مقدمته التي كتبها لمترجمه «الفكر العربي ومكانه من التاريخ» من تأليف «ديلاسي أوليري»، و«النقد الثقافي» يؤكد الانفعالية من حيث لا يحتسب، ومن ثم يخدم الطرف الآخر الذي يوغل بالنيل من الإنسان العربي.

النقد الثقافي: البديل أو الرديف .. ؟ (١٣)[(١)]

ولو أننا تعمدنا تقصي مفهوم المصطلح ومشموله ومشروعيته وعلاقاته بأنواع النقد: حاجة أو من باب الفضول فإننا قد لا نجد جوابا شافيا كافيا وبخاصة حين لايكون بين أيدينا الا ذلك القول المقتضب في الفصل الثاني من كتاب المشروع أو الحديث عن (لعب التسلية) وظاهرة (الاستراحات) التي يقضي فيها الفارغون فائض وقتهم في أطراف المدن أو الحديث الافتراضي عن المرأة واللغة. ومشروع يحكي صاحبه مراحل تشكله من المحيط إلى الخليج لا يكون بهذا الاقتضاب ولا بتلك النماذج التطبيقية. أما عن المشروعية فلا خلاف حولها متى استقام المشتغلون على الطريقة وتفادوا التخندق مع الضِدّ. والقول بالنقد الثقافي أخذ بالعموم دون الخصوص، وهو قائم في كل التناولات إذ الثقافة أعم مما سواها، وعلى ضوء ذلك فإن تناولات أي ناقد ثقافي يمكن توجيهها إلى معارفها المتعارف عليها من قبل. فالحديث عن المهمشات ك (لعبة البلوت) و(الاستراحات) أقرب إلى (علم الاجتماع) منه إلى الثقافة والاشتغال في اللغة من حيث فحولتها وأنوثتها اقرب إلى علم الصرف أو إلى فقه اللغة منه إلى الثقافة والاشتغال في الأخلاقيات من خلال الحديث عن (الشحاذة) و (المدح) أقرب إلى علم الأخلاق ومقاربة الأخلاقيات المهمشة من قبل عند البنيويين حفز البعض على التوقع بأن مثل هذا الفعل محسوب (للنقد الإسلامي) وماهو منه لا في قبيل ولا دبير، فالمقاصد والأهداف تفرق بين مشتغلين في قضية واحدة ومن ثم فإن تنبوءات البعض، والقول بالمؤاخاة بين (النقد الإسلامي) و (النقد الثقافي) غير مسدد إذ ان ضرب الانساق المختلقة أو المتصورة في الوهم لا تحيل إلى الاصلاح، ولا يكون المشتغل بها أو من خلالها وفق هذه الغايات مصلحاً ولا متناجياً بالمعروف واقتياد الثقافة العربية من فضاءاتها الواسعة ومرجعياتها المتعددة وتحولاتها المعرفية وتقلباتها الدلالية وتشعباتها المذهبية وتفاعلاتها الواعية واستجاباتها المختلفة المستويات، وحشرها ظلماً وعدواناً في نفق ضيق ومصدر واحد، بل في سمة سيئة واحدة من سمات المصدر الواحد، قول لا يتفوه به إلا جاهل يجب تعليمه، أو ماكر تتحتم مواجهته، والقول بالجهل لايعني أمية الشخص، وإنما هو جهل للقضية، وهو قائم عند العلماء والعامة. والثقافة المحال إليها تتسع لأكثر مما عول عليه صاحب المشروع، وقد أشار تمام حسان إلى أنها تشتمل على مفهومين:

طريقة الحياة.

نتاج الفكر.

والقول في التشعرن قول في (طريقة الحياة) ليس غير، وقد يحال على التفكير بوصف الأمة العربية أمة انفعالية، وهو اتهام أطلقه الماكرون، وصدقه المغفلون أو المواطئون.

وما نقوله ليس تصدياً لمن يحلو لهم المصير الطوعي إلى مصطلح (النقد الثقافي) لا على المستوى المحلي، ولا على المستوى العربي، ولا على المستوى الفرنسي، وليس هو رفضاً لمن ركن إلى هذا اللون من النقد، فالناس أحرار في ذوائقهم وما يشتهون، وليس لأحد حق في إكراه الناس على ما يريد، كما أنهم أحق من غيرهم في ترتيب أولوياتهم، إذا احترمت الثوابت، وليس فيما يلمون به من مناهج وآليات اجتراح للحمى، غير ان التطبيق والغايات تبرئ أو تدين، وقد يلفت تحفظنا المتكرر نظر المتابع، ولكن تعمد لوي أعناق النصوص وتحميلنا ما لا نحتمل بوصفه أسلوباً هروبياً اضطرنا إلى مواصلة التحفظ،

---

(١) تاريخ المقال: ٢٦/ ٣/ ٢٠٠٢

وتصدينا إطفاء لشرة الادعاء، وقمع للتطاول على (النقد الأدبي)، المشكل ظلاً للإبداع وإيضاح لمقاصد هذا المشروع عند أساطين الحداثة وسدنة الظلامية، ممن يتنفسون بفوضوية وحرية في الأجواء (العلمانية) خارج محيطنا الإقليمي المأطور على الحق، وهي مقاصد مشبوهة: فهم مع اختصار ثقافتنا في الأدب الخرافي الأسطوري العامي المتمثل ب (ألف ليلة وليلة) وهم مع إشاعة الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ومع تدنيس المقدس، وأنسنة الإله في الإبداع الشعري والسردي: قصة ورواية. وهم مع تقديمنا بوصفنا قبيلة بدائية متوحشة مستعبد ة لزعيم القبيلة في السير الذاتية، وهم مع حرية الكفر لا حرية الفكر في الطرح الفكري والنقدي، وهم مع حرية الوصول إلى المرأة لا حرية المرأة في الطرح الاجتماعي، والمشاهد المليئة بوثائق الاثبات خير شاهد، و (النقد الثقافي) جماع الإبداع والنقد الفكري والاجتماعي، ونحن لا نرضى لابنائنا ان يكونوا مغفلين أو مبهورين، وان كنا لا نتهمهم بشيء من ذلك غير أنا لا نعفيهم حين يحومون حول الحمى، أو حين يضعون أيديهم بأيدي أولئك الأساطين أو المنحرفين.

وما نود قوله انه بالإمكان استشراف المستقبل، وحوار الآخر، والاستفادة منه، دون ضجيج إعلامي أجوف، ودون استخفاف بالأدباء والنقاد والمفكرين الذين لايرون مايراه التبعيون، ودون مساس بما هو قائم، إذا كان من مفردات حضارتنا، وليس معوقاً لانطلاقنا ومن الممكن اتمام التفاعل مع المستجد دون قتل للأبرياء. والذين فرغوا على مدى عمرهم الكتابي الطويل للأخذ المباشر وغير المهجن أو المدجن من الآخر، وانقطعوا لتبنِّي الجاهزيات بدعوى التجديد، ثم لم يعرفوا أنهم عيال على المتداول في المشاهد العربية التي مارست مسخ ذاتها لا بالمداهنة ولكن بالانسلاخ هؤلاء يخلطون من حيث يدرون أو لايدرون بين مفاهيم التجديد والتقليد ولمّا نزل نؤكد على ان تقمص شواخص الغير لايعدو تجديداً، ولاسيما حين يكون التقمص لسيىء القول ومنحرف الفكر وما نشاهده الآن من تبنٍّ للتجريب الغربي، لم يكن بدعاً من الأمر، فطائفة من قراء الأمة العربية لم تفق بعد من حالة الصدمة الحضارية منذ (حملة نابليون).

وإذا كنا نعجب مما يحكيه (الجبرتي) في تاريخه عن مفاجآت الحملة الفرنسية وتصورها عند العامة، فإن فينا من يعيش الدهشة نفسها، ولما يستفد من كل هذه السنوات العجاف. ولو كان المبهورون على ثقة بأنفسهم وبحضارتهم وبتراثهم لما تهافتوا على المصطلحات الغربية، ظناً منهم انها مغانم، وماهي في حقيقة الأمر إلا مغارم، والتحولات المرتجلة المستجيبة لتأثيرات الاجواء البعيدة لا تعد تحولات راشدة ولا محمودة، التحول السديد من يستجيب لتطلعات الأمة ويلبي حاجاتها القائمة أو المستجدة، والمشاهد الأدبية والاجتماعية والتربوية والفكرية تفيض بالقائلين ما قال الغرب وكأنه (حذام) التي يقول فيها الشاعر:

إذا قالـــــت حـــــذام فصـــــدقوها

فـــإن القـــول مـــا قالـــت حـــذام

ولعل الناقد (جابر عصفور) شاهد من الأهل، حين يقول عن (الإيقاع اللاهث من التغير) وهو يتحدث عن تحولات النقد: (هذه المتغيرات الحاسمة تفرض نفسها علينا لأننا نعيش في هذا الكون معيشة المستهلك الذي يستجيب إلى متغيرات لا يسهم في صنعها ويستقبل تحولاتها ليس له دور حاسم في توجيهها) (آفاق العصر ص١٠٤) ذلك قوله عمن أخذ مباشرة من الغرب، فما قولنا عمن أخذ من الآخذين:

فلــو كــان عبــد الله مــولى هجوتــه

ولكـــــن عبــــــد الله مـــــــولى مواليــــــا

وأصـحاب المشـاريع لا يكونـون مسـتهلكين، والمسـتهلكون لا يسـهمون فـي صـنع الأشياء، والقول في (الحداثة) و(البنيوية) و(التحويلية) و(النقد الثقافي) استهلاك، والقائل بشيء من ذلك مستهلك، وادعاؤه بأنه صاحب مشروع ادعاء عريض، والقبول بـه مؤشر بدائيـة، وتلـك (الزئبقيـة) كمـا يسـميها الـدكتور (عبـد الـرحمن السـماعيل) بحـق صـاحب المشروع، تحولت عند البعض إلى ميزة لم تتحقق إلا لذوي القدرات الخارقة على التحول الدائم، كما هو عند (رولان بـارت) (كتـاب الريـاض) (٩٧٩٨) والمحمود من الزئبقيـة لا يكون على إطلاقه، فصاحبه في اضطرابه كالمرآة في كف الأشل، لايحقق متابعها إلا دواراً في الرأس وغثياناً في المعدة، ومايقوله (جابر عصفور) ليس وقفاً على النقاد، ومن ثم لم يكن الأدباء وحدهم من يمارس الأخذ عن يد وصغار. فطائفة من علماء النفس والاجتماع والتربية واللغة والاقتصاد والسياسة، يأخذون بغير حساب، محققين التبعية المخلـة بـالوجود الكـريم. ومـا أحـد مـن أولئـك حـاول (الأسـلمة) أو (العوربـة) وصُـنع المصطلح، واتخاذ المنهج والآلة الملائمين لحضارته المغايرة وذلك أضعف الايمان. على ان من حاول مثل ذلك وصف بالرجعية والسكونية والماضوية، وهي كلمات مجّتها الأسماع، وملّتها المشاهد واهترأت من كثرة التداول، ولما تزل ملاذ الهاربين من ملاحقة الناصحين وصراع التجديد والتقليد مضلة أوهام ومزلة أقدام ولما يفرق البعض بين الراحل بالتراث والراحل إليه والمستبطن له والمنغمس فيه ولا بين المستوعب لحضارة الآخر والمقتطع منها الجالب دون استيعاب أو هضم. ومُدَّعو التجديد لايقدرون علي التمثيل الغذائي الذي تتحقق معه مقولة: (الأسد مجموعة خراف مهضومة) ولايرضون بالمؤاخاة بين ماهو قائم وماهو قادم، ولا يقنعون بالترادف والتعايش وإنما يصرون على البدائل وفي ذلك انسحاب مرحلي لحضارة سطعت شمسها على الغرب، إنهم بهذا النفي وذلك الا ستخفاف يقترفون خطايا جلب النكرات وطرد المعارف ولهذا اتخذ البعض منهم سبيل (النقد الجنائزي) ففي كل يوم نسمع بموت ظاهرة وحياة أخرى ولن نحصي كم أميت في مشاهدنا الفكرية والأدبية والعلمية من نظريات ومعارف لتخلية الجو لمجلوب غريب يطير به البسطاء، ويتصورونه فتحاً مبيناً، ثم لايكتفون بالذهول، بل ينكصون على أعقابهم للنيل من كفاءاتهم الوطنية وتراثهم العميق، وكأني بالتاريخ يسائل أولئك: أتؤذون رجلا يرفض موت النقد وهلاك النحو، ويقبل بالجديد المفيد والمبتكر الجديد، لماذا التشنج والانفعال والإيغال في تسفيه الأحلام؟ وإشكالية المشاكل اختلاف المفاهيم حول القضايا المصيرية، وحول أسلوب التعامل معها، والتقارب العالمي والخلطة المستحكمة فرضت التخطي من الصدام إلى الوئام، ومن التدابر إلى الحوار، غير ان مفهوم الحوار تحول إلى إشكالية أخرى.

فالوضـعيون، والمـاديون، واللغويـون، والتربويـون، والنفسـيون، والاجتمـاعيون، والاقتصـاديون، والأدبـاء، والنقـاد، والمؤرخون اختلفوا فيما بينهم حول طريقة (الحوار الحضاري)، وحول مشروعية المصير إلى الآخر أو أسلمة ماعنده، ومن ثم اقتتلوا حول افتراض القديم والجديد، والمقلد والمجدد، والرجعي والتقدمي، ولم يشتغلوا في التمثل السليم والاستيعاب المقتدر. والقول عن القديم بهذا النفس العدواني إدانة له، واستنهاض لنفيه. على ان البعض سعى لقطع دابر القديم بإشاعة الموت لظواهر تراثية قائمة ما أقام (عسيب) واحتدام مشاعرنا ليس خوفاً علي (النقد الأدبي) أو (النحو العربي) حين أميتا بجرة قلم، ليخلو الجو لناقد فرنسي أوعالم لغة أمريكي، وإنما هو خوف على أنفسنا وسمعتنا إذ كيف تنطلق هذه الدعاوى من أرض الجزيرة التي حوت أعظماً يعز عليها ان

تلين قناة اللغة والأدب. ومُدَّعو التجديد تفانوا في الأخذ بعصم المذاهب الغربية، ولم تكن لهم مبادرات تتحسس حاجة الأمة، وتستجيب لمطالبها، والأقل من عرف كيف يحاور، فمنهم من أضاف ما أخذ إلى ما عنده محاولاً إذابة الطريف بالتليد محتفظا بملامح ذاته، والأكثرون الأخسرون استخفوا بما عند قومهم وما أحد منهم أحسن صنع شيء ثابت مفيد، والقليل القليل من طوى كشحه، وانكمش على نفسه، ولما يعرف انه الأدرى بأمور دنياه ومن ثم فوّت على نفسه فرص الحياة الكريمة، وموقفنا من الرافضين لكل جديد كموقفنا من المنسلخين من كل قديم المتهالكين على كل وافد، ولو أن المتهالكين وهم النقيض أخذوا ماهم بحاجة إليه، وأضافوه إلى ماعندهم، واتخذوا مذاهبهم وآلياتهم من حضارتهم، لكانوا أعزة عند قومهم، وعند خصومهم، وكان فعلهم مشروعاً، فالاقتراض دأب الحضارات، غير أن أولئك اسقطوا تجارب الآخرين بالشكل والصورة والمسمى مما اضطرهم إلى اغتيال الأشباه والنظائر في حضارتهم.

وملاحقة الغرب في تجاربه وتحولاته المستجيبة لحاجته تفويت للفرص وحرمان للأمة من قدرات أبنائها المستنزفة في سبيل الملاحقة لكل عارض غير ممطر والمتابع للمشاهد الأدبية في الوطن العربي يدرك انها في ضجة من أجل الغير والمناكفات والعداوات كلها حول مستجد الآخر، وليس هي حول مبادرات الذات، وعلى الذين يتشابه البقر عليهم ان يصيخوا لهذا اللغط، ليعرفوا حجم النزيف المجاني حول مصطلحات لم تستقر مفاهيمها، ولم تتقن اجراءاتها.

جائزة الأمير نايف العالمية .. من المحدودية إلى الشمولية .. ! [(١)]

حينما كتبت عن «مؤسسة الفكر العربي» وعن «التعليم الجامعي من المأزومية إلى المأزقية» وعن «وزارة المياه» هاتفني بعض المتابعين يستحثني على الخروج من ضوائق الأدب إلى فضاءات المجتمع، ويصف كلماتي بحدة النبرة، ويناشدني التخفيف، متعللاً بأن الأمر لا يحتمل كل هذا الخوف، غير اني حين لقيت صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل بن عبد العزيز على هامش تكريم الشاعر الأمير عبد الله الفيصل لم يبد أي امتعاض مما قلته حول مؤسسة الفكر العربي، ولم يضق ذرعاً بالتحفظات والتحذيرات، بل أكد على اهتمامه بما دار في المقالين، وقدَّر التساؤلات والتحفظات، وشكر لي ما أبديته من تخوف، وما قدمته من اقتراحات، وتلك الرحابة في الصدر والثقة بالنفس من لدن سموه، بعثت في نفسي الثقة والاطمئنان، إذ تأكد لي ان رجالات الدولة يثمنون الكلمات الصادقة المخلصة، وإن لم توافق هوى في نفوسهم، ولاتزال الأمة بخير متى أصاخ قادتها للموعظة، ومتى رحبت صدورهم للتساؤل، ومتى عرف المتعقبون من حملة الأقلام حدود ما يجب، وحفظوا حق القادة عليهم، وكنت فيما أتناول من قضايا أفرق دائماً بين الخطأ العارض في التطبيق والخطيئة المتأصلة المرتبطة بالمنهج، وأخطاء المسؤولين من العوارض التي يجب تعقبها.

والمتطوعون بالأعمال الخيرية، الباذلون لجهدهم ووقتهم ومالهم في سبيل خدمة الوطن عبر أي موقع، يودون لو تسدد أعمالهم، ويكون نصيبها النجاح والقبول، فالكبراء منهم يرفلون بحلل الجاه والغنى، وتحفهم الأضواء من كل جانب، وتغمرهم المسؤوليات الجسام، وليسوا بحاجة إلى مزيد من العناء، وتطوعهم بتحمل مزيد من الأعباء دليل على وعي سليم لرسالتهم في الحياة، والرسول ﷺ يقول: «**الصدقة برهان**» لأن نفاق الأقوال والأعمال يسير، ولكن الإقدام على الانفاق دليل إيمان، وبرهان تقوى، وعلامة صدق، والجود بالمال، كما الجود بالنفس دليل إيمان هناك ومؤشر إحسان هنا، ولهذا صار الجهاد ذروة سنام الإسلام، وواجب المقتدرين بالقول أو بالفعل ان يسهموا بما يقدرون عليه، لا يحابون، ولا يتملقون، وفي المقابل لا يشكون، ولا يتشاءمون، والقصد مطلوب في كلتا الحالتين، وبخاصة حين تكون المشاريع في خدمة الكلمة سواء كانت من عند الله أم من عند غيره، فالمشاريع الفكرية بما اوتيت من وسائط النقل ومراكز الحفظ وسهولة الوصول تسهم في تشكيل وعي الأمة وتصورها لله وللكون والحياة، ولا سيما ان الأمة تعيش حالة من التيه والارتباك بفعل الكلمة المنحرفة والرأي السقيم، وما البواقع التي تصيب الأمة إلا نتاج شحنات ذهنية بلغت حد غسيل المخ، فالذين يتصدرون للقول ثم لا يكونون على وعي عميق بفقه الواقع ومعرفة سليمة بشفرات اللعب السياسية القاتلة يسيئون من حيث يريدون الإحسان، وذلك ما عرَّض الأمة الإسلامية لنكسات موجعة، قد لا تسترجع معها عافيتها إلا بعد معاناة طويلة، وتبني المشاريع العلمية والفكرية من ذوي الوعي والخبرة والمسؤولية يبعث على الثقة والاطمئنان.

وإذا كنت اختلف مع مشروع ما من حيث المنهج أو التوقيت أو المجال أو كنت أراه دون المؤمل فإن هذا لا يمتد إلى سلامة المقاصد ولا إلى حسن النوايا، والواثقون بأنفسهم لا يزيدهم النقد والمساءلة إلا إمعاناً بالثقة ومزيداً من الأداء السليم، ومما لا نقبله من كُتَّابنا ومفكرينا ونخبنا العلمية والأدبية التخلي عن المساحة المشروعة للقول الحق والاشتغال

---

(١) تاريخ المقال: ٢٢/ ١/ ٢٠٠٢

بالكلام العديم الجدوى من مجاملة لا يتطلع إليها الجادون في حياتهم، والذين يتخلون عن الممكن من القول كالذين يقولون في غير الممكن.

ومشروع معرفي سلفي مستنير يظهر إلى الوجود بحجم السنة النبوية المطهرة، ويتبنى دعمه رجل بحجم نايف بن عبد العزيز في زمن رديء، وعزوف معيب، وظروف عصيبة يمر بها العالم الإسلامي، يعد بحق من أهم المشاريع العلمية وأجدرها بالمتابعة والتساؤل، وإبداء المشورة وتفادي المجاملة التي قد تفوت على المعنيين تلافي أي نقص، ولا سيما إذا كانت تلك المشاريع في دور التأسيس، ومبادرة صاحب السمو الملكي الأمير نايف بن عبد العزيز تتطلب المباركة والمؤازرة، والمباركة والمؤازرة ليستا وقفاً على الثناء والرهان والتزكية، فسموه لا يريد الجزاء ولا الشكور الفانين فناء الدنيا.

وإذا كان «مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف» قد حقق خدمة جليلة لكتاب الله، بلغ به آفاق المعمورة، وتمكن من الحصول على نسخة من المصحف الشريف كل مسلم، كان يتمنى الحصول على نسخة منه، ثم لا يحصل عليها من قبل، لقد تخطى المجمع بجهوده طباعة النص إلى ترجمة المعاني إلى مختلف اللغات وتفسير آي الذكر الحكيم وتسجيله صوتا لعدد من المقرئين، وحقق نجاحا لا مراء فيه، وانتزع اعجاب الأمة الإسلامية، فإننا نرجو ان يكون مشروع الأمير نايف بن عبد العزيز بهذا المستوى، بحيث تكون الجائزة جزءاً من المشروع، وليست هي كله، ولا سيما ان اللجنة العليا سيكون لها اجتماع قريب، لوضع تصور شامل لهذا المشروع، ولقد راودتني من قبل فكرة التقدم لصاحب السمو الملكي ولي العهد بإنشاء مجمع رديف لمجمع الملك فهد، ينهض بمهمة إحياء السنة المطهرة، وتكون مهمته استقطاب الجهود الفردية لعلماء الحديث، وتمويل مشاريعهم في التنقيب عن المخطوطات والمطبوعات غير المحققة، والتحقيق العلمي السليم القائم على أوفر المناهج وأدقها، والتخريج العلمي وفق ضوابط الجرح والتعديل والتصحيح والفهرسة والشرح والدراسة، وطبع الأعمال المميزة في أكثر من دولة، وتخفيض أسعارها قدر الإمكان، والاسهام في ابتعاث الدارسين الذين يسجلون بحوثهم في تلك الأقسام واقتراح مشاريع علمية يفرغ لها المتخصصون من علماء الحديث، بحيث تشكل لها فرق العمل بقيادة العلماء المتمكنين، حتى إذا فرغوا من تجهيزهم تقوم مؤسسة الجائزة بطباعة الأعمال، وإيصالها إلى آفاق المعمورة، ويجب ان تكون المشاريع المدعومة أو المتبناة ذات تميز، مستكملة ما تتطلبه السنة النبوية من خدمة معرفية، وبخاصة بعد ظهور مراكز المعلومات والشبكات العنكبوتية وأجهزة الكمبيوتر والإنترنت، ولعل الأهم في هذا المشروع ترجمة كتب السنة إلى مختلف اللغات وبالذات لغات الدول الإسلامية، مع ان تنامي الأقليات الإسلامية في الدول المتقدمة يجعل من لغاتها لغة اقليات، وحاجة الأمة الإسلامية اليوم إلى توفير النص التشريعي المجرد من تراكمات المذاهب ومعوقات المراحل التاريخية قائمة وملحة، فالمذهبية والطائفية التي عوقت تلاحم الأمة لا يخفف من حدتها إلا التنادي إلى كلمة الله وكلمة رسوله، ففي ذلك رد مقنع ومفحم.

والمعروف ان هناك علماء أجلاء خدموا السنة النبوية المطهرة ممن قضى نحبه وممن ينتظر، وبعض أولئك وقفت الظروف المادية والجهد المحدود والطاقة المبعثرة بين العمل الوظيفي والجهد التطوعي في طريق إنجاز مشاريعهم، وبعضهم الآخر انتقل إلى رحمة الله، تاركا ثروة لا يستهان بها من الأعمال العلمية المبعثرة هنا وهناك، أو المطبوعة بأعداد محدودة، وفق الإمكانات المتواضعة، ولنضرب على ذلك مثلاً بخادم السنة النبوية المطهرة المرحوم محمد ناصر الدين الألباني، الذي وقف حياته على خدمة الحديث النبوي الشريف، وقطع مسافة لا يستهان بها، وفتح الطريق أمام الناشطين من

العلماء لتتبع كتب الصحاح والمسانيد والسنن المخطوطة والمطبوعة، والعمل على تحقيقها تحقيقا علميا واخراجها إلى الناس، والسعي وراء الثروة العلمية المنهوبة من مكتبات العالم الإسلامي وخزائنه والمسجونة ظلماً وعدوانا في مكتبات العالم الغربي، والعمل على استعادتها ذاتا أو مصورة، والنهوض بمهمة التحقيق والتخريج والطباعة والتوزيع، ويقال عن سماحة العلامة بكر عبد الله أبوزيد شفاه الله ما يقال عن الألباني، وعن آخرين لا نعلمهم، ولكن الله يعلم سرهم ونجواهم، وجليل أعمالهم، لقد حفزت جهود أولئك الأفذاذ طوائف من العلماء والمتعلمين إلى مبادرات مشكورة يحسن العمل على ترشيدها .. ومن الظواهر الإجرائية التي بدت في الآونة الأخيرة تضافر جهود العلماء والمتعلمين على فهرسة كتب الحديث، وهي فهرسة في مجملها بدائية، إذ تعتمد على أوائل الأحاديث القولية، وكم كان جميلا لو ان هذه الجهود وجدت من يرعاها ويدعمها، لتنتقل من الفهرسة إلى المعجمة، بحيث يسهل العثور على الحديث بمجرد حفظ كلمة منه، على غرار المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وعلى طريقة أسلم وأحكم من طريقة المستشرقين في معجمة كتب المسانيد والصحاح والسنن.

لقد انتهت الجهود الفردية والمبادرات الشخصية، وجاء دور المؤسسات الفكرية والأدبية والدينية والسياسية والاقتصادية، جاء دور فرق العمل المتخصصة لإنجاز الأعمال الهامة، واستكمال المشاريع الحيوية التي لا يمكن ان يوكل امرها إلى فرد لا يقدر على استكمالها، وإنشاء الجائزة مشروع لا يستهان به، ومن حق صاحبه علينا الشكر والدعاء والنصيحة، والمطالبة الملحة بتوسيع مجالات ذلك المشروع، وبخاصة حين يتبناه رجل ودود مُقدَّر ومقتدر مثل الأمير نايف بن عبد العزيز، ولأنني أؤمن بمبدأ «خذ وطالب» فإنني اتمنى على سموه الأماني، وهو الأجدر والأقدر على تحقيق تطلعات المهتمين بالمعارف الإسلامية، وماذا عليه وعلينا لو تقدم خطوات إلى الأمام وحمَّل المشروع مسؤوليات إضافية، مستعينا بمن شاء من المحسنين، بحيث يتطوع الموسورون بتبني مشاريع علمية تقترحها الجائزة العالمية، وتشرف عليها وليس هناك ما يمنع من تضافر الجهود، وإذا قام رجل يمتلك أهلية القيادة بتبني فكرة علمية أو غيرها فإنما هي من السنن الحسنة التي يؤجر عليها، ولعلنا نستذكر دواعي مقولة الرسول ﷺ: «**مَنْ سنَّ سنة حسنة فله أجرُها وأجر من عمل بها**»، ذلك ان الرسول قام خطيباً يستحث الناس على جمع الصدقات لمحتاجين مسهم الجوع، فقام بعض القوم بطرح أرديتهم ووضع ما معهم فيها فتقاطر المتصدقون حتى امتلأت الأردية، واستغنى المعسرون، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم قولته تلك «**من سن سنة حسنة**»، وليس ما يمنع من ان يبسط الأمير رداءه ويخطب في الناس لدعم السنة النبوية المطهرة، ليكون من أصحاب السنن الحسنة.

وفعله ابتداء يعد بلا شك من السنن الحسنة التي نسأل الله ان يكتب له فيها الأجر لتكون صدقة جارية إذا انقطع عمله، وكل من مات انقطع عمله إلا من صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له، ومشروع كهذا لا نود ان يرتبط بذات الرجل وجودا وعدماً، ومن ثم لابد من النظر في أمر الصدقات والأوقاف الإسلامية التي يحبس أصلها وتوجه منفعتها لدعم هذا المشروع، إضافة إلى ما تجود به أريحية الأمير وهي بلا شك أريحية تغني وتقني، وخدمة السنة المطهرة لا نود ان تقتصر على الجائزة، ذلك ان الفائز فيها قد أنجز عمله، ونحن نريد إنشاء أعمال جديدة، والتفكير في إضافة أعمال فوق أعمال الفائزين بالجائزة، وإيجاد مثابة لخدمة السنة المطهرة من علماء ومؤسسات تكون بحجم «مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف» علما ان خدمة السنة المطهرة لا تقتصر فقط على طباعة الجاهز من الأعمال، مثلما هي الحال بالنسبة للقرآن الكريم، وبالتالي فإن هذا سيضيف أعباء جديدة على الجائزة، ولكنها أعباء تحت السيطرة متى تلقف رايتها

إنسان متميز مثل الأمير نايف بن عبد العزيز، بما هو عليه من مبادرات إيجابية، ليست من اختصاصات وزارته، ولعلنا نذكر تفانيه في محاصرة «البطالة» وطرح مشروع «السعودة» والتصدي لخدمة الإسلام في هذه الظروف الحرجة دليل على وعي التوقيت والتقدير، وتأكيد على ان التصدي للإعلام الغربي ومن ورائه اللوبي الصهيوني لا يكون بالقول فقط، وإنما يكون بالفعل المؤصل للإسلام، الفعل الذي يلبي دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم: «**بلِّغوا عني ولو آية**»، وإعادة النص التشريعي وتنقيته من كل ما علق به من شوائب المذهبية والطائفية وإعادة قراءته في ظل النوازل مؤذن بالخروج بأحكام إسلامية بعيدة عن التخرصات قريبة من واقع الحياة، فالنوازل تضيء عتمة النص وتفجر دلالاته الكامنة فيه، ولأن الأمير نايف رجل دولة قبل ان يكون مسؤولاً أمنياً فإن مبادرته تلك تحيل إلى اهتمامات الدولة بالقضايا الإسلامية في كل المجالات وعلى كل الصعد، وهي اهتمامات حصيفة وواعية ورائدة، ومما يبعث على الاطمئنان ذلك الانتقاء الذكي للهيئة التي نحسبها من الخيرين، ولا نزكي على الله أحدا.

والأمل معقود بنواصي صفوة الصفوة المتمثلة بهذه الهيئة لتفادي أي صدام أو تبني أية رؤية ضيقة، أو الركون لأي مذهبية، فالسنة المطهرة مرجعية معتبرة لكل مذهب إسلامي، وما عليها إلا ان تقدم النص الصحيح خاليا من كل الشوائب، وعلى الذين يسعون للحق ان يتلقوا هذه النصوص الموثقة الثابتة القطعية، ويمتثلوا أمر الله وأمر رسوله، ومع ثقتي بالهيئة رجالا بأسمائهم أو مسؤولين من خلال مواقعهم فإنني أتمنى ضم مؤسسات أخرى كان لها قدم صدق في خدمة السنة المطهرة ودور نشر عنيت بالسنة تحقيقاً وطباعة للاستفادة من خبراتهم وتوفير الدعم لهم، والعمل على لملمة الجهود وتوجيهها إلى مجرى واحد ومصب واحد، وحسنا ان تكون الجائزة ملتقى المؤسسات والهيئات والأفراد المهتمين بالسنة المطهرة عليها يردون ومنها يصدرون، يمنحونها نصحهم ويهبونها جهدهم، وفيها يتلقون دعمهم علميا وماديا.

لقد واجه العلماء والأدباء والمفكرون هذه البادرة بالارتياح، والجميع يودون لو تجاوزت الجائزة محدودية أثرها إلى ما هو أهم، وبخاصة ان سمو الأمير قادر على قيادة حملة لها ما بعدها، وهو موطن ثقة رجال الأعمال الذين تتدفق اعطياتهم بشكل مبهج، وعلينا ان نستعيد اسهامات المحسنين في مشروع صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله بن عبد العزيز حفظه الله في رعاية الموهوبين ومشروع صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل لرعاية الفكر العربي، ومشاريع أخرى لسنا بصدد تقصيها، وبلادنا تدخل سباقات ايجابية، والأمراء يتصدرون هذه السباقات، ومن ورائهم رجال المال والأعمال والجميع بجهودهم المتضافرة يمدون هذه السباقات بالدعم السخي، فخادم الحرمين الشريفين حفظه الله قدم للعالم الإسلامي أهم مشروع، وهو «مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف» والأمير عبد الله بن عبد العزيز حفظه الله قدم أكثر من مشروع من مثل «مكتبة الملك عبد العزيز» ومشروع رعاية الموهوبين، والأمير سلطان بن عبد العزيز أنشأ «مؤسسة الأمير سلطان الخيرية»، وموَّل مشروعه الموسوعة، والأمير مشعل بن عبد العزيز له اسهاماته المتميزة، والأمير سلمان بن عبد العزيز له حضوره المتواصل، وأبناء الملك فيصل وأبناء الملك خالد لهم مبادراتهم، ولكل أمير مشروع ديني أو فكري أو إنساني، ولا نزال بخير ما دمنا نتلقى مثل هذه المبادرات الكريمة من الأمراء والأثرياء، وعلينا ان نكون ردءاً لها، ومحفزا لذويها، وداعما لها بالقول وبالفعل، وليس من مصلحة الأمة التخذيل أو التثبيط، ولا أقل من المشاركة بالقول، على حد «فليُسعِد النطقُ إن لم تُسْعِد الحال»، وذلك أضعف الإيمان، وإنشاء جائزة تقف جنبا إلى جنب بازاء جائزة الملك

فيصل العالمية، مبادرة حضارية، يجب ان تتجاوز الثناء إلى الدعاء والنصح، فصاحبها لا يريد من ورائها جزاء ولا شكورا من أحد.

الإبداع في الأدب: حدوده .. وآفاقه .. ؟ (١) [(١)]

١/١لكيلا نعوِّم القول أو نعممه على شاكلة الآخذين من كل شيء بطرف، نرى أنه وتمشياً مع المنهجية العلمية الدقيقة من الضروري تقصي الدلالات المتعددة لمفردات العنوان، وتعقب تحولاتها المصطلحية، وتقصي مراحلها التاريخية، وتعدد حقولها المعرفية. ذلك أن تأطير المعلومة من خلال تحريرها معرفياً كالأطر على الحق، كلاهما مطلب حضاري. ونحن هنا أمام أربع مفردات، بمعرفة مدلولاتها الوضعية والاصطلاحية نستطيع أن نتخذ الطريق القاصد إلى معطياتها ومقتضياتها والتعامل معها تعاملاً معرفياً لا يشوبه افتعال ولا انفعال، ومفردات العنوان هي:

«الإبداع» و «الأدب» و «الحد» و «الأفق»، وإشكالياتها المتأبية ليست في الدلالة، ولكنها في المفهوم، وفي المقتضى، وفي التصور. والمصطلحات المراوغة تقي مدعيها إقامة الحجة، وإن كانت مأخوذة بمقاصد الحضارة المنتجة لها، ومع ذلك فلا بد من العودة إلى درجة الصفر في البحث عن الدلالة، والانطلاق منها والتحسس عن التطورات الدلالية لها عبر سياقاتها التاريخية. وإذ تكون لكل كلمة منها دلالاتها الوضعية المتأثرة بالتطور الحضاري. ولها مقتضياتها المصطلحية المتأثرة باختلاف المفاهيم، ولها استعمالاتها المجازية: مفردة كانت أو مضافة أو مركبة، إذ أن بناءها في نسق تعبيري تنشأ عنه علائق جديدة، تتجاوز دلالة أي مفردة مستقلة أو آخذة بسياق مغاير: أسلوبياً أو ثقافياً أو تاريخياً، ولكنها مع تعدد السياقات والأنساق تحتفظ بقدر كبير من مدلولها الوضعي والاصطلاحي، والدلالتان منارتا هداية لكل باحث عن دقة المعلومة وحدود الموضوع.

١/٢ف«الأدب» بوصفه محور الحديث، وجماع أمره، أخص من الإبداع على إطلاقه، والإبداع يعني: الإنشاء على غير مثال، وهو مع الخالق على الحقيقة، ومع المخلوق على المجاز، لأن التخيل البشري استرجاعي، ومن ثم فإن القول بالإبداع تجوزاً، وقديماً قال الشاعر الجاهلي:

ما ترانا نقول إلا معاراً

أو معاداً من قولنا مكروراً

ويقول:

هل غادر الشعراء من متردم

والأدب في مجمله إبداع قولي، وإذ يكون الإبداع: قولاً وفعلاً، فإن الإبداع القولي بعض مفردات الإبداع على إطلاقه، وهو مؤشر فعل أو قول، فـ«الرسام» و«النحات» و«الموسيقي» و«الراقص» و«المغني» و«الشاعر» و«القاص» و«الممثل» كل أولئك يوصفون بالمبدعين والفنانين. ولكل واحد منهم ضوابط فنِّه، وحدود مجاله، ومقومات نوعه الإبداعي، وآفاق سبحاته.

ومتى جهل المعنيون شيئا من ذلك انفلت العقد، وعمت الفوضى، وعُمِّيت الأمور، وفُقِدت المرجعية التي يُرَدُّ إليها عند الاختلاف. وذلك بعض أدواء المشاهد القائمة، وعامل فوضويتها. ولكون الأدب إبداعاً قولياً في شقيه: السردي والشعري، فإنه أخص من مطلق القول المتسع لسائر العلوم: البحتة والإنسانية والشرعية. ولأن الشعر ذو خصوصية شكلية، مغرقة في الغنائية، عصية في الشرط الشكلي، دقيقة في البناء اللغوي، فإنه يستأثر

---
(١) تاريخ المقال: ٢٩/ ١/ ٢٠٠٢

بأهمية لا ترقى إليها مفردات الإبداع القولي، كالقصة والرواية والمسرحية والسيرة الذاتية والمقالة، والشعر يستأثر بالتألق حين يكون الشاعر موهوباً، عميق الثقافة، صادق التجربة. ولما كان الإبداع السردي أيسر مرتقى، فقد كثر أدعياؤه ومقتدروه، وقل موهوبوه ومبدعوه، وطغى افتعاله وانفعاله، وندت عن الاستقامة مواقفه وتجاربه، وغُمِرت مشاهد الأدب بفيوض من القول الفارغ واللغة الرديئة والكلام الكثير الذي لا يقول شيئاً، حتى كسر الحدُّ ولوث الأفق، وحتى قيل بـ«زمن الرواية» لكثرة الثلاثيات والخماسيات والمجاميع القصصية واستفاضة الدراسات وتتابع القضايا والظواهر الأسلوبية والفنية واللغوية التي لا تكون إلا في الوهم، وعلى يد السواد الأعظم من الروائيين والقصاص والنقاد سيئت وجوه الفن الرفيع، ودنست المقدسات الطاهرة، وهتكت الأخلاقيات المصونة، وأنسن الإله، وسئل عما يفعل، وعورضت الأقدار، ورفضت الأوامر، وسفهت الأحلام، وكلما تمعرت وجوه الوجلين تذرع المقترفون والمعذرون بحرية القول وحقوق الفن وحتمية التجديد، ولم يرق مما كتب من أعمال إلى سدة الفن الخالد إلا الأقل من الإبداعات الروائية، التي كتبها موهوبون متمكنون من لغتهم وفنهم وثقافتهم وصدق تجاربهم. ومما يلفت النظر مفارقة المقومات، فمتى تألق الفن، وأشرقت اللغة، خبث المحتوى، ومتى شرف المعنى تعثر الفن وتلعثمت اللغة، وندر اجتماع الأشراف: شرف اللفظ والفن والدلالة، ومن ثم وجد المفسدون في أرض الفن والمرجفون في مدينة الإبداع هذه المفارقة سبيلاً قاصداً لشرعنة الفجور، كما وجدوها مبرراً لتعطيل الحدود وتلويث الآفاق. والمؤسف إن الشهرة والحضور واكبا المتمردين على القيم كافة: قيم الفن واللغة والأخلاق، وجاء أساطين النقد كالمعذرين ظهيراً للمبدعين الذين لم يرعوا في المشاهد إلاً ولا ذمة، وكل ذلك الفيض من الانتهاكات يتذرع بالحرية التي لم تفهم على وجهها. ولأن ضوابط الشعر الفنية دقيقة وشاقة وعصية، سواء تعلقت بلغة النص أو بفنياته أو بدلالاته، فقد وجد فيه النقاد فضاءات رحبة، حتى لقد طغى سلطانه وكثر أعوانه، واستأثر بالشاهد والمثل والدرس. ولأنه مجال علماء اللغة والنحو والصرف والبلاغة والتفسير فقد احتشم الشعراء المعول على شعرهم، ولم يسفوا، ولا عبرة بمن ندَّ من الشعراء الشعوبيين عن جادة الصواب، فانحراف أولئك ذليل محدود. ولما زوحم الشعر بوسائل الإعلام: المقروء والمسموع والمرئي، وشغل الناس بما جد من فنون القول بما هيئ لهم من وسائل تسلية وترفيه، تقلصت مساحة الشعر، وغلبت السرديات عليه، وتبع ذلك ضعف سلطانه، وما أن تعددت قنوات الاتصال بالجماهير هبطت الفنيات، وضاعت القيم، وتقحم المشاهد من لا خلاق له، وأصبح الذابون عن الفضيلة نشزا في سياق الإبداع والنقد، ولقي حماة الأصالة أذى كثيراً من تجاوزات المنتهكين لحرمة التراث، فكانت الأذية مضاعفة، لأنها تمس الأخلاق والتراث معاً، والذين تجاوزوا حدود الفن والقيم شايعهم من تجاوز حدود اللغة، ليحتل «الشعر الأمي» صدارة المشاهد وسدة الإعلام مزاحماً بمنكبه الضعيف وجناحه القصير وبمؤازرة المنتفعين من حملة الأقلام «الشعر الفصيح» الذي اعتورته الرذيلة والعامية والضعف العام، ومن ثم ضاعت حدود الفن والقيم واللغة.

١/٣و «الإبداع الأدبي» تنتابه إشكاليات متعددة، لاختلاف المفاهيم والتصورات، ولتعدد الجغرافيا الفكرية والدينية، والنقاد المعذّرون والمعارضون، والمؤصلون والمشرعون يقعون تحت تأثيرات متعددة، تدفع بهم إلى الصدام، ولا تحملهم على التعاذر والالتقاء على كلمة سواء، يحترمون معها الضوابط الأخلاقية والقيم الفنية والمعيارية اللغوية، ويمكنون النص الإبداعي من إقامة اللسان واستقامة الخلق على حد:

ولـــولا خـــلال ســـنها الشـــعر مـــا درى

بنـــاةُ المعـــالي كيـــف تبنـــى المكـــارم

وحين نتحدث عن «الحدود» و«الآفاق» نعرض أنفسنا لجدلية حادة النبرة، وبخاصة حين وقع الأدب في مضائع الالتزام الأيديولوجي المسيس، واستزلته دعوات الحيرة الفوضوية في مجال القيم الفنية والأخلاقية والفكرية والسياسة، و«الإبداع الأدبي» مادته اللغة وآفاقه التجربة الإنسانية: فردية أو جماعية، ولكل من «الإبداع» و«الأدب» و«اللغة» و«الفن» و«التجربة» حدود وآفاق تواضعت عليها النخب وتوارثتها الأجيال، وسلم لها أفراد المجتمع الواحد المتجانس في لغته وجنسه وجغرافياته: الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية معولة على مرجعية نصية أو عرفية، وتلك المواضعات منها الثابت والمتحول، وهوامش التحول تمكن من التحرف المتواصل للتجديد لمواكبة الحياة المستجدة، وكل حضارة تنطوي على ثوابت ومتغيرات، والإشكالية في تحديد الثابت والمتحول، ومن تصور ان التحفظ على المقترفات عقبة في طريق التجديد، فقد تعمد التحريف والتزييف، ومن صدّق هذه الدعاوى فهو خب يخدعه الخب، فالسكونية والماضوية ليستا سمة الأخلاقيين ولا خلق المؤصلين، كما ان الاستشراف المستقبلي والتجديد الحقيقي ليسا سمة المتهتكين والمتمردين على الضوابط والحدود، واختلاف المفاهيم كالاختلاف حول الثابت والمتحول، كلاهما مجال صراع مستحكم وتنازع مضر بالمصلحة العليا للأمة، والأخطر من كل ذلك الاختلاف حول المرجعية، ومتى اختلف الناس حول المرجعية وقعت الواقعة إذ ان الاتفاق عليها يحصر الخلاف في وجوه التأويل، وفي تعدد الدلالات، والسلف من العلماء أدركوا ان النص حمَّال أوجه، وقبلوا الاختلاف على ضوئه وعمدوا إلى وضع الأصول والقواعد في استقرار النصوص.

ولكي نستبين الوعي الحضاري للعملية الإبداعية لا بد ان نعرف الشرط الفني، والمعيار اللغوي، والضابط الأخلاقي، والمقتضى العقدي، والمفهوم المصطلحي، وحدود الثبات والتحول، ونعرف إلى جانب ذلك القدر المتاح من الضرورة وشرعية التغيير في الشرط، وإمكانيات المخول للتغيير، وحقه في ذلك. إذ لا يجوز تخويل حق التغيير لكل من وجد في نفسه الرغبة في ذلك، وإنما هو لمن يقدرون للضرورة قدرها، ويحفظون حق الحضارة التي ينتمون إليها، ولا بد مع هذا من ضوابط يحترمها الجميع، ويسلمون لها، ولا بد من مساحات محدودة لحرية القول وحرية التغيير، لمواكبة الحياة المستجدة، ولا بد ان يكون كل شيء بمقدار، فالانغلاق على الذات، والانفتاح على الغير، حين لا يكونان محسوبين بكل دقة يستويان في العائد السلبي، والحياة: مادة ومعنى قائمة على النظام، وسنن الله لا تبدل ولا تحول، لأنها نظام الكون الحسي والمعنوي، والنظام ضابط يحد من فوضوية التصرف وهمجية الفعل، وضياع الأمة وهلاكها يستشريان حين يسود الجهلة، وحين لا تحترم ضوابط الفنون والعلوم، وحين لا يخضع الجميع لما تواضعوا عليه من القيم.

والأدعياء الذين امتلكوا حق القول في مصائر الأمة وكافة أمورها باسم حرية التعبير وتكافؤ الفرص، اطفأوا منارات الفن، حتى لقد انطمست حدوده، وادلهمت آفاقه، وأصبح كل عابث يحيل على حقه في الحرية الفوضوية وعلى حق التعبير عن الرأي، والحرية لا بد ان تكون منضبطة، ومرتبطة بالمواضعات التي تحمي حقوق الغير: حسية أو معنوية، فالفن تحميه ضوابطه، واللغة تحميها قواعدها، والقيم تحميها الأوامر والنواهي الشرعية، والحقوق الخاصة تحميها القوانين، والحقوق العامة تحميها الدساتير، والحرية والحدُّ

صنوان، فغياب أحدهما مؤذن بفساد الأمة وضياع مثمناتها، والضابط هو «الحد» سواء تعلق بلغة النص أو بمضمونه أو بفنياته، ولكل عنصر شرطه، والتعامل معه دون فهم دقيق لنظامه ومهارة متميزة لفك شفراته واستيعاب جيد لممكنه ومستحيله ومباحه ومحظوره ضرب في فجاج التيه، وذلك ما نشهده عند دعاة الانقطاع المعرفي، واستمرارية التغيير، وضرب الثوابت والسوائد دون مساءلة أو تقويم.

٤/١وكل شيء في الوجود له حده الذي لا يتحقق وجوده إلا بقيامه واحترامه و«الحدود» واحدها «حدٌّ» وهو في اللغة: المنع، والفصل بين شيئين، ومنتهى كل شيء حده، وهو في الفلسفة: ما دل على ماهية الشيء، والحد التام يقتضي الجمع والمنع كالمصطلح، ويقتضي الاطراد، وهو التلازم بين الحد والمحدود، وليس من مقتضيات الحرية تجاوز الحد، فالحد مطلب رئيس من مطالب الحرية، والمشاهد الفكرية والأدبية تقترب من حافة الفوضية، لأن الحداثة اطلقت أيدي ذويها من مبدعين ونقاد: مطبقين ومنظرين، فكسر الحد، وعطلت القواعد، ورفضت السلطة: الحسية والمعنوية، ولهذا لم يعد هناك حد متفق عليه، حتى القول في أنواع الفنون لم يعد مقبولاً، وقد طرح مصطلح «الكتابة» لكيلا يكون هناك تمايز بين فنون القول، وليس من مصلحة أي حضارة ألا يكون لأدائها القولي «حد» و«أفق» يلتزمهما المبدعون، وينافح عنهما النقاد.

وما من حضارة انتقضت عراها عروة عروة إلا ضاع أهلها، واستعبد أفرادها، وأصبحت تركة موروثة لحضارة أخرى، والحد في الإبداع القولي يكون للغة النص، وهو معيارها، ويكون للنوع الفني، وهو شرطه، ويكون للمضمون، وهو ضابطه المتعدد: عقديا وأخلاقياً وسياسياً واجتماعياً، والحد في المضامين لا يقل أهمية عن سائر الحدود، ولا سيما بعد ان طغت السرديات، واتسعت للقضايا الفكرية والسياسية والاجتماعية والعقدية، ومن تعقب التجاوزات في الفكر والأخلاق راعته الترديات الأخلاقية والفكرية، وإذا كنا نجد في التراث مثل ذلك فإنه تجاوز محدود ومقموع، وليس له ناصر يشرعن فسقه وفجوره مثلما هو حاصل في مشاهد العصر الحديث.

الإبداع في الأدب: حدوده .. وآفاقه .. ! (٢) (١)

٢/١و«الآفاق» واحدها«أفق»، وهو المجال الظرفي الذي تسبح فيه الأفعال والأقوال، ولكل فن مضاميره، فلا يجوز أن يدرج أي فن في عش غيره، فالفقهاء لهم مجالهم، كما أن للمحدثين والمفسرين والفلاسفة والمؤرخين آفاقهم، واتساع المجالات وتبادلها وتداخلها، واختلاف المفاهيم، وتباين التصورات لا يلغي الأفق الطبيعي للأشياء، ومن جهل ذلك أساء إلى نفسه وإلى فنه وإلى حضارته. والتداخل الدائري بين الآفاق لا يلغي تعدديتها وتمايزها، إذ ليس من شرط الأفق الانغلاق، بحيث لا يسبح فيه إلا نوعه، وبقدر اتساع الآفاق للتداخل تكون الخصوصية المرنة.

والمتذرعون بدعوى الحرية في إلغاء«الحد» وطمس«الأفق» أفسدوا الفن والقيم الأخلاقية، و«الحداثيون» هم الذين دمروا بنية المجتمع، وفجروا اللغة، وأوغلوا في الاغتراب والعدمية والفوضوية الجنسية. ولغط القول حول مفهوم الحرية في الفن لا يقل سوءاً عن اللغط حول«الحرية» و«السلطة» إذ إن السلطة المعيارية والسلطة الدينية والسلطة السياسية، تقمع المتمردين والمتهتكين، وتضيق الخناق عليهم، وتأطرهم على الحق، والذين يتمردون على السلطات مثلهم كمثل الذين يفهمونها على غير مراد المشرع، فالحرية غير الخنوع، والفوضى غير الحرية، والإشكالية في المفهوم والممارسة وأسلوب التبادل بين السلطة والمحكوم بها من الأناسي والأشياء. والدخول في تلك المهايع مضلة إفهام ومزلة أقدام، ولكن واجب تغيير المنكر يحمل المقتدر على أن يصدع بما يعتقد وبما يؤمن به. وكل من لم يسلم اقتناعاً وطواعية للسلطة التي يفرضها التجمع الإنساني يحس بالضوائق، وهو إحساس مرضي، إذ إن طبيعة الإنسان السوي الإذعان لمقتضيات العقود والعهود والضوابط والحدود، والحرية الحقيقية هي الالتزام بما تواضع عليه المجتمع، سواء استمد تواضعه من تشريع سماوي أو من قانون وضعي، والسلطة السياسية مفوضة لتفعيل الشرائع والقوانين، والسلطات القضائية والتشريعية تمثل الحدود والضوابط. والعلماء والأدباء والمفكرون لهم قسط من السلطة حين يصطلحون على شروط وضوابط ومعايير، وواجبهم أن يتعهدوها من حين لآخر، يضيفون، ويحذفون، ويعدلون. وعلى الكافة من مبدعين ونقاد أن يحترموا هذه المواضعات لأنها سبيل الحياة السوية. والمذاهب المعاصرة هي التي أخلت بمبدأ«الولاء والبراء» و«السمع والطاعة» وقوضت المواضعات الدينية والاجتماعية. فالحداثة وما نسل منها من«انطباعية»و«مستقبلية» وما واكبها من«دادية» و«سريالية»و«وجودية»و«رمزية» التقت على مبادىء ومواقف، تمثلت في اللاوعي والرفض والشذوذ والغموض والفوضى والتهكم والتهتك والقلق والاغتراب والعبث واللاشعور، وتفعيل الجنون والعرافة والحدس والأحلام والكهانة، واستعادة الخرافة والأسطورة، واتفقت على رفض العقل والمعرفة، وركزت على الشذوذ الفكري والاجتماعي والأخلاقي والصخب والإثارة والفوضى، والتعويل على المعرفة الحدسية والحلم والجنون، وكل ذلك قائم وموثق في كتبهم. ومن قال عن الحداثة غير ذلك، خذلته الوثائق والنصوص، ومن تداولها بوصفها مصطلحاً لمطلق التجديد وجب عليه أن يتصدى لمن يراها غير ذلك، ومن غالط وكابر ولم يحدد موقفه فهو من الحداثيين بالفعل أو بالموالاة.

ومصطلح الحداثة لا يكون قصراً على التجديد تعويلاً على الدلالة الوضعية فالمفهوم المصطلحي والاستفاضة القولية والفعلية تكذب المعذرين.

---

(١) تاريخ المقال: ٥/ ٢/ ٢٠٠٢

وفلاسفة الغرب ونقاده أطلقوا أحكاماً، وأنتجوا مصطلحات، ورسموا حدوداً وهيئوا آفاقاً، تقبَّلها البعض بالقبول الحسن، وسلموا لها، ونافحوا عنها، وسفهوا أحلام المترددين والمتحفظين، ولو أنهم إذ تقحمت مشاهدهم فيوض المذاهب ردوا ذلك إلى مقتضيات حضارتهم ومتطلبات واقعهم، وبرزوا للطوارئ بمعرفة عميقة، وإرادة قوية، وحوار حضاري، وتبادل متكافىء، ومواقف ندية لكانوا أعزة كما أراد الله لهم. والتهافت الذليل على فيوض الآخر لا يحقق الوجود الكريم.

٢/٢وحين نتحدث عن حدود الأدب وآفاقه تمتد نظرتنا إلى فنون القول ومتطلباتها، فالنص الإبداعي له مكوناته التي أنتجته، وله فضاءاته التي استقبلته، وله تأثيره الذي يصطبغ به المتلقي من الأشياء والأناسي، وله قبل هذا وبعده لغته التي وسعته، وشروطه التي ميزته، وحده الذي جمع ومنع، وافقه الذي استوعب فيوضه، وكل هذه نجدها في«الحدود والآفاق»، ثم إن النص الإبداعي منتج حضارة، ومشكّل حضارة، فهو فعل حضاري، وفاعل حضاري، تنتجه الحضارة وينتجها كما«البيضة والدجاجة»، وتلك إشكالية معقدة، غفل عنها كثير من النقاد: المنظرين والمطبقين. فحين نشتبك مع النص في عملية تفكيكية أو تشريحية أو تقويضية، لا نقف حيث تتجلى لنا اللغة بنظامها وعلاماتها وعلائقها، وإنما نبحث عن بعد ثالث يضاف إلى بعدين هامين وهما:

البعد اللغوي.

والبعد الفني.

والنقاد الهاربون أزوروا عن«البعد الدلالي»، بوصفه الهدف الأسمى والغاية الأهم، بحيث وقعوا في ضوائق اللغة أو في محدودية الفن، مظاهرين«للبنيوية اللغوية» أو«الفن للفن»، ونسوا ما ذكروا به من أهمية المضمون وأثره في التصور والسلوك والموقف، ولأن الأبعاد الثلاثة«اللغة، والفن، والمضمون» متوازنة ومهمة، فإن الأهم التفريق بين الوسائل والغايات. فالنص رسالة، واللغة وسيلة، والفن إطار جمالي، والدلالة غاية، والمبدع المتمكن من يتقن عملية الأداء مستشعراً أهمية عناصر الرسالة، كما يراها«ياكبسون» قادراً على حفظ التوازن. والنقد الأخلاقي الذي نشأ مع مدائن الفلاسفة اليونانيين، وظل يتقلب على ألسنة النقاد عبر العصور، نفته مذاهب النقد الحديث متذرعة بمقولات التراث: «أعذب الشعر أكذبه»و«الشعر يغني عن صدقه كذبه»و«الشعر في معزل عن الدين». وفات المبررين والمعذرين أن تلك مقولات تعول على«المجاز»و«الخيال» و«الأفق» ولا تنظر إلى ما ينظر إليه المتهتكون والمنحرفون من شرعنة للفساد والرذيلة. وكيف يجد المؤول مبرراً لعزل الأدب عن سلطة الدين، «وخطبة الحاجة» التي كان يستهل بها رسول الله عليه الصلاة والسلام قوله تتضمن آية: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١] وهل ما تشتمل عليه إبداعات بعض الشعراء والروائيين الحداثيين من القول السديد؟ وأين المعذرون من قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] . ومقولة التراثيين تشير إلى أن للإبداع مجاله، بحيث لا يكون المبدع واعظاً ولا مفتياً ولكنه يكون مستقيماً كما أمر.

٣/٢والنقاد الذين ظاهروا المنحرفين عن جادة الصواب الفني واللغوي والدلالي، وتفانوا في ترويض المتلقي للقبول بهذا الانحراف والقول بمشروعيته تعويلاً على الحرية وعلى خصوصية الفن، وظاهروا الخارجين على نظام اللغة وضوابط الفن ومقتضيات

القيم الأخلاقية، يتولون كبر الخطيئة، ذلك أن المبدع المنحرف حين تزور عنه المشاهد وتزلقه الأبصار وتسلقه الألسن يتحول عن غيه، أما حين تحتفي المشاهد بترديداته الفنية والأخلاقية ويمارس مع غيره التشايل والتنافخ والتقارظ، فإنه يوغل في ذلك، ولا يجد المتلقي بدأ من القبول بالمنكر وإنكار المعروف، والإسلام حث على الاستتار وعدم المجاهرة بالقاذورات لحماية المجتمع، فإشاعة الفواحش يطرد غربتها، ويخفي نكارتها. والمتعقبون للمنظرين من نقاد الغرب الذين خلطوا سائر العلوم مع بعضها لينتهوا بالفن إلى فوضوية مستحكمة يقفون على مقولات مستمدة من علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الجمال وعلم اللغة وعلم الأخلاق ومن الفلسفة والأساطير والأيديولوجيات، وكلها قبضة من أثر الغرب تجتال مشاهد الإبداع الأدبي، لتقضي على خصوصيته وتميزه وضوابطه، والقائلون عن علاقات المبدعين ب«الجنون» و«العناد» يتقحمون آفاق علم النفس، ليشرعنوا الفجور في القول والشذوذ في الفعل، ولهذا فلسنا مع من يربط الإبداع بحالات التوتر والقلق والغثائية والمرض والجنون، وإن تعرض لذلك غير واحد من عمالقة الإبداع الغربي من أمثال «شكسبير» و«هولدرلن» و«نيتشه» و«فان خوخ» و«تشومان»، ولسنا مع من يقول باستواء«العقل»و«الجنون» في حالة التلبس بالعملية الإبداعية. ولقد ثبت هبوط مستويات المبدعين بعد تأزم حالاتهم النفسية. والقول التراثي عن«شياطين الشعر» والتباهي بذكوريتهم وأنثويتهم في الشعر قول أسطوري، لا يعول عليه، وتنزل الشياطين على الشعراء كما في الذكر الحكيم إشارة إلى إغوائهم وعالم الجن والشياطين عالم غيبي، مصدر معرفته النص الشرعي القطعي الدلالة والثبوت، وقد تعقب ظاهرة شياطين الشعر غير واحد من الدارسين.

والتعويل على«المعاندة» في الإبداع لتبرير المغايرة تعويل يحتاج إلى ضوابط، فحين لا نجد مبرراً لاستمرار المجاراة، نرى أن المخالفة يجب أن تكون في إطار المقبول عقلاً على الأقل. وإلى جانب القائلين بالجنون والعناد نجد أن طائفة من الماديين قد ناضلوا ضد الآراء«اللاهوتية» في علم الأخلاق، وانتقدوا التفسير اللاهوتي القائم على الثواب والعقاب المادي، وتشعبت نظريات علم الأخلاق بين: المادية والمثالية، ومن المؤسف القول: إن الحضارة الإسلامية لا تسر«نظرية أخلاقية»، وتلك مقولة في مشروع الجابري حول«العقل العربي» في جزئه الرابع والأخير، وهو قول يتساوق مع القول بخلو الحضارة الإسلامية من نظريات سياسية واقتصادية وتربوية، والمؤذي اندفاع المفكرين وراء افتراءات المستشرقين، وكيف لا تكون نظرية أخلاقية والرسول ﷺ يقول: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»، وكيف يقال بنظرية غربية ونهاية الحضارة الغربية ناتج انحطاطها الأخلاقي. والانحطاط الأخلاقي في الحضارة المادية أدى إلى الانحلال في القيم الأخلاقية والفنية معاً، وهذا الانحطاط والانحلال لفتا نظر الفلسفة«الهيغلية» إلى تبني نظرية«موت الفن» بحيث انفصل الفن عن الحياة الجادة، ليكون أداة تسلية ولهو وترف ووهم.

والحضارة الإسلامية ذات خصوصية في فكرها وفنها ولغتها وسائر شؤونها، ولا يجوز لنخبها الخروج من فلكها الذي تسبح به كل المعارف والفنون، لأن الخروج مؤذن بالتشظي والاحتراق كما الكواكب حين تنفلت من أفلاكها، والتعالق مع المستجد دون وعي بمتطلبات الحضارة الاسلامية ومقتضياتها، ودون احترام لضوابطها، ودون اجتناب لمحظوراتها يعني الدخول مع الآخر في جحور الضباب. وحين لا يجد الفلاسفة والمفكرون والأدباء بداً من التواصل مع علوم اللغة والنفس والاجتماع والأخلاق والجمال فإن التواصل المشروع لا يكون على إطلاقه، فمثلما أن الحضارات الأخرى لا تسلم لنا بما نريد فإن من حقنا ألا نسلم لها بما تريد، وفضاءات الحضارة الإسلامية استيعابية،

فنحن الأعلم بأمور دنيانا وعلينا لكي نحفظ حقنا أسلمة العلوم والآداب، والتحفظ لا يمنع من التفاوض والتقارض والتفاعل، والحضارة الإسلامية ورثت حضارات كثيرة واستوعبتها، ولم تتخل عن خصوصيتها، وإن شابتها شوائب انعكس أثرها على مناهج البحث العلمي وآلياته، وعكر صفو النقاء النصي، وحمل طائفة من العلماء على التأويل البعيد، وتحميل النصوص ما لاتحتمل، مما نتج عنه تعدد الملل والنحل والطوائف والمذاهب والاتجاهات. والدخول في عوالم الآخر دون استعداد معرفي وتحصين أخلاقي وتأصيل فكري وعقدي مؤذن بفساد كبير، وذلك ما تعانيه الأمة، وما تجره النخب المتبعة لسنن اليهود والنصارى حذو القذة بالقذة.

٤/٢وإذ تكون«الحدود»و«الآفاق» مجال الحديث مرتبطة بالإبداع الأدبي فإن علينا أن نشير إلى تجاوزات مدانة كسرت الحدود، ولوثت الآفاق، تولى كبرها«روائيون» ينتمون إلى الحضارة الإسلامية، ومنهم من يحتل سدة الفن الروائي، وهؤلاء المتمردون يجدون من المعذرين من يدفع عنهم التهم، ويشرعن مقترفاتهم باسم الحرية. ولن نطيل القول فيما نشير إليه، فالروايات التي صدعت وحدة المشاهد مستفيضة ومتداولة، والدراسات المؤيدة والمعارضة لما تزل في جدل صاخب، ومازاد مشاهدنا إلا خبالاً. ورائدة هذه الروايات رواية«أولاد حارتنا» لنجيب محفوظ، وخلاصتها أن الحارة كانت ملكاً«للجبلاوي» الذي اختفى ليخلفه أولاده الثلاثة: «جبل» و«رفاعة»و«قاسم» عبر مراحل زمنية لتحقيق العدل، وبعد وفاتهم جاء«عرفة» الذي يمثل«العلم» لتحقيق العدل، ويبقى الأمل معلقاً عليه لصناعة المستقبل. والرواية تحكي قصة الكون، وهي مدانة عقدياً، وإن كانت رواية رمزية تحتمل أكثر من تفسير، وقد تناولها مؤيدون ومعارضون، منهم غالي شكري، ومحمد حسن عبد الله، والعالم، ومحمد العزب، ونبيل فرج، ومحمد أحمد مخلوف، وآخرون.

وتليها في السوء والتجني رواية«سلمان رشدي»«آيات شيطانية» ولما تكن كما«أولاد حارتنا» رمزية، بل كانت صريحة في مواجهتها للفكر والعقيدة الإسلامية، وقد تعقبها مجموعة من الدارسين والنقاد، من مثل«سيد حافظ أبو الفتوح» في كتابه«رسائل إلى سلمان رشدي»، و«صلاح الصاوي» في كتابه«مؤامرة الآيات الشيطانية».

وتتواكب مع هذه الرواية المثيرة المشبوهة«تسليمه نسرين» في روايتها«العار» التي تدين المسلمين في عنفهم وتعديهم على «الهندوس»، وهي من الروايات التسجيلية، وقد درسها موضوعياً وفنياً الدكتور«إبراهيم عوض» تحت عنوان«افتراءات الكاتبة البنجلاديشية تسليمه نسرين»، وتصدى لها آخرون، وترجمت الرواية بقلم«عصام زكريا». وجاءت فيما بين هذه الروايات أعمال روائية موغلة في التهتك الأخلاقي والإلحاد العقدي، لكتاب مغمورين، وعبر كتابات تفتقر لأبسط مقومات الفن مثل«مسافة في عقل رجل».

أما عن التهتك الأخلاقي، والانتهاكات الفنية فقد استفاض في كثير من الأعمال الروائية بحيث لا يحتاج إلى تذكير، وآخر الأعمال المثيرة«وليمة لأعشاب البحر» للروائي السوري«حيدر حيدر» والتي عصفت بالمشهد الأدبي المصري، وتصدى لها طائفة من الكتاب والدارسين من مثل«أحمد فؤاد عبد العزيز» في كتابه«وليمة لأعشاب البحر: الإلحاد يخلع أقنعته». ولما تزل المشاهد الأدبية تدفع بالأعمال النقدية والإبداعية: الشعرية والسردية التي تتجاوز الحدود والآفاق حدود الدين واللغة والفن وآفاق الفن الدلالية، وتلك ممارسات جنائية تصدّع تلاحم الأمة، وتمس ثوابتها، وتدنس مقدساتها، وتشيع الفواحش في أوساطها، والنقد من وراء أولئك يلتمس لهم العذر تارة بدعوى الحرية وأخرى بالإحالة على الرمز والصراع الحضاري، وليست الأعمال الفكرية

والاجتماعية والنفسية بأقل ضرراً من الأعمال الإبداعية، ولعلنا نذكر «نصر حامد أبو زيد» و«نوال السعداوي» وطائفة من أصحاب المشاريع الفكرية والنقدية.

وليس من مصلحة الأمة أن يتفلت أدباؤها ومفكروها من ضوابط الإسلام وحدوده وآفاقه، فالحضارة الإسلامية قائمة ما قامت السماوات والأرض، ومن الخير للمنتسبين للإسلام عقيدة أو مولداً أن يعرفوا أن الغرب الذي يستزلهم إنما يريد استذلالهم والقضاء على عزتهم، ومن شايعه فهو منهم، ولكنه سيتجرع مرارة النيل من أمته، والغرب الذي يتخذ العملاء حتى إذا قضى منهم وطره، نبذهم كما تنبذ العلب الفارغة، فمن خان أمته وعقيدته فهو لما سواها أخون، ولن يستقيم أمر الأمة إلا إذا كان الأدب في خدمة الحياة والعقيدة، وإلا إذا استقام الجميع كما أمروا. والإبداع الأدبي يقوم على الإمتاع والاستمالة والإقناع، وتحقق ذلك في الفن الرفيع لفظاً ومعنى، وحين لا يحمل الأدباء والنقاد مهمة الإصلاح تفقد الأمة مصدراً هاماً من مصادر التربية الأخلاقية والذوقية، وإضاعة الحدود مؤذن بضياع الذوات، والوضع الإسلامي بلغ حداً من الترديات التي لا تحمل المزيد، ولما تزل الأمة ترقب المجددين لأمر دينهم كما بشر الصادق الأمين.

مع كارثة المعلمات وجهاً لوجه الحدث .. والحل .. ! [(١)]

١ عندما ترى سبع فتيات بكل مايحملن من طهر وبراءة منتشرات على الأسرة البيضاء.
يملأنها نزيفاً.
ويملأن الفضاء بأصواتهن المختلطة، بين أنين وعويل وانتحاب.
مبعثرات الشعور، ممزقات الدثور، شاخصات الأبصار، لا يشعرن بغاد ولا برائح، ولا يقدرن على الإدلاء بالجلابيب، والأطباء والممرضات في جيئة وذهاب، يغالبون النزيف، ويساعدون على التنفس، ويحاولون التفويق.
والمتقاطرون على المستشفى يضجون بالحوقلة والحمدلة والاسترجاع.
ينظرون بذهول إلى الراكضين من الأطباء والعاملين، وكأن لغة الكلام قد تعطلت، وخاطبت العيون الزائغة بعضها بلغة الهلع والخوف.
كانت ساعة رهيبة، أعادت إلى الأذهان مشاهد القيامة، التي وصفها القرآن الكريم، ولم يسرف في الوصف ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢] نعم كان الموقف عصيباً، والساعات ثقيلة مملة، يسأل مفجوع فلا يجاب.
أقبلت أبحث وسط الأشلاء عن فلذة كبدي، أعرفها تماماً، ولكن الوجوه السافرة بكل وضاءتها وطهرها، والصدور العارية، والشعور المبعثرة، والسيقان المكشوفة، غشيتني بالغيرة والحياء والذهول، فلم تتجاوز نظرتي اقدامهن، وحين عرفتها، أمسكت بقدمها، أتحسس نبض الحياة، وزحفت نظرتي الواجفة صوب وجهها الشاحب وعيونها الشاخصة وشفتيها المترمدتين ولسانها المتخشب، عرفتها وعرفتني وتمتمت بكلمات خافتة:
لا تحزن نحن بخير.
لم أشعر بعدها بشيء.
غرق الوعي في ضباب الذهول
كما يغرق قرص الشمس في العين الحمئة
أظلمت الدنيا
أحسست أن يداً حانية جذبتني
ولم أفق إلا وأنا على مقعد مخملي في مكتب المدير
من جاء بي؟
من أجلسني؟
لست أدري!
وأقبل شاب زائغ البصر، يتهادى بين طبيب ورجل أمن، وألقياه إلى جانبي، وأحسست أنه يمسك بمتكئه، وكأن المقعد سيطير به إلى غير هدى، كان يسأل عن زوجته الحامل:
أين هي؟
وكيف حالها؟
والناس من حوله صامتون، مدير المستشفى وضابط المرور، ينظرون إلى الأرض كأنما يبحثان عن شيء ضيعاه، وتتلاحق كلماته الواجفة.

---

(١) تاريخ المقال: ١٩/ ٢/ ٢٠٠٢

هل هناك حالات خطرة؟
هل مات أحد؟
قال أحدهم بصوت متهدج:
هناك وفيات.
إذاً هي قد ماتت؟
لا إنها في حالة حرجة.
أريد أن أراها.
ستراها في الجنة.
وصمت ..
تخشب مكانه
وتخشبنا معه
إنها لحظات لم آلفها من قبل

إنها حياة أخرى، عرفت معها كيف تتغير الأمور بلحظات، وعرفت معها ألا سور بين الحياة والموت، نفس يخرج ثم لا يعود، تفهت الحياة، وتضاءلت، ولكن عمارة الكون تزرع فينا النسيان والأمل، كي نقضي حياتنا ببناء للخراب وإنجاب للموت، وكل الذي فوق التراب تراب، لقد انقلبت الأوضاع رأساً على عقب، مجرد أن سائقاً أراد أن يتجاوز ما أمامه، ففاجأته سيارة مقبلة، فارتبك، ثم حلت الكارثة، فعل بسيط، وتصرف عادي، غيرا مجرى حيوات كثيرة، فجعا أسراً كثيرة، وفرقا بين أحباب لايفكرون بالفراق، يا لها من حياة تافهة، بل هي تافهة التفاهة، البعوضة تافهة، فكيف بجناحها، إنها هكذا عند خالقها، ولكنها عند عبد الدينار والدرهم التعيس شيء كبير.

كنت عائداً من صلاة الفجر.
وكنت أشعر بإحساس غريب.
بعد حلم مزعج.
رأيت في المنام أن ساقي جريحة، وأنها تنزف دماً.
وأني أبحث عمن يعالج.
ورن الهاتف
فأيقنت أن شيئاً سيكون.
كان المسعف المحسن قد وصل ابنتي بي، وسمعتها وهي تغالب آلامها.
حادث بسيط .. لا تسرع يا أبتي كلنا بخير.
نحن في الطريق إلى مستشفى «رياض الخبرا»

وانقطع الصوت، كانت الساعة السادسة صباحاً من يوم الأحد ١٤٢٢/١١/٢٧هـ، سحبت نفسي كسارق أحس بحركة، وتركت الجميع يغطون في نوم عميق.

وركبت الطريق.

أردد الأوراد والأدعية، وأقطع الإشارة تلو الإشارة وأبحث في الذاكرة عمن سينقذ الموقف، أذكر أنني أيقظت سمو الأمير في الثالثة صباحاً، ولكنه لموقف إنساني، لا يحتمل التأخير، ولا يباشره سواه. وتحرك العقل الباطن يلوب الآفاق، لم أجد بداً من الاتصال باللواء «خالد الطيب» مدير شرطة القصيم الذي تلقف الخبر، وباشر العمل.

وبعده اتصلت بالدكتور «ياسر الغامدي» مدير الشؤون الصحية، حيث بادر الاتصال بالطوارئ ليجدها على اتصال مع المستشفيات القريبة من الحادث.

وفي الطريق الذي امتد كألف ميل، كان الرجلان معي عبر الجوال.

وحين وصلت شعرت بأن كل الأطراف في مستوى الحدث.

سيارات إسعاف
سيارات أمن ومرور
أطباء تتخطفهم الطرقات
جوالات وهواتف، وكأن حريقاً قد شب في الردهات، قلت في نفسي الحادث مروّع ملامح الرجال لا تبشر بخير، والحركة فيها ذهول وشرود، لم يستقر بي مكان، ولم يهدأ لي بال، عرفت ان ابنتي على قيد الحياة، ولكن الحوادث تزرع الإصابات بحيث لا يستبينها أحد إلا حين تكشر عن أنيابها.

جلست خائفاً أترقب

أسرق بسمعي الكلمات الخافتة بين الأطباء والمساعدين، حالات خطرة، نزيف حاد، غيبوبة، «وفاة».

واحدة فقط .. كانت أعز صديقات ابنتي ماتت «منى».

الفتاة حامل، قضى عليها النزيف والتهتك والجنين الذي تمزق في الأحشاء كل ذلك لم يدع فرصة للأطباء.

نهضت، وكأني أحتج على الخبر.

أرفض قبوله، فتاة بريئة تستقبل مع زوجها مولودها البكر، يموتان معاً ميتة مجانية ومفاجئة.

تصورت أهلها وزوجها والديها أقاربها الذين يرقبون عودتها هي وحدها بين الغرباء إنها بحاجة إلى من يضع يده على جبينها الصبوح من يلقنها الشهادة من يسجيها، لا أحد، تركها الجميع، سحبت الآلات والأجهزة، وأوقفت الحقن، وعجز الطب عن التدخل السريع.

زحف بها السرير المتحرك إلى الثلاجة.

انتهى كل شيء بالنسبة لها، وابتدأ كل شيء بالنسبة لذويها.

دخلت في عالم جديد.

وأقبلت على رب رحيم، وجنة عرضها السماوات والأرض.

رحمك الله أيتها الفتاة الطاهرة.

بارحت مكاني، تشبث بي مدير المستشفى الذي أغرق الجميع بلطفه ومواساته، ولم ألتفت إليه، عدت إلى ابنتي فلربما تكون الشهيدة الثانية.

دخلت الغرفة كانت إلى جانبها «وفاء» تصرخ من الآلام، وتردد سأموت سأموت، ابنتي ابنتي، كانت هي الأخرى حاملا ترقب مع زوجها الحدث السعيد، وكان الحدث الأليم هو الأسبق.

وأقبلت علي ابنتي .. كانت في حالة من الذهول
ولما رأتني
قالت: هل مات أحد .. قلت لا أنت الأخطر، وها أنت تتكلمين ..
صاحت بي لاتبتعد أحس بغثيان أحس بغيبوبة.
غشيتها صفرة، غارت نظراتها
نظرت إلى الطبيب المنكب على «وفاء».
طمأنني: حالتها غير حرجة.
وعاد وعيها ببطء لتقول:

لا لست الأخطر «منى» و «وفاء» حاملتان، وقد اختارتا مقدمة السيارة، لتلافي المطبات، كان مفروضاً أن أكون في المقدمة، ولكنني تنازلت عنها مراعاة لوضعهن.

تحركت أولى المصابات إلى مستشفى «البكيرية» الذي رفع درجة استعداده.

وتحركت الأخرى، كانت «وفاء» هي الثانية حالتها خطيرة، ولكن لا بد من التحرك. النزيف والتهتك يتطلبان التدخل الجراحي.

وأثناء التدخل لإنقاذ حياتها، توفيت، وعندها أحسست أن العقد بدأ ينفرط.

وصل من «بريدة» فريق من الطوارئ، وزادت حالة التوتر، الباقيات في حالة خطيرة، ومن المتوقع أن تموت أخريات، لقد بدأ الهلع على الوجوه، وتحركت سيارات الإسعاف بمن استقرت أحوالهن.

كانت الساعة الثانية عشرة ظهراً، وكانت الأوضاع في طريقها إلى الاستقرار، الإصابات متفاوتة، السائق أعطى المعلومات للمحقق قبل أن يدخل في حالته الحرجة.

وتجيء التوجيهات بنقل كل المصابات إلى مستشفى الملك فهد التخصصي، وتحركت ابنتي، وانطلقت وراءها، كانت كل المعلومات بين يدي صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن بندر وسمو نائبه، وكانت توجيهاتهما تؤكد على رفع درجة الاستعداد إلى أعلى مستوياتها.

وتفضل سموه الكريم وسمو نائبه بمهاتفتي للاطمئنان والتطمين، وتابعت حرم سموه الحالات، وتوالت المهاتفات من كبار المسؤولين والأصدقاء، يواسون ويأسون ويتوجعون، ويعرضون الخدمات، وأحسست أننا بخير، وأن إمكانياتنا في مستوى احداثنا، لم ألاحظ أي تقصير على كل المستويات في الإمارة وفي الصحة والأمن والتعليم، كان تعليم البنات يتابع، وهاتفني مدير تعليم البنات للتطمين ولما يعلم أنني في أتون الحدث، وكان مندوب الرئاسة وبعض الموجهات في المراكز القريبة داخل المستشفى، كل المدرسات اللاتي مررن بالحادث عدن من مدارسهن قبل نهاية الدوام، لم يشعر أولياء الامور الذين توافدوا فيما بعد على المستشفى بالوحدة ولا بالغرابة.

وقبل العصر كان كل شيء قد انتهى، وعاد المستشفى في محافظة «رياض الخبراء» إلى وضعه الطبيعي.

أديت صلاة الميت على «منى» و «وفاء» وبدأت رحلة المتابعة لحالة المصابات، وانهالت كلمات المواساة والاطمئنان والتهنئة.

٢ وثارت التساؤلات: من المسؤول عن هذه الحوادث؟ السائقون، السيارات، الطرق، المرور، التعليم، أولياء الامور، واستعاد البعض أحداثاً مماثلة، واستحثوني على طرح القضية، فالأمر لا يحتمل التأخير، وجميل أن يبحث الرأي العام عن أسباب أي كارثة. البلاد تعيش حرباً داخلية، كل دقيقة تزهق روح، ويعوق مواطن، وتضيع ثروة. حوادث السيارات إشكالية، يجب أن تفكر فيها كل القطاعات لا على طريقة: من المسؤول؟ ولكن على طريقة: ما الحل؟.

يجب أن نبحث عن الحل، أن نعرف، لماذا وكيف حصل الحادث؟ نعم هناك أطراف ضالعة في الحوادث ومسؤولة، والإشكالية ليست وقفاً على «المعلمات»، أسر تخرج ولا تعود رجال ونساء شباب وأطفال يموتون دون سابق إنذار.

وحين يزعجنا ارتفاع نسبة الحوادث بالنسبة للمعلمات فإن واجبنا أن نفكر جيداً في ذلك، وألا نتخذ الرئاسة مشجباً، وفي الوقت نفسه يجب عليها ان توظف خبراتها المتميزة في عمليات النقل لمعالجة مشاكل نقل المعلمات.

الرئاسة لها أساطيل نقل في كل بقاع المملكة، وتجربتها مشرفة وعملها متفوق، وإمكانياتها جيدة، ووسائل السلامة عندها متميزة. وحوادث سياراتها نادرة، وإذ لا يكون من مسؤوليتها نقل المعلمات، ولا يحق لأحد تحميلها أي مسؤولية، فإن الموضوع لا يرتبط بالمسؤولية أو عدمها، وإنما هو في أن تستخدم الرئاسة خبرتها المتميزة في تقديم المشورة لمن يهمه الأمر.

لقد فكرت طويلاً في تقديم رؤية معقولة وممكنة، وكل من استعداني على المسؤولين طلبت منه رؤيته، غير أني لم أهتد إلى رؤية مناسبة، ولكنني لم أيأس من حل المشكلة، لابد من التفكير، لابد من استقبال الآراء، ومساءلة كل الأطراف: المرور، الطرق، أولياء الأمور، لا شيء يستعصي على الحل، لا بد من الإرادة والإصرار، لابد من تداول الإشكالية على كل المستويات، مجلس الشورى، وزارة الداخلية، وزارة المواصلات، الرئاسة العامة لتعليم البنات. هناك سائقون متهورون، وآخرون غير أكفاء، وذوو سوابق، وهناك سيارات انتهى عمرها الافتراضي، لا تصان، ولا يعرف المعنيون إمكانيات احتمالها للطرقات الطويلة، هناك طرق ضيقة ومعوجة ومرتفعة، ومكتظة بالحركة، «طريق المدينة» مليء بالقرى والهجر المتناثرة على جانبيه، تنتاب الطرق الإبل السائبة، ويجوبُه من لا يعرفون وسائل السلامة، لا رقابة على هذا الطريق، ولا مطاردة للمسرعين والمتهورين، حوادث الطريق مروعة، لا بد من دعم المستشفيات الواقعة عليه بالإمكانيات، وبخاصة في أوقات الذروة كالحج والدراسة، وأمام هذه الشبكة من الإشكاليات لابد من تكوين فريق عمل، يستعرض المشاكل، ويقدم الحلول، لا بد بادئ ذي بدء من شبكة مراقبة، ونقاط تفتيش، ومحطات فحص للسيارات المستخدمة باستمرار على الطريق، ولا بد من تأخير دوام المدارس النائية ساعة أو أكثر، لتتمكن سيارات النقل من الوصول برفق، كانت حجة السائق أنه متأخر، والمدرسات يحاسبن حساباً عسيراً على التأخير.

لا بد من دراسة إشكاليات نقل المعلمات، ووضع نظام دقيق وصارم، يطال السائق والسيارة، أولياء الأمور مسؤولون، ولكنهم قد لا يجدون بداً مما ليس منه بد، وقد لا يعرفون شيئاً عن السيارة والسائق والطريق. إن إشكالية المدارس النائية ستظل في تنامٍ مخيف، ما لم تتخذ الحلول الجذرية على مستوى الدولة، فهي لن تحل إلا من جهة السياسة العليا، إذ لابد من نقل رسمي أو إشراف مباشر، أو شركات مقتدرة، ولا بد من مكافآت للمناطق النائية، ولا بد من تكثيف الساعات في جزء من أيام الأسبوع للوافدات من بعيد، بحيث يكون هناك تناوب، ولا بد من دراسة فكرة المجمعات، وفكرة السكن الجماعي، وهناك خيارات متعددة، معقولة وغير معقولة، إن علينا ألا نثور أمام الحدث، ثم نغفو بانتظار حدث آخر .. الإشكالية منا وإلينا، ونحن فريق يشترك في المسؤولية وفي الحل، وعلينا أن نبدأ التفكير والإقدام:

وما استعصى على قوم منال
إذا الإقدام كان لهم ركابا

تسييس الحج: رفث وجدال وفسوق .. ![1]

لو كانت الأمة الإسلامية في راهنها أمة واحدة، تظهر الدين، وتحكم الشريعة، وترد إلى الله والرسول عند الخلاف، وتملك قوة متكافئة، واقتصاداً متيناً، واستغناءً عزيزاً، لما كان من بأس في تداول قضاياها السياسية في حجها الأكبر، ورفع الاذان بالبراءة من المشركين، وان كانت بريئة منهم، أعلنت ذلك أم لم تعلنه. أما وقد قضى الله أن تكون غثاءً كغثاء السيل، كما أخبر من لا ينطق عن الهوى، تصنم الحدود، وتتغنى بالتراب، وتكفر في زمن التفكير، تستهلك ولا تنتج، وتقول ولا تفعل، ترسانتها بلاغة، وسلاحها مستورد غير رادع، فإن التسييس والحالة تلك، تعميق للخلاف، وإشاعة للفوضى، وصرف للحج عن مساره الديني إلى الرفث والفسوق والجدال ومعصية الرسول، القائل بغير ذلك واهم، يضرب في فجاج التيه، ويتمنى على الله الأماني.

وحفاظاً على قدسية المشاعر وروحانية الأجواء، وحرصاً على سلامة المستضعفين من شيوخ وهنت عظامهم، وعجائز تقاصرت خطاهن، وأطفال رضع، يُطالع قطاعُ الأمن في البلاد وفودَ الحجيج بما يجب أن تكون عليه الشعائر والمشاعر، من سكينة ووقار، وخضوع وخشوع، وتلبية لله وحده وإقبال عليه، واستدبار بكل متعلقات الحياة الدنيا، ومثلما ان الدولة المختارة لتطهير بيت الله للطائفين والعاكفين والركع السجود فإنها مختارة ايضاً لتطهير الأفكار من اللوثة، وتهذيب الألسن من الجدل، وسلامة المأكولات من التلوث، وتنقية الهواء من الفساد، وحماية الأجسام من الأوبئة والأمراض والحوادث، وتخلية المسالك من العوائق الحسية والمعنوية. ولن يكون الحج نظيفاً مريحاً حتى تتضافر الجهود من كل الأطراف داخلياً وخارجياً، والحج عقد مضيء معقّد من اللحظات الحاسمة، لو انفرط وتبعثرت حباته لحلت بالحجيج كارثة لا تحتمل، فكل شيء قابل للانفجار.

ولأن الزمان والمكان روحيان فإن الدولة التي شرفها الله بخدمة ضيوف الرحمن لا يود أحد من رجالها التحول بها إلى حالة من التوتر والاضطراب، ولا يود مؤمن بالله أن يفوت أي فرصة على أي حاج من أن يتزود من التقوى، ولو علم الحاج كم تواجه الدولة المضيفة من متاعب وخسائر، وما تبذله من جهد جهيد لتوفير الأجواء الروحانية الملائمة لشاطرها ما تعانيه من هم ممض، وتعب مصمي، وخسائر موجعة، لا تنتهي بانتهاء الموسم، وإنما تمتد لتصل إلى العام القادم، ومع ذلك فإنها لا تجد فيما تعانيه إلا المتعة والراحة، ولا ترجو من وراء ما تبذله جزاء ولا شكوراً، ولا تمن بما تفعل على أحد، ولم تمتد يدها يوما من الأيام بطلب العون، ولم تستغل مشاهد الحج للدعاية لخطابها السياسي، وكل الذي تتطلع اليه التزام الهدوء والسكينة، وان يتفرغ المقيم والوافد والمواطن لاستكمال متطلبات الحج، وقد نبه الله وفود بيته بقوله جل وعلا: «فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال» ومن لم يفرض على نفسه الحج، وظل في بلاده، فله فعل ما يحلو له من قول أو فعل، يبدي فيه موقفه من الأحداث والأناسي والدول، يؤيد فيه زعيمه، أو يلعن به شيطانه الأكبر، سواء كان ذلك الشيطان من كفرة الأناسي أم من مردة الجن، أما في الشعائر والمشاعر فليس هناك مزيد وقت، ولا فائض جهد تطال غير الشعائر، ومن أراد أن يتزود فليتزود من التقوى.

والحج أيام معدودة، لكل يوم وظائفه ومتطلباته التي تستغرق الجهد والوقت معا، والفقهاء العارفون الناصحون تعقبوا نصوص التشريع، واجتهدوا في استنباط الأحكام،

---

(١) تاريخ المقال: ٢٦/ ٢/ ٢٠٠٢

فحددوا الأركان والواجبات والسنن والمباحات والمحظورات، واستخدموا في سبيل الوصول إلى أصح الأقوال الأصول والقواعد، ولم يكن لأحد منهم قول في السياسة وشعاراتها، ولا في الهتاف وغوغائيته. ولم تكن السياسة من المنافع التي يسعى اليها الحاج، ولا من الفضل الذي يبتغيه الوافدون، فالله رفع الجناح عمن ابتغى الفضل في البيع والابتياع والسعي في المصالح، متى أمكن ذلك، دون إضاعة شيء من واجبات الحج.

والقول في السياسة في ظل التشرذم العربي والإسلامي وتعدد الأهواء والانتماءات من الرفث والفسوق والجدال. والوضع العالمي يعيش حالة من التوتر والاهتياج، والأمة العربية والإسلامية في حالة من الضعف والتفرق، والدخول في المناكفات السياسية في ظل هذه الظروف، يؤدي إلى العداوة والبغضاء، سواء جاء في السر أو في العلن في التدبير أو في الصدف بين الأفراد أو الجماعات، والجدل حول قضايا السياسة بين الحجاج لا يحقق مصلحة للأمة، ولو أتيحت الفرصة للقول فيها لتعددت، وتنوعت الهتافات، وتدخلت كل دولة في تنظيم المظاهرات لصالحها، وأحلت الهتافات محل التلبية، وسعت الدول لتوظيف المتظاهرين والهتافين وحملة الاعلام والصور وترديد الشعارات، فيما يقوم آخرون بفعل مماثل في شكله مضاد في مقاصده، ويومها تصبح المشاعر والشعائر معرضاً لصور الزعماء وضجيجاً متناحراً لتمجيدهم، وقد تنتقل المشاعر المحتدمة من الألسن إلى الأيدي، فيشتبك المتظاهرون، وتسيل الدماء، ويعود بعضهم إلى بلادهم في التوابيت، ثم يستقبل الهالكون بالمظاهرات والهتافات، ويتحولون إلى رموز اقليمية وشهداء للواجب الوطني، الأمر الذي يعمق العداوة والبغضاء، وقد تتحول المشاعر إلى ساحات لتصفية الخلافات، وأخذ الثارات، وبعد احتدام الأنفس وامتلاء الساحات واختلاط الأصوات بتمجيد المبادئ، وتقديس الزعماء، ينسى الحجاج ذكر الله، وتهمل الشعائر، وتدنس المشاعر، وقد تعجز الألسن عن ارضاء، الزعيم القابع في ترسانته، فيعطي أمراً بتحريك الأيدي مع الألسن، لتحل الفوضى، وينفلت عقد النظام، ويومها يتأذى الشيوخ والعجائز الذين قضوا حياتهم وهم يحلمون ببلوغ هذه المقدسات، حتى اذا بلغوها بشق الأنفس حيل بينهم وبين ما يشتهون. وماذا لو أن الدولة المضيفة، وهي قادرة على فعل ما تريد، جندت حجاج الداخل للهتاف، كيف تكون مشاعر المسلمين الذين هفت أنفسهم لأرض القداسات للذكر والدعاء والصلاة؟.

لقد طلع رجل الأمن في البلاد، ليقول: إن الهتاف باسم أي زعيم حتى لو كان باسم خادم الحرمين الشريفين لا نرضاه، ولا نقره، ومن بدر منه شيء من ذلك حاسبناه حساباً عسيراً، وأحسب ان ذلك روح العدل والإنصاف، وعين الحكمة والعقل، والدولة التي شرفها الله بخدمة الحجيج وتطهير بيت الله تعرف ان القول في السياسة اخطر من أي تجاوز، لأنه الوباء المخل بالأمن، والمؤثر على روحانية الشعائر والمشاعر، ولو أتيحت فرصة التعبير عن المواقف السياسية في «عرفات» و«منى» وساحات «البيت العتيق»، فمن يقود الحجيج، ومن يلقن الهتافات، ومن يختار الشعارات، ومن يحدد الزعماء، ومن يعين المبادئ؟ والمتكئون على ارائكهم حين يحلو لهم القول في السياسة، فمن يواجهون زعماء اذاقوا شعوبهم الويل والثبور، أم دولاً شرعت لنفسها رسم السياسة العالمية، ومن يملك تحديد العدو والصديق، مهاتف لا يعرف الأوضاع أم ضالع في اللعب لا يملك الرحمة. ومثلما أنه من الرفث الهتاف باسم المبادئ والأحزاب والقادة فإنه من الجدل تداول الكتب والمنشورات والتسجيلات، وكل ما يشغل عن الذكر والصلاة، والدولة قد تنبهت لذلك، وحالت دون الاشتغال بأي شكل من اشكال الدعاية، وصرامتها حققت أجواء ملائمة لممارسة أركان الحج وواجباته، وحالت دون أي توتر.

وليس من مصلحة العالم العربي والإسلامي الدخول في جدل السياسة في ظروف معقدة كظروف الحج، ولا سيما ان الأمة الإسلامية مختلفة الآراء، متعارضة المصالح متناقضة الانتماءات، وأوضاعها السياسية والاقتصادية في حالة لا تحتمل المزيد، وكيف تتحدد الهتافات والأمة يصرفها أفراد متعددون أو مؤسسات متنوعة، وتقوم بها أنظمة متباينة الأشكال والألوان، ولكل كيان أسلوبه السياسي وإجراؤه في الوصول إلى سدة الحكم، ولكل نظام انتماؤه الأيديولوجي، وطبيعته الاجتماعية، ومستواه الاقتصادي، وكثافته السكانية، ومشاكله الخاصة. ولكل شعب إرادته التي لا يجوز منعها أو مصادرتها، وفوق كل ذلك فإن الأمة الإسلامية تختلف في أحلافها، وتتعارض في مصالحها، وتتباين في خياراتها. والشعوب الوافدة إلى الحج ليس لها من الأمر شيء، وهي احوج ما تكون إلى معرفة احكام الحج لتؤديه على مراد الله، وهي أحوج ما تكون إلى الأجواء الملائمة لاستكمال متطلباته.

وفي ظل هذه الفوضى التي تعيث بمقدرات الأمة الإسلامية، يحسن بها التعاذر، وتفادي الصدام، والالتقاء حول القضايا المشتركة، ولأنها في حالة من التناقض لا تتطلب المزيد، لا يمكن أن يتأتى لها التعبير عما تريد، وهل أحد من المتحمسين لتسييس الحج قادر على ان يهتف ببلده بمحض إرادته؟. والحج أيام معدودات، وعبادة مخصوصة، لا يبلغه القاصدون إلا بشق الأنفس، فهم من كل جنس، ومن كل لغة، ومن كل فج عميق، لا يعرف بعضهم بعضاً، لا توحدهم إلا التلبية ووحدة الشعائر والمشاعر، ربهم واحد، وقبلتهم واحدة، وقرآنهم واحد، ورسولهم واحد، ولكن لغاتهم وقياداتهم وسياساتهم وهمومهم ومشاكلهم وأحلافهم مختلفة .. فإذا اكتظت بهم الأودية والشعاب وجب ان توحدهم العقيدة والقبلة، ولن يتوفر لهم الأمن والاطمئنان في ظل حمل الهموم الاقليمية والطائفية والعرقية والسياسية. وإذا كان الحاج يتجرد من ثيابه ليندمج في الناس، ويكون الجميع سواسية فإن عليه أن يتجرد من انتماءاته الاقليمية والطائفية والسياسية ويتجه بكليته إلى الواحد الأحد الذي يتفق الجميع على توحيده وتعظيمه والخضوع له، والحج له خصوصيته، وله أزماته الخانقة، ومن ثم فإنه لا يحتمل المزيد من الهتافات والشعارات والمظاهرات.

والدولة التي تستنفر كل طاقاتها لتوفير الأمن والسلامة ليست بقادرة على تحمل فوضوية السياسة، والتناجي فيها منزوع الخيرية لأنه لا ينطوي على أمر بالمعروف ولا على صدقة ولا على إصلاح بين الناس. وعلى الحاج الذي تحمل الخسائر والأخطار، وبارح أهله ودياره أن يعرف واجبات الحج ومتطلباته، وان يعرف ان الدولة مسؤولة عن سلامته وأمنه وصحته واستيفائه لمتطلبات الحج التعبد ية، ولن يتوفر له إلا إذا احترم الأنظمة وتقيد بالتعليمات، وحين لا يكون منه احترام ولا تقيد فإن أجهزة الدولة قادرة على ردعه وأطره على الحق، وساعتها لن تبالي بما سيناله من أذية، لأنها مسؤولة أمام الله، ومطالبة بالنص القرآني ان تطهر بيته للطائفين والعاكفين والركع السجود، ولم تطالب بتهيئة الأجواء للهتافات والشعارات والمظاهرات، ولست أشك ان التسامح في شيء من ذلك مضيعة للجهد والوقت والمال، وإشاعة للفوضى، وتمكين للعابثين، وواجب الحكومات الإسلامية ان تقوم بتوعية حجاجها، والتأكيد عليهم باحترام الأنظمة والتعليمات، واستيعاب خطط الحج، فالحاج حين يقدم على الحج دون معرفة، ودون توعية، يشكل عقبة في طريق الخطط والتنظيمات، والدولة التي تنشلّ حركتها، وتوجه كل امكاناتها إلى المشاعر المقدسة، تود ألا يكون فشل خططها بسبب جهل الحجاج وفوضويتهم.

نسأل الله للحجاج القبول والسلامة، وللدولة المضيفة التوفيق والنجاح والمثوبة.

مبادرة الأمير .. وإشكالية (التطبيع) .. ![(١)]

١/٤قضية الامة العربية والإسلامية على مدى عمرها الطويل، تمر بحالات حرجة من الاشتعال والخبؤ، تحركها الكلمات، مثلما تحركها الحجارة، وقد تتحرك بفعل أزيز الطائرات، ودوي المدافع، وقصف القنابل، وفي العمليات الانتحارية، والفعل العنيف ورده الأعنف. وكلما خبت نارها المضطرمة في النفوس أو في الشموس، بعث الله من يزيدها سعيرا، أو يحولها برداً وسلاماً، فإما أن يتقدم بها إلى أتون المعارك، أو يجنح بها إلى مرافىء السلام. والشعب الفلسطيني الصابر المحتسب تشرئب أعناق مقهوريه كلما لاح بارق في آفاقه المكفهرة. ومع كل البوارق الخلَّب فالقضية في حال لاتسر، والوضع القائم: عربيا وإسلاميا وعالميا لا يمكن ان يتمخض عن حل يحقق الطموح والتطلع، وعلى الرغم من كل الترديات والتحفظات فإن القبول بالوضع القائم مؤذن بفساد كبير، فهو وضع على فوهة بركان يقذف حممه، وقوده الشعب الفلسطيني الذي يتجرع الخوف والجوع والذل، ويتعرض لنقص في الأنفس والأموال والثمرات، بلغ ذروته بفرض الإقامة الجبرية على رئيس الدولة. ولأن المستقبل غيب لا يعلم كنهه إلا الله، فإن انتظار ما لا يأتي مضيعة للوقت والجهد والمال، والأمة في ظل هذه الظروف العصيبة بحاجة إلى منقذ، وحين لا يكون بالإمكان تحقيق الأحلام فإن الحلول المرحلية توقف النزيف والاستنزاف، والمتابع لتاريخ القضية يقف على محطات مصيرية وفرص نادرة، فوَّت بعضها العناد، وقضى على بقيتها المكر والخداع اليهودي والتفكك واختلاف وجهات النظر العربية، وأخرى من المحطات لا تتجاوز التحرف للإنقاذ وإيقاف التدهور، والطوية الحسنة التي كان يضمرها صاحب السمو الملكي الامير عبد الله بن عبد العزيز، والتي جاء اكتشافها بالصدفة على يد الصحفي الأمريكي اليهودي (توماس فريد مان) وسميت تجوزاً (مبادرة) تأتي في سياق (الإنقاذ)، و(إيقاف التدهور) وزحزحة الأرجل، لتأخذ خطوة إلى الأمام أو إلى الخلف، كي تتجاوز بؤر الفعل العنيف والرد الأعنف، فالقتل والقتل المضاد، وهدم البيوت، واقتلاع الاشجار، وكسر العظام، وحرق الأرض، ليست في صالح المستضعفين. ومن يشاهد الحدث، ويعد الشهداء بأصابعه ليس كمثل من يصنعه ويموت، ولأن هاجس المنقذ لما يزل حبيس مكتبه على شكل مقترحات بانتظار القمة وانكشاف الغمة، ومن المتوقع إجهاضه بفعل (شارون) المتوحش، فقد ألحت كل الأوساط لتحويله إلى (مبادرة) ثم الصعود به إلى (مشروع) عربي مشترك. ولم يكن اختلاف الآراء حول المبادرة هو السبب في استئثارها بالصدارة. لقد تلقفتها وسائل الإعلام العربي والاسلامي والعالمي، وفرغت لها المنتديات والمطابخ السياسية، وجاءت ردود الفعل بين التفاؤل والتساؤل. والمحللون السياسيون الرسميون والمحترفون: الأحرار والمأجورون، انتابوها، وكأنها مشروع صاغته أطراف متعددة، وما هي في حقيقة الأمر إلا رؤية أو مقترحات كتبت بالحروف الأولى، وحفظت لوقتها وظرفها المناسبين، ولا أحسبها مشروعاً مكتمل الإعداد. والقنوات الرسمية في المملكة التي يقف الأمير عبد الله على فوهاتها لم تقل شيئاً حيال نهائية المبادرة، إذ هي لا تتعلق بقضايا محلية، ولما يتفق عليها مع المعنيين. ولأنها مجرد رؤية من إنسان يحمل هموماً كثيرة، فقد قوبلت بتفاؤل كبير، وتنازعتها محافل: أوروبية وروسية وأمريكية. والأهم من كل ذلك أنها تسربت نتيجة إثارة صحفية ذكية، وجاء احتفاء (النيويورك تايمز) الصادرة في ١٧ فبراير ٢٠٠٢ محركا أقوى للجادين والفضوليين، ولو قدر لها أن تتحول إلى خطاب عربي

---

(١) تاريخ المقال: ٥/ ٣/ ٢٠٠٢

مشترك فإنها مشروطة بتحولات جذرية في السياسة العدوانية الإسرائيلية، ولا أظن إسرائيل ستقبل بتهيئة الأجواء الملائمة لها، وفق تطلعات الأمير، وفوق ذلك فإنها على مفترق طرق بالنسبة للمرجعية المتنازع عليها، بين الإسلامية واليهودية وسائر الايديولوجيات العربية. ولست أشك أن الأمير عبد الله في ظل الظروف الضاغطة والمتوترة أراد أن يخرج الجانب المتغطرس، ويضعه في الزاوية الضيقة، لأنها في الجملة استدعاء لقرارات شرعية، التزم بها العرب، وتملصت منها إسرائيل، وفتح لملفات حفيت أقدام الوفود العربية من تداولها. ومقاصدها النهائية إحياء مفردات ورؤى طرحت من قبل في أوقات مختلفة، وفي ظروف مغايرة، ولما تؤت ثمارها المرجوة، لتعاقب الحكومات الإسرائيلية المعولة على المماطلة واستغلال الوقت، ولربما كانت (انتفاضة الأقصى) وأحداث سبتمبر أجواءً ملائمة لمثلها.

٤/٢ولأن القضية همّ القادة فإن المبادرة بكل ما اكتنفها من مداخلات على أعلى المستويات مسبوقة بمبادرة في ذات السياق، وبذات المفهوم، ومن ذات المؤسسة، ولكنها جاءت في ظل ظروف مغايرة، فبين قمة الرباط ١٩٨١ وقمة بيروت ٢٠٠٢ اجواء متباينة، فلقد كانت للملك فهد حفظه الله مبادرة معروفة، دخلت عالم المصطلحات السياسية باسم (مبادرة السلام) عام (١٩٨١) وأخذت وقتها بعداً إعلاميا، وتداولتها المحافل السياسية، ولكنها اختلطت بمبادرات متعددة، واكتنفتها رؤى متنوعة، وتحولات سياسة. وتجيء مبادرة الأمير عبد الله بذات القوة والفاعلية، معززة بمواقف سموه المحرجة للحليف الأقوى للمملكة والمساند الأقوى لإسرائيل، إلا ان الظروف الحرجة عربيا وإسلاميا وعالميا، قفزت بها من حروفها الأولى إلى مشروع، وكم هو الفرق بين (المشروع) والتفكير في تقديم مقترحات لمؤتمر مرتقب. والأمير عبد الله يعرف جيداً أنه ليس اللاعب الوحيد على مسرح الأحداث المصيرية، ويعي حدود ما له وما عليه، يتمثل آداب الحوار وشروطه، ويعرف أهليات المؤتمرين، ومقدار حقهم، وضوابط تداول القضايا المشتركة، ويعرف موقعه في سلم القضية، ومن ثم لا أحسبه حفيا بهذه النقلات البعيدة، المدعومة بثقله على كل الأصعدة، وبالوقت الحرج الذي يتلهف لمثلها، ولأن مبادرته لما تزل في مرحلة جس النبض، ورصد ردود الفعل، فإنها لم تأخذ شكلها النهائي، ولم تكن ورقة رسمية لا باسم المملكة، ولا باسم الأمة العربية، ولا باسم الفلسطينيين، ذلك ما يتبادر من الملابسات، وقد تكون هناك ترتيبات غير معلنة، اسرَّها الأمير في نفسه، ولم يبدها، أتمها عبر قنوات متعددة، لا يعلمها إلا العالمون، والمبادرة بهذه الاحتفالية، وبالتوقيت الدقيق، وبوزن صاحبها ستكون مسرحا للتنبؤات وتجريب الإمكانيات، وقد يكون القول فيها وعنها من الرجم بالغيب، وحين تكون حدثاً مؤثراً فإن من حق المعنيين تداولها وفق رؤاهم غير الملزمة وغير النهائية، وسيظل المعنى في بطن الشاعر. وأكاد أجزم أن سموه حين سربها، كرد على سؤال الصحفي الأمريكي الذي حمَّل الأمة العربية مهمة التقدم برؤية تنقذ الموقف لم يكن يتوقع أنها ستكون حديث الأوساط العربية والإسلامية والعالمية، ولو أنه عرف حجم التطلع العالمي لحبرها تحبيراً، وطرحها في خطاب رسمي، وعبر قنوات الأمة العربية. ولعل من لطائف المحللين السياسيين الاشتغال ب (التوقيت) دون البنود، لأهمية الظروف القائمة، وبخاصة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وتورط أمريكا في مواجهة الإرهاب، وتولي كبر مطاردة الأشباح، ولأن المبادرة لم تنطو على بنود ليست متداولة في مبادرات سابقة، فقد ربط المحللون المثير (بالوقت) و(بالشخصية) فأمريكا تمر بمرحلة حرجة، وأوضاعها السياسية، والاقتصادية والعسكرية، تنذر بالخطر، وهي بحاجة إلى من يفتح لها الطريق للخروج من مآزقها المتعددة والصعبة. والمبادرة ربما تفك الاختناق، وتكسر الجمود،

وتوقف التدهور في سمعة القطب الوحيد. والغريب في الأمر أن تلقف الإعلام الأمريكي لها، لم يكن تلقفا استهلاكياً، إنه تلقف متلهف، متفائل، تلقف المحلل والمقوم والمحرض على عدم تفويت الفرصة. وإذا افترضنا أن المؤسسة السياسية في أمريكا غير راغبة في إطلاق المبادرة في هذه الظروف وبهذا (الحجم) فإن الإعلام الامريكي هو الآخر قد وضعها في موقف حرج، وذلك حين بادرت الصحف العملاقة التي لم تكن تأبه بالخطاب العربي فخصتها بافتتاحياتها، وهذا مؤشر اهتمام شعبي، وليس مهما أن يكون رسمياً، ذلك ان الرأي العام الأمريكي يوجه المؤسسة السياسية، حتى لقد خرج بوش معلنا ترحيبه وتفاؤله، كما بدأت الرحلات المكوكية بين (الرياض) وعواصم العالم، ويقال مثل ذلك في إسرائيل فقد جاءت إشارات متعقلة على ألسنة المعارضة والأحزاب الجانحة للسلم، وتوجهت لجان إسرائيلية وفلسطينية إلى (روسيا) لدراسة المبادرة، كما جاءت تحذيرات من مراقبين إسرائيليين ركزوا علي خطورة خروج المملكة من سياسة الضغوط الكواليسية إلى الطرح المعلن. فالعمليات الفدائية التي استهدفت (دبابات) الجيش الإسرائيلي، وهزت الثقة بها، وأوقفت صفقات التسليح معها، و(تمرد ضباط الاحتياط) وخطاب (شارون) الذي قوبل بامتعاض شديد وسخرية مرة، كل ذلك هيأ الأجواء لتلقف مبادرة عربية ذات وزن ثقيل.

٣/٤والأمير الذي جاءت مقترحاته كفلق الصبح دون مقدمات أو توطئات، جعل الكرة في شباك الجامعة العربية، ومؤتمر القمة، لتحويلها من صفتها الفردية إلى مشروع جماعي، يأخذ طريقه إلى منظمة (الوحدة الأوروبية) التي تحس أنها بمعزل عن القضايا المصيرية، ومن ثم إلى رعاة السلام المتخاذلين أو المنحازين، وحين تتقدم الأمة العربية بالمشروع تضع كل الأطراف: أوروبياً، وأمريكياً، وإسرائيليا، في مواقف حرجة، تحملها على القبول المطلق، أو المشروط، أو طرح مشروع مقابل، يضطر معه العالم الحر بكل مستوياته: الحيادية، والانحيازية، إلى الموازنة، والنظر في عدالة الخطاب، وحين يفشل المشروع فإن آثاره سلباً أو إيجاباً ستكون في صالح الأمة العربية، لأنه مشروع عادل، بل هو إنقاذي، روعيت فيه مصالح كل الأطراف، والسياسة الواقعية الهادئة تفوت الفرص على الخصم، لأنها الأقدر على الإقناع والاستمالة والتعاطف، وإسرائيل ستجد نفسها أمام دولة تحترم العهود والمواثيق، وتمتلك عراقة سياسية وتفاوضا لا تخادع فيه شعبا ولا أمة، ومبادلاتها يداً بيد، وإسرائيل لا يلائمها هذا الأسلوب. والمتتبع للمبادرة يجدها تقوم على محور رئيس، هو (الأرض) مقابل (السلام) المستتبع (للتطبيع) فيما تقوم مراوغات إسرائيل على مبدأ (الأمن) مقابل (السلام)، المستتبع (للتطويع)، والذي يجهض مع كل حكومة جديدة. ومبادرة الأمير فرصة نادرة لكل الأطراف، فإسرائيل سوف تلملم مشروعها الدموي التأديبي التطويعي الفاشل، وستحصل على مشروعية الوجود من دولة إسلامية تتصدر العالم الإسلامي، وقد ظلت إلى الآن المتمنع الوحيد الذي لم يعط إسرائيل أي فرصة للاختراق، ومع أن ثمن التمنع باهظ التكاليف فإن الخطاب الإعلامي المناوىء أو المأجور يضربان عنه صفحا، وقد لا يكون لعدم مشروعية الوجود أثر في المنظور القريب، ولكن المستقبل بيد الله، والأمة العربية بنجاح هذه المبادرة توقف حرب الاستنزاف، وراعي السلام يحسن صورته المتشوهة. والذين ربطوا أهمية المبادرة ب (التوقيت) أو (بالشخصية) أو بهما معا ولم ينظروا إلى بنودها إنما يحيلون إلى مواقف المملكة الرسمية التي لم تتبدل، ولن تتبدل، وهي مواقف تكتسب مشروعيتها من الإسلام، والمتابعون للكلمة الرسمية التي وجهها إلى الحجاج خادم الحرمين الشريفين وولي عهده الأمين يدركون ثبات الموقف المتمثل بدعوة العالم إلى العمل من أجل مصلحة الإنسانية جمعاء، وتحمل مسؤوليته الإنسانية بإيقاف العدوان الإسرائيلي عند حده، وحمله على

تطبيق ما صدر من قرارات ذات شرعية دولية بشأن القضية الفلسطينية، ليكون ذلك انطلاقة لتحقيق سلام قائم على العدل والمساواة. وخطاب القيادة في (منى) تمحور حول ثلاث قضايا: تحقيق (الوسطية)، وإقامة (العدل) ومحاربة (الإرهاب)، ومبادرة الأمير عبد الله تستمد لحمتها من المحاور الثلاثة، فهي مبادرة (وسطية)، أخذت أفضل ما في المبادرات السابقة، وهي (عادلة) لأنها تضمن السلام لكل دول المنطقة، وهي (سلمية) لأنها تدعم كل الاطراف إلى وقف العنف، والمصير إلى موائد المفاوضات.

٤/٤و(التطبيع) الذي جاء ضمن مبادرة الأمير عبد الله، كان متداولاً من قبل تحت مفاهيم متعددة، وهو الآن يعود في مبادرة الأمير بمفاهيم أخرى، قد تحد من انفتاحه واحتمالاته الدلالية، وتقمع الطمع الصهيوني بتحويله من (التطبيع) إلى (التطويع)، وهو في مبادرة الأمير سوف يربك المشهد السياسي: عربيا وأمريكيا وإسرائيليا، لأن الأمير هو وحده الذي يملك تحديد المفهوم، ولا أظنه يقبل بالمفهوم الإسرائيلي، ولا ببعض الممارسات العربية على ضوء مفهومه الإسرائيلي. وتجارب (التطبيع) السابقة جاءت على مستويات عدة، أساء بعضها إلى المصالح العليا للأمة، كما أحدث ريبة في نفوس كثيرة، واستدعى مصطلحات أخرى (كالهرولة)، فالمؤسسات السياسية فوجئت بالمصطلح العائم، ووقع بعضها في حبائل التغرير الإسرائيلي، وكل مؤسسة لها مفهومها المتفق عليه، أو المختلف حوله، والشعوب العربية لها مفهومها المستمد من التاريخ والواقع والمرجعية، ولهذا فإن اسرائيل ستظل حائرة بين إرادة المؤسسات السياسية وإرادة الشعوب العربية، وكل الاطراف المعنية ستعيش في حيرة امام التفسير القانوني لمصطلح (التطبيع)، وإسرائيل لاشك أنها ستكون الأكثر تشبثا بالمفاهيم والمقتضيات الواسعة، وهي قد شغلت المحافل السياسية بغنوصيتها، وأفقدت كثيرا من القرارات محدودية الدلالة والمفهوم، وذلك بسبب تفسيرها المتعنت لبعض الكلمات الحمالة. و(السلام) و(التطبيع) سيأخذان مفهوما آخر في مبادرة الأمير، ولهذا جاءت إحدى مقالات الصحافة الإسرائيلية تحت عنوان (انتبهوا للسعودية) ووصفوا تحرك الأمير العلني بانتصاب طرف سياسي جديد، كما ركز المستشار الإعلامي الإسرائيلي على الحذر في دراسة المبادرة، معللا ذلك بعدم توفر التفاصيل، لعلمهم ان مفاهيم جديدة ستصاحب مبادرة الأمير، ولن تكون في صالحهم، فالإسرائيليون كانوا يتأذون من تحركات السعودية خلف الكواليس وسيكونون أشد تأذيا بعد التحرك على المسرح، والأمير عبد الله حين طرح مصطلح (التطبيع) لم يشفعه بتفسير أو تحديد، لأن سياسة حكومته تملك رؤية خاصة لهذا المصطلح، وهي رؤية تختلف كثيرا عن مفاهيم عربية وإسرائيلية، ويبقى السؤال من يملك تفسير (التطبيع) وتحديد مفاهيمه ومقتضياته ومشمولاته وحوافزه، ومن يحدد المحظور والمباح في العلاقات مع إسرائيل: اقتصادياً وسياسياً وثقافياً وسياحياً وإعلامياً. ان اسرائيل لها مفهومها المرفوض للتطبيع، وللأمة العربية مفاهيم متباينة، وأحسب أن المملكة العربية السعودية سيكون لها موقف أكثر تشدداً وأدق محدودية من أي دولة عربية، فهي دولة إسلامية لا بالسمة ولكن بالامتثال والممارسة، وإذا قبلت إسرائيل مفهوم التطبيع كما تراه المملكة فإنما تقبله لإنقاذ وضعها المتدهور، والذين طاروا بالمبادرة تصوروها كما المتداول، ومعاذ الله أن تكون كما هو. والتطبيع مصطلح متعدد الدلالات والحقول، ولم يكن متداولا بمثل تداوله بعد اللقاء التاريخي في المنتجع الريفي للرئيس الامريكي (بولاية ماريلاند) (كامب ديفيد) بين «السادات» و«بيجن»، تحت رعاية الرئيس «جيمي كارتر» خلال الفترة من ١٥١٧ سبتمبر ١٩٧٨م والذي تمخض عن معاهدة «كامب ديفيد» وقد تضمنت إحدى الوثيقتين كلمة (إقامة علاقات طبيعية بين مصر ودولة اسرائيل) وتحولت كلمة (طبيعية) إلى مصطلح مستقل عرف فيما بعد

(بالتطبيع) واستطاع الماكر اليهودي أن يعطي الكلمة أبعاداً دينية، وسياسية، واقتصادية، وثقافية، وسياحية، أثقلت كاهل المفاوض العربي، وأدت إلى تعثر المفاوضات العربية الإسرائيلية، وأثارها الشارع العربي، حتى لقد خيبت التجربة الإسرائيلية في استغلال مفاهيم الكلمات المصطلحية وفق رؤيتها آمال الشارع العربي. ودولة اسرائيل أحوج ما تكون إلى (التطبيع) حسب مفهومها له، ومتى قبل المفاوض العربي بهذا المفهوم اختلت موازين القوى، وسقطت ثوابت الأمة. ومن ثم فإن اسرائيل لن تكون سعيدة بطرح كلمة (تطبيع) في مبادرة الأمير عبد الله، لأن القبول بها سيعطي المصطلح دلالات جديدة، لن تكون لصالح اسرائيل والمبادرة سواء قبلت بها إسرائيل كما يفهمها المبادر العربي أم لم تقبل بها أخذت أبعاداً عربية وعالمية ستضطر معها إسرائيل إلى القول أو الفعل، وهي في كلا الحالين أمام تحد لم تكن تحسب له أي حساب، حتى لقد ارتبكت في المواجهة مُتخذة سبيل التحدي بتوجيه الدعوة للأمير بزيارة القدس، أو هي تماكرت بغباء لا تغابي، لتحويل المبادرة من التدويل إلى الثنائية، لجر قدم المبادر ليكون مفاوضاً وهو لا يملك حق الوصاية. بقي أن تتلقف الأمة العربية عبر مؤسساتها هذه المبادرة. وتلح في تحويلها إلى مشروع عربي جماعي، يضع الاطراف الاخرى امام مسؤولياتها التاريخية والإنسانية. والمتعنترون الذين لا يريدون السلام، ولا يمولون الحرب، ولا يعرفون قدر أنفسهم، يطلقون (بالوناتهم) الفارغة، ثم يلوذون بالفرار، باتجاه ملاجئهم الآمنة المستقرة في أوروبا، يبيعون ماء الوجه بثمن بخس، واضعين أقدامهم في الماء البارد فيما يتململ الشجيون على صفيح ساخن. والمؤلم أن قنوات الإثارة الفارغة لما تزل حفية بمثل هؤلاء، تسرج ظهورهم كلما سمعت هيعة، لتشكل منهم قوة اعتراضية تزيد بها فقاعة توهجها السرابي، مستغلة ضعف الذاكرة العربية، ضاربة صفحاً عن تعايش الفعل معززة جانب الانفعال.

الحازمي بين النقد السردي والرصد النقدي .. ! (١) [(١)]

ليس من باب المجاملة ولا المبالغة ان نقول: بأن الاستاذ الدكتور منصور بن ابراهيم الحازمي «وُلد ١٩٣٥م في مكة المكرمة» رائد النقد القصصي والروائي في المملكة بمفهومه العلمي المعياري المنهجي، وبهذه الريادة نال جائزة الملك فيصل العالمية للآداب، وإن سبقه نقاد انطباعيون وذوقيون وحكميون، لا يغمط لهم حق، ولا يجهل لهم أثر، وريادته تأسيسية تأصيلية منهجية ولّما يكن رائداً في الزمان، وهو إذ يملك هذا تَخَصُّصياً وتطبيقياً، فإنه لم يفرغ له كما ينبغي بل أذعن لسلطانين:

سلطان الشعر: وله فيه دراسات تطبيقية وتنظيرية.

وسلطان المقال الصحفي: وله عدد من المقالات التي جمعها فيما بعد في كتب مطبوعة.

مع ما شغله من عمل اكاديمي وعمل في العديد من اللجان، وحضور عدد من المؤتمرات، وإسهامات أخرى على شكل استشارات، كل ذلك أبعده كثيراً عن مجال تخصصه، ولما يمكنه من التأصيل لحركة نقدية علمية مثلما فعل غيره من الدارسين المتخصصين في النقد الروائي في الوطن العربي من أمثال: «الهواري» و«النساح» و«الياقطين» و«طه وادي» و«عبد المحسن بدر» وغيرهم.

وقد جاء في سياق تفويت الفرص احجامه عن ترجمة رسالته العلمية للدكتوراه التي أعدها باللغة الإنجليزية عام ١٩٦٦م في جامعة لندن «الرواية التاريخية الحديثة في العالم العربي» وهي العمل الأجود، والألصق بالنقد السردي، الذي لم يكن حاضر المشهد الأدبي في مواقع كثيرة من العالم العربي، ولأن رسالته تلك تجيء في شح الدراسات الاكاديمية للإبداعات السردية، فقد أثنى عليها الدكتور محمد يوسف نجم وتمنى لو ترجمت واستفاد منها الدارسون، ولو أنه فعل ما نصحه به «نجم» لكان قد وثق سبقه في دراسة الروايات التاريخية، قبل ان يحفل المشهد النقدي بأعمال نقدية للرواية التاريخية من مثل: «الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث» للدكتور أحمد الهواري وآخرين، و«الرواية التاريخية» لجورج لوكاش وكتب ودراسات أخرى لا أستحضرها. وفي كتابه عن محمد فريد ابو حديد اشارت للأعمال الروائية ذات الموضوع التاريخي، وبخاصة اعمال جرجي زيدان، ولأن رسالته لم تترجم بعد فيما أعلم، فقد جاء كتابه «محمد فريد ابو حديد، دراسة في أدبه الروائي» العمل الاكاديمي الوحيد، وما سوى ذلك دراسات ومحاضرات ومقالات أنجزها في فترات متباعدة وبمستويات من الجد والأناة والتخفف والتعجل، ثم جمعها وأصدرها في كتب متنوعة مثل «في البحث عن الواقع» و«مواقف نقدية» و«سالف الزمان»، ولما تكن هذه الكتب ذات موضوع واحد ولا منهج واحد، باستثناء كتابه «فن القصة في الأدب السعودي الحديث» الذي طبعه قبل عشرين عاماً، ثم أعاد طباعته قبل عامين أو ثلاثة وجعله في ثلاثة فصول، جاء الفصل الأول مدخلاً عاماً، وخص الفصل الثاني بالنقد الروائي التطبيقي، والفصل الثالث بالنقد القصصي، وقدم في الملحق نماذج من القصص القصيرة لمجموعة من المبدعين القصصيين السعوديين معتبراً «احمد رضا حوحو» قاصاً سعودياً، وما هو بسعودي، وقد فعل من قبله أو من بعده الدكتور «محمد الشامخ» و«حوحو» في اقامته وعمله ومشاطرته للأدب والأدباء السعوديين من قبل، مثله مثل «محمد صالح الشنطي» في الوقت الحاضر.

---

(١) تاريخ المقال: ١٢/ ٣/ ٢٠٠٢

وعمل آخر أحسبه مشروعاً تبنته جامعة الملك سعود، ولكنه لم يستمر، وهو «معجم المصادر الصحفية» وقد أنجز فيه جزءاً من صحيفة «أم القرى» يمتد قرابة عشرين عاماً، من استعادة مكة المكرمة على يد الملك عبد العزيز عام ١٣٤٣ه إلى عام ١٣٦٥ه ولما يشتمل على ما قبل التاريخ، ولم يمتد إلى ما بعده، وهو بهذا التوقف لم يعد مجدياً للباحثين الذين يودون التقصي، ولست اعرف ما اذا كان غيره قد انيط به امر معجمه المدد الباقية. وما ادري هل انجزت ولما تطبع، أو ان المشروع قد توقف، وهذا المشروع مفيد لو تلقفته مؤسسات قوية، وقد انجزت فهارس بالنسبة للشخصيات الفكرية والأدبية في مصر والشام والعراق.

والحازمي الذي تخصص في الدراسة المنهجية للسرد الروائي والقصصي كانت له إلمامات نقدية بكل فنون القول، وهو في دراساته الاكاديمية يخلط بين المناهج والآليات دون الأخذ بالتكاملية في مناهج النقد، كما انه الأكثر احتفاء بالمنهج التاريخي أو المدرسي أو التكويني كما يسميه المحدثون، ولما لم يقم بترجمة رسالته للدكتوراه التي افاض بالثناء عليها الدكتور محمد يوسف نجم فإننا لا نستطيع القطع باستكناه منهجه وآلياته.

وكتابه الذي درس فيه الأدب الروائي عند «محمد فريد ابو حديد» مؤشر على دقته المنهجية وتقصيه المرجعي، ولكنه كتاب صغير، ربما أنه أعد للترقية فكان تقيده بما يرضي المحكمين واضحاً كل الوضوح، والحازمي درس في «مصر» وأتم دراسته في «لندن» والدولتان من الحواضن الأدبية المتميزة، ثم انه باشر التدريس الاكاديمي فاستكمل ما ينقصه وطبق ما كان قد درسه.

وأقوى إصداراته غير الاكاديمية كتابه «الوهم ومحاور الرؤيا» وهو الأعمق، فيما جاء آخرها «سالف الاوان» دون ذلك، وكتاب «الوهم» كما اشرت دراسات في الأدب العربي الحديث في المملكة العربية السعودية، يشتمل على ثمانية بحوث تحدث في احدها عن «اللمحات الفنية في الأدب السعودي المعاصر». وهو بحث جاء على هامش الحفل الثاني لجائزة الدولة التقديرية عام ١٤٠٤ه ويعد استكمالا لما جاء في بحث سابق عليه في الاعداد متأخر عنه في الترتيب. وفي حديثه عن المعارك النقدية استهل بحثه بالحديث عمن كتب حول الأدب السعودي، حيث عد أدب الرحلات للمستشرقين وكتابات الوافدين السياسيين المقيمين والعابرين من ذلك النوع الذي اشار إلى الأدب، ولم يتعمد الحديث عنه. واشار بشيء من الاهتمام إلى شخصيتين بارزتين:

الزركلي.

والريحاني.

وهما الأهم عنده، ثم افاض بالحديث إلى «المازني» و«ارسلان» و«عزام» و«بنت الشاطئ» ويأتي بعد أدب الرحلات المقالات والدراسات التي تناولت الأدب السعودي. وفي مقدمة اولئك «طه حسين» في كتابه «ألوان» ومقدمة «هيكل» ل«وحي الصحراء»، وله كتاب في هذا المجال بالاشتراك عن الأدب السعودي بأقلام الدارسين العرب، جاء على شاكلة ندوة موسعة، ولي مع اثنين من زملائي كتاب مطبوع على شكل فهرسة موسعة للكتب والدراسات عن الأدب السعودي. ولما كان كتابه «الوهم .. » تجميعا لإسهامات متفرقة، فقد افاض بالحديث عن بدايات الشعر في الحجاز، وعن بداية الأدب الحديث، ولم يغفل الحديث عن القضايا والأغراض والمعاني. وامتد حديثه إلى «النثر» وعلاقته بالصحافة وأبرز فنونه، وبخاصة القصة والرواية عند الرواد ك«السباعي» و«الدمنهوري» و«الناصر». والدراسة تاريخية موجزة لا تتجاوز الإشارات السريعة التي لا تسد خلة، ولكنها تضيء الطريق للباحثين المبتدئين بما تذكره من شخصيات وأعمال.

أما المبحث الثاني: فهو عن «حركات التجديد في الأدب السعودي الحديث» وهو كسابقه محاضرة القيت «بلندن» عام ١٩٩٣م. استهل الحديث فيها بما يكتنفه من صعوبة تمتد في الزمان والمكان. وهو إذ ينطلق من عملين رائدين «للصبان» و«العواد» لا يلمح إلى الفرق بينهما. فـ«الصبان» ألف في التراجم، أما «العواد» فكتب في النقد والتنظير، وليست هناك اوجه شبه بين العملين، ولو أنه عرض لكتاب آخر للصبان هو «المعرض» لكان بالإمكان الجمع بينهما. والصحوة الأدبية التي يجعل منطلقها كتابا «الصبان» و«العواد» لا تسلم له، إذ هناك عوامل أخرى كنت اود لو تقصاها، وهو يقطع بأن البداية الحقيقية للأدب السعودي تأتي بعد استعادة الحجاز على يد الملك عبد العزيز، وأحسبها بداية تسمية، وليست بداية فعل، فالأدب قائم في العهدين العثماني والهاشمي، وهو في العهد الهاشمي أكثر حماساً وقوميةً، بسبب الثورة التي استقطب لها «الحسين بن علي» ألمع الأدباء والكتاب، ممن فروا إلى الحجاز من الشام.

والدارس يربط الحركات التجديدية بما صدر من كتب نقدية مثيرة من مثل «خواطر مصرحة» و«المرصاد» على انه لم يشر إلى الفوارق الجذرية بين هذه الأعمال. «فالمرصاد» لـ«الفلالي» عمل تطبيقي انطباعي مبتدئ، لا ينطوي على أي استشراف أو تمرد، كما هما في كتاب العواد «خواطر مصرحة». وان اشار إلى ما ينقص «الفلالي» من أدوات أساسية للنقد، وهو قد حدد الابعاد الفنية عند الناقد القائمة على الاحكام المعنوي والفني والعاطفة والتجربة والوضوح، والدارس يراها مقاييس ضيقة، بحيث كانت سبباً في النيل من «العواد» و«القنديل».

لقد حصر حركات التجديد في اربع مراحل أو تيارات. سمى الأولى بـ«الصحوة» ولا يقصد بها الصحوة الإسلامية. واتخذ سبيله لإبرازها في الكتب التي صدرت ان في التاريخ للأدب والأدباء أو في التنظير أو في التطبيق. ويمثل الصحوة ثلاث شخصيات أدبية:

محمد سرور الصبان.

محمد حسن عواد.

إبراهيم الفلالي.

وينتقل من الحركة الأولى التي استغلت نصف المحاضرة إلى الحركة الثانية «الأيديولوجية» ويجعل رائدها الناقد «عبد الله عبد الجبار»، ويصفها «بالايديولوجيا» أي علم الأفكار، وهو يعول على تناولات «عبد الله عبد الجبار» للاتجاه الواقعي في الشعر السعودي المعاصر. ولا أحسب هذا التقسيم يسلم له، فالأدب السعودي لم يقع في تلك المرحلة بما يسمى بـ«الأيديولوجيا» وان استعذب عبد الجبار مصطلح «الواقعية».

وهو حين يقسو في نقد «الفلالي» فإنه يمارس ذات القسوة مع «عبد الله عبد الجبار» حين يعرض لكتابه «التيارات» الأمر الذي حفز الناقد «عابد خزندار» إلى وصفه بالأوهام، فيرد عليه الحازمي، ليعود الخزندار إلى رد غير موضوعي عبر الصحافة المحلية. وأياً ما كان الأمر فإن الحديث عن كتب النقد لا يكفي فيه الاستعراض التاريخي الوصفي، إذ لا بد من الدخول في عمق الأعمال وربطها في سياقاتها المتعددة. وقد اتخذ «الحداثة» حركة ثالثة تلي الاتجاه الايديولوجي .. واتجه بالحديث إلى ثلاثة نقاد يراهم الممثلين للحداثة المحلية هم:

عبد الله الغذامي.

سعيد السريحي.

سعد البازعي.

واستعرض كتبهم الثلاثة:

الخطيئة والتكفير.
الكتابة خارج الأقواس.
ثقافة الصحراء.
مع ذكر كتب أخرى ليست فى مستوى تلك الكتب الثلاثة.

والدارس لم يشأ الدقة في الحديث عن «الحداثة» ومرجعياتها وسماتها، ولم يشأ التفريق بين حداثة الفكر، وحداثة الفن، والمقبول والممنوع في شقي الحداثة.

وهو في الوقت ذاته تحدث عن النقاد، ولم يتحدث عن المبدعين، كما اشار إلى طائفة من خصوم الحداثة مشيراً إلى «عبد الله بن ادريس» و«أحمد فرح عقيلان».

وهو اذ يجعل الحركة الثالثة حداثية، فقد جعل الحركة الرابعة والخاتمة «إسلامية»، وقد استعرض جوانب من مقتضياتها وتحفظات النقاد عليها. وحديثه وصفي سريع، اذ هو اميل إلى الانطباعية، ولو أنه وظف امكاناته وأعطى الجهد المناسب لكان حديثه عن الحركات الأربع أدق وأعمق واشمل، ولو خص الحداثة بالوصف الايديولوجي جاعلاً المرحلة الثانية واقعية اجتماعية في إزاء الواقعية الاشتراكية لكان أقرب إلى الدقة في التحديد.

الحازمي بين النقد السردي والرصد النقدي .. ! (٢)[(١)]

أما حديثه عن «المعارك الأدبية» في المملكة فيأتي ثالث البحوث، ولا يختلف عن محاضرته الأولى «لمحات من أدبنا السعودي المعاصر» يستهل مقاله الذي نشره في مجلة المنهل عام ١٩٩٦م بالحديث عن معركة «العواد» و«الأنصاري» حول الإبداع القصصي، وقد آخذ العواد على سخريته وتهكمه وخلطه بين متطلبات القصة والرواية، وبين الواقعية والرمزية والفلسفية في العمل القصصي. واستطرد إلى معارك «العطار» و«السباعي» ووصف هذه الحملات بالتطرف والإسعاف. وأبدى ارتياحه عند الحديث عن «المرصاد» للفلالي. وان قرر عدم اختلافه عن النمط السائد للمعارك النقدية السابقة، واصفاً دراساته بعجزها عن الرقي إلى مستوى الدراسات الجادة المتأنية، إذ هي في نظره تعليقات سريعة وانطباعات عابرة تعتمد على الذوق الشخصي الممزوج بحدة الانفعال والسخرية.

والدارس تناول كتاب «الفلالي» «المرصاد» حين تحدث عن «حركات التجديد في الأدب السعودي الحديث». وتذبذب حديثه بين المؤاخذة والتأييد وهو قد بسط القول عن «المرصاد» في الموضعين، ولما يكن في ذلك ناقداً بقدر اهتمامه بالوصف والرصد، وإن أوما في سياقاته إلى بعض ملاحظاته كقوله مثلاً «تنقصه الأدوات الأساسية للنقد» وجعل منها وفرة النصوص المدروسة، ولما يشر إلى ما هو أهم، وهو آليات النقد ومنهجيته، وان مرت مقطعة الأوصال في اشارات عابرة في المقالين «حركات .. » و«معاركنا النثرية». ولا تثريب في ذلك، فالدارس يتحدث عن كل موضوع في معزل عن الآخر، وهو في النهاية مؤرخ للحركة الأدبية والنقدية في المملكة، ولربما تأخذه طبيعة الأستاذ في القاعة وهمه في التوصيل والترسيخ. وقد ألمح الناقد «عابد خزندار» لذلك من تلك الزاوية، ولكننا لا نتفق مع «خزندار» في وصف عمله بالوهم، ولا نذهب معه في مطالبته للناقد بالتقاعد عن الكتابة مثلما تقاعد عن التعليم، فمثل هذا التجني وان كان ديدن «الخزندار» يحط من قدر المشهد النقدي، ويشوه صورة الحركة النقدية في البلاد، وبامكان «الخزندار» غير المتخصص ان يحدد نقاط الضعف والاخفاق عند «الحازمي» تاركا الحكم للقارئ الذي يستعرض الوثائق، ويقرر النتائج، والنقد لا يكون بالضرورة «نصوصياً» و«ابداعياً» كما يود «الخزندار» وإنما الحاجة تحدد المنهج. والدارس يود من دراسته تلك إعطاء تصور عن الحركة الأدبية والنقدية في المملكة، وهو في هذه الرغبة يحتاج إلى «المنهج المدرسي» أو ما يسمى ب«النقد التكويني». ومجمل الأعمال الدراسية التي اشتمل عليها كتابه «الوهم ... » من هذا النوع التاريخي الوصفي المعلوماتي. والدارس حين يكون مستعرضا عارضا في هذا الكتاب يكون ناقدا في كتب أخرى. فالكتاب يمثل زاوية من مؤلفه، ولا يحتويه، وتأطير الحازمي في واحد من كتبه أو في واحدة من محاضراته جناية متعمدة.

ويمتد رصده للمعارك بين البسط والإيجاز والإشارة والاستدعاء، ويختم حديثه عن المعارك الأدبية بالحديث عن «عبد الفتاح أبي مدين» وكتابه «أمواج وأثباج». وقد ساق أطرافاً من أحكام أبي مدين الجائرة على طائفة من الشعراء الذين أرخ لهم «عبد السلام الساسي» في موسوعته وفي كتابه «شعراء الحجاز .. » ولكنه استدرك قائلاً: إن آراء أبي مدين في «أمواج وأثباج» خلال الخمسينيات لا تمثله في فترة لاحقة، ولا سيما بعد تبلور الكثير من الحركات والتيارات الأدبية، وبعد اتصاله الوثيق بممثلي النقد الجديد.

---

(١) تاريخ المقال: ١٩/ ٣/ ٢٠٠٢

أما بحثه الرابع «مكة المكرمة في قصص أبنائها المبدعين» فمحاضرة ألقيت في نادي مكة الثقافي عام ١٩٩٦م. ونشرت في ملحق الرياض الأدبي. وفيها تناول بعض الأعمال الإبداعية الروائية، وما هي عليه الحياة في مكة من حيث البيئة والموقع والمكان بوصف مكة مهاداً طبيعياً للفكر والأدب، وهو قد كتب أو حاضر عن شيء من ذلك. حين أنجز دراسته «البيئة المحلية في قصص أحمد السباعي». والدارس لا يود أن يفرق بين مصطلحي «القصة» و«الرواية» فهو يعنون «بالقصص» ويتناول الروايات، ثم هو يؤاخي بين المناهج بحيث يوازن تارة، ويحاول استبانة الحديث عن مكة تارة أخرى. وقد اختار خمس روايات من بين ستين رواية أشار إليها «الشنطي» في دراسته للرواية العربية: هذه الروايات هي:

«أبو زامل » للسباعي ١٣٧٤هـ.

«ثمن التضحية» للدمنهوري ١٣٧٨هـ.

«لا ظل تحت الجبل» للعنقاوي ١٣٩٩هـ.

«لا تقل وداعاً» لعاشور ١٤٠٠هـ.

«سقيفة الصفا» لبوقري ١٤٠٤هـ.

وقد ركز في دراسته على «النماذج البشرية» وقد يكون استوحى هذا العنوان من كتاب «محمد مندور» عن النماذج البشرية في الروايات العالمية، وهو من أهم الكتب وأجدرها بالقراءة، مع أنه كتاب لا يعرفه إلا الأقلون.

والمحاضرة التي أعدها عن مكة في قصص أبنائها مختصرة إلى حد الاعتصار، واشاراته لا تفي بالغرض، والموضوع عميق ودقيق، ويحتاج إلى جهد ووقت لم يتوفر عليها الدارس، ودراسته البعد البيئي والشخصي في روايات خمس لا يمكن أن يؤتى عليه بصفحات قليلة وجهد متخفف. ولا سيما ان الدارس متخصص في النقد الروائي. وهو بهذه الصفة يتوقع منه العمق والتركيز والغوص في البُنى التحتية للأعمال واكتشاف الأهم في هذا البعد الذي اختاره لأهميته، وهو محور العمل الإبداعي، والحديث فيه من متطلبات النقد الحديث، ويرتبط به موضوعان «أضواء على تصور القصة القصيرة في المملكة العربية السعودية» و«البيئة المحلية في قصة أحمد السباعي»، وقد أعد لطرحهما في ملتقى القصة القصيرة في الكويت وفي المهرجان الوطني. والبحثان يتسمان بالعمق ومباشرة النقد النصوصي الذي تجاهله «الخزندار» في مؤاخذته للناقد، وان كان دون ما نؤمله من مثله، إذ يبدو تخففه في كثير من أعماله، وهو الأقدر لو أراد ذلك.

وقد عول في بحثه عن تطور القصة القصيرة على مجموعة من الدراسات التاريخية والنقدية، وكان اتكاؤه الأقوى على أطروحة «سحمي الهاجري» عن القصة القصيرة في المملكة، والدراسة التاريخية للدكتور «محمد الشامخ»، والدراسة التاريخية الوصفية للدكتور «محمد بن صالح الشنطي»، وما كتبه كل من: «البازعي» و«سعيد السريحي» و«شاكر النابلسي».

وفي حديثه عن القاص «حسين علي حسين» عول على دراسة للدكتورة «فاطمة موسى» عبر مقالين: «تطورات جديدة في القصة القصيرة العربية» و«الرحيل بين الأنموذج والواقع». وفي البحث اعتمد على المرحلية الزمنية، فهناك رواد ك«أحمد رضا حوحو» بوصفه مارس الإبداع والترجمة والنقد في المملكة، وإن كان جزائرياً بارح الديار المقدسة، واستشهد في حرب التحرير الجزائرية، ومن بعده «حمزة بوقري» و«إبراهيم الناصر» و«محمود المشهدي» ولم يسلم أحد منهم من التأثر المباشر عن طريق القراءة أو المعايشة. ف«البوقري» أقام في مصر. و«الناصر» أقام في العراق، وكل واحد منهم استفاد من إقامته التي لم تطل، واتخذ إمامه من مشاهير المبدعين

القصصيين في مصر والعراق، ويبدو لي أن الإشكالية تكمن في «الموهبة» و«الموقف» و«الثقافة». والنظر إلى ابداعات الآخرين لا يشكل أهمية قصوى.

والثلاثة الذين اختارهم الدارس من السعوديين بالأصالة أو بالإقامة وعدهم من رواد القصة القصيرة يأتي إلى جانبهم آخرون ليسوا بأقل منهم، ولكن المرجعيات التي عول عليها ركزت على أولئك، فلم يكن بد من التعويل عليهم. حتى لقد أطال الحديث عن «حسين علي حسين» بشكل ملفت للنظر لا لشيء أكثر من أن المادة توفرت للدارس من النقد التطبيقي لأعماله لدى الدكتورة «فاطمة موسى». وهو في تناوله لتطور القصة قسم المراحل إلى ثلاث: «الرواد» و«الشباب» و«الحداثيين» أو المتأثرين بالحداثة، ولشح المرجعيات فقد شار إلى «المشري» و«محمد علوان» ولم يشر إلى مبدعين قصصين لا يقلون عمن تحدث عنهم، ويبدو لي ان المرجعيات التي عول عليها لم تشر إلى احد منهم من مثل: «باخشوين» و«الشقحاء» و«عبده خال» وغيرهم، وليس بضائر فيما أرى العدول عن الاستقصاء إلى الانتقاء، متى استطاع المنتقي إغناء البحث عمن صرف النظر عنه.

وفي حديثه عن «السباعي» وتجلي البيئة المحلية في قصصه حاول ان يلملم نثاره من مواقع كثيرة، ولما ينج من الاستهلال التاريخي والاستطراد على حساب القضية الرئيسية، بحيث تقصى أشياء كثيرة عن السباعي، ليست في خدمة الموضوع الرئيس، وحديثه عن البيئة حمله على افتراض البعد التاريخي في الإبداع القصصي، مما حفزه على استدعاء «جرجي زيدان» و«أبي حديد» و«محفوظ» و«باكثير» للموازنة بين فنيات الاستخدام التاريخي، وكل ذلك استطراد أثقل البحث، والسباعي يقصر باعه عن أولئك في أمرين:

الأمر الأول: حجم البعد التاريخي في قصصه.

الأمر الثاني: حجم البعد الفني إزاء من ضرب بهم الأمثال.

وما أظن هذا الاستدعاء إلا نتيجة التشجيع والاستحضار، فالدارس ملم بالرواية التاريخية، وله فيها أطروحة علمية ودراسات أخرى، وتوارد هذه الشخصيات لم تثره مقتضيات الدراسة، وإنما أثارته معارفه الوفيرة في هذا المجال، وما كان له أن يخل بمنهج البحث، وهو الأقدر على استبعاد ما يتداعى من معلومات لا يقتضيها المقام. وهو حين يطلق على بعض مراحل حياة السباعي «المرحلة الفلسفية العاطفية» يكون أكثر تزايداً، فالعاطفية الرومانسية عنده لا ترقى إلى التصور الفلسفي، وكيف يستوحي السباعي بطلته كما يشير الدارس من قراءاته الرومانسية، ثم لا يكون في أدائه فيلسوفاً، وبودي لو أن الدارس فرق بين الاستغراق التخيلي، والاستغراق التأملي، فالفلسفة العاطفية ربما تكون نتيجة الاستغراق التأملي، ولا تكون نتيجة مستغرق في الخيال، والسباعي في روايته «فكرة» مستغرق في الخيال إلى حد الخرافة، ولكي يؤكد رؤيته في ذلك فقد تعمد الربط بين «السباعي» و«جبران» وشتان بين الرجلين، والربط التعسفي لا يسوِّغ التصور الفلسفي عنده، ووصفه لحديث «فكرة» بطلة الرواية بأنه حديث العالم الفيلسوف الشاعر المتصوف فيه شيء كثير من المبالغة.

و«السباعي» الذي خلق شخوصه، ولم يلتقطها من المجتمع، أراد أن يحقق من وراء هذا الخلق الممعن في التخيل أقصى حد من النقد لبعض الأوضاع السائدة، مما له علاقة بالمرأة في سائر وجوه الحياة عنده، وفي مجال التعليم بالذات، وهو بهذا الإغراق يمارس القناع بطريقة مغايرة لتقنع المبدع، وإنما هو تقنع القضية، والتماس البيئة المحلية في رواية مغرقة في الخيال مثل «فكرة» يلجئ إلى التمحل، وقد اشار اليه الكاتب الذي لم يُكرهه أحد على تناول رواية خيالية رومانسية بآليات مغايرة.

ويأتي الموضوعان الأخيران:
«أدبنا السعودي في عيون الآخرين» الذي تحول فيما بعد إلى كتاب.
و«واقع الثقافة العربية بين الإيجابيات والسلبيات».
وهما محاضرتان ألقيتا في المهرجان الوطني للثقافة والفنون عامي ١٤١٢هـ و١٤١٨هـ. استعرض في البحث الأول رؤية السائحين لهذا الأدب ورؤية الباحثين ورؤية المتعاطفين المجاملين، وحديثه عبر كل الرؤى استعراضي انطباعي وقليل من الجدل المخنوق بحجم البحث. وحديثه عن واقع الثقافة لا يتجاوز التمهيد أو المدخل. لقد أعطى إشارات رقمية، ولما يعط تصوراً شاملاً، فالحديث عن قضية كتلك يتطلب فضاءً واسعاً وإمكانيات استثنائية لا تنقص الحازمي، ولكنه لم يشأ استخدامها لمحدودية الوقت المتاح لمثله في لقاء عام.
وكتابه «سالف الأوان» يتساوق مع كتب أخرى وهو مجموعة مقالات قصيرة جمع شتيتها وصنفها موضوعياً وفنياً، وجاءت في خمسة حقول «في الأدب السردي» و«من أدب السيرة الذاتية» و«شخصيات» و«نفحات من الشرق الأقصى» و«أصداء وتأملات» وأدرج تحت كل عنوان ما يناسبه من المقالات المقتضبة، ولم تكن تناولاته قصراً على الأدباء السعوديين، ولم تكن مقالاته عازمة بل جاءت على شكل خطرات وخواطر، ويبدو في مقالاته تلك متابعاً للمشهد الأدبي، حفياً بإبداعات الشباب، ولم يشأ إضافة أي دراسة منهجية جادة كما هو في كتابه «الوهم ومحاور الرؤيا».
لقد صرفت النظر عن سائر كتبه التي تضمنت مقالاته الأدبية لأنها تناولت إبداعات شعرية ولّما يكن الحازمي فيها معلوماتياً وإنما كان انطباعياً، وإلماحاته المعرفية فصل القول عنها في محاضراته الموسعة والممنهجة، ولم أشأ الحديث عن الحازمي الشاعر لخروج ذلك عن مجال بحثي، ويبقى الحازمي علماً من أعلام الأدب السعودي في انتظار أقلام شابة تنقب في عالمه وتوفيه حقه الممطول، وما كنا لنفي بحق أعلامنا حتى يتواروا في التراب.
*تنويه: ملخص الورقة التي القيت في ندوة «الأدب السعودي خلال عقدين» وستطبع الورقة بكاملها مع كامل الأعمال ..

تحولات النقد الأدبي .. ! (١) [١]

١/١كلمة «نقد» مصطلح مشاكس، ذو أبعاد متعددة: تاريخية، وفنية ووظيفية، ومنهجية، وآلية، ومجالية. لا يستقر شيء منها على قرار، و«الثبات» و«التحول» حين يفهمان على غير ما يجب أن يكونا عليه، تختفي القضايا، وتتضخم الإشكاليات. ولما كان التحول المطلق المعول على الانقطاع المعرفي والتفجير المتواصل لكل ماهو متداول هما الشغل الشاغل عند رموز الحداثة الفكرية المنحرفة، أصبح من الضروري معرفة المرجعية لتحديد المرجعية والمتعلق، ذلك أن الحضارة الإسلامية ذات مرجعية ربانية ملزمة، لها ثوابتها ومتغيراتها.

وكل حضارة لا يعرف مفكروها ثوابتها، ولا يحترمون خصوصيتها حضارة مستباحة. والنقد مع الأزمنة والأمكنة واللغات والحضارات ذو خصوصيات مختلفة، وأحكام وضوابط لمبدأ التحول، لما يضع لها مستهلكو فيوض الحضارات المهيمنة الاعتبار المناسب. والنقد الذي نتوقع منه حسم الخلاف حول النص والقدرة على التوسط بين المبدع والمتلقي لم يحسم الخلاف حول ذاته، وارتداده إلى الداخل عطَّل فعاليته. وإذ يكون الفعل النقدي مراوحاً بين:

التنظير.

والتطبيق.

فإنه بارتداده يقع في احتباس ذاتي، يفوِّت على المشهد مباشرة الفعل الوظيفي، والذين يحصرونه في ضيق الرؤى الذاتية، ممارسين نفي الرؤى الأخرى يضيقون على أنفسهم وعلى الآخرين، وذلك مؤشر ضعف في الملكة التصورية للظواهر والقضايا والمذاهب النقدية. وضيق العطن والاستقطاب حول الذات تولدت منهما دعوى «الوفيات» للظواهر والقضايا، وظهر ما يعرف ب «النقد الجنائزي».

والمتابع الحصيف للتحولات يتعامل بحذر شديد، ولا يتعمد إيقاف التدفق ليكون ك «المصور» الذي يحبس بالتقاط الصورة جزءاً من اللحظة، ثم يتوقف عندها. والمشاهد النقدية يمر بها فئام من القراء، متصورين القدرة على التحبيس كما المصور، يقع في مثل هذا المحذور المتعصبون والمتسطحون، فالموت لا يكون إلا للجانب المادي المحسوس، أما سائر الظواهر فتقع تحت طائلة التمدد والانكماش والغياب والحضور. وحين نرى مشروعية المذهبية، نقف بها دون التعصب، لنتيح الفرصة لقبول التحول المستمر، وإمكانية تبادل المواقع.

وكلمة «نقد» في الجاهلية والإسلام مفهوم عام، ومعهود ذهني، ولم تكن مصطلحاً معرفياً، نقل عن «الشعبي» في القرن الأول قوله: «ما شهدت مثلهم أشد تناقداً»، وفي القرن الثاني أخذت الكلمة بعداً أقرب إلى المصطلحية يقول «المفضل الضبي»: «ولا يتميز الصحيح منها أي الأشعار إلا عند عالم ناقد».

واتخذت الكلمة أوفى مدلولها المصطلحي، عند «قدامة بن جعفر» حين اتخذها عنواناً لكتابين: «نقد الشعر» و«نقد النثر». ذلك فيما يتعلق ببروز الكلمة وتطورها الدلالي، وتحولها المصطلحي، أما من حيث التطبيق والنقد، فهو قائم منذ الجاهلية الأولى، ومقاصده: إما توصيلية، أو تفسيرية، أو تقويمية. وفي العصر الحديث تحول النقد إلى معادل إبداعي، وعُرِّف بأنه: فكرة على فكرة، أو أنه: ضمير الضمير، وعند بارت «قول على قول»، والراصدون لتحولاته تعقبوه: مفهوماً ووظيفةً ومجالاً.

---

(١) تاريخ المقال: ٢/ ٤/ ٢٠٠٢

٢/١في صدر الإسلام تحول النقد إلى القيم الأخلاقية، وكان ابن الخطاب أكثر الخلفاء اهتماماً بالشعر، وسعياً وراء استقامة الشعراء. وفي العصر الأموي تجاذب النقادَ والشعراءَ همٌّ «الأسواق» و«القصور» و«المنتديات»، فغلَّب نقاد القصور ومجالس الخلفاء والأمراء شعرَ المديح. فيما جنح نقاد الأسواق الأدبية إلى الفخر والحماسة والهجاء المقذع. واستقر ذوو المجالس والمنتديات الخاصة على الغزل والنسيب. وفي هذين العصرين تبدى «التحول» من خلال محورين رئيسين تمثلا في «المفاضلات» و«السرقات» وقد استدعيا التقصي اللغوي والمعنوي والقولَ في الطبع والصنعة والبواعث، ومهاد النقد الأهم إضافة إلى المجالس والمنتديات أسواق العرب ك «سوق عكاظ» في الجاهلية والإسلام، و«المربد» في أواخر القرن الأول، وهي كثيرة استوفاها «الأعشى» في «صبحه»، وخصت فيما بعد بكتاب.

ولما جاء الإسلام أخذ «المسجد» دوره في مطارحة الشعر نقده، حتى لقد وضع «لحسان بن ثابت» منبر للإنشاد. وعند الأمويين جاءت «القصور» رافداً أقوى وأشمل، وفيها برز النقاد اللغويون والنحويون وبدت الخصومة بين الشعراء والنحاة، وطرحت قضايا جديدة كالمبالغات والضرورات والوحشيات والمفضليات، ومن مجالس القصور نسلت المجالس والمنتديات، كمجلس «ابن عتيق» و«سكينة بنت الحسين» و«عائشة بنت طلحة». والراصد لتلك المجالس يتقرى تحولات كثيرة، لم تكن معهودة من قبل، وهي تحولات استدعتها المتغيرات السياسية والاجتماعية والدينية.

والرصد المعرفي الحيادي للنقد يرى أنه في بدايته اتسم بالأحكام العامة والجزئية، واعتمد على الذائقة والانطباع، وركز على القيم الدلالية، وفي صدر الإسلام تجلت المواقف من الفن عامة، وهي مواقف تتراوح بين الحل والحرمة والإباحة المنضبطة. كانت البدايات الأولى على يد «أبي عمرو بن العلاء ت ١٥٤» الذي قال فيه الفرزدق:

ما زلت أغلق أبواباً وأفتحها

حتى أتيت أبا عمرو بن عمار

وجاءت أكثر وعياً عند «الأصمعي» و«ابن عتيق»، ولما يبدأ التأصيل النقدي إلا عند «الجمحي» و«بشر بن المعتمر» و«الجاحظ» و«ابن قتيبة» و«ابن المعتز»، ومن التأصيل إلى المنهجية عند «الآمدي» و«الجرجاني»، وفيما بين هؤلاء وأولئك مئات النقاد والعلماء والرواة والموسوعيين والمؤرخين والمترجمين، وآلاف الكتب المشتملة على الدراسة والنقد والشرح والمختارات والرواية والتراجم، وهي في مجملها مرجعيات نقدية ومصادر لدراسة الأدب، والمتعقبون للحركة النقدية تناولوها من خلال ظواهر النقد الإجرائية، تناولوها: قضايا، وشخصيات، وكتب، وتحولات تاريخية. والمثيرون منهم من قعروا رؤيتهم في تأثير «النقد اليوناني»، وفي مباحث الإعجاز البياني للنص القرآني وانعكاسه على الحركة النقدية وفي الموقف من شعر المحدثين.

٣/١لقد كانت حواضر النقد في بداياته الأولى ثلاثاً: الحجاز، والعراق، والشام. وأزمنته الأولى ثلاثة: الجاهلي، والإسلامي، والأموي.

ولاشك أن لكل مكان وزمان تحولاته الساذجة أو الواعية، تجلت فعالية النقد الواعي في محورين رئيسين:

الموازنة بين الشعراء.

والسرقات الشعرية.

ولكل محور مقاييسه العلمية، ففي «الموازنة» نظر النقد إلى مرونة الموهبة واقتدارها المتكافئ في الأغراض، وفي النسيج الشعري المتناسق، وفي مغالبة الأنموذج

الشعري، كما نظر إلى مقياس السيرورة وعمق المعاني، ولما يطلق النقاد الموازنة، بل قيدوها بعدد من الوحدات: الزمانية والموضوعية والنوعية، وأقام النقد موازينه على الابتكار والصدق والأخلاق والتلازم، ولعبت الثنائيات دوراً هاماً: ك«الغموض والوضوح»، و«الصدق والكذب» و«القصر والطول».

وألمح النقد إلى قضايا فنية تتعلق بالوزن والقافية والصورة، وقضايا نحوية ولغوية، ولما تكن نظرة النقد إلى قضية «السرقات» بأقل من نظرته إلى «الموازنات». جاء بعض هذا في القرن الأول ومستهل القرن الثاني. ومستجدات قضايا الموازنات والسرقات تعد تحولات عربية خالصة العروبة، إذ لم يكن الإسلام قد انتشر، ولما يتمكن الأدباء والنقاد من استيعاب ما عند الحضارات التي امتدت إليها الفتوحات الإسلامية، وهي تحولات تنبئ عن استعداد ذاتي للإنتاج والتفاعل والاستيعاب والندية، ولا يستبين الراصد مدى القدرة المتميزة عند الناقد العربي إلا إذا نظر إلى أبعاد النقد في الجاهلية ومنجزاته في القرن الأول ومستهل القرن الثاني، وهي تحولات واعية، أخذت بأطراف الفن ومكوناته، وكل فترة زمنية كرست متطلباتها الذوقية والموضوعية، ولم تسبق الطاقة الاستيعابية، ولا القدرة الإبداعية، ولم تكن عند النقاد خلاف ما هي عليه عند الشعراء، فالشعر الحقيقي هو المستجيب لحاجة الأمة.

٤/١استهل القرن الثالث بصحيفة «بشر بن المعتمر ت ٢١٠» التي تحدث فيها عن تصوره للأدب واستعداد الأديب وأحوال المخاطبة والأصول التي تجب مراعاتها، والصحيفة أميل إلى البلاغة منها إلى النقد. يليه «الأصمعي ت ٢١٦» الذي جنح إلى النقد اللغوي، وإذا كان الأصمعي قد طرح مصطلح «الفحولة» فإن ابن سلام طرح مصطلح «الطبقات» فيما طرح «الجاحظ ٢٥٥» مصطلح «اللفظ والمعنى» ويأتي «ابن قتيبة ت ٢٧٦» رافضاً المقياس الزمني المسيطر، ملخصاً رؤى النقاد من قبله، مرتبطاً بالنص من حيث حدوثه، لا من حيث انتماؤه: زماناً أو مكاناً أو ذاتاً، ومنشأ الخلاف ما استجد من شعر المحدثين ك«أبي نواس» و«بشار»، وفي هذا القرن بدأ الطرح المصطلحي الذي واكب القرون اللاحقة.

٥/١وفي القرن الرابع بدت التحولات الواعية في كتاب «الزينة» للرازي، و«التشبيهات» لابن أبي عون و«البرهان» لابن وهب و«الموازنة» للآمدي و«المصون» لأبي أحمد العسكري و«الصناعتين» لأبي هلال العسكري و«الوساطة» للجرجاني و«نقد الشعر» لقدامة، فيما اكتشف أن «نقد النثر» مستل من «البرهان» لابن وهب و«عيار الشعر» لابن طباطبا و«الموشح» للمرزباني و«الأشباه والنظائر» للخالديين. إضافة إلى كتب الإعجاز البياني للقرآن عند الأشاعرة والمعتزلة، وترجمات كتاب الشعر لأرسطو، والموسوعات كالأغاني، وكتب اللغة والفلسفة، وبخاصة إخوان الصفاء، وكتب النحو والصرف، وشراح الدواوين على اختلاف اهتماماتهم، وكتب السرقات والمثالب. وهذه الدراسات والموسوعات أسست لحركة نقدية واعية، ف«الجرجاني» في وساطته تقمص شخصية القاضي لفض المنازعات الفنية والدلالية، و«الخالديان» جليا نظرية التناص تطبيقاً، و«قدامة» مثل الرؤية المقارنة والتأثر الواعي، وهي مرتبطة بتحولات الإبداع الشعري، كما هو عند «أبي تمام» الذي نشأت في ظل تحولاته مذاهب نقدية، حتى لقد فجر شعره مواهب النقاد، ولا يقل «البحتري» عنه في استثارتهم.

٦/١أما في القرن الخامس فقد أسهمت تحولات الشعر وتحيزات النقاد في تفجير أزمات حادة في النقد، تولى كبر ذلك شعر «المتنبي» ولربما كان للفجوة بين تحولات الذائقة الشعبية وثبات المعيارية النقدية سبب أكبر في تأزيم حركة النقد، والشعراء الذين

وعوا التحولات العامة، واستجابوا لرغباتها، حفزوا الحركة النقدية على ممارسة العنف النقدي، فظهرت كتب السرقات والمساوئ والرسائل الموضحة، ولقد وجد النقاد أنفسهم بين تحولات الذوائق وثبات المعايير، الأمر الذي حدا بالأكثرين منهم إلى سرعة التغيير، واحتدمت المعارك النقدية حول «القديم والجديد» وكان «المتنبي» محور التنازع، والمعارك بلا شك امتداد لما دار من جدل حول «أبي تمام» و«البحتري» ومن قبلهما «أبي نواس» و«بشار بن برد» ولكنها جاءت مع المتنبي بشكل لم يعهد له نظير، لا في الماضي ولا في الحاضر، ولمَّا يزل المتنبي مجالاً خصباً للتحولات النقدية.

وجاء شعره أكثر شيء جدلاً، إذ لم يكن المتجادلون توصيليين وحسب بقدر ما كانوا مؤصلين لتحولات المتنبي اللفظية والمعنوية. والتمحور حول شعر المتنبي أفرز ثلاث فئات من النقاد: أنصاراً وخصوماً وموازنين بينهما، وظهرت قضية نقدية، تمثلت في الموقف الإسلامي من التجاوزات الدلالية، وتحرر في أثنائها مصطلح «النقد الأخلاقي».

فالقاضي الجرجاني يرى «أن الديانة ليست عياراً على الشعراء» فيما يرى «الثعالبي» أن «للإسلام حقه» ولم يتقيد بهذا المفهوم في الاختيار «لليتيمة»، وفيما مضى تداول النقاد مقولة: «الشعر بمعزل عن الدين»، وقد تأزمت بسبب فهم المقولة على غير مراد القائل.

وظاهرة أخرى تناولها النقاد، وهي «البداوة» و«التحضر» في الأداء والشرح، وعند أصحاب المختارات، وأحسبها وليدة التخوف من شعر المحدثين.

و«شعر المتنبي» و«قضية الإعجاز» من أهم مضامير اللزز النقدي، لقد وضع شعر المتنبي، ومن قبله أبو تمام والبحتري حداً فاصلاً لمفهوم التحول، ولكن كل صيد النقد وعته الخصومة حول شعر المتنبي، والمتعقبون لها لما يتأملوا الرؤى والتصورات، ولم يربطوا ما وصلوا إليه بما هو قائم من قضايا النقد، ولما يزل المتنبي يتمتع بفيوض من القضايا والظواهر التي لو أخذت من أطرافها بوعي لأعادت المعركة جذعة، وربطت النقد بالجذور النقدية العربية التي استدبرها النقاد المعاصرون، تحت وطأة الطوارئ غير العربية. ولن يفوتنا ونحن بصدد تحولات النقد في القرن الخامس اكتمال نظرية «عمود الشعر» على يد المرزوقي، ولا شك أنه محصلة واعية لمنجزات من سبقه من النقاد، كابن قتيبة، وابن طباطبا، وقدامة، والجرجاني والآمدي، وابن فارس، ودقة منهجه مكنته من الاستفادة الحذرة، حيث حصر عمودية الشعر «بالشرف، والجزالة، والإصابة، والمقاربة، والالتحام، والمناسبة، والمشاكلة» وفوق ذلك أشار إلى معايير العمودية. ولن نغفل تحولات أخرى لعل من أهمها «فلسفة النقد» على يد «ابن سيناء». ففي مقدمة «فن الشعر» وفي «الشفاء» تنظير نقدي أقرب إلى المنطق.

فمن تحرير الفن «بعمودية الشعر» عند المرزوقي إلى «فلسفة النقد» عند ابن سينا، ومنهما إلى الذروة عند «الجرجاني» ونظرية «النظم» ثم إلى خلط الأوراق عند «القرطاجني» بدرت تحولات جذرية، غيرت مفاهيم النقد، وإذا كان «البنائيون» اهتموا بالعلامة والعلاقة فإن الجرجاني سبق أولئك، حين نفى أن يكون «للفظة» في ذاتها وانفرادها من تفاضل، والحكم عليها حين تدخل في السياق. ومع أنني أعي كم هو الفرق بين «البنيوية» و«نظرية النظم» إلا أن رؤية «الجرجاني» تحول في الحركة النقدية، لم يُلتفت إليها بالقدر المناسب لها، كمبادرة عبقرية، أقامت وزناً للعلاقات والأنساق، وهي التي تداولها النصوصيون والبنيويون والألسنيون، ومع التوافق الإجرائي فإن هناك تفاوتاً في الجذور والمآلات، فالبنيوية عبر رحلتها من حقلها الفلسفي بوصفه الأصل إلى الحقل اللغوي، ثم إلى سائر الحقول النقدية والاجتماعية منيت بتحولات في المفهومية

والمقتضى، ليس لنظرية النظم شيء منها. ولا شك أن القرن الخامس من أخصب القرون وأحفلها بالتحولات: اللغوية، والدلالية، والفنية، والشكلية، والنفسية.

والناقد الحداثي «جابر عصفور» تناول التحولات في النقد التراثي من خلال ثلاثة أعلام «ابن طباطبا» و«قدامة بن جعفر» و«حازم القرطاجني» حيث تشكل المفهوم الشعري عند ابن طباطبا، وتحدد علم الشعر عند قدامة، وتكامل المفهوم عند القرطاجني، وتمثل هذه المواقف تحولات واعية وجذرية، وقراءة عصفور للتراث عبر ثلاثة كتب قراءة واعية وعميقة، وليست بأوعى من قراءة «محمد مندور».

وعصفور في مجمل استعراضه للتحولات النقدية التراثية يرى الترابط الوثيق بين مجمل النصوص النقدية «فالتراث النقدي عنده لا يمكن أن نقرأه في عزلة عن غيره من النصوص» لأن التراث «وحدة سياقية واحدة» داخل وحدة سياقية أوسع هي التراث. وفيما حررت قراءة «مندور» منهجية النقد العربي، اتجهت قراءة «عصفور» صوب الوعي النقدي التراثي لخصوصية الفن، وقد تناولت من قبل «ملامح الموروث في الظواهر النقدية المعاصرة» في مجال اللغة وفي مصطلح، «الشكل»، وفي مجال «الصورة الشعرية»، وفي مجال «التفسير النفسي» ووقفت على مبادرات تراثية، لا يستهان بها، وإن عدلت فيما بعد عن بعض ما قررت من نتائج.

٧/١وبعد القرن الخامس دخلت أقاليم جديدة في حركة التحولات النقدية تمثلت في «القيروان» و«الأندلس» بعد أن كانت متألقة «في الشام» و«العراق» و«مصر» وليس من شك أن الحركة النقدية في الأقاليم امتداد للحركة النقدية الأم، وإن كانت هناك تحولات عند «ابن خفاجة ت ٥٣٣» في مقدمة ديوانه، وعند «ابن بسام ت ٥٤٢» في الذخيرة، وعند «الكلاعي»، وإذا كان «ابن سينا» و«الفارابي» قد توليا طرفاً من التحول الفلسفي للنقد في المشرق العربي، فإن «ابن رشد ت ٥٩٥» قد عرف الأندلسيين بكتاب «الشعر» لأرسطو، وأعطى النقد بعداً فلسفياً لا أحسبه يماثل ما توصل إليه المشارقة، وقد لوحظ عليه سوء الفهم للمصطلحات الواردة في الكتاب، ولكنه استطاع أن يسهم في تحولات كثيرة.

وفيما بين القرن السابع وعصر النهضة لم تكن هناك تحولات، وإنما هي مراوحة بين الثبات والارتداد والإغراق في المعيارية البلاغية، ويجب أن نلمح إلى أن النقد سار جنباً إلى جنب مع البلاغة، ولما يستحضر العلماء والنقاد أن النحو والصرف والبلاغة وعلم اللغة آليات نقدية، وليست غاية في نفسها، ولو أتيح الدمج بين الآلية والمنهج لكان للحركة النقدية شأن خطير. هذه إلماحات لا تحرض على الارتداد للماضي، ولكنها تود استصحابه وتلقي فيوض المستجدات لإثراء الحركة النقدية.

تحولات النقد الأدبي .. ! (٢) [1]

٢/١ذلكم حديث مقتضب عن تحولات النقد القديم، وهي تحولات فرضتها المتغيرات العلمية والاجتماعية المحلية، وانتجتها الإرادة المستقلة، وأضفت عليها جهود المفسرين اللغويين وشرّاح الدواوين المهتمين بالفن واللفظ ما اكتشفته محاولاتهم المذهبية المتعصبة، أو تخصصاتهم النحوية والصرفية والبلاغية المعمقة، اضافة إلى تعالق البعض بما أفاء الله به على المسلمين من فيوض الحضارات، وبخاصة ما يتعلق بالنقد عند اليونان. وإذا كانت هناك ردة فعل غير عنيفة ازاء تحولات النقد على ضوء ما جاء في «كتاب الشعر» و«الخطابة» لأرسطو، فإن هنا ما يماثلها في مستهل العصر الحديث. فعندما بدت بوادر «حملة نابليون» علمياً وأدبياً ومسرحياً، أحست طائفة من الأدباء بالتحدي، فنهضوا لاستعادة التراث، وتكريس معارفه. تمثّل ذلك في مجال النقد بكتاب «الوسيلة الأدبية» للمرصفي، وفي مجال الشعر عند «البارودي» في ابداعه ومختاراته.

وإذا كان «حسين المرصفي ١٨٩٠م» و«حمزة فتح الله ت ١٩١٨م» يمثلان بدايات الاحيائيين في مجال النقد، فإن «المويلحي ١٩٣٠» و«سيد علي المرصفي ت ١٩٣١م» يشكلان استمرارية الهم الاحيائي، ولكنه هم لم ينج من دخن النقد الأوربي والأمريكي الذي استوى على سوقه عند «مدرسة الديوان» و«جماعة أبوللو»، وكان تواصل كل الأطراف مع «المهجرين» مؤذناً بتحولات جذرية في الحركة النقدية، يضاف إلى جهود المدرستين جهود فردية ليست بأقل أثراً، فـ«طه حسين» لم يكن منتميا لاحدى المدرستين، ومثلة «أحمد ضيف» و«محمد مندور» و«روحي الخالدي»، والثلاثة الأول يمثلون «اللانسونية» في نزوعها التاريخي القائم على الأخذ بالروح العلمية والمزج بين الذوق والمعرفة، وإن جنح «مندور» إلى الواقعية الاشتراكية، واضعاً أسس النقد الماركسي، فيما جنح «الخالدي» إلى المنهج المقارن.

والذين تلقفوا تحولات النقد الماركسي زامنهم آخرون تلقفوا فيوض النقد الانجليزي، الذي عبر إلى المشرق العربي من خلال استيعاب النقاد المعاصرين لأطروحات «صمويل كولردج ت ١٨٣٤» و«زورث ت ١٨٥٠» و«هازلت ت ١٨٣٠» و«بيرسي شيلي ت ١٨٢٢» وعند هؤلاء تغير مفهوم الشعر ووظيفته وعناصره ولغته وخياله وشكل القصيدة. وكل هذه الرؤى تشكِّل بدايات للتحولات الجذرية المقبولة إلى حدّ «ما» لأنها تؤسس للنقد الحديث.

٢/٢ورواد النقد المعاصر ومؤسسوه يختلفون عن جيل الانطلاق، إذ يتفاوتون في استبطانهم للتراث وتمكنهم من المستجد، فالمؤسسون استقبلوا فيوض الطوارئ، وهم متضلعون من التراث، فيما لم تستخف الرواد، بوارق التجديد، ولكنها أضافت إلى معارفهم معارف، فكانوا الأقدر على وعي الطوارئ، وفهم مناحيه، والأمكن في التأسيس لحركة نقدية متفاعلة. أما الذين استخفهم المستجد، واستزلتهم مغرياته فهم الذين استقبلوا فيوضه، وهم فارغون من التراث، وأولئك لم يقدروا على فهمه، ولا على استثماره.

وأمام فيوض المستجدات ظهرت ثلاث فئات:

المشايعون.

والهاربون.

والمتفاعلون.

---

(١) تاريخ المقال: ٩/ ٤/ ٢٠٠٢

ولكل موقف دركاته ودرجاته، فمن «المشايعين» من هو على شيء من التراث، وعلى شيء من الاقتدار، غير أن هذه الطائفة فضّلت المشايعة على التفاعل، وتجنت على الموروث. ومنهم من هو خالي الوفاض من التراث، وليس بقادر على استيعاب المستجد، وهذه الفئة تصدق عليها مقولة الناقد الفرنسي «تيبوديه» «النقد الحركي» المعتمد على الجدل العنيف الذي يقوده شباب ينطوون على رؤى غير أصيلة، فيها فجاجة وافتعال. وآخرون تلقوا فيوض المذاهب الغربية بلغاتها، وبعض هؤلاء أغرقوا في الاستغراب والتجني على التراث، وليس من شك أن طائفة منهم قدمت رؤية سليمة عما أخذت به من المذاهب الجديدة، ووفرت مناهج وآليات مفيدة، ولفتت الأنظار إلى قضايا مهمة، ولكنها أمعنت في الاغتراب. وبعض تحولات «المشايعين» استغرابية، لا تستجيب للذوائق، ولا تنهض بالحوائج، وغالب منجزها غربي جاء بلسان عربي ذي عوج وغير مبين، حتى لقد نفى بعض المستشرقين اهتمامه بالأدب العربي الحديث، لكونه أشبه بالبضاعة التي رُدت لأصحابها، لأن ما تكتبه هذه النوعية نقل مترجم. ويبلغ الاستغراب حده بالمشايعين الذين يعتمدون على المترجمات، ممن لا يحسنون اللغات، ولا يقرؤون النظريات بلغاتها الأصلية، وهم نقاد الصحافة.

أما «الهاربون» إلى التراث، المحتمون به، المنقبون في بطونه عن البدائل، فهم الراحلون إليه في أزمنته، وليسوا الراحلين به إلى أزمنتهم، وهؤلاء يصادمون سنة الحياة القائمة على التحول المستمر، وهم بهروبهم الوجل لا يحسنون خدمة التراث، ولا يجيدون التفاعل مع المستجد، و«المشايعون» و«الهاربون» يسيئون ولا يحسنون، ولأن معطيات العصر مؤثرة ونافذة فإن رفضها سيجعل من المتأبي منتمياً إلى عالم قديم، واقعاً تحت تأثير عالم حديث، وفي هذا الوضع تستشري ظاهرة التمزق، وتلك سمة تمنع الافادة والاستفادة. وأما «المتفاعلون» فكالغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس، وقد بدت بوادرهم في الأربعينيات والخمسينيات عند من وقفوا على مستجد الغرب، واستوعبوه، من أمثال «زكي مبارك» و«محمد غنيمي هلال»، بوصفهم مؤسسين للتطبيق والتنظير، وعلى أثرهم جاء «عز الدين اسماعيل» و«محمد عبد المطلب» وآخرون ممن وفروا شيئاً من التوازن، وإن جنح بعضهم إلى الاغراق في الاستغراب، ولكنه اغراق المقتدر. وكل هذه المستويات لها وعليها، وتحولاتها ليست خالصة الاستجابة، ولكنها متفاوتة في الأهمية والمشروعية.

ومع حضور هذه الفئات الثلاث وإلحاحها في تكريس الوجود، فإننا وفي ظل واقعنا أحوج ما نكون إلى الاستشراف والتلقي، وليس من حقنا التخلي عما نمتلك من تراث عريق وعميق وصالح للاسترجاع والتفعيل. كما أنه ليس من مصلحتنا أن نزور عما تفيض به الحضارات من حولنا. والراصدون بوعي يدركون أن هناك فرقاً شاسعاً بين التفاعل الواعي مع المستجد والاستسلام الطوعي المستخذي له، والذين يخلطون بين المفاهيم، إما أن يكونوا أغبياء أو متغابين. واشكالية المفهوم كنافق اليرابيع لكل من أعوزته الحجة وألجمه الدليل، ومع أن اختلاف المفاهيم قضية أزلية، إلا أن التعويل عليها لشرعنة التناقض مخل بالأهلية.

٣/٢وإذا كنا نؤمن بمبدأ اختلاف المفاهيم، فإننا في الوقت نفسه لا نذهب مع الذين لا يضعون حداً لهذا الاختلاف. فمصطلح «الحداثة» مثلاً يراه البعض تجديداً فنياً، فيما يراه آخرون حيدة فكرية، هذا اختلاف حول فهم المقتضى يتسع له المصطلح من خلال مدلوله الوضعي، غير أن هناك مدلولاً اصطلاحياً تجاوز المدلول الوضعي، وأعطى مفهوماً تواضعياً. والحداثة بهذا التواضع مرفوضة، فيما هي مقبولة في تصورها من خلال الدلالة الوضعية، ولو أن المختلفين فضوا النزاع المفهوم، بحيث يباشر كل واحد تحديد مفهوم

المصطلح عنده، لما وقعوا في الاختلاف، ولما امتد اختلافهم إلى التشكيك في الفكر والانتماء. على أن مجرد القول بالتجديد وحده لا يكفي، متى كانت الوثائق منسجمة مع حداثة الفكر.

وقولنا عن مصطلح «الحداثة» مجرد مثل نظر به، للتدليل على الخلاف الممكن تلافيه. واستعراض التحولات النقدية في القرون الأولى يمكن استيعابها، إذ هي تحولات بطيئة واستجابية، فالمشهد يتفاعل من داخله وبأيدي نقاده الذين تحركهم الحاجة، وتوجههم البراعة الذاتية، أما مشاهد النقد الحديث فمختلفة جداً، لأنها في الغالب مسيرة لا مخيرة، ومحكومة لا مستقلة، وسريعة لا متأنية، ونقادها متلقون لا منتجون. كما أن المشهد النقدي عربياً واقليمياً لا يتوفر على ثقة بالنفس، والمتابع لحاضره يدرك أن واقعه غير مستقر، وغير عربي، فأجسام ذويه في المشرق، وأدمغتهم في المغرب، وجمهور الدارسين في الغرب يعودون برسائله إلينا، ولا يبلغون رسائلنا إليه، فهم عون له على الأمة لا عون لها عليه، على الرغم من قدرة الموروث، وتوفره على آليات ومذاهب قابلة للاستيعاب والتحول الطوعي، ولن يكون ما يحققه دون ما أنجزته التبعية المستحكمة المرتبطة بتحولات قسرية ليست من عند أنفسنا. ولن نحقق فاعلية متميزة حتى نسترجع ما للتراث من حقوق مهدورة، إذ لم يكن عقيماً ولا سكونياً ولا منغلقاً، ولو أحسنا الدمج بين الآليات والمناهج لكنا متوفرين على حركة نقدية لغوية وفنية لا تنازع، وإذ يملك التراث النقدي القدرة على التفاعل والاستيعاب فإن من الجنايات الاستغناء عنه. وما نتطلع إليه لا يحول دون استقبال المستجد، والتفاعل معه، وصبغه بالصبغة العربية التي تحد من الهيمنة. ولو عدنا إلى قراءة تراثنا لاستطعنا اكتشاف كوامنه، ولكن طائفة من المنفعلين لا الفاعلين ولت الأدبار مستقبلة فيوض الآخر. ولو أنهم حين استقبلوا المناهج اللغوية الغربية حانت منهم التفاتة إلى «نظرية اللغة في النقد العربي»، واستعادوا فيوض القول عن «نظرية النظم» لكان بالإمكان تأسيس نظرية نقدية لغوية لا تنازع.

إن نقدنا الحديث غربي بلا ذات، كوصف «ريكور» الدارس «لشتراوس» بأنه «كانتيٌّ بلات ذات» والاشكالية التي لم يدرك خطورتها الأكثرون تعالقاً مع المستجد جهلهم أو تجاهلهم ارتباط المنهج بفكر الحضارة المنتجة، ودعوى تفريغ المناهج من محتواها تعذير وتبرير مردود. ومما يزيد الاشكالية تعقيداً «تسييس» الأدب و«أدلجته» و«التزامه الفكري»، وهذه الصيرورة مع ما تنطوي عليه من مزالق تقلل من فنية الفن. والمنهج النقدي الحديث مواكب لمهمات الأدب ورسالته في الحياة، ولأن الفلسفة الطاغية مادية بحتة، وهي جذر لكل المذاهب والمناهج فإن ذلك مؤذن بارتباط التحولات النقدية بالجذور الفلسفية، والمشايعون «للبنيوية» على سبيل المثال لا يعرفون جذورها الفلسفية، وتخطيها من الفلسفة إلى اللغة، ومن اللغة إلى علم الاجتماع، ومنه إلى النقد، وشيوعها في كل العلوم لا يُخلصها من دخن الفلسفة المادية التي أنشئت لتكريس مقاصدها، وبعض مدعيها أخفقوا في الفهم وخذلهم الاجراء.

٤/٢وعلى ضوء ذلك يظل المنهج النقدي مرتبطاً بطبيعة الفكر المنتج، ولكل منهج نظرية، وتحولات «نظرية الأدب» لا يمكن أن تكون في العصر الحديث كما هي في القرون الأولى، ذلك أنها في عصور الازدهار عربية إسلامية خالصة، وهي في العصر الحديث غربية النظرية والمنهج، ولما يكن التحول طبيعياً في ظل الاستعارة غير الواعية والجلب غير الحصيف. والمخل بأهلية التحولات النقدية ارتباطها بالخطاب السياسي الإعلامي، فالمد الماركسي إعلامي، ولما تتجذر مبادئه الفلسفية في الذهنية العامة، والمد الشيوعي الذي احتنك ذرية النقد الأدبي طرح الحتمية التاريخية. والمنهج التاريخي المتداول ذو انتماءات متباينة.

لقد استهل النقد الحديث مشروعه في الدرس التاريخي، وتصور التاريخية لا يبعد النجعة، فالتراث يلم بالتاريخية التي قد لا تتسع للتكوينية ولا للحتمية، والاشتغال بمنتج النص يشكِّل تحولاً نسبياً، فالتراث حفل بشيء من ذلك، وجاءت على النقيض «نظرية المنهج الشكلي». الذي مرَّ بتحولات وتنقلات «قارية» و«لغوية» و«فكرية»، يستحيل تقصيها، ولكنها مرّت بحالات من الوضوح والاستقرار النسبي، استطاع معها المتابعون أن يتعرفوا على ظواهرها.

والمشهد النقدي الحديث تتردد فيه مصطلحات وشخصيات وكتب، تشكِّل مذاهب ونظريات ومناهج وآليات، وتمثل أقصى حد لحمَّى التحول، نسمع ب«سوسير» و«لوي هلمسيلف» و«جاكبسون» و«نعوم تشومسكي» و«لاكان» و«بروب» و«تودوروف» و«دريدا» و«رولان بارت» و«سارتر» و«بيير مورو» و«جاستون باشلار» و«سانت بيف» و«بروست»، و«ماثيو آرنولد» و«ريتشاردز» و«أليوت» و«أدموند ولسون» و«أوستن» و«ويليك». ونسمع بنظريات وتحولات وبعديات وما ورائيات ومترادفات مصطلحية «بنيوية» «حداثة» «ما بعد الحداثة» «ما بعد البنيوية» «السنية» «نصوصية» «تكوينية» «تحويلية» «تفكيكية» «تشريحية» «تقويضية» «شكلانية» «أسلوبية» «شعرية» «نسقية» «سياقية» و«سيمولوجية»، ولعل كتباً كثيرة كانت الأكثر حضوراً وتداولاً، مثل كتب «سارتر» وبخاصة «ما الأدب» و«درجة الصفر في الكتابة» ل«بارت» و«ما هو الفن» ل«تولستوي» و«مبادئ النقد الأدبي» لريتشاردز و«قلعة آكسل» لأدموند ولسون. ولعل «جاكوبسون» الأقدر على بلورة مفهوم «الشعرية» و«الأدبية» فهو القائل: ”إن موضوع علم الأدب ليس الآداب، وإنما هو أدبيته» ويعني العناصر التي تجعل من عمل «ما» عملاً أدبياً. وبهذا بدأت التحولات اللسانية بوصفها علماً يهتم بالشعرية.

وعن تحولات النقد الغربي خلال القرن العشرين جاء «جان إيف تادييه» ليجملها في كتابه «النقد الأدبي في القرن العشرين» حيث تناول:

الشكلانية الروسية.

النقد الألماني.

نقد «الوعي» و«الخيال».

النقد التحليلي النفسي.

سوسيولوجية الأدب.

اللسانيات

السيميائية «علم العلامات».

الشعرية.

النقد التكويني.

وتحت كل عنوان تحولات كثيرة، لا مجال للاشارة إليها، لأنها تشبه البحر اللجي، ولو أشرنا فقط إلى غنوصية «التفكيكية» لطالت علينا الشقة.

والتحول إلى «التفكيكية» كما هي عند «دريدا» ركون إلى الاعتقاد بوجود مدلول متعال، خارج حدود اللغة، وذلك اغراق في العدمية، وقد اتهمت «التفكيكية» بالتدمير والاستفزاز، حتى لقد قال «ملر»: «إن العدمية لقب للتفكيك» فيما يرى غيره أنها قراءة حميمية للنصوص، وتلك حلقة في سلسلة أنماط «قراءة النص» التي يلهث وراءها من حمل المعرفة ومن لم يحملها.

٥/٢والتحولات التي طالت المشهد النقدي، قد لا يكون لها أدنى أثر في العملية الابداعية، ومن سلبيات الحركة النقدية تفاوت سرعتها مع الحركة الابداعية، فالتحول

النقدي سريع الايقاع، أما التحول الابداعي فبطيء الايقاع، وكما تنفصل المثالية المتعالية عن الواقعية المتدنية، ثم لا يكون أدنى حد من التفاعل، تنفصل تحولات النقد السريعة عن استجابات الابداع، ثم لا يكون تفاعل ولا استفادة. والمتابع الحصيف يستبين الفجوة بين التنظير والتطبيق النقديين، ومحاولة تجسير الفجوة يوقع بعض النقاد في التمحل والادعاء، بحيث يحمِّلون النصوص ما لا تحتمل. والأسوأ من ذلك تطبق آليات النقد الحديث ومناهجه على الشعر العربي القديم، بحيث يكره النقاد النصوص الجاهلية أو العباسية على أن تتسع لدلالات أو تتجلى ببناء أو بشكل يحقق مفاهيم مصطلحية جديدة، وذلك إكراه يكشف عن تمحل لا مكان له، كما فعل «كمال أبو ديب» مع الشعر الجاهلي، وكما قرأ غيره نصوصاً ابداعية قديمة بأنماط قرائية حديثة، تبدت فيها العجائب وفات المندفعين ان شرط القراءة قابلية النص.

وفي اطار التحولات الأيديولوجية التعسفية نظر نقاد «المنهج التاريخي» وفق الرؤية «الماركسية» الرؤية «اللانسونية» إلى «الحتمية التاريخية» في العملية الابداعية، ومن ثم امتدت رؤيتهم إلى الحركة النقدية، فالحياة البشرية عندهم مراحل متوالية مرتبطة بالمادة، وهذا اقصاء للمثاليات والغيبيات والفكر الديني في تشكل الابداع، والجبرية التاريخية فرضت تحولات، وطرحت رهانات وأقرت نتائج مسبقة، والنقاد الماركسيون العرب ك«العالم» و«مروه» مارسوا التحولات وفق الرؤية الماركسية، فهم يرون حتمية التطور التاريخي نحو الماركسية.

لقد واكب المنهج التاريخي الماركسي منهج آخر تمثّل «بالوجودية» هذه النظرية تربط الابداع بالواقع، وتنظر إلى تحولاته، وقد ركز الوجوديون على محورين: «الحرية» و«المسؤولية». ومن هذين المحورين نفذ الفساد في أرض الأدب: إبداعاً ونقداً، وبدت التحولات غير المسؤولة، فمحور «المسؤولية» لا يعني «المسؤولية» الغيرية، بل يعني المسؤولية «الذاتية» فأنت بوصفك الفردي مسؤول عن نفسك، إذاً أنت المشرع لها، لا سلطة سابقة ولا قائمة و«الحرية» و«المسؤولية» أمدتا الفكر الحداثي بفساد كبير، لما تزل الأمة المسلمة تتجرع نتائجه، ولا تكاد تسيغها، وهذه الترديات الأخلاقية والفكرية والفنية تتوسل ب«الحرية» و«المسؤولية» وفق الرؤية «الوجودية» التي تقمصها الحداثيون، فأوغلوا في الرذيلة والانقطاع. وبتجاوز اشكالية «الأدلجة» وهيمنة فكر المنتج لا المضيف تقوم اشكالية أخرى، وهي ميل البعض إلى «انسانية الفكر» المفضي إلى اللامنتمي، بحيث كان الطريق القاصد إلى «نوبل».

٦/٢ والنظرية التاريخية بكل مستوياتها أرهص لها ناقدان كبيران هما:

د / طه حسين.

د/ محمد مندور.

ارتبط الأول ب«تين» فيما ارتبط الثاني ب«لانسون» ولكل واحد منهما رؤيته، ولكن نقاداً تابعين انحرفوا بالتاريخية عن مسارها، وأوغلوا في الماركسية والوجودية، بحيث أخذوا من الأولى إلحادها، ومن الثانية غثائيتها وعبثيتها، وجاءت أعمال ابداعية: شعرية وسردية مشتملة على رؤى تلفيقية متعددة، تكشّف عوارها فيما بعد عند أساطين الحداثة، وتلك تحولات دركية أخلت بالقيم والثوابت، وانفصلت عن المجتمع المنتمي لحضارة مغايرة ومرجعية مغايرة. وفيما بين هذا وذاك أوغل النقاد في «المعرفة النقدية» تحامياً عن الذوقية والانطباعية، ووقعوا في تخشب المعايير، وعلمية النتائج، مما عطّل لغة الفن.

والقول بعلمية النقد والإيغال في المعيارية والكم الاحصائي عرّض المشهد النقدي لمآزق كثيرة:

مأزق الحيدة بالفن عن فنيته.
ومأزق المعرفية التي قد لا تتوفر للناقد.
ومأزق تداخل المنظومات المعرفية الثبوتية بالمنظومات الأدبية والتاريخية التحولية.
وهي مآزق تعرض لها النقد العربي ظلماً وعدواناً، فالنقد العربي القديم بفنياته وآلياته النحوية والصرفية واللغوية والبلاغية يمتلك تميّزه عن غيره من العلوم.

لقد كنا نعايش تحولات داخل النظرية النقدية، ولكننا بفعل التبعية والمسخ وقعنا في استبدالات وتحولات داخل الظاهرة النقدية، وقد بسطت الحديث عن هذه الظاهرة في سلسلة مقالات عن «النقد الثقافي: البديل أو الرديف» والذي نشرت منه حتى الآن ثلاث عشرة حقلة، ولسنا بحاجة إلى استعادة «التقليعات» المخلة بالأهلية.

واشكالية المشاهد تستحكم بتدافع الشباب، وتزاحمهم على المستجدات، والتفاني في نشر الأفكار والرؤى الفجة المفتعلة، ثم افتعال المعارك والجدل العنيف العقيم في آن حول قضايا لم تؤصل، ولم تستقر، وملاذ الثائرين على السوائد: اما علم اللغة الحديث أو علم النفس أو الفلسفة أو علم الاجتماع. ولما تزل المشاهد النقدية تتلقى وابلاً من التحولات المذهبية والفنية، فبعد ان خبت ضجة المناهج التاريخية والاجتماعية والفنية، والماركسية والنفسية والواقعية، تلتها «البنيوية» التي أفضت إلى «بعدياتها»، وتحولاتها: كالأسلوبية، والسيميولوجية، والتفكيكية، والشكلية العضوية، والنقد الأسطوري، والنقد الجمالي، ثم جاءت تحولات في التلقي والقراءة والتأويل. وها نحن اليوم أمام «علم النص» و«النقد الثقافي» و«الكتابة» و«الجنائزيات»، وسنظل وراء البروق الخلَّب، وسرابيات الأدعياء، ولن ينقذ الحركة النقدية إلا التأصيل المعرفي والتأسيس لحركة نقدية عربية متفاعلة مع المستجد، وليست مستهلكة له.

ملامح الحكم وسياسة المبادرات .. ![1]

*الحديث عن الاحتفاء بمرور عشرين عاماً على تولي خادم الحرمين الشريفين مقاليد الحكم في البلاد حديثٌ له تداعياته السعيدة، ولا سيما أن تلك المناسبة الوطنية تأتي على رأس عقدين من الزمن المليء بالمبادرات الاستثنائية. ولأن هذه الذكرى تحيل إلى فضاءات مكتظة بالأفعال الرائدة، وممتدة إلى عمق زمني يسبق العقدين، فإن علينا تأملها: للذكر والشكر والمحافظة والتنمية ومضاعفة الجهد. وحين يتقصى المتابع ملامح الحكم، ويتعقب أشكال المبادرات، تشعره مجتمعة أومتفرقة بالقيم الإيجابية، التي حقق من خلالها قادته ما هو قائم في الذات أو في المكان. ولما كانت المنجزات الحسية والمعنوية أمانةً في عنق الوارثين، يتلقاها الخلف عن السلف فإن الاستذكار والاستدعاء يجددان العزم، ويشحذان الهمم، لمواصلة الأداء السليم، واقتفاء أثر القادة المخلصين.

والقادة العظام لا ينزلون من السماء، وإنما تنشق عنهم الأرض، ويتشكلون في رحم الأمة العظيمة، فهم معها كما اللفظ والمعنى، أو كما الجسم والروح، لا يكون أحدهما بغياب الآخر، والعظمة كما الجمال توافق وتناسق. وقد أومأ الملك عبد العزيز - رحمه الله - إلى أن عزته وقوته يكمنان في شعبه الذي شد عضده، والتف من حوله، وأمده بالقوة الحسية والمعنوية، وبارك خطواته، واستجاب لنداءاته. لقد كان ذكياً حاذقاً ووفياً في هذه الإحالة، والأمة الوفية توهب القائد الوفي، وفي المثل (الناس على دين ملوكهم). ولأن نسيان الأمة في ظل عظمة القائد أثرةٌ لا إيثار، فقد كان - رحمه الله - من ذوي الفضل بعرفان الجميل، عرف لأهل الفضل فضلهم، فما استأثر بمجد، وما استقل بمأثرة، وترسم أبناؤه من بعده خطاه، فهم أبداً يحيلون نجاحاتهم إلى أمتهم، التي هيأت لهم الأجواء المناسبة للعطاء والانطلاق. هذا التلاحم مكّن الملك عبد العزيز - رحمه الله - من تكوين دولة حضارية، جمع شتاتها، وأقال عثرتها، وتخطى بها إلى متن التاريخ، بعد أن كانت في هوامشه، ممزقة كل ممزق، يتنازعها الولاء الإقليمي أو القبلي أو المديني، تتحرك كما الرمال الزاحفة وراء مساقط الأمطار ومنابت الأشجار، يسلب فيها القوي الضعيف، لا يستقر بها مكان، ولا يتفقه فيها إنسان، ولا يُنذر فيها ضال، ولا يُعلم فيها جاهل، ولا يُعالج فيها مريض. حتى إذا أذن الله لهذا الكيان أن يكون، ألقى في روع هذا الشاب المشرد عن وطنه عزيمة العودة، لاسترجاع ملك الآباء والأجداد، فاتخذ سبيله إلى عاصمة ملكه، يقدمه حقه المشروع وسمعة أسرته الطيبة، فكان أن كتب الله له النصر، وجمع به الكلمة، ووحد به الأمة، وأذهب به العداوة والبغضاء، وألّف به القلوب.

والاستقرار السياسي واستمراره متماسك، يتأبى على التجزيئية. فالمنجزات امتداد من عهد المؤسس إلى عهود أبنائه الذين بدت إسهاماتهم في ظل رعايته وتوجيهه، تقلبوا في المسؤوليات، ونهضوا بالمهمات، وتبادلوا المواقع. وخادم الحرمين الشريفين حلقةٌ مضيئة في تلك السلسلة الذهبية، ومنجزاته استكمال لما ابتدئ به، أو إحداث لمتطلبات المرحلة، أو تجديد في نظام الحكم لمواكبة المتغيرات العالمية. وتذكر الأمة الفاعلة وقادتها المخلصين يذكرُ بالمنعم الذي أرشدها لأقوم الطرق، وهيأ لها أحسن الظروف ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] . وقد منَّ الله من قبل على رسوله صلى الله عليه وسلم حين ذكَّره بما أنعم به عليه وعلى المسلمين من تأليف للقلوب وجمع للكلمة ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: ٦٣] ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ

---

(١) تاريخ المقال: ٧/ ١١/ ٢٠٠١

رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] . فالله الذي أراد لهذه الأمة الخير، بتأليف القلوب المتنافرة وهو وحده الذي قذف في روع البطل التفكير في بدء معركة التكوين واضعاً خدمة بيته تحت إمرة من يطهره للطائفين والعاكفين والركع السجود ويؤمِّن سبله، ويريح قاصديه. وما أحد طاف أو سعى إلا وعرف جهد الدولة في التوسعة والخدمات في مكة والمدينة والمشاعر. ولما جعل الله مهوى الأفئدة وقبلة المسلمين وأرض القداسات ومتنزل الوحي بأيدي هذه الأسرة، حصر خيارها بتحكيم الشريعة، وإقامة الدين، وتكريس الفكر السياسي الإسلامي القائم على البيعة والشورى والعدل والقوة وإظهار الدين.

ونحن اليوم في هذه المناسبة السعيدة نستقرئُ الملامح، ونتقصَّى المبادرات، وحاجتنا في تأملها، وتذكر صناعها، والسعي الدؤوب لاستقرارها، وسبيل ذلك اجتماع الكلمة، وتوحيد الصف والهدف، وتقييد النعم بالشكر، وهو: قول وعمل: - ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] فالأمة السعيدة من تعي ما هي عليه، ثم لا يأخذها بطر المعيشة ولا يطغيها الترف ولا الإحالة إلى الجهد، على حد ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾. وما بأيدينا من نعم تتضاعف يوماً بعد يوم، تتضاعف معها تكاليف شكرها، وحين لا يكون شكر، تكون النعم استدراجاً من حيث لا نعلم، وإملاءً لكيد متين. والجيل الذي لم يشهد معركة التكوين، ولم يذق مرارة الصراع، ولم يعش الفتن العمياء التي اجتاحت البلاد، ولم يمسه الفقر، ولم تعضَّه الفاقة، ولم ينهكه الضر الذي طال آباءه وأجداده أحق بالتذكير، ذلك أنه كمن يتقلب بنعمة من الله وفضل لم يمسسه سوء، فالأوضاع المستقرة التي تعيشها الأمة في ظروف عالمية قاسية، تتوفر على مثمنات لا يجوز التفريط بها، ومن ورائها رجال صدقوا ما عاهدوا أمتهم عليه، من حقهم السمع والطاعة والمناصحة والمعاضدة. وواجب المؤسسات الدينية والثقافية والإعلامية توعية الشباب، وحثهم على أخذ الحذر من مكائد الأعداء ومكر الحاقدين، ودسائس المتربصين، ممن لا يسعدهم اجتماع الكلمة، ولا تسرهم وحدة الفكر، ولا يريحهم استقرار الأحوال. وما هي عليه الأمة من تلاحم قوي ورخاء وثبات يشكل تحدياً للمخفقين، وكشفاً لفشل مشاريعهم، وكأني بهم يرددون: - «إذا متُّ ظمآناً فلا نزل القطر». فالأوضاع العالمية المتردية عن يمين وشمال من حوافز اليقظة، واتخاذ الحذر، فدحن الفتن لا يصدها إلاّ الوعي التام. ولأننا نعيش في سياقات عربية واسلامية وعالمية غير سوية فإن فيوض المشاكل تتطلب منا مضاعفة الجهد للحيلولة دون نفاذه، ومتى أحْسن المواطن التصرف ودقت تصوراته، وفّر على دولته المزيد من الجهود، ومكنها من استغلال طاقاتها في تحقيق تطلعاتها، والجبهة الداخلية المتماسكة اهم من أي جبهة اخرى. والمناسبات الوطنية مجالات مهيئة لتشكيل وعي غير منقوص، وحافزه على العمل لتحصين شباب الأمة من شياطين الإنس الذين يجتالونهم، ويحتنكونهم بالكلمات المعسولة والخطابات السرابية الخادعة.

ومنجزات الأمة ومثمناتها الحضارية وملامح حكمها حين تستعاد في هذه المناسبة، تحفز همة الناشئة الوريثة لهذا المجد على التفاعل الإيجابي، والاستثمار الحضاري، وتهيئة الظروف لتلقي الراية بقوة والمضي بها إلى غاياتها النبيلة. ومن الخير للأمة أن تكون مناسباتها مناخات للتبصر والتفكر. والملامح حين يتقراها المواطن بنظر أو بلمس تحيل إلى تفعيل الذات للتماهي معها، لأن الأمّة تعيش ذكرى مرو عشرين عاماً على تولي

خادم الحرمين الشريفين مقاليد الحكم في البلاد، مواصلاً ما بدأه المؤسس، واستكمله خلفاؤه من بعده، يجب عليها ان تستثمر المناسبة لمزيد من العطاء ومزيد من اليقظة وتحرف رشيد لصياغة خطاب حضاري يدفع العوادي المضرة، ويحول دون الاختراقات المخلة، متفادياً الصدام، متحامياً التنازع، ساعياً لاستدامة الوحدة الدينية والفكرية والاجتماعية للامة، بحيث لا نقتصر في هذه المناسبة المواتية على مظاهر الاحتفاء وكلمات الثناء، وإن كان الاحتفاء والثناء حقاً مشروعاً وواجباً على الأمة لقادتها الذين أفنوا زهرة شبابهم لخدمة الوطن والمواطنين، وأي زعيم أحق من رجل نيف على الثمانين من عمره المديد عمرها بجلائل الاعمال، وقدم خلالها المبادرات والمواقف التي انتزعت الإعجاب والإكبار، وما علينا إلا ان نجيل نظرنا في الوهاد والنجاد والمدن والقرى والمراكز والهجر، لنرى ملامح المدنية، وشواخص الحضارة، وقلاع العلم، ومتانة البنى التحتية، والعديد من الخدمات العامة، وشوامخ المصانع، وصوامع الغلال، مما يبعث على الراحة والثقة والاطمئنان، ويوفر كل وجوه الأمن.

والقائد أحرصُ الناس على ان تتحول هذه المناسبة إلى مشروع مراجعة وتقويم وعطاء، وقد فعلها من قبل مؤسس هذا الكيان الملك عبد العزيز طيب الله ثراه، حين عاد من مصر، بعد رحلة عمل ناجحة، وكان ان جمع المواطنين اموالا لإقامة الحفلات ابتهاجا بعودته الميمونة، ولمّا يشأ مرور هذه المناسبة دون استثمار ايجابي، ومن ثم وجّه بصرف تلك المبالغ على مشروع تعليمي، يبقى أثره، ويمتد نفعه، فكانت مناسبة العودة إلى الوطن بداية للتعليم النظامي المتحفظ عليه من قبل في عاصمة الملك، إذ فُتحت اول مدرسة ابتدائية سميت ب «المدرسة التذكارية». ومساءلة الفعل، ونقد الذات مؤشر ثقة بالنفس.

ومناسبات البلاد السعيدة المتلاحقة كما النهر المتدفق مؤشر على الحياة الرغيدة المستقرة، والأمة حين تعيش أفراحها، يجدر بها استذكار ما يمر بالعالم العربي والاسلامي من حروب اهلية طاحنة، وما طاله من فقر وفاقة ومن تشرد وضياع ومجاعات وامراض وما يحاك من مؤامرات تستدرج الأبرياء من أبنائه، بحيث يشرعون بفعلهم غير السويّ التدخل في شؤونهم، وزرع الفتن في ربوعهم، وتدمير مثمناتهم، وقتل الأبرياء منهم، والحيلولة دون أخذهم بأسباب الحياة السوية. وعلى الأمة حين تستذكر تلك الأوضاع، أن تعض على ما هي عليه من نعم بالنواجذ، ويحسن بها أن تُفيض من نعم الله على من حرم، مستنة بقادتها، الذين يفرضون على انفسهم درء السوء عن الأشقاء والأصدقاء والمعاهدين، ومواجهة الفتن والتصدي لها بالقول وبالفعل وبالمناصحة وبتوظيف الإمكانيات السياسية والاقتصادية للحد من آثارها التي تصيب العالم الإسلامي نتيجة كيد الأعداء وجهل الأبناء. ومع أن أبرز ملامح الحكم في البلاد الوقوف بكل الإمكانيات إلى جانب قضايا الأمة والدعم المتواصل وغير المشروع فإن المتابعين لفيوض الإعلام ومستقر المعلومات عبر الشبكات والقنوات والمواقع يروعهم ما يكاد للمملكة، وما يشاع عنها من أقاويل، للحد من إسهاماتها الدعوية ودعمها المادي والمعنوي للدول الإسلامية والأقليات المستضعفة، والقضايا المغموطة. ولأن المملكة تتوفر على أعماق سياسية واقتصادية ومواقع اسلامية وثقل على كل الصعد فإن تحييدها يمكِّن الأعداء من تحقيق المكتسبات والغنائم الباردة، ولا يتحقق ذلك إلا بقلب الحقائق وقالة السوء، وواجب ابناء البلاد الدفع بالحسنى، وعدم التخلي عن السجايا الحميدة فظفر الأعداء في ارتباك ابناء البلاد وشكهم في انفسهم وقادتهم.

والاحتفاء بمرور عقدين على تولي خادم الحرمين الشريفين لمقاليد الحكم يحملنا على ألا نستأثر بالفرحة، ولا أن ننسى إخوة لنا في الدين واللغة والمصير، تغتالهم أيدي البطش في فلسطين، وتحاك لهم المؤامرات في سائر بقاع العالم، إذ ما تعودنا في يوم من الأيام

نسيان واجبنا إزاء الأشقاء والأصدقاء. وتلك المناسبة السعيدة تقف بناء على مآثر القائد المحنك وقفة تأمل واستذكار، وهي مآثر جمة ماثلة على كل الصعد المحلية والعربية والإسلامية والعالمية. والمملكة العربية السعودية ما كانت في يوم من الأيام إقليمية، لا تلتفت إلى أوضاع العالم، كما أنها لم تفرط بشيء من واجباتها المحلية، وهي تضطلع بمسؤولياتها العالمية موظفة خبراتها وعراقة سياستها وثقلها العربي والإسلامي والعالمي لمواجهة الأزمات العربية والإسلامية، حتى لقد حفظت التوازن في الحضور والمواجهة، يراها المتابع مع العالم وأحداثه وقضاياه، وكأنها متفرغة له ولشؤونه، ويراها في الداخل وتطلعاته، وكأنها غير معنية بما سواه، فإن شئت أن تراها في الداخل بكل إمكانياتها رأيتها، وإن شئت أن تراها في الخارج بكل ثقلها رأيتها، وتلك منة يمن الله بها على من يشاء من عباده، وهذه الخليقة ملمح من ملامح الحكم الراشد، تبناها مؤسس هذا الكيان، وتعهدها أبناؤه من بعده.

والسؤال التحفظي الاستذكاري عما اذا كنا بكل هذه الفعاليات الايجابية محلياً وعربياً وعالمياً مستقرين في الذهنية العربية والإسلامية بصورتنا الحقيقية، وهل قنوات التوصيل عندنا قادرة على تجسير الفجوات، وإسماع الأصوات؟ أحسب أننا دون ما نؤمل، بل نسمع ونرى من يكيد بنا ويمكر. ولا بد - والحالة تلك - من تحويل مثل هذه المناسبات لتكون صوتاً إضافياً يشد عضد المؤسسات الإعلامية والثقافية لإنفاذ صورتنا المشرقة، واختراق أجواء الآخرين بملامحنا الحقيقية وانجازاتنا المتميزة، ولا سيما بعد ان كشفت لنا الأحداث الأخيرة ما يضمره لنا الأعداء من حقد دفين، يسعى جهده لعزلنا، وحجب إسهاماتنا في خدمة القضايا العربية والإسلامية. وها نحن اليوم نسمع ونرى وسائل إعلام حاقدة تحرض علينا، وتشوه سمعتنا، وتنال من رموزنا، وتتهم مناهجنا، وتكيد لنا وتمكر بنا، وتشكك في مواقفنا. ولن نفنّد الحملة الصهيونية على المملكة ومواقفها عبر وسائل الاعلام العالمي، ولن نفصل القول عن تحريف مواقف المملكة المشرفة من الاحداث الجسام، فذلك معروف لمن كانت ضالته الحق. والمملكة دولة المواقف والالتزام بالعهود والمواثيق، وقراراتها تنطلق من مبادئها الإسلامية التي تدعو إلى الوفاء بالعهود والمواثيق والدفع بالتي هي أحسن والرفق والإحسان والتبين والنبذ على سواء والجنوح إلى السلم وإسماع كلام الله وإبلاغ المأمن.

والمؤسسات السياسية العالمية تعرف ذلك حق المعرفة، وما من دولة تحترم نفسها نالت من مواقف المملكة، ولكن فوضوية الكلمة في مشاهد بعض هذه الدول المتوسلة أجهزتها الإعلامية بالحرية والديمقراطية تتيح الفرصة للحاقدين والناقمين للنيل من بلادنا وغمط حقها. ومعولنا أنه إذا انجلى الغبار، سيعرف الجميع مع من يكون الحق والصواب وبعد النظر.

والقائد المحنك وسط هذه الفوضى المستحكمة والفتن العمياء من يقي أمته مصارع السوء معتمداً على إنسانية الإسلام وسماحته وتكريمه لبني آدم، يحكم العقل، ويستفيد من التجارب، ويتخذ الحلم والأناة وبعد النظر سبيلاً للخروج من الضوائق والنفاذ من المنعطفات الخطيرة، يواجه النوازل بكل ما أوتي من علم وتجربة، لا ينفرد بالرأي، ولا يستبد بالتصرف، وإنما يكل الأمور إلى أصحاب الحل والعقد، يؤمن بأهمية العمل المؤسساتي، ويتسامى فوق الخطابات العاطفية التي تشد الانتباه، ولا تحقق السلامة، لا يتدخل بشؤون الغير ولا يرضى لنفسه ولا لأحد من أفراد شعبه التورط باللعبة السياسية، وشاهد ذلك ما اجتاح عالمنا من قواصم أتت على الحرث والنسل، وخرجنا منها بأقل الخسائر وأيسر الجهود، بحيث سلم شباب الأمة من الدفع بهم إلى جبهات الفتن ومصارع القتل المجاني الهمجي الذي أدت إليه نزعات طائشة وقرارات فورية فردية من قادة

وزعماء جروا على بلادهم الخراب، وذلك ملمح يتمناه الذين فرقتهم في بلادهم أيدي سبأ، فعاشوا بين السجون والمنافي وملاجئ المعوقين، وهلك الآلاف منهم في الوهاد والنجاد، ولم يبق من اثرهم إلا نصب تذكاري تذرف من حوله دموع التماسيح.

وحين نصف خادم الحرمين الشريفين بمهندس المبادرات الوطنية فإنما نحيل إلى تحولات دستورية وتنفيذية وشورية وتعليمية تلاحقت بشكل تراتبي متزامن.

وليست المبادرات في أمر الداخل فحسب، وإنما امتدت إلى قضايا الأمة المصيرية.

والمملكة الحمالة تبادر عند كل ملمة، وتضع كل إمكانياتها تحت تصرف الأشقاء والأصدقاء.

لقد كان العقدان اللذان خلفهما القائد وراء ظهره مستقبلاً زمناً جديداً واعداً بجلائل الأعمال مرحلة من مراحل حياته المليئة بالعطاء، عمل مع والده، ومع أشقائه. تسنم المناصب، وأنجز الأعمال، واضطلع بالمهمات. كان وزيراً للمعارف وضع أسس التعليم ورسم فلسفته، ثم وزيراً للداخلية حقق من خلالها الأمن والسلامة، ثم نائباً ثانياً أسهم في بلورة الخطط التنموية، فولياً للعهد شد من أزر القائد، فملكاً حصد ثمار جهوده، وتمكن بفعله من انتزاع الحب والإعجاب والإكبار، زهد باللقب، وتشرف بخدمة المقدسات. وحين تحدونا هذه المناسبة السعيدة على تناول أعماله في عشرين عاماً فإن ذلك لا يعني استبعاد إنجازاته من قبل، ولكنها الذكرى تقف عند حد المناسبة. والدخول إلى دقائق الأعمال يفوت فرصة الإشارة إلى جليلها، وكلمة يحاصرها الزمان والمكان، لا تقدر على شيء أكثر من الاشارات الخاطفة للملامح وهندسة المبادرات، والمواطن المحب لوطنه واهله يعرف الكثير عن قادته ومنجزاته، ولكننا حين نشير إلى طائفة من المواقف والاعمال فانما نستجيب لقول المنعم: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١] .

فلو نظرنا إلى مبادراته حفظه الله في الداخل، تجلت لنا التحولات المؤسساتية:

-مجلس الشورى.

-مجالس المناطق.

-المجالس العليا للاقتصاد والتعليم والإعلام والشئون الإسلامية والبترول وشعبة الخبراء والمستشارين والمدن العلمية والدارات.

-الأنظمة: إحداثاً وتحديثاً. كنظام الحكم، والشورى، والمناطق. ولن نعرض للتطوير المستمر للقطاعات الزراعية والصناعية والتعليمية والصحية والإعمار والطرق والاتصالات والمواصلات.

فكل ذلك ومثله معه شواهد حق على منجزات جلالته حفظه الله.

وعلى المستوى الإسلامي المحلي: -

نجد عمارة المسجدين الشريفين، وما حولهما من خدمات، ومجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، وإنشاء وزارة للشئون الإسلامية، وتطوير المؤسسات الدينية، وأنظمة القضاء والمحاماة، وهيئات التحقيق والإدعاء، والدعوة والإرشاد، ودعم الجمعيات الدينية والخيرية كتحفيظ القرآن الكريم ومسابقاته ومراكز الدعوة، وما لا نحصي له عدداً من الأفعال الحضارية.

أما على المستوى العربي: - فليس هناك أخطر من تحمل أعباء تحرير الكويت واستعادة الشرعية واستضافة الفارين من ظلم الاعتداء، وتعريض البلاد لحرب شاملة، ولولا لطف الله وعنايته لأتت على الأخضر واليابس. وعلى صعيد الصلح بين الفرقاء يتبدى لنا «مؤتمر الطائف» لحل القضية اللبنانية، وإنهاء مشكلة «الحدود» مع عدد من الدول العربية، وتوظيف كل الإمكانيات «للقضية الفلسطينية»، والوفاء بالالتزامات إزاء

الجامعة العربية ومجلس الشورى وصناديق الدعم، وجمع التبرعات، واستقبال الفرقاء والمصابين واسداء المشورة والتوسط في حل الأزمات، وما الرحلات المكوكية عند احتدام المشاكل إلا مؤشر أهلية، وشاهد اضطلاع بالمسؤولية.

وعلى المستوى الإسلامي والعالمي: - نجد الدعم المتواصل للأقليات الإسلامية وللدول الإسلامية في المحافل العالمية، وبخاصة ما يتعلق بالحرب الأفغانية، حيث عقد لقاء في مكة المكرمة لتقريب وجهات النظر بين الأطراف المتنازعة.

وفي نطاق الإسهامات، نجد مبادراته حفظه الله على فتح أبواب التبرعات لجمع الإعانات العينية والنقدية لكافة المتضررين من الجفاف والفيضانات والكوارث والحروب ومباركته لإنشاء هيئات ولجان دائمة، تجلى ذلك في دعمه للبوسنة والهرسك والصومال والسودان وافغانستان والشيشان وكشمير وإعادة إعمار لبنان، إضافة إلى تجنيد الدعاة وبناء المساجد والمراكز والكراسي في الجامعات والمدارس والاكاديميات، وانتزاع الموافقة من دول لا تدين بالاسلام لبناء المراكز الدعوية والمساجد ونشر الدعاة وتوزيع الكتيبات وتنظيم حلقات الدرس، الأمر الذي كثّر سواد المسلمين، وزحف بهم إلى المجالس التشريعية والتنفيذية، وجعل منهم جماعات ضغط واعية، ترجح كفة القضايا الإسلامية، وتخفف من حدة الصدام الحضاري، ولسنا نعرف مصير هذه الجهود الدعوية السلمية المؤثرة والمفيدة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر.

والمملكة في كل المحافل والمؤتمرات سباقة إلى رأب الصدع ونزع فتيل المشاكل وتجفيف منابع الفتن والحيلولة دون التطرف والإرهاب، ولم توفق دولة في التصدي للإرهاب بمثل ما وفقت به المملكة، لقد حكّمت شرع الله فيمن قتل الأبرياء، ودمر الممتلكات، ونقض العهد، وغدر بالآمنين، وخفر الذمة.

وكادت أحكامها الإسلامية العادلة تقطع دابر الممارسات الطائشة، ولكن اللعب السياسية والمصالح العاجلة والاستراتيجيات المتصادمة أعطت تعريفات متباينة، تفلت من خلالها إرهاب الدول والمنظمات والأفراد، فكانت الطامة الكبرى التي ضربت أهم المواقع عند أكبر الدول، ولأن المملكة في غنى عن استغلال مصائب الآخرين مستغنية بما أنعم الله به عليها من ثراء واستقرار فإنها لم تستغل أي كارثة لصالحها، وإنما اسهمت في اطفاء الفتن ودفع الظلم، بل حذرت من مغبات الفتن، ونصحت بتلافي أسبابها من خلال جولات رجالاتها أو استقبال رجالات الدول المعرضة للتوتر والانفجار. ولو أطيع لها أمر لما مرَّ العالم بما يعد كارثة انسانية نتيجة الفعل ورد الفعل، مما سيكون له ما بعده. لقد لفتت مواقفها من قضية فلسطين انظار العالم، وقدمت رؤيتها السلمية، وألحت على رعاة السلام بأن تلعب دورها العادل، واستخدمت كل إمكانياتها، ولم تكن من المهرولين، ولا من دعاة التطبيع، وتوقفت عن منح اسرائيل اية مكتسبات لا يقابلها استجابة حقيقية لبنود السلام، وقالت في القضية ما يقوله أهل الشأن، وما جولات ولي العهد وسمو النائب الثاني ووزير الخارجية إلاّ في سبيل الحد من تفاقم المشاكل، ولأجل إبداء النصح لكل الفرقاء، ولكن إرادة الله نافذة. وها هي الفتن العمياء تتفجر كما البراكين في أمريكا وفي أفغانستان وفي فلسطين، والله وحده العاصم من طوفانها.

تلكم هي ملامح السياسة في البلاد، وتلك هي منجزات قائدها، فله منا الدعاء الخالص والحب الصادق والولاء الثابت في المنشط والمكره.

التعليم الجامعي: من المأزومية إلى المأزقية .. ! (١)[(١)]

تعيش المشاهد المحلية مخاضات على كل الصعد، مخاضات لها ما بعدها. والعقدان الربيعيان المحتفى بهما مليئان بالمبادرات والتحولات، وبخاصة ما يتعلق منها بالأنظمة والمؤسسات. ولقد عشناها قولا وعملاً، وسنصرف النظر عن ضجة الفرح إلى ضجة التساؤلات، متأملين ما يدور من جدل مرتفع النبرة وخطوات سريعة الإيقاع، تذرع فجاج التعليم الجامعي: جيئة وذهاباً، وكأننا نعيش حالة من تفاقم المشاكل واستعصاء الحلول، ولما يكن الأمر على هذه الدرجة من التوتر، إذ لم نزل والحمد لله في سعة من أمرنا، وإن كان واجبنا التحرف المتواصل للأجدى والأهدى. والتحولات السريعة في مشاهد العالم، والخلطة المستحكمة وبوادر «العولمة»، وانعكاسات التواصل والدخول إلى المواقع ومراكز المعلومات، حوافز لمواصلة التفكير ومشروعة التغيير، وطبعي أن نعيش حالة من التساؤل وقليلا من الارتباك، فالإيقاع السريع لمتغيرات العالم تحول دون متابعته عوائق كثيرة، ولكنها يسيرة على من أتقن فن الحوار الحضاري. ولأن الأمة العظيمة لا تتشكل إلا في رحم تربية عظيمة فإن جدلية التعليم هي الأهم. والمستجد في أمر التعليم الجامعي خاصة يعد منعطفاً حساساً، له ما بعده، وأحسبه يتمثل في أمرين: جر أقدام «الرساميل» الأهلية لتسهم في صناعة التعليم. وتداول الإشكالية في مجلس الشورى للتقدم برؤية ممحصة لمستقبل هذا النوع من التعليم المتأزم في نظر البعض. وفي تصوري أن توجيه كل الأنظار وكل الجهود لهذا القطاع من التعليم بوصفه بؤرة الإشكالية غفلة عن جذور المشاكل الممتدة من قطاعات أخرى وإليها. والذين يفصلون مفردات الدولة عن سياقها العالمي لا يتوفرون على رؤية سليمة، ولا يوفرون رؤية مجدية، ومثلهم كمثل الذي يفصل التعليم الجامعي عن سياقه المحلي، والتعامل الواعي يتطلب النظر الدقيق في سياقات الأمة كافة وسياقها مع العالم متى تحتم التصدي لأي منظومة محلية، والحق أن التعليم الجامعي لم يكن مصدر الإشكالية، ولكنه واقع فيها، والحديث العاطفي المتأجج عنه يجتاح المشاهد الإعلامية بإلحاح شديد، وقد يحفز على ابتسار الحلول الفورية، لتهدئة الأوضاع، وامتصاص الشحنات الانفعالية. والبعض منا حين تلوح في الأفق قضية محدودة الأثر والأهمية أو شاملة الأثر خطيرة الأهمية، ينتابها بأسلوب عاطفي مرتجل، ولا يتردد في تقحم سوحها، والقول فيها، والنيل من ذويها، وكأنه ابن بجدتها. وقد تتحول التخرصات والانطباعات غير الوثوقية وغير المؤهلة إلى حقائق ثابتة وقضايا مسلمة، لا يجوز المساس بها لمجرد أنها سبقت إلى الفراغات الذهنية فشغلتها كما يتسابق الطامعون إلى موات الأرض. وهكذا يوقع المرتجلون قضاياهم في الوهم، وينشئون من الآمال قصورا تسد الأفق، وتحول دون الرؤى والتصورات الممحصة. ومشاكل الأمة تستفحل وتزداد تعقيدا حين تستباح من الدهماء، واختلاط الأصوات، وتنامي الضغوط من الرأي العام المرهف الإحساس يفوت فرصة الفرز والتأمل، ويحدو إلى التعويل على ما يقال، واتخاذه نقطة بداية مهزوزة، كما أن اللغط الانفعالي يطال سمعة من يعتورون القضايا بمعرفة تامة ومنطقية جادة وواقعية دقيقة. وحرية الرأي، وحق التعبير المكفولة للجميع لا تتحققان بهذا الاهتياج الأعزل. فمن الحق أن نقول، ولكن من الواجب أن نتقن فن القول ومتطلبات القضايا المقول فيها أو عنها. والأقل الأقل من يحترم نفسه وقضايا أمته ويتوقى إصابة الآخرين دون تثبت، ومن ثم يعف عن الدخول فيما لا يحسن الدخول فيه، ومتى غيّب الإعجاب بالرأي «لا أدري» وقعت الأمة في المحظور، ومن قال «لا أدري» فقد

(١) تاريخ المقال: ٤/ ١٢/ ٢٠٠١

أفتى، وهلكت الأمة في تجرؤ الجهلة على الفتياء في قضايا الدين والدنيا، وهي درجات ودركات، والقول في التعليم: كما أو نوعا مسلوك في محاذير الفتياء. وما يقال من شكاوى وتذمرات ونقد وآراء حول سائر القضايا لا يكون كله ارتجالا وتقحماً، وتحفظي لا يرتفع بأي قطاع فوق المساءلة والنقد، ولكنني أحس أن البعض منها، يرتجل الآراء، ويتسرع في تحديد الإشكالية وتوصيف الحل، ولا أستبعد حسن النوايا وسلامة المقاصد، ولكن الحسن والسلامة غير كافيين لطرح الرؤى في قضايا حساسة كالتعليم.

والمشهد الإعلامي هذه الأيام يفيض بالحديث عن التعليم الجامعي، وعن إشكالياته القائمة والمتوهمة سواء منها ما يتعلق بالعجز عن الاستيعاب، أو ما يتعلق منها بتخلف المناهج عن الاستجابة لمتطلبات المرحلة، أو ما يتعلق بتسرب أعضاء هيئة التدريس لنقص الحوافز، والحديث الأرفع نبرة والأكثر تذمراً يحيل إلى التقصير المفرط في عدم التواكب الكمي بين التعليم الجامعي والتعليم العام، والمؤكد أن التواكب لا يكون إيجابياً على إطلاقه، فالتعليم العام له رسالته وضرورة تعميمه وحق المواطن المجاني فيه، فهو الحد الأدنى لمواجهة الأمية، وهو غاية بذاته، لأن نوعه وقدره المعرفي حاجة ذاتية، أما التعليم الجامعي فمرتبط بالحاجة، ونوعه وكمه المعرفي حاجة غيرية، إذ هو وسيلة للتأهيل العلمي، ومن ثم فلا مكان للتواكب الكمي على الأقل. ولست أعرف أن دولة من دول العالم ساوت بين القدرة الاستيعابية للتعليم العام والتعليم الجامعي، والمؤسسات الشورية والمجالس العليا يحوم ليلها حول هذه القضايا مجتمعة أو متفرقة، والآراء الحرة والمتطوعة خارج المؤسسات الشورية والتعليمية تتجاذبها الدعوة إلى مزيد من الجامعات الحكومية والأهلية، أو الاكتفاء بتحويل الفروع في المناطق إلى جامعات، إضافة إلى تحسين أوضاع هيئة التدريس للحد من إشكالية التسرب، والأقل من يطالب بالتركيز على النادر والمهم من التخصصات، ويود لو أغلقت بعض الكليات، وصرفت تلقاء التخصصات العلمية البحتة، والناس في أمر مريج، ولا شك أن المعنيين يتابعون، ويرصدون، ويحللون، ويضعون التصورات ويرسمون الحلول.

غير أن فيوض القول تحركها الانطباعات والحاجات العارضة، ولما يدخل الآخذون بأطراف الحديث في عمق المشاكل، والأكثرون منهم لا يعرفون ما يقع داخل أروقة الجامعات، ولم يقفوا على ما في أنفس المشتغلين من حاجات لم يفطن لها المشرعون ولا المنفذون، ورسائل التلميح أو التصريح حين لا تجمجم عما في النفوس تبطئ الحلول الشافية الكافية، وحين بدت بوادر سلعنة المهمة التعليمية وخصخصتها أضافت إلى إشكاليتها إشكاليات أخرى، وحين يكون التعليم بثمن في ظل الخصخصة فإنه يجب ألا يباع منه ما هو عرضة للكساد من تخصصات لا تقوم الحاجة إليها، ثم يجب استشعار التنافس بين قطاعين: حكومي لا ربحية فيه وأهلي خاضع للربحية. والموسرون ومن دونهم يتسابقون في استصدار تراخيص لإنشاء جامعات أهلية، وهم أبعد الناس عن مفهوم الأجواء التعليمية وضوابطها ومتطلباتها، ولا أحسب هذا ا لتدافع السريع المرتجل إلا متبوعا بتراجع مماثل، ويقيني أن الطلبات لم تقدم مدعومة بدراسات محلية واستشارات عالمية، ولم يعرف المتهافتون قانون العرض والطلب، ولم تتضح الرؤية أمام ذوي الشأن عن قدر الحاجة ونوعها.

والاستجابة الفورية وغير المدروسة ستحول المشروع إلى مسارات غير مأمونة العثار على المستويات، الاقتصادية والمعرفية، وبخاصة حين يتصور الجميع أن الإشكالية منتج التعليم الجامعي، والتشخيص الخاطئ يعمق المشكلة، ويحولها من المأزومية إلى المأزقية. واللغط الإعلامي على أشده في غياب المغموسين في التعليم الجامعي من أساتذة ومسؤولين، إذ لم أسمع، ولم أر من تلقف الراية، وخاض سوح الجدل

من ذوي الشأن، لترشيد التنازع، وتوجيهه الوجهة السليمة فيما نرى رجال الأعمال والمغامرين في سباق محموم لاستصدار موافقات على إنشاء جامعات وإعلان مسميات ومباركة خطوات، وما على الراغب إلا أن يكون مقداما مغامرا، وعند انبلاج الصبح ينطلق إلى جهات الاختصاص لانتزاع الإذن الفوري وغير المشروط بفتح جامعة أهلية، لم يوفر لها أدنى حد من الأجواء الجامعية، وما نسمع به عن جامعات أهلية في دول فقيرة ينابزنا بها البعض لا نوده لأبنائنا، فالجامعات بحاجة إلى إمكانات بشرية مؤهلة ورأس مال كبير واستشراف مستقبلي دقيق ومنشآت متعددة ومعامل ومختبرات ومكتبات وساحات وميادين وقاعات وملاعب، فاليوم الدراسي لا يمكن أن تستوعبه عمارة كبيرة ولا قصر مشيد، ولا يمكن أن تبرز جامعة عصرية ذات تخصصات علمية بجهد فردي أو بإمكانات محدودة أو بمقر مستأجر، وعلينا لكي نتصور الفجوة أن ننظر كم أنفقت الدولة في تأسيس «جامعة الملك سعود» أو «جامعة الإمام»، كما يجب ألا ننظر إلى إشكالية واحدة دون سائر الإشكاليات، كالنظر إلى العجز عن الاستيعاب، ولا أن نضرب الأمثال بجامعات أهلية مع الفارق.

والإشكالية لا تنحل باستيعاب الخريجين من التعليم العام، مع أننا أسعد الناس في تعميم التعليم الجامعي، وأحوجهم إلى فك الاختناقات التي يعانيها الآباء، وأحرص الناس على استقبال فيوض الطلبة الذين اعتذرت الجامعات الحكومية عن قبولهم، إما لتدني معدلاتهم أو لعجز الجامعات عن استيعابهم، كما أننا أولى في استقبال أبنائنا لمواصلة الدراسة من الجامعات الأهلية في الدول المجاورة، إلا أننا أشد خوفا من الوقوف في متاهات الفوضى وارتجال القرارات واستفحال البطالة واستدامة ملايين الوافدين. وإشكالية الخريجين من التعليم العام أو من التعليم الجامعي إشكالية لا تحل بمضاعفة المسكنات. وفكرة التوسع العشوائي في الجامعات الأهلية إن هي إلا زحزحة وقتية للمشكلة، وإرجاء لها، وليس حلاً حاسما لها. وفتح باب القبول لكل حملة الثانوية العامة دون شرط وبدون تخطيط، تجذير للمشكلة، وإهدار للطاقات، وإضاعة للأوقات، ومحاولة للتهدئة المؤقتة ليس غير، وإذا كنا نعاني من ضعف الخريجين فإن الدخول في لجة الخصخصة المرتجلة وغير المؤهلة سيضاعف المعاناة، ويرفع نسبة الضعف.

وليست حال من يطوف بشهادته الثانوية بحثاً عن مقعد دراسي بأسوأ حال ممن يطوف بشهادته الجامعية بحثا عن مقعد وظيفي. وإذا كانت وزارة التعليم العالي تلام على تقصيرها في توفير مقعد دراسي لكل طالب، فإن وزارة الخدمة المدنية تلام هي الأخرى بتقصيرها في توفير مقعد لكل خريج، قد يقال بانه لا تلازم بين التعليم والتوظيف، وذلك قول مشروع، ولكن المفترض أن يكون التعليم الجامعي مرتبطا بالعرض والطلب، بحيث يضع في اعتباره حاجة السوق: كما وكيفا، فلا يغرق السوق بالخريجين، ولا يعطي تخصصات لا تحتاج إليها سوق العمل: الحكومي والأهلي. وهل أحد من مسؤولي التعليم أو التدريب عرف شيئاً من أعمال الملايين الستة وتخصصاتهم، وهو الحد الأدنى للعمالة الوافدة؟ وهل ربطت خطط التعليم ومناهجه لتوفير الإحلال المستمر؟ أحسب أننا لو قلنا بالإيجاب لكنا مبالغين. ونحن في تساؤلنا وتحفظنا لا نريد أن نزيد من تصعيد المشاكل، نحن أمة هادئة وادعة مستقرة سعيدة متلاحمة. ودفع المشاكل إلى الأمام يضاعفها ويعقدها، وتجفيف مستنقعاتها لا يكون بالاستيعاب لكل الخريجين من الثانوية العامة، ولا بالانتخاب منهم، ولا في تركهم يتسكعون على أرصفة الانتظار، وإنما هو في تفريق الطوفان قبل أن يصل إلى أبواب الجامعات، وتفريقه لا يكون بالضوابط والشروط وحسب، وإنما يكون بالحلول العملية المرضية للأبناء والآباء والمحققة لمصلحة الأمة. وإن كان لابد من التوسع في تأسيس جامعات أهلية، فعلينا وضع أدق الضوابط، وتحديد

أهم التخصصات، وتهيئة سوق العمل، والتجهيز له وفق متطلباته، بحيث لا يكون القبول فيها متاحا لكل من لوح بشهادته. ثم ليكن بعد تحويل الفروع في المناطق إلى جامعات علمية، وبعد تحسين أوضاع هيئة التدريس، وبعد تصفية التخصصات التي لا تقوم الحاجة إليها، ثم ليكن مشروع الخصخصة مرحليا ومحدودا وتجريبياً. والذين يضربون الأمثال بعدد الجامعات في الدول الفقيرة لا يدرون أن فرعا واحدا كفرع «جامعة الإمام في القصيم» تساوي طاقته الاستيعابية أكثر من طاقة خمس جامعات أهلية أو حكومية في تلك الدول.

وإذا كانت أهداف الرساميل مادية بحتة فإن علينا أن نضبط إيقاعها، بحيث تستوعب الأهداف التربوية والعلمية، وتستجيب للحاجات القائمة، وعلينا أن نضع كل الاعتبار للفجوة بين طالب في التعليم الجامعي الحكومي، يستلم مكافأة، وتقدم له الخدمة المجانية، ويعيش في مدينة جامعية تتوفر فيها كل المتطلبات، وآخر يدفع الثمن الباهظ ليتلقى ذات التخصص في موقع مؤقت وإمكانات ضعيفة، وكلا الطالبين يحملان الجنسية ويتماثلان بالحقوق والواجبات. نحن بلا شك نعيش إشكاليات متعددة: انفجار سكاني، تصاعد في نسبة الشباب، قدرة الآباء على توفير الظروف لمواصلة دراسة أبنائهم، نظر الجميع إلى وظائف الدولة كخيار وحيد، بوصفه الأقل عملاً، والأكثر أجرا، والأوفر أمانا، النظرة الدونية لما دون الجامعي وللتخصص المهني ولموظف القطاع الخاص، وهي مشاكل حساسة ومهمة. وليس من الحصافة الاكتفاء بالشفافية والتلاؤم، وتقديم التعليم الجامعي كبش فداء، وإذا كانت الأوضاع الآنية قادرة على امتصاص ما تفرزه الأعمال الإجرائية من أخطاء، فإن الزمن القادم محفوف بالمخاطر، وقد لا نتوفر على الأوضاع القادرة على استيعاب المشاكل، ولاسيما أنها في سبيل التضاعف والتعقيد. وإذا كانت وزارة التعليم العالي تواجه طوفان الخريجين من الثانوية العامة فإن وزارة الخدمة المدنية هي الأخرى تواجه طوفان الخريجين من الجامعات، ثم لا تجد ما تحملهم عليه. والسؤال الأكثر إلحاحاً: هل السوق بحاجة إلى مزيد من الخريجين الجامعيين، أم أنها بحاجة إلى مزيد من تخصصات دون الجامعية، لم توفرها مؤسسات التعليم، ولم يلتفت إليها المتحاملون على التعليم الجامعي، وهي في نظري الفريضة الغائبة، وهي فيما أتصور مكمن الخلل، ومجال الحل، ونفق الخروج من المأزق. وإذا كان لابد من جر قدم «الرساميل» للمشاطرة فإن من الأجدى أن تكون فيما دون التعليم الجامعي، وليس هناك ما يمنع من فتح الجامعات الأهلية ولكن يجب أن تكون محدودة وقوية ومدعومة ومتميزة، والتساؤل الغائب في ضجة التذمر، لماذا لا تنشأ مراكز حديثة وشاملة ومتطورة للتدريب، ولماذا لا تقام معاهد تأهيل في كل مدينة وقرية مشتملة على كل التخصصات التي يتطلبها القطاعان: الخاص والعام، على أن تسهم الدولة فيها شريكا أو مقرضا أو داعماً مع قيامها بصرف مكافآت مغرية للطلبة كي تصرفهم عن التدافع إلى الجامعات، أو تصرف مكافأة الطلبة الجامعيين إلى طلبة المراكز والمعاهد الأهلية. وإذ تكون لنا ظروفنا الخاصة اجتماعيا وماليا فإنه يجب أن تكون لنا حلولنا الخاصة، بحيث لا نرقب الآخر ولا نقلده، وفي الوقت نفسه نستوعب تجربته وفلسفته. وفوق هذا وذاك لماذا لا تفكر الوزارات المعنية في إعادة الهيكلة لكثير من الأوضاع والقطاعات القائمة، كأن تحول الورش والمصانع الصغيرة المتبعثرة والمرفوضة من الشباب لعدم الضمان وللنظرة الدونية إلى شركات توضع لها كوادر ومؤهلات ومدن صناعية، وفي هذا تخفيف للنظرة الدونية للحرف والأعمال المهنية، بحيث يصبح العامل موظفا ومساهما في آن؟.

التعليم الجامعي: من المأزومية إلى المأزقية .. ! (٢) [(١)]

ولكي نجتاز المنعطفات بأسرع وقت، وأقل جهد، وآمن تصرف، وأنجح أداء، يجب علينا استيعاب أوضاعنا بوصفها منظومة متفاعلة لا متجاورة، والتعرف على امكانياتنا: الذاتية والاستيعابية والذهنية، وتقصي حاجاتنا وفق أولوياتها، والنظر الشمولي لكل المنظومات المتماسة: حسياً ومعنوياً، محلياً وعالمياً، فالعصر عصر العلم والتخصص والمنهجية والخلطة المستحكمة والتأثير والتأثر والشفافية. إذ لا مكان للارتجال، ولا للاعتزال، ولا للتجزيئية، ولا قيمة للتلاوم، ولا للتخوف من المساءلة، ولن نضمن استقامة الأمور إلا باستبطان أهمية المراجعة والمحاسبة، وقبول النقد والمساءلة. وما نسمع به بين الحين والآخر من دعوة لبعض الوزراء لحضور احدى جلسات مجلس الشورى ومساءلتهم، يعد من الظواهر الصحية، وبودنا لو أن طرفاً من المساءلات والمداخلات يعرض بالصوت والصورة في نشرات الأخبار، مثلما هو جار في كثير من التغطيات الاخبارية. وليس شرطاً النقل الكلي ولا النقل المباشر. والأهم من كل ذلك تعقب القطاعات الحكومية والأهلية على حد سواء من قبل أعضاء المجلس، أو من قبل رؤساء اللجان، فالتحولات المؤسساتية يجب أن تفعَّل. والمجالس الشورية والعليا والمناطقية التي بادرت إليها الدولة بطوعها واختيارها عليها ممارسة حقها المتاح على مرأى ومسمع، لقطع دابر الشك وبعث الاطمئنان على حد: ﴿قَالَ بَلَى وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ ولأن التعليم يطال كل مواطن، إذ هو طالب أو معلم أو ولي أمر، فإن على المؤسسات أن تستبطن همه، وأن يكون شغلها الشاغل.

وقدرنا الذي لا مناص منه، اننا نعيش تحت وطأة انفجارين: سكاني، وتعليمي، ونعاني من تضخمين: وظيفي، وتأهيل نظري، والانفجار التعليمي النظري قائم على أشده، والكتبة الملحون على الاستيعاب يدفعون به في ذات الطريق، إذ لا تعدو عيونهم حشود الطلبة على أبواب الجامعات. والتعليم العام مرن وسريع الاستجابة، وقادر على توفير مقعد لكل طفل أو طفلة في القرية والهجرة وفي الظراب، والآكام وبطون الأودية. والناس بما فتح الله عليهم من أرزاق، في التجارة والصناعة والزراعة وفي الضمان الاجتماعي والعوائد والمخصصات والجمعيات والزكوات ورواتب الأئمة والمؤذنين والهيئات ومكافآت الطلاب والطالبات، وما هيئ للجميع من بنوك تسليف وعقار وزراعة وصناعة وما أتيح لهم من فرص استقدام العمالة مستغنون عن جهد أبنائهم وبناتهم، ليفرغوا للتعلم النظري. ولأن الطلبة أربعة ملايين أو يزيدون، ولأن مدة التعليم ست عشرة سنة، فإن هذا يعني احتياجنا لأربعة ملايين وظيفة كل عقد ونيف، وتلك نتيجة حتمية لكل من يتصور ضرورة توفير مقعد جامعي لكل حامل شهادة ثانوية دون أي ضابط. والدولة بمسايرتها ومداراتها وقدراتها تحولت إلى ضمان اجتماعي، والناس يتهافتون عليها عبر الوظائف ونظام البنود والساعات وغيرها، وكلما ارتفعت مؤشرات البطالة اتسع رحم الضمان، وهكذا حتى ينفجر هذا الرحم، وينفرط عقد الأجنة. ويكفي أن ننظر إلى الباب الأول من الميزانية، لنرى حجم الانفاق الذي يندلق كالطوفان في السوق الاستهلاكية، ثم لا يكون له عائد على اقتصاد البلاد، ثم لننظر إلى عجز الميزانية وحجم الديون.

أقول ما تقرؤون لتأكيد أن الاشكالية ليست في «التعليم الجامعي» مفصولاً من سياقات المجتمع وأنساقه، كما أنها ليست قصراً على عدد الجامعات نسبة إلى عدد

---

(١) تاريخ المقال: ١١/ ١٢/ ٢٠٠١

السكان، الاشكالية شبكة معقدة ممتدة في خلايا المجتمع وجيوبه، ومتجذرة في تفكيره وتصرفه وتعبيره، ومتلبسة في عاداته وقناعاته ورغباته.

ومعالجة الاشكالية على هذا المفهوم تنطلق من عدة مواقع، يشكل «التعليم الجامعي» موقعاً منها، ولا يكون كل الاشكالية. وعلى المشرع والمثير والمنفذ والمتعقب أن يكونوا على وعي تام بجذور المشاكل ومطارحها، ووجوه الحل وخياراتها، وألا يرتبطوا بعارض واحد، ليصبح العلاج قصراً على الأعراض دون الأمراض، منصباً على مفردة من مفردات الاشكالية، متنفساً باللوم وجلد الذات. إن علينا تجاوز المناكفات لمباشرة البحث عن الحلول الجذرية، فالمشكلة مسؤولية الجميع، ولا بد من تناول التركيبة الذهنية والسلوكية والعلمية للخروج من المأزقية والمأزومية التي أقضت مضاجع وزارة الداخلية، وحملت سمو الوزير على تبني مشاريع ليست من اختصاص وزارته، لما يساوره من الخوف، فالبطالة مصدر كل شر، وهي من الأزمات التي لا يمكن تلافيها بسهولة، ولا يمكن السيطرة على عقابيلها، وبخاصة حين تكون في أوساط الشباب، الذين يحملون شهادات أضاعوا الوقت والجهد في تحصليها، وبوادر البطالة وكساد الشهادات بدت في وقت قصير ومفاجئ، وفي ظل ظروف لا يتوقع افرازها مثل هذا الوضع، وذلك حافز على إعادة النظر في كثير من المسلمات والقناعات والتصورات، واستبعاد أي تردد في المواجهة القوية والفورية.

ولأن سياسة التعليم وأهدافه ذات مرجعيات متعددة، ومحاذير معقدة، ولأن المفهوم العام للتعليم يختلف من طائفة لأخرى، ولأن «الرأي العام» يشكل ضغطاً خفياً على متخذي القرارات فإن الخطوة الأولى تتطلب تحديد المرجعية، وبلورة الهدف، وتنوير الرأي العام، ليكون التغيير سلساً وممكناً وسليماً. وبخاصة في تلك الأجواء المشحونة بالتساؤلات والتحديات العالمية، وتذبذب المناهج بين «العصرنة المؤسلمة» و«العصرنة المعلمنة» و«العلمية المؤدلجة» ومع توفر الامكانيات، فإنه لم يبق إلا أن نسبق الأحداث، ونبادر بالمواجهة، ولا نرقب المشاكل حتى إذا وقعت الواقعة نهضنا متثاقلين للحل. وليس من الحلول حصر الاهتمام في تعميم التعليم الجامعي ولا في تقعير الرؤية عليه دون غيره، ففي ذلك صرف للنظر عن اشكاليات متعددة، قد تكون الأهم، وقد تؤدي الغفلة عنها إلى استعصاء حسمها، وما أوده صرف الجهود: للمناهج ونوعية التخصص وتفريق الحشود قبل الوصول إلى أبواب الجامعات. وما تشيعه اللوبيات التي تعض أناملها من الغيظ لتأذيها من تأثير المملكة على كل الصعد يحفز على المضي في «العصرنة المؤسلمة» ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾.

لقد كتب البعض بدافع الغيرة والحماس والمواطنة عن التعليم الجامعي مستعدياً المشرِّع على المنفذ، كما وجه اللوم آخرون بسبب التردد في التوسع، وارتفعت نبرة المؤاخذة على المماطلة، وضربت الأمثال بدول فقيرة، تنتشر الجامعات في عواصمها ومدنها، وتستوعب أبناءها، وجاءت كلمة الأستاذ «فهد عامر الأحمدي» «جامعة لله يا محسنين» في جريدة «الرياض» مثار جدل واختلاف، وفاتح شهية لمزيد من المداخلات، إذ شفعت الكلمة باحصائيات، لست أعرف عن مدى دقتها، ولكنني أعرف جيداً أن المقارنة جاءت مع الفارق، وهو ما تعقبه الأستاذ «عبد العزيز الجار الله» في ذات الجريدة، مشيراً إلى كليات البنات والمتوسطة والأمنية والمهنية وإلى فروع الجامعات. وفي كل عام يضج المتذمرون، ويرتبك المسؤولون، ويلوذ البعض منهم بإجازاتهم هرباً من طوفان الشفعاء وإلحاح ذوي الحاجات، حتى إذا وضعت الأزمات أوزارها، لا يكون حل، ولا وعد بحل، فيما يتجرع الآباء مرارات التفكير بمصائر أبنائهم. ومع هذا فإن

الاشكالية لا تحل بفتح الجامعات، ولا باستيعاب حملة الثانوية العامة، وإنما هي بإعادة التركيبة في مواقع كثيرة. المجتمع ليس بحاجة إلى مزيد من المؤهلات النظرية، والشهادة الجامعية ليست غاية بذاتها، إنها سلعة تخضع للعرض والطلب، والتعليم الجامعي ليس حقاً، وليس ضرورة، ومن فهمه على هذا الأساس حصر مطلبه في وجوب تهيئة مقعد لكل طالب، وفات الأكثرين حماساً أن التعليم الجامعي توجهه الحاجة، ولا يفرضه الحق. وإذ لا يكون من مصلحة الأمة عسكرتها ولا فلسفتها ولا تسييسها فإنه ليس من مصلحتها أن يكون أبناؤها جميعاً من حملة الشهادات الجامعية النظرية التي لا تسمن ولا تغني، ومما لا شك فيه أن مرافق الدولة والقطاع الخاص قد تشبعا من الكتبة، والتعليم العام وقع في بعض مراحله بإشكالية «مدرس الضرورة» لإكراهه على استيعاب خريجين في غير مجال تخصصهم. وما دون المرافق والقطاعات من المجالات فاض كيله بملايين الوافدين.

والحاجة الملحة مرتبطة بالتخصصات العلمية والمهنية والفنية، وهي خارج الجدل الإعلامي، وفرض الخريج غير المتخصص، لا يمكن القبول به، لا على مستوى القطاع العام، ولا على مستوى القطاع الخاص، ومن ثم فالإشكالية لا تحل بمضاعفة الجامعات، الاشكالية تكمن في خطأ المفاهيم، ولا بد من تصحيحها، وفي غزارة الانتاج، ولا بد من ترشيده وحسن توزيعه. فهل وعى المشرعون احتياجات المجتمع من التخصصات؟ وهل يستطيع القطاعان: الخاص والعام ايجاد مجالات، تستوعب فيوض المتخرجين؟ وهل عُمل على مواكبة التعليم للخطط التنموية؟ وإذا كانت الدولة غير مسؤولة عن التوظيف، فإن التعليم مسؤول عن إعداد المواطن لمواجهة الحياة وسد الحاجات. وإذا كانت الدولة تنفق الأموال لتعليم لا تقوم الحاجة إليه، فإنها تعرض الأمة لخسارتين: مالية وبشرية، ولو أقرض الطالب بعض ما أنفق على تعليمه الجامعي، ومكن من استثمار جهده ووقته وقرضه، لأفاد واستفاد. ولكي نتصور فداحة الخسائر، علينا أن نعرف كم تنفق الدولة على الطالب الجامعي في سنواته الأربع، ثم لا يجد عملاً، أو يجد ما لا يحتاج إلى مؤهله.

والمؤكد أن التركيبة الخاطئة كالمقدمات الخاطئة، تؤدي في النهاية إلى نتائج خاطئة. والتوسع غير المحسوب وغير المتوازن في فتح الجامعات أو في منح التراخيص للجامعات الأهلية أو اعتماد التخصصات غير المطلوبة أو انزال المناهج غير المناسبة سيؤدي في النهاية إلى مشاكل معقدة. وقد يؤدي التنافس بين المؤسسات إلى الصراع من أجل البقاء. والمتابع للتعليم الأهلي العام، وما واكبه من توسع في التراخيص، واقدام كل متقاعد أوميسور حال، ضاق برصيده النقدي على فتح مدرسة في عمارة لم تصمم لتوفير أدنى حد من التعليم السليم ينتابه الخوف. وبعض المدارس الأهلية تعاني من ضوائق مالية، وحرب الأسعار، سيصاحبه هبوط في الأداء. وكم كان بودي لو كانت هذه التراخيص لمعاهد فنية، ومراكز حاسوب، ومدارس بنكية، وفندقية، وهندسة ميكانيكية لسد الحاجة وتخفيف الضغط على التعليم العالي. وإذا كان التعليم الأهلي يعتمد على الخطط القيمية، ولا يمتاز بشيء عن التعليم العام فإنه يبحث عن الرخيص لتقليص الانفاق، ثم لا يفك الاختناق، ولا يقدم نوعية ممتازة، فالتعليم العام لا يعاني من عجز استيعابي. وليس من المصلحة أن تمر الجامعات الأهلية بذات الطريق، وإن كانت ستسهم في فك الاختناق إلى حين، إذ الحل لا يتمثل في الاستيعاب وحده، وإنما هو في تكافؤ الاستيعابين: العلمي والعملي، وإلا أصبح ما ينفق على التعليم خسارة متعمدة.

لقد امتدت البطالة إلى خريجين من مختلف التخصصات: النظرية والعلمية، وأفواج المتخرجين في ازدياد، والمجالات الاستيعابية في نقص، والشاب في النهاية يبحث عن ترجمة لشهادته، وهو العمل، وحين لا تكون الشهادة غاية في ذاتها فإنه سيظل يسعى

لغايته، وحين لا يجد الطريق إليها، يشكل خطورة أخلاقية وأمنية واقتصادية، والتوسع في منح التراخيص للجامعات الأهلية دون دراسة متأنية يدفع بالمشكلة ولا يحسمها. كما أن التوسع العشوائي يشكل اغراقاً، يضاعف الاشكالية. لقد كان الطلبة يتزاحمون على كليات الشريعة، وحين تشبعت وزارة المعارف، قلبوها إلى اللغة، وكنا نسمع من قبل لغة المفاضلة، وكنا نقول لهؤلاء وأولئك: إن الأفضلية فيمن يسد حاجة الأمة، والرسول ﷺ أعطى السائل حبلاً وفأساً: وطلب منه أن يغيب عنه خمسة عشر يوماً، وهل الاحتطاب في الشعاب والأودية أفضل من مجلس رسول الله ﷺ وما يتنزل عليه من السماء. إنها الحاجة الخاصة والعامة تحدد الأفضلية والأهمية. ثم إنه ليس هناك أهم من النفور للتفقه في الدين، ولكن المشرع الحكيم ربطه بحاجة الأمة «فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين»، منبهاً أنه «وما كان المؤمنون لينفروا كافة» وهذا ما نريد أن يعيه المشرعون، وأن يفهمه المتعقبون. ثم إن هناك فرقاً يين التخصص الشرعي: الوظيفي والتعبد ي وأسلمة المناهج. والتعليم في بلادنا والحمد لله مستوعب لأهمية التخصص والسمة. غير أن التخصصي يجب أن يكون على قدر الحاجة العملية، فيما تكون السمة على قدر الخصوصية، أما القدر التعبد ي ففريضة على كل مسلم.

وبصرف النظر عما نسمع من لغط تعيه المؤسسة التعليمية حول المناهج فإن التعليم المخصخص يحتاج إلى عين ساهرة، وأذن واعية، لأن همه الأول منصب على الكسب، وتفكيره في اختراق الضوابط، لا في اتقان صناعة الانسان والدولة رمت بثقلها عبر خططها الآنية في صناعة الانسان، وتهيئته لمواجهة الحياة المعقدة، والخصخصة للمستويين من التعليم قد لا تنهض بهذا الهم بالقدر المطلوب، وإذ لا نتهم القطاع الخاص فإننا لا نزكي على الله أحداً، ومن أمن العقاب أساء الأدب، والبوادر تبعث على أخذ الحذر، ووزارة المعارف لاكتشافها مزيداً من التجاوزات، تطلع كل يوم بضابط احترازي، وأخشى ما أخشاه أن يتلبس التعليم الجامعي المخصخص بهذه الاختراقات، ثم تكون الكارثة. وحاجتنا الملحة في اعادة هيكلة هذا اللون من التعليم، ووضع أدق الضوابط، ومراعاة القدرة الاستيعابية للسوق. وتحقيق الرغبات في منح التراخيص، ينعكس أثره على كل الأطراف، ولقد شهدنا كساداً في «مصانع الألبان» و«الصيدليات» و«محطات الوقود» و«مراكز الاتصالات» إذ لم تراع فيها القدرة الاستيعابية، والتعليم يختلف عن المصانع ومراكز الخدمات، فالاخفاق في تلك خسارة مادية، أما حين يمتد إلى المستوى التعليمي فإن الخسارة ستطال الأمة في الصميم. والتنافس غير المتكافئ، واغراق السوق بالمؤسسات التعليمية، يعني الكساد، ثم التفكير بالاحتيال. وحرية الاقتصاد عندنا يشوبها شيء من الفوضى والغفلة، ليكون الصراع والاغراق والتساقط. والفوضوية لا تحفظ التوازن، ولا تحمي «الرساميل». والوعي الأممي السليم يهتم بالحماية والحفظ، وإن كانت «الرساميل» لأفراد، إلا أنها في النهاية ثروة أمة، والجالب كالمهدي، ولا أقل من الحماية والدعم. وحين تحل الفوضى يستفحل الجبن وتنكمش السيولة النقدية، وهو ما لا نريده لأثريائنا، وما لا نريده في القطاع التعليمي على الأقل، ونحن أحوج ما نكون إلى الضوابط والروادع والحماية والتقدير الدقيق للحاجة، لكيلا تتسلل «الرساميل» لواذاً خارج البلاد، بحثاً عن مناخاة ملائمة، أو تختبئ تحت البلاطات، ولعلي أضرب المثل بازدهار الحركة التجارية والصناعية في «دبي» واشتعال الحركة الجوية في «مطار البحرين»، الأمر الذي يشكل تحدياً لقدراتنا وامكانياتنا القائمة وغير المستغلة.

وبصرف النظر عن اشكالية القطاع الأهلي في التعليم العام والجامعي، فإنه يجب وضع الأمور في أطرها، فالتعليم صناعة، يخضع للعرض والطلب، ويرتبط بالخطط التنموية، وفوق هذا يجب أن يتعصرن: منهجاً ومادة، وليس من العصرنة استيعاب

الشباب ثم الزج بهم في تخصصات لا يقبلون بها، أو لا يحتاج إليها سوق العمل، إذ هي بهذا تسهم في التأزيم، وتعرض البلاد إلى بطالة مكشوفة، قد يستوعب جانب منها ببطالة مقنعة، والبطالتان، تشكلان عبئاً على ثروة الأمة، وتصعدان نسبة الانحرافات والجنح، ومكافحتها هي الأخرى تشكل عبئاً على ثرورة الأمة، وإن كانت بطالة الجامعي أخف خطراً من بطالة ما دونه. والتفكير الأحادي المتمثل بالتوسع في فتح الجامعات الحكومية والأهلية يخرج بالتعليم الجامعي من المأزومية إلى المأزقية، وعلينا والحالة تلك أن نفكر تفكيراً مضاعفاً، ينظر بعين إلى خريجي التعليم العام ممن لم تستوعبهم الجامعات، وينظر بأخرى إلى الخريجين من الجامعات ممن لم تستوعبهم الوظائف الحكومية والقطاعات الأهلية، إما لكثرتهم أو لأن تخصصاتهم لا تحتاجها الوظائف، ولا يقبل بها القطاع الخاص، إنني حريص على ألا أضع العصي في العجلات، ولا أريد التيئيس، ولست متشائماً، وإن كنت كما بطل رواية «إميل حبيبي» «المتشائل» وهي صفة مركبة من «متشائم» و«متفائل». إنني في النهاية مشفق ولائم: مشفق على المسؤول والطالب على حد سواء. ولائم على نقص القادرين عن التمام. وإذ سوفنا أكثر اللازم، فإن علينا ألا نرتجل القرارات، فلا ندِم من استخار، ولاخاب من استشار.

وعالم اليوم تعصف به مشاكل، وتجتاحه أزمات، وتخنقه ظروف سيئة، ونحن في سياقه عربياً وعالمياً، هذا الواقع، وذلك الترابط يفرضان علينا أن نعي خطورة الأوضاع، وحساسية اتخاذ القرار، وأهمية المبادرة، وضرورة التروي. ومع كل هذه التحفظات، فليس لدي حل ناجز، ولن أدخل في رهانات الحلول والنجاحات. لدي تساؤل .. وتحذير .. وموعظة. والأمل معقود في نواصي الكفاءات الوطنية من رجالاتنا القائمين والمنتظرين، إذ هم كالخيل معقود في نواصيها الخير. والتساؤل الملح عن دور التعليم الفني والتدريب المهني في مختلف التخصصات: الطبية المساعدة والصناعية والهندسية والمعمارية والحاسوبية لما دون «البكالوريوس»، أين هو من هذه الضجة؟ والزمن زمن المؤسسة، فهي اللاعب الرئيس في هذه الاشكاليات، وعليها اختراق الصفوف، وتلقف الراية، فالحاجة ماسة إلى آلاف المتدربين في مختلف التخصصات المهنية، وبحاجة إلى الفنيين المساعدين لكل التخصصات العلمية. ولو أتيحت للشباب فرص الدراسة، لما أخذوا طريقهم إلى الجامعات النظرية، التي تلفظ بهم على أرصفة الانتظار لما لا يأتي. والتحذير من الإصاخة لمن يدفعون بعنف إلى الحلول المؤقتة ومعالجة الخطأ بخطأ مثله. والموعظة بسماع التناجي الخافت، وعدم الاغماض عن بوادر المشاكل، فما يقال محلياً وخارجياً كالطلقات الطائشة إن لم تصب أربكت.

والأهم من هذا وذاك أن نصرف الأنظار عن المهدئات والحلول الوقتية، وأن نواجه قدرنا بثقة واطمئنان، لا نشك في مناهجنا وخططنا، ولا نعمى عن المتغيرات، والتحرف ضرورة، ولا سيما أن الزمن مواتٍ، والإمكانيات قائمة، والحلول ممكنة، والشفافية كشفت عن ثغرات ليست عصية الاستدراك. وحين ننظر إلى أوضاعنا من خلال مرايا مقعرة، يجب ألا نشيح بوجوهنا، ونكتفي برد الغطاء، واحتمال الأذى. لقد تعثر مشروع الخصخصة في كثير من القطاعات، حين بدت التضخمات الوظيفية والثغرات النظامية، وبودي لو نسينا ما مضى، واستقبلنا ما هو آت، وباشرت الجهات تدارك ما يمكن تداركه، في وقت يحتمل الجسم أكثر من تدخل جذري، إذ ربما يأتي يوم لا يحتمل الجسم أية مبادرة.

والتعليم حين يعتريه النقص في: مادته، أو في امكانياته، أو في تنوعه، أو في استجابته، ينعكس أثره على كل القطاعات، وتمتد سلبياته إلى كل المرافق، ومن ثم لا بد من رباطة الجأش، والتأمل العميق، وحشد كل الطاقات الفكرية لوضع خطة تعليمية،

تضع في اعتبارها أن التعليم صناعة، وأنه هدف بذاته وهدف لغيره، ولا يجوز تغليب هدف على آخر. والأهم حفظ التوازن بين الحاجات والأهداف، ولا بد أن نعرف القدر الكافي لتحقيق الخصوصية الحضارية والمكتسب الوظيفي من معرفة ومهارة. إن التعليم شبكة معقدة. والخوض فيه عاطفياً لا يحل الاشكالية، كما أن استبعاد السياقات العالمية عند رسم سياسة التعليم يعرض البلاد للعزلة، وليس في التحرف المتواصل أي محذور، إذا وسد الأمر إلى أهله من ذوي التخصص والأهلية. ويكفي لكل متحرف أن يستصحب مقولة ولي العهد: «لا مساومة على العقيدة والوطن».

من التفجع .. إلى مواصلة المسيرة .. ![1]

من بوادر الخير للفقيد ولذويه ان تتجسد المحبة وتتمثل التزكية ويتواصل نزيف التفجع والتوجع والتأبين بشكل مثير والناس الذين عبّروا عن مشاعرهم بطوعهم واختيارهم شهود الله في ارضه، والله أكرم من كل الذين تدافعوا ليشهدوا بما علموا، لقد أثنوا، ودعوا، وواسوا، والله قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه.

ومجيء الموت دون معاناة وفي لحظات التألق الخلقي والعملي، وفي أوج العز والتمكين يكون من نعم الله على الإنسان ذلك ان حملة أمانة التكليف معرضون للفتن ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾.

والفتنة قائمة حتى تبلغ الروح الحلقوم، وإذا قبض الله روح عبده على شهادة ألا إله إلا الله فتلك أولى بوادر النعم، وإذا توفاه الله ولما تنهكه الأمراض المستعصية ولما يبلغ أرذل العمر فتلك نعمة أخرى، وإذا جاءه الحق ولم يظلم هذا ويسرق مال هذا ويشتم هذا فتلك نعمة ثالثة، وحين تخترمه يد المنون وهو محسن محبوب يسعى في حاجة الأرملة والمسكين ويحث على الخير ويدعو إلى الإحسان ويتصدر مجالس الأعمال الخيرية فتلك رابعة النعم وفضل الله واسع، والفقيد «فهد بن سلمان» نحسبه كذلك ولا نزكي على الله احداً، والثناء على الإنسان بما فيه وذكر محاسن الأموات من مقاصد الإسلام. إذ فيه تطييب لخاطر ذويه المجروحين، وحث للأحياء المترددين لعمل الخير، إذ من شهد هذا الاجماع على الثناء والمحبة لا يتردد في عمل الخير والإحسان إلى الناس. وهل هناك رجل رشيد لا يغبط ذوي الفقيد على هذا الذكر الجميل، وإذا أحب الله قوماً ابتلاهم، وقد يكون للمرء عندالله منزلة لم يبلغها في عمله فما يزال يبتليه حتى يبلغها والموت حق وهو آت طال الزمن أو قصر، يلاقي ذويه فلا مهرب والله قد وعد بالبلوى من جوع وخوف ونقص في الأموال والأنفس والثمرات، ولكنه بشر الصابرين الذين يواجهون المصائب بقولهم: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ ووعد اولئك بالصلوات والرحمة والهداية. وذلك وفاء بغير حساب وكيف يكون الحساب والله يحب الصابرين، وهل حبُّ الله يحصر قدره حساب وأمر المؤمن عجب ان اصابته سراء شكر، وان اصابته ضراء صبر فكان في الشكر والصبر مأجورا، وليس ذلك لاحد إلا للمؤمن. وأنفس العارفين ترضى وتطمئن بالذي قدر عليها، والجزع يحرم من الاجر ولا يأتي بالفقيد الغالي. وحين فجع الرسول ﷺ بولده الوحيد قال ما يرضي الله وان دمعت عينه وحزن قلبه، وكلما اشتدت البلوى فعلى المؤمن ان يطفئ لظاها بالتسليم، اذ كل نفس ذائقة الموت ولا يرث الأرض ومن عليها إلا الله، والله قال لرسوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] وكل الذي فوق التراب تراب ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ [طه: ٥٥] .

ومن اكتوى بألم الفراق فليعلم أنه مفارق فالدنيا ليست دار قرار، وليستعد لملاقاة ما لقيه أحبابه، وكل محب أو كاره مفارق.

لقد فوجئنا وفجعنا بفقد الأمير الشاب فهد بن سلمان - رحمه الله - والمفاجأة والفاجعة ليس لأنه مات، فالموت حق وهو آت ولكنَّ الفجيعة والمفاجأة لفَجأةِ الموت وكون الوفاة اخترمته في عنفوان شبابه وتمام صحته وفي اوج تطلعه للعمل الخيري، ولأنه سيترك فراغاً أثق انه سيسد وان اعماله الخيرة سينهض بها محبوه، وحين فوجئت وفجعت سعدت

---

(١) تاريخ المقال: ٣١/ ٧/ ٢٠٠١

كثيراً بهذا الفيض من الثناء وبهذا التدفق من المواساة والدعاء، وكيف لا يسر المؤمن بتواتر الثناء وضجيج الدعاء، فالثناء والحب والدعاء قيم لا ينالها إلا المحظوظون.

إننا حين نشاطر صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبد العزيز ووالدة الفقيد وأبناءه وأشقاءه وزوجته آلامهم لا نمضي مع نزيف الحزن، بل نتطلع إلى ترجمة هذا النزيف إلى عمل خيري كي يبقى صدقة جارية لهذا الشاب الذي ترك الحياة وهو يحلم بمشاريع خيرية، كان على رأسها مشروع الفشل الكلوي، وكان يعد بانشاء جمعية أخرى لمرض السكر وتلك أعمال خيرة تدل على جميل سيرته وصفاء سريرته، وحبه للخير وسعيه في حاجات الناس واقتدائه بوالده الذي كان سباقاً إلى كل خير، والأمل معقود على اشقاء الفقيد وابنائه ومباركة من والده المثقل بالمسؤوليات والمشاريع والأمل معقود على اصدقائه وزملائه ومحبيه والمفجوعين بفراقه الأمل معقود على هؤلاء جميعاً ان يترجموا هذا النزيف من الحزن والحرقة، فهو في قبره أحوج ما يكون إلى مواصلة عطائه وفعله الإنساني المتميز.

والجميع قادرون على ان يواصلوا ما انقطع بموت الفقيد، فالمريض الذي يعاني من الفشل الكلوي، والمقعد الذي ينخر في جسمه المرض السكري بحاجة إلى من يعيد اليهم الثقة والاطمئنان لقد نهض الفقيد بهذه المهمات الإنسانية طائعاً مختاراً.

ان اشقاء الفقيد وابناءه واصدقاءه ومن ورائهم الأب المفجوع سلمان بن عبد العزيز قادرون على مواصلة العطاء لا بما يملكون من مال وجاه ولكن بما يشتملون عليه من قلوب رحيمة وايدٍ كريمة وشعور بالمسؤولية.

وبتلك المبادرة الفورية والمتوقعة يكون «فهد بن سلمان» حياً بيننا لا نبكي إلا شخصه ولا نفقد إلا ابتسامته العذبة وخصاله الحميدة وسيرته العطرة.

وحين يموت إنسان حمَّال مثل «فهد بن سلمان» يموت بموته خلق كثير، ولكن الأمل فيمن حوله أكبر والثقة أقوى.

لقد ضجت لوفاة الفقيد أقلام وحناجر، وسوف تطوى الصحف وتجف المحابر فتلك غاية النفوس ومنتهاها:

كـــل حــــيٍّ علـــى المنيـــة غـــادي
تتــــوالى الركــــاب والمـــوت حـــادي

ذهـــــب الأولــــون قرنـــــاً فقرنـــــاً
لـــم يـــدم حاضـــر ولـــم يبـــق بـــادي

هـــل تـــرى مـــنهمُ وتســـمع عـــنهم
غيـــــر بـــــاقي مــــآثر وأيــــادي

إننا بحاجة إلى المحافظة على مآثر الفقيد وأياديه، والانتقال من نزيف التفجع إلى رصين الفعل فحق الفقيد علينا يجب ألا يقف عند البكاء والحزن، لابد من ان نسعده في قبره بمواصلة افعاله الإنسانية لتكون صدقة جارية تؤنسه في وحدته، وتسعده في وحشته، فرحم الله أمواتنا وأموات المسلمين وألهم المصابين الصبر والسلوان.

وعزاؤنا الجميل لكل المفجوعين بفراق الفقيد الذين يخففون الامهم بالإيمان وحسن الظن بالله انهم سيرثون خصال الفقيد الذي عاف الكسل والتواني وعود المقربين منه على

المبادرات الإنسانية، وما مات من خلف الأوفياء الذين سيتلقفون الراية باليمين ويواصلون المسيرة.

الاتجاه الإسلامي في الشعر العربي المعاصر التجليات والتحفظات .. !
(٢-٥) [١]

وإذ يكون زمام الأمور في يد غير المسلمين، وإذ تكون الدول المستكبرة الغالبة في حالة خوف وترقب من الضحية، لا تترك أية فرصة للوقيعة، وتفريق الكلمة، وتحويل المسلمين إلى شيع وطوائف، يضرب بعضهم رقاب بعض. فإن من أوجب واجبات النخب الفكرية والعلمية والأدبية ان تفهم هذه الأوضاع المتردية التي تتطلب مواجهتها تقديراً وتوقيتاً ووعياً وإمكانيات للخلوص من هذه المزالق والمآزق. وعلى القادرين تجاوز هذه المحن بأقصى قدر من التعاذر، سعياً وراء تضميد الجراح، ورأب الصدع، والبحث عن المساحات المشتركة.

إن هناك دعوة للخير، وهناك دفعاً للشر.

وكلتاهما بحاجة إلى إمكانيات مادية ومعنوية وكفاءات بشرية، قد لا تتأتى لكل متطوع، وحين لاتكون (الدعوة) و (الدفع) في المستوى المطلوب، تقع الأمة في التنازع، ويؤول أمرها إلى الفشل وذهاب الريح، وبالتالي تختل وحدتها الفكرية، وعندها تقع الأمة فيما حذر منه المصطفى ﷺ بقوله: «**لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض**». والرسول الرحمة، لم يستجب لقتل المنافقين الذين أعلن القرآن كفرهم بعد استهزائهم بالله وآياته ورسوله، وفضح القرآن لهم بعد مجيئهم يحلفون ما قالوا ما نقله زيد - رضي الله عنه - عنهم. والحماس الزائد من العامة يحتاج إلى حكيم يزن الأمور ويهدئ الاندفاع، وكم نسمع من صحابة رسول الله ﷺ من يقول له عند أدنى مخالفة: دعني أضرب عنقه، ثم لا يجد من رسول الله ﷺ الرحيم بأمته، والذي قال عنه ربه: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] موافقة على ذلك، ونحن نشاهد اليوم من يود ضرب أعناق المخالفين، وما ذلك من هدي الإسلام والمتحمس مأجور إن شاء الله. والتسييس الثوري للإسلام، والولاء الطائفي، أو الحزبي، أو الفكري المتعصب، يزج الأدب في أتون الأدلجة المتناحرة، ويؤدي هذا التوظيف التعسفي إلى الدخول في الفتنة وتفريق الكلمة، وهذا التوظيف لا يختلف عن إجهاض الكلمة بالتغامض أو إفسادها بالفجور، وعندما تكون الكلمة (غالية) أو (مجهضة) أو (فاسدة) تفقد الأمة قوة الكلمة، والأمة من قبل فاقدة لقوة السلاح. إننا مطالبون بالتوازن، والكلمة كالسلاح عمار أو دمار.

والحديث عن (الاتجاه الإسلامي في الشعر المعاصر) من خلال تجلياته بعد وعي الواقع، وأخذ الحذر، وإعداد العدة، يتطلب منا توطئة أكناف العنوان، وتحرير مفرداته التي تندرج تحتها عدة مصطلحات هي: - (اتجاه) و (إسلام) و (شعر) و (معاصرة) و (تجلي) و (تحفظ). وهي مصطلحات تسلم في النهاية إلى فعل إجرائي. هو القول الشعري ذو المضمون الإسلامي، وفق أطر زمانية ومكانية وحضارية متصورة سلفاً.

والمتتبع للمشهد الثقافي العربي وما يصطرع فيه من تصورات وآراء، يجد أنه من الصعوبة بمكان الاستقرار على مفهوم جامع مانع، يحسم الخلاف المستعر بين الفرقاء، وما هم من منطلقات فكرية، وتصورات ذهنية، ومرجعيات معرفية، وتأويلات مذهبية. ولكيلا تخدرنا العواطف، ويخدعنا التطلع إلى المآخاة بين المتناقضات، فإننا بحاجة إلى تحديد المرجعية ونظرة التلقي، التي لا مناص منها لمن أراد الخلاص، والمرجعية ونظرية التلقي تنحصران في: (النص) و (العقل)، فالرد إلى الله والرسول والتفكير

---

(١) تاريخ المقال: ٧/ ٨/ ٢٠٠١

المستنير بنور الله هما الشرعة والمنهج الأقدر على مواجهة النوازل، وتحديات المواقف، والتلقي لابد أن يكون كما هو عند السلف الصالح. والمتفلتون من سيطرة النص وضوابط التفكير وأسلوب التلقي يقعون في المحاذير، وتتخطفهم السبل المضلة عن منهج الله وشرعه، ومن ظواهر العصر التسيب والتمييع، وتحويل الفكر إلى (فن الممكن) كما السياسة، وكأن الناس لا يريدون ضابطاً يأخذ بحجزهم، ولا مانعاً يحد من اندفاعهم، فكل من قال كلمة الكفر في قصيدة أو رواية أو قصة مستهزئاً بالله وآياته ورسوله، أو مدنساً للمقدس، أو راداً لما علم من الدين بالضرورة، أو مقترفا لنواقض الإيمان، أو منتهكاً للحرمات معترفاً بالخطيئة مشيعاً للفاحشة، يرى أن من حقه ذلك، فهو باسم حرية القول يمتلك مشروعية الفعل التي يباركها الفارغون. و (النص) و (العقل) مناطا التكليف قال تعالى: - ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] . ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] وفي الحديث: - «**رفع القلم عن ثلاثة: -النائم حتى يستيقظ، والمجنون حتى يفيق، والصغير حتى يبلغ**». والثلاثة يعيشون حالة غياب للعقل، والنص يمنع الكلمة الخبيثة، ويدعو للقول السديد، ويذم التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول.

ولأن الأسلمة لسائر شؤون الحياة بما فيها الأدب إبداعاً ونقدا، تضع الضوابط، وتأطر على الحق، فإن المستغربين يعدون مثل ذلك معوقاً للإبداع ومثبطاً للعزمات وسبحات الفكر. و (الاتجاه الإسلامي في الشعر) من معطيات (الأدب الإسلامي)، وحين طرح هذا المصطلح المشروع بكل المقاييس، قام حوله جدل عنيف، لم يقم مثله إزاء أي مصطلح آخر، مع العلم أنه مصطلح دلالي، والأدب اليوم يتجه كلية صوب (الأدلجة)، محولاً الفن لخدمة العقيدة والحياة، والماركسيون حين تفلت من إسارهم (الشكلانيون الروس) طرحوا مشروع (البنيوية التكوينية) لتكون الدلالة كما يريد الماركسيون، ولم يتحفظ الحداثيون على البعد الدلالي الماركسي تحفظهم على البعد الدلالي الإسلامي، وما فعله الإسلاميون حق مشروع، لأن من حق الإسلام أن يهيمن، ومن واجب المسلمين ان يدخلوا في الدين كافة، وليس من مقتضيات ذلك التطرف أو التخلف. وما من ناقد تحفظ على شيء تحفظه على مقتضيات هذا المصطلح، على الرغم من مشروعيته، كما أن كافة المشتغلين بالأدب: إبداعاً وتنظيراً لا يخفاهم ما وقع فيه الأدب من انحرافات فكرية وسقوط أخلاقي مخل بالقيم، وما من أحد منهم تمعر وجهه من ذلك، بل إننا نجد من البعض مواطأة ومداهنة، فالروائي الذي يعتمد الرذيلة مادة إبداع، ويستمرئ إشاعة الفحش، ولا يخشى من تدنيس المقدس وأنسنة الإله، يرى أنه يمارس حقه المشروع في ظل الحرية المكفولة للجميع، حسب تصوره الناقص، والناقد الحداثي الذي يرود للمبدعين أو يحمي سياقتهم ينافح بكل ما أوتي من قوة عن سقط أولئك وحقهم في حرية القول الذي تحول إلى حرية كفر لا حرية فكر. وإذا سقت الدليل الشرعي القطعي الدلالة والثبوت بين يدي هؤلاء وأولئك رد قائلهم: - ((لا مزايدة على الإسلام)). وكأن الإسلام تميمة تعلق على الصدر، أو كلمة تكتب في الهوية، أو شعار يطلق في الهواء، ثم لا يكون الحكم لله، ولا الطاعة لرسوله، ومثل هذا الانتماء الشكلي الناقص لا يكون معه هم ولا فعل، والإسلام لايمكن تصوره بدون عقيدة في الجنان وقول في اللسان وعمل بالأركان، على هدي من الكتاب وصحيح السنة، وهؤلاء النقاد المعذرون المشرعنون للرذيلة تليهم طائفة أخرى من النقاد، وهم الذين يتصورون الإسلام خارج نصه ومراده، وأولئك أخطر عليه من المنافقين، لأن هؤلاء الذين يشكلون الإسلام وفق أهوائهم، يحرفون الكلم من بعد

مواضعه. وتباين الآراء حول أسلمة الأدب تمتد إلى القول حول مشروعية المصطلح أو مقتضياته، وتلك إشكالية تمس سائر المصطلحات.

والحديث عن مفردة ((الاتجاه)) يستدعي مصطلحات رديفة (كالنزعة) و (الرؤية) و(المضمون) أو غيرها، والشاعر حين يولي شعره شطر القضايا الإسلامية ثم لاتكون له مخالفة بينة وغير قابلة للتأويل والتبرير كالشطح والانحراف والسقوط والتعصب الأعمى والتصور الخاطئ، يكون في ذلك مستجيباً لله وللرسول، محققاً مقتضيات (الأدب الإسلامي) التي ينشدها المنظرون الواعون لمفهوم الأدب الإسلامي. و(الشعر) و (المعاصرة) مصطلحان يقتضيان التوفر على الشرط الفني والزمن القائم، فإذا لم يكن الشعر شعراً بمفهومه العربي ووفق الضوابط التي تحفظ له تميزه عن النثر وعن سائر فنون القول إنه يخرج عن مقتضى المصطلح ليدخل في أي نوع قولي. والنثر الفني لا يقل أهمية عن الإبداع الشعري ولو امتد نظرنا إلى مصطلح ((الأدب الإسلامي)) فإننا نجد كلمة (أدب) بوصفها الاصطلاحي، وهي الجزء الأول من هذا المصطلح المركب لا تعطي دلالتها حتى تحدد بوصف أو بإضافة تنسب الأدب إلى عصره، أو إلى إقليمه، أو إلى لغته، أو إلى مذهبه الدلالي، أو الفني، أو إلى مرحلته السياسية، فنقول: ـ الأدب الجاهلي، أو الإسلامي، أو العربي، أو العباسي، أو الماركسي، أو الحداثي، وليس في شيء من ذلك تجزيئية أو بدعة ثم إن كلمة (أدب) تستدعي فنيات قولية تخول الأداء القولي ليكون إبداعاً مستكملا للشرط الفني في مجال الشعر أو الرواية أو القصة، والمعنى الشريف حين لايتوفر نصه على متطلبات الإبداع الفنية لايكون أدباً، وإنما يكون قولا من القول، والمؤلم ان المتفلتين من إسار القيم الدلالية لم يتوفروا على قيم لغوية وفنية وجمالية، واقرؤوا إن شئتم هذا الطفح الرخيص من الروايات، وذلك السقط المشين من الشعر لتروا صنعةً في اللفظ وضعة في المعنى.

ومن عجب أن خصوم هذا المصطلح يفهمونه على غير مراد ذويه، ومن ثم يتصورونه نفيا لأي أدب لايتوفر على شرف المعنى، والقرآن الكريم لم يمارس النفي، بل اعترف لشعراء الغواية بالشاعرية، فيما ذم مضمون شعرهم، وذلك ما يقتضيه مصطلح (الأدب الإسلامي) فهو يصف ويصنف ولا ينفي، وآخرون من الخصوم يودون العودة إلى جاهلية لا تختلف عن الجاهلية الأولى. فرفض المضمون الأخلاقي، والتخلي عن حمل هم الأمة المسلمة. والتمنع عن توظيف الكلمة الطيبة للدفاع عن حوزة الدين مع عدم الاخلال بالمقتضى الفني والزينة القولية التي يتطلبها الإبداع تمنع عن الدخول في الإسلام كافة، وإذا كان الأدب الجاهلي يمثل القيم الجاهلية، فإن الذين يناوئون أسلمة الأدب إنما يدعون إلى حمية جاهلية. والذين يستمدون أفكارهم من الفلسفات الوضعية، ثم يرسمون طريق الأدب والفكر والفلسفة إنما يريدون للأدب كما لغيره أن يكون داعية سوء على أبواب الرذيلة بأنواعها. ورضيع المذاهب الوضعية يفصل الأدب عن خالقه، ويركسه في وحل الرذيلة، ويؤصل فيه الفوضوية باسم الحرية.

والأديب الإسلامي والناقد الإسلامي الواعيان لمهمتهما يدركان حدود ما يتطلبه الأداء الإبداعي من خلال بعديه الفني والدلالي. فالناقد الواعي لموقفه يرفض الطوارئ المخلة بالقيم الفنية، ك (العامية) و (النثرية) و (التغامض) و (خلق الأسطورة) و (الإغراق الخرافي)، فيما لايمانع من (الغموض الفني) و (التوظيف الأسطوري غير الوثني)، و (الرمز) و (القناع) و (الانزياح) و (التحرف الشكلي) الذي يحفظ للشعر تميزه عن النثر. وهو كذلك يرفض الخروج على المقتضى الإسلامي في البعد الدلالي، ولكنه لايجد حرجا من المتع المباحة واللهو البريء، ثم إنه في كل ذلك يملك حساً أدبياً، يمكنه من التفريق بين مهمة الشاعر ورسالة الواعظ وواجب العالم. فالشاعر غير الواعظ،

والناقد الإسلامي غير الفقيه، وحملة هم الأسلمة لايكون أحد منهم ساذجاً بحيث يقترف خطيئة الخلط بين المهمات والتخصصات، أو يقبل الرديء من القول لمجرد ان مضمونه إسلامي ومن ثم فإن علينا ونحن بصدد الحديث (الاتجاه الإسلامي في الشعر العربي المعاصر) ان نتحفظ على أشياء أساءت إلى أسلمة الفن فالشعر الديني النظمي الرديء الذي لايتوفر على لغة شعرية، ويقوم على المواعظ، والرقائق، والمدائح النبوية ذات الطابع الصوفي التوسلي، والقبوريات، والابتهالات التي لا تحمي جناب التوحيد، والزهد المغيب للمؤمن القوي. كل هذا لايكون شيء منه محسوباً على هذا الاتجاه، ولا يجوز لأحد ان يقدم شيئاً منه بوصفه وثيقة نصوصية، تجلي خصائص الاتجاه الإسلامي في الشعر، وتدين الناقد والمبدع الإسلاميين، والمتعقب للإنشاد والمنشدين في الموالد النبوية يقف على جنح عقدية، وأساليب رديئة وكلمات وأوزان ليس لها في اللغة ولا في العروض من خلاق. وفي الوقت ذاته فإن الضعف العارض لأي مبدع أو ناقد إسلامي لا يحيل على الإسلام وأهدافه ورؤيته للأدب. الأدب الإسلامي يستمد جمالياته من الاعجاز البياني، وممن أوتي جوامع الكلم، ويستلهم قيمه من معاني الذكر الحكيم، والهدي النبوي الشريف، ومن أدب السلف الصالح الواعي لمهمته في الحياة وحاجاته البشرية وضعفه الإنساني وحبه للزينة والطيبات والجمال. وإذا ضعفت موهبة الشاعر، أو تدنى خياله، أو تعثرت لغته، أو تفهت معانيه، أو تضاءلت تجاربه، أو تسطحت معارفه، وجب على الناقد أن يذوده عن حياض (الأدب الإسلامي)، وألا يشفع له شرف المعنى، فالشعر لايكون شعراً حتى يستكمل متطلبات الفن الرفيع، والشاعر لايكون شاعراً حتى يكون (قوي الموهبة) (عميق الثقافة) (ناضج التجربة) (بعيد الرؤية) (شمولي التصور)، والذين يتعقبون سقط الشعر الديني أو رديء الشعر الإسلامي، يجرمهم شنآن الإسلام على ألا يعدلوا، ومن واجبنا ألا نتعاطف مع الذين يهتاجون لنصرة الدين، وهم فارغون من الإمكانيات، فالإسلام غني عن المتردية والنطيحة، الإسلام دين القوة، دين البيان والفصاحة، دين الكلمة الطيبة والقول السديد، وإذ لا يقبل التناجي بالإثم والعدوان، فإنه لا يعول على رديء القول وضعيف الأداء.

وإذا كان المتحفظون من النقاد يشفقون على الأدب من أثقال الموضوعات الإسلامية، ثم لاينظرون إلى تحقق ذلك في الذكر الحكيم والسنة النبوية المطهرة وأدب السلف الصالح، فإنهم ناقصو الرؤية؛ وهل أحد يجهل اهتمام الإسلام بالجمال والامتاع؟ وهل أحد ينكر أعمالاً شعرية في غاية الجودة خدمت العقيدة وكرست القيم الأخلاقية؟ والشعر العربي الحديث الذي لايحمل هما إسلامياً استمد من القرآن الكريم بعض آية، ولطائف حكمه، وعبر قصصه، وجميل صوره، فكان إشعاعه، وكان اثره، وقد تقصى أطرافا من ذلك (محمد عباس الدراجي) في كتابه ((الإشعاع القرآني في الشعر العربي))، والدكتور (شلتاغ عبود مراد) في كتابه ((أثر القرآن في الشعر العربي الحديث)) كما تعقب بعض الدارسين (التناص والاستلهام القرآني) عند بعض الشعراء الحداثيين الذين لا يحملون هما إسلامياً، نجد ذلك في كتاب الدكتور (عبد العاطي كيوان) في كتابه ((التناص القرآني في شعر ءأمل دنقل)) وفي كتاب الدكتورة (اخلاص فخري عمارة) ((استلهام القرآن الكريم في شعر أمل دنقل)) والمعروف ان الشاعر (دنقل) من رؤوس الفتنة وسدنة الحداثة، ومن عمالقة الشعر، وهو قد استمد فيضا من روائع القرآن، فأحسن وأساء، ولكنه في الحالين استحضار لقيم الجمالية، واستلهام للمضامين الدلالية، وقد نقف في التناص على تحريف أو سوء أدب. والثقافة العربية إسلامية، والحضارة الإسلامية قائمة ومؤثرة، والعالة عليها ينقمون على ضوابطها العقدية والسلوكية، وبعض النصوص المتمردة يحسبها البعض أدبا إسلاميا، وماهي من هذه الوجهة، وتلك من إشكاليات المصطلح، فكم يُحمَّل الاتجاه

الإسلامي ما لا يحتمل، وكم يقترف الشعراء خطيئات وانحرافا لا ينتبه لها النقاد والدارسون، فيعدون ذلك أدباً إسلامياً، يأتي مثل هذا في الأدب الصوفي المتجاوز حد السلوك إلى المعتقد وفي الأدب الديني المغرق في الخرافة، وفي الزهديات التي تمعن في تحريم ما أحل الله، والاتجاه الإسلامي الصحيح لا يتسع لهذه التجاوزات، فالقبوريون لا يحمون جناب التوحيد، والمتصوفة الخرافيون لا يحققون مقاصد الإسلام في عمارة الكون وعبادة الخالق وهداية البشرية، والمتزهدون يقتربون من رهبانيات ابتدعوها ما أنزل الله بها من سلطان، ولهذا فإن النقد الإسلامي يعي موقفه ومهمته، وينفي الشطح وخطأ التصور وسوء الأدب، وإن كان فيما يقال حس إسلامي.

الاتجاه الإسلامي في الشعر العربي المعاصر التجليات والتحفظات .. !

(٣- ٥) [١]

والإسلام الذي حف الجنة بالمكاره، وحف النار بالشهوات، ندب إلى الجمال، والله جميل يحب الجمال، والكون كله صفحة جميلة، خلق الانسان في أحسن تقويم، وصوره فأحسن صورته، زين السماء الدنيا بزينة الكواكب، وزينها للناظرين، وأنبت الحدائق ذات البهجة، وأنزل الماء على الأرض الهامدة الخاشعة، فأرباها وأنبت فيها من كل زوج بهيج، وجعل في الأنعام جمالاً حين يُريح أصحابها وحين يسرحون، وأحسن كل شيء خلقه، ووصف أنهار الجنة وثبات أهلها وحليهم، وندب إلى أخذ الزينة عند كل مسجد، وحث على الغسل والطيب والسواك واللباس الحسن والنعل الحسن، ولم يجعل شيئاً من ذلك من الكبر، والإسلام يدعو للحق والخير والجمال والجلال والاعتدال والنظام والنظافة والاستقامة، ويحرض على التربية الجمالية، ليكون احساس المسلم جمالياً يتذوق الجمال ويعبر من خلاله، والقرآن الكريم يعتمد الجمالية البنائية والدلالية مستوفياً شرف اللفظ وشرف المعنى، وقد أمد البلاغيين من عيون البيان والبديع والمعاني، وجمالية النسق وسيلة للامتاع والتأثير والاستمالة، وليس الجمال غاية بذاته، ومن ثم فإن الجمال ذو بعد قيمي وظيفي، فيما يأتي الجمال والزينة عند الشهوانيين من باب الخداع الشيطاني ﴿ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٢] ، ﴿ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ [غافر: ٣٧] ، ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ ﴾ [آل عمران: ١٤] وقد تعهد ابليس حين أغواه الله أن يستدرج الناس بالزينة ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الحجر: ٣٩] فالزينة تكون طريق هداية وطريق غواية، والشعراء يكونون شعراء هداية وشعراء غواية، والجمالية القولية في الهداية والغواية واحدة، إذ ليس هناك فارق في البعد الفني، وإنما التمايز في البعد الدلالي، والشعراء الذين مكن الله لهم في سوح الشعر، وهداهم إلى أقوم الطرق، ظفروا بالحسنيين: جمال في الأداء، وجمال في الموضوع، وكان القرآن الكريم المدد الثر لهم، والشعراء الإسلاميون منذ العصر النبوي أدركوا «مهمة الشاعر»، وعرفوا حدود ما أنزل الله، واستغلوا المباح، وكيف لا يكون هناك مباح، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول لعائشة «**إن الأنصار يعجبهم اللهو**» ويقول لأبيها حين نهر الجاريتين المغنيتين في بيت رسول الله ﷺ: «**دعهما يا أبا بكر فإن اليوم يوم عيد**» كما أنه لم يتحرج من الخروج بعائشة، لينظرا معاً إلى الأحباش وهم يرقصون، والناقد الإسلامي يعرف المحظور والمباح، ويعرف أن الإسلام لم يكن في يوم من الأيام عائقاً في طريق الفن والجمال والابداع، وكيف يكون وخالق الجمال هو الله الجميل المحب للجمال، ومع الوعي التام بمهمة الشاعر والعالم وبحدود الترويح والايغال الرفيق في الدين المتين، فقد خاض الشاعر الإسلامي ساحة الصراع بين الكفر والايمان، محتفظاً بفنية الشعر ولغته العالية وأيد الرسول ﷺ المنافحين عن حوزة الدين، وأهدر دم شعراء المشركين، ونهى عن رواية بعض القصائد، وذم مالئي الأجواف بالشعر، وعُني الخلفاء الراشدون ومن بعدهم بالشعر الأخلاقي، واهتم به الموسوعيون والمفكرون، كالجاحظ وابن قتيبة وابن مسكويه وابن حزم، واعتمده المفسرون والبلاغيون واللغويون والنحويون والصرفيون، وجاء ابن

---

(١) تاريخ المقال: ١٤/ ٨/ ٢٠٠١

عباس على قائمة المتكئين على الشعر في التفسير وفي الاستمتاع به، ونشأت مذاهب وآراء حول مشروعية الاستمتاع بالشعر، وتداول النقاد آراء الشافعي والحصري وغيرهما، وأسقط المحتشمون من الرواة الشعر الفاسد، وتحرجوا من روايته، كابن هشام والمبرد والبطليوسي وابن بسام والشريشي، فلم يرو بعضهم النقائض، ولا شك أبي العلاء، ولا مجون أبي نواس، ولم يترددوا في نقد الفاسد من الشعر، نجد ذلك عند الباقلاني وابن سلام وابن عتيق، وفي المقابل تجد احتفاء بالقيم الأخلاقية وحثا على رواية الشعر، وما غابت الرؤية الإسلامية للأدب عبر كل العصور، وفي المقابل نجد المجون والتهتك عند الشعراء الشعوبيين، ورواية المجون والغزل الغلماني عند الأصفهاني وابن الجراح والثعالبي وغيرهم، وإذا كنا نتلمس الاتجاه الإسلامي في الشعر الحديث، وهو تلمس محفوف بالمزالق، لما لهذا التيار من تباين في وجهات النظر، وتشعب في الطرق، واختلاف في التصور، فإن اتجاهات أخرى ليست من الإسلام في شيء يتراءاها المتابعون عن يمين وشمال، ومفارقتها الإسلامية تقتضي التركيز على مهمة الترشيد والأطر، ولو عدنا إلى رصد الحداثيين لاتجاهات الشعر، لوجدنا «خالدة سعيد» زوجة «أدونيس» تلمح إلى ان اتجاهات التجديد في الشعر الحديث مرتبطة بالعلمانية والتطورية الداروينية، وتلك أبعاد موضوعية لم يتحفظ عليها أحد، وبخاصة من أولئك الطيبين الذين يقفون من مصطلح الأدب الإسلامي وقفة الخائف المترقب، والمتسائل الشاك، والمتردد المثبط، والشعر حين تلوثه المادية الالحادية بكل وضرها، وحين تمتد عروقه لتمتص نسغ الماركسية والداروينية والعلمانية والفرويدية، يدين الواقع الحضاري للأمة المسلمة التي كاد يكون فيها المبدع الملتزم غريب الوجه واليد واللسان، فهذا الامتصاص تشويه للأدب وفنونه، وتدنيس لعقيدة الأمة، وإدانة لحضارتها في هذه المرحلة، وحين تتبدى لناشئة الأمة هذه الانحرافات، يتغير المنظور الثقافي، وتختلف الرؤى والمقاييس والمفاهيم، وصدق المستشرق «شارل بيلا» وهو كذوب، حين أكد أنه لا يقرأ إلا الأدب العربي القديم، لكون الأدب العربي الحديث أوروبي النزعة والأفكار، غير أنه مكتوب بحرف عربي، وتلك مقولة مخجلة ومخلة بالأهلية، لأنها مقولة ساخرة، فالمعاصرون يجترون سقط الحضارة الغربية، بحيث لا يبادرون، ولا يبتكرون، ولا يؤصلون، ومع ذلك يدَّعون التجديد، والمخربون لمدينة الشعر بالتغامض والنثرية والالحاد والفحش يتقنعون بدعوى التجديد، وما لهم بالتجديد من علم، وليسوا منه في العير ولا في النفير، وتلك أعمالهم الابداعية وأقوالهم التنظيرية والنقدية، فهل شيء من الابداع أو التنظير جاء بمبادرة تسد حاجة، أو تستجيب لمطلب؟ أم أنهما أصداء لما في الشرق الماركسي أو الغرب العلماني؟، وجلب الظواهر وسائر القيم الفنية والدلالية ومحاكاتها، لا يكون تجديداً، التجديد انبعاث من الداخل، واستجابة طوعية عفوية لحاجة الأمة، واحتفاظ بالشخصية والخصوصية، وأخذ من الآخر بمقدار، وإذ يكون التجديد ضرورة لا مناص منها ولا مجال للتحفظ عليها، فإن له شرطه وتصوره ومجالاته، والناس أبناء حاضرهم، وعقدة الأبوية والانساق والثبات من المعوقات، ومن ثم فإن دعوى التجديد دون وعي ارتكاس في حمأة التقليد، وحالة الانبهار والانهيار لا تعد من التجديد في شيء، وتلك سمة الشعر الحداثي، وما راءٍ كمن سمعا، فهذه خرائبهم في مجموعاتهم الشعرية تنبئك عما في صدورهم، وحين يكون الانحراف الفكري والسقوط الأخلاقي والاعتراف المشين سمة الشعر الحداثي، نراه يقع في التغامض والطلسمة والنثرية والانقطاع، على حد قول محمود درويش: «قصائدنا بلا لون بلا طعم بلا صوت»، ولأنه كبير المخربين الذين جرَّؤوا المبتدئين على الرذيلة وانتهاك المقدس، فقد ظل مضطرب الرأي والرؤية، فهو يدعو إلى «إفهام البسطاء أو الصمت»ثم يناقض نفسه ليقول: «لن تفهموني دون معجزة لأن لغاتكم مفهومة إن

الوضـــــــــــــــــــــــــوح جريمـــــــــــــــــــــــــــــــــة»

فإلى أي الرأيين نذهب:

إلى إفهام البسطاء، وهذا يقتضي الوضوح.

أو إلى الغموض لأن الافهام جريمة.

لقد حوربت الكلمة الطيبة بمشروعين مشبوهين:

مشروع الإفساد والانحراف.

ومشروع الغموض والاستحالة والعامية.

وهذا الاجهاض المتعمد للكلمة الطيبة، وتلك الترديات المخلة بالمروءة والعقيدة والمجهزة على الفن الرفيع تحفز الغيورين على الدين وقيمه والفن وأثره، وتحملهم على النهوض بمسؤولياتهم، لقد تقصى الدكتور «سعيد ناصر الغامدي» انحرافات شعراء الحداثة في رسالته التي تجاوزت صفحاتها ألفاً وسبعمائة صفحة، وكنت سعيداً بمناقشتها متألماً ومستاءً من التفسخ والكفر البواح الذي رصده الدارس من خلال نصوص صريحة لا تحتمل التأويل، ولا أشك أن هذه الانهيارات التي منيت بها الأمة العربية وتسلط اليهود الأذلاء عليهم بالقتل والتشريد وممارسة بعض الحكام لأسوأ الأعمال مع شعوبهم ومكائد الأعداء والفتن العمياء إنما هو جزاء موافق لما هم عليه، والله جل وعلا لا ينصر إلا من ينصره، ولا يظلم ربك أحداً، وما أحوج الأمة إلى الاستقامة كما أمرت ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦] وما أحوجهم إلى أن يفروا إلى الله.

والذين اتخذوا مقولة الأصمعي في الفحولة والجزالة واللين، وأن للموضوعات أثراً في ذلك، وما جاء في «الموشح» و«أمالي المرتضى» و«الكامل»، من أن الشعر إذا أدخلته باب الخير لان، تعويل غير حصيف، ثم إن ضرب المثل بما عرض لشعر حسان بن ثابت من لين بعد إسلامه والتزامه لم يكن قد تبدى في شعره الجاهلي ضرب مع الفارق، فالإسلام حين اقتحم عوالم الأمة جاء مهيمناً، وجاء بقرآن بديل، وجاء بمهمات جسام.

فالقيم الأخلاقية الإسلامية حَدَّت من فوضوية الشعراء.

والقرآن باعجازه البياني بهر المتلقي وأغناه، وهذا لبيد يقول: «قد أبدلني الله بالشعر سورتي البقرة وآل عمران»، والإسلام حوَّل أفراد الأمة من رعاة فارغين إلى قادة ومسؤولين، وهذه الحياة الجديدة التي طرحها الإسلام غيرت المفاهيم، وربكت الشعراء، وحدَّت من فوضويتهم، وقمعت فجورهم، وأشعرتهم بقيمة الكلمة، والإسلام لم يتعمد اضعاف الشعر، ولم يكن من مهماته أن يصرف الشعراء عن الشعر ولا العلماء عن ا ستجادة معناه ومبناه، واستجادة مبنى الشعر من النقاد وإن ضعف معناه أو شابه شيء من الجنح لا يقدح بالعقيدة ولا يمس الخلق، وابن عباس الصحابي المتفقه أعطى جودة المبنى حقها، تجلى ذلك في موقفه من شعر الغزل العذري، وفي «الشعر والشعراء» و«العمدة» استجادة عمر لشعر زهير، لأنه لا يمدح الرجل إلا بما فيه، في المقابل تجلى موقفه المرهص لمصطلح «الأدب الإسلامي» من الخطيئة الذي سجنه، ثم رق له وأخرجه، ومن النجاشي الحارثي الذي توعده بقطع لسانه، وضعف الشعر نتيجة ارتباك الشعراء واندهاشهم بالقرآن ونهوضهم بمسؤولياتهم الإسلامية ولما يكن من مقاصد الإسلام، والضعف حقيقة وانكارها تعسف لا مبرر له، غير أن الشعر استعاد عافيته، وأخذ الشعراء وضعهم الفحولي، بعد أن أشربوا في قلوبهم الإسلام، ووعوا رسالتهم، من ثم فإن الاتجاه الإسلامي حين يظفر بموهوب مستقيم على الطريقة، عميق الثقافة، صادق

التجربة، يأتي بما لم تستطعه الأوائل، فأين الضعف في إسلاميات شوقي، وملامحم محرم، وابتهالات الأميري، وأغاني وليد الأعظمي، وأناشيد الرافعي وأحمد محمد صديق، ومعاناة التهامي، وصلاة محيي الدين عطية، وترانيم الميداني، وعرائس العظم، وتسابيح فودة، وتوقيعات يحيى الحاج يحيى، وثلاثيات الأمراني، وجراح عقيلان، وسبحات رجب، وشدو كمال رشيد، ونفثات جمال فوزي، وصرخة معروف محمود، وشكاية محمود غنيم، وانتفاضات أبي ريشة، ومنافحات حافظ، واجتماعيات الرصافي، وأين الضعف في الشعر الذي واكب حركات الاصلاح الديني، ودعا إلى التضامن الإسلامي، وتغنى بالوحدة العربية، ونافح عن الخلافة الإسلامية، وقاوم الاستعمار، وتصدى للظلم، وناهض الفساد عند مئات الشعراء الذين جاؤوا من قبل ومن بعد، ثم أين القوة في انحرافات الحداثيين النثريين المتغامضين؟ وأينها في فجور الماجنين المتهتكين؟ ممن أشاعوا الفاحشة، وجاهروا بالمعصية، وأشاعوا ما ابتلاهم الله به من القاذورات، فكانوا قدوة سيئة، فالضعف والقوة مرتبطان بالشاعر، وليس للشر أو للخير سبيل في ذلك، فالضعف الفني يرتبط بإمكانيات الشاعر ذاته وبموهبته وبتجربته وبثقافته، ولا يمتد إلى الاتجاه كما يتصور البعض.

الاتجاه الإسلامي في الشعر العربي المعاصر التجليات والتحفظات .. !

(٤-٥) [(١)]

والنقد العربي القديم والحديث راعته ترديات الشعراء وانحرافاتهم، فكان أن واجه المنحرفين من الشعراء والمباركين للانحراف من النقاد، وحرض المؤمنين على القول السديد. والذين يدعون أن الشعر بمعزل عن الدين يضربون في فجاج التيه والإدعاء الكاذب، فالقرآن الكريم فرق بين شعراء الهداية والغواية، والرسول ﷺ تعددت مواقفه من الشعر بتعدد المستويات الدلالية. والاتجاه الأخلاقي في النقد العربي القديم والحديث تقصاه عدد من الدارسين ورصدوه تاريخاً واتجاهاً، تنظيراً وتطبيقاً. نجد ذلك عند «نجوى صابر» في كتابها «الاتجاه الأخلاقي في النقد: أصوله وتطبيقاته»، وعند «محمد بن مريسي الحارثي» في كتابه «الاتجاه الأخلاقي في النقد العربي حتى نهاية القرن السابع الهجري»، وعند «غسان اسماعيل عبد الخالق» في كتابه «الأخلاق في النقد العربي من القرن الثالث حتى القرن السادس الهجري» وعند مصطفى عليان في كتابه «نحو منهج إسلامي في رواية الشعر ونقده».

ومع تحديد «مهمة الشاعر» في الحياة فإننا لن ندخل في جدل النقاد والأدباء، إذ كل فريق منهم يود من الشاعر خدمة غاية محدودة، دون النظر إلى الغايات الأخرى، والقليل من يرى تكافؤ الفرص، ولو امتدت نظرتنا إلى التراث لاستجلاء رؤيتهم في مهمة الشاعر، لرأيا الجدل قائماً بين «رواة الأخبار» و «النحويين»و «اللغويين»، وقد جسد هذا الاختلاف الجاحظ حين تحدث عن هم أبي عمرو الشيباني، وأبي عبيدة، وابن الأعرابي، ونظر بعض هؤلاء إلى القدم والحدوث الزمني، ونظر آخرون إلى اللفظ والمعنى، واستمر الحديث عن «مهمة الشاعر»، لتصل إلى العصر الحديث فيتلقفها الرومانسيون، والواقعيون، والكلاسيكيون، والأخلاقيون، والحداثيون، والحركيون، والمؤدلجون، والمسيسون، والفنيون، والإسلاميون، وسائر الطوائف، والأحزاب، والمذاهب، وكل حزب أو طائفة أو مذهب يرسم طريق الشاعر ويحدد مهمته. نجد مثل ذلك عند «سيد قطب» في كتابه «مهمة الشاعر» وفي كل مرحلة تعاد هذه القضية جذعة. وأحسب أن الوقوف بالحديث عند «مهمة الشاعر» وقوف ناقص، فالإنسان قبل أن يكون شاعرا هو صاحب عقيدة ورسالة في الحياة، والله قد استخلفه في الأرض، وهو سائله عما يعمل وعما يقول: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] . ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] . ﴿وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠] . » ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [الحج: ٢٤] .

فتناول «مهمة الشاعر» بمعزل عن مهمة المسلم في الحياة تناول ناقص وساذج، وحين نتحدث عن «مهمة الشاعر» في الحياة مستحضرين مهمته كإنسان ومهمته بوصفه مسلما، نصل في النهاية إلى الغاية المرجوة، ومهمة المسلم في الحياة تقوم على عدة محاور:

عمارة الكون. هداية البشرية. عبادة الخالق.

التمتع بزينة الحياة التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق.

التفكر في ملكوت السماوات والأرض.

---

(١) تاريخ المقال: ٢١/ ٨/ ٢٠٠١

ولكل محور ضوابطه ومقتضياته التي لو تقصيناها لطال بنا الحديث وتشعب، ثم إن تناول الاتجاه الإسلامي في الشعر لا يقف عند حد النص بل يتعداه إلى: الموقف من الاتجاه ذاته، وترتيب الأولويات، وأسلوب التناول للقضايا والمواقف. والشاعر في مواجهة النوازل بحاجة إلى «موهبة قوية» و«ثقافة عميقة» و«وعي تام». وتلك إشكالية المشهد الثقافي، تتنامى فيه القضايا والمواقف والخيارات والرؤى، فمشروعية الفعل حين تختلف حولها وجهات النظر، ثم يكون لكل وجهةٍ منزع ودافع، يقتضي الموقف تحرير المسألة، ليكون طريق الأداء قاصداً معبداً، والذين يتعقبون أطروحات المفكرين والنقاد الإسلاميين، يروعهم التباين في وجهات النظر، فكيف إذا نظر المتعقب للمفكرين والنقاد الحداثيين والوضعيين والماديين؟ والمسلم الواعي من يعرف أن الرسل والأنبياء لا يملكون لأنفسهم ولا لعشيرتهم الأقربين نفعاً ولا ضراً، ومع هذا فإن من واجبه أن يعمل، وليس عليه هداية الضالين، فالله وحده الهادي لمن يشاء، وما يفعله الناصح معذرة إلى ربهم، ولعل الحائرين يهتدون.

والأدب الإسلامي: إبداعاً ونقداً وتنظيراً، قائم على أشده، وهو خاضع لسنة التدافع والتداول، يقوى، ويضعف، ولكنه لا يموت، وهو كغيره من الاتجاهات والنزعات في جزر ومد. ولو أننا أجلنا النظر فيما جمعه المهتمون بالقوائم السردية للشخصيات أو للأعمال أو ما قام به الدارسون والمترجمون للشعراء والكتاب والروائيين والقصاص والنقاد ذوي التوجه الإسلامي لوقفنا على آلاف المبدعين، وعشرات النقاد والدارسين، ومئات الدواوين والأعمال الروائية والقصصية، وما تم رصده قليل من كثير في زمن الريادة لهذا الاتجاه، وعندما يبلغ الأدباء مرحلة التأسيس والانطلاق، يأخذ الأدب الإسلامي موقعه الطبعي بين الاتجاهات والنزعات.

فالدكتور «عبد الباسط بدر» على سبيل المثال، أنجز «الجزء الأول» من «دليل مكتبة الأدب الإسلامي» حيث رصد فيه الكتب المطبوعة من مجاميع ودراسات وبحوث وتراجم ودواوين شعرية وأدب رحلات وروايات وقصص ومختارات ومذكرات ومسرحيات ومقالات. كما أنجز الأستاذ «أحمد الجدع» «معجم الأدباء الإسلاميين المعاصرين» في ثلاثة مجلدات، ترجم فيه للأدباء ذوي النزعة الإسلامية، وقدم نماذج من أعمالهم، وقد بلغ عدد الذين وسعهم هذا المعجم ثلاثمائة وثلاثة وستين أديبا، لم يكن من بينهم كاتب هذا البحث، مما يدل على عدم استيفائه لكل الأدباء ذوي النزعة الإسلامية، وصدرت من قبل سلسلة شعراء الدعوة الإسلامية في عشرة أجزاء، وقامت «رابطة الأدب الإسلامي العالمية» بمجلاتها ومؤتمراتها وندواتها ومكاتبها وكتبها، وقدمت الرسائل العلمية عن شعراء الدعوة الإسلامية في مختلف العصور إحصاءً وترجمة ومختارات وتوسع الدارسون في استيفاء الحديث عن ذوي النزعة الإسلامية وذوي المضامين الأخلاقية ومن خدموا حركة الإصلاح في القديم والحديث في مختلف الأزمنة والأمكنة في البلاد الإسلامية، وطبعت رسائل علمية عن العامل الديني في الشعر المصري والجزائري وسائر البلاد الإسلامية العربية وغير العربية، تبدت من خلالها الأفكار والمعاني، وتعددت الاتجاهات، وتنوعت الاهتمامات، وجاء الشعر القوي والضعيف، والمقبول، والمرفوض، والمتحفظ عليه، ومن خلط عملا صالحا وآخر سيئا، وكل هذه الكتب والأعمال مليئة بنصوص إبداعية تمثل الاتجاه الإسلامي في سائر فنون القول، وهي موزعة بين عدة اتجاهات .. منها على سبيل المثال لا الحصر:

الاتجاه الدعوي: والدعوة هنا تتجاذبها الحكمة والموعظة الحسنة والدفع بالتي هي أحسن، أو الغلظة والفظاظة وعنف القول، وتلك سمات الدعوة العامة، وحين تمتد رؤيتنا إلى فنيات النص، نجدها أقل مما هي عليه في الاتجاهات الأخرى، والدعويون يكونون

من العلماء النظامين، ومن المفكرين المتفلسفين، ومن العاطفيين الثائرين، ومن ذوي الاتجاهات والمذاهب، ولسنا بصدد النظر في تفاصيل ما يقولون ولا من المعنيين بالمقبول والمرفوض والمتحفظ عليه، كل الذي يهمُّنا تجلية الاتجاهات.

وقد لاتكون الأعمال الشعرية الدعوية خالصة لذات الدعوة، إذ ربما يستهل الشاعر قصيدته بتصوير موقف بطولي أو إنساني، حتى إذا وثق من إصغاء المتلقي أفاض بالحديث إلى الدعوة، ويجب هنا أن نفرق بين الدعوة والموعظة، وإن كان بينهما خصوص وعموم، وشعر الدعوة لاتختص به طائفة من الشعراءعند قضية واحدة، ولايستقل بديوان، ولكن القصيدة ربما تكون خالصة للدعوة، وقد يتجاوز الشاعر الموعظة ليكون عمله خطاباً شعرياً مسيّساً، يعتمد ضرب الأمثال والتركيز على تجلية محاسن المشروع السياسي، وهذا اللون من الإبداع تفرزه الانتماءات الحزبية.

وقد يكون الشعر والشعراء في ظل حركات الإصلاح الديني، ولنذكر على سبيل المثال حركة الإصلاح الديني في الجزيرة العربية التي نهض بها المصلح المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله لقد ناصرها شعراء نجد المعاصرون حين تأثروا بها، واستجابوا لها، فكان منهم النظامون كابن سحمان وابن غنام، ومنهم المبدعون كابن مشرف وابن عثيمين وابن بليهد، ومن المعاصرين محمد بن سعد الدبل وعبد الرحمن العبيد وناشئة من الشباب الذين لا تحصي لهم عدداً، ولأنها ذات جزر ومد كما أدوار الحكم السعودي، فقد استجاب لها شعراء الآفاق الإسلامية، وتصدى لها بعضهم، وتركت أثرها الموضوعي في الشعر ومثلما انبرى الشعراء في نجد والحجاز وسائر البلاد لنصرة الدعوة نجد أن حركات الإصلاح الديني في مصر والشام حظيت بشعراء جاهدوا بأقلامهم وألسنتهم من أمثال: الرافعي وحافظ وشوقي ومحمود غنيم وأحمد محرم والكاشف، وبالرجوع إلى كتاب «العامل الديني في الشعر المصري»، وكتاب «الشعر الديني في الجزائر» تتبدى لنا الأبعاد والفنية والكم الكبير من النصوص والأعمال.

والشعر الدعوي أميل إلى الخطابية وأقوى في الأداء، وقد لا يكون موالياً لهذا المشروع أو ذاك. يقول الشاعر محمود النجار ١٩٥٨م .. من قصيدة «طريق الحق»:

طريـــــــق الحـــــــق أعشــــــــقها
أســـــــير بهـــــــا ولا أجـــــــزع
مـــــــع الأجيـــــــال تنشـــــأ فـــــي
رحـــــــــــــاب الله لاتفـــــــــــزع
تحـــــــــــب الله تعبـــــــــــده
لغيـــــــــــر الله لا تركـــــــــــع

ويقول محمد عواد ١٩٣٤ه ١٩٦٥م من قصيدة «صيحة الحق»:

أخـــــي طـــــال عهـــــدُك بالمرقـــــد
وطـــــال اصـــــطبارك بالحُقّـــــد
وطـــــال انتظـــــارك يـــــوم الخـــــلاص

ويـــــــوم الكرامـــــــــة والســـــــــؤدد

وإذا تجاوزنـا «الاتجـاه الـدعوي» وجـدنا اتجاهـاً آخـر، يتمثـل فـي شـعر المقاومـة والتصدي للظلم، والشعراء ذوو الاتجاه الإسلامي تتنازعهم رغبات وهموم داخل الهم الأوسع.

فالهم الإسلامي ينطوي على أولويات، وكل شاعر تحركه الوقائع والأحوال، والوطن العربـي تختلـف وقائعـه وأحوالـه ورؤاه وتصـوراته وأوضـاعه الاقتصـادية والاجتماعيـة، وتلك إشكالية العالم الإسلامي أضفاها على الأدب، كما أضفى عقباته إلى عقبات الأدب، وما أكثر العقبات في طريق الإسلام ومسالك الأدب الإسلامي، ومن ثم فإن الشاعر صدى للأحداث.

والمواقف فـي عالمـه الـذاتي والإقليمـي والعـالمي هـي التـي تحـرك المواهـب وتفجـر المشاعر.

فشاعر إسلامي في المملكة يكون شعره في الأعم الأغلب متجهاً صوب الأحداث العربية وما تعانيه الأقليات المسلمة من تمييز واضطهاد، وما يشيع في البلاد الإسلامية من جنح فكريـة وسقوط أخلاقي بسبب الحاكميـة الوضـعية، ولـو ضـربنا المثل بمشـاطرة الشـاعر السـعودي لأبـرز الأحـداث الإسـلامية، وهـي «قضـية فلسـطين»، لوجـدناه فـوق التصور، حتى لقد أصدر عددٌ من الشعراء مجموعات شعرية عن هذه القضية، ومن أبـرز الشـعراء الـذين شـاركوا فيهـا: خالـد الفـرج، وحسـن القرشـي، وطـاهر زمخشـري وأحمـد الغـزاوي، وحسـين عـرب، وعثمـان بـن سـيار، ومحمـود عـارف، ومحمد الـدبل، وإبـراهيم فطاني، ومحمد السنوسي، وزاهر الألمعي، والنعمي، والبهكلي، والبواردي، وأحمد الصالح، ومحمد هاشم رشيد، ومحمد فهد العيسى، وعبد الرحمن العشماوي، وكل أولئك يتبدى الحس الإسلامي في شعرهم، فالمقاومـة إسلامية، والجهاد إسلامي، والقتيل شهيد، والتحريض على القتال وفق مفهوم إسلامي لا تحس بنزعة قومية ولا هم علماني ولا نظرة مادية.

وتواكب هذه القضية قضية «تحرير الجزائر»، وما لقيه الشعب الجزائري من نفي متعمد لعقيدته ولغته وثقافته. يقول السنوسي:

هنـــــاك فــــوق ذرى الأوراس معركـــــة

وقودهـــــا عـــــزة الإســـــلام والعــــرب

ويقول أسامة عبد الرحمن:

صـــــبراً بنـــــي قـــــومي فنيـــــران العـــــدا

بــــرد علــــى رســــل الهــــدا وســــلام

والشعر الإسلامي واكب فتوحات الملك عبد العزيز واستعادته لملك آبائه وأجداده، وما عمله بعد معركة التكوين من إشاعة للأمن وإقامة للشريعة وقمع للفتنة ودعم متواصل لقضايا المسلمين. كل هذا فجّر مواهب الشعراء، ويكفي أن نضرب المثل بكتاب سعدت في الاشتراك بتأليفه هو: «الملك عبد العزيزفي عيون شعراء صحيفة أم القرى»، والكتاب يقع في مجلدين كبيرين/ طبعة دارة الملك عبد العزيز، واشتمل على مئات القصائد من عيون الشعر الإسلامي.

الاتجاه الإسلامي في الشعر العربي المعاصر التجليات والتحفظات .. !

(٥-٥)[1]

وقد يكون من الأحداث المؤلمة حرب التحرير التي خاضها الشعب البوسني، وكانت مشاطرة الشاعر السعودي في مستوى الحدث، ومن ثم تناول الشاعر ما تعرض له الشعب (البوسني) من المآسي، وامتدت الدلالة إلى وصف بشاعة العدوان، والدعوة إلى الجهاد، والتنديد، والتحدي، والدعوة إلى التضامن الإسلامي، وتوجيه اللوم إلى الدول والشعوب التي لم يكن موقفها إيجابياً، والإشادة والإعجاب بدور المملكة الرسمي والشعبي، والسخرية والتهكم بالصرب الحاقدين، والدعاء للمجاهدين والاعتذار عن التقصير بحقهم. وقد شارك في هذه الأحداث عدد من الشعراء من أبرزهم: الشاعر أسامة عبد الرحمن، وحسن القرشي، وحسين النجمي، وإبراهيم المدلج، وخالد الحليسبي، وسعد البواردي، وسعيد عطية الغامدي، وعبد الرحمن عبد الكريم العبيد، وعبد الرحمن العشماوي، وله أكثر من قصيدة، وغازي القصيبي وآخرون. وقد جمعت رابطة الأدب الإسلامي بعض ما قيل عن تلك المعارك الإسلامية، ودرست الأعمال الشعرية دراسة فنية وموضوعية.

يقول الشاعر حسين النجمي:

شعبٌ يباد وأمة تتمزق
ومآذنٌ بدم الضحايا تَغْرق
ومدافع القصف الرهيب تدك ما
شادته أيدي المؤمنين وتحرق
والصرب يهدمُ ما بنته يد الهدى
والهيئة السفلى هناك تصفق
والعالم المأفون يرقب صامتاً
ورئيس هيئته غراب ينعق

ويقول عبد الرحمن العشماوي:

زفراتكم من حولنا تتصعد
وصراخكم في صمتنا يتبدد
ذبتم على وهج الرصاص ولم نزل
لعدونا وعدوكم نتودد
تتغيثون سحابنا وسحابُنا
وهْمٌ كبير في الفضاءِ مجمَّد

---

(١) تاريخ المقال: ٢٨/ ٨/ ٢٠٠١

تترقبـــــــون قـــــــرار مؤتمراتنـــــــا
بشــــــرى لكـــــم فقرارهـــــا ســـــيندد

ويقول:
نـنــــــاديكم وقـــــــد كثــــــر النحيــــب
نـنــــاديكم ولكــــــن مــــــن يجيــــب؟
نـنــــــــاديكم وآهــــــــات الثكـــــــالى
تحــــدثكم بمــــــا اقتـــرف الصـــــليب
ســـــرايـيفو تقـــــول لكــــم: ثيــــابي
ممزقـــــــــة وجـــــــدراني ثقــــــوب
محـــــاريبي تـــــئن وقـــــد تهــــاوى
علــــى أركانهــــا القصـــف الرهيـــب

ويقول إبراهيم المدلج:
تستصـــرخين ولكـــن «لا حيـــاة لمـــن»
وربمـــا الحـــيُّ مـــن «حمالـــة الحطـــب»
مأســـاتك اليـــوم تـــدمي كـــلَّ جارحـــةٍ
ووجهُـك الشـاحب المكلـوم يعصـفُ بـي

ولهذا لا يستطيع دارس أن يقطع بالتجانس الموضوعي، وإن اتحد الهم عند الشعراء.

وإذا صرفنا النظر عن عشرات الأعمال ومئات القصائد في قضايا الأمة السياسية ودور الشاعر الإسلامي فيها، واتجهنا صوب الإصلاح والتوعية نقف عند الهم التربوي. والنزوع التربوي استجابة لخطاب إسلامي سلفي يقوم على مفهوم (التصفية) و(التربية)، أي تصفية النص الإسلامي والمجتمع الإسلامي مما علق فيهما، ثم تربية الناشئة على القيم الإسلامية، وهذا المنهج يتجافى الدخول في دائرة السياسة، وخِطابُه تربوي خالص، وهو أقرب الاتجاهات إلى الاتجاه الدعوي الوعظي، وإن اختلف عنه من وجوه كثيرة.

يقول الحبيب المستاوي (ت ١٩٧٥م):
دينُـــــك الســـــمحُ ســـــلَّمٌ للمعـــــالي
يـــــا رســـــولاً دعـــــى لكـــــل كمـــــال
دينُـــــك الســـــمحُ فطـــــرةُ الله عـــــادت
مثلمـــــا أُنشـــــئت بكـــــل جمـــــال

ويقول الشاعر حسن الذاري:

فَشِـــلتْ هـــذه الحضـــارة فـــي أن
تجعـــلَ النـــاس إخـــوةً ســـعداءَ
تـــاه فيهـــا الإنســـانُ يطلـــبُ حـــلاً
للمآســـــــي وينشـــــــدُ النعمـــــــاءَ

ويأتي اتجاه رابع معالمه عند الشعراء الأعمق ثقافة والأوسع تجربة، وهو (الاتجاه الفكري التأملي)، وشعراء هذا الاتجاه يرقبون أحوال المسلمين، وما ينتابها من تحولات، ثم يلوذون بالنص الإسلامي في بعده التاريخي والفكري، وكأنهم يودون إعادته من خلال الكلمة الجميلة. والاتجاه الفكري اشتغال لا في أحوال الناس، كما الدعوة والوعظ والمقاومة، وإنما هو اشتغال في التراث الإسلامي، وتأمل في أحواله، وتعمق في النص ومنطوياته، ومن فرسان هذا الاتجاه الشاعر السعودي المكثر صاحب المطولات محمد حسن فقي، وهو وإن كان ضجراً متأملاً متشائماً إلا أن له أوبات إيمانية وقصائد تحدث فيها عن فلسفة الصوم والحج وناجى فيها المقدسات ومجد فيها أبطال الإسلام وشخصياته ووقف من الرسالة والرسول وقفة الخاشع المتبتل.

أما الاتجاه الأكثر صخباً والأقوى عاطفة والأكثر اندفاعاً فهو الاتجاه السياسي الحركي المقاوم، وهو غير الشعر الذي يشاطر القضايا العربية والإسلامية، وإنما هو الشعر الثوري الذي يستبطنه الشاعر بوصفه هماً ذاتياً، وليس مقاومة وحسب، وفي هذا الاتجاه تتجلى براعة الشعراء بطول نفسهم وتعدد رؤاهم وتراكم أدائهم واختلاط تصوراتهم، وقد أسميه بالاتجاه الانتحاري.

وشعراء هذا الاتجاه يمثلون الرفض والصخب، وشعرهم الأقوى والأكثر، وقد يختلط هذا الاتجاه بمناصرة القضايا العربية الإسلامية، والذين تحدثوا عن قضية فلسطين والجزائر وأفغانستان والشيشان والبوسنة والهرسك وكشمير والفلبين هم الذين تحدثوا عما تعانيه الأمة العربية من غزو وتآمر، وهم الذين استثاروا الهمم وحرضوا على التصدي والتحدي والمقاومة.

وفي المقابل لهذا التيار الصاخب نجد اتجاها هو أبعد ما يكون عن الصخب والصدامية ذلكم هو الاتجاه الصوفي بشقيه:

العقدي.

والسلوكي.

وقد يتداخل الاتجاه الصوفي العقدي مع الاتجاه الفكري ومع الصوفية السلوكية ومع الترورع الزهدي، ولكنه تداخل لا يحملنا على التماس المواخاة بينهما، فالاتجاه العقدي الصوفي أقرب إلى الخرافة، فيما نجده عند المفكرين أقرب إلى الفلسفة، والاتجاهان يقعان في ذات المحاذير، وإن اختلفت المصدرية والسمة.

أما الشق الثاني من الاتجاه التصوفي فقد يتسع للزهديات، وشعر الزهد يمتد ليستوعب الشعر الاجتماعي أو ما يمكن تسميته بالواقعية الاجتماعية، وهذا الاتجاه يختلف باختلاف المواقع والوقائع، وشعراء هذا الاتجاه يجانسون شعراء الدعوة والمواعظ من وجوه كثيرة. يقول الشاعر السنوسي:

رصـــدُ الحيـــاة الخيـــرُ والبـــرُ والتقـــى
كـــلُّ رصـــيدٍ غيـــرُهن قشـــورُ

هـــي الباقيـــات الصـــالحات لعاقـــل

إليهــــا بأشـــــواق الحيـــــاة يطيــــر

وهناك قصائد تتسم بذم الحياة والتقليل من شأنها. نجد ذلك عند الفلالي والجهيمان وطاهر زمخشري ومحمد حسن فقي. قول الفقي:

كـــل مـــا تشـــتهي وتملـــك زائـــل

فعــــــلام احتفالنـــــا بالمهـــــازل

ويقول:

تمنيـــت أنـــي ناســـك فـــي مغـــارة

بعيـــد عـــن الـــدنيا قريـــب مـــن الأخـــرى

ويقول الزمخشري:

إيـــه يـــا نفـــس إلـــى الله أنيبـــي

وإذا وســـوس الشـــيطان بـــاثم لا تجيبـــي

ويقول مظفر بشير:

دع الشـــكاة ولاقـــي الكـــرب مبتهجـــاً

وبالـــذي وهـــب الـــرحمن كـــن لهجـــا

وداو جرحـــك بالصـــبر الجميـــل فكـــم

آســـى جروحـــاً فعـــاد الكـــرب منفرجـــا

ولطـاهر زمخشـري ابتهـالات رائعـة يمتـاز بهـا عـن غيـره مـن الشـعراء، وظـاهرة الابتهالات كظاهرة الأناشيد تتسم بفنيات ودلالات وإيقاعات متميزة، فالابتهال والإنشاد أميلا إلى الغنائية، ومن ثم يتطلبان شعراً غنائياً صافي الإيقاع.

ومن الأغراض الأكثر غزارة والأكثر ميلاً إلى التصوف المدائح النبوية وتشكل معارضات نهج البردة مساحة عريضة، وقد تهافت الشعراء على محاكاتها والقول على شاكلتها، والبوصري تعرض لجنح عقدية، لا تتفق مع مذهب السلف الحريص على حفظ جناب التوحيد ومن لا يرون التوسل إلا بصالح الأعمال أو بدعاء الأحياء لهم، وقل أن ينجو شاعر من مثل ذلك، ولكن هذا لا يحجب العدل والانصاف، لقد خلف شعراء المدائح كماً من السبحات الروحية، وساقوا أطرافاً من أخلاق الرسول وسجاياه، وهو القدوة، وكيف لا يكون وهو الذي قال عنه ربه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] . وقد جمعت المدائح ودرست، ورائد الدارسين الدكتور زكي مبارك، وكل الذين كتبوا عن فن المعارضات وقفوا طويلاً عند المدائح النبوية، ولربما كانت حفلات الموالد من أسباب كثرة المدائح النبوية، ومع التحفظ على بعض ذلك إلا أن هذه المناسبة فجرت المواهب وانتجت شعراً في غاية الروعة والجمال ويكفي تذكر روائع شوقي.

ويلي المدائح النبوية الحديث عن الشعائر الدينية، ويأتي في المقدمة الحديث عن الحج والصوم، وقد أعدت رسائل علمية عن شعر هاتين الشعيرتين على مستوى الماجستير والدكتوراه، والمتحدثون عنهما يختلفون في الموضوعات والفنيات، فالأنساق الثقافية الإقليمية تسهم إلى حد كبير في صبغ الأعمال.

ولا أحسبنا قادرين على تقصي الاتجاهات، وما يتفرع عنه كل اتجاه من موضوعات، ولكننا نؤكد غزارة الإنتاج وجودته وقدرته على تقديم رؤية حضارية معاصرة دون أي إخلال بالمقتضيات الفنية.

وبقدر ما يرتكب من جنح في الاتجاهات الحداثية نجد أن بعض المبدعين الإسلاميين يقترف جنحاً لا تقل خطورة عما هي عليه جنح الحداثيين، ومن ثم فإن على الناقد الإسلامي وعي المقاصد وتلمس الدوافع وتوخي العدل في القول والفعل. وما أود الإشارة إليه أن الاتجاه الإسلامي في الشعر يواكبه اتجاه مماثل في السرديات، على أن هناك مسرحيات شعرية لعدد من الشعراء جسدوا فيها بطولات الإسلام وفتوحات المسلمين، كما أن هناك ملاحم إسلامية تميز فيها أحمد محرم ومن بعده عبد الله بالخير.

والأدب الإسلامي مشروع طرح نفسه في خضم التيارات المتعددة، وما يعتري ذويه من ضعف أو جنح لا يقلل من قيمته ولا يثير الشك والتساؤل حول مشروعيته، والتحفظ الذي يثار بين الحين والآخر إن هو إلا تساؤل تتعدد دوافعه ونوايا أصحابه ولا تجوز المواجهة العنيفة. فكم من متسائل يبحث عن الحق وواجبنا أن نأخذ بيده إلى طريق الحق والتسليم الطوعي والفوري لكل مشروع لا يمكن تحققه، وخصوم الإسلام تمتد آراؤهم المشككة والمخذلة إلى الأدب الإسلامي إذ هو جزء من الدعوة، والخيرية لا تتحقق للأمة الإسلامية إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والأدب وسيلة من وسائل الدعوة الإسلامية.

المسافية بين: الوحي والحديث في شعر الفيصل .. ! [(١)]

فيما يلي تنشر الجزيرة نص المحاضرة التي ألقاها مساء أمس الدكتور حسن الهويمل بمناسبة تكريم صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله الفيصل من قبل الشيخة سعاد الصباح.

(١)

١/١ عندما دخلت قاعة «العقاد» في كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر عام ١٣٩٤هـ لمناقشة البحث المكمل لدرجة الماجستير «اتجاهات الشعر المعاصر في نجد» كنت أقول في نفسي: كيف يتأتى للمناقشين الوقوف على وجوه النقص في دراسة لا تقع ضمن اهتماماتهم، وكنت مستعدا للدفاع عن الخطة والمنهج، إذ هما مظنة النقاش، ولكن المفاجأة الأكثر إرباكاً: أن يكون المناقشان على معرفة عميقة بالقضايا الفنية والدلالية لدى الشعراء المعاصرين في نجد، اعتمادا على ما يتوقع لنجد ومنها من قيم دينية واجتماعية وأدبية. وأن يكون عندهما تصور لما يجب أن يكون عليه شعراء نجد في ظل أوضاع خاصة، تمنح الشعر سمته وخصوصيته في سياق الشعر العربي المعاصر. ومن ثم وقعت في موقف مربك.

كانت المناقشة والملك فيصل رحمه الله في أوج توهجه السياسي والإسلامي، وكان ابنه الأكبر الأمير عبد الله حاضر الذهنية العربية وبخاصة في المشهد الثقافي. طال النقاش، واحتدم الجدل حول قضايا تبين لي فيما بعد أنني لست في أكثرها محقا. وكنت قد قلت بالنص: «إذا كان الشاعر النجدي المرحوم محمد بن عثيمين ت ١٣٦٣ هـ زعيم المحافظين، فإن الأمير عبد الله الفيصل يعد بحق زعيم الإبداعيين بدون منازع» «١» وأعني بذلك التجديد والرومانسية. ولتأكيد ذلك سقت أطرافا من شعره. ولّما يصدر له آنذاك إلا ديوانه الأول «وحي الحرمان» الذي استقبله عمالقة النقد العربي من أمثال طه حسين «٢» ومارون عبود«٣» بالدراسة والنقد، ولم أكن يومها مسددا في انتقاء الشواهد التي تعزز ما ذهبت اليه من دعوى الزعامة، على الرغم من وجودها.

وكنت قد سقت لغيره شعرا كثيرا، وبخاصة الشاعر حمد الحجي «٤» رحمه الله فوقف المناقشان على ما سقت لهما، واستعملا منهج الموازنة وتوصلا إلى أن الشواهد التي اخترتها للشاعر الأمير ليست من عيون شعره، بحيث فاقتها شواهد لداته، ومن ثم فلن يكون الأمير بهذه الشواهد زعيما «بدون منازع»، وفي سبيل شرعنة الرؤية عولت على ما قاله الدارسون من قبلي، وهم شهود عدول، فهل من اثارة أقوى مما قاله طه حسين ومارون عبود؟ ولما لم أكن موفقا في اختيار الشواهد لفتا نظري إلى إبداعات متألقة للشاعر الأمير، كنت قد عدلت عنها، لأنها قصائد مغنّاة، وانفض سامر المناقشة، وطبع البحث على ما هو عليه، ولقيت من النقد ما لا يُحتمل، ورضيت أن تظل هذه الرسالة الطلابية المتواضعة كما هي محتفظة بتسجيل مرحلة تاريخية من حياتي التي تركتها خلفي لمن أراد أن يجرب أدواته النقدية، وما زلت أعود إلى الشاعر وشعره، حين أدخل قاعة الدرس، أو حين أعلو منصة المحاضرة، أو حين أكتب بحثا، أو أنشئ مؤلفا، أو أناقش رسالة، أو أحكم في بحث عن الأدب العربي في المملكة، واتسع الحديث عنه في رسالة الدكتوراه «النزعة الإسلامية في الشعر السعودي المعاصر»، وها أنذا أعيد قراءته من جديد، بعد أن صدرت دراسات أكاديمية وتطوعية عن شعره «٥»، كشفت عن أبعاد فنية ولغوية ودلالية، وهيأت للدارسين فضاءات معرفية. وفي غمرة الدراسات عنّ لي أن

(١) تاريخ المقال: ٣٠/ ٨/ ٢٠٠١

أرصد المسافة الفنية والدلالية واللغوية: بناء وشكلاً بين ديوانه الأول «وحي الحرمان» وديوانه الثاني «حديث قلب» وما بينهما من اقتراب وافتراق، وما مستواهما في السياق الشعري محليا وعربياً، محاولا اكتشاف ما إذا كانت المسافة الدلالية والفنية بينهما بقدر المدى الزماني، أو أن هناك متغيرات وتحولات سبقت الزمن أو تخلفت عنه، بحيث أصبحت الفجوة بعيدة الغور أو قصيرة المدى.

٢/١لقد ترك لنا الشاعر الأمير عملين، أكاد أشك أن يكونا كل إبداعاته، والشعراء الذين يمتد بهم العمر، وتتغير عندهم الرؤى والمواقف والتصورات، ليس من المستبعد أن تمتد أيديهم الجائرة فتئد الكثير من الشعر الذي أبدعوه في ريعان شبابهم، مما كان أصدق قيلا في تصوير حياتهم المفعمة بالحيوية وبشيء من اللمم واللّهو البريء. فعل هذا من قبله محمد بن عبد الله بن عثيمين، وفعله من قبلهم جميعا أحمد شوقي، حين أخرج الشوقيات، مما حفز البعض للتنقيب في الدوريات والصحف وتعقب ما هو مفرق في الرسائل الإخوانية، فكان أن جمعت «الشوقيات المجهولة» في مجلدين، لتكون أكثر قولاً وأصدق قيلا وأمتع شعرا من الشوقيات المعروفة. والراصدون لأعمال العمالقة يقفون على موؤدات إبداعية من هذا القبيل، ومن الشعراء الذين تخلصوا من بعض شعر الصبا أبو الطيب المتنبي، إذ وقف على جمع شعره، وندب بعض اللغويين لشرحه.

والشاعر الأمير «عبد الله الفيصل بن عبد العزيز ١٣٤١هـ .. » لم يخرج للناس من شعره الفصيح إلا عملين هما: «وحي الحرمان» صدر عام ١٣٧٣ه و«حديث قلب» صدر عام ١٤١٣هـ. وأكاد أجزم بأن الموؤد من شعره يفوق ما أخرجه اليهم. والمسافة الفنية والدلالية واللغوية بينهما تجسد المتغير الذاتي والاجتماعي والتطور الفني والدلالي. فالنص وثيقة تنطوي على سمة العصر وطبيعة الرؤية الذاتية والجمعية، والشاعر في النهاية محصلة ظروف خاصة وعامة، وهو صدى لمؤثرات تكاد تختبئ وراء الكليمات كالبيئة المكانية والزمانية والموقف والموهبة والذكاء والثقافة، ونحن لن نقترف مشقة الحفريات المعرفية لتصور حياة الشاعر واستخلاصها من شعره، فتلك مجازفة نقدية خطيرة وممتعة، وإذ لا نريد أن نفعل مثل ذلك بالقدر الذي يفعله البعض، فإننا في الوقت ذاته لا نريد أن نضرب صفحا عن هذه الرغبة، وعملية التنقيب عن حياة الشاعر في شعره قائمة ومقبولة عند كثير من الدارسين والنقاد، فعل ذلك غير واحد، على أن الشاعر الفذ لحظة المخاض الشعري إنسان آخر مفصول عن ذاته، فهو لا يصنع ولا يتصنع ومن هذه الحالات الاستثنائية طرحت أسطورة «شياطين الشعراء» والمؤكد تنزلها على الأفاك الأثيم وليس الشعراء كلهم كذلك، والرؤية الشعرية قد لا تصطلح مع الرؤية الذاتية خارج الفعل الإبداعي، ولو أننا أخذنا برؤية «النقد النفسي» لكنَّا بإزاء تناقض صارخ بين الوثيقة والسيرة، وهذا «الفرزدق» الشاعر الشهواني الذي لا يحسن الغزل، وهذا البحتري الأنيق الشعر الخشن السيرة والمظهر، وهذا الأصفهاني صاحب الأغاني الذي يتخطفه الكبراء لتفوقه في المنادمة، وتجليه في الرواية، مع أنه يوصف بأقذع الأوصاف في مظهره وطريقة أكله، وهذا العتاهي الشحيح المتزهد في شعره، وهذا ابن أبي ربيعة الغزل الذي أقسم أنه لم يحل إزاره على معصية. ولا أحسبنا منصفين حين نختصر سيرة الشاعر الأمير في ديوانيه ونمارس التماس حياته من شعره على شاكلة فعل «العقاد» و«عز الدين إسماعيل» وسائر النقاد النفسانيين مع طائفة من الشعراء. والعقاد الشاعر والناقد والمفكر لم يستطع المؤاخاة بين حياة ابن الرومي وأبي نواس وما تركاه من وثائق شعرية، وإن تصور ذلك، وسعى إلى تقريره في ظل تعالقه المستميت مع «المذهب النفسي» في الأدب، حتى لقد سخر طه حسين من إصراره على التقاط حياة الشاعرين من شعرهما، وكذلك يغامر المتعالقون من النقاد مع علم الاجتماع.

ونحن إذ لا نسلم للمختلفين معا، فإننا لا نتصور القضايا الفنية بهذه الصرامة والدقة بحيث لا ينم الشعر عن أخلاق صاحبه، أو يصور وضع المجتمع.

ف العقاد: على أشياء من التوفيق.

و وطه حسين: على شيء من الصواب.

ولو أخذنا عبد الله الفيصل وشعره على ضوء إحدى الرؤيتين لبخسناه أشياءه، فرجل تسنم أخطر المسؤوليات وأهم المناصب، وتفوق في المضاربات التجارية لا يمكن اختصاره في شعره، وشاعر رقيق الحواشي صادق التعبير واضح التجربة لا يمكن أن نقطع صلته بشعره ونصفه بالتعمل وقول ما لم يفعل، وبين هذا وذاك تقوم الخيارات الصعبة، ومع هذا فالشاعر لا يمكن أن يقع في سلة الناقد بحيث يكون كما يتصوره، ولكن الناقد يكشف ذاته من خلال النص، وكم من نص إبداعي حمال أوجه تحول إلى مصيدة. وتظل الإشكالية ذات فضاءات لمزيد من الطرح، وحين نقترب من الشاعر ببعض هذه الآليات وتلك المناهج بوصفه موضوعاً تُغيَّب معه الذات لتقوم الممارسة الإبداعية مقامه، ثم نستدعي تلك الوثائق لتجيب على بعض التساؤلات، نجد أننا نتحرك في منطقة حساسة، لم يسلّم بها البعض، ولم يستغنوا عنها. والبراعة في حفظ التوازن. وعبد الله الفيصل الذي استهل حياته مضطلعا بأخطر المسؤوليات لا يمكن أن نختصر حياته في إبداعه، كما لا يمكن أن نلغي وثوقية الوثائق، والموضعة للذات من خلال إفضاءاتها الإبداعية تتطلب البحث عن مكونات النص وظروف الأداء، لتصل إلى النص بمجموعة من المفاتيح، ويقوم تساؤل ملح وحساس عن مدى تلاحم الذات سلوكيا مع الأداء إبداعيا، وبخاصة حين نستشعر الطائفتين من الشعراء، كما وصفهم القرآن الكريم، ثم نضع إلى جانبهم طائفة ثالثة، وسّعت على نفسها وأعجبها اللّهو المباح، كما الأنصار الذين قال عنهم المصطفى صلى الله عليه وسلم «يعجبهم اللّهو» وهو لهو بريء مباح لا يعف عنه إلا المتورعون الذين ضاقوا ذرعا بالمطلع الغزلي ل «بانت سعاد» حتى قالوا بانتحاله.

١/٣ والشاعر الأمير الذي ضرب بسهم وافر في مطارح اللّهو البريء، اقترف الفعل الشعري قبل خمسين سنة، وأصدر ديوانه الأول قبل ثمان وأربعين سنة، وسمى نفسه «محروماً»، وجعل شعره من وحي الحرمان، وهنا يقف الناقد أمام دعوى عريضة، فأي حرمان ذلك الذي فجر موهبة شاب أمير، تقلد أخطر المناصب وأهمها، وعاش عيشة الملوك؟. وصيغة «محروم» اسم مفعول، فمن الذي حرم الشاعر؟ وهل الإبداع الشعري وليد الحرمان المعنوي أو الحسي؟. والشاعر حين وصف نفسه بالمحروم، وصف الحرمان بأنه «لذيذ» كما يقول في إهدائه.

فكيف يلذ الحرمان؟ إنه حرمان من نوع آخر، قد يكون فلسفياًَ ولكن النص الشعري ليس فيه شيء من الفلسفة، بل ولا شيء من التأمل الفلسفي العميق الذي شاع عند الديوانيين والأبلليين والمهجرين وسائر شعراء الشام والعراق المعاصرين الذين تعالق معهم الشاعر. وإذ لا يكون الحرمان معرفيا فقد يكون الحرمان اجتماعيا، فالأمير قد يفرض عليه وضعه الاجتماعي سيرة تتناسب وأبهة الإمارة وهيبة السلطان، ومن ثم يحرم من أشياء يتمتع بها غيره من البسطاء. «الحرمان» في عالم الفيصل إشكالية، أو قل «شفرة» سوف نجتهد في فك مغاليقها، وليس من المهم أن نتفق مع الشاعر أو مع غيره في تصور الحرمان. المهم أن تكون فضاءات النصوص حمالة لدلالات تتناسل بعدد القراء، والشاعر ليس مسؤولا عن تأويلات النقاد، متى اتسعت فضاءات النص، وتعددت دلالاته. الناقد اللبناني الساخر «مارون عبود» أفاض بالحديث عن «الحرمان» ودواعيه حين كتب دراسة مطولة عن ديوان الشاعر الأول، والشاعر الناقد «صلاح لبكي» أدلى

بدلوه حين قدم الشاعر إلى قرائه، وآخرون غير هذين كانت لهم تساؤلاتهم الملحة، ولكن المعنى سيظل في بطن الشاعر.

لقد وقف كثير من النقاد والدارسين حول كلمة «الحرمان» وتساءلوا عن طبيعته، وحال بينهم وبين ما يودون الوصول اليه ما كان عليه الشاعر من سعة في الجاه وبسطة في المال وقوة في السلطان، ولو أنهم قربوا النجعة، ونظروا إلى الأمير من خلال بشرية الشاعر ورهافة حسه، بوصفه إنسانا يألم كما يألمون، لقضي الأمر، ولكنهم كلما نظروا إلى زينته وسلطانه بهرتهم أضواء الجاه والسلطان من حوله، فأعشتهم عما تحت أقدامهم، ولا أحسبهم بهذا الشعور سيتفقون على شيء، ومن الخير للفن ألا يتفقوا. إن الوصول إلى قعر الدلالة يعني نضوب النص.

والنص الأكثر ثراء هو النص المراوغ الممعن في الانغلاق والتفلت من إسار الدلالة المتفق عليها، النص الذي يجد فيه كل قارئ استجابة لهمه وتصوره. وما خلد الشعراء إلا بالانفتاح النصي والاحتمال الدلالي، ومن نعم الله على الأمير أن كانت إمارته مساعدة على مراوغة النص.

«صلاح لبكي» قال رأيه في أمر الحرمان، ولكنه لم ينه التساؤل، فالشاعر «لا يعرف ما وراء معاملة الناس له. هل يكرمونه لنفسه لأنه إنسان يستحق عن جدارة أو لأنه يتمتع بالمركز الخطير» «٦» تلك رؤية لها مشروعية القول، ولكنها لا تحسم الإشكالية، ولا تفك «الشفرة». سيظل «الحرمان» قضية، والشعر وحده الذي يكشف طبيعة الحرمان.

لقد أحس الخليفة العالم المفكر «المأمون» بشيء من هذا الحرمان، فالناس يجاملونه، والندماء يبدون عنده متخشبين لا يتحدثون حتى يريد، ولا يتحدثون إلا بما يريد، لقد ضاق ذرعا بغياب العفوية في التعامل وحضور الهيبة، ولهذا تحايل عليهم، بحيث اختفى عن مجسلهم وفتح «كوة» يسمع منها ما يقولونه في غيابه، وكان يقول «أمتع شيء عندي ما أسمعه من تلك الكوة»، ثم إن دعوى «الحرمان» تستدعي مقولة تراثية «الشعر نكد لا يقوى إلا في الشر». فمعاناة الحرمان شر على صاحبها، لما تتركه من ألم، وهي حين تكون نكدا، تكون خيرا للمشهد الأدبي وللمتلقي، لأن الشاعر إزاء المواقف الضاغطة يعطي أكثر وأعمق وأجود. فالحرمان الذي ينجز لنا هذا الشعر حرمان إيجابي بالنسبة لنا، ونكد وشر بالنسبة للشاعر. وذلك التفسير الحقيقي لتلك المقولة التراثية التي اختلفت حولها الآراء. والنابغة حين رهب قال عيون الشعر، والمتنبي حين نفاه حساده من بلاد سيف الدولة قال أروع الشعر، والشعراء الذين رثوا أنفسهم كانوا عمالقة في رثائهم. ومن ثم فنحن سعداء في هذا الحرمان الذي اجتاح الشاعر الأمير، لقد ترك لنا شعرا ممتعا يشدو به المغنون، ويتشفى به المهمومون، ويطيل الحديث عنه النقاد والدارسون.

وكم أتمنى ألا ننهي الحديث عن نوع الحرمان وباعثه وألا نتفق على شيء من ذلك، واستنطاق النص يتيح لنا العيش في ظلال الدلالة ولكنه لا يغمسنا فيها، والشاعر حين ينفلت من إسار التوصيل المباشر يتمكن من أسر المتلقي، وذلك ما فعله الشاعر حين وصف نفسه بالحرمان، ولما يحدد نوعه وبواعثه بلغة مباشرة ناجزة.

(٢)

٢/١وشعر الفيصل في ديوانه الأول وصف بأنه «هتاف القلب» هكذا قال «صلاح لبكي» في مقدمة الديوان. ويأتي الديوان الثاني «حديث القلب». فهلا تكون هناك مسافة وهمية نفترضها كما خطوط الجغرافيين والسياسيين بين العملين برغم عشرات السنين التي تفصل بينهما؟ تلك إشكالية أخرى، ينشئها البحث عن الوشائج الدلالية والفنية التي تربط «هتاف قلب» ب «حديث قلب» وهي وشائج قائمة، ومن اليسير استبانتها. والسؤال

الأكثر إلحاحا، هل من علاقة بين التسميات والمسميات، أم أن المسألة اعتباطية؟ مثلما جاء ترتيب القصائد في الديوانين، ومثلما جاءت تسمية بعض القصائد، إذ لم تراع في الترتيب ظواهر الشكل، ولا تجانس الموضوعات، ولا التراتب الزمني. وحين نفترض وعيا في التسميات والترتيب أو في أحدهما، نجد أنفسنا أمام روابط خفية تشد العمل بعنوانه والعملين ببعضهما. والخيط السري يشكل تحديا للقارئ الذي يتجاوز الظواهر إلى البواطن، والنص الذي يتولد عن موهبة وثقافة وموقف يتوفر على تجانس شعري ولغة شاعرة توفر النبض والماء كما يقول الجاحظ، وكل هذا لا يتجسد بالشكل النوعي ولا بالبناء اللغوي، إنه نبض خارج الشكل والبناء، ومن ثم فالشعر كالسعادة والحب، يتصورهما الإنسان، ولا يحققهما بالقول. الشعر امتلاك وسيطرة وتأثير، ولهذا قيل عن الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه شاعر وساحر، لأنه بمعجزته القولية قلب الموازين، وأفشل التحصينات ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦] .

الشعر نفاذ روحي يتفلت من حسيته ليكون شيئا آخر، وإن تجسد في القول شكلا وبناء. كما الروح يحملها الجسد ولا يكونها ولا تتراءى من خلاله ولكنه تكون بأعراضها. والشعراء التجاوزيون الخالدون هم الذين يبدعون الشعر ثم يختلف الناس حولهم.

المتنبي حين امتلأ ثقة بشاعريته نام ملء جفونه. هناك نوم الواثق وسهر المتخوف واشتغال المختلفين، وبين هذا وذاك يكون الشعر الحقيقي. وأنا هنا لن أكون شاهد إثبات لتألق الشاعر الأمير، وإنما سأكون باحثا عن سر هذا الحرمان الذي فجر الموهبة وأنتج الشعر، وعن «هتاف القلب» و«حديث القلب». وعن الخيوط الخفية التي تشكل اللحمة والسدي لهذا العمل الشعري. و«القلب» هو ذلك المفتاح، لقد تكرر في ديوانه الأول قرابة الستين مرة، فيم لم يرد لفظ «العقل» إلا مرة واحدة، وورد «الضمير» و«الفؤاد» قليلا، و«القلب» في لغة الحب غير العقل، وكذلك الفؤاد والضمير. إن هناك علاقة وثيقة بين الشاعر وقلبه من جهة والمعاناة التي اجتاحته في ريعان شبابه من جهة أخرى، إن شيئا ما ينطوي عليه الديوان «وحي الحرمان» ولا أحسبنا قادرين على تقصي المنطويات، ولكننا واثقون من الاقتراب منها وسماع حسيسها، ولا شك أن هناك بقايا بانتظار من سيأتي بعد، والقلب حين يتكرر بهذا القدر يكون وراء ذلك التكرار سر مثير، وهذا التكرار ينطوي على هاجس وخصوصية: هاجس شعوري وخصوصية لغوية. فالشاعر حين تتسم لغته بخصوصية في تكوينات الكلمة والجملة والعبارة والأسلوب، ثم يأتي كل ذلك على شكل شعري مغاير للسائد، يكون الشعر كله ذا خصوصية وتميز، ويتيح أكثر من مرجعية للتفكيك والوصول إلى أدق التفاصيل، ولغة الشعر حين تتوفر على خصوصيات بنائية يكون الشاعر على قدر من التألق. وعبد الله الفيصل لم يكن شاعراً غنائياً بالصدفة ولا بالتعمل، ولم تطاوعه اللغة وتمده بالكلمة المغناة إلا لإحساس ذاتي غير مفتعل، والبحور الشعرية الخفيفة الصافية والقافية السلسة الموقعة، كل ذلك لم يكن عن رغبة متعمدة، وإنما كان عن استعداد فطري، فالفرزدق عاشق لا يحسن الغزل، وجرير غزل لم يجرب العشق، أما عبد الله الفيصل فعاشق يحسن الغزل، ولهذا رقت حواشيه وعذب إيقاعه وحل القلب محل العقل. والقلب الذي يجيش بالمشاعر والعواطف غير العقل الذي يرتبط بالتأمل والتفكير. لكل هذا أعطت كلمة القلب مؤشرا على طبيعة الشعر.

وإذا أمسكنا بخيط اللغة في الديوان الأول وجدنا سمات لغوية خالصة وسمات جاءت عن طريق اللغة، هذه السمات مؤشرات لما نود الوصول اليه. فالديوان الأول فيه احتدام مشاعر، يقصر فيه النفس الشعري، ويسرع فيه الإيقاع، ليتناغم مع خفقان القلب، ولهذا أصبح شعره غنائيا، يشدو به المنشدون، ويردده المغنون، فالصفاء الموسيقي ونكهة

التوشيح وقصر الجمل وقرب المخارج آخت بينه وبين اللحن الموسيقي، فكان عشق المغنين، والشعر عنده عطاء الشباب والربيع والوصال وخوف البعاد. إنه الإشفاق: «الشعر يوحيه الربيع».

وكيف يتأتى له: «... ويد الخريف ... تُذْوي أزاهير الربيع».

وهو حين ينسل من هذه الأجواء، يكون كما هو في رقته وعذوبته وشفافيته، لغة سمحة طيعة سهلة ممتنعة، والقلب ذلك الشفرة الذي في جوفه كل المعاني.

«قلب كئيب». و«أهواء مجمعة»، «لا ينس الحبيب»، و«اللحن ينساب من القلب للقلب» و«الألم يعصف بالقلب» و«القلب وتر يصدح» و«القلب متحطم» «أخرس مأسور محكوم» و«القلب سوى الحبيب لا يرضى به بديلاً» و«هو يسمو بالزهد يسعد ويشقى يشكو ويسلو» «ولا يطيق»، «يهتف، ويمتلئ، ويألف، ويحزن، ويهتاج، ويبتسم، ويجيش، ويعاتب، ويهنأ، ويسكر، ويغرق في النواح» وعلى مدى خمسين مرة أو تزيد يكون للقب شأن مع الحبيب. ولما لم يكن نسق الحياة واحدا، فإن أحوال القلب ليست واحدة، ومن ثم جاء على أوضاع متعددة، والقلب هو ذلك الشاهد العدل للتقلبات والأحوال والظروف التي تعصف بالشاعر، وتجسد معاناته وتجاربه التي كرست مفهوم «الحرمان» وهو لا يريد لأي جزء من جسمه أن يستبد في تجسيد معاناته، وحين يجليها قلبه تكون العذابات أنكى.

٢/٢ والتقصي الدلالي واللغوي والفني والشكلي والإيقاعي يجلي في عمله الشعري وحدة فنية آسرة، فالشاعر يعيش حالة نفسية واحدة وشعورا متجانسا لا يكاد شيء من ذلك يفارقه في كل كلمة، وكم نحن بحاجة إلى استجلاء ذلك الأثر الفني العميق، ما سره؟ وما قيمته في الأداء الشعري؟ لقد تجلت الوحدة الموضوعية في القصيدة الواحدة عند قلة من الشعراء العموديين رشدت عمودية القصيدة، وقل أن نجد الوحدة الموضوعية في الديوان كله، هذه الوحدة نراها مثلا عند ابن أبي ربيعة، ونراها عند سائر العذريين وعمالقة الحب الصوفي، والشاعر عبد الله الفيصل لا نستطيع أن نستله كالشعرة من عجينة أولئك، كما لا نستطيع أن نسلكه فيهم دونما استثناء. إن مناجاته لمحبوبته وخصامه معها وثورته عليها تبدي لك العذرية المتصوفة، نرى بعض ذلك عنده في ديوانه الأول، ونرى أمشاجا منه في ديوانه الثاني. والشاعر حين يأسره الحب فلا يفرغ إلا له ولا يناجي إلا من خلاله، يتوحد موضوعه، وتتجانس لغته، وتتشابه صوره، ويتشاكل إيقاعه، ثم تحاز له الوحدة بكل حذافيرها. وأذكر أن الناقد العنيف زكي مبارك أفاض بالحديث عن «الوحدة الفنية» التي يعدها جماع الوحدات: العضوية والموضوعية واللغوية والنفسية والموسيقية، وحين تتجلى تلك الوحدة يكون عالم الشاعر عالما متميزا، يعرفه القراء بسيماه، والشاعر الصادق مع نفسه من يقدم ذاته إلى قرائه فيعرفونها بأسلوبه، وهل أحد ينكر أسلوب الرافعي أو طه حسين أو الزيات؟ وهل أحد ينكر نكهة البحتري والمتنبي وأبي العلاء؟. ونكاد نقول جازمين: إن عبد الله الفيصل في أعماله الشعرية من هذه النوعية التي يعرفها الناس فلا ينكرونها، وقد قيل: «الرجل هو الأسلوب»، والأسلوب امتداد يسلكه القارئ ليصل إلى صاحبه، ومتى كان قاصدا مستقيما هدي القارئ إلى سواء السبيل، وقليل من الشعراء من يمهد الطريق إلى ذاته ودواخلها، ويكون شعره ذا سمة متميزة، والشعراء الأقدمون يفاخرون باللحمة المتميزة ويعيبون التنافر، لقد جاء عند الجاحظ على ما أذكر افتخار أحد الشعراء بإبداعه البيت وأخاه، فيم يقول غيره البيت وابن عمه. وعبد الله الفيصل يحقق التجانس والتلاحم والوحدة الموضوعية واللغوية والشعورية والموسيقية، وذلك ما لم يركز عليه الدارسون، وهو سمة تألق ومؤشر صدق فني.

والدراسة النصوصية بأي آلية وعلى ضوء أي منهج، تقرب من الهم والرؤية، وتحدد معالم الخصوصية: إن في اللغة أو في الدلالة، ولكنها لا تمكن منها، فالعملية الإبداعية مراوغة وخادعة، وقديما قيل: «المعنى في بطن الشاعر»، والشاعر بشوارده وأوابده التي يطاردها النقاد ثم لا يظفرون إلا بالأقل، والنص الذي لا يستسلم ولا يذعن لقارئه إلا بعد عناء ومغالبة ليس نصا إبداعياً متميزاً، والشاعر قد يكون ذا مستويين دلاليين: المعنى القريب، ومعنى المعنى، أرهص لذلك الجرجاني وجلاه «ريتشاردز» وجاء شعر الأقلين قريبا وبعيدا في آن، فالبنية الشعرية تقوم على لغة انزياحية إلماحية إيجازية مجازية مكثفة، ذات بعد جمالي بعيدة عن التقريرية والهذر والمباشرة، والشاعر الذي لا يشغل المشهد بشعره، ولا يصعد الخصومات حول شوارده، ولا تحتدم حوله المشاعر، لا يوفر اللذة، ولا يحقق الحضور السوي، وكم طوت الكتب من شعراء يمر بهم الناس مرور الكرام، لا يقفون عندهم، وإن مروا بهم لسبب ما فإهم لن يعودوا اليهم مرة ثانية، والنادر من الشعراء من يصطحبه الناس، ويوصف شعره بالسيرورة، فهو على كل لسان، يستجيب للأحداث والمواقف، وكأن قائله ينوب عن الناس في الجمجمة عما في نفوسهم، ولك أن تتذكر «عواطف جائرة»«٧» التي عرفها الناس فيما بعد «بثورة الشك» ولك أن تقرأ:

أكــــاد أشــــك فــــي نفســـي لأنـــــي

أكـــاد أشـــك فيــــك وأنـــــت منـــــي

ثم لك أن تحاول أن التخلص منها ومن أثرها. إنك لن تستطيع ذلك، هذه القصيدة تحفر لنفسها في الأعماق، وتمثل أقصى حد من السيرورة.

والشاعر الذي أبدع هذا اللون من الشعر بوزن خفيف ولغة حب راقية وإيقاع داخلي مكثف وجدل عقلي مقنع، شاعر يشد الناس اليه، ويجر أقدام النقاد إلى أفيائه ويحرضهم على نفسه.

والشعر النفّاذ إلى القلوب هو ما يكون تعبيرا عن موقف أو تجسيدا لتجربة، يتخفف بقوله الشاعر عن معاناة أمضته أو حدث أقلقه، وهو حين يكون ذاتياً أو غيريا لا يتألق إلا حين يفضي به إلى الناس موهوب مجرب عميق الرؤية بعيد الغور شمولي الثقافة، والعطاء مع هذه الحالة وبتلك المواصفات يعلق في نفوس القراء مثلما علقت انتفاضات المتنبي، وسينية البحتري، وروائع إقبال المترجمة من الأردية «شكوى .. وجواب شكوى». ومن المقلين من خلدتهم مقطعات قليلة، ولعلنا نستذكر شعر شعراء القصيدة الواحدة ممن خلدوا بها، ولم تخلدهم دواوين كبيرة. على أن الاقتراب من عوالم الشعراء المتميزين يتطلب آليات متعددة لاكتشاف سر التميز وبواعثه، فالشاعر لا يمكن اختصاره في الشكل أو في البناء أو في الدلالة، إنه خليط غريب عجيب، تراه في مفردات التشكل الشعري، وتراه في مجموع المكون الشعري، إن هناك شفرات وأجواء وملابسات ودواعي تضافرت في تكوين النص، وبقدر التمكن من كل ذلك يكون الأداء النقدي متميزا، وعلى ضوء ذلك فإن مقاربة الشاعر مغامرة، لأن النص المتألق هو الذي لا يحتفي بالمعالم، إنه النص الملتف المغلق الغامض، وهو المنفتح والفضائي الرحب في الوقت ذاته، وقد يستأثر النص بالتألق حين يكون سمحا ذا مياسرة، ولذلك أسراره التي يعرفها صيرفيوا الشعر وحذاقه، فالغموض الفني بكل أنماطه ومجالاته ومستوياته غير التغامض المتعمد المتكلف الذي أجهض به الحداثيون أثر الكلمة الطيبة، والتجديد الموسيقي الطوعي غير النثرية المتخشبة التي أذهبت ريح الشعر، والشعر حين يخفق بأجنحة الموهبة والتجربة والثقافة يتحول إلى مضمار سباق للزز النقاد.

٢/٣لقد قرأت شعر عبد الله الفيصل من خلال ديوانيه، ووجدت أن المسافة الفنية والدلالية غير المسافة الزمانية، وحاولت أن أتلمس الأسباب، هناك وحدة فنية دلالية لغوية تنتظم ديوانه الأول، حتى لكأن قصائده ذات تجربة واحدة. فيما يأتي ديوانه الثاني بوحدة فنية ودلالية ولغوية مغايرة بعض المغايرة، إذ لم تكن بحجم المسافة الزمانية، واحتفاظ الشاعر بنفسه الشعري مع تحرف دلالي غير ملفت للنظر على الرغم من المتغيرات يثير التساؤل، فالشاعر يمضي غير بعيد منتبذا مكانا غير قصي من لغته ودلالته ثم لا يلبث أن يعود إلى ما كان عليه، هذه المبارحة وتلك العودة المتجليتان تحملان على التساؤل عن طبيعة الشاعر، أهو ذاتي يكره نفسه على الغيرة؟ أم غيري يكره نفسه على الذاتية؟. فالشاعر حين يجلي في الموقفين الغيري والذاتي ثم لا يكون بالإمكان كينونة الشاعر فيهما معا تصعب عملية التنبؤ. ثم إن المسألة ليست داخلة في الجودة أو الضعف، وإنما هي في تلك السمة الفنية التي ظلت كما هي مع شيء من التغيير. ففي أي الديوانين نجد الشاعر؟ وفي أيهما يقدم الشاعر نفسه تعبيرا صادقا عن ذاته؟.

كان في ديوانه الأول شاعر ولهٍ وشكاية وعتاب فرغ لنفسه وهمه وأحلامه، ولم يلتفت إلى الناس، بل عاش عذابات الحب، ومطال الحبيب، وكأن مثلَه مثلُ ابن أبي ربيعة الذي شغلته عواطفه الذاتية، فيم شغلت المكاسب هموم الشعراء. قال الشاعر الأمير شعره عن نفسه، وقال الآخرون شعرهم عن الناس، فكان ذاتياً خالص الذاتية. وكانت الحبيبة والوطن مطارح إبداعاته. والذين يرونه في ديوانه الأول معابثا للمحبوبة يفجؤهم بوطنيات لا تقل عما قاله عمالقة الشعراء الوطنيين، ومع هذا يظل في ديوانه الأول شاعر حب ليس غير، ولو أنك ابتسرت قصيدتين من ديوانه الأول هما «إلى شباب بلادي» «٨»، و«نداء» «٩»، وأضفت اليهما «أين مني» «١٠»، لقلت: إن عبد الله الفيصل شاعر وطني حماسي ثوري، ولكن هذا الخروج من سرب الحب والتغريد خارج أفياء المحبوبة يسلكه في شراك محبوب آخر هو «الوطن» فهو إذاً شاعر «حب» حب الوطن، وحب السكن، وهل الوطن الا سكن؟ وهل المرأة الا سكن؟ انه يبحث عن السكن، عن الهدوء والعزة والكرامة. وهو حين يحن إلى وطنه لا يتخلص من لغة الحب والشوق والتوله:

ياطير هيجت آلامي واشجاني
بما تغنيه من الحان ولهان
بي مثل ما بك من احزان مغترب
فالكل منا وحيد ما له ثاني
تشكو فراق وفي كنت تألفه
اما انا فشكاتي بعد أوطاني «١١»

اذا الحب والعشق ولغة الحب والعشق لا تفارق الشاعر في تولهه لمحبوبته وفي حنينه إلى وطنه. وعشق الساكن يوحي بعشق المسكون:

وما حب الديار شغفن قلبي
ولكن حب من سكن الديارا

والشاعر في وطنياته لا يبرح قاموسه اللغوي ولا تشكيله العروضي، ومن ثم لا تحس بشيء مختلف، وان تغنى بأمجاد امته، وحن إلى مراتع صباه ومسارح احلامه، انه اسير الشوق، الشوق إلى الحبيب والحنين إلى المحبوب، والحب العذري عند الشاعر كما هو عند «قيس بن ذريح» شكول تقصاها الشاعر، كما لو انه يسجلها من الذاكرة لكيلا تضيع.

فمنهن حب للحبيب ورحمة

وحب بدا بالجسم واللون ظاهر

وحب لدى نفسي من الروح الطف

وابن ذريح في هذا التفصيل، يأتي على مستويات الحب العذري الذي تبدت ملامحه عند شاعرنا. كانت عند ابن ذريح مجموعة في قصيدة، وكانت عند شاعرنا منثورة في ثنايا قصائده، والشاعر الامير يتفيأ ظلال الشعراء العذريين ويتناغم معهم، وكأنه واحد منهم لا يفصله عنهم الا ذلك الزمن السحيق، وهنا يثور تساؤل مشروع عن المعين الذي يمتح الشاعر منه لغته وصوره ودلالاته، والنقد بكل ما اوتي من آليات دقيقة لا يستطيع ان يقطع في تحديد المعين: هناك مقرؤ، وهناك معاش، هناك صورة محبوبة ينقلها الشاعر من الواقع المعاش إلى الكتابة المقروءة، وصورة اخرى كانت ملامحها منقولة من قبل، ومرصودة من قبل، فأي الصورتين امدت الشاعر؟ وما الصورة المتعالقة والاخرى المبادرة؟ الشاعر مع كل الاحتمالات شاعر عاش الحب ولم يصطنعه وابدع الشعر ولم يحاكه.

والشعر عنده ينبىء عن تجربة حية، وهذا لا يمنع من ان يكون الشاعر قد قرأ الشعر العذري، وتسرب شيء منه كما العبق الذي يهتك التكتم، وكما النور الذي يمزق الظلام، ولا اظنه بقادر على اصطناع برزخ لا يختلط المعاش مع المقروء، والمتفق عليه انه لا يمكن تصور نص بريء ينشئه مبدعه من درجة الصفر، فالتعالق النصي مشروع، والاشكالية في تحقيق هذا التعالق دون وقوع في المحذور، فالاشباه والنظائر حفزت «الخالديين» على تقصي وقوع الحافر على الحافر، ومن ثم فان فيوض الشعر تنطوي على المعاش والمقروء، والشاعر حين يدلي دلوه ليمتح من عمق الذاكرة يختلط الاثنان معا، ثم لا تجد مناصا من القول بالتناص، وليس التناص مأخذاً، وانما هو ظاهرة قائمة ومشروعة، «ما ترانا نقول الا معادا» و«هل غادر الشعراء من متردم» وامرؤ القيس يبكي الديار كما بكاها ابن حذام، ومن مهمات الناقد البحث عن مصادر ثقافة النص ليس بحثا عن الادانة وانما تجلية لثقافة النص وهويته. لقد فعل ذلك «الخالديان» في كتابهما المشهور «الاشباه والنظائر» وما بذلاه من جهد وتقصي كشف عن التعالق المشروع وغير المشروع، وجاء العصر الحديث بالنقاد النصوصيين فأتوا بما لم تستطعه الاوائل وهل احد منا لا يتذكر بائية ابي تمام حين يقرأ للشاعر قصيدته التي يقول فيها:

ويوم تشرين قام الحق مرتفعا

على الذرى وخصوم الحق في صبب

انك بلاشك ستتذكر ابا تمام وبطله المعتصم، والروم الذين اندحروا في وقعة «عمورية» وسلطان الانموذجين: «البائية» و«السينية» غلب على كثير من الشعراء، وشاعرنا ليس بدعا من الشعراء، والتداعيات تجلب معها المحفوظ لتتبدى ملامحه في الابداع وشاعرنا لاشك انه سليل الغزل العذري والعشق الصوفي.

(٣)

٣/١واذ نتفق أو نكاد على ان الشاعر صور جانبا من حياته وبعض ما عاشه من معاناة، لم يتفق احد على نوعها أو مصدرها ولم يختلفوا حول مصداقيتها، فانه اتى على الوان من الحب، كان الشعراء قد مروا بها وسجلوا اطرافا منها في شعرهم، ولما كان المقروء والمعاش مصدرين هامين، فان اشكالية الناقد تكمن في الفصل بين ما هو تعالق نصي، وماهو تجسيد لمعاش، وابن ابي ربيعة صور مواقف ولقاءات وخلوة وتوديع، واختلف الورعون حول تداول شعره، لما ينطوي عليه من غزل لا يليق، وقصة «أمن آل نعم» مشهورة. هذا الشاعر اقسم حين حضرته الوفاة: انه لم يحل ازاره على حرام. وعلى ضوء التداخل بين القولي والفعلي فان من حق المتابعين لفيوض التوله والتشوق والمناجاة والعتاب والتحسر ان يلتمسوا في ثنايا النصوص صورا من حياة الشاعر والوانا من أنواع الحب عنده كالحب العذري، أو الحب الصوفي، أو الحب الرومانسي، أو الحب الاسقاطي، اضافة إلى حب التقنع، وحب الرمز، وما لا نهاية له من اصناف الحب، وعلى ذكر «الرومانسي» فقد وقفت على كلمة توحي بعربيتها وهي ان اسم زوجة النعمان بن المنذر «رومانس» وهذه التسمية قد تنشىء علاقة دلالية بين الاغراض الرومانسية في الشعر العربي وما يوحي به اسم تلك المرأة، ذلك ما سنفرغ له.

والمرأة التي شدت وثاق الشعراء، فكان الشعر منا أو فداء خرجت من مركزية الحب الجسدي لتكون شيئا آخر تضل به الافهام وتزل فيه الاقدام فكانت عند قوم وطنا، وكانت عند آخرين رمزا للصراع الحضاري، واستعملها المتصوفة قناعا أو رمزا، وبقيت عملية الفرز عملية شاقة.

والشاعر لا يبعد النجعة، ولا يدفع بك إلى التيه وراء تلك الالوان والطعوم، ولكنه يطوي في اعماقه الوانا من الحب والاخلاص والرفض والاباء المخلوطة بالالم والحزن والتعالي، وبخاصة حين يغرق في اضواء امارته، بحيث يدفعه إلى التهديد «باليمين وباليماني»:

ولـــــولا الحـــــب فـــــي الاعنـــــاق رقٌّ

ملكتـــــــك بـــــــاليمين وباليمـــــــاني

وتلك ليست من لغة الحب في شيء، ولهذا جاء ب«لولا» التي تدل على امتناع لامتناع. ان لغة الحب واجواءه يفعلان باليمين وباليمان ما فعلته حالة ابن شداد. فالحب واجواؤه يجذبان السيف والرمح من عالم القوة والحرب إلى عالم التوله، حتى يود الشاعر تقبيل السيوف لانها لمعت كبارق ثغر محبوبته. والشاعر المحتمي بسلطانه يمتلك صفاء روحيا في تولهه، يرتفع بحبه إلى درجات من الصفاء المزدوج: صفاء في اللغة، وصفاء في الايقاع، وصفاء في الروح، ولمّا يكن الحب عنده شكلا ولا جسدا، وان ألم بمثل ذلك، ولكنه المام عابر، والشاعر الذي عاش عذابات الحب، ولم يصطنعها لم يركن إلى بوادر العصر الحديث ورؤيته المتطرفة للقيم والمفاهيم، كما لم يكن احادي النظرة، فالمتمعن في شعره تتراءى له غابة متشابكة من الاشكاليات الدلالية. ومع هذا فلا احسبه بعيدا عن حسيس الرومانسية الغربية، واذ لم يكن مستسلما لشيء منها، فقد تراءت له من خلال متابعاته وتسربت كما العبق تحسه ولا تراه.

ولانه ذو حظوة وحظ عظيم فقد سعى اليه الكتاب والمثقف وخالطه الكتاب والشعراء مثلما سعى إلى احد الممدوحين المنبر أو كاد يسعى، وهذه الحياة الطيعة شكلت له الاجواء المقدور عليها، وبدت ملامح هذه الحياة بهذا الشعر الذي تلقفه المتعذبون بالحب، واعادوا شحنه بما يعانونه.

وعند النظر إلى الشكل والتشكيل والبناء والانتقاء نجد الشاعر في ديوانه الاول ذا خصوصيات وسمات تذكرنا بالموشحات الاندلسية التي جسدت الطبيعة الحالمة والنعيم المقيم في الفردوس المفقود، وبالرباعيات الخيامية وبالتوله العذري، وبلغة الحب العذبة السلسة الرقيقة. ومع الصفاء اللغوي والعذوبة الموسيقية، يقع الشاعر في تجاوزات دلالية لا اظنها من سماته، وهي تجاوزات لا نتفق معه عليها، وقد تكون من ذلك الايغال الذي قال عنه البلاغيون، والشاعر يود في بعض حالات الرفض والتمرد لو انه اتخذ من كلماته حرابا حادة ليغرسها في صدور الذين لا يشعرون بعذاباته ومن ثم تراه يوغل في تجسيد تلك المعاناة التي لا نراها، وهو في مناجاته يصل إلى ذروة المبالغة، وله مع هذا ادلال في شعره ومباهاة به، قد تكون محمودة خارج نطاق الحب ومجادلة الحبيب:

انـــــي وحيـــــد القـــــوافي

وانـــت بالحســن اوحـــد «١٢»

دعـوت الشـعر فيـك فمـا عصـاني

ولان قيـــاده بعـــد الحـــران

اتـــى جبريلـــه واســر وحيـــاً

الـــيّ كأنـــه رجـــع المثـــاني «١٣»

ولاشك ان في ذلك مبالغة مسرفة، ما كانت من سمات الشاعر، وما كان له ان يقترفها، اذ لا نتفق معه على الانتقال من شياطين الشعر الاسطورية إلى ملائكة الوحي الحقيقية المتنزلة بالحق، كما لا نرى مبالغته في رسم المصير لمحبوبته «اذا ما نعي»:

وعيشـــي مـــدى العمـــر بالـــذكريات

وطـــوفي بمغنـــى الهـــوى واخشـــعي

وزوري ثـــراي اذا مـــا الســـكونُ

طـــل وعنـــد الثـــرى فـــاركعي«١٤»

والشاعر المتوله ذو الحب العذري المتسامي قد يقع في الوصفية الحسية، بحيث يخرج من الق التوله إلى فقاعة الحس، ولكنه لا يتلبث في ذلك العارض الذي لم يكن من سماته:

عينـــــاك عينـــــا مهـــــاة

والشـــــعر كالليـــــل اســـــود

والثغـــــــر عقـــــــد لآل

يـــا ليتنـــي فيـــه انضـــد «١٥»

والشاعر المتألق هو الذي يرتبك في رحابه النقاد، ويختلفون، ولهذا فان شاعرا كأبي العتاهية يُخْرِجُ الشعر من كُمِّه لم يشغل الناس، ولم يختلف حوله احد. ان الشاعرية الفذة هي التي توتر الاعصاب وتثير كوامن الرؤى، ولا يصل فيها المختلفون إلى أرض

مشتركة. ذلك بعض تجليات ديوانه الاول، وهي بعض ما ينطوي عليه من معاني، ولو امترى اخلاقه آخرون لجاد بالمزيد من الدلالات.

٣/٢وحين نتخطى إلى ديوانه الثاني لسبر اغوار المسافة بين الديوانين نجد ان هناك مسافتين: مسافة دلالية واخرى فنية، وكلتا المسافتين ليستا بشاسعتين، والاختلاف بينهما دون ما كنا نؤمله فالمسافة الدلالية تراوح بين القرب والبعد، وهي مفارقة متوقعة ومحسوبة، فالشاعر في تلك المرحلة بلغ اشده، واستوت مداركه، ونضجت رؤيته واختلطت همومه الذاتية مع هموم امته، فكاد يكون ديوانه الثاني غيريا بقدر ما كان ديوانه الاول ذاتيا، ولكن الحب المتجذر جذبه ليغمسه في اعماقه من جديد، لقد كاد شعره يبتعد حين تحدث عن وطنه حديث الخائف المترقب، وتحدث عن امته حديث الناصح المشفق، وتغنى بأمجادها وتفجع على شهيدها وتحسر على واقعها، وسجل طائفة من احداثها، وابتهل إلى الله ابتهال المخبت، ودخلت عالمه امرأة اخرى ليست معشوقة ولكنها ابنته التي اخترقت عوالمه بعواطف الابوة لا بوله العاشق. ولكنه مع هذا لم يبرح القاموس اللغوي للحب، ولم يند تشكيله الشعري عما كان عليه في ديوانه الاول، وان هدأت موسيقاه، وطال نفسها بعض الاطالة، ثم هو اذ لم يتخلص من لغة الحب ولا من الحب ذاته، فانه استهل ديوانه بالوطنيات والحماسيات والابتهالات والرثائيات والابويات وكان فيها متألقا كما هو في الهوى والحب، ومع هذه التجارب التي كشفت عن قدرات فنية ودلالية فانه لم يبعد النجعة، لقد عاد ادراجه كأقوى ما يكون العاشق المدنف، ولك ان تقرأ «بريق المجد»:

من بريق الوجد في عينيك اشعلت حنيني «١٦»

أو «من اجل عينيك»

هذا فؤادي فامتلك امره

واظلمه ان احببت أو فاعدل «١٧»

فكان ان تقاربت المسافة الفنية واللغوية وتباعدت المسافة الدلالية شيئا قليلا، لتعود من جديد، وتلك ظاهرة طبيعية، أو تكاد تكون طبيعية، فالتجارب والمواقف اضافت هموما جديدة، وليس علينا من بأس في اختيار مقاطع من شعره في ديوانه الاخير يبدو فيها العدول الدلالي، وتتجلى من خلالها المسافة الفاصلة بين القيم الدلالية هنا وهناك. ففي حالة من الانابة النادمة يتلاحق الاعتراف وطلب العفو من خلال نفس صوفي ابتهالي:

الهي ما يوما عَصَيْتُكَ مرةً
وكنتُ بعصياني إلى العَمْدِ اقصد

وما شدَّني للذنب شِركٌ بمبدع
يَخرُّ له نجمٌ ويسجدُ فرْقَدُ

وما كنتُ مغروراً وقوتي
ولا غرَّني جاهٌ ومال وسؤْدَدُ

ولكنه ضعفي امام غرائزي

وبَهْـرَجُ دنيـا خالِـبٌ ومُسَـهِّدُ «١٨»

والشاعر المفجوع باستشهاد والده الملك فيصل رحمه الله تتلاحق عنده الاستفهامات الانكارية مجسدة حجم الفاجعة:

كيف ارثيك يا أبي بالقوافي
وقوافيَّ قاصرات الجناح
كيف ابكيك والخلود التقى في
ك شهيداً مُجسَّما للفلاح
كيف تعلو ابتسامةُ الصَّفْوِ ثغري
كيف تحلو الحياة للمُلْتاح
كيف لا احسبُ الوجودَ جحيماً
يحتويني في جيئتي ورواحي
كيف اقوى على احتباس دموعي
وانا لا اخاف فيك اللاحي
كيف انساك يا ابي .. كيف يمحو
من خيالي خيالك الحلو ماح «١٩»

وهو حين يعيش فرحة الانتصار على العدو وتحطيم «خط بارليف» تخف حدة الانكسار عنده، وتعود اليه الثقة بالمقاتل العربي، وتعود به هذه الثقة إلى تلك البطولة العربية التي جسدها ابو تمام، ومن ثم راح يمتري اخلاف بائية ابي تمام التي تعيش الاجواء نفسها:

ويوم تِشْرين قام الحقُّ مرتفعاً
على الذُّرى وخصومُ الحق في صَبَبِ
دُكّتْ حُصُونُ بني صهيون وانطمرتْ
في خط بارْليفَ اكداسٌ من الكذب
عَدَتْ عليهم ليوث الغاب فاحترقوا
ولاذ من لاذ بالافلات والهرب
كأنهم بين أبطال الوغى جُرُدٌ
مذعورةٌ وقعت في كف مُخْتلبِ

دارت علــيهم دواعـــي الشـــر فـــانقلبوا

علـــى عـــواتقهم فـــي شـــرٍّ منقلـــب «٢٠»

والعمل الفدائي شفاء لما في النفوس، والشاعر حين يمجده يمارس التحريض على القتال:

قُــــلْ للفــــدائي هنيئـــــا لــــه

معـــــاركٌ تنطـــقُ فيهـــا الحـــرابْ

يمضـــي إلـــى الحـــرب عزيـــز الخطـــى

لا مطمــــــع يحفـــــزه للسِّـــــلابْ

وانمـــــا تحـــــدوه سُـــــقيا العـــــدا

كأســـا جَرَعْنـــا منـــه مُـــرَّ العـــذابْ

لا يرهـــــبُ المـــــوتَ ولا ينثنـــــي

عـــن عزمـــه شـــأن الشـــجاع المهـــابْ

ســـــلاحه الايمـــــانُ فـــــي ربـــــه

وهمـــــةٌ عاليـــــةٌ كالشِّـــــهاب «٢١»

وهو في غمرة الانتصار والعمل الفدائي يجنح للسلام، ويدعو إلى الوئام ويحذر اهله وعشيرته من مغبة الحروب مثلما فعل ابن ابي سلمى:

ســـادة الشـــعر يـــا سُـــلاف عبيرالـــ

تفكُـــرِ يـــا نفـــح عَرْفِـــهِ الفَـــوَّاح

انـــذروا قـــادة الشـــرور بخُســـر

رغـــم مـــا اكـــتظ بيـــنهم مـــن ســـلاح

بلّغـــوهم أنَّ الســـلام هـــو الحـــ

ق وافيـــــاؤه ظِـــــلالُ الفـــــلاح

علمـــوهم حصـــافة القـــول والفـــعْ

ـــل وقولـــوا لهـــم بصـــوت اللاحـــي

ايهـــا المشـــترون بـــالحرب نصـــرا

لـــذّةُ النصـــر فـــي العقـــول الصَّـــواحِي

حطمـــــوا عُـــــدَّة الحـــــروب وذودوا

عـــن حمـــاكم بـــالعلم والاصـــلاح

لا تطيـــبُ الحيـــاةُ مـــن غيـــر امـــن

مشـــرق كالســـنا بثغـــر الصـــباح «٢٢»

واحسبنا بحاجة إلى مساءلة النص واستنطاقه لمعرفة اعمق واشمل بأسباب التحولات. واذ قد استوفينا الحديث عن ديوانه الاول الذي أسس فيه لمنهجه الموضوعي والفني، فان استيفاء مثل ذلك عن ديوانه الثاني يكاد يحكم القبضة على الشاعر، ويجعله في متناول يد القارىء، والشاعر الذي استلذ الحرمان في ديوانه الاول ضاق به في ديوانه الثاني:

أنـــا ضـــقت بالحرمـــان يـــا ربـــي

والـــري مـــن حـــولي فمـــا ذنبـــي «٢٣»

ولعلنا نستذكر مقولته في كلمة الاهداء: «إلى الذين شاركوني في لذة الحرمان» ثم نعود لنبحث عن هذا الضيق وكيف انتقل به الحرمان من اللذة إلى الضيق، فلربما يكون الحرمان اللذيذ شيء والآخر شيء آخر، فأي حرمان هذا الذي قلب له ظهر المجن؟

واذ يكون قد استهل الديوان الثاني بالوطنيات والابتهالات والتفجعات فانه لم يطل المكث فيها فما خلق لها وما خلقت له وما كان لها ان تصرفه عن معاناته وحبه ومغالبته للحبيب، لقد عاد حيث تكون الحبيبة ويكون الحب الذي لا يعكر صفوه ما تفيض به الحياة من مشاكل المح إلى شيء منها، وهو يمجد وطنه أو يرثي اباه أو ينعي مصير امته، ولعله التقط عنوان ديوانه الثاني من حديثه إلى حبيبته في «فجر حبي»:

واســـــتمع مـــــا يقـــول قلـــب لقلـــب

فـــي حـــديث اللقـــاء بعـــد الغيـــوب «٢٤»

والديوان برمته يمثل انكسارات الحب ورحلة العودة من شواطىء الركض في فيافي الحب والتوله، انه تصفيات لحسابات قديمة:

ايهـــا العائـــد الـــذي الـــف المكـــر

وقـــــد هـــــد بالخـــــداع كيـــــاني

لســـت ادري هـــل جئـــت تطلـــب ودي

ام تـــرى جئـــت شـــامتها بهـــوائي «٢٥»

وفظاعة الانكسار تتمثل بقوله:

يـــا حبيبـــي آذنـــت شـــمس هوانـــا بالمغيـــب

وانطوى حلم رعيناه بدقات القلوب «٢٦»

وقوله:

دعّنـــــي فقــــد مـــــات حــــبٌّ

اضــــناه طــــول التحــــدي «٢٧»

هذا الحرمان الذي ضاق به بعد لذة، هذا الحب الذي مات بعد طعم التحدي، وهذا الكيان المتهدم، كل هذه المصائر تعني ان المحارب اخذ طريق العودة، لقد مل التنازع، ومل الجدل، ومل العتاب، وما عاد قادرا على مواصلة السفر في فيافي الحب والركض وراء سراباته. هذا الديوان يمثل رحلة العودة والانابة. «٤»

٤/١تلك إلماحات عن بعده الموضوعي وهو بعدٌ قريب بعيد.

قريب لمن اراده كما هو في حبه وتولهه، وبعيد لمن التمسه من خلال الرمز والقناع والتورية، والنص حمال اوجه بالقدر الذي يراه البعض ممن يحلو لهم تغنيص النصوص، اما عن صوره الشعرية فانها تشكل فضاءات واسعة وتأتي على اشكال وصيغ متعددة، وتستمد كينونتها من المعاش والمشاهد والمحفوظ، لا يتأمل الشاعر في تشكيلها ولا يستحضر انبثاقها، ولكنها حين تتجسد في سياقه الشعري تتخذ وجهتها وتعطي سمتها، تكون قديمة، وتكون حديثة، تكون رمزية، وتكون سريالية، تكون عقلية، وتكون حسية، تكون ثبوتية، وتكون متحركة، وهو لا يريدها ان تكون شيئا من هذا أو ذاك، أو قل: لا يعنيه ان تكون بهذا التنوع، ولكنها كأي فعل تعبيري يتشكل من خلال الابداع ثم تبحث عن انتمائها ويجتهد النقاد في استجلائها وتصنيفها. ان الصورة اي صورة، عفوية كانت ام متعملة، لابد ان يكون لها طبيعة ومجال ونمط، والناقد الذي يتعمد التفكيك يدرك التشكلات وعلاقات البناء ويستجلي جماليات الصورة وتنوعها وخصوصيتها في التشكيل الشعري، وعلى الرغم من ان الشاعر عاش متولها رومانسيا غزلا الا انه تسامى بالجسم الانثوي ولم يتخذه مادة ممتهنة مبتذلة لصوره، وكان بامكانه ان يستغل طاقات الجمال الحسي فتكون صورة حسية جمالية، لقد تسامى فوق النفعي المادي ليصل إلى الروحي المثالي، واذ لم يكن على رأس المبتكرين، الا انه اتخذ الجماليات الروحية ملاذا له، وان جذبته المرأة اليها في لحظات ضعف بشري، ولانه عربي تثيره الصحراء اللافحة وتستهويه شوامخ الجبال، فقد استمد من الصحراء بعض صوره وحولها من الحسية إلى المعنوية، ومن تقنيات الصورة عنده عنصر التقابل والتقابل يعمق الحالة الشعورية هناك: «قفر، وصحراء، وخضرة، ويبات، وحياء» وتلك معهودات حسية يعرفها ابن الصحراء، يكتوي بحرها، ويتجرع مرها، وذلك من اقتيات المعاش، وقل ان تراه مستدرا لاخلاف الذاكرة، هذا المعجم الذهبي المعاش نهض بمهمة التصوير الشعوري وتجسيد المعاناة:

دنيــــاك قَفْــــرٌ مــــن خيــــال متــــيَّم

يرنـــــو اليـــــك بلهفــــــة الاحبــــــاب

وذُنـــــاي كالصـــــحراء اخطأهـــــا الحيــــا

فتحولـــــت مـــــن خضـــــرة ليبــــاب «٢٨»

والشاعر الواقعي: واقعية الدلالة واللغة، لا يبارح المعاش، ولكنه حين يلتقطه ليكون موقفا فنيا، يحتاج إلى امكانيات استثنائية في اللغة والفن والثقافة لكي يحوله من عادي إلى فني، والمكان قد يتحول من معهوداته الظرفية ليكون شعريا، والنقاد المحدثون يولون المكان اهمية، ويجعلونه جزءا من العملية الابداعية، ويعالجون جمالياته وايحاءاته والاقل منهم يوفق في استجلاء انعكاسات المكان على العملية ومدده لها، وهذه الاطلالة والموارد

والمراعي التي عايشها الشعراء مع محبوباتهم وهذه المياه المتدفقة والجبال الشاهقة والطبيعة الناطقة والصامتة تحولت من حسيتها الظرفية لتكون حالة شعورية زاخرة بالدلالات والمعاني. فالبحتري جسد شعوره وصور انكساراته من خلال «الايوان»، واستطاع المؤاخاة بين خريف الذات وخريف «الايوان» وابن خفاجة شخصن الجبل ثم راح يسائله عن ذكرياته، كم طوى داخله من اجيال، وكم مرت به من قوافل، وكم افلت في ذراه من احداث، وشوقي ابدع رائعته في «انس الوجود» والثلاثة عاشوا مرحلة التأمل والتذمر، وجاء من قبلهم الشعراء والقصاص والروائيون فكان المكان عندهم عنصرا هاما في العملية الابداعية، وكان للمكان عند الفيصل شؤون وشعر الطبيعة في سائر العصور يعيش حضورا فاعلا في تعميق الاحداث، وشاعرية المكان وجمالياته قضية ادبية ناشطة والصورة ليست في مادتها ولكنها في التشكيل والتخيل والحركة. وقصيدة «ابنة الأحزان» (٢٤) تتلاحق فيها الصور والتشبيهات «كالنور» «كالطيب» «طويت على جسد الشرور ثياب والهوى سطر مكبر» «والجوى طيف حائم» «كأن الآه شدَّت عذابك في وثاق عذابي» «وكأن قلبينا .. ركزا على مدِ النوى الغلاب».

والشاعر الذي يواجه بالعقوق والتنكر، ينقل المشاعر إلى مشاهد والرؤى إلى حسيات ليعمق المأساة، ويدين الحبيب:

أزرعُ الــــودَّ والحنــــان واســـــقي
واحـــةَ الحـــبِ مـــن روافـــد قلبـــي
فـــأرى الشـــك والجحـــود والقـــى
ناتئــات الاشـــواك تمـــلأ دربـــي «٢٩»

هذه الصورة غابة متشابكة متناسلة .. البذل المعنوي فيها من: «الود» و«الحنان» يتحول إلى بذور حسية مؤذية تخر المشاعر، فـ«الحب» يتحول إلى «واحة» و«القلب» يتحول إلى نبع متدفق في مسارب تلك الواحة. واذا كان هناك «واحة» و«بذور» تزرع و«ماء» يتدفق فالمتوقع ان يكون هناك نبات له طعم في الفم ورائحة في الانف وجمال في العين، ولكن الصورة تجيء على عكس ما يتطلع «شك» و«جحود» كأنه الشوك الناتىء الذي يملأ طريق الشاعر، وهو لا يقصد ما تطأه الاقدام، وانما يريد ما تعبره المشاعر. انها صورة متعددة الاشكال والالوان، صورة مركبة، تتشابك مفرداتها لتشكل لوحة مليئة بالالم، ثم هي نسيج من البيئة التي يعيشها الشاعر بوصفه ابن الصحراء وربيب شعراء الصحراء.

وهو اذ يتحامى الصورة الحسية يقع فيها كأحسن ما يكون الوقوع:

شـــــفتاه ينبــــوع حـــب شـــــهي
ليتنــي مـــا فطمــت عــن شـــفتيه «٣٠»

وعليك ان تتصور الينابيع المتدفقة بالماء العذب الزلال ومن حوله يشتهيه ويتهافت عليه، ثم تتصور الطفل الرضيع الذي لم يبلغ الفطام وتكون الشفاه كثدي الام المتدفق بالحياة، هناك تدفق الينابيع ودر الحليب.

وهناك الوارد الهيمان والطفل الرضيع، شبكة من التصورات جسدها بيت واحد، وكل قصيدة «ومضات الحنان» غارقة في الحسية مأخوذة بالتدقيق والتفصيل فالوجنة بلون الورد، وانفاسه عبير، وشفتاه ينبوع، وحاجباه سيفان وشعره قطعة ليل، قده غصن

بان، والشاعر يحاول الخلوص من تلك الحسية الصارخة والتفصيل المكرور، فتكون «المقلتان اصفى من الحلم» و«الدلال يزهو في برديه» و«شعره قطعة طالت فتدلت نشوى على كتفيه» و«الصوت منسرح كالنور» هذا التراسل الحسي عفوي انسيابي ابداعي فيه اغراق خيالي، ولكنه اغراق مشروع، ومؤشر براعة واكتمال آلة، وتأتي الصورة المعنوية العميقة كأجمل ما يكون التصوير:

والأنــين اليقظــان يقتــات غفــوي

وبعينــي غفلــة وشــرود

كلمــا ســاقني إلــى البشــر مــد

عــاد لــي البكــاء جــزر شــديد «٣١»

صورة جامعة، تتداخل فيها المجازات، ويتبدى التراسل، وينفتح لها فضاء الدلالات، لتأخذه حيث يكون التكثيف، فالانين يوصف باليقظة، وهو مخلوق نهم اكول يقتات من الغفو، والغفو المعنوي يتحول إلى مادة يعيش عليها الانين، والبحر له مد يسوق الشاعر إلى البشر، وكأنه شيء على الساحل وجزر يعود به إلى اعماق البحر ليجد البكاء كالقرش أو كالحوت، وهكذا تتداخل الصور والتصورات وتتفاعل الحركة والسكون، ويمتزج الحسي بالمعنوي، وتسقط الحواجز مشكلة بسقوطها لوحة رائعة يتآزر الحسي والمعنوي ليعمقا الألم والحزن والمعاناة.

وللشاعر «فرحة» و«غرام»، و كان يود لو ان الفرحة تدوم ومطامع الغرام تتحقق، ولانه الشاعر المعذب المتعذب لم يكن غرامه الا ضبابا حالك اللون، سهله اخدود، ولم تكن فرحته الا برقا ورعدا عارضا غير ممطر: -

فغرامــي مــا كــان غيــر ضــباب

حالــك اللــون ســهله اخــدود

قــدري ســاقني اليــه فكانــت

فرحتــي بارقــا تلتــه الرعــود «٣٢»

والنصوص التي اخترناها تستدعي مظاهر بيئية عاشها الشاعر «البحر» «الصحراء» «الرعد» و«البرق». والشاعر يستغل بيئته لنسيج الصور بشكل دقيق وبوعي تام، فعناصر الصورة عناصر طبيعية بيئية يعيشها الشاعر ويكتوي بسلبياتها، والشعراء اما ان يقتاتوا من الذاكرة القرائية أو من مشاهداتهم البيئية، والامر مرتبط ببراعة الالتقاط وحسن الاداء، وقد يمتاز الشاعر البيئي ببراعة الابتكار فيما يمتاز الشاعر الثقافي بحسن الاختيار، والمسألة في النهاية مرتبطة بصدق التجربة وبراعة الموهبة وتناغم الصورة مع الحدث وقدرتها على تعميق الرؤية وتكثيف الدلالة، وصور الشاعر الملتقطة من البيئة الصحراوية تجسد المعاناة، فالرعد والبرق حين لا يعقبه مطر ينعكس اثره السيء على ابن الصحراء. والمد الباحث عن البشر يسلمه لجزر يعود به إلى البكاء، ومشاهد الطبيعة يراها الشاعر رأي العين قريبا من داره، والصحراء والواحات والبذر والسقيا اشياء الفها الشاعر، وذاق حلوها ومرها.

والشاعر يتيح للحواس ان تتراسل فهو ينظر بأنفه ويشم بعينه ويرعى بأذنه، وهو يشخصن المعنويات وتتحول الاشياء عنده إلى معانٍ، والمعاني إلى اشياء وهكذا يعطي نفسه سعة من حرية القول، فيتمكن من تلوين صورة وتحريكها بشكل مثير ومبهج.

٤/٢والشاعر الذي يقصر نفسه وتتكشف دلالته تبدو بوادر الطول والاستفاضة في ديوانه الاول ثم تشيع تلك الظاهرة في ديوانه الثاني ومع هذا تراه يحتفظ بالاشواط الدلالية والمقاطع العروضية. ولكن القصيدة تمتد معه ويدخل في جدلية دلالية، وبخاصة فيما هو خارج سرب التغني الذاتي، ومقدمة «حبر ينفد» «٣٣» يطول فيها النفس ويزيد فيها التفصيل ولكنه يحتفظ بخواصه الشعورية والايقاعية والايحائية، ويبدو التماسك العضوي والنمو الموضوعي والقصيدة استدراج واستعطاف وتحسر:

يخيل لي انني قد اضعت

شبابي وقلبي وعمري سدى

وكم تمنيت لو انه يخلص من الاطناب الذي يقترب من التكرار باستبدال «شيبي» بـ«عمري» وان كان العموم بعد الخصوص أو الكل بعد الجزء فالشباب جزء من العمر، ولست متراجعا عن تلك الرغبة، وان اصاب المريدون. ذلكم هو الشاعر الذي عبر عن مشاعر الوالهين لم يرض تقديم نفسه بكل ما قال، وانما قدمها ببعض ما قال، ولم يظفر المشهد الادبي الا بعملين اثنين وآخر باللهجة العامية، وهذان العملان يقعان في ١٨٠٣ بيت ويشتملان على ١٣١ قصيدة ومقطوعة تتراوح كل قصيدة من ثلاثة أبيات إلى واحد وعشرين بيتا والشاعر الذي امد الله في عمره ومكن له في ارض الادب وهيأ له الاسباب لم يخرج للناس الا هذين العملين ومن خلالهما يستقرىء النقاد حياة حافلة بالمغالبات ليكون في النهاية المغلوب .. ولم لا يكون والنساء يغلبن الكرام ويغلبهن اللئام.

فهرس الحواشي:

١- اتجاهات الشعر المعاصر في نجد ص٢٢١.

٢- في أدبنا المعاصر ص١٦٠.

٣- جدود قدماء ص ٢٨٣.

٤- صدر له ديوان «عذاب السنين».

٥- لعل من اهمها:

أ- الامير عبد الله الفيصل آل سعود والبيئات العربية السعودية بمصر. أ/صالح جمال حريري.

ب - الامير عبد الله الفيصل في مصر. محمد الغزالي. دار الكتب بمصر ١٩٥٢م.

ج - عبد الله الفيصل حياته وشعره منير العجلاني. دار الاصفهاني بجدة ١٩٨٢م.

د- ظاهر الاغتراب في شعر ابراهيم ناجي وعبد الله الفيصل د. عزت محمود علي الدين. هذا بالاضافة إلى مؤلف عبد الكريم نيازي، وما كتبه نقاد ودارسون من المملكة أو من الوطن العربي ممن كتبوا عن الادب العربي في المملكة. راجع الادب العربي السعودي بأقلام الدارسين العرب. د/حسن بن فهد الهويمل وآخرين.

٦- مقدمة وحي الحرمان.

٧- وحي الحرمان ص ٥٨.

٨- وحي الحرمان ص٥٢.

٩- وحي الحرمان ص ٨٩.

١٠- وحي الحرمان ص ٨٢.

١١- وحي الحرمان ص ٨٠٢.

١٢- وحي الحرمان ص٤٤.
١٣- وحي الحرمان ص٣٠.
١٤- وحي الحرمان ص٩٦.
١٥- وحي الحرمان ص٤٤.
١٦- حديث قلب ص ٦٣.
١٧- حديث قلب ص ٦٦.
١٨- حديث قلب ص٧.
١٩- حديث قلب ص١٢.
٢٠- حديث قلب ص٢١.
٢١- حديث قلب ص ٢٥.
٢٢- حديث قلب ص٣٥.
٢٣- حديث قلب ص٥٢.
٢٤- حديث قلب ص١٤٢.
٢٥- حديث قلب ص١٠٢.
٢٦- حديث قلب ص١٠٨.
٢٧- حديث قلب ص١١٩.
٢٨- حديث قلب ص٩٥.
٢٩- ديوان حديث قلب ص٥٥.
٣٠- ديوان حديث قلب ص١٢٨.
٣١- ديوان حديث قلب ص١٧٨.
٣٢- ديوان حديث قلب ص١٧٩.
٣٣- حديث قلب ص١٢٧.

وزارة المياه: من الترهلة إلى العصرنة ومن التشتت إلى التوحد .. ! (١)[(١)]

التحول من التمحور حول الفرد ومركزية الذات السلطوية إلى التفويض المؤسساتي، ومن تنازع المسؤولية والتشتت في أدائها إلى واحدية الفريق والتداول الواثق للقضايا تحت سقف واحد، تتوفر فيه كل الإمكانيات المناسبة، والشروع في تعدد المطابخ المتخصصة الواعية الفاعلة المفعَّلة كما العصي المجتمعة المتأبية على الانكسار، كل ذلك أو بعضه مؤشر حضاري، وباعث على الثقة والاطمئنان والأمان.

كما أن تفادي الفورية والاهتياج الأعزل في مواجهة النوازل والمستجدات طريق قاصد باتجاه النجاح وترشيد للجهد وللوقت وللمال. ومواجهة النوازل والمستجدات والمتغيرات بتؤدة وحلم وأناة وبعد نظر خير من الطفرات المرتجلة التي لا تخلّف إلا الارتباك والحور بعد الكور، وخير من الاستعراضات الشكلية والتلهية الإعلامية.

وفي الحديث إشارة لما يحب الله من الخصال، وهما: (الحلم)، و (الأناة).

وعن هذا يقول شوقي واصفا فعل الرسول ﷺ في مداواة الفقر:

داويـــــت متئـــــدا وداووا طفـــــرة

وأخـــف مـــن بعـــض الـــدواء الـــداءُ

وكم من علاج جلب سقماً، وكم من طبيب ضاعف علة. و(الفردية) و(الفورية)، و (الارتجالية) في اتخاذ القرارات المصيرية جرت على الشعوب المغلوبة على أمرها الويل والثبور، وفوتت فرصاً ثمينة، وأضاعت إمكانيات بشرية واقتصادية، وبطأت في إقالة العثرة، هذا الثالوث البغيض ساد هذا العالم النامي، فحوله إلى نائم مضطرب النوم، والفردية بكل مفهوماتها المتعددة ظاهرة تاريخية ديناصورية، لم تعد صالحة على أي مستوى، لأنها لون من ألوان الاستبداد والتحكم، ولا سيما في عصر قروية الكون، والشبكة العنكبوتية، وانسيابية المعلومات، وشفافية الأشياء، وحرية التساؤل والمراجعة، وكوى الفضائيات، وتبئير القضايا إلى حد الفقاعة، وشيوع العلم والمعرفة.

وزماننا كثوب الزور، لا يخفى فيه إلا ما لم يكن، والمؤلم أن شعوبا كثيرة تعيش تحت وطأة حكم الفرد، والتمحور حول الرمز، الأمر الذي يعرضها للارتكاسات الموجعة وتجرع ويلات الفورية والمزاجية والمغامرة.

والشعوب الآمنة المطمئنة من تدار شؤونها عبر المؤسسات والمجالس وشعب الخبراء والمستشارين، ولا تخرج قراراتها إلا بعد مداولات وتمحيصات ومساءلات واستعراض لكل الخيارات والحيثيات وترتيب للأولويات، بحيث لا تجد غضاضة من إرجاء ما لم ينضج والأخذ بما هو مفيد، حتى وإن تململ الرأي العام، وضاق ذرعا بالتأخير، وفي المثل العام: «كل تأخيرة فيها خيرة».

ثم إن ظاهرة القبول بالتحولات على كل المستويات وعدم التهيب أو التردد في مواجهة المتغيرات والقدرة على تفعيلها، والتفاعل معها دون انفعال أو خوف مؤشر أهلية واقتدار ومحمدة على إطلاقها قبل النظر في المشروعية أو العائد.

والدول التي تبحث عن الأفضل تسعى جهدها لتهيئة الظروف والمناخات المناسبة لقبول الإجراء والتفاعل معه، إذ قد تبادر الدولة في إجراء سابق لأوانه غير مقدور على احتماله والتعامل من خلاله، ثم تمنى بالفشل الذريع الذي يخلف عندها حساسية من المبادرات، ويشكل موقفا شكوكيا عند المواطن، ويحول الرأي العام من متطلع متفائل إلى

---

(١) تاريخ المقال: ٤/ ٩/ ٢٠٠١

متردد متشائم، وحين يتعالق التحول مع المشروعية والإيجابية ويأتي عبر الحلم والأناة والتبصر تكون الأمة على الطريق السوي القاصد، وذلك بعض ما تمر به بلادنا في الغالب من أمرها، والتغليب مقتضى شرعي، إذ المحض الخالص لا سبيل إليه، وهو من الدعاوى الكاذبة.

والمستفيض أن مبادراتها غير مرتجلة وغير تجريبية، ولست معنيا هنا بالتزكية، ولا مدلا على أحد بالتميز، ولا واقعا في مأزق المفاضلة، ورهان المثاليات، فالخيرية ليست وقفا على زمان أو مكان أو فئة من الناس، بحيث لا تكون المثالية والأفضلية إلا حيث نكون بأي مواصفة.

والراشدون من الناس أفرادا وجماعات، مؤسسات وحكومات، من يحاولون تفادي ما يقع فيه الآخرون من أخطاء يمكن تلافيها، وكل المهم أن تكون الدولة من الثقة بالذات بحيث تمارس ترتيب أوراقها على كل المستويات، ثم لاترى نفسها فوق النقد والمساءلة والمراجعة، ولا تدعي نهاية التاريخ بفعلها وإنسانها، ولا يبلغ بها الإعجاب حد الدخول في الأبراج الملائكية والمثاليات المتعالية على السؤال عما تفعل والأخذ بهاجس تصدير المشروع، والدخول في خصوصيات الآخر .. وما قتل الطموح إلا الإعجاب بالرأي والحساسية المفرطة من مراجعة المنجز وتقويمه، والخوف من النقد الذاتي واستنكاف رؤية الذات في مرايا الآخرين.

وقدر المملكة أن تاريخها القصير قارب بين مراحلها التحولية وقصر المسافة بين معركة التكوين ومعركة البناء، ومن ثم فهي تمر بمرحلة توصف بمرحلة المبادرات وتلاحق المتغيرات، حتى لكأنها دون استقرار أو تريث، فالتحولات عندها تكاد تكون مستمرة وشاملة لكل القطاعات: إحداث لمؤسسات، وتطوير لأخرى، وإصدار لأنظمة ومراجعة لما سبق، وهي مبادرات طالت كل المرافق ومختلف المستويات، وأخافت البعض من عدم القدرة على المسايرة والمعايشة مع ما هنالك من اختلاف في وجهات النظر حول بدء التغيير وشكله ووجهته، وهذا يضاعف التوجس والخيفة.

ومع ذلك فإنه لم يعد هناك أي تحفظ أو احتياط أو استثناء لمجال التغيير، ومما يجب وضعه في الاعتبار أننا في سياقات عربية وعالمية ليست على ما يرام، ولن نقي أنفسنا من دخنها، وانعكاس أثرها. والنظر إليها في اتخاذ أي قرار من الحواتم، فالعالم اليوم مضطرب متوتر، يتعرض لانتكاسات على كل الصعد، ويكاد تداخله يصل إلى حد الخلطة، ونحن جزء من هذا العالم المليء بالمشاكل، الأمر الذي يحتم علينا تكثيف الجهد وحدة التيقظ، ولسنا بحاجة إلى التدليل، فالواقع العالمي المعاش عن يمين وشمال خير شاهد على التحدي العصيب، وتوتره يدفعه إلى مغامرات غير محسوبة تمس المقيم والضاعن.

وكم قلت من قبل، وليس هناك ما يمنع من ترديد القول من بعد: إن الرهان حول المبادرات يجب أن لا يتجاوز الإخلاص وحسن النوايا وسلامة المقاصد، بحيث لا تكون تزكية مطلقة ولا ضمان عازم للنجاح والتوفيق، فمثل ذلك يؤدي إلى الاعجاب بالنفس وبالرأي، والاعجاب يؤدي إلى الغفلة عن الرصد والمتابعة والتقويم، والمؤكد أنه ما من مشروع بشري إلا وهناك ما هو أفضل منه، وما من فعل راجعه صاحبه إلا وتمنى أن يكون قد تريث فيه، أو أعاد حساباته، وكل شيء من عند غير الله سيكون حوله اختلاف كثير، وها نحن نسمع بين الحين والآخر ما يتخذه مجلس الوزراء من قرارات تلغي مادة من نظام أو تعدل أخرى أو تضيف مادة أو تستبدل مادة مكان أخرى.

وحين يمتلئ المسؤول بالهم والإخلاص وتوخي الحق يكون أقرب إلى النجاح وتحقيق المراد، وحين لا يكون نجاح لا يكون لوم ولا تخوين، ذلك أن الخطأ قرين الفعل وطبيعة في الإنسان، والتحرج منه أو نفيه نفي للفعل وللإنسان معا.

وكل الذي على المسؤول بذل الجهد، وتوفير الكفاءة البشرية والكفاية التمويلية وتهيئة الأجواء الملائمة، وليس عليه ضمان النجاح، إذ الفعل كالمضاربة التجارية ضمان الربح فيها من الربا المحرم، والله أحل البيع وحرم الربا، وكل الذي على المسؤول فعل الأسباب وما التوفيق إلا بالله، ولكن يجب أن يمتلك المتصرف أهلية التصرف، وآلية الاجتهاد، والثقة عند مواجهة الحقائق، وتحمل النتائج، والقدرة على التحرف للأفضل عند الإخفاق.

ودولة المبادرات يطال التغيير فيها كل المؤسسات الدستورية والتشريعية والقضائية والتنفيذية، وذلك بعض ما نعايشه ونباركه.

ولسنا بصدد استعراض الأنظمة والتعليمات والمؤسسات التي امتدت إليها يد التحديث والإصلاح، ومع كل هذه المبادرات المتلاحقة أحسبنا لم ننته بعد، وليس قريبا أن ننتهي، ولا سيما أن هناك أنظمة وهياكل إدارية استهلكت عمرها الافتراضي، ولم تعد صالحة للتعديل فضلا عن الاستمرار، والتجديد كالأمل لا ينتهي إلا بنهاية الذات.

وما سألمح إليه ربما يكون خافيا على الأكثرين، وهو سياسة النفس الطويل في اتخاذ القرارات المصيرية، سعيا وراء إنضاجها بسرية تامة، وتأمل عميق، وتقليب للقضايا على كل الوجوه واستعراض لكل الاحتمالات، وتلك خصال تبعث على الراحة والثقة والاطمئنان، وإن كانت بحاجة إلى الصبر وطول الانتظار، فالمطالبة بإنشاء (وزارة للمياه) و (وزارة للثقافة) و (مجلس أعلى للثقافة والآداب) و (مجمع اللغة العربية) والإلحاح بالمطالبة بإنشاء (جامعات) تستوعب فيوض المتخرجين الذين لا يجدون مقاعد لهم، وإحداث (مرافق ومؤسسات) تستوعب الخريجين، والحديث عن (السعودة) وتشجيع القطاع الخاص، وتهيئة الأجواء لتفعيله، وحماية المنتج، ودعم الصناعة والزراعة، والحيلولة دون هجرة الأموال والخبرات، والسعي الحثيث لجذب المستثمرين و (السياحة) و (الخصخصة)، والتهيؤ لمواجهة العولمة، وأشياء كثيرة تطرح منذ زمن طويل وعبر مختلف الوسائل.

وتأتي الكلمات المناشدة والملحة بالمناشدة كلاما يدور في المجالس، ومواجهة عبر الباب المفتوح، ورقاعا تتقاطر من كل جانب، ومقالات تجري بها أنهر الصحف، تأتي تصريحا أو تلميحا والطلبات شكاية أو لوما، والنقد صادقا أو متحاملا، والدولة تسمع وترى، ولا تزيد على الرصد الدقيق والمتابعة الواعية وكظم الأنفاس والغيظ، حتى إذا استوت الأمور على سوقها، واتضحت المعالم، جاءت الاستجابة على قدر محققة كل التطلعات، ومثل هذا التصرف الحكيم يقي الأمة مصارع الارتجال ويحميها من التصرفات العاطفية التي عانت منها أمم كثيرة، ومع كل هذا فإننا لم نسلم في زمن الطفرة من مغامرات ومبادرات سريعة فورية من الدولة ومن المؤسسات ومن الأفراد، وهي مغامرات جرت أقدامنا مع المد، ولم نتمكن من مسايرة الجزر في تراجعه.

وقد أهدرت فيها أموال وضيعت فيها جهود وتنامت على جوانبها سلبيات كثيرة، ومازالت ذيولها قائمة وآثارها واضحة، وإعلان (وزارة المياه) لم يكن مفاجأة كما أن العناية بالمياه لم تكن معلقة بانتظار ما يأتي، ولما تكن الدولة متوانية في شأن المياه: تنمية وتحلية وتنقية، وتصريفا، ولكن جهودها مفرقة بين إدارات ومؤسسات ووزارات، وأداؤها متعثر، بسبب تنازع المسؤولية وتشتت الأداء، ولربما يكون من حوافز الإنشاء لوزارة متخصصة ما يعانيه العالم من توتر حول المؤشرات المخيفة وبوادر (حرب المياه) مع ما هنالك من ضعف في الوعي الجماهيري بأهمية الماء وخطورة التلاعب فيه،

بسبب مجانيته وفوضوية الحصول عليه، وحين يكون (الزمن) و (الماء) من أهم المثمنات فإنهما الأهون في حساب القيم.

فالناس يفرطون في وقتهم وهو محدود لا يعوض، ويسرفون في استعمال الماء ويبذرونه ولا يعرفون قدره ومقداره والجهد والمال المبذولين في سبيل الوصول إليه، والعشوائية الزراعية التي اجتاحت البلاد زمن الطفرة، ومشروع القمح وصوامع الغلال وهاجس التصدير والدخول في لعبة السلع الاستراتيجية والتنافس غير المتكافئ، حفز الدولة على إعادة النظر، لتجنب المغامرات، وتحامي إهدار الثروة المائية ومحاولة حصر المسؤولية وتركيزها، وتجاوز النمطية والتراثية في الأداء إلى المعاصرة بكل مؤهلاتها العلمية والرصدية والمركزية، وبدء رحلة العودة إلى الأجدى والأهدى، فما عاد الوضع يحتمل التشتت والأساليب التقليدية، وبخاصة حين اضطربت الآراء حول المياه ومصادرها وحجم التعويض والفجوة بين الاستغلال والتعويض.

والدولة في نظر العالم وفي نظر نفسها وفي الواقع دولة صحراوية ومياهها جوفية مجهولة وأمطارها موسمية غير منتظمة، وحاجتها إلى الماء تزداد يوما بعد يوم، والعالم من حولها يصطرع من أجل الكفاف، لكل هذا يأتي الأمر بإنشاء (وزارة المياه) في الوقت المناسب، لكي تتلقف الراية وتواصل المسيرة.

وكل الذي يتطلع إليه المواطن ألا تكون الوزارة مجرد سلخ وظائف وموظفين ومؤسسات وتجميعها تحت مسمى واحد، تتضاعف فيه المسؤوليات، وتزيد فيه النفقات، وتتعقد فيه التعليمات، ويطول فيه سلم الصلاحيات، ثم تكون عبئا ثقيلا يبطيء الحركة ولا يحسن النوع إن الأمل أن تكون وزارة خبراء ومعامل ومختبرات ورصد دقيق للتحولات، وتواصل علمي مع منجزات العالم واستفادة من خبراته ونتائج بحوثه وتحرياته ووضع خيارات وتنويع مصادر.

فالمياه العذبة لا تزيد على ثلاثة بالمائة من حجم المياه في الأرض، ومساحة الوطن العربي هي الأخرى ثلاثة بالمائة من مساحة الأرض، ونصيبه من الأمطار والأنهار ليست متناسبة مع حجم السكان والأرض، والأمة تواجه نموا سكانيا وثبوتا في العائد المائي.

ومع أن المتوقع كون الهدف من مشروع الوزارة هو التخلص من تعدد المرجعية المائية، وتحديث الأنظمة، ومركزية المعلومات، والتوفر على الخبرات إلا أن الوعي الجماهيري بكل ما هو عليه من تدني وجهل بخطورة الوضع قد لا يساعد على تحقيق المراد، كما أن الأنماط الإدارية المتدنية إلى حد التهالك بحاجة إلى فترة انتقالية قد تطول، الوزارة الجديدة ستكون ملومة حين تخنع للوعي المنقوص والنمط الرتيب، وليس من الحصافة أن ننظر إلى العالم من حولنا يوجه أفكاره صوب المشكلة مستخدما أدق الوسائل وأصوب الخطط وأنجع الطرق، ثم لا نكون أمثالهم في المبادرة الحصيفة، وبخاصة في قضية حساسة تتعلق بالماء الذي جعل الله منه كل شيء حي، إن أمام الوزارة عوائق بشرية ومادية وذهنية تحتاج معها إلى تصرف قوي وأداء استثنائي، فالوضع القائم لا يلائم المتداول عالميا وبخاصة في ظل العولمة وما تنطوي عليه من سلبيات وإيجابيات، والرأي العام والرؤى المتخصصة مختلفة فيما بينها إلى حد التناقض والتناحر، ولا شك أن الوزارة الجديدة بحاجة إلى تصحيح المفاهيم والتوفيق بين وجهات النظر لكي توفر لنفسها الأجواء الملائمة، وهذا يتطلب قطاعا إعلاميا يمارس غسيل الأدمغة وتخليصها مما عشعش فيها فثقة المواطن بالمؤسسة أولى خطوات النجاح.

وزارة المياه: من الترشّن إلى العصرنة ومن التشتت إلى التوحد .. ! (٢)[1]

والماء من قبل ومن بعد نعمة أو نقمة، أسقاه الله اقواماً غدقاً فرعوا حق مانحه فيه، فكانوا نعم الخليفة في الأرض، وأجراه تحت أقدام أقوام آخرين فكفروا بأنعمه، فأذاقهم الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون.

تطاول فرعون وأدل بالأنهار التي تجري من تحت قدميه، فأهلكه الله بالغرق، واستغشى قوم نوح ثيابهم، وأصروا، واستكبروا استكباراً، فانهمرت السماء بالمطر وفار التنور ليهلكهم بالغرق، وجاءت رؤيا البقرات السمان والعجاف، فكان يوسف على خزائن الأرض، لينقذ قومه بما وهبه الله من «علم» و«حفظ» هما قوام العمل في مواجهة الازمات الطارئة والدائمة.

وابتلي قوم طالوت بنهر، وحين شربوا منه فوق المسموح به، لم يكن لهم طاقة بجالوت وجنوده، ذلك جانب الامتثال اما جانب التمثل فمرده للتقدير والتدبير والتوقيت، وليس للوفرة وحسب، فالمياه تكون شحيحة عند قوم فيكثر نفعها بالتدبير والاستغلال الحسن، وتكون كثيرة عند آخرين، ثم لايحسنون صيانتها ولا استغلالها، فتضيع ويضيعون معها، وتلك حقائق قائمة نراها رأي العين.

فكم نشاهد دولاً فقيرة، تمخر أرضها الانهار، وتنهمر على رباها الأمطار، ومع ذلك نرى شعوبها كأفقر ما يكون البشر، يصطرعون حول الفقر والفاقة والضياع، وكأن التخلف قدرهم الذي لايرضون به بديلاً تستوطن عندهم الأمراض، ويستفحل الفقر، وتتفاقم البطالة، وتستشري المجاعة، وتتحول نعمة الماء إلى نقمة، فتنشأ المستنقعات، ويتولد البعوض، وتنتشر الأوبئة، وتفسد التربة، فيزيد وحلها، وتتشل حركة سكانها، الأمر الذي يحفز المنظمات الصحية والجمعيات الإنسانية على تدارك الأمر، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه، والدولة الواعية الناصحة هي التي تعرف نفسها، وتقدر إمكانياتها، وترتب أمورها على ضوء ما يتبدى لها من معرفة للذات وتقدير للإمكانيات.

واللفتة القرآنية في قصة يوسف عليه السلام تؤكد ما يجب أن تذهب إليه الدولة المؤتمنة على مصالح الأمة ومستقبل أجيالها، وبخاصة عند الأزمات العارضة، فيوسف عليه السلام «حفيظ» للثروة «عليم» بمقدارها وطرق تصريفها.

واهتمام الدول المتحضرة بالماء ليس من باب الترف أو التزيد، وسواء كان الاهتمام في ظل الوفرة أو في ظروف الشح، فالإفراط والتفريط طرفا نقيض، يستويان في العائد السلبي، والتدبير مع الشح أجدى من التبذير مع الوفرة، والإسلام نهى عن الإسراف بالماء، ولو كان المستعمل على نهر جار. فالماء ثروة مزدوجة، في حين تجيء الثروات الجوفية فردية، والقرآن الكريم عرض للماء في أكثر من «ستين» موضعاً، مؤكداً أهميته وأثره ودخوله في حياة كل شيء، ولأنه نعمة لاتضاهيه نعمة تساءل الله تساؤل تقرير لاتساؤل استعلام عمن أنزله، وعمن يأتي به حين يغور.

والحديث عن البحار والأنهار والسدود والأمطار والمياه الجوفية والخزن الاستراتيجي والتحلية والتنقية وسبل الاستفادة من كل ذلك حديث مستفيض، يعيه المعنيون، ولايجهل قيمة كل ذلك إلا من يجهل الحياة بأسرها. والتفاوت ليس في وعي الأهمية، ولكنه في الفعل الذي يحول الوعي الكموني إلى وعي فاعل.

والأمة العربية تمتلك ثروات مائية دون المستوى المطلوب، ولكنها لو استغلت بوعي لتحول العالم العربي إلى سلة غذاء، وهو اليوم أكبر مستورد مستهلك، وأمنه الغذائي لم

---

(١) تاريخ المقال: ١١/ ٩/ ٢٠٠١

يكن بمستوى إمكانياته المائية، والدول المنتجة تتحكم في مصائره، لأنها تملك كساءه وطعامه، وحين لايزرع ما يأكل، ولاينسج ما يلبس، ولا يصنع ما يستعمل لاتكون له الكلمة الأخيرة في قضاياه المصيرية. وتدبير الماء وحسن استغلاله أول الخطوات الراشدة، وأهم الخطوات لفك الرقاب. والأمة العربية بحاجة إلى استراتيجية جماعية، ومراكز أبحاث موحدة، وتطوير مستمر لوسائل البحث، وتبادل سلس للخبرات والخبراء، كي توفر غطاءً أمنياً مائياً لا يقل عن كل مفردات الأمن.

والمملكة العربية السعودية في سياق الأمة العربية دولة صحراوية شاسعة الأرجاء، شديدة الحرارة، صعبة الأجواء، تعتمد على الأمطار الموسمية الشحيحة. وعلى الآبار السطحية والعميقة الباهظة التكاليف، واستراتيجيتها محصورة في التكوينات والمصائد المجهولة الروافد، ومتطلبات الماء متنوعة: بشرية وزراعية وصناعية ومعمارية وتلطيفية تتراوح بين الاستهلاك والاستثمار، وكمياته الجوفية، ومصادر التعويض تخمينية، والناس فيه بين متشائم ومتفائل، ومخيف ومطمئن، وداع إلى الاستغلال ومحذر منه. قيل إنه يجري في الأرض كما الدماء في الشرايين، وقيل إنه منذ ملايين السنين مستقر في الأحواض والمصايد، فلا تعويض له البتة، أو أن التعويض بطيء، وقيل عن الأنهار الجوفية كما السطحية.

ومهما يكن فإن إمكانيات التعويض على كل الأحوال لاتكون بمستوى الاستنزاف الفوضوي، وما لايمكن إنكاره أن المعلومات عن أوضاع المياه الجوفية مجال اجتهاد واختلاف وخوف واطمئنان. والنزف غير المرشد قد يؤدي إلى النفاد النهائي، أو الهبوط البطيء التعويض، والسعي لتوفيره من أي طريق باهظ التكاليف، وفي ظل هذه الأجواء لابد من علمية التداول وضبط إيقاع التشاؤم والتفاؤل.

وفي سبيل التوفر على الأمن المائي طرحت رؤى متعددة، منها الممكن ومنها المستحيل، فلقد قيل عن سحب جبال الثلوج أو جلب مياه الأنهار الأسيوية أو الإفريقية بالشراء أو بالمقايضة البترولية، كما تم تنفيذ طرق ممكنة كالتحلية والمعالجة. والدولة أكبر منتج للمياه المحلاة، ولكن التكاليف باهظة والضمانات ليست على المستوى المطمئن. والدولة الصحراوية التي تعتمد على المياه الجوفية بحاجة إلى «تنمية»، و«تصفية»، و «تنقية»، و«تحلية» و«تخزين» و«سدود»، ولكل مهمة مصادرها وإنفاقها وسلبياتها وعقباتها. ولكي تجتاز الدولة هذه العوائق فهي بحاجة إلى فرق عمل متخصصة وخبراء مهنة متمكنين وأداء علمي منضبط، ومعاهد بحوث، ومراكز معلومات، ورصد تجريبي، واستراتيجية محلية وعربية، وعدد من البدائل، وتوزيع للمشاريع الزراعية على أطراف البلاد، وتنويع لها، ومراعاة للظروف الجوية والموسمية، ودراسات للتربة والوسائل، ومستغل يأخذ بأحدث ما توصلت إليه الإنسانية من تقنية وتوعية للرأي العام كي يفهم حجم المشكلة وخطورتها ويدرك أهمية الوزارة القادمة، وأنها ليست لمزيد من الضرائب والإجراءات، والويل لنا إن تحولت الوزارة إلى كتبة يتداولون الأوراق، ويعقدون الأمور، لايعرفون استراتيجية، ولايحسنون تصرفاً في الرخاء أو الشدة، ولايعملون على تلافي النقص، وتحول المواطن إلى متحايل يبحث عن الثغرات.

إن الوزارة القادمة بحاجة إلى هيكلة جديدة، تمكنها من مبادرات استثنائية، قد تصل إلى حد المغامرة المحفوفة بالمخاطر. واشكالية الماء التي شغلت العالم، واستنفرت قواه، ووجهت علماءه صوب المعامل والمختبرات والمجسات، ووترت أعصاب الساسة والاقتصاديين، قد تزج بالدول في حروب مدمرة، تريق فيها الدماء من أجل قطرات الماء، وشبح الخوف يبدو من تركيا وإسرائيل ومناوراتهما في اختراق الأعراف المتبعة

في المياه المشتركة. والدول الصحراوية النامية المترامية الأطراف البعيدة الطموح أمام خيارات أحلاها مر:

الصناعة. أو الزراعة.

أو هما معاً مع معادلة صعبة.

والزراعة لاشك أنها الخيار الأفضل، لأنها الأقدر على توفير الأمن الغذائي والأخلاقيات العالية والبيئة النقية ومحاصرة التصحر والجفاف، وأقصد زراعة الكفاف.

وحين نجنح إلى خيار الزراعة لا نولي الصناعة الأدبار، وإنما المسألة تحرف وانحياز، وتلك المعادلة الأصعب تضع جهات الاختصاص على مفترق الطرق.

والعالم اليوم يمر بزمن عصيب يوصف بالتصحر والجفاف، ومع أنه قد اجتاح العالم فإننا في المملكة لم نحس به بالقدر الذي مس كثيراً من البشر، وعرضهم لأزمات موجعة، لقد وقينا ذلك بسبب الامكانيات المادية التي أفاء الله بها علينا، ثم بتحامل الدولة على اعصابها لاجتياز تلك المحنة.

إن الوفرة المادية مكنتنا من صناعة الأجواء ومغالبة الظروف وتعويض سلبيات الجفاف المخيف، وتحت وابل هذه الظروف العصيبة تكون المسؤولية أعقد وأخطر، ونكون بحاجة ماسة إلى «علم» يقدر الإمكانيات «وحفيظ» لايفرط بها.

وكل الذي نتطلع إليه أن تكون الوزارة الوليدة متوفرة على«الحفظ» و«العلم» اليوسفي، بحيث تتجاوز محنة البقرات العجاف. والزمن الذي يعيشه أبناؤنا زمن ربيعي، لم يروا فيه ما رأينا، ولم يعيشوا الكفاف الذي عشناه، ولا أحسبهم يتصورون ما نقول لهم عن الماضي القريب.

لقد ادركنا طرفاً من معركة التكوين التي خاضها الملك عبد العزيز قائداً مظفراً للآباء والأجداد، ولما يفرغ لمعركة البناء، فذقنا شيئاً من مرارة التقشف وشظف العيش.

لقد كنا في طفولتنا نجلب الماء من أطراف المدينة على ظهور الدواب، وكان استخراج الماء من الآبار على ذات الدواب، وكانت الآبار المستساغة لموسرين بذلوها للواردين، وكان القادرون من الأسر يربطون الحمير لجلب المياه الصالحة للشرب اضطراراً، أما الدهماء فإن نساءهم يتولين جلب الماء على رؤوسهن.

وفي البيوت آبار يدلون فيها الدلاء ويمتحون منها الماء المالح الذي لا يصلح للغسيل والاغتسال البشري إلا اضطراراً. والنعم التي اجتاحت البلاد، وقلبت اوضاعها رأساً على عقب تحتاج إلى شكر ورعاية، ومن الشكر عدم الإسراف، والله يقول: «وكلوا واشربوا ولا تسرفوا». إننا بحاجة ماسة إلى الدراية بأحوالنا، وتقدير الظروف ومساندة الدولة على اجتياز المفازات، والتغلب على الأزمات، إذ من الخير ألا نخادع أنفسنا، ونركن إلى امكانياتنا المؤقتة، لا بد من التأسيس للمستقبل، ولا يكون ذلك إلا حين نسأل عما قَدَّمنا، لا عما قُدّم لنا، وإلا حين نكون عائلين للدولة، لا معولين لها، وإلا حين نعرف المخارج قبل المداخل، وإلا حين نكون منتجين لا مستهلكين، وثروة الدولة وأمنها في رجالها: وعياً، ومهارة، واخلاصاً، وأداءً، وثقة بالقادة.

لقد خضنا معتركات كثيرة، ومنها معترك الزراعة، وكأننا دولة أنهار وأمطار وأجواء ربيعية، وانزلقنا بشكل فوضوي في مشاريع «القمح» و«الاعلاف»، وقامت شركات وطنية وأفراد أثرياء، وظفوا ملايين الدولارات وجلبوا أحدث الأجهزة وأغلاها، وحفروا آلاف الآبار العميقة، وأنشأوا مدناً زراعية، وحين ظهرت بوادر الأخطاء، تراجعت الدولة عن دعمها المطلق، أو قل تحفظت بعض الشيء، لتعود القافلة إلى طريق الصواب، ولما لم يجد الملاك من السهل التراجع بحجم تراجع الدولة، تحامل بعضهم على نفسه، وغالب المشاكل، ولكنها كانت الأغلب، ومارس آخرون تصفية المشاريع أو نقلها،

ومن ثم مني المزارعون بخسائر ما كان لها أن تكون، لو أن الأمور أخذت بالتقدير والتدبير، وهنا تكون استدراكاتنا حول ادعاء المثالية، فنحن كغيرنا عرضة للخطأ ولكنه خطأ لا خطيئة.

وحين يكون الخطأ الفادح الخسائر فادحة، وما من أحد أساء الظن بالمسؤولين، ولكنها المبادرات العاطفية والمسايرات الإرضائية، والأهم في كل هذه الاخفاقات أن نواجه قدرنا بثقة ووعي، وأن نحاول تجاوز المنعطف بتصرف حكيم، يقي مصارع الأخطاء، وأن نستفيد من كل خطأ مر به غيرنا فضلاً عن أخطاء وقعنا فيها، ان أوضاع العالم على كل الصعد وما يمر به من ترديات، يستدعي المكاشفة والشفافية، ويجب أن تكون الشفافية حافزاً لنا على التحرف الحضاري، وليست مؤججة للتلاوم والبحث عن المشاجب، أو ترك الأمور والتحامل على النفس كما المريض الخائف الذي يطوي كشحه على مرضه حتى يقضي عليه، إن هناك تجاوزات وأخطاء متراكمة أفرزها تطبيق المشروع الزراعي الذي واكب الطفرة، والمقامرة التي تعرضت لها بعض المشاريع، وتهافت الناس على الزراعة دون خبرة أو علم أو حاجة، ولم يكن من السهل التخلي عنها، وبخاصة من المستفيدين الذين وضعوا كل بيضهم في سلة واحدة، والدولة التي اكتنفت المشاكل من كل جانب لم تستطع رد الهاربين إلى الأمام، حتى أن فرض زيادة باهظة في أسعار الزيت لم تكن رغبة في ذات الزيادة، ولاحاجة في دعم الواردات، ولكنها محاولة لتثبيط الاندفاع في مشروع الحبوب، إلا أنها من الحلول التي طالت أبرياء ليست لهم في هذه المشاريع نياق ولا جمال.

والشركات الزراعية التي أطبقت فكيها على أموال المساهمين، وتدنت أسهمها إلى حد لا يصدقه مضارب، تأتي ضمن سلسلة المشاكل، وأحسب أن مدار ذلك على فوضوية استغلال المياه، فالدولة أدركت خطورة الموقف وتحديات المنافس الأقدر، وتأبت على استمرار الأخطاء والتنافس غير المتكافئ. ومسايرات الترضية قد تعمق المأساة، وتعقد المواجهة، ولسنا بصدد الموازنة بين تكلفة الانتاج وقيمة المنتج المستورد، فالقمح في الدولة المطيرة وذات الأنهار والأجواء الباردة والمصنعة لآلياتها لا شك أن تكلفة انتاج القمح فيها أقل، ولكن يقابل ذلك تحول القمح إلى سلعة استراتيجية كالبترول، والارتباط بالمنتج سيكون على حساب القرارات المصيرية، وهذا ما نشاهده على المسرح السياسي، وحرب الأسعار، والعولمة، والخبرة، والتقنية، والأجواء، ووفرة المياه وتكلفة توفيرها قضايا يجب أن يعيها المواطن لكي يكون حضاري التصرف والمواجهة.

والدولة الواعية هي التي تحتفظ بتجاربها الايجابية، وتحاول فك رقبتها من تحكم المنتج، ولا أقل من أن تقف الدولة عند حد الاكتفاء الذاتي أو ما دونه بقليل، وفي المقابل فإنه ليس من الحصافة الخضوع للتخويف والتحول بالأمة إلى عائل فقير يمن عليه المنتج ويخوفه، وعلينا ألا نلقي السمع إلى التخويف الزائد عن الحد، بحيث ندع الماء في باطن الأرض، ولا نستغل منه ما يبلغ بنا حد الكفاف.

والوزارة المرتقبة ستواجه ركاماً من المشاكل، وسيلاً من الخيارات، ومستويات من الوعي المتدني، إذ ان بدايتها مجرد انسلاخ وظيفي ومؤسساتي من جهات متعددة، وهنا تكون معضلة البدء. هل ستواصل مسيرتها كما هي من قبل، أم أنها ستتخذ طريقاً قاصداً؟ وبالتالي ستكون أمام تراث مثقل بالمشاكل، ومعاصرة مليئة بالطموح، وتنازع مسؤوليات مع وزارة الزراعة، ووزارة الشؤون البلدية والقروية. وهي بين تحكم في الاستهلاك أو إشراف صوري.

وحين تكون بين خيارات صعبة وتداخلات مستحكمة كما في الأثر: «أمي .. وصلاتي» تكون المواجهة عصيبة والقرارات حساسة، لأن التعصرن يتطلب تصفيات

متعددة في الأنظمة وفي القوى البشرية ويقتضي اتخاذ الاجراءات الفورية والمرونة في الأداء، والسرعة في اتخاذ القرارات، والتفويض المباشر، والإمكانيات المتكافئة.

ومع هذا سيظل هناك قضايا معلقة وتداخل حساس بين (الزراعة)، و (المياه)، و (التحلية)، و (البلديات)، و (الأمانات)، ومشاريع أخرى ذات شخصيات اعتبارية (كالصرف في الأحساء) ثم إن هناك رؤى متعددة فكليات الزراعة لها رؤيتها العلمية، ومدينة الملك عبد العزيز لها رؤيتها المخبرية والمجربون لهم رهانهم التجريبي، والمهم في كل ذلك وجود المؤسسة القادرة على جمع الكلمة، وتوحيد الرؤية، وإقناع المستهلك والمستثمر، وكم هو الفرق بين الإكراه والإقناع. إن الوزارة القادمة أمام جدلية لن تنتهي بسهولة.

الماء بذاته إشكالية، فكل حي مرتبط به محتاج إليه. يكون هناك استخدام مائي رسمي، واستخدام سكاني استهلاكي، واستخدام زراعي وصناعي استثماري، ويكون هناك تصريف ومعالجة واستعادة استخدام ومواجهة للمستنقعات والبيارات وأثر الأساليب التقليدية القائمة في تدمير البنية التحتية. والتداخل وتعدد الوجوه وتناقض الأساليب والمفاهيم قد يمكن من الخلاف وضياع المسؤولية.

هذه الوزارة الجديدة القديمة ماذا ستفعل، وهي تستلم ما يقع تحت اختصاصها من جهات متعددة، لاشك ان هذه التركة المبعثرة المهترئة ستحمل معها سلبيات الماضي وإجراءاته البطيئة وأنماطه التقليدية، وهي ستواجه لغطاً كثيراً يضرب في فجاج الآراء. لقد سمعنا من يقول عن استهلاك الماء في صناعة الألبان وفي انتاج الدواجن ولم نسمع من يقول عن غسيل السيارات، وسمعنا من يتحدث عن الفرق بين المستهلك الأوروبي والمستهلك العربي المسلم، ولم نسمع من يحدثنا عن أجواء كل مقاطعة، وعن أنواع الزراعة وآلياتها المساعدة على التوفير كالمحميات والرش وبعض المنتجات. إن اللغط بمستوى التصرف عامي ارتجالي، والبراعة في تصحيح المفاهيم وتطوير الذهنيات. والوزير القادم كيف يتصوره العالمون، والمواطنون والمستثمرون؟ وكيف يرتبون أنفسهم للتعامل معه/ فهل سيكون إدارياً أم خبيراً فاعلاً أم مجادلاً مشتغلاً بالجاهزيات أم مبتكراً؟ ثم كيف يواجه دوامة الآراء ومختلف الأوضاع وشيخوخة الأيام/ وكيف يكون إزاء أوضاع ذهنية ووظيفية إجرائية فرضت نفسها بالتقادم كما يقول الأصوليون؟ لست متشائماً، ولست ظانّاً بالوزارة القادمة ظن السوء، وفي الوقت نفسه، لست متفائلاً إلى حد البلاهة، هذه الظروف العصيبة تحتم علينا ان نفعل بصدق وإخلاص وأمانة وإدراك وأهلية، وألا يكون تعتيم يحجب الرؤية ولا شفافية لانتجاوز معها التحسر والتلاوم. لا بد من ممارسات حصيفة متروية نحتمل معها القسوة ونصبر على الألم، ولا نريد للجرح ان يرم على فساد، فالزمن والإمكانيات مواتية، ولم يبق إلا ان نفعل، والفعل وراءه عقبات مالية ونظامية وأولويات وخيارات، وأول خطوة يجب اتخاذها التوعية الجادة، والترشيد السليم، وإشعار المواطن بأهمية الماء، وتحديد المسار، ثم المبادرة في تعميم الصرف الصحي، ومعالجة المياه، وإعادة استعمالها بما يناسبها، وتجديد الشبكات، وتوفير الماء لكل مسكن، والقضاء على ا لمساندة بالنقل، وتفادي الأزمات، وتنويع المصادر، وتحديد الاستهلاك، وتعميم العدادات على البيوت والآبار، وتحمل المرحلة الانتقالية بكل صخبها.

لكيلا نُشَرْعِنَ الفكرَ العامِّي .. !(١)

حين كنت مع المشاريع الفكرية والأدبية المغاربية وأعمال المفكرين والأدباء الغربيين المترجمة بوصفها مرجعية لبعض مجلوب المشارقة، وذلك في سبيل استكمال متطلبات القول عن «النقد الثقافي» الذي قد يطول ويتشعب، فوجئت بما كتبه الأخ الدكتور عبد الله بن محمد بن حميد في «الجزيرة ١٤٢٢/٦/٢٨هـ» وفي «الندوة ١٤٢٢/٧/٣هـ» من قول مقتضب ذي بعد حكائي، وعلى شكل منشور احتجاجي موزع على وسائل الاعلام، مستكملاً به ما دار في احدى فعاليات تكريم الأمير الشاعر عبد الله الفيصل، وكنت أتوقعه منذ ان انفض سامر الفعالية التي اشترك فيها الحميد بوصفه متحدثاً عن «الشعر الشعبي» للأمير عبد الله الفيصل، من خلال ديوانه النبطي «مشاعري» وفي اطار الملتقى النقدي الذي نفذ على هامش تكريم دار سعاد الصباح لسموه. وكنت أحد المشاركين والدارسين لجانب من شعره الفصيح من خلال ديوانه «وحي الحرمان» و«حديث قلب».

ولما كنت بالصدفة من حضور الجلسة النقدية العامية، فقد فوجئت بالدكتور عبد الله الحميد يستهل حديثه بحملة تأنيبية لخصوم الشعر الشعبي، ممارساً اعتراضه بأسلوب مستخف، متوسلاً بمكانة المدروس وبمن حوله من الأبناء والأحفاد. ولربما كنت الوحيد من بين الحاضرين الذين تصيبهم دائرة تلك الحملة غير المبررة، ولم يكن بد من قمع هذا التطاول، ورد المتحدث إلى موضوعه، دون ان ينال من فرصته خيراً .. فالموقف الاحتفائي لا يتسع للمناكفات، وليس من اللائق النيل من خصوم العامية في احتفالية فرح وتقدير، وفي ظل هذا التعدي كان من حقي بل من واجبي ان ألملم أشلاء السمعة التي تعمد بعثرتها، وألا أمكنه من التشفي في ظل مناسبة تستقطب علية القوم وكبار الأدباء والمفكرين، ولما اكن البادىء ومع انه البادىء فقد ضاق ذرعاً بالدفاع المشروع، ولم يحتمل رد الكرة إلى شباكه، لاقتناعه بمشروعية اشتغال اساتذة اللغة العربية بالعاميات المحلية، ولعدم تعوده على مقارعة الحجة بالحجة في سبيل البحث عن الحق. لقد توترت أعصابه وانتابه الاضطراب والانفعال، حتى لقد حرصت على ان يتاح له الحديث، ولكن رئيسي الجلستين الأستاذ الدكتور عبد الله العثيمين، والأستاذ الدكتور محمد مريسي الحارثي استمعا لقولينا، ولم يكن في رغبة أحدهما امتداد الحديث، فالحميد وجه نقده لأنصار الفصحى، والهويمل رد النقد على أنصار العامية، وما بعد هذا يعد في نظريهما على الأقل من فضول القول، غير انه لم يحتمل هذا القرار، ووصف منعهما له من الرد بالظلم والقهر، لأنهما لم يرعيا مكانته العلمية والاجتماعية على حد قوله ومن ثم كظم غيظه. والأمر لم ينته عند هذا الحد بل طارد الأخوين: العثيمين والحارثي في أبهاء الفندق، واتهمهما برده عن حقه، وحاولنا جميعاً اقناعه، وافهامه ان الأمر لا يحتمل كل هذا الانفعال، ولا يتسع لكلمات الثورة والغضب والقهر والظلم وكظم الغيظ وجهل المكانة العلمية والاجتماعية مما أعاده في منشوره الذي وزعه على الصحف، ويعلم الله انني كنت أحرص الناس على ان يتخفف بالرد، فما كنت لأخاف من قول يقوله، وقد تلقيت من غيره من البذاءات والاساءات عبر الصحف والمجلات والمنتديات وعلى مدى عشرين عاماً ما لا يمكن تصوره، ولكن الأمر جاء على ما لم أرد، وكنت أظنه قادراً على احتمال تداول الرأي وتحرير المسائل التي بدأها.

ولما لم يزل الحدث يأكل معه ويشرب، فيما نسيته مع ما نسيت من سجالات حول قضايا الحداثة والمعاصرة والبنيوية والعامية وألوان المناهج النقدية، فقد وجد التخلص من

(١) تاريخ المقال: ٢٥/ ٩/ ٢٠٠١

معاناته بذلك المنشور الذي كان من الممكن المرور به دون اكتراث، لولا انه من أكاديمي يُشَرْعِنُ للعامية من خلال التأصيل للشعر العامي عبر دراساته التي يتابع نشرها، ويعد بإصدارها، ولأنه وصف مداخلتي بالغضب والثورة والحدة، ولأنه مارس الفوقية والتعليمية في توجيهه، ولأنه وقع في مغالطات لا يمكن السكوت عليها. وبما انه لم يكن لدي متسع من الوقت لبسط القول، وتفصيل ما حدث، ومع ان قول كل منا موثق بالصوت والصورة، فانني سأصرف أطرافاً من الحديث الموجز عن الحدث إلى المشروع العامي وشرعنة الفكر العامي الذي تأتي ممارسات الحميد طرفاً فيه، مستدركا بما يلي:

أولاً: جاء تعليقي الهادىء في نظري دفاعاً عن أنصار اللغة العربية، وأنا منهم، ولم أكن اتصور انه قصدني، بل أكاد أجزم انه لم يقصدني بالذات، فهو لم يذكر اسمي، ولم يتوقع حضوري، ولكنه نال ممن اتخندق معهم، وأشاطرهم همهم، وقد سخر منهم، وأمعن في تخطئتهم، في سبيل تأكيد مشروعية فعله.

ثانياً: حاولت هنا وفي المداخلة تصحيح أخطاء وقع فيها، تمس معرفته وتصوره.

فأما خطؤه المعرفي: فقوله لا خطر على الفصحى ولا على الشعر الفصيح من الشعر العامي، وذلك ان اللغة محفوظة بحفظ القرآن الكريم، والله قد تكفل بحفظه، فاللغة محفوظة بذلك، وتلك مقولة اهترأت من الاجترار، وسئمنا من تكرار القول عن خطأ الاحالة على مدلولها والتوسل بها لتطمين المتوجسين خيفة من تفشي العامية، وفي هذا الفهم خطأ واضح، ما كان له ان يكون من أستاذ جامعي، فالحفظ واقع على اللغة تبعا لحفظ الذكر الحكيم، وليس حفظاً للناطقين بها. ومن ثم فان استفحال العامية ومناصرتها واتاحة الفرصة لها كي تكون لغة أدب وفكر بفعل الذين يشتغلون بالشعر العامي دراسة وشرعنة، وبخاصة ممن درسوا العربية وآدابها، وحملوا أعلى الشهادات، ثم اشتغلوا بالعامية، ومنهم الدكتور عبد الله الحميد بوصفه أستاذاً جامعياً يقترف دراسة الشعر العامي بآليات الفصيح، هذا الفعل وذلك الاستفحال سيحولان الامة إلى عرب بالنسب لا باللغة، وقد نحتاج بعد أمة إلى من يترجم لنا معاني القرآن الكريم إلى عاميتنا التي قعَّدنا لها، وجعلنا منها لغة أدب وفكر بفعل الكفاءات الجامعية ممن يفترض فيهم اشاعة اللغة الفصيحة وخدمتها لا استدبارها والاشتغال بالعامية، مثلما يفعل صاحبنا، مدعياً غيرته على لغة القرآن، وهي غيرة كمونية، يناقضها فعله الظاهر.

وتأثير اللحن على الفصحى وتفشيه حفز العلماء منذ القرن الثاني على التدوين والتقعيد والتعليم وتحديد زمن الاحتجاج، واضطر الخلفاء والكبراء إلى اخراج ابنائهم إلى البادية للمحافظة على فصاحتهم، ومن قبل اولئك جميعا المصطفى ﷺ الذي قال: «**وتربيت في بني سعد**» ايماء إلى فصاحته واليوم وبعد تحديث مناهج التعليم تنهض الدول العربية كافة بتدريس نظام اللغة الفصحى المتمثل بالنحو والصرف وتقريبها لهم بالنصوص وتعويدهم النطق والكتابة بالمطالعة والتعبير، وكل ذلك لوقاية ابنائها من اللحن، وحمايتهم من العامية التي يمارس تأصيلها من يمارسون اعمالهم النقدية من خلالها، ولو لم يكن هناك فساد في اللسان لما اضطرت الأمة إلى تعليم اللغة العربية لأبنائها في سبيل محاولة جادة ومضنية لعودة الأمة إلى لغتها لغة القرآن المحفوظة بحفظ القرآن، فالضياع واقع علينا، ونحن نعمقه ونشرعنه باشتغالنا بأبرز مجالات العامية وهو «الشعر العامي» وباصدار المجلات الشعبية وحشد الطاقات للاشتغال بالعامية عبر مظاهرها، والشعر العامي من أبرز مظاهرها. وأرجو ان يفهم الدكتور مقاصد آية الحفظ، وانه ليس للانسان العربي الذي عق لغته، وفرط فيها بالاحتفاء بالعامية، وكنت أود من مثله، وهو الاستاذ الجامعي ان يعرف مجال الحفظ وموطن الشاهد واسلوب الاستنباط. وقد قلت في ردي الذي أثاره، وكشف عن فهمه الخاطىء: ان الهنود والباكستانيين أسهموا في تعلمنا ترتيل

القرآن وتجويده، ولم تنفع طائفة منا عروبة الأرومة مع التفريط باللغة. والجناية التي لا تغتفر تحول حماة الفصحى إلى مناصرين للعامية، وذلك بالاشتغال النقدي في نص عامي لا ضابط له، وسواء كان النص لأمير أو وزير أو سوقي، وتخويف الدكتور لنا بأنه يشتغل بنص للأمير تخويف لا محل له، فالموقف ليس من الشاعر وموهبته وانما هو من الشعر، ولا يتبدل بتبدل الأشخاص، وكان عليه ان يتوسل في تقربه بمشروع الأمير خالد الفيصل المتمثل بحرصه على اشاعة الفصحى في أوساط المعلمين والمتعلمين والزامه بتطبيق النطق بها في المدارس والقاعات، وهو مشروع لم يسبق اليه، ومع أهميته فقد استدبره الأخ الحميد، واشتغل بالعامية. وشاعرية الأمير لا خلاف حولها، ولا احسب سموه يود ان يفرغ اساتذة الجامعات لدراسة ابداعه العامي، كما انه لا يود ان يقدم للمشاهد الفكرية بوصفه شاعراً عامياً، وهو رائد مؤسسة الفكر العربي ورائد مشروع المحادثة بالفصيح وشعره العامي ليس مشروعا، بل هو إبداع يفضي به لمن يطربه الشعر العامي ويفهم العامية، ونحن منهم، والدخول بالشعر العامي إلى سدة الفصحى انتقال به من محيطه الطبعي ومن ذويه الذين يفهمونه بالسليقة إلى آخرين لا يجدون لذة السماع له الا بالصوت العامي وبالرسم العامي وبالتقريب العامي، وممارسة الحميد تشكل تراكمات من الأخطاء والتجاوزات والاساءات، كنت أود لو عرفها، ولم يحتج إلى من يعرفه بها، وقد سمع من غيري كلاماً موجعاً، حمله على التوقف عن نشر دراسته العامية، أو انه أكره على التوقف، واذا كانت دراساته تلك بحوث ترقية ولا احسب ناصحا لله ولقرآنه يقبل بها فان الجامعة التي ينتمي اليها تسن سنة سيئة.

ولست أشك انه مما يسوء الأمير خالد الفيصل حصر فعالياته واسهاماته بالشعر العامي وتقديمه في المشاهد الفكرية بوصفه شاعراً عامياً، في حين تكمن عظمته في مواقف متعددة أشرت إلى طائفة منها. والأمير خالد الفيصل يملؤني اعجاباً واكباراً ومن أعز الناس عندي، وهو يعرف موقفي من الشعر الشعبي، ولا أحسبه يستاء من ذلك، وأثق تماما انه يتفق معي. وموقفه المشرف من الفصحى ينسجم مع موقفي، وممارسة الدكتور عبد الله الحميّد مخالفة لموقف الأمير خالد الفيصل، وان تزلف بدراساته النقدية، وبالغ في وصف شعر الأمير، بقوله: «لم تستخرج حتى الآن من كنوزه ودرره وجواهره الا اليسير اليسير لأنه كالبحر الغزير المتلاطم الذي لا يدرك ساحله»، وفات الدكتور اننا في مجال جدل معرفي اكاديمي، لا تجوز معه المجازفات في المدح المتزلف، الأمر الذي يضطرنا إلى حثو الاحبار في وجهه أملاً في ان يتحسس موقعه المعرفي ورسالته العلمية. وما قلته من تعليق في منتدى التكريم الممتلىء بالأمراء والأدباء والمفكرين لا يعد مساساً بأدبيات هذا المحفل، فهو قول علمي وفي سبيل الحق «والمجمع الاحتفالي الذي له وزنه واحترامه» لم يسأ اليه مما قلته، وكيف يساء اليه بقول ينتصر للحق، ويدافع عن حوزة اللغة، ولست بهذه السن وبتلك التجارب بحاجة إلى من يعلمني أدبيات مجالس علية القوم، انني احترم نفسي وأعرف أدبيات المجالس وأوزانها، ويؤسفني جر الموضوع إلى أدبيات المجالس والغضب والعنف والثورة، وكان الأجدر قصره على جدله العلمي المعرفي.

وأما خطؤه التصوري لموقفي المتمثل بدعوى منعي للشعر الشعبي ومنع الشعراء من ابداعه ومنع العامة من سماعه وتذوقه وسخريته بقوله: «ولا يمكن بأي حال من الأحوال الغاؤه أو تهميشه بجرة قلم من الدكتور الهويمل أو من غيره». فالحق انني لا أمنع الشعر الشعبي ابداعاً وانشاداً وإطراباً وتذوقاً، ولا أجهل مضامينه ومشروعية الاستمتاع بنوادره وعيونه، وأنا ابن العامية، اسمعه وقد أتمثل به، وأطرب له، وأتذوق الجيد منه، ولكني لا اسمو به إلى أروقة الجامعات، ولا أتدنى بآليات اللغة والنقد اليه، وموقفي منه يتمثل بضرورة محاصرته في مجاله الشفهي العامي، وعدم التخطي به إلى

مجالات الفصاحة، وعدم تناوله بالدرس النقدي بآليات اللغة الفصيحة ومناهج النقد الأدبي من قبل حماة اللغة العربية، لأن في ذلك شرعنة له وتمكيناً للازدواج اللغوي الذي يعتبر من أخطر الممارسات على الأمة. فالازدواج اللغوي يعني ان تكون العامية لغة فكر وأدب بإزاء الفصحى، وان تدخل قاعات المحاضرات في الجامعات. وهذا ما يمارسه الأخ الحميّد، فهو أستاذ جامعي متخصص في علوم اللغة العربية، والأدب العربي القديم، ومنهج الأدب الاسلامي يدرُسه ويدرِّسه لطلابه على حد قوله. واشتغاله بلغة عامية، وسحبها من المجتمع إلى الجامعة جناية لا تغتفر ومناقضة للتخصص. واذا كانت الجامعات تحارب العامية، بتعليم ابنائها اللغة الفصيحة فان ممارسة اساتذة الجامعات لدراسة العامية بآليات الأدب الفصيح مخالفة واضحة لأهداف الجامعات التي هي بالضرورة اهداف الدولة، وكيف نتخطى بالعامية إلى حصون اللغة، ثم نقول: بأننا مع الدولة في محاربة العامية ومع الغيورين على الفصيح. ولو ان المشتغل بالشعر الشعبي من المتخصصين بالاجتماعيات أو بالتاريخ لقلنا: انه يبحث عن مضامين اجتماعية أو تاريخية. اما استاذ اللغة العربية فانه يشتغل بلغة النص، وهي عامية. وتلك قاصمة لا يعصم منها الا المواجهة، وخطأ الدكتور انه لم يفرق بين الاعجاب والطرب والدراسة، فأنا أعجب وأطرب ولكني امارس ذلك خارج تخصصي، أما حين أكتب أو أحاضر أو أنقد أو أؤلف أو أمارس مهمات الأستاذ الجامعي المتخصص باللغة العربية فانني أتلبس بتخصي، ولا اناقض نفسي. وتعاملي مع العامية اضطرار لا اختيار، وشفهي لا تحريري، واستمتاع لا إسماع، واستمتاع لا تعلّم ولا تعليم. واذا كان من مصلحة الدكتور العاجلة ان يقدم بين يدي نجواه صدقة الدرس لعاميات الكبراء فليفعل، ولكن عليه ألا يجعل المنافحين عن حوزة اللغة جسوراً يعبر من فوقها إلى مآربه، كان عليه ان يباشر الدراسة والنقد دون النيل من انصار الفصيح، اما وقد نال منهم، وسخر بهم، وحط من قدرهم، وصوَّب فعله في المجمع الاحتفالي الذي له وزنه واحترامه، فان من حقي ان ابدي رأيي في ذلك المجمع الاحتفالي، وليس في ذلك تجاوز مني، وليس فيه اساءة، بل القول عند المجمع الاحتفالي من كلمات الحق التي لا يجرؤ هو وأمثاله على قولها، واذا كان يشعر بالدونية في هذا المجمع فانني أتمتع بالندية، فكلنا سواسية كأسنان المشط. وتكسير البيض والبطيخ الذي أحاله الدكتور إلى الدعابة، قلته على حقيقته، وليس من باب الدعابة، فالدكتور بنيله المتعمد من أنصار الفصحى لا يقل اساءة عن تكسير البيض على الرؤوس.

لقد تحدث غيره عن الشعر العامي ممن كانوا عن يمينه وشماله، ومع انني لا أتفق معهم الا انهم احترموا خصومهم، ولم ينالوا منهم على مسمع ومرأى من المجمع الاحتفالي حسب تنبيه الدكتور وتذكيره بمتطلبات هذا المجمع، والمحفل الذي له وزنه يعي اللعبة، ويدرك منطوياتها، ويعرف المتحدث من لحن القول، ولأنني لم أشأ تعكير صفو المناسبة السعيدة فقد اكتفيت برد الكرة إلى مرماه دون غضب أو ثورة أو صخب.

لقد أحسست ان الدكتور بانفعاله وتأثره ولومه للأخوين العثيمين والحارثي لم يكن قد جرب الحوار والأخذ والرد، فما قلت يقع في اطار الحوار المشروع، وما زال اتهامي له قائماً، وما زلت أضرب المثل بما تنفقه الدولة من المليارات لتعليم اللغة العربية في المراحل الابتدائية والمتوسطة والثانوية والجامعية، وفعله هذا مواجهة صريحة لمشروع الدولة علم ذلك أم جهله، قصده أم لم يقصده، اذ الأمور بمآلاتها، ولم أبعد النجعة كما يقول، ولم أزعم، والزعم مطية الكذب. فالأستاذ الجامعي المتخصص في اللغة العربية والمؤتمن على تعليمها واشاعتها حين يدع تخصصه العربي ليشتغل بالعامية يعد مخلاً بالمصداقية والأمانة مواجهاً لمشروع الدولة.

والدكتور في منشوره يعتقد انني سوف أرفع راية الاستسلام أمام العمالقة من الشعراء العاميين، وأحب ان أؤكد له خيبة أمله، اذ لم يحن بعد رفع راية الاستسلام أمام هؤلاء العمالقة من الشعراء الذين ضرب بهم المثل، واعتقاده الاستسلام أحلام يقظة. وان كان يسألني عن هؤلاء العمالقة مثل خالد الفيصل ومحمد السديري وابن لعبون والقاضي والعوني وابن سبيل والهزاني فانني قد أجبت على سؤاله في كتابي «الابداع الأمي: المحظور والمباح» الذي نشر تباعاً في ملحق «الاربعاء» على شكل مقالات، أعجب بها المتابعون، وأعادوا نشر بعضها في صحف ومجلات أخرى.

والدكتور يمتد خلل فهمه إلى الخلط بين «الموهبة والوسيلة» اذ اختلافي حول الوسيلة، وهي اللغة، أما الموهبة فلا خلاف حولها، والشعراء العاميون الموهوبون يبدعون قصائد عامية جيدة، ولا خلاف حول براعة الابداع، ولا على جودة المضامين عند بعضهم، الخلاف حول لغة الابداع، اذ هي عامية سواء قال بها كبير أو صغير. وكل الذي أتمناه ان يكون الدكتور قد فهم موقفي من الشعر العامي. وتصور الفرق بيني وبينه، فأنا كغيري اسمع وأطرب، ليس الا، أما هو فيشتغل بالابداع العامي من خلال لغته. واتهامي بالغضب والثورة والصخب ان كان قد حصل فهو من أجل لغة القرآن ووحدة الأمة، ولم يكن تزلفاً ولا استرضاء للآخرين ممن أبادلهم الاحترام رغم اختلافي مع بعضهم فالرجال لا يرضيهم المدح وان قبلوه، والمعهود فيهم احترام أصحاب المواقف.

وقبل رفع القلم وتجفيف منابع الاشكالية أود ان يجيب الدكتور الحميّد على التساؤل عن طبيعة فعله: هل هو مناصرة للعربية أو للعامية، أو هو جنس ثالث؟ وهو في فعله هذا: هل يعد فعلاً عامياً أو فعلاً عربياً؟ والمشروع العامي الذي تمتد جذوره منذ المناديب الاستعماريين إلى الآن، من منا يتهم بالانتماء اليه أنا أم هو؟ مجرد سؤال. وسؤال ثان: أليس هناك صراع بين العامية والفصحى، فأين موقعنا في جبهتي الصراع؟ وسؤاله الاستنكاري: لماذا افرض نفسي وصياً على أذواق الناس؟ مؤشر جهل ذريع، فهو بتساؤله لا يفرق بين منع التذوق ومواجهة المشروع العامي. والدفاع عن الفصحى ومواجهة العامية لا يكون وصاية على الذوائق، على ان ذوائقنا ليست سليمة، ومرد عطبها فساد ألسنتنا الذي تسعى مناهجنا لعلاجه، ويسعى المشتغلون بالعامية لبقائه. وبعد: ثق أنني أمتلىء بالود والاحترام وأتطلع إلى مزيد من الحوار.

مدخل لدراسة الإبداع القصصي والروائي والمسرحي في المملكة .. !

(١) [١]

إذا كانت (القصة) و (الرواية) العربية بمواصفاتها الغربية وشرطها الفني المتداول عند النقاد والدارسين المعاصرين قد ظهرت وأخذت وضعها الطبيعي أو بعضه في بعض الأقطار العربية قبل ان تكون في المملكة العربية السعودية، فإن مرد ذلك إلى أمور كثيرة لعل من أهمها: سبق تلك الأقطار في الاستقرار السياسي المستتبع للسبق التعليمي النظامي والتنظيم الإعلامي، يضاف إلى ذلك الوجود الأجنبي في بعض الأقطار العربية، حيث نقل معه بعضاً من ملامحه الحضارية واهتماماته الثقافية وفنونه الأدبية. ولا نجد بدا في هذا السياق من الإشارة إلى (حملة نابليون) ١٧٩٨م ١٢١٣ه وما صاحبها من متغيرات جذرية في كل وجوه الحياة في مصر، ثم فيما جاورها. وما سجله (عبد الرحمن الجبرتي) في تاريخه يدل على الاندهاش بما جلبته من أشياء وأنماط وسلوكيات، لم تكن معروفة من قبل، مما أتاح فرصة الاحتكاك المباشر بالمستجد وقابلية التأثر والاحتذاء. وآزر ذلك رغبة (محمد علي) على استبقاء بعض ما جاءت به هذه الحملة من معارف وآليات وأنظمة ومناهج، والتزود منها عن طريق البعثات ومدارس الألسن، واستقدام المعلمين والعلماء، والترجمة، ولك أن تقول عن الشام والعراق وعن المغرب العربي مثل ذلك. لقد جاء المستعمرون والمستشرقون، ووضعوا بذور كثير من المعارف والفنون والمناهج، وجاء مناديب الاستعمار، واستكثروا من ذلك. ووجدت هذه الفنون رغبة في نفوس بعض الشعوب العربية، وقد استفاد المثقفون والدارسون مما عايشوه من فنون متعددة، فيها منافع كثيرة، وفي بعضها اثم أكبر من نفعها، وبخاصة عند من لايحسنون التعامل ولا يعرفون حدود المباح والمحظور. هذا التعالق مكّن تلك الشعوب من السبق والريادة. كما أن هذا التواصل المبكر مع الحضارة الأوروبية مما لم يكن للديار السعودية منه نصيب إذ ذاك، حفز الأدباء في تلك الأصقاع على تعقب الفنون الأدبية في تلك الحضارة ومحاكاتها.

فكانت القصة والرواية والمسرحية والشعر المسرحي مما جسد في الأدب العربي على ضوء الشرط الفني الغربي. ونشطت الترجمة وبالذات ترجمة القصص والروايات، مما حمل ناشئة تلك البلاد على المحاكاة، ثم التجويد والمنافسة.

وحين نقول بجدة الأعمال القصصية على المستويين العربي والمحلي، فإنما نعني ماهو مغاير للقصة في التراث العربي، ولاحاجة لنا بالمضي مع الجدل حول سبق التراث العربي في مجال القصة أوالمسرحية، فنحن الآن ننظر إلى القصة والرواية والشعر المسرحي والملاحم بمواصفاتها الغربية، ومن ثم فإن هذا السرد بالشرط الغربي لم يظهر في الأدب العربي القديم، ويقال عن بقية الفنون بعض هذا القول، وما من منصف يسوغ لنفسه تجاهل القصص في الجاهلية المصاحب لأيامهم وأمثالهم، ومن بعده القصص في الذكر الحكيم، والقص الشعري القائم على الحوار عند الشعراء كامرئ القيس وابن أبي ربيعة مثلاً، وكذلك الحكايات الأسطورية والخرافية والاسرائيليات في مصادر الأدب وكتب التفسير والتاريخ. وإذ يكون القصص كالشعر موهبة فإن لكل أمة منه نصيبا مفروضا. ولكل نصيب خصوصية، وليس لأحد مزيد قدرة عرقية على أحد، ولكنها الظروف والدواعي، والحاجة الأولية تنفل بعض الأمة تميزاً في جانب دون جانب، والمؤكد ان في التراث العربي إبداعاً سردياً، وسرداً حوارياً، لانتردد في عده إبداعاً قصصياً، غير أن هذا اللون من الإبداع تطامن تحت ضربات الشعر، وأخلى الساحة إلى

---

(١) تاريخ المقال: ٢٧/ ٣/ ٢٠٠١

حين، ثم إن النقد العربي القديم لم ينظر إلى هذا اللون من القول على أنه إبداع كإبداع الشعر، لقد كانت الغلبة للشعر بوصفه إبداعاً، وهو ما لم يمنحه النقاد للعمل القصصي. والقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وكتب التاريخ، والموسوعات الادبية، وكتب التفسير والأمثال زاخرة بالقصص، والحكايات، ومامن منصف ينكر ذلك أو يتردد في وصف هذا التراث بالريادة القصصية، وقد درست النزعة القصصية في القرآن، وفي الحديث على أعلى المستويات.

والتراث العربي ينطوي على جذور قصصية غفل عنها المنبهرون من النقاد، فهناك القصص الاخباري في كتب التاريخ، وبخاصة مايتعلق منه بالخلفاء، والخلعاء، والمغنين، وكذلك قصص الأبطال، والملاحم كسيرة عنترة، والزير سالم، ثم القصص الخرافي كقصة ألف ليلة وليلة والقصص الديني كقصص الأنبياء والرسل مع أممهم، وهناك القصص التعليمي كالمقامات ثم القصص الفلسفي كرسالة الغفران، ورسالة التوابع والزوابع وحي بن يقظان، وفي هذا السياق لاننكر ما أخذته القصة والرواية العربية في العصر الحديث من قصص الغرب ورواياته وما فيها من مواصفات شكلية وبنائية، مما لم تكن معهودة من قبل، هذا على مستوى الأدب العربي القديم، ولن ندخل في إطار المفاضلة أو الموازنة لاختلاف الخصوصية والمستوى، ففي القرآن الكريم أحسن القصص ولاريب وما نحا نحوه الأدباء والمبدعون في مصر والشام والعراق والمغرب مما وسعته هذه الفنون الغربية الجديدة لم يظهر شيء منه في الإبداع الأدبي في الجزيرة العربية قبل نشوء المملكة وإبان نشوئها، وإن بدأت المحاولات المتواضعة بعد ظهورها ونضوجها في أنحاء كثيرة من الوطن العربي، وبالذات في مصر.

ولن تحملنا العاطفة الوطنية ولا الاستكبار القومي على الإدعاء أوالمغالطة، كما لن يضيرنا مجيئنا متأخرين، إذا استطعنا أن نختصر المسافة، وأن نسرع اللحاق بمن سبقنا.

والظروف التي بطأت بظهور القصة والرواية في الأدب العربي في المملكة، لم تحل دون استمرار بقية الأنواع الأدبية كالشعر والخطابة والنثر الفني، وبخاصة المقالة الصحفية بكل أنواعها، جاء ذلك بمستوى مشرف لايقل كثيراً عما كانت عليه تلك الأنواع في أنحاء كثيرة من الوطن العربي.

وحين أشير إلى تلك الأنواع، لابد من استحضار الدور الصحفي الذي سبقت إليه تلك الديار، وأسهم في نضوج تلك الفنون وتهذيبها ك(المقالة) بكل تعددها الموضوعي ومتغيرها الشكلي.

لقد كان لظهور الصحافة في الوطن العربي دور لايغمطه أحد في ظهور النثر الفني المترسل المتخلص من الصناعة اللفظية وما أثقله من سجع ومحسنات. وتعدد وظائف المقال أدى إلى نضوج هذا الفن في وقت مبكر، وامتد هذا النضوج إلى بقية فنون النثر التي جدت فيما بعد، كالقصة والرواية والسيرة الذاتية بوصفها أشكالاً أدبية، تأخذ طريقها إلى الصحف والمجلات التي نهضت ابتداء على أيدي كبار الأدباء والمفكرين، إذ لم يكن الفن الصحفي قد استوى على سوقه، مما أتاح لهذه الفنون الحضور الصحفي، يضاف إلى ذلك التوسع في الترجمة، والتواصل الحميم المبكر مع كل المنجز القولي في أوروبا بالذات، وظهور المطابع، وتسابق أصحابها على طباعة المترجمات، كل ذلك أسرع في نضوج هذا الفن.

وإذا كانت بداية القصة والرواية في بعض أنحاء الوطن العربي توصف بالجودة، فمرد ذلك اطلاع الرواد على أعمال روائية وقصصية عن طريق الترجمة أو قراءتها بلغتها، ومن اليسير جداً الاحتذاء بادئ الأمر وقد لانجد هذه الظروف مهيأة لرواد القصة

والرواية في المملكة العربية السعودية، مما أدى إلى تأخر ظهور هذا اللون من النثر وإلى بدايات متواضعة.

ولك أن توازن بين رواية «زينب» لهيكل ورواية «التوأمان» للأنصاري، بوصفهما رائدين من رواد الرواية في مصر والسعودية لترى كم هو الفارق بينهما على المستويين: الفني والمضموني، وهو فارق تمليه ظروف كل من الرائدين، إن على المستوى الفردي أو على المستوى البيئي. يضاف إلى ذلك النظرة العامة إلى هذا اللون من الإبداع في المملكة، وفي إقليم الحجاز بالذات الذي يعتبر مهد المبادرات، وبوابة التواصل مع النخب العربية، وهي نظرة تثبيطية. فالرأي العام لايقيم لهذا اللون من الأدب قيمة تقترب من قيمة الشعر والخطابة، فضلاً عن أن تضاهيهما. ولتفادي التفاوت فقد عمد ناقد أكاديمي مثل الدكتور منصور الحازمي إلى إجراء موازنة بين «زينب» لهيكل و «ثمن التضحية» للدمنهوري بوصفها في نظره رائدة الرواية السعودية ولم يجرها بين تلك و (التوأمان) إذ الريادة الحقيقية للأنصاري، ولو فعل ذلك لظهرت فوارق لا تحتمل، وإذ تكون الريادة للأنصاري فإن التأسيس للدمنهوري، وفرق بين الريادة والتأسيس وتأخر التواصل مع الغرب والنظرة الدونية من الرأي العام بطأت بالبداية وتعثر بها النضوج ومن أعجب ما قرأت ما يذهب إليه بعض الدارسين الغربيين من أن ازدهار الرواية مرتبط بزمن الانحطاط. إشارة منه إلى أنها لا تضارع فنون القول الأخرى، ذكر ذلك «المرتاض» في مجلة «أقلام» العراقية خريف ١٩٨٦م واستهل به كتابه (في نظرية الرواية) إصدار (عالم المعرفة). وتلك مقولة أخذ بها أدباء المملكة في مستهل البدايات، وكان لها أثرها في تعثر بدايات القصة والرواية.

وعامل آخر يكاد يكون عاملاً في ترتيب الأولويات، إذ لا أستطيع في هذا السياق تناسي الحركة الإصلاحية التي نهض بها المصلح المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ت ١٢٠٦هـ، حيث شغل الساحة بالعلم الشرعي السلفي، وتحفظ على كثير من وجوه الحياة المعاصرة، مما هو مخالف للمقتضى الشرعي، أو مما تراه الدعوة من باب سد الذرائع، ودرء المفاسد، ولهذا زرعت في روع الناس الحشمة، وحببت إليهم الاشتغال بالفاضل دون المفضول، وإن كان مباحاً.

وحين لايكون في بداية النهضة تواصل مباشر من أدباء المملكة مع الآداب الأوروبية، ثم لايكون لهذا اللون قبول لدى الرأي العام، وحين تكون الحركة الإصلاحية مترددة في قبول المستجدات للحيثيات المذكورة، تكون البدايات الروائية والقصصية أكثر تواضعاً وإبطاءً وتردداً، ويكون الإنجاز أقل مما هو عليه في بعض أنحاء من الوطن العربي. هذه التوطئة التحفظية، يدفع إليها ما أراه من امتعاض أو تردد عند تقويم مرحلة البدايات، فالمؤرخ للرواية والقصة في المملكة يحس أن من واجبه، أن يلتمس مبررات لهذا المستوى المتواضع، وقد تأخذ هذه المبررات مسارات عاطفية، تخفي بعض الحقيقة، والمصداقية تحمل على مواجهة الواقع، وتناوله كما هو، وتقديمه بكل ملامحه، فالعيب ليس أن تولد متأخراً، ولكن العيب أن تظل متمسكاً بالتأخر، وكأنه قدر لامناص منه. المؤكد أننا جئنا متأخرين، ولكننا رفضنا أن نظل متأخرين. ومن ثم جاءت الريادة متواضعة وعلى استحياء، فيما جاء التأسيس والانطلاق أكثر شيء قوة وكثرة، ومما يجب تداركه وهو من اشكاليات المشهد الثقافي ترشيد الموقف من الرواد، فالبعض يمعن في الإشادة والتضخيم، ويؤكد على دونية التابع فنياً ودلالياً، ويرى أن مثل ذلك يقتضيه الوفاء للرواد، وأن مخالفة ذلك تنكر وعقوق وسوء أدب، والأجدى في نظري أن نشيد بالرواد لريادتهم وسبقهم وجسارتهم، وأن نحفظ للخلف تميزهم واستكمالهم متطلبات الفن، فالمؤسسون للفن والمنطلقون به في الآفاق جودة وكثرة لايجوز أن نبخسهم حقهم،

ومقتضيات الريادة لا تستتبع التفوق المطلق. الرواد استغلوا الممكن، وقدموا المتفوق في سياقهم، غير أن اللاحق تفوق بامكانياته وظروفه وسياقه، ولو أخذنا بمبدأ تفوق الرواد لقدمنا أنفسنا بوثائق ضعيفة. إن الوفاء للرواد يتمثل في وضعهم بالمكان المناسب لهم في سياق الابداع، وليس من العقوق لهم ولا من التطاول عليهم الصدق في القول، وهاجس التفخيم والتقديس هاجس متخلف يجب أن نتجاوزه. نحفظ لروادنا حقهم بالتقدير والإكبار والإشادة، ونحفظ للخلف حقهم بالإنصاف والعدل والمصداقية.

مدخل لدراسة الإبداع القصصي والروائي والمسرحي في المملكة .. !
(٢) [١]

بعد هذه التوطئة التحفظية التي ارجو ان تكون مشجعة على الرصد الدقيق الصادق لبداية الرواية والقصة، ومستوى هذه البداية في المملكة احسب اننا لا نجد اي عناء في تحقيب الفترات ومرحلتها، فالمتعقب لتأريخية القصة والرواية وفنيتهما تبدو له مراحل ثلاث:

مرحلة الريادة، ومرحلة التأسيس، ومرحلة الانطلاق. وهي احقاب ليست وهمية وليست افتراضية، والمؤرخون للحركة الادبية يكادون يجمعون على ان الأستاذ عبد القدوس الانصاري ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م يعد رائد العمل الروائي والقصصي في الادب العربي في المملكة العربية السعودية بروايته «التوأمان» وقصة «مرهم التناسي» يضارعه في ذلك روائيان هما: احمد السباعي ومحمد علي مغربي، وهؤلاء الثلاثة لا جدال في ريادتهم على ان الانصاري اشار إلى ريادة عزيز ضياء ومحمد حسن الفقي، واهمية رواية (التوأمان) ليست في سبقها ولا في بنائها الفني المتواضع للغاية ولا حتى في لغتها الادبية فحسب وانما في موضوعها القائم على تجسيد الصراع الحضاري في وقت مبكر، صدرت هذه الرواية عام ١٣٤٨هـ ١٩٣٠م ومن المؤسف ان هذه الريادة المتواضعة المبكرة نسبيا، ما كانت قادرة على استدراج الادباء المعاصرين للانصاري لمواصلة الاداء الروائي وكأني بهذه الريادة قد جاءت سابقة لاوانها بحيث اصبحت كصوت نشز خرج على رتابة الايقاع وانفلتت من سرب المقلدين والمحافظين، ومن ثم بادر القادرون على اسكاته أو احباطه وذلك بعدم المبالاة به أو بالاسفاف في نقده ليعود الايقاع إلى سالف عهده لا يتخطى القصيدة العمودية والمقالة الصحفية، وهذا الاحجام أو المواجهة العنيفة من الدارسين والنقاد، حمل بعض الكتاب على استنهاض الهمم وتحفيز الجهود لمواصلة ما بدأه الانصاري في روايته.

ومقالة «الرواية الادبية وحاجتنا اليها» للاستاذ محمد عالم الافغاني المنشورة في المنهل قبل اثنين وستين عاما اي عام ١٣٦٠هـ كتبها عندما تباطأ الادباء في اقتفاء اثر الانصاري، والمقالة ادانة قاسية للمرحلة التي لم تحتف بالمستجد، ولمن لم تغرهم بداية الانصاري الجريئة. ومبادرة الرواد لم تكن تقليدية في المضامين اذ حمل الرواد مهمة الاصلاحيين الاجتماعيين ويبدو لي ان مضمون الرواية في تلك الفترة يقوم على التوجيه والارشاد ليس غير، وهو ما المح اليه كثير من الدارسين ولم يكن للرواية وظيفة اخرى تند بها عن توجيه الرأي العام واصلاح شؤونه، ومع هذه المهمة الاصلاحية يظل الموقف من العمل القصصي دون المستوى المأمول، واستنهاض الافغاني للادباء يؤكد ما توقعناه من رؤية دونية للعمل الروائي، فالادباء حسب تصوره (ينظرون إلى الرواية كسقط المتاع) (المنهل ج٦ س ٥ جمادى الاولى ١٣٦٠هـ ص ١٠٣) ذلك قوله الذي التقطه من الواقع وهو امتداد طبيعي للرؤية التراثية لمثل هذه الانواع الادبية، ولعلنا نذكر وصف الادباء والمؤرخين لمن يمارسون التمثيل (بأهل السماجات) وتلك رؤية مضارعة لما اشار اليه الدكتور عبد الملك مرتاض، مما اومأنا اليه من قبل. ولسنا بصدد النقد والتقويم لهذه المواقف، وانما نحن بصدد الرصد التاريخي والقيمي للرواية العربية في المملكة، وتكافؤ الامكانيات والمعوقات.

---

(١) تاريخ المقال: ٣/ ٤/ ٢٠٠١

وقد نعود إلى مساءلة ما نرى مساءلته في هذا السياق. ولأن الاديب الانصاري رائد خذله قومه فقد دأبت مجلة المنهل التي يرأس تحريرها على استنهاض الهمم، والالقاء باللائمة على الادباء الذين لم يستوهم هذا الفن، لاعتقادهم بأن الاشتغال بهذا اللون من الادب مخل بالمروءة.

لقد فتح الانصاري مجلته للابداع القصصي وللترجمة القصصية وللمقالات الاستنهاضية، وخصص ملفات منها لهذا الغرض، واستكتب الادباء وأصحاب المحاولات، كما فتح مجلته للدراسة والنقد القصصي، غير ان ثمرة هذه الجهود جاءت متأخرة ودون المؤمل، فالادباء والكتاب والنقاد لا يرغبون في تغيير صورتهم لدى الرأي العام، والشباب يحبذون الاقتداء بالرواد الذين ترفعوا عن ممارسة الابداع القصصي، والانصاري المصر على التمكين لهذا الفن حقق بذلك الريادة في مجال الابداع وفي مجال الدراسات، والملفت للنظر انه شغل بعد ذلك بالكتابة والتأليف ولم يبدع بعد «التوأمان» شيئا ذا بال، فبعدها كتب قصة قصيرة تحت عنوان «مرهم التناسي» وتوقف عن الابداع القصصي والشعري معا ولربما كانت الحملة النقدية المسفة التي قادها محمد حسن عواد من اسباب تراجعه المبكر عن الابداع الشعري والروائي والوقوف عند حد المحاولات ونحن لا نشك في ان حظه منهما ضئيل، وليس في مستوى علمه واسهاماته الصحفية والادبية واللغوية والتاريخية ولكنه يظل رائدا لا ينازع في الريادة.

ولم يكن الانصاري ولا معاصروه من كتاب ونقاد ومبدعين يعون الفروق الشكلية الدقيقة في الابداع السردي وفي التوصيف، وامتد ذلك الضعف إلى من بعدهم، حتى اتضحت الرؤية وتمايزت الانواع في ذهن المبدع والناقد والمتلقي على حد سواء. لقد عرف القراء فيما بعد كم هو الفرق بين القصة، والرواية، والمسرحية. والانصاري بوصفه رائد الرواية المحلية والمتوقع منه الوعي المبكر بما طرأ على الساحة العربية من فنون جديدة، يكتب مقالا ادبيا عن حركة الابداع الفني ثم لا يفرق فيه بين القصة والرواية والمقالات الاجتماعية ذات الشكل الحواري والسيرة الذاتية والتمثيلية الاذاعية والمجموعات القصصية. واستعراض مقاله الافتتاحي القصير في مجلة المنهل عام ١٣٧٤هـ يظهر فيه التوسع في مفهوم الفن القصصي والروائي وهو توسع لا يقوم على ارضية استيعابية لشروط الفن الروائي اذ كل عمل ينطوي على حوار ثنائي أو اكثر يعد عملا قصصيا عنده. ثم هو لا يفرق بين القصة والرواية والسيرة فهي في نظره فن واحد فالكلام عنده: شعر، ونثر. والنثر: مقال، وقصة. ويتسع النوع القصصي لكل ما لا يتسع له المقال الصحفي. وذلك تقسيم لم يتولد عن قناعة واختيار وانما عن تصور اولي. ومن عجب ان بعض المحدثين من النقاد يميلون إلى هذا الخلط في طريقهم إلى الميل كل الميل إلى مصطلح (الكتابة) بوصفه مصطلحا يلغي كل الانواع الابداعية ويؤاخي بينها. ولو عدنا إلى مقال الانصاري الافتتاحي (قصة القصة عندنا) ومقال الافغاني المشار اليه سلفا لوجدناهما يحددان امرين في غاية الاهمية لمن اراد ان يرصد لبداية العمل الروائي والقصصي: فمقال الافغاني يشير إلى الرأي العام وموقفه من الفن القصصي والروائي، وهو موقف تثبيطي مخذل. اما مقال الانصاري فقد رصد دور رواد الادب من ناشئة البلاد، ودفعهم لمركبة الادب على حد قوله إلى الاتجاه الحديث، ولكنهم قصروا جهودهم على (ادب المقالة) و(القصيدة) وقصروا عن (ادب القصة) وعذّر لهم بقوله: «فأدب القصة ما يزال شيئا جديدا لم ينضج ثمره في العالم العربي ومما هو جدير بالاضافة ان السائد من قبل وقد يكون من بعد التردد في عد العمل القصصي والروائي على الاقل ابداعا بحيث يعترف بأدبية النص. وقد اشار الانصاري في مقاله إلى رواد القصة في الادب العربي في المملكة واشار إلى نفسه والى زميله: عزيز ضياء ومحمد حسن فقي، ثم

عدد الذين اسهموا في كتابة القصة في الصحف والمجلات، حيث ذكر منهم: محمد سعيد العامودي وطاهر زمخشري، وعزيز ضياء، واحمد رضا حوحو، ومحمد عالم الافغاني، وامين يحيى، وحسين سرحان، وامين رويحي، وعبد السلام هاشم حافظ، وحسن عبد الله قرشي، واحمد محمد جمال، وشكيب الاموي. وهؤلاء على حد قوله ممن اكتفوا بنشر قصصهم في الصحف والمجلات، اما الذين نشروا اعمالا قصصية وروائية فعد منهم: احمد السباعي، ومحمد علي مغربي، وحسين سراج في مسرحياته الشعرية، واحمد محمد جمال، وعبد الله عبد الجبار، واحمد عبد الغفور عطار، وهؤلاء جميعا يكادون يدخلون في مرحلة الريادة، وان امتد الزمن ببعضهم فادركته سمة الخصرمة.

والمؤرخون والدارسون للابداع الروائي والقصصي من امثال منصور الحازمي ومحمد صالح الشنطي وسيد محمد ديب، وطلعت السيد، ومسعد العطوي، واحمد السعدني، وسحمي الهاجري، يقتصرون على ثلاثة رواد هم:

الانصاري، والسباعي، والمغربي، لمبادرتهم في طبع اعمالهم ويغفلون عن مضارعين لهم في كتابة القصة والرواية، من امثال محمد حسن فقي الذي نشر في الصحف المصرية قصتين هما «زهرة الاثم» و«الاسرة البائسة» والاستاذ عبد الوهاب آشي الذي ابدع رواية «خالد» ولم تنشر والاستاذ عزيز ضياء الذي نشرت له مجموعة من القصص منها «الابن العاق» و«ليس ابني» و«وعيد»، والاستاذ حسين سرحان الذي نشرت له المنهل بعض القصص، وامين يحيى الذي نشر قصة «الوفاء» وكتب عنها العامودي دراسة ادبية اشاد فيها بتألق هذا الفن عند الكاتب، وتفشيه في الاوساط الادبية». ومرد هذا الاهمال من الدارسين المعاصرين ومن الاكاديميين منهم إلى ان بعض الدارسين والمؤرخين للظواهر الادبية ولادب الاقاليم يتكئ بعضهم على بعض، وتتناسل البحوث من بعضها، مع اضافات وتشقيق إنشائي. ونحن لكي ننصف الحركة الروائية والقصصية في البلاد لابد من النبش عنها في الصحف والمجلات وقديم المطبوعات ونادر المحفوظات التي لم يكن من السهل الوصول اليها، كما يجب ان ننقب في المصادر والمراجع عمن اهملهم النقد المتخفف الذي يتعجل الاشياء ولا يباشر القضايا، ومشكلة الحركة النقدية عامة ان الاكثرين يقتصرون على المتداول ومن ثم لا ينشئون نقدا وانما يعيدون قولا واذا فوجئوا باضافة جديدة جدوا في اسقاطها واتهام صاحبها وهذا بعض ما لقيت من عنت.

والانصاري الذي تعقب بافتتاحيته الروائيين والقصاص، لا يرى ان هذه البدايات جيدة اذ يقول: «وهو على كل حال تقدم نسبي لا يصل إلى حد الزعم بإمكان تصدير نتائجه إلى الخارج والواقع انه لم تظهر في الافق بعد تلك الشخصية اللامعة في فن القصص التي تبعث في هذا الفن الرفيع النضارة والاشراق وتجذب إلى نتاجه انظار جمهرة القراء». وهذا التوصيف الصادق للمشهد الروائي يجعلنا في حل من مواجهة الحقيقة. ولعلنا نعرف ان رواية «التوأمان» لم تزد عن ثلاثين صفحة، وان قصة «مرهم التناسي» لم تزد عن عمود صحفي. وهذا كل انتاج رائد الرواية والقصة في الادب العربي في المملكة. وهذه القلة الكمية، والتواضع الكيفي لا يحطان من قدر الانصاري ودوره البارز في الحركة الادبية في المملكة عامة، وفي مجال القصة والرواية على وجه الخصوص، ويكفيه مجدا انه انشأ مجلة (المنهل) التي ما زالت مثابة من مثابات الكتَّاب في الوطن العربي منذ اكثر من ستين عاما. والذين لا يملكون الوثائق ولا يتقصون في التنقيب يقنعون بالثناء المسرف والتداول التاريخي وينقمون على الذين يواجهون النصوص ويحددون المستويات ويحقون الحق. لقد فرقت بين الريادة التاريخية والريادة الفنية، وهكذا يقال في ريادة شوقي للمسرح الشعري ريادة تاريخية، وريادة توفيق الحكيم

للمسرحية النثرية ريادة فنية، وهذا التفريق من باب احقاق الحق والدقة في التقصي والعدل في التقويم يزعجان البعض، لان فيهما تكسيرا للسوائد ونسفا للمواضعات، وفات اولئك ان الانصاف لا يعد من الاساءة للرواد ولا للحركة الادبية، وانما الاساءة والتغرير في الاقتصار على التقريظ، وتداول الاحكام العامة المتوارثة، والنقاد امناء لانهم بمنزلة القضاة، فلا مسوغ للثناء المطلق ولا قيمة لتوارث جاهزية التصورات والاحكام، ان مهمة الناقد البحث والتنقيب والتقصي والموضوعية واستقلالية الرأي، وعلى المتلقي احترام المبادرات وتقدير الاضافات والتخلص من عقدة الابوية والماضوية، وعند هذا يجب احترام التراث وتقدير الرواد والثناء على جهودهم ومبادرتهم والتعامل معهم من خلال سياقهم وانساقهم. وعلى ضوء ذلك فلا تثريب في ان نقول: ان الفروق الفنية الدقيقة لم تتضح معالمها عند الرواد بدءا بالانصاري ومرورا بمعاصريه كالسباعي والمغربي وبدايات عزيز ضياء والفقي، وتبعا لذلك فاننا في البدايات على الاقل لا نستطيع الفرز بين الاعمال القصصية والروائية فالمصطلح لم تتضح معالمه عند المبدعين والدارسين الرواد على حد سواء. حتى انهم ليسمون الرواية قصة طويلة، والقصة الاقل قصة صغيرة وقد يطلقون على الاصغر (اقصوصة) ولهم فيما بعد ذلك آراء حول الفوارق وصلت ببعضهم إلى عد الكلمات وربط ذلك بالحجم لا بالفوارق الفنية المتعلقة بالاشخاص والاحداث والازمنة والامكنة وسائر الوحدات الفنية. وفات اولئك ان بعض الدارسين عد (اللص والكلاب) لمحفوظ قصة، على الرغم من تجاوزها المائتي صفحة. ولهذا فالانصاري نفسه خلط بين انواع الفنون ظنا منه ان القص يتسع لكل هذه الانواع ما دام ينطوي على سرد روائي أو حوار. ومما هو في اطار الاشكالية ضعف البرزخ بين الفن القصصي والنثر الفني، حتى لقد بغى بعضها على بعض ولم يكن كما هو بين النثر والشعر وان جاءت (قصيدة النثر) مؤاخية بين الفنون، وتلك جناية تعدت ما كنا نتحفظ عليه من دعوى الموهبة القصصية بمجرد توافر القدرة الكتابية ولربما كان ضعف الفوارق من اسباب الخلط، ولسنا معذرين في هذا التحفظ، وانما هي كلمة حق لا نود تأخيرها عن وقتها.

والمؤرخون للسرد الروائي والقصصي يكادون يجمعون على ان الروايات الرائدة في الادب العربي في المملكة ثلاث روايات هي: «التوأمان» للانصاري، و«البعث» للمغربي و«فكرة» للسباعي. وقد غفلوا عن آخرين ذكرهم الانصاري في بعض مقالاته كالفقي وآشي وعزيز ضياء، وقد اشرنا إلى هذا في المستهل. ويأتي احمد السباعي اكثر نتاجا واقدر موهبة، واوسع ثقافة معاصرة من صاحبيه وهو الوحيد من بين الثلاثة الذي اخلص لفنه ومحضه جهده.

وقد نبيح لانفسنا التخطي بالسباعي من الريادة إلى التأسيس، فيما لا نجد ادنى مبرر للتخطي بالانصاري والمغربي مرحلة الريادة، ونقول جازمين: ان (البعث) للمغربي تفوق رواية (التوأمان) بمسافات فنية واسعة. تقع رواية (التوأمان) للانصاري في ثلاثين صفحة، وفي ستة عشر فصلا. والتوأمان اخوان هما: (رشيد) و (فريد) وقد ليم الانصاري لغويا بالتثنية وما عليه من بأس اذ يجوز ان يقال: (التوأمان) وللتوأمة مغزاها العميق في تجسيد الصراع الحضاري، فاحد التوأمين وهو (رشيد) درس العلوم العربية في الوطن العربي فيما درس اخوه (فريد) العلوم الاجنبية في الخارج فنجح الاول واخفق الآخر ومن ثم فالرواية تمثل الصراع الحضاري الساذج.

والرواية كما اشرت تركن إلى الاسلوب التعليمي الوعظي الارشادي التحذيري من مستجدات العصر غير المجدية وتساق باسلوب عربي لا شائبة فيه. هذا المولود المبتسر بعد عقم طويل قوبل بعقوق ونكران لا يليقان به لقد نُقدت الرواية نقدا عنيفا بل اصفه بالنقد المسف، وبالذات من الاستاذ محمد حسن عواد رحمه الله الذي امتدت كلماته المفحشة

إلى ذات الانصاري، ونسبه وتلك سمة لم يتخلص منها العواد في كل منازلاته ومن عجب ان الدارسين للحركة النقدية يغضون الطرف عن مثل هذه البذاءات التي لا تشرف بها الريادة النقدية، ويعدون العواد رائدا لا يسأل وقد يبلغ الاعجاب به حدا لا يطاق بحيث يعد المساس به مساسا بالمواطنة. ومن مثالب اي حركة نقدية أو فنية أو فكرية الاغراق في تقديس الشخصية على حساب الموضوعية. ومن بعد العواد جاء الاستاذ عزيز ضياء رحمه الله الذي رصد للعمل القصصي والروائي وذلك حين كتب مقدمة لرواية «غدا انسى» للقاصة امل شطا حيث وصف العملين «التوأمان» و«مرهم التناسي» بالتفاهة والخواء، وبدائية التعبير والاداء. والعواد وعزيز ضياء من كبار المثقفين والنقاد اذ ذاك على الاقل وممن يعول عليهم في قيادة حركة نقدية راشدة وممن كان لهم تواصل مع ادباء العالم العربي ومؤاخذتهم الفنية في محلها لو انها ربطت في سياقها ولم تسف عند بعضهم اذ ليس بالامكان افضل مما كان وكان عليهما في تلك المرحلة ان يطلبا المزيد من المتباطئين لا ان يخذلا الجسورين. والحركة النقدية حول العمل القصصي والروائي تبدو متواضعة تواضع الريادة الروائية والقصصية وكان العواد مهيئا للتأصيل والمعاصرة لو لم يكن حاد المزاج عنيف القول مسف العبارة، وبالمثل فان عزيز ضياء يمتلك آلية النقد لو انه وضع يده على اعمال روائية وقصصية متعددة المستويات والاتجاهات، واذ قلنا بالريادة الروائية والقصصية فاننا مضطرون للقول عن الريادة النقدية للاعمال الروائية، ولا نجد بدا من النظر إلى العواد وضياء بوصفهما رائدين للنقد الروائي ولن نفصل القول عن امكانياتهما النقدية فذلك له مجاله في مدخل الحركة النقدية.

وماذا على النقاد لو انهم باركوا خطوات الانصاري واسنهضوا همم المتثاقلين لقد ادى هذا النقد العنيف إلى توقف الانصاري وتخوف الآخرين واستمرار التعثر، ان خطأ العلاج اضر بتلك المحاولة الرائدة وهذا في نظري من اقوى معوقات الانطلاقة الروائية في المملكة.

مدخل لدراسة الإبداع القصصي والروائي والمسرحي في المملكة .. ! (٣)[1]

أما رواية (البعث) للمغربي المضارعة (للتوأمان) والصادرة في اطار مرحلتها الزمنية، ونزوعها الاصلاحي، ومستواها الفني، فتصور حياة الشاب السعودي (اسامة الزاهر) الذي يسافر إلى الهند للعلاج، وفي المشافي تنشأ بينه وبين ممرضة هندية غير مسلمة اسمها (كيتي) علاقة حب عارم تنتهي بالخطبة المحكومة بظرفها، ولكن العودة إلى الوطن واشتعال الحرب تحولان دون التواصل بين المحبين، لينشأ حب جديد مع فتاة اخرى في الطائف، ثم يتحول البطل إلى رجل اعمال، وفي المشاعر المقدسة يلتقي بمحبوبته الهندية المسيحية التي اسلمت، وحجت ويتزوجها، والرواية ذات بعد اصلاحي ورؤية حضارية، وليس في احداثها ولا في شخصياتها اي تشابك، تقع الرواية في سبعين صفحة، وقد طبعت مع قصص اخرى، وهي قصة طويلة لولا تعدد الازمنة والامكنة.

اما رواية (فكرة) للسباعي فخليط من الخيال المجنح، والواقع الاجتماعي، و (فكرة) اسم لبطلةالرواية التي وصفها السباعي في مستهل الرواية بأنها هازئة بقواعد الحياة وموضوعات الناس واعرافهم، و (فكرة) فتاة جادة في تصورها للحياة، والاحياء ولانماط السلوك، بدوية متمردة، لقيت الشاب (سالم) الذي يحاول التبدي معها ليتزوجها، ولكنها تجادله، تصرفه الي حاضرته، وحين يلتقيان معاً صدفة في المشاعر المقدسة يكتشفان انهما اخوان، (ففكرة) فقدها اهلها طفلة، وكانت اذ ذاك تسمى (آسيا) ثم عثروا عليها، فطاروا بها فرحاً، واستنكروا تغيير اسمها. ولعلنا نمعن النظر في علاقة التسميتين بمسماهما الوضعي أو العلمي: (آسيا) القارة. و (فكرة) واحدة الافكار، وايا ما كان الامر، فان الاغراق في الخيال ما يزال ضريعاً للسباعي في كل اعماله، مما حدا ببعض النقاد إلى مؤاخذته على هذا الاغراق، حتى لقد كاد الخيال المستحيل يحول دون جدوى مثل هذه الاعمال التي تقترب من عالم الخرافة. واحسب ان السباعي يدعو إلى التحضر، ولكنه لم يحسن المعالجة، والروايات الثلاث (التوأمان) و (فكرة) و (البعث) متقاربة في المستوى الفني واللغوي والموضوعي، كالنزعة الاصلاحية والنقد الاجتماعي، ومتقاربة في فقد جانب من الخصائص الروائية، مع جمال الاسلوب وسماحته، وغموض هوية البطل.

يقول الدكتور بكري امين: (والشخصية فيها فكرة لا كائن حي قائم) (٤) ولم نشأ اطالة الحديث عن هاتين الروايتين املاً في تعقب اعمال مهمشة لا تقل عنهما، واعتماداً على تغطيات تاريخية وفنية من متعقبي تلك الحركة.

اعود لاقول: ليست ريادة الانصاري للقصة والرواية مقتصرة على العمل الابداعي وحده، وانما هي دعم لهذا اللون من الابداع. لقد حرص على استنهاض الهمم، وحفز الادباء الشباب على ممارسة الكتابة القصصية. يقول الدكتور الحازمي فالمنهل منذ تأسيسها سنة سبع وثلاثين وتسعمائة والف، قد اولت الادب القصصي عناية خاصة، وافردت له باباً ثابتاً في اعدادها الشهرية (٥). في حين لم تعن جريدة (كأم القرى) بالادب القصصي (٦). والانصاري اصدر روايته قبل ان ينشئ (المنهل) بسبع سنوات، فالهمُّ عنده قائم من قبل، والموهبة التي شغل الانصاري عن صقلها، وتنميتها كامنة فيه، مهيأة لمواصلة الابداع. غير ان عنف المواجهة وبرودة الاستقبال حدت بالانصاري إلى الاشتغال بالمقال، والوقوف عن مواصلة الابداع: شعراً ورواية، وهو قد احسن صنعاً، اذ لم يصدر الا ديواناً واحداً هو (الانصاريات) ورواية واحدة هي (التوأمان) فما كانت

---

(١) تاريخ المقال: ١٠/ ٤/ ٢٠٠١

موهبته لتجود بما هو افضل مما كان. والتقويم الفني لمرحلة الريادة يمس الاعمال الروائية، وقد يسقطها، اذا اخذت بما آلت اليه الرواية المعاصرة من نضوج في الوطن العربي من قبل ومن بعد وفي المملكة فيما بعد. حتى الذين نقدوا تلك الاعمال من المعاصرين لصدورها، من امثال محمد حسن عواد، ومحمد سعيد العامودي، وعزيز ضياء، أو اللاحقين من المؤرخين للادب السعودي والدارسين له من امثال، الدكتور منصور الحازمي، وبكري الشيخ امين ومحمد الشنطي، والسيد محمد ديب مسوا هذه المرحلة مساً خفيفاً، وغفلوا أو تغافلوا عن تصور واقعها والنظر إلى سياقها بالشكل الذي يجسد ابعادها الدلالية والفنية، ويحدد مستوى المبدعين والناقدين. ولعلهم أو لعل بعضهم فهم النقد على انه توصيف للسياق، وليس محاكمة له على ضوء امكانياته ومستواه في سياقه المحلي على الاقل. ومع هذا فقد قلل الحازمي من قيمة الاعمال الروائية التي صدرت في الفترة الواقعة بين صدور التوأمان سنة ١٣٤٩ه ١٩٣٠م و (ثمن التضحية) للدمنهوري سنة ١٩٥٩م، وان اومأ بشئ من التحفظ إلى عملين صدرا في عام ١٩٤٨م هما: (البعث) و (فكرة) واكاد اجزم بأن البعث لم تعط بعض ما تستحق من الدراسة المعمقة، وان كانت ذات نمطية في المواقف وصفة المكان وظواهر الطبيعة وكذلك في المفاجآت.

بعد هذه الاعمال الرائدة، توقف الانصاري عن الابداع القصصي والروائي والشعري، ولحقه المغربي فيما اعلم، فيما استمر السباعي يبدع ويكتب، غير انه لم يطور آلياته بالقدر المتوقع.

والسباعي يمتلك جرأة المغامرة والتجريب والتنويع، ولكن كفاءته الابداعية ظلت في نمو بطيء، ولم يتخلص من سماته المتجلية في روايته الاولى، واعماله اللاحقة تعبير عن رؤيته الذاتية، فهي اشبه بالسيرة الفنية، ان لم تكن كتبت لتكون سيرة ذاتية، ومن هذه الاعمال:

ابو زامل: قصة الجيل الماضي طبعت بدار مصر للطباعة عام ١٣٧٤ه، واعيد نشرها تحت عنوان (ايامي). وقد درسها الاستاذ عبد الله الحيدري في رسالته الاكاديمية (السيرة الذاتية).

خالتي كدرجان، وقصص اخرى طبع: دار قريش.

صحيفة السوابق: طبع دار مصر للطباعة.

مطوفون وحجاج: طبع دار الكتاب العربي ١٣٧٣هـ.

وتلك اعمال ابداعية اتسمت بالجرأة والمغامرة، ولم تحظ بدراسة شاملة تكشف عن خصائص تلك المرحلة من خلال اعمال رائد مكثر، قياساً إلى لداته، والدراسات المسحية الشاملة، جاءت متسطحة وابتسارية، وان ظفرت بالريادة.

لقد رصد د. الديب مراحل الرواية السعودية الثلاث. وجاء تحقيبه زمنياً، كما فعل من قبله الدكتور بكري الشيخ امين. ووصف المرحلة الاولى بأنها اطول المراحل، حيث تمتد من عام ١٩٣٠م حتى عام ١٩٥٩م، وهي السنة التي ظهرت فيها روايات اخرى بعد (التوأمان). وقد اشرت من قبل الي معوقات الاعمال القصصية والروائية.

اما المرحلة الثانية. فقد بدت فيها المتغيرات الكمية والكيفية وتنوع المضامين والاتجاهات، وتعد هذه المرحلة البداية الحقيقية للفن الروائي في المملكة، وقد اطلقت عليها (مرحلة التأسيس)، وكاد الدارسون والمؤرخون يجمعون على ذلك، وكان رائدهم جميعاً في هذا الرأي الناقد منصور الحازمي الذي كانت دراسته الاكاديمية للروائي (ابي حديد) مؤذنة بالارهاص لنقد روائي محلي لم يشد الانتباه، ومن ثم تعثر في تشكيل نقد سردي مضارع لحركة النقد الشعري مثلما تعثرت الريادة الروائية، ولم تعقبها اعمال

مباشرة الا في عام ١٩٥٩م حين صدرت رواية (ثمن التضحية) للروائي السعودي حامد دمنهوري رحمه الله.

واذا كان الدكتور الديب قد قسم الحركة الروائية إلى ثلاث مرحل زمنية، فان الدكتور منصور الحازمي من قبله قسمها إلى اربعة انواع دلالية (١٠) وجاء من بينهما الشنطي معتمداً على المستويات الفنية والمتغير الدلالي، ودراسته للرواية السعودية من الناحية التاريخية والموضوعية والفنية هي الاشمل والاعمق من بين الثلاثة، أو الاربعة، اذا ادخلنا الدراسة التاريخية للشيخ امين معهم. والتحقيب الزمني الثلاثي الذي اخذ به الديب يبدأ من عام ١٩٣٠م فيما تأتي المرحلة الثانية عنده وعند غيره في عام ١٩٥٩م، والثالثة تبدأ من عام ١٩٨٠م وهي بداية لم تقترن بحدث كالمرحلتين الاولي والثانية وقد اطلقت عليها (مرحلة الانطلاق).

اما التحقيب الموضوعي الرباعي الذي ركن اليه الحازمي فيذهب به إلى استهلال الرواية بالتعليم والاصلاح، ثم الرواية التاريخية، فرواية المغامرات، واخيراً الرواية الفنية. ولا اتوقع دقة هذا التحقيب، وان كان تناوله التفصيلي لكل نوع ينم عن استيعاب تام للبعدين الفني والموضوعي للاعمال الروائية، ودراسة الحازمي نشرت في مواقع كثيرة، وألقيت في مناسبات عدة، ولم يكن لها اضافة حول ماجد من متغيرات، واذ يكون الحازمي الرائد الفعلي للنقد الروائي المنهجي التخصصي، فاننا ننحي باللائمة على اشتغاله بما هو دون ذلك، حيث لم ينشئ عملاً متكافئاً في النقد الروائي يصحح المفاهيم، ويمهد الطريق وينبه النقاد الانطباعيين الذين يجهلون شروط الفن السردي ولا يفرقون بين مفرداته، ولقد فصلت القول في الدراسة النقدية عن الحازمي واشرت إلى جوانب التقصير عنده. واذا كنت قد شغلت برصد تلك الحركة الابداعية فان النظر الي الحركة النقدية بوصفها صنو الحركة الابداعية من مكملات الدراسة، وقد اومأت إلى ذلك عند دراسة الحركة النقدية في المملكة.

كما اشرت باقتضاب الي الخلط بين فنون القول السردي، ان في الابداع أو في النقد بشقيه: التاريخي والتحليلي ابان ظهور الحركة النقدية للقصة والرواية، ولم تكن حركة النقد مواكبة لحركة الابداع كما لم تكن الحركتان مواكبتين لحركة الرواية والنقد في الوطن العربي، والحازمي بوصفه المؤسس للنقد الروائي لم يفرغ لهذه المهمة بل شغل بأمور كثيرة صرفته عن سد الفراغ في هذا المجال. ويبدو لي ان الدكتور محمد الشنطي وهو استاذ اكاديمي اردني مقيم في المملكة من اكثر الدارسين موضوعية، ومن اقربهم الي مباشرة الاعمال وتناولها بمنهج مدرسي، يحرص من خلاله على تقريب المعلومة وتحرير المسألة، ولعله فيما أنتج من دراسات تاريخية وموضوعية وفنية ونقدية كان ينظر إلى التوصيل التعليمي، فهو يكتب لقاعة الدرس، دون ان يستحضر إلى المشهد المتخصص، لم يأتيا بعد أو قل: لم ينهضا بعد في المملكة، فسلطان الشعر لم يتح فرصة لظهور نقاد متمكنين للرواية والقصة، ولاشك ان هذا من اشكاليات العمل الروائي في الادب العربي في المملكة، واكاد اقول ان هذه الاشكالية قائمة في الوطن العربي، وان قيل ما قيل عن ذلك الزمن: بانه (زمن الرواية). والحق انه يجب ان يكون زمن الرواية وبالذات عند الدارسين والنقاد. لقد حظيت الاعمال الروائية والقصصية ومبدعوها في الوطن العربي بدراسات تطوعية واكاديمية، وان كنا لا ننكر تقحم عدد كبير من الذواقين للمذاهب الطارئة دون قدرة مطلوبة، وبخاصة من بعض النقاد المغاربة الذين اجتاحهم العشق لمذاهب النقد الجديد فحملهم على الابتسار والتعسف وتحميل النصوص مالا تحتمل من الدلالات والمقاصد فكان التأويل الخاطئ.

لقد كنت حريصاً في هذا المدخل على المراوحة بين التاريخ والوصف والتحليل واستثمار جهود النقاد الذين قرؤوا هذه المراحل بعيون مختلفة، والتقطوها من زوايا متعددة، اذ لكل قراءة امكانياتها ودوافعها، ولهذا ففي الكل خير، وهي في النهاية تشكل عملاً تكاملياً، بحيث لا يغني بعضها عن بعض، ولكنني اعود لأ قرر ان قراءة ناقد معايش مهما كانت متخففة اجدى من قراءة طارئة، وكان بودي لو أن احداً من كتابنا ونقادنا المتمكنين فرغ لقراءة شاملة عميقة لهذا الابداع، من امثال الاستاذ الدكتور الحازمي، والاستاذ الدكتور محمد الشامخ، والدكتور سلطان القحطاني، هذا فضلاً عن الجيل الجديد من الاكاديميين الذين تبشر بوادرهم بخير. نجد ذلك عند الحيدري وحسن الحازمي، وفي اعمال مخطوطة لم تر النور بعد من دارسين ودارسات، ومع هذا فان الدارسين الاكاديميين اتخموا الشعر نقداً ودراسة، ومازلنا نمس الاعمال الروائية والروائيين مساً خفيفاً. وحين اعود ادراجي لاستكمال الحديث عن البدايات الابداعية اود الاشارة إلى ان البداية القصصية والروائية المتواضعة والمتعثرة في آن، امتدت من عام ١٩٣٠ حتى عام ١٩٥٩م، وقد تخلل تلك الفترة اعمال روائية وقصصية ودراسات تنظيرية وتطبيقية وتاريخية، تتراوح بين الاشادة والمؤاخذة والتخذيل، وقد تصل المؤاخذة الي حد السخرية المرة والتحامل الجائر، ولك ان تقرأ نقد محمد حسن عواد للانصاري رحمهما الله لتستبين الممارسات المتدنية، والتي تزيد في تدنيها عما كتبه الرافعي عن العقاد في السفود، ومن عجب انك حين تلوم على هذا الاسفاف توصف بالتحامل على الرواد، وكأن من مقتضى الريادة التقديس والتجاوز.

على ان الساحة لم تخل من تناولات جيدة، لعل من ابرزها ما كتبه محمد سعيد العامودي عن الادب القصصي في الحجاز في مجلة (المنهل) عام ١٣٥٦ه، وما كتبه محمد عالم الافغاني عن (الرواية الادبية وحاجتنا اليها) عام ١٣٦٠ه، وما كتبه الافغاني ايضاً عن نفسه الافغاني ينتقد قصتيه عام ١٣٧٥هـ.

وما كتبه محمد ابراهيم جدع عن قصة الافندي: عرض وتحليل في المنهل عام ١٣٨١ه والحوار الذي دار بين الافغاني، واحمد عبد الغفور عطار حول الزنابق الحمر وما كتبه عباس فائق غزاوي في المنهل عن القصة في ادبنا عام ١٣٦٩ه. وما كتبه محمد امين يحيى عن تطور ادب القصة عندنا في المنهل عام ١٣٧٤ه. وكل هذه الكتابات داخلة في العمل النقدي الريادي الذي يسبق مرحلتي: التأسيس والانطلاق، وهي بدايات نقدية تؤخذ في سياقها بحيث تمنح حق الريادة، ولا يمتد ذلك إلى شيء آخر. وقد اومأنا إلى ما غفلت عنه الدراسات التاريخية من اعمال قصصية وروائية. ومجمل الطرح الابداعي والنقدي لا يعدان من البدايات الناضجة. ولا يمكن ان تقارن ببدايات القصة والرواية في مصر مثلاً، فضلا عن ان نقارن كتاب الدراسات في المملكة بنظرائهم في الوطن العربي، وقد أبنّا عن المعوقات في الحجاز، حيث تمثل نظرة عرفية، وفي نجد حيث تمثل نظرة دينية تقليدية، في سائر المناطق في المملكة بحيث تمثل هذا أو ذاك أو هما معاً، وقد تمثل فيما تمثل نظرة تقليدية.

لقد اجتهدنا في ايجاز متعلقات المرحلة الاولى دونما تعمق أو شمول، واتخذنا في ذلك سبيل الرصد والوصف للبدايات التي امتدت زهاء ثلاثين عاماً، وأبنَّا عن المستويين الابداعي والتنظيري وابرز المبدعين والمنظرين والنقاد، واجتهدنا في اعطاء تلك المرحلة مالها وما عليها بحيادية تامة، وقد ابديت استيائي من بعض التوجهات النقدية سواء منها ما اتسم بالتجريح الشخصي أو بالتثبيط والتخذيل، وألمحتُ إلى التقصير في مساءلة بعض النقاد عن خروجهم على اخلاقيات النقد، مثلما فعل العواد في نقده للانصاري، وتمنيت ان نخفف من تقديس الماضي والتغاضي عن هفوات الرواد، وقد

لقيت في سبيل ذلك نصباً، فالنمطيون ومثقفو السماع والذين يقرؤون عن الاشياء ولا يقرؤونها يزعجهم استقلال الرأي والاستبداد، والحق ان العاجز من لا يستبد، وما أتمناه على المشهد الثقافي ان يُعْرَف المخذولون بسيماهم، وان يبتدر الاشياء كما هي دون ان يضاف اليها أو يُنقَص منها، والرأي المستقل يضيف ولا يلزم الآخرين.

مدخل لدراسة الإبداع القصصي والروائي والمسرحي في المملكة .. !

(٤) (١)

لقد كانت الحال فيما سبق متواضعة في مجال الإبداع النقدي، ولم يكن التواصل مع المشهد الأدبي العربي عامة والمصري بالذات قادراً على إحداث تغيير جذري في مجال السرد القصصي بقدر ما أحدثه في مجال الشعر، وما إن استهلت المرحلة الثانية عام ١٩٥٩م حتى جاءت الأمور مغايرة كل المغايرة، هذا التأريخ لايتردد المطلعون على مستوى السرديات في جعله بداية مهمة للتاريخ الأدبي للرواية والقصة معا، بل للحركة الأدبية عامة، ذلك أن البلاد اطمأنت لثبات الاستقرار والرخاء واستثمرت ذلك كأحسن ما يكون الاستثمار وبدأت الحركة العلمية تؤتي ثمارها حيث اتسع التواصل وتعددت قنواته، وفيما يخص الرصد والوصف للحركة الروائية والقصصية، فقد صدرت رواية «ثمن التضحية» للروائي حامد دمنهوري. وكان صدورها بمثابة التأسيس بعد الريادة، والمسافة الفنية بين الريادة والتأسيس غير متوقعة إذ لم تكن الرواية ممثلة لنمو طبيعي، ومن ثم جاءت قفزة بعيدة وكان مجيئها مؤذنا بتلاحق أعمال جيدة لمبدعين على جانب من الوعي والثقافة والموهبة والتجارب، ومرد ذلك ما أفاء الله به على البلاد من استقرار وثراء استتبع التوسع الملحوظ في التعليم، كما أدى إلى تواصل وثيق مع الأقطار العربية عبر الاستقدام والابتعاث. وحين مكّن الله للملك عبد العزيز، جعل ذروة مشروعة التكويني اعلان اسم «المملكة العربية السعودية» عام ١٣٥١ه، ثم البدء بمرحلة البناء مع ما هناك من معوقات اقتصادية وعلمية واجتماعية، تم مشروع الملك التعليمي والتثقيفي عبر قنوات متعددة، تمثلت باستقدام المعلمين وابتعاث الطلبة للدراسة في مصر، وتأسيس المكتبات العامة والخاصة وجلب الكتب، وتعميم المطابع، وتعدد دور النشر، والانفتاح على الآخر، ووضع العمل الصحفي بيد الأدباء المتمرسين من بلاد الشام، ممن فروا من ديارهم، وجاوروا في الديار المقدسة، بدافع سياسي أو ديني، وإذا كان نصارى الشام الذين هاجروا إلى الأمريكتين أنشؤوا الأدب المهجري فإن مسلمي الشام الذين فروا إلى الحجاز أنشؤوا الصحافة بكل طوابعها العلمية والأدبية وأبدعوا الشعر وساعدوا على انطلاقة أدبية، وساعد ذلك إحساس الدولة ومؤسساتها المعنية بضرورة اللحاق بركب الثقافة والأدب في الوطن العربي الذي سبق الحركة الأدبية في البلاد بمسافات طويلة، والراصدون للتاريخ الأدبي في البلاد يدركون حجم هذا التحرف، ويثمنون نتائجه. وإذ يهمنا تعقب المنجز الروائي والقصصي وما يلحق بهما من فن السيرة الذاتية وأدب الرحلات في تلك الفترة، فلابد أن نشير إلى قوة البداية في تلك المرحلة التالية للريادة المتواضعة، وإلى كثرة الأداء ونضوجه، وإقبال العامة، وقبولهم للفن السردي، ومستلزماته وتنوعاته، ومما لاشك فيه، أن هناك مسافة فنية وكمية بين البداية الرائدة المتواضعة وتلك المرحلة المتميزة التي لايمكن أن توصف بالتطور الطبيعي، إذ تمثل قفزة نوعية وكمية ظاهرة الجودة والاتقان، لما أشرنا إليه من أسباب، مع إصرار الأدباء على تعميق التواصل مع أدباء الأقطار العربية، ومبدعيها وهذا بلاشك اختصر الجهد والزمن معاً، وأتاح فرصة للمراجعة واستكمال متطلبات المرحلة.

والدارسون والمؤرخون للفن الروائي والقصصي في المملكة يجمعون أو يكادون يجمعون على أن تلك المرحلة تمثل نقلة نوعية كبيرة، تجاوزت الهواية إلى الموهبة،

---

(١) تاريخ المقال: ١٧/ ٤/ ٢٠٠١

والتسلية إلى الجد، وواحدية المضمون إلى تعدد القضايا ولذلك «تنوعت المضامين وتعددت الأساليب» (١١).

«وثمن التضحية» للروائي حامد دمنهوري تحتل مركز الريادة الواعية، والنضج الفني المتميز، ويجب هنا أن نفرق بين الريادة الزمانية والريادة الفنية، والريادة في الرواية والريادة القصصية، فالأنصاري رائد في السبق الزمني ولكن الفن الروائي المستكمل لمتطلبات العمل الروائي لم يكن إلا على يد حامد دمنهوري، ولم تكن تلك الرواية الرائدة فنياً وحدها في الساحة، كما كانت رواية «التوأمان» في البداية بوصفها رائدة زمانية. بل تتابعت الأعمال الروائية الجيدة مما مكن لهذا النوع الأدبي من اللحاق بركب الأعمال الجيدة، في الوطن العربي، وهو لحاق اختصر الزمن، وكشف عن امكانيات وأجواء ملائمة لنضوج العمل الروائي. ومما يؤخذ على هذه المرحلة ضعف اللغة وشيوعها وعدم انزياحها، والإبداع تعتمد قيمته على لغة نقية منزاعة في الدرجة الأولى، الضعف الذي نشير إليه ليس خاصا بالمبدع السعودي وحده، فالروائي العربي في الأعم لاينتقي لغته كالشاعر، ولايحاول صياغتها ببراعة، إذ همه منصب على استكمال الموضوع، وتوفير الحركة الداخلية، واستكمال صور الشخصيات، والمحافظة على مستواها الاجتماعي والفكري. بحيث لاتتناقص في مستوياتها، ولسهولة الشرط السردي تقحم هذه المهايع من لايحسن الإبداع، ومن لايحمل موهبة ولايجيد صياغة وصدرت أعمال قصصية وروائية ليس لها من هذا الفن أدنى نصيب. وفي تلك المرحلة شاركت المرأة في الإبداع القصصي والروائي، حيث ظهر أكثر من ثماني روايات لسميرة محمد خاشقجي وحدها لعل من أهمها:

«ودّعت آمالي» و«ذكريات دامعة» و«بريق عينيك» و«وادي الدموع» و«وراء الضباب». كما ظهر للروائية هدى عبد المحسن الرشيد «غداً سيكون الخميس» طبعت ١٩٧٦م، ولهند صالح باغفار «البراءة المفقودة». ومن القاصات، وهن كثر، نجوى هاشم، ولها «السفر في ليل الأحزان». ونجاة خياط، ولها «مخاض الصمت». وأمل عبد الحميد، ولها «من عمر الزمن». وعائشة زاهر، ولها «بسمة من بحيرات الدموع». وأمل شطا، ولها «غدا أنسى». وشريفة الشملان، ولها «مقاطع من حياة». وفاطمة الحناوي، ولها «أعماق بلا بحار». وفوزية الجار الله، ولها «في البدء كان الرحيل». وقماشة السيف، ولها «محادثة برمة»، «شمال شرق الوطن»، وقماشة عبد الرحمن العليان، ولها «خطأ في حياتي»، ونجوى مومنة، ولها «أخيراً ضاعت مجاديفي». ولطيفة السالم، ولها «الزحف الأبيض»، ورقية الشبيب، ولها «الحزن الرمادي» و«حلم». وخيرية السقاف، وأميمة الخميس، ولها «الضلع حين استوى» ولا أحسبه يستوي وقد خلقت منه كما أخبر الذي لاينطق عن الهوى. وبهية بوسبيت، ولها «وتشاء الأقدار» وأعمال قصصية أخرى. ومريم الغامدي، ولها «أحبك ولكن» وزهرة المعبي، ولها «التجديف في عيون حالمة». وغير أولائي كثير. ويبدو التفاوت الواضح بين تلك الأعمال الروائية لا من حيث اللغة، ولا من حيث البناء الفني فحسب، وإنما من حيث الموهبة والتجربة والوعي، وبعض تلك الأعمال النسائية تمثل مغامرة غير واعية، إذ لاتتوفر على أدنى حد من الفنيات المطلوبة، وبعض أولئك الروائيات حققن تطوراً ملموساً في اللغة والبناء والموضوع، والبعض الآخر ظل كما هو ينشئ كلاماً ليس له من الفن شيء، وأعمالهن بحاجة إلى أقلام ناقدة تضع أعينهن على مواطن الضعف ومظان التقصير، دون مجاملة أو تحامل وغياب النقد أو مداهنته تغرير وإساءة، وللمرأة رؤية وتصور تختلف عن رؤية الرجل، وتطلعات المرأة تنطلق من الرجل وتعود إليه، وقد يستهلك المرأة تصور فارس الأحلام وتخيل

الأبناء ورسم العش الزوجي بعيداً عن مشاكله، وقد تكون المرأة غاضبة رافضة لفوقية الرجل وما أعطاه الله من درجة لم يحسن استغلالها.

وعلى شكل كبير انثالت الأعمال الروائية لعدد من الروائيين البارزين، من أمثال ابراهيم الناصر، ومحمد زارع عقيل، ومحمد عبده يماني، وخليل الفزيع، ولن نعرض للأعمال الإبداعية للمهاجرين الذين لاتربطهم صلة ثقافية في البلاد من أمثال عبد الرحمن منيف، ولا للأعمال المتنازع عليها بين الأقطار العربية، وبالذات منطقة الخليج من أمثال خالد الفرج، مالم يكن التنازع في غير محله كما هو حال غازي القصيبي(١٢). وقبل تقصي منجز مرحلة التأسيس نعود إلى رائد هذه المرحلة لننظر إلى أي حد كانت إضافته. وريادة الدمنهوري لهذه المرحلة لاينازعه فيها أحد. والدارسون يجمعون على ريادته لتلك المرحلة. لقد أصدر عملين روائيين وحسب. هما «ثمن التضحية» ١٩٥٩م و «مرت الأيام» ١٩٦٣م. درس الدمنهوري الأداب في مصر، وقويت صلته الفنية بكبار الروائيين المصريين، وتأثر بهم، وأستلهم بعض فنياتهم، ولأنه روائي بالموهبة، ومتقن للفن الروائي بالدراسة، فقد بدت استقلاليته. وروايته «ثمن التضحية» هي البداية الحقيقية للأعمال المعتبرة بمقاييس النقد الروائي.

ولا استبعد أن تكون تلك الرواية (سيرة فنية) على غرار «شقة الحرية» للقصيبي التي صدرت مؤخرا، فالبطل أحمد عبد الرحمن يذهب إلى مصر للدراسة. وفواد بطل «شقة الحرية» هو الآخر يذهب إلى مصر للدراسة. ذاك من مكة، وهذا من البحرين، ركز الدمنهوري على التضحية، وجعل التمسك بابنة العم «فاطمة» والعدول عن «فايزة» نوعاً من التضحية، والرمز باد بوضوح في أشواط الرواية. عالج الدمنهوري قضايا اجتماعية وتعليمية، في حين ركز القصيبي على المتغيرات السياسية، وتياراتها المختلفة. وقف الدمنهوري رؤيته على البيئة الحجازية، بينما اتسعت رؤية القصيبي للبيئة العربية. ذاك في الاجتماع، والتعليم، والمتغير الاجتماعي، وهذا في المتغير السياسي.

والدمنهوري الذي يجمع بين مبتعثين هما: (عصام، وابراهيم) يقوم بينهما جدل حول الحب والزواج، نرى القصيبي هو الآخر يجمع في «شقة الحرية» عدداً من المبتعثين البحرينيين المتجادلين في شؤون السياسة، وهم (ماجد الزبير وأحمد الخطيب وبراك النافي).

والدمنهوري يعالج القضايا بهدوء، والقصيبي يواجه الأخطاء بعنف. الدمنهوري روائي بالموهبة، والقصيبي روائي بالاقتدار. والاثنان يمثلان بعملهما نوعاً من الصراع الاجتماعي والسياسي. على غرار الصراع الحضاري الذي يدعي النقاد المواطنون على الخطيئة ان الطيب صالح يمثله في (موسم الهجرة إلى الشمال)، وإن كنت لا أراه صراعاً حضارياً بقدر ما أراه سقوطاً أخلاقياً، أقيلت عثرته بهذا الادعاء العريض، وعلى غرار الصراع عند يحيى حقي في (قنديل أم هاشم) والحكيم في (عصفور من الشرق) مع الفارق الكبير بين صراع حضاري مكتمل السمات، وصراع حضاري من طرف واحد، أو داخل مجتمع عربي واحد، كما هو عند الدمنهوري والقصيبي.

لقد أنشأ الدمنهوري جدلاً خفياً بين البيئة المصرية، والحجازية، وحبذ اللحاق بركب الحضارة، بينما ذهب القصيبي لإنشاء جدل واضح كل الوضوح بين التيارات السياسية في مصر ودول الخليج العربي. ولعل المتغير الاجتماعي جذب الدمنهوري، في حين جذب القصيبي المتغير السياسي. وكلا العملين رصد واضح لاصداء مرحلة كل منهما.

ويمتاز الدمنهوري بموهبته القصصية، واتقانه للمقاييس الفنية للعمل الروائي، وهو ما لم يتوفر بالحجم نفسه عند القصيبي. والوعي الحضاري، والسياسي، والفكري عند القصيبي أميز منه عند الدمنهوري.

والدمنهوري الذي عاش الحياة المصرية، وشهد موقع المرأة فيها، وأحس أن التعليم المحدود للمرأة في الحجاز تساوره الرغبة في أن يكون للفتاة في الحجاز بعض مالها في مصر، ولا أستبعد ان تكون (فاطمة، وفائزة) رمزين لتنازع العادات والتقاليد والتأثر والتأثير بين حياتين اجتماعيتين، فهناك حب ل «فاطمة» رمز الوطن. وهناك إعجاب ب «فائزة» رمز التقدم العلمي والاجتماعي، وهناك صراع بين العقل والقلب. وهناك عودة إلى الحب والعقل، وتقدير للاعجاب والقلب، والصراع في الرواية على هذه الشاكلة يكون ساذجاً وتقليدياً، إن لم يتسع لهذه الاحتمالات. أسلوب الروائي شيق وسلس، وفيه تعميق لكل المواقف، وشد انتباه للقارئ. وقصر الهدف على الدعوة للزواج من بنات الوطن تقليص لأهداف الرواية البعيدة، لو أخذنا بظواهر اللفظ.

وفي هذا السياق الموضوعي الاجتماعي عالج الكاتب أوضاعاً عامة، كتعليم الفتاة، واقتصاره على الكتاتيب، ومن ثم فإن الرواية تلح على ضرورة تعليم الفتاة، لأنها النصف الآخر، كما تمتد إلى جوانب أخرى من حياة أبناء المملكة في أهم مناطقها، وهي المنطقة الغربية، فتعالج أوضاع التجارة والثقافة والحياة الأسرية وصراع الأجيال والغربة، والرواية بهذا التخطي والفضائية الدلالية جذبت الدارسين، وإن كان لروايات الريادة بعض الاهتمام، إلا أنه لم يكن بمستوى اللاحق، كما ان روايات الريادة لم تكن بمستوى رواية التأسيس، وقد يكون لتلك الرواية بعض ما لروايات الانطلاق لتوفرها على بعد دلالي وفني ولغوي لم يكن لكثير من الأعمال السابقة.

لقد درس الدكتور منصور الحازمي، والدكتور منصور الخريجي رواية «ثمن التضحية» ونشرت الدراستان في مجلة جامعة الملك سعود العدد الثالث عام ١٣٧٩هـ، ومن بعدهما جاءت دراسات موسعة من الدكتور محمد صالح الشنطي والدكتور السيد محمد ديب (١٣)، وقد آخذ (الحازمي) الروائي ببعض ما آخذ به بعض الروائيين، كما ألمح (الديب) إلى بعض الهنات، ولكنه دفع بعض مآخذ الحازمي.

والرواية في المملكة لم تحظ بدراسات معمقة، ولم تمتد إليها أيدي المتخصصين بالقدر الكافي. ولن نجهل مبادرات أكاديمية ذات طابع منهجي وآلية متميزة من مثل دراسة حسن الحازمي عن البطل في الرواية السعودية، ودراسة منصور الحازمي بوصفه متخصصاً بالنقد السردي ليست كافية (١٤)، وإن جاءت في ثلاث عشرة صفحة.

ولست أعرف وجهاً للموازنة بين «زينب» لهيكل و«ثمن التضحية» للدمنهوري. ولعل الجامع بينهما اعتزاز الحازمي بالعملين على اعتبار ريادتهما، ذلك في مصر، وهذا في السعودية، وهذا الرابط غير كاف لكتابة موازنة ليست عميقة. والرواية تنطوي على فنيات ودلالات بحاجة إلى دارسين لابرازها، ولو فرغ لها ناقد بمستوى الدكتور الحازمي لوفاها حقها، ولكنه ألم بها على عجل وتحت وابل من الضغوط والمسؤوليات والخيارات.

مدخل لدراسة الإبداع القصصي والروائي والمسرحي في المملكة .. !
(٥)[(١)]

وبقدر ما أجد في رواية «ثمن التضحية» من جاذبية دلالية وأسلوبية، لا أجد مثله عند كثير من روائيي مرحلة التأسيس، وبخاصة فيما يتعلق بلغة النص، وهي إشكالية الإبداع السردي، وقد لا نجد تقاربا في البعد الموضوعي. أما البعد الفني فالمبدعون من الروائيين والقصاص يتزودون منه على قدر مواهبهم، والمغايرة الموضوعية الخارجة على الأنساق نراها في كل روايات سميرة الخاشقجي التي عرفت فنيا باسم «سميرة بنت الجزيرة»، وسميرة التي درست في مصر كما درس الدمنهوري وعاشت حياة باذخة لم يعشها الدمنهوري، لا تعبر بالضرورة عن هموم «بنت الجزيرة» وهو الاسم المستعار الذي تقنعت به الروائية، مثلما تقنعت عائشة عبد الرحمن الأديبة المصرية برمز «بنت الشاطئ»، ولا يجوز لأحد أن يتوقع ذلك من مثلها في تحررها واندفاعها ولا أن يستدل بما تكتب على ملامح الحياة الاجتماعية في بلد محافظ، لا يتخلق بشيء مما ساقته الروائية، وإن كان الروائيون أو بعضهم على الأقل كالشعراء يقولون ما لا يفعلون.

وهي إذ لا تقترب دلاليا من كتاب جيلها، لا تقترب فنيا ولا دلاليا من كتاب الجيل الأول: الأنصاري، والمغربي، والسباعي، الذين عبروا عن طموحاتهم وتطلعاتهم، ورصدوا بعض ما يجول في خواطر ناشئة البلاد، وهي أيضا لا تلتقي مع جيلها من الروائيين والقصاص في معالجة القضايا الاجتماعية، وللمتابع أن يقرأ لعبد الله بوقس «خدعتني بحبها»، أو لعصام خوقير «الدوامة»، أو لخيرية السقاف «أن تبحر نحو الأبعاد»، أو لطاهر عوض سلام بعض أعماله، أو للسباعي أحمد عثمان، أو لمحمد زارع عقيل، أو لغير أولئك، ليرى كم هو الفرق بين بعدها الموضوعي وأبعادهم، وهو بلا شك واجد مسافة بعيدة تكاد تفصلها عن كل سياقاتها ومثل هذا الانقطاع يقع فيه روائيون من أقطار عربية أخرى، وعلى سبيل المثال لا نجد الطيب صالح في «موسم الهجرة إلى الشمال»، ولا نجد محمد شكري في «الخبز الحافي»، ولا تركي الحمد في ثلاثيته يمثلون مجتمعهم، بل أكاد أقطع بأن نجيب محفوظ الذي يوصف بالواقعية لم يكن يمثل المجتمع المصري، والروائية بما أعطته لنفسها من حرية، لم تبلغ ما بلغه أولئك من إسفاف لا يليق، ولكنها مع هذا لا تمثل الحياة التي مثلها الأنصاري والمغربي من جيل الرواد، أو محمد زارع عقيل ومحمد عبده يماني وهند باغفار من جيل التأسيس. ومن ثم فإن رواياتها الثماني التي طبعت كلها خارج البلاد وعلى مدى عشر سنوات من ١٩٦٣م حتى عام ١٩٧٣م نسيج واحد لا تربطه بالحياة العامة أدنى رابطة، وكل رواياتها تدور حول الحب غير العفوي، وغير البريء، وهو حب لا يتهتك، وليس هو على شاكلةما يكتبه بعض الروائيين العرب ممن يمثلون عراقة الفن وجرأة في التهتك وأدب الاعتراف، ولكنه في الوقت ذاته حب عنيف، لا يحتشم، ولا يعبر عن أوضاع بلادها، وكل الذي تؤديه تلك الروايات أنها ترصد هواجسها وتحاكي مقروءها، ثم إن مآلات هذا الحب مليئة بالمآسي، والأحزان والعذابات، وأبطال الروايات وبطلاتها ليسوا من عامة الناس والعادات والتقاليد السائدة لا تتسع لأحلام الكاتبة، ويبدو لي أنها تخلق الأحداث ولا تسجلها، ومن ثم فهي تفكر بقلمها، وتسجل هذا التفكير، ولنأخذ واحدة من بطلات رواياتها، ولتكن «شروق» بطلة رواية «بريق عينيك» هذه الفتاة تعمل مضيفة طائرة، تتشابك علاقاتها وتختلط أمورها وتتداخل أحداثها دون مراعاة للأعراف أو العادات أو التقاليد فللكوارث

---

(١) تاريخ المقال: ٢٤/ ٤/ ٢٠٠١

والمفاجآت والأحداث الرهيبة تعترض أزواجها ومحبيها وفي الأخير تصاب بالجنون وتحاول الانتحار ولكنها تقرر البقاء على قيد الحياة بكل مرارتها لتربية ولدها الوحيد، والرواية لا تعالج أي قضية وإنما هي سيل من المغامرات والمصائب، لمجرد توتير الأعصاب، وشد الانتباه ثم لا شيء بعد ذلك. وكل رواياتها مأساوية ظلامية، نجد ذلك في «وتمضي الأيام» و «ودعت آمالي» و «وراء الضباب» و «ذكريات دامعة» و«قطرات من الدموع» و «مأتم الورد». وعندما تنزلق أو تكاد تقف تاركة فراغاً للقارئ ليكمل الحدث، وفق حالته النفسية ورؤيته للحياة، وهي بهذا لا تقع فيما وقع فيه المتأخرون من أدب الاعتراف الذي بلغ دركه عند بعض المتهتكين، كما أنها بهذه الرومانسية العنيفة والإمعان في استدرار عواطف القراء لا تندرج في أنساق الحياة القائمة وهي حين تتخذ سبيل المنفلوطي في عنف الاستدرار وتملقه لا تنطوي على مقاصده النبيلة.

وإذ تكون قضاياها مثيرة للرأي السائد فقد تقنعت تحت اسم فني وأدارت أحداثها في أمكنة سياحية خارج أرضها، وكأنها إذ رضيت الخروج على الأنساق الثقافية والاجتماعية خرجت عن جغرافيتها، وباستقراء أبعادها الفنية، نجد أن لغتها جيدة وفنياتها عالية وحواراتها موزونة وسردها جميل وعاميتها نادرة، وكل رواياتها رومانسية تبدأ بالحب وتعود إليه وهي تلح على دغدغة العواطف وإثارتها وخلق أجواء من الخلوة تثير الانفعال ومجمل أعمالها متشابهة إلى حد الاندماج. أبدعت أولى رواياتها في سن العشرين، وتجرعت مرارة الطلاق، وتوفيت دون الخمسين من عمرها، وأنجبت «دودي الفايد» الذي مات مع عشيقته «ديانا» في حدث مثير. ولا أحسب الغربة هي العامل الوحيد في انقطاعها ولو كانت كذلك لكان تأثيره مماثلاً في عمل المذيعة المهاجرة «هدى عبد المحسن الرشيد» «غداً سيكون الخميس».

كما أن هناك قاصات وروائيات أخريات ضربن في فجاج الأرض من أزواجهن، وكتبن أعمالا أقرب إلى الواقعية الاجتماعية وأبعد عن الرومانسية.

وتأتي في سياقها الانقطاعي الروائية «رجا عالم» في مجموعة أعمالها «نهر الحيوان» و «طريق الحرير» و «مسرى يا رقيب» و «سيدي وحدانة » و «٤ صفر» وتمثل في مجمل رواياتها نزوعا حداثيا متطرفا في الشكل والفن واللغة والأسطورة والانقطاع وحتى في لعبة السواد والبياض في الكتابة، وقد درس رواية"طريق الحرير» الناقد معجب العدواني من خلال «التناصية» في رسالة أكاديمية تقدم بها لجامعة البحرين. ولإغراقها الأسطوري وإمعانها في الخروج المتعمد على كل ضوابط الفن، فهي تمثل انقطاعاً مضاعفاً وتأتي كما سميرة الخاشقجي نشزاً في سياق العمل الروائي المحلي.

وإذ تناقض سميرة خاشقجي روائيي مرحلة التأسيس فنياً ودلالياً وتبدو رواياتها نشزاً في سياق العمل الروائي في المملكة، يبدو التناظر والتساوق والتنميط بين الروائيين الآخرين، من أمثال حامد دمنهوري بوصفه رائد التأسيس ومحمد عبده يماني وإبراهيم الناصر وعبد الله سعيد جمعان، وصفية أحمد بغدادي، وعبد الله جفري، وعمر طاهر زيلع، وفؤاد صادق مفتي، وحمزة بوقري، وغالب حمزة أبو الفرج.

مع تفاوت واضح في المستويات الفنية وبخاصة عن غالب أبو الفرج الذي تخلى عن الشرط الفني أو كاد، ولست أدري هل هو تخلي العاجز أو المتطاول؟

وأبو الفرج لم يكن وحده الذي تخلى عن الشرط الفني ولكن تخليه يمثل انقطاعا تاما بحيث لا تكون أعماله التي اطلق عليها روايات تحمل أدنى حد من السمة الروائية ولكم أن تقرؤوا له «وجوه بلا مكياج» و «قلوب ملت الترحال» وهما روايتان صدرتا في بيروت عن دار الأفق عام ١٩٨٥م و «سنوات معه» وله عدد من الروايات مثل «الشياطين الحمر» و «غرباء بلا وطن» و «احترقت بيروت» و «المسيرة الخضراء» وهو في

قصصه أقرب إلى الفنية ولهذا يبدو الملمح القصصي في مجموعته القصصية «وتقرع الطبول»، وأبو الفرج الذي يفقد العنصر الفني، يتوفر على عناصر دلالية في غاية الجودة، ولكنها لا تشفع له، فاحترام الشرط الفني مهم والنقاد العرب أباحوا الضرورات الشعرية احتراماً للفن، وهذا الخروج المتعمد وغير الموفق في كثير من وجوهه، يزامنه تحرف وحضور متميز لروائيين آخرين احترموا الشرط الفني.

ومن بين أولئك الروائي إبراهيم الناصر الحميدان الذي لم يكمل دراسته النظامية، نشر أولى رواياته عام ١٣٨١هـ «ثقب في رداء الليل» ثم «سفينة الموتى» عام ١٣٨٩هـ ولست أعرف سبباً لهذا الانقطاع الذي امتد ثماني سنوات ثم «عذراء المنفى»، وله إلى جانب ذلك «أرض بلا مطر» و «أمهاتنا والنضال» وله مجموعات قصصية مثل «غدير البنات» ومن أطول رواياته «ثقب في رداء الليل» حيث تقع في ثلاثمائة وأربع عشرة صفحة وقام بدراسة روايته «عذراء المنفى» كل من الدكتور منصور الحازمي والدكتور السيد محمد ديب ولست أعرف سببا لذلك فالرواية لم تكن الرائدة في أعماله الروائية، ولم تكن الأفضل، فقد سبقتها روايتان «ثقب في رداء الليل» و «سفينة الموتى» ويبدو لي أن الديب اتكأ على الحازمي سعياً وراء التخفف.

والحازمي يعده من المقلين، ولست معه ثم إن العبرة عندي ليست بالكثرة، وإنما هي في الجودة والروائي إبراهيم الناصر لم يحظ بدارسين يتعقبون إنتاجه الروائي الذي ينطوي على فنيات ودلالات بحاجة إلى مزيد من النقد، وبخاصة في لغته التي لم تكن بمستوى فنياته وأبعاده الدلالية، فلغته شائعة مترهلة وغير انزياحية، ولكنه يحمل موهبة وهماً، ولا أجد فيما بين يدي من دراسات مما يعول عليها لاكتشاف عالمه الروائي، وإبراز خصائصه الفنية وقضاياه وشخوصه وبحث كهذا لا يتسع لأكثر من اللمحات الموجزة، إذ هو رصد تاريخي فني للأعمال الروائية في المملكة منذ النشأة، وذلك أمد طويل يشتمل على أعمال كثيرة لا مجال فيها للاستقصاء والتعمق والأمل منوط بطلاب الدراسات العليا وأساتذتها في جامعاتنا فهم الأوفر جهداً والأوسع وقتاً والأكثر إمكانيات، وهم الذين يقدرون على الوفاء بحق روائيينا.

والروائي إبراهيم الناصر ليس وحده في الميدان وليس هو الأمكن، ولكنه مع كل هذا يستحق صدارة جيله، وهو في تواصله وحضوره يمثل الخضرمة الفنية والزمانية إذ يمكن عده من جيل التأسيس والانطلاق، على أنه لم يحدث في أمره الإبداعي أو الدلالي ما يمكن وصفه بالتجاوزية بحيث يمتد بعمله إلى مرحلة الانطلاق. ويضارعه في ذلك عدد من الروائيين المكثرين والمقلين المقتدرين الموهوبين، وأكثرهم لم يفرغوا لهذا الفن فراغه من أمثال الدكتور محمد عبده يماني، وحجاب الحازمي، وعبد الله عبد الرحمن العتيق، ويأتي بعد ذلك مقلون لهم محاولات قصصية وروائية، لم يكن لهم ولا لأعمالهم حضور، وليس في ذلك منقصة فالنقاد يشغلهم الشعر وتلهيهم التبعية، وما كل من شغل المشهد الإعلامي جدير بهذا الحضور، وممن كاد يطويهم النسيان ويجني عليهم التهميش عبد المحسن بن عثمان البابطين وله «ثمن الكفاح» المطبوع بدار الاتحاد العربي بالقاهرة عام ١٩٦٩م ومحمد عمر توفيق وله «الزوجة والصديق» المطبوع بدار ممفيس بالقاهرة، وحسن عبد الله القرشي في عمليه «أنات الساقية» و «حب في الظلام» وكلتاهما من طبع دار المعارف في مصر. والقرشي عرف شاعراً، ولم ينظر الناس إلى دراساته النقدية ولا إلى إبداعاته السردية، وعبد الله سعيد جمعان. وله «بنت الوادي» و «رجل على الرصيف» وهاشم سالم حسين وله «خيط الأمل» طبع عام ١٩٦٧م. وعبد القادر بصراوي، وله «الجوهرة الزرقاء» و «القروية الحسناء وقصص أخرى» وكلتاهما طبعتا في عام ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م بالمؤسسة العربية للطباعة بجدة، وغير أولئك كثير كأمين سالم

رويحي، ومحمد أمين ساعاتي وعبد الرحمن الشاعر، وعبد الله مناع، ومحمد عبد الله مليباري، وعاشق عيسى الهذال، ولكل أولئك ومثلهم معهم أعمال روائية وقصصية لم تحظ بدراسات أدبية تقر بها من القراء، وتكرس أصحابها في ساحة العمل الروائي، ولولا الرصد «الببليوجرافي» لكانت مع أصحابها في الذاهبين الأولين.

على أن روائيي التأسيس لم يبعدوا النجعة ومن ثم نجد التواصل قائما فيما بينهم وبين روائيي الجيل الأول وبالذات أحمد السباعي الذي واصل عطاءه واحتفظ بحقه الريادي والتأسيسي لقد أخرج أكثر من رواية وسيرة فنية.

مدخل لدراسة الإبداع القصصي والروائي والمسرحي في المملكة .. !
(٧)[١]

وإذا تجاوزنا مرحلة التأسيس، التي وضع قواعدها «حامد دمنهوري» وعاضده فيها مجموعة من الروائيين والقصاص، في مقدمتهم: ابراهيم الناصر، وخليل الفزيع، ومحمد عبده يماني، وعشرات آخرون، أشرنا اليهم والى بعض أعمالهم، وألمحنا إلى ما هم عليه من التزام فني مستكمل لأركان الرواية، والى ما يؤخذون به من لغة مترهلة غير انزياحية، والى تقاطرهم على قضايا متشابهة، تتراوح بين الحب والسياسة والاجتماع، مع عدول عن الايديولوجيات والرمز والأسطرة والخطابات المسيسة.

وبعد هذا التطواف السريع، نقف عند مرحلة يمكن ان نسميها «مرحلة الانطلاق»، وقد ألمحنا اليها وإلى بعض صناعها في مستهل هذا المدخل. وهذه المرحلة الأكثر في أهميتها والأصعب في إشكالياتها يندرج تحتها عشرات الروائيين ومئات القصاص، وآلاف الأعمال الروائية والمجموعات القصصية وتواكبها حركة نقدية متذبذبة، وتتبدى لك فيها مبادرات وتخطيات، لا يتوقع حدوثها، وهي بمجملها لا تشكل نمواً طبيعياً، إذ هي قفزات فوق الحواجز، وتسورات لمحاريب كثيرة، والمتابع الحصيف يعجب من تجاوزات لا يسوغها اقتدار، ومن اقتدار لا يعضده نقد، ومن ضعف لا يؤازره مقتدر، ومن ممارسات لا يشفع لها فن، وإن سايرها وشرع لها نقاد لا موقف لهم، ولا قضية عندهم، إذ كل همهم أن يكون لهم حضور في المشهد الثقافي، وأن يكون لهم أشياع يتكثرون بهم، ويتمترسون خلفهم، والمبدعون الذين ألفوا الثناء واستمرؤوا المدح، أترفهم ذلك، فما عادوا يحتملون كلمة الحق، والناقد الذي لايريد من فعله جزاء ولا شكوراً. يكون كالنافخ بفمه في الرماد بحثاً عن جذوة أو قبس، يتأذى ثم لا يجد جذوة ولا يظفر بقبس ولا يجد على النار هدى، ولهؤلاء المبدعين وأولئك النقاد المواطئين جنايات لا تحتمل، ولأقلهم تجليات لا تجحد، وهم في جناياتهم أضاعوا الفن أو كادوا، وما على المتابع إلا ان ينظر فيما ينشر من مجموعات قصصية، وما يطبع من أعمال روائية، وما يكتب في الصحف والمجلات من إبداع ونقد، ليرى الزبد، وما ينفع الناس، ويقف على ما يمارسه المقتدرون من كتابة ثلاثيات روائية، تأسيا غير راشد ب«محفوظ» و«شكري» و«الخراط».

ومشروع الثلاثيات الروائية جرّ أقداماً عربية، وحملها على مغامرات غير مأمونة العواقب، ومع أن مشاريع السير الذاتية و«تقليعة» الثلاثيات، غمرت الساحة بالمطولات المغثية بركاكة أسلوبها وضحالة أفكارها، وتجاوزاتها الفكرية والخلقية.

والى جانب المطولات هناك من تقلص عطاؤه بدعوى التكثيف والتركيز والإشارة والرمز، حتى لقد كتبت القصة في ثلاثة أسطر أو تزيد، بحيث لا يكون حدث ولا شخصية ولا زمان ولا مكان.

ومع الإطناب الممل والإيجاز المخل لا نعدم إبداعات في غاية الجودة ومبدعين في غاية التألق، وإن افتقرت الساحة إلى نقاد يقولون الحق ولا يخشون لومة لائم. ومشهدنا ليس بدعاً من الأمر، ولكنه بحاجة إلى وعي واقتدار وجسارة نقدية.

والوطن العربي كله، يشكو من التجاوزات الفنية والدلالية، ويتذمر من مواطأة النقاد المتزلفين، الذين يستدرون العواطف بكلمات المجاملة، أو لا ينطوون على موهبة نقدية ولا على ثقافة عميقة في الفن الروائي والقصصي.

---

(١) تاريخ المقال: ٨/ ٥/ ٢٠٠١

والمشاهد الأدبية كافة بحاجة إلى من يمسك بحجز هؤلاء وأولئك، احتراما للفن، وإبقاء على الأصالة. والموهوبون من الروائيين والنقاد على قلتهم أفضل من أن يبغي الرديء على الجيد، ثم لا يكون هناك برزخ يمنع هذا البغي، مثلما هو بين الماء العذب والملح الأجاج.

ومكمن الخطورة في أعمال ليست على شيء من الفن الأصيل، ولا على شيء من اللغة الأدبية، ولا على شيء من القضايا الهامة، نراها تجتاح مشاهدنا المحلية والعربية في ضجة من المواطأة النقدية غير المسؤولة، ومن الاحتفاء الإعلامي الذي يعشي العيون، ولا يتيح فرصة للتأمل ومراجعة النفس. و «مرحلة الانطلاق» في الإبداع السردي: الروائي والقصصي في المملكة، وسعت موهوبين ومقتدرين وأدعياء، والتطمت فيها أعمال روائية وقصصية، لا يحسم أمرها قول مجمل، ولا رأيٌ عام، ولمَّا يكن هناك نقد من الحيادية الاقتدار يفصل في الأمر، ويحق الحق. وتدافع الكتبة والمبدعين على المرتقى السردي السهل، يتطلب حركة نقدية متخصصة ومتفرغة، تواكب هذا التنامي الفوضوي. ومردّ الأهمية في كون الخطاب السردي يسهم في تشكيل الوعي والرؤية، ولا سيما بعد مأزق الأدلجة الذي تقحمه الأدب بكل فنونه، وبعد مأزق الفوضوية التعبيرية المسماة بالحرية:

حرية الفكر.

وحرية التعبير.

وبعد تفشي أدب الاعتراف المخل بالقيم، والذي شرعنته مواطأة النقاد وعدم تناهيهم عن تلك المنكرات، ومجيء ذلك تأسيا بالاعتراف النصراني في كنائسهم، كل هذا يجعلنا أحوج ما نكون إلى آلية نقدية حصيفة متمكنة ملتزمة متأنية تعرف حدود الحرية، وتفرق بين التهتك والاحتشام، وتعرف فضيلة الستر وتحامي بدو الصفحة التي توجب إقامة الحد، هذه الآلية تتعقب الطرح السردي كافة، وتسهم في ترشيده: فنيا ولغويا ودلاليا، وتفرق بين براعة الإبداع وانحراف الدلالة، فلا تبخس الموهوب تألقه بحجة الاخفاق الدلالي، ولا تعلي من شأن المدعي بحجة سمو دلالاته وشرف معناه.

على أن التفلتات الفنية واللغوية الدلالية عند بعض المبدعين في تلك المرحلة لم تبلغ الدرك الذي بلغته في المشاهد العربية، كما انها لم تشكل ظاهرة ملفتة للنظر، ومرجع ذلك طبيعة البلاد وسلامة المرجعية الثقافية لنخبها، وتلك الخصيصة التي نذكرها ونشكرها لا تمنع من أخذ الحذر. الذين تتشكل منهم تلك المرحلة يتفاوتون في مواهبهم وتجاربهم وثقافاتهم، إذ فيهم من يحملون موهبة وقضية ذاتية أو جمعية محلية أو عالمية، ومنهم من لايحملون شيئا من ذلك، وهم بلا شك يتفاوتون في المواهب والمكاسب الثقافية وفي نضج التجارب.

لقد ذكرنا طوائف منهم، وأشرنا إلى بعض أسمائهم وأبرز أعمالهم، وقلنا عن بعضهم ما نراه، ولا نقطع بصحة ما نقول، وإن قطعنا بصدقه فالرهان على صدق المقولة لا يستدعي الرهان على صحتها، ومن ثم فلن نصر على ما نحسبه الحق، متى تبين لنا وجه الصواب، وعذرنا ان هذا مبلغنا من العلم.

ومن أعلام هذه المرحلة القاص «محمد علوان» و«محمد الشقحاء» وعبد العزيز مشري» و«جار الله الحميد» و«عبد الله السالمي» و«حسن النعمي» و«عبد الله الجفري» و«عبد العزيز الصقعبي» و«محمد صادق دياب»و«طاهر عوض سلام» وإن كان مخضرماً و«محمد علي قدس» و«حسين علي حسين » و«علي حسون» و«عبده خال» و«عبد الله باخشوين» ومئات آخرون سنذكرهم، ونذكر بعض أعمالهم، ونشير بإيجاز إلى خصائصهم الفنية والدلالية واللغوية.

وما من أحد من أولئك إلا وقد امتدت إلى بعض أعماله أيدي النقاد والدارسين، ولكنه نقد غير عازم وغير جازم، فسلطان الشعر ما زال يحول دون الفراغ للإبداعات السردية.

وروائيو هذه المرحلة وقصاصها من ناشئة البلاد الذين استثمروا مناهج التعليم، وبرع بعضهم في استغلال الانفتاح، وعمّق تواصله مع مبدعي الوطن العربي ونقاده، والأقل منهم من درس السرديات أكاديمياً، وتلك الإمكانيات الاستثنائية حملتنا على وصف تلك المرحلة بالانطلاق، ولسنا مبالغين حين ندعي ذلك، فالراصدون يقفون على أعمال متميزة، كمّاً، وكيفاً، وإذ لا نقدر على التقصي فإننا نقتنع بالإشارة إلى أكثر المبدعين حضورا.

ومنهم في تلك المرحلة على سبيل المثال القاص حسين علي حسين، وله مجاميع قصصية مشهورة ومغمورة، ومنها «ترنيمة الرجل المطارد»، و«الرحيل» وله مجموعتان قصصيتان أخريتان هما «طابور المياه الحديدية» و«كبير المقام» وهو قاص موهوب، وصاحب تجربة غير مفتعلة، ويشبهه في الهم لا في الفن «علي حسون» وله من الأعمال «حوار تحت المطر» مجموعة قصصية، و«الطيبون والقاع» وأعمالهما القصصية تمثل الرمز والانزياح، ويستخدمان اللغة بطريقة مراوغة.

ومن مبدعي هذه المرحلة القاص «عبد الله السالمي»، وتتبدى مواهبه في عملين، أعرف منهما مجموعته القصصية «مكعبات من الرطوبة» وقد تناولها عدد من الكتاب منهم «سامي بدوي» و«عبد القدوس الخاتم» و«محمود رداوي» الذي التمس من خلال تلك المجموعة أزمة الإنسان المعاصر، وقد أشار إلى بعض ذلك الاستاذ خالد اليوسف في فهرسته المتميزة، والتي أتمنى ان يعيد طباعتها بعد اضافة ماجد من إبداعات ودراسات لحاجة الوسط الثقافي إلى مثلها، ومن عمد هذه المرحلة القاص والروائي «محمد منصور الشقحاء» في عدد من الأعمال المتفاوتة في مستوياتها الفنية وتحولاتها الدلالية والشكلية واللغوية، وقد حظيت أعماله بدراسات متعددة طابع أكثرها المجاملة، وهي دراسات لم يحظ بمثلها من هم دونه أو من هم أفضل منه، وبعض دارسيه أبعدوا النجعة، حيث حمّلوا النصوص ما لا تحتمل ومنحوه ما لا يستحق، وحرموه مما يستحق، على حد عطاء من لا يملك لمن لا يستحق، ودون ذلك كمّا وحضورا، وإن نازعوا في الفنيات والدلاليات يأتي سباعي أحمد عثمان في «الصمت والجدران» و«دوائر في دفتر الزمن»، ومحمد زارع عقيل في «ليلة في الظلام» و«بين جيلين» ومحمد علوان وهو بحق روائي يتملك قدرات فنية، ولم يحظ بدراسات تكشف عن أصالة موهبته.

ودون «علوان» يأتي «سلطان سعد القحطاني» في عملين روائيين هما «طائر بلا جناح» و«زائر المساء» ولم تحظ أعماله بدراسات، وهو إلى جانب إبداعه ناقد سردي، تناول عدة أعمال إبداعية.

وممن غردوا خارج السرب «جار الله الحميد» و«عبده خال» وهذان الروائيان يمتلكان موهبة قصصية، وسنعود اليهما بشيء من التفصيل أما القاص «خالد أحمد اليوسف» فله ثلاثة أعمال قصصية ومشروع فهرسة رائدة في مجال العمل القصصي والروائي ونقدهما.

و«جار الله الحميد» لم يلتزم المقتضى الفني فيما لحق من أعمال، بحيث تمرد على الشرط الفني في كثير من أعماله، وإذ يأتي همّ «الحميد» ذاتياً، يتسع همّ «عبده خال» ليكون جمعياً، وإن ضيقت الإقليمية الخناق عليه، ويتناغم «حسين علي حسين» و«علي حسون» في همهما الأعمق والأكثر حساسية، وفيما تكون لغة «عبده خال» دون موهبته وهمه الجمعي، تكون قدرته الفنية أميز من لداته، على أن لغته من حيث الإيحاء والانزياح

جيدة، ولكنه من حيث المقتضى النحوي والصرفي والجملة العربية دون ذلك، ويفوق الاثنين معاً في موهبته الفنية «سعد الدوسري» وله نزوع سياسي واضح.

ويأتي «عبد العزيز مشري» الأكثر إثارة والأقدر على انتزاع التعاطف معه، وله خصوصيات فنية أعطته نكهة متميزة، وأستطيع ان أجمع بين روائيين في المماثلة اللغوية والفنية، هما: «عبد العزيز صالح الصقعبي» و«عبد الله باخشوين»، إذ يمتلكان قدرة نادرة على توفر الحركة الداخلية للنص. وقدرة فائقة على الملاحظة والتقاط الموقف من العادي والسائد والتسامي به. أما من يملكون قدرة أدائية ولا ينطوون على موهبة قصصية فكثيرون، لعل من أبرزهم أحمد باقازي، وعثمان الصوينع، وعلوي طه الصافي، وعبد الله العريني، وآخرين، وهؤلاء يتراوحون بين الوعظية والتسجيلية، ويحسن بعضهم فهم الشرط دون استبطانه، ولهم تجاربهم النقدية والدرس الأكاديمي للأعمال السردية.

وحين يكون أولئك على شيء من الثقافة والتخصص والإقتدار لا يكونون على شيء من الموهبة الروائية أو القصصية، فيما أري وما أراه ليس نهائيا يكونون نقاداً أو كتاب مقال، أو دارسين أكاديميين، أو ما شئت، وقد يتألقون في بعض ذلك، وليس ضروريا ان يكونوا روائيين أو قصاصاً، ولا يعيب أحدهم ألا يكون شاعرا بالموهبة أو لا يكون روائيا بالموهبة.

وإشكالية المشاهد أنها لا تحاول التفريق بين المواهب والقدرات، ومن أشرت اليهم يتفوقون بما يكتبون على كثير من ضعاف الموهوبين، وكم أقرأ الشعر الموزون المقفى، ثم لا أجد فيه ماء الشعر، واقرأ القصة والرواية، ثم لا أجد فيها نبض الفن، وأقول في نفسي: كم هو الفرق بين الاقتدار والموهبة! وهو فرق لم يحفل به كثير من النقاد الذين لا يحترمون أنفسهم ولا قراءهم، ولا يراعون في المصداقية وحق المشهد الثقافي إلاًّ ولا ذمة.

على انه وهذا من الخداع قد يبلغ اقتدار المقتدرين حداً يفوقون به بعض الموهوبين الذين لم يصقلوا مواهبهم بالثقافة العميقة الشاملة والدراية والدربة، ولم تمسهم المواقف.

وأذكر أنني نشرت قبل أربعين سنة قصة تحت عنوان «شاب تاه في دروب الحياة» في جريدة «الأضواء» أو «الرائد» لست أذكر، وفيما بين ذلك نظمت مقطوعات شعرية، ولكنني لست روائيا ولا شاعراً، ولن يخدعني المغرِّرون كما خدعوا غيري، والاعتراف بالحق فضيلة.

والمشهد العربي عامة مليء بالمقتدرين الذين يصنعون الشعر، وينشؤون الرواية، ثم يتوهمون أنهم شعراء أو روائيون.

ولأن «مرحلة الانطلاق» تفيض بالمبدعين والمدعين والمقتدرين فإن الإشارة إلى كل الأعمال في مدخل محدد من المتعذر، ولهذا سنومئ إلى بعض المتميزين منهم، ثم نفصل القول عن بعضهم، ولعل فيما نقول إثارة وتحفيزا للمقتدرين من الدارسين والنقاد، ليفصلوا القول فيما أجملناه.

والحديث عن جيل الانطلاق يستدعي مقلين ومكثرين، وموهوبين ضيعهم المشهد النقدي، ويستدعي مقتدرين ومدعين حفلت بهم الأقلام وجاملهم النقاد، وآخرين أنصفهم الدارسون أو ظلموهم، والحرمة النقدية بحاجة إلى من يعيد قراءتها، كي ينفي زيفها، ويكشف عن أدعيائها، وإن تطلب ذلك ثمنا باهظا، وكان دونه خرط القتاد.

فالابداع القولي إذا لم يواكبه نقد مقتدر ونقاد غير هيابين أخذ به من لا يحسنون القول فضلا عن الإبداع، وعف عنه الموهوبون، وفي ذلك خسارة فادحة، لا يعلم كنهها إلا المكتوون بويلات الغثائية.

والرواية وسائر فنون السرد تسهم في تشكيل الوعي وتؤثر على الأخلاقيات، والمشهد الثقافي العربي يلوثه بين الحين والآخر من لا خلاق لهم من مبدعين بارعين، احتنكهم الشيطان، وأضل أعمالهم، وقد لعبت الرواية أدواراً مشبوهة على كل المستويات الدينية والفكرية والسياسية والاجتماعية والسلوكية واللغوية والفنية، ولن يخلص المشهد الثقافي العربي إلا نقاد متمكنون ناصحون كما الغرباء الطيباويين الذين يصلحون ما أسدته الرواية المعاصرة والروائيون المعاصرون. ولأن مشهدنا المحلي مستهدف فإن من واجبنا ان نكون له رداءً نحول دون تورطه في الرذيلة والانحراف الفكري الذي مسّ المشاهد الثقافية العربية بدخنه وتواطأ معه لفيف من النقاد الحداثيين.

مدخل لدراسة الإبداع القصصي والروائي والمسرحي في المملكة .. !
(٨)[١]

وحين نواصل الحديث عن ركائز هذه المرحلة، نحتاج إلى استباق التساؤلات حول المخضرمين، الذين عاشوا مرحلة التأسيس، وكان لهم دورهم المشهود في مرحلة الانطلاق، ولربما نعيد الحديث عمن استكملنا الحديث عنهم في فترة التأسيس، وقد يتصور المتابع ان ذلك ضرب من الخلل المنهجي، واستدعاء رموز تلك المرحلة يمتد بنا إلى معارف ونكرات، مقِلّين ومكثرين، مبدعين بالموهبة وكاتبين بالاقتدار، ومجربين واعين وعابثين باللغة والفن والدلالة. والمقلُّون خاصة ممن كان لهم حضور بأعمال سردية، لم تتح لهم فرصة الخروج إلى دوائر الضوء عبر أعمال روائية أو مجموعات قصصية مطبوعة أو مخطوطة، أو دراسات جادة أو مجاملة، مع أن القصة الواحدة يكتبها الموهوب المثقف المجرب ربما تكون بحجم المجموعة، من حيث أصالتها وتوفرها على مقومات الفن ومتطلبات اللغة، وشعراء القصيدة الواحدة المتميزون تمكنوا من الحضور، فيما لم يتمكن منه أصحاب المطولات، وكم من الشعراء مَن ملك السيرورة بقصيدة أو بيت، وخمل آخرون بدواوين تُهدى ولا تباع. فالقلة والكثرة ليستا مقياس الأهلية، وكم من القصاص والروائيين الذين لم تطبع اعمالهم بعد، وإنما تسربت عن طريق النشر في الصحف بين الحين والآخر، يملؤون الأنفس إعجابا وإكبارا، وكم من المكثرين المغثين الذين تود أن بينك وبين اعمالهم امدا بعيدا، والحاضرون بمجموعاتهم القصصية أو برواياتهم أو بأعمالهم التي نشرت في الصحف والمجلات يعدون بالمئات، والحكم على أعمالهم يتطلب تصورها، وليس هناك مزيد وقت وجهد للتوفر على التصور الكافي لإصدار الحكم النهائي، ومن ثم فإننا سنلجأ إلى الاشارة دون الوصف أو التحليل أو الحكم، وفي هذا استدعاء لأكبر قدر منهم.

ولأن الناقد قد يتوفر على اعمال بعض المبدعين وعلى بعض الدراسات عنهم، ثم لا يتوفر على مبدعين آخرين، ولا على شيء من ابداعاتهم، وإنما يعرفهم بأسمائهم وبما يتداول عنهم من قول، وقد يعرف أسماء أعمالهم، ثم لا يتمكن من الاطلاع عليها، وكل ذلك يحمله على تناول البعض بشيء من البسط فيما يلمح إلى آخرين، ولا يجري على قلمه من هم أفضل من هؤلاء وأولئك، ومن ثم فإن ما نقوله لا يعد القول الاشمل والنهائي، وذلك تحفظ نقدمه حين لا نستدعي من هم احق بالاستدعاء، أو حين نطيل الحديث عن طائفة دون طائفة أخرى. والاستاذ الدكتور سلطان بن سعد القحطاني اشار إلى شيء من ذلك «الجزيرة ١٦/٢/١٤٢٢هـ» العدد «١٠٤٥١» متوقعا أنني احمل هَمَّ التقصي والوصف والتحليل، وما ذلك باستطاعتي، ولكم اتمنى لو شاطرني المهمة فهو الأقدر والأمكن.

ولو عدنا إلى ركائز هذه المرحلة وعمدها، ونحن عائدون ولا شك، نجد أن ممن هم في سياق هذه المرحلة، اضافة إلى من سبق ذكرهم القاص «حسن بن مُحَمَّد النعمي» في مجموعته القصصية التي أصدرها قبل عشر سنوات، وفيها يتوفر على لغة مكثفة، وموضوع مركز. وهاتان السمتان جاءتا على حساب الحركة الداخلية، ونحن اذ لا نتطلع إلى حركة متنامية في القص بمقدار تطلعنا إلى مثلها في الرواية، تظل رغبتنا تلح على توفير الحركة والحس القصصي، والمبدع أي، مبدع يعطي من خلال سردياته مؤشرات على موهبته الإبداعية، وهذا الذي حفزنا على التحفظ وعدم التسليم للمقتدرين الذين

---

(١) تاريخ المقال: ٢٢/ ٥/ ٢٠٠١

يكتبون ولا يبدعون «والنعمي» بوصفه قاصاً مقلاً، لا اعرف له سوى عملين: «زمن العشق الصاخب» و «آخر ما جاء في التأويل القروي». وقد درس عمله القصصي الأول من قبل دارسين متفاوتين، لعل من أهمهم «طلعت صبح السيد»، فيما اغفله الدكتور العطوي، وهو كما يتصوره «صبح» يمثل التحولات الاجتماعية وصراع الاجيال. واذا كان النعمي يقترب من المغايرة بحركة بطيئة موزونة، فإن زميل مرحلته «جار الله الحميد» الذي ألمحنا له اكثر من مرة في مجموعته القصصية «أحزان عشبة بريّة» التي صدرت قبل مجموعة النعمي بثمان سنوات، يقفز إلى المغايرة بشكل مغامرة جريئة، ومجموعته تلك ترهص لاندفاع اكثر، مارسه في اعماله اللاحقة. وموجة الحداثة الفنية واللغوية التي تركت آثارها السيئة والحسنة في آن، امتدت إلى طائفة من مبدعي هذه المرحلة، فاستفاد منها قوم وأضلت آخرين، ومما تركته من آثار ما نراه من تجسيد الحياة الاجتماعية بطريقة يختلط فيها الواقعي بالرومانسي، مع الانفتاح على اساليب رواد القصة العربية واندفاع وراء بوارق التجريب الفني، وإغراق في الغثيان، واحتفال بالأشياء التافهة، وتعويل على المفاجآت وتأزيم المواقف، والتذكر، وتيار الوعي، والتفصيل الوصفي، واصطياد اللحظات، والمواقف، وأدب الاعتراف، والادلجة، وتكسير السوائد والمسلمات، وسوء الأدب مع المقدس، وظهور القصص الذهني، وغموض الافكار والعبارات، وانغلاق الصور، والإمعان في الانقطاع، والإشارة، والرمز، والأسطرة، والقناع، وتأرجح البطل بين أن يكون محوراً أو متمحوراً، أصيلاً أو هامشياً، أهلياً أو مغترباً، وتقلب البنية الزمانية بين الادبي والنفسي والفلسفي واللحظي والتراتب والقفز، ولعبة السواد والبياض والعلامات، والخلفيات اللونية والشكلية، مما أحدث انقطاعاً متعدد المجالات، على ان التحرف اللغوي الذكي القائم على الانقطاع والإبهام والانزياح والايجاز والمجاز تضارعه لوثة العامية والشيوع والترهل، والكتابات المشوشة والقول الفارغ من أي هدف، وهذه التناقضات التي قد تأتي في عمل واحد مؤشر على تبعية غير واعية، وتعلق ساذج وغير حصيف بالمستجد، والمسألة في النهاية تعمُّل وصناعة ومحاكاة، اذ لا تأصيل ولا مبادرة ولا عفوية، ولو ان تلك الظواهر اللغوية والفنية سمة لما تجاورت المتناقضات في العمل الواحد، والناقد يعرف ان الرجل أسلوب، وان الوحدة اللغوية والشعورية والفنية مؤشر أصالة وصدق وموهبة .. ومن ثم فإن أعمال المقلدين اولاد نغل تتنازعم الجينات، والمحصلة لكل هذه الظواهر غير الطبيعية ان المشاهد حين تفاجأ بالمستجدات الطارئة يخف إليها الفارغون، ويتهافتون كما الفراش على محاكاتها، فيما يتأملها المتمكنون، ويأخذون بأحسنها، ولتفادي التعميم نود استثناء طائفة من الشباب الذين نثمن مواهبهم، ونقدر تحرفهم، ونتحفظ على اندفاع بعضهم، ولربما يكون «الحميد» في لغته وبنائه القصصي متعالقا بشكل واضح مع كتاب القصة والرواية المتمردين على الشكل المتعارف عليه، وهو ينظر إلى ما تركته الحداثة في الأعمال السردية كافة من تغيير في: الأحداث، والظروف، والشخصيات، والحبكات، واللغة، والصور، والحركة، واذا كانت مجموعة «الحميد» الأولى تمثل تجاوزا جريئاً، فإن أعماله اللاحقة تمثل انقطاعا فنيا تاما. وإذ لا نتردد في القول بامتلاكه موهبة ابداعية نتردد كثيرا في قبول اندفاعه غير المحسوب، وخروجه على المعتبر الفني في كثير من أعماله القصصية، وقد اشرنا من قبل إلى خصائصه وأطراف من تجاوزاته، على انه لم يكن وحده في الإمعان التجريبي، بل نرى التجاوز دأب الشباب وديدنهم، نجد ذلك عند «محمد منصور المدخلي» و «محمد علي الشيخ» و«محمد حمد الصويغ» و«عقيلي الغامدي» و «عبد الملك القاسم» و«عبد الحفيظ الشمري» و«فهد الرشيد» و«محمد منصور الشقحاء» مع ان طائفة من اولئك ومن غيرهم صنَّاع قصة، وليسوا مبدعين، والتجريب عند المبدع اخف ضررا منه

عند المقتدر. واذا كان «الحميد» «والشقحاء» و«عبده خال» قد حاولوا دخول هوامش الحداثة الفنية، فإن «رجاء عالم» دخلت متنها، وكانت أكثر وعياً في التعامل مع مقتضياتها الفنية واللغوية. والشيء الذي لا ننكره ان لغة هذه الطائفة تفوق لغة الرواد والمؤسسين، فهي الأكثر تركيزاً وانزياحاً ورمزية وإشارية، وهي بحق الاكثر امتاعاً ولصوقاً بالفن الابداعي. ومهما كان حجم تحفظنا على بعض فنيات اولئك أو دلالاتهم، إلا أننا نعرف حظ اكثرهم من الموهبة وتوفرهم على الانزياح اللغوي والتجريب الفني، وموقفنا لا يمت إلى التقليد بصلة، ولست فيما اذهب إليه بالمقلد ولا بالمحافظ، وليست المسألة عندي مرتبطة بالزمن الماضي أو الحاضر ولا بشيء من المحافظة أو التقليد، المسألة عندي موهبة ووعي وثقافة عميقة وتجربة صادقة وتجريب يستجيب لذائقة الأمة وحاجاتها، واحترام للشرط الفني وخصوصية كل نوع من انواع الفنون.

والمؤسف ان الذين ترهقهم سياط النقد يلوذون بدعاوى كما ثياب الزور، بحيث يتهمون النقاد بالتقليدية أو الجهل، ولا يسألون انفسهم على ضوء ما يسمعون عنها، ولربما ان مرايا النقد الحداثي المحدبة خدعتهم وصورتهم على غير حقيقتهم، ثم ان الفن السردي انتهك حماه فضوليون لا يلوون على شيء، بحيث جاءت اعمال قصصية وروائية مفتقرة إلى لغة سردية والى مضمون شريف والى فنيات متميزة، وهؤلاء الذين لا يتوفرون على الحد الادنى من اللغة والمضمون والشكل هم الذين يقامرون بالفن، يتلقون فيوض المترجمات فيأخذون بأسوئها، وقد يكون هدفهم من هذه المغايرة ان ينشغل النقاد بتجاوزاتهم عن احقيتهم، ومن ثم يمتلكون حق الوجود بهذا الجدل حول مشروعية فعلهم.

وتحفظنا على تجاوزات هذا الجيل لا يمس حتمية التجديد، إذ إن التحرف الواعي للتجديد مقتضى ازلي، لا يلقاه إلا ذوو الملكات المتمكنة والثقافات المعمقة، وحين تستشري الرغبة في التغيير، ثم لا يكون وعي، ولا تكون ملكة، تختلط الأمور، وتصبح المشاهد ملاعب جنة معماة. والبعض من المتقحمين لتلك المغامرات لا يقدمون للقارئ موضوعاً متماسكاً، ولا قضية مهمة. والشعر الذي ذهبت ريحه بالنثرية والتغامض والانحراف، ضارعه السرد الابداعي في هذه الأدواء، حتى لقد تحولت القصة والرواية عند مدعي الحداثة وبعض مدعي التجديد إلى عبث، وكما أشرت فإن البعض من أولئك يمتلك موهبة وقضية ولكنه لا يحفظ التوازن في تخطياته، ولو عدنا إلى طائفة المجربين وحاولنا فرز أعمالهم لوجدنا عندهم بعض الصواب، ولكن التمادي في التجريب وعدم التريث يفوت فرصاً ثمينة، وهذا «الحميد» مثلاً تجد القصة عنده قد تحولت إلى بوح يتخلص به من معاناته، وسخرية مرة بالذات وبالواقع، والعبارة فيها مجرد زفرة يتخفف بها من وهج الحرقة ومضاضة الألم، و«الحميد» يكاد يكتب نفسه، وقد يختصر الواقع من خلال تجاربه الحياتية الفاشلة، والقليل من القصص تقدم لك قضية مركزة، فيما تأتي بقية اعماله منغلقة، يقرؤها المتلقي ولا يبقى في ذاكرته منها إلا عبارة جميلة أو صورة خاطفة، أو كلمة ساخرة، واقرأ ان شئت قصة «أغنيات لفائزة»، واقرأ غيرها من قصصه، تحس ان القاص يوغل في الرمز والوهم والأحلام، ويقترب كثيراً من هذه المحاولة «الشقحاء»، والشيء الذي اود تأكيده ان المبدع «المتحدْثِن» فنياً على الأقل، يتعمد التمرد على اللغة، وعلى الشكل الفني للقصة، يتمرد على اللغة بحيث يعطل مهمتها الأساسية، وهي التوصيل، لا يريد أبداً اراحة المتلقي وتوصيلة المراد، وكل همه توتير الأعصاب وشد الانتباه وإثارة التساؤل، وهو لكي يصل بقارئه إلى اعتاب التوتر يركن إلى اللعب في الدلالة اللغوية والانزياح في التراكيب والتجريب وفي التشكيل الفني، وقد يقع في الخطأ في اللغة وفي التركيب، ويخرج على الشرط الفني، بحيث يدخل دائرة النثر الفني، ولكنه مع هذا يصر على ان يضع بينك وبينه أكثر من حاجز بما يتعمده من تراسل

وتشخيص، وتلك نزعة صارت إليها طائفة من الشباب، قد تؤدي إلى ارتباك دلالي وفني ولغوي، وهؤلاء في سياق ظاهرة تحطيم السوائد لا يحفلون باللغة، ولا يهتمون بالشكل، ولا يحترمون الشرط الفني، ومع هذا تحس انك أمام مبدعين يتعاملون مع اللغة والفن بطريقة غير عادية، وعلى الرغم من هذه المآخذ وتلك التحفظات فهم افضل من جيل التأسيس في التعامل مع اللغة، ودونهم في التعامل مع الفن، ومثلهم في البعد الموضوعي، واولئك حين يتخطفون المستجدات في الشكل والبناء يتطلبون آليات نقدية وعمقاً معرفياً وثقافة شمولية، تمتلك القدرة على محاورتهم، وتحرير المسائل الجديدة التي صاروا إليها، ولا مجال لنفيهم على الإطلاق أو قبولهم دون مساءلة، اذ ان انقطاع بعضهم على الأقل له جذوره الفنية والفكرية ومرجعياته المعرفية، ومن الخطأ التعامل معهم عبر آليات قديمة أو مسلمات سلفية، كما لا يليق الاستخفاف بمحاولاتهم ولا الإذعان لها. وكم أتمنى تواضعهم وسماع ما يقال عنهم، وبخاصة من الذين يصدقونهم القول ويمحضونهم النصيحة، وليس من اللائق تعمد نفي النقاد أو نفي المعرفة النقدية عمن لا يجاملونهم ولا يسايرونهم، والحوار الموضوعي الهادئ المتمسك بأدبياته كفيل بإحقاق الحق، والويل كل الويل لمن لا تحفل المشاهد بهم قدحاً أو مدحاً، ومع أنني لا اقيم وزنا لأولئك الذين لا يملكون إلا لغة المصادرة والتجهيل ألا انني أخشى على المشهد الثقافي من مثلهم، فالذين لا يملكون مثمّنات يقامرون بسمعتهم، ويكونون اكثر شيء جدلاً، فحسابات الربح والخسارة عندهم غير قائمة، ومن ثم يركنون إلى الطيش وسوء الأدب، وهم بهذه الأخلاقيات المتدنية يخوفون الطيبين، ويحولون دون التناول الحضاري لطوارئ المشاهد الفكرية والأدبية.

مدخل لدراسة الإبداع القصصي والروائي والمسرحي في المملكة .. !
(٩)(١)

وحين نعود إلى طائفة المجربين الجريئين، نحس أنهم ربكوا العملية النقدية، وفرقوا كلمة النقاد والدارسين، وبخاصة أولئك الذين لا يحفلون بضابط، ولا يقيمون وزنا لشرط، يخوضون في المسكوت عنه، ويخلطون بين الشيء ونقيضه، ولما يعد عندهم فارق بين القصة والأقصوصة، أو الرواية والخاطرة، أو المقالة والمقامة، أو السيرة والرحلة بدعوى مصطلح «الكتابة». والنقاد معهم بين مؤيد أو معارض، متحفظ أو مشايل، معجب أو ساخر. ولأن المشهد الإبداعي العربي يعيش تحت حمى الحداثة والحداثيين، لا يؤطره مفهوم، ولا يحكمه مصطلح، فقد فاض بأفانين القول ومختلف الدلالات، وصار العبث دولة بين المبدعين والنقاد، حتى لقد زلت فيه أقدام، وضلت فيه أوهام، والذين جاؤوا بآلياتهم النقدية العلمية المعيارية إلى مشاهد الأدب المتمرد، كانوا كما أهل الكهف الذين بعثوا أحدهم بورقهم إلى المدينة، إذ لم يعد شيء من تلك الآليات صالحاً لما جد، فبعض المجربين جعل القصة والرواية خلقاً آخر، فالانزياح والأسطرة والرمز والإشارة والقناع وتيار الوعي كهوف مظلمة ملتوية، تنتزع الشرعنة لفعلها دون أن ترقب التزكية من أحد. وعلى سبيل المثال نجد أن دارسا كالدكتور «مسعد العطوي» حين فوجئ بهذا التجريب الغريب عند رموز هذه المرحلة، وبخاصة كتاب القصة المهيمنة على سائر الفنون السردية ذهب إلى القول: بأن بعض المبدعين يعمدون إلى تفتيت السرد وتحويله إلى مقاطع غير مترابطة، والميل إلى تفريغ الكلمات من دلالاتها المعهودة وملئها بدلالات جديدة. ولم يمتد به الحديث إلى تحديد قيمة هذا الفعل المغاير للسائد، ولا إلى الدوافع النفسية لمثل هذه المغامرة الجريئة على المستويين الفني والدلالي، ولم يلتمس مصادر هذه المغايرة، ولم يحدد مشروعيتها وأثرها، وكل الذي فعله أن ضرب لنا مثلاً ببعض أعمال القاص «جار الله الحميد» ونسي أو كاد ما يجب أن يمهد به، والاشتغال بالانزياح اللغوي جزء من الإشكالية له مقاصده وضوابطه، وليس هو كل الإشكالية، لقد التقط سياقات نصية مثل «يستعملن أظافرهن في الكلام» و «تنقض الأحرف الجائعة كصقور قذرة تأكل خبز القلب» و «الحميد» في هذا التلوين الذكي المراوغ، لم يخرج عن مقتضى الاستعارة، ولم يفقد العلاقة بين المستعار والمستعار له. الكلام جارح للمشاعر، والأظفار جارحة للأجسام، والعلاقة الإيذاء في الكل، فالكلمة تؤذي، والأظافر تؤذي، والأصابع تتحرك لتعطي لغة الإشارة، واللسان يتحرك فيعطي لغة العبارة.

إذاً هناك علاقة بل أكثر من علاقة متينة بين الكلام المؤذي، والأظافر المؤذية، والتعويم الدلالي، والخروج من أسر التراكيب السائدة، والتشبيهات المألوفة والاستعارة المتداولة، جعلت الدكتور «العطوي» يبعد النجعة، فيجعل «المرأة» رمزاً للقطة التي قد تستعمل الإيذاء بأظافرها، وما أحسب المبدع يحمل هذا الهم، ولا يرمي لهذه الغاية، وإن كان النص الأوسع في فضاءات الدلالة يحمل التأويلات المتناقضة.

وما على المؤول من بأس متى استطاع أن يحمل النص من الدلالات ما يمكن احتمالها وليس من حق المبدع أن يتدخل لفك الاشتباك بين التأويلات المتنافرة، فمهمته تنتهي بتوثيق الإبداع، والناقد له تأويلاته وتصوراته وأحكامه التي يستنبطها لا من متن النص بل من سياقات وأنساق ومعهودات ذهنية، قد لا تتوفر لكل قارئ، وما هو خارج النص اللغوي أهم من النص، فأسباب النزول في علوم القرآن، ومعرفة القراءات،

---

(١) تاريخ المقال: ٢٩/ ٥/ ٢٠٠١

والناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه مضيئات لفهم، وليست من النص، وتأويلات النص خارج لغته غير ملزمة وغير نهائية، وإن كانت مشروعة، المبدع يمارس المخاض، وتنتهي علاقته بإبداعه من اللحظة التي يفضي به إلى القراء، والإبداع المتألق هو الذي يوهم بالدلالات المتناسلة من نصه عند كل قراءة.

ومع اننا ندافع عن لغة القاص واستعاراته فإننا نتحفظ على هلاميات النقاد الحداثيين والبنيويين والنصوصيين الذين يجدون في دعوى «النص الغائب» و «النص المغلق» و «النص المفتوح» و«التناص» ونظريات: المعرفة والتلقي والتأويل فضاءات واسعة، تشرعن الانفصال عن النص المكتوب وإماتة مؤلفه لإحلال نص جديد، بوصفه النص الأول مفتوحا للمنتج والمتلقي، بحيث يكون النص متوفراً على دلالات لا نهائية، يكون منها النص المسكوت عنه أو المضمر، وهو المتضمن أو الموحى به، أو المتولد عن طريق التناص. وكل هذه الفرضيات حين يتشبع بها الفارغون، لا تصمد أمام النقد الواقعي الموضوعي، ومع القبول بالفرضيات والتجريب إلا أننا أحوج ما نكون إلى ضوابط معرفية وأخلاقية وفنية ترشد هذا التهالك المشين على المستجدات.

ونظرتنا لا تبرح المغرمين بالتجريب والمتصفين بالجسارة على التخطي إلى المستجد الفني واللغوي، ونحن لا نبرحهم إلا لنعود إليهم، لأنهم الأكثر جرأة على السوائد، ففي هذه المهايع تبدو لنا ملامح زمر من الآخذين بكل بوادر التجديد، وكل زمرة ترى أنها نهاية التاريخ، وغياب النقد القوي الأمين العليم أفرغ الأجواء للمغامرات، على أننا حفيون ببعض أولئك، فما عدنا نطيق الصبر على النمطية والتناظر، ولكننا في الوقت نفسه نود لو أن التجريب الإبداعي والنقد الظهير أخذا بالضبط والأنموذج، فغياب المرجعية المحكمة إغراق في المجهول، وممن نعدهم واعدين من ذوي الرهان المقبوضة طائفة من الشباب الموهوبين الذين أوغلوا في التجريب، ولما يتريثوا، ولما يراجعوا، نجد من بين أولئك القاص «عبد الله باخشوين» وهو بلا شك يفوق أقرانه في امتلاك ناصية الفن القصصي في مجموعته «الحفلة»، التي صدرت قبل أثنتى عشرة سنة، ولم يصدر بعدها - حسب علمي- عملاً آخر، وعلى الرغم من أن مجموعة «الحفلة» محاولة أولى، إلا أنها تتميز ببناء فني وحبكة محكمة ينمان عن موهبة أصيلة، يتوقع منه ومن خلالها أن يعطي عملاً أكثر نضوجا، وأقدر على استكمال متطلبات العمل القصصي فهو وإن أخفق في الضوابط النحوية والصرفية والإملائية فإنه أجاد التكثيف والتركيز والحركة الداخلية.

ومن هذا اللفيف الواعد والمتوفر على موهبة قصصية القاص «يوسف المحيميد»، ومع أنه مقل إلا أنه يعطي مؤشرات على تكسير السائد الفني، وهو متأثر إلى حد ما «بصنع الله إبراهيم»، «زكريا تامر»، «إدوارد الخراط»، وإن لم يبلغ شأوهم، له مجموعتان قصصيتان: «ظهيرة لا مشاة لها»، «رجفة أثوابهم البيض». وقد أشرنا من قبل إلى القاص «عبد الله السالمي»، وإلى مجموعته «مكعبات من الرطوبة». ونود أن نشير هنا إلى أن مجموعته تلك لم تكن متصالحة مع الشرط الفني السائد، ولم تكن متجاوزة بقدر تجاوزات لذاته ك «الحميد»، «المحيميد»، «عالم»، الشيء المهم أنه يصر على التجاوز في الشكل، وفي المضمون، ولكنه لا يبعد النجعة يلتقط الشخصية من الشارع، ولا يتعمل في اختيارها، تهمه القضية، وتشغله هموم الحياة العامة، ولهذا لا تجد نوعاً متميزاً في شخصياته، يركز على الشباب، ولكنك تجد الشيوخ والكهول يلعبون أدواراً ثانوية، الظواهر الاجتماعيةعنده غير مفتعلة «الدخان»، «الشيشة»، «اللعب بالورق»، «المقاهي»، «التسكع» كلها مظاهر قائمة، وليست سائدة، بمعنى أنه لا يفتعل الحدث ولا الظواهر، وإنما يرصدها يقول الرداوي: «على أن ذلك كله لا يجعله يقطع الخيط الذي يربطه بالواقع».

والواقعية تشكل مأزقاً أمام الدارسين والنقاد، إذ هي مصطلح يحدد مقتضاه القارئ وفق همه ورؤيته وخصوصية الأداء، ومن ثم فإن هناك واقعيات بعدد الأزمنة والأمكنة والمفكرين، وبعدد مفردات الفنون وأنواعها، وهي كما الحداثة مصطلح مراوغ ومخادع، وحين قلت «بالواقعية النجدية» في بحثي المكمل للماجستير، وجدها أحد الكتبة المعيرين أقلامهم «ما التيس المستعار» فرصة للتندر السخيف، ولم أشأ تصحيح مفهومه الساذج وجهل من وراءه، ولكنني قد أعود لتصحيح مفاهيم تنشد الحق، ولا تمارس الأذية، وهذه الرغبة اضطرتني إلى التوفر على أكثر من مائة مرجع فصلت القول عن الواقعيات: فلسفيا وأدبيا وسياسياً.

و«السالمي» الذي أشرنا إليه أكثر من مرة نجده في قصصه تتجاذبه الرومانسية، والواقعية: رومانسية القرية والبادية، وواقعية المدينة، يتذبذب بين المدينة رمز الضياع، والقرية رمز التخلف، ومن ثم يعرف جيداً أن المنية هي نهاية المطاف، ولكنه في الوقت نفسه يعرف أن هناك ثمناً نفسياً سيدفعه الإنسان حين يتخلى عن براءة القرية وفطرية البادية. وهو قد يصوغ هذا الصراع بكلمات ممعنة في الانزياح، وذلك حين يفرغها من دلالاتها المعهودة، الشمس عنده دموية، والكآبة رخوة، ولا أحسبه إلا متصنعاً المجاز بشكل غير عفوي، فهو في كثير من الأحوال يكتب ليبدي براعته في الصياغة والمجاز، ولكنه يظل يشد الانتباه ويحفز المشاعر، فسياقاته اللغوية ليست عادية، ثم هو في الحوار يركن إلى العامية شيئا كثيراً. وظاهرة العامية في السرد الموازي للحوار داخل السردية الموازية للشعرية قليلة جداً، ولكنها في الحوار بوصفه شكلاً لغوياً داخل السرد الإبداعي تبدو ظاهرة أسلوبية، ومسوغها عند المبدعين «واقعية اللغة»، وتلك حجة واهية، فالواقعية الشخصية قد تحتفظ بواقعيتها، وذلك بالتملس لغة بسيطة، ليست متقعرة، وليست مبتذلة، وهي التي نادى بها من قبل «توفيق الحكيم»، وتوفر عليها في مسرحه. وممن وقعوا في هذه الإشكالية من مختلف المراحل «أحمد السباعي»، «عصام خوقير»، «إبراهيم الناصر»، «علي حسون»، «فؤاد صادق مفتي»، «فؤاد عنقاوي»، «سيف الدين عاشور»، «عبده خال»، «عبد العزيز مشري»، «بهية بوسبيت»، وعشرات آخرون، ويجب أن نفرق بين الوقوع في العامية قصداً، والتعرض للأخطاء النحوية والصرفية، واللغوية والإملائية وركاكة الأسلوب ضعفاً، والمكابرة في القصد أخف منها في الضعف، والجنوح إلى العامية في السرد أو في الحوار لا مبرر له، فالإبداع لغة في الدرجة الأولى، ولا جمال مع اللحن والعامية ولاشيوع والعادية، وتلك المرحلة تفيض بكل عيوب اللغة، وفي الوقت نفسه تأخذ بأطراف من التميز في التركيز والتكثيف والإشارة والرمز والانزياح، ولكنه أخذ لا يطول ولهذا فاللغة تشوبها شوائب العامية واللحن والركاكة والضعف العام، إضافة إلى الترهل والإنشائية والعادية، والإساءة تتعاظم حين يخفق الكبار في اللغة.

وفي هذا السياق تأتي طوائف أخرى لم تبن من خلالها أعمالها القليلة عن فنياتها ومبلغها من اللغة والفن والموضوع، ولكنها تمتلك مؤشرات قوية على عمق همها وأصالة مواهبها، وإن اختلفنا مع طائفة منهم في بعض ما يذهبون إليه: فنيا ولغويا ودلاليا، نجد ذلك عند «أميمة الخميس»، ولها عملان قصصيان «مجلس الرجال الكبير»، «الضلع حين يستوي» ولها قصص أخرى نشرتها في بعض الصحف والمجلات. وهي تتماس مع «رجاء عالم»، ومع المتمردين على السوائد الفنية والدلالية، ولكنها لا تبلغ شأوهم، أو على الأقل لم تبلغ مبلغ «رجاء عالم» وحسناً أنها لم تبلغ. ومن العنصر النسائي الذي لم نشر إليه، ولما يكن حاضرات المشهد النقدي «جميلة فطاني» في مجموعتها «الانتصار

على المستحيل»، «جوهرة المزيد» ولها أعمال تنشرها في الصحف والمجلات، ولست أعرف ما إذا كانت لها مجموعة قصصية.

وممن تقترب كثيراً من «رجاء»، «أميمة» القاصة والكاتبة «زينت أحمد حفني» في مجموعتين قصصيتين هما «نساء عند خط الاستواء»، «قيدك أم حريتي»، ولها تجاوزات دلالية، قوبلت بالاستياء من ناقدات تحفظن عليها. ودون ذلك تأتي «شريفة الشملان» في ثلاث مجموعات قصصية منها «مقاطع من حياة»، والقاصة تمتلك براعة في التجريب، على غير هذه المهايع تأتي «فاطمة فيصل العتيبي» ومحاولاتها التجديدية تنحصر في لغتها المركزة الإشارية، ومحاولتها المتأنية للخروج من ضوابط الشكل، ولها مجموعة قصصية، تحت عنوان «دفء يديها»، ومن العنصر النسائي «فوزية الجار الله»، «فوزية البكر»، وفيما أعرف للأولى مجموعة قصصية، لا أعرف ما إذا كانت للثانية مجموعة مماثلة، ولكنها جاءت عرضا في كتاب «أدب المرأة في الجزيرة والخليج العربي».

وقد أشرت من قبل إلى كل من «قماشة العليان»، «قماشة السيف»، «مريم الغامدي»، «لطيفة السالم» ومن المخضرمات اللائي عشن مرحلة التأسيس، وامتدت به الحياة الإبداعية لمرحلة الانطلاق «ليلى الأحيدب»، «نجاة خياط»، «نجاة عمر»، «صفية عمر»، «هند باغفار»، أمل شطا»، «هدى الرشيد»، «منى الذكير»، «نجوى هاشم» و«نورة الغامدي». وتفصيل الحديث عن مشارب كل واحدة ومبلغها من الجودة ونصيبها من الإخفاق يخرج بهذا المدخل عن أهدافه، وهن متذبذبات بين الموهبة والاقتدار، والفعل والافتعال والتكلف والعفوية، والتجريب المتزن والاندفاع المنفعل، وقضاياهن تدور حول المرأة: تعليماً، عملاً، علاقات زوجية، عنوسة، طلاق، تعدد، وفاء وخيانة. وهن أقرب إلى الوعظية والإرشادية والاحتشام وإن ند بعضهن، وحين لا نرى مجالاً للأحكام العامة، ندع الباب مفتوحاً لمن شاء الدخول في عوالمهن.

وقد عرضت بعض الصحف ملخصا لدراسة عن القصة القصيرة في أدب المرأة السعودية، وهو كتاب من تأليف الأديب المصري «خالد محمد غازي»، والكتاب يقع في أكثر من مائتي صفحة تناول فيه الإنتاج القصصي للمرأة واتجاهات القصة القصيرة في أدب المرأة السعودية، واختار اثنين وعشرين نصا قصصياً، وعند حديثه عن الاتجاهات حصرها في «الوجداني»، «الواقعي»، «التعبيري» وقد أخذ على الرائدات «الوعظية»، «عدم المتابعة»، «الإقليمية»، «ضعف التكنيك»، والرائدات في نظره «سميرة الخاشقجي»، «أمل شطا»، «هدى الرشيد»، ولما يستبن ظواهر الاغتراب لدى «سميرة»، «هدى»، وقد تجلت آثاره في البعد الدلالي، أما المختارات القصصية فكانت لكل من «فوزية البكر»، «رقية الشبيب»، «أميمة الخميس»، «ثريا القرشي»، «منيرة الغدير»، «هيا الرشيد»، «فوزية الحميد»، «فوزية الجار الله»، «ليلى الأحيدب»، «وفاء الطيب»، «فاطمة الدوسري»، «جواهر عبد الله المزيد»، «قماشة السيف»، «فاطمة بن طالب»، «فاطمة العتيبي»، «سلطانة العبد الله»، «جواهر العسعوسي»، «نورة النايف»والمتابع للإبداع السردي النسوي يلاحظ أشياء مهمة، منها: أن الإبداع اقتصر على الأعمال القصصية القصيرة، وأن الهم متركز على قضايا المرأة وعلاقتها بالرجل، وأن النفس عند سائرهن قصير جداً، والحديث عن المرأة بوصفها قضية، وحديثها بوصفها مبدعة، وحديث المرأة عن ذاتها أو عن جنسها، وحديث الرجل عنها، كلها قضايا متداخلة ومهمة، وكم أتمنى فراغ الدارسين لانتزاع هذه القضايا، وتفصيل القول فيها.

«١» الاتجاهات الفنية للقصة القصيرة. ص ١١٢.

«١» دراسات في القصة السعودية والخلية العربي. ص ٨٧.

«١» لمزيد من المعرفة والتقصي لعالم السالمي القصصي راجع ما كتبه «محمود رداوي»، في دراسات في القصة السعودية والخليج العربي. ص ٨٥ - ١١٦.

مدخل لدراسة الإبداع القصصي والروائي والمسرحي في المملكة .. !

(١١) (١)

وعوداً إلى مبدعي تلك المرحلة الإشكالية، نجد أن من تتنازعهم مرحلة التأسيس والانطلاق الكاتب الرومانسي الجمالي عبد الله بن عبد الرحمن الجفري المولود سنة ١٣٥٨هـ الذي استهل بداياته السردية بأعمال قصصية ذات سمات فنية، ليست من السائد في شيء، وأكاد أجزم بانقطاعه عن الابداع القصصي، وإغراقه في العمل الصحفي اليومي المحترف. بدت طلائع نشاطه القصصي قبل خمس وثلاثين سنة بمجموعته «حياة جائعة» في مائة صفحة، وكان بحق عذرياً لا يبرح رحاب المرأة ومضاضة الألم، وقد اتهمه الدارس والناقد محمد الشنطي بالنمطية (١)، معولا في اتهامه على إطالته الوقوف في تلك المهايع على شاكلة الرومانسيين الحالمين.

ومما لا قبل لنا بنفيه أو تبريره ما ألفناه من بدايات المبدعين كافة. فالموهوبون منهم والمتعلمون يستهلون تجاربهم بأوسع القضايا وأخصبها وأكثرها تجاوباً وأقدرها على الجذب والإثارة والتأزيم، كقضايا المرأة العاطفية والاجتماعية. والجفري من الموغلين في هذا، ولغته الحالمة المتأنقة مكنت له في تلك المجالات، وهكذا فعل أترابه من كتّاب القصة والرواية في مطلع شبابهم، يطيلون الحديث عن الحب كما الشعراء العذريين، والحديث عن الحب قد ينفلت من إساره ليكون حديثاً في قضايا المرأة، ولست أشك في تأثير النظرية الفرويدية على جملة من المبدعين والمفكرين، ودخنها كما دخن «الرباء» فمقبل ومكثر.

ومع انفتاح السرديين على قضايا أخرى، تراهم يأخذون طريقهم إليها على جسر من النساء، حتى لقد شكك البعض في غايات الأبطال والفاتحين وصناع التاريخ ودوافعهم، وكأنهم جميعاً مهاجر أم قيس، وليس عنا ببعيد ما فعله «جرجي زيدان» في رواياته التي كان لها حضور فاعل في فترة من أخصب الفترات، ومع صليبيته الحاقدة سماها بالروايات الإسلامية. ونحن حين نتحفظ كما تحفظ الشنطي من قبل، وهو يتعقب المبدعين السرديين مجلياً علاقة البدايات بالمرأة لا نغفل ما يتميز به المبدع السعودي من حذر شديد، إذ إن البيئة المحلية بكل حساسيتها لم تمكن المبدع من الوقوع بما وقع فيه المبدعون في الوطن العربي من تهتك في الأخلاق وسوء في المقاصد، ولا يجوز التعويل على بعض الأعمال التي لم يتفق النقد بعد على فنيتها فضلاً عن مشروعية الفعل، وبدايات الرومانسيين تعويل غير سديد على ما يتداوله المشهد من أعمال رائدة، ومن ثم نجد علاقة تأثرية أو استلابية بين بدايات أولئك وتهالك إحسان عبد القدوس على فضائح الجنس، وإن كنت لا أستبعد إلماماتهم القرائية به كغيرهم من شباب جيلهم ممن استهوتهم اسفافاته، بحيث وجدوا فيها ما يدغدغ مشاعرهم المتولهة. والجفري باعترافاته كفانا مؤونة التخمين حين اعترف بتأثره بوجدانيات مصطفى صادق الرافعي ورسائله في الحب والتوله. والرافعي كتب ما كتب عن حب من طرف واحد، لقد أحب «مي زيادة» ولم تبادله الحب، بل أشفقت عليه، ورقّت له، بسبب عاهة الصمم وقبح الصوت وتصابي الشيوخ، وصرفته بلطف، كما صرفت غيره من عمالقة المرحلة و«صالون مي» من حبائل السوء، ولا عبرة بالإسباغات التي أضفاها الدارسون، وبخاصة الدارسة «سلمى الحفار». وهذه العذابات التي تعرض لها الرافعي تمخضت عن رسائل وقصص حب صارخ كـ«حديث

---

(١) تاريخ المقال: ١٢/ ٦/ ٢٠٠١

القمر» و«السحاب الأحمر» و«رسائل الأحزان» وهي التي تعلقت بها ناشئة مصر والوطن العربي، قبل أن تكون الأعمال القصصية المتفحشة عند مشاهير الروائيين.

والجفري الذي مازال متحملاً لقسط كبير من هموم المرأة وقضاياها، أخذته أحداث جسام، ألمت بأمته، فحملته على النهوض ببعضها عبر شخوص آخرين، ليسوا كشخوص بداياته، لقد صدمته الأحداث، ولم يكتف بالصراخ المتشنج في وجهها، بل راح يتأمل ويستبطن، ويحلل ويفكر، وبدت شخصياته نخبوية، وليست من الدهماء ولا الشبقيين ومطاردي المرأة، ولكنه خرج من إسار الابداع وفعالية الفن إلى فضاءات السرد الموضوعي، ولما يعد - فيما أعلم - إلى مطارح الابداع وله أكثر من خمسة عشر عملاً، من أهمها أعماله القصصية، ومنها: «حياة جائعة» و«الظمأ» و«الجدار الآخر»، «جزء من حلم» و«برق لجنون المهرة» وكلها مجموعات قصصية.

ومع الأداء المتواصل، لم تحظ أعماله بدراسات منهجية، تكشف عن أدق خصائصه، وما هي إلا إلمامات وصفية اشارية، تتعقب بعض اصداراته، ومنها ما كتبه الأستاذ سباعي عثمان في مقدمة انجزها لكتابه «لحظات» وما كتبه الأستاذ أحمد المهندس في تعريفه بالمجموعة.

والجفري الذي يعيش حضوراً مكثفاً في كتابة المقالة الصحفية من حيث البنية والاسلوب وتعدد القضايا، يرتبط بالخصوصية الاسلوبية ذات الطابع الفني، ومن ثم فهو لا يفرق في أسلوبه الايقاعي المتأنق بين الابداع القصصي وكتابة المقالة الصحفية، ولأن الجفري يعتمد على التحصيل الذاتي، إذ لم يكمل دراسته الجامعية - فيما أعلم -، فقد بدت بصمات مقروئة واضحة، لا من حيث البناء واللغة فحسب، بل وفي المضمون. وقد أشار في لقاءات أجريت معه في بعض الصحف والمجلات عن قراءاته، وعن عمق تأثره بالرافعي، وذلك بالطبع في مطلع حياته، وإذا كنا لا نستبعد المحاكاة الاسلوبية والموضوعية في مجموعته «حياة جائعة» أو قل التناظر والتناص، فإننا لا نفكر في توقع استمرار هذه المحاكاة، لقد شب عن الطوق، وامتاز بنكهة خاصة، يعرفه بها المتابعون لتحولاته البطيئة، والجفري يمتلك موهبة قصصية من اليسير جداً استجلاء مبلغها من الجودة ومستواها في سياقها الفني والزمني، والدكتور «سحمي الهاجري» الذي درس القصة القصيرة في المملكة دراسة أكاديمية، لم تتح له إمكانياته إذ ذاك على الأقل تقصي إبداع الجفري، ومن ثم اقتصر على الاشارة لمجموعته الأولى «حياة جائعة» دون ان يقدم أية دراسة حولها، وقد أشار بما لا غنى فيه إلى قصصه اللاحقة مثل «في نفسه مرض» و«الزهرة الذابلة» و«عودة إلى السجن المحبب» بحيث لا يزيد مجموع ما قاله عنه على سطر واحد، وهو قول لا يغني ولا يقني، ويبقى الجفري حتى هذه اللحظة في منأى عن الساحة النقدية التطبيقية، وليس شرطاً ان نتفق معه أو نختلف، المهم أنه يشغل حيزاً في المشهد الأدبي، لأن له اسلوبه المتميز وقضاياه المتعددة وحضوره المتواصل، ومن حقه وحق المشهد الأدبي أن نقول فيه ما نرى، وأن نرد إليه ما لا نرى، فالكاتب الذي لا يرفع قلمه عن ورقه، يحتاج إلى وقفات عازمة جازمة.

ومرحلة الانطلاق مثيرة ومحيرة لأنها ليست على وتيرة واحدة، وحصرها ضمن خصائص معينة اجحاف بحقها، انها تفيض بالعديد من الاتجاهات والمستويات والمبادرات والمحاكاة، وهي كما النقد المواكب، لفيف من الخلطاء الذين يبغون على بعضهم، في وقت ضاعت فيه الكفاءة في زحمة الأدعياء، وفقد التأصيل، وانعدمت المبادرات، واستفحل التنافخ، وتعمد بعض الإعلاميين التعتيم على المؤصلين المقتدرين الذين لا تأخذهم بالحق لومة لائم. ومما يؤخذ على تلك المرحلة فقد التجانس، فالذين اتخذوا طريقهم صوب السرد الحداثي بكل تقنياته اللغوية والفنية أوغلوا في الإغراب

والانقطاع، ولما يكن أحد منهم على شيء من خصوصية المشهد المحلي، الأمر الذي حمل بعضهم على نشر أعماله خارج البلاد، وقد لا يكون الخروج في الفكر وفي السلوك وفي الموقف من الأشياء وحسب، وإنما يكون في الفن واللغة، وحينئذ ينقطع المبدع عن وسطه، وهذا الإيغال شايعه ايغال مماثل من النقاد الذين وصلوا حبالهم بحبال النقاد المغاربة، فكان الحديث استعراضاً لذات الناقد، وتجريبا فجا للآليات والمناهج، ومن هنا نجمت مناهج ومذاهب وآليات لم تكن معروفة من قبل، وكان من أنداها صوتا «النقد اللغوي» بكل تنوعاته وتحولاته ومصطلحاته ومترادفاته، والمبدعون الذين أشعرهم النقاد بأن النص لغة، تعلموا الأغراب اللغوي في المفردة والجملة والعبارة والاسلوب، وكدنا نعود إلى ظاهرة «المقامات» ولما لم يكن المستجيبون لهذا الاهتمام اللغوي على شيء من المعيارية النحوية والصرفية والثراء اللغوي فقد جاءوا بالعجائب، ولعلهم يعودون إلى سالف عهدهم، بعد أن خفت حدة «النقد البنيوي» وطرح مشروع «النقد الثقافي» وهو منهج عائم لا يهتم ببنية النص. ودون هؤلاء «المتحدثين» في القول من لم يكونوا حداثيين، ومما يؤخذ على هذه الطائفة تكاثرهم في مستويين لغويين: المستوى المتوسط أو ما يسمى باللغة الثالثة، والمستوى العامي، وبخاصة في الحوار. و«المتحدثون» لغويا لا يجدون بأساً من الركون إلى العامية، ومن ثم نجد أن مرحلة الانطلاق تقترف خطيئة العامية والاقليمية، ولأن العاميات ذات انتماء اقليمي فإن «ابراهيم الناصر» ركن إلى العامية الحجازية، فيما ركن «عبده خال» إلى العامية الجازانية، واتجه «عبد العزيز المشري» صوب العامية في «السرات»، وجاءت عامية نجد وعاليتها وأعماق الشمال على أسلات قصاص وروائيين لا تحصي لهم عدداً، وإذا كانت اللغة تتعثر بالبساطة والوضوح والشيوع والعامية، فإنها تترهل وتطول، ولا تكون مثيرة بهذا الشيوع والعادية واللحن معا عند الأكثرين. وقلّ ان تجد لغة جزلة فصيحة نقية مقتصدة في الأعمال السردية، وقلّ أن تجد قاصاً أو روائياً عميق الثقافة شمولي المعرفة، تجد الموهوب والمتأدب، وحين تظفر بالعميق الشمولي لا نجد عنده الموهبة وإنما هو اقتدار ومواطأة نقدية. والنقاد الذين قلدوا المغاربة في النقد البنيوي، شدوا انتباه المبدعين المبتدئين إلى أهمية اللغة، وحملوهم على التعمل والإغراب، وما فعلوه أو ما فعله أكثرهم تطبع لا طبع.

وما يقال عن اللغة يقال عن الصورة الفنية، ومجيئها وصفية مفردة عادية هو الغالب، وقد تكون مركبة أو مجردة: حركية أو ثابتة، ولكنها نادرة عند مبدعي مرحلة الريادة والتأسيس. ومثلما نجد الاقتدار اللغوي والصورة التقليدية عند جيل الرواد والتأسيس نجده أيضاً عند جيل الانطلاق، وعند المخضرمين منهم، والاقتدار الموازي للموهبة، يختلف عن الاقتدار اللغوي، ولا شك انه يغري الأكثرين ويحفزهم على ممارسة الكتابة الروائية والقصصية والشعرية، ولا يكشف الفرق بين العمل الابداعي الناتج عن الموهبة والناتج عن صناعة فنية وقدرة كتابية وامكانيات ثقافية مع جرأة وغفلة أو مجاملة من النقاد، لا يكشف ذلك إلا النقاد الذين يمتلكون ذوائق سليمة وامكانيات نقدية، ثم لا يخشون من قول آرائهم، ولا يقطعون بصحة ما يقولون. وهذه الطائفة من النقاد موجودة ولكنها مترددة في الافصاح عما تعتقد مجاملة أو تقية، وأحسب أنه لا يعيب المقتدر أن يقال له: إنك لا تحمل موهبة، والله يقول عن رسوله ﷺ: «وما علمناه الشعر وما ينبغي له»، ومن ثم فالرسول ﷺ لا يحمل موهبة الشعر، ولا يعيبه ذلك، ونحن أحوج ما نكون إلى دارسين يخوضون غمار تلك الأعمال، ويكشفون عن مخبوءاتها اللغوية والبلاغية والفنية والدلالية، ويفرقون بين صناعة الاقتدار وبراعة الابداع العفوي، إبداع المواقف أو إبداع التزيد. وتعويد المبدعين على التقريظ والثناء يخلق عندهم أخلاقيات تحول دون قبولهم بالمناصحة والتعليم، والشعراء والروائيون الذين شغلوا المشاهد لم يتفق النقاد على تألقهم، ولم يعبهم

تردد الحاسدين والناصحين في قبول ابداعاتهم. والمشاهد الثقافية لا تتألق إلا باختلاف وجهات النظر والاشتغال بالقضايا دون الأشخاص.

وإذا كان الدارسون قد تناولوا أصحاب المجاميع القصصية فإن عدداً من المبدعين الذين لم تجمع أعمالهم يستحقون وقفات عازمة جازمة، تحفزهم على مزيد العطاء ومزيد المراجعة، نذكر من هؤلاء «جبر المليحان» و«حصة العمار» و«حصة التويجري» و«سلطانة العبد الله» و«صالح الأشقر» وقد علمت فيما بعد أن له مجموعة قصصية، لم أرها بعد، كما أن هناك مبدعين لهم مجموعات لا أعرف عنها شيئاً، ومن حقهم على المشهد النقدي أن يدخل بهم دوائر الضوء، ليأخذوا نصيبهم، ومن أولئك «عبد الله السحيمي» و«صالح السروجي» وغيرهم.

وعند مشارف النهاية من الحديث عن الرواية والقصة وبداية الحديث عن المسرحيات السردية، والسير الذاتية وأدب الرحلات نود الاشارة إلى أن ما نراه لا يكون بالضرورة مصادراً لرؤية الآخرين، والأمل أن يكون حافزاً للمداخلات الموضوعية التي يكون هدفها إحقاق الحق، والذين لم نوفق في انصافهم من حقهم ان يدفعوا قولنا، بالتي هي أحسن، والذين لم يحالفنا الحظ في الاطلاع على ابداعاتهم، ولم نشر إليهم، من حقهم أن يطرحوا أنفسهم، فالمشاهد الثقافية تقترف جريرة الاهمال، والملاحق الأدبية مصابة بداء الشللية، والمبدعون الواعدون يشكون من الاهمال، وعدم توفر المادة لدى الناقد والدارس تعرضه للتقصير غير المتعمد. وما قلناه لا يعني الحديث المستكمل لكل الابداع القصصي والروائي وإنما هو مبلغنا من العلم ليس غير.

*ملاحظة: سوف أرجئ الحديث عن السرد المسرحي، والرحلات والسيرة الذاتية إلى حين اكتمال الدراسة فمعذرة للمتابعين ..

هوامش:

(١) ٣٣٤من كتاب في الأدب العربي السعودي.

إضافة معرفية .. ! [(١)]

الحضارة أي حضارة نزلت مبادئها من السماء أو انشقت عن مشروعها الأرض، لا يقوى جانبها إلا بالكلمة المؤثرة والسلاح الرادع أو بأحدهما، ولهذا قيل: في البدء تكون الكلمة.

وكان أول لقاء بين السماء والأرض: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١] .

والمعجزة الخالدة قرآن عربي غير ذي عوج، والمشركون الذين بهرتهم بلاغته تواصوا باللغو وعدم السماع، فالكلمة الطيبة البليغة تفعل فعل السحر، وفي الحديث: «**إن من البيان لسحراً**».

ولأهمية الكلمة جاء الحث على تنقيتها وسلامتها:

﴿وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [الحج: ٢٤]، ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠]، ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ [محمد: ٢١]، ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، ﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: ٩]، ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣] .

والكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة فيها ثبات الأصول وسموق المعاني.

والمجاهدون في الله حين يتخذون الكلمة سلاحاً يتحرفون للمواجهة فمنهم العلماء الواعظون، والأدباء المستميلون، والشعراء الممتعون، والأثرياء المنفقون.

والعالم الإسلامي موبوء بالكلمة الخبيثة تجتاحه عبر قنوات الإعلام: المقروءة والمسموعة والمرئية، والعلمانيون والحداثيون يجتالون الأبرياء الآمنين كما الشياطين، ووسائل الاتصال وشبكات المعلومات وتماكر الغزو والتآمر تحتنك الأمة بساقط القول وكلمات التشكيك والكفر، والصراع اليوم صراع حضاري لا عسكري.

والتراث العربي مليء بالدرر والعبر والحكم التي تهذب الأخلاق وتزرع القيم، وتشيع الفضائل وطوفان الماديات كاد يهمش التراث، ويطمس كنوزه، ويحل محله رديء القول وساقط الفن، وتراثنا بحاجة إلى من يعيده إلى مشاهد الثقافة ومؤسسات الإعلام، ليعيش حضوره المشروع، عبر الدراسات والمختارات والتحقيقات والمنابر والمنتديات والكتب والمكتبات ومثل هذا الفعل الحضاري همُّ النبلاء المسكونين بحب النصيحة لله ولرسوله ولعامة المسلمين وخاصتهم.

وفي هذا المساء المبارك، ينوب المربي القدير الشيخ عثمان الصالح عن أدباء البلاد ومفكريها بتكريم مجاهد بماله وجهده ووقته، أنعم الله عليه بالمجد العريق. والجاه العريض والمال الوفير، فعرف حق الله، وحق الناس، وحق القيم العربية والإسلامية واتخذ طريقه محتسباً الأجر على الله، شاكراً لأنعمه.

وصاحب السمو الملكي الأمير مشعل بن عبد العزيز الذي كانت له مبادرات إنسانية دينية وأخلاقية جدير بأن يحتفي به العلماء والأدباء والمفكرون ليكون في مبادراته قدوة للمصلحين وحافزاً للمتثاقلين ومثلاً أعلى لمن أفاء الله عليهم بوافر نعمه.

---

(١) تاريخ المقال: ٢٨/ ٤/ ٢٠٠١

إن تبني سموه الكريم لهذا المشروع دليل على وعي حصيف بمتطلبات المرحلة، ذلك أنه لم يكتف بأسلوب الوعظ والإرشاد والتحذير، بل أنجز موسوعة ثقافية استمدها من تراث الأمة، لتحتل موقعا يليق بالقيم الأخلاقية، وأرسل سموه الكلمة الطيبة لتزاحم بمنكبها الخطابات المتعددة، ومن الصدف العجيبة أن سموه حارب تسمم الأجسام بأجهزة الغسيل، وتصدى لتسمم الأفكار بتجميع القيم وجعلها في متناول الأيدي.

ومشروع الموسوعة يتخذ طريق الفعل، معترضاً سبيل الكلمة الخبيثة، والذين تعمدوا إفساد الأخلاق بمعسول الكلام، وجدوا أنفسهم وسط عبق الكلمة الطيبة، كي تفسد عليهم مشروعهم التخريبي، وتحاصر خططهم، وتنازعهم المشاهد، وتأخذ بحجز المتهافتين على الرذيلة.

لقد شرفتُ بقراءة بعض أجزاء الموسوعة بوصفي محكماً، وتبين لي أنها مشروع ثقافي، يهتم بالقيم العربية والإسلامية، وسعت آلاف الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والأمثال العربية، واشتملت على آلاف الأبيات الشعرية، ونقبت عن هده الدرر في آلاف المراجع، وجند لإنجازها مئات الدارسين والمصححين والمراجعين والمحكمين، واتسعت لأكثر من خمسين قيمة أخلاقية في اثنين وخمسين جزءاً، درست بآليات ومناهج، وعبر خطط محكمة، فكانت بحق إضافة معرفية أورثت علماً ينتفع به، كما الصدقة الجارية، وهذ العمل الجبار حققه الإنفاق السخي والمتابعة الجادة. وأثرياء العالم الكافر ينفقون أموالهم في سبيل البحث العلمي ودعم المؤسسات الخيرية، مع أنهم لا يرجون من الله ما يرجوه أهل الدثور من المسلمين ونحن أحق منهم بالإنفاق.

واحتفاء الصالح بالممول لهذا المشروع الحضاري يعد نيابة عن كل مواطن لا تسعفه الظروف للتعبير عن مشاعره وبلادنا التي أسس بنيانها على التقوى بادر ولاتها إلى إشاعة الثقافة الإسلامية فكان لخادم الحرمين الشريفين مجمع لطباعة المصحف الشريف، وكان لعضده الأمين مكتبة الملك عبد العزيز العامة، ورعاية الموهوبين، وكانت لنائبه الثاني «الموسوعة العربية العالمية» وعلى الموسرين مبادرة الإنفاق قربة وابتغاء لوجه الله، لا مغرماً، وبدون منّ، فالمال مال الله الذي آتاهم واستخلفهم فيه، فواجبهم المبادرة بالتنفيذ أو بالرعاية أو بالوقوف على المشاريع، قبل أن يحال بينهم وبين أموالهم بكف الأيدي أو بالوفاة، والأمثلة حية ومؤلمة والله يقول: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ [المنافقون: ١٠] ومال الثري ما أنفق، لا ما أبقى للوارث.

وإذ نبارك نجاح هذا المشروع، نمتد بالشكر والثناء والإكبار لفريق العمل الذي نهض بالمهمة على أحسن وجه، وأنجزها بأمانة واتقان، وآخر قولنا مساءلة الله: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ١٠]، ﴿هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [محمد: ٣٨]، ووعده ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: ٧] .

مرافعة من أجل البلاغة العربية .. ! (١) [(١)]

إن كان ثمة مرافعة. فإنها من أجل البلاغة وضد البلاغيين، وليست ضد البلاغة، وليست ضد كل البلاغيين. بل هي ضد الوقافين منهم عند منجز المتنطعين، الذين لا يتحرفون لجديد ولا يريدون لغيرهم أن يتحرفوا.

فالبلاغة العربية تراث مجيد، كانت قبل تجليها بوصفها نظاماً انضباطياً استكشافياً وقدرة ذوقية كامنة في ذائقة العربي كمون السقط في الزند، يُجليها مثلاً حياً بيت أو خطبة أو مثل أو حكمة أو إصلاح بين الناس. ولهذا كان النص الإبداعي: حكمةً وسحراً.

كما في الصحيح، يستثير السامع، ويستهوي المستمع، ويستميل الشهيد، ثم يقنع الجميع، بل يهزهم طرباً. وقد تبلغ الكلمة مالا يبلغه السيف المصلت، ومالا يحققه المال المبذول، ومالا تظفر به القوة الشجاعة. وكم كلمةٍ أطفأت فتنة، وأغمدت سيفاً، وحقنت دماً، وألفت بين قلوب متنافرة.

والبلاغة والفصاحة والبيان في ضوء ذلك روح تسري في جسم الإبداع العربي، تنثال حلاوتها في ذائقة السليقي، حتى لا يقدر على التعبير عنها وصفاً يجسد حقيقتها. ومثُلنا في ذلك القرآن الكريم، لقد فر من سلطان بيانه من قضى الله بشقائه، واستمال بفصاحته من قدر الله هدايته. ولهذا تواصى المشركون قائلين، كما حكاه الله عنهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦] فحين غَشِيَ بيانُهُ الجبارين والمتكبرين، ألان قلوبهم وكسر جبروتهم، وطامن كبريائهم، وغمرهم بنفحات الإيمان، حتى لم يكن أحد منهم فظاً غليظ القلب بل أخذه اللين وملأته الرحمة وأفعمته المودة، وصار صحابة رسول الله ﷺ أسوة حسنة وكأنهم مصاحف يمشون في الأسواق في خُلقهم وفي بيانهم. وما كان إسلام بعض الصحابة إلا بعد أن سمعوه مرتلاً من أفواه السابقين، والرسول الكريم ﷺ قال: «**بلغوا عني ولو آية**».

وبلاغة النص تتراءى فيه كالنور، وتسري في ثناياه كالعبق، وتذوب في أوصال الإنسان كالماء يسري في العروق الصائمة، فيبلها بعد جفاف، ويلينها بعد تصلب، وكالسِّنة أو النوم يدب في الأعصاب فيذهب عنها الإعياء. فإذا قيل لك ما البلاغة؟ أو ما الحب؟ أو ما الجمال؟ أو ما الشعر؟ تعطلت لغة الكلام، وتخاطبت المشاعر بلغة أخرى سمها لغة الهوى أو السحر.

فالبلاغة والحب والجمال والشعر والسعادة فوق التعريف وخارج التحديد. وما المصطلح أو التعريف إلا تقريب للمعنى المراد، كالإشارة نحو الأفق السحيق تومئ إلى الجهة ولا تحدد الذات.

والذين اجتذبوا البلاغة من هلامياتها إلى القاعدة والمثال والمعيار، كالذين أعياهم تحديد الجمال، فحولوه إلى طول وعرض وسمك ولون ورقة ووزن، ولجؤوا إلى الموازين والمكاييل والمقاييس، يذرعون فيها الرقاب والأذقان والأفخاذ والسيقان، ويزنون الأجسام، ويكيلون الأحكام، وفاتهم أن الجمال حالة نفسية، تعرو الإنسان شعوراً غائراً في الأعماق، ولا تتجسد في الحس، وإنما تتراءى فيه، كما يتراءى لك طيف الخيال مجموعة من الأطياف تتصورها، وكأنه نتاج المودة والرحمة التي يجعلها بارئ النسمة بين الزوجين ليعمر الكون.

(١) تاريخ المقال: ٣/ ٧/ ٢٠٠١

تلك في نظري هي إشكالية البلاغة ومعضلة البلاغيين، إنها جزء من العالم «اللامحسوس»، أردنا تجسيده للتعليم والتقريب، فانصاع معنا جسماً، وذهبت روحه ترف من حولنا، فبقي معنا الجسد بهموده وجموده، وطافت حولنا روحه تحمل سر البلاغة ودلائل الاعجاز، ولا يتصور جمال النص وإعجاز البيان إلا الموهوب المتذوق، وكم رقص الملوك بين يدي الشعراء طرباً وإعجاباً كما فعل عبد الملك بن مروان مع جرير، والذين اتخذوا البلاغة بأمثلتها وقواعدها المبتسرة من السياق، ثم لم يبرحوا ذلك إلى فضاءات النصوص كمن أطلوا من ثقب ضيق على حديقة غناء، لقد عزلوا أنفسهم عن مطارح البلاغة ومنابتها، وارتهنوها في نتف لا تسمن ولا تغني.

إشكالية البلاغة كإشكالية المعروف الذي لا يعرف، نشتغل بالمحاكاة، نجسد اللامرئي بالمرئي، واللامفهوم بالمفهوم، واللامتصور بالمتصور، ننتزع جملة من سياق آية، أو بيتاً من بناء قصيدة، كما ننتزع أنفاً أو عيناً من جسم جميل، نغرس فيه مشارطنا، ونعمل فيه أدواتنا، نغوص في بنيانه، ونهد أركانه، وما سر جماله إلا بالبناء، وما روعة بهائة إلا بالتلاحم والتماسك والتناسب والتناسق. هذا التقويض بعض ما وقع فيه البنيويون حين فككوا بناء النص، أو التشريحيون حين شرحوا نسيجه، أو التقويضيون حين فرقوا بين لبة وأخرى ظناً منهم أنه بناء أو نسيج أو تركيب، وهو كذلك، ولكن البناء والنسيج كما النمو العضوي في الأناسي أو في النوابت، لا يمكن السر في طياته، وإنما تكمن عظمة الصانع. والتفكيكيون، والتشريحيون والتقويضيون يفعلون ذلك في سبيل الوصول إلى نوع العلامات وماهية العلاقات كما الأطباء الذين يبحثون عن سر الحياة وما هي إلا الروح، والروح من أمر ربي وما أوتي أحد من العلم إلا قليلاً. والتفكيك والتشريح اللذان لا يعيدان النص إلى خلقه السوي، يذهبان البهاء ويعيدان اللبنات إلى أصلها قبل ممارسة الخلق الإبداعي، بحيث لا تكون حية، يضع الناقد يده عليها فيراها في علاقاتها الجديدة.

إذاً فالبلاغة آليات تبحث في الجمال عن الجمال، أو هكذا يجب أن تكون، إنها مجموعة من المقاييس المتكلفة الصنع. ولما كان الجمال اتساقاً وتناسقاً أصبح من العسير جداً تناغم المقياس مع المقيس مع أنه من الضروري استخدام تلك الآليات للتقرب من سر الجمال العصي المنال.

ومعضلة البلاغة المعيارية أن المقياس ثبوتي، والتناسق بين أجزاء البناء الحسي أو المعنوي حركي مغاير، ولا تلاؤم بين السكون والحركة.

ولهذا تظل البلاغة بمقاييسها في سباق متعثر مع المتغير. ولما لم يكن هناك جرأة ولا شجاعة في تغيير الثبات المعياري البلاغي، ظلت البلاغة في معزل عن النص الحركي، وظلت في معزل أيضاً عن آليات النقد الحديث المتداخلة معه إلى حد التوحد.

وإذ لا نجد حاجة إلى إثبات تداخل آليات النقد مع آليات البلاغة، أو إثبات أن آليات البلاغة بعض آليات النقد، نجد أن كلاً من النقد والبلاغة متمايزان إلى حد التنابذ، وهذه الجفوة المفتعلة تركت فراغاً لدى البلاغيين والنقاد معاً، وأدت بالتالي إلى تحبيس آليات البلاغة، وتهميشها في المشهد النقدي التطبيقي. فناقد اليوم أخذته مناهج اللغة وآليات التفكيك والتشريح والتحويل والتناص وأنواع النصوص، حتى لم يعد شيء في النص أهم من اللغة، ولم يكن للبلاغة وآلياتها وإجراءاتها ذكر في العملية النقدية، والدارسون لها والمدرسون والمنفقون عليها لا يجدونها معهم بوصفها آلية كما يجدون النحو والصرف والعروض وعلم اللغة وسائر آليات النقد وأدواته، وحين لا تكون حاضرة المشهد فلماذا كل هذا الاحتفاء؟

والبلاغة والنقد صنوان، فيما يعتمد البلاغيون أن يكونا غير صنوان مما أدى إلى استبطان الشعور بالمركز والهامش، واندفاع الاتجاهين إلى ادعاء المركزية وتهميش

الآخر. والسبب في كل ذلك الرؤية الخاطئة التي تتعمد التمييز بين الناقد والبلاغي، وهي التي نجدها ماثلة في أروقة الجامعات، وكأننا بسبيل تفتيت الوحدات، وتفريق الجماعات، والأمر من الاتحاد بحيث لا يتسع للتعدد. لقد أسهمت المناهج الأكاديمية في تعميق هذه العزلة الافتراضية، ذلك أننا نجد أنفسنا أمام قسم للبلاغة، وقسمٍ للنقد الأدبي، ونبحث عن مسافةٍ وهمية بين النقد والبلاغة فلا نجد، وإذا قبلنا بقسم النحو والصرف لحيثيات معقولة ومقبولة ومعروفة فإن القبول بالتفريق بين النقد والبلاغة يحفزنا على القبول بقسم للخط، وآخر للإملاء، وثالث للعروض، وماذا علينا لو دمجنا القسمين ووضعنا البلاغة في حجمها الطبيعي بوصفها آلة نقدية، فالعلاقة بينهما علاقة عموم وخصوص، فالنقد أعم لأنه يشتغل في النص وفي مكوناته وبتاريخه وبمبدعه، بينما تنكفىء البلاغة لا على النص جملة بل على جزئياته المقطعة الأوصال، متخذة مصطلحات التشبيه والاستعارة والمجاز المرسل ومالا حد له من مصطلحات تقام على كل جملة وفي عقب كل بيت، تنتزع كلمة أو جملة وتقصر عن العبارة والأسلوب، ثم تقول إجراءً نمطياً مكروراً، لا تبديل فيه، ولا تعديل. على أن النقد في بعض تحولاته البنيوية انكفأ على النص مميتاً ما سواه، ولكنه انكفاء يأخذ النص كله لا بعض جمله، كما تفعل البلاغة، وهو ما يوصف به الفعل النقدي بين التعالي والكمون، التعالي فوق النص، والاشتغال بما قبله أي بمنتجه والمؤثر في المنتج، أو الكمون داخل النص، ونفي ماهو خارجه. والعملية النقدية إما أن تكون: درساً تاريخياً للنص، أو درساً بنيوياً للنص، أو درساً بعدياً لأثر النص، وهو ما يمكن أن نسميه بالأدب المقارن، والدرس الكموني للنص إما أن يكون: لغوياً أو شكلياً أو موضوعياً.

والبلاغة اليوم وقبل اليوم كمٌّ من المعايير والمقاييس يُعرض عليها كم من الأمثلة والشواهد المبتسرة المعادة المحددة التي لا تستبدل، وما أظن البلاغيين الأوائل حفيين بهذا الأسلوب السكوني النمطي.

فالمعيار هو المعيار كما أنشأه الأوائل والشاهد هو الشاهد كما ساقه الرواد والإجراء هو الإجراء كما حكاه الأقدمون حفظنا كل هذا قبل أربعين عاماً.

وحفظه أساتذتنا قبل ذلك، وأقرأناه أبناءنا اليوم كما هو، وسيقرئه أبناؤنا لمن لم يأت بعد، وإذا قيل للراكدين في قعر المنجز التراثي: تعالوا إلى كلمة سواء في شأن البلاغة. قالوا: إنا وجدنا سلفنا على طريقة، ونحن على آثارهم سائرون، وما هو قائم لمجرد التعليم وتقريب البلاغة، وليست البلاغة ما تشاهده أو تقرؤه من مثال أو إيضاح أو قاعدة أو تمرين. هذه مجرد عينات تقرّب البلاغة إلينا أو تقربنا منها، ولا تقدمها بكل تفاصيلها، وتلك تعلات تروض جموح الطامحين إلى حل جذري لإشكالية البلاغة وكسر متعمد لحدة تساؤلاتهم. ولأن الساحة تكتظ بالإبداع، وتمتلئ بالمقاييس والمعايير والمذاهب النقدية، ولأن النقاد يتفاعلون مع النصوص في غياب تام للبلاغة وعلمائها وطلابها الذين لا يعرفون إلا حفنة من الأمثلة والشواهد الثابتة وتاريخاً للبلاغة ورجالها، فإن على سدنة البلاغة أن يكسروا قيودها ويتركوها تدخل المشهد، كما النقد، وكما النحو، وكما الآليات المتعددة.

فأين البلاغة الحقة؟ وأين آلياتها من النص الحديث: قصيدة، أو قصة، أو رواية؟. وما نصيب النص الحديث من آليات البلاغة؟ وهل يمتلك الأستاذ اليوم وطالبه إقصاء الشاهد التراثي والنص القواعدي، ثم يمارسان الاشتباك المباشر والمقتدر مع النص الحديث؟

وفي هذه الأجواء التي غابت فيها البلاغة الإجرائية، هل نقول: بأن البلاغة احترقت، وعقمت لمجرد أنها لا تتخطى فصول الدرس ووسائله من سبورة وكراسي؟. ونقول: إننا

بفعلنا النمطي الكوني ندرس تراثاً، ولا نشكل وعياً جمالياً، ولا نهيىء آليات أسلوبية لاكتشاف سر الجمال في نص أدبي لم يأت بعد؟ أم نقول: بأن حماة البلاغة هم قاتلوها.

رما يقال: إن البلاغة نشأت لمواجهة نص مقدس، هو النص القرآني، فحين فرغت من تشكيل موقف«المعتزلة» و«الأشاعرة» من آيات الصفاة، وقفت حيث هي. وربما يقال وقد قيل بالفعل: إن بلاغة اليونان نفذت إلينا. فلم تستطع بمعياريتها أن تركض في شرايين النص المتجدد، وهنا تتابعت الأقاويل حول نشأة البلاغة ومجالاتها، ولك أن تقرأ بعض ذلك في كتاب «البلاغة تطور وتاريخ».

ولسنا معنيين في تحرير الهدف العقدي، أو المصدر اليوناني. إذ المهم عندنا تفعيل البلاغة وآلياتها لتواكب حركة الأدب والمؤاخاة إلى حد الدمج مع النقد الأدبي لتأخذ مكانها في المشاهد الأدبية، التي حرمت منها، فيما أخذت أوسع الأمكنة في كليات اللغة والآداب.

مرافعة من أجل البلاغة العربية .. ! (٣) [(١)]

لقد أضر الكلاميون بالبلاغة حين أقحموها في الجدل والمنطق، وصرفوا نظرهم عن كشف أسرار الجمال البياني للمتعة. وأضر الراصدون لعلوم البلاغة حين انساقوا وراء ما يمكن تسميته بالرياضة الذهنية والاغراب، كما أضر المدرسيون بالبلاغة حين أثقلوها بقيود الدرس المؤطر، وهذا الميل الذي جعل الجانب الجمالي كالمعلق منطق البلاغة وعقلنها، وربطها بالأمثلة الجافة والجدل السوفسطائي العقيم، وأغرق في التقسيم والتفريع في كل علوم البلاغة، حتى لأكاد أتصور أن لكل مثل قاعدة ولكل بيت مصطلحا، واقرؤوا ان شئتم عمدة ابن رشيق (ت ٤٦٣) أو الطراز للعلوي (ت ٧٤٩). واستمعوا ان شئتم الى أساتذة البلاغة من قبل ومن بعد، فإنكم ستستمعون الى محفوظات متوارثة.

إننا حين نطالب بتحرف جديد ينقذ البلاغة، ويحقق تفعيلها لا نرغب الفرار من التراث ولا النيل منه، ومن قرأنا بهذا المفهوم فقد ظلم نفسه بافترائه علينا، إننا نريد استحضار التراث العظيم بكل المقاييس لمواجهة المستجد والتفاعل معه والاشتغال به، إن الالتفاف بالتراث غير الالتفاف حوله. وحب التراث غير الاكتفاء به، واشكاليتنا تقوم على الانقطاع له أو الانقطاع عنه، أو على تقديسه، أو نفيه، وعلى كل المستويات وفي كل الاتجاهات ليس هناك وعي إلا في القليل النادر، وهذا الذي أضر بالتراث، فالمقدسون له جمدوه وجمدوا معه، والمنتهكون له ذوبوه وذابت خصوصيتهم، ونحن بحاجة الى من يرجل بالتراث ولا يرحل اليه يفعله ولا يفعل من خلاله.

والذين لا يملكون غير الاجترار يتهمون المجددين بالتنكر لتراثهم، وأمجاد أمتهم، والذين لا يملكون شيئا من التراث يتهمون الواعي للتراث والمعاصرة بالجمود، وهكذا ضاع المقتدرون الواعون بين جامد يكرر القديم ومقلد للطارئ لا يعرف شيئا من القديم. والتجديد الأصيل ينطلق من التراث،ومن ليس له قديم فليس له جديد.

إن المرافعة ضد المنهج لا تعني النيل من ذات البلاغة، كما لا تعني النيل من التراث ورجالاته بسوء، كما أنها لا تعني النيل لذات النيل من المشتغلين بالبلاغة، إنه خدمة للبلاغة وحماية لتراث الأمة، وليس فيما أشرت اليه بدع ولا تحامل، فكم من الأدباء والعلماء من أنحى باللائمة على البلاغيين ومناهجهم وأسلوب أدائهم.

لقد أشار شوقي ضيف وهو يرصد تاريخ البلاغة وتطورها الى مراحل أربع:

مرحلة النشوء.

مرحلة النمو.

مرحلة الازدهار.

مرحلة الذبول.

وسواء اتفقنا معه في هذا التقسيم أو اختلفنا، وسواء اعتبرنا مرحلة النشوء مرحلة انبثاق، أو استلاب، مرحلة فن، أو فكر، فإننا نقف عند مرحلة «الذبول» وهي المرحلة الرابعة والأخيرة.

لقد أدرك واحد من أهم مؤرخي التراث ودارسيه ومنصفيه ما تمر به البلاغة العربية أو قل ما استقرت عليه وهو «الذبول».

وإذ نختلف حول ضعف هذه المرحلة فإن اختلافنا لن يكون حول نفي الذبول أو اثباته، وإنما هو حول حجمه وأسلوب معالجته وأسباب ظهوره. ومن قبل «شوقي ضيف»

---

(١) تاريخ المقال: ١٧/ ٧/ ٢٠٠١

جاءت محاولات جادة لتجديد البلاغة العربية، كان على رأس المجددين «أمين الخولي» واندس معه ومن بعده مفسدون يتخذون التغيير منفذاً لهدم المشروع وليس لاصلاحه.

والناصحون لتراثهم لا يشكون ان البلاغة تمر بوضع لافت للنظر، وضع لا يحتمل المزيد، ولا يحتمل الصبر. ومن ثم يحتاج الى تصرف واع ومنظم ليقيل عثرة البلاغة، ويلحقها بركب المعارف وعلوم الآلة، فهي ذاتياً قادرة على تفعيل نفسها لو أتيح لها أن تقع في أيد قادرة ونفوس واثقة. وكم من الانتفاضات الراشدة التي مرت بها البلاغة على أيد أمينة ناصحة، ومن منا لا يعرف محاولات الخولي، وتطبيقات محمد عبدالمطلب وأبي موسى وسعد أبوالرضا ومغامرات آخرين لا يقلون عن سلفهم، هذه الاضاءات لا تأخذ طريقها الى الدرس البلاغي داخل أروقة الجامعات، وإنما تكون عرضا زائداً لا يلتفت اليه.

لقد دخلت البلاغة في عصر الذبول مرحلة الملخصات والشروح والتعقيد والجمود، مضيفاً الرازي اليها من فلسفته ومنطقه كما يقول شوقي ضيف في حين أمعن السكاكي في الاجمال والتعقيد، ويأتي القزويني ليلخص الملخصات على شاكلة أخصر المختصرات. يقول شوقي ضيف في أعقاب هذا الرصد التاريخي:

«ويذيع تلخيصه يعني القزويني وتكثر الشروح عليه مليئة بأعشاب ضارة من الفلسفة والمنطق والكلام والأصول والنحو ومن مناقشات لفظية حتى لتختنق البلاغة اختناقاً الى أن يقول: حتى انتهيا الى الجمود والتعقيد والجفاف والتكرار الممل» المقدمة.

ومع كل هذه الاشارات والاستغاثات من عدد من الأدباء والنقاد تظل البلاغة كما هي، وإن بدت بعض المحاولات، التي لم تتجاوز مرحلة التنظير والأماني. والمحاولات بقيت متداولة بين النخبة، ولم تدخل قاعات التدريس، بحيث استمرت الملخصات والشروح هي المواد والمناهج المهيمنة، ولم يجرؤ أحد على تجاوز تلك الملخصات والشروح. فما كنا نتلقاه قبل أربعين عاما هو ما يتلقاه الطلبة اليوم، الكتاب هو الكتاب والمثال هو المثال، والقاعدة هي القاعدة، والاجراء هو الاجراء، لا جديد ولا تجديد، وكم أتمنى لو امتلكنا بعض الجرأة، وأجرينا استفتاء يشمل الدارسين والمتخرجين لتحديد مواطن الضعف وأشكال التطلعات، وتحديد قسمات البلاغة في مرايا الآخرين، ان هذا الفعل الحضاري سيكشف عن أخطاء متجذرة ليس في عالم البلاغة وحسب، وإنما في مجالات كثيرة، لقد كتب الفقهاء في كافة النوازل ما يشفي ويكفي، ولكن الطلبة مأطورون على «زاد المستقنع» يتخرجون من الكليات وهم أبعد ما يكونون عن فقه النوازل، ولك أن تقول مثل ذلك عن علوم كثيرة ظلت كما كتبها علماء القرن الثامن أو التاسع، ونحن بطوعنا واختيارنا نجر أنفسنا لنطوح بها بعيدا عن الحاضر.

إننا مضطرون للمرافعة ضد البلاغيين الذين جمدوها وقدسوها، واعتبروا محاولة التجديد أو الاضافة من المنكرات التي لا تقبل، ومن المساس الذي لا يباح، ومن التآمر الذي لا يجوز السكوت عنه.

إننا لا ننكر التآمر على التراث والتشكيك في جدواه ولا ننكر الاندفاع صوب المستجدات الغربية ببلاهة وتبعية. ولا نجهل زمن العققة والمتنكرين. ولكن ذلك كله لا يمنع من التحرف لاقالة عثرة البلاغة والانطلاق بها في آفاق التجديد والابتكار، فهل يمتلك المتخصصون الاستجابة الواعية المتزنة لهذه الدعوة الصادقة المخلصة المحبة للتراث والمقدرة للتراثيين؟

لقد طرح في الساحة النقدية مشروع أسلوبي يلتقي مع البلاغة العربية من وجوه كثيرة، وقد تكون بعض آلياته من آليات البلاغة أو قريبة منها، وهذا المشروع يمكن أن يكون منطلقا للبلاغيين المتهيبين، ولا أشك ان محاولات بعض البلاغيين أمثال «عائشة

عبدالرحمن» إرهاص للتخلص من التجزيئية لو أن مثل هذه المحاولات أخذت طريقها الى قاعة الدرس مخلفة النمطية وراء ظهرها. ومحاولات زوجها وجماعة الأمناء في طرح منهج بلاغي جديد، ولم تجد هذه المحاولات من يرحل بها من التطلع الى الفعل.

إن البلاغة العربية بذرة صالحة لا ينقصها إلا الأرض الطيبة والماء الوفير، لتتصدع فجاجها عن آليات تشد أزر النقد العربي أمام تيار المستجدات النقدية التي استفاضت واتخذها المقلدون دولة بينهم، والتراث البلاغي مليء بالكنوز، واستعادته أفضل من العودة اليه، واستثماره أفضل من الاغراق فيه، وثورة المعلومات والاتصالات فرضت على القادرين السعي الجاد لتشكل حضاري، يحتفظ بالصبغة الاسلامية، ويتسع للمستجدات، متفاعلاً معها لا مفعولا به.

والتاريخ الحضاري يبعث على الأمل والتفاؤل، والخلف ليسوا بأقل قدرة من السلف، والرسول ﷺ يقول:«**فلرب مُبلغ أوعى من سامع**».

لقد حظيت البلاغة العربية برجالات أمضهم ما تعانيه البلاغة من جمود، وذبول، وكانت محاولاتهم استثنائية، ولكن أحداً من أساتذة البلاغة وعلمائها لم ينهضوا لاستثمار هذه المحاولات، ومن ثم أهدرت تلك الجهود، كما أهدر من قبل أسلوب الجاحظ، وجديد الجرجاني، فهل نتمكن من تخطي واقع البلاغة العربية مستفيدين من أطروحات الأسلوبيين الحديثة غير مقلدين لها ولا رافضين لمنجزها.

ذلك ما كنا نبغي.

قصيدة النثر بوصفها إشكالية المشهد النقدي .. ! (١) [١]

حديثي عن قصيدة النثر مرافعة ضد ظاهرة قولية فسقت عن أمر الحد والشرط والجنس والنوع، مستجيبة لهاجس القضاء على فوارق الأنواع الأدبية منغمسة إلى الأذقان في محاكاة الغالب مؤشرة بالدونية خادعة بالمماثلة، وهي بشكلها المتداول: إبداعاً وتنظيراً ودراسة مواطأة خارجة على ضوابط الفن، وبخاصة الضابط العروضي للشعر، وهوالذي يوفر أدنى حد للتفريق بين الشعر والنثر العربيين، وهي بهذا الخروج تجذر إشكالية الأجناس الأدبية واللغة الشعرية والإيقاع الصوتي، فرضها الضعف والإدعاء والنفرة من التراث والتعالق مع الآخر وسهولة المرتقى، واقترافها لم يكن الخطيئة الأولى، ولن يكون الأخير، ولو وثقنا من أنه لن تقترف خطيئة إلا تلك لقبلناها على ما هي عليه، وأمرنا إلى الله، ولكننا في كل يوم نفاجأ بالمقترفات، حتى لقد أتخمت تلك الظواهر الطارئة من الغرب مشاهدنا المستباحة، وشايعها البعض بفوائض المعية والإمعية، ولأنها لا تعدو العودة بالشعر إلى النثر فإنها لا تحتمل كل هذا الركام من القول، ومع كل هذه الضآلة فقد رصدت: تاريخا وفنا ودراسة، عبر كتب مترجمة وأخرى مؤلفة، تعتمد التنظير تارة والتطبيق أخرى، منها ما هوقائم، ومنها ما هو في عداد المرحلة التاريخية، وهي بمجموعها تشكل طوفاناً فوضوياً من اللغط الفارغ، ولم نعد بحاجة إلى تكرار ما هو معروف بالضرورة، ومن ثم فلن أطيل الحديث عنها من خلال أبعادها: التاريخية والفنية إلا بقدر يسير، ولن أذيل بحثي بالمراجع والهوامش والإحالات، إذ لا يعنيني تقصي المقولات المؤيدة وما يقابلها، كما أنني لن أجيب بالتفصيل على التساؤلات المعتادة:

متى نشأت (قصيدة النثر)؟

وأين نشأت؟

وكيف نشأت؟

وعلى يد من نشأت؟

ولماذا نشأت؟

وما شكلها؟ وما لونها؟ إذ لم تعد كبقرة بني إسرائيل، إنها كلام منثور أو نثر مشعور، والمخدوعون بها أضلهم احتفاء المتسرعين برموزها مثلما أضل السامري بني إسرائيل، وتهويل أمرها لم يعد مجدياً بعد انجلاء الغبار، وتطلعنا إلى إيقاف التهافت على المتهافت.

وفي سبيل التوطئة لن نتقصى تطور (القصيدة العربية) من السجع إلى الرجز، ومنه إلى المقطعات، فالقصيدة على يد المهلهل، مروراً بالموشحات، والرباعيات، والثنائيات، والتشطير، والتصريع، ومجمع البحور، ومصيراً إلى شعر التفعيلة، وسوف لا يمتد بنا الحديث إلى ركام الجدل بين نازك والنويهي وأنيس وتناوش بعضهم مع أودنيس والماغوط والصائغ وعقل والحاج والحاوي وأبي ديب، كما لن نوفض إلى الشعر الحر والمرسل والمطلق عند سائر الكتبة والمتشاعرين لنصل إلى درك القرار، عندما ظهرت (قصيدة النثر) بكل تسيبها وتخشبها عند الحداثيين، وبكل تسمياتها: (النثر الشعري) و (الشعر المنثور) و (الشعر المنسرح) و(النثر المشعور) و (النثر الفني المركز) و (النثيرة) و(الشعرنة) و (الشعرية).

كما لن أتحدث عن أساطين التقليد الشكلي الذين يسمون أنفسهم بالمجددين: من شعراء كانت لهم قدم صدق في الشعر العربي، ثم نكصوا على أعقابهم، وعطلوا قدراتهم، ومن دهماء ليسوا من الشعر في شيء، وجدوها فرصة ليكونوا بين عشية وضحاها من

---

(١) تاريخ المقال: ٩/ ١/ ٢٠٠١

الفحول، ومن نقاد شايعوا تلك الظواهر بشرط أو بدون شرط، وآخرين وقفوا ضدها أو تحفظوا عليها، ولن أسوق بعض ما ساقه الأنصار من حيثيات ومسوغات، وما ساقه الخصوم من مثبطات ونصوص مضحكة مبكية.

ولن أقف طويلاً عند التغامض والاستحالة وتفاهة القضايا والإيغال في الأسطرة الوثنية والشيوع اللغوي وقرب المأخذ وعامية التركيب، فبعض ذلك مستفيض ومشترك بين (النثيرة) و(التفعيلية) و (العمودية)، ثم إن الحوار الجاد الإيجابي المدعوم بالوثائق والنصوص والمعزز بالمرجعيات لا يكون في الغالب إلا مع من تعتقد مشروعية قضيته، وهل نثر النظم وادعاء الشعرية بهذه السهولة قضية؟ وما أريد تقريره: أن هذه الظاهرة ليست شعراً، ولك بعد ذلك أن تسميها ما شئت، فلا اعتراض عندي على أي تسمية ما دامت من الكلام، إن هي إلا قول له وعليه، وإن هي حين تتخطى السردية إلى الشعرية إلا فتنة فرقت بين الأخ وأخيه، وضربت الفن الشعري في الصميم، وخلطت بين الشاعر والمتشاعر، وليس من مصلحة المشاهد الأدبي ممارسة التزييف والتزوير، على أن في النثر روائع تفوق الشعر، وفي الأدب أمراء بيان يتطامن أمامهم الشعراء، وأين الأدعياء من الرافعي والزيات وأرسلان وطه حسين، ولا يضير القطعة الفنية ألا تكون شعراً، والله قال عن رسوله ﷺ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ [يس: ٦٩]، وهو القائل: «**أنا أفصح العرب بيد أني من قريش**»، وماذا عليهم لو أطلقوا عليها (النثيرة) كالمقالة، والخاطرة والمثل، إذ لا اعتراض على التسمية التي لا توهم بغير الحق، ومن قلل من شأن النثر على حساب الشعر فقد وهم، ومن سمى النثر شعراً فقد وهم أيضاً، والخلاف ليس في مشروعية القول على شاكلتها وإنما هو في تسمية ذلك القول شعراً، والخروج على الشرط الفني المميز للشعر عن النثر حمل النقاد المظاهرين لها على افتعال مصطلحات عائمة، كما ظهرت كتب عن (الشعرية) و (اللغة العليا) و(بنية اللغة الشعرية) و(الشعرنة) وكل هذه الاحترازات لم تحل الإشكال، ولما تزل الظواهر تتساقط في المشهد الأدبي كورق الخريف مصفرة يابسة تذروها الرياح، وعلى القارئ النظر المتقصي لما كتبه (جون كوين) عن لغة الشعر في جزءيه، و (قضايا الشعرية) لياكبسون، و(الشعرية) لتودورف، وما يقال عربياً في ذلك استلاب واضح من هذا وذاك، فقد ألف أبو ديب (في الشعرية)، وأدونيس (سياسة الشعر)، وحسن ناظم (مفاهيم الشعرية)، ومحمد اليوسفي (في بنية الشعر العربي المعاصر)، وعبد الكريم حسن (لغة الشعر في زهرة الكيمياء)، ولكن الجميع لم يحرروا قضاياهم.

وحين طبق الناقد الفرنسي (فرديناند) نظرية التطور الداروينية على الأجناس الأدبية، وجدها البائسون ذريعة لجعل النثر شعراً، وجعل السجع فالرجز فالمقطعات فالقصيد ثم التوشيح والرباعيات والتفعيلي والنثري تطوراً طبيعياً للإبداع القولي، ولو أخذنا بمبدأ التطور الدارويني لعكسنا الدورة بحيث تحول الإنسان إلى قرد وانعكست النظرية من التطور إلى الإنحدار.

وهكذا جاءت بعض الظواهر (كالعامية) و (النثرية) و(التغامض المفتعل) والإغراق الأسطوري الوثني والخرافة والتقنع البعيد التصور متجهة نحو الأسفل، بحيث لا تملك أدنى حد من المشروعية، إنها استجابة بلهاء المكيدة سعت لإجهاض الكلمة الطيبة المؤثرة، وإذا كان من الخطأ الدخول في حوار غير متكافئ، فإن من الخطأ أيضا السكوت عن الحق، والله يقول: وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه.

ومما يعمق الخطيئة ويدين المنافحين عن (قصيدة النثر) التفاني في إدانة (الشعر العربي) والنيل الوقح من الشعراء بأعيانهم ووصفهم بأقذع الأوصاف، وذلك سعي دنيء

مدان لضرب الشعر العربي وإسقاط رموزه وتخلية المشهد منه للهذرمة المنثورة والرواية الماجنة بكل ما تحمله من وضر الجنس وجماليات القبح وتدنيس المقدس، والمتشايلون مع تلك الظواهر ممن يلوون ألسنتهم، يتخذون ما يفيض به المشهد النقدي من حجج واهية دولة بينهم، ولكيلا يخسروا الرهان تراهم يتشايلون ويتنافخون، ويستشهدون بالغلبة ويعولون على الاستفاضة والوجود، ويستسلمون للواقع ليكتسب الشرعية، ويتملقون المبتدئين بالتغرير الزائف، والإعجاب الكاذب، لتكثير سوادهم وكسب أصواتهم، وما علموا ان أكثر من في المشهد الثقافي لا يفقهون أو لا يريدون أن يفقهوا، والمؤلم أنهم يراهنون على قضايا ليست على شيء من الحق، ثم يجدون من يصغي إليهم، ويمكِّن لهم من الحضور، ويختصر الحركة الأدبية والفكرية فيهم، ويجعل منهم نجوماً، ويصدقهم بدعوى المشاريع والثلاثيات، والعامة لا تقرأ، وإنما تركن إلى جاهزية الأقوال وفورية الأحكام، على حد: (قد قيل ما قيل) والوجود المستفيض لأي ظاهرة ليس حجة، ولو كان الوجود حجة، لما أرسلت الرسل، ولما نهض المصلحون، ولما تمرد المغلوبون، فمجرد الوجود والاستفاضة لا يمنحان المشروعية، ولا يحولان دون المواجهة، ولا يتردد أمامهما إلا الجبناء والمواطنون على الخطايا، وفي الحديث: «**يأتي النبي ومعه الرجل ويأتي النبي ومعه الرجلان ويأتي النبي وليس معه أحد**» والمذعنون طوعاً أو كرهاً لهذه الظاهرة أولغيرها من الظواهر النكرات المستفيضة وغير المستقرة تراهم في تحول مستمر وتخلٍ متواصل، كل يوم لهم قضية، وكل ساعة مع مذهب، تواجههم قضايا ينقض بعضها بعضا، وهم بالتجريب التخريبي قد فوتوا على راهنهم الأدبي إمكانية التأصيل والتأسيس والتدبر، ولك في سبيل الاطمئنان أن تجيل نظرك في المعاش القائم من ظواهر وملل ونحل وفي المتجاوز الممات، لترى أنك أمام مناهج ومذاهب ومدارس وآليات، يأكل بعضها بعضاً، ويقوم بعضها على أنقاض بعض، لا همَّ لذويها إلا الإحياء والإماتة، منذ أن أمات نيتشه (الإله)، وأمات البنيويون (الإنسان)، وأمات المتذيلون (النقد الأدبي) و(النحو العربي)، يتم ذلك والمشهد مليء بالفارغين الذين لا يحسنون إلا المكاء والتصدية لمن يمر بهم على جيف الكلاب، ومع المواطأة تستفحل الفوضوية، وتنعدم المبادرة والابتدار والاستبداد، والعاجز من لا يستبد، وأي استبداد ورموز المشهد يقولون ما يود الغرب قوله، فمن أنشأ الحداثة؟ ومن ابتدع البنيوية؟ ومن طرح بالنقد الثقافي؟ ومن طلع بالقصيدة النثرية؟ ومن قال بالشعرية؟ أليست تلك بضاعة غربية أتينا بها من عندهم؟ ومن ثم أين المبادرات؟ وحين لا تكون مبادرات، فلماذا الادعاء والتورم؟، وإذ يكون الصراع أكسير الحياة وسبيل حيويتها، فإنه لا يجدي إلا من عند الذين استوعبوا تراثهم، وتضلعوا من ثقافتهم، وقرءوا الآخر دونما انبهار أو استسلام، وصنعوا مشاريعهم الثقافية وفق حاجة الأمة، ولك في سبيل الشماتة أو الاعتبار أن تتذكر سائر المذاهب السياسية والحزبية والفكرية والأدبية والنقدية وسائر الظواهر وممارسات التفجير وهتك المسكوت عنه والتحولات الشكلية والدلالية والتناحر التدميري القائم حول كل ذلك مما أخرجنا من التاريخ، فالفعل الهمجي لا يكون حدثاً تاريخياً، وبهذا الاسترجاع والتذكر تتأكد الفوضى القائمة على أشدها، وكل الخائضين في ذلك ليس لديهم إلا رطانة معادة مكرورة يستشري فيها الادعاء والتعالم، وقد تجد بعض ذلك قائما في شخص واحد جمع الله فيه سره، فهو كالمرآة في كف الأشل، تراه كالقرد يقفز من شاخص لآخر، وأنت تسمع وتقرأ الكثير من تلك الأشياء، يتبناها كتبة لهم عرض وطول، (جسم البغال وأحلام العصافير)، وهم في النهاية عالة على مترجمات صحفية، يلهثون وراءها في قول غير منتظم، وعرض غير رصين، وقفز غير محكم، والقليل المفيد ضائع في صخب السجال، والثابت بالتجربة والدليل أن جميع مشاهد الحياة لا تصلح بالفوضى، ولا يقوم أمرها بالهدم، والغلبة

والاستفاضة لا يكفيان شاهداً على الحق وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين، وفي الوقت ذاته فإن الحياة لا تحلو إلا بالجدل الأحسن والاختلاف المعتبر، والآراء المتباينة، وتنوع المشارب، وتعدد الاهتمامات، في ظل ضوابط وحدود يعرفها العقلاء المتمكنون، ولكن أين المشهد الثقافي من النظام والجدل والتعددية الإيجابية؟ على أن الفن عامة في إطار التوافق أو الاختلاف يجب أن يكون استجابة لذائقة أمة، لها لغتها وفنها وطبيعتها، وليس شيء من ذلك يأتي افتراضاً ولا فرضاً، وما يصلح لأمة لا يصلح لأخرى، والضعف والتخلف العارضان لهذه الأمة وأشيائها لا يستدعيان تكسير الثوابت، ولا يشرعان اللحاق بالآخر دون وعي للطبيعة القائمة واستحضار للمطالب الملحة، وإنما يستدعيان مراجعة النفس ونقد الذات والتبصر بالأمر وتفويضه إلى العلماء من ذوي الخبرة والتخصص، والإسلام ندب من لا يعلمون بسؤال أهل الذكر.

وفي وجوه القول والإبداع لا بد من التأصيل المعرفي واستصحاب الشرط الفني المحقق لتمايز الأجناس الأدبية، وليس ذلك من استعارة الأصولية في الأدب، وليس هو من التعصب للتجنيس ورفض وحدة الفن، وإنما هو تحرير للهوية وحماية للخصوصية ومحافظة على الندية والتكافؤ، وضوابط الفن وقيوده المرفوضة من التبعيين لا تثبطان إلا الأدعياء، وفي هذا السياق لا بد من الأنموذج، والأنموذج المنشود يتراءاه الشاعر المبتدئ، كي يمارس معه الاحتذاء أو التحدي، إنه الرقم القياسي، يظل رقماً قياسياً حتى يأتي من يحطمه بالأفضل، يكون الرقم القياسي من الأعمال الإبداعية، ويكون من الاناسي المبدعين، ويبقى مضماراً يلز فيه الشعراء والروائيون والقصاص والمسرحيون وسائر المبدعين، حتى إذا ضاق عن لززهم بحثوا عن مضامير أخرى، وهكذا يكون التجديد.

فهل يستطيع أناسي (القصيدة النثرية) تحطيم أناسي القصائد العمودية أو التفعيلية على الأقل؟ وهل تستطيع (القصيدة النثرية) تحطيم القصائد العمودية بوصف عيونها أنموذجاً للاحتذاء والاحتكام والتحدي؟ لقد خبت نار المذاهب التي أوقدها الغربيون استجابة لحاجاتهم القائمة، وتلقينا هوامدها ننفخ في رمادها لكي نوقدها من جديد، ولكن ليس فيها جذوة ولا قبس، وعلى الذين يجادلون عن (القصيدة النثرية) أن يأتوا ببرهان توثيقي، ليضعوا النص المنثور إزاء النص الشعري، مثلما تتنافس ملكات الجمال، ومثلما تنتصب اللوحات الفنية بين يدي النقاد الموازنين أو المقارنين، إننا في معمعة المنازلات لا نتجاوز مرحلة التهريج، وكأننا الشاهد الذي لم ير ولم يسمع، لقد قامت معارك فكرية، وشب صراع أدبي خلف لنا رؤى ومعارف، وكان المصطرعون أهلا لذلك، وإن اختلفنا معهم في الوجهة، فأين نقاد الراهن من طه حسين والرافعي وزكي مبارك ومندور والعقاد وعبود في الثلاثينات، وأين المتذيلون للحداثة من أساطينها الذين أضلهم الله على علم في الثمانينات؟ فهل أحد يبلغ شأو أدونيس أو عصفور أو أبي ديب؟ وأين روائيو (الثلاثينات) المتهتكون المنحرفون العابثون من نجيب محفوظ ويوسف إدريس ويحيى حقي ومحمد عبد الحليم عبد الله؟ وأين شعراء النثر المنفطئ من السياب والبياتي والجواهري والقباني وأمل دنقل ودرويش؟ وأين مثقفو السماع من أركون وحنفي والجابري ومحمود؟ أولئك أساطين لم يوفق بعضهم للحق، ولكنهم ملكوا ناصية الفن والفكر والنقد، وتلافيا للتلاسن المسف حول (قصيدة النثر) سنحاول التركيز على الشكل العروضي دون البناءاللغوي، ودون البعد الدلالي، أملا في تحديد مجال التنازع، ولو امتد الحديث إلى كل إشكالياتها لبعدت علينا الشقة، وتشعبت بنا السبل، واعتراضنا على تلك الظاهرة لا يمس المضمون ولا يمتد إلى اللغة، إذ (النثرية) قول له وعليه، والاعتراض على الشكل ليس غير، والوقوف في وجه (النثرية) وقوف فني وحسب، لا يطال عقيدة المبدع والناقد، ولا أخلاقياتهما، نسوق

هذه التحفظات، ونكررها، لكيلا نوصف بالمزايدة الرخيصة التي اعتاد المريبون التعويل عليها زورا وبهتانا، والاختلاف حول الشكل اختلاف حول فساد الذوائق.

والتجديد والتحول مشروعان، بل لا قيمة للحياة بدونهما، ولكن التجديد لا يكون بالمحاكاة، ولا يكون بدون ضوابط، ولا يكون إلى الأدنى، والتحول لا يطال الثوابت، والذين لا يجيدون إلا التقليد لا يسألون عن مشروعية الوافد وأهليته، وإنما يفضلون الدخول في عباءات الآخرين في ذلة ومهانة وإلغاء للذات، يدافعون عن الرؤى والآراء والمذاهب دون معرفة بجذورها الفكرية، ويروجون بضاعة الآخر دون معرفة بحقائقها، ويقرءون المتداول عن بعض الظواهر الممسوخة ولا يقرءونها، ومن ثم لا يخرجون عن القول المعاد، يجترونه ببلاهة وغفلة معتقة، فالفحولة والأنوثة اللغوية لمز للغة القرآن عند أبي زيد، والبنيوية ذات جذور فلسفية مادية عند الشكلانيين، وقل مثل ذلك إزاء أي ظاهرة يتلقاها البائسون، والذين يقرءون ما كتب عن (قصيدة النثر) وما ترجم عنها يندهشون، لا لأن ما قيل مدهش، وإنما هو لقلة بضاعتهم وجدة معرفتهم، ومن ثم يحسون بالدونية، ولو أنهم قرءوا (قصيدة النثر) بثقة وعزة لكان لهم موقف آخر، ولكنهم أضاعوا الجهد والمال والوقت في قيل وقال، وما استطاع أحد منهم تحرير شيء من الظواهر، لأنهم يتلقونها في تخبط وتشتت واضطراب، حتى لقد ضاق النثريون من تجاوزات المتشاعرين، وعلى المتقصي قراءة التحفظات والتراجعات التي صار إليها المتسرعون من الشعراء والمهتاجون من النقاد بعد أن غمرهم المتشاعرون، وضاعوا في زحمة الأدعياء، والنقد المعول عليه غامر بآليات وفكر ومفاهيم غامضة وغير محددة فوقع في إشكالية الاغتراب وأصبح إشكالية في ذاته.

وبصيص التفاؤل في الطائفة المنصورة من النقاد الذين ألحوا في التساؤل، وتمنعوا بعض التمنع، لكن البعض من أولئك لم يشأ المجاهرة بالحق خوفا أو مداهنة أو قلة بضاعة، والأقلون هم الغرباء الذين صدعوا بالحق وبه يعدلون، نفضوا رداء التبعية، وقالوا لإخوانهم الذين زينوا لهم التقاط نفاية الحضارة المادية: لا تتخذوا بطانة من دونكم، ولا تركنوا إلى الذين ظلموا.

ولما لم يستحب المستغربون، خاض الناصحون غمار المشهد النقدي مدججين بسلاح المعرفة، غير هيابين ولا وجلين ولا مداهنين، يتذوقون الأشياء بألسنتهم فيفرقون بين الحلو والمر، ويحددون آراءهم بمحض اختيارهم، يقولون كلمتهم بشجاعة، ولا يخشون بقناعاتهم لوم اللائمين ولا شماتة الشامتين ولا سخرية الساخرين، لا يهابون الغربة ولا يميلون إلى الاغتراب، يتمتعون بثقة التمكن، ويتكئون على دقة الملاحظة ودقيق الرصد وتقصي المستجد، يستمعون إلى كلام الآخر ويأخذون بأحسنه، يرفضون تأهيل الغرباء وتغريب الآهلين، يبتدرون القضايا، ويَفرون كما يفري غيرهم، ويستلون من ركام الطوارئ ما هم بحاجة إليه، ولا يدفعون ثمنه من ثوابتهم، لا يذوبون ولا ينغلقون بل يتخذون بين ذلك قواما، والمشهد الثقافي بحاجة إلى هذه النوعية، لإقالة العثرة، وتخليص المشهد من التبعية الغربية المقيتة، وهي تبعية مستشرية، بحيث لا نسمع ولا نرى إلا ما يقوله اساطين الفكر والأدب في الغرب، وما يتلقفه المتصعلكون من أغيلمة الصحافة والمتصابون من أشيمطي الاستغراب، يتباهون بتداول المصطلحات المعربة وغير المعربة، دونما قدرة على الفهم الصحيح فضلاً عن كيفية الاستعمال، ولما يحقق أحد من أولئك أدنى حد من النجاح منذ الطهطاوي إلى أبي زيد؟ وماذا جنت الأمة من دعاة التنوير؟ وهل في وضع الأمة اليوم ما يسر؟

قصيدة النثر بوصفها إشكالية المشهد النقدي .. ! (٢) [1]

وفي هذا الإطار الذي لانود الإيغال فيه تتبدى لنا سياقات متعددة للقصيدة من خلال ابعادها: الشكلية واللغوية والدلالية والتصويرية، وهي سياقات مهمة لمن اراد احكام قبضته على اي ظاهرة ناشزة أو منسجمة، غير اننا لانريد تقصيها ومن اراد الوقوف على فيوض الحديث فليقرأ كتاب قصيدة النثر من بودلير إلى أيامنا للوزان بيرنار في ترجمتها الكاملة في مجلدين ضخمين ترجمة راوية صادق ومراجعة رفعت سلامة، دون التعويل على الترجمة المبتسرة بقلم د، زهير مجيد مغامس التي يراها البعض جماع القول لهذه الظاهرة الشكلية، وهي ترجمة ابتسارية لا تزيد صفحاتها عن الثلاثمائة فيما بلغت الترجمة الكاملة ألفاً ومائتين وخمسين صفحة، واستكمالاً لتاريخية الظاهرة وفنيتها عربياً يمكن الرجوع إلى كتاب في البنية الإيقاعية للشعر الشعبي للدكتور كمال أبو ديب وكتاب نقض اصول الشعر الحر لإسماعيل جبرائيل العيسى وكتاب النثيرة والقصيدة المضادة لمحمد ياسر شرف، وكتاب قصيدة النثر الشعرية لأحمد بزون وكتاب قضايا الإبداع في قصيدة النثر وكتاب الحداثة في الشعر العربي المعاصر للدكتور محمد حمود، ولآخرين عرضوا لها في سياق دراساتهم للظواهر الحديثة، اضافة إلى اعداد مجلة شعر ومجلة تحولات وما افاض به الكتاب والمبدعون فيهما حيث كان لهم قصب السبق المريب في هذه المضامير التي استزلت المتسطحين وعلى المتابع تفهم الفرق البين بين مايقال تنظيراً ومايكتب بدعوى الإبداع والربط بينهما فلذلك يسقط الادعاء، ومن تعقب تلك الاطروحات، وقف على حجم التغرير باسم التنظير، والقارئ الواعي تفجعه الفجوة بين المتداول: تنظيراً والمقول ابداعاً اذ ان التنظير الباذخ يخذله الشاهد الخداج، ولو ان النقاد كافة والمحتفين بالنثرية على وجه الخصوص انطلقوا من النص بوصفه تطبيقاً لتقلصت تلك الظاهرة، وسقطت من اعين المغرمين ولكن ضجة التمجيد جاءت في غياب دمامة الجسد وتشوهاته، والنصوص التي احيطت بهالات الثناء والتمجيد وقيل عنها مالم يقل عن عيون الشعر، لايجد فيها المتابعون بناءً لغوياً مثيراً ولا بناءً شكلياً مطرباً ولامعنى مبتكراً ولا براعة في الاداء أو التصوير، والشعر له لغته الانزياحية المتعالية كما تحدث عنها غير واحد من النقاد، وله نبضه وكثرة مائة كما يقول الجاحظ وابتداء سنكتفي بإجهاض المصطلح من خلال تناقضه مع نفسه، فالقصيد غير النثر تماماً، مثلما ان المشي غير الرقص، ولأن الشعر إنشاد وتغن، فلابد له من ضابط ايقاعي ذي نظام دقيق، يتجاوز النثر إلى النظم، وإذ يكون القصيد نظماً لما انتثر من الكلام، فإن النثر والنثار حل شكلي لما تم نظمه، وتركيبه المصطلح ساذجة بلهاء لتناقضها البدهي، ولا يسوغها الا صيحات العبث والتمرد، ولا عبرة بما يؤثر عن وصف النثر الجميل بالشعر في التراث العربي، وما نقل عن حسان بن ثابت رضي الله عنه من قول عندما سمع ابنه يقول كلاماً ليس موزوناً ولامقفى، وانما فيه ايقاع وإبداع حيث اقسم على شاعريته، أو ماقاله ابن سينا على ما اذكر عن القول الشعري فكل ذلك له تأويله وتبريره، وهو من مبالغات الثناء أو من باب التوافق في التأثير والإطراب لا من باب التجانس الشكلي، فالنثر في الاعم الاغلب حديث العقل والفكر، والشعر في الاعم الاغلب حديث القلب والعاطفة، يميل النثر إلى التأمل والنفعية، ويجنح الشعر إلى الاطراب والإمتاع، وحين ينهض احدهما بجانب من مهمة الآخر يوصف به لا من باب التحقق، ولكن من باب التشابه، وعلى هذا يشبه الشجاع بالاسد والكريم بالمطر، ولايكون احدهما كما المشبه به، فالشجاع لايرضى ان

---

(١) تاريخ المقال: ٢٣/ ١/ ٢٠٠١

يتحول إلى اسد يمشي على اربع، والمشركون من قبل اولئك وصفوا الرسول بالشاعرية لتأثيره، وهو لم يقل شعراً، والله لم يعلمه الشعر وماينبغي له، والكلام البليغ المؤثر بتوقيعه يوصف بالشعرية بالنظر إلى تأثيره، مثلما يوصف وجه الحسناء بالقمر وجسمها بالقضيب، ثم لا يكون وجهها قمراً ولا يكون جسمها قضيباً، والانطلاق من كلام الإعجاب إلى التأسيس المصطلحي والاداء بقصد الشعرية ضرب في فجاج الوهم والادعاء، والقرآن الكريم تحدث عن الشعراء، وكان إلى جانبهم سجع الكهان، وهو اقرب إلى الشعر مما يتداوله النثريون المعاصرون، ولم يسم السجع شعراً، مع انه موقع مطرب مفيد، وفيه نفس ابداعي وصنعة بديعية.

والفن اي فن، سواء اكان: قولياً أو حركياً أو عملياً لابد له من ضابط وشرط، يفصلانه عما ليس بفن، ويكشفان الادعاء، ولهذا قيل الشعر صعب وطويل سلمه، ولا اظن عاقلاً رشيداً يزن الأمور ويقدرها قدرها يجهل الفوارق بين الاشياء فشرط الشيء محقق لذاته، ولايمكن تحقق الأشياء الا بشرطها الفطري أو الوضعي، والناس تلقوا الشعر منذ ابن حذام على هذه الشاكلة، ولو ان ذوائقهم هي التي فرضت التغيير لما كان في ذلك من بأس، وإشكالية قصيدة النثر انها تأتي في سياق تنازلات موجعة وتخريب متعمد، والمفسدون في مدينة الفن كالعفن يسري على مهل حتى يأتي على كل شيء، وهاجس القضاء على الفوارق بين فنون القول هم مريب يساور المحتفين بالطوارئ حتى لقد عمد الحداثيون إلى مصطلح الكتابة لإسقاط المسميات وإلغاء انواع الفنون القولية، ومن بعد هذا سمعنا بتفجير اللغة وتفجير الرواية، وما عدنا نفرق بين الكتابة والإبداع، حتى لقد هم بالشاعرية والإبداع الروائي من لايقدر على شيء من ذلك، واصبحنا نقرأ القول ثم نسأل: اشعر هذا ام نثر، ونقرأ النثر بوصفه ابداعاً روائياً أو قصصياً فلا نجد فيه ما يفرق بين المقالة والقصة أو بين القصة والرواية أو بين السيرة الذاتية والرواية، وبسؤالنا المشروع والمحق يحكم علينا بالتسطح والسذاجة لاننا لانثمن التحولات ولانقدر المتغيرات، وأنهر الصحف تفيض بالقول ونقيضه وتلك موجة من التحولات للقضاء على شروط الفن، والعرب المحترمون للشرط الفني يبيحون للشاعر ضرورات نحوية وصرفية تحميه من المساس بالشرط الفني، وكأن تجاوز الشرط النحوي والصرفي اخف عندهم من تجاوز الشرط الفني، والعروضيون لم يبتكروا شيئا من عند انفسهم، انهم يصفون ظاهرة الشعر ثم يجعلون ذلك شرطا، والشعر فن والفن موهبة والموهبة لايعجزها الضابط والشرط والسمة، ومن توفر على الموهبة والثقافة والتجربة والموقف اتى بالإبداع على شاكلته التي هدي اليها عمالقة الشعر العربي.

ولأن الشعر فن قولي مغاير للكلام السردي، كان لابد ان يستكمل سمة الغيرية، والذين شايعوا تلك الدعوة غفلوا عن اشياء كثيرة، ماكان لها ان تغيب عن مثلهم، وهي ان الشعر ذو ارتباط وثيق بالامة التي انتجته، اذ هو سمة فطرية، واستجابة غريزية، ولكل امة فنها، ولا يجوز السطو على الغرائز والفطر السليمة لتكون كما هي عند الآخرين، والفنون القولية والفعلية استجابات عفوية تبقى مع غياب العلم والتحضر، ولا يزيدها العلم والتحضر إلا صقلاً وشيوعا.

والفطرة والغريزة ثبوتيتان، والتحول والتغيير لا يعتريان مثل ذلك، واشكالية الشعر ستظل قائمة، وبخاصة حين يمتد التغيير والتحول إلى ثوابته، ومن ثوابته الإيقاع بمستوييه: الداخلي والخارجي واللغة الشعرية، وقد درج كثير من النقاد على الفصل بين الموسيقى الخارجية المتمثلة بالوزن والقافية، أو بالشكل التفعيلي والقافية، كما ترسم له نازك الملائكة، والموسيقى الداخلية المتمثلة بأشياء كثيرة: كالتقفية الجميلة والتوازي الموفر لإيقاع الجملة، وقصر الجمل وتساويها وتشابه حروفها وحركاتها ومخارجها وهو

المعروف بعلاقات الاصوات، بحيث يوصف ذلك بالجرس أو بالإيقاع الرتيب، وقد تعارف عليه دعاة التجديد تخوفاً من استنزاف الطاقة الموسيقية للكلمة، على ان لكل صوت طاقة موسيقية، والكلمة حروف والحروف اصوات، فلها من خلال ذلك طاقاتها، وإذ لا نرى بأساً من التحرف الواعي للتجديد في الوزن والقافية والصورة، فإننا لانغفل اهمية التوازن في ذلك واستصحاب الفوارق بين انواع الفنون القولية.

إذ لا يمكن الرسم بلا الوان وريشة، ولايمكن النحت بلا ادوات حادة وآليات قادرة على الحفر، ولا يمكن الرقص بلا حركات موقعة،، ولايمكن العزف بدون آلات.

ولايمكن التغني بدون اصوات ذات مقادير، ودعوى تحطيم القوانين السابقة والتعويض عنها بقوانين جديدة لايمكن القبول بها، مالم يتحقق الانتقال من الفاضل إلى الافضل، لقد رصد القراء تجويد التغني بالقرآن الكريم واخرجوا لنا علم التجويد وضبط العلماء اوزان الشعر والاعاريض والاضرب والقوافي وانواعها، واخرجوا لنا عروض الشعر وفعل مثل ذلك الموسيقيون فأخرجوا لنا نوتات الموسيقى وكل طائفة اتقنت علمها بقواعده وضوابطه واصوله، كالفقهاء والمحدثين والمفسرين والفلاسفة واللغويين وعلماء التربية والمؤرخين وسائر العلماء، ولكل علم اصوله وقواعده، فالنحو والصرف والبلاغة لا تعرف الا بقواعدها وشواهدها وامثلتها المتعارف عليها حتى قيل: الشاهد يثبت القاعدة والمثال يقربها، ومن ثم فليس من التجديد في شيء نسفُ قواعد الشعر وضوابطه.

وهل من المعقول نسف قواعد الفقه واصوله والإبقاء على الفقه؟ واشكالية التجديد ودعوى التنوير ان العابثين في ظل هذه الدعوى لايملكون القدرة على التحقيق من الثابت والمتحول، ولايفرقون بين الحرية المنضبطة والفوضوية الطائشة ولا يحررون متطلبات الهوية والانتماء قبل التحرف للتغيير، ولايعرفون ان هناك حضارة وضعية واخرى إلآهية، وان هناك رداً إلى الله والرسول أو رداً إلى ما تواضعت عليه طائفة من البشر، الشرط الاهم ان تعلن عن مصدرية مشروعك وانتمائه، ثم تجالد وتجاهد على محظوره ومباحه، والمخيف ان التنويريين والحداثيين والعقلانيين يمارسون المسخ والذوبان في الآخر دون ثمن، والقول في الشعر العربي يرجع فيه إلى ثوابته ومسلماته، ولايرجع به إلى مسلمات الغرب والمترجم من شعرهم، والغربيون انفسهم يختلفون حول مفهوم الشعر عندهم، والراشدون منهم يستصحبون ما لا تقوم الظاهرة الا به، ولو نظرنا إلى اختلاف علمين غربيين هما ورد زورث وكولودج حول طبيعة الشعر لادركنا حصافة الرأي وبعد النظر فزورث يرى ان لغة الشعر والنثر واحدة والفارق بينهما الوزن والقافية، فيما يرى كولردج ان الوزن والقافية ثانويان وان الفارق في اللغة ومن هنا نشأت ظاهرة الشعرية وهي إن صلحت للغرب قد لاتصلح بالضرورة للعرب، والذين يتهافتون على التغيير دون وعي بضوابطه، يعرضون المثمنات الحضارية للضياع، وهذا ماحصل للشعر العربي حين نسفت اهم سماته، ثم ان العدول إلى النثرية ليس من التجديد، اذ هو تقليد خاطئ للغرب بوصف الترجمة للشعر الغربي شعراً، وهو ما لم يقل به احد، والتقليد غير التجديد، وهل احد ينكر قيم الشعر العربي الحضارية والفنية واللغوية عبر الف وخمسمائة عام أو تزيد؟ اذ كان امرؤ القيس يقول ماقال ابن حذام، وعنترة لم ير الشعراء تركوا له متردماً، وهل احد يجهل اهمية الشعر بالنسبة للعربي؟ والشعر لا يتحقق إلا بشرطه الاهم، وهو الموسيقى، والموسيقى لاتتحقق مع النثر، والشعر قول ذو معنى وتركيب، لاتبرز خصوصيته إلا بالتركيب الموصوف المشروط، ومتى فقد سمته وشرطه اصبح قولاً نثرياً، والذين تولوا كبر الخطيئة، وسعوا لتهويد الفكر العربي بالركون إلى المفكرين اليهود لايمكن احسان الظن بهم ولا القبول بأطروحاتهم، والبائسون الذين وقعوا في الشبهات يجب اطرهم على الحق بالمواجهة المعلنة وإيقافهم على اخطائهم واتاحة الفرصة

لهم لتصحيحها وتفادي الوقوع في المستنقعات الآسنة التي فارت من تحت اقدم التنويريين الذين اتخذهم اعداء الحضارة الإسلامية طابوراً خامساً يفسدون ولا يصلحون، وقد يهوِّن البعض من أمر الشعر وقضايا الفن، ويرى فيه فسحة من الحرية، ونحن نرى ذلك، ولكننا نجدهم يفسدون في كل موقع، ويتعمدون نقض عرى الحضارة الإسلامية عروة عروة، وتبني قصيدة النثر واحدة من المكائد وإن كانت الاهون.

وعلى المستوى الفني الخالص نجد ان هناك فرقاً واضحاً بين نفي الموسيقى جملة، والدخول في معمارها للتعديل أو التبديل، والشاعر الفذ من يلتزم ما لا يلزم فكيف بنا نتواطأ مع الذين لا يلتزمون بأقل ما يلزم، ودعاة قصيدة النثر نُفاة للموسيقى حملة، وهي من لوازم الشعر وثوابته واهم سماته وخصائصه، وهم في الوقت ذاته دعاة للتقليد الغبي، فالشعر المترجم لا يكون شعراً، وقصيدة النثر تقليد للمترجم، وليست للاصل، وهذا الفعل لا يكون احتذاءً، ولا يكون تجديداً، اما دعاة التجديد الواعون المتصرفون بذكاء وحذق داخل المعمار الموسيقي، فهم الذين يملكون مشروعية الفعل، لانهم لا ينفون الموسيقى وانما يتحرفون داخل معمارها، بما يرونه مستجيباً لذائقة العصر، وضابط الشعر الموسيقي يقوم على ثلاث ركائز:

التفعيلة.

والبحر.

والقافية.

والعدول الشاذ يتمثل بضرب الركائز الثلاث، اما العدول السليم فالدخول في نسق جديد يستصحب الركائز المعدلة، ودعاة النثرية ينسفونها جميعاً، ثم لا يلتون بما هو خير، وليس فيما يأتون به مبادرة، والشعر لا يتحقق بدون ركائزه، وليست الركائز موفرة للشعر ولا نقول بذلك، فقد تتوفر الركائز وتغيب الشعرية، ومع هذا فإن الشعرية لا تتحق بدون الركائز، وتلك إشكالية طنطن حولها الاكثرون.

لقد ألفت عشرات الكتب عن الشعر واللاشعر والشعر الحر والموسيقى الشعرية، والشعرية، وقيل عن الشعرنة وسيقت بدائل للعروض الخليلي واخرى لعمودية القصيدة وبنائها الشكلي واللغوي، وكل هذا الفيض محاولة جادة لحل الاشكالية القائمة، ولكن المتآمرين على تراث الامة لا يبحثون عن الحق، ولهذا لا نجد بأساً في محاولات نازك الملائكة ومحمد النويهي وابراهيم انيس، وكل النقاد الذين دخلوا في معمار القصيدة العربية، وحاولوا التجديد مع مراعاة الفوارق والضوابط والشروط، ولما لم يكن التجديد مجرد المغايرة ولا مجرد التقليد للطارئ الغربي، كان لزاماً على دعاته ان يتبصروا في امرهم، وان يفرقوا بين عفوية المغايرة وتعمُّلها، والا يستأثروا بحلية التجديد المزورة، إذ مانراه من خروج على اوزان الخليل دون وقوف عند وحدة الوزن والقافية، أو وحدة التفعيلة يعد تقليداً لمترجمات الشعر الغربي وليس تقليداً له، ومثل هذا الفعل لا يعد تجديداً ولا تقليداً مباشراً، انه تقليد التقليد على حد:

ولـــو كـــان عبـــد الله مـــولاً هجوتـــه

ولكـــن عبـــد الله مـــولى مواليـــا

اذ مانراه لا يكون شعراً على شاكلة الشعر العربي، ولا يكون شعراً على شاكلة الشعر الغربي، انه المسخ بكل بشاعته وترديه، ولما كان الشعر فناً قولياً اصبحت ترجمته مستحيلة، حتى لقد عدّها البعض خيانة، فالإبداع الفني في لغة ما حين يترجم يفقد فنيته، وهكذا كل كلام معجز في لغته لا يكون كذلك عندما يتحول بالترجمة إلى لغة اخرى، حتى لقد قيل: ترجمة معاني القرآن، ولم يجز القول بترجمة القرآن، فالقرآن لا يكون قرآناً غير

العربية، ولا يتحقق اعجازه البياني الا في لسانه العربي المبين، وهكذا الشعر لا يكون شعراً بغير لغته التي ابدع فيها:

عربياً كان الشعر أو غير عربي، والإبداع الشعري ليس خاصية عربية كما يتصور البعض، ومن ثم لا يجوز الوقوع في مأزق المفاضلة، فلكل لغة فنها القولي الذي يسد حاجتها، والذين يقلدون الشكل الغربي المترجم يخطئون التصور، اذ الشعر الحقيقي قد انتهى بمجرد الترجمة، واذا كان الغربيون قد خرجوا على شكل شعرهم التقليدي وعدوا ذلك تجديدا، وقال الكثير منهم عن مشروع قصيدة النثر فإن طائفة منهم التزمت الشرط الشعري وأخرى لم تلتزم من مثل والتر وايتمان والعرب يملكون ذات الحق، ولكن في اطار خصوصية الشعر العربي، وهو ما لم يكن مع المصير إلى قصيدة النثر وعجبي من ناشئة تقول ما قاله غيرها، وتحسب نفسها راسخة القدم في ساحة النقد، ويزيد ادعاؤهم حين تعول هذه الطوائف على مترجم لا يشكل أكثر من مرحلة تاريخية، وامام هذه الناشئة البائسة قد تفقد احتشامك لتسايرها في الخلق الدنيء، وقد تأخذك الحشمة فتدعهم يخوضون في احاديث هازئة ساخرة بثوابت الامة ومثمناتها والمؤلم ان الاكثر عنفاً وايغالاً في السخرية بالآخر هم الأقل معرفة، ولو قرؤوا ما كتبه عمر فروخ وبلبع وأحمد الأحمد وعز الدين إسماعيل والملائكة والنويهي وأنيس لوجدوا انهم الاعمق والاهدى والاجدى.

ثم ان فداحة المقترف تتضاعف: حين يرى المساندون لتلك الظاهرة انها بهذا الشكل تكون بديلاً امثل عن الشعر العربي، أو حين يوغلون في النيل من القصيدة العربية وشعرائها ونقادها لتكريس قصيدة النثر ونفي الشعر العربي المثقل بقيود الوزن والقافية، كما يدعي العاجزون، ولو انهم اذ شايعوا تلك الظاهرة اقتنعوا بالتعايش السلمي مع القصيدة العربية، لكان خيراً لهم، والنيل من التراث وتعمد ضرب المسلمات نغمة مألوفة، منذ ان استهلها ميخائيل نعيمة وجبران وخلف من بعدهم رموز الحداثة والمتذيلون لهم، وهي افتراءات يتبادلها المتهالكون على ما طرأ من الغرب عن طريق الترجمة أو عن طريق التلقي المباشر، والانقطاع والهدم، وتدنيس المقدس، وأنسنة الإلهي، من اولويات الهم الحداثي، وكل الذين يستمرئون النيل من التراث مصابون بدخن الحداثة الفكرية والنيل والاستخفاف يمتدان إلى الوقافين عند حد المعقول المجددين حقيقة لا ادعاء والإنسان الذي لا يتبنى التقليعات الجديدة ولا يحفل بها إنسان في نظر البائسين جاهل متخلف،، واذا قصّر المحافظون والمؤصلون والمجددون حقيقة لعارض ذاتي وأكثرهم مقصرون بلا شك حُمِّل الادب العرب معرة التقصير، وسعى المرجفون إلى التضخيم والنفخ في تلك المآخذ، وتقصير المحافظين أو المجددين بالفعل لا بالتبعية لا يمنح غير الشعر سمة الشعر، وقصيدة النثر المتناقضة مع نفسها لا تكون في إطار الشعر، لفقدها اهم خصائصه، ولكنها تظل في إطار النثر الفني بوصفها نصاً ادبياً غير ابداعي، شأنها شأن المقالات والخواطر وغيرها، تحاسب على تقصيرها في مجال النثر الادبي، ومنشِؤها لا يسمى شاعراً، ما لم يكن له نصيب في مجال الشعر الحقيقي، والعجب يتضاعف حين تأتي قصيدة النثر من شعراء لهم قدم صدق في ساحة الشعر، وهؤلاء هم الذين جرؤوا الناشئة على التهافت المشين، وحملهم على ضياع المصطلح وفساد الذائقة، والمزري ان بعض السذج يقول نظماً باهتاً ثم يقول: هاؤموا اقرؤوا شعري العمودي، ثم يكتب بين يدي هذا النظم نثراً منطفئاً، وكأني به يريد من وراء ذلك تأكيد عدوله عن النظم اختياراً، مع اقتداره عليه، وتلك حيلة ساذجة، وتدثر بثوب الزور الذي يشف عما تحته من زيف، والأمر لا يقتصر على التحرف والتنويع مع الإبقاء على ادنى حد من السمة والشرط، ومن ثم كان لابد من مواجهة جادة لمثل هذه التحولات وقمع قاس للأدعياء وأطر صارم للمتفلتين على الشروط والضوابط، وذب جاد عن حوزة الشعر العربي بكل

صرامته الشرطية، فالمبدعون الحقيقيون هم الذين قدموا الأنموذج، والعلماء وضعوا الشرط على ضوئه، وما من أحد الزم الشعراء بشرط لم يكن في الشعر السابق للمعيار والقاعدة والشرط.

إن هناك تقصيراً من شعراء العمودية، كما ان هناك ضعفاً في كثير من القصائد العمودية، ولكن هذا لايخول الاستبدال، ولا يشرع ضرب الظاهرة الشعرية، وممارسة كتلك تدل على مكائد غفلنا عن نواياها، والتنويريون يعولون في ضرب الإسلام على ضعف المسلمين وتخلفهم، والمقلدون النثريون يعولون في ضربهم للشعر العربي على ضعف الشعراء العموديين، والساحة مليئة بالرويبضات والإمعات، والمبتدئين الذين يكثرون سواد الهدامين.

قصيدة النثر بوصفها إشكالية المشهد النقدي .. ! (٣)[(١)]

ونحن إذ نعترض على هذه الظاهرة لا ننكر ان بعض المنشئين قد يكتبون (القصيدة النثرية) كما تصف ألسنتهم، ثم تكون على جانب من الإيقاع الداخلي، والانزياح اللغوي، وعلى شيء من الخيال المجنح والتعبير البديع واللغة الشعرية والصورة البيانية والموضوعات والمعاني الشعرية، وقد تكون على شيء من الأسطورة أو الرمز أو القناع، فتكون بهذا ذات سمات لا تتوفر في النصوص النثرية، تكون مبهجة، وتكون رائعة، ولكنها مع كل هذا التألق لا تخرج من إطار (النثر الفني)، ولا تدخل إطار الشعر، وذلك مجمل اعتراضنا عليها، فنحن لا نخرجها من دائرة النثر الفني، إذا توفرت على البناء بشرطه: النحوي والصرفي واللغوي، ولكننا في الوقت ذاته نجد ان هذا المسمى قصيدا من خلال ما بين أيدينا من نصوص دون مستوى النثر فضلا عن أن ترقى إلى مستوى الشعر، إذ إننا لا نجد بعض هذه السمات فيما يتداوله المشهد الثقافي من قول ركيك العبارة، ضحل الدلالة مهلهل رديء لا يحكمه نظام نحوي، ولا نسق أسلوبي، ولا ضابط عروضي، ولا يشدك إليه نغم، ولا يطربك إيقاع، ولا تستهويك صورة، وليس له من مقومات النثر شيء فضلا عن ان يكون له من متطلبات الشعر أدناها، ومع هذا فإننا نسمع ونرى من يصف هذا القول بالشعرية ويمنح قائله سمة الشاعرية، ولا يقف الأمر عند هذا الحد، بل يتطاول البعض من أنصار النثرية على الشعر العربي وعلى المدافعين عنه، ولو رضينا ب (القصيدة النثرية) وحسبناها شعراً، لكان من حق (طه حسين) و(أحمد حسن الزيات) أن يكونا شاعرين، وإن لم يقصدا الإبداع الشعري، فهما من أصحاب الأساليب المتألقة الجميلة الموقعة، ولك ان تضيف إليهما آخرين يحسنون الصياغة، غير ان الشعر قولٌ يختلفُ عن النثر، والشاعرُ إنسانٌ يختلفُ عن الأناسي، وحالةُ المخاض الشعري حالةٌ تختلف تماماً عن حالات القول، والشعر يعرف بأثره ولا يعرف بشرطه، وتوفر الشرط قد لا يوفر المشروط، والنماذج الشعرية هي التي تسعف المعرِّفين، وتفضُ اختلاف المختلفين، إذاً الشعر لا يؤطره شرطه، ولكنه يشير إليه، إذ لو توفرت كل الشروط الشعرية في كلام لا يحمل نبض الشعر لا يكون شعراً، وحين ألمحت في بعض كتاباتي إلى (القصدية) سخر البعض، وقال قائلهم: إننا لكي نقول شعراً لا بد ان نقول: اللهم إننا نوينا أن نقول شعراً على بحر كذا وقافية كذا، وهذا فهم ساذج وتصور سخيف لمقصدي، إن النية والقصدية شيء آخر، والعلماء الأوائل قالوا به، ليحولوا دون ما في القرآن الكريم من قول يكون موزوناً ومقفى ولكنه لا يكون شعراً إذ لم يقصد الشعر، وفي الحديث الشريف كلام على شاكلة الشعر، والرسول ﷺ ليس بشاعر ولا ينبغي له، والله لم يعلمه الشعر، كما ان العلماء فرقوا بين النظم العلمي والإبداع الشعري، ومن ثم فإن الشعر حالة (قصدية) واعية متفق عليها، ولكنها حالة مراوغة وغير مستقرة، وهي عصية على التعريف كالسعادة والجمال والحب، وخلوصاً من تلك المراوغة طرح الحداثيون مصطلح (الشعرية)، و(الشعرية) مصطلح حديث، لم أرَ فيما أعلم من حرر قضاياه في المشهد العربي، بحيث ظفر بالجمع والمنع، كما هو الحال في كل المصطلحات المعتبرة، وقد تُرجمت كتبٌ خصها مؤلفوها للحديث عن مصطلح (الشعرية) وهو مصطلح أكاد أجزم أنه لم يتحرر بعد، ويقيني أن منتجي هذا المصطلح يعودون إلى قانون الخطاب مع مراعاة الذائقة والانطباع، بعد ان فروا منهما فرارهم من الأسد، وقد أفاض في الكتابة عن هذا المصطلح غربيون ومستغربون، وما فعله بعضهم إضافة جيدة، ولكنه

---

(١) تاريخ المقال: ٣٠/ ١/ ٢٠٠١

لا يمكن ان يحل الإشكالية لا على مستوى النقد العلمي الصارم ولا على مستوى النثرية المسقطة لخصوصية الشعر، وكل أولئك ينطلقون من قانون الخطاب ويعودون إليه، ولكنهم جميعاً لم يتفقوا على شيء جامع مانع يحدد صفة (الشعرية)، ومصيبة المشهد النقدي من أناس يفاجئون المعدمين بالاستلاب فيظن الخليّون ان ذلك مبادرات وابتكارات، وما هو إلا قول متداول امتدت إليه أيدي هؤلاء دون ان يرجعوه إلى قائله، وأحسب أن مثل ذلك من أسوأ السرقات، ومما أصاب المشهد النقدي في الصميم تحول ذويه إلى أصداء يرددون الصوت ولا ينشئونه، حتى لقد تحول النقد بسبب التقليد إلى علمية معيارية إحصائية صارمة جافة متخشبة، وكاد يفقد فنيته عندما استفحلت البنيوية وتحولاتها ومترادفاتها من: نصوصية وشكلية وتفكيكية وتشريحية وتكوينية وتقويضية ولسانية وأسلوبية، وحين أركس النقادُ أنفسهم في العلمية الصارمة، وضاق الناس بهذا اللون من النقد، جاءت مصطلحات أخرى تخفف من حدة الجفاف المعياري الصارم والإحصائي الكمي المتحجر، وما كانت الأولى ولا الثانية من عند أنفسهم، وهكذا عاش المشهد الثقافي بين الفعل ورد الفعل، ولما يفرغ القوم للتأصيل والتأسس وتحسس رغبات الأمة واحترام ذوائقها وهل بعد نسف الشعر من بقية؟

لقد فجرت اللغة، ولم يؤت إلا بالعامية، وفجرت الرواية ولم يؤت إلا بالكلام الإنشائي العادي، وفجر الشعر فانتثر عقده، والى جانب التفجير أميتت بعض الظواهر، وهكذا نخرج من تفجير إلى تفجير، ومن موت إلى موت، ولا يتحقق إلا التخريب وإجهاض الكلمة الطيبة الفاعلة، حتى لقد فقدت الكلمة مهمتها بالنثرية والعامية والتغامض وسائر التحولات غير الراشدة، والشعر الفاعل والمؤثر فن عالمي، لا يستغني أحد عنه، وتحوله الصحيح لا يكون تحولاً واعياً، إنه تطور ذاتي خفي يتم دون تعمُّل ودون وعي، ولما لم يكن بالامكان الاستغناء عن الشعر المغنى كان من الصعوبة بمكان التصرف بمعماره بشكل يطمس معالمه، وهل ترغب الأمة عن الشعر؟ وهل تملك القدرة على تركه؟ وقد قيل باستحالة ذلك، إنه الحنين البشري العالق في شغاف الأمة كحنين الإبل، وهو ظاهرة حضارية وتراث عريق وتشكل عفوفي فطري، اكتشف الخليل ضوابطه الفطرية، ولم يصنعها من عنده، وحين استخرجها قيل إنها قيود صارمة وتعسف مثبط، والخليل لم يفعله عن أمره، ولم يكن لأحد من علماء العروض والقوافي رأي مبتدر، وإنما الجميع وصافون لظواهر قائمة في الذات، كالذي يصف العين والأنف واليد لمخلوق عرض له، إن الرفع من شأن النثرية على حساب الشعر محاولة لإخماد الحماس والتحفز، وفصل الأمة عن الكلمة الطيبة المؤثرة، والنثريون لم يكتفوا بإخماد التغني، بل أوغلوا في التغامض المصطنع: غموض الفكر وغموض اللغة وغموض البناء، خلقوا الأسطورة، وعمقوا الرمز، وشعبوا القناع، وكسروا نظام اللغة، وأطفؤوا وهج الكلمة، وأجهضوا فاعليتها، والشعراء اليوم لم يعد لهم حضورهم الفاعل، والساحة الأدبية يقتسمها الشعراء العاميون والروائيون الماجنون، ويطبل لهم الفارغون والمستغربون.

ولما كانت الحضارة العربية تقوم على مبدأ: في البدء تكون الكلمة، حرص أعداؤها على إفساد البداية، وحالوا دون ان يكون المبدأ: في البدء يكون الفعل، ومن ثم حرم الانساني العربي من الكلمة الطيبة المؤثرة ومن الفعل الجاد المثمر، وعندما ينطفيء وهج الفن وتفسد مقاصده تفقد المقدمات صوابها لتكون النتائج خاطئة، وذلك ما يكيد به أعداء الأمة من أبنائها ومن الأبعدين.

ولما كانت الكلمة الطيبة الجميلة وقوداً يذكي الحماس، ويشكل الوعي السليم، وينير الطريق، ويبلغ الرسالة لم يغفل عنها أعداء الأمة، والشعر من قبل ومن بعد إنشاد وتغنٍ وإطراب وإقناع واستمالة وحمل على الفعل، الشعر جماهيري جهوري، الشعر رسالة

متوهجة متوترة إبلاغية بلاغية، الشعر صوت موقع، ومن أراده لغير ذلك فقد ضربه في الصميم، وسمة العمق والتأمل والهمس جانب من جوانبه، وليست هي بالمطلب الأوحد، ولا الأهم، كما يدعي البعض، و(قصيدة النثر) لا تحمل شيئاً من ذلك، تجيء منطفئة منسابة غير متوترة وغير مثيرة، ودعك من الرديء منها، نحن نتحدث عن عيون النثر وعن الشعراء المشهود لهم بالتألق ممن رضوا بأن يكونوا مع الخوالف.

(قصيدة النثر) مع كل الاحتفاء والأضواء تعيش غياباً عن المشهد وعن الذاكرة والحضور الصاخب فقط إنما هو للصوت الاحتفالي الذي يرود لها، ويحمي ساقتها، فأين (القصيدة النثرية) من الشاهد؟ وأين هي من المختارات؟ واين هي من المحفوظات؟ أين حضورها في المجالس والمنابر والمنتديات والأمسيات؟ وأين دورها في مواجهة النوازل؟ واين تحفيزها الجماهيري؟ واين شيوعها، على الرغم من تضافر الجهود لتكريسها؟ وأين هي من حاجة النفس للمتعة والطرب؟

ومع هذا فإن المحتفين (بالقصيدة النثرية) يضيفون إليها من المحاسن ما ليس لها بمواصفاتها المعايَشة، من خلال النصوص المحسوبة عليها، وهم لكي يكثروا سوادهم يغضون الطرف عما لا يمكن قبوله من كلام منثور عديم الإمتاع والفائدة، وإذا ناشدتهم تحرير مصطلحهم بشروطه وضوابطه للاحتكام إليه عند التنازع، اجتالتهم شياطين الفوضوية التي يمنحونها سمة الحرية، وكأن الضوابط المعتبرة لكل ظاهرة قمع وتقييد وحجر، وما هي في نظر العلماء إلا حرمات لا يجوز الوقوع فيها، حتى لقد سمح للشعراء بالضرورات عند طائفة من الأدباء والعلماء، في حين رفضها آخرون ك (ابن فارس)، وأحسب أنهم رضوا بكسر نظام اللغة ولم يرضوا بكسر شروط الشعر، وكأن قداسة الشعر فوق قداسة اللغة، وهم في هذا الانضباط الصارم لم يعدُّوا (الرجز) شعراً، وإن كان موزوناً مقفى، إذ هو أدنى ضوابط الشعر، و(الرجز) شعر، إذا قيس بما آلت إليه ضوابط الشعر عند المولعين بالتقليد للغرب، ومن طريف المحاذير ما يقوله البعض من ان القبول (بالقصيدة النثرية) مؤذن بجعل القرآن شعراً على حد قول المشركين، وإلى هذا الرأي يذهب الذين يرون أن الشعر لا يكون شعراً إلا إذا جاء على مثال الشعر الجاهلي الذي عدَّه الذكر الحكيم شعراً، وهذا تحفظ نسوقه ولا نراه، وما لا يمكن الخلاف حوله قيام سائر شؤون الحياة على النظام، وهي السنن الكونية التي أشار إليها الذكر الحكيم ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ وهي التي لا تجد لها تبديلاً ولا تحويلاً، ولا تصلح الحياة معنوياً ولا حسياً بدونها، كل شيء بمقدار، وكل شيء بنظام، والفوضوية التي يدعو إليها البعض مناقضة للسنن الكونية ومخلة في نظام الكون، و(القصيدة النثرية) مأخوذة بأشياء كثيرة:

أولاً: أنها ليست امتداداً للقصيدة العربية، بحيث نحكم عليها من خلال ضوابط تطورية.

ثانياً: أنها تقليد غير واعٍ، بحيث لم تكن تقليداً مباشراً للقصيدة الغربية، فالشعر لا يترجم، وإنما هي تقليد لترجمة القصيدة الغربية، وهذا عمَّق ابتعادها عن الفن الشعري العربي والغربي على حد سواء.

ثالثاً: القصيدة الغربية لها ضوابطها الشكلية الصارمة التي لا يمكن التخلي عنها، وقد أشار الدكتور (حسن عون) إلى أوزانها التي لا يمكن إجراؤها في اللغة العربية، واشار من بعده الدارسون للبناء والشكل في القصيدة العربية والغربية، ونقاد الغرب يخوضون في خلاف مستعر حول ضوابط الشعر وسماته عندهم.

رابعاً: الشعر إنشاد وتغنٍ، ولا يتأتى ذلك الا بضوابط شكلية تشبه النوتات الموسيقية، والشاعر الموهوب لا يجد أدنى معوق في الضابط الشعري، وضوابط الشعر لم تسبقه، وإنما رصدت منه، فالشاعر والشعر سبقا الضوابط العروضية، مثلما سبقت اللغة الضوابط النحوية والصرفية، ومثلما سبقت الجماليات البلاغية ضوابط البلاغة في علوم (البيان) و(البديع) و(المعاني).

خامساً: لقد تطورت الموسيقى العالمية والعربية، ولكن لم يختل إيقاعها، وإنما تغير إلى الأفضل في إطار الثوابت، وكذلك معمار القصيدة تطور ولكنه ظل محتفظاً بخصوصية الشعر.

سادساً: لكل ظاهرة سمات وشروط يصار إليها عند التنازع و(قصيدة النثر) لا تتوفر على شيء من ذلك، وهي بهذا وبغيره تفقد مشروعية الوجود بوصفها شعراً وتملكه بوصفها نثراً.

وبعد، لقد أحس دعاة النثرية وبخاصة (أدونيس) بعد فوات الأوان وزرع بذور التنازع بالفوضى والانفلات، وأقبلوا على بعضهم يتلاومون، وما زال الراتعون في رخصها يحافظون عليها، لأنهم اكتسبوا بالقول على شاكلتها سمة الشعر، وتقلدوا وسامه، وهم أبعد ما يكونون عن مظانه، ووجد الفرصة بعض عشاق الأضواء لتبني هؤلاء الأدعياء وكسب أصواتهم، ومن ثم تجد الثناء والتمجيد يعطى بغير حساب للمبتدئين، حتى إذا أسقط في أيديهم، قالوا بكل فجاجة: خسرنا الرهان على فلان، والتنافخ والتقارظ الذي يتبادله الخليّون يسمونه بالتجديد ويصفون المتوقفين والمتسائلين والمستبينين بالتخلف والتقليد، والتجديد الذي يدّعونه إنما هو في الحقيقة تقليد رديء لمفرزات الغرب، والإشكالية ليست وقفاً على تلك الظاهرة، إن هناك سلسلة من التحولات الرديئة التي يصفونها بالتفجير، وهو بالفعل تفجير مدمر أضاع الفرص وحقق التخلف، وإذا قبلنا بالمفيد وأتحنا لأنفسنا فرصة الانتقاء، فإن هذا لن يحملنا على الإذعان لكل ناعق، وتحفظنا على الاهتياج الأعزل لا يعني جمودنا ورفضنا للتجديد، إننا مع التجديد، ومع استقبال كل طارىء، ولكننا ضد التبعية الإمعية واتباع الآخر، وادعاء الموت لكل سابق، والتخريب باسم التجريب، التجديد شيء والتخلل في نفايات الغرب شيء آخر.

ومما يبشر بالخير ويبعث على بصيص التفاؤل ما نشاهده من لغط تأبيني يتناجى به اساطين (الحداثة) و(البنيوية) و(النثرية)، وإن كان تناجياً بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، ولكنه على أية حال مؤذن بنهاية مخجلة ومحرجة لتلك الظاهرة ولغيرها من الظواهر المجتثة.

وها نحن نرى ونسمع التخليات والتحرفات، فالحداثة ومريدوها انكشف أمرهم وانفضح سرهم وانفض سامرهم، والبنيوية التي أُغثينا بها تهاوت قلاعها الورقية ولاذ أتباعها بالفرار، وتحول سماسرة الحداثة إلى كتّاب محليات يجسدون البؤس بأبشع صورة، وتلك مصائر الزيف والادعاء، والذي نأمله ونتطلع إليه مراجعة المغرر بهم لأوراقهم وأخذ حذرهم من لعب جديدة تتآمر على جهدهم ووقتهم، وتسعى لتضليلهم، فما عدنا نحتمل التجارب الفجة والتآمر المكشوف.

لقد مهد لكثير من الظواهر المجتثة من فوق الأرض أدباء ونقاد ليسوا على شيء من الفهم الصحيح والتصور السليم، وبشروا بظواهر كثيرة في الإبداع والتنظير وواطؤوا على الخطايا وجرّؤوا الناشئة على الادعاء وأفسدوا ذوائقهم وغرّروا بهم، لقد تقدموا ب(قصيدة النثر) مسبوقة بضرب موجع للشعر العربي وبتأكيد لحتمية التغيير واستئناس بالأجراء الشكلي المبكر وتعلق ساذج بالمترجمات، وقاد حملة التطهير العرقي للقصيدة العربية (أدونيس) و(أنسي الحاج) و(سعيد عقل) و(الماغوط) وتبعهم من لا خلاق له، وقد

بدأ تعويلهم على ايقاع الجملة وعلاقات الأصوات، ومن ثم بادروا إلى تحطيم القوانين الصارمة وتكريس مفهوم المجانية واللاجدوى، وها هم اليوم بعدما خربوا بيوتهم بأيديهم يضربون كفاً بأخرى، ويراجعون أنفسهم ويتحسرون على فعلهم، والأيام حبلى ولكنني غير متفائل بمخاضها فقد لا تلد إلا فأراً، وتلك شنشنة تعودناها من أولئك، وكل الذي نتطلع إليه، توعية الناشئة والحيلولة دون التغرير بهم.

العظماء يولدون بموتهم .. ! [١]

موت الكبار مولد جديد، وحالة كتلك تعني مجرد الانشطار بين الروح والجسد.

يعود الجسم إلى اصله تراباً: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾، وتعود الروح إلى عالمها الغيبي في انتظار التلاحم من جديد ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾، ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾، ﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾.

وحين يخلو ظهر الأرض من ذلك الجسم المادي، وتصعد الروح إلى بارئها، تتداعى القيم، لتحل محل الجسم الترابي، يراها الناس في البصيرة كما رأوا صاحبها من قبل بالبصر، وهنا يكون المولد الجديد، والحضور الجديد، والمعايشة الجديدة، حياة لا يملكها كل الميتين، وكم سويت الأرض بالملايين فصاروا تراباً، وقديماً قال أبو العلاء:

خفف الوطء ما أظن أديم الـ
أرض إلا من هذه الأجساد

وخلود العظماء لا يظفر به كل الهالكين:

لولا المشقة ساد الناس كلهم
الجود يفقر والإقدام قتَّال

فجاج الأرض تَذرعها الأرجل، وتملؤها الجنات والقصور، وصفحات التاريخ تضيئها الأقوال والأفعال الخالدة، كل الأحياء يملكون الركض بأرجلهم على الأرض، وليس كل الأموات يملكون الركض على صفحات التاريخ بسمعتهم وأفضالهم وجميل أعمالهم.

حياة القيم على صفحات التاريخ حياة عطرة طويلة، تتوارثها الأجيال، وتتعاقب عليها الأحقاب، ولا يعايشها إلا المتميزون، الدهماء يسمعون عن الخالدين فقط، والنخب هم الذين يعيشون مع الخالدين على صفحات التاريخ، هذه الحياة ليست لكل الناس، ومعايشة العباقرة والخالدين هي الأخرى معايشة استثنائية، والقليل القليل من يستطيع الظفر بمفحص قطاة على صفحات التاريخ، لأن الثمن باهظ، وسلعة الخلود غالية، كما أن سلعة الله غالية، وهل من مثمَّن يوازي الجنة؟.

والخلود ثمن وقيمة، ولا يمكن تحقق الاثنين للخلف إلا بالاستيعاب والتمثل، فذكر الخالدين لا يكون إيجابياً حتى يتخطى به المتلقي مرحلة المتعة إلى الاقتداء، والتاريخ مدرسة وأفضله تاريخ الرجال، فتاريخ الرجال للاقتداء، وتاريخ الأحداث للاعتبار، ولا يسعد عظماؤنا في قبورهم حتى يكونوا قدوة صالحة لمن بعدهم.

الزعماء والقادة والعلماء والمفكرون والمصلحون وحملة الهم الجماعي والمؤثرون على أنفسهم والعصاميون والمخترعون هم وحدهم الذين يولدون ساعة يموتون، وهم الذين يمارسون بذكرهم التحدي لمن بعدهم، الموت انقطاع، والمورثون للأمجاد يظلون في الذاكرة، والصدقة الجارية، والعلم المنتفع به، والعقب الصالح مدرجة جديدة وحياة من نوع آخر.

---

(١) تاريخ المقال: ١٦/ ١/ ٢٠٠١

لقد فقدنا علماء وزعماء ومصلحين وواريناهم الثرى، ونفضنا أيدينا وجفت مدامعنا، وذهبت أحزاننا وعدنا إلى بيوتنا وأسواقنا وجامعاتنا ومدارسنا ومكتباتنا فوجدناهم ماثلين أمامنا بما تركوه من علم نافع، وما حققوه من إنجاز خالد، وما قدموه من تضحيات، وما اشاعوه من سيرة عطرة.

مات الرسل والأنبياء والصالحون والزعماء والقادة فغابت شخوصهم ليعودوا من جديد قيماً في كتب قيمة، وأين أنت من سير أعلام النبلاء وصفوة الصفوة وحياة الصحابة الذين جاهدوا في الله حق جهاده؟ أشاعوا الفضيلة، وأظهروا الدين، وأمنوا السبل، وأناروا الطريق، وعلموا الناس أمر دينهم، ثم اين أنت من التاريخ الحديث وعلمائه وعظمائه وقادته؟ لقد غيب الموت قادة وعلماء ومصلحين، بكاهم الناس، وخافوا على أنفسهم وديارهم من الضياع بعدهم، ولكن الله عوضهم بمن يسد الخلة وينهض بالمهمة، مات علماء الدعوة السلفية، ومات الأمراء الذين ناصروهم، ومات من قبلهم ومن بعدهم ومعهم في آفاق المعمورة رجال لم تلههم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، فكانت سيرتهم قدوة ونبراساً، وفي كل يوم يخطف الموت عزيزاً، وتخلو الثغور من حماتها، ويحس الناس بفراغ مفزع وينتابهم الخوف من كل جانب، وكأن العالم الورع التقي سور له باب يحتمي الناس بداخله يتقون به سهام الفتن وعوادي الزمن، ومع الإيمان بأن الموت حق إلا أن ساعة المواجهة مربكة، فالقلب يحزن والعين تدمع، ولكن الصابرين المحتسبين لا يقولون إلا ما يرضي الله، وهل أحد أشد بأساً من عمر بن الخطاب؟ لقد اختل توازنه بموت الحبيب، وأشهر سلاحه في وجه من قال: إن محمداً قد مات، وغاب عنه أن تلك سنة الله في خلقه ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، ﴿أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]، ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥] .

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته
يوماً على آلة حدباء محمول

وحين عاد أبوبكر من ضيعته بكل ما يحمل من ثقة بالحي الذي لا يموت أعاد المسلمين إلى رشدهم، واستأنف معهم الحياة، وكأن محمداً لم يمت.

والرهبة والخوف الحقيقيان مما بعد الموت، ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢]، تلك لحظات الرهبة وساعات الخوف، والأمة المبتلاة بنقص الأنفس تودع رجالاتها بالثناء والدعاء والذكر الجميل، وتحاول ان تسد الفراغ الذي تركوه، وتنهض بالمهمات التي تخلوا عنها، وقد تمنى الأمة بفقد عظمائها بحالة من التردد، وقد يترك موت العظماء فراغاً لا يمكن ملؤه إلا بعد جهد جهيد، فتتعرض مسيرة الأمة للارتباك.

أقول قولي هذا والبلاد تعيش حالة من الحزن والألم على فقد علم من أعلام البلاد وركن من أركان الدين، وهل أحد يجهل العالم الفذ والفقيه المجتهد والعابد الورع الزاهد محمد بن صالح بن عثيمين (١٣٤٧ ١٤٢١هـ)؟.

لقد عاش حياته في طلب (العلم الشرعي) من تفسير وحديث وفقه واصول و(العلم العربي) من نحو وصرف ولغة بوصف اللغة العربية وعاء الدين، و(علم الكلام السلفي) لتصحيح العقيدة ومواجهة التيارات المادية والمذاهب المنحرفة، تلقى كل ذلك على ابرز علماء نجد، وبخاصة شيخه العلامة عبد الرحمن بن سعدي (ت ١٣٧٦) رحمه الله، وكلاهما امتداد للمدرسة السلفية التي من أبرز علمائها ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، ومن ورائهم علماء الدعوة السلفية النجدية، ثم بذل ما توفر عليه: تعليماً وإفتاءً وتأليفاً، ولقي في اجتهاداته ومبادراته النصب والتعب، فقد كان من علماء المذهب الحنبلي المجتهدين الذين استفادوا من اجتهادات شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، كما امتد نظره إلى ما اطمأن اليه من آراء ابن حزم في (المحلى) وابن عبد البر في (التمهيد) وجهابذة علماء المذاهب الاسلامية، ولم يأخذ بقول غير معزز بدليل قطعي أو قياس جلي، ولم يجد حرجاً من الترجيح، فقد اشار بعض طلبته إلى ما خالف به شيخ الإسلام فيما يتعلق بصلاة الجماعة والسعي وسفر المرأة مع الأمن دون محرم والجمع بين الأختين من الرضاعة، كما أشار إلى آرائه إزاء النوازل التي حارت بها الافهام وزلت بها الأقدام، وقد كان لاجتهاداته ومبادراته الأثر الواضح في شيوع ذكره، واحتفاء الأوساط العلمية به واستئناسهم بفتاواه، وكان رحمه الله الفقيه المتمكن في لغته ووعيه للمقاصد، وإلمامه بالقواعد، وحجته البالغة، وحرصه على التيسير والأخذ بما هو أرفق بالأمة وتنبهه للضرورات وضوابطها والبدع ودركاتها، ومن ثم حمل الأثير إلى آفاق المعمورة آراءه وفتاواه، وكانت مثار إعجاب جماهير العلماء، ولما لم يكن ميالاً إلى التأليف فقد هب تلاميذه لتدوين دروسه وتعليقاته على المتون وبخاصة متون الفقه الحنبلي ورسائل ابن تيمية العقدية كـ(الحموية) و(التدمرية)، وجمعوا فتاويه ولطائف تفسيره وتدريسه لعلوم اللغة مع ما قام به رحمه الله من مؤلفات وما كتبه من رسائل، وما خطه من محاضرات، وما تداوله في المؤتمرات من أحاديث، فما فقدت الأمة شيئاً مما قاله، وتلك من نعم الله عليه وعلى الأمة، ومن حسناته أنه لم يندفع وراء التسييس الثوري للإسلام، ولم يشأ ربط خطابه الشرعي بالنوازل السياسية، ولم ينجرف في تيار الخطاب الإعلامي، ولهذا ارتبط بالفكر السياسي السلفي القائم على البيعة والشورى ومناصحة ولي الأمر وتوظيف الإمكانيات العلمية لمصلحة الأمة والحرص على جمع الكلمة ودرء الفتن والمفاسد.

لقد عرفت فضيلته عن قرب، وكلما استمعت إليه أو اقتربت منه بحكم العمل المشترك في فرع الجامعة أحسست أنني أمام شخصية فذة في تواضعها وغزارة علمها وبعد نظرها وزهدها في مباهج الحياة واشتغالها فيما يهم الناس من أمر دينهم، وكلما استمعت إليه يتحدث في أمر من أمور الدين، أدركت كم هو الفرق بين لغة الفقهاء وكلام المنشئين، وحين يخرج من قاعة الدرس في الكلية يلتف من حوله الطلبة، يسألونه ويستفتونه ويراجعونه فيما لم يقتنعوا فيه، وهو يجيب ويفتي واقفاً أو ماشياً، وقد يحتدم الخلاف بينه وبين تلاميذه الذين غرس فيهم الثقة والجرأة حتى إذا بلغ مكتب العميد أو مقر القسم عاد إلى القاعة دون أن يأخذ ما يأخذه زملاؤه من الراحة.

لقد نقل العملية التعليمية من الإلقاء والتلقي الحشوي إلى الحوار والمراجعة والمشاركة، وضخ في شرايين الدرس الفقهي المتني الواحدي المذهب أو قل المقدم من المذهب ما عرف بالفقه المقارن بحيث استدعى النص ومارس مع تلاميذه الاستقراء والاستنباط فكان في درسه لا يعطي الجاهزيات وإنما يعلم الطريقة، فلم يكن يوزع السمك وإنما كان يعلم كيف يصاد، ومن ثم أتاح الفرصة للرأي الآخر وخرج العلماء، ولم يخرج الحفظة، لقد أنس بمقارعة الحجة بالحجة ومواجهة الرأي بالرأي، وكانت ثقته بالنص وإيمانه بتجدد معطياته وفق النوازل سبيلاً لتواصل التجديد وتعدد التحولات ومراقبة

المبادرات، أعطى الطلبة حق الإسهام في صناعة القضايا واستكمال متطلباتها، حتى لقد وجد فيه الطامحون مضامير لاكتشاف قدراتهم، وتحول درسه إلى ما يشبه المرافعات القضائية، كل طالب يقول ما في نفسه، وفضيلته يتفجر علماً ومعرفة، يسوق البرهان تلو البرهان، والحجة في أعقاب الحجة، لا يضن بعلم، ولا يبخل بجهد، ولا يتردد في سبيل إرشاد ضال أو تعليم جاهل، وهو إلى جانب ذلك رجل محسن يسعى في حاجات الفقراء والمساكين، يدعم الجمعيات، ويجمع لها التبرعات، ويشفع لكل ذي حاجة عند ولاة الأمر، ويتفقد أحوال معارفه وجيرانه، توفي أحد جيرانه قبل أسبوع من وفاته فهاتف أولاده من المستشفى في جدة معزياً ومواسياً وداعياً وناصحاً لهم، وقال لهم بالحرف الواحد: أنا مريض ولا أعلم ما يكتب الله لي فاستوصوا بوالدتكم وإخوانكم الصغار خيراً، وقالت تلك الأم المفجوعة بزوجها: إن ألمنا بوفاته لا تقل عن ألمنا بوفاة عائلنا، ومن ثم لم يكن رجل علم لا يبرح مكتبه أو مكتبته، ولكنه كان جوّاب أرض، يبذل الجهد والمال والوقت في سخاء وطيب نفس، وكان موته فاجعة للامة، والدولة التي تقدر العلم والعلماء تتقبل التعازي به كما لو كان من الأسرة، والناس تخشى أن يكون هذا الموت النقاد الذي طوى الجهابذة من العلماء من باب ذهاب العلم، والرسول ﷺ أخبر بذلك، وهو لا ينطق عن الهوى، فالله لا يقبض العلم انتزاعاً من الصدور، ولكن يكون بموت العلماء الأفذاذ الواحد تلو الآخر، والعلماء ورثة الأنبياء، وهم الأعرف بالله والأخشى له، وهم الأرفع درجات، وإذا تساقط الشوامخ خلت الأرض من أطنابها، وفقدت رسوَّها وثباتها، وأخذ الناس الاضطراب، والذين يستخفون بذهاب العلماء، ولا يعرفون أثرهم الخفي الذي يدب في أوصال الحياة كما الدماء تركض بالحياة في شرايين الأمة لا يقيمون وزناً لأثرهم، ومن المؤسف والمؤلم فقد احترام العلماء والتعامل معهم دون الاحتفاظ بأقدارهم، فالعلماء الأجلاء يختلفون حول النوازل ويتراجع بعضهم عما أخذ به، ولا يسيء أحد منهم الأدب مع أقرانه، ولا يتهمه عند العودة إلى الحق فهم جميعاً يبحثون عن الحق ولا يفكرون بالانتصار، ولو أن بعض المتسرعين قرؤوا كتب الخلاف والفقه المقارن وكتب الخلاف داخل المذهب الواحد (كالأنصاف) لعرفوا اختلاف العلماء وسعيهم الدؤوب وراء الحق وتأدب بعضهم مع بعض.

رحم الله فقيد الأمة وألهم أهله وذويه الصبر والسلوان وجبر مصاب الأمة وعوضها عنه بمن بقي من علمائنا الأفذاذ.

عندما يبحث الوطن عن منفى .. شعر أسامة عبد الرحمن .. ! (١) [(١)]

هذا عمل شعري أنتجه شاعر جهوري الصوت حاد المزاج قوي الانفعال، لا يعرفه بهذه الروح المتعالية الرافضة المثالية الخائفة المخيفة إلا الأقلون، وهو من الغرباء الذين لا يألفون ولا يؤلفون، لأنه غارق في مثاليته، منعزل في رؤيته، شديد التأثر حين يسمع كلمة لا تعجبه، إذ ربما يقولها الإنسان العفوي فيه أو عنه تهوي بقائلها بعيدا عنه سبعين خريفا، وهذه الحساسية المفرطة حجبت شعره عن النقاد، وجعلتهم يمرون به أو يسمعونه، وكأنه لا يعنيهم، والديوان الذي اشتريته دون تردد لشاعرنا الكبير أسامة عبد الرحمن، ليس هو أول مقروئي له، وأرجو ألا يكون الأخير، وحين أقول عنه: إنه شاعر كبير، فإنني لا أقدم بين يدي نجواي تزلفا أو تقية، ولا أضع متاريس تقيني لفحات الامتعاض وسلقات اللسان، فقد لقيت من قبله ومن بعده ملاكمين تطيش أكفهم وسهامهم، وما زادني ذلك إلا قوة في الحق وثباتاً على الرأي، وأسامة قد فعل معي بعض ما يفعلون، ولكنه كنَّى ولم يبن مثلهم، وما زدت أن قلت: لك العتبى حتى ترضى، غير أني لم أتنازل عن رأيي قيد أنملة، وإن ظل في غضبته المضرية، وأذكر أنه نفى عني أبسط حقوقي النقدية، وعاب على الذين تعاملوا معي على هذا المفهوم، واتهمهم بتبادل المنافع، والانفعال قد يؤدي إلى الأسوأ، لأنه نوع من الغضب، أو هو الغضب كله.

وأسامة على الرغم من حساسيته وحدة مزاجه، يملؤني إكباراً واحتراماً، لما يتمتع به من خلق رفيع، وهم أخلاقي ممض، وشعور جماعي متقد، وألم مرير يجترحه واقع أمته الذي لا يسر، ولكن الإكبار والاحترام لا يغيران من رأيي في شاعريته، حتى يغير ما في شعره من أشياء قد لا أراها وإن رآها غيري، ولعلي في هذا استعير مقولة البنيويين الذين يميتون الشاعر، حتى لا يكون لعلاقتهم به تأثير على أحكامهم ولا لهيبتهم منه حائلاً دون قول الحق، وحتى يخلو لهم وجه الشعر، وكأنه مجهول القائل، وأسامة عبد الرحمن المثالي العنيد الغاضب يحول بين الناس وما يشتهون من شعره الحماسي التنفيسي الصاخب بهذا الاحساس المتوتر، وييتئس بما يقولون، وهو قد تجاوز القنطرة، وأثبت وجوده بوصفه شاعراً لا غبار على شاعريته، وما عليه من بأس بعد هذا، وإن نفاه خصومه من دولة الشعر، وكم من شاعر سلبه الخصوم حقه الأبلج، فظل مكانه وانتفى خصومه، ووثائق أسامة الشعرية قادرة على انتزاع موقعه المتقدم في رحاب الشعر، شاء الناقدون أم سخطوا، وعليه وعلى كل الوجلين من النقد أن يفهموا أن من أراد ارضاء الناس جميعا أسخطهم جميعا، وأن مالا تقبله ذائقة عمرو تهيم به ذوائق زيد وسعيد ومبارك.

والمؤسف ان بعض المبدعين والنقاد لا ترحب صدورهم للرأي الآخر، وكأنه قادر على تصفيتهم جسداً وسمعة، وفات أولئك المتخوفين أنهم بعطائهم تجاوزوا بشخصياتهم من العادية إلى التاريخية ومن الذاتية إلى الموضوعية، والشخصية السياسية والفكرية والأدبية لا يمكن ان تتموضع حتى تكون استثنائية، ومتى دخلت سدة التموضع خرجت من حساسيتها الذاتية واستقطابيتها الطفولية، وأصبحت ملكاً للتاريخ، تقف الذاتية منها في حيادية تامة، وقد أدرك المتنبي عظمة التموضع ومشروعيته حين قال:

أنام ملء جفوني عن شواردها
ويسهر الخلق جراها ويختصم

---

(١) تاريخ المقال: ٦/ ٢/ ٢٠٠١

وهو يعني عدم الاكتراث من اللغط حول ما يقول، وهو يمنح الآخرين حرية القول بعد أن داهمهم بشوارده، ودخل عوالمهم، وفرض نفسه عليهم موضوعاً شاغلاً، وما أسعد الذين يختلف الناس حولهم، وما أتعس الذين لا يحركون ساكناً، عندي عن المتنبي مئات الدراسات وعشرات الشروح، وليس عندي لبعض من هم في مستواه إلا ديوان فقط، والسبب اختلاف الآراء وتباين الذوائق، فهل تمتلئ نفس أسامة عبد الرحمن بهذا الشعور فينام ولو بإحدى مقلتيه لا بكل جفونه، بحيث يقرأ ما يقال عنه دونما تأثر أو انزعاج، وليس هناك من بأس حين يصيخ للقول ويتبع أحسنه، أحسب أن اختلاف وجهات النظر محسوبة له ولشعره، والقضايا والظواهر لا تتحرر إلا بالجدل والاختلاف، وطول الجدل مؤشر على اتساع فضاءات القضية لتضارب الآراء وتباينها، والشعراء الذين اتفق الناس على مستواهم الشعري ذبلوا واضمحلوا، فهذا شعر أبي العتاهية لا يختلف حول مستواه اثنان، فهو من الوضوح والموضوعية والنمطية بحيث لا يكون حمَّال أوجه، وما من أحد يحب أسامة عبد الرحمن إلا ويود أن يختلف الناس حوله، وحديثي التطميني ليس موجهاً لأسامة وحده، ولكنه حديث عام يمهد فيه الناقد طريقه، وقدر الناقد أنه يفقد كل يوم صديقاً، ولا يجد بداً من أن يتفق مع المبدع أو يختلف، وهو حين يختلف تسلقه ألسنة حداد، ويقال في حقه مالا يستحق، وهو كما قال الناقد عبد الواحد لؤلؤة: كالنافخ في الرماد، ومع ما أمارسه من تطمين له ولغيره لن يبلغ منه خصومه ما بلغ مني خصومي، وكم أتمنى أن يقرأ ما كتبه عني الحداثيون والمستغربون ومن أغروهم بي من شباب مبتدئين، وما أوجف به دعاة العامية، وأحسب أنني مع كل قولهم وسخريتهم وتنقصهم وسلبهم أدنى حق من حقوقي قد حققت من الخير ما يكاد يميتهم غيظاً، وما زلت أشفق عليهم وأحفظ لهم حقهم، وأتمنى لو كانوا محاورين موضوعيين لنضيف بالاختلاف المشروع إلى مشهدنا ما هو بحاجة اليه، ولكنهم لم يفعلوا.

عرفت أسامة كاتباً مرتفع النبرة، وعرفته شاعراً صاخب الصوت، وشعره شعر جماهيري إنشادي إعلامي يسرق الأضواء على المنابر، ولكن الأضواء تنضوي عن بعضه حين يكون بين دفتي الديوان، أقول قولي هذا وأستغفر الله أن أكون متحاملاً، وأثق أن طائفة من النقاد يرون ما لا أرى، ويجدون في شعر أسامة المكتوب أضعاف ما يجدونه في شعره المنشد، وإذ لا أحس من أولئك بهضم، فإنني أتمنى أن يحمل أسامة ذات الشعور وأن يمضي لسبيله، إن لم يستطع النوم بملء جفنيه.

أذكر أن العقاد وهو يتحدث عما في مكتبته من كتب يصفها بأنها قمقم مليء بالعفاريت، وان الكتب تغفو على الرفوف ولا توقظها إلا الأكف، وهي حبيسة لا تلوي على شيء، وأعمال أسامة تحتل في مكتبتي مساحة طويلة، وهي كما وصف العقاد عفاريت لها صلصلة، وأملي أن أطلقها الواحد تلو الآخر ليسعد القارئ ويشقى مثلما سعدت وشقيت، فواجبنا بوصفنا قراءً للإبداع القولي أن نبلّغ عن شعرائنا ومبدعينا ولو بيتاً واحداً على متن القدح أو المدح، كل الذي نريده تحريك مساحتنا الخالية في المشاهد الأدبية، وأسامة شاء أم أبى شاعر يحرك فيّ شهوة الكلام والعناد والتحرش، وأنا متخصص في الأدب العربي الحديث عامة وفي الأدب العربي في المملكة على وجه الخصوص، ولهذا فإن شعر أسامة ماثل في طريقي أضرب به الأمثال، وأقول عنه ما أرى، وكم لقيت من بعض طلبة الليسانس امتعاضاً حين أمس شعره أو شعر غيره برفق، وفي المقابل أجد من يمتعض حين لا أمسه بعنف، لقد وجدت أن مثَلَه مثل حافظ إبراهيم له شعر جهوري منشد، وأذكر أن زكي مبارك قال فيه ما سأقول بعضه عن أسامة، وما نقص ذلك من شعر حافظ شيئاً، والقول بالإنشادية والقرائية له ما بعده، فالشعر الإنشادي يختلف كثيراً عن الشعر التأملي، وفي كل خير، ولكل نوع طلابه، وإذا أخفق الشعر

التفعيلي على المنابر، فقد نجح بعض النجاح أو أكثره على الورق، وكثير من الشعر يفقد ألقه وسلطانه حين يخرج من حلبات الإنشاد إلى صفحات الكتب، وكثير من الشعراء يحسون بهذا، ويتألمون من فداحة الخسارة، والنقاد الأوائل ألمحوا إلى بعض ذلك، ووصفوا بعض الشعر بنقط العروس وبعر الضباء، والنقاد المعاصرون نظروا إلى شعر حافظ وعدوه شعراً منبرياً، يبهر السامع، ويخيب أمل القارئ، وقولي هذا لا يعني شعر أسامة بالذات، ولكنه يعني شعراء كثيرين ينشدون الشعر فيهزونك ويطربونك، حتى إذا وضع الإنشاد أوزاره قرأت شعراً آخر لا تربطه بالمنشد رابطة، حتى في الشعر العامي توجد تلك الظاهرة بكل وضوح، ولك أن تستمع إلى (خلف بن هذال) أو إلى (عبد الرحمن رفيع)، ثم عليك أن تقرأ ما أنشدوا، وهذا المتنبي الذي شغل الناس وأحدث شعره مدارس نقدية بحالها، لم يتفق النقاد على شاعريته، وما عيب على المناوئين له، وما ضره قول خصومه المجحفين، وخصومه الذين امتلؤوا حقداً وحسداً، وفرقوا بينه وبين مثله الأعلى سيف الدولة، قدموا للمشهد الأدبي معروفاً بحمله على إبداع قصائد نافح فيها عن نفسه وعن شعره، فكانت تلك القصائد الأكثر سيرورة في شعره، وأين أنت من (وا حرَّ قلباه) تلك الميمية المكتظة بالفعل والانفعال.

وأنا حين أقرأ شعر أسامة بالطريقة التي أراها، وأقول فيه رأيي فإنني لا أقطع بصواب ما أقول، ولكنني صادق مع نفسي، ولا أجد فيما أوتيت من ذوق ودربة على قدِّ الحال ما يحملني على قول ما يرضيه، ولن أقول له: إن رضيت وإلا فاشرب من ماء البحر، ولكنني أقول له: (هذا فزدي)، فلا أعرف غير الصراحة وبخاصة حين آمن العقاب، وما عليَّ إذا لم يقبل الآخرون، ومع أنني قد اختلف معه في بعض وجوه القول، إلا أنني لا أتردد في وصفه بالشاعر الكبير، وليس في ذلك تناقض، فالشاعرية شيء واجتماع النقاد على التألق شيء آخر، والمنصفون المعتدلون قالوا: إذا غلب جيّدُ الشعر رديئَه فاق الشاعر أقرانه، وإذا غلب رديئُه جيده تخلف عنهم، وما من شاعر اجتمعت عليه كلمة النقاد، وإذا امتدت يدك إلى لون من الطعوم وانصرفت عن ألوان أخرى، فإن أياديَ كثيرة ستمتد إلى ما انصرفت نفسك عنه، فحين أحب الشعر الهامس الغامض المكثف الانزياحي التأملي العميق المتماسك في وحدة عضوية مما ليس شيء منه في شعر أسامة، أجد الآخرين يودون من شعره ما يحفل به من صلصلة ووحدة بيتية ومباشرة وتكرار يكاد ينفرد فيه.

لقد وقعت عيني على هذا الديوان (عندما يبحث الوطن عن منفى)، وكنت من قبل قد أغريت بعض الدارسين بالتفرغ لدراسة ظاهرة التكرار عند أسامة، وحرصت على ان يستكمل الدارس هذه الظاهرة، فالشاعر مثير في لغته، وجميل جداً أن يغري الشاعر قراءه فينتقلون من قراءة المتعة إلى قراءة التأمل والاستنتاج، ولقد علمت أن هذا الدارس يختلف معي كثيراً، ويلومني على رأيي في شعره، وأنا سعيد بهذه المخالفة، لأن شاعراً كأسامة عبد الرحمن بحاجة إلى نقاد تتوازعهم الذوائق والمذاهب والرغبات، ليكتنفوا شعره من كل وجوهه، وهذا ما نوده لكل مبدعينا ولا يعنيني في شيء أن يتفق الناس معي أو يختلفوا، كل الذي يهمني أن تتعدد الآراء والآليات والمذاهب والرغبات لإثراء الحركة النقدية، وأن تجذب الأقلام الناقدة أسامة إلى دائرة الضوء فلا يجوز أن يكون مثله في الظل.

لقد ظفرت بهذا الديوان، وكنت قد فرغت من مناقشة رسالة ماجستير عن أديب من بلدياته هو الشاعر عبد السلام هاشم حافظ رحمه الله وكانت تلك الرسالة هي الثانية عنه، وقد لا تكون الأخيرة، وعجبت من أمر هذا الرجل، كيف يتهافت عليه الدارسون ويدعون من هم أفضل منه؟ وما أحسبه رحمه الله بكل ما أتاه الله من جسارة في التأليف والإبداع

يبلغ مدَّ أسامة عبد الرحمن ولا نصيفه، وما حظي أسامة بالأقل القليل مما حظي به عبد السلام وأضرابه، ولا أستبعد أن يكون عائق المجاملة والخوف من سلقات الألسن هو الذي حجب أسامة وبذل عبد السلام، كان عبد السلام وديعاً ودوداً يقعد به مرض القلب ووهن العظم والتواضع الجم، وهذه كل جوانبه، وكان أسامة حاد الطبع حاد النظرات يخلط بين ذاته وشعره وبين اقتداره وإبداعه، ويرى أن المساس بشعره مساس بذاته وقدح بإمكانياته، وكنت بهذه المغامرة عنترياً متصعلكاً، منكبّاً عن ذكر العواقب جانباً، وإلا من يجرؤ على الدخول في مأسدة أسامة.

لقد سمعت شعر أسامة، وقرأته، وسمعت شعر عبد السلام، وقرأته، وأيقنت أن الحظوظ بيد الله، وقد عجب مَن قبلي ومَن معي ومَن بعدي من قراء ونقاد ودارسين مِن سيرورة بعض الشعر دون سبب للسيرورة وانكماش بعض الشعر مع انطوائه على مقومات السيرورة، كان المتنبي من أكثر الشعراء سيرورة، وهو جدير بها، وكان جرير من قبله يوصف شعره بالسيرورة، وكان الفرزدق دون جرير والمتنبي سيرورة، وهو الجدير بها، وكان يضيق ذرعا من سيرورة شعر جرير، حتى أن النقاد وجدوا فيه أغزل بيت وأهجى بيت وأفخر بيت، أو أنهم اصطنعوا ذلك ليروجوا لأنفسهم ولكتبهم، وكم من كاتب خامل الذكر تسلق المحراب على أكتاف المشاهير، وتلك أرزاق يهبها الله لمن شاء من خلقه، ولك أن تقول مثل ذلك عن الفن السردي محلياً وعربياً وعالمياً، فهذا الطيب صالح في رواية موسم الهجرة إلى الشمال بلغت من الشهرة حداً لا يتصور، وظلت أعمال أخرى أفضل منها خارج دوائر الضوء، وهذا القاص محمد الشقحاء اعتورته أقلام النقاد والمؤلفين، مع أن هناك من هو أقدر منه ممن لم يحض بمقالة واحدة، وليس فيما قيل عنه تجنياً ولا جناية، وأسامة الذي أخرج إلى الناس عشرين ديواناً أو تزيد ما زال الغائب الحاضر، وغيره أخرج قصائد معدودة، فكان ملء السمع والبصر، والتقصير في حق أسامة تقصير في حق الشعر عامة وفي حق الشعراء الذين أفاضوا على المشهد الثقافي بعيون الشعر، وأثروا الساحة بألوان من الإبداع، ولا أحسب الناس حين غفلوا عن القول فيه إلا لصلف هذا الشعر وحدة نبرته وعنف تناوله وإلحاحه على تكريس المراد، وهم يخشون أن يواجَهوا بمثل هذا القول العنيف، وأسامة ليس شاعراً وحسب، بحيث لا يأبهون لغضبَته، إنه رجل أكاديمي له حضوره الإيجابي في سوح كثيرة ومجالات متعددة، والشعر جزء من قدراته وقدره، وهو لا يحتاج إلى مأجورين يدافعون عنه، إنه الأقدر على تصفية خصومه بقلمه الديناميتي، والأقلام الديناميتية تنجو بأصحابها وبشعرهم، ولا شك أن الطريق إليه مليء بالألغام، ولكنني سأبطل مفعولها أو أفجرها قبل أن أصل إليها.

عندما يبحث الوطن عن منفى .. شعر أسامة عبد الرحمن .. ! (٢)[(١)]

وديوانه الذي حفزني على ما يمكن تسميته بالتحرش والتحريض لأثبت للمشاهد الأدبية ان بني عمي فيهم شعراء مثله مثل أترابه ولداته ولكنه استأثر بالحديث، صحبت هذا الديوان في بعض أسفاري لضيق في الوقت وضعف في الجهد، قرأته على مهل، وفي فترات متقاربة، ولفت انتباهي جدة عنوانه، فيما جاءت أشواطه الدلالية وظواهره الفنية وطوابعه اللغوية على ما كانت عليه من قبل، باستثناء تحرفاته القليلة نسبة إلى باعه الطويل ومعايشته الأطول في صناعة الشعر. لقد أصدر الشاعر من قبله مجموعات شعرية ماثلة، وهو في عناوين تلك المجموعات يحاول التخلص من نمطية التسميات ورتابتها، وأذكر ان طائفة من المتابعين للمقدمات والتسميات والمداخل النثرية خرجوا بنتائج مثيرة حين رصدوا ذلك، وحاولوا النظر في دوافع التسميات والمقدمات والمداخل وترتيب القصائد والاستعانة بالرسامين والمخرجين والألوان والخطوط، فكل ذلك لا يأتي إلا استجابة لحاجات في النفوس، والناقد بطبعه فضولي يود معرفة أدق التفاصيل عن كل شيء، والشعراء قد يقدمون بين يدي قصائدهم مداخل تشد أزر القارئ، وذلك بذكر المثيرات التي حدت بهم إلى الإبداع، وأسباب النزول التي يتداولها المفسرون تحل كثيراً من إشكاليات التأويل، وقد سمعت من بعض المتابعين ان (الواحدي. ت٤٦٨هـ) أو (ابن جني. ت٣٩٢هـ) لا أذكر بالتحديد أشار أحدهما أو كلاهما إلى المقدمات النثرية التي كتبها المتنبي في صدر قصائده، والاثنان من أقدر الشراح لشعر المتنبي، لقربهم منه وعلوقهم به وثقته بأحدهما، وأذكر ان صفاء خلوصي بدأ في تحقيق (الفَسْر) لابن جني، ولم يكمله لموته، وسمعت من آخرين ان (ابن خفاجة الأندلسي)، كان يهتم بالمداخل النثرية، وحين ألقى زميلنا الدكتور أحمد الطامي محاضرة عن «المدخل النثري للقصيدة العربية الحديثة» وأشار إلى الرصافي والعقاد وناجي وأبي ريشة لفت الأنظار إلي ظاهرة جديرة بالعناية، وكنت قد علَّقت على هذه المحاضرة، وأشرت إلى تحول الشعر من الإنشاد إلى الكتابة، مما أدى إلى فصل الشاعر عن شعره، وإلى ما واجهه الشعراء من حلول الرسم بالكلمات محل الصوت والإنشاد، وتلك إشكالية، فالشاعر لم يكن مرسلاً حاضراً مع شعره، حيث نابت الكتابة منابه، وهي نيابة ناقصة، تحتاج إلى من يعضدها بالرسوم والأشكال والأشواط الدلالية داخل العمل الواحد أو داخل معمار القصيدة، وأذكر انني قرأت لبعض النقاد المعاصرين حديثاً ممتعاً عن لعبة (السواد والبياض) وأشكال الكتابة ودورها في شد عضد المتلقي لفهم أعمق، وأحسب ان هذه المبادرة للناقد المغربي محمد بنيس، كما قرأت دراسات عن الديوان الشعري من حيث تصميمه وإخراجه وترتيب القصائد والقيم الفنية في أنواع التصاميم وأشكال الكتابة وأحسبها ليوسف نوفل.

وجاء على النقيض من تلك الرغبات (النقد البنيوي) الذي بلغ حد التقديس للنص مفصولاً عن كل العلائق، وقد أسرف في احترام العلاقة بين القارئ والنص، حتى بلغ به الأمر حد إماتة المؤلف، ليقطع دابر التأثير على تأويل القارئ، وهذه الأشياء حين تناولها من لايحسنون الفهم ولا يجودون الفعل الإجرائي سحروا أعين الناس واسترهبوهم، والمشهد النقدي مليء بهذه النوعيات المبهورة بالمستجدات، وما علينا من بأس في أن نسمع ونقرأ ونستفيد، إذ ليس هناك نص بريء ولا حضارة خالصة،، ولكن البأس كل البأس أن ننفي ذواتنا ونذيبها في هذا المسموع أو المقروء، مثلما نفت الدول الظالمة الشعوب المستعمرة من لغاتها، وحرمتها من اللغات القومية، وهو ما حصل للجزائريين

---

(١) تاريخ المقال: ٢٠/ ٢/ ٢٠٠١

إبان الاستعمار الفرنسي، وهو ما يفعله المبهورون مع أنفسهم، إن الحديث عن المستجد ممتع إذا كان عن اقتدار وبمقدار، وليس المستجد في المقدمة والعنوان والاستهلالات والمداخل مما حذرنا عنه، ولكنه من وجه آخر تدخل فضولي، إذ ليس من حق الشاعر ان يلاحق القارئ، ولا أن يفرض عليه تفسيراً معيناً، وقد سمعنا ما كان المتنبي يقوله لشارح شعره الذي مر به، وهو يعلم الصبيان، وما قاله طه حسين على طريق السخرية حين قرأ ما كتبه العقاد عن أبي نواس، والعقاد كتب ما كتب وهو مأخوذ بطرائق النقاد النفسيين، وأسامة عبد الرحمن من أولئك الشعراء الذين يندسون في شعرهم بطريقة أو بأخرى، ويمارسون التوجيه والتلقين، وكأنه لايريد أن يفهم الناس منه إلا معنى واحداً، وكأنه يحرم شعره من أن يعبر عن هموم الغير، وأن يجمجم عما في نفوسهم، وكأنه يريد إغلاق فضاءات النص إلا فضاء واحداً، فهو يلح في القول، وهو يبدئ ويعيد، ويتقصى مفردات المعنى الواحد يكررها، حتي لايدع لك إلا المعنى الذي يود إيصاله إليك، بحيث لا تجد في شعره لذة الاكتشاف ولا لذة التأويلات المحتملة، والشعر لمح وإيماض يبرق بالمعاني من وراء ركام الأقنعة، ولا يروض جماحه إلا ناقد يجسُّ معانيه، فما عاد من حق أحد أن يضيف كلمة تؤطر النص وتوحد دلالته، فمعاني الشعر كأوابد الصيد لا يجد الناقد اللذة إلا بطردها واقتناصها بعد جهد وعناء، وأحسب أن أسامة عبد الرحمن ممن يجب ان يقال له: دعنا وشعرك، فما لأحد حق مصادرة الحق، والشاعر المشفق على شعره مهتم بالتسميات وبعناوين الدواوين كل هذه تشغل باله وتدفعه إلى التقاطها مما سلف كآي الذكر الحكيم، وهو يريد من كل عنوان عين الدلالة التي تعطيها الآية التي انتزع منها العنوان.

فديوانه الأول الذي صدر عام ١٩٨٢م «واستوت على الجودي» وديوانه الثالث الذي صدر عام ١٩٨٤م «وغيض الماء» وديوانه الرابع الذي صدر عام ١٩٨٥م «بحر لجي» وديوانه الخامس الذي صدر عام ١٩٨٦م «فأصبحت كالصريم» وديوانه السادس الذي صدر عام ١٩٨٧م «موج من فوقه موج» وديوانه السابع الذي صدر عام ١٩٨٨م «هل من محيص» وديوانه الثامن الذي صدر في العام نفسه ١٩٨٨م «لاعاصم» وديوانه التاسع الذي صدر في العام نفسه ١٩٨٨م «عينان نضاختان» وديوانه الحادي عشر الذي صدر عام ١٩٨٩م «رحيق غير مختوم» وديوانه الثاني عشر الذي صدر عام ١٩٨٩م «الحب ذو العصف» وديوانه السادس عشر الذي صدر عام ١٩٩٢م «الأمر إليك» وديوانه السابع عشر الذي صدر عام ١٩٩٢ «أوتيت من كل شيء» وديوانه التاسع عشر الذي صدر عام ١٩٩٢م «يا أيها الملأ» وديوانه ما قبل الأخيرين «قد شغفها حباً» كل هذه الدواوين تحمل عناوينها دلالات عميقة، بعيدة الغور، لارتباطها الوثيق بمآلات النصوص والقصص القرآني، وما له علاقة بالماء بوصفه مصدر حياة وأداة عذاب ونكال، وهو ينفرد من بين شعراء العربية عامة بهذه الخاصية العنوانية، إذ يلتقط العنوان من سياقات قصصية قرآنية تثير في القارئ رغبة الإنصات إلى سياقات القصص القرآني واستدعائها، وهذه السياقات مكتظة بالدلالات والأهداف التي لا نجدها في شعره، ولا نجد أي ارتباط بين العنوان والمضمون الشعري، ومن ثم فهي تسميات اعتباطية دعائية، وكنت أود لو أن الشاعر حين استل تلك الجمل من سياقها أتبع سبباً، وأحدث علاقة، وهو إذ لم يفعل فإن الأمر لايخرج من إطار الشكليات، وكم أتمنى أن تكون هذه الإشارات إغراءات واستثمارات لمن يملكون الجهد والوقت والاقتدار، ليمارسوا التفكيك والتشريح كي يصلوا العناوين بمصادرها القرآنية، ويلتمسوا في الدواوين رموزاً وأقنعة تجمدت خارج أسوارها. والدارسون المعاصرون قد تلمسوا أثر القرآن على كثير من الشعراء، وأذكر ان الشاعر المصري الحداثي المثير (أمل دنقل) قد درسه النقاد من هذا الملمح، وألف بعض الدارسين والدارسات عن علاقة نصه بالقرآن وتعالقه الواعي مع النص،

وهو تعالق ممتع ومثير، يقع تحت احتمال الحظر والإباحة، كما ألف عن الإشعاع القرآني في الشعر الحديث دراسة عميقة. ومن حق أسامة على أبناء جلدته أن يتناولوا هذا الجانب المهم، وهو جانب التعالق النصي أو العنواني على الأقل مع القصص القرآني، والنقد الحديث يتحفظ على تدخل الشاعر كوسيط لذاته مع القارئ، وهو حين يتحفظ على مطلق المهمة التوسطية بين المرسل والمتلقي يعد القارئ مبدعاً رديفاً، والخيال والرمز والأسطرة والانزياح اللغوي والمجاز والإيجاز مطايا تطير بالقارئ الذي يتنفس برئة القصيدة، ويسقط من خلالها همومه، غير ان أسامة عبد الرحمن لم يمارس هذه الأشياء بالقدر المتوقع من مثله، وهو إذ لم يفعل لا يكون هناك تقنع ولا انزياح يغريان المجربين من النقاد، وعيبه أنه مأسور بواحدية الدلالة ومباشرتها وبالفصل التام بين العنوان والنص، وهو بتلك المباشرة التي يفرضها عليه ما يعانيه من هموم ممضّة لايدع لك لذة الاكتشاف، لأنه ضد التكثيف وضد اللمحة وضد البقية التي تقول: المعنى في بطن الشاعر. أسامة لا يدع في بطنه شيئاً يضاعف همه ويقض مضجعه، وإنما يتخلص منه بالتقصي؛ وإبداء القول وإعادته، يضعه بأدق تفاصيله، إنه شاعر توصيلي، ومن حقه أن يكون كما يريد، ومن حقنا ألا نقبل إلا ما نريد، ومن واجب المشاهد النقدية ان ترحب للقول ونقيضه، ومن حق القراء أن يستمعوا لهذا اللغط وأن يأخذوا بأحسنه، والشاعر يقطع كل احتمال بهذه المرافعة الحادة. إنه شاعر ضد قضايا ومع قضايا، ومن ثم لايدخر وسعاً في الوضوح والتفصيل والتقصي والتكرار، وأنا أضيق من هذه الممارسة، ولا أجد الشعر قادراً على الخلود متى أحرقه صاحبه بالمباشرة والتقريرية والخطابية والتكرار الملح والاستقصاء الذي قد يصل إلى حد الملل. هناك من لايرى رأيي، ويذهب إلى أن (البيان) و (الفصاحة) و(البلاغة) و(النصوصية) مصطلحات لها مقتضيات: الإبانة عن المراد، والإفصاح بالهم، وإبلاغ المقصود، والبروز. ولست فيما أرى مسيطراً، ولكن من حقي أن أقول: إنني أود لو ترك أسامة شيئاً من المعنى، ولكنه لم يترك، فهو ذو هم، وقصيدته رسالة ترافع ضد الظلم والتسلط الذي يصب حممه على الإنسان العربي من قوى الشر والتآمر، فهو يريد ان يفهم الناس أدق التفاصيل عن قضاياه العربية، يريد ان يقنع المتلقي، وأنا ضد هذه الدعوى، وضد هذا الهم التوصيلي، ومع أن أسامة يحرمك من مستويات الدلالة ومعنى المعنى، فإنه يوفر لك أشياء أخرى لا تقل عما تفقده في شعره، ومن حقه علينا أن نعترف بما يتميز به، وألا نصادر حق الآخرين في تذوق هذا اللون من الشعر الذي نود لو أنه مال عنه بعض الميل لا كل الميل، وما يوفره ويسعد به غيري لا أراه تعويضاً ملائماً. الشعر المتميز عندي على الأقل هو الشعر المكثف الشعر اللمحة الشعر المتمنع شعر التحدي شعر الظلال الشعر الذي يتسع للخلاف الشعر التوتيري التساؤلي التصويري الإيحائي الإيجازي المجازي الانزياحي، والشعر لمح وليس هذرا. ولقد سئلت عن شاعرية أسامة وشاعرية العشماوي، والسائلون يرفضون الصلصلة والجلجلة، وهل أحد يشك في شاعرية الرجلين؟ ولكن المذهبية الضيقة تنفي مخالفيها.

وهذا الديوان الذي فتح شهيتي وحرضني على المغامرة المحفوفة بالمخاطر يقع في مئتين وسبع وأربعين صفحة، وضعه الشاعر ضمن ثلاث مجموعات:

هل تقبلين دعوتي.

عندما يبحث الوطن عن منفى.

أشجان.

وهو قد اختار للديوان اسما وطنيا مثيرا، هو عنوان المجموعة الثانية، ولكن الأعمال الشعرية في هذه المجموعة لم تكن خالصة للوطن الأخص ولا للوطن الأعم، ولكنها تجارب حب عنيف تسلطي متمرد فيه جلافة أعرابية.

والشاعر كما أشرت أكثر من مرة ذو نكهة معتقة لا تكاد تنكرها منذ ديوانه الأول «واستوت على الجودي» حتى ملحمته الشعرية «خمسون عاما» التي لم نرها بعد، وربما أنها لم تر النور بعد، وهذه الرتابة اللغوية والشعرية والدلالية التي أخذ نفسه بها أخذ عزة واقتدار وتسلط، تقلل من عنصر المفاجأة التي نراها عند الآخرين أعمالاً من شعراء الحداثة والعلمنة، ولانراها إلا نادراً عند من نركن شيئا كثيراً إليهم لشرف معناهم وتخلف مبناهم، ولست أعرف سببا لواحدية النكهة واستمراريتها عند شاعر يسبح في آفاق معرفية، جواب أرض تتقاذفه فلوات الحضارات بما آتاه الله من إمكانيات معرفية، إذ المؤمل من مثله ألا يصبر على طعام واحد، وهو لايقدم لك من شعره إلا طعاما واحدا. والشاعر الذي اجتهد ما وسعه الاجتهاد في الخروج على شكل القصيدة وبعض عموديتها لم يستطع أن يقدم البديل الأمثل، وشعر التفعيلة الذي أخفق فيه شعراء مجيدون، وجلى فيه من هم دون ذلك، تحول إلى حقل تجريبي تبيض فيه وتصفر «قبرات» كثيرات حين خلت بأرض الشعر، كما الجبان حين يخلو بأرض يطلب الطعن والنزال، وماهو بقادر عليه لو صوت إنسان. لقد صار هذا المهيع متنفساً لكثير من العاجزين الذين استمرؤوا الرخص حتى بلغوا الدرك الأسفل بقصيدة النثر التي يسميها الدكتور/ أحمد درويش (عصيدة النثر) وقد أغضب الحداثيين بهذه السخرية المرة. وأسامة شاعر لا يثنيه شيء، فهو من ذوي الأنفاس الطويلة، ومن ثم فليس بحاجة إلى شعر التفعيلة، والعدول من الشكل العروضي إلى ما دونه لا يغير من الأمر شيئاً، وإنما هو حاجة قائمة في نفوس كثيرة، وقد تفوِّت على الشاعر أمورا مهمة، وتحرمه من تجليات محققة، وأسامة شاعر خطابي بحاجة إلى جلجلة الصوت ورتابة الإيقاع وصفاء الموسيقى، بحيث لا يصلح له هذا الشكل الشعري المتصف بالانسيابية، ولهذا فإنك ترى التكلف والتعمل باديين في هذا التشكيل الجديد عنده، وأنت حين تقرأ هذه القصائد تود لو أن بينك وبينها أمداً بعيداً، وقد أومأت أكثر من مرة إلى كونه من شعراء التقصي والتفصيل والإلحاح على المعنى وتشقيق الدلالات وإتيان المعنى من كل وجوهه، وكأن هاجسه أن الناس لايتفقون معه ولايصدقونه، أو أنهم متثاقلون في حمل همه الممض وآلامه المبرحة، ولهذا تراه يقلب لك الأمر على كل ما يحتمله ويتسع له من المعاني، والمرجح أنك تستوعب الموضوع في بيت أو بيتين، وتستشرف لمعنى آخر، غير أنه يعيد ويمعن في الإعادة، ويفصل ويغرق في التفصيل، ثم هو لا يعد من الذين يكررون أنفسهم، ولا من الذين يكررون الموضوع ذاته، وإنما هو من الموغلين في التقصي والتفصيل في المعنى الذي يشرع بالحديث عنه إلى الحد الذي تضطر معه في بعض الحالات أن تقف أو تقفز أو تلقي الديوان غاضباً، ثم لا تلبث أن تعود إليه متعاطفاً معه مشفقاً عليه وعلى نفسك، ويجب أن نفرق بين تكرار الموضوعات وتكرار المعاني، فالشاعر الفقي يكرر الموضوعات، وأسامة يكرر المعاني وتكريره أميل إلى اللفظية منه إلى أي نمط آخر من أنماط التكرير. وأسامة مع كل هذا شاعر مثالي تحبه لهذه المثالية، وشاعر ملحاح تحبه من أجل ذلك الطهر العنيف جداً، وتود لو أنه اقترب بعض الشيء من واقع الناس، وقدر ضعفهم البشري، ولم يوغل في المثاليات، وإذ تكون بعض الأمور داخلة فيما يسمى بفن الممكن، فإن شاعراً على شاكلته يكون نشزا في إيغاله بدون رفق، وحين يكون كذلك، ترى في لغته التأكيد أو ما يسميه البلاغيون بالإيغال، يقول على غلاف ديوانه:

إن القضـــــــية أن تكـــــــوني حـــــــرة

وأكـــــون حـــــراً دونمــــــا اســـــتعمار

والحرية لاتكون مع الاستعمار، وإذاً فلا حاجة بنا إلى كلمة «دونما استعمار» قد يقول قائل: هذه ضرورة الوزن التي تلجئ الشاعر إلى الزيادة. وقد يقول آخرون: إن ذلك من باب الخصوص بعد العموم، فالحرية أشمل، والاستعمار أخص، وتلك حجة بالغة، ولكنني أصر على ما أقول، وقد ينبري معذرون آخرون فيأتون بما لا يخطر لك على البال، ويبقى البيت من حيث البنية الدلالية مأخوذا بما أشرت، وهو يذكرني بشاعر يحبه أسامة ويقتفي أثر حماسياته ذلكم هو ابن شداد الذي يقول لمحبوبته: (إن كنت جاهلة بما لم تعلم) وهل الجهل إلا غير العلم؟ وهو كذلك يذكرنا بتكرير مماثل لشاعر نجد محمد بن عبد الله بن عثيمين، ويذكرنا بشاعر مكثر يكرر الموضوع في أكثر من قصيدة هو الشاعر محمد حسن فقي، ولست أذكر مواطن التكرار المماثل عندهما، ولكنني أعرف ان نقاداً مدرسيين قد استدركوا عليهما مثل ذلك، واعطيناه للطلبة في مادة النصوص، والناقد الحصيف ينظر إلى المباني ومقتضياتها، ونحن هنا أمام ثلاثة مبان:

موسيقية.

ولغوية.

ودلالية.

ولكل بنية هواتها والمستميتون من أجلها، وكل هاو يمطرك بالحجج والبراهين، والساحة الثقافية بحاجة إلى هذا الاختلاف، بل هي حفية بهذا الاختلاف، وأسامة شاعر موفق حين تلتطم الآراء حوله. وأذكر ان الدكاترة زكي مبارك قال في نقده لكتاب (مستقبل الثقافة في مصر) موجها كلامه لخصمه اللدود طه حسين الويل لنا إن لم نختلف. والاختلاف من حوافز التزود بالمعارف والحجج، وسواء اختلفنا أو اتفقنا تظل كلمة (دونما استعمار) مثيرة للجدل، وتظل في نظري مأخذاً دلالياً. فالبنيتان اللغوية والموسيقية لا تنفصلان عن البنية الدلالية،، وانا مع ابن فارس في دم الخطا في الشعر ومطالبته للشاعر المضطر ان يترك الشعر، فلسنا بحاجة إلى شعر يخالف الضوابط والأنظمة والمعتبرات اللفظية والدلالية، وفي النهاية فإن توفر الحرية يغني عن نفي الاستعمار، ويكون هذا البيت الذي حَلَّى به غلاف ديوانه بحاجة إلى مراجعة، وإلى إعادة صياغة، وهذا بيت من أبيات، وضرورة من ضرورات، لا ينفك الشاعر منها في شعره السابق واللاحق، ونعود لنقول ما قاله أحد الدارسين لأبي الطيب: (لاشيء أدل على عظمة الرجل من أن يختلف الناس في الحكم عليه).

عندما يبحث الوطن عن منفى .. شعر أسامة عبد الرحمن .. ! (٣) [(١)]

والشاعر كما أشرت ذو أذن موسيقية لا تكاد تحيد عما كانت عليه القصيدة العربية ولا عما كان عليه الشاعر العربي، فهو متمسك حتى الثمالة بالوحدة الموسيقية، وهو قادر على ان يوفر لقصيدته الايقاع الصاخب والنبرة الحادة، ولكنه يكاد بطوعه واختياره يحيد عن هذه الجمالية الصوتية، بحيث يميل كل الميل إلى أولئك الذين يظنون ان الشعر التفعيلي أهون صياغة من الشعر العروضي وأفضل منه، والشاعر بخروجه على طبيعته قد يتصور ان التجديد في مجرد التغيير الشكلي، وتلك موجة ركبها المخفون، والتجديد شيء آخر لا يكون في العدول من شعر الشطر إلى شعر السطر، أو من العمودية بكل مقتضياتها الشكلية والبنائية والجمالية إلى جنس ثالث ليس هو من النثر ولا من الشعر كما يصفه نزار قباني، التجديد الحقيقي مجموعة تخطيات متعددة واعية للثابت والمتحول يكون الوزن مفردة ثانوية فيها، ولهذا نجد الشاعر المتعمل لهذا التجديد في محاولته العروضية التفعيلية لا يختلف عنها فيما سوى ذلك، انه المحافظ عروضياً في حالة الشطر أو السطر، وحين يأخذ بحجز أولئك المتمردين على الشكل القديم لا يقدم لك عملاً جيداً، قد يتوفر على رتابة تفعيلية، ولكن الأمر لا ينتهي عند القدرة على ذلك، إن شعر التفعيلة عصي لدود، والذين استطاعوا ان يركبوه من أمثال عبد الصبور والبياتي وأمل دنقل ودرويش وحجازي جاءوا بما لم تستطعه الأوائل، لأنهم شعراء بحق ولأنهم ذوو قضايا تلح عليهم حتى تمضهم فيتآزر الموقف والاقتدار واتقان الشكل لينتج عن ذلك شعر استثنائي نلتذ به ونكره مضامينه في كثير من الأحوال، ومن ظن من التجريبيين ان البناء التفعيلي أيسر من البناء العمودي فقد وهم، والشاعر اسامة في تجاربه دون ما كنا نأمل .. وظاهرة التجريب في أنواع الفنون حوَّل معظم التجريبيين إلى تخريبيين، وما كان نصيبهم من التوفيق كتجريب العلميين، فالعلم يقوم على التجريب، والفن يقوم على التطور والتجديد ودركات التجريب الموسيقي بلغ قعر النثرية. ان انتاج قصيدة عصماء على شاكلة الشعر التفعيلي تحتاج إلى قدر متميز من الموهبة واقتدار استثنائي واستعداد واستيعاب لهذه التجربة، ولما لم يكن شعر التفعيلة عند اسامة بالمستوى الذي ننشده ..

وإذ لا يكون الشاعر مأخوذاً بإمكانياته الشعرية فإنه بلا شك مأخوذ باستعداده فهو متعمل وليس عاملاً ومساير وليس متبنياً، ولعل الشاعر يذكر اخفاقات العمالقة من الشعراء في القديم والحديث حين يحيد أحدهم عما كان عليه من قبل، ولهذا مني كثير من الشعراء بالاخفاق على الرغم من النجاحات التي حققوها في الشعر الموزون المقفى، وأسامة في محاولاته من أولئك الذين لم يحالفهم الحظ وما على المتردد إلا ان يقرأ بعض قصائده التي تعمد الخروج بها عما كانت عليه القصيدة العمودية انك واجد بلا شك هنات لا تقبلها ممن هو دون اسامة، فكيف بها تأتي من اسامة، قد يقول بعض الخليين: ما لك ومال هذا الشاعر، لقد مارس حقه، ونوَّع في شكل قصيدته، وهو حر في ذلك، وما من أحد يملك حق الأطر والتحبيس على الآخرين، وهذا دفاع مشروع، وموقفنا لا يفرض المنع من المحاولات، وانما يخطئ الذين اختاروا غير طريق الاجادة ..

وأسامة من أولئك الذين استهوتهم تلك البوارق فخرجوا، حتى كاد بخروجه يتشظى ويفقد ألقه.

إن قصائده التفعيلية دون المستوى المأمول، فيها انطفاء وانقطاع ونهايات غير متوقعة، والمتابع للشعر الفصيح يدرك ان الموسيقى عروضية بيتية أو عروضية تفعيلية

---

(١) تاريخ المقال: ٦/ ٣/ ٢٠٠١

تمثل أشواطاً زمانية مقدرة، لا يملك تقديرها إلا الموهوبون من الشعراء ولا يدرك براعة هذا التقدير إلا المتذوقون من النقاد، أما الدهماء الذين يفقدون الحس والذائقة والخبرة لا يملكون إلا جرأة التقحم فهؤلاء لا يعول على آرائهم ولا يؤخذ بأحكامهم، وهم بما يفعلون كالعصي التي توضع في العجلات العابرة.

واخفاق اسامة في الشعر التفعيلي مؤلم لمحبيه وعشاق صلصلته، لأنه من نقص القادرين على التمام، واقرؤوا شعره التفعيلي من «ص١٢٩ إلى ص١٦٦» انكم ستجدون شعراً دون المستوى المأمول، والتقصير في جنب التفعيلي باد بوضوح في «عتابه» برقميه الأول والثاني ص١٧٢، وحين نتجاوز إشكاليات الدلالة والوزن نقف عند اشكالية اللغة في شقها الصياغي، والبنية الشكلية صنو البنية الدلالية، ولو اننا استعنا بما جد من مذاهب نقدية لسانية في تفكيك البنية اللغوية أو توصيفها على ضوء مكوناتها الثلاثية: التركيب، والدلالة، والصوت، لوجدنا اننا أمام سمات تلح في استحضار الشاعر، فالتركيب يكاد يفقد الانزياح والتركيز والتكثيف، وهو في بعض تجلياته يوفر نوعية استثنائية تبهرك ببراعتها، غير انها تمر بك كالطيف أو كالحلم، بحيث تعيدك إلى ما ليس بمبهر ولا مثير، إذ انه مع ندرتها تضيع فيما هو طاغ من تراكيب شائعة يتداولها الناس، تجد هذا الانبهار متجلياً مثلاً في المقطع الأول من قصيدة «ضاع الهوى» ص٩، وانت تجد ذلك في بكائيته على اليمن «تسألني» في قوله: «من جعل اليمن تفر من اليمن» ص١١، ولكنك تعود مع حليمة إلى عادتها القديمة في كثير من النصوص، ومع هذا فإن المكون الصوتي المتولد من التراكيب يكاد يكون سمة من سمات الشاعر وقد اكثرنا الحديث عنه، ولقد تساءلت وأنا أقرأ بعض قصائد الديوان: كيف يمكن ان نراوح بين التركيب والصوت؟. وحين نجد العلاقة العضوية بينهما لا نجدها تمتد بحيث تكون في مستوى قيمي متماثل، ذلك ان صفاء الصوت ووحدة نبرته تتواشجان مع موصوف آخر ليس بذي ارتباط بالمكونات الثلاثة، ذلك هو «العروض الشعري» وهنا ننفلت من التفكيك اللغوي إلى المقادير الصوتية، وندخل في التماس العلائق بين التركيب اللغوي، والبناء العروضي، والصوت الصرفي، والتركيب والبناء يستنبطان بناء الكلمة، وبهذا نكون في العملية الشعرية أمام أبنية ثلاثة كما الظلمات الثلاث، والشاعر المتقن لمتطلبات الأبنية يمنح الناقد بعض الفضاءات كي يمارس التوصيف، وليس من المحتمل ان نبيح لأنفسنا استقصاء تلك العلائق وإمكانيات الشاعر، إذ لا أجد الوقت والجهد والإمكانيات متوفرة للمضي في تلك المهايع، ومع هذا أود التمكن من اغراء الدارسين لتلقي الخيط ومحاولة اكتشاف القيم الفنية من خلال العلائق والأبنية، والدارس المتمكن لو وضع يده على قصيدة مثل «أشجان» ص١٦٩ لاستجابت اخلافها لآليات النقد الحديث، ولخرج منها بأشياء كثيرة تعوض الشاعر من هذه القسوة التي تعمدناها، وذلك اللوم الذي أحسسنا بايغالنا فيه، وان كانت القصيدة موضوعياً على الأقل استعادة لتذمر المتنبي من الزمان، ولعلنا نذكر بيته الرائع:

أود مـــن الأيـــام مـــا لا تـــوده

وأشـــكو إليهـــا بيننـــا وهـــي جنـــده

وشاعرنا يقول:

شـــحذ الزمـــان ســـهامه ورمـــاني

فعـــلام ناصـــبني العـــداء زمـــاني

حتى وإن كانت القافية طيعة سخية يركن إليها النظامون، ولعلنا نذكر «نونيات» كثيرة لا تحصى، ولكنه مع هذا جاء بأشياء ممتعة ولذيذة، وفيها شفاء لصدور كليمة، وقد تعمدت عدم الاستشهاد لأحفز القارئ على البحث عن اعمال الشاعر والاشتباك مع شعره الذي غفل عنه البعض، والشاعر حين يتعالق مع معاناة المتنبي وشكايته لا يتناص معه في بنائه ولا في شيء يتجاوز الشكاية من الزمان، والشاعر صادق في معاناته لا يفتعل ولا يتعمل لأنه يحمل هموم أمته، ولأنه مثالي وشقي بعقله، والعقلاء يشقون في النعيم فيم ينعم أخ الجهالة بالشقاء وتلك سنة الله في خلقه، وكم قيل: «ويل للشجي من الخلي»، وحري بهذا الصدق الذي يعتمل في اعماق الشاعر ان يستل سخائم النقاد بالانزياح واستثنائية الصياغة.

وكما بدأنا اول الحديث نعيده، وكأن عدوى التكرار قد اصابتنا منه في الصميم والعودة إلى خارج الغلاف، لنكمل الحديث عن العنوان، ولنستعيد ما كنا قد بدأناه، فالشاعر في عنوانه الصاخب صخب شعره، يجعل الوطن منفياً بلا منفى، وهذا امعان في التشرد والضياع، إذ كيف يتحقق النفي دون منفى، وأحسبه استلهام من قوله تعالى «أو ينفوا من الأرض» فهل يعني النفي القتل أو السجن والمسجون والمقتول لم يبرحا الأرض، فكيف يتحقق النفي من الأرض؟ وكيف يتحقق النفي ولا منفى؟ وتساؤلي ليس اعتراضاً، فالعدول مطلب رئيس وقد تحقق في العنوان، ومع ان هناك وطناً ونفياً، فإنه في الأشواط الدلالية داخل إطار هذا العنوان لا يتحدث عن الوطن ولا عن قضاياه وإنما يتحدث عن الحب والوله، يخاطب المرأة ويطيل الحديث عن مفاتنها وأخلاقها ومطالها وما تثيره من كوامن الشوق والتوله، وهو على عادته يلح في التفصيل حتى يقتل في نفسك كل شيء، وحتى لا يدع في نفسك شيئاً من التأمل أو التطلع، ولعلك تقرأ معي تلك القصيدة التي استهل بها المحور الدلالي «عندما يبحث الوطن عن منفى» ص٧٧ تطالعك قصيدة «لا تغرقي» وهي قصيدة جدلية ملحة في الجدل يستهلها بوابل من النواهي والأوامر، وقد تجد من النقاد من يقول:

إن لهذه القصيدة ظاهراً وباطناً، وإنها ليست حديث واله شبق، إنها قصيدة غارقة في الرمز «الليل، والسهول، والروضة، والأشجان، والجنان، والكون، والنهر، والشواطئ، والبحر، والأفق، والنجم، والبركان» كل كلمة تتسع لأكثر من دلالة وتصلح ان تكون رمزاً موحياً أو قناعاً يخفي الشاعر وراءه أشياء ليست من الغزل وليست من الحب. والنقاد قادرون على قلب الحقائق متى كان النص ذا فضاءات واسعة واحتمالات واسعة واحتمالات متعددة، وقد تكون القصيدة متسعة لشيء من ذلك على سبيل الرمز أو القناع، ولكنني أختلف مع اولئك الذين يبعدون النجعة، ويرون في مثل هذا الشعر ما لا نراه، الشعر عند اسامة وفي هذه القصيدة بالذات ذاتي غارق الذاتية، والقصيدة غزلية لا تتجاوز الغزل إلى ما سواه، وإذا كان الشاعر يرمز إلى غير ذلك، فإنه لم يتقن آلية الرمز، ولم يقدر على بعث رسائله المبطنة، وللناقد المؤازر للشاعر ان يقول ما شاء، ولكنه قول لا يعضده دليل، والشعراء منذ الجاهلية الأولى يودون طول الليل، وهو لكي يكسر الرتابة والنمطية حمله على السفر بين جفني نجمة ونجمة وعلى ان يحلق على غمامة لم تمطر، فما الليل إلا وعاء للهموم، وهذا تخيل مغرق لا يكون من الانزياح اللغوي ولا يكون من المفارقة ولا يكون من العدول عن النمطية في الابداع الشعري.

والشاعر نسي الوعائية الزمانية فقلب المعادلة ومضى ضد التيار بحيث جعل الليل أم القضايا، فهو الممتد وهو الرافض والمسافر والمحلق والسابح وغير المرتاح، وهو راسم القبلات والناهل، لقد نسي المحبوبة ونسي نفسه، وخلى بين المحبوبة والليل، فهو الذي يقبلها، وهو الذي ينهل أعذب الأشذاء. وهو الذي في آفاقه تنساب الأشذاء انسياب

الجداول، والليل يطول، ويطول الحديث عنه ويتحول إلى بحر يمشي المحبان على ضفافه، ويصير بحراً فيغوص المحبان في أعماقه، وتعود الأشذاء من جديد، ومع هذا قد يقول: بأنني اتحدث عن «اللقاء الأول» وهذا احتمال ضعيف لا يسنده سياق ولا تحميه لغة، وعلى غير طرائقه تأتي قصيدة «ابن سينا» والقصيدة ترافع بعنف ضد «النفس» وللنفس عند ابن سينا رؤية محفوفة بالمخاطر والمحاذير، والشاعر يضرب قوله بقول ابن سينا وبقول إيليا أبو ماشي، وكأنها ابعاض بقرة بني إسرائيل محاولة منه لمعرفة أسرار الكون، وتلك تهويمات أشبه ما تكون بالرياضة الفكرية، والقصيدة بتشكيلها ومضمونها تغريد خارج السرب، والنفس عند ابن سينا تشكل قضية فلسفية عصية ممنعة وقصيدة «هبطت إليك من المحل الأرفعي» لابن سينا مازالت مثار جدل محفوف بالمخاطر، وركوب الشاعر متنها كمن يأخذ الأسد لصيده:

ومن جعل الضرغام بازاً لصيده

تصيده الضرغام فيمن تصيدا

والديوان بجملته لا يمثل نقلة إلى الأمام، وإنما هو مراوحة رتيبة، وتلك إشكالية اسامة عبد الرحمن.

والقراء الذين يثني عزمهم غزارة الإنتاج يودون من الشاعر ان يختار لهم من عيون شعره ما يشبه الأثر الذي يدل على المسير.

فمن ذا الذي يجد الوقت لقراءة عشرين ديواناً أو تزيد؟ ومن ذا الذي يستطيع قراءة احد عشر مجلداً للشاعر محمد حسن فقي؟

أليس في ذلك التدفق اغراقاً للآمال، لقد فعل الخالديان خيراً حين أخرجا للناس «المختار من شعر بشار» ومن الخير لنا ولشعرائنا المكثرين ان يتطوع البعض فيخرج للقراء المتخففين عيون شعر المكثرين، وقد تحفز المختصرات إلى المطولات.

وفي النهاية فإن من الخير لشعرائنا وروائيينا وقصاصنا ان نوقد تحت أقدامهم نار النقد ليهتدي إليهم الباحثون عن الكلمة الطيبة وليعرفوا طيب عرف العود:

لولا اشتعال النار فيما جاورت

ما كان يعرف طيب عرف العود

فأمَّا اليتيم فلا تقهر.. ![1]

المجتمعات الإنسانية المتحضرة تحكمها أنظمة وأنماط، كالنظام الرأسمالي، والنظام الماركسي، والنظام الديني، وأنظمة أخرى لا تحصي لها عددا، على أن المواضعات في الأنظمة الرأسمالية والماركسية مستمدة من القيم المادية القائمة على المقايضة والإلزام، فالتكافل يكون مقابل أداء مادي سابق وعلى ضوء عقد اجتماعي، أما التشريع الإسلامي فالتكافل فيه مبادرة، لأنه ضرب من العبادة، يتقرب بها المنفق إلى ربه، يرجو الرحمة، ويخشى العذاب، ومن باب العدل وتوقي بخس الناس أشياءهم لا ننكر وجود نزعة إنسانية لا يخلو منها مجتمع ولا نظام، ولكنها نزعة محسوبة ومحدودة، أما المجتمع الإسلامي فإن أمَّات الفضائل فيه مرتبطة بالإنفاق ﴿وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]، ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٤]، ﴿وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩]، وفي آية: ﴿حَقٌّ مَعْلُومٌ﴾ [المعارج: ٢٤] .

والتكافل الاجتماعي في المجتمع الإسلامي مبادرة، تتجسد بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩]، وهو تكافل لا يتبعه من ولا أذى، يقيل العثرة، ويجبر الكسر، ويستل الضغائن، ويؤلف القلوب، ومتى أحس أفراد المجتمع بالاطمئنان تنامت فيهم المحبة والثقة والاخلاص، وامتلأت النفوس بالولاء، وبقدر ما يتخلف التكافل يضعف الانتماء، وتستفحل الأحقاد، ويختل الأمن، ويحتاج الإنسان إلى مؤسسات حكومية تحميه وأخرى تؤويه، كما في الأنظمة المادية النفعية، وما أشقى الشعوب حين تُنزع الرحمة من قلوب الموسرين فيها، ثم لا يؤدى التكافل إلا وظيفيا.

والإنسان الذي لا يتحقق له الأمن الغذائي والصحي والإمكانيات المناسبة لمثله، يندفع لتحقيق ضروراته ومتطلباته بطرق غير مشروعة، بحيث ينتزع غذاءه وأمنه بالأنياب والأظافر، وتلك شرعة الغاب، والإسلام شرع لأمته من الدين ما يحقق لها الأمن بكل وجوهه، ويشيع فيها المودة والرحمة، ولتحقيق الترابط والتكافل ركز على المسؤولية الجماعية: «**كلكم راع وكلكم مسوؤل عن رعيته**» فرض الزكاة، وحدد أصناف المستحقين لها، وشرع الكفارات وحث على الصدقات، وأوصى بكفالة اليتيم، وامتن على رسوله بإيوائه، وقال في محكم التنزيل: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ [الضحى: ٦] وهذا التساؤل التقريري ينطوي على غايات وأهداف لا يعرف كنهها إلا العالمون.

ولعل من بوادر المآلات والمصائر ما يطمئن بأن فقد الأبوين أو أحدهما بوصفه ظاهرة اجتماعية لا يحول دون معالي الأمور، فالرسول ﷺ نشأ يتيما، مات أبوه وهو جنين، وماتت أمه وهو طفل، ولم يزده ذلك إلا صلابة في الحق ولينا في الجانب، واستقامة كما أمر، فكان كما وصفه القرآن ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] لقد تغلب على صعوبات الحياة في طفولته بكفالة عمه له، ولم يكن يتمه عائقا، إذ شق طريقه،

---

(١) تاريخ المقال: ١٣/ ٢/ ٢٠٠١

مارس التجارة، وضرب في فجاج الأرض، وحين بلغ أشده وبلغ أربعين سنة اختاره الله لتحمل رسالته الخاتمة، وهذا تشريف للأيتام لا يطاله عز ولا يرقى اليه مجد، ثم هو لفت لنظر الموسرين إلى أن الأيتام بأحوالهم يمثلون حياة الرسول ﷺ ومعاناته وأخلاقياته، وهو حافز لهم على مواساة الأيتام وكفالتهم والعطف عليهم ومخالطتهم، فكأن اليتيم يذكرنا بطفولة رسول الله ﷺ، ومن ثم نحس بانجذاب اليه وعطف عليه ومحبة لرسول الله ﷺ الذي مر بهذا الوضع، ولم ينعكس أثره على حياته، بل سمت أخلاقه، ونبلت سيرته، وكان الصادق الأمين قبل التكليف وبعده، لقد رق للأيتام وعطف عليهم وواساهم ونافح عن حقوقهم وحذر من الإساءة لهم لأنه ذاق مرارة اليتم، ونحن حين نفعل مثل ذلك يكون الرسول ﷺ قدوة لنا، وقد كان لنا فيه أسوة حسنة، فإذا كنا مطالبين بأن نأخذ عنه مناسكنا، وأن نصلي كما رأيناه يصلي، كان علينا أن نقتدي بخلقه الرفيع وحنوه الأبوي على الفقراء والمساكين والمستضعفين، وأن نمتثل أمره، ونقتفي أثره، والله جل وعلا حين من عليه بالإيواء والهداية قال له: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ٩ - ١١]، وهو ﷺ استجابة لأمر ربه قال من باب التحفيز والحث والإغراء: «**أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة وأشار بأصبعه يعني السبابة والوسطى**» والحديث كما في الترمذي حسن صحيح، والنصوص الشرعية حافلة بالحث على العطاء والإحسان وبها تتجلى أهمية الكفالة والإيواء والرقة والعطف والرحمة.

لقد ورد جذر (ي ت م) مفردا ومثنى ومجموعا في أربعة وعشرين موضعا من القرآن الكريم، متخذا مواقع دلالية متعددة، كالثناء على مطعمي الطعام للأيتام، وكالحث على الإحسان إليهم، وإيتاء المال على حبه لهم، والإنفاق عليهم، والإقساط فيهم، والتحذير من قرب أموالهم فضلا عن أخذ شيء منها، والأمر بالإصلاح لهم، كما جاء في الحديث النبوي الشريف أكثر من ذلك كما وتفصيلا، وجلّ الأحاديث مرتبط بأحداث تتعلق بأحوال الأيتام وبما يواجهونه من تصرفات الكافلين لهم، وانطلق علماء الشريعة والمواعظ من هذه النصوص يرسمون طريقا قاصدا لأوجه التعامل مع الأيتام، لقد شققوا المسائل، وتركوا لمن بعدهم ما لا مزيد عليه من الأحكام والمواعظ، ولم يبق إلا أن نستجيب لله وللرسول إذا دعانا لما يحيينا، ومن نعم الله علينا ان هيأ لنا من الإمكانيات ما يحفزنا على مزيد من البذل والعطاء، وهذا المهرجان الخيري الذي تنفذه وزارة متخصصة بشؤون الرعاية الاجتماعية، ويرعاه أمير سباق إلى كل خير يعد موسما من مواسم العطاء، وواجب القادرين المبادرة والمسارعة.

والأمة مجموعة قيم سلوكية لا تقاس بأشيائها المادية من قلاع خرسانية وسيارات فارهة وحدائق غناء وأموال وبنين، وإنماتقاس بفعلها وبمثلها، والأشياء المادية تراب فوق تراب: (وكل الذي فوق التراب تراب) وقد تتحول لتكون فتنة وعدوا وابتلاء وعقوبة، وكم من فرد أو أمة بطرت معيشتها وخرج كبراؤها على قومهم في زينتهم، فخسف الله بهم وبديارهم الأرض، ولهذا فالتخطي بالماديات إلى الفعل الحضاري يعمق إنسانية الأمة ويقيها مصارع السوء، والإسلام ركز على التكافل الاجتماعي، وجعله جزءا من العبادة، ولم يربطه بتبادل المنافع المادية، ولم يكن مناطه السلطان وحسب، لقد حث على العطاء ووعد بالمثوبة، فرض زكاة الأموال وتوعد مانعيها، وفرضها على الأبدان، وشرع الصدقات، وحدد الكفارات، وحرَّض الموسرين على الإيواء والكفالة، وشبه المؤمنين في التواد والتراحم بالجسد الواحد الذي تتداعى سوائره بالسهر والحمى متى أصيب جزء منه، وهذا الوصف تأكيد للروابط الاجتماعية التي تصل حد الاندماج، وجاءت الأحاديث

النبوية مؤكدة اضطلاع أفراد المجتمع المدني بكفالة الأيتام والوعي التام بتدبير شؤونهم وتنمية أموالهم وحسن الخروج بهم من عوالم اليتم إلى فضاءات الحياة السوية، وشرع الله امتحانهم فإذا آنس الكفيل منهم رشدا آتاه ماله.

والدول المسلمة لا تسمح لأي عارض باختراق فضاءاتها والنيل من إنسانها مهما كان الثمن، و عزة الإنسان وكرامته وحريته وأمنه وصحته وحماية ضروراته الخمس من أوجب واجبات الدولة المسلمة، والله الذي كرم بني آدم حث على حفظ كرامة الإنسان وصيانة عرضه، ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾ [التوبة: ٦]، ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة: ٨]، ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥]، وفي الحديث: «**كل كبد رطبة فيها أجر**»، وعمر بن الخطاب رق للذمي المسن وهيأ له الحياة الكريمة، والدولة المسلمة تعي مسؤوليتها الجماعية، ولهذا تعددت فيها المؤسسات التي تضطلع بمسؤولية إقالة العثرات، فالضمان الاجتماعي، والجمعيات الخيرية، ودور التربية والرعاية والتوجيه،، ودور العجزة والمسنين، ومكافحة التسول، والتسليف، وغيرها كلها وسائل لصيانة الكرامة ودرء المفسدة وسد الذريعة والحيلولة دون تفشي الأحقاد والأضغان، فالفقر والعوز مصدرا كل شر، والرسول ﷺ أثنى على (الأشعريين) ونسب نفسه اليهم تكريما لهم وإعجابا بصنيعهم لمجرد أنهم إذا أرملوا فرشوا أرديتهم وأخرجوا ما في بيوتهم من طعام ثم اقتسموه، وقوله ﷺ: «**من سن سنة حسنة فله أجرها ...**» إلخ. مرتبط بفعل إحساني، فكأن سن الطرق للتحصيل وجمع الصدقات والهبات والتبرعات وإنشاء الجمعيات الخيرية وتأليف الجماعات من السنن الحسنة التي يؤجر فاعلها، ولعل (المهرجان الخيري الأول لرعاية الأيتام) من السنن الحسنة، فهو أسلوب توعوي تذكيري تحفيزي، ونحن نرى ونسمع عن مشاريع وطرق لجمع الأموال والأعيان وتوزيعها على الفقراء والمحتاجين، والناس قد تأخذهم الغفلة ويشغلهم العمل والصفق في الأسواق ومعافة الأهل، فلا يذكرون واجبهم إزاء المحتاجين فيقيض الله لهم من ينبههم وينوب عنهم في إنشاء المؤسسات وإيواء الأيتام والمسنين والمتخلفين عقليا، والأعمال بالنيات، والإنفاق من السعة، والدال على الخير كفاعله.

والدولة ليست بمعزل عن سائر أفرادها ولا عن مختلف شرائح المجتمع، ومسؤوليتها الإنسانية هم مشترك ومشاع، والإنسان جزء من الدولة ينهض معها بمسؤولياتها ويشاطرها مناشطها الإنسانية، ولا يمكن انفراد الدولة بالمهمات الإنسانية، وليس من مصلحة الأمة تخلي أي فرد أو جماعة عن العمل الإنساني.

والأيتام شريحة مهمة وحساسة، وكفالة اليتيم وإيواؤه ومخالطته عمل خيري فعله صحابة رسول الله ﷺ، وما تزال الظاهرة قائمة إلى يوم القيامة، ولليتيم اليوم متطلبات تختلف عن متطلبات يتيم الأمس، فالتعليم والتربية والإعداد السليم لمواجهة الحياة من أوجب الواجبات، ولا تكفي في الكفالة متطلبات المأكل والمشرب والملبس والسكن، بل لابد من الرعاية الصحية والتعليمية وتلك أعباء جديدة.

والمؤسسات الحكومية المعنية تخطط لمشاريع الخير وتشرف على أدائها وتبارك فعلها، وتسهم في تفعيلها، ولكنها لا تنفرد بالفعل، بل تهيئ مساحات واسعة للقطاع الخاص: أفرادا وجماعات ومنظمات وجمعيات وشركات ورجال أعمال، لكي يسهموا في

دعم المشاريع الخيرية، ويؤتوا الفقراء من مال الله الذي آتاهم، فالمال مال الله، وهو وديعة عند صاحبه، والله سائله يوم القيامة عن طرق الكسب ووجوه الإنفاق، ومن ثم فلا فوت، ومال الإنسان ما قدَّم، أما ما خلفه فمال الوارث، على المورّث وزره وللوارث خيره، والصدقة تطفئ غضب الرب، وتدفع ميتة السوء، وتقي الإنسان الشح، ومن يوق شح نفسه يكن من المفلحين، والجهات الرسمية حين تتصدر المشاريع الخيرية، وتبارك الفعل الإنساني، تود إشاعة العطف والتكافل وتعويد الناس على الاضطلاع بمسؤولياتهم.

والدولة الحمالة تود ان المواطن شاطرها مسؤولياتها الإنسانية، وأحس بواجبه إزاء الفقراء على تحمل المسؤولية إلا أنها حفية بمن يشاركها الخير ويقاسمها الغنيمة، فالمواطن حين يحس بواجبه وينهض به، تشيع الرحمة والمودة، وتصفو النفوس، ويتحقق أمر الله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، إن الحديث بنعم الله جل وعلا لا يقف عند حد الكلام، بل يتجاوز ذلك إلى الفعل وفي التنزيل ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، فالشكر لا يكون بالقول وحده، بل يكون به وبالعمل، والتحدث بنعم الله جل وعلا هو الآخر لا يكون بالقول، بل يتجاوزه إلى العمل و(البر) كما (التقوى) من الكلمات الزاخرة بالمعاني والدلالات، فكما أن البر معاونة المحتاجين بالمال، فإنه اسم جامع لأنواع الخير والفضائل، إنه العطف والبشاشة والإحسان وتحمل الأذى في سبيل الخير، وفي التنزيل: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، ثم هو سمة لمن: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧] .

والسلف الصالح ضربوا أروع الأمثلة على العطاء حتى قال الله فيهم ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨]، وهو إطعام لا يريد منه الفاعلون جزاء ولا شكورا، لأنه لوجه الله جل وعلا، كما وصفهم بالإيثار: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، و صدق الله: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩] والله قد وصف عباده الصالحين بالمسارعة إلى الخيرات ﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [آل عمران: ١١٤] وفي ذلك تأكيد على المبادرة خوف الفوات بالفقر أو الموت، والمجبولون على العطاء والإحسان، ﴿يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، فالخشية من الله تبعث على الإشفاق والوجل في حال التلبس بالطاعات، فكيف بالنفس إذا اقترفت الذنوب وقصرت في جنب الله.

ولأن فعل الخير نفحات من الله فإن على الموسرين أن يبادروا بالأعمال الصالحة، وقد حث الرسول ﷺ أصحابه على ذلك، وحذرهم فتنا كقطع الليل المظلم، ومن خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، والناصحون من يبادرون إلى البر والصلة، والله قد أثنى على الأنصار بحبهم من هاجر اليهم، واليتيم الذي فقد أبويه يجد الأبوة الحانية عند عامة المسلمين وخاصتهم، والإيثار كما يقول القرطبي (تقديم الغير على النفس وحظوظها

الدنيوية رغبة في الحظوظ الدينية) ونحن في بلادنا والحمد لله على شيء من الثراء، نعطي، ويبقى الكثير، ونعطي ويخلف الله، ولمّا نحتاج إلى الإيثار، وهو الجود بالمال مع الحاجة اليه.

واليتيم في مجتمع صاخب يعج بالأعمال وتشغل أفراده الأموال والأولاد بحاجة إلى من يذكر به، ويدعو إلى الإحسان إليه ورحمته، والرحمة جماع الرقة والعطف والرأفة والإحساس والمغفرة وخفض الجناح، والرحمة من الكلمات الحمالة لفيض من الدلالات، وأمة محمد وصفوا بأنهم: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ وأنهم يتواصون بالمرحمة، والله قد رحم عباده حين بعث فيهم رسوله، وجعله ليّن الجانب، ولو كان فظا غليظ القلب لانفضوا من حوله.

واليتيم بحاجة إلى اللين والتلطف وتواضع الأفراد والمجتمع له، فحالته النفسية لا تحتمل المزيد من الإهمال، ومن أجل إشاعة التواد والتراحم نهى الله عن المشي في الأرض مرحا، وهو الاختيال والبطر، ونهى عن تصعير الخد وهو إمالته تعاظما وتكبرا، ونهى عن الاختيال وهو التباهي والافتخار، وأمر بالاقتصاد في المشي وهو الاعتدال، وبغض الصوت، وقد أكد على عذاب المتكبر: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠] ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥] ولا يمكن تحقيق الأجواء الملائمة للفقراء والأيتام والعاجزين في مجتمع متكبر متجبر، والذين تمتد أيديهم إلى المتعثرين من الفقراء والأيتام ليقيلوا عثرتهم لا يكونون متكبرين ولا متجبرين ولا مصعرين لخدودهم، إن مخالطة الأيتام والفقراء والمساكين مدعاة للتواضع، والله قد نهى رسوله عن طرد الضعفاء، وأمره بتصبير نفسه معهم، لأن في ذلك تطهيراً للنفس وتطييباً لخواطر المستضعفين.

وحالة اليتيم خطيرة لأنها تمر بالإنسان في طفولته، وحين يوجد اليتيم في بيئة متجبرة متكبرة متغطرسة لا ترعاه حق الرعاية، يتعرض للانحراف الخلقي والعقد النفسية، يحقد ويكيد، ويتحول إلى فرد غير سوي، فالوضع الذي يعيشه اليتيم يتطلب من المجتمع العطف والرحمة والمحبة، ولهذا حث الرسول ﷺ على مسح رأس اليتيم تطمينا له وقربا منه وإشعارا له بالخلف الصالح، وعند أحمد وابن حبان «**من وضع يده على رأس يتيم رحمة كتب الله له بكل شعرة مرت على يده حسنة**»، والإسلام اهتم باليتيم، وأوصى به، ونهى عن قهره والنيل منه وتبذير ماله، وذم المكذبين بالدين ووصفهم بزجر اليتيم ونهره، وعبر عن ذلك (بالدع) وهو الدفع بقوة ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ [الماعون: ١، ٢] وبرنامج الأسر الصديقة الذي يطرحه (المهرجان الخيري الأول لرعاية الأيتام) تؤكده الآية الكريمة ﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠] والآية نزلت بعد تحرج بعض الأولياء من الاقتراب من أموال الأيتام خوفا من الوعيد الشديد، وليس تكبرا ولا تجبرا، ومخالطة اليتيم وتقريبه جبر لخاطره وإسراع في اندماجه في المجتمع، وقضاء على إحساسه باليتم، ولهذا فإن على الأسر المستطيعة ان تستقبل الأيتام، وأن تؤاخي بينهم وبين أطفالها، وأن تحاول جاهدة خلق أجواء ملائمة لاستلال أي شعور مغاير قد ينعكس أثره على سلوك اليتيم فيما بعد، وهناك ثلاث مستويات يستطيع المحسن الأخذ بأحدها (الكفالة) أو (الصداقة) أو (الاحتضان) ولو أن المواطنين أخذوا بها كل على قدر استطاعته لكان خيرا لهم وأهدى

سبيلا، والمجتمع المثالي هو المجتمع الذي يترجم المثاليات التنظيرية إلى فعل ويربط بين العقيدة وقيمها الأخلاقية إذ لا قيم بدون عقيدة، ومبادرة وزارة العمل والشؤون الاجتماعية بإقامة (المهرجان الخيري الأول لرعاية الأيتام) تجربة رائدة، ونجاح هذا المشروع مؤذن بمبادرات أخرى، تمسح العبرات، وتواسي المنكوبين، وتفك غوائل الزمان، وكل إنسان معرض لتخليف الأيتام، وكم من أطفال يعيشون مع آبائهم وأمهاتهم في سعة من الرزق، اخترمت يد المنون أحد الأبوين أو كليهما فتحول الأبناء المنعمون إلى أيتام محرومين، فليحذر الغافلون فجأة النقمة.

حملات الحج بين الواقع والتوقع .. ![1]

تعرفت على حملات الحج في وقت مبكر، وأتيح لي ان أرافق حملة «كويتية» مع جدي لأمي رحمه الله الذي كان يعمل في الحملة على مدى ثلاثين سنة أو تزيد، كنت طفلاً في التاسعة من عمري لا أعرف ركوب السيارات ولا اكل المعجنات والمحشيات، ولايتاح له شرب الشاي كلما أردت، وما كنت ادري ما الحج، وما مشاكله، واطفال نجد إذ ذاك يتحملون من الأعباء ما يحرمهم متع الطفولة وبراءتها، ومع شقاء العمل لا يخلصون من شظف العيش ونكد الحياة، فالغذاء لا يتعدى التمر الاسود والحنطة السمراء واللبن الابيض، وما احد منا بقادر على شيء من الأسودين والمذق حتى يجوع، وإذا أكلنا لا نشبع نحيي السنة اضطراراً لا اختياراً، وكان الآباء والامهات يعللوننا بان العافية في اطراف الجوع كمن يعلل بالوصل والموت دونه، وهي تعلة عاجز، وحين فاجأتني هذه الرحلة بما لم أكن اتوقع، تحركت عندي شقاوة الاطفال المكبوتة، وعشت الرحلة بالعرض والطول، آكل قبل ان أجوع، واذا اكلت لا اترك شيئاً للماء ولا للهواء، وبها احسست ان رياح التغيير قد هبت، ومن الضروري اغتنامها، كان ذلك قبل خمسين عاماً، ولم تكن مكة والمدينة والمسجدان الشريفان وسائر المشاعر وجملة الاحوال على ما هي عليه اليوم، من سعة في الامكنة ورخاء في الارزاق وراحة في الوسائل وخدمة فائقة في المشاعر ووسائل مواصلات واتصالات.

كان الحرمان الشريفان كما هما في العهد التركي، والخدمات ليست بالقدر ولا بالنظام القائمين، ولم يكن الطائفون والعاكفون والركع السجود بهذا القدر، فالزحام قائم، ولكنه دون ما هو عليه الآن. وأخوف ما يخاف الناس منه إذ ذاك الاوبئة التي تحصد المئات، ثم لا تكون الإمكانات الصحية على المستوى المطلوب.

لقد تركت هذه الرحلة في نفسي انطباعات محفورة على الرغم من مرور نصف قرن عليها، أذكرها كما هي بأدق تفاصيلها كلما اقتربت مواسم الرحمة، اذكر الحجاج الكويتيين، وأذكر النساء الكويتيات بخمرهن وجلابيبهن: مبرقعات أو محجبات أو متلثمات، ولما لم أكن من أولي الإربة فإن الذي أذكره جيداً وأميل إليه كل الميل ما يحملن من لذيذ المكسرات وشهي المعجنات، وأذكر ما يغمرنني به من حنو وعطف، وأذكر صاحب الحملة الذي يضيق ذرعاً من مبادرتي بخدمة القواعد والناشاطات منهن، فأنا أنقل الماء والقهوة إلى مخابئهن حيث يتوارين، وإن لم يطلبها أحد رغبة في أن أظفر بقطعة حلوى أو قبضة من المكسرات. وكم هز جسمي النحيل صوت المتعهد بالإعاشة ينهرني بعنف، ويحملني على كف الأذى وإيقاف ما يراه تبذيراً، لقد كنت كما النمل دائب الحركة جيئة وذهاباً أنقل الأمتعة إلي حيث تتحلق النساء في الخيام أو في أفياء السيارات، وأجلب الماء للشاربات والمغتسلات. وأذكر فيما أذكر مكة وأسواقها وباعتها والمياه التي تراق على الحجارة للتبريد أو لتهدئة الغبار فتلوث أطراف الملابس، وأخاف الكلاب التي تملأ المسعى بحثاً عن برد الأرض، ويزيد خوفي حين تعوي متوجعة من ركل الساعين بين الصفا والمروة أو من وطئهم أطرافها إذ كان المسعى يومها سوق بيع وشراء.

وكلما هممت بالكتابة عما فعلت وعما لقيت وعما رأيت في هذه الرحلة من مفاجآت صرفتني أمور كثيرة، ومازلت أعد نفسي وأمنيها باستعادة الحلو والمر من الذكريات، وما ذكرته على عجل من باب التداعيات، وسنصرف عنه الذكر صفحاً إلى حين، ولنتحدث عن ظاهرة الحملات المماثلة. لقد احتدم السباق بين الاشكالية والحل، وكثير اللغط،

---

(١) تاريخ المقال: ٢٧/ ٢/ ٢٠٠١

واستفاضت مشاكل الحج، وتعب المعنيون، واشتدت وطأة الزحام، وزاد شِقُّ الانفس الذي توعد الله به عن حد الاحتمال، وبهذا وجدت الدولة نفسها امام فيض من الاشكاليات والمشاكل التي تتطلب مواجهة عازمة حازمة شجاعة، تقرض المشاكل ذات اليمين وذات الشمال، وهي إذ تكون مسؤولة امام الله عن امن الحجاج وراحتهم فإنها جادة في الفعل ناصحة في القول وليس لديها فضلة مع الوقت للتزود أو استعراض الخيارات، اذ لابد من المواجهة الفورية والحلول المبادرة، ولقد كانت بصدقها واخلاصها وامكاناتها مثار الدهشة والاعجاب ومناط الثقة، ومبادراتها المصيرية تدل على انها في مستوى مسؤوليتها. وقد كان من مبادراتها المثيرة والحتمية بعد التوسعة وتوفير الخدمات وتأمين السبل تحديد نسب الحج في الخارج، وتطبيق ذلك في الداخل وربطه بالحملات، لكيلا يكون للناس حجة، ولما لم يكن امر التحديد مرتبطاً بمصلحة الدولة علي الصعد: السياسية والاقتصادية والامنية. رضيه العالم الاسلامي ودعي اليه وقبله المواطن وعدّ امتثال الامر من الطاعة الواجبة، ومع التزام الدول الاسلامية وحجاج الداخل بالتحديد وما يقتضيه من ترتيبات فإن الامر لايزال بحاجة الي مزيد من الحلول والقرارت الشجاعة والمتابعة الدقيقة والتصحيح الفوري، وايا ما كان الامر فان اي مبادرة تكون مظنة التعديل والتبديل فالمثالية النظامية تمر بمحك التجريب. وقد لا يكون منشأ الإخفاق مرتبطا بنص النظام وانما هو من عند ا نفس المطبقين، وعلينا ان ننظر الي ارادة الله الشرعية وارادته الكونية في احوال المسلمين، فالنص القرآني لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ووعد الله حق متى امتثل الموعود امر ربه ولله المثل الاعلى. ولهذا فإن توقع الخطأ أو الاخفاق لا يمسان اهلية المشرع ولا سلامة المشروع. وليس فيما اقول تزكية ولكنه لون من ا لتحفظ والتذكير بمصادر الخطأ التي ربما تكون من عند أنفسنا نحن. ومع الثقة بأهلية القرارات فان الاجراء قد يعتريه الخطأ: خطأ النظام، أو خطأ التطبيق. والصادق الناصح من يراهن على الصدق والاخلاص ولا يراهن على النجاح. ولان القرار والاجراء بشريان فانهما مظنة النقص الذي يحتاج إلى استكمال أو الخطأ الذي يحتاج إلى تصحيح، والاستكمال والتصحيح دأب الناصحين وديدنهم، وفي هذه السياقات الاستكمالية أو التصحيحية كان أن بدأت في البلاد فكرة «حملات الحج» وقد جاءت بادي الرأي مبادرات شخصية غير منضبطة وغير معممة وغير مقدرة، وتلك ثنيات سوف تنسل منها الاخطاء، ثم تكون ركاماً، لقد كان حديث الناس الذي يملأ الرحب دافعاً لتجسيده بين يدي من يقول عند الملمات: اشيروا علي، اقتداء بسنة المصطفى ﷺ. وحين وجدتها مناسبة للحديث عما انطوى عليه من ذكريات، وما اختزنه من مشاكل، وما أود تحقيقه من ضوابط وشروط بدأت من حيث يكون التأسيس.

وودّع الناس في غفلاتهم يحول مشروع الحملات إلى عبء على الحاج وعلى الدولة معاً، ذلك ان حرية العمل والتجارة عندنا تتسع بشكل يقترب بها من الفوضوية، ومبدأ التسامح قد يجرئ ضعاف النفوس علي استغلال المواقف لصالحهم على حساب الحجاج، كما المال السائب الذي يعلم السرقة. ولأن ظاهرة الحملات في بدايتها، ولان ا لحجاج حين يعودون إلى اهليهم ومطارح اعمالهم يكون حديثهم عما واجههم من المشاكل وما عانوه من سوء الخدمات وتفاوتها، وما تعرضوا له من تقصير يحول بينهم وبين مايشتهون من راحة روحانية، ولأن المبالغ التي يدفعها الحاج لأصحاب الحملة كبيرة وكافية لتوفير افضل الخدمات، ولان البعض لا يقدر على تحمل هذه المبالغ ولأن الكثير من المحافظات والمراكز وأطراف البلاد يوجد فيها حملات للحج، ولأن الناس اعداء ما جهلوا، وإذ تكون ظاهرة الحملات غضة طرية وستمر بتجارب فجة واخطاء فادحة فإن على القادرين وذوي البصيرة والبصر ابداء الرأي واسداء النصح، وعلى المسؤولين

الاصاخة وإلقاء السمع ورصد الآراء وتقبل المقترحات، وعلى سائر الجهات الحكومية ان تمارس حقها في التأسيس العلمي والنظامي لهذه الحملات، بحيث يكون الضبط والربط والاداء السليم، وسد ذرائع اللعب والاهمال. والمؤكد ان ربط التصاريح للحج بالحملات ابتداء فيه تضييق من جهة واغراء للعبث والتلاعب من جهة أخرى.

ولأن هذه الحملات غنيمة باردة فإنها ستتسع مع الايام ويتهافت علي انشائها اللاعب والتاعب، وبما أن الدولة في سياق حملتها التنظيمية تتجه صوب هذا المشروع التنظيمي بحيث لا يتم الفسح لحجاج الداخل إلا عن طريق الحملات فإن واجبها وضع الأسس النظامية والضوابط الدقيقة الصارمة التي تحمي حقوق المواطن، وتحول دون اي تلاعب يبخس الحاج اشياءه، ويعكر عليه صفو الروحانية، كما تجب السرعة في تعميم ا لحملات وتسهيل التواصل معها.

إن فكرة الحملات جيدة، والمرحلة تقتضيها، وليس هناك من بأس في تعجيل امرها، ولكن يجب تصور المشروع وما سيترتب عليه من سلبيات وعدم اتاحة الفرصة لضعاف النفوس. فالحج بما يحمله من نزول وارتحال وتنقل في المشاعر واحتياج إلى خدمات صحية وسكنية ومعيشية يحتاج الي وعي تام وامكانيات استثنائية تريح الحاج وتحفظ حقوقه، وتساعد على تحقيق مقاصد الدولة من إشاعة النظام، وفك الاختناقات، وتيسير السبل، وتوفير السلامة وما يجب التنبه له كون التكلفة بالنسبة لمحدودي الدخل باهظة ولاسيما إذا كان رب الأسرة سيحج بعدد من أبنائه وبناته فهو حين يؤدي الفريضة بسيارته لا يحتاج إلى مزيد إنفاق، اما حين يضطر إلى تأدية الفريضة عن طريق الحملة فإن النفقة سوف تتضاعف، اذ هناك وسيط جشع، وأذكر ان هناك حجاجاً كويتيين يرافقون الحملة في الطريق على سياراتهم بحيث توفر لهم الاعاشة والسكن وبخاصة في المشاعر. فهلا فكر المسؤولون بالاستفادة من تجارب الآخرين.

إن أول ما يجب التفكير فيه انشاء شركات وطنية مؤهلة لحملات الحج لها مكاتب رئيسية ومقرات وفروع ووكلاء في المحافظات والمراكز، ووضع نظام يحدد الحقوق والواجبات، ويحمي حقوق الجميع عند التنازع، ولا بأس ان تكون الخدمات المقدمة للحاج ذات مستويات، بحيث يتوفر القادرون على خدمات افضل. ويتمكن من هم دون ذلك على اسعار افضل. ولأن الحج رحلة عبادة فإن طائفة من المحتسبين يودون ألا تبلغ الخدمات حد الترفيه، ومن ثم يختارون المستوى لورعهم أو لإمكاناتهم المادية والصحية. وحين تنهض بالمهمة شركات أعطيت من التسهيلات ما يمكنها من تحسين الخدمات وخفض التكاليف، تكون امكاناتها قوية بحيث تتوفر على اختيار مواقع في طريق الحج تكون محطات للقوافل تقام فيها استراحات مزودة بمظلات وحمامات تقف فيها قوافل الحجيج، ومن الممكن ان يشترك في الاستراحات اكثر من شركة، وذلك بالتفريق الزمني لانطلاق الحملات.

وفي مكة والمشاعر تؤمن للحملات المساكن المناسبة داخل مكة وفي المشاعر وترسم خطط التحرك بحيث لا تشكل قوافل ارتباكاً في الطرقات، ولا ازدحاماً في المشاعر، ولا يحسم ذلك إلا التوقيت الدقيق لتحرك كل قافلة، كأن يكون اطراف النهار لحجاج الداخل وأوائله لحجاج الخارج، ولا يتحقق ذلك الا حين تربط التحركات بشبكة اتصالات وأجهزة مراقبة، وفي سبيل السيطرة توضع لكل قافلة روابط تنسق فيما بينها طوال العام تحدد لحظات الظعن والاقامة، ولابد ان يمكن قادة القوافل من شبكات اتصال مباشر وربط الشبكة بالمسؤولين عن حركة المرور في المشاعر. وتكون لهم قيادة مركزية تنسق فيما بين الحملات وتتلقى التائهين والمصابين وتبادر بإيصالهم لمواقع سكنهم، على ان تمكن الحملات من خطة الحج جملة وخطة حجاج الداخل، وتكون

المراقبة ومراكز المعلومات والمتابعة مزودة بمندوبين يتواصلون مع المسؤولين الذين يعملون في مواقع العمل، على ان توضع خطة الحج بأيدي المرشدين للقوافل، ومع سائقي الحملات، وبخاصة السائقين الذين لا يعرفون لغة ولا يملكون خبرة ولا يهتدون سبيلاً، وما تتعرض له الخطط من فشل أو ارتباك مرده إلى جهل المستفيد وتكتم المسؤول، والتعويل على وسائل الاعلام اهدار للجهد، فالحجاج في مواقعهم مقدور على توصيل المعلومة لهم.

وفي سبيل التفعيل الايجابي لابد ان تتولى جهات رسمية في وزارة الداخلية والحج والصحة وشؤون الحرمين التدريب والتعليم والمراقبة، ثم تقويم الاداء عن طريق المتابعة المباشرة والاستفتاء المستمر ممن يعيشون الاحداث، بحيث تعاقب أي شركة على تقصيرها أو خطئها الناتج عن الإهمال، فإن من أمن العقاب أساء الأدب، ومبدأ الثواب والعقاب إسلامي، ولا مشاحة حوله، والمشاهد اليوم تلاحق إنشاء الحملات بمسميات جذابة وتدفق الاعلانات والنشرات، حتى اذا تهافت الناس عليها تكشفت عن ممارسات دون ما يؤمله المتعاملون وتتطلع اليه الدولة، وفي مثل هذه النتائج احباط وتيئيس من جدوى فعل تباركه الدولة وتتطلبه المرحلة.

والحملات حين تقوم معها ضوابط تحمي حقها الجُهدي وحق الحاج الخِدْمي، ويمتلك ذووها تحقيق ما تصبو اليه الدولة من تخفيف في حركة المرور وانضباط في تحرك الحجيج تؤدي ما اريد منها بالتزام ما اريد لها، ولن يتأتى شيء من ذلك الا حين ترسم التصورات وتضبط الشروط وتقوم الحدود ويعرف كل طرف ما له وما عليه، وترك الامور للصدف وتمكين القادرين مادياً من مباشرة العمل على الشكل الذي يريدون وبالاسلوب الذي يودون سيؤدي إلى شيوع الفوضى واستفحال المشاكل، ومن ثم يضاف إلى اعباء الدولة اعباء جديدة، وما تجربة الطوافة التي مرت بمراحل تصحيحية الا مثل من امثلة ومشكلة من مشاكل. فلنبادر إلى مواجهة الظاهرة بكل ما أوتينا من قوة.

وحين تجد الدولة نفسها مضطرة إلى التحديد العادي للحجاج والوصف النوعي للمركبات والاساليب المتجانسة للاداء، وربط حجاج الداخل بالحملات يجب ان يوضع تصور مستقبلي لما يجب ان يكون عليه مستوى تلك الحملات وحجمها ونظامها واسعارها وانواع الخدمات التي تقدمها ومستوياتها، بحيث تكون قادرة على استيعاب حجاج الداخل وتوفير الامكانيات الكفيلة بتيسير سبل الحج، ولضمان استمرار ذلك وتطويره وتلافي الاخطاء اولاً باول يجب ان يكون في كل مقاطعة ثلاث شركات كبيرة متنافسة، وان يمنح الترخيص وفق شروط دقيقة وامكانيات مالية وبشرية كافية وتوفر اجهزة ومعرفة وخبرة مناسبة، وتكون الشركة محدودة تضامنية تمتلك وسائلها ومواقع سكنها، على ان يمكن الافراد العاملون من دورات تدريبية مستمرة تسبق الموسم، ولضمان الربح والاستمرار يجب منع حرب الاسعار والمغالاة، وذلك بالوقوف الفعلي على تكاليف الحملة وفق مستويات الخدمات وتقدير ربح مناسب يضمن للشركة الاستمرار والتعويض عن اي خسارة عارضة، ومن الممكن ايجاد صندوق مشترك من الدولة والقطاع الخاص لمنح قروض ميسرة لسد الحاجة عند التأسس ومواجهة الطوارئ، والدولة التي تدفع المليارات لتطهير البيت وتهيئته للحجاج والمعتمرين ليست عاجزة عن الاستجابة لطموحات المواطنين. وها نحن نعيش فرحة الوقف الذي تفضل به ولي الامر بحيث يكون عائده لخدمات الحرم الشريف ومنشآته لفك اختناقات السكن.

ومن اولويات المحاذير توقي الاعمال المؤقتة والاجراءات الوقتية، اذ الحج يمر بالامة كل عام، ومن ثم يتطلب فعلاً استراتيجيا واجراءات مستمرة الاداء ومنجزات طويلة الاجل.

واذ يكون تحديد النسبة العددية واسلوب الوصول للمشاعر والاداء ونوع وسائط النقل ومنع المواطن من تكرار الحج ومنع الحج الفردي على السيارات الخصوصية ضرورة يفرضها الزحام الخارج عن السيطرة فانه يجب ان تقدر الضرورة بقدرها، وان توفر لهذه الضرورة الامكانيات الكفيلة بتيسير الحج وضمان حقوق الحجاج. والناس شهود الله في ارضه، فإذا كثرت الشكاية وشاع التذمر وجب رصد ذلك وتعقبه والبحث عن حلول مناسبة، ومتى احس الجميع بالمتابعة والتقصي خفت المشاكل وتقلص الاهمال وقلت السلبيات.

والحج سفر، والسفر نار، وليس قطعة من النار كما يقال، والوافدون للحج تختلف ألسنتهم وعاداتهم ومستويات تفكيرهم، واحتمالهم الجسمي ومناسبة الأجواء لهم وهذا التفاوت يصعد المشاكل ويعرض المسؤولين للحرج، وما لم يتعامل المسؤولون مع الحج وظروفه العصيبة ومفاجآته المربكة بوعي تام ودقة وملاحظة ومتابعة مستمرة زادت الاحوال سوءاً، وعرض المسؤول نفسه للمؤاخذة مع مايبذله من جهد ومال يشهد به القاصي والداني.

وتجمع الحجاج والمعتمرين من آفاق المعمورة في زمان محدود وأمكنة محدودة في ساعات محدودة وعبر طرق محدودة وبوسائل كبيرة وكثيرة وبمستويات ذهنية وأحوال صحية ولغات مختلفة، كل ذلك يتطلب امكانيات استثنائية، وحلولاً فورية، وتخطيطاً سليماً مسبقاً، وكفاءات بشرية مدربة، والدولة أولت المسجدين والمشاعر عناية فائقة لا يكتمها إلا موتور، وهي جديرة ومؤهلة لمواجهة إشكاليات الحج التي تتضاعف عاماً بعد عام، وما لم يكن المواطن عيناً وعضداً وسنداً للمسؤولين فإنه يكون عبئاً ثقيلاً يضاف إلى أعباء الدولة التي تفيض أوعيتها بالمشاكل. والله الذي اختار لبيته هذه الدولة شد عضدها بالامكانيات المادية وبالاستقرار وفجر لها كنوز الارض وهداها إلى تحكيم شرعه واظهار دينه، وهذا الشرف العظيم الذي خص الله به إنسان هذه البلاد عبء كبير ومسؤولية جسيمة، فواجب الكل التآزر والتناصح لحمل هذا العبء والظفر بهذا الشرف، والله المسؤول وحده أن يوفق ولي الأمر للبطانة الصالحة الناصحة الأمينة لكي تمكنه من أداء مهماته الجسام.

البنيوية والتعددية النصيّة قراءة نصوصية .. ! (١) [(١)]

١/١اشتعلت «البنيوية» و«ما بعد البنيوية» من «تفكيكية» و«تحويلية» كما النار في الهشيم، ثم خبت، وخلفت من بعدها أو من قبلها «الحداثة»، ثم ولت الأدبار، وعصف صريم «الأنساق» و«الشعرنة» يحملان خريفهما على الظهر كما الأوزار، وما شيء من ذلك يبرح الأدمغة إلى العامة، وتلك صراعاتنا تمر كما سحب الصيف، ولا اعتراض على بعض ذلك إذا فُقهت وعُوربت وأصّلت واحترم السياق. ولا كفران لمن تلقفوا طوارق الغرب من «براغ» أو من «فرنسا» أو من «امريكا» بوعي تام للمقاصد، وادراك دقيق للمجالات، وتمكن معرفي للآليات وفلسفتها، ومهارة إجرائية، واستعمال بمقدار وبمنطق استقرائي، مثل هؤلاء «العنقاويين» في ندرتهم يضيفون طرقاً وآليات تمكن من اختراق فضاءات النصوص الإبداعية واستنطاق دلالاتها الأعمق واستجلاء خصائصها الأسلوبية، والمتخذون لآلية «البنيوية» بهذه الإمكانات يردون شيئاً من بضاعتنا التي غفل عنها الأكثرون عدداً والأقلون معرفة، ويقفون على قيم لغوية تتمثل في: الانزياح، والتوليد، والمجاز، والإيجاز، والسياق، والخيال والرمز، والقناع، مما هو متفرق في التراث، بوصفه ظواهر لغوية، لم ترق إلى مستوى النظرية، ولا تقل عنها، أما الذين اتخذوا هذا المذهب أو ذاك كمسجد الضرار، أو تلقوه بأيد ضعيفة وتصور خاطئ فأولئك ما زادوا المشاهد إلا خبالاً، والمؤسف أنهم أسياد الموقف مصداقاً لنبوءة المصطفى ﷺ في الغثائية، ولو ان هؤلاء الطوافين كما القطط على مخلفات الآخرين إذ سحرت عيونهم واسترهبت نفوسهم تلك المذاهب، مارسوا معها ما يمكن تسميته بالتمثيل الغذائي، بحيث يستقر نسغها، وتختفي شخوصها، لكانوا خير من يمارس حوار الحضارات، ولكنهم نبذوا تراثهم وراء ظهورهم، وأخذوا ما لا تقوم الحاجة إليه من ظواهر الغرب أخذ ضعف وذل وعجز، فما كانوا أعزة ولا مقتدرين.

والنقد البنيوي بكل تحولاته واهتماماته ومقاصده يرتبط بالناقد وثقافته وتفكيره فهو مجرد آلة صالحة للخير والشر، ولا ننكر انه بآليته قد صيغ لكي يستجيب لرؤية المنتج. والجذور الفلسفية للبنائية جذور إلحادية، لا يماري فيها إلا مغالط أو جاهل «راجع فؤاد زكريا، وزكريا إبراهيم» وما من منهج أو آلة إلا ولها فلسفتها، علمها من علمها وجهلها من جهلها، وما من منهج أو آلة إلا ولها سياقها وحواضنها، ونجاحها في سياق لا يضمن نجاحها في سياق آخر، على ان الاستعمال الواعي لآليات المذهب لا ترتد بالضرورة إلى الجذور، إلا إذا رضيها الناقد واستجاب لبواعثها، ولا أحسب التبعيين من النقاد العرب قد وعوا هذه الجذور، ولا أحسبهم أتقنوا الإجراء، ذلك انهم يخلعون عقولهم كالمعاطف أو الأحذية ويستصحبون عواطفهم عند بوابة الاستسلام الغبي، وحين يخفق البعض لجهله، أو حين يهرب لانكشاف امره وحضور من يعرف دخائل المذهب ممن تلقاه دراسة أكاديمية على ذويه، فإن الاخفاق أو الهروب لا يحملان على تصنيف الواقع فيهما، وإنما يحملان على العطف والشفقة فثقافة السماع قد تغري البعض بالادعاء والتبني والتسيد والاتصاف بأستاذ النظرية ثم التخلي دون مبرر أو سابق إنذار، ولقد سيئت سمعة أولئك النفر، وحملوا ما لم يحتملوا لوقوعهم في الشبهات، كما أسيء إليهم بالمكاء والتصدية من الغوغاء حتى نسوا ما هم عليه وما هم أهل له.

وهذه النوعية المغامرة في أزمنة التصوح تشكل رؤية خاطئة تهز الثقة بالمشهد وتفوت التأسيس والانطلاق وتخلف أشياعاً هيأهم للانبهار والمشايعة براعة التهريج

---

(١) تاريخ المقال: ١٣/ ٣/ ٢٠٠١

وضعف المحصول المعرفي عندهم، وانك لتعجب حين تراهم يتكأكأون على تلك الطوارئ وعشاقها كمن يتكأكأ على ذي جنة، ولسنا بصدد الحديث عن الاخفاقات التي فوتت علينا أشياء كثيرة ولا الحديث عن الهاربين من مذهب لآخر خشية افتضاح الأمر، وبخاصة أولئك الذين يحاولون تغطية الهروب بالتبني لمشاريع أخرى واعتناق مذاهب قديمة غير معروفة وغير مألوفة في أوساط العامة وأشباه المثقفين وأنصافهم، فلذلك مكانه الخاص به وهو ما سنبسط الحديث عنه حين يتوفر الجهد والوقت، ودعوى الشرعية أو المشروع بدون بيّنة من ظواهر العصر وصرعاته، وهو كما ادعاء الثلاثيات والرباعيات والخماسيات الروائية ممن لا يحملون موهبة إبداعية وان كانوا مقتدرين على الكتابة.

١/٢وما نود النظر إليه ما يعول عليه البعض عند مجيء النص الواحد بصيغ مختلفة في غير الذكر الحكيم، إما نتيجة الرواية الشفهية المتأخرة التدوين، أو بسبب تعدد الروايات بتعدد المواقف، فقد اقترف بعض المنحرفين فكرياً المغرمين بالدرس البنيوي الإنحاء باللائمة على الصحابي الجليل والخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه لقيامه بجمع القرآن الكريم، وسحب ما بأيدي الناس من مصاحف جمعاً للكلمة ودرءاً للمفسدة، وتمنى أولئك الموتورين لو ان القرآن انتهى إلينا بصيغه المتعددة المختلفة عما في المصاحف العثمانية ظناً منهم ان الاختلاف الذي تلافاه عثمان يترتب عليه وجود آيات وسور مختلفة ومناقضة لما هو عليه المصحف العثماني، وهذه الرؤية حفز عليها الفهم الخاطئ لمقاصد الخليفة الراشد أو النوايا السيئة أو الجهل الفاضح، وفات أولئك الموتورين الحاقدين ان الله قد تكفل بجمع كتابه وقرآنه، وما على الرسول ﷺ الا اتباع قرآنه ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٦ - ١٩]، وهو الكتاب الوحيد الذي تكفل الله بحفظه وابانته، وعتبنا وشكنا المشروعان على الذين وقفوا على كلمات الكفر عند أسيادهم، ثم لم تتمعر وجوههم، ولم يستثنوها من تبعيتهم، والله يقول: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠]، ويقول: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [الأنعام: ٦٨]، ونحن نذكرهم ان كان الشيطان قد أنساهم، والله يقول: ﴿وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨] وما على أحد منهم من بأس أن يقرأ وان يتتلمذ على أولئك ولكن البأس كل البأس فيما يقولون من كلمات الكفر، والقول بأسطرة القصص القرآني، وتكذيب ما قصه الله عن إبراهيم ورفعه القواعد من البيت، والقول بتعدي عثمان على التعددية النصيّة، ودعوى صياغة النص القرآني بشرياً وتلقيه معنوياً كفر واستهزاء وخوض، فالقرآن أصدق قيلا واحفظ نصا، وهو كلام الله نزل به الروح الأمين، وما أحد من أولئك النفر الممجدين لمدعي التنوير تمعر وجهه من اجل الحق، فإن كانوا لا يعرفون حكم الله في هؤلاء فتلك مصيبة، وان كانوا يعرفون ذلك ثم ركنوا إليهم فالمصيبة أعظم.

ولما لم يكن الحديث النبوي الشريف متكفلاً بحفظه، فقد وكل إلى البشر وما هم عليه من ضعف في الذاكرة وتفاوت في الالتزام، ولهذا تعرض للزيادة والنقص والوضع والرواية بالمعنى واختلاف الرواة، واقرأوا ان شئتم سياقات الحديث الواحد عند مسلم

وتوزعه في الكتب والأبواب عند البخاري، حتى لقد استدعى ذلك ظهور علم الجرح والتعديل والسند وما يرتبط بهذا من مصطلحات وأصول كثيرة تقصاها علماء الحديث. ولم يكن اختلاف العلماء حول النص القرآني مرتبطاً بقطعية الثبوت وإنما ارتبط خلافهم باحتمال الدلالة، والقرآن جمّال أوجه، فيم جاء اختلافهم حول نص الحديث النبوي مرتبطاً بالاحتمالية الثبوتية والدلالية. ومع ان القراءات القرآنية المتقاربة والمستكملة للشروط الثلاثة: موافقة اللغة، والرسم، والتواتر، لم تكن متضاربة المعنى، إلا انها مع هذا تحولت إلى إشكالية، ووجدها المستشرقون فرصة للتشكيك بوثوقية النص، كما شكل حديث الأحرف السبعة قضية لم تنته بعد. وجاءت دراسات المستشرقين والمستغربين مظنة الوهم والتوهيم، وقد نهض علماء النحو والصرف واللغة والرواية والدراية بمهمات جليلة لتحرير المسائل المتعلقة بالقراءات وتوجيه ذلك نحوياً ولهجياً ودلالياً، مما جعل اسهاماتهم في منتهى الدقة والتقصي والتأويل السليم، في حين جاءت تناولات المستشرقين مليئة بالجهل أو التجاهل لزعزعة إيمان المرتابين ولك ان تراجع مقولات المستشرق «جولد زيهر» في كتابه «مذاهب التفسير الإسلامي» حتى لقد وجد مرضى القلوب من أبناء المسلمين في هذه التساؤلات «الحرورية» فرصة لضرب القرآن والتشكيك في ألوهية النص القرآني، كما قيل بالتفريق بين مصدرية المعنى والنص وهم لكي يروضوا الأنفس أوغلوا في دعوى الأنسنة وتدنيس المقدس والنقد المطلق للانساق الثقافية والسوائد دون استصحاب للسياقات أو استثناء من العموميات. لقد جاء من يدعي اسطورية القصص القرآني، ومن أعطى تصورات جديدة للثبات والتحول والحرية، ومن اطلق في إدانة الثقافة العربية، أو اطلق في تزكيتها، وبعض هذه الإثارات كرسها توثين البنيويين للغة وتعظيم أمرها والاشتغال بها بطريقة غير سليمة وغير ناصحة، والراكضون خلف عجاجة عمالقة العصر لا ينظرون مواقع أقدامهم، فهم كالعشواء أو كحاطب الليل.

١/٣ولأن الحديث النبوي الشريف تأخر تدوينه إلى ما بعد زمن الاحتجاج، فقد ذر قرن الجدل حول مشروعية الاحتجاج به لغوياً ونحوياً وصرفياً بوصفه شاهداً في تقعيد النحو والصرف وتدوين اللغة وتقصي المعاني، ولبعض العلماء آراء حساسة حول جدلية الاحتجاج به «كابن الضائع» وقد تقصى المتخصصون الاكاديميون المعاصرون هذه الاشكالية بما لا مزيد عليه، وتقصوا أقوال العلماء وجدلهم حول هذه الإشكالية. أعرف منهم على سبيل المثال لا الحصر الدكتورة خديجة الحديثي في كتابها «موقف النحاة من الاحتجاج بالحديث»، والدكتور محمود الفجال في كتابيه: «الحديث النبوي في النحو العربي» و«السير الحثيث إلى الاستشهاد بالحديث في النحو العربي»، والدكتور محمد حمادي في كتابه «الحديث النبوي الشريف وأثره في الدراسات اللغوية والنحوية» على ان ظاهرة تعدد النص في الحديث النبوي لم يعرها الدارسون اللغويون الاهتمام اللائق بها مع أهميتها وقرب تناولها، ولم تمارس الدراسات التطبيقة حول تلك الظاهرة الناتجة عن الاختلاف في الرواية وتأخر التدوين وتجزيئية النص لمناسبة الأبواب. والدراسات الأسلوبية للقرآن الكريم لم تتجاوز مرحلة التأسيس، وأهمها جاءت تراثية كما هي عند المرحوم «عبد الخالق عظيمة» أو جاءت على شكل مبادرات شخصية توقفت عند المحاولات كما هي عند «عبد الصبور شاهين» وآخرين والأكثر حضوراً وشيوعاً ومشايعة ومغامرة ما قام به المشبوهون كما هي عند «محمد اركون» و«نصر حامد أبي زيد» وهي عندهما لم تشكل نظرية ولا ظاهرة، والشعر العربي تعرض لمثل ذلك بدعوى الانتحال كما هو عند «مرجليوث» في كتابه «أصول الشعر العربي» ومقتفي أثره «طه حسين» استناداً للمتغير «اللهجي» و«الدلالي»، وما أحدٌ خص الحديث ولا الشعر بدراسات اسلوبية تحرر عوائد التعددية النصية فيما أعلم، وتلك الظواهر النصية فوتها

النقاد على انفسهم، مع ان الآليات الحديثة تساعد على اكتشاف جماليات أسلوبية وأبعاد دلالية متى حسنت النوايا وسلمت المقاصد واستكملت متطلبات البحث.

البنيوية والتعددية النصية قراءة نصوصية .. ! (٢) [1]

١/٢وكإجراء تجريبي ومحاولة أولية، شرعت في قراءة حديث في صحيح البخاري رحمه الله قراءة نصوصية مركزا على اختلاف الروايات وتعدد النص، ومايترتب على ذلك من تكثيف دلالي أو ملمح جمالي. وأملي أن يبادر المقتدرون والمتخصصون لممارسة دراسية مماثلة، لتجلية إيجابيات هذا التعدد. وكم أتمنى لو أن أقسام النقد الأدبي في جامعاتنا وجهت طلبة الدراسات العليا، ومعدي بحوث الترقية لدراسة الحديث النبوي لغويا وأسلوبيا ونحويا وصرفيا وتحرير المتغير الدلالي بتغير النص مع وضع قيمة لمشروعية الرواية بالمعنى مما يجعل النص مرتبطا بالراوي، والمعنى مرتبطا بالرسول ﷺ، والعلماء الذين يقفون على نكارة لفظية وسند صحيح يعولون على هذه المشروعية، ومن ثم يتحرجون من رد الحديث، ومباشرة الدراسة النصوصية ستكشف لهم أشياء كثيرة، ولعل مما اكتشفته الدراسات السلفية للنص مصطلح (الإدراج) وله أهميته في التشريع، وكذلك في واحدية الحدث وتعدد الأحوال، وبخاصة ما يتعلق بالأحاديث التي تضمنت معطيات الإسراء والمعراج، وهي إشكالية لم يتوصلوا فيها إلى نقطة اتفاق. والعلماء الأوائل تنازعتهم مهمات كثيرة، والمشتغلون منهم بالنص وقفوا عند الشرح واستنباط الأحكام، والأقل منهم من عول على جماليات النص وملامح العدول.

وأنا في هذه المحاولة التجريبية أخذت في هذا المنحى التطبيقي حديثا واحدا، وهو الدعاء الذي خص به الرسول ﷺ الصحابي الجليل حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنه ت ٦٨ هـ. وهي محاولة ينقهصا الجد والتخصص. قال البخاري في صحيحه: حدثنا عبد الله بن محمد قال: حدثنا هاشم بن القاسم قال: حدثنا ورقاء، عن عبد الله بن يزيد عن ابن عباس: ان النبي ﷺ دخل الخلاء، فوضعت له وضوءاً، قال: «**من وضع هذا**» فأخبر، فقال: «**اللهم فقهه في الدين**».

في هذا الحديث تتبدى لنا عدة ملاحظات:

الملاحظة الأولى: أن الحديث لم يكن من باب التكرار بحيث لا يتغير رواته ولا تتغير صيغه، ولا تتعدد مناسباته، وقد وهم المختصرون للصحيح فأسقطوا التكرار، وما علموا ان هناك مناسبات متعددة، وكلمات متعددة ورواة متعددين.

الملاحظة الثانية: ان بعض الأبواب التي عقدها البخاري لم تستدع النص، وإنما تولدت منه، بحيث ان صيغ الرواية حملت البخاري على توليد العناوين.

الملاحظة الثالثة: ان الدعاء جاء في الصحيح وفي غيره على خمس صيغ:

الصيغة الأولى: «**اللهم علمه الكتاب**«».

الصيغة الثانية: «**اللهم فقهه في الدين**».

الصيغة الثالثة: «**اللهم علمه الحكمة**».

الصيغة الرابعة: في غير الصحيح بزيادة «**وعلمه التأويل**».

الصيغة الخامسة: في مسلم «**اللهم فقهه**» دون تحديد.

الملاحظة الرابعة: صياغة بعض العناونين من ذات النص، ففي كتاب (العلم) الباب السابع عشر، عنون البخاري بذات النص: باب قول النبي ﷺ: «**اللهم علمه الكتاب**»، وفي كتاب (الوضوء) الباب العاشر (باب وضع الماء عند الخلاء) وفي كتاب (فضائل أصحاب النبي ﷺ) الباب الرابع عشر (باب ذكر ابن عباس رضي الله عنه)، وفي كتاب (الاعتصام بالكتاب والسنة)، جاء في ذات الكتاب، ولم يأت في الأبواب.

---

(١) تاريخ المقال: ٢٠/ ٣/ ٢٠٠١

الملاحظة الخامسة: دقة الملاحظة عند البخاري وبعد المناط، بحيث يصعب في بعض الأحوال الربط بين النص والعنوان، ويشبه البخاري في استنباط الكتب والأبواب ما ذهب إليه شارح كتاب التوحيد للمصلح محمد بن عبد الوهاب وذلك بقوله: (فيه مسائل) فقد لا تستطيع إرجاع المسألة إلى النص، مثلما أنك قد لا تستطيع الربط بين النص والعنوان عند البخاري، ولست أدري عما إذا كان أحد من الدارسين حدد سبق الحديث للأبواب والعناوين عند البخاري أم أنه وضع تصوره واستدعى ما يلائمها من الأحاديث المتوفرة على شرطه.

والحديث المشار إليه ورد في صحيح البخاري أربع مرات، لا في صيغ مختلفة وإنما باجتزاء أو بتوسع أو بروايات مختلفة. والبخاري رحمه الله في صحيحه انتقائي تبويبي، فهو وإن كان صحيحه محسوبا على كتب الصحاح في الحديث إلى جانب المسانيد والسنن، إلا أنه إرهاص لكتب الفقه، وانتقائية أنتجت المستدرك، فهو لم يتقصَ الصحيح، وإنما اشترط ألا يكون في كتابه إلا الصحيح، وشرط الصحة لا يعني استيفاء مدخولها، والدليل على ذلك انه في (الأدب المفرد) و (التاريخ) الكبير والصغير لم يشترط الصحة، ومن ثم كثر الضعيف في كتابيه، وقد تعقب الدارسون براعة البخاري في التبويب والتقاط الدلالة العنوانية من معنى المعنى أو الدلالة الأعمق، وذلك مؤشر تفقه في الدين، فهو يلتقط النص أو يلتقط من النص ما يلائم الكتاب أو الباب الذي ينشئه، وقد لا يكون ذلك من باب التكرار، إذ يختلف الرواة وتتعدد السياقات، وتتغير الأسباب والمناسبات. فالأحاديث الأربعة وإن جاءت بصيغ ثلاث إنما جاءت بسبب واحد في رواية الصحيح، وجاءت لأسباب أخرى في غيره، والسبب ما فعله ابن عباس حين دخل الرسول ﷺ (الخلاء) لقضاء الحاجة، حيث بادر ابن عباس بوضع الماء. قال ابن عباس: (ان النبي ﷺ دخل الخلاء فوضعت له وضوءا).

ومن ثم فهناك علاقة بين (الفعل) و (الدعاء) و (السن). فالفعل مبادرة ذكية من ابن عباس على الرغم من صغر سنه، إذ كان (الاستجمار) يغني عن الماء، وآية حب الله للمتطهرين ربما حفزت ابن عباس على المبادرة بالماء، والدعاء مرتبط بدوافع الفعل، فالرسول ﷺ لمح في ابن عباس ذكاء فاق غيره، إذ بادر إلى وضع الماء للاستنجاء به عقب الاستجمار، ولأن الرسول ﷺ أدرك هذا الاستعداد الفطري المبكر عند ابن عباس فقد سأل الله له: علم الكتاب، وعلم الحكمة، وفقه الدين، وعلم التأويل، وهنا ملامح دلالية: فالعلم شيء، والفقه شيء آخر. والكتاب شيء، والحكمة شيء، والدين شيء، والتأويل شيء. ومن تعقب مستويات النص الدلالية تتبدى لنا خمس مفردات لكل واحدة مغزاها:

فالكتاب: القرآن.

والحكمة: الحديث من قول أو فعل أو إقرار على الأصح.

وقد قيل ان الحكمة القرآن أيضا، ولا أرى ذلك، إن لم يكن هناك نص صارف.

والفقه: الاستحضار والاستنباط والفهم.

والدين: هو جماع المعطى النصي من الكتاب والسنة.

والعلم: المعرفة والحفظ.

والتأويل: توجيه للنص لا من خلال المدلول المباشر، أو هو توقع الحدث الموعود به قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ [الأعراف: ٥٣] .

ومن ثم فإن الدعاء ربما جاء بصيغ مختلفة من الرسول ﷺ، أو جاء بصيغ مختلفة من الرواة، ومكمن التساؤل: هل من عموم وخصوص يربط بين تلك المفردات: (التعليم، التفقيه، الكتاب، الحكمة، التأويل، الدين) لقد أومأ ابن حجر إلى احتمال الرواية بالمعنى،

ولا أرى ذلك. فهل قال الرسول ﷺ: «**اللهم علمه الكتاب، اللهم علمه الحكمة اللهم فقهه في الدين**» في موقف واحد، أو أنه قال واحدة من تلك، وعبر الرواة بما هو قريب من دعائه؟ هنا إشكالية نصية لا يجوز التخلص منها بالقطع أو بالتوقف. والبخاري جزأ الدعاء وفق متطلبات (الكتب، والأبواب) ومسلم على غير عادته ساق رواية واحدة. والأمر عند غياب النص القطعي الدلالة والثبوت خاضع للتخمين، ولا أستبعد ان يكون الرسول ﷺ قد قال ذلك كله في موقف واحد، أو في مواقف متعددة، عندما يرى ابن عباس، أو عندما يقدم له ابن عباس خدمة، ومما هوملفت للنظر إعجاب الرسول صلى الله عليه وسلم بابن عباس، حيث ضمه إليه: أي احتضنه، وذلك فعل حركي دافعه: (الحب، والإعجاب، والفرح).

الحب لابن عباس بسبب قربه منه.

والإعجاب به لفقهه المقاصد الإسلامية مع صغر سنه.

والفرح بنبوغ شاب سيكون له شأن في استنباط الأحكام، وتشقيق النصوص، وتوليد الدلالات.

والسؤال الوارد: لماذا لم يدع الرسول ﷺ لابن عباس بطول العمر، أو بكثرة الأولاد، أو المال، أو بالشهادة في سبيل الله، وقد فعل مثل ذلك مع غيره؟ أحسب ان الرسول ﷺ أدرك ان الاستعداد الفطري عند ابن عباس استعداد فقهي استنباطي تأملي استيعابي، ومن ثم أراد له تهيئة الأجواء المناسبة لهذا الاستعداد. وهو التعليم والتفقه، وعلم التأويل.

ومن روائع المعطى النصي الترابط الأعمق بين العلم والكتاب والسنة من جهة والفقه والدين والتأويل من جهة أخرى.

فالفقه لا يأتي إلا بعد العلم، والعلم بالنص طريق التفقه فيه، ولأن هناك نصين:

نص الكتاب، ونص السنة تختلف فيهما مصدرية النص وتتحد مصدرية المعنى كان لابد من تعدد آليات التلقي ونظريات المعرفة. والله حين أمر نساء الرسول ﷺ بذكر ما يتلى في بيوتهن جعله نوعين (آيات الله) و (الحكمة) فتكون (الحكمة) على هذا الأساس قول الرسول وفعله وإقراره. (وآيات الله) القرآن، ومن تنوع المستويات الذهنية وتعددها عند نسائه يكون التقصي .. ولأهمية النص في مصدريه فقد دعا الرسول ﷺ لابن عباس بعلمهما، وبذلك ضرب لمذهب القرآنيين الذين يعولون على النص القراني في التشريع ولا يعملون بالسنة ولأن مصدرية الدين نصية ثنائية تعني الجمع بين نصين. أحدهما: وحي بالنص وهو القرآن. والآخر: وحي بالمعنى وهو الحديث، فلقد دعا الرسول صلى الله عليه وسلم لابن عباس بالتفقه في الدين. وهنا يكون أمامنا أربعة نصوص: نص بالوحي وهو القرآن الكريم، ونص تمثيلي استيحائي استنباطي وهو الحديث النبوي، ونص رديف للوحي بالنص وهو التفسير، ونص رديف للوحي بالمعنى، وهو شرح الحديث. ودعاء الرسول ﷺ يشمل النصوص الأربعة. إذ جاء دعاء الرسول ﷺ لابن عباس بعلم الكتاب، وعلم الحكمة، وفقه الدين وعلم التأويل. وما الدين إلا ممارسة فعلية بعد التلقي والفهم للنصين. على ان ابن حجر نظر إلى العلم لا على أساس استقرار المعلوم في الذهن، وإنما تجاوز به إلى الفقه والتأويل. وهو رأي ينشيء ترادفا بين العلم والفقه، وقد تعضده آية النفور للتفقه والإندار بعد الرجوع، ولن ندخل في الفوارق الدقيقة. ودعاء الرسول ﷺ لابن عباس مؤشر على خطورة نظرية: التلقي والمعرفة والتأويل. وما أضل الناس وحرَّف الكلم عن مواضعه إلا اختلاف التلقي، ولهذا توسع الدارسون في استكناه (نظرية المعرفة) عند المذاهب والأشخاص، مثل (نظرية المعرفة عند ابن تيمية) أو (نظرية المعرفة عند الصوفية)، ودعاء الرسول ﷺ لابن عباس تعني عصمة التلقي، وعصمة النص لا تستدعي بالضرورة عصمة التلقي والخطورة في التلقي.

ولو عندنا لتقصي دلالات (التأويل) لوجدناها تعني:
تفسير الرؤيا المنامية، وتلك من معجزات يوسف عليه السلام.
ذكر الأسباب والدوافع للأفعال المستنكرة عقلا، وذلك في قصة العبد الصالح مع موسى عليه السلام.
المآل والرجوع لمن يلتزم بالعدل والقسطاس.
تحقق الوعيد وظهور الغيبيات الموعود بها.
وقد تطلق ويراد بها التفسير والشرح.
ومن ثم لا يقف التأويل على (المدلول) الوضعي، وإنما يمتد إلى تحققه في الواقع، وهو المقصور بقوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧] وقد يكون برد المتشابه إلى المحكم، الشيء الأهم: متى نعرف؟ وكيف نعرف؟ ان نص الحديث هو لفظ الرسول ﷺ؟ لقد أومأ بعض الأصوليين إلى مؤشرات: كالمتواتر باللفظ، والمشهور باللفظ، والقدسي، ولكنهم لم يقفوا على حقائق حاسمة، والقراءة النصوصية تكشف المؤشرات، وتقترب من معرفة الرواية بالنص والرواية بالمعنى، وتمكن القارئ عند التعددية من تحديد مصدرية اللفظ، وسلفنا الصالح كانت لهم منهجيتهم المتميزة في قراءة الحديث النبوي الشريف، وكان نقدهم واعيا ومستكملا للآلية المؤدية إلى نتائج علمية، لقد وضعوا قواعد لنقد الحديث في سنده ومتنه، هذه القواعد هي التي أفرزت مصطلح الحديث، ولعل المتخصصين على علم وثيق بمقدمة ابن الصلاح وهو من مشاهير علماء الحديث في القرن السابع.

ورغبتنا في التوسع والتجديد والإضافة في منهجية النقد والدرس لا يعني التفكير في تغيير ما توصل إليه العلماء من أحكام على الأحاديث، ولايعني التغيير في شروط الصحة ومؤشرات الضعف، ولا يعني كذلك الانصياع للمدرسة العقلية التي ردت الأحاديث الصحيحة كحديث (الذباب) و (إلعاق اليد) وإنما يعني أن نعي هذه القواعد، وان نعيد قراءة الأحاديث على ضوئها لاكتشاف أبعاد دلالية تستجيب للنوازل التي تجتاح الأمة الإسلامية. ومن المؤسف ان نقدة المنهج يتصورون اقتصار العلماء على تتبع السند، وفاتهم ان العلماء لم يقفوا حيث يكون رجال السند، وإنما امتدت نظرتهم إلى المتن، ومن ثم تحسسوا المتن، ونظروا في (المجازفات) و (مخالفة الحس) و (سماجة المعنى) و (ركاكة الأسلوب) و (المناقضة لصريح السنة والقرآن). وقد تناول أطرافا من ذلك الشافعي رحمه الله في رسالته، وابن القيم في مناره المنيف، والمعلمي في (أنواره الكاشفة) وغيرهم كابن أبي حاتم والخطيب في الكفاية، ومثلما خبص (جولد تسيهر) في أمر القراءات، فقد كان تخبيصه اكثر في مجال الحديث، وذلك في كتابه (العقيدة والشريعة)، وإذ ينفذ نقدة المتن إلى الحديث من خلال متنه فإن عقبات كثيرة تعترض سبيلهم تلك هي جواز رواية الحديث بالمعنى، وذلك يحد من قضية الإعجاز البياني للحديث النبوي، وما أحد من العلماء قال بالإعجاز البياني في الحديث، ولكنهم أدركوا في كلام النبوة الجمع والمنع وجوامع الكلم.

تلك محاولة لا أزعم أنها أتت بجديد، ولكنها تذكير وإغراء لمن يملكون القدرة والتخصص، ولا بأس من الاستعانة بما جد من آليات ومناهج لتقريب النص التشريعي واكتشاف دلالات جديدة.

قوانين التَّماس بين السياسة والإعلام .. ! (١) [1]

لامراء في أن إعلامنا العربي بحاجة ماسة إلى التحرف الجاد، ليكون في مستوى الطفرة الاعلامية العالمية، فهو محتاج إلى راصد واع ومصور جريء ينغمسان في أتون الحدث المصيري، يبادران ويصدقان، وهو في كل تحرفاته وإمكانياته وإنفاقه الباذخ متلق من الآخر غير الحيادي، وجُل ما يصله من أخبار وتقارير وصور يعد تسخينا لما غب من الطبيخ، غير أننا ونحن نستحثه على الاستقلالية والمبادرة والمباشرة، لا نريد منه أن يكون بهلوانيا لإثارة الانتباه، ولا استفزازيا لشد المتلقي، ولا فضائحيا يهتك الأعراض ولا مداحا يقطع الأعناق، نود منه أن يقدم مادة مفيدة، تصنع الذهنية، وتثري المعرفة، وتصحح المفاهيم، وتشكل الوعي السليم، ثم لا يكون بعد ذلك خائفا يترقب، بحيث يصرفنا إلى اعلام معادٍ لا يرعى فينا إلاً ولا ذمة، ويشدنا إلى قنوات تزيف الوعي، وتفسد الأخلاق، وتوقظ الفتن، واذ يكون العصر في أشد حالات التحدي والأدلجة، واذ تكون السياسة في الدين والدين في السياسة، واذ يكون الاعلام والسياسة والدين كالحلقة المفرغة، تكون مهمة القائمين عليه من أعقد المهمات، فهي بقدر مهمة السياسي والعالم الشرعي خطيرة وحساسة ومصيرية، ومع هذا الاشفاق والتطلع فان الاعلام بكل فروعه لا يفقد بين الحين والآخر من يتقن أسلوب التغيير، ويحاول التفلت من اسار النمطية والتناظر، اذ له بعض المبادرات المبهجة، ولكنها قد لا تكون بالضرورة إلى الأفضل، والتحرف للكسب وشد الانتباه لابد أن يكونا بضوابطهما وقيمهما، فليس التحرف محمدة على اطلاقه.

ومما يؤذي المشاعر في سياق التحرف للتغيير ما يعمد اليه بعض القادرين من الأثرياء أو الدول من تمويل سخي لإذاعة أو مطبوعة أو قناة فضائية لا تملك غير تهييج الغرائز وتحفيز المشاعر وإيقاظ الفتن وتزييف الوعي، ثم لا يكون وراء ذلك الا الوقيعة والافساد والحرب الباردة لها عقابيل الحرب الساخنة، وهي مشروعة متى كانت في سبيل الدفاع عن المثمنات السياسية أو الدينية أو الأخلاقية أو كانت لاصلاح ذات البين وإطفاء الفتنة ورأب الصدع وتوعية الأمة من مكائد أعدائها وتنوير رؤيتها، وذلك ما لا نسمعه وما لا نراه الا في الأقل النادر وتناولنا لهذا الموضوع الحساس لن يكون انفعالا ولا رد فلع، ولا مجاراة في خلق دنيء، انه رؤية متساوقة مع رؤى متعددة، تؤمن بتكافؤ الفرص الاعلامية، وتود من الوسائل الاعلامية كافة أن تكون رداء: تشد العضد، وتظاهر المخلصين تحمي الساقة وترود في المقدمة، وتلافيا لتعويم الكلام نضرب المثل بقناة الجزيرة فهي واحدة من هذه المستجدات التوارثية غير السديدة، لقد خلفت أساليب اعلامية عفا عليها الزمن، واستقطبت فلول خطابات حماسية فارغة، وهي بهذا الترميم لا تتخطى لعبة الاثارة والاستقطاب والعبث في المناطق الحساسة دون تأسيس راشد لصيغة سياسية معينة، بحيث تسهم في تشكيل وعي جماهيري يواجه المكائد ويجبر الانكسارات بروح حذرة متفائلة، كما أنها لا تحاول تلافي ما ينقص الأنظمة القائمة، وبخاصة دول الخليج بوصفها وحدة سياسية متجانسة، ولما توفر من خلال العديد من برامجها الاستفزازية رؤية حضارية ذات جذور ومرجعية ورؤية فكرية أصيلة، ولهذا تراها أبدا تبحث في بؤر التوتر ومناطق الاثارة: كقضايا المعارضة، والطائفية، والتطرف، والغلو، والارهاب، والقبلية، والأفكار المنحرفة، وحريات الفوضى غير المنضبطة، وذيول حرب الخليج، وتداول الحكم بين الوراثة والانتخاب والثورة والتحايل الدستوري، ويصاحب ذلك غفلة

---

(١) تاريخ المقال: ١٣/ ٩/ ٢٠٠٠

متعمدة عما يهم الأمة، حتى ان العاقل ليحار في معرفة المنتفع الحقيقي من بعض جدلياتها، وتحقيقا لتلك الرغبات الفضائحية المشبوهة تستميت في اقتناص المزعجين والمتنافرين والناقمين والفاشلين والحاقدين المؤمنين بمبدأ اذا مت ظمآنا فلا نزل القطر، وقد رأيت وسمعت من المنكوبين المتبلسمين بدفء الخليج من لا يسأل الخلاص بل يود امتداد النكبة، وكأن اليأس قد قطع عليه سبيل الرجاء فظل يائسا من رحمة الله، والقناة الضجة تجد ضالتها في هذه النوعيات بحيث توجه حواراتها معهم ومع الآخرين ممن يودون افساد ذات البين إلى ما يشبه التمثيل البهلواني المتدني متعمدة زرع الشك المدمر، مجتهدة في السعي للوقيعة، متسعة للشيء ونقيضه: عقديا أو فكريا أو سياسيا، وتلك لعبة خطيرة وحساسة والدخول في مثلها يتطلب الحيطة والحذر ودقة التقدير لأنه دخول يشبه العمل في الألغام أو التركيبات السامة، ثم انها مع ذلك لا تتوخى التنوع في الآراء ولا العدل في الانتقاء، اذ لا مشاحة متى كان الاختلاف في اطار التنوع المشروع، وكل مؤسسة اعلامية انشئت لغرض دنيء تنكشف لعبتها على حد وان خالها تخفى على الناس تعلم، لقد شهد المتابعون للعديد من ضيوفها من يبلغ حد السفه في مناكفته وتجنيه وافترائه على الحكومات بأعيانها والأنظمة والمنظمات بذواتها والشخصيات بأسمائها، والرسول الكريم ﷺ وهو يعرف المذنبين يقول: مالي أرى أقواماً يعملون كذا أو كما قال، ومثل هذه المواجهة غير السوية تحول البرامج إلى معلقات هجائية والمقدمين والمشاركين إلى حطيئيين لا يلجمهم الا حاكم عمري يشتري أعراض المسلمين، والمقدم لكي يُفقد الضيف احتشامه يحاصره بالمفتريات، حتى اننا نجد من يربأ بنفسه فيبارح المائدة مغاضبا، ونجد من يتحدث في أمور لا يتقنها ولا يحسن الحديث عنها.

ولأن تلك القناة حاطب ليل فإنها تفقد المصداقية والحيادية، وتغفل عما يمس الممول الذي أراد لنفسه الحضور من خلالها، وهي بتجنيها ومقترفاتها شكلت نشزا في سياق الاعلام العربي، الأمر الذي حمل ثلاث دول عربية على استدعاء سفرائها من الدوحة تعبيرا عن الاستياء والاحتجاج، وهي: تونس وليبيا والمغرب، وآخرون متأذون، ولكنهم يكظمون غيظهم لتتمكن القناة من اكتشاف ذاتها، أو هم كالقائل:

ولقد أمر على اللئيم يسبني

فمضيت ثمت قلت: لا يعنيني

والأدهى والأمر أنها حين تستضيف اسلاميا على سبيل المثال تجعل قوله وآراءه تعبيرا عن الاسلام، وتحسب رؤيته عين الرؤية الاسلامية، وكأن ما يقوله حكم الله، وقد تستدرجه من حيث لا يعلم ليعمق الاشمئزاز من الممارسة باسم الاسلام، ولا تحاول التأكيد على ان المتحدث انما يعبر عن وجهة نظره هو ليس غير، كما لا تستدرك وتنبه على ان ما يفعله أو يعتقده لا يمثل المقتضى الاسلامي، وهي كذلك حين تتيح الفرص للمعارضين أو للمؤيدين للحكام المتحفظ عليهم، ولكي تظل جذابة فإنها تحاول مفاجأة المتلقي بفعل متميز ومقبول كصدقة بين يدي نجواها الآثمة العدوانية، وفي مفاجآتها نعايش بين الحين والآخر لقاءات جادة، ومعالجات علمية وبرامج وثائقية ممتعة، ولكنها كمنافع الخمر، ونحن في مواجهتنا لها أو لغيرها لا نريد الاحتواء ولا الالغاء ولا الاغماض على التقصير، فالممارسات السياسية ليست معصومة، وليست فوق المساءلة والنقد، كما لا نود واحدية الصوت وتماثل الرؤية، وانما ننشد الاصلاح والمصداقية، وما تفعله تلك القناة لا تبرره دعوى حرية الرأي وحرية التعبير واستجلاء وجهات النظر، انه تمكين للأوضاع غير السوية وتغرير بالمشاهدين، وتعميق للخلاف واستشراء للإحباط وتملق للعواطف.

والقناة في ضوء تلك الرغبة الاستفزازية لا تتماشى مع سلم الأهمية في القضايا الملحة التي تهم المواطن الخليجي بالذات والعربي على وجه العموم، وانما تنظر إلى القضايا من خلال حجم الاثارة وتوتير الأعصاب، واشتغالها فقط بالمسموح به والمرغوب في اثارته من قبل الرؤوس المدبرة والجيوب الممولة، وتعاطيها في اطار هذه المناشط المنتقاة تقعر الرؤية في صغائر الامور، وتعمى عن كبائرها لحاجة دنيئة في النفوس الموتورة، وتغنيها بالحرية كسائر المتغنين بها تفهمها على انها فعل الممكن والمرغوب دون ضابط، كما في السياسة، ولا تفهم الحرية على أنها الممارسات المنضبطة القائمة على تكافؤ الفرص، فالحرية كما يقول العقاد هي النظام والنظام يعني احترام الشرط في اطار العقود المتعددة، العقد الرباني أو العقد الاجتماعي، والدولة أي دولة حين تختار نظاما أو اسلوبا في تداول السلطة، ثم تعلنه للملأ تكون المساءلة في اطار التزام هذه الدولة بذلك النظام المعلن، وليس في ضرب هذا النظام وادانته لذاته لا لفعله، وأمريكا عشق العلمانيين اختارت الرأسمالية وحاربت النظام الشيوعي، ولها في اطار ذلك حِمىً لا يجوز الاقتراب منه، ولم يقل أحد ان في ذلك اخلالاً بالحرية والديمقراطية، وهي تكيد للاسلام وهناك من يحمل جنسيتها من المسلمين الذين يساورهم هم الاسلام والمسلمين، فهل توفرت الحرية بالشكل الذي يتصوره الحالمون؟، ولأن تلك القناة لا تتقن قوانين التماس فانها تتعمد نبش دفائن لا حاجة إلى نبشها، وتمعن في فتح ملفات تجاوزها الزمن، وأصبحت مجرد مرحلة تاريخية، ليس لها أي انعكاس على القائم، وقد يكون ذلك من ايقاظ الفتن النائمة، والأنظمة في كل أنحاء العالم لا تخلو من معارضة: عاقلة أو هوجاء، منازعة أو مجادلة، محقة أو دعية، مصلحة أو هادمة، واقعية أو مثالية، وحتى في أمريكا التي تعد مضرب المثل في الديمقراطية تقوم فيها المظاهرات، وتؤلف الكتب وتنشر الدراسات المعارضة والمحذرة، ولنضرب مثلا باللغوي نعوم تشومسكي وبآخرين يعرفهم المتابعون للمطارحات السياسية كتبوا عن غطرسة القوة وحذروا من الجماعات الضاغطة واشمأزوا من تعديات اللوبي الصهيوني وتساءلوا عمن يحكم أمريكا، وما من دولة استطاعت تجسير الفجوة بين المثقفين والسلطة، ولأن المؤسسات السياسية تمثل السلطة فإن الوفاق معها لا يكون الا في الأقل النادر، وهل أحد من الرؤوساء في الدولة الديمقراطية كسب كل الأصوات الانتخابية؟، ان مادون النسبة المئوية من الناخبين في عداد المعارضة، والمعارضة ظاهرة صحية، اذا أحسن المعارضون استخدامها، وأتقن الساسة التعامل معها، لقد مارسها الصحابة مع رسول الله ﷺ في صلح الحديبية وفي مواقع كثيرة، ولكنها معارضة ايجابية تبحث عن الاطمئنان، وليس من مصلحة الامة الواعية لأهمية رأب الصدع وجمع الكلمة المستوعبة لواقعها بين الأمم أن توطىء أكناف اعلامها للاثارة الخالية من الجدوى، فالكلمة عمار أو دمار، ثم ان المعارضة، أو حكومة الظل بإزاء الحكومة الحقائبية تقعان تحت طائلة الخطأ والصواب، فالصواب المحض والخطأ المحض غير ممكنين لا للسلطة ولا للمعارضة المنفية أو المقيمة، لقد هتف طلبة الجامعة اللبنانية في وجه الحريري ووصفوه بالحرامي، وهو الذي ابتعث الآلاف من الشباب للدراسة على حسابه الخاص، وهو الذي عاد للسلطة محمولا على أكتاف الأغلبية، فالحق لا يكون بالضرورة مع المعارضة، والصدق لا يكون قصرا على الصوت الرافض، والقناة في اثارتها تتصور الملائكية لطائفة والشيطانية لطائفة أخرى، وترى الحق دائما مع المعارضة وطوائف الانشقاق والهاربين من بلادهم، ولا تعول على أهمية الدخول في المعمار القائم لاصلاح ما يمكن اصلاحه، والقنوات الاعلامية الذكية من تستطيع استطلاع الرأي الآخر دونما هدف للجذب أو الاثارة، ولا تثريب في استكمال فنيات الحوار وشد الانتباه، والاقتراب من الحمى، ولكن بحذر ذكي وحساب دقيق، وتحفظي

على أي طرح اعلامي لا يقف حيث يكون هواي، فما أنا من المستقطبين حول الذات، وما أنا من الأبويين المعطلين لعقولهم، وانما هواي مع المصلحة العامة للأمة محليا وعربيا واسلاميا حيث كانت، وفي الوقت ذاته لا أرى أن هناك أنموذجا سياسيا لا يصلح غيره، ولست معنيا بتكريس أي مشروع سياسي أو مذهب ديني يتجاوز الدعوة إلى الله على هدي من الكتاب وصحيح السنة، ولست ممن يرى تصدير الأنظمة أو الثورات أو تصنيم الشخصيات، أو واحدية المذهب أو الحزب، اذ ما يصلح لاقليم قد لا يصلح لآخر، وما يوائم طائفة لا يوائم طائفة أخرى، وما ينجح في فترة تاريخية ليس بالضرورة مضمون النجاح في كل فترة، فكل شيء نسبي والثبات للنص المحكم والتشريع الرباني، انني أبحث عن الأفضل سواء كان عند من أحب أو عند من لا أحب، وهذا لا يعني التفكير في الخيار بين الحاكمية الاسلامية والدساتير الوضعية، اذ لا مجال للمفاضلة، فقضاء الله ورسوله لا خيرة فيهما، ولعبة المفاضلة ومأزق التصدير للمشاريع السياسية أضاعا على الأمة العربية فرصا ثمينة، وادخلاها في دوامة الصراع الكلامي والعسكري وعمقا الفرقة والارتياب، ولأن بعض القنوات الفضائية تعتمد على الدخول المادية فانها تستميت في كسب المشاهدين للظفر بالمعلنين، ومن ثم تغامر في اختراق المحذور وانتهاك المسكوت عنه، ظنا منها انه مجيء بما لم تستطعه الأوائل، وانتهاك المقدس والتجاوزات الأخلاقية والعرفية أصبحت لعبة غبية يتعشقها الاعلاميون والمبدعون والمواطئون على الخطيئة من النقاد، لكسب الشهرة والمال والدخول في دوائر الأضواء، ومن القنوات من ينفذ لعبة الغير ويبلغ رسالة الآخر: غباء أو تواطؤا، والعاملون والمنفذون للبرامج فيها كالدمى على مسرح العرائس، على ان ما تراه أي قناة سبقا اعلاميا يمكن توفيره في أي لحظة، فالممتلئون غيظا على أنظمة بلادهم يملؤون المنافي، ويود أحدهم لو يعمر ألف سنة، وهو واقف وراء ترسانته البلاغية، يتلاسن مع كل شيء، ويجرّم كل فعل، وينعى كل تصرف، ويقصف كل شاخص، والناقمون على الأنظمة الخليجية تتعدد خطاباتهم، وتتنوع اهتماماتهم، ولكنهم لا يملكون بديلا قائما، يراهنون عليه، ويغرون به، ويتحدثون من خلاله، وليس في التجارب المتناسخة في عالم الصخب الاعلامي المسكون بحب التكسير ما يبعث على الأمل، والتجارب الثورية ملأت النفوس اشمئزازا وارتيابا وخوفا، وليس من مصلحة الخليجي أن يركن إلى رؤى غير ممكنة، ولا أن يوفض إلى طوباويات حالمة، ولما كان الناس على دين اذاعاتهم كما يقول ابو فاشا، فان خطورة الاثارة لا تقف عند حد الامتناع والجذب والتسلية البريئة الوقتية، وانما تسهم في تشكيل وعي الأمة، وتصوغ الرأي العام بطريقة خاطئة وأسلوب بطيء، وقد تجرع الخليجيون مرارة ذلك في حرب تحرير الكويت، وما عدل الدهماء عن آرائهم حتى عاينوا العذاب، وتقطعت بهم الأسباب، والحاح بعض القنوات على الاثارة والتشكيك يترك أثره على المدى الطويل، ومن ثم لابد من الدفع بالتي هي أحسن للحيلولة دون تشكيل وعي مناقض يعرض الخليجيين لمثل ما واجهوه أثناء اجتياح الكويت من مظاهرات وتأييد للمعتدي الذي أفسد الأمن والاستقرار والرخاء، وشرد الملايين، وأضاع الثروات، ودمر خطط التنمية، وأعاق المشاريع الاقتصادية والصناعية والزراعية، وشرعن للوجود الأجنبي الذي يدعي مواجهته، وسوغ التدخل العسكري لحماية الأقل عددا وعدة، وزرع الذعر والخوف والشك، ونزع الثقة، ولم يحقق أدنى حد من الكسب، والشيء المؤلم ان الذين شايعوه من الضعفاء والمشردين تجرعوا مرارات لا تساغ، وتعرضوا لمزيد من التشرد والضياع، فقدوا المال والعمل، والذين يستعذبون النيل من بعض الأنظمة الخليجية هم الذين يأوون اليها وينعمون بثرائها، وهم الرابحون من أمنها واستقرارها، ويكفي أن نضرب المثل بالعمالة، ففي المملكة قرابة ستة ملايين مستفيد كل واحد يعول أسرة في بلده، ودعك من

المستثمرين وما جد من أنظمة اقتصادية تمثل الانفتاح والمشاركة، لقد أسقط في يدي وأنا في أحد المؤتمرات خارج المملكة أستمع إلى كلام مسف يفيض حقدا وضغينة من رجل تقطعت به الأسباب، حتى اذا فرغ من كلامه وانفض سامر المؤتمرين وبدأ حديث الممرات اللوبي أخذني بيدي وطلب مني التوسط لدى السلطات لمعالجة مشكلته التي اعتاد المسؤولون في المملكة معالجتها ماديا حين تدلهم الأمور، وحين أبديت استغرابي، قال بكل برودة: كلام جرايد يطير في الهواء، وكلامي أداء وظيفي لا يتجاوز التراقي، وعجبت من أمر النخب كيف تسوغ لنفسها توظيف امكانياتها لمقاومة الحق والتصدي للشرعية، انني أقبل الخطأ ابتداء، واحترمه اقتناعا ذاتيا، ولكنني أمقت السماسرة ومسوقي الامكانيات الفكرية والبلاغية.

قوانين التَّماس بين السياسة والإعلام .. ! (٢) [1]

وفي ضوء كل ما سبق، فان بعض الجدل الذي تتبناه تلك القناة وما يمكن أن يتبناه غيرها حول مشروعية الأنظمة، ومعقولية الفعل، بحاجة إلى تفكير جاد، يتوفر على عدد من المرتكزات التي من أهمها: الكفاءة الوطنية المستوعبة للعبة السياسية وقواعدها، والتفقه الشرعي والواقعي، والقضية الهامة الملحة، والأسلوب الحضاري الأمثل في المعالجة، والصدق مع النفس دون النظر إلى مجرد الترويح والتنفيس والتشفي، مع استصحاب القاعدة الشرعية درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، ولا يتأتى ذلك من المتخذين أنواطاً لمشاكلهم وفشلهم ولا من الصعلكة السياسية، ولا من المتسكعين في المنافي، ولا من المثاليين الذين يتخيلون في المساء ما يطالبون بتطبيقه في الصباح، وكأن الأوضاع والأناسي أحجار على رقعة الشطرنج، يمكن تحريكها بسهولة، إننا بحاجة إلى وعي شمولي يسبر أغوار الذات بما هي عليه: سلباً أو ايجاباً، قدرة أو عجزا، ووعي الآخر المؤثر على قراراتنا اجهاضا أو امضاء، ويمكن من التقدير الدقيق لكل الامكانيات والممكنات، والتوقيت الحاسم للحظة التنفيذ، وتفادي المغامرات والتجريب، وفهم الفرق بين التكتيك والاستراتيجية، وضرورة كل منهما، وما دمر الأمم إلا الذواقون والمغامرون والمثاليون المنكبون عن ذكر العواقب: و: الرأي قبل شجاعة الشجعان،، هو أول وهي المكان الثاني.

ومع كل هذه التحفظات على القناة وضيوفها وقضاياها ومفوهيها غير الخليجيين بوصف هذا الحديث مدخلا لما نريد الحديث عنه، فان في بعض إثارتها ومتابعاتها وبرامجها متعة وكثيرا من الفائدة، ومن ثم فلسنا وراء إسكاتها، ولا وراء تخوينها أو التقليل من شأنها أو حتى النيل من امكانياتها، وانما نحن وراء ترشيد مسارها والحد من تجاوزاتها، وان كان ثمة حاجة إلى النبش كما تفعل فالأجدى والأهدى توخي الأصلح للأمة في عاجل أمرها وآجله، واذا اختلفنا حول أمر من الأمور، فالأمل ألا تصل الحال إلى مفهوم: ان لم تكن معي فأنت ضدي، وكم نتمنى من أي جادة اعلامية على غرار جادة المعلومات كما يسميها آل جور حسن الاختيار للقضايا وللمعالجين لها والظرف المناسب، ومعقولية العرض، وأسلوب الحوار، وتفادي الإثارة التي لا تتحقق من ورائها أية جدوى، كما نود عدم التركيز على فئة أو طائفة أو كيان أو أناسي بأعيانهم لأن التنصيص تعيير وليس نصحا، ثم ان خطابا جريئا تصادميا كهذه الخطابات التي يتداولها البعض: أفرادا أو مؤسسات يتطلب أعماقا متعددة: جغرافية، وبشرية، واقتصادية، وعسكرية، ومعرفية، وذهنية مجتمعية ملائمة، وتكافئية توفر لمثل هذا الخطاب ولمثل هذه التطلعات الحماية والاستمرارية وامكانية الاسماع والاقناع، وتحمي الفئة الممولة من قمع يكسر العظم ويحرق الأرض، أو استسلام ومسايرة باهظتي الثمن، والشواهد أمامنا كثيرة، وكم من آمر لخصومه بشرب ماء البحر تحديا أغرق فيه، وكم من منتفخ يحكي صولة الأسد لاذ بالفرار كالقط، وحجم الخطاب يجب أن يكون بحجم القدرة والمكانة، وأن يكون تعبيرا عن السيرة العملية، مع شيء يسير من الاستشراف المستقبلي، وهذا ما لم يفكر فيه المتعشقون للتقليعات السياسية والاعلامية، والمغرمون بالتجريب والمبادرات الارتجالية والمنكافات الكلامية، والمزايدات الرخيصة فوتت على الأمة كثيرا من مصالحها، والمخالفة لمجرد الرغبة في الحضور فتت في عضد العاملين بصمت وروية، واذ يكون العالم متداخلا في مصالحه واستراتيجياته، فان التصدي يجب أن يكون بعيدا عن ايقاظ الخصوم وحفزهم

---

(١) تاريخ المقال: ١٩/ ٩/ ٢٠٠٠

على التماكر الذي لا يحسن الأكثرون انتفاخا وادعاء التصدي له، كما لا يقدرون على مواجهته، ومثل هذه الخطابات الهتكية الاستعدائية العدائية قد تشكل في النهاية كيانات ذهنية مغايرة لسياق الدولة، وفوق مستوى امكانياتها البشرية: كماً وكيفاً، الأمر الذي قد يؤدي في النهاية إلى خلل في الوحدة الفكرية ومسوغاً للمغامرة غير المحسوبة، وقد يؤول في عاجل الأمر أو آجله إلى التصادم بين طوائف الأمة.

وقد شهدت المنطقة العربية بعض هذه الافرازات التي أدخلتها في تناحر كلامي، بطأ في عمليات التنمية والاستقرار، وكم من زعيم صنع كيانات متضادة لحفظ التوازن، ثم ذهب ضحيتها، وكم فعل الاستعمار مثل ذلك، حيث صنع الأظافر والأنياب، ثم دفع الثمن الكبير في سبيل تقليم الأظافر وخلع الأنياب لحفظ التوازن والتمكن من السيطرة، والناقمون على الأنظمة والمؤسسات ممن تتخطفهم تلك القنوات ليسوا بالضرورة أحرارا ولا فدائيين، وقد يكون الأقل منهم كذلك في نياتهم، وقد يجمع بعض هذا الأقل بين الحق والصدق، ثم يتخلف عنه التقدير الدقيق والتوقيت المناسب، كما أن الموالين لتلك الكيانات ليسوا بالضرورة خونة ولا مرتزقة ولا عملاء كما يحكم البعض من الناقمين على أنظمة بلادهم، والعاقل الحصيف من يولي وجهه شطر النتائج والأوضاع القائمة، فهي الشواهد الدامغة والوثائق المنصفة، والذين يريدون التشفي من أنظمة بلادهم المحلية أو العربية لحاجة في نفوسهم، ينظر في مشروعية الغيظ الذي يملأ جوانحهم وفي جدوى هذا التشفي، والا ما قيمة التلاسن المسف في زمن الأوجاع والانكسارات العربية والفتن العمياء التي أوهنت العظم، وقضت على المثمنات؟ ومن الخطأ الاذعان لكل خطاب معارض وتمجيد ذويه، ان هناك مصالح ذاتية وهناك شركاء يختلفون حول قسمة الغنيمة فينشقون على أنفسهم، ثم ينفي بعضهم بعضا، ويتحول خطابهم إلى فتنة عمياء تفرق الكلمة وتذهب الريح وتعمق المأساة، وكم من معارضين لأنظمة بلادهم غرروا بالسذج وعرضوهم للمطاردة وفوتوا عليهم الفرص وحرموهم من حقوقهم، وفجأة وبدون أي مقدمات عاد المعارضون لما ينهون عنه كأحسن ما تكون العودة، والأنظمة هي الأنظمة، والأوضاع هي الأوضاع، ولما يعلنوا عن خطئهم ولما يبدوا ندمهم.

والسؤال الملح: ماذا يراد لهذه الأمة على يد نخبها واعلامها بعد أحداث موجعة قائمة أو غابرة، وهي ما تزال تنطوي على بؤر توتر تعايش فتنا دموية وضوائق اقتصادية اجتاحت بعض الدول العربية بتدبير أبنائها أو بسبب سوء تصرفهم أو بكيد أعدائها أو من ذلك؟، وأين نحن من لبنان والسودان والصومال والجزائر والكويت والعراق على المستوى العربي؟ وأين نحن من أفغانستان على المستوى الاسلامي؟ وأين نحن من فتن عمياء في كل مكان؟ وكلما حكمت طائفة بقوة السلاح جرمت أختها، وهذه الفتن التي تصفى فيها الأجساد والسمعة وتلك الضوائق سواء نشأت من الداخل أو دبرت من الخارج أو جاءت من الفعلين، دمرت الحياة، وأفسدت القيم وفوتت على الأمة فرصاً ثمينة لن تطرق بابها مرة ثانية، ونحن هنا لسنا بصدد تحديد الادانة أو تشخيص المدان، وانما كل همنا البحث عن السلامة واستعادة الصحة، لقد مللنا الترديات وواقع الأمة يتطلب التسامي فوق الخلافات الوهمية أو المفتعلة، لاقالة العثرة، ورأب الصدع، ولا حاجة لنا بعد اليوم بتجميع فلول الخطابات الثورية العنترية الغابرة، واعادة تلميعها عبر لقاءات ثنائية أو ثلاثية يتبادل فيها المتناكفون الصقف البلاغي المؤدي إلى اغارة الصدور واثارة الحزازات وخدمة الظلمة من الحكام وتبرير مقترفاتهم، والقنوات المثيرة تلتقط خيوط المشاكل لاذكائها، نرى مثل ذلك في ترتيب مريب يستضاف لأجله مفلس أو فاشل أو حاقد: علماني أو حداثي مستغرب أو منغلق، متطرف طائفي أو متعصب مذهبي، أو مستقطب حول الذات يختصر الأشياء في أفقه الضيق، أو مداهن متزلف يسوق امكانياته

في نخاسة دنيئة، ومن خلال هذه التركيبة اللونية السريانية المتنافرة نسمع من يضع حاكما ظالما مدمرا في مصاف الملائكة في حكمته وروويته ورؤيته وقوميته واسلاميته وديموقراطية حكمه ووصوله اليه بالانتخاب النزيه وعدم وجود معارض أو سجين، ونسمع آخرين يمحون ويثبتون، والقائمون على أمر هذه التوليفة يرتبون مداخلين أعدت مداخلاتهم سلفا ليعمقوا بقولهم المأساة ويؤزموا الأخلاق، يمارس هذا الفعل بلسان غير خليجي ممن لا يحمل همه ولا يراعي مصالحه، والخليجي الذي يرقب بحذر وخوف أوضاع أمته شب عن الطوق، وأدرك جوانب من اللعبة السياسية، ومع يقظته المكتسبة من الخبرة والواقع والمعايشة المرة كاد الخطاب الثوري ازلاقه ببلاغته، ولكن الله سلم، حتى لقد كان يمربه فيما بعد وكأنه لا يعنيه، وجيلنا التعيس وريث خطابات سحبانية، وسليل حروب مدمرة عاشها وتجرع مرارتها ورآها ماثلة بكل بشاعتها، ومن ثم فانه جيل يعي اللعبة بكل منطوياتها، وليس الخوف على هذا الجيل الذي كسب مناعات متعددة، وانما الخوف على ناشئة بريئة لم تر العذاب رأي العين، ولم تتجرع مرارات النكسات والاحباطات والخداع الاعلامي، وتلك التي يخاف عليها من التغرير، فهي مثالية تحسب الناس كلهم مثاليين، وكنا نتوقع بعد التجارب الموجعة اختفاء هذا الخطاب وانشاء خطاب آخر فيه عبق الصدق وأريج المودة ودفء الرفق.

وها هي بعض القنوات الفضائية تعيد إلى مسامعنا ذات الصوت من خلال تنفيذ لقاءات متنوعة، حادة النبرة أو مسفة العبارة أو باذخة الوعد عنترية الوعيد، ومع التتابع المتشابه علق بالذاكرة أكثر من لقاء، وأكثر من مقدم ومعد، ومرت بنا قضايا: دينية وسياسية وعسكرية وفكرية واجتماعية وأنماط دستورية وقانونية، وأوذينا من مغامرين ومثاليين ولاهثين وراء بريق الأضواء بارد الغنيمة، ومع كل ما نلاقيه من ايذاء فإننا نود أن تظل الأرضية المشتركة قائمة مع تحامي القطيعة، واللاعودة، وتحقيقا لهذه الرغبة لن نتعمد الاتهام الصريح للآخر، وان كان ثمة شك وأسف فانهما ناشئان من الجمع بين الخلي والشجي والفارغ والممتلىء، والمقيم الفاعل والظاعن الناقم، الأمر الذي حمل الأكثرين على تصنيف الممولين والمنفذين والفاعلين واتهامهم بما لا نود التفوه به وما لا نرجو ثبوته، ونحن في النهاية نبحث عن الحق، ولا نهتم بالانتصار ومطلبنا الحق على ألسنتنا وألسنة من نجادل، والمتابعون لهذه القناة ربما علق بذاكرة بعضهم أشياء كثيرة، ومما أذكره من بين تلك الإثارات التي تمسنا محليا المواجهة العنيفة إلى حد الازعاج بين الدكتور فهد العرابي الحراثي، والدكتور مجيد العلوي، ولقاءات مماثلة في اثارتها: مفردة وثنائية وثلاثية مع ساسة داخل السلطة أو خارجها، ومع مفكرين اسلاميين متناقضين أو علمانيين مندفعين، أو مع فقهاء مقلدين وحداثيين متمرسين، أو مع زعماء أقليات عرقية أو اقليمية أو طائفية أو مع حزبين أو مع جماعات ضاغطة، ولا اعتراض على شيء من ذلك لو كانت تلك اللقاءات متوخية تحرير القضايا مستشعرة السياقات والأنساق حريصة على تقديم الرأي والرؤية بأسلوب حضاري مهذب يبحث عن الحق ولا يكرس الرؤية وينفي ما سواها، فالأمة بحاجة إلى من يتعقب أحوالها، فليست أمة معصومة من الخطأ، وليست غنية عن تداول الرأي في قضاياها، وهمنا لا يقف عند اسكات الأصوات المخالفة لرؤيتنا وانما يمتد إلى ترشيدها والاستفادة منها، ويتحقق ذلك حين يكون اللقاء مع مجرب عركته السنون وشيبته المحن، وجاء ليعطي تجاربه وخبراته، وليست هذه اللقاءات المزعجة من الشوارد أو العوارض بحيث تحتمل، وانما هي هم الممولين والمعدين والمقدمين بحيث تأتي حلقة في سلسلة طويلة من اللقاءات الفاقعة اللون الصاخبة الصوت المريبة الأهداف، وهذا الأسلوب الاعلامي المستفز ما أن ينطفىء في موقع حتى يشتعل

في موقع آخر، يكون حربا باردة، وقد يجر إلى حرب ساخنة وقودها الناس ومثمناتهم، والأمة على كل مستوياتها الخليجية والعربية في وضع لا يحتمل مزيدا من الأوجاع.

وهل أحد يجهل حربي الخليج الأولى والثانية وما أتت عليه من أنفس وأموال وما أحدثته من أوضاع سياسية واقتصادية وعسكرية لا تحتمل؟ وهل أحد يجهل ويلات حرب الحدود الدموية المدمرة بين أريتريا والصومال، والحروب الطائفية كما في السودان ولبنان، والحروب العرقية بين الأقليات الكردية والدول التي ينتمون اليها؟ وفي كل حرب تتجذر العداوة والبغضاء، ويعصف بنا الشك والارتياب والخوف من بعضنا، ثم لا نجد بداً من الاحتماء بعدونا الذي ضخم المشاكل وأزم الخلافات وغذى قضايا التنازع، لكي يمارس فك الاشتباك على أضيق نطاق، مبقيا على بؤر التوتر، مشرعا وجوده وهيمنته ملوحا بالديمقراطية وحقوق الانسان مع حرصه التام على تكريس الفهم الخاطىء لهما والإبقاء على القول دون العمل، وهل تتسع حضارة للعدالة والمساواة والحرية اتساع الحضارة الاسلامية؟

والمؤلم ان هذه القنوات لا تحاول ببرامجها المشاكسة أو المعاكسة أن ترأب الصدع، ولا أن تخفف من وطأة الانكسار، ولا أن تتقي إثارة الفتن، كما انها لا تحاول التوجيه الحكيم والمشورة الناصحة لتجاوز هذه الأوضاع ورسم الخطط المرحلية لتخطي نتائج الحروب المدمرة، لقد تابعنا لقاءات كثيرة لعل آخرها ما يدور حول انتقال السلطة في سوريا، ومستقبل الأوضاع بعد رحيل رئيسها، وهي البلد المتحامل على نفسه لتطويل فترة الصمود، وهذه الأخلاقية تحتاج إلى المساندة والمساعدة لاجتياز عقابيلها الكثيرة، وبخاصة ما يتعلق بمباحثات السلام مع العدو الاسرائيلي المراوغ والمدعوم، لقد أرتبنا من نبش الطائفية والوراثة والتعديل الدستوري، وكأن الأمة لا يستقيم أمرها الا بتفجير هذه المشاكل وتلك القضايا، وأين الأخوة في القناة من ظواهر الهرولة وخلخلة التماسك وتمكين العدو من الاختراق والالتفاف عبر مصالحات ومصافحات ولقاءات، في حين تظل المملكة الأكثر تماسكا والأكثر رفضا للاختراق والأسخى في الدعم، ويكفي ان نضرب المثل برفض الأمير عبد الله لمصافحة باراك والتي أشادت بها صحيفة عرفت بالعداء للمملكة.

والقناة الضجة ذكية في انتقاء القضايا والأشخاص والتوقيت المناسب وتدبير المداخلات وأسلوب التداول، وعند استكناه أطراف الحوارات الأحادية والثنائية نجد أنها تثير ردود فعل متباينة، لما تتسم به من مناكفات هجائية وتباين حاد في وجهات النظر واختلاف متناقض في المرجعيات، وعلى الوتيرة نفسها عولجت قضايا خليجية بألسنة غير خليجية دارت حول أنماط الحكم في الخليج، وأنظمة المؤسسات التشريعية والتنفيذية والشورية فيه، ومدى جديتها وجدواها ومشروعيتها، في ظل تشكلها على هيئات مختلفة وبطرق تشكيلية متعددة، والقناة تستميت في سبيل إسقاط أي قيمة حضارية لهذه المؤسسات، وزرع مفهوم الشكلية في ذهنية الآخر، وهذا لا يمس المؤسسة وحدها وانما يطال أهلية المواطن، لأنه في النهاية يكون في نظر المداولين والمعدين والمقدمين غير الخليجيين خروفا خليجيا لا انسانا عربيا، ولو اعتمدت القناة إلى أبناء الخليج لهانت المصيبة، اذ كل تجاوز منهم يمسهم بوصفهم خليجيين، وخطاب انفعالي كخطاب الساعين وراء تهييج الأمة وتصعيد خلافاتها مع السلطة يعد اجترارا لعنتريات الستينات والسبعينات التي كنا نتوقع أنها ولت مع أحمد سعيد ومن قبله يونس بحري، لكن البعض من أولئك استيقظ للتو كأهل الكهف مرسلا ورقه إلى المدينة، لقد كشف خطاب بعض القنوات وبعض الصحف الفضائحية وبعض الزعماء المتقمصين لشخصيات تاريخية عن انسان لم يكن حاضرا اللعبة السياسية ولا مستوعبا لإمكانيات الفعل وفق ظروف المرحلة،

وتلك مصيبة الذين يفوتهم الركب فيبدؤون من حيث ابتدأ الناس لا من حيث انتهوا، وما كنت من قبل وأنا أتابع اللقاء الضجة بين الحارثي والعلوي أحسب أننا بحاجة إلى أن نقبل وضع أنفسنا طائعين مختارين في قفص الاتهام، نتعاطى خطابية الدفاع أمام فرد ناقم، وليس أمام أمة مخلصة، ولا أمام فرد ناصح، وكأننا بهذه الاستسلامية مدانون أمام الرأي العام العالمي، وما كنت أحسب أن أنماط سلوكنا السياسي مثير للشفقة بهذا القدر، وكنت أود تفهم ما يجب أن يكون قبل اجراء مواجهات كتلك، لا تمتلك واحدية المرجعية، ولا وحدة الهم، ولا تناغم الهاجس، ولا تماثل المتحاورين، فالحارثي رجل دولة يعي واقعه ومهمته وامكانياته وله مرجعيته الاسلامية ومشروعية النظام الذي يجادل عنه، والعلوي متسكع في المنافي، وليس ما يمنع من مثل هذه المواجهة لو أن العلوي قدم رؤيته، ولم يوغل في تهديم المشاريع القائمة والفاعلة، فالعقلاء الناصحون يثمنون الرؤية المساعدة والرديفة، أما التشبع والتجشؤ من فراغ والفوقية والحركة الطاووسية فغثائيات مللنا منها، ولما نجن من ورائها الا خيبات الأمل، فمثل هذه المواجهات قد تأخذ مشروعيتها على أضيق نطاق على غرار حوار الحضارات الممكن في تصالحها وتلاقحها أو تعاذرها على الأقل، والباخع النفس على آثار هؤلاء الناقمين الدكتور الحارثي دخل الحلبة بحضارته الاسلامية وبأنماط حكم له مشروعيته ومرجعيته وتجاربه وعمقه التاريخي، والعلوي الخلي دخلها بتعلقه الاستغرابي وبمعارضته المبرجمة من الأساس على الوقيعة وشهوة الإلغاء لا على الإصلاح أو المصالحة، الحارثي دخل بتجربة سياسية قائمة فاعلة، والعلوي دخل بآمال وتطلعات وأحلام ونظريات هلامية مجتها الأسماع وأتيحت لبعضها فرص التجريب فلم تحقق الا التخريب، ولم يكن الجدل حول قيمة المشاريع السياسية ونتائجها بمعزل عن انتمائها وإقليميتها ومرحلتها التأصيلية أو الانتقالية وسياقها العربي، لقد جاءت السجالات خلطا بين قيمة المشروع بوصفه نظرية، وقيمة المشروع التطبيقي ومشروعية وجود القائمين عليه، وهذا الخلط عمق الهوة بين المتحاورين، وأنهى اللقاء دون نقاط اتفاق أو افتراق، وفات العلوي بصفته الأنموذجية لا الفردية أهمية التفريق بين من يمتلك ضوابط لمشروعه السياسي، ومن يعيش على الصدف والمغامرات والتقليعات، لقدجاء العلوي عارضا رمحه، متصورا ان خطابه الرفضي التشهيري الاتهامي لبعض الأنظمة العربية مفاجأة العصر، بحيث توقع انه تيار سيجرف ما أمامه، وأن الناس سيهتفون لبطولاته، وفات المسكين اننا مررنا ومر بنا مئات المهرجين وعبروا الساحة دون أن يتلفت لهم أحد ممن يعول عليه وممن يملك التأثير، ولو كان العلوي وحده لقلنا عارض غير ممطر، ولكننا في كل يوم نفاجأ بلعوي آخر يعيد ذات الخطاب ويثير عين التساؤل ويرسم الحل نفسه، والقناة بأزلامها من غير الخليجيين تقتنص الخطابات الأكثر لمزاً وهمزاً للتركيبة الخليجية، وأين هي الآن من الحدث التاريخي الذي أدخل البهجة والطمأنينة إلى كل بيت سعودي ويمني وكويتي على حد سواء بعد تسوية الحدود بأسلوب حضاري؟ في وقت فشلت فيه عشرات الأنظمة من تسوية أهون المشاكل، وفي وقت تفانت فيه الشعوب المتجاورة وخاضت حروبا مدمرة خلفت الويلات لكل الأطراف، وأين هي من المبادرات الايجابية في قطاع الاقتصاد والتحول المؤسساتي للحكم واستقبال العولمة بأرضية ملائمة متفادية لأي خسارة؟ وأين هي من رفض اللقاء والمصافحة لرموز العدو فضلا عن الهرولة والتطبيع؟ وأين هي من فعاليات بودابست والبوسنة والهرسك وخطاب الأمير عبد الله في الأمم المتحدة وتبرع المملكة السخي لمجلس الوقاية؟ وأين هي من سلسلة مبادرات شريفة، وأين هي من انجازات عربية مماثلة حققها زعماء عرب صرف النظر عنهم؟ كان يجب أن تسلط الأضواء عليها، لتكون بلسما للمجروجين وأملا للمتشائمين، وبرهانا على أن الخيرية باقية، ومن وجهة أخرى يحس المتابع أنه امام

مصداقية اعلامية، وليس أمام حقد دفين ومكيدة جبانة، والقناة بفعلها الغبي تقوض ما يحرص الخليجيون على اتمام بنائه، ولن تبلغ المشاريع الخليجية المشتركة تمامها اذا كان من بين الخليجيين من يستقطب الكفاءات البلاغية ويستعذب الهدم، ومما يبعث على الشك والارتياب تغذية الشائعات، أو تداول الطلقات الفارغة في اللحظة الحاسمة، ففي ذروة الجدل حول القدس والتفاف الأمة العربية دوى خطاب الرئيس العراقي الاتهامي التهديدي، وسربت معه ومن أطراف أخرى اشاعة التدبير لاغتيال بن لادن من رجل دولة سعودي، بحيث انشغل الرأي العام بالافتعال والانفعال عن الفعل، وهكذا تصرف الأنظار عن القضية المصيرية ويعتم على اللحظات الحاسمة، وسواء جاء هذا من مكيدة أو غباء فنحن لا نقطع بالتواطؤ وإن كان من حقنا ذلك.

قوانين التَّماس بين السياسة والإعلام .. ! (٣) [(١)]

والحديث عن أي لقاء مثير يجرنا إلى الحديث عن جدوى مثل هذه اللقاءات، إذ لسنا بصدد (العلوي) وحده، وليست القناة الضجة وحدها التي تبعث على الاستياء والريبة، وليست سيئة على الإطلاق، فكم في مشهدنا الإعلامي من قنوات وصحف، تزيف الوعي، وتهدم القيم، وتفسد الأخلاق، يموّلها من أنعم الله عليه بالثراء أو بالسلطان، كما أننا لسنا بصدد الدفاع عن أي كيان لا يواكب الحق، وحين نقول ما نعتقد أنه الحق لانبرىء أحداً ولانزكيه امتثالا لقول الحق: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ [يوسف: ٥٣] وقوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢]، ولو لا ان (العلوي) بخطبه الاستعدائي التحريضي يشكل ظاهرة مؤذية وضارة ومتكررة لما ضربناه مثلا ونسينا ما دونه، وحين نجتذبه بعينه، فإنما نحن بصدد نمط إعلامي تتلاحق حلقاته بتشابه يصل حد المطابقة كبقرة بني إسرائيل، ومما يعمق الإشمئزاز أنك تعرف هؤلاء من لحن القول، وما تخفي صدورهم أكبر، وبدو صفحة الخطيئة السياسية أو الأخلاقية وعدم التواري يؤذي حتى غير المعنيين، والمجربون يعلمون يقينا أن لهم أعداء وحسادا وكما قيل: لا يخلو جسد من حسد، واليد واللسان يظهرانه أو يكتمانه، وما نقوله لا نريد به استلال الضغائن، وإنما نريد منه كف الأذى، ولا يعنينا بعد ذلك أن ترم نفوس أولئك على فساد حتى تريها أو تصفو من الضغن، والمشهد الثقافي والسياسي يفيضان بالمرتجلين والمتسرعين وجهلة الأحوال وجهلة الذوات، والعدو العاقل أفضل من الصديق الجاهل، وتصوروا كيف تكون الحال حين يجمع الإنسان بين العداوة والجهل، ولست أعني بالجهل المتعارف عليه والمتبادر إلى الذهن، فالذين يوغلون في الخطيئة ذوو مؤهلات عالمية، وفي الحديث: «**إنما دواء العي السؤال**» وكان على أولئك أن يطلعوا ويعرفوا قبل أن يحكموا أو يفتوا، وآفة الأخسرين أعملا من يعتمدون على الشائعات ويقرؤون عن الأشياء ولا يقرؤونها، والمتخللون بألسنتهم من هذه النوعية يأخذون المقيم بالظاعن، والشرعي بالمتسلط، ولأن وضع الأمة لا يحتمل المزيد من الأوجاع فإنه من غير المقبول أن تجرى سجالات سياسية أو دستورية أو تشريعية بين متناقضين في مرجعياتهم وأهوائهم وصفاتهم، وحاجة المشتغلين في شؤون الغير تقوم على تفهم الظروف والملابسات والعوائد قبل الزج بالمثمنات الشخصية أو الأممية، وقد شهدنا عبر الملاحاة الإعلامية مهازل وجنحا لا تليق بالأطراف المتداولة، لأنها سجالات تتسم باللجاجة، تبحث عن الإدانة، ولا تريد إحقاق الحق، ولهذا تراها تدار بين جادين يحترمون أنفسهم ومستمعهم وفضوليين و هازلين لا يحترمون المصداقية ولا يضعون ادنى حد من القيمة لمشاعر المتلقي الذي يعرف الحقيقة، ويتأذى من طمسها، والحوار لكي يكون متكافئا ومجديا، لابد أن ينطلق من ارضية مشتركة، ولو على أضيق نطاق، ويبوء إلى مرجعية متجانسة عند الطرفين، أو على الأقل يكون بين مشروعين قائمين في سياق مجتمعي متجانس، لكل واحد ممثله وممارسه، بحيث يقدم كل واحد نتائج مشروعة بوصفها شواهد إثبات، ومن الخطأ ان يضع البريء نفسه موضع المتهم، ثم يجتهد في نفي التهم التي لم تتجاوز مرحلة الادعاء، ولاسيما إذا كان الاتهام ممن لا يؤبه به ولا تقوم الحجة بغلطة، إن إتاحة الفرصة لمثل هذه النوعية تعطيها بعداً إعلاميا لا يمكن أن تظفر به إلا بهذا التمكين من صاحب الشأن، وقد يضطر البريء والحالة تلك إلى استعراض نتائج مشروعه امام مسائل مفلس لا يقدم ولا

---

(١) تاريخ المقال: ٢٦/ ٩/ ٢٠٠٠

يؤخر، ولا يضر ولا ينفع، ولأنه لايملك ما يخشى عليه ولا ما يدافع عنه فإنه يقتصر على تناسل الاتهامات واجترار الشائعات متخذا التجريم والإسقاط دأبه وديدنه، دون أن يركن إلى التقويم بشقيه: التعديلي، أو التثميني، ولكي تتكافأ الفرص يجب ان يكون الحوار بين متماثلين بمستوى المسؤولية على الاقل، أو بين مسؤول ومتابع حصيف يزن الامور ويقدر الاقدار، وهذا ما لم يكن في كثير من الحوارت، نحن دائماً نرى شخصاً في السلطة وآخر ناقم عيها، وهذا الآخرُ لن يفقد شيئاً عند الهزيمة، لأنه لا يملك شيئاً، والطرف المسؤول على رأس العمل في مشروع رضي ان يطرحه للتداول مع من لا يستحق ان يداول، فأي قضية مشتركة بين خلي تنفخ أوداجه تطلعات الممول وشجي غارق في المسؤولية؟، وقد يكون التلاحي بين ناقم ومداهن ليسا على شيء من الأهلية، والمادح الكاذب كالقادح الحاقد كلاهما يسيء أكثر مما يفيد، وما أضر بمصالح الشعوب إلا الذين أمرنا رسول الله ﷺ بحثو التراب في وجوههم.

والمادح والقادح والمثالي غير المجرب يجنون على أمتهم مثلما جنت براقش على أهلها، ومن المفارقات العجيبة أن تكون بعض الحوارات مع مثالي لم يجرب أو موظف لقدرته البلاغية وآخر عركته التجارب وأقامت أوده المحن وشيبته المغالبات، وحق المتلقي أن تراعى مشاعره ومصالحه في آن، فهو الذي أنفق المال والوقت واستقبل هذا الفيض الإعلامي الذي ينعكس سلباً أو إيجاباً على أشيائه، ثم إن الإعلام الذي يحترم المصداقية لايبتسر الأشياء من سياقها ولا يوازن بين الشيء ونقيضه ولا يهدر وقته في حفريات يعرف سلفاً انها لا تنطوي على شيء، والدول ذات التجارب المتواصلة والعمق التاريخي والبعد الديني والاقتصادي يجب ان تحترم مبادراتها، وأن تناقش للتصحيح لا للإلغاء والسخرية، ثم انه ليس من العدل محاسبة اي نظام خارج سياقاته المتعددة وانساقه المتناظرة.

لقد كانت تجربة الدولة الشورية المتساوقة مع امتثالها للحاكمية الإسلامية مثار تساؤل لامن حيث تكوينها ولا من حيث عملها الإجرائي، وهي بكل ملابساتها تشكل نشزاً في السياق السياسي العالمي، ولكنه نشز مشروع فرضه الانسياق العالمي وراء المستجدات دون مراعاة للخصوصية الحضارية، وإشكالية (العلوي) أنه لاينقم على الشورى في المملكة لخلل في وضعها التطبيقي، وإنما ينقم عليها لانها تأتي في سياق إسلامي لا يراه، وعبر كيان سياسي يود لو يزلقه ببصره، ثم هو لا يرى اجرائياتها ك(الاختيار)، إذ لم يأت باحثاً عن معقولية الصيغة والممارسة، وإنما جاء نافياً لكلتيهما مستبدلاً رؤيته البشرية بالرؤية الشرعية، وتلك معضلة كنت أود التنبه لها في مثل هذه اللقاءات، إن أخطر لقاء ما يكون بين متجادلين لكل واحد انتماؤه الحضاري وليس الحزبي أو السياسي أو الاقليمي.

ولو كان العلوي على سبيل المثال يرى الحاكمية الإسلامية، وينتقد تطبيقها في المملكة، لكان من الممكن قبول الحوار معه للاستفادة من آرائه بوصفه راصداً محايداً، فأنا أعتقد أن أي دولة سوية بأمس الحاجة إلى مرايا تجسد ذاتها وتبرز عيوبها، فما من عاقل مجرب يدعي العصمة والسلامة واكتمال الذات، والأمة السوية بحاجة إلى أن تقف على رأي الآخر الناصح، إذ ليست على يقين من مثاليتها التطبيقية، وليست فوق المساءلة والنقد، ولكن مَن النقاد؟ ومن المسائل؟ وكم هو الفرق بين النصيحة والفضيحة، وبين حب الخير ونشدان الوقيعة، وبين التدخل في شؤون الغير وموضعته، بحيث يقرأ من خلال منجزه لامن خلال ذاته المرفوضة المستهجنة دون مساءلة، والدولة القوية التي تملك مشروعية البقاء تسعى إلى الافضل متيحة الفرصة للرأي والرأي الآخر في اطار من الضوابط، ومن ثم لا تخشى النقد التوجيهي، ولا يتحقق لها البقاء الشريف إلا بسماع النقد

التقويمي لا التقويضي، وهذا ما يجب ان تستمر عليه الدولة وتستمرئه، ولن تحقق الدولة اي دولة نتائج افضل في ظل الإعجاب بالذات وكره الناصحين، ومن مصلحتنا خليجيين أو عرباً أو مسلمين أن نفتح النوافذ دون أن نسمح للرياح الهوج باقتلاعنا، ومثل ذلك مؤشر الثقة بالنفس، والدولة المؤسساتية لا يتجه النقد فيها بالضرورة إلى رأس السلطة، وليس بضائر قمة الهرم حسيس المباضع في جوانبه، وما يقوله الإعلام المحلي من نقد عنيف للمؤسسات التنفيذية ورؤوسها المديرة قد لا يقوله الناقمون، ولكن الفرق بين الطائفتين واضح، فالناقم يسعى للإلغاء، والناقد يهتم بالإصلاح، على انه من حق الدولة الشرعية مع كل هذا ان ترفض النقد التجريحي الساعي للإسقاط لا للتقويم، ولو كان الناقمون والمعارضون اذكياء مخلصين، لكان الأجدى لهم أن يقدموا بين يدي حديثهم رغبة الإصلاح لا مهمة الإلغاء، والنخب السوية تود لو وجدت من الآخر محاوراً يمتلك ناصية الحق، بحيث يتداول الآراء مع الأطراف المعنية بأسلوب حضاري، وكم يود المخلصون تطوع الكفاءات الفكرية والسياسية وأخذ مشاريع الدولة بالدرس والتقويم، ومثلما يسعد الصحابة رضوان الله عليهم بالأعرابي يفد على المدينة ثم يطرح أسئلته بعفوية وفطرية على رسول الله ﷺ تكون سعادة المواطن بالمفكر يسلط الضوء على مثمنات الأمة ويهديها سواء السبيل.

وإذا كنا على خير كثير في أمورنا الخاصة والعامة، والكثير من تجاربنا متناغمة مع همومنا مستجيبة لحاجاتنا، متساوقة مع إمكانياتنا، فإن هذا لا يجعلنا أغنياء عن الآراء والنصائح، كما لا يخولنا من التباهي، ولا يبيح لنا غمط الحق، ولا يحملنا على التفكير في تصدير النظام، على غرار تصدير الثورات التي اضاعت المثمنات، وصعدت العداوات، وفتحت الثغرات للعدو الحقيقي، ومنحته مشروعية الوجود والتدبير والتحكم، وعرضت الكيانات القوية إلى انهيارات موجعة تجرعت ويلاتها شعوب مغيبة، كما لا يحملنا رضانا بما نحن فيه على أن نتأفف من النقد التقويمي ولا أن نستغني عن تجارب الآخرين وخبراتهم، الإنسان العربي الناصح لأمته يبحث عن إصلاح القائم، ولم يعد ساذجاً غوغائياً يبحث عن شيطان أكبر يتمثل في السلطة أو في الدولة الأقوى، فيظل معها في نزاع متواصل وخوف وترقب، يكتم نصحه ويبدي تذمره، ثم تضيع في أثناء ذلك المصلحة وتنعدم الثقة، لقد مل الجيل التعيس من الثورات باسم الديموقراطية، وملَّها باسم التصحيح، ومل تصديرها عبر الترسانات البلاغية، والتدخلات الدنيئة، والوقيعة المشينة، وما من ثائر حين أنقذ أمته من براثن سلفه كما يدعي سلم السلطة للشعب، إلا (سوار الذهب)، وما أحد ذكره بخير، لأنه مثل التحدي لسائر الثورات، والإنسان العربي الذي عاش فواجع الثورات، مل التدخلات العسكرية باسم الإنقاذ أو التصحيح وحراسة الذات الحاكمة بدل حراسة الأمة، ومل التلاسن والإدعاء، ومل فتح الملفات الوهمية وإثارة القضايا الحدودية والطائفية والحضارية لإشغال المواطن وشحنه بالخوف والتوتر والترقب وتأصيل الفرقة، مل الإرهاب والتطرف والتسييس الثوري للإسلام والتعصب وتصنيم الاشخاص، ولم يعد واثقا بالمشاريع السياسية ولا بالوعود الباذخة ولا بالحركات المتعددة، وإن كان ثمة حاجة إلى التلاسن لإصلاح ما أفسده الدهر، فيجب قبل الملاحاة أن يحدد كل إنسان هويته وقواعد لعبته وشروط مشروعه، فإما ان يكون إسلاميا يرد أمره إلى الله والرسول أو علمانيا يستفتي مؤسسات الغرب، أو ثوريا يفسد ما أصلحه السلف، أو ما شئت من هذه المصطلحات، وحين لا تتحدد الهوية لا يستقيم الجدل، لقد أمعن العالم العربي في الفرقة والمفارقة بمباركة من المستفيدين من التناحر، بحيث تعذر اللقاء حول اي مشروع معدل، يقرب من وجهات النظر، حتى مؤتمرات القمة لم يوفر لها اقل مساحة مشتركة لإمكان تداول الرأي من خلالها حول القضايا المصيرية، وما بقي في ظل هذه

المفارقات إلا التعاذر، وكف الأذى، والارتداد إلى الداخل، والاشتغال بعيوب الذات عن عيوب الغير، والغريب أن كل دولة تنفي اعتراضها على عقد القمة، وكان يجب ان يكون الاعتراض مشروعا متى قامت دواعيه، وأن يتحمل المسؤول عنها ما يترتب من تبعات، ومن حق المعترضين أن يبدوا حيثيات اعتراضهم، إذ هناك أعلام يتعمد تفريق الكلمة وإيغار الصدور، ويكفي أن نضرب المثل بما ارتكبته قناة الجزيرة من اتهام الكويت بإيذاء الجاليات العربية مما حمل البعض على اقامة دعوة قضائية، وهناك زعماء يفسدون ولا يصلحون ويعمقون الشك والارتياب وينشئون بفعلهم الحاجة إلى الغير لكف أذاهم، وليس من مصلحة الأمة أن يكونوا دعاة وحدة أو عقد مؤتمرات، لانهم بفعلهم أضاعوا الفرص ودمروا بلادهم وبحواراتهم سفهوا الأحلام، ويكفي أن نتذكر ما دار بين الامين العام لجامعة الدول العربية ووزير خارجية العراق، وهل احد من الزعماء الذين يحترمون انفسهم من يرضى بوضع نفسه موضعا لا يليق بها؟ والفاشلون على كل المستويات يرفعون شعار: (عليَّ وعلى أعدائي)، ومن ثم لم يتركوا أرضية مشتركة يتحقق من خلالها أدنى حد من الوفاق، وقبول القمة أو رفضها ليس مؤشرا للتقويم، فالحالتان تحدد مشروعيتهما الأوضاع، والمسؤولية على من افسد الأجواء، وما أكثرهم، وحتى لو كان من مصلحة إسرائيل أو امريكا تعويق القمة فإن قيامها في ظروف غير مناسبة يعمق اليأس والإحباط، والتدافع العاطفي وخداع الشارع السياسي والتغرير بالرأي العام غير مجد في زمن استفحلت فيه الغثائية، والأكثرون من الساسة ينطبق بحقهم المثل القائل: (الصيف ضيعت اللبن)، إن خلا متعدد المصادر يتنامى بشكل مخيف ومن أخطره الخلل الفكري، والتعارض الاستراتيجي، وتلاحق الفشل، والتعدد الانتمائي المؤدي إلى تعارض المصالح، كل ذلك عرض جدل النخب إلى الفشل الذريع، فالعلماني يجادل بهاجس العلمانية، ثم يقول لامزايدة على الإسلام، والإسلامي ينطلق من قواعد مختلفة ومذاهب متعددة، والمخلص المؤمن بمبدأ التعاذر خائف يترقب، وكأنه وافد من خارج التاريخ، وما عجبت من شيء عجبي من مرافعات تمت بين (محمد عماره) و (نصر حامد أبو زيد) عبر تلك القناة، نفى فيها أبو زيد مقترفاته وانحرافاته، واعتبر خطابه إسلاميا، يحترم العقل، ويحقق حرية الفكر، ولا يخرج عن المعقول والمقبول، وهو أبعد ما يكون عن الإسلام، بل هو خطاب يتصدى لثوابت الإسلام، ومثله المدافعون عن الحق في طباعة رواية (وليمة لأعشاب البحر) بحجة أنها لا يمكن أن تدان إسلاميا، وهي مدانة إسلاميا وحزبيا وثوريا.

إنها تدنيس قذر للثورة الجزائرية وللكفاح العربي واستخدام دنيء للانشقاقات الحزبية، ومواجهة مفتي جبل لبنان مع (ممدوح عدوان) عبر هذه القناة مهزلة مضحكة مبكية، فكلا المتجادلين لم يتقنا اسلوب الحوار، ولم يستوعبا متطلباته المعرفية، والغيرة الدينية وتمعر الوجوه غضبا لله غير مخولين ولا كافيين للدخول في جدل معرفي وفني، والرواية لا تحاكم فقط من خلال النصوص التي يدعي المدافعون ابتسارها، وإنما ينظر إلى الهمم والمآل والمقاصد والنوايا والرؤية الحضارية والأخلاقية والاستعانة بكل الأنساق، وهو ما لم يأخذ به المنفعلون، لقد تعمد الروائي تدنيس حرب التحرير الجزائرية، واتخذ الدعارة والنفعية سبيلاً لذلك، وضرب المقدس وسخر بالمعصوم الذي خلقه القرآن، وهكذا نكون أمام خلط فكري مثير لا هو إسلامي ولا علماني، والأمة الخيرة من تعي الواقع وامكانيات الذات، فلاتعرض نفسها للتهلكة، ومن مصلحة الأمة الا يُصاب أفرادها بجنون العظمة بحيث تصدر للآخر مشروعاً لم يحقق أدنى حد من النجاح في بلد المنشأ، أو تشيع الاتهام بسرقة النظرية، أو تدعي ملكية المريخ، ومن الخير لكل دولة أن

تتوخى من الأقارب والأباعد تبادل الاستراتيجية التسامحية التصالحية الوقائية، واتخاذ سياسة الدفع بالتي هي أحسن والأخذ بمبدأ: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ [آل عمران: ٢٨] .

والأمة العربية بوضعها الحالي غير قادرة على المواجهة، وليس من مصلحتها الاستسلام والهرولة، وعليها أن تبتغي بين ذلك سبيلا، ودول الخليج تتوخى ذلك السبيل، وأحسب أن المملكة هي الأميز في ذلك، ومع كل ما حققته من وسطيتها ومعقوليتها وكفها عن الإيذاء والتدخل في شؤون الغير، فإنها تتعرض للإيذاء وتضيق ذرعاً ممن يتدخل في أدق تفاصيل حياتها، ويجعلها مثلاً للتخلف والتصحر الجغرافي والفكري ثم تضرب الامثال بتحفظها الوقائي على قيادة المرأة للسيارة، وتحاميها الاختلاط في التعليم والعمل، مع أنها لم تتردد في التوقيع على اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة، وأن تحفظت على ما يخالف المقتضى الإسلامي وهذا من حقها، مع أنه لم ينظر أحد من أولئك الساخرين ما نال المرأة من عبودية وإذلال حين خرج بها المفسدون عن منهج الله، وهناك دول غربية مالت إلى التفريق في التعليم بعدما تجرعت مرارات الاختلاط والخلوة، ومثل هذا التقحم الفضولي على خصوصياتها جيعلها غنيمة سهلة يشاركها الفضولي كل شيء، ولأنّ هذا الفضولي لا يملك مثمنات، فإنه ينيلك منه ما تريد، لينال منك ما يريد وما لا تريد، من الوصايا: (لا تتحدى إنساناً ليس لديه شيء يخسره) وقد وصف الشاعر هذه النوعية بقوله:

ينيلك منه عرضاً لم يصنه
ويرتع منك في عرض مصون

على أن رضى الدولة السوية بما هي عليه لا يدفعها إلى المكابرة، وإنما يحملها على المزيد من المراجعة وسماع الرأي الآخر، فالكيان السياسي والإداري والأسري خليجياً أو غير خليجي في النهاية مجموعة من البشر، وهم بحاجة إلى النظر المستمر في كل الأمور والمسؤول العاقل السوي لا يخاف من النقد، ولا يضيق من توجيه النصيحة، ولا ينكر وجود الساخط والمعارض، ولا يبرئ السوي العاقل نفسه من النقص والتقصير، والرسول ﷺ طلب المشورة، وأبو بكر رضي الله عنه ترحم على مهدي العيوب، وعمر نفى الخيرية عن نفسه وعن الناس حين لا تقال كلمة الحق أو حين لا يقبلها، والدولة الشرعية لا تمل من التعديل والتبديل، ولكل دولة خياراتها، وهي خيارات لها وعليها، وقد لا تكون الأمثل، وقد لا تكون من الأولويات، ولكن فرضتها ظروف العصر التي حولت العالم إلى قرية صغيرة، وقد تمنى الدولة بفشل واحد أو أكثر في مبادراتها، ولكن هذا لا ينال من إخلاصها، ولا يفت في عضدها، ولا يمنح الآخر حق إلغائها كمشروع سياسي وإحلال مشروع آخر، إن الدولة بمبادراتها تعي دورها، وتحسب لتحولاتها كل حساب، متفادية التجريب والارتجال واللعب بعواطف الغوغاء، هذه المبادرات دليل على انها بحاجة إلى مراجعة أمورها وسماع الصوت الآخر، والدولة السوية لا تدعي (نهاية التاريخ) كما كان يتصور البعض ويحلم، وإنما ترى أن كل شيء ممكن، وأن العالم في سباق محموم في كل المضامير، وهي جزء من هذا العالم، ومن واجبها ألا تنفصل عن سياقه، ولا أن تدابره وتعاديه فالمصالح مشتركة:

الناس للناس من بدو وحاضرة
بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

قوانين التّماس بين السياسة والإعلام .. ! (٤) [(١)]

والشورى و الاختيار و قضايا المرأة و الحرية وسائر الأنظمة والمجالس العليا: للاقتصاد والتعليم والإعلام والبترول وغيرها، مفردات إجرائية في سياق الأساليب المجانسة لها والمتآخية معها، ضمن منظومة واحدة وسياق إسلامي غير مبعض، و الديموقراطية و الانتخاب و البرلمان هي الأخرى مفردات ذوات سياقات مغايرة، ولما تزل حلم المغرمين بها، دون استعداد أو قابلية، ولكل نظام رضيه أهله مفرداته التي لا يتحقق النظام إلا بها ومن خلالها، وعشاق التهجين والتلفيق قد لا يدركون متطلبات البيئة السليمة، ومن ثم يضمحل كيانهم، وتنطمس معالمهم، ويدخلون مرحلة المسخ، و الانتخاب و البيعة إجراءان من إجراءات الوصول إلى الحكم، لكل واحد مفرداته وأساليبه الإجرائية، والتحديد الزمني وعدمه وتحديد الصلاحيات والحصانات وغيرها، كلها مرتبطة بطبيعة المفردة السياسية، وهي بمجملها من شروط العقد الاجتماعي ومواصفاته، وهي في الوقت ذاته خاضعة للتعديل والتبديل والزيادة والنقص حسبما تفرضه الحاجة وتكشفه التجربة، والمهم في الالتزام والاحترام، وهو ما لا نراه عند عشاق التعالق والمصابين بداء الرغاء الإعلامي، وما يمكن قوله للإعلام المتماس مع الأنماط السياسية ما البديل؟ وهل رجل رشيد يقدم على إراقة مائه ثم يركض وراء سراب القيعان؟ كما أن الرأسمالية و الشيوعية و الاقتصاد الإسلامي و الفكر السياسي الإسلامي أنماط قائمة في ظل كيانات سياسية.

و الشورى بوصفها ممارسة بشرية تأتي امتثالا للندب الرباني الذي جعل الشورى مسلكاً حضارياً لكل البنى الاجتماعية والسياسية، فهي مطلوبة بين الزوج وزوجه، بوصف هذا الاجتماع أصغر بنية مجتمعية، وبين الحاكم ورعيته، بوصفهما بنية البنى المتعددة، وهذا رسول الله ﷺ في أحلك الظروف ينادي: أشيروا علي، والشورى قد لا تفي في إطار التطبيق بكل متطلبات الأمة المسلمة، ومن ثم يعتريها بعض النقص، لا على أساس أنها نظام شورى أمر الله به، واختاره لهذه الأمة، وإنما لأنها في الجانب التطبيقي ممارسة بشرية، والديموقراطية هي الأخرى بوصفها ممارسة بشرية، قد لا تفي بكل متطلبات الأمة غير المسلمة، وهي من جهة تشريع بشري، ومن جهة أخرى ممارسة بشرية، فالشورى ندب إلاهي: وأمرهم شورى بينهم، وشاورهم في الأمر وممارسة بشرية بوصفها امتثالا، فاحتمال الخطأ وارد في التطبيق الشوري، واحتمال الخطأ في الديموقراطية وارد في النظام وفي التطبيق.

والشورى إذ تكون تشريعاً ربانياً، لا بديل لها، ولا خيرة فيها في دولة تعلن إسلامها: انتماء وتطبيقا، ولا مجال للمبادلة أو المفاضلة مع منجز بشري، ثم إن الديموقراطية التي يحمل بها المتماسون مع السياسة القائمة ويرونها الحل النهائي والوحيد لمشاكل الحكم في العالم الذي يطبق أنماطا أخرى، تحتاج إلى مؤسسات ونظم ومناهج لا تقوم إلا بإلغاء كل ما هو قائم من مؤسسات وأساليب إجرائية في الوطن العربي، وتحتاج إلى تربية لا تتم إلى بتعديل كافة المناهج وتغيير يمتد إلى كل المواضعات، وتحتاج إلى صياغة ذهنية جماهيرية لا قبل لشعب عربي نشئ على أخلاقيات مغايرة أن يبادر إليها إلا بعد أمة، والإثارة العاطفية لا تملأ بطناً ولا تشفي غلة، والتغني بالمثاليات حرمت الشعوب أبسط حقوقها، ولما يعد الزمان زمن تلهية وإدعاء، والديموقراطية و الدكتاتورية و الاستبداد و القوة والعدل و السياسة الشرعية أنماط دستورية لا يقوم شيء منها إلا بالمواضعة أو

---

(١) تاريخ المقال: ٣/ ١٠/ ٢٠٠٠

بالقوة الرادعة: والظلم من شيم النفوس ولا يحمي الناس من بعضهم إلا سيادة القانون: شرعيا كان أو وضعياً، والأهم في كل ذلك الرضى والقبول والمواضعة، والعلمانيون والتنويريون حين يرون الديمقراطية ماثلة في الغرب محققة العدالة والحرية والمساواة وتكافؤ الفرص وحماية الحقوق مقبولة من المحكوم محترمة من الحاكم، يتوقعون قيامها بذات الفعل فيما سوى الغرب، متناسين أوضاعا متجذرة وأخلاقيات راسخة وأنظمة مغايرة، والعرب لا يصلحون إلا بالدين كما يقول ابن خلدون، والدين يكفل لذويه العدالة والحرية والمساواة، لقد وضع سوار الذهب السودان على مدرجة الديمقراطية، ووضع الجزائريون أنفسهم عليها، ومن قبل أولئك أسقطت الخلافة الإسلامية في تركيا لتكون علمانية ديموقراطية، فهل حققت تلك الدول مقتضيات الديمقراطية كما هي في الغرب؟ والمجالدة والمجادلة والسجالية والتماس بين المتنازعين السياسيين عبر أي قناة أو وسيلة إعلامية لم تصل إلى نهايات سعيدة، لا لضعف في إمكانيات المتجادلين، وإنما لتباين في المرجعيات، وتفاوت في النوازع، واختلاف في القناعات، ولأن العلمانيين يعتمدون على جاهزيات الأحكام ومجرد التصورات، ويجلبون الأنظمة ولا ينشئونها ويجتهدون في إحلال نظام مكان آخر دون فهم للبديل الديموقراطي والمبدل الإسلامي فإن ثقافة أولئك تداولية سماعية، ولم يكن أحد منهم على شيء من فهم المشاريع التي يراها منقذة، وما أضر بالشعوب ودمّر مثمناتها إلا المغامرات والمجازفات والركض وراء بوارق التجديد دون تهيئة أو تخطيط، وهل أحد من المغامرين الذواقين حقق أدنى حد من النتائج التي تتطلع إليها الشعوب المغيبة عن المغنم والمحملة لكل المغرم؟، وما يتداوله أولئك من خيارات وأحلام معسولة لا يعدو كونه حديث المقاهي ومجالس الفضول، ومثل هذا الخطاب لا يقدم حلاً منقذا بوصفه توعوياً إصلاحياً، إنه لمجرد الاستهلاك وتمضية الوقت وتملق العواطف واستغلال السذج والمبتدئين، وقناة فضائية كتلك الضجة لا تقدم مشروعا، ولا تتبنى أيديولوجية معينة، وإنما تعتمد في إثارتها على فريق عمل إعلامي متمرس في الإثارة والتقاط خيوط المشاكل، وليست لديه رسالة إنما هي مهمة وظيفية قصد من ورائها لفت الانتباه وإثبات الحضور، ولا يتحقق مثل ذلك إلا بالتّماس مع بؤر التوتر، والجدل من هذا النوع وبتلك الوسائط لا يملك أدنى حد من مشروعية التداول للقضايا المصيرية، واقتناص الشخصيات المثيرة لا يكون إيجابيا وبخاصة حين تتناقض المرجعية النصية، العلماني لن يقبل دليلاً من الكتاب أو صحيح السنّة، والإسلامي لن يقبل حجة علمانية أو شاهداً تنويرياً، وحين لا تكون هناك أرضية مشتركة بين فكرين قائمين لا يتحقق من الجدل إلا المستحيلات على حد:

أيها المنكح الثريا سهيلاً
عمرك الله، كيف يلتقيان

ولهذا لا يمكن أن تؤلف الوسائط الإعلامية بين قلبين متنافرين، كما لا يمكن ان تلتمس في الماء جذوة نار، هذا ترابي مادي، وذلك رباني سماوي، ذلك غاضب غضبة مضرية على كل ما حوله ومن حوله، وهذا أليف متصالح مع أهله وعشيرته قانع بما أعطاه الله، ولا يمكن تحقق مشروعية المناظرة المتكافئة بين منجز بشري، له حيثياته وأهدافه واجتهادات أهله وسياقاته الملائمة لمثله المستجيبة للظروف القائمة عند ذويه، ومنجز إلاهي لا يعتريه النقص ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، إلا حيث يكون التطبيق مخالفا لمراد المشرع ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً، ومع كل ما سبق لا أستطيع وهذا مبدأ ديني أن أراهن على نجاح ممارسة تطبيقية مستمدة من تشريع رباني أو سلامته أو انتصاره، وقانون التداول والتدافع امتحان وابتلاء، وإذ لا

أراهن على النجاح أستطيع أن أستدل على نجاح المشروع من آثاره ومنجزه، وهذا ما يجب التركيز عليه والاحتجاج به، والدول الخليجية على شيء كثير من الخيرية، متى نظر إليها الناقمون في سياقها العربي القائم.

والشورى بوصفها مفردة من مشاريع الفكر السياسي الإسلامي الذي لا يؤمن بفن الممكن، كما لا يتسع للميكافيلية، ولا يقبل التعريف اللاأخلاقي للسياسة: بأنه أجمل الكلام لأسوأ الأفعال تعد ندبا ربانيا، وتطبيقها منذ العهد الراشد إلى الآن ممارسة بشرية، يتوخى فيها ولي الأمر ان تكون على مراد المشرع، وهذا التوخي قد تعتريه معوقات كثيرة مقبولة ومتوقعة، وقد لا تكون مقبولة ولا متوقعة، ذلك شأن الممارسة في كل زمان ومكان، وإذا أ فقت أي دولة في بعض وجوه التطبيق، فلا يجوز للمتعالقين مع أنظمة الغرب حملها على التخلي عن سياستها الشرعية، من حق الإعلامي المتماس مع السياسة أن ينبه إلى أوجه النقص متوخيا النصيحة لا الفضيحة، وليس له أن يحمل الإسلامي على النظام العلماني، كما أنه ليس محقا في محاكمة الإسلامي بمنظور علماني، وليس من الإنصاف المطالبة بإلغاء مشروع رباني يتساوق مع مشاريع متعددة، إننا متأكدون من أن أي ممارسة قابلة للمساءلة والنقد وعرضة للنقص والتقصير، ولكن هذا لن يحمل على التفكير بالاستبدال، والذين يتماسون مع المؤسسات السياسية غير الديموقراطية لا يمنحونها المشروعية بحيث يقصرون حديثهم على إصلاح الخطأ سواء كان خطأ في الفهم أو خطأ في الممارسة، إنهم يخولون أنفسهم حق الإلغاء والاستبدال، وهذا فضول وتقحم رخيص.

الشيء الذي يؤمن به المواطن إزاء التحولات المؤسساتية أن ولاة الأمر صادقون في عزمهم، حريصون على تحقيق مراد الله في الحكم القوي العادل الشوري، وما عليهم بعد هذا من بأس حين لا يحالفهم كل الحظ في بعض ممارساتهم إذا نصحوا لله ورسوله والمؤمنين، والنظام الشوري امتثال لأمر المشرع، والمشرع ندب إليه، ولم يحدد، وأمر به ولم يرسم، وولي الأمر له رؤيته الخاصة في فهم الشورى على أنها: ملزمة أن غير ملزمة، مبتدرة أو متلقية، معلنة أو سرية، انتخابية أو اختيارية، ذات عدد قليل أو كثير، طويلة الأجل أو قصيرته، فهذه الضوابط والتحفظات تخضع لتقديرات وتصورات مرحلية، وكل ذلك من طبيعة البشر القاصرين عن الكمال المطلق، والمترددين في القطع في الأمور، وقول الله عز وجل فإذا عزمت فتوكل على الله لا تعني ما يذهب إليه العامة، فالشورى هي التي تحدد العزم بعد استكمال متطلبات الشورى ومقتضيات الفعل، فإذا استكملت متطلبات الشورى وبدأ الوالي الفعل على ضوء ما توصل إليه من استجلاء وجهات النظر، يكون من حقه ألا يلتفت إلى المترددين أو المنشقين بعد ذلك، بحيث يحدد فرصة للتداول لا تؤدي إلى الانقسام ولا إلى تعطيل الفعل، وقد فعلها عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أمر الخلافة، حين جعلها في الستة، وحدد ضوابط لإنجاز البت في أمر الخليفة، لقد شغله أمر المسلمين وهو يستقبل الموت، و الشورى ليست معارضة بمفهومها السياسي وإنما هي توظيف خبرات وتقديم رؤية، وإذا تضاربت الآراء وجب على ولي الأمر العزم والتوكل وحسم الأمر، وقراءة أسباب النزول لهذه الآية وملابساته تكشف المراد من العزم والتوكل، ولا دخل للإلزام وعدمه.

لقد كان نظام الحكم و نظام الشورى و نظام المناطق ونظام الوزراء ومن في مستواهم وسائر الأنظمة مبادرات إيجابية، وإنجاز دولة تريد التخلي عن الفردية، والتوجه صوب الحكم المؤسساتي والتحول من المحورية إلى التفويضية المستقلة، وتخليص الحكم من عوامل الصدفة وخطورة الفراغ الدستوري، والرهان الحقيقي والمنطقي والحضاري على الإخلاص في العمل لا على النجاح فيه.

ومن أراد ان يخدع بالشورى الاختيارية، يمكن أن يخدع بالديموقراطية الانتخابية، ومن أراد ان يسوء أمته بالاختيار، يستطيع أن يخادعهم بالانتخاب المزور، المسألة في النهاية عائدة إلى النوايا والنتائج، والفعل الإجرائي مرتبط بالنظرية، ومن ثم لا يجوز أن نلفق ولا أن نتعشق النظريات بمعزل عن تحقيقها الإجرائي، ف الانتخاب إجراء ديمقراطي والاختيار إجراء شوري، وكلا الإجراءين يحتملان الخطأ والصواب، وكلاهما ممكنان، والمساءلة عائدة إلى النصح والصدق وانضاج المشروع وتوخي الفائدة منه.

والرسول ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى والمعصوم من الناس، يعتريه ما يعتري البشر من الخطأ والنسيان والتوهم فيما هو من أمور الدنيا، ولكن الله جل وعلا لا يقره على شيء من ذلك وإن كان من أمور الدنيا، فالقرآن ينزل منبها أو عاتبا أومحذراً، عفا الله عنك لم أذنت لهم ما كان لرسول أن يكون له أسرى ولا تطرد الذين يدعون ربهم واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم عبس وتولى ولا تصل على أحد منهم مات أبدا لم تحرم ما أحل الله لك، ورسول الله ﷺ المدرك لبشريته يحذر المخادعين في فصاحتهم، إذ لم يضمن سلامة حكمه مع بلاغة أحد المتخاصمين، فهو بشر يجري عليه ما يجري عليهم، إلا فيما يبلغ عن ربه، ولهذا حذر البليغ المخاصم بقوله: إنما أقطع له قطعة من نار، فليأخذها أو ليدعها، أو كما قال، وحديث التأبير وحديث: إذا كان شيء من أمر دنياكم فأنتم أعلم به، وإذا كان شيء من أمر دينكم فإلي يؤكدان بشريته، ويؤكدان مشروعية الأخذ بما جد من أمور حسية أو معنوية، مما لا يتعارض مع المقاصد الإسلامية، ومما لا يطمس معالم السياسة الإسلامية، والإسلام ركز على أهمية البطانة الصالحة لأنهم مرايا الحاكم ومرشدوه، وهم بمثابة الكوابح والمجسات والمسابير والمختبرات إذ ليس هناك وحي ينزل كي يرشد وينبه، وإذ يؤكد الرسول ﷺ بشريته، فلماذا يطلب الخليون من حكامهم الملائكية والمثالية ورهان النجاح والعصمة.

ثم يجب ونحن نلوح بحديث تأبير النخل، ومساءلة الحباب في غزوة بدر، وحديث: «**فأنتم أعلم به**» أن نفرق بين ما هو دنيوي خالص الدنيوية، وما هو دنيوي شرَّع الله له، ولم يفوض أمره إلينا، كما يجب ان نعي أهمية استصحاب المقاصد الإسلامية، كتقديم درء المفاسد ووجوب ما لا يقوم الواجب إلا به والرفق واختيار الأيسر، وسد الذرائع دون مبالغة والتفريق بين الممارسة ورعاً والفتيا الشرعية، ومراعاة الأصول، وقد وجه الرسول ﷺ أصحابه إلى ابتدار الأشياء بالرأي الحصيف والتصرف الحكيم واستحضار المقاصد، في حديث بعث معاوية إلى اليمن، وفي قوله: «**دعوني ما تركتكم**»، وقوله: «**أخشى أن تفرض عليكم**» في أمر صلاة التراويح، ومع كل ما سبق لا بد أن نستصحب أهمية حضورنا في المشاهد العالمية بكل ما يؤكد إسلاميتنا ويبرز خصوصية حضارتنا، بحيث تكون أسواقنا وبيوتنا وسائر مؤسساتنا شواهد على إسلاميتنا، وحين نضطر إلى الأخذ بما جد، ونحن بلا شك مضطرون فلابد أن نعمل على أسلمته لكيلا يسهم في مسخنا، والإسلام لا يمنع من الأخذ بأسباب الحضارة ومعطيات المدنية، وبعض المتسرعين يتصورون أن العبادة وحدها هي من أمر الدين، وما سوى ذلك فمن أمر الدنيا، وهو إلينا على الإطلاق، وهذا مدخل خطير، نفذ منه معتزلة العصر والعلمانيون، حيث جعلوا الإسلام علاقة تعبد ية بين العبد وخالقه، وتصرفوا بعقولهم فيما دون ذلك، وأداروا النصوص المعصومة في فلك العقول غير المعصومة وغير المتكافئة، فعطلوا الحدود، وعلمنوا الحياة، وفات هذه النوعية أشياء كثيرة، ليس هذا مجال الحديث عنها مع أهميتها، فالإسلام مع تفويضه في أمور كثيرة، أعطى معالم وضوابط وقواعد سماها العلماء بالقواعد الفقهية ومقاصد سموها بالمقاصد الشرعية، كما اتخذوا مصادر أخرى لما لم يرد فيه نص لمواجهة النوازل كالقياس و الاجتهاد و الاجماع و الاستحسان و المصالح

المرسلة و استصحاب الحال ووضعوا للاجتهاد الفردي والجماعي قيمته وأهميته، ولم يغلق باب الاجتهاد إلا المقلدون والوجلون، الذي يتصورون إنه بإمكانهم ان يوقفوا الحياة عند عصر من العصور وفي إطار متن من المتون، ومع جناية البعض بإغلاق باب الاجتهاد ظلت المتون الفقهية كما هي في القرن الثامن أو السابع ولم تدرج فيها النوازل وأحكامها، ولهذا لم يكن الشرعيون بمستوى المرحلة، الأمر الذي فتح مجالا للناقمين، ومن ثم فإننا بحاجة إلى العمل على تجلي الحضارة الإسلامية وحضورها الفاعل وإدخال كل الفتاوى والأحكام المتعلقة بالنوازل في المتون الفقهية المهيمنة لكي نعيش مرحلتنا بوعي شرعي وإمكانيات معرفية، ويجب ان ننهي مرحلة الشك والتردد والحساسيات وعلينا ان نواجه قدرنا بثقة، فالنص الشرعي صالح لكل زمان ومكان إذا كنا بمستوى إسلامنا.

والاختيار بوصفه معادلا ل الانتخاب يؤدي كل واحد منهما دوره في سياقه، والمفاضلة غير قائمة بمعزل عن السياقات والأنساق الإجرائية، إذ هما إجراءان مرتبطان بالسلامة أو بما هو دونها، ف الانتخاب قد يزور، والاختيار قد يراعى فيه الولاء دون الكفاءة، إذ كل واحد منهم لا يكون محصنا ذاتيا، ومن ثم لا تكون الخيرية ذاتية وإنما هي كسبية يحققها المنفذ بما يتمتع به من خصال حميدة أو ذميمة وولي الأمر المسلم حين استجاب لأمر الله ونثر كنانته، واستعان بمن يثق به، واختار من يظنه من صفوة المجتمع وأهلا للمسؤولية في دينه وعلمه وعدالته وخبرته، هل نقطع بعد هذه الاحتياطات كلها بأن كل الاختيار جاء سليما وموفقاً وهل نجرؤ فنقول: إن هذا حكم الله وانتقاء الله، وأن الشورى ممارسة تماثل الشورى ندبا؟ وهل نحن أو غيرنا في الاختيار أو في الانتخاب نضمن رضا الجميع وقناعتهم؟ ما يقال هنا عن الشورى والاختيار من تحفظات يقال مثلها عن الديموقراطية والانتخاب والبرلمانات وسائر المؤسسات الدستورية والتنفيذية والشورية والقضائية، المسألة على كل الأحوال وعلى كل الأساليب تسليم نسبي لا اقتناع مطلق، وعلى المدلين بالديموقراطية والانتخاب أن يحلوا لنا إشكالية منتخبي رؤساء الولايات المتحدة أو دول أوروبا المتمثلة للديمقراطية الحقيقية ممن خسر الرهان مع منافسه وممن كسبه، وإشكالية الأحزاب التي تضع المرشحين، وإشكالية الأموال والشركات العملاقة التي تقفز بغير المستحق وتحرم المستحق للدخول في الانتخابات، وإشكالية المستحقين للتصويت الذين لا يمارسون حقهم، لقد انصرف الملايين عن ممارسة حقهم في الانتخاب، لعدم إيمانهم بجدوى الإجراءات الانتخابية، هذا على مستوى الدول الغربية، إذاً هل رضيت الشعوب كلها بمن فاز؟ ولم تسخط لهزيمة خصمه، أم أنهم سلموا وأذعنوا احتراما لإرادة الأمة؟ أحسب أننا جميعا لا نرى غير ذلك، لا على مستوى الحاكم المسلم العارف لقدره وقدرته امام القدرة والقدر الرباني، ولا على مستوى الأمة، والذين انتخبوا نيكسون و كلينتون هم الذين اكتشفوا فضيحتي التصنت والتحرش، فهل عصمت الرئيسين إرادة الأمة وثقتها وحريتها في الانتخاب، ثم إذا كان المتحفظون على الاختيار يرون أن الشعب لا يمثل في المجالس التشريعية، والتنفيذية، الشورية، إلا إذا مكن من الانتخاب، لأن الاختيار عندهم ينظر فيه إلى ولاء المكلفين ولا ينظر إلى كفاءتهم، وكل ذلك توهم وتخرص وانتصار لما يحلمون به ويدعون إليه، وما يؤاخذون به مفردات الفكر السياسي الإسلامي، يمكن ان تؤاخذ به مفردات السياسة الوضعية، ثم إن البيعة الإسلامية إناطة للمسؤولية بشروطها، والتكليف اختيار بشروطه، ولأمة تثق بولي الأمر، وتعرف أنه حفي بالأصلح، والمقاصد الحسنة قد يعتريها النقص، ولكن يجب ان نفرق بين الخطأ العارض والخطأ المتعمد، كما نفرق بين الرجاع إلى الحق والمصر على الخطيئة، والخطأ ابتداء وليد شرعي للعمل، والذين لا يخطئون هم الذين لا يعملون.

فهل الناقمون يطعنون في مفردات السياسة الشرعية، أم في الذوات الناهضة بها؟ فإن كانت الأولى فذلك أمر يتعلق بالإسلام ولا يتعلق بنا كمسلمين وللبيت رب يحميه، وإن كانت الثانية فما أوجه النقص الموثقة لمعالجتها فنحن أرباب إبلنا.

قوانين التماس بين السياسة والإعلام .. ! (٥)[1]

بعد كل ما سبق دعونا ننظر إلى (الديموقراطية) وما تقتضيه من تشكيلات مؤسساتية وصياغات ذهنية، وما هي عليه في العالمين: المتقدم والنامي، وإذا كان المتماسون مع مفرداتنا السياسية يملكون حق القول ومشروعية الحكم، فإننا نبيح لأنفسنا القدر الكافي لصد التعديات، ونقول آسفين: (مكره أخاك لا بطل) ونتذكر قول الشاعر:

إذا احتربـــت يومـــا فســـالت دماؤهـــا

تـــذكرت القربـــى فســـالت دموعهـــا

ابتداء نحن لا نعيب (الديموقراطية) في سياقها غير الإسلامي، إذ الحكم فيها للشعب، والحكم في الإسلام لله إن الحكم إلا لله ألا له الحكم ومن أحسن من الله حكما ثم إنها خيار أهون من خيار العقيدة، وأهون من خيار المواضعات والأعراف ومجمل السلوكيات، وحين لا يكون إسلام فلسنا مطالبين بتصحيح مفردات الآخر قبل تصحيح عقيدته، ولسنا وسط هذا العالم المتعدد الخطابات وأشكال السياسة والدساتير والأعراف أكثر من دعاة، نبلغ عن الآمر ولو آية، وليس بمقدورنا إكراه الآخر ليكون مسلما، وإذ لا نقبل إعطاء الدنية في ديننا، فإن الرؤية الغربية لله وللإنسان وللحياة لا يمكن ان تذعن هي الأخرى لرؤيتنا المتلقية المجتهدة في إطار المباح والممكن، و(الديموقراطية)التي تلوح بها المعارضة العربية، ويدعي وصلها الثوريون أسلوب في الحكم، جاء في سياق خيارات غربية متعددة، حققتها ثورات دامية وحروب أهلية طاحنة، كالثورة الفرنسية، والحرب الأهلية الأمريكية، ولم تكن خليقة مبتدرة كما يتوهم البعض، وليست بسبب تمثل الحضارة اليونانية المحترمة للقانون والنظام كما يدعي الناقمون لتأثير الحضارة الإسلامية، (الديموقراطية) صيرورة فرضتها الويلات والحروب، وحققتها الاستفادة من التجارب الدامية، والأمة العربية مؤهلة لامتثال أي نظام يحترم إنسانية الإنسان، ويوفر له الحرية، وليست الأوضاع القائمة جبلة ولا خليقة متأصلة في الإنسان العربي لا مناص منها، وحالة الإحباط التي يعيشها البعض فرضتها إطلاقات الماكرين وتصديق المغفلين، والثورة الفرنسية بوصفها ام الثورات لم تكن كما يدعي المبهورون انسيابية طبيعية، لقد بدأت دموية همجية، مثلما هي عليه سائر الثورات العربية، والفرق بين الثورة الأم والثورات العربية، ان الأولى استفادت من كل شيء، ولما يستفد العالم الثالث من أي شيء، وكذلك كانت (الديموقراطية) نموا بطيئا واستكمالا مرحليا، أما (السياسة الإسلامية) فهي تكليف وتوجيه رباني، واستكمال اجتهادي لمواجهة المستجد على ضوء المقاصد الإسلامية، ومن ثم فهي متوفرة على أفضل الأنظمة وأدق الدساتير ومرنة لاستيعاب النوازل ومهيأة للاستفادة من المستجد، وتربية الإسلام أفضل من تربية اليونان، وحضارته أفضل من حضارة اليونان، وحضارة الإسلام هي التي سطعت على أوروبا من الأندلس وانتقلت إلى أمريكا عبر ملايين المخطوطات المنهوبة، والمستشرقون لا يريدون أن ينسبوا الفضل لأهله، ومن ثم نفخوا في الحضارة اليونانية، وانخدع بهذه الدعوى الخليون، وهل نفذت حضارة اليونان إلا عن طريق الحضارة الإسلامية؟ و(الديموقراطية) في هذه السياقات غير الإسلامية أفضل نظام ملائم لذويه، لأن الخيارات الإجرائية والمبدئية كالتركيبات اللونية والتداخل الصوتي، لا بد فيها من التقارب والتناغم، وتفاضلها في سياقاتها.

---

(١) تاريخ المقال: ١٠/ ١٠/ ٢٠٠٠

و(الديموقراطية) في سياقها غير الإسلامي غيرها لو دخلت في سياق إسلامي، لأنها هنا تكون تلفيقية متناشزة مع غيرها، وإذ تكون متآلفة في سياقها غير الإسلامي، فلابد لكي تؤدي نتائجها من نقلها بكل أطرها وسياقاتها، وهذا ما لا يمكن القبول به، لأنه يؤدي إلى تنازلات تمس ثوابت الأمة، فالديموقراطية في سياقها الغربي مباينة لها في استعارتها العربية، ولكي تماثل ذاتها في الموقعين لابد من نبذ السياسة الشرعية، و(البيعة) ومستلزماتها ك(الشورى) مبقية على حاكمية الإسلام، ولا يمكن الجمع بين حكم الشعب لذاته، وحكم الله لخلقه، إلا إذا رضينا بالتلفيق أو التعلمن، ولا حاجة إليهما، فمحاسن الديموقراطية دون محاسن الحاكمية الإسلامية، وما نراه من تفاوت إنما مرده إلى التقصير في التطبيق.

وأزمة الحكم والحكام ليست مرتبطة بالمرجعية، وأوضاع المسلمين القائمة لا يمكن القبول بها كأنموذج للحاكمية الإسلامية، ولو قبلنا بذلك لفتحنا على الإسلام ثغرات، ولأدناه بمقترفات المسلمين، والمتعالقون مع (الديموقراطية) يتصورون انها المنقذ من تلك الأوضاع، والخارجون إليها من الحاكمية الإسلامية حملوا معهم أدواءهم التي عوقت الحاكمية الإسلامية، ومن ثم أضاعوا إسلامهم، ولم يحققوا (الديموقراطية)، لقد تصوروا ان مجرد الإجراء الانتخابي محقق لها، وأن الاختيار مناقض لها، وأن الحرية والعدل والمساواة لا تكون إلا في ظل الديموقراطية، وكل ذلك ضرب في فجاج الوهم، وإذ لا ننكر تحقق ذلك في الغرب، فإننا في الوقت نفسه لا نبيح لانفسنا التخلي عن منهج الله الذي ارتضاه لنا، والذي ينقص الأمة الإسلامية التمثل، ومتخذو الديموقراطية ادعاء يواجهون ذات النواقص، والإشكالية كامنة في تمثل النظام: إسلاميا أو ديموقراطياً.

وإذ لا يكون ممكنا أسلمة (الديموقراطية)، فإنها غير (السياسة الشرعية)، و(الانتخاب) غير (الاختيار)، وكل هذه المصطلحات حلقات متوالية في سلسلة السياسة العالمية، ف(الديموقراطية) باقية لصناعها، و (السياسة الشرعية) باقية لمتلقيها، وكلتاهما متداولتان في التعبير السياسي، والمتماسون مع الأوضاع السياسية يجب عليهم أن يفرقوا بين خطأ المنهج وخطأ التطبيق، ف(الديموقراطية) في العالم الثالث مباينة لها في العالم الغربي، مع أنها في العالمين الغربي والعربي شرعة ومنهاج واحد، فهل أحد سأل عن تفاوتها؟ ثم إنها عند صانعيها لا تتيح فرصة لأي شرعة أو منهاج آخر أن ينافسها، وهي عند متلقيها من الإسلاميين لا تقدر على أن تزيل العاطفة الإسلامية كما العلمانية الشاملة، قد تفسدها، وقد تكون بديلا عنها، ولكنها لا تلغيها، وعندما تشكل نشزا تكون عائقا يحد من الانطلاق.

لقد عجزت علمانية (أتاتورك) عن إلغاء العاطفة الدينية عند الأمة التركية، ولما أتيحت الانتخابات الحرة للشعب التركي فاز الإسلاميون، ثم حيل بين الشعب وإرادته، ومن ثم لم يصل الحزب الإسلامي الفائز إلى الحكم كما تقتضي الديموقراطية، وهل أحد في أمريكا يستطيع ان يحول دون حكم الحزب الجمهوري أو الديموقراطي إذ فاز أحدهما بالانتخاب؟ والمغرمون بالمستجدات لا يحترمون الثوابت، ولا ينظرون إلى التلازم بين السياسة والدين، ولا يضعون حسابا لعواطف الشعوب، السياسة الشرعية عقيدة، والديموقراطية التزام، وفرق بين الاثنتين؛ السياسة الشرعية يمارسها المسلم على أنها جزء من عقيدته، والديموقراطية يمارسها صناعا ومتلقوها على أنها عقد اجتماعي ملزم، وثوابها بما توفره من عدل ومساواة وحرية، أما السياسة الشرعية فإلى جانب ما توفره من عدل وحرية ومساواة، يثاب فاعلها، ويعاقب تاركها، أفحكم الجاهلية يبغون والذين اتخذوا الديموقراطية ادعاء من المسلمين، هل تمثلوها وسلموا لها؟ لقد خسروا أنظمتهم الإسلامية، ولم يحققوا ديموقراطية الغرب، فتحملوا خسارة الدارين.

وحكم الجاهلية في القديم وفي الحديث قد يوفر الحرية والعدل والمساواة، ولكن ممارسته لاتعد بالنسبة لغير المسلم عبادة، ثم إن أمور العبادة لا تقوّم بعائدها المباشر على الإنسان، وإنما تقوم بمجيئها على ما شرع الله، وقد يكون لبعض التكاليف حكمة ظاهرة، أو خفية، فالعبد عليه التأكد من قطعية النص: دلالة وثبوتا، ثم عليه بعد ذلك التسليم المطلق، فالله سبحانه وتعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣] أي لا يحق للمسلم أن يسأل لماذا أمر بالصلاة على هذه الهيئة؟ ولهذا قالت عائشة للسائلة عن مثل ذلك: (أحرورية أنت؟).

ناتج ما سبق: أن (الديموقراطية)و (السياسة الشرعية) ليستا متضادتين، كالأبيض والأسود في العائد المصلحي، وليستا متحدتين في التكوين والصياغة، إذ يوجد الانفصال، ولا يكون بالضرورة التناقض في النتائج، الديموقراطية تحقق: العدل والحرية والمساواة، والسياسة الشرعية تحقق: العدل والحرية والمساواة، ومن ثم فالمسألة ليست مرتبطة بالنتائج، وإنما هي مرتبطة بالحضارة، والفارق الحقيقي: أن (الديموقراطية)إجراء دنيوي صنعه الإنسان لنفسه ورضيه عند فقد البديل، و(السياسة الشرعية) تكليف إلهي يفعله الإنسان لتوفير سعادته في الدنيا وتحقيق المثوبة في الآخرة، ولو تركت لنا حرية صنع المنهج السياسي، وغاب أي توجيه رباني، بحيث عُدَّ ذلك من أمور الدنيا الخالصة، لما وجدنا بعد ذلك أفضل من (الديموقراطية الغربية) كما هي في أمريكا مثلا، لأن اجتهادنا بوصفنا بشرا لن يصل بنا إلى مستوى (السياسة الشرعية) وإنما سيقف بنا عند حد القدرة البشرية التي أنتجت (الديموقراطية) وهي أفضل منجز بشري في أنظمة الحكم البشري فيما نعلم، وفيما نعايش ويخلق ما لا تعلمون، إذ ربما يأتي نظام بشري يفوق الديموقراطية، ولكن لن يأتي نظام يفوق السياسة الشرعية، ورهاني على امتثال النص ليس غير، ولو أن الذين نبذوا شريعتهم الإسلامية اخذوا الديموقراطية الغربية بصدق، لكان في ذلك أكبر الفائدة الدنيوية لهم، ولكن الإشكالية انهم نبذوا شريعتهم، ولم يتمثلوا الديموقراطية الغربية، كما هي في الغرب، وتلك مصيبة العالم الثالث.

ولأن كل نظام له إجراؤه فإن (الديموقراطية) تقوم تشكيلات مجالسها وحكامها على (الانتخاب) ولو قامت على (الاختيار) لما نقص ذلك من معطياتها، والحكم في الإسلام يقوم على (اختيار أهل الحل والعقد) لمن تتوفر فيه مقومات الحاكم الصالح، وقد تقصاها الفقهاء في مظانها في الفقه الإسلامي وفي الدراسات المعاصرة، وألفت دراسات في ذلك، ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

رقابة الأمة على الحكام.

طرق انتهاء ولاية الحاكم.

منهج السنة في العلاقة بين الحاكم والمحكوم.

وظيفة الحاكم في الدولة الإسلامية.

الإمامة العظمى.

مبادئ نظام الحكم في الإسلام.

ولو قامت الحاكمية على (الانتخاب) لما نقص ذلك من معطياتها، والمسألة في الحالين قائمة على صدق التوجه، وقد يقوم الحكم بعد الاختيار أو الغلبة على الاستخلاف من السالف، لتتم مبايعته من أهل الحل والعقد، تكون البيعة على الكتاب والسنة الموجبة للسمع والطاعة في المنشط والمكره فيما لا معصية فيه، ولكيلا تصاب الأمة بفراغ دستوري أجيز ولم يفرض تعيين خلف بالنص أو بالممارسة والعرف، وقد جاء الإجراءان مع أبي بكر وعمر، وجاء غيرهما مع غيرهما، لقد لحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى، ولم

يستخلف بالنص، وإنما استخلف بالإرهاص: «**مروا أبا بكر فليصل بالناس**» وقد فهم الصفوة أن إمامة الدين مرهصة لإمامة الدنيا، واستخلف أبو بكر عمر، ووضعها عمر في الستة الذين مات رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، وقتل عثمان رضي الله عنه غدرا، ولم يستخلف، فاختار الصفوة من الصحابة علي بن أبي طالب، ولم تجتمع عليه كلمة المسلمين، وكان رضي الله عنه أحق بها، وما خرج عليه إلا البغاة، وقد كف السلفيون عن الخوض في أمر الفتنة امتثالا لأمر الرسول ﷺ بالكف عن سب أصحابه، ولعدم تعلق أي مصلحة بالخوض في الفتنة، تلك كلها أشكال في طريقة الوصول إلى الحكم، للمسلمين أن يأخذوا بأحدها، ولهم أن يجتهدوا في وضع صيغ أخرى، وفي ذلك فسحة وتوسيع على الأمة، ومع هذا فلا بأس من الأخذ بأي نظام أو إجراء لا يتعارض مع المقتضيات الإسلامية و(البيعة) تقابل الترشيح الحزبي أولا، ثم الانتخاب الجماهيري ثانيا، فالوصول إلى الحكم وفق أسلوب معين يتطلب سياقات ملائمة (فالبيعة) غير (الانتخاب)، و(البرلمان) غير (الشورى) و(حكم الشعب) غير (حكم الله)، والحكم الإسلامي، غير الحكم الديموقراطي، وإن تقاطعت المقاصد، ونظر كل نظام إلى مصلحة الأمة، وكلها أنماط وخيارات تكون بالاجتهاد أو بالتلقي والتوقيف، والإشكالية ليست في العمل الإجرائي، وإنما هي في التطبيق المستجيب للمقتضى الشرعي الإلهي أو للمقتضى الوضعي البشري، الإشكالية في النتائج، لقد كان للإسلام نظامه الاقتصادي الناظر إلى أهمية التكافل الاجتماعي والعدالة الاجتماعية وضرب رؤوس الأموال بالإرث وإنصاف الفقير بالزكاة والصدقة والكفارات وحمالة العاقلة وحق الضيف والإعالة الإلزامية وغيرها، وكان للشيوعية رؤيتها التعسفية من أجل الجماعة، بحيث ألغت الملكية، وضربت غريزة حب التملك، حتى لقد قال شوقي مخاطبا الرسول ﷺ:

داويت متئدا وداووا طفرة

وأخف من بعض الدواء الداء

وكان على المسلمين استدعاء ما في إسلامهم من رؤى اقتصادية وسياسية واجتماعية وتربوية كي تحل المشاكل القائمة، لا أن ينفوا الرؤية الإسلامية، ويحلوا محلها النظام الاشتراكي أو الرأسمالي أو الديموقراطي، لقد كانت للرسول ﷺ رؤيته التكافلية حي قال: «**أنا من الأشعريين والأشعريون مني**» وقصتهم معروفة، وحين قال: «**من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها**» وقصتها معروفة أيضا، والحديثان يتعلقان بالمال والتكافل الاجتماعي، ولأننا أمة مسلمة فلا خيرة لنا في أصول الإسلام، فنحن أمة التلقي والامتثال فيما فيه نص قطعي الدلالة والثبوت، وأمة الاجتهاد والعقلية والتفكير وتوخي المقاصد الإسلامية فيما لا نص فيه، أو ما فيه نص احتمالي الدلالة، وإذا أخذنا بأطروحات الغرب لمجرد انه نجح في تحقيق أهدافه من خلالها انتقض الإسلام عروة عروة، مع أن في إسلامنا حلا لكل مشاكلنا، والأسلمة لسائر المعارف والمناهج مطلب ملح ورغبة ممكنة، و (البيعة) و(الاختيار) و(الشورى) من الناصح الأمين تغني عن (الديموقراطية) و (الانتخاب) و (البرلمانات) ومفردات السياسة الإسلامية داخلة في سياق عقيدتنا لثبوت ذلك بالنص والعمل والإقرار، ولا يمكن الإيمان ببعض الكتاب دون بعضه الآخر، كما لا يمكن الاستغناء عن الإسلام من أجل الطارئ، أو من أجل تقصير المسلمين في امتثاله، و(الانتخاب) المغاير (للاختيار) يحتاج إلى آليات ليست قائمة، وإلى أوضاع ذهنية واجتماعية ليست موجودة، وإلى قناعات لم تنشّأ عليها الأمة، والدول النامية التي جربت (الانتخاب) تعرضت لإشكالية النوعية والشمولية وعدم النزاهة؛ فالناخبون يتجهون للذات ولا يهتمون بالتنوع التخصصي: علما أو خبرة، ولربما يكون (الاختيار) أفضل من

الانتخاب في تأهيل المجلس الشوري للقيام بمهماته المستدعية لتوازن التخصصات وتنوعها، لقد أراد لنا إسلامنا حسن الاختيار، ووكل الأمر إلى أهل الحل والعقد من العلماء والمفكرين والمجربين المحنكين، فلا مفر من قبول ذلك شئنا أم أبينا، رضينا أم سخطنا، جاء ذلك في صالحنا الشخصي أم لم يأت، إذ الإسلام كل لا يتجزأ، وقد رتبت الأمة أمورها على ذلك، وهيئت الأنفس لقبولها ومعايشتها بدون إزعاج أو انزعاج، واحتراما لتوفير الكفاءة رفض الإسلام طلب الإمارة، وحذر من ذلك، ولتوفير النصيحة للمسلمين قال ﷺ لأبي ذر: «**إنك رجل ضعيف**» ونهاه عن أن يتأمر على رجلين.

والجدل إن كان ثمة جدل، يجب أن يكون في استجابة (البيعة) و (الشورى) تطبيقيا للمقتضى الإسلامي ومتطلبات المرحلة، وأن يكون حول نهوض المكلفين بواجبهم كما يريده الله، وهذا ما لم يجادل حوله المتماسون مع السياسة، إذ لم يطالب أحد منهم بالعودة إلى الإسلام، ولم ينهض أحد منهم بتقديم النصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم، العلمانيون يريدون نزع نظام إسلامي وإحلال نظام علماني، ويحرضون على خلع مسؤولين وتمكين آخرين، ويتطلعون إلى إلغاء سياقات وأعراف ومواضعات متجذرة، واستبدالها بسياقات وأعراف ومواضعات مجتثة، دون تربية أو تنشئة، وهذا ما لا يمكن الجدل حوله، وإذا كانت (القضية الشورية) محسومة من قبل، فما الجدوى من تلاسن يوغر الصدور، ويثير الشك، ويبعث على الريبة، ويؤدي إلى اضطراب ذهنيات غير واعية لما يجب؟ وقد يؤدي اضطرابها إلى اختلال في الوحدة الفكرية، والخطابات الثورية تستثير العواطف بالمطالبة بحرية الشعوب ورفع الظلم عنهم، وكأن الحكام الإسلاميين وحاشيتهم وموظفيهم طغاة وظلمة واستبداديون ودكتاتوريون، وكأن الملائكيين في رفوف المستودعات البشرية يرقبون دورهم لتحقيق الطوباوية الحلم، لقد دأبت بعض وسائل الإعلام على خلق العداوات وتمكين الارتياب من النفوس بين الحكام والمحكومين، والأغنياء والفقراء، ونشأ خوف الحكام على أنفسهم وخوف الأغنياء على أموالهم، فانشغل الحكام بحماية ذواتهم وانكمشت الاموال أو هاجرت.

أبحنا لأنفسنا التصدي (للديموقراطية) وبرلماناتها واجراءاتها الانتخابية في سياقاتها الغربية عرضنا أنفسنا للنقد، وفقد المصداقية، ذلك ان (الديموقراطية) الغربية نظام لا غبار عليه لو كنا غير مسلمين، ولو كنا مؤهلين لتقبلها بمثل تقبل الغربيين لها، صادقين في تمثلها صدق الغربيين في ذلك، أما وقد كان في إسلامنا ما يغنينا عنها فلا حاجة لنا بالبدائل، وإذ كنا مسلمين، فإننا ملزمون بأن نأخذ بإجراءات إسلامية، نأخذ ب (البيعة) و(الشورى) ونتحمل بكل ارتياح ما يترتب على ذلك، فليس لنا الخيرة إذا قضى الله ورسوله أمراً، و(البيعة) و(الشورى) تحققان لنا أفضل مما تحققه (الديموقراطية) و (الانتخاب) لذويهما، متى جاءتا على مراد المشرع، والمسألة داخلة في نطاق الأفضلية النفعية لا الخيرية الذاتية من خلال الإجراء التطبيقي، ولا يدخل شيء من ذلك في نطاق التضاد كما يتوهم البعض، بحيث يكون (الاختيار) الإسلامي خيراً محضاً، و(الانتخاب) الديموقراطي شراً محضاً، هذا لا يكون، فأحكام الإسلام تكون على التغليب، والخير والشر قائمان ومتصارعان، فالديموقراطية، والشيوعية وسائر الدساتير والفلسفات الوضعية (خيار) بشري مستغن عن شرع الله، وهو خليط من المنافع والمضار لأن صانعي تلك الأنظمة قراء نهمون لكل المنجزات الحضارية.

وليس هناك نص ولا حضارة يتوفران على البراءة من التأثر، والرسول صلى الله عليه وسلم قد حسم الأمر حين قال: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**» وحين أمضى عادات جاهلية، وحين وصف شريعته بلبنة في بناء منيف، والبيعة والشورى والاختيار والزكاة خيار رباني يراعي مصالح الأمة ويرفق بها، وإذا كنا لا نخول لأنفسنا إدانة

(الديموقراطية) في سياقها غير الإسلامي، فإن قدوتنا رسول الله ﷺ الذي أثنى على (حلف الفضول) وهو حلف جاهلي، ولم يدنه لأنه جاهلي، طالما أنه ينطوي على خير، وإذا كان الهاربون من ظلم حكامهم يجدون العدل والحرية، فإن المهاجرين للحبشة وجدوها قبل إسلام النجاشي عنده، وإشكالية الحكم، وأزمة الحكام، لا يمكن ان تعالج بحلول غير إسلامية في البلاد الإسلامية، كما أن معاضدة الأنظمة القائمة لا تتم بالنيل من أنظمة نجحت في سياقها غير الإسلامي، وإحباطات الشعوب في تجاربها التلفيقية لا يتحملها الإسلام المهمش، دعوا الإسلام يعمل كما أراد له المشرع وحاكموه، ولأن العلمانيين والهاربين من بلادهم يجدون في ظل الأنظمة الغربية ما لا يجدونه في عالمهم العربي من حرية في القول وحرية في الرأي، فإنهم يقترفون خطيئة استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير، ظنا منهم أن ما يجدونه في عالمهم من اضطهاد وتشريد مقتضى إسلامي، وفات أولئك أن في السياسة الشرعية ما يكفل لهم فوق ما توفره الديموقراطية من حرية في التصرف وحرية في الرأي، واقرؤوا إن شئتم سيرة الخلفاء الراشدين بوصفها الصورة التطبيقية للحاكمية الإسلامية، وإذا تعذر التمثل الحقيقي للحكم الإسلامي أوللديموقراطية فالخير ان نظل إسلاميين لنكسب إحدى الحسنيين.

قوانين التّماس بين السياسة والإعلام .. ! (٦) [(١)]

والسؤال الذي يجب أن ثار هو، هل على هذين النظامين (البيعة، والشورى) مآخذ جوهرية تمس ذات المذهب وعين المنهج؟، وهل الأخذ بهما مضر بالأمة أو معوق للمصلحة؟ أحسب أن القائل بذلك جاهل أو متحامل، (فالبيعة) الإسلامية تتم وفق ضوابط وشروط، وقد ألفت في ذلك كتب كثيرة ومتنوعة مثل:

(البيعة) لمحمود الخالدي.

(البيعة في النظام السياسي الإسلامي) لأحمد صديق عبد الرحمن.

(البيعة عند مفكري أهل السنةوالعقد الاجتماعي في الفكر السياسي الحديث) للدكتور أحمد عبد الجواد عبد المجيد.

كما أن (الشورى) تتم وفق ضوابط وشروط، وقد ألفت في ذلك كتب ودراسات مثل:

(فقه الشورى والاستشارة) للدكتور توفيق الشاذلي.

(الشورى في الإسلام) للدكتور حسن هويدي.

(ملامح الشورى في الدعوة الإسلامية) للدكتور عدنان النحوي.

وليس من شيء من مفردات الفكر السياسي الإسلامي إلا وألفت فيه عشرات الكتب واختلفت فيه الآراء، ومن مصلحة الأمة الإسلامية الأخذ بهما بشروطهما وضوابطهما ومقتضياتهما.

والذين يطالبون بمفردات الفكر السياسي الغربي من أبناء المسلمين يعيشون ردة فعل غير راشدة ولا مرشدة، مع جهلهم الذريع بما ينطوي عليه الإسلام من نظام سياسي، يستجيب لحاجات الأمة، ويقيل عثرتها، ويحل أزماتها المتنامية، ويكفل لأفرادها ما تكفله النظم الغربي، وما يعانيه العالم الإسلامي من إخفاقات على مختلف الصعد: السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية، مرده ذلك إما: للفهم الخاطئ للإسلام، أو إلى الابتعاد عن مراده الله لعباده، أو بسبب التلفيق ونقل الأنظمة بمعزل عن حواضنها، وما تعانيه الأمة الإسلامية ليس نقصاً في مبادئ الإسلام السياسية ولا عجزاً منه عن تلبية حاجات الأمة المعاصرة، وجهل النخب الفكرية لما ينطوي عليه الإسلام من قيم سياسية ودستورية وتشريعية وتنفيذية ألجأهم إلى البدائل غير الإسلامية، وياليت أولئك يقرؤون في الثقافة الإسلامية مثلما قرؤوا في ثقافة الغرب ليقفوا على كنوز فرطوا بها وتلقفها المستشرقون، إنهم يعالجون قضايا أمتهم دون استحضار للنص الإسلامي وفضاءاته الدلالية المستوعبة للنوازل، ودون تأصيل شرعي، وكيف لا يكون الإسلام مستوعباً لكل مطالب الحياة وقد أنزله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

واللجوء إلى المستجدات المخالفة للمقتضى الإسلامي تدفع إليها جنايات المطبقين وجهل المصلحين، والمتهالكون على الأنظمة والمذاهب والمناهج ربما تستهويهم الأسماء الجذابة، والإشكالية ليست في المسميات: ملكية أو سلطانية أو إماراتية أو جمهورية: شورية أو برلمانية، انتخابية أو اختيارية، الإشكالية في إقامة الخليفة المسلم حكمه على القوة والعدل، وإظهار الدين والحكم بما أنزل الله، وتطهير المجتمع من شيوع الفواحش، وتوخي الخير وصنع الإنسان ليكون ابن عصره مستوعباً كل المستجدات مستجيباً لكل مطالب الحياة، وتحامي تعريض الأمة لمغامرات تأكل الحرث والنسل، وكونه رائداً أميناً لا يكذب أهله، ناهضاً بمهمة الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، دافعاً بالتي هي أحسن، جانحاً للسلم بعد استعداده للحرب، وحين تتوفر تلك الضروريات فإن للحاكم بعد هذا أن

---

(١) تاريخ المقال: ١٧/ ١٠/ ٢٠٠٠

يطلق على حكمه وأنظمته ما شاء من المسميات، شريطة ان يكون الإطلاق غير مناف للمقاصد الإسلامية، ومصطلحات أي حضارة لها مقتضيات محددة، وربما لا يمكن إفراغها من محتواها وشحنها بمقتضيات أخرى لمجرد العشق الأسمي، وفي مصطلحاتنا الإسلامية ما يغني ويقني، والمصطلح لا يكون بريئا لأنه نتاج حضارة وهو في سياقها، والمحافظة الواعية الفاعلة ليست بأقل جدوى من التجديد، وما ضر البريطانيين احترامهم لأنظمتهم الملكية ومسمياتهم القديمة، ولم ينتفع الثوريون في العالم الثالث من تجريم سلفهم وتصفية أجسادهم وسمعتهم وجلب أسماء رنانة طنانة، المسألة ليست ألقابا، إنها فعل حضاري، يحترم إنسانية الإنسان وحسب، والمسألة قبل هذا وبعده حقائق دامغة تتمثل في الأمن والاستقرار والرخاء والمكانة العالمية والتأثير القوي والحضور الفاعل، فتقويم الدولة لا يؤخذ من أبواقها الإعلامية ولا من مسمياتها البراقة، وإنما يستشف من بيوتها وأسواقها وسحنات أهلها ومن مدارسها وجامعاتها ومصانعها ومستشفياتها ومن عملتها المعومة بكل ثقة، التقويم يعرف بتهافت المستثمرين والعاملين عليها، يعرف ببقاء رؤوس الأموال واستقرار الأدمغة وإقامة الكفاءات، والاعتزاز بالمواطنة ورفض الهجرة وعدم الحاجة إلى اللجوء السياسي، والدولة الفاشلة هي الدولة المختلة الأمن المهربة الأموال التي تعيش كفاءاتها في المنافي وعملتها في الحضيض، وينتاب أبناءها حالات من اليأس والقنوط والاكتئاب والرفض، تنظم فيها الجريمة وتتوتر فيها الحياة، ويمارس فيها العنف، وتكثر فيها المظاهرات، وتكتم فيها الحرية، وتخالف فيها إرادة الأمة وعواطفها العربية والدينية، وتتوتر فيها الحدود، وليس أحد من عشاق المستجدات بقادر على أن يدين الإسلام بعجزه عن تحقيق أفضل الأوضاع من أمور الحياة الدنيا: العلمية، والعسكرية، وسائر مطالب الحياة السوية، ألم تقف المعارضة في وجه أقوى خليفة مسلم وتحمله على الإذعان للحق، وأين حكام العالم كله من عمر رضي الله عنه؟، والذين لا يقدرون على حمل حكامهم على تمثل العدل الإسلامي ليسوا بقادرين على حملهم على تمثل العدل الديمقراطي، وإذا آخذوا التطبيق الإسلامي فلماذا لا يؤاخذون التطبيق الديمقراطي إذا كانا عاجزين عن تمثل النظرية، لماذا يجتهدون في تهميش الحاكمية الإسلامية ولا يفعلون ذلك مع الديمقراطية؟ وهل مدّعو الديموقراطية بأحسن حالاً من مدعي الإسلام؟ إنهم بهذه المؤاخذة يعصون الله ما أمرهم، والإصلاح أفضل من الاستبدال، وإذا كانت التجارب الإسلامية عبر المنظمات أو الهيئات أو الجماعات قد منيت بفشل بعض مشاريعها، فإن هذا لا يعني فشل الإسلام، الفاشلون طلاب سلطة ومنافسون على المصالح العاجلة، وهي مغرية وخادعة، وماذا فعلت بصفوة الأمة حين تركو ثنية (أحد) وأقبلوا على جمع الغنائم مخالفين أمر القائد، لقد كانت للإسلام تجاربه الناجحة، والمخفقون من الإسلاميين إما: جهلة نص، أو جهلة فهم، أو أنهم كاذبون في ادعاء التمثل، وقد يكون الإخفاق امتحاناً وابتلاء وتحقيقاً لقوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢] .

والمسلمون بأمس الحاجة إلى وعي مراد الله لخلقه دون غلو أو تطرف أو ثورية أو صدام ودون مداهنة أو استسلام، والذين أخذوا (بالعلمانية) و(الديموقراطية) و(الاشتراكية) من حكام البلاد الإسلامية، لم يحققوا مقتضيات هذه المشاريع الدنيوية كما هي في الغرب، ولما ينتزعوا عواطف شعوبهم الدينية، إنك تجد الأمة في سائر أمورها إسلامية: ممارسة وعاطفة وفكراً ولغة وأدبا، وخطابها السياسي والإعلامي علماني جاء نتيجة الغلبة والإكراه، والخلط بين (الغلبة) و (الانتخاب) تلفيق يرضي السذج، (الديمقراطية) كل لا يتجزأ، والأخذ بجزء منه ترقيع مضر بمصالح الأمة، وكأني بمدعي

(الديمقراطية) يعيدون مقولة ابن اللتبية: (هذا لكم وهذا أهدي لي) فهلا جلس هذا الملفق في بيته ليرى هل تهدى له الخلافة على حد:

أتتـــــك الخلافـــــــة منقـــــــــادة

تجرجــــــــر نحـــــــوك أذيالهـــــــا

ومثل هذه الممارسات المخادعة يغفل عنها الخطباء السحبانيون مع ما فيها من (ظلم) و(ضحك): ظلم للشعوب المسلمة التي لا تعرف من (الديموقراطية) إلا اسمها، ولا من (العلمانية) إلا رسمها، ولا من (الاشتراكية) إلا المساواة في الفقر، وضحك عليها بدعوى ما ليس قائماً في المشهد العملي، والحكومات التي تحترم الشعوب وتحافظ على المصداقية لم تدّع ديموقراطيتها، ولم تأخذ بالانتخاب، بل رضيت بمسميات تتوفر على محاسن الديمقراطية وإيجابيات الانتخاب، وهذا مقتضى إسلاميتها، والدولة المسلمة تستقي دستورها من ممارساتها التي لا تتعارض مع المقتضى الإسلامي، والشعب حين أعطى بيعته لولي الأمر لزمه ان يكون حاكماً إسلامياً يظهر الدين ويجعل الدولة دولة ممارسة، وذلك ما نعايشه، لقد أعلنت إسلاميتها واتخذت مسميات مناسبة، بحيث أنشأت مؤسسات إسلامية، وجامعات إسلامية، ووزارات إسلامية: العدل، والشؤون الإسلامية، والحج، هيئة الامر بالمعروف، هيئة كبار العلماء، دار الإفتاء، المجلس الاعلى للقضاء، ومنعت أي مظهر غير إسلامي، منعت المرأة من التبرج، وفضلت تعليمها عن تعليم الرجال، ومنعت الخلطة والخلوة في العمل، المظهر الديني في المملكة لا يسمح بالملاهي ولا بدور السينما الخليعة، كل المحلات التجارية تغلق أبوابها وقت الصلاة، تقام الحدود التي شرعها الله على الزناة والسُّرّاق وشاربي الخمر وقطاع الطرق والقتلة ومهربي المخدرات، كل شيء من الشريعة وإليها، وهنا نقطة مهمة، وهي ان الوالي الذي أخذ البيعة حرص على تطبيق مقتضياتها، فهل أحد في العالم الثالث حكم باسم الديموقراطية ثم نهض بمستلزماتها كما هي في الغرب؟ نقول هذا للذين ينقمون علينا ويتخذوننا غرضاً، وينشؤون القنوات ويصدرون الصحف للنيل منا، وإلا فليس من حقنا أن ننهي العلمانيين والثوريين عن خلق التدخل في شؤون الغير ثم نسبقهم إليه، إن تساؤلنا من باب الدفاع عن النفس، وكان على العلمانيين والثوريين ان يشتغلوا في حمل الآخذين بالديمقراطية على تطبيقها كما هي عند الغرب، فإذا اطمأنوا من كل ذلك قبلت منهم الإفاضة، وشرع لهم تصدير الأنظمة، وأمكنت الاستفادة من تجاربهم، على أنه مما فات الأخسرين أعمالاً أن (الديموقراطية) التي يحلم بها الناقمون على الإسلام تتطلب شعوباً مهيأة لتقبلها، بحيث تحسن التعامل من خلالها، إذ ليس من السهل تبادل السلطة بإنسيابية، كما هو في الغرب، إن تبادل السلطة عند بعض أولئك تتم عبر حمامات الدم، والشعوب العربية بوضعها الحالي غير قادرة على التفاعل مع (الديموقراطية)، وللمتردد استحضار كل ثورة قامت في العالم الثالث، ثم لينظر إلى الفجوة بين مشروعها المعلن وممارستها القائمة، ومن بينها (الانتخابات) التي تصل نتائجها في مواقع كثيرة من هذا العالم إلى تسع وتسعين وتسعة من العشرة، والسؤال المحرج والمخجل في آن، هل تمت هذه الانتخابات وتحققت تلك النتائج بنزاهة؟ إن الصدق مع ما فيه من تقصير خير من الكذب، والشعوب التي تواجه قدرها دون تزييف إعلامي أشرف من أي شعب يغرر به ويكذب عليه ويزيف وعيه، و(الجمهورية) و(الدكتاتورية)، و(الديموقراطية)، و(الخلافة)، و(الملكية)، و(السلطانية) و(الأماراتية) أنظمة وأعمال إجرائية تحدد قيمتها الممارسة والنتائج، ولكل نظام منها متطلبات بيئية واجتماعية وحضارية وتاريخية ودينية، متى توفرت في ذهنية الأمة، نشأ انسجام طبيعي لا يفرضه (الصوت والسوط)، وإنما يحققه التناغم والاستجابة الطوعية

على المستويين الحكومي والشعبي، وعلى السماسرة والمتاجرين بأقلامهم وألسنتهم، والمتماسين مع كل الاطروحات السياسية أن يلقوا السمع وهم شهود إلى العالم الثالث، وأن يحاكموه من خلال سياقاته المتعددة، لا أن يحلموا ثم يسقطوا أحلامهم على حكام خارج سياقهم وخياراتهم التي رضوا بها، ورتبوا أمورهم على ضوئها، لقد عجبت من بعض المتنقصين لأنظمة الحكم في المملكة، وهو يضرب الأمثال بشعوب الدول الديمقراطية الفقيرة ممن يعمل بعض أفرادها الأميين في دول الخليج: خدماً وسائقين وعمالاً، ويجمع بين التنقص والتحدي بممارساتهم حق الانتخاب، فالخادمة والسائق اللذان يعملان عند الخليجيين ويمارسان حق الانتخاب عن طريق سفاراتهم يؤديان أسلوبا في الحكم رضياه، وليس بضائري في المملكة وانا النخبوي المؤهل أن أمارس البيعة الشرعية التي رضيتها، وإن كنت في أمريكا، والسائق والخادم لا يفضلانني حين يكون لهما حق الانتخاب، وإن كنت أستاذاً جامعياً، المسألة أنظمة وسياقات، والمهمة في الأمر ما إذا كان ولي الأمر قد التزم بالانتخاب عند البيعة ثم تنكر له، أو ما إذا كان الانتخاب من مقتضيات السياسة الشرعية ثم أبطله الحاكم، وعوداً للسياق المغيب في الحوار الثوري لا الحوار الحضاري، نجد أن السياق معتبر في الشريعة الإسلامية في مجالات كثيرة، فالقائد يؤخذ ويحاكم من خلال سياقه، والإسلام نظر إلى السياقات والأنساق الاجتماعية والطاقات الجسمية، حتى لقد جعل الإسلام حد (الأَمَة) نصف حد (الحرة) لا لشيء يتعلق بالتكوين الجسمي، وإنما يتعلق بالتكوين الاجتماعي ونظرة المجتمع إلى كلتيهما، ومقت الله (العائل) المستكبر لعدم قيام الدافع للكبرياء، وغلظ معصية (الأشيمط) الزاني لانطفاء الشهوة، وأحب الله (الشاب) الذي ليست له صبوة لتحكمه في الطاقة الجنسية الطاغية، وجعله حيث نشأ في طاعة الله من السبعة الذين يظلهم في ظله، وكيف بنا لو حاكمنا أمراءنا وحكامنا خارج سياقهم، فأقمنا لهم معايير (عمرية) وما لنا والحالة تلك لا نقيم لأنفسنا ذات المعايير، فنحاكمها بمعايير (الرعية العمرية)، فهل أحد منا مثل (علي بن أبي طالب) كواحد من رعية عمر؟ لماذا نستدبر عيوبنا ونحملق في عيوب الآخرين، دعونا نصلح أنفسنا أولا كي يمتد السياق إلى قمة الهرم، وما سؤال الخارجي لعلي رضي الله عنه ببعيد، فأين شعب كعلي، لحاكم كعمر؟.

وخارج هذه الافتراضات، هل من بأس على شعب اختار (البيعة والشورى) ورضي بهما وذاق بردهما ونعم بدفئهما حين لا يأخذ بغيرهما؟، ومن الذي خول للعلمانيين والمستغربين رسم سياسات شعوب رضيت بما هي عليه؟ وصنعت بنفسها ما هي عليه، وأي (ديموقراطية) يحلم بها أولئك، وأي انتخاب يتطلعون إليه، أيريدون ديموقراطية العالم الثالث، عالم الثورات الدموية التي أتت على الحرث والنسل وأحرقت الرطب واليابس، وأذاقت شعوبها ويلات الفقر والذل والهوان، وشردت كفاءاتها بين السجون والمنافي والمقابر الجماعية، ومكنت بتناحرها لعدوها؟ أم يريدون ديموقراطية الغرب التي صيغت على غير هدى من الكتاب والسنة لشعوب هي الأخرى ليست على هدي من الكتاب والسنة، شعوب تواطأت على صيغة معينة رضيتها واختارتها وتمثلتها بصدق، والتزم بها الحكام كادق مايكون الالتزام، ولم تفرض عليها، وحققت بتواطئها سعادتها الدنيوية، نعم نحن لا ننكر أنهم صدقوا مع أنفسهم، وصدق معهم حكامهم، وكانوا بفعلهم الصادق تحدياً مؤلما لفعل العلمانيين الكاذب، إذ لم يكن العلمانيون العرب مع الغرب قلباً وقالباً، ولم يكونوا مع الإسلام، والإسلام يمقت القول دون الفعل، ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣] والإسلام يتوعد بالعذاب محب المدح بما لا يفعل ﴿لَا

تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٨٨] فالإسلام لم يدع الامور مفلوتة كما يتوهم العلمانيون، لقد ضبط إيقاعه وقعد قواعده، وأحكم شروطه، وما كان من خطأ فمن عند أنفسنا، والإسلام بريء من كل تقصير، ثم إن الإسلام ينطوي على نص سياسي وتجربة سياسية ناجحة، وما على المترددين إلا الرجوع إلى المكتبة العربية ليروا آلاف الدراسات حول الفكر السياسي الإسلامي، والتفاوت ليس في النظرية السياسية، إنه في التطبيق السياسي.

فالغرب القدوة والشاهد والتحدي لأولئك صادق في ديموقراطيته، نزيه في انتخابه، ولا مأخذ عليه ضمن سياقه غير الإسلامي، وإن كان المال والإعلام والأحزاب المدعومة من رجال الأعمال والشركات العملاقة تصنع القادة، والشعوب تفاضل بين القادة المصنوعين بقوة المال والإعلام والحزبية، فالذين يصلون إلى ذروة المنافسة في الترشيح يحتاجون أموالا طائلة لا قبل للكفاءات الوطنية غير المدعومة بها، ويحتاجون جهوداً مضنية لا ينهض بها إلى جماعة متظاهرة وأحزاب ذات استراتيجيات ومصالح تصل بهم إلى دوائر الانتخاب، ليكون الشعب ملزما بالمرشحين للانتخاب، وليس له خيار بغيرهم، و(الانتخاب) في النهاية لمرشح الحزب وليس لمرشح الأمة، والمنتخبون في الغالب أقل من خمس الأمة، والمتنافسون يتقاسمون هذا الخمس من الأصوات، فالأمة لا تختار بكاملها أحد المتنافسين، ولا يكون مرشحها من الشارع، إنها ترقب ترشيح الحزب، وقد يكون المتنافسون أكثر من اثنين فيقتسمون الأصوات ويفوز الأكثر عدداً، في حين يذهب الممارسون لحقهم يتجرعون مع منتخبهم مرارة الهزيمة، وكم أتمنى لو اطلع المبهورون على المناظرة التلفزيونية الاولى بين مرشحي الرئاسة (آل جور) و(بوش الابن) ليقفوا على أشياء قادحة في الديمقراطية والانتخاب معاً، وكم أتمنى لو كان إعلامنا بمستوى المرحلة فنقل ذلك ليضع نظر المتابعين على مكامن الأخطاء البشرية، ثم إن التصويت على المشاريع المصيرية لا يكون بالإجماع داخل المجالس والبرلمانات، وإنما يكون بالأغلبية، وهكذا يتبخر حكم الشعب الذي تدل به الديموقراطية، نقول هذا ونحن نحترم المصداقية ونثمن الممارسات الدستورية في الغرب، ونكبر فيهم احترام القانون، ونمقت استفحال الميكافيلية عندهم وحصر الحرية والعدل لذات الأمة واحتقار العالم الثالث، وكم احسست بالاحتقار للمتذيلين والممجدين للغرب والمتغنين بحضارته حين خف رجالات الغرب مرعوبين عندما أسر حزب الله ثلاثة صهاينة ولما يكترث بالقتل الهمجي لمئات المدافعين عن حقهم، وكم أتمنى في الوقت ذاته لعالمنا الثالث بعض هذه الأخلاقيات التي تقصرها الحضارة الغربية على نفسها، وإن لم تكن بأنانيتها من متطلبات الفكر السياسي الإسلامي، على أنه لا يمكن التقاط مفردة واحدة من سياقها الملائم لها وزرعها كالجسم الغريب في كيان تتناغم مفرداته دون نفي كامل لكل سياقاته.

أيظن (العلمانيون) أن ما يحلمون به من ديموقراطية أمريكية يمكن ان تتم في ظل أوضاع مغايرة وتكوينات ذهنية مباينة، وعراقة تاريخية متأصلة وأيديولوجيات مناقضة لما عليه الغرب، إن هذا الحلم أضاع فرصا ثمينة، وفوت على الأمة مصالح كثيرة، وما على المتذيليين الحالمين من العلمانيين والثوريين إلا ان يتخلوا عن الهوى الذي أعماهم وأصمهم، وينظروا بعيون مجردة إلى واقع الأمة العربية وما هي عليه، فالذين وصلوا إلى سدة الحكم بالغلبة كانوا أشد من العلمانيين تعلقاً بمفردات الغرب، فأين هذه المفردات التي يدعون الأخذ بها؟ أين الديموقراطية؟ أين الحرية؟ أين العدل والمساواة؟ وهل حال الأمة العربية تسر أحدا ليطلب من أولئك الراضين بواقعهم التخلي عما في أيديهم

ومطاردة شوارد الوعود المعسولة؟ المسألة ليست تلفيقا وترقيعاً، وليست أحلاما ورهانات خاسرة، إن هناك أوضاعاً تتأبى على المحاولات المرتجلة، والذين تغنوا (بالديموقراطية) زمناً في ظل تلفيقات وادعاءات كاذبة تكشفت لهم الأمور بعد فوات الأوان، الإنسان الغربي صنع تربوياً وذهنياً ليكون ديموقراطياً، لقد رضعها مع حليب الأمهات، وليس له خيار آخر سوى ذلك، الإنسان الغربي صنع كالآلة، ضبطته المصلحة، وساقته المنفعة، وحكمه القانون، وطوعه العقد الاجتماعي، والحق انه التقط محاسن الإسلام، وأجراها في كثير من أموره، والتقط إنسان العالم الثالث مساوئ الحضارة الغربية وما لا يحتاج إليه من قيم فنية وفكرية وسلوكية حتى لكأننا نشم ما تلفظه عوادمه الخلفية، هذا قدرنا، وتلك رؤيتنا، وذلك فعلنا، وما أصبنا إلا من طريق نخبنا الذين زينوا لنا سوء الأعمال حتى كدنا نراها حسنة، وفوتت علينا أثمن الفرص باسم الحرية والاشتراكية والوحدة وهتافات: أمة عربية واحدة، وما أنقذ الأقلين عدداً من الأمة العربية من فتك السلاح العربي الهمجي إلا دول الغرب التي يلعنها القوميون والوحدويون في الصباح والمساء ويخوّنون المقترب منها والمتصالح معها لدفع الضرر وجلب المصلحة، إننا نرفض الأنظمة ونصالح ذويها، دفعاً للشر وجلبا للمصلحة، والثوريون يدعون الأنظمة ويصادمون ذويها، فهم في خوف منها للعداء وخوف من شعوبهم للادعاء، والسلاح وحده سيد الموقف يدخل الحاكم بالمجنزرة ولا تخرجه إلا المجنزرة، لقد كان (بوش) صاحب أنجح عمل عسكري في تاريخ أمريكا وأكبر شخصية يتداولها الراي العام العالمي في ساعة مبكرة من إحدى الليالي، وفي ساعة متأخرة من ذات الليلة، أمسك بيمينه مقود كلبه وأمسك بشماله عضد شمطائه، وخرج من أخطر بيت وأكثره تأثيراً على كل الأحداث المصيرية للعالم، خرج إلى الشارع كأي مواطن عادي، وأعلن راضيا تأييده وتهنئته لمنافسه، محترماً إرادة أمته، خاضعاً دون أي انفعال لأنظمتها الفعلية لا الورقية، وكان قبل ساعات من إعلان النتائج يسخر من منافسه، حتى لقد فضل (كلبه) عليه، تلك هي (الديموقراطية) من خلال سياقها العلماني الغربي، الذي صدق مع حياته، وأخلص لها، وحين تآمر العراق على اغتيال (بوش) وهو خارج السلطة، لم يكن بد من ضربه ضربة موجعة على يد (كلنتون) احتراما لـ(بوش) ومحافظة على حياته، فأين هذه الأخلاقيات في العالم الثالث؟ أين رأسمالية الغرب؟ وأين ديموقراطيته؟ لقد أوذينا بالادعاء الباذخ، وفقدنا بسبب الرغاء الكاذب الشيء الكثير، وما زلنا في مؤخرة الركب بسبب التهالك على ما جدّ دون وعي أو فهم أو تمثل صحيح، نحن أمة مسلمة لنا خيارنا الإسلامي، ولنا نظامنا الإسلامي، ولنا منهجنا وشرعنا الإسلاميان، ولنا مرجعيتنا النصّية، ولنا تراثنا، ولنا مشروعية الأخذ بما لا يتعارض مع ثوابتنا مما تقوم الحاجة المشروعة إليه ومما يمكن استيعابه وتمثله، ومهما كانت الإغراءات والوعود فإنه لا يكن ان نتخلى عن عقديتنا التي ضمنت لنا (الحرية) و(العدل) و(المساواة) و(تكافؤ الفرص)، وحثتنا على العلم والعمل وإعداد القوة في كل المجالات، وإذا كان ثمة بعض النقص فهو من عند أنفسنا، والله لا يريد لعباده النقص والضعف والفساد، فليعد أبناء الأمة الإسلامية إلى إسلامهم طائعين، وليأخذوا كتابهم بقوة، فالعزة في النهاية ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨] ولنحذر من المستغربين الذي يخدمون أعداء الأمة، وكلما انكشف أمرهم وتعرت لعبتهم غيروا أصباغهم وخرجوا علينا بخطاب جديد، ونحن لا نملك مع هذه الحركات البهلوانية إلا ان نفغر أفواهنا ونحملق بعيوننا ونتيح وسائل إعلامنا لبهلوانيتهم وادعائهم الكاذب، والغرب المهيمن يعلي من شأن طابوره الخامس حتى إذا قضى منه وطره نبذه كالنواة، لأنه يحقر من لا يخلص لأمته، ومن خان أمته فهو لما سواها أخون،

والعلمانيون والحداثيون والمستغربون هم الطابور الخامس الذي نكص على عقبيه وأخلى ثنياته للعدو، ولما يكف عن الرغاء الإعلامي والتماس مع القضايا دون وعي ودون احترام لقواعد اللعب السياسية، لقد حاصر الرأي العام المصري حداثيو المشهد الثقافي وضيقوا الخناق عليه وكشفوا لعبته فما كان من سدنة الحداثة إلا أن سحبوا المسميات المشبوهة وطرحوا مشروعاً مخادعاً سموه ب(النقد الثقافي) الذي كان قد شاع في الغرب على يد (ليفس تراوي) ذي النزعة الماركسية، والمتذيلون لهذا المذهب النقدي رضوا من اللحم بعظم الرقبة، فاشتغلوا بالأزياء والألعاب واستدبروا عيون الإبداع العربي، وراحوا يطنطنون حول المذهب مثلما كانوا يفعلون من قبل مع الماركسية والوجودية والعلمانية والحداثة والبنيوية وما شئت من هذه التجريبات التي أذهبت الريح ومزقت الكلمة ومسخت الشخصية الإسلامية والعربية، والذين يتغنون بعشقهم لمثالية الغرب ويلوثون فضاءاتنا بتمجيده وطرد الغربة عن رموزه وقضاياه ومذاهبه، كيف يرون أنفسهم إزاء مواقفه المذلة المحتقرة للكرامة العربية والدم البريء في انتفاضة الأقصى؟،، أين هم من هذه الهمجية المستقذرة؟ لقد نابوا عنه في إقناعنا بمثاليته، فلماذا لا ينوبون عنا في مساءلته؟

قوانين التَّماس بين السياسة والإعلام .. ! (٧) [(١)]

والمتماسون مع القضايا المصيرية أكثرهم مصابون بخواء الفكر، ومأخوذون بغسيل المخ، ومجندون لتضخيم الإشاعات وترويجها، مغرمون بالركض في فجاج الأحلام، وكأن أحدهم (دون كيشوت) الحالم بتغيير الواقع بإمكانيات الماضي، وقوانين التماس تقتضي وعي الذات بما هي عليه، ووعي الآخر، والتقدير والتوقيت، والفعل المؤسساتي، إذ لم يعد للتشريع السياسي الفردي ولا للاجتهاد الشرعي الفردي ولا للفتيا الفردية مجال في زمن عرَّته الاتصالات وكشفته الأقمار والقنوات، (السياسية) و (الاجتهاد) و (الفتيا) يجب أن تكون مؤسساتية ليأمن الناس على حرياتهم وأفكارهم وعباداتهم، والتماس مع الدساتير التي لها أبعادها: المعرفية والتاريخية والتكوينية لا يجوز إلا بمعرفة تامة وإمكانيات استثنائية وعبر مطابخ مؤسساتية، والفكر السياسي الإسلامي له أعماقه التاريخية والمعرفية والتجريبية، ولا يجوز التماس معه عاطفياً، لا من الإسلاميين ولا من غيرهم، وفي الحديث: «**إنما دواء العي السؤال**» وفي الذكر الحكيم: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ [النحل: ٤٣] ومن التجريب السياسي الإسلامي المغيب قول عمر: (متى استعبد تم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً) وقوله لمعارضه: (لا خير فيك إن لم تقلها، ولا خير فينا إن لم نقبلها)، ومن قبله أبو بكر قال: (رحم الله من أهدى عيوبنا إلينا)، وقال في خطبة التنصيب: (لقد وليت عليكم ولست بخيركم)، هذه أطراف من سياسة الإسلام، وتلك بعض حاكميته، وأخلاقيات حكامه وتصورهم للحكم، وأي خير في الدساتير الوضعية لم يكن في الإسلام ما هو خير منه؟ وما اتخذ باسم الإسلام وليس منه، أو ما فهم من الإسلام على غير مراد الله، أو ما جاء من خطأ أو تقصير لا يخول أحداً التحول إلى غير الإسلام، كما لا يخول تحميل النص الإسلامي مسؤولية الخطأ في الفهم أو الخطأ في التطبيق أو التقصير فيه، إذ هناك ملل ونحل ومذاهب شتى يلعن بعضها بعضاً، ويكفر بعضها بعضاً، وما أحد منها يقبل التعاذر والمؤاخاة أو الرد إلى الكتاب والسنة عند الاختلاف، بل كل معجب برأيه مصنم لشيخه مدع انه الطائفة المعصومة المنصورة وهناك طوائف تدعي الحاكمية الإسلامية وأحزاب تتصرف بهمجية ووحشية باسم الإسلام، وهناك تطرف باسم الإسلام، وقتل مستحر باسم الإسلام، وحروب أهلية مجنونة باسم الإسلام، وتسلط على المرأة باسم الإسلام، وتقييد للحريات المكفولة إسلامياً باسم الإسلام، وهناك نفعيون وانتهازيون يشرعون مقترفاتهم باسم الإسلام، ومن وراء ذلك استعمار ماكر مخادع يوطِّئ أكناف إعلامه لهذه المقترفات على أنها التطبيق الأصوب للإسلام، وهدفه تعميق الاشمئزاز العالمي من هذه التصرفات المنسوبة للإسلام، واقرؤوا إن شئتم ما كتب من دراسات بالعشرات عن صورة العربي في الإعلام الغربي والرواية الغربية من مثل:

صورة العرب في عقول الأمريكيين.

صورة العرب في الصحافة البريطانية.

صورة العربي في الأدب اليهودي.

الشخصية العربية في روايات أمريكا اللاتينية.

صورة العرب في القصة العبرية.

فهل من اثارة تثبت قبول الإسلام لمثل هذه المقترفات؟ الإسلام بريء ممن يخالف مقاصده ورحمته ورأفته وفي الحديث: «**من يحرم الرفق يحرم الخير**»، والله كتب

---

(١) تاريخ المقال: ٢٤/ ١٠/ ٢٠٠٠

الإحسان على كل شيء، وكل نفس رطبة فيها أجر، والبغي تدخل الجنة لأنها سقت كلباً، والمرأة تدخل النار لأنها حبست هرة، ومثير إعجاب الصحابة يدخل النار لأنه جزع فقتل نفسه متكئا على ذؤابة سيفه، والكلمة تقال في سخط الله تهوي بصاحبها في النار، وقاتل الذمي الكافر لا يرح رائحة الجنة، ومؤذية مؤذ لرسول الله ﷺ، ومصاحبة الوالدين الكافرين في الدنيا معروفاً واجب إسلامي، والبر والإحسان للكافر غير المحارب مطلب إسلامي، وطعام الكتابيين، والمحصناة من نسائهم حل لنا، والزكاة تدفع لفقراء الذميين على بعض المذاهب، والأنصار يعجبهم اللهو، والرسول ﷺ يخرج بعائشة لتنظر إلى الأحباش وهم يرقصون في المسجد، وفي المقابل حرم الحر والحرير والمعازف:

والـــــدين يســـــر والخلافــــة بيعــــة

والأمـــــر شــــورى والحقـــوق قضــــاء

ومن ثم فلا مجال لمصطلحات وممارسات همجية باسم الإسلام، وهي ليست منه في شيء، ولا مجال للمقارنة بين (الحكومة الدينية) و (الحكومة المدنية).

فالإسلام حكومة مدنية ودينية في آن، وهو الذي يحدد مشروعه ويصف مفرداته، وما يشيعه العلمانيون عن المؤسسات الإسلامية والفكر السياسي الإسلامي من حرب الشائعات، والفكر السياسي الإسلامي لا يتيح مجالاً (لولاية الفقيه) بانتظار المعصوم، ولا (السلطة المتدين) باسم الدين، ولا لفورية العودة إلى الحاكمية الإسلامية والاقتصاد الإسلامي في دول تورطت زمنا في العلمانية.

الإسلام يؤمن بالمرحلية والممارسة التكتيكية والتيسير، ويراعي مشاعر الناس ومصالحهم، وإن اضطره ذلك إلى الإبقاء على المفضول دون الفاضل، والرسول صلى الله عليه وسلم قال لعائشة: «**لولا أن قومك حدثاء عهد بكفر لأعدت بناء الكعبة على قواعد إبراهيم**» وما منعه من ذلك إلا ما رسخ في أذهانهم من مشروعية المفضول، وإذ لا يتيح الفكر السياسي الإسلامي المشروعية لعدد من الأنظمة، تراه لا يمكن (للارهاب والعنف)، ولا (للغلو)، ولا (للثورات الدموية)، ولا (للتسييس الثوري للإسلام) ولا لعسكرة الأمة كافة ولا لتسييس العسكر، الحكم والسلطة لله الذي يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، ولا يمكن في الأرض إلا لمن أقام شعائره وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وأنظمة الحكم والدساتير لا تقبل التلفيق، الحكم: إما أن يكون لله، أو ليكن علمانياً خالص العلمانية، ثم ليكن شجاعاً في تقبل الديموقراطية في المنشط والمكره، لا أن يجعل هناك خيارات تغيب فيها الديموقراطية عند الحاجة، وهل يجوز لأحد أن يستأثر بالحكم عن طريق الغلبة والسطو على الشرعية عبر أي طريق، ثم يقول هذه هي الديموقراطية؟ ولو قامت الديموقراطية لكان هو أول ضحاياها، ولعلي أذكر عشاق الدساتير الوضعية ممن يتماسون مع الفكر السياسي الإسلامي دون قواعد بما يجري في دول تدعي تطبيق الدساتير الوضعية من تعسف لا يمت إليها بصلة، ولنأخذ على سبيل المثال تركيا المتذبذبة بين دعوى الديموقراطية والعلمانية من جهة، وسلطة العسكريين القمعية من جهة أخرى، لقد قمعت حزب الرفاه ونفته، وهو المتصالح مع العلمانية والديموقراطية، والنافذ إلى الحكم بإرادة الأمة وبمقتضى الديموقراطية لا بقوة السلاح، لا لشيء أكثر من (أن نشاطاته تمس النظام العلماني للدولة) كما يشاع، وإذا رضي الشعب أي شعب بمرشح الحزب وبمشروعه، فلماذا تحمى العلمانية بقوة السلاح؟ وهل تتحقق الديموقراطية بفرض نظام علماني لا يحفل به الشعب ولا يراه؟ والعلمانية في العالم الإسلامي كافةعلمانية رسمية إعلامية، وليست شعبية، لأن عاطفة الشعوب العربية إسلامية، وممارساتها إسلامية في كل شؤون

الحياة: كالزواج والإرث والزي والعلاقات والعادات والهوى، وتلك مصيبة العالم الثالث ومفكريه وعسكره المتسيس، فهل أحد من علماني العالم الإسلامي يستطيع أن يتخلى عن كثير من الأحكام الإسلامية في الممارسة لا في القول؟ إن الروائيين الذين يشيعون الفاحشة عبر أدب الاعتراف، والنقاد الذين يدافعون عن الرذيلة ويباركونها من أولئك الساقطين باسم حرية التعبير يأبونها لنسائهم وبناتهم، وهل أحد ممن يدافع عن محمد شكري وإداورد الخراط وطاهر ومقلديهم يرضى لزوجته أو أخته أو ابنته ما يبيحه لداعر يسجل عبر كلام رخيص أحط الأخلاق؟

ورسول الله ﷺ خصم الشاب وهداه بهذا التساؤل العقلي حين جاء يستبيحه الزنا، والذين يتغنون بالديموقراطية من الحكام المتسلطين يأبونها لشعوبهم مثلما يأبى المبدعون والنقاد السقوط لمحارمهم، فلماذا يبارك المسلعنون لبلاغتهم ديموقراطية الادعاء ويدافع النقاد عن التفسخ الروائي، والمفكرون الإسلاميون الرافضون للادعاء والرذيلة يوصفون بأقذع الأوصاف، ويهدد قادتهم باتخاذ جماجمهم منافض للسجائر، وكل هذه المتناقضات يعيشها المتماسون مع القضايا ممن يصفون أنفسهم بالنخبويين، والحق أنهم جوف فارغون، وهل أحد من المغثين بطفح كلامهم الإعلامي من يستطيع أن يؤشر بإصبعه على واقع ديمقراطي (ثالثي)، حرمنا منه، ونعم به هو، والخطاب الثوري والنقد الحداثي يعملان على إخراجنا من عدل الإسلام وقيمه الأخلاقية بفرض العلمانية وشرعنة الفجور، دون أن يحققا لنا الدخول الصادق والكامل في علمانية الغرب وديموقراطيته، وشيوعية الجنس عنده، وقانا الله كل هذه الشرور وحقق لنا خير ما عندهم، ولو فعل الخطاب التوهيمي ما يدعو إليه لما عطلت الديموقراطية ممن يعبدونها على حرف، كما في (تركيا) المسلمة شعبياً، العلمانية رسمياً، الديموقراطية ادعاء، حتى لقد عبر (يلماز وهو شاهد من أهلها) عن استيائه من هذا الإجراء قائلا: إن إجراء من هذا النوع في دولة ديموقراطية مدعاة للأسف

وقد أبدت دول كبيرة غير إسلامية تخوفها من هذا الإجراء، وحذرت (تركيا) وقادتها من أنها قد تتعرض بسبب تصرف عسكرها العلماني لمثل ما تعرضت له (الجزائر) حين طرحت مشروعها الديموقراطي بمحض إرادتها، ولما أدى إلى ما لا يراه الممسكون بزمام الحكم حجبوا الديموقراطية تحت وابل من الضغوط الخارجية والتخوف الداخلي، وها هي الآن تكاد تفقد مشروعية الوجود وأهلية الممارسة، وها هو القتل الهمجي وتصفية الثارات القديمة المتعددة الدوافع باسم الإسلام المغيب، وها هو العالم المتماكر يفكر في التدخل ليكف أيدي الحكومة القائمة عن فعلها المشروع، كي يعود الاستعمار من جديد بعدما أخرج بمليون شهيد، وما يحاوله الرئيس المنقذ (بو تفليقة) ومن قبله (بو ضيان) قد لا يؤدي إلى نتائج تحقن الدماء وتوقف همجية القتل، هذا الإجراءات التعسفية في (تركيا) و (الجزائر) وفي (السودان) بعد إجهاض ديموقراطية (سوار الذهب) تحميها ترسانة البلاغة، وتتم في ظل التهجين الديمقراطي والعلماني، وهل أحد من متداوليها ادعاء يستطيع ان يقول ما يعتقد، ثم يأوي إلى أهله آمناً مطمئناً؟ لقد قالوها من وراء جدر البلاغة وترسانات الزعيق تحدياً للحاكمية الإسلامية وسخرية بحكم المؤسسات، وما أحد منا قال شيئا عما يراه ويسمعه عند أولئك حفاظاً على الود وتقديراً للغة والمصير المشتركين، وها هي القنوات المشبوهة والصحف الفضائحية تزرع في خواصرنا، وتلغ في سمعتنا باسم حرية الكلمة المتاحة لأذية الغير، وكأننا نشكل بأسلوب الحكم لدينا عار القرن وسبة الدهر؟ والهاربون من جحيم حكامهم لما يعرفوا بعد أن للفكر السياسي الإسلامي مقتضيات تستدعي الحرية المنضبطة القائمة على معرفة حدود القول، والمؤكدة على هيبة السلطان واحترام أهل الحل والعقد والذكر، والملتزمة بمتطلبات البيعة المقابلة للعقد

الاجتماعي، فالحاكم له حرمته، وله حدود التعامل معه، ومصلحة الأمة لها ضوابطها، والخروج على السلطة قولاً أو عملاً له ضوابطه وروادعه ومحاذيره، وما نعانيه من تقصير في المبدءين السياسيين: الإسلامي أو الديموقراطي ناتج من خطأ التطبيق، أو من التقصير في الفهم أو الفعل، وعلى ضوء هذا قد يقول البعض: ليس الخطأ في النظام الديموقراطي من حيث هو، وإنما الخطأ في التطبيق، ومن حقنا ان نقول لأولئك: هل الاعتراض على السياسة الشرعية ومستلزماتها من حيث هي إسلامية أو هو على التطبيق من حيث هو عمل إجرائي؟ لقد كررنا وما زلنا نكرر أن الاعتراض على الإجراء مشروع ومطلوب، ولا خير في القادرين إن لم يقولون كلمة الحق، ولا خير في المسؤولين إن لم يقبلوها، ولكن لم يكن أحد من أولئك حث على إبقاء الحاكمية وناشد تلافي أخطاء التطبيق، والدولة أي دولة مجموعة مؤسسات يحسن بعضها ويسيء البعض الآخر.

وليس هناك رجل رشيد يعترض على النقد الموضوعي، والمتماس الواعي كالطبيب البارع يتجه في مباضعه صوب الجرح ليحسم المرض والألم معاً، وما من تشريع طبي يسمح (بموت الرحمة) فضلاً عن القتل العمد، وإخواننا الناقمون يودون لو ندهن فيدهنون، ولكن أنَّى لهم ذلك، ومع هذا فإن العدل مع الذات ومع الغير وإن كان عدوا مطلب إسلامي، والله ينصر الدولة العادلة الكافرة، ويخذل الدولة المسلمة الظالمة، لأنه جل وعلا حرم الظلم على نفسه، وجعله بيننا محرماً، ولو أن الناقمين قبلوا تطبيق السياسة الشرعية، واقتصرت مؤاخذتهم على الخارجين عليها ممن يدعونها لكانوا من الناصحين، غير أن لحن القول يوحي بما في صدورهم من حقد دفين على الإسلام وأهله، والدليل على أن القنوات والصحف المناوئة تنفذ خطة مرسومة، تراهم يتخطفون الشائعات ويستهلون بها أخبارهم ويستدرجون الناقمين ويتعامون عن الحقائق، لقد جاءت (انتفاضة الأقصى) تعرية فاضحة لكل المزايدين، فأين المصداقية من أولئك حين ينقلون اطرافا من المظاهرات التي لا تتعدى طموحاتها ما عليه المملكة في موقفها من العدو؟ فالمتظاهرون يطالبون بإغلاق السفارات ولا سفارات عندنا، ويطالبون بإغلاق المكاتب الاقتصادية ولا مكاتب عندنا، ويطالبون بعدم التطبيع ولا تطبيع لدينا، ويطالبون بالدعم للانتفاضة، ولم يسبقنا إليه أحد، تطارد كمراتهم المتظاهرين وفق ما رسمته الدولة، ويتغافلون عن نقل صلاة الغائب في الحرمين الشريفين على شهداء الانتفاضة، وهي الأهم إسلامياً من الهتاف وإحراق العلم الإسرائيلي، ثم أين هم عن حملة التبرعات التي تفوق المتوقع؟ وأين هم من الإخلاء الطبي وتعليق الأوسمة؟ والمناوئون للحاكمية الإسلامية والفكر الإسلامي والقيم الإسلامية يصفون الغيورين بسوء الظن وسوء الفهم، ويرونهم أذى يؤجر من يميطه عن الطريق، وماذا فعلوا عند أزمات الأمة وأحداثها الجسام ومناسباتها السعيدة؟ وكل عداوة يرجى برؤها إلا عداوة من عاداك في الدين، والمتابع لحال النخب الممكَّن لهم في المشاهد الإعلامية يراهم يفيضون بالثناء على المذاهب والأفكار الغربية والأناسي المشبوهين ويطردون الغربة عنهم، ولا يذكرون منجز أمتهم ومبادرات إعلامهم وبوادر حضارتهم بخير، لقد خرجوا من يقين إسلامهم، ولم يقبلهم الآخر إلا سماسرة وأبواقاً فصاروا أعرافاً أو جنساً ثالثاً، ولقد تحملت الشعوب المنكوبة من نخبها نتائج تخللهم في نفايات الآخر، وتأذت من مغامرات فجة زجتها في أتون الثورة، ولم تخرج منها إلى دفء الدولة، فظل العالم الثالث ثائراً يتآكل مردداً ببلاهة: (اخنقوا رقاب السلاطين بأمعاء العلماء)، هذا العالم البائس بممارسة بعض نخبة يخلق عداوات بين (السلطة) و (الشعب) مثلما خلقت الشيوعية عداوات بين (الفقراء) و (الأثرياء)، فظلت تصفيات السمعة والأجساد قائمة، نشأت الريبة بين الحكام والمحكومين فضاعت الحرية، ونشأت العداوة

بين الأثرياء والفقراء ففقدت الرحمة، وانكمشت الأموال، فتآزر الفقر والبطالة على سحق الكرامة وتنشئة الأجيال على الحقد والجريمة، وقامت الدكتاتورية والفقر مقام الحرية والرخاء، وليس في السياسة الشرعية مجال لمثل هذه العداوة والتسلط، لقد أقبل فقراء المدينة يشكون لرسول الله ﷺ ذهاب أهل الدثور بالأجور، لأنهم يتصدقون ولا يتصدق الفقراء، وكانت وصية الرسول التطمينية: إن الله قد جعل للفقراء ما يتصدقون به من تسبيح وذكر، وحين علم الأثرياء زاحموا الفقراء صدقات القول، وانفردوا بصدقات العطاء، فما كان جواب رسول الله ﷺ إلا ان قال: «**ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء**»، وهو القائل: «**شر الأمراء من يكرهون الناس ويكرههم الناس**» أو كما قال، وهو المغلظ عقوبة الأمير الكاذب، فالإسلام يؤاخي بين الأمراء والأمة، وبين الأغنياء والفقراء.

فالصفاء والمحبة والإخلاص بين ولي الأمر والشعب لا يمكن ان تكون كما هي في النظام الثوري الذي يجرم السلطة ويتهم أهل الحل والعقد، ويمجد الخارجين على الشرعية دونما تقويم لخروجهم، ويخون الموالين، ويستعدي الفقراء على الأغنياء، وعلاقة الأثرياء بالفقراء في الإسلام القائمة على التعاطف والمحبة والعطاء والتكافل لا يمكن ان تسود في ظل الحقد والحسد ورفض التفاضل، والنظام الشيوعي يطارد الأثرياء ويصفهم بمصاصي الدماء، وهو مع من تبعه من الغوغاء يدعون إلى الثورة، والثورة عداء مستحكم بين السلطة والأمة، ولو نهضوا بمهمة الإصلاح ومعالجة الأمور بالتي هي أحسن والاشتغال بالمساحات الممكنة والمتاحة لكان خيراً لهم، الإسلام تلافى الصدام، وحاول أن يؤاخي بين الحاكم والمحكوم، وكره الفتنة، ولعن من أيقظها، وأكد على السمع والطاعة،، وحذر من الخروج، وجعل يد الله مع الجماعة، وأوصى بقتل من جاء ليفرق كلمة المسلمين، وشبه الخارج بالقاصية من الغنم، فالإسلام ضد الشحناء وضد التفرق والإعجاب بالرأي، والشاعر العربي حين أبدى لقومه نصحه، ولم يتبينوه إلا في ضحى الغد، قال: (وما أنا إلا من غزية) مؤكدا الانضواء وتغليب المصلحة العامة.

وإذا لم يف الحاكم بمقتضيات البيعة ألزم الأمة بإعطائه أكثر من فرصة، حقنا للدماء، واتقاء للفتنة، وحين كف الله أيدي الأمة عن أن تتطاول على الحاكم، تكفل بنصرها ورفع الظلم عنها، حتى لقد قال للمظلوم: «**وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين**» وكل ذلك لا ينافي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩] ولا ينافي: ﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ [الشورى: ٤١] وفي النهاية ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الشورى: ٤٢]، «**والظلم ظلمات يوم القيامة**»، والدخول في المعمار وإصلاح ما يمكن إصلاحه أفضل من رشقه بالحجارة، وماذا جره الخارجون على عثمان بن عفان رضي الله عنه، لقد فتحوا باب شر لم يغلق حتى الآن، وفي المقابل كيف عالج أبو بكر معارضة عمر لقتال المرتدين؟ وماذا كان من عمر؟ كانت المعارضة وكان الإذعان، فكان الثبات والقوة والعدل، والوالي المصلح يستشير ولكنه يحسم بالعزم والتوكل، ولا يتيح فرصة للمراهنين على واحدية الحل.

وما أورع عمر حين قال: (لست بالخب ولا يخدعني الخب) ويجب ان يكون حراس الفضيلة كذلك، لا يزلقهم تزوير الماكرين، ولا وعود المثاليين ولا لدد المخاصمين، وفي الحديث المتفق عليه: «**إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخَصِم**»، والمتماكرون مع الحاكمية الإسلامية من هذه النوعية، إن تصدي العلمانيين والثوريين لأنماط الحكم في الدول الإسلامية ليس دفعاً للظلم ولا رفعاً للمعاناة،، ليس هو من المعارضة المشروعة، ولو فعلوا مثل ذلك لكانوا خير مصلحين أخرجوا للناس، ولكنهم في نقدهم لا يعولون على

الممارسة الإجرائية، ولا ينظرون إلى النتائج، إنهم مستبدلون، وماذا هم واجدون لو نظروا إلى مقترفات الأنظمة المتبنية لمختلف الدساتير في عالمهم الثوري، ممن جاء رموزها إلى الحكم دون بيعة أو انتخاب، وهل الثائرون على الشرعية أهل (دين، وعلم، وعدالة)؟ وهي صفة أهل (الحل والعقد) في السياسة الإسلامية، أحسب أننا نَهِمُ ونُوهِم لو قلنا بشيء من ذلك.

قوانين التَّماس بين السياسة والإعلام .. ! (٨) [1]

وإذ لا نعترض على الانتخاب ونراه طريقاً للوصول إلى المسؤولية، لا نقبل الاعتراض على الاختيار بوصفه طريقاً مماثلاً، فلكل أسلوب محاذيره ومحاسنه، والاختيار أقدر على توفير الكفاءات وتنوع التخصصات وتماثل القدرات، بحيث تغطي كل متطلبات الشورى متى استطاع المختار تجنب الهوى، وهو أهل لذلك.

لقد طرحت في عالمنا الثالث زمن التماس القطبي والصراع الإعلامي تجارب دستورية متنوعة وأنظمة اقتصادية متباينة وأساليب حكم متعددة، وتقاسم الشرق والغرب أدمغتنا وأفكارنا، ومسرح أرضنا، ونقل معاركه الكلامية عبر أقلامنا وألسنتنا، فاستفحلت بيننا العداوة والبغضاء، وتلاحقت الثورات، وتعددت الشعارات، وتنوعت الخلافات، وقام التناوش الكلامي والعسكري مقام التعاذر، والتآزر تعددت الأسباب والخلاف واحد، حتى لقد تضخمت الأوهام، وكنا كمن يحسب كل صيحة عليه، وتبع ذلك تعاظم الادعاء واستفحال التصنيم، وانحرفنا بالولاء والبراء، فكان للحزب والزعيم والتراب، فكان أن تعددت الولاءات، وحين وصلت بعض الأحزاب والتنظيمات إلى الحكم على صهوات القاذفات والدبابات، أقيمت الحروف ولم تقم الحدود، خفت هدير المصانع وارتفع تلاسن المصلحيين، وزج مشرقنا البائس في حروب غير متكافئة، جذرت الهزيمة، واستمرأ الناس الخنوع، وعادت النخب كما الأثرياء المفلسين تفتش فيما عندها من أوراق قديمة آخذة بالخطاب الستيني كما هو، نيل مجحف ممن تبصر في أمره واشتغل في الممكن، واستعداء مريب للرأي العام على المتأملين والمتريثين.

والنخب التي تاهت في المنافي، اختياراً أو اضطراراً، وأغرمت بكل ماهو غربي، حصرت خيرها في الأنموذج الاستعماري، واجتهدت في توهين أنظمة الأمة ودساتيرها، ساخرة من المشروع وغير المشروع ومن الإسلامي وغير الإسلامي، وفاتهم أن أنموذجهم الغربي الذي يبشرون به مبتسر من سياقه نشز في سياقهم، ومن ثم لا يمكن أن يحقق في عالمهم ما حققه في عالم ذويه، ثم إنه في النهاية قناع للتوهيم والاستدراج، ظاهره فيه الرحمة وباطنه من قبله العذاب، وإذا كنا لا نعترض على المتأملين جهرهم بالاستياء مما يعانون، لأنهم مظلومون، والله لا يحب الجهر بالسوء إلا من ظلم، فإننا نود منهم التفريق بين الاستياء والإساءة، إذ ما يفيضون به يعد من سيئ القول ومسيئه، وليس من الاستياء المشروع، ووسائل الإعلام البراقشية تدفع كل يوم مع قالة السوء برؤى وتصورات أقرب إلى الأحلام المثالية، مؤكدة أن متعاطيها بلا ذاكرة وبلا تاريخ، وإذا قيل لهم تعالوا إلى كلمة سواء، أخذتهم العزة بالإثم، فحسبهم الفشل الذريع والإحباط المريع.

ومما هو جدير بالإشارة في هذا السياق ما جاء في مقال لأحد الكتبة السياسيين بالدراسة لا بالممارسة عن المفارقات الديموقراطية في العالم الثالث، إشارته إلى ممارسة الديمقراطية في غياب مؤسساتها، وقيام التربية والتعليم على ترسيخ وعي مناقض للديمقراطية، وما جاء من بعده عند كاتب آخر درس ومارس، وهو بصدد الحديث عن العنف الأعمى في الجزائر مشيراً إلى عشر عبر منها: أنه حين تصبح اللعب السياسية بلاقواعد فإن كل شيء يصبح جائزاً ومستباحاً، وهذا واقع المتماسين مع المشاريع السياسية في عالمنا، وهو ما حفزني على البحث عن قواعد للتماس بين السياسة والإعلام، وقد بثثت طرفاً منها، فهل يريد لنا الناقمون المسخ واللاقاعدة؟ وهل يريدون منا أن نعود بعد إسلامنا كفاراً يضرب بعضنا رقاب بعض؟ والمشتغلون بوضعنا المزلقون بأبصارهم،

---

(١) تاريخ المقال: ٧/ ١١/ ٢٠٠٠

ماذا قدموا للمتأذين من أنظمتهم؟ بل ماذا قدموا لأنفسهم؟ وهل أحد منهم يستطيع أن يتماس مع أوضاع قائمة، لا يحسن السكوت عليها، حتى لم يبق أمامهم إلا ما نحن عليه؟ فمع حمامات الدم التي تلتطم في الأسواق والأحياء والمساجد في بقاع كثيرة من بلاد المسلمين، ومع الفتن العمياء والقهر والتشرد وضياع المثمنات في دول تتوفر على أعماق اقتصادية وزراعية ومعدنية وبشرية، نجد من يضرب عنها صفحاً، ويأتي بروح عدوانية إلى شعوب آمنة مطمئنة متصالحة مع حكامها، مستغلة الممكن بالمستطاع من الجهد، موغلاً في نقد أنظمتها ومؤسساتها ورجالاتها وطرق اختيارها وأساليب ممارساتها، ليوغر الصدور، ويزرع الشكوك، ويخلخل الوحدة الفكرية، لا لشيء أكثر من أنها دول إسلامية، اختارت ذلك الطريق محققة رغبة شعوبها مستجيبة لعواطفها الجماعية، والتاريخ يعيد نفسه: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [غافر: ٢٨]، ولو كان أولئك المؤاخذون يودون الخير لتلك الشعوب، لكان بإمكانهم أن يتعمقوا في قراءة الأوضاع القائمة: خليجية كانت أو عربية، واستبانة أوجه النقص، وهي كثيرة وقابلة للنقد والإصلاح، والتساؤل الملح: لماذا تخلق العداوات، وتحشَّد المشاعر، ويفرق بين الأخ وأخيه والمرء وزوجه؟ لماذا لا تنتقل النخب المتصدرة للتخطيط والتوجيه من الصدام إلى الحوار ومن الفضائح إلى النصائح؟ ولو كان المصابون بداء: إذا مت ظمآناً فلا نزل القطر يعايشون واقعهم بذاكرة واعية لا ستعادوا الثورات الدامية والأنظمة المتعاقبة والحروب الطائفية والعرقية والمذهبية والحزبية والحدودية التي شرعنت القتل المجاني، ونزروا بعيون مبصرة إلى واقع الأمة الأليم المصنوع بأيدي أبنائها وبمباركة أعدائها، ولو كانت لهم عيون تبصر وآذان تسمع وقلوب تفقه لكان لهم خطاب آخر ورسالة أخرى، تجمع القلوب، وتوحد الكلمة، وتشيع الثقة بين الراعي والرعية، فإلى متى يظل السيف المصلت على رقاب الأقربين بأيدينا، والألسنة الحداد الوالغة في أعراض الأهل والعشيرة بأفواهنا وشهوة الفتنة والقتل في قلوبنا؟ دعونا نستبدل المحراث بالسيف، والأنامل المبدعة بالأظافر والأنياب، والثقة بالارتياب، والمحبة بالكره، لتذوق الأجيال برد الأمن والاستقرار، ولا تدعوا للإعداء ثنية للغزو أو التآمر، إن العاقل من وعظ بغيره، فيكف بنا لا نتعظ بأنفسنا، تمر بنا الأحداث المؤلمة المرة تلو الأخرى، ثم لا نأخذ حذرنا، لقد ذكرنا همز أولئك ولمزهم بخطاب الثوريين العسكريين الذين خدرونا في الوهم، ولم نصح إلا على حوافر العدو، تمشي على ظهورنا، وتمزق أشلاءنا، محققة الانكسار الموجع، الذي خلفنا عشرات السنين، وأذلنا بين شعوب العالم، وحملنا على استبدال السلام والتطبيع والهرولة والأخذ بالأحضان وتبادل الزيارات والسفارات باللاءات الثلاث، وحق لنا أن نسأل عن غياب الملايين من البشر، وما كانوا يتمتعون به من شرف وإباء ورفض للذل، أين هم من بني صهيون الذين ساموا الخسف، وعفروا كرامتنا، ونتساءل باستنكار: أين المصافحون والمهرولون والمطبعون والمبادلون سياسياً واقتصادياً وثقافياً من وحشية الصهاينة في مواجهة انتفاضة الأقصى التي راح ضحيتها أكثر من مئة وعشرين شهيداً وثلاثة آلاف جريح منهم ثمانمائة مشلول؟ وأين الذين يمولون الحرب الكلامية ضد أعماقهم الجغرافية والبشرية والاقتصادية والثقافية من فظائع اليهود؟ وكيف يبررون الصفقة الإعلاميةلقناة الجزيرة مع الكيان الصهيوني حسبما ساقه أحد المتابعين؟ ثم أين أولئك المجندون للنيل منا من مجنديهم إن كانوا صادقين؟.

إننا بحاجة إلى أن تكون المشاعر الهوجاء وراء العقول الرزينة، والسفهاء الطائشون وراء العاقلة، والصغار المبتدئون خلف الكبار المجربين، فما عدنا بحاجة إلى مزيد من الانهيارات وتعميق الإحباط وجلد الذات والمزايدات الرخيصة، وإن لم يرعو أولئك،

فلماذا نظل أبداً في خنادق الدفاع؟ لماذا لا ننبذ إلى العلمانيين والتنويريين والمزايدين وفلول الثوريين والمتعلقين على سيقان خشبية على سواء، ونتخلص من تكتيك الدفاع والنفي وتصريح المصدر المسؤول إلى استراتيجية المواجهة لمن يتطوعون بقيادة الحملات الإعلامية على مشاريعنا ومثمناتنا ورجالاتنا، لماذا لا نعري دعاة العلمانية الذين أغثونا بالحطيئيات الممجوجة؟ أنظل في انتظار من يرشقنا بالبيض الفاسد؟ ثم ننهض لمسح وجوهنا والخفت التبريري الاعتذاري، مع أننا نملك أوراقا رابحة وشواهد نجاح ملجمة، ووثائق إثبات لمواطآت مخلة عند من يجندون أنفسهم للنيل منا، لقد احترمنا بما فيه الكفاية، وصمتنا بما يكفي لإتاحة الفرصة لمراجعة النفس، والاحترام والصمت والصبر حينما لا يكون لها حدود يتحول الحلم إلى مهانة والتواضع إلى ضعة، لقد احترمنا الأنظمة كافة على اختلاف مرجعياتها، وتصالحنا معها، وتمنينا لها ولشعوبها الرخاء والاستقرار، كففنا ألسنتنا عن اللغو، وبسطنا أيدينا بالعطاء، واتخذنا سياسة عمر في شراء أعراض المسلمين من الشعراء الهجائين، إذ كلما تقطعت الأسباب بحداثي أو علماني أو ثوري طائش وصلنا حبله وأقلنا عثرته، وأخذنا بخلق العفو عند المقدرة واقتصرنا على مبدأ تأليف القلوب، وفاتنا استذكار: ﴿وَلَن تَرْضَى﴾ ... [البقرة: ١٢٠] ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ ... [البقرة: ٢١٧] إننا نسمع بين الحين والآخر من يتخلل بلسانه مزعجا سكوننا معكرا صفونا، مع مانحن عليه من عفة لسان وتدفق إحسان، وإذا لم نظفر بسلامة الأعراض فلا أقل من ألا نفرط بالعروض، ومع أننا لو حققنا ود أكثر الناس، وأعطينا الدنية في ديننا، وأنفقنا ما في أيدينا لوجدنا من يقول مثل قولهم، حتى لكأننا نستدعي قصة جحا مع حماره وابنه، الأمر الذي اضطره في النهاية إلى حمل الحمار على ظهره، ولينجو من سلق الألسنة الحداد.

إننا أمام هذا الإيذاء بحاجة إلى أن نحمل الحمار على ظهورنا، لنرضي الفضوليين والحاقدين، وما أشد عجبي حين نظل مادة علك رخيص، حتى إذا جد الجد وادلهمت الأمور، تحركت صوب أرضنا ورجالاتنا وإمكانياتنا الرحلات المكوكية يحط قائد ويقلع زعيم، فأين أغيلمة السلعنة البلاغية وهواتف العملة من ذلك الحضور الفاعل؟.

والذين يلمزون المطوعين بالمساعدات، يلمزونهم في الإصلاحات الداخلية، ثم لا يفرقون بين الهدف والوسيلة، إذالشورى والاختيار وسيلة، والهدف ما يتحقق من نتائج يراها الناس رأي العين، والمجالس البرلمانية والانتخاب وسيلة والهدف ما تحققه من فعل لا نجده في مشرقنا بمثل ماهو عليه عند الغرب، والوسائل بمعزل عن الأهداف أشكال وصور، تختلف من عصر إلى عصر حسب ظروف كل أمة، ولو استعرضنا التاريخ السياسي للمسلمين لوجدنا تحولات كثيرة في الوسائل والأهداف تمليها الظروف والغايات، وما من أحد من اللامزين من عالج تلك الوسائل والغايات بأسلوب حضاري، يسعى لتحقيق المصلحة، والمؤلم أن خطاب أولئك يقوم على عدم الثقة، فيما يقوم الخطاب الإسلامي على الثقة وحسن النوايا.

وحين نشارف على النهاية، ولما نقل بعد مانريد، نعود مرة تلوى الأخرى، لنذكر بما قلنا من قبل، وبما نود أن نكرر القول فيه، فنحن أمام قوم وضعوا أصابعهم في آذانهم، واستغشوا ثيابهم، وأصروا، واستكبروا استكباراً، يستمرئون الجدل، ويستعذبون اللجاجة، ويتعشقون المغالطة، وكأنهم سوفسطائيون يرون التلاسن جزءاً من الرياضة، يمارس لذاته، وما علموا أن حصائد الألسن تكب الناس على مناخرها في النار، لقد ركز بعض أولئك الناقمين على ماجد من مؤسسات، وحاولوا التقليل من شأنها والنيل من قيمتها، حتى

إذا ألجمتهم الحقائق، قال قائلهم: هذه مؤسسات متأمركة جيء بها ذراً للرماد وتوهيماً بالديمقراطية، ويعود حمار جحا للمرة الألف، وتظل أمريكا الشيطان الأكبر، تخدر بلعنها الآلام، وتسكن بمنازعتها الأوجاع، وفي هدأة الليل يكثر المتسللون لمضاجعتها والحالمون بودها والمتبرجون لها، وكيف يمكن إنكاح الثريا سهيلاً؟ بحيث نتأمرك بالشورى والاختيار وتحكيم الشريعة، ورفض التطبيع والمصافحة وممارسة الدعم السخي للانتفاضة، وهل نكون أمريكيين حين لا نتعملن ولا نتعولم.

وبصرف النظر عن كل الغيظ الذي يموت به الناقمون فإن الحاكم المسلم في عملية الاختيار لمجلس كمجلس الشورى بالذات بوصفه مفردة من مفردات السياسة الشرعية لا المحاكاة أو الإرضاء الأمريكي، يتوخى أموراً كثيرة، ويعد للاختيار عدته، فالشورى ليست في أمر واحد ولا في قضية واحدة، وهؤلاء النفر الذين اختارهم ولي الأمر، ليسوا على وتيرة واحدة، وليسوا في مستوى ذهني وعقلي واحد ولا من بلد واحد أو من عشيرة واحدة أوفي سن واحدة، إنهم متفاوتون في أمور كثيرة، الأمر الذي يبعث على الاطمئنان والثقة، وهم بمجموعهم المتباين والمتنوع في كل شيء، يشكلون الأفضل نسبياً، والمثل السياسي الإنجليزي يقول: ليست هناك حكومة ممتازة، وإنما هناك حكومة أفضل من حكومة، وأمور الإسلام تقوم على التغليب، وليس على محض الخيرية، ولهذا قال تعالى عن الخمر والميسر: فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما، فالشر والخير الخالصان غير قائمين في الحياة الدنيا وفي إنسانها، الإنسان خليط من الخير والشر والشهوات، تصطرع فيه الأنفس الأمارة واللوامة والمطمئنة، ويجري منه الشيطان مجرى الدم، وتقاوم الفطر السليمة التي ولد عليها إفساد الأبوين بوصفهما النواة الأولى للمجتمع، ومهمة الإسلام قمع الشيطانية في الإنسان، ومعاضدة الفطر السليمة ليغلب الخير الشر، وحين نثق بأمانة الوالي، لا نراهن على تفوق المختار، ولا على نجاح المشروع، وإنما نطمئن على كفاءته بما يظهر لنا.

والاختيار الذي يتم، لا يجري اعتباطاً، إنه يتم وفق ضوابط متعددة، تراعى فيها أمور كثيرة وحسابات دقيقة وخيارات عديدة، من أهمها: الدين، والعلم، والأمانة، والحفظ، والقوة، والعدالة، والتجربة، ومناسبة المختار للمكان، وسد حاجات المجلس بالتنوع، ولهذا حين يصدر الأمر بالتشكيل الوزاري أو الشورى أو غيره، يعود المرء إلى نفسه وخبرته ومعهوداته الذهنية، يقلب الأمور ويتساءل، ما الأسس التي قام عليها هذا الاختيار؟، هذا الإنسان المجهول الذي لا يعرفه المتابعون، ولا تحفل به وسائل الإعلام، ولم يسمع له صوت على أي مستوى، وكأنه صاحب الطمرين الذي لو أقسم على الله لأبره، فجأة يكون وزيراً أو نائباً أو مستشاراً، والسؤال: مالذي جذبه فجأة من الهامش إلى المتن؟، هل اشترى المنصب كما تشتري الأحزاب أصوات الناخبين؟ هل حمله حزبه على الأكتاف ليفرضه بقوة الحزبية لا بكفاءة التكليف؟ وبعد أن ينجلي الغبار، تجد أن هذا الشخص يمتلك قدرات ذاتية وتخصصية وعملية، عرفها ولي الأمر الذي بحث المكلفون بالترشيح عنه في كل مكان، يأتي من نجران أو الباحة من الشمال أو الجنوب، كما يأتي من الرياض أو جدة، يحمل مؤهلاً من أمريكا أو من فرنسا أو من مكة المكرمة: عالماً أو طبيباً، مزارعاً أو تاجراً، متقاعداً أو موظفاً، كبير السن أو صغيره، من أسرة أو قبيلة، أو من عامة الناس، حتى إنك لا تستطيع أن تجمع بين ثلاثة يتشابهون في أمور كثيرة، هذه الإمكانيات الذاتية فرضت ذلك الإنسان المغمور على فريق البحث عن الكفاءات الذين ندبهم ولي الأمر، ليكون مختاراً لهذه المهمة، قد يكون هناك من هو خير منه، ومن هو أحق منه، إذ التوفيق البشري نسبي، مع أن مثل هذه الخيرية كامنة وخفية، قد لا تكون بمستوى التوقع وقد تكون فوق التوقع، وفريق البحث بشر، لهم عواطفهم ومحدودية

علمهم ومصادرهم التي قد لا تكون في مستوى القضية، ومهما كانوا عارفين مخلصين، فإنها ستكون لهم نسبة الخطأ المتوقعة من مثلهم، وليس من اللائق أن نزكي أحداً، ولكن الوقائع والنتائج تحملنا على التفاؤل والاطمئنان، وتوجب علينا قول الحق، ومتى فرض المسؤول نفسه بأخلاقه أو بأفعاله، وجب علينا أن نقول بعد قول الصدق: نحسبه كذلك، والله حسيبه، أو نحسبه كذلك، ولا نزكي على الله أحداً، والله يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢]، والرسول ﷺ يقول لأحد المادحين محذراً: «**قتلت صاحبك**»، أو كما قال بأبي هو وأمي، ومع هذا فمن حق صاحب الفضل أن نعرف له فضله، ولا يعرف لذوي الفضل فضلهم إلا الفضلاء، والذين يظنون أن المختار يحكمه إنعام المتفضل عليه بالاختيار وأن ولي الأمر لا ينظر إلا إلى الولاء يهمون ويوهمون.

والفكر السياسي الإسلامي يرفض غير المؤهلين، ألم يقل المصطفى ﷺ لطالب الإمارة: «**إنك رجل ضعيف**» ألم ينهه عن أن يتأمر على رجلين، كما أنه لا يرى للمسلم طلب المنصب لاعتماده على الاختيار بوصفه مفردة إجرائية، والانتخاب الديمقراطي تسبقه عمليات الترشيح الحزبي أو الذاتي، وهي عين المسألة والحرص والطلب، والغربيون لا يجدون غضاضة في ذلك لأنهم ربوا على ذلك، وطالبوا المنصب من المسلمين يحتالون لذلك، لأن تربيتهم تقضي بالترفع عن الطلب ولكل حضارة أخلاقياتها، وهل الناخبون يطرقون أبواب الكفاءات؟ أو أن المرشحين لأنفسهم يتملقون الناخبين، ويمنونهم بالوعود والمشاريع، وكل حكومة تتملق الشعب بمشاريعها وتكتظ الشوارع الانتخابية بالدعاية والوعود والملصقات، وقد تقوم المظاهرات والصدامات، وتتعرض مصالح البلاد للفساد حين يفتضح الأمر ولا تكون النزاهة، أو حين ينكشف التزوير وشراء الأصوات، وقد يحدث الصدام بسبب صراع الأحزاب على السلطة لذاتها لا لمصلحة الأمة، وفي العالم النامي يكون التزوير وتكون المظاهرات ويكون الشغب حتى إن المسؤولين عن عمليات الانتخاب لا يقدرون على توفر النزاهة إلا بمراقبة أجنبية، ومن المهازل ألا يتحقق الصدق إلا بمراقبة أجنبية، وكم نسمع عن إجهاض النتائج الانتخابية، وقد أجهضت في مواقع كثيرة، ومع الوعود الباذخة والأماني المعسولة من الأفراد المترشحة والأحزاب المتقدمة بمرشحيها، هل وفى منتخب أو حزب بوعده لناخبيه؟ اقرؤوا إن شئتم وعود الرؤساء في أمريكا ونكولهم عن وعودهم بعد الفوز، وأمريكا بلد الديمقراطية والصدق مع النفس وهي قبلة المراهنين، فأين مشاريع الأحزاب قبل وصولها إلى السلطة؟، يقال هذا في الدول المتمثلة للديوقراطية النزيهة في الانتخابات، ولا يقال بحق من أغثونا بالرغاء، فهؤلاء خلق آخر، ثم إن الاختيار الذي يعده الناقمون فضلاً وكسباً للولاء، ويتهمون أولياء الأمور بالتركيز على الولاء دون الكفاءة، قد لا يكون في صالح المرشح مادياً أو وظيفياً، إذ قد يعرضه لتعطيل مشاريعه الخاصة حين يكون متقاعداً أو رجل أعمال، وقد سمعت من بعض الزملاء المرشحين لمجلس الشورى تمنيه ألا يكون عضواً، لأنه قد يتضرر مادياً، وقد يضطره الترشيح إلى ترك بلده وأهله وأولاده أو التردد في الأسبوع مرة أو مرتين لمقر مجلس الشورى، وهو في موقعه السابق يخدم وطنه بحيث يراه أفضل من موقعه الجديد، والدولة تطرق أبواب الكفاءات الغافلة، وتصرف نظرها عن المشرئبين، والمهرجون يحسبون أن الدفاع عن مؤسسات الدولة من أجل التمسك بالمنصب، أو التملق للدولة، نحن لا ننكر أن الدولة أي دولة لا تخلو من متملقين ومرتزقة وأصحاب مصالح ذاتية يغثون بمدائحهم، ولو قلنا غير ذلك لكذبنا على أنفسنا، وسقطنا من أعين الناس، وفقدنا المصداقية، وما من عاقل يعرض نفسه

لفقد المصداقية، وهو في غنى عن مثل ذلك، وهذه القلة أو الكثرة من المتزلفين النفعيين قد ينخدع بهم ولي الأمر، ولهذا نجد العلماء والخطباء يكررون في خطب الجمع والأعياد الدعاء بأن يرزق الله ولي الأمر البطانة الصالحة الناصحة، وأحد الأئمة الناصحين يقول: لو كان لي دعوة مستجابة لجعلتها لولي الأمر، فبصلاحه تصلح الأمة ويستقيم أمرها.

ولو عرف الشامتون طبيعة البلاد وأهلها، لما قال قائلهم ما يحسبه حقيقة موجعة.

لقد طرقت الدولة أبواب أناس لم تسمع منهم كلمة ثناء واحدة، وعدلت عمن حفيت أقدامهم في سبيل التعرض للمناصب، وبحت أصواتهم بالثناء المكرور، على أن من الممارسين للثناء من يعبرون عن آرائهم الذاتية، يحملهم على قول الحق ما يرونه، وما يسمعونه من تجن متعمد ونيل مغرض لمثمنات بلادهم الشخصية والمعنوية، والصامتون ليسوا بالضرورة ناقمين، والمادحون ليسوا بالضرورة صادقين، وما على المشككين في جدوى الاختيار إلا أن يتعقبوا سير المرشحين، ليروا أن الدولة جادة مجتهدة ناصحة، ولا نزكيها على الله، وما يعتريها من نقص فإنما هو من خطأ الاجتهاد، لقد أشار الدكتور فهد الحارثي الذي ظلم نفسه حين رضي بمواجهة الفارغين الحاقدين في مقالاته الأربعة التي لملم بها أطراف اللقاء الصاخب مع أحد المغرمين بمشاريع الغرب، ونشرها من بعد في جريدة البلاد إلى كفاءات استثنائية في مختلف التخصصات، ظفر بها مجلس الشورى في تشكيله خلال الدورتين الماضية والقائمة، ما كانت حاضرة الذهن العام، هذه الكفاءات وأمثالها ليست لها شهرة الصحفي أو الكاتب أو الثري أو السياسي أو القبلي أو الأسري، ممن طرحوا عبر وسائل الإعلام، ولكن الحفريات والتنقيب والتحري استدعت أمثالهم للمسؤولية التي تقدر الكفاءة بصرف النظر عن أي اعتبار آخر، على أن الاختيار الذي يراه العلوي في مواجهته للحارثي ثمنا للولاء لا يؤخذ فيه رأي المختار، وقد لا تحقق رغبته، أما الانتخاب فيأتي في أعقاب الاستماتة من أجل الفوز بالمسؤولية، ومع كل ما سبق فلسنا بصدد المفاضلة أو التقصي أو إدانة الانتخاب.

والجدل حول الاختيار والانتخاب والديموقراطية والشورى لا يكون برفع جانب وإسقاط آخر، بحيث لا تخرج العملية عن لعبة الأضداد وتمايز الألوان، فالاختيار له مميزاته في سياقه الإسلامي، وله محاذيره، له إيجابياته وسلبياته، والانتخاب في سياقه الديمقراطي له مميزاته، وله إيجابياته وسلبياته، وفي النهاية فالانتخاب والاختيار أسلوبان مشروعان، كل في سياقه وحيثياته وظروفه، وليست العملية خيرا محضا ولا شرا محضا، ولو أن ولي الأمر أراد الانتخاب، وأعد له عدته، وانتفت المحاذير، لكان من واجبنا القبول والدعم.

والإشكالية ليست في الإجراءين، وإنما هي في إتقان العمليتين كل في سياقه، فهل ديموقراطية العالم الثالث مثل ديموقراطية أمريكا؟ وهل إسلامية المسلمين اليوم كإسلامية الخلفاء الراشدين؟ وهل الشعوب الإسلامية اليوم مثلها في زمن الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين؟ وهل خلفاء بني أمية وبني العباس كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي؟ الخيرية موجودة في أمة محمد إلى قيام الساعة، ومرد كل نظام أو إجراء إلى النتائج، والسؤال المفحم، هل العلوي الساخر بالاختيار يستطيع أن يقدم لنا في محيطه انتخابا نزيها؟ ونحن واجدون في الاختيار المتوازن الذي تمارسه الدولة، استجابة للقضايا المتنوعة التي يواجهها مجلس الشورى، فهل السبيل الأمثل لتوفر التخصصات بفضل الانتقاء الدقيق والتنويع الشامل وحفظ التوازن، المجلس عندنا يواجه قضايا: تربوية، واجتماعية، واقتصادية، وعلمية، وزراعية، وترفيهية، وسياسية، وأمنية، ووظيفية، وعمالية وغيرها، ولا يمكن أن تواجه بنمط بشري واحد وبتخصص علمي واحد، فالمجلس الذي تنثال عليه القضايا والمشاكل من كل جانب، بحاجة إلى متخصصين: شرعيين، وفكريين، وعلميين،

وسياسيين، واقتصاديين، وهو بحاجة إلى مجربين من رجال أعمال، ومزارعين، ورجال أمن، يحتاج إلى فرق عمل، وشعب تخصصية، لكي تكون القضايا المعروضة بأيدي فئات متخصصة، ولهذا فاللجان المشكلة في المجلس إنما شكلت لتواجه هذه القضايا المتنوعة، وأحسب أن الانتخاب خارج سياقه الديمقراطي قد لا يوفر الحاجة بقدر ما يوفرها الاختيار، هذا على افتراض أنه من الممكن الترقيع، نقول هذا ونحن نرصد كل الهنات المتوقعة، ونعرف ما ينقص المجلس، والمجلس يتلقى النصائح والمقترحات والتوصيات، والدولة تحدث كل يوم تعديلا، وتبدئ وتعيد، والمجلس مجموعة من المواطنين، يخطئون، ويصيبون، ولسنا من ذوي التقديس والتصنيم ورهان النجاحات، فحين أحيل نظام العمال إلى مجلس الشورى بادرت إلى تحذيره من المجازفة، وكشفت له إشكالية العمالة، وطالبت بحل المشاكل القائمة قبل صياغة النظام الذي يصوت عليه أعضاء المجلس، بعد ذلك واجه المجتمع حملة أمنية شاملة قوية بهرت المواطنين وانتزعت إعجابهم وتقديرهم لرجال الأمن، وجعلت المواطن يطمئن إلى كفاءة أجهزته الأمنية متى أصرت على مواجهة أي مشكلة، وفعلت مثل ذلك عندما قام المجلس بدراسة مشروع مجمع اللغة، وكما أشرت فالأمور تغليبية، وليست مطلقة، ومانتطلع إليه في نهاية المرافعة أن يعي اللاعبون قواعد اللعبة، وأن يتخلى المتصدرون للنقد والتوجيه عن عواطفهم الهوجاء وأهوائهم المؤلهة، فأوجاع الأمة ونكساتها لا تحتمل المزيد، ولا أحسب الدروس القاسية التي تلقيناها من الثورات والهزائم والحروب الإقليمية تحتاج إلى مزيد، وإذا لم نع مشاكلنا ونتقن أسلوب مواجهتها بعد الثمن الباهظ الذي دفعناه طوال قرن من الزمن، فإن الأمل بالوعي المستجد من دروس أخرى سيكون ضعيفا، والله وحده المسؤول أن يجري الحق على ألسنتنا.

وينفض سامر ندوة الخميس .. ! [(١)]

عمالقة الفكر والأدب، منهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر والموت غاية كل حي، ويجب أن نستعد لما بعده.

إذا مات الاستثنائيون هل يخلد من دونهم، الموت حق ونهاية طبيعية لكل حي، ومن ثم فليس غريبا أن يقال: مات فلان وما من صرخة وضع إلا وتليها أنة نزع طال الزمن أو قصر والاسلام أباح الحزن والبكاء، ولكنه منع السخط والاعتراض على القضاء.

والمسترجعون الصابرون المحتسبون موعودون بصلوات الله ورحمته وهدايته.

وعلامة الجزيرة حمد الجاسر حين يموت يحس الوسط الفكري والأدبي والعلمي بفراغ، وينتاب أفراده الألم والحزن فشخصية كالجاسر من العمالقة، والعمالقة يتركون فراغا وقد لا يسد مكانهم، والأمة حين تصاب بنخبها ينتابها الألم والاحساس بالوحشة ولكنها تتجاوز محنتها بالتصرف الايجابي إذ الموت من النوازل المرتقبة.

عرفت العلامة في مطلع حياتي ورجعت إليه واستزدت من علمه وأنا أعد رسالة الماجستير عن اتجاهات الشعر العربي في نجد وكان يرحمه الله حفياً بمن يتزود من معارفه، وتعمقت صلتي به فيما بعد وكنت كلما زرت الرياض هاتفت الزميل سهم الدعجاني لترتيب زيارته وحضور ندوته التي يعقدها صباح كل خميس.

وكان يؤتى به يتهادى بين رجلين حتى إذا أخذ مكانه بين طلبته ومحبيه تجلت امكاناته وبهرتك سماته المعرفية وتدفقت مشاركاته وكانت ندوته رحمه الله ملتقى الأدباء والعلماء وكبار المسؤولين وكان في نيتي أن أزوره في ندوته ولكنني فوجئت بمهاتفة الاخوة بجريدة الجزيرة، ثم سمعت ذلك من بعض القنوات الفضائية.

والعلامة حمد الجاسر من أعلام الفكر والأدب في الوطن العربي وله اسهاماته ومشاريعه التي ستكون مدرجة واضحة المعالم لكل المهتمين بتاريخ الجزيرةالعربية وجغرافيتها، وقد انجز الكثير في هذا المجال، حتى لقد أثنى عليه عمالقة الفكر والأدب ولا أحسبني قادرا على تناول مشاريعه العلمية والتاريخية في لحظة ألم كهذه، والأوفياء من أصدقائه وأبنائه والمستفيدين من علمه الغزير سيغطون جوانب مهمة من حياته الحافلة بجلائل الأعمال، وسوف يواصلون ما انقطع بموته لكيلا يترك موته فراغا في مجال مهم.

لقد كان رحمه الله جواب أرض تقاذفته فلوات وراء تراث الأمة العربية والاسلامية في مكتبات العالم وكان دأبه ودربته ودرايته سببا من أسباب اكتشاف كنوز الحضارة الاسلامية المبعثرة في مكتبات العالم، وكم من اكتشاف حققه غير به المسلمات ووصل به الحلقات، ولأنه خبير بالتراث حفي به فقد كان له اسهاماته التي يثمنها أرباب صناعة الكتابة.

وما من عمل جليل في خدمة التراث إلا كانت له اليد الطولى.

ولعل آخر مشاريعه مجلته العلمية العرب حيث رصد من خلالها أعمالا في غاية الأهمية واستمر يغالب الظروف الصحية والمشاغل والطموحات الواسعة حتى أدركه الموت، وعلى الرغم من اعتلال صحته وضعف بصره وتقدم سنه فقد ظل حاضرا بمقالاته ومجلته وندوته التي يحضرها كبار العلماء والمسؤولين.

ومما يثلج الصدر أنه كان في حياته محظياً بالاحترام والتقدير من كل الأوساط الرسمية والعلمية، وقد حصل على جائزة الدولة وجائزة الملك فيصل ومنح الأوسمة وشهادات التقدير، وهيئت له الأجواء المناسبة لمواصلة العطاء.

---

(١) تاريخ المقال: ١٥/ ٩/ ٢٠٠٠

رحم الله الفقيد واسكنه فسيح جناته والهم أبناءه الصبر والسلوان.

ومن حقه علينا الدعاء بالمغفرة وتضافر الجهود لمواصلة مسيرته وحفظ تراثه واعادته إلى المشهد الثقافي عبر دراسات أكاديمية وتطوعية والاجتهاد في سد الفراغ الذي سيتركه.

من كل شيء إلى لا شيء .. ! [1]

كل الطرق تؤدي إلى اسرائيل.
لا شيء يأمله العرب في ظل اللوبي الصهيوني والاستجابة الأمريكية.
ولكن القشة تفتح كل الآمال أمام الغريق.
بوش الابن.
وآل جور.
متنافسان بين أن يكون أحدهما كل شيء.
فيما يكون الآخر لا شيء.
ولما كان الفوز حياة استثنائية وكأنها بوش الابن.
والاخفاق موت استثنائي وكأنه آل جور.
فقد فكرت طويلاً وتساءلت: كيف يستقبل الفائز خبر الفوز، وكيف يحتمل الفاشل فداحة الصدمة؟
ثم عدت اسأل عن عظمة الشعب وصدق الديمقراطية وأقول للذين قتلوا فينا بصيص الأمل:
كيف أنتم مع قادتكم؟
وجلست أتصور المسافة الضوئية بين الادعاء والحقيقة، ليس هذا مهما فقد افضنا بالحديث عن قوانين التماس بين السياسة والاعلام.
الشيء المبهج والمسعد في نتائج الانتخابات الأمريكية ان اللوبي الصهيوني قد تلقى لطمة من الارادة الشعبية الأمريكية.
وهي نقطة في صندوق العرب الذي حرم ولسنوات عدة من أي نقطة.
آل جور المتملق المتزلف للصهيونية تلقى صفعة مؤلمة ستكون درساً حياً لكل من سال لعابه لبريق البيت الأبيض، ومع هذا المكتسب الضئيل جداً فإنه ليست لنا طموحات عريضة مع بوش الابن ولكن لإعلامنا أكثر من مجال في التقاط الخيط، واستغلال هذه المناسبة لاختراق الذهنية الأمريكية التي استعمرتها الصهيونية العالمية، وأقرت فيها صورة مشوهة للانسان العربي.
بوش الابن رئيس مؤسسات ومنفذ سياسة جماعية، وأمريكا دولة مؤسسات والارادة الفردية لا مكان لها، ولكننا نعول على الفريق الذي سيتولى طبخ القرارات وبامكاننا ان نستغل فترة الصدمة للوبي الصهيوني.
يجب على العالم العربي أن يعيد صياغة خطابه واسلوب تعامله، وأمريكا دولة فيها أكثر من مدخل ولديها أكثر من مضمار، وليس شرطاً أن نضع بيضنا في سلة واحدة تتمثل في موقفها من قضيتنا الكبرى والأهم فلسطين.
دعونا نتمكن من اتاحة الفرصة لنقول شيئا، دعونا نطرح اشكاليتنا دون أن نكتفي باللعن دعونا نضيء شمعة في الظلام.
لقد مللنا من لعن الظلام.
نحن نعرف مواقف أمريكا، ونعرف انها مجحفة وان كل بيضها في سلة اسرائيل، ومن الأفضل الا نكسر البيض من الأفضل ان نظفر ولو ببيضة واحدة.
ان اللطمة التي وجهت للصهيونية في الانتخابات الأمريكية فرصة ثمينة فلنكن أذكياء في استثمارها.

---

(١) تاريخ المقال: ١٤/ ١١/ ٢٠٠٠

لقد عرفنا أنفسنا وعرفنا غيرنا بتفويت الفرص والتعويل على العواطف وتلهية الشارع العربي.

فلنحاول هذه المرة ان نغير اسلوبنا أن نواجه الحكومة الجديدة بأسلوب جديد، ان نقلب الصفحة المليئة بالشتائم أن نفتح صفحة جديدة تمتلىء بالحوار الحضاري وبطول النفس.

لقد مللنا العنتريات والشيطان الأكبر وما بقي الا ان تصمت العاطفة وينطق العقل.

لقد سعدنا كثيرا بفوز بوش الابن وسعدنا كثيرا لفشل آل جور المتملق للصهيونية والمراهن على دعمها.

ويجب أن تترجم هذه السعادة بخطاب حضاري ليتقدم بنا خطوة واحدة إلى الامام.

لقد كانت رهاناتنا هذه المرة على غير ما كنا نعهده من نتائج.

الشعب الأمريكي معزول عنا خطابنا دائما للسلطة.

والشعب الأمريكي حين تنقل له الصورة حين نتمكن من النفاذ اليه نستطيع أن نحقق مكاسب نسبية دون المأمول وننفذ إلى الشعب الأمريكي الذي يختزن عن الانسان العربي أسوأ الصور.

لماذا لا نحاول النفاذ إلى الذهنية الأمريكية بخطاب عقلي حواري يرغمه على الاستماع والاقتناع، نحن أصحاب حقوق كثيرة والخطأ الفادح اننا لا نملك الآلية لطرح هذه الحقوق أمام الرأي العالمي نحن في الذهنية الغربية.

ارهابيون.

متخلفون.

همجيون.

في حين يحتل الانسان اليهودي مكانة أسمى، ذلك السائد والحقيقة ان العربي على خلق نبيل وبامكانه أن يقدم نفسه إلى الانسان الأمريكي، لن نهزم اسرائيل بمواجهة أمريكا، نهزمها بكسب الشارع الأمريكي.

خرج آل جور،، وخرج معه الحزب الديمقراطي الذي يميل كل الميل مع الصهيونية.

ودخل بوش الابن ودخل معه الحزب الجمهوري وهو لا شك أخف الضررين.

فلنركب أهون الضررين، انها فرصة ثمينة ومناسبة لاعادة النظر في الخطاب العربي.

فهل نستطيع توحيد موقفنا من العهد الجديد لكي نكسب القليل أو ندفع الشر إلى حين.

ارجو ذلك.

عودة، وعلاقة، وعدة .. ! (١) [(١)]

لم يبق لسان إلا وأفاض بالقول عن القضية الأعقد في التاريخ الإنساني على الإطلاققضية فلسطين وما نسل منها من قضايا ومصطلحات واتفاقات، وما تمخضت عنه من حروب وانتفاضات، وسلام وتطبيع، وهرولة وتمنع، وما أحدثته من تصدع في العلاقات، وتنابز بالألقاب، وتناحر بين أصحاب القضية، وما فرضته من أوضاع على كل الأصعدة: الإقليمية والعربية والإسلامية والعالمية، وما من مبدع أو كاتب أو مؤلف أو متحدث إلا كانت له قدم صدق أو موقف ريبة، عبر كل فنون القول وقنوات التوصيل: يهجو أو يحتج، يشكو أو يحرض، يلوم أو يتفجع، يثور أو يخنع، والأحوال تنحدر من سيئ إلى أسوأ، وإسرائيل منذ وعد بلفور عام ١٩١٧م إلى انتفاضة الأقصى عام ٢٠٠٠م تمارس فعلها الهمجي على مسمع ومرأى ومباركة من دول العالم وحماة حقوق الإنسان، والمتبجحين بالحرية والديمقراطية والعدل والمساواة، وما زال العرب وقضاياهم القومية والاقليمية ومواقفهم المتخاذلة أو المتعالية، المعتدلة أو النزقة مادة حديث ومصدر رزق لكل من أدركتهم حرفة الأدب، وحتى المزايدين يجدون في تلك القضايا المصيرية مرتعاً خصباً للمزايدة وانتهاز الفرص والإغثاء بالقول المجاني الاستهلاكي، والرأي العام وراء هذا التهييج والإثارة، والشعوب المتعذبة تفيض بها الشوارع وتكتظ بها الساحات في هتافات متناقضة، يرفع المتظاهرون صوراً وأعلاماً، ويحرقون أخرى، يلعنون زعيماً ضاعت مثمناته من أجل القضية، ويمجدون زعيماً ضاعت القضية بسبب تصرفاته المجنونة، وانتفاضة الأقصى التي أججت المشاعر إلى حين، كشفت عن وعي منقوص، ونسلت منها مزايدات سخيفة، فعلت فعلها في الشارع العربي الذي يعيش أقسى حالات الإحباط والارتباك، وليس بملوم، فالوضع العربي بلغ حداً لا يطاق، والمؤسف أن بعض وسائل الإعلام توظف القضية لصالحها ولا توظف فعلها لصالح القضية، تتعمد الخلط بين الأشخاص والقضايا لمجرد الكسب الوقتي الرخيص، تمارس الاقتيات من هذه القضية التي لا ينضب معينها ولا يغيض ماؤها، ولما يستطع أحد حسم الموقف وتقديم الحل الممكن: فورياً أو مرحلياً، سلماً أو حرباً، ولما تجتمع كلمة الأمة على طريقة مثلى للمواجهة، بحيث يتميز فيها الصالحون ومن هم دون ذلك، والأمة العربية منكوبة بالقضية وناكبة لها، لقد تعرضت لحروب متعددة الأنواع والأحجام والنتائج: حروب عسكرية واقتصادية وإعلامية، وهم كذلك في مؤتمرات: سرية وعلنية، واتفاقات إقليمية ودولية، ومع كل ما تجرعته الشعوب العربية من مرارات نالت الصادق والكاذب والمقيم والظاعن فإنها لم تزل في حالة من الارتباك، ولست أعرف كيف ستكون الأمة العربية لو لم تكن إسرائيل.

وعلماء النفس يقولون بضرورة الأصدقاء والأعداء ولا حياة للإنسان بدون أعداء يحفزونه على التقدير والتوقيت والتدبير، ويفتحون له باب الأمل، إذ لا حياة بدون أمل، ولو لم يكن هناك أعداء لسعى الإنسان لخلقهم، على شاكلة خلق المشكلة والسعي في الحل، والمؤكد أن طبيعة الحياة تقوم على الصراع، وبدونه لا طعم للحياة، والحاجة إلى الأعداء كالحاجة إلى الأصدقاء، والمهم ليس في ألا يكون لك أعداء، وإنما هو في ان تحقق معهم قانون التدافع وتداول الأيام وأفضال التحدي ولذات الانتصار، بحيث لا يشكلون خطراً على وجودك، فلا ينهونك ولا ينهكونك، ولكن كيف لا يكون إنهاء وإنهاك، والحجر الطفولي يقابل الرشاش، والاهتياج العربي الأعزل يقابل الطبخات السياسية

---

(١) تاريخ المقال: ٢١/ ١١/ ٢٠٠٠

المؤسساتية البعيدة الرؤية المدعومة بالقوة العسكرية والتأييد العالمي، وتوصيات المؤتمرات ككلام الليل الذي يمحوه النهار، ولم تعلن المملكة مقاطعة قمة الدوحة إلا حين لم تنفذ المقاطعة، وهي حين نفذت بعد لأي حضرتها، والإشكالية أن بعض الأطراف العربية لا تلتزم بالتنفيذ دونما مقايضة، لقد كان المقاتل الفلسطيني من قبل يملك السلاح للدفاع عن النفس، أما اليوم فقد سلبته الاتفاقات وسلام الشجعان إمكانية حمل السلاح الشخصي، والسؤال الأغرب المجسد لتلك النظرية: هل قيام دولة يهودية عنصرية مدللة في قلب الوطن العربي نعمة أو نقمة؟ سؤال في منتهى الغرابة والسذاجة، ولكنه في الوقت نفسه سؤال مشروع ومتوقع، مادامت السياسة فن الممكن، ومادامت الميكافيلية سيدة الموقف، ومادام أن مصائب قوم عند قوم فوائد، وبصيغة أخرى: هل استفاد العرب من وجود عدو لدود مزروع كالخنجر المسموم في خواصرهم؟ وهل الشدائد كشفت عن جسد بالشكوى تتداعى سوائره بالسهر والحمى، أم كشفت عن جرح ميت ماله إيلام؟، إن بإمكان العرب قلب المعادلة وخلق مناخات ملائمة للأوضاع المرحلية، وإن كان العدو في أقصى حالات اليقظة والحذر، والمعادلة الصعبة أن العدو الأزلي التاريخي يمتلك سلاحاً لا يمتلكه العرب، ودعماً عالمياً لا يحلمون بأقله، ونظاماً سياسياً ديمقراطياً ليس قائماً عند أحد من أدعيائه، وإعلاماً يخترق كل الأجواء العالمية قادراً على صياغة الذهنية المؤثرة، وهو بهذه الديمقراطية وتلك القوة وذلك الدعم وهذا الإعلام يتوفر على تحد على كل المستويات، فهل لامس هذا التحدي نخوة العرب أم أنه لامس آذاناً ولما يلامس نخوة المعتصم؟، لقد ركنت إسرائيل إلى الغرب، وركن بعض العرب إلى الشرق، وتردد الباقون في الدخول في اللعبة، فكان أن صعد الثوريون في السبعينات خطابهم الإعلامي، ليكون في مستوى الحرب الضروس، ولما يستعدوا لها، وصعدت إسرائيل درجة استعدادها للحرب، ولما تصعد من خطابها الإعلامي، فكان الثوريون فوقها في الكلام ودونها في العتاد والاستعداد، وتمخض الوضعان عن نكسة حزيران التي جرحت الكرامة، وأدمت القلوب، وكان احتلال الضفة وسيناء والجولان وتشريد السكان، وبها أضيف إلى عرب ٤٨ عرب ٦٧ ومن بعدها وجدت إسرائيل أن خيار القتل أفضل من خيار التشريد، فكانأيلول وصبرا وشاتيلا، وخلف من بعد حزيران حربأكتوبر وانتقل الأطراف من سوح القتال إلى موائد المفاوضات، فكاناالكامب الذي أجهض الخطاب الثوري، وشرعن السلام والعلاقات والتطبيع، كانت الحرب فاثّاقلنا إلى الأرض، وكان السلام فهرعنا إليه، وتوالت الانهيارات فجاء احتلال لبنان وما تلاه من إقصاء لما بقي من المقاتلين إلى تونس، ثم تواصلت اللقاءات بينالشرم والكمب واوسلو وكأن القضية جثة قابيل على كتف هابيل يبحث عمن يريه كيف يواريها، وكل من طمع في عدسات الإعلام استضاف الأطراف، وتعاقبت انتفاضات الحجارة وبرز الأطفال وانخنس الشيوخ، وفي كل مواجهة نخسر أرضاً، ونفقد بشراً، ونجهض موقفاً، ونغير لهجة، ونسقط زعيماً في حبائل التطبيع والمبادلات، والإعلام لا يصدقنا القول، واستطاع المكر الذي مكروه في الكامب أن يمتد أثره السيئ إلى أوسلو وإلى مواقع أخرى في العالم المتعاطف مع إسرائيل، وتكون الطامة حين تنفرد كل دولة بالحوار والاتفاق، وتتحول القضية من إسلامية إلى عربية ومن عربية إلى فلسطينية، وتقفز دول من فوق دول الطوق ليست في العير ولا في النفير، تصالح وتطبع، تصدر وتستورد، وأصبح لكل دولة موقف، ولكل إذاعة خطاب، وانتصرت العواطف على العقول والتهييج على التبصر والاندفاع على الأناة والوعود على الفعل، فانطفأ الحماس، وشك الإنسان في نفسه، وانطوى المتعذبون على جراحاتهم يتجرعون مرارة النكسات العسكرية والتفاوضية، والذين حاولوا تسلق المحراب ولما يقدروا وجدوها فرصة للمزايدة، والشارع العربي تشابهت عليه البقر،

فراح يحرق صورة زعيم أحرقه هم القضية، ويرفع أخى رزئت بها القضية، لقد طاشت الأحلام وحارت العقول، ولم يبق إلا أن يعض الإنسان على جذع شجرة حتى يأتيه الموت، والسؤال: هل ما يفعله العرب وما حققوه إزاء هذه الإشكالية بمستوى التحدي؟ الحقيقة مرة وقولها أدهى وأمر، وليس من مصلحتنا أن نطيل أمد المهدئات والمسكنات، إن علينا أن نواجه قدرنا بكل شجاعة نقتسم الحلوة والمرة، ننسى الماضي بكل مآسيه، ونستقبل الواقع بكل تحدياته، وإذا كان خيارنا السلام فليكن بشجاعة، وإذا كان خيارنا غيره فماذا أعددنا له؟ السلام والحرب مشروعان متكافئان، لكل واحد ثمنه وآلياته وإمكانياته، إن على إعلام الأمة أن يكف عن تزييف الوعي، فلم يبق مكان لمزيد من السهام، لقد تكسرت النصال على النصال.

دولة إسرائيل قامت وفق إرادة دولية ذات أهداف بعيدة، وستظل قائمة من خلال المنظور القريب، ويجب علينا أن نحول هذا الوجود الحتمي من خالص السلبية إلى احتمال بعض الإيجابيات، بحيث نخلق منه تحدياً تتكافأ فيه الفرص، وتتوازن فيه القوى: المادية والمعنوية، نتحرف لمواجهته حضارياً حين لا يكون بأيدينا عتاد ولا عدة، نختار المقاومة السليمة التي حرر بهاغاندي بلاده، نجعل هذا التحرف تكتيكياً وليس استراتيجياً، الجهاد فريضة غائبة، والسيف صنو المصحف، والمقاومة حق مشروع، ولكن يجب أن يكون اختيار الحرب أو المقاومة أوالسلام وهو أضعف الحلول من قبلنا، بحيث لا يفرض علينا، والرسول ﷺ لم يُقِم علم الجهاد إلا حين أعد له عدته، وحين لا نملك العدة، ولا نتوقع الدعم، فإن من الخير لنا أن نعي واقعنا، ونتحرك وفق إمكانياتنا، ولا يجب أن نضرب الأمثال مع الفارق، لقد قاتل الأفغان وقاتل البوسنيون وقاتل الشيشانيون ومن قبلهم قاتلالفيتناميون لأن وراء كل أولئك من له مصلحة ولديه قدرة، والمقاتلون يَقتلون ويُقتلون في كل موقع، ويبعثون على نياتهم، وليس في مقاتلة العرب لإسرائيل إلا مصلحة عربية إسلامية، وهذه المصلحة غير كافية في الوقت الحاضر، لأن مصلحة الأقوياء في انتصار إسرائيل، وإذا لم يكن خيار المواجهة واحداً وحتمياً فإن علينا أن نستعرض كل الخياراتالحرب، والمقاومة، والسلام ونأخذ بأرفقها بالمسلمين.

ثم إن المباركة العالمية لأي مواجهة أو حتى الدعم المادي والعسكري والمعرفي لا يكون بالضرورة قادحاً في العمل، فقد تتفق المصالح مع اختلاف الأهداف والنوايا، والمهم أن تكون النية من أجل دفع الظلم وإحقاق الحق وألا تحسب المكتسبات لصالح الآخر، ونحن لا نبعد النجعة حين نجري هذا التصور على الواقع العربي إزاء قضية فلسطين، فحين كان هناك معادل شرقي يعد العرب ويمنيهم كان الخطاب العربي ينحصر في خيار الحرب والقضاء على إسرائيل، ولما سقط الشرق وتأمرك العالم ودخل في مأزق القطب الواحد تغيرت اللهجة والمسار، وقامت كلمةدولة إسرائيل مقام كلمةالعدو الإسرائيلي وأصبح خيار السلام هو الأمكن، ويقال مثل ذلك عن حربي الخليج، ولأننا جزء من هذا السياق العالمي، فإن علينا التحرف المناسب للجزر والمد، وخيار السلام لا يعني الاستسلام، والدخول في السلم لا يقتضي نزع السلاح، ولأنه ضرورة فإن لها أحكامها والأخذ بها يجب أن يكون بمقدار، والأخطر من الحرب والسلام لعبة التطبيع، ان المواجهة تعمق الكره، وعلى الامة ان ترجىء الحرب والمقاومة ولا تلغيهما، وتحد من التطبيع لأنه بهذه الهرولة يعمق الإلف، ويلغي القضية، وإذا عجزنا عن حل قضايانا بالأسلوب الذي نريد، فلا أقل من أن نسلمها للأجيال القادمة بكل ما فيها من وحشية، واليهود بتجمعهم يحققون وعداً نبوياً لا ينطق عن الهوى، وقد لا يكون لنا شرف إنجاز هذا الوعد، فلننقله بكل شجاعة إلى من ادخر الله لهم فضل القتال كالموعودين بفتحالقسطنطينية، إن الخطر الإسرائيلي ليس قصراً على ترسانتها العسكرية، وليس

قصراً على الدعم اللامحدود من الدول الغربية ومن أمريكا بالذات، الخطر الإسرائيلي متعدد الأنواع والأشكال، خطر يصنعه الكبار، وخطر تتقنه إسرائيل، وخطر ننتجه نحن بأيدينا، فهل نتقن أسلوب المواجهة لكل هذه الجبهات؟ لقد اخترنا القتال، ولم نستعد له، ثم اخترنا السلام ولم نستعد له، ومن أراد سلام الشجعان فليستعد أولاً للحرب لفرض هيبته وحماية شرطه، والاستعداد للحرب من أجلها أو من أجل السلام يتطلب قيماً: مادية ومعنوية، وليس عندنا من كل ذلك شيء.

وكيف تكون الأجواء مهيأة وقضايا الأمة العربية فيما بينها معلقة أو منوطة بعدوها.

وأحسب أن المعركة الأهم تكمن في تصفية الخلافات بين الحكام وشعوبهم، ثم بين الدولة العربية، وإذا صفيت الخلافات كان لابد من دخول معركة مهمة تتمثل في التجانس العربي: اقتصادياً وثقافياً واجتماعياً وفكرياً ودينياً، ثم غرس الثقة فيما بين الدول، ومن المسلمات أن إمكانيات الحرب الإعلامية لاعتراض إعلام العدو والنفاذ إلى الآخر لا تقل أهمية عن إمكانيات الحرب العسكرية، فالتعبئة الشعبية والعالمية ليستا بأقل أهمية من التعبئة العسكرية، والتفوق الإسرائيلي لم يتحقق بالتميز العسكري وحده، ومن تصوره كذلك فقد خسر الرهان، وحَصرُ الخيار بالمواجهة العسكرية وحدها تدمير لعدد من البنى في ظل الظروف القائمة.

إن هناك خيارات متعددة للمواجهة، وإعلامنا العربي لم يوفق لطرح البدائل واختيار الساحة الأجدى لنا في ظروفنا الراهنة، وهو لم يوفق أيضاً في اختراق الذهنية الغربية ومنافسة الإعلام الصهيوني، إنه إعلام تناحري اجتراري تكريسي للذات المتجزئة، فيما تحسن إسرائيل ومن وراءها اختيار المكان والزمان والوسيلة للمواجهة، إسرائيل تتقن أربع فعاليات للمواجهة لسنا متكافئين معها وإن كنا قادرين على تحقيقها:

الفعالية الإعلامية.

الفعالية الاقتصادية.

الفعالية العسكرية.

الفعالية الدستورية.

والخطر الإسرائيلي تحقق من خلال أوضاع كثيرة صنعها الاستعمار، وأذعن لها المغفلون، ولعل من أهمها صفة واحدة ماثلة للعيان في الواقع العربي هي: القابلية للاستعمار كما يصفهامالك بن نبي رحمه الله، يقول المثل الإنجليزي على ما أذكر: لا يكون أحد أفضل منك إلا بموافقتك وهذا ما حذر منه المفكر الإسلامي مالك بن نبي، نحن الذين وافقنا بلسان الحال لا بلسان المقال على أن تكون إسرائيل أفضل منا، ومهما قلنا بلسان المقال خلاف ذلك، فإن الأمر محسوم، وسيظل الأمر هكذا، حتى يأذن الله بالنصر، وحتى نستطيع أن نتخلص من القابلية، وما على الشاكين باستفحال القابلية إلا أن يستعرضوا اطروحات الأدباء والمبدعين والنقاد والمفكرين والإعلاميين المحترفين من أصحابثقافة الضرار المعنين في جلد الذات والإصرار على سلب العرب قابلية التحرر من الأوضاع القائمة ليروا حجم التآمر وخطيئة الإنابة في إشاعة الثقافة الغربية، الظلاميون يقترفون المسخ، يحاربون إسلامهم بالعلمانية وقيمهم بالحداثة، ولغتهم بالعامية ووحدتهم الفكرية بالمذهبية، ثم يقول قائلهم:

الإشكالية في الإسلام.

لقد تفوقت إسرائيل بموافقتنا وبفعلنا الذي أطال زمن التيه، على الرغم من إمكانيات التفوق والرشاد، فنحن أمة ذات أعماق متعددة، تصنع منا قوة متكافئة قادرة على حماية نفسها ومثمناتها، والخروج من تلك المآزق ممكن، إذ هناك إجراءات بسيطة جداً، وغير مكلفة، وليس فيها إراقة دماء، ولا تدمير ممتلكات، ولا مواجهة عسكرية للمتعهدين

بحماية إسرائيل، نستطيع من خلالها أن نحمل العدو على التخلي عن الغطرسة وعلى طلب الغوث الدبلوماسي والعسكري والسعي للصلح والسلام المناسبين، ثلاثة تحولات نستطيع أن نقلب بها الموازين:

العودة العازمة الجازمة إلى الله، عودة ناصحة صادقة، فلا مواجهة بدون هوية، ولا نصر بدون عقيدة، ويكفي أن نعتبر باليهود أنفسهم، لقد جاءوا إلى أرض الميعاد باسم العقيدة ووعد كتبهم.

إعادة النظر الجاد في العلاقاتالعربية العربية كي تعود الثقة ويتحقق الاطمئنان وتصفى الخلافات القائمة والمتوهمة، ويتم التوفيق بين الأحلاف المتعارضة والمصالح المختلفة دون وسطاء غربيين ودون محكمة عدل أو مجلس أمن أو هيئة أمم أو قوة غربية ترسم الحدود، وتفك الاشتباك، أو تخرج المحتل العربي من الأرض العربية.

العدة الصحيحة للمواجهة المجدية: اقتصادياً وثقافياً وسياسياً وعلمياً وعسكرياً وإعلامياً، ثلاث مفردات: عودة، وعلاقة، وعدة بها نستطيع قلب الموازين وإرباك إسرائيل ومن وراءها، دون أن نشهر سلاحاً لم نصنعه، ودون أن نعرض أنفسنا ومقدراتنا لموجهة غير متكافئة.

إن كان خيارنا الحرب فله عدته.

وإن كان خيارناالمقاومة فلها أسلوبها.

وإن كان خيارناالسلام فله خطابه.

وتداول الخيارات الثلاثة دون استعداد مناسب تهريج ممقوت وضحك سخيف.

عودة، وعلاقة، وعُدَّة .. ! (٢) [(١)]

ولأن قدر الأمة العربية العصيب أن تظل في حالة من التوتر والحذر، فعدوها الأقوى والأمكن مزروع كالفايروسات النشطة القاتلة في جسمها، يكون خاملاً عند الحاجة، ولكنه مستعد للنشاط أو التنشيط كلما وجد القطب المهيمن أن الأمة تتحرك صوب الأحسن، والأمة في ظل هذه الظروف السيئة بحاجة إلى وضع استثنائي لا يكف عن البحث الدؤوب عن الأفضل، وامتثال ما تقتضيه المفردات الثلاث التي أشرنا إليها:

العودة إلى قوة العقيدة.

العودة إلى قوة التضامن.

العودة إلى قوة السلاح.

وهذا الامتثال الحصيف يقينا الضعف المعنوي والمادي، وما لم نعد إلى الله بامتثال أمره ومناصرة دينه فإننا بحاجة إلى أن نكون مثل أعدائنا في الاعتماد على العتاد والعدة دون تأييد الله ونصره، وليس بمقدورنا ذلك، والله قد خفف عنا وعلم أن فينا ضعفاً، ومن مقتضيات العدة أن نستحضر أهمية الصراع الحضاري وخطورة الغزو والتآمر الذي يقلل من شأنهما من تصدق عليهم صفة (المواطنة الخفية) أو الطابور الخامس، إن صراعنا مع إسرائيل جزء من الصراع الحضاري، ليس إقليمياً ولا مادياً بحيث يحسم بالسلاح وحده أو بالمصالحة، والدول التي تتخذ من إسرائيل مخلب قط، وتتمترس خلفها، إنما تنفذ حرباًحضارية قائمة على أشدها، ولعل من تحرفاتها الجديدة (العولمة) التي لم يتفق على تصورها أحد، وبدل أن نعمل على مواجهتها أنهكنا أنفسنا بالجدل حول فهمها، وحين تعددت التصورات والمواقف بين رافض على الإطلاق وقابل على الإطلاق ومتحفظ أو مشترط، لم نتحاور ولم نتعاذر، بل مارسنا تصفية ذواتنا لتصب المكتسبات في أوعية الآخر.

لقد خسر الغرب حروباًعسكرية، وهو بصدد الاستغناء عنها، عبر تحرف ذكي يتمثل بحربين: حرب عسكرية بالإنابة، وحرب حضارية بالفعل والمشاركة، وكم من دولة ثالثة نهضت بتنفيذ معركة عسكرية تصب في مصلحة المحرض والمبارك والممول، وكم من مستغربين نهضوا لتسهيل الغزو الثقافي الذي ينساب كالخدر عبر أقلام مأجورة وأدمغة مغسولة وبلاغة مسلعنة، وما العقلنة المتعالية على الوحي وحداثة الانقطاع والرفع والاحتجاج والتساؤل وأدب الفجور والعامية وأنسنة الإله، وتدنيس المقدس، والنيل من الكتاب بدعوى أنه منتج حضارة وخطاباً ذكورياً والنيل من السنة بألوان التشكيك، والتطاول على الرسول ﷺ والقدح بعدالة الصحابة ونزاهة علماء الأمة وهز ثوابتها والعلمنة الشاملة والتغريب إلا أشكال من أشكال الحرب الحضارية التي باركها المتذيلون، وحين نستشعر هذه الأخطار وتلك التحرفات الماكرة، يجب أن تتحول القضية من إقليميتها وعربيتها إلا إسلاميتها، ومن لغة السلام إلى لغة الفكر، والأعداء الماكرون يحاولون جهدهم عزل القضية عن إسلاميتها وحصرها عربياً، ثم عزلها من عروبتها وحصرها فلسطينياً، وها نحن نقول: إذا كان أصحاب القضية يتفقون مع إسرائيل، ويلتقون مع زعمائها فمن دونهم أولى، وحين نقبل بالتفاوض الثنائي أو الثلاثي أو الرباعي ونأتمر بمثل ذلك نقع في التجزيئية والعزل الذي يسعى إليهما الاستعمار.

والعودة إلى الله لا تعني العودة من (الدولة المدنية) إلى (الدولة الدينية) كما يخوفنا المرجفون، فالإسلام دين ودولة، والمدنية أصل في حضارة الإسلام، والدين نظام كوني

---

(١) تاريخ المقال: ٢٨/ ١١/ ٢٠٠٠

وفطرة إنسانية، والدولة أو الحزب المتعلمنان ليسا البديل الأمثل عن الحاكمية الإسلامية، العودة تعني عالمية العلم التجريبي وأسلمة المعارف الإنسانية، والأخذ بالحل المرحلي الطويل الاجل والتحول الإنسيابي.

العودة إلى الله تعني أن يظهر الإسلام، وأن يكون الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين، أن نناصر الحق، ونحكم الشريعة، ونقمع الفاحشة ونأطر السفهاء على الحق أطراً لكي تتحقق الحرية المنضبطة والعدل السوي، وأن نتمثل الإسلام: قولاً وعملاً وحاكمية، أن نذيب الآخر فينا ولا نذوب فيه، أن نحاوره ولا ننكمش، أن نأخذ منه المعمل والمختبر والمصنع، أن نعلم مثله ظواهر الحياة الدنيا، ونزيد عليه بألا نغفل عن الآخرة، ذلك على مستوى الأمة، أما على مستوى الأفراد، فلابد أن نستقيم كما أمرنا، نصبر على الطاقة وعن المعصية وعلى الأقدار، نطيب مطعمنا ولا ننمي أجسامنا من الحرام، فمن نمَّى جسمه عليه فالنار أولى به، ومن كان مشربه حراماً ومطعمه حراماً وملبسه حراماً فأنى يستجاب له، وما من خطيب أو ناصح أو قانت إلا ويرفع يديه إلى السماء في الغدو والآصال، والعامة والخاصة من ورائه ترفع الأيدي إلى السماء، تؤمن على دعائه، وتناشد الله النصر، ثم لا تكون إجابة، وكلما ضجت الحناجر بالدعاء، ضجت مدافع العدو بالهدير، ودوت قنابله بالتفجير، وأزت طائراته بالتدمير، وانطلقت صواريخه تقصف المدن والمصانع، تزهق الأرواح، وتقضي على الأمن والأنفس والأموال والثمرات، حتى لقد ساور الشك الناشئة البريئة من جدوى الدعاء، وما منع القطر، وما حجبت الإجابة إلا بما كسبت أيدي الناس من الإثم، ويعفو عن كثير، والرسول ﷺ يستبعد استجابة ربه لمن نبت جسمه على السحت حيث قال: فأنى يستجاب له والله يقول: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] ويقول: ﴿قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]

والسؤال الصحيح: أين نحن من الله؟ والسؤال المتداول: أين الله عنا؟ والله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، فأين التقوى وأين الإحسان في مشاهد فكرية وأدبية وسياسية تجتر الحداثة الفكرية والفلسفة الوضعية والسياسة العلمانية؟ وحين لا تفتح لنا أبواب السماء، ولا نملك القوة المتكافئة مع عدونا، فكيف نرجو النصر؟ والله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

إننا بحاجة إلى أن نحدد هويتنا ومسارنا، ونصحح علاقتنا مع من نطلب منه التأييد والنصر، فإما أن نكون مثل عدونا نعتمد كلية على الأسباب المادية وحدها، وهي التي انتصر بها أعداؤنا، وإما أن نكون مسلمين حقا ننصر الله لينصرنا، ويثبت أقدامنا، ويستجيب دعاءنا، ويهيئ لنا فعل الأسباب المادية، ولا يكلنا عليها، والله يقول: ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة، ولو كنا مسلمين حقاً لحققنا مراد الله في الاستخلاف والاستعمار، وإذا أراد الله نصر عباده هيأ لهم الأسباب، وهداهم إلى أقوم الطرق، ومكنهم من إعداد القوة: المادية والمعنوية، ووفقهم للفعل دون الانفعال، وأنزل السكينة على قلوبهم، وأنزل الرعب والخوف في قلوب الأعداء، وجعل تدميرهم من تدبيرهم، أفلا نتذكر على سبيل المثال اصطدام طائرتي (هيلوكبتر) إسرائيليتين وموت من فيهما، وحادثة (المارينز) في لبنان، والغواصة الروسية، أليس هذا من التدمير في التدبير، وهو فعل ليس لنا يد في شيء منه، ورسول الله ﷺ لم يتجه إلى (العريش) الذي نصب عليه في (غزوة بدر) الكبرى للدعاء، إلا بعد أن اتخذ كل الأسباب المادية، وهيأ المجاهدين لمواجهة عدوهم، هنالك رفع يديه، وبدأ يناشد الله النصر، وجاء الإمداد الرباني.

والأمة الإسلامية اليوم تقطعت بها الأسباب، وأصبح خطابها وفعلها وتقديرها وتدبيرها ماديا صرفا، وحين تبلغ القلوب الحناجر يظنون بالله الظنون.

فأينهم منه في الرخاء ليكون معهم في الشدة؟

إن شرط المعية الصحيحة أن تعمل الأسباب المادية، وأن تصل حبالك بالسماء، وبقدر حاجتك إلى امتثال أمر الله فأنت بحاجة إلى العلم والصناعة والقوة بمختلف أنواعها، وبحاجة ماسة إلى مؤسسات سياسية بعيدة النظر عميقة الرؤية، تصنع القرار بعيداً عن الاهتياج العاطفي والإرضاء الغوغائي، فالشارع العربي يدعم المؤسسة، ولكنه لا يصنع قرارها، غير أنه باهتياجه الأعزل يكرس العالة والاستكبار، ويمكن من المزايدات الرخيصة كانسحاب الوفد من القمة، أو عدم استقبال طائرة مخترقة للحظر لأن لذويها علاقة مع العدو، أو حرق صورة لزعيم أو علم لدولة، أو دعوة لدولة، أو دعوة إلى الحرب وفتح الحدود مع العدو وتدفق مئات الآلاف من المتطوعين أمام عدسات التصوير ثم لا يكون شيء بعد ذلك، بل ربما يكون التآمر وتكون العمالة لإجهاض أي فعل عاقل يمارسه الذين يمقتون المزايدات، ثم إن قرار المواجهة على أي شكل يحتاج إلى قوى متعددة: قوة في الذات تهيئ الأجواء، وقوة في الأشياء: قوة عسكرية ترهب وقوة اقتصادية تغني وتنقي، وقوة إيمانية، وقوة اعتصام بحبل الله، ولا يجوز أن نقع تحت تأثير الدروشة، والخطابات العاطفية ضرب من الدروشة الصوفية، كما أن ضرب الأمثال مع الفارق تغرير متعمد، فالأسباب مطلوبة والإسلام دين العقل والتفكير، والسنن الكونية لا يمكن أن تتبدل ولا أن تتحول، والله ندب إلى إعداد القوة: قوة السلاح وقوة العلم وقوة الاقتصاد وقوة الفكر: وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، ثم أردف ومن رباط الخيل ولكن كيف لنا أن نعدها، ونحن لم نحدد هويتنا بعد؟ وكيف نحددها ونحن نتصور أن الإشكالية في الإسلام؟ وكيف لا تنتصر العلمانية، وهي تحترم العلم، وتأخذ بالأسباب، فيما يعيش أكثر الناس أجواء خرافية؟

لقد انتصرت العلمانية لأننا واجهناها باسم القيم المادية والمعنوية المغيبة فصرنا كمهاجر (أم قيس)، إن القتال من أجل الحمية، أو من أجل التراب، أو من أجل أي عرض زائل لا يوفر الشجاعة ولا الإصرار، والمقاتل حين لا يطلب الموت أو حين تحول بينه وبين لقاء ربه تمرات لا يكون مقاتلاً يراهن على النصر أو الشهادة، إن قتاله قتال جاهلي، ولا يوازي النفس إلا الإيمان، وليس هناك أضعف من أمة بلا عقيدة، وليس هناك أضعف من مقاتل عيونه على الغنائم المادية، إن كسبها لا يتم إلا مع الحياة، وكسب الدار الآخرة لا يتم إلا مع الموت، وهنا مكمن البطولة والشجاعة، وحين تسمو أهدافنا وتشرف غاياتنا لا بد أن تتعاضد مصالحنا ولا نتصادم، وأن يكون هناك مصلحة عربية عليا لا يرقى إليها الخلاف، ولا يصل إليها التنازع، خطوط حمراء تقف دونها كل الخلافات، لا يلجأ العربي إلى السلاح عند خلافه مع أخيه، ولا يصل الاختلاف إلى كيل الشتائم والاتهامات وخلق الشائعات وترويجها، وزرع القنوات وجلب شذاذ الآفاق للنيل من الأخ والجار والعمق الجغرافي والبشري والديني، وكيف يتأتى لنا النصر والضعيف منا يخاف من جاره القوي، والقليل العدد يخاف من أخيه الأكثر، والمحتشم يقلقه البذيء ومشاكلنا الحدودية والطائفية والفكرية والاجتماعية على قدم وساق، والحروب الإعلامية على أشدها، والرأي العام مستعد للانفجار ضد أي جار له بمجرد الخداع الإعلامي، وهل أحد يستطيع أن ينتزع من النفوس ما خلفته حرب الخليج الثانية، إن المكاشفة والبدء من درجة الصفر هو الحل الأمثل لقضايا الأمة.

لقد زرع الخوف والشك في أعماقنا، وأصبح العربي بحاجة إلى من يحميه ويقوي جانبه من غير أهله وعشيرته، تلك حقيقة مرة، يجب أن نعيها، وأن نعترف بها، ألسنا

نمارس ضد بعضنا مختلف الحروب الإعلامية والعسكرية، ونقول لماذا لا ننتصر على إسرائيل، دعونا نواجه أنفسنا وواقعنا العربي بكل مفرداته: الاقتصادية والعسكرية والإعلامية، فنحن أخطر على أنفسنا من إسرائيل، إن من بيننا من هو أسوأ من إسرائيل، بل بيننا من هو أشد بأسا وتنكيلاً من إسرائيل على شعبه.

ولابد والحالة تلك من أن نرتد إلى الداخل لنطهر أرضنا من كل الأوضاع، ونزكي أنفسنا من كل الأدناس، ونصفي بيوتنا من كل الشوائب، ننزع الشك ونقضي على الريبة، نقول للمحسن أحسنت وللمسيء أسأت، نصنع الإنسان نزرع فيه الثقة والحرية، نمكنه من حقوقه نربطه بأرضه وبأسرته، نغري المهاجر بالعودة إلى ترابه الذي خلق منه، وتغذى من نباته، وشرب من مائه، واستنشق هواءه، ماذا قال رسول الله ﷺ حين عاد إلى مكة منتصراً على الذين أخرجوه منها، الفطرة واحدة، والعاطفة واحدة، وكل مواطن شرد من أرضه سيقول عند العودة إليها ما قاله رسول الله ﷺ حين عاد إلى مكة، دعونا نغري الطيور المهاجرة لتعود أسراباً إلى دوحها التي أحلت للطير من كل جنس، وماذا لو عاد المواطن الكفء بعلمه وفكره ومهارته وماله آمنا مطمئناً موظفاً كل إمكانياته لخدمة قومه الذين حرموا منه وحرم منهم بسبب التسلط والاستعباد، المتعذب لا يملك إلا أن يقول: علي وعلى أعدائي وما العدو إلا من حرمك لذة النوم في بيتك ولذة الأمن في أهلك ولذة العيش الهنيء في بلدك الذي ولدت فيه، العدو هو الذي دمر بلدك، وأفسد اقتصادك، ولوث أجواءك وزرع فيك الشك والخوف، وإن كان من بني جلدتك، إسرائيل عدو ومغتصب متسلط، يختلف معنا، ديناً وحضارة، وليس بمستغرب أن ينال أحدنا الذل والهوان من مثلها، ولكن المؤلم أن يمس أحدنا الذل والحزن والهوان من الأقربين، ثم يكون أقرب إلى قلوب الجماهير بسبب التغرير الإعلامي.

لقد كانت نكسة (حزيران) ضربة عسكرية موجعة، وكانت حرب الخليج الثانية ضربة مؤلمة للتضامن العربي، قضت على الثقة، وشردت الآلاف وشرعت للوجود الأجنبي ومنحته حق التدخل العسكري لتأديب الخارجين، والأخطر أن يظل الشارع العربي منشقاً على نفسه إزاء القضايا المصيرية، إننا بحاجة ماسة وفورية إلى مواجهة واقعنا لكل ما فيه من بشاعة، وإن لم نفعل فسنبقى كما كنا ننام على الأشلاء والدماء ونقيم على الضيم والخسف.

إن مواجهة الذات أهم من مواجهة العدو، والانتفاضة التي حولت الأنظار ونبهت إلى معرة الهرولة باهظة التكاليف على المقاومين العزل، وأحسبها قليلة العوائد حين تجهض دون ثمن، يجب ألا نعيش حالة من الانفعال دون الفعل، علينا أن نواجه قدرنا بكل ثقة ونباشر التغيير الجذري الباهظ التكاليف، فالواقع العربي لا يمكن أن تحل مشاكله الانتفاضة ولا الحجارة، وإن كان في بعض ذلك تنبيه للمهرولين وتذكير للغافلين، والقضية الأعقد والأخطر في التاريخ الإنساني لا يمكن أن تصفيها حالات الغضب وهتافات الاهتياج، لابد من تفكير جاد وتخطيط سليم ومواجهة صادقة وفعل عقلي لانفعال عاطفي، ولسنا بعد اليوم بحاجة إلى تخدير أو استهلاك إعلامي، دعونا نبسط أرديتنا نقبل أطفال الحجارة وانتفاضة الأقصى والدعم المادي والمعنوي والتفاوض المتكافئ وسلام الشجعان، وننفي عن أرديتنا التطبيع والهرولة والمزايدة وسرق الأضواء إعلامياً وتبادل الاتهامات.

وعلينا قبل هذا كله وبعد هذا كله أن نقرأ الواقع العربي والعالمي، وأ ن نعرف ما بينهما من تداخل وتفاعل، وأن ندخل السياق بخطاب يعي موقعه وواقعه فعالم اليوم يختلف عن عالم الأمس: الخروج من لهجة الحرب إلى لغة السلام واقع، نتائج حربي

الخليج واقع، وسقوط الاتحاد السوفيتي واقع، النظام العالمي الجديد واقع، المعادلة الاقتصادية واقع، الثورة الإعلامية والمعلوماتية واقع، العولمة واقع.

أشياء كثيرة صنعت واقعاً جديداً وكل ذلك يتطلب لغة جديدة، ولكن الناس هم الناس وخطابهم هو الخطاب، لابد من إعادة النظر، لم يعد العرب قرية صغيرة مغلقة بل العالم كله تحول إلى قرية متفاعلة، القنوات مراكز المعلومات المستعملات من الطائرة إلى سكين المطبخ يشابه بعضها بعضا، الخلطة لها خطابها والعزلة لها خطابها، والامتحان الأقصى الذي يواجه الإنسان هو زمن القبض على الجمر، نحن نعيش لحظات الامتحان القاسي، ومع ذلك نتصور أن بإمكاننا أن نخطط بمعزل عن الآخر، ونتصرف بمعزل عن الآخر، ونأكل بمعزل عن الآخر، وننام بمعزل عن الآخر.

الأمة العربية تتصور أن إشكالياتها واحدة هي إسرائيل، وفاتها أن وعيها المعكوس للاشياء هو الإشكالية الأهم، دعونا نفكر جيداً في واقع الأمة الإسلامية والعربية، والواقع العربي المأزوم غير قادر على الشرعنة والحلول الاستراتيجية نحن بحاجة إلى استراتيجيات عربية وتكتيك عالمي.

علامة الجزيرة في يوم تكريمه .. ! [1]

أن يموت الكبراء في علمهم، أو في عملهم، في زهدهم أو في ورعهم، في بطولاتهم أو في إيثارهم، فذلك قدر لا مناص منه.

ولكن ان تنقطع العلائق بهم، وتنسى افضالهم، ويهمل إرثهم من علم أو مشاريع أو قيم معرفية أو سلوكية، فذلك تقصير لا يليق بمثلهم ممن نعموا في أفضالهم.

وبلادنا بقادتها ورجالاتها وشعبها الكريم حفية بالمنجزين على مختلف المستويات حريصة على إحياء ذكرهم، واجراء اعمالهم، واستعادة افضالهم، واستمرار عطائهم، وما من عالم يرحل إلا ويهب الأوفياء لإحياء ذكره واستمرار أثره، والبلاد تفقد بين الحين والآخر علماً من أعلامها، ثم يعود ذكراً بعد عين، والوفاء سمة خيرة ينطوي عليها قادة البلاد وأبناؤها، ويجد الجميع متعة في حضور الكفاءات الوطنية بعد أن واراهم الثرى.

لقد فقدت البلاد علامة الجزيرة الشيخ حمد الجاسر رحمه الله بعد عمر مديد حافل بجلائل الأعمال، عاش حياته حضوراً فاعلاً، تمثل في السياحة العلمية، والتأليف المتخصص، والتحقيق الدقيق، والعمل التعليمي والقضائي والصحفي، أنشأ أول صحيفة في المنطقة الوسطى، ودأب على اصدار مجلة متخصصة، كان جوَّاب أرض ومنقباً حصيفاً في مكتبات العالم عن تراث أمته.

تعددت اهتماماته، وجاءت مشاريعه التاريخية والجغرافية وثائق اثبات لتفانيه واقتداره وتضحياته.

واهتمامه بالجزيرة العربية: تاريخها وجبالها وأوديتها وآثارها وقبائلها وأمثالها وعاداتها وما جرى عليها من أحداث وما انطوت عليه من بطولات، كان مضرب المثل، ومثار الاعجاب والاكبار، حتى لقد أثنى على تألقه وتفوقه واتساع معرفته كبار أعضاء المجمع اللغوي بالقاهرة من زملائه، حيث كان من أبرز أعضائه، والذين يجتمعون اليوم من الأوفياء بمعية صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبد العزيز أمير منطقة الرياض، يضربون أروع الأمثال في رد الجميل ومعرفة الفضل لذويه، والفريق الناشط الذي يباركه ويدعمه أمير الرياض يؤسس لمشروع ثقافي، يحمل اسم علم من أعلام البلاد، نذر نفسه وجهده لخدمة أهله وعشيرته، وواجب المقتدرين: مادياً أو علمياً أو اداريا أن يدعموا هذا المشروع الحضاري، ليكون معلماً من معالم البلاد ومؤسسة ثقافية تحتل موقعها إلى جانب المؤسسات العلمية والثقافية في المملكة.

والجاسر الذي فارقنا بعد انجازات علمية غفل عنها الأكثرون حقيق بالاستعادة على أي شكل، لقد كان تفرغه لمعارف نادرة واستعداده للتنقيب عنها وجهده الدؤوب وتقصيه الدقي ق جديراً بهذا التكريم، وأمير الرياض حين يتص در الأوفياء ويب ارك مشروعهم، لا يفي بحق الفقيد وحسب، وانما يعيد إلى الذاكرة منجزاً وطنياً من خلال استعادته لمن وراء هذا المنجز، ومن الخير ان تعي الناشئة هذا المنجز، فهو تاريخ آبائهم وأجدادهم، وهو ماضيهم القريب الذي وفر لهم الأمن والرخاء والاستقرار.

والجاسر ومن عاضده من العلماء والمؤرخين والموسوعيين نقبوا في البلاد وفي بطون الكتب، وفي ذاكرة الشيوخ، وساءلوا صناع التاريخ الحديث، وجمعوا مادة علمية لم تكن مجموعة من قبل، ووثقوها وأبرزوها، حتى لقد كانت تلك المادة ماثلة للعيان، بعد أن كانت شفهية تضيع بموت رواتها.

---

(١) تاريخ المقال: ٥/ ١٢/ ٢٠٠٠

وتاريخ البلاد لا يقف عند الأحداث السياسية وحسب، والذين يختصرونه بالوقائع العسكرية والأحداث السياسية يضيقون واسعاً، ومن ثم فإن عالماً دؤوباً متمكناً مثل الجاسر تقصى الأحداث والاخبار جدير بالاكرام، وحقيق بانشاء مؤسسة ثقافية باسمه، لقد مر بالأحداث السياسية والوقائع العسكرية واشار إليها كأسباب وظروف، وامتدت مجهوداته إلى التاريخ الفكري والعلمي للجزيرة العربية، تقصى ما كتبه الرحالة الذين مروا بالبلاد ودونوا مشاهداتهم وانطباعاتهم وتعقبها بالتصحيح والتصويب واستدرك أوهامهم، وحرر مسائلهم، وحقق مخطوطاتهم، واختصر الكثير من أعمالهم لتسهيل الاطلاع عليها، كما ترجم للعلماء والمؤرخين، وأرخ للمدن والقبائل والأسر، وكتب عن الآثار والحصون والخيل، واصدر موسوعة جغرافية استقطب لها كفاءات علمية، ولقي الدعم والمؤازرة من قبل الدولة والمؤسسات العلمية، وما توقف عطاؤه: تأليفاً وتحقيقاً وسعياً وراء الأخبار، وتنقيباً في مكتبات العالم عن حدث أو حديث أو خبر أو كلمة حتى اللحظات الأخيرة من حياته.

والعلامة الذي تحتفي الرياض اليوم بمنجزه، وتؤسس لتخليد ذكره ترك للعلماء والباحثين أكثر من خمسين كتاباً ومئات البحوث والتحقيقات والمراجعات والتصحيحات، كما عرَّف بنوادر المخطوطات، وحدد أماكنها ووجه لتحقيقها ونشر بعضها، وساعد الباحثين والدارسين، وقدم خبرته ومعرفته لكل طالب علم، لقد زرته أكثر من مرة حين كنت أحضر لشهادة الماجستير واستفدت من علمه، وتعهدته بالزيارة، ولقيته في بعض المؤتمرات، قرأت له، ووقفت على بعض طرائفه في القراءة والتحقيق، وطبع نادي القصيم الأدبي واحداً من كتبه، وكنا على موعد معه في طباعة كتاب آخر، ولكن ريب المنون حال بيننا وبين ما نشتهي، ولعل فيمن سينهض بمهمة التأسيس لمشروعه ما يخلفه بالوفاء بوعده، والرياض التي تنهض لتكريمه سجل مآثرها في كتابه مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ وهو جدير بتكريمها، وجديرة بأن تحتضن مركزه الثقافي الذي سيخلفه في مهماته وتطلعاته، يواصل عمله، ويرعى تراثه.

وهو حين خص الجزيرة العربية بجهود علمية موضوعية خص انسانها، فكتب في جمهرة الانساب والقبائل والأسر المتحضرة، وتقصى الطرق وحددها، واحصى المعادن واماكنها، والأمكنة والجبال والأودية وحدودها الواردة في الأخبار والأشعار، وهو إلى جانب ذلك لغوي بارع قرأ التاج قراءة نقدية، وألف كتاباً في نقده سماه نظرات وقد شهدته يغالب الطبعة الأولى القديمة من التاج في فندق السودة بأبها مع ما يعانيه من اعتلال في الصحة وتقدم في السن وضعف في النظر، حتى لقد أشفقت عليه، وعرفت انه يمارس عمله عن عشق، ولولا العشق لما أنجز ما أنجز، ولأن حياته حافلة بجلائل الأعمال، فقد فوت على محبيه كتابة سيرته الذاتية، وان ألمح إلى شيء منها في بعض خطراته مثل رحلات البحث عن التراث.

لقد رحل عنا تاركاً مشاريع علمية متعددة، ومشروعه العلمي يتمثل في المحاور التالية:

تاريخ الأماكن وأسماؤها في الجزيرة العربية.

جغرافية الجزيرة العربية.

الإنسان في الجزيرة العربية: قبيلة ونسباً وتاريخاً.

أدب الرحلات.

ومن حق الجزيرة علينا أن نصل ما انقطع، ونكمل المسيرة عبر فريق عمل متعدد التخصصات متوفر الامكانات.

لقد تجاوز الجاسر المبادرات الجزئية إلى المشاريع، والقليل من العلماء والادباء والمفكرين من تنبه لذلك، والأقل منهم من وجد في نفسه الكفاءة والقدرة فأسس لمشروع علمي أو أدبي أو فكري بذل من أجله الجهد والوقت والمال، وتاريخ الجزيرة العربية ومواقعها وآثارها ورجالاتها وأسرها وما تنطوي عليه من تراث عريق عميق كان الشغل الشاغل له، ودراساته وبحوثه ومؤلفاته ومكتشفاته بوحدتها وتجانسها ونسقها تمثل مشروعاً علمياً لا ينهض بمثله إلا ألو العزم والعلم والتجربة والخبرة، وقد كان رحمه الله أمة في رجل وفريقاً في انسان، والجاسر الذي ينهض طلابه ورفاق دربه وشركاؤه في الهم لتكريمه نال الكثير من الشهادات والأوسمة والجوائز والتقدير، كرمه مجلس التعاون وجامعة الملك سعود، ونال جائزة الملك فيصل العالمية، وجائزة سلطان العويس، وجائزة الكويت للتقدم العلمي، وكرمته الدولة واحتفت به ويسرت له الأجواء الملائمة لمواصلة العطاء، وتبادل مع قادتها الحب والإكبار، عرف لهم فضلهم وعرفوا له جهده.

والجاسر المحتفى به يمثل المثقف الشمولي، والعالم المتخصص، مارس القضاء، والتعليم، والعمل الصحفي، أنشأ المؤسسات الصحفية ودارات النشر، كتب المقالة بكل أنواعها منذ عام ١٣٤٩هـ، واستهل التأليف عن سوق عكاظ عام ١٩٥٠م، ومارس فيما بين ذلك التحقيق وضبط النصوص، فكان آية في الدقة والبراعة، وقام برحلات علمية للوقوف على الآثار في الأودية والجبال والشعاب، والوقوف على الوثائق والمخطوطات في المكتبات العالمية وقرأ كتب الرحلات، وبخاصة ما يتعلق منها برحلات الحج، ودون الملاحظات عليها، وقاد فريقاً من العلماء لإنجاز المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، وقد طبعت منه ثمانية معاجم تجاوز بعضها ستة مجلدات، وقد شد أزره في هذا المشروع ابن خميس والعبودي والعقيلي والزهراني، والجنيدل، ولما يكتمل المشروع بعد، ولعل فكرة المؤسسة المزمع انشاؤها وفاء له يتسع جهدها لاستكمال ما بدأه العلامة، فما أنجز من المعجم تقصى المدن والقرى والجبال والأودية والآثار، وأشار إلى ما جرى عليها من أحداث في القديم والحديث، وهو مشروع علمي موثق، والحاجة ملحة وقائمة لاستكماله، وإلى جانب هذا المشروع تأتي مجلة العرب وهي مجلة علمية تاريخية متخصصة، تعنى بالبحوث التاريخية والجغرافية المتعلقة بجزيرة العرب، ومن الخير ان يستمر صدورها، وان تحتفظ بمستواها ومادتها واهتمامها، مع اعادة طبع اعدادها وتجليدها وتوزيعها على مكتبات العالم للاستفادة منها.

وقد اعدت ادارة التكشيف والاستخلاص بمكتبة الملك فهد الوطنية دراسة لحياته مع ببليوجرافية شاملة لأعماله المنشورة، وصدر قبل خمس سنوات، واشتمل على أكثر من ألف ومائة وسبعة عشر عنواناً اشتملت على عناوين مقالاته ومحاضراته وكتبه ودراساته وتحقيقاته ومختصراته، استهله الدكتور يحيى محمود بن جنيد الساعاتي بترجمة مختصرة لحياته وأعماله، ومن الخير الانطلاق من هذا التكشيف لجمع تراثه ودراسته واعادته إلى المهتمين.

والنخبة الفكرية والثقافية التي تجتمع اليوم بدعم سخي من أمير الرياض لإنجاز مشروع ثقافي يتناسب ومكانة الجاسر ويرد له بعض حقه على أبنائه وطلابه ومحبيه من حقها على العلماء والمفكرين والأدباء ورجال الأعمال ورجالات الدولة ان يدعموها بالمال والخبرة والعمل، فالمؤسسة المرتقبة مشروع ثقافي ستكون لها عوائد علمية وثقافية، والبلاد بأمس الحاجة إلى تعدد المؤسسات العلمية والثقافية.

والله المسؤول ان ينفع الأمة بجهد ابنائها، وأن يجعل عملهم خالصاً لوجهه محققاً مراده لهذه الأمة التي كرمها بأن جعلها خير أمة أخرجت للناس.

الثقافة وتحديات العولمة.. ؟ (١) [1]

نحن أمام ثلاث كلمات: مصطلحين، وإجراء.

أما المصطلحان: فالثقافة والعولمة.

وأما الإجراء فالتحديات، والناس في الفهم ثبات وليسوا مجتمعين، وإشكالية الفهم واسلوب المواجهة ترفعان نبض الحدث، وتؤسسان لموقف أيدلوجي، يخرج من مستوى التداول للاختيار إلى عمق الاعتقاد بواحديته وحتميته، وهو ما ينقل الجدول حول فهم المصطلح وإمكانية استيعابه إلى تكريس وجوده.

وماذا علينا لو استبدلنا التحدي بالحوار أو بالتفاعل، وخلصنا من لهجة الصراع والصدام إلى علاقات التفاعل أو الاتقاء.

وهل نحن قادرون بإمكانياتنا وأوضاعنا القائمة على التحول من التحدي والصدام إلى التفاعل والحوار؟، وبالتالي هل نملك تحديد نوع المواجهة؟.

وهل منتج العولمة يقبل منا التطلع إلى الندية وتكافؤ الفرص، وحرية الاختيار، واستبطان مالاتقوم حضارتنا إلا به؟.

وهل بالإمكان تقاسم المواقع وتبادل المنافع بإزاء حضارة متغطرسة تعيش واحدية القطب لا نعرف عنها إلا الحشف وسوء الكيل؟.

وهل العولمة تزويد بما ينقص المتعولم، أم هي تشكيل للمتعولم وفق رغبة المعولم بحيث يظل جائعاً يطلب الطعام وخائفاً يطلب الأمان؟.

وهل من حقنا القبول بعولمة العلم والاقتصاد وخصخصة الثقافة؟.

هذه التساؤلات الملحة سبقت تحديد مفهوم المصطلحين والإجراء لأن الذي يعرف أخزم يعرف شنشنته.

إننا حين نبحث عن تعريف جامع مانع لمصطلح الثقافة نراه كالمرآة في كف الأشل، إذ هو مصطلح مراوغ اضطربت حوله الآراء، وتباينت التصورات، ولما يصل المعنيون إلى تعريف حاسم.

يحدد مصطلح الثقافة ومقتضياته، ويصف المثقف، ويعين نوع المكتسب المطلوب والقدر الكمي الأدنى، لتكون الثقافة ويكون المثقف، ومن ثم فالأزمة قائمة في النوع وفي القدر وفي الذات الفردية والجمعية، وليس ما يمنع من مقاربة تدني منه ولا تمسك به، والسبيل القاصد تقصي دلالات الجذر اللغوي فهو يقرب من المعنى.

والكلمة معجمياً، قبل أن تكون مصطلحاً على مفهوم، ذات أصل دلالي واحد كما يقول ابن فارس في معجم المقاييس:

الثاء، والقاف، والفاء كلمة واحدة إليها يرجع الفروع، وهو إقامة درء الشيء، ويقال: ثقفت القناة، إذا أقمت عوجها.

قال:

نظر المثقف في كعوب قناته... حتى يقيم ثقافة منآدها وثقفت هذا الكلام من فلان، ورجل ثقف لقف، وذلك أن يصيب علم ما يسمعه على استواء، وتقال ثقفت به إذا ظفرت به، قال: فإما تثقفوني ما قتلوني.. وإذا اثقف فسوف ترون بالي.

والجذر الثلاثي عند المعجميين يعني ثلاثة أشياء متقاربة تناولناها بالتفصيل في محاضرة ثقافة التقنية وتقنية الثقافة وهي:

---

(١) تاريخ المقال: ١٢/ ١٢/ ٢٠٠٠

١الوجادة: فما يجده الإنسان يسمى مثقوف: أي موجود، وكذلك ما يصادفه الإنسان في حياته أو في وجهته، قال تعالى: ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ ﴾ [الأنفال: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ [البقرة: ١٩١]، ولا يعني الثقف في القرآن الكريم إلا هذه الدلالة، وقد ورد هذا الجذر في القرآن ست مرات.

٢التقويم الحسي، وقد يمتد للمعنوي، بحيث يحقق المصطلح مهمته الوظيفية القائمة على الممارسة: من ثقف الرماح: عدلها، وأقام اعوجاجها، والتثقيف التسوية.

٣الحذق: ثقف، ثقافة: صار حاذقاً خفيفاً فطناً، فكأن الوجادة والتقويم يؤديان إلى الحذق والفطنة، وقد أشار إلى ذلك ابن فارس بقوله أن يصيب علم ما يسمعه على استواء وذلك بيت القصيد.

وهذه الدلالات الثلاث تعطي معاني تراتبية، فالوجادة تمكن من التعديل الحسي كالرماح، والمعنوي كالقيم الأخلاقية والفكرية، وهما ينتجان الحذق والفطنة.

وتلك هي مجمل الدلالة المعجمية لجذر ثقف، وإن زاد عليها مجمع اللغة العربية بالقاهرة في معاجمه بعض الدلالات المجازية أو السياقية، غير أن المقتضى المصطلحي المعاصر تجاوز هذه الدلالات وأعطى الكلمة فضاءات واسعة واحتمالات متعددة، والثقافة في الاصطلاح تتعدد بتعدد الفنون والعلوم والمذاهب وبتعدد الأزمنة والأمكنة وبتنوع الحضارات والمفاهيم والرؤى لدى كل مفكر، وقد زادت تعريفاتها على المائة والخمسين، فهي عند علماء الاجتماع غيرها عند علماء النفس، وهي مغايرة عند علماء الاجتماع غيرها عند علماء النفس، وهي مغايرة عند الأدباء والفلاسفة، وذوي الديانات والمذاهب والوضعيين، تكون: طريقة الحياة الكلية لشعب من الشعوب، كما تعني ضروب النشاط: كالفن والأدب والفكر والعادات والتقاليد وكل المنجز البشري الذي تلتقطه حواس الإنسان وتحتفظ به الذاكرة، وتنمي منه مكتسباتها، وتهذب فيه سلوكها، وتجسد فيه شخصيتها وقد تمتد إلى الشعور والتفكير، وهي من حيث التعريف الكمي: الأخذ من كل شيء بطرف، أو هي: معرفة كل شيء عن شيء، ومعرفة شيء عن كل شيء، وهي بهذا التعريف تعني التخصص العلمي والمعرفة غير المتخصصة، والاختلاف في تحديد المفهوم والقدر المعرفي يمتد إلى الاختلاف حول تحديد المثقف على مستوى الأفراد والجامعات والأمم، وقد وعاها السلف وفق هذا التباين، ولم يشغلوا أنفسهم بتحرير المصطلح، وإنما اشتغلوا بما يمكن أن يصدق عليه مفهوم الثقافة، فألفوا الموسوعات، ودونوا المعارف، وعرفت مؤلفات من هذا النوع، كالحيوان والبيان للجاحظ، والمعارف لابن قتيبة، والمستطرف والعقد والخزانة وكتب التراجم والبلدانيات وأدب الرحلات وغيرها، وللمصطلح معطيات كثيرة: مفهومية وهو ما يرسمه الإنسان في مخيلته وبتصوره، وكمية وهو القدر المعرفي المكتسب، وإجرائية وهو ما يتمثله بنفسه أو يتوقعه من الآخرين، ويتصورها آخرون بأنها: كم معرفي ونسق فكري ونمط سلوكي، إنها ألوان معرفية تفرضها الهيمنة والسوائد أو تستدعيها الحاجة وتسربها قنوات التوصيل.

وهي أنساق من الأفكار والمعتقدات والمذاهب والمناهج الثابتة والمتحولة، وهي أنماط سلوكية تحكمها القيم والتصورات والمفاهيم والمعايير.

والثقافة العربية ترتكز على ثلاثة عناصر هامة:

الدين.

اللغة.

التراث.

ولكي تتحقق الثقافة بمفهومها السوي لابد أن تتجلى من خلال تلك العناصر، ولا تحول تلك العناصر دون الاكتساب والتحول المشروط والمحدود والمنضبط.

والثقافة المؤهلة بمقومات البقاء هي القائمة على ثوابت لا يرقى إليها التأثير بمعنى: أنها تملك المتن والهوامش، لها متن ثابت متميز وهامش متحرك متغير، وهي تقرأ من خلال متنها الذي يحدد هويتها، والثقافة اكتساب مستمر وإضافة متواصلة واستيعاب دائم وتفاعل حي: مؤثر ومتأثر، ولكن الاكتساب والإضافة والاستيعاب والتأثر محكومة بثوابت وشروط ومواصفات، متى فقدت تحول الأمر إلى حركة اضمحلالية مسخية، والثقافة العربية يختص جانبها الثبوتي بقيام عنصرين ربانيين:

الدين.

اللغة.

وهما الإشكالية الأقوى في وجه المهرولين باتجاه الاستغراب، ثم إن هناك مصطلحات تتداخل مع مصطلح الثقافة، كمصطلح الحضارة والمدنية وقد يكونا أكثر مرونة واستجابة وتصالحاً مع المستجد.

فالحضارة تشير في الغالب: إلى طرائق الحياة العلمية الأكثر تقدماً.

والمدينة: تعني المستعملات والمسكوكات والمسكونات.

وهناك تاريخ للتمدن الاجتماعي، يحكي تطور حضارة ما، وقد كاد جرجي زيدان للحضارة الإسلامية حين كتب عن تاريخ التمدن الإسلامي مركزاً على جانب اللهو والمجون ومجالس الشراب وأزياء الغلمان والجواري وآلات الطرب، متعمداً حصر التمدن الإسلامي بهذه الظواهر منطلقاً من قصور العباسيين، وهو قد فعل المكيدة نفسها عندما أنشأ الروايات الإسلامية.

والحضارة والمدنية في النهاية لونان من ألوان الثقافة، بوصف الثقافة ما يجده الإنسان وما يكتسبه من قول أو فعل، وما يتحلى به من قيم حسية أو معنوية وما يعرفه من خلال الآخرين، فالطفل يولد على الفطرة كما يصوره الإسلام، وهو كالخامة البيضاء كما يصوره السلوكيون، وقد يمتد بنا الحديث إلى إشكالية اللغة من حيث كونها: كسبية أم ملكة، ومع صعوبة القطع بمفهوم محدد للثقافة، فإنها من الوضوح، بحيث يرجع بها المتلقي إلى معهوده الذهني، وليس هناك أصعب من الحديث عن الأشياء الواضحة.

والثقافة تختلف من عصر إلى عصر ومن حضارة إلى حضارة، وهي داخل الحضارة الواحدة والعصر الواحد تتعدد تصوراتها ومستوياتها وأنواعها ومدى ارتباطها بالسلوك الاجتماعي، وهي أيضا تتعدد بتعدد الاهتمامات، ومن ثم أصبح من الصعوبة بمكان الاتفاق على مفهوم الثقافة والتحديد المعرفي للمثقف، والبعض يربط الثقافة بالسلوك الحضاري المتمدن، ويجعل المثقف نقيض الرجل البدائي، وخطورة الثقافة تكمن في كونها التشكيل الأهم للهوية والخصوصية الحضارية، أو قل إنها مجموع المعارف التي تحدد الهوية والخصوصية، وهذا مصدر الحساسية في مواجهة العولمة.

والثقافة في أدق مفاهيمها جماع الحضارة والدين وظواهر الحياة، وهي المكتسب المؤثر في توجيه القيم والرؤى والتصورات، إنها الاكتساب والثراء المعرفي، والثقافة بوصفها الكسبي الكمي تواكب ذاتها بوصفها الفعلي، إنها كم معرفي وممارسة إجرائية وسلوك حضاري، إنها سمة وخصوصية وضوابط، وليست مجرد الكم المعرفي، إنها الأقدر على إبراز الهوية وتأكيد الخصوصية، واختراقها إسقاط للحضارة ومسخ للأمة، وقد وقعت الأمة في مفاهيم جديدة وآليات جديدة لصناعة الهوية تمثلت بالمجتمع القومي أو المجتمع الاشتراكي، واتخذ آخرون الطريق السوي حين طرحوا آلية الثقافة الإسلامية في

مناهج الدراسة، ومع تعدد الانتماءات والهرولة وراء بوارق التجديد فإن الثقافة العربية تركن إلى قاعدة شعبية عريقة عميقة.

الثقافة وتحديات العولمة .. ! (٢)[1]

أما التحديات:

فجمع لكلمة تحدِّي، من جذر ح، د، و ثلاثي معتل الآخر، قال ابن فارس في المعجم: الحاء والدال والحرف المعتل أصل واحد، وهو السَّوق وحدوته على كذا: أي سقته وبعثته عليه، وحين جاءالى التحدي المقصود لنا، قال: وقولهم فلان يتحدَّى فلاناً اذا كان يباريه وينازعه الغلبة وهو من هذا الأصل، لأنه اذا فعل ذلك فكأنه يحدوه على الأمر، والتحدي بمفهوم المباراة والتنازع يحتاج إلى لياقة للعدو والمصارعة وذلك ازدواج باهظ التكاليف، والتحدي بين الثقافة والعولمة تبادلي، فكل منهما يغالب الآخر ويباريه، فالثقافة هدف العولمة والأقوى هو الأغلب، ومن ثم لابد من النظر في امكانيات الثقافة العربية، لكي تواجه قدرها بندية وتكافؤ، والتحدي يشكل مستويين: تحدي تفاضل، وتحدي سيطرة وسبق، واشكالية الثقافة العربية انها تمارس لغة التفاضل، ولكنها لما تملك آلية السيطرة بعد، والمغلوب اما ان يكون مقلداً للغالب أو متفلتاً من اساره.

وأما العولمة:

فتعود في أصلها إلى جذر ثلاثي: العين واللام والميم وهو مايدل على أثر بالشيء يتميز به عن غيره، ومنه: العلامة السمة أو الوسم والعَلَم الراية، والعَلَم الجبل، والعالم كل جنس من الخلق تميزه سمة كعالم الانس والجن والملائكة، وقيل: سميّ العالم عالماً لاجتماعه، وأعلم الشيء علق عليه ما يميزه، وعولم الشيء أي جعله عالماً واحداً متجانساً، فكأنه له علامة تميزه عن غيره، والكلمة مصوغة على زنة فَوعل كجورب الخادمُ سيدّه: ألبسه الجورب، وصومع الولد الثريد: أي جعله كالصومعة، ويمكن صياغة مصطلحات على زنة فَوعل مثل القولمة والعوربة والسودنة والصوملة، ويمكن بناء صيغ أخرى تؤدي ذات المعنى مثل الأمركة والتمصير والأفغنة والعصرنة واللبننة والمقصود: صيّر شيئاً ما على هيئة شيء آخر وهي صيغ تستدعيها الظواهر السياسية التي لا تني من سك المصطلحات لتواجه المتغيرات المتتابعة، وعلماء الصرف فيم أذكر يتحفظون على صيغة فَوعل، ولأنها عندهم من المسموع الذي لا يقاس عليه، وان كان وزناً صحيحاً، وجاء مستعملاً على جعل الشيء راجعاً إلى معنى جذره، وهو تحفظ مفضول، وتضييق على مستعمل اللغة في مواجهة النوازل، وأحسب ان السماع كاف للجواز ولو على الاضطرار، ومعنى هذا ان العولمة تعني تحويل العالم المتعدد في دياناته وعاداته وثقافاته إلى شيء متجانس وغير متفاوت، يتميز بعلامة واحدة، يتحد ثقافة وحضارة ومدنية، وهذا مكمن الخطورة، فما الجنس الثقافي والاجتماعي والحضاري والمدني الذي سوف يسود العالم ويجذبه اليه، لأن العولمة ممارسة من طرف واحد سلطوي، يحكم العالم بالقوة، ويصوغه على شاكلته ذهنياً وسلوكياً بالعنف، وهو اذ يفعل ذلك فلن يجعله مثله في: علمه وانتاجيته وانضباطه واحترامه للقانون، ولن يفيض عليه من علمه الدقيق بظاهر الحياة الدنيا ما يجعله نداً، وانما ستفيض عليه ما يضمن التبعية، ويمكن من السيطرة والاستغلال، وهذا ما توحي به صيغة فَوعل اذ هي اجبار والزام، فكأن الغرب المستكبر يفرض ثقافته واقتصاده وانماط سلوكه، ويحتفظ بعلمه وتقنيته، وهو قد فعل مثل ذلك حين لم يسو بين الرجل الأبيض والأسود والعربي واليهودي والغربي والشرقي.

والعولمة اصطلاحاً كما في الموسوعة العربية العالمية المجلد ١٦ ص ٧٢١ ما ملخصه:

---

(١) تاريخ المقال: ١٩/ ١٢/ ٢٠٠٠

لفظ يطلق على عملية التداخل الثقافي بين أنحاء العالم المختلفة، وما ينتج عن ذلك من تأثير ثقافي وسياسي واقتصادي، والعولمة ترجمة لمصطلح انجليزي، وقد اشتقت بالعربية من كلمة تعني التميز والبروز بالعلامة، كما يتميز الجبل والراية، والقصد توحد العالم بتوحد المؤثرات الثقافية أو الحضارية.

وهي كما في الموسوعة نتيجة التطور الهائل في وسائل الاتصال بين المجتمعات والدول وانتقال المؤثرات من بلد إلى آخر بسرعة لم يسبق لها مثيل، فالاتصالات الهاتفية عبر الأقمار الصناعية والمحطات الفضائية التلفازية، وانتقال الناس عبر المواصلات السريعة تزيد من تداخل الشعوب والثقافات ببعضها البعض، ونموذج الأخبار التي تنقلها الشبكات التلفازية المنتشرة عالمياً وتبثها وكالات الأنباء مثال على توحد العالم في معلومات اخبارية واحدة تقريباً، والعولمة تعني اسقاط الحد وانهاء الاختلاف وقبول الصيغة المجتمعية الواحدة المعدة من قبل الحضارة المهيمنة، وذلك الذي شرع الخوف من نتائجها المؤدية في النهاية إلى الأمركة الأمر الذي أدى إلى عقد مؤتمر في كندا عام ١٩٩٨م حضره اثنان وعشرون وزير ثقافة، أكدوا على اقامة تحالف يحمي من الزحف الأمريكي، كما أكدوا على ضرورة احترام السيادة الثقافية والتعددية الثقافية، وقد كان الاستعمار الثقافي الفرنسي للجزائر أقوى مثال للدمج والالغاء، اذ ما زال الجزائريون يعانون من آثاره: لغة وابداعاً وحضارة.

والمخيف ان خطاب العولمة التوحيدي مثل خطاب التعددية الثقافية، لم يؤد كما يبدو، إلى تعددية متساوية متوازية متكافئة في المؤثرات الثقافية وفي تقاسم الغنائم، وانما يعكس الوضع الحضاري العالمي الذي يهيمن فيه الأنموذج الحضاري الغربي على غيره من النماذج، واذا كانت تلك الهيمنة لا تتخذ شكل المواجهة المباشرة المتمثلة بصدام الحضارات، كما كان يحدث زمن الاستعمار التقليدي الأوروبي القديم للشعوب الأخرى، فانها تتمثل في نوع من الزحف الحضاري السلمي غير المباشر كالخدر الذي يدب في الأوصال دون وعي، وأبسط ملامحه المستعملات من ملبس ومأكل ومشرب ومركب ومسكن وأجهزة وغيرها، وهو التجنيس المألوف الذي يجهز لما هو أهم وأخطر، والمتتبع للأنظمة والمناهج والمعارف وكل مشمولات المدنية، ينتابه الخوف من استفحال القابلية للتعولم الطبيعي، فالشارع العربي لا يعكس الخصوصية العربية، انه خليط عجيب من حضارات شتى، وأنت ترى مثل ذلك في البيت والمكتب والمدرسة، وكل تلك ممهدات للتعولم الطبيعي.

والعولمة فيما أتصور ليست ناتج تطور تقني وحسب، وانما هي رغبة القطب الواحد الذي توفرت له امكانيات تقنية وغيرها، ومن ثم جد لوضع صيغة مناسبة للعالم، بحيث لا يكون هناك خروج على السرب يعوق مشروع الهيمنة الاقتصادية والحضارية، والامكانيات مساعدة ومغرية لطرح المشروع، وليست منتجاً حتمياً له، كما يتوهم البعض، مع ان القابلية قد تتحول إلى رفض بمجرد الوعي والتحرف، اذ لا مكان لليأس والقنوط، فكم يقدر الأقوياء وتأتي النتائج لصالح الضعفاء اذا لم يفرطوا في جنب الله.

والعولمة ذروة الغلبة، اذ هناك استعمار الثكنات العسكرية والمناديب والمستشرقين والمبشرين والمستغربين، وحين استنفد الاستعمار التقليدي طاقته جاء النظام العالمي الجديد، ولم نتلبث معه الا قليلاً حتى اجتاحتنا العولمة كآخر خطاب نعايشه، وهي في نظري الأخطر، لأنها تطبيع ومسخ والغاء للهوية والخصوصية، اذ تبيح لنفسها التساؤل عن سائر الأوضاع: السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية، وهي اذ تسأل لا تبيح لأحد التساؤل عن حقه في العلم والصناعة وتقاسم الامكانيات، وهي اذ لا تفكر بالمساواة والمشاركة تمارس العمل في الصميم، فالاقتصاد وقضايا المرأة وما يتعلق بها من طلاق

وتعدد وإرث وقوامة وعمل مشروط وسفور وتبرج واختلاط وخلوة وغير ذلك وما يفرض بدعوى حقوق الانسان المانعة من تطبيق الأحكام الشرعية كالقتل والقطع والرجم والجلد كل ذلك بوادر مخيفة، ومؤتمرات المرأة والاسكان وتوصياتها تنسف الخصوصية الثقافية، وتحول دون الحاكمية الاسلامية.

والمواجهة الحضارية كالمعركة العسكرية تحتاج إلى آلة وتخطيط وتوقيت وتقدير واجتماع كلمة وامكانيات استثنائية لاختراق الآخر أو التحصن منه، وهو ما لم يتوفر عليه العالم الثالث، ومنه العالم العربي والاسلامي.

ولأن ناتج العولمة يعني تخلية الأمة من انتمائها الاقليمي واللغوي والفكري والحضاري والثقافي والتاريخي وافراغها من كل محتوياتها التراثية فانها لبُّ المواجهة الحضارية، وازاء هذا الخطر الداهم فاننا بحاجة إلى جهد استثنائي وصياغة جديدة لخطابنا لاستكناه العولمة ومواجهتها بوصفها قضية الساعة، وبوصفها اقتصادية سياسية ثقافية، ونفاذها الفكري والثقافي أخطر من سيطرتها الاقتصادية والسياسية، والكم الهائل من الكتب والدراسات والندوات والمترجمات التي تعقبت هذا المصطلح كادت تسبق التأسيس المعرفي له مع ما كشفته من فوضوية مستحكمة وآراء متناقضة وتصورات متباينة وارتباك معرفي عشوائي، وهذه النازلة المزعجة والمخيفة عمقت الفرقة والخلاف بين أصحاب القضية الواحدة، ذلك ان الانتماء الديني والحاكمية الاسلامية لم تكن حاضرة العلمانيين والحداثيين والقوميين، وهؤلاء قبل نازلة العولمة في صراع مستحر مع الفكر الاسلامي المستنير، والتباين في الآراء والتصورات والمواقف فتح شهية الغرب للتوسع في مقتضيات المصطلح الذي بدأ بالاقتصاد المتواضع، ثم امتد كما الوباء مستشرياً في جسم الأمة دونما مقاومة علمية حضارية مؤسساتية، فالأمة التي لا تنفر جميعاً لمواجهة التحديات يسهل احتواؤها والسيطرة عليها، والأمة التي لا تواجه النوازل بخطاب مؤسساتي يكون فيه المفكر بعد طرح رؤيته كشاعر غزية يغلب المصلحة العامة على الرؤية الخاصة تتحول إلى غنيمة باردة، ذلك ان يد الله مع الجماعة، وانعدام الوحدة الفكرية مؤذن بانعدام وحدات أخرى، وذلك ما تعانيه الأمة العربية، وكل أطرافها تمارس بفعلها التجذيل والاحباط والخبال، ونخبها تنازع بعضها عبر مناكفات تبحث عن الانتصار ولا تتوخى الحق.

والأمة المستباحة بطوفان المستجدات بحاجة إلى فرز مفردات الغرب، وتصنيف ممارساته، وتقصي المعلومات عن فعله ومواقفه ومنتجاته واعطاء كل شيء ما يقتضيه وتحديد المواقف على ضوء ما يتوفر من معلومات صحيحة تنتجها دراسة علمية موضوعية منهجية مؤسساتية، لا تعتمد الاثارة، ولا تميل إلى كسب الغوغاء وسرق الأضواء وصناعة الذات على حساب المصلحة العامة، والمواجهة يجب أن تتجاوز الاقليمية والمبادرات الفردية، لتكون أممية تباشر التأسيس المعرفي لحرب حضارية طويلة الأجل باهظة التكاليف، ولن يتأتى ذلك الا بالتقارب الفكري واستصحاب التراث واظهار الدين وحماية اللغة والأخذ بأسباب الحضارة والانفتاح على العالم وتبادل المصالح والخبرات واعداد القوة بكل وجوهها والثقة بالذات والتحرر من الانبهار، وقدرنا العصيب أننا نعيش خلطة مستحكمة مع الغرب نستثمر كل منجزه، ولا نستغنى لحظة واحدة عن آلياته ومكتشفاته ووسائله ومناهجه واسلوب تعامله مع الأشياء، ومع هذا نختلف في فهمه وفي قبوله أو رفضه، وهذا الارتباك أرضية صالحة لتخصيب مشروعه العولمي، ومع هذا الوضع غير السوي استحالت فرصة الاستقلال الذاتي، اننا أمة مسلمة لها شرعتها ومنهاجها وأحكامها وشعائرها، ولها حضارتها وقيمها وضوابطها التي تختلف عما لدى الآخر المهيمن ومن واجبها وعي التميز، وفي الوقت نفسه يجب ألا تمانع

من الاستفادة المادية والعلمية واتخاذ الوسائل المؤدية إلى القوة، فالتخلف ليس من لوازمها، ولعبة المؤاخاة بين الشرعي والوضعي لعبة خطيرة وحساسة، لا ينهض بها الفرد ولا يرسمها الخطاب العاطفي الاستهلاكي، وانما ينتجها جهد جماعي مكتمل الأهلية، يضع الضوابط، ويحدد الممكن وغير الممكن، ويتوفر على آلية الاجتهاد وشرطه وامكانياته.

ولأن العولمة واحدة من مفردات الحضارة الغربية، ونحن: اما مكرهون أو مضطرون للدخول بها كافة بحكم الخلطة والحاجة والضعف والاختلاف، فان أمر التعامل معها من الخطورة بمكان، والدخول المشروط والمنظم أفضل من المواجهة غير المتكافئة أو الرفض غير المدروس، والتأذي من الغرب حاصل من قبل العولمة ومن بعد ما جاءت.

ونحن بازائها أحوج ما نكون إلى الوعي: وعي الذات، ووعي الآخر، لكي نتمكن من وضع صيغة معقولة للتعامل مع مجمل القضايا المتحفظ عليها، ومنجز الآخر: اما ان يكون علمياً يمس ظاهر الحياة الدنيا كالعلم التجريبي وسائر الصناعات والمكتشفات، أو يكون ثقافياً كالعلم النظري والعادات والعبادات والأحكام والأنظمة واللغات والآداب والفنون وكل ما تتجسد من خلاله الهوية والحضارة كالقيم والدساتير، والعلمي التجريبي وما لا يقوم العلم الا به عالمي الانتماء، وأما الثقافي فله مستوياته في القبول المشروط أو الرفض المطلق أو التوقف حتى الاستبانة، ومواجهة النوازل التي تتطلب حكماً شرعياً تحتاج إلى مؤسسات فقهية جماعية تتداول الرأي وتراعي الأوضاع لتقول عن بصيرة، والاسلام له نصه القطعي أو الاحتمالي في الدلالة والثبوت، والدخول على النص لاستنطاق أحكامه ازاء النوازل له ضوابطه التي يعرفها الأصوليون، وللاسلام مقاصده وقواعده، ومن ثم لا يجوز أن نواجه النوازل بخطابات نخبوية وسياسية واعلامية متعددة في ذواتها مستقلة في رؤيتها، بل يجب تحويل الخطاب من مبادراته الفردية وتشتته الفئوي إلى خطاب جماعي مؤسساتي يعبر عن المواقف الجماعية، خطاب يعتمد على التأصيل الشرعي والحوار الحضاري.

الثقافة وتحديات العولمة .. ! (٣)[1]

ولأن علاقتنا بالآخر المغاير: فكراً وسلوكاً وتصوراً للكون والحياة وسائر القيم من أخطر العلائق وأكثرها تعقيداً، فإن الأمة مضطرة إلى صياغة حضارية لأسلوب التعامل، إذ لم يعد الخطاب الاهتياجي الانطباعي الأعزل مجدياً، ولا سيما أننا مستبطنون للغرب متداخلون معه بوصفه حضارة مهيمنة، ونحن معه على مستويين:

الصدام العسكري.

الصدمة الحضارية.

والصدمة قد تؤدي إلى الارتباك والتصرف غير السوي، و(الصدام)و(الصدمة) جاءا على صور شتى، وعبر ممارسات متطاولة مع الزمن، مرت فيها الأمة بخطابات: سلفية وإصلاحية وتوفيقية وتلفيقية واندهاشية واندماجية وتغريبية وعصرية وعلمانية، ولما يتوحد خطابها في مواجهة الآخر في أي مرحلة من مراحل الحياة المعاصرة، كما مرت في ظل هذا التشرذم بمواقف عصيبة ومواجهات متعددة مع الذات ومع الغير، وهي اليوم تواجه (النظام العالمي الجديد) الذي أفضى إلى (العولمة) بالتشتت والاهتياج والارتباك.

جاء الصدام العسكري منذ (الحروب الصليبية) مروراً بالحروب المتعددة التي باشرها العدو بجيشه، أو ناب عنه فيها الضحية، حيث قضى على أمنه واقتصاده وجيشه وعمق العداوة مع الأقربين، فيما بدأت الصدمة الحضارية بحملة (نابليون) المتسلحة بالعلم والآلة وفق سياقها، وبما كان يمارسه فيما بعد المناديب الاستعماريون والمستشرقون والمبشرون والمستغربون من محاولات مشبوهة لطمس الهوية وتجفيف منابع الحضارة الحاضنة للإسلام، وبما هو قائم من تواصل متعدد القنوات، مما أثر على المفاهيم والقيم، وتلك العلاقة غير المتكافئة، تنطوي على مآس تستدعي الشك والارتياب والحيطة والتدبر، وحقائق التاريخ تشهد بما يوجب أخذ الحذر والتحصن بسلاح المعرفة، والغرب يمثل حضارة مغايرة في وجوه كثيرة ومطابقة في وجوه أخرى، إذ تنطوي حضارته على إيجابيات وقيم ومثمنات: مادية ومعنوية، نحن أحوج ما نكون إلى الكثير منها، وهو ما يؤكد عدم وجود (نص) بريء ولا حضارة خالصة من التأثر والتأثير، وقل أن يكون في الممارسات الإنسانية شر محض أو خير محض، ولهذا لابد من دقة الفرز بين المجدي وغير المجدي والمحظور والمباح، وفي هذا السياق يكون اختلاف وجهات النظر هو أصل الوجود، والاتفاق حالة استثنائية، وقد جاء في الذكر الحكيم عن الاختلاف (ولذلك خلقهم) ومن ثم يجب ألا تقوم المواجهة على النفي المطلق، بل على الفهم وتبادل المصالح، والمؤسف أن الغرب المستكبر يحتفظ بشفرات حضارته العلمية وإيجابياتها، ولا يفيض على الآخر إلا بما يفصله عن حضارته ولا يحقق له الندية، ولو أنه رضي بتكافؤ الفرص وتبادل المكتشفات ونظر بعين منصفة لوجد في الحضارة الإسلامية ما يدعيه لحضارته من نزعات عقلية وعلمية وإنسانية وسلمية، ولعرف أن الحضارة الإسلامية حيوية شمولية سوية، والمؤسف أن تواصله معنا مخيف ومفجع، وغزوه وتآمره مما لا يحتمل إلا قولاً واحداً، وما دمنا بصدد الحديث عن (الثقافة وتحديات العولمة)، وهو لون من الغزو والتآمر فإن علينا وعي مفهومهما لكيلا نخلط بين ما هو ضار وما هو مفيد، لقد عولنا على الغزو والتآمر كثيراً، وجعلناهما مناطين لفشلنا وتخلفنا، نعلق عليهما كل ما صنعناه بأيدينا، واقترفناه بجهلنا، إن فهمنا (للغزو والتآمر) أصبح من أخطر الإشكاليات، والفهم الخاطئ لا يقل عن فعلهما المتعمد، إذ إن خطأ المقدمات يؤدي

---

(١) تاريخ المقال: ٢٦/ ١٢/ ٢٠٠٠

إلى خطأ النتائج و(الغزو والتآمر) قائمان، والقول بعدم قيامهما غفلة أو تغافل أو مواطأة، والتعويل المطلق عليهما حيلولة دون محاسبة الذات والتفاعل الإيجابي مع الآخر، فما من إخفاق أو نكسة أو حرب مجانية أو ثورة دموية أو قتل همجي أو تغيير إلى الأدنى لا نريده ولا نقبل به إلا ويكون نتيجة غزو أو تآمر، ونحن أبرياء ملائكيون، وفات المعولين على هذا الادعاء التواكلي التبريري أن (الغزو والتآمر) كالجراثيم والفيروسات لا تفعل فعلها إلا في الأجسام المريضة التي لا تملك المناعة.

والأمة المرتبكة الوجلة بحاجة إلى وضع صيغة حضارية لتداول (الغزو والتآمر) القائمين بأقصى حد من البشاعة والنكاية.

والصياغة المسددة تمكننا من ألا نغفو على كف الغرب، ونحسن الظن به مع الذين ركنوا إليه واطمأنوا إلى مقولته المنافقة: (إنا معكم)، ولا نجعل أي تواصل معه غزواً وتآمراً، ومصاب الأمة من الموالين للغرب ومن المسرفين في مقاطعته وفي تحميله لمسؤولية الإخفاقات، والمتعامل مع المستجدات الفكرية والثقافية بالذات كالمشتغل بنزع الألغام يحتاج إلى خبرة ومعرفة وحذر، والورع وحده غير كاف للمواجهة.

و(الثقافة) حين تقع في مأزق (العولمة) ثم لا تكون قادرة على الاستيعاب أو المواجهة، تستفحل فيها القابلية للتبعية، وتفقد أهلية الوجود السوي، والمؤكد أن (الثقافة العربية) تمتلك في ذاتها القدرة على التفاعل، لأنها ثقافة أصيلة قوية منيعة محفوظة بوعد الله تدعو إلى التفكير والعمل وإعداد القوة واكتشاف الآيات في الآفاق وفي الأنفس، ولا تمنع من صناعة ولا من زراعة ولا من استحداث أي منهج أو نظام متى كان ذلك الفعل مراعياً للمقاصد الإسلامية محققاً الحاكمية مظهراً للدين، والثقافة بكل ما لها من مؤهلات تعيش مع إنسانها الحامل لها عارضاً مرضياً قد لا تتمكن معه من مواجهة الطارئ، بحيث لا يمكنها إنسانها المرتبك من تجاوز المرحلة المعاشة بسلام، والإشكالية في الذات العربية، وليست في الثقافة العربية.

وعلينا إزاء ذلك أن نبحث في أهليتنا لاستبطان ثقافتنا قبل أن نفكر في عصرنتها، وعلينا أن ننظر كم هو الفرق بين عصرنة الثقافة وغربنتها، والإنسان العربي مع ما هو عليه من ضعف يقع تحت طائلة أدواء مصمية:

جهل الذات وانكار تخلفها.

تحميل الحضارة مسؤولية الإخفاق.

التنازع في مواجهة النوازل.

الركون إلى العدو.

وعندما تقترف الحضارة المهيمنة في ظل هذه الأدواء تنميط الثقافة وسلوكيات الأمم المغايرة وإخضاعها لمركزية النظام المعولم فإن الكارثة ستكون عالمية، تجتاح كوكبنا الذي قزمته الثورة العلمية والمعلوماتية والاتصالية، ولأن الإنسان مادة موحدة وقيم معددة فإن إشكاليته في القيم وهي مجال العولمة الثقافية، وذلك مكمن الخطورة.

وإذ تكون (العولمة) قادمة من الغرب على مطايا التقنية، نافذة كالهواء عبر الفضاء مستهدفة القيمتين:

المادية.

والمعنوية.

فإن واجب الأمة فهمها فهماً معرفياً وصياغة أسلوب حضاري للتعامل معها، والأمة العربية الإسلامية مطالبة بمبادرة حضارية لتلقي أطروحات الآخر، ولأن حضارة الأمة إسلامية فإن أولى المهمات فهم تلك الحضارة واستصحابها وتمثلها بعد التصفية والتربية، وتفهم الغرب ومحاورته وتبادل المنافع معه من المقتضيات الإسلامية التي لا غبار عليها،

والحفاظ على الخصوصية الحضارية والثقافية المتمثلة في نقاء العقيدة وإظهار الدين مهمة كل مفكر ومثقف مسلم، وحوار الحضارات أفضل من صدامها، والتساؤل والنقاش أفضل من الانغلاق أو التسليم، ولن يكون حوارنا حضارياً حتى نفهم ذواتنا بكل ما هي عليه، ونعي مقتضيات كينونتنا الثقافية بكل متانتها ومتطلبات الإيغال فيها، وحتى لا نخلط بين هذه الكينونة العربية المتخلفة ومشروع الثقافة الإسلامي الإبداعي الابتكاري التجديدي، يجب أن نثق بأهلية مشروعنا ونتقن عملية الربط بينه وبين ذواتنا الأممية، ولا بد أن نتحرر من الانبهار والإذعان، ونوائم بين الماضي والحاضر، ونتخطى من مهانة التلقي إلى فضاء المبادرة والإبداع، نجاري ولا نتلقى، نكرس الذات الثقافية ونجليها ولا نخفيها، نصحح مناهجنا، نقبل بالتعددية، ونرفض التناحر، إن القماقم الذهنية التي نصفد فيها ثقافتنا بحاجة إلى مراجعة، ولن يتأتى ذلك إلا بحضور الفرائض الغائبة والتي من أهمها:

نقد الذات.

تقويم الأداء.

رسم الخطط بعد النقد والتقويم.

مباشرة الفعل بثقة وقوة ومعرفة.

وتحديات (العولمة) قد تكون في النهاية بمصلحة الثقافة الأصيلة، لأنها تحفز ذويها في مرحلة من مراحل الصحوة على التحصن والمراجعة واستكمال ما ينقص، وبخاصة إذا كانت أصولها قادرة على إثبات الذات والتوفر على التكافؤ والندية، والثقافة العربية ذات أعماق متعددة، ليست لشيء من الحضارات القائمة، فهي تمثل التوازن بين الروح والجسد، وحاجات الدنيا والآخرة، وهي خليط من الوحي الإلهي والفعل الإنساني وعمقها التاريخي والجغرافي يمكنانها من الصمود والأداء، وما تعانيه الأمة من ضعف أمام المستجدات إنما هو عارض في الذات، وليس قائماً في المشروع.

إن خيار (القولمة) أو (العولمة) أو (العوربة) لم يعد من الخيارات السهلة، لا من حيث اتخاذ القرار، ولا من حيث الإجراءات، فالقرارات المصيرية تعني الحياة السوية أو الموت السيىء، والدخول في البنى المتعددة لتقويضها باهظ التكاليف، ومع ذلك فإن هناك أقداراً لا مناص من استقبالها وتحمل ما يترتب عليها من صعوبات، والمفيد أن (العولمة) بكل مجالاتها وبكل ما يتوفر لها من إمكانيات ليست الخيار الوحيد، وليست واحدية المستوى، وقد عالج هذه الفسح الدكتور (منير الحمش) في كتابه (العولمة ليست الخيار الوحيد) حيث أكد نفي الحتمية وواحدية الخيار، وتلك رغبة قد لا تكون ممكنة في ظل الأوضاع المتردية، ودون هذا التطمين يأتي (حازم صاغيّة) في كتابه (وداع العروبة) مؤكداً ضعف الهوية اللغوية والثقافية والدينية في إطار القومية الدستورية، بحيث قلل من أهمية الروابط الثقافية واللغوية والدينية، ولما يستوعب الأصابع الخفية التي كرست الإقليمية، وصنمت الحدود، واعطت مفهوماً للمواطنة يخدم المهيمن، ويهمش اللغة والدين والثقافة المشتركة، فيما تأتي الثقة والتباهي عند (فوكو ياما) الذي قطع بنهاية التاريخ واليأس من ظهور إنسان آخر بعد الحضارة الأمريكية والإنسان الأمريكي في كتابه (نهاية التاريخ) حيث راهن على النظام العالمي الجديد.

وهكذا نعيش الجزر والمد في الآراء والتصورات والرهانات، لنكون أبعد ما نكون عن صياغة مشروع مكتمل الأهلية من أجل مواجهة حضارية تقينا المسخ ولا تحرمنا من التفاعل، وقراءة التحولات الفكرية والثقافية واستبانة حجم التبعية والتلقي والتناحر من أجل الآخر تؤكد أننا غير مؤهلين لمواجهة حدث عالمي ك (العولمة) وفقد التأهيل عارض وليس لازماً.

والمتابع للرهانات على جحاش: الاشتراكية والبعثية والحداثة والبنيوية والقومية والفرويدية والداروينية والعلمانية والوجودية والوضعية وتهافت هذه الرهانات الواحد تلو الآخر يدرك أن الأمة تقاد بأيد عميلة وأدمغة مغسولة ونخب متسطحة منبهرة، يمكّن لها المستفيدون في المشاهد والوسائل الإعلامية، ويحيطونها بغوغائيين يسبقونها بالثناء ويحفظون ساقتها بالهجاء من خلال حركة تشايلية تنافخية.

إن علينا أن نواجه أنفسنا ونحاسبها حساباً عسيراً لأنها هي التي أوهنت العزم وأذهبت الريح، لقد تلاحقت المشاريع منذ رفاعة الطهطاوي وحتى الساعة، ولما نقف على شيء سوى ركام فوضوي متناقض من القول المتسطح، حتى لقد نظر إلينا الآخر كظاهرة صوتية، كما لم يبرهن أي مشروع عن أدنى حد من النجاح، ومع تلاحق الإحباطات والإفلاس لم نسمع أحداً من أصحاب تلك المشاريع اعترف بالهزيمة ولملم أوراقه ورحل تاركا المشهد لرهان آخر، إن هناك مستويات من التداخل في الآراء والتوجهات، والفريضة الغائبة براعة التنبؤ وحسابات المستقبل على هدي من العلم ولغة الأرقام، لقد فقدنا حاسة التنبؤ، وفقدنا إمكانية الرصد الدقيق للتحولات، وفقدنا الذاكرة، وعشنا أبناء لحظتنا الأبدية، نفاجأ بكل شيء ونستسلم لكل شيء، ونتنازع حول كل شيء، وكأن قدرنا ألا نتفق.

الثقافة وتحديات العولمة .. ! (٤)[(١)]

والذين يواجهون ((العولمة)) بتصورات خاطئة وآليات غير مناسبة، يعمقون المأساة، ويكرسون الضعف والتخلف، وما أكثر المتصدرين للقيادات الفكرية بقادرين على إعداد أنفسهم فضلا عن فهم المصير وتصور الآخر، والإسلام حين ندب للدعوة لم يجعلها حقاً مشروعاً لكل من هب ودب، بل ندب إلى النفور للتفقه في الدين قبل الإنذار، وأمر الجاهل بسؤال أهل الذكر، ووصف الدعاة بالبصيرة وهي العلم، وجعل تغيير المنكر مراتب: باليد أو اللسان أو بالقلب، وما أكثر الذين لا يستطيعون إلا أضعف الإيمان، ومع ذلك يتصدرون للقول ويتقحمون مضائق الفتيا، وأجرأ الناس على النار أجرأهم عليها، وأطروحات الغرب أطروحات مؤسساتية علمية عميقة ومعقدة، ومن ثم تحتاج إلى مواجهة متكافئة.

لقد تعددت مفاهيم ((العولمة)) حتى صارت بعدد المتحدثين عنها، والسبب ان المواجهين لها يزكون أنفسهم، ويبرئونها، ويقطعون بنهاية التاريخ عند قولهم، فالفقهاء يخضعونها للحل والحرمة، والسياسيون يربطونها بالاستعمار والعمالة، والمتفيهقون يأخذونها وفق انتماءاتهم، وكذلك الاقتصاديون والتربويون والإعلاميون.

وكل طائفة تتتابها بآلية مغايرة، والحقيقة غائبة أو ضائعة الدم بين قبائل العلم والفكر والسياسة، و((العولمة)) المدعومة بكل الإمكانيات صيرورة واعية ونية مبيتة وصياغة جديدة لمشروع قديم، وليست طارئة، وهي إذ تكون أهون خطراً في مجالات الاقتصاد تكون أشد تعقيداً في مجالات الثقافة، والتحدي الحقيقي في المواجهة الفكرية والأدبية والاجتماعية، وقد سبقتنا دول في المنظومة الغربية بالتخوف من الأمركة، ومن ثم جدت في التحرف للمواجهة، نجد ذلك في ((فرنسا)) التي استنفرت كل إمكانياتها للحيلولة دون السطوة الثقافية الأمريكية، ومن المبشرات ان التجربة الماركسية للقضاء على الصراع الطبقي والصيرورة إلى التوحد انهارت، وقد يحمل مشروع العولمة جرثومة اضمحلاله، ومن التواكل ترقب ذلك، وهو مشروع كالماركسية يصادم الفطر السليمة والسنن الكونية، لأنه يحاول تفريغ الشعوب من محتواها الثقافي المستمد من مصادر مغايرة، والحياة السوية تتطلب التوازن بين (الأيديولوجية) و(التكنولوجية) أي: (العقيدة) و(الآلة)، هذه تصنع الآخرة، وتلك تصنع الحياة الدنيا، والإيمان القوي يقزم الحياة ويجعلها دون جناح البعوضة، وسحرة فرعون حين آمنوا قالوا لفرعون: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه: ٧٢] .

والشعوب لايمكن ان تعيش بلامرجعية دينية، والثقافة وعاء الدين، وقد مني العالم ب (دكتاتوريات) فاشية ونازية، حاولت صياغة العالم في قالب واحد، كما مر العالم بمتغيرات، قلبت موازين العلم والفلسفة والاجتماع والأدب، وعرف العصر الحديث في مجال الفلسفة (الوجودية) و(البراجماتية) و(التحليلية)، وعرف في مجال العلم (النسبية) و(النفسية) و(الأوتوماتيكية)، وعرف في مجال الاجتماع (الحرية السلوكية) و(انهيار الارستقراطية) وقيام (الصناعة) على أنقاض (الزراعة)، وانعكس ذلك على الأدب بانهيار القيم الروحية والأخلاقية والفنية، وقام اللامعقول واللامنتمي مقام المعقول والمنتمي، واستفحل العبث (الوجودي) و(الدادي) و(السريالي) و(الحداثي) حتى لقد صور بعض ذلك (اليوت) في قصيدة (الأرض اليباب)، وقد مس العالم الإسلامي دخن ذلك.

---

(١) تاريخ المقال: ٢/ ١/ ٢٠٠١

و((العولمة)) كما يتصورها صانعوها حُلُم راود الإنسانية منذ أمد بعيد، ولكنه حلم باذخ يصادم السنن الكونية، فالصراع أكسير الحياة، ولايزال الناس مختلفين، والوحدة الفكرية الشاملة غير ممكنة، والملل والنحل تشكلت في أوج الحضارة الإسلامية، وهي برهان على حتمية الاختلاف، ومحاولات التوحيد والتجنيس وهواجس القضاء على بؤر التوتر مرت بأطوار ومجالات وبدايات: لغوية، ودينية، واقتصادية، ولكنها باءت بالفشل، بل عمقت التعددية المتناحرة في ذاتها، ولعلنا سمعنا (باللغة العالمية) وإحداث (الاسبرانتو) التي اعترفت بها عصبة الأمم عام ١٩٢٧م، والتي وضعها الروسي (زمنهوف) ومن قبلها لغة (الفوليك) التي وضعها القس الألماني (شلير) وقد عدلت (الاسبرانتو) إلى لغة (الأيدو) ثم وحدتا باسم (الاسبرانتيدو)، وذهبت المحاولات أدراج الرياح، وتمسك العالم بآلاف اللغات، ذلك على مستوى اللغات.

أما على مستوى العقائد والديانات ف (البابية) محاولة لتفسير الكتب الدينية تفسيراً يقبله المسلمون والنصارى واليهود، ويؤاخي بين الأديان الثلاثة، ولكنها في النهاية انقسمت على نفسها، وخلفت من بعدها (القاديانية) بمثل هذه الرغبة، لتمنى بذات التشعب، وهاهو (روجيه جارودي) يدخل لعبة خطيرة وغير مسبوقة، تتمثل بمفهوم جديد فيما أعلم سماه (حوار الحضارات)، ويعني به تعدد طرق الخلاص وشرعنة التعددية العقائدية، ولا يعني الحوار القائم على الجدل وتبادل الآراء في الطريق لاكتشاف الحق ونفي الباطل، وهناك محاولات بائسة لغرض التعايش تتمثل بكسر (عَلَم الجهاد) بدعوى نظرية اللاعنف واللاإرهاب، وفات أولئك ان الجهاد والفداء والإرهاب والعنف صفات تضفيها القوى المهيمنة، فالمقاوم الفلسطيني إرهابي في نظر الصهيونية ومجاهد في نظر العربي المسلم، والمتحدثون الخنوعيون عن اللاعنف واللاإرهاب لايفرقون بين المفاهيم، وإنما يدعون إلى السلم من جانب واحد، أي من جانب قومهم، وهذا خنوع ومذلة وكسر لعلم الجهاد، والجنوح للسلم ندب رباني، إذا تكافأت الفرص، وتحققت العدالة، واحترمت الحقوق، وصينت العقائد، وأمن الناس على الضرورات الخمس، وليس هناك شيء من ذلك في ظل الغطرسة الغربية، واليهود الذين يهرول المخدوعون والمشبوهون للتطبيع والسلم ونزع السلاح معهم هم الذين نقضوا العهود مع الرسول ﷺ، لقد حاولوا قتله وسحروه وسموه، وهم اليوم يمارسون القتل بأبشع صوره، ومع ذلك نسمع من يدعو إلى الخنوع باسم اللاعنف، وأين أولئك من قتلى الانتفاضة وبشاعتها؟.

وعلى المستوى الاقتصادي تشرذمت الماركسية بين الاتحاد والصين وكوريا، ثم ظهر المد الاشتراكي العربي متخذاً صيغة جديدة، وأخيراً انهار الاتحاد وانكمش الصين وانطفأ الوهج الإعلامي العربي، وتحول الروائيون والشعراء والنقاد من تملق الشيوعية إلى الحداثة القائمة على الانقطاع، وهكذا تكون خواتيم الأعمال السيئة، ويكون ما ينفق عليها من مال وجهد حسرات على التبعيين، ثم يغلبون.

و((العولمة)) التي تحتل أوسع مساحة في المشاهد الفكرية والثقافية والاقتصادية وتشيع بسرعة تسبق المعنى والتأسيس المعرفي محاولة جديدة أحسبها قوية الشبه بتلك التجارب الفاشلة، لأنها رغبة شمولية، لم تؤسس على مرجعية، وإنما هي اشبه بالإنزال (المظلي) وإذ لا نتوقع نجاحها بتوحيد الثقافة والحضارة وتعميم الأنموذج الغربي فإننا نخاف مما ستتركه من آثار سلبية، تتمثل في انطفاء وهج الهوية وطمس معالم الخصوصية، فتكون الأمة كالأعراف لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ومثلما جنينا من الماركسيين والثوريين والحداثيين من ضياع للمثمنات وذهاب للريح فإننا لا نستبعد مثل ذلك في مواجهة العولمة، وها نحن نرى بوادرها قائمة في الاختلاف حول فهمها ومشروعيتها وأسلوب التعامل معها بين القبول المطلق والرفض المطلق، ومكمن

الخطورة الإمعان في الاستغراب، وبخاصة على المستوى الفكري والثقافي، وسمات ذلك واضحة فيما هو شائع من المذاهب والتيارات والاتجاهات والمدارس والمناهج في الأدب والنقد وسائر المعارف الإنسانية، وهذه الأمشاج يستحيل معها فرض رؤية أحادية وهيمنة نمط فكري وثقافي واحد، والذين يرفضون التعددية المشروعة ثم يدعون حراسة حقوق الانسان يناقضون أنفسهم.

فالثقافة حق إنساني لايتأتى إلا بالتعددية الثقافية ومشروعية الاختلاف، وقمع الاختلاف ومنع التعددية سطو متعمد على حقوق الإنسان، وفي سياق الارتباك نجد من المفكرين من يهون من خطر (العولمة) ويرى انها ليست تحرفاً واعياً ونية مبيتة للهيمنة على العالم، بوصفها نتيجة طبيعية لتقنيات الاتصال، ذلك ما يراه كاتب مادة (العولمة) في (الموسوعة العربية العالمية) وما يراه بعض المفكرين، يقول الدكتور/ علي حرب: والمقصود بالعولمة هي سيطرة الزمان الفعلي أي زمان سرعة الضوء على المكان، فالحركة السريعة لانتقال المعلومات والصور والرسائل والأشخاص جعلت الحدود تتآكل بين الدول والثقافات والقارات واللغات، هذه هي العولمة وهو حدث قد تم ولاجدوى من نفيه فله فاعليته التي تتزايد يوماً بعد يوم.

والحق ان العولمة صياغة جديدة لممارسات استعمارية قديمة، هي تعبير عن هم يساور الامبراطوريات العظمى والحضارات المهيمنة بآلياتها واقتصادياتها إمعاناً في الإذلال والتهميش، والتقنيات سبب من الأسباب، ولا أحسب العالم مع هذا سيتوحد، وإنما ستتوحد السيطرة إلى حين ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة، ومصيبة العالم الثالث النزيف الفكري المجاني المتناقض المتناحر المهيأ لأجواء السيطرة، لقد خدم المفكرون والمبدعون المد الثوري الماركسي، وفعلوا مثل ذلك مع العلمانية، وفوق ذلك مع الحداثة الفكرية، وأفاضوا بالحديث عن المرأة وقضاياها، والحرية وأشكالها، والديموقراطية وأحلامها، ومازالوا كمتلقي الركبان، كلما سمعوا هيعة استخفهم شيطانها ثم أوغلوا في القبول، ونابوا عن أعدائهم في تسويق المذاهب والمبادىء، وليست لديهم مبادرات ولا تأصيل ولا تساؤل.

ولأن العولمة مجموعة قيم متعددة: حسية ومعنوية، علمية وثقافية، فكرية واجتماعية، نظم وتعليمات، أشكال وألوان، وتحدياتها فيما هو غير مشترك فإن واجب النخب الفكرية التضلع من الثقافة العربية ومبادرة التأصيل الحضاري وتحديد المنطلقات والمواقف وتجلية الهوية والخصوصية، فالمسخ والتبعية مؤذنان بالاضمحلال، وهذا ما تعانيه الأمة على أيدي نخبها الذواقين.

والعوربة المؤسلمة لا تمنع من ايجابيات العولمة، لأن ظاهر مشروع العولمة علمي فكري ثقافي متقن الصنع محمي الساقة، تدعمه إمكانيات حسية ومعنوية، ويجب على الأمة العربية ان تتعامل معه بأسلوب حضاري بعيد عن الزعيق واللجاجة مستصحبة تفحص مفردات الطوارىء عند بوابة الدخول، تقبل المفيد، وتنفي ما سواه متحامية الرفض والهروب، فالعلم التجريبي والطب والصناعة وما يصل إليه علم الإنسان من السنن الكونية مكتسب مشترك، الناس فيه شركاء، أما الثقافة واللغة والفكر والعقائد والعادات والأزياء والتراث و(الفلكلور)، وماهو في إطارها من ممارسات تقترب من الخصوصية أو تقع في الصميم منها فتجب المحافظة عليها والدفاع عنها، إذ الأمة الإسلامية ذات عقيدة وعبادة وشرعة ومنهاج، تجسد خصوصيتها من خلال ثوابتها وسوائدها، ولا يجوز التخلي عن شيء منها، ولأن كل ذلك من مشمولات الثقافة، فإن من أوجب الواجبات التفريق بين ماهو إنساني خالص الإنسانية، وماهو عقدي خالص العقيدة.

وليس هناك ما يمنع من الحوار والتقارب ودفع الأذى بالتي هي أحسن، فنحن لن نحمل الآخر على الاستقامة بالقوة، وإنما بالدعوة أو بالقدوة أو بهما معاً، وليس فيما نحن عليه من أمر الدنيا ما يحمل الآخر على الاقتداء بنا.

وهذا الوضع يوجب ان نرتد إلى الداخل لممارسة النقد الذاتي أولاً، وبدء مرحلة التصفية والتصحيح والتربية والامتثال، وعندها يكون لموقفنا أثره وخطره على الآخر.

والثقافة العربية تواجه تحدياً غير متكافىء وأدواؤها كثيرة متعددة، لعل من أخطرها اختلاف النخب فيما بينهم، وتعدد انتماءاتهم، وتباين تصوراتهم، وتنوع مواقفهم من التراث والمعاصرة، وتناقضهم في فهم الحرية والغزو والتآمر والمحظور والمباح وأسلوب المواجهة أو الموافقة.

ولكي نضع تصوراً مبدئياً لأسلوب المواجهة لابد من استصحاب النقاط التالية:

١/ تحديد المرجعية المهيمنة الحاكمة القادرة على فض النزاع حول المفهوم والمتغير، وإذ نكون في حقيقتنا: واقعاً وتاريخاً وفي نظر الآخر إسلاميين، فإن الخيار الوحيد هو الإسلام.

٢/ تحديد الثوابت والمتغيرات وتحرير المقدس والتحرك من خلال ذلك.

٣/ السعي للتجانس العربي في كل وجوه الحياة، إذ لا وحدة مع الفوارق.

٤/ رسم خطة مؤسساتية مشتركة للحوار والتفاعل، أو المواجهة مع مشاريع الآخر.

٥/ تصفية الخلافات والقضاء على بؤر التوتر تمهيداً لتوحيد الجهود وتفادي التنازع والأخذ بمبدأ التعاذر فيما يمكن التعاذر فيه.

٦/ التوعية الحضارية وتفعيل وسائل الإعلام لتقوم بمهمة التصفية والتربية والتأصيل.

٧/ تفادي الصدام مع الآخر ما أمكن والبحث عن الأرضيات المشتركة مع الثقافات الأخرى والاشتغال من خلالها ومحاولة الدفع بالتي هي أحسن.

٨/ وعي الذات والآخر وعياً يمكن من التقدير والتوقيت والتدبير.

٩/ صياغة مشروع ثقافي عربي متوازن يتفادى الصدام مع الذات ثم النهوض لتكريسه.

١٠/ تمكين اللغة العربية من الحضور وصيانة الألسن من العامية وجعلها لغة العلم كما هي لغة الفن، وتطوير مناهج تعليمها وتوحيد المصطلحات بالترجمة أو التعريب، إذ لا حضارة ولا ثقافة في ظل التفكير العامي.

١١/ تصفية الدين من ركام المذهبيات وذلك بالرد إلى الله والرسول وتربية الناشئة على قيمه وإظهار الدين ليكون شرعة ومنهاجاً وعقيدة، فهو المرجعية الأهم للثقافة.

١٢/ الأخذ بمبدأ التواصل والتفاعل بندية مع الثقافات الأخرى وعدم الخنوع أو الانبهار أو السمسرة.

١٣/ القراءة النقدية لعمالقة الفكر العربي المعاصر من خلال مشاريعهم بآليات عربية إسلامية وتقويم منجزهم.

١٤/ مواجهة الآخر بذات الشعور والتصور الذي يواجهنا به.

١٥/ ممارسة التعريب والعوربة والأسلمة لكل ماهو مفيد.

١٦/ العمل على تجانس المؤسسات الثقافية وتقارب أولوياتها واهتماماتها وتبادل الخبرات والكفاءات.

ذلك بعض ما أردت البوح به وكم أنا سعيد لو ساق المخالف برهانه فأنا باحث عن الحق ليس إلا.

المحاور الدلالية في شعر محمد حسن فقي .. ! (١)[1]

(١ - ١) المحاور الدلالية

ان تساؤلات عدة تظل قائمة حتى مع القطع بتحديد اتحاد دلالي معين يثيرها ذلك الزخم من الرؤى المتعددة للانسان والكون والحياة هل الفقي متشائم ام متألم، ثم ما الفرق بين التشاؤم والألم هل بينهما تداخل ام هل يحصل احدهما بحصول الآخر المعروف ان التشاؤم حالة نفسية والألم نتيجة، أو قل التشاؤم ظاهرة والالم حدث ولكل من الظاهرة والحدث اسباب ودواع تكون نفسية وتكون فكرية وتكون انسانية وقد تكون مصطنعة - كما يصطنع الشعراء محبوباتهم - يذهب في تحديدها الدارسون مذاهب شتى، ولعل المذهب النفسي الذي استعان به العقاد والخولي والنويهي في دراساتهم التطبيقية يساعد في استجلاء هذه الظاهرة وذلك الحدث، فلربما تكون بحاجة إلى مزيد من الادوات لنصرف فيها امرنا مع هذا الشاعر الفريد بتراثه الابداعي وتحولاته الدلالية وتقلب مزاجه إلى حد الحيرة، لقد غاص العقاد في اعماق ابن الرومي مستخدما ادوات المذهب النفسي في النقد وادرك شيئا من تشاؤمه واحسب ان تشاؤم ابن الرومي مرتبط بحالة نفسية ساذجة اذ هو نتيجة عقد نفسية كخوفه من العين وعلى خلافه المعري اذ ينطلق تشاؤمه من رؤية عقلية، ونزوع فكري متسائل ومنطلقات التشاؤم النفسية والعقلية تدخل في تحديد ايجابيات التشاؤم وسلبياته ونحن حين نطل على عوالم الآخرين نعيش مرحلة توتر في اجواء التساؤلات التي يثيرها البعد الدلالي عند الفقي - اذ هناك ألم وتشاؤم لا مفر من مواجهتهما، وحين نقطع بألم الفقي ولا نمتلك القدرة على نفي التشاؤم وان حاول الفقي نفسه دفع هذا الاستنتاج الدلالي، وحين لا تجد اجحافاً في وصف الفقي بالمتشائم قبل اي مصدر تنمية، ايكون تشاؤما سلبيا ساذجاً كتشاؤم ابن الرومي، ام يكون تشاؤماً فلسفيا كتشاؤم المعري ام يكون غير هذا وذاك مما يذهب فيه النقاد مذاهب شتى، الشاعر الفقي لم يضع نفسه بين يديك عبر مجموعة صغيرة من الشعر بحيث تخترق عالمه بيسر وتقرر ما تشاء باقتدار، كما انه مع هذا الكم الهائل من الشعر لم يتناغم مع الأحداث والقضايا بصوت واحد تستهلكه بمجرد الاصاخة له.

تلك هي اشكالية الفقي وستظل قائمة حتى يتجه فريق عمل متمكن لاكتشاف عالمه ولكنني مع كل هذه الشكليات سوف اغامر واثير بعض القضايا وادعها مكتنفة بالتساؤل واكون بذلك قد قطعت شوطاً في الطريق إلى عالم الفقي الدلالي ومع كل الاحتمالات التي يتسع لها البعد الدلالي في شعره لا يكون بدعا من الأمر، لقد درس صلاح عبد الصبور شعر زميله علي محمود طه واثبت تناقضا في توجهاته الدلالية، ولك ان تقول مثل ذلك عن شوقي بين تدينه ومجونه وعمر فروخ حين يتحدث عن الشابي يصف بعد قصائده بالالحاد ويصف اخرى بالايمان، والفقي لم يقع بمثل ما وقع فيه لذاته من شعراء العصر الحديث ممن عصفت بهم رياح التهتك أو الشك العقدي يقول الفقي:

انا في جحفل مخيف من الشك
فهل يستحيل شكي يقينا
ليته يستحيل حتى ارى الحق
يضيء الطريق كي استبينا
وهو الذي يقول
اشيطان نفسي لن تراني مجدلا

---

(١) تاريخ المقال: ٢/ ٣/ ١٩٩٨

بأخراي اني المؤمن المتخوف
واني على ما كان مني لآمل
من الله ما لا يأمل المتحرف

فهل اكون عجولا حين اربطه بهذه الطائفة من الشعراء الغارقين في الحيرة والتردد الراكضين في كل فجاج الفكر ام تراه في الماماته تلك مجرد متأمل يثير الآخر ولا يحتويه ويحوم حول الحمى ولا يقع فيه ان الفقي بلا شك محكوم بوثائقه الشعرية وهي وثائق لم يدسها في التراب بل قدمها بثقة واقتدار وليس له بعد ان يوجهنا إلى ما يريد فالنص قادر على ان يحتمل تأويلات عدة والقارىء يمتلك حق المصير إلى احدها ولم يعد من حق الشاعر ان يومىء إلى التأويل الذي يأنس به أو حتى التأويل الذي يقصده في خطة الابداع فالنص خرج من سلطة المبدع وخضع لسلطة المتلقي وحين يتماثل الشاعر مع غيره، أو قل يتقاطع معهم دلاليا لا يكون في الضرورة منهم.

ومع هذا فان ثمة احتمالا آخر لربط المحصول الدلالي عند الفقي بظاهرة دلالية شغلت الساحة الثقافية وانشغل بها مبدعون آخرون.

فالرافضون والغثائية والهروب المتمثل بكل وضوح في شعره يتقاطع مع الابداع الوجودي فهو مزيج من التشاؤم والقلق والاعتراف والخوف والتمزق والضياع هذا التقاطع يشي بشيء من التقارب ولكن هل نعد الفقي قارئاً لتساؤلات الوجوديين ورفضهم متاثراً بشيء من افضاءاتهم الدلالية، وهل نقع في الخطأ الذي وقع فيه بعض دارسي العقاد حين مجّد الحرية الفردية فعدّوه وجوديا وحين ثار في وجوه النقاد قائلا ان كانت الوجودية تحترم الحرية فانا وجودي ومن الاوهام التي يقع فيها مصنفو المفكرين ان التماثل عندهم يعني التوافق وعلى ضوء ذلك عرفت مصطلحات جديدة كالاشتراكية الاسلامية.

والديموقراطية الاسلامية وشوقي يخاطب رسول الله ﷺ بقوله: (الاشتراكيون انت امامهم) وهي سقطة الجمع عند التماثل، والفقي بابداعاته مجال خصب لخطأ التصنيف فأنت حين تقرأ شعر الألم والرفض عنده تقطع بانه يتناغم مع الوجودين الذين قطعوا بعبثية الحياة.

غير ان وثائق اخرى تنفي هذا التصنيف وتسقط التوقعات ومن ثم فأنت لكي تضع تصوراً حقيقياً للنفي لا بد ان تقرأه بتمعن واناة وشمول انه المسلم العامر القلب بالايمان، ومع هذا تظل شخصية الفقي عصية الانقياد للتصنيف لا تساعها لاحتمالات كثيرة وقد لا تحتاج إلى ابصار الشواهد لتضع الفقي حيث تريد من هذه المذاهب.

وحين نكون بسبيل البحث عن خصائص الفقي الدلالية وهويته الفكرية وتجربته الشعرية نقف امام وثائق اثبات احتمالية فالشاعر الذي وضع بين ايدينا ثمانية مجلدات ضخام انجزها في نصف قرن من الزمان وانتابته في هذه الاثناء تحولات فنية واجتماعية وفكرية وسياسية لا يمكن ان يتحدد بعده الفني والدلالي بسهولة، لقد قلنا ان مفتاح شخصيته يتمركز في الاباء العنيف وقد يسلم لنا هذا المفتاح بشكل قطعي وقد لا يتفق معنا الآخرون حول هذا الاستنتاج.

ان آلام الشاعر المتواصلة وغثيانه من الحياة وضيقه بالاناسي يثير اكثر من سؤال وينطوي على اكثر من شك هل نقول ان الفقي يبدع عن غير تجربة حية، وعلى هذا يتسرب الشك إلى معماره الفني الذي شكله في ذهن الآخرين وهل يبدع الشاعر من غير موقف ومن غير تجربة وربما يكون هناك موقف من التفكير والتخيل، والفقي قد يملك القدرة على الاغراق في التفكير والتخيل حتى يصل إلى مرحلة يتحول فيها تفكيره إلى تجربة حية.

ان الشاعر المفكر يتوحد مع فكره وبالتالي ينفصل من واقعه المعاش ولعلنا نذكر مقولة بعض الحكماء: (صديقك من تفكر عنده بصوت مرتفع) والفقي حين يمضه التفكير يحمله على الانتقال من الصمت والتأمل إلى رفع الصوت ومن ثم يكون الشعر وتقترب هذه الحالة من التجربة الفعلية ويكون الصدق الفني.

لقد قيل عن بعض الفلاسفة انهم ممتلئون ذهنيا بالخيالات البعيدة الغور وان شيئا من عطائهم الفلسفي وليد هذا الامتلاء، وربما اكون مجازفا ومتجنيا حين امارس البحث عن تعددية الملامح الفكرية عند الفقي على هذا الضوء ثم اقطع بصحة النتائج واكون مقصرا حينما لا ابحث عن جذور هذه الشخصية فكريا وفنيا وانسانيا الفقي الشاعر كئيب يعتزل الناس وينطوي على نفسه والفقي الانسان سوي فيه حياء وفيه بشاشة فاين اذا يكمن الفقي الحقيقي اعتقد ان الفقي الشاعر بحسه المرهف ونظرته المثالية وابائه العنيف وشاعريته الفذة يبدو لك من خلال شعره والفقي الانسان بثبوته الحانية وتواضعه الجم وحيائه المحتشم يبدو لك بسيرته الذاتية ولم لا يكون الفقي الشاعر غير الفقي الانسان في ملامحه المتبدية للآخرين ثم لا يكون مع هذا اي تناقض محير ولو اننا اخذنا بمذهب البنيويين وامتنا المؤلف وواجهنا النص بمعزل عن خارجه لأرحنا واسترحنا.

لقد كان للعرب الاوائل نظرة خاصة في الشعر والشعراء، وللشعراء من التجاوزات ما ليس لغيرهم كالضرورات وكشياطين الشعر وكانفصالهم عن بشريتهم لحظة المخاض، ان لحظة الابداع حالة اخرى ليست سوية، انها لحظة جنون كما يقول النقاد، وكما يقول الفلاسفة امثال ميشال فوكو ولكنه جنون معادل للعقلاء وليس مناقضا لهم، جنون من نوع آخر ودعك من هذه الشخصية السوية ببشريتها المغايرة بحالتها الابداعية وتعال بنا نلتمس التواصل بين هذا اللون من الابداع وما جدّ على الساحة الفكرية والادبية من مذاهب ترفض الحياة لايمانها بعبثيتها، الاسلام وصف الحياة الدنيا باللعب واللهو وحقّرها حتى لا تساوي جناح بعوضة وجاءت كلمة الانسان في القرآن في سياق الذم يكون ظلوماً كفارا عجولا معرضا نائيا بجنبه قتورا جدلا هلوعا مغرورا طاغيا كنودا والأكرم منه الأنقى وهكذا الحياة بدون الايمان انها بؤرة صراع: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢] ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: ١٥٥] اذاً الحياة مكابدة وصراع مع المؤمن ومع الكافر وان عجل الله ما يشاء لمن يريد من مريدي الحياة الدنيا انها دار ابتلاء وامتحان والشاعر المرهف الاحساس ينزف مشاعره ويرصد مراحل صراعه مع هذه الحياة وغيره يكتم غيظه وينطوي على ألمه وعلى ضوء ذلك يكون موقف الفقي من الانسان والحياة حين تكونان بهذه المواصفات الطاغية والمتبدية لكل ذي عينين ولسان وشفتين يكون تشاؤمه نتيجة تأمل لو استكناه ويكون رفضه في مواجهة ذلك الانسان الذي ذمه القرآن ورفضته الحياة السوية وقراءة قصيدته (نهايات ونهايات) وهي مجموعة من الرباعيات تكشف عن موقفه من الانسان والحياة وهو موقف يحاكم فيه الانسان ويدافع عن نفسه ويبرر عزلته وهروبه من الأناسي:

لبثت فيهم عمراً ما ارى
الا رياء يحتفى بالصغار

فالشاعر حين يوغل في ذم الانسان والحياة ويلوذ بالفرار لا يكون سلبياً عاجزاً عن المواجهة انه لون من اليأس والاحباط لقد يئس بعض الرسل من قومهم وهذا نوح يجأر إلى ربه ﴿لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧] .

وذلك بعد ان قال له ربه: ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ [هود: ٣٦] وشاعرنا الكبير بتجاربه الطويلة وبحياته المملة نفض يده من الانسان غير السوي ولم يتخل عن المواجهة بل تصدى له بعنف.

لا تثريب علينا .. !(١)

تسييس الحج والتعويل على (اذان البراءة) ضرب من الافساد وإلحاد وظلم يذاق فاعله من عذاب الله الاليم، والله حين يعد أو يتوعد يكون الاوفى، وقد شهدنا ألواناً من العذاب العاجل لكل من حاول ايذاء الحجاج اوتشويه سمعة القائمين على راحتهم أو تعكير صفو اجتماعهم الاكبر باي شكل من الايذاء، ومنذ الجاهلية الاولى سمعنا كلمة راشدة قالها ابرز القائمين على شأن المشاعر: - (انا رب ابلى وللبيت رب يحميه) وقد تكفل رب البيت بحمايته حين ارسل الطير الابابيل.

فالمشاعر المقدسة محارم الله والوافدون اليها للحج أو العمرة وفد الله وضيوفه لهم ربهم الذي يحميهم وينصرهم وينتقم لهم من اي ماكر يريد ايذاءهم وما نقوله عن خطيئة التسييس لا يحملنا على تبني دعوى فصل الدين عن السياسة، فالاسلام دين ودولة والمملكة خير من يمثل هذا التلاحم وانما ذلك في غياب الخلافة الاسلامية الجامعة لشمل المسلمين الموحدة في مشروعها السياسي ونظامها الدستوري واذ يكون الحجاج من عوالم سياسية متباينة ومذاهب وملل ونحل مختلفة فان من الخير لهم ان يحيدوا الحج عن التنازع القائم في المشهد السياسي والديني واذا اجتمع المسلمون تحت حكم واحد ومذهب ديني واحد كان لكل حادث حديث، وخلق الازمات الحقيرة التافهة أو احداث مشاكل تعرقل مهمات الدولة التي شرفها الله بخدمة الحجيج وتطهير بيته للطائفين والعاكفين والركع السجود ممارسة دنيئة وعمل مشين ووصمة عار تطارد الماكرين وتأخذهم بجرائرهم اخذ عزيز مقتدر ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢] والمقصود الظلمة الذين يقيمون في القرى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾ [البقرة: ١١٤] فكل من جعل المشاعر المقدسة وتجمع المسلمين ورقة سياسة تحركها الاهواء والمطامع والرغبات ظالم عنيد ومتعرض لنقمة الله وعقابه، والحجاج الذين يهتفون لزعيم اوحزب أو منهج سياسي يثيرون الفتن النائمة والفتنة اشد من القتل ويعرضون المشاعر والحجاج لمشاكل تعكر الصفو وتقضي على الروحانيات.

وتسييس الحج في ظل الظروف القائمة وتدنيسه بلعبة التماكر ولفت الانظار وتصدير المشاكل وشغل الراي العام والتشكيك في اهلية الدولة المشرفة بخدمة المقدسات وتعريض سمعتها عمل لا يقدم عليه الا الاذلون الذين ضاعت حيلهم واحيط بهم، ومكر سيء ولا يحيق المكر السيء الا بأهله وكم من ماكر فكر وقدر فقتل من حيث فكر وقدر، ولو قلبنا اوراق الماضي القريب لقلنا بلسان واحد: ان التاريخ يعيد نفسه.

لقد مرت بمواسم الحج ازمات حقيرة افتعلها اناس لاخلاق لهم واستطاعت الدولة بما وهبها الله من حكمة وروية واناة امتصاص كل ذيولها وتحويلها نقمة على مفتعليها ومحمدة لها واثرا حسنا من آثارها وقد عجل الله العقوبة وانتصر للمظلوم ولكن الايات والنذر لا تغني عن قوم لا يؤمنون والعمى قد يكون للقلوب التي في الصدور والا كيف يجرؤ من له قلب أو القى السمع وهو شهيد على تعريض المقدسات وضيوف الرحمن لصنوف الخوف والايذاء وما من احد تعمد تدنيس نصاعة الحج وتعكير صفو الحجاج الا عجل الله عقوبته، وخيب امله وحمله على اتفاق جهده ووقته وما في يده ثم يكون كل ذلك عليه حسرة وندما.

---

(١) تاريخ المقال: ٢٦/ ٣/ ١٩٩٩

لقد تابعت بامتعاض والم المؤتمر الصحفي الذي عقده مهندس الأمن صاحب السمو الملكي الأمير نايف بن عبد العزيز، وأحسست انه متألم ومستاء حتى لقد بدت على محياه بوادر الحزن العميق، فالتلاعب بالشعائر الدينية وصد القاصدين لبيت الله من الكبائر ورجل مؤمن يخاف مكر الله وعقابه ينتابه الشك في نفسه فقد يخطىء من حيث يريد الاحسان وقد يتصور انه قصر في امر الحجاج العراقيين أو غيرهم ولم يبذل ما في وسعه لهم والحق ان الموضوع واضح من اساسه واللعبة مكشوفة وكنت اتمنى لو ان سموه الكريم يستل أطراف المشكلة من سياقها بحيث يسائلها عن فعلها انها في سياقها الطويل لا تثير استغرابا ولا تؤلم مراقبا فهي كما هي منذ ان برزت للوجود سلة تخصيب للمشاكل، والشيء من معدنه لا يستغرب ومن قال بان الحشود على الحدود من المواطنين العراقيين القاصدين لبيت الله؟ انهم ومن خلال سياق الدولة وبوادر الاحداث كتيبة عسكرية أو مجموعة ملفقة من العملاء تم زرعهم وسط المساكين الذين قدموا لا يريدون الا وجه الله والدار الآخرة واريد لهذه الشرذمة ان تمارس تمثيل دور اعلامي رخيص، القصد منه شغل الراي العام العراقي بأزمة مفتعلة من عشرات الازمات التي تفرغت الحكومة لخلقها لمجرد التنفيس واشغال الناس عن التفكير بواقعهم المؤلم.

وحكومة المملكة العربية السعودية تقدم لحجاج بيت الله من كل الاجناس من الخدمات والتسهيلات مالا يرقى إليه الشك ومالا يصل اليه التصور ولسنا بحاجة بعد كل هذا إلى ان نعطي مثل هذه الاستفزازات ما يساعد على اشاعتها، فالحكومة العراقية راغبة في ان يتداول الاعلام العربي والاسلامي والعالمي مثل هذه المكيدة ولا يهمه فيما بعد من يكون المخطىء المهم ان يتمكن المفلسون من كل القيم والفاقدون لكل مقومات الوجود المشروع من شغل وسائل الاعلام وتوجيه الانظار بعيدا عما يعانيه الشعب العراقي من ويلات وعما تعانيه الدولة من تخبط عشوائي يزيد ارتكاسها في حمأة الترديات ومثل هذه الممارسات تشبه رفات الذبيح قد توجع من تناله ولكنها لا تعيد الحياة إلى مصدرها.

وكم تمنى العقلاء من الساسة والاعلاميين وسائر صناع القرارات في انحاء العالم تحييد المشاعر والمقدسات والسمو بها فوق الخلافات العارضة وتطهيرها من الممارسات الدنيئة التي تعكر الصفو وتضاعف مهمات الدولة التي تستنهض كل امكانياتها لخدمة الحجاج والمعتمرين.

واذا كانت الدولة بما وهبها الله من امكانيات اقتصادية وكفاءات بشرية في غنى عن اية مساعدة فانها حريصة في الوقت نفسه على ان يخلي الاخرون بينها وبين مهماتها لكي توفر لضيوف الرحمن ما تصبوا إلى توفيره والله حين وضع مقدساته بيد حكومة عربية مسلمة انعم عليها بالمال الوفير حيث فجر لها كنوز الارض، وانعم عليها بالامن والاستقرار، ومنحها القوة وهداها لتحكيم شرع الله، وهيأ لها شعبا عربيا مسلما كريما سباقا إلى الخير والعطاء، وهي بهذه الامكانيات بحاجة - فقط - إلى ان يكف الاخرون عن التماكر معها في قضايا الحج وبحاجة إلى ان يبتعد اعداؤها عن جعل المشاعر ميادين لتصفية الحسابات وخلق الازمات واذا كان المأزومون بحاجة إلى خلق ازمات تطفىء حدة مشاكلهم ولو إلى حين فان اتخاذ المشاعر ومواسم الحج مجالا لهذه الازمات خسة ودناءة ومحاداة لله ورسوله والمؤمنين وعلى الدولة الواثقة بنفسها الراضية عن فعلها المشغولة بالاهم ان تستدبر تلك الزوابع وعليها ان تكل امر البيت لرب البيت الذي تكفل بحمايته.

واذا كان الله المنتقم قد قيض لبيته الطير الابابيل لضرب أصحاب الفيل فانه قادر على ان يفعل بالمعاصرين ما يخضد شوكتهم ويقصم ظهورهم ويخيب امالهم وقد شهدنا ما بعث في نفوسنا الثقة والاطمئنان والعاقبة للمتقين.

وما عليك يا مهندس الامن من تثريب فامض على بركة الله تحفك عنايته ويكلؤك نصرة ولست بحاجة إلى ان تشهد الله والناس على براءة ذمتك مما فعل المرجفون اننا نشفق عليك وانت تقول للعالم كلمة الحق التي قالتها افعالك قبل اقوالك، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ولا يتخشب لسانك من هول ما ترى وما تسمع فما انت بهادي العمي عن ضلالتهم ويكفي ان ترتقب فالله رب البيت وهو القادر على نفي الخبث عنه.

المستودع الخيري ببريدة .. ! [١]

ساعة من نهار أدركت فيها اننا لا نهدر الماء وحده ولا الكهرباء وحده ولا المال وحده، وإنما نهدر الوقت وهو الأثمن والأرخص في آن، لقد سمعت كثيراً عن مشاريع انسانية نهض بها مواطنون، وفروا لها الجهد والوقت والمال، وكانت من الرهانات التي قد لا يحالفها الحظ، ووقف الناس ينظرون جميعا كيف تؤول النتائج فإذا تلك الرهانات تثبت انتصارها، وإذا هذه المشاريع الخيرية تمسح دمعة يتيم وتأسو جرح مكلوم، وتملأ بطن جائع وتكسو جسم عريان، وتفك اسر مدين، وإذا التكافل الاجتماعي يبدو كأحسن ما يكون التكافل في زمن الماديات والمصالح والتكاثر، وإذا الناس كآل داود يعملون شكراً ولا يقولون وحسب، كانت كل هذه التداعيات حين زرت (المستودع الخيري) بدعوة من اخي الاستاذ الدكتور صالح بن محمد الونيان الذي نذر نفسه وجهده ووقته لفعل الخير اضافة إلى عمله بوصفه استاذاً جامعياً وخطيب (جامع الونيان) الذي يكتظ بالمصلين لما يتمتع به فضيلته من فصاحة لسان وعمق ثقافة وحسن انتقاء للموضوعات المهمة وجمال عرض ومراعاة للاحوال، وتلك خصال قلّ ان تتوفر عند بعض خطبائنا وإن كان فيهم خيرٌ كثير وفقهم الله إلى المزيد من الخير.

وزيارة المستودع تثلج الصدر وتبعث على الاطمئنان لأن المسلم يشعر اننا مازلنا بخير وان شبابنا الذين ننال منهم يمتلئون حماسا للفعل الانساني، لقد رأيت كوكبة من الشباب يحتلون مواقع مهمة ويديرون عملهم وفق احدث الاجهزة وأدق المعلومات يؤدون مهمات انسانية وينشؤون مجالات ليست معروفة من قبل، الجميل في المستودع الخيري انه ينهض بمهمات لا يتوقع أحد أهميتها.

يأخذ فائض المواد الآيلة للتلف والتعفن قبل فسادها، يأخذها من البيوت والمتاجر وقصور الافراح، ويستقبل اسمال الثياب التي استغنى عنها أصحابها وفيها بقية للاستعمال عند من دونهم، وينتقي رجيع الاواني وبقية الاشياء، ثم يصونها ويقدمها إلى المحتاجين، يستغني احدنا لأي سبب عن ثلاجة أو غسالة أو جهاز كهربائي أو حقيبة أو ثوب أو نعل أو ما شئت من المستعملات، فبدل ان يلقيه في الشارع يحمله إلى المستودع الخيري ليرى المستقبل الحفي وعامل الصيانة ورفاء الثياب وغسال الملابس ومهندسي الاجهزة ومصهرة الشحوم، ومستودع الاطعمة ومصنع التمور وثلاجة اللحوم ومغسلة الأموات ومجلد المصاحف، خلية نحل ترى فيها وجه المواطن السعودي بكل ما يتمتع به من انسانية وعطاء وحمالة، إنها مفخرة ان تكون المملكة في الطليعة، في الاغاثة والاعانات والمواساة، جسور جوية لآفاق العالم الاسلامي المنكوب وجمعيات خيرية وهيئات للاغاثة منتشرة في انحاء المملكة ومؤسسات انشأتها بلادنا تطوعا من الامراء أو رسميا من الدولة أو احسانا من المواطنين، وكلها تعج بالعمل الخيري الذي نرجو ان يدرأ الله به عن البلاد والعباد ما حل بالامم الاخرى من نكبات وزلازل وحروب وجفاف وثورات همجية وقتل مجاني.

إننا بحاجة ماسة إلى ان نواصل العمل الخيري رجاء ان يجعلنا الله دائما مناط حاجات المسلمين وأملهم بعد الله، إنني أسعد وأطمئن كلما نشر في الصحف أو اذيع في التلفاز ما تقوم به المملكة من اسهامات انسانية وما يقوم به المواطنون من تبرعات سخية، والعمل الخيري مهمة كل انسان وكل سلامى من الناس عليه صدقة ويجب ان نعوِّد أنفسنا على فعل الخير وان قل والكلمة الطيبة صدقة، وان نتقي النار ولو بشق تمرة، نقدم ما

---

(١) تاريخ المقال: ٢٩/ ٩/ ١٩٩٩

نقدر عليه، الكاتب يكتب كما علمه الله والخطيب يخطب كما انطقه الله والوجيه يوظف وجاهته لخدمة المعوزين وأن تلق اخاك بوجه طلق، المهم ان تكون حاضر الاهتمام بالعمل الانساني وبلادنا بحاجة إلى فعل الخير داخليا وخارجيا، فهي قبلة المسلمين ومصدر الاشعاع، وابناؤها يجب ان يكونوا سباقين إلى العمل الانساني وان يكونوا قدوة صالحة لغيرهم والاعمال الخيرية والجمعيات الخيرية وجماعات تحفيظ القرآن والمؤسسات المتعددة مؤشر على ان بلادنا ماتزال بخير وان اهلها ما يزالون بخير.

لقد رأيت ما أثلج صدري واطمأنت إليه نفسي، رأيت المقر الجديد الذي تبرع بأرضه محسن لم يشأ الاعلان عن اسمه وتبرع بانشائه محسن آخر بتكلفة تزيد علىالمليوني ريال قيمة ارض وبناء وعلى مساحة تقدر بعشرة آلاف متر، هذا التبرع السخي لا يعرف عنه إلا القلة من الناس، وكان يجب ان نبدي الصدقة أو نخفيها، نبديها للاسوة ونخفيها لعظمة الاجر ليعرف الناس ان بلادنا واثرياء بلادنا ورجال دولتنا في مستوى مسؤوليتهم وعلى قدر رسالتهم، رأيت (الورشة الكهربائية) و(مصهرة الشحوم) و(مصنع التمور) و(ثلاجات اللحوم) و(مستودعات الاطعمة) و(الاثاث المستعمل) و(مصنع التجليد) و(المغسلة) و(المحرقة)،، تعدد وتنوع ودقة، الشيء الملفت للنظر ان هناك مصنعا لتلقي المصاحف المستعملة لترتيب الورق وتعويض المفقود واعادة تجليدها وتنظيمها وشحنها إلى المسلمين في انحاء العالم، وما على المواطن أو إمام المسجد إلا ان يجمع المصاحف الممزقة ويقدمها لعاملين فنيين في المستودع لتكون يوما من الايام في حوزة مسلم في افريقيا يحافظ عليها ويرثها من بعده ابناؤه يقرؤون القرآن وللمتبرع الذي لم يخسر شيئا أكثر من حمل المصاحف إلى المستودع اجر ولو بعد حين وتلك من الصدقات الجارية، إنها مبادرات إسلامية وإنسانية ما كنت اتوقع ان تكون بمثل هذا المستوى.

لا أكتب للدعاية ولا لطلب المزيد من التبرعات فقط، وإنما ادعو الشباب ومحبي الخير إلى ان ينشئوا في مدننا وقرانا مستودعات ولو صغيرة ليستقبلوا فيها فائض الاطعمة ومستعمل الملابس والاواني والاجهزة ويقدموها إلى المحتاجين، فما اكثر الاغنياء وما اكثر الفقراء، وما اجمل الاحسان والتكافل، ومن الممكن الاستفادة من خبرة الاخوان في المستودع الخيري ببريدة، والشكر لأولئك الذين اشتغلوا ونحن نائمون واجتهدوا ونحن مهملون واحسنوا ونحن مترددون، والأجر إن شاء الله لمن ذكر وشكر ونشر وفضل الله واسع، والنية الحسنة تبارك صغار الصدقات حتى تكون كالجبال ولكن اين المقرضون لله؟ ومن أوفى من الله.

قضايا العولمة في الفكر المعاصر .. ! (١) [(١)]

لأن قدري أنني مغرم بتقصي النوازل واستكناهها، فقد رصدت لطوفان الحديث عن (العولمة) محلياً وعربياً وعالمياً، منذ ان بدأ تداولها في مختلف المشاهد بوصفها مصطلحا لفعل وهمٍ سابقين: ممارسة وتاريخاً، فالدول الاقوى تفرز صيغاً للتعامل المهيمن منذ الحملة النابليونية ومروراً باتفاقية سايكس بيكو عام ١٩١٦م وانتهاءً بشرعنة التدخل العسكري لتأديب الخارجين عن السرب وواحدية القطب وسلام الشجعان والهرولة، وعبر ما تيسر من كتب ومترجمات ومقالات وأعمال لندوات ومحاضرات، وتغطيات إعلامية، ومقابلات مع أساطين الفكر والسياسة والاقتصاد واشتراك في المحاضرات والندوات، تبين لي عربياً على الاقل سوء الفهم وسوء المواجهة وبدائية التعامل عند الأكثرين، ومن الرصد الدقيق للممارسين: قولاً أو فعلاً في مشاهدنا العربية المتعددة، وأمام مجمل القضايا، ثبت أننا كثيراً ما نهتاج في وجه الطوارىء والمستجدات على كل المستويات: الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية دون فهم دقيق ودون استعداد متكافىء، حتى إذا بحت الأصوات، انطفأ الوهج، وقام القبول مقام الرفض والإلف مقام التوحش والتسليم مقام التحفظ، وكان الاندفاع في الأخرى كالاندفاع في الأولى، وكأني بالنوازل يرقق بعضها بعضاً، ومن عيوب الأكثرين منا: ضعف الوعي، وقلة المعرفة، وجهل الواقع، وتناسي الإمكانيات، والادعاء العريض، ونقد الآخر والغفلة عن الذات، ثم التشظي على صخرة الواقع الأقوى، والناس في مواجهة النوازل بين: متضلع من آسن الغرب ينضح بما لا تقوم الحاجة إليه، محققاً المواطنة الخفية، يحرف الكلم عن مواضعه ومن بعد مواضعه، وآخر ممعن في التوغل في المثالية والانعزالية وتعميق العداوة مع الآخر، وثالث معتدل يعي الواقع ويعرف الممكن، ولكنه خفيض الصوت لا تصعد له كلمة ولا يسمع له قول، ورابع خلِّي منتفخ متفيهق لا يملك إلا توزيع الاتهامات وتصنيف الآخرين والحلم بالمشاريع، والإسلام الذي منَّ الله بهدايتنا إليه يرفض المواجهة دون إعداد، والتسليم دون فهم، فالنفور للتفقه واجب المقتدرين، والإنذار مسؤولية الداعين على بصيرة، كما أنه يؤكد على تبادل المصالح والخبرات، ومبادرة الرسول ﷺ في مفادات الأسرى بتعليم أبناء المسلمين مؤشر ثقة بالنفس وبحث عما عند الآخر، ومن ثم فليس من حقنا مبادرة الرفض ولا مطلق القبول، إذ لا بد من التحرف الواعي بحيث لا يكون للقديم ولا للجديد ولا للمصدر دور في تجديد الموقف، إلا إذا كان نصاً تشريعيا قطعي الدلالة والثبوت إذ معه لا تكون خيرة.

والمواجهة الحضارية كالمعركة العسكرية تحتاج إلى آلة وتخطيط وتوقيت وتقدير واختراق مقتدر للآخر، وهو ما لم يتوفر عليه كثير من المنازلين الذين لم يكتمل عندهم تصور الاشياء ومواجهتها بعقلية مستنيرة بنور العلم، والاشكالية أن تكون المواجهة حضارية وليست عسكرية ومعها لا بد من التصور الصحيح والمواجهة المتكافئة إذ الحكم على الشيء فرع من تصوره، وقراءة الأشياء أهم من القراءة عنها، والقلة الناصحة ضاعت في زحمة المتعالمين والمتخوفين والمتذيلين ودعاة العلمنة والتنوير، ومع التيئيس والظلامية والإحباط فإن الوطن العربي لا يعدم المفكرين الواعين، ولا يخلو من الناصحين لله ولرسوله ولعامة المسلمين وخاصتهم، إذ هناك أرضيات صالحة للانطلاق منها، وهناك هوامش متاحة للتحرك الإيجابي، وخوفنا من استفحال الغثائية التي أخبر بها من لا ينطق عن الهوى، لكل هذا أحسست أنني بحاجة إلى جهد استثنائي لاستكناه

---
(١) تاريخ المقال: ٩/ ٥/ ٢٠٠٠

(العولمة) بوصفها قضية الساعة، وبوصفها اقتصادية سياسية سلطوية بالدرجة الأولى، وقد تمتد لتكون ثقافية اجتماعية ايديولوجية، وذلك ما نسمع حسيسه بين الحين والآخر، ويقيني أنني لست من فرسان بعض هذه المضامير، ولكنه الهم بأمر المسلمين وامتثال الأمر بالتبليغ، و(العولمة) مصطلح جديد في صياغته، يعني العالمية أو الكوكبية، أو الأمركة أو الكونية على اختلاف في الآراء وتباين في التصورات، والقصد منه تجنيس العالم وتماثله ودرء الصدام وهي على زنة (فوعلة)، والصرفيون يرون شذوذ هذه الصياغة وإن جاء على زنته (صومع) و(جورب) ولكنهم لا يرون القياس، وهذا الوزن يفيد التطويع، ومن ثم اصبح الميزان الصرفي موائماً لأهداف العولمة التطويعية القسرية التحكمية، والكم الهائل من الكتب والدراسات والندوات والمترجمات مما أفاءت به المتابعة المبكرة كشفت لي عن فوضوية مستحكمة وآراء متناقضة وتصورات متباينة ونمو عشوائي يضل فيه القطا، وعجيب أمر المتعالمين والمتزعمين لإصدار الأحكام وتصنيف الآخر، يحمِّلون الأشياء ما لا تحتمل، ويكرهونها على أن تقول ما لا تفعل وتقرَّ بما لم تتضمن، حتى إذا صيغت الأوصاف على هوى المتحاملين جاءت النتائج والآراء غاية في الجور والمخالفة، ولو قرأ منتجو المصطلح من الغربيين ما نقوله عنه لأنكروه، إننا نخلق المصطلحات الوافدة علينا خلقاً آخر، ونظل في صراع مع طواحين الهواء، والناشطون في الاستغراب يمارسون تخلية المواقع لكل طارىء، يستقبلونها باحتفالية ويتعهدون تربيتها كما يربي أحدنا فلوَّه، ولا يبالون بأي واد هلكت مصالح أمتهم، ولا يقل عنهم من تشغلهم عيوب الآخرين عن عيوبهم، ممن يرقبون سقوط الآخر ليظفروا بالصدارة، وكأنهم على موعد معها بالأحلام والأماني، دون أن يحاولوا العمل من أجل التكافؤ، لقد سقط الاتحاد السوفيتي، وفرحنا، ولكننا وقعنا في ويلات القطب الواحد، ولم نتقن معه إلا لعبة العداوة والبغضاء.

أن يكون الغرب أمة مغايرة: عقيدة وتصوراً وحضارة: فكرية واجتماعية لا ترضى إلا باتباع ملتها، وأن يكون الغرب غازياً متآمراً ماكراً متسلطاً مستغلاً، حريصاً على تبعيتنا التي لا تتحقق إلا بتجهيلنا وتجويعنا وتفريقنا، وأن نكون أمة مسلمة مستضعفة مستهدفة ذات حضارة مغايرة فأمر لا غبار عليه، ومن أحسن الظن أتاح فرص الضياع، ولكن أن يكون كلُّ شيء ينتجه الغرب داخلاً ضمن دائرة الغزو والتآمر، وأن يكون خيارنا الوحيد حمل السلاح، فأمر فيه نظر، إننا بحاجة إلى فرز مفردات الغرب، وتصنيف ممارساته، وتقصي المعلومات عن فعله ومواقفه ومنتجاته، وإعطاء كل شيء ما يقتضيه، وتحديد المواقف على ضوء ما يتوفر من معلومات صحيحة، ودراسات علمية موضوعية منهجية، لا تعتمد الإثارة، ولا تميل إلى كسب الغوغاء وسرق الأضواء وصناعة الذات على حساب المصلحة العامة، وقدرنا العصيب أننا نعيش خلطة مستحكمة مع الغرب، نستثمر كل منجزه المادي، نستهلك ولا ننتج، ونستعمل ولا نصنع، نعتمد خططه ومناهجه، ونقتفي أثره حذو القذة بالقذة، لا يختلف تصورنا للأشياء عن تصوره، وشارعنا العربي كثير الشبه بالشارع الغربي، لا نستغني لحظة واحدة عن آلياته ومكتشفاته ووسائله ومناهجه وأسلوب تعامله مع الأشياء، ونحن مع كل هذه الخلطة والحاجة والتبعية نعيش معه في حرب كلامية حامية الوطيس، نثير اشمئزازه، ونصعد مكيدته، ومع هذه المتابعة الغبية لسننه نؤكد أننا أمة عربية مسلمة، لها حضارتها وقيمها وضوابطها ومحظوراتها ومباحاتها، إن لعبة المؤاخاة بين الشرعي والغربي لعبةٌ خطيرةٌ وحساسةٌ لا ينهض بها الأفراد، ولا يرسمها الخطاب العاطفي الاستهلاكي، وإنما ينتجها جهد مؤسساتي مكتمل الأهلية، يضع الضوابط، ويحدد الممكن وغير الممكن.

ولأن (العولمة) واحدة من مفردات الحضارة الغربية المثيرة نراها تلح بحضورها وفق مفاهيم وتصورات ورؤى متباينة، ونحن: إما مكرهون على قبولها، أو مضطرون إليه بحكم الخلطة والحاجة والتوسع في استغلال منجز الآخر، فإن أمر التعامل معها هو الآخر من الخطورة بمكان، وليس من مصلحة الأمة أن نخدِّرها بمعسول الوعود وجميل الأماني، نحجب الرؤية أو نزيف الحقائق، نصالح أو نقاوم، فنضج تارة في وجه العولمة: نهول أمرها، ونحملها ما لا تحتمل، ونضفي على أنفسنا سمة الفدائية في وجه الشيطان الأكبر، أو نرتمي في أحضانها واعدين بالدفء والسكون، إن علينا ألا ندلس عليها ونحسن لها سوء العمل ونجعل من العولمة حملاً وديعاً وغنيمة باردة وفتحاً مبيناً، إن واقعنا يتطلب الوعي: وعي الذات ووعي الآخر، ويتطلب وضع صيغة معقولة للتعامل مع القضايا المتحفظ عليها، ومنجز الآخر: إما أن يكون علمياً يمس ظاهر الحياة الدنيا، أو فكرياً يمس جوانب الحياة ويمتد إلى الآخرة والمغيبات، أو اجتماعياً يمسُّ السلوك والقيم، أو تربوياً يمس طرائق التكوين، أو ما سوى ذلك مما يعرفها الشجيون ويجهلها الخليون، والعلميُّ التجريبي وظواهر الحياة الدنيا وما تحكمه السنن المدركة وما لا يقوم العلم إلا به عالمي الانتماء ومن واجبنا الأخذ به، وأما الفكري فله مستوياته في القبول والرفض والتوقف، ومثله سائر السمات والممارسات، والإسلام له نصه بمستوياته الأربعة: القطعي الدلالة والثبوت، أو قطعي الدلالة احتمالي الثبوت، أو قطعي الثبوت احتمالي الدلالة، أو احتماليهما، والدخول على النص لاستفتائه أو لفهم مقاصده وتحكيمه في شؤون الحياة، له ضوابطه التي يعرفها الفقهاء والأصوليون، وهذه المستويات الثبوتية والدلالية توفر فضاءات رحبة لمواجهة النوازل وتحديد المواقف واستنباط الأحكام، ولأن علاقتنا بالآخر المغاير: فكراً وسلوكاً وتصوراً للكون والحياة والإنسان والقيم من أخطر العلائق وأكثرها تعقيداً، فإن الأمة الإسلامية تفتقر إلى صياغة حضارية لأسلوب التعامل، إذ لم يعد الخطاب العاطفي مجديا، ولاسيما أننا مستبطنون للغرب متداخلون معه بوصفه حضارة مهيمنة ومستجيبة لمتطلبات العصر الدنيوية على الأقل، ولأن الجانب العلمي والتجريبي في الحضارة الغربية من مقتضيات الإسلام إذ هو السبيل لإعداد القوة: قوة السلاح والعلم والاقتصاد فإننا في الاهتياج الأعزل لا نفرق بين العلمي والفكري والاجتماعي ولا بين النص القطعي الدلالة والثبوت واحتماليهما ولا بين الرؤية الشخصية والرؤية الإسلامية، والعولمة آتية بأقدار متفاوتة ومفاهيم متعددة وصيغ مختلفة ومستويات متباينة شئنا أم أبينا وهي بلا شك مؤثرة تحفظنا أو اندفعنا، بل هي قائمة منذ قيام الاستعمار البغيض، وليست عربة قطار سريع كما يصورها البعض، إنها مشروع حضاري بطيء الحركة قوي النفاذ واسع الانتشار كثير المغريات خفي الدبيب متعدد المجالات كثير الخيارات، وهي واحدة من مفردات الغرب المتوغل في أدق تفاصيلنا.

وعلاقتنا معه على مستويات:

الصدام العسكري.

أو الصدمة الحضارية.

أو التعايش والتصالح المرحلي.

أو الانكفاء والانعزال.

أو الاستجابة والاندفاع.

وقد مرت الأمة عبر تاريخها المرير بتلك المستويات، تمثلت بعضها بالحروب الصليبية، وهي قائمة بما يوقعه أو يباركه الغرب فيما بيننا من حروب حدودية أو أهلية أو طائفية، وتمثلت الصدمة الحضارية بحملة (نابليون) المسلحة بالعلم والآلة وفق سياقها، واستمرت الصدمة تكرر نفسها كلما فاجأنا الغرب برؤية جديدة، وهي فيما بعد ذلك تأتي

بأشكال وألوان وصيغ من السيطرة، تأتي على شكل استعمار عسكري بثكناته ومناديه، أو على شكل سيطرة مدنية بأجهزتها وثقافتها، أو على شكل هيمنة حضارية بمناهجها ومؤسساتها وبنوكها وصناديقها وهيئاتها ومؤتمراتها ومذاهبها وبما يفرزه كل ذلك من اتفاقات جائرة أو تدخلات عسكرية لتأديب الخارجين من بيت الطاعة، أو غزو ثقافي أو اجتياح إعلامي أو سيطرة اقتصادية، ثم بما هو قائم من تواصل متعدد القنوات، مما أثر على المفاهيم والقيم، وفيما بين هذا وذاك علائق لا تحصي لها عدداً وتلك العلائق تنطوي على مآس تستدعي الشك والارتياب والحيطة والحذر والتدبر، وحقائق التاريخ تشهد بما يسوِّغ أخذ الحذر وحمل سلاح المعرفة، والغرب يمثل حضارة مغايرة ومطابقة في آن، إذ تنطوي حضارته على إيجابيات وقيم ومثمنات نحن أحوج ما نكون إلى الكثير منها، ولكن تواصله معنا مخيف ومفجع، وغزوه وتآمره مما لا يحتملان إلا قولاً واحداً، ولن أعيد الشواهد فذلك معروف ومتداول، ولكنني بصدد أمر في غاية الأهمية، وهو (مفهوم الغزو والتآمر)، لقد عولنا عليهما كثيراً وجعلنا منهما مناطات لفشلنا وتخلفنا، نعلق عليهما كل ما صنعناه بأيدينا واقترفناه بجهلنا، واستمرار الهروب من تلك النافقاء عمَّق تخلفنا، وأعطى صورة ساذجة عنا، إن فهمنا (للغزو والتآمر) أصبح من أخطر الإشكاليات، بحيث شل تفاعلنا، وحال دون محاسبة أنفسنا، فما من إخفاق أو نكسة أو حرب أو ثورة أو تغيير لا نريده ولا نقبل به إلا ويكون نتيجة غزو أو تآمر، ونحن أبرياء ملائكيون، وفات المعولين على هذا الادعاء التواكلي التبريري أن الغزو والتآمر كالجراثيم والفيروسات لا تفعل فعلها إلا في الأجسام المريضة التي لا تملك المناعة.

والقول في الغزو والتآمر يتطلب وضع صيغة حضارية لتداولهما، فلا نغفو على كف الغرب ونحسن الظن به، ولا نجعل أي تواصل معه غزواً أو تآمراً، وأكاد أجزم بأن فهمنا للغزو والتآمر أخطر من فعلهما فينا، والذين يجعلون كل تواصل مع الغرب غزواً وتآمراً ليسوا بأقل خطراً من الذين ينفون الغزو والتآمر، فكلا الفريقين يشكلان خطراً على ذهنية الأمة، لأنهما يشكلان هدنة أو مواجهة ليستا على شيء من الفهم السليم، والمقدمات الخاطئة تؤدي بالضرورة إلى نتائج خاطئة، والاختلاف حول مفهومي: الغزو والتآمر أدى إلى نتائج سلبية، فالذين يستبعدون الغزو والتآمر يقعون في التبعية والإمَّعية، والذين يعدونها في كل تواصل أو تبادل أو تصالح أو تعايش يحولون دون الاستفادة المشروعة، وقد يمتد هذا الاختلاف إلى ضرب مشروعات إصلاحية على مستويات الدين والاجتماع والاقتصاد، ومشروعات سياسية على مستويات النظم والدساتير، قبل بها قوم ورفضها آخرون.

لقد استقبل العالم العربي في فجر نهضته مشروعين كان يمكن أن يفعلا شيئاً لو تآخيا هما: مشروع محمد بن عبد الوهاب السلفي الوحدوي ومشروع محمد علي التمديني، ولكن المواجهة الدامية بين التحضير والأسلمة حال دون تفعيل المشروعين عربياً وإسلامياً، وإن كان لبعضهما فعل اقليمي.

قضايا العولمة في الفكر المعاصر .. ! (٢) [(١)]

وها نحن مع المستجدات لا نحاول الاستكناه المعرفي ولا الفرز الدقيق بين ماهو خالص الضرر وماهو دون ذلك، ولا بين ما يمكن التفاعل معه دون اخلال أو فساد وما لا يمكن ذلك الا معهما، وانما ننزع إلى العاطفية والتعميم ونزق المواجهة وجور الأحكام، دون استبانة اوتثبت، نركن إلى القبول المطلق أو الرفض المطلق، ومثل هذا التصرف العاطفي المتسرع يفوّت علينا فرصة ثمينة، اننا بحاجة إلى التفكير العلمي والمواجهة العقلية المستنيرة بنور الله، وما نحن عليه يجعل إشكاليتنا من عند انفسنا، والمواجهة لابد ان تبدأ مع الذات فذلك جهاد النفس وهو الجهاد الاكبر، و العولمة بكل ضجتها وصخبها فيما أرى مستجد لفظي، خلفت النظام العالمي الجديد الذي نودي به بعد الاستعمار التقليدي، والنظام العالمي الجديد تلميع وتطوير لآليات الاستعمار البغيض، وتأتي العولمة صياغة ثالثة، قد لا تكون بحجم الرهان عليها، وقد تكون بحجمه أو بما هو فوق الرهان، والله غالب على امره، وتقدرون وتضحك الاقدار، ولكن واجبنا ان لا ننتظر المعجزات، ونقع في التواكل، بل لابد من فعل الاسباب ثم التوكل على حد: اعقلها واتكل والتجديد في اساليب التسلط دأب المتسلطين، وهكذا يكون الغرب مع المستضعفين كلما خبت نار مصطلح اشعل في عتمتنا مصطلحاً آخر، ظاهره فيه الرحمة وباطنه من قبله العذاب، وسوء العولمة مضاعف، فهو ناشيء من عدم استعدادنا للتعامل معها بامكانيات ذاتية واسلوب حضاري، وبما هي عليه من تسلط وفوقية، ولو انها جاءت ونحن على غير ما نحن عليه لكانت لها نتائج ايجابية، اذ هي مشروع غربي يقابل بمشروع مضاد ومتكافيء، ولاننا لا نملك الندية ولا نحمي الساقة ولا المقدمة فرضت علينا رغبات واطماع من جانب واحد ترعى مصالح الغير ولا تراعي فيناً إلا ولا ذمة، ووجدت من المستغربين من يلي امرها ويتطوع في اشاعتها والدفاع عنها.

و العولمة قادمة من الغرب على مطايا التقنية، نافذة كالهواء عبر الفضاء، محفوفة بكل مقومات النفاذ، وواجب الامة الاسلامية وبخاصة نخبها ومفكروها فهمها فهماً معرفياً وصياغة اسلوب حضاري للتعامل معها، والامة العربية الاسلامية مطالبة بمبادرة حضارية لتلقّي اطروحات الآخر، وتفهم الغرب ومحاورته وتبادل المنافع معه من المقتضيات الاسلامية التي لا غبار عليها، والحفاظ على الخصوصية الحضارية والثقافية ونقاء العقيدة واظهار الدين مهمة كل مفكر ومثقف مسلم، وحوار الحضارات افضل من صدامها، والتساؤل افضل من الانغلاق، والذين يرون ان الحرص على الهوية والخصوصية والنقاء الثقافي مؤشر احساس بالضعف وقلة الحيلة يلغون وجودهم، ويجهلون ان الصراع الحسي والمعنوي أزليان، وان سنة التدافع كونية، وان المسكنة والاستسلام هما مؤشرا الضعف وقلة الحيلة، والثقافة اي ثقافة لا يمكن ان توصف بالنقاء المطلق، والله قد شرع لنا من الدين ما وصى به الرسل السابقين والرسول ﷺ بُعث ليتمم مكارم الاخلاق، ومن ثم فليس هناك حضارة خالصة نزلت بمشروعها دونما اخذ بالصالح القائم، وليس هناك نص بريء من الاستيعاب، والحضارة الاقوى هي التي تمارس التمثيل الغذائي بعد استيعاب القائم والماضي، والحضارات الابقى هي الحضارات الاستيعابية المحافظة على المرتكزات، لقد قامت الحضارة الامريكية وهي جماع الحضارة الغربية على منطلق واحد ذي ثلاثة مرتكزات هي:

الحرية.

---

(١) تاريخ المقال: ١٦/ ٥/ ٢٠٠٠

العدالة.
الانتاج.
اما واحدية المنطلق ف المادة: بحسيتها ولذتها ودنيويتها، حتى لقد انتجت ثقافة ملائمة لمرتكزاتها ومنطلقها، والمرتكزات الثلاثة حق للشعب الامريكي، وليست حقاً للآخر على الاطلاق، والواقع من اقوى الشواهد، بل اكاد اقطع بأنها حق للمواطن الابيض، وهاكم السود في امريكا وما يلاقونه من تهميش وحقارة، ومثلهم السود في القارة السوداء، ثم انظروا إلى مؤتمرات الاغنياء وما خرجوا به من توصيات ابقت على الفقر والتخلف والديون والفوقية والتسلطية.

واذ تقوم الحضارة الغربية على منطلق المادة تقوم الحضارة الاسلامية على منطلقات واسس: عقدية وتعبد ية وسلوكية وعملية، فالمنطلق في الحضارة الاسلامية يقوم على: المادة والروح معاً، وتحرص على حفظ التوازن بينهما.

فالمادة تقوم على العمل والانتاج، وهما مطلب اسلامي، والروح تقوم على العدل والحرية والمساواة والعمل لمواجهة الحياة الاخرى، وهذه التصورات انتجت ثقافة ملائمة لهذه الاسس وتلك المنطلقات، ولا يمكن اندماج الثقافتين لوجود تفاوت في المفاهيم والقيم والمرجعيات، وقدرنا اننا الاقل عدداً واضعف جنداً وعدة والاكثر حاجة، وواجبنا ان نتقن لغة الخطاب التواصلي، بحيث يكون مرحلياً وقائياً لا تنازعيا استعدائياً، وان نكف عن تحريض الآخر علينا باستفزازه وحمله على الامعان في توهيننا وقمع صلفنا واهتياجنا الاعزل، لقد خفف الله عنا وعلم ان فينا ضعفاً، ومن ثم اتاح اكثر من مستوى في مواجهة الضد، ولم يلزمنا بخيار واحد، وفضل الله واسع الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان.

الا ان تتقوهم تقاة، وان جنحوا للسلم فاجنح لها، وقد فصل لكم ما حرم عليكم الا ما اضطررتم اليه وقال محذراً: وان كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم، وما اكثرهم في مشاهدنا، كمن يؤنسنون الإله، ويدنسون المقدس، ويعلمنون الحياة، ويهمشون الدين، ويعددون طرق الخلاص ويوثنون العقل ويؤلهون العلم، ويؤكدون على الانقطاع المعرفي، ويفهمون الحرية على غير ماهي عليه، ويمارسون الاجتهاد فيما لا يحتاج إلى اجتهاد، ويقولون في كتاب الله بغير علم، ويحملون الاسلام مقترفات المسلمين، ويتخذون خطة التنويريين الغربيين شرعة ومنهاجاً، ويجتهدون في اشاعة الفاحشة باسم الاعتراف، ويوقظون الفتنة النائمة، ويقولون في الدين والغيب مالم يأذن به الله، ويسعون للشهرة بالمخالفة والايغال في المسكوت عنه، وفي ظل هذا السياق المهادن لا اجهل آية السيف ودورها النسخي، كما لا اجهل رؤية النسخ المرحلي واللانسخ، ولكنني اركن إلى فسح الاضطرار والضعف والاختلاف حول شمولية النسخ ومحدوديته، وليس المقام مقام تفضيل أو ترجيح.

ان الخطاب الاغرائي التعالقي يفصل الامة عن تراثها، والخطاب العدائي الصدامي التحريضي يحفز الآخر لكي يضع صيغة للقمع والتهميش والتجهيل والتجويع والتفريق، وبدل ان نطلب المبارزة والمنازلة دعونا نرتد إلى الداخل، وننظر في امرنا ونقوم ذواتنا، ونعرف إلى اي حد استجبنا لمقاصد الاسلام في انفسنا وفي مسؤولياتنا وفي كل ممارساتنا على مختلف الاصعدة، ان من نواقصنا اننا نحارب عدونا بسلاح يصنعه ويملكه، واذا أمدنا بشيء منه احتفظ بأسراره ومفاتيحه وقطع غياره، واشترط مجال استعماله، وسبق امكانياته بجديد اكتشافاته، كما اننا ننازعه الصدارة والقيادة ونحن لم نتقن قيادة انفسنا، ونناصبه العداوة والبغضاء ونحن عالة على منجزاته، وكم هو الفرق بين الموالاة والركون والمسالمة والموادة.

انني لا ادعو إلى موالاته ولا إلى الركون اليه ولا إلى موادته، وانما اريد المصالحة والمسالمة وتبادل المصالح وبدء رحلة العمل الجاد الناصح على هدي من الكتاب وصحيح السنة، حتى يأذن الله بنصره، وما نفعله من وفاق مرحلي حذر لون من التحرف المشروع والتحيز الفئوي المطلوب، والحلول المرحلية الاضطرارية تحقيق للقدر المباح من الانسانية والعالمية التي دعا اليها الاسلام، وحين نعطيه الوجه السمح المتسامح نتمكن من النفاذ إلى اعماقه وتبليغ الرسالة السماوية وذلك بانشاء المنظمات والجماعات وعمارة المراكز والمساجد وبث الدعاة في عقر داره، والتجارب قائمة والعوائد مشجعة، وهو لم يقايض لعلمانيته، والاستعمار التقليدي حين فشل في التدخلات العسكرية بادر إلى تغيير اساليبه، وما النظام العالمي الجديد ومن بعده العولمة الا تحرف ذكي لتكريس الوجود والهيمنة، ان مهمة المسلم تقوم على: عمارة الكون، وعبادة الخالق، وهداية البشرية، فإلى اي حد بلغنا في هذه المهمات الثلاث، ان مسؤوليتنا ان نبلغ الاسلام قولاً وعملاً، ان نكون قدوة صالحة تغري المتابعين بما نحن عليه، لقد فقدنا تقديم القدوة الصالحة وفقدنا الدليل العملي المقنع والمستميل، ومن ثم لم يبق في ايدينا الا الدليل القولي، وكل الحضارات تمتلك مثاليات قولية، ان واجبنا ان نترجم الاقوال إلى افعال، وعلينا ان نشاطر العالم بل نقدمه في عمارة الكون فنحن المستخلفون والمستعمرون في الارض، فهل عمرناها بالعلم والصناعة والزراعة والمختبرات والمعامل والارصاد وغزو الآفاق والانفس؟ اننا لم نفعل، واذ لم نفعل فما اعددنا القوة التي أمرنا بها، وما استطعنا ان نرهب عدو الله وعدونا، والمؤكد ان وضع العالم الاسلامي حرج إلى حد اليأس والقنوط، وفي ظل هذه الظروف علينا ان نعيش حالة من اليقظة والوعي والحلول المرحلية والاتقاء المشروع الا ان تتقوهم تقاة ويحذركم الله نفسه، لقد جنحنا للخطاب الهجائي وامعنا في الاسقاط والتنصل، وواجبنا ان نفكر بخطاب جدلي كريم: ندفع بالتي هي احسن، فالمسلم الحق من يألف ويؤلف، لاي كون طعاناً ولا لعاناً، وحين نص الرسول ﷺ على لعن بعض القبائل قال الله له: ليس لك من الامر شيء، وقد أمرنا بألا نسب معبود الآخر لكيلا يسب الله عدواً بغير علم، ومعبوده قد يكون حسياً أو معنوياً، والاجدى لنا ان نتخذ سبيل السلم والسلام، وان نعد القوة العلمية والصناعية والعسكرية لنحمي خطابنا الدعوي اولاً، ثم الجدلي ثانياً، حتى ننازل خصمنا بندية وتكافؤ، واعداد القوة فريضة غائبة أو مفروض غيابها بالمكر والخديعة حيناً وبالقوة حيناً آخر، ومن الخير للامة العربية والاسلامية وهي تواجه هيمنة علمية ان توحد همها وانتماءها وفكرها، وان تقرأ تاريخها الحديث وما فيه من صراعات اذهبت الريح، لقد نشطت المعركة بين القومية و القطرية و القومية و الاسلامية و الرجعية و التقدمية و العلمنة و الاسلمة و الاشتراكية و الرأسمالية و التنويرية و السلفية وفهمت الحرية على غير مراد الله، وطرح مبدأ الاجتهاد الفردي خلواً من الامكانيات وفي غير مجال الحاجة، وتداول الاعلاميون مصطلح الاصولية سمة للمتشددين، على انه يعني في الحضارة الاسلامية الاشتغال بعلم الاصول وخلط بين الارهاب و الدفاع المشروع وقعرت رؤية الظاهرة ولم يستدع السبب، اذ الارهاب عرض لممارسات ظالمة وتصرف غير مشروع وتحكم سلب ابسط الحقوق، وما احد منا استفاد من تلك المعارك والاخفاقات، وما احد منا استوعب الفكر الذي يدعو اليه والمبدأ الذي يعادي ويوالي من اجله، ولم تحرر تلك المسائل بعد، ونتائج تلك المعارك صبت في خزائن الاعداء، ونحن من قبل ومن بعد امة عربية اسلامية، وللعروبة والاسلام مقتضياتهما، والمنطق والعقل يضعان كل الحساب للفروق الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، والخطورة تكمن فيما يفكر فيه الغرب من تصميم صيغ للقيم الاجتماعية توجه العالم إلى الدخول في منظومة اجتماعية غربية تكون المرأة فيها اولى ضحاياها، ويكون الكفاح من اجل الحرية

ارهاباً والتمسك بالثوابت اصولية، وتحكيم شرع الله وتطبيق الحدود سطوا على حقوق الانسان، واذا غربت المرأة تغربت الحياة كلها، واذا عطلت الحدود الشرعية عمت الفوضى واختل الامن، وهنا تكون الطامة الكبرى، و العولمة القادمة بمستوياتها المتعددة وتصوراتها المتباينة ورغباتها الجامحة لم تعد مصالحة ولا معاذرة، انها تكييف قسري للاتجاهات والنوازع، واقامة نمط تفكيري وسلوكي متجانس، وهي مرحلة من مراحل الصراع الحضاري الازلي، ولتكن مرحلة تاريخية أو مذهباً متعدد المطالب، فالمهم في النتائج والمآلات، والغرب الذي فشل في الممارسة العسكرية لحسم المواقف وتجفيف ينابيع الرفض كما فشل في الاستعمار المقيم، اعاد ترتيب اوراقه، بحيث استبدل المؤسسات العسكرية بمؤسسات اجتماعية وثقافية وتربوية واقتصادية واعلامية، وهو بهذا المشروع السلمي يحول معركته القادمة إلى معركة قيم واخلاق وسلوك اجتماعي ورؤية موحدة للكون والحياة والانسان، وهنا مكمن الخطورة، لقد تجلت النتائج بهذا الصراع الفكري الذي نراه في سائر المشاهد الفكرية والادبية والثقافية، وما على المتردد الا ان ينظر إلى ما يدور على الصحف والمجلات والكتب من اتهامات متبادلة وتكفير ومحاكمات، وما تقوم به الجماهير من مظاهرات واحتجاجات، والمواجهة اليوم انتقلت من ساحات المعارك العسكرية إلى البيوت والاسواق والادمغة والمؤسسات التعليمية والثقافية والاعلامية، وفي اطار هذه المواجهة العصيبة لابد من التقدير والتوقيت لتفادي الفروق، ومحاولة القفز فوق تلك الفروق عمل غير حضاري، وحاجتنا الملحة تقوم على مواجهة الذات بكل اخطائها قبل صياغة اي مشروع شمولي، ومن مصلحتنا الراهنة اقليمياً وعربياً واسلامياً ان نصالح وان نسالم وان نهادن وان نتبادل الممكن من قبلنا والمتاح من قبل الغرب، وهذه الظروف المؤلمة لا تمنع ابداً من تداول الحديث عن الخطر الغربي والغزو الغربي والتآمر الغربي لا على المستوى الاقليمي ولا على المستوى العربي ولا على المستوى الاسلامي بل على المستوى العالمي، وكم نسمع تساؤلات وتحفظات على مشاريع الغرب من الشرق بل من شركائه الغربيين بل ومن ذاته، ومظاهرات الشباب في سياتل بأمريكا ثم في واشنطن بقيادة جوليا بيكر ضد الشركات العملاقة وصناديق الاقراض وضد العولمة المخلة بمصداقية الحرية وحقوق الانسان دليل شك وارتياب وخوف حتى لقد بلغ الرافضون لها ٣٥%، كما نجد خارج امريكا من شركائها من يرفض الهيمنة أو يتحفظ عليها فتلك فرنسا تبدي تحفظاً على البرامج الثقافية وامتعاضاً من طوفان المسلسلات الامريكية، و كندا يؤكد خبراء التربية فيها ان الاطفال لا يدركون انهم كنديون، وقد خوف وزير خارجية كندا الاسبق من احتكار صناعة الثقافة، وطالب بتثبيت الافكار مثل المطالبة بتثبيت الاسعار، و كولمبيا متخوفة من السوق الكبيرة، و الارجنتين أوقفت عن انتاج صاروخ كوندور و باكستان انذرت بالعدول عن تسلحها النووي، كما لم يتضمن الاتفاق مع الصين بيع التقنية، واحتجت كل من اندونيسيا و ماليزيا و الفلبين و سنغافورة و تايلند على الحق الذي يستأثر به الغربيون، وفي المحيط العربي صواعق وبواقع، يعرفها كثير من الناس، لعل آخرها ما قيل عن دعم المشاريع النووية الاسرائيلية، اشياء كثيرة يتداولها الرأي العام والاعلام العالمي ومنابر الجمعيات والجماعات والمنظمات، والغرب الذي يبشر بالعدل والمساواة والحرية والديمقراطية، يحمي انظمة ظالمة، ويبيد شعوباً آمنة، ويفسد اخلاقيات عالية، ودفاع الغرب عن الحق والحقوق انتقائي كما يقول جارودي في كتابه حفار القبور ص ١٥، وهو غربي يرى تعدد طرق الخلاص، وكما يطرحه نعوم تشومسكي في سبيل نقد السياسة الامريكية منذ حرب فيتنام، وهو يهودي متعاطف مع الصهيونية، ومع كل هذا فإن الخيار المنفرد والاستقلال الذاتي في اتخاذ القرار المصيري في ظل الهيمنة من الاحلام السعيدة، العالم اليوم تحكمه

شبكة اخطبوطية: شبكة سياسية تعد الانفاس، وشبكة اقتصادية لشركات عملاقة متعددة الجنسيات ترصد ادق المتغيرات، وشبكة إعلامية تحرف الكلم عن مواضعه، وشبكة جاسوسية تقرأ الشفاه وتندس في المخادع، والذكي من يظل لاعباً مستمراً، فالمسرح السياسي ليست له كواليس، وفي هذا السياق فإن خيار التأقلم أو العروبة أو العولمة أو الامركة أو الاسلمة من الخيارات المصيرية الصعبة، والاخفاق في احد الخيارات يعني النهاية المعنوية لا الوجودية، فالوجود الذليل قائم: والشاعر العربي يقول:

ذل من يغبط الذليل بعيش

رب عيش اخف منه الحمام

ان هناك اقداراً لا مناص من استقبالها وتحمل ما يترتب عليها من صعوبات، ولطف الله بعباده ان العولمة ليست الخيار الوحيد، وليست واحدية المستوى، وليست كما يتصورها المهولون قطاراً سريعاً اذا فات لا يمكن اللحاق به، نعم نحن لا ننكر الاضرار المترتبة على الارتباك والتردد ثم اللحاق المتأخر، وبخاصة فيما يتعلق ب الجات، و العولمة ليست كما يصورها الجاهلون شرا محضا لابد منه، انها اشياء ومستويات من حيث الفائدة والخسارة، ومن حيث الشمول والمحدودية، ومن حيث الواحدية والتعددية، والتعامل معها أو رفضها لا يقل احدهما خطورة عن الآخر، ومن الاجدى والاهدى لنا ان نقرأها، وان نتصورها من خلال مستوياتها، ثم نبدأ في صياغة اسلوب المواجهة أو التعامل، وقد عالج هذه الفسح الدكتور منير الحمش في كتابه العولمة ليست الخيار الوحيد حيث اكد نفي الحتمية وواحدية الخيار، وتلك رغبة قد لا تكون ممكنة، وعلى خلاف تفاؤله يأتي حازم صاغية في كتابه وداع العروبة مؤكداً طمس الهوية في اطار العولمة، وبقدر اليأس والقنوط عند صاغية، تأتي الثقة والتباهي عند فرانسيس فوكوياما اخصائي العلوم السياسية الذي قطع بنهاية التاريخ واليأس من ظهور انسان آخر في كتابه نهاية التاريخ والانسان الاخير على انه تجاوز تلك المرحلة بما سماه التاريخ ما بعد البشري، ويأتي كتاب فخ العولمة مجمجماً عما في النفوس بأمنيات عراض، وهكذا نعيش الامل والقنوط والتفاؤل والتشاؤم في الآراء والتصورات والرهانات، ويتعاقب المؤلفون عنها بين جزر ومد وقبول ورفض وانتقاء وشمول، نجد ذلك عند بدري يونس في كتابه مزالق العولمة وعند سيد ياسين في كتابه العولمة والطريق الثالث وعند عبد الله عثمان التوم وعبد الرؤوف آدم في كتابهما العولمة دراسة تحليلية نقدية وعند مجدي محمد سعد في كتابه ظاهرة العولمة الابعاد الحقائق وعند أحمد سيد مصطفى في كتابه تحديات العولمة وعند مجموعة من الباحثين المؤتمرين في مجموعة ملفات منها: الاسلام والعولمة والعولمة والتحولات المجتمعية وعند من كتبوا عن الجات من مثل علاء كمال، ومصطفى عبد الغني، وعند عشرات آخرين كتبوا في الملفات وآلاف كتبوا في الصحف والمجلات، ومئات صالوا وجالوا في المؤتمرات والندوات، ان هناك مستويات قد لا يتصورها البعض، وهناك احتمالات وقطعيات يراهن عليها المتفائلون والمتشائمون والراضون والساخطون، وهي من التداخل في الآراء والتوجهات، بحيث لا يقف المتابع على رأي جامع مانع، والفريضة الغائبة براعة التنبؤ وحسابات المستقبل على هدي من العلم ولغة الارقام وقطعيات الوقائع، لقد فقدنا حاسة التنبؤ، وفقدنا امكانية الرصد الدقيق للتحولات، وفقدنا الذاكرة، وعشنا رهينة تاريخية، لا نفكر في لحظتنا الابدية، وهذا الانفصال المتعمد من واقعنا والاغفاءة الحالمة في احضان التاريخ المجيد فوت علينا فرصاً نادرة لن تعود، نفاجأ بكل شيء ونستسلم لكل شيء ننسى امسنا ولا نفكر بغدنا ولا نستفيد من يومنا، والتصدي والتحدي والصمود ان هي الا الرفس داخل الشرنقة، ولكنها رفات الذبيح تترك

له فضاءات مناسبة حتى يهمد، ان لهاث التساؤلات يظل قائماً دون اجابة حاسمة، وهي تساؤلات مصيرية، لانها تقرر أسلوب المواجهة، فهل العولمة مجرد سياق زمني ومرحلة تاريخية كما يقول البعض؟ ام هي نتاج حتمي لاستراتيجيات اقتصادية؟ ام هي طوفان من قيم الاقوياء؟ ام هي منتج تقني نسل من شبكة المعلومات والاتصالات والكونية الاعلامية؟ وتحت وابل التساؤلات تظل العولمة كالحقيقة الغيبية كلما اقتربنا منها زادت بعداً.

قضايا العولمة في الفكر المعاصر .. ! (٣) [(١)]

ان فكرنا المعاصر أو أكثره على الأقل تلافيا للتعميم يتداول (العولمة) في ظل طوفان التساؤلات المتناقضة، وكل طائفة تجيب على التساؤل بوصفه السؤال الأوحد، وكل هذا اللغط يتم في غياب القدرة والمعلومة والتنسيق، والذين يواجهون (العولمة) بتصورات خاطئة يعمقون المأساة ويضاعفون الإشكاليات، وما أكثر الناس ولو حرصت بقادرين على اعداد أنفسهم وتحصينها بالعلم الشرعي اولا ثم بسائر العلوم والمعارف المؤدية في النهاية إلى فهم المصير وتصور الآخر قبل المواجهة، أو الكف عما يصعد الأزمة، لقد تعددت مفاهيم (العولمة) حتى صارت بعدد المتحدثين عنها، وجاء من يبحث في مشروعية الحديث عنها بهذا الحجم، والمؤكد انها صيرورة وتحول تاريخي أراد له الأقوياء الثبات والمشروعية، فحولوها من ممارسة عفوية، إلى صياغة واعية مشروعة، وهي بعد الصياغة وقبلها ليست طارئة ولامفتعلة انها مرحلة من مراحل الاستعمار والسيطرة، والأقوياء الذين ملكوا أزمة الأمور لن يفرطوا في رصيدهم، ولن يتحولوا عن مكرهم وتدبيرهم للتمكين لأنفسهم ولمصالحهم، وكيف يفرطون وهم يعلمون علم اليقين انهم يختلفون مع الأمة الاسلامية في أمور كثيرة، وان استسلام الأمة استسلام العاجز لا الراغب واستكانة المتربص لا المذعن، فالاسلام في نظرهم مارد في قمقم حتى لقد قال أحدهم: انتهى الصراع مع الشيوعية ليبدأ مع الاسلام، وهو لم ينته بعد، ان العولمة تغيير في العرض لا في الجوهر، ومن واجبنا ان نتصرف معها بهذه الرؤية، والأذكياء من يحاولون تفريغ محتواها ليملؤوا فراغاتها، ويوجهوا مسارها، ويتحكموا بأزمتها قدر المستطاع، وليس في تداولنا لها ولا في مواجهتنا لها شيء من ذلك، انها عند قوم ملاك طاهر، وعند آخرين شيطان أكبر وخيار ثانوي، وما من أحد من هؤلاء وأولئك يملك التصرف الحكيم والموقف الحضاري حين تكون ملاكا أو حين تكون شيطانا.

وعيبنا الخلط بين التطلع و الممكن، دون حساب للعوائق ودون تقدير للامكانيات، وليست لدينا مراكز معلومات ولا أجهزة رصد ولا آليات للجس والسبر، اننا في كثير من مواجهاتنا مغامرون لا نفكر بالعواقب، ان الامكانيات المذهلة للغرب والاكتشافات المثيرة في الآفاق وفي الأنفس والمطابخ السياسية والفكرية واحتلال الفضاء وحرب النجوم والشركات العملاقة المتعددة الجنسيات والانفجار المعرفي والطوفان الإعلامي ومراكز المعلومات تتطلب منا صياغة محكمة وأسلوبا ذكيا لمقاربة الأشياء، والمرحلة بكل ما تعج به من متناقضات بحاجة إلى فكر تصالحي يتيح لنا الفرصة لأخذ النفس ومراجعة النفس وتقويم الذات وبدء العمل وفق مناهج وآليات مناسبة للمرحلة، ونواقص المثقف العربي في تداوله الفكري كثيرة، انه يفتقر إلى المعلومات الصحيحة ذات المصدر الحيادي، وهذا النقص أوقعه في فخ التضليل، وكم من الصادقين الناصحين من ضرب كفا بكف، وندم على ما قدمت يداه، حين اكتشف انه رتب أوراقه على معلومات كاذبة وتوقعات مضللة وقضايا مزورة، وأقرب دليل على نقص المعلومات أو عدم مصداقيتها الحديث التفاؤلي عن مقدمات (العولمة) وبخاصة (الجات) التي تحولت إلى منظمة تم التوقيع على بنودها في مراكش عام ١٩٩٤م، وقد قرأت أحكامها ومبادئها ومعاييرها وحقوق الملكية الفكرية فيها والاجراءات والجزاءات ومنع المنازعات وتسويتها والترتيبات الانتقالية عبر كتب خاصة ودراسات منتدية وملفات متخصصة، فوجدت انها تميل كل الميل لصالح الآخر

---

(١) تاريخ المقال: ٢٣/ ٥/ ٢٠٠٠

بحيث تركت مصالح الدول النامية معلقة، والمؤلم ان يكون أمر القبول في هذه الحالة من مفردات العولمة خيارا واحدا.

وهذا يذكرني بقول المتنبي:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى

عدواً له ما من صداقته بدُّ

وقوله:

واحتمال الأذى ورؤية جانيه

غذاءٌ تضوى به الأجسام

ان الجانب الاقتصادي يكاد يكون خيارا حتميا، وهو الجانب الأهم والأخطر والمستتبع للجوانب الأخرى، وقد يكون الأهون ضررا على القيم الأخرى متى احسنا التصرف وقدمنا مشروعا اقتصاديا حضاريا في ظل امكانيات معرفية وظروف اقتصادية متينة، ومع ان البعض مكره على الفعل، فان في الأمر سعة، والناصحون يتنفسون من تحت الماء حتى يأتي امر الله، والعذر أننا ما بأيدينا صنعنا هذا الواقع المؤلم، ومع ذلك فان من واجبنا التحرف الناصح لتجاوزه وتحقيق الممكن، وها هي الدول الراصدة بوعي تلاحق الزمن لتقبل هذه الظروف وتتلاءم معها، وذلك بالخصخصة والنظام المؤسساتي، وتقليص ظل الدولة التقليدية وهي محاولات ناصحة راشدة نسأل الله لها التوفيق والسداد، وحين نرى اتساع بعض المشاهد العربية المتعددة المستويات والامكانيات لأكثر من مشروع غربي وأكثر من آلية حديثة وأكثر من منهج جديد، نتحفظ في الوقت ذاته على مشاريع مناهضة ومناقضة للثوابت، أخذ بعض مفكرينا بعصمها، في الوقت الذي يجدون فيه متسعا للعدول عنها، وكم هو الفرق بين فعل الإكراه وفعل الاختيار، وعتبنا على الذين يهربون باتجاه الآخر معرضين مصالح أمتهم وثوابتها للخطر وكان بإمكانهم التأمل واختيار أهون الضررين، والأجدى ألا نقع في التمييع والتبرير والتعذير ومقولة: ليس بالامكان أفضل مما كان، ان هناك حدودا يجب ألا نتعداها وحمى يجب ألا نحوم حولها، ولكل ملك حمى، وحمى الله محارمه، لقد أخذ بعض الساسة والمفكرين العرب بمشاريع غربية مناقضة لما عرف من الدين بالضرورة، كالشيوعية والعلمانية الشاملة، مع امكان تحقيق المعاصرة والتحضر بما دون ذلك مما يحقق الاحتفاظ بالحد الأدنى من الاسلام على حد قسم الاعرابي الذي اقتصر على الفروض والواجبات فبشره الرسول بالجنة ان صدق، والمؤكد ان (العلمانية) الشاملة على سبيل المثال بوصفها مشروعا غربيا لا يمكن القبول بها في ظل المشروع الاسلامي، العلمانية منتج غربي عقلاني لا ديني، وهي ثمرة التنويريين الذين تخلصوا من سلطة الكنيسة، والأسلمة استلهام نصي يحكم العقل المتوازن مع النقل والمهتدي بنوره، ومن الخطورة بمكان ان نجعل لعقل الأمة مسارين: مسارا ماديا صرفا، وآخر نقليا صرفا، لا يحفظان التوازن والوسطية، والذين ينقمون على مشروع الأسلمة يخلطون بين المنهج والتطبيق، ويسهمون في تعويق التلاقي عند كلمة سواء، ولعجزنا عن صياغة حضارية للمواجهة، نجد ان من اشكاليات النوازل الواضحة والمتشابهة ادارة كؤوسها على مائدة ثنائية صنعت على أساس (نهضوي) أو (تنويري) أو (رجعي) أو (ظلامي) في مقابل (الاسلامي) على حد المتداول، وجاء التعامل بهذا المفهوم مكرسا فقد التوازن، فالمتماهون مع الآخر يدعون النهضوية والتنويرية، ويقول قائلهم: اما الاسلام والتخلف، أو الاستغراب والتقدم، و(السلفيون) يوصفون بالنكوص

العقلي والارتداد إلى التاريخ الرمزي، والحقيقة غائبة في هذا الجدل، وتتعمق الاشكالية حين لا يفرق المتجادلون بين الوجه الاستعماري للغرب، والامكانيات الايجابية عنده في العلم والتقنية وسائر الدساتير والمناهج والأنظمة، والخطأ الفادح حين ندخل لعبة المفاضلة بين أنظمة الحكم ومناهج التطبيق ثم نقف عند المسميات ولا نقوم الواقع والنتائج، ونعتمد في لعبة المفاضلة على المرجعية، ولعبة المفاضلة توحي بالمثلية وامكانية الخيارات، وهو ما لا يمكن القبول به، والمسميات لا مشاحة حولها، فلتكن ملكيا أو أميريا أو جمهوريا أو ما شئت من المسميات، ولكن لتحكم بما أنزل الله، والمرحلة المعاشة عصيبة ومربكة، ووضعها غير سوي وغير ملائم للتصرف المصيري، ومثل هذه الحالة العارضة تتطلب فعلا حضاريا يقوم على التصفية والتربية والتعليم، وبعد تصفية الأجواء نعمل على تنويع مستويات الخطاب، فخطاب دفع الظلم وازاحة التسلط يختلف عن خطاب التبادل المعرفي، وخطاب التصفية للسائد غير السوي والتربية للذات يختلف عن خطاب النقد للآخر بوصفه مصدرا للقيم المتحفظ عليها، والمشكلة ان الخطاب لكل هذه المستويات واحد لا يتغير، وفي ظل هذه الأوضاع والامكانيات غير المتكافئة يجب ان تكون التحولات مرحلية لا نهائية، اذ الامكانيات غير قادرة على الحسم النهائي، ومن الانصاف ان نشيد بتوفيق بعض المؤسسات العربية والمحلية في اعداد صيغة للحوار الاسلامي مع الآخر ومحاولة تجاوز بؤر التوتر ومناطق الخلاف العصية، لكن تلك الصيغ ظلت رسمية، ولم تكن أسوة للآخرين، والحوار المتكافيء قد يحقق بعض المكاسب للأمة العربية والاسلامية في ظل تلك الظروف العصيبة، وأحسب ان الاشكالية ليست في مواجهة الآخر، وانما هي في مواجهة الذات المتشرذمة المتماكرة مع نفسها وتصفية الخلافات الداخلية الحقيقية والوهمية الناجمة عن تباين الانتماءات وتعدد الخطابات، ولو نظرنا إلى المشاهد الفكرية والسياسية والأدبية وهي تتداول المستجدات لأذهلنا التناقض والتناحر والجهل والادعاء وتحميل الأشياء ما لا تحتمل وتصفية السمعة دون استبانة لتصور المصفى ومعوله ومقاصده، وما على الخلي والشجي الا ان يقرآ التاريخ الفكري والنهضوي والتنويري والسياسي للأمة العربية وينظرا في المنجز الأدبي ليريا الصراع على أشده بين أدباء ومفكرين وسياسيين صُعِّدت فيه الخلافات في بعض الفترات إلى صدام عسكري، ان الأمة الاسلامية بحاجة إلى وحدة فكرية تحول دون نفاذ المفسدين في الأرض، فالعداوات الطائفية والمذهبية والفكرية من اخطر العداوات وأسرعها في افشال أي مشروع مشترك لمواجهة (العولمة)، والمؤلم ان خلل الوحدة الفكرية بدأ يمس الدولة الواحدة بحيث تحولت المشاهد إلى منابر يعمق خطباء كل طائفة العداوة والبغضاء، وتقوم الخطابات على الافتراء وتزييف الحقائق، حتى لقد بلغ غسيل المخ عند بعض الطوائف إلى حد اللاتوافق، ولم يكن العالم الاسلامي بدعا من الأمر، ويكفي ان ندلل بالانتحارات الجماعية التي أذهلت العالم، ونبهته إلى تأثير الحركات الدينية والفكرية المنحرفة، وأثبتت ان هناك فراغات ذهنية وحياة فطرية قابلة للصياغة والتشكيل، ولا استبعد انفجار حروب اهلية منشؤها الخلل الفكري بين المنظومات الدينية، ويستبين الخلل في تباين المواقف بين النوازل والمصطلحات، فعلى المستوى العربي والمحلي نجد ان أخطر مصطلحين شائكين مضللين الحداثة و (العولمة) هذا اذا تجاوزنا العلمانية و الشيوعية والعصرية و التنويرية والعقلانية و الوضعية، وسائر المذاهب التي اجتاحت العالم العربي واستنزفت طاقاته، ثم تحولت إلى ركام يبعث على الاشمئزاز، و(العولمة) والحداثة و البنيوية لم نصل معها إلى تحرير المصطلحات واستبانة المنطويات وغير واحد من المفكرين لا يرى مشروعية الجدل حول (العولمة) على وجه الخصوص، فضلا عن مشروعية المصطلح، والحق ان الداء العضال ناتج من أنفسنا، وأم المشاكل في حوار (العولمة) ان

المتحاورين لا يصدرون من مرجعية واحدة ولا من مفهوم واحد، ان مفاهيمها بعدد المتحدثين عنها، وهذا سوف يؤدي إلى انعدام الأرضية المشتركة وانعدام الهوامش المتاحة للتحرك فيها، واختلاف المرجعية يحول الحوار إلى صدام، والتعايش إلى تنافٍ، وهذا التناقض افضى إلى اجتذاب المرجعيات والبحث في شأن الوثوقية والتقديس والمشروعية، مما أدى إلى التوسع في فهم حرية الرأي وحرية الفكر وحرية التعبير، حتى لقد عد البعض الايمان بمبدأ التقديس لبعض المرجعيات لونا من تقييد الحريات، مما نقل الصراع من الاختلاف في التأويل إلى الاختلاف في مشروعية المؤول، ان المصيدة أو مثلث الرعب دخول نخبنا مضامير اللزز دون فهم دقيق ودون رؤية محددة لكثير من النوازل، فالعولمة على سبيل المثال منتج غربي له مقاصده وله مستوياته المفهومية بين الدول المنتجة، وله تفسيراته ومقتضياته المتباينة عند المتلقي، والتباين عند المنتجين وفهمه المتعدد عند المتلقين أعطاه تصورات عدة، فقد تكون (العولمة) من خلال تصور فئة خطرا على ثوابت الأمة عامة، ولكنها من خلال تصور آخر تعد ضرورة حضارية، تكون اقتصادية في رأي وأيديولوجية عند آخرين، وتكون خطرا على الدين والهوية عند جماعة أخرى، وفعلا دنيويا لا علاقة له بالدين عند آخرين، تكون مشروعا ثقافيا عند قوم، ومشروعا اجتماعيا عند آخرين وهكذا تتضارب الآراء حول نازلة تمس كل جوانب الحياة، وهذا الاختلاف يفتح ثنيات لمنتجي العولمة، ليضربوا بعضنا بسلاح البعض الآخر ويظلون متفرجين منتفعين، وازاء هذا التباين في المفاهيم والحدود يتحتم علينا التثبت واستبانة تصورها عند كل مفكر، ثم مواجهته رفضا أو استحسانا، لقد قبل بها قوم في ضوء انحراف فكري، وقبل بها آخرون في ضوء فهم خاطىء أو تصور مغاير، وتردد في قبولها قوم آخرون لعدم تحرر مفهومها، والمواجهة يجب ان تكون مرتبطة بدوافع الموقف لا بالموقف ذاته، ومع الاختلاف يجب ألا نتعادى، واذا كان المنتجون والمستفيدون من العولمة يختلفون، فإن المستقبلين والمتضررين أحق بمشروعية الاختلاف، والذين رفضوها من مثاليي الشعوب المنتجة لها يرونها تسلطا قادحا بالعدالة والحرية والديمقراطية، ولونا من ألوان الظلم المنافي للمبادىء المعلنة.

ومما يعمق الاشكالية في أوساطنا الموصومة بالتقليد ان القراءة أي قراءة لا تكون بريئة، والنص أي نص لا يكون بكرا، فالنص والقراءة لا ينشآن من درجة الصفر وطبعي والحالة تلك ان نحمل المصطلحات ما لا تحتمل ونحدد قيمتها من خلال مواقف مسبقة الاعداد، والمرحلة المعاشة بكل تعقيداتها بحاجة إلى تخلية الفكر من سوابق التصنيع ونمطية الانطباع، لكي تأخذ سمتها الحضارية، وقدر الأمة المأزوم مواجهتها لكم هائل من التحديات على كل المستويات، وهي تحديات مدججة بسلاح المعرفة وقوة الآلة مدعومة بالمؤسسات ومراكز المعلومات والمطابخ السياسية وإحكام القبضة على كل شيء، مع عدم التوازن في الامكانيات، وهذا يؤدي إلى الانهيار وتدمير الفكر وضياع الرؤيا وتحكم اللامعقول واستفحال التشتت والعنف وطول الجدل وعقمه، والتحول من صناعة التاريخ إلى صناعة الأيديولوجيات كما يقول ماركس في نقده للألمان زمن تخلفهم، وهو المشاهد في كثير من المواقع، إننا نصنع الأيديولوجيا ولا نضع التاريخ، وكأننا نعيد فترة السوفسطائيين في الفلسفة اليونانية الذين يجادلون من أجل الجدل، والمفكر الواعي لواقعه المدرك لامكانياته المحترم لاجراءات التوقيت والتقدير المعتز بعقيدته يتحامى الدخول في حلبة الصراع دون آلية مناسبة وامكانية متكافئة وأخلاقيات عالية تجادل بالحسنى وتغلب جانب الوسطية والاعتدال، وخطر (العولمة) وهو خطر كل النوازل منتج وضعنا الرديء وأسلوب تعاملنا الفج مع المستجدات، والأكثرون في مشاهدنا: اما جهلة ينكرون ما يجهلون على حد: من جهل شيئا انكره أو مداهنون يتهالكون

على الطواري كالفراش، وكلتا الطائفتين ضد الأهل، فالجاهل قد يحرم ما أحل الله، والمداهن يغش أهله وعشيرته، وخطرهما أشد من تبعات النوازل، والأمة التي تروم كريم الحياة بحاجة إلى فئة عاملة عالمة واعية مخلصة تستحضر القيم وتحترم الثوابت، ولا يأتي ذلك الا بجهد مؤسساتي يتوفر على المعلومة والتخصص والتنوع والوقت والجهد الكافيين لانضاج الأحكام وتحديد المواقف ومنع التنازع، وفي عالمنا العربي والاسلامي والمحلي بعض هذا الطموح فالمجمع الفقهي وهيئة كبار العلماء، وادارات البحوث والافتاء، والروابط الاسلامية، والمنظمات و مراكز البحث العلمي في الجامعات بوادر خير ومبعث اطمئنان، ولكن الدهماء لا يعولون عليها، ولا يرقبون نتائج بحوثها ولا يردون المتنازع عليه إلى اهل الذكر، ومن ثم تعددت الآراء، وتشعبت التصورات، وتعمق الخلاف، وفهمت الحرية على غير مراد الحق سبحانه، وسمعنا من يقول: نحن رجال وهم رجال، ورأينا من يتصور مشروعية الاجتهاد المطلق دون امكانيات ودون حاجة، ان حرية الفكر وحرية التعبير وحرية الرأي حقوق مشروعة ومكفولة اسلاميا، ولكنها بحاجة إلى ضوابط وشروط ومؤهلات، ومن تصور الحرية بدون ضوابطها وشروطها ومؤهلاتها وامكانياتها فقد أفسد الحياة، وإسكات الرعاع والفضوليين وقمع الانحراف والأخذ على يد السفهاء من اهم مقومات الحرية المنضبطة، الحرية جمال، والجمال تناسق وتناغم وانسجام، ولا جمال ولا حرية مع الفوضى والعبث والتسلط واللامعقول، ولأن الحياة في النهاية عقد اجتماعي يحقق الحياة السوية عبر التبادلات والتنازلات، فإن الخروج عليه فتنة، والفتنة أشد من القتل، ولأن عقدنا الاجتماعي صياغة ربانية فلا خيرة لنا في قبول متطلباته ومقتضياته ومقاصده، وعند النوازل أو المبادرات لابد من عرض ذلك على نصنا المحكم وقواعدنا الكلية واجتهادنا الجماعي المؤسساتي المستنير بنور السموات والأرض الموقد من شجرة زيتونة لا شرقية ولا غربية، و (العولمة) من تلك النوازل العصية المراوغة بتعدد احتمالاتها وتصوراتها وهي بهذا تحد لقدراتنا وكفاءتنا، فهل نستطيع ان نستقبلها بأسلوب حضاري، ننعش بها امكانياتنا ونبادل من خلالها فعلنا دون الاخلال بشيء من ثوابتنا ودون تشويه لخصوصيتنا ودون ذوبان يلغي حضورنا؟

ان القبول لا يقتضي نفي الذات ولا جلدها، والرفض لا يقتضي مصادرة حق الآخر ونفيه، وهذان التصوران القائمان عند الأكثرين لا يحققان شيئا من التعامل الايجابي، (العولمة) قادمة، تلك حقيقة لا ينكرها الا جاهل، ولكن لن تكون ذات مستوى واحد ولا فعل واحد، والمتلقي هو الذي يحدد أسلوب المواجهة والتعامل، والغرب الذي ما فتىء يسك المصطلحات خليط من خير وشر، واذا أصاب الحكمة فيما يأتي فهي ضالتنا لا نسأل عن مصدرها، فالشريعة والعقيدة متممات لمكارم الأخلاق، وحلف الفضول منتج جاهلي مجده الرسول ﷺ واستعد لحضور مثله لو دعي إلى ذلك، والأمة الاسلامية تعيش عصر الاقتصاد العالمي والقرية الكونية وشبكة المعلومات والتكامل، ومن ثم فإن الانكفاء والاكتفاء الذاتي لم يعودا أمرا ممكنا، وتبادل المنافع والمصالح سنة كونية والناس في النهاية خدم لبعضهم، والدخول في حلبة الصراع الاقتصادي بامكانيات هزيلة وبفوضوية مستحكمة مؤذن باضمحلالنا، والقبول غير المشروط بكل مفردات المشروع العالمي أخلاقيا وفكريا واجتماعيا وعقديا عملية انتحارية وجريمة لا تغتفر.

ان علينا ان نقبل بما لابد منه وندفع بالتي هي أحسن ما لا يتفق مع سياقنا الحضاري، والغرب الذي أنتج العولمة يعاني من مشاكل متعددة ومفكروه يحذرونه وينذرونه بين الحين والآخر، والتفوق والسيطرة ليسا رهانا أزلياً، والتعويل على آراء المنبهرين به قد

يلغي امكانياتنا ويقلل فرص الكسب، لقد اهتزت ثقة المفكرين الغربيين بمشاريع الساسة وجاءت الصيحات مؤشر خوف حقيقي، وكان من بين الساسة والمفكرين:

جيمس باترسون، وبيتركيم في كتابهما يوم أن عرفت أمريكا بالحقيقة.

أندرو شابيرو في كتابه نحن القوة الأولى: أين تقف أمريكا وأين تسقط في النظام العالمي الجديد.

ربغنيو بريجنسكي في كتابه الفوضى.

على انه يجب ألا نعول على الصدف والتنبؤات ولا ننتظر الانهيارات لنفرغ للغنائم وفي المقابل يجب ألا نيأس ونقنط ونستسلم ايمانا منا بنهاية التاريخ.

قضايا العولمة في الفكر المعاصر .. ! (٤)[(١)]

و(العولمة) وقضاياها في ظل التفوق أو الانبهار حين تقوم على توحد الذوات وتكافئها والعدل والمساواة والقضاء على الفقر والبطالة واستثمار الخيرات وتبادل الخبرات والإمكانيات وتعميم المعلومات وتوحد العقيدة والمآلات فإن الإسلام حمل همها وسعى جهده لتحقيق التعارف والمساواة ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء: ١]، ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣]، ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٤]، والرسول ﷺ بُعث ليتمم مكارم الأخلاق، واختلاف الرسالات في الشرائع دون العقائد، والإسلام دعا إلى قيم عالمية (كالعدل) و(الحرية) و(المساواة) و(التفاضل في الممكن وهو العمل) ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] ولم يقل أبيضكم أو أسودكم أو عربيكم أو أعجمكم، و(الإنسان) متوحد مع غيره فلا اختلاف في التكوين المادي للإنسان، «**كلكم لآدم وآدم من تراب**» ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [فاطر: ١١] والإسلام ضد التفاضل الجنسي وضد نظرية الأجناس بمقتضياتها العنصرية، و(الطبيعة) و(السنن الكونية) واحدة، وهذه كلها مبادىء إسلامية، وهي مجهزات للعولمة المشروعة العادلة، ولكن هل من (عولمة) عادلة تحترم إنسانية الإنسان، وتحقق له الكرامة التي كفلها الإسلام وأكدت عليها الرحمة التي أهداها الله للأرض؟ لقد تظاهر المثاليون من شباب أمريكا ضد العولمة لأنها ضد الديمقراطية والحرية التي يحميها الدستور الأمريكي، وذلك لَّما تبين لهؤلاء الشباب تسلطها، وتجلت روحها الاستعمارية من خلال مؤسساتها الاقتصادية وممارساتها العسكرية، ومن ثم رفضوها احتراماً لمصداقية الدستور، إن عولمة الغرب منتجُ حضارة مادية تحكمها المصالح وتوجهها الاستراتيجيات، وأسلمتها من تكليف الأشياء غير طباعها:

ومكلف الأشياء غير طباعها
كملتمس في الماء جذوة نار

ولهذا نجد الدكتور عبد الوهاب المسيري يراها بمفهومها الغربي مدعومة بظروف مخصبة، تتمثل (بالمادية) و(اللذة)، وهما بمفهومها الغربي ليسا من مقتضيات الإسلام، والفكر المادي بطبعه فكر تعميمي، فالمادة جامعة للإنسان والحيوان والطبيعة، والعلمانية توجه نحو اللذة لإسقاطها سلطة الدين الأخلاقية، إذاً (العولمة) جنوح للأسهل، والمسيري لا يتأبى على (العولمة) الحقيقية بمفهومها العادل الذي تنشده الإنسانية، على انه يجب ألا نتخدر بالتفاؤل العريض بإمكانية طرح (عولمة إسلامية) بديلة أو ما يسمى (بالعالمية)،

---
(١) تاريخ المقال: ٣٠/ ٥/ ٢٠٠٠

ولا يجوز أن نغامر ونخاطر ونسيء إلى الإسلام بمثل هذه الدعوة، والذين يحلمون بإمكانية طرح مثل هذه العلوم ويجهلون الواقع ويعيشون أحلاماً سعيدة على حد:

نبيت من المنى نبني قصوراً

فندعمها ويهدمها النهار

الإسلام مرتبط بإمكانيات المسلمين وأوضاعهم، وليس بمقدور أحد من المسلمين أن يطرح مشروعه بمثل ما يطرحه الغرب، كل الذي يملكه المسلمون: تصفية الإسلام مما شابه وتربية الذات المسلمة على القيم الإسلامية والمقتضيات، وتقديم الإسلام سلوكاً ودعوة سليمة ومجادلة بالحسنى ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

و(العولمة) التي فاجأت العالم بشموليتها حيرت المفكرين المستنيرين وجعلت آراءهم في غاية التعارض والاختلاف حول مشروعيتها من جهة ومشروعية الجدل حولها، وذلك مؤشر على تعدد الاحتمالات والتصورات، فالدكتور فؤاد زكريا يقلل من شأن الضجة المفتعلة حولها، ويرى أنها نشأت اقتصادياً، وأن الشركات العالمية امتدت أيديها إلى كل مطارح الاقتصاد العالمي فعولمته، وأنها جاءت بمهمة حل المشاكل التي لا يمكن معالجتها على مستوى الدولة الواحدة، وضرب مثلاً: (بالمخدرات) و(الإرهاب) و(الرعب النووي)، واستبعد الهيمنة الفكرية والأيديولوجية، وأخذ معظم من يتعاطون الحديث عنها دون فهم سليم ودون معرفة الأصول التي نبعت منها، على أننا في مشاهدنا الفكرية نتيح فرصة للهيمنة الفكرية والأيديولوجية، فالمصطلحات العائمة والحمالة تؤصل للحضارة المغايرة، وقد عالج الدكتور أحمد الدجاني إشكالية التحيز في المصطلح ومقتضاه فذكر مصطلح (العالمية) في الأدب و(الإرهاب) و(التفاوض) القائم على منع المقاومة و(السياسة المتوازنة) و(قوى التطرف)، وفي سياق التهوين من شأن العولمة نجد الدكتور محمد الأنصاري قد هون من انفعال الوعي أمام الأفكار الجديدة، وقصر الجدل والتأثير على جماجم النخب، واستهل ورقته عن (العلومة) بالانتقال من التنظير الخائف إلى التفاعل الواثق، وفي المسار ذاته تفاءل الدكتور محمد سليم من تعامل الآسيويين مع العولمة، وأحب أن تكون نجاحات أولئك دروساً مستفادة للوطن العربي بحكم التجانس.

و(العولمة) ظاهرة خداعة مراوغة حمالة لها ظاهر وباطن: وجه صبوح معلن، وباطن من قبله العذاب، إنها بظاهرها رغبة المفكرين والساسة والاقتصاديين في توحد العالم وتفاهمه وانسجامه وتوقيه التنازع والحروب وتمكنه من استغلال خيرات الأرض والقضاء على المجاعة والبطالة، أما باطنها فشيء آخر، ثم هي على كل أحوالها رغبة تصادم السنن الكونية، إذ لا يزال الاختلاف قائماً، ولذلك خلق الله الناس إلا من رَحِمَ، وقليل ما هم، ومحاولات التوحيد والتجنيس وهواجس القضاء على بؤر التوتر مرت بأطوار ومجالات وبدايات (لغوية)، و(دينية)، و(اقتصادية)، ولكنها جميعها تبوء بالفشل، وتتحول في النهاية إلى التعددية المتناحرة في ذاتها، ولعلنا سمعنا (باللغة العالمية) وإحداث (الاسبرانتو) التي اعترفت بها عصبة الأمم عام ١٩٢٧م والتي وضعها الروسي (زمنهوف) ومن قبلها لغة (الفوليك) التي وضعها القس الألماني (شلير) وقد عدلت (الاسبرانتو) إلى لغة (الأيدو) ثم وحدتا باسم الاسبرانتيدو (وذهبت المحاولات أدراج الرياح، وظل الناس في تناحر قومي وعرقي، ذلك على مستوى اللغات.

اما على مستوى العقائد والديانات ف (البابية) محاولة لتفسير الكتب الدينية تفسيراً يقبله المسلمون والنصارى واليهود، ويجمع بين الأديان الثلاثة، ولكن البابية انقسمت على

نفسها، وجاءت (القاديانية) بمثل هذه الرغبة، ولكنها تشعبت، وها هو (روجيه جارودي) يدخل لعبة حوار الحضارات وتعدد طرق الخلاص بعد تجارب ماركسية عنيفة، أما على المستوى الاقتصادي فقد كان الإقطاع ثم حلت الدولة محله وهي اليوم تتقلص لتحل الخصخصة والشركات المتعددة الجنسيات، والحق أن الرأسمالية انفردت بالسوق بعد انهيار الاشتراكية وهي تحاول ان تمكن لنفسها، والمؤكد أن المصالح والقوى هي التي توجه العالم، ومن أراد أن يصنع السلام فليستعد للحرب، ونشوة التفوق قد تؤدي إلى الدمار، ومسؤولية القطب الواحد أخطر من التعددية ومن قوة الردع، وعلى صعيد التداول الفكري يتعمق الخلاف بين وجهات النظر والتصورات، فمن المفكرين من يرفض الانكفاء والانكماش والتخاذل، ولكنه في الوقت نفسه يستصعب تجاوز الإشكاليات، وبخاصة نسيج المجتمع الفكري والثقافي وموروثاته التاريخية والدينية، يضاف إلى ذلك إشكالية الضعف، ذلك ما ألمح إلى بعضه الدكتور عبد العزيز الداغستاني في ورقته التي قدمها لندوة العولمة في (الجنادرية)، وكان لي شرف إدارتها واقتراح بعض أفرادها ومحاورها، كما أن من المفكرين من يرى أن العولمة نتيجة طبيعية لتقنيات الاتصال، وليست فعلاً واعياً مبيتاً، يقول الدكتور على حرب: (والمقصود بالعولمة هي سيطرة الزمان الفعلي أي زمان سرعة الضوء على المكان، فالحركة السريعة لانتقال المعلومات والصور والرسائل والأشخاص جعلت الحدود تتآكل بين الدول والثقافات والقارات واللغات، هذه هي العولمة وهو حدث قد تم ولا جدوى من نفيه فله فاعليته التي تتزايد يوماً بعد يوم)، وهاجس الحتمية عند البعض يقابله تعدد الخيارات، كما هو عند الدكتور منير الحمش، والدكتور حيدر غيبة في كتابين عالجا فيهما الخيارات والبدائل.

وقد أشرنا أو ربما كررنا القول بأن (العولمة) تعبير جديد لممارسات قديمة، وهي تعبير عن هم يساور الامبراطوريات العظمى والحضارات المهيمنة بآلياتها واقتصادياتها، ولن يتوحد العالم، وإنما ستتوحد السيطرة إلى حين ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [هود: ١١٨]، والعلمانيون والتنويريون وجدوها فرصة مواتية للإيغال في النيل من مشاريع القوميين والإسلاميين والتشفي من الإخفاقات، ومن ثم راحوا يعطونها أكبر من حجمها ويلوحون بتنازلات فكرية وعقدية واجتماعية تستفز المتابعين، وتخلق أجواء من التوتر والتساؤل.

و(العولمة) بوصفها ممارسة واداء ونتائج وحضوراً تقنياً ليست أمريكية خالصة الأمركة كما يدعي البعض، إنها آسيوية وأوربية وأمريكية، والذين يضعونها في نطاق الرأسمالية لا يفكرون بالأثر التقني الآسيوي والياباني على وجه الخصوص، يقول جورج طرابيشي وهو بصدد قراءة كتاب (العولمة السعيدة) للكاتب الفرنسي (فالامنك): (والعولمة بعد ذلك واقعة آسيوية فقد أمكن للآسيويين أن يخترقوا بضرب من حرب خاطفة الحاجز التكنولوجي) وكأنه لفت للنظر إلى التجربة الآسيوية التي أكد على أهمية الاستفادة منها الدكتور محمد سليم في ورقته التي قدمها إلى ندوة العولمة في (الجنادرية)، وهي بهذه التصورات اختراق بالإمكانيات لا بالرغبات وتسلط حضاري سيعمق الخلاف ويكرس الخصوصية ويلمع الهوية، ولكن سيكون لذلك ثمن باهظ، حتى على ذويها كما يقول صاحبا كتاب (فخ العولمة).

و(العولمة) بوصفها رغبة القطب الواحد قوية مكتسحة، كما هي عند الدكتور الغبراء الذي يقول: (تيار العولمة قوي للغاية والوقوف بوجهه مستحيل بل هو اشبه بالوقوف في وجه الطوفان، ولهذا يجب التفاعل معه بعقلية مرنة تحافظ على الذات، ولكنها تنطلق بهذه

الذات إلى آفاق جديدة) و(العولمة) المتعالية وغير الحوارية تتشكل في النهاية من رغبة جامحة، قد لا تزيد الأمور إلا تعقيداً ولا تكسب القرن القادم إلا فرقة وفوضوية، كما يتنبأ الخبراء والمحللون أمثال (بريجينسكي) في كتابه (الفوضى)، وكما يحذر سائر الخبراء والساسة وبخاصة حين تتعمد طمس الهويات وفرض التجانس وعولمة القضاء والقيم والأحوال متناسية الخلفيات العقدية.

ومن الناس من يرى أن (العولمة) مصطلح اقتصادي، ولكنها تحت طائلة التعاطيات المتعددة حظيت بتحولات استراتيجية واجتماعية وثقافية وأيديولوجية، حتى صار حجمها في جماجم المفكرين أضعاف ماهي عليه في الواقع، وما يمكن أن تؤول إليه في المستقبل المنظور، ومما لاشك فيه أن عولمة المنتجات والتقنية وأنماط الحياة والتفكير وألوان الاستهلاك والاستعمال ستؤدي في النهاية إلى تماثل لسائر الممارسات السلوكية والاجتماعية والأخلاقية، وهذا هو المطاف الأخير للعولمة أو الحلم الذي يراود المثاليين، ولكن المؤكد والمسنود بالسنن الكونية أنها لن توحد الحضارات والثقافات وإنما ستوحد المدنيات أو تجانسها على الأقل، وهي في النهاية ستخلق حالات من الفوضى كما يشير التقرير المعد من معهد بحوث الأمم المتحدة والمترجم في كتاب: (حالات فوضى الآثار الاجتماعية للعولمة).

والرهانات المتداولة تجيء من قراء متسرعين أو مبتسرين، وقد تكون من اسرى اللحظة الأبدية الذين لا تتجاوز رؤيتهم مطارح أقدامهم، والمؤمل من النخب الفكرية قراءة التاريخ وحتمية التغير، وسنة الله المتمثلة في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] فالرهان على قوة واحدة، والقول بنهاية التاريخ أحلام أو خدع، والرؤى والتصورات لا تختلف عن التركيبات الكيميائية تحتاج إلى خبراء ومجربين، وإلا أصبحت أضغاث أحلام.

ولأن (العولمة) هم الامبرطوريات وحلمها السعيد فقد جاءت على صور شتى ومن خلال مواقع متعددة، وكان همها الأول (المال) كما أشرنا غير مرة لأنه عصب الحياة، بدأت مفاهيمها على المستوى الاقتصادي منذ بداية المؤسسات الاقتصادية والعالمية من مثل (صندوق النقد الدولي)، و(البنك الدولي للإنشاء والتعمير)، ثم اتسعت وتعددت مجالاتها بعد توحد الرأسمالية لتشمل (التعرفة الجمركية) التي استهدفت تحقيق علاقات اقتصادية حرة، تحقق استقرار الاسعار، وتتسع لحركات متعددة للاستثمار الغربي، وتمكن من تجارة عالمية خالية من القيود وتخلق أجواء من التنافس غير المتكافىء، وتتوسع في إنشاء شركات متعددة الجنسيات، تفوق رساميل بعضها ميزانية الدول العربية مجتمعة، لها أهدافها التأديبية والتدميرية وبراعتها في الإغراق ثم إحكام السيطرة لصالح الاقتصاد القومي، وباستثناء المستجدات الاقتصادية مثل: الشركات العملاقة، فإن مهمات بعض تلك المؤسسات العالمية تقديم القروض للمأزومين تحت شروط سياسية واجتماعية واقتصادية توصف بخطط الاصلاح أو ببرامجه، والحق أن تلك الشروط قد تؤدي إلى خفض العملة والنفقات والخصخصة وإلغاء التحكم بالأسعار وزيادة الضرائب، وقد تمتد إلى رسم السياسة ونظم الحكم والتعايش مع العلمانية الشمولية، مثلما هو في تركيا مثلاً، ومثلما هو مستفيض في المؤتمرات: كمؤتمر الإسكان والأرض والمرأة وغيرها، وفي ذلك تفجير للأوضاع الداخلية وخلق بؤر توتر بين المفكرين وصناع القرار، ومن المغامرات التدميرية أن عين العولمة عدت إلى (القضاء) و(التعليم) و(الأحوال الاجتماعية) و(قوانين العمل) و(التأمين) وسائر الأحوال، وهو اعتداء لا عدو وتطلع، ولا

أحسب الحضارات قادرة على التنازل بهذا الحجم، وإن راهن التبعيون والمتذيلون والمرجفون في المدنية.

والمؤكد أن المجتمع العربي لكي يتعامل مع العولمة بأسلوب حضاري يتوقى سلبياتها ويحقق الممكن من إيجابياتها في ظل إمكانيته، بحاجة ماسة إلى تخطي أزمة العقل وأزمة الفكر وأزمة الثقافة، ثم ممارسة الإغناء عن طريق الوعي والتشبع بالهوية والتوحد والتحرر من الاستلاب، ثم هو بعد هذا بحاجة إلى صيغة لأسلوب الأداء التعبيري ولأسلوب السلطات التشريعية والدستورية والقضائية والشورية والتنفيذية ولسائر المؤسسات ذات المساس بحياة الأمة، فلا يكون فوضوياً متناحراً ولا نمطياً متناظراً، وإنه بحاجة إلى ان يحدد هويته لكي يدخل مضامير السباق على جياد متجانسة وذات اتجاه واحد، وهو بحاجة إلى نظرة شمولية لحركة الحياة ودراسة مستفيضة للمستقبل في ضوء حركة التاريخ القائمة على السنن الكونية، والتركيز على القضايا المهمة والمؤثرة، والاخذ بمبدأ التكافؤ في تداول الرأي بين أهل الحل والعقد من علماء ومفكرين ومتخصصين، بحيث يؤدي ذلك إلى العمل الجماعي، إذ لا مكان للفردية والفورية في الاستجابة إلى المستجدات، والجماعية والمؤسساتية والتريث في اتخاذ القرارات هو الأهدى والأجدى، فالفورية والمفاجآت والفردية، وتعمد الاستفزاز في انتهاك المسكوت عنه رحمة بالأمة تؤدي كلها إلى الارتباك والتنازع والتعددية المتضادة لا المتنوعة، وذلك كله يؤدي بنا إلى الفشل، ومن ثم لابد من النظر إلى الواقع العالمي المتجه بكليته إلى التكتل والتعاذر وتناسى الضغائن والإحن والأحقاد، تمهيداً للتخطي إلى العالمية، وإذ تقوم معالجة حوائجه المتعددة ونواقصه المتنوعة على الثقة والاستقرار والعدل والاستشراف والتجريب، فقد اتخذ طريقاً قاصداً، وهيأ الإمكانيات للوصول إلى الغاية،، إننا لكي نحقق مواجهة حضارية للعولمة ولأي مشروع غربي مستقبلي لابد من التفكير في إنجاز (عقد عربي) يضع كل القيم للمكونات الشرعية للانسان بوصفه الإنسان وله بوصفه العربي والإسلامي، ويستحضر أهمية الشرعية الدستورية وأهمية المواطنة اوالعروبة والإسلام، ثم لابد قبل هذا من دراسة الظروف التاريخية والسياسية التي أنتجت التجزئة الاقليمية للأمة والتشتت الفكري والتفاوت الاجتماعي والاقتصادي والتباين في أنظمة التعليم وأشكال المؤسسات وتصادم المصالح وتعدد الأحلاف وارتباطها بالاستعمار الذي أنتج العولمة وهيأ لها أجواءها المخصبة، ثم البدء بالحلول المرحلية وبتجارب المشاريع المشتركة والاستفادة من التجربة الأوربية القائمة على الوحدة والتكامل، وبخاصة ما يتعلق منها بالمناشط الاقتصاية والعلمية، لقد اجتاحتنا خطابات عاطفية هوجاء وخدرنا معسول الوعود، كانت طموحاتنا أكبر من إمكانياتنا، كنا نتطلع إلى الوحدة الاندماجية، وفاتنا أننا ننطوي على فوارق متعددة، لا يمكن أن يتحقق في ظلها أدنى حد من التقارب، وما زلنا نراوح في مكاننا، إن هناك تجمعات عربية وإقليمية يجب أن نعول عليها، وأن ندعمها، وأن نبارك خطواتها، ونقبل منها باليسير الممكن، تمشياً مع سياسة خذ وطالب، والقادة العرب مروا بتجارب عصيبة، وهم الأمل بعد الله ليتخطوا عقبات لا نشك أنها ليست من صنعهم، ولكن التباطؤ في تجاوزها أو مضاعفة العراقيل في تجاوزها يحسب عليهم.

الشعوب العربية مرت بتجارب ثورية لم تجن منها إلا المرارة والدمار، ومن ثم فلا مجال للتغيير، والإصلاح المرحلي خير سبيل لاجتياز المشاكل، ومواجهة العولمة امتحان عصيب وتجربة حية، ومبادرات بعض الدول في تهيئة الأجواء لعبور هذه المطبات الهوائية دليل تفهم لمتطلبات المرحلة، وبخاصة ما يتعلق منها بتهيئة الأجواء الاقتصادية، والأخذ بمبادىء اقتصادية تقلل من عوائق الخصوصية، إن مشروع الخصخصة والانفتاح

المحسوب مؤشر إيجابي وإذعان طوعي لمواجهة المستجدات، وتحسباً لهزات عنيفة قد تمر بها البلاد، والتوسع في النظام المؤسساتي والمجالس العليا خطوات راشدة، لأنها تحد من الفردية ومفاجآت الفراغات وأخطرها الفراغ الدستوري.

بقي أن نقول إننا في مواجهاتنا القولية للعولمة نقترب بها من الثقافة العامة، ونقلل من التخصصية والعلمية، وهذا قد يشعب الأقوال ويعدد الآراء، وكم نود لو أننا حاولنا لملمة الخيوط والاقتراب من العلمية والموضوعية، لنهيىء مجال الاستفادة لولاة الأمر الذين يرصدون الرأي العام ويتحسسون مواجعه، إننا في النهاية بحاجة إلى:

العقل المفكر المستنير بنور الله.

التخطيط العلمي.

العمل المؤسساتي المنتج.

التعاذر والتصالح ما أمكن ذلك.

تحرير القضايا والمسائل المستجدة.

تلك الإلمامة أو المقدمة قد نعود إليها بالتفصيل متى استكملنا قراءة ما يجدّ من مؤلفات ودراسات.

مطارحات التبعيين .. ! (١) [(١)]

يتحفظ الأقلون عدداً ووعياً على المواجهات الفكرية والأدبية، ويرونها مخلة بحرية التعبير عن الرأي وبمشروعية التعددية الفكرية والأدبية، ويودون أن يترك الحبل على الغارب، لتحل الفوضى محل النظام والعبث محل الجد والبذاءة محل الكلم الطيب، ولما يعرفوا بعد حدود الحرية وضوابطها وأثر الآراء المنحرفة على الذهنيات الخلية، ومبدو الآراء كمن يطرق عليك بابك، فإما: أن ترد عليه بالقبول أو بالرفض، أو حين لا يعنيك أمره تدعه في سبيله، والمفكر والأديب والعالم في النهاية محصلة ما يسمعون وما يقرؤون، ومن ثم فليس هناك نص بريء، وليس هناك مبدع أو ناقد يكتبان من درجة الصفر، وإنما يكتبان كما علمهما المكتوب، وفي الذكر الحكيم: ﴿ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ٤، ٥]، وذلك مكمن الخطورة، ومن ثم فإن هناك فرقاً بين الأخذ على يد السفهاء وممارسة الوصاية والتحكم واستعباد الناس، كما أن هناك فرقاً بين سلطة الدين وسلطة المتدين، وفرقاً بين الأطر الشرعي والإلزام المذهبي، والنقاد والعلماء كحماة الثغور، والخاسر من يؤتى الإسلام من قبله، ومن متممات الحرية أن أقول رأيي فيما يقال، إذا كان هذا الرأي في إطار الخلاف الممكن والمحكوم بضوابطه الشرعية، إذ ليس كل خلاف مشروعا، وليس كل اختلاف مجدة، وليست الحرية حقا للقائل دون المتلقي، وليست الحرية الحق في مطلق التصرف، والحرية السوية منتج مواضعات وعقود يفرضها التجمع الإنساني، فالعقيدة تعني العقد الملزم، ولابد لكل خلاف من حدود وشروط ومرجعية متفق على أهليتها وحضارة تحوي كل ذلك، ويسعى الخلاف لخدمتها، وبدون ذلك تكون الفوضى، وتكون البدائية، والمتلقي تبادره آراء منكرة يمجها الذوق، أو يرفضها النص التشريعي، وليس من الحصافة ان يذعن المرء لكل ناعق، وإذ نختلف مع المرسل نجد إشكالية أخرى ناشئة من (نظرية المعرفة)، ومن (نظرية التلقي)، ومن ثم فإن هناك إشكالية ثلاثية الأبعاد: المرسل والرسالة والمتلقي، والمشاهد الفكرية والأدبية تعج بالآراء والتصورات والمبادرات والتبعيات والتجاوزات الفكرية والأخلاقية، وواجب النخب التمييز بين الطيب من القول وما دونه، وبعض ما نواجهه من هذه المستويات المتعددة ما نراه وما نسمعه من بعض ناشئة الأمة ومن كهولها المتصابين، ممن أغرموا بالطارئ، وأخطره على فكر الأمة: تدنيس المقدس وأنسنة الإله وأدب الاعتراف، وما أكثر المقترفين على بصيرة أو عن جهل، ودون هذا في الخطورة بعض ما يتداول من قول لا طعم له ولا لون ولا رائحة، يقال باسم التغامض أو العامية و النثرية المشعورة أو الأسطرة المتوثنة أو التقنع الغبي، وأهون من ذلك كله ما ينسل علينا من مصطلحات: معرَّبة أو مترجمة أو منقولة بلفظها، تشد بصياغتها الانتباه، وتثير بطرافتها كوامن الرغبات وخوامد الشهوات، مع انحيازها لحضارتها وإطغائها، وشهوة الصياغة والنحت استأثرت بالجهد والوقت عند الأخرسين أعمالاً من براقشيين جنوا على أهلهم، حتى لقد اسرف البعض في صياغات مصطلحية أو تعبيرية تعد غاية في الغرابة والنكارة دونما حاجة ملحة، نجد ذلك بشكل ملفت للنظر عند الأدباء والمفكرين المستغربين متجلياً في الكلمة والجملة والعبارة والأسلوب، وفي الموضوعات والمعاني، وقد يكون في بعض ذلك مجدة، غير أن شهوة الإغراب ألهت البعض عن كل مكرمة تعبيرية، وكأن الصياغة على غير مثال دليل نباهة وتميز، وما هي إلا حاجة تفرضها النوازل ولا تنشئها

---

(١) تاريخ المقال: ٦/ ٦/ ٢٠٠٠

الرغبات، ومما يعمق الألم أن في تراثنا ما يغني عن كثير مما جد، ومع هذا فلسنا ممن يرفض التقارض ولا ممن يمنع التأثير والتأثر، وإنما نريد تفاعلاً واعياً مع منجز الآخر، وتفعيلاً للتراث وتوجيه التفاعل والتفعيل لتحقيق تميزنا وشخصنة هويتنا، وليس هذا الهم من شرعنة الفوات الحضاري كما يدعي البعض، ولغتنا طيعة ولود، وتراثنا غني بالمصطلحات التي استبدلت بالمعرب والمترجم والمنحوت والمنقول، والمشاهد الفكرية والأدبية تمر بإشكالية المصطلحات وفوضويتها وتعددها، إذ ليس هناك مؤسسات يعول عليها، والمجامع العربية في معزل عن المترجمين والدارسين ممن عدت عيونهم إلى الأدنى مما عند الآخرين، تاركة الأفضل، ومن لا يتصور فداحة الإشكالية المصطلحية لا يعيش حضوراً سوياً، والسبب ناشىء من تهافت النخب على المستجد الغربي دون وعي ودون تأصيل: شرعي وتراثي، والذين ارتدوا إلى التراث من الحداثيين نبشوا مجونه وانحرافه وخرافته وترفه، بحيث استعيد الصعاليك والمجان والباطنيون والمتصوفة الاتحاديون والخرافيون والقرمطيون والعاميون، حتى لقد واطأنا المستشرقين في الرفع من شأن (ألف ليلة وليلة) لتكون رسولنا إلى الحضارات موافقين على اختصار حضورنا بهذا العمل العامي الخرافي، واقرؤوا إن شئتم الاحتفالية الغربية بهذا العمل من خلال دراسة (محسن الموسوي) عن الدراسات الإنجليزية لحكايات (ألف ليلة وليلة)، تلك مكيدة ومكر، وأين هؤلاء من جهابذة العلماء وأساطين الفكر وعمالقة الأدب وفحول الشعراء وأمراء البيان، لقد بدأ تعالقنا مع الفكر والفن الغربيين منذ حملة (نابليون)، ولم يكن هذا التعالق على مداه الطويل وتحرفاته المتنوعة مجدياً، لخطئنا في فهم حوار الحضارات، ولاشتغالنا بما لا حاجة لنا به، وجاء تصدير الفكر والفن وأنماط السلوك وألوان المدنية مع الاستعمار بكل أشكاله، وتبدى هذا التعالق بشكل واضح في مناطق الاستعمار الفرنسي لصبغته الثقافية، حتى لقد جاء إبداع بعض الأفارقة العرب باللغة الفرنسية، وجاء على لسان إحدى شخصيات الرواية المشبوهة المثيرة (وليمة لأعشاب البحر) قولها للبطل جواد مهدي: - (أنا حزينة لأنني أجهل لغتي، أنت تعرف أنهم نفونا عنها منذ الطفولة) (ص: ٢٢)، ويقول الدكتور إبراهيم الكيلاني مترجم كتاب (الأدب الجزائري المعاصر المكتوب بالفرنسية): - (الأدب الجزائري حتى استقلال الجزائر ٦٢م يكاد يكون كله أوجله مكتوباً بالفرنسية)، ومرد ذلك التواصل والخلطة مع الآداب الغربية، والأقوى سبباً قابليتنا للاستعمار كما يقول المفكر الجزائري (مالك بن نبي)، هذه القابلية حملتنا على التفريخ والتسمين الكيماوي للمصطلحات والمذاهب والاتجاهات والنزعات، مما جعل المشاهد كالأرض الموات تتصدع عن نوابت سوء، غرسها غزاة الفكر، وغذاها المداهنون، وسيجها المستغربون، ورعاها السذج، واستهلكها المغفلون، فآتت أكلها ضعفين من خداج وزبد وحشف وسوء كيل، واختل التوازن حين نفت طوائف من المفكرين الخادعين أو المخدوعين دعوى (الغزو والتآمر) وحين أقرته بإطلاق طوائف أخرى، وضاعت مصلحة الأمة أو كادت بين الإفراط والتفريط، وأقيمت على تلك المفاهيم المزعجة في تناقضها رؤى وتصورات في غاية الغرابة، والحق أن هناك صراع أيديولوجيات وصدام مصالح، وهناك تدافع وتمانع وتداول، وفي المقابل هناك تفاعلٌ مشروع وتبادل منافع ممكن، ومن تشابهت عليه البقر ضاع وأضاع.

وفي ظل الغباء أو التغابي ألقى المستعمرون والمستشرقون طعم الاصطياد للسذج والمبهورين، حتى إذا تهافتوا عليه وأحدث عندهم ضراوة الأحمرين، تحولوا إلى مستغربين، ينوبون عن غيرهم في ترويج الأفكار وطمس الهوية، وللمتابع أن يستعيد قضايا شغلت الرأي في وقتها، وأحدثت تصدعات في وحدة الفكر، من مثل قضية علي عبد الرزاق، ومنصور وعبد العزيز فهمي، وطه حسين، ومحمد احمد خلف الله، ومن قبلهم

قاسم أمين، وجرجي زيدان، وشلبي شميل، وإسماعيل مظهر، لقد تشكل المواطنون ممن رضعوا لبان الحضارة المادية على خواء معرفي ومن نصارى عرب رضاهم في اتباع ملتهم ومن مستعربين حرصوا على إحياء الرابطة القومية، وممن رضوا بالعلمانية الشاملة بديلاً عن منهج الباري، يؤزهم المناديب والمستشرقون والمبشرون، وتدعمهم الجمعيات والمنظمات، ومن ثم جاء طرحهم استفزازياً متعدد المواقع، جاء في الإبداع: سرداً وشعراً، وللمتابع أن يقرأ الاختراقات الفكرية والأخلاقية عند عدد من الروائيين في (زمن الرواية) كما يقول الظلاميون ليرى مواطأة مكشوفة للإفساد الفكري باسم الحرية والإفساد الأخلاقي باسم أدب الاعتراف، وتدنيس أبطال المقاومة، وما انتصر جرير على الأخطل والفرزدق إلا بكفر الأول وفسق الثاني، فعندما قال الفرزدق يحكي مساعدة محبوبتيه على الوصول إليهما: - (هما دلتاني من ثمانين قامة) قال له جرير: - (تدليت تزني من ثمانين قامة)، والحق أن المبدعين: - شعراء وروائيين ممن تهتكوا أو انحرفوا، قصد جرير كل واحد منهم بقوله: - (وقصَّرت عن باع العلا والمكارم) لقد قصروا جميعاً، ومع الإبداع جاء النقد: تنظيراً وتطبيقاً ظهيراً للمنحرفين، وللمتابع أن يقرأ أساليب التعذير والمجادلة عنهم، وقد وفينا المواطأة المشبوهة بدراسات أرجو أن ترى النور قريباً إن شاء الله.

مطارحات التبعيين .. ! (٢) [1]

لقد كان الظلاميون المتحمسون للطارئ غارقين إلى الأذقان في مستنقعات الفكر المادي، متذيلين لطائفة من نتائج التنوير الغربي من مثل: (دارون، فرويد، ماركس، سارتر).

وكانت المشاهد الثقافية تتداول مشاريع أولئك لاهية عن المبادرة والتأصيل، فشهوة الفكر أفاض عليها (دارون) من تخرصاته، وشهوة الفرج أغدق عليها (فرويد) من شبقياته، وشهوة البطن لوح بها (ماركس) من سرابياته، وشهوة العبث والفوضى سربها (سارتر) في إبداعاته وكتاباته، وظل التبعيون يوفضون إليها، ويتناحرون من اجلها، عبر ترسانات السلاح ومتاريس البلاغة، فصفيت الأجساد بالسلاح، وقضي على السمعة بالبلاغة، فكان أن أقمنا إلى جانب التمزق الجغرافي تمزقاً فكرياً، وتحققت نبوءة الرسول ﷺ بافتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة، وما جنينا من حروبنا الساخنة والباردة إلا خيبات الأمل، وما عدنا من رهاناتنا إلا بالخسارة، وفيما نحن نتصارع في سبيل الطوارئ، تهاوت قلاعها الورقية، وذلك حين زيف العلم (النظرية القردية)، وكذبت المعامل والمختبرات (النظرية الجنسية)، وهدم التجريب (النظرية الماركسية)، ومجّت الفطر السليمة (النظرية الوجودية) وبقي منها ما استلبته من علم صريح ومنقول صحيح، وانفض سامر القوم، كما الحشرات، حين تخسف عليها جحورها، ولما انكشف أمر المنتجين، وتأذى المستهلكون من تداول تلك الرهانات الخاسرة، اخذت مطابع المسكوكات المزورة تغيّر من أشكال عملتها وألوانها، كان (الاستعمار)، ثم كان (النظام العالمي الجديد)، ثم كانت (العولمة)، وفيما بين ذلك اطلت علينا المؤسسات الثقافية الغربية بفيض من المذاهب والظواهر والقضايا والأشخاص، سمعنا ب(ت، س، إليوت) الذي ملأ دنيانا خصاما حول شوارده، وتهافت عليه أساطين الحداثة، حتى لقد كان فعل (الأرض اليباب) فوق ما فعلته السينية للبحتري، واقرؤوا عنها وعنه إن شئتم (سيرة حياته) لبيتر اكرويد، وكتاب (الأرض اليباب) لعبد الواحد لؤلؤة، وكتاب (إليوت وأثره على عبد الصبور والسياب) لمحمد شاهين، وجاءت (الداروينية) فأوقعت في حبائلها كما لعاب العناكب (شبلي شميل) الذي جعلها متكأً لإلحاده و(اسماعيل مظهر) الذي استمد منها مادياته، وتسربت (الوجودية) فاستخفت أنيس منصور، ومن قبله عبد الرحمن بدوي، الذي عدَّ نفسه وجودياً وترجم لها في (موسوعة الفلاسفة)، بوصفه الوجودي العربي، وجاءت (الوضعية) فاستفزت زكي نجيب محمود، حيث عوّل على (العقل) و(العلم التجريبي) كمصدرين للمعرفة، واضعا (الدين) و(الخرافة) بإزائهما تمشيا مع (كونت) في تصوره لمراحل التفكير البشري الثلاث:

الدينية.

والميتافيزيقية.

والعلمية، أي: الوضعية.

وتولى كل مفكر وأديب عربي مفكرا أو مذهبا من الغرب، ومن يتعقب المشهد الثقافي لا يعدم المذهب (العقلي) و(الميتافيزيقي) و(الروحي) و(التجريبي) و(الطبيعي) و(الحسي) و(الحدسي) و(الوصفي) و(الوجداني) و(البراجماتي) و(الظاهراتي)، كما لا يعدم المستجد من الأفكار كفكرة: (القيم) و(الحرية) و(الجوهر) و(الديالكتيك) و(الصيرورة) و(الكم) و(الكيف) و(المادة) و(العلية) و(الزمان) و(المكان) و(الوجود)

---

[1] تاريخ المقال: ١٣/ ٦/ ٢٠٠٠

و(الماهية) و(الالوهية) و(المعرفية)، وكل هذه المذاهب والأفكار لها مروجوها ممن يعيها وممن لا يعيها، وبعد العمل والنصب الهبائي المنثور حول ما سبق، أطلت علينا ثقافة الغرب على المستوى الأدبي المؤدلج، (بالبنيوية) و(الحداثة) وما تلاهما من بعديات وتحولات ك(التحويلية) و(التفكيكية) و(ما بعد الحداثة)، فكان من بين أبناء العروبة من تصور نفسه ابن بجدتها وفارسها المغوار، وحين أحيط بجهودهم لم يقلب أحد منهم كفيه على ما انفق، وإنما بحثوا عن خدعة أخرى لينفقوا في سبيلها فوق ما انفقوا من قبل، ثم تكون عليهم حسرة ويغلبون.

دُرِس الشعر الجاهلي بنيويا فجيء بالمضحكات، واقرؤوا إن شئتم هلاميات (كمال أبوديب) في كتابه (الرؤى المقنعة نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي)، وقرئ الذكر الحكيم بوصفه نصا متأنسناً من خلال لغته وتاريخيته فجيء بالمبكيات، واقرؤوا إن شئتم مقترفات نصرحامد أبوزيد في عدد من كتبه وفي المثير منها بالذات، وقرئت قصيدتا (أشجان يمانية) للمقالح و(زهرة الكيمياء) لأدونيس، اعتمد الأول المنهج التشريحي واعتمد الآخر المنهج التوزيعي فتحقق العبث بالجهد والوقت، فقد خصت كل قصيدة بكتاب ينيف على الثلاثمائة صفحة، لم يقولا في النهاية شيئا يتكافأ مع الجهد والوقت المبذولين، ومن متطلبات تلك المناهج إماتة أحد الأطراف، ومن ثم أميت المنتج لتموت قدسية الإنتاج، ولتستبين جذور هذه الظاهرة المادية اقرؤوا كتاب (موت الإنسان) لعبد الرزاق الدوَّاي، والنقد الجنائزي بدأ بإعلان نيتشة عن موت الإله ثم تعاقبت الوفيات (مات الإنسان) و(مات النحو) ومات (النقد الأدبي)، والمتعالقون مع تلك المذاهب والمناهج والآليات واساليب الدرس العبثي المتزيد يجهلون جذورها الفكرية وحواضنها المادية ومن ثم يعرضون انفسهم للاتهام، حتى لقد قال عبد الصبور شاهين عن احد المأخوذين بهذه المستجدات: (لا يفهم في السياق اللغوي، ولا يعرف ما معنى السياق اللغوي وإنما عرفها بطريق قراءات سطحية) (مجلة المجلة العدد (١٠٥٥) والمقول عنه هذا الكلام استاذ في اللغة، ألهاه عن جد التحصيل احتفاليته بالذكرى السبعينية لصاحب النظرية التحويلية، إن إشكالية المشهد الثقافي اكتظاظه بالمتعالمين والأدعياء والمتنافخين، الذين يذبون عن عواجيز الحضارة المادية، ويمكنون لها على حساب مفردات حضارتهم، وهم لا يأخذون من هذه الحضارة ما نحن بأمس الحاجة إليه من علم تجريبي وصناعة: سلمية وحربية واجهزة متعددة المنافع، وممارستهم تقتصر على التقليد والجلب للفكر والأدب دون وعي ودون علم، لقد تداولت مشاهدنا العربية ببلاهة وصفاقة معطيات مدارس فلسفية وسياسية وأدبية واقتصادية وتربوية، وعرف المتعالقون من دون وعي من اساطين الغرب (بالكون) و(هوبز) و(اسبينوزا) و(لوك) و(روسو) و(كانت) و(جيمس) و(برادلي) و(رسل) في مقابل جهلهم بصنّاع الحضارة العربية من علماء الإسلام ومفكريه، وحين استنفدت تلك المذاهب وهذه المناهج وأولئك الرموز كل الاقنعة، لاحت في الافق بوارق مذاهب وقضايا وظواهر ورموز ليسوا بأحسن مما سلف، فتلقفها البعض، وقعد عنها آخرون، فكان ان انشق التبعيون على انفسهم، إذ لم يقض البعض وطره مما سلف، وتجاوبت بعض الاصداء لهذا التلقف وذلك الرفض، ونهض في كل صقع من يحيي ويميت، ويرفع ويخفض، وفي الضجة المفتعلة سحب الذواقون أيديهم مما سلف ووضعوها بالطريقة البلهاء ذاتها في ركاب من خلف، وما زالت اجواؤنا العربية والإسلامية تنتابها رياح التلوث، وتفيض بالأدعياء ومغذي اللقطاء، ومن أبان لغزية النصح قيل عنه: جاهل متخلف، سيىء الظن والفهم، معطوب الملكة، مزور الشهادة، يخطئ، ويصر على الخطأ، ويجد من يقرّه عليه، وماذا عليهم لو أن قلوبهم رقت

ووجوههم انطلقت وكلماتهم طابت لمثل هذا الجاهل المعطوب وأفاضوا عليه مما علمهم أسيادهم؟.

ومع التخلية أو التخلي المتوقع من كل مقلد، سينجز المصممون والمخرجون أزياء أخرى، فتلقي الدهماء ما بأيديها، وتوفض إلى ما جدَّ من نُصُب، قد تسألني: متى يكون ذلك؟ وأقول لك: لعل الاستبدال يكون قريبا، ولكن من يقطع بلحظة تحرك الدمى على مسرح العرائس وخيوطها بيد غيره؟ إن فيضا من الاتجاهات والمذاهب والمفردات والتعابير والمصطلحات يلتقطها المتسكعون من صعاليك الكتابة الصحفية الاستهلاكية والفارغون من حملة الشهادات، فيراهنون على أنها نهاية التاريخ، ومن ثم يريقون مياههم عندما يبدو لهم سراب القيعان.

لقد طاف على رياض الفكر والأدب طائف من عذابات التبعية، فأصبح العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان، وصدق الله: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] .

وفي سياق البعديات والتحولات نفاجأ بمصطلحات جديدة ضريعية لا تسمن ولا تغني، لا تسد خلة ولا تقضي حاجة، ولو أننا استقبلناها في منطقة وسط، ورددناها إلى مقاييس الحاجة وموازين القيم، لما كنا كما نحن، تقضى الأمور بغيابنا، ولا نستأمر عند حضورنا، ومن المفيد أن نسمع المستجدات وأن نعيها، وأن نسيطر عليها، وأن ننتقي خير ما فيها، وليس من الحكمة أن نردها على أعقابها، ولا أن نطرد من ساحتنا كل ما سلف ونقبلها بكل وضرها، والمؤلم أننا نهتاج لاستقبال ما انتهت صلاحيته نعادي من أجله الأهل والعشيرة ونذبح التراث تقرباً إليه، فحين انطفأ وهج (البنيوية) في الغرب، ونبذها منتجوها، تلقفناها مولودا، جديدا، نباهي به الأمم، لا نفهم جذورها الفلسفية ولا نتقن طرائق التطبيق النقدي من خلالها، ولما زرعت بيننا بذور العداوة والبغضاء، نبذها غواتها كسقط المتاع، مثلما نبذوا غيرها، ومن السهل استذكار ما نبذ من المذاهب والمناهج والمبادئ والانظمة وسائر الظواهر.

ولك أن تسأل عن (النقد الاجتماعي) الذي تبناه طه حسين، و(النقد النفسي) الذي حفل به العقاد، و(النقد الواقعي) الذي أخذ به محمد مندور، ولك أن تسأل ايضا عن (السريالية) و(الدادية) و(التعبيرية) و(الرمزية) وعشرات المذاهب والتيارات والظواهر، وعما شئت من الأدباء والمفكرين الذين روجوا لـ(الوجودية) و(الماركسية) و(الحداثة)، فستجدهم مع مذاهبهم ومعتقداتهم اثرا بعد عين، هلك من هلك منطويا على ضغائنه، وحي من حي على غير بينة، وها نحن اليوم نرى المتذيلين يتلاومون، حين نشر أحدهم غسيل الحداثة المحلية، على حد قول الشاعر حبيب قهوجي:

لــــــــوى ذيلـــــــــه وانســــــــحب
لســـــــت أدري مـــــــا الســــــبب

وإن أعلن عن فشلها وبؤس أصحابها وانطواء اتباعهم على أنفسهم، والمؤكد أنه لم يكن أحد منهم مرمزا ولا مؤصلا، وما كان اعترافه مضيفا شيئا، كما يتوهم البعض، وما كانت بلادنا في يوم من الأيام مطارح حداثة منحرفة، وإنما هي نزوات جاهلة واحتفاء غبي ومواطأة أضوائية، لقد سمي هذا الجيل بالجيل الضائع فأجسامهم في الشرق وعقولهم في الغرب، كما يقول شكري عياد في كتابه (المذاهب الأدبية والنقدية) (ص: ٤٤).

مطارحات التبعيين .. ! (٣) [(١)]

وفي هذا السياق الموبوء تهافت المفكرون والأدباء والنقاد على طرح مشاريع ليست على هدي من الكتاب وصحيح السنة، من مثل مشروع الجابري حول (العقل العربي)، ومشروع حسن حنفي (اليسار الإسلامي) القائم على الانتقال من العقيدة إلى الثورة، ومشروع زكي نجيب محمود القائم على (الوضعية المنطقية) الكانتية، وهو كما يقول العالم: (الصوت الوحيد الذي يعبر عن الفلسفة الوضعية في شرقنا العربي) وكتابه (خرافة الميتافيزيقا) يمثل المادية العلمية، وقد غير العنوان تحت وابل المواجهة إلى (موقف من الميتافيزيقا) مستهلاً ذلك بمقدمة تملصية، والمضحك أن عدوى المشاريع وادعاءها امتدت لمجمعي خواطرهم ليقول أحدهم: (وبذا يكون هذا الكتاب حلقة من مشروع مطلوب عن الإنسان واللغة)، ولسنا بصدد تقصي مشاريع أخرى تختلف في دركاتها، وتهافت مع أصحاب المشاريع الفكرية ومن بعدهم بعض المبدعين السرديين وبعض المنشئين في مشاريع (الثلاثيات) فجاءت الأعمال الروائية حرباً ضروساً على الدين والأخلاق وصوتاً إعلامياً يمجد المشاريع السياسية، واستفحل أدب الاعتراف والإلحاد والسخرية بالمقدس، منذ أولاد حارتنا ومروراً بالخبز الحافي والشطار ووجوه ثلاثية السيرة الذاتية لمحمد شكري ومسافة في عقل رجل ووليمة لأعشاب البحر واستذكاراً لآيات شيطانية ورواية العار لتسليمة نسرين، وكل هؤلاء يصرون على جعل (الدين) و(الجنس) وجهين لعملة واحدة مزورة، تمشياً مع ما وصل إليه: (بو علي ياسين) في كتابه الضجة (الثالوث المحرم) ولنا عودة مطولة وقريبة إن شاء الله إلى (زمن الفجور الروائي) بإزاء (زمن الرواية) بوصفها دعوى حداثية، وقد وفينا (الإبداع الأمي: المحظور والمباح) و(النقد البنيوي للرواية العربية) و(صراع الحضارات من خلال العمل الروائي) بعض حقهما، ونشرنا عن البعض قرابة خمسين حلقة في (ملحق الأربعاء()).

والغارة على قيم الإسلام ومسلماته تأخذ صوراً وأشكالاً، فكلما أخذ المسلمون حذرهم وارتفعت قدرتهم المناعية، تغيرت التركيبة والمسميات، والناقمون على الفكر الإسلامي والخيار الإسلامي، يفكرون ويقدرون، ولكنهم سيقتلون من حيث يفكرون، وها نحن في سياق (السيناريوهات) أمام مشروع جديد قديم، فعلى مستوى اللغة، كنا نعرف ما يتداوله التراثيون حول (تأنيث اللغة)، و(تذكيرها)، ونعرف أنَّ اللغة تكون مؤنثة بعلامات، ومذكرة بدونها أو بها، كعلامات الجموع السالمة، وكنا لا نعرف (الفحولة) إلا مصطلحاً في الشعر، تصنف على ضوئه طوائف الشعراء والشواعر وطبقاتهم، وتداول علامات التأنيث وطرائق التثنية والجمع والنسبة، وكافة الصياغات جوانب من علم تراثي، أكثر فيه علماؤنا التأليف، بدافع التعليم وبسط نظام الكلام الفصيح وضوابطه وتعميق العلم التراثي وحماية اللسان العربي من اللحن وحماية اللغة من الضعف أو الانقراض، ليس لأحد منهم أهداف تتعدى ما ذكر، ولكن الجذور التراثية لا علاقة لها بما يتداوله المشهد الثقافي العربي من كلام حول (الفحولة) و(الأنوثة) و(نون النسوة) و(تأنيث اللغة) و(التنوين) الذي لا يلحق (الاسم الأعجمي) ولا يلحق (العلم المؤنث) على حد قول (نصر حامد أبو زيد)، ومنعُ العلَمِ المؤنث من الصرف وحرمانُه من التنوين الممكّن والأمكن عند هذا الحداثي مكرٌ أرادته الحضارة العربية الذكورية للمرأة، لتظل أعجمية لا تتكلم، ممنوعة من الصرف لا تتصرف، فهي كالاسم الأعجمي تماماً، على حد فرضياته وتخرصاته، التي تركته ذليلاً تطارده الأشباح، وها نحن نجد من يتبع أولئك حذو النعل

---

(١) تاريخ المقال: ٢٠/ ٦/ ٢٠٠٠

بالنعل، ويدخل معهم جحور الضِباب، ومحاكمة اللغة ووصفها بالذكورية والفحولة تقنع في منتهى البلاهة، يقصد منه إدانة الثقافة العربية الواهمة التي لم تنصف المرأة، منذ (حمالة الحطب) و(القوارير) و(الضلع الأعوج) و(نقص العقل والدين) على حد الغمز واللمز المكشوف أو المقنع، وما كنا نعرف الإنابة عن المرأة في المطالبة بحقوقها إلا بعد أن طلع علينا سيىء الذكر (قاسم أمين) بتبعيته، فقد كان النساء يبايعن، ويبعن، ويشترين، وكن يطالبن بحقهن من الاستماع إلى الرسول ﷺ والجلوس إليه، ويشكن من غلبة الرجال، وكن يجادلن في حقوقهن، ويسمع الله قول التي تجادل في زوجها، وتشكي إلى الله، وكن يلححن بالجدل، وكن يسألن عن نقص العقل والدين وعن كونهن أكثر أهل النار، ويستشرن في أمر الزواج، ويرفضن من لا يردن من الأزواج، ويطلبن الخروج إلى الجهاد، وكان الرسول يشفع للمتيم ولا يلزم بقبول الزواج، وما سمعنا رجلاً ينوب عن المرأة في المطالبة بحقها، حتى سقطنا في درك التبعية، واستن (بقاسم أمين) من لا خلاق له، ولحقت به المترجلات من النساء، وتبعه وأحيا ذكره المشبوهون من الرجال، وها نحن اليوم نجد مدعي التنوير من الظلاميين يعيدون (قاسم أمين) وكتابه إلى الذاكرة باحتفالية مشبوهة، يتهافت عليها السذج ومحبو الظهور في تغييب متعمد للرؤية الإسلامية.

لقد سألني ملتاث ذات مرة: لماذا نقول: (قامت عائشة) وفي الإعراب نقول: عائشةُ فاعلٌ مرفوعٌ؟ لماذا لا نقول: فاعلة مرفوعة؟ ولماذا أجاز المجمع اللغوي كلمة (أستاذ) للمرأة المؤهلة، ولم يحتمل كلمة (أستاذة)، أليس في ذلك ظلم للمرأة واحتقار لأنوثتها وتفحيل للغة على حساب شقائق الرجال؟، فما وسعني إلا الصمت، وبعض الصمت أفصحُ من مقال، وما زالت قضايا المرأة يتداولها الرجال وحدهم، فهم الذين يتحدثون عن حريتها ومساواتها ومطلق عملها وحقها السياسي والقضائي وحقها في الولاية الكبرى، وحين خدعوها وغرروا بها، تحولت إلى كاسية عارية مائلة مميلة خرجت من كرامة الإسلام إلى مهانة المدنية الغربية، ووجدوها فرصة ليمارسوا النخاسة بجسدها: تمثيلاً، ودعاية، ومسابقة في الجمال، ومادة لأدب الاعتراف المشين، ولم يمكنوا لها مثل أنفسهم، فهي: الراقصة، وهي المغنية، وهي الممثلة الاستعراضية بجسدها، وهي السكرتيرة لجمالها، وهي المضيفة لخفتها، عفَّ من عفَّ منهن، وسقط من سقط، ولكنها عفة مدانة وسقوط موجع، وهي في كل ما أعطيت من حقوق، تسرِّي عن الرجال، وتنحر كرامتها وعفتها تحت أقدامهم، والإسلام حين كفل لها الحق والمساواة، جعل منها العالمة والطبيبة والعاملة فيما يلائم أنوثتها مشترطاً: قيام الحاجة، وعدم الاختلاط.

إن على الذكر والأنثى أن يعيا خلقهما، وما أراده الله لكل منهما ومن كل منهما، وأن يحققا السنن الكونية، ولا يكون ذلك إلا بالمبادرات الواعية والاستبداد المتحصن والتصدي على بصيرة من علماء الأمة ومفكريها وأدبائها ونقادها، إذ ما أضعف المهمّشين لأنفسهم المتطوعين بأصواتهم وأقلامهم لمن يمر بهم على جيف الكلاب، وإن كان لابد من تبعية فما أقبح أن نهيم وراء الأغربة، ونحن نرى نسوراً وصقوراً تخفق في الفضاء:

ومن كان الغراب له دليلاً، يمر به على جيف الكلاب وما أكثر الأغربة الأدلاء الذين يمرون بأمتهم على سقط الحضارة ونفاياتها، لقد انطوت حضارة الغرب على علم وفكر وفن، جنح الأغربة إلى الفكر المادي والفن الماجن، ولووا رؤوسهم عن العلم الذي هو من مقاصد الإسلام وحكمته الضالة، ولو أنهم فعلوا ما فعله (اليابان) من تواصل حصيف لكان لهم حضور شريف ومكانة مرموقة، وكيف يكون لهم ذلك، ونخبهم يروجون الفكر المادي والفن الماجن، إن لنا عقيدة وتراثاً وثقافة، ولنا مع الإنسانية حضارة وعلماً ومدنية، وواجبنا أن نعرف الخصوصية والمشترك، وأن نتقدم بمشروعنا السوي، نستكمل ما

ينقصه، ونذيب فيه المستجد، ولا نذيبه في المستجد، إذ ما علينا من بأس أن نستفيد من كل جديد لا يصادم ثوابتنا، ولا يخل بشرط عقيدتنا، ولا يخرج عن متطلبات حضارتنا التي تحفظ التوازن بين مطالب الروح والجسد والحياة الدنيا والآخرة.

أحسب أننا بدون ذلك سنظل متربيين نقول ما قاله غيرنا.

قالوا عن (الحداثة) فقلنا، وقالوا عن (البنيوية) فقلنا، وقالوا عن تحولاتهما وبعدياتهما فقلنا، وقالوا عن (التحويلية) و(الملكة اللغوية) فقلنا، وزدنا حمل حمار (بموت النحو) وقالوا عن (الكسبية اللغوية) فقلنا، وقالوا من قبل ومن بعد عن (القومية) و(العلمانية) و(الشيوعية) و(الوجودية) فقلنا مثل قولهم، وقالوا عن (الأدب المفتوح) فقلنا، وقالوا عن (حرية المرأة) فقلنا، وقالوا عن (المرأة واللغة) فقلنا، وقد تساءل المرحوم (حسن ظاظا) عن كتاب (المرأة واللغة) المؤلف باللغة الفرنسية والمترجم منها إلى الإنجليزية، وما أحد أجاب على تساؤله، وقالوا عن (النقد الثقافي) كما هو عند جابر عصفور، فقلنا، وزدنا كيل بعير بدعوى (موت النقد الأدبي)، ونحن بهذا التهافت سنظل طوافين كما القطط حول فتات الموائد، أو كأم الحليس، تلك العجوز الشهربة، التي ترضى من اللحم بعظم الرقبة، لا نؤصل، ولا نبتدر، ولا نجادل بالحسنى، ولا ننتقي من كل شيء أفضله، نضيفه إلى ما عندنا، ولا نلغي ما عندنا من أجله، ننقل الأشياء من أماكنها كالنمل، ولا نمص نسغها كالنحل، نسرق الأفكار ونختلس المناهج، ونحرم بلابلنا من الدوح، لنحلها للطير من كل جنس، من مثل (سوسير) و(بارت) و(نورثروب) و(ياكسبون) و(دريدا) و(تشومسكي) و(بييرجيرو) و(جونز لامنز) و(ستيفن اولمان) و(ساخاروفا) و(داسكال)، فمتى نسعد بمؤصلين يبتدرون الأشياء، فيأخذون بأحسنها، ويستصحبون تراثهم وحضارتهم، لتأخذ وتعطي، كما كانت في عصور الازدهار، وليس شرطاً أن يموت (النحو) و(النقد) و(المؤلف) لتتحقق المعاصرة، إننا بحاجة إلى مفكرين وأدباء وعلماء يقرؤون الآخر، ولايقرئهم الآخر ما يريد، وينزعون من بئر المعرفة، ولا يكرعون في السواقي بكدرها وطينها: (ومن قصد البحر استقل السواقيا)، وهل أحد يتصور أن من الأكاديميين في بلادنا من يقول عن فرضية دارون بالنص: (إن هذه النظرية لا تزال حية فاعلة بل لقد صارت البراهين اليوم على إمكان كونها تفسيراً للحياة على الأرض أكثر من أي وقت مضى) (الرياض ١٤٢٠/٣/٣هـ)، وهل أحد يتصور أن ينبري كاتب آخر من ذات الفصيلة في ضجة السخط على مفترقات التنويريين بطباعة (وليمة لأعشاب البحر) ليدافع عن قامة (حيدر حيدر) العملاقة وعمله الاستشراقي، متهماً المتصدين له بالتآمر، ويجيء ذلك على صفحات صحفنا يقول بالنص: (قامة حيدر حيدر الشاهقة والمترسخة في فضاءات السرد العربية منذ عقود عديدة) (البلاد ١٤٢١/٢/٢٣ه)، وهل لدينا متسع لنقل قبس من الفتن؟ وصدق من قال: (إذا أقبلت الفتنة جهلها كل الناس، وإذا أدبرت عرفها كل الناس) والمصيبة أنه لا ذاك يعرف ما توصل إليه العلم الحديث إزاء نظرية النشوء، ولا هذا يعرف منطويات الرواية المنتهية صلاحياتها منذ انتهاء الخطاب الثوري التشنجي الاشتراكي.

لقد قرأت الرواية، وأنا بصدد الحديث عنها، ولو قرأها صاحبنا لكان له موقف آخر، والأخطر أن يكون قد قرأها، وتصدى للامتعاض الإسلامي من هذا التجني السافر على القيم العقدية والاخلاقية وحتى القومية، ولي إليها وإلى نظرية النشوء والارتقاء عودة ارجو ألا تطول.

أمنيتي التي أتحرق من أجلها، أن نقول ابتداءً غير عابئين بقول غيرنا، وأمنياتي الأكثر أهمية أن نسمح للاختلاف المشروع، والجدل الموضوعي بضوابطه الشرعية، كي يأخذا موضعهما الطبعي، وأن نتحامى عشق الإلغاء للآخرين والاستقلال بالمشهد الثقافي،

وهو يتسع لكل الخطابات المشروعة، وامنياتي المحبطة ان يجيد بعض العائدين من الغرب أدب الحوار، وبخاصة حين ترهقهم حوارات الجادين، ويهزمهم خطاب المؤصلين، فمتى يشب أولئك عن الطوق؟، ومتى يقولون ما يريدون لا ما يراد لهم؟ ومتى يعف المبدعون عن أدب الاعتراف المشين، ويمتنعون عن تدنيس المقدس وأنسنة الإله؟ ومتى يقترب أدباؤنا ومفكرونا من بعضهم ليشكلوا وحدة فكرية، تتفاعل ولا تتصادم، وتتنامى ولا تتقارض، وتقدم في عصر العولمة والتكتلات والقرية الكونية والانفجار المعلوماتي والمعرفي مشروعاً أدبياً وثقافياً، يدل بعروبته الناصعة وإسلامه النظيف، بعيداً عن التلوث الفكري والسقوط الأخلاقي، وإن لم يفعلوا، فمتى يعرفون قدر أنفسهم وحجم إمكانياتهم ويدعون لغة الفحولة، ويبحثون عن لغة ثالثة تجمع بين الجنس الثالث والمترجلات من النساء، فيكونون بهذا عالماً آخر ليسوا من الفحول ولا من الإناث، إننا في ظل الفتن العمياء والتيه المستحكم بحاجة إلى الاقبال على كلمة سواء، نحقق من خلالها وحدتنا الاقليمية والفكرية، ونقدم بها مشروعنا الحضاري.
لقد مللنا من التناحر والتنابز والسخرية والسمسرة للآخر، ولم يبق إلا أن نعتصم بحبل الله، ونسائل أنفسنا عما فعلت، ونمارس نقد ذواتنا، وماذا نحن قائلون يوم تدوي كلمة الحق:

﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤] .

ثقافة التقنية، وتقنية الثقافة .. ! (١)[1]

لابد أن أحرر أولا مفردات العنوان، وهما: كلمتان، وجملتان: فالكلمتان: الثقافة والتقنية.

والجملتان: ثقافة التقنية وتقنية الثقافة.

وليس هذا العنوان من باب التلاعب اللفظي، فنحن في زمن طغت فيه التقنية، واستفحل الانسان الآلي، وتحولت الثقافة من واحدية الوعاء إلى تعدديته، وبخاصة شبكات المعلومات والاتصالات والأقراص الممغنطة.

والثقافة: مصطلح اضطربت حوله الآراء، وتباينت الأفكار، ولما يصل المعنيون إلى تعريف جامع مانع يحدد الثقافة، ويعين المثقف، ونوع المكتسب المطلوب لتكون الثقافة ويكون المثقف، والأزمة في النوع وفي القدر.

وبالعودة إلى جذور الكلمة معجميا، وقبل أن تكون مصطلحا على مفهوم، نجدها تعني ثلاثة أشياء متقاربة الدلالة وهي:

١/ الوجادة: فما يجده الانسان مثقوف: أي موجود، وكذلك ما يصادفه الانسان في حياته أو في وجهته، قال تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ﴾ [الأنفال: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١] ولا يعني الثقف في القرآن إلا هذه الدلالة، وقد ورد هذا الجذر في القرآن ست مرات.

٢/ التقويم: من ثقف الرماح: عدلها، وأقام اعوجاجها، والتثقيف التسوية.

٣/ الحذق: ثقف، ثقافة: صار حاذقا خفيفا فطنا، فكأن الوجادة والتقويم يؤديان إلى الحذق والفطنة.

وهذه الدلالات الثلاث تعطي دلالات تراتبية، فالوجادة تمكن من التعديل الحسي كالرماح، والمعنوي كالقيم الأخلاقية والفكرية، وهما ينتجان الحذق والفطنة، وتلك هي محمل الدلالة المعجمية لجذر ثقف، وان زاد عليها مجمع اللغة العربية بالقاهرة في معاجمه بعض الدلالات المجازية أو السياقية، والثقافة في الاصطلاح تتعدد بتعدد الفنون والعلوم والمذاهب وبتعدد الأزمنة والأمكنة وبتنوع الحضارات، فهي عند علماء الاجتماع ذات معنى، وهي عند علماء النفس ذات معنى، وهي كذلك عند الأدباء والفلاسفة، وهي عند ذوي الديانات، ومن ذلك أنها: طريقة الحياة الكلية لشعب من الشعوب، كما أنها تعني ضروب النشاط: كالفن والأدب والفكر والعادات والتقاليد وكل المنجز البشري الذي تلتقطه حواس الانسان وتحتفظ به، وتنمي منه مكتسباتها، وتهذب فيه سلوكها، وقد تمتد إلى الشعور والتفكير، والتعريفات السابقة تومىء إلى أن الثقافة: الأخذ من كل شيء بطرف، أو هي: معرفة كل شيء عن شيء، ومعرفة شيء عن كل شيء، وقد وعاها السلف والفوا الموسوعات، وكان منهم من يمثل الثقافة بمفهومها الواسع، وقد مرت الحضارة الاسلامية بفترة ما يسمى بعصر الموسوعات وعرفت مؤلفات من هذا النوع، كالمستطرف والعقد وغيرهما، والمؤسسات الثقافية والمنظمات العالمية المعاصرة ذات الطابع الثقافي كاليونسكو مثلا، لم تتفق بعد على تعريف محدد، وقد قيل: اذا أردت أن تستدل على جهل الانسان، فاسأله عن الثقافة أو عن مقتضياتها ومشمولاتها، على أن هناك مصطلحات تتداخل مع مصطلح الثقافة، كمصطلح الحضارة والمدنية.

---

(١) تاريخ المقال: ٢٧/ ٦/ ٢٠٠٠

فالحضارة تشير في الغالب: إلى طرائق الحياة العلمية الأكثر تقدما، والمدنية: تعني المستعملات والمسكوكات والمسكونات، وهناك تاريخ للتمدن الاجتماعي، يحكي تطور حضارة ما، وقد كاد جرجي زيدان للحضارة الاسلامية حين كتب عن تاريخ التمدن الاسلامي مركزا على جانب اللهو والمجون ومجالس الشراب وأزياء الغلمان والجواري وآلات الطرب متعمدا حصر التمدن الاسلامي بهذه الظواهر، وهو قد فعل المكيدة نفسها عندما أنشأ الروايات الاسلامية، والحضارة والمدنية في النهاية لونان من ألوان الثقافة، بوصف الثقافة ما يجده الانسان وما يكسبه من قول أو فعل، ومع صعوبة التحديد، فإنها من الوضوح، بحيث يرجع بها المتلقي إلى مفهومه الذهني، وليس هناك اصعب من الحديث عن الأشياء الواضحة، والثقافة تختلف من عصر إلى عصر ومن حضارة إلى حضارة، وهي داخل الحضارة الواحدة والعصر الواحد تتعدد تصوراتها ومستوياتها وأنواعها ومدة ارتباطها بالسلوك الاجتماعي، وهي تتعدد بتعدد الاهتمامات، ومن ثم أصبح من الصعوبة بمكان الاتفاق على مفهوم الثقافة والتحديد المعرفي للمثقف، والبعض يربط الثقافة بالسلوك الحضاري المتمدن، ويجعل المثقف بازاء الرجل البدائي، أما التقنية: فهي مجموع الطرق المستخدمة للاختراع ومجموع الآلات المستخدمة للانتاج، وتسمى التكنولوجيا، وقد تكون بالتعريب لا بالترجمة فيما يغلب على الذهن أقرب إلى جذر تقن والاتقان الاحكام والتجويد، وفي القرآن صنع الله الذي أتقن كل شيء.

ولكنني لا أجزم بأنها ترجمت لتعني الاتقان، اذ لم يسعفني الوقت لتقصي مقاصد التعريب وعلاقة التقنية بالاتقان، والتقنية: اختراع الآلة وتطويرها، واستغلال الأشياء بواسطتها، وقد بدأت منذ أن استخدم الانسان الآلة معتمدا على طاقته الذاتية وعندما اكتشفت الطاقة لتقوم بتحريك الآلة باشراف مباشر من الانسان، وعندما أصبحت الآلة أتوماتيكية تعتمد على البرمجة والذكاء الصناعي إلى ما نعايشه الآن من أمور مثيرة ومدهشة، والعالم اليوم في سباق محموم، يكاد يفوت على البعض القدرة على المتابعة والرصد، ومما لاشك فيه أن التقنية سلاح ذو حدين، وأن التعامل مع المنجز العلمي والصناعي يحتاج إلى وعي حضاري، يمكن من السيطرة والتفاعل والاستغلال الايجابي.

والتقنية إذ تكون نعمة في شيء، فهي نقم في أشياء كثيرة، ولا أدل على ذلك من المفاعلات النووية: السلمية والحربية، ثم هي قد فصلت الانسان عن فطريته، وعقدت حياته، وتقنية التنقيب والحرث والنقل والتصنيع ذات فوائد وأضرار وتحديات، وقد تكون التقنية داخله في قانون التدافع والتمانع لحفظ التوازن في الكون، فالردع النووي منع الحرب الكونية، والتفوق التقني وفر الزعامة العالمية لبسط النفوذ وكف الاعتداء وهمجية القتل، والتقنية من زيادة الحياة الدنيا التي وعد الله بها.

ومن فوائدها: زيادة الانتاج، وتحسينه، وتخفيض العمالة والجهد والتكلفة وسهولة العمل، واستغلال الطبيعة، ومواجهة متطلبات الانفجار السكاني، والتغلب على الصعوبات والتصحر والسيطرة على بعض السنن الكونية التي هي من ظاهر الحياة الدنيا، والسرعة في الاتصال والتنقل وغزو الفضاء وأعماق المحيطات واكتشاف ما تيسر من أسرار الكون، وتوفير الجهد والوقت، ونشوء مفهوم القرية الكونية، ولولا الآلة والطاقة والوسيلة لما تيسرت الحياة بهذا الشكل، ومن أضرارها: تلوث البيئة، وبخاصة النفايات النووية والعوادم التي أدت إلى ظاهرة الثقب والأمطار الحمضية، واستنزاف الموارد الطبيعية بشكل بشع، واستغلال ثروات الشعوب الفقيرة، والقضاء على الحياة الفطرية، واستفحال البطالة لوجود الانسان الآلي والأجهزة والمعدات الدقيقة والثقيلة، والاستغناء عن التفكير في مواجهة الأشياء المخزونة في الذاكرة مع حلولها كالحاسوب والذكاء الصناعي، وفوق

كل ذلك العبث الطبي والمخبري في ظل التوصل إلى شفرات علمية دقيقة: كالاستنساخ والشفرة الوراثية واستعارة الأرحام.

أما التحديات: فمنها مواجهة التلوث وتنقية البيئة، وحماية الثروة والموارد الطبيعية، والحيلولة دون انقراض الحياة الفطرية، وحفظ التوازن بين الطاقات والقدرات، والاعتماد على الذكاء والمهارات البشرية، فالذكاء الصناعي والمهارات الصناعية قللت من قيمة الانسان الذي اخترع الآلة الذكية، والتقدم الصناعي غير المفاهيم والأولويات الثقافية، وجاء بمفاهيم لأمية جديدة، كأمية التخصص، وأمية الكمبيوتر وغيرهما، إذ لم تعد الثقافة مجرد القراءة واقتناء الكتب، إن هناك ثقافة بل ثقافات أخرى تتعلق بالمستجدات الآلية وكيفية استعمالها والوصول إلى المعلومات والمعارف عن طريقها، ومن ثم فإن الآلة عقدت الحياة، وربطت الانسان بالآلة بحيث حدت من استقلاليته، وأصبح جزء كبير من حياته لا يتم إلا عن طريق الآلة.

والثقافة ترتبط بالتقنية، ارتباط عموم وخصوص، فالتقنية جزء من الثقافة، والثقافة منتج عدة عوامل منها التقنية، وكأنها الأمَة تلد ربَّتها، جاء في الموسوعة العربية العالمية المجلد الثامن الصفحة ٢٨: فالثقافة تشتمل على الفنون والمعتقدات والأعراف والاختراعات واللغة والتقنية والتقاليد فالتقنية جزء من الثقافة، والثقافة منتج التقنية، أو أن التقنية من مصادر الثقافة، وتلك حقيقة قد تدخلنا في دوامة الحلقة المفرغة، وليس بالامكان فك التداخل والتفاعل والاشتباك، ومن الخطأ الكبير أن نفصل بين التقنية والثقافة، إذ التقنية وليدة العلم والثقافة.

فالثقافة والتقنية تتفاعلان لانتاج الوسائل والمسائل: وسيلة الانتاج المادي والمعنوي، والمسألة العلمية أو الأدبية أو الثقافية، فالمسائل تساعد في السيطرة على الوسيلة وتطويرها، والوسيلة تعمق فهم المسألة، واذا كانت المكتسبات الثقافية تتغير وتتبدل فإن التقنية تتطور، ونحن نسمع بأجيال الكمبيوتر وسرعة التطور فيه.

ولكي أقرب الصلة بين الثقافة والتقنية أضرب مثلا بالطباعة، فالطباعة تقنية ومنتجها ثقافة، والعلاقة الأقوى أن العلم مشروع منظم للمعرفة والاكتشاف والسيطرة، والتقنية آلية للانتاج وتحسينه، ومن الانتاج المعرفة التي جاءت الطباعة خطوة أهم للانفجار المعرفي، والطباعة تطورت: مادة وشكلا ومرونة، حتى لم تعد حرفا من الرصاص يلتقط باليد ليوضع في مكانه، وانما كانت رمزا مختزنا في أقراص.

وثقافة التقنية تختلف عن تقنية الثقافة، فثقافة التقنية: تعيد مصدرية الثقافة إلى التقنية، نقول: ثقافة الكتاب، وثقافة المشافهة، وثقافة الكاست، وثقافة الفيديو، وثقافة الانترنت، أي أن الثقافة تأتي عبر مصادر تقنية، وتحفظ في أجهزة تقنية غير الكتابة القلمية، حتى لقد كان بامكان المستفيد أن يحمل مكتبته في جيبه، وأن يستعيد ملايين الموضوعات بواسطة الكمبيوتر المنقول معه في أي مكان، ولو دقت رؤيتنا لقلنا: إن الورق الأحبار وغيرها منتج تقني، فالثقافة التي نشاهدها ونسمعها من القنوات الفضائية أو نستدعيها من شبكات المعلومات أو من الأشرطة أو من سائر الوسائط المعلوماتية هي ثقافة تقنية بوصف التقنية وعاء ومصدرا، ولهذا ألف تراتك كيلش كتابه ثورة الانفوميديا وأكد على أن الوسائط المعلوماتية قادرة على تغيير الحياة والعالم، حتى لقد عرفنا حرب الكاست في الثورة الايرانية، وكذلك اشار توماس كوك في كتابه بنية الثورات العلمية، وجاءت اشارات خاطفة في كتاب التنمية الثقافية للفيف من خبراء اليونسكو، وتجلت المخاوف على اللغة العربية بوصفها الوعاء الأهم للثقافة من استفحال التقنية في كتابين هامين:

العربية لغة العلوم والتقنية للدكتور عبد الصبور شاهين.

اللغة العربية والتقنيات والمعلومات المتقدمة، لعدد من الباحثين نفذت أعمالهم في المؤتمر الدولي، ونشرت البحوث في مجلة التواصل اللساني.

ما أشرت اليه سلفا لون أو طريقة من ثقافة التقنية ترتبط بالمصدرية، وهناك لون آخر من ثقافة التقنية يعني معرفة التقنية لا عن طريق التخصص التقني وحسب، وانما عن طريق الفهم لهذه التقنية وحسن استعمالها، ومن ثم فإن ثقافة التقنية ربما تعني إلى جانب ما سبق المكتسبات المعرفية للتقنية والخبرات التقنية، وهذا غير مقصود في حديثنا هذا، فالمهندس والصناعي والمهني، يكون لديهم معرفة بخصائص الآلة واسلوب استعمالها وطرائق اصلاحها وسماتها ووظائفها ومستوى جودتها، ومن ثقافة التقنية التي لا تعنينا في بحثنا هذا وثائق التنميط، أو ما يسمى بالكتلوج وهو توصيف للآلة ووضع طريقة للاستفادة والتشغيل والصيانة وحماية المستهلك من أضرارها الجانبية وزيادة الانتاج ورفع الجودة وتسهيل التبادل، وكل ذلك يعني المعرفة بالآلة وجودا واستعمالا، ومثل هذا المكتسب يسمى ثقافة التقنية وعلى هذا الأساس فإن ثقافة التقنية تعني شيئين هامين: الاستفادة من امكانيات التقنية المعرفية والمعلوماتية، والمعرفة بذات التقنية، ولا يمكن الاستفادة من ثقافة التقنية إلا بمعرفة استعمال التقنية، أما تقنية الثقافة فهي الأخرى ذات دلالات متعددة تحددها مقاصد المتحدث، وتعني فيما تعني التحول من مصادر الثقافة التقليدية كالكتاب مثلا إلى مصادر أخرى جديدة، كالأشرطة والانترنت وغيرها، وتعني أشياء أخرى تتعدد بتعدد التصورات والمقاصد.

والعصر المعاش ذو حضارة آلية وتقنية متطورة، والصراع الحضاري أشد بأسا واشد تنكيلا من الصراع العسكري، فالحضارة والثقافة والاقتصاد والسيطرة العلمية كل ذلك مرتبط بالتفوق التقني، وما علينا إلا أن ننظر إلى اليابان وما تشكله من خطر على الولايات المتحدة، وهي دولة لا تملك سلاحا ولا تفكر في انتاجه، إنها حرب الكمبيوتر والأجهزة الدقيقة.

ثقافة التقنية، وتقنية الثقافة .. ! (٢) [(١)]

ورهانات التقنية وسباقاتها متعددة، فالعلم التجريبي، والعقل العملي والتفكير العلمي أو العقلي، انتجت حضارة مغايرة، وأقرت مفاهيم جديدة، حتى لقد اختلف المفكرون حول الفروق الرئيسة بين القرن التاسع عشر والقرن العشرين، ولا سيما أن حركات التنوير والإصلاح الديني (علمنا) العالم، وأخرجا الدين المسيحي المحرف من متن الحياة إلى هوامشها ومن الحاكمية إلى المحكومية، هذه الأجواء المشحونة، بالتوتر والشك والتساؤل والرفض والتجريب وتوثين العلم، أعطت الآلة مزيداً من التمكن، ورحلت بها من الفعل إلى التفكير ومن الحركة إلى التخزين، وكأني بالتقنية ترى نفسها سيدة الموقف، ثم إن التفكير الديني والتفكير العلمي والفعل العاطفي والفعل العقلي، انتجت مذاهب وتيارات وقيما وتصورات مزقت الوحدة الفكرية، داخل الوحدة الإقليمية والوحدة الحضارية، وتخطت بالعالم إلى حافة الصراع والصدام، ولأن الإسلام يؤمن بالتفكير العلمي والعقلي، ويدعو إلى العلم وإعداد القوة ويضع اهمية للمرجعية النصية والرجوع اليها في التنازع فإنه لن يتهمش ذاتيا، وإن همش في بعض الخطابات العلمانية الشاملة، والإسلام لا يوصف بالضعف ولا بالتخلف، وإنما يوصف المسلمون في بعض مراحل حياتهم بذلك، وتلك من سنن التداول والتدافع والتمانع: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥١] .

والتقنية أحدثت صدمة سميت بصدمة المستقبل، أو الصدمة الحضارية، وهي إذ تستدرج العالم لتهميش حضارة الأمس، تستدرجه لتهميش الانسان من خلال التحول من مركزية الإنسان إلى مركزية المادة، لقد كان الإنسان يعتمد على تفكيره لإنجاز عملية حسابية أو عمل حرفي، وكان يستخدم قلمه في رصد معلومة طارئة، ويستخدم يده لإنجاز عمل ما، ويمشي برجله للوصول إلى مكان ما، ويستعين بالمواجهة الشخصية لإبلاغ رسالة ما، ولكنه اليوم اعتمد على الآلة لانجاز كل شيء، ولست أشك أن هناك تنافسا خفيا يعتمل في أعماق الإنسان الآلي الذي فاق قدرات الانسان البشري في الحركة والتخزين وسرعة الاستحضار والانتقال وقوة الاحتمال وتعدد المجالات والذكاء والتفكير والإدارة أزرار يدير بها الإنسان العالم، وهو متكئ على اريكته أو مسترخ على سريره يخترق بها فضاءات متعددة ويستحضر معلومات مكثفة ويقف على احداث فورية ويقضي على امم آمنة مطمئنة ويطلع على مجاهيل لم تطأها قدم إنسان، ولولا التقنية المتقدمة لما تحقق شيء من ذلك، ومن هنا لا يمكن أن نجهل علاقة التقدم العلمي بكل وجوه الحياة، وأحسبه من النوازل ذات العلاقة (بالفقه الإسلامي).

وكيف لا يكون، والآلة الطبية تدخل في حياة الإنسان، وتحدد مصيره، والفقهاء اليوم لم يحسموا الامر في حالة مريض ترتبط حياته بالأجهزة، هل يظل عليها أم يترك لإمكانياته الذاتية ليموت على الفور؟ وهم يختلفون في انتهاكات الآلة الطبية وغير الاخلاقية، بل يختلفون حول نقل الأعضاء ومعالجة العقم والأرحام المستعارة والاستنساخ وما هو قادم أدهى وأمر، كل ذلك معطى تقني، يتحدى المجمعات العلمية والفقهية، ويحفزها على البحث عن فضاءات دلالية جديدة في النص التشريعي.

فالتقدم الثقافي والاجتماعي والارتقاء الحضاري والتنبؤ الدقيق بالمستقبل والتقدم التعليمي الإبداعي، كل ذلك وثيق الصلة بالتقنية، وليس من شك، ان الثقافة مجموع

---
(١) تاريخ المقال: ٤/ ٧/ ٢٠٠٠

المكتسبات، والتقنية هي التي تسيطر على انتاج المكتسبات، ومن ثم أصبح بين (الثقافة) و(التقنية) عموم وخصوص، ولست هنا معنيا بالمفاضلة، فالحاجة هي التي ترتب الأهميات والأولويات، إن الهدف الأول هو إحكام السيطرة وإتقان التعامل مع كل الطوراىء، وتوظيف الامكانيات لخدمة الحضارة وتأكيد حضورها وتمكينها من مواجهة الحضارات المهيمنة، الحضارة الإسلامية تواجه تحديات وحرباً شرسة منظمة، ومن مهمات النخب الغائبة التفكير الجاد في تفعيل مفردات تلك الحضارة المنتهكة لكي تأخذ وضعها الطبيعي ومكانتها، ولا يتحقق التعايش المتكافىء الا بإعداد القوة المرهبة، سواء كانت: سلمية أو حربية، وليس شرطا الدخول في مواجهة، وإنما القصد الردع والإرهاب، لقد حققت الحضارة الإسلامية انتصارات على كل الأصعدة وعبر فترات تاريخية، واكتفاؤنا بالافتخار، يضعنا رهينة للتاريخ، إننا بحاجة إلى الفعل الحضاري المنظم، لنكون أبناء حاضرنا مستبطنين ماضينا، ولكي نحقق التكافؤ، لابد من تناول الأشياء بعقلية وعلمية وتفكير سليم، والإسلام يضع للعقل مكانته، وللعلم أهميته، والتفكير فريضة إسلامية، ولأهمية العقل جعله الإسلام مناط التكليف، والعالم أنجز هذه المخترعات باستغلال الإمكانيات العقلية.

ومثل هذا التناول العقلي والعلمي من متطلبات المرحلة المعاشة، فالعالم اليوم يعيش حالة استثنائية، كاد فيها الإنسان الآلي أن يهمش الإنسان البشري، وكادت الممارسات والمواضعات السائدة تخرج الإنسان العربي من متن الأداء إلى هوامشه، ليكون ثانويا أو معطلا، وهو إلى التعطيل أقرب، ومن المؤلم أنه يمارس في ظل إمكانياته الضعيفة أعمالا مصيرية، ويدفع بقوة لتوقيع اتفاقات ملزمة للأجيال القادمة، وتفكيره منصب على التفاوض دون المقاومة، وعلى التطبيع دون الاستفادة، ولو أنه قبل بالواقع، وعمل على تجاوزه بقدرات ذاتية لكان خيراً له، والعالم العربي الذي يدخل الألفية الثالثة، يتهافت على بوارق التجديد دون تصحيح لواقعه، وظاهرة القطب الواحد تحاول تثبيت الواقع وشرعنة الظلم، والعالم الثالث تبدو استجابته سريعة، لا يحكمها توقيت ولا تقدير، وما لم يتدارك المعنيون الأمر، فإن النتائج ستكون أسوأ مما هي عليه، والمؤلم ما نراه من ثقافة لا تقيل عثرة، ولا تصنع وعيا، ولا تستجيب لحاجة، ثقافة إما: ساقطة أو منحرفة أو منقطعة، ثقافة متع زائلة وغرائز حيوانية هائجة، وما يصدره الغرب لنا لا يكون منه ما تحتاجه ثقافتنا، إنه يصدر الأدب والفكر الميتافيزيقي والمدنية الاستهلاكية، يصدر لنا الآلة ولا يمنحنا تقنيتها، يعطينا السمكة، ولا يعلمنا كيف نصيدها، والنخب الأدبية الفكرية انفصلت عن الأمة، حيث أجهضت الكلمة وعميت الأمور وعطل التواصل وصدمت المشاعر، واستقل الإعلام الموجه بالرأي العام يصوغه كيف يشاء، ويكفي تصوراً للخطورة: أن قرصا واحداً يجتذب من الفضاء أكثر مائة قناة فضائية.

والعصر اليوم عصر العلم والتقنية والفكر والصراع والصدمة الحضارية، عصر التحولات والقطب الواحد وواحدية الحضارة، عصر الإكراه والتسلط، إنه التحدي بأبشع صوره، والامتحان بأصعب لحظاته، والإنسان العربي ريشة وسط إعصار فيه نار، تتقاذفه رياح التغيير، وتنشده ثوابت العقيدة والقيم، والمصير مجهول والطريق مظلم، ومن ثم فستكون الإخفاقات ذريعة، والنكسات موجعة، والنهايات مفجعة، والنخب الفكرية ليست على قلب رجل واحد، والتنازع داخل الحضارة الواحدة على أشده، وإشكالية العصر أن العالم فقد التجانس، في ظروف تقتضي التجانس، وبخاصة فيما يتعلق بالمدنية، وانعدام التجانس في الحضارة الواحدة والعقيدة الواحدة والقومية الواحدة يجعل الأمة لقمة سائغة، ويهيئها للقابلية الاستعمارية، وفي ظل هذا التفاوت، نجد من يدعو إلى الوحدة

الاندماجية الشاملة، وكيف تتحقق، ولما نهيئ لها الأجواء الملائمة؟ وكيف تتحقق ومصلحة الحضارة المهيمنة ألا تكون؟

إن الثورات العلمية وثورة المعلومات والاتصالات المعروفة بثورة (الأنفوميديا) مكنت الرجل الأبيض من أخذ زمام المبادرة والسيطرة على ما سواه: عسكريا، واقتصاديا وثقافيا وإعلاميا وحضاريا، و(التقنية) سيدة الموقف، و(العولمة) منتج الإمكانيات التقنية، والدول المنتجة للتقنية يتعجلون النتائج، ويسرفون في الاستغلال والقضاء على الفوارق، حتى ولو ترتب على ذلك نسف العقائد وسقوط القيم وفساد الأخلاق وطمس الهويات مما سيحرك النعرات، وينشط الحضارات: التاريخية والاقليمية، ويذكي القوميات، ويضخم الهويات، ومن ثم يشعل الفتن، ويؤجج الحروب، ولأن امكانيات التحدي والندية والتكافؤ في الوطن العربي غير ممكنة في ظل الامكانيات والأوضاع القائمة، وتمشيا مع رغبة الحضارة المهيمنة، فإن مواجهة الألفية الثالثة ستكون من أصعب المواجهات، ولا أستبعد ممارسة كسر العظام والأرض المحروقة لقمع الخروج من السرب، ونحن اليوم نعيش ضجة (العولمة) وهي ضجة لم تفرز ثوابت معرفية، وإنما تسعى لتعميق الخلاف، لهذا فإن الحديث عن (حوار الحضارات) و(التعايش)، أو (العولمة) من القضايا الحساسة والخطيرة، وأحسب أن خطاب التهييج وإثارة العواطف وكسب الأضواء لم يعد الخطاب الأجدى والأهدى، إننا بحاجة إلى تفهم الواقع والارتداد إلى الداخل من أجل صنع الذات وفق متطلبات المرحلة، والدولة المؤسساتية من تحاول تلافي الفوارق والاحتفاظ الحذر بالخصوصية، والإسلام دين علم وحضارة وصناعة، دين يحث على العمل والكسب ويمقت التسول والتعويل على الغير، ومن الفضل الذي آتاه الله داود عليه السلام أن ألان له الحديد، وأمره بعمل الدروع، وحثه على الإتقان بقوله: ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ [سبأ: ١١]

إن المتغير الثقافي يحتاج إلى التفكير في تغيير التصورات والأولويات، والرسول صلى الله عليه وسلم فضل غياب المتسول عنه للاحتطاب والكسب على الملازمة، وهل يعدل ملازمة الرسول ﷺ شيء آخر؟ إن العصر عصر علم وتقنية، ونحن بحاجة ماسة إلى صياغة جديدة لكل شيء، لكي نتجاوز المرحلة الحرجة، والبلاغة وترسانات الكلام لا تدفع ظلما، ولا تقيم عدلا، ولا تنتزع حقا، الخطاب الفصيح المؤثر هو هدير المصانع وطنين الآلات ودوي المدافع وأزيز الطائرات، ثم ممارسة سلام الشجعان والتعايش السلمي المتكافئ.

إن من أصعب الخيارات خيار المؤاخاة والتعايش بين الشيء ونقيضه أو المصالحة بين العدو وعدوه أو التوفيق بين المتعالي والمتآنف، و(التقنية والثقافة) وسائل للمواجهة أو المعايشة، وإذا كنا نمتلك ثقافة وحضارة، فإننا بحاجة إلى تقنية، تحمي، وتؤازر، وتفرض الوجود الكريم المتكافئ، وتوفر لنا الثقافة التي نريدها والمعلومة التي نحتاج إليها، وتبلغ رسالتنا ومهمتنا في الحياة عبر قنوات فضائية وأقمار صناعية من صنع أيدينا، فالدين الإسلامي يريد منا: عمارة الكون، وعبادة الخالق، وهداية البشرية، وهذه المهمات الجسام لا يمكن أن تتحقق ونحن لا نملك إلا ترديد: (كان أبي)، ونعيش عقدة (الأبوية) والإنسان السوي هو الذي ينجز، ولا يكتفي بالافتخار بالمنجز، ونحن في النهاية أبناء حاضرنا، ولسنا أبناء تاريخنا، إن علينا ونحن نواجه التحدي الحضاري المهيمن، أن نتجاوز الاداء والركون إلى التاريخ، وأن نحاسب أنفسنا، ونقوّم اداءنا، وما لم نفعل، فسنظل تبعيين، والتقنية المهيمنة لا يكفي معها الاستهلاك ولا إتقان التعامل ولا السيولة النقدية والترف الباذخ، وإنما لا بد من الإنتاج إنتاج التقنية، لتكون آلة في خدمة الحضارة، وإنتاج الثقافة المحققة للوجود الكريم.

و(الثقافة) و(التقنية) متفاعلتان أو منفصلتان قضيتنا الأولى والأخيرة وسلاحنا الأمضى، لقد تلاشت حرب الأسلحة لوجود قوة الردع النووي، ودخل العالم في حروب العلم والاختراع والثقافة والتقنية، لقد أغمدالسيف، وسل القلم، وما وهن العالم الإسلامي إلا بالتحطيم الإعلامي والتسريب الفكري المادي، والحروب التقليدية: الحدودية والاهلية والطائفية في عالمنا الممتحن مكائد لشغل الانسان الثالثي عن التفكير السليم ومنعه من الدخول في حرب سلمية سلاحها: التقنية والثقافة وحمله على شراء الاسلحة التقليدية لتدمير ذاته وقتل اخيه وتسريب أمواله وتعطيل خططه ودعم اقتصاد أعدائه، وما (العولمة) إلا الحرب المدمرة، التي لا تراق فيها الدماء، ولا تدمر فيها البنى التحتية، وإنما تدمر فيها القيم، وتطمس فيها الهوية، وينهى فيها التاريخ، وتصبح فيها حضارة الرجل الأبيض، هي سيدة الموقف، ويصار فيها من سياسة الذبائح إلى سياسة المنائح.

لقد كانت هناك ممانعات واستجابات في ظل الصراع الأزلي وقانون التدافع: فالممانعات السياسية دون المستوى، إذ إن تطويعها يلجأ إلى القوة والتآمر، والسياسة فن الممكن، إذ تحكمها المصالح والاستراتيجيات، اما الممانعة الثقافية، فهي وإن كانت ذات ثغرات، إلا أنها أقوى من الممانعة السياسية، لأنها تركن إلى إرادة نخبوية، ولأنها معطى تراكمي، بطيء التشكل، بطيء التغير، كما أن العالم العربي ذو حضارة دينية وأدبية ولغوية عريقة وممتدة عبر مئات السنين، تساعده على تقوية الممانعة، وذلك فضل من الله، غير أنا وإزاء التقدم العلمي والتقنية المذهلة لا نستطيع أن نقطع بأن تلك الممانعة ستظل كما هي، والدليل على ذلك ما نعايشه من مشاريع توسعية في الهيمنة، آخر تلك المشاريع (العولمة) بكل صورها وتصوراتها وتعدد مجالاتها: الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية، مع ما هنالك من مواطأة وتبعية وانبهار من كثير من النخب الفكرية، أدت إلى ممارسة الإنابة لنفي الذات وتكريس الآخر، والهيمنة الحضارية كانت تقوم على وسائط الاستشراق والتبشير، ولكنها اليوم تتخذ من أبناء الحضارة المنتهكة من يمارس التشكيك والنفي والتكريس للحضارة المهيمنة، وإلى جانب المستغربين، هناك القنوات الفضائية ومراكز المعلومات ووسائل النقل والاتصال وتجانس المدنية المتمثل بالأجهزة والأزياء والمأكولات والشركات المتعددة الجنسيات، كل هذه الأشياء مكنت من الاختراق والانتهاك، وتلك من أخطر المواقف التي تواجه حضارة الأمة، والإشكالية ليست في أن نكون مثلهم في الإنتاج والانضباط والتقنية، وإنما أن نكون مثلهم في: الفكر والسلوك والعقيدة والأدب، إن حاجتنا ليست في الفن والأدب والرياضة والسلوك، حاجتنا للعلم والاتقان والانضباط والتفاني في الوصول إلى اسرار العلم ودقائق المكتشفات وفائق الصناعات، فماذا أخذنا منهم؟ وماذا تركنا؟

لقد كانت وسائل الغلبة في الحضارات السابقة تقوم على القوة العسكرية، وهي كذلك اليوم، ولكنها لم تكن الوحيدة، فالثورة العلمية والتقنية المتطورة وشبكة المعلومات وثورة الاتصالات، أضافت قوة جديدة لتحقيق الغلبة الحضارية، وإذا كنا سعداء بهذه المنجزات العلمية والتقنية والمعلوماتية والاتصالات، فإننا في الوقت نفسه مستاؤون، لأن هذا لم يتح لنا فرصة التأسيس والتأصيل لحضارة مغايرة لحضارة المنتج لهذه الامكانيات، ومن ثم فإن التقدم العلمي أدى إلى تخلف حضاري، وحولنا من مشاركين إلى مستهلكين ومن مبتدرين إلى مقلدين، ومن أنداد إلى أتباع، ومن عائلين إلى معولين، وتلك الإشكالية تحتاج إلى رؤية جماعية مؤسساتية، تستوعب الاشكالية، وتقترح الحلول، وتخطط للمواجهة، وتباشر الفعل المرحلي.

والتقنية التي خدمت الإنسان بوصفه مخلوقا ماديا خالصا، اساءت إليه بوصفه مجموعة قيم اجتماعية ولغوية ودينية وحضارية، إذ الحضارة الإسلامية تحفظ التوازن

بين القيم المادية والروحية، وحضارة العصر مادية خالصة، والتعامل معها لابد أن يراعي الفوارق الحضارية.

ثقافة التقنية، وتقنية الثقافة .. ! (٣)[1]

وليس من العوائق أن يكون هناك فوارق، وليس من شرط التقنية ألا يكون إسلام، وما يشيعه المغرضون من التلازم بين التخلف والإسلام أدى إلى فقد الإسلام وتكريس التخلف، والتعدد الحضاري لا يمنع من ازدهار التقنية، فالحضارة اليابانية مغايرة للحضارة الغربية، وحضارة الصين تختلف عن حضارة أوروبا، وحضارة دول شرق آسيا تختلف عن حضارة امريكا، كل حضارة لها شرطها، ولها ثوابتها ولها هوامشها التي تتيح لها فرصة للحوار والتفاعل، و نحن أحوج ما نكون إلى فهم الثابت والمتغير في أي حضارة، وعلم (الأنثروبولوجيا) أفاد الاستعمار التقليدي، ومكنه من البقاء والاستغلال وعدم الصدام، ان هناك قيماً دينية وقيماً لغوية وقيماً حضارية مرتبطة بالذات العربية والإسلامية، ولا بد من مراعاتها، بحيث نتقي العزلة ونتحامى الانجراف، لقد أدى الانفجار العلمي إلى انفجارات متعددة، فهناك انفجار في المعرفة، وانفجار في المعلومات، وانفجار في الاتصالات، وهذه خلطت الاوراق، وربكت العملية التقاربية بين الحضارات، لقد أصبح المفكر عرضة للارتباك، فلم يعد قادرا على الفرز والتبصر، فيض من التداخل، اصبح معه الفرز من الفرص النادرة، لقد فاضت الموجات الكهربائية، وامتلأ الأثير الهوائي بكم معرفي هائل، ينتظر تحريك أزرار تتحكم من بُعد ليؤذن لهذا الكم المعرفي والأخلاقي والفكري بالتدفق عبر الشاشة أو الطابعة أو الشريط، ولأن اللغة تعد الوسيط والوعاء، فإنها تعيش استمرارية التحدي، وهي القيمة الأهم بعد العقيدة ومقتضياتها، إذ هي وعاء الدين والحضارة، وبفقدها يفقد الإنسان العربي هويته، واللغة العربية لا بد أن تكون:

لغة الدين.
لغة العلم.
ولغة الأدب.

وليس هناك إشكالية في كونها لغة الدين، إذ فيها نزل القرآن الكريم، وتكلم المصطفى ﷺ، وتكفل الله بحفظ القرآن، فهي محفوظة بحفظه وقائمة بقيامه، حتى يرث الله الارض ومن عليها، والضياع إن كان ثمة ضياع، إنما هو للناطقين بها، حين يفرطون بها، ويمكنون لغيرها في الاستعمال والإبداع، ويكفي ان نضرب الأمثال باستفحال العامية: استعمالا وإبداعا، واستفحال اللغات الأجنبية: علمياً وحضارياً وتعليمياً، وكأن التقنية جاءت ومن مستلزماتها ان تكرس لغة المنتج على حساب لغة المستهلك، والتقنية خلقت التجانس المدني والحضاري ومكّنت للحضارة والمدنية المنتجة للتقنية، ولأن اللغة وعاء الحضارة فقد طغت لغة الحضارة المهيمنة، ولم تكن أدواء اللغة في هيمنة اللغات الغربية وإنما أنهكت اللغة بأدواء اخرى.

ففي مجال الأدب طغت العامية على سائر الأنواع الأدبية، حتى لقد ضربت اللغة في أعز مجالاتها مجال الإبداع: في القصيدة والقصة والرواية والمسرحية.

وفي مجال الاستعمال في المستشفيات والفنادق والخطوط الجوية، وغيرها طغت اللغات الاجنبية.

وفي مجال العلم، وهو الذي يعنينا في هذا اللقاء، اعتمدت اكثر الجامعات العربية (اللغات الأجنبية)، لتدريس الطب والهندسة وسائر التخصصات العلمية، ولم تعرب المصطلحات، حين دخلت التقنية كوسائط ووسائل للتعليم، لم يكن للغة العربية مجال في

---

(١) تاريخ المقال: ١١/ ٧/ ٢٠٠٠

هذا، يتكافأ مع مكانتها وإمكانياتها، مع ان اللغة ثرية وقادرة، واللغة من أقوى مفردات الحضارة انحيازا لأنها وعاء الحضارة وسبيل وجودها ونفاذها، واستخدام اللغات الاخرى من عوائق استكمال الأمة العربية لحضارتها، وليس هناك ما يمنع من الازدواج اللغوي في التدريس العلمي، بوصف اللغة الاخرى مساندة، وليست أصلية، وليس هناك ما يمنع التوسع في تعريب المصطلحات، والتعريب يختلف عن الترجمة وعن النقل اللفظي، والتعريب قائم في أوج الحضارة العربية، وقد قبل به علماء العربية لوجوده في الجاهلية وفي عصور الازدهار، والتعريب إثراء، والعاميات إلغاء، واللغة العربية مهشمة من الواقع لإحلال العامية، ومهشمة من التقنية ومصادر المعلومات، لأنها ليست اللغة الفاعلة داخل الأجهزة ومراكز المعلومات، ومن ثم فهي خارج الإطار العلمي وخارج الإطار الاجتماعي، وهي الآن لغة متعالية، تدرَّس معيارياً، ولا تطبق إجرائيا.

ومما يعمق إشكالية اللغة ما أحدثته التقنية من إشكالات لغوية جديدة، تمثلت في الترجمة والتعريب، وما زالت الإشكالية قائمة، وبخاصة فيما يتعلق بالمصطلحات، إذ يقوم بعض المترجمين بالنقل الحرفي للمصطلح، ويقوم آخرون بالتعريب المتعدد الصيغ، وتقوم جهات اخرى بالترجمة على صيغ متعددة، ويقوم آخرون بالنحت ومن ثم يكون للمصطلح الواحد عشرات الصيغ والترجمات وهذا عمق الفرقة وعقد الإشكالية، والمجامع اللغوية في الوطن العربي لا تنسق فيما بينها عند صياغة المصطلح، وما تتوصل إليه من ترجمة وتعريب لا يصل إلى المترجمين، ولا يبلغ أساتذة الجامعات، ولا يعترف به أحد، ولا يحتكم إليه المختلفون، ومن ثم تبددت الجهود، وتعددت الترجمات واختلفت صيغ التعريب، وضاعت جهود المجامع اللغوية، والإشكالية أن العالم ينتج في كل لحظة مصطلحا علمياً أو تقنيا أو طبياً أو ما شئت من تلك المستجدات المعرفية، وليس لدى العالم العربي اهتمام اقليمي ولا عربي بالترجمة على خلاف دولة كإسرائيل التي لا يزيد سكانها على سكان حي في عاصمة عربية، كما انه ليس لديه مصدرية واحدة لترجمة المصطلحات أو تعريبها، و(التقنية) أدت إلى سرعة الاتصال وسهولته حيث أنهكت: الثقافة والحضارة واللغة والمدنية، ولم يستفد شيء من ذلك من التقدم العلمي، إن ذلك جانب من جوانب إشكالية التقنية، ونحن في الوقت الذي يفترض فيه تسخير الإمكانيات التقنية لخدمة اللغة وتفعيلها، نمكن التقنية من خلق فوضى لغوية ونمو عشوائي، يعيق اللغة، ويمكن للغة المنتج، والدول العربية تمارس العمل التقني في مجال اللغة دون تعاون أو تنسيق، ودون تبادل للمعلومات.

ف(الحاسوب) الذي يختزن المعلومات، ويرتبها، ويعيدها، لا يمكن ان يحقق خدمة إيجابية للغة العربية، وهو في كل دولة، بل في كل جامعة، بل عند كل عالم، يختزن معلومات مغايرة، ويشتغل وفق شفرات متباينة، ويؤدي إلى نتائج غير مشاعة وغير مستثمرة، والجميع مُنتَجُ حضارة واحدة، إننا لكي نعيش مرحلتنا بوعي تام ومواءمة دقيقة، لا بد ان نفكر في تقليص التشتت اللغوي والصدام الفكري والتناقض التصوري، إن الاختلاف لا يحمد على إطلاقه، وتعدد وجهات النظر لا تكون إيجابية حتى تتفاعل، وتؤدي إلى تنامٍ معرفي وحضاري.

واللغة العربية لغة العلوم والتقنية، كما يؤكد الدكتور (عبد الصبور شاهين) في كتابه الذي يحمل العنوان ذاته، وكما يؤكد عدد من الباحثين، ولكن الجهود لخدمتها لم توحد، و(المجامع اللغوية) لم تتبادل الخبرات فيما بينها، والمستفيدون لم يتواصلوا مع المجامع، وليس أدل على ذلك من المترجمين، فكل مترجم يطلع بمصطلح، وكل عالم يصوغ الكلمات العلمية والتقنية وفق هواه، وعلى سبيل المثال الطائرة السمتية والعمودية والهيلوكبتر مسميات لنوع واحد، والأمة العربية تعتمد في الترجمة على المبادرات

الشخصية والجهد المؤسساتي المتواضع، إذ ليس هناك مشاريع موحدة، وليس هناك تنسيق بين الجهود، وليس هناك تبادل خبرات، وهذا الوضع غير الملائم، عمّق إشكالية هجرة الأدمغة، وحوّلها من ظاهرة طبعية إلى مشكلة خطيرة، إن التسهيلات والدعم الذي يظفر به العلماء والمخترعون خارج وطنهم حفزهم على الهجرة وتوظيف إمكانياتهم لصالح حضارة مضادة، إن اللغة تعد الوسيط الأهم والرديف للعقيدة والوجه الحضاري، وهي لا تظفر بالعالمية حتى ترتبط بالآلة، وتمتنع الاستفادة من الآلة عند الكافة بفقد اللغة، وهذا الارتباط العضوي الذي فرضته الحضارة المنتجة، منحت العالمية للغة الحضارة وآدابها، لانتقالها مع الآلة: اسماً واستعمالاً واستيعاباً، والمستهلك يحكمه المنتج.

ومن ثم فإن استفحال التقنيات ووسائطيتها، قد تنعكس على الأوعية الناقلة كاللغة، بحيث تكون سلبية أو ايجابية، وقد ظهرت مفاهيم وأعمال إجرائية ومصطلحات مثل (اللسانيات الحاسوبية) و(الهندسة اللسانية) وكذلك سجلت الصوتيات، ودرست المخارج واللهجات دراسة علمية تحليلية مخبرية، وجاءت الترجمة الآلية، وتشفرت المعلومات، وتم بناء معاجم الكترونية، وتقنية الاسترجاع والتدقيق الإملائي والتشفير، وكذلك استخدام الذكاء الاصطناعي وتصنيف الصوتيات والتركيبات وتحليلها والخروج بنتائجها: حرفية وجُملية تتعلق بالشكل اللساني الوزن والإسقاط الدلالي، وأدت التقنية إلى نتائج مفيدة في تعليم اللغات واستقبال الكلام وتحليله، إضافة إلى الكتاب الناطق وألعاب الذكاء الالكتروني.

وكل هذه المبتكرات التي نشأت في ظل ثورة (الوسائط المعلوماتية) تعد من ثقافة التقنية، ولكن الأمة العربية تمارس ما تمارس من خلال مبادرات شخصية غير متواصلة أو مؤسساتية ضعيفة، لا تملك تعميم نتائجها، ولهذا فالأمة بحاجة إلى جهود استثنائية للتنسيق، وايقاف الفوضى والتشتت، ووضع خطة شاملة ودقيقة لمواجهة الثورات العلمية والمعرفية والتقنية.

لقد أسهمت الآلة في توجيه فلسفة: العلم والمعرفة والمنطق واللغة، وغاصت في اعماق بنية الشيء ومنهج تحصيله وقوانينه ومعاييره، ووضعت أشكال الفعل وصيغه، كما أحدثت ضوابط العلائق بين التراث الثقافي وأنساق الافكار ونظم التقدم في مختلف وجوه الحياة، والتقدم في صناعة المعلومات من برامج، والكترونيات، وحاسبات، وشبكات، حققت نموا مضطردا، وارتبط تقدم الأمم بصناعة المعلومات، لقد كانت هناك تجارب لدول غير غربية مثل (كوريا الجنوبية) و(ماليزيا) وحتى (اسرائيل)، وهي تجارب مغرية ومحرضة على مبادرات عربية، تتخطى بها دركات التخلف ومذلة التعويل على الغير، وتعد السوق السعودية أكبر مستهلك للمنتجات الالكترونية في العالم العربي، حيث تنفق على الاستيراد في مجال الأجهزة الالكترونية الاستهلاكية اكثر من ثلاثة بلايين ريال، وهي في ظل هذا التلقي الواسع بحاجة إلى المواءمة بين الاستخدام والانتاج والتعريب، والمملكة تمتلك الظروف المواتية لتحقيق التوازن، فهي دولة مستقرة وغنية وذات سمعة طيبة في كافة الأوساط، وهذا قد يوفر لها التسهيلات، وهي قد خطت خطوات في مجال التحول المؤسساتي والانفتاح الاقتصادي، ومن ثم فإن عليها التحرف الجاد للتخطي من منطقة الاستهلاك إلى فضاء الإنتاج، وقبل هذا هي بحاجة إلى إشاعة التقنية، وتمكين الناشئة من الاستخدام المعرفي المنظم، ولا يتأتى ذلك الا بإدخال ثقافة التقنية في مناهج الدراسة والتوسع في قطاع المؤسسات التدريبية والأكاديميات والمعاهد المهنية، ومن المؤشرات الايجابية مشروع وزارة المعارف لإدخال الحاسب بأسلوب مؤسساتي إلى المدارس، وعلينا ان نتذكر في هذا المجال مدينة الملك عبد العزيز وقطاعات التعليم المهني، والمؤلم أن الرؤية المهنية دون المستوى، والمؤسسات المهنية

هي الاخرى دون المستوى، والمناهج التعليمية نظرية، والمؤسسات التربوية بحاجة إلى معامل ومختبرات واجهزة للتدريب وهو ما لم يتحقق في ظل التعليم الفصلي الحشوي، ومع تفاؤلنا ببعض المبادرات، ومع ما نشاهده من توسع وجرأة في التجريب، نظل بحاجة ماسة إلى الثقة وممارسة التطبيق، على أننا مع البوادر الايجابية في المجال الإقليمي لا يجب ان نفكر في ذاتنا، إننا جزء من أمة وحضارة، وكل تقصير عربي سينعكس على الامة العربية كافة، والأمة العربية ليست في معزل، إنها تعيش غزارة في الانتاج الفكري والثقافي العالمي، ومرد ذلك إلى الامكانيات التي اختصرت المسافات، ووفرت الآلة المرنة المفكرة والمركز المعرفي المشفر والمبرمج، ومن اليسير جدا ان يستدعي الباحث الأشباه والنظائر بأقل جهد واسرع وقت، وقد يُدخل المستدعي الطلب ويذهب لقضاء حاجاته حتى إذا عاد وجد المعلومات منسوخة على مئات الأوراق ومطروحة على المنضدة، وهو يفعل اكثر من هذا عندما يدخل على شبكة المعلومات ليطلع على احدث المعلومات وآخر الاحداث وأدق التفاصيل عن اي قضية، وظاهرة (الانترنت) ثورة معرفية كسرت الحواجز، وألغت المسافات، وعددت الخيارات، والمتعاملون مع هذه الشبكة الأخطبوطية، ستكون لديهم ثقافة مغايرة، تفقد الخصوصية والمرجعية، ثقافة عشوائية في نموها، ومن العسير السيطرة على تشعبها وتنوعها وتعدد مرجعياتها، والمتعامل معها دون تأسيس وتحديد سيصاب بالفوضى الفكرية والتيه المعرفي، وليست المسألة منتهية عند توفير الحاجة على حد (واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي)، إن الأمة بحاجة إلى مبادرات لا تقف عند الاستهلاك، فالآلة تخدم حضارة المنتج، اذ ليس هناك حياد، ومن ثم لابد من تدارك الامر، إن هناك تأثيرات قد تصل إلى حد تغييب الحضارة المتلقية.

و(التقنية) مؤثرة بلا شك على كل وجوه الحياة: الدينية واللغوية والأدبية، وقد عالج علم الاجتماع الثقافي في انعكاسات التكنولوجيا على الحياة الثقافية وأثرها في تشكل أدب وثيق الصلة بالواقع الصناعي، وقد ألمح الدارسون لعلاقة الأدب بالتكنولوجيا، وما افرزته تلك العلاقة من ردود فعل، وضربوا مثلا (بفيكتور هوجو) الذي كشف عن شقاء الإنسان، وكتب عن آلامه المرتبطة بالاقتصاد الاقطاعي، إذ أن استخدام الآلة حول رقيق الأرض، إلى صناع، بحيث اختفت الحرف، وضعفت الفنون، وهذا ترك صداه في عالم الفن والأدب والابداع، ومن ثم ظهر ما يسمى بعلم الاجتماع الصناعي، وعلم الاجتماع الثقافي وعلم الاجتماع الاقتصادي، حتى لقد نظروا إلى الحركة والسكون وأثرهما على العملية الإبداعية، وظهرت تبعا لذلك مصطلحات:

الاستاتيكا.

والبراغماتية.

والدراماتيك.

وهي ذات ارتباط بحركة الآلة الداخلية، وما الآلة الا جزء من التقنية، وطبقت هذه المصطلحات على العملية الإبداعية، وظهرت ثقافة الكمبيوتر وأساليب السيطرة عليه، وبلغ التفكير حدا لا يحتمل، حتى ان المطورين فكروا في ايجاد وظائف غاية في الاهمية، بحيث حاولوا ان يقدموا جهازا يستطيع فهم افكارنا قبل ان نقولها أو نكتبها، فالجهاز المزمع إنجازه يتعرف على موجات المخ اثناء التفكير ويحولها إلى كلمات.

و(الثقافة) المتلقية تتعرض للنفي، وما نشاهده من صراع فكري وأدبي وحضاري لا يعد بالضرورة من الظواهر الصحية، إنه نتيجة تسلط ثقافة مهيمنة، و(الثقافة) من خلال المفاهيم والتصورات المتعددة كل معقد، فكل مكتسب ثقافة، وكل بيئة تفرز اللون الثقافي المناسب، وتحافظ عليه، وقد يتحول من الكسب القابل للتغيير إلى الثابت المقدس، وكل

مجتمع متسلط بآلته وإمكانياته تطغى خصوصيته لتقضي على خصوصيات اخرى، فالمجتمع الرعوي غير المجتمع الصناعي، والمجتمع الزراعي يختلف عن المجتمع التجاري، والأقاليم الساحلية تختلف عن الأقاليم الصحراوية، غير ان الاتصالات والمواصلات خففت من حدة الخصائص الاقليمية، وإن أبقت على شيء منها، ولأن الإنسان عاقل مفكر، لم يزود بغرائز ثابتة متحكمة دون وعي، على خلاف الحيوان الذي كل تحركه وسكونه وإقدامه وإحجامه والمحافظة على نوعه إلى منظومة غريزية تتحكم في كل تصرفاته ولا تتغير لا بالزيادة ولا بالنقصان، وقليل من الحيوانات من يوصف بنباهة تقترب من التفكير غير المركب، مما يمكن من توجيه الغرائز توجيها نسبيا، وبخاصة عند المشتغلين ب(السيرك).

إن في الإنسان غرائز تثير وتثار ولكنها محكومة بالعقل والقوانين والمواصفات والأعراف والشرائع، وإذا قلنا بأن الطبيعة هي الهيئة التي خلق الله الاشياء عليها، ولم يتدخل فيها الإنسان، فإن الإنسان ذو جبلة وفطرة، فطره الله عليها، وما اضيف إلى هذه الجبلة والفطرة من قول أو فعل أو غيره فهو ثقافة، وبهذا تتسع الثقافة حتى تشمل كل ما اضيف إلى الخلقة الاولى والطبيعة الاولى، وفي الحديث: ما من مولود يولد إلا على الفطرة، فالإنسان الفطري، ويسمى الإنسان البدائي، والحياة الطبيعية، وتسمى الحياة الفطرية صنوان، كلاهما خارج الثقافة والتغيير، وعندما تكون الثقافة في الاتجاه المعاكس، تحدث اضطرابا في التصور وأخطاءً في الأداء، وهو ما يحذر منه الأسوياء.

إن واجب المؤسسات التربوية ان تقي هذه القابليات، وان تجتهد في حماية الإنسان والجماعة من اي تدخل معرفي أو معلوماتي يضر بمصلحة الأمة، وليس من مصلحة الأمة الخلط بين الثابت الشرعي والمتغير الكسبي في الثقافة والفرز من أصعب الامور واكثرها حسياسية، والذين تناولوا (الثابت) و(المتحول) لم تكن لديهم معايير متفق عليها، والحداثيون منهم يخلطون بين الديني والادبي، والمؤسسات المطالبة بالرصد والتحليل واستخلاص النتائج ووضع الخطط على ضوء ذلك بحاجة إلى استيعاب معرفي، يمكنها من التفريق الدقيق والمأمون بين ما يمكن إضافته إلى الثقافة وما يمكن حذفه منها وما يجب استمراره، وهي بحاجة ماسة إلى مبادرات تتجاوز الرصد إلى التفكير في وضع صيغ عملية، تتخطى بالأمة إلى سدة المشاركة الفعلية في صناعة الحضارة، وكل أمة عظيمة وراءها تربية سليمة وتعليم ملائم لمتطلبات المرحلة، ولأن العالم اليوم يعيش حياة سريعة التقلب، فإن ذلك يتطلب مرونة وقابلية للتغيير الفوري في مناهج التربية والتعليم، والتعليم يجب ألا يوكل إلى اداريين غارقين في تصريف الامور المالية والاجرائية، بل لا بد من مؤسسات تخطط، وتجرب، وتراقب، وتقوّم، وتستشرف، وتطلع على كل أساليب التعليم في العالم: تقارن، وتوازن، وتحسن الاختيار وتوفير الأجواء الملائمة والكتاب المرن والاستاذ المتمكن، التعليم اليوم: آلة ومختبر ومعمل ومكتبة ومقر تتوفر فيه كل الامكانيات والاحتياجات، التعليم الناجح هو المساير لخطط التنمية خطوة خطوة، التعليم في النهاية صناعة، فلا يجوز ان تصنع كوباً وأنت بحاجة إلى حذاء، والجهة الأولى لحماية الثقافة هي التربية والتعليم.

ثقافة التقنية، وتقنية الثقافة .. ! (٤) [1]

ولأن الثقافة مكتسب متعدد المصادر، ولأن هذا المكتسب له تأثيره على السلوك وعلى الأداء وعلى الثوابت، فإننا بحاجة إلى أن نتحكم بالنوع وبالوسيلة، إذ من الممكن أن تكون الوسيلة بطيئة أو قليلة الأداء أو مشوبة الأداء، والبطء والقلة والشوائب في حياة محكومة بالزمن، قد تؤدي إلى خسارة فادحة، ذلك أن الإنسان مكتسب: بالعفوية وبالقصدية، وهذا الاكتساب محكوم بالنواقص الثلاثة أو متحرر منها، وحين تكون الوسيلة سريعة وثرية ونقية، يكون المكتسب متفوقا، والتفوق يقوم بالذات أو تقوم به الذات، وهل أحد منا لا ينشد التفوق في الحياة؟.

تفوق في الأشياء.

وتفوق في المعاني.

والإنسان في النهاية مجموعة قيم، وقديماً قال الشاعر:

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده
فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

ويؤثر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله لأحد جلسائه: تكلم حتى أراك.

وقيل: قل لي ماذا تقرأ أقل لك من أنت.

فمدار القيم الإنسانية على المقروء، وأول صلة بين السماء والأرض استهلت بقوله تعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١ - ٥] .

وهناك لطائف تفسيرية، اشار إليها المعاصرون، وهي الأمر بمطلق القراءة، إذ لم يحدد نوع المقروء ولا زمانه ولا كمه، وإنما أطلق وعمم وجاء الأمر بالفعل ذي الحركة المستمرة، وحين أطلقت القراءة من حيث أنواعها، حددت من حيث مقاصدها، فقيل: باسم ربك أي بما هو مرتبط بمقاصد الإسلام، فأنت تقرأ مستحضرا عظمة الخالق ومطالبه، وفي المقابل لا بد من القراءة التي تكفل العيش الكريم، وفي القرآن الكريم ولا تنس نصيبك من الدنيا، قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، وتوفر العيش الكريم لا يقف عند الشبع والاكتساء، إن هناك قيماً لا تحميها إلا القوة والاستغناء.

وإذا وفرنا الإمكانيات الضامنة للعيش الكريم، وحررنا الوسيلة من كل المآخذ، كان علينا أن نهتم بالنوع المكتسب، ولهذا يقول الشاعر:

إذا غامرت في أمر مروم
فلا تقنع بما دون النجوم

فطعم الموت أمر يسير
كطعم الموت في أمر عظيم

وما دمت ساعيا في طلب تنفق الجهد والوقت والمال، فليكن المطلوب كبيراً.

والشاعر يقول:

---

(١) تاريخ المقال: ١٨/ ٧/ ٢٠٠٠

وإذا كانـــــت النفـــــوس كبـــــاراً
تعبـــت فـــي مرادهـــا الأجســـام

إن الحياة مدرسة مفتوحة وتعليم مستمر، متى دقت الملاحظة، ونشط الوعي، وتحفزت الحواس، وكم من أُناس تمر بهم أحداث، فيعيها قوم، ويخسرها آخرون وقديما قيل: العاقل من وعظ بغيره، والسيىء من لم يستفد من تجاربه هو وإخفاقاته هو، وكثير من العلماء قامت آراؤهم وثقافتهم على دقة الملاحظة والوعي، وخير مثال على ذلك (الجاحظ) الذي قامت كتبه أو بعضها على الملاحظة والتأمل.

وحين نعود إلى محوري الحديث: (التقنية والثقافة) تجدهما يمثلان استمراراً وعمقاً تاريخياً، ولكنهما بلا شك من قضايا العصر الأهم والأخطر، وهما مؤشر الحضارة ومكونها، والثقافة المثالية كالمجوهرات، لا بد لها من حرز مثلها، وإلا علمت الآخر السرقة، وهذا ما حصل لحضارة الأمة الإسلامية، فكم من ملايين المخطوطات الإسلامية خارج الوطن الإسلامي، ومعهد المخطوطات رغم جهوده، لم يحصل على الأقل القليل من ثروة الأمة المنهوبة، إننا بحاجة إلى تقنية تحمي الثقافة من غزو الإلغاء ومن غزو النهب ومن غزو الإفساد، تقنية تسوِّق، وتحفظ، وتنمي، والأمة التي لا تملك ثقافة تؤكد خصوصيتها وتقنية تتقدم بها إلى المشاهد العالمية محققة الندية وتكافؤ الفرص هي أمة عديمة الجدوى فاقدة للأهلية، والأمة العربية بحاجة إلى تفكير جاد وتبصر بالأمور، بحاجة إلى مؤسسات ترسم لها الخطط، وترتب الأولويات، وتراقب التحرك، والتفكير الاقليمي لا يحل الإشكال، فالأمة ذات سياق واحد وإشكالية واحدة ومصير مشترك ومواجهة موحدة، والحضارات الغربية والمدنيات المعاصرة سبقتنا بمنجزاتها وبمؤسساتها وبمطابخها السياسية وبمعاملها ومختبراتها وتصورها السليم لظاهر الحياة الدنيا، ومن ثم هاجرت إليها الأدمغة وقدمت لها الخبرات، وتمكن المهاجرون من التمتع بأجواء علمية ومعرفية مكنتهم من تقديم خبراتهم لحضارة مضادة، إن أملنا كبير وتفاؤلنا واسع وتطلعنا عريض، فنحن نملك الإمكانيات والخامات، ولم يبق إلا التخطيط السليم والبدء المنظم وتبادل الخبرات والإمكانيات والتخلص من النمطية وبطء التحرك والشك وتبادل الاتهامات وممارسة الإسقاط أو الإمعان في التصنيم، إننا بحاجة إلى الثقة بالنفس، والتصور السليم للدين الإسلامي، وتمثله عقيدة ومنهج حياة، واتجاه النخب الفكرية والإبداعية إلى تفهم المرحلة ومتطلباتها ووعي الآخر، ومن ثم صياغة الأسلوب الأمثل للتعامل معه، واختيار الأسلوب الأجدى للتعامل مع الذات، وليس أهم من التعاون على البر والتقوى والعمل الأسمى الذي يحقق كرامة الإنسان.

إن هناك اختراقاً ثقافياً مخيفاً جاء عبر: الشاشة التلفازية، وعبر قنوات البث الفضائي، وعبر شبكات المعلومات، وعبر المستغربين من أبناء الأمة الذين أهدروا طاقاتهم في خدمة الآخر، ومن خلال الآلة المستعملة في المصنع والسوق والبيت والثقافة المضادة حاضرة معنا في كل موقع، ومن ثم فقد تعددت مجالات الغزو، ومن أخطر الثغرات المهملة ثغرة ما زالت دون مرحلة الأماني، إنها ثقافة الطفل وتسلية الطفل وتعليم الطفل، فهل فكرت مؤسساتنا بإنقاذ الأطفال من البرامج المدبلجة وأفلام الكرتون المستغربة، لقد خافت (كندا) من سطوة الإعلام الأمريكي، وهي شريكتها في الحضارة واللغة والدين، ولم يساورنا نحن المسلمين بعض من هذا الخوف، إننا نعيش غفلة مستحكمة معتقة، وكل ما ينفذ إلينا يصل على مطايا التقنية، ونحن بحاجة إلى إبطال فعاليات هذا الاختراق الذي وصل حد الانتهاك، لا بالرفض، ولا بالانكفاء، ولا بمجرد التحذير والتحريم، إننا بحاجة إلى الدخول بحضارتنا لنحتل موقعاً مماثلاً ونستغل زمناً

مساوياً، إن الاختراقات الغربية تفوق التصور، وهيمنة القطب الواحد أقلقت الأقربين، حتى أن المنظومة الغربية انتابها بعض الذعر والخوف من تسلط بعض أجزائها على بعض، فـ(فرنسا) مثلا أخذت حذرها من طغيان الثقافة الأمريكية، و(كندا) بدأت تشك في قدرتها على إشاعة ثقافة اقليمية، و(أوروبا) بكاملها بدأت تتكتل، وتتوحد، وتتسق فيما بينها، لتحول دون هيمنة القطب الواحد، ولتحفظ التوازن، وإذا كانت المؤسسات التربوية والتعليمية غير قادرة على صد هذا الاختراق، وغير قادرة على إنجاز ثقافة مهيمنة ومنافسة، فإننا غير واثقين بالمؤسسات الإعلامية والمراكز المعلوماتية، إننا لكي نضمن الحياة السوية لابد أن نحفظ التوازن أمام ضراوة التحدي، والأمة المنتهكة في مواقع كثيرة، يكون من فروضها الأهم حماية ثقافية، لا تغلق الحدود، وإنما تصنع الثقافة المنافسة، ولا تشوش على القنوات، وإنما تصنع قنوات متكافئة، والأمة العربية التي أخفقت في صياغة الوحدة الاقليمية، ربما تكون قادرة على صناعة ثقافة موحدة، تنازل الثقافات المتعالية، وتستعيد بعض مواقعها، إن احتلال شبر من الأرض يحفز على إعلان حرب عسكرية واحتلال فضاءات ثقافية لا يحرك ساكناً، والأرض مهما طال احتلالها لا يترتب على استعادتها أي مشروع تغييري، فالأرض هي الأرض، لا يتطلب أمر استعادتها إلا تراجع العدو، أما انتهاك الثقافة فشيء آخر واستعادتها لا تكون استلاماً وتسليماً، إنها عمل شاق وطويل.

إن هناك هجمة على ثقافتنا وهناك اساليب استعمارية أحدثت عندنا أزمة ثقافية، نشأت من حرب ثقافية طاحنة، أحدثت الخلاف فيما بيننا فكان منا الشرقي وكان منا الغربي، وواجبنا أن نفكر بمشروع عربي نوفر فيه الأمن الثقافي، ونصد فيه الغزو الثقافي، ولا يتأتى ذلك إلا بالخطة الشاملة للثقافة العربية، وإنجاز أقمار عربية تأخذ نصيبها من الفضاء المشحون بكل الوان الثقافات وإعداد مشروع إعلامي، يخترق اجواء الآخر، ويقدم حضارة الأمة الإسلامية، إن علينا أن نعرف أسباب التخلف العلمي والتقني المتمثلة في: تمزق العالم الإسلامي وتناحره: تمزقه اقليمياً وفكرياً واجتماعياً، وتفشي الأمية بمفهومها العام، وبمفهومها التخصصي واستمرار التعليم المتنافي مع خطط التنمية ومتطلبات المرحلة، وعدم تمويل المشاريع العلمية والتقنية بالقدر الكافي والمغري للأدمغة المهاجرة بالعودة إلى بلادها واستيراد المناهج والأساليب الغربية دون النظر في ملاءمتها للحضارة الإسلامية، والاعتماد على الغرب كمصدر وحيد للاستفادة، وهو المتمنع في تصدير التقنية واسرارها، وانعدام التخطيط السليم، والتقصير في تمويل البحث العلمي، وعدم توفير الوسائل والأجواء الملائمة للعلماء.

إن مراجعة عجلى لكتاب (قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر) تضع الأيدي على مكامن الداء ووسائل العلاج، والأمة الإسلامية لا تنقصها المعرفة بالأوضاع والأسباب والوسائل، ولكنها بحاجة ماسة إلى المبادرة والفعل المنظم.

فهل نستطيع التخطي من جلد الذات إلى معالجتها؟ ومن توبيخها إلى تشجيعها، وشحذ همتها واستثارة مكامن التفوق فيها؟ لقد مللنا من التلاوم، ومللنا من الإحباط ومملنا من التناحر حول مشروع الآخر، إن خطاباتنا المتعددة لا تخرج عن مواجهة الحضارة المهيمنة أو موالاتها، وما أحد منا ترك الصدام واتجه صوب العمل وطرح مشروع حضاري يملك الاستقلالية والمبادرة، ويحرك الأنصار والخصوم، إن واقعنا لا يتسم بالتخلف وحسب، إنه مصاب بداء التنازع والحرب الداخلية لحساب الآخر، فهل نعي حجم الخسائر الفادحة من ممارسة فتح الطريق أمام قوافل الحضارة الغربية؟ لقد ضقنا ذرعاً من التلاحي والجدل العقيم، ولم يبق إلا أن نتجه صوب التفكير الجاد في بدء الخطوة الأولى، إن (ثقافة التقنية، وتقنية الثقافة) لا تعني معرفة الآلة والاعتماد على مصدريتها

واستهلاكها، إن ما نمارسه ونتقنه جزء من الثقافة، وهو الجزء الاقل أهمية، إننا لكي نتقدم بأنفسنا إلى المشاهد العالمية بوضع وصيغة مشرفة، لابد أن نكون قادرين على مشاركة العالم مهمة الاختراع والانتاج، ان المستهلك معول، حتى وإن امتلك قيمة ما يستهلك، والأمة الأضعف هي التي تأكل من زراعة الغير، وتلبس من نسيج الغير، وتدافع عن نفسها بسلاح الغير، وتعتمد على مناهج الغير في التربية والتعليم، والأمة الأجهل هي الأمة التي تفقد مقومات الوجود السوي، ثم تتطلع إلى مشاركة العالم في اتخاذ القرارات المصيرية، والأمة الأحمق هي التي تنتظر العدل والإنصاف من خصومها، ومن أراد السلم والسلام فليستعد للحرب: (والظلم من شيم النفوس) ولا يصنع الهيبة إلا القوة: قوة السلاح والاقتصاد والفكر والعلم، وإلا الوحدة: وحدة الصف ووحدة الهدف ووحدة الفكر ووحدة الثقافة.

قدوة الرجال .. ![1]

المجتمع النظيف من يقدم التضحيات على مستوى الأفراد والجماعات، والإيثار سمة رجولية، تقمع الأثرة وتطفئ الجشع، وتخلق الألفة والمحبة في المجتمع وقد أثنى القرآن الكريم على المؤثرين على أنفسهم في المأكل والمشرب والملبس وما فيما هو مثل ذلك مع ما يعانونه من خصاصة، وفي الحديث (الصدقة برهان) لأنها ممارسة فعلية لانفاق المال وتحويل ملكيته إلى الآخر بالطوع والاختيار، فهو يبرهن عن إيمان الشخص وتعاليه فوق الشهوات وقمعه لتحكيم الغرائز، فحب التملك غريزة، والخوف والشح يقويان التعلق بالمال، والشيطان هو الذي يخوف اولياءه ويعدهم بالفقر، والله حين يناشد الإقراض فإنما يريد الحد من الجشع والبخل والاثرة، ويحث على إشاعة التكافل الاجتماعي وخلق البناء المرصوص والجسم الواحد، ذلك على مستوى الاموال، والمال تنفقه فيخلف الله عليك، والصدقة لا تنقص المال بل تزده، ولكن عندما يكون الانفاق من نوع آخر، هنا تكون الرجولة، وتكون الشهامة، ويكون الإيثار الحقيقي، والطب الحديث حين تقدم في زراعة الاعضاء اصبح الأمر بيد الأصحاء والقادرين الذين يضحون بأعز ما يملكون لأغلى من يحبون، ان يدخل الانسان في موت دماغي، ثم يقوم أولياؤه بالتبرع بما صلح من اعضائه، فذلك لون من الإيثار والإحسان، ولكنه دون ان يمارس إنسان صحيح شحيح يستقبل الحياة بشباب وحيوية التنازل عن عضو من اعضائه، أن يتبرع شاب بجزء من جسمه، ويعرض نفسه للتدخل الجراحي في مغامرة محفوفة بالمخاطر فأمر في غاية الأهمية وغاية الايثار وأكمل البر والصلة ويزيد الإعجاب والإكبار حين ينقذ الشاب حياة والده الذي تقطعت به الاسباب، إن هذا الإنسان يبلغ ذروة المثالية وقمة الرجولة وغاية الانسانية، إنه اجتياز القنطرة والوصول إلى ذروة الإنسانية، ورجل بهذه المبادرة يكون بحق قدوة للرجال، وذلك ما فعله الاستاذ الدكتور عمر بن عبد العزيز المسند عندما تبرع لوالده الشيخ عبد العزيز المسند بإحدى كليتيه، لقد تعرض الشيخ لفشل كلوي، وبقدر الصدمة التي آلمتنا عند سماع الحدث، كانت السعادة والابتهاج حين تمت عملية التبرع والزراعة بنجاح، وخرج الابن والاب إلى بيتهما بصحة جيدة، ان تبرع الابن البار لوالده تبرع لكل المحبين للشيخ، فقد نهض بمهمة جماعية، وناب عن محبي الشيخ وما اكثرهم، وعودة الشيخ إلى الحياة من جديد سليما معافى أمل يتطلع اليه الذين عرفوا الشيخ وخالطوه وعمهم نفعه من خلال إسهاماته المتعددة وسعيه الدؤوب في حاجات الناس، وحل مشاكلهم وفك اسرهم ومناصحتهم، وتقديم المشورة لهم.

لقد كان حفظه الله سباقا إلى كل خير، ومن ثم استقبل الجميع نجاح العملية بالابتهاج، ولا سيما انها تمت بطريقة ملفتة للنظر مثيرة للمشاعر، إن ما فعله الابن البار المثالي متوقع من مثله فهو سليل اسرة كريمة وخريج منزل محافظ يفيض بعبق العلم والايمان، وكيف لا يؤثر والده على نفسه، والشيخ ليس ابا لابنائه الصلبية، وإنما هو أب لآلاف الشباب والشابات، بما يتمتع به من دماثة خلق وإحساس أبوي ازاء الجميع وبذل العلم والجاه والمال في سبيل الوطن والمواطنين.

لقد عرفت الشيخ عبد العزيز المسند عن قرب، وعرفت فيه خصالا تحببه إلى العامة والخاصة، فهو ابن بريدة البار، وهو عضو مجلس ادارة نادي القصيم الأدبي ببريدة، وهو الفاعل في مواقع كثيرة وجمعيات متعددة ولجان متنوعة، وهو الرجل الاجتماعي المتفاعل مع حاجات المجتمع، والساعي على الأرملة واليتيم والمسكين، نسأل الله له

---

(١) تاريخ المقال: ٥/ ٧/ ٢٠٠٠

الشفاء العاجل والعودة الكريمة إلى مواقعه التي تحن إلى مثله، وأجزل الله المثوبة للابن البار الدكتور عمر الذي انقذ حياة والده، وجعل ذلك في ميزان حسناته، واسبغ عليه الصحة والعافية، وأمد في عمره، وجعله قدوة لشباب الأمة ليكون الإيثار دأبهم والتضحية سبيلهم، وليس بمستغرب على مجتمع إسلامي نظيف أن يكون عمر واحدا من آلاف الشباب البررة.

المرأة، وقيادة السيارة .. !(١)

في ظل الإلحاح الغربي على قضايا المرأة والتدخل السافر والمتعالي في عمق قضايا الأمة لردها عن دينها والإبقاء على تخلفها وتبعيتها، وفي أجواء التعالق الأبله من العلمانيين والظلاميين من مدعي التنوير الذين طالبوا بالاستغراب والعلمنة، والأخذ المطلق وغير المشروط بكل معطيات الحضارة الغربية، مع هذا الطرح المشبوه، ومع حملات التشكيك والإفساد الحاقدة، ومع عقد مؤتمرات الأرض والسكان وفجاجة التوصيات وجورها، ومع استذكار رموز التظليم والتضليل ونبش رفات قاسم أمين ومقولاته وإحياء دعوته بعقد لقاء فكري بعد مرور مائة سنة على تأليفه لكتاب تحرير المرأة، وإصدار الملفات والدوريات وعقد المؤتمرات، في ظل كل هذه الضجة يكون الحديث عن المرأة حساساً وشاقاً ومحفوفا بالمزالق، والقنات الفضائية ووسائل الإعلام الاستفزازية والفضائحية تتخطف النخب والمفكرين والمغامرين وكبار الشخصيات والمؤثرين لتبتسر منهم كلمة تشد بها عضد التبعيين، وتظفر ولو بمفحص قطاة في بؤر الضوء وشد الانتباه، ولأن المملكة بما وهبها الله من امكانيات متعددة تمثل الثقل الأهم على كل الأصعدة في العالمين العربي والإسلامي، ولأن أخذها بعصم الكوافر مؤذن بتساقط المحتمين بها في القبض على الجمر، فإنها المصدر والمورد لتلك الإثارات ولهذه المساءلات، والتجاوزات والانتهاكات تقرضها ذات اليمين وذات الشمال، لتذرها كالمعلقة ولكن الله وعد بنصر من ينصره، ومن أوفى بعهده من الله؟ ومن ثم فهي في كل يوم تستبشر ببيعها، ولن يضرها من خذلها بالتنصل أو بالمؤاخذة أو خالفها بالخروج عن منهج الله.

في هذا السياق والسباق المحموم تتفلت ألسنة بما تخفي صدورها، فحين يجري الحديث عن الحرية والديمقراطية وحقوق المرأة والإنسان تضرب بالمملكة الأمثال في سبيل الهمز واللمز والسخرية، بادعاء إن الإسلام لا يمنع قيادة المرأة للسيارة وان منع المراة في المملكة من قيادة السيارة وحرمانها من بعض حقوقها إنما هي عادات وتقاليد فرضت نفسها، وليست من الإسلام في شيء.

وفي بعض هذا الكلام حق، وعلى بعضه بعض التحفظات والملاحظات، ونحن نمضي معه إلى حد، بحيث نرى أن هناك عادات ليست من الإسلام في شيء، وهي عادات لم تضعها الدولة، ولم تحمها، ولما يقلع الجهلة من المواطنين عنها، وهي ممارسات مازال العلماء والأدباء والإعلاميون ومناهج التربية يحذرون منها، ويحثون الناس على تجنبها، وقد تكون من نتائج الفهم الخاطئ للقوامة والتفضيل الإسلامي.

والعادات والتقاليد السيئة تسود مجتمعات كثيرة: إسلامية وغير إسلامية عربية وغير عربية، وليست المملكة بدعاً من الأمر، ذلك ما نتفق عليه، غير أن هناك قضايا أخرى يراها البعض من العادات والتقاليد، وهي في الحقيقة من التشريع الإسلامي، والتشريع لا يكون بالضرورة مدعوماً بالنص، فهناك مصادر تشريعية كالقياس والاجماع والاستحسان والاستصحاب والمصالح المرسلة، إضافة إلى كل أنظمة الدولة المسلمة المستقاة من مقاصد الشريعة وروحها وهي ملزمة، وذات قوة تشريعية، ولأن المملكة مستهدفة في أمور كثيرة ومحاربة حتى في قضائها الشرعي، ومنظمة حقوق الإنسان تطلق بين الحين والآخر كلمات توحي بانتزاع الحاكمية الإسلامية من بين يديها، فإن المؤمل من كفاءات الوطن ورجالات الدولة وعلمائها وأدبائها أن يكونوا ردءاً لهم حتى وإن كانت لهم آراء

---

(١) تاريخ المقال: ٢٥/ ٧/ ٢٠٠٠

يختلفون فيها مع المؤسسات التشريعية، فيما مجاله الاجتهاد والتغليب، ولن أناقش في هذه الإضافة إلا موضوعاً واحداً، وهو المرأة وقيادة السيارة.

ومما لا مراء فيه أن لإسلام لا يمنع بالنص ولا بالتنصيص من أن تقود المرأة السيارة، وما أحد من علماء الأمة قال بهذا، ولو قال لطلب منه البرهان ولا برهان، ولأنالسيارة وقيادتها وما يتعلق بها من أحكام وما تسببه من جنايات من النوازل التي جدت على المسلمين، وليس بين يدي العلماء نص صريح في المنع يعولون عليه، فإن الأمر في مثل هذه الحالة مفوض إلى ولي الأمر الذي يستمد أنظمته وتعليماته من الشريعة مستعيناً بالفقهاء والعلماء ممن يملكون أهلية الاجتهاد، وهم أهل الحل والعقد، وطاعته فيما يتوصل إليه اجتهاد العلماء وما يقره من ذلك الاجتهاد واجبة، ومن مقتضيات البيعة الشرعية طاعة ولي الأمر في المنشط والمكره والأخذ برأي الجماعة وعدم الخروج على شيء من ذلك، وليس من حرية الرأي والتعبير ما يؤدي إلى مخالفة الجماعة، ويد الله مع الجماعة، وولي الأمر من واجبه أن يتداول حكم النوازل مع العلماء، وعلى العلماء أن ينظروا في الأمر من حيث المضار والمنافع، فإذا غلبت المنافع على المضار أباحوه، وإذا غلبت المضار على المنافع منعوه، كما يجب على العلماء تحامي الانفراد بالفتوى الملزمة والمصير إلى الاجتهاد الجماعي المؤسساتي لوقاية الأمة من التنازع وضياع هيبة السلطان واحترام العلماء، والأنظمة والتعليمات على هذه الشاكلة ملزمة، وإذا أصدر ولي الأمر منعاً بشيء أخذ حكم التحريم، وإذا أصدر ترخيصاً بشيء أخذ حكم المباح، شريطة ألا يكون في أمره ومنعه مخالفة صريحة لنص قطعي الدلالة والثبوت، أو لما هو معلوم من الدين بالضرورة، أو لما يترتب على حكمه إضرار بمصلحة المسلمين، والقاعدة الشرعية: ألا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وطاعة ولي الأمر من متممات البيعة الشرعية وواجب الأدباء والمفكرين معرفة ذلك، وإذا اقتضت المصلحة مراجعة أي إجراء، فالواجب فعل ذلك عبر القنوات المشروعة، دون النيل من المؤسسات التشريعية والتنفيذية، وولي الأمر بوصفه فرداً لا يعود عليه المنع ولا الإباحة بالنفع أو بالضرر الشخصي، وهو يستوحي قراراته التشريعية من الكتاب والسنة، ولا يتخذ قراره ارتجالاً ولا مجازفة، ولو أن فقهاء الأمة أجازوا قيادة المرأة للسيارة، فإن ولي الأمر سيبادر إلى قبوله وتنفيذه، وإذا أراد أحد أن تيساءل حول مشروعية الأنظمة والتعليمات والأوامر فإن هذا حق مشروع، ولكن يجب ألا يكون التساؤل متصوراً الخطأ المحض والصواب المحض، بل يكون تحت إمكانية تعدد الخيارات، ثم يجب ألا يكال الذم والاتهام لأي جهة عند تبادل الآراء وتداول الرغبات، فالدولة اليوم دولة مؤسسات وفرق عمل، قراراتها ليست مرتجلة ولا فردية، وفي الوقت ذاته لا يجوز التخندق مع المغرضين ودعاة العلمانية والتنويرية، ممن يرون أن تطبيق الشريعة يحول دون التقدم، تأسياً بالتنويريين المسحيين الذين أرسوا قواعد العلمانية الشاملة.

ومنع المرأة من قيادة السيارة لا يمس حقها، ولا يغض من مكانتها، ولا نعكس أثره على مصالح الأمة، ولا يترتب عليه تقدم أو تخلف، ولا يكون سبباً في تعويق أي مشروع حضاري، وقد نظر فيه فقهاء الأمة من باب درء المفاسد، لأن القاعدة الفقهية تقدم درء المفاسد على جلب المصالح، ذلك رأيهم الذي رأوه واختيارهم الذي اختاروه، وهم صادقون ناصحون مخلصون حريصون على التماس الحق وتحقيق المصلحة، والمؤكد أن قيادة المرأة للسيارة فيه جلب لمصالح، ولكنها لا تدرء المفاسد، والفقهاء لا يقصدون بفتاوهم التضييق على الناس، ولا يريدون من وراء ذلك إلا مصالح المسلمين وصيانة أعراضهم وكف الأذى عن نسائهم، والحكم بالمنع ناتج اجتهاد موفق وتغليب ناصح، وليس ناتج نص قطعي الدلالة والثبوت، ومن ثم فإن من المتوقع أن تختلف الأحكام

باختلاف الظروف والأحوال، وعلماؤنا يعرفون أن في منع المرأة من قيادة السيارة مزيداً من التكاليف يتحملها الزوج والأخ والأب، وأن منعها من قيادة السيارة مدعاة لجلب السائقين الأجانب بالآلاف من الخارج، وأن هناك مفاسد من هؤلاء، وهم على بينة من ذلك وعلى علم، ولهم اتصالاتهم وتواصلهم مع رجال الأمن ومع كبار المسؤولين، وليسوا في معزل عما يجري في البلاد من مشاكل، وليسوا في معزل عن فقه الواقع القائم على التقدير والتوقيت ومراعاة الأحوال، ولكنهم مع هذا يرون والرأي الصائب معهم أن هذه الأضرار وتلك المشاكل الناتجة عن المنع أقل بكثير مما لو سمح للمرأة بقيادة السيارة، والحكم الذي أصدروه وتبنته الدولة ليس نهائياً، لأنه لا ينص على التحريم، وإنما يقوم على المنع، ومن ثم فقد يبدوا لهم بعد أمة أن الرأي الآخر هو الأصوب، ويجب على الأمة المسلمة التي وضعت في رقبتها البيعة أن تتحمل تبعاتها، وأن تتفهم مقتضياتها، وأن تحترم علماء الأمة ولا تجعلهم عرضة للنيل والتجهيل، وما أحد منهم قصر في حكم وما منهم أحد على خطأ، وهم في النهاية بشر عرضة للخطأ، وعند المراجعة لابد من تبادل الثقة والاحترام، إذ لا تصلح أمور الناس بالفوضى والتجرؤ على الفتيا، وما دمنا رضينا بالحاكمية الإسلامية، فإن علينا أن نتقبل كل متطلباتها، فالجنة محفوفة بالمكاره، والنار محفوفة بالشهوات، وليست الحرية أن تفعل ما تريد، كما يتصور البعض، فالله وحده الفعال لما يريد، أما المسلم فقد أحلت له الطيبات، وحرمت عليه الخبائث، ومنع من الشهوات، وعوض عنها بما هو أغنى وأقنى، وبما هو أهدى وأجدى، والدين متين، وقول الله ثقيل، والإيمان وحده هو الذي يجعل ممارسة الطاعات راحة، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول لبلال: أرحنا يابلال بالصلاة، وهو الذي يقول: أثقل الصلوات على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر، فالإسلام ليس بالتحلي ولا بالتمني، إن له تبعات وتكاليف، وهو ثقيل على من يعبد ون الله على حرف ومريح للمؤمنين الصادقين الصابرين على الطاعة، وواجب المسلم أن يتقبل ذلك بصدر رحب، وإذا رابه أمر فليسأل أهل الذكر، فداء العي السؤال، وما دام أن ولي أمر المسلمين غلب المصلحة الأعم على المصلحة العامة، فإن واجب الرعية السمع والطاعة وعدم إثارة الزوابع وتوهين العزائم، فنحن في زمن انتقاض الإسلام عروة عروة، وويل للذين يقترفون سن السيئات، ويتصدون للحق، ويمارسون الاجتهاد وليست لديهم آلياته وشروطه.

ومع تقديري واحترامي للآراء المخالفة، ومع حسن الظن بالأكثرين ممن يخالفون أو يتساءلون، فإن من واجبي أن أعرب عن رؤيتي، وأن أستشرف آراء الآخرين بحثاً عن الحق، فمثل هذه القضايا من الأمور الخلافية، والمسألة تدخل في نطاق التغليب لا أكثر ولا أقل، وإذا غلب ولي الأمر ومعه أهل الحل والعقد جانب المنع لزم الأمة القبول والرضى، وبخاصة في القضايا التي تمس العامة وتختلف فيها الآراء، ولا يكون حسمها إلا بقرار من ولي الأمر، تراعي فيه المقاصد الشرعية ومصالح الرعية، وتحترم فيه المشاعر العامة، ويحقق فيه ولو أدنى حد من المصلحة، وإذا كان ولي الأمر يقرر الحرب والسلام ويحسم القضايا الهامة بقرار يصدره، فلماذا نختلف معه في هذه القضية بالذات، والمصلحة في اجتماع الكلمة ولو على المفضول، واجتماع كلمة الأمة دينياً وفكرياً أنفع للأمة من تتبع الرخص؟.

لقد سمعت كلاماً كثيراً حول المرأة، وقرأت ماهو أكثر، وتابعت ما عقد من مؤتمرات مشبوهة اتهمت فيها بعض المجتمعات بظلم المرأة وطالب فيها البعض بالمساواة المطلقة، وتأكد لي أن في الأمر مكيدة ومكر، ومما هو غائب أو مغيب عن البعض أن المرأة في المملكة بوصفها دولة إسلامية معززة مكرمة تمارس حقوقها: تعليمياً ووظيفياً وتجارياً، ولا يمارس معها إلا منع التبرج والاختلاط والخلوة والخضوع في القول تفادياً

لأطماع ذوي العقول المريضة، وفي ذلك احترام لإنسانيتها، إذ لم تعد جسداً لإشباع النزوات، ومن ثم فإنها لاتعمل إلا حيث تقوم الحاجة صيانة لكرامتها وتطهيراً لعفتها، وفي ظل هذا الوضع السوي للمرأة السعودية لا يجوز القول بأن وضعها في المملكة يحتاج إلى تدارك، ولا يجوز أن نشايع القائلين بحرية المرأة أو المتحدثين عن قضاياها في غياب الموقف الإسلامي منها، ولعلنا ندرك مقاصد ما يتداول من كلمات جبانة تعتمد الهمز واللمز والحديث عن التأنيث ونون النسوة والثقافة السائدة وقاسم أمين، وهي أحاديث تتوفر على نافقاء للهروب أو التأويل ساعة المساءلة.

والمؤكد بعد كل ما سبق أن الدولة لم تحرم قيادة السيارة وإنما منعتها، وهناك فرق كبير بين التحريم والمنع، إذ التحريم لا يمكن العدول عنه، بينما المنع مرتبط بأسبابه وعوارضه، والمعروف أن نساء البادية ونساء أصحاب المزارع الكبيرة في المملكة يقدن السيارات في المراعي وداخل المزارع وكذلك زوجات المبتعثين، والعلماء النابهون الناصحون لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم يراعون الأحوال وطبيعة البلاد عند الفتاوى وإصدار الأحكام، ومن الخير للبلاد والعباد هيبة السلطان واحترام العلماء، ولا تجتمع كلمة الأمة إذا أباح كل إنسان لنفسه أن يقطع بصحة رأيه في شؤون الأمة المحسومة من المؤسسات الدستورية والتشريعية والشورية، فهذه المؤسسات من طبعها ألا ترضى الكافة، وإنما ترضي الأغلبية وعلى الاقلية المخالفة انها ارضيت باشياء لم تكن على هوى الاغلبية، إذ الأمة لا يمكن أن تجتمع كلمتها على شيء، وتلك سنة الحياة، صراع مستمر وخلاف متواصل، ولا يزال الناس مختلفين إلا من رحم ربك، وقليل ما هم، ولكن يجب أن نعرف أدبيات الاختلاف ومجالاته، ويجب أن نقف على مكائد الأعداء وتجاوزاتهم وتدخلهم حتى في خصوصيات الأمة وثوابتها، وعلى الأجهزة المعنية أن يرحب صدرها لكل رأي ناصح يملك شرط الاجتهاد، ويستصحب أهمية التوقيت المناسب للقول والتقدير المتكافئ مع الحدث وملابساته، كما يجب تفهم الأشياء وأخذها في سياقاتها والرفق وحسن الظن بالمخالف إذا كان طالباً للحق مذعنا له متى بان، فإحقاق الحق يتم مع الصفاء والوفاق، ولنا عودة مفصلة حول المرأة بوصفها إشكالية تتنامى قضاياها في ظل المحدثات والروح الانهزامية، والله المسؤول في أن يجري الحق على ألسنتنا وفي عصمتنا من الزلل.

وآخر قولنا: إن ما نقول قابل للرد، وما نطلبه اللطف في التصويب، لا رد النقد، والأمة لن تعيش الحياة السوية إلا بالتناصح.

وعي الذات والآخر طريق الفاعلية .. ؟ (١) [1]

العنوان أي عنوان سواء: أكان على جدار أو على صفحة كتاب أو في صدر مقال أو على رأس بحث، يشكل تساؤلاً، ويثير قضية، وقد اطلقت كلمة (لافتة) على اللوحات الجدارية، لمجرد أنها تلفت نظر عابري السبيل إلى ما في داخل المبنى أو تلك المؤسسة، بحيث تكون تلك المنشأة اجابة أولية لعبارة هذه اللافتة، وما في اخل الكتاب يكون جواباً تقريبياً للعنوان.

الكتابة إذاً اجابة لتساؤل، يضعه الكاتب عنوانا لكتابته أو مقالته أو محاضرته، وحين يند الكاتب أو يشطح أو لا يجيب على تساؤله الذي طرحه باختياره، يعاب عليه ذلك، ويوصف فعله بخداع العناوين، وقد قيل عن تفسير الرازي: (فيه كل شيء إلا التفسير) وهي مقولة ناقدة، تجمل أفدح العيوب في العمل، فإذا فقد المشروع وظيفته الرئيسة، واشتغل بهوامش لاتحرر مسألة، ولاتحقق معلومة، كان عملا متجنيا لا يؤبه به، ولا يلتفت إليه، ومن ثم كان لابد من تحديد مقاصد فقرات التساؤل ومدلولاتها التركيبية بوصفه عنواناً ينهض بدلالة تقارب المصطلح ولا تكون إياه، (فالوعي) هنا على الأقل لايعني قابلية التجميع الحسي داخل وعاء، لقد تجاوزت كلمة (الوعي) مدلولها المعجمي المحدود إلى آفاق دلالية متنامية، يتعذر احتواؤها، واصبحت ذات دلالات اصطلاحية ولغوية وحضارية متعددة، تفهم من السياق أو الانساق أو مما استقر في الذهن.

وحين نلتقط كلمة (وعي) من سياقاتها المعرفية المتعددة، ونحاول تخليصها من تبعات التعدد الدلالي الذي يقترب من حد التناقض لتكون ذات مدلول واحدي، ينهض بمراد التساؤل الذي طرحناه، نكون قد قاربنا المراد واقتربنا من تحديد الغاية.

(والوعي) إذاً كما نريده: إدراك الشيء في سياقات متعددة وعلاقات متنوعة إدراكاً يعطي لكل سياق ولكل علاقة أداءً مغايراً ومفهوماً مغايراً، بحيث يجعل الشيء أشياء قد تناقض بعضها، وذلك مكمن الخطورة ومكمن أهمية الوعي الذي نسعى لتحقيقه، ولك ان تضيف (الوعي) مع تلك التعددية السياقية إلى مالا نهاية له، بحيث يتعدد مدلوله السياقي بتعدد الاضافات أو الصفات تقول: وعي ديني، وسياسي واجتماعي وفكري،،، الخ، وهنا نستعيد كلمة (وعي) بعد وعي مدلولها لا من خلال مادتها اللغوية وإنما من خلال سياقات تصورية أو افتراضية أو من خلال استقرار مصطلحي، وعلى هذا الأساس (فالوعي) ليس مجرد إدراك الدلالة اللغوية المباشرة للشيء مفصولاً من سياقه ومن علاقاته ومن نتائج هذه العلاقات ومن التحولات الدلالية عبر الزمن، وهنا تقترب مقاصدنا (بالوعي) من التحرر والتميز، بحيث يكون مصطلحا لا يفارق الدلالة الوضعية، وإنما ينطلق منها متنامياً مع الأنساق والسياقات والعلاقات، والوعي في ضوء سياقاته المتعددة اصبح من اشكالية العصر المعقدة، والذين يعرفون الاشياء مستقلة مجزأة أو مبتسرة من ملابساتها وظروفها وأنماط واقعها، ولا يضعون حسابا للعلاقات يمنون بالاخفاق والاحباط، فالوعي المراد في بحثنا هذا وفيما يشاكله يعني: إدراك علاقة الاشياء بغيرها، أو ما تنشئه تلك العلاقات من متغيرات ليست على وتيرة واحدة، وفرق بين خصائص الشيء مجرداً وعلاقاته الناشئة من المجاورة أو المفاعلة، فالماء شيء، وحين يتفاعل مع مواد أخرى يكون شيئاً آخر، هذا على مستوى المحسوسات، أما على مستوى المعنويات فالامر أعمق في تصوره، والاداء المنتج إنما هو وليد تفاعل الأشياء مع غيرها عبر علاقات ليست من خصائصها بالضرورة، فشروط قيادة السيارة علم، وممارساتها مهارة وفن، والطريق

---

(١) تاريخ المقال: ١/ ٨/ ٢٠٠٠

مضمار لممارسة القيادة، وعلاقة المركبة بالمضمار ليست ماثلة كالمركبة والطريق، إنما شيء آخر يصنعها الوعي بالعلاقة بين الطريق والمركبة وسمات كل منهما ومميزاته وظروفه الطارئة أو الملازمة، ذلك مثل أردنا طرحة لنقترب من فهم الوعي الذي نريد، الوعي الذي يكاد غائباً عن الأكثرين، ممن يتصورون انهم أوعى من غيرهم، ومكمن الخطورة في غياب مثل هذا النوع من الوعي عندما يكون واقعاً في النخبة، متمكنا من المثقفين، وأصحاب الخطاب المتعدد الانتماءات، الوعي الذي نسعى جهدنا لتأكيده وتنميته مزيج من قدرات وملكات متعددة، قدرات استيعابية، وقدرات تصنيفية، وقدرات تحليلة، وقدرات استنتاجية، وقدرات تفعيلية لا انفعالية، وقدرات ابتكارية لا استلابية، وقدرات عملية منتجة، وقدرات معرفية، إنه القدرة على فهم الاشياء مجردة، وفهمها متلبسة بغيرها، وفهمها في إطار تحولاتها وعلاقاتها، ثم هو القدرة على التكيف مع المتغير، واستغلال المعرفة المتاحة، وممارسة الفعل على ضوء معرفة متعددة المستويات.

إنه القدرة على انتقاء البديل الامثل في مواجهة الطارئ، إنه التصرف الأكثر دقة وانضباطاً في المواقف المفاجئة والحرجة والمتداخلة، إنه الفعل الحضاري التجاوزي القصدي التأسيسي لا التنقلي من سراب لآخر، إنه القدرة على التحكم بالذات وامتلاك المشاعر وترشيد العواطف في كل المواقف الذاتية والغيرية، وضبط النفس، إنه المبادرة واتخاذ القرار في أحلك الظروف، إنه حوار الحضارات دونما تشنج أو صدام، ودونما خنوع أو استسلام، هذا هو حلمنا، وهذا هو هاجسنا، وهذا هو تطلعنا، يروى أن معاوية الحليم، وعمرو بن العاص الداهية، تفاضلاً في مواجهة المعضلات، فقال معاوية: ما دخلت في شيء إلا أحسنت الخروج منه، وقال عمرو: ما دخلت في شيء إلا وقد عرفت من قبل كيف أخرج منه، والقادة العسكريون المهرة، يضعون خططاً للهزيمة والانتصار، بل يضعون في حساباتهم عدة احتمالات، بحيث لاتفاجئهم الأحداث، ومن أراد السلام فليستعد للحرب.

والوعي في ضوء ما ضربنا من امثلة، وما سقنا من مؤشرات: مجموعة من عمليات معقدة، وآليات دقيقة، يقودها فكر مستنير، وعقل عملي ليس هو كل ما يريده كانت في نقده لصنفين من العقول: (المحض، والعملي)، إنه التصرف الحكيم الذي يزن الأمور بتقدير وتوقيت دقيقين، وأخطاء التوقيت والتقدير من عوامل الانتكاسات التي يمنى بها كثير من النخب الفكرية، والثقافية، والسياسية، ورجال الأعمال، والعسكريين، ولو قرأنا مذكرات الساسة والعسكريين بتمعن لتبين لنا أن الانتصالات والنجاحات ليست مرهونة بالتفوق العسكري، وإنما هي مرتبطة بالخطط العسكرية المخادعة.

وكم من مشاريع مصيرية باءت بالفشل لمجرد أنها جاءت في غير وقتها، أو نفذت في غير مكانها الطبيعي، سواء كانت بيئة ذهنية أو اجتماعية أو جغرافية أو ما شئت من المؤثرات المباشرة أو غير المباشرة، وكم قيل: جاء فلان سابقاً لوقته، لقد منيت كثير من دول العالم وأحزابه بنكسات موجعة بسبب طموحات فقدت التوقيت والتقدير: تقدير الذات، وتقدير الآخر، وكم من نكسات عسكرية موجعة وقعت بسبب غياب الوعي العسكري لا بسبب ضعف القوة العسكرية، والوعي والعقل صنوان تبادليان في مفهوم المتناولين لهما، ولكنهما قد يختلفان في إطار من الخصوص والعموم، يقول العقاد في مجموعته الفلسفية: (والوعي والعقل لا يتناقضان، وإن كان الوعي أعم من العقل في إدراكه، لانه مستمد من كيان الانسان كله، ومن ظاهره وباطنه وما يعيه هو وما لا يعيه، ولكنه يقوم به قياماً مجملاً محتاجاً إلى التفصيل والتفسير)، فكأن العقل يعطي المواصفات، والوعي يحدد الاختيارات، ومن ثم لا قيام لأحدهما بغياب الآخر، وكما يتراتب العقل والروح والنفس، يتراتب العقل والوعي.

والعقل: قدرة اجرائية وتقنية منهجية وفعالية نقدية، ذلك ما جد من تعريفات متداولة ثلاثية الأبعاد، وإذ يكون كذلك أو قريباً منه، فإن الوعي لا يعني حفظ الأشياء كما يتصور البعض، والحفظ مادة الفكر، وليس هو الفكر كما قيل، وعلى ضوء ذلك فإن الاستيعاب النصي للمتون لايمت إلى الوعي بصلة، وإنما هو تجهيز لممارسة الوعي، يكون الإنسان حافظاً للقرآن الكريم مقيماً لحروفه وما يقدر عليه من حدوده، ولكنه لا يكون واعياً لمدلوله، مدركاً لأهدافه، مستفيداً من غناه اللغوي والجمالي والدلالي في ممارساته الكتابية والكلامية، ولو أن حفظة القرآن يعونه بهذا القدر الذي أشرنا إليه لكانوا عباقرة استثنائيين، فالقرآن كلام الله، ولهذا قال ﷺ: «**بلغوا عني ولو آية فرب مبلغ أوعى من سامع**»، وقال: ليبلغ الشاهدُ الغائبَ فإن الشاهد عسى أن يُبلِّغ من هو أوعى له منه قال الشارح: أي: أعقل وأحفظ.

إذاً فالسامع يحفظ، ولكنه قد لا يعي أو يعي بقدر أقل، ولهذا جاءت صياغة التفضيل عمن لا ينطق عن الهوى، فكلمة (أوعى) من سامع، تدل على أن الحفظ شيء والوعي شيءٌ آخر والتمثل غير ذلك، وإلا فكيف يتم التبليغ إلا عن طريق حفظ الرسالة، وما الرسالة إلا القرآن أو السنة أو هما معاً، ولهذا ندب القرآن نساء النبي لتبليغ الحكمة وما يتلى في بيت الرسول ﷺ وهما: القرآن والسنة المتمثلة في قول الرسول ﷺ وفعله وإقراره، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤]، ويكاد المثل الذي ضربه الرسول ﷺ لمستويات التلقي يكون مغنيا عما نذهب لايضاحه.

لقد وصف الأذهان المتلقية لهذه الرسالة الخالدة العظيمة بالأرض التي تتلقى المطر، وهو رمز الحياة، فمنها ما يحفظ الماء للمنتفعين دون تمثل، وتلك الأحادب، ومنها ما ينبت، أي يتمثل ما يتلقى، وهي الأرض الطيبة، ومنها الذي لا يحفظ ولا ينبت، فيكون وحلاً يؤذي، وتلك القيعان، والأرض هنا مثل حي في مقابل الوعي وتفاوته بين الأناسي، ونحن هنا نريد الذي يحفظ ويفهم ويتمثل ويؤدي للآخرين، وهذا هو الوعي الذي ننشده ونتطلع إلى مثله.

والذين لا يتصورون الوعي بالقدر الذي نطمح إليه ونسعى لتحقيقه يخلطون بين الوعي والحفظ، أو بين الوعي والذكاء، أو بين الوعي والطاقات المنتجة أو المهارات الآلية، ومع أن هناك تداخلاً دائرياً بين هذه الثنائيات، فإن لكل منها مدلوله المتميز، وفي ضوء هذا الخلط يباهي البعض بمقدار ما يحفظ من جيد النثر وجميل الشعر، وكم نسمع ونقرأ عمن يحفظون عشرات المتون، ومئات القصائد، وآلاف الأبيات والحكم والأمثال، وقل أن تجد من بين أولئك المتباهين أو المتباهى بهم من يمتلك القدرة على معالجة أدنى القضايا معالجة واعية تدل على تفهم وإدراك وتوظيف سليم للمكتسبات القرائية والتجريبية ولك ان تتجاوز كل أولئك وتنظر إلى بعض من يحفظون القرآن الكريم ويجودون تلاوته، ترى أن القليل منهم من يعي بعض مقاصده ويتمثل طرفاً من مراده، ويستثمر طائفة من آياته في مواجهته للاشياء، وفي ذلك دليل قاطع على ان الوعي شيء آخر يختلف تماماً عن الذكاء والحفظ، إن حفظ النص أو معرفة الحدث أو حتى معايشته لا تعني وعيه الوعي الايجابي المستثمر على حد: (العاقل من وعظ بغيره)، وقد أشار الذكر الحكيم إلى من لا تغنيهم الآيات والنذر، وعلى هذا فإن الوعي ليس حفظ الشيء ولا معايشته، إنه شيء آخر يتجاوز الحفظ والمعايشة معاً، إنه فهم الشيء مجرداً أو في سياقه وعلاقاته وإدراك اسبابه ودوافعه ومقاصده وحجم امكانياته، ووعي الذات المواجهة له، والتوقيت الدقيق لممارسة الفعل أو رد الفعل معه، وتقدير النتائج على ضوء المعلومات

الدقيقة الشاملة للحدث، وظروفه، وواقعه، وامكانيات المنتجين له والمواجهين له، وحين نقول بأن للحدث ظاهراً يشاهده العامة وباطناً لا يعيه إلا الخاصة، فليس ذلك من مذهب الباطنية في شيء، إذ الظاهر والباطن قائمان ولهما مدلولات بحجم التعددية الفكرية لكل طائفة، ولن نشطح في الاستطرادات إلا بقدر نفي المحاذير، والبلاغيون تناولوا (المعنى) و(معنى المعنى) وتعالق ذلك مع الكناية والتورية، وهي مستويات دلالية لا يدركها إلا المتخصصون المعنيون.

وعي الذات والآخر طريق الفاعلية .. ! (٢) [1]

وإدراك الشيء بذاته حالة ذهنية إذا كان المدرَك معنوياً، وحالة حسية إذا كان المدرك حسياً، وحتى هذا اللون من الإدراك يظل دون النهاية لحقيقة الوجود والموجودات مما لا يتاح بكلياته للبشر، فالحقيقة الأزلية غائبة على حد: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، وعلى حد: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦] ولعلنا نستذكر قصة موسى عليه السلام مع الخضر.

فأنت تدرك صاحبك في المكان والزمان المحددين للقائك به، ذلك إدراك حسي حركي ميسور للعامة والخاصة، وأنت تفهم الشيء من خلال تركيبه الحسي أو المعنوي، فعندما يقال: قام محمد فالفهم أن تعرف أن هذه الجملة تفيد قيام محمد مجرد قيام على القدمين، هذا حد الفهم أو الإدراك، إنه استيعاب دلالي أولي للجملة، والقيام يكون حسياً ويكون معنوياً، ويكون القصد منه مجرد الإخبار، وقد يتعدى ذلك لأمور رمزية، يملك مفاتيحها من يملكون معهودات ذهنية متبادلة بين أطراف معينين، وأنت تفقه الشيء لا من خلال مباشرة الدلالة، وإنما من خلال معهودات ذهنية تسهم في استدعاء أشياء لايستحضرها كل سامع فعندما تقول: رفع فلان عقيرته، يفهم أنه رفع صوته.

ولكن الفقه أن تدرك أن العقيرة هيالرجل المقطوعة والعقر القطع من عقر الناقة، وقد رفعها المصاب بيده حين قُطعت مستغيثاً قومه في المعركة، وصاحب ذلك رفع الصوت، ومن ثم لا يجوز أن نشتق من كلمة عقيرة كلمة للتعبير عن الصوت فلا نقول: تعاقر القوم بدل تلاسنوا على أن الوعي أشمل من كل ذلك إنه مرحلة رابعة، بعد الإدراك، والفهم، والفقه، سنجليها لوقتها عند استكمال المداخل إلى الوعي المراد.

والعقل إذ يكون مضمار الوعي، صار عند اليونان من مباحث الفلسفة، له مواصفاته، ومطالبه، ومسائله، وأدوات النظر إليه، فالعقل الواعي كما يقول جوراس: يسيِّر العالم، والإسلام ينظر إلى العقل مرتبطاً بالنص المقدس، ومتشكلاً من حواسه بحيث يقتسم السلطة مع النقل، والسلفيون لا يرون تعارضاً جوهرياً بين صريح المعقول وصحيح المنقول، وحين أُطلقُ مصطلح السلفية أعي مستويات هذا المصطلح وتحولاته، وموقف العقلية الاعتزالية، والعقلية المعاصرة، والفعل ورد الفعل الخارج عن معقولية الأداء، ولما لم يكن شيء من ذلك يعنينا في هذا الحديث، نكتفي بالإشارة دون البسط والتفصيل.

فالعقل عند السلفيين يسبح في فضاء النص، ولا يعلو عليه، وإذ لا يفترض السلفيون أدنى تعارض صريح بين المعقول والمنقول، فإنهم في الوقت نفسه يدركون خطأ العقل في فهم النص، ويدركون مستويات العقول وثبات النص، كما يشعرون بغياب التأويل إلى أجلٍ بوصفه تحققاً للحدث الموعود به، وذلك لون من المتشابه الذي طلب الإيمان به، وعدم اجهاد العقل في فض مغاليقهوما يعلم تأويله إلا الله، والتأويل في بعض دلالاته يعني التحقق والوقوع، ويعني كذلك التفسير الموجه، ومن إشكاليات الفكر الإنساني التلقي ومن ثم درست نظرياتالتلقي ونظرياتالمعرفة ونظريات التأويل وفيها ضلت الأفهام وزاغت العقول وافترقت الأمة، ومغالبة الدلالة والسعي لأقصى معطياتها واحتمالاتها يكون عند السلفيين فيما يتعلق بالتعبد والتشريع، وما هو من مفردات عالم الشهادة، أما الغيبيات والجدل حولها فمن المغامرات المحفوفة بالمخاطر، ثم هي مما لم نتعبد بفهم حقيقته، وتعبد

---

(١) تايخ المقال: ٨/ ٨/ ٢٠٠٠

نـا مقتصـر علـى الإيمـان الجـازم واليقين التـام، وإذا لـزم التفسير والاستنباط فلا بد من مراعاة شرطين:

قواعد اللغة.

ومقاصد التشريع.

وبهذا تتحقق السلفية التي أومن بها، أما العقلانيون من معتزلـة ومعاصـرين فيعلون من شأن العقل ويجعلونه فضاء لاستيعاب النص، ومتى لم يتمكن العقل من تصـور للنص تصرفوا به تأويلاً مناقضاً للمقصد أو تهميشاً، ليكون فـي إطـار المدرك العقلي أو التوافق معه، والكارثة الفكرية تقع حين تتفاوت العقول والمعـارف وآليـات التأويل، فيكون الـنص ألعوبـة لهذا التفـاوت، الـنص يمتلك مستوى واحداً ودلالات متعددة، أمـا العقول فليست كذلك، ومـن هنـا جـاء الخلـل، وقامـت الفتنـة، وآيـات الصـفات والغيبيـات وحقيقـة الـروح والـنفس والملائكـة والجـن والنعيم والعـذاب والحسـاب والقيامـة لا يمكـن تصـورها علـى حقيقتها بإجهاد الفكر والعقل.

والوعي بهذا التصور عند العقلانيين خروج على المقتضى، بحيث استتبع فعلاً ورد فعل، ونُسيت فـي هذا الجـو القضـية الأهم، فـالعقلانيون جندوا أنفسهم للدفاع عن سـلطة العقل، حتـى نسـوا فـي سبيل ذلك النص، والنصوصيون كثير من الظـاهريين وقليل من السـلفيين أسـرفوا فـي الـدفاع عن سلطة الـنص، حتـى نسـوا فـي سـبيل ذلك مجال العقل، وعطلوا طاقاته، ولو أنهم افترضـوا أن بالإمكـان تلافـي الصدام وبـدء الحـوار بـين أنصـار العقل المطلق، والنص المطلق لكان هناك حضور متكافئ بين العقل والنص ينشئه الـوعي التام بمقتضيات كل منهمـا، ومجال كل منهمـا، وحق كل منهمـا، وممـا وسع هوة الخـلاف المغالاة في العقل من أنصاره، والمغالاة في النص مـن أنصـاره، ومحاولـة كل طـائفة هدم الطـائفة الأخـرى وإلغـاء أي قيمـة لهـا والتقول عليهـا، حتـى أصـبحت العقلانيـة، والنصـية مـذمتين، فـي حـين أن كـل واحـدة منهمـا تنطـوي علـى خيـر كثيـر وشـيء مـن أخطـاء وتجاوزات، كان يمكن بالحوار تلافيها وتجاوزها إلـى مـا هو أجدى وأهدى، لقد طرحت مصـطلحات شـقيت السـاحة الفكريـة والدينيـة فـي الجـدل حولهاكالأصـولية مـثلاً، وزادت الأمور تعقيداً حين دخلت هذه المصطلحات لعبة السياسة، ودخل فيهـا من لـيس لهم درايـة ولا رواية في علم الكلام الذي نشأ في إطار الدفاع عن ثوابت العقيدة الإسـلامية، ولـم تكن الأصولية تعني الغلو كما هو المفهوم حالياً، إنهـا مصطلح تراثـي يعنـي علمـاء الأصـول، فالأصـولي العـالم يؤصـل الفقـه والتفسير مثلاً، إن الـوعي الذي نريده ونطمـح إليـه يمتلك القدرة بحيث يؤاخي بينالعقل والنقل منتقيا محاسن الفئتين، مستبعداً نتائج الغلو فـي العقل أو في النص مستشعراً قوله تعالى: ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [النساء: ١٧١] .

لقد زعـم المعتزلـة التراثيون، ومعتزلـة العصـر أن أهل السـنة والجماعـة أو السلفيين نصوصيون يعطلون العقل، وهذا الرأي من خلل الـوعي أو تعطيلـه تحت تـأثير التعصـب المذهبي المقيت، والحق أن للعقل وللنص مكانهما عند السلفية الواعيـة، غيـر أن المذهبيـة الضـيقة وسـعت رقعـة الاتهـام، بحيث أصـبح المذهبان معـاً مظنـة الاتهـام المتبـادل بسـبب الحملات الجائرة، إن أهل السنة والجماعة غير المغالين وغير المنغلقين علـى أنفسهم من أمثال ابن تيمية وابن القيم والذهبي وابـن كثيـر والصـفوة من علمـاء الأمـة وأئمـة المذاهب المعتبرة والمجتهدين من العلماء لا يغفلون العقل ولا يعطلـون قدراتـه، ويعرفـون جيداً أنـه السبيل الوحيد لفهم النص، وكيف يغفلونـه وهو منـاط التكليف؟ وهم حين يعلون من شـأن العقل لا يلغون في سبيل ذلك سلطة الـنص وقدسيته، والـنص حين يحـرف عن مواضـعه ليوافق الأهواء يكون ذلك قادحاً في الوعي، أما المعتزلة فقد أطلقوا للعقل العنـان وحكموه

في النص قطعي الدلالة والثبوت وأطلقوه في المتشابه وفي المغيبات، وعلى أثرهم جاء العقلانيون المعاصرون يسندهم الانفجار المعرفي، يستدرجهم الانجاز العلمي، حتى استدبروا النص، وأطلقوا العقل دون ضوابط نصية، ووثنوا العلم، ولو أنهم عرفوا للعقل حقه المشروع، وللعلم مجاله الطبيعي لكانوا خير من ينهض بمهمة تلاقح الثقافات وتبادل الحضارات، ومن ثم حققوا الوعي الذي نطمح إليه، وحين نشير إلى هؤلاء وأولئك نعرف الحد المقبول، فلسنا مع الظاهرية ولا مع غلاة السلفية الملغية للعقل، ولسنا مع العقلانية الملغية لسلطة النص ونعرف تبعاً لذلك متى يشرع الحوار مع النص، ومتى يلزم القبول المطلق به.

ومما لا جدال فيه أن العقل حاضن مخصب ومستثمر للنص، والدين الإسلامي عول عليه وجعله مناط التكليف والأحكام، وحجب التكليف في غيابه، وكل أئمة السلف يعرفون ذلك، ولا يغمطون العقل شيئاً من حقه، وهم في الوقت نفسه يعرفون للنص قيمته وسلطانه، ويعرفون ما لا يجوز الخوض فيه من المغيبات والمتشابهات، وآيات الصفات، وما يتعلق بالذات الإلهية، ومن غلا منهم وأسرف في تهميش العقل لا يعول عليه، ولا يكون حجة على السلفية الواعية.

وما توصل إليه العقلانيون من نتائج إيجابية لا تتعارض مع صريح المنقول وقطعية دلالته هو بعض مطالب السلفية، وإن ادعاه غيرهم، وما من مذهب أو عقيدة وضعية إلا هي حصيلة أقوال وأفعال فيها الخير والشر، والخير مطلب إسلامي لا يمنع من قبوله فساد مصدره، فما وافق الحق من أقوال طوائف المسلمين فهو حق سلفي لأنه ضالتهم.

وإذ لا يقع فك الاشتباك بين سائر الفرق الإسلامية ضمن بحثنا هذا، فإننا نكتفي بما سبق لارتباطه بالوعي السليم الذي نريد، ولعل هذا يمكننا من أن نعود لإبراز أهمية العقل ودوره في تنشيط الوعي، بل في تشكيله التشكيل المناسب لمواجهة الأحداث والنوازل والخطابات السياسية والفكرية وسائر وجوه الحضارة، والإشكاليات المعقدة أن النخب الفكرية التي تدير كؤوس الجدل مخدرة بعشق الطارئ، كلفة بالتمثل لماجد، تجهل مقاصد الشريعة وتفتقر إلى ثقافة دينية تمكنها من التأصيل الشرعي الذي يحدد لها المحظور والمباح ويؤطرها على الحق، ومن ثم فهي تجادل من خلال ثقافة طارئة لا ترى النجاة الا من خلالها، والجاهل قد ينتصر بجهله، ويروى أن عالماً قال: خاصمت مائة عالم فخصمتهم وخاصمني جاهل فغلبني، لأن العالم لا يجاري في خلق دنيء ومن مؤشرات الوعي الدقة في اختيار الخصوم وحلبات المصارعة، وقضايا التنازع ومعرفة شروط الحوار وأدبياته.

وبما أن العقل هو المجال الطبيعي للوعي فإن آيات الله تتجلى في الآفاق وفي الأنفس، ودماغ الإنسان آية من آيات الله التي مازال الفكر الإنساني حائراً في أمره.

لقد توصل العلماء إلى أن الدماغ يحتوي على عشرة مليارات خلية تقوم بنشاط عجيب، وبمساعدة شفرات لغوية وفكرية لاحتواء أكبر قدر من هذا الكون الذي يجمعنا، وهو ذرة سابحة في الكون الأكبر غير المتناهي: زماناً ومكاناً، ومازالت خارطة الدماغ الكروية المتشكلة من نصفين وثلاثة أدمغة في الجمجمة البشرية الواحدة معجزة المعجزات، ومازال العلم والعلماء عاجزين عن فهم الإجابة على أدنى الأسئلة وأبسطها: كيف ينشأ الفكر؟ وكيف يتشكل الوعي؟ وأين تكمن المعارف؟ وهل الذاكرة حسية أو معنوية؟ كامنة في الإنسان أو سابحة في الفضاء؟ وما علاقة العقل بالدماغ؟ وما مفهوم المضغة؟ وما علاقة الوعي بالقلب الذي يراه الأطباء مجرد مضخة للدم؟ وحين ينقل قلب من أعجمي أو مشرك إلى عربي مسلم يعود العربي المسلم بذات الوعي الذي كان في قلبه المنزوع، إن هناك سيلاً من الإشكاليات لا يمكن حسمها بسهولة، وقد يكون الدماغ

ومليارات الخلايا شفرات استدعاء وليست أوعية معلومات، والقلب هو المغذي لهذه الخلايا، والقلب هو المتلقي شبكة معقدة من العلاقات بين القلب والخلايا الدماغية، وتظل العلاقة بين القلب والدماغ علاقة تكاملية تبادلية وبهذا تحسم إشكالية العلاقة التوافقية أو التعارضية بين الطب والدين، والتعارض وهمي إذ يمكن التوفيق بكل سهولة، وعلى ضوء ذلك يأخذ الوعي أهمية تصوره وصعوبته من ذلك الدماغ الأعجوبة الذي تشكل منه وعمل ضمن آلياته، وهذه الإمكانيات تتطلب استيعاباً معرفياً يملأ تلك الخلايا وهو ما ينقص البعض ممن يتصدرون الساحات الفكرية.

والباحثون الذين بهرهم العباقرة والحفظة والأذكياء، اجتهدوا في دراسة أدمغتهم لمعرفة ما إذا كانت لديهم بنيات دماغية متميزة، لأنهم الأكثر معرفة، والأكثر ذكاء، والأكثر تفهماً للحياة، لكن الأمر جاء مخيباً للآمال، فلربما يكون دماغ العبقرية أقل وزناً أو حجماً من دماغ المغفل، ولربما انعكس هذا على نفسية مربي الأفكار والعقول، إذ لم يكن بإمكانهم معرفة ما إذا كان طلابهم على مستوى التأهيل، على خلاف مربي الأجسام الذين يعرفون العضلات ويدركون حجم فاعليتها وقدر احتمالها وإمكان تدريبها.

لقد طاف في أذهان العرب الأوائل مثل ذلك، ولهذا قال شاعرهم: خشاش كرأس الحية، والرسول ﷺ قال لعدي رضي الله عنه: «**إنك لعريض الوساد**» أو كما قال، وهذا من الكنايات البلاغية التي كان العرب يكنون بها، فاستعملها الرسول ﷺ في مناسبة استدعتها، ولم يتبين للطب بعد ما إذا كان الذكاء أو الغباء مرتبطين بالحجم.

الشيء الذي يتفق عليه الفلاسفة أو يكادون، أن الحقيقة النهائية لكل الأشياء غائبة تماماً كغياب إدراك علاقة الروح بالجسد، ولعل ذلك من أمر الله كما الروح حين سأل اليهود عنها، وما زال متعذراً إدراك أرواح غير متجسدة، وحتى في حالة التجسد تظل مدركة بأثرها غير محسوسة بذاتها، ولا قيمة لجسد بلا روح، ومن ثم فإن الإنسان هو تلك العلاقة الخفية بين الروح والجسد، ومع كل هذا فالإنسان لا يدرك كنه تلك العلاقة وإنما يدرك أثرها، وفي النهاية فالروح من أمر الله، وبهذا الاسلوب الحكيم ينفض سامر الجدل دون الوصول إلى الحقيقة النهائية لكل الأشياء، وعلاقة القلب بالوعي والمعرفة غامضة غموض علاقة الروح بالجسد، ومن ثم لا يجوز الربط الحسي بين القلب بوصفه مضخة للدم وبينه بوصفه مقرر الإيمان والكفر والضغائن والأحقاد والتسامح وغير ذلك من القيم المعنوية، وحتى لو ثبت حسياً عدم تأثر الوعي بنزعه إذ ربما يكون الدماغ شفرات استدعاء والقلب أداة تقرير ولا يكون الاستدعاء إلا لما هو خاص بالمستدعي، ومع هذا فنحن لا نقول ما هو متيقن، ومثل ذلك الاختلاف لا يعيب الوعي وإنما يؤكد حجمه وإمكاناته، فنحن لا نبحث عن مصدره وحقيقته وإنما نهتم بأثره وهو ممكن التصور وما عداه من فضول المعارف، وما نريده من الوعي لا يتجاوز امكانيات الإنسان الضئيلة: هو إدراك العلاقة بين شيء وشيء إدراكاً معقولاً يمكِّن الإنسان المدرك من التصرف بحكمة ورويّة متميزة عن إدراك العامة.

وإذ نكون أمام: عقل وفكر، و وعي، و معرفة، نجد أنفسنا في خضم من التساؤلات عن هذه المفردات التي تكون بمجموعها شيئاً واحداً، وتنفرد دلالاتها عند تفرقها تماماً، كالفقير والمسكين، إذا اجتمعا تفرقا، وإذا تفرقا اجتمعا.

والوعي حين يكون ذا دلالات متعددة، فإننا لن نتحدث عنه بوصفه مقابلاً للنوم أو الخدر أو الغيبوبة، ولن نتحدث عن الوعي الذي يميز الإنسان عن العجماوات، بمعنى وعي الإنسان لفعله، أو وعيه بذاته، أو وعيه بما يجري له من عمليات جسمية أو مشاهدات، كما لن نتحدث عن الوعي الرمزي، وإن كان من خصائص الإنسان، فكل ذلك قدر مشترك بين الأناسي، إنه وعي رديف للشعور الذي يميز الإنسان عن الحيوان.

إننا نريد الوعي المتميز داخل المنظومة البشرية، الوعي الانتباهي المفضي إلى استكناه الأشياء في أدق أحوالها ومصائرها، ثم التأمل العميق في أدق التفاصيل واحتمالات الصيرورة، ثم التصرف وفق معطيات التصور، وإذ لا نتحدث عن الوعي المشترك، فإننا لن نتحدث عن مركز الوعي، ولن نهتم ببحوث علماء النفس، وأطباء الأعصاب والدماغ، الذين تفرقت بهم السبل حول كنه الوعي ومركزه، وهل هو مادي موضعي أم تفاعلي؟، فذلك لا يعنينا بشيء أو قل: إنه يشطح بنا في متاهات علمية وتساؤلات لم تستقر.

والحديث عن الوعي تتداعى معه أشياء، قد نراها بادي الرأي من الاستطرادات، ولكنها مع التأمل من صميم الموضوع، ذلك أن الوعي جماع الأشياء، وقاسمها المشترك، ولا سيما إذا كنا نريد بالوعي أعلى مستوياته المفضية إلى مواجهة الأشياء بحكمة وروية وبصر ومعرفة تامة بالأمر وبمتطلبات مواجهته.

وعي الذات والآخر طريق الفاعلية .. ! (٣)[(١)]

قلت: اننا أمام عقل، وفكر، ووعي، ومعرفة، ولكل مفردة من هذه المفردات علاقة مع بعضها، تجمعها حتى تكاد تكون شيئا واحدا، وتفرقها حتى تكاد تكون أشياء أخرى، فالوعي يختلف عن المعرفة من وجوه، ويلتقي معها في وجوه كثيرة، المعرفة اكتساب معلومات قائمة عن طريق الحواس أو الاستنتاج العقلي أو عن طريق قياس التماثل، والوعي طاقة ذهنية لا تسمح بالمعرفة التراكمية، وانما تمارس معها توليدا فكريا، واكتشافا لعلاقات، وبرهنة عن نظريات، واستخلاصا لبنى ليست على شاكلة التراكم، وقد يقال: ان هذا لون من ألوان المعرفة الاستنباطية أو الاستقرائية.

والحق ان مكتسبات الوعي في النهاية جانب من المعرفة، غير أنها ليست مكتسبات من الخارج، وانما هي استنتاج من الداخل، يولده التفاعل والتأمل واستذكار الأشباه والنظائر وترتيب ذلك وتقليبه على كل وجوه الاحتمال والنظر في الأشياء من مواقع متعددة، وعلى ضوء ذلك نستطيع القول: ان المعرفة مكتسبات خارجية والوعي استنتاج داخلي، تكون المكتسبات الخارجية من محركاته بحيث تتفاعل فتنتج الرؤية أو الموقف.

وللفيلسوف الوضعي زكي نجيب محمود رؤية حول ثقافات الشعوب، اذ يضرب مثلا بالنمل، والنحل فالنمل يجمع فقط، يراكم الأشياء ويبقيها على ما هي عليه، له جده، ودأبه، ونظامه، وانضباط حركته، ولكن ليس له توليده وتحويله، والنحل له كل ذلك، ولكنه لا يجمع، ولا يراكم، ولا يدع الأشياء كما هي، وانما يمتص نسغ الزهور، ورحيقها، فيحوله إلى شيء آخر، وهو بهذا المثل يريد من أهل الثقافات والفلسفات، أن يكونوا كالنحل الذي يحول الأشياء إلى مواد أخرى، أكثر فائدة، وأكثر مغايرة، وهذا ما نريده نحن عندما نتحدث عن الوعي، اننا نرفض المعرفة التراكمية، ونحبذ المعرفة التفاعلية، نكون كالنحل ولا نكون كالنمل.

وحين لا نجد صعوبة في الفصل بين: الوعي و المعرفة نجد ان استعمالات الناس لكلمة الوعي متناقضة، أو قل متباينة على الأقل، ومما زاد هذه الكلمة تعقيدا، انها تحولت من دال ومدلول لغويين إلى مصطلح متعدد الحقول، فعلماء النفس يعطونه معاني متعددة، والفلاسفة يحملونه دلالات تكاد تكون مترادفة أو متناقضة، فهو يدل على المعرفة المجردة، وعلى الاحساس بالوجود، وعلى الاحساس بالذات، ويدل على اليقظة المقابلة للنوم، وقد يتقاسم كلمة الوعي الأناسي وسائر الحيوانات الأخرى في اطار الوعي الانتباهي غير المركب، والاستجابة الشرطية، وبعض الحيوانات تنطوي على نباهة ليست لغيرها من سائر الحيوانات الأخرى.

نحن نعرف ان ما سوى البشر من المخلوقات الأخرى تحس، واذا أحست فهي تعي، واذا وعت فهي تتصرف بناء على هذا الوعي، وقد يسمى ذلك بالغريزة الآلية المودعة لحفظ النوع، وهي غريزة غير نامية، وغير متغيرة، وغير مكتسبة في كثير من الأحيان، على خلاف الوعي النامي والمتغير والمكتسب، فهروب الفأرة من القط مثلا غريزي لا كسبي، واذاً فالوعي بهذا المفهوم وبهذا المستوى المستقر يتقاسمه الحيوان والانسان والنبات، ولا يسمى وعيا على اطلاقه، وانما هو غريزة أو هدية كما في قوله تعالى: أعطى كلّ شيء خلقه ثم هدى، فكل شيء يشعر بما حوله، ويتصرف وفق هذا الشعور.

حتى النبات يقال: انه ينقبض وينبسط، وان انقباضه وانبساطه نوع من الاحساس المرتبط بالاشمئزاز، وفي كل لحظة نرى آيات الله تتجلى في الآفاق وفي الأنفس، ومع

---

(١) تاريخ المقال: ١٥/ ٨/ ٢٠٠٠

هذا فليس كل تصرف يمارسه المخلوق نتيجة وعي، ان هناك حركات لا دخل للوعي فيها، وهناك أفعال تلقائية يمارسها الانسان دون وعي، أو احساس، أو تفكير أو استعداد، وأكثر الأجهزة الجسمية تؤدي وظائفها بدقة وانضباط وتلقائية دون وعي، كالجهاز الهضمي والتنفسي وغيرهما، فكل مخلوق يغط في نوم عميق وأجهزته الداخلية تعمل بانتظام وانضباط وباستمرارية، ولا دخل للوعي في رفع فاعليتها أو تنشيطه.

ومع ان جميع المخلوقات الحية لها قسط من الوعي، أو الغريزة، أو الهداية، هذا القسط يستجيب لمتطلباتها، ويمكنها من المحافظة على النوع لاستمرار الحياة، فإننا لا نعني هذا القسط المشترك، ولا نرى الحديث فيه، وحين أحدد الموضوع بوعي الذات والآخر، فان الآخر يكون من الأناسي، بحيث يشمل الأفراد والجماعات، ويتجاوز التعددية إلى الطوائف، والدول، والمنظمات، ويكون من الأفكار السائدة والطارئة: القديمة والحديثة، ووعي هذا وذاك يتطلب مواجهة معينة عبر امكانيات خاصة تميز المتعامل عن العامة.

ان ما نريده من الوعي، هو ذلك النشاط العقلي، الذي تثيره مشكلة: خاصة أو عامة، دينية أو دنيوية، حسية أو معنوية، كبيرة أو صغيرة، علمية أو فكرية، فيسعى الانسان للنظر فيها، وتقليبها، وفحصها بمساعدة المكتسبات الفكرية، والصور، والذكريات، والانطباعات، والممارسات، والخبرات، ان التفكير الخلاق الذي لا يكتفي بإعادة تركيب الأشياء أو تفكيكها، انه التفكير الواقعي المرتبط بالظروف التي تفرضها الطبيعة الحقيقية للأشياء، انه التفكير الذي يتجاوز ذات القضية إلى كل ما يحيط بها وما يؤثر فيها.

الوعي الذي نطمح اليه، ونرى أن فقده أو فقد شيء منه مخل بالأهلية والوجود الكريم، لا يتأتى بالمعرفة المجردة والتحصيل التراكمي، بل يتخطى ذلك إلى منهجية منضبطة واستكناه دقيق وتصرف واع محكم، تمكن الفعل العقلي من ترتيب أدواته، وتحديد أسلوب مواجهته للأشياء، ان الفهم العميق للأشياء يحتاج إلى منهج دقيق مناسب قابل للتكيف بعيد عن الجمود والتردد أو التهور والاندفاع غير المحسوب، وحين نلمح إلى الشيء ونقيضه، فاننا نستدعي مطارحات الثنائيات في التفكير الفلسفي، بحيث نعرف كم هو الفرق الدقيق بين الشجاعة والتهور والكرم والاسراف، ان ما يقوله المبالغون: ونكب عن ذكر العواقب جانبا ليس محمدة على اطلاقه، وقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] محمدة على اطلاقه، اذا جاء بعد فعل الأسباب كالمشورة والاستعداد المادي، ان الوعي المطلوب يعني تحرير المنهجية وتصفيتها من شوائب العاطفة الانفعالية والمغامرة التي لا تضع للعواقب حسابها، ان الوعي يعني الفعل دون الانفعال، فالعصر قد بلغ من علميته ومنهجيته حد التوثين، والاسلام يملك المنهجية الدقيقة المنافسة.

والمسلم مطالب بأن يتناغم مع المستجدات في ظل المحافظة على الثوابت التي لا تتم اسلامية المسلم الا بها، وليس من مقتضيات الثوابت ما يمنع من مقاربة هذه المستجدات والاستفادة منها لخدمة القضايا الرئيسة في حياة الفرد والأمة، وفي الحديث: أنتم أدرى بأمور دنياكم وهي دراية لا تحيد حاكميه الله، والرسول ﷺ يستشير أصحابه في أمور الدنيا، وبالذات أمام النوازل، والعلماء يؤكدون انه لا اجتهاد مع النص، بمعنى ان النص ينطوي على جاهزية الحكم، والاجتهاد يكون في حالتين:

استنباط أكبر قدر من الدلالات في النص لمواجهة النوازل.

البحث عن حكم النوازل في غياب النص وهنا يكون البحث مناطاة الأحكام المتشابهة مع النازلة، والاجتهاد مع غياب الوعي التام، والعلماء يضعون شروطا للاجتهاد، والاسلام يثيب على جهد الاجتهاد، وان وقع المجتهد في الخطأ، واذ يكون فعل الآخر ينسل من مطابخ مؤسساتية، بحيث وضعت له كل الاحتمالات، فان المسلم مطالب بأن يعي مثل ذلك ويواجه الآخر بذات المؤسسات وعين التفكير والتقدير.

ولعلنا نعرف محاولات المفكرين الانسانيين الجادة في تحرير نظرية المعرفة وعلمية المناهج، فالفيلسوف اليهودي الملحد سبينوزا وضع رسالة في اصلاح العقل، وهي مقدمة في المنهج، وفي قيمة المعرفة، وهي من طراز المنطق الجديد لفرنسيس بيكون، وقواعد تدبير العقل والمقال في المنهج لديكارت، والبحث عن الحقيقة لمالبرانس، وكل هذه الكتب محاولة لتطوير منطق أرسطو، واقامة منهج علمي، كمدرج للأشياء التي يحاول الانسان استكناهها واعداد نفسه لمواجهتها، واذا كان هناك اشكالية المنتج فان اشكالية المتلقي أشد تعقيدا، ومن ثم فقد شغل العلماء في نظرية التلقي ونظرية المعرفة وتبدت اشكالية التأويل ومستويات القراءة، وما تفرق المسلمون إلى طوائف وملل ونحل الا من بعد ان جاءهم النص الحمال وواجهوه برؤى وتصورات متباينة، وتلك جهود تنصب نتائجها في تنمية الوعي وانضباط تفاعله مع الأشياء تفاعلا منتجا لا انفعالا مرتبكا، وفي إزاء نظرية المعرفة نجد نظرية التلقي ولكل أمة أو طائفة طرق تلقيها كالحدس والكشف والتأمل والاشراف والتدبر، ونظرية المعرفة أو التلقي قد تلجئان إلى التأويل، هذه الجهود المتناقضة بلغت دركتها في تهميش الميتافيزيقا، وتوثين العلم، والشك فيما هو غير تجريبي، مما يندرج تحت مفهوم الغيب، والمسلم إزاء هذا النزوع المنهجي والإفراز المؤسساتي المادي مطالب بأن يعى المباح والمحظور، وله ان يتوغل في فهم الآخر على ما هو عليه والتقاط الحق من تضاعيف فعله، واسقاط الشوائب، والتشكل الذاتي وسط زحمة المعروض في عالم الفكر والرؤى، وتلك عمليات دقيقة لا يمكن ضبطها الا بوعي تام لمقاصد الشريعة من خلال نصها القطعي الدلالة والثبوت، وهو ما لم يعتمده عدد كبير من المفكرين، وفي هذا الاطار لن نضع اعتبارا لمنهج الشك والارتياب الديكارتي، ولا للبنية العقلية التي لا تعتمد البتة على النص التشريعي أو تعتمد عليه وفق تأويل خاطئ أو فوقية عقلية، كما هو عند معتزلة التراث أو معتزلة العصر.

وهؤلاء المفكرون الذين سقنا طرفا من مناهجهم وكتبهم مع ثبات ضلالهم يحرصون على التحرف لمناهج علمية تمكنهم من علمنة الحياة، وعلميتها، وأنسنة الفكر والثقافة بقدر يلغي دور الوحي، أو ينكر حصوله، على اعتبار ان الأنبياء عباقرة ادعوا النبوة، وقد أشار القرآن الكريم إلى معرفتهم بظاهر الحياة الدنيا وغفلتهم عن الآخرة، والمسلم مطالب بأن يعي هذا الظاهر وألا يغفل عن الآخرة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧] وقال: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]، فالمذموم العلم بظاهر الحياة الدنيا والغفلة عن الآخرة، وليس مجرد العلم، والآيات، والأحاديث، والآثار في فضل العلم والعلماء، والحث على طلب العلم معروفة مشهورة.

ان الهدف من هذا البحث استنهاض همة النخب الثقافية وقادة الفكر، لكي يتعرفوا على الفرائض الغائبة، إننا حين نحس بنقص الوعي، يجب ان نحيل هذا الاحساس إلى طاقة خلاقة تحول رد فعل إلى حالة فعل، يبحث عن مخرج من هذا المأزق الذي تعيشه الأمة الاسلامية بفعل أبنائها ومكائد أعدائها، وذلك باستكناه اشكالية الوعي، والدراسة تلك ليست مسحية لوضع قائم محدود بزمان أو مكان، انها نظرة شمولية لواقع الأمة الاسلامية

والعربية، كما ان الحكم بفقد الوعي لا يتناول كل أفراد المسلمين ولا كل فتراتهم الزمانية، اذ هناك من يعي الواقع ويملك التعامل معه بعلمية ومنهجية وعقلية مستنيرة بنور العلم والايمان، كما لا يشمل كل الدول والطوائف، اذ هناك من الدول والطوائف من له وعليه في اطار بشريته، فالعصمة والملائكية غير قائمتين، وفي الوقت نفسه فالشر المحض غير قائم، والتقويم قائم على التغليب، وما لا نقدر على تجاهله واقع العالم الاسلامي والعربي المتدني والتبعي وسط العلمية الغربية والاستكبار العالمي.

إننا حين نؤكد على ضعف الوعي أو غيابه أو تزييفه في الواقع العربي والاسلامي، لا نمضي مع المتشائمين التيئيسيين الذين يراهنون على خروج العرب من التاريخ ممن يحشدون طوفان الأزمات لتأكيد رؤيتهم وتعزيز رهانهم، فنحن ضد اليأس، وضد جلد الذات، وضد تجييش العواطف، واثارة المشاعر، إننا نتفق مع أولئك في خطورة الاستعمار الاستيطاني العنصري الظلامي التوسعي الاذلالي الفاشي على حد قولهم، ونتفق معهم على أزمة الحكام الثوريين، وما جروه على أمتهم من مواجهات غير متكافئة، أدت إلى نكسات موجعة، أثرت على نفسيات الشعوب، ونتفق معهم على تورط البعض في نفايات الحضارة الغربية وتعلقه بسلبياتها، ونتفق معهم في التورط في الخرافة والطقوسية الدينية الشكلية عند البعض، ونتفق معهم في مؤاخذة بعض الغلاة وممارسة الارهاب العشوائي والتسييس الثوري للاسلام ومناهضة المؤسسات الدينية المشروعة، ومع كل هذا لنا تحفظات كثيرة من أهمها ان مفهوم الخرافة والطقوسية الدينية عند أولئك تعني العبادة والحاكمية، في حين انها تعني عندها الطائفية المنحرفة، كما هي عند الباطنيين والمتصوفة من قبوريين وخرافيين وتحفظاتنا على بقية الآراء ليس هذا مجال استعراضها، ومع كل هذا التباين نرى ان من مصلحة الأمة العربية ان تسمو فوق خلافاتها، وان تعي حجم أعدائها، ودقة مكائدهم، وتعدد أساليب مواجهتهم، وان تسعى جاهدة لتوسيع المساحات المشتركة، وان تعمل ما وسعها العمل لرأب الصدع وتوحيد الكلمة، والتلاقي على المتفق عليه، واذا كان من غير الممكن في المنظور القريب تحقيق نجاحات في التكتل السياسي أو الاندماج الاقليمي فلا أقل من التفكير في الوحدة الاقتصادية والتجانس التعليمي والثقافي وتوحيد المسميات والمصطلحات لتكون خطوات أولى في سبيل الوحدة الكبرى المأمولة.

وعي الذات والآخر طريق الفاعلية .. ! (٤) [(١)]

إن هناك خلافات حقيقية وتباينات لامجال لانكارها، وهناك أشياء وهمية صنعها الأعداء وصدقها المغفلون، ومن الوعي أن نستبين هذا وذاك وألا نغالط أنفسنا، والتباين القائم له أسبابه وتقادمه الزمني ومرجعياته التي لم تكن من صنع أيدينا، ومرد ذلك التباين وهذا التناحر لأمور كثيرة، قد نتناول طائفة منها في بحثنا هذا، ومع ما يعانيه البعض من ظلامية مستحكمة، وتشاؤم متفاقم، فإن الخيرية مازالت قائمة، واليأس والإحباط لا يحلان الاشكالية،، نحن بحاجة إلى وعي الاشكاليات الوهمية والاشكاليات القائمة بالفعل في الساحة العربية، والعمل على محاصرتها، وإيجاد الحلول الحاسمة أو المرحلية لها، ولا يجوز أن نتلاوم، ولا أن نمارس التيئيس، والاحباط، كما أننا وفي إطار الوعي المطلوب يجب أن نحدد حجم الإشكاليات في إطار تحديد حجم الامكانات لنضع أسلوب المواجهة ونرسم طريق الحل، فما نرفضه قد لا نكون قادرين على مواجهته، وما نوده قد لا نكون قادرين على تحقيقه، وهنا مكمن الوعي الحقيقي، ومن قواعد الشرع ألا يدفع الشر بما هو أشر منه، ومما لامراء فيه أن تعدد الخطابات السياسية، والدينية، والاجتماعية، والفكرية وتناقضها، وتناحرها، ورهاناتها تسهم على المدى الطويل في تشكيل ذهنية منحرفة، وبالذات في أوساط الشباب، الذين تشبه ذهنياتهم أراضي ميتة يشكلها من يسبق إلى حرثها واستنبات مايريد في تربتها، وغسيل المخ حقيقة لا مبالغة فيها ويكفي أن نستعيد مآسي الانتحار الجماعي الذي يدفع إليه زعماء دينيون تمكنوا من شحن العواطف وتشكيل الوعي، ومن ثم فإن الثورات والعنف والتمرد والمواجهات التدميرية لا تتم إلا على أيدي الشباب الذين صيغ وعيهم على شاكلة ما، ولست أشك أن فهم الحرية الخاطىء هو الذي أتاح التعددية المتناحرة للخطابات، وأتاح للتاريخ الفكري والطائفي والمذهبي أن يعيد تشكله من جديد، ومكنه من أن يفتح ملفات منتهية ليورط العالم الإسلامي في مواجهات وهمية، وإذ يكون من مصلحة الآخر سحب الملفات من كهوف التاريخ، فقد هيأ هذا الآخر الأجواء المناسبة لاشتعال الفتنة، وما يتطلع إليه المصلحون وقادة الفكر المستنير أن تمتلك طوائف المسلمين وعياً متكافئاً مع متطلبات المرحلة، لإيقاف هذا التدهور والنزيف، والحفاظ على بقية المكتسبات، ويتم ذلك بوعي الواقع الإسلامي وتعاقب الفترات المعتمة التي ضاعفت من مشاكله، وبطأت في علاجها، وليس من شك أن المشايعات والحزبيات واستغلال سذاجة المتلقي والنفاذ من خلال إثارة العواطف هي الأمراض التي يتضاعف من خلالها وهن الأمة، إننا نرى في عالمنا الإسلامي طوائف من الدعاة والمفكرين، يعملون لصالح أفراد ليسوا على شيء من الحق، وليسوا على شيء من السعي لصالح الأمة وجمع كلمتها، والتأليف بين قلوبها، ونبذ الحزازات والخلافات الهامشية أو الوهمية، وتكريس المذهبية، وتجريم الآخر لا يحل الإشكالية، وما نشاهده من اندفاعات طائشة ليس مؤشرا على وعي الذات ولا على وعي الآخر.

إننا لكي نشكل وعياً ملائما للواقع لابد ان نعي هذا الواقع، ومتطلباته وأسلوب التعامل معه، ولا يمكن تمام ذلك باستعادة حساسيات التاريخ وافتعال ظروفه التي كانت قابلة لتفجير الموقف إذ ذاك، إن السماح لكل خطاب ديني باسم الحرية إضاعة متعمدة لوحدة الأمة فكريا، ومنع كل خطاب بدعوى إغلاق باب الاجتهاد تفويت للمعايشة المتكاملة مع الآخر، وبين هذا وذاك تقوم محاذير لايعيها إلا أهل الذكر المتفقهون في الدين، وعلى ضوء ذلك فليس كل خطاب ديني يملك حق الممارسة لمجرد أنه خطاب

(١) تاريخ المقال: ٢١/ ٨/ ٢٠٠٠

ديني، لقد طرح أبو ذر رضي الله عنه خطابه حول الكنز، فما كان للخليفة عثمان رضي الله عنه بد من اسكاته، وهل أحد يشك في صدق أبي ذر؟ وفي الوقت نفسه، هل أحد يشك في سداد الرأي وحسن التصرف من الخليفة الراشد؟ تلك هي المعادلة الصعبة.

وفي هذا السياق فإن الانغماس وسط الخطاب التاريخي، واستحضار ملفات الأمس لتمثلها دون فحص، يعني قمع الذات المعاصر وحملها على تقمص الذات التاريخية غير السوية، واستحضار الدور التاريخي بكل نكساته، إن هذا التقمص المدان مغاير كل المغايرة لأسلوب الأسوة الحسنة، إن استعادة البطل تتطلب استعادة ظروفه التي كفلت له النجاح، والبطل الأسوة هو بطل القيم والمواقف، وليس بطل الممارسة التاريخية، والبطل لكي يحقق المثالية لابد أن تعود معه أمته التي هيأت له الأجواء، إذاً نحن بحاجة إلى أمة واعية تخلق بطلها، ولا تستعيده، لقد كان صلاح الدين بطلاً في إطار سياقات وظروف خاصة، ولو عاد اليوم على المغيرات صبحاً وتحت ظلال السيوف لكان متحفيا أكثر منه بطلاً مرتقباً لإقالة العثرة، والأمة اليوم لا تفقد البطل، ولكنها تفقد الندية مع الآخر، وتفقد الامكانات المتكافئة، والوقوف بانتظار البطل مضيعة للوقت، إن الخلل يمكن في التكافؤ الجماعي لا في مواصفات القائد.

إن وعي الذات الجمعية، ووعي الآخر، يمتدان ليشملا الأجواء المهمة في تشكل الذات الفردية والجمعية، ذات الأمة بوصفها شخصية اعتبارية، والآخر والماضوي الذي يشكل جذور الذات الجمعية الفردية والآخر المغاير، والمستقبلي الذي يشكل امتحان الذات والآخر، وعلى ضوء ذلك كله فإن غياب الوعي بكل اتساعاته ومفرداته واستيعاباته ليس مؤذناً بالضعف فحسب، وإنما هو فرصة لتشكل ذهني خاطيء، يعوق مسيرة الأمة، ويضعف مواجهتها، ففي فترات غياب الوعي السليم تجتاح الأمة موجات من السذاجة والبدائية، تتيح فرصاً للخرافة والشعوذة والسحر والغموض والأسطورة والحكاية الشعبية، وتتنامى في أوساطها الدروشة، ويكثر أدعياء التصوف، والأولياء، وادعاء الكرامات، وترقب مناقضة السنن الكونية، والاتكالية بدل التوكل وتتعدد الزعامات الدينية، وانشطار الذهنية، كما يستفحل الإدعاء والتعصب المذهبي وتقديس الذوات وتهميش القضايا، وتتحول الأمة من جد العلم إلى سيطرة الخرافة، ومن هيمنة العقل إلى هوج العاطفة، ومن مصدرية النص التشريعي إلى رأي الولي والزعيم، ومن الموضوعية إلى الخرافة، ومن العلم التجريبي إلى الحدس الصوفي، ومن المختبرات والمعامل إلى الشعوذة والسحر، مما يكون إرهاصاً لفساد الأمة وذهاب ريحها، وها نحن الآن نرى تدافعاً إعلامياً لإثارة قضايا كان يجب ألا يكون لها حضور في عصر العلم، والداخلون فيها لا يفرقون بين وجود الشيء بوصفه حقيقة دينية أو علمية، وصفته وامكاناته، ووقوعه كحدث، ف (الجن) مثلاً وجودهم حقيقة دينية، وتكليفهم حقيقة دينية، وسماعهم الرسالة وإيمان بعضهم وكفر البعض الآخر كل ذلك جزء من العقيدة، وإنكار شيء منه مخل بها، ولكن تلبسهم وتجسدهم وسماع أصواتهم وتزاوجهم مع البشر ضمن وقائع يتداولها الناس وفعلهم الموصوف المحدود خليط من الخرافة والتصور والأسطورة وليس التصديق أو التكذيب لشيء من ذلك داخل في الدين إذ يمكن أن يتسرب إليها الشك، فإنكار الواقعة شيء وإنكار الحقيقة شيء آخر، والبعض لا يفرق فمن أنكر رؤية الجن أو سماع صوتهم بوصف ذلك واقعة محكية حوسب كمن أنكر وجود الجن، وعالم الجن والملائكة بجملتهم من الغيب الذي يجب الإيمان به، وعدم الدخول في تفاصيله وتوصيف أحواله والتوسع في تصوره والإذعان للمشعوذين والتهالك على الأدعياء، ومدعي الورع، ونحن لم نتعبد بشيء مما يتجاوز حد الإيمان بما تضمنه النص القطعي الدلالة والثبوت إزاء عالم الغيب، والتورط في أمور السحر والشعوذة والجن والكرامات يخرجنا عن وعينا

الحقيقي، وإذا كنا نحس باستفحال الحديث عن تلك الغيبيات بشكل لا يقتضيه الدين بين أوساط الدهماء والمتعالمين المنساقين وراء الرأي العام، فإننا نحس باستحضار مشبوه للحكايات الخرافية والأساطير الشعبية، من أمثال (الف ليلة وليلة) و(تودد الجارية) و(الهلاليين) وغيرها ومنحها مشروعية مرجعية ودعم القضايا الهامة ببعض تلك الحكايات، وكذلك التوسع في الاستعمال الأسطوري بما فيه الأساطير الوثنية، واستفحال الخرافات والأساطير والشعوذة وتعدد الآلهة وأنسنتها مؤشر على طفولة الأمة وبدائيتها ومؤذن بانقراضها واضمحلالها وإساءة للدين القائم على العقل والتفكير والتدبر والتفقه، ثم إن مسايرة الغرب في اختصار حضارة الأمة الإسلامية في الكتب والحكايات الخرافية دليل على ضعف الوعي للمكيدة، وأحدث الأندلس التي أضاعت ملكا اسلاميا حافلا بالفكر والأدب ومختلف المعارف ماثلة للعيان وقليل منا من يستعيد هذا التاريخ للاعتبار والاتعاظ.

لقد ظهر (ابن عربي) في الأندلس على سبيل المثال وبظهوره ظهرت الباطنية المناقضة للإيمان والوعي، وتفشت عقائد وتصورات مهدت للتناحر والتنازع وذهاب الريح، ومن عجب أن عالماً كالمقري في نفح الطيب يحمل كبر الدفاع عن هلوسات (ابن عربي) وإيجاد مخارج لها، إنه نوع من غياب الوعي، وواحد من أهم الأسباب التي ادت إلى سقوط الأندلس، ولربما صدقت مقولة: إن غرناطة سقطت تحت سنابك الجيوش المحاصرة لها من كل الجهات، وفقهاؤها في جدل حول البيضة والدجاجة: أيهما الأصل، هذه الحكاية تكاد تعيد نفسها في مواقع كثيرة من عالمنا الإسلامي، وسط أحداثه الدامية، وانكساراته المفجعة، إذ تعيش الأمة جدلا مملا حول قضايا لم تعد مجدية، قضايا لعبت دورها منذ زمن، وأصبحت بكل مفرداتها جزءا من التاريخ المدان، ومع شديد الأسف، فإننا نطلق على هذا التاريخ التاريخ الإسلامي والحق أنه (تاريخ المسلمين) الأمر الذي أتاح الفرصة لغلاة العلمانيين لمحاكمة الإسلام من خلال تاريخ المسلمين، كقراءة بعضهم تاريخ الأمويين والعباسيين على اعتبار أنه وثائق لمحاكمة التجربة الإسلامية، وما عليك إلا أن تقرأ كتاب الحقيقة الغائبة للهالك (فرج فودة) لترى كيف يحاكم المشروع السياسي الإسلامي من خلال الممارسات البشرية الخاطئة أو الروايات الكاذبة الملفقة، والتاريخ الذي يكتبه المنتصر قد لا يتورع عن ذكر سوآت من سلف أو اختلاق احداث كاذبة لغرض التشويه، ثم يأتي خصوم الفكر الاسلامي والسياسة الاسلامية ليوغلوا في تفحيش هذه الروايات وتقعيرها.

إن الذين يستعيدون التاريخ وقضاياه إنما يعيدونها لمجرد بناء الذات وملء الفراغ، وشغل الرأي، هذا الجدل المستنزف لكل جهد الأمة، المربك لكل تطلعاتها، يتم والعالم من حولنا منكب في مختبراته، مهتم بمخترعاته، يعيش سباقاً مذهلاً في مجال الفضاء، والإنسان، ودقائق المخلوقات، مما مكنه من الانتصار على أشياء لم تكن تخطر على بال البشرية، لقد سيطر على سنن كونية طرحها الله للناس ودعاهم للتفكر فيها قال تعالى:

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣] .

وكل هذه الاكتشافات التي حققها الغرب مندرجة ضمن ظاهر الحياة الدنيا، الذي علمه من اجتهد، وجهله من تخاذل، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الروم: ٧]، وهذا العلم مع عظمه في نفوس العالم قليل لا يكاد يذكر إلى جانب ما يزخر

به الكون من أسرار قال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، وقال:

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦] .

لقد جاء الغرب بما يثير الدهشة والإعجاب في مجال الطب والفلك والتكنولوجيا وسائر العلوم، وذلك كله إفراز الوعي المنظم والتفكير العميق الذي هو من مطالب الإسلام ومقتضياته، ولعل نظرة متأملة في الكهرباء، ووسائل الاتصال، والفضاء، والصناعات السلمية، والحربية، والكمبيوتر، و(جادة المعلومات) بكل ما فيها من عجائب، تؤكد أن هذا العالم مسيطر على وعيه موجه لهذا الوعي متجه صوب ظواهر الحياة الدنيا، والأمة الإسلامية أحق بهذا من الغرب وأقدر على تحقيقه، فالإسلام يحث على العلم، ويمجد العلماء، ويعلي من شأن المكتشفات، ويدعو إلى اعداد القوة: قوة السلاح وقوة العلم وقوة الاقتصاد إذ الاسلام عقيدة وعبادة وسلوك ومنهج حياة ولا يمكن توصيله إلا بقوى متعددة المجالات، والغرب لم يتمكن من السيطرة على هذه الأشياء إلا بعد أن تخلص من هيمنة دينه الكنسي المحرف الذي يتخوف من العلم، ويحرق الكتب، ويتمسك بسلطة المتدين، وما نتميز به أن ديننا يدفعنا إلى العلم وإعداد القوة والقراءة وهي مصدر المعرفة ومكمن الوعي، والأمر بالقراءة مؤشر ثقة بالدين، وكل الفضائل مطالب إسلامية يحثنا عليها، ويدعونا إلى السيطرة على ما يمكن إدراكه من السنن الكونية، والنصرانية المحرفة تمنع من ذلك وفترات التنوير حررت الغربي من خرافة الدين المحرف، ومما هو محزن تصور بعض الفترات التاريخية المعاصرة على انها فترات تنوير على شاكلة التنوير الغربي، والعلمانية تمارس الفعل نفسه لتنحية الدين ظنا منها انه المعوق، وأنه العقبة في طريق العلم والحضارة، ومما هو داخل في غياب الوعي أو في خلله تصوره الدين الإسلامي كسائر الأديان الوضعية أو السماوية المحرفة، وتوهم البعض أن التقدم لن يتحقق إلا بنفي الدين على شاكلة ما فعله الغرب، وما علم أولئك، أن التفكير فريضة إسلامية، وان العقل مناط التكليف، وأن العقل والتفكير لايقبلان الوضع القائم الذي قبلت بمثله المسيحية حين سيطرتها مما اضطر أهلها إلى نبذها واستبدالها بالعلمانية والعلمية.

وعي الذات والآخر طريق الفاعلية .. ! (٥) [1]

لقد حث الإسلام على العلم، ورفع من شأن العلماء، وأكد على إعداد القوة لإرهاب الأعداء، وماذا يمنع الأمة الاسلامية من التخلي عن مشاكلها المفتعلة التي خلقها الجهل، ونماها المتماكرون، وتوهمها المغفلون، كي تتسامى فوق كل اهتماماتها الثانوية، وكل توهماتها، لتزاحم الغرب في هذه الفجاج، وتحقق لنفسها بعض ما حققه الغرب لنفسه، انه غياب الوعي، وهل بعد غيابه من كارثة؟ وليس شرطاً لكي تكون عزيزة ان تكون مخترعة وصانعة، ان العزة ان تبدأ التقويم والتصحيح، ان تكتشف نفسها، ان ترسم الطريق القاصد لتلافي أي نقص، انها تمتلك المقومات: معنوياً وحسياً، ولكنها قد لا تحسن التصور ولا تجيد التصرف، والوعي السليم ان تفكر وتقدر وان تعطي كل شيء ما له ثم تبدأ رحلة العمل.

إن خطاب العلمانيين والتنويريين بدأ في تدمير الذات وخلق ذات مغايرة لتقيل العثرة وذلك أخطر الإشكاليات، ان علينا ان نكتشف الذات لا ان ندمرها، وخطاب التنويريين العرب تشكل في غياب الوعي الإيجابي السليم، فالاسلام بذاته نور وهداية، ومن يعش عنه يعش عن كل نور، والغرب الذي همش دينه المحرف سرَّب الينا تجربته لنمارس تهميش ديننا المحفوظ، ويااليت النخب التي جدت في تهميش الدين، أحسنت الاستفادة من منجزات الغرب، لقد تعالقت معه في فكره وأدبه وفنه وألعابه ورؤيته للغيب وهو ما أفاض به علينا، في حين احتفظ بعلومه وأسرار اختراعاته ومكتشفاته ومختبراته وصناعاته، لقد صرنا مستهلكين ليس غير.

الإسلام دين العلم والحضارة، وليس بحاجة إلى المشروع التنويري الذي يبشر به العلمانيون، الاسلام يحتاج إلى تصفية وتنقية، والمسلمون يحتاجون إلى تربية روحية وفكرية تربطهم بالخالق وكأنهم سيموتون غداً، وتربطهم بالخلق وكأنهم يعيشون أبدا، لقد علقت بالاسلام عبر أطوار التاريخ شوائب أساءت إلى ذويه، والذين يشغلون انفسهم بالجدل السوفسطائي، ويقتصرون على ما أنجزه السلف من علم شرعي وعقدي، ويغذون خلافات وهمية أنشأها التعصب المذهبي والفراغ الفكري، يحققون غياب الوعي، والذين يستدبرون التراث وينفونه ويستقبلون فكر الآخر ومنجزه يحققون ذات الغياب، وما لم تتنبه النخبة بشقيها:

المؤطر في التراث.

والمؤطر في المعاصرة.

لواقعها، فإن مزيداً من الضعف والتخلف سيصيب الأمة، ويسهم في اعاقتها لزمن قادم، ولو ان الجهود التي بُذِلت لتغريب الامة والبعد بها عن مصدر عزها وتمكينها بذلت في تهيئة الأفكار لاستيعاب الدين والحياة على مراد الله لكانت الأمة الاسلامية من أقوى الأمم، لأنها تملك مقومات البقاء والقوة، ولو ان الجهود التي بذلت في سبيل المذهبية والصراع الطائفي بذلت في سبيل رأب الصدع والبحث عن الحق لكنا من أقوى الأمم، وكل المصائب التي حاقت بالأمة ماهي الا نتيجة غياب الوعي السليم.

إن غياب الوعي، أو قيام الوعي الخاطىء، طريقان يؤديان إلى نتيجة واحدة، إذ هما فعلان في غير موقعهما، ووعي الأشياء على غير ماهي عليه، يؤدي إلى مواجهة تدمر ذات الفاعل، وليس هناك أخطر على الأمة من فهم النص التشريعي أو التعبد ي أو العقدي على غير مراد الله، والفهم الخاطىء لون من ألوان الوعي الخاطىء، وكل الطوائف

---

(١) تاريخ المقال: ٢٩/ ٨/ ٢٠٠٠

الاسلامية المنحرفة جاء انحرافها نتيجة الوعي المناقض لطبيعة الأشياء، وفهم النصوص ووعيها على غير مراد المرسل، وكثير من الدارسين لا يعير (نظرية التلقي) أهمية بقدر ما لها من خطورة، وما افترقت الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة الا بسبب اختلاف (نظرية المعرفة)، و(نظرية التلقي).

إنني أحاذر فيما اكتب من كلمات الاستنهاض الوقوعَ فيما وقع فيه الآخرون من النقد الجارح والسخرية المرة وجلد الذات واستعداء الدهماء على مشروعية المؤسسات وتجريم الآخر في سبيل تطهير الذات الاعتبارية أو الشخصية، فالأمة الاسلامية تنطوي على خير كثير وتمتلك امكانيات البقاء، وتمتلك أدوات المنافسة، ولكنها بعد لم توفق كل التوفيق لحسن استعمال هذه الامكانيات وتلك الأدوات، والأمة الاسلامية حين تفهم النص على غير مراد المشرع، ثم تهن وتضعف، يظل النص محفوظا لمن يأتي بوعي سليم، تُعيد قراءته تنوير الرأي وتلافي ضعفه، فالاسلام خالد بنصه المحفوظ بوعد الله، والأمة وحدها تمر بحالات من الضعف والدروشة، ثم تكون مرحلة تاريخية مهيأة لمصلح يأتي، كي يجدد لها أمر دينها، والأمل قائم والاسلام الصحيح يكمن في الطائفة المنصورة الموعود باستمرارها.

والأمة الاسلامية حين تسلم بالهزيمة المادية، وتعرف جيدا قيمة التفوق المادي لدول الضد والمغاير العقدي والفكري، وتحمل قناعة بتفوقها الفكري والروحي والاجتماعي، تكون مهيأة لبدء استكمال الجانب المادي ليكون متكافئا مع الجانب الروحي والاجتماعي، ومما يجب التأكيد عليه وهو من باب غياب الوعي ان هذا التفوق ظل حبيس التراث بحيث لم ينطلق بعد من قمقمه، ليكون ظاهرة سلوكية وممارسة عملية، والمؤرخون الذين يفسرون انتصار الفرنجة بأنه ظاهرة مخالفة لسنة الحياة ينطلقون من قيم الإسلام المكتوبة، ولا ينظرون إلى ممارسات المسلمين وواقعهم وامكانياتهم ومدى تمثلهم للمقتضى الاسلامي في بناء الحياة على القوة المرهبة للعدو، إن انتصار الآخر مرده إلى غياب الوعي السليم عند المسلمين، فالمسلمون لم يتمثلوا الاسلام سلوكا ومنهج حياة بالقدر الكافي، ولم يحكموه فيما شجر بينهم ولم يتيحوا له فرصة التجاوز إلى الممارسة الحياتية، نقول هذا على سبيل التغليب، ومن ثم لا يغيب عنا قيام الطائفة المنصورة، ولا تغيب عنا الخيرية القائمة، والغرب المتفوق مادياً على جانب من الانضباط وتفعيل قيم التعامل وفهم الحياة على ضوء ما يراه الاسلام ويحث عليه، ومن ثم فلا مخالفة لسنة الحياة والأمر كذلك، وقد أشار ابن تيمية إلى بعض ذلك حين تحدث عن الدولة العادلة والدولة الظالمة ونصر الله للعدل وإن كان من دولة كافرة، ومما يزيد الفجيعة ان الفكر التنويري بدأ يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، فالمرجعية التي يشكل منها وعيه لا تملك المشروعية، والنص حين يفقد مشروعيته يُضِل الأمة، وعلى خطى التنوير يأتي الخطاب الحداثي، اننا نرى ونسمع الآن الدعوة الجادة إلى احياء الخرافة والاسطورة والحكايات الشعبية واستثمارها وتأصيل معطياتها وبناء الرأي على مضامينها، فها هي (ألف ليلة وليلة) و(تودد الجارية) و(تغريبة بني هلال) و(الروض العاطر) تمثل الصدارة كمرجعية فكرية وسلوكية واجتماعية وفنية، في الوقت الذي تمثل فيه الغرب أخلاقيات الاسلام في كثير من وجوه الحياة، فهو جاد في عمله، مخلص لحياته الدنيا، وساع في فجاج الأرض، يحرث ويزرع، ينقب ويصنع، ينشيء المؤسسات والمختبرات، ويرصد لكل ظواهر الكون، ويفاجيء العالم بين الحين والآخر بمكتشفات مذهلة في الآفاق وفي الأنفس، منح نفسه حرية في السلوك، وحرية في الفكر، وحرية في السياسة، قد لا نكون معه في كثير من مفاهيمها، ولكننا متأكدون من انه يفوق غيره ببعض ما يمارس من عمل، وببعض ما يمنح نفسه من حرية، ثم هو يغرينا بالتفاهات، ويصدر لنا النفايات، ويوهمنا بأن تراثنا

الخرافي والاسطوري والاقليمي ولهجاتنا المحلية، وفلكلورنا الشعبي أهدى وأجدى لنا، ثم هو قد اجتهد في حجب ما سوى ذلك، مما هو من أخلاق الاسلام ونظامه، وليس من شك ان هناك فرقا بين اسلام الهوية واسلام التمثل، ولو ان المسلمين وعوا هذه الظواهر، لكان طبيعياً عندهم ان ينتصر الآخر، وان كان كافرا، وغياب الوعي الذي شقيت به الأمم ليس سمة العامة، وإنما يمتد إلى النخبة، وقادة الحركات، ان تسييس الخطاب وثوريته والوقوف في وجه الأيديولوجيات المسيَّسة واعتراض استراتيجيات الدول المهيمنة كل ذلك يتطلب امكانيات متكافئة مع امكانيات الآخر الذي نناصبه العداء، وننازله عبر المنابر ونعلن كيدنا له ونعلن اصرارنا على ضرب مصالحه، وافساد استراتيجيته، ان هناك فرقا واضحا بين أسلمة الأشياء والتسييس الثوري للاسلام عبر خطاب الأفراد أو التنظيمات.

إن استمرار تفوق الآخر مرهون بعلمنة العالم وعولمته، ومن ثم فانه جاد في ضرب أي خطاب تحريضي يعرض مصالحه للخطر، وجاد في جس النبض ورصد أي تحرك جاد يضع في حسابه أولوية المنازلة مع خلو اليد من أية امكانيات متكافئة.

إن العالم الاسلامي بحاجة إلى توفير مقومات الندية قبل ان يرفع صوته في وجه الآخر، وبحاجة إلى وعي ديني جماعي يتمثله الفرد قبل الجماعة، وهو بحاجة إلى الدخول في الدين كافة دخولا خاليا من المشاكل والخلافات الجانبية التي من شأنها ذهاب الريح وشغل البال وتشتت القوى، لقد أدى غياب الوعي إلى تصورات سابقة لأوانها بحيث نرى ان الخطاب الديني الثوري المسيس بكل تداعياته يتصور ان الهزيمة الاسلامية لن تأتي الا من العدو التاريخي والديني، وفي ضوء ذلك واصل منازلته عبر المنابر، وعبر التآمر، وعبر العنف، مما هيأ غفلة معتقة عن عشرات الثنيات التي نفذ منها أعداء مقنعون بحيث هيأ الفرصة لشك عاصف يجتاح الطبقة المثقفة بكل طرح مماثل يحور رمادا بعد اذ هو ساطع.

إن وعي الزمان والمكان والأجواء والسياقات يحتم على النخب الاسلامية اعادة صياغة الخطاب، بحيث يكون متعاضدا مع السلطة التي تمتلك مشروعها ومشروعيتها، وبحيث يكون مرحلياً لا مثالياً، وانتقالياً لا استقرارياً وتكتيكياً لا استراتيجياً، يكون خطابا ينطلق من الواقع وبالواقع نحو الأفضل ولا يهبط من علياء المثاليات، يعترف بالواقع، ولا يستسلم له، يصوغ الأمة أولا ثم يصوغ مشروعها، الوعي التام ان يكون المشروع بمستوى امكانيات الأمة، ينتقل معها في سلم التصحيح خطوة خطوة لا ينفصل عنها بمثالياته وطموحاته، ولا يتدنى معها ويرتكس في واقعها، يكون قريبا منها ليمارس الجذب ولا يكون بعيدا عنها ليمارس التحدي والاحباط أو يحملها على المغامرة غير المحسوبة والمؤدية بالتالي إلى الانتحار الجماعي، يمارس التوجيه ولا يتعمد النقد، ينفذ من خلال الحوار ولا يدابر بالتكسير، يوجه الرموز ولا يدينها، يصحح الخطأ ولا يحاكم الواقع، يتألف المؤسسات ولايقوضها ينضوي في معمارها ولا ينافسها، ذلك ان الواقع نتيجة تراكمات على مدى التاريخ، وليس انبثاقا ولا تشكيلا حديثا من النخب أو القادة القائمين، اننا جميعا مسؤولون، ونتحمل قسطاً متساويا من الخطأ، ليس هناك بريء بالكامل ولا مدان بالكامل، ومتى دخلنا هذه اللعبة اشتغلنا بتصفية بعضنا، ومن ثم تصفية قضيتنا المشتركة، الخطأ مشترك والحل مشترك، وهناك خيارات وأولويات وحسابات دقيقة، لايمكن ان نرتجلها، ولا ان نعالجها فرادى، لابد من مؤسسات متخصصة تضع كل امكانياتها وخبراتها لتقدير المواقف وتوقيت الممارسة، الفرديةُ والتفردُ في الفعل المصيري تدمير له، لابد من الجماعية والاشتغال في المتفق عليه وفوق الأرض المشتركة، واذا مارس كل فرد معتقده وتصوره دون أي اعتبار للضوابط ومستويات الأداء ضاعت المسؤولية وذهبت ريح الأمة.

وإذ تتعدد مستويات الخطابات، وتوجهاته، ونوازعه نجد ان في مقابل المثاليين المتفائلين المراهنين على نجاح مشروعهم طائفة اخرى تندب الاسلام، وترقب الساعة، وتمارس التيئيس بكل اوجاعه ومرارته، وتضخم حجم الغثائية، وتبرر به هوانها على الناس، وترى ان الخيار قائم بين التسليم أو الفناء.

لقد طرحت صيغ كثيرة للحل الاسلامي، وأنشئت مؤسسات ترعاها دول اسلامية كالروابط والندوات واختيرت لها كفاءات علمية، واستقلت أحزاب وتنظيمات شعبية وخاضت في محاكمة القائم ومقاومة السائد واندس مغرضون ومشوهون ووجدها أعداء الاسلام فرصة لتحميل الاسلام وزر الإرهاب وهمجية القتل، ومرد ذلك كله ضعف الوعي أو خطئه، وتلك الرؤى تتفاوت في ثناياها مستويات الوعي للذات الاعتبارية وللآخر، بحيث ربطت بعض هذه الصيغ الحركية بين العقيدة والحاكمية وجودا وعدماً، ثم ربطت الحاكمية بالنية والاستحلال، بحيث فرقت بينهما في الحكم، وكلما اتجهت الأفكار لأنداها صوتا واكثرها إغراء وأقدرها على الجذب، فوجيء الجميع بانفجار داخلي يهز النفوس ويخيب الآمال، واذا اتجهت الأنظار في سبيل البحث عن أسباب الفشل تفرقت السبل، ومن عجب ان بعض رموز المشاريع في عالمنا الاسلامي حين تقبل بذرتهم على النضوج ينشقون على انفسهم، ويختلفون فيما بينهم، وتتحول انظارهم عن منهج الله إلى اكوام الغنائم، يتناحرون عليها، ثم يكفون خصومهم تدمير ما انجزوا، وإحراق حقولهم المقبلة على النضوج.

ولست بحاجة إلى ضرب الأمثال، فواقع الأمة الاسلامية مليء بالفواجع، ذلك جزء من غياب الوعي، ضربنا له مثلا بالمشاريع الاسلامية التي يشهد فشلها القاصي والداني، والتي يسعدنا نجاحها ويسوؤنا فشلها، ومع هذه الفواجع فالسبب دائما يأتي من خارج الطائفة، والتماسه سهل وتحديده ميسور انه دائما (الشيطان الأكبر) ولا غير، ولست أعرف من ملك الشجاعة، واعترف بخطأ الذات، وأقدم بثبات وثقة على محاسبة النفس، وأخطر ما تمنى به الأمة المسلمة المواجهة المسلحة بين طوائف المسلمين وغياب الشرعية وتجرع الشعوب الاسلامية ويلات الحروب الداخلية.

ومن عجب وعجائب الأمة كثيرة ان المتناحرين يرفعون شعارا واحدا، وحين يتفانون، ولا يبقى ما يخاف منه، يتجهون إلى موائد المفاوضات بالعكازات والضمادات تحت مظلة أعدائهم الذين صيغ الخطاب لذمهم والتحذير منهم ومواجهتهم.

هذه التحولات ترفع رصيد الاحباط واليأس، وتدل على غياب الوعي، وعي الذات، ووعي الآخر، ووعي الامكانيات، ووعي الممارسة السليمة.

إن مثل هذه المصائر المتكررة تكاد تقتلع من النفوس صوابية أي صوت، وتكاد تشكك الانسان في نفسه فضلاً عن الشك بالآخر، قد يقال: ان ذلك من مكائد الاستعمار، وأقول لماذا نمكن للاستعمار بحيث يمتلك القدرة على صنع المكائد، كل حرب تقوم، وكل خلاف يذر قرنه، وكل أزمة تستفحل، وكل فشل ذريع يقع من الاستعمار وإليه، وأصحاب تلك الفواجع مبرؤون من كل ذلك، والاستعمار مجموعة من الأناسي يفكرون لصالح أنفسهم، فلماذا لا يفكر الاسلاميون لصالح أنفسهم، ولا يدع أحد منهم في تفكيره ووعيه فجوات ينفذ منها الاستعمار.

لقد مر العالم العربي والاسلامي بتيارات عدة: قومية، وعلمانية، وإقليمية، واشتراكية، وثورية، وإسلامية، ووحدوية، ولكل تيار سلبياته الناشئة: إما من ذاته كنص، أو من منهجه كمشروع، أو من ذويه كممارسين، ولسنا بصدد تفسير الهزائم التي منيت بها التيارات الأخرى، ولكننا وعلى سبيل الاحتياط نقرر بأن سلبيات التيار الاسلامي لم

تأت، ولن تأتي من ذاته فهو من عند الله، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً.

وعي الذات والآخر طريق الفاعلية .. ! (٦) (١)

وإذ نقطع جميعاً بوجود سلبيات فادحة في التيار الإسلامي فإنه يجب أن نقطع بدون أي تردد أنها من عند أنفس الإسلاميين الذين أتاحوا بتصرفهم فرصة ثمينة لأعدائهم لتدبير المكائد، ولأننا أمة مسلمة تحكم شرع الله ويطالها ما يمنى به المسلمون في جميع أنحاء العالم، فإننا نحمل هم المسلمين، ونضيق ذرعاً بتنامي الفتن واستمرار الحروب، ولاشك أن ما نشاهده في أفغانستان والصومال على سبيل المثال يعد من مظاهر غياب الوعي، وكلما خبت نار، أشعل الوعي المنقوص ناراً أخرى.

ومما هو محسوب على غياب الوعي أننا نتردد في تحديد الخطأ وتحديد مصدره، ولانكاد نقبل بأدنى حد من الممارسة النقدية للذات.

وحين يجرؤ بعض المخلصين والصادقين، ويمارس النقد بكل لطف وتودد لا يتردد الآخرون في تصنيفه من الأعداء أو تهميشه والتقليل من فاعليته، وقد يصل الأمر إلى تصفية جسده عبر إرهاب طائش أو تصفية سمعته عبر خطاب هجائي، وكأن العمل الإسلامي حيازات يتسابق المهتمون على امتلاكها، إن مثل هذه الصداميات المفتعلة لون من غياب الوعي الذي نسعى جهدنا لاستحضاره وتفعيله.

إننا بأمس الحاجة إلى وعي الأسباب التي أجهضت كل المشاريع العربية إن على مستوى السلم أو الحرب أو على مستوى الاقتصاد أو الوحدة، وكذلك المحاولات الإسلامية ودراستها والاستفادة منها بوصفها مواعظ ومؤثرات لكي نتمكن من توفير مناخات ملائمة لمحاولات أخرى، تسهم في عمارة الكون وهداية البشرية وعبادة الخالق، وهي مجمل مهمات المسلم السوي على هدى من كتاب الله وسنة رسوله، يقول أحد المفكرين:

والدارس لتأريخ الحركات الإسلامية يجدها جميعاً قد تجنبت دراسة التجارب السابقة وتحليل أسباب فشلها وما من طائفة استفادت من إخفاقاتها، وذلك نوع من غياب الوعي أو نقصه.

لقد تجلت بشاعة غياب الوعي عند سائر الحركيين بالملامح التالية:

١/ تجريم النقد الذاتي واعتباره محاولة لإجهاض المنجز.

٢/ عدم قراءة التجارب السابقة والوقوف على أسباب اخفاقها.

٣/ افتراض شيطان أكبر تنشغل الحركات الإسلامية بملاحاته وصداميته وتشغل به الرأي العام وتوتر مشاعره وتوفر من خلاله بطولات رخيصة الثمن.

٤/ الإيغال في المثالية والانفصال التام عن الواقع ورفض الخلاف المعتبر وتهميش المتحفظ والمتسائل.

٥/ الإيمان بمبدأ أن تكون معي دون مساءلة أو تردد أو تكون ضدي عند أدنى مساءلة أو استيضاح.

٦/ الاتجاه إلى القمة وتعجل النتائج واغفال أهمية القاعدة والتأسيس.

٧/ التمحور حول الفردية والحزبية على حساب القضية وعلى حساب بناء المؤسسات الثابتة التي يندرج فيها الجميع ولا تندرج في الفرد.

٨/ وضع خيار واحد يتمثل في أن نكون كما نريد أو لا نكون البتة.

٩/ فردية الممارسة دون تقدير أو توقيت.

---

(١) تاريخ المقال: ٥/ ٩/ ٢٠٠٠

١٠/ تقمص مناهج الثوريين باعتبار المثالية محصورة في مواجهة السلطة وتجريمها والنيل من رجالاتها دون تفريق أو استثناء.

١١/ اعتبار الاختلاف مواجهة ضد القضية وليس اختلافاً ضد المنهج وأسلوب الممارسة.

١٢/ انكار دور الآخر على المستوى الرسمي أو الفردي في سبيل واحدية المنهج وواحدية الزعيم.

١٣/ تجاهل منجز الآخر ومحاولة تقويض معماره.

١٤/ عدم الأخذ بمنهج السلف الصالح ومقتضايات العقيدة.

١٥/ انعدام هيبة السلطان، واحترام العلماء.

١٦/ الاستخفاف بقيمة الأمن الذي لا يتأتى إلا في ظل حكومة شرعية قوية عادلة.

١٧/ الإيغال في نقد الآخر وتقليص دور التربية الدينية وتصفية العقيدة من الشوائب.

١٨/ رفض الاختلاف المعتبر والتماس المحاذير لإسقاط أطرافه.

١٩/ الاشتغال بالنوايا وتصور المظاهر أغطية لتآمر كيدي.

٢٠/ منع الأشياع والأتباع من قراءة الآخر واعتبار ذلك إخلالاً في الولاء وإفساداً للتصور السليم.

٢١/ الخلط بين: الذات، والمنهج، وتصور واعتبار نقد أحدهما نقداً للآخر.

٢٢/ الوقوع في لعبة التجريب.

٢٣/ عدم الفهم الدقيق لتبعات النظام بحيث يقع البعض في سلبيات التلفيق، فالسياسة الإسلامية تقوم على البيعة والشورى ونيابة أهل الحل والعقد في حين ترى البعض يتحركون من خلال السياسة الشرعية ويستدعون مفردات ليست منها في شيء.

وفي ضوء كل ذلك تتشكل الرؤية عن الآخر لا من خلال ما قال وما كتب، وما عمل، وإنما من خلال ما قيل عنه.

الوعي الحقيقي للأفكار والمبادئ والمذاهب والمواقف والرجال المنسجمة أو المضادة أو المخالفة حول القضية أو حول منهجها أن تقرأ الأفكار من نصوصها لا من خلال ما كتب عنها، وأن نلتزم بمفردات كل مشروع فلا نخلط بين مفردة وأخرى، ولا يمنع إسلامنا الاستفادة من مفردات الآخرين، خلل الوعي أن نقرأ هذه الأفكار بواسطة الآخر يقول الدكتور عبد المنعم الحفني وهو بصدد الحديث عن كير كجاردت ١٨٥٥م واختلاف الدارسين حول منهجه الفلسفي ويتطلب فهمه أن تقرأه فيما كتب لا أن تقرأ عنه ولنا أن نستعيد تاريخنا الحديث فالحركة الاصلاحية التي نهض بها المصلح محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، تتفق مع منهج كثير من خصومه الذين ناصبوه العداء بسبب ما يقال عنه لابسبب ما يقول هو، ولو أنهم قرؤوه لكانوا معه.

وفي مقابل وعي الفكر بقراءته أو بقراءة ما يقال عنه، يجب أن نبحث عن حلقة تكاد تكون مفقودة، وهي أن بعض النخب الثقافية والفكرية لا يتمثلون أكفارهم، ومن ثم ينفصلون في ممارساتهم عما يقولون، مما يؤدي إلى التناقض بين ممارساتهم ومقولاتهم، إن تعاملهم مع الأشياء ومع الأناسي شيء مغاير تماماً لاهتماماتهم، بل أكاد أقول: إنه مخالف لمشاريعهم، حتى أننا لا نجد أدنى تناغم بين المفكر وما يدفع به إلى الناس من مؤلفات وكلمات وخطب، وكم نسمع عن الإسلام الفكري، والإسلام السياسي، والإسلام الحركي، وتلك ظواهر ليست من الخير في شيء، والتعامل مع هذه النوعيات يحتاج إلى وعي عميق وتصور دقيق، والخير كل الخير أن يكون الخطاب بمثابة سيرة ذاتية لصاحبه، ولهذا يذهب بعض المفكرين إلى أنه ينصت لأفكاره ويكتب وكأنه بمثابة مستمع لنفسه ملتقط لسيرته وليس مؤلف كتاب.

والقرآن الكريم حذر من الازدواجية الشخصية كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون سورة الصف آية: ٣.

وإذ نحن بصدد الحديث عن النخب في تصوراتها وممارساتها وتعاملها مع الآخر نود الإشارة إلى أن طائفة من النخب الثقافية والفكرية تمعن في العزلة وتنطوي على نفسها، فهي لا تنطلق من الواقع وإنما تطل عليه، وهي لا تتناغم مع الأمة وإنما يبدو ايقاعها نشزاً مزعجاً، وهي لا تحظى بأدنى تأييد اجتماعي لكل ممارساتها، واشكاليتها ما يستهويها من بوارق الحضارة الغربية التي ملأتها انبهاراً وإعجاباً، ولذا فهي لا تتطوع بالنظر في مدى ملاءمة الطارئ للقاعدة العريضة من الأمة.

بل تجتهد في نفخه وتضخيمه واحاطته بهالة من التعظيم حتى يسد الأفق ويحجب الرؤية ويعطل ملكات الفحص والتقصي والامتحان، والنخبة كما يقول وليد نويهض نجحت في تكوين هالة ثقافية ينقصها الاساس الاجتماعي والشرعية التاريخية لنجاحها الفكري.

لقد أصبحت أقلية تبحث عن حيز، ولم تكن قوة دافعة أو قائدة كما لم تحصل على أدنى تأييد يمكنها من الأداء، ولعل من أجمل مقولات نويهض ما عرضه أحد الدارسين عنه والنخب العربية تلبس قميص التوليف بين المتناقضات المستعارة من أوربا علماً أن الزحف الغربي لن يستثني النخبة من العقوبة، فالغرب ليس له أصدقاء وإنما له مصالح ومن مصلحته حالياً تسمين النخبة لتسهم بتسهيل اسقاط الأمة.

ولو أن النخبة بمختلف تياراتها وانتماءاتها وعت نفسها، وواقعها لاستطاعت أن تتجاوز هذا المألوف الذي تعيشه وهذا الصدام الذي تتعرض له مع من تدعي خدمته، لقد عمد بعض الساسة إلى ادخال النخب والمعارضين في منظومته فما لبثت أن عجزت عن تحقيق ادنى حد من مشروعها خارج السلطة وهذا مؤشر على عجز المشروع عن تمثل الواقع والانطلاق منه.

لقد دخلت تلك النخب صراعاً غير متكافئ مع النوازع الفكرية والاجتماعية والأدبية، وأباحت كل فئة لنفسها توزيع التهم والألقاب والتصنيف، فهذا رجعي، وذلك متخلف، وذاك عميل، وفي المقابل ذلك تقدمي أو طليعي، أو تنويري، وفي خضم هذا الصراع نسي الجميع القضية وأفرغوا أنفسهم من الهم، وعطلت رسالة الإنسان في الحياة الدنيا كما أرادها الله لخليفته في الأرض، إن الواقع المتردي يحتاج إلى نخبة واعية تدرك أنها ذات رسالة وأن تاريخها وانتماءها ومصيرها كل ذلك يتطلب حواراً مع الآخر لا صداماً وندية لا ذوباناً، واستثماراً لا استهلاكاً.

إننا أمة لها ماضيها، ولها تاريخها، ولها رسالتها، ولكل ذلك مطالبه، ثم نحن أمة معاصرة تعيش حياة لها مطالبها المعاصرة، ولها واقعها المختلف عن ماضيها ومن حقها أن تعيش حاضرها أن تعيش معاصرتها، وهذه التركيبة المعقدة تستدعي وعياً دقيقاً يتحامى الصدام ويتحاشى الذوبان، ويمتلك القدرة على الحوار الحضاري وتبادل المصالح المشروعة والاستفادة من المنجز البشري بكل ما يعج به، ومن الخير لهذه الأمة ان تدرك امكانات التحرك ومطالبه لتنهض من عثرتها وتبدأ رحلة العودة إلى الحياة السوية، ولن تنال شيئاً من ذلك بالتمني، ولا بالخطاب العاطفي أو بالخطاب التحذيري، أو التحريضي أو الهجائي.

لا يتأتى ذلك بالصدام مع الذات ولا بالصدام مع الآخر، لقد مرت بالأمة صور شتى من خطابات النخبويين وكلها تحطمت أو كادت تتحطم على صخرة الواقع الصلدة، ذلك أنها خطابات وقتية تخذم الخطيب ولا تفرغ للأمة.